مجمع القرآن الكريم بالشارقة

موسوعة التفسير البلاغي

المجلد الأول

من سورة الفاتحة إلى الآية 97 من سورة البقرة

موسوعة التفسير البلاغي

Government of Sharjah حكومة الشارقة
مجمع القرآن الكريم بالشارقة
HOLY QURAN ACADEMY IN SHARJAH

موسوعة التفسير البلاغي

المجلد الأول

من سورة الفاتحة إلى الآية 97 من سورة البقرة

نخبة من علماء مجمع القرآن الكريم بالشارقة

منشورات القاسمي
AL QASIMI PUBLICATIONS
2023

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الأول، من سورة الفاتحة إلى الآية 97 من سورة البقرة
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1444هـ - 2023م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2023م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: من سورة الفاتحة إلى الآية 97 من سورة البقرة [إشراف مجمع القرآن الكريم،
قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2023.
مج. 1 ، 800 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-798-52-1
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 1 : من سورة الفاتحة إلى الآية 97 من سورة البقرة.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث ج- المستغانمي، امحمد صافي

الترقيم الدولي : 978-9948-798-52-1
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-9609262 بتاريخ 2023/03/10م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مقدّمة
موسوعة التّفسير البلاغيّ

الحمد لله ربّ العالمين، والصّلاة والسّلام على أشرف المرسلين، سيّدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، ومن اهتدى بهديه إلى يوم الدّين، وبعد:

فإنّ أولى ما تُنفَقُ فيه الأعمار، ويُقضى فيه اللّيلُ والنّهار، ويُضَحّى من أجله بالغالي والنّفيس تلاوةُ كتاب الله العزيز الحكيم وتدبُّرُ آياته، والعملُ بأحكامه. ومنذ فجر الإسلام، اجتهد رجالات العلم والتّفسير في خدمة كتاب الله تعالى تفسيرًا لآياته، وبيانًا لأحكامه، ووقوفًا عند لطائفه وأسراره. وعلى الرّغم من كثرة التفاسير اللّغويّة والبيانيّة والفقهيّة والكلاميّة وغيرها، إلاّ أنّ النّص القرآنيّ المقدّس يظلُّ خِصبًا غضًّا طريًّا يجود بعطاءاته، ويمنح أسراره للدّارسين والباحثين إلى أن يرث الله ﷻ الأرض ومن عليها.

وقد ارتأى قسم الدّراسات والبحوث في مجمع القرآن الكريم بالشارقة أن يَفْتتح مشاريعه العلميّة بموسوعة التّفسير البلاغي للقرآن الكريم مشاركة منه في خدمة الكتاب العزيز.

ولتفادي تكرير ما في بطون الكتب والموسوعات المنشورة في التّفسير وعلوم القرآن الكريم، فقد وضعت الهيئة العلميّة للمشروع جملة من البنود والمفردات والمعايير، واستكتبت طائفة من علماء البلاغة والتفسير، واجتهد الفريق في تحليل النّص القرآني من خلال ذكر وجه المناسبة بين السّورة وسابقتها ولاحقتها، والمناسبة بين الآية وأختها، وبيان المعنى الإجمالي للآية القرآنية، وتقديم شرح موجز لألفاظها، والوقوف عند الفروق المعجميّة فيها، ثمّ معالجة الآية لغويًّا وبلاغيًّا مع الحرص على ذكر المتشابهات اللّفظيّة في مواضع ورودها وتوجيهها، كلّ ذلك بالرّجوع إلى أمّات كتب التفسير والبلاغة

واللّغة مع الحرص على السّهولة واليسر وحسن التّحليل وجودة العبارة في تقديم المادّة للقارئ الكريم.

هذا، ويسعد إدارة مجمع القرآن الكريم بالشّارقة أن تتقدّم بأعظم آيات التّقدير، وأخلص التّحيّات، وترفع أصدق التّبريكات إلى مقام صاحب السّموّ الشّيخ الدكتور سلطان بن محمد القاسميّ عضو مجلس الاتّحاد حاكم الشارقة بمناسبة صدور الأجزاء الأولى لهذه الموسوعة القرآنيّة المباركة عِرفانًا بفضله، وتثمينًا لما يقدّم سموّه من خدمات جليلة في خدمة القرآن الكريم والتّمكين للّسان العربيّ، داعين له بطول العمر ودوام الصّحّة والتوّفيق في تنفيذ مشروعه الحضاريّ الثقافي الكبير الذي أصحبت الشّارقة عنوانًا مرادفًا له في دنيا العلم والثّقافة والأدب.

ولا يفوتنا أيضًا أن نتوجّه بخالص الشّكر ووافر الثّناء وصادق الدّعاء لجميع العاملين في هذه الموسوعة المباركة مُستَكتَبين ومُحَكّمين وإداريّين، وما التّوفيق إلاّ من عند الله تعالى، إنّه نعم المولّى ونعم النّصير، والموفّقُ إلى كلّ خير.

مجمع القرآن الكريم بالشارقة

قسم الدّراسات والبحوث

مقدّمة المدير العلمي
لمشروع التّفسير البلاغيّ

الدكتور امحمد صافي المستغانمي

بسم اللّه الرّحمن الرّحيم

الحمد للّه الذي بنعمته تتمُّ الصّالحات، وتتحقّق الغايات، وتُقضى الحاجات، وصلّى اللّه وسلّم على الكريم النَّجْر، العظيم القَدْر، الرّحمة المُهداة والنّعمة المُسداة سيّدنا محمّد، رسولِ ربّ العالمين، وإمامِ الأوّلين والآخرين، ونجيب المُرسلين، وخاتم النّبيين، وعلى آله وصحبه والتّابعين له بإحسان إلى يوم الدّين، وبعد،

فإنّ القرآنَ الكريمَ هو كتابُ اللّه المبين، ووَحْيُهُ المُعجِز، وحبلُهُ الممدود، وعهدُهُ المعهود، وصراطُهُ المستقيم، ومَحجّتُهُ الوُضْحى، وحُجّتُه الكُبرى، وهو النُّورُ السّاطعُ والبرهانُ القاطع، والحقُّ الصّادع، والعلمُ النّافع، والنَّظمُ الماتع، لا يَخلَقُ على كثرة الرّدّ، ومنه العلومُ والمعارفُ والشَّرائعُ تُستَمَدّ، ولا يبلى على فَرْط التّكرير، وهو مفتاحُ الخير ودليلُ الجنّة، وهو بحرُ العلوم، ومَعدِن الفصاحات، ومَعينُ البلاغات، وديوانُ الحِكَم، وجوهرُ الكلِم، ولا حلاوةَ تُضاهي حلاوةَ تلاوته، ولا لذّةَ تدنو من لذّة ترتيله وقراءته. مَنْ نطقَ به صدق، ومَنْ حكم به عدل، ومن تلاه اهتدى، ومن تعبّد به استراح، ومن تدبّره استنارت بصيرتُه، وأضاءت سريرته، واطمأنّ قلبه، وآمنت نفسُه، وقَرَّ بَلْبالُه، واستقامت أحوالُه، ومَنْ أعرض عنه ضلّ وهوى، وغوى وتردّى، وخُوصِمَ فخُصِم، وحُورِبَ فهُزِمَ وقُصِم.

هو أعظم برهان على نبوّة محمّد ﷺ، أنزله اللّه تعالى بأجزل بيان وأحكم نَظْم،

وأعذب تعبير، واختار له أجملَ الألفاظ وأعتقَها، واصطفى له أمتنَ الأساليب وأوثقَها، حاويًا أشرف المعاني، وأعدل الأوزان والمباني، وأصوبَ الحِكم، وأسمى القِيَم، وأهدى الشّرائع.

عزّت فصاحتُه الفصاحات، وبزَّتْ بلاغته البلاغات، سمِعَه العربُ الفصحاءُ، الأقحاحُ البُلغاء، المصاقعة الأبْيِناءُ، فخارت قواهم دون النّسج على منواله، وتضَعْضَعت طاقاتهم دون الاقتدار عن مُساجلته أو مُعارضته. أنزله سبحانه في فترةٍ من الزّمن وقريشٌ تستأسِدُ على العرب ببيانها المشرق وتعبيرها المونق، وأشعارها الجميلة، وأرجازها البديعة، وخُطبها البليغة، ورسائلها الموجزة وأمثالها السّائرة الشّرود حيث كانت أفصح القبائل بيانا، وأعذبهم لسانا، وأعلمهم بفنون القول وأجناس التّعبير.

قلت: وعلى الرّغم من أنّ قريشا كانت معدنَ الفهم، وينبوعَ العِلم، والأنفَ المُقَدّمَ والسَّنامَ الأكرمَ على حدّ تعبير الجاحظ، وعلى الرّغم من أنّها قد بلغت الذّروة العليا والمنزلةَ الأسمى في الكرم والسّخاء، والمرتبة القُصوى في الدّهاء والذّكاء، وتَعَجَّبَ القاصي والدّاني من سياستها وحُسْن تدبيرها، وبُهِتَ العالمُ النِّحْريرُ من إيجازها وتحبيرها، وضَرْبِها المثل الأعلى في الإبانة والتّبيين، والفصاحة والإفصاح إلا أنّها خارت قواها، وفُلَّ عزمُها، وثُلَّ عَرْشُها، وخاب ذكاؤها، واهتزّت أحلامُها، وجثت على رُكَبها مُتعجّبةً مَبْهوتةً مشدوهةً أمام البيان الرّبّاني العظيم، والنّظم القرآنيّ الكريم، بل إنَّ آيات القرآن كانت تقع على أفرادها أشدَّ من رَشْق النّبل، وأفظعَ من بَتْرِ الحُسام الصّارم، وما كان منها إلاّ أن أعرضت ووَلَّتْ، وانسلَّتْ وفرّت، وتقهقرت على عَقِبَيْها وتدلَّتْ، ولسانُ حالها يقول: ما هذا كلامُ بشر، هذا كلامٌ فوق القِوى والقُدَر.

وليس الأمرُ خاصًّا بقريش وحدها، وليس العجزُ مقصورا على قبائل العرب معها، وإنّما العجزُ عن معارضته شأنُ العالمين والنّاسِ أجمعين، وتالله لو اجتمعت اليومَ، والعصرُ عصرُ التكنولوجيا والانفجار المعلوماتي، عقولُ الأبيناء من أبناء العالمين، وتآزرت قرائحُ الفصحاء والبلغاء وتكاتفت من ذات الشّمال وذات اليمين، ما استطاعوا مُجتمعين أن ينسجوا على منواله، أو الدُّنُوَّ من حِماه، أو مضاهاةَ تعبير من تعابيره، أو صَوْغَ آية من آياته أو إحكامَ بناء سورة من سُوَره. كيف وهو مَفْجَرُ العلوم ومَنْبَعُها، ودائرةُ شمسها

ومَطلعُها؟ كيف وهو الكلامُ الشّافي الكافي، والنَّظمُ المُجزِئُ الوافي؟ كيف وهو السّاطعة أنوارُه اللائحةُ أسرارُه؟ كيف وهو المكسُوُّ بأثواب الجلالة، المُزَيَّنُ ببهاء الحكمة، المنزّهُ عن التّناقض، المبرّأُ عن الاختلال، السّامي عن الرّيب، العالي عن الاختلاف؟ كيف وتعبيرُه يُعرَضُ في حُلِيّ البيان، ويُنقشُ في فصّ الزّمان، ويُحفظُ على وجه الدّهر والأيّام؟ كيف ونظمُهُ يَفْضحُ قلائدَ الدُّرّ، ويُكتَبُ بحروف الذّهب وعسجد التّبر في جبهة البيان العربي؟.

هذا، ومنذ أن أشرقت شموسُه، وسطعت أنواره على أرض جزيرة العرب، وعمَّ المعمورةَ ضياؤهُ، ودانَ به المسلمون، وتعبّد به المؤمنون، وانتشر روح إعجازه، سارعت عقولُ العلماء، وتسابقت فُهومُ الفقهاء والمفسّرين إلى مُدارسته وتدبُّره، وتحليل آياته، وتقريب معانيه، وتبسيط دلالات ألفاظه وتعابيره، واستنباط أحكامه. وقد خاض في لُجَج التّفسير بعد عصر النّبوّة جهابذةٌ نحاريرُ، وفطاحلةٌ مغاويرُ في فنون القول والبَصَر بالعربيّة وعلومها، وكتبوا فيه التّفاسير تلو التّفاسير، وزَبَروا الأسفار تِلْوَ الأسفار، والكلُّ يغترفُ من معينه وزلاله ويقولُ: هل من مزيد؟ وهو في كل أحواله ثَرٌّ مِعطاء فيّاضٌ يجودُ بكرائم معانيه ونفائس جواهره ولآليه على وَفْق أنوار قلوب أهل التّفسير واستعداداتها.

وتبعًا لتنوُّع العلوم، وتبايُن أصناف المعارف، وتعدّد المشارب والمذاهب، تنوّعت تفاسيرُ القرآن الكريم، وأدلى كلُّ عالم فيه بدَلْوِه، ووقفَ متدبّرا في آياته ينظر فيها من زاوية تخصّصه وفَهْمِه؛ فجاءت التَّفاسيرُ الأثريّةُ الحافلة بأقوال النّبوّة وآثار الصّحابة والتّابعين، وأشرقت تفاسيرُ الفقه، وتفتّقت من أكمامها أسفارُ التفسير اللّغويّ والبلاغيّ، وازدهرت تفاسير علم الكلام والعقيدة، وضرَبَ كلُّ ذي سهم بسهمه في تلمُّس معانيه وأسراره ودلالات ألفاظه وآياته.

والذي يعنينا في هذه المقدّمة أن نشير إلى أنّ التفسير البلاغيّ ظهر في وقت مُبكِّر مع عبد القاهر الجرجانيّ (471هـ) ببيانه الجزل القويّ، ثمّ الزّمخشريّ الذكيّ الألمعيّ (538هـ)، ثمّ الفخر الرّازي (604هـ)، والقرطبيّ (671هـ)، وابن جُزيّ الكلبيّ (741هـ)، واقتفى آثارهم أبو حيّان الغرناطيّ (745هـ)، وتبعهم النّيسابوريّ (850هـ)، ثمّ توالت جحافلُ أهل التّفسير اللّغويّ تترى إلى أن تسلّمَ رايتَها أبو السّعود العماديّ (951هـ)، والشّيخ زاده (951هـ)، والقونويّ (1195هـ)، والآلوسيّ البغداديّ (1270هـ)، وأشرقت

شمسُه في تحرير العلاّمة محمّد الطاهر بن عاشور التّونسيّ (1973م)، ثم فتوحات وخواطر الشّيخ الشّعراوي (1998م)، وستظلّ أبوابُه مُشرعة، وأنهاره فيّاضة، وعطاءاته مُتجدّدة، ولا غروَ في ذلك ولا عجب وأعظمُ أوصافه ونعوته أنّه قرآن كريم، والكريم لا ينقضي عطاؤه، ولا ينتهي جوده وسخاؤه، ولا تنقشعُ سحائبُ كرمه وإنعامه.

ومهما تحدّثَ في بلاغته ومتانة أسلوبه، وجودة سَبك جمله وعباراته، وإحكام نظمه ورصفه، ودقائقه ولطائفه، وتوجيه متشابهاته، جهابذةُ البلاغة وعباقرةُ البيان، فإنّ زوايا معالجة آياته، والفهوم الجديدة في إبانة روعة نَسجه وجودة نظمه وقوّة تركيبه ستظلّ حاملةً مِشعلَ التّحدّي تقول لأهل اللّغة والبلاغة والتفسير: هل من دارس متدبّر؟ هل من تالٍ مُستبصر؟ هل من مُفسّر غوّاص على لآلئي ودُرري؟

ولو كان النّاسُ اليوم يعرفون فضلَ الاستبانة، ويُدركون مَزيّة التّبيين، لخرّوا أمام فصاحة القرآن سُجّدا وبُكيّا، وما رفعوا رأسا، ولاجتهدوا في التلاوة والتّدبر بُكرةً وعشيّا، مُغترفين من معين معانيه، وصواب أحكامه، وجليل مضامينه، وعظيم قصصه، ولو أنّهم فعلوا، إذن، لوجدوا من برد اليقين ما يُثلج صدورهم، ويُثبِّتُ الإيمان في قلوبهم، ويُزيّنُ الآخرةَ في أعينهم ونفوسهم، ولذاقوا من ملذّات السّعادة الإيمانيّة ما لا يُحيط به الوصف، ويعجزُ عنه الصّوغُ والرّصفُ.

لأجل هذه المعاني، وشغفا بهذه الرّؤية، وحرصًا على الانضواء في كوكبة خادمي القرآن الكريم، ارتأى قسمُ البحوث والدّراسات في مجمع القرآن الكريم بالشّارقة أن يفتح مجالا للتّدبّر اللّغويّ والتّحليل البيانيّ، وعزمَ على خوض غمرات التّفسير البلاغيّ مُكلِّفا ثُلّةً من اللّغويّين، مُستعطفًا مُستكتبًا كوكبةً من البلاغيّين والمفسّرين، ورسَمَ لهم منهاجا مُحكما، ومَهْيعًا قاصِدًا، واضحَ الملامح، جليَّ المعالم، وحثّهم على العمل الدّؤوب وبذل الوُسع في تسليط الأضواء البلاغيّة على نصوص التّنزيل، وحضّهم على الاجتهاد ألاّ ينفلت منهم تطبيقُ أيّ مبحث من مباحث البلاغة في دراسة النّصّ القرآنيّ، وألاّ تفوتهم أيّة زاوية من زوايا الدّرس الأسلوبيّ الحديث، فكان أنْ وَفَّقَ اللّه العليُّ العظيمُ هذه الفرقة الميمونة من أهل العلم فيما نوت وأرادت، وذلّلَ لها الصّعاب، ويسّرَ لها الأسباب، ومهّد لها السّبل، ومنحها التّوفيق، فجاءت هذه الباكورةُ العلميّةُ اللُّغويّةُ التي نحن بصدد التّقديم لها.

وجَرْيا على قاعدة "لا يشكرُ اللّهَ مَنْ لا يشكرُ النّاس"؛ فإنّا لا نملك في هذه المقدّمة إلاّ أن نتوجّه متضرّعين إلى اللّه الجليل، الغفور الرّحيم أن يجزيَ سليلَ المجد الكريم، المنحدر من معدن الشّرف الصّميم، والفرع الباذخ الممتدّ من الأصل الرّاسخ حاكم الشّارقة الشّيخ الدّكتور سلطان بن محمد القاسمي خيرَ ما يجازي حاكما عن شعبه، ويمنحه من الأجر على إخلاصه لدينه ولرعيّته خير ما يثيب مسؤولا عن أمّته وراعيا عن رعيّته. والمشروع الثقافيُّ العلميّ الحضاريّ الذي أسَّسَ أركانه وأقام بُنيانه الشيخُ سلطان حفظه اللّه ورعاه، ليس بِدْعًا من العمل في آل القاسميّ، وإنّما توارثَ الاهتمامَ بالثقافة والعلم كابرا عن كابر، ويصدقُ فيه قولُ زهير بن أبي سلمى:

وما يكُ من خيرٍ أَتَوْهُ فإنّما
تــوارثَهُ آبــاءُ آبــائهــم قَبْلُ
وهل يُنبِتُ الخطِيَّ إلاّ وشيجُهُ
وتُغرَسُ إلاّ في منابتها النّخلُ

ندعو له بالتّوفيق، وطول العمر وبركة العيش وعظيم الأجر؛ لأنّه اجتهد ويجتهد في فعل كلّ خطوة واتّخاذ كلّ إجراء عمليّ، وتبنّي كلّ مشروع يُمكّنُ للّسان العربيّ والقرآن الكريم. وهو في مشاريعه الثقافيّة المتنوّعة الضّاربة بأطنابها في طول البلاد وعرضها له اليدُ الطُّولى واليمينُ السّخيّة السّحّاء، يُغدقُ على أهل العلم ورجال الثّقافة وقرّاء القرآن وجهابذة التفسير ويلتمس منهم العُذر خوفا من التّقصير وخشية من التّقتير، فجزاه اللّه وأكرمه من حاكم هُمام، وعالمٍ مِقدام، ومُربٍّ وراعٍ وداع إلى الخير.

وأيضا لا يسعني في نهاية هذه الفقرات إلاّ أن أذكُرَ بخير الإخوةَ الفضلاء والأماجدَ العلماء الذين أشرفوا على هذا المشروع القرآنيّ المبارك، في إدارة الإشراف العليا وفي مقدّمتهم الشيخ الدكتور المقرئ خليفة الطنيجي رئيس المجمع، والشّيخ الدكتور شيرزاد عبد الرحمن طاهر الأمين العام للمجمع، وسعادة الدكتور عوّاد الخلف مدير الجامعة القاسميّة الذين عِشْتُ معهم الأيّام الأولى من التخطيط والإعداد لهذا المشروع المبارك. كما أتوجّه بالدُّعاء الخالص والثّناء الصّادق لإخوتي علماء البلاغة والتّفسير الذين أبلوا بلاء حسنا، وبذلوا جهدهم، وكدّوا قرائحهم، وأفْنَوْا كثيرا من أوقاتهم خدمةً لكتاب اللّه

تعالى، وأقول لهم: طوبى لكم في الأوّلين، والحُسنى لكم في الآخرين، وأسألك يا ربّنا يا مجيب السّائلين أن تغفر لنا أجمعين، وأن تُغدق علينا من خزائن رحماتك، وفيوضات إحسانك وإنعامك، وإنّا، يا ربّنا، نرفع دعواتنا لاهجين باسمك، مُنكسرين أمام باب عزّك، مُردّدين: اللَّهم أنت أعلم منّا من أنفسنا، ونحن أعلم بأنفسنا من غيرنا، فاجعل هذا العمل خالصا لوجهك الكريم، وتقبّل منّا أجمعين، واغفر لوالدينا وأهالينا وجميع المسلمين، فما الفوزُ إلا فوزُ الآخرة، وإن كنتُ مُقصّرا، ولا إخالُني إلاّ كذلك، وإن كان منّا مُقصّرون، فعفوُك واسع، وبابُ رحمتك أوسع، وإذا كانت سُورةُ الملك كافيةً مانعةً واقيةً مُنجية، فإنّا نشهدك وكفى بك شهيدا أنّ هذا الجمع الكريم العامل في هذه الموسوعة يرجو رضاك، ويشرئبُّ إلى رحماتك، ويبغي جنّاتك بتفسير آياتك، فلا ترُدَّنا يا ربّنا خائبين، وفضلُ جودك يروي العالمين، وبَصِّرْنا يا ربّنا بمواضع التّقصير ووفِّقنا لجَبْرها في قابل الأيّام، وإنّا نلوذ بحماك، ونعوذ بك أن نقول في تفسير كلامك العظيم ما لا يليق، وحَسْبُنا الاجتهاد على وَفق قواعد الشّرع وأصول التّفسير، وأنت الهادي، يا ربّنا، إلى صراطك المستقيم، وما خاب من تعلّق بهُداك، واستمسك بحبلك المتين وقرآنك المبين.

وكتبه الفقير إلى ربّه امحمد صافي المستغانميّ

المدير العلميّ لمشروع التّفسير البلاغيّ

الأحد 25 جمادى الأولى 1444 هـ الموافق لـ 18 ديسمبر 2022م.

المشاركون
في موسوعة التفسير البلاغي

راعي المشروع

صاحب السّمو الشّيخ الدّكتور سلطان بن محمّد القاسمي

عضو المجلس الأعلى لاتحاد دولة الإمارات العربية المتحدة حاكم إمارة الشارقة

- حفظه الله ورعاه -

مجلس إدارة المشروع

د. خليفة بن مصبّح الطنيجي (رئيس مجمع القرآن الكريم)

د. شيرزاد عبد الرحمن طاهر (أمين عامّ مجمع القرآن الكريم بالشارقة)

د. امحمد صافي المستغانمي (أمين عامّ مجمع اللغة العربية بالشارقة)

أ.د. عوّاد حسين الخلف (مدير الجامعة القاسمية)

اللجنة التنفيذية

د. خليفة بن مصبّح الطنيجي (رئيس مجمع القرآن الكريم)

د. شيرزاد عبد الرحمن طاهر (أمين عامّ مجمع القرآن الكريم بالشارقة والمدير التنفيذي للموسوعة)

د. امحمد صافي المستغانمي (أمين عامّ مجمع اللغة العربية بالشارقة والمدير العلمي للموسوعة)

د. يحيى زكريا توفيق سعيد (رئيس قسم الدراسات والبحوث بمجمع القرآن الكريم)

د. بهاء الدين عادل عرفات دنديس (مساعد المدير العلمي)

لجنة التنسيق والمتابعة

د. يحيى زكريا توفيق سعيد

د. بهاء الدين عادل عرفات دنديس

أ. محمد أحمد بنو

أ. محمد عبد الحميد عبطان

أعضاء اللجنة العلمية

د. امحمد صافي المستغانمي (أمين عام مجمع اللغة العربية بالشارقة والمدير العلمي للموسوعة)

أ.د. المثنى عبد الفتاح محمود (أستاذ التفسير وعلوم القرآن بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة)

أ.د. مبروك زيد الخير (أستاذ التعليم العالي في البلاغة القرآنية في الجزائر)

أ.د. جهاد محمد فيصل نصيرات (أستاذ التفسير وعلوم القرآن بالجامعة الأردنية)

أ.د. سامي عبد الفتاح هلال (أستاذ التفسير وعلوم القرآن بالأزهر الشريف)

د. حازم سعيد حيدر السعيد (مدير مركز البحوث الرقمية بمجمع الملك فهد)

أ.د. وائل محمد قبيسي الشريف (مدير عام تدقيق المصاحف بمكة المكرمة، وأستاذ التفسير وعلوم القرآن بالمسجد الحرام سابقًا)

أ.د. إبراهيم صلاح السيد سليمان الهدهد (أستاذ البلاغة والنقد بالأزهر الشريف، ورئيس جامعة الأزهر سابقاً)

أ.د. محمد إبراهيم شادي (أستاذ اللغة العربية بالأزهر الشريف)

فريق البحث العلمي

د. نصر سعيد عبد المقصود

د. زكرياء توناني

أ.د. مازن عبد الرسول سلمان إبراهيم

أ.د. نشأت علي محمود

د. خير الله فالح وادي الشمري

د. جمال الدين أحمد القادري

د. عبد الرحيم بن عبد الكريم بوقطة

أ.د. عدنان عبد السلام الأسعد

د. عبد الله عبد القادر الطويل

د. محمد عبد ذياب مايل

د. أحمد عامر سلطان الدليمي

د. عادل أمجد صابر الرويني

د. أحمد محمد فريد

أ.د. محمود أحمد الأطرش

د. صلاح ساير فرحان العبيدي

د. عبد الله إبراهيم المغلاج

فريق المراجعة اللغوية

أ. د. حسن أحمد العثمان

أ.د. بن عيسى بطاهر

أ. عبد الستار الشيخ

د. خليل خلف سويحل

د. فاطمة حسن بله

د. أحمد سعد الدين هبهاب

أ. هشام الدّقاق

أ. محمود محمد روحي بويضاني

منهج
موسوعة التفسير البلاغي

التفسير البيانيّ البلاغيّ يقوم على أسس لغويّة ومعايير بيانيّة معروفة لدى أهل التخصّص، وقد حدّدت اللّجنة العلميّة القائمة على هذا المشروع جملة من البنود والمعايير لمنهج هذه الموسوعة تتلخص فيما يأتي:

أولاً: جاءت مفردات المنهج في خمسة مباحث رئيسة:

1) المناسبات:

اعتنت الموسوعة بعلم المناسبات، وكشفت عن جملة من الوشائج والعلاقات بين السُّور والآيات؛ تمثلت في الآتي:

1. ذكر المناسبة بين السّورة وسابقتها في الترتيب المصحفيّ.
2. ذكر المناسبة بين الآية وأختها دونما لجوء إلى التّكلّف في إيجاد المسوّغات.

وأما المناسبة بين الألفاظ المتوالية المتآلفة المتشابهة في المادّة المعجميّة أو المتناظرة في الصّيغ والأبنية أو المناسبة بين الكلمة والجوّ العام للسّورة أو بين الكلمة وأختها أو بين الكلمة والمعنى الإجمالي، وغير ذلك من الأشكال التّعبيريّة التي يُبنى عليه التّناسب؛ فقد جاء تفصيل القول فيها في مبحث الإيضاح اللّغوي والبلاغي للآية موضع الدّراسة.

2) شرح المفردات:

اهتمّت الموسوعة بتقديم شرح لغويّ دقيق وموجز لألفاظ الآية بالرّجوع إلى أمّات المعاجم اللغوية وكتب غريب القرآن والتّفاسير، وذلك من خلال الآتي:

3. سرد المفردات على وفق رتبة ورودها في الآية.
4. ربط المفردة بجذرها، وبيان المعنى الكلّيّ للجذر، من غير إطالة في ذكر وجوه التّصريف، ومن غير استطراد في الألفاظ المأخوذة من الجذر ممّا لا علاقة له بالمفردة الواردة في نص الآية.
5. بيان دلالة المفردة القرآنية في سياق الآية.

أمّا المعالجة البلاغيّة للفظ القرآنيّ فجاء بيانها في مبحث الإيضاح اللّغوي والبلاغي للآية أو في مبحث الفروق المعجمية، ملحوظًا بأيّهما يكون الموضوع ألصق.

3) المعنى الإجمالي:

أوردت الموسوعة تفسيرًا إجماليًا شافيًا للآية موضع الدراسة، باستعمال ألفاظ سهلة ميسّرة مع الحرص على حسن نظم العبارة وقوّتها وإحكام سبكها مع التّوسّط في الشّرح، من غير إسهاب مملّ ولا إيجاز مخلّ، مع حسن ترتيب وجودة عرض؛ وفق الآتي:

1. تحديد الموضوع الذي تعالجه الآية الكريمة.
2. بيان المعنى العامّ الذي تحمله.
3. إيضاح الهداية التي ترشد إليها.
4. إبراز ارتباط المعنى الإجمالي بألفاظ الآية القرآنية.
5. مراعاة اشتمالها على جميع الأفكار والدلالات الواردة في الآية.

4) الإيضاح اللّغويّ والبلاغيّ:

أَوْلَت الموسوعة الجانب اللّغويّ والبلاغيّ عناية فائقة، وأسهبت في التّحليل اللّغوي والبلاغيّ مع التعمّق في المعالجة والاستقصاء، وذلك من خلال الآتي:

1. عرَض الوجوه البلاغيّة في الآية على وفق ورودها.
2. الوقوف عند الدّلالات والإيحاءات الدّقيقة والخفيّة لحروف المعاني، وبيان تغيّر

المعنى بتنوّع الحرف، وإبراز أنَّ كل حرف من حروف المعاني في القرآن الكريم يؤدّي ما لا يؤدّي غيره من دلالات وإيحاءات.

3. التّعرّض للمباحث النّحويّة والصّرفيّة والتّركيز على دلالاتها وإيحاءاتها والجماليّات التي تضفيها على النّصّ.

4. الوقوف عند أثر الأساليب اللّغوية في المعاني، من ذلك: دلالات (أل) التّعريف، وبيان نوعها، وربط ذلك بالمعنى الذي تقدّمه الآية الكريمة، وإبراز دور التّنكير والتّعريف عامّة، ورصد المعاني التي يقدّمها الوصل والفصل، وإبراز مدى ملاءمة أسلوب الإيجاز أو المساواة أو الإطناب للمعنى المراد، وتجلية ائتلاف اللّفظ مع المعنى، والحكمة من استعمال الجمع والإفراد والتّثنية، والتذكير والتأنيث، ودلالات الجملة الاسميّة والفعليّة في الكلام وغير ذلك من مباحث علم المعاني البديعة التي هي من أهمّ وسائل كشف جماليّات النّص القرآني وإحكام رصف آياته.

5. التّوسّل بمباحث علم البيان في تجلية أنواع الاستعارات وجمال التّشبيهات، وروعة التّصوير، ورُواء الأساليب المجازيّة المستعملة في النّصّ.

6. الاهتمام بدراسة نظم الآيات، مع كشف اللّثام عن إحكام النّظم وجودة السّبك وقوّة الأسلوب في العبارة القرآنيّة.

7. ذكرُ الفوائد التي يجنيها القارئ من شتّى الأساليب المستعملة مثل أسلوب الحذف ودوره في تسريع المعنى والاقتصاد في الكمّ اللّفظي، وأسلوب الاستفهام ودوره في التّقرير والإنكار والتّوبيخ وغير ذلك من الأغراض التي تؤديها أنواع الأساليب الإنشائيّة والخبريّة المتنوّعة.

8. الوقوف عند خصائص التّراكيب اللّغوية القرآنيّة والتّعرّض لأسباب توكيد الكلام أو عدم توكيده، ومدى مطابقة التّعبير لمقتضى الحال.

9. إبراز جمال توظيف العُدول ومخالفة مقتضى الظّاهر، وما للإظهار بدل الإضمار من أثر في تحريك المشاعر وترسيخ المفاهيم وتسجيل أوصاف جديدة للفاعل أو المفعول أو المبتدأ أو الخبر أو غير ذلك من أجزاء الجملة.

10. الكشف عن جمال التّضمين ودوره في توسيع الدّلالة مع تحقيق الإيجاز.

11. دراسة ظاهرة ترتيب مكوّنات الجملة، والوقوف عند مسوّغات التّقديم والتّأخير ولطائفه في الجملة القرآنيّة، وبيان الإحكام والإتقان في بنائها.

12. إيضاح تآخي الألفاظ وتناسقها وتناسبها وتعانقها لإبراز المعاني المرادة وتقريبها للتّالين والمستمعين، والإغداق بأسرارها على المتدبّرين.

13. ذكر الوجوه الإعرابيّة المهمّة وبيان تأثيرها في إبراز الدَّلالة، مع تجنّب ذكر وجوه الإعراب المتعدّدة والتّفاصيل الكثيرة التي تثقل كاهل التّفسير.

14. بيان المعاني والدّلالات الأصليّة التي يفيض بها النّصّ، وإيضاح أنّ العناية باللفظ تابعة للعناية بالمعنى خصوصا حين يتعلّقُ الأمر بتوجيه تناسب الفواصل القرآنيّة وانسجامها وتناغمها فيما بينها، والتأكيد على ما يحمله اللفظ من معان دقيقة ودلالات جاء لتمكينها في الأذهان والنّفوس ثمّ هو، قبل ذلك وبعده، متناسق ومنسجم مع جملة الفواصل في السّياق الذي ورد فيه.

15. إبراز جماليّات الفواصل القرآنيّة، وأثر إيقاعها الصّوتي الآسر الخلاّب الجميل في نفس القارئ، وبيان مدى التناسب بين الفاصلة وصدر الآية.

16. التّوقّف عند الظّواهر الصّوتيّة وتجلية بعض دلالاتها وثمراتها في إثراء معاني الآية الكريمة.

17. اعتماد الأسلوب العلميّ الأدبيّ القويّ الرّصين في الكتابة، وذلك بانتقاء اللّفظ الدّقيق المعبّر عن المعنى الصّحيح الذي يرغب المفسر التّعبير عنه، والحرصُ على حسن صوغ العبارة ووضوح المعنى، لما للأسلوب الرّصين القويّ المتين من تأثير على التّالين، وجذب للمستمعين، وتحريك لأذهان الغافلين، والغرض من ذلك كلّه هو تحبيب كلام ربّ العالمين للنّاس أجمعين، وتيسير سبل الاستفادة من هداياته وتوجيهاته.

18. الحرص على بيان مطابقة العبارة القرآنيّة لمقتضى الحال، وتجلية توافق الثّوب

اللّفظي للآية الكريمة مع المعاني الرّبّانيّة السّامية والهدايات الإيمانيّة والدّلالات الشّرعيّة المتوخّاة، وتجنّب ذكر الوجه التّفسيريّ المخالف لأصول التّفسير ولأحكام الشّريعة.

19. اختيار الألوان البلاغيّة الدّالّة على المعاني التّفسيريّة المتوافقة والمنسجمة مع الأثر واللغة، مع إثبات جميع الأوجه التّفسيريّة المقبولة والمحتملة.

20. الحرص على إضافة التأمّلات العميقة والتّخريجات الأنيقة واللّطائف الجميلة التي يفتح بها اللّه الكريم الوهّاب على من يشاء من عباده، وتفضي إلى إبراز مواضع الجمال ومواطن الإعجاز في النّص المُعجز المهيمن شريطة أن لا تتعارض هذه الإضافات واللّطائف والنّظرات الحديثة مع ما هو معلوم من الدّين بالضّرورة، ولا مع روح الشّريعة الإسلاميّة وقواعدها، ولا يتصادمُ شيءٌ منها مع قواعد اللّغة ولا قواعد أصول الفقه ولا ما هو مُسلّم به في علوم الآلة، ولا يُناقضُ الحقائق العلميّة التي توصّل إليها الفكر البشريّ منذ فجر الإنسانيّة إلى السّاعة التي نحن فيها.

21. الوقوف عند أنواع المحسّنات البديعيّة اللفظيّة والمعنويّة التي تكسو النّصّ القرآني، مع ذكر تناسب الفواصل، وجمال الطباق، وتشابه الأطراف، وروعة أسلوب التّرقي في ترتيب المعاني وغير ذلك ممّا يكشفه البحث والتّنقيب والتدبّر في النّسج اللفظي للقرآن الكريم.

22. العناية بذكر المتشابه اللّفظي بين الآيات، وبيان أوجه التلاؤم والتناغم في إيراده، وتوضيح المسوّغات التي اقتضت هذا التّعبير أو ذاك في المقام الذي ورد فيه.

5) الفروق المعجميّة:

اعتنت الموسوعة ببيان الفروق المعجميّة لأهم الألفاظ الواردة في الآية الكريمة ومقارنتها مع مثيلاتها ممّا هو وارد في القرآن الكريم أو مستعمل في اللّغة والأدب بشكل عام، وبيان أنّ كلّ لفظ يعطي معنى خاصّا مغايرا لصنوه، ويوحي بدلالة أو معنى دقيق لا يحمله قسيمه، وإثبات أنّه لا مجال للتّرادف في القرآن الكريم.

ثانيًا: حدودٌ منهجيّة وضوابط عامّة:

1. لم تتعرض الموسوعة لأسباب النّزول أو القراءات أو النّاسخ والمنسوخ أو مباحث الإعراب التفصيليّة، أو بما يُستنبطُ من الآيات من تشريعات وأحكام فقهية، إلا ما كان له أثر وثيق الصلة بالجانب البلاغي.
2. أُثْبِتت الآيات القرآنية بالرّسم العثماني وفق رواية حفص عن عاصم، بحسب نسخة مصحف مجمع الملك فهد للنشر الحاسوبي، وفق العدّ الكوفي.
3. وُضِعت الآية المراد تفسيرها في أعلى الصّفحة.
4. رُوعي في إيراد الآيات موضع الدراسة اتصال معانيها، وكمال وحدتها الموضوعية.
5. قُدِّم بين يدي السورة المراد تفسيرها بتمهيد تعريفي بها تضمن الآتي:

- ذِكْر مكان نزول السّورة المكّي أو المدني، والمختار أنّ ما نزل قبل الهجرة هو من القرآن المكّيّ، وما نزل بعد الهجرة هو من القرآن المدني، وهذا القول هو الرّاجح لدى جمهور علماء التّنزيل.
- ذكر عدد آياتها في العدّ الكوفي والبصري والمكيّ والشّامي وغيره.
- ذكر ترتيبها في المصحف، وترتيبها في النّزول باعتماد أصحّ المصادر في هذا الشّأن.
- ذكر اسم السّورة المأثور مع إيراد الشّواهد الحديثيّة الصّحيحة والآثار المؤيّدة لذلك، وذكر أسماء السّورة إن كانت من السّور المتعدّدة الأسماء.
- تَعداد أهمّ موضوعات السّورة.

6. التّعريف بالمصطلحات البلاغيّة واللّغويّة أو الشّرعيّة وغيرها من المصطلحات في الفنون المعرفيّة الأخرى في أوّل موضع ورود لها في الحاشية.
7. تجنّب ذكر الإسرائيليّات والقصص الموضوعة المُفتراة.
8. توثيق القراءات من مصادرها الأصيلة.
9. تخريج الأحاديث الشريفة من مصادرها الأصيلة.

10. وَضْعُ عنوان تقديميّ لفقرات الإيضاح البلاغي ملخِّصٍ للقضيّة البلاغيّة التي تعالجها، وحُبّر العنوان باللّون الأزرق.

11. وَضْعُ عنوان فرعيّ للعديد من فقرات الموسوعة يبيّن الأثر البلاغيّ المرتقب من الفقرة، وحُبّر العنوان باللّون الأخضر.

وختامًا: فإن الغرض المبتغى والهدف المُتوخّى من هذه الموسوعة البلاغيّة هو إبداء جمال البيان القرآني للعالمين، وتجلية بهاء نسيجه اللّغويّ، وجودة سبكه، وبديع نظمه، وروعة تصويره، وتقريب المسالك البيانيّة التي سلكها البيان القرآني في الإبانة والتّبيين لتوصيل هدايات ربّ العالمين للنّاس أجمعين، وإثبات أنّ العبارة القرآنيّة معجزة بكلماتها، فريدة في بنائها، فذّةٌ في تآلف لبناتها، فائقة الحسن في ترتيبها بين أخواتها في الفقرة القرآنية الواحدة، وقد صيغت لتمكين المعنى في قلب المتلقّي للذّكر، والتّأثير في وجدانه لينطلق في الكون موحّدًا مسبّحًا حامدًا شاكرًا عاملًا بمقتضيات الهدي القرآني، يقول حاله ويلهج لسانه مردّدا: ﴿قُلۡ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ دِينٗا قِيَمٗا مِّلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ١٦١﴾ [الأنعام: 161].

مجمع القرآن الكريم بالشارقة

قسم الدراسات والبحوث

اللّجنة العلميّة

الجُزْءُ الأَوَّلُ

سُورَةُ الفَاتِحَةِ

سُورَةُ الفَاتِحَةِ

❁ بَيْنَ يَدَيِ السّورَة:

سورة الفاتحة مكِّيَّة عَلَى الصَّحيحِ مِنْ أقوالِ العلماءِ؛ إذ وردت الإِشَارَةُ إلى تقدُّمِ نُزُول الفاتحةِ في قَوْلِهِ تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ﴾ [الحِجر: 87]، وسورةُ الحِجْرِ مَكِّيَّة بالاتِّفاقِ[1]، فدلَّ امتنانُ اللّه تعالى على رسوله بها في سورة مكية، بأنها مكيَّةُ النزول، ويَبْعُدُ أَنْ يَمْتَنَّ على نبيّه ﷺ بما لَمْ يَنْزِلْ بَعْدُ، ولأنَّ الفاتحةَ ركنٌ في الصَّلاةِ، والصَّلاةُ فُرِضَتْ قبلَ الهجرةِ، ولا يُعْلَمُ في الإسلامِ صَلَاةٌ مِنْ غير فاتحةٍ[2].

عدد آيِ سورة الفاتحة سبعُ آياتٍ بالاتِّفاقِ، والخلاف بَيْنَ العَادِّينَ وقعَ في التَّفصيلِ؛ فالعدُّ المكِّيُّ والكُوفِيُّ يَجْعَلانِ البسملةَ آيةً، ويجعلان الآيةَ السَّابعةَ قولَهُ تعالى: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾.

والعَدُّ المدنيُّ الأوَّلُ والأخير، والشَّاميُّ، والبصريُّ لا يَعُدُّون البسملةَ آيةً، ويجعلون الآيةَ السَّادسةَ قولَه تعالى: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾، والآيةَ السَّابعةَ قولَه: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾[3].

والفاتحة أوّلُ سُورَةٍ في ترتيبِ المصحفِ الشَّريفِ، وَهِيَ الخَامِسَةُ نزولًا، نَزَلَتْ بعد سُوَر: العَلَقِ، والقَلَمِ، والمُزَّمِّلِ، والمُدَّثِّرِ.

سُمِّيت سورةَ الفاتحةِ؛ لأنهَّا جاءت أولَ سورةٍ في القرآن؛ فهي في فاتحة المصحف كتابةً، وقراءةً: في الصَّلوات وغيرِها.

وللفاتحةِ أسماءٌ كثيرةٌ، بلغ بها السُّيُوطِيُّ خَمْسَةً وعشرين اسمًا، بعضُ هذه الأسماء ثابتٌ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ مرفوعًا، وبعضُهَا يُؤْثَرُ عن بعض الصحابةِ، والتابعين، وأهلِ العلم.

(1) أَوْمَأَ إلى هذا الدَّليل جماعة من أهل العلم، منهم ابنُ كثيرٍ في تفسيره: 1/101.
(2) الواحديُّ، أسباب نزول القرآن، ص: 20، والسّيوطي، الإتقان في علوم القرآن: 1/46.
(3) الدَّانِي، البيان في عَدّ آي القرآن، ص: 139، وعبد الفتاح القاضي، بشير اليُسْر، ص: 66.

مِنْ هَذِهِ الأسماءِ:

كثرةُ أسماءِ الفاتحة دليلٌ على فَضْلِها وشَرَفِها بين سُوَرِ القرآن الكريم

1. فَاتِحَةُ الكِتَابِ: لقول النَّبِيِّ ﷺ: «لَا صَلَاةَ لِمَنْ لَمْ يَقْرَأْ بِفَاتِحَةِ الكِتَابِ»[1].
2. أُمُّ الْكِتَابِ: لقول رَسُولِ اللهِ ﷺ: «كُلُّ صَلَاةٍ لَا يُقْرَأُ فِيهَا بِأُمِّ الكِتَابِ، فَهِيَ خِدَاجٌ»[2].
3. أُمُّ الْقُرْآنِ: لقول نَبِيِّ اللهِ ﷺ: «مَنْ صَلَّى صَلَاةً لَمْ يَقْرَأْ فِيهَا بِأُمِّ الْقُرْآنِ فَهِيَ خِدَاجٌ -ثَلَاثًا- غَيْرُ تَمَامٍ»[3].
4. السَّبْعُ الْمَثَانِي.
5. الْقُرْآنُ الْعَظِيمُ: وقد ورد هذا الاسْمُ والذي قبله في حديث أَبِي سَعِيدِ بنِ الْمُعَلَّى رضي الله عنه، فقد قال: كُنْتُ أُصَلِّي فِي الْمَسْجِدِ، فَدَعَانِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَلَمْ أُجِبْهُ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي كُنْتُ أُصَلِّي، فَقَالَ: «أَلَمْ يَقُلِ اللهُ: ﴿ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: 24]»، ثُمَّ قَالَ لِي: «لَأُعَلِّمَنَّكَ سُورَةً هِيَ أَعْظَمُ السُّوَرِ فِي الْقُرْآنِ، قَبْلَ أَنْ تَخْرُجَ مِنَ الْمَسْجِدِ»، ثُمَّ أَخَذَ بِيَدِي، فَلَمَّا أَرَادَ أَنْ يَخْرُجَ، قُلْتُ لَهُ: «أَلَمْ تَقُلْ لَأُعَلِّمَنَّكَ سُورَةً هِيَ أَعْظَمُ سُورَةٍ فِي الْقُرْآنِ»، قَالَ: «﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، هِيَ السَّبْعُ الْمَثَانِي، وَالْقُرْآنُ الْعَظِيمُ الَّذِي أُوتِيتُهُ»[4].
6. الصَّلَاةُ: لقول النَّبِيِّ ﷺ فِيمَا يرويه عَنْ رَبِّه تبارك وتعالى: «قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ، فإِذَا قَالَ العَبْدُ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، قَالَ اللهُ تَعَالَى: حَمِدَنِي عَبْدِي، وإِذَا قَالَ: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، قَالَ اللهُ تَعَالَى: أَثْنَى عَلَيَّ عَبْدِي، وَإِذَا قَالَ: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾، قَالَ: مَجَّدَنِي عَبْدِي، فَإِذَا قَالَ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، قَالَ: هَذَا بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ، فَإِذَا قَالَ: ﴿ٱهْدِنَا

(1) رواه البخاريّ، حديث رقم: (756)، ومسلم، حديث رقم: (394).

(2) اللّفظ لابن مَاجَه، حديث رقم: (840)، وهو صحيح، ينظر: صحيح الجامع، حديث رقم: (4535). ومعنى: صلاة خِداجٌ: ناقصةٌ غيرُ تامّة، وأصل الكلمة خدَجت النّاقةُ: ألقت ولدها وقد استبانَ خلقُه، أي: ألقته قبل وقت ولادته ناقصًا. ابن عبّاد، المحيط في اللغة: (خدج).

(3) اللفظ لمسلم، حديث رقم: (395).

(4) رواه البخاريُّ، حديث رقم: (4474).

ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾، قَالَ: هَذَا لِعَبْدِي وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ»[1].

7. الحَمْدُ: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا قرأتم ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾ فاقرؤوا ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، وإنها أمُّ القرآن وأمُّ الكتاب والسَّبْعُ المَثَاني، و﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ إحداها»[2].

هَذا أقوى ما ورد في أسماء هَذِهِ السُّورة الشَّرِيفة مِمَّا ثَبَتَ مَرْفُوعًا إلى النَّبِيِّ ﷺ.

ومن أشهر أسمائِها الاجتهاديةِ الرُّقْيَةُ:

ويستأنس لهذا الاسم بحديث أبي سعيد الخدريِّ رضي الله عنه قال: كنَّا في مَسِيرٍ لنا، فنزلنا فجاءت جاريةٌ، فقالت: إنَّ سيِّد الحيِّ سليم، وإنَّ نفَرَنا غَيْبٌ، فهل منكم رَاقٍ؟ فقام معها رجل ما كُنَّا نأبُنُه بِرُقْيَة، فرقَاه فبرأ، فأمر له بثلاثين شاةً وسقانا لبناً، فلمَّا رجع قلنا له: كنت تحسِن رقيةً، أو كنت تَرْقي؟ قال: ما رَقَيْتُ إلا بأمِّ الكتاب، قلنا: لا تُحْدِثوا شيئاً حتى نأتي أو نسأل النبي ﷺ، فلما قدمنا المدينة ذكرناه للنبي ﷺ فقال: «وما كان يدريه أنها رُقْيَةٌ؟ اقسموا واضربوا لي بسهم»[3].

أورد هذا الاسم من المفسِّرين: القُرطبي[4]، وابن كثير[5]، والآلوسي[6].

وذكره الفَيروزابادي[7]، والسُّيوطي[8]، وغيرهما.

وموضوعاتُ هذه السُّورَةِ الكَرِيمَةِ؛ هي المَقَاصِدُ الكُلِّيَّةُ لِلْقُرآن الكَرِيم[9]، التي هي في جملتها: توحيدٌ، وَأَخْبَارٌ، وأحكَامٌ[10]، وكلُّها في الفاتِحَةِ.

---

(1) رواه مسلم، حديث رقم: (395).

(2) رواه الدارقطني، حديث رقم: (1190)، وقال الألباني: صحيح. ينظر صحيح الجامع الصغير، حديث رقم: (731)، والسلسلة الصحيحة، حديث رقم: (1183).

(3) رواه البخاري، حديث رقم: (5007)، ومسلم، حديث رقم: (2201)، ومعنى سَليمٌ: لديغٌ لدغته عقرب أو نحوها. نَفَرَنا: رجالَنا. غَيْبٌ: جمع غائب. راقٍ: اسم فاعل من رقى يرقي، إذا عوَّذه بالله تعالى. نأبُنه: نَعْلمه أنه يَرْقي.

(4) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 1/174.

(5) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 1/152.

(6) الآلوسي، روح المعاني: 1/38.

(7) الفيرزابادي، بصائر ذوي التمييز: 1/129.

(8) السّيوطي، الإتقان: 2/254.

(9) يكاد العلماء يتَّفقون على اشتمال السُّورة على مقاصد القرآن الكريم، والخلافُ بينهم في طريقة التَّعبير عن تلك المقاصد، ويَتْبَعُ ذلك خلافهم في إرجَاعِ آيِ الفاتحة لِمُوَافِقَتِهَا، يُنظر مثلًا: الزَّمخشريُّ، الكشَّاف: 1/1، والبِقَاعِي، نَظْم الدّرر: 1/133.

(10) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/621.

فالتَّوحيد وَرَدَ بأنواعِهِ الثَّلاثة: الرُّبوبيَّة، والأُلُوهيَّة، والأسماء والصِّفَاتُ، أمَّا الرُّبوبيَّة فَفي قولِه تعالى: ﴿رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، وأمَّا الأُلُوهيَّةُ فَفي قَوْلِه: ﴿لِلَّهِ﴾، وَ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾، وأمَّا الأسماءُ والصِّفات فَفي قولِه: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾، وَ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾.

والأَخْبَارُ في قوله تعالى: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾، فَإِنَّ فيه إخبارًا عَنْ أَصْنَافِ الأُمَم كُلِّهم؛ فإنَّ مِنْهُمْ مَنْ عَلِمَ الحقَّ وعَمِل به وَهُمُ الْمُنْعَمُ عَلَيْهِمْ، وَمِنْهُمْ مَنْ عَلِمَ الحقَّ وعدَلَ عَنْهُ وَهُمُ المَغْضُوبُ عَلَيْهِمْ، وَمِنْهُمْ مَنْ عَدَلَ عَنِ الحقِّ جَهْلًا وَهُمُ الضَّالُّون.

والأحكَامُ في قوله: ﴿نَعۡبُدُ﴾ وَ﴿نَسۡتَعِينُ﴾.

كَمَا اشتملتِ السُّورة على موضوعاتٍ ترجِعُ إلى المَقَاصِد الكُلِّيَّةِ الآنِفِ ذِكْرُهَا؛ كإثباتِ النُّبُوَّة، والجزاءِ عَلَى الأعمَالِ بالعَدْلِ، وإثباتِ القَدَر، والتَّوجُّهِ إلى الله تعالى بطلبِ الهدايةِ إلى الدين الحق والصراط المستقيم، والتوفيقِ والتثبيتِ على الإيمانِ ونَهْجِ سبيل الصالحين، وتجنُّبِ طريق المغضوب عليهم والضالين، والرَّدِّ على جميع أهل البَاطِل[1].

فاتحة الكتاب لُبُّ لُبابِ القرآن الكريم حيثُ تَضَمَّنت مَقاصِدَه الكُلّيّةَ التَّوحيد، والأخبار، والأحكام

❁ مُنَاسَبَةُ الِافْتِتَاحِ بِهَذِهِ السُّورَةِ:

مضت عادةُ بُلَغَاء العرب عند مخاطبة المُعَظَّمين بافتتاحِهِمُ الْكَلَامَ بالثَّناء عَلَيْهِمْ ووَصْفِهِمْ بالجَمِيلِ، وقَد جَرَت هذه السُّورةُ على هذَا النَّحْوِ؛ فإنَّ أعظمَ مَا فِيهَا هو الثَّناء على اللهِ تَعَالَى، وَلِذَا تُسمَّى هذه السُّورَةُ سُورةَ الحمْدِ، لَا لِأَنَّهَا افتُتِحَت به[2] -إِذْ قَدِ

الحَمْدُ صِبغةُ الفاتحة، والثَّناءُ مِحْوَرُها، وهذا أنسبُ الأغراض بأوّلِ سورةٍ يُفتَتَحُ بها القرآنُ الكريم

(1) السّعْدي، تيسير الكريم الرَّحمن ص: 39.

(2) إذا قلنا إنَّ البَسْملة آيةٌ، كما جرى عَلَيْهِ العدُّ المكيُّ وَالكوفيُّ؛ فإنَّها مندرجةٌ في جملةِ الحَمْدِ؛ إذْ إنَّ البسملةَ من أبلغ الثَّناء على اللهِ تعالى، ينظر: النَّوويُّ، المجموع شرح المهذَّب: 1/74.

افْتُتِحَتْ أَرْبَعُ سُوَرٍ أُخْرَى بِهِ-، وإنَّما لِكَوْنِ الحَمْدِ غَالِبًا عَلَيْهَا، "فَسُمِّيَتْ بما غَلَبَ عَلَيْهَا، بخلافِ غَيْرِها"[1].

ولَمَّا كانت هذه السُّورَةُ مشتَمِلَةً على مقاصِدِ القُرآن الكُلِّيَّةِ -كما سبَقَ قريبًا -؛ كانت بمنزلَةِ اللَّفِّ، وسُوَرُ القرآنِ بعدها بِمَنْزِلَةِ النَّشْرِ[2].

ثُمَّ إنَّ اشتمالَها على مقاصدِ القرآن كُلِّهِ بِطَرِيقِ الرَّمْزِ والإشارَةِ، هُوَ ضَرْبٌ مِنْ ضرُوبِ الافتِتَاحِ الحَسنِ المسمَّى في عُرْفِ البلاغيِّين: بَرَاعَةَ الِاسْتِهْلَالِ[3].

(1) ابن رَجَب، تفسير سورة الفاتحة، ص: 32.

(2) السُّيُوطِي، تناسق الدُّرر في تناسب السُّور، ص: 61.

واللّفُّ والنّشرُ: ذِكرُ مُتعدّدٍ على التَّفصيل أو الإجمال، ثمّ ذِكرُ ما لكلٍّ من آحاد هذا المتعدّد من غير تعيين، ثقةً بأنَّ السّامعَ يردُّهُ إليه. ينظر: التفتازاني، المطوّل: 4/43.

(3) الطِّيبِي، فُتوح الغَيْب: 1/621.

براعةُ الاستهلال هي أن يكون الابتداءُ حسنًا مُشعِرًا بمقصود الكلام متناسبا معه، وهي أخصُّ من حُسن الابتداء أيضًا، ينظر: التفتازاني، المطوّل: 4/246، والعلوي، الإيجاز، ص: 500.

﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ١﴾ [الفاتحة: 1]

في الشُّروع بالتّسميَة إيماءٌ إلى مُراقَبة الله تعالى، ودَعْوةٌ إلى مَخافته، وإقرارٌ بأنَّ منه الابتداءَ، وإليه المُنتهى

مُنَاسَبَةُ الِافْتِتَاحِ بِهَذِهِ الآيَةِ:

لمَّا كان مِن مقاصدِ الفاتحة: معرفةُ اللّه تعالى مِنْ أجل تحقيق كمَالِ عُبُوديَّتِهِ، "وكان التِزَامُ اسمِه تعالى في كُلِّ حركةٍ وسكُون قائدًا إلى مراقَبَتِه وداعيًا إلى مَخَافَتِه واعتقادِ أنَّ مصادرَ الأمورِ ومَوَارِدَها مِنْهُ وَإِلَيْهِ؛ شُرِعَتِ التَّسْمِيةُ أَوَّلَ كُلِّ شيءٍ، فَصُدِّرَت بِهَا الفاتحَةُ"[1].

شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

1) الباء في ﴿بِسۡمِ﴾: للاستِعَانةِ، أو المصاحبة والملابسة على وجه التَّبَرُّك، والأوَّلُ: أَقْوَى[2]؛ لكونهِ أدخلَ في التَّعظيم[3]، ولا مانعَ مِنْ حَمْلِ الحرفِ على مَعْنَيَيْهِ المذكورَيْنِ معًا[4]، بل إنَّ هذا أنسبُ ببلاغةِ القرآنِ؛ إذْ فِيهِ توسيعٌ للدّلالة وتكثيرٌ لمعاني اللَّفظ الواحِد.

2) ﴿بِسۡمِ﴾: مشتقٌّ مِنَ السُّمُوِّ على الصَّحيح[5]، والدَّليل على ذلكَ قَوْلُهم في جمع (اسم): أسماء، وقولُهُم في تصغيره: سُمَيٌّ، والجمعُ والتّصغير يَرُدَّان الكلماتِ إلى أصولها، ولو كان من (الوَسْم)؛ لجُمِعَ على: أوسام، وصُغِّر على: وُسَيْم؛ وهو "ما يُعْرَفُ بِه ذاتُ الشَّيءِ"[6].

---

(1) البِقَاعِي، نَظْمُ الدُّرر: 1/22.

(2) السَّمِين الحلبيُّ، الدُّرّ المصون: 1/14.

والقول بأنَّ الباء للمصاحبةِ أو الملابسة تَبَرُّكًا، اختاره الزَّمخشريُّ، ينظر: الكشَّاف 1/4، وهو قول لا بأسَ به؛ بشرطِ عَدَمِ إرادةِ نفي معونةِ الله لخلقِهِ، واعتقادِ استقلال العبدِ بالفعل، كما يراه المعتزلةُ!

(3) حاشية زَادَه: 1/35.

(4) عند مَن يرى حَمْلَ المشترك على معنَيَيْهِ أو معانيه، وهو قول الجمهور، وهو قول قويٌّ. الشَّوكانيُّ، ينظر: إرشاد الفحول: 1/59.

(5) الخليل، العين: (باب السين والميم و: و ا ي ع)، والجوهريُّ، الصحاح: (سما)، والزَّبيديّ، تاج العروس: (سمو).

(6) الرّاغب، المفردات: (سما)، وللرَّاغب أيضًا كلامٌ نفيسٌ في معنى الاسم، تأتي الإشارة إليه عند تفسير قولِ الله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة: 31].

أمَّا الاسم باعتبار إضافته إلى اللّهِ تعالى؛ فيُراد به: ما دَلَّ على ذاتِ اللّه ﷻ مع صفةِ الكمَالِ القائِمَةِ به[1].

3) ﴿ٱللَّهِ﴾: علَمٌ على المعبودِ بحقٍّ، وهو مشتقٌّ -على الصَّحِيح- وليس جامدًا؛ فإنَّ أسماءَ اللّهِ تعالى أَعْلَامٌ وأوصَافٌ باتِّفاق أهل السُّنَّةِ والجمَاعة[2]، ولَازِمُ ذلك أنَّها مُشْتَقَّةٌ[3]؛ إذ الجامدُ لا وَصْفَ فيه.

واشتِقَاقُهُ مِنَ الأُلُوهةِ -على المُخْتَارِ-، وأَصْلُه: الإِلَهُ، حُذِفَتْ همزتُهُ تخفيفًا[4]؛ لِكثرة دَوَرانه على الأَلْسِنَةِ[5]، وأُدْغِمَتِ اللَّام في مِثْلِها وفُخِّمَتْ تعظيمًا للّه تعالى[6]، وَتَرْقِيقُها بعد كَسْرٍ إنَّما كان مِنْ أجل الثِّقَلِ المُتَرَتِّبِ على الانْتِقَال مِنَ الكَسْرِ إلى التفخيم، لَا لِسَلْبِ التَّعظيمِ ههنا، كما لا يَخْفَى.

وَمَعْنَى اسم (اللّه) عَلَمًا -كما قال ابْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما-: ذُو الألوهِيَّة والعبُودِيَّة على خَلْقِهِ أجمعين[7].

و﴿بِسْمِ ٱللَّهِ﴾ أَصل كتابته: باسْم اللّهِ، بالألف، كَقَوْلِه تعالى: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾، وَإِنَّمَا حُذفت الْألفُ في الْكِتابَة؛ لأَنَّها لَا تظْهرُ في اللَّفْظ، وَقيل: إِنَّمَا حذفت لِكَثْرَة الاسْتِعْمَال تَخْفِيفًا؛ وَلِأَنَّهُ كثر اسْتِعْمَالهَا؛ فاستَخَفُّوا حذفهَا، بِخِلَاف قَوْله تعالى: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾، ونظائره؛ لِأَنَّه لم يَكْثر فيه الاسْتِعْمَال[8].

4) ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾: اسمَان مَنْ أسمَاء اللّه تعالى، مُشتَقَّان مِنَ الرَّحمة، وبَيْنَهُمَا فرقٌ في المَبْنَى والمعنى.

فأمَّا مِن جهة المَبْنَى؛ فالرَّحْمَنُ على زِنَةِ: فَعْلَان، والرَّحِيم على زِنَةِ: فَعِيل، والأَوَّلُ على خمسة أحرف، والثَّاني على أربعة.

(1) ابن تيميَّة، الإيمان، ص: 148.
(2) ابن القيِّم، بدائع الفوائد: 1/285.
(3) ابن القيِّم، الكافية الشَّافية، ص: 216.
(4) ابن جرير، جامع البيان: 1/125.
(5) الجَوْهَرِي، الصحاح: (أله).
(6) الفَيُّومِي، المِصباح المنير: (أله).
(7) ابن جرير ابن جرير، جامع البيان: 1/123.
(8) السَّمْعاني، تفسير القرآن: 1/32.

وَيَجْدُرُ التَّنبيهُ إلى أنَّ زنةَ (فَعْلَان) لا تكون إلا لِلمُبَالغةِ، بخلاف (فَعِيل) فتكون لِلمُبَالَغَة وغيرِهَا، وَلِذَا قرَّر جماعةٌ مِنْ أهل العلم أنَّ ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ أبلغُ مِن ﴿ٱلرَّحِيمِ﴾[1]؛ لكونِ الأَوَّل على وَزْنٍ هُوَ نَصٌّ في المبالغةِ، ومِنْ جهةِ كثرَةِ حروفِه؛ لأنَّ زيادةَ المَبْنَى تَدُلُّ على الزِّيادة في المَعْنَى[2]، ويرى ابن هشام أنّ هَذَا لَيْسَ بِلَازِمٍ[3].

وأمَّا مِنْ جهة المعنى؛ فوقَعَ فِيهِ نِزَاعٌ طويلٌ بين أهل العلم، فقيل: "الرَّحمن: اسم خاصٌّ بصِفَةٍ عامَّة، والرَّحيم: اسم عامٌّ بصفَةٍ خاصَّةٍ"[4]، وقيل -وهو الأَقْوَى-: "إنَّ الرَّحمن اسم دالٌّ على الصِّفة القائمة بالذَّات، والرَّحيم اسم دالٌّ على تَعلُّقِ الرَّحمة بالمرحومِ"، وقد قال ابْنُ الْقَيِّمِ بَعْدَ ذِكْرِهِ هذا الفَرْقَ: "وهذه نُكْتَةٌ لا تكاد تجِدُها في كتابٍ"[5].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

أبتدئُ قراءةَ القرآنِ الكريم باسم اللهِ تعالى المعبودِ بالحقِّ، المتّصف بصفات الكمال والجَلال والجمال، المَنْعوت بالرَّحمة الواسعة والدّائمة والوَاصِلَة إلى جميع المَرْحومين، فرحمتُه وسِعَت كلَّ شيء، وعمَّت كلَّ حيٍّ، وكتبها للمتقين المتَّبعين لأنبيائه ورسله؛ فهؤلاء لهم الرحمةُ المطلَقة، ومن عدَاهم فلهم نصيبٌ منها، مُسْتَعِينًا به مُتبَرِّكًا بِذِكْرِهِ[6].

وفي هَذَا تأديبُ اللهِ عبادَهُ بإرشادِهِم إلى تَقْدِيمِ ذِكْرِ اسْمِهِ سُبحانه بَيْنَ يَدَيْ جَمِيعِ أُمُورِهم[7].

في الشّـــروع بالبسملَة تأديبٌ للعِباد بضَرورة تَقْديم اسْم الله تعالى بَيْنَ يَدَي كلّ أمرٍ

(1) السَّمين، عمدة الحفَّاظ في تفسير أشرف الألفاظ: 2/80.
(2) ابن جِنِّي، الخصائص: 3/271.
(3) ابن هشام، مغني اللَّبيب عن كتب الأعاريب، ص: 185.
(4) محمد بن علّي التَّهَانَوِي، موسوعة كشَّاف اصطلاحات الفنون والعلوم: 1/847، وسيأتي مزيدُ بيانٍ لهذه المسألةِ.
(5) ابن القيّم، بدائع الفوائد: 1/24.
(6) ابن جرير، جامع البيان: 1/114-115، والسّعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 39.
(7) ابن جرير، جامع البيان: 1/114.

الإيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

حُسْنُ الِافْتِتَاحِ وَبَرَاعَتُهُ بِالبَدَاءَةِ بِالبَسْمَلَةِ:

يَكْفِي الفاتحةَ حُسنًا وبراعةَ افتتاحُها بِذِكْرِ اللهِ تعالَى

مِن مواضع التأنُّقِ في الكلام: طَالِعَتُهُ؛ لِذَا جَرَت عادةُ البلغاء في كلامهم أن يُعنَوا بمُفتَتَح الكلام ومَطلَعه؛ لِكَونه أوَّلَ ما يَقَعُ في سَمْعِ المُتَلَقِّي، وقَدِ افْتُتِحَت هذه السّورةُ الكريمة بـ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، وَهُوَ افْتِتَاحٌ بَدِيعٌ؛ فيَكْفِيها حُسنا وبراعةً افتتاحُها بِذِكْرِ اللّهِ تعالَى[1].

وَفِيهِ - زِيَادَةً على حُسْنِ الِافْتِتَاحِ - بَرَاعَةُ الِاسْتِهْلَالِ[2]، وهو أخصُّ مِنْ سابقِه؛ ووَجْهُ ذلك: ذِكْرُ اسمَيْنِ مِن أسماءِ اللّه تعالى - وهما الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ - مُشْتَقَّان مِنَ الرَّحْمَةِ، وفيه إشارةٌ إلى أنَّ المقصودَ من السُّورَةِ ومِنَ القرآنِ كلِّهِ: رحمةُ اللّهِ بخَلْقِه؛ بِهِدَايَتِهم إلى ما فيه فَلَاحُهم في الدُّنيا والآخرة، وقد قال رَبُّنا تعالى: ﴿مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ﴾ [طه: 2].

الإِرْشَادُ وَالتَّعْلِيمُ فِي جُمْلَةِ البَسْمَلَةِ:

الشّروعُ بالبَسملة تعليمٌ للعِباد ضرورة ابتداءِ جَميع أعْمالِهم باسم الله ﷻ

جُملة ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ﴾ خَبَرِيَّةٌ؛ إِذْ تَقْدِيرُ الكلامِ فِيهَا: بِاسْمِ اللّهِ أَقْرَأُ، أو أبتدِئُ قراءتي باسم اللّه -كما سيأتي قَرِيبًا - ، وقد خَلَتْ مِنَ المؤكِّدَاتِ، فكانت خَبَرًا ابْتِدَائِيًّا؛ لعدمِ وُجودِ داعٍ للتَّوكيد.

ويحتمل أَنْ تَكُونَ جُمْلَةً إِنْشَائِيَّةً، إذا قُدِّر قَبْلَها: (قُولُوا) - وهو قولُ جماعة مِنْ أهلِ التَّفسير[3] -، ويكونُ هَذا مِن بَابِ الإِرْشَادِ وَالتَّعْلِيمِ[4]، وأُسْلُوب الأمر يَأْتِي كثيرًا لهَذَا المَعْنَى.

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 1/54.
(2) بَراعَةُ الاسْتِهْلَالِ: «أن يكونَ في طالعة الكلام ما يُشير إلى مقصود المتكلِّم من غير تصريح». عبد المتعال الصَّعِيدِي، بغية الإيضاح: 4/134.
(3) محمود بن حمزة الكَرْمَانِيّ، غرائب التَّفسير: 1/97، وقد نَسب هذا القولَ إلى جُلِّ المفسِّرين.
(4) ابنُ جرير، جامع البيان: 1/139.

حَرْفُ البَاءِ بَيْنَ الِاحْتِرَاسِ وَالمَجَازِ:

فائدةُ الاحتراس في ذِكر لفظ (اسم) قَبْلَ الجلالة التَّمْيِيزُ بين التَّيمُّنِ واليَمِين

وقَوْلُهُ: ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ﴾، سبقَ آنفًا أَنَّ الباءَ فيه: للاستعانةِ، أو المُصاحبة والمُلابسة، على وجه التَّبَرُّك.

فإذا قلنا إنَّها للاستعانة؛ ففي الجملةِ إِطْنَابٌ بزِيَادَةِ (اسْم)، والأَصْلُ: بِاللهِ؛ إِذِ الاستعَانَةُ تكونُ بِاللهِ تعالى لا باسْمِهِ، وفائدةُ زيادةِ (اسْم): دَفعُ اللَّبْسِ؛ إذْ لو قيل: (بِاللهِ) لاحتَمَلَ الكلامُ أَنْ يكونَ قَسَمًا، فجيءَ بـ(اسم) للتَّمْيِيزِ بين التَّيمُّنِ واليَمِين[1]، فيُمكِنُ إدراجُهُ تحت الاحْتِرَاسِ[2]؛ لِمَا فِيهِ مِنْ دَفْعِ الإيهَام.

ويَحْتَمِلُ أَنْ لا إِطْنَابَ في الآيةِ؛ إذِ الاستعانَةُ تكون تارَةً بِاللهِ تعالى، وتارةً باسمِهِ، ولِكُلٍّ وَجْهُهُ[3].

من مَعاني الباء الإلصاق، وفيها إيماءٌ إلى شِدّة التِصاقِ العَبْد بربّه

والأَصْلُ في البَاءِ: أَنْ تكون للإلصاق، وقد ذكَر ابْنُ هِشَام أَنَّ الإلصَاقَ لا يُفَارِقُ الباءَ في جميع تصرُّفاتِهَا في الكَلَام[4]، وعلى هذا فَاسْتِعْمَالُهَا في ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ﴾ لمعنى الاستعانة يَكُونُ من باب الاسْتِعَارَةِ المَكْنِيَّةِ التَّبَعِيَّةِ[5].

فأمَّا كونُها مَكْنِيَّةً؛ فَلِأَنَّه "شُبِّهَ الارتبَاطُ على وجه الاستعانة بالارتباط على وجه الإلصاق، بِجَامِعِ مُطْلَقِ الارتِبَاط في كُلٍّ، فسَرَى التَّشبيهُ للجُزْئِيَّات، فَاسْتُعِيرَتِ البَاءُ الموضوعَةُ للإلصاق الجُزْئِيِّ للاستعانة الجُزئِيَّة على طريق الاسْتِعَارَةِ التَّبَعِيَّةِ"[6].

وأمَّا كونُهَا تَبَعِيَّةً؛ فلأنَّ استعارَةَ الحُرُوف كذلك[7]؛ إِذْ إِنَّها تجري في مُتَعَلَّقات معانِيها أَوَّلًا ثُمَّ تَسْرِي فِيهَا ثَانِيًا[8].

---

(1) الواحِديُّ، التَّفسير البسيط: 1/443.

(2) الاحتراس: «أن يأتي المتكلّمُ بمعنى يتوجَّهُ عليه فيه دخلٌ وطعنٌ، فيفطن له، فيأتي بما يزيل ذلك الوهَم ويخلّصُهُ منه». ابن أبي الأصبع، تحرير التحبير: 2/245، والقزويني، الإيضاح، ص: 192.

(3) توجيه ذلك عند: أبي السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 1/9-10.

(4) ابنُ هِشَام، مغني اللَّبيب، ص: 137.

(5) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 1/10.

(6) الدّسوقي، حاشية على مختصر المعاني: 1/17.

(7) السُّبْكي، عروس الأفراح: 2/172.

(8) السَّكَّاكي، مفتاح العلوم، ص: 380.

ويحتَمِل أن يكونَ الإتيانُ بالباء مِنْ باب المَجَازِ المُرْسَلِ، عَلَاقَتُهُ: الْإِطْلَاقُ وَالتَّقْيِيدُ؛ ووَجْهُ ذلك أنَّ البَاءَ لِارْتِبَاطٍ مُقَيَّدٍ بالإلصَاقِ، فأُطْلِقَ عَنِ القَيْدِ، "واسْتُعْمِلَت في الارتِبَاط على وَجْهِ الاسْتِعَانَة"[1].

إيجازُ القِصَرِ في إضَافَةِ الْعُمُومِ إلى الخُصوصِ:

مـن معـاني الإضـافـة أقـرأُ مُسْتَعِينًا بذِكْرِ كُـلِّ اسْـمٍ مِـنْ أسماء الله تعالى

في قَوْلِهِ: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ﴾: إضافةُ العَامِّ -وهو (اسم)- إلى الخَاصِّ -وهو اسم (الله)-، وهذا: إيجَازُ قِصَرٍ[2]، وهو دالٌّ على العُموم؛ أي: أقرأ مُسْتَعِينًا أو مُتَبَرِّكًا بذِكْرِ كُلِّ اسْمٍ مِنْ أسماء الله تعالى[3].

إيجَازُ الحَذْفِ فِي البَسْمَلَةِ:

كلُّ شارعٍ في أمرٍ يُضْمِرُ مَا جُعِلَتِ البسملةُ مَبْدَأً له

قولُهُ: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ﴾: شبه جملة تفتقِرُ إلى متعلَّقٍ، وهو هَهُنَا محذوفٌ، ففيه إيجَازٌ بالحَذْفِ، وَتَعْيِينُ المحذوفِ يكون بِحَسَبِ السِّياقِ؛ إذْ كلُّ شارعٍ في أمرٍ يُضْمِرُ مَا جُعِلَتِ البسملةُ مَبْدَأً له، وتقديرُهُ في الآيةِ الكريمَةِ: بِاسْمِ اللهِ أَقْرَأُ؛ لأنَّ الذي يَلِي التسميةَ مِمَّا يُقْرَأُ[4].

دلالة المُتَعَلَّقِ المَحْذُوفِ عَلَى القَصْرِ وَالتَّجَدُّدِ الِاسْتِمْرَارِيِّ:

تقديرُ الفعل المُضارِعِ أَنْسَبُ في إفادة تَجَدُّدِ القراءةِ

تقديرُ متعلَّقِ البسملة فِعْلًا (بِاسْمِ اللهِ أَقْرَأُ) أَوْلَى مِن تقديرِهِ اسمًا (بِاسْمِ اللهِ قِرَاءَتِي)؛ لأنَّ الأصلَ في العملِ للأفعال، ولأنَّ الفعلَ المضارع يُفيد التجدُّدَ الاسْتِمْرَارِيَّ، وهو أَنْسَبُ لِتَجَدُّدِ القراءةِ ونحوِهَا.

تقديرُ الفعلِ المضارعِ مُتأخِّرًا (باسم الله أقرأُ) لئلاّ يتقدَّمَ على اسم الله شيءٌ

والمُتَعَلَّقُ المذكورُ إمّا أنْ يُقَدَّرَ مُؤَخَّرًا، ويدلُّ ذلك على الاهتمام باسم الله تعالى لِئَلَّا يتقدَّمَ عليه شيءٌ؛ فإنَّ المقامَ مقامُ استعانةٍ بِهِ سُبحانَه[5]، ولأنَّ في تأخيرِهِ إفادةً للقَصْرِ؛ إذْ تقديمُ ما حَقُّه التَّأْخِير يفيدُهُ.

---

(1) الدّسوقي، حاشية على مختصر المعاني: 1/17.

(2) إيجَازُ القِصَرِ هو: أنْ يُبنَى الكَلامُ على تقليلِ اللَّفظِ وتكثيرِ المعنى مِنْ غَيْرِ حَذْفٍ، ينظر: الرُّمَّاني، النكَتُ في إعجازِ القُرآن، ص: 76.

(3) السّعدي، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 39.

(4) الزَّمخشريّ، الكشَّاف: 1/2.

(5) الزّمخشريّ، الكشاف: 1/3، والدّسوقي، حاشية على مختصر المعاني: 1/17.

وإمّا أن يُذْكَرَ المتعلَّقُ مقدَّمًا مثل في قولِه تَعَالَى: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ﴾ [العَلَقُ: 1]؛ لأنَّ المقامَ مقامُ قراءةٍ؛ فكان الأمرُ بها أهمَّ[1]، والبلاغةُ تَقْتَضِي تقديمَ الأهمِّ ومطابقة الكلام لمُقتضى الحالِ.

وَحَذْفُ المتعلَّقِ يجوزُ أن يكونَ مَجَازًا بِالْحَذْفِ عند مَنْ يرى أنَّ الحذفَ مَجَازٌ مُطلقًا، بخلاف مَن يَرَى أنَّ الحذف ليس مَجَازًا مطلقا أو يَرَى أنَّهُ مجازٌ إذا تغيَّر إعرابُ باقي الكلام بِسَبَبِه؛ فإنَّه ليس مَجَازًا عند هؤلاءِ[2].

المَدْحُ بِالوَصْفِ:

قولُه: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ صفتان للاسم الأَحْسَنِ الأكمل الأجلّ ﴿ٱللَّهِ﴾، وفائدةُ الوصفِ هَهُنَا: المَدْحُ لا التَّوْضيحُ؛ إذِ الموصوفُ مُتَعَيِّنٌ قبلَ الوصفِ[3].

فائدة ذكر الاسمين الجليلين المَدْحُ والثّناءُ لا التّوضيحُ

أَبْلَغِيَّةُ ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ عَلَى ﴿ٱلرَّحِيمِ﴾، وَجَمْعُهُمَا لِلتَّوْكِيدِ:

قُدِّمَ ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ على ﴿ٱلرَّحِيمِ﴾ لأسبابٍ بيانيَّةٍ:

أولاً: لكونِ صفةِ الرَّحمنِ أبلغَ، ولأنَّها مُخْتَصَّة بالله تعالى، فكانتْ جاريةً مَجْرَى الأعلام[4]، فقُدِّمَتْ على ﴿ٱلرَّحِيمِ﴾، والجَمْعُ بين الصِّفَتَيْنِ: ضَرْبٌ مِن ضُرُوبِ التَّوكيدِ؛ بالنَّظرِ إلى اشتمال الاِسْمَين على مُطْلَقِ صِفَةِ الرَّحمةِ.

ثانياً: لفظُ ﴿ٱلرَّحِيمِ﴾ يُفيدُ كثرةَ تَعلُّقِ الرَّحمة بالمرحوم على وجه المُبالغة، أمَّا ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ فلفظٌ خاصٌّ بالاتِّصاف الذَّاتي، وما كان خاصًّا بالاتِّصاف الذّاتي أولى بالتَّقديم من الصِّفة الدَّالَّة على كَثرةِ تعلُّقاتها.

الجَمْعُ بين الصِّفَتَيْنِ (الرّحمن الرّحيم) ضَرْبٌ مِن ضُرُوبِ التَّوكيدِ؛ بالنَّظرِ إلى اشتمال الاِسْمَين على مُطْلَقِ الرَّحمةِ

ثالثاً: ما وَجَّهَ به الإمامُ النَّيسابوري في غرائبه حيثُ قال: "قدَّمَ ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ وهُو الأَعلى على ﴿ٱلرَّحِيمِ﴾، والعادةُ التَّدرُّجُ من الأدنى

(1) القِنَّوْجِيّ، فتح البيان: 1/40.
(2) الدُّسُوقِي، حاشية على مختصر المعاني: 1/4.
(3) الصَّعِيدي، بغية الإيضاح: 1/99.
(4) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/27.

إلى الأعلى؛ لأنَّ الرَّحمنَ يتناولُ عَظائِمَ النِّعم وأُصولَها، فإردافُهُ بالرَّحيم كالتَّتِمَّةِ لِيتناوَلَ ما دَقَّ منه ولَطُفَ" [1].

الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الرَّحْمَن وَالرَّحِيم:

الرّحمنُ يُفيدُ المُبالغَةَ في الاتِّصافِ بالرَّحْمَة، والرَّحيمُ يُفيدُ دَوامَها

بَيْنَ ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ و﴿ٱلرَّحِيمِ﴾ فروقٌ من جهة المبنى والمعنى سبق ذِكرُ بعضٍ منها، نُجملها فيما يأتي:

أولًا: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾: على وزن فَعلان، وزن يفيد المبالغة في الاتّصاف بالرّحمة، وصيغة (فَعلان) تدلُّ على الصِّفة العارضةِ، ولا تدلُّ على الصِّفة الدَّائمة، فاحتيجَ إلى صِيغةٍ أُخرى تَدلُّ على الصِّفة الثَّابتة، وهي صِيغةُ (فَعِيلٍ)؛ مِن هنا حَسُنَ الجمعُ بين الاسمين الكريمين بالصِّيغتين المُختلِفتين.

الرَّحمن اسمٌ مُختَصٌّ باللهِ تعالى لا يجوزُ أن يَتَسَمَّى به غَيْرُهُ، والرَّحيم اسم عامٌّ بصفة خاصَّة

ثانيًا: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾: اسم خاصٌّ بصفة عامَّة، ﴿ٱلرَّحِيمِ﴾: اسم عامٌّ بصفة خاصَّة[2]، فـ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ اسم مختصٌّ باللهِ تعالى لا يجوز أن يَتَسَمَّى غَيْرُهُ به، وهو مشتمِل على صفةٍ عامَّةٍ؛ إذ معناه: المُتَّصِف بالرَّحمة العامّة التي تَعُمُّ المؤمنَ والكافر، بخلاف ﴿ٱلرَّحِيمِ﴾ فهو اسم عامٌّ، يُطلق على اللهِ ويُطلق على غَيْرِه -مَعَ التَّبايُنِ في حقيقة الصِّفة عند التَّخْصيص والإضافة-، وهو مشتمل على صفة خاصَّةٍ؛ إذ معناه: المُتَّصِفُ بالرَّحمة الخاصَّة بالمؤمنين؛ لقولِه: ﴿وَكَانَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَحِيمٗا﴾ [الأحزاب: 43]، ووجهُ الدّلالة: أنَّه قُدِّم الجَارُّ والمجرورُ وحقُّهُما التَّأخيرُ، فأفاد ذلك القصرَ، وفي هذا الاستدلالِ نَظَرٌ؛ إذْ ليس كلُّ تقديمٍ لِمَا حَقُّه التَّأخير مُفيدًا للقَصْرِ، ويدلُّ على عدم إرادة القَصْرِ هَهُنَا قَوْلُ اللّه تعالى: ﴿رَّبُّكُمُ ٱلَّذِي يُزۡجِي لَكُمُ ٱلۡفُلۡكَ فِي ٱلۡبَحۡرِ لِتَبۡتَغُواْ مِن

(1) النّيسابوري، غرائب القرآن: 1/142.

(2) التَّهَانَوِي، موسوعة كشّاف اصطلاحات الفنون والعلوم: 1/847.

فَضۡلِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمۡ رَحِيمٗا﴾ [الإسراء: 66]، والآية عامَّةٌ في الخَلْقِ مُؤْمِنِهم وكَافِرِهم كَما هو ظَاهِرٌ مِنْ سيَاق الآيةِ.

ثالثًا: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ دالٌّ على الصِّفة القائمة بالذَّات، والرَّحيم دالٌّ على تَعَلُّقِ الرَّحمة بالمرحوم، وَلِذَا لم يَرِدْ في القرآن قَطُّ: (رَحْمَنٌ بِهِمْ)؛ "فَعُلِمَ أَنَّ (الرَّحمن) هو الموصوف بالرَّحمة، و﴿ٱلرَّحِيمِ﴾ هو الرَّاحم برَحْمَتِه"[1]، أي: أنَّ الرَّحمن لِلوَصْفِ، والرَّحِيمَ لِلفِعْلِ.

الرَّحمن دالٌّ على الصِّفة القائمة بالذَّات، والرَّحيمُ دالٌّ على تَعَلُّقِ الرَّحمة بالمرحومِ

ومن أوائل مَن ذكر هذا الفرقَ أبو عُبَيْدة مَعْمَرُ بن المُثَنَّى؛ إذْ قال: "﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ مجازُهُ: ذو الرَّحمة، وَ﴿ٱلرَّحِيمِ﴾ مجازُهُ: الرَّاحم"[2].

رابعًا: لفظ ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ عربيٌّ مشتقٌّ من الرّحمة، ولا حجّة لمن قال إنّه اسم عبرانيٌّ[3]، وهو ادِّعاءٌ مُفْتَقِرٌ إلى دليلٍ واضحٍ قويٍّ سالمٍ مِنَ المُعَارِضِ، وقد ثبت عَنِ العرب استعمالُهم ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ في نثرهم[4] وأَشْعَارِهم[5]، وأمَّا إِنْكَارُهُمُ المَحْكِيُّ في سورة الفُرقانِ؛ فهو مُكَابَرَةٌ مِنْهُمْ[6].

لفظ (الرَّحمن) عربيٌّ مشتقٌّ من الرّحمة، والقولُ بأنّهُ عِبْرانيٌّ ادّعاءٌ وتقوُّلٌ

الرَّحمَة والرَّأفة:

كلمتان متقاربتان في المعنى، إلَّا أنَّ بينهما فرقًا لطيفًا، فبينهما عموم وخصوص مُطْلق؛ فالرأفة خاصة في دفع المكروه عن المرحوم، بينما الرحمة تشمل هذا المعنى وغيره.

فالرأفةُ: رقَّةٌ تنشأ عند حدوث ضُرٍّ بالمرؤوف به. يقال: (رؤوف رحيم). والرحمةُ: رقَّةٌ تقتضي الإحسان للمرحوم[7].

---

(1) ابنُ القيّم، بدائع الفوائد: 1/24.

(2) أبو عبيدة، مجاز القرآن: 1/21.

(3) وهو قول ثَعْلَب، الواحديّ. يُنظر: التّفسير البسيط: 1/257.

(4) ابن جرير، جامع البيان: 17/482، والجوهري، الصحاح: (رحم).

(5) قال سَلاَمَة بنُ جَنْدَل:

عَجِلْتُمْ عَلَيْنَا عَجْلَتَيْنَا عَلَيْكُمْ***وَمَا يَشَأِ الرَّحْمَنُ يَعْقِدْ وَيُطْلِقِ

الأصمعي، الأصمعيّات، ص: 136.

(6) ابْنُ جُزَيّ، التّسهيل لعلوم التّنزيل: 2/85.

(7) ابْنُ عاشور، التحرير والتنوير: 10/239.

ويفرق بين الرأفة والرحمة بأنَّ الرّأفة مبالغة في رحمة خاصة، وهي دفع المكروه وإزالة الضرر، كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَأۡخُذۡكُم بِهِمَا رَأۡفَةٞ فِي دِينِ ٱللَّهِ﴾ [النور: 2]، أي: لا ترأفوا بهما فترفعوا الجَلْد عنهما، وأمَّا الرحمةُ فإنها اسم جامع يدخل فيه ذلك المعنى، ويدخل فيه الإفضال والإنعام[1].

والرّحمة - أيضاً - هي أن يوصِل إليك المسارَّ، والرأفة هي أن يدفع عنك المضارَّ، فالرحمة من باب التزكية، والرأفة من باب التَّخْلية، والرأفة مبالغةٌ في رحمةٍ مخصوصة، هي رفع المكروه وإزالة الضر، فذِكْرُ الرحمةِ بعدها في القرآن مُطَّرداً؛ لتكون أعمَّ وأشمل[2].

والرّأفةُ أشدُّ الرحمةِ، وأبلغ منها، ولذا قدَّمها الله تعالى على الرحمة في خمسة مواضع من كتابه الكريم، كقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾ [الحج: 65]؛ فمناسبة (رَءُوفٌ رَحِيمٌ) تَقْدِيمًا وتأخيرًا أُريد منه أَنَّ التوكيد يكون في الأبلغ في المَعْنى، فَإِذا تقدَّم الأبلغُ في اللَّفْظ كَانَ المَعْنى مُؤَخرًا[3].

(1) الرّازي، التّفسير الكبير: 4/93.
(2) الكفوي، الكليات: 1/742.
(3) الجوهري، الصحاح (رأف)، وأبو هلال العسكري، الفروق اللغوية ص: 196.

﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢﴾ [الفاتحة: 2]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لـمَّا أرشد اللّٰه العبادَ إِلَى الافتتاح بِاسْمِه سُبحانه إقرَارًا باسْتِحْقَاقه العبادةَ، وبيانًا لِسَعَةِ رحمتِه؛ أَرْشَدَهم إلى حَمْدِهِ ﷻ المُسْتَحَقِّ له والثّناء عليه بما هُو أهلُهُ، فقال: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾، "ولَمَّا رأى العبدُ نِعَمَ اللّٰه تعالى على غَيْرِه واضحةً كما شاهَد آثارَها على نفسه؛ عرف أنَّه تعالى ربُّ الخلائِق أجمعين، فقال: ﴿رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾"[1].

وهذهِ الآيةُ والتي قَبْلَها كلاهُما اشْتملَ على الاسْم الأَحْسَنِ: ﴿ٱللَّهِ﴾، وكلاهما اشتَمَلَ على ذِكْرِ مَحَاسِنِ المعبودِ بحقٍّ، وهُوَ حقيقةُ الحمد -كمَا سَيَأْتِي-، فَكِلَاهُمَا مُشْتَمِلٌ على حَمْدِ اللّٰهِ تعالَى.

شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

1) ﴿ٱلۡحَمۡدُ﴾: ضدُّ الذّمِّ[2]، وهو: "الثَّناء باللِّسان على الجميل، سَوَاءٌ تعلَّق بالفضائل كالعلم، أم بالفَوَاضِل كالبِرِّ"[3]، أي: سواءٌ تعلَّق بالجميل اللَّازِم أو المتعدِّي.

وغالب مَنْ عَرَّف الحَمْدَ جعَلَ (الثَّناءَ) جِنسًا في الحدِّ[4]، وهذا فِيهِ نَظَرٌ؛ إِذْ ثَبتَ عن أفصح العربِ ﷺ إثباتُ التَّغايُرِ بينَ الحمد والثَّناء، وذلك فيما يرويه عَنْ ربِّه تبارك وتعالى أنَّه قال: «قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ، فإِذَا قَالَ العَبْدُ: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، قَالَ اللّٰه تَعَالَى: حَمِدَنِي عَبْدِي، وَإِذَا قَالَ: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، قَالَ اللّٰه تَعَالَى: أَثْنَى عَلَيَّ عَبْدِي» الحديثَ[5]، فغايَرَ بينهُمَا.

ومِنْ أصحِّ ما قيل في معناه ما قال ابْنُ سِيدَهْ: "الحَمد هو الوَصْفُ بالجميل على جهةِ التَّفضيلِ"[6].

(1) بسَّام عليان، سورة الفاتحة دراسةٌ موضوعيَّة، رسالة ماجستير، ص: 31.
(2) الأزهريُّ، تهذيب اللُّغة: (حمد).
(3) أبو هلال العسكريّ، الفروق اللُّغويَّة، ص: 201.
(4) الخليل، العَين: (حمد)، والأنباريّ، الزّاهر: 2/78.
(5) رواه مسلم: حديث رقم: (395).
(6) ابنُ سِيدَهْ، المُخصَّص: 5/231-232.

وقريبٌ منه ما قرَّره تقيُّ الدِّين ابنُ تيميَّة مِنَ أنَّ الحمدَ: الإخبارُ بمحاسِنِ المحمودِ معَ المحبَّةِ له[1].

فالحَمْدُ: إخبارٌ عن محاسن المحمود مع حبِّه وإجلاله وتعظيمه، ويكون بالقلبِ وباللسان.

والمعنى في الآية: الثناءُ على اللّه بصفاتِه التي كلُّها أوصافُ كمالٍ، وبنعمه الظاهرة والباطنة، الدينية والدنيوية.

2) ﴿رَبِّ﴾: هو في الأصل مصدر بمعنى: التربيَّة، ثُمَّ استُعْمِلَ وَصْفًا لقَصْدِ المبالغة، كقولهم: فُلَانٌ عَدْلٌ[2].

ولَهُ معانٍ مُتَكَاثِرَةٌ، مِنْهَا:

المالِكُ؛ فَرَبُّ الشَّيْءِ مَالِكُهُ.

والسَّيِّد المُطَاعُ، كما قال اللّه تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: 31] أَي: سادةً مُطَاعِين[3].

والمُصْلِحُ، يقال: رَبَّ الشَّيءَ؛ إذَا أَصْلَحَه[4].

والمُدَبِّرُ، ومِنْهُ سُمِّي الرَّبَّانيُّون بهذا الاسم؛ لقِيَامِهِم بتَدْبِير أُمُورِ النَّاس[5].

والقيِّمُ، والمُنْعِمُ، والمُرَبِّي، وَالمُتَمِّمُ[6].

والمُرَبِّي والمُتمِّم مُتَلَازِمَان؛ إذْ معنى التَّربِيَة: أنَّهَا "إنْشَاءُ الشَّيْءِ حالًا فحالًا إلى حَدِّ التَّمام"[7].

ولا يُطْلَقُ مُعَرَّفًا بأل إلَّا عَلَى اللّهِ تعالى، وأمَّا بالإضافَةِ فَبِحَسَبِ ما أُضيف إلَيْهِ[8].

(1) ابنُ تيميَّة، مجموع الفتاوى: 6/259.
(2) محمّد بن الطيّب الفاسّي، تحرير الرِّواية في تقرير الكفاية، ص: 42.
(3) أبو هلال العسكريّ، الفروق اللّغويَّة، ص: 186.
(4) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة: (ربّ).
(5) نَشوان الحِمْيَرِيّ، شمس العلوم: (باب الراء وما بعدها من الحروف في المضاعف).
(6) الأنباريّ، الزّاهر، ص: 467، والزَّبيدي، تاج العَرُوس: (ربب)، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (ربب - ربرب).
(7) الرّاغب، المفردات: (ربّ).
(8) ابن منظور، لسان العرب: (ربب).

3) ﴿ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾: جَمْعُ (عَالَم)، والمراد بالعالَمين: أصنافُ الخلائق[1].

وهو مشتقٌّ مِنَ العِلْم أو العَلَامَة[2]:

فأمَّا اشتقاقُهُ مِنَ العِلْم؛ فهو جَارٍ على مَن يَخُصُّ العالمين بالعُقَلاء.

وأمَّا اشتقَاقُه مِنَ العَلَامة؛ فلِأَنَّ المخلوقَ عَلَامةٌ على وجودِ خالقِه.

والثَّاني أَعَمُّ.

فدلَّت الآيةُ على انفراد اللّٰه تعالى بالخَلْق والتدبير، والإنعام، وكمالِ الغِنى، وعلى تمامِ فَقْر جميعِ أنواع المخلوقات إليه، من كلِّ وجهٍ.

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

كلُّ أصناف المحامدِ مِنَ الفضائلِ والفَوَاضِل مُسْتَحَقَّةٌ للّٰه تعالى وَحْدَه؛ لأنَّهُ ربُّ الخلائقِ جميعِهم، مَنْ يَعقِلُ مِنْهُمْ ومَنْ لا يَعْقِلُ، فهو مالكُهُمْ ومدبِّرُ شُؤُونهم، ومُرَبِّيهم بالنِّعَم، ومُرَبِّي خواصِّ خلقِه بتَوْفِيقِهم لكلِّ خيرٍ وعِصْمَتِهم من كُلِّ شَرٍّ[3].

وفي الآية إخبار من اللّٰه سُبحانَه بحمده نفْسَه؛ لِيُعلِّمَ عِبادَه كيف يحمدونه بقلوبهم وألسنتهم، مع حبِّهم وإجلالهم وتعظيمهم له، على كلِّ حالٍ.

❁ الإِيضَاحُ اللُّغَوِيّ وَالْبَلَاغِيّ:

مذاهبُ العلماء في معاني (أل):

المحامِدُ كُلُّها لله، وما مِن خَيْرٍ إلاّ هو مُوليه، وما مِن نِعمةٍ إلاّ هو مُتفضّلٌ بها

قوله: ﴿ٱلۡحَمۡدُ﴾، في دلالة (أل) خلافٌ بين العلماء على أربعة أقوالٍ:

الأوَّلُ: أنَّها لِلاستغراق، وهو الأرجح، وقد اختاره جماعة مِنْ أهل العلم، مِنْهُمُ ابنُ عَطِيَّة الأندلسيُّ[4].

والثَّاني: أنَّها لتعريف الجِنْس، ومال إليه الزَّمخشريُّ، وجعلَ الأوَّلَ وَهمًا؛ فقال: "وَالِاسْتغراقُ الذي يتوَهَّمُه كثيرٌ مِنَ النَّاس وَهْمٌ مِنْهُمْ"[5].

---

(1) العُلَيْمِيّ، فتح الرَّحمن في تفسير القرآن: 1/42.

(2) الواحديُّ، التَّفسير البسيط: 1/489-490.

(3) ابن جرير، جامع البيان: 1/135، السعدي، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 39.

(4) ابن عطيَّة، المحرَّرُ الوجيز: 1/66.

(5) الزَّمخشريّ، الكشَّاف: 1/10.

وهذهِ المسألةُ مِنْ دقائق قضايا البلاغة التِي تُبْطِنُ اعتزَالًا[1]، وقَدْ فات ابنَ المُنَيِّرِ التَّنبيهُ عَلَيْهَا، قال ابنُ تيميَّةَ الحفيدُ: "الحمدُ إذا كان للجِنْسِ أوجَبَ أن يكون لغيره أفرادٌ مِن أفراد هذا الجنسِ، كما تقُولُه القَدَرِيَّة، وأمَّا أهل السُّنَّة فيقولُونَ: الحمدُ للّه كُلُّهُ"[2].

والثَّالث: أنَّها لِلعَهْدِ، على معنى أنَّهُ "الحمدُ الذي حَمِدَ به نفسَه وحَمِدَهُ به أولياؤُه"[3]، والعِبْرَةُ بِحَمْدِ مَنْ ذُكِر، فَلا فَرْدَ مِنْهُ لِغيْرِه[4].

والرَّابع: أنَّها لِلكَمَالِ، وهو مُخرَّجٌ على كلامٍ لِسِيبَوَيْهِ في (أل) الداخلةِ على الصِّفات[5].

والقولُ الأوَّل أصَحُّ -كما سبق-، وقد ذكر السُّيوطِيُّ أنَّه قول المُحَقِّقين[6].

قال البَيْضَاوِيُّ في وجه الاِسْتِغراق: "إذِ الحمدُ في الحقيقة كُلُّهُ له؛ إذْ ما مِن خير إلاَّ وهو مُولِيهِ بِوَسَطٍ أو بِغَيْرِ وَسَطٍ"[7].

الحَمْدُ أَعَمُّ مِنَ الشُّكْرِ وَالمَدْحِ

واخْتِيرَ الحَمْدُ دونَ الشُّكْرِ؛ لكون الحَمْدِ يعُمُّ الفضائلَ والفواضِلَ، بخلاف الشُّكْرِ؛ فإنَّه خاصٌّ بالفواضل، فأُوثِرَ اللَّفظ الأَعَمُّ.

وعُبِّر بالحَمْدِ دون المَدْحِ، مع أنَّ المدحَ أَعَمُّ؛ لكونِهِ عاريًا عَنِ المحبَّة والتَّعظيم، حتَّى زعمَ بعضُ أهل العلم أنَّ المدحَ لا يُطلق على اللّهِ تعالى[8]، والأَدْخَلُ في الثَّنَاءِ أن يَصْحَبَ ذكرَ صفات الكمالِ: حبٌّ وتعظيمٌ.

---

(1) وللسُّيوطيِّ توجيهٌ لكلام الزَّمخشريِّ، ينظر: نَواهِد الأبكار 170-1/169، حيث أنكر أن يكونَ مُرَادُ الزمخشريِّ مَبْنِيًّا على مسألة خَلْقِ أفعال العبادِ، إلَّا أنَّ كلام الزمخشريِّ في الكشَّافِ كالصَّريح في خلافِ ما قرَّره السُّيوطيُّ؛ لأنَّ تعريف الجنس يُنَافِي الاستغراقَ، كما بيَّنه الواحديُّ في التَّفسير البسيط: 1/482، والله أعلم.

(2) أحمد ابن تيميَّة، قاعدة حسنة في الباقيات الصَّالحات، تح: أشرف بن عبد المقصود، مكتبة أضواء السَّلف، ط1، 1422، ص: 42.

(3) الواحديُّ، التَّفسير البسيط: 483-1/482.

(4) الشِّربِيني، السِّراج المُنِير: 1/8.

(5) الخطيب الشِّربيني، السِّراج المنير: 1/8.

(6) السُّيوطي، نواهد الأبكار: 1/164.

(7) البيضاويّ، أنوار التَّنزيل: 1/27.

(8) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/32.

وفي صحيح البخاريّ 4634، وصحيح مسلم 1499، أنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال: «لاَ شَيْءَ أَحَبُّ إِلَيْهِ المَدْحُ مِنَ اللَّه».

إيثارُ التَّعْبِيرِ بِجُمْلَةِ الحَمْدِ الاِسْمِيَّةِ دُونَ الفِعْلِيَّةِ:

دلالـة الجُمْلَة الاسمِيّة على أنَّ الحَمْدَ مُستَحَقٌّ لله تعالى، وعلى اسْتِغْراق جَميعِ المَحامِد، وعلى حَـمْـد جـميع الـحـامـديـن، وعـلى الـثّـبـوت والدَّوام

قولُه: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾ جُملةٌ اسميةٌ، وأُوثِرَت على الجُمْلة الفِعْلِيَّة (أحمدُ اللّه)؛ لوجوهٍ[1]:

أَحدها: أَنَّ (أَحْمَدُ اللّه) يُوهِمُ أَنَّ قائلَهَا قادرٌ على تَوْفِيَةِ الحَمْدِ حقَّهُ، بخلافِ (الحَمْدُ للّه)؛ فإنه يُفيد استحقاق اللّهِ تعالى للحَمْدِ قَبْلَ حَمْدِ الخلقِ له.

ثَانيهَا: إذا قَالَ: (أَحْمَدُ اللّه)، كَانَ قَدْ حَمِدَ اللّهُ نفسَهُ على طريقة الالتفات -في مذهب السَّكَّاكيّ-؛ "وإذا قال: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾؛ فقد دخَلَ فيه حَمْدُهُ وحَمْدُ غيرِه جميعًا مِن لَدُنْ خَلْقِ العالم إلى انتهاء دخول أهل الجنَّةِ الجنَّةَ ﴿وَءَاخِرُ دَعۡوَىٰهُمۡ أَنِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٠﴾"[2].

ثَالثها: أنَّ ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾ دالَّةٌ على استحقاق اللّهِ ﷻ للحَمْدِ، بخلاف (أَحْمَدُ اللّه)؛ فَلَا يَدُلُّ على ذلك، واللَّفظ الدَّال على استحقاق اللّه لِلحَمْدِ مُقَدَّمٌ على اللَّفْظِ الدالِّ على حَمْدِ فَرْدٍ له.

رابعها: أنَّ (أَحْمَدُ اللّه) إخبارٌ مِنَ العَبْدِ بأنَّهُ حَامِدٌ[3]، وحقيقةُ الحمد -كما سَلَف- مُقْتَرِنٌ بالتَّعظيم، فالمُتَلفِّظ بـ(أحمد اللّه) مُدَّعٍ أنَّ قلبَهُ مُعَظِّمٌ للّه تعالى، فإنْ كان غافلًا عِنْدَ التَّلفُّظِ؛ كان في كلامه نَوْعُ كَذِبٍ، بخلاف: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾ فهو صِدق بكُلِّ حالٍ.

خامسها: أنَّ في ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾ مِنَ الاِسْتِغْراق لأنواع المحامد ما لَيْسَ في (أحمد اللّه).

سادسها: أنَّ ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾ جملةٌ اسميَّة، وهي دالَّة على الثُّبوت والاستمرار بالقرائن، بخلاف (أحمد اللّه) فإنَّها جملة فعليَّة تَدُلُّ على التَّجدُّدِ والحدوثِ، والثُّبوتُ والاستمرارُ أنسَبُ في مقام الثَّناءِ.

سابعها: أنَّ في ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾ تعليمًا للحَمْدِ مع التّعريضِ بِالاِسْتِغْنَاءِ عن الخلقِ؛ أي: الحمد للّه وإن لَمْ يَحْمَدْهُ أحدٌ[4].

---

(1) الرَّازيّ، التّفسير الكبير: 1/191.

(2) السُّيوطي، نواهد الأبكار: 1/166.

(3) إذا قدَّرنا أوَّل السُّورة: (قُولُوا)، وإلا فالوجه الثاني هو المرادُ، ولا مانع مِنَ الجمع بينَهُما بضَرْبٍ من ضُروبِ التَّأويلِ السَّائغِ القَرِيبِ.

(4) ابن عَجِيبة، البحر المديد: 1/53.

جملةُ ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾ بَيْنَ الخبرِ والإنشَاءِ:

اسْتِحْقَاقُ اللهِ الحَمْدَ قَبْلَ أَنْ يَحْمَدَهُ الحَامِدُونَ

جملة ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾ خبريةٌ في اللَّفظ، إنشائيَّةٌ في المعنى؛ وذلك "لحصول الحمد بالتَّكلُّم بها مع الإذْعَان لمَدْلُولها"[1]، والقولُ بأنَّها خبرٌ لفظًا ومعنًى أبلَغُ؛ لأنَّ القول بالإنشائيَّةِ يلزَمُ منه أنَّ الحَمْدَ يقعُ عِنْدَ ذِكْرِ اللَّفْظِ، بخلاف القولِ بالخبريَّةِ؛ فإنَّ مقتضَاه أنَّ الحَمْدَ واقعٌ قَبْلُ، ومُؤدَّى الخَبَريَّةِ إنشاءٌ، بخلافِ العكسِ.

وهذا كُلُّهُ إذا نظرنا إلى جملة ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾ في ذاتِهَا، دون النَّظر إلى تقدير فِعْلٍ قَبْلَهَا هو (قُولُوا)، كما سبق نظيرُه في الكلام عَنِ البسملة.

دلالة الاسميّة على ثُبُوت الحَمْدِ وَاسْتِقْرَاره:

وقوله: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾ برفع ﴿ٱلۡحَمۡدُ﴾ على الابتداء، ولم يُنصَبْ كما هو غالب سَنَنِ العرب في كلامها مِن نَصْبِ جملةٍ مِنَ المصادرِ بأفعالٍ مُضمَرةٍ، ونُكتةُ هذا العدولِ: الدّلالة على استقرارِ هذَا المعنى وثباتِه[2].

أقوالُ العُلماء في معاني اللّام الدَّاخلةِ على لفظِ الجَلالةِ:

الحمدُ مُستَحَقٌّ لِلَّهِ، ومُختصٌّ بِهِ

واللَّامُ في قوله: ﴿لِلَّهِ﴾ لِلاسْتِحْقَاق، وقيل: لِلمِلْك، وقيل: لِلاختصاصِ[3]، ولها وجْهٌ صناعيٌّ وهو أنْ تكونَ للتَّقويةِ.

ووَجْهُ حَمْلِهَا على المِلْك: أنَّه سبحانه خالقٌ لكلِّ مَنْ نَطَقَ بالحَمْدِ، فكان مالكًا له؛ إذِ الخَالقُ مالكٌ[4].

ووجه الاختصاص: أنَّ له بكُلِّ المحامدِ اختصَاصًا[5]، "ثُمَّ هَذَا الاخْتِصَاصُ اخْتِصَاصٌ ادِّعَائِيٌّ فَهُوَ بِمَنْزِلَةِ الْقَصْرِ الادِّعَائِيِّ لِلْمُبَالَغَةِ"[6].

---

(1) الشّربينيّ، السّراج المنير: 1/8.
(2) الزَّمخشريّ، الكشَّاف: 1/9.
(3) الواحديّ، التّفسير البسيط: 1/483، والقِنَّوجي، فتح البيان: 11/161.
(4) القِنَّوجي، فتح البيان: 11/161.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/160.
(6) القِنَّوجي، فتح البيان: 11/161.

وكونُ اللام للاستحقاقِ هو الأَشْبَهُ بالقواعد، ولهذا اقْتَصَر عليه أبو حَيَّان[1]؛ فإنَّ لامَ الاسْتِحْقَاقِ هِي الواقِعَة بَين مَعْنًى وَذَاتٍ[2]، كما هَهُنَا.

وكونُها للتَّقوية على اعتبارِ أنَّها "قَوَّتْ تَعَلُّقَ الْعَامِلِ بِالْمَفْعُولِ لِضَعْفِ الْعَامِلِ بِالْفَرْعِيَّةِ وَزَادَهُ التَّعْرِيفُ بِاللَّامِ ضَعْفًا لِأَنَّهُ أَبْعَدَ شَبَهَهُ بِالْأَفْعَالِ"[3].

من بلاغةِ إظْهارِ لَفْظِ الجَلالةِ دونَ إضمارِه:

ذِكْرُ اسْمِ اللهِ تَعَالَى تَلَذُّذٌ وَتَبَرُّكٌ

في قوله سبحانه: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ عُدُولٌ عن مقتضى الظَّاهر؛ إذْ هذه الآيةُ جاءت بعد قوله تعالى: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، فتقدَّم ذكرُ اسْمِهِ تعالى في ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ﴾، فكان مقتضى الظَّاهر أَنْ يُقَالَ: (الحَمْدُ لَهُ)؛ ففي قوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ إظهارٌ في مَقَامِ الْإِضْمَارِ[4].

ونُكْتَةُ الإظْهَار هُنَا: التَّلَذُّذُ والتَّبَرُّكُ بذِكْرِ اللهِ تعالى باسْمِهِ الصَّريح دون الضَّمير الرَّاجِعِ لَهُ، واللهُ أعلمُ.

وقد ذَكَر البِقَاعِيُّ نظيرَه عِند قول الله تعالى: ﴿أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِي لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [الزمر: 57]: "وأَظْهَرَ ولم يُضْمِر؛ إظهارًا للتَّعظيم وتلذُّذا بذِكْرِ الاسْمِ الشَّريف، فَقَالَ: (الله)"[5]؛ إذْ إنَّ مُقْتَضى الظَّاهر: لَوْ أنَّه هداني؛ لأَنَّهُ سبق ذِكْرُه باسمه الصَّريح في الآيةِ قبلَهَا في قولِه: ﴿عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: 56].

الفرقُ بين ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ و﴿فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ﴾:

مَطْلَعُ الفاتحة يُعلِّمُ العبادَ كيفيَّةَ الحَمْد والثّناء على الله بما هو أهلُهُ

وجاء هُنا قوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾، وفي سُورةِ الجَاثية: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الجاثية: 36]؛ لأَنَّ مِنْ مُرَادَاتِ آية الفاتحة تعليمَ العبادِ الحَمْدَ، فلا وَجْهَ لإيرادِ الكلام على جهةِ

(1) أبو حيَّان، البحر المحيط: 1/34.
(2) ابن هشام، مغني اللَّبيب، ص: 275.
(3) القِنَّوجي، فتح البيان: 11/161.
(4) الصَّعيديّ، بغية الإيضاح: 1/135.
(5) البقاعيّ، نَظْمُ الدّرر: 16/539.

القَصْرِ، بخلافِ آية الجَاثِيَة؛ فإنَّها جاءت "على تقدير الجواب بَعْدَ إِرْغَام المُكَذِّب وقَهْرِه ووقوع الأمر مُطابقا لإخبار الرُّسُل عليهم السلام، وظهور ما كذَّب الجاحدُ به، فعند وضوح الأمر كَأَنْ قَدْ قِيل: لِمَنِ الحَمْدُ ومَنْ أَهْلُه؟ فكان الجوابُ على ذلك، فقيل: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ﴾ [الجاثية: 36]، نظيرُ هَذَا قوله تعالى: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ﴾ ثُمَّ قال: ﴿لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [غافر: 16][1].

دلالة اسم (اللهِ) عَلَى صِفَاتِ الْجَلَالِ وَالْجَمَالِ والكمال، ولَوْ عُلِّقَ الحمدُ باسمٍ آخرَ لأَوْهَمَ التَّعليقُ اختصاصَ الحمد بذلك الاسم

سِرُّ تَعْليق الحَمْدِ بلفظ الجلالة:

اخْتِير الاسمُ الأَحْسَنُ ﴿ٱللَّهِ﴾ مع الحَمْدِ دون غيره مِنَ الأسماء؛ لكونِهِ بمفردِهِ دَالًّا على صفات الجلال والجمال والكمال، ولِدلالة ذلك على استحقاقِه الحمدَ لذاته؛ بخلاف ما لَوْ عُلِّقَ الحَمْدُ على غيره مِنَ الأسماء؛ فإنَّهُ قَدْ يُتوهَّم اختصاصُ الحَمْدِ بصفةٍ دُونَ أُخْرَى؛ إِذْ إِنَّ تَعْلِيقَ حُكْمٍ بلفظٍ مُشْتَقٍّ مُشْعِرٌ بِعِلِّيَّةِ مَا مِنْهُ الاشتقاقُ[2].

سِرُّ الْعُدُولِ عَنِ (العَوَالِمِ) إِلَى ﴿ٱلْعَٰلَمِينَ﴾:

لفظُ (العالَمين) يشملُ جميعَ الأجناس، وفيه تغليبُ العقلاء منهم، ودلالة على العِلم والعلامة

وقوله سبحانه: ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، سبق أنَّ العَالَمِين: جَمْع (عالَم)، وَ(عَالَمٌ) تُجمَعُ في الأصلِ عَلَى: (عَوَالِمَ)، ولا تُجمع جَمْعَ مذكَّرٍ سالمًا، فَإِذا أُجْرِيَتْ مُجْرَى جمعِ المذكر السالم في الإعراب؛ كانت مُلْحَقَةً به وليست جمعًا على الحقيقة.

وإنَّما لَمْ تُعَدَّ كلمة ﴿ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ جمعَ مذكَّرٍ سالمًا حقيقةً؛ لأنَّ مفردَها -وهو عالَمٌ- فَقَدَ شَرْطَ جَمْعِه هذا الجَمْعَ؛ إِذْ إِنَّهُ ليس علَمًا ولا وصفًا، وإنَّما هو مِنْ أسماء الأجناس[3].

فَحَصلَ عُدولٌ في جمع هذه الكلمةِ عَنِ (العوالم) إِلَى ﴿ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، وسوَّغَ هذا العدولَ ثلاثةُ أَوْجُهٍ:

(1) الغَرْنَاطيُّ، مِلاك التَّأْويل: 1/12.
(2) الهرريّ، حدائق الرَّوح والرّيحان: 1/226.
(3) ابن عقيل، شرح ألفيّة ابن مالك: 1/60-61.

أحدُهَا: ما في كلمة (العالَم) مِنْ معنى الوَصْفِيَّة؛ إذْ هو دالٌّ على معنى العِلْمِ أو العلامَةِ، على ما سبق ذِكْرُه.

ثَانِيهِمَا: أنَّهُ عُدِلَ إلى ﴿ٱلْعَٰلَمِينَ﴾؛ تَغْليبًا للعقلاء على غَيْرِهِم، وذَكَرَ هذا الوجهَ البيضاويُّ في قوله: "وإنَّما جَمَعَه لِيَشْمَل ما تحته مِنَ الأجناس المختلفة، وغلَّب الْعُقَلَاء مِنْهُمْ، فجمَعَهُ بالياء والنُّون"[1].

ثَالِثُهَا: أنَّ في جَمْعِ (عَالَم) على (عَالَمِينَ) بَدَلًا من (عَوَالِمَ) عُدُولًا عن جمع الكَثْرَةِ إلى جمع القلَّةِ؛ "تَنْبِيهًا على أنَّهم وإنْ كَثُرُوا فَهُم قَلِيلون في جانِبِ عَظَمَتِه تعالى وكِبْرِيَائِه"[2].

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الحَمْدُ وَالشُّكْرُ:

الحَمْدُ يكونُ في مقابِلِ النِّعمَةِ ويكونُ ابتداءً، والشُّكْرُ لا يكونُ إلا في مُقَابل نِعْمَةٍ

الحَمْدُ هو الشُّكْرُ عند الأَخْفَشِ وجماعةٍ[3]، وفِيه نَظَرٌ، بل بينَهُمَا فرقٌ.

وذهَب الخطابيُّ إلى أنَّ الشّكرَ أعمُّ مُطْلقا مِنَ الحمد، فقال: "الحمد نوعٌ، وَالشُكر جِنْس، فكلُّ حَمْدٍ شُكْرٌ، وليس كُلُّ شُكْرٍ حمدًا"[4]، وعكس الجَوْهَرِيُّ فجعل الحَمْدَ أعمَّ مُطلقا مِنَ الشُّكر[5].

والصَّوابُ أنَّ بين الحمدِ والشُّكْرِ عمومًا وخصوصًا وَجْهِيًّا؛ فالحمدُ أعمُّ مُتَعَلّقًا أخصُّ آلةً، والشُّكْرُ: أخصُّ مُتَعَلَّقًا وأعمُّ آلةً[6].

وذلك أنَّ الحَمْدَ يكون في مقابِلِ النِّعمةِ ويكون ابتداءً، قال الأزهريُّ: "الحمدُ قَدْ يكون شُكْرًا للصَّنِيعة، وَيكون ابْتِدَاءً للثَّناء عَلَى

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 1/28.
(2) الهرري، حدائق الروح والريحان: 1/57.
(3) الأزهري، تهذيب اللغة: (حمد)، وذكر بِهرام الدَّمِيرِيّ في تحبير المختصر: 1/62، أنه ظاهر قول سيبويه.
وهو ظاهر كلام ابن جرير في تفسيره: 1/138.
(4) الأزهري، تهذيب اللغة: (حمد).
(5) الجوهري، الصحاح: (حمد).
(6) أبو هلال العسكري، الفروق اللغوية، ص: 202، والتَّهَانَوِي، كشّاف اصطلاحات الفنون: 1/541، وحافظ حكمي، معارج القبول: 1/72.

الرَّجُلِ"[1]، بل قد يُحَمْدُ على المُصيبَةِ[2]، وذلك في حَمْدِ اللّهِ تعالَى؛ إِذْ يكون عَلَى كلِّ حالٍ.

بخلاف الشُّكْر؛ فلا يكون إلا في مُقَابَلِ نِعْمَةٍ، قال في القَامُوسِ: "الشُّكْرُ -بالضَّمِّ-: عِرْفانُ الإِحْسانِ ونَشْرُه، وَلا يَكُونُ إلاَّ عن يَدٍ"[3].

فتَحَصَّل مِن هذا أنَّ الحَمْدَ أعمُّ متعلَّقًا مِن الشُّكر.

الحَمْدُ يكونُ باللِّسان والقَلْبِ دُون الجوارحِ، والشُّكْرُ يكون بالقلب واللِّسان والجَوارح

أمَّا الآلةُ؛ فالحَمْدُ يكون باللِّسان والقلبِ دُون الجوارحِ، كما يُستفادُ هذا مِنْ حَدِّ الحَمْدِ المَعْزُوِّ آنفًا إلى ابْنِ سِيدَهْ وابْنِ تيميَّةَ، بخلاف الشُّكْرِ فَإنَّه يكون بالقلب واللِّسان والجوارح، كما قال اللّه سبحانه: ﴿ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗاۚ﴾ [سَبَأ: 13]، فتقرَّر من هذا أَنَّ الشُّكْرَ أعمُّ مِنْ جهة الآلَةِ.

الحَمْدُ وَالمَدْحُ:

الحَمْدُ لا يُسْتَحَقُّ إلَّا على فِعْلٍ حَسَنٍ، والمَدْحُ أعمُّ

اخْتَلف العلماءُ في الفَرْقِ بينَهُمَا على أقوال:

ذهب المَاوَرْدِيُّ إلى أنَّ الفرقَ بَيْنَهُما مِنْ جهة أنَّ الحَمْدَ لا يُسْتَحَقُّ إلَّا على فِعْلٍ حَسَنٍ، وأمَّا المدحُ فيكون على فِعْلٍ وغير فعلٍ، وبهذا التَّقرير يكون المَدْحُ أعمَّ مِنَ الحَمْدِ مطلقًا.

وفرَّع على هذَا أنَّ اللّه تعالى يُحْمَدُ على صفاتِ أفعالِه بأنَّه الخالق والرَّازق ويُمْدَحُ عليها، ولا يجوزُ أَنْ يُحْمَدَ على صِفَاتِ ذاتِه، كَكَوْنِه عالمًا[4].

---

(1) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة: (حمد).

(2) كمَا جاء مِن حديث أبي موسى الأشعريِّ ﷺ أنَّ رسول اللهِ ﷺ قال: «إِذَا مَاتَ وَلَدُ العَبْدِ قَالَ اللَّهُ لِمَلَائِكَتِهِ: قَبَضْتُمْ وَلَدَ عَبْدِي، فَيَقُولُونَ: نَعَمْ، فَيَقُولُ: قَبَضْتُمْ ثَمَرَةَ فُؤَادِهِ، فَيَقُولُونَ: نَعَمْ، فَيَقُولُ: مَاذَا قَالَ عَبْدِي؟ فَيَقُولُونَ: حَمِدَكَ وَاسْتَرْجَعَ، فَيَقُولُ اللَّهُ: ابْنُوا لِعَبْدِي بَيْتًا فِي الجَنَّةِ، وَسَمُّوهُ بَيْتَ الحَمْدِ»، رواه الترمذي، حديث رقم: (1021)، وهو حسن كما في صحيح الجامع الصَّغير: حديث رقم: (795).

(3) الفيروزابادي، القاموس المحيط، ص: 419.

(4) المَاوَرْدِيّ، النُّكت والعيون: 1/53-54.

ومَشَى على هذا الرَّاغب الأصفهانيّ[1]، والكرمانيّ[2]، وهو مُؤدَّى كلام العسكَرِيّ[3].

وهذا فيه نظَرٌ بيِّنٌ، لأنّه مخالفٌ لظاهر الاستعمالِ القرآنيِّ، فإنَّ ربَّنا تعالى يقول: ﴿وَقُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي لَمۡ يَتَّخِذۡ وَلَدٗا وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٞ فِي ٱلۡمُلۡكِ وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ وَلِيّٞ مِّنَ ٱلذُّلِّۖ﴾ [الإسراء: 111].

تَفريقُ الرّازي بين الحمد والمَدح:

الحمدَ لا يكون إلا لحيٍّ، ويكونُ بعْدَ الإحسان، ومأمورٌ به مُطلَقًا، وخاصٌّ بفضيلة الإنعام، والمَدحُ غيرُ ذلك

ذهَب الفخر الرَّازِيّ[4] إلى أنَّ الفرقَ بَيْنَهُمَا مِنْ أربعة أوجُهٍ:

أَحَدُهَا: أنَّ الحمدَ لا يكون إلا لحيٍّ، والمدحَ يكون لِلحَيِّ وغيرِه، فقد يَمْدَحُ الإنسانُ جمادًا.

ثَانيها: أنَّ المدح يكون قبلَ الإحسَانِ أو بعدَهُ، والحمدَ لا يكون إلا بَعْدَ إحسانٍ.

ثالثها: أنَّ الحمدَ مأمورٌ به مطلقًا، وأمَّا المدحُ فقد يكون مَذْمُومًا مَنْهِيًّا عنه.

رَابعها: أنَّ المدحَ خاصٌّ بنوعٍ مِنَ الفَضَائِل، أمَّا الحَمْدُ فخاصٌّ بفضيلةِ الإنْعَامِ والإحسانِ، فهو مُخْتَصٌّ بفضيلةٍ بعينِهَا.

وهذه الأوجُهُ -عدَا الأوَّلَ- أشبَهُ بالفرق بين المدح والشُّكْرِ، لا بين المدح والحمدِ، إلَّا أنَّ مذهب الرَّازيِّ أنَّ الحمدَ مُتَعَلِّقٌ بمُطْلَقِ الإنْعَامِ، والشُّكْرَ متعلِّق بالإنعام الواصلِ إلى الشَّاكِرِ، ولذا قال مَا قَالَ.

وذهب ابْنُ القيِّم إلى أنَّ الحمدَ: هو الإخبارُ عن محاسن المحمودِ مع حُبِّه وإجلاله وتعظيمه، أمَّا المدحُ؛ فهو ذلك الإخبارُ مُجَرَّدًا عن الحُبِّ وتوابعه[5].

وهذا أصحُّ ما قيلَ في الفرقِ بينهما، وبهذا التقريرِ يكونُ المدحُ أَعَمَّ مِنَ الحَمْدِ مطلقًا. والله أعلَمُ.

---

(1) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 1/52.
(2) الكرمانّي، غرائب التّفسير: 1/96.
(3) أبو هلال العسكريُّ، الفروق اللُّغويَّة، ص: 50.
(4) الرّازيّ، التّفسير الكبير: 1/191.
(5) ابن القيّم، بدائع الفوائد: 2/93.

﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ٣﴾ [الفاتحة: 3]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

بعد حَمْدِ اللّهِ تعالى الموصوفِ بكونِهِ ربَّ العالَمين، وهو وصفٌ مُشعِرٌ بالرَّهْبَةِ؛ أَعْقَبَهُ بوصفِهِ نفسَهُ بـ ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾؛ ليكون ترغيبًا بعد ترهيب[1]، "وبدأ أوَّلًا بالوصف بالرُّبُوبيَّة، فَإِنْ كان الرَّبُّ بمعنى السَّيِّد أو بمعنى المالك أو بمعنى المعبودِ؛ كان صفةَ فعلٍ، لِلمَوْصُوفِ بِهَا التَّصريفُ في المَسُود والمملوك والعابد بِمَا أراد مِنَ الخير والشَّر، فناسب ذلك الوَصْفَ بالرَّحمانيَّة والرَّحِيمِيَّة؛ لِيَنْبَسِطَ أملُ العبدِ في العفو إِنْ زَلَّ، ويَقْوَى رجاؤُهُ إِنْ هَفَا"[2].

وهذه الآيةُ والتي قبلها اشْتَرَكتَا في حَمْدِ اللّهِ تعالى، أمَّا الحَمْدُ في ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾ فظاهرٌ، وأمَّا الحَمْدُ في ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾؛ فَلِأَنَّ الحمدَ ذِكْرُ محاسن المحمودِ مع المحبَّة والتَّعظيم، وهَذَا مِنْهَا، ثُمَّ إنَّ الحَمْدَ إذا تكرَّر صارَ ثناءً[3].

إثبات الحمد لله سبيل لنيل رحمته

وفي ذِكْرِ ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ عَقِبَ ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ تَنْبِيهٌ إلى أنَّ مِن أسباب نَيلِ رحمةِ اللّه: حَمْدَهُ، ولِذَا إذا حَمِدَ العاطِسُ ربَّهُ؛ قيلَ له: يَرْحَمُكَ اللّه[4].

❁ شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

سبَق شرحُ مفرداتِ هذه الآية عندَ الكلام عَنِ البسملة، فأَغْنَى ذلك عَنْ إعادتِهِ.

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ صاحبِ الرَّحمةِ الواسعةِ، التي يَرْحَمُ بهَا خَلْقَهُ جميعَهُمْ، وصاحب الرّحمة الدّائمة؛ فَلِلْمُتَّقين الرَّحمةُ المطلقةُ، ومَنْ سِواهُم لَهُ نصيبٌ منها.

(1) القرطبيُّ، الجامع لأحكام القرآن: 1/139.
(2) أبو حيَّان، البحر المحيط: 1/35.
(3) أبو هلال العسكريّ، الفروق اللُّغويّة، ص: 150.
(4) الهرريّ، حدائق الرّوح والرَّيحان: 1/60.

الإِيضَاحُ اللُّغَوِيّ وَالبَلاغِيّ:

عِظَمُ قَدْرِ اسْمَيِ اللهِ الرَّحْمَنِ وَالرَّحِيمِ:

ذِكْـرُ الرَّحْـمَـة بـصـيـغـتَـيِ (الـرّحـمـن) و(الرّحيم) تَأْكيدٌ عـلى الـرَّحْـمَـة، وتَنْويهٌ بِشَأْنِها

تكرَّر قَولُه: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ في البسملةِ وفي هذا الموضع من فاتحة الكتاب، ونُكتة التَّكرارِ: التَّوْكِيدُ[1]؛ تنبيهًا على عِظَمِ قَدرِهِما وتأكُّدِ أمرِهِما[2].

وفيهِ الإشارةُ إلى أنَّ الاعتناءَ بالرَّحمة أكثرُ مِن غيرها[3].

وفي الآيةِ أوجهٌ في البلاغةِ سلَفَتِ الإشارةُ إليها عند البسملة، فلا حاجة إلى إعادة شَيْءٍ مِنْهَا.

(1) الكرمانيّ، البرهان في توجيه متشابه القرآن، ص: 65.
(2) البَسِيلّي، نكت وتنبيهات في تفسير القرآن المجيد: 2/52.
(3) القِنَّوجي، فتح البيان: 1/46.

﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ٤﴾ [الفاتحة: 4]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

إتباعُ ذِكْرِ الرَّحمةِ بذكر الملك إتمامٌ لمَعْنى الرُّبوبيَّة التي مِنْ مَعانيها المُلكُ ونُفوذُ الأمر

"لمَّا كان الرَّبُّ المنعوتُ بالرَّحمة قد لا يكون مالِكًا، وكانت الرُّبوبيَّةُ لا تَتِمُّ إلَّا بالملك المُفيد لِلعِزَّة المقرونِ بالهَيْبَة المُثْمِرَة لِلبَطْشِ والقهر، المُنْتِجِ لنُفُوذ الأمر؛ أَتْبَعَ ذَلِكَ بقوله: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾؛ تَرْهِيبًا مِن سَطَوَات مَجْدِه"[1].

وهذه الآيةُ والتي قبلها تشتركانِ في حَمْدِ اللهِ تعالى -على ما سبقَ ذِكْرُ وجْهِه قريبًا-، وهو ضَرْبٌ مِن ضروب التناسُب.

شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

1) ﴿مَٰلِكِ﴾: مشتقٌّ مِنَ المِلْكِ -بكسر الميم وفتحها-، والمَلِكُ: مشتقٌّ مِن المُلْكِ -بضم الميم-[2].

والمِلْكُ أصلهُ: الشَّدُّ والرَّبْطُ[3]، ومِنْهُ: إمْلاكُ العَرُوس؛ لأنَّهُ عَقْدٌ ورَبْطٌ للنِّكاحِ[4]، أو هو: احْتِوَاءُ الشَّيءِ والقُدْرَةُ عَلَيْهِ[5]، وهو راجعٌ إلى الأوَّلِ.

والمُلْكُ أصلهُ: قَهْرُ مَنْ تَتَأَتَّى مِنْهُ الطَّاعَةُ، أَوْ هُوَ التَّصَرُّفُ بالأَمْرِ والنَّهي في النَّاسِ[6].

والمِلْكُ والمَلْكُ -على ما سبق تقريره- يرجعان إلى أصلٍ جامعٍ؛ وهو القوَّةُ في الشَّيءِ[7].

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 1/29.
(2) السَّمين، عمدة الحفَّاظ: 4/110.
(3) الزّجّاج، تفسير أسماء الله الحسنى، ص: 30.
(4) ابن عادل، اللُّباب في علوم الكتاب: 1/184.
(5) ابن سِيدَه، المُحكم والمحيط الأعظم: (ملك).
(6) السّمين، الدُّرُّ المصون: 1/48، والرّاغب، المفردات: (ملك).
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ملك).

والمالِك: اسم فاعل مِنْ مَلَكَ يَمْلِكُ، واللّه هو المالك على الحقيقة، أي: "مالك الأشياء كلِّها ومُصَرِّفُها على إرادته لا يَمْتَنِع عَلَيْهِ مِنْهَا شيء؛ لأنَّ المَالِكَ في كلَامِ العَرَبِ للشَّيْءِ: هو المتصرِّف فيه القادر عَلَيْهِ"[1].

المالك يملك الأشياء كلّها ويتصرّف فيها، والملِك ينفذ أمره في ملكه

والمَلِكُ: هُو مَن يَنْفُذُ أمرُهُ في مُلْكِهِ[2].

2) ﴿يَوْمِ﴾: اليَوْمُ: هو المُدَّة الممتدَّةُ مِنْ طُلُوعِ الفَجْرِ -وقيل: مِن طلوع الشَّمس[3]- إلَى غُرُوبِ الشَّمْسِ، وَقَدْ يُطْلَقُ عَلَى مَا يَعُمُّ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ[4]، ويُطلق على مُدّةٍ مِن الزَّمانِ أيًّا كان مقدارُها[5].

فأمَّا الإطلاق الأوَّل؛ فكَالوَارِدِ في قول اللّه تعالى: ﴿سِيرُواْ فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ﴾ [سبأ: 18]، وكالذي في قوله سبحانه: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ۝١٨٣ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍۚ﴾ [البقرة: 183-184].

وأمَّا الإطلاق الثَّاني؛ فكَالوَارِدِ في قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةًۖ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًاۗ﴾ [آل عمران: 41]؛ فإنَّ المُرَاد باليَوْمِ ما يَعُمُّ اللَّيْلَ كذَلِكَ، كمَا دلَّت على ذلك آيةُ سُورَةِ مَرْيَمَ: ﴿ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾ [مريم: 10].

وأمَّا الإطلاقُ الثَّالِث؛ فكَالوَارِدِ في قولِه ﷻ: ﴿أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ﴾ [البقرة: 254].

والمرادُ باليَوْمِ في ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ مُطْلَقُ الوقت[6]؛ وحقيقتُهُ: المُدَّةُ الممتدَّة مِن مَبْدَأِ القيامة إلى وقت استقرار أهل الجنَّةِ في الجنَّة وأهل النَّار في النَّارِ.

3) ﴿ٱلدِّينِ﴾: أصلُ هذه المادَّةِ -وهي الدَّال والياء والنُّون- دالةٌ على اللُّزوم، ثُمَّ يأتي

(1) ابنُ إسحاق الزّجّاجيّ، اشتقاق أسماء الله، ص: 43.
(2) الزّجّاج، تفسير أسماء الله الحسنى، ص: 30.
(3) ذكره الرّاغب في المفردات: (يوم)، وجعل القِنَّوْجِيُّ في فتح البيان: 1/47، هذا المعنى عُرفيًّا، وَبدْءَ اليوم من طلوع الفجر معنًى شرعيًّا. واستدرك السّمين الحلبيُّ في الدُّرِّ المصون: 1/52، على الرّاغب في جعلِهِ مَبْدَأَ اليومِ طلوعَ الشمسِ، فقال: «وهذا إنَّما ذكرُوهُ في النَّهارِ لا في اليَومِ».
(4) الفَيُّوميُّ، المصباح المنير: 2/682، وابنُ رُشد، بداية المجتهد: 2/200.
(5) الرّاغب، المفردات، ص: 894.
(6) القِنَّوجيّ، فتح البيان: 1/47.

في العربيَّةِ على أَوْجُهٍ ترجع كلُّهَا إلى شيءٍ يلزم الإنسانَ أو يلزمه الإنسانُ[1]، وردَّ ابنُ فارسٍ هذهِ المادَّةَ إلى جِنْسٍ مِنَ الانقيادِ والذُّلِّ[2]، وهذا والذي قبلَهُ متلازمان.

وَوَرَدَ الدِّين في القرآن على أَوْجُهٍ، بلغَ بها ابنُ الجَوْزِيِّ إلى أحَدَ عَشَرَ وجْهًا[3].

وفي معنى الدِّين في قوله: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ قولان[4]:

أحدهما: الحساب، ومنه: «الكَيِّس مَنْ دَانَ نَفْسَهُ»[5]، أي: حاسبَهَا[6].

والآخرُ: الجزاءُ، ومنه المثَلُ المشهور: (كَمَا تَدِينُ تُدَانُ)، أي: كما تُجازِي تُجَازَى[7].

ولا تعارضَ بين القولَيْنِ، والأَوجَهُ حَمْلُ الآية عليهما معًا، ولذا قال ابن جرير: "والدِّينُ في هذا الموضع، بتأويل الحساب والمُجَازَاة بالأعمال"[8]، فجمعَهُمَا في صياغَةٍ واحدةٍ.

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

لا مُلْكَ في الآخرَة إلاّ لله الواحد القهّار

يمجِّدُ اللّٰه تعالى نفسَه بأنه المالكُ لكلِّ ما في يوم الحِساب والجَزاء؛ وهو اليوم الآخِر الذي يقومُ فيه النّاسُ لربّ العالمين.

وفي الآيةِ تذكيرٌ للمسلمِ باليوم الآخر، وحثٌّ له على الاستعداد لذلك اليومِ بالعمل الصالح، والكفِّ عن المعاصي والسيئات.

❁ الإِيضَاحُ اللُّغَوِيّ وَالبَلَاغِيّ:

سِرُّ اختيارِ لفظ ﴿مَٰلِكِ﴾ دون وصف (ربّ):

صِفة المُلك تُفيدُ إقامَةَ الجَزاءِ عَلَى أَوْفَقِ الكَيْفِيَّاتِ وَبِمُقْتَضَى العَدْلِ

اختيرَ ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ دون (ربِّ يوم الدِّين)؛ لأنَّ وصفَ (المالك) مُشْعِرٌ بإقامة الجزاء على أَوْفَقِ كيفيَّاته بالأفعال المَجْزِيِّ

(1) أبو هلال العسكريُّ، الوجوه والنظائر، ص: 217.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (دين).
(3) ابنُ الجوزي، نُزهة الأعين النَّواظر، ص: 299-297.
(4) المَاوَرْدِيّ، النُّكت والعيون: 1/56، وابن الجوزيّ، زاد المسير: 1/19.
(5) يُروى مرفوعًا ولا يصحُّ، رواه التِّرمذيُّ في جامعه، حديث رقم: (2459)، وهو في ضعيف الجامع، حديث رقم: (4305).
(6) الزَّبيديُّ، تاج العروس: (دين).
(7) ابن سلاَّم، غريب الحديث: 3/136، وابن دريد، جمهرة اللغة: (دني).
(8) ابن جرير، جامع البيان: 1/155.

عليها[1]، و(الملك) "مؤذِنٌ بإقامة العدل وعَدَم الهَوادةِ فيه؛ لأنَّ شأن المَلِكِ أن يُدبِّرَ صلاحَ الرَّعيَّةِ ويَذُبَّ عنهم، ولذلك أقام النَّاسُ الملوكَ عليهم"[2].

ولو جاء النَّظم القرآنيّ: (رَبّ يوم الدّين)؛ "لكانَ فيهِ مطمَعٌ للمُفسدين يجدُون مِن شأن الربِّ رحمةً وصَفْحًا"[3].

اللَّفُّ وَالنَّشْرُ فِي مُتَعَلَّقَاتِ الْأَوْصَافِ:

مُلاءَمةُ (مَلِكِ يومِ الدّين) للرّبوبيّة، ومُلاءمةُ (إِيَّاكَ نَعْبُدُ) للرّحيميّة

قوله تعالى: ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ شبيهٌ باللَّفِّ، وقوله تعالى: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ شبيهٌ بالنَّشْرِ؛ وذلك أنَّ ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ اشتمل على وصفين كُلِّيَّيْن: هما: وَصْفُ اللّه بالرُّبوبيَّة، ووصفُهُ بالرَّحمةِ، والأوَّلُ مُلائم لقوله بعدُ: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾، والثَّاني ملائِمٌ لقوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾، "فكان الأوَّلُ للأوَّل، والثَّاني لِلثَّاني"[4]، فكان بمنزلة اللَّفِّ والنَّشر المُرتَّب.

سِرُّ إضافَةِ لفظ ﴿مَٰلِكِ﴾ إلى ظرف الزّمان ﴿يَوْمِ﴾:

مِلْكِيَّةُ الزَّمَانِ تَسْتَلْزِمُ مِلْكِيَّةَ جَمِيعِ مَا فِيهِ

وفي قوله: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ كنايَةٌ عن كونِهِ مالكًا للأمر كلِّهِ؛ ووجهُ ذلكَ أنَّ "تَمَلُّك الزَّمان -كتَمَلُّك المكان- يستلزم تَمَلُّك جميع ما فيه"[5]، ثم إنَّ فيه إثباتًا لمُلكه له مع البُرهان على ذلك؛ لأنَّ "مالكيَّةَ الظَّرف مِن حيث إنَّه ظرفٌ مُسْتلزِمَةٌ لمالكيَّةِ المظروفِ بطريقٍ بُرهانيٍّ أبلَغ، فيكون حاصلُ مَعْنَى مالكيَّة يوم الدِّين نفسِه من حيث إنَّه ظرفٌ: مالكيةَ جميع الأمور التي كانت فيه"[6].

ذِكْرُ ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ من الإطناب بذِكر الخاصِّ بَعْدَ العام:

تخصيصُ المُلك بيوم الدّين عنَايَةٌ به، وتنبيهٌ للاستعداد له

وتخصيص المُلْكِ بيوم الدِّين في قوله: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ لا

(1) ابنُ عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/174.
(2) ابنُ عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/174.
(3) ابنُ عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/174.
(4) أبو حيَّان، البحر المحيط: 1/36.
(5) الخفَاجِيّ، كفايةُ القاضي: 1/100.
(6) القُونَوِيّ، حاشيةٌ على البيضاوِيِّ: 1/205-206.

ينفي مُلكَهُ لِمَا عداه؛ إذْ إنَّه سبقَ قبلُ الإخبارُ بأنَّهُ ربُّ العالمين، ومن معاني الرّبوبيّة المُلكُ والتّصرّفُ، وهذا عامٌّ في الدَّارين: الدُّنيا والآخرة[1]، وعلى هذا؛ فيكون قوله: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ مِنَ الإطنَابِ بذِكْرِ الخاصِّ بعد العامِّ؛ للعناية بشأن الفردِ الخاصِّ وهو يومُ القيامةِ.

ظرفُ الزّمان (يوم) بين الاستعارة والمجاز المرسل:

استعارةُ لفظ (يوم) للدّلالة على الزّمن المُمتدّ في يوم القيامة أو مجازٌ مُرسلٌ علاقتُهُ التّقييدُ والإطلاق

وفي قوله: ﴿يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾، سبَقَ أنَّ اليومَ في الأصل: المُدَّة المُمتدَّة مِن طلوع الفجر إلى غروب الشَّمس، ثُمَّ استُعِيرَ فيما بين مُبتدأِ القيامة إلى وقت استقرار أهل الدَّارين فيهما[2].

وتَخْرِيجهُ إلى المجَاز المُرْسَلِ أَظْهَرُ مِن تخريجه على الاِسْتِعَارَةِ؛ وتكون علاقتُه التَّقْيِيدَ والإطلاقَ، فاليوم الذي هو الوقت الممتدُّ مِن طلوع الفجر إلى غروبِ الشَّمس أُرِيدَ به مُطْلَقُ الوقتِ دون تقييده بطلوع الفجر وغروب الشّمس.

وتَوْجِيهُهُ على الاِسْتِعَارَةِ فيه ضَرْبٌ مِن البُعْدِ؛ إذْ يُخَرَّجُ على أنَّه شُبِّهَ الوقت الذي يمتَدُّ من مبتدأ القيامة إلى استقرار أهل الدَّارَيْنِ فيهما بالوقت الممتَدِّ مِن طلوع الفجر إلى غروب الشَّمْس، بجامِعِ: سُرعة الانقِضَاء في كلٍّ، فالثَّاني سريعُ الاِنْقِضَاءِ حقيقةً، والأوَّلُ سريعُ الانقضاء بالنسبةِ للمُؤْمِنِينَ، فَقَدْ وَرَدَ في الحديث: «يَوْمُ الْقِيَامَةِ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كَقَدْرِ مَا بَيْنَ الظُّهْرِ وَالْعَصْرِ»[3].

لَكِنْ يُشْكِلُ على هذا التّوجيهِ التّعبيرُ عَنْهُ باليوم في سِيَاقِ وَعيدِ العُصاة والكافرين، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَشۡتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ مَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [البقرة: 174]، ولذا فإنّ توجيهَهُ على الاِسْتِعَارَةِ فيه بُعْدٌ، والله أعلم.

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 1/134.

(2) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 1/143.

(3) رواه الحاكم في المستدرك، حديث رقم: (283)، وهو صحيح، كما في السّلسلة الصَّحيحة، حديث رقم: (8193).

عبارةُ ﴿يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ أشملُ من (يوم القيامة):

شُمُولِيَّةُ الْحِسَابِ وَالجَزَاءِ لِجَمِيعِ الأَزْمِنَةِ

وقال سبحانه: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ ولم يَقُلْ: (يَوْمِ القِيَامَةِ)؛ لكونِ الأولِ أَعَمَّ؛ إذِ الدِّينُ بمعنى الجزاءِ والحساب يشمَل جميع أحوال القيامة مِن ابتداءِ النُّشور، إلى السَّرْمَدِ الدَّائم، بَلْ يكادُ يتناولُ النَّشأةَ الأُولى بأَسْرِها[1].

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

ملِك، ومالِك:

المالِكُ أوسَعُ وأدخَلُ في المَدح، والمَلِكُ خاصٌّ بالعُقلاء

اختُلف في المالك والملِك؛ فقيل: هما بمعنًى واحدٍ[2]، وقيل بينهما فَرْقٌ، واختلفوا في وَجْهِ الفرقِ بينهما على أقوالٍ:

القولُ الأوَّلُ: أَنَّ المالك أوسعُ وأدخَلُ في المَدْحِ مِنَ الملِكِ، وذلك من وجهين[3]:

أَحَدهما: أنَّه يقال: اللهُ مالك الإنس والجنِّ والطَّير وكلِّ شيءٍ، ولكن لا يُقالُ: مَلِك كلِّ شيءٍ؛ إذْ إنَّ المَلِكَ خاصٌّ بالعقلاءِ؛ لأنَّ المُلْكَ - كما سبق - قَهْرُ مَنْ تَتَأَتَّى مِنْهُ الطّاعَةُ، ولا تَتَأَتَّى الطَّاعة إلَّا مِنَ العُقَلاء. قال الرَّاغِب: "المَلِكُ: هو المُتَصَرِّف بالأمر والنَّهْي في الجُمْهُور، وذلك يَخْتَصُّ بسياسَةِ النَّاطقين، ولهذا يُقَالُ: مَلِكُ النَّاسِ، ولا يُقال: مَلِك الأشياءِ"[4].

ثَانيهما: أنَّه لا يُوصَفُ أحدٌ بكونه مالكًا شيئًا إلا وهو يملِكُهُ، بخلاف الملِكِ؛ فقد يكون ملكًا على شيءٍ وهو غيرُ مالكٍ لهُ، كما يقال: ملكُ العَرَبِ.

---

(1) فاضل السَّامرائيُّ، لمسات بيانيَّة، ص: 38.
(2) الثَّعلبيُّ، الكشف والبيان: 1/114.
(3) الثَّعلبي، الكشف والبيان: 1/114.
(4) الرّاغب، مفردات ألفاظ القرآن: (ملك).

المَلِكِ أَعَمُّ مِن المالِكِ، وأمرُهُ نافِذٌ على المالِك في مُلكِه

القول الثاني: أنَّ المَلِكَ أَعَمُّ مِن المالِكِ[1] -وهو عَكْسُ الأوَّل-، وذلك من وجهين:

أحدهما: أنَّ كُلَّ ملكٍ مالكٌ، وليس كلُّ مالكٍ ملِكًا؛ فقد يملك الإنسانُ الشَّيْءَ الحقيرَ أو الجليلَ، ولكنه ليس مَلِكًا.

ثانيهما: أنَّ الملِكَ يَنْفُذُ أمرهُ على المالكِ في مُلْكِه، فقد يَمْنَعُ المَلِكُ مَالِكَ الشيءِ مِنَ التصرُّفِ فِيمَا يَمْلِكُهُ إلَّا بإذْنٍ مِنْهُ.

بين ﴿مَلِكِ﴾ و﴿مَلِكِ﴾ عُمومٌ وخُصوصٌ وَجْهِيّ:

وحاصِلُ ما يُمْكِنُ قولُه[2]: أَنَّ المالكَ والملِك بينهما عمومٌ وخصوص وَجْهِيٌّ؛ فكلُّ واحدٍ منهما أعمُّ مِنْ وجهٍ وأخصُّ مِنْ وَجْهٍ، وبهذا يَنْتَظِمُ القولانِ السَّابقانِ في نظامٍ واحدٍ.

وإذا ضَمَمْنَا ما قُرِئَ به في المتواتر ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾[3] إلى هَذِهِ القراءةِ ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾[4]؛ تكاملَ المَعْنَيَانِ.

(1) القرطبيُّ، الجامع لأحكام القرآن: 1/140.

(2) فاضل السَّامرائيُّ، لمسات بيانيَّة، ص: 37-35.

(3) قرأ (ملك) بدون ألف: نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر، وحمزة، وأبو جعفر، ينظر: ابن الجزري، النشر في القراءات العشر: 1/271.

(4) وقرأ (مالك) بإثبات الألف: عاصم، والكسائي، ويعقوب، وخَلَف، ينظر: ابن الجزري، النشر: 1/271.

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ [الفاتحة: 5]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

العِبادَةُ غايَةُ الخَلْق، وهي قائِمَةٌ على الحُبّ والرَّجاء والخَوف

بعدَ حَمْدِ اللّه تعالى وهو مُتَضَمِّنٌ للحُبِّ والتعظيم -كما سبق-، وذِكْرِ اسمين دالَّين على الرَّحمةِ وهما يَبْعَثَانِ على الرَّجاءِ، وذِكْرِ مُلْكِهِ ليوم الدِّينِ وهو باعثٌ على الخوف؛ ذُكِرت الغايةُ التي مِنْ أجلها خَلَقَ اللّه تعالى الجنَّ والإنسَ وَهِيَ العِبَادةُ، والعبادةُ تقوم على أصولٍ ثلاثةٍ؛ هي: الحُبُّ والرَّجاء والخوف[1].

شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

العبادةُ اتِّباعُ خطابِ الشَّرْعِ المُقترِنُ بالحُبِّ والخضوع

1) ﴿نَعْبُدُ﴾: مِنَ العبادةِ، وهي في الأصل: الذُّلُّ والخضوعُ[2]، ومنه قولُهُم: طريقٌ مُعَبَّد؛ إذا كان مُذَلَّلا، مِنْ تأثيرِ النَّاسِ فيه[3]، قال ابْنُ سِيدَهْ: "أصل العِبَادَة في اللُّغَة التّذليل؛ مِن قَوْلهم: طَرِيق مُعَبَّد، أَي: مُذَلَّل؛ بكثرةِ الوَطْء عَلَيْه"[4].

والعبادةُ تُطلق إطلاقين:

أحدهما: التَّعَبُّدُ، وتُعَرَّفُ بأنَّها: اتِّباعُ خطابِ الشَّرْعِ المقترِنُ بالحُبِّ والخضوع[5].

والآخر: المُتَعَبَّدُ به، وتُعَرَّفُ بأنَّها: "اسْمٌ جَامع لكُلِّ مَا يُحِبُّهُ اللّه ويرضاه مِنَ الأَقْوَال والأعمال البَاطِنَة وَالظَّاهِرَة"[6].

والمُراد في الآيةِ: الإطلاقُ الأوَّلُ.

---

(1) جماعة من علماء نجد، الدُّرر السَّنيَّة في الأجوبة النَّجديَّة: 13/72.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والزَّبيديّ، تاج العروس: (عبد).
(3) الأنباريّ، الزّاهر: 1/107.
(4) ابن سِيدَه، المخصَّص: 4/62.
(5) ابن القيّم، مدارج السّالكين: 3/409.
(6) ابن تيميّة، العبوديّة، ص: 44.

الاستعانةُ طَلَبُ العَوْنِ والمُظاهرَة والمُساعدة

2) ﴿نَسْتَعِينُ﴾: مِنَ الاستعانَةِ؛ وهي طَلَبُ العَوْنِ[1]؛ فالسِّين والتَّاء تدلُّ على الطَّلَبِ[2]، كما هو غالب معناها.

والعَوْنُ أو المعاونة: المُظَاهَرَةُ والمُسَاعَدَةُ[3].

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

نخصّك وحدك بالعبادة، ونستعين بك وحدك، ولا نعتمد على أحد سواك

نخصُّكَ وحدَك بالعبادة، ولا نعبدُ أحدًا غيرَكَ، ونستعينُ بك في أمُورِنا كلِّها، ولا نطلب العونَ مِنْ أحدٍ غيرِكَ، ونعتمدُ عليكَ في جَلْب المنافع، ودَفعِ المضارِّ؛ إذ الأَمْرُ كلُّهُ بيدكَ وحدكَ.

وفي هذه الآيةِ دليلٌ على أنَّ كمالَ الإيمانِ يكون بإخلاصِ العبادةِ للّه تعالى، وبطلب العَوْن منه وحده دون سواه، وأنَّ العبادةَ أعلى مراتبِ الخضوع، ولا يجوز شرعاً ولا عقلاً فِعْلها إلا للّه تعالى، فلا يجوز للمسلم أن يَصْرف شيئًا من أنواع العبادات: كالدُّعاء، والاستغاثةِ، والذَّبْحِ، والطَّواف إلا للّه وحدَه، وأنَّ في إخلاص العبادة للّه وحده شفاءَ القلوب من داء التعلُّق بغير اللّه، ومن أمراض الرِّياء، والعُجْب، والكِبْرياء، ونحوها، وأنَّ مَن لم يُعِنْه اللّه على مقصوده، لم يَتحقَّقْ له ما يريده من أفعال الخير.

الإِيضَاحُ اللُّغَوِيّ وَالبَلَاغِيّ:

نُكَتُ العُدُولِ عَنِ الغَيْبَةِ إِلَى الخِطَابِ:

قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، جاء بعد الإخبار عن اللّه ﷻ بطريق الغَيْبَةِ - إذِ التَّعبيرُ بالاسم الظَّاهر في حُكْم الغَيْبَةِ -، وذلك بدءًا من ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ﴾، ولو كان الكلامُ بأسلوبِ الخِطَاب؛ لَقِيل: (بِاسْمِكَ).

ثُمَّ جاء بعدها: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾، ولو كان بأُسْلُوبِ الخِطَاب؛ لقيل: (الْحَمْدُ لَكَ).

(1) الرّاغب، المفردات: (عون)، وابن تيميَّة، مجموع الفتاوى: 1/103.
(2) جمالُ الدّين بَخرَق، فتح الأقفال وحلُّ الإشكال بشرح لاميَّة الأفعال، ص: 139.
(3) السَّمين، عمدة الحفَّاظ: 3/144.

ثُمَّ جاءت هذه الآيَةُ ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ بأسلُوبِ الخِطَاب؛ وكان مُقْتَضَى التَّلاؤُم في الظَّاهر مع ما قَبْلَهَا أَنْ يُقَالَ: (إيَّاه نعبدُ وإيَّاه نستعين)؛ لِيَكُون أسلوبَ غَيْبَةٍ، كمَا أنَّ ما قبلَهَا كذلك. وهذا العدُولُ مِنَ الغَيْبَةِ إلى الخطاب يُعرف بـ: أُسْلُوبِ الالْتِفَات[1].

وهذا الفَنُّ مِنْ فُنُونِ الكَلَام هو خلاصةُ علم البيانِ التي حولَها يُدَنْدِن، وإلَيْهَا تستَنِدُ البلاغةُ وعَنْهَا يُعَنْعِنُ[2].

ولهذا الأسلوبِ صُوَرٌ، والواردُ في سورة الفاتحة هو الْتِفَاتٌ بالانتقالِ مِنْ أسلوب الغَيبة في﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ﴾ وَ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾، إلى أسلوب الخطاب في ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾.

وهذا العدولُ بالالتفاتِ له نِكَاتٌ، مِنْهَا:

الالتِفاتُ لتطْرِيَةِ نشاط السّامِع وتنبيهه

الأولى: أنَّ هذا الانتقالَ أحسنُ تَطْرِيَةً لنشاطِ السَّامع، وإيقاظًا للإصغاءِ إلَيْهِ مِنْ إجرائه على أسلوب واحِدٍ[3]، وهذه فائدَةٌ عامَّةٌ في غالبِ الالتفاتات[4].

الالـتـفـاتُ إلى الخطاب إشارَةٌ إلى استحضار المهابَة الإلهيّة، فـالـحـامِـدُ بين يدي ربّه

الثَّانية: أنَّ الإنسانَ لَمَّا حَمِدَ اللهَ وأثنى عَلَيْهِ ومجَّدَهُ؛ كأنَّه حضر بَيْنَ يَدَي اللّه تعالى فصار العَبْدُ مخاطبًا رَبَّهُ كَخِطَابِ الحَاضِرِ عِنْدَهُ[5].

الثَّالِثَة: أنَّ فيه تنبيهًا على أنَّ قارئَ القرآنِ المُنعَمَ عَلَيْهِ ينبغي أن يَجِدَ مِنْ نفسه دافعًا إلى الإقبال على مَنْ يحمَدُهُ حتَّى كأنَّه عنده، وإلَّا ما كان قارئًا على الحقيقة، كمَا أَوْمأ إليه السَّكَّاكيُّ[6].

الـخـطـابُ تَوطِئةٌ للدُّعاء، وأحْسَنُ الطَّلَب ما كان خطابا

الرَّابعة: أنَّ التَّعبير بالخطابِ هَهُنا توطئةٌ لِلدُّعاءِ الذي بَعْدُ في ﴿ٱهۡدِنَا﴾، ويوضِّحُ هذا: النُّكتةُ التي تَلِيها[7].

---

(1) الالتفات عند الجمهورِ: هُو «الانتقال مِن كُلٍّ مِن التَّكَلُّم أو الخطاب أو الغيبة إلى نظيرِهِ المخالفِ له؛ لنُكتةٍ»، ينظر: أحمد الهاشميّ، جواهر البلاغة، ص: 212.

(2) ابن الأثير، المثل السَّائر: 2/135.

(3) الزَّمخشريّ، الكشَّاف: 1/14.

(4) هَذا هو المشهور عند البلاغيِّين، وخالفهم ابنُ الأثير كما أوضحه في المثل السَّائر: 2/136.

(5) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 1/135.

(6) السَّكَّاكيُّ، مفتاح العلوم، ص: 202.

(7) فاضل السّامرائيّ، لمسات بيانيّة، ص: 48.

الخَامسة: أنَّ أحسن الطَّلَبِ ما جاء عَنْ طريق الخطاب؛ وذَلِكَ أنَّ الكريمَ إذا سُئِلَ على وجهِ الخطابِ؛ يَبْعُدُ أن يَرُدَّ السَّائلَ[1].

السَّادسة: أنَّ لفظَ ﴿ٱلْحَمْدُ﴾ ليس مختصًّا باللّه تعالى؛ إذْ قَدْ يُحْمَدُ غَيْرُهُ، بخلاف العبادَةِ؛ فهي للّه تعالى وحْدَهُ، ولذا لـمَّا جاء ذِكْرُهَا؛ صُرِّحَ باختصاصها به سبحانه بأسلوب الخِطاب[2].

الحَمْدُ أَبْلَغُ إذا وَقَعَ على وجه الغَيْبَةِ، والعبادَةُ أحوَجُ إلى الخطاب

السَّابعة: أنَّ الحمد والثَّناء أَبْلَغُ إذا وَقَعَ على وجه الغَيْبَةِ، ولكنَّ العبادَةَ لا تكون إلا لِلّذِي لا يَغِيبُ، كما قال اللّه تعالى حكايةً عن إبراهيم عليه السلام: ﴿قَالَ هَٰذَا رَبِّي ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْآفِلِينَ﴾ [الأنعام: 76]، فكان التَّعبير في مقام العبادةِ بالخطابِ أنسبَ[3].

مَعْرفةُ اللّه تدعو إلى خطابه والتضرّع بين يَدَيْه بالدّعاء

الثَّامنة: أنَّ مبدأ الخلق غَيْبَتُهُم عن اللّه سبحانه، وقُصُورُهم عن خطابهِ؛ فإذا عَرَفُوه بصفاتِهِ اللَّائقة بعظمتهِ، وتوسَّلوا لِلقُرب مِنْهُ تعالى بحمده والثَّناء عَلَيْهِ؛ تأهَّلوا لخِطَابِهِ[4].

نِكَاتُ التَّعْبِيرِ بِالنُّونِ فِي ﴿نَعْبُدُ﴾:

وقوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، وردت في سياق الدُّعاء، والمُنَاسِب لمقام الدُّعاء: الخضوعُ حَالًا ومقَالًا، فكان مُقتضى الظاهر أَنْ يُقَال: (إِيَّاكَ أَعْبُدُ وَإِيَّاكَ أَسْتَعِينُ) بدلًا مِن التَّعبيرِ بـ: ﴿نَعْبُدُ﴾ و﴿نَسْتَعِينُ﴾ المُشْعِرِ بالعظمَةِ؛ فإنَّ تعظيمَ الدَّاعي نفسَهُ لا يَليقُ.

بصيغة (نَعبُدُ) يُعبِّرُ المُؤمنُ عن نَفْسِه وإخوانه بالعبادة التي خُلِقوا من أجلها

والعُدولُ عَنِ التَّعبير بـ(أَعْبُدُ) و(أَسْتَعِينُ) إلى التَّعبير بـ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ له نِكَاتٌ، مِنْهَا:

الأولى: أنَّ هذا التَّعبير إخبارٌ عن جِنس العباد، والقارئُ -مُصليًا

(1) ابن عادل، اللُّباب في علوم الكتاب: 1/198.
(2) ابن الأثير، المثل السّائر: 2/137.
(3) فاضل السّامرائي، لمسات بيانيّة، ص: 48.
(4) حسن طَبل، أسلوب الالتفات في القرآن الكريم، ص: 107.

كان أو غيرَه- فَرْدٌ مِنْهُمْ، فيكون قد أَخْبَرَ عن نَفْسِهِ وعن إخوانِهِ المؤمنِينَ بالعبادة التي خُلِقُوا لأجلها، وتَوَسَّطَ لَهُمْ بِخَيْرٍ[1]، وعلى هذا التَّوجيهِ فالنُّونُ لِلجَمع لا للتَّعظيم.

التّعبيرُ بنون الجمع (نَعبُدُ) أدخَلُ في هَضْمِ النّفس لا في تعظيمها

الثَّانية: أنَّ التَّعبير بالنُّون هَهُنا أنسب؛ إذْ لَوْ قيل: (أَعْبُدُ) و(أَسْتَعِينُ) لكان فيه مِن تعظيم الدَّاعي ما ليس في الأوَّل؛ إذْ يكون قد عظَّم نفسَهُ بجَعْلِهَا وحَدَها أهلًا لعبادة الله[2] ﷻ، قال الشَّوكاني: "إنَّ المقام لمَّا كان عظيمًا لَمْ يَسْتَقِلَّ به الواحدُ؛ اسْتِقْصَارًا لنفسه واستِصْغَارًا لها، فالمجيءُ بالنُّون لقصد التَّواضع لا لِتَعْظِيم النَّفْس"[3].

التّعبيرُ بنون الجَمْعِ (نَعبُدُ) إيماءٌ إلى أهمّيَّة الجماعة، وإغاظةٌ للكافرين

الثالثة: أنَّ في التَّعبير بالنُّون إشارةً إلى أهميَّة الجماعةِ في الإسلام، مِمَّا لا يُفيده (أعبد) و(أستعين)[4].

الرّابعة: أنَّ فيه إغاظةً لِلمُشْرِكينَ بأنَّ أهل الإسلام قد صاروا في عِزٍّ ومنَعَةٍ؛ وذلك أنَّ هذه المحامدَ ناشئةٌ مِنْ جماعاتٍ متكاثرةٍ[5].

تقديمُ المعمول يُفيدُ القَصرَ عند أغلب أهل البيان:

تَعْظِيمُ اللهِ وَقَصْرُ العِبَادَةِ عَلَيْهِ ضرورةٌ يقتضيها الإيمانُ الخالص

من زاوية أخرى، فإنَّ في قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ تقديمًا وتأخيرًا، والأصل: (نَعْبُدُكَ وَنَسْتَعِينُكَ).

وفائدةُ التَّقديم هَهُنا: الدّلالة على القصرِ[6]، قال السُّيوطيُّ: "كاد أهل البيان يُطْبِقُون على أنَّ تقديمَ المعمول يُفيد الحصر، سواء كان مفعولا أو ظرفا أو مجرورا، ولهذا قيل في: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، معناه: نخصُّك بالعبادةِ والاستعانَةِ"[7].

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 1/135.
(2) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 1/135.
(3) الشّوكاني، فتح القدير: 1/27.
(4) فاضل السّامرائي، لمسات بيانيّة، ص: 43.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/186.
(6) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 1/17.
(7) السّيوطيّ، الإتقان في علوم القرآن: 3/174.

فيكون المعنى: نعبدُك ولا نعبد غَيْرَكَ، ونستعينُ بك ولا نستعين بغيرك.

ولهذا التَّقديم فَائِدةٌ أخرى؛ وهي: تعظيمُ اللّه ﷻ بِذِكْرِهِ أَوَّلًا، ولِمَا في التَّقديم مِنَ الاهتمام بالمعبودِ والمستعانِ به[1].

نُكَتُ تَقْدِيمِ العِبَادَةِ عَلَى الِاسْتِعَانَةِ:

بلاغةُ القرآن أَرْقَى من أن تَقُوم على مُجَرّد اعتباراتٍ لفظيّة

وقُدِّمت العبادةُ على الاستعانةِ في الذِّكْرِ وهي مُؤَخَّرَةٌ في المعنى، في ظاهر كلام الواحديِّ[2]؛ فإنَّه قال: "لم قُدِّم ذكرُ العبادة على المعونة، وإنما المعونة بها تكون العبادة؟ والجواب: أنَّ الواو عند النحويِّين لا تُوجِب ترتيبا، وإنَّما هي لِلْجَمْع"[3].

وكأنَّ تأخير الاستعانةِ عِنْدَهُ إنَّما هو لمراعاةِ الفواصلِ[4]؛ إذْ لو قيل: (إيَّاك نستعين وإيَّاك نعبدُ)؛ فات التَّناسبُ في فواصلِ الآيِ كما هُو ظاهرٌ.

ومخالفةُ الأصلِ لمجرَّدِ رعاية التناسُبِ الصَّوْتِيِّ دونَ نظرٍ إلى المعنَى، فيها ضربٌ مِنَ الضَّعْفِ، وبلاغَةُ القرآن أَرْقَى من أن تَقُوم على اعتبارٍ لفظيٍّ محضٍ[5].

وقد ذهب جمعٌ مِن أهل العلم إلى أنَّ لتقديم العبادَةِ على الاستعانَةِ اعتباراتٍ معنويَّةً، مِنْ ذلك:

الاستِعانةَ مِن أنواعِ العِبادة فَهِيَ من باب ذِكْرِ الخاصّ بَعْدَ العامّ، ومِنْ تَقْديم الوَسيلة قبلَ الطّلب

أَوَّلًا: أنَّ الاستعانةَ مِن أنواع العبادة، فذَكَر العبادةَ أوّلًا، ثُمَّ ذَكَرَ فَرْدًا مِنْ أَفْرَادِهَا[6].

---

(1) محمد أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 1/65.

(2) وكلام الرّاغب في تفسيره: 1/59، يُشبهه.

(3) الواحديّ، التّفسير البسيط: 1/517.

(4) وقد صرَّح بهذا السّببِ القِنَّوجيّ في فتح البيان: 1/49، إلا أنَّه لم يجعله سببًا مستقلاً للتّقديم، بل أردفَهُ بنكتةٍ معنويّة، وينظر: النّيسابوريّ، إيجاز البيان عن معاني القرآن: 1/34.

(5) بنت الشاطئ، التّفسير البياني: 1/35.

(6) البغوي، معالم التّنزيل: 1/54.

وعلى هَذَا، تَكُونُ الآيَةُ مِن باب الإطناب؛ بذِكْرِ الخاصِّ بعد العامِّ[1]؛ تنبيهًا على خِصِّيصَةٍ ومَيْزَةٍ في الفرد الخاصِّ.

ثَانيًا: أنَّ ذلك من باب تقديم الوسائل قبل طَلَبِ الحاجات؛ وذلك أقربُ إلى الإجابة[2].

ثالثًا: أنَّ الاستعانة وسيلةٌ إلى العبادةِ؛ إذْ لولا عَوْنُ الله للعبدِ ما صَدَرَتْ منه عبادةٌ؛ فقُدِّمَت العبادةُ لِكَوْنِها الغايةَ، والاستعانةُ وسيلةٌ[3].

العِبادةُ غايةٌ والاستعانةُ وَسيلة

رابعًا: أنَّ قوله ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ يتعلَّق بالألوهيَّة وباسمه سبحانه (الله)، وقولَهُ: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ يتعلَّق بالرُّبوبيَّة وباسمه سبحانه (الرَّبّ)، فقُدِّمَ ما يتعلّق باسمه (الله) على ما يتعلّق باسمه (الرَّب)؛ ليتناسبَ ذلك مع المَذْكُورِ أَوَّلَ السُّورة[4]؛ فإنَّ اسمَهُ سبحانه (الله) مقدَّمٌ على اسمه (الرَّبّ).

العبادةُ بلفظ الجَلالة ألْصَقُ، والاستِعانة إلى الرُّبوبيّة أحْوَجُ، فَجاءَ ذِكْرُهما على وَفق ترتيبهما في السّورة

وعلى هذا التَّقرير يكون هذا التَّقديم بمنزلة اللّفِّ والنَّشر المرتَّب.

خَامِسًا: أنَّ العبادَةَ طلبٌ للهِ، والاستعانةَ طلَبٌ مِنَ الله؛ فقُدِّمَ ما كان لله على ما كان مِنْهُ[5].

إتباعُ العِبادة بالاستعانة تَبَرُّؤٌ مِن الحَوْل والقُوَّة؛ فلا قُدرَةَ للعبد على العبادة إلاّ إذا استعانَ بخالقه

ولمّا أَسْنَدَ المتكلِّمُ العبادةَ إِلَى نفسِه ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾، وكانَ ذلك ممّا قَدْ يُوهم اعتدادًا وتبجُّحًا بما يَتَعَبَّدُ لله به، أعقبه بـ: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ إيماءً إلى أنَّه يتبرّأُ من حَوْله وقُوّته، وأنّ العبادةَ لا تَتِمُّ إلَّا بِعَوْنِ الله وتوفيقه[6].

---

(1) السّعدي، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 39.

(2) الزّمخشري، الكشّاف: 1/14، والنَّسفيّ، مدارك التّنزيل: 1/32، وأبو حيّان، البحر المحيط: 1/44.

(3) ابن أبي الرَّبِيع، تفسير الكتاب العزيز وإعرابه، ص: 390، وابن القيّم، التّفسير القيّم، ص: 70، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 1/135.

(4) ابن القيّم، التّفسير القيّم، ص: 70.

(5) ابن القيّم، التّفسير القيّم، ص: 71، وابن القيّم، مدارج السّالكين: 1/98.

(6) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 1/29-30، ومحيي الدّين زاده، حاشية على تفسير البيضاويّ: 1/89.

فَائِدَةُ تَكْرَارِ الضَّمِيرِ ﴿إِيَّاكَ﴾:

تَكريرُ الضّمير (إيّاك) يُفيدُ القَصْرَ في العبادة والاستعانة كِلَيْهما

وكُرِّرَ الضَّميرُ (إيَّاكَ) في ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، ولم يأتِ: (إيَّاك نعبد ونستعينُ)؛ لِنُكَتٍ، مِنْهَا:

أوَّلًا: لو قيل: (إيَّاك نعبد ونستعين)؛ لكان مُفيدًا لقصر العبادةِ على اللّه، ولم يكن قصر الاستعانةِ عَلَيْهِ ظاهرًا؛ لِاحتمال أَن يُقَدَّر مفعولُ ﴿نَسْتَعِينُ﴾ مؤخَّرًا، فيكون التقديرُ: (إيَّاك نعبد ونستعينُكَ)[1]، فكُرِّرَ ﴿إِيَّاكَ﴾؛ لِئَلَّا تفوتَ إفادةُ القَصْرِ مع فِعْلِ الاستعانَةِ.

تَكريرُ الضّمير (إيّاك) أدْخَلُ في مقام المَدْح، وأوقَعُ في تفخيم الخطاب

ثانيًا: أنَّ تَكرارَهُ أعظَمُ في مقامِ المدحِ، ولذا كَانَ قولُكَ: (بكَ أَنْتَصِر، وبك أحتمي، وبك أنَالُ مَطَالبي) أبلغَ وأمدحَ من قولك: (بك أنتصر وأحتمي)[2].

ثالثًا: أنَّ تَكرارهُ أدخَلُ في تعظيم الكلام وتفخيمه[3].

رابعًا: كُرِّرَ ﴿إِيَّاكَ﴾؛ ليكونَ كُلٌّ مِنَ العبادة والاستعانة قد سِيقَ في جملةٍ مستقلَّةٍ، ويكونَ كلٌّ مِنْهُمَا مقصودًا بالأصالَةِ[4].

تَكريرُ الضّمير (إيّاك) دَعْوَةٌ إلى المُداومة على ذِكْر الله تعالى، وأبلَغُ في إظهار التّوكّل عليه سبحانه

خامسًا: أنَّ فيه تعليمًا للعبادِ بِتجديد ذِكْرِه سبحانه عندَ كُلِّ أمرٍ؛ لأنَّ المرادَ بِكَافِ الخِطَاب في ﴿إِيَّاكَ﴾ هو اللّه تعالى[5].

سادسًا: أنَّ تَكرارَهُ أبلَغُ في إظهار الاعتماد على اللّهِ سبحانه[6].

سابعًا: لو تُرك تَكراره بِأَنْ قيل: (إيَّاك نعبد ونستعينُ)؛ لَتُوُهِّمَ أنَّه لا يُتَقَرَّب إلى اللّه سبحانه إلَّا بالجمع بين العبادة والاستعانَةِ[7].

---

(1) الكرمانيّ، أسرار تكرار القرآن، ص: 66، ويُقارَن بما ذكره القرطبيُّ في الجامع لأحكام القرآن 1/146.
(2) ابن عجيبة، البحر المديد: 1/59.
(3) أبو المظفر السّمعانيّ، تفسير القرآن: 1/37.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 1/44، والهرريّ، حدائق الرَّوح والرَّيحان: 1/74.
(5) الآلوسي، روح المعاني: 1/93.
(6) ابن عجيبة، البحر المديد: 1/59.
(7) الآلوسي، روح المعاني: 1/93، وفاضل السّامرائيّ، لمسات بيانيّة، ص: 42.

ثامنا: كُرِّرَ الضَّمير ﴿إِيَّاكَ﴾؛ لئلَّا يُتوهَّمَ استواءُ القَصْرَيْنِ، والواقعُ: خلافُهُ؛ فَإِنَّ القصرَ في ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ حقيقي تحقيقيٌّ، والقصرَ في ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ حقيقيٌّ ادِّعائيٌّ؛ إذْ إنَّ المسلم قد يستعين غيرَ اللّه تعالى، كيف وقد قال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ﴾ [المَائِدَة: 2]، ولكنَّه لا يَسْتَعِينُ في عظَائِم الأمور إلَّا باللّه، ولا يَعُدُّ الاستعانةَ حقيقةً إلَّا الاستعانةَ باللّه تعالى[1].

القَصْرُ في العبادة حَقيقيّ، والقَصْرُ في الاستعانة ادِّعائيٌّ؛ إذ يجوزُ الاستعانةُ بغير الله في غير الأمور العظام

الفرقُ بين تقديم الحمد في ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ وتقديم الضمير في ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾:

وفي قوله سبحانه: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ قدَّمَ الضَّميرَ الدَّالَّ على اللّه تعالى، وفي قولِه قبلُ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ قَدَّم الحَمْدَ؛ وذلك أنَّ الحَمْدَ يكون للّه ويكونُ لغيرِه، فقد يُحْمَدُ غيرُ اللّه حَمْدًا خاصًّا، فإذا قيلَ: ﴿ٱلْحَمْدُ﴾؛ كان محتملًا أنَّه للّه أو لغيره، فإذا قيل: ﴿لِلَّهِ﴾؛ تَعيَّنَ أنْ يكون للّه، وهذا بخلاف العبادةِ؛ فإنَّها لا تكون إلَّا للّه تعالى، ولو قيل: ﴿نَعْبُدُ﴾ أَوَّلًا؛ لظُنَّ أنَّ هذا مِن جِنْسِ الحَمْدِ يَصْلُحُ للّه ولغيره، ثُمَّ يأتي تَقْيِيدُهُ بعدُ، وهذا باطلٌ[2].

اشْتِرَاكُ الحَمْدِ، وَخُصُوصِيَّةُ الْعِبَادَةِ

دلالة حذف المفعول على العُموم:

وفي قوله سبحانه: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، جاء فعل الاستعانة مطلَقًا، أي: لم يُحَدَّد المُستعانُ عليه، وذلك لإفادَةِ الشّمول؛ إذْ إنَّ حذفَ المعمولِ مُؤْذِنٌ بالعُمُوم[3]، فتَتَنَاوَلُ الاستعانةُ كلَّ مُستعانٍ عَلَيْهِ، والمَعْنَى: نَسْتَعِينُ بكَ وَحْدَكَ على جَمِيعِ أُمُورِنا[4].

المؤمن يستعينُ باللّه تعالى في كلّ شؤونه وحاجاته جليلِها ودَقيقِها

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/186.
(2) الرازيّ، التّفسير الكبير: 1/212.
(3) أحمد الهاشميّ، جواهر البلاغة، ص: 156.
(4) ابن جزيّ، التّسهيل لعلوم التّنزيل: 1/65.

﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ٦﴾ [الفاتحة: 6]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لمّا عَلِمَ المؤمنُ عظمةَ الله تعالى بنُعوتِ الكمال والجلال السّابقة الذّكر، قَوِيَ رَجاؤهُ في فَضْلِه وعطائه فبادَرَ إلى طلَبِ الهداية

لـمَّا ذُكِرَ إفرادُ الله بالعِبادةِ، وإفرادُهُ بالاسْتِعانةِ؛ وكانَ ذلك مُشْعِرًا بالافتقار إلى حَوْله وقُوَّتِهِ، وظَنَّ المُسلمُونَ إقبالَ ربِّهِمْ عَلَيْهِمْ وقوِيَ رجاؤُهُمْ في فضْلِهِ وعطائِهِ؛ نَاسبَ ذلك توجيهُ الرَّغبةِ إلَيْهِ بطلب الحاجة، فَقَالَ: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾[1].

ولـمَّا كانت صحّةُ العبادةِ مُتَوَقِّفةً على شَرْطَيْن؛ هما: الإخلاص لله تعالى، والمتابعة لرسول الله ﷺ، وكان الشَّرطُ الأوَّلُ مُشارًا إليه بتقديم المعمول ﴿إِيَّاكَ﴾ على ﴿نَعۡبُدُ﴾؛ ناسبَ ذلك ذِكْرُ الشَّرْطِ الثَّاني بقوله: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾.

وثَمَّةَ وجهٌ آخَرُ؛ وهو أنَّه لـمَّا سَبَقَ طلبُ الإعانة مِنَ الله تعالى وَحْدَه؛ جاءَ قولُه: ﴿ٱهۡدِنَا﴾ كَالبَيَانِ لِلمَطلوب مِنَ الإعانةِ، كأنَّه قيل: كَيْفَ أُعِينُكُم؟ فقالوا: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾[2].

شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

1) ﴿ٱهۡدِنَا﴾: فِعْلُ أمْرٍ مِنَ الهدايةِ والهُدَى؛ بِمَعْنَى: الدّلالة والبيان والإرشاد.

جَوْهَرُ الهداية البيانُ والإرشادُ، وهدايةُ الله للمؤمن تَوفيقٌ

وفرَّقَ جماعةٌ - منهم الأَصْمَعِيُّ - بين الهداية والهُدى، فجعلوا الأوَّل للدّلالة على الطَّريق، والثَّانيَ لِبَيَان الدِّين، يقال: هداه إلى الطَّريق؛ أي: دَلَّهُ، وهداه للدِّين هُدًى؛ أي: بيَّنَ لَهُ[3].

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 1/39، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/187.
(2) الزَّمخشري، الكشَّاف: 1/15.
(3) نَشوان الحِمْيَرِيّ، شمس العلوم: (هدى)، والأزهريُّ، تهذيب اللُّغة: (باب الهاء والدال)، وابن سِيدَه، المُخَصَّص: 4/51.

وظاهر كلَامِ ابن القطَّاعِ[1] والزَّمَخشريِّ[2] أنَّهُما بمعنًى واحدٍ.

2) ﴿ٱلصِّرَٰطَ﴾: بالصَّاد، والسِّينِ، وإشمام الصَّادِ صوتَ الزَّاي، وبالزَّاي الخالصة[3]، وأصله بالسِّينِ، مِنْ قَوْلِهم: سَرَط الرَّجلُ الطعامَ؛ إذَا بلَعَهُ، ويُقال: انْسَرَطَ الشَّيْءُ في حَلْقِهِ؛ إذَا سَارَ فيه سيرًا سهلًا[4]، وَمِنْهُ سمِّيَ السِّراطُ؛ وذلك على وجهِ التَّخْييلِ؛ لأنَّه يبتلعُ سالكِيهِ، أو أنَّ سالكيهِ يبتلعُونَهُ[5].

الصِّراطُ يبتلِعُ سالِكيه، وهو الطَّريقُ القاصدُ

والصِّراط: الطَّريق مطلقًا[6]، أَوِ الطَّرِيق القاصد[7]، والمنهاج الواضح[8].

والصراطُ في الآية: الطَّريقُ المُوصِلُ إلى رِضوانِ اللّهِ، وهو الإسلامُ.

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

أَرْشِدْنَا، يا ربّنا، ودُلَّنا على الصِّراط المستقيم وَوَفِّقْنَا لِلُزُومِهِ. وهو الطَّريق الواضحُ الْبَيِّنُ المُوصِلُ إلى اللّه تعالى وجَنَّتِه، وذلك بلُزُومِ دِينِ الإسلام؛ تمسُّكًا بالقرآن الكريم، واتِّباعًا لسُنَّة رَسُول اللّه[9] ﷺ.

الصِّراطُ المُستقيمُ دالٌّ على اللّه جلّ شأنُهُ، مُوَصِّلٌ إليه، والإلحاحُ في طلبه ضَرورة

وهذا الدعاءُ من أجمع الأدعيةِ وأنفعِها للعبد، ولذا وجب على المسلمِ أن يدعوَ اللّه به في كلِّ ركعةٍ من صلاته؛ لضرورته إلى ذلك، وأنَّ الهدايةَ له أعظمُ من حاجته إلى النَّصر والرِّزق.

---

(1) ابنُ القطَّاع الصِّقِليّ، كتاب الأفعال: (هدى).
(2) الزَّمخشريّ، أساس البلاغة: (هدي).
(3) وكلُّها مقروء به في المتواتر إلاَّ الزَّاي الخالصة، ينظر: ابن الجزري، النشر في القراءات العشر: 1/271.
(4) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (سرط).
(5) الواحديّ، التّفسير الوسيط: 1/68، والرّاغب، تفسير الرّاغب: 1/63.
(6) الجوهريّ، الصحاح: (صرط).
(7) ابن دُريد، جمهرة اللّغة: (باب الراء والسين مَعَ مَا بعدهمَا من الحُرُوف).
(8) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (سرط).
(9) ابن الجوزيّ، زاد المسير: 1/20-21، والسعدي، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 39، وجماعة من العلماء، التّفسير الميسَّر، ص: 1.

من معاني الهِداية:

ذكَرَ المُفسّرون واللّغَويّون دَلالاتٍ شتّى للفظ الهداية، لخّصها القاضي البَيْضاوي في تفسيره حين قال: "والهِدايةُ دلالة بلُطفٍ؛ ولذلك تُستَعمَلُ في الخَيْر، وقولُه تعالى: ﴿فَٱهۡدُوهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡجَحِيمِ﴾ [الصّافات: 23] واردٌ على التَّهَكُّم، ومنه الهَديَّةُ، وهوادي الوَحْشِ لمُقَدِّماتها.

وهدايةُ اللّه تعالى تتنوّعُ أنواعًا لا يُحصيها عدٌّ، لكنّها تنحَصِرُ في أجناسٍ مُتَرَتّبَة:

الأوّل: إفاضةُ القوى التي بها يتمَكّنُ المَرءُ من الاهتداء إلى مصالِحِه؛ كالقُوّة العَقليّة والحواسِّ الباطنة والمَشاعر الظّاهرة.

والثّاني: نَصْبُ الدّلائل الفارقة بينَ الحَقِّ الباطل والصّلاح والفَساد، وإليه أشارَ حيثُ قال: ﴿وَهَدَيۡنَٰهُ ٱلنَّجۡدَيۡنِ﴾ [البلد: 10]، وقال ﷻ: ﴿فَهَدَيۡنَٰهُمۡ فَٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡعَمَىٰ عَلَى ٱلۡهُدَىٰ﴾ [فصّلت: 17].

والثالث: الهِدايةُ بإرسال الرُّسُل وإنزال الكُتُب، وإيّاها عَنى بقوله تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَئِمَّةٗ يَهۡدُونَ بِأَمۡرِنَا﴾ [الأنبياء: 73] وقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ يَهۡدِي لِلَّتِي هِيَ أَقۡوَمُ﴾ [الإسراء: 9].

الهدايات كثيرةٌ أُولاها قُوى الإدراك، وأعلاها إرسالُ الرُّسُل، والتّوفيقُ للإيمان والعمل الصّالح ذُروَةُ سَنامها

والرّابع: أن يَكشفَ على قلوبهم السّرائِرَ، ويُرِيَهم الأشياءَ كما هي بالوَحْي أو الإلهام والمنامات الصّادقة، وهذا قسمٌ يَختَصُّ بنَيْله الأنبياءُ والأولياءُ، وإيّاه عنى بقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ﴾ [الأنعام: 90]، وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ﴾ [العنكبوت: 69].

فالمطلوبُ إمّا زيادةُ ما مُنِحوه من الهُدى، أو الثّباتُ عليه، أو حُصولُ المَراتِبِ المُرَتّبَة عليه[1].

(1) البيضاوي، أنوار التّنزيل، معه حاشية السيوطي: 1/288-289.

الإيضَاحُ اللُّغَوِيّ وَالبَلَاغِيّ:

طُرُقُ تَعدية فعل الهِداية:

شُمُولِيَّةُ ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ لمعنى الدّلالة والإرشَادِ، وَمعنى التَّوْفِيقِ والإلهام

قوله تعالى: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ﴾ تعدَّى الفعلُ بنفسِهِ إلى المفعول الثَّاني، وهذا أَحَدُ ثلاثةِ أَوْجُهٍ فيه؛ والوجهانِ الآخران: أَن يتعدَّى إلى الثَّاني بحرف الجرِّ (إلى) أو (اللَّام)، وكلُّ هذا واردٌ في القرآن الكريم.

فَتَعْدِيَتُهُ بنفسه، كما في آية الفاتحة.

وتَعْدِيَتُه بحرف الجرِّ (إلى)، كقوله تعالى: ﴿وَٱهۡدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ﴾ [ص: 22]، وتَعْدِيتُهُ بحرف الجرِّ (اللَّام)، كقوله سبحانه: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يَهۡدِي لِلۡحَقِّۗ﴾ [يُونُس: 35].

والفرق بين الثلاثةِ في القرآن الكريم: أنَّ فعلَ الهداية إذا عُدِّي بـ(إلى) كان المرادُ به: هدايةَ الدّلالة والإرشاد، وإذا عُدِّي بـ(اللَّام)؛ فالمراد: هدايةُ التَّوفيق والإلهام، وإذا تعدَّى بنفسِهِ شَمِلَ الهدايَتَيْنِ معًا.

ووجه شمولِهِ الهدايَتَيْنِ معًا عند تعديَتِهِ بنفسِهِ: أنَّ الأصل في فعل (هَدَى) أن يتعدَّى بأحد الحرفين السَّابقِ ذِكْرُهُما -مع فَرْقِ المَعْنَى الذي تقدَّمَ-، وتعديَتُهُ بنفسِهِ خلافُ الأصلِ[1]، وذلك مُخرَّجٌ على أحدِ وجهين:

أحدهما: أَنَّ ذلك على تضمين الفعلِ (هدَى) معنى الفعلِ (عَرَّفَ)[2]، فقوله سبحانه: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ﴾ أي: عرِّفْنَا إيَّاهُ.

والآخرُ: أنَّ ذلك ضربٌ مِن ضُرُوب التوسُّعِ في الكلام، وهو المسمَّى بـ(الحَذْفِ والإيصَالِ)، وهذا لا يكون تَضْمِينًا؛ لأنَّ الحَذْفَ والإيصالَ لا يَجُوزُ أصلًا إذا كان الفعلُ مُتَضَمِّنًا معنى فِعْلٍ مُتَعَدٍّ[3].

والثَّاني أقوَى؛ لأنَّ فيه تكثيرًا للمعاني، وهو الأَنْسَبُ لِبلاغة القرآنِ؛ ووجه تَكْثِيره المعانيَ: أَنَّ لنا وجْهَيْنِ في تقدير الحرفِ المحذوفِ، فَلَنَا أن نُقدِّرَ (إلَى)، ولنا أن نقدِّرَ (اللَّامَ)، مع استحضار اختلاف المعنى بين التَّقْدِيرَيْن.

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 1/45.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/187.
(3) أحمد تيمور باشا، السَّماع والقياس، ص: 73.

ولـمَّا كان التَّقديرانِ غَيْرَ متعارِضَيْنِ؛ نَحْمِلُ الآيةَ عَلَيْهِمَا معًا، فيكون معنى ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ﴾ شاملًا لنوعَي الهدايةِ: الإرشاد والدّلالة، والتَّوفيق والإلهام[1].

وثمّة من يرى أنَّ قولهم (هداهُ لِكذا أو إلى كذا)، إنّما يُقالُ لـمَنْ لم يكُنْ في الطّريق المَطلوب فيَصِلُ بالهداية إليه، و(هداه كذا) لـمَنْ يكونُ في الطّريق فيزدادُ تبصُّرًا بمعالمه أو ثباتًا فيه[2].

وَجْهُ التّعبير بنون الجمع في ﴿ٱهۡدِنَا﴾:

ولا يخفى أنَّ نونَ الجمع في قوله سبحانه: ﴿ٱهۡدِنَا﴾ يَتَلاءَمُ مع مَا قبلهُ في قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾، وسبق عندها وَجْهُ التَّعبير بِالنُّونِ.

ويُزَادُ على ما سبقَ وجهانِ:

الأوَّل: أنَّ الدُّعاء إذا كان يَعُمُّ المسلمينَ؛ كان أقرب إلى الإجابة؛ إذْ لا بُدَّ وأن يكون فيهم مَنْ يُجِيبُ اللّه دُعاءَهُ، وإذا أجَابَ اللّه الدُّعاء في البعض؛ فهو أَكْرَمُ مِن أن يَرُدَّه في الباقي[3].

الآخر: أنَّ الاجتماع على الهِدَايةِ فيه تَثْبِيتٌ وقوَّة، وأنَّ كثرة السَّائرين على الطَّريق تُورث الأُنْسَ وتُهَوِّن مشقَّة السَّيْر[4].

وحقيقة الأمرِ في قوله تعالى: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ أنَّهُ لِلدُّعاءِ؛ إذْ فيه طلبٌ مِنَ الْأَدْنَى إلى الأَعْلَى، وليس هو دُعَاءً بدوام الهداية[5]، بل هو دُعاءٌ لتحصيلِهَا.

بل إنَّ حَمْلَ الأمرِ هَهُنَا على الدَّوام، حكمَ عليه ابن القيِّم بالبطلانِ، وهو حقيقٌ بوصفِهِ بذلكَ؛ وذلك لأنَّ المجهولَ لنا مِنَ

تَعْمِيمُ الدُّعَاءِ أَقْرَبُ إِلَى الإِجَابَةِ، وَالاِجْتِمَاعُ تَثْبِيتٌ، وكَثْرَةُ السّائلين تُوَرِّثُ الأُنْسَ

(ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ) طلَبٌ للهداية التّامّة؛ لأنّ المجهولَ أكثرُ من المعلومِ، والمُؤمنُ محتاجٌ إلى الهداية في كلّ شيء

(1) أومأ إلى هذا ابن عثيمين في كتابه: تفسير الفاتحة والبقرة: 1/16.
(2) الخفاجي، عناية القاضي: 1/195.
(3) الرازيّ، التّفسير الكبير: 1/219.
(4) فاضل السّامرائي، لمسات بيانيّة، ص: 57.
(5) يقارَنُ بما ذكره: التّفتازانّي، المطوّل، ص: 428، وأحمد الهاشميّ، جواهر البلاغة، ص: 72.

الحقِّ أضعافُ المعلوم، وما لا نُرِيدُ فِعْلَه تَهاوُنًا وكسَلًا مثلُ ما نُريده أو أكثرُ منه أو دُونه، وما لا نقدر عَلَيْهِ مِمَّا نريده كذلك، وما نعرف جُمْلَتَه ولا نَهْتَدي لتفاصيله؛ فأَمْرٌ يَفُوت الحصْرَ، ونحن مُحتاجون إلى الهداية التَّامَّة"[1].

دَفْعُ تَوَهُّمِ القَصْرِ بِالتَّقْدِيمِ:

القَصرُ غيرُ مُرادٍ في هذا المقام، والمؤمنُ يطلبُ الهداية لنفسه ولإخوته

لم يتَقَدَّمْ مفعولُ (اهْدِ) كما تقدَّم مفعولُ ﴿نَعْبُدُ﴾، فلم يُقَلْ: (إِيَّانَا اهْدِ)؛ لِأَنَّ التَّقديم يأتي كثيرًا مرادًا بهِ القَصْرُ، وهذا المعنى لا يصحُّ إرادتُهُ هُنَا؛ إذْ يكون المعنى لو قُدِّمَ: (اهْدِنَا ولا تَهْدِ أحدًا غَيْرَنَا)[2]، ولا يخفَى بطلانُهُ؛ وهو مِنْ جُمْلة الاعتداءِ في الدُّعاء.

من أَسْرَارِ اِسْتِعمَالِ ﴿ٱلصِّرَٰطَ﴾ دُونَ (سبيل) أو (طريق):

صِـــرَاطُ اللـه المُـسـتـقـيـمُ أَوْسَعُ وَأَوْضَحُ

اخْتِيرَتْ كلمةُ ﴿ٱلصِّرَٰطَ﴾، فجاءت الآية: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾، دون (اهْدِنَا السَّبِيلَ) أو (اهدنا الطَّريق)؛ لأنَّ (صراط) على زِنَةِ (فِعَالٍ)، وهذا الوزنُ يُستعمل كثيرًا في المُشتمِلَاتِ على الأشياء، وذلك مثل: الخِمار، والرِّداءِ، والرِّباطِ، واللِّحافِ، ومنه: (الصِّراطُ)؛ لكونه مشتملًا على سالِكِيهِ كاشتمالِ الحَلْقِ على المَسْرُوطِ[3]، فهو صِراطٌ واسعٌ لا يضيقُ بالسَّالكينَ، بخلاف (طريق) و(سبيل)؛ فلا يدلَّان على هذا المعنَى، فقد يكونان ضيِّقَيْنِ غيرَ مُستوْعِبَيْنِ[4].

الصِّراطُ المُؤدّي إلى الله تعالى واحدٌ:

لـزومُ القرآن واتِّباعِ سنّة النَبيِّ ﷺ هو الصّراطُ المستقيم

جاء إفرادُ الصِّراطِ للدّلالة على أنَّهُ صراطٌ واحدٌ[5] هو الذِي

(1) ابن القيّم، مدارج السّالكين: 1/33، ثم قال ابن القيّم بعدُ: «فمَنْ كَمُلَت له هذه الأمورُ؛ كَانَ سُؤَال الهدايةِ له سُؤَالَ التَّثْبِيت والدَّاوم»، وأنَّى اكْتِمَالُ هَذَا؟! بَل، لَوِ اكْتَمَلَت؛ فقد ذكر ابن القيّم نفسُهُ أنواعًا مِنَ الهدايةِ، مِنْهَا: الهدايةُ إلى دخول الجنَّةِ، وهي غيرُ حاصلةٍ لِلعَبْدِ بَعْدُ.

(2) فاضل السّامرائي، لمسات بيانيّة، ص: 56-55.

(3) السُّهيلّي، نتائج الفكر في النّحو، ص: 236.

(4) فاضل السّامرائي، لمسات بيانيّة، ص: 58.

(5) فاضل السّامرائي، لمسات بيانيّة، ص: 58.

يُوصِلُ إلى اللّه وجنَّتِهِ؛ وهو لزومُ القرآن واتِّباعُ سنّة نَبِيِّ الإسلام ﷺ، كما قال سبحانه: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ﴾ [الأنعام: 153].

الاستعارة التّصريحيّة الأصليّة في لفظ ﴿ٱلصِّرَٰطَ﴾:

الصِّراطُ يُطلق في الأصل على الطَّريق الحِسِّيِّ المَخْصوص، فاستعمالُهُ هنا لطريق الإسلام من باب الاستعارة التَّصريحيَّة الأصليَّة؛ حيث شُبِّهَ دينُ الإسلام بالطَّريق المخصوص الحسِّيِّ، والجامع بينهما: أنَّ كُلًّا مِنْهُمَا مُوَصِّل للمقصودِ[1]، فصُرِّحَ باسم المُشَبَّه به وطُوِيَ ذكرُ المشبَّه، على طريقة الاستعارة التَّصْريحيَّة، وفائدةُ الاستعارة ههنا: التَّنْبيه على وضوحِ الطَّريقِ وعدم اشتباهِهِ؛ إذِ الحِسِّيَّاتُ أظْهَرُ في التَّصوُّرِ مِنَ العقليَّاتِ، واللّه أعلم.

فائدةُ الاستعارة التَّنْبيهُ على وُضوحِ الطَّريقِ وعدم اشتباهِهِ؛ إذِ الحِسِّيَّاتُ أظْهَرُ في التَّصوُّرِ مِنَ العقليَّاتِ

دلالة الألف واللّام على الكَمَال:

وتعريفُ ﴿ٱلصِّرَٰطَ﴾ - وكذَا صِفَتُهُ تبعًا له - بـ(أل) يدُلُّ على الكَمَالِ؛ إذ دُخولُ (أل) على اسمٍ موصوفٍ؛ يقتضي أنَّه الأحَقُّ بذلك الوَصْفِ[2]، كما في تعريف (السَّاعة) مِنْ قول اللّه تعالى: ﴿بَلۡ كَذَّبُواْ بِٱلسَّاعَةِۖ﴾ [الفرقان: 11]؛ فالألف واللَّام تَدُلُّ على الكمال؛ أي: أنَّها السَّاعة الجديرة بِأَنْ تُسَمَّى السَّاعَة[3].

صراطُ اللّه المستقيم كاملٌ في نوعه؛ فهو بكل جُزئيّاته ودقائقه وأحكامه مُوَصّلٌ إلى الله تعالى

فائدةُ وَصفِ الصِّراط بالمستقيم:

وفائدةُ وصف الصِّراط بالاستقامةِ أمورٌ[4]:

أحدها: أنَّ المستقيمَ أَقْصَرُ مِنَ المُعْوَجِّ، فكأنَّ العَبْدَ بَعْدَ أَنِ استعانَ بربِّهِ، ثم طلبَ مِنْهُ الهدايةَ؛ اعترفَ بعجزِهِ، وأنَّه لا يليقُ بضعفِهِ إلَّا الطَّريق المستقيم.

المُسْتَقِيمُ أَقْصَرُ، وَأَبْعَدُ مِنَ المَخَاوِفِ، وَأَسْلَمُ فِي الْوُصُولِ، وأدلُّ على عَجز الإنسان

(1) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 1/92.
(2) السّهيلّي، نتائج الفكر، ص: 235.
(3) محمّد أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 10/5256.
(4) الرازيّ، التّفسير الكبير: 1/220.

ثانيها: أنَّ المستقيم أبعدُ عَنِ المَخَاوفِ والآفاتِ وأقربُ إلى الأمان، بخلاف المعوَجِّ.

ثالثها: أَنَّ المستقيم يُوصِلُ إلى المقصودِ ولا بُدَّ.

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الهِدَايَةُ وَالإِرْشَاد:

الهداية أَعمُّ مِنَ الإرشادِ مِنْ وجهٍ وأخَصُّ من وَجْهٍ؛ لأنَّ الهدايةَ تكونُ في المحبوب وفي المكروه، فالأوَّلُ كآيةِ الفاتحة: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾، والثَّاني كقوله تعالى: ﴿فَٱهۡدُوهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡجَحِيمِ﴾ [الصَّافَّات: 23]، والإرشادُ لا يكون إلا في المحبوب، فالهداية بهذا الاعتبَارِ أعَمُّ.

وأمَّا خصوصيَّةُ الهدايةِ؛ فَلِأنَّ الهدايةَ هي الدّلالة المُوصِلَةُ إلى البُغْيَةِ، والإرشادُ لا يلزمُ مِنْهُ ذَلِكَ[1].

الهدايةُ تكونُ في المَحْبوب وفي المَكْروه، والإرشادُ لا يكون إلا في المَحْبوب، والهدايةُ مُوصِّلَةٌ إلى البُغْيَةِ، والإرشادُ لا يلزمُ مِنْهُ ذَلِكَ

الصِّرَاطُ وَالطَّرِيقُ وَالسَّبِيلُ:

ذكر ابْنُ الكَمَالِ الفَرْقَ بَيْنَهَا؛ وهو أنَّ الطَّريق: كُلُّ ما يَطْرُقُهُ طَارِقٌ، مُعْتَادًا كانَ أَوْ لَا، والسَّبيل: ما هو مُعتاد السُّلوكِ، فهو أخصُّ مِنَ الطَّريق مطلقًا، وَالصِّراط: مَا لا الْتِوَاءَ فيهِ ولا اعْوِجَاج مِمَّا هو معتادُ السُّلوكِ، فهو أخصُّ مِنَ السَّبيلِ[2].

وفَرَّقَ بينهَا بمَسْلَكٍ آخرَ؛ وهو أَنَّ الصِّراط هو الطَّريقُ السَّهْلُ، والطَّريقُ لا يَستلزمُ سُهُولةً، فالطَّريقُ أعَمُّ مِنَ الصِّراط مطلقًا، وأمَّا السَّبِيلُ فأَعَمُّ مِنَ الطَّريقِ في الاستعمال، فتقول مثلا: سبيلُ اللّهِ وطريقُه، وتقول: سَبِيلُكَ أَنْ تَفْعَلَ كَذَا، ولا تقول: طَرِيقُك أن تَفْعَل كَذا؛ مرادًا به: القَصْدُ والإرادَةُ[3].

الطَّريق كُلُّ ما يَطْرُقُهُ طَارِقٌ، والسَّبيل مُعْتادُ السُّلوكِ، وَالصِّراط مَا ليس فيهِ الْتِوَاءٌ

الصِّراط الطَّريقُ السَّهْلُ، والطَّريقُ لا يَستلزمُ سُهُولةً، والسَّبِيلُ أعمُّ

(1) أبو هلال العسكريّ، الفروق اللُّغويّة، ص: 42، وجمال الدّين الفَتَّنِي، مجمع بحار الأنوار: 5/146، وجبل، المعجم الاشتقاقيُّ المؤصَّل: (رشد).

(2) الكفويُّ، الكلِّيَّات، ص: 513-512، وإسماعيل حَقِّي، روح البيان: 5/13.

(3) أبو هلال العسكريُّ، الفروق اللُّغويَّة، ص: 313.

وفُرِّقَ بين السَّبِيل والطَّريقِ بِمَسْلَكٍ ثالثٍ؛ وهو أنَّ السَّبِيلَ يُطلق غالبًا في الخَيْرِ، بخلاف الطَّريق فقَلَّ استعمالُهُ في الخَيْرِ إلَّا إذا اقترَنَ بما يَدُلُّ على ذلك[1].

والأظهرُ: أَنَّ الصِّراطَ هو الطَّريقُ البيِّنُ الواسعُ السَّهْلُ، ولازمُ ذلك أَنْ يَخْلُوَ مِنَ الاعْوِجَاجِ، والطَّريقُ: أَعَمُّ مِنْهُ مُطْلَقًا، وأمَّا السَّبيل فهو الطَّريق المُمْتَدُّ السَّهل، ولا يلزمُ اتِّساعُهُ[2].

الصِّراطُ هو الطَّريقُ البيِّنُ الواسعُ السَّهْلُ الذي لا اعْوِجاجَ فيه

فتُرتَّبُ بِحَسَبِ الأَخَصِّيَّةِ على هذا النَّحو: الصِّرَاطُ، ثُمَّ السَّبيلُ، ثُمَّ الطَّريق.

(1) أبو هلال العسكريُّ، الفروق اللُّغويَّة، ص: 313.

(2) محمَّد داود، معجم الفروق الدّلاليَّة في القرآن الكريم، ص: 284-281.

﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ٧﴾ [الفاتحة: 7]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لـمَّا سَأَلَ المؤمنون اللّه تبارك وتعالى أن يَهْدِيَهُم أشرفَ طريقٍ؛ سألوه أن يَصْحَبوا أحسن رَفِيقٍ، ثم استعاذوا مِن صُحبة الذين شَاهَدوهُم في التِّيهِ سائرين، وعَنِ القَصْدِ زائغين، جَائِرين أو حائِرين فقال: ﴿غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾[1].

صُحبةُ الصّالحين تُثَبِّتُ المؤمن على الصّراط المستقيم، والفوزُ بها غُنمٌ عظيمٌ

شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

1) ﴿أَنۡعَمۡتَ عليهم﴾: أَوْصلتَ النِّعمةَ إِلَيْهِمْ، والإنعامُ: الإِحْسَان، ولا يكون الإنعامُ إلَّا إذا كان الـمُنْعَمُ عَلَيْهِ مِنَ العُقَلاء[2].

والنِّعمة: المنفعة الـمُقَدَّمَةُ إلى الغير على جِهَةِ الإحسان[3].

والمعنى في الآية: مَنَنْتَ عليهم بالهدايةِ والتَّوفيقِ.

الإنعامُ إحسانٌ للعقلاء

2) ﴿ٱلۡمَغۡضُوبِ﴾، الغَضَبُ: ضدُّ الرِّضا، واختلفوا في تعريفهِ في حقِّ المخلوقِ، فقيل: هو ثَوَرَانُ دمِ القَلْبِ لقَصْدِ الانتقام، وقيلَ غيرُ ذلك[4]، أمَّا غضَبُ اللّه تعالى؛ فَصِفَةٌ لا تُمَاثِلُ صفاتِ المخلوقِينَ، وهي تقتضي: كَرَاهةَ المغضوبِ عَلَيْهِ والانتقامَ مِنْهُ، فالكراهةُ والانتقامُ لَيْسَا همَا الغضبَ، وإنَّما همَا مِنْ آثارِهِ[5].

والـمَغضوبُ عليهم في الآية: الْيَهُود، وَمَنْ شَابَهَهُمْ في تَرْكِ العَمَلِ بِالعِلْمِ.

الغَضَبُ في حقِّ المَخلوقِ ثَوَرَانُ دمِ القَلْبِ لقَصْدِ الانتقام، وفي حَقِّ الخالِقِ كَرَاهةُ المغضوبِ عَلَيْهِ والانتقامُ مِنْهُ

(1) البِقاعيّ، نَظْمُ الدُّرر: 1/45.
(2) الرّاغب، المفردات: (نعم).
(3) الرازيّ، التّفسير الكبير: 1/220.
(4) الزَّبيديّ، تاج العروس: (غضب).
(5) ابن عثيمين، مذكِّرة على العقيدة الواسطيَّة، ص: 23، وابن عثيمين، القولُ المُفِيد: 1/421.

الـضّـلالُ ضِـدُّ الهُدى، ويكونُ عـن عَـمْـدٍ وغير عمد

3) ﴿ٱلضَّآلِّينَ﴾، الضَّلال: ضِدُّ الهدَى، يُقَال: ضَلَّ في الأمر إذا لم يَهْتَدِ لَهُ[1]، ورَجُلٌ مُضَلَّل: لَا يُوفَّقُ لِخَيْرٍ[2]، ويوصَفُ الإنسانُ بالضَّلالِ، فيقال: هُوَ ضالٌّ، أمَّا الضَّالَّةُ فللبَهِيمةِ؛ وهي الحيوان الضائعُ[3].

والضَّالُّ ضَرْبَانِ[4]:

أحدهما: مَن سلَك طريق الضَّلالةِ عَنْ عَمْدٍ، كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الواقعة: 92].

والآخَر: مَن سَلَك طريق الضَّلالة عَنْ غير عَمْدٍ، ومنهُ قولُ اللّه تعالى حكايَةً عن مُوسَى عليه السلام أنَّهُ قال: ﴿قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الشعراء: 20].

والضّالّون في الآية: النَّصَارَى، وَمَنْ شَابَهَهُمْ فِي العَمَلِ بِغَيْرِ عِلْمٍ.

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

الـنّـبـيّـون والـصّـدِّيـقـون والـشُّـهـداءُ والـصّالحون لا يَشْقى جَليسُهم ولا يَرْدَى رَفيقُهم

الصِّرَاطُ المستقيم الذي سألنَاكَ يَا ربَّنا هِدَايتَنَا إِلَيْهِ هو صِرَاطُ عبادِكَ المُوَفَّقين الذين مَنَنْتَ عَلَيْهِمْ بالهدايةِ والتَّوفيقِ وبسُلُوكِهِمْ إِيَّاه؛ مِنَ النَّبِيِّين والصِّدِّيقين والشُّهداء والصَّالحين، ولا تَجْعَلْنَا يا ربَّنا مِمَّن سلك طريق المغضوبِ عَلَيْهِمْ؛ وهُمُ الذين عرَفوا الحقَّ وعدَلُوا عَنْهُ ولم يَعملوا به؛ مِنَ اليَهُود ومَنْ شَاكَلَهُم، ولا مِنَ الضَّالِّين وهُمُ الذين عدَلُوا عَنِ الحقِّ جَهْلًا وتَفْرِيطًا في طلَبِ الحقِّ، فعمِلوا وعبَدوا اللّه بلا عِلْمٍ؛ مِنَ النَّصارى وَمَنْ شَابَهَهُمْ[5].

(1) ابن دُرَيْد، جمهرة اللُّغَة: (ضلل).
(2) الأزهريُّ، تهذيب اللُّغَة: (بَاب الضَّاد واللّام).
(3) الفيُّوميّ، المصباح المنير: (ضلل).
(4) أبو عُبيد الهرويّ، كتاب الغَرِيبَيْنِ في القرآن والحديث: (ضلّ).
(5) ابن أبي حاتم، تفسير القرآن العظيم: 1/31، والقاسميّ، محاسن التّأويل: 1/235، والسعدي، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 39، ونخبة من العلماء، التّفسير المُيَسّر ص: 1.

الإيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

فائِدَةُ البَدَلِ في ﴿صِرَٰطَ﴾ الثَّانية:

تكرير لفظ الصراط لتمكين المَعْنَى في النَّفْسِ وتأكيده

قوله: ﴿صِرَٰطَ﴾ بَدلٌ مِن قوله: ﴿ٱلصِّرَٰطَ﴾، وفائدةُ الإبْدَالِ هَهُنَا: التَّوْكِيدُ، وذلك لأنَّ البدَلَ على نيَّةِ تَكرار العاملِ، والتَّقْدِير: (اهْدِنَا صراطَ الذين أنعمتَ عَلَيْهِمْ)، فكأنَّهم سألوا اللّٰه الهداية مَرَّةً بعدَ أُخْرَى، فكان هذا آكَدَ؛ لِكَوْنِه في قُوَّةِ جُملتين[1].

الإيضاحُ بعدَ الإبهام يقعُ على نفسٍ مُتطلّعة فيتمكّن منها

ولِلبَدَلِ هَهُنَا فائدةٌ أخرى؛ هي: الإيضاح بعدَ الإبهام[2]؛ فإنَّ ﴿ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ وإن كان معلومًا إلَّا أنَّ اللَّفْظ قد يَدْخُلُه شيءٌ مِنَ الإبْهَام، لا سِيَّما وأَنَّ مُدَّعِي سُلوكِهِ كُثُرٌ، فجاء الإيضاحُ بالبَدَلِ في قوله: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾.

وإنَّما لم يقَعِ الإيضاحُ ابْتِدَاءً؛ لأنَّ الكلام إذَا سيقَ على وجهٍ فيه إبهَامٌ؛ تطَلَّعَتِ النَّفْسُ واسْتَشْرَفَتْ لمعرفةِ تفسيرِهِ وإيضاحِهِ، فإذا جاء الإيضاحُ بَعْدُ؛ وقعَ على نَفْسٍ مُسْتَشْرِفَةٍ فتمَكَّنَ ذلك منها غايةَ التَّمكُّنِ، واللّٰه أعلم.

فَائِدَةُ إِضَافَةِ ﴿ٱلصِّرَٰطَ﴾ إِلَى المُنْعَمِ عَلَيْهِمْ دُونَ تَعْيِينِهِمْ:

إنَّما ساغَ اتِّباعُ المُنعَم عليهم لكونِهِمْ مُنْعَمًا عَلَيْهِمْ لا لِذَوَاتِهِمْ

وجاءت إضافةُ الصِّراط إلى ﴿ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ دونَ التَّصريحِ بأَعْيَانِهِمْ؛ لفوائدَ:

إحداها: أنَّ فيه نفيًا لِلتَّقْلِيد؛ إذْ كان هَؤلاء إنَّما ساغَ اتِّباعُهُمْ لكونِهِمْ مُنْعَمًا عَلَيْهِمْ لا لِذَوَاتِهِمْ.

ثانيها: أَنَّ فيه إشعارًا بأنَّ مَنْ هُدِيَ إلى الصِّراط المستقيم؛ فهو مِنَ المُنْعَمِ عليهِ، ولو ذُكرت أَعْيَانُ المُنْعَم عَلَيْهِمْ لَمَا أفادَ هذا المعنى[3].

---

(1) أبو حيَّان، البحر المحيط: 1/48.

(2) السُّيوطيّ، معترك الأقران في إعجاز القرآن: 1/268.

(3) السّهيلّي، نتائج الفكر، ص: 237.

الذين أنعَمَ اللهُ عليهم يشمَلُ جميع طبقات المُسلمين، وهم أصنافٌ

ثالثها: أَنَّ الآيةَ عامَّةٌ في طبقات المسلمين؛ مُسيئِهِمْ وصَالِحِهم، والمُسِيءُ لا يَطْلُب درجةَ العالي حتى ينَالَ التي هي أقربُ إِلَيْهِ، ولَفْظُ ﴿ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ يَشْمَلُ الجميعَ، وجَمِيعُ المأمورين بهذا الدُّعَاءِ يَطْلُبُ صِرَاط الذين أنعم اللّه عَلَيْهِمْ، وهُمْ أصنَافٌ، كما أنَّ السَّائلين لِدَرَجَاتِهم أَصْنَافٌ[1].

إسنادُ ﴿أَنْعَمْتَ﴾ إلى الفاعل، وعدم الإسناد في ﴿ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾:

خطابُ اللهِ تعالى بإسناد النِّعمة إليه تعظيمٌ له سبحانه

ونُسِبَ الإنعامُ إلى اللّهِ ﷻ ﴿أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾، وطُوِيَ التَّصريحُ بذلك في ﴿ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾، ولم يَقَعِ الْعَكْسُ بأَنْ يُقَالَ: (صِرَاطَ المُنْعَمِ عَلَيْهِمْ)، وَ(غَيْرِ الذينَ غَضِبْتَ عَلَيْهِمْ)؛ لوجوه[2]:

أحدُها: أنَّ فيه تَنْبِيهًا على الأدَبِ مع اللّه تعالى؛ بِنِسْبَةِ الإنعام إِلَيْهِ دُونَ الشَّرِّ؛ (بل أتَى به بِلَفْظِ المفعول الذي لم يُسَمَّ فاعلُه، فلم يَنْسِبِ الغضبَ إِلَيْهِ على معنى الفاعليَّةِ -وإن كان هو الفاعلَ المُخْتَارَ لِكُلِّ شَيْءٍ-، لكن جرتِ العادَةُ في مقام التَّأَدُّب أَن يُنْسَبَ للفاعلِ الخيرُ دون الشَّرِّ[3]، كما وقع نظيرُهُ في القرآن كثيرًا، كقوله تعالى: ﴿وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَاۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ﴾ [الشُّورَى: 48]، وقوله ﷻ حكايةً عن الْجِنِّ أنَّهم قالوا: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ [الجِنُّ: 10].

(المغضوب عليهم) مُشعِرٌ بالعُموم

ثانيها -وهو أخَصُّ مِن الذي قَبْلَهُ-: أنَّ فيه تعظيمًا للّه ﷻ؛ فإنَّ خطاب اللّه تعالى بإسناد النِّعمة إليه تعظيمٌ له سبحانه، وتركُ خِطابه بإسناد الغَضَبِ إِلَيْهِ تعظيمٌ لذلك الخِطَاب[4].

ثالثها: أنَّ ذِكْرَ الغضبِ بصيغة اسم المفعولِ مُشْعِرٌ بالعُمُوم،

(1) السّهيلّي، نتائج الفكر، ص: 237.
(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/38-39.
(3) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/38.
(4) الخفاجي، عناية القاضي: 1/146.

فيشمل غضبَه سُبْحَانه وغَضَبَ ملائكتِه وأنبيائه والمؤمنين، وذلك يَفُوتُ إذا قيل: (غَضِبْتَ عَلَيْهِمْ)[1].

إبـــــرازُ ضـمـير (أنـعـمـتَ) ذِكـرٌ وشُكرٌ

رابعها: لم يَجِئْ ههنا (صراط المنعَم عَلَيْهِمْ)؛ ليَبْرُزَ ضميرُ المُنْعِم؛ وذلك ذِكْرٌ وشُكْرٌ لله تعالى بشيئين: القلبِ واللِّسَانِ، فيكون هذا الدُّعَاءُ مَقْرُونًا بِذِكْرِ الله وشُكْرِه[2].

خامسها: أنَّ فيه تفنُّنًا في التَّعبيرِ؛ إذِ الكلامُ لو جَرَى على طريقةٍ واحدةٍ كان مَظِنَّةً لسآمةِ السامعِ، وإذا اختلف الأسلوبُ؛ كان أدْعَى لتَفطُّنِ السَّامعِ وإحضار ذِهْنِه، كما ذَكَرَ البلاغِيُّون نَظِيرَ ذلك في أسلوب الالْتِفَاتِ[3].

في ذِكْـرِ فاعل الإنـعـام إكـرامٌ لِلمُنعَمِ عَلَيْهِمْ، وفي طَـيِّـه مع الغضب إهانَةٌ لـلـمـغـضـوب عليهم

سادسها: أنَّ في ذِكْرِ فاعل النِّعْمة إكرامًا لِلمُنعَم عَلَيْهِمْ ورفعًا لقدرهم، وأمَّا حذفُ فاعلِ الغضب ففيهِ إشعارٌ بإهانةِ المغضوب عَلَيْهِمْ وتحقيرِهم[4].

نِكَاتُ تَقْدِيمِ ﴿ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ عَلَى ﴿ٱلضَّآلِّينَ﴾:

وقُدِّمَ ذِكْرُ ﴿ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ على ﴿ٱلضَّآلِّينَ﴾؛ لأَوْجُهٍ:

مُـخـالَـفَـةُ المـغـضـوب عليهم للحقّ أشـدُّ وأقـبـحُ مـن معصية الـضّـالـين عن جهل

أحدها: أنَّ معنى ﴿ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ بِمَنْزِلَةِ الضِّدِّ للمُنْعَم عَلَيْهِمْ، وأظهَرُ في المقابلةِ بَيْنَهُمَا مِن مقابلة المُنْعَم عَلَيْهِمْ بالضَّالِّين؛ فناسبَ أن يكونَا متضَايِفَيْنِ في الكلام[5].

ثانيها: أنَّ مخالفَتَهُم للحقِّ أشدُّ وأقْبَحُ[6]؛ فإنَّ الذي خالَفَ الحقَّ عَن عَمْدٍ أشَدُّ وأقبَحُ مِمَّنْ خالفه عن جَهْلٍ، وهذا أنسَبُ لمقام الدُّعَاء بالنَّفْيِ[7].

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/39.
(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/39.
(3) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/39.
(4) فاضل السّامرائّي، لمسات بيانيّة، ص: 67.
(5) الطّنطاوي، التَّفسير الوسيط: 1/25.
(6) ابن عثيمين، تفسير الفاتحة والبقرة: 1/20.
(7) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/196.

اليهود أعرَقُ في الزّمن من النصارى

ثالثًا: أَنَّ المغضوبَ عَلَيْهِمْ - وهُمُ اليَهُودُ أصالةً - أَقْدَمُ زمَانًا مِنَ الضَّالِّين - وهُمُ النَّصَارى بالأصالةِ -، فالتَّقديم مراعاةٌ للزَّمَنِ[1].

اليهودُ أقربُ دارًا

رابعًا: أنَّ اليهودَ كانوا أقْرَبَ مكانًا مِنَ النَّبِيِّ ﷺ؛ إذْ كانوا يَسْكُنُون المدينةَ، بخلاف النَّصارى فكانت ديارُهُم بَعيدةً عَنْهُ، فالتَّقديم مُرَاعاةٌ لِلْمَكانِ[2].

خامسًا: أَنَّ تأخير ﴿ٱلضَّآلِّينَ﴾ يُحقِّقُ تناسُبَ الفواصِلِ بما لا يُحقِّقهُ تأخيرُ ﴿ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾، وهذا الوَجْهُ يُذْكَر اسْتِئْنَاسًا؛ لِمَا تقدَّم مِن أنَّ البيان القرآنيَّ لا يقوم على مُجَرَّدِ أَمْرٍ لفظيٍّ مَحْضٍ.

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الإِنْعَامُ وَالإِحْسَانُ:

المُحسِنُ يُحسِنُ لنفسه ولغيره، والإنعامُ لا يكونُ إلاّ من مُنعِمٍ خارجيٍّ

الإنعامُ أخصُّ مِنَ الإحسانِ؛ وذلكَ لأنَّ الإنعامَ لا يكونُ إلَّا مِنْ مُنْعِمٍ لِغَيْرِهِ؛ وذلك لتضمُّنِهِ معنَى الشُّكْرِ، ولا يشكُرُ الإنسانُ نفسَهُ، بخلافِ الإحسانِ فيجوز أن يَكُونَ مِنْ مُحسِنٍ إِلَى غيرِهِ وإِلَى نفسِهِ، فقد يُحسِنُ الإنسانُ إلى نفسِهِ؛ وذلك لِتَضَمُّنِهِ معنى الحَمْدِ، ويجوز للإنسانِ أن يَحْمَدَ نفسَهُ كما يحمَدُ غيرَهُ[3].

والإنعام أخصُّ مِنَ الإِحْسَانِ مِنْ وجهٍ آخَرَ، وذلك أنَّ الإنعامَ إحسانٌ وزيادَةٌ، فإنَّ العربَ تقول: قد أَحْسَنْتَ إِلَيَّ وأنعمتَ، أي: زِدْتَ على الإحسانِ، وبَالَغْتَ فيهِ[4].

(1) ابن القيّم، بدائع الفوائد: 2/33.
(2) ابن القيّم، بدائع الفوائد: 2/33.
(3) أبو هلال العسكريّ، الفروق اللغويّة، ص: 193.
(4) ابن سلاَّم، غريب الحديث: 1/141.

سُورَةُ البَقَرَةِ

سُورَةُ البَقَرَةِ

بين يدي السّورة:

سورة البقرة مَدَنِيَّةٌ باتِّفاق أهل العلم؛ وهِيَ أَوَّل سورةٍ نزلَت بالـمَدينةِ النَّبويَّةِ.

وذهَبَ أبو عُبَيْدة مَعْمَر بن الـمُثنَّى إلى أنَّ قولَه تعالى: ﴿فَٱعۡفُواْ وَٱصۡفَحُواْ﴾ [البقرة: 109] آيةٌ مكيَّة؛ لما فيها من ترك القتال، والصفحِ عن المشركين، لكون كلِّ آية فيها تركُ القتال فهي مكيَّة[1].

وقد ردَّ عليه ابنُ عطيَّة بقوله: "وحُكْمه بأنَّ هذه الآيةَ مكيةٌ ضعيفٌ؛ لأنَّ معاناداتِ اليهود إنما كانت بالمدينة"[2].

وذكر السُّيوطي أنَّ قولَه تعالى: ﴿۞لَّيۡسَ عَلَيۡكَ هُدَىٰهُمۡ﴾ [البقرة: 272]، ممَّا استُثني من آيات سورة البقرة، وأنها من الآيات المكيَّة[3]. وهو قولٌ لم ينسِبه إلى أحد، وليس عليه دليل يعضُدُه ويقوِّيه، والاعتدادُ باتِّفاق أهل العلم على مدنيَّةِ سورة البقرة، ومنها هذه الآيةُ، أولى من استثناء آيةٍ منها وإخراجها من سياق مدنيَّتها إلى ما لم يرِد فيه دليلٌ.

وأمَّا ما ذكره الماوَرْديُّ مِن أنَّ آيةَ: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِۖ﴾ [البقرة: 281] ليست بِمَدَنِيَّةٍ؛ لكونِهَا نزَلَت يوم النَّحر في حجَّةِ الوداعِ بمنى[4] : فهو ضعيفٌ جدًّا[5]، ومبنيٌّ على اعتبار المكان في النُّزول؛ أي أنَّ ما نزل في مكة فهو مكيٌّ، وهو قولٌ مرجوحٌ، وغيرُ مخرجٍ للآية عَن كونِهَا مدَنيَّةً؛ لِما تقرَّر عند الْمُحقِّقين مِن أهل العلم أنَّ الـمَدَنيَّ مِنَ السُّوَر: هو ما نزل بعد الهجرة مُطْلقًا ولَوْ في غير الـمَدِينةِ.

وعدَدُ آي هذه السّورة الكَريمة: مِئتانِ وخمسٌ وثمانونَ آيةً في العدِّ المدَنيِّ الأوَّل والأخير والمكِّيِّ والشّامِيّ، ومئتان وستٌّ وثمانون آيةً في العدِّ الكوفِيّ، ومِئَتان وسبعٌ وثمانونَ آيةً في العدِّ البصرِيِّ[6].

(1) أبو عبيدة، مجاز القرآن: 1/50.
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 1/197.
(3) السيوطي، الإتقان في علوم القرآن: 1/85.
(4) الماوردي، النكت والعيون: 1/61.
(5) الخفاجي، عناية القاضي: 1/152، والطَّنطاوي، التَّفسير الوسيط: 1/27.
(6) الدَّانِي، البيان في عَدّ آي القرآن، ص: 140، وانظر: ابن شَاذَان، سور القرآن وآياته وحروفه ونزوله، ص: 99.

وسورَةُ البقرة هي الثانية في ترتيبِ المصحفِ الشَّريفِ بعد سورة الفاتحةِ، وهِيَ السّابعةُ والثَّمانونَ نُزولًا[1].

وسُمِّيت سورةَ البقرةِ؛لأنَّها انفَردت من بين سُوَر القرآنِ الكريمِ بذكرِ قصةِ البقرةِ التي أمرَ اللّهُ بني إسرائيلَ بذبحِها، وكان لهذه البقرةِ شأنٌ - بتقدير اللّهِ - في كَشْف جِناية القَتْل التي قام بها بعضُ بني إسرائيل، وتواطؤوا على كَتْمِ خبر الجاني.

ولِسورة البَقَرة أسماءٌ، مِنْهَا ما هو توقيفيٌّ، ومِنْهَا ما نشأَ عنِ الاجْتهادِ.

وصَحَّ ثلاثةٌ من أسمائِهَا مرفوعًا إِلَى النَّبيِّ ﷺ، هي:

1. سورَةُ البَقَرَةِ؛ وَرَدَ هذا الاسمُ في أحاديثَ كثيرةٍ، مِنْهَا في قولِ النَّبيِّ ﷺ: «لَا تَجْعَلوا بُيوتَكُمْ مَقابِرَ، إِنَّ الشَّيْطانَ يَنْفِرُ مِنَ البَيْتِ الَّذي تُقْرَأُ فِيهِ سورَةُ البَقَرَةِ»[2].
2. الزَّهْراء، تُسمَّى به مع سورةِ آلِ عِمْرَانَ، على وجه التثنيةِ: الزَّهراوَيْنِ؛ وذلك في قول النَّبيِّ ﷺ: «اقْرَؤُوا الْقُرْآنَ فَإِنَّهُ يَأْتِي يَوْمَ القِيامَةِ شَفيعًا لِأَصْحابِهِ، اقْرَؤُوا الزَّهْراوَيْنِ؛ البَقَرَةَ، وسورَةَ آلِ عِمْرانَ، فإِنَّهُمَا تَأْتِيانِ يَوْمَ القِيَامَةِ كَأَنَّهُمَا غَمامَتانِ، أَوْ كَأَنَّهُمَا غَيايَتانِ، أَوْ كَأَنَّهُما فِرْقانِ مِنْ طَيْرٍ صَوافَّ، تُحاجّانِ عَنْ أَصْحابِهِما»[3]، وسُمِّيتا بذلك؛ لهِدايتهما قارئَهما بما يَتَبيَّن له مِن أنْوَار المعاني التي تضمّنتها السّورَتانِ، ولِمَا يترتَّب على قِراءتِهما مِنَ النّور في الآخِرَةِ[4].
3. سَنامُ القُرْآنِ؛ لِقَول رسولِ اللّهِ ﷺ: «إِنَّ لِكُلِّ شَيْءٍ سَنامًا وسَنَامُ القُرْآنِ سُورَةُ الْبَقَرَةِ»[5]. وَسَنَامُ كُلِّ شَيْءٍ أَعْلَاهُ.

وذكر لها أهلُ العلمِ اسمين من الأسماء الاجتهادية، هما:

1. فُسْطاطُ القرآن: عن خالد بن مَعْدانَ: أنه كان يسمِّيها فُسْطاطَ القرآن[6].

---

(1) ابن الضُّرَيس، فضائل القرآن، ص: 73، والجَعْبري، تقريب المأمول بترتيب النزول، ص: 143.

(2) رواه مسلم، حديث رقم: (780).

(3) رواه مسلم، حديث رقم: (804).

(4) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 4/3.

(5) رواه ابن الضُّريس في فضائله، ص: 87، والدارمي، حديث رقم: (3420)، والحاكم في المستدرك، حديث رقم: (2060)، وقال: «صحيحُ الإِسْنَادِ»، والبيهقي في شعب الإيمان، حديث رقم: (2376)، وحسَّنه الألبانِيُّ في السِّلسلة الصَّحيحة، حديث رقم: (588).

(6) رواه الدارمي في سننه، حديث رقم: (3419)، موقوفاً، ورد هذا الاسم في حديث مرفوع في مسند الفردوس بمأثور الخطاب، حديث رقم: (3559)، وذكره الألباني في السلسلة الضعيفة، حديث رقم: (3738)، وقال: موضوع.

قال السيوطي: "وَذَلِكَ لِعِظَمِهَا وَلِمَا جُمِعَ فِيهَا مِنَ الْأَحْكَامِ الَّتِي لَمْ تُذْكَرْ فِي غَيْرِهَا"[1].

وممَّن أورد هذا الاسمَ من المفسِّرين ابنُ عطية[2]، والقُرطبي[3]، والثَّعالبي[4]، والجَمَل[5]، والآلوسي[6].

2. الكُرْسيُّ: ذكر لها هذا الاسمَ الفَيْروزَاباديُّ[7].

ومَوضوعاتُ هذه السُّورَةِ الشَّريفَة؛ مُتَشعِّبَةٌ، وفُروعُ شجرَتِهَا "فروعٌ كبرى مُمْتدَّة حتى آخرِها، وهذه الفروعُ ذاتُ أَفْنانٍ كبيرةٍ، وهذه الأَفْنَانُ ذواتُ أَفْنانٍ أصغرَ مِنْها، وهي مُتَشابِكةٌ تَشابُكًا عَجيبًا، ومُتَداخِلَةٌ بعضُها في بَعْضٍ"[8].

وذكَرَ عبد الرحمن حسن، أنّها تضمُّ بين دَفَّتيها خمسَة موضوعات كُبْرى[9]، هي:

الأوَّل: القرآنُ الكريمُ وهِدايَتُه، ومخالِفوه.

الثَّاني: ضربُ أمثلةٍ مِن تاريخِ المُمْتَحَنِين في الدُّنيا، وبيانُ مواقِفِهم تُجاه أوامِرِ اللّه ونواهيهِ.

الثَّالث: المُؤْمِنون المُتَّقون، ومَطْلوبُ اللّهِ مِنْهُمْ.

الرّابع: غيرُ المُسْتَجيبين لِدَعْوَةِ الحقِّ.

الخامِسُ: المُنافِقونَ وصِفاتُهم.

ومن المقاصد المهمَّة لهذه السورة الكريمة ما يلي:

التنويهُ بشأن القرآنِ، وتقسيمُ الناس في انتفاعهم بهَدْيه إلى أربعةِ أقسام، وهم: المؤمنون، والمشركون، والمنافقون، وأهلُ الكتاب.

الحديثُ عن بني إسرائيل، وتذكيرُهم بنِعَم اللّه عليهم، ومقابلتُهم لتلك النِّعمِ بالانحراف عن الصراط السَّوِيِّ، وبيانُ جملةٍ من أخلاقهم، وحكايةُ بعضِ أحوالِهم

(1) الإتقان في علوم القرآن: 1/191.
(2) ابن عطية: المحرَّر الوجيز: 1/81.
(3) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 1/234.
(4) الثّعالبي، الجواهر الحِسَان: 1/176.
(5) الجمل، الفتوحات الإلهية: 1/8.
(6) الآلوسي، رُوح المعاني: 1/98.
(7) الفيروزابادي، بصائر ذوي التَّمييز: 1/134.
(8) عبد الرحمن حسن، معارج التّفكّر: 15/405.
(9) عبد الرحمن حسن، معارج التّفكّر: 15/405-406.

الاجتماعية والدينية، وتنبيهُ المؤمنين على خُبْثهم ومكرهم، وما تنطوي عليه نفوسُهم الشريرةُ من لؤمٍ وغدرٍ وخيانةٍ.

بيانُ جملةٍ من الأحكام التشريعية المتعلِّقة بشؤون الدولة الإسلامية، والأسرة، والمعاملات؛ كالجِهاد، والقِصاص، والصِّيام، والحَجِّ، والأَيمان، وبعضِ المعاملات المالية، والصَّدقات، وتحريمِ الخمر والميسر، والنِّكاح، وبعضِ أحكام النِّساء، وغيرِ ذلك.

❁ مُناسَبَةُ سورَةِ البَقَرَةِ لِسورَةِ الفاتِحةِ:

بين السّورتين تَناسبٌ من جهاتٍ عِدَّةٍ، مِنْها:

طلَبَ المؤمنون الهُدى في الفاتحة، فجاءَ في طالعة البقرة بيانُ مصدَرِ الهُدى

أوَّلا: أنَّ اللّه تعالى لمَّا ذكر طلبَ الحامدِين الهدايةَ في سورة الفاتحة في قولِه: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ﴾ إلى آخر السُّورة؛ قال في أوَّل البقرة: ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ۝٢﴾، فكأنَّ المَعْنَى: "قد أَعْطَيْتُكُم ما طَلَبْتُم: هذا الْكتَاب هُدًى فاتَّبِعوه"[1]، وهذا مِن تَناسُب الأَطراف[2].

في الفاتحة ذِكْرُ أصناف المُكلّفين، وفي مَطْلَع سورة البقرة تفصيلُ بعض صفاتِهم

ثانيًا: ذكر اللّه تعالى في آخر الفاتحة أصنافَ المُكلَّفين؛ وهُمُ العالِمون بالحقِّ العامِلونَ بِهِ، والعالِمونَ بِالحَقِّ الحائدُونَ عَنْهُ، والمُنْحَرِفون عَنِ الحقِّ جَهْلًا وضلالًا؛ ثمّ جاءَتْ سورةُ البقرة فذَكَر جلّ شأنه في مُفْتَتَحها: المؤمنين المُتَّقِين وهُمُ الصِّنف الأوَّلُ، ثُمَّ ذَكَرَ الكافرين والمُنَافقين وهُمُ الصِّنفان الباقِيَان، وهذا أيضًا مِنْ تَنَاسُب الأَطْراف[3].

ثالِثًا: المغضوب عَلَيْهِمْ همُ اليَهُودُ في أكثر أقوال أهل التّفسير بالمأثور، والضّالّون هم النَّصارى؛ وقد فُصِّلَت أحوالُهم على هذا

(1) السّيوطيّ، تناسق الدّرر في تناسب السّور، ص: 65.

(2) تناسب الأطراف: ويسمّيه بعضهم تشابه الأطراف، والمراد به أن يُختَمَ الكلامُ بما يُناسبُ ابتداءه في المعنى، ينظر: العلوي، الإيجاز، ص: 467.

(3) فاضل السّامرائّي، التناسب بين السّور في المفتتح والخواتيم، ص: 91.

المغضوبُ عليهم هم اليهودُ، وفي البقرة تفصيلُ أحـوالـهـم، والضّالّون هم النّصارى، وفي آل عمران تفصيلُ أحوالهم

التَّرتيبِ، فذُكِرَ خِطابُ اليهودِ في سورة البَقَرَةِ، وخطابُ النَّصارى في سورة آلِ عِمْرَانَ، فكانَتِ السُّورَتانِ بِمَنْزِلَةِ تَفْصيلِ المُجمَلِ لِما في الفاتِحَة[1].

رابِعًا: خُتِمت سورة الفاتِحَةِ بدُعاء المُؤمنين ألَّا يُسْلَكَ بهم طريقُ المَغْضوبِ عَلَيْهِمْ والضّالِّين، وخُتِمت سورةُ البَقَرَةِ بدُعائِهم "ألَّا يُسْلَكَ بِهِمْ طَريقُهُمْ في المُؤاخذة بالخطَأ والنِّسْيان، وحَمْلِ الإِصْر، وما لا طاقةَ لَهُمْ بِهِ تفصيلًا"[2]، وهذا هو مَظْهَرُ التَّشابُهِ بين السّورتَيْنِ في مَقاطِعِهِما.

(1) السّيوطيّ، تناسق الدّرر في تناسب السّور، ص: 69.

(2) السّيوطيّ، تناسق الدّرر في تناسب السّور، ص: 70.

﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ۝٢﴾ [البقرة: 1-2]

مُناسَبَةُ الِافْتِتَاحِ بِهَاتَيْنِ الآيَتَيْنِ:

طالبُ الهداية يَجِدُها في القرآن الكريم، في عقائده وتشريعاته وأحكامِهِ

لـمَّا ذُكِرت الهدايةُ في سورة الفاتحةِ وأنَّها مِن مَطْلُوبات الـمُؤمنين، وذُكِر فيها سالِكُوها؛ ناسبَ أن يُبَيَّن مَصْدَرُهَا، وهو هذا القرآنُ الكريم، فجاء قولُ الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ۝٢﴾، مُبيّنا أنّ طالبَ الهداية يَجِدُها في القرآن الكريم، في عقائده وتشريعاته وأحكامه.

الأحرفُ الـمُقَطّعةُ للتّحدّي، وهي إيماءٌ للفُصحاء أنّ القرآنَ من نسيج لغة العرب، وعَدَمُ إتيانهم بمثله دليلُ عجزهم، وبُرهانُ نُبُوّة محمد ﷺ:

ولـمَّا كان الكتابُ الذي لا يَنْبَغِي أن يُشَكَّ أنَّه مِن عند الله تعالى، لا تتَأَتَّى معارَضَتُهُ؛ قدَّم ذَلِكَ بقولِه: ﴿الٓمٓ﴾؛ للتَّنْصِيص على أَنَّ عدمَ قُدْرَة الخَلْقِ على مُعارضَتِه ليس لكونِهِ بحروفٍ تُخالِفُ ما يُرَكِّبُون به كلامَهُم، بل حروفُه حروفُهم، فإنْ شكُّوا في مصدرِهِ الإلَهِيِّ وادَّعَوْا صُدورَه عَن بَشرٍ؛ فلازِمُ ذَلِكَ قدرَتُهم على الإتيَانِ بِمِثْلِه.

وجملةُ القول: إنّ الأحرفَ الـمُقَطّعة -الَّتي بدأ بها الباري ﷻ تِسعًا وعشرين سورةً من سُوَر القرآن الكريم- هي حُروفٌ هجائيّة من لغة العرب، بها يَنْسُجون كلامَهم، ويَنْظِمون أشعارَهم، ويرتَجِلون خُطبَهم، وقد بلغوا في الفَصاحة والإفصاح والإبانة والتّبيين شأوًا عظيمًا لا يُبارى، وذُروةً قعساء لا تُضاهى، حتّى إنّهم أقاموا للشّعر أسواقًا، وللكلمة محافِلَ، فجاء القرآنُ الكريم بأعظم بيان وأجزل تعبير، وجاءت افتتاحيّاتُ الأحرف المقطّعة في بدايات بعض سوره ولسانُ حالِها يقول: إنّ هذا القرآنَ مُنَزّلٌ من جنس هذه الحروف التي تعرفونها، وتتحدّثون بها، وهو في الذّروة العليا من البلاغة والبيان، فإن كنتم تستطيعون أن تَنْسُجوا على مِنواله فافعلوا.

الأحرُف الـمُقطّعةُ عُنوانُ التّحدّي، مُنبِّهَةٌ إلى فصاحة القرآن وعُلُوّ شأنه في الإبانة، ورَمْزٌ للإعجاز البيانيّ:

إذًا، هي أحرفٌ للتّحدّي والتّنبيه إلى فصاحة القرآن وعُلُوّ شأنه في الإبانة والتّبيين، ورمزٌ للإعجاز البيانيّ. وقد كثُرت أقوالُ النّاس في تفسير معاني هذه الأحرف، وعند النّظر المُستبصِر فيما جاء فيها من أقوال، يجد الباحث أنّها مَحضُ تأويلاتٍ لا شيء يعضُدُ صحّتها، والمؤمنُ يُفوّضُ، في نهاية أمره، أمرَ العلمِ بهذه الأحرف إلى اللّه تعالى علاّم الغيوب.

❁ شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

الأحرُفُ المُقَطَّعَة تُقرأ مُقطَّعَةً حَرفًا حرفًا:

1) ﴿الٓمٓ﴾: هذه الأحرُف يُقَال لَهَا: الأحرُفُ المُقَطَّعَة؛ لِكَوْنِها تُقرأ مُقطَّعَةً حَرفًا حرفًا، وقَدِ افتُتِحَت بها جملةٌ مِن سور القرآنِ؛ وهي تسعٌ وعشرون سورةً.

وقد تنوَّعت هذه الحروف باعتبار عددِها[1]:

فمنها الأُحاديّ، مثل: ﴿قٓ﴾ و﴿صٓ﴾ و﴿نٓ﴾.

ومنها الثُّنائِيّ، مثل: ﴿يسٓ﴾ و﴿حمٓ﴾.

ومنها الثُّلاثيّ، مثل: ﴿الٓمٓ﴾، و﴿الٓرٰ﴾.

ومنها الرُّباعيّ، مثل: ﴿الٓمٓصٓ﴾ و﴿الٓمٓرٰ﴾

ومنها الخُماسيّ، مثل: ﴿كٓهيعٓصٓ﴾ و﴿حمٓ ۝١ عٓسٓقٓ﴾، ولا أَزْيَدَ مِنْ ذلك.

أرجحُ الأقوالِ فيها أنَّها أحرُفُ هجاءٍ، أُشير بها إِلَى إِعْجَاز القرآن الكريم

وقد اختُلِفَ في المُرادِ مِنْهَا اختِلافًا كبيرًا، والحديثُ عنها مبسوطٌ في كُتُبِ التَّفسيرِ، واستقراءُ القرآنِ العظيم يرجِّح أنَّها حُرُوفُ هجاءٍ، أُشير بها إِلَى إِعْجَاز القرآن الكريم؛ إِذْ كانَتْ حروفُهُ ليسَتْ بخارجةٍ عمَّا تَسْتَعْمِلُهُ العرَبُ في كلامِهَا، ومع ذلكَ عجَزوا عن معارضتِهِ[2].

ويَدُلُّ لذلِكَ شهادةُ استقراءِ القرآنِ لهذا القول: بأنَّ السُّوَرَ المفتتحةَ بالأحرُف المقطّعةِ يُذكَرُ بعدَها مباشرة القرآنُ الكريمُ

(1) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 1/71، والسّيوطيّ، نواهد الأبكار وشوارد الأفكار: 1/263.

(2) الثّعلبيّ، الكشف والبيان: 1/137، والزّمخشريُّ، الكشّاف: 1/27-28، والشّنقيطيّ، العذب النَّمير: 3/7، وابن عثيمين، تفسير الفاتحة والبقرة: 1/23.

والانتصارُ له غالبًا[1]، أو يُذكَرُ شيءٌ هو مِنْ خصائصِهِ[2]، وأنَّه الحقُّ الذي لا شكَّ فيه، وذكرُ ذلك بعدها دائمًا دليلٌ استقرائيٌّ على أنَّ الحروفَ المقطَّعةَ قُصد بها إظهارُ إعجازِ القرآن، وأنَّه حقٌّ[3].

أمَّا اختيارُ نفسِ الحروفِ المعيَّنَةِ؛ فالأرجَحُ أنَّ حِكْمَتَهُ مَطْوِيَّةٌ عَنَّا، ولا يمنَعُ هذا مِنْ تلمُّسِ المُنَاسبَاتِ لِمَنْ ظهَرَتْ لَهُ وتأيَّدَتْ عِنْدَهُ بالقرَائِنِ مِن دون جُنوحٍ إلى التكلُّفِ، واللّٰه أعلمُ.

أصلُ الكَتْب ضمُّ شَيْء إلى شَيْء، والمُرادُ بِالكتاب في مَطْلع البَقَرَة القُرآنُ الكريم

2) ﴿ٱلۡكِتَٰبُ﴾: على وزنِ فِعالٍ مِنَ الكَتْبِ، وأصْلُهُ: ضمُّ شَيءٍ إلى شَيءٍ[4].

ويُطلق الكتابُ على الخطِّ والكتابةِ، كما قال اللّٰه تعالى عن عِيسَى عليه السلام: ﴿وَإِذۡ عَلَّمۡتُكَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ﴾[5] [المائدة: 110].

ويُطلق مُرادًا به المكتوبُ، فيكون مِن إطلاقِ المصدَرِ مُرادًا به اسمُ المفعول، كقَوْلِهم: فِراشٌ يعنى: مفروش، وغِراس بمعنى: مَغْروس، ولِباس بمعنى: مَلْبوس، ثم أُطْلِقَ على الصَّحيفة مَعَ ما كُتِبَ فِيها[6].

ويأتي ﴿ٱلۡكِتَٰبُ﴾ في القرآن الكريم على أحدَ عشَرَ وَجْهًا[7]، والمُرادُ بِهِ في طالِعَةِ البَقَرَةِ: القُرآنُ الكريمُ[8].

الرَّيْبُ شكٌّ مَعَ تُهْمَةٍ

3) ﴿رَيۡبٞ﴾: الشَّكُّ مَعَ تُهْمَةٍ[9]، ويُطلق على الشَّكِّ مَعَ خوفٍ، يُقال: رَابَهُ الأَمْرُ؛ إِذَا أَدْخَلَ عَلَيْهِ شَكًّا وخَوْفًا[10]، وأصلُ الرَّيْبِ: "أَنْ يَنْزِلَ بالقارِّ السَّاكِنِ ما يُزْعِجُه ويَسوءُهُ"[11].

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 1/160.
(2) الشِّنقيطيّ، أضواء البيان: 2/165.
(3) ابن عثيمين، تفسير الفاتحة والبقرة: 1/23.
(4) ابن دُرَيْد، جمهرة اللغة: (كتب).
(5) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 3/223، ونصر الهُورِينيّ، المطالع النَّصْرِيَّة، ص: 41.
(6) نصر الهُورِينيّ، المطالع النصريّة، ص: 41.
(7) ابن الجوزيّ، نزهة الأعين النَّواظِر، ص: 527-526.
(8) السّعدي، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 40.
(9) ابن دُريد، جمهرة اللغة: (ريب)، وأبو هلال العسكريّ، الفروق اللغويَّة، ص: 264.
(10) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (ريب).
(11) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصَّل: (ريب).

وقيل: هو مرادِفٌ لِلشَّكِّ؛ يُقال: لا ريبَ، ولَا شكَّ، ولَا مِرْيَةَ؛ بمعنًى واحدٍ[1]، ولذا جاء في الكليَّاتِ: "كُلُّ مَا فِي القُرْآن مِن رَيْبٍ فهُوَ شكٌّ، إلَّا ﴿رَيْبَ ٱلْمَنُونِ﴾ [الطور: 30]؛ فَإِنَّ المُرَادَ حوادثُ الدَّهْرِ"[2].

والقول بترَادُفِهِمَا فيهِ نَظَرٌ، وأمَّا ما نقله ابنُ أبي حاتمٍ مِنَ الإجماعِ على تفسير الرَّيبِ بالشكِّ[3]؛ فهو مُؤَوَّلٌ بِمَا سيأتِي في الفُرُوق المعجميَّةِ إن شاء الله.

التَّقوى جَعْلُ النَّفس في وِقَاية مِمَّا يُخافُ، وحقيقتُها شرعًا: اتِّخاذُ وقايةٍ مِنْ عذَابِ اللهِ تعالى:

4) ﴿لِّلْمُتَّقِينَ﴾: اسمُ فاعِلٍ مِن (اتَّقَى)، وهو افتعالٌ مِن (وَقَى)؛ فأصلُ التَّاءِ من (اتَّقى) واوٌ: اوْتَقَى[4]، ومصدر (اتَّقى): الاتِّقاءُ.

والتَّقوى والتُّقَى: الصِّيانَةُ وَالحِفْظُ[5] أو: جَعْلُ النَّفس في وِقَاية مِمَّا يُخافُ[6]، أمَّا الاتِّقاء؛ فهو افْتِعَالٌ مِنَ التَّقْوى يُرادُ به: اتِّخاذُ الوقاية[7]، فالافْتِعَال هَهُنَا بمعنَى الاتِّخاذ، كما يقال: اخْتَتَمَ زَيْدٌ؛ إذا اتَّخذ خاتمًا، واخْتَدَمَ إذَا اتَّخَذ خَادِمًا، ونحو ذلك[8].

والمتّقون: الذين يتخذون الوقايةَ مِنْ عذَابِ اللهِ تعالى، وذلك بِفِعْلِ أوامِرِه واجتنابِ نَوَاهِيه[9].

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

القرآنُ كتابُ اللهِ المُعجزُ الذي لا ريبَ يَعْتريه، يهدي المُتّقين إلى صراط الله المستقيم

هذا القرآنُ العظيمُ الرَّفيعُ الشَّأنِ والمنزلةِ، مع أنَّه مُؤَلَّف مِن حروفٍ مَعْهودةٍ لَدَيْكُمْ، تتكوَّنُ منها لغتُكم - أيُّها العربُ - فيها إشارةٌ إلى إعجازِ القرآن؛ الذِي أنتم عَاجِزونَ عن مُعارضَتِه، فدَلَّ عَجْزُكم عن الإتيانِ بمثله - مع أنَّكم أفصحُ الناس- على أنَّ القرآن وحيٌ من الله، لا يَنْبَغِي لأحَدٍ أَنْ يَرْتابَ فيه؛ لأنَّه في نفسهِ لا شكَّ

(1) ابنُ مالك، الألفاظ المختلِفَة في المعاني المُؤتَلِفَة، ص: 166.
(2) الكَفَوِيُّ، الكلِّيَّات، ص: 464.
(3) ابن أبي حاتم، تفسير القرآن العظيم: 1/34.
(4) ابن منظور، لسان العرب: (ريب)، والزَّبِيدي، تاج العروس: (ريب).
(5) الجوهريّ، الصّحاح: (ريب)، والرّاغب، المفردات: (ريب)، والفيُّوميّ، المصباح المنير: (ريب).
(6) الرّاغب، المفردات: (ريب)، وصف الرّاغب هذا البيانَ بأنَّهُ التَّحْقِيقُ.
(7) الجرجانّي، التَّعريفات، ص: 65.
(8) الحملاويّ، شذا العرف في فن الصَّرف، ص: 32.
(9) ابن عثيمين، القول المفيد: 2/478.

فيه من أيِّ وجهٍ من الوجوه، فهو كلامُ اللّه ﷻ، المُنَزَّهُ عن الخطأ. ينتفع بهدايَتِه المتقون الذين يخافونَ اللّه، ويتَّبعون أحكامَه[1].

الإيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

حُسْنُ الِافْتِتَاحِ وبَراعَتُهُ بِالبَداءَةِ بِالأحرُفِ المُقَطَّعَةِ:

الأحرُفُ المُقَطَّعةُ وسيلةُ استِصْغاءٍ وتَنبيهٍ لِمَا بَعْدَها

ابتداءُ السُّورةِ الكَريمَة بالأحرُف المُقَطَّعةِ حُسْنُ افْتِتاح، ووَجْهُهُ: أنَّ فيها نوعَ غَرابَةٍ، وقد جرَتِ العادَةُ بالْتِفَاتِ النَّاسِ واسْتِشْرافِهِمْ للغَريبِ لِيَقِفوا عَلى حَقيقَتِه ومُعَمَّاهُ، فإذا الْتَفَتوا إلى القَوْلِ الغريبِ؛ وقعَ مقصودُ الكَلامِ الذي بعدَهُ على قُلوبٍ مُسْتَشْرِفةٍ؛ فيُبْلَغُ به المُرَاد، قال السُّيوطِيُّ: "والذي عندي أَنَّ اللّه وَضَعَها لإطْفَاءِ تَشْغِيبِ الكُفَّار حيث قالُوا: ﴿لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ﴾ [فصلت: 26]، فأتى اللّه بِها لِيَسْمَعوهَا لِغَرابَتِها، ثُم يُبَلِّغُ الرَّسول رسالَتَهُ"[2].

وفي هذا الابتداءِ أيضًا براعةُ استهلال -وهي أَخَصُّ مِن حُسن الِافْتِتَاح-؛ إذْ إنَّ الابتداءَ بالأحرُف المُقَطَّعَة فيه إيماءٌ إلى أَنَّ المُتَحدَّثَ عَنْهُ مِنْ لسَانِ العَرَبِ؛ وهو القُرآنُ الكريمُ، ومَوْضِعُ الإيماءِ آيةُ التَّحدِّي، ففي الأحرفِ المقطَّعةِ تلويحٌ بعجزِ العرَبِ عنِ الإتيانِ بكلامٍ منظُومٍ من جنسِ كَلامِهم.

سِرُّ الإشارةِ إلى الكتابِ باسمِ الإشارةِ الخاصّ بالبُعد:

عُلُوُّ القُرآنِ الكَريمِ وتَرَفُّعُهُ عَنْ دَعاوَى المُشَكِّكين

قولُهُ سبحانه: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ إشارةٌ إلى القرآنِ الكريم، وقَد عُبِّرَ بـ(ذلك) وهُوَ اسْمُ إشارةٍ موضوعٌ لِلبَعيد، والقُرآنُ الكريمُ المعبَّر عنه هَهُنا بالكِتابِ حاضِرٌ قريبٌ، ووَجْهُ ذلكَ: الإيماءُ إلى عُلُوِّ مكانتِه، وسُمُوِّه عَنْ أَنْ يُشَابِه كلامَ البشَرِ، والإشارةُ إلى أنّهُ مُتَرَفِّعٌ عمَّا يدَّعيه الكفَّارُ فيه مِنْ كونِهِ سِحرًا أو كَهانةً أو شِعرًا ونحوَ ذلك[3].

(1) البِقاعي، نَظْمُ الدُّرر: 1/80، والسعدي، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 40.
(2) السُّيوطي، معترك الأقران: 3/200.
(3) الشِّنقيطي، دفع إيهام الاضطراب، ص: 5.

بلاغةُ الإشارةِ بالبُعدِ، مَعَ قُرْبِ القُرآنِ من القُلُوبِ

وقد وردَت الإشارةُ إلى القرآن بالقُربِ في عِدّة مواضعَ مِنَ القرآن، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: 9]، ووَجْهُ ذلكَ: التَّنويهُ بقُربِ القرآن مِنَ الأسماعِ والألسنَةِ والقلوبِ[1].

فالقرآنُ الكريم على هذا التَّوجيهِ قريبٌ باعتبارٍ، بعيدٌ باعتبارٍ آخرَ؛ فلمَّا ذُكِرَ القُرآنُ في سِياقِ دَفْعِ الرَّيْبِ عنه اسْتُعمِلَتْ معَه أَدَاةُ البَعيد، ولـمَّا ذُكِرَ في سِياقِ الهِدايَةِ اسْتُعمِلَتْ معه أدَاةُ القَريب.

القرآنُ سامٍ في لُغتِه ومَضمونِه، فائقٌ في إحكامِه ونَظْمِه

إيثارُ البُعْدِ في طالعةِ البقرَةِ؛ لافتتاحها بالأحرُفِ المُقَطَّعة المُومِئةِ إلى التَّحدِّي بالقرآن، يُشْعِرُ بِعُلُوِّ شأنِه وَتفوُّقِه على سائرِ الكلامِ، فكانَ الأنسبُ التَّعبيرَ باسمِ الإشارةِ الدَّالِّ على البُعْدِ للتَّنْويه بهذا المعنى؛ ولذا نَجِدُ كلَّ سُوَرِ القرآن المُفتتحةِ بالأحرُفِ المُقَطَّعة قد ذُكر فيها القرآنُ مُشارًا إليه، والإشارة وقعَتْ بِاسْمِ الْإِشَارَةِ لِلبَعِيدِ[2]؛ لهذا التَّعْليل، واللّه أعلمُ.

(أل) في لفظِ ﴿ٱلْكِتَٰبُ﴾؛ بَيْنَ الكمالِ والعهد:

القرآن كتاب الكمال على الحقيقة

وأل في ﴿ٱلْكِتَٰبُ﴾ لِلكَمالِ، أي: ذلك الكتابُ الكاملُ في نَظْمِه وبلاغتِه ومَعَانيه وَأحكامِه وتشريعاتِه؛ فكأنَّه المُتفرِّدُ باستحقاقِ اسْمِ الكتابِ، وغيرُهُ ليس بكتابٍ على الحقيقةِ[3].

ويتأكَّدُ هذا المعنى عِنْدَ مَنْ يختار الوقف على ﴿ٱلْكِتَٰبُ﴾[4]؛ إذِ الجملةُ حينئذٍ تكونُ مُكوَّنةً مِنْ مبتدأٍ ﴿ذَٰلِكَ﴾ وخَبرِه ﴿ٱلْكِتَٰبُ﴾، وهما مَعْرِفَتانِ، وتعريفُ جُزأَيِ الجُملةِ مفيدٌ لِلقَصْرِ[5]، وهو هنا قَصْرٌ حقيقيٌّ ادِّعائيٌّ، على المعنى الذي سبق آنِفًا.

---

(1) الشِّنقيطي، دفع إيهام الاضطراب، ص: 5.

(2) وهي: البقرة، ويونس، ويوسف، والرَّعد، والحِجر، والشُّعراء، والنَّمل، والقصص، ولقمان؛ فهي تِسعُ سُوَرٍ.

(3) الزَّمخشري، الكشَّاف: 1/33.

(4) وهو وقف ضعَّفه أبو بكر الأنباريُّ في إيضاح الوقف والابتداء: 1/486، وقال الأشمونيُّ في مَنار الهُدى، ص: 74، مبيِّنًا وجهَ الوقف على ﴿ٱلْكِتَٰبُ﴾: «إنْ جُعِلَ ﴿لَا رَيْبَ﴾: لا شك، وإن جُعِل بمعنى: حقًّا؛ فالوقف على ﴿لَا رَيْبَ﴾، والوقف على الوجهين تامّ».

(5) محمَّد أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 1/99، ويُقارن بما ذكره ابن عاشور في التَّحرير والتَّنوير: 1/224.

ويَحْتَمِلُ أَنْ تَكُونَ لِلعَهْدِ العِلْمِيِّ؛ أي: ذلك الكتابُ المَوْعودُ بتَنزيلِه[1]، أو: ذلك الكتابُ الذي تَتْلونَه وتَقرَؤُونَه، وهو حَاضِرٌ في أَذْهانِكُم، فهو الكتابُ باعتبارِ ما نزلَ ممَّا تعرفون، وما سينزِلُ ممَّا ستعلمون.

الفَرقُ بين اسمي الكِتَابِ والقرآن:

الكتابُ اسمٌ للوَحي بوصفِه مكتوبًا، والقرآنُ اسمٌ بوصفِه مقروءًا

(الكِتابُ) و(القرآنُ) كلاهُما اسمٌ لِلوَحْيِ المُنَزَّلِ على النَّبيِّ محمَّد ﷺ، فهُمَا بهذا الاعتبارِ مُترادفانِ، إلَّا أنَّ كلًّا منهما يُشيرُ إلى وصفٍ ليس في الآخَرِ، فـ(الكتاب) يُشير إلى كونِه مكتوبًا، إمَّا في اللَّوحِ المَحْفوظِ فيمَا كانَ وما هو كائِنٌ ومَا سَيكُونُ، أو في الصُّحُفِ التي بين أَيْدِي النَّاس بعدَ نُزُولِه، أو كلاهُما وهو الأَظْهرُ، و(القرآنُ) يُشير إلى كونِه مَقْرُوءًا مَتْلُوًّا، وفي هذه الإِشَارَةِ تأكيدٌ على حِفْظِ الكِتَابِ المَكْتُوبِ، ودعوةٌ إلى قراءتِه.

سِرُّ التَّعبيرِ بالكتابِ دونَ القرآنِ:

نَفْيُ الرَّيْبِ الذَّاتِيِّ عَنِ الوحي، هو الأَنْسَبُ بلفظِ الكتَابِ

وأُوثِر التَّعبيرُ بـ ﴿ٱلْكِتَٰبُ﴾ دونَ القُرآنِ؛ لأنَّ المقصودَ نفيُ الرَّيْبِ الذَّاتِيِّ عَنْهُ، وهو أنسبُ لِلوَحْيِ المَكْتوب في اللَّوْحِ المحفوظِ وفي الصُّحُفِ، ثُمَّ يَسْتَتْبِعُ ذلكَ عدمَ جوازِ الشَّكِّ في الوَحْيِ مُطْلَقًا؛ مقروءًا كان أو مكتوبًا في صُحُفِ النَّاسِ.

جُمْلَةُ: ﴿لَا رَيْبَۛ فِيهِۛ﴾ بين الخَبَرِ والإِنْشَاءِ:

الوَحْيُ المكتُوبُ في اللَّوحِ المحفوظِ يقينٌ مُزِيلٌ لِلشَّكِّ والرَّيْبِ

جملَةُ: ﴿لَا رَيْبَۛ فِيهِۛ﴾ خَبَرِيَّةٌ في اللَّفْظِ، فإنْ أُرِيد بالكتابِ: الوَحْيُ المكتُوبُ في اللَّوحِ المحفوظِ، فهي جملةٌ خبريَّةٌ باقيةٌ على خبريَّتِهَا، يُرادُ بها: المَدْحُ والتَّنْويهُ؛ وذلك بإثبات كمالٍ ضدِّ الوصفِ المنفيِّ؛ فهو كتابٌ "مُشْتَمِل على علم اليقين المُزيل لِلشَّكِّ والرَّيب"[2]، وذلك أخذًا بقاعدة النَّفْيِ المرادِ به المدحُ: أي: النَّفيُ المتضمِّنُ إثباتَ كَمَالِ الضِّدِّ؛ إذِ النَّفْيُ المَحْضُ ليس مَدْحًا ولا كمالًا.

(1) التَّفسير الوسيط لمجمع البحوث الإسلاميَّة بالأزهر: 1/29.

(2) السّعدي، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 40.

الجُملةُ خبريّةٌ لفظًا، إنشائيّةٌ معنًى، تَنْهى النّاسَ عنِ الارْتيابِ

وإن أُريدَ بالكتابِ: ما بأيدي النَّاسِ ممَّا كُتِب مِنَ الوحي؛ فالجملةُ خبريةٌ لفظًا، إنشائيَّةٌ معنًى؛ يُرادُ بها النَّهْيُ عَنِ الارْتِيَابِ في القرآنِ الكريم، والمَعْنَى: لا تَرْتابُوا فيهِ[1]، والقرينَةُ الدَّالَّةُ على صَرفِ الخَبَرِ إلى الإنشاءِ: وقوعُ ارْتِيَابٍ مِنْ بعضِ الخَلْقِ.

ووُرودُ الخَبَرِ مُرادًا به الأمرُ أَوِ النَّهْيُ كثيرٌ في القرآن الكريم، وهو ضَرْبٌ مِن ضُروبِ البَلَاغةِ، وفنٌّ من فنونِ المَجازِ؛ وذلك أنَّ وُرودَ الخَبَرِ مُرادًا به الأمرُ أو النَّهيُ أبلغُ مِنَ الأمر والنّهي الصَّريحَيْنِ، "كأنَّه سُورع فيهِ الامْتِثَالُ وأُخْبِرَ عَنْهُ"[2].

ويمكِنُ الجمعُ بَيْنَ المعاني السَّابقة؛ فيُقال بِأَنَّ معنى ﴿لَا رَيْبَۛ فِيهِۛ﴾: لا ترتابوا في الوحي المكتوبِ بَيْنَ أيديكم؛ لأنَّهُ موافقٌ لِلوَحْيِ المكتوب في اللَّوح المحفوظِ، وهُوَ لا ريبَ فيه، وكذلكَ ما بِأَيْدِيكُمْ لا رَيْبَ فيه في ذاتِهِ، فلا يَنْبَغِي الارْتِيابُ فيهِ.

مُناسَبَة التَّعْبيرِ بِمادّة (الرَّيْبِ) دون (الشّكّ):

اسْتِعمالُ لفظِ الرَّيْبِ لمعنى الشَّكِّ في الرِّسالةِ، واتِّهامِ الرَّسولِ بالافتراء

جاءَ التَّعبيرُ بقولِه: ﴿لَا رَيْبَۛ فِيهِۛ﴾ دون (لَا شَكَّ فِيهِ)؛ لأنَّ المشركين -مع تَشْكِيكِهم في القرآن الكريم-؛ كانوا يتَّهِمون النَّبِيَّ ﷺ بأنَّه هو الذي افتراه، وهذا بخلاف الوارد في قولِه تعالَى: ﴿إِن كُنتُمۡ فِي شَكّٖ مِّن دِينِي﴾ [يونس: 104]؛ إذ الخِطابُ للنّاسِ، وافتراضُ الشَّكِّ في الدِّينِ وهو التَّوحيدُ، لا في خُصوصِ القُرآنِ، وفي آيةِ يونس "تَعريضٌ ولَحْنٌ من الكلامِ لَطيفٌ"[3]، إذ تدعوهُم للشَّكِّ في دِينِهم، فالتَّعبيرُ بالشَّكِّ هو الأنسبُ بسياقِ الآيةِ.

دلالة الوَقْفِ على لَفْظِ ﴿ٱلۡكِتَٰبُ﴾:

الإشارةُ إلى أنّ القرآنَ هو الكتابُ الحَقُّ الكَامِلُ بِلا رَيْبٍ

إذا وُقِفَ على ﴿لَا رَيْبَۛ﴾؛ كان مِن إيجَاز الحَذْفِ، والتَّقديرُ:

(1) الواحديّ، التَّفسير البسيط: 2/58، والسَّمين: الدُّر المصون: 1/90.
(2) السُّيوطيّ، معترك الأقران: 1/195.
(3) أبو هلال العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 264.

لَا ريبَ في أنَّه الكتابُ الكاملُ، وهو وقفُ نَافِعٍ وعاصم[1]، أو يكون المعنى: ذلك الكتابُ حقًّا[2]، وتكون جملةُ: ﴿فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ﴾ مُستقلّة بمعنَاها ومَبنَاها.

فائِدةُ تنكيرِ لفظ ﴿هُدٗى﴾ لتعظيمِ القرآنِ:

هُدى القرآن عظيم لا يُدرك شأوه

نُكِّر الهُدَى في قولِه: ﴿هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ﴾؛ لتَعظيمه وتفخِيمه، فهو هُدًى عظيمٌ لا يُسبَرُ غَورُهُ، ولا يُدْرَكُ مُنْتَهاهُ، وهو فخمٌ لا يَليقُ إلّا بالمتَّقين.

التَّعبيرُ بالمَصْدَرِ دونَ اسمِ الفَاعلِ للمبالَغةِ:

القرآن مصدر الهدى، بل هو الهدى عينه

يؤيِّدُ دلالة التَّعظيمِ والتَّفخيم: التَّعْبِيرُ عَنْ هداية القرآنِ بالمَصْدَرِ دون اسمِ الفاعِلِ؛ إذْ كان مُقتضى الظَّاهر إذا وُقِفَ على ﴿لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ﴾، أن يُقال: (هَادٍ للمُتقين)، ولكنْ عُدِلَ عَنْهُ إلى التَّعبير بالمَصْدَرِ لِلمُبالغَةِ في وصفهِ بالهدايةِ، فكأنَّهُ هو الهدايةُ نفسُها.

بلاغةُ الأوصافِ المُتوالِيَةِ:

توالي الأوصافِ مُفْضٍ إلى وَصْفِ القُرآنِ بالكَمَالِ المُطلَقِ

وهذه الأوصافُ المُتَعَاقِبَةُ يُقوِّي بعضُها بعضًا في كون القرآنِ كتابًا كاملًا؛ وذلك لأنَّ قولَه ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ﴾ يقتضي كمالَهُ مِنْ وَجْهَيْنِ: مِنْ جِهَةِ تعريف جُزأَي الجُمْلَة، ومن جهة تعريف (الكِتاب) بـ (أل) -على ما سبق بيانه آنفًا-، ثم جاءَ قولُه: ﴿لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ﴾ لِيَشْفَعَ لِلمَعْنَى السَّابقِ ويُعزِّزَهُ، فكَوْنُهُ كتابًا لا رَيْبَ فِيه يَسْتَحِقُّ اتِّصافَهُ بالكمالِ، ثم جاءَ قولُهُ: ﴿هُدٗى﴾ مُنَكَّرًا؛ للدّلالة على عَظِيمِ هذه الهدايةِ.

ولكَوْنِ هذه الأوصافِ يُقوِّي بعضُها بعضًا؛ جاءَت الجُملُ مَفْصُولًا بعضُها عن بعضٍ؛ لِلإيمَاءِ إلى كَمالِ الاتِّصالِ بينها.

(1) السّخاويّ، جمال القرّاء وكمال الإقراء، ص: 691.
(2) الألوسّي، روح المعاني: 1/110.

توجِيهُ المَخْصُوصِ بالذِّكْرِ:

إظهارُ المُنتفعين بهِدَايَةِ الْقُرْآنِ تَشريفًا وتكريمًا

خُصَّ المُتَّقُونَ بالذِّكْرِ في قولِه سبحانه: ﴿هُدَى لِّلْمُتَّقِينَ﴾؛ لكونِهم المُنتفعينَ بهِ[1]، وإلَّا فالقرآنُ في نفسهِ هادٍ للنَّاسِ وبيانٌ لَهُمْ جميعًا، كما قال تعالى: ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ﴾ [البقرة: 185].

أَوْ هو مِنْ بابِ الاكتِفَاءِ؛ فقوله: ﴿هُدَى لِّلْمُتَّقِينَ﴾، أي: والكافرين أيضًا[2]، كقوله تعالى: ﴿سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾ [النحل: 81]، أي: والبردَ كذلك، واكتُفِيَ بذكر المتَّقين؛ تشريفًا لهم[3]، ولئلَّا ينقطِعَ النَّظْمُ مع أوصافِهِمُ المذكورةِ بعدُ في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾.

بلاغةُ المجازِ المُرسَلِ:

إبرازُ قيمةِ الهِدَايةِ في التّعبيرِ عن النّاس بـ(المُتّقين)

ويحتمل أَنْ يكون مِن باب المجاز المُرْسلِ، علاقتُهُ: اعتبار ما يؤولُ إليه الأمْرُ، والمعنى: هُدًى لِلنَّاسِ الصَّائِرينَ مُتَّقينَ[4]، ولعَلَّ فائدةَ التَّعْبِيرِ بالمَجَازِ هَهُنَا: قَرْنُ الكتابِ بذِكْرِ عاقِبَتِهِ الحَسنَةِ على أهلِهِ المُتَمَسِّكين بهِ، وذَلِكَ أنشَطُ لِلعَمَلِ، واللّه أعلم.

سِرُّ التّعبير بالمُتّقين دون المؤمنين أو المسلمين:

التّقوى اجتهادٌ وتَرَقٍّ في مَدارجِ الإيمان والأعمالِ الصّالحة

وثمّة معنًى آخرُ دقيقٌ يحمِلُه لفظُ (المتّقين)، وهو دعوةُ المُؤمنين إلى الاجتهادِ والأخْذِ بأسبابِ التّقوى، والحِرْصِ على التّرَقّي في مَدارج الإيمان والأعمال الصّالحة؛ إذ لفظ (اتّقى) يدلُّ بصيغتِه على الافتعالِ وبَذْلِ الجُهدِ لتحقيقِ الفعلِ، وهذا ما لا يحملُهُ لفظُ (المُسلمين) أو (المُؤمنين)، إذْ هما عنوانانِ للإسلامِ والإيمانِ، وليس عنوانُ الأمرِ كعملِه.

(1) ابن باديس، مجالس التَّذكير، ص: 26.
(2) الواحديّ، التَّفسير البسيط: 2/54، والزَّركشيُّ، البرهان في علوم القرآن: 3/120.
(3) أبو حيَّان، البحر المحيط: 1/64.
(4) الزَّمخشري، الكشَّاف: 1/35-36.

الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الرَّيْبُ والشَّكُّ:

سَبَقَ أنَّ جماعةً مِن العلماءِ يَرَوْنَ أنَّ الرَّيْبَ مُرادِفٌ لِلشَّكِّ؛ بل نَقَلَ ابنُ أبي حاتم الإجْماعَ على تَفْسير الرَّيبِ بالشَّكِّ الواردِ في صَدْرِ سورة البقرة[1]؛ وليس في هذا الإجْمَاعِ إجماعٌ على تَرادُفِهما، وإنَّما كان الاتِّفاقُ على تفسيرِ الرَّيب بالشّكِّ مِن جهة وجُودِ أصل الشَّكِّ فيهِ؛ إذْ كلُّ رَيْبٍ فيه شكٌّ -كما سيتَّضحُ قريبًا-.

ولذا قال السَّمين الحلبيّ: "فلَيْسَ قولُ مَن قال: (الرَّيْبُ الشَّكُّ مُطلقاً) بِجَيِّدٍ، بل هو أخصُّ مِنَ الشَّكِّ"[2].

الرّيبُ شكٌّ مع تُهمة، أو شَكٌّ وزيادةُ ظنٍّ سوءٍ، والشّكُّ وقوفُ النَّفس بين شَيْئَيْنِ مُتَقَابِلَيْن مِن دون أَمَارَةٍ مُرَجِّحةٍ بينَهُما:

والتَّحقيقُ أنَّ بين الرَّيْبِ والشَّكِّ فرقًا، وقَدِ اخْتَلَفَتْ عباراتُ العلماءِ في بيان الفرقِ بَيْنَهُما؛

فقيل: الرَّيْبُ: الشَّكُّ مع تُهمة[3]، أو هو شكٌّ وزيادةُ ظنٍّ سوءٍ[4]، وحقيقتُهُ: قَلَقُ النَّفس واضْطِرابُها[5]، والتُّهْمَةُ التي في الرَّيْبِ هي تُهمةٌ لِلمُخْبِرِ[6].

وقيل: الشَّكُّ وقوفُ النَّفس بين شَيْئَيْنِ مُتَقابِلَيْن مِن دون أَمارَةٍ مُرَجِّحةٍ بينَهُما، والرَّيبُ: أَنْ يُتَوَهَّمَ في الشَّيء أمرٌ ما، ثُمَّ يَنْكَشِفَ عمَّا تُوُهِّم فيه[7]، فكَأَنَّ في الرَّيْبِ نوعَ حُكْمٍ وإنْ لَم يَكُنْ جازمًا، بخلاف الشَّكِّ فلا حُكْمَ فيهِ.

والتَّحقيقُ فِيهِ مَا قرَّره ابنُ القَيِّم رحمه الله تعالى؛ فَقَد جعلَ الفَرْقَ بَيْنَهُمَا مِنْ سِتَّةِ أوجُهٍ؛ نُرْجِعُهَا إلى فَرْقَيْنِ اثنين[8]:

أَحَدهما: فرق لفظيٌّ، والآخر: معنويٌّ.

---

(1) ابن أبي حاتِم، تفسير القرآن العظيم: 1/34.

(2) السَّمين، الدُّر المصون: 1/86.

(3) السَّمين، الدُّر المصون: 1/86، وأبو هلال العسكريّ، الفروق اللُّغويَّة، ص: 264.

(4) النَّيسابوريّ، غرائب القرآن: 1/137.

(5) الزَّمخشريّ، الكشَّاف: 1/34.

(6) الهرريّ، حدائق الرَّوح والرَّيحان: 17/409.

(7) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 1/115.

(8) ابن القيِّم، بدائع الفوائد: 4/106.

فأمَّا اللَّفظيّ؛ فإنَّه يُقال: شَكٌّ مُريبٌ، ولا يقال: رَيْبٌ مُشَكِّكٌ، ويقال: رابَنِي أمرٌ كذَا، ولا يُقال: شكَّكَنِي.

الشَّكُّ أصلٌ للرَّيْبِ وسَبَبٌ فيهِ؛ فإِنَّ العَبْدَ يشُكُّ أوَّلًا، ثُمَّ يُوقِعُهُ الشَّكُّ في الرَّيْبِ:

وأمَّا المعنويّ؛ فهُوَ أَنَّ الرَّيبَ بمعنى الانْزِعاج والقلَقِ، يُقال: رابَهُ إذا أزعجه وأَقْلَقَه، ولا يكون هذا المعنى في الشَّكِّ؛ فإنَّك تقول: لا تُرِبْ فلانًا بمعنى لا تُزعِجْهُ ولا تُقْلِقْهُ، ولا يصحُّ أَنْ يُقَالَ: لا تُشَكِّكْهُ -بِذَلِكَ الْمَعْنَى-.

والرَّيْبُ فيه -مع الشَّكِّ- مَعْنَى التُّهْمَةِ، فيُقال: رابنِي مجيئُهُ، ولا يقال: شكَّكَنِي مجيئُهُ.

ولذا فَإِنَّ الشَّكَّ أصلٌ للرَّيْبِ وسَبَبٌ فيهِ؛ فإِنَّ العَبْدَ يشُكُّ أوَّلًا، ثُمَّ يُوقِعُهُ الشَّكُّ في الرَّيْبِ.

﴿ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ٣﴾ [البقرة: 3]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

بَعدَ ذِكْرِ المُتّقين الذين يهتدون بالقرآن، حسُنَ إيرادُ أوصافِهِم

لَمَّا ذكر الله تعالى أَنَّ القرآن هُدًى لِلمُتَّقين؛ ناسَبَ أن تُذْكَرَ أوصافُهم المُعرِّفَةُ بِهِمْ، فذَكَرَ اللهُ تعالى مجامِعَ أعمالِهم تعريفًا لَهُمْ، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ﴾ [1]، فَوَصْفُهُم بـ (المُتَّقين) صفةٌ إجماليَّةٌ، وما ذُكر بعدُ تفصيلٌ يُعْرَفُ به المُرادُ، ولِيَكون هذا التَّفصيلُ مبدأَ الاسْتِطْرادِ لذِكْرِ أصنَافِ المُتلَقِّين لِلوَحْيِ[2].

شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

الإيمانُ لغةً التّصديقُ، وشرعًا قولٌ وعملٌ واعتقادٌ

1) ﴿يُؤۡمِنُونَ﴾: فعل مضارعٌ لِلفعل: (آمَنَ)، مُسنَدٌ إلى جماعةِ الذُّكورِ، والهمزةُ والميمُ والنُّونُ: تدلُّ على تصديقٍ وسُكُونِ قلبٍ[3].

وأصلُ الأَمْنِ: طُمأنِينَة النَّفْس وزَوالُ الخوف[4]، وفِعْلُهُ: أَمِنَ.

وأمَّا (آمَنَ)؛ فله وجهان[5]:

أحدهما: أَنْ يكونَ متعدِّيًا، تقولُ: آمَنْتُهُ؛ إذا جعلتَ له الأَمْنَ والأمانَ، ومِنْهُ -في وَجْهٍ[6]- اسمُ اللهِ: المُؤْمِنُ.

والآخر: أَنْ يكونَ لازمًا، ومَعْنَى (آمَنَ) على هَذَا: صَارَ ذَا أَمْنٍ.

والإيمانُ: التَّصْديقُ، بِاتِّفَاقِ أهل اللُّغةِ[7]، ونازَعَ في هذه الحقيقَةِ اللُّغَوِيةِ جماعةٌ[8].

---

(1) البقاعيّ، نَظْمُ الدُّرر: 1/82.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/228.

(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (أمن).

(4) الرّاغب، المفردات: (أمن).

(5) الرّاغب، المفردات: (أمن).

(6) الزَّجّاج، تفسير أسماء الله الحسنى، ص: 32-31.

(7) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة: (أمن). وهذا الاتِّفاق إنَّما هو في الحقيقة اللُّغويَّة لِلإيمانِ، أمَّا معنَاه في الشَّرْعِ فلَيْسَ هُوَ معناه في اللُّغةِ، بل له في الشَّرْعِ حقيقةٌ أُخْرى أَوْضَحَتْهَا أدلّتُهُ.

(8) ابن تيميَّة، الإيمان، ص: 101، وما بعدها. والنِّزاعُ هو في بيان الحقيقة اللُّغويَّة، أما الحقيقة الشَّرعيَّة للإيمان وأنَّه: قول وعمل واعتقاد؛ فلم تختلف كلمة أهل السُّنَّةِ فيهِ، بل صارَ ذلك مِن شعارِهِمْ.

والإِيمَان فِي الشَّرْعِ يُطلق إطلاقين[1]:

إطلاقًا عامًّا؛ تَنْدَرِجُ فيه جميعُ أمور الدِّين العِلميَّة والعَمَلِيَّة، فهو بِهَذَا الاِعْتِبَارِ: قولٌ وعمل واعتقاد.

للإيمان تعريفٌ اصطلاحيٌّ خاصٌّ هو: التّصديقُ بأصول الإيمان السِّتَّةِ المشهورةِ:

وإطلاقًا خاصًّا، والمرادُ به التَّصديق والإقرَار بأصول الإيمان السِّتَّةِ المشهورةِ.

والظَّاهِرُ أنَّ لفظَ الإيمانِ الواردَ في قوله: ﴿يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾، يُراد به معناه اللُّغويُّ: التصديقُ[2]، ثُمَّ يَؤُول أمرُ التَّرْكِيبِ -الإيمان بالغيب- إلى الإطلاق الخاصِّ لِلإيمانِ، والمعنى: أنَّهُم يُصدِّقون بالغَيْبِ، ويدخلُ فيه أصولُ الإيمانِ السِّتَّةُ.

الغَيبُ كلُّ ما غاب عن الإنسان، والمُرادُ كلُّ ما يجبُ اعتقادُ وجوده ممّا لا يُدْرَكُ بالحِسّ

2) ﴿بِٱلْغَيْبِ﴾: مَصْدَرُ الفعل (غابَ يغيبُ غَيْبًا)، ويُطلَقُ مُرادًا به اسمُ الفاعل، أي: الغائبُ[3]، وبِهَذَا المعنى يُعنى بلفظ (الغَيْب): كُلُّ ما غابَ عَنْكَ[4].

ويُطلق على المُطْمَئِنِّ مِنَ الأرضِ[5]؛ وهو ما انخفضَ مِنْهَا، وهو راجِعٌ إلى الأوَّلِ؛ إذِ الدَّاخِلُ في مُطمَئِنِّ الأرض يكونُ غائبًا مَخفيًّا عَنِ العيُونِ[6].

والغَيْبُ في الآيةِ، قيل: هو اللّه تعالى؛ لأنَّه لا يُرى في الدُّنيا[7]، وقيل: القضاء والقدر، وقيل: أحوال الآخرة، وقيل غير ذلك.

وهذه الأقوالُ إنما هي مِن بابِ التَّمثيلِ لِلغَيْبِ ببعض أفرادِهِ، وإلَّا فجميعُ ما ذُكِرَ يَصْدُق عَلَيْهِ أنَّه ممَّا غاب عن الحسِّ فهو غَيْبٌ، ولذا قال ابنُ عطيَّة: "وهذه الأقوالُ لا تَتَعَارَضُ، بل يقَع الغَيْبُ على جميعها"[8].

---

(1) عبد الرَّحمن البرَّاك، شرح العقيدة الطحاويَّة، ص: 239.

(2) ابن جرير، جامع البيان: 1/234.

(3) ويجوز أن يكون بمعنى اسم المفعول، أي: المُغَيَّب. ينظر: محمود صافي، الجدول في إعراب القرآن: 1/36.

(4) الفيُّوميّ، المصباح المنير: (غيب)، والفيروزابادي، القاموس المحيط: (غيب).

(5) الفيروزابادي، القاموس المحيط: (غيب).

(6) ابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 1/84.

(7) جمال الدّين الفتَّني، مجمع بحار الأنوار: 4/80.

(8) ابن عطيَّة، المحرر الوجيز: 1/84.

3) ﴿وَيُقِيمُونَ﴾: فعلٌ مضارعٌ لِلفعلِ (أَقَامَ)، ومصدرُهُ: الإقامةُ؛ بِمعنى الدَّوامِ[1]، يقال: أقام الصَّلاةَ إِذَا داومَ عَلَيْهَا، أمَّا (أقامَ لَها) فمَعْنَاهُ: نادى لها[2] بألفاظ الإقامةِ.

إقامةُ الصّلاة الإتيانُ بِهَا على وجه المُحافظة علَى أَرْكَانِها وشُروطِها ومُكَمِّلاتها

وجَوَّز بعضُ أهلِ العِلْمِ أَنْ يكونَ ذلك مِنَ التَّقويمِ وهو التَّعديلُ، مِن قَوْلِكَ: قوَّمتُ العودَ؛ إذا عدَّلتَه، ويكون معنى أَقَام الصلاةَ -على هذا المعنى-: الإتيانَ بِهَا على وجه المُحَافظة علَى أَرْكَانِها وشُروطِها ومُكَمِّلاتها[3].

ويحتمل أنَّ معنى: أقامَ الصّلاةَ؛ أظهَرَها، مِنْ قَوْلِهِم: أُقيمَتِ السّوق[4].

ولا مانِعَ مِنَ الْجَمعِ بين تلك المعاني جميعًا؛ فيكون معنى أَقَام الصّلاةَ: داوَمَ عَلَيْهَا، وأَظْهَرَها، وأتَى بها مُحافِظًا على أركانها وشروطها ومكمِّلاتِهَا.

4) ﴿رَزَقْنَٰهُمْ﴾: أَعْطَيْناهُمْ، مِنْ (رَزَقَ يَرْزُقُ رَزْقًا)، فالمَصْدَرُ: الرَّزْقُ بفتح الرَّاءِ، والرِّزْقُ هو الاسمُ، وقد يُستعمل بمعنى المصدر[5].

الرِّزقُ العطاءُ الجاري، والنّصيبُ، وما يَصِلُ إلى الجَوْف ويُتَغذَّى به، وكلُّ خَيْرٍ وَصَلَ إلى صاحبِه، ويُطلق الرِّزقُ إطْلَاقاتٍ متعدِّدةً[6]:

أَوَّلُها: العطاءُ الجارِي، ومِنْهُ قولهم: رَزَقَ السُّلطانُ جُنْدَه.

ثَانيها: النَّصيب، ومِنْهُ قولُه تعالى: ﴿وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا﴾ [النحل: 75].

ثَالثُها: ما يَصِل إلى الجَوْف ويُتَغذَّى به، ومِنْهُ قولُ النَّبِيِّ ﷺ: «لَوْ أَنَّكُمْ تَوَكَّلْتُمْ عَلَى اللَّهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ؛ لَرَزَقَكُمْ كَمَا يَرْزُقُ الطَّيْرَ؛ تَغْدُو خِمَاصًا، وَتَرُوحُ بِطَانًا»[7].

---

(1) أبو عبيد الهروي، الغريبين: (قوم).
(2) الفيومي، المصباح المنير: (قوم).
(3) النّبراوي، حاشية على الأربعين النووية، ص: 37.
(4) ابن عطيَّة، المحرر الوجيز: 1/85.
(5) الواحدي، التفسير الوسيط: 1/82.
(6) السَّمين، عمدة الحفاظ: (رزق)، وابن الجوزي، نزهة الأعين النواظر، ص: 324.
(7) رواه التِّرمذي، حديث رقم: (2344)، وابن مَاجَه، حديث رقم: (4164)، وهو صَحِيحٌ كما في السِّلسلة الصَّحيحة، حديث رقم: (310).

رابعها: كُلُّ خَيْرٍ وَصَلَ إلى صاحبِه، ومِنْهُ قَوْلُهُم: رَزَقَ اللهُ فلانًا عِلْمًا.

وحَمْلُ الرِّزْقِ في الآيةِ على العُمُوم أَوْلَى، وأَنْسَبُ لبلاغة القرآنِ القائمةِ على وَفرة المعاني؛ فيكون الرِّزْقُ شاملًا لِلمالِ والقوَّة والجاهِ والعلمِ ونحو ذلكَ[1].

الإنفاقُ إخراجُ المالِ ونحوِهِ في وجوهِ الخير، وقد يكونُ واجبًا ومُستَحَبًّا

5) ﴿يُنفِقُونَ﴾: أصلُ الإنفَاقِ: الإنْفادُ؛ يُقال: أنفقَ القومُ؛ إذا نَفِدَ ما عِندَهُمْ[2]، ومِنْهُ قولُهم: أنفقَ الرَّجُلُ، أي: افتقَرَ لنفادِ مالِه، ومِنْهُ قول الله تعالى: ﴿إِذَا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ﴾ [الإسراء: 100] أي: الفَقْرِ[3].

ويُطْلَقُ الإنفاقُ على إخراجِ المالِ ونَحْوِهِ مِنَ الْيدِ، ومِنْهُ قولُهم: نفقَ البيعُ: إذَا خرج مِن يدِ البائعِ إلى المُشْتَرِي[4].

فالإنفاقُ قد يكُونُ بالمال، وقد يكون بغيرِه، ثُمَّ هو قد يكون واجبًا أو مستحبّا[5].

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

أخصُّ خصائص المُتّقين التّصديقُ بأركان الإيمان، وإقامةُ الصّلاة، والإنفاقُ بأنواعه

المُتّقون هم الذين يُصدِّقونَ ويُقِرُّونَ إقرارًا يستلزمُ القبولَ والإذعانَ بكُلِّ ما غابَ عَنْهُمْ ممَّا أخبرهم اللهُ به في القرآنِ الكريم أو أخبرهم به رسولُه ﷺ، ويُؤَدُّون الصَّلاةَ مُظهِرينَ لهَا مُدَاوِمِين عَلَيْهَا مُحافظين على أركانها وشُروطها ومُكمِّلاتها، ويُنْفِقونَ مِمَّا أعطاهُمُ اللهُ تعالى في وُجوه الخير بالزَّكاة الواجبة والصَّدقات المستحبَّةِ[6].

(1) الرّاغب، المفردات: (رزق).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (نفق)، والنَّيسابوريّ، إيجاز البيان: 1/66.
(3) مقاتل بن سليمان، تفسير مقاتل: 2/553.
(4) الواحديّ، التّفسير البسيط: 1/195.
(5) الرّاغب، المفردات: (نفق).
(6) ابن عطيَّة، المحرّر الوجيز: 1/84-85، ولجنة من علماء الأزهر، المنتخب في تفسير القرآن الكريم، ص: 3، وجماعة من علماء التَّفسير، المختصر في تفسير القرآن، ص: 2.

الإيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

فائِدَةُ الوَصْفِ بالاسمِ الموصُولِ:

الإيمانُ بالغيب أُسٌّ متينٌ ورُكنٌ ركينٌ من مُقوّمات الاعتقادِ الإسلاميّ

الاسمُ الموصولُ في قولِه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ﴾ وصفٌ ﴿لِّلۡمُتَّقِينَ﴾، وفائدةُ الوصفِ هَهنا: مدحُ المُتَّقين والثَّناءُ عَلَيْهِمْ بذِكْرِ خصالِهم الحسنةِ وأفعالهم الحميدةِ، وتعليلٌ لسببِ استحقاقِهم لاسم المتَّقِينَ، وهو الإيمَانُ بالغَيْبِ، تصريحًا بأنَّ الإيمانَ بالغَيْبِ أُسٌّ متينٌ، ورُكنٌ ركينٌ من مُقَوّماتِ الإيمانِ باللّه تعالى.

فائِدَةُ التَّعْبِيرِ بِالفِعْلِ المُضَارِعِ:

تجديدُ الإيمانِ أصلٌ في المُداوَمةِ على الصَّلاةِ والإنفاقِ

جاء التَّعبيرُ في الأفعالِ الثلاثةِ: ﴿يُؤۡمِنُونَ﴾ وَ﴿وَيُقِيمُونَ﴾ وَ﴿يُنفِقُونَ﴾ بصيغَةِ الفعلِ المُضارِعِ؛ للدّلالة على التَّجدُّد والحدوثِ "إيذانًا بتجدُّد إيمانهم بالغيبِ، وتجدُّدِ إقامتِهم الصَّلاةَ، والإنفاق؛ إذْ لم يكونوا مُتَّصفين بذَلِكَ إلَّا بعد أنْ جاءهم هُدَى القرآن"[1].

ولِلإشارةِ إلى التَّجدُّد الاستمراريِّ؛ إذْ إنَّ معارفَهم الإيمانيةَ تزدادُ شيئًا فشيئًا، وكُلَّما زادت معارِفُهُم بالغَيْبِ صدَّقوهُ وأقرُّوا به، كما أنَّ إقامَتَهم الصَّلاةَ مُستمِرَّةٌ استمرارًا تجدُّديًّا إذا وُجِدَ سَبَبُها، وكذا يُقال في الإنفاقِ.

بلاغةُ الإيجازِ بالتَّضْمِينِ:

تضمينُ فعلِ الإيمانِ معنى الإقْرارِ والاعْتِرَافِ والثِّقةِ بمَا نَزَلَ به الوَحْيُ

الأصلُ في الفعل (آمنَ) -بمعنى (صدَّقَ)- أن يتعدّى بنفسه، فيُقال: آمَنَهُ؛ إذا صدَّقه، وعلى هذا فقوله سبحانه: ﴿يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ﴾، فيه تضمينٌ لفعلِ (آمنَ) معنى أَقَرَّ واعتَرَفَ ووَثِقَ، فـ ﴿يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ﴾ أي: يُؤمنون ويُقِرُّون ويعترفون ويَثِقُونَ بما غابَ عَنْهُمْ ممَّا أُخْبِرُوا به في الوَحْيِ[2]، ففيه ضَرْبٌ من الإيجازِ؛ وذلك

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/229.
(2) الزَّمخشري، الكشَّاف: 1/38.

بِطَيِّ جُملةٍ مِنَ معاني الْأَفْعَالِ، وجَعْلِ حرفِ الباءِ دالًّا عليها، وهو مَا يَقْتَضِيه ظاهرُ اللَّفظِ ومعنَاه.

تردُّدُ معنَى اللَّامِ فِي لفظِ: ﴿ٱلْغَيْبِ﴾ بَيْنَ العَهْدِ العِلْمِيِّ وَالِاسْتِغْرَاقِ العُرْفِيِّ:

مَـدْحُ الـمُؤمنين بكلِّ غَـيْـبٍ جاءَ في الوحيِ كتابًا وسنَّةً

إذا حملنا ﴿ٱلْغَيْبِ﴾ على معنى اسمِ الفاعِلِ أو المفعولِ، بمعنى: ما غاب، أو الـمُغَيَّب؛ فإنَّ اللَّامَ فِيهِ تَحتمِل مَعْنَيَيْن:

أحدهما: العهدُ العِلْمِيُّ -الذي يُسمِّيه النُّحاةُ: العهْدَ الذِّهنيَّ-؛ والمعنى: أنَّهم يُؤمنون بالغَيْبِ المعروفِ الـمَنْصوصِ عَلَيْه شَرْعًا.

والآخر: الاستغراقُ، ولا يكون الاستغراقُ هَهُنَا حقيقيًّا، بَلِ استغراقًا عُرفيًّا، وهو الغَيْبُ الثَّابِتُ بالشَّرْعِ؛ إِذْ بعضُ أفرادِ الغَيْبِ العامِّ ممَّا لم يرِدْ في الشَّرعِ لا يُحْمَدُ تصديقُهُ، كما لا يخفَى.

حَذْفُ المَعْمُولِ لِلعُمُومِ:

الـفَـيْـصَـلُ بين الـمُـؤمـنـين والـمُـنـافِـقين هو عـدَمُ توقُّفِ إيـمـانِـهـم على المُشَاهدةِ

ويُحتمل أن يكونَ لفظُ ﴿ٱلْغَيْبِ﴾ باقيًا على معناهُ المصدريِّ، والمعنى على هذا: يؤمنون حالَ غَيْبَتِهم كما يُؤمنون حالَ حضورِهم، وليسَ شأنُهم كحالِ المنافقِينَ، ويكون الـمُؤْمَنُ به محذوفًا لقصد الشُّمول والعمومِ والمبالغةِ، والمعنى: أنَّهم يُؤمنونَ بكلِّ ما يُؤْمَنُ بِهِ ممّا غاب عن الحِسّ مِمَّا صحَّ بِهِ الخَبَرُ[1]، وفيه من الـمَدْحِ الكبيرِ والثَّنَاءِ العظيمِ لأنَّه بُرهانُ الثِّقَةِ ودليلُ اليقينِ.

بلاغةُ الاستعارةِ في فِعلِ: ﴿وَيُقِيمُونَ﴾:

أثـرُ الاستِـعـارةِ في تـصـويـرِ الخَلَلِ الرُّوحيِّ لـتـقـويـمِـه وإصلاحِه

سَبَقَتِ الإشارةُ إلى تعدُّدِ اشْتِقَاقِ الفِعْلِ (يُقيمونَ)، وكلُّ واحدٍ منها يصِحُّ أَنْ يكونَ مُرادًا، ولا مانعَ مِنْ جمع تلك المعاني كُلِّهَا؛ إذِ المعاني تتوارَدُ ولا تتزاحَمُ، وتتكاملُ ولا تتعارضُ عِنْدَ الحَمْلِ عليهَا.

ومن تلك المعاني أن يكونَ التَّقويمُ مُشتَقًّا منَ التَّعْدِيلِ؛ مِن قَوْلِهِم: قوَّمْتُ العودَ؛ فهو مِنْ بابِ الاستعارةِ، وفي إجرائِهَا طريقتَانِ:

(1) الخفاجيّ، عناية القاضي: 1/216.

أُولاها أَنْ يُقالَ: شُبِّهَتِ الصَّلَاةُ بِالعُودِ بجَامِعِ التَّعْدِيلِ في كُلٍّ مِنْهَما، وتعديلُ الصَّلاةِ أي: تعديلُ إقامتِها، بأنْ يأتيَ بها المُصلِّي على الوَجْه الصَّحيحِ؛ فحُذِفَ المُشَبَّهُ به، ورُمِزَ لَهُ بِشَيْءٍ مِنْ لوازِمِه وهو (يُقِيمُونَ)، على سَبِيلِ الاسْتِعَارَةِ المَكْنِيَّةِ الأَصْلِيَّةِ.

والأُخْرَى أَنْ يُقالَ: شُبِّهَ تَعْدِيلُ الأَرْكَانِ بِتَقْوِيمِ الرَّجُلِ العُودَ، واسْتُعِيرَتْ لَهُ الإِقَامَة، ثُمَّ اشْتُقَّ مِن (الإقامَةِ) بمعنى التقويمِ الفِعلُ: (يُقِيمُونَ)؛ فصُرِّحَ بالمُشبَّهِ به، على سَبِيلِ الاسْتِعَارَةِ التَّصْرِيحِيَّةِ التَّبَعِيَّةِ.

تشبيهُ المعنويِّ بالحسيِّ؛ لوضوحِ الخلَلِ في الحسيِّ، وقصدِ المُسارَعةِ إلى إصلاحِ المعنويِّ

ونُكْتَةُ الاسْتِعَارةِ: أنَّ تقويمَ الصَّلاةِ معنويٌّ، وتقويمَ العودِ حسِّيٌّ، والخَلَلُ الحِسِّيُّ أَظْهَرُ مِنَ الخَلَلِ المعنويِّ؛ لأنَّه مُدْرَكٌ لكلِّ راءٍ، فأيُّ فَسَادٍ في الحسِّيِّ يُتفَطَّنُ لَهُ فيُبادَرُ إلى إصلاحِه، وكذلك شأنُ الصَّلاةِ ينبغي النَّظَرُ فيما قد يدخُلها مِنَ الخَلَلِ فيُتدارَكُ، فهذا من تشبيهِ المعنَويِّ بالحسيِّ.

دلالة اللَّامِ في ﴿ٱلصَّلَوٰةَ﴾ عَلَى العَهْدِ العِلْمِيِّ أَوِ الاسْتِغْرَاقِ:

واللَّامُ الدَّاخلةُ على لفظ ﴿ٱلصَّلَوٰةَ﴾ في قولِه ﷻ: ﴿وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾، يُحتملُ أَنْ تُخَرَّجَ على أحدِ وَجْهَين:

احتمالُ إرادةِ خُصوصِ الصَّلواتِ الخَمْس

أحدهما: أَنْ تَكُونَ عَهْدِيَّةً، والمرادُ بها: خصوصُ الصَّلَوات الخمسِ، ويُؤَيِّدُه: أنَّ هذا التَّرْتِيبَ (إقام الصَّلاة) مُستعمَلٌ في خطابِ الشَّرْعِ لهذا المعنَى، كما ورد في قولِ النَّبِيِّ ﷺ: «بُنِيَ الإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ: شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، وَإِقَامِ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، والحَجِّ، وَصَوْمِ رَمَضَانَ»[1]، والمرادُ بإقام الصَّلاة الذي هو رُكْنٌ مِن أركان الإسلام: الصَّلواتُ الخمس قطعًا، فكذلك ينبغي أن يكونَ ذلك هو المرادَ في آية البقرة.

(1) رواه البخاريّ، حديث رقم: (8)، ومسلم، حديث رقم: (16).

احتمالُ اسْتِغراقِ جميعِ الصَّلواتِ المكتوبةِ والنَّافلةِ

والآخرُ: أَنْ تكونَ استغراقِيَّةً، والمرادُ: كُلُّ صلاةٍ يُصلِّيها المتَّقونَ؛ فإنَّهم يُقيمونَها بمعنى يأتونَ بها على وجهها الأكمل مُحافظين على أركانها وشروطها ومُكَمِّلاتها، وهذا القَدْرُ مِنَ الإقامةِ يَتحقَّقُ في الصَّلواتِ كلِّهَا فَرْضِهَا ونَفْلِهَا؛ إذِ الآيةُ الكريمةُ سِيقَتْ مساقَ مدحِ المُتَّقينَ، وهُمْ لا يَقْتَصِرُون على فعل الواجباتِ، بل يَتجاوزُونَها إلى النّوافل والمُستحبَّاتِ.

فالوجْهُ الأوَّلُ أولى؛ لموافقةِ المَشْهُورِ مِنْ خِطاب الشَّرْعِ مِن استعمالِ التَّركيبِ المَذْكورِ في خصُوص الصَّلوات الخمسِ، والوَجْه الثَّاني أشْمَلُ وأوعبُ؛ لكون الأوَّلِ مُنْدَرِجًا فيه، وهما متزاحِمان في حيِّزِ القَبولِ، ومَطْمَعِ الفُحُولِ.

فائِدَةُ تقْدِيمِ الجارِّ والمجرورِ:

توجيهُ نَظَرِ المُؤمِنِ إلى نِعَمِ الله عَلَيْه، يدعوه إلى تقييدها بالشُّكر إنفاقًا

قُدِّمَ المُنْفَقُ مِنْهُ على فِعْلِ الإنفاقِ في قولِه تعالَى: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣﴾؛ لِلاهْتِمَامِ بما أعطَاه اللّه العبدَ؛ "بِأنَّه مِن رزق اللّه الذي رَزَقَهُ لِلأَغْنياء لِيُعْطُوا مِنْهُ للفقراء، فالمالُ مالُ اللّه، والجميعُ عبادُ اللّه، فهو يأخذ مِن مال اللّه ويُعطي عبادَ اللّه"[1]، وفائدتُه: الإيذانُ "بأنَّهم يُنْفِقُونَ مع ما لِلرِّزْقِ مِنَ المعزَّةِ على النَّفْسِ؛ كقوله تعالَى: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾ [الإنسان: 8][2].

توجيهُ الأفْهامِ إلى أنَّ المطلوبَ هو إخراجُ بعضِ المالِ لا كلِّه

ولِلإيماءِ ابتداءً إلى أنَّ المطلوبَ هو إنفاقُ بعضِ ما أُعْطوهُ لا كُلُّهُ[3]؛ إذْ إنَّ (مِنْ) المُدْغَمةَ في (مَا) للتَّبْعِيضِ، فلو جاء النَّظْمُ القرآنيُّ: (يُنفقون مِمَّا رزقناهم)؛ أفادَ أنَّهم يُنفقُون بعضًا، لكنَّ ما عدَا المُنْفَقَ مسكوتٌ عَنْهُ، فقد يكون مُنْفَقًا أيضًا، إلَّا أنَّ التَّقديمَ جعَلَ التَّركيبَ يُفيدُ القَصْرَ، أي: أنَّهم إنَّما يُنْفِقُون بَعْضًا لا كُلًّا[4]،

(1) محمّد أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 6/3065.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/236.
(3) أبو حيَّان، البحر المحيط: 1/69.
(4) الخفاجيّ، عناية القاضي: 1/228.

وفائدةُ ذلك: التَّنبيهُ على أَنْ لَيْسَ المطلوبُ مِنْهُمُ الخروجَ من جميعِ أَمْوالِهم، وإنَّما إنفاقُ بَعْضِها؛ حَذَرًا مِنَ الإِسْرَافِ وتَضييعِ مَنْ يعُولُونَهُ[1].

رَعْيُ الفاصِلَةِ تَبَعٌ لفظِيٌّ لا أَصْلٌ دلَاليٌّ:

وثَمَّ وَجْهٌ آخَرُ يُستأنَسُ بهِ لسبب التَّقديم؛ وهو مراعاةُ الفواصلِ؛ إذْ لو قيل: (ويُنْفِقون مِمَّا رزقناهم)؛ فاتَ الإيقاعُ الصَّوْتِيُّ المُنسَجِمُ في فواصلِ الآيِ، وهو تابِعٌ للمعنى، فمُراعاةُ الفواصلِ لا تُطلَبُ لذاتِها؛ إذِ المعاني قَائِمَةٌ والألفاظُ خَوادِمُها.

براعةُ حَذْفِ المُتَعَلَّقِ في الإِشَارَةِ إلى المَقَاصِدِ:

إظهارُ مقصَدِ الإنفاقِ في الإشارَةِ إلى مقصودِ النَّفقَةِ، وبيانِ تَنوُّعِ المُنفَقِ عليهم

لم يُعيَّن المُنْفَقُ عَلَيهم في قولِه تعالَى: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣﴾، فلم يقُل: يُنْفقون على الفُقراءِ، أو اليتَامَى، أو المساكين؛ لنُكتَتَيْنِ[2]:

إحْدَاهما: تنوُّعُ أهلِهَا المُسْتَحِقِّينَ لها؛ فيدخلُ في ذلك جميعُ من يصلُحُ أن يكونَ ممَّنْ يُنْفقُ عَلَيْه، كمصارفِ الزَّكاةِ، والأهلِ والأولادِ والوالِدَينِ، وإكرامِ الضَّيفِ والجارِ، وغيرِها، وهذا فيه مزيدُ تشجيعٍ وحثٍّ على الإنفاقِ، ممَّا يستدعي المَدْحَ.

والأخرى: الإشارةُ إلى أنَّ النفقةَ مقصودَةٌ من حيثُ هِيَ قُرْبَةٌ إلى اللهِ تعالَى، لا من حيثُ هي نفقةٌ اقتصاديَّةٌ لسدِّ العَوَزِ المجتمعيِّ، فكونُها قربةً هو الأصلُ، وما سواه فهو تحصيلُ حاصِلٍ.

مُراعاةُ النَّظيرِ في قَرْنِ الصَّلَاةِ بِالنَّفَقَةِ:

الصَّلاةُ طُهرةٌ للبدنِ وشكرٌ لنعمتِهِ، والنَّفقةُ طُهرَةٌ للمالِ وشُكْرٌ لنعمتِهِ

في ذِكْرِ الصَّلاة بقوله: ﴿وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ -والمُرادُ بها المكتُوبَةُ أو النَّافِلَةُ- ثُمَّ ذِكْرِ النَّفقةِ عَقِيبَها ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣﴾ -والمرادُ بها الزَّكاة، أو الزَّكاةُ وغيرُها-: مُراعاةُ النَّظيرِ؛ إذْ كلاهُمَا طُهْرَةٌ، فالأُولَى طُهْرةُ البدنِ وشكرٌ لنعمتِهِ، والثَّانيةُ طُهْرَةُ المالِ وشُكْرٌ لنعمتِهِ، ولأنَّ أعظمَ الحقوقِ البدنيَّةِ الصَّلاةُ، وأعظمَ الحقوق الماليَّةِ: الزَّكاة[3].

---

(1) أبو حيَّان، البحر المحيط: 3/203.

(2) السّعدي، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 40.

(3) أبو حيَّان، البحر المحيط: 1/82.

﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ٤﴾ [البقرة: 4]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

هذه الآيةُ معطوفَةٌ على الآية قبلَها، والمُنَاسبة بينَهُما ظاهِرَةٌ؛ فإنَّ هذه الآيةَ استمرارٌ لذِكْرِ أوصاف المُتَّقِينَ، فكِلَتا الآيَتَيْنِ اشْتَمَلت على خِصالِهِمْ وخَصائصهم.

مِن صفات المُؤمنين الإيمانُ بجميع الكتب المُنَزَّلة، واليقينُ بالآخرة

شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

1) ﴿وَبِٱلۡأٓخِرَةِ﴾: يُقَال: هذا الآخِرُ وهذهِ الآخِرَةُ، وهما ضِدُّ: المتقدِّم والمتقدِّمَة، ويُطْلَق الآخِرُ على الأبعَدِ والغائبِ[1].

والآخرةُ: نقيض الدُّنيا، وسُمِّيَت الدُّنيا لأنَّها دَنَتْ؛ أي: قرُبَت، وتأخَّرَتِ الآخِرةُ[2]، وسُمِّيت الآخرةُ بذلكَ؛ لِكَوْنِها آخرَ المنازِلِ، فَلا انْتِقالَ عَنْهَا إلى دارٍ أُخْرَى[3]، وأمَّا انْتِقالُ الخَلْقِ إلى الجنَّةِ أو إلى النَّارِ؛ فإنَّ ذلك مِن أحوال الآخرَةِ.

2) ﴿يُوقِنُونَ﴾: فعلٌ مضارع مِنَ الفعل (أَيْقَنَ)، والمصدَرُ: الإيقَانُ، واليَقِينُ مِن صِفَات العلْمِ.

وحدُّ اليقينِ: سُكُونُ الفهم معَ ثباتِ الحُكْم[4]، وقيل: هُوَ العلمُ الذي لا تَتَطَرَّقُهُ الشُّكوكُ ولا الأوهامُ، وَلا يَقْبَلُ التَّغَيُّرَ بحالٍ[5]، وقيل: هو إزاحةُ الشَّكِّ وتحقيقُ الأمر[6].

وهذه الثَّلاثةُ مُتَآيلَةٌ يَؤُولُ بعضُها إلى بعضٍ؛ إذْ إنَّ ثباتَ الحكمِ معناه عَدَمُ قبولِ التَّغيُّرِ، ولا يكون ذلك إلَّا فيما يُقطَعُ به ويُتَحَقَّقُ مِمَّا لا يدخلُهُ الشَّكُّ.

(1) الخليل، العين: (أخر).
(2) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة: (أخر).
(3) الشِّنقيطيّ، أضواء البيان: 2/370.
(4) الرّاغب، المفردات: (يقن).
(5) الشِّنقيطي، العذب النَّمير: 1/412.
(6) الخليل، العين: (يقن).

أنـواعُ اليقين في القرآن

هذا، وقد ورد في القرآن الكريم ثَلاثةُ ألفاظٍ أُضيفَ كُلُّ واحدٍ مِنْهَا إلى اليقين؛ وهي: ﴿عِلۡمَ ٱلۡيَقِينِ ۝٥﴾ [التكاثر: 5]، وَ﴿عَيۡنَ ٱلۡيَقِينِ ۝٧﴾ [التكاثر: 7]، وَ﴿حَقُّ ٱلۡيَقِينِ ۝٩٥﴾ [الواقعة: 95]، وهي بهذا التَّرْتِيبِ: مُرَتَّبةٌ بحسب القُوَّةِ بطريقِ التَّرَقِّي[1].

والفَرْقُ بَيْنَهَا[2]:

أَنَّ علمَ اليقين: العِلْمُ المستفادُ مِنَ الأدلَّةِ.

وعينَ اليقينِ: العلمُ المُدْرَكُ بحاسَّة البصر.

وَحقَّ اليقينِ: العلمُ المُدْرَكُ بحاسَّة الذَّوق والمباشرةِ.

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

المُتّقون يُؤمنون بالقُرآن وبكلّ الكتُب المُنْزَلَة على الأنبياء والرُّسُل، ولديهم عِلْمٌ يقينيٌّ بالآخرة، وما فيها من أحوال

والمتّقون الذين يكون القُرآنُ الكريمُ لهم هُدًى هم الذين يُصدِّقون ويُقِرُّونَ إقْرارًا مُستلزِمًا القبولَ والإذعانَ بالوَحْيِ المُنْزَلِ عَلَيْكَ -أيُّهَا النَّبِيُّ الكريمُ- قرآنًا وسُنَّةً.

ويُقرُّون ويُصدِّقون تَصْدِيقًا جَازمًا بِالكُتُبِ المُنْزَلَةِ على الأَنبياءِ السَّابِقِينَ، كالتَّوراة والإنجيلِ والزَّبورِ ونَحْوِهَا، فيُؤْمِنونَ بها إيمانًا إجماليًّا لا تفصيليًّا؛ وذلك لِمَا دَخَلها مِنَ التَّحْرِيفِ بعدُ، وهذا الوصفُ عامٌّ في المؤمنينَ، ويحتمِلُ أن يكون خاصًّا بِمَنْ أسلَمَ مِنْ أهل الكتابِ.

وهم كذلك يُصَدِّقون تصديقًا بقلوبهم يظهر على ألسنتهم وجوارحهم بِيَوْمِ القيامة، وهو اليومُ الآخِرُ، وما فيه مِن كُلِّ ما وقع الإخبارُ بِهِ في القرآن والسنَّةِ؛ كالبعثِ، والجنَّة والنَّارِ، والحسابِ، والميزانِ، والصِّراطِ. وخص يوم الآخرة بالذِّكْر؛ لأنَّ الإيمانَ به من أعظمِ البواعثِ على فِعْلِ الطاعات، واجتنابِ المحرَّمات، ومحاسبةِ النفس[3].

(1) الآلوسّي، روح المعاني: 15/61.

(2) التَّهانَويّ، كشَّاف اصطلاحات الفنون والعلوم: 2/1814، والسعدي، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 884، والشّنقيطيّ، أضواء البيان: 9/83.

(3) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 1/170، وتفسير المراغي: 1/43، والسعدي، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 40.

الإيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

فائِدَةُ التَّعْبِيرِ بِالفِعْلِ المُضَارِعِ:

الإشارةُ إلى تجدُّدِ إيمانِ المُتّقين وزيادَتِه

جاءَ التَّعبيرُ بالفعلِ المُضارِعِ في قولِه سبحانه: ﴿يُؤْمِنُونَ﴾، وقوله: ﴿يُوقِنُونَ﴾؛ إشارةً إلى التَّجدُّدِ الاستمراريِّ[1]؛ لأنَّ الكلامَ سيقَ مساقَ المَدْحِ لَهُم، والثَّناءِ عَلَيْهِم بذِكْرِ صفاتِهم الحسنةِ، فإيمانُهم يتَجدَّدُ ويقينُهُمْ يزدادُ كُلَّما زادت معارفُهم مِنْ علومِ الوَحْيِ؛ إذِ الْيَقِينُ وإنْ كانَ لا يتطرَّق إليهِ الشَّكُّ ولا يحتَمِلُ النَّقيضَ؛ فإنَّه في نفسِهِ مراتِبُ ودرجاتٌ.

تَكْرَارُ الِاسْمِ المَوْصُولِ للدّلالة عَلَى تَغَايُرِ الصِّفَاتِ أَوْ تَغَايُرِ المَوْصوفِينَ:

تنزيلُ تغايُرِ الصِّفاتِ منزلةَ تغايُرِ الذَّواتِ؛ لمَدْحِ المُؤمنين، والثَّناءِ عَلَيْهم

كُرِّرَ الاسمُ الموصولُ في قولِه سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾؛ للدّلالة على تغايُرِ صِفَاتِ المذكورِينَ، وإلَّا فالمَوْصُوفُ وَاحِدٌ وهُمُ المُتَّقُون المذكورونَ أوَّلًا، تنزيلًا لتغايُرِ الصِّفاتِ مَنزِلةَ تغايُرِ الذَّوات، وهذا أَمْدَحُ للقَوْمِ وأَرجى.

اِحتمَالُ تغايُرِ الموصوفين حقيقةً:

ويحتمل أَنْ يكون هذا مِنْ تغايُرِ المَوْصُوفِينَ؛ فتكون الآياتُ قَد ذَكَرَتْ صنفَيْنِ[2]:

أحدهما: المَذْكُورُ في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣﴾، وهُمُ الذينَ آمَنُوا مِن مُشْرِكي العربِ.

والآخر: المذكورُ في قوله سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٤﴾، وَهُمْ مَن آمَنَ مِن أهل الكتابِ.

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 1/87.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/237.

اِحتمَالُ عَطْفِ الخاصِّ على العَامِّ:

الأرجَحُ أن الاسم الموصول دالٌّ على العموم، وهو أمدح للمؤمنين

ويحتمِلُ أيضًا أَنْ يُرادَ بالموصول الأوَّل في ﴿ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ﴾ عمومُ المؤمنينَ، وبالثَّاني: خصوصُ مَنْ آمَنَ مِنْ أهلِ الكتابِ؛ فيكونُ ذلك مِنَ الإطنابِ بذِكْرِ الخاصِّ بعد العامِّ؛ "تعظيمًا لشأنِهم، وتَرْغيبًا لأمثالهم وأقرانِهم في تحصيل مَا لَهُم مِنَ الكَمَال"[1].

والأوَّلُ أَظْهَرُ؛ إبقاءً لِلاسْمِ الموصول على إفادتِهِ الشُّمولَ والعمومَ -وهو الأصل فِيهِ-، ولأنَّه أمْدَحُ للمؤمنين؛ فالسِّياقُ في نَعْتِ أوصَافِهم الجَميلَةِ، ولِمَا في الثَّاني والثَّالثِ مِن مُخالفةِ ظاهرِ السِّياقِ مِنْ غير مُقْتَضٍ لذلك[2].

فائِدَةُ تَكْرَارِ فِعْلِ: ﴿يُؤۡمِنُونَ﴾:

تكرير لفظ (يؤمنون) لترسيخ الإيمان في قلوب الموصوفين

كُرِّرَ ذكرُ فِعْلِ ﴿يُؤۡمِنُونَ﴾ مع قولِه: ﴿بِٱلۡغَيۡبِ﴾ وقولِه: ﴿بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ﴾؛ لترسيخِ المعنى في الذِّهْنِ، والتَّأثيرِ في القَلْبِ[3]، أو "للإيذانِ بأنَّ كلَّ واحدٍ مِنَ الإيمانِ بِمَا أُشِيرَ إِلَيْهِ مِنَ الأمورِ الغائبةِ والإيمانِ بِمَا يَشْهَدُ بِثُبُوتِهَا مِنَ الكُتُبِ السَّماويَّة، نعتٌ جليلٌ على حِيالِه، له شأنٌ خطيرٌ مُسْتَتْبِعٌ لأحكامٍ جَمَّةٍ، حقيقٌ بِأَنْ يُفْرَدَ له مَوْصُوفٌ مُستَقِلٌّ، ولا يُجعلَ أحدُهما تَتِمَّةً للآخَر"[4].

بلاغةُ التَّعبيرِ بقولِه تعالَى: ﴿أُنزِلَ﴾ يقتضي تَعْظِيمَه وَتَعَيُّنَه:

الالتفاتُ عنِ التَّكلُّمِ إلى الغَيْبَةِ لِلعنايةِ بصِفَاتِ المُنْزَلِ نظرًا وإيمانًا

بُنِيَ الفعلُ ﴿أُنزِلَ﴾ في الموضعَيْنِ لِما لم يُسَمَّ فاعلُهُ؛ للعِلْمِ بِهِ؛ لكونِه مُتعيِّنًا، وَتَعْظِيمًا لِلمُنْزِلِ.

وفيه مع بناء الفعل لِلمَعلومِ ضَربٌ من ضُروبِ الالتفاتِ[5]؛ فإنَّ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 1/32.
(2) محمّد أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 1/109.
(3) محيي الدِّين درويش، إعراب القرآن وبيانه: 1/26.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 1/32.
(5) الالتفات: التّعبير عن معنًى بطريقٍ من الطّرق الثلاثة: التّكلّم والخطاب والغيبة، بعد التّعبير عنه بطريق آخر منها، ورأى السّكّاكيُّ: أو يكونُ مقتضى الظّاهر التّعبيرَ بطريقٍ منها، فعُدل إلى الآخر؛ ينظر: التفتازاني، شرح المختصر: 1/115-116.

اللّه تعالى قال قبلُ: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾، وقال هنا: ﴿أُنزِلَ﴾؛ ففيه خروجٌ مِن ضمير التَّكلُّم إلى ضميرِ الغَيْبَةِ[1]، ولعلَّ نُكْتَةَ العدُولِ ههنا عن (أَنْزَلْنَا) إلى ﴿أُنزِلَ﴾: هي الإيماءُ إلى أنَّ الإيمانَ بالـمُنْزَلِ إنَّما هو لِصِفَاتٍ فيهِ تقتضِي صِحَّتَهُ وصدقَهُ لا بمجرَّدِ دَعْوَى كونِهِ من عند اللّهِ تعالَى[2].

تعدّي الفعل ﴿أُنزِلَ﴾ بـ (إلى) وبـ (على):

تَضْمِينُ الْفِعْلِ (أُنْـزِلَ) مَعْنَى الغَايَةِ والوصول

الأصلُ وَالشّائعُ في فِعْلِ الإنزالِ أن يُعدَّى بـ (عَلَى)، لكِنَّه عُدِّيَ هنا بـ (إلَى)؛ تنبيهًا إلى أنَّ فعل الإنزال مُضَمَّنٌ معنى الوُصُولِ، "فالْمُنْزَلُ إلَيْهِ غَايَةٌ لِلنُّزُولِ"[3].

وتعديةُ إنزال الكتاب ورَدَت في القرآنِ تارةً بـ (على) وتارة بـ (إلى)؛ مِنْ بَابِ التفنُّنِ في الكلام؛ فَإِنْ أُرِيدَتِ الإشارةُ إلى أَنَّ الـمُنْزَلَ إلَيْهِ غايةٌ للنُّزول؛ عُدِّيَ بـ (إلَى)، وإنْ أريدَ بَيانُ أنَّ الـمُنْزَلَ استقرَّ عِنْدَ الـمُنْزَلِ عَلَيْهِ وتمكَّن مِنْهُ؛ عُدِّيَ بـ (عَلى)[4].

ويُمكِنُ أن يُوَجَّهَ كلامُ ابن الزُّبَيْرِ الغَرناطيِّ بما يُوَافِقُ هذا؛ فقد قَالَ: "تارةً يُرَاعى وصولُ الـمُنْزَلِ بواسطة المَلك، وتارةً يُرَاعَى وصولُه مِنْ عند اللّه سبحانه مِنْ غير واسطة، فإذَا رُوعِيَ هذَا قِيلَ: (عَلَيْكَ)، وإذا رُوعِيَ الأوَّلُ قِيلَ: (إلَيْكَ)"[5].

نُكتَةُ تَغْلِيبِ مَا أُنْزِلَ عَلَى مَا سَيَنْزِلُ:

إِيمانُ الـمُؤمنِ بالقرآنِ كلِّه قبلَ اكتمالِ نُزولِه، دليلُ إيمانٍ يستدعي مَدْحًا وثناءً

قَوْلُهُ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾، وهذا -في الظَّاهر- يتنَاوَلُ ما نَزَلَ قبلَ هذه الآيةِ، إلَّا أنَّ ما سَينزِلُ بعدُ مُرَادٌ أيضًا؛ إذْ لا يُمْدَحُ مَن آمَن بما أُنْزِلَ ولا يؤمِنُ بِما سَينزِلُ.

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 1/71.
(2) نَظِيْرُهُ عند: بسيوني فيّود، علم المعاني، ص: 258.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/239.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/239.
(5) ابن الزّبير الغرناطيّ، مِلاك التّأويل: 2/424.

ولإرادةِ ما سينزِلُ خمسةُ مسالكَ:

أوَّلُها: أنَّ ما سينزِلُ مُتَرَقَّبٌ إيمانُهم بهِ؛ "إذْ مِنَ المعلوم أَنَّ الذي يُؤمِنُ بما أُنزِل؛ يَسْتَمِرُّ إيمانُه بِكُلِّ ما ينزِلُ علَى الرَّسولِ؛ لأنَّ العِنادَ وعدمَ الاِطْمِئْنَان إنَّما يكُون في أوَّل الأمر"[1]، فيكون إيمانُهم بِمَا سينزِلُ مُستفادًا مِنْ فَحْوَى الخطابِ.

ثَانيها: أنَّ قولَه ﴿أُنزِلَ﴾، فيه تغليبٌ لِلمُنْزَلِ على ما سَيَنزِلُ[2].

ثَالثُها: أنَّ بعضَ القرآن: قرآنٌ، ولذا صحَّ أَنْ يُطلَقَ على مَنْ سَمِعَ بَعْضَ القرآنِ أنَّهُ سامِع القرآنِ، كما قال اللّه تعالى عَنِ الجِنِّ: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ [الأحقاف: 29]، ولم يكونوا قد سمعوا إلَّا بعضَهُ[3].

رَابعُها: أنَّهُ نُزِّلَ ما يُتَوَقَّعُ نُزولُهُ منزلةَ النَّازِلِ؛ لكون ذلك متحقِّقًا[4].

خَامسُها: أنَّ ابتداءَ النُّزول إذا كان مستمرًّا يكون ذلك في حُكْمِ نُزُولِهِ كُلِّه[5].

نُكتَةُ تقْدِيمِ المُتأخِّرِ نُزولًا على المُتقدِّمِ:

تقْديمُ المُنْزَلِ إِلَى النَّبي ﷺ على المُنْزَلِ مِنْ قبلِه في قولِه تعالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾ مع تَقَدُّمِهم في الزَّمَنِ؛ لنُكتَتَيْن[6]:

الإيمانُ بالقرآنِ أشرفُ، وهو سببٌ للإيمانِ بِسَائِرِ الكُتُبِ

أولاهُما: رَعْيٌ للتَّرتيبِ بحسبِ الأشْرَفِ، وهو أحَدُ مُقتضياتِ التَّقديم.

والأُخْرَى: تقديمُ السَّببِ على النَّتيجةِ؛ فالإيمانُ بالمُنْزَلِ على النَّبيِّ ﷺ سَبَبٌ في الإيمانِ بالمُنْزَلِ على الأنبياءِ السّابقين.

سِرُّ تَقْدِيمِ الجارِّ والمجرورِ على الفعلِ:

قُدِّمَ الجارُّ والمجرورُ في قوله: ﴿وَبِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٤﴾ على فعلِ الإيقانِ؛ اهتمامًا

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/238.

(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/42، ويُقارن بما ذكره ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/238-239، والخفاجيّ، عناية القاضي: 1/235.

(3) محمّد أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 1/110.

(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 1/33.

(5) محمّد أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 1/110.

(6) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/115-116.

اليقين بالآخرة شعار المؤمنين

بشأنِ الآخِرَةِ، ومُبالغةً في الثَّناءِ على هؤلاءِ؛ إذْ أيقَنُوا بأولى ما يجبُ على المُؤمنِ الإيقانُ بهِ، مع ما في التَّقديم مِن مُراعاةِ الفاصلةِ بما لا يتحقَّقُ في حالِ تأخيرِهِ[1].

وفي بناءِ الفعلِ على الضَّميرِ إيماءٌ لِدلالة التَّركيبِ علَى القَصْرِ؛ تعريضًا بمَن عدَا المذكُورين؛ فإنَّ معتقداتِهم في الآخرةِ وأحوالِها مُتزَحْزِحةٌ عاريةٌ عَنِ الصِّحَّةِ، فَضْلًا عن أَنْ تَصِلَ إلى رُتبة اليقين[2].

نكتةُ إسنادِ فعلِ الإيقانِ إلى فاعِلِه مرَّتَين:

توكيدُ الفعل يُقَوّي الخبر، ويشير إلى الاهتمام بالآخرة

أُسْنِدَ فعلُ الإيقانِ إلى فاعلِهِ مرَّتينِ في قولِه تعالى: ﴿هُمْ يُوقِنُونَ﴾ وهما؛

إحداهما: إسنادُهُ إلى واوِ الجماعةِ.

والأخرى: إسنادُهُ إلى ضمير المبتدأ (هُمْ).

فتكون النِّسبَةُ مُكرَّرةً، وهو أحد مسالكِ التَّوكيدِ؛ تقويةً للخَبَرِ[3] واهتمامًا بأمر الآخرةِ؛ لِمَا لِلإيمَان بهَا مِن مَنْزِلةٍ رفيعةٍ وشأنٍ خطيرٍ.

التَّعبيرُ عنِ الإيقانِ بالآخرة بالجُملة الاسميةِ آكَدُ وأدلُّ على الثُّبوت

ويُؤيِّدُ تقويةَ الخبر: التَّعبيرُ عن إيقانِهم بالآخرة بالجُملة الاسمية ﴿هُمْ يُوقِنُونَ﴾، بخلاف ما قبله فالتَّعبير كان بالفعليَّة ﴿يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾، والجملة الاسميةُ أقوى وآكدُ وأدلُّ على الثُّبوت[4].

ويؤيِّدُ الاهتمامَ: التَّعبيرُ عَنْهَا بالإيقانِ، دُونَ الاكْتِفَاء بالوصف السَّابقِ وهو الإيمانُ؛ لِأَنَّ مادَّة الإيقانِ "تُشْعِرُ بأنَّهُ عِلْمٌ حاصِلٌ عَن تأمُّلٍ وغَوْصِ الفِكْرِ في طريق الاسْتِدْلال؛ لِأَنَّ الآخرةَ لمَّا كانت حياةً غائبةً عَنِ المُشاهدةِ غريبَةً بحسَبِ المُتَعارَف، وقَد كَثُرتِ الشُّبَهُ التي جَرَّت المشركين والدّهريّين إلى نَفيها وإحَالَتها؛ كانَ الإيمان

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/240.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 1/33، والقِنَّوجيّ، فتح البيان: 1/84-85.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/241.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 1/71.

بها جَدِيرًا بمادَّةِ الإيقان؛ بِنَاءً على أنَّه أَخَصُّ مِنَ الإيمان، فلإيثار ﴿يُوقِنُونَ﴾ هنا خصوصيَّةٌ مناسِبَةٌ لبلاغة القرآن"[1].

بلاغةُ ذِكرِ الضّميرِ في قولِه: ﴿هُمْ يُوقِنُونَ﴾:

ذُكرَ ههنا الضَّميرُ (هُمْ) مع ﴿وَبِٱلْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾، ولم يَرِدْ معَ الإنفاقِ في قولِه قبلُ: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾؛ "لأنَّ وصفَ إيقانِهم بالآخرة أَعْلَى مِن وصفهم بالإنفاق، فاحتاجَ هذا إلى التَّوكيد ولم يحتج ذلك إلى تَأْكِيد، ولأنَّه لو ذَكَرَهم هُناك لكَانَ فيه قَلَقٌ لفظيٌّ؛ إِذْ كان يكون (وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ هُمْ يُنْفِقُونَ)"[2].

اليقينُ أعلى درجةً من الإنفاقِ، والإنفاق ثمرةٌ من ثمراتِه

دلالة الاسميّة على الثَّبات والدّوَام:

التَّعبيرُ بالجملةِ الاسمية في قوله: ﴿هُمْ يُوقِنُونَ﴾ مع ما فيه مِنَ التَّوكيد -كما سبق آنِفًا-: فيه الدّلالة على ثبات اليقينِ ودوامِه؛ "بحَيْثُ لَا يَضْطَرِبُ ولا يتَزَعْزَع، ولا يُنْسَى ذلك اليومُ أبدًا"[3]، من خواطرِهم وقلوبِهم.

يقينُ المُتّقين بالآخرة لا يَريمُ ولا يبرَحُ ولا يتزَحزَحُ

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

نَزَّلَ وَأَنْزَلَ:

مصدر الفعل (نَزَّلَ): التَّنزيل، ومصدر (أنزل): الإنزال، والفرق بينهما: أنَّ التَّنزيل لِمَا يكون مُفرَّقًا أو تدريجيًّا، والإنزالَ لِمَا يكون دُفعةً واحدة[4]، وهذا هو المُعَبَّر عنه بقولهم: التَّنزيلُ تدريجيٌّ، والإنزال دَفْعِيٌّ.

التَّنزيلُ لِمَا يكون تدريجيًّا، والإنزالُ لِمَا يكون دُفعةً واحدةً

وذهب الرَّاغِبُ في تفسيره إلى أنّهما بمعنًى واحدٍ، وإنَّما غُويِرَ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/240.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 1/71-72.
(3) محمّد أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 1/112.
(4) السّمين، عمدة الحفّاظ: (نزل)، وأبو هلال العسكريّ، الفروق اللُّغويّة، ص: 79، والجرجانّي، التّعريفات، ص: 68، والخفاجيّ، عناية القاضي: 1/3، 2/3، والزّبيديّ، تاج العروس: (نزل)، وابن عثيمين، تفسير الفاتحة والبقرة: 1/340-341.

بينهما في نحو قول الله تعالى: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۝٣﴾ [آل عمران: 3]؛ لكَوْنِ حُكْمِ القرآن الكريم مؤبَّدًا، وهو مناسبٌ لـ (نزَّل)؛ فإنَّه بِنَاءٌ لِلمُبالغة، ولِمَا في التَّنزيل مِن معنَى التَّدريج -وهو ما سبق-[1].

وكلامُه في "المفردات" يَقْضِي أَنَّ بينَ الإنزالِ والتَّنزيل عُمُومًا وخُصوصًا مُطْلَقًا، فالتَّنْزِيل يكون تدريجيًّا، والإنزالُ أَعَمُّ مِنْهُ؛ فقد يدلُّ على معنى التَّدْريجِ وقد لا يدلُّ[2].

والظَّاهرُ الأوَّلُ؛ وهو أَنَّ التَّنْزِيلَ تدريجِيٌّ والإنزالَ دَفْعِيٌّ.

ولا يُشكِلُ على هذا الفرقِ: أنَّه وقعَ التَّعبيرُ عَنِ القُرآن الكريم بالفِعْلَيْنِ معًا؛ وذلك لأنَّ لِلقُرْآنِ الكريمِ نُزولَيْنِ[3]:

أحدهما: نزولٌ دَفْعِيٌّ إلى السَّماءِ الدُّنيا.

والآخر: نُزولٌ تدريجِيٌّ بحسب الوقائع والأحداث.

(1) الرّاغب، تفسير الرّاغب: (نزل).

(2) الرّاغب، المفردات: (نزل).

(3) أبو شامة المقدسّي، المرشد الوجيز إلى علوم تتعلَّق بالكتاب العزيز، ص: 17، والسّيوطيّ، الإتقان في علوم القرآن: 1/146.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ٥﴾

[البقرة: 5]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

خصالُ المُتّقين الباطنة والظّاهرة، أنتجت الفوز والفلاحَ في الآخرة

لمَّا ذَكَر اللّه تعالى خِصالَ المُتَّقِينَ الظَّاهرةَ والباطنةَ؛ أعقَبَ ذلك بذِكْرِ ثمرتِها وجزائهم وثوابِهِمْ عَلَيْهَا؛ فقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ٥﴾[1].

شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

(الفَلَاحُ) هو الفوزُ وإدراكُ الخَيْرِ، ثُمَّ البقاءُ فِيهِ، وهو جامعٌ لخَيْرَيِ الدُّنيا والآخرة

1) ﴿ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾: اسم فاعل مِن (أَفْلَحَ)، ومصدره: الفلاح؛ وهو الفَوْزُ بِمَا يُغتبَطُ به، وفِيهِ صلاحُ الحالِ[2]، ويقال: أفلح؛ إذا أدرك مطلوبَهُ[3].

ويأتي الفلاح بمعنى البقاء في الخَيْرِ[4]، ومِنْهُ سُمِّيَ السَّحورُ فلاحًا؛ لِأَنَّ بِهِ بقاءَ البدنِ والحِفظَ مِنَ الضَّعفِ[5].

وبضمِّ المعنَيَيْنِ وهما الفَوْزُ والبقاء؛ يَتَحَصَّلُ لنَا المعنى الكُلِّيُّ لِلفَلَاحِ، وهو الفوزُ وإدراكُ الخَيْرِ، ثُمَّ البقاءُ فِيهِ، ولذَا قيل عَنِ الفلاح: ليسَ في كلام العرب كلمَةٌ أجمَعَ لِخَيْرَيِ الدُّنيا والآخرة مِنْهَا[6].

فالفلاحُ جامعٌ لخَيْرَيِ الدُّنيا والآخرة، ولذا جعَلَ الرَّاغبُ الفلاحَ ضَرْبَيْنِ: دُنيويًّا وأُخْرَوِيًّا، وذكَرَ حدًّا جامعًا لكلٍّ مِنْهُمَا[7].

---

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 1/89.
(2) الزَّبيدي، تاج العروس: (فلح).
(3) ابن دُريد، جمهرة اللُّغة: (فلح).
(4) الخليل، العين: (فلح)، والأنباريّ، الزّاهر: 1/38.
(5) السَّمين، عمدة الحفَّاظ: (فلح).
(6) الطِّيبيّ، فتوح الغَيب: 6/430.
(7) الرّاغب، المفردات: (فلح).

المُتّقون المُتَّصفون بالنُّعوت السّابقَةِ، مُتَمَكّنونَ من الهُدى فائزون ظافرون ناجونَ

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

هؤلاءِ المُتَّصفون بالنُّعوت السّابقَةِ الذّكر، قد تمكَّنوا مِن طريق الهدايةِ أيَّما تَمَكُّنٍ، واستقرُّوا عَلَيْهَا، وهُمْ -وحدهم دُونَ سِوَاهم- الفائزون الظَّافرون بمَطْلُوبَاتِهم، النَّاجونَ مِنْ مَرْهُوباتِهِمْ[1].

الإِيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

دلالة استعمال ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الخاصّ بالمُشار إليه البعيد:

المُتّقون مُتميِّزون عالو المكانة، سامِقو الرُّتبة يُشارُ إليهم بالبَنان

أُشيرَ إلى المتَّقين المفصَّلِ ذِكرُهم ذوي الخِصَالِ الحَسَنةِ باسمِ الإشارةِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾؛ للدّلالة على تميُّزِهم أكملَ تميُّزٍ، وتنزيلِهم بسبب ذلك التَّميُّزِ مَنْزلةَ الأمور المُشاهَدَةِ التي مِنْ شأنِهَا الإشارةُ إِلَيْهَا، مع ما فيه من معنَى البُعْدِ المُشْعِرِ بِعلُوِّ مكانتهم، وبُعْدِ مرتبتهم في الفضلِ[2].

دلالة الاستعلاءِ في قولِه: ﴿عَلَىٰ هُدًى﴾:

معنى الاستعلاءِ في حرفِ الجرِّ في قولِه سبحانه: ﴿عَلَىٰ هُدًى﴾ مُخرَّجٌ على وجهين:

تَشبيهُ الاستعلاءِ المعنويِّ بالاستعلاءِ الحسيِّ؛ لتصويرِ التَّمكُّنِ والثَّباتِ

أحدهما: الاستعلاءُ حاصِلٌ لهُمْ؛ لكونِ منزلتِهم علَتْ وارتفعَتْ باتِّباعِهِمُ الهدَى[3].

والآخر: شُبِّهَ حالُ المُتَّقين في تمسُّكِهم بالهُدى واستقرارِهم عَلَيْهِ بحالِ مَنِ اعْتَلَى شيئًا[4]؛ بجامع مُطْلَقِ التَّصرُّفِ؛ إذْ "لمَّا كانَتْ أفعالُهم كلُّها على مُقْتَضَى الهُدى؛ كان تَصَرُّفهم بالهُدَى كتَصَرُّف الرَّاكب بما يَرْكَبُ"[5]، فالكلامُ محمولٌ على الاستعارةِ، ولها أوجهٌ:

(1) ابن جرير، جامع البيان: 1/247، والقِنَّوجيُّ، فتح البيان: 1/85.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السَّليم: 1/33.
(3) العُكبَرِيّ، التبيان في إعراب القرآن: 1/14.
(4) الزَّمخشري، الكشَّاف: 1/44.
(5) العُكبَرِيّ، التبيان في إعراب القرآن: 1/14.

إمَّا أن تكون تمثيليَّةً "بِأَنْ شُبِّهَتْ هَيْئَةُ تَمَكُّنِهِمْ مِنَ الْهُدَى وَثَبَاتِهِمْ عَلَيْهِ وَمُحَاوَلَتِهِمُ الزِّيَادَةَ بِهِ وَالسَّيْرَ فِي طَرِيقِ الْخَيْرَاتِ بِهَيْأَةِ الرَّاكِبِ فِي الِاعْتِلَاءِ عَلَى الْمَرْكُوبِ وَالتَّمَكُّنِ مِنْ تَصْرِيفِهِ وَالْقُدْرَةِ عَلَى إِرَاضَتِهِ فَشُبِّهَتْ حَالَتُهُمُ الْمُنْتَزَعَةُ مِنْ مُتَعَدِّدٍ بِتِلْكَ الْحَالَةِ الْمُنْتَزَعَةِ مِنْ مُتَعَدِّدٍ تَشْبِيهًا ضِمْنِيًّا دَلَّ عَلَيْهِ حَرْفُ الِاسْتِعْلَاءِ لِأَنَّ الِاسْتِعْلَاءَ أَقْوَى أَنْوَاعِ تَمَكُّنِ شَيْءٍ مِنْ شَيْءٍ"[1].

وإمَّا أن تكونَ "تَبَعِيَّةً مُقَيَّدَةً بِأَنْ شَبَّهَ التَّمَسُّكَ بِالْهُدَى عِنْدَ الْمُتَّقِينَ بِالتَّمَكُّنِ مِنَ الدَّابَّةِ لِلرَّاكِبِ، وَسَرَى التَّشْبِيهُ إِلَى مَعْنَى الْحَرْفِ وَهُوَ (عَلَى)"[2].

وَجُوِّزَ وَجْهٌ ثَالِثٌ وَهُوَ أَنْ يَكُونَ التَّعْبِيرُ هُنَا اسْتِعَارَةً مَكْنِيَّةً مُفْرَدَةً بِأَنْ شُبِّهَ الْهُدَى بِمَرْكُوبٍ وَحَرْفُ الِاسْتِعْلَاءِ قَرِينَةٌ عَلَى ذَلِكَ عَلَى طَرِيقَةِ السَّكَّاكِيِّ فِي رَدِّ التَّبَعِيَّةِ لِلْمَكْنِيَّةِ[3].

دلالة التنكير في لفظ ﴿هُدًى﴾:

تعظيمُ الهدى وتفخيمُ شأنِه؛ رفعٌ لشأنِ المهتدين

مجيءُ لفظ (هُدًى) مُنكَّرًا؛ للإشارةِ إلى تعظيمِه[4]، ووجهُ إفادتِه التعظيمَ ما فيه مِنَ الإبْهَام الذي يفيدُه نحوُ قولِه تعالَى: ﴿ٱلْحَآقَّةُ ۝١ مَا ٱلْحَآقَّةُ﴾ [الحاقة: 1-2]؛ لِأَنَّهُ في معنى: هُدًى وأيّ هُدًى؛ أَيْ: هُدًى عَظِيم؛ ولِعَظَمتِه لا تُعْرف حقيقَتُه، ولا يُسْبَرُ غَوْرُه، ولا يُقادَرُ مقدارُه[5].

اكتسابُ الهُدى الشَّرفَ والتَّفخيمَ لإضافتِه للرُّبوبيَّة

ويُؤَيِّدُ هذه الدّلالة قولُهُ تعالى بعدُ: ﴿مِّن رَّبِّهِمْ﴾؛ بِبَيَانِ أَنَّهُ صادِرٌ مِنْهُ سُبْحَانَهُ وبتوفيقِه.

والإضافَةُ في ﴿رَّبِّهِمْ﴾ إضافةٌ لقصدِ تعظيم شَأْنِ الْمُضَاف إِلَيْهِ وَهُمُ الْمُتَّقونَ[6].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/243.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/243.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/243.
(4) السَّمين، الدُّر المصون: 1/102.
(5) الخفاجيّ، عناية القاضي: 1/248، والطِّيبيّ، فتُوح الغَيب: 6/17.
(6) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/245.

دلالة تَكرير اسمِ الإشارة ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾:

وفْرَة فضل اللهِ عَلَى المُتَّقِينَ وثناؤه عليهم

تَكرار اسمِ الإشارة ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾؛ لِلتَّنبيه على أَنَّ كُلَّ حكم كالمُستقِلِّ عن الآخرِ؛ تكثيرًا لفضلِ اللّهِ تعالى الذي حصَّلوهُ[1]، وزيادةً في الثَّناءِ عَلَيْهِمْ وتكريمِهم[2]، ولِلإيمَاء إلى أَنَّ التَّقدُّمَ والسَّبْقَ والتَّميُّزَ كما ثبَت لَهُمْ بالهُدى؛ فهو ثابتٌ لَهُمْ بالفلاح كذلك، فجُعِلَت كلُّ خَصلةٍ في تَمْييزهم بالمَنْزِلَةِ التي لَو انفرَدَت؛ كانت كَافِية[3].

القصْرُ بتَعريفِ طَرَفي الجملة:

المتَّقونَ مُنْفَرِدونَ بالفَلَاحِ الحقيقيِّ لا يَشْرَكُهُمْ فيه غَيْرُهُمْ

قولُه تعالى: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ جملة اسميَّةٌ، طَرَفاها: (أُولَئِكَ) -وهو مبتدأٌ-، و(الْمُفْلِحُونَ) -وهو خبرُهُ-، وقد وَقَعَا مَعْرِفَتَيْنِ، وتعريف جُزأي الجملةِ مفيدٌ القَصرَ، فالمتَّقونَ مُنْفَرِدونَ بالفلَاحِ لا يَشْرَكُهُمْ فيه غَيْرُهُمْ.

دَوْرُ الضّمير ﴿هُمُ﴾ في تقويةِ القَصْرِ وتوكيدِه:

والإتيانُ بضميرِ الفصلِ (هُمْ) ليس لإفادة القَصْرِ هَهُنَا[4]؛ لأنَّ محلَّ إفادَتِه القصْرَ فيما إذا لَمْ يَكُنْ في الجملةِ قَصْرٌ، وهو هنا ثابتٌ بِتَعْرِيفِ الجُزْأَيْنِ -كما سبق-، وإنَّما جاء ضميرُ الفصلِ لِتَقْوِيةِ القَصْرِ وتوكيدِه[5].

دلالة تعاطُف الاسميّتين:

لُزُومُ المُتَّقِينَ سبيل الهُدَى، ونيلُهم المُؤكّد للفلاح الدّنيويّ والأخروي

عُطِفَتْ الجملةُ الاسميَّةُ: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ على مثيلتِها الاسميَّةِ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْۖ﴾؛ للدّلالة على ثبوتِ الهُدَى والفلاحِ لَهُمْ تمكُّنًا واستقلالًا، وأنَّهم مستمرُّونَ على طريقِ الهُدَى،

---

(1) قريبٌ مِنْهُ عند محمَّد أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 1/113.

(2) وهبة الزُّحيلّي، التّفسير المُنير: 21/127.

(3) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 1/45، والخفاجيّ، عناية القاضي: 1/249.

(4) ويحتملُ وجهًا آخرَ؛ وهو أنَّنا إذا اعتبرنا التَّعريف في ﴿الْمُفْلِحُونَ﴾ تعريفَ عهدٍ خارجيٍّ -فلم يكن ثَمَّة قَصْرٌ-، واعتبرنا «هُمْ» ضميرَ فصلٍ؛ كانَ ضميرُ الفصلِ مفيدًا القَصْرَ، كما أشار إليه الشِّهاب الخفاجيّ في عناية القاضي: 1/251.

(5) الطِّيبِيّ، فتوح الغيب: 2/114، ومحمّد أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 1/114.

نائلُونَ الفلاحَ الدُّنْيَوِيَّ والأخرويَّ، ولبيان ترتيب الجزاءِ على العملِ؛ فمنِ اهتدى فقد أفلحَ.

تردُّدُ معنى اللّامِ في ﴿ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ بين الجنسِ والعهد الخارجي:

المُتّقون لا يتجاوَزُون الفلاحَ إلى صفةٍ أُخْرَى، والفلاحُ لا يَعْدوهم إلى غيرِهم

يحتملُ أن يكونَ معنى اللَّامِ في كلمةِ: ﴿ٱلْمُفْلِحُونَ﴾؛ لبيانِ الحقيقةِ والجِنس، والمعنى: "أنَّهم الذين إنْ حصلَت صفةُ المفلحين؛ فَهُمْ هُمْ، لا يَعْدُونَ تلك الحقيقة"[1].

ويحتملُ أَنْ تكونَ اللَّامُ لِلعَهدِ الخارجيِّ؛ وفيه إيماءٌ إلى أَنَّ المُتَّقين هُمُ النَّاسُ الذين بلغَكَ عَنْهُمْ فلاحُهُمْ[2].

وعلى الأوَّلِ؛ هُوَ مِنْ قصر المسند إِلَيْهِ على المسند؛ فَهُمْ لا يتجاوَزُون الفلاحَ إلى صفةٍ أُخْرَى[3]، وهو قصرٌ مجازيٌّ كما لا يخفَى؛ إِذْ هو مِن قصر الموصوف على الصِّفةِ، وليس في هذا النَّوْعِ مِنَ القصرِ حقيقيٌّ.

وعلى الثَّاني؛ هو مِنْ قَصْرِ المُسنَد على المُسنَد إِلَيْهِ؛ فالفَلاح لا يتعدَّاهم إلى غيرِهِمْ، وهو مِن قصر الصِّفة على الموصوف، وهو الذي سبق بيانُهُ قريبًا.

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الفَوْزُ وَالظَّفَرُ وَالنَّجَاحُ وَالفَلَاحُ:

الفوزُ نجاةٌ من الشّرّ ووُصولٌ إلى المَحبوب. والظَّفر عُلُوٌّ على المُنَاوِئ المُنَازع، والنَّجاحُ الظّفرُ بالشَّيء وإدراكهُ، والفلاح يَجْمَعُ بينَ الدُّنيا والآخرة، فهو ثمرةٌ لنجاحات متعدِّدة.

الفَوْزُ: ضدُّ الهلاك[4]؛ وهو الظَّفر، بَدَلًا مِنَ الوُقُوع في الشَّرِّ[5]، ولذا قال تعالى: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران: 185]، فجُعِلَ فَوزُهم بدلًا مِن دخولِهمُ النَّارَ، ومِنْهُ جُعِلَتِ النَّجاةُ مِن معاني الفَوْزِ[6].

(1) النَّيسابوريُّ، غرائب القرآن: 1/149، وأبو السّعود، إرشاد العقل السَّليم: 2/68، والقِنَّوجيّ، فتح البيان: 2/305.
(2) الزّمخشريّ، الكشَّاف: 1/46، والطِّيبيّ، فتوح الغيب: 2/114.
(3) الطِّيبيّ، فتوح الغيب: 2/114-115.
(4) ابن دُريد، جمهرة اللُّغة: (فوز).
(5) أبو هلال العسكريّ، الفروق اللّغويَّة، ص: 340.
(6) نشوان الحِمْيَرِيّ، شمس العلوم: 8/5278.

وقال الخَليل: "الفَوْزُ: الظَّفَرُ بالخَيْر، والنَّجَاةُ مِنَ الشَّرِّ"[1]؛ يقال: فازَ بالخَيْر، وفاز مِن العَذَاب[2].

ولذا فَإِنَّ الفَوْزَ: ليس مُجرَّدَ الخلاصِ مِمَّا يُكْرَهُ، وإنَّما هُوَ الخلاصُ مِنْهُ مع الوصُول إلى المحبوبِ؛ "وَلِهَذَا سمَّى اللّه تَعَالَى الـمُؤمنِينَ فائزين، لنجَاتِهم مِنَ النَّار ونَيْلِهِمُ الجنَّةَ"[3].

أمَّا الظَّفر؛ فهُو العُلُوُّ على الـمُنَاوِئِ الـمُنَازع[4]، كما قال سبحانه: ﴿مِنۢ بَعۡدِ أَنۡ أَظۡفَرَكُمۡ عَلَيۡهِمۡۚ﴾ [الفتح: 24]، فهو أَخصُّ. وأمَّا النَّجاحُ فهو الظَّفر بالشَّيء وإدراكهُ[5]، فهو أعمُّ مِنَ السَّابِقَيْن؛ فأمَّا كونُهُ أعمَّ مِنَ الظَّفَرِ فظاهرٌ، وأمَّا كونه أعمَّ مِنَ الفَوْزِ؛ فلأنَّ النَّجاح والفوزَ اشتركَا في الوصول إلى المحبُوب والظَّفَرِ بهِ، إلَّا أنَّ لِلفوزِ قَيْدًا زائدًا وهو أَنَّ فيه خلاصًا مِن مكروهٍ.

ولا يُعترَضُ على هذا بِأَنَّ في النَّجاحِ إشارةً إلى خلاصٍ مِن مكروهٍ؛ لأنَّ ذلك قَد يُستفادُ مِنْهُ بالفَحْوَى واللُّزوم، بخلافِ الفَوْزِ فإنَّ ذلك لازِمٌ لِلَّفْظِ بحسبِ الوَضْعِ.

ثُمَّ إنَّ الظَّفرَ بالشَّيء وإدراكَهُ -الذي هو حقيقةُ النَّجاح- لا يلزمُ مِن عدمِه وقوعٌ في مكروهٍ، فقد يُعْدَمُ تَاجِرٌ مثلًا النَّجاحَ، ولا يلزَمُ مِنْهُ خسارةُ رأسِ مالِهِ؛ بخلاف الفَوْزِ فَإِنَّ حقيقتَهُ تقتضي أنَّ مَنْ عَدِمَهُ فقَد وقعَ في هَلَكةٍ ومكروهٍ.

وَأَمَّا الفلَاحُ فهو قريبٌ مِنَ النَّجاحِ في إدراك الخَيْرِ المطلوبِ، إلَّا أنَّهُ زادَ عَلَيْهِ في الدَّيْمُومةِ؛ فالفلاحُ: إدراكُ الخير والبقاءُ فيه، بخلاف النَّجاح فقد يكون عَارضًا، فالفلاح: "يَجْمَعُ بينَ الدُّنيا والآخرة، فهو ثمرةٌ لنجاحات متعدِّدة، وفيه جَنْيٌ لثمار النَّجاح، وفيه إدراك كلِّ مأمولٍ، وفيه معنى السَّعَة، ومعنى التَّيسير، ومعنى البقاءِ والخَيْرِ"[6].

والبَقاءُ في الخير يَلْزَمُ مِنْهُ النَّجاةُ مِنَ الـمَكَارِهِ؛ فالفلاحُ أَجْمَعُ وأَوْعَبُ[7]، وهذا سرٌّ من أسرار اختياره في وصف فوز الـمُتّقين في مطلع سورة البقرة، واللّه أعلم بأسرار كتابه.

---

(1) الخليل بن أحمد، العين: (فوز).

(2) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (فوز).

(3) أبو هلال العسكريّ، الفروق اللّغويَّة، ص: 532.

(4) أبو هلال العسكريّ، الفروق اللُّغويّة، ص: 340.

(5) ابنُ سِيدَه، المُحكم والمحيط الأعظم: (نجح)، ومحمّد داود، معجم الفروق اللُّغويّة والدّلاليّة، ص: 363.

(6) محمّد داود، معجم الفروق اللّغويّة والدّلاليّة، ص: 43.

(7) لم يَرِدِ النَّجاح ومشتقّاتُهُ في القرآن الكريم.

أمَّا الظفر؛ فلم يَرِد إلَّا في موضع واحد في سورة الفتحِ، وهو قوله تعالى: ﴿مِنۢ بَعۡدِ أَنۡ أَظۡفَرَكُمۡ عَلَيۡهِمۡۚ﴾ [الفتح: 24].

وورد الفَوْزُ في القرآن في تسعة وعشرين موضعًا، وقع التَّعبير مِنْهَا باسم الفاعل (الفائزون) في أربعة مواضع.

وأمَّا الفلاح فجاء ذِكرهُ في القرآن إحدى وأربعين مرةً، وقع التَّعبير مِنْهَا باسم الفاعل (المفلحون) و(المفلحين) ثلاثَ عشرةَ مرةً.

محمّد فؤاد عبد الباقي، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، ص: 434، 527-526.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ٦﴾ [البقرة: 6]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

إظهار التّباين بين المتّقين والكافرين والمنافقين

لـمَّا ذَكَر اللهُ ﷻ صفاتِ المتَّقين وأعمالَهم؛ أَعْقَبَه بذكر صفات الكُفَّارِ؛ "لِيَظْهَر الفارقُ الواضحُ بين الصِّنْفين، على طريقةِ القُرآن الكريم في المُقَارنة بين الأبرارِ والفُجَّار، والتَّمْييز بينَ أهل السَّعادة وأهل الشَّقَاوة"[1].

ولـمَّا كان الكُفَّار قِسْمَين: مُصَارِحين ومنافقينَ، وكان المنافقون صِنْفَين؛ أَحَدهما: الْجُهَّال من مُشْرِكي العرب، والآخَر: عُلَمَاء مِن كُفَّار بني إسرائيل؛ نَاسَبَ البدءُ بالمُصارِحين؛ ليُفْرَغَ مِن قسمٍ بأكملِهِ على عجَلٍ؛ ليُتَفَرَّغَ لِلْمُنَافقين؛ لكَوْنِ أمرِهم أخطرَ وأشدَّ[2].

وسرُّ الابتداء بالمؤمنين، والتَّثْنيةِ بالكافرين، والختمِ بالمنافقين؛ فيه أوجهٌ:

أحدُها: أنَّهُ لـمَّا كان البدءُ في سورة الفاتحةِ بالمؤمنينَ، ثمَّ ذُكرَ الكافرونَ، وكان الكفرُ والنِّفاقُ مُنتشِرَيْنِ في المغضوب عَلَيْهِمْ والضَّالِّين؛ ناسَبَ الابتداءُ بهذه الأصنَاف الثَّلاثةِ في سُورة البقرةِ على التَّرتيبِ الوارِدِ في سورة الفاتحة.

ثانيهَا: لَحْظُ الأصلِ؛ فإنَّ الأصلَ في الإنسان أن يكون مُؤْمِنًا على الفِطْرَةِ، والكفر طَارِئٌ على الإيمان، والنِّفاقُ طارئ على الكُفْرِ، فكانَ التَّرتيبُ على هذا المِنوال هُوَ الأصلَ.

ثالثها: تُمَثِّل الآيةُ انتقالًا نوعيًّا مِنَ الحديثِ عَنِ المؤمنين، إلى المقابِل العقَدِيِّ؛ وهو الحديث عَنِ الكافرين والمنافقين، وابتدأَتْ بالكافرينَ باعتبارهم العُنْصُرَ الظَّاهرَ في المقابلة، وثنَّت بالمنافقين باعتبارهم العنصرَ الباطنِيَّ في المقابلة؛ فهو مَقْطَعٌ فِيهِ ثلاثُ ركَائِزَ: الإيمان، والكفر، والنِّفاق، تُمَثِّلُ في مُجْمَلِها التَّفْصِيلَ البَيِّنَ لِمَا أَجْمَلَتْهُ سورةُ الفاتحةِ.

(1) محمد علي جميل، صفوة التَّفاسير: 1/27.
(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 1/91.

شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

1) ﴿كَفَرُواْ﴾: الكافُ والفاءُ والرَّاءُ تدل اشتقاقاتُها على السَّتْرِ والتَّغطيةِ والجَحْدِ[1]؛ ومِنهُ سُمِّي الكَافرُ كافرًا؛ لِأَنَّهُ يستُرُ نِعمةَ اللّه عَلَيهِ وَيَجْحَدُها بِكُفْرِهِ، ويُقال: كفَرَ البذرَ إذا زرَعَهُ؛ لأنَّه بزراعتِهِ يُغطِّيه[2].

وكلُّ الألفاظ المشتقَّةِ مِنَ الكُفْرِ راجعةٌ إلى معنى السَّتْرِ، ومِنْهُ: اللَّيل، والبَحْر، والسَّحاب المُظْلِم، والزَّارِعُ، والزَّرْعُ؛ فَإِنَّ الجميعَ يُسمَّى: كافرًا[3].

وثمَّةَ قيدٌ مُهِمٌّ؛ وهو أَنَّ أصلَ كُفْرِ الشَّيْءِ: تغطيتُهُ تغطيةً كثيفةً شاملةً تُحيط به مِن كل جانب، فلا يظهر معها شيءٌ مِنَ المُغَطّى؛ كما يُغطِّي الزَّارعُ الحبَّ الذي يَزْرَعُهُ[4].

ويُطْلَقُ الكُفرُ في الشَّرع على ما يُقابلُ: الإيمانَ، وما يُقابلُ: الشُّكْرَ، فَمِنَ الأوَّل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾، ومن الثَّاني: ﴿وَٱشْكُرُواْ لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة: 152][5].

2) ﴿سَوَآءٌ﴾: السينُ والواوُ والياءُ تدل تصاريفُها على استقامة واعتدالٍ بين شيئين[6]. وَمِنْهُ قولُهم: مكانٌ سَوَاءٌ، أي: وسطٌ[7]، ومِنهُ قولُه تعالى: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ﴾؛ أي: يستوي الأمرانِ المذكوران.

3) ﴿ءَأَنذَرْتَهُمْ﴾: الإِنْذَار: الإعلام معَ التَّخويف والتَّهْديد والتَّحذيرِ[8]، يُقال: تَنَاذَرَ القومُ؛ إِذَا خَوّفَ بعضُهم بعضًا[9]، فَبَيْنَ الإنذارِ وَالإعلامِ عمومٌ وخصوصٌ مطلَقٌ؛ إِذْ كُلُّ إنذارٍ إعلامٌ، وليس كلُّ إعلامٍ إنذارًا[10].

وذكر القُرْطبيُّ وغيرُهُ قَيْدًا زائدًا في الإنذار؛ وهو كونُهُ لا يكون إلَّا في تخويفٍ يتَّسعُ زمنُهُ لِلاحْترازِ مِنَ المُخَوَّفِ، فإن لم يتَّسعْ زمَنُهُ كان إِشْعارًا[11].

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (كفر).
(2) القاضي عِياض، مشارق الأنوار على صحاح الآثار: 1/345، وابن مالك، إكمال الإعلام بتثليث الكلام: 2/546.
(3) الكَفَوِي، الكلِّيَّات، ص: 763.
(4) أبو موسى المَدِيني، المجموع المغيث في غريبَي القرآن والحديث: (كفر)، وجبل، المعجم الاشتقاقيُّ المؤصَّل: (كفر).
(5) ابن الجوزي، نزهة الأعين النَّواظر، ص: 517-516.
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سوي).
(7) الرّاغب، المفردات: (سوأ).
(8) الجوهريّ، تاج اللُّغة وصحاح العربيّة: (نذر)، والرّاغب، المفردات: (نذر)، والشِّنقيطيّ، العذب النّمير: 2/273.
(9) ابن الجوزيّ، زاد المسير: 1/29.
(10) الواحديّ، التَّفسير البسيط: 2/95، والسَّمين، عمدة الحُفّاظ: (نذر).
(11) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 1/184. الرّازيّ، التّفسير الكبير: 1/76.

والغرَضُ مِنَ الإنذارِ ليس مجرَّدَ الإعلامِ والتَّخويفِ، وإنَّما لِلْحذَرِ مِنَ المُخوَّفِ[1].

أمَّا الإنذارُ في الاستعمالِ القرآنيِّ؛ فهو بمعنى: التَّخويفِ مِنْ عذَابِ اللّٰه تعالَى.

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

إنَّ الذين جحدوا ما أُنْزِلَ إليك من ربك استكبارًا وإعراضًا وعِنادًا؛ لَنْ يصدُرَ مِنهم إيمانٌ، ولن يُؤتيَ تخويفُك لهم من عذاب اللّٰه أُكُلَه فيهم، فتخويفُكَ وعدَمُه عندهم سواءٌ[2].

❁ الإِيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

تَوْجِيهُ بَلَاغَةِ فَصْلِ الْجُمْلَةِ عَنْ سَابِقَتِهَا:

تَعْلِيلُ الفَصْلِ بَيْنَ الجُمَلِ قائمٌ على تَعْيِينِ غَرَضِ السِّياقِ

اختُلف في توجيهِ سبَبِ الفصل في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ على قولَيْن، مَبْنَاهُمَا على تحديد الغرض مِنَ الآيات السَّابقة:

الأوَّل: مَنْ جعل غرضَ الآياتِ السَّابقةِ القرآنَ؛ وجَّه الفصلَ على أنَّه من كمالِ الانْقِطَاعِ حَمْلًا على الاختلافِ بين الحديث عَنِ القرآن والكفَّار، وهو مذهب السَّكَّاكِيِّ، والجامعُ وإن كان ثابتًا هَهنا؛ لكون الصِّنْفِ الثَّاني يُضادّ الأوَّل - وهو المسمَّى الجامعَ الوهميَّ-[3]؛ إلَّا أنَّهُ "جامعٌ غيرُ مُلْتَفَتٍ إِلَيْهِ؛ لِبُعْدِ المقام عَنْهُ"[4].

الثَّاني: مَن جعل غرضَ الآيات السَّابقة الحديثَ عن صِفاتِ المؤمنين؛ وجَّه الفصلَ على أنَّه شِبْهُ كمال الاتصال (الاِسْتِئْنَافِ البيانيّ)[5].

---

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/199.

(2) ابن عطيّة، المحرَّر الوجيز: 1/87، ولجنة من علماء الأزهر، المنتخب في تفسير القرآن الكريم، ص: 4، ونخبة من أساتذة التّفسير، التّفسير الميسّر، ص: 2.

(3) بهاءُ الدِّين السُّبكّي، عروس الأفراح: 3/136-137.

(4) الخفاجيّ، عناية القاضي: 1/158.

وقَوْلُ العلَّامة ابن عاشور في التّحرير والتّنوير: 1/247: «وإنَّما قُطِعت هاته الجملةُ عَنِ التي قبلها؛ لأنَّ بينَهما كمالَ الانقطاعِ؛ إذِ الجملُ السَّابقة لذِكْرِ الهُدى والمهتدين، وهذه لذِكْرِ الضَّالين، فبَيْنَهُما الانقطاعُ لأجل التَّضادِّ»، يُشكِلُ عَلَيْهِ أنَّ التَّضادَّ نوعٌ من أنواع التناسُبِ يَنْدَرِجُ تحت الجامعِ الوهْمِيِّ، وردت آياتٌ كثيرة في عطف الضِّدين، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ۝١٣ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ۝١٤﴾ [الانفطار: 13-14].

وجعلَ الزمخشريُّ في الكشَّاف: 1/47، الغرضَ هُوَ الفرقَ في الفَصْلِ ههنا، والوصلِ في آية الانفطار؛ إذْ هو مُتباينٌ فِيهما، فآية البقرة سيقَت لذِكْرِ القرآن وعلُوِّ شأنِهِ، والأخرى سيقَتْ لبيانِ تمرُّدِ الكافرينَ وتوغُّلِهم في الضَّلال.

ثُمَّ أومأ الزمخشريُّ إلى أنَّ آيةَ البقرةِ مستأنَفَةٌ استئنافًا بيانيًّا؛ فإنَّه قال: «الكلامُ المبتدأ عَقِيب المُتَّقِين سَبِيلُهُ الاستئنافُ، وأنَّه مبنيٌّ على تقدير سؤال، فَذَلِكَ إدراجٌ له في حكم المُتَّقين، وتابعٌ له في المعنى، وإن كان مبتدأً في اللَّفظ؛ فهو في الحقيقة كالجَارِي عَلَيْهِ. اهـ، فكأنَّه لَمَّا ذُكر حالُ المُتَّقِينَ؛ قِيلَ: وما حالُ غَيْرِهِمْ؟ فجاء الجواب: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾.

ونَظَرَ الشِّهَابُ في كونِ الآيةِ مِنَ الاستئنافِ البيانيِّ، فيُنظر كلامُهُ في عناية القاضي: 1/242.

(5) الزمخشري، الكشاف: 1/47.

فالمعتدُّ به هَهُنا قائمٌ على تَعْيِينِ المقصود في الآيات السَّابقةِ؛ فإنَّ توجيهَ الفَصْلِ قائمٌ على تعيين الغرض مِنَ الآياتِ السَّابقة، والوجهان قويَّان بلاغةً، متَّجهان نَظْمًا، إلَّا أنَّ الوَارِدَ عَنْ مُجَاهِدٍ رحمه الله وهُوَ قولُه: "مِنْ أَوَّلِ الْبَقَرَةِ أَرْبَعُ آيَاتٍ فِي نَعْتِ الْمُؤْمِنِينَ، وَآيَتَانِ فِي نَعْتِ الْكَافِرِينَ، وَثَلَاثَ عَشْرَةَ آيَةً فِي نَعْتِ الْمُنَافِقِينَ"[1]، يُقوِّي مذهبَ الاسْتِئْنَافِ البيَانيِّ.

توجيهُ تَأْكِيدِ الْجُمْلَةِ فِي قَوْلِهِ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾:

إظهارُ القيمةِ الهدائيّةِ في الحِرْصِ على إنذارِ الآخَرِ

أُكِّدَتِ الجُمْلَةُ بـ (إنَّ) في قولِه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ لأحدِ ثلاثَةِ أَوْجهٍ[2]:

أَوَّلُها: الاهْتِمَامُ بِالْخَبَرِ وَغَرَابَتِهِ؛ لِأَن الْخطابَ للنبيِّ ﷺ وَلِلْأُمَّةِ؛ فلا يُرَادُ حينئذٍ رَدُّ الْإِنْكَارِ أَوِ الشَّكِّ، إذِ التَّوكيدُ لمُجرَّدِ الاهتمام.

ثانِيهَا: تنزيلُ النَّبِيِّ ﷺ مَنْزِلَةَ مَن شكَّ في نفعِ الإنذارِ؛ لِأَنَّ حِرْصَ النَّبِيِّ ﷺ عَلَى هِدَايَةِ الْكَافِرِينَ يَجْعَلُهُ لَا يَقْطَعُ الرَّجَاءَ فِي نَفْعِ الْإِنْذَارِ لَهُمْ؛ فجاءَ التَّوكيدُ ههنا لِرَدِّ هذا الشَّكِّ المُفْتَرَضِ.

ثالثها: لَمَّا وُصِفَ القرآنُ الكريم ببلُوغِه الغايةَ في الهدايَةِ؛ أَطْمَعَ هذا الوصفُ السَّامعين في تأثير هداية القرآنِ في الكافرينَ المعاندين، وجَعَلَهُمُ الوصفُ كالشَّاكِّينَ في استواء الإنذارِ وعدمِه، فخَرَجَ الخطابُ على خلاف مقتضى الظَّاهر، ونُزِّلوا منزلة الشَّاكِّين وإن لم يكونُوا كذلكَ.

مَعْنَى اللَّامِ فِي الِاسْمِ الْمَوْصُولِ:

خَبَرُ اللهِ تَعَالَى بِعَدَمِ إِيمَانِ قَوْمٍ لَا يَتَخَلَّفُ ويلزَمُ منه التَّحذير

تعريفُ الاسمِ الموصولِ في قَوْلِهِ ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ يحتَمِل وَجْهَين:

(1) مجاهد: تفسير مجاهد، ص: 195.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/247-248.

الأوَّل: أن يكون لِلْعَهدِ، والمرادُ به ناسٌ مَخْصُوصونَ، كأبي لهَبٍ وأبي جَهْلٍ ونحوِهما.

والآخر: أَنْ يكون لِلْجِنْسِ الدَّالِّ على العُموم، وهذا له مسلَكَانِ:

أحدهما: أن يكون المرادُ أبلغَ أنواعِ الكفرِ، والقرينَةُ قولُه تعالى: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾، فهو مِنَ العَامِّ المخصوصِ بالْحِسِّ؛ لوجود مَن آمَنَ مِن الكُفَّارِ.

والآخر: أَن يكون عامًّا مرادًا به الخصوصُ.

وهذان المَسْلَكانِ "نَاظِرَان إلى أَنَّ اللّٰه أخبَرَ عَن هَؤُلاءِ بأَنَّهم لا يُؤمنون، فتَعَيَّن أَنْ يكونوا مِمَّن تَبَيَّن بعدُ أنَّه ماتَ على الكُفْرِ"[1].

فائِدَةُ حَذْفِ الْمُتَعَلَّقِ العُمومُ وبيانُ شنَاعةِ كُفرِ المَذْكُورِين:

حُذف مُتَعَلَّقُ الكُفْرِ في قوله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ فلم يُذْكَرْ، نَحْوُ: (كَفَرُوا باللّٰهِ)، أو (بِالْيَوم الآخرِ)؛ لإفادة العموم؛ إذْ إنَّ حذف المتعلَّق مُؤذِنٌ بالعموم، فَيَعُمُّ ما ذُكِرَ وغيرهُ ممَّا يجبُ أن يُؤْمِنُوا بِهِ، وما لا يجوزُ الكفرُ بهِ؛ وذلك أقوَى في تشنيعِ كُفْرِهم.

بلاغة الاستفهام (همزة التسوية):

بُلُوغُ الكُفَّارِ الغَايةَ الْقُصْوَى فِي العِنَادِ

الاستفهامُ في قولِه ﷻ: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ﴾ استفهامٌ في اللَّفْظِ، وهو في المعنى: خَبَرٌ[2]، والمرادُ: التَّسويةُ؛ وذلك لأنَّ همزةَ التَّسْوية موصولٌ حَرْفِيٌّ[3]، تُسبَكُ مَعَ ما بعدَها بِمَصْدَرٍ، فتقدير ﴿ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ﴾: إنذارُكَ وعدمُ إنذارِك سواء، فمُؤدَّاه الْخَبَرُ.

قال الزَّجَّاج: "فأمَّا دُخُولُ ألفِ الاستفهامِ ودخولُ (أَمْ) التي لِلاسْتِفهام، والكلامُ خَبرٌ؛ فإنَّمَا وَقَعَ ذلك لمعنى التَّسْوِيةِ، والتَّسْوِيَةُ آلَتُهَا: ألفُ الاستفهامِ"[4].

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتّنوير: 1/248.

(2) الواحديّ، التَّفسير البسيط: 1/256، وابن عطية، المحرَّر الوجيز: 1/88.

(3) عبَّاس حسن، النّحو الوافي: 1/407، وفي عدِّها موصولاً حرفيًّا خلافٌ، وعلى قولِ مَن لا يراها موصولاً حرفيًّا؛ «فالجملة مِنَ الفعل والفاعل تكون في تأويل مصدرٍ مِن غير سَابِك؛ لإصلاح المعنى». ينظر: الهرريّ، حدائق الرَّوح والرّيحان: 1/150.

(4) الزَّجَّاج، معاني القرآن وإعرابُهُ: 1/77.

واستظهَرَ ابنُ عاشور[1] أَنَّ الهمزةَ لِلاستفهامِ باقيةٌ على دَلالَتِهَا مِن دُون التَّعرُّضِ لِلتَّسويةِ، وإنَّما التَّسويَةُ مستفادَةٌ مِن قولِه: ﴿سَوَآءٌ﴾، وأَنَّ في الكلامِ حذفًا، تقديرُه: ﴿سَوَآءٌ﴾ جوابُ ﴿ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ﴾، كقَوْلِهم: عَلِمْتُ أزيدٌ قائمٌ، والمعنى: علمتُ جوابَ هذا السُّؤالِ.

المشركون المتحدَّثُ عنهم بلغوا الغاية في الكفر بحيث استوى إنذارهم وعدم إنذارهم

ونُكْتَةُ هذا التَّعبيرِ: أنَّ الإنذارَ وعدمَهُ يبدوان مُخْتَلِفَيْن؛ لخفاءِ استوائِهما؛ حتَّى لَيُسْأل: أأنذرتَهم أم لم تُنذرْهم؟ فيُبَيَّنُ أَنَّ الأمرينِ مستويانِ في تركِ الاكْتِراثِ بهما، وعدمِ الحاجةِ إلى جوابِ الاستفهام، فيكون قولُه تعالى: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ﴾ مُشيرًا إلى أَنَّ النَّاس لِتَعَجُّبِهم في دوامِ الكُفَّارِ على كُفْرِهم معَ ما جَاءَهم مِنَ الآياتِ، بِحَيْثُ يَسْأَلُ السَّائلون أأنذَرَهم النَّبِيُّ أم لَمْ يُنْذِرْهُم؟ مُتَيَقِّنِين أنَّه لو أنذرهم لَمَا تردَّدوا في الإيمانِ، فقيل: إنَّهُم سواءٌ عَلَيْهِمْ جوابُ تساؤلِ النَّاسِ عن أَحَدِ الأَمْرَين"[2]، وهذا إنَّما يكونُ مَعَ الذين بلغَ عنَادُهم الغايةَ.

نُكْتَةُ تَعْدِيَةِ الِاسْتِوَاءِ بِـ(عَلَى) لبيانِ تَمكُّنِ الاسْتواءِ:

براعَةُ الاسْتِعَارَةِ والتَّناسُبِ في تَعاضدِ المعاني

عُدِّيَ ﴿سَوَآءٌ﴾ بـ (عَلَى) دون (عِنْدَ) في قوله سبحانه: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ﴾؛ للدّلالة على تمكُّنِ الاستواءِ وقوَّتِه[3]؛ إذْ إنَّ (علَى) تدلُّ عَلَى الِاسْتعلاءِ؛ ففيه استعارةٌ مَكنيّةٌ إذ شبَّه الاستواءَ بأمرٍ ثقيلٍ واقعٍ عليهم، لا يَملكُون معَه حِرَاكًا؛ لإظهارِ مدى ضَعفِهم في عدمِ قدرتِهم على رَفْعِ ما عليهم من الثِّقل، وهو مناسبٌ لما سيأتي من الخَتْمِ على القُلُوبِ، فالاستواءُ عليهم، والخَتْمُ على قلوبِهم.

(1) وهو متابعٌ في هذا ابنَ عرفة في تفسيره: 1/46.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/250.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/249.

نُكْتَةُ الِاكْتِفَاءِ بِالنِّذَارَةِ عَنِ البِشَارَةِ:

عدم أهليَّةِ المُتحدَّثِ عنهم للبشارة، وقوة وقع النِّذارة على القلوب

ذُكِرَتِ النِّذارةُ دُون البِشارة في قوله ﷻ: ﴿ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ﴾، وإن كان النَّبيُّ ﷺ بشيرًا ونذيرًا؛ لأنَّ المُتحدَّثَ عنهم لَيْسُوا أهلًا لِلْبِشَارة[1]، ولأَنَّ النِّذارةَ أشدُّ وَقْعًا وتأثيرًا في القلب، من جِهَةِ أنَّ دَفْعَ الضُّرِّ أَوْلَى مِن جَلْبِ النَّفْع، فإذا لم يَنْتَفِعُوا بالنِّذارة؛ كان عدمُ انتفاعِهم بِالْبِشَارة مِنْ بابِ أَوْلَى[2].

سِرُّ التَّعبيرِ بالفعلِ بَدَلَ المَصْدَرِ:

بيانُ رحمةِ النَّبيِّ ﷺ بالآخرين وحِرصِه على هِدَايَتِهم

آثرَ النَّظمُ الكريمُ التَّعبيرَ بالْمَصدَرِ لا بالفِعْلِ في قوله تعالى: ﴿ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ﴾؛ فلم يقُل: إنذارُكَ وعدَمُه؛ لبيانِ حرص النَّبيِّ ﷺ على إنذار الكافرِينَ بغرضِ هِدَايتهم؛ لِما فِيهِ مِن إيهَامِ التَّجدُّد[3].

نُكْتَةُ حَذْفِ الْمَفْعُولِ الثَّانِي؛ لتشمل النِّذارَةُ كلَّ مَا يَصِحُّ فيه الإِنْذَارُ:

يتعدَّى فعلُ الإنذارِ إلى مفعولين؛ كما في قوله تعالى: ﴿أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً﴾ [فصلت: 13]، وفي قوله تعالى: ﴿ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ﴾ ذُكِرَ المفعولُ الأوَّلُ، وحُذِف المفعول الدالُّ على المُنْذَرِ مِنْهُ، وفي ذلك توجيهان، الأوَّل: تقديرُ المفعولِ الثَّاني؛ كالآتي: أأنذرتهم العذابَ أم لم تُنذِرهُم إيَّاهُ[4]، والثّاني: أَن لا يُقَدَّرَ مفعولٌ مخصوصٌ؛ ليَعُمَّ كُلَّ ما يُنْذَرُ[5]، وهو الأولى بالمقام.

توجيه فَصْلِ جملةِ ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ عَمَّا قَبْلَهَا:

دَفْعُ أوهامِ الأفهامِ والقَطْعُ بالمقصودِ

الفصلُ في قولِه تعالى: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ محمولٌ إمَّا على كمال الاتِّصال أو شِبْهِه، أمَّا كمالُ الاتِّصالِ فتوجيهُه أنَّ هذه الجملةَ

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 1/36.
(2) الرّازيّ، التّفسير الكبير: 2/286، والبيضاويّ، أنوار التَّنزيل: 1/41.
(3) الطِّيبي، فتوح الغيب: 2/123، وأبو السّعود، إرشاد العقل السَّليم: 1/609.
(4) السّمين، الدُّر المصون: 1/108-109.
(5) الخفاجيّ، عناية القاضي: 1/272.

تفسيرٌ لِلاسْتِواءِ المُجْمَلِ المذكورِ قبلَهَا[1]، وأمَّا شِبْه كمال الاتِّصال فتوجيهُه أنَّه لَمَّا قال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ﴾، كأنَّه قيل: ما كُنْهُ هذا الاِسْتِوَاءِ؟ أَهُمْ يُؤْمِنُونَ أو يَكْفُرُونَ؟ فجاءَ الجَوَابُ: ﴿لَا يُؤۡمِنُونَ﴾.

وغرضُ الفَصْلِ على الوجهين: الاحترازُ مِنْ ظنِّ ظانٍّ أنَّهم يُؤْمِنُون؛ "لأنَّه قد يكونُ الاختيارُ باستواءِ الحالَتَيْن عِنْدَهم يقتضي مبادرَتهم إلى الإيمانِ وعدم توقّفهم على الإنذارِ؛ فاحترَزَ من ذلك بِبَيَانِ أنَّهم على العَكس"[2].

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الإِنْذَارُ وَالتَّخْوِيفُ:

الإنذارُ هو إعلامٌ مع تخويفٍ، ولا يكون إلَّا فيما يتَّسِعُ زَمَنُه لِلاحترازِ مِنَ المُخَوَّفِ، ولذا كان الغرضُ مِنَ الإنذار ليس مجرَّدَ الإعلام والتَّخويف، وإنَّما غرضُهُ وغايتُهُ: الحذَرُ مِنَ المُخوَّفِ لِتلَافِيه، ولازِمُ ذلك: بيانُ موضِعِ المَخافَةِ؛ إذْ لا يَتأتَّى الاحْتِرَازُ مِنَ المُخَوَّفِ دونَ بيانِ موضعِه.

ولذا كان الإنذارُ إحْسَانًا مِنَ المُنْذِرِ، "وَكُلَّما كَانَتِ المخافَةُ أَشدَّ؛ كَانَت النِّعْمَةُ بالإنذار أعظمَ، وَلِهَذَا كَانَ النَّبِيُّ ﷺ أعظمَ النَّاس مِنَّةً بإنذاره لَهُم عِقَابَ اللّه تَعَالَى"[3].

أمَّا التَّخويفُ فأعَمُّ؛ إذْ قد يكون الغرضُ مِنْهُ نفسَ الغرضِ مِنَ الإنذار، كمَا قال تعالى: ﴿وَمَا نُرۡسِلُ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّا تَخۡوِيفٗا﴾ [الإسراء: 59][4]، وقد يكون لِمجرَّدِ إدخالِ الرُّعْبِ علَى المُخَوَّفِ؛ لقَصْدِ إضعافِ هِمَّتِه، ونحوِ ذلك.

(1) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 1/41.
(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/46.
(3) أبو هلال العسكريّ، الفروق اللُّغويّة، ص: 78.
(4) السّعدي، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 461، وعبد العظيم المطعني، خصائص التّعبير القرآنيّ: 2/46.

﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ٧﴾ [البقرة: 7]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لـمَّا ذكر اللّه تعالى أَنَّ القرآن الكريم هُدًى للنَّاسِ، ثُمَّ أخبر عَن قومٍ أنَّهم لَمْ ينتفعوا بِهُدَى القرآنِ الكريم، أُنْذِروا أَو لم يُنذَروا؛ علَّل سببَ عدمِ انتفاعِهم بقوله: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞۖ﴾، ولـمَّا كان قد سوَّى بينَ الإنذار وعدَمِه؛ كان الأنسبُ الْبَدْءَ بالقلوبِ؛ لِتَسْوِيتِهم بالْبَهَائم، فكلاهما لا يفقه، ثُمَّ ثنَّى بالسَّمْعِ لعُمُومِهِ، وثلَّث بالبصرِ لخُصُوصه بأحوَالِ الضِّياءِ؛ لحَطِّهِمْ عن رُتبة الْبَهَائم.

ثُمَّ لـمَّا ذكَر أوصافَهُم التي كانوا عَلَيْهَا في الدُّنيا مع هُدَى القرآنِ؛ ذكر مآلَهُمْ في الآخرةِ بقوله: ﴿وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾[1]، فَهَذِهِ الفاصلةُ تعليلٌ لفاصلةِ الآيةِ السَّابقة ﴿لَا يُؤۡمِنُونَ﴾، فَلَهُمْ عذابٌ عظيمٌ لأنَّهم لا يُؤمنُونَ، كما أنَّ صدرَ الآية الثَّانية تعليلٌ لفاصلةِ الآيةِ الأولى، فاجتمَعَ في فاصِلةِ الآيةِ الأُولى كونُها عِلَّةً ونتيجةً لتعليلٍ، وهذا مِن بديع التَّناسب في القرآنِ، والحاصلُ أنَّ هذه الآيةَ تَعْلِيلٌ لِمَا في الآيةِ قبلَهَا مِن حيثُ الجُمْلَةُ[2].

شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

1) ﴿خَتَمَ﴾: فعل ماضٍ مِن الخَتْمِ، وهو قريبٌ من معنى الطَّبْع، يُقَالُ: خَتَمَ يَخْتِمُ خَتْمًا[3].

والأصلُ في الخَتْم: بُلُوغُ آخِرِ الشَّيْءِ[4]، ومِنْهُ الخاتَمُ: وهو الآخِرُ[5]، يقال: خَتْمُ الْكِتَابِ: لآخِرِ مَا يُعْمَلُ مِنْهُ؛ وَهُوَ طَبْعُهُ بِالخَاتَمِ على طِينِهِ[6].

(1) البقاعيّ، نَظْمُ الدُّرر: 1/97.
(2) السَّمعانّي، تفسير القرآن: 1/46، والقاسميّ، محاسن التَّأويل: 1/246.
(3) إبراهيم الحربيّ، غريب الحديث: 2/557.
(4) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (ختم).
(5) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة: (ختم).
(6) إبراهيم الحربيّ، غريب الحديث: 2/557.

والخَتْمُ: تغطيةُ الشَّيْءِ والاسْتِيثاقُ مِن أَنْ لَا يدْخُلَهُ شَيْءٌ، ومِنْهُ: الخَتْم على القَلبِ؛ وهو: أَنْ لَا يَفْهَمَ شَيْئًا وَلَا يَدْخُلَ إِلَيْهِ شَيْءٌ، كَأَنَّهُ طُبِعَ[1].

وجعلَ ابنُ عاشور الأصلَ في الخَتْمِ: أنَّه "السَّدُّ على الإناء، والغَلْقُ على الكتاب بِطِينٍ ونحوِه، مَع وضع علامةٍ مَرْسُومةٍ في خاتَم؛ لِيَمْنَعَ ذلك مِنْ فتح المَخْتُوم، فإذا فُتِح؛ عَلِمَ صاحبُه أنَّه فُتِحَ؛ لِفَسَادٍ يَظْهَرُ في أثَرِ النَّقش.... وأمَّا تسميةُ البُلُوغ لِآخر الشَّيْءِ ختمًا؛ فلِأَنَّ ذلك الموضِعَ أو ذلك الوقْتَ هُو ظرفُ وَضْعِ الخَتْمِ، فيُسَمَّى به مَجَازًا"[2].

والظَّاهَرُ الأوَّلُ؛ وأنَّ الخَتْمَ بمعنى السَّدِّ على الإناءِ راجِعٌ إلى معنى بلوغ الشَّيءِ لا العكسُ، فالطَّبعُ بالخاتمِ سُمِّي خَتْمًا؛ لكونِ الطَّبْعِ يَكُون عِنْدَ بلوغِ الكتابِ آخرَهُ.

و﴿خَتَمَ﴾ في قوله تعالى: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ﴾ بِمَعْنَى: طَبَعَ اللّٰه تعالَى عَلَيْهَا وأقفلها، فليست تَعِي خيرًا.

2) ﴿قُلُوبِهِمۡ﴾: الْقُلُوبُ: جمع قَلْبٍ، وقلبُ كلِّ شيء: أفضلُهُ وأَخْلَصُهُ، ومِنْهُ سُمِّيَ قلبُ الإنسانِ قلبًا[3]؛ لأَنَّهُ أخلصُ شيءٍ فيه وأشرفُهُ وأرفعه[4].

وتقول العرب: جِئْتُكَ بهذا الأمرِ قَلْبًا، أي: مَحْضًا لا يَشُوبُه شيءٌ[5].

وقيل: سُمِّيَ القلبُ قلبًا؛ لِتَقَلُّبِهِ وكثرةِ تغيُّرِه[6]، ومِنْهُ قولُ الشاعر[7]:

مَا سُمِّيَ القَلْبُ إِلَّا مِنْ تَقَلُّبِهِ *** وَالرَّأْيُ يَصْرِفُ بِالْإِنْسَانِ أَطْوَارًا

ويَرِدُ القلبُ في القرآن الكريم ويُرَادُ به: القوةُ الباطنةُ؛ وهيَ العقلُ، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكۡرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلۡبٌ﴾ [ق: 37] أي: عَقْلٌ أو تَفَهُّم وتدبُّر، وهذا الإطلاقُ هو الغالبُ.

ولم يَرِد القلبُ بالمعنى الآخَرِ وهُو العُضْوُ المعروفُ إلَّا في ثلاث آيات مِنَ القرآنِ

(1) ابنُ سِيدَه، المُحْكَم والمحيط الأعظم، والزَّبيديّ، تاج العروس: (ختم).
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/254.
(3) نشوان الحِميريّ، شمس العلوم: (قلب).
(4) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (قلب).
(5) الخليل، العين: (قلب).
(6) الأنباريّ، الزّاهر: 2/373.
(7) هو عند الأزهريّ في تهذيب اللُّغة: (قلب)، بلا نسبةٍ.

فحسبُ[1]، وذلك في قوله تعالى: ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِۦ﴾ [الأحزاب: 4] وقوله تعالى: ﴿وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ﴾ [الأحزاب: 10]، وقوله تعالى: ﴿إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ﴾ [غافر: 18].

3) ﴿غِشَٰوَةٌ﴾: المعنى الذي تدور عليه مادة الغين والشين والحرف المعتلُّ هو: تغطيةُ الشَّيءِ بكثيفٍ يَعُمُّهُ، ومنه تسمية يوم القيامةِ غاشيةً؛ لأنَّ القيامةَ تعُمُّ الخَلْقَ[2].

و(غِشَاوة) على زِنَة فِعَالة، وهي مِنَ الأوزان الدَّالةِ على اشتمالٍ على شيءٍ؛ مثل: العِمامةِ والعِصابة والقِلادَةِ، ومثلُها: أَسْمَاءُ الصِّناعاتِ؛ لكون الصِّناعة مُشتملةً على كلِّ ما فيها، نحو: الخِياطة، والحِياكَة[3].

والغِشَاء: الغطاء، وكذلك الغِشَاوة[4]؛ ومنه قولُ الحَارِثِ بنِ خَالِدٍ المَخْزُومِيِّ[5]:

صَحِبْتُكَ إِذْ عَيْنِي عَلَيْهَا غِشَاوَةٌ *** فَلَمَّا انْجَلَتْ قَطَّعْتُ نَفْسي أَلُومُها

وهو مِن قولكَ: غَشَّيْتُ الشَّيءَ؛ إذا غَطَّيْتَه، ومثله: أَغْشَى، ومِنْهُ قوله تعالى: ﴿فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [يس: 9].

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

تحكي الآيةُ الكريمة الأسباب الحائلة والموانع الكامنة بين الكافرين ونور الحق المبين، وتشير إلى جملة من العقوبات الإلهيّة التي حلت بهم جراء عنادهم وكذبهم، فمن ذلك أن طبع اللّه على قلوبهم فأغلقها على ما فيها من باطل، وطبع على سمعهم فلا يسمعون الحق سماع قَبول وانقياد، وجعل على أبصارهم غطاء فلا يبصرون الحق مع وضوحه، وهذهِ عقوبات معجَّلةٌ لَهُمْ في الدنيا، ولَهُمْ عقوباتٌ مؤجَّلةٌ إلى يوم القيامةِ، إذ ينتظرهم العذاب المقيم والنكال العظيم في نَارِ الجحيم[6].

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصَّل: (قلب).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصَّل: (غشو/ي).
(3) النَّحاس، إعراب القرآن: 1/29، والأزهريّ، تهذيب اللُّغة: (غشو).
(4) أبو عُبيد الهرويّ، الغريبين في القرآن والحديث: 4/1376.
(5) ابن منظور، لسان العرب: (غشو).
(6) العُليميّ، فتح الرحمن: 1/56، والشِّنقيطيّ، العذب النَّمِير: 1/222، والسَّعدي، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 41، ونخبة من أساتذة التّفسير، التّفسير الميسّر، ص: 3.

الإيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

تَرْكُ عَطْفِ الْجُمْلَةِ عَمَّا قَبْلَهَا؛ لِمَا بَيْنَهُمَا مِنْ شِبْهِ كَمَالِ الِاتِّصَالِ:

إيرادُ الخَبَرِ مَوْرِدَ العِلَّةِ للكلامِ السَّابِقِ

تُركَ عطفُ قولِه تعالى: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ﴾ على ما قبله؛ لأنَّه استئنافٌ بيانيٌّ - وهو المسمَّى عند البلاغيِّين: شبهَ كمال الاتِّصال-، وقَد ورد جوابًا عن سؤالٍ مقدَّرٍ نشأ مِن قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾؛ كأنَّه قيل: لِمَ استوَى لَدَيْهِمُ الْإنذارُ وعَدَمُهُ؛ فجاء الجواب: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ﴾[1]؛ لدفع تَعجُّبِ المتعجِّبين من ذلك، ومِن عدَمِ نفُوذ الإيمان إلى قلوبِهم مع وضوحِ أدلَّتِه[2].

نُكْتَةُ التَّعْبِيرِ بِمُفْرَدَةِ (الْخَتْمِ) وأثرُها المجازيّ:

تنوّعُ مسالِكِ البيانِ في تَصْويرِ شِدَّةِ الكفران

المرادُ بنوعِ الخَتْمِ في قوله تعالَى: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ﴾: هو الخَتْمُ المجازِيُّ؛ وذلك بِأَنْ جُعِلت قلُوبُهم في عدَمِ نُفُوذ الحقِّ إِلَيْهَا، وجُعلت أَسْمَاعُهُم في صَمَمِهَا عَنِ الِانْتِفَاع بالآيات، بِمَنْزِلَةِ ما أُحكِمَ إغلاقُه، وذلك له ثلاثَةُ مَسَالِكَ[3]:

أحدهما: أنَّهُ شُبِّه عدمُ حصولِ النَّفع مِنَ القلوب والأسماع بالخَتْم، على طريقة الاستعارةِ التَّصريحيَّةِ[4]، ثُمَّ اشتُقَّ مِنَ الخَتْمِ بالمعنى المتقدِّمِ الفعلُ (خَتَمَ) على سبيلِ الاستعارة التَّبعيَّةِ[5].

والثَّاني: أنَّهُ قَدْ شُبِّهتِ الهيئةُ الحاصلةُ مِن تصميمهم على الكُفْرِ وإِمْسَاكِهم عن التَّأمُّلِ في أدلَّة الإيمان وعدم انتفاعهم بسماع الحقِّ بهيئة الخَتْمِ؛ فيكون مِنَ الاستعارة التَّمثيليَّة[6].

---

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/46، والخفاجيّ، عناية القاضي: 1/277.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/254.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/245-255.

(4) الاِسْتِعَارَةُ: هِي اللَّفظُ المستعملُ في غير ما وُضِعَ لَهُ، لعلاقةِ المشابهة، مع قرينة مانعة مِنْ إرادةِ المعنَى الأصليِّ، والتَّصريحِيَّةُ مِنْهَا: هي التي ذُكِر فيها لفظُ المشبَّه به، العلوي، ينظر: العلوي، الإيجاز، ص: 361.

(5) الاِسْتِعَارَةُ التَّبعيَّةُ: هي الاِستِعَارَةُ التِي يكُونُ فِيهَا اللَّفظ المستعارُ مشتَقًّا أو حَرْفًا، ينظر: أحمد الهاشمي، جواهر البلاغة، ص: 264.

(6) الاِسْتِعَارَةُ التَّمثِيلِيَّةُ: اللَّفْظُ المُرَكَّب المستعمَلُ فِي غيرِ مَا وُضِعَ لَهُ، لعلاقةِ المشابَهةِ، مع قرينة مانعة من إرادة المعنى الأصليِّ، ينظر: المراغي، علوم البلاغة، ص: 287-286.

والثَّالث: أَنْ يكون قد عُبِّر عن عدم نفوذ الحقِّ إلى أسماعهم وأبصارهم بالختْم؛ مِن باب إطلاق المَلْزُوم وإرادةِ لازِمِه، فيكون مَجَازًا مُرْسَلا[1] بعلاقة المَلْزُوميَّة.

وأفادَ هذا التَّنوعُ البيانيُّ الْكَشْفَ عَنْ تَمَكُّنِ الكُفْرِ بأسلوبٍ متعدِّدِ المسَالِكِ؛ فما غمُض في وجهٍ بانَ في آخَرَ.

فائِدَةُ إِسْنَادِ الْخَتْمِ إِلَى اللهِ ﷻ على الحَقِيقةِ لا المَجَازِ:

إسنادُ الخَتْمِ إلى اللّهِ تعالى في قوله سبحانه: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ إسنادٌ حقيقيٌّ لا مجازيٌّ، فختمُ القُلُوبِ متعلِّقٌ به ﷻ، فلا يكون شيءٌ إلَّا مِن بعد إِذْنِه وإرادَتِه، وفائدةُ القولِ بالإِسْنَادِ الحقيقيِّ مزيدُ التَّرهيب والتَّهديد، فإسنادُ الخَتْمِ إلى اللّه ﷻ باعتبارِ إيجادِه وخلقِه، وأمَّا الذَّمُّ فَبِاعْتِبَارِ كونِ الخَتْمِ مُسبَّبًا عَن عِنَادِهم وردِّهم الحقَّ بعد ما تبيَّنَ لَهُمْ[2].

في إسناد الختم إلى الله تعالى تهديدٌ للكافرين، وذمّ لهم لأنهم استحقوا الختم بسوء فعالهم

دلالة حَرْفِ الْجَرِّ ﴿عَلَىٰ﴾:

﴿خَتَمَ﴾ فعلٌ مُتَعَدٍّ؛ وَهو من باب (ضَرَبَ)، وعُدِّيَ بالحرفِ (عَلَى) في قوله تعالى: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾؛ لِلْإِيمَاء باستعلاء الخَتْمِ على قلُوبهم وتمكُّنِه مِنْهَا.

تمكّن الختم من قلوب الكافرين

نُكْتَةُ تَكْرَارِ حَرْفِ الِاسْتِعْلَاءِ ﴿عَلَىٰ﴾:

كُرِّرَ حرفُ الجرِّ (على) في قوله: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ﴾؛ للدّلالة على شدَّةِ الختم في المَوْضِعَيْنِ، والتَّنبيه على تغايُرِ الخَتمين؛ فختمُ القلوبِ غيرُ خَتْمِ الأسماع[3]، والتَّكْرَارُ أظهَرُ في الاسْتِقلالِ؛ فكأنَّ كُلَّ خَتْمٍ مستقلٌّ برأسه؛ إذْ إنَّ "إعادةَ الجَارِّ تقتضي ملاحظةَ معنى الفعلِ المُعَدَّى به، حتَّى كأنَّه ذُكِر مَرَّتين"[4].

التَّنبيهُ على تغايُرِ الخَتمَيْن؛ فالتَّكرارُ أظْهرُ في الاستقلالِ

(1) المَجَازُ المُرسل: هو اللَّفْظُ المُسْتَعْمَلُ في غَيْرِ ما وُضِعَ لَهُ، لعلاقَةٍ غَيْرِ المُشَابَهَةِ، مَعَ قرينَةٍ مانِعَةٍ مِنْ إرادَةِ المَعْنَى الأصليِّ، ينظر: العلوي، الإيجاز، ص: 301.

(2) الآلوسّي، روح المعاني: 1/135.

(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/52، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنْوِير: 1/258.

(4) الآلوسّي، روح المعاني: 1/138.

تَقْدِيمُ القَلْبِ عَلَى السَّمْعِ من قبيلِ تَقْدِيمِ الغايةِ على الوَسِيلةِ:

قَدَّمتِ الآيةُ القلبَ على السَّمعِ في قوله: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ﴾؛ لأنَّ الآيةَ مسوقةٌ لبيان عدم إيمانِهم؛ فناسبَ ذلك أَنْ يُبدأَ بالقلوبِ؛ إذْ هي محلُّ الإيمانِ في الأصْلِ، والسَّمعُ وسيلةٌ مُوصِلَةٌ لِلْغَايَةِ، فكانَ التَّقديمُ مِن قَبِيلِ تقديمِ الغايةِ على الوسيلَةِ.

تَوْجِيهُ المُتَشَابِهِ اللَّفْظِيِّ:

قُدِّم السَّمعُ في آيةٍ لإهمالِ أثرِه في تحصيلِ العلمِ، وقُدِّم القلبُ في أُخرى لامتلائه بالكفر

﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ﴾، تشابهت ألفاظ هذه الآيَةِ وآية الجَاثِيَةِ: ﴿وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمۡعِهِۦ وَقَلۡبِهِۦ﴾ [الجاثية: 23]؛ ففي آية الجاثية قُدِّم ذكرُ السَّمعِ، ويرجع ذلك إلى اختلاف السِّياق؛ فإنَّ سياقَ آية الجاثيةِ يتحدَّث عمَّن اتَّخذ إلهَهُ هوَاهُ، فَضَلَّ عَنْ عِلْمٍ، وأداةُ تحصيل العلم السَّمعُ، فلمَّا أهمَلَ هذه الأداةَ؛ اسْتَحَقّ أَنْ يُعاقَبَ بسببِ إهمالِه، وكذلك سِيقَتْ لبيان عَدَمِ مُبَالاة الكُفَّار بالمواعظِ، وأوَّلُ ما تُباشرُهُ الموعظةُ مِنَ الجوَارِحِ هُوَ السَّمْعُ؛ فناسبَ ذلكَ تقديمَهُ[1]، وأمَّا سِيَاق آيةِ البقرة فَهُوَ حديثٌ عَنِ الكافرين باعتبارِ إصرارِهم على الكفرِ، وموطنُ ذلك القلبُ؛ فلذلك قُدِّم ذِكْرُه.

تَقْدِيمُ السَّمْعِ عَلَى الْبَصَرِ؛ لقوَّةِ إدراكِه:

السّمع يُدرِك المسموعات من كل الجهات، والبصر يُدرِك المبصرات بعد التوجّه إليها

قُدِّم السَّمْعُ على البصرِ في قوله: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞۖ﴾؛ لكونِ الآية سِيقَت لبيان إعراض الكُفَّار عن الحقِّ، والحقُّ يُبلِّغُهُ الأنبياءُ إلى أقوامهم، ووسيلَةُ إدراكِ ذلك السَّمْعُ، ولكون الإدراك بالسَّمْعِ أقوى مِنَ الإدراك بالبصرِ؛ لكون السَّمْعِ يُدرك الأصواتَ المسموعَةَ مِنَ الجِهَات السِّتِّ دون تَوجُّهٍ، بخلاف البصرِ فَإنَّ الإدراك بِهِ محتاجٌ إلى التَّوجُّهِ إلى الشَّيءِ المرادِ إدراكُهُ[2].

(1) الآلوسّي، روح المعاني: 1/137-138.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/258.

نُكْتَةُ إِفْرَادِ السَّمْعِ وَجَمْعِ الْقُلُوبِ وَالْأَبْصَارِ:

تفاوتُ القلوبِ بتفاوتِ كفرِها، واستواءُ المسموعاتِ في الأذنِ

أُفْرِد السَّمعُ وجُمِعَت القلوب والأبصارُ في قوله: ﴿عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ﴾؛ فيُسألُ عن ذلك، والجوابُ أنَّ السَّمْعَ مصدَرٌ لِلْفِعْلِ (سَمِعَ)، والمصدر يقع على القَلِيلِ والكثير مِن جنسِهِ؛ ولذا لا يُجْمَعُ في الأصلِ، ولِمَا في جَمْعِ المصادر من الثِّقَلِ غالبًا، قال ابنُ الْأَثِيرِ: "وأمَّا جمعُ المصادر؛ فَإِنَّه لا يَجِيءُ حَسَنًا، والإفرادُ فيه هو الحَسَنُ"[1].

ولأنَّ السَّمْعَ -وإن كان مفردًا- يَصِحُّ إطلاقُهُ مرادًا به الجمعُ؛ إذْ إنَّ كلَّ اسم مفردٍ هو اسمُ جنسٍ، فإطلاقُ المفردِ مرادًا به الجمعُ هو بالنَّظرِ إلى أصلِهِ الشَّامِلِ لأفرادِ الجنسِ[2].

ويحْتَمِل أن يكون إفرادُ السَّمْعِ لأمنِ اللَّبْسِ؛ لكونِهِ وردَ بين جَمْعَيْنِ: القلوبِ والأبصارِ، فيُعْلَمُ أنَّ المرادَ به الجمعُ[3].

القلب والبصر جارحتان فصحّ جمعهما، والسّمع مصدر وجمع المصادر غير مُحبّذ

أمَّا القلبُ والبصرُ؛ فإنَّهما اسمٌ لِلْجَارِحة؛ ولذا صَحَّ جَمْعُهُمَا[4]، وَجَمْعُهُما جَارٍ على الأصلِ؛ فإنَّ الكلامَ عَنِ الذين كَفَرُوا وهم جَمْعٌ؛ فناسَبَ أن تُذكرَ القلوبُ والأبصارَ بصيغةِ الجمعِ؛ ليُرَدَّ كُلُّ قلبٍ وبصرٍ لصاحبِه، على قاعدةِ أَنَّ مقابلةَ الجمعِ بالجمعِ تقتضي القسمةَ آحادًا، أو لِأَنَّ العربَ قَدْ تَسْتَغْنِي عَنْ جمع المضافِ إِلَيْهِ عَن جمع المضاف[5].

فإفرادُ السَّمعِ وجمعُ القلوبِ والأبصارِ جاء على الأصلِ، ونكتةُ مجيئِه على الأصلِ، هو أَنَّ القلوبَ مختلفةٌ في تفكُّرِها في الإيمانِ؛ إذْ لكلٍّ حَظُّهُ مِنَ الإدراكِ.

(1) ابن الأثير، المثل السَّائر: 1/280.
(2) الشِّنقيطيّ، العذب النَّمِير: 1/268.
(3) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/48.
(4) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/343.
(5) الجرجانيّ، درج الدُّرر في تفسير الآي والسُّور: 1/101.

والأبصارُ متفاوتةُ التَّعَلُّق بالمرئيَّات التي فيها أدلَّةُ الوحدانيَّة، فلكلٍّ نصيبهُ مِن هذا النَّوْعِ مِنَ النَّظرِ.

بخلاف الأسماع؛ فإنَّ متعلَّقها سماعُ ما يُلقى إِلَيْهَا مِنَ الوحي؛ "فالجمَاعاتُ إِذَا سَمِعُوا القرآن سَمِعُوهُ سمَاعًا مُتَسَاوِيا، وإنَّما يتفاوتون في تدبُّره، والتَّدبُّر مِن عمل العقول، فَلَمَّا اتَّحد تَعَلُّقُها بالمَسْمُوعات؛ جُعِلَت سَمْعًا واحِدًا"[1].

فائِدةُ التَّعبيرِ بالْجُمْلَةِ الْفِعْلِيَّةِ والاسميَّة:

تَجَدُّدُ خَتْمِ القلُوبِ بتجدُّدِ نزولِ القرآنِ

جاء التَّعبير عن خَتْم القلوب والسَّمْع بالجملة الفعليَّة في قوله تعالى: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ﴾؛ للدّلالة على التَّجدُّد؛ فإنَّ السَّمعَ يتجدَّدُ بتجدُّدِ سماعِ القرآنِ، وعُبِّر عن غشاوة الأبصار بالجملة الاسميَّة؛ للدّلالة على الثُّبوت، فالمبصَرَاتُ مرئيَّةٌ مشاهدَةٌ على الدَّوام، حتَّى كَأَنَّ الغشاوةَ أمرٌ جُبِلُوا عَلَيْهِ[2]، وفائدةُ ذلك بيانُ أنَّ الختمَ مرتبطٌ بعلاقةِ القلبِ والسَّمعِ بالقرآنِ، بخلافِ البصرِ؛ ولذلك قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَآءٍ عَن ذِكْرِي وَكَانُواْ لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا﴾ [الكهف: 101]، فأعيُنُهم في غطاءٍ ثابتٍ عن معرفةِ الأدلَّة الكونيَّة، ولا يستطيعونَ سماعَ المُتجدِّدِ نزولُه من الأدلَّةِ القرآنيَّة، فما تراه العَيْنُ يكونُ ثابتًا، والمتجدِّدُ هو ما يردُ على القَلْبِ من طَريقِ السَّمعِ.

انْتِقَاءُ الْأَلْفَاظِ تَابِعٌ لِدِقَّةِ الْمَعْنَى:

تَشْبِيهُ القلُوبِ والأسماعِ بالأَوْعِيَةِ يُنَاسِبُه الخَتْمُ، ومُلَاءَمَةُ الغِشاءِ لحَجْبِ الرُّؤيةِ

جُعِلَ الخَتْمُ على القلوبِ والأسماع، وجُعِلَتِ الغشاوةُ على الأبصار في قوله: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ﴾؛ لأنَّ القلوبَ والأسماع يُشْبِهان الوعاءَ، فيُتصوَّرُ فيهمَا معنى السَّدِّ والطَّبْعِ، بينما اختصَّت الأبصارُ بالغشاوة؛ لأنَّها تمنعُ أصلَ الرُّؤْيَةِ، وفي ذلك تحقيقٌ لأمرين:

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/256، والقِنَّوجيّ، فتح البيان: 1/89.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 1/139.

أحدُهُمَا: حجبُ الرُّؤيةِ المؤدِّية إلى الإيمان، لا عموم الرُّؤية.

والآخَرُ: أنَّ هذهِ طريقةُ القرآن في ذِكْرِ الأسماع والأبصار، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَانَتۡ أَعۡيُنُهُمۡ فِي غِطَآءٍ عَن ذِكۡرِي وَكَانُواْ لَا يَسۡتَطِيعُونَ سَمۡعًا﴾ [الكهف: 101]، فالأعينُ في غطاءٍ عَنِ الذِّكر لا عَنْ مُطْلَقِ الرُّؤية، فالأبصارُ تَرى الآيةَ الكونيَّة وتستمتعُ بها دون أن تُدرِكَ أنَّها مخلوقةٌ لِتَقُودَ إلى الإيمان باللهِ تعالَى، وهذا معنى قول الْجُرْجَانيِّ بأنَّها "تمنعُ رُؤيةَ الاعْتِبَارِ لا رؤيةَ الاختيَارِ"[1].

بلاغةُ الاستعارةِ التَّمثيليّة في الكَشْفِ عن المعاني العقليَّة:

عدم تأمّلهم في دلائل التوحيد غطّى أعينهم وحجبهم عن الحقّ

في قوله تعالى: ﴿وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞۖ﴾ استعارةٌ تمثيليَّة؛ حيثُ شُبِّهَت "هيئةٌ متخيَّلَةٌ في أبصارهم مِن عدم التَّأمُّل في الوحدانيَّة وصِدْقِ الرَّسول، بهَيْئَة الغِشَاوة"[2]، وهو من تمثيل المعقولِ بالمَحْسُوس، حيث إنَّ عدم تأمُّلِهم أو إعراضَهم حَجَبَهُم عَنِ اتِّباع الحقِّ ونظَرِ الاعْتِبَار، كما تَمنع الغشاوةُ الحِسِّيَّةُ العينَ مِن نَظَرِ الاختيار.

تنْكِيرُ كَلِمَةِ ﴿غِشَٰوَةٞۖ﴾ يُفيدُ نوعًا لا يَعْرِفُهُ المُخَاطَبون:

المراد بالغشاوة غطاء التعامي عن آيات الله

مجيءُ ﴿غِشَٰوَةٞۖ﴾ نكرةً في قوله تعالى: ﴿وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞۖ﴾؛ لِبَيَان النَّوعيَّةِ، والمعنى: «أنَّ على أَبْصَارِهم نوعًا مِنَ الأغطيةِ غيرَ ما يَتَعارفُه النَّاسُ؛ وهو غطاءُ التَّعَامِي عن آيات اللهِ»[3]، وهذا المعنى مأخوذٌ مِنَ السِّياقِ، إذْ إنَّ المخاطَبين لا يعرفونَ هذا النَّوعَ مِنَ الغِشَاوَةِ إلَّا مِن طريقِ القُرآنِ.

بَلَاغَةُ تَنْوِينِ التَّنْكِيرِ فِي كَلِمَةِ ﴿عَذَابٌ﴾:

دلالة النَّوع والتَّعظيم مُرَادَتَانِ وَضْعًا وَسِيَاقًا في لفظ (عذاب)

يحْتَمِلُ أن يكونَ معنى التَّنْكِيرِ في قوله: ﴿وَلَهُمۡ عَذَابٌ﴾ لبيانِ النَّوعِ، أي: لَهُمْ نوعٌ خاصٌّ مِنَ العذابِ لم يَعْهده النَّاسُ، وفائدتُه

(1) الجرجانيّ، درج الدُّرر في تفسير الآيِ والسُّور: 1/102.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/255.
(3) الزَّمخشري، الكشَّاف: 1/53.

التَّرهيبُ والتَّهويلُ، ويَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ تنكيرُهُ لِلتَّعظيم، واسْتَشْكَلَه ابنُ عاشور بأَنَّ دلالة التَّنْكِيرِ على التَّعْظِيم تكونُ بالفَحْوَى، وما دُلَّ عَلَيْهِ بالفَحْوَى يُسْتَغْنَى عَنْهُ إذا جاء ما يدلُّ عَلَيْهِ بالْوَضْعِ، وهو وَصْفُ العَذَابِ بأَنَّهُ ﴿عَظِيمٌ﴾، فَدلالة الوَصْفِ على العظَمَةِ دلالة وضعيةٌ تُغني عَنِ استفادةِ التَّعظيم مِنَ التَّنكير[1].

والصَّحيح الوجيهُ أَنَّ دلالة التَّنكير على النَّوعيَّةِ مستلزمةٌ القولَ بالتَّعظيم؛ إذِ المقصودُ بالنَّوعيَّة: أنَّ لهم نَوْعًا مِنَ العذابِ لا يَعْلَمُ حقيقتَهُ إلَّا اللّٰه[2]، وهذا ظاهرٌ في إفادتِهِ التَّعظيمَ، ويكون وصفُ العذابِ بالعظمةِ بمنزلةِ التَّوكيدِ المعنويِّ له.

تَأْخِيرُ المبتَدَأِ لِإِفَادَةِ الْقَصْرِ:

مناسبةُ اختصاصِ الْكُفَّارِ بِالْعَذَابِ الْعَظِيمِ لِعِظَمِ إِجْرَامِهِمْ

أُخِّر المبتدأُ في قوله: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾؛ لإفادة الاختصاص، والإيماء إِلَى أنَّهم الأحقَّاءُ بالعذاب العظيمِ؛ وذلك لاختصاصهم بِعِظَمِ الجُرْمِ وهو الكُفْرُ باللّٰه العظيم[3].

فذلك النَّوْعُ الذي لا يُعلم كُنْهُه مِنَ العذاب مختصٌّ بهم، أمَّا مَنْ دُونهم مِن أصحاب المعاصي فَهُمْ مُتَوَعَّدون بعذابٍ دونَ عذابِ الكافرينَ.

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

خَتَمَ وَطَبَعَ:

تعدّدت أقوال العلماء في الفرق بين الختم والطبع، وأشهرها قولان:

الأوَّل: التَّرادُفُ؛ وأن الختمَ والطَّبع بمعنًى واحدٍ؛ وأنَّهما سِمَة وعلامَةٌ في قَلْبِ المطبوع على قلبهِ، وهو ظاهِرُ كلامِ ابن عاشور في مَواضِعَ مُتَفَرِّقةٍ مِن تفسيره[4].

الآخَر: التَّبايُن: وَالفرقُ بينَهما أنَّ الطَّبْعَ فيه معنى الثَّبات؛ إذْ هو أثرٌ يَثْبُتُ في المطبوع

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/258.
(2) الزَّمخشري، الكشَّاف: 1/53.
(3) إسماعيل حقِّي، روح البيان: 5/84.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/199، 1/255، 10/289، 24/144.

التَّقاربُ في الدّلالة إذَا كانَا فِعْلَيْنِ

ويَلْزَمُهُ، فهو يُفيد من اللُّزوم والثَّباتِ ما لا يُفيده الخَتْمُ، ولذا يقال: طَبْعُ الدَّراهم؛ وهو إحداثُ أثرٍ فيها لا يزولُ، ومِنْهُ: طَبْعُ الإنسانِ[1]، وبناءً على هذا؛ فالطَّبْعُ أقوى منَ الخَتْم، ويؤيِّدُهُ أنَّ مشتقاتِ الخَتْم وردَتْ في القرآن الكريم في جانب الخَير والشَّرِّ، بخلاف الطَّبْعِ فَلَمْ يَرِدْ إلَّا مرادًا به الشَّرُّ والذَّمُّ.

وما تقدَّمَ من الخلافِ إنَّما هو في حالِ كونِ الكَلِمَتَيْنِ اسمَيْنِ، أمَّا إذا جاء الختمُ والطَّبع فِعْلَيْنِ؛ فإنَّ دَلالتهما تكَادُ تكونُ متقاربةً[2].

القُلُوبُ وَالأَفْئِدَةُ:

وَرَدَ في القَاموس أنَّ القلبَ هُو الفُؤادُ، أو أخَصُّ مِنْهُ[3]، وعلَى الثَّاني: جَعَلَ القرطبيُّ[4] العقلَ في القلبِ، والقلبَ في الفؤاد، والفؤادَ في الصَّدر، فيكون القلبُ أخصَّ.

والقولُ بترادفهما أشْبَهُ بالغلَطِ؛ لورود التَّفْريق بَيْنَهُمَا في القرآن والسُّنَّةِ وكلام العرَبِ، فمِنْ ذلك قول اللّه تعالى: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا﴾ [القصص: 10]، وقولُ النَّبيِّ ﷺ: «أَتَاكُمْ أَهْلُ الْيَمَنِ، هُمْ أَلْيَنُ قُلُوبًا وَأَرَقُّ أَفْئِدَةً»[5]، وقول ذي الرُّمّة[6]:

وَأَنْتَ مِنْ حُبِّ مَيٍّ مُضْمِرٌ حَزَنًا *** عَانِي الْفُؤَادِ قَرِيحُ الْقَلْبِ مَكْظُومُ

وحكى أبو هِلال أنَّ أهل اللُّغة لا يُفَرِّقُون بَيْنَهُما، ونَقَلَ عن جماعة مِن أهل الحديث: أنَّ الأفئدةَ تُوصَفُ بالرِّقَّة، والقلوبَ تُوصَف باللِّين؛ وذلك لأنَّ الفؤادَ غشاءُ القلب؛ فَإِذَا رقَّ خَلُصَ القولُ إلى داخِلِه، وإذا غَلُظَ فَبِالْعَكْسِ، بخلاف القلبِ فإنَّه إذا كان ليِّنًا وصادفَ شيئًا عَلِقَ به[7].

وفي كلام بعض أهلِ العِلْمِ ما يُومئُ إلى أنَّ الفؤادَ أخصُّ؛ إذْ إنَّ القلبَ يُطلَق على

(1) أبو هلال العسكريّ، الفروق اللُّغَويّة، ص: 336.
(2) مُحمّد محمّد داود، معجم الفروق الدّلاليَّة في القرآن الكريم، ص: 233-232.
(3) الفيروزابادي، القاموس المحيط: (قلب).
(4) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 1/189.
(5) البخاريُّ، حديث رقم: (4388)، ومسلم، حديث رقم: (52).
(6) ابن عادل، اللُّباب في علوم الكتاب: 19/306.
(7) العسكريّ، الفروق اللُّغويَّة، ص: 433.

العضوِ المعروفِ، وعلى القُوَّة الباطنةِ التي هي مَحَلُّ الإدراكِ، بخلاف الفُؤَاد فَلَمْ يَرِد في القرآن إلَّا "على المعنَوِيِّ؛ مِن وضع الشُّعور والعواطف والعقيدةِ والأهواء"[1]، وفيه نَظَرٌ[2].

والأقربُ: أنَّ الفؤادَ أخصُّ، وهو في القلبِ لا العكس، كما قال مُحَمَّد بنُ كَعْبٍ القُرَظِيُّ في تفسير قول الله تعالى: ﴿نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ۝٦ ٱلَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ ۝٧﴾ [الهمزة: 6-7]: "تأكل كُلَّ شيء مِنْهُ حَتَّى تنتهيَ إلَى فُؤَادِهِ"[3]، وقد يُستعمل أحدُهما موضعَ الآخرِ في القرآنِ الكريم.

(1) بنت الشَّاطئ، التَّفسير البيانّي: 2/177-178.

(2) وهو يخالف التَّفسيرَ المأثور في مواضع، مِنْهَا في سورة الهُمَزَة. ينظر: ابن أبي حاتم، تفسير القرآن: 10/3464.

(3) ابن أبي حاتم، تفسير القرآن: 10/3464.

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَمَا هُم بِمُؤۡمِنِينَ ٨﴾ [البقرة: 8]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لمَّا ذكر الله سبحانه مَنِ اتَّبَعَ الحقَّ ظاهرًا وباطنًا، وذكر مَن تَمَحَّضَ كُفْرُهُ ظاهرًا وباطنًا؛ ذكر صنفًا آخر وهُمُ الذين آمنوا بالدَّعاوَى اللَّفظيَّةِ، وقلوبُهُم خاويةٌ مِنَ الإيمانِ، وهَؤُلَاء أَسْوَأُ الكُفَّار وأخبثُهم؛ لكونِهم جمعوا إلى الكُفْرِ الاستهزاءَ والخداع[1]، وقد جاءَ التَّرتيبُ بديعًا، حيث بدأَ بالمؤمنين باعتبارهم الأصلَ، والمُتَّبعين الكتابَ، ثمَّ ثنَّى بالكافِرين باعتبارِ المُقابَلة الوَاضِحة بينَهم وبينَ المؤمنين، ثمَّ ذَكر المُنافِقين مَعْطُوفِين على الكافرينَ، فهُم النَّوعُ الجديدُ في مَهْيع إظهارِ ما يُخالِف الباطنَ، فهُم -وإنِ اشْتَرَكُوا مع الكافرين في أصل المُعتَقد- يُخالفونَهُم في الإظهارِ، فكان عطفُهم مِن قَبيلِ عطفِ القصَّةِ على القصَّةِ.

قال الفخرُ الرّازي في إيضاح مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها: "اعلمْ أنَّ المفسّرين أجْمَعوا على أنَّ ذلك في وَصْفِ المُنافقين، قالوا: وصَفَ الله الأصنافَ الثلاثةَ من المُؤمنين والكافرين والمنافقين، فبدأَ بالمُؤمنين المُخلِصين الذين صَحَّتْ سرائِرُهم، وسَلِمَتْ ضمائِرُهم، ثُمَّ أتبعَهُمْ بالكافرين الذين من صِفَتِهم الإقامةُ على الجُحود والعِناد، ثمّ وَصَفَ حالَ من يقولُ بلسانه: إنّه مؤمنٌ، وضميرُهُ يُخالفُ ذلك"[2].

شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

1) ﴿ٱلنَّاسِ﴾: في اشتقاقِ (النَّاسِ) ثلاثةُ أقوالٍ: الأول: أنَّها من أُنَاس، وحذفت الهمزة تخفيفًا، فقيل: (النَّاس)[3]، الثاني: أنَّها مِنَ النَّوْسِ، يقال: ناسَ يَنُوسُ نَوْسًا؛ إذا تحرَّكَ[4]، وسُمُّوا بذلك لِأَنَّ مِن شَأْنِهم الحركةَ[5]، الثالث: أنَّها من نسي، ونُقِلَت

(1) البقاعي، نظم الدرر: 1/99، والمراغي، تفسير المراغي: 1/48.
(2) الرّازي، التّفسير الكبير: 2/64.
(3) الخليل، العين: (نوس).
(4) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 527.
(5) الواحدي، التفسير البسيط: 2/125.

الياءُ فأصبحت نيسًا ثم قلبت ألفًا[1]، ويُطلقُ لفظُ النَّاسِ على مَجْموعِ البَشَرِ، وعلى طائفةٍ مِنْهُم، وتَأتي في مقابَلة الجِنِّ.

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

ومِن النَّاسِ قومٌ ينطقون بأَلْسِنَتِهم ما لا تَنْطَوِي عَلَيْهِ قلوبُهُمْ؛ فهم يَزْعُمُون أنَّهم مؤمنون باللّه وبيوم البَعْثِ، وهم مُبْطِلون في زعمهم، كاذِبون في قولهم؛ إذْ إنَّهم في باطنِ الأمر وحقيقتِه كُفَّارٌ ليسوا بمؤمنين[2].

وهذه الآية في الـمُنَافقين الذي يُظْهِرُون الإيمانَ ويُبْطِنُون الكفرَ[3].

❁ الإِيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

فَائِدَةُ أُسْلُوبِ التَّقْسِيمِ البديعيِّ:

اسْتِيعَابُ القُرْآنِ الكَرِيمِ لِأَقْسَامِ النَّاسِ إيمانًا وكفرًا

قولُ اللّه تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾ مضمومٌ إلى مجموعِ الآياتِ السَّابقةِ، والآياتُ اسْتَوْعَبَتْ أقسامَ النَّاسِ جميعًا، وهذا يُعرف في علم البديعِ بِأُسْلُوب التَّقسيم[4].

ووجه ذلك: أنَّ حالَ النَّاسِ في تعاملِهم مع الوحي لا يخلو مِن قسمين:

أحدهما: أَنْ يَكُونُوا مؤمنين بِالحقِّ مُتَّبعينَ ومُسلِّمين لهُ، وهؤلاء هُمُ المؤمنون.

والآخر: أَنْ يكونوا غيرَ مؤمنين بالحقِّ ولا مُتَّبعينَ لَهُ، وهذا القِسْمُ لَهُ صورتان لا ثالِثَ لَهُمَا:

الأُولى: أن يُصرِّحوا بعدَمِ إيمانِهم، فيوافقُ ظاهرُهُم الفاسدُ باطنَهُم الفاسدَ، وهؤلاء هُمُ الكفَّارُ.

والأخرى: أَنْ لا يُصرِّحوا بعدَمِ إيمانِهم، بل يَتَظَاهَرُون بخلافِه، فلم يُوَافقْ ظاهرُهُم باطنَهم الفاسدَ، وهؤلاء هُمُ المنافقونَ.

---

(1) الرّاغب، المفردات، ص: 828.

(2) الواحدي، الوجيز، ص: 92، والسَّعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 42، والتّفسير الميسّر، ص: 3.

(3) ابن جرير، جامع البيان: 1/268.

(4) التَّقْسِيمُ: استِيفَاءُ أقسَامِ الشَّيْءِ بالذِّكْرِ، وله معانٍ أُخْرَى.

يُنظر: الصَّعيدي، بغية الإيضاح: 4/608.

أَثَرُ السِّياقِ في بَيانِ معانِي الحُرُوفِ:

أَفادَ حَرْفُ التَّبعيضِ في قولِه تعالَى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ معنًى بديعًا يتواءم مع واقع المنافقين ويَنْسَجِمُ مع صفاتِهم، فلمَّا كان المنافقون يُظْهِرون مَا لا يُبطنون، وَيتَوَارَوْنَ عنِ الأنْظارِ بأعمالِهم الحقيقيَّة؛ كان الحديثُ عَنْهُمْ بأنَّهم مِنَ النَّاس بالإطلَاقِ دونَ تحديدِ صفةٍ معيَّنةٍ لهم؛ ليبحَثَ المتَدَبِّرُ عنْهُم في المجتَمَعِ بينَ النَّاس، فكان وَقْعُ حرفِ التَّبعيض مُوحِيًا بأنَّ أمرَ المتحدَّث عَنْهُمْ غَامِضٌ؛ "لِأَنَّهُ لِغَرَابَتِهِ وَنُدْرَةِ وَصْفِهِ بِحَيْثُ لَا يَخْطُرُ بِالْبَالِ وَجُودُهُ نَاسَبَ أَنْ يَذْكُرَ أَمْرَهُ لِلسَّامِعِينَ"[1]، فكأنَّه لا وصف لهم يُميِّزُهم عنِ النَّاس سوى صورة الإنسانيَّة[2]، أي: أنَّ التَّعبيرَ بالنَّاس ههنا لِلتَّنْبيه أنَّهُ "ليس لهم مِنَ الصِّفات إلَّا الوصفُ الآدميُّ الأصليُّ؛ وَهُوَ أنَّهم ناسٌ مِنَ النَّاس"[3].

الحديث عن المنافقين بصيغة الإبهام (ومن الناس) يحرك الأذهان لمعرفة صفاتهم

نُكْتَةُ تَقْدِيمِ الْخَبَرِ إفادةُ التَّشويقِ لا التَّخصيصِ:

أفادَ تقديمُ الخبرِ في قوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ﴾؛ تَشْويقَ السَّامع إلى الاِسْتِعلام عَنِ المبتدأ، فإذا ذُكِرَت قبائحُ المُتحدَّث عنْهم وَقَعتْ عَلَى نفسٍ مُسْتَشْرِفَةٍ لِلْمَعْرِفَةِ، فيتمكَّنُ مِنْهَا غايةَ التَّمكُّنِ، وليس في هذا التَّقديم إفادةُ التَّخصيص[4].

من فوائد تقديم الخبر تشويق السامع لمعرفة المبتدأ

مَعْنَى اللَّامِ فِي كَلِمَةِ ﴿ٱلنَّاسِ﴾ بَيْنَ الجِنسِ والعَهْدِ:

تَعْرِيفُ كلمةِ (ٱلنَّاسِ) في قولِه ﷻ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ لِلْجِنْسِ، ويُرادُ بهم إمَّا جنسٌ خاصٌّ، وهُمُ المُصِرُّون على الكُفْرِ؛ إذْ إنَّ المنافقينَ مِنْهُمْ[5]، وإمَّا جنسُ النَّاس، وهو الأوفقُ بالمقامِ[6]، والأقربُ في إعمالِ التَّبعيض.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/259.
(2) الخفاجي، عناية القاضي: 1/302.
(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 1/121.
(4) السيوطي، نواهد الأبكار: 1/368، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/260.
(5) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/39.
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/262.

ويجوزُ أن تكونَ لِلْعَهْد، والمرادُ بالنَّاس: المتقدِّمُ ذكرُهُمْ قبلُ؛ إذْ إنَّ المُنَافِقِين مِنْ جُمْلَتِهِم[1].

نُكْتَةُ التَّعْبِيرِ بِالْفِعْلِ الْمُضَارِعِ:

صيغة المضارع تستحضر مقالة المنافقين قصد تبشيعها

جاء التَّعْبِير بالفعل المضارع في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا﴾، ولم يقُل: (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ قَالَ آمَنَّا)؛ لِاسْتِحْضَار مَقَالَتِهم حينَ قالُوها؛ كأنَّ أصحابَها يَتَلَفَّظُون بها في الحالِ؛ قصدًا لِتَبْشِيعِها عِنْدَ نَفْيِ مضمونِها وهو ادِّعاءُ الإيمانِ؛ فإنَّ إبطالَ الزَّعم وقتَ صدورِهِ أوقعُ مِن إبطالِهِ بعد قَوْلِه، فيُفيدُ المباغتةَ في الخِطابِ.

تَوْجِيه تَخْصِيصِ الْإِيمَانِ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ بالذِّكر:

دَفْعُ الرِّيبةِ عَنِ المنافقين، بالإتيانِ بأبرزِ أركانِ الاعتقادِ

خُصَّ الإيمانُ باللّه واليوم الآخرِ بالذِّكْرِ في قولِه تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾، على لسانِ المنافقين؛ زيادةً في التَّمويه والمخادَعة، وإرادةَ التَّميّز عَنِ المُشْرِكين، فكانَ ذِكْرُ الإيمانِ باللّه واليومِ الآخر ممَّا يدفعُ عَنْهُمْ رِيبةَ أنَّهم ما زَالُوا على وثنيَّتِهم، ويحقِّقُ لشَيَاطِينِهم مِنَ اليهودِ مأرِبَهم وهو عدمُ ذِكْرِ الإيمانِ بجميعِ الملائكةِ والرُّسلِ الذين مِنْهُمْ جبريل ومحمَّدٌ ﷺ.

وهناك نِكاتٌ أُخرى تخُصُّ هذين الرُّكنين لأجلِها اختارها المنَافِقُون من بينِ سائرِ الأركانِ، وهِيَ[2]:

الإيمان بالله واليوم الآخر هما الركنان اللّذان تتفرّع عنهما الأركان الأُخرى

إحداها: أنَّ الإيمانَ باللّه تعالى والبعثِ وما يَتْبَعُه أعظمُ مقاصدِ العقيدة الإسلاميَّة.

ثانيها: أنَّ الإيمانَ باللّه سبحانه على ما يليق بجلاله وعظمَتِه؛ يلزمُ مِنْهُ الإيمانُ ببقيَّة الأركانِ؛ مِنَ الكُتُبِ والرُّسُل والملائكةِ والقدرِ.

ثالثها: أنَّ الإيمانَ بمصيرِ العبادِ إلى اللّه ﷻ يلزمُ مِنْهُ الاِسْتعدادُ بالأعمالِ الصَّالحةِ؛ فهو مفتاحٌ لكلِّ خَيْرٍ.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/262.

(2) الخفاجي، عناية القاضي: 1/305.

رابعها: أنَّ الإيمانَ باللّه ﷻ إيمانٌ بالمبدأ، والإيمانَ باليوم الآخر إيمانٌ بالـمَعَادِ؛ فَهُمَا الطَّرَفانِ، وما سِوَاهما داخلٌ فيهما، على قاعدة أَنَّ الْبَيْنَ مُسْتَحْضَرٌ في الطَّرفَيْنِ.

فهذا كلُّهُ دَعْوَى مِنْهُمْ بِتَشَبُّثِهِم بالعقائدِ الإسلاميَّة على وجه الاِسْتِحْكَام، وهو ما يدُلُّ على فِقه العقيدةِ عقلًا، وجهلِها قلبًا وسلوكًا.

سِرُّ تَكْرَارِ حَرْفِ الْجَرِّ (الْبَاءِ):

شـدَّةُ احتياطِ المُنافقين تُؤدِّي إلى طلبِ قـوَّةِ التَّمويه

لِتَكْرَارِ البَاءِ في قولِه تعالَى: ﴿بِٱللَّهِ وَبِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾ غرضٌ بيانيٌّ هو "ادِّعاء أنَّهُم قد حَازُوا الإيمانَ مِن قُطْرَيْهِ وأحاطوا به مِن طَرَفَيْهِ، وأنَّهم قد آمنوا بكلٍّ مِنْهُمَا على الأصالَةِ والاِسْتِحْكَام، وقد دَسُّوا تحته ما هُم عَلَيْهِ مِنَ العقائدِ الفاسدَةِ، حيث لم يكُنْ إيمانُهم بواحدٍ مِنْهُمَا إيمانًا في الحقيقة؛ إذْ كَانُوا مُشْرِكين باللّه"[1]، وهذا الاستحكَامُ في بيانِ إيمانِهم يدلُّ على شعورِهم النَّفسيِّ في ارتيابِ المؤمنين من حالِهم، على حدِّ قولِ القائلِ: كادَ المُريبُ أنْ يقولَ خذوني؛ فإنَّ شدَّةَ الاحتياطِ تُؤدِّي إلى طلبِ قوَّةِ التَّمويه.

تَغايُرُ الصِّيغةِ وأثرُه في المقابَلَةِ:

بيانُ انتفاءِ إيمَانِ الـمُنَافِقِينَ فِي المَاضِي وَالحَالِ بعنصر المفاجأة

جاءَ نَفْيُ الإيمانِ عَنِ المنافقين بقولِه تعالَى: ﴿وَمَا هُم بِمُؤۡمِنِينَ﴾ بعد قَوْلِهِم في دَعْوَاهم: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾، ولم يَرِد نَفْيُ الإيمانِ عَنْهُمْ بِمِثْلِ طَرِيقَتِهِم في الإثبات؛ إذْ لم يأتِ التَّعْبِيرُ القرآنيُّ: (ومَا آمَنُوا)؛ ذلك أنَّ قولَه تعالى: ﴿وَمَا هُم بِمُؤۡمِنِينَ﴾ بعد قِيل المنافقين يُشعِرُ بالمفاجأةِ مِن حالِهِمُ الرَّديئةِ؛ لأنَّ الـمُتَوَقَّعَ خلافُ الـمَسْمُوعِ، ولا سيَّما أنَّ الآيةَ جاءت بعد ذِكْرِ الكافرينَ.

ولِأَنَّ إثباتَهم الإيمانَ بصِيغة الماضي يُفيدُ تحقُّقَهُ في الزَّمن الماضي وَضْعًا، ويُفيدُ دوامَهُ التزامًا؛ إذِ الأصلُ عدمُ تغيُّرِ الاعتقادِ الدِّينِيِّ.

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/40.

نفي الإيمان عن المنافقين بالصيغة الاسمية يؤكّد دوام نفيه عنهم

وأمَّا النَّفْيُ فوقع بالجملةِ الاسميَّة؛ إذْ لو وقع على مِثْلِ إثباتِهم بأن يُقَالَ: "وما آمنوا" لَأَفادَ ذلك نفيَ الإيمانِ عَنْهُمْ في الماضي، مِن دُونِ التَّعرُّضِ إلى نَفْيِهِ في الحالِ أَوِ الاستقبالِ، فجاء النَّفْيُ بالجملة الاسميَّة ﴿وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾ الدَّالَةِ على دوامِ النَّفي قطعًا؛ ماضِيًا وحالًا[1]، ويُقوِّي هذه الدّلالة دُخولُ الباءِ على خبرِ (مَا)؛ فإنَّها دالَّةٌ على تأكيد النَّفْيِ[2].

نُكتةُ حَذْفِ المَفْعُولِ وَأَثَرُهَا فِي توسيع المَعْنَى:

المُنافقونَ شديدو الكفر؛ فهم لا يُؤْمِنُونَ بِأَدْنَى شَيْءٍ مُتصَوَّرٍ، وحذفُ المفعول دالٌّ عليه

حُذف متعلَّقُ الإيمانِ في قوله تعالى: ﴿وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾، فلَمْ يَرِدِ التقييدُ بالإيمانِ باللّه، أو باليوم الآخر؛ لتقدُّم ذكرِهِ مع ﴿ءَامَنَّا﴾ أي: وما هُمْ بِمُؤْمِنِينَ بما زَعَمُوا الإيمانَ به، إعمالًا لدلالة السِّباقِ.

وإمَّا أن يكونَ ذلك لِلْإيمَاءِ إلى العموم؛ إذْ إنَّ حَذْفَ المتعلَّق مُؤْذِنٌ بإفادةِ الشُّمول؛ فهم لَيْسُوا بمؤمنين بأيِّ شيءٍ مِمَّا مِن شأنِهِ الإيمانُ به[3]، وهذا يدلُّ على شديدِ كفرِهم، وبالغِ نفاقِهم، وهو ما يُترجِمُه قولُه تعالَى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [النساء: 145].

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/40، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/265.
(2) ابن الورّاق، علل النحو، ص: 258.
(3) أبو حيان، البحر المحيط: 1/90.

﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخۡدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ وَمَا يَشۡعُرُونَ ٩﴾ [البقرة: 9]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

هذه الآيةُ كالتَّعليل للآيةِ قبلهَا وهي قولُه تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَمَا هُم بِمُؤۡمِنِينَ﴾، فكأنَّ قائلًا قال: ولمَ يَقُولُون آمَنَّا وَهُمْ في حقيقة الأَمْرِ لَيْسُوا بمؤمنين؟ فجاء الجوابُ: ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ﴾، ولذا فُصِلَت الجملةُ عمَّا قبلهَا؛ لِشِبْهِ كمال الاِتِّصالِ[1].

شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

1) ﴿يُخَٰدِعُونَ﴾: تعددت أقوال اللغويين في بيان أصل (الخِدَاع)؛ فقيل: أصلُهُ مِن إِخْفَاء الشَّيْءِ، يُقَال: أَخْدَعْتُ الشَّيْءَ، أي: أَخْفَيْتُه، وخدَع منِّي فلان، إذا توَارَى فلم يَظْهَر[2]، وهو مأخوذٌ من خَدَعَ الضَّبُّ إذا اختَفى، والأَخْدَعان: عِرْقَان مُسْتَبطنَان في العُنُق، ومِن هذا قولُ الله تعالى: ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ﴾ أي: أنَّهُمْ يُظْهِرُون خلافَ ما في نفُوسهم[3].

وقيل: أصلُ الخِدَاع مِن الفَسَادِ، ومِنْهُ الخَادِعُ؛ وهو: الفَاسِدُ مِنَ الطَّعَام وَغَيْرِه[4]، وهُوَ عند التَّحقيق عائدٌ إلى الأصل الأوّل، فلا تعارُضَ بَيْنَ الأَصْلَيْن، وفي عبارة الأَنْبَارِيِّ ما يُومِئُ إلى ذلك؛ إذْ قال: "وقولُهم: قد خَدَعَ فلانٌ فلانًا... أَظْهَرَ له أمرًا أضمَرَ خلافَه مِنَ الفَسَادِ، ومَا يُشَاكِلُ الفسَادَ مِنَ الأفعالِ المَذْمُومَة"[5].

في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَخۡدَعُونَ﴾ قراءتان:

قرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو؛ بضم الياء وفتح الخاء وألف بعدها وكسر الدال: ﴿وَمَا يُخَٰدِعُونَ﴾: على أنَّ الخِداع وقع من اثنين، فهو واقعٌ منهم وإليهم؛ إذ خدَعوا أنفسهم، وأنفسهم خدَعتْهم[6].

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 1/40، والآلوسّي، روح المعاني: 1/149، والهرريّ، حدائق الرَّوح والرَّيْحان: 1/166.
(2) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة: (خدع)، وابن القوطِيَّة، كتاب الأفعال، ص: 32.
(3) الواحديّ، التَّفسير البسيط: 2/132.
(4) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (خدع).
(5) الأنباريّ، الزّاهر: 2/284.
(6) ابن الجزري، النشر: 2/207، وابن زنجلة، حجة القراءات، ص: 87.

وقرأ الباقون؛ بفتح الياء وإسكان الخاء وحذف الألف وفتح الدال: ﴿وَمَا يَخۡدَعُونَ﴾: على أنَّ الخداع وقع من طرفٍ واحد، فهو واقعٌ منهم على أنفسهم[1].

2) ﴿وَمَا يَشۡعُرُونَ﴾: الشِّعْرُ والشُّعور: العِلْمُ الدَّقيق أو الفِطنةُ، ويُطْلَق الشُّعور على الإدرَاك بالحواسِّ الْخَمْسِ[2]، وعلى مَبَادئ الإدراك[3].

وأصلُ (شَعَرْتُ): أَصَبْتُ الشَّعْرَ، ثُمَّ استُعير لِلْعِلْم الدَّقِيق؛ لأنَّه في الدِّقَّة بمنزلَةِ إِصَابة الشَّعْرِ[4].

وفي قولِه تعالى: ﴿وَمَا يَشۡعُرُونَ﴾ أي: ما يَدْرُونَ، ومَا يَعْلَمُون[5].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

يظنُّ المنافقون بِجَهْلِهِم أنَّهم يُخَادِعُون اللَّه ﷻ والمُؤْمِنِينَ؛ بإِظْهَارِهِم بألْسِنَتِهِم مِنَ القَوْلِ والتَّصْدِيق خلافَ الذي في قُلُوبِهم مِنَ الشَّكّ والتَّكْذِيب، وهُم في حقيقة الأمر لا يَخْدَعُون إلَّا أنفسَهم، ولا يَشْعُرُ هؤلاء أَنَّ خِدَاعَهم على أنفُسِهم؛ لفسَادِ قلُوبِهم[6].

❁ الإِيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

بَلَاغَة الفَصْلِ بَيْنَ الجُمَلِ:

الكَشْفُ عن عِلَّةِ قَـوْلِ المُنَـافِقِينَ بِبَيَانِ حَقيقةِ مَا في قُلُوبِهِمْ

فُصلَ قولُه تعالى: ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ﴾ عَن قولِه قبلُ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾؛ لوَجْهَيْنِ مُتقَارِبَيْن:

أوَّلُهُمَا: أن تكونَ الصِّلَةُ بينهما شِبْهَ كمالِ الاتِّصال، على تقدير سؤالٍ محذوف يُفْهَمُ مِنَ الآية قبلَهَا وهي: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾، فكأنَّه قيل: ومَا لَهُمْ يقولُون بأفواههم ما لا تَعْتَقِدُه قلوبُهم؟، فجاء الجَوَابُ: ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ﴾، وفائِدَتُه هَهُنا: التَّعليلُ.

الآخَرُ: أن تكونَ الصِّلَةُ بينهما كمالَ اتِّصالٍ على أن تُعرَب جملة: ﴿يُخَٰدِعُونَ﴾ بدلَ اشتمالٍ

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 1/93.
(2) الرّاغب، المفردات: (شعر)، والخفاجيّ، عناية القاضي: 1/318.
(3) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/52.
(4) السَّمين، عمدة الحُفّاظ: (شعر).
(5) ابن جرير، جامع البيان: 1/277.
(6) ابن جرير، جامع البيان: 1/272-273، وابن عثيمين، تفسير الفاتحة والبقرة: 1/40، والسَّعدي، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 42، ونخبة من أساتذة التّفسير، التّفسير الميسّر، ص: 3.

من قوله تعالى: ﴿مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾[1]، وفائدته: بيان حقيقة أقوالِهم، وهذان وجهان متَّسقان مع السِّياق، منتظمان في النَّظم.

فائِدةُ الْإيجَازِ بِحَذْفِ الْمُضَافِ:

في قولِه تعالى: ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ﴾ مَجَازٌ بالحَذْف أو إيجازٌ بالحَذْفِ[2]، بمعنى: يُخَادِعُون رسولَه، ففيه حذفُ مضافٍ، ونُكْتَتُهُ: "التَّنبيه على أمرين: أحدهما: فظاعةُ فِعْلِهِم فيما تحرَّوْهُ مِنَ الخديعة، وأنّهم بمخادعتهم إيّاه يخادعون اللّه، والثَّاني: التَّنبيه على عِظَم المقصود بالخدَاع، وأنَّ معاملتَهُ كمعاملة اللّه"[3]، ففيه رفعةُ شَأْنِ النَّبِيِّ ﷺ عند اللّه تعالى؛ فجُعِلَ خداعُهُ بمنزلة خداع مُرْسِلِه[4] ﷺ، وقرينةُ الحذف ههنا: اسْتِحَالَةُ إخفاءِ شيءٍ عَنِ اللّه تعالى؛ لكون رَبِّ العزَّة والجلالِ عالمًا بالْغَيْبِ والشَّهادةِ.

خداعُ رسول الله هو بمنزلة خداع الله تعالى، وفي هذا تعظيم لشأن النبيّ ﷺ

بلاغةُ الِاسْتِعَارَةِ التَّمْثِيلِيَّةِ فِي بيانِ شَنَاعَةِ جُرْمِ الْمُنَافِقِينَ:

يَحْتَمِل أن يكون قولُه تعالَى: ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ﴾ من باب الاستعارةِ التَّمثيليَّة؛ فقد شُبِّهت الهيئة المركَّبَة من إظهار الإيمان وإبطانِ الكُفْرِ بهيئةِ الرَّعيَّةِ التي تُخادعُ سلطانَهَا، فاسْتُعِير اسْمُ المُشَبَّهِ به لِلْمُشبَّه[5]، ونُكْتَةُ الاستعارَةِ: بيانُ شَنَاعةِ جُرمِهِم حيثُ يُعامِلون معاملةَ الخَادِع[6].

أَثَرُ الصِّيغَةِ فِي بَيَانِ الْمَعْنَى:

فِعْلُ ﴿يُخَٰدِعُونَ﴾ صيغةُ مُفاعَلَةٍ دالَّة على المبالغة في بيان شَأْنِ المنافقين في مخادعتهم، أمَّا خداعُهُمْ؛ فإظهارُهم الإيمانَ وإبطانُهُم الكفرَ.

خِدَاعُ اللهِ سُبْحَانَهُ لِلْمُنَافِقِينَ هُوَ عَلَى وَجْهِ الْمُقَابَلَةِ والمُجازاةِ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/274.
(2) البيضاويّ، أنوار التَّنزيل: 1/44.
(3) محمّد رشيد رضا، تفسير القرآن الحكيم: 5/380.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السَّليم: 1/41.
(5) محمد علي جميل، صفوة التَّفاسير: 1/32.
(6) أبو السّعود، إرشاد العقل السَّليم: 1/41.

وأمَّا خداعُ المؤمنين لِلْمُنَافقين؛ فَهُمْ وَإِنْ كانوا يَعْلَمُون فسادَ بواطِنِ كثيرٍ مِنَ الْمُنَافِقِين بما يَظْهَرُ على فَلَتَاتِ أَلْسِنَتِهم وسُوءِ فِعالهم، إلَّا أنَّهم أَجْرَوْا عَلَيْهِمْ أحكامَ أهلِ الإسلام في الدُّنيا امتثالًا لأمر الله تعالى بِذَلِكَ[1].

وأمَّا خداعُ اللهِ تعالى لهم؛ فهو أَنْ يُظْهِرَ الله تعالى ما يُظَنُّ أنَّه كرامةٌ وفيهِ عذابٌ أليم[2]، فالله سبحانه أَجْرَى عَلَى الْمُنَافِقِينَ أحكامَ الْإِسْلَامِ في الدُّنْيَا، وهُمْ في الدَّرْكِ الأسفلِ مِنَ النَّار يوم القيامةِ.

نُكْتَةُ التَّعْبِيرِ بِالِاسْمِ الْمَوْصُولِ دون الْوَصْفِ:

جاء التَّعبيرُ بالْفِعْلِ في قوله: ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ دون الوَصْفِ - (يخادعون اللهَ والمؤمنِينَ) -؛ لِمَا تُشْعِرُ به كَلِمَةُ (المُؤمنين) مِنَ الكمَالِ والشُّمولِ، وتصدق على المؤمنين الصّادقين الذين رسخ الإيمان في قلوبهم. أمّا ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ فالفعل يدلّ على من اتّصف بالإيمان، مهما كان إيمانه قليلًا، ونكتة إيثار الصلة والموصول الإشارة إلى أنّ المنافقين يسعون إلى خداع كلّ من اتّصف بالإيمان، حتى لو كان إيمانهم ضعيفًا، فمن باب أولى أنهم يسعون لخداع المؤمنين الراسخين في الإيمان.

خداع المنافقين لا يفرّق بين مراتب أهل الإيمان

تَوْجِيهُ الْقِرَاءَاتِ الْقُرْآنِيَّة في الفعل ﴿يَخْدَعُونَ﴾:

اختلف القُرَّاء في قراءة لفظ ﴿يَخْدَعُونَ﴾ من قولِه تعالى: ﴿وَمَا يَخْدَعُونَ﴾، فقرأهَا الجُمْهُورُ بِغَيْرِ أَلِفٍ ﴿يَخْدَعُونَ﴾.

وقرأَ نافعٌ وابنُ كثير وأبو عَمْرٍو بزيادَةِ ألفٍ بعد الخاءِ ﴿يُخَٰدِعُونَ﴾[3]، وهُوَ مُفَاعَلَةٌ مِنَ الخِدَاعِ؛ ولذلكَ نُكْتَتَان: لفظيَّةٌ ومعنويَّةٌ.

---

(1) القِنَّوجي، فتح البيان: 1/90-91.

(2) ابن تيميّة، الفتاوى الكبرى: 6/20.

الخِدَاعُ مِنَ الصِّفات التي تُطْلَقُ على الله تعالى على وجه المقابلةِ والانتقامِ والمُجازاةِ، قال ابنُ كثِيرٍ في تفسيره: 1/184: «لأنَّ المَكْرَ والخِدَاع والسُّخريَّة على وجه اللَّعِب والعَبَثِ مُنْتَفٍ عَنِ الله ﷻ بالإجماع، وأمَّا على وجه الِانتقام والمُقَابلة بالعَدْلِ والمجازاة؛ فلَا يَمْتَنِعُ ذلك».

(3) ابن الجزري، النشر: 2/207.

التَّكامُلُ الدَّلاليُّ بينَ القِرَاءَاتِ وأَثَرُه في تَقْوِيَةِ مَقْصُودِ النَّظْمِ

فأمَّا اللَّفظيَّةُ؛ فَلِأَجْلِ تحقيق الْمُزَاوجَةِ في اللَّفْظِ مَعَ قولِه قبلُ: ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾.

وأمَّا المعنويَّةُ؛ فلأنَّهم "كانوا يُخَادِعُون أنفسَهم بالتَّسْوِيف والتَّشْكِيك، وَإِذَا نَازَعَتْهُم دواعي الإيمانِ، ودَعَتْهُم خواطرُ الحقِّ؛ كانوا يُقَابِلُون ذلك بالْجَحْدِ والتَّكْذِيب وترك النَّظَر، والْخَاطِرَانِ في قَلْبٍ واحِدٍ إذَا كانا يَتَعَارَضَان؛ جُعِلَا بِمَنْزِلَة نَفْسَيْنِ"[1].

ويظهرُ التَّكامُلُ الدَّلاليُّ بين القِرَاءَتَيْنِ في أنَّ قراءةَ الْفِعْلِ المُجرَّد تُفِيدُ أنَّ الخِداعَ وَقَعَ على كلِّ واحدٍ مِنهم؛ فلمَّا أرادُوا خدعَ الآخرينَ خَدَعُوا أنفسَهم، وأمَّا قراءةُ المُفَاعَلَةِ؛ فَتُفيدُ أنَّ المخادعةَ وَقَعَتْ فيمَا بَيْنَهُمْ، أي: أنَّ بعضَهم خَدَعَ بعضَهم الآخرَ بِرَأْيِهِ السَّاذج، وفكرِه الخَبِيثِ، فَقَدْ تعاونوا على البَاطِلِ فوَقَعُوا في مَخَالِبِه جميعًا، فهذا تكاملٌ بديعٌ بين القراءَتَيْنِ.

نُكْتَةُ حَذْفِ مُتَعَلَّقِ الْفِعْلِ:

المنافقون لا يشعرون بشيء فهم منزلون منزلة من اختلّت حواسهم وتعطّلت

حُذف متعلَّقُ الفعلِ في قوله ﷻ: ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾، وفي تقديره وَجْهَان[2]:

أحدهما: أَنْ يَكُونَ المُقَدَّرُ خاصًّا، والمعنى: وما يَشْعُرُونَ أنَّ خِدَاعَهُم مُقْتَصِرٌ عَلَيْهِم، فَيَكُونُ الْمُتَعَلَّقُ حُذِفَ لظهورِه وقُرْبِ العَهْدِ به.

والآخَر: أَنْ يَكُونَ الْمُقَدَّر عامًّا، وهو الْأَوْفَقُ لِقاعِدَةِ أنَّ حذف المعمولِ مُؤْذِنٌ بالعمُوم، والمعنى: لا يَشْعُرون بشيءٍ أصلًا، فنُزِّلوا مَنْزِلَةَ مَنِ اخْتَلَّت حواسُّهُ وتعطَّلَتْ.

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الخِدَاعُ وَالكَيْدُ وَالمَكْرُ:

الفرقُ بَيْنَها: أنَّ الخداع إظهارُ أَمْرٍ لِغَيْرِكَ مع إضمَار خلافه، ولا

(1) الواحديّ، التَّفسير البسيط: 2/138.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السَّليم: 1/41.

يلزم مِنْهُ أن يكونَ بعد نظر وتدبُّرٍ، ولذا يُقال: خدعَهُ في البيع؛ إذا غشَّهُ، ولو كان ذلك بديهَةً مِن غير فِكْرٍ سابقٍ.

بخلاف الكَيْدِ فإنَّه - في حقِّ المخلوقِ- لا يكونُ إلَّا بعد تدبُّر وفِكْرٍ ونظَرٍ.

وأمَّا المكر فهو - في حقِّ الـمَخْلُوق- مِثْلُ الكَيْدِ في أنه لا يكُون إِلَّا بَعْدَ فِكْرٍ ونَظَرٍ، إِلَّا أنَّ الكَيْدَ أقوَى مِنَ الـمَكْرِ.

﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًاۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمُۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡذِبُونَ ١٠﴾ [البقرة: 10]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

تدَّرَجَ السِّياقُ مِنَ التَّصريحِ بوجودِ فِرقةِ النِّفاقِ؛ بذكرِ عَلَامَةٍ مِن علاماتِهم، وهي مخالَفةُ أقوالِهم لضمائِرِهم، إِلَى بَيَانِ سُلُوكٍ أخلاقيٍّ ناشئٍ عَن عدمِ إيمانِهم وهو المخَادَعَةُ، ثُمَّ كَشَفَ في هذه الآيةِ عن عِلَّةِ أقوالِهم وأفعالِهم وهي المرضُ المُتَمَكِّنُ مِنْ قُلُوبِهم، فوقع التَّناسبُ محقِّقًا إشباعَ نَهْمَةِ المُتَشوِّقِ لمعرفةِ سِرِّ تلكَ الأقوالِ والأعمالِ العجيبةِ؛ لِيحصُلَ الاعتبارُ والاتِّعاظ.

قال الشّيخ محمد الطّاهر بن عاشور في وجه المناسبة: "استئنافٌ مَحْضٌ لِعَدِّ مساويهم، ويجوزُ أن يكونَ بيانيًّا لجواب سؤال مُتَعَجِّبٍ ناشئٍ عن سَماع الأحوال التي وُصِفوا بها قبلُ في قوله تعالى: ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخۡدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ وَمَا يَشۡعُرُونَ﴾؛ فإنَّ مَنْ يسمَعُ أنَّ طائفَةً تُخادِعُ اللّٰه تعالى وتُخادِعُ قومًا عديدين، وتطمعُ أنَّ خِداعَها يتمَشّى عليهم ثمّ لا تَشعُرُ بِأَنَّ ضررَ الخِداعِ لاحِقٌ بها لَطائفةٌ جديرَةٌ بأنْ يَتَعَجَّبَ من أمرِها المُتَعَجِّبُ ويتساءلَ: كيفَ خطرَ هذا بخواطرها؛ فكان قولُهُ ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ بيانًا وهو أنَّ في قلوبهم خللًا تزايدَ إلى أنْ بلغَ حدَّ الأَفَنِ"[1].

شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

1) ﴿مَّرَضٌ﴾: المَرَضُ: ضِدُّ الصِّحَّة، وهُوَ العلَّةُ تكون في البدنِ والعقل والقلب، ومِنْهُ قول اللّٰه تعالى: ﴿وَإِن كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٍ﴾ [النساء: 43]، ويُطلق على الشَّكِّ والنِّفاقِ، ومِنْهُ قوله تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾[2]، ويُطْلَقُ على الفُجُور، ومِنْهُ قوله سبحانه: ﴿فَيَطۡمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلۡبِهِۦ مَرَضٌ﴾[3] [الأحزاب: 32]، ويَرِدُ المرضُ مرادًا به الظُّلْمَة، ثُمَّ يُسْتَعَارُ هذا الأخيرُ لِسَوَادِ القَلْبِ بالمَعْصِيَة[4].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/279.
(2) الأنباريّ، الزّاهر: 1/476.
(3) ابن الجوزيّ، نزهة الأعين النَّواظر، ص: 546.
(4) نشوان الحميريّ، شمس العلوم: (مرض).

وأصلُ المرضِ في كلِّ هذا: الضَّعْفُ[1]، فكلُّ مَا ضعُفَ فقد مَرِض، وَمِنْه قَوْلُهم: امْرَأَة مَرِيضَةُ النَّظَر، أَي: ضَعِيفَتُهُ، ويقال: مرَّض الرجلُ في كَلَامه؛ إذا ضَعَّفَهُ[2]، ومِنْهُ عندَ المُحَدِّثين: صيغةُ التَّمريضِ.

2) ﴿يَكۡذِبُونَ﴾: الكَذِبُ: ضدُّ الصِّدْقِ؛ وهو الإخبارُ عنِ الشَّيءِ بخلافِ ما هو عَلَيْهِ مطلقًا، سواءٌ أَوقَعَ ذلك الإخبارُ عن عَمْدٍ أم خطَأٍ، إلَّا أنَّ الإثْمَ في الشَّرْعِ مُعَلَّقٌ على ما وقعَ مِنْهُ عَمْدًا[3].

ويُطلقُ الكَذِبُ على مَعَارِيض الكلام؛ التي هي كَذِبٌ من حَيثُ ظَنُّ السَّامعِ، وصِدْقٌ من حَيْث قالَها القائلُ[4].

وفي لفظ ﴿يَكۡذِبُونَ﴾ قراءتان[5]:

حيث قرأ عاصم، وحمزة، والكسائيُّ وخلف العاشر: ﴿يَكۡذِبُونَ﴾ بالتَّخفيف، أي: إنهَّم كاذبون في قولهم: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾.

وقرأ نافع وأبو جعفر وابن كثير وأبو عمرو ويعقوب وابن عامر: ﴿يُكَذِّبُونَ﴾ بالتَّشديد، أي: يكذِّبون النبيَّ ﷺ والقرآن مرَّةً بعد مرَّة.

والتَّكذيبُ-بزنةِ التَّفعيلِ-: النِّسبةُ إلى الكذب؛ إذ (التَّفعيلُ) يأتِي لإرادةِ النِّسبة[6] ويأتي للمبالغة والكثرة.

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

أبَانَتِ الآيةُ عنِ العلَّةِ الخفيَّة للنِّفاقِ في المجتمَعِ المُسْلِم، وهو الضَّعْفُ الإيمانيُّ، والضَّعفُ أمام الشَّهوات، فتحصَّلَ من ذلك شكٌّ في قلوبهم في أمر النَّبيِّ ﷺ وما جاء به مِنْ عند الله تعالى، وحَيْرةٌ في ذلك؛ فلا هُم أَيْقَنُوا إيمانًا، ولا أَنْكَرُوا إِشْرَاكًا، فزَادهُمُ

(1) وأصلُ المرض عِنْدَ ابن الأعرابيّ: النُّقصانُ، ومنه: بَدَنٌ مرِيضٌ، أي: ناقِصُ القوّة، وقلبٌ مَرِيض، أي: ناقصُ الدِّينِ، وهو عِنْدَ التأمُّلِ يرجعُ إلى معنى الضَّعْفِ. ينظر: الأزهريّ، تهذيبُ اللّغة: (مرض).

(2) ابن دُرَيد، جمهرة اللّغة: (مرض).

(3) الزَّبيديّ، تاج العروس: (كذب)، والفيوميّ، المصباح المنير: (كذب).

(4) أبو موسى المدينيّ، المجموع المغيث في غريبي القرآن والحديث: 3/27.

(5) ابن الجزري، النشر: 2/207، ابن زنجلة، حجة القراءات، ص: 88، ومكيّ ابن أبي طالب، الكشف: 1/228.

(6) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة: (كذب).

اللّه مرضًا مِنْ جِنْسِ مَرَضِهم السَّابقِ؛ فزادهم شكًّا وحَيرةً بما أنزل اللّه تعالى مِنَ الشَّرائعِ التي لَمْ تَكُنْ نَزَلَت قبلُ؛ فَانْضَافَ شكُّهُم الثَّاني إلى الأوّل، وهذه عقوبةٌ عاجلةٌ بسبَبِ كَذِبهم على اللّه تعالى، وكَذِبِهم على النَّاسِ بالخِدَاعِ، وبِتَكْذِيبِهم بالشَّرع المُنزَّل[1].

❁ الإيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

أَوْجُهُ فَصْلِ الْجُمْلَةِ عَمَّا قَبْلَهَا:

مـــرضُ قـلـوب المنافقين سببٌ في خـداعـهـم ونفاقهم

فُصِلَ قولُهُ تعالَى: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ عمَّا قبله؛ ولهذا الفصْلِ ثلاثةُ أوجهٍ:

أحدها: أَنْ يَكُونَ اسْتِئنافًا محضًا؛ والقصدُ هو عَدُّ مساوئِ المنافقينَ.

وثانيها: أن يكون استئنافًا بيانيًّا؛ فهو جوابٌ عن سؤالٍ مُتَعَجِّبٍ نَشَأَ عن سمَاع أحوالِ المنافقين المذكورةِ في قوله سبحانه: ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾؛ وذلك أنَّ مَن يَسْمَعُ أَنَّ قومًا يزعُمُونَ خداعَ اللّه تعالى مِن غَيْرِ شُعُورٍ مِنْهُمْ بأنَّ وَبَالَ الخِدَاعِ راجعٌ عَلَيْهِم؛ قَمِنٌ أن يَتَعَجَّبَ مِنْ شَأنهم، ويَتَسَاءلَ: كيف خطَرَ هذَا بِخَاطِرِهم؟![2]

وثالثها: أَنْ تَكُونَ مُقرِّرةً لِمَا يُفِيدهُ قول اللّه سبحانه قبلُ: ﴿وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾ من اسْتِمْرَارِهم على عدَم الإيمان[3].

وَأَوْضَحُ هذه الأوجه وأبيَنُها أَنْ يَكُونَ الكَلَامُ محمولًا على الاسْتِئْنَافِ البيانيِّ؛ فبقيَّةُ الأوجهِ داخِلَةٌ فيه بِنَوْعٍ مِنَ التَّأْوِيلِ، وهو يكشِفُ السَّببَ الذي لِأَجْلِه وقَعُوا فِيمَا وقعُوا فِيهِ.

تَقْدِيمُ الجارِّ والمجرور لِبيانِ أصالةِ مَرَضِ النِّفاقِ:

الـقـلـوب هي مـحـلُّ الـتـدبير والـخـداع، وتقديمها مشير إلى ذلك

قُدِّم مُتَعَلَّقُ الخبرِ في قوله ﷻ: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ لِلاهْتِمام؛ إِذِ

(1) ابن جرير، جامع البيان: 1/279-281، والواحديّ، الوجيز، ص: 92، ونخبة من أساتذة التّفسير، التّفسير الميسّر، ص: 3.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/278.

(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 1/42.

القلوبُ هي محلُّ التَّدبير لِلْخِدَاعِ، فلَمَّا كانت محلًّا له؛ كانَت محطَّ الاهتمامِ في الجوابِ[1]، ولبيانِ أنَّ مرَضَهم ليس طارِئًا، ولا متعلِّقًا بمصلَحةٍ مُؤقَّتةٍ.

تَنْكِيرُ كلمةِ ﴿مَّرَضٌ﴾ لبيانِ النَّوعِ:

نوعُ مرضِ النِّفاقِ يلزمُ عنه الفسادُ الفرديُّ والمُجتمعيُّ

نُكِّرَت كلمةُ ﴿مَّرَضٌ﴾ في قوله: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾؛ لِبَيَان النَّوعيَّةِ، والمعنى: في قُلُوبِهِم نَوْعٌ مِنَ الْأَمْرَاضِ غَيْرِ المتعارَفِ عَلَيْهِ مِنَ الأمراض؛ وهو مرضُ النِّفاقِ والشَّكِّ[2]، ويَحْتَمِل أن يَكُونَ التَّنكير لِلتَّعظيم، أي: مرضٌ عظيمٌ[3]، والأوَّلُ هو الأنسَبُ فيما يتعلَّقُ بالنِّفاقِ، إذ لم يُعرفْ بمعناه القرآنيِّ قبلَ الإسلامِ، والثَّاني لازِمٌ عنِ الأوَّلِ؛ فإنّ مثلَ هذا النَّوعِ من الأمراضِ، عظيمٌ في أثرِه وفسادِه الفرديِّ والمُجتمعيِّ.

بيان الاستعارة في لفظ ﴿مَّرَضٌ﴾:

اسْتِعَارَةُ الْمَرَضِ لِبيانِ سُوءِ الِاعْتِقَادِ وأنَّه مُؤدٍّ إلى الهلاكِ

إذا قِيلَ: إنَّ الأصلَ في المرضِ هو الخَلَلُ في الأبدانِ؛ فَإِنَّ اسْتِعْمَالَهُ هَهنا مِن بابِ الِاسْتِعَارةِ؛ فشُبِّهَ ما في قلُوبِهم مِنَ الجَهْلِ وسُوءِ الاعتقاد وشكِّهم فيما نَزَلَ مِنَ الوحي ونحوِ ذلكَ بالمرضِ؛ بجامِعِ أنَّ كُلًّا منهما مُؤَدٍّ إلى الهلاكِ[4].

احتمالُ الْجُمْلَةِ الخَبَرِيَّةِ والإِنْشَائِيَّةِ:

مرض المنافقين في ازدياد بسبب ظهور الإسلام وعلوّ شأنه

الجملةُ الخبريَّةُ -﴿فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا﴾- معطوفةٌ على قوله: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾، وهو مُتمِّمٌ لدفع التَّعجُّبِ النَّاشئِ عَنِ الوُقُوف على أوصاف المنافقين في قوله سبحانه: ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾[5].

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/279.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السَّليم: 1/42.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/279.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السَّلِيم: 1/41-42.
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/278.

أَوِ المرادُ الإخبارُ عَنْ زيادةِ مرضهم بأنَّهُم في واقعِ الأمر كذلك؛ "بِمَا يتَجَدَّد لِرَسُول اللهِ ﷺ مِنَ النِّعَم، ويتكَرَّر له مِنْ مِنَنِ اللهِ الدُّنيويَّة والدِّينيَّة"[1].

جَوازُ الدُّعاءِ عَلَى الـمُنَافِقِينَ من جِنسِ كُفرِهم لفظًا ومعنًى

احتمَلَ بعضُ أهلِ العلم أَنْ تَكُونَ جُمْلَةُ ﴿فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا﴾ إنشائيةً في المعنَى، يُرادُ بها الدُّعاءُ عَلَيْهِمْ بِزِيَادَةِ الشَّكِّ وتَتَابُع النِّفاق[2]، ولم يَرْتَضِهِ ابنُ عاشور؛ فقد قال مُسْتَدْرِكًا عَلَى هذا القول: "وهو تفسيرٌ غيرُ حسَنٍ؛ لأنَّهُ خلافُ الأصل في العطف بالْفَاءِ، ولأنَّ تَصَدِّيَ القرآنِ لِشَتْمِهِم بذلك ليس مِن دَأْبِه، ولأنَّ الدُّعاء عَلَيْهِمْ بالزيادة تُنَافِي ما عُهِد مِنَ الدُّعاء لِلضَّالِّين بالهداية"[3].

وَوَجْهُ الدُّعاء عِنْدَ مَنْ يقُولُ به: أَنْ يكونَ هذا تعليمًا مِنَ اللهِ تعالَى لِعِبَادِهِ بجَوَاز الدُّعاء علَى المنافقين[4]، لاسيَّما أنَّ الدُّعاءَ عَلَيْهِم من جنسِ كُفرِهم لفظًا ومعنًى، والقولُ بأَنَّ الدُّعاءَ عَلَيْهِمْ ليس مِنْ دأب القرآن فيه نَظَرٌ، فقد وَرَدَ: ﴿وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُ﴾ [التوبة: 68]، وَ﴿قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ﴾ [المنافقون: 4]، وهو في القرآنِ كثيرٌ، نعم قد يُؤخذُ على القولِ أنَّه جَعَلَ الخبرَ المعطوفَ بالفاءِ دعاءً، لكن ممَّا يُقبلُ به هذا الوجهُ أنَّه تفسيرُ معنى لا تفسيرُ إعرابٍ؛ فإن لم يوافقِ الصَّنعةَ، فهو موافقٌ للمعنَى.

إِسْنَادُ فعل الزِّيَادَةِ إِلَى اللهِ تَعَالَى حَقِيقِيٌّ لَا مَجَازِيٌّ:

إسنادُ زيادةِ مَرَضِ قلُوبِ الـمُنافِقين إلى اللهِ سُبحانه في قولِه تعالَى: ﴿فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا﴾ إسنادٌ حقيقيٌّ، يُفيدُ تَمَامَ قدرةِ اللهِ سبحانه على الْعِبَادِ ظاهرًا وباطنًا ما لَا يُفِيدُهُ القولُ بِالْمَجَازِ العقليِّ مع فَسَادِ إرادتِهِ هَهُنَا، وهو جزاءٌ مِنَ اللهِ على إِعْرَاضِهم عَنِ الْوَحْيِ الـمُنَزَّلِ.

(1) القِنَّوْجِيّ، فتح البيان: 1/92.
(2) الماورديّ، النُّكَت والعيون: 1/74.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/282.
(4) إسماعيل حقِّي، روح البيان: 1/56.

سِرُّ نسبةِ زِيَادَةِ الْمَرَضِ إِلَى الْمُنَافِقِينَ دُونَ تخصيصِه بقُلُوبِهِمْ:

الإشارةُ إلى التَّفسيرِ العلميِّ المعاصِرِ بتأثيرِ القلوبِ على الأبدانِ

نُسِبَت الزِّيادةُ إلى المُنَافقين دون القلوب، فقال ﷻ: ﴿فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا﴾ دون (فَزَادَهَا اللّٰه مَرَضًا)؛ لأحد احتِمَالَيْن:

أحدهما: أنَّ فيه حذفَ مضافٍ، فيكون مِن إيجاز الحَذْفِ، والتَّقدير: فزادَ اللّٰه قلوبَهُمْ مرضًا، وقرينَةُ الحذفِ ذكرُ القَلْبِ أوَّلَ الآيةِ ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾.

والآخر: أنَّ المرادَ زِيَادَةُ ذَوَاتِهِمْ مرضًا؛ "لأنَّ مرضَ الْقَلْبِ مرضٌ لسائرِ الجَسَدِ، فَصحَّ نِسْبَةُ الزِّيادة إلى الذَّوات"[1]، والنُّكْتَةُ هَهُنَا: التَّنبيهُ على أنَّ ذواتِهم مريضةٌ، وهو ما يُؤكِّدُ أثرَ المرضِ النَّفسيِّ والقلبيِّ في الأبدانِ، وهو ما كشفتْ عنه الدّراسات العلميَّة المعاصرةِ.

نُكْتَةُ تَنْكِيرِ الْعَذَابِ لبيانِ عَظَمةِ عذابِ الْمُنافِقِين:

نُكِّرَ العذابُ في قوله سبحانه: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي: عذابٌ عظيمٌ في ألمه، أَوْ نوعٌ مِنَ العذَابِ ليسَ مِنَ الأنواع المعهودةِ لا يَعْلَمُ كُنْهَهُ إلَّا اللّٰه ﷻ، وثَمَّة تلازُمٌ بين دلالة التَّنكيرِ على بيانِ النَّوعيَّةِ وَدِلَالتِهِ على التَّعْظِيم.

سِرُّ تَقْدِيمِ مُتَعَلَّقِ الْخَبَرِ:

تقديم الجار والمجرور (لهم) يفيد اخْتِصَاصَ الْمُنَافِقِينَ بِنوعٍ مِنَ الْعَذَابِ الْأَلِيمِ

قُدِّمَ مُتَعَلَّقُ الخبرِ في قوله: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾؛ للدّلالة على التَّشويق والاخْتِصَاص على طريقِ القصرِ الادِّعائي، وفِيهِ الْإِشَارَةُ إلى كَوْنِهم أحقَّاءَ بالعَذَابِ الأَلِيم؛ نَظَرًا لاخْتِصَاصِهِم بِجُرْمِ النِّفاقِ الذي فاق الكفرَ.

فهذا النَّوْعُ مِنَ العَذَابِ خاصٌّ بِهِمْ، ومَنْ دُونَهُمْ مِنْ أصحابِ المَعَاصِي ممَّن تُوُعِّدَ بالعذابِ الأليم؛ لَهُمْ عَذَابٌ دُونَ عذَابِ الْمُنَافِقِينَ.

(1) أبو حيَّان، البحر المحيط: 1/97.

سِرُّ وَصْفِ الْعَذَابِ بِصيغةِ فعيلٍ:

﴿أَلِيمٌ﴾ في قوله ﷻ: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ على وزنِ (فَعِيل)، وَتأتي هذه الصِّيغةُ (فعِيلٌ) بِمَعْنَى اسمِ الفاعل وبمعنَى اسمِ المَفْعُول، واللَّفْظُ في الآية يَحْتَمِلُ الوَجْهَيْن:

(ألـيـم) تحمل بلوغ الغاية في الإيـلام، وفيها تـهـديـد شديد للمنافقين

الأوَّل: (أَلِيمٌ) بمعنى: مُؤْلِم، أي: عذابٌ يُوجِعُ مَن يقَعُ عَلَيْهِ[1].

والآخَرُ: (أَلِيمٌ) بمعنى مُؤْلَم، ويكون مَجَازًا عقليًّا؛ لأنَّ المُؤْلَمَ هو المُعذَّبُ لا نَفسُ العذَابِ[2]، والقَصْدُ مِنْهُ بُلُوغُ العذابِ الغايةَ في الإِيلَام[3].

وكِلَا الوَجْهَيْنِ حَسَنٌ، ولا مانِعَ مِن حَمْلِ (أَلِيم) عَلَيْهِمَا معًا؛ حَمْلًا للاحتمالَيْن على مَعْنَيَيْهِما البَليغ، والتَّعبيرُ بالأليم جاءَ ليشملَ المحتملات، وَلِيكونَ أَرْسَخَ في التَّهديدِ؛ فالألمُ هو صُلْبُ العذاب.

تَوْجِيهُ الْمُتَشَابِهِ اللَّفْظِيِّ:

المُـغـايـرَةُ بَـيْنَ أَوْصَافِ العَذَابِ تَابِعٌ لِلتَّغايُرِ بينَ عِلَلِه

وصفُ عذابِ الكافرينَ بالعَظِيم هُوَ الأنسَبُ؛ ذَلِكَ أنَّ الكافرين لـمَّا كان كفرُهم واضِحًا ظاهرًا؛ ناسَبَ ذلك العذابَ الواضِحَ الظَّاهِرَ وصْفُ العَظِيم، أمَّا المنافقُونَ؛ فلـمَّا كان نفاقُهم كُفْرًا خفيًّا، وآثارُه مؤلمةً لِلْمُجْتَمَعِ المُسْلِم لِخَفَائِهَا وانطوَائِها؛ ناسَبَ وصفَ عذابِهم بالأليم؛ لأنَّ الأليمَ وَجَعٌ غيرُ ظاهِرٍ كالعَظِيم، فَنَاسَبَ كلَّ مقامٍ لفظٌ يخصُّه ويتَّسِقُ معَ مَعْنَاهُ.

بلاغَةُ الْبَاءِ في جمعِها بَيْنَ معنَى السَّبَبِيَّةِ والتَّهكُّمِ والمقابلة:

يحتمِل حرفُ الْبَاءِ في قوله تعالى: ﴿بِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ﴾ أَنْ يَكُونَ للسَّبَبِيَّة، والمعنى: أنَّ لَهُم عذَابًا أليمًا بِسَبَبِ كَذِبِهم[4].

(1) السَّمرقنديّ، بحر العلوم: 1/27.
(2) ابن عاشر، التَّحرير والتَّنوير: 1/282.
(3) البيضاويّ، أنوار التَّنزيل: 1/45.
(4) الجرجانِّي، درج الدُّرر في تفسير الآي والسُّور: 1/106.

ويَحْتَمِل أَنْ تكُونَ لِلْمُقَابَلَة، أي: أنَّ لَهُمْ عذابًا أليما بمُقَابَلَةِ كَذِبهم[1]، وبَاءُ المُقَابَلَةِ تَدْخُلُ علَى الْأَثْمَانِ ومَا في حُكْمِها، فيَكُونُ قَدْ نُزِّلَ كَذِبُهُم منزلةَ الثَّمَنِ على وجه التَّهَكُّم، فكأنَّهم بَذَلُوا لِلْعَذَابِ الأليم ثمَنًا وهُو كَذِبُهُم[2].

فَائِدَةُ ذكرِ ﴿كَانُواْ﴾ في بيانِ اسْتِمْرَارِ الْمُنَافِقِينَ عَلَى الْكَذِبِ:

الكذب راسخ في كيان أهل النفاق

﴿كَانُواْ﴾ مِنْ قوله سبحانه: ﴿بِمَا كَانُواْ يَكۡذِبُونَ﴾ دالَّةٌ على دوَامِ كَذِبِهِمْ وَاسْتِمْرَارِهم فِيهِ[3]، كالتِي في نَحْوِ قولِ اللّه تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾ [النساء: 96]، وقوله جلَّ وعلَا: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومٗا جَهُولٗا﴾ [الأحزاب: 72].

دلالة الْفِعْلِ الْمُضَارِعِ عَلَى التَّجَدُّدِ وَالِاسْتِمْرَارِ:

المنافقون مستمرّون في الكذب، لا ينفكّون عنه

انضمَّ إلى دلالة ﴿كَانُواْ﴾ على الدَّوام: الإتيانُ بِـ ﴿يَكۡذِبُونَ﴾ بصِيغَةِ الْفِعْلِ المُضَارِعِ؛ فأفَادَ مَجْمُوعُ ذلك أنَّهم مُسْتَمِرُّونَ ومُداومُون على الكَذِبِ، وَأَنَّ ذلك مُتَجَدِّدٌ فِيهِمْ؛ حتَّى صَارَ طَبْعًا لَهُمْ.

والتَّعبيرُ عن ﴿كَانُواْ﴾ بِأنَّها مُقْحَمَةٌ[4]: خطأٌ في اللَّفْظِ.

سِرُّ حَذْفِ الْمَعْمُولِ في القراءَتَيْن:

بَيَانُ شَنَاعَةِ كَذِبِ الْمُنَافِقِينَ وَتَكْذِيبِهِمْ

حُذِفَ معمولُ ﴿يَكۡذِبُونَ﴾ مِنْ قوله ﷻ: ﴿بِمَا كَانُواْ يَكۡذِبُونَ﴾، والتَّقْدِيرُ: علَى اللّه تعالَى وعلى الرُّسُلِ[5]، وَحُذِفَ اسْتِعْظَامًا؛ قَصْدًا لِتَشْنِيعِ كَذِبِهِمْ؛ إِذْ لا يكادُ يُتَصَوَّرُ الكذبُ عَلَيْهِمْ.

وقُرِئَ: ﴿يُكَذِّبُونَ﴾[6]، والمعمولُ مَحْذُوفٌ[7]، وتَقْدِيرُه كسَابِقِه، ومجموعُ القِرَاءَتَيْن دالٌّ على شَنَاعةِ كَذِبِهم وتَكْذِيبِهم.

---

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 1/42، والقاسميّ، محاسن التَّأويل: 1/251.
(2) الخفاجيّ، عناية القاضي: 1/322.
(3) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 1/127.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السَّليم: 1/42.
(5) الأخفش، معاني القرآن: 1/42.
(6) قرأ بها نافعٌ وأبو جعفر وابنُ كثير وأبو عمرو ويعقوب وابن عامر، ينظر: ابن الجزري، النشر: 2/207.
(7) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/283.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ لَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ قَالُوٓاْ إِنَّمَا نَحۡنُ مُصۡلِحُونَ ١١﴾ [البقرة: 11]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

انتقلتِ الآياتُ من بيانِ العِلَلِ إلى بيانِ آثارِها، فبعد تَعيينِ سَبَبِ النِّفاقِ وهو مَرَضُ القُلُوب، شَرَعتِ الآياتُ في بيانِ مَرَضِ الأقوالِ والأعمال، وهو سلوكُ المنافقين في الإفسادِ في الأرضِ، وموقفُهم ممَّن ينهاهم عنه بوصفِهم له بأنَّه إصْلاح؛ لِكشْفِ عنادِهم ورؤيتِهم المريضةِ لمفاهيمِ الإصْلاحِ والإفسَاد، وأنَّ خَطَرَ نفاقِهم لا يتوقَّفُ على قلوبِهم المريضةِ، بل يتعدَّاهُ إلى نَشْرِ المرضِ في المجتمعِ المسلم، وهذه مناسبةٌ كاشِفَةٌ مُوضِحَةٌ عنايَةَ القرآنِ بآثارِ القُلُوبِ في الأعمالِ، وأنَّ الأعمالَ والأقوالَ ثمراتُ مَاءِ البَاطِن.

بعد بيان علل النفاق، شرعت الآيات في بيان مرض الأقوال والأعمال

شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

1) ﴿لَا تُفۡسِدُواْ﴾: الفَسَادُ: ضدُّ الصَّلَاح، وهو البُطْلَانُ والاضْمِحْلَال، ويَرِدُ بمعنى التَّغَيُّر[1].

والمعنى الجَامِعُ لَهُ أنَّهُ خُروجُ الشَّيء عَنِ الاعْتِدَال والاسْتِقَامة[2]، فيكون في الأرضِ بتَهْيِيجِ الحُروب والفِتَنِ، وانتفاءِ الاعْتِدَال والاستقامَة عَنْ أحوَالِ النَّاس وزَرْعِهم وسائِرِ منَافِعِهم[3]، ومِنْهُ قولُ الله تعالى: ﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُفۡسِدَ فِيهَا وَيُهۡلِكَ ٱلۡحَرۡثَ وَٱلنَّسۡلَۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَسَادَ﴾ [البقرة: 205].

2) ﴿مُصۡلِحُونَ﴾: الصَّلَاحُ: نَقِيضُ الفَسَادِ، وهو كونُ الشَّيءِ جاريًا على حدِّ الاعْتِدَال والاسْتِقَامةِ، أَوْ كَوْنُ الشَّيءِ على الحالَةِ اللَّائِقَة به[4]، والإصْلَاحُ: إزالةُ الفسادِ[5].

(1) الزَّبيدي، تاج العروس: (فسد).
(2) الرّاغب، المفردات: (فسد).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (فسد).
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 1/43.
(5) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (صلح).

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

إذا نُهِيَ هَؤلاء المُنَافِقُون عَنِ الْإِفْسَادِ في الأرضِ بِالْكُفْرِ ومُوَالَاةِ أهلِه، والْعَمَلِ بالمَعَاصِي، وصدِّ النَّاس عنِ الْإِيمَانِ بالقُرآن وبِالنَّبِيِّ ﷺ؛ أجابوا متبجِّحين زَاعمين أنَّ هذا النَّهْيَ لا يَنْبَغِي تَوْجِيهُهُ إِلَيْهِمْ لِكَوْنِهِم الْمُنْفَرِدِينَ بوَصْفِ الصَّلاح والإصلاحِ[1].

الإِيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

عَطْفُ الْجُمْلَةِ عَلَى مَا قَبْلَهَا؛ لِمَا بَيْنَهُمَا مِنَ التَّوَسُّطِ بَيْنَ الْكَمَالَيْنِ:

عُطِفَ قولُه تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُواْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ على قَوْلِه سبحانه قبلُ: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾؛ لِمَا بَيْنَهُمَا مِنَ التَّوسط بين الكَمَالَين، لِكَوْنِهما مُشْتَرِكَتَيْن في الخبريَّةِ، والمناسبةُ بَيْنَهُمَا ظاهرةٌ؛ والقصدُ هو بَيَانُ أحوالِهم التي يُتَعَجَّبُ مِن شأنِهَا، فلمَّا بيَّنَ مرَضَهم وأنَّه سببُ نِفاقِهم، شَرَعَ في نهيهم عنِ الفسادِ في الأرضِ، إذْ هو أبرزُ أعمالِ النِّفاقِ في المجتمعِ المُسلم، فنِفاقُهم الخَفيُّ لا يُخفي أعمالَهم الظَّاهرَةَ، وليكونَ توطِئةً للأمرِ بالإيمانِ.

إخفاءُ النِّفاقِ في القلوبِ لا يُخْفِي فَسادَ الأبدانِ

التَّعْبِيرُ بِـ ﴿وَإِذَا﴾ فيه إيماءٌ إلى وجوبِ النَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ:

جاءَ التَّعبيرُ بـ (إذَا) في قوله جَلَّ وعلا: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾ دون (إنْ)؛ لِمَا في (إذَا) مِنَ الدّلالة على تحقُّقِ مدخولِهَا؛ وفيه إيماءٌ إلى وجوبِ إنكارِ المُنْكَرِ وأنَّه مِمَّا يجبُ تحقّقُهُ في الواقعِ[2].

نُكْتَةُ تَقْدِيمِ الظَّرْفِ:

قُدِّمَ الظَّرْفُ في قوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾ على قوله: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾؛ لكونِه مَحَطَّ الاهْتِمَام؛ إذْ إنَّ الآية مَسُوقَةٌ لبيانِ عجيبِ أحوالِ المنافقين، ومحلُّ التَّعْجِيبِ هَهُنا ليس ادِّعاءَهم الإصلاحَ

إصْرارُ الْمُنَافِقِينَ عَلى اعْتِقَادِ الفَسَادِ صلاحًا إِفْرَاطٌ فِي الْغَبَاوَةِ

(1) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 1/202، والسَّعدي، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 42، ونخبة من أساتذة التّفسير، التّفسير الميسّر، ص: 3.

(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/53.

مطلقًا، بل ادِّعاؤُهم إيَّاه حينما يُنْهَوْنَ عَنِ الفسادِ، ومِنَ المعلومِ أَنَّ شأنَ الفسادِ أَنْ يكونَ ظاهرًا لا يَخْفَى، والإصرارُ علَى اعتقادِ الفسادِ صلاحًا بعدَ التَّنْبيهِ والوعظِ: إفراطٌ في الغَبَاوَةِ أَوِ المُكَابَرة[1].

من أسرار بناء الفعل للمفعول:

بُنِيَ الفعلُ لِلْمَفْعُولِ في قوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾، والقائلُ لَهُمْ ذلكَ هُوَ بعضُ مَن وقفَ على حالِهم مِنَ المُؤمنين المطَّلِعين على شؤُون المُنَافِقين؛ لوُجُودِ صِلَةِ قرابةٍ أو صُحبةٍ، فَيَنْصَحُونَهُم رَجاءَ إيمانِهم، وَيَسْتُرُونَهُم خَوفًا عَلَيْهِمْ مِنَ العُقُوبة[2].

لم يُنصّ على القائل لأنّ الغرض هو بيان شدّة مكابرة المنافقين

ولَم يُنصَّ عَلَيْهِ؛ قَصْدًا لعُمُومِ القائلِ، والنُّكْتَةُ في ذلك بيانُ شدَّة مكابرةِ المُنَافِقِينَ؛ حَيْثُ إنَّهم لا يَقْبَلُونَ مِنَ النَّاصح نُصْحًا، سواءٌ أكانَ عَظِيمَ القَدْرِ أَمْ لا[3].

دلالة النَّهْيِ فِي ﴿لَا تُفْسِدُواْ﴾:

النَّهي في قوله تعالى: ﴿لَا تُفْسِدُواْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ يُرادُ به النُّصْحُ والْإِرْشَاد[4]، ولا تُنَافي هذه الدّلالة وجوبَ تَرْكِ الفسادِ؛ إذِ الْمَنْصُوحُ يَجِبُ عَلَيْهِ النُّهوضُ بِامْتِثَالِ النَّهْيِ بتَرْكِهِ؛ والحرَامُ يُنْصَحُ بِتَرْكِهِ ويُرْشَدُ إلى اجْتِنَابه.

الإفساد في الأرض مُحَرَّمٌ يُنصَحُ بتركه ويرشدُ إلى اجتنابه

النَّهي عَنِ الإفساد في الأرضِ مَجَازٌ مُرْسَلٌ، علاقتُهُ المُسَبَّبِيّةُ؛ فَإِنَّ المرادَ النَّهيُ عَنِ السَّبَبِ؛ فالنَّهي مُنْصَبٌّ على موالاةِ الكُفَّارِ ومُعَاوَنَتِهم عَلَى المسلمين؛ وذلك بإِفْشَاءِ أَسْرَارِهم وتَسْلِيطِهم عَلَيْهِمْ المُفضي إلى هَيَجَانِ الفِتَنِ المُؤَدِّي إلى إفساد الأرضِ[5]، فيدخلُ في ذلك جميعُ أسبابِ الإفسادِ التي من شأنِها تهديدُ اجتماعِ الأمّةِ، وقطْعُ أسبابِ وحدتِها، وزَرْعُ الفِتَنِ بينها.

النَّهْيُ عَنِ الإِفْسَادِ نَهْيٌ عَنْ تَعَاطِي جميعِ أسبَابِهِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/283.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/284.
(3) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/53.
(4) إسماعيل حقّي، روح البيان: 1/59.
(5) أبو حيَّان، البحر المحيط: 1/107.

سرُّ التنصيص على لفظ ﴿ٱلْأَرْضِ﴾:

ذُكِرَتِ الْأَرْضُ لبيانِ أنَّ محلَّ الإصلاحِ لَا يَنْبَغِي أَنْ يُجْعَلَ محلَّ الإِفْسَادِ

التَّنْصِيصُ علَى الْأَرْضِ في قوله: ﴿لَا تُفْسِدُواْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ ليسَ مِنْ بَابِ التَّوكيد باعْتِبَارِ أَنْ لَيْست لَهُم قُدْرةٌ على إفساد السَّماوات، وإنَّما ذُكِرَتِ الأرضُ تَنْبِيهًا "علَى أَنَّ هذا المَحَلَّ الذي فِيهِ نَشْأَتُكُم وتَصَرُّفُكُم، ومِنْهُ مَادَّةُ حَيَاتِكُمْ، وَهُوَ سُتْرَةُ أَمْوَاتِكم، جَدِيرٌ أَنْ لا يُفْسَدَ فيه؛ إذْ محَلُّ الإصلاحِ لا يَنْبَغِي أَنْ يُجْعَلَ محَلَّ الإفسَادِ"[1].

احتمالُ اللَّام في ﴿ٱلْأَرْضِ﴾ بين العهدِ والجنسِ:

مقصودُ المُنافقين إفسادُ الأرضِ في أصولِها وفروعِها

حُذِفَ مُتَعَلَّ معنى اللَّام إمَّا أن يُحمَلَ على العهدِ الذِّهنيِّ وهو أرضُ المدينةِ المنوَّرَةِ على ساكِنِها أفضلُ الصَّلاةِ والسَّلام، وإمَّا أنْ يُحمَلَ على الجنسِ، أي: جميعُ الأرضِ، وفائدةُ ذلك بيانُ أنَّ المفسدين لا يتورَّعون عن الإفسادِ في الأرضِ كلِّها، بل طمَعُهم يبْلُغُ الأرضَ كلَّها، وفي الآيةِ إشارةٌ إلى الحذَرِ من المُنافقين، فهم يَسْعون إلى إفسادِ غيرِهم، مَهمَا نأتْ ديارُهم، والاحتمالان صحيحان، ولا يتعارَضان؛ فإنَّ المدينةَ المُنوَّرةَ هي المقصودةُ ابتداءً؛ لأنَّها أصْلُ الإيمانِ، وأكثرُ ما يغيظُ المُنافقين صلاحُ الأصولِ، وسلامةُ الأركانِ، وجميعُ الأرضِ انتهاءً لأنَّها فروعُ الإسلامِ.

نُكْتَةُ حَذْفِ مُتَعَلَّقِ الْفَسَادِ:

النَّهي عن الإفساد شاملٌ كلَّ أشكاله وأنواعه

حُذِفَ مُتَعَلَّقُ الفسادِ مِن قَوْلِه تعالى: ﴿لَا تُفْسِدُواْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾؛ "تَأْكِيدًا لِلْعُمُومِ الْمُسْتَفادِ مِن وقُوعِ الفِعْلِ في حيِّزِ النَّفْيِ"[2].

وذلكَ لِأَنَّ دلالة الفِعْلِ مُرَكَّبَةٌ مِن مَصْدَرٍ وزَمَنٍ يُقارِنُهُ، والأصلُ في المَصْدَرِ أَنْ يَكُونَ نَكِرَةً؛ فيكونُ الْمَصْدَرُ المُسْتَكِنُّ في الفِعْلِ وَاقِعًا في سِيَاقِ النَّفْيِ، فيَعُمُّ كُلَّ فسادٍ، ثُمَّ حُذِفَ مَعْمُولُ ﴿لَا تُفْسِدُواْ﴾؛ لِإفادةِ شُمُولِ الأشياءِ القَابِلَةِ لِإيقَاعِ الفَسَادِ عَلَيْهَا، فكانَ هذَا الْعُمُومُ تأكيدًا لِلْعُمُومِ الأَوَّلِ.

(1) أبو حيَّان، البحر المحيط: 1/107.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/285.

سِرُّ التَّعْبِيرِ بِأُسْلُوبِ الْقَصْرِ:

مَنْهَجُ الْمُنَافِقِينَ قائمٌ على تَعْمِيَةِ حَالِهِمْ ومَدْحِها

أفادَ قولُ اللهِ تَعَالَى حِكَايَةً عَنْهُمْ: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ على القَصْرِ، وهو قَصْرُ مَوْصُوفٍ علَى صِفَةٍ قصرًا مجازيًّا؛ إِذْ لَيْسَ ثَمَّة قصرٌ حقيقيٌّ في قَصْرِ المَوْصُوفِ على الصِّفة؛ فكأنَّهُمُ ادَّعَوْا أَنْ لا صفةَ لَهُمْ إلَّا الإصلاحُ!

وهذا القصرُ قصرُ قَلْبٍ؛ لأنَّهُ واردٌ ردًّا على قولِ مَنْ قَالَ لَهُمْ: ﴿لَا تُفْسِدُواْ﴾، فأُثْبِتَ لَهُمْ وَصْفُ الفسادِ، وهو مُنَافٍ لِلْإِصْلَاحِ، فَرَدُّوا عَلَيْهِ بِقَصْرِ الْقَلْبِ: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾[1].

عِلَّةُ اخْتِيَارِ أَدَاةِ الْقَصْرِ ﴿إِنَّمَا﴾:

المنافقون يُبالغون في ادّعاء الإصلاح تعميةً لحالهم وإخفاءً لنفاقهم

اخْتِيرَتْ أَدَاةُ الْقَصْرِ ﴿إِنَّمَا﴾ دون غيرها من طُرُقِ القَصْرِ؛ لِسببَيْن[2]:

أحدهما: أنَّها تَخْتَصُّ بقَصْرِ القَلْبِ، فَهِيَ أَنْسَبُ لِمَقْصُودِ الكَلَامِ المَسُوقِ ههنا.

والآخر: أنَّ ﴿إِنَّمَا﴾ تُستعمَلُ في خطابِ العَالِمِ بالشَّيْءِ، فكأنَّهم يُخاطِبُون من يَعلَمُ حالَهم ويُصِرُّ على الخطأ في نهيهم عن الإفسادِ، فكأنَّ المُنَافِقِينَ - مُبَالَغَةً في تَعْمِيَةِ حالِهم - يدَّعُون أنَّ النَّاصِحَ لَهُمْ بِتَرْكِ الإفسادِ مُغْرِقٌ في الخطأ؛ لِظُهورِ حالِهم في الصَّلاح والإصلاح!

ولذا أُوثِرَ الطِّباقُ ههنا بَيْنَ ﴿تُفْسِدُواْ﴾ و﴿مُصْلِحُونَ﴾؛ إِذْ مُقْتَضَى الظَّاهر أَنْ يَنْفُوا الْإِفْسَادَ الذي اتُّهِمُوا به عَنْ أنفُسِهم، إلَّا أنَّهم لم يَكْتَفُوا بذلك، بَلْ أَثْبَتُوا لها الإصلاحَ، فالإصلاحُ أَمْرٌ زائدٌ على تَرْكِ الإفسادِ كَمَا لَا يَخْفَى.

ويُؤَيِّدُ هذه المبالغةَ جَعْلُ جملةِ القَصْرِ -﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾- جملةً اسميَّةً؛ لإفادةِ أنَّ اتِّصَافَهم بالصَّلاحِ أمرٌ ثابتٌ دائمٌ[3].

---

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/285.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/285.

(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/285.

﴿أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلۡمُفۡسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشۡعُرُونَ ١٢﴾ [البقرة: 12]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

بعد بيان خداع المنافقين وسوء باطنهم، أثبت أحقيّتهم بصفة الإفساد

لَمَّا كان حالُ المُنَافِقِينَ مَبْنِيًّا على الخِدَاعِ؛ بإظْهَارِهِمْ خِلَافَ ما يُبْطِنُونَ، وكانُوا يَزْعُمُونَ أنَّ إفسادَهم إصلاحٌ، مُعَرِّضين بذَلِكَ بالمُؤْمِنِينَ، ولَمَّا كان عِنْدَهُمْ مِنَ لَحْنِ القولِ الذي يُلَبِّسُون به على أهلِ الإيمَانِ؛ تولَّى اللّه سُبْحَانَهُ كَشْفَ أَمْرِهِمْ فقال مُحذِّرًا مِنْهُمْ مُثْبِتًا لَهُمْ ما تَبرَّؤوا مِنْهُ مِنَ الفَسَادِ والإِفْسَادِ: ﴿أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلۡمُفۡسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشۡعُرُونَ﴾[1].

قال الإمام أبو السّعود العمّادي في بيان أنَّ هذه الآيةَ هي ردٌّ على المنافقين الذين يدّعون الإصلاح: "فإنّه رَدٌّ من جهته تعالى لدَعواهم المَحكيّة أبلغَ ردٍّ وأدلَّهُ على سَخَطٍ عظيمٍ حيثُ سُلِكَ فيه مسلَكَ الاستئناف المُؤدّي إلى زيادة تَمَكُّنِ الحُكْمِ في ذهن السّامع"[2].

شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

1) ﴿ٱلۡمُفۡسِدُونَ﴾: الْفَسَادُ: ضدُّ الصَّلَاح، وهو الْبُطْلَانُ والاِضْمِحْلَال، ويَرِدُ بمعنى التَّغَيُّر[3].

والمعنى الجَامِعُ لَهُ أنَّهُ خُروجُ الشَّيء عَنِ الاِعْتِدَال والاِسْتِقَامة[4]، فيكون في الأرضِ بتَهْيِيجِ الحُروب والفِتَنِ، وانتفاءِ الاِعْتِدَال والاستقامَة عَنْ أحوَالِ النَّاس وزَرْعِهم وسائِرِ منَافِعِهم[5]، ومِنْهُ قولُ اللّه تعالى: ﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُفۡسِدَ فِيهَا وَيُهۡلِكَ ٱلۡحَرۡثَ وَٱلنَّسۡلَۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَسَادَ﴾ [البقرة: 205].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 1/110-111.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/44.
(3) الزَّبيدي، تاج العروس: (فسد).
(4) الرّاغب، المفردات: (فسد).
(5) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (فسد).

2) ﴿يَشْعُرُونَ﴾: الشِّعْرُ والشُّعور: العِلْمُ الدَّقيق أو الفِطنةُ، ويُطْلَق الشُّعور على الإدرَاك بالحواسِّ الْخَمْسِ[1]، وعلى مَبَادئ الإدراكِ[2].

وأصلُ (شَعَرْتُ): أَصَبْتُ الشَّعْرَ، ثُمَّ استُعير لِلْعِلْمِ الدَّقِيق؛ لأنَّه في الدِّقَّة بمنزلَةِ إِصَابة الشَّعْرِ[3].

وفي قولِهِ تعالى: ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ أي: ما يَدْرُونَ ومَا يَعْلَمُون[4].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

أَلَا فَتَنَبَّهوا يا أهلَ الإيمانِ إِلَى أنَّ ما يَفْعَلُهُ الـمُنَافِقُونَ زَاعِمِينَ أنَّه إصلاحٌ: هو عَيْنُ الْإِفْسَادِ، ولَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ بِفَسَاد ما هُم عَلَيْهِ؛ لِغَلَبَةِ جَهْلِهِمْ وشِدَّة عِنَادِهِم، ولا يَشْعُرُونَ بِمَا أعدَّه اللّه سبحانَهُ لَهُمْ مِنَ العقُوبَةِ في الآخرةِ[5].

❁ الإيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

نُكْتَةُ تَأْكِيدِ الْجُمْلَةِ:

الْمُبَالَغَةُ فِي إبطالِ زَعْـمِ الْمُنَافِقِينَ بما يُناسِبُ المقامَ

الجملةُ في قوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ﴾ جملةٌ خبريَّةٌ مؤكَّدَةٌ بألوانٍ مِنَ الـمُؤكِّدَاتِ؛ وهي: (أَلَا) الاسْتِفْتَاحِيَّةُ التَّنْبِيهِيَّةُ، و(إِنَّ)، وضميرُ الفصلِ، واسميَّةُ الجملةِ، وذلك لِلْمُبَالَغَةِ في إبطالِ زَعْمِهِمْ؛ لِمَا في مقالتهم مِن دَعْوَى خلافِ الواقعِ مَعَ مُصَاحَبَتِهَا التَّلْبِيسَ.

وتَصْدِيرُ الجملةِ بِـ (أَلَا)؛ لِمَا فيهَا مِن الدّلالة على التَّنْبِيه، والتَّنبيهُ لا يُؤْتَى به إلَّا في أمرٍ غريبٍ، والغرابَةُ هَهُنَا: فُقْدَانُهُم الشعورَ[6].

وثَمَّ وجه آخَرُ؛ وهو أَنَّ أدَوَاتِ التَّنْبِيهِ تُشَارِكُ أسماءَ الإشارةِ في

(1) الرّاغب، المفردات: (شعر)، والخفاجيّ، عناية القاضي: 1/318.
(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/52.
(3) السَّمين، عمدة الحُفّاظ: (شعر).
(4) ابن جرير، جامع البيان: 1/277.
(5) السّمين، الدُّر المصون: 1/140-141، وابن أبي زَمَنِين، تفسير القرآن العزيز: 1/123، والبغويّ، معالم التَّنزيل: 1/66.
(6) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/54.

تَنْبِيهِ المُخَاطَب؛ وذَلِكَ مُشعِرٌ بكمالِ ظهُورِ مَضْمُونِ الْجُملَةِ المصدَّرةِ بحَرْفِ التَّنْبِيهِ، كمَا أنَّها دالَّةٌ على الاهْتِمَامِ بِالْخَبَرِ وإذاعَتِهِ[1].

بلاغةُ أُسلوبِ القصْرِ:

الرَّدُّ عَلَى المُنَافِقِينَ بِأُسْلُوبٍ مِنْ جِنْسِ أُسْلُوبِ دَعْوَاهُمْ

في قولِه سبحانه: ﴿أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلۡمُفۡسِدُونَ﴾ قَصْرٌ مؤكَّدٌ؛ فالقصرُ في تعريف جُزْأَيِ الْجُمْلَةِ - اسْمِ إنَّ (هُمْ) وخبَرِها ﴿ٱلۡمُفۡسِدُونَ﴾ -، وتوكيدُ القصرِ: في توسُّطِ ضميرِ الفصلِ بين الجُزْأَيْنِ[2].

وجاءتِ الجملةُ بأسلوبِ القصرِ؛ لِيَتَشَاكَلَ الرَّدُّ مع الدَّعْوَى؛ فإنَّهم ادَّعَوُا الإصلاحَ واختاروا طريق القَصْرِ - ﴿إِنَّمَا نَحۡنُ مُصۡلِحُونَ﴾ -، وفي ذلك تعريضٌ بالمؤمنينَ وأنَّ وصفَ الإصلاحِ منفيٌّ عنهُمْ، فنَاسَبَ أن يُرَدَّ عَلَيْهِمْ مِن جنسِ أسلوبِهِمْ؛ لِيَتَحَقَّق بطلانُ دَعْوَاهُم، وتُنْفَى التُّهْمَةُ عَنِ المؤمنين[3]؛ إذِ القصرُ هَهُنَا قصرُ قَلْبٍ[4].

اللَّامُ فِي ﴿ٱلۡمُفۡسِدُونَ﴾ لِلْكَمَالِ فِي الصِّفَاتِ:

اللَّامُ في ﴿ٱلۡمُفۡسِدُونَ﴾ لِلْكَمَال، أي: هُمُ الْكَامِلُو الإفسادِ البالغُونَ فيه الغايةَ، حتَّى إنَّ إفساد غَيْرِهِمْ بالنِّسبة إلى إِفْسَادِهِمْ كالعدَمِ[5].

سِرُّ استعمال ﴿وَلَٰكِن﴾:

أسلوب الاستدراك يناسب رفع التوهُّم الذي يُسيطر على أذهان المنافقين

وجيءَ هَهُنَا بحرفِ الاسْتِدْرَاكِ (لَكِنْ)، ولم يَرِدْ ذلك في قوله قبلُ: ﴿وَمَا يَخۡدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ وَمَا يَشۡعُرُونَ﴾؛ لأنَّ المخادعَةَ لم يتقدَّمْها ما يُوهم حصولَ الشُّعور حتَّى يُحتاجَ إلى رفعِهِ، بل إنَّ المخادعةَ في ذاتِها قائمةٌ على الخفاءِ، بخلاف قوله هنا: ﴿وَلَٰكِن لَّا يَشۡعُرُونَ﴾؛ فإنَّهُ تقدَّمَهُ نهيُهم عَنِ الإفسادِ الظَّاهرِ لكلِّ أحدٍ، إلَّا أنَّهم أَنْكَرُوا كونَهم مُفْسِدِين، بل أَثْبَتُوا لأنفسِهم عكسَهُ وهُو

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/286.
(2) الْقُوجَوِي، حاشية زاده: 1/284.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السَّليم: 1/44.
(4) الخفاجيّ، عناية القاضي: 1/331.
(5) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 1/111.

الإصلاحُ، فردَّ اللّه ﷻ عَلَيْهِمْ وأثبتَ فسادَهم وإفسادَهم، وكان العلمُ بمَضْمُون ذلك جَدِيرًا بِهِم، إلَّا أنَّهم لا يَعْلَمُونَ! فناسبَ ذلك الاسْتِدْرَاكَ؛ لوُجُود التَّوهُّم الذي يُحتاج إلى رفعِهِ[1].

حَذْفُ الْمَعْمُولِ لِدلالة الْقَرِينَةِ عَلَيْهِ أَوْ لِإِفَادَةِ الْعُمُومِ:

لا يَشعر المنافقون أنهم مفسدون، ولا يشعرون أنَّ وبال إفسادهم راجع إليهم

حُذف معمولُ ﴿لَّا يَشْعُرُونَ﴾، وفي ذلك مَسْلَكَانِ[2]:

أحدهما: أن يُقدَّرَ له معمولٌ خاصٌّ، ويكون المعنى: ولكِن لا يَشْعُرُون بأنَّهم مُفْسِدُون، أَوْ لا يَشْعُرُون أَنَّ وبَالَ إفسَادِهم راجعٌ إِلَيْهِمْ، أو لا يشعرون بأَنَّ اللّه تعالى يَعْلَمُ إفسادَهم.

ثَانِيهما: أَنْ لَا يُقدَّر له مَعْمُولٌ خاصٌّ؛ رَوْمًا لإفادة العُمُوم، أي: لا يَشْعُرُونَ بِشَيْءٍ، فنُزِّلوا مَنْزِلَةَ مَنِ اخْتَلَّت حواسُّهُ وتعطَّلَتْ.

(1) الخفاجيّ، عناية القاضي: 1/331، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/286.
(2) الألوسّي، روح المعاني: 1/156.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُواْ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُۗ أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعۡلَمُونَ ١٣﴾ [البقرة: 13]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

نُهوا عن الإفساد ودعوا إلى الإيمان؛ لأنَّ دفع المفاسد مقدّم على جلب المصالح

لمَّا بيَّنَ اللّه سبحانه حالَ المُنَافِقين إذَا دُعُوا إلى الصَّلاحِ العامِّ بتَرْكِ الإِفْسَادِ؛ بيَّنَ حَالَهُمْ إذَا دُعُوا إلى الصَّلَاحِ الخَاصِّ وهُوَ الإِيمَانُ[1].

ولأنَّهُ لمَّا نُهُوا عَنِ الإِفْسَادِ في الأَرْضِ؛ أُمِروا بالإيمان؛ لأنَّ كمالَ حالِ الإِنْسَانِ لا يَكون إلَّا بمَجْمُوعِ أَمْرَيْنِ:

أحدهما: تركُ مَا لا يَنْبَغِي، وذلكَ في قولِهِ قبلُ: ﴿لَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾.

والآخر: فِعْلُ مَا يَنْبَغِي، وذلك في قوله: ﴿ءَامِنُواْ﴾[2].

وبُدِئَ بالأوَّلِ؛ لأنَّ دفعَ المَفَاسِدِ مُقَدَّمٌ على جَلْبِ المَصَالِحِ[3].

شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

1) ﴿ٱلسُّفَهَآءُۗ﴾: أصلُ هذه المادَّةِ -السِّين والفاء والهاء- دالٌّ على خِفَّة وسخافة[4]، ومنه وَصْفُ النِّساءِ والصِّبيانِ بالسَّفَهِ؛ لخفَّةِ عِلْمِهِم بموضعِ النَّفَقَةِ، ما لم يَرْشُدُوا، ويُقَال لكلٍّ مِنَ الجاهِلِ والأحمق: سَفِيهٌ[5]؛ لخِفَّة العلم والعَقْلِ فيهما.

ومِنْهُ لفظ ﴿ٱلسُّفَهَآءُۗ﴾ في قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُۗ﴾ أي: الجُهَّال، ضَعِيفو العقول[6].

ويَكُونُ السَّفَهُ في أمُور الدُّنْيَا، كما قال سُبْحَانَه: ﴿وَلَا تُؤۡتُواْ ٱلسُّفَهَآءَ أَمۡوَٰلَكُمُ﴾ [النساء: 5]، وفي أمور الآخرة، كما قال ﷻ: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى ٱللَّهِ شَطَطًا﴾ [الجن: 4][7].

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 1/112.

(2) الرازيّ، التّفسير الكبير: 2/307، وابن عادل، اللُّباب: 1/359.

(3) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/54.

(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سفه).

(5) ابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس: (سفه).

(6) الهرويّ، الغَرِيبَيْنِ: (سفه).

(7) الرّاغب، المفردات: (سفه)، ص: 414.

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

وإذا أُمِرَ المُنَافِقُون بإيمانٍ كإيمانِ الصَّحابة رضي الله عنهم؛ وهُوَ المُشْتَمِلُ على القولِ والعَمَلِ والاعْتِقَادِ؛ رَدُّوا مُحْتَقِرِينَ مستهزِئِين: أَنُؤْمِنُ مثلَ ما آمَنَ ضِعافُ العقولِ وخِفَافُهَا؟! والواقعُ أنَّهمُ الحقيقُون بهَذَا الوصفِ الذي لَمَزُوا به غيرَهُمْ، ولكنَّهم قومٌ يَجْهَلُونَ[1].

❁ الإِيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

نُكْتَةُ التَّعْبِيرِ بِـ ﴿وَإِذَا﴾:

الإشارةُ إلى وُجُوبِ الأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ

جيءَ بـ (إِذَا) في قوله سبحانه: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُواْ﴾؛ لِكَوْنِها دالَّةً على الجَزْمِ بِوُقُوعِ مَدْخُولِهَا، وفي ذلك إشارةٌ إلى وجُوبِ الْأَمْرِ بالمَعْرُوفِ - ومِنْهُ الْأَمْرُ بالْإِيمَانِ-، وأنَّ الواجِبَ إيجادُهُ واقعًا.

بِنَاءُ الْفِعْلِ لِمَا لَمْ يُسَمَّ فَاعِلُهُ لِقَصْدِ الشُّمُولِ:

إذا نصحهم أيّ ناصح يرفضون الانصياع

بُنِيَ الفعلُ ﴿قِيلَ﴾ لِمَا لَم يُسمَّ فاعِلُهُ؛ لإفادة العُمُوم[2]، قصدًا إلى تَفْظِيعِ حالِهم وتَشْنِيعِ أَمْرِهِم؛ فإنَّ ما هُم عَلَيْهِ مِنَ التَّرَدُّدِ بين الحقِّ في الظَّاهر والباطل في الباطنِ: أمرٌ ظاهِرُ الفسادِ لِكُلِّ ذي عَقْلٍ، حتَّى كأنَّ الجميعَ قال لَهُم: ﴿ءَامِنُواْ﴾ أي: آمِنُوا عَلَى وَجْهِ الإخلاصِ، وَموافقةِ الباطنِ الظَّاهرَ.

دلالة الأَمْرِ في ﴿ءَامِنُواْ﴾ من تمامِ النُّصْحِ:

الواجب يُنصح بامتثاله، ويُرشَد إلى إتيانه

فِعْلُ الأمر ﴿ءَامِنُواْ﴾ مِنْ قوله سبحانه: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُواْ﴾ من تمام النُّصحِ والإرشادِ[3]، ولا يُنافي هذا وجوبَ الإيمانِ؛ فإنَّ المنصوحَ بالإيمان يجبُ عَلَيْهِ أَنْ يمتثِلَ الأمرَ؛ وما كان واجبًا يُنْصَحُ بامتثالِهِ ويُرشَدُ إلى إتيانِهِ.

---

(1) مكيُّ بن أبي طالب، الهداية إلى بلوغ النِّهاية: 1/162، والماورديّ، النُّكت والعيون: 1/75-76، والسَّمعانيّ، تفسير القرآن: 1/50، ونخبة من أساتذة التّفسير، التّفسير الميسّر، ص: 3.

(2) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 1/132.

(3) البيضاويّ، أنوار التَّنزيل: 1/46.

نِكَاتُ حَذْفِ مُتَعَلَّقِ الْإِيمَانِ:

طلبُ فعلِ الإيمانِ في السُّلوكِ الظَّاهرِ دون استثناءٍ لأيِّ فردٍ من أفرادِه

حُذفَ متعلَّقُ الفعلِ ﴿ءَامِنُواْ﴾ وهو المُؤْمَنُ به؛ لأحد ثلاثِ نكاتٍ[1]:

أُولَاها: وضوحُ المُؤْمَنُ به؛ إذِ الإيمان لَهُ دلالة شرعيَّةٌ شائعَةٌ عند أهل الإسلام، بحيث إذا أُطْلِقَ انصرفَ إليه.

ثانيهَا: قصدُ العموم؛ إعمالًا لقاعدةِ أنَّ: حَذْفَ المعمول مُؤْذِنٌ بالعموم، والمعنى: آمِنُوا بجميع ما يجبُ الإيمانُ به شرعًا.

ثالثها: أَنَّ قوله: ﴿ءَامِنُواْ﴾ معناه: افْعَلُوا الإيمانَ.

والجَمْعُ بين هذه النِّكَاتِ مُمْكِن عند التَّأَمُّلِ؛ والنِّكات البلاغيَّةُ تَتَوَارَدُ ولَا تتزَاحَم، فيكون المعنى: افْعَلُوا الإيمانَ، وذلكَ بالإتيان بالإيمانِ المَشْهُورَةِ دِلالتُهُ الشَّائعَةِ أفرادهُ؛ وهِيَ كُلُّ ما فَرَضَ اللهُ تعالى على العبادِ الإيمانَ بِهِ.

نُكْتَةُ التَّشْبِيهِ فِي قوله تعالى: ﴿كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ﴾:

انْعِدَامُ الْإِيمَانِ عِنْدَ الْمُنَافِقِينَ؛ فَطُلِبَ مِنْهُمُ الْإِيمَانُ بِأَقَلِّ الْوَاجِبِ

الكَافُ في قوله تعالى: ﴿كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ﴾ يَحْتَمِلُ أن تَكُونَ لِلتَّعليل[2]، أي: لأجلِ أنَّ النَّاسَ الكُمَّلَ آمنُوا؛ فآمِنُوا أَنْتُمْ كذلك.

ويَحْتَمِلُ أَنْ تكونَ لِلتَّشْبِيه وهُوَ أظهر؛ والمَعْنَى: آمِنُوا إيمانًا كإيمانِ النَّاسِ الكُمَّلِ، ومِنَ المَعْلُوم أَنَّ المشبَّهَ أقلُّ وضوحًا منَ المُشَبَّهِ به، ولا يكون في قُوَّتِه، فيكون الإيمانُ المطلوبُ مِنْهُمْ في قوله: ﴿ءَامِنُواْ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ﴾ أقلَّ مِنَ الذي تلبَّسَ به كُمَّلُ النَّاسِ مِنَ الصَّحابةِ[3] رضي الله عنهم.

سِرُّ تَعْرِيفِ ﴿ٱلنَّاسُ﴾ بِاللَّامِ:

التَّعْرِيضُ بِأَهْلِ النِّفَاقِ بِتَنْزِيلِهِمْ مَنْزِلَةَ مَنْ لا يَعقِلُ

اللَّامُ في (ٱلنَّاسُ) مِنْ قوله ﷻ: ﴿كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ﴾ لِلْعَهْدِ، أي: كما آمن النَّاسُ المَعْرُوفُون لَدَيْكُم؛ مِنْ أَهْلِ اليَقِينِ والْإِيمَانِ الخَالِصِ[4].

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السَّليم: 1/44، وإسماعيل حقّي، روح البيان: 1/59.
(2) ابن جُزَيّ، التَّسهيل لعلوم التَّنزيل: 1/71.
(3) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/55.
(4) ابن جرير، جامع البيان: 1/292.

ويَحْتَمِلُ أن تَكُونَ اللَّامُ لِلْجِنْسِ، والمعنى: آمِنُوا كما آمَنَ الكُمَّلُ في الْإِنْسَانِيَّةِ - حَمْلًا لَها عَلَى الكمَال-، أو أنَّ المؤمنين جُعلوا كأَنَّهم هُمُ النَّاسُ على الحقيقةِ - حَمْلًا لَهَا على مَعْنَى الحَصْرِ-، وَمَنْ عدَاهُم في حُكْم البهائم؛ لِكَوْنِهِمُ اشْتَرَكُوا معهَا في فُقْدَان التَّمْيِيز بين الحقِّ والباطل[1]، ومَآلُ هَذَيْنِ المَعْنَيَيْنِ وَاحِدٌ، "والمُرادُ بالنَّاسِ مَن عدا المخاطَبين، كَلِمَةٌ تَقُولها العربُ في الإغراءِ بالفعل والحثِّ عَلَيْهِ؛ لأنَّ شأنَ النُّفوس أن تُسرِع إلى التَّقليد والاقتداءِ بمن يسبِقُها في الأمر، فلذلكَ يأتُون بهَاتِهِ الكلمةِ في مقامِ الإغراءِ أو التَّسليةِ أو الائْتِساء"[2].

دلالة الِاسْتِفْهَامِ عَلَى الْإِنْكَارِ:

شِدَّةُ نُفُورِ الْمُنَافِقِينَ مِنَ الْإِيمَانِ

الِاسْتِفْهَامُ في قوله: ﴿أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ﴾ استفهامٌ إنكاريٌّ بمعنى: النَّفْيِ، أي: لا نُؤْمِنُ كَمَا آمَنُوا[3].

وعدُولُهم عَنِ الخَبَرِ - (لا نُؤمِنُ كما آمَن السفهاء)- إلى الاسْتِفْهَام الإنكاريِّ: قَصَدُوا بِهِ التَّبرِّيَ مِنَ الإيمانِ بأبلغِ وَجْهٍ[4].

مَعْنَى اللَّامِ فِي ﴿ٱلسُّفَهَآءُ﴾ للعهدِ أوِ الجنسِ:

اللَّام في ﴿ٱلسُّفَهَآءُ﴾ من قوله تعالى: ﴿أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ﴾ لِلْعَهْدِ الذِّكْرِيِّ التقديريِّ[5]، ومُرَادُهُمْ بذلك: النَّاسُ الذينَ طُولِبُوا بإيمانٍ كإيمَانِهم، وهكَذَا كَمَا يُقَالُ لكَ: إنَّ زَيْدًا فَعَلَ كذا وكذَا بِكَ، فتقول: أَوَ قَد فَعَلَ السَّفيهُ؟![6].

ويَحْتَمِلُ أن تَكُونَ لِلْجِنْسِ، والنَّاسُ المَذْكُورُونَ قبلُ مُنْدَرِجُونَ فيهِ، بِناءً على زَعْمِهِمُ الفَاسِدِ[7].

وعلى كِلَا الاحْتِمَالَين؛ فَهُمْ مُسْتَهْزِئُون بالمؤمنين!

(1) الزَّمخشري، الكشَّاف: 1/64، والطِّيبي، فتوح الغيب: 2/191، وأبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 1/132.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/287.
(3) الواحديّ، التَّفسير البسيط: 2/162، وأبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 1/132.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/287.
(5) الخفاجيّ، عناية القاضي: 1/336.
(6) الزَّمخشري، الكشَّاف: 1/64.
(7) البيضاويّ، أنوار التَّنزيل: 1/47، والقِنَّوجي، فتح البيان: 1/94.

تعددت المؤكدات في الجملة لإبطال تعريض المنافقين بالمؤمنين

سِرُّ التأكيد بأكثر من مؤكّد:

أُكِّدَت جملةُ ﴿أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ﴾ بـ (أَلَآ) الاستفتاحيَّة؛ لِمَا فِيهَا مِن معنَى التَّنبيه، والتَّنبيهُ إنَّما يكون في غرائِبِ الأمور، وَوَجْهُ الغرابَةِ هُنَا: فقدانُهُم العلمَ[1]، و(إِنَّ)، وضميرِ الفَصْلِ (هُمُ)، واسميَّةِ الجملةِ؛ قصدًا إلى إبطال تعريضهم بالمؤمنين أبلغَ إبطالٍ.

نفيُ أصل العلم عن المنافقين، وكفى بذلك ذمًّا

حَذْفُ الْمَفْعُولِ لبيانِ سَفَهِ رَأْيِ الْمُنَافِقِينَ:

حُذف المعمولُ مِن قوله: ﴿لَّا يَعۡلَمُونَ﴾؛ وفي ذلك ثلاثةُ مَسَالِكَ[2]:

الأوَّل: أن يُقدَّرَ لِلْفِعْلِ مفعولٌ مُعيَّنٌ، والمعنى: ولكن لا يعلمون "مقدارَ مَا أُوتُوا مِن سَفَهِ الرَّأي، وما أُوتِي غَيْرُهم مِنْ حكمةِ الإيمان"[3].

الثاني: أن لا يُقدَّر لِلْفِعْل مفعولٌ معيَّنٌ؛ والقصدُ مِن ذلك العمومُ، أي: لا يعلمونَ شيئًا.

الثالث: أَنْ لا يُقدَّر له مفعولٌ أصلًا؛ تنزيلًا لِلْفِعْلِ المتعدِّي منزلة الفعل اللَّازِمِ، والمعنى: ولكن لا علمَ لَهُمْ أَصْلًا؛ وهذا أبلغُ في ذمِّهِمْ.

الفساد محسوس يناسبه نفيُ الشعور، والسّفهُ جهل يناسبه نفيُ العلم

مُنَاسَبَةُ خَتْمِ هَذِهِ الْآيَةِ بِنَفْيِ الْعِلْمِ وَخَتْمِ الْآيَةِ الَّتِي قَبْلَهَا بِنَفْيِ الشُّعُورِ:

خُتِمَت الآيةُ التي قَبْلَ هذهِ بقوله سبحانه: ﴿وَلَٰكِن لَّا يَشۡعُرُونَ﴾؛ وخُتِمت هذه الآية بقولِه تعالى: ﴿وَلَٰكِن لَّا يَعۡلَمُونَ﴾؛ لوجهين[4]:

أحدهما: أَنَّ إدراكَ كونِ المُؤْمِنِينَ على الحقِّ والمنافقين على الباطلِ أمرٌ يرجِعُ إلى الفِكْرِ، لكنَّ كونَ النِّفاق يُفضي إلى الفَسَادِ والْإِفْسَادِ في الأَرْضِ ضَرُورِيٌّ يَجْرِي مَجْرَى الأشياء المحسُوسَة،

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/288.
(2) الشَّوكانيّ، فتح القدير: 1/60، وأبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 1/133.
(3) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 1/133.
(4) الزَّمخشريّ، الكشَّاف: 1/64-65، والرَّازيّ، التَّفسير الكبير: 2/308، والشّربينيّ، السّراج المنير: 1/25، وأبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 1/133.

فأُوثِر في الأوَّل: نفيُ العلم، وفي الثَّاني: نفي الشُّعور؛ لأنَّ الشُّعور يُطْلَقُ على الإدراكِ بالحواسِّ[1].

والآخر: أنَّهُ ذُكِرَ السَّفَهُ في قوله: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ﴾، والسَّفَهُ يُطْلَقُ على الجَهْلِ، فكان ذِكْرُ العلمِ أنسَبَ له؛ ليتحقَّقَ الطِّباقُ.

(1) وإذا حملنا الشُّعورَ على ما دقَّ مِنَ العلم؛ فإنَّ نفي العلمِ عَنْهُمْ بكونِهم سُفَهاءَ في قوله: ﴿لاَّ يَعْلَمُونَ﴾ دونَ ﴿لاَّ يَشْعُرُونَ﴾؛ لأنَّ وَصْفَهم بالسَّفه ظاهرٌ، ليس ممَّا يَخْفَى حتى يكون العلمُ بِهِ شعورًا، ينظر: ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/288.

﴿وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوۡاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمۡ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمۡ إِنَّمَا نَحۡنُ مُسۡتَهۡزِءُونَ ١٤﴾ [البقرة: 14]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

أحوال المنافقين في الباطن أخطر من صفاتهم الظاهرة

انْتَقَلَتِ الآيةُ مِن بيانِ أحوالِ المنافقين في الظَّاهرِ، إلى بيانِ أَحوالِهم في البَاطِنِ، ومن ذِكْرِ أقوالِهم التي يَسْمَعُها المؤمنون وأفعالِهم التي يَرَوْنَها، إلى ذِكْرِ المُحرِّك الحقيقيِّ لِتِلْكَ الأقوالِ والأفعالِ، ومِنْ ذِكْرِ الفُرُوعِ الأتبَاعِ إلى ذِكرِ الأُصولِ المتبُوعِين؛ تَنْبِيهًا وتحذيرًا لِلْمُؤْمِنِين بأنّ ما يَسْمَعُونَهُ ويَرَوْنَه ليس الخطَرَ الحقيقيَّ، وإنَّما هو ظاهرُ الشَّجرةِ الخبيثَةِ.

شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

1) ﴿شَيَٰطِينِهِمۡ﴾: في الأصل الذي اشتُقَّ مِنْهُ لفظُ (الشَّيطان) قولان[1]:

أحدهما: أنَّه مِن مادَّةَ (شطن)، وعليه فَوَزْنُ (شَيطان): فَيْعَالٌ، ومدارُ هذه المادَّةِ على البُعْدِ، ومِنْهُ قَوْلُهُم: بِئْرٌ شَطُون، أي: بعيدةُ القَعْرِ، وسُمِّيَ الشَّيطانُ شيطانًا؛ لِبُعدِهِ عن الحَقِّ وتمرُّدِهِ.

والآخر: أنَّه مِن مادَّةِ (شيط)، فوزن (شَيْطان) على هذا: (فَعْلَان)، ومدارُ هذه المادَّةِ على ذَهَابِ الشَّيءِ بالاحْتِرَاقِ أو بِغَيْرِه، ومِنْهُ قَوْلُهُم: شاطَ الشَّيءُ؛ إذا احترَقَ، وسُمِّيَ الشَّيطانُ -على هذا- شيطانًا؛ لكَوْنِهِ مخلوقًا من النَّارِ.

والأوَّلُ أظهر[2]؛ لأنَّ العرب تقول: تَشَيْطَنَ فلانٌ -دون تَشيَّطَ-؛ إذا فَعَلَ فِعْلَ الشَّياطين، وقال أُمَيَّةُ بْنُ أَبِي الصَّلْتِ[3]:

أَيُّمَا شَاطِنٍ عَصَاهُ عَكَاهُ *** ثُمَّ يُلْقَى فِي السِّجْنِ وَالْأَكْبَالِ

(1) ابن دُريد، جمهرة اللُّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (شطن)، و(شيط)، والفيوميّ، المصباح المنير: (شطن).
(2) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 1/115.
(3) عبد الحفيظ السَّطْلِي، ديوان أميَّة ابن أبي الصَّلت، ص: 445.

فقال: (شَاطِن)، ولم يقل: (شَائِط).

واستُعمِلَ (الشَّيطان) في كلِّ عاتٍ مِن الإِنْسِ والجنّ والدَّوابِّ[1]؛ لتمرُّدِها وبُعْدِها عَنِ الخيرِ.

2) ﴿مُسْتَهْزِءُونَ﴾: الهاء والزَّاي والهمزة تدلُّ في تَصَاريفِها على معنى السُّخريَّة[2].

ويأتِي الهُزْء بمعنى الاِسْتِخْفافِ[3]، وكأنَّ هذا تفسيرٌ باللَّازِمِ؛ فإِنَّ الذي يُسْتَهْزَأُ به؛ يُستهَانُ بشأنِهِ ويُستخفُّ به.

وعليه؛ فالاستهزاء سُخريَّة مع استخفاف قدْر المستهزَأ به[4].

وحكى ابنُ جرير أَنَّ الاستهزاءَ في كلام العرب معناه: "إظهارُ المُسْتَهْزِئِ لِلْمُسْتَهْزَأِ به مِنَ القَوْلِ والفِعْلِ ما يُرضِيهِ ظاهرًا، وهو بذلك مِن قِيلِهِ وفِعْلِه بِهِ مُورِثُهُ مَساءَةً باطنًا"[5].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

إذا لقيَ المنافقونَ المؤمنِين الخُلَّصَ؛ قالوا زاعمين: صدَّقنا وأقررنا بما تُؤْمِنون بِهِ وتَعْتَقِدُونَه، يقولون ذلك خوفًا مِنْهُم، وإذا انصرفوا عَنِ المُؤْمِنِين وَانفردوا بزُعَمَائهم ورُؤَسَائهم في الشِّرك والشَّرِّ المُشَابِهِينَ لِلشَّيَاطِين في تمرُّدِهم؛ قالوا لهم: نحن على مِلَّتكُم، ثابِتُون عَلَيْهَا لَمْ نُفَارِقْهَا، وإنَّما قُلْنَا ما قُلناه لِلْمُؤْمِنِين اسْتِهْزَاءً وسُخْرِيَّةً بِهم وتَعْمِيَةً لحَالِنَا عِنْدَهم[6].

❁ الإِيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

سِرُّ اسْتِعمالِ (إِذَا) دونَ (إِنْ):

التَّنبيه على أنَّ المُنَافِقِينَ يَرْكَنُونَ إِلَى أَهْلِ الْكُفْرِ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا

عُبِّرَ بـ (إِذَا) في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ وفي قوله: ﴿وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ﴾ للدّلالة على تحقُّقِ وقوعِ ما دخلَتْ عَلَيْهِ، فَلِقَاؤُهم بِالْمُؤْمِنِين مُتَحَقِّقٌ، وَخَلْوَتُهُم إلى شَيَاطِينِهِم كذلك؛

(1) الجوهريّ، الصّحاح: (شطن).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (هزأ).
(3) السَّمين، عمدة الحفَّاظ: (هزأ): 4/249.
(4) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل، (هزأ).
(5) ابن جرير، جامع البيان: 1/303.
(6) ابن جرير، جامع البيان: 1/296، وابن أبي حاتم، تفسير القرآن العظيم: 1/46-48، والخازن، لباب التَّأويل: 1/28، والشَّوكانيّ، فتح القدير: 1/52، وجماعة من علماء التّفسير، المختصر في تفسير القرآن الكريم، ص: 3.

فَيَجْمَعُونَ بينَ أهلِ الإيمان لِيَدَّعوا مُوَافَقَتَهم وبينَ أهلِ الكُفرِ ليُقِرُّوا بِمَا تَنْطَوِي عَلَيْهِ قُلُوبُهم، ويؤكِّدُه: التَّعبيرُ عَنِ الْفِعْلَين بصِيغَةِ الماضي - ﴿لَقُواْ﴾ و﴿خَلَوْاْ﴾ - الْمُفيدةِ لتحقُّقِ وُقُوعِ الحدَثِ كذلك.

الْمُغَايَرَةُ بَيْنَ اللِّقَاءِ وَالْخُلُوِّ:

خُبْثُ مَكَامِنِ نُفُوسِ الْمُنَافِقِينَ فلا يصرِّحونَ باعتقاداتِهم إلَّا بالخلوَاتِ

عُبِّر في جانِبِ المُؤْمِنِين باللِّقَاءِ، وذلكَ لا يَقْتَضِي مُوَافقتَهُم، بخلاف ما ذُكر في جَانِبِ زُعَمَائِهم في الشَّرِّ فقال فيه: ﴿وَإِذَا خَلَوْاْ﴾، فَيَصْفُو لَهُم الأمرُ لِلتَّصريحِ بِمَكَامِنِ نفوسِهم الْخَبِيثَةِ.

ثُمَّ إنَّ تَقْيِيدَ ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا﴾ بـ ﴿وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ مُفيدٌ لِنِفَاقِهم؛ لأنَّه دالٌّ على أنَّ دَعْوَاهُم الإيمانَ مؤقَّتٌ بِزَمَنٍ خاصٍّ، ولو كانوا مُؤْمِنين حقًّا؛ ما تقيَّدَ ذلك بزمنٍ[1].

التَّعْبِيرُ بِـ﴿لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ دُونَ (لَقِيَهُمُ الذِينَ آمَنُوا):

أُنْسُ الْمُنَافِقِينَ بِلِقَاءِ الْكُفَّارِ، وَكَرَاهَتُهُمْ لِقَاءَ أَهْلِ الْإِيمَانِ

وَيَشْهَدُ لنفاقهم أيضًا أنَّ اللهَ تعالى قال: ﴿وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ ولَمْ يَقُلْ: (وإذا لَقِيَهُم الذين آمنوا)؛ وذلك لأنَّ المُتَلَاقِيَيْنِ إنْ كان لأحدهما مندوحَةٌ عَنِ اللِّقاء، فهو المَفْعُول، والآخر الذي اضْطُرَّ إِلَى اللِّقاء هو الفاعلُ؛ وجُعِلَ المنافقُونَ فَاعِلِينَ لِلِّقاءِ؛ لأنَّ أُنْسَهُم إنَّما هو بِنُظَرَائِهم في الكُفر، ويَكْرَهُونَ لِقَاءَ المُؤْمِنين، وإذا وقع اللِّقَاءُ فَهُمْ مُلْجَؤونَ إِلَيْهِ[2].

سِرُّ التَّعْبِيرِ بِالْفِعْلِ الْمَاضِي ﴿ءَامَنَّا﴾:

إظْهَارُ أَهْلِ النِّفَاقِ بِأَنَّ إِيمَانَهُمْ رَاسِخٌ وَلَيْسَ بِالْجَدِيدِ

التَّعبيرُ بصيغةِ الماضي في قولِه: ﴿ءَامَنَّا﴾ مِن قولِه تعالَى: ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا﴾ بمعنى: كُنَّا مُؤْمِنِينَ؛ فلا مُتَعَلَّقَ لهُ أصلًا حتى يُحتاجَ إلى تقديرِه وذكرِ سببِ حذفِه، فهو كالْمُتَعدِّي الذي يُنَزَّلُ منزلةَ اللَّازِمِ، واستظهَرَ هذا الوجهَ ابنُ عاشور[3].

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/290.
(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/56.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/289.

ويحتمِلُ أن يكُونَ المَعْمُولُ محذوفًا، والمعنى: آمنَّا بِمَا آمنتُم بهِ، أو بكلِّ ما يَجِبُ الإيمانُ بهِ، فالحذفُ لِلْإِيذَانِ بِالْعُمومِ.

وفي تَعْبِيرِهِم بالفعل الماضي ﴿ءَامَنَّا﴾؛ ادِّعاءٌ مِنْهُمْ لِلْمُؤْمنين أَنَّهم مُوَافِقُونَ لَهُمْ في الاعْتِقَاد من زمَنٍ مَضَى[1].

تَضْمِينُ الْفِعْلِ ﴿خَلَوْاْ﴾ معانيَ عدَّةِ أفعالٍ:

ثراءُ النَّظمِ بالمعاني الكثيرةِ والألفاظِ القليلةِ

عُدِّيَ الفعلُ (خَلَا) بـ (إِلَى) في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ﴾، والأصلُ فِيهِ أَنْ يُعدَّى بالْبَاءِ، فيقال: خَلَا به، وعُدِلَ عَنْ تَعْدِيةِ الفعل بالْبَاءِ إلى تعديتِهِ بـ (إلى)؛ لتَضْمِينِهِ معنى الانْصِرَافِ، والمعنى: وإذا خَلَوْا بِشَيَاطِينِهم وانْصَرَفُوا إِلَيْهِمْ[2]، وهو مُؤْذِنٌ بتَرْكِ المؤمنينَ رغبةً عَنْهُمْ.

ويَحْتَمِلُ أن يكون الفعلُ مضمَّنًا معنى الفعلِ (آوَى)، والمعنى: وإذا خَلَوْا بِشَيَاطِينهم وآوَوْا إِلَيْهِمْ، وذلك مُشعِرٌ بمُشَاكَلَتِهِم لَهُمْ.

ويَحْتَمِلُ احتمالًا آخر؛ وهو تَضْمِينُ الفعلِ ﴿خَلَوْاْ﴾ معنى الانتهاءِ الذي يُومئُ إليهِ حَرْفُ الجرِّ (إِلَى)، فيكون معنى قوله تعالى: ﴿وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ﴾ أي: إذا خلَوْا مِنَ المُؤمنين وانْتَهَوْا إِلَى الشَّيَاطِين[3]، وفيهِ إيمَاءٌ إلى أنَّ بَواطنَهُم فاسِدَةٌ؛ لأنَّ انتهاءهم إلى شياطينهم هو لمشاكلتهم.

ولَا مانعَ مِن تَضْمِينِ الفِعْلِ جَمِيعَ ما قِيلَ مِمَّا لَهُ وجهٌ يَصِحُّ[4]؛ فيكون المعنى: وإذَا خَلَوْا بِشَيَاطينِهم، وانْصَرَفُوا وآوَوْا وانْتَهَوْا وآبُوا وَخَلُصُوا إِلَيْهِمْ - عَلَى نَحْوِ مَا فِي التَّنَازُعِ-.

سِرُّ استعارة لفظ (شياطين):

اسْتِعَارَةُ الشَّيَاطِينِ لِرُؤُوسِ النِّفَاقِ مِنْ أَبْلَغِ الذَّمِّ وأشدِّهِ

أَصْلُ الشَّيطانِ أنَّه نوعٌ مِنَ الخَلْقِ مِن جنس الجِنِّ، مخلوقٌ مِنَ النَّار، ثُمَّ تتوسَّعُ العربُ في إطلاقه على الْمُتَمَرِّد مِنَ الإنس والدَّوابِّ كذلك، وذلك على سبيل الاستعارةِ[5].

(1) مجمع البحوث الإسلاميَّة بالأزهر، التَّفسير الوسيط: 1/41.
(2) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 1/135.
(3) النَّيسابوريّ، إيجاز البيان: 1/69.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/291.
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/290.

فقوله تعالى هنا: ﴿وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ﴾ فيه استعارةٌ تصريحيَّة؛ حيث شُبِّه رؤوسُ النِّفاقِ بالشَّياطينِ بجامعِ الإفسادِ وإثَارَةِ الشَّرِّ في كلٍّ.

ومِنَ الْمَعْلُومِ أنَّ مَبْنَى الاستعارةِ على ادِّعاءِ دخولِ المشبَّه في جنس المشبَّهِ به؛ وهذا وجهُ المبالغةِ فيها، فالتَّعبيرُ عَنِ الـمُنَافِقِين بأنَّهم شَيَاطِينُ: مِنْ أَبْلَغِ الذَّمِّ وأشدِّه.

نُكتَةُ مُقابَلةِ الجُملةِ الاسميَّةِ للفعليَّةِ في الجَوابَيْن:

الـمُخالفةُ في الأجوبةِ دليلٌ على الـمُخالفةِ بَيْنَ الظَّاهرِ والبَاطِنِ

عُبِّر في مَقَالَةِ الـمُنافِقين لِلْمُؤْمِنين بالجملة الفعليَّة -﴿ءَامَنَّا﴾-، وفي مقَالتهم لِشَياطِينِهم بالجملة الاسميَّة - ﴿إِنَّا مَعَكُمْ﴾ -؛ لأنَّ مقصودَهم في الأوَّلِ: الإخبارُ بتحصيلِهم مطلقَ الإيمانِ لا أَعْلَاهُ، وفي الثَّاني: أخبرُوا شياطينَهم بحقيقة الأمرِ علَى جِهَةِ اللُّزُوم والثُّبوت الذِي تُفيدُه الجملةُ الاسميَّةُ[1].

تَأْكِيدُ الْجُمْلَةِ بِـ(إِنَّ) لبيانِ مبالغةِ الْمُنافِقين في حبِّ الكافرين:

تأكيد المنافقين كلامهم لدفع الريبة عن أنفسهم

أُكِّدَتِ الجملةُ ﴿إِنَّا مَعَكُمْ﴾ بـ: (إِنَّ)؛ لسَبَبَيْنِ[2]:

أحدهما: لكون الكفرِ محبوبًا لهم، فبَالَغُوا في إثباتِهِ كما يُبالَغُ في مدح الْمَحْبُوبات.

والآخر: لإثبات عذرِهم في إظهارِهِمُ الإسلامَ، فخشَوْا أن يتَّهِمَهُم رُؤَسَاؤُهم بأنَّهم مُسْلِمُون على الحقيقة! فدَفَعُوا ذلك بالتَّوكيد؛ تمهيدًا لإظهارِ ما أَضْمَرُوه؛ ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾.

الْفَصْلُ بَيْنَ الْجُمْلَتَيْنِ لِشِبْهِ كَمَالِ الِاتِّصَالِ:

الاستهزاءُ نَوْعان، ظاهرٌ وباطنيٌّ وهو أشدُّ النَّوْعين على المُسلمين

فُصلَت جملةُ ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾ عمَّا قبلَهَا؛ لوجود شِبْهِ كمال الاتِّصال بَيْنَهُمَا، وهو الْمُسَمَّى: الاسْتِئْنَافَ البيانيَّ؛ وذلك لأنَّ قولهم: ﴿إِنَّا مَعَكُمْ﴾ يَبْعَثُ في النَّفْسِ سؤالًا يُنْكَرُ فيه بقاؤُهم على الكُفْرِ؛

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/56، والآلوسّي، روح المعاني: 1/159.
(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/56.

وذلك لِمَا أَتْقَنُوهُ مِنْ مظاهر النِّفاق في تَعَامُلِهم مع المُسْلِمِينَ، والسُّؤال هو: كيفَ أَمْكَنَكُمُ الجَمْعُ بين بَقَائِكُم على الكفرِ، وبين إظهار الإسلام عِنْدَ المؤمنين؟! فجاء الجوابُ: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾[1]، وهذا دليلٌ أكيدٌ على أنَّ المُستهزِئَ بالدِّينِ وأهلِه يستطيعُ خداعَ المُؤمنين؛ وهو يدُلُّ على أنَّ استهزاءَهم باطنيٌّ لا ظاهرٌ، والباطنيُّ هو الاستهزاءُ الذي يأتي بالوَيْلاتِ على المُسْلِمين من حيثُ لا يشعُرون.

الْقَصْرُ بِـ ﴿إِنَّمَا﴾ لبيانِ أنَّ استهزَاءَهم لا ينبغي خفاؤه على الشَّياطين:

القصرُ في قوله سبحانه حكايةً عَنِ المنافقين: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾ قصرُ موصوفٍ على صفةٍ، وهو قصرٌ ادِّعائيٌّ؛ فكأنَّهم يدَّعون أَنْ لا صفةَ لَهُمْ إِلَّا الاستهزاءُ.

أسلوب القصر يفيد أن المنافقين لا وصف لهم إلا الاستهزاء

ووقع القصرُ بـ (إنَّما)؛ لادِّعاءِ أنَّ استهزاءَهُمْ بالمؤمنين أمرٌ واضحٌ وجليٌّ لا ينبغي لِلْمُخاطَبِ أن يجْهَلَهُ[2]، فضلًا أنْ يسألَ عنه.

حَذْفُ الْمُتَعَلَّقِ لِوُضُوحِهِ وَلِمُنَاسبةِ الْفَاصِلَةِ:

حذف متعلَّقُ ﴿مُسْتَهْزِءُونَ﴾؛ لِنُكْتَتَيْنِ:

إحداهما: لوضوحِهِ، والمعنى: مُسْتَهْزِئُونَ بالمؤمنين بِإِظْهَارِنَا الإيمانَ عِنْدَهُمْ[3].

والأخرى: لِمُناسَبَةِ الفاصلَةِ؛ إذْ لو نُصَّ على المتعلَّقِ؛ لفاتَ تناسبُ الفواصِلِ.

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الِاسْتِهْزَاءُ وَالسُّخْرِيَّةُ:

الفرق بينهما من وجهين؛ لفظيٍّ ومعنويٍّ[4].

فأمَّا اللَّفظيُّ؛ فالغالبُ في فِعْلِ الِاسْتِهْزَاءِ أَنْ يتعدَّى بـ (مِنْ)،

السّخرية تحمل في طيّتها تكبّرًا على المسخور به، والاستهزاء استخفاف واستصغار بالمهزوء به

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/292.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السَّليم: 1/43.
(3) السُّيوطي، تفسير الجَلاَلَيْن، ص: 5.
(4) أبو هلال العسكريّ، الفروق اللُّغويَّة، ص: 50. ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 7/147.

والغالبُ في فعل السُّخريَّة أن يتعدَّى بالباءِ، وتعديةُ كلِّ واحدٍ بالحرف المذكورِ مُطَّردٌ في القرآنِ الكريم لا يتخَلَّفُ، ولكنْ وَرَدَ مِنْ غير الغالبِ في كلامِ العربِ.

وأمَّا المعنويُّ؛ فَيَظْهَرُ بملاحظَةِ أَصْلِ المادَّةِ؛ فالسُّخريَّةُ مَلْحُوظٌ فيها مَعْنَى التَّسْخِيرِ والطَّاعة، والمسخِّرُ غيرَه يَرَاه دونَهُ، فيتَّصِفُ بالْكِبْرِ والطُّغيان، فالسَّاخِرُ مُتكبِّرٌ في تعامُلِهِ مَعَ المَسْخُورِ مِنْهُ، كما قال تعالى: ﴿وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُواْ مِنْهُۚ قَالَ إِن تَسْخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ﴾ [هود: 38].

أمَّا الِاسْتِهْزَاءُ فَمَلْحُوظٌ فيه معنى الخِفَّة والحركة اللَّاهِيَةِ، وهو ما يُورِّثُ لَدَى المستهزئِ معنى الاستخفافِ والِاسْتِصْغَارِ بالمهزوءِ بِهِ، وعليه فمعنى الكِبْرِ والطُّغيان أَوْضَحُ في كلمة السُّخريَّةِ، ومعنى الاستخفافِ والاحتقارِ أَوْضَحُ في كلمةِ الِاسْتِهْزَاء، وهما يشتَرِكَان في أصل المعنَى، فإذا اجتَمعَا افترقَا، وإذا افترقا اجْتَمَعا.

﴿ٱللَّهُ يَسۡتَهۡزِئُ بِهِمۡ وَيَمُدُّهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ١٥﴾ [البقرة: 15]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الله ناصر المؤمنين، ومجازي المنافقين على استهزائهم

لـمَّا كان فِعلُ الـمُنَافِقِين صادرًا عَنِ احتقارِهم لِلْمُؤْمِنِينَ، وكان قِيلُهم لِشياطِينِهم صادرًا عن اسْتِخْفَافِهم بالمؤمنين، جَاءَ قولُه تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَسۡتَهۡزِئُ بِهِمۡ وَيَمُدُّهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ﴾؛ لإتمام العَدْلِ، وبيانِ الحقِّ، وانتصارًا لأهل التَّوحيد، إشعارًا بأنّ نصرَ المؤمنين قَد تكَفَّل به مَوْلَاهُمُ الحقُّ، فَنَاسَبَ أن يكون الرَّدُّ على قِيل المنافقين صادرًا عن نَاصِرِهم ﷻ، وفي هذهِ الـمُنَاسَبَةِ مِنَ الجلَال والإكرام ما لَا يَخْفَى.

قال الشّيخ محمد الطّاهر بن عاشور في بيان وجه المناسبة: "لَمْ تُعْطَفْ هاتِهِ الجُمْلَةُ عَلى ما قَبْلَها لِأنَّها جُمْلَةٌ مُسْتَأْنَفَةٌ اسْتِئْنافًا بَيانِيًّا جَوابًا لِسُؤالٍ مُقَدَّرٍ؛ وذَلِكَ أنَّ السّامِعَ لِحِكايَةِ قَوْلِهِمْ لِلْمُؤْمِنِينَ: آمَنّا، وقَوْلِهِمْ لِشَياطِينِهِمْ: إنّا مَعَكم إلَخْ. يَقُولُ: لَقَدْ راجَتْ حِيلَتُهم عَلى الـمُسْلِمِينَ الغافِلِينَ عَنْ كَيْدِهِمْ، وهَلْ يَتَفَطَّنُ مُتَفَطِّنٌ في الـمُسْلِمِينَ لِأحْوالِهِمْ فَيُجازِيهِمْ عَلى اسْتِهْزائِهِمْ، أوْ هَلْ يَرُدُّ لَهم ما رامُوا مِنَ الـمُسْلِمِينَ، ومَنِ الَّذِي يَتَوَلّى مُقابَلَةَ صُنْعِهِمْ؟ فَكانَ لِلِاسْتِئْنافِ بِقَوْلِهِ ﴿ٱللَّهُ يَسۡتَهۡزِئُ بِهِمۡ﴾ غايَةُ الفَخامَةِ والجَزالَةِ"[1].

شَرْحُ الـمُفْرَدَاتِ:

1) ﴿وَيَمُدُّهُمۡ﴾: الـمِيمُ والدَّالان: تَدُلُّ "عَلَى جَرِّ شَيْءٍ في طُولٍ، وَاتِّصَالِ شَيْءٍ بِشَيْءٍ في اسْتِطَالَةٍ"[2]، والـمَدُّ: الجَذْبُ والـمَطْلُ والإمهال والزيادةُ[3]، وَمِنْهُ قولُه تعالى: ﴿وَيَمُدُّهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ﴾ أي: يُمْهِلُهم، أو يزيدُهُم[4].

والفِعْلُ مِمَّا سَبَقَ: ثلاثيٌّ مضعَّف؛ وَهُوَ مدَّ، وتُزاد عَلَيْهِ هَمزةٌ في أوَّله فيُقال: أَمَدَّ،

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/293.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (مد).
(3) ابن سِيده، المُحْكَمُ والمحيط الأعظم: (مدد)، والزَّبيدي، تاج العروس: (مدد).
(4) ابن جرير، جامع البيان: 1/307، والزَّجَّاج، معاني القرآن وإعرابه: 1/91.

والغالبُ أَنَّ المجرَّدَ في الاستعمالِ القرآنيِّ لِلشَّرِّ، والـمَزِيدَ بالهمزةِ لِلْخَيْرِ[1]، فالمجرّد كما في الآية ﴿وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾، والمزيد كما في الآية ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾﴾ [آل عمران: 124].

2) ﴿طُغْيَٰنِهِمْ﴾: الطَّاء والغَيْنُ والحَرف الـمُعْتَلُّ: تدلُّ على مَجَاوَزة الحدِّ في العصيانِ[2].

والطُّغْيَانُ: الاعْتداءُ في حُدُودِ الأَشْياءِ ومَقادِيرِها[3]، فكلُّ شَيْءٍ زادَ وتَمَادى؛ فقد طغَى[4].

ويَرِدُ الطُّغْيانُ في القرآنِ الكَرِيم على معانٍ أربعةٍ، وهي: الضَّلَالُ، والعِصْيَانُ، والارْتِفَاعُ والكَثْرَةُ، والظُّلْمُ، ولِكُلِّ واحدٍ مِن هذه المعاني شواهدُ[5].

3) ﴿يَعْمَهُونَ﴾: العَيْنُ والـميمُ والهَاءُ تَدُلُّ تَصَارِيفُها على حَيرةٍ وقلَّةِ اهتداءٍ[6]، يقال: عَمِهَ يَعْمَهُ عَمَهًا وعُمُوهًا؛ إذا تردَّدَ متحيِّرًا[7]، ويقال: عَمِهَ فلانٌ في أمره؛ إذَا تحيَّر فيه، وعَمِهَ الرَّجُلُ؛ إذا جارَ عَنِ الحقِّ[8].

ولَمْ يَرِدْ في القُرآن سِوَى الفعلِ الـمُضَارِعِ مِن هذه المادَّة (يَعْمَهُونَ)، وذلكَ في سَبْعَةِ مواضِعَ، و"العمَهُ فيها: ضلالٌ وطُغيانٌ، وغَفْلَةُ سُكرٍ وعَمَى بصيرةٍ، كأنَّه قريبٌ مِنَ العَمَى"[9].

ومعنى: ﴿يَعْمَهُونَ﴾: يتخبَّطون ويترددون مُتَحيِّرين.

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

مـن اسـتـهـزاء الـلـه بالمنافقين إمهالهم وتزيين الـبـاطـل في أعينهم

اللهُ يَسْتَهْزِئُ بالمنافقين في الدُّنْيَا والآخرةِ في مقابلة اسْتِهْزَائِهم بعبادِه الـمُؤْمِنين؛ أمَّا في الدُّنيا فيُزَيِّنُ لَهُم ما هم فِيهِ مِنَ الباطلِ فيظنُّون أنَّفسهم معَ أهل الإيمان، وأمَّا في الآخرةِ فَيُعْطِيهُمُ اللهُ نُورًا مع المؤمنين ثُمَّ يَنْطَفِئُ نُورُهم ويَبْقَوْنَ في ظُلمةٍ بَعْدَ نُورٍ، ومِن

(1) الواحديّ، التَّفسير البسيط: 9/557.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (طغى).
(3) الزَّبيديّ، تاج العروس: (طغى).
(4) الهرويّ، الغريبين في القرآن والحديث: 4/1172.
(5) ابن الجوزيّ، نزهة الأعين النَّواظر، ص: 415-414.
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عمه).
(7) نشوان الحِميريّ، شمس العلوم: (عمه).
(8) الأنباريّ، الزّاهر: 2/37.
(9) بنت الشاطئ، الإعجاز البيانّي، ص: 581-580.

اسْتِهْزَاءِ اللّه تعالى بِهِمْ: أنَّهُ يُمْهِلُهُم في فجُورِهِم وكُفْرِهم وضَلَالِهم ويَزِيدُهُم فِيهِ؛ ليظَلُّوا حَائِرِينَ مُتَرَدِّدين[1].

الإيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

الِاسْتِئْنَافُ الْبَيَانِيُّ لِبَيَانِ انْتِقَامِ اللهِ تَعَالَى مِنْ الْمُنافِقِين:

اسْتِهْزَاءُ اللهِ بالمُنَافِقِينَ أبلغُ مِن اسْتِهْزَائِهِم بالمُؤْمِنِين

فُصلَ قولُه تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَسۡتَهۡزِئُ بِهِمۡ﴾ عمَّا قبلُ؛ لأنَّه اسْتِئْنَافٌ بيانيٌّ؛ فقولُ اللّهِ سبحانه: ﴿وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوۡاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمۡ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمۡ إِنَّمَا نَحۡنُ مُسۡتَهۡزِءُونَ﴾ يَبْعَثُ في النَّفسِ سُؤَالًا؛ وهو: قَدِ اسْتَهْزَأَ هَؤُلَاءِ المُنَافِقُون بالمُؤْمِنِين، فَهَلِ انْتَقَمَ اللّهُ مِنْهُم، وبِمَ؟ فجاءَ الجَوَابُ: ﴿ٱللَّهُ يَسۡتَهۡزِئُ بِهِمۡ﴾.

وجاءَ هذا الِاسْتِئْنَافُ في غايةِ الْفَخَامَة؛ حيثُ أَوْمأَ إلى أنَّ استهزاءَ اللّه بالمنافقين أبلغُ مِن اسْتِهْزَائِهِم بالمُؤْمِنِين، بَلْ لَا نِسْبَةَ بَيْنَهُما[2].

التَّعْبِيرُ بِالْفِعْلِ ﴿يَسْتَهْزِئُ﴾ دُونَ الاسمِ (مُسْتَهْزِئٌ):

شِدَّةُ العَذَابِ المُتَجَدِّدِ على أَهْلِ النِّفاقِ بتجدُّدِ الاستهزاءِ بِهِم

جاء التَّعْبِيرُ في قولِه تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَسۡتَهۡزِئُ بِهِمۡ﴾ بالفعلِ المُضَارِع، ولَمْ يَرِدْ بِالاسْمِ (مُسْتَهْزِئٌ بِهِمْ) لِيُطَابِقَ قولَهم: ﴿إِنَّمَا نَحۡنُ مُسۡتَهۡزِءُونَ﴾؛ وذلكَ لِإِفَادَةِ تَجَدُّدِ استهزاءِ اللّهِ بِهِمْ حَالًا بعد حالٍ[3]، فالتَّجدُّدُ الذي أفادَهُ الفعلُ هَهُنَا هو التَّجَدُّدُ الاسْتِمْرَارِيّ.

وهذا لا يُفيدُهُ لو وَقَعَ التَّعبير بالاسْم (مُسْتَهْزِئٌ بِهِمْ)؛ لأنَّه يدلُّ على دوام الاسْتِهْزاءِ، ولو دامَ عَلَيْهِمْ لرُبَّما توطَّنت نُفُوسُهم عَلَيْهِ فَتَأْلَفُهُ وتَتَدَرَّبُ عَلَيْهِ، بخلاف التَّجَدُّدِ الاسْتمراريّ؛ فإنَّه يَرْتَفِعُ في

(1) ابن جرير، جامع البيان: 1/301-307، وابن أبي حاتم، تفسير القرآن العظيم: 1/46-48، والثَّعالبي، الجواهر الحسان: 1/190-191، والقاسميّ، محاسن التَّأويل: 1/253-254، والسَّعدي، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 43، وجماعة من علماء التّفسير، المختصر في تفسير القرآن الكريم، ص: 3.

(2) الزَّمخشريّ، الكشَّاف: 1/67.

(3) الزَّمخشريّ، الكشَّاف: 1/67، والسُّيوطيّ، نواهد الأبكار: 1/409، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/294.

بعض الأوقاتِ، وإذا ارتفَعَ عَنْهُمْ؛ رَجَوُا انْقِطَاعَهُ بالكلِّيَّةِ، فإذا عاد إِلَيْهِمْ مرَّةً أخرى؛ كان ذلك أوقعَ على قُلُوبِهم وأشدَّ[1].

تَقْدِيمُ الْمُسْنَدِ إِلَيْهِ عَلَى الْخَبَرِ الْفِعْلِيِّ لِقَصْدِ التَّأْكِيدِ وَالْقَصْرِ:

تقديم لفظ الجلالة يشير إلى أنَّ الله هو الذي يتولّى الانتقام من المنافقين

أُورِدَ المسندُ إِلَيْهِ عَلَمًا في قوله: ﴿ٱللَّهُ يَسۡتَهۡزِئُ بِهِمۡ﴾؛ لِاسْتِحْضَارِه في ذهن السَّامع ابتداءً باسم يختصُّ به؛ تنبيهًا إلى أنَّ اللّه تعالى هو الذي يتولَّى الاسْتِهزاءَ بِهِمُ انتقامًا لعبادِهِ المؤمنينَ، وأنَّه لا يُحْوِجُ المؤمنينَ لِمُعَارَضة المنافقين بِاسْتِهْزاءٍ مِثْلِه[2].

وقُدِّمَ الاسمُ الأحسَنُ ﴿ٱللَّهُ﴾ على الخبرِ الفعليِّ لفَائِدَتَيْنِ[3]:

إحداهما: تَقْوِيةُ الحكم؛ لِمَا فيه من تَكْرَارِ إسنادِ الفعلِ إِلَى فَاعِلِه، وَوَجْهُهُ: أنَّ الاسمَ الْأَحْسَنَ ﴿ٱللَّهُ﴾ مُسند إِلَيْهِ، و﴿يَسۡتَهۡزِئُ﴾ مسندٌ، وهذا الإسنادُ الأوَّلُ، والإسنادُ الثَّاني في إسناد الفعل ﴿يَسۡتَهۡزِئُ﴾ إلى الضَّمير الْمُسْتَتِرِ (هُوَ) الرَّاجِعِ إلى اللّه تعالى.

والأخرى: أنَّ فيه إفادةَ قصرِ المسند على الْمُسْنَدِ إِلَيْهِ؛ أي: قَصْرِ الاستهزاءِ على اللّه تعالى؛ بمعنى أنَّ اللّه ﷻ هو مَنْ يتولّاه انتقامًا مِنَ المنافقين، دون أن يُحْوِجَ المؤمنين إلى ذَلِك.

سِرُّ التَّعْبِيرِ بِالْمُسَبَّبِ عَنِ السَّبَبِ:

امتلاءُ حَياةِ الْمُنَافِقِينَ بالطُّغْيَانِ والعَمَهِ

علَى القَوْلِ بأنَّ المَدَّ بمعنى الزِّيادةِ في قوله تعالى: ﴿وَيَمُدُّهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ﴾؛ فيَحْتَمِلُ أَن يكُونَ المعنى: يَزِيدُ مُدَّةَ حياتِهم[4]، فتكونُ الآيةُ مِنْ بابِ الْمَجَازِ الْمُرْسَلِ، علاقتُهُ الْمُسَبَّبِيَّةُ؛ فالزِّيادةُ في حياتِهِمْ، سببٌ لزيادتِهم في الطُّغيانِ.

ونُكتةُ المجازِ ههنا: المبالغةُ في وصف طُغْيَانِهم، حتَّى كأَنْ ليس

(1) الطِّيبي، فتوح الغيب: 2/207، وابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/57.
(2) الزَّمخشريّ، الكشَّاف: 1/67.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/293.
(4) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 1/138.

لَهُمْ عملٌ في الحياةِ إلَّا الطُّغيانُ، بحيثُ إذَا ازْدَادَتْ حياتُهُم؛ ازدادَ طُغيانُهُمْ ضَرورةً.

الـمُـنَـافِـقُـونَ أَعْـظَـمُ طُغْيَانًا من المُشركين؛ فَنَاسَبَ أَنْ تَكُونَ عُقُوبَتُهُمْ أَشَدَّ

تَوْجِيهُ المُتَشَابِهِ اللَّفْظِيِّ بَيْنَ (يَمُدُّهُمْ) وَ(يَذَرُهُمْ):

قال اللّه تعالى: ﴿وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾، وقالَ في سُورةِ الأعراف: ﴿وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأعراف: 186]؛ والاختِلافُ تَابِعٌ لِمُنَاسَبَةِ كلٍّ لِسياقِهِ الواردِ فيه.

فآيةُ البقرةِ سَبَقها بيانُ شدَّةِ إعراضِ المُنَافِقِين عَنِ الإيمان، ولـمَّا جرت سُنَّةُ اللّهِ تعالَى فيمَن ضلَّ إعراضًا ورغبةً عَنِ الإيمانِ بَعْدَ عِلْمه بحقيقته أَنْ يزيدَهُ ضلالًا؛ ناسَبَ ذَلِكَ أَنْ يَذْكُرَ المَدَّ -ومِنْ معانيهِ: الزِّيادةُ- في قوله: ﴿وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾.

وأمَّا آيةُ الأعرافِ؛ فهيَ في سِياق ذِكْرِ المُشْرِكينَ الذين اسْتَدْرَجَهُمُ اللّهُ سبحانَهُ وأَمْلَى لَهُمْ -﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾﴾ [الأعراف: 182-183] - حَتَّى بلَغُوا بانْحِرَافِهم أقصى درجاتِ الطُّغْيَانِ، فناسبَ ذلكَ تركَهم على الحالِ التي هُمْ عَلَيْهَا، فَقَالَ: ﴿وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٨٦﴾﴾ [الأعراف: 186][1].

وَيَحْتَمِلُ أَنْ يُقال: إنَّ الكلامَ في آية البقرةِ عَنِ المُنَافِقِين، وفي آيةِ الْأَعْرَافِ عَنِ المُشْرِكِينَ، ولـمَّا كان المنافقون أعظمَ طُغيانًا - ولِذَا جعلهم اللّه تعالى في الدَّرْكِ الأسفل مِنَ النَّار - ؛ ناسبَ أَنْ تَكُون عقوبَتُهُمْ أشدَّ، وزِيَادةُ طغيانِهِمْ أشدَّ مِنْ تَرْكِهم عَلَى ما هُمْ عَلَيْهِ؛ لِتَزْدَادَ عقوبَتُهم في الآخرة.

إِضَافَةُ الطُّغيانِ إلى المُنافِقين لبيانِ فظاعتِه:

أُضيف الطُّغيانُ إلى الضَّمير العائدِ على المُنَافِقِين في قول اللّه تعالى: ﴿وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ﴾ لِلْإِيمَاءِ إلى تَشْنِيعِ طُغْيَانِهم وتَفْظِيعِه، وأنَّه طغيانٌ غريبٌ اختُصَّ به المنافقون حتَّى صار لا يُعْرَفُ إلَّا بإضافتِهِ إِلَيْهِمْ[2].

(1) سعيد علي، استدراك ما فات من بلاغة الآيات المتشابهات، ص: 61.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/297.

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

العَمَهُ وَالعَمَى:

قِيلَ: إنَّ العمَى في البَصَرِ، والعمَهَ في الرَّأي[1]، فَهُمَا على هذا مُتَبايِنَانِ.

والأظهر: أنَّ العمَهَ أخصُّ مِن العمَى؛ فالعَمَهُ خاصٌّ بالرَّأي، بمعنى التَّحَيُّر والتَّرَدُّدِ، وأمَّا العمَى فَيكُون في الْبَصَرِ ويكون في الرَّأْيِ[2].

(1) الأزهريّ، تهذيب اللغُة، والزَّبيديّ، تاج العروس: (عمه).

(2) الزَّمخشريّ، الكشَّاف: 1/69. محمَّد مُحمَّد داود، معجم الفروق الدّلاليَّة في القرآن الكريم، ص: 352.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمۡ وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ ١٦﴾ [البقرة: 16]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

ذكرت الآيات السابقة بعض أوصاف المنافقين، وجاء في هذه ذِكر خسرانهم المبين

لـمَّا ذكر اللّه تعالى جملةً مِن أوصاف المنافقين الفَظِيعةِ، وطالَ الكَلَامُ عَنْهُمْ؛ ذكَر خلاصةَ حالهم وحاصِلَ أمرِهِمْ بقوله سبحانه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمۡ وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ﴾، فكان هذا كالفَذْلَكَةِ لِما سبَقَ.

ولـمَّا كانتِ الإشارةُ في ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارةَ أوصافٍ قَدْ تقدَّمَ ذِكرُهَا، وَهُمْ قَدِ اتَّصفوا بها فِعْلًا؛ كانت تلكَ أسبابًا وعِلَلًا لِلْحُكْم عَلَيْهِمْ، فجاء التَّنصيص عَلَيْهِ في هذهِ الآية[1].

وكذلك يُمكن القول: لـمّا سبق الحديثُ عن إصابتهم بالعمَهِ، أي: إصابة قلوبهم بالعمى والاختلاط بحيثُ كانوا لا يُبصرون الحقَّ، ولا يُدرِكون حقائقَ الإيمان ونصاعةَ شرائع الإسلام، ناسبَ وصفُهم وتمييزُهم بأنّهم هم الذين اشتروا الضّلالة بالهُدى، وآثروا الغيَّ على الرّشد، وأخفقوا في أعظم تجارة مُنِحَت لهم، وباؤوا بالخسران المُؤبّد السّرمديّ.

شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

1) ﴿ٱشۡتَرَوُاْ﴾: الشِّينُ والرَّاء والحَرْفُ المُعْتَلُّ؛ مِن معانيهِ الْكُلِّيَّةِ: التَّعارُض مِن اثْنَيْنِ في أَمْرَيْنِ أَخْذًا وإعطاءً مُمَاثلةً[2].

ومِنْهُ: شَرَى الشَّيءَ واشتراهُ؛ إذا أخذه مِن مالِكه بالثَّمَنِ، وهذا الفعلُ مِنَ الأَضْدَاد؛ يُطلق عَلَى الشِّراء والبيع[3]، فالاشْتِرَاء: أخذُ الشَّيء بثمنٍ، أو إعطاؤُهُ بثمنٍ[4]، ومِن الثَّاني قولُ اللّه تعالى: ﴿وَشَرَوۡهُ بِثَمَنِۭ بَخۡسٖ﴾ [يوسف: 20] أي: باعوه[5].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 1/117، وأبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 1/139.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (شرى).
(3) الأنباريّ، الأضداد، ص: 72.
(4) الفيوميّ، المصباح المنير: (شري).
(5) ابن أبي حاتم، تفسير القرآن: 7/2115.

2) ﴿ٱلضَّلَٰلَةَ﴾: الضَّاد واللَّامان: تَدلُّ تصاريفُهُا على ضَياعِ الشَّيْءِ وذهابِه في غير حقِّه[1]، ومنه قوله تعالى حِكَايَةً عَنِ الكُفَّار أنَّهُم قالوا: ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلۡنَا فِي ٱلۡأَرۡضِ أَءِنَّا لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدِۭۚ﴾ [السجدة: 10]، أي: اخْتَفَيْنَا في الأرضِ بالدَّفْنِ وصِرْنَا ترابًا وعظامًا؛ فلَمْ يَتَبيَّن شيءٌ من خَلْقِنَا[2].

ومِنْهُ يُقال لِمَنْ جَارَ عَنِ القَصْدِ: ضالٌّ[3]؛ لضياعِ سَعْيِه، ويرى بعضُ أئمَّة العربيَّةِ أنَّ أصلَ الضَّلالِ: الغَيْبُوبَةُ[4].

وَالضَّلَال: ضدُّ الهُدَى، يُقال: ضَلَّ في الْأَرْضِ إذَا لَم يَهْتَدِ لِلسَّبِيلِ[5]، والضَّلالَةُ تأنيثُ الضَّلالِ[6].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

أولئك المُنَافقون المَوْصُوفُون بالصِّفات المتقدِّم ذكرُها قَدِ اسْتَبْدَلُوا الضَّلالةَ بِالْهُدَى، راغِبِين في الضَّلالة كرَغْبَة المشتري في السِّلْعة؛ الذي تصِلُ به رغبتُهُ فِيهَا إلى أَنْ يَبْذُلَ أَنْفَسَ الأثمانِ، فَهُؤَلاء مِن رَغْبَتِهِم في الضَّلالةِ بذَلُوا في سَبِيلِ تحصيلِها الهُدَى رَغبةً عَنْهُ، فهذه هي تِجَارَتُهُمُ الخاسرَةُ؛ إذْ خَسِرُوا الهدايَةَ التي بِهَا سعادتُهم في الدُّنيا ونجاتُهُمْ في الآخرةِ، وهذه أعظَمُ خَسَارةٍ[7].

❁ الإِيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

دلالة اسْمِ الْإِشَارَةِ عَلَى تَمْيِيزِ الْمُشَارِ إِلَيْهِمْ أَكْمَلَ تَمْيِيزٍ:

جاء التَّعْبِير باسم الإشارةِ في قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ﴾؛ لِما تقدَّم من ذِكْرِ صفاتِهِمْ وأحوالهم الفظيعةِ، بحيث تَمَيَّزوا عمَّن عداهم أكمَلَ تمييزٍ، فصاروا كأنَّهم مُشَاهَدُون تَتَأَتَّى الإشارةُ إِلَيْهِمْ كَالْإِشَارة إلى المُشَاهدَاتِ المُشَخَّصاتِ[8].

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ضل).
(2) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (ض ل).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ضل).
(4) الخطابيّ، غريب الحديث: 1/484.
(5) ابن دُرَيْد، جمهرة اللّغة: (ضلل).
(6) فاضل السَّامرائّي، معاني النَّحو: 2/64-65.
(7) ابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 1/97-98، والبيضاويّ، أنوار التَّنزيل: 1/48-49، والسَّعدي، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 43، وجماعة من علماء التّفسير، المختصر في تفسير القرآن الكريم، ص: 3.
(8) أبو السّعود، إرشاد العقل السَّليم: 1/48.

ووقعَ اسمُ الإشارةِ هَهُنا لِلْبَعيد؛ لِلْإيمَاء إلى بُعْدِ مكانتِهِمْ سُوءًا وشَرًّا[1].

تَعْرِيفُ جُزْأَيِ الْجُمْلَةِ لِإِفَادَةِ الْقَصْرِ:

بُلُوغُ الْمُنَافِقِينَ الْغَايَةَ فِي الْحِرْصِ على الضَّلَالَةِ

تَعْرِيفُ الموصولِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ﴾ بلام الجِنْسِ أفادَ قصرَ المسند على المسند إليْهِ، وهو من قصر الصِّفة على الموصوف ادِّعاءً؛ بالنَّظَر إلى بلُوغِهم الغايةَ في اشْتِرَاءِ الضَّلالة والرَّغبةِ فيها[2]، حتَّى كأنَّ مَنْ سِواهُم ممَّن يُشاركُهم في أصلِ هذا الوصفِ لا يبلُغُ عِنْدَهُمُ الْوَصْفُ مبلغَ المنافقينَ، فهو بِالنِّسبة إلى وصفِ الْمُنَافِقين لا يَكَادُ يُذْكَرُ.

التَّعْبِيرُ بِالْمَاضِي للدّلالة على صدُورِ الفعلِ دونَ رجعةٍ عنْه:

قرّروا واشتروا الضلالة وأصرّوا، ولا سبيل إلى رجوعهم إلى الحقّ

جاء التَّعْبِيرُ بالفعل الماضي ﴿ٱشْتَرَوُاْ﴾؛ لِلْإشارةِ إلى فَرَاغِهِمْ مِن شراء الضَّلالةِ؛ بِحَيْثُ لا سبيلَ لَهُمْ إلى الرُّجوعِ عن هذه الصَّفْقَةِ الخَاسِرَةِ، تأكيدًا لِلْأوصافِ السَّابقةِ التي وُصِفُوا بِهَا؛ كقولِه تعالَى عَنْهُمْ: ﴿وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾.

التَّعْبِيرُ بالِاشْتِرَاءِ؛ لِبَيَانِ حِرْصِ الْمُنَافِقِينَ عَلَى الضَّلَالِ وَزُهْدِهِمْ فِي الْهُدَى:

اشتراء الضلالة من التعبير المجازي البديع

في قوله سبحانه: ﴿ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ﴾ مجازٌ؛ وفي تخريجِهِ مسلَكَانِ[3]:

أحدهما: أن يكونَ مجازًا مُرْسَلًا بعلاقة الْمَلْزُومِيَّةِ؛ بحيث أُطْلِقَ المَلْزُومُ وهو الاشْتِرَاءُ، وأُريدَ لازِمُهُ، وفي تَعْيِينِ اللَّازم وجهانِ؛ إذ إنَّ مِن لَازِمِ الاشتراءِ: الاستبدالَ، والحرصَ على شيءٍ والزُّهْدَ في ضدِّهِ.

فعلى اللَّازم الأوَّلِ - وهو الاسْتِبْدَالُ -؛ يكون المعنى: أنَّهُمُ اسْتَبْدَلُوا الضَّلالةَ بالهدَى، ووجهُ استبدالهم مع عدَمِ تقدُّمِ نِفَاقِهِم

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/58، والبقاعيّ، نظم الدُّرر: 1/117، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 1/48.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/299.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/298-299.

إيمانٌ: أنَّهُمُ اكْتَسَبُوا الضَّلالة التي وُجدت مِنْهُمْ، بدلًا مِنَ الْهُدَى الذي أُمِروا به[1]، أو أنَّهمُ اسْتَبْدَلُوا الضَّلالةَ بالفطرةِ التي فُطِروا عَلَيْهَا[2]، أو أنَّهم جُعِلُوا لِتَمَكُّنهم مِنْهُ بتيسير أسبابِه، كأنَّهُ في أَيْدِيهِمْ، فإذَا عدَلوا عَنْهُ إلى الضَّلالَةِ؛ كان ذلكَ استبدالًا[3].

وعلَى اللَّازم الآخر؛ يكون المعنى: أنَّهم حَرَصوا على الضَّلالةِ، وزَهِدُوا في ضدِّها -وهو الهُدى-.

وَالْمَسْلَكُ الآخَرُ: أن يكون ذلك مَجَازًا بالِاسْتِعَارةِ؛ حيثُ استُعير الاشتراءُ لِلْإِعْرَاض عمَّا في حِيازَةِ المرءِ طالبًا تحصيلَ غيرِه - وهذا في الأصل: يكون في المعَاني ويكون في الأعيان -[4].

ويَحْتَمِلُ إجراءُ الاستعارة في لفظَتَي ﴿ٱلضَّلَٰلَةَ﴾ و﴿ٱلْهُدَىٰ﴾؛ بأن شُبِّهتِ الضَّلالة بالسِّلعة، والهدَى بالْمَالِ؛ بجامع وقوع الـمُعَاوَضَةِ في كُلٍّ، فحُذف المشبَّهُ به ورُمز لَهُ بشيءٍ مِن لوازمِه - وهو ﴿ٱشْتَرَوُاْ﴾ - على طريقِ الِاسْتِعَارة المكنيَّةِ الأصليَّةِ.

بَـذْلُ الْمُنَافِقِ الْجَلِيلَ وَأَخْذُهُ الحَقِيرَ غَايةٌ فِي السَّفَهِ

وفي هذه الِاسْتِعَارةِ مِنَ الْمُبَالغةِ في انحرافهم قدرٌ عظيمٌ؛ حيث إنَّ أَخْذَهمُ الضَّلالةَ كان طواعيَّةً وعَنِ اختيارٍ مِنْهُمْ، وهذا غايةٌ في السَّفَهِ؛ أَنْ يَبْذُلَ الإنسانُ الجليلَ ليأخذَ الحقيرَ! ثمَّ إنَّ مُعَاملتَهُم ليسَتْ مُجَرَّدَ تبادُلٍ يُوشِكُ أَنْ يَرجعوا فِيهِ؛ وإنَّما هو اشتراءٌ لا رجوعَ فِيهِ؛ لِلُزُومِهِ، وهذا أقصى ما يكون في الِانْحِرَافِ وعمَى الْبَصِيرَةِ المذكورِ في الآية قَبْلَهَا: ﴿يَعْمَهُونَ﴾.

فَائِدَةُ التَّعْبِيرِ بِالضَّلَالَةِ دُونَ الضَّلَالِ:

دَنَـاءَةُ الْمُنَافِقِينَ حَـيْـثُ بَـدَّلُـوا الْـهُـدَى الْـكَـثِيرَ الشَّرِيفَ بِشَيْءٍ قَلِيلٍ حَقِيرٍ

عُبِّر بـ ﴿ٱلضَّلَٰلَةَ﴾ في قوله ﷻ: ﴿ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ﴾ دون (الضَّلال)، مع أنَّ التَّعْبِيرَ به -(الضَّلال)- يُشعِرُ بكثرة ضَلَالِهم، بخلاف ﴿ٱلضَّلَٰلَةَ﴾ فهي دالةٌ على الوَحْدَةِ؛ وَذَلِكَ لِوَجْهَيْنِ[5]:

(1) ابن جرير، جامع البيان: 1/315.
(2) الزّمخشري، الكشّاف: 1/70.
(3) القاسميّ، محاسن التّأويل: 1/254-255.
(4) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 1/48.
(5) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/58.

أحدهما: أنَّ الذمَّ وقع عَلَيْهِمْ بِأَخْذِ الواحدَةِ مِن الضَّلالِ، فكيف إذا أخذوا مِنْهُ كثيرًا؟!

والآخر: أنَّ التَّعبير بـ ﴿ٱلضَّلَٰلَةَ﴾ أبلغُ في التَّشْنِيع عَلَيْهِمْ؛ مِنْ جهةِ أنَّهم بدَّلوا الهُدَى الكثير الشَّريفَ بشيءٍ حقيرٍ في القَدْرِ قليلٍ في المقدارِ.

دلالة حَرْفِ الْفَاءِ على بيانِ سُرْعَةِ خَسَارَةِ أَهْلِ النِّفَاقِ:

بمجرد اشترائهم الضلالة، غاصوا في بحر الخسران

ويؤيِّدُ التَّشنيعَ عَلَيْهِمْ: الإتيانُ بِالْفَاءِ في قوله: ﴿فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ﴾ الدالَّةِ على التَّعقيب؛ وذلك لِلْإِيمَاء إلى أنَّ عدمَ ربحِهم وخسارَتَهم حصلَتْ بمجرَّدِ اشْتِرَائِهم الضَّلالة بالهدَى مِن غير تَرَاخٍ.

ويُؤكِّدُ ذلك أيضًا: التَّعبيرُ عَن نَفْيِ الرِّبْحِ بالفعلِ الماضي الدَّالِّ على النَّفْيِ المُتَحَقَّقِ المؤكَّدِ.

نَفْيُ الرِّبْحِ عَنِ الْمُنافِقين أَبْلَغُ فِي ذَمِّهِمْ مِنْ إِثْبَاتِ الخَسَارَةِ:

العقيدةُ إمَّا ربحٌ تامٌّ وإمَّا خسارةٌ مُتحقِّقةٌ

نفى اللّٰه تعالى الرِّبْحَ عن المنافقين، فقال اللّٰه تعالى: ﴿فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ﴾، ولم يَقُل بدَلًا مِن ذلك: (خسِرَتْ تجارتُهُم)، مع أَنَّ إثباتَ الخَسَارة أَصْرَحُ؛ إذْ إِنَّ عدمَ الرِّبح لا يستلزمُ الخسارةَ؛ لاحتمالِ بقاء رأسِ المالِ سالمًا، والنُّكْتَةُ في ذلك: أَنَّهُم إذا ذُمُّوا بسبب عَدَمِ الرِّبْحِ، فذمُّهُمْ بسَبَبِ الْخُسْرانِ الْوَاقِعِينَ فيهِ أَوْلَى وأَحْرَى[1].

ثُمَّ إِنَّ عدمَ الرِّبْحِ لا يستلزمُ الخسارةَ في التِّجارة الحقيقيَّةِ، أمَّا إذا كان المحلُّ لا يقبلُ إلَّا الرِّبْحَ أو الخسارةَ، فنَفْيُ أحدِهما مستلزِمٌ لإثباتِ الآخر ضَرُورَةً، كمَا في الرِّبح والخسارةِ في الدِّين؛ فإنَّه لا واسطةَ بينَهُمَا[2].

نُكْتَةُ إِسْنَادِ الرِّبْحِ إِلَى التِّجَارَةِ مَجَازًا:

التَّنْفِيرُ مِنْ تَعَاطِي التِّجَارَةِ الْخَاسِرَةِ

إسناد الرِّبْحِ إلى التِّجارة في قوله ﷻ: ﴿فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ﴾

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/58-59.

(2) الآلوسّي، روح المعاني: 1/164.

إسناد مجازيٌّ، فهو مِنَ المَجَازِ العقليِّ؛ وذلك لأنَّ التِّجارة لا تَرْبَحُ، وإنَّما يُرْبَحُ فيها[1]، والرَّابِحُ الحقيقيُّ هو التَّاجِرُ، فإسناد الرِّبح إلَى التِّجارة إنَّما كان لتلبُّسِهَا بالفاعل، أو لِمُشَابهَتِهَا إيَّاه؛ من جهةِ أنَّها سببٌ في الرِّبْحِ والخَسَارة[2]، ونكْتَةُ هذا الإسناد: الإشارةُ إلى عدَمِ تعَاطِي هذه البَيْعَةِ ولو كانت سبَبًا في الرِّبْحِ، فكيفَ وهي ليسَتْ رابحةً؟![3]، وهذه الجملة ترشيحٌ للجملة السابقة.

نَفْيُ الهدايةِ عنِ المُنَافِقِينَ لأنَّها ليسَت من شأْنِهم:

المنافقون أبعد المخلوقات عن الهُدى

نُفِيَ الاهتداءُ عَنِ المُنَافِقِينَ نفيًا مؤكَّدًا بالجملةِ الاِسْمِيَّةِ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ﴾.

وزِيدَ التَّوكيدُ بـ ﴿كَانُواْ﴾ الدالَّةِ على الدَّوامِ وَالاِسْتِمْرَارِ؛ فليس مِن شأنِ مَنْ كانت هذه حالَهُ أَنْ يُتصوَّرَ منه الاهتداءُ[4].

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الضَّلَالُ وَالْغَيُّ:

الضَّلال والغيُّ مُتَرادِفَانِ في ظاهر كلام جماعةٍ مِن علماء العربيَّة[5].

والتَّحقيقُ أنَّ بَيْنَهُمَا فَرْقًا؛ فقيل: الضَّلال يكون بغير قَصْدٍ، والغيُّ بقَصْدٍ وتكسُّبٍ[6].

وقيل: الضَّلال في القولِ، والغيُّ في الفِعْلِ[7].

وقيل: الضَّلالُ: أَن لَا يَجِدَ السَّالكُ إِلَى مقْصدِه طَرِيقًا أصلًا، والغَيُّ: أَن لَا يكُونَ لَهُ إِلَى المَقْصد طَرِيقٌ[8].

والأقرَبُ أَنْ يُقال: إِنَّ الفرقَ بينَهُمَا مِنْ أربعةِ أوجهٍ:

---

(1) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 43، وابن جرير، جامع البيان: 1/317.
(2) إسماعيل حقّي، روح البيان: 1/64.
(3) محمّد أبو موسى، خصائص التّراكيب، ص: 144.
(4) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 1/140.
(5) الفارابيّ، معجم ديوان الأدب: 4/90، والجوهريّ، الصحاح: 6/2450، والرّازيّ، أنموذج جليل، ص: 493.
(6) ابن جزي، التّسهيل لعلوم التّنزيل: 2/316، والسّيوطيّ، معترك الأقران: 2/437.
(7) الرّازيّ، أنموذج جليل، ص: 493.
(8) الرّازيّ، التّفسير الكبير: 28/234.

أحدهما: أَنَّ الضلالَ يكَونُ عن عَمْدٍ وعَن غير عَمْدٍ، أمَّا الغيُّ فَلَا يكون إلَّا عَنْ عَمْدٍ؛ فيكون الضَّلالُ أَعَمَّ مِنْ هذه الجِهَةِ.

ثانيهما: أنَّ الغَيَّ أشدُّ مِنَ الضَّلالِ؛ وذلك أَنَّ أصلَ الضَّلال: ضياعُ الشَّيْءِ وذهابُه في غير حقِّه، وأمَّا الْغَيُّ؛ فَهُوَ الِانْهِمَاكُ في الباطل[1]، فكأنَّ الغَاوِيَ قد غَشِيَهُ ما لا يَرَى طَرِيقَ الحقِّ مَعَهُ[2].

ثالثها: أنَّ الضَّلال يُسْتَعْمَلُ في العقلاء وغيرِهم، فتقول: ضَلَّ فلانٌ، وضلَّتِ الدابَّةُ، أمَّا الغيُّ؛ فلَا يكُونُ وَصْفًا إلَّا لِلْعُقَلَاءِ[3].

ويُمْكِنُ إرجاعُ هذا الفَرْقِ إلى الأوَّلِ؛ إذِ الدَّابَّةُ مثلًا لا قصدَ مُعْتَبَرٌ لهَا.

رابعها: أنَّ ضِدَّ الضَّلال: الهدَى، وضِدَّ الغيِّ: الرُّشْدُ[4].

الضَّلَالُ والضَّلالةُ:

فرَّق الزَّمخشريّ[5] بين الضَّلال والضَّلالةِ عند اجتماعِهما في قول اللّه تعالى: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٦٠ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٦١﴾ [الأعراف: 60-61] بما يُفْهَمُ مِنْهُ أنَّ الضَّلال جمعٌ، والضَّلالةَ مفردٌ، فيكون (الضَّلال) اسمَ جنسٍ جمعيّ يُفرَّق بينَه وبين مفرده بالتَّاء؛ لأنَّه جعله نظيرًا لـ: تَمْرٍ وتمرةٍ.

وقيل: (الضَّلالة) اسمُ مَرَّةٍ، وليس كذلك، فالفعل (ضَلَّ) لا يُصاغ مِنْهُ اسمُ مرةٍ -كما لا يَخْفَى-.

وقد ردَّ ابن عاشور[6] على من يرى دلالة ﴿ٱلضَّلَٰلَةَ﴾ على الوَحْدة، ورأى أنَّه مصدرٌ كالضَّلالِ، والتَّغايُرُ بَيْنَهُما إنَّما هو في التَّذكير والتَّأنيث؛ وذلك لِلتَّفنُّنِ في العبارة.

والرَّاجح - واللّه أعلم - أنَّ لفظ ﴿ٱلضَّلَٰلَةَ﴾ يدلُّ على المرّة الواحدة أو الإفراد، وليس

(1) ابن فارس، مجمل اللّغة، ص: 687.
(2) محمّد داود، معجم الفروق الدّلاليّة في القرآن الكريم، ص: 329.
(3) الرّازيّ، التّفسير الكبير: 28/234.
(4) الكفويّ، الكلّيّات، ص: 576.
(5) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 2/113-114.
(6) ابن عاشور، التَّحرير والتَنوير: 8/192.

شرطًا أن تأتي الصيغة على القياس حتى يُحكم بدلالتها على الإفراد، ونكتة استعمال ﴿ٱلضَّلَٰلَةَ﴾ في الموضع الثاني أنَّ الملأ حين اتهموا نبيّهم نوحًا بالضّلال ، ردّ عليهم عليه السلام بأنّه ليس به ضلالةٌ واحدة، فكيف تحكمون بضلالي؟! وهذا لا يناقض القول بأنَّ لفظ ﴿ضَلَٰلَةٌ﴾ يكون مصدرًا أيضًا مثل الآية التي نحن بصددها.

﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾﴾ [البقرة: 17]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

تشبيه تمثيليّ يصف حقيقة المنافقين بحيث لا يبقى لمرتاب شائبة شكٍّ فيهم

لـمَّا ذكر اللّهُ أحوالَ المنافقين وصفاتِهم على وَجْهِ التَّفْصيل، وكانتِ الأمثالُ أَعْلَقَ بالذِّهْنِ وأكْشَفَ لِلْحالِ؛ مثّل سبحانه حالَهم في هُداهم الذي باعوه بالضّلالة في الآية السّابقة بالأُمُور الحِسّيَّة؛ لِمَا لِلتَّمْثِيل مِن شأنٍ عظيم في توصيل المعنى إلى الأَذْهَانِ[1]، وقد وَقَعَ المثَلُ مَوْقِعَ الفذلكةِ من الآية السَّابِقَة، فبعد إجْمالِ حالِ المنافقين في جُملَةٍ واحدة، وَقَعَتْ مَوْقعَ الاعتبار، حَسُنَ تمثيلُ تلك الحالِ بنوعٍ من التَّفصيلِ التَّمثيليّ، لمزيدِ كشفٍ وإمدادِ الذِّهنِ بأنواعٍ إضافيّة من سلوكهم المُرِيب؛ بحيث لا يبقى لـمُرتابٍ شَائبةُ شَكٍّ فيهم.

شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

1) ﴿ٱسْتَوْقَدَ﴾: مادَّة الواوِ والقاف والدَّال تدلُّ على اشْتِعالِ نارٍ[2]، ومِنْهُ الْوَقَدُ؛ وهي النَّار[3]، والوَقُود: وهو ما تُشْعَلُ به النَّارُ مِن حَطَبٍ ونحوِه[4].

والفِعْلُ (وَقَدَ)؛ يُقال: وَقَدَتِ النَّارُ تَقِدُ؛ إذا اشْتَعَلت، وأَوْقَدْتُ: أَشْعَلْتُ[5]، واسْتَوْقَدَ النَّار، بمعنى: أَوْقَدَهَا[6]؛ وهي كذلك في الآية، وقيل معناه: اسْتَوْقَدَ مِن غَيْرِه نارًا يَسْتَضِيءُ بِها[7]، فالسِّين والتَّاء للطَّلَبِ على ما هوَ الغَالِبُ فِي مَعْنَاهَا، والـمَعْنَى الأَوَّلُ أَرْجَحُ[8].

(1) البِقاعيّ، نظم الدُّرر: 1/118.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (وقد).
(3) الزَّبيديّ، تاج العروس: (وقد).
(4) الفَتَّنيّ، مجمع بحار الأنوار: 5/92.
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (وقد).
(6) الهرويّ، الغريبين: (وقد).
(7) الحِمْيَرِيّ، شمس العلوم: 11/7263.
(8) أبو حيَّان، البحر المحيط: 1/128.

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

مَثَلُ المُنَافِقِين الذِينَ أَظْهَرُوا الإيمانَ بِالأَقْوَال وليسوا بمؤمنين في الحَقِيقة، فانْتَفعوا في الدُّنيا بِحَقْنِ دِمَائهم وسلامَةِ أموالهم، وحصَلَ لَهُمْ شيءٌ مِنَ الأَمْن، ثُمَّ لَمَّا قُبِضَت أرواحُهم بالموتِ؛ سُلِبُوا الانتفاعَ بما أظهروه مِنَ الإيمانِ لِعَدَمِ الاعْتِدَادِ به شرعًا، وصاروا في ظُلْمَةِ القَبْرِ والكُفْرِ والنِّفاقِ والمعَاصِي علَى أنواعِها، وبعد ذلك في ظلمة نارِ جهنَّمَ؛ مَثَلُهم في ذلك: كمثَلِ جماعةٍ في ليلةٍ شديدةِ الظُّلْمَةِ أَوْقَدُوا نارًا لِيَنْتَفِعُوا بِهَا اسْتِضَاءَةً واسْتِدْفَاءً، فلَمَّا أضاءَ نُورُها وتبيّن ما حولهَا؛ خَمَدَت وانْطَفَأَت، فبَقوا في شدَّةِ الظُّلمةِ لا يَهْتَدُونَ إلى سَبِيلٍ ولا يَرَوْنَ شَيئًا[1].

❁ الإِيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

بَلاغَةُ مَوقِعِ المثلِ من الآياتِ السَّابِقَة:

فَصْلُ الْجُمْلَةِ عَمَّا قَبْلَهَا؛ لِوُقُوعِهَا بَيَانًا وَتَقْرِيرًا لِمَا قَبْلَهَا

فُصِلَتْ جملةُ ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا﴾ عمَّا قبلَهَا؛ لِمَا بَيْنَهُمَا مِن كمال الاتِّصالِ، وَوَجْهُه: أنَّ هذه الجملةَ بيانٌ وتقريرٌ لِلْجُمَلِ قَبْلَهَا، فهي بمنزلةِ ذِكْرِ الْحَاصِلِ مِنْ حالِهِمْ وشأنِهِمْ بضَرْبِ هذا المَثَلِ[2].

والقولُ بأنَّ الجملةَ بيانٌ لا يقتضي بالضَّرورةِ وقوعَ إِبْهَام في ذِكْرِ أوصاف المُنَافِقِين السابقةِ؛ لأنَّ البَيَانَ درجاتٌ، إلَّا أنَّ عُرْفَ البلَاغِيِّين التَّعْبِيرُ عن نُكْتَةِ مثلِ هذا الفصلِ بالبَيَانِ؛ والمرادُ ببيانِ الجملةِ في الآية الكريمَةِ: زيادةُ الكَشْفِ وتَتْمِيمُ البَيَانِ[3].

تَقْرِيرُ التَّشْبِيهِ التَّمثيلِيِّ الوارِدِ في الآية الكريمةِ أَنْ يُقَالَ:

إِيرَادُ التَّشْبِيهِ التَّمْثِيلِيِّ لِإِبْرَازِ الْمَعْقُولِ فِي صُورَةِ الْمَحْسُوسِ؛ زِيَادَةً فِي الْبَيَانِ

حالُ هؤلَاءِ المُنَافِقين في انتفَاعِهِمُ المُؤَقَّتِ في الدُّنيا بِمَا أظهروه مِنَ الإيمَان؛ من عِصْمَةِ دِمَائهم وأموالِهم، ومعرفتِهِمْ بمواضعِ الخير والشَّرِّ بما سمِعُوه مِنَ الْوَحْيِ المُنَزَّلِ، ثُمَّ لَمَّا نزَلَ بِهِمُ الموتُ سُلِبُوا

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 1/186، وابن القيّم، الأمثال في القرآن، ص: 10-9، والسّعدي، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 44، ونخبة من أساتذة التّفسير، التّفسير الميسّر، ص: 4.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتّنوير: 1/302.

(3) الزّمخشريّ، الكشَّاف: 1/72.

النَّفْعَ، وحلَّت بِهِمُ الخسارَةُ مِنْ كُلِّ وَجْهٍ؛ حالُهُمْ في هذا كَحَال مَنِ اسْتَوْقَدُوا نارًا فانتفعوا بِهَا دفئًا مِنَ البَرْدِ، وإضاءَةً لمواضعِ المخاوفِ وأَمْنِهَا، فإذا بنارِهم تَنْطَفِئُ، وذهب ما فِيهَا مِنَ النَّفْعِ، وبقوا في ظُلُماتٍ لا يُبصرونَ مواضعَ الأذى ولا يَهْتَدُون إلى سبيلٍ لِلنَّجاةِ.

وفائدةُ هذا التَّمْثِيلِ: رَفْعُ الحِجَابِ عَنِ الوجُوه العقليَّةِ -لِمَا فِيها مِنَ الدِّقَّةِ والخفاء-، وإبرازُها في صُورة المَحْسُوسَات الواضحَةِ، والتّنفيرُ من حالة النّفاق بما فيها من خداعٍ مَكشوف وزَيْفٍ مفضوح.

انْتِفَاعُ الْمُنَافِقِينَ بِمَا أَظْهَرُوا مِنَ الْإِسْلَامِ عَارِضٌ، تَعْقُبُهُ خَسَارَةٌ أَبَدِيَّةٌ

وَجْهُ تَشْبِيهِ الْمُنَافِقِ بِالْمُسْتَوْقِدِ:

في تَشْبِيهِ المُنَافِقِ بالْمُسْتَوْقِدِ النَّارَ سبعةُ أوجُهٍ[1]:

الأوَّلُ: أنَّ مُسْتَوْقِدَ النَّار يدفعُ الأذَى بِهَا، فإذا خَمَدَت وصلَهُ، وكذلك المنافقُ يُعصَمُ دَمُهُ بِالْإِسلامِ؛ فإذا أظهرَ الكفرَ، حلَّ دَمُهُ.

مَا يُظْهِرُهُ الْمُنَافِقُونَ مِنَ الْإِسْلَامِ يَذْهَبُ بِالْكُلِّيَّةِ إِذَا لَمْ يُتْبَعْ بِتَحْقِيقِهِ فِي الْقَلْبِ

الثَّاني: أنَّه يَهْتَدِي بالنَّار، فإذا خَمدَت ضلَّ، وكذلك المنافقُ يَهْتَدِي بما أظهرَهُ مِنَ الإسلام، فإذا اطُّلِعَ على حقيقةِ حالِهِ، ذَهَبَتْ عَنْهُ تلكَ الهدايةُ.

الثَّالث: أنَّه إذا لم يُمِدَّهَا بوَقُودٍ انْطَفَأَت، وكذلك المنافقُ إذَا لم يُتْبِعْ ما أظْهرَهُ مِنَ الْإِسْلَامِ بِتَحْقِيقِه في القَلْبِ، ذهب عَنْهُ ذلك بالكُلِّيَّةِ.

الرَّابعُ: أنَّ النُّور الذي يَسْتَضِيءُ به حاصلٌ مِن غَيْرِه لا مِن نفسِه؛ فإذا انطفأتِ النَّارُ بَقِيَ في الظُّلمةِ، وكذلك المنافقُ لَمَّا أَظْهَرَ الإسلامَ مِن غَيْرِ مُوَاطَأَةِ الظَّاهرِ لِلْبَاطِنِ؛ كان نُورُ الْإِيمَانِ عِنْدَهُ كَالْمُسْتَعَارِ.

الخَامِسُ: أنَّ اللّٰه تعالى شبَّه إقبالَ المنافقين على المُسْلِمين بالإضَاءة؛ لِمَا يَحْصُلُ لَهُمْ مِنَ النَّفْعِ ودفعِ الضُّرِّ المُعَجَّلَين، وإقبالَهم على المُشْرِكِين بِذَهَابِهَا؛ لِفَوَاتِ تَحْصِيلِ النَّفْعِ ودَفْعِ الضُّرِّ.

(1) أبو حيَّان، البحر المحيط: 1/124.

السَّادس: أنَّ اللّه سبحانه ذَكَرَ عَنِ المُنَافِقِين قَبْلُ أنَّهمُ اشْتَرَوُا الضَّلالةَ بالهُدَى، ثُمَّ مثَّلَ الهُدَى الذِي باعُوهُ بالنُّور الحاصِلِ لِلْمُسْتَوْقِدِ، والضَّلالةَ التي اشْتَرَوْهَا بالظُّلْمَةِ.

السَّابع: أنَّه مَثَلٌ ضَرَبَهُ اللّهُ تعالى لِلْمُنَافِقِ؛ لأنَّه بإظهارِهِ الإِسْلَامَ يُعْصَمُ دَمُهُ، فَيَمْشِي فِي حُرْمَةِ الإسلامِ وضِيَائِهِ، فإذَا مَاتَ، سُلِبَ ذلك الضِّياءَ في الدَّار الآخرة وهُوَ أَحْوَجُ ما يكونُ إِلَيْهِ.

دلالة حَرْفِ الْكَافِ:

أَفَادَتِ الْكَافُ في قولِه: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ﴾ التَّشْبِيهَ[1]، بناءً على أنَّ كلمة (مِثْل) بمعنى: الصِّفة والْحَالِ، والتَّقْدِير: مَثَلُهُم كَصِفَةِ الذِي اسْتَوْقَدَ نارًا وكحالِهِ.

دلالة الِاسْمِ الْمَوْصُولِ:

ثَـــرَاءُ الـنَّـظْـمِ بِـتَـنَـوُّعِـهِ الِاحْتِمَالِيِّ

ورَدَ الاسمُ الموصولُ مفردًا في قوله: ﴿كَمَثَلِ ٱلَّذِى﴾ لا جمعًا كَمَا يَقْتَضِيهِ الظَّاهرُ - لِقَوْلِ اللّه تعالى قبلُ: ﴿مَثَلُهُمْ﴾ -؛ لثلاثةِ أوجهٍ:

الأوَّل: أنَّ ﴿ٱلَّذِى﴾ وإنْ كانَ في اللَّفْظ مفردًا، إلَّا أنَّه اسمٌ موصولٌ يَعُمُّ جميعَ أفرادِهِ؛ فهو في المَعْنَى جَمْعٌ؛ فإذا رُوعِيَ اللَّفْظُ أُفْرِدَ، وإذا رُوعِيَ المعنَى؛ جُمِعَ عِنْدَ تَعَدُّد أفرادِهِ الْمُنْدَرِجَةِ تحتَهُ[2].

الثَّاني: أَنَّ ﴿ٱلَّذِى﴾ وَقَعَ وصفًا لِمَا يُفْهَمُ مِنْهُ الجَمْعُ، ثُمَّ حُذف الْمَوْصُوفُ؛ لوجودِ القَرِينَةِ الدّالَّةِ على إفادَتِهِ الجَمْعَ، والتَّقْدِيرُ: مَثَلُهُمْ كمَثَلِ الفَرِيقِ أَوِ الجَمْعِ الذِي اسْتَوْقَدَ، ثُمَّ يُعادُ الضَّمِيرُ عَلَيْهِ مُفْرَدًا إذا رُوعِيَ الوصفُ، كما في ﴿ٱسْتَوْقَدَ﴾ و﴿حَوْلَهُۥ﴾، ويُعاد الضَّمِيرُ عَلَيْهِ جَمْعًا إذا رُوعِيَ المَوْصُوفُ، كما في ﴿بِنُورِهِمْ﴾، ﴿وَتَرَكَهُمْ﴾، ﴿لَّا يُبْصِرُونَ﴾[3]، وعلى هذا الوجهِ يكونُ في الآيَةِ إيجَازٌ بِالْحَذْفِ؛ لدلالة القرائنِ على المَحْذُوفِ.

الثَّالثُ: دلالة ﴿ٱلَّذِى﴾ على المُفْرَدِ، كما هو الظَّاهرُ مِن لَفْظِها؛ لأنَّ صِلَتَهُ: ﴿ٱسْتَوْقَدَ﴾، والمُسْتَوْقِدُ واحدٌ، وإن كان الْجَمِيعُ مُنْتَفِعًا بِالْإِضَاءَةِ بَعْدُ[4]، وهو الأنسبُ لِجَرَيَانِهِ عَلَى الظَّاهر.

(1) ابن جُزَيّ، التَّسهيل لعلوم التَّنزيل: 1/72.
(2) الشِّنقيطيّ، العذب النَّمير: 5/630.
(3) السَّمين، الدُّر المصون: 1/156.
(4) ابن عثيمين، تفسير الفاتحة والبقرة: 1/62.

دلالة تَنْكِيرِ ﴿نَارًا﴾ عَلَى التَّعْظِيمِ:

نُكِّرتِ النَّارُ في قوله: ﴿ٱسْتَوْقَدَ نَارًا﴾ لِلتَّعْظِيم؛ ويؤيِّدُهُ قولُه قبلُ: ﴿ٱسْتَوْقَدَ﴾ أي: طَلَبَ وُقودَهَا، وهو سُطُوعُهَا وارتفاعُ لهَبِهَا، ويُعَزِّزُهُ قولُهُ بعدُ: ﴿فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ﴾ لِفَرْطِ الْإِنَارَةِ، وَكَذَا حصولُ الظُّلماتِ بِفَقْدِها[1].

دلالة (مَا) في ﴿مَا حَوْلَهُۥ﴾:

(مَا) في قَوْلِهِ ﴿أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ﴾ تَحتملُ في إعرابِهَا وَجْهَيْنِ[2]:

الأوَّلُ: أَنْ تَكُونَ مَفْعُولًا به لِلْفِعْلِ ﴿أَضَآءَتْ﴾، وهو فِعْلٌ مُتَعَدٍّ.

والآخَرُ: أن تكُونَ فاعِلًا لِلْفِعْلِ (أضاءَ) بِحَمْلِهِ على أنَّهُ فعل لازِمٌ، وتأنيثُ الفعلِ ﴿أَضَآءَتْ﴾ مع إسنادِهِ لِلْفَاعِلِ (مَا)، حملًا لـ (مَا) علَى معناهَا؛ إذِ الذي حَوْلَ الـمُسْتَوْقِدِ أمَاكِنُ وأشياءُ، وهي مؤنَّثةٌ في المعنَى.

وعلى الثَّاني فيه مبالغَةٌ في شدَّةِ الإضاءَةِ؛ حتَّى كأنَّ الأماكنَ نفسَها والأشياءَ المحيطَةَ بالْمُسْتَوْقِدِ صَدَرَ مِنْهَا الضِّياءُ.

ويُؤيِّدُه أنَّ (ما) اسم موصولٌ، وهو يَعُمُّ؛ فالضِّيَاء عَمَّ المكانَ -على الاحْتِمَالَيْنِ السَّابِقَيْنِ-، وهو في الثَّاني أَبْلَغُ، وإنْ كانَ الأوَّلُ أشهرَ.

ويُمْكِنُ حَمْلُ (مَا) على أنَّها نَكِرَةٌ مَوْصُوفَةٌ، والمعنى: فَلَمَّا أضاءت شَيْئًا ثَابِتًا حولَهُ[3]، وتَنْكِيرُها حينئذٍ لِلتَّكْثِير؛ أي: أضاءت شَيْئًا كثيرًا ثابِتًا حَوْلَهُ.

عُمُومُ إِضَاءَةِ الْمَكَانِ وَكَثْرَةُ الْأَشْيَاءِ الْمُضَاءَةِ

دلالة حَرْفِ الْبَاءِ:

البَاءُ في قوله تعالى: ﴿ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ لِلتَّعْدِيَةِ، بمعنى: أَذْهَبَ اللهُ نورَهُمْ[4].

دَوَامُ ذَهَابِ نُورِ الْمُنَافِقِينَ؛ فَلَا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ بِحَالٍ

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 1/50، والخفاجيّ، عناية القاضي: 1/378، والقاسميّ، محاسن التَّأويل: 1/256.

(2) الزّمخشريّ، الكشَّاف: 1/73.

(3) النَّسفيّ، مدارك التَّنزيل: 1/55.

(4) الفخر الرّازيّ، التّفسير الكبير: 1/96.

وفي التَّعدية بالباءِ دُونَ الْهَمْزَةِ: إشعارٌ بدوامِ هذا الذَّهابِ وملازَمَتِه، بسببِ مُلَازمَةِ فاعل الذَّهابِ لهُ، ولِما في الْبَاءِ مِنْ مَعْنَى الْإِمْسَاكِ، كما يُقال: ذهَبَ السُّلْطَانُ بِمَالِه؛ إذا أخذهُ، وما أخذه اللهُ ﷻ فَأَمْسَكَهُ؛ فلا مُرسِلَ له مِنْ بعدِه[1]، وهذا يدلُّ على أنَّ النُّور في الآية لا يزال ذاهبًا عَنْهُمْ، وهذا أغلَظُ في العُقُوبَةِ؛ إذْ لا يُتصوَّرُ رجوعُهُ إِلَيْهِمْ[2].

نُكْتَةُ التَّعْبِيرِ بِـ﴿نُورِهِمْ﴾ دُونَ (نَارِهِمْ) أَوْ (ضَوْئِهِمْ):

وقع التَّعبير بالنُّور في قولِه ﷻ: ﴿ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ دون (بِنَارِهِمْ)؛ لِقَوْلِه قبلُ: ﴿ٱسْتَوْقَدَ نَارًا﴾، و﴿أَضَآءَتْ﴾ أي: النَّارُ؛ لنُكتَتَيْن:

إذهابُ النُّورِ إِذْهَابٌ لَهُ ولِلضَّوْءِ

إحداهما: أنَّ المرادَ مِن إيقادِهَا حُصُولُ النُّورِ، فأذهَبَ اللهُ تعَالَى مقصودَهُم مِنْهَا.

ثانيهما: أنَّ النَّار فيهَا إِشْرَاقٌ وإِحْرَاقٌ، فَأَذْهَبَ اللهُ تعالَى ما فيها مِنَ الْإِشْرَاقِ وهُوَ النُّور، وأَبْقَى ما فيها مِنَ الْإِحْرَاقِ وهُوَ النَّاريَّةُ.

ولم يَرِدْ هَهُنَا أيضًا: (ذهَبَ اللهُ بِضَوْئِهِمْ) مع أنَّه قد تقدَّم قولُه: ﴿فَلَمَّآ أَضَآءَتْ﴾؛ وذلك لأنَّ الضَّوْءَ هو زيادةٌ في النُّور، فهو أخصُّ، فلو ذَكَرَ اللهُ تعالى إِذْهَابَ ضَوْئِهم؛ لَتُوُهِّمَ أنَّ إذهابَ الأخصِّ لا يقتضي بالضَّرورةِ إذهابَ الأعمِّ، وأنَّ المقصود: إذهابُ الضَّوء مع إبقاءِ النُّور! فدُفِعَ ذلك بقولِه تعالى: ﴿ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾، فأذهَبَ اللهُ سبحانَهُ النُّور أصلًا، وفي إذهابِه: إِذْهَابٌ لَهُ وَلِزِيَادَتِه[3].

تَنْكِيرُ ﴿ظُلُمَٰتٍ﴾ للتَّهْوِيلِ:

شِدَّةُ ضَلَالِ أَهْلِ النِّفَاقِ، فهم ليسوا في ظُلمة بل في ظلمات

نُكِّرَتِ الظُّلُمَاتُ في قوله سبحانه: ﴿وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ﴾ للتَّهْويل؛ أي: "ظُلُماتٍ هائلة أَدْهَشَتْهُم، بحيث اخْتَلَّت حوَاسُّهم، وانْتَقَصَتْ

(1) إسماعيل حقّي، روح البيان: 1/67.
(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/60.
(3) ابن القيّم، اجتماع الجيوش الإسلاميَّة، ص: 41.

قُوَاهم"[1]، ويؤكِّدُ ذلك: جَمْعُهَا، وإتْبَاعُها بقوله: ﴿لَّا يُبْصِرُونَ﴾؛ فإنَّ ذلك يدُلُّ على أنَّ الظُّلمةَ بَلَغَتْ مبلغًا يَعْجِز عَنْهُ الوَاصِفُ[2].

الْإِطْنَابُ لِزِيَادَةِ كَشْفِ الْحَالِ التِي آلَ إِلَيْهَا الْمُنَافِقُونَ:

خَيْبَةُ مَسَاعِي أَهْلِ النِّفَاقِ

تضَّمنَ قولُه ﷻ: ﴿وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ﴾ تقريرًا لمضمون الجُمْلَةِ قبلَهُ: ﴿ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾؛ فَإِنَّ مَنِ انعَدَم نورُهُ؛ حلَّت عَلَيْهِ ظُلْمَةٌ، فلا يُبْصِرُ شيئًا، ففي الكَلَامِ إطنابٌ، وفائدتُه: زيادَةُ كَشْفِ الْحَالِ التي صَارُوا إِلَيْهَا؛ "فَإِنَّ قَوْلَهُ: ﴿ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ يُفيد أَنَّهم لَمَّا اسْتَوْقَدُوا نَارًا، فَانْطَفَأَتْ؛ انْعَدَمَتِ الفَائِدَةُ، وخابَتِ المَسَاعِي، ولَكِنْ قد يَذْهَلُ السَّامعُ عمَّا صَارُوا إِلَيْهِ عِنْدَ هَاتِهِ الحالَةِ، فيكُونُ قولُهُ بَعْدَ ذَلِكَ: ﴿وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ﴾ تَذْكِيرًا بِذَلِكَ، وتَنْبِيهًا إِلَيْهِ"[3].

حَذْفُ مَفْعُولِ ﴿يُبْصِرُونَ﴾ لِإِفَادَةِ الْعُمُومِ:

المنافقون لا يبصرون دلائل التوحيد، بل هم عُميٌ لا يبصرون أصلًا

فِعْلُ (أَبْصَرَ) مُتَعَدٍّ، ولم يُذْكَرْ مَفْعُولُه في قوله ﷻ: ﴿لَّا يُبْصِرُونَ﴾، وفي ذلكَ طَرِيقَتَانِ:

الأُولَى: أَنْ يُقدَّر له مَفْعُولٌ، ويكون عامًّا؛ بناءً على أنَّ حذفَ المَعْمُول مُشْعِرٌ بالعُمُومِ، والمعنى: لا يُبْصِرُونَ شَيْئًا، لا قَلِيلًا ولا كثيرًا[4].

وَالْأُخْرَى: أَلَّا يُقدَّر له مفعولٌ أصلًا، من بَابِ تَنْزِيلِ الفعل المُتَعَدِّي منزلةَ اللَّازم[5]، وَهُوَ يَؤُول في المعنى إلى ما قَبْلَهُ[6]، وفيه ضمنًا تشبيه الأعمى بصيرةً بالأعمى بصرًا.

(1) البيضاويّ، أنوار التَّنْزِيل: 1/51.
(2) النَّيسابوريّ، غرائب القرآن: 1/174.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنْوير: 1/310.
(4) محمّد رشيد رضا، تفسير المنار: 1/144.
(5) الرازيّ، التّفسير الكبير: 1/314.
(6) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/312.

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

المِثْلُ وَالشِّبْهُ:

نقل الأزهَرِيُّ عن الفرَّاء قولَهُ: "يُقَال: مَثَلٌ ومِثْلٌ، وشَبَهٌ وشِبْهٌ، بِمَعْنى وَاحِد"[1]، فهذا نصٌّ في القول بترادُفِهِمَا[2].

وفرَّق بَيْنَهُمَا أَبُو هِلَالٍ بِأَنَّ الشِّبْهَ أخصُّ مِنَ المِثْلِ؛ مِنْ جهةِ أنَّ الشِّبْهَ يُستعمَل فِيما يُشَاهَدُ، والمِثْلَ أَعَمُّ، فتقول: هذا اللَّوْنُ شِبْهُ هذا اللَّوْنِ، بخلاف القُدْرَةِ -مَثَلًا-، فيقال: هذه القدرةُ مِثْلُ هذه، ولا يقال: شِبْهُهَا[3].

وثَمَّ وجهٌ آخَرُ في الفرق بَيْنَهُمَا: وهو أنَّ (الشِّبْهَ) لا يَقْتَضِي المشاركةَ في كلِّ الوجوهِ، بَلْ يُفِيدُ أصلَ الاشْتِرَاكِ، بخلاف (المِثْلِ) فإنَّها تَقْتَضِيها؛ بمعنى المُطَابَقَةِ[4].

النُّورُ وَالضِّيَاءُ:

فسَّر الخَلِيلُ النُّورَ بالضِّياء[5]، فلعلَّهُ يَرَى تَرَادُفَهُمَا، أو أنَّه أرادَ التَّقريبَ، على عادةِ أَصْحَابِ المعاجم في ذلكَ.

وقيل: إنَّ الضِّياءَ أَعْظَمُ وَأَبْلَغُ، بدَلِيلِ قولِ الله ﷻ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا﴾ [يونس: 5]، ومعلومٌ أنَّ الشَّمْسَ أعظمُ نورًا مِنَ الْقَمَرِ[6]، مع ما هو معروفٌ مِنْ أنَّ نُورَهُ مُسْتَمَدٌّ مِنْ نُورِهَا.

وقيلَ الْعَكْسُ؛ بدَلِيلِ قَوْلِ الله ﷻ: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[7] [النور: 35].

وفرَّق بينهما أَبُو هِلَالٍ بأنَّ الضَّوءَ: ما كان مِنْ ذَاتِ الشَّيء المُضِيء، والنُّورَ: ما كانَ مُسْتَفَادًا مِن غَيْرِهِ[8]، ولَعَلَّه فرَّق بَيْنَهُمَا بالنَّظر إلى خُصُوصِ الشَّمْسِ والقَمَرِ على النَّحْوِ الوَارِدِ في الآيَةِ المُتَقَدِّمِ ذكرُها.

---

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (مثل).
(2) يُنظر لِلْفَائدة: ابن تيميَّة، الجواب الصَّحيح لمن بدّل دين المسيح: 3/444-445.
(3) أبو هلال العسكريّ، الفروق اللُّغويَّة، ص: 294.
(4) ابن عثيمين، فتح رب البريَّة بتلخيص الحمويَّة، ص: 19.
(5) الخليل، العين: (نور).
(6) ابن الملقِّن، المعين على تَفَهُّم الأربعين، ص: 282.
(7) نجم الدِّين الطُّوفيّ، التَّعيين في شرح الأربعين، ص: 179.
(8) أبو هلال العسكريّ، الفروق اللُّغويَّة، ص: 332.

ولعلَّ أصحَّ ما قيل في الفرق بَيْنَهُمَا: إنَّ الضِّياء: ضَوْءٌ وحرارةٌ، مِثْلُ ضَوْءِ الشَّمس والسِّراج، وَالنُّورَ: ضوءٌ بِلَا حرارَةٍ، كَنُورِ القَمَرِ[1]، وهذا الذي تَنْتَظِمُ به النُّصوصُ القرآنيَّةُ إن شاء الله.

أمَّا قوَّةُ أحدهما في مقابِل الآخَرِ؛ فالغالِبُ فِي الِاسْتِعْمَالِ أَنْ يَكُونَ الضِّياءُ أقوَى، ولكنَّه ليس بِلازِمٍ.

(1) ابن رجب، جامع العلوم والحكم: 2/24-25.

﴿صُمُّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ فَهُمۡ لَا يَرۡجِعُونَ ١٨﴾ [البقرة: 18]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لـمَّا ذَكَرَ اللّٰهُ تعالى مَثَلَ الـمُنَافقين، وذكَرَ بقاءَهم في الظُّلماتِ؛ بيَّنَ المراد بظُلُمَاتِهم بأنَّها ما في آذَانِهم مِنَ الثِّقَل المانع لَهُم مِنَ الانْتِفاع بالسَّمع، وما في أَلْسِنَتِهم مِنَ الخَرسِ عن قولِ الخير، وما على أبصارهم مِنَ الْغِشاوة المانعة لَهُم مِنَ النَّظرِ إلى الخير نظرَ الاعْتِبَار، وعلى بصائرهم مِنَ الْأَغْطِيَةِ المانعة مِنَ الادِّكَار[1].

شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

1) ﴿صُمٌّ﴾: الصَّاد والميمان تدور اشتقاقاتُها عَلَى انسداد فتحات الشَّيء، والحيلولة دون النَّفاذ فيها[2].

ومِنْهُ: الصَّمَمُ في الأُذن؛ وهو ذهاب سَمْعِها، أَوِ انسدادُها وثِقَلُ السَّمع، ويقال لِلْمُتَّصِف به: أصمُّ، والأنثى: صمَّاءُ، والجمعُ: صُمٌّ[3].

وقد يُطلق الأصمُّ على مَن لا يهتدي إلى الحقِّ؛ مِن باب التَّجوُّزِ، فيكون مِن صَمَمِ العَقْلِ لا الأذن[4].

2) ﴿بُكۡمٌ﴾: أصل الباء والكاف والميم دالٌّ على الخَرَسِ[5]، ويقال لِلرَّجل: بكِمَ عَنِ الكلام؛ إذا امتنَعَ عَنِ الكلام جَهْلًا أو تَعَمُّدا[6].

ويقال لِلرَّجل الأخرس: أَبْكَمُ، ولِلْمَرْأَةِ: بَكْمَاء[7]، والجمعُ: بُكْمٌ، وخصَّ ابنُ الأثير الأبكَمَ بمَنْ وُلِدَ أخرسَ لَا يتكلَّم[8].

---

(1) البِقاعيّ، نظم الدُّرر: 1/120.
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصَّل: (صمم).
(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (صمّ)، والزّبيديّ، تاج العروس: (صمم).
(4) جمال الدِّين الفتَّنِي، مجمع بحار الأنوار: (صمم).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (بكم).
(6) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (بكم).
(7) ابن دُريد، جمهرة اللّغة: (بكم).
(8) ابن الأثير، النِّهاية في غريب الحديث: (بكم)، والسَّمِين، عمدة الحفّاظ: (بكم).

والمشهورُ: أنَّ الأبكمَ هُوَ الذي لا يَنْطِقُ ولا يَفْهَمُ، فإذا فَهِمَ معَ عدَمِ نُطقِهِ؛ فهو الأَخْرَسُ[1].

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

المنافقون صُمٌّ عن سماع الخيرِ سماعَ تدبُّرٍ وقبولٍ، بكمٌ عَنِ النُّطْقِ به، عُمْيٌ عَنْ إبصاره؛ فلمَّا تعطَّلت عندهم منافذُ الخَيْرِ والهدى؛ امتنَعَ رجوعُهم إلى الحقِّ عقوبةً مِنَ اللّه تعالى لَهُم؛ لِكَوْنِهم أَعْرَضُوا عَنِ الحقِّ بعد ما عرفوهُ[2].

الإِيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

تَرْكُ الْعَطْفِ؛ لِوُقُوعِ الْجُمْلَةِ اسْتِئْنَافًا بَيَانِيًّا:

تَهْوِيلُ حَالِ الْمُمَثَّلِ لَهُ وَتَفْظِيعُهِ

فُصل قولُ اللّهِ تعالى: ﴿صُمٌّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ﴾ عمَّا قبلَهُ؛ لعدم تأَتِّي العطفِ ههنا؛ فإنَّهُ لَا يصحُّ عطفُ المُمَثَّلِ لَهُ على حال المُمَثَّل بهِ[3].

ويَحْتَمِلُ أن يكونَ هذا استئنافًا[4] واقعًا في جوابِ سؤالٍ مقدَّر؛ وذلك أنَّه لَمَّا نُفِيَ عَنْهُمُ الإبصارُ في قول اللّه تعالى: ﴿وَتَرَكَهُمۡ فِي ظُلُمَٰتٖ لَّا يُبۡصِرُونَ﴾؛ ورد سؤالٌ: فهل يَنْطِقُون بالحقِّ، أو ينتفعون بسماعِهِ، وهل عدم إبصارهِمْ لخللٍ في ذاتِ البصَرِ أو لعارضِ الظُّلْمَةِ؟ فقال اللّه تعالى: ﴿صُمٌّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ﴾.

ولذا؛ فإنَّ هذه الآيةَ نتيجةٌ لِلتَّمْثِيلِ السَّابِقِ عليهَا؛ تُفيدُ زيادةَ التَّهْوِيل والتَّفْظِيعِ[5].

بلاغةُ حَذْفِ الْمُسْنَدِ إِلَيْهِ:

﴿صُمٌّۢ﴾ في قوله تعالى: ﴿صُمٌّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ﴾ خَبرٌ، مبتدَؤُهُ محذوفٌ، تقديره: هُمْ صُمٌّ.

وحَذْفُ المسنَدِ إِلَيْهِ (هُمْ) ههنا؛ اتُّبِعَ فيه الاستعمالُ الواردُ على تَرْكِهِ، وذلك أَنَّ حذفَه

(1) ابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 1/100، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 1/214، والشَّوكانِي، فتح القدير: 1/55.
(2) القاسميّ، محاسن التَّأويل: 1/258، والسّعدي، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 44، وجماعة من علماء التَّفسير، المختصر في تفسير القرآن الكريم، ص: 4، ونخبة من أساتذة التّفسير، التّفسير الميسّر، ص: 2.
(3) الخفاجيّ، عناية القاضي: 1/407-408.
(4) الطِّيبيّ، فتوح الغيب في الكشف عن قناع الرّيب: 2/245.
(5) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 1/52.

بُلُوغُ الصَّمَمِ وَالْبَكَمِ وَالْعَمَى لَدَى الْمُنَافِقِينَ الْغَايَةَ

هَهنا شائعٌ في كلام العرب؛ "إذَا ذكَرُوا موصوفا بأوصافٍ أو أخبارٍ؛ جَعَلُوه كأنَّه عُرِفَ لِلسَّامِعِ"[1].

فالصَّمَم والبكَمُ والعَمَى بلغَ الغايةَ عندَ المنافقين، حتَّى إنَّ هذه الأخبارَ إذا ذُكِرَتْ لَمْ تنصرِفْ إلَّا لهم؛ لِكَمالِها فِيهِمْ.

سِرُّ تَرْتِيبِ الْأَوْصَافِ فِي سِيَاقِ الْآيَةِ:

عَدَمُ انْتِفَاعِ أَهْلِ النِّفَاقِ بِحَوَاسِّهِمْ

تَرْتِيبُ هذه الأوصافِ[2] على النَّحْوِ المذكور في الآية: الصَّمَمُ، ثُمَّ البكَم، ثُمَّ العمَى؛ رُوعي فيهِ الوجودُ في الواقِعِ مِن جهةِ ردِّ المنافقين لِلْوَحْيِ المُنزَّلِ؛ فكان ذلك أنسبَ لِلسِّياق، وَوَجْهُ ذلكَ: أنَّ العبدَ يسمعُ قولَ النَّبِيِّ ﷺ: إنِّي رسولُ اللّه، فينطقُ ويقول: ما دليلُ صدقِكَ؟ فيُريهِ آيةً مِنَ الآياتِ[3]، فنفَى اللّهُ تعالى عَنْهُمُ انتفاعَهم بهذه الحواسِّ، وأثبتَ لهم أَضْدَادَها.

وَجْهُ تَشْبِيهِ الْمُنَافِقِينَ بِالصُّمِّ الْبُكْمِ الْعُمْيِ:

انْعِدَامُ آثَارِ الْإِحْسَاسِ عِنْدَ الْمُنَافِقِينَ

الصُّورة البيانيَّةُ في قولِه ﷻ: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ﴾ هيَ مِن باب التَّشْبِيهِ البليغِ، لا الاستعارةِ؛ لأنَّ المستعارَ له -وهم المنافقُونَ- مذكورٌ، وَحَذْفُ ضميرِهِ لا يُخْرِجُهُ عَن هذا؛ لأنَّه مُقدَّر، والمقدَّر في قوَّة المذكور[4].

فشُبِّه المنافقونَ في انعدام آثار الإحْسَاسِ مِنْهُمْ بالصُّمِّ البُكْمِ العُمْيِ، وهذا ليس على سَبِيلِ التَّوْزِيعِ؛ بمعنى أَنَّ بعضَهم كالأصمِّ، وبعضَهم كالأبكَم، وبعضَهم كالأعمى، وإنَّما كلُّ واحدٍ مِنْهُمْ اجْتَمَعَت فِيهِ الصِّفاتُ كلُّهَا[5].

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/313.
(2) المراد بالأوصاف ههنا بالنَّظر إلى المعنَى لا باعتبار الاصطلاح النَّحوي؛ وذلك لأنَّ الأخبارَ أوصافٌ من جهة المعنى.
(3) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/61.
(4) النَّسَفِيّ، مدارك التَّنزيل: 1/56.
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/313-314.

نُكْتَةُ التَّعْبِيرِ بِالْجُمْلَةِ الِاسْمِيَّةِ:

الجملةُ في قولِه سُبحانه: ﴿فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ جملةٌ اسميةٌ مفيدةٌ استمرارَ تلك الحالِ فِيهِمْ[1].

اسْتِمْرَارُ أَهْلِ النِّفَاقِ فِي بَاطِلِهِمْ، وإصرارُهم على غيّهم

وقُوِّيَ هذا المعنى بتَكْرَارِ الإسنادِ مرَّتين؛ فَقَدْ أُسندَ الرُّجُوع إلى ضَمير المنافقين (هُمْ) مِن إسناد الخَبَر إلى المبتدأ، وأُسندَ الرُّجوعُ إلى واوِ الجماعةِ الرَّاجعة إِلَيْهِمْ؛ مِن إسناد الفعل إلى فاعله، فَلَمَّا تكرَّر الإسنادُ تأكَّد المعنى وقَوِيَ.

تَوْجِيهُ الْمُتَشَابِهِ اللَّفْظِيِّ:

التَّنَاسُبُ السِّيَاقِيُّ أصلٌ في توجيه عِلَلِ الاختيار

خُتِمَت هذه الآيةُ بقوله: ﴿لَا يَرْجِعُونَ﴾، وجاء في آية أخرى: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: 171]؛ وذلك لمناسبة كلٍّ مقْطَعِ آيةٍ لـمَطْلَعِها.

ووجهُ ذَلِكَ: أنَّ الآية الأُولَى فيها تَمْثِيلُ حالِ المنافقين بِمُسْتَوْقِدِ النَّار قصدًا لِلإِضَاءة، فلَمَّا حصل المقصودُ؛ أَذْهَبَ اللهُ تعالى النُّور، "فلَمْ يَكُنْ لَهُ ما يَسْتَضِيءُ به ويَرْجِعُ إِلَيْهِ، فنفى عَنْهُمْ وجُودَ ما يرجعون إِلَيْهِ مِن ضِيَاءٍ يَدْفَعُ حَيْرَتَهُم"[2].

أمَّا الآية الثَّانية؛ فإنَّه مَثَّلَ حالَ الكافرين بحالِ الغَنَمِ التي يُنادَى بِهَا فلا تَسْمَعُ إلَّا صوتًا لا تَعْقِلُ معناهُ، فناسب ختْمُها بـ ﴿لَا يَعْقِلُونَ﴾[3].

فَسَلْبُ الرُّجوعِ عَنِ المُنَافقين؛ لكونهم آمنُوا ثُمَّ كفَرُوا، فلم يرجعوا إلى الإيمَان، وسَلْبُ العَقْلِ عَنِ الكُفَّار؛ لكونهم ليسوا مِن أَهْلِ البَصيرة والإيمَانِ أصلًا[4].

---

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 1/52.

(2) ابن الزُّبير الغرناطيّ، مِلاك التَّأويل: 1/25.

(3) ابن الزُّبير الغرناطيّ، مِلاك التَّأويل: 1/25-26.

(4) ابن القَيِّم، اجتماع الجيوش الإسلاميَّة: 2/67-68.

﴿أَوۡ كَصَيِّبٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٞ وَرَعۡدٞ وَبَرۡقٞ يَجۡعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمۡ
فِيٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلۡمَوۡتِۚ وَٱللَّهُ مُحِيطُۢ بِٱلۡكَٰفِرِينَ ١٩
يَكَادُ ٱلۡبَرۡقُ يَخۡطَفُ أَبۡصَٰرَهُمۡۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوۡاْ فِيهِ وَإِذَآ أَظۡلَمَ
عَلَيۡهِمۡ قَامُواْۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمۡعِهِمۡ وَأَبۡصَٰرِهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ
كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٢٠﴾ [البقرة: 19-20]

مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِما قَبْلَهُما:

المَثَلان متكاملان المثل الناري أبان ضياع أعمالهم، والمثل المائي أبان أثر القرآن في فضحهم وكشف حقيقتهم

انتقَلَ التَّمثيلُ من بيانِ جُهْدِ المنافقين في الانتفاعِ من الإسلامِ، وانقطاعِهم بعد ذلك، إلى بيانِ أَثَرِ القرآنِ في الكَشْفِ عن حقيقةِ جوهرِهم؛ فالمَثَلَان مُتكامِلان في بَيانِ حالِهم مع القُرآنِ، فَالمَثَلُ النَّاريُّ أَبَانَ عن ضَياعِ جهودِهم وبعثرةِ أفعالِهم الصَّادرةِ عنهم في محاولةِ التَّخفّي وَرَاءَ ما يقومون به من أعمالٍ، والمَثَلُ المائيُّ أبَانَ عن أَثَرِ القُرآنِ في فَضْحِهم وتَشخِيصِ صِفاتِهم، وهذا من تكامل التَّمثيل.

وفي ذلك قال أبو السّعود: "تَمْثِيلٌ لِحالِهِمْ إثْرَ تَمْثِيلٍ؛ لِيَعُمَّ البَيانُ مِنها كُلَّ دَقِيقٍ وجَلِيلٍ؛ ويُوَفّى حَقُّها مِنَ التَّفْظِيعِ والتَّهْوِيلِ؛ فَإنَّ تَفَنُّنَهم في فُنُونِ الكُفْرِ والضَّلالِ؛ وتَنَقُّلَهم فِيها مِن حالٍ إلى حالٍ؛ حَقِيقٌ بِأنْ يُضْرَبَ في شَأْنِهِ الأمْثالُ؛ ويُرْخى في حَلْبَتِهِ أعِنَّةُ المَقالِ؛ ويُمَدَّ لِشَرْحِهِ أطْنابُ الإطْنابِ؛ ويُعْقَدَ لِأجْلِهِ فُصُولٌ وأبْوابٌ؛ لِما أنَّ كُلَّ كَلامٍ لَهُ حَظٌّ مِنَ البَلاغَةِ؛ وقِسْطٌ مِنَ الجَزالَةِ والبَراعَةِ؛ لا بُدَّ أنْ يُوَفّى فِيهِ حَقُّ كُلٍّ مِن مَقامَيِ الإطْنابِ والإيجازِ؛ فَما ظَنُّكَ بِما في ذُرْوَةِ الإعْجازِ مِنَ التَّنْزِيلِ الجَلِيلِ؛ ولَقَدْ نُعِيَ عَلَيْهِمْ في هَذا التَّمْثِيلِ تَفاصِيلُ جِناياتِهِمْ؛ وهو عَطْفٌ عَلى الأوَّلِ؛ عَلى حَذْفِ المُضافِ لِما سَيَأْتِي مِنَ الضَّمائِرِ المُسْتَدْعِيَةِ لِذَلِكَ"[1].

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/52.

شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

1) ﴿كَصَيِّبٍ﴾: الصَّاد والواو والباء تدلُّ اشتقاقاتُهَا على نُزُول شَيْءٍ واستقرارِهِ في قرارِهِ[1]، وَمِنْهُ قولُهم: صَابَ المطرُ يَصُوبُ؛ إذا نزل مِنَ السَّماء[2]، والصَّوب: المطر، والصَّيِّبُ: سَحابٌ ذو صَوْبٍ[3]، والمرادُ بالصَّيِّبِ في قولِه تعالى: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ﴾: المطرُ[4]، وعَلَيْهِ أكثرُ أهلِ التَّفسير[5].

2) ﴿ٱلصَّوَٰعِقِ﴾: تَصَارِيف الصَّاد والعين والقاف تَدُلُّ على الصَّوْتِ الشَّديد[6]، ومِنْهُ: الصَّاعقة والصَّعْقة؛ وهي: الصَّيحَةُ يُغْشَى على مَن يَسْمعهَا أَو يَمُوتُ[7]، وتُسْتَعْمَلُ في خُصُوص: صَوتِ الرَّعدِ الشَّديدِ الذي يُغشى على الإِنْسَانِ مِنْهُ[8].

وتُطلق على قِطْعَةِ النَّار النَّازلة مِنَ السَّماءِ[9]، فما تُصِيبُ شَيْئًا إلَّا دكَّته وأَحْرَقَتْهُ[10].

3) ﴿مُحِيطٌ﴾: أصلُ هذهِ المَادَّةِ -وهي الحَاءُ والواو والطَّاء- يدلُّ على شيءٍ يُطيفُ بشيءٍ[11]، ومِنْهُ قولُهم: أَحَاطَ القومُ بِالبَلَدِ؛ إذا اسْتَدَارُوا بجِوَانِبِه[12]، وأَحاطَ بِهِ الأَمْرُ؛ إذا أخذه مِن جميع جوانبِهِ، فلَمْ يَكُنْ مِنْهُ مَخْلَصٌ[13].

ومِنْهُ اسمُ اللّه (المُحِيط)؛ مِن قولهم: أحاطَ بالشَّيءِ؛ إذا استولَى عَلَيْهِ، وضمَّ جميعَ نواحِيه حَتَّى لا يُمكِن فوتُهُ ولا التَّخَلُّص مِنْهُ، فاللّه محيطٌ بالأشياءِ كلِّهَا؛ لأنَّها تحتَ قُدرتِه، لا يُمكنها الخُرُوج عَن إرادتِهِ فِيهَا، ولا يَمْتَنِعُ عَلَيْهِ مِنْهَا شيءٌ[14].

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (صوب).
(2) الهرويّ، الغريبين في القرآن والحديث: (صوب).
(3) الفراهيدي، العين: (صوب).
(4) ابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم: (صوب).
(5) ابن جرير، جامع البيان: 1/334-336، والماورديّ، النُّكت والعيون: 1/81.
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (صعق).
(7) الأزهري، تهذيب اللّغة: (صعق).
(8) أبو عُبيد الهرويّ، الغريبين في القرآن والحديث: (صعق).
(9) ابن جُزيّ، التَّسهيل لعلوم التَّنزيل: 1/73.
(10) الفيُّوميّ، المصباح المنير: (صعق).
(11) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حوط).
(12) الفيُّوميّ، المصباح المنير: (حوط).
(13) الزَّبيديّ، تاج العروس: (حوط).
(14) أبو القاسم الزَّجَّاجيّ، اشتقاق أسماء الله، ص: 46.

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

وَصْفُ حال المنافقين إذا سمعوا القرآن

وَلِلْمُنَافِقِينَ حالٌ أخرى؛ وهي حالُهم إذا سَمِعُوا القُرآن وأوامرَه ونَوَاهِيَه وزَوَاجِرَهُ -وهم في شَكٍّ وكُفْرٍ ونفاقٍ-، فروَّعهم وَعِيدُه، وأَزْعَجَتْهُم وُعُودُه، فجعلوا يَسُدُّون آذانَهم كراهةً لَهُ وإعراضًا عَنْهُ، ولكنَّ مُحْكَمَ القرآنِ يَدُلُّ على عَوْرَاتِهم، وهُم كُلَّما ظَهَرَ لَهُمْ شيءٌ مِنَ الإِيمَانِ اسْتَأْنَسُوا به، إلَّا أنَّ ذلك لا يدومُ، فَتَعْتَرِضُهُمُ الشُّكوكُ؛ فتُظْلِمُ عَلَيْهِمْ قُلُوبُهُمْ، فيَقِفُون حائرين.

فهذه الحالةُ تُشْبِهُ حالَ قومٍ نزلَ عَلَيْهِمْ مطرٌ غزير مِن سحابٍ، تُصاحبهُ ظلماتٌ -ظلمةُ اللَّيلِ، وظلمة السَّحاب، وظلمة المطر-، ورعدٌ قاصِف وبرقٌ لَامِعٌ، فجعلوا أصابعَهم في آذانهم بسبب الصَّوَاعِق المُحْرِقَة خشيةَ الهلاكِ، واللّه ﷻ محيطٌ بِهِمْ قُدْرَةً وعلمًا، فلا يَفُوتُونَه ولا يُعجِزُونَهُ.

يكَادُ البَرْقُ مِن شدَّة لمعانِهِ يَسْلُبُ أَبْصَارَهم، فإذا أضاء لَهُمُ الطَّريقَ مَشَوْا في ضوئِه، وإذا ذهب ضوؤُهُ أظلمتِ الطَّريقُ عَلَيْهِمْ، ووقَفُوا في أماكنهم، ولولا أَنَّ اللّه تعالَى أَمْهَلَهُم؛ لَسَلَبَ سمعَهم وأبصارَهُمْ، وهو سُبْحَانَهُ قَدِيرٌ على كُلِّ شيءٍ[1].

الإِيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

اسْتِعْمَالُ ﴿أَوْ﴾ لِمُطْلَقِ التَّسَاوِي عَلَى طَرِيقَةِ المَجَازِ المُرْسَلِ:

اسْتِقْلَالُ كُلٍّ مِنَ المَثَلِ النَّارِيِّ وَالْمَائِيِّ بِوَجْهِ الشَّبَهِ

أَصْلُ (أَوْ) لِلْحُكْمِ بِتَسَاوِي أَمْرَيْنِ أو أكثرَ في الشَّكِّ، ثُمَّ تُوُسِّعَ فِيهَا؛ فاستُعْمِلَتْ لِلتَّساوي مِن غير شكٍّ[2]، وذلك على طريقةِ المجاز المُرْسَل، علاقَتُهُ: الإطلاقُ والتَّقْيِيد؛ فكانت (أَوْ) لِلتَّسَاوي في الشَّكِّ، فجُرِّدَت عن قَيْدِ الشَّكِّ، واستُعْمِلَت في مُطلق التَّسَاوِي.

(1) السّعدي، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 44، وجماعة من علماء التَّفسير، المختصر في تفسير القرآن الكريم، ص: 4، ونخبة من أساتذة التّفسير، التّفسير الميسّر، ص: 4.

(2) الزَّمخشريّ، الكشَّاف: 1/81.

فـ (أَوْ) في قولِه: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ﴾: تُشْعِرُ بتسَاوِي المَثَلَيْنِ -النَّاريِّ والمائيِّ- في الاِسْتِقْلَال بوجه التَّشْبِيه، فبأيِّهِمَا وقع التَّمثيل فالأمرُ صحيحٌ، وكذا إن وقعَ التَّمْثِيلُ بِهِمَا معًا[1].

نكتَةُ حَذْفِ المُضَافِ:

قولُه تعالى: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ﴾ فيه إيجازٌ بالحذفِ؛ فقد حُذفَ المضافُ، والتَّقدير: أو كأصحابِ صَيِّبٍ[2]، وقرينةُ الحذفِ حاليَّةٌ؛ إذْ لا يُرادُ تمثيلُهم بنَفْسِ الصَّيِّبِ كما هُو ظَاهِرٌ.

سِرُّ تَنْكِيرِ (صَيِّبٍ):

عَظَمَةُ الصَّيِّبِ النَّازِلِ مِنَ السَّمَاءِ

تَنْكِيرُ (صَيِّبٍ) للتّعظيم وبيان النَّوْعِ؛ وهما متآيِلَان؛ فبيانُ النَّوْعِ يُقْصَدُ به أنَّه نوعٌ هائلٌ كأنَّه جِنْسٌ مُسْتقلٌّ عنِ المعهودِ مِنْهُ، وهذا يَؤُولُ إلى معنى التَّعْظِيم[3].

فَائِدَةُ ذِكْرِ قَيْدِ: ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾:

عُمُومُ الصَّيِّبِ وَاشْتِمَالُهُ عَلَى الْأَهْوَالِ؛ بِحَيْثُ لَا يُمْكِنُ دَفْعُهُ

قولُه سبحانه عَنِ الصَّيِّبِ بأنَّه ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ إطْنَابٌ؛ إذِ المَطَرُ لا يكون نَازِلًا إلَّا مِنْهَا، وذلك لِأَرْبَعِ نِكَاتٍ:

إحداهَا: الإشارة إلَى أنَّه أمرٌ لا يَقْدِرُون عَلَى دَفْعِهِ؛ وذلك لِما عُهِدَ من كلام بلغاء العربِ تَعْبِيرُهم عمَّا يقع على النَّاس مِمَّا لا قِبَلَ لهم بدَفْعِهِ بأنَّه نزل مِنَ السَّماء[4].

ثَانِيهَا: بيانُ أَنَّ الصَّيِّبَ عامٌّ مُطْبِقٌ، قد أخذَ بآفاقِ السَّماء، وهذا لا يُفيدُهُ لو قيل: (أو كَصَيِّبٍ فِيهِ ظُلُمَاتٌ)[5].

ثَالِثُهَا: التَّنبيه على كثرة ما فيهِ مِنَ الهَوْلِ؛ لأنَّ حصُولَ الألَمِ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السَّليم: 1/52.
(2) ابن الجوزيّ، زاد المسير: 1/39.
(3) الخفاجيّ، عناية القاضي: 1/392.
(4) محمّد رشيد رضا، تفسير المنار: 1/146.
(5) الرازيّ، التّفسير الكبير: 2/317.

بِشَيْءٍ يَنْزِلُ مِنْ مَوْضِعٍ شديدِ الارْتِفَاعِ، أشدُّ مِن حصُولِهِ مِمَّا يَنْزِلُ مِنْ موضعٍ دونَهُ في الارتفاع[1].

وكلٌّ مِنَ هذه النِّكات الثَّلاثِ يُعدُّ وجهًا من أوجه تعظيم الصَّيِّبِ، إضافةً إلى تَنْكِيرِ لفظه.

رابِعُهَا: أنَّه لِزِيَادَةِ اسْتِحْضَارِ صُورةِ الصَّيِّبِ في هذا المَثَلِ؛ فإنَّ المَقَامَ مقامُ إطنابٍ[2].

اخْتِصَاصُ السَّمَاءِ الْأُولَى بِالْمَطَرِ النَّازِلِ عَلَى أَهْلِ الْأَرْضِ

اللَّامُ فِي ﴿ٱلسَّمَآءِ﴾ لِلْعَهْدِ:

السَّماء في قوله ﷻ: ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ لِلْعَهْدِ، وهي السَّماء الأولَى؛ إذْ لا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاوَاتِ الأخرى على أَهْلِ الأرضِ مَطَرٌ.

استجماعُ معاني التَّهويلِ والتَّرهيب

فائدةُ التَّنكيرِ في الكلماتِ الآتيةِ: ﴿ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ﴾:

توالت الكلمات الآتية: ﴿ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ﴾ بالتزام التّنكير لإفادةِ معاني التَّهويل والتَّرهيب؛ والمعنى: فيهِ ظُلمات شديدةُ السَّوادِ كأنَّها اللَّيل، ورعدٌ يُصِمُّ الآذانَ، وبرقٌ يَخْطَف الأبصار، ولدفع تَوَهُّم العموم[3].

كُلٌّ مِنَ الرَّعْدِ وَالْبَرْقِ نَوْعٌ وَاحِدٌ، أَمَّا الظُّلُمَاتُ فَأَنْوَاعٌ

جَمْعُ الظُّلُمَاتِ وَإِفْرَادُ الرَّعْدِ وَالْبَرْقِ:

جُمِعتِ الظُّلماتُ وأُفْرِدَ الرَّعد والبرقُ في قوله ﷻ: ﴿فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ﴾؛ لأنَّ الظُّلماتِ أنواعٌ: ظلمةَ السَّحابِ، وظُلمةَ المطر، وظلمة البُعد، بخلافِ الرَّعد والبرق؛ فَهُمَا نوعٌ واحدٌ[4]؛ ولِأَنَّ الرَّعد والبرقَ في الأصل مَصْدَرَانِ؛ يقال: رَعَدَتِ السَّماء رعدًا، وبَرَقَتْ بَرْقًا، فَرُوعِيَ فِيهِمَا حُكْمُ أصلِهما فتُرِكَ جَمْعُهُما وإنْ كان المرادُ في المعنى الْجَمْعَ[5].

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/63.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/317.
(3) الزَّمخشريّ، الكشَّاف: 1/83، وأبو حيَّان، البحر المحيط: 1/140، وطنطاوي، التَّفسير الوسيط: 1/66.
(4) الآلوسّي، روح المعاني: 1/174.
(5) الزَّمخشريّ، الكشَّاف: 1/83.

نُكْتَةُ تَرْتِيبِ الظُّلُمَاتِ وَالرَّعْدِ وَالْبَرْقِ:

تَرْتِيبُ هذه الألفاظِ في قوله سبحانه: ﴿فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعۡدٞ وَبَرۡقٞ﴾ رُوعِيَ فيه اعتبارُ الكثرة في الوجودِ؛ فإنَّ الظَّلام موجودٌ في اللَّيل معَ كلِّ يومٍ، ثُمَّ الرَّعْدُ أكثر وجودًا مِنَ البرقِ؛ إذِ البرقُ لا يكون إلَّا مع رعدٍ، بخلاف الرَّعدِ فقد يكُونُ ولا برقَ مَعَهُ[1].

تَقْدِيمُ الغَايَةِ عَلَى الْوَسِيلَةِ، وَالِابْتِدَاءُ بِالْوَسِيلَةِ الْأَوْضَحِ

بَلَاغَةُ الِاسْتِئْنَافِ الْبَيَانِيِّ:

فُصِلَ قولهُ تعالى: ﴿يَجۡعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمۡ فِيٓ ءَاذَانِهِم﴾ عَمَّا قبلُ؛ لأنَّه استئنافٌ بيانيٌّ، فكأنَّه لَمَّا ذَكَرَ ما يُشْعِر بالشِّدَّةِ والهولِ، قيل: ما حالُهم مع هذه؟ فجاء الجوابُ: ﴿يَجۡعَلُونَ﴾[2].

بَيَانُ حَالِ الْمُنَافِقِينَ مَعَ الشَّدَائِدِ

فَائِدَةُ اخْتِيَارِ التَّعْبِيرِ بِالْجَعْلِ:

آثرَ النَّظمُ الكريمُ التَّعبير بمادَّةِ (جعل) فَقَالَ اللهُ سُبْحَانَهُ: ﴿يَجۡعَلُونَ﴾ دون (يُدْخِلُونَ) وهو ما يقتضيهِ الظَّاهرُ؛ فإنَّ الأصابع تُدْخَلُ في الآذَانِ ولا تُجْعَلُ؛ وذلكَ لِبَيَانِ شدَّة الْتِبَاسِ الأصابعِ بالآذان، حتَّى أَصْبَحَتْ جُزْءًا مِنْهَا، وهو ما يُبَيِّنُ شدَّةَ الخَوْفِ والهَلَع لدى أُولَئِكَ الجُبَنَاء، فَهُمْ لا يُدخِلُون أصابعَهم في آذانِهم فَحَسْبُ، بل يَجْعَلُونَهَا فِيهَا دُونَ تَحْرِيكٍ أَوْ زَحْزَحَةٍ، بخلاف الإدْخَالِ؛ فإنَّه يُفيد مُجَرَّدَ معنى إدخالِ الأصابعِ في الآذان، وهذا المعنى المجرَّدُ لا يُعْطِي دلالة فِعْلِ الْجَعْلِ.

بَيَانُ شِدَّةِ الْخَوْفِ وَالهَلَعِ الَّذِي يُصِيبُ الْمُنَافِقِينَ

نكتةُ التَّعْبِيرِ بِالْأَصَابِعِ دُونَ الْأَنَامِلِ:

الْأَصَابِعُ في قوله تعالى: ﴿يَجۡعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمۡ فِيٓ ءَاذَانِهِم﴾ يُرَادُ بها الأنامِلُ، فَهُوَ مجازٌ مُرْسَلٌ، علاقتُه الكُلِّيَّةُ؛ والقرينَةُ: اسْتِحَالَةُ إدخال الْإِصْبعِ كلِّها في الأُذُنِ[3].

الْمُبَالَغَةُ فِي الْإِعْرَاضِ عَنِ الْحَقِّ بِسَدِّهِمْ مَسَامِعَهُمْ

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/63.
(2) البيضاويّ، أنوار التَّنزيل: 1/51.
(3) القِنَّوجي، فتح البيان: 1/101.

ونُكتةُ المجاز ههنا: الإشارةُ إلى شدَّةِ جَعْلِها في الآذانِ، وقُوَّةِ الشَّدِّ لَهَا، حتى كأنَّهم يَجْعَلُونَ الْإِصْبَعَ كُلّها في الأذن[1]، أو أنَّ ذلك لِلْمُبَالَغَةِ في إرادةِ سَدِّ مَسَامِعِهِمْ بِحَيْثُ لو أمكنهم لَأَدْخَلُوا الْإِصْبَعَ كُلَّها[2].

سِرُّ جَمْعِ (الْأَصَابِعِ):

شِدَّةُ حَيْرَةِ الْمُنَافِقِينَ

جُمِعَتِ الأصابعُ تَنْبِيهًا على شِدَّة حَيْرَتِهم وخَوْفِهم، وأنَّه لقلَّةِ تأمُّلهم لم يجعلُوا الإصبع المعهودَ إدخالُها في الأذنِ وهِيَ السَّبَّابة، بل تارةً يجعلون إصبعًا وتارة يجعلون أُخْرَى، حتَّى إنَّهم -لغلبة الحَيْرَةِ على عقُولِهم- ربَّما حاولوا جعلَ الجميعِ[3].

ويؤيِّدُ حيرتَهمُ الشَّديدةَ ظنُّهم أنَّ وضعَ الأصابع في الآذَانِ قد يَدْفَعُ عَنْهُمُ الموتَ[4].

أو أنَّ جمعَ الأصابعِ جاءَ مقابِلًا لجمع الآذانِ في قوله: ﴿يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِم﴾، والقاعدةُ في هذا: أَنَّ مقابلة الجمع بالجمع تقتضي القِسْمَةَ آحادا، والمعنى: يجعلُونَ كُلَّ إِصْبعٍ في أُذُنٍ، ومِنَ المعلومِ أنْ ليس لكلِّ واحدٍ مِنْهُمْ إلَّا أُذُنَانِ اثْنَتَانِ.

نُكْتَةُ وَضْعِ الْمُظْهَرِ مَوْقِعَ الْمُضْمَرِ:

الْكُفْرُ أَعْظَمُ أَسْبَابِ اسْتِحْقَاقِ الْعَذَابِ

وَقَعُ الْمُظْهَرُ مَوْقِعَ الْمُضْمَرِ في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ مُحِيطُۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾؛ فلم يقل: (وَاللّه محيط بِهِمْ)؛ لِنُكْتَتَيْنِ:

إِحْدَاهُما: إفادةُ التَّرْهِيب[5].

والأُخْرَى: الإعلامُ بِسَبَبِ استحقاقِهِمُ العذَابَ؛ وهو كُفْرُهُم[6].

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/63.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/195.
(3) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/63.
(4) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 1/150.
(5) الطُّوفِيّ، الإشارات الإلهيَّة، ص: 44.
(6) طنطاوي، التَّفسير الوسيط: 1/67، والهرريّ، حدائق الرَّوح والرَّيْحَان: 1/221.

فَائِدَةُ الْإِطْنَابِ بِالِاعْتِرَاضِ:

تَسْلِيَةُ اللهِ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ ﷺ وَالْمُؤْمِنِينَ

جُمْلَةُ ﴿وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾ مُعْتَرِضَةٌ بين أجزاء المَثَلِ: ما سبق مع قوله: ﴿يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ﴾، فَفِيهِ إِطْنَابٌ بالاعْتِرَاضِ، وفائدتُهُ: تَسْلِيَةُ النَّبِيِّ ﷺ والمؤمنين[1].

فَصْلُ الْجُمْلَةِ عَمَّا قَبْلَهَا؛ لِشِبْهِ كَمَالِ الِاتِّصَالِ:

بَيَانُ حَالِهِمْ مَعَ الْبَرْقِ أَوْ مَعَ الصَّوَاعِقِ الْمَقْرُونَةِ بِهِ

فُصِلَ قولُه تعالى: ﴿يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ﴾ عمَّا قبلُ؛ لِمَا بَيْنَهُمَا من شِبْهِ كَمَالِ الاتِّصال، وهو المُسَمَّى: الاستئنافَ البيانيَّ، وذلك أنَّ الجملة واقعةٌ جوابًا عن سؤالٍ مقدَّر يُفْهَمُ مِمَّا سبق، وهو أن يقال: ما حالُهم مع ذلك البَرْقِ؟ فجاء الجوابُ: ﴿يَكَادُ ٱلْبَرْقُ﴾[2].

ويَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ تَقْدِيرُ السُّؤال: ما حالُهم مع تلك الصَّواعق؟ فكان الجواب: ﴿يَكَادُ ٱلْبَرْقُ﴾، وتكونُ اللَّامُ الْعَهْدِيَّةُ في (البرق) عوضًا عَنِ المُضاف إِلَيْهِ، والمعنى: يكاد بَرْقُهَا، أي: بَرْقُ الصَّواعق.

فالصَّواعِقُ المَسْؤُولُ عَن حَالِهِم معَهَا هي الصَّواعق المقرونَةُ بالبرق، وإِلَّا لم يَتَطَابَقِ الجوابُ مع السُّؤالِ[3].

تَعْرِيفُ ﴿ٱلْبَرْقُ﴾ لِلْعَهْدِ الذِّكْرِيِّ الصَّرِيحِيِّ:

اللَّام في (البرق) مِن قول الله جَلَّ وعلا: ﴿يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ﴾ لِلْعَهْدِ الذِّكْرِيِّ الصَّريحيِّ؛ إِذْ سبق ذكرُ مدخولِ اللَّام صراحةً في قوله تعالى: ﴿فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ﴾[4].

إِيثَارُ اسْتِعْمَالِ صِيغَةِ الْفِعْلِ الْمُضَارِعِ:

المضارع في (يكاد) يُساعد على اسْتِحْضَارِ الْحَالِ لِبَيَانِ قُوَّةِ الْبَرْقِ

آثَرَ النَّظم الكريمُ التَّعْبِيرَ بالفعْلِ المُضَارِعِ ﴿يَكَادُ﴾ دُونَ (كَادَ)؛ لأنَّ المقصودَ اسْتِحْضَارُ قوَّةِ البَرْقِ وأثرِه في سَلْبِ الأَبْصَار؛

(1) الهرريّ، تفسير حدائق الرّوح والرّيحان: 1/197.
(2) الزَّمخشريّ، الكشَّاف: 1/84.
(3) الخفاجيّ، عناية القاضي: 1/402.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 1/146.

لذلك آثَرَ فعلَ المُقارَبَة، أمَّا الفعلُ المُضارِعُ ﴿يَخْطَفُ﴾ الواقِعُ في خَبَرِ (يكَادُ) فهو شَرْطٌ فِيهَا؛ تَنْبِيهًا على أنَّه المقصودُ بِالْقُرْبِ[1].

بلاغةُ فَصْلِ الْجُمْلَةِ عَمَّا قَبْلَهَا:

أَثَرُ الِاسْتِئْنَافِ الْبَيَانِيِّ فِي إِبْرَازِ مُتَابَعَةِ الْمُتَلَقِّي وَشَوْقِهِ

وقَعَتْ جملة ﴿كُلَّمَآ أَضَآءَ﴾ استئنافًا بيانيًّا، وهو الاستئنافُ البيانيُّ الثَّالثُ في هذا السِّياقِ؛ فالجملة واردةٌ جوابًا لِسُؤَالٍ يُفهَمُ مِمَّا قبلُ، وتقديرُهُ: كيف يَصْنَعُونَ في حالَيْ لَمْعِ البرقِ واختفائِهِ؟ فجاء الجواب: ﴿كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم﴾[2] لِبَيَانِ الْحَالِ وإبرازِ الشَّوْقِ والمتابعةِ في ذِهْنِ المُتَلَقِّي، فَهُوَ لَيْسَ إخبارًا مُجَرَّدًا، بل هُوَ جوابٌ عمَّا يجولُ في النَّفس مِن تشوُّقٍ لمعرفةِ موقفِ المنافقين ممَّا يَنْزِلُ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّماء.

اخْتِيَارُ الْأَدَوَاتِ النَّحْوِيَّةِ فِي الْبَلَاغَةِ الْقُرْآنِيَّةِ:

أَثَرُ الْأَدَاةِ النَّحْوِيَّةِ فِي إِظْهَارِ الْمَعَانِي النَّفْسِيَّةِ وَالدَّلَالَاتِ الْخَفِيَّةِ

لِلْأَدَاةِ النَّحويَّة في الاستعمالِ القرآنيِّ بلاغةٌ عاليةٌ في الكَشْفِ عَنْ مَضَامِينِ المعَاني، ومِنْ ذَلِكَ استعمالُ ﴿كُلَّمَآ﴾ مع الفعلِ ﴿أَضَآءَ﴾، و﴿إذا﴾ مع الفعلِ ﴿أَظْلَمَ﴾؛ إذْ تركَّزَت دلالة ﴿كُلَّمَآ﴾ على إظهارِ حِرصِهم في انتهازِ الفُرصَة لِلْمَشْيِ والمُضيِّ[3]، فَهُمْ يَتَرَقَّبون أدنَى فرصة لِيَسْلُكُوا مِنْهَا سبيلًا، بخلاف (إذَا)؛ فَإِنَّها تفيدُ تحقُّقَ التَّوقُّفِ عَنِ المَشْيِ، وهذا يَكْشِفُ ما يَجُولُ في نفوسِهم مِنْ طَلَبِ الْمَهْرَبِ وَالِانْفِلَاتِ؛ إذْ همُّهم قائمٌ على ذلِكَ.

اخْتِلَافُ مَعْنَى فِعْلِ الْإِضَاءَةِ بِاعْتِبَارِ التَّعَدِّي وَاللُّزُومِ:

بَدِيعُ اسْتِعْمَالِ السِّيَاقِ الْقُرْآنِيِّ لِلْفِعْلِ الْوَاحِدِ بِتَحْقِيقِ مَعْنَيَيْهِ بِتَكَامُلٍ دِلَالِيٍّ

يَحْتَمِلُ أن يكونَ الفعلُ ﴿أَضَآءَ﴾ متعدِّيًا، والمعنَى: كلَّما نوَّر لَهُمْ مَمْشًى وَمَسْلَكًا أخَذُوهُ، والمفعولُ حينَئِذٍ يكُونُ مَحْذُوفًا، وَيَحْتَمِلُ أن يَكُونَ لازِمًا، والمَعْنَى: كلَّما لَمَعَ لَهُمْ مَشَوْا في مَطْرَحِ نورِه وملقى ضَوْئِه[4].

(1) البيضاويّ، أنوار التَّنزيل: 1/52.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/86.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/86.
(4) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/86.

فإذا كان فعلُ ﴿أَضَآءَ﴾ متعدِّيًا؛ فإنَّهُ يفيدُ معنى تَنْوِيرِ المَمْشَى والمَسْلَك، وإذا كان لازمًا؛ فيفيدُ معنى اللَّمْعِ الخاطِف، وبين المعنَيَيْن تكاملٌ بديعٌ، وهو الكشفُ عَنْ حِرْصِ المُنَافِقِين الشَّديد في البحثِ عَنْ أَدْنَى سببٍ لِلْخُرُوجِ مِنْ مَأْزِقِهم، سواءٌ أكان تَنْوِيرًا لِمَمْشَاهُمْ، أَمْ كان لمعًا خاطفًا يأتيهم مِنْ فَوقِهم.

سِرُّ التَّعْبِيرِ بِفِعْلِ ﴿أَضَآءَ﴾ دُونَ مُرَادِفَاتِهِ:

جاءَ التَّعبير هُنَا بالإضاءةِ دُونَ الْإِنَارَة حيث قال تعالى: ﴿كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم﴾ دون (أنارَ لهم)؛ لنُكْتَتَيْنِ[1]:

إحداهما: زِيَادَةُ التَّخويف؛ فإنَّ شدَّة الضَّوء عقب شِدَّة الظُّلمةِ أَدْخَلُ في التَّخويفِ.

والأُخرى: الإيماءُ إلى أنَّها ظلمةٌ عظيمةٌ لا يُزيلُها إلَّا الضَّوءُ الشَّديد دون النُّورِ القليلِ.

امْتِزَاجُ الْمُفْرَدَةِ بِالسِّيَاقِ وَأَثَرُهُ فِي تَوْلِيدِ الْمَعَانِي السِّيَاقِيَّةِ

ويؤيِّدُ هاتين النُّكْتَتَيْنِ قولُه بعدُ: ﴿وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ﴾ دون (وإذَا ذهب الضَّوءُ عَنْهُمْ)؛ لأنَّ الإخبار بذَهَابِ الضَّوء يحصلُ مِنْهُ مُطْلَقُ الظُّلمةِ، وآثر النَّظم القرآنيُّ الإتيانَ بـ ﴿وَإِذَآ أَظْلَمَ﴾؛ إيماءً إلى شِدَّة الظُّلمة؛ فالأمر دائرٌ بين شِدَّةِ ضوءٍ أو شِدَّة ظلمةٍ، وهذا أشدُّ في التَّخويف.

ولذا قال سبحانه: ﴿أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ﴾ لِبَيَانِ أنَّ الإظلامَ ليس مجرَّد ذهابِ الضَّوْء، بل كان عقوبةً مقصودة، وأكَّد هذا المعنى: المقابلةُ بين ثلاثةِ معانٍ:

الأول: ﴿أَضَآءَ﴾ و ﴿أَظْلَمَ﴾.

والثاني: ﴿لَهُم﴾ و﴿عَلَيْهِمْ﴾.

والثالث: ﴿مَّشَوْاْ﴾ و﴿قَامُواْ﴾.

فهذه المعاني الثَّلاثة المتقابلة دالَّةٌ على شدَّةِ ما هُم فيه مِن الظُّلمةِ والمَخَاوِف.

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/63.

بَلَاغَةُ حَذْفِ مَفْعُولِ الْمَشِيئَةِ:

تَشْوِيقُ الْمُتَلَقِّي وَتَـشْـوِيـرُ فِـكْـرِهِ لِمَعْرِفَةِ الْجَوَابِ

حَذْفُ مفعولِ المشيئةِ بعد الشَّرط شائعٌ في كلام العرب[1]، وقصدُهم مِن ذلك: البيانُ بعد الإبهام[2]، فيحذفُونَ المفعولَ في الشَّرط؛ لدلالة الجزاء عَلَيْه، فقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ﴾ أي: ولو شاء اللّه إذهابَ سَمْعِهم لذَهَبَ بِهِ.

وهذَا الحذفُ يَبْعَثُ في النَّفْسِ تشويقًا لمعرفة الجوابِ، فإذا جاء الجوابُ؛ وقع على نَفْسٍ مُسْتَشْرِفَةٍ لَهُ، فيتمكَّن مِنْهَا غايةَ التَّمكُّن.

بَلَاغَةُ الجَمْعِ وَالإِفْرَادِ فِي المَثَلِ القُرْآنِيِّ:

ارْتِبَـاطُ الْجَمْعِ بِكَثْرَةِ الْمُتَعَلِّقَاتِ، وَارْتِبَـاطُ الْإِفْـرَادِ بِالْوَحْدَةِ

جاء السَّمعُ مفردًا والبصرُ جمعًا في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْۚ﴾؛ ليتَّسقَ مع ما يُقرِّرُه المثلُ القرآنيُّ مِن معانٍ؛ فالإضاءَةُ والإظلامُ والمشيُ والقيامُ مِن توابعِ البَصَر، وتَكْرَارُ الإضاءةِ بدَرَجَاتِهَا المتفاوتَةِ يدُلُّ على تَكْرَارِ الإبْصَارِ بدَرَجَاتٍ مُتَفَاوِتَةٍ، وطولُ الإضاءَةِ يُؤثِّر في زمن المَشْيِ، فكان البصرُ متعدِّدًا باعتبار تعدُّد متعلِّقاته؛ ولذلك جُمِع، بخلاف السَّمع، فإنَّه واحدٌ باعتبارِ المَسْمُوعِ والسَّامع.

من ناحية أخرى، السَّمع مصدرٌ، والمصادرلا يحْسُن جمعها، والأبصار يراد بها الأعين الباصرة. والسَّمع مركزي تصل إليه الأصوات من كل الجهات، والعين لا تبصر الشّيء إلا إذا اتَّجَهَت إليه، وجمع الأبصار يتناسب مع توجّهها للجهات المختلفة.

نُكْتَةُ تَقْدِيمِ السَّمْعِ عَلَى الْبَصَرِ:

أَهَمِّيَّةُ السَّمْعِ بِاعْتِبَارِ تَلَقِّي الْوَحْيِ

قُدِّمَ السَّمعُ عَلَى الأَبْصارِ؛ باعتبارِ أهميَّته في تلقّي المسموع وهو الوحي، ولِلإشَارَة إلى مَرْتَبَتِهِ وأثرِه في فَهْم الحقِّ والبَاطِل، وكان مقتضَى الظَّاهرِ تقديمَ البَصَرِ باعتبارِ ذِكْرِ الإظلامِ والإضاءةِ،

(1) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 1/87.

(2) السّبكّي، عروس الأفراح: 1/374-375.

وهما من متعلِّقاته؛ وسببُ ذلك دَفْعُ وَهْمٍ قد يَظنُّه ظانٌّ؛ وهو أنَّ البَصَرَ مُقدَّمٌ على السَّمعِ في هذا المَثَلِ على الخُصوصِ؛ فأبانَ تقديمُ السَّمعِ على البَصَر أنَّه المقدَّمُ؛ لأنَّه صاحِبُ الأهميَّة البَالِغة، وأنَّ البَصَرَ يبقى تابعًا له في الأهميّة.

بَلَاغَةُ الْفَصْلِ بِالْفَاصِلَةِ:

الفاصلة مؤكّدة لمضمون المثل، ومهدّدة للمنافقين

جاءَت الفاصلةُ مبرزةً قدرةَ اللّه تعالى على كلِّ شيء في نهاية المَثَل، فكانت بِمَنْزِلَةِ الكلَامِ المؤكِّد لمضمون المَثَل الْكُلّيِّ؛ ولذا فُصِلَ قولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾ ولم يُعطَف عمَّا قبله؛ لأنَّه كالتَّأْكِيد لِما قبلَهُ[1]، فهي ليست خبرًا مستقلًّا، وضُمِّنَتْ معنى التَّهديد والوعيد؛ فإنَّ إذْهابَ السَّمع والأبصار كُلّيًّا عن جماعةٍ بِعَيْنِهَا، ممَّا قد يُتوَهَّمُ فِيهِ ضربٌ مِنَ التَّجَوُّزِ، فكانَتِ الفاصلةُ مؤكِّدةً هذا المعنى، ومهدِّدةً ومتوعِّدةً مَنْ يُصِرُّ على باطِلِه ونفاقِه، وقد جَرَتْ هذه الفاصلةُ مجرى المَثَل؛ لتضمُّنِهَا معانيَ غزيرةً، وَاسْتِقْلَالِهَا بِالْإِفَادَةِ.

❁ الْفُرُوقُ الْمُعْجَمِيَّةُ:

الْمَشِيئَةُ وَالْإِرَادَةُ:

المشيئة والإرادة متقاربتانِ، ولذا فسَّرَ كثيرٌ مِن علماء العربية أحدَهما بالآخرِ[2]، وربَّما أفاد صنيعُهم أنَّهما بمعنًى واحدٍ من جهة اللُّغة[3].

وذكر أبو البقَاءِ أنَّ بينَهما فرقًا من جهة اللُّغة؛ إذْ إِنَّ الْمَشِيئَةَ لُغَةً: الإيجادُ، والإرادةَ لُغَةً: طلبُ الشَّيءِ[4].

وفرَّق بينهما أبو هِلَالٍ؛ بأنَّ الإرادةَ تكون لِما تراخَى زمَنُه ولِمَا لا يتراخى، بخلاف المشيئة فَهِيَ لِما لَم يتراخَ زمَنُهُ؛ فالإرادة أعمُّ مطلقا مِنَ المشيئة[5].

(1) حاشية زاده: 1/349.
(2) الجوهريّ، الصّحاح: (شيأ) و(رود)، وابن الأثير، النِّهاية في غريب الحديث والأثر: (شيأ)، وابن منظور، لسان العرب: (شيأ)، والفيروزآبادي، القاموس المحيط: (رود).
(3) الشّريف الجرجانّي، التَّعريفات، ص: 216.
(4) أبو البقاء الكفويّ، الكلّيّات، ص: 75.
(5) أبو هلال العسكريّ، الفروق اللُّغويَّة، ص: 35.

أمَّا المشيئة والإرادة باعتبار تعلُّقِهما باللهِ تعالى: فالإرادة أعَمُّ مِنَ المشيئة مطلقًا؛ لأنَّ الإرادة تَشْمَلُ الإرادة الكَوْنِيَّةَ والإرادة الشَّرعيَّة، أمَّا المشيئةُ فهي مرادفةٌ لِلْإِرَادَةِ الكَوْنِيَّةِ[1].

(1) حافظ حَكَمِي، أعلام السُّنَّة المنشورة لاعتقاد الطَّائفة النَّاجية المنصورة، ص: 88.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن
قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ٢١ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشٗا
وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ
رِزۡقٗا لَّكُمۡۖ فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٢٢﴾ [البقرة: 21-22]

مُنَاسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِمَا قَبْلَهُمَا:

بَعْدَ أن ذُكِرَتْ أحوالُ كلِّ فريقٍ مِنَ المؤمنين والكافرين والمنافقين، وضُرِبَت الأمثالُ، صلَحَ المقامُ لخطابهم جميعًا بما ينفعهم إرشادًا لَهُمْ ورحمةً بِهِمْ؛ فإنَّه لا يرضى لَهُمُ الضَّلال، ولم يَكُنْ ما ذُكر مِن سُوءِ صنيع الكافرين والمنافقين مانعًا من إعادة إرشادهم ووعْظِهِم، فكان هذا الخطابُ تأنيسًا لأنفسهم بعدَ ما هدَّدهم وذمَّهم؛ لِيَعْلَمُوا أَنَّ الإغلاظ عَلَيْهِمْ إنَّما كان حرصًا على صلَاحِهِم[1].

بعد ذِكْر المؤمنين والكافرين والمنافقين، صلح المقام لخطابهم وإرشادهم

قال أبو السّعود في إيضاح مناسَبة الآيتين لما قبلهما: "إثْرَ ما ذَكَرَ اللَّهُ تَعالى عُلُوَّ طَبَقَةِ كِتابِهِ الكَرِيمِ وتَحَزُّبَ النّاسِ في شَأْنِهِ إلى ثَلاثِ فِرَقٍ: مُؤْمِنَةٍ بِهِ مُحافِظَةٍ عَلى ما فِيهِ مِنَ الشَّرائِعِ والأحْكامِ، وكافِرَةٍ قَدْ نَبَذَتْهُ وراءَ ظَهْرِها بِالمُجاهَرَةِ والشِّقاقِ، وأُخْرى مُذَبْذَبَةٍ بَيْنَهُما بِالمُخادَعَةِ والنِّفاقِ، ونَعَتَ كُلَّ فِرْقَةٍ مِنها بِما لَها مِنَ النُّعُوتِ والأحْوالِ، وبَيَّنَ ما لَهم مِنَ المَصِيرِ والمَآلِ، أقْبَلَ عَلَيْهِمْ بِالخِطابِ عَلى نَهْجِ الِالتِفاتِ هَزًّا لَهم إلى الإصْغاءِ، وتَوْجِيهًا لِقُلُوبِهِمْ نَحْوَ التَّلَقِّي، وجَبْرًا لِما في العِبادَةِ مِنَ الكُلْفَةِ بِلَذَّةِ الخِطابِ، فَأمَرَهم كافَّةً بِعِبادَتِهِ، ونَهاهم عَنِ الإشْراكِ بِهِ"[2].

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/323-324.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السّليم: 1/58.

❁ شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

1) ﴿ٱعۡبُدُواْ﴾: العينُ والباء والدَّال تدورُ أكثرُ تصاريفها على لِينٍ وَذُلٍّ[1]، ومِنْهُ قولُهم: طريقٌ مُعَبَّدٌ، أي: مُذَلَّل مِن كثرة وطء الأقدام عَلَيْه، قال طَرَفَةُ[2]:

تُبَارِي عِتَاقًا نَاجِيَاتٍ وَأَتْبَعَتْ *** وَظِيفًا وَظِيفًا فَوْقَ مَوْرٍ مُعَبَّدِ

والعبادة شرعًا لها اعْتِبَارَانِ:

أحدهما: باعتبارِ ذاتِ الْفِعْلِ؛ وَهُوَ التَّعبُّدُ؛ وحَدُّها: الخضوعُ للّه تعالى بفعل أوامره واجتناب نواهيه؛ محبةً وتعظيمًا[3].

والآخر: باعتبار المُتعَبَّدِ به؛ وهو العبادة؛ وحَدُّها: اسْمٌ جَامع لكُلِّ مَا يُحِبُّهُ اللّه ويرضاه من الأَقْوَال والأعمال البَاطِنَة وَالظَّاهِرَة[4].

2) ﴿خَلَقَكُمۡ﴾: الخاء واللَّام والقاف تدلُّ مُعْظَمُ اشتقاقاتها على تقدير الشَّيء[5]، ومِنْهُ قَوْله تعالى: ﴿وَتَخۡلُقُونَ إِفۡكًاۚ﴾ [العنكبوت: 17] أَيْ: تُقَدِّرون كَذِبًا[6]، وقد يكون بمعنى الافْتِرَاء[7].

وخَلَقَ اللّه الشَّيْء: أوجدَهُ وأنشأَهُ بعد أَن لَمْ يَكُن[8].

3) ﴿فِرَٰشٗا﴾: الفاء والرَّاء والشِّينُ تَدُلُّ تصاريفها على تمهيدِ الشَّيْءِ وبسطه[9]، يقال: فرشَ الشَّيْءَ يفرُشُهُ؛ إذا بسَطَهُ[10].

وَحَقِيقَة الفَرْش: الاسْتِوَاءُ، وَمِنْه قَوْله تَعَالَى: ﴿ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشٗا﴾ أي: مستويةً[11]، وهو لازمٌ لمعنى البَسْطِ، ومِن لوازمه أيضًا: الاستقرارُ؛ إِذِ الأرضُ المستويةُ المُنْبَسِطَةُ يُسْتَقَرُّ عَلَيْهَا.

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عبد).
(2) ديوان طرفة، شرحه: مهدي محمد ناصر الدِّين، دار الكتب العلميَّة، بيروت، ط2، 1423، ص: 20.
(3) ابن عثيمين، القول المفيد: 1/14.
(4) ابن تيميَّة، العبوديَّة، ص: 44.
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (خلق).
(6) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (خلق).
(7) الجوهريّ، الصّحاح: (خلق).
(8) ابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم: (خلق).
(9) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (فرش).
(10) الزَّبِيديّ، تاج العروس: (فرش).
(11) ابن سيده، المخصّص: (فرش).

4) ﴿رِزۡقٗا﴾: الرَّاء والزَّاي والقاف تَدُلُّ على العطاء[1]، فالرِّزْقُ: العطاءُ، أو هُوَ ما يُنْتَفَعُ به[2].

5) ﴿أَندَادٗا﴾: الأَنْدَادُ جمع ندٍّ، والنِّدُّ: ما كانَ مِثْلَ الشَّيْءِ يُضادُّه في أمُورِه[3]، فَالنِّدُّ اجتمع فيه أمران: أحدهما: المِثْلُ والمشابهَةُ. والآخر: الضِّدُّ والمخالفة.

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

هذا أول نداء في القرآن، وفيه ينادي الحقُّ جلَّ وعلا النَّاسَ جَمِيْعَهُمْ نِدَاءً لَطِيفًا مُفَادُهُ: أن يا معشرَ الإنسِ والجنِّ؛ وَحِّدوا اللّه وأفردوه بالعبادة فهو الذي ربَّاكم بالنِّعَمِ، وأوجدَكم مِنَ العدمِ، وأوجدَ مَنْ كان قبلكم لأجل أن تكونوا مِنَ المُتَّقِين.

والرَّبُّ المأمورُ بعبادَتِه هو الذِي سهَّل لكمُ الحياةَ في الأرضَ بأَنْ جَعَلَهَا بساطًا ومهادًا يمكن الاِسْتِقْرَار عَلَيْهَا، وجعل السَّماءَ سقفًا مُحْكَمَ البِنَاءِ، وأنزل مِنَ السَّحاب ماءً كان سببا في نباتِ صُنوفٍ مِنَ الثَّمرات؛ لتكون رزقًا لَكُم، ومَن كان هذا شأنَهُ؛ فهو المُسْتَحِقُّ لِلْعِبَادة وحده دُونَ مَا سِوَاه، فلا تجعلوا له نُظَرَاء في العبادة تَصْرِفُون لَهُمْ شيئًا مِنْهَا، والحالُ أَنَّكُم تعلمون تفرُّدَهُ باستحقاق العبادة؛ لتفرُّدِهِ بالرُّبوبيةِ[4].

❁ الإِيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

النِّدَاءُ بِ﴿يَٰٓأَيُّهَا﴾؛ لِعُلُوِّ مَكَانَةِ المُنَادِي، وَعِظَمِ شَأْنِ مَوْضُوعِ النِّدَاءِ:

وقع النِّداء بـ (يا) في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ وهي موضوعةٌ في الأصل لنِدَاء البعيد، ونداءُ اللّه تعالى لعبيدِه نِدَاءٌ مِنَ الخالق إلى خَلْقِه، فهو حقيقٌ بأَنْ يَكُونَ بأداة النِّداء لِلْبَعِيد.

عَظَمَةُ اللهِ ﷻ وَعَظَمَةُ خِطَابِهِ

فمجيءُ أداة النِّداء لِلْبَعِيد ههنا لأوجُهٍ ثلاثةٍ[5]:

أحدها: لبُعْدِ ما بين الخالِقِ والمَخْلُوقِ.

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (رزق).

(2) الجوهريّ، الصّحاح: (رزق).

(3) الخليل، العين: (ند).

(4) الواحديّ، الوجيز، ص: 95، والسّمعانّي، تفسير القرآن: 1/56-58، وابن أبي زمَنِين، تفسير القرآن العزيز: 1/127، وجماعة من علماء التَّفسير، المختصر في تفسير القرآن الكريم، ص: 4، ونخبة من أساتذة التّفسير، التّفسير الميسّر، ص: 4.

(5) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 1/154-155.

ثانيها: أنَّه نداء مِنَ الخالِقِ، وهو مُقْتَضٍ أعلَى العلُوِّ.

ثالثها: عِظَمُ شأن موضُوع النِّداءِ وهو العبادة؛ فإنَّ له جلالًا وخطرًا[1].

وفي استعمالِ خصوص النِّداء بـ (يَا أَيُّهَا) ضربٌ مِنْ توكيد النِّداء؛ لأنَّ (أَيّ) اسمٌ مُبْهَمٌ يَفْتَقِرُ إلى ما يُزيلُ إبهامَه، ولذا يُذْكَرُ بعده اسمٌ يُوضحُّهُ لِيَصِحَّ المقصود بالنِّداء، وهذا تدرُّجٌ مِنَ الْإِبْهَامِ إلى البيانِ، وَفِيهِ نوعُ توكيدٍ[2].

وفي اقترانِه بـ (ها) التَّنبيهِ: زيادةٌ في التَّوكيدِ؛ إذِ النِّداءُ في الأصل يُرادُ به التَّنبيهُ[3].

نُكْتَةُ الِالْتِفَاتِ مِنَ الْغَيْبَةِ إِلَى الْخِطَابِ:

تَرْغِيبُ العِبَادِ فِي الْإِقْبَالِ عَلَى اللهِ تَعَالَى

الالتفاتُ في قوله جَلَّ وعلا: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ﴾ هو التفاتٌ مِنَ الغَيْبَة إلى الخطاب؛ لأنَّ الكلامَ عن أصناف النَّاسِ الثَّلاثةِ كان بلفظ الغَيبةِ، ثُمَّ خُوطِبَ الجميعُ بالنِّداءِ[4].

والنُّكْتَةُ في ذلك: الإيذانُ بأنَّهم صارُوا بما تقدَّم مِن ضَرْبِ الأمثال وغيرهَا أهلًا لأَنْ يُوَجَّه إِلَيْهِمُ الخطاب؛ "تَنْشِيطًا لَهُمْ في عبادته، وترغيبًا وتحريكًا إلى رَفْعِ أنفُسِهم بإقبال المَلِكِ الأعظم عَنِ الخضوع لِمَنْ هو دونه، بل دونهم، وبِشارة لمن أقبل عَلَيْه بعدَ أن كان مُعْرِضًا عَنْهُ بدوام التَّرْقِيَةِ"[5]، فهو من قبيلِ إنشاءِ معنًى جديد، وبناءِ صرحٍ من حَدِيد، فكأنَّه قيل: اطوُوا صفحةَ السَّابِق، وابدؤُوا العبادَةَ الحقَّةَ، بالأوصافِ المُستَحقّة.

مَعْنَى اللَّامِ فِي ﴿ٱلنَّاسُ﴾:

الخطابُ موجَّهٌ للنّاس كلهم

اللَّامُ في (النَّاسِ) مِنْ قوله ﷻ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ لِاستغراق

(1) يُنظر في سِرِّ كثرة النِّداء بِـ (يَا أَيُّهَا) في القرآن الكريم: أبو السّعود، إرشاد العقل السَّليم: 1/58.
(2) الزَّمخشريّ، الكشَّاف: 1/89، وأبو السّعود، إرشاد العقل السَّليم: 1/58.
(3) الطِّيبيّ، فتوح الغيب: 2/291.
(4) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/66.
(5) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 1/136.

الجنسِ[1]؛ فإنَّه خطابٌ لجميع العبادِ، إذَا حملنا النَّاس على العمومِ كما هو قولُ ابن عبَّاسٍ[2] رضي الله عنهما.

المَجَازُ المُرْسَلُ فِي التَّعْبِيرِ عَنِ التَّوْحِيدِ بِالعِبَادَةِ:

الإِخْلَاصُ شَرْطٌ فِي صِحَّةِ العِبَادَةِ الشَّرْعِيَّةِ

قوله تعالى: ﴿ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ﴾ أي: وحِّدُوه[3]، والتَّعبير عَنِ التَّوحيد بالعبادة مِن المجاز المُرْسَلِ بعلاقة المَلْزُومِيَّةِ؛ فإنَّ العبادةَ الشَّرعية المعتدَّ بها يلزَمُ فيها التَّوْحِيدُ؛ فالتَّوحيد شرطٌ في صحَّتِهَا.

ونكتة التَّعبير بالمجازِ ههنا: التَّنبيهُ على عِظَمِ شأن التَّوحيد، ومنزلتِه مِنَ العبادَةِ.

إِيثَارُ عُنوانِ الرُّبوبيَّةِ على الألوهيَّة:

مِنْ أَسَالِيبِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ الِاسْتِدْلَالُ بِالرُّبُوبِيَّةِ عَلَى الْأُلُوهِيَّةِ

في التَّعبير باسم الرَّبِّ في قوله: ﴿ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ﴾ -على ما هو الأكثر مِن اقتران (النَّاس) باسم (الرَّبِّ)-؛ لأنَّه أمرٌ لجميع النَّاسِ: مؤمنِهم وكافِرِهم، فكان يَجْمُلُ فيه التَّعبير باسم الله (الرَّبِّ)؛ وذلك لنُكْتَتَيْنِ:

إحداهما: لِمَا يُشْعِرُ به مِنَ التَّربيةِ بالإحسان والإنعام، وفي ذلك تَهْيِيجٌ لِلْمَأْمُورِين على امتثالِ الأمر[4].

والأخرى: إقامة البرهان على استحقاقِهِ العِبَادَةَ؛ إذْ فيه استدلالٌ بربوبيَّتِه سبحانه على ألوهيَّتِهِ.

إفرادُ اسمِ الرَّبِّ وإِضَافَتُه إلى ضميرِ المخاطَبين:

اخْتِصَاصُ اللهِ تَعَالَى بِأَحَقِّيَّةِ الْعِبَادَةِ

إفرادُ اسم (الرَّبِّ) دالٌّ على أنَّ المرادَ ربُّ جميع الخلق وهو اللهُ تعالى؛ إذْ لا يوجد مَن يستحقُّ هذا الاسمَ مفردًا ومضافًا إلى جميع النَّاس إلَّا هُوَ سبحانه[5]، وإضافةُ اسم الرَّبِّ إلى ضمير المخاطبين:

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/325.
(2) ابن الجوزيّ، زاد المسير: 1/42.
(3) السّمعانيّ، تفسير القرآن: 1/56.
(4) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/67.
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/326.

يُفيدُ زيادةَ اختصاصه سبحانه بأحقيَّةِ العبادةِ، وهي -أي: الإضافة- أخصرُ طريقٍ في الدّلالة على هذا الاختصاص مِنَ الْمَوْصُول[1].

نُكْتَةُ الْوَصْفِ: زِيَادَةُ الْبَيَانِ:

مِنْ مُوجِبَاتِ اسْتِحْقَاقِ اللهِ تَعَالَى لِلْعِبَادَةِ أَنَّهُ خَلَقَ الْخَلْقَ

(الذي) مِن قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ﴾: اسم موصولٌ في محلِّ نصبٍ نعتٌ لـ (رَبَّ)[2]، وفائدةُ الوصف مع صلتِهِ: زيادةُ بيانٍ لمُوجِب العبادةِ، أو زيادةُ البيانِ لِمَا اقتضتْهُ إضافة اسم الرَّبِّ إلى ضمير المخاطبين مِن معنى الاِخْتِصَاصِ الآنفِ الذِّكْرِ[3].

فَائِدَةُ دُخولِ حرفِ الابتداءِ فِي صِلَةِ الموصُول:

دلالة (مِنْ) عَلَى التَّوْكِيدِ، وَلِلْإِشَارَةِ إِلَى عُمُومِ الْخَلْقِ

وقع التَّعبيرُ بـ ﴿مِن قَبْلِكُمْ﴾ دون (والذين قبلَكم) بزيادة (مِنْ) لفائِدَتَيْنِ[4]:

إحداهما: توكيدُ المعنى وتَقْوِيَتُهُ، وهو المعنى الغالب على (مِنْ) الواقعةِ مَعَ (قَبْلُ) و(بَعْدُ).

والأخرى: الإشارةُ إلى أوَّلِ الموصُوفِينَ بالقَبْلِيَّةِ؛ إذْ إنَّ من معاني (مِنْ) الابتداءَ.

فيكون قد ذَكَرَ المخلوقين الحاضِرين، وأوَّل المُتَّصِفين بالمخلوقيَّة، وما بينَهما مُستحضَرٌ بِذِكْرِهِمَا؛ إذِ البَيْنُ مُسْتَحْضَرٌ عِنْدَ ذِكْرِ الطَّرفَيْنِ، فقد جَمَعَ النَّظمُ الخَلِيقَةَ مِنْ مَبْدَئِها حتى مُنْتَهَاهَا، فدلَّ حرفُ الاِبْتِدَاءِ على البَدْءِ، ودَلّ الخطابُ الشَّاملُ لجميع النَّاس على المُنْتَهَى، فهو جامعٌ لِلْبَشَرِيَّةِ فِي هَذَا الخِطَابِ.

بَلاغَةُ التَّصْدِيرِ:

قُوَّةُ ارْتِبَاطِ الفَاصِلَةِ بِصَدْرِ الآيَةِ لِتَقُومَ مَقَامَ الْعِلَّةِ لِلْمُعَلَّلِ

فُصل قوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾؛ لأنَّهُ ظاهرٌ في التَّعليلِ[5]،

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/327.
(2) محيي الدِّين الدّرويش، إعراب القرآن وبيانه: 1/53.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/327.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/327.
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/328.

والمُعَلَّلُ هو الأمر بعبادة الله سبحانه في قوله قبلُ: ﴿ٱعۡبُدُواْ﴾، وضعَّفه الزَّمخشريُّ، وجعل متعلَّقَ ﴿لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ هو ﴿خَلَقَكُمۡ﴾؛ لأنَّ تعليقَها بـ ﴿ٱعۡبُدُواْ﴾ يُؤدِّي إلى تنافُرٍ في النَّظْمِ يُنزَّهُ القرآنُ عَنْهُ؛ وذلك أَنَّ التَّقْوَى هي العبادةُ[1]، فيكون التَّقدير: اعبدُوا اللّه لعلَّكم تعبدون، وهذا لا تَجْمُلُ إرادتُهُ في فصيحِ الكلَامِ، بَلْهَ كلامَ اللّه ﷻ.

وأجاب أبو حيَّانَ بأنَّ العبادةَ ليستْ نَفْسَ التَّقوى؛ إذْ إنَّ التَّقوى في الأصل: الاِحْتِرَازُ عَنِ المَضَارِّ، بخلاف العبادة؛ فإنَّها موافَقَةُ خِطَابِ الشَّرع امْتِثَالًا لِلْمَأْمُورِ واجتنابا لِلْمَنْهِيِّ عَنْهُ؛ فكأنَّ معنى ﴿لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ إذا عُلِّق على الأمرِ بالعبادة: اعبدوا اللّه لِتَحْتَرِزُوا عَنْ عِقَابِه[2].

فَائِدَةُ حَذْفِ المَفْعُولِ:

حُذِفَ المَعْمُولُ مِن قوله: ﴿تَتَّقُونَ﴾ تكثيرًا لِلْمَعَانِي، وَلِبَيَانِهِ ثَلَاثَةُ مَسَالِكَ:

تَكْثِيرُ المَعَانِي بِوَجَازَةِ الأَلْفَاظِ مِنْ بَرَاعَةِ النَّظْمِ وَأَدِلَّةِ الإِعْجَازِ

الأوَّلُ: أن يُقدَّر مفعولٌ خاصٌّ، والمعنى: لعلَّكم تَتَّقون عقابَهُ[3].

الثَّاني: ألّا يُقدَّر مفعول خاصٌّ؛ لإفادة العموم، والمعنى: لعلَّكُم تَتَّقُونَ جميعَ ما أُمِرْتُم شرعًا باتِّقائِه.

الثَّالث: أَنْ يُنَزَّلَ الفعل المتعدِّي منزلة اللَّازم، فلا يُقَدَّرُ له مفعول أصلًا، ومعنى ﴿تَتَّقُونَ﴾ على هذا: تحصلُ لَكُمُ التَّقوَى.

والأوجه المتقدِّمةُ مآلُهَا واحدٌ؛ إذْ إنَّ تقديرَ المفعولِ الخاصِّ لا يتنافى مع العموم، وذلك بِحَمْلِ الخاصِّ على التَّمثيل، وهو مِن طرائقِ التَّفسير اللَّطيف، وهذان الوَجْهان لا يَتعارَضَان مع تَنزيلِ المتعدِّي مَنْزِلةَ اللَّازم؛ إذْ إنَّ تحصيلَ مَلَكَةِ التَّقوى الكاملةِ لا يكونُ إلَّا باتِّقاء جميعِ ما أُمِرَ العبدُ باتِّقائِه، فيكونُ تنزيلُ الفعْلِ المتعدِّي منزلةَ اللَّازم كالنَّتيجةِ لتقديرِ المحذُوفِ.

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/93.
(2) أبو حيَّان، البحر المحيط: 1/156-157.
(3) أبو حيَّان، البحر المحيط: 1/162.

النُّكْتَةُ البَلَاغِيَّةُ مَجْمَعُ الْأَوْجُهِ النَّحْوِيَّةِ:

اتِّفَاقُ الْأَوْجُهِ النَّحْوِيَّةِ فِي إِنْشَاءِ مَعْنَى التَّعْظِيمِ وَالثَّنَاءِ

اختلف النُّحاةُ في إعرابِ الاسمِ الموصولِ في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا﴾ عَلَى قولَيْنِ رَئِيسَيْنِ:

الأوَّل: أَنْ يَكُونَ في محلِّ نصبٍ نعتًا، وَنَصْبُهُ حينئذٍ على المدح والتَّعظيم[1].

الآخَرُ: أن يكون في محلِّ رفعٍ؛ فيكون خَبَرًا لمبتدأٍ محذوفٍ، ويُستفادُ مِن ذلك المدحُ والتَّعظيمُ أيضًا[2].

وهذان الوجهَانِ أفَادَا معنى التَّعظيم والمدح، أحدهما: بالجُمْلَةِ الفعليّةِ، والآخرُ: بِالاسْمِيَّةِ، وَأفاد أحدُهما تجدُّدَ التَّعظيم والمدحِ، وأفادَ الآخرُ الثَّباتَ والدَّوامَ، فَهُمَا وَجْهَانِ مُتَكَامِلَانِ يأخذُ أَحَدُهُمَا بِحُجَزِ الآخَرِ.

عِلَّةُ اخْتِلَافِ النَّظْمِ بَيْنَ الْآيَتَيْنِ:

نَوْعُ السِّيَاقِ وَأَثَرُهُ فِي إِبْرَازِ المَعْنَى البَيَانِيِّ المَقْصُودِ

قال سبحانه: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا﴾، ولم يقل: (لكُم ولمن قَبْلَكُم) كما قال قبلُ: ﴿خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾، وذلك لِنكَاتٍ ثلاثٍ[3]:

الأولى: أنَّهُ مِن باب الاكتفاءِ، وإلَّا فهو مرادٌ، والقرينةُ على المحذوفِ: الآيةُ قبلَهُ.

الثَّانية: أنَّهُ مِن باب التَّغليب، فغُلِّبَ المخاطبونَ على الغائبينَ.

الثَّالثة: أنَّ الآيةَ خرجت مخرجَ الامْتِنَانِ بجعل الأرض فراشًا، والمخاطبُونَ هُمُ الْمُنْتَفِعُونَ بالأرض على هذا الوجهِ، وأمَّا من قبلَهُمْ فَهُمْ تَحْتَهَا قَدْ ماتُوا.

(1) الزَّمخشريّ، الكشَّاف: 1/93.
(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/68.
(3) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/69.

بَراعَةُ التَّشبيه البَليغِ:

شُبِّهَتِ الأرضُ بالفراش، والسَّماءُ بالبِناء في قولِهِ الله تعالى: ﴿جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً﴾؛ فمعنى ﴿جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا﴾ أي: كالفراش، ومعنى ﴿وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً﴾ أي: كالبناءِ.

اجتماعُ الأرضِ والسَّماءِ في أسلوبٍ واحدٍ من التَّشبيه مع تَبايُنِهما دليلٌ على مُكنة النَّظم

ووجْهُ الشَّبه في الأوَّل: هو التَّمكُّنُ مِنَ الاِسْتِقْرَار[1]، والانتفاعُ والرَّاحةُ والسُّهولةُ.

ووجه الشَّبَه في الثَّاني: الوقاية مِنَ الأضرار النَّازلة، فكما أنَّ البِنَاء المعروف يَقِي من أضرارٍ تَنْزِلُ من فوقُ، فكذلك السَّماءُ تقِيَ أضرارًا نازلةً[2].

فَنُّ الاِكْتِفَاءِ:

حُذِفَ الفعلُ ﴿جَعَلَ﴾ والجارُّ والمجرور (لَكُمُ) مِن قوله: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً﴾؛ اكتفاءً بذِكْرِهِ مع الأرض، فذِكْرُهُ أَوَّلًا دليلٌ على حذفِهِ ثانيًا، وهو دليلٌ على اتِّحاد المقصدِ في الاِمْتِنَانِ.

اتِّحادُ المقصدِ في الاِمْتِنَانِ

نُكتةُ وَضْعِ المُظْهَرِ مَوْقِعَ المُضْمَرِ:

قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ إظهارٌ في موضع الإضْمَار[3]؛ إذْ مُقْتَضى الظَّاهر أن يقال: (وأنزل مِنْهَا ماءً)، إلَّا أنَّهُ أُظْهِرَ لاختلاف المراد بالسَّمَاوَيْن، فإنَّ الأولى هي البِنَاءُ الذي يَظْهَرُ في رَأْيِ العَيْنِ نهارًا أَزْرَقَ، والثَّانية: يُراد بها السَّحابُ.

أُظْهِرَ لفظ (السماء) لاختلاف المراد بالسَّماوَيْن

تَنْكِيرُ (مَاءً) لِبَيَانِ البَعْضِيَّةِ:

تنكير الماء في قوله: ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ لِلْبَعْضِيَّةِ[4]؛ أي: أنَّ هذا الماء النَّازلَ هو بعضُ نِعَمِهِ، وليس الماءُ النازلُ إلَّا بعضًا مِن مياهٍ كثيرةٍ[5].

كَثْرَةُ مَنَافِعِ المَاءِ النَّازِلِ مِنَ السَّمَاءِ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/331.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/331.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السَّليم: 1/61.
(4) الزَّمخشريّ، الكشَّاف: 1/94.
(5) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 1/159.

وعبَّر جماعةٌ مِنْهُمُ الشَّوكانيُّ عن غرضِ التَّنكير في مثل هذا ببيان النَّوعيَّة[1]؛ أي: نوعًا من أنواع الماء، والغالب أنَّ النَّوعيَّةَ إذا أُطْلِقَت - بوصفهَا غرضًا - فإنَّه يَلزم مِنْهَا التَّعْظِيمُ؛ أي: أنَّه نوعٌ عظيمٌ، كأنَّه لعظمَتِهِ مخالفٌ المعهودَ مِنَ الأنواع.

وقد يُقال بالجمع بين الغَرَضَيْنِ المذكُورَيْنِ لعَدَم التَّعارُض بَيْنَهُمَا، وتكثيرًا لِلْمَعَاني القُرآنيَّةِ، وأنَّ المعنى: أنزل مِنَ السَّماء ماءً عظيمًا في ذاتِهِ لكثرة منافعه، ومع ذلك هو بعضٌ من نِعَمِهِ سُبحانه على خلقِهِ.

التَّعْبِيرُ بِالثَّمَرَاتِ دُونَ الثِّمَارِ أَوِ الثَّمَرِ:

كَثْرَةُ ثِمَارِ الْجَنَّةِ فالثمراتُ تفيدُ من الكثرة ما لا تُفيدُه الثِّمار

جاء التَّعبيرُ بـ ﴿ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ في قوله سبحانه: ﴿فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ دون (الثِّمَارِ) أو (الثَّمَرِ)، مع أنَّ الأول جمعُ تصحيحٍ وهو من جموع القلَّةِ، بخلاف الجَمْعَيْنِ الآخرَين فَهُمَا مِن جموع الكثرةِ، والواقع أَنَّ الخارجَ بسبب الماء: ثمارٌ كثيرةٌ، وذلك لوجهين[2]:

الأوَّلُ: أنَّ المقصودَ بالثَّمراتِ: جماعةُ الثَّمرة؛ أي: أنَّ واحدَ الثَّمراتِ هي: الثَّمرة التِي يُراد بِهَا الثِّمار، وبناءً على هذا، فـ(الثَّمرات) مشتملةٌ على أفرادٍ، وكلُّ فردٍ يشتمل على ثمارٍ، وعَلَيْهِ فَإِنَّ (الثَّمرات) تُفيد مِنَ الكَثْرَةِ ما لا تفيده (الثِّمار) أو (الثَّمَر) وإن كانت من جموع القِلَّة.

الثَّاني: أنَّ الجمعَ المحلَّى باللَّام خارجٌ عن حَدِّ القِلَّةِ، فلا يتعيَّنُ إرادة جمع القلَّةِ من لفظ (الثَّمراتِ).

إِظْهَارُ الِاسْمِ الْأَحْسَنِ ﴿ٱللَّهِ﴾ زِيَادَةً فِي التَّقْرِيرِ وَتَعْلِيلًا لِلْحُكْمِ بِوَصْفِ الْأُلُوهِيَّةِ:

إظهار لفظ الجلالة للتقرير وتعيينه بالذّات بعد تعيينه بالصفات

في قوله سبحانه: ﴿فَلَا تَجْعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا﴾ إظهارٌ في موضع

(1) الشَّوكانيّ، فتح القدير: 3/132.

(2) الزَّمخشريّ، الكشَّاف: 1/94، والطِّيبيّ، فتوح الغيب: 2/306-307، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 1/62.

الإضمار؛ إذْ مُقْتَضَى الظَّاهر أن يقال: فلا تجعلوا لَهُ أندادًا؛ والنُّكْتَةُ في ذلك: زيادةُ التَّقْريرِ؛ لِتَعْيِين المَعْبُودِ بالذَّاتِ بعد تعيينهِ بالصِّفات[1].

وفيه تعليلٌ لِلْحُكْمِ بوصْفِ الألوهِيَّة، واستحالة الشَّرِكَةِ[2].

نُكَتُ حَذْفِ مَفْعُولَيْ (عَلِمَ):

الـمُخَالَفَةُ مَعَ الْعِلْمِ أَقْبَحُ مِنَ الـمُخَالَفَةِ مَعَ الجَهْلِ

وحُذِف مفعولا (عَلِمَ) من قوله: ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾، وفي ذلك طَرِيقَتَانِ[3]:

إحداهما: أَنْ يُقَدَّر بحسب المقام، والمعنى: والحال أَنَّكُم تعلمون أنَّهُ لا يُمَاثِلُه شيءٌ.

والأخرى: أن يُنَزَّل الفعلُ الـمُتَعَدِّي منزلَةَ الفعلِ اللَّازمِ، والتَّقدير: والحال أَنَّكُمْ مِن أهل العلم والمعرِفَةِ.

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السَّليم: 1/62، والآلوسّي، روح المعاني: 1/192.
(2) الآلوسّي، روح المعاني: 1/192.
(3) الآلوسّي، روح المعاني: 1/193.

﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [البقرة: 23-24].

مُنَاسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِمَا قَبْلَهُمَا:

بعد دعوة الناس إلى عبادة الله وتوحيده، لفت انتباههم إلى ربّانيّة الوحي فدعاهم إلى الإتيان بسورة من مثله

لمَّا شرعتِ الآياتُ في بيانِ أصنافِ النَّاس بين مؤمنٍ وكافرٍ ومنافق، ثمَّ خاطَبَهم مجموعين بلفظِ النَّاس، وأمَرَهم بالعبادةِ لِتحصيلِ فضيلةِ التَّقوى، ودلَّهم عَلَيْهِ مِنْ خلالِ الآياتِ الكونيَّة، ونهاهُم عنِ اتِّخاذِ الأنداد، كان من المناسِبِ دفعُ التُّهَم وَالشُّكوكِ حول الآيات القرآنيّة؛ فإنَّ نَهْيَ المخاطَبين عَنِ اتِّخاذِ الأنداد مِنْ شَأْنِهِ تحريكُ العقولِ الجاحدة والقلوبِ المريضة لِلْمُحَافَظَةِ على إرثِ الآباء، ومُجَابَهَةِ التَّكاليف الجديدةِ، فكانت مواجهةُ ذلك بقولِهِ تعالَى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ﴾ مِن بَراعة الاِسْتِبَاقِ الاحترازيِّ، وبلاغةِ المحاورة العقديَّةِ، وفصاحةِ المجادلة العقليَّةِ، فوقعتْ هذه الآيةُ مِنَ السَّابق موقعَ التَّتميم والتَّكميل بِمَا لا غَنَاءَ عَنْهَا.

ثُمَّ إِنَّهُ لمَّا ذَكَرَ إنزالَ الماءِ من السَّماء باعتباره أحدَ مظاهرِ القدرةِ الإلهيَّة والعجزِ البشريِّ، طالَبَهم بالإتيانِ بسورة مِنْ مِثْلِ سُوَرِ القرآن النَّازلة مِنَ السَّماء؛ لبيانِ أنَّ من يَعْجز عن إنزالِ الماءِ مِنَ السَّماء عاجزٌ عَنِ الإتيانِ بسورة مِنْ مِثْلِ القرآنِ، وهو من إلحاقِ النَّظير بنظيره.

من ناحية أخرى، إنّه لمّا أقامَ الدَّلائلَ القاهِرَةَ عَلى إثْباتِ الصّانِع، وأبْطَلَ القَوْلَ بِالشَّرِيكِ، عَقَّبَهُ بِما يَدُلُّ عَلى النُّبُوَّة، ولَمّا كانَتْ نُبُوَّةُ مُحَمَّدٍ ﷺ مَبْنِيَّةً عَلى كَوْنِ القُرْآنِ مُعْجِزًا أقامَ الدّلالة عَلى كَوْنِهِ مُعْجِزًا[1].

(1) الرازي، مفاتيح الغيب: 2/125-126.

قال أبو حيّان الغرناطي في بيان وجه المناسبة بما سبق: "ومُناسَبَةُ هَذِهِ الآيَةِ لِما قَبْلَها أنَّهُ لَمّا احْتَجَّ تَعالى عَلَيْهِمْ بِما يُثْبِتُ الوَحْدانِيَّةَ ويُبْطِلُ الاشْتِراكَ، وعَرَّفَهم أنَّ مَن جَعَلَ لِلَّهِ شَرِيكًا فَهو بِمَعْزِلٍ مِنَ العِلْمِ والتَّمْيِيزِ، أخَذَ يَحْتَجُّ عَلى مَن شَكَّ في النُّبُوَّةِ بِما يُزِيلُ شُبْهَتَهُ، وهو كَوْنُ القُرْآنِ مُعْجِزَةً، وبَيَّنَ لَهم كَيْفَ يَعْلَمُونَ أنَّهُ مِن عِنْدِ اللَّهِ أمْ مِن عِنْدِهِ، بِأنْ يَأْتُوا هم ومَن يَسْتَعِينُونَ بِهِ بِسُورَةٍ. هَذا، وهُمُ الفُصَحاءُ البُلَغاءُ المُجِيدُونَ حَوْكَ الكَلامِ، مِنَ النِّثارِ والنِّظامِ والمُتَقَلِّبُونَ في أفانِينِ البَيانِ، والمَشْهُودُ لَهم في ذَلِكَ بِالإحْسانِ."[1].

شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

1) ﴿شُهَدَآءَكُم﴾: الشِّين والهاء والدَّال تدور تصاريفُها على مَعانٍ ثلاثة، هِي: الحضور والعلم والإعلام، ومِن ذلك الشَّهادةُ؛ فهي جامعة لِلْمَعَاني الثَّلاثة المذكورة[2].

والشُّهداء: جمعٌ لِلشَّهيدِ، بمعنى: الشَّاهدِ، وهو المُخْبِرُ عَنْ عِيَانٍ بحقٍّ لغيرِهِ على آخَرَ[3].

وفي المراد بقوله تعالى: ﴿شُهَدَآءَكُم﴾ أقوال، فقيل: هي آلهتهم؛ لأنَّ الكُفَّار يَشْهَدُونَها ويحضرونَها، أو لأنَّهم عبَدُوها لتشهدَ لهم عند اللّه تعالى -في زعمهم-، وقيل: هُمُ الأعوان، وسُمُّوا بذلك لأنَّ مِن شرط الإعانةِ حضورَ المُعانِ عَلَيْهِ وشهودَهُ، وقيل: بناسٍ يَشْهَدُونَ أنَّ ما أتَوْا به هُوَ مثلُ القرآنِ[4].

2) ﴿صَدِقِينَ﴾: الصَّاد والدَّال والقاف تَدُلُّ تصاريفُها على قُوَّةٍ في الشَّيْءِ قولًا كان أو غيرَه، ومِنْهُ قولُهم: هذا شيءٌ صَدْقٌ، أي: صلبٌ، ومِنْهُ سُمِّيَ الصِّدق -نقيض الكذب- بذلك؛ لقوَّتِهِ في نفسِهِ[5].

وَالصَّادقُ: المُتَّصِفُ بالصِّدْقِ، والصِّدْقُ: هو إخبارٌ عَنِ المُخْبَرِ بِهِ على ما هو عَلَيْهِ في الواقع، ولا يكون محمودًا شَرْعًا إلَّا مع العِلْمِ بأنَّهُ كذلك[6].

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 1/284.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (شهد).
(3) الجرجانّي، التَّعريفات، ص: 129.
(4) ابن الجوزيّ، زاد المسير: 1/44.
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (صدق).
(6) أبو البقاء الكفويّ، الكُلّيّات، ص: 556.

3) ﴿وَقُودُهَا﴾: الواو والقاف والدَّال: كَلِمَةٌ تدُلُّ على اشتعال نارٍ[1]، والوَقودُ: الحَطَبُ، والوُقُودُ: التوقُّدُ والاتِّقادُ[2].

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

إثبات عجز جميع النّاس عن الإتيان بمثل أقصر سورة من القرآن، وهذا دليل ربّانيّته وإعجازه

وَإِنْ كُنْتُم أيُّها النَّاسُ في شكٍّ مِنَ القرآن المعجزِ بفصاحتِهِ المُنَزَّل على عبدنا مُحَمَّدٍ ﷺ فَجِيئُوا بسورة واحدة مُمَاثلةٍ له -ولو لأقصر سورة مِنْهُ- حَقًّا وصِدقًا، لا باطل فِيهَا ولا كَذِبَ، واستعينوا بِمَنْ شئتُم من أنصاركم وأعوانكم، وأتوا بمَنْ يَشْهَدُ لَكُم أنَّ ما تأتونَ به يماثِلُ القرآنَ، إن كنتم صادقين في دعواكم.

فإنْ لم تقدروا على ذلك الآن -ولن تقدروا عَلَيْهِ أبدًا- فاجعلوا الإيمانَ باللّه تعالى ورسولِه ﷺ وقايةً لكم مِنْ عذاب النارِ التي تُوقَدُ بالحجارة وبِمَنِ اسْتَحَقَّ العذابَ من النَّاسِ، وقد أعدَّها اللّه تعالى لِلْكَافِرِينَ به وبِرُسُلِهِ[3].

الإِيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

تَعْلِيقُ الشَّرْطِ بِـ (إِنْ) دُونَ (إِذَا):

قُوَّةُ أَدِلَّةِ الْإِعْجَازِ الْقُرْآنِيِّ وَمُكَابَرَةُ أَهْلِ الْكُفْرِ

جيءَ بأداة الشَّرط (إنْ) في قوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ -وهي تدُلُّ في الأصل على عدم الجزم بوقوع الشَّرْطِ- فيُفيدُ ذلك أنَّ شكَّهم وريبَهم ليس مقطوعًا به، مع أنَّهم زادُوا على الشَّكِّ التَّكْذيبَ؛ لأنَّ مدلول الشَّرط حفَّ به مِنَ الأدلَّة والبراهين ما شأنُهُ أن يُزيلَ الشَّرطَ بالكلّيَّة، بحيث يكون وقوعُهُ مفروضًا[4]، فيكون فيه إيماءٌ إلى أنَّ ريبَهُمْ ضعيفٌ مشكوكٌ في وقوعِهِ.

---

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (وقد).

(2) الجوهريّ، الصّحاح: (وقد).

(3) ابن جرير، جامع البيان: 1/373. ابن الجوزيّ، زاد المسير: 1/44، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 1/57، وجماعة من علماء التّفسير، المختصر في تفسير القرآن الكريم، ص: 4، ونخبة من أساتذة التّفسير، التّفسير الميسّر، ص: 4.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/336.

اختيارُ المفردةِ وأثرُه في بيان دقائق النَّظم:

ريبُ الكافرين ضعيف لسطوع دلائل الإعجاز القرآني

التَّعْبير بالرَّيْب دون الشَّك وهو من الألفاظ قريبة الدّلالة عليه؛ لِلتَّنْبيه على أنَّ جَزْمَهم ذلك بمنزلةِ الرَّيْبِ المُسْتَضْعَف؛ لكمال وضوح أدلَّة الإعجاز وكونها بلغَتْ في القوَّة مبلغًا عظيمًا، أو أنَّ ذلك لِلإشَارَةِ إلى أنَّ أقصى ما يمكِنُ صدورُه عَنْهُمْ هُو الرَّيْبُ، وإن كانوا في غايةِ المُكَابَرَةِ والمعاندةِ[1].

فَائِدَةُ أُسْلُوبِ البَحْثِ فِي الِاسْتِدْلَالِ:

عَدَمُ الِاعْتِدَادِ بِشَكِّ الشَّاكِّينَ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ

الاستدلالُ الواردُ في قولِه تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾، هُوَ استدلالٌ بأحد أنواع الْجَدَلِ، وهو معارضةُ دليلِ الخصم بدليل آخرَ، ففيه أسلوبُ البحثِ -الذي يُسمِّيه جماعةٌ: المذهبَ الكلاميَّ[2]- في علم البَدِيع.

وتقريره: أنَّهُمْ ارْتابُوا وشكُّوا في براهين النُّبوَّةِ وأدلَّة ربَّانيَّة مصدر القرآن الكريم؛ فَلْيُعارِضُوه، لِيَكُونَ لشَكِّهم وَجْهٌ![3].

التَّعْبِيرُ بِ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ﴾ دُونَ (وَإِنِ ارْتَبْتُمْ):

الرَّيْبُ الْمُوَجَّهُ لِلْقُرْآنِ الْكَرِيمِ هُوَ مِنْ عُقُولِ الْمُرْتَابِينَ الفَاسِدَةِ لَا مِنْ ذَاتِ الْقُرْآنِ

عُبِّر بـ ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ﴾ دون (وإنِ ارْتَبْتُمْ)؛ لأنَّ (كُنْتُمْ) تُصوِّرُ ما وقعَ مِنْهُمْ؛ مبالغةً في تنزيهِ القرآن الكريم عن شائبة وقوع الرَّيْبِ فيه، وإنَّما ذلك واقعٌ مِن عقولِهِمُ الفَاسدةِ لا من ذات القرآن الكريم[4].

ويؤيِّدُ هذا المعنى: أنَّ حرف الجرِّ (في) يُومِئُ إلى انْغِمَاسِهِمْ في الرَّيْبِ، وأنَّه قد أحاط بِهِمْ كَإِحَاطَةِ الظَّرف بالمظروف[5].

---

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 1/63.

(2) وحدُّه: أنْ يُورِدَ المتكلِّم حجةً لمطلوبه، بِأَنْ يَكُونَ التَّسليمُ بالمقدِّماتِ يستلزمُ التَّسليمَ بهذا المطلوبِ. ابن عبد الحقِّ العُمَرِيّ، درر الفرائد المستحسنة في شرح منظومة ابن الشِّحنة، ص: 444-443.

(3) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/70.

(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 1/63، وأبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 1/162.

(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/336.

تَنْكِيرُ ﴿رَيْبٍ﴾ لِلتَّقْلِيلِ:

تَنْكِيرُ (ريب) من قوله تعالَى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ يُراد بِهِ التَّقْلِيلُ؛ لِلإِشَارَة إلى حقيقةِ مَا في نفُوسِهِم مِنَ التَّصْدِيقِ، وجحدِهم بألْسِنَتِهم مُكابَرةً وعنادًا، ومعنى الآية: إنْ كان عِنْدَكُم أدنى ريبٍ، فَانْفُوه عن أنفسِكُم بالإتيان بسُورَةٍ مِن مِثْلِه[1].

التَّعْبِيرُ بِـ (نَزَّلَ) دُونَ (أَنْزَلَ):

إِنْزَالُ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ مُنَجَّمًا أَنْسَبُ لِسِيَاقِ التَّحَدِّي وَأَبْلَغُ فِي تَبْكِيتِ الْكُفَّارِ

التَّعبير بـ (نزَّل) في قوله سبحانه: ﴿مِّمَّا نَزَّلْنَا﴾ دون (أَنْزَلَ)؛ لِمَا يُفيدُهُ (نَزَّل) مِنَ التَّنجيم وَالتَّدريج، وهو المُطَابِقُ لتنزيل القرآن الكريم، وهو الأنسَبُ لمقام التَّحدِّي، فكأنَّ المعنى: (إِنِ ارْتَبْتُم في هذا الذي وقع إنزَالُهُ هكذا على مَهل وتدريج، فهَاتُوا أنتم نَوْبَةً واحدة مِنْ نُوَبِه، وهَلُمُّوا نَجْمًا فردًا من نُجُومِه: سورةً من أَصْغَرِ السُّور، أو آياتٍ شَتَّى مفتريات، وهذه غايةُ التَّبْكِيت، ومُنْتَهى إزاحة الْعِلَلِ)[2].

ولأنَّ هذا جارٍ على سَنَنِ العربِ الذين نزل القرآن الكريم بلغتِهم؛ فكان النَّاظم لا يُلْقِي دِيوان شعرِه مرَّة واحدة، ولا يرمي النَّاثِر بخطبِهِ ورسائلِهِ دفعةً واحدةً، فلو أنزل اللّه تعالى القرآن الكريم جُمْلَةً واحدة؛ لكان إنزالُهُ على خلاف هذه العادَةِ، بِالْإِضَافَةِ إلى فواتِ فوائدَ أُخْرَى من تَنْزِيلِهِ مُنَجَّمًا[3].

الِالْتِفَاتُ مِنَ الْغَيْبَةِ إِلَى التَّكَلُّمِ؛ لِلدَّلالة عَلَى التَّفْخِيمِ:

عَظَمَةُ مُنَزِّلِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ وَعَظَمَةُ الْمُنَزَّلِ عَلَيْهِ

جاءَ قولُه تعالى: ﴿مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ بأسلوب التَّكَلُّم بعد قوله: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ﴾ بأسلوب الغَيْبَة، وكان مقتضى الظاهر: (مِمَّا نزَّل على عبدِه)؛ ففيهِ الْتِفَاتٌ مِنَ الغَيْبَة إلى التَّكَلُّم، وفائدته: تفخيمُ المُنَزِّل وهو اللّه تعالى، وتفخيم الْمُنَزَّلِ عَلَيْهِ وهو النَّبِيُّ ﷺ لا سيَّما

(1) عادل أحمد الرّوينيّ، من غريب بلاغة القرآن الكريم في سورتي الفاتحة والبقرة، ص: 112.
(2) الزّمخشريّ، الكشَّاف: 1/97.
(3) الزّمخشريّ، الكشَّاف: 97-1/96.

وأنَّ أسلوبَ التَّكَلُّم في ﴿عَبۡدِنَا﴾ وَرَدَ بـ (نَا) الدَّالَّةِ على العظمةِ؛ وذلك ما لا يُفيده (عَبۡدِي) وإن كان يتوافَقُ مع ما قبله في التَّكلُّم[1]، والإِضَافَةُ في ﴿عَبۡدِنَا﴾ لِتَشْرِيفِ المضافِ.

دلالة الأَمْرِ في ﴿فَأۡتُواْ﴾:

إِقَامَةُ الحجَّةِ عَلَى الخَصْمِ؛ لِتَحْقِيقِ الإِقْنَاعِ وَالهِدَايَةِ

الأمرُ في قوله ﷻ: ﴿فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّن مِّثۡلِهِۦ﴾ يُرادُ به التَّحدِّي، وليس المرادُ بِهِ الإِلْزَامَ؛ إذِ المقامُ مقامُ إظهار عجزهم عَنِ الإتيان بسورة مِنْ مِثْلِ القُرآن الكريم؛ لِأَنَّهم إِنْ حَاوَلُوا ذلك بعد سماعهم صيغةَ الأَمْرِ- ولم يُمَكِّنْهُم - ظَهَرَ عَجْزُهُمْ وبانَ[2].

ثُمَّ إِنَّ التَّحَدِّيَ لا يُرادُ لذاتِهِ، وإِنَّما يُرادُ لازِمُهُ وهو ثبوتُ صِدْقِ الرِّسالةِ وهدايةُ المخاطَبين؛ وذلك لا يكونُ إلَّا بإقامة الحجَّة عَلَيْهِمْ، فَفِي الأَمْرِ قِيمَةٌ هِدائيّة، وإبرازُ التَّعجيزِ فِيهِ قِيمَةٌ جَدَلِيَّةٌ، وتقديم القِيمَةِ الهدائيَّةِ على الجدليَّةِ طريقَةٌ قرآنيَّةٌ.

تَنْكِيرُ (سُورَةٍ) لِبَيَانِ النَّوْعِ:

تَوْسِيعُ دَائِرَةِ التَّحَدِّي تُظْهِرُ عَجْزَ المُعَانِدِينَ

نُكِّرت (سُورَة) مِن قول الله ﷻ: ﴿فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ﴾ لِبَيَانِ النَّوع؛ لِلإِيمَاء إلى اتِّساع مجال التَّحدِّي والمعارضة؛ فَإِنَّ المطلوبَ حينئذٍ هو الإتيان بمثلِ أيِّ سورةٍ من سُوَرِ القُرآن، وهذا غايةٌ في التَّبكيتِ والتَّخجيلِ لهُمْ إِذْ عَجَزُوا عَن ذلك[3]. وهم الفصحاءُ البُلغاءُ الأَبْيناءُ.

دلالة الحَرْفِ ﴿مِّن﴾:

أُمِّيَّةُ النَّبِيِّ ﷺ مِنْ أَدِلَّةِ صِحَّةِ المَصْدَرِ الرَّبَّانِيِّ لِلْقُرْآنِ الكَرِيمِ

(مِنْ) في قوله سبحانه: ﴿بِسُورَةٖ مِّن مِّثۡلِهِۦ﴾ لا يَجُوزُ أن تُحْمَلَ على كونِهَا صِلَةً[4]؛ لأَنَّ (مِنْ) إنَّما تُزاد -عندَ الجمهور- في النَّفْيِ، وبشرط أَنْ يَكُونَ مَدْخُولُها نكرةً[5].

---

(1) الهرريّ، حدائق الرّوح والرَّيحان: 1/284.

(2) بسيوني عبد الفتاح فيُّود، علم المعاني، ص: 360.

(3) عادل أحمد الرّويني، من غريب بلاغة القرآن الكريم في سورتي الفاتحة والبقرة، ص: 117.

(4) أبو حيَّان، البحر المحيط: 1/170.

(5) الخفاجيّ، عناية القاضي: 2/34.

وتحتمل ﴿مِّن﴾ هَهُنَا ثلاثةَ أوجُهٍ:

الأوَّل: أن تكون لِلابْتِدَاءِ؛ وذلك بإعادة الضَّمير في ﴿مِّثْلِهِۦ﴾ لِلْمُنَزَّلِ عَلَيْهِ وهو النَّبِيُّ ﷺ ويكون المعنى: فَأْتُوا "بسورة كائنةٍ مِمَّنْ هو على حالِهِ مِنْ كونِه بشرًا أُمِّيًّا، لم يقرأ الْكُتُبَ، ولم يتعلَّم العلُومَ"[1].

والثَّاني: أن تكون لِلتَّبْيِين، وعَلَيْهِ فَتَكُونُ السُّورةُ المتحدَّى بها كونَهَا مثلَ القرآنِ في النَّظم وغرابةِ البَيَان[2].

والثَّالِثُ: أن تكُونَ لِلتَّبعيض؛ إذِ التَّحَدِّي في هذه الآية وقع ببعضِ القرآن؛ وهو السُّورة[3]، أو أنَّ التَّبْعِيضَ رَاجِعٌ إلى المُمَاثَلَةِ؛ أي: أنَّهم مُطَالَبُون بنوعٍ مِنَ الْمُمَاثَلةِ، لا بالمُمَاثَلَةِ التَّامّةِ[4]، وهذا المعنى هو الأظهرُ، "ومعنى هذا أن المرحلة الأخيرة كان التّحدي فيها للنّاس جميعًا، ولا يُعقل أن يتحدَّى النَّاس جميعًا بالبيانِ وحدَه، إنَّما هو تحدٍّ عامٌّ عمومَ المخاطبين به"[5]؛ فيدخلُ فيه جميع أوجه الإعجاز، والمخاطَبون مطالبون بالإتيانِ بوجهٍ واحد، وهذا هو معنى التَّبعيض.

تَوْجِيهُ المُتَشَابِهِ اللَّفْظِيِّ بَيْنَ سُورَةِ البَقَرَةِ وَسُورَةِ يُونُسَ:

لَم تَرِد (مِنْ) في قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [يونس: 38]؛ وذلك أنَّ آيةَ يونسَ وقع التَّحدِّي بالإتيان بسورة مماثلةٍ لِلْقُرْآن، بخلاف آيةِ البقرة، فكان فيها تَنَزُّلٌ مَعَهُمْ مِنَ الإِتْيَانِ بالمماثل إلى الإتيان بِشَيْءٍ مِمَّا يُماثل، فالمطلوبُ: شَيْءٌ مِن جِنْسِ المُمَاثلة على وجه التَّقريب.

ولَمَّا كانت آيةُ البقرَةِ آخِرَ آياتِ التَّحدِّي الأربع نُزُولًا؛ إذِ الآيَاتُ الثَّلاث الأُخَر كلُّها واردةٌ في سُوَرٍ مكِّيةٍ -وهي: الإسرَاءُ، ويُونُسُ، وهُودٌ- كان ذِكْرُ (مِنْ) فيها دون آيةِ يُونُسَ أنسبَ؛ لأنَّ ذلك وقعَ على جهةِ التَّنَزُّلِ معهم في التَّحَدِّي؛ لأجل تَبْكِيتِهم وإظهار عجزِهِمْ[6].

(1) الطِّيبي، فتوح الغيب: 2/320.
(2) الخفاجيّ، عناية القاضي: 2/34.
(3) الواحديّ، البسيط: 2/238.
(4) محمّد داود، معجم الفروق الدِّلاليَّة في القرآن الكريم، ص: 553.
(5) فضل حسن عباس، إعجاز القرآن المجيد، ص: 22.
(6) أحمد هنداوي عبد الغفَّار هلال، آيات التَّحدِّي ودقائق في نظمها، ص: 339-338.

دلالة الأَمْرِ ﴿وَٱدْعُواْ شُهَدَآءَكُم﴾ عَلَى التَّعْجِيزِ وَالِاسْتِدْرَاجِ إِلَى غَايَةِ التَّبْكِيتِ:

بُلُوغُ إِعْجَازِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ مِنَ الظُّهُورِ مَا لَا سَبِيلَ مَعَهُ إِلَى الْإِنْكَارِ

الأمرُ في قوله سبحانه: ﴿وَٱدْعُواْ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ يُراد به التَّعْجِيز والإفحَامُ[1]، وفِيهِ "إرخاء العنان والاسْتِدْرَاجُ إلى غاية التَّبْكِيتِ، كأنَّهُ قيل: تَرَكْنَا إلزَامَكُم بشُهَداء الحَقِّ إلى شهدائكم المَعْرُوفين بالذَّبِّ عَنْكُمْ، فإنَّهُم أَيْضًا لا يَشْهَدُونَ لَكُمْ حِذَارًا مِنَ اللَّائمة، وأَنَفَةً مِنَ الشَّهادة البَتَّةِ البُطْلَانِ، كَيْفَ لا وأَمْرُ الإعجاز قد بلغَ مِنَ الظُّهور إلى حيث لَمْ يَبْقَ إلى إنكاره سَبِيلٌ"[2].

بلاغة إدماج قوله تعالى: ﴿مِنْ دُونِ اللهِ﴾:

تَوْبِيخُ الْمُشْرِكِينَ عَلَى شِرْكِهِمْ أَثْنَاءَ إِظْهَارِ عَجْزِهِمْ

وجاء التَّعبير بـ ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ في قوله: ﴿وَٱدْعُواْ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ دونَ (وَادْعُوا شهداءكم إن كنتُم صادقين)؛ فأُدمج ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾، والقَصْدُ من ذلك: "تَوْبِيخُهُم على شِرْكِهِمْ أَثْنَاءَ تعجيزهم عَنْ مُعَارَضَةِ القُرآن، وهذا الإِدْمَاجُ من أفانين البلاغَةِ أَنْ يكونَ مُرَادُ البليغ غَرَضَيْنِ فَيَقْرِنَ الغَرَضَ المَسُوقَ لَهُ الكلامُ بالغَرَضِ الثَّاني، وفيه تظهر مقدرَةُ البليغ؛ إذْ يَأْتِي بذلك الاقْتِرَانِ بِدُونِ خُرُوجٍ عن غَرَضِهِ المَسُوقِ لَهُ الكَلَامُ ولا تَكَلُّفٍ"[3].

الِالْتِفَاتُ مِنَ التَّكَلُّمِ إِلَى الغَيْبَةِ لِإِدْخَالِ الرَّوْعَةِ وَزِيَادَةِ الْمَهَابَةِ:

جاء التَّعبير بأسلوب التَّكَلُّم في قوله: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾، ثُمَّ عُدِل عَنْهُ إِلَى الغَيبة في قوله: ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ -إذِ الاِسْمُ الظَّاهِرُ في حكم الغَيبَة-، وكان مقتضى الظَّاهر: (مِن دُونِنَا)، والنُّكْتَةُ في ذلك: إدخالُ الرَّوعة وزيادة المهابَة[4].

حَذْفُ جَوَابِ الشَّرْطِ لِدلالة مَا قَبْلَهُ عَلَيْهِ:

اسْتِحَالَةُ كَوْنِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ صَادِرًا مِنْ بَشَرٍ

جواب الشَّرْطِ في قوله: ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ محذوفٌ، دلَّ عَلَيْهِ

(1) عادل أحمد الرّويني، من غريب بلاغة القرآن الكريم، ص: 122.
(2) الألوسّي، روح المعاني: 1/199.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/339.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السَّليم: 1/65.

مَا قبلَهُ، والتَّقْدِيرُ: إنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ في أنَّهُ مِن كلام البَشَرِ أَوْ أنَّكم قادِرُون على معارضتِهِ، فَأْتُوا بمِقْدَارِ أَقْصَرِ سُورَةٍ مِنْهُ[1].

وجاء التَّعبيرُ في الشَّرطِ بـ (إنْ) إيماءً إلى أنَّ صِدْقَهم فيما زَعَمُوهُ محالٌ[2].

نُكْتَةُ حَذْفِ مُتَعَلَّقِ ﴿صَٰدِقِينَ﴾:

اضْطِرَابُ أَقْوَالِ الْكَفَرَةِ وَعَدَمُ اتِّحَادِهَا

حُذِفَ مُتعلَّقُ ﴿صَٰدِقِينَ﴾؛ لِلإيمَاءِ إلى اضطرابِ أقوالهم تُجاهَ القرآن، فليس لَهُمْ قَوْلٌ مُتَّحِدٌ نحوَهُ فيُذكَر.

وفي قوله: ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ تعريضٌ بِكَذِبِهم وافْتِرَائِهِم، ومُجَانَبتِهم الحَقَّ في هذه القضيَّة العَظِيمَة[3].

تَعْلِيقُ الشَّرْطِ بِـ (إنْ) خِطَابًا لَهُمْ حَسَبَ ظَنِّهِمْ وتَهَكُّمًا بِهِمْ:

التَّنَزُّلُ مَعَ الْمُخَالِفِ فِي الْمُحَاوَرَةِ

جاء الشَّرطُ في قوله تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ﴾ بـ (إنْ) الدَّالَّة على الشَّكِّ دون (إذَا)، مع أَنَّ عدمَ إتْيَانِهم بمثل القرآن الكريم مَجْزُومٌ ومقطوعٌ بهِ؛ وذلك لإحْدَى نُكْتَتَيْنِ[4]:

الأُولَى: أنَّ الكلامَ سِيقَ لَهُمْ حَسَبَ طَمَعِهم، وأنَّ عَجْزَهُم عَنِ المُعَارَضَةِ -قَبْلَ أَنْ يَتَأَمَّلوا- لَمْ يكُن مُتَحَقَّقًا عِنْدَهُم؛ لِاعْتِمَادِهم على فصاحتهم وتَفَنُّنهم في ضُرُوب الكلام.

والأُخْرَى: أنَّ استعمال (إنْ) جاء على وَجْهِ التَّهَكُّم بِهِمْ، ولِذَا اعتُرِضَ بينَ الشَّرط والجزاء بقوله سُبْحَانَه: ﴿وَلَن تَفْعَلُواْ﴾.

حَذْفُ مُتَعَلَّقِ ﴿تَفْعَلُواْ﴾ لِلإيمَاءِ إِلَى ظُهُورِ تَهَالُكِهِمْ عَلَى ذَلِكَ:

ظُهُورُ عَجْزِ الْكُفَّارِ عَنْ مُعَارَضَةِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ

حُذف مفعول ﴿تَفْعَلُواْ﴾، والتقدير: فإن لم تفعلوا ما طُولِبْتُم به؛ أي: من الإتيان بسورة من مثل القرآن، بعد بذْلِكُم غاية جُهْدِكم في

(1) الخفاجيّ، عناية القاضي: 2/45.
(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/72.
(3) عبد العزيز بن صالح العمَّار، آيات التَّحدِّي في القرآن الكريم: الدّلالة والإيحاء، ص: 26-25.
(4) الزَّمخشريّ، الكشَّاف: 1/101.

سبيل ذلك، وإنما حُذِفَ "إيذانا بعدم الحاجة إليه، بناءً على كمالِ ظهورِ تهالُكِهم على ذلك"[1].

الِاعْتِرَاضُ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَلَن تَفْعَلُواْ﴾ لِتَعْجِيلِ بَيَانِ عَجْزِهِمْ، وَأَنَّ عَجْزَهُمْ عَنِ الْمُعَارَضَةِ مُطْلَقٌ:

عُلُوُّ البَلَاغَةِ القُرْآنِيَّةِ عُلُوًّا تَتَعَذَّرُ مَعَهُ مُعَارَضَتُهُ

الإطنابُ في قوله ﷻ: ﴿وَلَن تَفْعَلُواْ﴾ إطْنَابٌ بالاعْتِرَاضِ، فهو اعتراضٌ بين الشَّرْطِ والجواب، وفائدتُهُ: المُسَارَعَةُ إلى بيان عدَمِ تَمَكُّنِهِم مِن فِعْلِ مَا طُولِبُوا بِهِ، وتسجيلُ عجزِهم المُطْلَقِ عَنِ المُعَارَضَة[2].

إِيجَازُ الْحَذْفِ بِطَيِّ الِاسْتِلْزَامَاتِ الظَّاهِرَةِ:

المُعَانِدُ لِلحَقِّ مُتَوَعَّدٌ بِالنَّارِ، وَالمُنْقَادُ لِلْحَقِّ مَوْعُودٌ بِالْجَنَّةِ

في قولِ اللهِ سُبْحَانَهُ: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ﴾ حَذْفٌ؛ وذلك أنَّ ﴿فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ﴾ قائمٌ مقام السَّبَبِ الذي هو مِنْهُ في الرُّتبة الثَّالثة، والتَّقدير: فَإِنْ لَمْ تَأْتُوا بسُورَةٍ مِنْ مِثْلِ القرآن، تبيَّن لَكُمْ عَجْزُكُم عَنِ المُعَارَضَة؛ وذلك دالٌّ على صدقِ ما تضمَّنَهُ وصِدْقِ الرَّسُول ﷺ وإذا صحَّ عِنْدَهُمْ ذَلِكَ ثُمَّ اسْتَمَرُّوا في العِنَادِ، اسْتَحَقُّوا العذابَ بالنَّار، فَقِيلَ لَهُمْ: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ﴾[3].

ويُمْكِنُ أَنْ يُخرَّج هذا على المجَازِ المُرْسَلِ بعلاقةِ المُسَبَّبِيَّةِ حيث وُضِعَ اتِّقاء النَّارِ موضعَ تَرْكِ العِنَادِ الذي هو سَبَبٌ فيه، فذُكِرَ المُسَبَّب وهو اتِّقاء النَّار، والمراد: تركُ العنادِ والِانْقِيَادُ إِلَى الحقِّ؛ وهو سبب اتِّقاء النَّار.

تَعْرِيفُ ﴿ٱلنَّارَ﴾ بِلامِ العَهْدِ العِلْمِيِّ:

اسْتِقْرَارُ أُصُولِ العَقَائِدِ فِي قُلُوبِ المُؤْمِنِينَ

اللَّام في (النَّار) من قوله تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ﴾ لِلْعَهْدِ العِلْمِيِّ؛ وذلك أنَّ كثيرًا من آياتِ النَّار نَزَلَ بِمَكَّةَ المُكَرَّمةِ، فاستقرَّ ذلك

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السَّليم: 1/66.
(2) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 1/166.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/102، وابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/73، وأبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 1/166.

المعنى في نفوس الْمُتَلَقِّينَ، فإذا عُرِّفَتْ باللَّامِ انْصَرَفَ الذِّهْنُ إلى تلك النَّارِ المعروفةِ قبلُ، لا إلى كلِّ نَارٍ.

فَائِدَةُ الْوَصْفِ زِيَادَةُ التَّهْوِيلِ:

وَصْفُ النَّارِ بأنَّها ﴿ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُۖ﴾ لِزِيَادَةِ التَّهْوِيل والتَّفْظِيع.

شِدَّةُ هَوْلِ النَّارِ وَفَظَاعَةُ الْعَذَابِ فِيهَا

وجُعِلَ هذا الوصفُ صِلَةً لِلْمَوْصُولِ - ومِن شَرْطِهَا كَونُها معلومةً لِلْمُخَاطَب- إمَّا بناءً على أنَّهم سَمِعُوا ذلك مِنَ النَّبِيِّ ﷺ، أو أنَّهم سَمِعُوا قبلَ آيةِ الْبَقَرَةِ قولَ اللّه سبحانه: ﴿قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ﴾ [التحريم: 6]، فَأُشِيرَ إلى ما سَمِعُوه مِنْ قبلُ[1].

نُكْتَةُ أُسْلُوبِ الْجَمْعِ:

الْجَزَاءُ مِنْ جِنْسِ الْعَمَلِ

في قَرْنِ النَّاسِ بالحجارةِ: أُسْلُوبُ الجَمْعِ[2]؛ وإنَّما قُرِنُوا بها؛ لأنَّهم لَازَمُوهَا في الدُّنْيَا بنَحْتِهِمُ الحجارةَ أَصْنَامًا، وصرفوا لَهَا العبادةَ مِن دُون اللّه تعالى، فكان جزاؤُهم أَنْ يُقْرَنُوا بِهَا في الآخرَةِ؛ إذِ الجَزَاءُ مِنْ جِنْسِ العَمَلِ، ولزِيَادَةِ تَحَسُّرِهِم؛ حيثُ ظَهَرَ لَهُمْ عَكْسُ مَا كَانُوا يَتَوَقَّعُونَهُ، فَيَتِمُّ لَهُمُ العَذَابُ الجِسْمَانِيُّ والعذاب الرُّوحِي[3]، كما قال اللّه تعالى: ﴿إِنَّكُمۡ وَمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء: 98].

نكتةُ تَقْدِيمِ النَّاسِ عَلَى الْحِجَارَةِ:

تَخْوِيفُ النَّاسِ مِنْ نَارِ جَهَنَّمَ بِذِكْرِ مَا تُوقَدُ بِهِ

قُدِّمَ النَّاس على الحجارة؛ لِنِكَاتٍ[4]:

إحداها: أَنَّهُمُ الذين يُدْرِكُونَ الآلامَ.

---

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السَّليم: 1/67-68.

وجَزَمَ الزّمخشريّ (1/102) فعدَّ آية التَّحريم مَكِّيَّةً، إذْ لا يَلْزَمُ -كما أومأ أبو السُّعود- مِنَ الحُكم بمَدَنِيَّة السُّورة أن تكُونَ كلُّ آياتها كذلك. إلَّا أنَّه يمكِنُ أن يُقَالَ: إنَّ كون سُورةِ التَّحريم مدنيَّةً، لا يلزمُ أن تَكُونَ خُصُوصُ هذه الآية نَزَلَتْ بَعْدَ نُزُولِ آية البقرة؛ إذْ سُورَةُ البقرة نَزَلَتْ في مُدَدٍ شَتَّى.

(2) والجمع: هو أن يُجْمَعَ بين مُتَعَدِّد في حكمٍ واحد. يُنظر: السُّبكّي، عروس الأفراح: 2/251.

(3) الزّمخشريّ، الكشَّاف: 1/103، والآلوسّي، روح المعاني: 1/201.

(4) الآلوسّي، روح المعاني: 1/201.

ثانيها: أنَّهم أَكْثَرُ إيقَادًا مِنَ الحِجَارَةِ؛ لِمَا فِيهِمْ مِنَ الجُلُودِ واللُّحُومِ والشُّحومِ.

ثالثها: أنَّ الآيةَ مَسُوقَةٌ لتَخْوِيفِ النَّاسِ، فكانَ الْأَنْسَبُ تقديمَهم في الذِّكْرِ؛ لأنَّ ذلك أزيدُ في التَّخْوِيفِ.

مَعْنَى اللَّامِ فِي ﴿ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾:

اجْتِمَاعُ الْكَفَرَةِ مَعَ أَصْنَامِهِمْ فِي النَّارِ زِيَادَةٌ فِي عَذَابِهِمْ

تَعْرِيف (النَّاسِ) و(الحجارةِ) في قوله سبحانه: ﴿وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾ يُراد به الجِنْسُ، وأنَّهم في النَّاسِ: جنسٌ خاصٌّ، وهُمُ الذين قدَّر اللهُ تعالَى دخولَهُم النَّارَ، وفي الحجارةِ: جنسٌ خاصٌّ مِنْهَا؛ وهو ما نُحِتَتْ مِنْهُ الأصنامُ.

وذهبَ بعضُ أهلِ العلم إلى أنَّ اللَّام فِيهِمَا لِلْعُمُومِ، لا على مَعْنَى أنَّ كُلَّ النَّاس يُعذَّبُ في النَّارِ وتُوقَدُ به؛ وإنَّما لِبَيَانِ صَلَاحِيَّتها لإحراق ما يُلقى فِيهَا مِنْ هَذَيْنِ الْجِنْسَيْنِ[1].

تَعْلِيقُ الإِعْدَادِ بِوَصْفِهِمْ بِالكُفْرِ لِبَيَانِ الْعِلَّةِ:

الكُفْرُ مِنْ أَعْظَمِ أَسْبَابِ دُخُولِ النَّارِ

تَعْلِيقُ إِعْدَاد النَّارِ بوَصْفِهِمْ بالكُفْرِ في قوله: ﴿أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ هُو قَصْدٌ لِبَيَانِ العِلِّيَّةِ، وأنَّه إنَّما أَعَدَّ النَّارَ لَهُمْ؛ لِكَوْنِهِمْ كَفَرُوا بما يَجِبُ الإيمانُ به والْإِذْعَانُ لَهُ.

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الرَّيْبُ وَالشَّكُّ:

يرَى جماعةٌ مِن العلماءِ أنَّ الرَّيْبَ مرادِفٌ لِلشَّكِّ؛ بل نَقَلَ ابنُ أبي حاتم الإِجْمَاعَ على تَفْسِيرِ الرَّيبِ بالشَّكِّ الواردِ في صَدْرِ سورة البقرة[2]؛ وليس في هذا الإِجْمَاعِ إجماعٌ بِتَرادُفِهِمَا، وإنَّما كان الاتِّفاقُ على تفسيرِ الرَّيب بالشّكِّ مِن جهة وجُودِ أصل الشَّكِّ فيهِ؛ إذْ كلُّ رَيْبٍ فيه شكٌّ -كما سيتَّضحُ قريبًا-.

(1) الآلوسّي، روح المعاني: 1/201.

(2) ابن أبي حاتِم، تفسير القرآن العظيم: 1/34.

ولذا قال السَّمين الحلبيّ: "فلَيْسَ قولُ مَن قال: (الرَّيْبُ الشَّكُّ مطلقاً) بجَيِّدٍ، بل هو أخصُّ مِنَ الشَّكِّ"[1].

والتَّحقيقُ أنَّ بين الرَّيْبِ والشَّكِّ فرقًا، وقَدِ تباينت عباراتُ العلماءِ في بيان الفرقِ بَيْنَهُما؛ فقيل: الرَّيْبُ: الشَّكُّ مع تُهمة[2]، أو هو شكٌّ وزيادةُ ظنٍّ سوءٍ[3]، وحقيقتُهُ: قَلَقُ النَّفس واضْطِرابُها[4]، والتُّهْمَةُ التي في الرَّيْبِ هي تُهمةٌ لِلْمُخْبِرِ[5].

وقيل: الشَّكُّ وقوفُ النَّفس بين شَيْئَيْنِ مُتَقَابِلَيْنِ مِن دون أَمَارَةٍ مُرَجِّحةٍ بينَهُما، وَالرَّيبُ: أَنْ يُتَوَهَّم في الشَّيء أمرٌ مَا، ثُمَّ يَنْكَشِفَ عمَّا تُوُهِّم فيه[6]، فكأنَّ في الرَّيْبِ نوعَ حُكْمٍ وإنْ لَم يَكُنْ جازمًا، بخلاف الشَّكِّ فلا حُكْمَ فيهِ.

والتَّحْقِيقُ فِيهِ مَا قرَّره ابنُ القَيِّم رحمه الله، فَقَد جعلَ الفَرْقَ بَيْنَهُمَا مِنْ سِتَّةِ أوجُهٍ، نُرْجِعُهَا إلى فَرْقَيْنِ اثنين[7]:

أَحَدهما: فرق لفظيٌّ، والآخر: معنويٌّ.

فأمَّا اللَّفظيّ؛ فإنَّه يُقال: شَكٌّ مُرِيبٌ، ولا يقال: رَيْبٌ مُشَكِّكٌ، ويقال: رَابَنِي أمرُ كذَا، ولا يُقال: شكَّكَنِي.

وأمَّا المعنويّ؛ فَهُوَ أَنَّ الرَّيبَ بمعنى الانْزِعَاج والقلَقِ، يُقال: رابَهُ إذا أزعجه وأَقْلَقَه، ولا يكون هذا المعنى في الشَّكِّ؛ فإنَّك تقول: لا تُرِبْ فلانًا بمعنى لا تُزعجْهُ ولا تُقْلِقْهُ، ولا يصح أَنْ يُقَالَ: لا تُشَكِّكْهُ! -بِذَلِكَ المَعْنَى-.

والرَّيْبُ فيه -مع الشَّكِّ- مَعْنَى التُّهْمَةِ، فَيُقَال: رابنِي مجيئُهُ، ولا يقال: شكَّكَنِي مجيئُهُ.

ولذا فَإِنَّ الشَّكَّ أصلٌ للرَّيْبِ وسَبَبٌ فيهِ؛ فَإِنَّ العَبْدَ يشُكُّ أوّلا، ثُمَّ يُوقِعُهُ الشَّكُّ في الرَّيْبِ.

---

(1) السَّمين، الدُّر المصون: 1/86.

(2) السَّمين، الدُّر المصون: 1/86، وأبو هلال العسكريّ، الفروق اللُّغويَّة، ص: 264.

(3) النَّيسابوريّ، غرائب القرآن: 1/137.

(4) الزَّمخشريّ، الكشَّاف: 1/34.

(5) الهرريّ، حدائق الرَّوح والرَّيحان: 17/409.

(6) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 1/115.

(7) ابن القيِّم، بدائع الفوائد: 4/106.

نَزَّلَ وَأَنْزَلَ:

مصدر الفعل (نَزَّلَ): التَّنزيل، ومصدر (أنزل): الإنزال، والفرق بينهما: أنَّ التَّنزيل لِمَا يكون مُفرَّقًا أو تدريجيًّا، والإنزالَ لِمَا يكون دفعةً واحدة[1]، وهذا هو المعبَّر عنه بقولهم: التَّنزيلُ تدريجيٌّ، والإنزال دَفْعِيٌّ.

وذهب الرَّاغِبُ في تفسيره إلى كونهما بمعنًى واحد، وإنَّما غُويرَ بينهما في نحو قول الله تعالى: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾ [آل عمران: 3]؛ لكون حُكْم القرآن الكريم مؤبَّدًا، وهو مناسبٌ لـ (نزَّل)؛ فإنَّه بِنَاءٌ لِلمبالغة، ولِمَا في التَّنزيل مِن معنَى التَّدريج -وهو ما سبق-[2].

وكلامُه في (المفردات) يَقْضِي أَنَّ بينَ الإنزالِ والتَّنزيل عمُومًا وخصُوصًا مُطْلَقًا؛ فالتَّنْزِيل يكون تدريجيًّا، والإنزالُ أَعَمُّ مِنْهُ؛ فقد يدلُّ على معنى التَّدْريجِ وقد لا يدلُّ[3].

والظَّاهر: الأوَّلُ، وهو أَنَّ التَّنْزِيلَ تدريجِيٌّ والإنزالَ دَفْعِيٌّ.

ولا يُشكِلُ على هذا الفرقِ: أنَّه وقعَ التَّعبيرُ عَنِ القُرآن الكريم بالفِعْلَيْنِ معًا؛ لأنَّ لِلْقُرْآنِ الكريمِ نُزولَيْنِ[4]:

أحدهما: نزولٌ دَفْعِيٌّ إلى السَّماءِ الدُّنيا.

والآخر: نُزولٌ تدريجِيٌّ بحسب الوقائع والأحداث.

(1) السّمين، عمدة الحفّاظ: 4/164، وأبو هلال العسكريّ، الفروق اللُّغويّة، ص: 79، والجرجانّي، التّعريفات، ص: 68، والخفاجيّ، عناية القاضي: 1/3، 2/3، والزّبيديّ، تاج العروس: 30/479، وابن عثيمين، تفسير الفاتحة والبقرة: 1/340-341.

(2) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 2/408.

(3) الرّاغب، المفردات، ص: 800-799.

(4) أبو شامة المقدسّي، المرشد الوجيز إلى علوم تتعلَّق بالكتاب العزيز، ص: 17، والسّيوطيّ، الإتقان في علوم القرآن: 1/146.

﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنۡهَا مِن ثَمَرَةٖ رِّزۡقٗا قَالُواْ هَٰذَا ٱلَّذِي رُزِقۡنَا مِن قَبۡلُۖ وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهٗاۖ وَلَهُمۡ فِيهَآ أَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞۖ وَهُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٢٥﴾ [البقرة: 25]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا ذكَر اللهُ سُبْحَانه جزاءَ أعدائه مِنَ الكَافِرين؛ بسبَبِ موقفهم من القُرآنِ الكريم، ناسبَ أن يذكُرَ جزاءَ أوليَائه مِنَ المُؤْمِنين بالقرآنِ؛ وذلك علَى طَرِيقَة القُرآن الكريم في الجَمْعِ بينَ التَّرغيبِ والتَّرْهِيب[1]؛ لبيانِ حالِ النَّاس بأصنافِهم في الآخرةِ بعد بيانِ حالِهم في الدُّنيا.

شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

1) ﴿وَبَشِّرِ﴾: البَاءُ والشِّين والرَّاء تدُلُّ تصاريفُها على ظُهور الشَّيء مَعَ حُسْنٍ وجَمَال[2].

وبَشِّرْ: فِعْلُ أَمْرٍ مِنَ البِشارةِ - بكَسْرِ البَاء-، وهي: كلُّ خبرٍ صِدْقٍ تتغيَّر بَشرةُ الوجهِ به، وَبِنَاءً على هذا؛ فإنَّ البِشَارَةَ تُستعمل في الخَيْرِ والشَّر؛ ذلك أنَّ التَّبشيرَ هو ظُهورُ أثرِ الكلامِ في البَشَرَةِ، إثر انتشارِ الدَّم في العُرُوق[3]، خيرًا أو شرّا، إلَّا أنَّ اسْتِعمالَها في الخَيْرِ أغلَبُ، وهي كذلك في اسْتِعمَالِ القُرآنِ، وقِيلَ: إنَّ البِشَارة هِي الخَبَرُ السَّارُّ وحدَهُ، واستعمَالُه في غيرِه مِن بابِ التَّهَكُّم[4].

2) ﴿جَنَّٰتٖ﴾: الجيمُ والنُّونان أصلٌ يدُلُّ على السَّتْرِ، وَمِنْهُ: الجنَّةُ في الدُّنيا وهي البُسْتَان؛ لأنَّ الشَّجرَ بِوَرَقِهِ يستُرُ، وسمِّيت الجنَّة في الآخرة جنَّةً إمَّا تشبيهًا بجنَّة

(1) ابنُ كثير، تفسير القرآن العظيم: 1/203، والبقاعيّ، نظم الدُّرر: 1/189، ومَرعي الكَرْمِيّ، الكَلِمات البيِّنات، ص: 49-43، والسعدي، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 46، وابن عثيمين، تفسير الفاتحة والبقرة: 1/89.

(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (بشر).

(3) الرّاغب، المفردات: (بشر).

(4) الجرجانّي، التَّعريفات، ص: 45، والمُناويّ، التَّوقيف على مهمَّات التَّعاريف، ص: 78.

الدنيا- وإن كان بينهما بون-، وإمَّا لسَتْرِها عنَّا نعمَها المشار إليها بقوله: ﴿فَلَا تَعۡلَمُ نَفۡسٞ مَّآ أُخۡفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعۡيُنٖ﴾ [السجدة: 17][1].

والجَنَّة: الحديقَةُ ذَاتُ الشّجَرِ وَالنَّخْل.

وفرَّقَ أَبُو عَليٍّ الفارسِيُّ بينَ الحديقَةِ والجَنَّة؛ بأنَّ الجنَّةَ في كَلَام العَرَب لا تُسمَّى كذلك إلَّا إذَا كان فِيهَا نَخِيلٌ وعِنَبٌ، فَإِن لَم يَكُنْ فِيهَا ذَلِك وَكَانَت ذَاتَ شَجَرٍ؛ فَهِي حديقةٌ وَلَيْسَت جَنَّةً[2].

3) ﴿ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾: النُّونُ والهَاء والرَّاء تَدُلُّ اشْتِقَاقَاتُها على تَفَتُّح شيءٍ أو فَتْحِه، ومِنْهُ سُمِّيَ النَّهْرُ -وَجَمْعُهُ: الأَنْهَارُ، وهو مِنْ مجَارِي المِيَاهِ- نَهْرًا؛ لِأَنَّه يَنْهَر الأَرْضَ، أي: يشقُّها[3]، هَذَا أصلُ التَّسْمِيَةِ في كلامِ العرَبِ، وإلَّا فَإِنَّ أنهارَ الجنَّة تَجْرِي مِن غَيْرِ أُخْدُودٍ[4]، وأنْهارُ الجَنَّةِ غَيْبٌ محضٌ، فلنا فهمُ مقصودِ الكلامِ لا تعيينُه.

4) ﴿خَٰلِدُونَ﴾: الخَاءُ واللَّامُ والدَّالُ تدلُّ تَصْرِيفَاتُها على الثَّبات والمُلَازَمَة[5]، وَمِنْهُ الخُلْدُ والخلودُ: البَقَاءُ والدَّوام، وهو في الأَصْلِ: المُكْثُ الطَّويل، ولا يلزَمُ مِنْهُ الدَّوامُ، ولذا يُقَيَّدُ في مواضِعَ بِـ (أبدًا) مِن باب التَّمْييز لا التَّأْكِيد[6].

وخُلُودُ أهلِ الإيمَانِ في الجنَّةِ مقطوعٌ به، وذَلِكَ مُسْتَفَادٌ مِن أدلَّةٍ أُخْرَى كثيرةٍ؛ كمَا وَرَدَ في القُرآن الكَرِيم خُلُودُهم في الجَنَّة مقيَّدًا بالتَّأْبِيد، كقَوْلِه تعالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ﴾ [النساء: 57].

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

أَوْرد -أَيُّها الرَّسُول الكَرِيمُ وكلُّ مَنْ يتأَتَّى خِطَابُهُ- على مَسَامِع أَهْلِ الإيمانِ والعَمَلِ الصَّالِحِ خَبرًا يسرُّهُم سرورًا عظيمًا حتَّى يَمْتَلِئَ به باطنُهم ويظهَرَ أثرُهُ على بَشَرةِ وجوهِهم بأنَّ لهم في الآخرةِ بَسَاتِينَ كثيرةً وعظيمةً، تجري مِنْ تَحْتِهَا الأنهارُ، ولَهُمْ فِيهَا

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (جن)، والسمين، عمدة الحفاظ: (جنن).
(2) ابن سِيده، المحكم: (جن).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نهر)، وابن سيده، المحكم: (نهر).
(4) ابن القيِّم، حادي الأرواح، ص: 179-178، وابن القيِّم، الكافية الشَّافية، ص: 326، والألبانيِّ، سلسلة الأحاديث الصَّحيحة: 6/47-48.
(5) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (خلد).
(6) الكفويّ، الكلّيّات، ص: 434، وابن القيِّم، شفاء العليل، ص: 257، وابن عثيمين، شرح العقيدة الواسطيَّة: 1/265.

ثمراتٌ كثيرةُ العددِ، مختلفةُ الأنواع والطّعوم، كُلَّما رَزَقَهُمُ اللهُ تعالى مِنْهَا نوعًا؛ قالُوا قَبْلَ ذَوقِهِ: قد رَزَقَنَا اللهُ سبحانه هذَا مِنْ قبلُ، فإذا ذَاقُوهُ وَجَدُوا طَعْمَه مختلفًا عَنْ شبيهِهِ في اللَّوْنِ والشَّكْلِ، وكلُّ ثَمَرِ الجنَّة يُشْبِهُ بعضُهُ بعضًا في الحُسْنِ واللَّذَّة وإنْ كَانَ مُخْتَلِفًا في الطَّعْمِ.

ولِأَهْلِ الإيمَانِ والعمَلِ الصَّالحِ في الجَنَّاتِ: زوجات مطهَّرات من كل ألوان الدنس الحسّيِّ كالبول والحيض، والمعنويِّ كالكذب وسوء الخُلُق، وَهُمْ في الجنَّة باقُون، لا يَفْنَوْنَ ولا يَخْرُجون مِنْهَا[1].

الإيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

بَدِيعُ عَطْفِ القصَّةِ على القِصَّةِ:

بيانُ واقعِ أهلِ الكفرِ وأهلِ الإيمانِ في المآلِ بعد بيانِ وَاقِعِهم في الحَال

من بديعِ القرآنِ في العطفِ عطفُ القصَّة على القصَّة كما سمّاه السّيِّدُ الجرجانيُّ، ومعناه عطفُ جُملٍ على جُمَلٍ، وأوَّلُ مَنْ نبَّه عليه الزَّمخشريُّ، وهنا قد عُطِفَتْ جُمَلٌ فِيهَا ذكرٌ لثوابِ أهل الإيمان على جُمَلٍ فِيهَا ذكرٌ لعقاب أهلِ الكُفْران، والجامِعُ بَيْنَهُمَا التَّضَادّ؛ فإنَّ الإيمانَ يُضادّ الكفرَ؛ ليتَّضِحَ كَمَالُ التَّبايُنِ بين حال الفَرِيقَيْنِ في المآل، كما اتَّضحَ في الحال[2].

نكتةُ إفرادِ الخطابِ في قولِه: ﴿وَبَشِّرِ﴾:

النَّصُّ على المتابعةِ، ودخولُ كلِّ تبشيرٍ في صحيفته ﷺ

جاء خطابُ الأمرِ مفردًا في قولِه: ﴿وَبَشِّرِ﴾ لا جمعًا، وبناءً عليه اختلف المفسِّرون في تعيين المراد على قولين:

الأوَّل: خصوصُ الخطاب لِلنَّبِيِّ ﷺ، وهو الأصلُ في الخِطاب؛ إذْ أصلُه أن يكُونَ موجَّهًا لمعيَّنٍ.

الثَّاني: عُمُوم الخطابِ للأُمَّة؛ فيكون أمرًا لِكُلِّ مَنْ يَتَأَتَّى خِطَابُهُ.

(1) الخازن، لباب التَّأويل: 1/32، وابن جُزي، التَّسهيل: 1/76-77، والسعدي، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 46، ونخبة من أساتذة التّفسير، التّفسير الميسّر، ص: 5.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السَّليم: 1/68، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/350.

وقد اسْتَظْهَرَ الأَوَّلَ أبو حَيَّانَ؛ لأنَّ اختصاصَ أمرِهِ ﷺ بالبِشَارَة أفخَمُ، "وكأنَّهُ ما اتَّكَلَ على أَنْ يُبَشّر المؤمنينَ كلُّ سامعٍ، بَل نَصَّ على أَعْظَمِهِم وأَصْدَقِهِم لِيَكُون ذلك أوثَقَ عِنْدَهُم وأقطَعَ في الإِخْبَار بهذه البِشَارة العظيمَة؛ إذْ تَبْشِيرُهُ ﷺ تبشيرٌ مِنَ اللهِ تعالى"[1].

وَاسْتَحْسَنَ الثَّانيَ الزَّمخشريُّ؛ لأنَّه مُشْعِرٌ بعظَمَةِ الأمر وفخَامَتِه؛ بِحَيْثُ حُقَّ أَنْ يُبشِّرَ بهِ كلُّ مَن قَدر على هذه البِشارةِ[2].

والوَجْهان مُتكامِلان في أثرِهما، فإنَّ الخطابَ موجَّهٌ للنَّبيِّ ﷺ ابتداءً، وعلى الأُمَّة أن تقتديَ به انتهاءً؛ فالأمرُ جاءَ مطابقةً له - عليه الصَّلاةُ والسَّلام -، ودلالة التزام لأُمَّته، ونكتةُ أن جاءَ مُفردًا دون أنْ يكونَ جمعًا؛ لبيانِ أنَّ كلَّ تبشيرٍ داخلٌ في ميزانه ﷺ، فمن أحبَّه بشَّر، ومن خالَفَه نفَّر.

سِرُّ التَّعبيرِ بالاسم الموصُولِ دون الظَّاهر:

الإشعارُ بعلَّة التَّبشيرِ والثَّناءُ على المؤمنين بأعمالِهم القلبيَّة والبدنيَّة

جاءَ التَّعبيرُ بالاسْم المَوْصُول في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ دونَ الظَّاهر؛ لِلتَّنْبيهِ علَى أنَّ سببَ التَّبشير ما جاء في حيِّزِ الصِّلةِ؛ وهو الإيمانُ والعمَلُ الصَّالحُ[3].

فالتَّعْبيرُ بالموصولِ مُشعِرٌ بالسَّبَبيَّة التي لأجلِها أُمِرَ النَّبيُّ ﷺ بالتَّبشيرِ؛ فلولا إيمانُ المؤمنين لما أُمِر بتبشيرهم[4]، وفيه ثناءٌ عليهم بأعمالِهم القلبيَّة والبدنيَّة؛ إذِ التَّبشيرُ نتيجةٌ لها.

إيثارُ الماضي على المضارِع لتأكيدِ سببِ التَّبشيرِ في تحقُّقِ الإيمان والعمَلِ الصَّالح:

آثرتِ الآيةُ التَّعبيرَ بصيغةِ الفعلِ الماضِي دونَ المُضَارِع في صلةِ الموصول في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾؛ لبيانِ تحقُّقِ الإيمانِ والعملِ الصَّالح لدى المؤمنين، فهي إخبارٌ عن إيمانِهم وأعمالِهم الصَّالحة المتحقِّقَة، لا إخبارٌ عن تجدُّد ذلك منهم، فهي بمنزلةِ التَّأكيدِ لسببِ التَّبشيرِ، وهذا غاية في الثَّناء الحسَن.

(1) أبو حيَّان، البحر المحيط: 1/179.
(2) الزَّمخشريّ، الكشَّاف: 1/104.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السَّليم: 1/68.
(4) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 1/168.

نكتةُ حَذْفِ مُتَعَلَّقِ الإيمَانِ لجَرَيانِ ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ مجرى الاصطلاحِ العُرفيِّ:

إطلاق عبارة (الذين آمنوا) تتضمن جميع أفراد الإيمان

حُذِفَ مُتَعَلَّقُ الإيمان في قوله سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، فلم يُذْكَر بِمَاذَا آمنوا؛ لِلْعِلْمِ بِهِ؛ فَإِنَّ متعلَّق الإيمانِ كان معروفًا عِنْدَ المُخَاطَبِينَ[1]؛ فقد جَرَى قولُه سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ مجرى الاصطلاحِ العُرفيِّ، فإذا قيلَ: الذين آمنوا؛ عُلِم المقصودُ مِنَ المحذوف، دون تخلُّفِ أيِّ فردٍ من أفرادِه؛ فينقدِحُ في الذِّهنِ جميعُ ما يجب أن يُؤمِنَ بِهِ المؤمنون، وهذا أبلغُ من ذكرِ أركانِ الإيمان؛ لأنَّه إنشاءٌ لطلبِ المقصُود، أمَّا هنا فهو تعبيرٌ عَنِ المتحقِّقِ الموجود.

توجيهُ عَطْفِ الخاصِّ على العام:

العنايةُ بالعَمَلِ الصَّالح، بذكرِه إشارةً وعبارةً لعدمِ التَّهاونِ فيه

عُطِفَ العملُ الصَّالحُ على الإيمانِ في قوله: ﴿ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾؛ لأنَّه من قبيل عَطْفِ الخاصِّ على العامِّ؛ تنبيهًا على فضيلةِ العمل الصَّالِحِ بذِكْرِهِ مرَّتين، إِحْدَاهُمَا: مُنْدَرِجًا تحتَ لَفْظِ الإيمَانِ وهذه دلالة إشارة، والأُخْرَى: مُنْفَرِدًا وهذه دلالة عبارة؛ وذلك لعدَمِ التَّهاونِ فيه، وهو بمثابةِ عطفِ الفرعِ على الأصل، وجني الثَّمَر بعد رعي الشَّجَر.

نكتةُ تنزيل الصِّفةِ منزلةَ الموصوفِ:

التَّنبيه على ضرورةِ استحضارِ النِّيَّةِ، وتحقيقِ الصَّلاح

حُذِف الموصُوف، وأُقيمت صفتُه مكانَه في قوله: ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، وهو إيجازٌ بالحَذْفِ؛ إذ (الصَّالِحَات) وَصْفٌ لموصوف محذوف، تقديره: وعَمِلُوا الأعمالَ الصَّالحاتِ[2]، والقرينةُ على تَعْيِينِ المَحْذُوفِ هي الفِعْلُ (عَمِلُوا)، ونكتةُ ذلك التَّوجُّه جملَةً إلى الصَّالحات، تنزيلًا للصِّفة منزلةَ الموصوف، رعايةً لها، وتعليمًا بأنَّ المقصودَ مِنَ الأعمالِ هو الصَّلاحُ لا مجرَّدُ الأعمالِ، وفي ذلك

(1) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 1/192.

(2) ابن عثيمين، تفسير الفاتحة والبقرة: 1/90.

تنبيهٌ على ضرورةِ استحضارِ النيَّة القلبيَّة المُوطّأ لها بـ ﴿ءَامَنُواْ﴾، وأهميَّة تحقيقِ الصَّلاح المُمهَّدِ له بـ ﴿وَعَمِلُواْ﴾.

معنى اللَّامِ فِي ﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾:

نوعُ اللَّام في ﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ لِلْعَهْدِ العلميِّ؛ فَإِنَّ العملَ الصَّالحَ معروفَةٌ حقيقَتُهُ في الشَّرعِ، وأنَّه الجامعُ بينَ أمرين: الإخلاصُ للّه تعالى، والمتابعَةُ لرَسُول اللّه ﷺ.

العمَلُ الصَّالِحُ هو الجامِعُ لِلْإِخْلَاصِ والمُتَابَعَةِ نصّا وإِقْرارًا

ويَحْتَمِلُ أن تَكُونَ اللَّام لِلاسْتِغْرَاقِ العُرْفِي، ويُرْجَع في تحديدِ مقداره إلَى الأَدِلَّةِ الشَّرعيَّة والاستطاعَة[1]، ومآلُ القولَين واحدٌ؛ إذ جميعُ الأعمال الصَّالحة في عرف النَّاس ممّا أقرَّها الشَّرعُ؛ فهي داخلةٌ في المعهودِ في الشَّرع.

نكتةُ جَمْعِ ﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ التَّنبيهُ على ضرورةِ الإتيانِ بها جميعِها:

وجَمْعُ ﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ لِلْإِيمَاءِ إلى وجوبِ الإِتْيَانِ بِهَا بأنواعها دُون الاكْتفاء بِبَعْضِهَا؛ إذْ إِنَّ أركانَ الإسلام وأعمالَ الخيرِ مترابطةٌ يأْخذُ بعضُها بِحُجَزِ بعضٍ[2].

تَقْدِيمُ الخَبَرِ للتَّشويقِ لمعرفَةِ ما أُعِدَّ للمؤمنين بعد معرفَةِ ما أُعِدَّ للكافرين:

قُدِّمَ خبَرُ ﴿أَنَّ﴾ وهو (لَهُمْ) على اسمها (جَنَّٰتٍ)؛ لأنَّ تَقْدِيمَهُ آكدُ؛ "لِقُرْبِ عود الضَّميرِ على الذين آمَنُوا؛ فهو أسرُّ لِلسَّامع"[3]، وفيه تشويقٌ لمعرفة ما أُعِدَّ له، بعد معرفةِ ما أُعِدَّ للكافرين، وعلى ذلك تكونُ اللَّامُ في (لَهُمْ) مُرادًا بها الاختصاصُ.

دلالة جَمْعِ الجَنَّاتِ وَتَنْكِيرِهَا:

دلَّ جمعُ الجنَّاتِ في قولِه سبحانه: ﴿أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ﴾ على تَعَدُّدها وكَثْرَتِها؛ إذْ إِنَّ الجنَّةَ مشتملةٌ على جِنان كثيرةٍ، وجيءَ بها مُنَكَّرةً

تَنَوُّعُ الجنَّات واختلافُها فيه مزيدُ ترغيبٍ بعد تشويق

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/352.
(2) مجموعة مِنَ العلماء، التَّفسير الوسيط: 1/57.
(3) أبو حيَّان، البحر المحيط: 1/182.

لِلْإِشَارة إلى تَنَوُّعها واختلافها[1]، وهو أدعى لِبناءِ عُنصُرِ التَّرغيبِ بعد التَّشويقِ؛ فإنَّ الجنَّةَ غَيْبٌ، والجمعُ أقوى في تعزيزِ خيال السَّامعِ، وتنشيطِ قلبِه.

سِرُّ التَّعبير بالجَرَيانِ؛ بإيثارِ صِيغَةِ المُضارِعِ:

تصويرُ جَمَالِ أنهارِ الجنَّةِ فهي جديدةٌ مستجِدَّةٌ

وَصْفُ أنهارِ الجنَّاتِ بالجَرَيانِ بصيغة الفعل المُضارِعِ في قولِه تعالى: ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ تصويرٌ لحُسنِها؛ ذلك أنَّ أَحْسَنَ المياهِ ما كَانَ جَارِيًا؛ لأنَّ ذلك يَقْتَضِي كونَه جَدِيدًا كلَّما اغْتُرِفَ أَوِ اغتُسِلَ منهُ[2]، فهي جديدةٌ مُسْتَجِدَّةٌ، ويُؤَيِّدُه أنَّ إطلاقَ الجَرْيِ على سَيَلان الماء سَيْلًا متكرِّرًا مُتَعَاقِبًا - وأَصْلُه: شِدَّةُ سُرعةِ المَشْيِ -، هو توسُّعٌ في العبارةِ، ومَجازٌ في الاستعمال[3]؛ واستُعمِلَ لتصويرِ سُرْعَةِ المياه.

توجيهُ المتشابِهِ اللفظيّ:

التَّوافُقُ بين الآياتِ والتَّكامُلُ بين المعاني

ورَد فعلُ الجَرْيِ في قولِه تعالَى: ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ في جميع مواضعِ القُرآنِ الكريمِ متعدِّيًا بحرف الجرِّ (مِنْ)، إلا في موضعٍ واحد وهو في سورة التَّوبة -على قراءةِ الجُمهور- بدون (مِنْ)[4]، وذلك في قولِه تعالى: ﴿تَجْرِي تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [التوبة: 100]، والفرق بَيْنَهُمَا أنَّ قولَه تعالى: ﴿تَجْرِي تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ أي: تجري الأنهارُ من تحت أشجَارِهَا مرورًا، وقولَه سبحانه: ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ أي: يَنْبُعُ الماءُ ابتداءً مِن تحتِها ثُمَّ تَجْرِي مِن تحت أشجارها[5]، والآيتان بينهما توافقٌ دلاليّ، وتكاملٌ وظيفيّ؛ فالموضع المذكور فيه حرفُ الجَرِّ يدُلُّ على ابتداءِ الجري، وآية التَّوبةِ الخالية

(1) الزَّمخشريّ، الكشَّاف: 1/106، والطِّيبي، فتوح الغيب: 2/355.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/354.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/354.
(4) ابن الجزري، النشر: 2/280.
(5) الثَّعلبِيّ، الكشف والبيان: 5/86، والخطيب الإسكافي، دُرَّة التَّنزيل، ص: 473-472.

من حرف الجرِّ على قراءةِ الجمهورِ إخبارٌ عن مرورِ الأنهار من تحت الأشجارِ، فآيةٌ أخبرَت عن الابتداءِ، وأخرى أخبرت عن المرور، وما قيل بين الآيتين، يُقال بين القراءتين في آية التَّوبة.

معنى اللامِ في كلمة ﴿ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾:

التَّقارُبُ في مقصدِ التَّعريفِ؛ ببيانِ أنّها نعمةٌ مُسْتَقِلَّةٌ

لَم تُعرَّفِ الأنهارُ بالإضافةِ إلى ضمير الجنَّاتِ بأَنْ يقال: (تَجْري مِن تحتِها أنهارُهَا)؛ لِما فيه مِن كُلفَةٍ في الكلامِ، ولِلتَّنْبيه على أَنَّ نعمةَ الأنهارِ مُسْتقِلَّةٌ فيكون التَّمَتُّع بها تنعُّمًا مستقِلّا لا تبعًا لِلْجَنَّاتِ[1]، وبناءً على ذلك فاختُلف في تحديد معنى اللامِ في كلمَةِ ﴿ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ على أقوالٍ:

الأوَّل: تَعْريفُ الجِنْسِ[2]، فيكون في قوَّة النَّكرةِ.

الثَّاني: العَهْدُ التَّقديريّ؛ ذلك أنَّه لَمَّا ذُكرتِ الجنَّاتُ؛ اسْتَحْضَرَ السَّامعُ لوازمَها ومقارنَاتِها؛ "فساغَ لِلْمُتَكَلِّم أن يُشير إلى ذلك المعهُودِ، فَجِيء باللَّام"[3].

الثَّالث: العَهْدُ الخارجيُّ، والإشارةُ فيه إلى قول اللّه تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلۡمُتَّقُونَۖ فِيهَآ أَنۡهَٰرٞ مِّن مَّآءٍ غَيۡرِ ءَاسِنٖ﴾[4] [محمد: 15].

الرَّابع: التَّفنُّن، وهو ما مالَ إليه ابنُ عَاشُور؛ لئلَّا يُعادَ التَّنكيرُ مرَّةً أخرَى بعد تنكيرِ ﴿جَنَّٰتٖ﴾[5].

والأقوالُ في تحديدِ معنى اللَّامِ متقارِبةٌ في مقصدِها، وإنِ اختلَفت في معناها.

نكتَةُ تقديمِ الجنَّة على الأَكْلِ مِنْهَا:

الجَنَّةُ مكانُ التَّنعُّمِ بالثَّمراتِ وسببُه

قُدِّمَ ذِكرُ الجنَّةِ وأنهارِها على الأَكْلِ مِنْهَا؛ لنكاتٍ ثلاثٍ[6]:

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/355.
(2) الزَّمخشريّ، الكشَّاف: 1/107.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/354-355.
(4) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 1/69، والآلوسّي، روح المعاني: 1/204.
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/355.
(6) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/77، والآلوسّي، روح المعاني: 1/204.

الأولى: منفعةُ التَّنعُّم بالنَّظَرِ إلى الجنَّةِ سابقةٌ على منفعَةِ التَّنعُّم بالأكل مِنْهَا.

الثَّانية: الجنَّةُ والأنهارُ سببٌ في وجودِ الثَّمَرِ، فقُدِّمَ ذِكْرُ السَّبَبِ على النَّتيجة.

الثَّالثة: جريانُ الأنهارِ تحت الجنَّات وصفٌ لِلْجَنَّةِ باعتبار ذَاتِها، وأمَّا الأكلُ مِنْهَا فَوَصْفٌ لهَا باعتبار انتفاعِ سَاكِنِيهَا.

بلاغةُ فَصْلِ جُمْلَةِ ﴿كُلَّمَا رُزِقُواْ﴾ عَمَّا قَبْلَهَا:

بيـان مـا لأهـل الجنَّةِ من لذَّاتٍ تامَّة، لا تَتَناهَى لها عقولُ أهلِ الدُّنيا

فُصِلَ قوله تعالى: ﴿كُلَّمَا رُزِقُواْ﴾ عمَّا قبلُ؛ لكونِه وصفًا ثانيًا بعد الوَصْفِ الأوَّلِ مِن جري الأنهارِ تحتَها.

ويَحتَمِلُ أن تكون خبرًا لمبتدأٍ محذوفٍ، تقديره: هُمْ، وإنَّما حُذِفَ لِذِكْرِهِ قبلُ وبعدُ، وليتحقَّقَ التَّناسبُ بين الجُمَلِ في الصُّورةِ؛ لاشتراكها جميعًا في الاسميَّةِ[1].

ويحتمل أن تكون جُملةً مستأنفةً استئنافًا بيانيّا؛ أي: أنَّ بين ﴿كُلَّمَا رُزِقُواْ﴾ وما قبلها: شبهَ كمالِ الاتِّصال؛ إذِ الثَّانية وقعت جوابًا عَنْ سؤالٍ يُفْهَمُ مِنَ الأولى، كأنَّه لَمَّا ذُكرت الجنَّةُ وأنهارُها؛ قيل: ما حالُهم في تلك الجنَّات؟ أو: أَلَهُم في الجنَّات لذَّاتٌ كما في هذه الدَّار أم أتَمُّ وَأَزْيَدُ؟ فجاء الجوابُ: بأنَّ لهم فيها ثمارًا عجيبة وأزواجًا نظيفة وهُمْ فِيهَا أبَدَ الآبادِ لا يمُوتون ولا يتحوَّلون عَنْهَا[2].

بِنَاءُ الفِعْلِ لِمَا لَمْ يُسَمَّ فَاعِلُهُ للتَّرغيبِ والإطماع:

بُنِي الفعلُ ﴿رُزِقُواْ﴾ لِمَا لم يُسمَّ فاعِلُهُ، ولم يقل: (رزقهم الله)، ونكتةُ ذلك أنَّ السِّياقَ هو سياقُ ترغيبٍ وإطماع، فكانَ توجيهُ الأنظارِ إلى الرِّزق لا إلى الرَّازق هو الأنسبَ بالمقامِ، مع قطعيَّة العلمِ بالفاعلِ؛ إذْ لا رَازِقَ إلَّا اللهُ سبحانه.

(1) وهي: ﴿أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾، ﴿كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا﴾، ﴿وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾، ﴿وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾.
(2) الزَّمخشريّ، الكشَّاف: 1/107، والآلوسّي، روح المعاني: 1/204-205.

نُكتة معنى الابتداء في قولِه: ﴿مِن ثَمَرَةٍ﴾:

بيانُ عظيمِ الأجرِ وجزيلِ الامتنانِ

حرفُ الجرِّ (مِنْ) في قولِه تعالى: ﴿مِن ثَمَرَةٍ﴾ لِابْتِدَاءِ الغايَةِ، بناءً على أنَّ "من" في قولِه: ﴿مِنْهَا﴾ لابتداءِ الغايةِ، فقولُه: ﴿مِن ثَمَرَةٍ﴾ بدَلُ اشتمال من ﴿مِنْهَا﴾، ويكونُ معنى الثَّمَرَة النَّوْعَ من أنواعِ الثِّمار، لا الثَّمَرَة الواحِدَة[1]، ونكتةُ الابتداء بالثَّمَرَةِ بيانُ عظيمِ الأجرِ المُعَدِّ لأهلِها؛ فإذا كانتْ هذه البدايةَ فما بعدَها أعظَم وأكرَم؛ ففيها التَّشويقُ لما فيها من الخيرِ العميم، وأجازَ الزَّمخشريُّ أن يكونَ حرفُ الجرِّ بيانًا[2]، وضعَّفَه السَّمين[3].

بلاغةُ تَنْكِيرِ ﴿رِّزْقًا﴾:

لذَّةُ رزقِ الجنَّة غيرُ معهُودَةٍ

تَنْكِيرُ كلمةِ ﴿رِّزْقًا﴾ في قولِه تعالى: ﴿كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا﴾ لبيان النَّوعيَّةِ، والمعنى: أنَّهُم رُزقوا نوعًا غيرَ ما يَعْهَدُونَهُ[4]، وشأنُ المجهولِ المذكُور في سياقِ المَدْحِ والتَّرغيبِ أن يكونَ عظيمًا في ذاته، مرغوبًا في صفاته، وهو ما يُصوِّر مدى لذَّةِ الرِّزق المُعدِّ.

نكتةُ حَذْفِ كَلِمَةِ (مِثْل):

اسْتِحْكَامُ الشَّبَهِ بينَ ثمارِ الجَنَّة

وقعَ حذفٌ في قولِه تعالى: ﴿قَالُواْ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ﴾ وتقديرُه: هذا مِثْلُ الذي رُزِقْنَا مِن قبلُ، وقرينةُ الحذفِ: أنَّ الحاضرَ بينَ أيدِيهم في ذلك الوقت ليس عَيْنَ الذي رُزِقُوه مِنْ قبلُ، ونكتَةُ الحذفِ ههنا: استِحْكَام الشَّبَهِ، حتَّى كأنَّ هذه الذَّات هي تلك[5]، ويقوِّيه استعمالُ اسمِ الإشارة ﴿هَٰذَا﴾؛ لِيتعيَّنَ المشارُ إِلَيْهِ؛ لئلَّا يُتَوَهَّمَ أنَّهُ غيرُهُ.

وتَقْدِيرُ (مثل) هَهنا جارٍ على أقوالٍ عديدةٍ في تفسير القَبْلِيَّةِ

(1) الزّمخشري، الكشّاف: 1/107.
(2) الزّمخشري، الكشّاف: 1/107.
(3) السّمين، الدّر المصون: 1/216.
(4) الآلوسّي، روح المعاني: 1/204-205.
(5) أبو حيَّان، البحر المحيط: 1/185-186.

المذكورة في قوله: ﴿رُزِقْنَا مِن قَبْلُ﴾، ولكنْ إذا حُمِلَتِ القبليَّةُ ههنا على معنى: هذا الذي وُعِدنا في الدُّنيا أن نُرْزَقَهُ في الآخرةِ؛ فلا يصحُّ التَّقديرُ ههنا، إلَّا أنَّ هذا القولَ خارجٌ عَنِ الأصلِ مِن جهةِ أنَّه يَتَعَيَّنُ حملُهُ على المجازِ؛ إذْ مِنَ المعلومِ أنَّهم لم يُرْزَقُوا عينَ ثمرةِ الجنَّةِ في الدُّنيا، فيكون قد عُبِّر عَنِ الوَعْدِ بمتعلَّقِه وهو الرِّزْق؛ وذلك لِلْجَزمِ بتحقُّقِ الوعد صارَ كأنَّهم رُزقوه في الدُّنيا[1].

نكتةُ بِنَاءِ الفِعْلِ ﴿وَأُتُواْ﴾:

مزيدُ تكريمٍ لأهلِ الجنَّةِ بإظهارِ الفعل دون فاعِلِه

بُنِيَ الفعلُ ﴿وَأُتُواْ﴾ في قولِ اللّٰه تعالى: ﴿وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا﴾ لِما لَم يُسمَّ فاعلُه؛ لِلْعِلْمِ به وهُمُ الوِلْدَانُ والخدَمُ بأمر اللّٰه تعالى[2]؛ فإنَّه قد سبقَ التَّصْريحُ بمَن يأتيهم بهِ في سُوَر القرآن الكريم المكيَّةِ، كقول اللّٰه تعالى: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿١٨﴾ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ﴿١٩﴾ وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الواقعة: 17-21]، ونكتةُ ذلك؛ توجيه النَّظرِ والاهتمام بأمرين: الأوَّل: الحدث، وهو فعلُ الإتيان، الثَّاني: المأتيُّ به، وهو الثَّمَر؛ فإنَّ بناءَ الفعلِ لما لم يُسمَّ فاعلُه فيه مزيدُ تكريمٍ لأهلِ الجنَّةِ، بإظهارِ الفعلِ دون الفاعلِ.

فائدةُ تَقْدِيمِ الجَارِّ وَالمَجْرُورِ التَّخْصِيصُ بغرضِ التَّعريض بأزواج الدُّنيا:

قُدِّم الجارُّ والمجرور ﴿فِيهَآ﴾ على ﴿أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾، فلم يَقُل: (ولَهُمْ أزواجٌ مطهَّرة فِيهَا)؛ لإفادة التَّخصيص؛ إذْ إنَّ وصفَ الأزواجِ بهذا الوصفِ الشَّاملِ لطهارة الظَّاهر والباطن، لا يكون لأزواجِ الدُّنيا في الدُّنيا، وهو تعريض بأزواج الدُّنيا، وما يعتريهم من خلاف هذا الوصفِ ظاهرًا وباطنًا، ترغيبًا في الآخرةِ، وتزهيدًا في الدُّنيا.

(1) أبو حيَّان، البحر المحيط: 1/186.

(2) أبو حيَّان، البحر المحيط: 1/187، ومرعي الكَرميّ، الكلمات البيِّنات، ص: 91، والهرريّ، حدائق الرَّوح والرَّيحان: 1/245.

نكتةُ تَقْدِيمِ الجَارِّ وَالمَجْرُورِ:

قُدِّمَ الجارُّ والمجرور ﴿فِيهَآ﴾، فلم يُقل: (وَهُمْ خَالِدُونَ فِيهَا)؛ وذلك لِنُكْتَتَيْنِ:

التَّخصيصُ؛ فأَهْلُ الجنَّةِ لا يتَحوَّلُون عَنْهَا؛ رضًا بِمَا فِيها

الأولى: إفادة التَّخصيص؛ فخلُودُهم في الجنَّةِ لا غيرَ، وذلك أَدْخَلُ في ترغيبهم وطمأنتهم بأنَّ خلودَهم سيكون في الجنَّة؛ فلن يخرُجوا منها.

الثَّانية: مراعاةُ الفواصلِ، وهذه نكتةٌ لفظيَّة، والنّكات اللفظيَّة تابعةٌ للنكات المعنويَّة؛ إذ لا تستقلُّ بذاتها.

بلاغةُ الفاصلةِ القرآنيَّة:

الاحتراسُ لدفعِ الأوهامِ، وتتميمُ المدحِ لنَعِيمِ أهلِ الجنَّةِ

وقعَت الفاصلةُ القرآنيَّة ﴿وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ مَوْقعًا بليغًا من الآيةِ، حيث أفادت أمرَين اثنين، أحدهما فكريّ، والآخر نفسيّ:

الأوَّل: الاحتراسُ: وفائدتُه دفعُ توهُّم انقطاع النَّعيم المذكور في سياقِ الآية؛ وسبَبُ التَّوهُّم: ما اعتادَ عَلَيْهِ النَّاس مِن انقطاع اللَّذَّات في الدُّنيا؛ "لأنَّ جميع اللَّذَّات في الدُّنيا مُعَرَّضة لِلزَّوال، وذلك يُنَغِّصها عند المُنْعَم عَلَيْهِ"[1].

الثَّاني: تتميم المَدحِ، فإنَّ "هذا هو تمامُ السَّعادةِ، فإنَّهم مع هذا النَّعيم في مقامٍ أمينٍ من الموت والانقطاع؛ فلا آخر له ولا انقضاء، بل في نعيم سرمديّ أبديّ على الدَّوام، واللّه المسؤول أن يحشرَنا في زمرتهم، إنَّه جوادٌ كريمٌ، بَرٌّ رحيم"[2].

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/357.
(2) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 1/206.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسۡتَحۡيِۦٓ أَن يَضۡرِبَ مَثَلٗا مَّا بَعُوضَةٗ فَمَا فَوۡقَهَاۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَيَعۡلَمُونَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّهِمۡۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلٗاۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرٗا وَيَهۡدِي بِهِۦ كَثِيرٗاۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلۡفَٰسِقِينَ ٢٦﴾ [البقرة: 26]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا اشْتَمَلَتِ الآياتُ السَّابقةُ علَى تحدِّي البُلَغاءِ بأن يأتُوا بسورة مِن مِثل القرآنِ، وعجَزُوا عَنْ ذلك؛ سلَكُوا مسلكَ الطَّعن والتَّشْغِيب في المعاني، فلبَّسوا على النَّاس بأنَّ في القرآن الكريم -وحاشَاه- مِنْ سَخِيف المعنى ما يُنَزَّه مَعَهُ أن يكونَ مِنْ كلام اللهِ تعالى؛ فردَّ اللهُ تعالى عَلَيْهِمْ بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسۡتَحۡيِۦٓ أَن يَضۡرِبَ مَثَلٗا مَّا بَعُوضَةٗ فَمَا فَوۡقَهَاۚ﴾[1].

قال أبو السُّعود رحمه الله تعالى في وجه المناسبة: "شُرُوعٌ في تَنْزِيهِ ساحَةِ التَّنْزِيلِ عَنْ تَعَلُّقِ رَيْبٍ خاصٍّ اعْتَراهم مِن جِهَةِ ما وقَعَ فِيهِ مِن ضَرْبِ الأمْثالِ، وبَيانٌ لِحِكْمَتِهِ، وتَحْقِيقٌ لِلْحَقِّ إثْرَ تَنْزِيهِها عَمّا اعْتَراهم مِن مُطْلَقِ الرَّيْبِ بِالتَّحَدِّي، وإلْقامِ الحَجَرِ، وإفْحامِ كافَّةِ البُلَغاءِ مِن أهْلِ المَدَرِ والوَبَرِ"[2].

شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

1) ﴿يَسۡتَحۡيِۦٓ﴾: الحاءُ واليَاءُ والحَرْفُ المُعْتَلُّ تَدُلُّ تصاريفها على مَعْنَيَيْنِ:

أحدهما: ضِدُّ الموت؛ وهو الحياةُ.

والآخَر: ضِدُّ الوقاحةِ؛ وهو الاِسْتِحْيَاءُ[3].

وفي فِعْلِ الاستحياءِ لُغتان: اسْتَحَى؛ وهي لغةُ تَمِيمٍ، واستحْيَى؛ وهي لغةُ الحجازيِّين، وبِهَا نَزَلَ القرآنُ الكريم.

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/359.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/71.
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (حيي).

والحياءُ في حقِّ المخلوق: الانْقِبَاضُ والانْزِوَاء[1]، ويُمْكِنُ تعريفُه بأنَّهُ: انْفِعَالٌ يَحْدُثُ لِلْإِنْسَانِ عندَ فِعْلِ ما لا يُجَمِّلُه ولا يُزَيِّنُه، فَيَنْكَسِرُ، ويَحْصُلُ الحياءُ[2].

أمَّا حياءُ اللّه تعالى فلَا يُمَاثِلُ حياءَ المخلوقين؛ إذْ هو حياءٌ مِن نوعٍ آخرَ "لا تُدْرِكُه الأفهامُ، ولا تَكَيَّفُهُ العقولُ؛ فإنَّه حياءُ كرَمٍ وبِرٍّ وجُود وجلال؛ فإنَّه تبارك وتعالى حَيِيٌّ كريم يَسْتَحْيِي مِن عبده إذا رفع إِلَيْهِ يَدَيْهِ أن يرُدَّهما صِفْرًا، ويستحيي أن يُعَذِّبَ ذا شَيْبَةٍ شابَتْ في الإسلام"[3].

وفي قولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسۡتَحۡيِۦٓ أَن يَضۡرِبَ مَثَلٗا مَّا﴾: إثباتٌ لصفةِ الحَيَاء للّه تعالى؛ لأنَّ نَفْيَ الاسْتِحْيَاءِ عَنْهُ سُبْحَانَهُ في هذه الحالِ دَليلٌ على إِثْبَاتِهَا فِيمَا يُقَابِلُهَا، وقَدْ أَفَادَتِ السُّنَّةُ ذلكَ صَرِيحًا في جُمْلَةِ أحاديثَ شريفة[4].

2) ﴿يَضۡرِبَ﴾: ضَرْبُ المَثَلِ: هو اعتبَارُ الشَّيْءِ بغَيْرِهِ وتَمْثِيلُهُ بِهِ، والضَّربُ: هو المِثَالُ[5]؛ يُقال: هذهِ الأَشْيَاءُ علَى هذا الضَّربِ، أي: على هذا المثالِ[6].

ويُطلَقُ الضَّرْبُ على الوَصْفِ، وجعَلَ ابْنُ الجَوْزِيِّ مِنْهُ قولَ اللّه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسۡتَحۡيِۦٓ أَن يَضۡرِبَ مَثَلٗا مَّا﴾[7] أي: يَصِفُ مثَلًا مَا.

3) ﴿مَثَلٗا﴾: المِيمُ والثَّاء واللَّام تَرْجِعُ تصارِيفُها إلى مُنَاظَرَة الشَّيْءِ لِلشَّيْءِ، ومِنْهُ: المَثِيلُ بمعنى النَّظير والشَّبِيهِ، يُقال: أمثلَ الأميرُ فلانًا؛ إذا قتلَهُ قصاصًا، وذلكَ لأنَّه فَعَلَ به مِثْلَ ما كان فَعَلَهُ بِمَنْ قَتَلَهُ، ومِنْهُ أيضًا: المَثَلُ المَضْرُوبُ؛ لأنَّه يُذْكَرُ مُوَرّى به عَنْ شَبِيهِهِ في المعنى[8].

وأمَّا المَثَلُ القرآنيُّ؛ فعرَّفه الرَّاغب بقوله: "عبارة عن قولٍ في شيءٍ يُشْبِهُ قولًا في شيءٍ آخَرَ، بَيْنَهُمَا مُشابهةٌ؛ لِيُبَيِّنَ أحدُهما الآخرَ ويُصَوِّرَه... وعلى هذا الوجهِ ما ضَرَبَ اللّه تعالى مِنَ الأَمْثَالِ"[9].

(1) الفيُّوميّ، المصباح المنير: 1/160.
(2) ابن عثيمين، شرح الأربعين النَّوويَّة، ص: 206.
(3) ابن القيِّم، مدارج السَّالكين: 2/250.
(4) ابن عثيمين، تفسير الفاتحة والبقرة: 1/98.
(5) ابن الأثير، النِّهاية: (ضرب).
(6) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة: (ضرب).
(7) ابن الجوزيّ، نزهة الأعين النَّواظر، ص: 402.
(8) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (مثل).
(9) الرّاغب، المفردات: (مثل).

وقَدِ اختُلِفَ في أصلِ معنى (ضَرْبِ المَثَلِ) اختلافًا كثيرًا، مَرْجِعُهُ - كمَا أشَارَ الرَّاغِبُ - هو تصوُّرُ اختلاف الضَّرب، فَبِسَبَبِ ذلكَ خُولِفَ بَيْنَ تَفَاسِيرِهَا[1].

وقيل في معنى المَثَل التَّقدير؛ "فضَرْبُ المَثَلِ لِلشَّيء: تقديرُه له، كما أَنَّ أصل القياسِ: تقديرُ الشَّيء بالشَّيء، ومِنْهُ: ضَرْبُ الدِّرْهَم؛ وهو تقديرُهُ، وضربُ الجِزْيَةِ والخَرَاجِ؛ وهو تقديرُهُما، والضَّريبة: المُقَدَّرَةُ، والضَّرْبُ في الأرضِ؛ لأنَّه يُقَدِّر أثَر المَاشِي بِقَدَره..."[2].

4) ﴿ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾: الفَاءُ والسِّينُ والقَافُ تدلُّ على خُروجٍ عَن مُحِيطٍ، كالكِمَامِ لِلثَّمَرَةِ، والجُحْرِ لِلْفَأْرَة[3]، وَمِنْهُ أُطْلِقَ الفِسْقُ على الخُرُوجِ عَنِ الطَّاعة[4]، يقال: فَسَقَت الرُّطَبَةُ؛ إذا خرجت مِنْ قِشْرِها[5].

ويُستعمل لفظُ الفاسقِ: لِمَنِ التزَمَ حُكْمَ الشَّرع وأقرَّ به، ثُمَّ خرَجَ عَنْهُ، قليلًا كان خروجُهُ أو كثيرًا، ويُستعمل لفظ الفاسق - أيضًا-: للكافر الأصليِّ؛ باعتبارِ إخلالِهِ بِمَا اقتضتْهُ الفِطْرَةُ ودلَّ عَلَيْهِ العقلُ[6]؛ لأنَّ هذين هُمَا اللَّذَانِ يَصِحُّ أن يُقَال خرجَ عَنْهُمَا، أمَّا الشَّرْعُ فلم يدخُلْ فِيهِ حتَّى يقالَ: إنَّه قد خرج عَنْهُ، اللَّهُمَّ إلَّا إذا أُرِيدَ بالخروجِ عَنِ الشَّرع: ما أخذهُ اللّه تعالى مِنَ الميثاق على بنِي آدَمَ وهُمْ في صُلْبِ أَبِيهم، الواردِ في قول اللّهِ تعالى: ﴿وَإِذۡ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ وَأَشۡهَدَهُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَلَسۡتُ بِرَبِّكُمۡۖ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدۡنَآۚ﴾ [الأعراف: 172].

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

إنَّ اللّه سبحانَه لا يَسْتَحْيِي مِنَ الحقِّ بضربِ الأمثالِ، ولو كان المُمَثَّلُ به صغيرًا كالبعوضِ والذُّبابِ والعنكبوت والنَّمْلِ، فأمَّا أهلُ الإيمان فيَعْلَمُونَ حِكْمَةَ اللّهِ تعالى في ضربِهِ الأمثالَ بخَلْقِهِ، سواء كان الممثَّلُ به صغيرًا أو كبيرًا، وأمَّا أهلُ الكفرِ فيسألُونَ مُسْتَهْزِئِينَ - لجَهْلِهِمْ بالحِكْمَةِ الإلَهِيَّة -: ما أرادَ اللّهُ مِن ضَرْبِ الأمثالِ بالبَعُوضِ ونَحْوِهِ؟

(1) الرّاغب، المفردات: (ضرب).
(2) ابن تيميَّة، مجموع الفتاوى: 14/55، بتصرُّفٍ يسير جِدًا في أوَّلِهِ.
(3) المُناويّ، التَّوقيف على مهمّات التَّعاريف، ص: 260.
(4) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (فسق).
(5) الأنباريّ، الزَّاهر: 1/120.
(6) الرّاغب، المفردات، ص: 636.

وقد جَعَلَ اللهُ تعالى التَّمْثِيلَ بالبعوضِ ونحوِهِ سببًا لإِضْلَالِ خَلْقٍ كثيرينَ؛ وهُمُ الذينَ لا يَطْلُبُونَ الهُدَى والحقَّ، وجعلَهُ اللهُ سبحانه سببًا لهِدَايَةِ آخرينَ؛ وهُمُ الذينَ يَطْلُبُونَ الحقَّ بقَصْدِ اتِّباعه والاهتدَاءِ به، فهذَا التَّمْثِيلُ لا يُضِلُّ اللهُ تعالى بهِ - عَدْلًا مِنْهُ - إلَّا الخارجين عَنْ طاعتِهِ[1].

الإيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

حسن المَطْلعِ بتَأْكِيدِ الكلامِ:

الرَّدُّ على اعتقاد المشركين في كلامِ الله تعالى، بما يتناسبُ مع المقام

صُدِّرتِ الجملةُ الخبريَّةُ بعدَّة أساليب لتأكيدِ الكلام، من التأكيدِ بإنَّ، والإتيانِ بالمُسْنَدِ إليه اسمًا والمُسْنَدِ فعلًا، والجملة الاسميَّة؛ وفائدةُ ذلك أنَّ الآيةَ سِيقَتْ ردّا على مَن زعمَ أنَّ كلام اللهِ تعالى لا يُمكن أن يشتمِلَ على التَّمثيلِ بما صَغُرَ من بعوضةٍ وذبابَةٍ ونحوهما، فكان تأكيدُ الكلامِ هو الأنسبَ في هذا المقام، ردّا على من أنكرَ مضمونَه، واعتقدَ بخلافه.

مَجِيءُ الِاسْمِ الأَحْسَنِ مُسْنَدًا إِلَيْهِ لأَنَّه أَوْقَعُ فِي الإِقْنَاعِ بِمَا سِيقَتِ الآيَةُ لَهُ:

الاسمُ (اللهُ) جامعٌ لصفات الكمال

وجاءَ المُسْنَدُ إِلَيْهِ بالاسْمِ الأحسَنِ ﴿ٱللَّهَ﴾ - وهو أعرفُ المعَارِفِ-؛ لكَوْنِ هذا العَلَمِ جامعًا لجميع صفات الكمال مِنَ الجلال والجمال، "فذِكْرُهُ أوقعُ في الإقناع بأَنَّ كلامَه هو أعلى كلام في مراعاة ما هو حقيقٌ بالمراعاة، وفي ذلك أيضا إبطالٌ لتَمْوِيهِهِم بأَنَّ اشْتِمَالَ القرآن على مِثْلِ هذا المَثَلِ دليل على أنَّه ليس مِنْ عند اللهِ"[2].

توجيهُ الِاسْتِعَارَةِ التَّصريحيَّة فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَن يَضْرِبَ مَثَلًا﴾:

ضَرْبُ الأمثَالِ يُرَاد بِهِ إظهَارُها وإشاعتُها؛ لِتَهْتَدِيَ بهَا العقُولُ

اشتمل التَّركيبُ ﴿يَضْرِبَ مَثَلًا﴾ استعارةً تصريحيَّةً تبعيَّة، وله وجهان اثنان:

(1) ابن أبي زَمَنِين، تفسير القرآن العزيز: 1/129-130، والواحديّ، الوجيز، ص: 96، والخازن، لباب التَّأويل: 1/33، والسعدي، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 46، ونخبة من أساتذة التَّفسير، التَّفسير الميسّر، ص: 5.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/359.

الأوَّل: من قولِهم: (ضَرَبَ في الأرضِ)، إذا توغَّل وأَبْعَدَ في أقاصيهَا؛ كأنَّ اللّه سبحانه أرادَ بضربِ المثل تَسْيِيرَهُ في الأرض وإِدَارَتَهُ على ألسنة النَّاس حتَّى يَعُمَّهم[1].

الثَّاني: أن يكون مِن ضَرْبِ الخيام؛ وهو نَصْبُها وإقامتُها؛ كأَنَّ المُرَادَ مِنَ المثلِ إظهارُهُ لِلنَّاسِ؛ لِتَسْتَدِلَّ عَلَيْهِ خواطِرُهم كما تَسْتَدِلُّ عيونُهم على الأشياءِ المُنْتَصِبَةِ المُتَشَخِّصَةِ أمامَهُم[2].

وكِلَا الوَجْهَيْنِ حسنٌ، لا تَعَارُض بينَهُما؛ فلا مَانِعَ مِنْ إرادتِهِمَا، بل قد يُقال: إنَّهُما متلازمَانِ؛ إذْ من لازمِ انتشارِ المثَلِ وإشاعتِهِ أن يكون ظاهرًا ماثِلًا في خواطر النَّاسِ.

أثرُ القيدِ في إفادةِ التَّعْمِيمِ وَالوَصْفِ:

ضَرْبُ المَثَلِ شَامِلٌ لكلِّ مخلوقٍ صغيرًا كان أو كبيرًا

ضُرِبَ المَثَلُ بالبعوضةِ وجاء قيدُ: ﴿فَمَا فَوْقَهَا﴾؛ ليُفيد العمومَ والوصف[3]: أمَّا العمومُ؛ فهو على التَّفسيرين الواردَيْنِ في معناه؛ فإذا حَمَلْنَا قولَه سبحانه: ﴿فَمَا فَوْقَهَا﴾ على ظاهره؛ أي: فما هو أَكْبَرُ مِنْهَا[4] فهو نصٌّ في العموم، وإذا حملناه على معنى: فما فوقَها في الحقارة والصِّغَرِ[5]؛ فيدلُّ على العموم بِالفَحْوَى، والمعنى: إذا كان سبحانه لا يستحيي أَن يَضْرِبَ مثلًا بالبعوضة فما أصغر منها؛ فَلَأَنْ لا يستحيي ﷻ أن يَضْرِبَ مثلًا بِمَا هو أكبَرُ مِنْهَا أَوْلَى وأَحْرَى، ويُؤَيِّدُ العمومَ: تَنْكِيرُ (بعوضة)؛ فإنَّها في حيِّزِ النَّفْيِ، والنَّكرةُ في حيِّزِهِ تُفيدُ العمومَ.

وأمَّا الوصف؛ فعلى المعنى الأول لـ ﴿فَمَا فَوْقَهَا﴾ يكون المرادُ: إنَّ اللّه لا يستحيي أن يضرِب مثلًا ما، صغيرًا كان المُمَثَّلُ به أو كبيرًا، وعلى المعنى الثَّاني يكون المرادُ: إنَّ اللّه لا يستحيي أن يَضْرِب مثلًا ما، صغيرًا كان الممثَّلُ به أو أصغرَ.

(1) الشَّريف الرَّضِيّ، تلخيص البيان، ص: 123.
(2) الشَّريف الرَّضِيّ، تلخيص البيان، ص: 123.
(3) الخفاجيّ، عناية القاضي: 2/88.
(4) واستظهره الفرّاء في معاني القرآن: 1/20.
(5) ابن الجوزيّ، زاد المسير: 1/47.

نكتةُ تَأْكِيدِ الجُمْلَتَين بِـ (أَمَّا):

رَفْعُ شَأْنِ المُؤْمِنِين وحَطُّ قَدْرِ الكافِرِينَ

و﴿أَمَّا﴾ حرفٌ دالٌّ على التَّفْصِيل، وهي هنا لِتفصيل حال المُتَلَقِّين لِلْأَمْثَالِ المضروبة ما بين مؤمنٍ وكافر[1]، وفيها معنى الشَّرطِ؛ لذا يَقْتَرِنُ جوابُهُ بالفاء، كما في هذين الموضِعَيْن المذكورَيْن هنا؛ وهما قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾، وقوله سبحانه: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَيَقُولُونَ﴾.

وقد أفادت توكيدَ الكلامِ وتقويتَهُ[2]، ونكتةُ التَّوكيد ههنا أنَّه مَحْمَدَةٌ عظيمةٌ لشأن المؤمنين، واعتدادٌ بعِلْمِهم أنَّه الحقّ، وحَطٌّ كبيرٌ لأمر الكافرينَ ونعيٌ عَلَيْهِمْ في عنادِهم وعدمِ إقرارِهم بالحقِّ[3].

سِرُّ التَّعْبِيرِ عَنِ المُؤْمِنِينَ بِالفِعْلِ:

بُلُوغُ المَثَلِ في الأحقيَّة مبلغًا لا يُمكِنُ معَهُ الإنكَارُ

جاء التَّعْبِيرُ عَنْ حالِ أَهْلِ الإيمان بالفعلِ، فقال سبحانه: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾؛ لِلإيمَاء إلى أنَّ مَنِ اتَّصفَ بمطلقِ الإيمان يَعْلَمُ أنَّ المَثَلَ حقٌّ؛ فأحرَى من حَصَلَ له الإيمانُ القويُّ الكاملُ[4]؛ وذلك لأنَّه بلغَ في الأحقيَّةِ مبلغًا عظيمًا لا يَتَأَتَّى مَعَهُ إنكَارُهُ، وإذا كان هذا فيمن عندَهُ مطلقُ الإيمان؛ فغيرُهم مِن أهل الإيمان المطلقِ مِن باب أَوْلَى.

اخْتِيَارُ عنوانِ الرُّبوبيَّةِ للاعترافِ بفضلِ الله ورعايته لعبادِه المُؤمنين:

رُبوبيّةُ الله للمؤمنين هي رعايةٌ لهم وفضلٌ ورحمةٌ

إيثارُ التَّعبير بعنوانِ الرُّبوبيَّة في قولِه سبحانه: ﴿فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ دون الأُلوهيَّة؛ فلم يقُلْ: (مِنَ اللّه)؛ لِلإشَارة إلى أنَّه رحمةٌ مِنَ اللّه تعالى ونعمةٌ لَهُمْ؛ فإنَّ ربوبيَّةَ اللّه تعالى الخاصَّةَ بالمؤمنين[5]: أنَّه يُربِّيهم بالإيمان ويوفِّقُهم لَهُ ويكمِّله لَهُمْ، ويدفع عَنْهُمُ الصَّوارفَ الحائلةَ بَيْنَهُمْ وبَيْنَهُ، وهذا المَعْنَى أنسَبُ ههنا،

(1) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 1/177.
(2) بهاء الدّين السُّبكي، عروس الأفراح: 1/130.
(3) الزَّمخشريّ، الكشَّاف: 1/117.
(4) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/80-81.
(5) السعدي، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 39.

وفيه إسنادُ الأمرِ إلى الله تعالى، فكما أنَّ الأدلةَ الكونيَّةَ حقٌّ؛ فكذلك الأمثالُ القرآنيَّةُ حقٌّ، ووجهُ كونِه رحمةً ونعمةً مِنْهُ سبحانه: أنَّه نصبَ لَهُمُ الأدلَّة الدَّالَّة على كونه حقّا[1].

العُدُولُ عمَّا يقتضيه ظاهرُ التَّقسيم:

التَّفريقُ بين عِلمِ المؤمنين وقولِ الكافرين، وأثرُ ذلك في الكشف عن العنادِ والمكابرةِ

عدلَ النَّظمُ الكريمُ عمَّا يقتضيه ظَاهرُ التَّقسيمِ، فلمَّا قال في حقِّ المؤمنين: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَيَعۡلَمُونَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّهِمۡ﴾، كانَ الظَّاهرُ أن يقولَ في حقِّ الكافرين: فيجهلون، أو فلا يعلمون، لكنَّه عدَلَ عن ذلك إلى تعبيرٍ يقتضيه الحالُ وهو: ﴿فَيَقُولُونَ﴾؛ لِلتَّنْبيهِ على الفرقِ بين المؤمنين والكافرين، فإيمانُ المؤمنين صادرٌ عن علمٍ متجدد، وكفرُ الكافرين ناشئٌ عن مجرَّدِ قولٍ صدرَ عنْهُم لا يقتضيه النَّظَرُ في قواعدِ العلْمِ[2]، ومقالتُهم هذه صادرةٌ عَنِ المكابرة والعِناد.

ويقوِّي هذه الدّلالة تعريفُ المسنَدِ إلَيْهِ بالموصوليَّةِ في قوله: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَيَقُولُونَ﴾؛ لِلإيمَاء إلى بِنَاء الخبَرِ، وأَنَّ قولَهم ناشئٌ عَنِ الكُفْرِ والعنادِ، لا عَنِ التَّفكير والتَّدبُّر والإنصاف.

نوعُ الاِسْتِفْهَامِ وأثرُه في بيانِ موقف الكافرين:

الاستفهامُ في قول الحقِّ سبحانه: ﴿مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلٗاۘ﴾ إمَّا أنْ يُحمَلَ على ما يُفهم من مقصودِ الكلام، وإمَّا أن يُحمل على الظَّاهر، ولكلِّ احتمالٍ دلالتُه البيانيَّة، وسِرُّه البلاغيُّ.

الاحتمالُ الأوَّل:

معنى الاستفهامِ في مقصدِ النَّصِّ:

كِنَايَةٌ عَنْ جَحْدِهِمْ أَنْ يَكُونَ القُرْآنُ كَلَامَ اللهِ تَعَالَى

الاستفهامُ في قول الله تعالى حكايةً عَنْ أهل الكفر: ﴿مَاذَآ أَرَادَ

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/39.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 1/74.

﴿ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا﴾ إنكاريٌّ، وهو لا يُجابُ في الغالبِ؛ لأنَّه ليس استفهامًا حقيقيًّا بَلِ استنكارٌ في صُورةِ استفهام[1].

واستفهامهم كنايةٌ عَنْ إنكارِهم - على وجه الجحود - أن يكون القرآنُ المشتملُ عَلَى تلك الأمثالِ كلامَ اللّه تعالى[2]، وأتى الإنكارُ بصورةِ الاستفهامِ لمحاورةِ العقولِ في مضمونِ الاستفهامِ، فإنّ ذلك أدعى لقبولِ الإنكارِ -في ظنِّهم-؛ مُبالغةً في تَعْميَةِ أمرهم وإخفاءِ جحودِهِمْ، وكأنَّ ما قالوه لا يَقْبَلُ المراجعَةَ.

بلاغةُ الأُسْلُوبِ الحَكِيمِ:

توجيه السَّائلين وتعليمهم اللّائقَ من السُّؤال

إذا حملنا الاستفهامَ على ظاهرِه؛ فيكون قولُه تعالى: ﴿يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا﴾ جوابًا عن استفهامهمُ الإنكاريِّ على غير الغالبِ فيه مِن باب الأسلوبِ الحَكِيم؛ وذلك بِحَمْلِ استفهامهم على صُورته الظَّاهرة؛ تنبيهًا على أنَّه كان مِنَ الأليقِ بِهِمْ أن يسألوا عَنْ حكمة ما أراد اللّه تعالَى بتلكَ الأمثال، "فيكون قوله: ﴿يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا﴾ جوابا لَهُمْ، وردّا عَلَيْهِمْ، وبيانًا لحال المؤمنين"[3]، وزادَ بيانَ رفعةِ حالِ المؤمنين وانحطاطِ رتبة الكافرين: الطِّباقُ؛ فَإِنَّ الضِّدَّ يُظهرُ حسنَهُ الضِّدُّ.

دلالة اسْمِ الإِشَارَةِ:

الاستِخْفَافُ بالأمثالِ القرآنيَّةِ ناشئٌ عن الكُفرِ والجَهلِ

في حكايةِ قولِ الكافرين: ﴿مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا﴾ استرذالٌ واسْتِحْقَارٌ[4]، وهو مُكْتَسَبٌ من دلالة اسمِ الإشارة (هَذَا)؛ فليس المقصود باسم الإشارة المعنى المجرَّد، بل معنى الاستخفافِ أنْ يصدُرَ هذا التَّمثيل عن ربِّ العالمين، وهو نظيرُ قولِ اللّه تعالى حكايةً عن الكافرين قولَهم: ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ﴾ [الأنبياء: 36].

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/364-365.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 1/74.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/365.
(4) الزَّمخشريّ، الكشَّاف: 1/117.

نكتةُ اللَّفِّ وَالنَّشْرِ غيرِ المرتَّب:

تَعْجِيلُ مَسَاءَةِ الكفَّار؛ لردعِهم عَنِ الكُفْرِ

جاءَ في قولِه تعالى: ﴿يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهۡدِي بِهِۦ كَثِيرٗاۚ﴾ لفٌّ ونشرٌ غيرُ مرتَّبٍ[1]؛ فإنَّ قوله سبحانه: ﴿يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرٗا﴾ نشرٌ لقوله: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾، وقولَهُ ﷻ: ﴿وَيَهۡدِي بِهِۦ كَثِيرٗاۚ﴾ نشرٌ لقولِه: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾.

وفائدتُهُ: توكيدُ ما ذُكِرَ قبلُ؛ لأنَّ معنَى قولِه ﷻ: ﴿يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرٗا وَيَهۡدِي بِهِۦ كَثِيرٗاۚ﴾ مُضَمَّنٌ على جهة الإجمال في الجملتين المتقدِّمتين.

ووقوعُ اللَّفِّ والنَّشرِ ههنا معكوسًا غيرَ مرتَّب؛ لفائدتين:

إحداهما: "ليكون أوَّلُ ما يقرعُ أسماعَهم مِنَ الجواب أَمْرًا فظيعًا يَسُوؤُهم، ويَفُتُّ في أَعْضَادِهم"[2]، ولذا خُصَّ محطُّ هذه الفائدةِ بالذِّكرِ في قوله تعالى بعدُ: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾.

والأُخرى: أنَّ الكلام لـمَّا كان مسُوقاً لبيان ضلال الكفرةِ؛ ناسبَ ذلكَ تقديمَهم، وإنَّما قُدِّمَ حالُ المؤمنينَ أوَّلًا في قوله: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾؛ لأنَّ ذلك أدخَلُ في تحقيق ضلالِ مَنْ ضلَّ؛ إذْ ليس بعد الحقِّ إلَّا الضَّلالُ[3]، فكان ذكرُ إيمانِ المؤمنين وعلمِهم من قبيل التّوطئةِ، وبيانِ الضدِّ بضدِّه.

علَّةُ الفَصْلِ بينَ الجُمَل:

بيانُ السَّابقِ باللاحقِ، جوابًا وإيضاحًا

فَصْلُ قولِه تعالى: ﴿يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرٗا وَيَهۡدِي بِهِۦ كَثِيرٗاۚ﴾ عن الجملةِ السَّابقةِ يَحْتَمِلُ:

أن يكون جوابًا عن سُؤالِهِمْ، وهذا سَبَبٌ يقتضي فَصْلَها عمَّا قبلَهَا؛ إذْ مِنْ شأن الجوابِ أن يُفْصَلَ عنِ السُّؤالِ.

ويحتملُ أنْ يكونَ بيانًا لِمَا قبلهُ وتفسيرًا، فيكونُ بينَ الجملتينِ كَمالُ الاتِّصالِ، وهو سببٌ مُوجِبٌ الفصلَ أيضًا.

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/365.
(2) القاسميّ، محاسن التَّأويل: 1/280.
(3) الخفاجيّ، عناية القاضي: 2/100.

علَّة الوَصْلِ بين الجملَتَين المتضادَّتين:

الوصلُ الواقِعُ بين الجملتين: ﴿يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا﴾ ﴿وَيَهۡدِي بِهِۦ كَثِيرًاۚ﴾؛ لِمَا بَيْنَهُما مِنَ التَّوسُّط بين الكمالَيْن؛ إذْ كِلْتَا الجملتَين خبريَّةٌ فعليَّةٌ، وبينهما تناسبٌ بالجامع الوهميِّ؛ وهو التَّضَادُّ، وحالُ النَّاس لا يخرُجُ عن مجموعِ الجُملَتَيْن؛ فهم ما بينَ ضالٍّ ومهتدٍ.

اسْتِقْصَاءُ النَّاسِ جميعًا؛ فهم ما بين ضالٍّ ومهتدٍ

القَصْرُ بأسلوبِ النفيِ والإثباتِ لحصرِه في الفاسِقين:

في قوله سبحانه: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ قَصْرُ صفةٍ على موصوفٍ، وفيهِ إشعارٌ بأنَّ الفسقَ هو سببُ كفرِهم، وكفرُهم هو سببُ إضلال الله تعالى لَهُمْ؛ حيث إنَّ كُفْرَهم كان حاجبًا لَهُمْ عَنْ نَظَرِ التَّفكُّر والتَّدَبُّر في المثل حتَّى أدَّاهم ذلك إلى إنكارِهِ وجَحْدِهِ[1]، ووقع القصرُ ههنا بالنَّفْيِ والاستثناء؛ وهو أقوى طُرُقِ القصرِ؛ إذ يلزَمُ عنه نفيُ إضلالِ أحدٍ، ثمَّ حصرُه في الفاسِقين.

الفِسْقُ قَنْطَرَةُ الكُفْرِ

بَلاغَةُ الفاصِلة:

وقَعَتْ الفاصِلَةُ موقعًا أخَّاذًا، حيث حدَّدت سببَ إنكارِ الكافرين ضربَ المَثَلِ بالبعوضةِ، وسببَ تيههم وعمايتهم، فهي استكمالٌ لِمَا بَدَأَتْه الآيةُ من التَّمهيدِ للرَّدِّ على قولِ الكافرين، والفاصِلَةُ ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ إطْنَابٌ بالتَّذييل[2]، وهو تذييلٌ ليس جاريًا مَجْرَى المثَلِ، والقصدُ مِنْهُ تقويةُ مضمون الجُمَلة قبلَهُ.

استكمالُ المقصُودِ، وتقويةُ مضمونِ الجملةِ

اللَّامُ فِي: ﴿ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ للكمالِ، فهم بلَغُوا الغايةَ في الفِسْقِ:

أفادَت اللَّام في كلمةِ: ﴿ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ معنى الكَمَالِ، أي: هُمُ الكَامِلُون في الفسقِ مبلغًا عظيمًا، البالغُونَ فِيهِ غايتَهُ، وبلوغُ الغايَةِ في الفِسْقِ مأخوذٌ من السِّياقِ، لا سيَّما إذا كان المرادُ بالفاسقين: اليَهُودَ، كما استظهره ابنُ عاشُورٍ[3].

---

(1) محمّد سيّد طنطاويّ، التَّفسير الوسيط: 1/86.

(2) الآلوسّي، روح المعاني: 1/212.

(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/367.

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الحيَاءُ والخَجَلُ:

وردَ وصفُ اللّه تعالَى بالحياء في أحاديثَ، بل وردَ وصفُه به في آيةِ "البقرةِ" هذه، وقد سبقَ وجهُ ذلكَ في شرح المفرداتِ، ولَمْ يَرِدْ وصفُ اللّه سبحانه بالخجَلِ، وبابُ الصِّفاتِ مَبْنَاهُ على التَّوقيفِ.

وبينَ الحياء والخجَلِ - في حقِّ المخلوقِ - فرقٌ؛ وذلك مِنْ أوجهٍ[1]:

أوَّلها: أنَّ الخجلَ حَيْرَةٌ واقعةٌ بعدَ الحياءِ؛ فبَيْنَهُما نوعُ تلازُمٍ؛ إذْ لا يُتصَوَّرُ خَجَلٌ دونُ حياءٍ، ولا يلزَمُ مِن الحَياءِ وجُودُ خجلٍ.

ثانِيها: أنَّ الخَجَلَ يُذَمُّ في حقِّ الرِّجالِ دون النِّساء والصِّبْيانِ، بخلاف الحياءِ فإنَّه محمودٌ مِنَ الجَميعِ، خلافًا لِمَنْ قال: إنَّ الحياءَ فِيهِ ما يُمدَحُ ويُذَمُّ؛ لأنَّ هذا مخالفٌ لظاهرِ قولِ النَّبيِّ ﷺ: «الحَيَاءُ كُلُّهُ خَيْرٌ»[2]. وأمَّا ما يُذْكَرُ مِن صُوَرِ الحيَاءِ المَذْمُومِ- كَأَنْ يَتَعلَّقَ الحَيَاءُ بأمرٍ دينيٍّ، فيمنع الحَيَاءُ مِن السُّؤالِ فيه أو عَرْضِهِ في تعليمٍ أو دعوةٍ-[3]! فذَلِكَ بالنَّظَرِ إلى مُتَعَلَّقِهِ لا بالنَّظَرِ إلى ذاتِهِ.

ثالِثها: أنَّ الخجلَ أخصُّ مِنَ الحياءِ؛ مِن جهة أنَّ الخجلَ لا يكون إلَّا بعد وقوعِ أمرٍ لا يُريدُهُ الخجُول، بخلاف الحياءِ؛ فإنَّه يكون مِمَّا وقع، ويكون مِمَّا لم يقع فيُترَك لِأَجْلِه؛ فالخجَلُ مِمَّا كان، والحياءُ مِمَّا كان ومِمَّا يكونُ[4].

رابِعها: أنَّ الكَيْفِيَّاتِ النَّفسيةَ المتعلِّقة بهذا الباب ثلاثٌ؛ طرفَانِ ووسطٌ، فالخجَلُ أحدُ الطَّرَفَيْنِ، والحياءُ وسَطٌ؛ إذِ الحياء وسطٌ بينَ الوقاحةِ والخَجَلِ، فالحياءُ: انْقِبَاضُ النَّفْسِ عَنِ القَبِيحِ مخافةَ الذَّمِّ، والوقاحة: الجَراءةُ على القبائحِ وعدَمُ المبالاة بِهَا، والخجل: انْحِبَاسُ النَّفس عَنِ الفعل مُطْلَقًا.

---

(1) أبو هلال العسكريّ، الفروق اللُّغويَّة، ص: 212، والرّاغب، الذَّريعة، ص: 208-207، والبيضاويُّ، أنوار التَّنزيل: 1/62، والخفاجيّ، عناية القاضي: 2/82، والآلوسيّ، روح المعاني: 1/208.

(2) رواه مسلم، حديث رقم: (37).

(3) ابن عثيمين، شرح الأربعين النَّوويَّة، ص: 210.

(4) أبو هلال العسكريّ، الفروق اللُّغوِيَّة، ص: 212.

﴿ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهۡدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقۡطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ٢٧﴾ [البقرة: 27]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

ذكَر اللّه ﷻ في الآيةِ السَّابقة أحوالَ النَّاس في المَثَلِ المضروبِ، وأنَّهم فريقانِ: أهلُ الإيمانِ الذين يَعْلَمُون حكمةَ اللّهِ ﷻ مِن ضَرْبِها، وهُمُ الذينَ يَهْدِيهم اللّه تعالى. وأهلُ الكفرِ المستهزئُونَ بها، وهُمُ الذين يُضلُّهم اللّه سبحانه عدلًا مِنْهُ؛ إذْ فسَقوا عَنْ أمرِهِ تعالى. فلَمَّا ذكَر اللّه ﷻ ذلكَ؛ وجَعَلَ فاصلَةَ الآيةِ في بيانِ سببِ كفرِهم وضلالِهم؛ أعقبَهُ ببيانِ صفةِ هؤلاءِ الفاسقينَ زيادةً في البيانِ لصفاتهم التي اجتمعتْ فيهم فاستحقُّوا وصف الفسقِ، وتحذيرًا لأهل الإيمان مِنْ أن يتَّصفوا بشيءٍ مِنْ أوصافهم المذمومة المُسْتَقْبَحَةِ[1].

شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

1) ﴿يَنقُضُونَ﴾: النُّون والقاف والضَّاد أصلٌ يدلُّ على نَكْثِ شيءٍ؛ مِنْ بناءٍ أو حَبْلٍ ونحوهما[2]؛ أي: إفسادُ المُبْرَمِ مِنْهَا[3]، ومِنْهُ قولُ اللّه تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّتِي نَقَضَتۡ غَزۡلَهَا مِنۢ بَعۡدِ قُوَّةٍ﴾ [النَّحل: 92].

والتَّحقيقُ في معنى النَّقْضِ: أنَّه حَلُّ ما رُكِّبَ بفعلٍ يُعاكسُ الفعلَ الذي حصلَ به التَّركيبُ؛ لِيَخْرُجَ بذلك إفسادُ الشَّيءِ بنحو القَطْعِ والحَرْقِ[4].

ويُستعمَل النَّقْضُ حقيقةً في الأجسام - كما مرَّ-، ومجازًا في المعاني؛ ومِنْهُ: نقضُ العهد[5].

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 1/208، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/359.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (نقض)، والرّاغب، المفردات، ص: 821.
(3) الخليل، العين: (نقض).
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/368.
(5) الزَّمَخشريّ، أساس البلاغة: (نقض).

2) ﴿عَهۡدَ﴾: أصلُ العهد: حِفْظُ الشَّيء ومراعاتُه حالًا بعد حال[1].

وهذه المراعاة حالًا بعد حالٍ هي التي عبَّر عنها الخليلُ بقوله: إحداثُ العَهْدِ بِالشَّيء[2].

ومِنْ هذا البابِ: العهدُ الذي هو الوصِيَّةُ[3]؛ لكونها مِمَّا تُحْفَظُ وتُراعَى حتَّى تَنْفُذَ، ولِلْعَهْد معانٍ كثيرةٌ جدّا، مِنْهَا: الأمانُ، واليمين، والذِّمَّة، ورعاية الحقِّ، والمَنْزِل[4]، وكلُّها راجعةٌ إلى الأصل المذكور.

3) ﴿مِيثَٰقِهِۦ﴾: الواو وَالثَّاء والقاف تدلُّ تصاريفُها على العَقْدِ والإحكام[5]، وأصلُه: الاطْمِئْنانُ بالشَّيء والسُّكونُ إِلَيْهِ والاعتمادُ عَلَيْهِ[6]؛ إِذْ لا يُطمَأَنُّ إلَّا بالأمر الشَّديدِ الإحكامِ، ويُقال: أخذتُ الأَمرَ بالأَوْثَقِ، أَيْ: الشَّديدِ المُحْكَمِ[7].

وقولُه تعالى: ﴿مِنۢ بَعۡدِ مِيثَٰقِهِۦ﴾ أي: توثُّقِهِ وإبرامِهِ[8].

4) ﴿ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾: الخاء والسِّين والرَّاء أصلٌ يدلُّ على النَّقص[9]، وجعلَه ابنُ دُرَيْدٍ وغيرُهُ دالّا على الضَّلالِ، ثُمَّ استُعْمِلَ في غيرِهِ، كَخُسْرَان التَّاجر[10]، والأوَّلُ أَدَقُّ؛ لئلَّا يُدَّعى في معنًى لفظٍ المجازُ معَ إمكان الحَمْلِ على الحقيقةِ.

ويُطلق الخسرانُ على الهلاكِ[11]؛ لأنَّ في الهلاكِ نقصًا مَا.

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

تناولتِ الآيةُ صفاتِ الفاسِقين الذين يُضلُّهُمُ اللّه سبحانه بسبَبٍ مِن أنفسهم، وهُمُ الذين ينكثون عهد اللّه إليهم بتوحيدِهِ وطاعتِه، وقد أكَّده بإرسال الرسل، وإنزال الكتب،

(1) الرّاغب، المفردات، ص: 591، والسَّمين، عمدة الحُفَّاظ: (عهد).
(2) الخليل، العين: (عهد).
(3) الجوهريّ، الصِّحاح: (عهد).
(4) القاسم بن سلاَّم، غريب الحديث: (عهد)، والأزهريّ، تهذيب اللُّغة: (عهد)، ونشوان الحِمْيَرِيّ، شمس العلوم: (عهد).
(5) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (وثق).
(6) الرّاغب، المفردات، والسَّمين، عمدة الحفَّاظ: (وثق).
(7) ابن دُريد، جمهرة اللُّغة: 1/430.
(8) ابن عرفة، اتفسير ابن عرفة: 1/85.
(9) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (خسر).
(10) ابن دُريد، جمهرة اللُّغة، وابن سِيدَه، المحكم: (خسر).
(11) الجوهريّ، الصِّحاح: (خسر).

ويخالفون أوامر اللّه فيقطعون ما أمر بوصله كالأرحام، ويسعون لنشر الفساد في الأرض بالمعاصي، أولئك هُمُ الخاسرون المَغْبُونُون في الدُّنيا والآخرة[1].

الإيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

الإعرابُ فرعُ المعنى وثمرتُه:

مراعاةُ التَّحذير والتَّخويفِ ملحوظٌ في التَّعدُّدِ النَّحْويِّ

الاسمُ الموصولُ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ مِنْ قولِ اللّه تعالَى: ﴿ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ﴾، إمَّا أن يُحمَلَ على النَّصْبِ[2] نعتًا لـ ﴿ٱلْفَٰسِقِينَ﴾، ومعناه: مزيدُ ذَمٍّ وتعييبٍ لِلْفَاسقين بذِكْرِ أوصافهم القبيحةِ[3]، واسترسالٌ في بيان حقيقتِهم، للحذرِ من الوقوعِ في مخالبِها.

وإمَّا أن يُحملَ على الرَّفعِ؛ فيكون مبتدأً؛ وخبرُهُ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾، وهذا أنسبُ إذا رُوعِيَ مقامُ التَّخويف؛ لأنَّه يقتضي ترتُّبَ الذمِّ على كل وصفٍ مِنَ الأوصافِ المذكورةِ.

والإعرابان فرعا المعنى، والمقامُ مقامُ تحذيرٍ من الوقوعِ في صفاتِهم، وتخويف منَ الاقترابِ من تلك الصِّفات، فالإعرابان وإن اختلفا في التَّوجيه الصِّناعيّ، إلَّا أنَّهما مُلتقيان في التَّوجيه التَّفسيريِّ، وهذا من بديع الاحتمالِ النَّحوي، القائمِ على التَّنوّع المعنويّ.

سِرُّ التَّعبيرِ بالِاسْمِ المَوْصُولِ:

تعليلُ السَّابقِ واللاحقِ بلفظٍ جامعٍ

وجِيءَ هُنا بالِاسْمِ الموصُول؛ لِيجمَعَ بين أمرين، بناءً على الاحتمالَيْن في الإعرابِ، وهما:

الأوَّل: تعليلُ السَّابقِ؛ لبيانِ اِستحقاقِ الفاسقين ما اتَّصفُوا به من الفسقِ، وأنَّهم ما بلغوا غايةَ الفسقِ إلَّا بهذه الصِّفات المذكورةِ.

---

(1) الزَّجَّاج، معاني القرآن: 1/106، والبغويّ، معالم التَّنزيل: 1/77، والخازن، لباب التَّأويل: 1/33-34، والثَّعالبي، الجواهر الحسان: 1/203، ونخبة من أساتذة التّفسير، التّفسير الميسّر، ص: 5.

(2) ذكر السَّمين فيها أربعة أوجه، وهي: نعت، أو منصوب على الذَّم، أو مرفوع بالابتداء، أو خبر مبتدأ محذوف، يُنظر: السمين، الدّرُّ المصون: 1/234،

(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 1/75.

الثَّاني: تعليلُ اللاحقِ؛ فإنَّ تعريفَ المسندِ إِلَيْهِ بالموصوليَّةِ لِلإِيمَاءِ إلى وَجْهِ بناءِ الخبَرِ، أي: أنَّ خُسْرَانَهم سببُهُ هذه الأوصافُ المذكورةُ.

ولهذا السَّببِ عُبِّرَ بالاسمِ الموصولِ؛ فهو دُرَّةُ القِلادَةِ الجامعةِ.

التَّعبيرُ بصيغةِ المُضَارِعِ لتصويرِ بشاعةِ نقضِ الفاسقين عهودَهم:

التَّعبير بصيغةِ الفعل المُضَارع ﴿يَنقُضُونَ﴾ دون الفعلِ الماضي؛ لإفادةِ تكرارِ وقوعِ النَّقْضِ مِنْهُم مَرَّةً بعد أُخْرَى، فهو مفيدٌ الِاسْتِمْرَارَ التَّجدُّديَّ بقرينةِ سياقِ الذَّمِّ، وفيه تصويرٌ لبشاعةِ النقضِ؛ لاستمرارِهم فيه، وعدمِ توانيهم عنه، لاسيَّما أنَّه نقضٌ لعهدِ اللّٰه تعالى.

تنوُّعُ الِاسْتِعَارَةِ في قولِه تعالَى: ﴿يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ﴾:

النَّقضُ هو: حَلُّ ما رُكِّبَ بِفِعْلٍ يُعَاكِسُ الفعلَ الذي حَصَلَ به التَّرْكِيبُ، وهو حقيقةٌ في الأجسام، مجازٌ في المعاني.

واستعمالُه مع العهدِ استعارةٌ، وهو إمَّا أن يُحْمَلَ على الاستعارةِ التَّصريحيَّةِ التَّبعيَّةِ؛ حيث شُبِّه إبطالُ العهدِ وتركُهُ بنقض الحبلِ؛ بجامع مُطْلَقِ فكِّ الِارْتِباطِ، ثُمَّ اشتُقَّ من (النَّقْضِ) الفعلُ (يَنْقُضُ).

إِخْـرَاجُ المعنويِّ في صُورة الحِسّيِّ أوقعُ في النَّفسِ وأرسـخُ في الذِّهن

وإمَّا أن يُحْمَلَ على الاستعارةِ المكنيَّةِ الأصليَّة؛ حيث شُبِّه العهدُ بالحبلِ[1]، والجامع بينَهما: مَا فِيهِ مِن ثباتِ الوُصلةِ بين طَرَفَيْنِ[2]، فحُذِفَ المُشَبَّهُ به ورُمِزَ له بِشَيْءٍ مِن لوازمه وهو النَّقْضُ.

وفي كِلَا الوجهين لِلِاسْتِعَارَةِ إبرازُ الأمور المعنويَّةِ في صورة الشَّيْءِ المحسُوس المَلْمُوس[3]، وهذا أَدْعَى إلى إيضاحِ المعنى وترسيخِهِ، والمقصودُ بالاستعارتين بيانُ إبطالِ العَهْدِ بالمحسوسِ؛ زيادةً في التَّشنيعِ والتَّقبيح.

(1) إسماعيل حقّي، روح البيان: 1/88، والهرريّ، حدائق الرَّوح والرّيحان: 1/286.
(2) الزَّمخشريّ، الكشَّاف: 1/119.
(3) أحمدي بدوي، من بلاغة القرآن، ص: 57.

معنى الإضَافَةِ فِي قولِه تعالى: ﴿عَهۡدَ ٱللَّهِ﴾:

تعظيمُ العهدِ وتشريفُه، وذَمُّ الفَاسِقِين بِنَقْضِهِمْ أَمْرًا عظِيمًا

إضافةُ العَهْدِ إلى لفظِ الجلالةِ في قوله: ﴿عَهۡدَ ٱللَّهِ﴾ يُرادُ بها تعظيمُ المضافِ وتشريفُهُ، ولازِمُ ذلك: المبالغةُ في ذمِّ النَّاقضينَ لهُ؛ إذْ نَقَضُوا أمرًا عظيمًا مُضافًا إلى اللّه تعالى.

ويؤكِّدُ هذه الدّلالة وجهان:

أحدُهما: إلقاءُ الرَّوعِ في ضَميرِ السَّامع وزيادة المَهابةِ[1]، من خلالِ إظهارِ ما حقُّه الإضمار في قولِه تعالَى: ﴿عَهۡدَ ٱللَّهِ﴾؛ إذْ مُقتضى الظَّاهرِ: (الذين ينقُضُون عَهْدَهُ)، وذلك لتقدُّمِ ذِكْرِ اسم اللّه تعالى.

والآخر: تعظيمُ عهدِ اللّه، وذمُّ النَّاقضين له، ويظهرُ ذلك في قولِ اللّه تعالى بعدُ: ﴿مِنۢ بَعۡدِ مِيثَٰقِهِۦ﴾ على التَّفسيرين، وهما: من بعدِ إبرامِه[2]، ونقضُ العَهْدِ المؤكَّدِ الشَّديدِ أقبَحُ مِنْ نقض مُطلق العَهْدِ، أو بمعنى: من بعدِ توثيقِه، والضَّميرُ راجعٌ إلى اللّه تعالى[3]؛ أي: مِنْ بعد توثيق اللّهِ تعالى لَهُ.

نكتةُ التَّعبير بصيغة الفِعْلِ المُضَارِعِ:

حِرْصُ النَّاقِضين على قطعِ ما أَمَر الله بوصله تكرارًا واستمرارًا

عبَّر النَّظمُ بصيغةِ الفعلِ المضارِعِ ﴿وَيَقۡطَعُونَ﴾ دون غيرِه من الصِّيَغِ؛ للتَّناسبِ اللفظيِّ مع صيغة فعل النَّقضِ، ولِلتَّنبيهِ على تكرارِ صُدُورِ قَطْعِ ما أَمَرَ اللّه بوصلِه مرَّةً بعد أُخْرَى؛ إذِ الفعلُ المضارِعُ يدلُّ على التَّجدُّدِ الاستمراريِّ، فهم لا يكادُونَ يجِدُونَ أَدْنَى صِلَةٍ مأمورٍ بها، إلَّا ويقطعونها، وهذا أبلغُ في بيانِ شناعةِ فِعالِهم، وقباحةِ أعمالِهم.

(1) الخطيب القزوينيّ، الإيضاح في علوم البلاغة: 2/84.
(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/85.
(3) الزَّمخشريّ، الكشَّاف: 1/120.

سرُّ التَّعبير بـ (ما) دون الاسمِ الموصولِ:

الدّلالة على قطعِ كلِّ ما يتصوَّرُه الذِّهنُ من الأعمالِ الصَّالحةِ

إيثارُ التَّعبيرِ بـ ﴿مَآ﴾ الموصوليَّة[1] في قولِه تعالى: ﴿وَيَقۡطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾، دون الاسم الموصول الظَّاهر؛ للدّلالة على العموم؛ فإنَّ "ما" أعمُّ من الذي، فيُفيدُ قطعَهُمْ جميعَ الذي أَمَرَهُم اللّه تعالى بوصلِه[2]، وخصَّهُ جماعةٌ مِن أهلِ العِلْم بأفرادٍ مِنْ هذا العموم، ثُمَّ اخْتَلفوا في تعيين هذه الأفراد[3]، واسْتَظْهَرَ ابنُ جرير أنَّ المرادَ قطعُ الرَّحِم، وأنَّ دخولَ غيرِهَا مِمَّا يُقطع في الآية إنَّما هو بطريق الفَحْوَى[4]، وهذا نوعٌ من العموم، يُعينُ عليه سياقُ الآيةِ، وهو دالٌّ على عدمِ رعايةِ أيِّ حقٍّ مُتصوَّرٍ ممَّا أمرَ اللّه بوصلِه، وهو يُقوِّي معنى الذَّمِّ الواردِ في الآيةِ لأولئك المجرمين.

المَجَازُ المُرْسَلُ بِعَلَاقَةِ العُمُومِ:

عِظَمُ قَدْرِ الرَّحم وخطُورَةُ قَطْعِها

إذا حَمَلْنَا ما أَمَرَ اللّه بِهِ أن يُوصَل في قولِه تعالى: ﴿وَيَقۡطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾ على خصُوصِ قَطْعِ الرَّحِم أصالةً؛ كان هذا مِنَ المجاز المرسل بعلاقة العموميَّة؛ حيث أُطْلِقَ العامُّ وأُرِيدَ به فردٌ من أفرادِه، وذلك لِتعظيمِ قَدْرِ الرَّحِم بِجَعْلِ قَطْعِهَا قطعًا لجميع المأمورِ بوصلِه.

فائدةُ الِاسْتِعَارَةِ التَّصريحيَّةِ فِي قوله: ﴿وَيَقۡطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾:

تجليةُ صفةِ القسوةِ في قلبِ القاطِعِ، والكشفُ عن حقيقةِ إيمانه

القطع في الأصل: فَصْلُ بَعْضِ أجزاء الشَّيْءِ عن باقِيه[5]؛ فهو حقيقةٌ في الأجسامِ، واستعمالُه في المعاني مجازٌ.

وعليه فقولُه تعالَى: ﴿وَيَقۡطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾ هو

(1) القولُ بأنَّها موصولةٌ هو القولُ الرَّاجح في المسألةِ.

(2) أبو حيَّان، البحر المحيط: 1/206، وأبو السّعود، إرشاد العقل السَّليم: 1/76، وابن بدران، جواهر الأفكار، ص: 138.

(3) ابن الجوزيّ، زاد المسير: 1/48.

(4) ابنُ جرير، جامع البيان: 1/416.

(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 17/230.

اسْتِعَارَةٌ تصْرِيحِيَّةٌ تبعيَّةٌ؛ حيث شُبِّهَ تركُ أوامرِ اللّه تعالى، وهجرانُ الأقْرَبِينَ وتركُ التَّعطُّف عَلَيْهِمْ والرِّفْقِ بِهِمْ[1] بالقَطْعِ؛ بجامع مُطْلَقِ الانْفِصَالِ، وهو مِنْ إخراجِ المعنويِّ في قالب المحسوسِ؛ ليكون أَظْهَرَ في الدّلالة؛ إذْ إدراكُ المحسوسِ أسهلُ مِنْ إدراكِ المعنويِّ المجرَّدِ، وتُفيدُ الاستعارةُ قسْوةَ القاطِعِ في التَّرْك والهَجْرِ، وأنَّه ما كان منه ذلك إلَّا بعد انعدام الإيمانِ وأثرِه في قلبِه.

نكتةُ التَّعْبِيرِ بِالفِعْلِ المُضَارِعِ ﴿أَن يُوصَلَ﴾:

جِرْصُ القَاطِعِ عَلى إتيانِ ضِدِّ المأمورِ به؛ دليلُ شديدِ فِسْقِهِ

التَّعبيرُ بالفعلِ المضارِعِ في قولِه: ﴿أَن يُوصَلَ﴾ دُون المصدَر الصَّريحِ: (ما أمرَ اللّه بوصلِه)؛ لِلتَّنبيهِ على أنَّ الوصلَ المأمورَ به مستمرٌّ استمرارًا تجدُّديًا؛ بحيث يقعُ الوصلُ المرَّةَ بعد المرَّةِ وصلًا لا يَتَخَلَّلُهُ قَطْعٌ يُفْسِدُهُ، وهو ممَّا يزيدُ القطعَ ذمّا؛ لأنَّه قطعٌ مستمرٌّ لوصلٍ مأمورٍ به أن يستمرّ، فالقاطِعُ جاءَ بضدِّ المأمورِ به، وهو يدلُّ على شديدِ فسقِه، وبالغِ عداوته.

فائدةُ بِنَاءِ الفِعْلِ لِلْمَفْعُولِ في قولِه: ﴿أَن يُوصَلَ﴾:

تَعْظِيمُ شأنِ الوَصْلِ، وذمُّ القاطعين؛ لشُذوذِهم عن الجميعِ

بُنِيَ الفعلُ للمفعولِ في قولِه تعالَى: ﴿أَن يُوصَلَ﴾؛ لإفادة العُمومِ والشُّمولِ؛ أي: أنَّهُ ممَّا يجبُ أن يَصِلَهُ جميعُ النَّاسِ، ولو ذكَرَ الفاعِلَ أو أشارَ إليه لارتبطَ به الفعلُ وتعيَّن الخصوص، والمعنى: أمر اللّه تعالى جميعَ الناس بِوَصْلِهِ، وفيه مزيدُ ذمٍّ لأولئك القاطعين؛ إذ قطعُهم قطعُ شُذوذٍ عن الجميع.

دلالة الفِعْلِ المُضَارِعِ ﴿وَيُفْسِدُونَ﴾ لبيانِ تكرُّرِ وقوعِه:

مَجيءُ الفعل المضارع في قولِه سبحانه: ﴿وَيُفْسِدُونَ﴾ دالٌّ - كما في نظائره المتقدِّمةِ - على التَّجدُّد الاستمراريِّ، المفيدِ بتكرُّرِ إِفْسَادِهم وتجدُّدِهِ مِنْهُمْ واستمرارِهم عَلَيْهِ.

(1) ابن الأثير، النِّهاية: 5/191-192.

فائدةُ عطفِ العَامِّ عَلَى الخَاصِّ:

نَقْضُ العهُودِ وقطعُ الأرحامِ موصلٌ إلى دَرَكَةِ الإفسادِ في الأرضِ

يشمَلُ الإفسادُ في الأرض الشِّرْكَ باللّه تعالى وجميعَ المعاصي[1]، بل ما مِنْ خصلةٍ مذمومةٍ يُدعى إليها إلَّا ويَصْدُق عَلَيْهَا أنَّها إفسَادٌ في الأرض[2]، وإذا حملنا قطعَ ما أمَرَ اللّه به أن يُوصَل على خُصوصِ قطعِ الرَّحمِ؛ فيكون عطفُ إفسادِهم في الأرض على ما سبَقَ مِنْ باب عطفِ العامِّ على الخاصِّ؛ تنبيهًا على خَطَرِ ذلك الخاصِّ، وأنَّه مقدِّمةٌ أساسيَّةٌ للإفسادِ في الأرضِ؛ فما من ناقضٍ للعهود، وقاطعٍ للأرحامِ، إلَّا وهو واصلٌ إلى دَرَكَةِ الإفسادِ في الأرضِ.

فائدةُ القيدِ في قولِه تعالَى: ﴿وَيُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾:

إفصاحٌ قرآنيٌّ بخطورةِ الإفسادِ، فهو يبدأُ بذرةً لينتشر بعد ذلك

قُيِّدَ الإفسادُ في الأرضِ في قوله سبحانه: ﴿وَيُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾؛ للتَّنبيه على أنَّ إفسادَهم لا يتوقَّف على بقعةٍ معيَّنةٍ، أو على زمنٍ محدَّد، أو على فئةٍ من النَّاسِ، بل هو شاملٌ للأرضِ كلِّها، وشمولُ إفسادِهم للأرضِ كلِّها يعني أنَّه سيطالُ جميعَ النَّاسِ، في الزَّمانِ والمكانِ كلِّه، وهو إفصاحٌ قرآنيٌّ بخطورةِ صنيعِ أولئك المفسدين، إذ إفسادُهم يبدأُ بذرةً ثمَّ ينتشرُ انتشارَ النَّارِ في الهشيم، والقيدُ فيه: زيادَةٌ في ذَمِّهم وتوبيخهم؛ فإنَّ المحلَّ الذي مِنْهُ خُلقُوا، وعلى ظهرِه يعيشونَ، وإلَيْهِ يُرجعُونَ: حقيقٌ بأن لا يقعَ فيه إفْسَادٌ[3]، كما سبق نظيرُهُ في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ لَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ قَالُوٓاْ إِنَّمَا نَحۡنُ مُصۡلِحُونَ﴾ [البقرة: 11].

دلالة اسمِ الإشَارَةِ على كَمَالِ تَمَيُّزِ الفاسِقين فِي الخُسْرَانِ:

أُشِير إلى الفاسقين باسمِ الإشارة ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾؛ للدّلالة على بُعدِ منزلتِهم في الفسادِ، وأنَّهم متوغِّلُونَ فِيهِ لِلْغَايةِ[4]، ولِلإِشْعَار بأنَّهم

(1) الشِّنقيطيّ، العذب النَّمير: 3/404.
(2) ابن بدران، جواهر الأفكار، ص: 138.
(3) أبو حيَّان، البحر المحيط: 1/107 - 208.
(4) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 1/184.

متميِّزُونَ بخسرانهم أكملَ تمييزٍ وأَبْيَنَهُ، وهذا أَدْخَلُ في ذَمِّهِمْ؛ فكأنَّه لا خاسرَ سِواهم.

فائدةُ القَصْرِ الادِّعائيّ:

المبالغةُ في قَصْرِ الخسارةِ على الفاسقِينَ فكأنَّه لا خاسرَ سواهم

لـمَّا بلغَ المفسدون في الأرضِ مبلغًا عظيمًا من الإفسادِ، وكأنَّه لا مُفسِدَ في الأرضِ سِواهُم، نَاسَبَ ذلك أنْ يَقصُرَ صِفةَ الخسارةِ عليهم، في قولِه تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ بتعريفِ جُزْأَيِ الجملةِ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ و﴿ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾[1].

وأفاد القصرُ: حصرَ الخُسْرَانِ في الفاسقينَ؛ فهو قصرٌ حقيقيٌّ ادِّعائيّ بقصدِ المبالغةِ؛ ويكون المعنى مِنْ إفادة انحصار الخسران فِيهِمْ: أنَّ خسرانَهم أعظَمُ خسرانٍ، حتَّى كَأَنَّ خُسْرَانَ غَيْرِهِمْ ليس بشيءٍ مقارنةً بخسرانِهم.

وهو قصرُ قلبٍ؛ لأنَّهم ظنُّوا أنفسَهم رابحين[2]، فقُلِبَ عَلَيْهِمُ اعتقادُهم وأُثْبِتَ لَهُمُ الخسرانُ.

فائدةُ التَّأكيدِ بِضَمِيرِ الفَصْلِ وَاسْمِيَّةِ الجُمْلَةِ:

حصْرُ الخسَارَةِ في المُفسدِين؛ لبيانِ فظيعِ أعمالِهم، وسوءِ مآثرِهم

جيءَ بضميرِ الفصل (هُمْ)؛ لتأكيدِ القصر وتقويتِه، لا لإفادة القصر ابتداءً؛ إذِ القصرُ مستفادٌ مِنْ تعريف جُزْأَيِ الجملةِ، إذْ شرْطُ إفادةِ ضميرِ الفصلِ القصرَ خُلوُّ الجملةِ مِنْ أحدِ طرقِ القَصرِ[3]، وليس الأمر هُنا كذلك، وهذا آكدُ في المبالغةِ في حَصْرِ الخسارةِ فيهم؛ لبيانِ فظيعِ أعمالِهم، وسوءِ مآثرِهم، وتقويةُ الجملةِ بالإتيانِ بِها اسميَّةً؛ ففي ذلك دلالة على ثباتِ الخسرانِ فِيمَن هذه صفتُه[4].

---

(1) المقصور في هذا الضَّرْبِ هو المعرَّفُ باللاَّمِ تقدَّمَ ذلك أو تأخَّر.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/372.

(3) المراغي، علوم البلاغة، ص: 133.

(4) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 1/184.

بلاغةُ الاستعارةِ التَّصريحيَّةِ في قَوْلِهِ: ﴿ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾:

شِدَّةُ غَبْنِ مَن نَقَضَ العهدَ وقطَعَ الرَّحِمَ، وعظيمُ خَسَارَتِه

كثُرَ استعمالُ لفظِ الخسارةِ في التِّجارَة، أخذًا من أَصْلِ الخُسْرَانِ وهو: النَّقْصُ، وغالبُ استعمالِهِ في التِّجارة، حتَّى قيل: إنَّه لا يُستعمل حقيقةً إلَّا فِيهَا، وبناءً عَلَيْهِ فاستعمالُه ههنا يُحمَلُ على الاستعارةِ التَّصريحِيَّة؛ حيث شُبِّهَ استبدالُهم نقضَهم العهدَ بالوفاء، ووَصْلُهُمُ الأرحامَ بالقطعِ المستلزِمِ لِلْعِقابِ بالصَّفَقَاتِ الخاسرةِ[1]؛ وهذا أدلُّ على غَبْنِهم وأشدُّ في توبيخِهِمْ.

اللّامُ في كَلِمَةِ: ﴿ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ بَيْن العهدِ وبيانِ الجنسِ:

اختُلف في معنى اللّامِ في قولِه تعالَى: ﴿ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ على قولين:

الأوَّل: أن تكونَ لِلعهدِ الخارجيِّ، على معنى: أنَّ الفاسقين هم النَّاسُ الذين بلغَك عنهم الخسران؛ فهو مِنْ قصر الصِّفة على الموصوف؛ على الوجهِ الذي سبقَ بيانُهُ آنِفًا.

الثَّاني: أن تكونَ لبيان الجِنس والحقيقةِ، ويكون المعنى: أنَّ الفاسقين هم الذين إن حصلَت صفة الخسرانِ، فَهُمْ هُمْ، لا يَعْدُونَ تلكَ الحقيقةَ؛ فهو مِنْ قَصْرِ الموصُوفِ على الصِّفةِ؛ فَهُمْ لا يتجاوزون صفةَ الخسران إلى صفةٍ أخرى.

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

العَهْدُ وَالمِيثَاقُ:

نَصَّ جمعٌ مِنْ أصحاب المعجمَاتِ على التَّسويةِ بينَهُمَا[2]، إرادةً للتَّقريبِ على عادتِهم في ذلك، والتَّحقيقُ أنَّ بينَ العهدِ والميثاق فرقًا؛ وهو أَنَّ أصلَ الميثاقِ: العهدُ المؤكَّدُ[3] أو المؤكَّد بخصوص اليَمِين[4]؛ وعلى كِلَا الاحتمالَيْن؛ فإنَّ العَهْدَ أَعَمُّ مِنَ المِيثَاقِ مطلقًا، فكلُّ ميثاقٍ عهدٌ، وليس كل عهدٍ ميثاقًا.

ويدُلُّ على هذا الفرقِ الاشتقاقُ اللُّغويُّ؛ فإنَّ الميثاقَ مِنْ قولِهم: أوثقتُ الشَّيءَ؛ أي: أَحكمتُهُ[5].

(1) الخفاجيّ، عناية القاضي: 2/107.
(2) ابن سِيده، المحكم: 6/544.
(3) أبو هلال العسكريّ، الفروق اللُّغوية، ص: 525.
(4) أبو حيَّان، البحر المحيط: 1/206.
(5) ابن القطَّاع، كتاب الأفعال: 3/304.

وذكر الشَّوكانيّ فرقًا آخرَ بينَهما[1] لا يرجع إلى اللُّغةِ؛ وهو أنَّ العهدَ: جميعُ ما عَهِدَ اللّٰهُ عَلَى العبادِ مِن الأَوامرِ والنَّواهي، والميثاقَ: ما أخذه اللّٰه تعالى على عبادِه حين أخرجَهُم مِنْ صُلْبِ آدمَ في عالم الذَّرِّ؛ وهو الواردُ في قول اللّٰه سبحانه: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ [الأعراف: 172]، وهذا تفريقٌ استعماليٌّ لا معجميٌّ.

(1) الشَّوكانِي، فتح القدير: 3/94.

﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [البقرة: 28]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا أمَرَ اللّه سبحانه بتَوحيدِهِ وأقام الأدلَّةَ على ذلك، وأنذر مَن أعرضَ عَنْهُ، وبَشَّر مَنْ أقبل عَلَيْهِ، وذَكَر حالَ الفريقَيْنِ في قبول الأمثالِ، وَذَكَرَ سُبحانه حالَ الكفرةِ في نَقْضِهم عهدَهُ سبحانه وقطعِهم مَا أمَرَهُم بوصلِهِ وإفسادِهم في الأرض؛ عجَّبَ مِنْ حالِهم هذه ووبَّخَهُم عَلَيْهَا؛ وذلك لظهور الأدِلَّة والبراهين على ربُوبِيَّته سبحانه على خَلْقِه، وذلك مستلزمٌ لإفرادِهِ بالألوهيَّة وطاعتِهِ فيما أمرَ بِهِ ونهَى عَنْهُ، فقال: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ﴾[1].

شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

1) ﴿أَمْوَٰتًا﴾: الميمُ والواو والتَّاء تدلُّ اشتقاقَاتُها على ذهَاب قوَّةِ الشَّيء[2]، ومِنْهُ قولُ النَّبِيّ ﷺ: «مَنْ أَكَلَهُمَا فَلَا يَقْرَبَنَّ مَسْجِدَنَا»، وَقَالَ: «إِنْ كُنْتُمْ لَا بُدَّ آكِلِيهِمَا فَأَمِيتُوهُمَا طَبْخًا»[3]، يَعْنِي: البَصَلَ وَالثُّومَ، فحياة هاتين الشَّجرتين عبارةٌ عن قُوَّةِ رائِحَتِهِما عِنْدَ طراوتِهِما، ومَوْتُهُما: إزالةُ تلك الرَّائحةِ بالطَّبخ، فتذهب تلك القوَّة[4].

ومِنْهُ الموت - وهو ضدُّ الحياةِ -؛ لذهاب القُوَى بالموتِ، ومِنْهُ: ماتتِ النَّار؛ إذا خَمَدَت، وماتَتِ الرِّيح: سكنَتْ[5].

والأموات: جمعُ (مَيِّتٍ) أو (مَيْتٍ)؛ وهو مَن قامَ به الموتُ[6]، إمَّا حقيقةً أو مجازًا؛

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 1/212.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (موت).
(3) رواه أحمد، حديث رقم: (16247)، وأبو داود، حديث رقم: (3827)، والنَّسائي في الكبرى، حديث رقم: (6647)، وهو صحيح كما في تخريج المشكاة، رقم: (736).
(4) الطِّيبيّ، الكاشف عن حقائق السّنن: 3/953.
(5) الزَّمخشريّ، أساس البلاغة: (موت).
(6) فرَّق جماعة بين (مَيِّتٍ) و(مَيْتٍ)، ويأتي بيانُهُ في موضعه إن شاء الله.

فالـمَيّت حقيقةً: مَنِ انفصلت روحُهُ عن جسدِهِ، ولِلـمَيِّت مجازًا معانٍ عِدَّةٌ، مِنْهَا: خَامِلُ الذِّكْرِ الذي لا يُعرف ولا يُذكَرُ[1].

واختَلفَ أهل العلم في إطلاق الموتِ على من لم تَحُلَّهُ الحياةُ: أَحقيقةٌ ذلك أم مجازٌ؟ فذهب جماعةٌ إلى أنَّ إطلاق الموتِ على ما لم تَحُلَّه حياةٌ هو مِنْ باب المجازِ؛ فلا يصحُّ عِنْدَهُم وصفُ الجمادِ مثلًا بالموتِ حقيقةً.

وذهب آخرون إلى أنَّ ذلك حقيقةٌ، وهو المختارُ؛ وذلك أنَّ العربَ تصف الجمادَ بالموتِ، وبذلك جاء القرآن الكريمُ، كما في قوله سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخۡلُقُونَ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ ۝٢٠ أَمۡوَٰتٌ غَيۡرُ أَحۡيَآءٖۖ وَمَا يَشۡعُرُونَ أَيَّانَ يُبۡعَثُونَ﴾ [النحل: 20-21]، "فهذا في الأصنَام، وهي مِنَ الجمادات، وقد وُصِفَتْ بالموت"[2]، فالموت: عدمُ الحياة مطلقًا، لا عدَمُها عمَّا هي مِنْ شأنه[3].

وفي معنى الأموات في قوله تعالى: ﴿وَكُنتُمۡ أَمۡوَٰتٗا﴾ أقوال، واستظهر ابنُ جريرٍ أنَّ معنى الموتِ ههنا: موتُ الذِّكْرِ، فلا يُعرفون ولا يُذكرونَ؛ إذْ كانُوا في أصلاب آبائهم نُطَفًا[4].

2) ﴿تُرۡجَعُونَ﴾: الرَّاء والجيم والعينُ أصلٌ يدلُّ على ردٍّ وتَكرارٍ[5]، ومِنْهُ سُمِّيَ المَطَرُ رَجْعًا؛ لتكرُّرِ نزولِهِ[6].

وأمَّا الرُّجوع إلى الله تعالى بعد الإحياءِ الثَّاني؛ فهو حضُورهم الحسابَ عندَهُ؛ ليُنبِّئَهم بأعمالهم ويُجازيهم عَلَيْهَا[7].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

تخاطب الآيةُ المشركين؛ مُبَيِّنةً عجيبَ حالِهم في شركِهم؛ إذْ كيف يُنكرون وحدانيَّةَ الله تعالى مع نَصْبِ الأدلَّةِ وتوضِيح البراهينِ الدالَّةِ عَلَيْهَا القاطعةِ باقتضائِهَا، ومِنْ ذلك:

(1) ابن جرير، جامع البيان: 1/424.
(2) ابن تيميَّة، التَّدمريَّة، ص: 160، وأبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 1/186.
(3) الخفاجيّ، عناية القاضي: 2/108.
(4) ابن جرير، جامع البيان: 1/424.
(5) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (رجع).
(6) ابن سِيده، المحكم: (رجع).
(7) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/377، وابن عثيمين، تفسير الفاتحة والبقرة: 1/105.

أنَّهم كانوا غير مخلوقين، لا ذِكْرَ لهم، فأوجدهم وَجَعَلَهم أحياءً، ثُمَّ يُميتهم عند انقضاء آجالهم، ثم يُحييهم مرَّةً أخرى يوم القيامةِ، ثُمَّ يُرجعون إِلَيْهِ ليُحاسبَهم على أعمالهم ويجازِيَهم عَلَيْهَا[1].

❁ الإيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

أغراضُ الِاسْتِفْهَامِ في قولِه تعالَى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ﴾:

كـثرةُ أغـراضِ الاستفهامِ، يُنبئُ باتِّساعٍ دلاليّ، ومرونةٍ سياقيَّة

خرجَ الاستفهامُ عن معناه الحقيقيِّ إلى غرضٍ آخر من أغراضِه البيانيَّةِ في قولِه تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ﴾ ألا وهو التَّعجُّبُ[2] من حالِ الكافرين، إذْ صُدُورُ الكفرِ عنهم في إنكارِ البعثِ عجيبٌ مع لِحاظ ما يشاهدونه من الحياة بعد الموتِ، والموتِ بعد الحياةِ!

ويُحْمَلُ الاستفهامُ في قولِه تعالَى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ﴾ على التَّعْجِيبِ، أي: يا أهلَ الإيمان اعْجَبُوا من حالِ هؤلاءِ[3].

ويصحُّ أن يُحْمَلَ الاستفهامُ على معانيه المحتمَلَةِ جميعًا؛ بأن يُقال: إنَّ الاستفهام هنا للتَّعجُّب والتَّعْجِيبِ؛ إذِ النِّكات البلاغيَّة تتوارَدُ ولا تتزاحَمُ، وغرضُ الاستفهام التَّعجبيّ هو التَّوبيخُ والإنكارُ[4].

اختيارُ الِاسْتِفْهَامِ بِـ ﴿كَيْفَ﴾ لاشتمالِها جميعَ أحوالِ الشَّيءِ:

جاء الاستفهامُ بـ ﴿كَيْفَ﴾ -وهي للحَالِ- دون الهمزةِ فلم يقل: (أَتَكْفُرُونَ)؛ لأنَّها أبلغُ وأعمُّ في الإنكارِ؛ فأمَّا كونُهَا أبلغَ؛ فلأنَّهُ "إذا أُنْكِرَ أن يكونَ لكُفْرِهم حالٌ يوجد عَلَيْهَا، وقد عُلِم أنَّ كلّ موجود لا ينفكُّ عن حالٍ وصِفَةٍ عندَ وجوده، ومُحَالٌ أن يُوجد بغير صفة مِنَ الصِّفات؛ كان إنكارًا لوجوده على الطَّريق البرهانيّ"[5].

وأمَّا كونه أعمَّ؛ فلأنَّ الاستفهامَ بالهمزة مطلقٌ في الشَّيءِ، والاستفهامَ بـ (كيف) عامٌّ

---

(1) ابن جرير، جامع البيان: 1/418-424، وأبو المظفَّر السّمعانيّ، تفسير القرآن: 1/62، وابن عطيّة، المحرَّر الوجيز: 1/113-114، ونخبة من أساتذة التّفسير، التّفسير الميسّر، ص: 5.

(2) أبو المظفَّر السّمعانيّ، تفسير القرآن: 1/62.

(3) ابن أبي زَمَنين، تفسير القرآن العزيز: 1/131، وابن عثيمين، تفسير الفاتحة والبقرة: 1/105.

(4) الفرَّاء، معاني القرآن: 1/23، والزَّمخشري، الكشَّاف: 1/121، والخفاجيّ، عناية القاضي: 2/108.

(5) الزَّمخشريّ، الكشَّاف: 1/121.

في جميع أحوال الشَّيء، ودلالة العامِّ أقوى مِنْ دلالة المطلق؛ لكونِ العامِّ يتناوَلَ جميعَ أفرادِهِ دفعةً واحدةً، فالهمزة دالَّةٌ على إنكار كفرِهم في حالةٍ ما، بخلاف (كيف)؛ فإنَّها دالةٌ على إنكار كفرِهم في جميع أحواله[1].

بلاغةُ أُسْلُوبِ الالتِفَاتِ:

الإشعارُ بِشِدَّةِ سَخَطِ اللهِ تَعَالَى عَلَى الكافرين وَقُوَّةِ إِنْكَارِهِ عَلَيْهِمْ

عدَلَ النَّظمُ عن الغيبةِ إلى الخِطابِ، في قولِه ﷻ: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ﴾؛ إذْ مقتضى الظَّاهِرِ الغيبةُ: (كيف يكفرونَ)، وفائدةُ الالتفاتِ: أنَّه أَوْرَدَ عدَدًا مِنْ صفاتِ الكافرين المستقبَحَةِ المقتضيةِ تزايُدَ السَّخَطِ عَلَيْهِمْ، وتوجيهُ الإنكارِ حينئذٍ خِطابًا أبلغُ وأردعُ مِنْ تَوْجِيهه على وجه الغَيبةِ[2].

إيثارُ التَّعْبِيرِ بِالمُضَارِعِ لتسلُّطِ الإِنْكَارِ عَلَى الإصرارِ على الكُفْرِ لا الوقوعِ فيه:

آثَرَ النَّظمُ الكريمُ التَّعبيرَ بصيغةِ الفعلِ المضارعِ ﴿تَكْفُرُونَ﴾ دُون صيغةِ الفعلِ الماضي (كَفَرْتُمْ) وهو مقتضى الظَّاهرِ إذْ قد وقع الكفر مِنْهُمْ؛ لِنُكْتَتَيْنِ:

الأولى: أنَّ الإنكارَ عَلَيْهِمْ هو في استمرارِهم على الكُفْرِ وإصرارِهم عليه وعدمِ ارْعِوَائِهم.

الثَّانية: كي لا يلحق التَّوبيخُ مَنْ وقع مِنْهُ كفرٌ مِمَّن آمَنَ بعد ذلك مِنَ الصَّحابة[3] رضي الله عنهم.

نكتةُ اختيارِ اسْمِ (ٱللَّهِ) دُونَ غَيْرِهِ مِنَ الأَسْمَاءِ الحسنى:

تـوريـثُ المهابةِ والفخامةِ ممَّا يزيدُ من تقبيحِ الكفرِ وأهلِه

عبَّرتِ الآيةُ بالاسم الأحسن ﴿ٱللَّهِ﴾ في قولِه تعالى: ﴿تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ﴾ دون غيره مِنْ أسمائه الحسنى؛ لأربعة أسباب:

الأوَّل: لِمَا يتضمَّنُهُ اسم (الله) مِنْ صفات الجلال والجمال والكمال.

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/87.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السَّليم: 1/76-77، والآلوسّي، روح المعاني: 1/214.
(3) الآلوسّي، روح المعاني: 1/215.

الثَّاني: لما يورِّثُه من الهيَبةِ في صدورِ السَّامعين.

الثَّالث: لاختصاصه سبحانه بهذا الاسمِ.

الرَّابع: لاشتماله على جميع الأسماء الحسنى؛ فيكون ذلك أبلغَ في توبيخهم على كفرهم؛ إذْ كفروا باللّه ﷻ الذي هذا شأنه، ومع ظُهور عظمَتِه[1].

دِقَّةُ البَيَانِ القرآنِيِّ في استعمَالِ الحرُوفِ:

استُعملَ في هذا السِّياقِ حرفُ الفاءِ وثمَّ، ولهذا الاستعمالِ بلاغةٌ عاليةٌ، إذِ الفاءُ أفادَتِ التَّعقيبَ؛ ذلك أنَّ ما قبل الإحياءِ الأوَّل غيرُ مشعورٍ به لدى المخاطبين، فهم فجأةً وجدوا أنفسَهم أحياءً، فالإحياءُ "حاصلٌ إثرَ كونِهم أمواتًا، وإنْ تَوَاردَ عَلَيْهِمْ في تلك الحالةِ أطوارٌ مترتّبةٌ، بعضُها مُتَرَاخٍ عَنْ بعضٍ"[2]، فبالنَّظر لشعورِ المخاطَب نجدُ أنَّ الإحياءَ سريعٌ؛ فحسُن الإتيانُ بالفاءِ دون ثمَّ.

وأمَّا استعمالُ حرفِ (ثُمَّ) الواردِ مع الأفعالِ الثَّلاثَةِ الباقيةِ؛ فهو دالٌّ على التَّراخِي، ووجهُه في الآيةِ أنَّ الإماتةَ متراخيةٌ عَنِ الإحياء وإن كانت مُتَّصلةً بِه، والإحياءُ الثَّاني متراخٍ عَنِ الإماتةِ وإن كان مُتَّصلًا بالموتِ، والرُّجوعُ إلى اللّه تعالى متراخٍ عَنِ الإحياءِ الثَّاني وإن كان مُتَّصلًا بالحياةِ الثّانيةِ[3].

سِرُّ المغايَرةِ بين صيغِ الأفعالِ:

وصفُ الواقعِ كما هو زيادةً في التعجُّبِ والتَّوبيخِ

غُويرَ بين فعل ﴿أَحْيَاكُمْ﴾ بصيغة الماضي، وبين الأفعالِ الثلاثةِ بعدَهُ فقد جاءَتْ بصيغةِ المضارعِ؛ ذلك أنَّ المخاطَبين حين خوطبوا قد وَقَعَ عليهم الإحياءُ، فهو أمرٌ واقعٌ، بخلاف ما بعده من الأحداثِ؛ فإنَّ الإماتةَ والإحياءَ والإرجاعَ جميعَها لم تقع بعد؛ ولهذا جيء بالفعل المضارعِ المُقترنِ بالحرفِ (ثمَّ)؛ ليُفيدَ الاستقبالَ؛ فهو وصفٌ للواقعِ كما هو، وسِرُّ ذلك الزِّيادةُ في التَّعجُّبِ من حالِهم، فيقع عليهم التَّوبيخُ في محلِّه ومحزِّه.

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 1/213.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السَّليم: 1/77.

(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السَّليم: 1/77.

فائدةُ القَصْرِ في قَوْلِهِ: ﴿إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾:

قُدِّم الجارُّ والمجرورُ في قولِه ﷻ: ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ على الفعلِ ليفيد القصرَ، وهو قصرُ صفةٍ على موصوفٍ؛ فليس ثَمَّ مَن يَرجع العبادُ إِلَيْهِ لِلحِسَاب والجزاء يومَ القيامة إِلَّا اللهُ تعالى، فهو قصرٌ حقيقيٌّ، وفائدةُ القَصْرِ: إلزامُ المُخاطَبين بمضمونِهَا؛ لأنَّهم كانوا يُنكرُونَ البعثَ، بما يقودُهم إلى اليأسِ من الانتفَاعِ بأصنامهم[1].

عَدَمُ نفعِ النَّاس ما عبدوه مِن دون اللهِ في الدّنيا، فالرُّجُوعُ إلى اللهِ وحدَه

تنزيلُ المُنْكِرِ منزلةَ غير المُنْكِر؛ فإنَّ التَّعجُّبَ يقترنُ في الغالبِ لما يُقرِّه المخاطَب:

أنكَرَ المشركون البعثَ، وشأنُ المُنكِرِ أن يُؤكَّدَ له الكلامُ الذي يُنكرُه، وفي قولِه سبحانه: ﴿ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ جملتان خبريَّتانِ خاليتان مِنَ المؤكِّدَاتِ، مع أنَّ المخاطَبِين - وهُمُ المشركون - يُنكرون البعث والحساب الأخرويَّ؛ وذلك تنزيلًا لهم منزلةَ غير المُنكِر؛ لظهور الأدلَّة والشَّواهد على ما أنكرُوهُ، وليقعَ التَّعجُّبُ والتَّوبيخُ موقعًا بليغًا، فلو جاءَت الجملتان مُؤكَّدَتَيْنِ؛ لما اتَّسقَ المعنى؛ فإنَّ التَّعجُّبَ يكونُ لأمرٍ يقرِّرُه المخاطَبُ ولا يُنكرُه.

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

أَمْوَاتٌ وَمَوْتَى وَمَيِّتُونَ:

ظاهر صنيعِ المُعْجَمَاتِ عَدَمُ التَّفريقِ بينَ هذه الألفاظِ من جهةِ المعنَى[2].

وحاصل ما فُرِّقَ بينَها مِن جهة اللُّغةِ:

أوَّلًا: أنَّ أمواتًا جمعُ مَيْتٍ بسكون الياء[3]، وأمَّا موتى وميِّتون؛ فجمعُ ميِّتٍ بالتَّشديد[4].

ثانيًا: أنَّ الموتَى جمعُ مَن يعقِلُ، والمَيِّتونَ: خاصٌّ بالذّكور مِنْهُم[5]، والأمواتُ أَعمُّ؛ فيشمل العقلاء وغيرَهُمْ، فتُرَتَّبُ هذه الألفاظ مِنَ الأعمِّ إلى الأخصِّ على هذا النَّحو: الأموات، ثُمَّ الموتى، ثُمَّ الميِّتُون.

---

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/377.

(2) الجوهريّ، الصِّحاح، والزَّمخشريّ، أساس البلاغة، والزَّبيديّ، تاج العروس: (موت).

(3) كـ (بَيْتٍ) و(أبياتٍ). ينظر: الفيُّوميّ، المصباح المنير: (موت).

(4) مُحَمّد محمّد داود، معجم الفروق الدّلاليّة في القرآن الكريم، ص: 496.

(5) الفيُّوميّ، المصباح المنير: (موت).

وإذا نَظَرْنَا إلى هذه الجمُوع مِنْ حيثُ مدلولُها في نفسِهَا في استعمالات القرآن الكريم؛ فنجد أنَّ استعمالاتِ (الأموات) - وهو جمعُ تكسيرٍ - في القرآنِ الكريم دالَّةٌ على مَنْ لَا تَحُلُّهُ الحياةُ، سواءٌ حلَّتْهُ وفارقَتْهُ الرُّوحُ بعدُ، أم لم تَحُلَّهُ الحياةُ أصلًا كالجمادِ، وقد ورد هذا الجمعُ في ستَّةِ مواضعَ مِنَ القرآن الكريم[1].

وأمَّا الموتى - وهو جمعُ تكسير أيضًا -؛ فهو في استعمالاتِ القرآن يدلُّ على مَن فَارَقَتْهُ الرُّوحُ حقيقةً[2].

وأمَّا الميِّتُون - وهو جمعُ مذكرٍ سالمٌ - فقد ورد في موضعين مَرْفُوعًا[3] وفي موضعٍ واحدٍ مجرورًا[4]، وكلُّهَا دالَّةٌ على مَن يموتُ في المستقبَلِ.

وهذا الفرقُ هو بالنَّظر إلى الجمُوعِ، أمَّا الفرق بينَ (مَيْتٍ) و(مَيِّت)؛ فيأتي بيانُهُ في محلِّهِ إن شاء اللّٰه تعالَى.

(1) وهي: الآية 28، و 154، مِنَ البقرة، والآية 169، مِنْ آل عمران، والآية 21، مِنَ النَّحل، والآية 22، مِنْ فاطر، والآية 26، مِنَ المرسلات.

(2) ورد هذا الجمع (المَوْتَى) في سبعة عشر موضعًا.

(3) في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ۝١٥﴾ [المؤمنون: 15]، وقوله سبحانه: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ۝٣٠﴾ [الزمر: 30].

(4) في قوله تعالى: ﴿أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ۝٥٨﴾ [الصافات: 58].

﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾﴾ [البقرة: 29]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لـمَّا ذكرَ اللّٰه تعالى أوَّلَ أمرِ الخلق ووسطَهُ وآخرَهُ على وَجْهٍ يُستدَلُّ به على امتناعِ الكُفْرِ به سبحانه؛ لظهور الأدلَّةِ والبراهين على وحدانيَّتِهِ؛ شرعَ في ذكرِ أنواعٍ من نعمه وإحسانِه على خلقه، وصدَّرهَا بذكر ابتداء الخلق وهو مِنْ أعظم الأدلَّة الدَّالَّة على وحدانيَّتِهِ، وساقَهُ مساقَ الإنعامِ على العبادِ؛ لِيكون داعيًا لَهُمْ إلى توحيدِهِ ﷻ مِنْ حيث دلالَتُهُ على عظمةِ الخالقِ وكمالِ قدرتِهِ، ودلالَتُهُ على إحسانِهِ إلى عبادِهِ، مع ما جُبِلَت عَلَيْهِ القلوبُ مِنْ حُبِّ مَن أحسنَ إِلَيْهَا[1].

ثُمَّ إنَّ المذكور في الآية قبلُ ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ﴾ هو ابتداءٌ بِسَرْدِ النِّعَمِ؛ فذَكَرَ النِّعَمَ التِي عمَّت جميعَ المكلَّفين؛ وهي نعمةُ الإحياء، ثُمَّ أعقبها في الآية بعدَهَا بنعمة خلقِ السَّماوات والأرض، وفي ذلك ترتيبٌ بديعٌ؛ فإنَّ الانتفاعَ بالسَّماوات والأرض لا يكون إلَّا بعد حصول الحياة[2]، فهو من قبيل تقديم الغايةِ على الوسيلة.

❁ شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

1) ﴿ٱسْتَوَىٰٓ﴾: لِفعل (اسْتَوَى) معانٍ متعدّدةٌ، ويُستعمل لازمًا، ومتعدّيًا بالحرف.

فمِنَ الأوَّل قولُهم: اسْتَوَى الشَّيءُ؛ إذا اعتدل، واستوى الرَّجلُ؛ إذا انتهى شبابُهُ[3]، ومِنْهُ قول اللّٰه تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ﴾ [القصص: 14].

ومِنَ الثَّاني قولهم: اسْتَوَى على الشَّيء؛ إذا علَا عَلَيْهِ وارتفع[4]، ومِنْهُ قول اللّٰه تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه: 5].

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 1/219-220.
(2) الرَّازيّ، التّفسير الكبير: 2/379.
(3) الجوهريّ، الصِّحاح: (سوا)، والزَّبيديّ، تاج العروس: (سوو).
(4) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة: (سوي).

2) ﴿فَسَوَّىٰهُنَّ﴾: سوَّى الشَّيءَ تسويةً؛ أي: جعله سويّا، ومِنْهُ قوله سبحانه: ﴿فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍۚ﴾[1]؛ أي: هيَّأهُنَّ وخلقَهُنَّ ودبَّرهنَّ وقوَّمَهُنَّ[2].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

اللّهُ ﷻ وحده الّذي خلق لأجلكم كلَّ ما في الأرض ممَّا يُنتفَعُ به، ثُمَّ استوى على العرش سبحانه استواءً يليق بجلاله وعظمته، فصيَّرها سبع سماوات، وعِلْمُه سبحانه محيطٌ بكلِّ شيءٍ لا تخفى عَلَيْهِ خافيةٌ[3].

❁ الإِيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

بلاغةُ الفصْلِ بين الجملِ:

التَّنوُّعُ في توجيهِ الفَصْلِ بَيْنَ الجُمَلِ بناءً على تعدُّدِ المعاني

للفصلِ بين الجملِ مقصدٌ بلاغيٌّ بديع، وقد جاء قولُه تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم﴾ مفصولًا عمَّا قبلَهُ؛ لكمال الاتِّصالِ بينهما، وذلك لأوجهٍ، وهي:

الأوَّل: كونُ الجملةِ تفسيرًا ودليلًا على الجملة قبلها وهي قولُ اللّه تعالى: ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾، فالدَّليلُ عَلَى رجوعِهم إلى اللّه تعالى أنَّه هو الذي خَلَقَ ما في الأرضِ جميعًا، ومَن قَدِرَ على خلق الجميعِ ابتداءً لا يَعْجِز عَنْ إعادتِهم ثانيًا[4].

الثَّاني: كونُ الجملةِ تأكيدًا لِلإِنْكَارِ المستفادِ مِنَ الاستفهام السَّابقِ في قولِه: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ﴾؛ فإنَّهما متَّحدانِ في القصدِ وإن تغايَر سَبْكُهُمَا إيماءً لِما بينهما مِنَ التَّفاوُتِ؛ إذْ ما يتعلَّق بذواتهم أقوى في الحثِّ على الإيمان والإقلاع عَنِ الكفر مِمَّا يتعلَّق بمعايشهم[5].

---

(1) الزَّبيديّ، تاج العروس: (سوو).

(2) ابن جرير، جامع البيان: 1/431.

(3) ابن جرير، جامع البيان: 1/418-424، والسّيوطيّ، تفسير الجلالين، ص: 8، والقاسميّ، محاسن التَّأويل: 1/282، ونخبة من أساتذة التّفسير، التّفسير الميسّر، ص: 5.

(4) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/89.

(5) أبو السّعود، إرشاد العقل السَّليم: 1/78.

الثَّالث: أن يكونَ قولُه: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم﴾ بمنزلةِ النَّتيجةِ لِما قبلهُ[1].

الرَّابع: التَّنبيهُ على الاِسْتِقْلَالِ بالإفادة؛ إِذْ لو عُطِفَ لَتُوُهِّم أَنَّ الدَّليل هو مجموع الأمرين، ولكن بترك العطفِ عُلِمَ أَنَّ كلّا مِنْهُمَا دليلٌ مستقلٌّ برأسِهِ[2].

فائدةُ القَصْرِ الحَقِيقِيِّ:

تَنْزِيلُ المُشْرِكِينَ مَنْزِلَةَ الجُهَّالِ؛ لِعَدَمِ جَرَيَانِهِمْ وَفْقَ مَا يَقْتَضِيهِ عِلْمُهُمْ

لا يُنكرُ الجاهليُّون أنَّ اللّه تعالى هو خالقُ السَّماواتِ والأرض، لكنَّهم خُوطِبُوا بأسلوبِ القَصْرِ تنزيلًا لَهُمْ منزلةَ الجُهَّالِ؛ "لأنَّهم في كُفْرِهم وانصرافِهم عَنْ شُكْرِه والنَّظرِ في دعوته وعبادته كحال مَنْ يجهل أَنَّ اللّه خالقُ جميع الموجودات"[3]، والقَصْرُ في قولِه سبحانه: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم﴾ قصرُ صفةٍ على موصوفٍ قصرًا حقيقيّا.

ذِكْرُ (لَكُم) أفادَ الإيجازَ، وتَقْدِيمُه أفادَ التَّشْوِيقَ وَتَعْجِيلَ المَسَرَّةِ

لذكرِ الجارِّ والمجرورِ ﴿لَكُم﴾ وتقديمِه فائدةٌ عظيمةٌ، أمَّا ذكرُه فهو: "التَّذكير بأَنَّ اللّه هو خالقُ الأرض وما عَلَيْهَا وما في داخِلِها، وأَنَّ ذلك كُلَّه خَلَقَه بقَدْرِ انتفاعِنا بِهَا وبما فِيهَا، في مُخْتَلِف الأزمان والأحوال، فأوجَزَ الكلامَ إيجازًا بديعًا بإقحام قوله: ﴿لَكُم﴾ فأَغْنَى عَن جُملة كاملةٍ"[4].

وأمَّا تقديمهُ على المفعول، إذِ الظَّاهر: (خلق مَا في الأرض جميعًا لكم)؛ فلقصد تعجيل المسَرَّة ببَيان أنَّه نافع لِلْمُخَاطبين، ولِلتَّشْوِيق إِلَيْهِ[5].

فائدةُ التَّرقي الرُّتبيّ:

الانتقالُ مِنَ الاستدلالِ بخلْقِ الأرضِ إلى الاستدلالِ بِمَا هو أعظمُ مِنْ ذلك في قولِه سبحانه: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ

الانتقالُ مِنَ الأَدْنَى إِلَى الأَعْلَى، للتَّنبيهِ بالمعلومِ عَلَى المجهولِ من قُدْرَةِ اللهِ تَعَالَى

(1) الآلوسّي، روح المعاني: 1/217.
(2) الآلوسّي، روح المعاني: 1/217.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتّنوير: 1/379.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتّنوير: 1/379.
(5) أبو السّعود، إرشاد العقل السَّليم: 1/78.

سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ﴾، ترقٍّ رُتبيّ، فإنَّ العطفَ بـ "ثُمَّ" يُشيرُ إلى أنَّ المعطوفَ بها أعرَقُ في المعنى، "حتَّى كأنَّ العقل يتمهَّل في الوصول إلَيْهِ بعد الكلام الأوَّل فيَنْتَبِهُ السَّامع لذلك؛ كَيْ لا يغفل عَنْهُ بمَا سمِع مِنَ الكلام السَّابق"[1]، وهو يُنبئ عن عظيمِ قدرةِ الله تعالى في خلقه[2]؛ فإنَّ التَّرقي في درجاتِ الخَلْقِ دليلٌ على عظيمِ قدرةِ الخالقِ سبحانه وجهلِ المخاطَبِ بذلك؛ فكان التَّرقي تنبيهًا على المجهولِ بالمعلوم.

تَضْمِينُ الفِعْلِ ﴿ٱسۡتَوَىٰٓ﴾ مَعْنَى (قَصَدَ) مَعَ بَقَاءِ دلالة العُلُوِّ فِيهِ:

ويَحتمل أن يكون في قولِه ﷻ: ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ إيجَازٌ بِالتَّضمين، والمعنى: ثُمَّ عَلَا على السَّماء وقصدَ إليهَا، فحُذفَ الفعلُ (قَصَدَ)، وجُعِلَ حرفُ الجرِّ (إِلَى) دليلًا عَلَيْهِ.

فَلَا يكون بهذا التَّخريج قد نَفَيْنَا الدّلالة المنقولة عنِ السَّلف في معنى (ٱسۡتَوَىٰٓ) وهي: علَا، ولم نَعْدِلِ بدلالة (إِلَى) عَن غيرِ معناها، وقد أشار إِلَى التَّضمين ابنُ كثيرٍ؛ فقد قال: "والاستواءُ هاهنا تضمَّن معنى القصد والإقبال؛ لأنَّه عُدِّي بـ ﴿إِلَى﴾"[3].

معنى اللَّام في كلمة: ﴿ٱلسَّمَآءِ﴾:

حرفُ اللَّامِ في ﴿ٱلسَّمَآءِ﴾ يُراد به الجنسُ؛ فهو في المعنى جَمْعٌ وإن كان لفظُهُ لفظَ المفرد، والدَّليل على إرادةِ الجنسِ قوله بعدُ: ﴿فَسَوَّىٰهُنَّ﴾؛ فأرجع الضَّميرَ عَلَيْهَا بالجمع[4]، وهذا معنى قولِ الزَّجَّاج: "والسَّماءُ لفظُها لفظُ الواحد، ومعناها معنى الجَمْعِ"[5].

بلاغةُ الفاصلةِ:

في قولِه تعالى: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾ تذييلٌ لِما قبلَهُ[6]؛ فإنَّ ما سبقَ لا يَصْدُرُ إلَّا عن عليم؛ ففيه تعريضٌ بإنكَارِ كُفْرِ مَن كفَرَ؛ لكون العليمِ بكلِّ شيءٍ مِمَّا يقبُحُ الكفرُ به[7]، وقد أُكِّدَ ذلك من أوجهٍ ثلاثةٍ[8]:

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/382.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتّنوير: 1/382.
(3) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 1/213.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/385.
(5) الزَّجَّاج، معاني القرآن وإعرابه: 1/107.
(6) أبو السّعود، إرشاد العقل السَّليم: 1/78-79.
(7) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/386.
(8) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 1/191-192.

أحدها: اسميَّةُ الجملةِ الدَّالَّةُ على دوام العلمِ وثباتِه.

ثانيها: ذكرُ الإحاطة التَّامَّةِ؛ وذلك في قولِه: ﴿بِكُلِّ شَيْءٍ﴾؛ فإنَّ (كُلّ) من ألفاظ العموم، وإضافتها إلى شيءٍ أفاد استقصاءً شاملًا لكلِّ ما يَصِحُّ أن يُطلَقُ عليه لفظُ شيءٍ.

ثالثُها: ختمُ الجملة باسمِ العليم؛ وهو على زِنَةٍ مِن أوزانِ المبالغَةِ، فيه مبالغةٌ من جهة الصيغةِ.

فاجتمع في الفاصلةِ بلاغةٌ عاليةٌ من جهةِ التَّركيب، واللفظِ، والصِّيغة، والسِّياق، وهذا من بليغِ الفاصلة في القرآن الكريمِ، إذ أكَّدت بمجموعها المعنى الكامنَ الظاهر في الآيةِ.

اجتمَعَ في الفاصلةِ بلاغةٌ عاليةٌ من جهةِ التَّركيب، واللَّفظِ، والصِّيغة، والسِّياق

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ٣٠﴾ [البقرة: 30]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

تُمثِّلُ هذه الآيةُ بدايةَ مقطعٍ جديدٍ، يتناسبُ مع المقطعِ السَّابق المبدوءِ بخطابِ النَّاسِ جميعًا، والمختَتَم بذكرِ خلقِ الأرضِ والسَّماوات، ليكون هذا المقطعُ محدِّدًا الغايةَ التي خلقَ اللّه السَّماوات والأرضَ والنَّاسَ لها، فيكون ما تقدَّم بمثابة التوطئةِ والتَّمهيد لما سيتعيَّنُ ذكرُه في هذا المقطعِ، وليكون ما بعدَه من المقاطعِ الواردةِ إلى نهايةِ السورةِ بمثابةِ استكمالِ أركانِ الخلافةِ التي أرادَها اللّه في آدمَ وذريَّتِه، وبه يكونُ هذا المقطَعُ محوريًّا في السُّورةِ كلِّها.

وفي ذلك قال أبو حيّان الغرناطي: "مُناسَبَتُها لما قَبْلَها: أنَّهُ لَمّا امْتَنَّ عَلَيْهِمْ بِخَلْقِ ما في الأرْضِ لَهم، وكانَ قَبْلَهُ إخْراجُهم مِنَ العَدَمِ إلى الوُجُودِ، أتْبَعَ ذَلِكَ بِبَدْءِ خَلْقِهِمْ، وامْتَنَّ عَلَيْهِمْ بِتَشْرِيفِ أبِيهِمْ وتَكْرِيمِهِ وجَعْلِهِ خَلِيفَةً وإسْكانِهِ دارَ كَرامَتِهِ، وإسْجادِ المَلائِكَةِ تَعْظِيمًا لِشَأْنِهِ وتَنْبِيهًا عَلى مَكانِهِ واخْتِصاصِهِ بِالعِلْمِ الَّذِي بِهِ كَمالُ الذّاتِ وتَمامُ الصِّفاتِ، ولا شَكَّ أنَّ الإحْسانَ إلى الأصْلِ إحْسانٌ إلى الفَرْعِ، وشَرَفُ الفَرْعِ بِشَرَفِ الأصْلِ"[1].

شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

1) ﴿لِلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾: الهمزةُ واللَّامُ والكافُ تَدُورُ اشْتِقَاقَاتُهَا على تحمُّلِ الرِّسالة[2]، ومِنْ ذلكَ: الأَلُوكَةُ وَالمَأْلُكَة؛ وهي الرِّسالة[3].

والملائِكَةُ: عالَمٌ غَيْبِيٌّ، خلقَهُمُ اللّهُ سبحانه مِن نُور، وجعلَهم طائعين لَهُ لَا يعصُون

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 1/378-379.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (ألك).
(3) ابن الأثير، النِّهاية: (ألك).

أمرَه[1]، وسُمُّوا ملائكةً؛ لأنَّهم يُبلِّغُونَ أَلائِكَ اللّه تعالى ورسائلَه إلى مَنْ يشَاءُ مِن عبَادِهِ[2]، كما قال اللّه تعالَى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا﴾ [فاطر: 1].

2) ﴿خَلِيفَةً﴾: الخاء واللَّام والفاء تدلُّ تصَاريفُها على معانٍ، مِنْهَا: أَنْ يجيءَ شيءٌ بعد شيءٍ يقومُ مقامَهُ[3]، ومِنْهُ الخَليفةُ؛ وهو: مَنِ اسْتُخْلِف مكانَ مَن كان قبلَه وقامَ مَقَامَهُ[4].

وأمَّا قولُ اللّه تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾؛ فَفِيهِ وَجْهَان[5]:

أحدهما: أنَّ المرادَ آدمُ عليه السلام.

والآخَر: أنَّ المرادَ ولدُ آدمَ، بدَلِيلِ قولِ اللّهِ تعَالَى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ﴾ [الأنعام: 165].

فأمَّا على الوجه الثَّاني؛ فإنَّ معنى الخليفةِ: قومٌ يخلُفُ بعضُهم بعضًا.

وأمَّا على الوجه الأوَّلِ؛ فالمعنى: أنَّه خلَفَ مَنْ سَبَقَهُ في الأرضِ، أو أنَّه خليفةُ اللّهِ تعالى في إقامة الشَّرعِ[6].

3) ﴿وَيَسْفِكُ﴾: السِّينُ والفاءُ والكَافُ تدلُّ على الإِسَالَة، يقال: سفكَ دمَهُ؛ إذا أسالَهُ وصبَّهُ[7]، والسَّفْكُ يُستعمَلُ لكلِّ مائعٍ، إلَّا أنَّه بالدَّم أخصُّ[8].

ومِنْهُ قولُ اللّه تعالى: ﴿وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾ أي يَصُبُّها بِقَتْلِ أَصْحَابِها[9].

4) ﴿نُسَبِّحُ﴾: التَّسبيحُ: التَّنزيه، وتسبيح اللّه تعالى: تنزيهُهُ مِنْ كلِّ سوء[10]، ويُطلَق التَّسبيح على الصَّلاةِ[11].

---

(1) ابن عثيمين، شرح العقيدة الواسطيَّة: 1/59.
(2) قولنا: (مِنْ عباده) أعمُّ وأدقُّ مما قاله الأنباريّ: (أنبيائِه). ينظر: ابن جرير، جامع البيان: 20/434، والأنباريّ، الزَّاهر: 2/254.
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (خلف).
(4) الخليل، العين: (خلف).
(5) أبو البقاء الكفويّ، الكلّيَّات، ص: 427.
(6) ابن الجوزيّ، زاد المسير: 1/50، ويُنظر لِلْفَائدة: فتاوى اللَّجنة الدَّائمة: 1/72.
(7) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سفك).
(8) الزَّبيديّ، تاج العروس: (سفك).
(9) السّمين، عمدة الحفَّاظ: (سفك).
(10) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سبح).
(11) الأنباريّ، الزَّاهر: 1/50.

وخُرِّج التَّسبيح في قولِ اللّه تعالى حكايةً عنِ المَلائكةِ: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ﴾ علَى المَعْنَيَيْنِ المذكُورَين:

الأوَّل: نَحْمَدُكَ ونصلِّي لك[1].

والآخر: نُنَزِّهُك مِنَ السُّوء تعظيمًا لك[2].

5) ﴿وَنُقَدِّسُ﴾: القاف والدَّال والسِّين تدلُّ اشتقاقاتُها على الطُّهْرِ[3]، والتَّقديس: التَّطهير[4]، ومِنْهُ: الأرض المقدَّسة؛ أي: المطهَّرة[5]، ومِنْهُ اسمُ اللّه القُدُّوس؛ ومعناه: المُعَظَّم المنزَّه عن كلِّ سُوء، السَّالِمُ مِنْ مُماثلة أحدٍ مِن خلقِه ومِنَ النُّقصان ومِن كلِّ ما ينافِي كمالَهُ[6].

وقولُه تعالَى حكايةً عَنِ الملائكةِ: ﴿وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ أي: نطهِّر أنفسَنا لَكَ[7]، أو ننزِّهُك عمَّا لا يليقُ بك[8].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

تناولتِ الآيةُ أوَّل حوارٍ ذُكِرَ في القرآنِ الكريمِ، وهو قولُ اللّه سبحانه لِلْمَلَائكة: إنِّي جاعلٌ في الأرض خليفةً لِيَعمُرَها ويخلُف بعضُهم بعضًا، فسألتِ الملائكةُ ربَّها ﷻ سؤالَ استرشادٍ واستكشافٍ وتعجُّبٍ: ما الحكمةُ مِن جعلِهم خلفاءَ وطَبْعُهم الإفسادُ وإراقةُ الدِّماء، والحالُ أنَّنا نُنَزِّهك عمَّا لا يليق بكَ تنزيهًا مقرونًا بذكر صفات الكمال، ونعظِّمُكَ ونُطهِّر أنفسنا لك ونطهِّرها مِنْ طَبْعِ أولئكَ؟ فأخبرهم ربُّ العزَّة والجلال: إنِّي أعلَم مِنَ المصالحِ الرَّاجحة والحِكم الباهرة في خلقِهم واستخلافِهم ما لا تعلمونَه[9].

(1) أبو عُبيدة، مجاز القرآن: 1/36.
(2) الماورديّ، النُّكَت والعيون: 1/96-98.
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (قدس).
(4) الجوهريّ، الصِّحاح: (قدس).
(5) الفيّوميّ، المصباح المنير: (قدس).
(6) سعيد القطحانيّ، الثَّمر المُجْتَنَى، ص: 68.
(7) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (قدس).
(8) الواحديّ، التفسير البسيط: 2/331.
(9) ابن الجوزيّ، زاد المسير: 1/51، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 1/216، والسعدي، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 48، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/395-407، ونخبة من أساتذة التّفسير، التّفسير الميسّر، ص: 6.

الإيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

بلاغةُ الإيجَازِ بِالحَذْفِ:

التَّرَقِّي مِنَ الأَدْنَى إِلَى الأَعْلَى أَوِ العَكْسُ بِالتَّذْكِيرِ بِالأَدِلَّةِ الأَنْفُسِيَّةِ والآفاقيَّةِ

(إِذْ) ظرفُ زمانٍ مبنيٌّ على السكون متعلِّق بفعلٍ محذُوفٍ تقديرُه: (اذكُرْ)[1]، وعليه ففي الآية إيجازٌ بالحذفِ؛ فقد حُذف الفعلُ وفاعلُهُ وهو (اذْكُرْ)، وتقديرُ هذا الفعل يستلزِمُ تذكِيرًا متجدِّدًا، فيكون قولُه سبحانه: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: 29] متعلِّقًا بأدلَّة الآفاق، وقوله: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ﴾ متعلِّقًا بأدلة الأنفس على سبيلِ التَّرقِّي[2]، كما في قوله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ [فصلت: 53].

ويُمْكِن أن يُنظر إِلَيْهَا باعتبارها نِعْمَةً؛ فيكون فيه تَرَقٍّ مِنَ الأدنى إلى الأعلى؛ إذ إنَّ "نعمةَ خَلْقِ الأنفس وتشريفها بالخلافَةِ وتكريمها بسجود الملائكة أعظَمُ مِن خَلْقِ ما في الأرض لَهُمْ جميعا"[3].

وقد قال أبو عبيدة بأنَّ (إِذْ) زائدةٌ[4]، وتَبِعَه ابنُ قُتَيْبَة[5]، واستدركَ عَلَيْهِ هذهِ المقالةَ جماعةٌ مِن أهل العلم، مِنْهُمُ ابنُ جرير رحمه الله، فقالَ: "غيرُ جائزٍ إبطالُ حرفٍ كان دليلًا على معنًى في الكلام"[6]، وهذا هو المهْيَعُ الحقُّ في المسألةِ، إذ لا زوائدَ في القرآن الكريم؛ فلكلِّ لفظٍ فائدتُه ومعناه الذي لأجلِه كان النَّظمُ على ما هو عليه.

نُكْتَةُ وَضْعِ المُظْهَرِ مَوْضِعَ المُضْمَرِ:

تَمْكِينُ المَعَانِي فِي ذِهْنِ السَّامِعِ فِي المَقَامَاتِ الشَّرِيفَةِ

في قولِه سبحانه: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ﴾ وضعُ المظهَرِ موضعَ المضمَرِ؛ فإنَّ مقتضى الظَّاهر أَنْ يُقالَ: وإذ قال لِلْمَلَائكةِ، وذلك لِتَقَدُّمِ ذِكرِهِ

(1) وفي إعرابها بغير هذا خلافٌ، يُنظر: الدر المصون، السمين: 1/248، والآلوسّي، روح المعاني: 1/220، وأحمد الدعَّاس وآخران، إعراب القرآن: 1/19.

(2) التَّرَقِّي: أن يُذكرَ المعنى ثُمَّ يُزْدَفَ بما هو أبلغُ مِنْهُ، ينظر: السُّيوطيّ، شرح عقود الجمان، ص: 135.

(3) الطِّيبيّ، فتوح الغيب: 2/424.

(4) أبو عبيدة، مجاز القرآن: 1/37، وفي تفسير الرّاغب: 1/138، نسبةُ هذا القول لأبي عُبيدٍ؛ وهو القاسم بن سلَّامٍ، والظَّاهر أنَّ هذا خطأٌ مِنَ النَّاسخ أو تصحيف مِنَ الطَّابعِ، والصَّواب: أبو عبيدة.

(5) ابن قتيبة، تأويل مشكل القرآن، ص: 158، وغريب القرآن، ص: 45.

(6) ابن جرير، جامع البيان: 1/440.

قبلُ، والنُّكْتَةُ فيه: تمكينُ المسنَدِ إِلَيْهِ في ذهن السَّامعِ؛ لاقتضاءِ المقامِ العنايةَ بشأنِه؛ فإنَّه وَإِنْ صحَّ أن يَنُوبَ عَنْهُ الضَّمير -على الأصلِ-، إِلَّا أنَّ الضَّمير لا يُغْنِي عَنِ الاسم الظَّاهر؛ لِمَا يتضمَّنُهُ الاسمُ الظَّاهر مِن معنًى له وقعٌ عِنْدَ المتلقِّي، وهُو هُنَا اسمُ اللهِ (الرَّبِّ)[1].

سِرُّ اخْتِيَارِ اسْمِ الله (الرَّبِّ):

التَّناسبُ السِّياقيُّ في اختيارِ الاسمِ الأنسبِ للمعاني

اختيارُ الألفاظِ القرآنيَّةِ قائمٌ على التَّناسبِ السِّياقي، ولمَّا ذكر السِّياقُ أمرَ الخلْقِ وما يحتاجُه بعد ذلك من التَّدبيرِ واللُّطفِ والصَّلاحِ، كان الأنسبُ أن يذكرَ الرُّبوبيَّة؛ "ففي ذلك الجَعْلِ نعمةُ تَدْبيرٍ مشوبٍ بلُطْفٍ وصلاحٍ، وذلكَ مِن معاني الرُّبوبيَّة"[2].

إِضَافَةُ اسْمِ الرَّبِّ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ تشريفٌ بكَوْنِهِ أعظمَ خلفاءِ بَنِي آدمَ

واجتمعَ في قولِه تعالَى: ﴿رَبُّكَ﴾ اسمُ الرَّبِّ مضافًا إلى كافِ الخطابِ المقصودِ بها سيِّدُ الخلْقِ ﷺ، وبهما يصلحُ أمرُ الدُّنيا؛ الرُّبوبيَّةُ التي بها تربيةُ الخَلْقِ، والرَّسولُ الذي هو وسيلةُ تربيةِ الخَلْقِ، وفي ذلك تشريفٌ لرسولِ الله ﷺ، أن يكونَ مُربِّيًا للخَلْقِ جميعًا، وهذا ما يقتضيه المقامُ؛ إذْ إِنَّ الآية في ذِكْرِ خلقِ آدمَ عليه السلام واستخلافِه وبَنِيه في الأرض؛ فناسب أَنْ تُذكر الرُّبوبيَّةُ مضافةً إلى أعظَمِ خلفائِه[3]، وهي رِفعةٌ وإكرامٌ له إذ تقدَّمَ ذكرُه على ذكرِ آدم عليه السلام، ويُشعِرُ النَّظمُ بإنزالِ النَّبيِّ ﷺ منزلةً خاصةً يُحيطُ بها التَّحبُّبُ بأن وجَّه له الخطابَ بخصوصِه.

الِالتِفَاتُ مِنَ الجَمْعِ إِلَى المُفْرَدِ لبيانِ أنَّ الغَيْبَ لا تهتدي إليه العُقُولُ:

تناسُب الخِطاب القرآنيّ مع الحديث عن الغيب والشّهادة

غُويرَ الخطابُ في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ﴾ عمَّا قبلَهُ؛ إذِ الخطابُ كان موجَّهًا بطريقِ الجَمْعِ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم﴾، ثُمَّ صارَ الخطابُ لواحدٍ -وهو ضربٌ من ضروبِ الِالتِفاتِ في العَدَدِ[4]-،

(1) حسن الجناجي، البلاغة الصَّافية، ص: 131.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/401.
(3) الخفاجيّ، عناية القاضي: 2/129.
(4) عبده قلقيلة، البلاغة الاصطلاحيَّة، ص: 322-321.

ونُكْتَةُ تغيير الخطاب بتوجيهه إلى النَّبيِّ ﷺ هو الإيماءُ إلى أنَّ مضمون الكلام ليس مِمَّا تهتدي إِلَيْهِ العقولُ، بل طريقُهُ الوحيُ، بخلاف ما سبقَ؛ فإنَّه مِنَ الأمورِ المشاهدَةِ العامَّةِ[1].

معنى اللَّامِ فِي كلمةِ ﴿لِلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾:

خِطَابُ اللهِ تعالى لِجَمِيعِ المَلَائِكَةِ هو الأنسبُ بالمقامِ والأوفقُ بالسِّياقِ

اختُلِفَ في مَعنَى اللَّام في لَفْظِ ﴿لِلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ على أَوْجُهٍ ثلاثَةٍ[2]:

الأوَّل: استغراقُ جميعِ أفرادِ الجِنْسِ؛ فتكون اللَّامُ لِلاستغراقِ الحقيقيِّ.

الثَّاني: لامُ الجِنْسِ، وَالمرادُ: أَنَّهُمْ جنسٌ خاصٌّ مِنَ الملائكةِ.

الثَّالث: لامُ العَهْدِ؛ فيكون المقصودُ ملائكةً معروفين؛ لتقدُّمِ ذِكْرِ الملائكَةِ في الكتب السَّابقَةِ.

والوجهُ الأوَّلُ أَظْهَرُ الوجوه، وأولاها بالقبولِ؛ لعموم اللَّفظ وخلوِّ المقام من الدَّليل المُخَصِّص، وهو يشملُ الوجه الثَّاني، ولا ينافي الثَّالثَ؛ إذْ يجوزُ أن يكونَ اللفظُ المحلَّى باللَّامِ معهودًا عمومُهُ، وهو الأوفقُ بالسِّياقِ.

بلاغةُ تَقْدِيمِ الجَارِّ وَالمَجْرُورِ المُطَّرد:

إظهارُ أهميَّةِ الخِطَابِ بتقديمِ المُخاطَبِ عنايةً، وتأخيرِ القولِ تشويقًا

جرى أُسلُوبُ القرآنِ على العنايةِ بإبرازِ المعاني من خلالِ تنبيهاتِ النَّظمِ وإشاراته؛ فقُدِّم الجارُّ والمجرور ﴿لِلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾؛ للتَّنبيهِ على أهميَّة الخطابِ بتقديمِ من وُجِّه له الخِطابُ؛ فتكون العنايةُ به أشدَّ، وللتَّشويقِ إِلَى القولِ المؤخَّرِ[3]؛ فإنَّ معرفةَ أهميَّةِ الخطابِ لها ركنان، تقديمُ المخاطَبِ، وتأخيرُ القولِ، إظهارًا لأهميَّةِ المخاطَبِ بتقديمِه، وتشويقًا لمعرفةِ مضمونِ الخطابِ بتأخيرِه.

اختيارُ اسمِ الفَاعِلِ لتوكيدِ الوقوعِ حتمًا:

اختير اسْمُ الفاعلِ دون الفعل المضارِعِ في قولِه تعالى:

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السَّليم: 1/79.
(2) الجرجانيّ، درج الدّرر: 1/137، والبيضاوي، أنوار التَّنزيل: 1/67.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السَّليم: 1/80.

﴿جَاعِلٌ﴾، ولم يقُل: (سأجعل)، واسمُ الفاعلِ دالٌّ على المستقبَلِ بدليل نصبِهِ ﴿خَلِيفَةً﴾، وهو لا يعمل هذا العمَلَ إلَّا إذا دلَّ على الحالِ أَوِ الاستقبالِ[1]، ودِلالتُهُ على الحالِ هَهُنا مُنْتَفِيَةٌ، فلم يبقَ إلَّا الاستقبال، ونكتةُ التَّعبيرِ به لِمَا في اسم الفاعِلِ مِنَ الدّلالة على تحقُّقِ فِعْلِهِ المذكور وأنَّه كائنٌ بلا شكٍّ[2]، وهو دليلُ العظَمَةِ والتَّمكُّنِ في الخطابِ، ويؤيِّدُهُ لزومُ (إنَّ) في مِثْلِ هذا؛ وهي دالَّةٌ على تقوية الكلام وتوكيدِهِ[3].

تَقْديمُ الجَارِّ والمَجْرُورِ ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾ على ﴿خَلِيفَةً﴾:

أهميَّة الأرضِ لدى الملائكةِ وتشويقهم لسماعِ الخَبرِ

قُدِّم الجارُّ والمجرورُ ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾ على ﴿خَلِيفَةً﴾؛ لبيانِ أهميَّةِ الأرضِ لدى الملائكَةِ؛ فَهُمُ الذين شاهدوا خلقَها، وطلبوا -كما سيأتي في تضاعيفِ الكلامِ- الحياةَ فيها؛ فكان للتَّقديم شأنٌ عظيمٌ لديهم، وهو ما يُبرزُ عنصرَ التَّشويقِ لمعرفةِ ما المجعولُ فيها؟ وما الكائنُ فيها؟ وهو الذي يُؤكِّدُ نكتةَ اختيارِ اسم الفاعلِ، فوقعتْ كلمةُ ﴿خَلِيفَةً﴾ قويَّةً في أسماعِهم، وهو ما يجعلُ المخاطَبين بالقرآنِ يحرصون على الأرضِ التي يسكنونها من الفسادِ والمفسدين.

بَلَاغَةُ الِاسْتِعَارَةِ فِي لَفْظِ ﴿خَلِيفَةً﴾:

مدْحُ القائِمِ بأمرِ الله تعالى على أتمِّ وجْهٍ؛ لقيامِه بالمطلوبِ على التَّمامِ والكمالِ

تتحدَّدُ الاستعارةُ بتعيينِ المقصُودِ بالألفاظِ، فإذا حملنا لفظَ (الخليفة) في الآيةِ القرآنيَّةِ على معنى أنَّه خليفةُ اللّه تعالى في إقامة الشَّرْعِ؛ فإنَّ هذا اللَّفظَ مستعمَلٌ استعمالًا مجازيًّا؛ إذْ حقيقةُ الخليفةِ: مَنِ اسْتُخْلِفَ مَكانَ مَن قبلَهُ وقامَ مَقامَه، واللّهُ ﷻ لَمْ يكُن حالًّا في الأرضِ ولا عاملًا فِيهَا العملَ الذي أمر بهِ العبَادَ[4].

(1) ابن مالك، شرح تسهيل الفوائد: 3/73.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السَّليم: 1/80.
(3) أبو حيَّان، البحر المحيط: 1/225.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/401.

فيكونُ لفظُ ﴿خَلِيفَةً﴾ مجازًا بالاسْتِعَارةِ؛ فشُبِّه مَن يعملُ عملًا يريدُهُ المستخلِفُ بِمَن استُخلِفَ مكانَ مَنْ قبلَهُ وقام مقامَهُ؛ بجامعِ أنَّ كِلَيْهِمَا مُوَكَّلٌ بعملٍ يَعْمَلُهُ، على طريقة الاستعارةِ التَّصريحيَّةِ، وَالعدُولُ إِلَى الاستعارةِ أَدْخَلُ في مَدْحِ من قامَ بالخلافةِ على الوجهِ المطلُوبِ؛ لأنَّه يُحقِّقُ المُرادَ كما يطلُبُه المستخلِفُ، وهذا غاية في النَّفاسَةِ.

تناسُقُ الفَصْلِ بين الجملِ:

إظهارُ ما يجولُ في كامنِ نفوسِ الملائكةِ

للفصْلِ بين الجملِ بلاغةٌ عاليةٌ، لاسيَّما في المحاوراتِ والمقاولاتِ القرآنيَّةِ، وقد فُصِلَتْ جملةُ ﴿قَالُوٓاْ أَتَجۡعَلُ فِيهَا﴾ عن التي قبلها؛ لشبه كمال الاتِّصال؛ فإنَّ لسائلٍ أن يسألَ بعد هذا التَّشويقِ بتقديم الجارِّ والمجرُورِ: فماذا قالتِ الملائكةُ؟ فجاء الجوابُ سريعًا: ﴿قَالُوٓاْ أَتَجۡعَلُ فِيهَا﴾، وهو ما يقضي به حقُّ البلاغةِ ويقصُّه لسانُ الفصاحةِ، ومضمونُ ما قالوه يُؤكِّدُ إنشاءَ سؤالٍ في نفسِ المتلقِّي المتجاوب.

فائدةُ الإخبارِ عن تعجُّبِ الملائكةِ:

الاحتياطُ عنِ الوقوعِ في الإفسادِ وسفكِ الدِّماءِ

دلَّتْ همزةُ الاستفهام في قولِه: ﴿قَالُوٓاْ أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾ على التَّعجُّبِ[1] واستِبْعادِ تعلُّقِ الحكمةِ بذلك[2]، وهذا يُبيِّنُ أنَّ اللهَ ﷻ أباحَ لهم مثلَ هذا السُّؤالِ، وأنَّه ممَّا يجوزُ في حقِّهم، وأنَّهم ما سألوه إلّا وهم يعلمونَ أنَّه في دائرةِ الرِّضا الرَّبانيّ، وفائدةُ الإخبارِ عن تعجُّبِهم: أن نحتاطَ عنِ الوقوعِ بمثلِ ما وصفتِ الملائكةُ من الإفسادِ وسفكِ الدِّماء.

---

(1) للرَّازي تخريجٌ لمعنى التَّعجب على وجهٍ آخرَ، فقال في التّفسير الكبير: 2/391: «إنَّ الإنسان إذا كان قاطعًا بحكمةِ غيرِهِ، ثُمَّ رأى أنَّ ذلك الغيرَ يفعَلُ فِعْلًا لا يقفُ على وجه الحكمة فيهِ، فيقول لَهُ: أتفعل هذا! كأنَّه يتعجَّب مِن كَمَال حكمتِه وعلمه، ويقولُ: إعطاءُ هذه النِّعم لمن يُفسد مِنَ الأمور التي لا تَهتدي العقولُ فِيهَا إلى وجه الحكمة، فإذا كُنْتَ تفعلُها - وأَعْلَمُ أنَّك لا تفعلها إلَّا لوجه دقيق وسِرٍّ غامضٍ أنت مطَّلع عليهِ - فَمَا أعظمَ حكمتَك وأجلَّ علمَكَ، فالحاصلُ أنَّ قوله: ﴿أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا﴾ كأنَّه تعجُّبٌ مِن كمال علم الله تعالى وإحاطة حكمتِه بما خَفِيَ على كُلِّ العقلاء».

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/402.

نكتةُ تَكْرَارِ الجَارِّ وَالمَجْرُورِ ﴿فِيهَا﴾:

تحفيزُ النَّاسِ للحفاظِ على الأرضِ ببيانِ حرصِ الملائكةِ عليها

أُعيدَ ذِكْرُ الجارِّ والمجرورِ ﴿فِيهَا﴾ في قولِه تعالَى: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا﴾ مرَّتين؛ لأهميَّةِ الأرضِ لدى الملائكةِ؛ فكأنَّهم يقولون: أتجعلُ في هذه الأرضِ التي صفاتُها كَيْتَ وكَيْت من يُفسدُ فيها؛ لجهلِه بحقيقتها؛ فيُذْهِبُ جمالَها، ويُضيِّعُ بهجتها؟ وفائدةُ هذه النكتةِ: أن يُدرِكَ النَّاسُ ما تحويه هذه الأرضُ من زُخرفٍ وجمالٍ؛ فيُحسنوا بعد استخلافِهم، لا أن يُفسِدُوا فيها، فتعليمُ النَّاسِ حِرصَ الملائِكةِ وخَوْفَهم على الأرضِ من شأنه همزُهم وتنشيطُهم للحفاظِ عليها.

فائِدةُ الاكتفاءِ:

العنايةُ بالسببِ مقدَّمٌ على العنايةِ بنتيجته

لم يُذكر الجارُّ والمجرور مع سَفْكِ الدِّماء، فلم يقُل: (ويسفك فيها الدِّماء)؛ لسببين اثنين:

الأوَّل: اكتفاءً بذكرِه مرَّتينِ قبلُ، وفائدتُه بيانُ العنايةِ بشأنِ الأرضِ، فإنَّ إفساد الأرضِ أعظمُ من أن يسفكَ النَّاسُ بعضُهم دمَ بعضٍ؛ لأنَّه نتيجةٌ من نتائجِ الإفسادِ في الأرضِ.

الثَّاني: تحاشيًا عن الوقوعِ في الثِّقَلِ اللفظيِّ؛ بذكرِ اللفظِ ثلاثَ مرَّاتٍ في جملةٍ واحدة.

براعةُ الإيجازِ فيما يُشبِه الإطنابَ:

الجمْعُ بين دلالة العمومِ والكنايةِ لتصويرِ بشاعةِ القتلِ

جاءَ التَّعبيرُ في قولِه تعالَى: ﴿وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾ دون القتلِ مع أنَّه أوجزُ لفظًا - فيما يظهرُ -؛ لسببين اثنين:

الأوَّل: دلالته على العُموم؛ لكونِه أشملَ مِن مجرَّدِ القتلِ؛ إذ يدخُلُ فِيهِ الجَرْحُ أيضًا[1].

الثَّاني: لجعلِه كنايةً عن مطلَقِ القتلِ، ولو كان بغَيْرِ سَفْكِ الدَّمِ[2]، كالقَتْلِ بالخَنْقِ والإعدامِ والصَّعقِ ونحوِه.

(1) أبو بكر الجزائريّ، أيسر التفاسير: 1/40.

(2) ابن حجر، فتح الباري: 12/188.

والتَّعبير بالكِنَايَةِ أبلغُ مِنَ التَّصريحِ بذِكْرِ القَتْلِ؛ لِمَا في الكنَايَةِ عَن القتْلِ بسفكِ الدِّماءِ مِنَ التَّفْظيعِ والتَّشنيع.

ويؤيِّدُ قصدَ التَّشْنيعِ ثلاثةُ أوجه[1]:

أحدها: جمعُ الدَّمِ: ﴿وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾؛ للإيماء إلى كثرةِ صدُورِ القتل مِنْهُم.

ثانيها: تحليةُ ﴿ٱلدِّمَآءَ﴾ باللَّامِ الدالَّةِ على الجنسِ؛ إذِ المقصودُ الدِّماءُ المسفُوكةُ بسببِ الفسادِ، هذا ما يقضي به السِّياق، ويُقرُّه الشَّرْعُ؛ فليس للملائكةِ أن تستنكرَ مُطلَقَ سَفْكِ الدِّماءِ لِوُجُوبِه شرعًا؛ وذلك لبيانِ شَنَاعَةِ الفِعْلِ.

ثالثها: التَّعبير بالفعلِ المضارع ﴿وَيَسْفِكُ﴾ الدالِّ على التَّجدُّدِ الاستمراريِّ، وتصويرِ المشْهدِ.

نُكْتَةُ عَطْفِ الخَاصِّ عَلَى العَامِّ:

بيانُ معنى الإفسادِ بأقبح ما فيه، تنبيهًا من الوقوعِ فيه

عَطفُ سفكِ الدِّماء على الإفسادِ في الأَرْضِ في قولِه ﷻ: ﴿مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾ من عطفِ الخاصِّ على العامِّ؛ فإنَّ سفكَ الدِّماء مِن جملة الإفسادِ في الأرضِ، ونُكْتَةُ العطفِ: بيانُ معنى الإفسادِ وخطورتِه بأقبحِ ما فيه، ففيها التَّنبيه على شناعةِ هذا الذَّنْبِ[2]، وأنَّه ذَنْبٌ عظيمٌ إذْ تعجَّبتِ الملائكةُ من إيجادِ من يرتكبُه في الأرضِ.

مظاهرُ التَّأْكِيدِ في جُمْلَةِ ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ﴾:

بيانُ فضيلةِ العبادَةِ التي لأجلِها جُعِلَ الخليفةُ في الأرضِ

جِيء بالمسنَدِ إلَيْهِ مُقدَّما على المُسْنَدِ الفعْلِيِّ في قوله: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ﴾؛ لإفادةِ تقويةِ الخَبَرِ، وبيانِ أهميَّتِه؛ لِمَا فِيهِ مِنْ إسنادِ فعل التَّسبيحِ إلى فاعلِهِ مرَّتين:

(1) الطِّيبي، فتوح الغيب: 2/434.

(2) الطِّيبيّ، فتوح الغيب: 2/434، وابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/93.

إحداهما: إسنادهُ إلى الضَّمير المستَتِرِ وُجوبًا في فعل ﴿نُسَبِّحُ﴾.

والأخرى: إسنادهُ إلى ضَميرِ المبتدأ (نَحْنُ).

فيكُونُ الإِسْنَادُ مكرَّرًا، وهو أحدُ مسالكِ تَأْكِيدِ الخَبَرِ.

وأُكِّدت الجملةُ أيضًا بالإتيانِ بِهَا اسميَّةً؛ لما تُفيدُه الجملةُ الاسميةُ مِنَ الدَّوام والثَّباتِ[1]، ولهذا التَّأكيدِ فائدةٌ وهي بيانُ عنايةِ الملائكةِ بالتَّسبيحِ والعبادةِ، وأنَّها علِمَتِ الغايةَ التي لأجلِها كان جعلُ الخليفة في الأرضِ؛ فأرادَتْ تلك الفضيلةَ لها.

فائدةُ ذكرِ قيدِ: ﴿بِحَمْدِكَ﴾:

الجَمْعُ بين الدّلالة الظَّاهرةِ والتَّعريضيَّةِ في أهميَّة الحَمْدِ

للقيودِ معانٍ بيانيَّةٌ لا يُستغنى عنها في الكلامِ الفصيحِ؛ فلم يأتِ الكلامُ: "ونحن نسبِّح ونقدِّس لك"، فذُكِرَ قيدُ ﴿بِحَمْدِكَ﴾؛ لتسليمِهِمُ الأمورَ للهِ تعالى، والمعنى: وأنتَ المحمُودُ بالهدايَةِ إلَى ذلك كلِّهِ[2]، ولمعرفةِ الملائكةِ بفضيلة عبادَةِ الحَمْدِ، ومكانته في قبولِ الأعمالِ، وللإشارةِ إلى أنَّ هؤلاء المفسدين أضعفُ ما يكونون فيه هو عبادة الحمدِ والشُّكرِ؛ فكان للقيدِ دلالة ظاهرةٌ، وأخرى إشاريَّةٌ تعريضيَّةٌ.

فَائِدَةُ العُدُولِ في تَعْدِيَةِ فِعْلِ ﴿وَنُقَدِّسُ﴾ بِاللَّامِ:

امتزاجُ دلالة التَّأكيدِ بالعمومِ؛ لتمحيضِ التَّقديسِ لله تعالَى في الأُمورِ كلِّها

العدُولُ عن تعديةِ الفعلِ بنفسِه إلى تعديتِه بحرفٍ له فائدةٌ بيانيَّةٌ؛ فقد عُدِّيَ فعلُ (قدَّس) بحرفِ اللامِ ﴿وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾، وهو يتعدَّى بنفسِهِ: "ونُقدِّسُكَ"، وللعدُولِ فائدتان:

الأولى: دلالة التَّأكيدِ والمبالغةِ فيهِ، ونظيرُ هذا قول العرب: شكرتُكَ، وشكرتُ لَكَ؛ فإنَّ تعديتَهُ بالحرفِ دليلٌ على تأكيدِ الشُّكرِ والمبالغةِ فيه؛ لئلَّا يُتوهَّمَ ضعفُهُ[3].

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/406.

(2) ابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 1/118، وابن عادل، اللُّباب في علوم الكتاب: 1/507.

(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/406.

الثَّانية: دلالة العموم؛ فلو قال: "ونقَدِّسُكَ"؛ لفُهم أنّ التَّقديسَ مختصٌّ بذاتِه سبحانه، لكنَّ تقديسَهم يشمَلُ كلَّ فعلٍ فيه تقديسٌ هو للّه تعالى؛ فإنَّ مردَّ أمورِ العبادَةِ إليه سبحانه، وينْشَأُ عنه تمحيضُ التَّقديسِ للّه تعالَى في كلِّ الأمور.

نُكْتَةُ تَأْكِيدِ الجُمْلَةِ بِـ(إِنَّ):

جاء قول اللّه تعالى: ﴿قَالَ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ مؤكَّدًا بـ (إِنَّ)؛ لأحد وجهين[1]:

الأوَّلُ: أنَّها وردت جوابًا عن سؤالٍ ﴿أَتَجۡعَلُ فِيهَا﴾، وجوابُ السُّؤال يحسنُ توكيدُهُ.

والآخر: أنَّ الملائكةَ نُزِّلُوا منزلةَ المُنْكِرين أَوِ المتردِّدين؛ لِما عرضَ لَهُمْ مِنَ الإشكالِ، بسبب عدم معرفتِهم بحكمة اللّه تعالى في جعلِه خليفةً في الأرض؛ فتوقَّعوا صدورَ الفسادِ عنْهُ.

شُمُولُ عِلْمِ الله تعالى وعَظِيمُ حِكْمَتِهِ

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

التَّسْبِيحُ وَالتَّقْدِيسُ:

يرجعان إلى معنًى واحدٍ؛ وهو إبعادُ النَّقْصِ أو السُّوءِ عَنِ الشَّيءِ.

والفرقُ بَيْنَهُمَا[2]: أنَّ التَّسبيحَ تَنْزِيهُ اللّه تعالى عمَّا لا يَلِيقُ بهِ مِنْ صِفَات النَّقصِ، والتَّقْدِيسُ: تَنْزِيهُ الشَّيْءِ عَنِ النَّقائص.

فالتَّسبيح خاصٌّ باللّه تعالى، والتَّقديس يُستعمل في حقِّه سبحانه، وفي حقِّ غيرِه، ولذا يُقال: الأرض المقدَّسة، كما في قوله تعالى: ﴿يَٰقَوۡمِ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡأَرۡضَ ٱلۡمُقَدَّسَةَ﴾ [المائدة: 21]، وبناءً على هذا؛ فالعلاقةُ بينهما العمومُ والخُصوصُ المُطلَقُ؛ فالتَّسْبِيحُ أخصُّ مِنَ التَّقديس.

واختار ابنُ عاشور[3] أنَّ التَّسْبِيحَ يكون قولًا - أو قولًا مقرونًا بعملٍ - دالًّا علَى التَّعظيم، بخلاف التَّقديس؛ فيكون بالفِعْلِ، ويكون بالاعتقادِ. وغالِبُ الاستعمالِ القرآنيِّ يؤيِّد ما ذهب إِلَيْهِ ابنُ عَاشُورٍ؛ فالعلاقةُ بينهما التَّباينُ.

---

(1) الخفاجيّ، عناية القاضي: 2/122، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/407.

(2) أبو هلال العسكريّ، الفروق اللُّغويَّة، ص: 124.

(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/405-406.

﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلۡأَسۡمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمۡ عَلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسۡمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٣١ قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ لَا عِلۡمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمۡتَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ٣٢ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئۡهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡ قَالَ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَأَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ ٣٣ ﴾ [البقرة: 31-33]

مُنَاسَبَةُ الآيَاتِ لِمَا قَبْلَهَا:

لـمَّا كان في قول الملائكةِ عليهم السلام إشارةٌ إلى فَضْلِهم على الخَليفةِ الذي سيَجْعَلُهُ اللهُ تعالى في الأرض؛ أَعْلَمَهُم سُبْحَانَه بأنَّ الأمر على خِلَاف ما ظنُّوا؛ فشَرَعَ يُقيم الدَّليل على ذلك، بذِكْرِ سبَبِ استحقاقه الخلافةَ، وبيَّنَ لَهُمْ فضلَ آدمَ عليه السلام لِيَقِفُوا بذلك على كمال حكمةِ اللهِ عز وجل وعلمِهِ في استخلافه[1].

قال الفخر الرّازي في بيان وجه المناسبة: "اعْلَم أنَّ المَلائِكَةَ لَمّا سَأَلُوا عَنْ وجْهِ الحِكْمَةِ في خَلْقِ آدَمَ وذُرِّيَّتِهِ وإسْكانِهِ تَعالى إيّاهم في الأرْضِ، وأخْبَرَ اللَّهُ تَعالى عَنْ وجْهِ الحِكْمَةِ في ذَلِكَ عَلى سَبِيلِ الإجْمالِ بِقَوْلِهِ تَعالى: ﴿إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾، أرادَ تَعالى أنْ يَزِيدَهم بَيانًا، وأنْ يُفَصِّلَ لَهم ذَلِكَ المُجْمَلَ، فَبَيَّنَ تَعالى لَهم مِن فَضْلِ آدَمَ عليه السلام ما لَمْ يَكُنْ مِن ذَلِكَ مَعْلُومًا لَهم، وذَلِكَ بِأنْ عَلَّمَ آدَمَ الأسْماءَ كُلَّها ثُمَّ عَرَضَهم عَلَيْهِمْ لِيُظْهِرَ بِذَلِكَ كَمالَ فَضْلِهِ وقُصُورَهم عَنْهُ في العِلْمِ، فَيَتَأكَّدَ ذَلِكَ الجَوابُ الإجْمالِيُّ بِهَذا الجَوابِ التَّفْصِيلِيِّ"[2].

شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

1) ﴿ٱلۡأَسۡمَآءَ﴾: الأسماء جمع اسمٍ؛ مشتقٌّ مِنَ السُّمُوِّ على الصَّحيح[3]؛ وهو "ما يُعْرَفُ بِه ذاتُ الشَّيءِ"[4].

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/94، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 1/240-241، والسعدي، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 48.
(2) الرازي، مفاتيح الغيب: 2/190-191.
(3) الخليل، العين: 7/318.
(4) الرّاغب، المفردات، ص: 428.

و(الاِسْمُ) يُستعمل استعمَالَيْنِ[1]:

أحدهما: استعمال اصطلاحيٌّ؛ وهو كلمة دلَّت على معنًى في نفسها ولم تقترن بزمَنٍ[2].

والآخر: استعمال لغويٌّ؛ وهو ما دلَّ على مسمًّى، فتشملُ أقسامَ الكلمةِ كلَّهَا: الاسمِ، والفعلِ، والحرفِ، وهذا هو المرادُ ههنا؛ وذلك لِوَجْهَيْنِ:

الأوَّل: أنَّ معرفة الأسماء الاصطلاحيَّة دون الأفعالِ والحروف؛ لا تحصلُ بها مَلَكَةُ الكلامِ، فلا يقَعُ المَدْحُ بمعرفَتِهَا وحدَهَا، فضلًا عن إيقاع المفاضلَةِ بمجرَّدِهَا.

والآخر: أنَّ للاسم مَعْنَيَيْن -على ما سبق آنفًا-، ولا يصحُّ حملُ (الأسماء) في الآية على معناها الاصطلاحيِّ؛ لأنَّه معنًى حادِثٌ، والقرآنُ الكريم لا يُفسَّر بالاِصْطِلَاحَات الحادثةِ، وإنَّما يُفسَّر بمعهود كلامِ العرب، وإذا بطلَ تفسيرُ (الأسماء) بِهَذَا المعنى؛ تعيَّنَ حملُها على المعنَى الآخرِ.

2) ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾: التَّسبيحُ: التَّنزيه، وتسبيح اللّٰه تعالى: تنزيهُهُ عنْ كلِّ سوء[3]، ويُطلَق التَّسبيح على الصَّلاةِ[4].

وأمَّا (سُبحانَك) فترجع إلى المعنى المُتقدِّمِ الذِّكْرِ، وهي مِن جهة الصِّناعة اللَّفظيَّة: اسمُ مصدرٍ يلزَمُ النَّصْبَ على المفعوليَّةِ المطلقةِ بفعلٍ واجبِ الحذفِ؛ اتِّباعًا لِلاستعمال الواردِ عَنِ العرَبِ، فقَوْلُ القائلِ: سبحانَك؛ بمعنى: أسبِّحُك تَسْبِيحًا[5].

3) ﴿تُبْدُونَ﴾: فِعْلٌ مضارعٌ للفعل (أبدى) مسنَدًا إلى واو الجماعةِ، ومادَّتهُ -وهي الباءُ والدَّال والواو- تدلُّ على الظهور؛ يُقال: بدَا الشَّيْءُ يبدُو، بمعنى: ظهر[6]، وأَبْدَى: أظهر.

4) ﴿تَكْتُمُونَ﴾: الكافُ والتَّاء والميمُ تدُلُّ تصارِيفُها على الإِخْفَاء والسَّتْرِ[7]، ومصدرهُ: الكَتْمُ والكِتْمَانُ[8].

---

(1) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 1/144.

(2) السُّيوطي، همع الهوامع: 1/25.

(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سبح).

(4) الأنباريّ، الزَّاهر: 1/50.

(5) سيبويه، الكتاب: 1/322. ناظر الجيش، تمهيد القواعد: 6/2859.

(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بدو).

(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (كتم).

(8) الجوهريّ، الصِّحاح، ونشوَان الحِمْيَرِيّ، شمس العلوم: (كتم).

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

ولبيانِ فضل آدم عليه السلام وإظهارِ منزلته؛ علَّمه اللهُ تعالى أسماءَ الأشياءِ كلّها ومسمياتها -ألفاظها ومعانيها-، ثُمَّ عَرض مسمَّياتها على الملائكةِ قائلًا لهم: أخبرُوني بأسماء هؤلاء الموجودات إن كُنْتُم صادقين في أنَّكم أفضلُ مِن هذا الذي سأسْتَخْلِفُهُ، وأنَّكم أحقُّ بالاستخلاف في الأرض مِنْهُ.

فأجابَتِ الملائكةُ مُعْتَرِفِينَ: نُنَزِّهُكَ يا ربَّنا عن كلِّ ما لا يليق بكَ، ليس لنا مِنَ العِلْمِ إلَّا ما علَّمْتَنَاهُ؛ فإنَّك العليم بكلِّ شيءٍ، الحكيمُ في شَرْعِك وقدَرِك.

فحينئذٍ طلب اللهُ سبحانه مِن آدَم عليه السلام أن يُخبر الملائكةَ بأسماء تلك المُسمَّيات، فلمَّا أخبرهم بذلك كمَا علَّمه الله تعالى؛ قال الله عز وجل لِلْمَلَائِكَةِ: أَلَمْ أُخْبِرْكُم بأنِّي أعلم ما خَفِيَ في السَّماوات والأرضِ، وأعلَمُ جميعَ أحوالِكم الظاهرةِ والباطنَةِ؟[1].

❁ الإِيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

بلاغةُ عطفِ المفصَّل على المجملِ:

إِقَامَةُ الدَّلِيل على استحقَاقِ آدَم عليه السلام الخلافةَ

عُطِفت هذه الجملة على ما قبلَهَا؛ مِن باب عطفِ المفصَّلِ على المجمَلِ؛ فإنَّ قوله تعالى قبلُ: ﴿قَالَ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ أي: مِن استحقاق هذا المخلوقِ الخلافةَ في الأرض؛ فهو استدلالٌ مجمَلٌ، أُعْقِبَ بذكر الدَّليل التَّفصيليِّ في قوله: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلۡأَسۡمَآءَ كُلَّهَا﴾ الدالِّ على فضيلةِ آدمَ[2] عليه السلام.

تَعْرِيفُ ﴿ءَادَمَ﴾ بِالعَلَمِيَّةِ؛ لكمَالِ تَمْييزِه عَن غَيْرِه وعَدَمِ اشتباهِهِ:

ذُكِرَ آدَمُ عليه السلام ههنا باسمه العلَم؛ زيادةً في التَّعيين؛ إذِ العلَمُ يُعيِّنُ مسمَّاهُ دون حاجةٍ إلى قرينةٍ، "ولأنَّ ذكرَه بعنوان الخلافةِ لَا يُلَائِمُ مقامَ تمهيدِ مباديها"[3].

---

(1) أبو المظفَّر السمعانيّ، تفسير القرآن: 1/65، 66، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 1/222، 227، والشَّوكاني، فتح القدير: 1/76، 78، ونخبة من أساتذة التّفسير، التّفسير الميسّر، ص: 6.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/407.

(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السَّليم: 1/84.

دلالة اللَّامِ فِي ﴿ٱلۡأَسۡمَآءَ﴾:

عَظِيمُ فَضْلِ اللهِ تعالى علَى آدَمَ عليه السلام بِتَعْلِيمِهِ أَسْمَاءَ كُلِّ شَيْءٍ

اللَّام في ﴿ٱلۡأَسۡمَآءَ﴾ إمّا أن تُحمل على استغراق أفراد الجنس[1]، ويُؤيِّدُه ما جاء عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما أنَّه قال: "علَّمه القَصعةَ من القُصَيْعَة، والفَسْوَة من الفُسَيَّة"، والمقصود مِنْهُ بيانُ عموم الأسماءِ المعلَّمَةِ، ويؤيِّدُهُ تأكيدُ الأسماءِ بقوله تعالى: ﴿كُلَّهَا﴾؛ فإنَّ فائدتَهُ رفعُ توهُّمِ إرادةِ عدَمِ الشُّمولِ[2].

ويَحْتَمِلُ أن تكونَ اللَّامُ لِلْعَهدِ الحضوري، أي: علَّمه أسماءَ المسمَّيات الحاضرةِ، ولا يتعارضُ هذا مع التَّأكيد في ﴿كُلَّهَا﴾؛ لأنَّهُ يُحْمَلُ على أسماءِ المسمَّياتِ الحاضرةِ كُلِّها، وهذا الاحتمالُ مآلُه احتمالٌ آخر وهو أنْ تكونَ اللَّامُ عوضًا عَنِ المُضافِ إِلَيْهِ، أي: أسماء المُسَمَّيات.

توجيه التَّعْبِير بِ ﴿عَرَضَهُمۡ﴾ دُونَ (عَرَضَهَا):

الجمعُ بين فنَّي التَّغليب والاستخدامِ؛ لبيانِ فضيلةِ العقلاء على غيرِهم

قالَ سُبحانه: ﴿ثُمَّ عَرَضَهُمۡ عَلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ﴾ ولم يقُل: (عَرَضَهَا) وهو الظَّاهرُ؛ لأنَّ المعرُوضَ هو مسمَّياتُ الأشياءِ لا أسماؤُها[3]، وهي إمَّا أن تُحمل على التغليبِ، ففيهَا العاقلُ وغيره، إلَّا أنَّه غُلِّبَ العاقلُ تشريفًا وإن كان غيرُ العاقلِ أكثرَ[4]، وإمَّا أن تُحمل على فنِّ الاستخدام[5]؛ حيث إنَّ الضَّميرَ عادَ على ﴿ٱلۡأَسۡمَآءَ﴾ بغيرِ المعنَى الأوَّلِ الذي دلَّ عليه الاسمُ الظَّاهِرُ، فالأسماءُ استغراقٌ لجميع الأسماءِ، والضَّمير عادَ على أسماءِ العقلاء، وبه يحسُنُ التَّوجيه بالتَّغليبِ والاستخدامِ معًا.

---

(1) القُشَيريّ، لطائف الإشارات: 1/76، وابن عجيبة، البحر المديد: 1/94، والاستغراق المذكور يحتمل أن يكون استغراقًا عرفيًّا، كما مال إِلَيْهِ ابن عاشور في التَّحرير والتَّنوير: 1/409.

(2) الخطيب القزوينيّ، الإيضاح في علوم البلاغة: 2/44.

(3) الشِّنقيطيّ، أضواء البيان: 1/32.

(4) عبد القاهر الجرجانّي، درج الدُّرر: 1/141، والقِنَّوْجِي، فتح البيان: 1/129.

(5) الاستخدام هو: أَنْ يُذكر لفظٌ بمعنًى، ثمَّ يُعادَ عليه ضميرٌ أو إشارةٌ بمعنًى آخَرَ، وهذه إحدى صوَرِه، ينظر: عبد المتعال الصَّعيديّ، بغية الإيضاح: 4/599.

مَعْنَى اللَّامِ فِي (ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ):

اللَّام في (ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ) لِلْعَهد الذِّكْرِيِّ الصَّرِيحِيِّ؛ فإنَّ الملائكةَ تقدَّمَ ذكرُهُم في قوله سبحانه: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾، ولا ينافي هذا أن يكون اللَّفظُ عامًّا؛ إذْ قد يُعْهَدُ مِنَ اللَّفظِ معناه العامُّ.

دلالة الأَمْرِ فِي ﴿أَنۢبِـُٔونِي﴾:

غرضُ الأمرِ في قوله سبحانه: ﴿فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي﴾ يحتملُ عدَّةَ معانٍ؛ فإمَّا أن يُرادَ به التَّعجيزُ، فإنَّ اللّه تعالى أراد بيانَ عجزِ الملائكةِ عَنْ علم ما يَرونَهُ فَكَيْفَ بما خَفِيَ؟! "فلا يظنُّون أنَّهم أعلَمُ مِنَ الخليفةِ الذي يَجْعَلُهُ اللّهُ في الأرض"[1].

وإمَّا أن يُرادَ به التَّنبيهُ[2]، أي: تنبيهُ الملائكةِ إلى فضيلة آدمَ عليه السلام.

ولا تعارُض بين الغَرضين؛ إذْ يمكن أن يُقال: إنَّ إرادة تعجيزِهم ليس لذات التَّعجيزِ، بل ليُنتقلَ مِنْهُ إلى معرفة قَدْرِ آدمَ وفضيلَتِهِ؛ فبدأ بتعجيزِهم وانتهى بتنبيههم.

نَقْلُ الملائكةِ مِنَ التَّعجيزِ عنِ الإنباءِ إلى التَّنبيهِ إلى فضْلِ آدمَ عليه السلام

سِرُّ التَّعْبِيرِ بِـ﴿أَنۢبِـُٔونِي﴾ دُونَ (أَخْبِرُونِي):

التَّعبير بالإنباء دونَ الإخبار؛ لكون النَّبأِ هو الخبرَ العظيمَ ذا الشَّأن، وهذا مُشْعِرٌ بعَظَمَةِ ما عُلِّمَهُ آدَمُ عليه السلام مِن الأسماءِ، وبِهِ يظهَرُ فضلُهُ على الملائكة إذْ لَمْ يعلمُوا ذلك[3].

بلاغَةُ الإيجَازِ بِالحَذْفِ:

في قوله: ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ إيجازٌ بالحذف مِن وَجْهَيْنِ:

أحدهما: حَذْفُ جوابِ الشَّرْطِ؛ وذلكَ لدلالة المذكُور عَلَيْهِ[4]، والتَّقدير: إن كُنْتُم صادقِينَ فأَنْبِئُونِي بأسماءِ هَؤُلَاءِ.

إقَامَةُ الدَّليلِ على أَحَقِّيَّةِ آدمَ عليه السلام بِالِاسْتِخْلَافِ فِي الأَرْضِ

(1) الواحديّ، التَّفسير الوسيط: 1/117.
(2) النَّيسابوريّ، إيجاز البيان: 1/82.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السَّليم: 1/85.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السَّليم: 1/85.

والآخَرُ: حَذْفُ متعلَّقِ ﴿صَٰدِقِينَ﴾، أي: في أنِّي لا أخلق مَن هُوَ أعلَمُ مِنْكُم وأفضَلُ، أو أنِّي أجعَلُ في الأرضِ مَن يُفسِد فِيهَا[1]، أَوْ في زَعْمِكُم أنَّكم الأحقُّ بالاِسْتِخْلَافِ في الأرض[2].

سَبَبُ فَصْلِ الجُمْلَةِ عَمَّا قَبْلَهَا:

التَّرْتِيبُ المعنَوِيُّ في الـمُحَاوراتِ يُغْنِي عَنْ إِيرَادِ الحُرُوفِ

فُصِلَ قولُه سبحانه: ﴿قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ﴾ عمَّا قبلَه؛ لِما بَيْنَهُمَا مِن شبهِ كمالِ الاتِّصالِ؛ فإنَّ الجملةَ الثَّانية بمنزلة الجواب عَن سؤالٍ يُفهم مِنَ الأولى[3]، وذلك أنَّه لمَّا قال تعالى: ﴿فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسۡمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ انْبَعَثَ في نفسِ السَّامعِ سؤالٌ: فما كان قيلُ الملائكةِ لربِّهَا ﷻ، فجاء الجواب: ﴿قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ﴾.

والجُمَلُ المفتتحَةُ بالقَوْلِ، إذا رُتِّبَ بعضُها على بعضٍ في الـمَعْنَى؛ فلَا يُؤْتَى فِيهَا بالحرفِ في الأَفْصَحِ؛ اكْتِفَاءً بالتَّرْتِيبِ الـمَعْنَوِيِّ[4].

بَرَاعَةُ الِاسْتِهْلَالِ فِي افْتِتَاحِ المَلَائِكَةِ بِتَسْبِيحِ اللهِ تَعَالَى:

مُلَازَمَةُ الملائِكَةِ الأَدَبَ مَعَ اللهِ تعالَى وتعظيمهُ

في افتتاح قول الملائكةِ بتَنْزِيهِ الله ﷻ ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾ براعةُ استهلالٍ مِن جِهَتَيْنِ[5]:

إحداهما: أنَّ فِيهِ أدبًا وتعظيمًا لصاحبِ العظمَةِ الـمُطلقةِ ﷻ، وافتِتَاحُهُم بِهِ تعجيلٌ بِمَا يدُلُّ على ملازمةِ ذلك الأدبِ والتَّعظيم.

والأخرى: أنَّ فِيهِ إيماءً بالاعتذارِ عَنِ السُّؤالِ المتقدِّمِ في قولِهم: ﴿أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا﴾، وأنَّ سُؤَالَهم كان استفسارًا ولم يَكُنِ اعْتِرَاضًا[6].

(1) ابن الجوزيّ، زاد المسير: 1/53.
(2) البيضاويّ، أنوار التَّنزيل: 1/69.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السَّليم: 1/85.
(4) الآلوسّي، روح المعاني: 1/228.
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/413-414.
(6) البيضاويّ، أنوار التَّنزيل: 1/69.

بلاغةُ فَصْلِ قَوْلِهِ: ﴿لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ﴾ عَمَّا قَبْلَهُ:

إتباعُ الاعتذارِ الصَّريحِ باعتذارٍ كنائيٍّ لِكَمَالِ الأَدَبِ مَعَ الله تعالى

فُصِلَ قوله تعالى: ﴿لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ﴾ عن جملة ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾؛ لما بينهما مِنْ كمالِ الاتِّصالِ؛ إذْ كِلَا الجملتينِ اعتذارٌ عَنِ المراجعةِ السَّابقةِ، إلَّا أَنَّ الأولى اعتذارٌ صريح، والثَّانيَةَ اعتذار كنائيٌّ، وقد جاءَ آخرًا لا ابتداءً، فكان تقديمُ الاعْتِذَارِ الأوَّلِ قبل الثَّاني أدخلَ في الأدبِ والتَّعْظِيم، فنُزِّلتِ الثَّانيةُ منزلةَ التَّأكيدِ للأُولى، ثُمَّ إنَّ كلا الجملتين خبريَّةٌ.

بلاغةُ التَّعليلِ بين الجُمَلِ:

تضمينُ جُملَةِ التَّعليلِ المَدْحَ والثَّناءَ زيادةً في الأدَبِ والاعتذارِ

من كمَالِ أدَبِ الاعتذَارِ تعليلُ المُعْتَذِر بمَدْحِ المُعتَذَرِ منه، وعليه فقولُه تعالى: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ مسُوقٌ مساقَ التَّعليلِ لقولهم: ﴿لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ﴾؛ "لأنَّ المحيطَ علمُه بكُلِّ شيءٍ المُحْكِمَ لكُلِّ خلقٍ، إذَا لم يجعل لبعضِ مخلوقاته سَبِيلًا إِلَى عِلْمِ شيءٍ؛ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ قِبَلٌ بِعِلْمِهِ"[1].

نُكْتَةُ تَأْكِيدِ قَوْلِهِ: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ بِأَنْوَاعٍ مِنَ المُؤَكِّدَاتِ:

عِلْمُ اللهِ وحِكْمَتُهُ؛ مُطْلَقانِ عَامَّانِ ثابِتانِ

هذه الجملة -﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾- خبريَّةٌ مؤكَّدَةٌ بأربعةِ مؤكِّدات:

أولها: (إنَّ)، في قوله: ﴿إِنَّكَ﴾.

ثانيها: القَصْر، وذلك بتعريف جزأَي الجملةِ.

ثالثها: ضمير الفصل (أَنْتَ)؛ فإنَّه يقوِّي القصرَ في الجملةِ إذا وُجِدَ طريقٌ للقصرِ فيهَا -كما في هذه الآية-.

رابعها: اسمية الجملة؛ فإنَّها آكدُ من الفعليَّةِ؛ لما تُفيده من الثبات والدَّوام.

وفي تأكيدِهَا هذا التَّأكيدَ مبالغةُ الملائكةِ في الاعتذار عمَّا يُوهِمُهُ سؤالُهُم الاسترشاديُّ من شائبةِ الاعتراضِ[2].

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/414.

(2) محمَّد رشيد رضا، تفسير المنار: 1/220.

سِرُّ اختيارِ صِفتي العَلِيمِ والحَكيمِ:

تضمينُ التَّعليلِ الأُسلوبيّ، التَّعليلَ بالصِّفات

اختَارَ النَّظمُ صفتي العَليمِ والحَكِيمِ؛ لمُناسبَتِهما لِسياقِ الآيَةِ: أمَّا وجه مناسَبةِ صِفَةِ العَليمِ؛ فلأنَّ المطلُوبَ هو الإخبارُ بعلمِ الأسماءِ. وأمَّا الحكيمُ؛ فهي بيانٌ لإقرارِهم في اختيارِ مَنْ يصْلُحُ للخلافةِ، فأُقيمَتْ الصِّفتان مقامَ التَّعليل في ضِمنِ أسلوبِ التّعليلِ.

سِرُّ ترتيب صِفَتَي العَلِيم الحَكيم:

مراعَاةُ السِّياقِ، والتَّرقِّي، ومناسَبَةُ آخِرِ الكلامِ لمطلَعِه

جاءَتْ صِفتا العَلِيمِ الحَكِيم بهذا التَّرتيبِ، ولم تَأْتِيا على العَكْسِ؛ كما في قولِه تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الزخرف: 84]؛ لأربعةِ أوجهٍ:

الأوَّل: لأنَّ المقامَ للعلْمِ، فناسبَ هذا تقديمَهُ.

الثَّاني: ليكون ذِكْرُ الأسماء على جهة التَّرقِّي؛ فإنَّ مفهومَ الحكمةِ زائدٌ على مفهوم العِلْمِ[1]، ولأنَّ الحكمةَ أثرٌ لِلعِلْمِ[2].

الثَّالث: ليكون اسمُ العليم مُتَّصلًا بقوله: ﴿لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ﴾ وهو أنسبُ له في المعنَى.

الرَّابع: ليكون آخرُ ما قالوه -وهو ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾- ملائمًا لأوَّل مقالتِهم؛ فيكون مِن مناسبةِ مقاطِعِ الكلامِ لمطالِعِه.

دلالة النِّدَاءِ في ﴿يَٰٓـَٔادَمُ﴾:

النِّداء في قوله: ﴿يَٰٓـَٔادَمُ﴾ نداءُ تكريمٍ وتشريفٍ، بقرينةِ المقامِ؛ فإنَّهُ مقامُ إظهارِ فضلِ آدَم عليه السلام وشرفِهِ بالعِلْمِ.

سِرُّ التَّعبيرِ بِـ﴿أَنۢبِئْهُم﴾ دُونَ (أَنْبِئْنِي):

إعلامُ الملائكَةِ بانتقالِ آدَمَ من رُتبةِ التَّعلُّمِ إلى رُتبةِ التَّعليمِ

جاءَ التَّعبيرُ بقولِه سبحانه: ﴿أَنۢبِئْهُم﴾، ولم يقُل: (أنبئني)؛ تنبيهًا إلى رسوخِ علم آدَم عليه السلام بأسماء هذه المسمَّيات، وأنَّه انتقلَ

(1) البيضاويّ، أنوار التَّنزيل: 1/70، والخفاجيّ، عناية القاضي: 2/128.
(2) ابن عادل، اللُّباب في علوم الكتاب: 1/522.

مِن رُتْبة التَّعلُّم إلى رتبة التَّعليم، ولئلَّا تَسْتَوْلِي عَلَيْهِ المهابَةُ؛ إذْ إنَّ إنباء العالِم ليس كإنباءِ غيرِه[1].

نُكْتَةُ العُدُولِ مِنَ الإِظْهَارِ إلى الإِضْمَارِ:

بيانُ كمالِ العِنَايَةِ بِشَأْنِ الأسماءِ وأنَّها المقْصُودُ بالكَلامِ

في قوله: ﴿فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡ﴾ إظهارٌ في موضع الإضمار؛ إذْ مُقْتَضَى الظَّاهر: "فلَمَّا أنبأهم بِهَا"، ولهذا العدولِ نُكْتَتَانِ[2]:

إحداهما: إظهارُ كمالِ العِنَايَةِ بشَأْنِ الأَسْمَاءِ، وبيانُ أنَّها المقصُودُ بالكلام.

والأخرى: الإعلام بأنَّ آدَم عليه السلام أنبأَ بِهَا على وجه التَّفصيلِ لا على وجْهِ الإجْمَالِ.

أثرُ الاِسْتِفْهَامِ فِي المُخَاطَبين:

سَعَةُ عِلْمِ اللهِ تَعَالَى ظاهرًا، وسَعَةُ حِلْمِه ضمنًا

الاِسْتِفْهَامُ في قوله: ﴿قَالَ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ يَحْتَمِلُ أن يكُونَ لِلتَّقرير[3] - وهو حَمْلُ المخاطَب على الإقرار بما يَعْرِفُه[4]-، أي: قد قلتُ لكم ذلك، وهو يَتَضمَّنُ اللَّومَ والتَّوبيخ[5]؛ لما بدَرَ مِنْهُمْ مِنَ الاِسْتِفْسَارِ المُشْعِرِ بنوعٍ مِنَ الاِعْتِرَاضِ[6]؛ ففيه بَيَانُ سَعَةِ عِلْمِه وحِلْمِه، أمَّا سَعَةُ العِلم فظَاهِرَةٌ، وأمَّا سَعَةُ حِلْمِه فبما أرخَى لَهُم مِنَ اتِّساعِ السُّؤالِ، والحِلم عَلَيْهم بالتَّجاوزِ والعَفوِ.

نُكْتَةُ ذِكرِ الجَارِّ والمَجرُورِ:

اللَّومُ والعِتابُ؛ لتَعليمِ العِبادِ تَفويضَ الأَمرِ لِله وحدَه

ذُكِرَ الجارُّ والمجرورُ ﴿لَّكُمۡ﴾ في قَوْلِه تعالَى: ﴿قَالَ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾، ولم يقُل: (أَلَمْ أَقُلْ إنِّي)؛ زيَادَةً في اللَّوم والعِتَاب، وفِيه تَعليمُ العِبادِ تَفويضَ الأَمرِ له سُبحانَه دُونَ سِواه، بِمعرِفَةِ أَنَّه سُبحَانَه يَعْلَمُ ما فِيهِ مَصَالِحُ العِبَادِ ظَاهِرًا وبَاطِنًا.

(1) أحمد مصطفى المراغي، تفسير المراغي: 1/84.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السَّليم: 1/86.
(3) الواحديّ، التَّفسير البسيط: 2/357.
(4) حامد عَوني، المنهاج الواضح: 2/104.
(5) الواحديّ، الوجيز، ص: 99.
(6) الإيجي، جامع البيان في تفسير القرآن: 1/40.

سِرُّ الإيجَازِ بِالِاكْتِفَاءِ:

مَنْ يَعْلَمُ الغَيْبَ يَعْلَمُ الشَّهَادَةَ مِنْ بَابِ أَوْلَى

في قولِه ﷻ: ﴿إِنِّيٓ أَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ إيجازٌ بالاكتفاءِ، أي: وأعلمُ شهادتَهُمَا، وإنَّما اقتُصِرَ على ذكر الغيب؛ لأنَّ الذي يعلم الغيبَ يعلم الشَّهادةَ بطريقِ الأَحْرَوِيَّةِ[1]، ولأنَّ السِّياقَ حديثٌ عمَّا سَيكُونُ في المُسْتَقبَلِ، فالغَيْبُ هنا هو غَيْبُ المُسْتَقبَلِ.

نُكْتَةُ الإيجَازِ بِالِاحْتِبَاكِ:

إِحَاطَةُ عِلْمِ الله تعالى بالمَاضِي والحَاضِرِ والمُسْتَقْبَلِ

في قوله ﷻ: ﴿وَأَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ﴾ إيجازٌ بالاحتباكِ[2]؛ أي: أعلَمُ ما تُبْدُونَ وما كُنْتُم تُبْدُونَ، وأعلَم ما تكتمُون وما كنتُم تكتمون، فحُذِفَ من الأوَّلِ (ما كنتم تبدون)؛ لدلالة الثَّاني عَلَيْهِ وهُو قوله: ﴿وَمَا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ﴾، وحُذف مِنَ الثَّاني (ما تكتمون)؛ لدلالة الأوَّل عَلَيْهِ وهو قوله: ﴿وَأَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ﴾، ولذا سمَّى هذا النَّوعَ بعضُ العلماءِ: الحذفَ المُقابَلِيَّ[3].

فيكون الكلامُ دالًّا على الحالِ والماضي، ويدلُّ على المستقبَلِ مِنْهُمَا أيضًا[4]؛ إمَّا أخذًا مِن دلالة المضارعِ بحملِه على مَعْنَيَيْهِ معًا: الحالِ والاستقبالِ، وإمَّا بفَحْوَى الكلامِ؛ فإنَّ عالِمَ الماضي والحال على وجهِ الإحاطةِ: عالمٌ بالمستقبَلِ.

وفي طباق الإيجاب بَيْنَ ﴿تُبۡدُونَ﴾ و﴿تَكۡتُمُونَ﴾ إيماءٌ إلى إحاطة اللّٰه تعالى بكلِّ شيءٍ علمًا.

نُكْتَةُ ذِكْرِ (كَانَ) فِي قَوْلِهِ: ﴿وَمَا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ﴾:

التَّنبيه الضِّمنيُّ على أمرٍ تَعْرِفُه المَلائِكَةُ من أَنْفُسِهَا

قال سُبحانه: ﴿وَمَا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ﴾ دون (وما تكتمونَ)؛ لِلْإِعْلَامِ بأنَّه سبحانه عالمٌ بما استمرُّوا على كتمانِهِ في الماضي،

(1) الآلوسّي، روح المعاني: 1/229.
(2) الاحتباك: أن يُحذَفَ مِنَ الأوائلِ مَا جاء مقابِلُهُ في الأواخِرِ، ويُحذَفَ مِنَ الأواخرِ ما جاءَ مُقابلُهُ في الأوائلِ، ينظر: عبد الرَّحمن حبنَّكة، البلاغة العربيَّة: 1/54.
(3) الزَّركشّي، البرهان: 3/129.
(4) الآلوسّي، روح المعاني: 1/229.

وللتَّنبيهِ الضِّمنيِّ على أمرٍ تَعْرِفُه الملائِكَةُ من أنْفُسِهَا؛ فهو بمثَابَةِ الإشَارَةِ إلى أمرٍ كَتَمُوه، مع التَّصريحِ بعُمُومِ عِلْمِه لِكُلِّ ما كَتَمُوه، كما سَيأْتِي.

بلاغَةُ حَذْفِ العَائِد:

التَّنبيهُ علَى العُمُومِ، لِلتَّنَاسُبِ السِّياقِيّ، والائِتلافِ اللَّفظيّ

حُذِفَ العَائدُ من قوله: ﴿مَا تُبْدُونَ﴾؛ للعُمُوم؛ فيدخُلُ كُلُّ ما أبْدَوْه، دونَ تخصيصِ ما قَالُوه في شَأْنِ الخَلِيفَةِ وحْدَه، وحُذف العائدُ من قوله: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾؛ للعُموم؛ فيدخُل فِيهِ كُلُّ مَا كَتَمُوه، وهو الأَنْسَبُ بالسِّياقِ، في ذِكْرِ أمرِ العِلْم.

ومراعاةُ الفواصلِ تابِعَةٌ للمَعْنَى، ومَا أَجْمَلَ ائتِلافَ المَعَاني بالأَلفَاظِ، ويَظْهَرُ التَّناسُبُ في الحَذْفِ بينَ ﴿مَا تُبْدُونَ﴾ و﴿تَكْتُمُونَ﴾.

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

النَّبأُ وَالخَبَرُ:

ظاهر صنيعِ كثيرٍ مِن أصحاب المعجماتِ أنَّهما مترادِفَانِ[1]، ولعلَّه جَرْيٌ مِنْهُمْ على المسامحةِ؛ تقريبًا لِلْمَعَاني، بل إنَّ بعضهم نصَّ على ترادُفِهِمَا[2].

وفرَّق بَيْنَهُمَا جماعةٌ مِن أهلِ العلم - وهو التَّحقيقُ-؛ وذلك أنَّ النبأَ هو الخبرُ الذي له خَطْبٌ وشأنٌ، ومِنْهُ سُمِّي النَّبِيُّ نبيًّا؛ لأنَّه يوحَى إِلَيْهِ، والوحي: خَبَرٌ عظيمٌ له شأنٌ، بخلاف الخبرِ فهو أَعَمُّ؛ إذ يُطْلَقُ على ما له شأنٌ وما ليس كذلك[3].

وذكر أبو هلالٍ فرقًا آخرَ؛ وهو أَنَّ النَّبَأَ لا يكون إلَّا لِلْإخبار بما لا يعلمه المُخْبَرُ، بخلاف الخَبَرِ؛ فإنَّه أعمُّ مِنْهُ، فيكون لِما يعلَمُه المُخْبَرُ ولِمَا لا يعلمُهُ[4].

وهذا الفرق فيه نظر؛ فإنَّ اللّه تعالى قال: ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ وَأَصْحَٰبِ مَدْيَنَ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتِ﴾ [التوبة: 70]، والاستفهام في ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ﴾

(1) الخليل، العين: (خبر)، والأزهريّ، تهذيب اللُّغة: (نبأ)، والجوهريّ، الصِّحاح: (نبأ)، والفيروزابادي، القاموس المحيط: (نبأ).
(2) الزَّبيدي، تاج العروس: (نبأ) و(خبر).
(3) أبو حيَّان، البحر المحيط: 8/227، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 2/306، والشِّنقيطيّ، العذب النَّمير: 1/476، 2/104، 138، 607.
(4) أبو هلالٍ العسكري، الفروق اللُّغويَّة، ص: 528.

للتَّقريرِ[1]؛ أي: قد أتاهُمُ نبأُ الذِينَ من قَبْلِهِمْ، فقد عَلِمُوهُ قبلُ، ومع ذلك وقع التَّعبير عَنْهُ بلفظ النَّبأ.

الكِتْمَانُ وَالإِخْفَاءُ:

الفَرْقُ بينَهُمَا: العمومُ والخصُوصُ المُطْلَقُ؛ فالكِتْمَانُ أَخَصُّ مطلقًا مِنَ الإِخْفَاءِ؛ وذلك أنَّ الكتمانَ خاصٌّ بسَتْرِ المعاني، فيُقال: كتَمَ السِّرَّ والخبَرَ، بخلاف الإخفاءِ؛ فإنَّهُ أعمُّ؛ فيكون لِلْمَعَانِي ولِلْمَحْسُوسَاتِ[2].

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/260.

(2) أبو هلال العسكريّ، الفروق اللُّغويّة، ص: 448، وابن سِيدَه، المخصّص: 4/39.

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ٣٤﴾ [البقرة: 34]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا ذكر اللّه تعالى إنعامَهُ على آدمَ عليه السلام بتفضيلِهِ بالعِلْمِ؛ ذَكَرَ إنعامَهُ عليه بإسجاد الملائكةِ لَهُ[1].

قال أبو حيّان الغرناطي: "ومُناسَبَةُ هَذِهِ الآيَةِ لِما[2] قَبْلَها أنَّ اللَّهَ تَعالى لَمّا شَرَّفَ آدَمَ بِفَضِيلَةِ العِلْمِ، وجَعَلَهُ مُعَلِّمًا لِلْمَلائِكَةِ وهم مُسْتَفِيدُونَ مِنهُ مَعَ قَوْلِهِم السّابِقِ: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾ [البقرة: 30]، أرادَ اللَّهُ أنْ يُكَرِّمَ هَذا الَّذِي اسْتَخْلَفَهُ بِأنْ يُسْجِدَ لَهُ مَلائِكَتَهُ، لِيُظْهِرَ بِذَلِكَ مَزِيَّةَ العِلْمِ عَلى مَزِيَّةِ العِبادَةِ".

شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

1) ﴿ٱسْجُدُواْ﴾: فِعْلُ أمرٍ من (سَجَدَ) مُسندًا إلى واو الجماعةِ، والسِّينُ والجيمُ والدَّالُ تدُلُّ اشتقاقاتُها على الذُّلِّ والتَّطامُنِ أي: الانْخِفَاضِ[3]، يقال: سجدتِ الدَّابَةُ؛ إذا خفضت رأسَها لتُرْكَبَ[4].

ومِنْهُ السُّجودُ؛ وهو وضعُ الجبهةِ على الأرضِ[5]، وبمعنى الانحنَاء أيضًا[6]

وأمَّا سجودُ الملائكة لآدم عليه السلام؛ فاختُلِفَ في حقيقتِهِ: أكان انحناءً، أو بوضع الجبهة على الأرض، معَ اتِّفاق أهل العلم على أنَّ سجودَ الملائكةِ لآدَمَ عليه السلام لَم يَكُنْ عِبَادةً له، وإنَّما كان تَحِيَّةً أو احترامًا لَهُ عليه السلام، طاعةً للّه تعالى[7].

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 1/254.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 1/414.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سجد).
(4) الأنباريّ، الزَّاهر: 1/47.
(5) ابن سِيده، المخصَّص: 4/57.
(6) ابن القطَّاع، كتاب الأفعال: 2/125.
(7) ابن جرير، جامع البيان: 1/512، والواحديّ، التَّفسير البسيط: 2/364، 366.

2) ﴿أَبَىٰ﴾: الهَمْزَةُ والبَاء واليَاء تدلُّ على الامتناعِ[1]، والإباء: أشدُّ الامتناعِ[2].

3) ﴿وَٱسْتَكْبَرَ﴾: الكاف والباء والرَّاء تدلُّ تصاريفُها على ضدِّ الصِّغَرِ، ومِنْهُ: الكِبَرُ؛ وهو الهرَمُ، والكِبْرِياء؛ وهي: العظمة[3].

وَالكِبْرُ: هو التَّرفُّعُ عن الإقرار بالحقِّ، والطُّغيانُ في دفعه، واحتقارُ النَّاسُ والإزراءُ بِهِمْ[4]، وهذا المفهوم عبَّر عَنْهُ رسُولُ الله ﷺ بأَوْجَزِ عبارةٍ وأبلغِها؛ فَقَالَ: "الكِبْرُ: بَطَرُ الحَقِّ، وَغَمْطُ النَّاس"[5].

والسِّينُ والتَّاء في (استكبر) تدلُّ على القوَّةِ لا الطَّلبِ، فمعنى (استكبرَ): قَوِيَ كِبْرُهُ[6].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

تَحدَّثتِ الآيَةُ عن أمرِ اللّه تَعالَى الملائِكَةَ بأنْ يَسجُدُوا لِآدَمَ عليه السلام، إكرامًا لَهُ وتحيَّةً، فسجدوا مسارعين لامتثال أمر اللّه ﷻ، إلَّا إبليسَ فقَدِ امْتَنَعَ أشدَّ الامتناعِ عَنِ السُّجودِ، اعتراضًا على أمر اللّه تعالى له، وتكَبُّرًا على آدم عليه السلام، فصار مِنَ الكافِرِينَ باللّه تعالى[7].

❁ الإيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

فائِدَةُ عَطْفِ القِصَّةِ عَلَى القِصَّةِ:

بيانُ موقفِ الملائِكةِ وإبليس من السُّجودِ؛ للحذرِ من جهةٍ، والأمنِ من الثَّانية

نوعُ الواوِ في قولِ اللّهِ تعَالَى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِآدَمَ﴾ العَطْفُ، والقولُ معطوفٌ على قوله: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾، وهو من باب عَطْفِ القصَّةِ على القصَّةِ[8]؛ لاشتراكهما في ذِكْرِ قِيلِ اللّهِ سبحانه لِلْمَلائكة، وذِكْرِ نِعَمِ اللّه ﷻ على آدَمَ عليه السلام؛ بِغَرَضِ اسْتِكمَالِ الغَايَةِ من ذِكْرِ القِصَّةِ، وبيانِ موقفِ

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (أبي).
(2) ابن الأثير، النِّهاية: (أبو).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (كبر).
(4) ابن الجوزيّ، كشف المشكل من حديث الصَّحيحين: 3/323.
(5) رواه مسلم، حديث رقم: (91).
(6) الحمَلاَويّ، شذا العَرْف في فنِّ الصَّرف، ص: 35.
(7) ابن أبي حاتم، تفسير القرآن: 1/84، 85، والسعدي، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 48، ونخبة من أساتذة التّفسير، التّفسير الميسّر، ص: 6.
(8) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/420.

الملائكةِ في السُّجودِ، بعدَ قِيلِهم، وموقفِ إبليس بعدَ سُكوتِه؛ ليحصُلَ الحَذَرُ من جِهةٍ، ويتحقَّقَ الأمنُ من الثَّانية.

تَكْرَارُ الظَّرْفِ (إِذْ) لبيانِ نِعَمِ اللهِ تعالى على آدَمَ عليه السلام:

كُرِّرَ الظَّرْفُ (إذْ) بعد الواوِ المُغْنِيَةِ عن إعادتِهِ؛ لِلْإِعْلَامِ بأنَّ جملة ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأٓدَمَ﴾ مستقلَّةٌ بذاتِهَا، مقصودةٌ بالأصالَةِ؛ إيذانًا بأَنَّ المذكور في حيِّزِهَا نعمةٌ جليلةٌ حقيقةٌ بالذِّكْرِ على وجهِ الاستقلال[1].

نكتَةُ الِالتِفَاتِ مِنَ الغَيْبَةِ إِلَى التَّكَلُّمِ:

إِظْهَارُ جَلَالِ اللهِ تعالَى وإِدْخَالُ هَيْبَتِهِ فِي نُفُوسِ المُتَلَقِّين

وقَعَ التِفَاتٌ في قوله سبحانه: ﴿قُلْنَا﴾ من الغَيْبَةِ في قوله تعالَى: ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُل﴾ إلى التَّكلُّم؛ والنُّكْتَةُ في ذلك: إظهارُ الجلالَةِ وزيادةُ المَهابَةِ، لاسيَّما أنَّ التَّكلُّمَ وردَ بصيغةِ الجمعِ الدَّالَّةِ على التَّعظيم، وتأكيدُ استقلالِ هذه الجملةِ عمَّا قبلَهَا؛ لتغايُرِ أسلوبِهِمَا[2].

التَّعظيمُ ذاتيٌّ، ويكْتَسِب المُعظِّمون شرفًا لا يُدانَى، ومكانةً لا تتَدانى:

أفادَتِ النُّونُ في قولِه سبحانه: ﴿قُلْنَا﴾ التَّعظيمَ؛ إذِ السُّجودُ لِلتَّعظيم، فلمَّا أمر به لغيرِه؛ أشار إلى كِبْرِيائِه وعظَمَتِه في ذاتِه[3]، ولا تَتَوَقَّف عظَمَتُهُ سبحانه على تعظيم المعظِّمينَ، إذِ العَظَمَةُ ثابِتَةٌ له على الدَّوام، وإنَّما يكْتَسِبُ المُعظِّمون لِكبرِيائِه بذلِك شرفًا لا يُدانَى، ومكانةً لا تتَدانى.

نُكْتَةُ الإِظْهَارِ فِي مَوْضِعِ الإِضْمَارِ:

صِيانةُ احتِمالِ التَّوهمِ في التَّقليلِ من شأنِ المَلائِكَةِ

أُظهِرَ اسْمُ الملائِكَةِ في قوله: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأٓدَمَ﴾ ومقتضى الظَّاهِرِ الإضمار[4]، أي: (وإذ قلنا لهم)؛ وذلك لتقدُّمِ ذِكْرِهم، ونُكتَةُ الإظهار: الاحترازُ عن توهُّمِ التَّقليلِ من شَأْنِ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السَّليم: 1/87.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السَّليم: 1/87.
(3) الخفاجيّ، عناية القاضي: 2/129.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السَّليم: 1/87.

الملائِكَةِ؛ فإنَّ إظهارَ الاسمِ تابعٌ لإظهارِ المعنى، لاسيَّما أنّ الملائِكَةَ قد صَدَرَتْ عنهم تلك الأَسْئِلَةُ؛ فقد يخطُر ببالِ المتلقِّي شيءٌ من وَسَاوِسِ الشَّيطان في التَّقليلِ من شَأْنِهم، فكان الإظْهارُ دافعًا لمثلِ هذا التَّوهُّمِ، وهذا من بليغِ أغراضِ إظهارِ ما حقُّه الإضمارُ في القرآنِ الكريمِ.

دلالة الفَاءِ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَسَجَدُوٓاْ﴾:

الفاء في قوله: ﴿ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ﴾ عاطِفَةٌ على ﴿قُلۡنَا﴾، والفاء تدلُّ على التَّرتيب والتَّعقيبِ؛ ففي قوله: ﴿فَسَجَدُوٓاْ﴾ إشارةٌ إلى مسارعةِ الملائكة إلى امتثال أمر اللّٰه تعالى لَهُمْ بالسُّجود، وفِيهِ تعليمُهم المبادَرَةَ لأدَاءِ حقِّ آدمَ عليه السلام؛ إذْ علَّمهم ما لَمْ يَعْلَمُوا[1].

سُرْعَةُ امْتِثَالِ أَمْرِ اللهِ سُبْحَانَهُ، وَتعليمُ المُبَادَرَةِ لأَدَاءِ حَقِّ المُعَلِّمِ

توجيهُ المُتَشَابِهِ اللَّفْظِيِّ:

ورد هنا ﴿ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ﴾، وفي سورة الحِجْرِ: ﴿فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ فَسَجَدَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمۡ أَجۡمَعُونَ﴾ [الحجر: 29-30]، فوقع الخلافُ بَيْنَهُمَا مِن ثلاثَةِ أوجهٍ[2]:

سُمُوُّ البَيَانِ القُرْآنِيِّ وَجَمالُهُ فِي التَّعْبِيرِ عن كُلِّ موضِعٍ بما يُنَاسِبُه

الوجه الأوَّل: في "البقرة" أمرٌ صريحٌ بالسُّجود، وفي "الحِجْرِ": أمرٌ بالوقوع ساجدينَ.

الوجه الثَّاني: في "البقرة" إضمارٌ لِلْمَلَائكةِ، وفي "الحِجْرِ" إظهارٌ لاسمهم الصَّريحِ.

الوجه الثَّالث: في "الحِجْرِ" أُكِّدَ الفاعلُ ﴿ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾ بقوله: ﴿كُلُّهُمۡ أَجۡمَعُونَ﴾، وخلا ذلكَ مِنَ "البقرة".

وموجِبُ التَّفريقِ: أنَّ آية البقرة تقدَّمها ذِكْرُ تفضيلِ آدمَ عليه السلام على الملائكة، وتَسْليمِهم بهذا التَّفضيل، فكان المناسبُ الاكتفاءَ بالأمر بالسُّجودِ.

(1) الخفاجيّ، عناية القاضي: 2/129.

(2) سعد عبد العظيم محمَّد، استدراك ما فات من بلاغة الآيات المتشابهات، ص: 87.

ووقَعَ ذِكْرُ الملائكة مضمرًا؛ لتقدُّم ذِكْرِهم قريبًا جدًّا، فناسبَ ذلك الإتيانُ بالضَّمير الرَّاجع إليْهِمُ اختصارًا، لا سيَّما وقد تكرَّر ذكرُهم قبلَ الإضمارِ ثلاثَ مرَّاتٍ بالاسمِ الصَّريحِ.

وأمَّا آية سورة الحِجر؛ فتقدَّمها قولُ الله ﷻ: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ۝٢٨ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ [الحجر: 28-29]، وذِكْرُ الحمَأ المَسْنُونِ فِيهَا قد يوجِبُ شيئًا مِنَ النُّفْرةِ بسبب تغيُّر الرَّائحةِ، فكان الأنسبُ المبالغةَ في الأمر بالسُّجود؛ فقال سُبحانه: ﴿فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ [الحجر: 29].

ولـمَّا كان ذكرُ الملائكةِ بالاسْمِ الظَّاهر غيرَ قريبٍ؛ نُصَّ عَلَيْهِ بالاسْمِ الظَّاهر لبُعْدِ العهدِ.

وجاء تأكيدُ المسنَد إلَيْهِ ﴿ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾؛ لأنَّه تقدَّمه مبالغةٌ في الأمر؛ فناسبَهُ المبالغةُ في بيان امتثالِهِ.

تحديدُ نوعِ الاسْتِثْنَاءِ بالسِّياقِ:

إلحاقُ إبْلِيس بالمَلَائِكَةِ يعطيه حكمَهم في السُّجود لا جنسَهم

الاستثناء في قوله: ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ﴾ استثناء منقطعٌ على الصَّحيح؛ لأنَّ إبليس ليس مِنَ الملائكةِ، بدليل قول الله تعالى: ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾ [الكهف: 50]؛ ولأنَّه مخلوقٌ من نارٍ والملائكةَ مخلوقون من نُورٍ.

وأمَّا دخولُهُ في الأمر[1]؛ فلأنَّه لَمَّا كان يعمل بعمل الملائكةِ في الظَّاهر؛ كان الأمر شاملًا له؛ فهو ملحَقٌ بهم في الأمرِ، وهو مأمورٌ بالسُّجود لآدمَ قطعًا، بدليل قولِ الله تعالى: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ [الأعراف: 12]، وإلحاقُه بهم هو في الأمرِ لا في الجِنسِ.

سِرُّ تَقْدِيمِ الإِبَاءِ عَلَى الاسْتِكْبَارِ:

المذكُورُ يُغني عن المحذوفِ، وذِكرُ غيرِ اللَّازم لازمٌ ضرورةً

قُدِّم الإباءُ على الاسْتِكبارِ، مع أنَّ الإباءَ متأخِّرٌ عَنْهُ؛ إذْ يقع الاسْتِكبار في النَّفس ثُمَّ يترتَّب عَلَيْهِ الإباءُ في الفعلِ؛ وذلك لأنَّ الإباء مِنَ الأحوالِ الظَّاهرةِ، بخلاف الاستكبار فَهُوَ أمرٌ خفيٌّ؛ لكونه

(1) ابن عثيمين، تفسير الفاتحة والبقرة: 1/127.

مِنَ الأمورِ النَّفسانيَّةِ[1]، وبيانُ ذلك: أنَّ التَّرتيبَ حَصَلَ كالآتي: استكْبَرَ فأَبى، وأصَرَّ على استكبارِهِ؛ ذلك أنَّه لـمَّا كان الاستكبارُ باطنًا لم يُذكرِ ابتداءً؛ لدلالة الإباءِ عليه، ثمَّ عَطَفَ الاستكبارَ على الإباءِ؛ لبيانِ إصرارِه عليه؛ فليس بالضَّرورةِ أن يُصِرَّ كلُّ آبٍ على استكبارِه، فحُذِف الاستكبارُ ابتداءً لدلالة الإباءِ عليه، ثمَّ ذكر الإصرارُ على الاستكبارِ؛ لأنَّه ليس لازِمًا بالضَّرورةِ.

الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الإِبَاءُ وَالِامْتِنَاعُ:

بَيْنَ الإباء والامتناعِ: عمومٌ وخصوص مُطلَق؛ فكل إباءٍ امتناعٌ، وليس كلُّ امتناعٍ إباءً؛ وذلك أَنَّ الإباء: شدَّةُ الامتناعِ[2].

وَلِلْبِقاعِيِّ توجيهٌ، وهو أنَّ الإباءَ امتناعٌ عمَّا حقُّه الإجابةُ فيهِ[3]، وهو كسابقِهِ مُؤدَّاهُ أنَّه أعمُّ مِنَ الامتناعِ مطلقًا.

ولِلشِّهَابِ الخفَاجِيِّ توجيهٌ آخَرُ، وهو عمومُ الامتنَاعِ بوجهٍ آخرَ؛ وهو أنَّ الإباءَ امتناعٌ مِنَ الفعلِ مع التَّمكُّن مِنْ أدائهِ، فالإباء أبلغُ مِنَ الامتناعِ[4].

والأشهَرُ هُوَ الأوَّلُ، ويُمْكِنُ ردُّ القولين الآخرَيْنِ إِلَيْهِ؛ فإنَّ الامتناعَ مِنْ فعلٍ مَا مع التَّمكُّنِ من أدائهِ؛ مُشْعِرٌ بِضَرْبٍ مِنَ الإِعْرَاضِ؛ وهذا مُقْتضٍ لشدَّةٍ في ذلك الامتناعِ، ومِثْلُهُ: الِامْتِنَاعُ عمَّا حقُّهُ أَنْ يُجابَ.

(1) الخفاجيّ، عناية القاضي: 2/131.
(2) الرّاغب، المفردات، ص: 58.
(3) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 1/256.
(4) الخفاجيّ، عناية القاضي: 2/131.

﴿وَقُلْنَا يَـٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا
حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾
فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَـٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟
بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَـٰعٌ إِلَىٰ
حِينٍ ﴿٣٦﴾ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَـٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ
ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾﴾ [البقرة: 35-37]

مُنَاسَبَةُ الآيَاتِ لِمَا قَبْلَهَا:

لَمَّا أظهر الله ﷻ لِلْمَلَائكةِ فضلَ آدم عليه السلام مِنْ عِلْمِهِ وخِلَافَتِهِ وإسجادهم لَهُ، وأظهر إباءَ إبليس واستكبارَهُ وخُبْثَ طَوِيَّتِهِ؛ بيَّنَ الله تعالى من أحوالِ آدمَ عليه السلام ما يُقابلُ ذلك؛ فذكَرَ حَظَّهُ مِنَ المخالفةِ، ولمَّا كان ذِكْرُ المخالفةِ قد يُتَوَهَّمُ مِنْهُ مشاركةٌ للشَّيطانِ فِيهَا؛ بيَّن سُبحانه فضلَ آدمَ عليه السلام في رجُوعِهِ بالتَّوبة كحَالِ رُجُوعِ الملائكةِ بالتَّسْلِيم[1].

شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

1) ﴿ٱسْكُنْ﴾: يدُلُّ جذر هذه المادَّة - وهو السِّين والكاف والنُّون- على الاستقرار[2]- ضدِّ الحركة والاضطراب[3]، ومِنْهُ قولُهم لكُلِّ شَيْءٍ مَاتَ: قد سَكَنَ[4]؛ لذهاب حركتِهِ، ومِنْهُ سمِّيت النَّارُ سكَنًا؛ لأنَّها مُعِينةٌ على الاستقرار والإقامةِ؛ إذْ بها يُعدُّ الطَّعامُ ويُستدفأُ ويُستضاءُ[5]، وسكَنَ بالمكانِ: أقامَ فِيهِ[6].

ومعنى: ﴿ٱسْكُنْ أنت وزوجك ٱلْجَنَّةَ﴾ أي: اتَّخِذاها سكنًا، ومكانًا تقيما فِيهِ[7].

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 1/281.
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصَّل: (سكن).
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (سكن).
(4) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة: (سكن).
(5) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصَّل: (سكن).
(6) ابن سِيده، المحكم: (سكن).
(7) أبو حيَّان، البحر المحيط: 1/250، والسَّمين، عمدة الحفَّاظ: 2/208.

2) ﴿رَغَدًا﴾: تدور أكثرُ اشتقاقات مادَّة الرَّاء والغين والدَّال على معنى طِيبِ العيش واتِّساعه[1]، ومن طِيبِ العَيْشِ: أنْ لا يُعْيِيَ صاحبَهُ[2].

وأصل الرَّغَد: كَثْرَة الغَيْث[3]، وَيَنْتُجُ عنه خَصْبٌ وسَعَةٌ في الأرزاقِ، يقال: أرْغَدَ فلانٌ؛ إذا صار في خَصب وَسَعَة[4].

والرَّغَدُ في قوله: ﴿وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا﴾؛ نعتٌ لمصدرٍ محذوفٍ تقديرُه: أَكْلًا رَغَدًا، والمعنى: أَكْلًا هَنيئًا واسعًا دُونَ حسابٍ[5].

3) ﴿ٱلشَّجَرَةَ﴾: تصاريفُ هذه المادَّة -وهي الشِّين والجيم والرَّاء - تدلُّ على تداخل الشَّيء بعضه في بعضٍ مع عُلُوٍّ فيه[6].

ومِنْهُ المشاجرة؛ وهي: المنازعَةُ والمخالفة؛ إذْ يتدَاخَلُ كلامُ بعضِ المتشاجِرين في بعضٍ، وتَعْلُو أصواتُهُمْ[7].

والشَّجرُ في قول اللّه تعالى: ﴿وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ﴾ [الرحمن: 6] ما له ساقٌ، ويقابله النَّجْمُ، وهو ما ليس له ساقٌ[8]، ففي الشَّجَرِ ارتفاعٌ، وفي فروعِهِ تداخُلٌ.

والشَّجرة في قوله سبحانه: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾: واحدةُ الشَّجَرِ مِمَّا يقومُ على ساقٍ.

4) ﴿فَأَزَلَّهُمَا﴾: مادَّةُ الزَّاي واللَّامان تدُلُّ على انزلاقٍ عَنِ الموضع لاستوائه معَ مَلَاسَته التَّامَّة[9].

ومِنْهُ المَزَلَّةُ؛ وهي: المكانُ الدَّحْض الزَّلِق، وتُطلقُ على الزَّلَلِ فِيهِ[10].

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، ونشوان الحِمْيَرَي، شمس العلوم: (رغد).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصَّل: (رغد).
(3) ابن سيده، المخصّص: 3/455.
(4) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 46.
(5) ابن جرير، جامع البيان: 1/515، . 516.
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (شجر).
(7) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (شجر)، والزَّبيديّ، تاج العروس: (شجر).
(8) الفرَّاء، معاني القرآن: 3/112.
(9) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصَّل: (زلل).
(10) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة: (زلل).

ويطلق الزَّلل في الحقيقة على انزلاق القدم، ويطلق مجازًا على الخطأ في الرَّأْي والنَّظر[1]، يقال: زلَّ الرَّجلُ في دينه؛ إذا أخطأَ فِيهِ، فأتى فِيهِ مَا لَيْسَ لَهُ أَنْ يأتيَهُ، وأزَلَّهُ غيرُهُ؛ إذا سبَّبَ له ما يَزِلُّ من أجلِهِ في دينٍ أو دنيا[2].

وقوله تعالى: ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾، أي: حَمَلَهُمَا على الزَّلَلِ بِتَزْيِينِهِ وإغوائِهِ[3]، والمرادُ بالزَّلِلِ ههنا: العصيانُ[4].

5) ﴿عَدُوّٞ﴾: العَيْنُ والدَّال والواو تَرجِع اشتقاقاتُها إلى تجاوزٍ في الشَّيْءِ وتقدُّمٍ لِمَا يَنْبَغِي أن يُقتصَرَ عَلَيْهِ[5].

والعَدَاوَةُ: المباعدَةُ والخُصُومَة[6]، والعَدُوُّ: ضدُّ الصَّديق والوليِّ[7]؛ وهو المخاصِمُ المباعِدُ، وقد يُتوسَّعُ في معناه فيُطلق على كلِّ مَن سرَّه مساءَةُ شخصٍ أو غَمَّهُ فرحُهُ[8]، وهذا يكون في الغالب لِلْمُخاصِمِ.

والعَدُوُّ: اسمٌ يقع على الواحد والمثنَّى والجمع، مؤنّثًا كان ذلك أو مُذَكَّرًا[9].

ومعنى قولِه ﷻ: ﴿ٱهۡبِطُواْ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞ﴾ أي: اهبطوا مُتَعَادين[10]، أو: اهبطوا وستكون بينَكُم عداوةٌ.

6) ﴿مُسۡتَقَرّٞ﴾: تدلُّ مادةُ القافِ والرَّاءان على ثَبَاتِ ما شأنُه التَّسيُّبُ، وامْتِسَاكُه في قاعٍ عميق[11].

ومِنْهُ القُرارة؛ وهي: مَا لَزِقَ في القِدْرِ من مَرَقٍ أَو تابَلٍ مُحْتَرِقٍ أَو سَمْنٍ أَو غَيْرِه[12]، سُمِّي بذلك لاستقرارِهِ أسفَلَها، والقَرارةُ: كلُّ مطمئنٍّ انْدفع إِلَيْهِ المَاءُ، فاستقَرَّ فِيهِ[13].

(1) الزَّمخشريّ، أساس البلاغة: (زلل)، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/433.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 1/524.
(3) الزَّجَّاج، معاني القرآن: 1/115، والسعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 49.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/433.
(5) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (عدو).
(6) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصَّل: (عدو).
(7) الجوهريّ، الصِّحاح: (عدا)، وابن سيده، المحكم: (عدو).
(8) البهوتّي، الرَّوض المُرْبِع، ص: 723.
(9) الخليل، العين: (عدو).
(10) البيضاويّ، أنوار التَّنزيل: 1/73.
(11) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (مكن).
(12) ابن سِيده، المحكم: (قرر).
(13) الزَّبيديّ، تاج العروس: (قرر).

والمُسْتَقَرُّ اسمُ مكانٍ مِنَ الفعل: استقرَّ، يقال: قرَّ بالمكانِ واستقرَّ؛ أي: أقامَ فِيهِ، فالمُسْتَقَرُّ: مكان قرارٍ وإقامةٍ[1].

والمستقرُّ في قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ﴾ يَحْتَمِلُ أن يكُونَ مصدرًا أوِ اسمَ مكانٍ أو اسمَ مفعولٍ[2]، وهذه المعاني لا تعارُضَ بينَهَا، ويمكنُ حملُ اللَّفظِ عَلَيْهَا جميعِهَا، والمعنى حينئذٍ: ولكم في الأرض استقرارٌ، ومكانُ قرارٍ، ولكم ما استقرَّ مُلْكُكُم عَلَيْهِ وجَازَ تصرُّفكُم فِيهِ[3].

7) ﴿وَمَتَٰعٌ﴾: يدلُّ الجذر اللُّغويّ الميمُ والتَّاء والعَيْنُ على منفعةٍ وامتدادِ مُدَّةٍ في خيرٍ وقوَّةٍ وكمالِ حالٍ[4].

ومِنْهُ قوله تعالى: ﴿يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [هود: 3] أي: يَبْسُط عَلَيْكُمْ مِنَ الدُّنيا ويرزقكم مِنْ زينتِها، ويَنْسَأْ لَكُمْ في آجالكم إِلَى وقتِ وفاتِكُمْ ولَا يَسْتَأْصِلكم بِعذابٍ[5].

ومِنْهُ: المَتَاع؛ وهو في الأَصْل: كلّ شَيْء يُنتفَع بِهِ ويُتبلَّغ بِهِ ويتزوَّدُ[6]، وهو المرادُ في قوله سبحانه: ﴿وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾.

8) ﴿حِينٍ﴾: الحاء والياء والنُّون تدلُّ اشتقاقاتُها على معنى الزَّمنِ، فالحينُ: هو الزَّمان، قليلًا كان أو كثيرًا[7].

ومِنْهُ قولُه سبحانه: ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ﴾ [ص: 88]، أي: بعد زمنٍ لم يُنَصَّ لَهُمْ على أمَدِهِ[8]، وذلك إمَّا عند نزول العذاب عَلَيْهِمْ أو حُلولِ الموتِ بِهِمْ، أو نحو ذلك[9].

والحينُ في قوله تعالى: ﴿وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ من هذا الباب؛ وهو زَمَنٌ غير مُحَدَّدٍ؛ إِذِ المرادُ: زمنُ انقضاء الأجلِ، وذلك يَخْتَلِفُ مِنْ وَاحِدٍ لآخَرَ.

---

(1) الواحديّ، التَّفسير الوسيط: 1/124، والسّيوطيّ، نواهد الأبكار: 2/207، والقِنَّوجي، فتح البيان: 1/137.
(2) الزّمخشريّ، أساس البلاغة: (قرر).
(3) السّيوطيّ، نواهد الأبكار: 2/207.
(4) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (متع)، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصَّل: (متع).
(5) ابن جرير، جامع البيان: 15/229، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (متع).
(6) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة: (متع).
(7) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (حين).
(8) ابن الجوزيّ، نزهة الأعين النَّواظر، ص: 256.
(9) البيضاويّ، أنوار التَّنزيل: 5/35)، والسعدي، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 717.

9) ﴿فَتَلَقَّىٰٓ﴾: اللَّام والقاف والياءُ تدلُّ على معانٍ، المناسبُ لها ههنا: دِلَالتها على تَوَافِي شيئَينِ مُتَقَابِلَيْنِ[1]، ومِنْهُ: التَّلَقِّي؛ وهو استقبالُ ما يُلْقَى[2]، ويُطْلَقُ على استقبالِ مَن جاء من بعيدٍ[3].

وَأمَّا قَوْل الله تعالى: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ﴾؛ فالمرادُ: أنَّه قَبِلَهَا وَأَخذهَا عَنْهُ[4].

10) ﴿كَلِمَٰتٍ﴾: الكاف واللَّام والميم تدور اشتقاقاتها على معانٍ، والمناسب منها لهذا المقام ما دل على النُّطْقِ المُفْهِم، ومِنْهُ: الكَلامُ[5].

والكلمات جمعُ كلمةٍ؛ والكَلِمَةُ في لغة العرب: الجملةُ التَّامَّةُ، وهو معنًى مُطَّرِدٌ لها، كما قال ابن تيميةَ: "ولا يوجد قطُّ في الكتاب والسُّنَّة وكلام العرب لفظُ الكلمة إلَّا والمراد به: الجملة التَّامَّة"[6].

والكلمات في قول الله تعالى: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِۚ﴾: اعْتِرَاف آدم وحوَّاء بالذنبِ[7]؛ وهو الواردُ في قوله تعالى: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: 23].

11) ﴿ٱلتَّوَّابُ﴾: التَّاء والواو والباء تدلُّ تصاريفُها على الرُّجوعِ، يقال: تابَ مِنْ ذنبه؛ أي: رجع عَنْهُ[8]، وتاب إلى اللهِ؛ عادَ إِلَيْهِ بالطَّاعَةِ بعدَ المَعْصِيَةِ، وتاب اللهُ على العبد؛ رجع إِلَيْهِ بالمغفرة[9].

والتَّوابُ يقع وصفًا لِلْعَبْدِ، ويقع اسمًا ووصفًا لله تعالى.

فأمَّا (التَّوابُ) باعتبارِهِ وصفًا لِلعبد؛ فهو كثيرُ التَّوبةِ، كما تدلُّ عليه صيغةُ المبالغَةِ، ومِنْهُ قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: 222].

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (لقي).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصَّل: (لقى).
(3) الخفاجي، عناية القاضي: 2/138.
(4) أبو عبيدة، مجاز القرآن: 1/38.
(5) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (كلم).
(6) ابن تيميَّة، مجموع الفتاوى: 12/104-105.
(7) ابن سِيده، المحكم: (كلم).
(8) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (توب).
(9) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة: 14/236.

وأمَّا التَّواب في حقِّ اللّه سبحانه، وهو الوارد في نحو قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾؛ فالمرادُ: أنَّه كثير التَّوبة على عباده، يوفِّقُهم لها ويقبلُهَا مِنْهُمْ[1].

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

قالَ اللّه سبحانه لآدم عليه السلام: اسكُن أنت وزوجُك حوَّاء الجنَّة، وكُلا مِن ثمارها أكلًا واسعًا هنيئًا لا عَناءَ فِيهِ ولا ضِيقَ، في أي مكانٍ شئتُمَا فِيهَا، وإيَّاكُما أن تقربَا هذه الشَّجرةَ المعيَّنَةَ أَوْ نَوْعَهَا؛ لئلَّا يَجُرَّكما ذلكَ إلى الأكل مِنْهَا، فتَصِيرا ظالمَيْنِ لأنفسكما بالوقوعِ في الذي نهيتُكُم عَنْهُ.

فأغواهما الشَّيطانُ وتسبَّبَ في خطئِهما وهفوَتِهمَا، فأخرجَهُما مِمَّا كانا فِيهِ مِنَ النَّعِيمِ والعيش الرَّغيد، وأَمَرَهُم اللّه سبحانه بالهُبُوطِ إلى الأرض - آدم وحواء والشيطان -، وأعلمهم بأنه سَتَكُونُ ثَمَّة عداوةٌ بين آدَمَ وذُرِّيَّتِهِ وإبليسَ وذُرِّيَّتِهِ، وأنَّ لَهُمْ في الأرض موضعَ استقرارٍ وما يسْتَمْتِعُونَ بِهِ مِنْ أكلٍ ولُبْسٍ وأُنْسٍ وغير ذلك، إلى وقت انقضاء آجالهم.

فَأَخَذ آدَمُ عليه السلام بالقَبُولِ كَلِمَاتٍ ألهَمَهُ اللّه تعالى الدُّعاءَ بِهِنَّ؛ ليكُون ذلك مِنْهُ توبةً واستغفارًا، وهذه الكلماتُ هي المذكورة في قوله ﷻ: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: 23]؛ فقَبِلَ اللّه توبتَهُ وغفرَ لَهُ؛ فإنَّه ﷻ كثير التَّوبة على عباده، يوفِّقُهم لها ويقبلُهَا مِنْهُمْ، وهو سُبْحَانَهُ رَحِيمٌ بِهِمْ[2].

الإِيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

بلاغةُ عَطْفِ القِصَّةِ عَلَى القِصَّةِ:

الشُّروعُ في بيانِ التَّكليف إثر الشُّروع في بيانِ الخلافةِ

عُطِفَ قولُ اللّه ﷻ: ﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ﴾ على قولِه سُبحانه: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ﴾ من باب عطف القصَّة على القصَّةِ؛ لكونهما مشتركَين في ذكر قِيلِ اللّه ﷻ لبعض خَلْقِهِ وإن اختلَفَ جنسُ المخلوقِ، فالأوَّلُ: مَلَكٌ، والثَّاني:

(1) سعيد القحطانيّ، شرح أسماء الله الحسنى، ص: 110.

(2) أبو عبيدة، مجاز القرآن: 1/38، والثَّعالبي، الجواهر الحسان: 1/221، 222، والسُّيوطي، تفسير الجلالين، ص: 9، والسعدي، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 49، وأبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 1/198 199، ونخبة من أساتذة التّفسير، التّفسير الميسّر، ص: 6.

بَشَرٌ، واشتركت الآيتان في تَعدادِ نِعَم إكرامِ اللّه تعالى لآدمَ [1] عليه السلام، وفائدةُ العَطْفِ تكمُنُ في بيانِ ما يترتَّبُ على آدمَ من التَّكاليف؛ فإنَّ إكرامَه ليس بمعزِلٍ عنِ التَّكليفِ، والنَّهيُ عن الأَكْلِ من الشَّجَرَةِ بدايةُ التَّكليفِ.

سِرُّ التَّعْبِيرِ بِضَمِيرِ الجَمْعِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقُلْنَا﴾:

عَظَمَةُ مِنَّةِ الله تعالَى على آدَمَ عليه السلام بِإِسْكانِه وزَوْجِه الجنَّةَ

وفي التَّعبير بالنُّون في قوله سبحانه: ﴿وَقُلْنَا﴾ إيماءٌ إلى تشريفِ القول وتعظيمِه والاهتمام بِه[2]، وفِيه تَنْبيهٌ إلى عَظَمَةِ الأمرِ المذكورِ بَعْدَهُ، وأنَّه حقيقٌ بأَنْ تتوجَّهَ العنايةُ إِلَيْه.

نُكْتَةُ تَصْدِيرِ الكَلَامِ بِنِدَاءِ آدَمَ عليه السلام:

إلقاءُ المسؤوليَّةِ على الرَّجلِ، وجعلُ زَوْجِه تَابِعَةً لَهُ

تَصْدِير الكلام بالنِّداء في قول اللّه جل جلاله: ﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ﴾ دالٌّ على الاهتمام بتلقِّي المأمور بِه، وفِيه تحريكُهُ لما يُخاطَبُ به؛ لكونه مِنَ الأمور التي يَنْبَغِي أن يتوجَّهَ إِلَيْهَا[3].

وتخصيصُ أصل الخطابِ بآدَمَ عليه السلام مُشعِرٌ بأصالتِه في تعاطِي المأمورَاتِ[4]، فهو مقصود بالخطاب أصلًا وزوجُهُ تَبَعٌ لَهُ.

في نداء آدم باسمه رَفعُ مَكَانته في الملأِ الأَعْلَى:

نداءُ اللّه تعالى لآدم عليه السلام قبل تخويله سُكْنَى الجنَّة تَنْويهٌ بذِكْرِ اسمِه في الملأ الأعلَى؛ إذ ذلك يَسْتَرْعِي أسماعَهم فيتطلَّعُونَ لِمَا سَيُخاطَبُ بِه[5].

غرضُ الأَمْرِ فِي ﴿ٱسْكُنْ﴾ الامتنانُ:

لازمُ الأمرِ في قولِ اللّه تعالى: ﴿ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ﴾ يُراد به الامْتِنانُ عَلَيْهِ بالتَّمكين والتَّخويلِ، ولازمُ ذلك الإباحةُ؛ فإنَّ الامتنانَ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/428.
(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/102.
(3) الآلوسّي، روح المعاني: 1/234.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السَّليم: 1/90، والفُوجَوِيّ، حاشية زاده على البيضاويّ: 1/537.
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/428.

لا يقع إلَّا بالمباح، ولا يُرادُ به أمرُ إيجابٍ؛ إذْ سعيُهُ بنفسهِ لسُكْنَى الجنَّة لا قدرةَ لَهُ عَلَيْهِ، فلا يدخُل في الإيجاب[1].

سِرُّ الأمرِ بالإفرادِ دون التَّثنيةِ:

بيانُ المقصودِ بالخِطَابِ أصالةً وتبعًا

خُوطِبَ آدمُ عليه السلام بقول الله تعالى: ﴿ٱسۡكُنۡ﴾ ثُمَّ عُطِفَ عَلَيْهِ زَوْجُهُ بقوله سبحانه: ﴿أَنتَ وَزَوۡجُكَ﴾، ولم يخاطبها معه بالتَّثنية: (اسْكُنَا)؛ لِلْإيمَاء إلى أنَّهُ هو المقصودُ بالحكم، وأنَّ المعطوف - وهي زوجُهُ - تبعٌ لَهُ، فَفِيهِ التَّنبيه أنَّه لولاهُ لَمَا كانَت مأمورةً بذلكَ، كما تُفرِّق العربُ بين قول القائلِ: افعل أنت وقومُكَ كذا، وبين: افعلوا كذا[2].

فَائِدَةُ الضَّمِيرِ المُنْفَصِلِ:

صحَّةُ العطفِ، وتكريمُ آدمَ بتخصيصِه بالضَّميرِ

جيءَ بالضَّميرِ المنفصِلِ ﴿أَنتَ﴾ في قوله ﷻ: ﴿ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ﴾؛ لسببٍ لفظيٍّ وآخر دلاليّ: أمَّا اللفظيُّ؛ فليصحَّ العطفُ على الضَّمير المستترِ المرفوعِ في ﴿ٱسۡكُنۡ﴾[3]، وفيه تقريرٌ لمدلولِ المعطوفِ؛ "لئلا يكون تابعهُ المعطوف عليه أبرزَ مِنْهُ في الكلام"[4].

وأمَّا الدّلاليّ؛ فهو تكريمُ آدمَ عليه السلام وتخصيصُه بالضميرِ، واندرجتِ الزَّوجُ في الأمرِ -وإن كان الغائبُ لا يُؤمَرُ بلفظ الحاضرِ-؛ تغليبًا لِلْحَاضِرِ وهو آدمُ عليه السلام.

معنى اللَّامِ فِي كلمةِ ﴿ٱلۡجَنَّةَ﴾:

تعريفُ الجنَّةِ باللَّام لا يُرادُ به الاستغراقُ؛ إذْ سكونُ جميعِ الجنَانِ محالٌ، فتكون اللَّامُ لِلْعَهْدِ الحضوريِّ، وهي الجنَّةُ التي عَرَفهَا آدمُ[5] عليه السلام.

---

(1) أبو حيَّان، البحر المحيط: 1/252، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/428.

(2) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 1/152، والبيضاويّ، أنوار التَّنزيل: 1/72.

(3) ابن عقيل، شرح ألفيَّة ابن مالك: 3/236-238.

(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/428.

(5) أبو حيَّان، البحر المحيط: 1/253.

نُكْتَةُ التَّثنيةِ بعد الإفرادِ:

استقلالُ حوَّاء عن زوجِها في الأكلِ، بخلافِ السُّكنى

الأمر في قوله جَلَّ وعلا: ﴿وَكُلَا﴾ يُراد به الامتنانُ، ووُجِّه الخطابُ في قوله سبحانه: ﴿وَكُلَا﴾ لآدمَ وحوَّاءَ معًا، بخلاف قوله قبلُ: ﴿ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ﴾؛ فإنَّه وجَّه الخطابَ أصالةً لآدمَ عليه السلام وجعلَ زوجَهُ تابعةً لَهُ فِيهِ؛ وذلك لِتعميمِ التَّشريفِ والتَّرفيهِ، ولِلْمُبَالغةِ في إزالة الأعذار، والإيذانِ بتساويهِمَا في مباشرةِ المأمور بهِ؛ "فإنَّ حوَّاءَ أُسوةٌ لَهُ عليه السلام في الأكلِ، بخلاف السَّكنِ؛ فإنَّها تابعة لَهُ فِيهِ"[1].

فنُّ الِاسْتِخْدَامِ:

إباحةُ الأكلِ مِنَ الجنَّة لآدم وحوَّاء على سَبِيل الاتِّساعِ لا الحَصْرِ

الضَّمير في ﴿وَكُلَا مِنۡهَا﴾ راجعٌ إلى الجنَّةِ على حذف مضافٍ، والتَّقدير: كُلَا مِن مطَاعِمِهَا؛ ففي الآية استخدامٌ[2]؛ فإنَّ الاسمَ الظَّاهرَ لِلجنَّةِ يُرادُ بها دارُ الثَّوابِ نفسُهَا، وعاد عَلَيْهِ ضميرٌ على معنَى المطاعِمِ التي فِيهَا، ونُكْتَةُ الاستخدام: الإيذانُ بإباحةِ الأكلِ لَهُمَا مِنَ الجنَّة على سبيل التَّوسعةِ[3]، فكلُّ ما في الجنَّةِ مُبَاحٌ لهما أَكْلُهُ.

ويقوِّيه وجهان:

أحدهما: قولُهُ بعدُ: ﴿رَغَدًا﴾، أي: أكلًا واسعًا هنيئًا.

والآخر: قولهُ: ﴿حَيۡثُ شِئۡتُمَا﴾، ففيهِ عُمومُ الإباحةِ والإذنِ؛ إذْ إنَّ مشيئَتَهُمَا لا تنحَصِرُ[4].

تَوْجِيهُ المُتَشَابِهِ اللَّفْظِيِّ:

دِقَّةُ التَّعْبِيرِ القُرْآنِيِّ في استخْدَامِ حرُوفِ المَعَانِي

وَرَدَ الفعل (كُلَا) مقرونًا بالواو ههنا، وورد مقرونًا بالفاء في سورة الأعراف في قول الله تعالى: ﴿وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السَّليم: 1/90.

(2) الاستخدام: أَنْ يُذكر لفظٌ بمعنًى، ثمَّ يُعادَ عليه ضميْر أو إشارةٌ بمعنًى آخَرَ، ينظر: أحمد مصطفى المراغي، علوم البلاغة، ص: 239.

(3) أبو حيَّان، البحر المحيط: 1/255.

(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/432.

﴿ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا﴾ [الأعراف: 19]؛ وذلك لأنَّ الأكلَ من موضعٍ ما لا يكون إلَّا بعد مطلَقِ الدُّخول، سواءٌ أكان الدُّخول دخولَ سُكْنَى أم لا، وآية الأعراف وردت بعد قوله سبحانه لإبليسَ: ﴿ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا﴾ [الأعراف: 18]، ثُمَّ جاءَ الأمرُ لآدمَ عليه السلام بقوله تعالى: ﴿وَيَـٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ﴾، فكان معناه: دخولَ سُكْنَى؛ وهو دخولُ إقامةٍ لا مطلق الدُّخول، فكان الأنسبَ مَعَهُ العَطْفُ بالفَاءِ؛ إذْ إنَّ الدُّخول متقدِّم على الأكل، ويتأتَّى في مطلقِ الدُّخولِ التَّعقيبُ، بخلاف آية البقرة؛ فإنَّه لم يتقدَّمها ما يدلُّ على دخولٍ سابقٍ، فلم يصلح فِيهِ العَطْفُ بالفاءِ؛ لاستدعاء ذلكَ زمنًا ممتدًّا[1].

بَلَاغَةُ الكِنَايَةِ:

النَّهيُ عن قربان الشَّجَرَةِ أشدُّ من النَّهي عن الأكلِ منها

نهَى اللّه سبحانه وتعالى آدمَ عليه السلام وزوجَهُ من قربان الشَّجرةِ، والمقصود: النَّهيُ عن الأكلِ مِنْهَا، فيكون النَّهْيُ عَنِ القربان من بابِ الكِنَايةِ لا من بابِ المجازِ المُرْسَلِ بعلاقة السَّبَبِيَّة؛ لصحَّة إرادة المعنى الأصليِّ وهو النَّهي عن ذاتِ القرْبَان، فإنَّ السَّببَ الدَّاعيَ إلى الشَّرِّ مَنْهِيٌّ عَنْهُ[2].

ونكتةُ التَّعبير بالكناية: المبالغةُ في التَّحذير من ذلك؛ ولأنَّ قربانَها ينشأُ عَنْهُ داعيةٌ وميلٌ يُلهي القلبَ عمَّا هو مقتضَى الشَّرع والعقل[3].

فائِدَةُ الإِتْيَانِ بِاسْمِ الإِشَارَةِ ﴿هَـٰذِهِ﴾:

تصويرُ المشْهدِ للمخاطَبِ؛ لِيعلَمَ تعيينَ الشَّجرةِ لآدَمَ حينَ أَكَلَ منها

الإتيانُ باسم الإشارةِ ﴿هَـٰذِهِ﴾ للدّلالة على حضورِ هذه الشَّجرةِ المشارِ إِلَيْهَا؛ إذِ الأصلُ في اسم الإشارة أن يكونَ لحاضرٍ، ونُكْتَةُ الإتيان باسم الإشارَةِ هَهُنا: تمييزُ المشَارِ إِلَيْهِ أكملَ تَمْييزٍ[4]، وفائِدةُ

(1) الخطيب الإسكافي، درَّة التَّنزيل: 1/222، 225، والكرمانّي، البرهان في توجيه متشابه القرآن، ص: 70، والفخر الرَّازيّ، التّفسير الكبير: 3/453.
(2) البيضاويّ، أنوار التَّنزيل: 1/72، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/432.
(3) البيضاويّ، أنوار التَّنزيل: 1/72، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/432.
(4) الطِّيبي، فتوح الغيب: 2/440.

ذلك: تصويرُ المشْهدِ للمخاطَبِ؛ لِيعلَم أنَّ آدَمَ عليه السلام قد رأى الشَّجرةَ عيانًا، ولم يلتبِس عليه الأمرُ حين الأكلِ منها.

اللَّامُ فِي ﴿ٱلشَّجَرَةَ﴾ للعهدِ الحضوريِّ:

التَّوْسِعَةُ علَى آدَمَ في الِانْتِفَاعِ بثَمَرِ الجَنَّة

اللَّام في الشَّجرةِ لِلْعَهدِ، أي: شجرةٌ وحيدةٌ وَحْدَةً شخصيةً، ويحتمل أن تكُون اللَّامُ لِلْجِنْس، فتكون الوحدةُ نوعيةً، والمرادُ: شجرةٌ مِن نوعها.

واسْتَظْهَرَ الطِّيبيُّ الأوَّل؛ لأنَّه أظهرُ لإزاحة العُذْرِ وأبلغُ في الدّلالة على التَّوسعة في الِانْتِفَاعِ بثَمَر الجنَّة[1].

التَّعْبِيرُ بِ ﴿فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ دُونَ (فَتَكُونَا ظَالِمَيْنِ) للمبالغةِ في التَّحذيرِ:

جاء النَّظم القرآنيُّ ﴿فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، ولم يَرِدْ (فَتَكُونَا ظَالِمَيْنِ)؛ للدّلالة على شِدَّةِ التَّحذيرِ من مخالفةِ أمرِ اللّه تعالَى؛ فإنَّ الاقترابَ من الشَّجرةِ عصيانًا لأمرِ اللّه تعالَى هو ظلمٌ للنَّفسِ، وهذا التَّعبيرُ أفادَ الإغراقَ في الظُّلْم، كما فرَّق أهلُ العلم بين قول القائل: زيدٌ مِنَ العُلَماء، وقولِه: زيدٌ عالمٌ؛ فإنَّ الأوَّلَ أبلغُ؛ لاقتضائِه أنَّه غارقٌ في العلمِ أبًا عَنْ جدٍّ[2].

دلالة الفَاءِ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَأَزَلَّهُمَا﴾:

التَّعقيبُ بالنسبةِ للشَّيطانِ لا بالنسبة لهما

الفاء في قوله سبحانه: ﴿فَأَزَلَّهُمَا﴾ إمَّا أن تكون تفريعيَّةً مجرَّدَةً عن دلالة التَّعقيبِ، وإمَّا أن تكونَ دَالَّةً على التَّعقيبِ، ومعناه في هذا السِّياقِ ترقُّبُ الشَّيطانِ لهما، فبمجرَّد تمكُّنه من الوسوسةِ أزلَّهما، فالتَّعقيبُ له لا لهما. أو يكون معناه: وإن وقع متراخيًا بعد المُدَّةِ المقصودةِ مِنَ سكنى الجنَّة؛ فإنَّه كالمدَّةِ اليسيرةِ[3].

(1) الطِّيبي، فتوح الغيب: 2/441، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/432.
(2) الآلوسّي، روح المعاني: 1/236.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/433.

نُكْتَةُ الاسْتِعَارَةِ:

والإِزْلَالُ في قوله سبحانه: ﴿فَأَزَلَّهُمَا﴾ يُرادُ به: حملُهُما على الزَّلَلِ؛ وهو هنا العصيانُ[1].

التَّنْفِيرُ مِنْ مُواقعةِ الخطَايَا تشبيهًا لمن يقعُ فيها بمن لم تتمكَّن قدماه من الأرض

وأصلُ الزلَّلِ أن يكون في القدَم، وإطلاقُهُ على صدور الخطيئة مجازٌ بالاِسْتِعَارَةِ؛ فقَدْ شُبِّهَتْ حركَةُ الرِّجلَيْنِ على الأرض دون اختيارٍ لرخاوةٍ في الأرضِ بسبَبِ طينٍ أو نحوِ ذلك؛ بِصُدور الخَطيئةِ والغلطِ المُضِرِّ، بجامع وقوعِ الضَّرَرِ في كُلٍّ مِنْهُمَا، فحُذف المُشَبَّهُ بِهِ ورُمزَ له بشيء مِن لوازمِه، على طريقة الاِسْتِعَارَةِ بالكِنَايةِ. وفائدتُها: إبرازُ الأمرِ المعنويِّ في قالبِ المحسوسِ؛ ليكون أظهرَ في الدّلالة وأشدَّ تنفيرًا من مُواقعةِ الخطَايَا، كما يتحاشا المَرْءُ زَلَلَ قَدَمَيْهِ.

التَّكَامُلُ الدّلَالِيُّ بَيْنَ قِرَاءَةِ ﴿فَأَزَلَّهُمَا﴾ وَقِرَاءَةِ ﴿فَأَزَالَهُمَا﴾:

التَّنبيهُ على خطرِ البداياتِ؛ فبدايةُ الزَّلَلِ أدَّت إلى الإزالةِ من الجنَّة

قرأ العشرةُ عدَا حمزةَ ﴿فَأَزَلَّهُمَا﴾، وأما حمزةُ فقرأ ﴿فَأَزَالَهُمَا﴾ بتخفيف الزَّاي وزيادةِ ألف بينها وبين اللَّام[2].

فأمَّا قراءة الجمهور ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيۡطَٰنُ عَنۡهَا﴾ فمعناها: حَمَلَهُما على الزَّلل وأوقعهما فِيهِ، و(عَنْ) لِلسببيَّةِ، والضَّمير يعود إلى الشَّجرةِ؛ إذ هي أقربُ مذكور، أي: حملهما الشَّيطانُ على الزَّلَّةِ بسببها[3].

وأمَّا قراءة حمزة ﴿فَأَزَالَهُمَا ٱلشَّيۡطَٰنُ عَنۡهَا﴾؛ فَبِمَعْنَى: نحَّاهُما وأبعدهما، والضميرُ راجعٌ إلى الجنَّةِ.

ويظهرُ التَّكاملُ الدّلاليُّ بين القراءتين في حَمْلِ قراءة الجمهورِ على البدايةِ؛ ذلك أنَّ أوّلَ ما وَقَعَ هو الحملُ على الزَّلَلِ والوقوعُ في الخطيئةِ،

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/433.
(2) ابن الجزري، النشر: 2/211.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 1/262.

وحَمْلِ قراءةِ حمزة على النَّهاية؛ ذلك أنَّهما لمَّا عَصَيَا أُزيلا عن الجنَّة، فكانتِ البدايةُ من الشَّجرَةِ، وكانت النِّهايةُ من الجنَّة.

دلالة اللَّامِ فِي ﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾:

اللام في ﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾ للعهدِ الكنائيِّ، وهو إبليس، وإنما كان عهدًا كنائيًّا لا صريحيًّا مع تقدُّمِ ذكرِهِ؛ لأنَّ تقدّمَ ذكره لم يكن باللفظ الذي هو مدخول اللامِ ههنا، بل بلفظٍ آخرَ.

نُكْتَةُ الإِبْهَامِ بِالِاسْمِ المَوْصُولِ:

توريثُ السَّامعِ الحسرةَ على الجنَّةِ ليحرصَ على الطَّاعةِ وسُلَّمِ الوصولِ

(مَا) في قوله تعالى: ﴿فَأَخۡرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِۖ﴾ اسم موصولٌ بمعنى الذي، والمعنى: فأخرجهما من الذي كانَا فيهِ، والمرادُ بالموصولِ وصلتِهِ: تعظيمُ ما كانا فيهِ مِنَ النَّعيم[1]، وذلك أنَّ مِن أساليب البلاغة في الدّلالة على عِظَمِ الشيء وفخامَتِهِ: التَّعبيرَ عَنْهُ بلفظٍ فيه إبهامٌ؛ لتذهب النَّفسُ في تصوُّر عظمتِه وكماله كلَّ مَذْهَبٍ[2]، وفائدةُ ذلك توريثُ الحَسْرَة عند السَّامعِ فيتمنَّى أنْ لم تقعِ الزَّلَّةُ، فيقودُه ذلك إلى طريقِ الطَّاعةِ، وسُلَّمِ الوصولِ.

سِرُّ العَطْفِ بِـ (الوَاوِ) دُونَ (الفَاءِ):

مِنْ أَفَانِينِ البَلَاغَةِ قَرْنُ النَّظِيرِ بِنَظِيرِهِ

عُطِفَ قولُه سبحانه: ﴿وَقُلۡنَا﴾ بالواو دون الفاءِ؛ لأنَّ هذا القول ليس متفرِّعًا عَنِ الإخراج مِنْ نعيم الجنَّةِ، بل هو متقدِّمٌ عَلَيْهِ زمَنًا، وإنَّما ذُكر الإخراج قبلَهُ؛ لاقتضاء السِّياقِ لَهُ؛ بسَرْدِ ما فعله الشَّيطانُ بآدمَ[3] عليه السلام.

سِرُّ التَّعْبِيرِ بِالجَمْعِ فِي ﴿ٱهۡبِطُواْ﴾:

تحفيزُ الهِمَمِ للإيمانِ والعملِ على دخولِ الجنَّةِ، ودفعِ العجزِ واليأسِ

وُجِّه الأمرُ للجمعِ في قولِه: ﴿ٱهۡبِطُواْ﴾ لأنَّ المرادَ هبوطُ آدم وحوَّاء وذُرِّيَّتِهما؛ فإنَّ خروجَهُما مِنَ الجنَّة يقتضي عدمَ وجودِ نسلٍ لَهُمَا

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/434.
(2) محمد علي جميل، صفوة التَّفاسير: 1/44.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتّنوير: 1/434.

فِيهَا، فكان إهباطُهما إهباطًا لَهُمْ، وهذا أدْعى لوجودِ الحسْرَةِ المُلهبَةِ للعملِ للجنَّةِ، وأمتنُ في أملِ العَودَةِ لها، ففيه زرعٌ لبُذُورِ الأملِ لدى المخاطَبين، بما يدفعُ عنهم الشُّعورَ بالعجزِ واليأسِ من دُخولِ الجنَّة.

واستظهر ابنُ عَاشُور أنَّ الضَّمير وإن كان لِلْجَمْعِ؛ فإنَّه يُراد به التَّثنيةُ، وعُدِلَ عن التَّثنية إلى الجمع؛ لاستثقال توالي المثنَّيات إظهارًا وإضمارًا، فيكون: "وكُلَا مِنْهَا رغدا حيث شئتُما ولا تقربا هذه الشَّجرة فتكونَا مِنَ الظَّالمين، فأزلَّهما الشَّيطان عَنْهَا فأخرجهما ممَّا كان فِيهِ وقلنا اهْبِطا..."، والعَرَبُ تكرَهُ كَثْرَةَ توالي ذلك[1]، ومِنْهُ قولُ امْرئِ القيس في معلَّقته[2]:

وُقُوفًا بِهَا صَحْبِي عَلَيَّ مَطِيَّهُمْ *** يَقُولُونَ لَا تَهْلِكْ أَسًى وَتَجَمَّلِ

توجيهُ فَصْلِ جُمْلَةِ ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ عَمَّا قَبْلَهَا:

تحذيرُ النَّاس من مآلِ المعاصي، وهو العداوةُ وعدمُ الأمانِ

جملةُ ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ يحتمل أن تكون حالًا، والتقدير: اهبطوا مُتَعَادِينَ[3]، ويحتمل أن تكون جملةً مستأنفَةً استئنافًا بيانيًّا؛ أي: واقعةً في جواب سؤال مقدَّرٍ[4]؛ وهو: ما يكون حالنا بعد هذا الإهباطِ؟

فجاء الجواب: ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾، وفائدة ذلك: تعليمُ النَّاسِ مآلَ المعصيةِ، وأنَّ الطَّاعةَ تقودُ إلى السِّلمِ والأمانِ.

دلالة اللَّامِ في ﴿ٱلْأَرْضِ﴾:

اللَّامُ في كلمةِ ﴿ٱلْأَرْضِ﴾ لِلْعَهْدِ العلمِيِّ؛ وهي الأرضُ التي استقرَّ عَلَيْهَا آدمُ عليه السلام واستقرَّت عَلَيْهَا ذرِّيتُهُ مِنْ بعدِهِ، وذلك بتذكيرِ المخاطَبين بالأرضِ التي ذَكَرَ اللّه تعالَى أنَّه سيجعلُ فيها خليفةً؛ لتطبيقِ شرعِه.

دلالة حَرْفِ العَطْفِ (الفَاءِ) فِي ﴿فَتَلَقَّىٰٓ﴾:

تعليمُ النَّاسِ المُبَادَرَةَ إلى التَّوْبَةِ

الفاء في قوله تعالى: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ﴾ دالَّةٌ على التَّعقيبِ كما هو الأصلُ فِيهَا، وفي ذلك دلالة على سُرعة إلهام اللّه تعالى لَهُ المبادرَةَ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/435.
(2) عبد الرَّحمن المصطاوي، ديوان امرئ القيس، ص: 24.
(3) البيضاويّ، أنوار التَّنزيل: 1/73.
(4) الطِّيبيّ، فتوح الغيب: 2/445.

بالتَّوبةِ[1]، ومبادرةُ آدمَ عليه السلام لطلب العفوِ ولِلْعَمَلِ بِتلك الكلماتِ حالَ تلقِّيها مِن ربِّه تبارَكَ وتعالى.

نُكْتَةُ التَّعْبِيرِ بِالتَّلَقِّي:

توجيه العبادِ إلى إكْرَامِ الكَلِمَاتِ المُتَلَقَّاةِ عَنِ الله تعالى

التَّعبير بالتلقِّي في قوله: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ﴾ دون (أَخَذَ) ونحوِهَا؛ لنُكْتَتَين[2]:

إحداهما: أنَّ فيه إيماءً إلى أنَّ مرتكِبَ المعصيةِ في نوعٍ مِنَ البُعْدِ؛ إذ إنَّ التلقِّيَ استقبالُ مَن جاءَ مِن بعيدٍ.

والأخرى: أنَّ التَّلقِّيَ وإن كان يُطلق على استقبال مَن جاءَ مِن بعيدٍ؛ فإنَّ الذي يُستقبَلُ مِن بعيدٍ هو من يَعِزُّ شأنُهُ عندَ المستقبِلِ، ويكون بأنواعٍ مِنَ الإكرام؛ فيكون إطلاقُ التَّلقِّي لِلْكَلِمَاتِ مُشعرًا بإكرامِ آدمَ عليه السلام إيَّاها، وبكونِ الكلماتِ مكرُمةً لهُ؛ إذْ كانت سببًا في عفو اللّه تعالى عَنْهُ.

تَكَامُلُ الدّلالة بَيْنَ القِرَاءَتَيْنِ:

التَّلَقِّي يَقْتَضِي مُشَارَكَةَ أَمْرَيْنِ؛ كُلٌّ مِنْهُمَا مُتَلَقٍّ وَمُتَلَقَّى

قرأ جمهور القرَّاء: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ﴾ برفع (ءَادَمُ) على الفاعليَّةِ، ونصبِ (كَلِمَٰتٍ) على المفعوليَّةِ، وقرأ ابنُ كثيرٍ بالعكسِ؛ فنصب (ءَادَمُ) على المفعولية، ورفع (كَلِمَٰتٍ) على الفاعليةِ[3].

فأما قراءة الجمهور؛ فلأنَّ العرب تقول: تلقّيتُ كذا من فلانٍ؛ أي: قَبِلْتُهُ، فيكون آدمُ عليه السلام قابلًا، والكلماتُ مقبولةً.

وأما قراءة ابن كثيرٍ؛ فوجهها: أنَّ العرب تقول: تلقَّيتُ فلانًا وتلقَّاني، والمعنى عندهم واحدٌ؛ إذْ إنَّ من لقِيتَهُ فقد لَقِيَكَ[4].

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/105.
(2) الخفاجيّ، عناية القاضي: 2/138.
(3) ابن الجزري، النشر: 2/211.
(4) ابن زَنْجَلَة، حجَّة القراءات، ص: 94، 95، وابن خَالَوَيْهِ، الحُجَّة في القراءات السَّبع، ص: 75.

ووجه التَّكاملِ بين القراءَتَيْن؛ أنَّ آدمَ عليه السلام لـمَّا تلقَّى الكلماتِ تلقَّتْه؛ فمعنى تلقِّيه لها استقبَالُه لها، ورِضاه بها، ومعنى تلقِّيها له انطباقُها عليه بشرُوطِ القَبُولِ، فقامَتِ القراءَتان مَقَامَ المشَارَكَةِ بين فاعِلَيْن.

دلالة التَّنْكِيرِ فِي قَوْلِهِ: ﴿كَلِمَٰتٍ﴾:

تعظيمُ الكَلِمَاتِ المُتلقَّاةِ عنِ الله تعالى

نُكِّرَت ﴿كَلِمَٰتٍ﴾ إشارةً إلى عَظَمَتِهَا؛ فهي كلماتُ عفوٍ ومغفرةٍ ورِضًا؛ بدليلِ استعمالِ فِعْلِ التَّلَقِّي معها؛ وهو فعلٌ دالٌّ على الإكرام.

ويقوِّيه قَرْنُ قولِه سبحانه: ﴿فَتَابَ عَلَيْهِۚ﴾ بالفاءِ، وهي سببيَّةٌ، ولو كانت تلك الكلماتُ كلماتِ توبيخٍ وزجْرٍ؛ لَمَا صحَّ التَّسَبُّبُ ههنا[1].

سِرُّ التَّعْبِيرِ بِالإفرادِ دون التَّثنيةِ:

الاكتفاءُ بمتابَعةِ المرأةِ لزوجِها رعايةً لسترِها وعظيم حُرمتها

ذُكرت توبةُ آدمَ عليه السلام وحده دون حوَّاءَ، مع أنَّ التَّوبةَ صادرةٌ عنْهُمَا معًا، كما هو الواردُ في قولِ الله تعالى: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: 23]؛ اكتفاءً بذِكْرِ متابعتِهَا لَهُ في سائر الأحوالِ، وهذا مِنْهَا.

ولأنَّ المرأةَ مستورةٌ ولها حُرمةٌ؛ فأرادَ الله تعالى لها السَّتْرَ فلم يذكرها في المعصية[2].

وثَمَّة نُكْتَةٌ أُخرى وهو أنَّ "الكلامَ جرى على الابتداء بتكريم آدمَ وجَعْلِه في الأرض خليفةً، فكان الاعتناءُ بذكر تَقَلُّبَاتِه هو الغرضَ المقصودَ"[3].

سِرُّ حَذْفِ فِعْلِ الرَّحْمَةِ:

التَّنبيهُ بالنَّتيجةِ على العِلَّةِ؛ فتَوْبَةُ اللهِ على عِبَادِهِ مِنْ رَحْمَتِهِ بِهِمْ

ذُكرت توبةُ الله سبحانه على آدمَ عليه السلام بالفعل (تَاب) في قوله: ﴿فَتَابَ عَلَيْهِۚ﴾ دون ذِكْرِ رحمتِه به؛ اكتفاءً بذكرهَا في فاصلة الآيةِ، والتَّقدير: فتَلَقَّى آدمُ مِن ربِّه كلماتٍ فتاب عَلَيْهِ ورحِمَهُ؛ إنَّه هو التَّواب الرَّحيم.

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/438.
(2) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 1/325.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/438.

بلاغةُ الفاصِلَةِ القرآنيَّةِ:

تعليلُ التَّوبَةِ بإلحَاقِ الخَاصِّ بالعامّ

جاءَ التَّعبير في ختام الآية بقوله سبحانه: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ وهو إطنابٌ بالتَّذييلِ، وهو تذييلٌ غيرُ جارٍ مجرى المثلِ؛ لأنَّه يُفيدُ ما أفادتْهُ الجملةُ قبلَهُ مَعَ ضَميمَةِ التَّعميم؛ إذْ قوله تعالى: ﴿فَتَابَ عَلَيْهِۚ﴾؛ فيه ذكرُ توبتِهِ سبحانه على آدمَ عليه السلام، أمَّا قوله ﷻ: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾؛ ففيه ذكرُ عموم توبتِهِ على مَن تابَ إلَيْهِ، وفائدة التَّذْييلِ: تعليلُ توبةِ اللّه تعالى على آدَمَ عليه السلام.

فائِدَةُ قرْنِ اسمِ التَّوابِ بالرَّحيمِ:

تعْليلُ الأَسْمَاءِ بالأَسْمَاءِ؛ فإنَّ قَبولَ التَّوبةِ بسببِ الرَّحمَةِ

قَرْنُ اسمِ اللّه التَّوَّاب باسمه الرَّحيم؛ لكون الرَّحيم جاريًا مجرى العلَّةِ للتَّوابِ؛ فإنَّ قَبُولَ اللّه سبحانه توبةَ عبادِهِ هو مِن رحمتِهِ بِهِمْ[1].

سِرُّ تَأْكِيدِ الجُمْلَةِ بِأَنْوَاعٍ مِنَ المُؤَكِّدَاتِ:

أُكِّدَت الجملةُ - ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾، وهي جملة خبريَّةٌ - بأربعةِ مؤكِّدات:

أوَّلها: (إنَّ)، في قوله: ﴿إِنَّهُۥ﴾.

ثانيها: القصر، وذلك بتعريف جُزأي الجملةِ.

ثالثها: ضَمير الفصل (هُوَ)؛ فإنَّه يقوِّي القصرَ في الجملةِ إذا وُجِدَ طريقٌ للقصرِ فيهَا -كما في هذه الآية-.

رابِعُها: اسميَّة الجملة؛ فإنَّها آكدُ مِنَ الفعليَّةِ؛ لِمَا تُفيده مِنَ الثَّبات والدَّوام.

وفي تأكيدِهَا هذا التَّأكيدَ حثُّ العبادِ على التَّوبة عمَّا بدَرَ منهم من الزَّلَلِ والخطايَا؛ فإنَّ توبة اللّه تعالى ليست مختصَّةً بآدم عليه السلام، بل تعمُّ جميعَ التَّائبينَ.

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/439.

الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

السُّكْنَى وَالإِقَامَةُ:

السُّكنى أخصُّ مِنَ الإقامة مطلقًا؛ فالسُّكْنَى هي إقامةٌ مع مكثٍ طويلٍ؛ إِذْ هِيَ الإقامة التي يَسْكُنُ بها المرءُ ويستقرُّ فِيهَا ويقيمُ فِيهَا شؤونَهُ، وهذا يقتضي زَمَنًا ممتدًّا، بخلاف الإقامةِ فتصدُقُ بأقلِّ الأزمِنَةِ[1].

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/103، و3/18، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/202.

﴿قُلْنَا ٱهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعًاۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ٣٨﴾ [البقرة: 38]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لـمَّا أعلم اللّه تعالى آدمَ وزوجَهُ بأنّه يَبتليهم بالطاعة، وأنّه يُجازيهم بالجنّة عليها وبالنّار على تركها، وأنَّ هذا الابتلاءَ وقع عند الهُبوط على الأرض بالعداوةِ اللَّازمةِ مِن إبليسَ لهما، كأنَّه قيل: ما وَجهُ الخلاصِ مِن آثار هذه العداوةِ؟ فجاء الجوابُ في هذه الآيةِ بأنَّه: اتِّباع هُدى اللّهِ سبحانَه وشرعِهِ في قوله: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ﴾[1].

شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

1) ﴿ٱهْبِطُواْ﴾: الهاء والباء والطَّاءُ تدُلُّ اشتقاقاتُها على معنى الانحدار[2]، وقيَّده الرَّاغبُ بكونِه على سبيل القَهْرِ، ومنه: هبوطُ الحجَرِ، وإذا استُعمل الهُبوطُ في حقِّ الإنسان؛ فذلك على سبيل الاستخفاف[3].

والهبوطُ في قول اللّه تعالى ﴿ٱهْبِطُواْ﴾: هو النُّزولُ من علوٍ إلى سُفْلٍ، ومِن عزٍّ إلى ذُلٍّ[4].

2) ﴿خَوْفٌ﴾: مادَّةُ الخَاء والواو والفاءِ تدلُّ تصاريفُها على الذُّعرِ والفَزَعِ[5]، والخوفُ مِن اللّه لا يُرَاد به ما يَخطُرُ بالبال مِنَ الرُّعب، كاستِشعار الخَوف من الأسد، بل إنَّما يُرَاد به الكَفُّ عَنِ المَعاصي واختيارُ الطّاعَات[6].

والخَوفُ ضدُّ الأَمنِ[7]، وحقيقتُهُ: أنَّهُ غَمٌّ يلحقُ العبدَ مِنْ توقُّعِهِ المكروهَ[8]، فهو خاصٌّ بالزَّمن المُستَقبَل[9]، ويُستعمَل في الأمور الدُّنيويَّة والأُخرَويَّة[10].

---

(1) الزجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 1/117، والبقاعيُّ، نظم الدُّرر: 1/295.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (هبط).
(3) الرّاغب، المفردات: (هبط).
(4) نشوان الحِميري، شمس العلوم: (هبط).
(5) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (خوف).
(6) الرّاغب، المفردات: (خوف).
(7) ابن دُريد، جمهرة اللُّغة: (خوف).
(8) الكفويّ، الكلّيّات، ص: 428.
(9) السَّمين، الدُّر المَصون: 1/297، والشّنقيطيّ، العذبُ النَّمير: 1/284.
(10) الرّاغب، المفردات: (خوف).

3) ﴿يَحۡزَنُونَ﴾: جذرُ هذه الكلمةِ وهو الحاء والزَّاي والنُّون يدُلُّ على مَعنَى خُشُونةِ الشَّيءِ، والشِّدَّةِ فيه[1].

ومنه: الحَزَنُ؛ وهو الغِلَظُ مِنَ الأرضِ[2].

ومنه: الحُزْنُ؛ وهو ضدُّ الفَرح والسُّرور؛ لأنَّه شدَّةٌ تَعتَري قلبَ الإنسان[3]، وخُشُونةٌ في النَّفس لِما يحصُلُ فِيه مِنَ الغَمِّ[4]، وحقيقةُ الحُزْنِ: غَمٌّ مِن أمرٍ فائتٍ[5].

ولا يَحصل الحُزْن بالاختيار، فنَفى اللّه تعالى عن أهل الجنَّة حقيقته؛ وهُو تعَاطي ما يُورث الحُزنَ واكتسابه.

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

قال اللّه تعالى لآدمَ وحوَّاء: اهبطُوا جميعًا مِنَ الجنَّةِ إلى الأرض؛ وسَيَأْتِيكُم وذرِّيَّتَكُم هدايةٌ منِّي إلى الحقِّ على أيدي رُسلي؛ فمن تَبِعَهَا فلا خوفٌ عليهم فيما يَستَقبِلونَ في الآخرة، ولا هُم يَحزَنون على ما فاتَ مِنَ الدُّنيا [6].

❁ الإيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

بلاغةُ فَصلِ قول الله تعالى ﴿قُلۡنَا ٱهۡبِطُواْ مِنۡهَا﴾ عَمَّا قَبلَه:

تَشويقُ المُتَلَقِّي وتَـثـويـرُ فِـكـرِهِ لمعرفة الجواب

فُصِل قولُه سبحانه: ﴿قُلۡنَا ٱهۡبِطُواْ مِنۡهَا﴾ عمَّا قبلَهُ؛ لما بينَ الجُملتَينِ مِن شِبهِ كمال الاتِّصال، وهو المعروف بـ (الاستِئنَافِ البيانيّ)؛ إذ الجُملةُ واقعةٌ جوابًا عَنْ سؤال ناشئ عَن قولِهِ تعالى قبلُ: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٖ فَتَابَ عَلَيۡهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾، والتَّقدير: ماذا وقعَ بعدَ قَبولِ توبَةِ آدمَ عليه السلام؟ فجاء الجوابُ: ﴿قُلۡنَا ٱهۡبِطُواْ مِنۡهَا﴾[7].

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (حزن).

(2) ابن دُريد، جمهرة اللُّغة: (حزن).

(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (حزن).

(4) الرّاغب، المفردات: (حزن).

(5) القُرْطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 1/321، والشّنقيطيّ، العذبُ النَّمير: 462/4.

(6) ابن الجوزيّ، زاد المسير: 1/58، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 1/240، والسّعدي، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 50، ونخبة من العلماء، التّفسير الميسّر، ص: 7.

(7) أبو السّعود، إرشاد العقل السَّليم: 1/92.

ويَحتَمِلُ أن يكونَ لكمال الاتِّصال[1]؛ إذ وقَعَتْ هذه الجملةُ تأكيدًا للأَمر الأوَّل بالهبوط -على القول بأنَّ الهُبُوطَين واحدٌ-، ويَحتَمِلُ أن يكون لكمال الانقِطاعِ[2]؛ لتبايُنِ الغَرضَين، فالأمرُ الأوَّلُ بالهُبوطِ أمرٌ تَكوينِيٌّ، والآخر أمر تَكليفِيٌّ.

سِرُّ مُخاطبَةِ الزَّوجَين بخطاب الجَمع:

الجمع للتَّشريف ولبيان أصلِ النَّوع الإنسانِيّ

خُصَّ آدم وحوَّاءُ بخطابِ الجَمعِ في قوله تعالى: ﴿ٱهۡبِطُواْ﴾ تَشرِيفًا لهما، وخُوطبا بما يخاطَب بِهِ الجمع؛ لأنَّ الاثنين أقلُّ الجمع عندَ بعض أئمة العربيَّة، أو أنَّه خطاب لَهُما ولذريَّتهما؛ لأنَّهما لمَّا كانا أصلَ هذا النَّوع الإنسانيّ جُعلا بمنزلته، ويدُلُّ على ذلك قوله تعالى ﴿بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ﴾؛ فإنَّ هذه الجملةَ الواقعة حَالًا مبيِّنًا للهَيئَة الثَّابتة للمَأمورين بالهُبوط تُفيدُ ذلك[3].

نُكتَةُ تَكرارِ الأمر بالهُبوط:

العَفوُ عَنِ الذَّنبِ لا يُبطِلُ العقوبَةَ التَّأديبيَّةَ

كُرِّر الأمرُ بالهبوطِ في هذه الآية من قَولِه ﷻ: ﴿قُلۡنَا ٱهۡبِطُواْ مِنۡهَا جَمِيعٗاۖ﴾ مع قوله قبلُ: ﴿وَقُلۡنَا ٱهۡبِطُواْ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ﴾، وفي سبب هذا التَّكرار ثلاثَةُ مسالكَ[4]:

أحدُها: أنَّ تَكرار الأمر بالهبوطِ لاختِلافِ حَقيقتِهما؛ فإنَّ الأوَّلَ أمرٌ بالهبوط مِنَ الجنَّة إلى السَّماء، والآخَرَ: أمرٌ بالهبوط مِنَ السَّماء إلى الأرضِ. وفي هذا نَظَرٌ؛ لعدم جريان ذكر السَّماء.

ثانيها: أنَّهُ مِن باب الإطناب بالتَّكرارِ؛ وفائدتُهُ: تحقيقُ كمالِ ارتباط النَّظم؛ إذ لو جاء قولُه: ﴿فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى﴾ بعدَ قولِه سبحانَه: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٖ فَتَابَ عَلَيۡهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾؛ "لم يَرتَبطْ كمال الارتباط، ولَتَوَهَّم السَّامع أنّه خطابٌ

(1) الآلوسي، روح المعاني: 1/239.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 1/239.
(3) أبو حيَّان، البحر المحيط: 1/270، والشَّوكانِّي، فتح القدير: 1/79.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/440.

للمُؤمِنِين على عادَةِ القرآن في التَّفَنُّنِ، فلِدَفعِ ذلك أُعِيدَ قولُه: ﴿قُلۡنَا ٱهۡبِطُواْ﴾، فهو قولٌ واحِدٌ كُرِّر مرَّتين؛ لِرَبط الكلام"[1].

وبُنِيَ على كلٍّ مِنَ المَوضِعَين معنًى غيرُ الّذي بُنِيَ عليه الآخَرُ؛ فالأوَّلُ بُنِيَت عليه العَداوةُ في قوله تعالى: ﴿بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ﴾، والآخر بُني عليه إتيانُ هدى الله في قولِه سبحانه: ﴿فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى﴾؛ لِتَحصُلَ فائدةٌ جديدةٌ في الكلام؛ لئلَّا يكونَ تَكرارًا مُجرَّدًا، وهذا يُسمَّى في البلاغة: التَّرديد[2].

ثالثُها: أنَّه من باب الاحتِراسِ[3]، وذلك أنَّه قد ذُكر الأمرُ الأوَّلُ بالهُبوطِ، ثُمَّ ذُكِرَتْ توبةُ الله تعالى على آدمَ عليه السلام، فقد يُظَنُّ أنَّ التَّوبة أوجبتِ العَفْوَ عنه مِنَ الهُبوطِ مِنَ الجنَّةِ، فأُعيد الأمرُ بالهُبوطِ دَفْعًا لذلك التَّوهُّم.

تَوجِيهُ المُتَشَابِهِ اللَّفظيِّ:

التَّكامُلُ الدّلالِيُّ في الألفاظِ القُرآنيَّة

جاء في سورة الأعراف: ﴿قَالَ ٱهۡبِطُواْ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ﴾ [الأعراف: 24]، وفي سورة طه: ﴿قَالَ ٱهۡبِطَا مِنۡهَا جَمِيعَۢاۖ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ﴾ [طه: 123] بذكر جملة: ﴿بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ﴾ في السُّورتَين، ولم تَرِدْ هذه الجملةُ في هذه الآية: ﴿قُلۡنَا ٱهۡبِطُواْ مِنۡهَا جَمِيعٗاۖ﴾؛ وذلك اكتفاءً بورودِها قبلَ آيتَينِ في السِّياق، وهي قوله تعالى: ﴿وَقُلۡنَا ٱهۡبِطُواْ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ﴾ [البقرة: 36]؛ فلو جاءت هذه الجملةُ في هذه الآية معَ الاتِّصال والتَّقارُب بين الآيتين؛ لكان تَكرارًا مِن غير فائدةٍ جديدةٍ، يُنَزَّهُ عنهُ كلامُ الله تعالى، بخلاف ما جاء في الأعرَافِ وطه[4].

---

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/440.

(2) الماوردي، النُّكت والعيون: 1/262.

والتَّرديد: تَكرار اللَّفظ متعلِّقًا بغَيرِ ما تعَلَّق به أوَّلًا، كقولهم: السَّخِيُّ قريبٌ من الله، قريبٌ مِنَ النَّاس، قريبٌ من الجنَّةِ، يُنظر: ابن الزَّمْلَكاني، التِّبيان في علم البيان، ص: 186.

(3) الاحتِراسُ: أن يُؤتى في كلامٍ يُوهم خلافَ المقصودِ بما يَدفَعُهُ.

يُنظر: الخطيب القَزوينيّ، الإيضاح في علوم البلاغة: 3/208.

(4) ابن الزُّبير الغَرْناطيّ، ملاك التَّأويل: 1/30.

نِكَاتُ استِعمَالِ (إنْ) الشَّرطِيَّةِ بدلًا مِنْ (إذَا):

أثرُ اختيارِ الأداةِ النَّحويَّةِ الأنسبِ في تَكثيرِ المَعاني

جِيء بأداة الشَّرطِ (إنْ) في قوله: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى﴾ وهي دالَّةٌ على الشَّكِّ، مع أنَّ إتيان الهُدى أمرٌ واقعٌ قطعًا، وفي دلالات حرف المعنى هذا مَسالِكُ، مِنها[1]:

أَوَّلًا: أنَّ الخطاب جاء على عادَةِ الملوكِ في التَّعبير عَنِ الأمور المُحَقَّقةِ الوقوعِ باللَّفظ المُحتَمِل.

ثانيًا: أنَّ الشَّكَّ راجعٌ إلى اتّباع الهدى، لا إلى إتيانِ هدى اللّهِ تعالى للنَّاس، واتِّباعُ النَّاسِ الهدى أمرٌ غيرُ مُحقَّق الوقوع.

ثالثًا: ظهورُ أدِلَّةِ وحدانيَّةِ اللّه تبارك وتعالى ظهورًا لا يتأَتَّى معه أدنى خفاء، بحيثُ لو قُدِّرَ احتمالُ عدمِ إرسال الرُّسُل؛ لاستدلَّ العبادُ على الوحدانيَّةِ بما يرونَهُ مِنْ مشاهدَ تُرشِدُ إليها.

رابعًا: لـمَّا أُبْهِمَ زَمَنُ الإتيانِ عُلِّقَ بأداة الشَّكِّ؛ فإنَّ أداة الشَّرطِ (إنْ) كما تُستعمل فيما يُشكُّ وقوعُهُ، تُستعمَل كذلك فيما أُبْهِمَ وَقتُ وُقوعِه.

سرُّ التَّعبيرِ بـ ﴿مِّنِّي﴾ دُونَ (مِنَّا):

مَصدرُ الهُدى هو الوَحيُ المُنَزَّلُ

كان مُقتضى الظَّاهر أن يَرِد (فإمَّا يأتيَنَّكم منَّا هُدًى) ليوافقَ صدرَ الآية؛ فإنَّ مطلَعَهَا ﴿قُلْنَا ٱهْبِطُواْ﴾، فيكون هذا التفاتًا في العددِ مِنَ الجَمعِ إلى المفردِ؛ ونُكتَتُه: الدّلالة على أنَّ الهُدَى لا يكون إلَّا منه سبحانَه، "فناسبَ الضَّميرَ الخاصَّ كونُه لا هاديَ إلَّا هو تعالى، فأُعطي الخَاصُّ الّذي لا يُشارِكُهُ فيه غيرُه الضَّميرَ الخاصَّ الّذي لا يَحتَمِلُ غيرَه تعالى"[2].

(1) أبو حيَّان، البحر المحيط: 1/272، وابن عَرَفة، تفسير ابن عرفة: 1/106، والآلوسي، روح المعاني: 1/240.
(2) أبو حيَّان، البحر المحيط: 1/272.

دلالة تقديمِ الجارِّ والمَجرُورِ في ﴿مِّنِّي﴾:

الهِدايَةُ الكاملةُ مِنَ اللهِ تعالى وَحدَه

تقديم الجارِّ والمجرورِ ﴿مِّنِّي﴾ في قوله تعالى: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى﴾؛ لإفادة القَصْرِ؛ إذ الأصلُ قبل التَّقديم (فإمَّا يأتينَّكم هُدًى منِّي)، فالهُدى الكاملُ لا مصدَرَ له، ولا يتحقَّق إلَّا مِنَ اللّه سُبحانَه، وفيه لُطفُ العنايةِ الإلهيَّة بالعبادِ، فإنَّ الهُدَى منه ﷻ، فقبلَ معرفةِ إتيانِ الهُدى، علينا أن نعلمَ أنَّه آتٍ من اللّه تعالى.

سِرُّ تنكيرِ ﴿هُدًى﴾:

عَظَمةُ الهُدى وكَثرَةُ آثارِهِ الحَسَنَة

يدلُّ تنكيرُ ﴿هُدًى﴾ في قوله سبحانه: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى﴾ على تعظيم هذا الهدى وكثرته[1]؛ فهو هُدًى عظيمٌ في نفسِهِ، عظيمٌ وكثيرٌ في آثارِهِ، وهذه الدّلالة أُخذتْ من السِّياق؛ فإنَّ الهدى آتٍ من اللّه تعالى، ويترتَّب عليه نفي الخَوْف والحزن.

وَضعُ المُظهَرِ مَوضِعَ المُضمَرِ في قوله ﴿فَمَن تَبِعَ هُدَايَ﴾:

وُجوبُ اتِّباعِ الهدى وترسيخُهُ في الأَذهان

مُقتضَى الظَّاهر أن يَرِدَ بعد المُظهرِ مُضمرٌ، فيكون (فإمَّا يأتِيَنَّكُم منِّي هُدًى فمَنْ تَبِعَهُ)، إلَّا أنَّه أُظهِرَ في قول اللّه تعالى: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ﴾، فيكون هذا مِن وَضعِ المُظهَرِ مَوقِعَ المُضمَرِ، ولهذا الأسلوب نُكَتٌ[2]:

إحداها: الإيماءُ إلى العلِّيَّةِ؛ بأَنْ يكون الهدى واجبَ الاتِّباعِ بالنَّظَر إلى ذاتِه.

اشتِمالُ القُرآن الكريم على جُملٍ يَتأتَّى تَسييرُها مَسيرَ الأَمثال

ثانيها: الاهتمام بالهدى؛ لِيَزدادَ رُسوخًا في أذهان المخاطَبين.

ثالثها: لو أُضمِرَ الهُدى الثَّاني بأَنْ وردَ بصيغة (فَمَنْ تَبِعَهُ)؛ لَمَا استقلَّ بالإفادةِ بل يفتقِرُ إلى ما قبلَهُ لتفسيرِهِ، فلمَّا أُظهِرَ كانت هذه

(1) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 1/203.

(2) الطِّيبي، فتوح الغيب: 2/415، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/442.

الجملةُ مُستقلَّةً بنفسِها؛ ليتأتَّى تسييرُها مسيرَ المثَلِ أو النَّصيحةِ، فَتُلْحظ فتُحْفظ، وتَتَذَكَّرها النُّفوس لِتُهَذَّب وتَرتَاضَ[1].

رابعها: "لأنَّه أراد بالثَّاني أعمَّ مِنَ الأوَّل، وهو ما أتى به الرُّسل واقتَضاه العقلُ، أي: فمن تَبِعَ ما أتاه مُراعيًا فيه ما يَشهد به العقلُ؛ فلا خوف عليهم فضلًا عَن أن يَحلَّ بهم مكرُوه، ولا هُم يفوت عنهم محبوبٌ فيحزنوا عليه"[2].

سِرُّ إضافة الهُدى ﴿هُدَاىَ﴾:

شَـرَفُ الـهُـدى وعَـظَـمَـتُه يقودُ إلى الانقيادِ

إضافَةُ الهُدى إلى الضَّمير الرَّاجع إلى اللّه تعالى في قوله: ﴿فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ﴾ يُرادُ به تشريفُ المضافِ وتعظيمُهُ[3]، وأنَّه سبب الاستِقامة والبركةِ والتَّوفيق؛ ففيه مزيدُ حثٍّ وحضٍّ على الاتِّباعِ.

تَوجيهُ المُتَشابِهِ اللَّفظِيِّ بين ﴿فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ﴾ و﴿فَمَن اتَّبَعَ هُدَاىَ﴾:

الاجـتـهـادُ في الاتِّـبـاعِ يُناسبُ قـوَّة الـلَّـعين في الوَسوَسةِ

وردَ في سورة طه في قوله تعالى: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن اتَّبَعَ هُدَاىَ﴾ [طه: 123] الفعل ﴿اتَّبَعَ﴾ والّذي في سورة البقرة ﴿تَبِعَ﴾، والفرقُ بينَهُما: أنَّ (تَبِعَ) أصلٌ، و (اتَّبع) افتعالٌ من (تَبِعَ)؛ فهو فرعٌ.

و (تبِعَ) يدُلُّ على مُطلَقِ الاتِّباعِ، مِن غيرِ تَعَمُّلٍ ولا تكلُّفٍ، بخلاف (اتَّبع) فإنَّه دالٌّ على تعمُّلٍ وتحميلٍ للنَّفس، وقُدِّم في أوَّلِ مَوضعٍ مِنَ القرآن الكريم -وهو الوارد في سورة البقرة- الفعلُ الأصلُ، وهو ما لا تَكلُّفَ فيه، وأُخِّرَ (اتَّبعَ) إلى سورة طه؛ لِمَا فيه مِنَ الزِّيادةِ على الأوَّلِ ولكونِهِ فرعًا.

ولأنَّ سورةَ البقرةِ لم يَرِدْ فيها ممَّا كان مِنْ إبليسَ إلَّا ما أخبَرَ به اللّه تعالى عنه مِن قوله: ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا﴾ [البقرة: 36] دون بيانِ تفاصيلِ ذلك؛ فناسبه ﴿فَمَن تَبِعَ﴾، بخلاف الواردِ في سورة طه؛ فإنَّ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/442.
(2) البيضاويّ، أنوار التَّنزيل: 1/73.
(3) الطِّيبي، فتوح الغيب: 2/451، والخفاجيّ، عناية القاضي: 2/141.

اللّه تعالى ذَكَر كيفيَّة إغواءِ إبليس لآدمَ عليه السلام في قوله: ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾ [طه: 120]، وفي هذا إيماءٌ إلى ما بُسِطَ في سورة الأعراف في قوله تعالى: ﴿وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ۝ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ ۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۚ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ۝ قَالَ ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ۝ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ۝ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا ۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ۝ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ ۗ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ۗ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ۝ وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝ قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَقِيمُوا۟ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۚ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ۝ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ ۗ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ۝ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُوا۟ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ۝ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ۝ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوٓا۟ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ ۝ قَالَ ٱدْخُلُوا۟ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِى ٱلنَّارِ ۖ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُوا۟ فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ ۖ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ۝ وَقَالَتْ أُولَىٰهُمْ لِأُخْرَىٰهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ۝ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ ۝ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ۝ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ ۚ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ ۖ وَنُودُوٓا۟ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝ وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا ۖ قَالُوا۟ نَعَمْ ۚ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ۝ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ كَٰفِرُونَ ۝ وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ ۚ وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَٰهُمْ ۚ وَنَادَوْا۟ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ ۚ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ۝ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَٰرُهُمْ تِلْقَآءَ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ قَالُوا۟ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝ وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَٰهُمْ قَالُوا۟ مَآ أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ۝ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحْمَةٍ ۚ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ۝ وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا۟ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ۝ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُوا۟ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا وَمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ۝ وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ ۚ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُوا۟ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ قَدْ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ۝ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ۝ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝ وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ۝ وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ۝ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ۝ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا۟ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ۝ فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ ۝ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ أَفَلَا تَتَّقُونَ ۝ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ۝ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ۚ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا ۖ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ ۖ أَتُجَٰدِلُونَنِى فِىٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ۝ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَمَا كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ۝ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً ۖ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ ۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ۝ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ۝ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُمْ بِهِۦ كَٰفِرُونَ ۝ فَعَقَرُوا۟ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ۝ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ۝ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ۝ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ۝ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ۝ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ۝ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝ وَلَا تَقْعُدُوا۟ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ ۖ وَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ۝ وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ فَٱصْبِرُوا۟ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ۝ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ۝ قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَنْ نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ۝ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ۝ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ۝ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَا ۚ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَانُوا۟ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ ۝ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ ۖ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ۝ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ۝ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا۟ وَّقَالُوا۟ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ۝ أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ۝ أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ۝ أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ۝ أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَٰبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ ۚ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ۝ تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ ۖ وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَٰسِقِينَ ۝ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ۝ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ۝ قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ۝ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ۝ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ۝ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ ۖ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ۝ قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ۝ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ۝ وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓا۟ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ۝ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ۝ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ ۝ قَالَ أَلْقُوا۟ ۖ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ۝ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ۝ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝ فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُوا۟ صَٰغِرِينَ ۝ وَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ۝ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۝ قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُمْ بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَ

فتَكُون قراءةُ الفتح: ﴿فَلَا خَوْفٌ﴾ آكدَ في نفي الخوف؛ لما فيها مِن عموم نَفي جنسِ الخوف، فأفادت نفيَ جميعِ أنواع الخوف عَن متَّبعي هُدى الرَّحمن[1]، وأنَّ المكلَّف الّذي أطاع اللّه تعالى لا يَلحَقُه خوف في القبر، وعند البعث، وعند حضُور الموقف، وعند تطايُر الكتب، وعند نصب الميزان، وعند الصِّراط[2].

سِرُّ التَّعبِيرِ بالجُمل الاسميَّة في قوله ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾:

العاقِبَةُ الحُسنى الحَميدَةُ لِمتَّبِعي هُدَى اللهِ تعالى

الجُملةُ في قوله: ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ اسميَّةٌ مفيدةٌ دوامَ تلك الحالِ فيهم، وهو دَوَامُ نفي الخوف لا نفي دوامِه.

وكذا الجملةُ في قوله: ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ فإنَّها اسميَّةٌ مفيدةٌ استمرارَ تلك الحالِ فيهم أيضًا؛ والمرادُ دوامُ نَفيِ الحُزْنِ عنهم لا نفيُ دوامِه؛ لأَنَّ النَّفيَ -وإن كان داخِلًا على الفعلِ المُضارع- يُفيد الدَّوامَ والاستمرارَ بحَسَبِ المقام[3].

سِرُّ تَعديَةِ الخَوفِ بـ (على) في قولِهِ ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾:

يُخَفِّفُ اللهُ تعالى عَنْ مُتَّبِعِ الهُدى أَثَرَ الأَهوالِ العَظِيمَة

جاء التَّعبير في قوله تعالى: ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ دون (لَا خَوف لَهُم) أو (لا خوف عِندَهُم)؛ لما في (على) مِنَ الدّلالة على الاستِعلاءِ والإحاطَةِ، فيكُونُ المَنفيُّ استعلاءَ الخَوفِ عليهم وتمكُّنَه منهم، وإحاطتَهُ بِهِم، لا مُطلق الخوفِ، فلا يكون فيه نفيُ خوفِ المُطيعِينَ مِنْ أهوالِ القيامةِ، لكنَّها تكونُ مُخَفَّفَةً عَنهُم، ثُمَّ إذا صارُوا إلى رحمةِ اللّه سبحانَه؛ كان حالُهم كحالِ مَنْ لم يخَفْ[4].

(1) الشِّيرازيّ، الموضَح: 1/269-270.
(2) الجاوي، مَراح لبيد: 1/17.
(3) الآلوسّي، روح المعاني: 1/241.
(4) أبو حيَّان، البحر المحيط: 1/274.

فائِدَةُ مَجِيءِ الخَبَرِ جُملَةً فِعلِيَّةً:

السَّعادة الأبديَّةُ للمُهتدين

مجيءُ خبر المبتدأ ﴿هُمْ﴾ جملةً فعليَّةً يقتضي تَكرارَ الإسنادِ؛ تأكيدًا لِدوامِ نفيِ الحُزْنِ عن مُتَّبعي الهُدى؛ فقد أُسنِدَ الحُزْنُ إلى ضميرِ مُتَّبعي الهُدى (هُمْ) -وهو مِن إسناد الخَبَر إلى المبتدأ-، وأُسنِدَ الحزنُ إلى واوِ الجَماعةِ الرَّاجعة إليهِم، -وهو مِن إسناد الفعل إلى فاعِلِه-، فلمَّا تكرَّر الإسنادُ في الموضِعَين تأكَّدَ المعنَى وقَوِيَ.

نُكتَةُ تَقدِيمِ الضَّمِيرِ ﴿هُمْ﴾:

تقديمُ الضَّميرِ ﴿هُمْ﴾ فيه إشارةٌ إلى القصر والاختصاص، ففيهِ قَصْرُ انتفاءِ الحُزْنِ عنهم، أمَّا غيرُهم فيحزنُونَ[1].

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الهُبوطُ والنُّزول:

يُفَرَّق بين الهبوط والنُّزول بأَنَّ الهبوطَ نزُولٌ يعقُبه إقامَة، يُقال: هبطنا مَكان كذا؛ أَي: نزلنا فيه للإقامة، ومِنه قَوله تعالى: ﴿ٱهْبِطُواْ مِصْرًا﴾ [البقرة: 61]، وقوله تعالى هنا في هذه الآية: ﴿قُلْنَا ٱهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعًا﴾، مَعناهُ: انزلوا الأَرض للإقامة فِيها، ولا يُقال: هَبَط الأَرضَ، إلَّا إذا استَقرَّ فيها، ويُقال: نزل القومُ في المكان؛ إذا لَبِثُوا فيه زمنًا ولم يستَقرّوا[2].

الإتيَانُ والمَجِيء:

يُستَخدم (جاء) للأَمرِ الصَّعب و(أَتَى) للأَمر السَّهل، قال الرَّاغب: «الإتيانُ: مجيءٌ بسهولة ومنه قِيلَ لِلسَّيل المارّ على وجهِهِ: أَتِيٌّ وأَتَاوِيّ»[3].

وقال: "والمجيءُ كالإتيَان لكنِ المجيءُ أعمُّ؛ لأنّ الإتيانَ مجيءٌ بسُهولة، والإتيانُ قد يُقال باعتبار القصدِ وإنْ لم يكُن منه الحُصول، والمجيءُ يُقَال اعتبارًا بالحُصول"[4]..

(1) الآلوسّي، روح المعاني: 1/241.
(2) أبو هلال العسكري، الفروق اللّغوية، ص: 296.
(3) الرّاغب، المفردات: (أتى).
(4) الرّاغب، المفردات: (جاء).

وأَوضَحُ آيةٍ تُفَرِّقُ في المعنى بين الفعلين قولُه تعالى: ﴿فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ ۖ قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا﴾ [مريم: 27]؛ إذ إنَّ الحَمْل في جُملته سهل، لكنْ ما جاءت به مريمُ أمرٌ مُستَهجَن -بحسب الظَّاهرِ- ليس مِن طبيعة البشر، حيث أنجبت سيِّدنَا عيسى عليه السلام من غير أب، ولذلك قالوا: لقد جئتِ شيئًا عظيمًا، فعقولُهم عجَزت عن إدراكه والإيمان به.

فإتيان الهُدى مِن الله تعالى سهلٌ، وفيه تكريمٌ لبَني آدم، إلَّا أنَّ التَّمسُّك والعمل به فيه صعُوبة على النُّفوس الّتي لَم تَأْلَفْهُ.

الخَوفُ والخَشيَةُ:

الفرق بينَهما مِن وجهين:

أحدهما: أَنَّ الخَشيةَ أخصُّ مِنَ الخَوفِ وأعلى مرتبة منه؛ إذ إنَّ الخشيةَ خَوفٌ مقرونٌ بمعرفةٍ وعلم، بخلاف الخوفِ فلا يُشترطُ فيه ذلك [1].

والآخر: أَنَّ الخشيةَ تكون مِن عِظَمِ المَخشِيِّ وإن كان الخَاشِي قويًّا، بخلاف الخوف فَإِنَّهُ يكون مِنْ ضَعفِ الخائفِ وإن كان المَخُوفُ أمرًا يَسيرًا، ولذا تَرِدُ الخشيةُ غالبًا في حقِّ الله تعالى[2]، كما قال سبحانه: ﴿وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ﴾ [الرعد: 21].

وذكرَ المَاوَردِيُّ فرقًا آخرَ بينَهما؛ وهو أنَّ الخوفَ فيما ظَهَرَتْ أَسبابُهُ، والخشيةَ فيما لم تَظهَرْ أسبابُه[3].

الخَوفُ والحُزْنُ:

الفَرق بينَهما: أَنَّ مُتعلَّق الخوف مُستقبَلٌ، ومتعلَّقَ الحُزن ماضٍ؛ إذ إنَّ الخوف غمٌّ مِن أمرٍ مُستقبَل، والحُزْنَ: غمٌّ مِنْ أمرٍ قد فات ومضى[4].

وذكَر الشِّهابُ الخَفَاجِيُّ أنَّ الخوفَ أشدُّ مِنَ الحُزْنِ[5]، ووجهُ ذلك: أَنَّ سببَ الحُزْنِ وقعَ وانقضَى، وإنَّما يتجدَّدُ الغمُّ به عندَ تذكُّرِه، بخلاف الخَوفِ؛ فإنَّ سبَبَهُ مُستقبَلٌ، وقد تكونُ فيهِ نَوعُ جهالةٍ، وربَّما كان ذلك شَديدًا عَظيمًا.

---

(1) الرّاغب، المفردات: (خشى)، وابن القيّم، مدارج السالكين: 1/508.

(2) الزَّركشّي، البرهان: 4/78، والسُّيوطي، معترك الأقران: 3/485.

(3) الماوَرديّ، النُّكت والعيون: 3/393.

(4) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/378، والشّنقيطيّ، العذب النَّمير: 1/284.

(5) الخفاجيّ، عناية القاضي: 2/172.

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٣٩﴾ [البقرة: 39]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لـمَّا بشَّر اللّه تعالى المؤمنين الّذين يتَّبعون هُدَاهُ، أعقبَهُ بإنذار الكُفَّار الّذين حادُوا عن اتِّباع الهُدى بالكُفر والتَّكذيب، فقال سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ على عادة القرآن الكريم في قَرْنِ الأشياءِ الـمُتقابلة[1].

شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

1) ﴿بِـَٔايَٰتِنَآ﴾: الآيات جمعُ آيةٍ، وجذرُها الهمزةُ والياء والحرفُ المعتلُّ[2] يدُلُّ على بقاءِ الشَّيء في مكانه شاخصًا علامَةً لشيءٍ[3].

ومنه قولُهم: خرجَ القوم بآياتِهم، أي: جماعتِهم؛ فلم يَدَعُوا شيئًا ممَّا مِنْ شأنِهِ أن يكونَ شاخصًا إلَّا حملوهُ، وفيه معنى الكثرةِ والجسَامَةِ أيضًا.

والآية: كلُّ شيءٍ ظاهرٍ ملازمٍ لشيءٍ باطنٍ يُعرَفُ به حسّيًّا كان أو عقليًّا[4].

وآياتُ اللّهِ تعالى المذكورةُ في قوله سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ هي حُجَجه وأَدِلَّتُه على ربوبيَّته وألوهيَّته، وما جاءت به رسلُهُ مِنْ شواهدَ على صدقِ ذلك[5]، فهي علامَةٌ ودليلٌ على الرَّبِّ واستحقاقِهِ العبادَةَ، وتشخُّصُهَا في الآيات الكونيَّةِ واضح لكلِّ ذي بَصَر متأمِّل، وأمَّا في الآياتِ الشَّرعيَّةِ ففيها معنى الجسامَةِ المعنويَّةِ، فهي لِظُهورِها ووضوحِها كالشَّيءِ الـمُتَشَخِّصِ الّذي لا يَخفَى.

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 1/300.
(2) في اشتقاق (الآية) خلافٌ. يُنظر: السَّمين الحلبي، عمدة الحفَّاظ: (أيي)، والآلوسّي، روح المعاني: 1/242.
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصَّل: (أيى).
(4) الرّاغب، المفردات: (أيّ)، ومحمَّد رشيد رضا، تفسير المنار: 1/238.
(5) ابن جرير، جامع البيان: 1/552.

2) ﴿أَصۡحَٰبُ﴾: أصحابُ جمعُ صاحب، مثلُ أشهادٍ جمعِ شاهدٍ[1]، أو أنَّ أصحابًا جمعُ صَحْبٍ، والصَّحبَ: جمعُ صاحبٍ[2].

والصَّاحبُ: المُلازِم؛ إنسانًا كان أَو حيوانًا أَو مكانًا أَو زمانًا، ولا فرقَ بين أَن تكون مُصاحبَتُه بالبَدَن -وهو الأكثر- أَو بالعناية والهمَّة، ولا يُقال في العُرْفِ إلَّا لِمَن كَثُرَت مُلازمَتُه، ويُقالُ لمالكِ الشَّيء: هو صاحِبُه، وكذا لِمن يَملِكُ التَّصرّفَ فيه[3].

ومادَّة (صَحِبَ) تدُلُّ تصاريفُها على ملازمةِ الشَّيءِ بقوَّةٍ، وقد تُطلقُ على مُطْلَقُ المقارنةِ، ومجرد الاقتران[4]

ومِن هذا البابِ: سُمِّيت الزَّوجَةُ صاحبةً كما في قول الله تعالى: ﴿يَوَدُّ ٱلۡمُجۡرِمُ لَوۡ يَفۡتَدِي مِنۡ عَذَابِ يَوۡمِئِذِۭ بِبَنِيهِ ١١ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ﴾ [المعارج: 11-12]؛ لملازمَتِها زَوجَها مدّةَ الحياة الدّنيا.

وأمَّا (أصحاب النَّار) في القرآن الكريم؛ فالمرادُ أهلُها المعذَّبونَ فيها إلَّا في مَوضِعٍ واحد؛ فيُرادُ به: خَزَنَتُهَا، وهو الواردُ في قول الله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلۡنَآ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةٗ﴾[5] [المدثر: 31].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

والّذين جَحَدُوا وكذَّبوا بحُجَجِ الله تعالى وأدلَّته على ربوبيَّتِهِ وألوهيَّتِهِ وما جاءت به الرُّسُلُ مِنَ الشَّواهدِ على ذلك؛ سيَكون مآلُهم نارَ جهنَّم يُلازمونَها لزومًا دائمًا، فلا يخرجون منها أبدًا[6].

❁ الإِيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

وَجهُ العَطفِ في قوله ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾:

يَحتَمِلُ أن يكونَ قولُ الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ﴾ مِنْ تمام ما قيلَ لآدمَ عليه السلام،

(1) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة: (صحب).
(2) الجوهريّ، الصّحاح: (صحب).
(3) الرّاغب، المفردات: (صحب)، والفيروزابادي، بصائر ذوي التمييز: (صحب).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصَّل: (صحب).
(5) السّيوطي، الإتقان في علوم القرآن: 2/158.
(6) ابن جرير، جامع البيان: 1/552، وأبو المظفَّر السَّمعانيّ، تفسير القرآن: 1/70، والسّعدي، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 50، ونخبة من العلماء، التّفسير الميسّر، ص: 7.

استيعابُ أحوالِ بَنِي آدَمَ في مَوْقِفِهِم من الهُدى

فيكون معطوفًا على (مَنْ) مِن قوله سبحانه: ﴿فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ﴾، ويكون في الجملة أسلوبُ التَّقسيمِ[1]؛ وذلك لاستيعاب أقسام ذرِّيَّة آدمَ[2] عليه السلام.

نُكتَةُ اختلافِ التَّقسيم والتَّعبيرِ بالاسمِ الموصولِ:

قُبحُ صَنِيعِ العادِلِ عَنِ الهُدى واستحقاقُهُ النَّار بالكُفر

وَقَعَ التَّعبير بالاسم الموصول في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾، مع أَنَّ مُقتضى الظَّاهر: (ومن لم يتبَعْهُ) أي: الهُدَى؛ ليكون مقابلًا لقوله قبلُ: ﴿فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ﴾، والنُّكتَةُ في ذلك أَمران:

أحدهما: تفظيعُ حالِ العدولِ عَنِ الهُدى، وإظهارُ كمالِ قُبحِ الضَّلالة[3].

والآخر: الإيمَاءُ إلى وَجهِ استحقاقِهِمُ النَّارَ والخلودَ فيها؛ وهو الكُفر والتَّكذيبُ[4]، ومجيءُ صلةِ الموصولِ فعلًا ماضيًا في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ﴾ دالٌّ على تحقُّقِ وَصفِ الكُفرِ والتَّكذيب فِيهِم، وجمعُ الاسمِ الموصول فيه إيماءٌ إلى كثرة الكُفَّار والمكذِّبين[5].

نُكتَةُ إضافةِ (الآياتِ) إلى ضميرِ العَظَمَةِ العائِدِ إلى اللهِ سُبحانه:

كَمالُ قُبحِ التَّكذيبِ بآياتِ اللهِ تعالى

إضافة الآيات إلى الضَّمير الرّاجع إلى اللّه تعالى في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ يُراد به تعظيمُ المضافِ وهو الآياتُ؛ فإنَّ التَّكذيب لم يكن بآيةٍ بل بآيات، ولا سيَّما أنَّ الضَّميرَ جاءَ بأسلوبِ العظَمَةِ؛ لزيادةِ المهابةِ وإدخالِ الرَّوعةِ في نفوس المُتَلَقِّين.

وفي تعظيمِ الآياتِ على النَّحو المُتقدِّم إظهارٌ لكمال قبح التَّكذيب بها[6].

---

(1) التَّقسِيمُ: هو استِيفاءُ أقسامِ الشيَّء بالذِّكرِ، وله صورٌ أُخرى. يُنظر: عبد المتعالِ الصَّعيديّ، بغية الإيضاح: 4/608.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/444.

(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السَّليم: 1/93.

(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/444.

(5) الآلوسّي، روح المعاني: 1/242.

(6) أبو السّعود، إرشاد العقل السَّليم: 1/93.

دلالة اسمِ الإشارةِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾:

بُعدُ مَنزِلَةِ الكفَّارِ والمُكَذِّبِينَ في الشَّرِّ

في الإشارة إلى الكافرين والمكذِّبين بـ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾؛ تنبيهٌ على شَنَاعة ما اتَّصفوا به، وتلبَّسوا به، بحيثُ تَمَيَّزوا عمَّن عداهُم أكمَلَ تمييز.

ووَقعَ اسمُ الإشارةِ ههنا للبعيد؛ إشعارًا إلى بُعدِ مكانتِهم في السُّوء والشَّرِّ[1].

نُكتَةُ تَقديمِ الجارِّ والمَجرورِ ﴿فِيهَا﴾:

إفادةُ التَّخصيصِ وحسنِ تناسقِ الفواصلِ

قُدِّم الجارُّ والمجرور ﴿فِيهَا﴾ -فلم يَرِد (هُمْ خَالِدُونَ فِيها)-؛ وذلك لِنُكتتَين:

الأولى: إفادة التَّخصيص؛ فخلُودُهم في النَّارِ لا غير، كلٌّ في مكانِه الّذي خصَّصه اللّه تعالى له، وذلك أبلغُ في ذمِّهم وبيان سوءِ عاقبتِهم.

والأخرى: بيانُ حسنِ الفواصلِ وانسِجَامها؛ لأنَّ الآيةَ قَبلَها خُتِمت بقول اللّه تعالى: ﴿فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾، والآيةَ بعدَها خُتمت بقولِ اللّه سبحانه: ﴿وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ﴾، فلو جاء نظْمُ الآية (خالدون فيها)؛ لفات هذا التَّناسُبُ.

سَبَبُ فَصلِ ﴿هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ عَمَّا قَبلَها:

صُحبَةُ المُكَذِّبِينَ للنَّارِ أَبديَّةٌ

فُصِلَ قول اللّه تعالى: ﴿هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ عن قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ﴾؛ لأنَّ بينَهما كمالَ الاتِّصالِ؛ فإنَّ الجملة الثانية -﴿هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾- نُزِّلت منزلةَ البيانِ مِنَ الأولى[2]؛ إذ دُخولُ طائفةٍ ما النَّار بحيثُ يَصحَبُونَها، لا يَلزَمُ مِنهُ أن تكونَ صُحبَتُهُم لها أبديَّةً، فجاءت الثَّانيةُ مبيِّنةً مُدَّةَ المُصاحبة؛ ففي البيانِ فنُّ الاحتراس.

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السَّليم: 1/94.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/446.

مِنْ بدائعِ الحذفِ: الحذفُ المُقابَلِيّ (الاحتباك):

أهلُ الجنَّة تكفيهم الإشارةُ، وأهل النَّار لا تَنْفعُهم العبارةُ

في قول الله تعالى: ﴿فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝٣٨ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَآ أُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ﴾ إيجازٌ بالحذفِ، وهو المسمَّى: الحذفَ المقابَلِيَّ أو الاحتباكَ[1]، وتقديرُ الكلام: فمَنْ تَبِعَ هدايَ فأولئك أصحابُ الجنَّةِ هم فيها خالدون، ولا خوفٌ عليهم ولا هم يحزَنون، والّذين كفروا وكذَّبوا بآياتِنا أولئكَ أصحابُ النَّار هم فيها خالدون، وعليهمُ الخَوفُ وهم يَحزَنون[2].

فحُذف مِنَ الأوَّل (فأولئكَ أصحابُ الجَنَّةِ هُم فِيهَا خَالِدُون)؛ لِدلالة الثَّاني عليه وهو قولُ الله تعالى: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ﴾، وحُذِفَ مِنَ الثَّاني (وَعَلَيهِمُ الخَوفُ وهُم يحزنون)؛ لدلالة الأوَّل عليه وهو قولُ اللهِ سبحانه: ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾، وهو من أَلطَفِ أنواع الحَذف.

ونكتتُه هنا: التَّنبيه على خلودِ أهلِ الجنَّةِ بالإشارةِ في قولِه: ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾، وبدلالة المقابلةِ، والتَّصريحُ بخلودِ أهلِ النَّار بالعبارةِ: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ﴾، وهذا من جمالِ العَدل في الإنذارِ، وبراعةِ التَّحفيزِ في التَّرغيبِ.

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الآياتُ والبَيِّنَاتُ:

الفرق بينهما من وجهين:

أحدهما: في أصل الدّلالة اللغويَّة لكلٍّ منهما؛ فإنَّ مادَّةَ البيِّنَةِ تدُلُّ على بُعد الشَّيء وانكشافه[3]، والآية في الأصل: العلامَةُ[4].

---

(1) سمَّاه الزَّركشّي: الحذفَ المقابلّي، وسمَّاه السّيوطيّ: الاحتِباك؛ وهو أن يُحذَفَ مِنَ الأوائلِ ما جاء مقابِلُهُ في الأواخِر، ويُحذَفَ مِنَ الأواخرِ ما جاء مُقابلُهُ في الأوائلِ.
يُنظر: الزَّركشي، البرهان: 3/129، والسُّيوطيّ، الإتقان في علوم القرآن: 2/61.
(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/106.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (بين).
(4) الخليل، العين: (أيا).

والآخر: أنَّ الآيةَ فيها توجُّهٌ وسير إلى المقصود، وهي الوسيلةُ للوصول إليه، ففيها جهة السَّوق والهداية إلى المطلوب بخلاف البيِّنَةِ[1]؛ فإنَّها كلُّ دليلٍ لا يتركُ في الحقِّ لَبْسًا، ومِنهُ قيل للشُّهود الشَّاهدين على الحقِّ: بيّنة؛ لأنَّهم يبيّنون ويوضّحون مَن له الحقُّ، ومَن عليه الحقُّ[2].

ففي الآياتِ معنًى زائدٌ عن البيِّنَات؛ فإنَّ البيِّنَاتِ أدلَّةٌ لكشف الحقِّ وإيضاحِهِ، أمَّا الآياتُ ففيها هذا المعنى، وزيادَةُ السَّوقِ والهدايةِ إليه.

وبناءً عليه؛ فالآياتُ أخصُّ من البيِّنَاتِ؛ ولذا جاء في التَّنزيلِ وصفُ الآيات بالبيِّنَاتِ كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍۖ﴾ [البقرة: 99]، ولم يَرد العكسُ؛ فلم توصف البيِّناتُ بأنَّها آياتٌ، ومن المقرَّر عند علماء العربيَّةِ أنَّ الموصوف أخصُّ من الصِّفة، كما تقول: زيدٌ الطَّويلُ؛ فـ (الطّويل) أعمُّ من (زيد) وحدَه؛ لأنَّ أفرادَ الطَّويلِ كَثيرَةٌ، وزيدٌ أخصُّ مِن (الطّويل)[3].

(1) حامد دژآباد وسيدة محبوبة كشفي، الفروق اللغوية المستخرجُ من كتاب (التحقيق في كلمات القرآن)، مؤسسة بوستان كتاب، ط: 1، 1441، ص: 44-43.

(2) محمّد الأمين الشِّنقيطيّ، العذب النَّمير: 5/67.

(3) ابن يعيش، شرح المفصَّل: 3/350.

﴿ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ﴿٤٠﴾ وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلۡتُ مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُمۡ وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرِۭ بِهِۦۖ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗا وَإِيَّٰيَ فَٱتَّقُونِ ﴿٤١﴾ ﴾ [البقرة: 40-41]

مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِمَا قَبْلَهَما:

بَعد أَن وَعَظَ اللّٰه تعالى المُشركِينَ، وتخلَّلَ ذلك ذكرُ قصَّةِ خلقِ آدَمَ عليه السلام وتوابع ذلكَ، انتقلَ الكلامُ إلى وعظ الكافرين مِن أهل الكتاب، وتَوَجَّهَ الخطابُ إلى بني إسرائيلَ لكونهم أشهرَ الأمم المتديِّنَةِ ذاتِ الكتاب الشَّهيرِ والشَّريعةِ الواسعة [1].

شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

1) ﴿نِعۡمَتِيَ﴾: النُّون والعين والميم تدُلُّ اشتقاقاتُهَا على ترفُّهٍ وطِيب عَيشٍ وصلاحٍ[2]، والنِّعمَةُ بالكَسرِ: الحالَةُ الحَسَنَةُ، وبناؤُها الّتي يَكونُ عليها الإنسانُ كالجِلسَةِ، وتُقالُ للجِنسِ الصَّادِقِ على القليلِ والكثيرِ[3].

ومنهُ النَّعمَةُ -بالفتحِ-: التَّنَعُّمُ؛ وهو ما يترفَّهُ به الإنسَان مِن مَأكلٍ أَو مَشرب أَو مَلبس-[4]، وبناؤُها بناءُ المَرَّةِ مِنَ الفعلِ كالضَّربَةِ، واختيرَ تَفسيرُ النَّعمَةِ بالشَّيءِ المُنعَمِ به؛ لأنَّهُ أنسَبُ للتَّركِ، وهي كثيرًا ما تكونُ بهذا المعنى [5].

ونِعَمُ اللّٰه تعالى على بني إسرائيل المذكورةُ في قوله تعالى: ﴿ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ﴾ هي: "اصطفاؤه مِنهُمُ الرُّسُلَ، وإنزالُه عليهِمُ الكتبَ، واستنقاذُه إيَّاهم ممَّا كانوا فيه مِنَ البلاء والضَّرَّاء مِن فرعون وقومِه، إلى التَّمكين لهم في الأرض، وتفجيرِ عيون الماء مِنَ الحجر، وإطعام المنّ والسَّلوى"[6].

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/447.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (نعم).
(3) الرّاغب، المفردات: (نعم)، والفيروزابادي، بصائر ذوي التمييز: (نعم).
(4) ابن دريد، جمهرة اللُّغة: (نعم).
(5) الآلوسّي، روح المعاني: 13/122.
(6) ابن جرير، جامع البيان: 1/555.

2) ﴿بِعَهۡدِيٓ﴾: أصلُ العهد: حِفظُ الشَّيء ومُراعاتُه حالًا بعدَ حال[1].

وهذه المراعاة حالًا بعد حالٍ هي التَّعاهُدُ، وهي الّتي عبَّر عنها الخليلُ بقوله: "الاحتفاظُ بِالشَّيء وإحداثُ العَهْدِ به" [2].

ومِن هذا البابِ: العهدُ الّذي هو الوصِيَّةُ[3]؛ لكونها مِمَّا تُحفَظُ وتُراعَى حتَّى تَنفُذَ، وللعَهد معانٍ كثيرةٌ جدًّا، مِنها: الأمانُ، واليَمِين، والذِّمَّة، ورعاية الحقِّ، والمَنزِل[4]، وكلُّها راجعةٌ إلى الأصل المذكور.

والعهد المذكورُ في قوله تعالى: ﴿وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ﴾ هو ما عَهِدَهُ إليهم مِنَ الإيمان به وبكتبه ورسُلِه وإقامةِ شَرعه، والعهدُ في قوله سبحانه: ﴿أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ﴾ هو الجزاءُ والثَّواب على ذلك[5].

3) ﴿فَٱرۡهَبُونِ﴾: فعلُ أمرٍ مِنَ الرَّهبةِ مُسند إلى واو الجماعةِ، ومادَّتُهُ الرَّاء والهاء والبَاء تدُلُّ أكثر تصاريفها على الخَوفِ[6]، ومِنه الرَّاهِبُ؛ وهو المتعبِّدُ في الصَّومعَةِ[7]؛ فإنَّ الّذي حَمَلَهُ على التَّعبُّدِ خَوفُهُ.

وَحَدَّ الرَّهبةَ الرَّاغِبُ بِقَوْلِهِ: "مَخَافةٌ مع تَحرُّزٍ واضطِرابٍ" [8]، وقال ابن القيِّم في تعريفِها: "هي الإمعانُ في الهَرَبِ مِنَ المكروهِ"[9].

والرَّهبةُ من اللّهِ تعالى المأمورُ بها في قوله سبحانه: ﴿وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ﴾، هي فِرَارُ قَلبِ العبدِ إلى اللّه تعالى ذُعرًا وفزعًا مع عَمَلِ ما يُرضيه.

4) ﴿مُصَدِّقٗا﴾: الصَّاد والدَّال والقاف تَدُلُّ تصاريفُها على قُوَّةٍ في الشَّيءِ قولًا كان أو غيرَه، ومنه قولُهم: هذا شيءٌ صَدْقٌ، أي: صُلْبٌ، ومنه سُمِّيَ الصِّدقُ -نقيضُ الكذِبِ- بذلك؛ لقوَّتِهِ في نفسِه[10].

---

(1) الرّاغب، المفردات: (عهد)، والسَّمين، عمدة الحُفَّاظ: (عهد).
(2) الخليل، العين: (عهد).
(3) الجوهريّ، الصِّحاح: (عهد).
(4) القاسم بن سلاَّم، غريب الحديث: (عهد)، والأزهريّ، تهذيب اللُّغة: (عهد)، ونشوان الحِمْيَرِيّ، شمس العلوم: (عهد).
(5) السّعدي، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 50.
(6) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (رهب).
(7) ابن سِيده، المحكم: (رهب).
(8) الرّاغب، المفردات: (رهب).
(9) ابن القيّم، مدارج السالكين: 1/508.
(10) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (صدق).

والصِّدْقُ: هو إخبارٌ عَنِ المُخبَر به على ما هو عليه في الواقع، ولا يكون محمودًا شَرْعًا إلَّا مع العلمِ بأنَّهُ كذلك[1].

والتَّصديقُ بزنةِ التَّفعيل، و (التَّفعيلُ) يأتي لإرادةِ النِّسبة، كما في التَّصديق؛ فإنَّهُ النِّسبةُ إلى الصِّدْقِ[2].

ومعنى قوله: ﴿مُصَدِّقًا﴾ مُوافقًا له[3]؛ لأنّه إذا كان موافقًا له فإنَّهُ ينسِبُهُ إلى الصِّدْقِ.

5) ﴿ثَمَنًا﴾: الثَّاء والميمُ والنُّون تدُلُّ أكثَرُ تصاريفِهِ على مَعنَى عِوَضِ ما يُباعُ[4]، وثمَنُ كُلِّ شيءٍ: قِيمَتُه[5].

والثَّمنُ القليلُ في قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَشْتَرُواْ بِـَٔايَـٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ الدُّنيا بحذافيرها[6]؛ وجُعِلَ الثَّمنُ مُشتَرًى كسائِرِ السِّلعِ؛ لأنَّ الثَّمن والمُثمَنَ كلاهُما مَبيعٌ[7].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

يا ذريَّةَ يعقوبَ! اذكُروا نعمي المتكاثرةَ عليكم، وأدُّوا عَهدي إليكُم أداءً وافيًا تامًّا؛ بأن تُؤمنوا بكتُبي ورُسُلي وتَعمَلوا بما شَرَعْتُ لكُم، فإنْ فعلتُم ذلك أتممتُ لكُم ما وعدتُكم مِنَ الجزاء والثَّوابِ بأن أَرضى عنكُم وأُدخِلَكم الجنَّةَ، ولْتَفِرَّ قلوبُكم إليَّ وحدي ذُعرًا وفزعًا مع العمل بما أرضَى به عليكُم، وآمِنوا بالقرآن الكريم الّذي أنزلتُهُ على النَّبيِّ محمَّدٍ ﷺ موافقًا لِمَا تعلمونَهُ مِن صحيحِ ما عندَكُم، ولا تكونوا أوَّلَ مَن يَكفُرُ به مِن أهلِ الكتاب، ولا تَستَبدِلوا بآياتِي شيئًا مِن حُطام الدُّنيا، واتَّقوني وحدي بفِعلِ ما أَمرتُ به واجتنابِ ما نهيتُ عَنه[8].

(1) أبو البقاء الكفويّ، الكُلّيّات، ص: 556.
(2) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة: (كذب).
(3) السّعدي، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 50.
(4) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (ثمن).
(5) الأزهري، تهذيب اللُّغة: (ثمن).
(6) ابن أبي حاتم، تفسير القرآن العظيم: 1/98.
(7) أبو عُبيد الهرويّ، الغريبين: (ثمن).
(8) النَّسفي، مدارك التَّنزيل: 1/83، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 1/242، ونخبة من العلماء، التّفسير الميسّر، ص: 7.

الإيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

بلاغةُ النِّداءِ في ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾:

الحثُّ على امتثالِ الأوامرِ الشَّرعيَّةِ وقَبُولِها

النِّداءُ بـ (يا) التي هي في الأصلِ للبَعيدِ، والبُعدُ هنا معنويٌّ لبيانِ عظمَةِ المُنادي[1] ﷻ، ومقصودُ النِّداء في قولِه سبحانه: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ حثُّ المُخاطبين على سماع ما يَرِدُ عليهم مِنَ الأوامرِ والنَّواهي وتحريكُ هِمَمِهم لقبولِه.

سِرُّ النِّداءِ بـ ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ دُونَ (يا بَنِي يَعقُوبَ):

وَعظُ الأبناءِ بتذكيرِهم بشَرَفِ الآباء

وَقَعَ نداؤُهم بـ (بني إسرائيلَ) -وإسرَائِيلُ هو يعقُوبُ عليه السلام-؛ تذكيرًا لهم بمقامِ يعقُوبَ وشرفِهِ، وأنَّه يَنبَغي لهم أن يَقتَدوا به في الشَّرَف[2].

وعُدِلَ عَن نِدائِهم بـ (بني يعقوب) إلى (بني إسرَائِيل)؛ لأنَّ معنى (إسرَائِيل) بالعبريَّةِ: صفوةُ اللّه أو عبدُ اللّهِ[3]، وهذا أَدعى لتَحَرِّيهم الطّاعة؛ فإنَّ قول القائل: يا ابنَ الصَّالحِ أطِع اللّه تعالى، أبلغُ في حثِّ المأمور مِن قوله: يا ابنَ فلانٍ أطعِ اللّه؛ "لأنَّ الطَّبائع تَمِيل إلى اقتفاء أثَرِ الآباء -وإنْ لم يَكُن محمودًا- فكيفَ إذا كان؟!"[4].

غرضُ الأَمرِ بتَذَكُّرِ النِّعمِ:

تَذَكُّرُ النِّعمِ طَريقٌ لتَحقيقِ وُجوبِ شُكرِها

الأَمرُ بالتَّذكُّر في قوله سبحانه: ﴿ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ﴾ ليس المرادُ مجرَّدَ التَّذكُّرِ، وإنَّما المرادُ به مع ذلك: لازِمُهُ؛ وهو القيامُ بشُكرِها[5] بالذِّكرِ باللِّسانِ والذِّكرِ بالجَنانِ[6]، فأمرَهم اللّهُ تعالى أن يَذكُروها

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 1/206.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 1/206-207.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السَّليم: 1/94.
(4) الآلوسّي، روح المعاني: 1/244، والقاسميّ، محاسن التَّأويل: 1/298-299.
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/452.
(6) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/108.

لِيَدعوهم ذِكرُهم لها إلى طاعته والإيمان برسُلِه، والتَّحذير مِن عقوبتِه بما عاقب به من لم يُؤمن برَسُوله ولم يَنْقَد لدينه وطاعته، فكانت نعمتُه على آبائهم نعمةً منه عليهم تَستَدعي منهُم شكرًا، فكيف تجعلون مكان الشُّكر عليها كُفرَكم برسولي، وتكذيبَكم له، ومعاداتَكم إيَّاه؟[1]، فيكون كنايةً لا مجازًا مُرسلًا بعلاقة الملزوميَّة؛ لأنَّ التَّذكُّرَ مطلوبٌ مع الشُّكرِ، وهذا أنسبُ لحملِهِ على الكنايَة؛ لأنَّ المعنى الأصليَّ تَجُوزُ إرادَتُهُ، بخلاف ما لو حُمِلَ على المجاز.

وفي الأمر بتذُّكرِ النِّعَم إشعارٌ بأنَّهم قد نَسُوها بالكُلّيَّةِ، ولم يُجرُوها على أذهانِهم، لا أنَّهم قصَّروا في شُكرِها فحسب[2].

نُكتَةُ الإضافة في قولِهِ ﴿نِعۡمَتِيَ﴾:

إضافَةُ النِّعمة إلى الضَّمير الرَّاجع إلى اللهِ ﷻ؛ تعظيمًا لها وتشريفًا[3]، فإنَّ النِّعمَةَ تَعظُمُ بحسب المُنعِم بها، فالنِّعمة مِنَ العظِيم عظيمةٌ.

فائِدَةُ تَقييدِ النِّعمَةِ بالمُخاطَبِينَ في قولِهِ ﴿ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ﴾:

قُيِّدَتِ النِّعمةُ بالمخاطَبِينَ في قول الله تعالى: ﴿ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ﴾؛ لأنَّهُ أَدعى لتحقيق المقصودِ مِنَ الأمر بالتَّذكُّر وهو الشُّكرُ؛ فإنَّ الإنسانَ مِن طَبعِهِ الغَيرةُ والحسَدُ، فإذا نظرَ إلى ما أنعم اللهُ تعالى على غيرِه؛ حملتْهُ الغَيرةُ والحسد على التَّسخُّط وكفر النِّعمة، وإذا نظَر إلى ما أنعم اللهُ ﷻ عليه؛ حمَلَهُ ذلك على الشُّكرِ والرِّضَا[4]، ولأنَّ تذكير الحَسُود بما عِندَهُ مِن النِّعَم إشغالٌ له بها، وصرفٌ له عَنِ الحسدِ النَّاشئِ عَنِ الاشتِغالِ بما أَنعَمَ اللهُ تعالى على غَيرِه.

تهذيبُ نفوسِ المُخاطبين بتذكيرِهم بالنِّعمِ يصرفُ الحَسدَ

وفي هذا تعريضٌ لليَهودِ بأنَّهم حاسدُون للعَربِ؛ إذ جَعَلَ اللهُ تعالى خَتْمَ النُّبُوَّةِ فيهم[5].

(1) ابن القيّم، بدائع الفوائد: 2/427.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السَّليم: 1/94.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السَّليم: 1/94.
(4) البيضاويّ، أنوار التَّنزيل: 1/75.
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/452.

نُكتَةُ الإضافَةِ في قوله ﴿بِعَهۡدِيٓ﴾:

إضافةُ العَهدِ إلى الضَّمير العائد إلى اللّه تعالى في قوله: ﴿وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ﴾ يُرادُ بها: تعظيمُ المضافِ -وهو العهدُ- وتشريفُهُ، وذلك دالٌّ على تعظيمِ الأمر بالوفاءِ بِهِ، والتَّحذيرِ مِنْ نقضِه.

سِرُّ تَقدِيمِ المَفعُولِ ﴿وَإِيَّٰيَ﴾:

وُجُوبُ تَخصِيصِ اللهِ تعالى بالرَّهبَةِ الكامِلَة

(إيَّايَ) مِن قول اللّه ﷻ: ﴿وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ﴾ مفعولٌ بِهِ مقدَّمٌ لـ (ارْهَبُوا) مقدَّرًا لا لـ ﴿فَٱرۡهَبُونِ﴾ المذكور؛ لأنَّه استوفَى مفعولَهُ وهو الياءُ المقدَّرة[1].

وتقديمُهُ لإفادةِ التَّخصيصِ؛ فالرَّهبَةُ الحقَّةُ لا تكونُ إلَّا مِنَ اللّه سبحانه.

وأُكِّدَ هذا التَّخصيص بثلاثة أوجهٍ[2]:

أحدها: تَكرارُ فِعلِ أمر الرَّهبة مرَّتين؛ أوَّلهما: ﴿فَٱرۡهَبُونِ﴾، والآخر: (ارْهَبُوا) المقدَّرُ النَّاصِبُ للضَّمير المنفصل.

ثانيها: تَكرار المفعول به مرَّتين أيضًا؛ أوَّلهما: (إيَّايَ)، والآخر: الياءُ المحذوفةُ من ﴿فَٱرۡهَبُونِ﴾؛ فإنَّ التَّقدير: فارهَبوني.

ثالثُها: الفاء الجَزائيَّة في قوله: ﴿فَٱرۡهَبُونِ﴾ دالَّةٌ على تضمُّن الكلام معنَى الشَّرط، والتَّقدير: إن كنتُم رَاهِبِينَ شيئًا فارهبُونِي.

نُكتَةُ حَذفِ المَفعولِ مِن ﴿فَٱرۡهَبُونِ﴾:

جمالُ التَّناسُبِ الصَّوتيِّ غرضٌ بيانيٌّ

مفعولُ ﴿فَٱرۡهَبُونِ﴾ محذوف، والتَّقديرُ: فارهَبوني، ولحذفِهِ نُكتَتَان:

إحداهما: اكتفاءً بذِكرِه في ﴿وَإِيَّٰيَ﴾ مع العامل المحذوف.

والأخرى: تحسينُ الفواصلِ[3]؛ فإنَّ ﴿فَٱرۡهَبُونِ﴾ أنسبُ للفَواصِل

(1) محيي الدّين درويش، إعراب القرآن وبيانه: 1/91.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السَّليم: 1/95.
(3) الهرريّ، حدائق الرّوح والرَّيحان: 1/404.

الّتي قبلها وبعدها مِن إثباتِ الياء (فارهبونِي)، وهو تحسينٌ لفظيٌّ جميلٌ تابعٌ لجمالِ المعنى.

عَطفُ الخاصِّ على العامِّ في قولِهِ ﴿وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلۡتُ﴾:

عَظَمَةُ القرآنِ الكريم بتخصيصِه بالذِّكرِ

الأمر بالإيمان بالقرآنِ بعدَ قوله: ﴿وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ﴾ هو من باب الإطناب بِعَطفِ الخاصِّ على العامِّ[1]؛ لأنَّ الوفاءَ بالعهدِ: يدخُلُ فيه الإيمانُ بالكتبِ المُنَزَّلَةِ، ومنها القرآنُ، ونكتةُ هذا العطفِ: التَّنويهُ بشأنِ القرآن الكريم وعظَمَتِه بذكرِهِ مرَّتين؛ إحداهما: مُندَرِجًا تحت لفظٍ عامٍّ، والأخرى: تخصيصُه بأمرٍ مُفرَدًا.

سِرُّ العُدولِ عَنِ التَّعبيرِ بالقُرآنِ إلى التَّعبيرِ بـ ﴿بِمَآ أَنزَلۡتُ﴾:

بيانُ علَّةِ وُجُوبِ الإيمانِ بالقرآنِ، وهي ربانيَّتُه

المُراد بـ ﴿بِمَآ أَنزَلۡتُ﴾ القرآن الكريمُ، وعُدِلَ عَنِ التَّصريح باسمه إلى ذِكرِهِ بالموصول وصِلَتِه؛ لنُكتَتَين:

إحداهما: الإيماءُ إلى تَعليل الأمر بالإيمان به؛ لأنَّه مُنزَلٌ مِنَ اللّٰهِ تعالى، والرُّسلُ قد أَوصَوا بالإيمان بكُلِّ كتابٍ يَثبُتُ تنزيلُهُ مِنَ اللّٰه سبحانه[2].

الأخرى: تعظيمُ شأنِهِ؛ إذ كان تنزيلًا مِنَ اللّٰه تعالى، والعظيمُ لا يُنَزِّلُ إلَّا عظيمًا[3].

وَجهُ التَّغايُرِ بين الجَمعِ في ﴿وَلَا تَكُونُوٓاْ﴾ والإفرَادِ في ﴿أَوَّلَ كَافِرِۭ بِهِۦۖ﴾:

بيانُ معنى الجَمْعِ بتقديرِ المحذوفِ من اللَّفظ

غُويرَ بينَ الجمع في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوٓاْ﴾ والإفرادِ في قوله سبحانه: ﴿أَوَّلَ كَافِرِۭ بِهِۦۖ﴾، ومُقتضى الظَّاهر: ولا تكُونوا أوَّل الكافرينَ بهِ؛ لأنّ ﴿كَافِرِۭ﴾ صفة لموصوف محذوفٍ، تقديره: أوَّل فريقٍ أو حزبٍ أو قبيلٍ كافرٍ بِهِ[4]، فهو مفرَدٌ في اللّفظِ، جمعٌ في المعنى[5].

(1) الطِّيبي، فتوح الغيب: 2/455.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/458.
(3) الآلوسّي، روح المعاني: 1/246.
(4) الواحديّ، التَّفسير البسيط: 2/436.
(5) الشَّوكانّي، فتح القدير: 1/88، والقِنَّوجي، فتح البيان: 1/149.

والأَوَّليَّةُ ههنا إضافيَّةٌ، والمرادُ: ولا تكونوا أوَّلَ فريقٍ كافرٍ به مِن أهل الكتاب؛ لأنَّ كُفَّار قُريش كَفَروا به قبلُ[1].

غرضُ النَّهي في قولِه: ﴿وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرِۭ بِهِۦۖ﴾:

النَّهيُ عَن أَوَّليَّة الكُفر كِنايَةٌ عَنِ طلبِ المُسارَعةِ إلى الإيمان

ليس المرادُ بقوله: ﴿وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرِۭ بِهِۦۖ﴾ النَّهيَ عَنِ الكُفر مقيَّدًا بالأوَّليَّةِ فحسبُ، بحيث يُؤذنُ لَهُم في الكُفرِ اقتداءً بغيرِهِم! وإنَّما كُنِّيَ بهذا النَّهي عَنِ الأمرِ؛ لتَغليظ تحذيرهم وتأكيده من الكُفر، والتَّقدير: وكونوا أوَّلَ المؤمنين بهِ، والمرادُ: الأمرُ بالمُسارَعَة إلى الإيمان.

والنَّهي مُستعمَلٌ أيضًا في معنى التَّوبيخِ على تأخُّرهم في اتِّباع دعوة الإسلام[2].

ويَحتَمِلُ أن يكون ذكرُ الأوليَّةِ مِن باب التَّنبيه على ما يجبُ أن يكونوا عليه، وذلك أنَّ اليهودَ لـمَّا علمُوا بحلول زمنِ بعثة نَبِيٍّ، قالوا: إنَّا نكون أوَّلَ من يتَّبِعُهُ، كما قال تعالى: ﴿وَكَانُواْ مِن قَبۡلُ يَسۡتَفۡتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦ﴾ [البقرة: 89]، فلـمَّا بُعِثَ النَّبيُّ ﷺ وكفَروا به، قيلَ لَهُم: ﴿وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرِۭ بِهِۦۖ﴾[3].

تخصيصُ ذكر الأوَّلِ دُون غَيرِه.

قُبحُ البَدايَاتِ يُنبِئُ بِقُبحِ النِّهايَاتِ

اقتصرَتِ الآيةُ الكريمةُ على ذِكرِ أوَّل مَن سنَّ الكفرَ بالنَّبيِّ ﷺ وبدأ بِه مِن بني إسرائيل، والمَعنى: ولا تكونوا أوَّلَ كافرٍ به، وآخِرَ كافرٍ بِهِ كذلك، فَحُذِفَ المعطوفُ؛ لدلالة قوَّة الكلامِ مِن جِهَةِ أنَّ أوَّلَ الكُفرِ وآخرَهُ سواءٌ، وخُصَّت الأوَّليَّةُ مِن باب الإيجازِ اكتفاءً[4]

(1) ابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 1/134.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/460.
(3) الآلوسّي، روح المعاني: 1/247.
(4) الاكتفاءُ: أن يقتضِي المَقامُ ذكرَ شيئين بينَهما تلازُمٌ وارتباطٌ، فيُكتفى بأحدهما عن الآخَرِ، ويُخصُّ بالارتباطِ العطفِيِّ غالبًا.
يُنظر: السُّيوطي، معترك الأقران: 1/320.

بذِكرِها؛ لِقُبحِهَا بالابتِداء[1]، وفيه تنبيهٌ على أنَّ البدايات القبيحةَ تُنبئُ بقُبحِ النِّهايات.

نُكتَةُ التَّعبيرِ بالمَجازِ في (الاشتِراءِ):

بَـيَـانُ حِـرصِ الـيَـهـودِ على الثَّـمَـنِ القليلِ وزُهـدِهِـم في آيات الله تعالى

التَّعبير بالاشتِراء في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗاۖ﴾ مجازٌ؛ وفي تخريجِهُ مسلَكان:

أحدهما: أن يكونَ مجازًا مُرسَلًا بعلاقة المَلزُومِيَّةِ؛ بحيث أُطلِقَ المَلزُومُ وهو الاشتِراءُ، وأُريدَ لازِمُهُ، وفي تَعيينِ اللَّازِم وجهانِ؛ إذ إنَّ مِن لازِمِ الاشتراءِ الاستِبدالَ، والحرصَ على شيءٍ، والزُّهدَ في ضدِّه.

فعلى اللَّازِمِ الأوَّلِ -وهو الاستِبدالُ-؛ يكون المعنى: النَّهي عَنِ استبدال الثَّمن القليل بآيات الله تعالى.

وعلى اللَّازم الآخر؛ يكون المعنى: النَّهي عَنِ الحِرص على الثَّمن القليل، والزُّهد في آيات الله تعالى.

والمَسلَكُ الآخَرُ: أن يكون ذلك مَجازًا بالاستِعارةِ؛ حيثُ استُعير الاشتراءُ للإعراض عمَّا في حيازَةِ المرءِ طالبًا تحصيلَ غيرِه، وهذا في الأصل: يكونُ في المعاني والأعيان.

ويَحتَمِلُ إجراءُ الاستعارة في كلمة (الآيات)؛ بأن شُبِّهت بالمال، بجامع وقوع المُعَاوَضَةِ في كُلٍّ، فحُذِف المشبَّهُ به ورُمِز لَهُ بشيءٍ مِن لوازمِه -وهو ﴿وَلَا تَشۡتَرُواْ﴾ - على سبيل الاستعارة المكنيَّة الأصليَّة.

وجَعْلُ الثَّمَنِ مُشترًى لا مُشترًى به إشارةٌ إلى كونه "كالثَّمَنِ في الاسترذال والامتهان، ففيهِ تقريعٌ وتجهيلٌ قَوِيٌّ؛ حيث إنَّهم قَلَبوا القضيَّة وجعلُوا المقصودَ آلَةً والآلَةَ مَقصُودَةً"[2].

سِرُّ جمعِ الآياتِ وإضافَتِها:

جمعُ الآيات في قوله سبحانه: ﴿بِـَٔايَٰتِي﴾ يُرادُ به التَّعظيمُ، وازدادَ تعظيمُها وتشريفُها

(1) الزَّركشّي، البرهان: 3/121.
(2) الآلوسّي، روح المعاني: 1/247.

بالإضافة إلى الضَّمير العائدِ إلى الله تعالى؛ فإنَّ الإضافةَ ههنا مفيدَةٌ تشريفَ المُضاف[1].

نُكتَةُ إفرادِ الثَّمَنِ وتَنكيرِه:

دَناءَةُ اليهودِ في حِرصِهِم على الثَّمَنِ الحَقيرِ قَدْرًا ووَصفًا

أُفرِدَ الثَّمن في قوله تعالى: ﴿ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ تحقيرًا له، وازدَادَ تحقيرًا بوجهين آخرَين:

أحدهما: تنكيرُهُ؛ فإنَّ التَّنكيرَ ههنا دالٌّ على حقارةِ المُنَكَّر.

والآخر: وصف الثَّمَنِ بالقِلَّة، فيكون الثَّمَنُ حقيرًا في قَدْرِهِ ووَصفِه[2].

فائدةُ تَقديمِ المَفعولِ ﴿وَإِيَّٰيَ﴾:

وُجوبُ تَخصِيصِ اللهِ تعالى بالتَّقوى الحَقَّة

(إيَّايَ) من قول الله سبحانه: ﴿وَإِيَّٰيَ فَٱتَّقُونِ﴾ مفعولٌ بِهِ مقدَّمٌ لـ (اتَّقوا) محذوفًا، والتقدير: وإيَّايَ اتَّقوا فاتَّقون، لا مفعولًا لـ ﴿فَٱتَّقُونِ﴾ المُصرَّحِ بهِ؛ لأنَّ ﴿فَٱتَّقُونِ﴾ قد استوفَى مفعولَهُ، وهو الياءُ المحذوفة[3].

وتقديمُ المفعول به ﴿وَإِيَّٰيَ﴾ لإرادة القصرِ؛ فالّذي يُتَّقَى حقَّ التَّقوى هو الله ﷻ وحدَهُ دون ما سواه.

وتقَوَّى هذا القَصرُ بأوجهٍ ثلاثةٍ:

أحدها: تَكرَار الأمر بالتَّقوى مرَّتين؛ الأوَّلُ: ﴿فَٱتَّقُونِ﴾، والآخر: فعلُ (اتَّقوا) المحذوفُ الّذي نصبَ المفعولَ المقدَّمَ (إيَّايَ).

ثانيها: تَكرار المفعولِ به مرَّتين كذلك؛ الأوَّلُ منهما: (إيَّايَ)، والآخَرُ: الياءُ المحذوفةُ مِن ﴿فَٱتَّقُونِ﴾؛ فإنَّ التَّقدير: فَاتَّقُوني.

ثالِثُها: فاءُ الجزاءِ في قوله سبحانه: ﴿فَٱتَّقُونِ﴾؛ فإنَّها مُفيدَةٌ تضمُّنَ الكلام معنَى الشَّرطِ، وتقدير الكلام: (إن كان هناك مَن

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/107.
(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/107.
(3) السمين، الدر المصون: 1/314، محيي الدّين درويش، إعراب القرآن وبيانه: 1/91.

يُتَّقَى عذابُه، ومَن يَجِبُ أن تكونَ وقاية بينَكم وبينه، فاتَّقونِي أنا وحدي)[1].

سَبَبُ حَذفِ المَفعولِ مِن ﴿فَٱتَّقُونِ﴾:

مفعولُ ﴿فَٱتَّقُونِ﴾ الياء المحذوفَةُ، وتقديرُهُ: فاتَّقونِي، ولهذا الحذفِ نُكتَتانِ:

الأولى: الاكتفاءُ بذِكرِه قبلُ في ﴿وَإِيَّٰيَ﴾ مع عاملِهِ المحذوف.

والأخرى: حسنُ تَناسبِ فواصلِ الآيِ[2]؛ فإنَّ ﴿فَٱتَّقُونِ﴾ أنسبُ للفَواصِلِ الّتي قبلها وبعدها مِن إثبات الياء فيه (فاتَّقونِي)، وهو مظهرٌ لفظيٌّ تحسينيٌّ تابعٌ للمعنى.

التَّناسُبُ الصَّوتيُّ راحةٌ للأذنِ وجمالٌ للنَّفسِ

مُناسبةُ الفَواصِلِ القُرآنيَّةِ لآياتِها:

خُتِمت هذه الآية بقوله تعالى: ﴿وَإِيَّٰيَ فَٱتَّقُونِ﴾، وخُتِمَتِ الآيةُ الّتي قبلها بقوله سبحانه: ﴿وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ﴾؛ لمناسبة كلٍّ خاتمةٍ للآيةِ الّتي وردَتْ فيها، ووجهُ ذلك: أنَّ اللّه ﷻ لمَّا رغَّب بني إسرائيل في الوفاء بالعَهدِ بقوله تعالى: ﴿وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ﴾ ونهاهم عن تركِ ذكرِ النِّعمةِ ناسبَه ختمُه بالتَّرهيبِ على طريقة القرآن الكريم في جَمعِ المتقابلات، ولأنَّه أخفُّ يجوزُ العَفْوُ عنه لكونِه معصيةً[3].

تَناسُبُ مَقاطِعِ الآياتِ مَعَ مَطالِعِها

أمَّا الآية الّتي بعدها فإنَّه سُبحانه لمَّا أمرهم ونهاهُم بقوله: ﴿وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلۡتُ مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُمۡ وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرِۭ بِهِۦۖ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗا﴾، وكانت حقيقةُ التَّقوى موافقةَ خطاب الشَّرعِ في الأمر فِعلًا وفي النَّهيِ تركًا، ناسبَهُ خَتمُ الآية بالأمر بها[4].

(1) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 1/212.
(2) الهرريّ، حدائق الرّوح والرَّيحان: 1/404.
(3) السمين، الدر المصون: 1/320.
(4) سعد عبد العظيم محمَّد، استدراك ما فات من بلاغة الآيات المتشابهات، ص: 93.

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

النِّعْمة والنَّعْمة:

فِي الفرقِ بينَهما وَجهان:

الأول: -حكاه النَّضر بن شُمَيل- أنَّها بكسر النُّونِ: في المُلْكِ، وبفتحِها: في البدَنِ والدِّين.

والثاني: أنَّها بالكسرِ: مِن المِنَّةِ؛ وهو الإفضَالُ والعطيَّة، وبالفتح: من التَّنعِيم؛ وهو سَعَةُ العيشِ والرَّاحة [1]

الرَّهْبَةُ وَالخوْفُ:

بين الرهبة والخوف عمومٌ وخصوص مُطلقٌ؛ فالرَّهبةُ أخصُّ مِنَ الخوف، وذلك أنَّ الرَّهبةَ خوفٌ مع أمرٍ زائدٍ، وهو التَّحَرُّزُ مِنَ المخوفِ، ومِن التَّحرز مِنهُ: الإمعانُ في الهربِ مِنَ المكروهِ، وإذا تعلَّق ذلك بالله تعالى كان الهرَبُ مِن الله تعالى إليه بالعَمَلِ بما يُرضيه.

وزاد أبو هِلالٍ فرقًا آخرَ؛ وهو أنَّ الرَّهبةَ طولُ الخوفِ واستمرارُهُ، ومِنهُ سُمِّي الرَّاهبُ بذلك؛ لأنَّه يُديمُ الخوفَ[2].

(1) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 16/138.

(2) أبو هلال العسكريّ، الفروق اللّغويَّة، ص: 261.

﴿وَلَا تَلۡبِسُواْ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ وَتَكۡتُمُواْ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٤٢ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرۡكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ٤٣﴾ [البقرة: 42-43]

مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِمَا قَبْلَهَما:

لـمَّا أمرَ اللّه تعالى بني إسرائيل بالإيمان ونَهاهُمْ عَنِ المُسارعةِ إلى الكُفر- وكان مِنَ الطُّرُق الصَّادَّةِ عَنِ الحقِّ اختلاطُهُ بالباطِل أو خفاؤُهُ-؛ نَهاهُمُ اللّه تعالى عَنْ لَبْسِ الحقِّ بالباطل أو كِتمان أدلَّة النبوَّةِ، ثمَّ بيَّنَ لهم أعظمَ لوازِمِ الإيمانِ المأمورِ به؛ وهو الصَّلاة الّتي هي أعظَمُ العباداتِ البدنيَّةِ، والزَّكاةُ الّتي هي أَعظَمُ العِباداتِ الماليَّةِ[1].

شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

1) ﴿تَلۡبِسُواْ﴾: تَدورُ تصاريفُ مادَّة اللَّام والبَاءِ والسِّين على مَعنَى التَّغطيةِ بمُداخلةٍ ومخالطةٍ[2]، ومِنهُ لِبَاسُ الإنسانِ؛ لأنَّهُ يستُرُ ويُغطِّي، وهو مُخالطٌ للابِسِه[3].

ومِنهُ قولُهم: التَبَسَ عليه الأمرُ؛ إذا خالطَهُ اعتقادٌ ستَرَ عليه وَجهَ الصَّواب فيه.

وقولُه تعالى: ﴿وَلَا تَلۡبِسُواْ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ﴾ مِن هذا الباب، ومعناه: لا تخلطوا الحَقَّ بالباطلِ فيخفَى وجهُ الصَّواب[4].

2) ﴿بِٱلۡبَٰطِلِ﴾: البَاءُ والطَّاءُ واللَّام تدُلُّ اشتقاقاتُهُ على ذهاب الشَّيءِ وقلَّةِ لُبْثِه[5]، ومنه قولُهم: بَطَلَ الشَّيءُ يَبطُلُ؛ إذا تَلِفَ[6]، وسمِّي السَّحرةُ بَطَلَةً [7] كما ورد في قول النَّبيِّ ﷺ عن سورة البقرة: «وَلَا تَسْتَطِيعُهَا الْبَطَلَةُ»[8]؛ لضياعِ سَعيِهم وذهابِهِ؛ لاشتغالهم بالباطلِ.

(1) الرَّازي، التّفسير الكبير: 3/485.
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصَّل: (لبس).
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (لبس).
(4) أبو عبيد الهرويّ، الغريبين: (لبس).
(5) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (بطل).
(6) ابن دريد، جمهرة اللُّغة: (بطل).
(7) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة: (بطل).
(8) رواه مسلم: (804).

وتقُولُ العربُ: ذهب دَمُهُ بُطْلًا؛ أي: هَدَرًا[1].

والباطلُ: ضدُّ الحقِّ[2]، وهو الشَّيءُ الزَّائلُ؛ أي: ما لا ثباتَ لَهُ عِندَ الفحصِ عنه؛ إذ هو ضدُّ الحقِّ، والحقُّ: هو الثَّابتُ[3].

3) ﴿تَكۡتُمُواْ﴾: الكَافُ والتَّاء والمِيم تدُلُّ تصريفاتُها على الإخفاءِ والسَّتر[4]، ومنه: الكِتمانُ؛ وهو ضدُّ الإعلان[5]، وتقولُ العربُ: كاتَمْتُهُ العداوةَ؛ أي: ساتَرْتُهُ إيَّاها[6].

وكِتمَانُ الحقِّ في قوله تعالى: ﴿وَتَكۡتُمُواْ ٱلۡحَقَّ﴾ يُرادُ به إخفاءُ ما في التَّوراة، إمَّا بادِّعاءِ عَدَمِ وجودِهِ فيها، أو بِمَحوِ ما فيها، أو بكتابتِهِ على خِلافِ ما هو عليه[7].

4) ﴿ٱلزَّكَوٰةَ﴾: الزَّاي والكاف والواو تدلُّ تصاريفُها على نَماءٍ في الشَّيء وزيادته مع جودَةِ نوعِه[8]، ومنه سُمِّيَتِ الزَّكاةُ الشَّرعيةُ زكاةً؛ لأنها تُثَمِّرُ المالَ وتُنَمِّيه[9].

والزَّكاةُ في قوله سبحانه: ﴿وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ هي الزَّكاة الشَّرعيةُ، وحقيقتُها أنَّها حَقٌّ واجِبٌ في مالٍ مخصوصٍ لطائفةٍ مخصوصَةٍ في وقتٍ مخصُوصٍ[10].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

لا تَخلِطوا الحَقَّ الّذي أَنزَلْتُهُ على رُسُلي بما افتَرَيتُمُوهُ مِنَ الباطل، ولا تُخفُوا الحقَّ الّذي في كتبِكم المنزَّلةِ، كإخفاءِ صِفَةِ مُحَمَّد ﷺ، مع عِلمِكُم بأنَّهُ صِدْقٌ وحقٌّ، وأدُّوا الصَّلاةَ مُظهِرينَ لها مُداوِمِين عليها مُحافظين على أَركانِها وشُروطِها ومُكمِّلاتها، وأَخرِجوا زكاةَ أموالكم وأوصِلُوها إلى مستحقِّيها، واخضعُوا مع الخاضِعِين مِن أُمَّةِ الإِسلامِ، وانخرطوا في صفوف المتبتّلين الطّائعين، وصَلُّوا معهم في جَماعَتِهِم[11].

---

(1) نشوان الحِميريّ، شمس العلوم: (بطل).
(2) الجوهريّ، الصّحاح: (بطل).
(3) السَّمين، عمدة الحفَّاظ: (بطل).
(4) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (كتم).
(5) الخليل، العين: (كتم).
(6) الزَّمخشريّ، أساس البلاغة: (كتم).
(7) الطِّيبي، فتوح الغيب: 2/460.
(8) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (زكى)، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصَّل: (زكو).
(9) ابن فارس، حلية الفقهاء، ص: 95.
(10) البَغْلِّي، الرَّوض النَّدي، ص: 114.
(11) ابن جرير، جامع البيان: 1/566-575، وابن الجوزيّ، زاد المسير: 1/61، وأبو بكر الجزائريّ، أيسر التَّفاسير: 1/49، ونخبة من العلماء، التّفسير الميسّر، ص: 7.

الإيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

تَوجِيهُ بلاغةِ وَصلِ الجُملةِ بسابِقَتِها:

التَّحذيرُ مِنَ إضلالِ الآخرين بَعدَ التَّحذيرِ مِن ضَلالِ النَّفسِ

عَطفُ جملةِ ﴿وَلَا تَلۡبِسُواْ ٱلۡحَقَّ﴾ على ما تقدَّمها جميعًا مِنْ قولِهِ سبحانه: ﴿ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ﴾ إلى هذا المَوضِعِ؛ لم يُقصَد به عطفُ كلِّ واحدةٍ منها على الّتي قَبلَها، وإنَّما العطف حاصلٌ على جميع ما تقدَّمَها، خصوصًا قوله تعالى: ﴿وَلَا تَلۡبِسُواْ ٱلۡحَقَّ﴾؛ إذ إنَّه بدءُ الانتقالِ "مِنْ غَرَضِ التَّحذيرِ مِنَ الضَّلال إلى غرَضِ التَّحذير مِنَ الإضلال، بعدَ أن وُسِّطَ بينَهما قولُه: ﴿وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗا﴾"[1].

غَرَضُ النَّهي في قوله ﴿وَلَا تَلۡبِسُواْ﴾:

صيغةُ النَّهيِ الواردة في قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَلۡبِسُواْ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ﴾، يُرادُ بها التَّوبيخُ والتَّأنيبُ والتَّقريعُ[2].

دلالة اللَّامِ في ﴿ٱلۡحَقَّ﴾ و ﴿بِٱلۡبَٰطِلِ﴾:

إضلالُ عُلَماءِ بَنِي إسرائِيلَ لأَتباعِهِم قَصدًا

اللام في ﴿ٱلۡحَقَّ﴾ من قوله تعالى: ﴿وَلَا تَلۡبِسُواْ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ﴾، يُراد بها لامُ العهدِ العلميِّ؛ فإنَّهُ حقٌّ معلومٌ ممّا عَرَفُوهُ من الكتاب المُنزَلِ عليهم.

واللَّامُ في (بالباطلِ) كذلكَ للعهد العلميِّ؛ لأنَّهم على عِلمٍ بما افتَرَوهُ منه وأحدَثُوه؛ فإضلالُهم عن علمٍ ومعرفةٍ لا عن جهلٍ وغباوةٍ.

الإظهَارُ في مَوضِعِ الإضمارِ في قولِهِ ﴿وَتَكۡتُمُواْ ٱلۡحَقَّ﴾:

التأكيدُ على قُبحِ كَتمِ الحَقِّ

التَّصريحُ باسم الحقِّ في قوله تعالى: ﴿وَتَكۡتُمُواْ ٱلۡحَقَّ﴾ بعد ذِكرِهُ قبلُ في قوله سبحانه: ﴿وَلَا تَلۡبِسُواْ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ﴾ إظهارٌ في مَوضع الإضمار؛ ونكتَةُ الإظهارِ زيادةُ تقبيحِ المنهيِّ عنه.

---

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/470.

(2) عبد الرّحمن حبنّكة، البلاغة العربيَّة: 1/236.

ويحتَمِلُ أنَّ إظهارَهُ لكونِ المرادِ بالحقِّ الثَّاني غيرَ المرادِ بالحقِّ الأوَّلِ؛ فيكون الأوَّلُ: عامّا، والثَّاني: مرادًا به صفةُ النَّبيِّ ﷺ في كُتُبهم[1].

الجُملَةُ الحاليَّةُ لبَيانِ الواقِعِ لا للاحتِراز:

مَـن ضَـلَّ عَـن علمٍ أَقبَحُ حالًا مِـمَّـن ضَـلَّ عَـن جهلٍ

جملةُ ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ حاليَّةٌ، وليس المرادُ بها تقيّيدَ النَّهي، بل لبيانِ الواقعِ أنَّهم يعلمونَ ذلك فيقبُحُ بهم كتمانُهُ، فإيرادُ هذه الجملةِ الحاليَّةِ لزيادة تقبيحِ حالِهم؛ إذِ الجاهلُ قَد يُعذَرُ[2].

وهذه طريقةُ العربِ في كلامِهَا: أنَّ الفعلَ قد يُنهى عنه مقيَّدًا بقيدٍ أو موصوفًا بصفةٍ، وليس الغرضُ مِنْ ذلك النَّهي عَنِ الفعلِ في تلك الحالِ فقط، بَلِ النَّهيُ عَنِ الفعلِ مُطلقًا، ويكون ذلكَ القيدُ أو الصِّفةُ بقصدِ المبالغة في التَّحذير والتَّنفيرِ[3].

نُكتَةُ تأْكيدِ الجملةِ الاسمِيَّةِ:

كُلَّما قَـوِيَ عِلمُ الـمَـرءِ ازدادَتِ التَّبِعَةُ عليه

أُكِّدَ عِلمُهُم بما نُهوا عن كتمانِهِ مِنْ وَجهَين:

أحدهما: باسميَّةِ الجملة ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾، وهي تُفيدُ دوامَ عِلمِهِم، ولم يَردَعْهُم ذلكَ عَنْ جَحْدِ الحقِّ الّذي عَلِمُوه.

والآخرُ: تأكيدُ النِّسبةِ بتأخيرِ الخَبَرِ الفعليِّ؛ فإنَّ في ﴿تَعْلَمُونَ﴾ نسبةَ العِلم إلى ضَميرِ الجَمعِ -الواو- الرَّاجعِ إلى بني إسرائيلَ، ونُسِبَ العِلمُ المستفادُ مِنْ ﴿تَعْلَمُونَ﴾ إلى الضميرِ المنفصلِ (أَنتُم)، ففي هذه الجملة ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ تَكرارُ النِّسبة مرَّتين، وهو مِن ضُروبِ التَّوكيد.

وفي هذا التَّأكيدِ زيادَةُ تقبيحِ صَنيعِهم في كَتمِ الحقِّ؛ فإنَّ العِلمَ كُلَّما قَوِيَ عند الـمَرءِ ازدَادت التَّبِعَةُ عليه.

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 1/96.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 1/96.
(3) بسيوني فيّود، علم المعاني، ص: 376.

أَثَرُ تَعَدُّدِ دلالاتِ (الإقامَة):

وُجُوبُ الدَّوامِ على الصَّلاةِ بإظهارِها والحِفاظِ عليها

يحتَمِلُ اشتقاقُ الفعلِ (أَقِيمُوا) مِن قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أوجهًا ثلاثة، كلُّ واحدٍ منها يَصِحُّ أَن يكونَ مقصودًا، ولا تعارضَ بينَ هذه الأوجُهِ عند الحَملِ عليها؛ لذا لا مانعَ مِن جمع تلك المعاني كُلِّهَا، وهذه الأوجُهُ هي:

أَوَّلًا: أن يكونَ مصدرُ الفعلِ الإقامةَ، بمعنَى الدَّوام[1]، يقال: أقام الصَّلاةَ إذا داومَ عليها، أمَّا أقامَ للصَّلاةِ؛ فالمرادُ: نادَى لها[2] بألفاظ الإقامةِ المعروفَةِ.

ثانيًا: أَن يكونَ اشتقاقُهُ مِنَ التَّقويم؛ أي: التَّعديلُ، مِن قولك: قوَّمتُ العودَ؛ إذا عدَّلتَه، ويكون معنى الأمرِ بإقامة الصَّلاةِ - على هذا المعنى - الإتيانَ بها على وجه المُحافظة على أَركانِها وشُرُوطِها ومُكَمِّلاتها[3].

ثالثًا: أن يكون (أقامَ الصَّلاةَ) بمعنَى: أظهَرَهَا، مِنْ قولهم: أُقِيمَتِ السُّوقُ، إذا حُرِّك فيها ما يَليق بها من البيع والشِّراء[4].

وهذه المعاني كلُّها حقٌّ، فيصحُّ حَملُ ﴿وَأَقِيمُواْ﴾ على هذه المعاني الثَّلاثة؛ فيكون أمرُهُم بإقامة الصَّلاةِ أمرًا لهم بالدَّوام عليها، وإظهارِها، والإتيانِ بها مُحافِظِين على أركانها وشُروطها ومُكمِّلاتِها.

بَلاغةُ الاستِعارَةِ في قوله: ﴿وَأَقِيمُواْ﴾:

تشبيهُ المعنويِّ بالحسيِّ لإيضاحِه حذرًا من الإخلالِ به

الفعل ﴿وَأَقِيمُواْ﴾ مُشتقٌّ مِنَ التَّقويم، أي: التَّعديل، وهو مِنْ بابِ الاستعارةِ، وفي إجرائِهَا مَسلَكانِ اثنانِ:

(1) أبو عبيد الهرويّ، الغريبين: 5/1596.
(2) الفيوميّ، المصباح المنير: 2/520.
(3) النَّبراويّ، حاشية على الأربعين النَّوويَّة، ص: 37.
(4) ابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 1/85، والقرطبيّ، المُفهم: 3/390.

أحدهُمَا: أَنْ يُقالَ: شُبِّهَتِ الصَّلاةُ بالعودِ بجامعِ التَّعديلِ في كُلٍّ منها، فحُذِفَ المُشَبَّهُ به، ورُمِزَ له بشَيءٍ مِنْ لوازِمِهِ وهو ﴿وَأَقِيمُواْ﴾ على سبيلِ الاستعارَةِ المكنيَّةِ الأَصليَّةِ.

والآخرُ: أَنْ يُقالَ: شُبِّهَ تَعديلُ الأَركانِ بتَقويمِ الرَّجلِ العودَ، واستُعيرَتْ له: الإِقامَة، ثُمَّ اشتُقَّ مِن (الإقامَةِ) بمعنى (التَّقويم) الفعلُ ﴿وَأَقِيمُواْ﴾، فصُرِّحَ بالمُشبَّهِ به على سبيلِ الاستعارةِ التَّصريحيَّةِ التَّبعيَّةِ.

ونُكتَةُ الاستعارة: أنَّ تقويمَ الصَّلاة معنويٌّ، وتقويمَ العودِ حسِّيٌّ، والخَلَلُ الحسِّيُّ أَظهَرُ مِنَ الخَلَلِ المعنويِّ؛ لأنَّه مُدرَكٌ لكلِّ راءٍ، فأيُّ فسادٍ في الحسِّيِّ يُتفَطَّنُ له فيُبادَرُ إلى إصلاحِهِ، وكذلك شأنُ الصَّلاةِ ينبغي النَّظرُ فيما قد يدخُلها مِنَ الخَلَلِ فيُتدارَكُ.

دلالة اللَّامِ في ﴿ٱلصَّلَوٰةَ﴾ و﴿ٱلزَّكَوٰةَ﴾:

الأَصلُ حَملُ الأَلفاظِ الإِسلاميَّةِ على حَقائِقِها الشَّرعيَّةِ

اللَّامُ الدَّاخلةُ على (الصَّلاةِ) في قوله ﷻ: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ عهديَّةٌ، والمرادُ بها الصَّلَوات الخمسُ[1]، ويُؤيِّدُه: أنَّ هذا التَّرتيب (إقامة الصَّلاة) مستعمَلٌ في خطابِ الشَّرعِ لهذا المعنَى.

ومثلُها اللَّام في (الزَّكاة) من قوله تعالى: ﴿وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾؛ فإنَّها للعهدِ، وهي الزَّكاة الشَّرعيَّةُ المعروفَةُ، وذلك أنَّ هذا التَّركيبَ (إيتاء الزَّكاة) مُستعمَلٌ في خطابِ الشَّرعِ لهذا المعنى، كما ورد في قول النَّبيِّ ﷺ: «بُنِيَ الإِسلامُ على خَمسٍ: شَهادَةِ أَن لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وأَنَّ مُحَمَّدًا رسولُ اللهِ، وإِقامِ الصَّلاةِ، وإِيتاءِ الزَّكاةِ»[2].

بلاغةُ المَجازِ في ﴿وَٱرۡكَعُواْ﴾:

الجمعُ بين المعنى اللُّغويِّ والشَّرعيِّ وتنبيهُ اليهودِ على الصَّلاةِ المطلوبةِ

اختُلِفَ في الرُّكوعِ الواردِ في قوله تعالى: ﴿وَٱرۡكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ على قولين:

(1) القِنَّوجي، فتح البيان: 1/154.
(2) البخاريّ، حديث رقم: (8) ومسلم، حديث رقم: (16).

أحدهما: أنَّهُ الخضوعُ؛ وذلك أنَّ العربَ تستعمِلُ الركوعَ لهذا المعنى، ومنه قولُ عصام بنِ عبيد الزِّمَّاني[1]:

بِيعَتْ بِوَكْسٍ قَلِيلٍ فَاستَقَلَّ بِها *** مِنَ الهُزالِ أَبُوهَا بَعدَ ما رَكَعا

أي: بعد ما خضعَ[2].

وأصلُ الرُّكوعِ: الانحِناءُ[3]، فاستعمالُه بمعنى الخُضوعِ مجازٌ مُرسَلٌ بعلاقةِ الملزوميَّةِ؛ فإنَّ مِنْ لازمِ الانحناءِ الخضوعَ، وفي التَّعبيرِ عَنِ الخضُوعِ بالرُّكوعِ ذكرٌ للخُضوعِ مع دليلِهِ اللَّازِمِ له عادَةً.

والآخر: أنَّه الانحِناءُ المعروفُ الّذي هو أحدُ أركانِ الصَّلاةِ، ومِنَ المَعلومِ أنَّه لا يُرادُ الأمر بخصوص الرُّكوعِ مفردًا؛ فإنَّه ليس في الإسلامِ قُربَةٌ إلى الله بالرُّكوعِ المجرَّدِ، وإنَّما ذلك مشروعٌ داخلَ الصَّلاةِ، فتبيَّنَ مِنْ هذا أنَّ الأمر بالرُّكوعِ أمرٌ بالصَّلاةِ، فيكون إطلاقُ الرّكوع على الصَّلاة من باب المجاز المُرسل بعلاقة الجزئيَّةِ، والنُّكتَةُ في ذلك: التَّنبيهُ على أهميَّةِ هذا الجزء؛ فلا تُتصَوَّرُ الصَّلاةُ الشَّرعيةُ إلَّا بوجودِهِ.

وفي ذِكرِ الرُّكوعِ بعد ذكر الصَّلاة في قوله: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ زيادَةُ بيانٍ للمُرادِ بالصَّلاة المأمور بها، وأنَّها صلاةُ المُسلمِين؛ إذ صلاةُ اليهُود لا ركوعَ فيها[4]؛ فهو يأمرُهم أن يُصلُّوا مع المُسلمين، وفي ذلك أمرٌ أن يخضع اليهود لشريعة محمَّدٍ ﷺ.

نُكتَةُ الأَمرِ بالرُّكوعِ بعدَ الأَمرِ بإيتاءِ الزَّكاةِ:

ورَدَ بعد الأمرِ بالزَّكاةِ الأمرُ بالرُّكوعِ -إذا حملناه على الخُضوعِ-؛ لكون الزَّكاةِ مَظِنَّةً للترفُّعِ؛ لما فيها مِن بذلِ الغَنيِّ للفقيرِ، فجاء الأمرُ بالخضوعِ؛ لئلَّا يقَعَ في قلوبِهم شيءٌ مِنَ التَّرفُّعِ[5].

البُعدُ بالقلبِ عَمَّا يُدَاخِلُهُ مِن استعلاءٍ عند بَذلِ المالِ

دلالة اللَّامِ في ﴿ٱلرَّٰكِعِينَ﴾:

اللَّامُ في ﴿ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ مِن قوله تعالى: ﴿وَٱرۡكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾

الرُّكوعُ علامةُ صلاةِ أهلِ الإسلامِ

(1) الجاحظ، الحيوان: 4/398، أبو تمام، الوحشيات، ص: 86.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 1/575.
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (ركع).
(4) الرّازيّ، التّفسير الكبير: 3/487.
(5) الآلوسّي، روح المعاني: 1/249.

للجِنسِ المرادِ به استغراقُ أفرادِهِ، ويَحتَمِلُ أن يُرادَ بها العهدُ؛ وهُمُ النَّبِيُّ ﷺ وأصحابُهُ. واستَظهرَ الأوَّلَ الآلوسيّ[1]، والثَّاني مُندَرِجٌ فيه.

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

اللَّبْسُ والخَلْطُ:

بَينَ اللَّبس والخَلط عمومٌ وخصوصٌ مُطْلَقٌ، فاللَّبْسُ أخصُّ مِنَ الخَلْطِ مُطلقًا؛ وذلك أنَّ اللَّبْسَ مقصور على المعاني، كَلَبْسِ الحقِّ بالباطلِ، وكقولِ القائِلِ: في كلام فلانٍ لَبْسٌ. بخلاف الخَلْطِ؛ فإنَّه يُستعمل في المعاني والأجسامِ، فتقول: خَلَطْتُ الأمورَ، وتقولُ: خَلَطتُ المَتَاعَينِ، ولا تقول: لَبَسْتُهُما [2].

الكِتمانُ والإخفاءُ:

بين الكتمان والإخفاء عمومٌ وخصوص مُطْلَقٌ؛ فالكِتمانُ أخَصُّ مُطلقًا مِنَ الإخفاءِ؛ وذلك أنَّ الكتمانَ خاصٌّ بسَترِ المعاني، فيُقال: كتَمَ السِّرَّ والخبَرَ، بخلاف الإخفاءِ فإنَّهُ أعمُّ؛ فيكون للمعاني وللمَحسُوساتِ[3].

الإقامَةُ والأَداءُ:

أصل مادَّةِ الأداءِ إيصالُ شيءٍ إلى شيءٍ[4]، ومنهُ أداء الأمانةِ: إيصالُهَا لصاحبِهَا.

والإقامةُ تَتجاذبُها أصولٌ مختلفةٌ، ففيها معنى الدَّوام[5]؛ من قولهم: أقامَ على الشَّيءِ؛ إذا داومَ عليه، وفيها معنَى التَّعديل؛ من قولهم: قوَّمتُ العودَ؛ إذا عدَّلتَهُ، وفيها معنَى الإظهارِ، مِن قولِهم: أُقِيمَتِ السُّوق[6].

فالإقَامَةُ أغزَرُ معاني من الأداءِ، ولذا أُوثِرَت بها الصَّلاةِ، فلم يَرِد في التَّنزيلِ الكريمِ قطُّ الأمرُ بأداء الصَّلاةِ، وإنَّما جاء الأمر بإقامتِهَا، والفرق بينهما: أنَّ أداء الصَّلاةِ صادِقٌ على مُطلَقِ الأداءِ الّذي تبرأُ به الذِّمَّةُ؛ لأنَّ ما دونَ ذلك ممَّا لا تبرأُ به ذمَّةُ العبدِ لا يكونُ إيصالًا؛ ولأنَّ ما لا يُعتَدُّ به في الشَّرعِ في حُكمِ المعدومِ في الوجودِ.

---

(1) الآلوسّي، روح المعاني: 1/249.

(2) أبو هلال العسكريّ، الفروق اللُّغويَّة، ص: 462.

(3) أبو هلال العسكريّ، الفروق اللُّغويَّة، ص: 448، وابن سِيدَه، المخصّص: 39/4.

(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (أدي).

(5) أبو عبيد الهروي، الغريبين: 5/1596.

(6) ابن عطية، المحرر الوجيز: 1/85.

أمَّا إقامة الصَّلاةِ فتتضمَّنُ أداءَهَا، والدَّوامَ عليها، وإظهارَهَا، وتعديلَهَا بالإتيان بها على وجه الحفاظ على أركانها وشروطها ومكمِّلاتها.

الإيتاءُ والإعطاءُ:

الإيتاء والإعطاءُ بمعنًى واحدٍ في ظاهرِ صَنِيعِ كثيرٍ مِن أصحاب المعجماتِ[1].

وفرَّق آخرونَ بينهما بأنَّ في الإعطاءِ دليلًا على التَّمَلُّكِ بخلاف الإيتاء[2].

وأمَّا في الاستعمال القرآنيِّ للَّفظتين فبينهما فرقٌ من وَجهَين[3]:

أحدهما: لم يستعمل الإيتاءُ إلَّا للشَّيءِ الكَثير والعظيم الشَّأْنِ، كالقرآنِ الكريمِ، والمُلْكِ، والحِكمَةِ، والرَّحمة، ومثلُ ذلك: الزَّكاةُ؛ لعظيمِ نَفعِها.

بينَما يكونُ الإعطاء للشَّيءِ القليل، ولم يَرِد دالًّا على الشَّيء الكثير إلَّا مقيَّدًا بما يدُلُّ على الكثرة، كقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ﴾ [الكوثر: 1]، وقوله: ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنۡ عَطَآءِ رَبِّكَۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحۡظُورًا﴾ [الإسراء: 20]

والآخر: أنَّ الإيتاءَ إذا صدَرَ مِنَ العبدِ يكون عَنْ طِيبِ نفسٍ، بخلاف الإعطاءِ فهو أعَمُّ؛ فيكون عَن طِيب نفس كما في قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ وَٱتَّقَىٰ﴾ [الليل: 5]، وعُن كُرهٍ كما في قوله: ﴿حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ﴾ [التوبة: 29].

(1) الخليل، العين: (أتى)، والجوهريّ، الصِّحاح: (أتا)، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (أتي).
(2) أبو هلال العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 87.
(3) محمّد محمَّد داود، معجم الفروق الدّلاليَّة في القرآن الكريم، ص: 29-27.

﴿أَتَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبِرِّ وَتَنسَوۡنَ أَنفُسَكُمۡ وَأَنتُمۡ تَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ٤٤﴾ [البقرة: 44]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لـمَّا أُمِرَ بنُو إسرائيلَ بفِعلِ شعائِرِ الإسلام مِن إقامة الصَّلاة وإيتاء الزَّكاة، وذُيِّلَ ذلك بأَمرِهِم بالرُّكوع مع الرَّاكعين؛ لبيانِ أنَّ صلاتَهُم الّتي يفعلونَهَا لا تُغنِي عنهم شيئًا؛ ناسبَ بعدَ ذلك أن يُبَيَّنَ لهم أنَّ ما يأمرُهم به دينُهم مِنَ البرِّ ليسوا هم فيه على الوَجهِ الّذي يَنبغي، فقال سبحانه: ﴿أَتَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبِرِّ وَتَنسَوۡنَ أَنفُسَكُمۡ وَأَنتُمۡ تَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾[1].

شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

1) ﴿بِٱلۡبِرِّ﴾: البِرُّ: الصِّدْقُ[2]، ومنه استعمالُهُ في ضدِّ العُقوقِ؛ يُقَالُ: بَرَّ والديهِ[3]، إذا صدَقَ في طاعتِهما وإيصالِ الخيرِ لهما، ومنه: بَرَّ في يمينه؛ إذا صَدَقَ فيها[4]، وبَرَّ حجُّهُ؛ إذا كان خالصًا لم يخالطْهُ إثمٌ[5].

وفي البرِّ عباراتٌ كثيرةٌ، منها: الاتِّسَاعُ في الإحسانِ والزِّيادةُ فيه[6].

وأجمَعُ تعريفٍ للبرِّ أنَّه: اسمٌ جامعٌ لكلِّ خيرٍ وطاعةٍ[7].

2) ﴿وَتَنسَوۡنَ﴾: النُّونُ والسِّين والياء تدُلُّ اشتقاقَاتُهَا على مَعنَيَين؛ أحدهما: إغفالُ الشَّيءِ، والآخر: تركُهُ[8]، والثَّاني لازِمٌ للأوَّلِ؛ فإنَّ إغفالَ الشَّيءِ يلزَمُ منه تَرْكُهُ.

ومِن مَجِيءِ النِّسيانِ بمعنى: الغفلةِ والذُّهول عَنِ الشَّيءِ؛ قولُ اللّه تعالى: ﴿لَّا

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/474.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (برّ).
(3) نشوان الحِميريّ، شمس العلوم: (برّ).
(4) الجوهريّ، الصِّحاح: (برر).
(5) الزَّبيديّ، تاج العروس: (برر).
(6) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة: (برّ).
(7) المُناويّ، التّيسير: 1/292، والتَّوقيف على مهمّات التَّعاريف، ص: 122، والسّعدي، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 845.
(8) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (نسي).

يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ [طه: 52]، ومِن مَجِيئه بمعنى: التَّركِ؛ قولُ الله تعالى: ﴿نَسُواْ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمۡۚ﴾ [التوبة: 67].

والنِّسيان في قوله تعالى: ﴿أَتَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبِرِّ وَتَنسَوۡنَ أَنفُسَكُمۡ﴾ يُرادُ به التَّرك، والمعنى: أتأمرون النَّاس بالبرِّ، وتَترُكون أنفسَكم عَن أَمرِها بذلك[1].

3) ﴿تَتۡلُونَ﴾: التَّاء واللَّام والواو تدُلُّ اشتقاقَاتُهَا على مَعنى الاتِّباع[2]، ومنه قوله تعالى: ﴿وَٱلۡقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا﴾ [الشمس: 2] أي: تَبِعَهَا[3]، وسُمِّيت القراءةُ تلاوَةً؛ لأنَّ القارئَ يَتبَعُ ما يقرأُ[4]، ويُقال: تلا القرآنَ؛ لأنَّه يُتبِعُ آيةً بعد آيةٍ[5].

وقولُه تعالى: ﴿وَأَنتُمۡ تَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۚ﴾، أي: تقرؤونَ التَّوراةَ[6].

4) ﴿تَعۡقِلُونَ﴾: العَينُ والقَاف واللَّام تدُلُّ أكثَرُ تصاريفِهَا على حُبْسَةٍ في الشَّيءِ[7]، ومنه قولُهم: عَقَل الدَّواءُ بطنَه؛ إذا أمسَكَهُ[8]، والعِقالُ؛ وهو: حَبلٌ تُثْنَى به يَدُ البَعير إلى رُكبَتَيهِ فيشدُّ به[9]، وسُمِّي العَقلُ عَقلًا؛ لأنَّه يحبِسُ صاحبَهُ ويمنَعُهُ عمَّا لا يليقُ[10]؛ وهو الإدراكُ والعِلمُ ، وهو ضِدُّ الحُمْق والجهل، وهو الغريزة المُدركة الّتي ميَّز اللهُ تعالى بها الإنسانَ عَن سائر الحيوان، ويسقط بفُقدَانِها التَّكليف، والجمع: عقولٌ.

ويُطلق على العَقلِ إطلاقَاتٌ؛ مِنها: الفهمُ والتَّمييز، ومِنه قولُ الله تعالى: ﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ أي: أفلا تَفقَهونَ وتفهمون[11]، ويحتمِلُ أَن يُرادَ بالعقلِ ههنا: العمَلُ بمقتضى العِلمِ؛ لأنَّ توبيخهم ليس لكَونِهم لم يفهَموا، بل لكونِهم لم يَجْرُوا على مُقتضى ذلك العِلمِ.

(1) السّعدي، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 51.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (تلو).
(3) النَّسَفِيّ، مدارك التَّنزيل: 3/647.
(4) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة: (تلو).
(5) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (تلو).
(6) الهرويّ، حدائق الرّوح والرَّيحان: 1/364.
(7) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (عقل).
(8) ابن دُريد، جمهرة اللُّغة: (عقل).
(9) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة: (عقل).
(10) الزَّبيديّ، تاج العروس: (عقل).
(11) ابن جرير، جامع البيان: 2/10.

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

أَتطلُبونَ مِنَ النَّاس فعلَ الخيرِ، ومنه الإيمانُ، وتُعرضُون عَن أَنفُسِكُم وتَترُكونَها فلا تأمرونَها بالخير، وأعظَمُهُ: الدُّخول في الإسلام، والحالُ أنَّكم تقرؤون التَّوراةَ وفيها نعتُ النَّبيِّ محمَّد ﷺ، ووجوبُ اتِّباعِهِ والإيمانِ به؟! أليس لَكُم عقولٌ تَرْدَعُكم عَن قَبيحِ صَنيعِكم هذا؟!(1).

الإِيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

بلاغَةُ الإطنابِ بالاعتِراضِ:

قولُ اللّٰه تعالى: ﴿أَتَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبِرِّ﴾ إطنابٌ بالاعتراضِ بينَ قولِه سبحانَه قبلُ: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ وقوله تعالى بعدُ: ﴿وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ﴾، ولذا لم يُصَدَّرْ بالواو؛ ليُعلم أنَّه اعتراضٌ.

علامةُ الضَّالّ أنَّه يُمارسُ الوعظَ وظيفةً لا سلوكًا

ونكتَةُ الاعتراضِ ههنا: ذِكرُ كمالِ خسارتِهم وبيانُ مَبلَغِ سوء مآلهم؛ "حتَّى صاروا يقومون بالوعظ والتَّعليم كما يقومُ الصَّانع بصِناعَتِهِ والتَّاجر بتجارته، لا يقصدون إلَّا إيفاء وظائِفِهم الدِّينِيَّةِ حقَّها؛ ليستحقُّوا بذلك ما يُعَوَّضون عليه مِن مَراتِبَ ورواتِبَ، فهم لا ينظرون إلى حال أنفسِهم تُجاهَ تلك الأوامر الّتي يأمرون بها النَّاسَ"(2).

دلالة الاستِفهامِ في قوله ﴿أَتَأۡمُرُونَ﴾:

الاستِفهامُ في قوله ﷻ: ﴿أَتَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبِرِّ وَتَنسَوۡنَ أَنفُسَكُمۡ﴾ يُرادُ به الإنكارُ على صنيعِ اليهودِ؛ حيث أَمَرُوا النَّاسَ بالبرِّ مع نسيان النَّفس، مع أنَّ النَّفسَ أَولَى أن يُبدَأَ بأمرِها ونَهيِها(3)، وفيه مع الإنكارِ: التَّقريرُ والتَّوبيخُ والتَّعجيب مِن حالِهِم(4).

إنْ هلَكَتِ النَّفسُ فلا عِبرةَ بهدايةِ مَنْ بعدَها

(1) البيضاويّ، أنوار التَّنزيل: 1/77، والقِنَّوجِي، فتح البيان: 1/155-156، والسّعدي، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 51، ونخبة من العلماء، التّفسير الميسّر، ص: 7.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/474.

(3) ابن عثيمين، تفسير الفاتحة والبقرة: 1/157.

(4) الزَّمخشريّ، الكشَّاف: 1/462.

تَعيينُ المُخَاطَبِ بِ﴿أَتَأۡمُرُونَ﴾ ومَعنَى اللَّامِ فِي ﴿ٱلنَّاسَ﴾:

اعتيادُ سلوكِ المُنكرِ عند الأحبارِ يجعلُهم على الضِّدِّ من وصفِ الأبرار

المقصودُ بالواوِ في ﴿أَتَأۡمُرُونَ﴾ من قول الله تعالى: ﴿أَتَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبِرِّ﴾ الّذينَ خُوطِبُوا قبلُ، وهُم جميعُ بني إسرائيلَ، وهذا أبلغُ في ذمِّهم؛ حيث "إنَّ كلَّ واحدٍ مِنهُم تَجِدُهُ يُصَرِّح بأوامرِ دينِهم، ويُشِيعُها بين النَّاس، ولا يَمتَثِلُها هو في نفسه"[1].

ويحتمِلُ أَنْ يُرادَ بهم قومٌ مَخصوصونَ منهم؛ وهم أحبارُهُم وعلماؤُهم، بقرينةِ ذِكرِ الأمرِ بالبِرِّ؛ إذ هم أخصُّ به.

وعلى الأوَّلِ يكونُ المرادُ بالنَّاسِ مِن قولِه تعالى: ﴿أَتَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبِرِّ﴾ مشركي العربِ؛ وذلك أنَّ اليهودَ كانت تذكرُ للعربِ ما جاء في دينِهم، والعرَبُ كانت تحفَلُ بِسماعِ ذلك.

وعلى الثَّاني يكون المرادُ بالنَّاسِ العامَّةَ من اليهودِ؛ وذلك أنَّ أحبارَهُم كانوا يأمُرُونَ الأتباعَ والعامَّةَ بالبِرِّ ثُمَّ هم لا يمتثلُونَهُ[2].

وعلى كلا الاحتِمالَينِ؛ فاللَّامُ في (النَّاس) للعَهد.

نُكتَةُ العُدولِ عَن (النُّفُوسِ) إلى (الأَنفُسِ):

الغافلُ الآمرُ غيرَه بالبِرِّ قليلُ الشَّأنِ حقيرُ النَّفسِ

جُمِعَت كلمة ﴿أَنفُسَكُمۡ﴾ من قوله تعالى: ﴿وَتَنسَوۡنَ أَنفُسَكُمۡ﴾ على (أَفْعُل) وهو من جموع القِلَّةِ دُونَ التَّعبير بـ (النُّفوسِ)؛ تحقيرًا لهذه الأنفسِ؛ إذ الآيةُ سِيقَتْ مساقَ الذَّمِّ لهؤلاء[3].

تَرَدُّدُ الجملةِ بَينَ الحَملِ على العَطفِ أو الحال:

التَّوبيخُ معقودٌ بالنُّفوسِ الغافلةِ والعقولِ النَّاسيةِ

جملة ﴿وَتَنسَوۡنَ أَنفُسَكُمۡ﴾ يَحتَمِلُ أن تكون معطوفةً على ﴿۞أَتَأۡمُرُونَ﴾، وتكون هي محَطَّ التَّوبيخ والتَّعجيب والتَّفظيع.

ويَحتَمِلُ أن تكون حالًا مِنَ الواو في ﴿۞أَتَأۡمُرُونَ﴾، فتكون الحالُ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/474.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/474.
(3) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/107.

مقيِّدَةً للتَّوبيخ في أمر النَّاس بالبرِّ بحالِ نسيانِ الآمرِ نَفسَهُ[1]؛ إذ يُعلَمُ ضرورةً أنَّه لا يُوبَّخُ أحدٌ على مُطلَقِ أمرِهِ غيرَهُ بالبرِّ.

دلالة الجملةِ الحاليَةِ ﴿وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ﴾:

جملةُ ﴿وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ حاليَّةٌ، جيءَ بها لِتَبكِيتِهم وتقريعِهم وزيادةِ تقبيحِ حالِهم[2]؛ وذلك لأنّ نسيانَهُم أنفسَهُم يكون أفظَعَ بوجودِ أمرَينِ من شأنِهما أن يَرُدَّا بني إسرائيل إلى الصَّواب؛ وهما:

الأوَّلُ: أَمرُهُمُ النَّاسَ بالبرِّ؛ فإنَّ الآمِرَ بهِ من شأنِهِ أن يتذكَّر حاجتَهُ إليه حالَ كونِهِ في غفلةٍ عن نفسِهِ.

والآخرُ: تلاوتُهُم التَّوراةَ وهي مُشتَمِلةٌ على الأوامرِ والنَّواهي، وذلك مِن شأنِهِ أن يُذكِّرَهم بمخالفتِهم لِما يتلونَهُ[3].

نُكتَةُ تأكيدِ الجملةِ الاسميَّةِ:

أُكِّدَ تلاوتُهُمُ الكتابَ بطريقَينِ:

الأوَّلُ: اسميَّةُ الجملة ﴿وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ﴾، وهي دالَّةٌ على الاستمرارِ، وهذا أبلغُ في التَّشنيع عليهم؛ حيثُ إنَّهم مستمرُّونَ على قراءَةِ ما يُخالفونَهُ، فلم يَرْعَوُوا لقساوَةِ قلوبِهم وخُبثِ طَوِيَّتِهم.

والآخر: تأخيرُ المُسنَد الفعليِّ ﴿تَتْلُونَ﴾ عَنِ المُسنَدِ إليه ﴿وَأَنتُمْ﴾؛ وذلك يقتضِي أنَّ النِّسبةَ كُرِّرت مرَّتين؛ أُولاهُما: إسناد الفعل إلى واو الجماعةِ، والأخرى: إسناد الفعل إلى الضَّمير المنفصل (أَنتُم)، وتَكرار النِّسبةِ من طُرُقِ توكيدِ الجُملِ الاسميَّة.

دلالة اللَّامِ في ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾:

اللَّامُ في ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ مِن قول الله تعالى: ﴿وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ﴾

ضياعُ التَّقوى من القلوبِ يُذهبُ الحياءَ من السُّلوكِ

قوَّةُ التَّقريعِ والتَّوبيخِ بسببِ استحكامِ الغفلةِ مع استحضارِ المعرفةِ

سُلوك اليهود يُباين تعاليمَ التوراة

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/476.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 1/97، والآلوسّي، روح المعاني: 1/249.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/477-476.

للعَهدِ العلميِّ؛ والكتاب يُرادُ به التَّورَاةُ؛ إذ هو الكتاب الّذي يتلوهُ اليهودُ على وجهٍ خاصٍّ.

ويَحتَمِلُ أن تَكُونَ اللَّامُ للعَهدِ الحضوريِّ، فيكون معنى قول الله تعالى: ﴿وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ والحال أنَّكم تَتلُونَ هذا الكتابَ الحاضِرَ بينَ أيديكم وهو التَّوراةُ.

وهما وجهان متقاربَانِ، مآلاهُمَا الدِّلاليُّ واحدٌ.

غَرضُ الاستِفهامِ في قوله ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾:

الاستفهام في قوله سبحانه: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ يُرادُ به التَّوبيخ[1] زيادةً على توبيخِهم السَّابق.

نُكتَةُ حَذفِ المَفعولِ:

حُذف المعمولُ مِن قولِ الله تعالى: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾، وفي ذلك ثلاثةُ مَسَالِكَ[2]:

الأوَّل: أَنْ يُقدَّرَ للفعلِ مَفعولٌ خاصٌّ، والمعنى: أفلا تعقلون قَبِيَح صُنعِكُم لمُخالَفَةِ ما تَتلُونَهُ -فيما أمَرَكُم اللهُ تعالى به - في التَّوراة.

الثَّاني: أَنْ لا يُقدَّر للفعل مفعولٌ خاصٌّ؛ والمرادُ: العُمومُ، أي: أفلا تعقلُونَ شيئًا؟

الثَّالثُ: أَنْ لا يُقدَّرَ له مَفعُولٌ أَصلًا؛ تنزيلًا للفعلِ المُتَعَدِّي منزلَةَ اللَّازِم، كأنَّ المفعولَ غيرُ مرادٍ، قال الزَّمخشريُّ: "أفلا تفطنون لقُبحِ ما أقدمتُم عليه حتَّى يَصُدَّكم استقباحُه عَن ارتكابه، وكأنَّكُم في ذلك مَسلوبُو العقولِ؛ لأنَّ العقولَ تأبَاه وتدفعه"[3]، وهذا أبلغُ في ذمِّهم.

آمِرُ النَّاسِ بالبِرِّ مع نِسيانِ نَفسِهِ في حُكمِ مَسلوبِ العَقلِ

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

البِرُّ والخَيرُ:

بينَ البِرِّ والخير عمومٌ وخصُوص مُطلَقٌ؛ فالبِرُّ أخصُّ مُطلقًا مِنَ الخيرِ، وذلك أنَّ البِرَّ هو الخيرُ الواصلُ إلى أَحدٍ ما مع القَصدِ إلى ذلك، بخلافِ الخَيرِ فإنَّه أعَمُّ، سَواءٌ وصل ذلكَ عَنْ قَصدٍ أو عن غَيرِ قصدٍ[4].

(1) ابن عثيمين، تفسير الفاتحة والبقرة: 1/158.
(2) الزَّمخشريّ، الكشَّاف: 1/133، والآلوسّي، روح المعاني: 1/250.
(3) الزَّمخشريّ، الكشَّاف: 1/133.
(4) أبو هِلال العسكريّ، الفروق اللُّغويَّة، ص: 95.

التِّلاوَةُ والقِراءَةُ:

بينَ التِّلاوة والقراءةِ عمومٌ وخصوصٌ وجهيٌّ، فالتِّلاوةُ أعمُّ مِنَ القراءة من وجهٍ وأخصُّ منها مِن وجهٍ آخرَ؛ وذلك:

أنَّ التِّلاوَةَ تأتي بمعنى القراءةِ، وتأتي بمعنى الاتِّباع، كما في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَتۡلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾ [البقرة: 121] أي: يتَّبعونَهُ حقَّ اتِّباعه[1]، والقراءةُ لا تَرِدُ بالمعنَى الثَّاني، فكانت التِّلاوةُ أعمَّ مِن هذا الوجهِ.

وأمَّا وجهُ الخصوص في التِّلاوَةِ، فالتِّلاوةُ تختصُّ غالبًا بكُتُبِ اللّٰهِ تعالى المُنَزَّلَةِ، فكلُّ تلاوةٍ قراءةٌ، وليس كُلُّ قراءةٍ تلاوةً -على هذا الوجه-، ولا يُشكِلُ على هذا قول اللّٰه تعالى: ﴿وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتۡلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلۡكِ سُلَيۡمَٰنَۖ﴾ [البقرة: 102]؛ فإنَّه جَريٌ على ما زَعَمَتْهُ الشَّياطينُ مِن أنَّ الّذي يتلونَهُ هو مِن كُتُبِ اللّٰه تعالى[2].

وأمَّا جعلُ التِّلاوةِ أخصَّ مِنَ القراءةِ مِن جهةِ أنَّ التِّلاوةَ قراءةٌ واتِّباعٌ معًا[3]؛ فهذا غيرُ مُطَّردٍ، بدليل قول اللّٰه تعالى: ﴿وَأَنتُمۡ تَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۚ﴾، فقد سِيقَتْ مساق الذَّمِّ، ولو تَلَوْا التَّوراةَ واتَّبعوا ما فيها؛ لأدَّاهم ذلك إلى اتِّبَاع دين الإسلام.

(1) الواحديّ، البسيط: 183/3.

(2) الرّاغب، المفردات: (تلو).

(3) محمّد محمَّد داود، معجم الفروق الدّلاليَّة في القرآن الكريم، ص: 160-158.

﴿ وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلۡخَٰشِعِينَ ٤٥ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ وَأَنَّهُمۡ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ٤٦ ﴾

[البقرة: 45-46]

مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِمَا قَبْلَهَما:

لَمَّا أَنكَرَ اللهُ تعالى على بَني إسرائيلَ اتّباعَهُمُ الهَوى، وكانَ ذلك شَاقًّا عليهم -لِما فيه مِنْ فَواتِ مَحبُوبِهم من الرِّياسَةِ ونَحوِها-؛ أَرشَدَهُم إلى معالجة هذا الدَّاءِ بأعظمِ أخلاقِ النَّفسِ -وهو الصَّبرُ-، وأجلِّ أعمالِ الجوارحِ -وهي الصَّلاة-، فقال سُبحانَهُ عاطفًا على ما ذكرهُ قبلُ مِنَ الأوامر: ﴿وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ﴾[1].

شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

1) ﴿بِٱلصَّبۡرِ﴾: أصلُ الصّبر: الإمساكُ في ضِيق، يُقال: صَبَرْتُ الدَّابَّة: حبستها بلا عَلَف، ومنه قولُهم: صَبَرْتُ نَفسِي على كذا؛ أَي: حَبَستُها عليه[2]، بأَنْ حَمَلها على ملازمتهِ.

والصَّبرُ: حَبْس النَّفس على ما يَقتَضِيه العقلُ والشَّرعُ أو عمّا يقتضيان حَبْسَها عنه، فالصَّبرُ لفظ عامٌّ، وربّما خُولِف بين أسمائِه بحسب اختِلافِ مَواقعِه، فَإِنْ كانَ حَبْسُ النَّفس لمُصِيبَة سُمِّي صبرًا لا غير، وإن كان في محاربةٍ سُمِّي شجاعةً، وإن كان في نائبةٍ مُضْجِرَة سُمِّي رحابةَ صَدْرٍ، وإن كان في إمساك الكلامِ سُمِّي كِتمانًا، وقد سَمَّى اللهُ تعالى كلَّ ذلك صبرًا في آيات كثيرة في كتابه العزيز[3].

2) ﴿لَكَبِيرَةٌ﴾: الكاف والباء والرَّاءُ تدُلُّ اشتقاقاتهَا على خلافِ الصِّغَرِ[4]؛ وهو نُمُوٌّ

(1) البِقاعيّ، نظم الدّرر: 1/338، وأبو السّعود، إرشاد العقل السَّليم: 1/98، والآلوسّي، روح المعاني: 1/250.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (صبر).
(3) الرّاغب، المفرداتُ: (صبر).
(4) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (كبر).

حَجم الشَّيء أو زيادتُه بالنِّسبةِ إلى حَجمِه أو حجم غَيرِه، ويُستعمَلُ كذلك في العِظَم المعنويِّ[1]، ومنه: الكبرياءُ، بمعنى: العَظمَة[2].

والكِبَرُ يَرِدُ بمعنَى الثِّقَلِ؛ لأنَّ الثِّقَلَ لازِمٌ للعَظَمَةِ[3]، سواءٌ أكانتِ العَظَمةُ حسِّيَّةً أم معنويَّةً، ومنه قول الله تعالى: ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ﴾ أي: لثقيلة شاقَّة[4].

3) ﴿ٱلْخَٰشِعِينَ﴾: يدُلُّ الجذرُ اللُّغويُّ الخاء والشِّين والعَين على التَّطامُنِ والانخِفاضِ، يُقال: خشعَ؛ إذا تطامَنَ وطأْطَأَ رأسَهُ[5]، ومنه خُشُوعُ الصَّوتِ: انخفاضُهُ، كما في قول الله تعالى: ﴿وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾ [طه: 108].

والخُشوع شَرعًا: قيامُ القَلبِ بينَ يَدَي الله تعالى بالخُضوعِ والذُّلِّ والافتقار إليهِ وبالجَوارح[6].

وقولُه تعالى: ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ﴾ أي: إلَّا على الخاضِعين لطاعَتِهِ[7].

4) ﴿يَظُنُّونَ﴾: الظَّاء والنُّونان تدلُّ تصاريفها على توقُّع وجود شيءٍ مُهِمٍّ؛ لأمارَةٍ أو دليلٍ قويَّينِ[8]، فيكون ذلك شكًّا أو يقينًا[9]، فمتَى قويت هذه العلامَةُ أدَّت إلى اليقين والعِلم، ومتى ضَعُفَت جدًّا لم يتجَاوزِ الظَّنُّ حدَّ التَّوهُّم[10].

فمِنَ الأوَّلِ قولُ الله تعالى: ﴿إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ﴾ [الحاقة: 20]، ومِنَ الثَّاني قولُه تعالى: ﴿إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾ [الجاثية: 32][11].

ومِن مجيءِ الظنِّ بمعنى اليقينِ قولُ الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ﴾؛ فإنَّ معناها: يتيقَّنُونَ ذلك[12].

وذكر الزَّركَشِيُّ ضابطَينِ للتَّفريقِ بين مَعنَيَي الظَّنِّ في القرآن الكريم[13]؛ وهُما:

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصَّل: (كبر).
(2) الخليل، العين: (كبر).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصَّل: (كبر).
(4) الزَّمخشريّ، الكشَّاف: 1/200.
(5) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (خشع).
(6) ابن القيّم، مدارج السالكين: 1/516.
(7) ابن جرير، جامع البيان: 2/16.
(8) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (ظنن).
(9) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (ظن).
(10) الرّاغب، المفردات: (ظنّ).
(11) ابن الجوزيّ، نزهة الأعين النَّواظر، ص: 425.
(12) ابن جرير، جامع البيان: 2/17-20.
(13) الزَّركشّي، البرهان: 4/156.

الأوَّل: أنَّ الظَّنَّ إذا كان محمودًا مُثابًا عليه فهو اليَقِينُ، وإذا كان مذمومًا متوعَّدًا عليه فهو الشَّكُّ.

الآخَرُ: أنَّ كُلَّ ظنٍّ وردَت بعدَهُ (أَنْ) الخفيفةُ فهو للشَّكِّ.

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

واطلُبُوا العونَ في كلِّ أمورِكم بالصَّبرِ والصَّلاةِ، وإنَّ الصَّلاة لعَظِيمَةٌ وشاقَّةٌ إلَّا على الخاضِعِينَ لربِّهم ﷻ فهي سَهلَةٌ عليهم؛ لأنَّهم يتيقَّنُونَ البعثَ بعدَ الموتِ وملاقاةَ اللّٰه تعالى، وأنَّهم راجعونَ إليه سُبحانَهُ وحدَهُ للحِسابِ والجزَاءِ على الأَعمالِ، فيوجِبُ لهم ذلك فعلَ الصَّلاةَ مُنشَرِحَةً بها صدورُهُم[1].

❁ الإيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

دلالة اللَّامِ في ﴿بِٱلصَّبۡرِ﴾:

اللَّامُ في (الصَّبرِ) مِن قوله تعالى: ﴿وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ﴾ للجِنسِ[2]، فيندرِجُ تحتَهُ أنواعُ الصَّبرِ الثَّلاثةُ: الصَّبرُ على الطَّاعة حتَّى يؤدِّيها، والصَّبرُ عن المعصية حتَّى يجتَنِبَها، والصَّبرُ على القَدَرِ المُؤلِمِ فلا يتَسخَّطُهُ[3]، ويدخلُ في ذلك كلُّ عبادةٍ تُعين العابدَ على الاستعانةِ، ومنها الصَّومُ؛ "لِما فيه مِنْ كَسرِ الشَّهوة وتصفيةِ النَّفس المُوجِبَينِ للانقطاعِ إلى اللّٰه تعالى المُوجِبِ لإجابَةِ الدُّعاء"[4].

الصَّبرُ كلمةٌ جامعةٌ وهي أداةُ الاستعانةِ ومعوانُ الطَّاعةِ

فنُّ مُراعاةِ النَّظِيرِ في الجَمعِ بَينَ الصَّبرِ والصَّلاةِ:

في الجمع بين الصَّبر والصَّلاة مراعاةُ النَّظيرِ[5]، فالتَّناسُبُ بينَهُ وبين الصَّلاةِ؛ أنَّ في الصَّلاةِ صَبرًا مِنْ جِهاتٍ مختلفةٍ[6].

---

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 1/255، والسّعدي، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 51، ونخبة من العلماء، التّفسير الميسّر، ص: 7.

(2) الآلوسّي، روح المعاني: 1/250.

(3) السّعدي، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 51.

(4) الآلوسّي، روح المعاني: 1/250.

(5) مراعاة النَّظير: أحَدُ المُحَسِّنات المعنوية؛ وهو: الجمعُ بين أمرَينِ أو أمورٍ متناسبةٍ لا على وَجهِ التَّضَادِّ.
يُنظر: السَّكَّاكي، مفتاح العلوم، ص: 200.

(6) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 1/177.

نِكاتُ تَقديمِ الصَّبرِ على الصَّلاةِ:

اشتِمالُ الصَّلاةِ على أنواعٍ مِنَ الصَّبرِ

قُدِّمَ الصَّبرُ على الصَّلاةِ في قوله تعالى: ﴿وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ﴾ لِنكاتٍ:

الأُولَى: أنَّ هذا التَّقديمَ من بابِ التَّرقِّي[1] بذِكرِ الشَّيءِ ثُمَّ تعقيبِهِ بما هو أعظَمُ، والصَّلاةُ أرفعُ منزلةً من الصَّبرِ؛ لجمعِهَا أنواعًا منه؛ فالصَّلاةُ "حَبسُ الحَواسِّ على العِبادَةِ، وحَبسُ الخواطِرِ والأفكارِ على الطَّاعَةِ"[2].

الثَّانية: أنَّ الصَّلاة لا يُمكِنُ حصولُهَا كاملةً إلَّا بالصَّبرِ[3]، فتقديمُهُ عليها مِنْ تقديم الشَّرطِ على المشروطِ.

التَّخلِيَةُ قَبلَ التَّحلِيَةِ

الثَّالثة: أَنَّ تقديمَهُ مِن بابِ التَّخلِيَةِ قَبلَ التَّحلية ودرءِ المفاسِدِ مُقَدَّم على جَلبِ المصالح؛ وذلك أنَّ في الصَّبرِ إزالةَ ما لا يَنبَغي، وفي الصَّلاةِ حصولَ ما يَنبَغي[4].

افتِقارُ مُفارَقَةِ العَوائِدِ إلى الصَّبرِ

الرَّابعة: أنَّه تقدَّمَ ذكرُ جملةٍ مِنَ الأوامِرِ والنَّواهي العظيمةِ ممَّا يشقُّ فراقُها على مَنْ أَلِفَها؛ فكان تقديمُ الأمر بالصَّبرِ أَنسَبَ؛ لأنَّ امتثالَ خطابِ الشَّرْعِ بمفارقَةِ الإلفِ يَفتَقِرُ إلى صَبرٍ[5].

سِرُّ حَذفِ مُتَعَلَّقِ الاستِعانَةِ:

الاستِعانَةُ بالصَّبرِ والصَّلاةِ في عُمومِ الأَحوالِ

حُذِفَ مُتَعلَّق الاستِعانَةِ، فلم يُذكَرْ على أيِّ شيءٍ يُستَعانُ بالصَّبرِ والصَّلاة، والقَصدُ مِن ذلك: العمومُ والشُّمول؛ إذ إنَّ حذفَ المَعمُولِ مؤذِنٌ بالعموم، والمعنى: استَعينوا بهما على جَميعِ أمورِكُم؛ دينيَّةً كانت أو دنيويَّةً[6].

---

(1) التَّرقِّي: أن يُذكرَ المعنى ثُمَّ يُردَفَ بما هو أبلغُ منه.
يُنظر: السُّيوطيّ، شرح عقود الجُمَان، ص: 135.
(2) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 1/177.
(3) الطّيبي، فتوح الغيب: 2/464، والهرري، حدائق الرَّوح والرَّيحان: 1/366.
(4) أبو حيَّان، البحر المحيط: 1/298، والآلوسّي، روح المعاني: 1/250.
(5) أبو حيَّان، البحر المحيط: 1/298.
(6) السّعدي، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 51.

فائِدَةُ تَخصيصِ الصَّلاةِ بعَود الضَّمير عليها:

تَعظِيمُ قَدْرِ الصَّلاة

الضَّميرُ (هَا) في قوله سبحانه: ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ﴾ يرجِعُ - في الأظهَر - إلى الصَّلاةِ[1]؛ إعمالًا لقاعِدَة عود الضَّمير على أقربِ مذكورٍ ما لم يدُلَّ دليلٌ على خلافِهِ[2]، وتخصيصُ الصَّلاةِ بردِّ الضَّميرِ إليها إشارَةٌ إلى عظمَةِ شأنِها[3].

نُكتَةُ تأكيدِ الجُملةِ بأنواعٍ مِنَ المُؤَكِّدَات:

رِفعَةُ شأنِ الخاشِعِينَ

أُكِّدَت جملة ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ﴾ بمؤكِّداتٍ ثلاثةٍ:

أوّلها: (إنَّ) فإنَّها مِن جملة ما يُؤكِّدُ النِّسَبَ في الجُملِ الاسميَّةِ.

ثانيها: اللَّامُ المزَحْلَقَةُ الدَّاخلة على خَبَر "إنَّ".

ثالثها: اسميَّةُ الجملةِ، فالجملة الاسميَّة آكدُ مِنَ الفعليَّةِ؛ لِمَا تقتضِيه مِنَ الدّلالة على الاستِمرار.

وهذه الأَلوَانُ مِنَ المؤكِّدَاتُ تدُلُّ على شدَّةِ مشقَّةِ الصَّلاةِ على غير الخاشِعِين، وفيها رفعٌ لشأنِ الخاشعِينَ؛ حيث إنَّ هذا الأمرَ العظيم الّذي يشقُّ على غَيرِهِم مشقَّةً عظيمةً يسهُلُ عليهم.

سِرُّ العُدولِ عَنِ التَّعبيرِ باليَقينِ إلى التَّعبيرِ بالظَّنِّ:

الظَّنُّ بلِقاءِ اللهِ تعالى يُمدَحُ به الإنسانُ، فكيفَ والأَمرُ يَقِينٌ؟!

الظَّنُّ هَهنا بمعنَى اليقينِ؛ والتَّعبيرُ عَنِ اليقينِ بالظَّنِّ له تخريجان:

الأوَّلُ: أن يكونَ على سبيل الحقيقةِ، باعتبار أنَّ الظنَّ يُستعمل في الظَّنِّ واليقينِ على سَبيلِ الاشتراك.

الآخرُ: أن يكُونَ مجازًا بالاستِعارَةِ[4]؛ ووَجهُهُ: أنَّ العِلمَ والظَّنَّ يشتركان في أنَّ كُلًّا منهما اعتقادٌ راجحٌ، ويفترقان في أنَّ العلمَ اعتقادٌ راجحٌ لا يَحتَمِلُ النَّقيضَ، والظنَّ اعتقادٌ راجحٌ يحتَمِلُ

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 1/156.
(2) الشَّنقيطيّ، أضواء البيان: 5/302.
(3) القاسميّ، محاسن التَّأويل: 1/301.
(4) الخفاجيّ، عناية القاضي: 2/154.

النَّقيضَ، فلمَّا اشتبها مِنْ هذه الجِهَةِ أُطْلِقَ أحدُهما على الآخَرِ[1]، والنُّكتَةُ في ذلك ههنا: تهويلُ الأَمرِ، والتَّنبيهُ على أنَّ العاقلَ يَكفيه في الحثِّ على ملازمة الطَّاعةِ ظنُّ لقاءِ الربِّ ﷻ، فكيف والأمر يقينٌ لا يتطرَّقُ إليه شكٌّ[2].

سَبَبُ اختِيارِ خَبَرِ (أَنَّ) اسمًا:

ديمومةُ استحضارِ لِقاءِ اللهِ تعالى في خَواطرِ المؤمنِينَ

جُعِلَ خبَرُ (أَنَّ) في قوله تعالى: ﴿يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ﴾ اسمًا، فلم يقل: (يظنون ملاقاة الله)، وكذا في قوله بعدُ: ﴿وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾؛ للدّلالة على ثبوتِ اللِّقاءِ والرُّجوعِ وتأَكُّدِهِمَا[3]، واستمرارِهم على اعتقادِ ذلك؛ بحيث لا يغَيبُ عَن خواطرِهم، وكان هذا دافعًا لهم للعمل الصَّالح.

نُكتَةُ اختِيارِ لَفظِ الرَّبِّ في قولِهِ ﴿مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ﴾:

استحضارُ المؤمنين إحسانَ اللهِ تعالى لخَلقِهِ عامَّةً ولهم خاصَّةً

اختيار لفظ الرُّبوبيَّةَ مُضافًا إلى الضَّمير الرَّاجع إلى الخاشعِين في قوله: ﴿أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ﴾؛ للإشعارِ بفَيَضانِ إحسانِه إليهم[4]، فهو الّذي ربَّاهم وأَنشأَهُم وتعهَّدَهُم في الوجودِ[5]؛ وذلك لأنَّ لفظَ الرُّبوبيَّةِ مُتضمِّنٌ معنى الخلقِ والإنعام بالنِّعَمِ العظيمة، ومنه: إنعامٌ خاصٌّ بالمؤمنِينَ وهو تربيةُ اللهِ تعالى لهم بالإيمانِ، وتوفيقُهم له، ودَفعُهُ عنهم الصَّوَارِفَ الحائلةَ بينهم وبينَ كَمالِه[6].

نُكتَةُ تَقديمِ الجارِّ والمَجرورِ في قوله ﴿وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾:

مَصِيرُ الخلائقِ في ذِهنِ المؤمنين لله وحدَه

قُدِّمَ الجارُّ والمجرور ﴿إِلَيْهِ﴾ في قوله سبحانه ﴿وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾؛ لِفائِدَتَين[7]:

(1) الرَّازي، التَّفسير الكبير: 3/491.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 1/343، وابن بَدرَان، جواهر الأفكار، ص: 197.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السَّليم: 1/98.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السَّليم: 1/98.
(5) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 1/221.
(6) السّعدي، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 39.
(7) الشِّنقيطيّ، العذب النَّمير: 1/53، وأبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 1/221.

الأولى: إفادةُ القَصْرِ، وأنَّ هؤلاءَ الخاشعين يَعتقدونَ أنَّ الرُّجوعَ إلى اللّه تعالى وَحدَهُ دونَ أحدٍ سواهُ.

الأخرى: حسنُ التَّناسُبِ بين الفواصلِ؛ فإنَّ الآيةَ قبلها خُتِمَت بقوله سبحانه: ﴿إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ﴾، والآيةَ بعدها خُتمت بقولِهِ تعالى: ﴿وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، فلو جرى الكلامُ على الأصلِ بتأخير الجارِّ والمجرورِ (وأنَّهم راجعون إِلَيهِ)؛ لفاتَ هذا التَّناسُبُ.

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الخُشوعُ والخُضوعُ:

الفرقُ بينَ الخشوعِ والخضوعِ مِن ثلاثةِ أَوجُهٍ:

أحدها: أنَّ أثرَ الخشوعِ يظهَرُ في الصَّوتِ والبصرِ والبَدَن، -ومنه قولُ النَّبِيِّ ﷺ: «خَشَعَ لَكَ سَمْعِي، وَبَصَرِي، وَمُخِّي، وَعَظْمِي، وَعَصَبِي»[1]، وأثر الخُضوعِ يظهَرُ في البدَنِ فقط[2].

ثانيها: أنَّ الخشوعَ انقيادُ الباطنِ للحقِّ، والخُضُوعَ انقيادُ الظَّاهرِ لهُ، ومنه قوله تعالى: ﴿إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ﴾ [الشعراء: 4] [3].

ثالثها: أنَّ الخشوعَ لا يكون إلَّا عَنِ انفعالٍ صادقٍ بجلال مَن يُخشَعُ له، بخلاف الخُضوعِ؛ فقد يكون تكلُّفًا، إمَّا نفاقًا أو خوفًا أو تقيَّةً أو نحوَ ذلك، ولذا تقولُ العَرَبُ: خشعَ قلبُهُ، ولا تَقولُ: خضعَ قلبُهُ، إلَّا مِن باب التَّجوُّز والتَّوسُّع في العِبارَة[4].

(1) رواه مسلم، حديث رقم: (771).
(2) الخليل، العين: (خشع).
(3) إسماعيل حقّي، روح البيان: 9/452.
(4) أبو هلال العسكريّ، الفروق اللُّغويَّة، ص: 216، وبنت الشاطئ، الإعجاز البيانّي، ص: 226.

﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ٤٧﴾ [البقرة: 47]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

أعَاد اللّٰه تعالى تَذكيرَ بَني إسرائيلَ بنِعَمِهِ الكثيرَةِ المتتابِعَةِ عليهم؛ توطئةً لِما سَيُورِدُهُ مِن مِنَنَه عليهم في الآياتِ القادِمَةِ، وتَحذيرًا لهم مِن كُفرِهم عطايا اللّٰهِ سبحانَه وهِبَاتِه، ومِن كَثرَة ما وَقَع منهم مِنْ نَقضِ العهود، ومِن سوءِ فِعالهم مع أنبيائِه عليهم السلام.

شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

1) ﴿فَضَّلۡتُكُمۡ﴾: الفَاءُ والضَّادُ واللَّامُ تدُلُّ اشتقاقاتُها على الزِّيادة في الشَّيء[1]، واستعمالُ هذا الأصلِ: في الخيرِ[2]، فالفَضْلُ: الزِّيادةُ في الخير[3]، حِسِّيَّةً كانتِ الزِّيادةُ أو معنويَّةً[4].

والفعل (فضَّلَ) من قوله تعالى: ﴿وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ معناه: حَكَمْتُ لكم بالفَضلِ وصيَّرتُكُم كذلك[5].

2) ﴿ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾: العَينُ واللَّام والميم تدلُّ تصارِيفُها على أثرٍ بالشَّيءِ يتميَّزُ به عن غيرِه، ومنه: العلامَةُ[6].

والعالَمونَ: جَمعُ (عَالَم)، وهم: أصنافُ الخلائِقِ[7]، سُمُّوا كذلك؛ لأَنَّ وجودَهُم علامةٌ على وجودِ خالقِهم سُبحانه.

والعالَمونَ في قوله تعالى: ﴿وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ عامٌّ في الأشخاصِ، خاصٌّ في الأزمان، والمرادُ: عالَمُو زمانِهِم[8].

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (فضل).
(2) أبو حيَّان، البحر المحيط: 1/302.
(3) ابن عادل، اللُّباب في علوم الكتاب: 2/45.
(4) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصَّل: (فضل).
(5) الجوهريّ، الصِّحاح: (فضل).
(6) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (علم).
(7) العُلَيْمِيّ، فتح الرَّحمن في تفسير القرآن: 1/42.
(8) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/109.

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

يا ذريَّةَ يعقوبَ! اذكروا نعمِي المتكاثرةَ عليكم، ومِنْ جملتِها: أنِّي فضَّلتُ أسلافَكُم على عالَمي زمانِهم بما أعطيتُهُم مِنَ المُلْكِ وكثرةِ الرُّسُلِ والكُتُب[1].

الإِيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

نُكتَةُ الإطنابِ بتَكرَارِ النِّداءِ المُتَقَدِّمِ ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾:

مِنْ مَقاصِدِ التَّكرَارِ في الكلامِ الاهتِمامُ وتَرابُطُ النَّظْمِ

كُرِّر خطابُ بني إسرائيلَ بأُسلوبِ النِّداءِ على ما تقدَّم في قوله تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ﴾ [البقرة: 40]؛ لعَدَدٍ مِنَ الوجُوه:

أوَّلُها: قصدُ الاهتِمامِ بهذا الخطابِ وما يترتَّب عليه[2].

ثانيها: توكِيدُ الحُجَّةِ عليهم.

ثالثها: تَحذيرُهم مِن تَرْكِ اتِّباعِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عليهِ وآله وسلَّم[3]،

رابعُها: ربطُ ما بعدَهُ مِنَ الوعيدِ الشَّديد به[4] في قوله: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا﴾ [البقرة: 48].

وتقدَّمَ الكلام على ما في قوله سبحانه: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ﴾ من الأساليب البلاغيَّة.

نُكتَةُ عَطفِ الخاصِّ على العامِّ:

ذكرُ النِّعمةِ الخاصَّةِ بعد العامّة مؤثِّرٌ فيمن وعى الحقَّ وعَلِمَ المطلوبَ

عَطْفُ قولِ اللّه تعالى: ﴿وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ على قوله سبحانه: ﴿نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ﴾ هو مِنَ الإطنابِ بعطف الخاصِّ على العامِّ؛ لأنَّ تفضيلَ اللّه ﷻ لهم على عالَمِي زمانِهم

(1) ابن جرير، جامع البيان: 2/23-24، وابن أبي حاتم، تفسير القرآن العظيم: 1/104، ونخبة من العلماء، التّفسير الميسّر، ص: 7.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتنوير: 1/482.

(3) الشَّوكاني، فتح القدير: 1/96.

(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السَّليم: 1/98.

مِنْ جُملةِ نِعَمِهِ عليهم، ونُكتَةُ العطفِ بيانُ كمالِ نِعمَةِ التَّفضِيلِ وشَرَفِها[1]، وتَقَوَّى هذا المعنى بتأكيد الجملة بـ (أَنَّ).

بلاغَةُ إيجازِ الحَذفِ في قوله ﴿وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ﴾:

الإنعامُ على الآباءِ مِنَّةٌ في رِقابِ الأَبناء

في قوله تعالى ﴿وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ﴾ حذفُ مضافٍ، والتقدير: فضَّلتُ آباءَكم؛ وهُمُ الّذين كانوا قَبلَ التَّغيير والتَّبديلِ[2]، ونُكتَةُ الحذفِ بيانُ أنَّ الإنعامَ على الآباءِ إنعامٌ عليهم، فَنسب نِعَمه على آبائهم وأسلافهم إلى أنَّها نِعَمٌ منه عليهم؛ إذ كانت مآثرُ الآباء مآثرَ للأَبناء، والنِّعمُ عندَ الآباء نعمًا عند الأبناء؛ لكونِ الأبناء مِنَ الآباء[3].

دلالة اللَّامِ في ﴿ٱلْعَٰلَمِينَ﴾:

دلالة الألفاظِ النِّسبيَّةِ يُحدِّدُها السِّياقُ

اللَّامُ في ﴿ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ من قول الله تعالى: ﴿وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ للعَهدِ عندَ مَن جعل ﴿ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ عامًّا في الأشخاص خاصًّا في الأزمانِ، فالمقصود: عَالَمُو زمانِهم[4].

ويَحتَمِلُ أن تكون اللَّامُ للاستِغراق، ويكون ذلك استغراقًا عُرْفِيًّا لا حقيقيًّا؛ إذِ المُرادُ - كما تقدَّم - عالمُو زمانِهم[5]، وهذا الوجهُ يَؤُول إلى الّذي قَبلَه.

ويَحتَمِلُ أن تكون اللَّامُ للجِنسِ عند مَن جَعَلَ المرادَ بـ ﴿ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ الجمَّ الغفيرَ مِنَ النَّاس[6]، وهو مجازٌ مُرسَلٌ من باب إطلاقِ الكُلِّ على الأَكثَر[7].

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السَّليم: 1/98.
(2) الآلوسّي، روح المعاني: 1/252، والقاسميّ، محاسن التَّأويل: 1/302.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 1/629.
(4) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/109.
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/483.
(6) الزَّمخشريّ، الكشَّاف: 1/135.
(7) الطِّيبي، فتوح الغيب: 2/469.

﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا شَفَٰعَةٞ وَلَا يُؤۡخَذُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ٤٨﴾ [البقرة: 48]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لـمَّا ذكَّر اللّه تعالى بني إسرائيل بنِعَمِهِ عليهم وما خصَّهم به مِنَ الكرامةِ والتَّفضيل على عالَمِي زمانِهم، وكانتِ المخالفةُ مع عظيمِ المِنَّةِ أفحشَ وأقبَحَ، ولا سيَّما وأنَّهُم توهَّموا مِنْ تفضيلِهم تَفضِيلًا ذاتيّا، وأنَّ الإخلالَ بالعمل الصَّالحِ لا يَضُرُّهُم؛ أعقبَهُ اللّه تعالى بتحذيرِهم فقال: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا﴾[1].

شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

1) ﴿تَجۡزِي﴾: الجيم والزَّاي والياءُ تدُلُّ اشتقاقاتُها على قيامِ شيءٍ مَقَامَ غيرِهِ ومكافأَتِهِ إيَّاهُ[2]، ومنهُ قولُهم: جَزَى عنِّي هذا الأَمرَ، أَي: قَضاهُ[3]، ومنه قولُ اللّه تعالى: ﴿لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا﴾ أي: لا تَقضِي ولا تُغنِي.

2) ﴿شَفَٰعَةٞ﴾: أَصلُ الكلِمة مِن الشَّفْعِ، وهو: ضَمُّ الشَّيءِ إلى غَيرِهِ[4]، وقَولُهُم: ناقةٌ شافِعٌ؛ وهي الّتي في بَطنِهَا ولدٌ ويَتبَعُها آخَرُ[5]، يُقال: شَفَعَ إلى فُلانٍ في أَمرٍ ما شَفاعَةً؛ إذا طَلَبَ إليه قَضاءَ حاجَةٍ للآخرين. وتُطلَقُ الشّفاعة على الإعانَةِ والتّقوِيَة.

والشَّفاعة: مُعاونَةُ طالِبِ الحاجَةِ لِجَلبِ مَنفَعَةٍ له، أو دَفْعِ مَضَرّةٍ عنهُ عندَ مَن يَملِكُ الحاجَةَ[6]، وهذا هو المعنى المرادُ في قول اللّهِ تعالى: ﴿وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا شَفَٰعَةٞ﴾.

3) ﴿عَدۡلٞ﴾: العين والدَّالُ واللَّامُ تدُلُّ أكثرُ اشتقاقاتِهَا على موازنةِ شَيءٍ في جانبٍ

(1) البِقاعيّ، نظم الدّرر: 1/346، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/484.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (جزي).
(3) الجوهريّ، الصِّحاح: (جزى).
(4) الرّاغب، المفردات: (شفع).
(5) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (شفع)، والجوهريّ، الصِّحاح: (شفع).
(6) جبل، المعجم الاشتقاقِيّ المؤصَّل: (شفع).

بشيءٍ في جانبٍ آخَرَ حتّى يَتَّزِنَا[1]، ومنه العَدْلُ في القضاءِ، وهو ضِدُّ الجَورِ[2]؛ لأَنَّ فيه اتِّزانًا في إعمالِ البَيِّنَاتِ، ومنه أيضًا: العِدْلُ بمعنَى المِثْلِ، والعَدْلُ: القيمَةُ[3].

ويَرِدُ العَدْلُ بمعنَى الفِدْيَةِ[4]، ومنه قولُ اللّه تعالى: ﴿وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾؛ وسُمِّيت الفِديةُ عِدْلًا؛ لأنَّها تُوَازِنُ المُفتَدَى في القِيمَةِ[5].

4) ﴿يُنصَرُونَ﴾: تَدُورُ مادَّةُ النُّونِ والصَّادِ والرَّاءِ حول معنَى إتيانِ خيرٍ وإيتائِه بما فيه زيادةُ مناسِبةٍ وقُوَّةٍ، ولازِمُهُ: دَفْعُ الضُّرِّ[6]، ومنه سُمِّيَ المطرُ نصرًا[7]، والنَّصرُ على العَدُوِّ: إعانَةُ الخصم عليه في حَرْبٍ أو غيرها؛ بقُوَّةِ النَّاصر وغَلَبَتِه[8].

وقولُ اللّهِ تعالى: ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ بمعنَى؛ لا يُدفع عَنهُمُ المَكرُوهُ[9].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

وخَافوا يومَ القيامةِ واجعَلُوا بينَكُم وبين عذابِهِ وقايةً؛ وذلك بامتِثالِ خطاب الشَّرع، فِعلًا للمأمورِ وتركًا للمَحظورِ؛ ذلك أنَّ يوم القيامة لا يُغني فيه أحدٌ عَنْ أحدٍ شيئًا، ولا يَقبَلُ اللّه تعالى شفاعَةً في الكافرِينَ مُطلقًا، ولا يُقبَلُ منهم فداءٌ ولو عَظُمَ، ولا يَملِكُ لهم أحدٌ نَصْرًا وإنقاذًا مِن عَذاب اللّه تعالى[10].

الأَمْرُ باتِّقاءِ أَهْوالِ يَومِ القِيامَةِ حتَّى كأَنَّ اليومَ نَفسَهُ يُتَّقَى

❁ الإِيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

قولُ اللهِ تعالى ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا﴾ بَينَ الإِيجازِ بالحَذفِ والمَجازِ المُرسَلِ:

قولُ اللّه تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا﴾ إمَّا أن يُحمل على الإيجازِ بالحذفِ، والتَّقديرُ: اتَّقوا عذابَ يومٍ وأهوالَهُ، والقرينَةُ: أنَّ ﴿يَوۡمٗا﴾

(1) جبل، المعجم الاشتقاقِيّ المؤصَّل: (عدل).
(2) الخليل، العين: (عدل).
(3) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة: (عدل).
(4) الجوهريّ، الصِّحاح: (عدل).
(5) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصَّل: (عدل).
(6) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (نصر)، والبيضاويّ، أنوار التَّنزيل: 1/79، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصَّل: (نصر).
(7) الزَّمخشريّ، أساس البلاغة: (نصر).
(8) الفيُّومِيّ، المصباح المنير: (نصر)، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/486.
(9) السّعدي، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 51.
(10) أبو المُظفَّر السَّمعانِّي، تفسير القرآن: 1/76-75، والخازن، لباب التَّأويل: 1/43، ومُجير الدِّين العُلَيميّ، فتح الرحمن: 1/96، ونخبة من العلماء، التّفسير الميسّر، ص: 7.

إذَا أُعرِبَ مفعولًا به مِن غَيرِ تقديرٍ محذوفٍ لَزِمَ أن يكونوا مأمورينَ باتِّقاء نفسِ اليومِ! وليس مرادًا قطعًا.

ولا يصحُّ إعرابُهُ ظرفًا؛ لاقتضائِهِ الأمرَ بالتَّقوَى فيه، وهو ليس محلًّا لذلك[1].

ويجوزُ أَنْ لا يُقَدَّرَ محذوفٌ، ويكون الكلامُ مِن بابِ المَجازِ المُرسلِ؛ مِن إطلاق اسم الزَّمان على ما يقعُ فيه، فقوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا﴾ يُراد به: اتَّقوه من جهةِ ما يقَعُ فيه مِنَ العَذابِ والأَهوالِ[2].

نُكتَةُ تَنكيرِ ﴿يَوۡمٗا﴾:

نُكِّرت كلمةُ ﴿يَوۡمٗا﴾ من قول الله تعالى ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا﴾؛ لقصد التَّعظيمِ والتَّهويلِ، ووجهُ ذلكَ أنَّ في التَّنكيرِ إبهامًا يُوجِدُ رهبةً؛ إذ تذهبُ معه النَّفسُ مذاهبَ شتَّى في تصوُّرِ عذابِهِ وهَولِهِ، وتنتهي إلى أنَّه لا يَحُدُّ عذابَهُ وصفٌ، ولا هَولَهُ ذِكرٌ[3].

القِيامَةُ لا يحُدُّ عذابَها وصفٌ ولا هولَها رَصفٌ

سِرُّ تَنكيرِ ﴿نَفۡسٖ﴾ و﴿شَيۡـٔٗا﴾:

تنكيرُ كلمتي ﴿نَفۡسٖ﴾ و﴿شَيۡـٔٗا﴾ من قول الله تعالى: ﴿لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا﴾ لإرادَةِ التَّعميم؛ لأنَّ كُلًّا منهما نكرةٌ في سياق النَّفي فيَعُمُّ، وفي هذا التَّعميم إقناطٌ كُلِّيٌّ بنفي الجزاء والإغناء مِنَ الجهاتِ كُلِّهَا[4]، فلا يُغني أحدٌ عَن أحدٍ كائنًا مَن كان، فلا يُغني عَنِ الكفَّار ما كانوا يَعبدونَهُ مِن دُونِ الله تعالى، ولا غيرُهُم بأن يَحُولُوا بينَهُم وبينَ عذابِ اللهِ تعالى[5].

تَقنيطُ اللهُ تعالى للكُفَّارِ بنَفيِ الجَزاءِ والإغناءِ عنهم مِنْ كُلِّ أَحدٍ

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/109.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/484.
(3) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 1/223.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السَّليم: 1/99.
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/485.

بلاغَةُ الاستِتباعِ:

هَوانُ ما تَوَهَّمَهُمُ المُشرِكونَ شُفَعاءَ

في نَفيِ جزاءِ أحدٍ عَنْ أحدٍ، ونفي قبولِ الشَّفاعة وأخذِ العَدْل منه: تيئيسٌ لحصول أيِّ نفعٍ للكفَّار يوم القيامَةِ، وذلك يستَتْبِعُ[1] تحقيرَ مَنْ توهَّمَهُمُ المشركونَ شفعاءَ، وإبطالَ ما كانوا يَزعُمونَهُ مُغنيًا عنهم مِن عذاب اللّه تعالى وغَضَبِهِ مِنَ القَرابِين الّتي قرَّبوها[2].

تَوجِيهُ المُتَشابِهِ اللَّفظيِّ:

اختِلافُ أَحوالِ النَّاسِ في تفضيلِ المالِ أَوِ الرِّياسَةِ

وَرَدَ ههنا قولُ اللّه تعالى: ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾، وفي المَوضِع الثَّاني مِن هذه السُّورةِ قال اللّه سبحانه: ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَعَةٌ﴾ [البقرة: 123]، فَقُدِّمَتِ الشَّفاعةُ وأُخِّر العَدْلُ في الآيَةِ الأولى، وعُكِسَ ذلك في الآية الثَّانية، وتَوجِيهُهُ أن يُقالَ:

إنَّ الأمر باختلاف أحوال النَّاس في الشفاعة والعَدْلِ - وهو الفِديةُ -، فمن غلب عليه حبُّ الرِّياسةِ قَدَّم الشفاعةَ على الفِدية، ومن غلب عليه حبُّ المال قدَّم الفِدية على الشفاعة[3]، والنَّاسُ في الدُّنيا يتفاوتون في هذا المقدارِ، ويتباينون في التَّقدير، فأتَتْ الآيتان لدفع ذلك كلِّه.

لا يَستَلزِمُ نَفيُ واحِدٍ مِنَ الشَّفاعَةِ أَوِ الفِداءِ نَفيَ الآخَرِ

وأُسند القبولُ إلى الشّفاعةِ فقُدِّمَت على العَدْلِ -في الآية الأولى-؛ لأنّ القبولَ المُسندَ إليها منفيٌّ، ونفي الشَّفاعةِ لا يَستَلزِمُ نَفيَ أخذِ الفداءِ، فذِكرُ نفي أخذ الفداء بعدَهُ يُرادُ به الاحتراسُ[4].

وأمَّا الآية الثَّانيةُ فأسنِدَ القبولُ إلى الفداء وقُدِّمَ على

(1) الاستِتبَاعُ: أَنْ يُؤتَى بالكلامِ لغرضٍ ما، كَمَدحٍ أَو ذمٍّ، على وَجهٍ يَستَتبِعُ المدحَ أو الذَّمَّ بشيءٍ آخَرَ، وهكذا سائِرُ الأغراضِ.
يُنظر: ابن أبي الإصبع، تحرير التحبير، ص: 443، وعبد الرَّحمن حبنَّكة، البلاغة العربيَّة: 2/429.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/486.
(3) ابن الزُّبير، ملاك التَّأويل، ص: 33.
(4) الاحتِراسُ: أن يُؤتَى بكلامٍ في سياق مدح أو غيره، فيُظَنُّ عيبٌ من جهة مَنطُوقِه أو فحواه، فيرُدَف بكلام آخر؛ لصِيَانَتِه عَنِ الخطأ.
يُنظر: بدر الدين بن مالك، المِصباح في علم المعاني، ص: 97.

الشَّفاعة، ولـمّا كان نفي قبول الفداء لا يستلزِمُ نفي نفع الشّفاعة؛ ذُكرَ نفيُ نفعِهَا عَقِبَهُ للاحتراس أيضًا[1].

وبُدِئَ في الآية الأولى بالشَّفاعةِ؛ لأنَّ ذلك أليقُ بعُلوِّ النَّفسِ، وذُكِرَ مع الشَّفاعةِ القبولُ ههُنَا، والنَّفعُ في الآية الثَّانيةِ؛ للتنبيه على انتفاءِ أصل الشَّيء، وانتفاءِ ما يترتَّبُ عليهِ[2].

سِرُّ التَّعبيرِ بالاسمِيَّةِ في قوله: ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾:

جملةُ: ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ اسميَّةٌ، وهي مفيدةٌ الدَّوامَ والاستمرارَ؛ والمرادُ دوامُ نفي النُّصرَةِ عنهم لا نفي دَوَامِهِ؛ لأَنَّ النَّفيَ -وإن كان داخِلًا على الفعلِ المضارِعِ- مُفيدٌ الدَّوامَ والاستمرارَ بحَسَبِ المقامِ.

فائِدَةُ مَجِيءِ الخَبَرِ جُملَةً فِعليَّةً:

تأْكِيدُ المَعاني القُرآنيَّةِ تَرسيخٌ لها في الأَذهانِ

مجيءُ خَبَرِ المُبتدأِ ﴿هُمْ﴾ جملةً فعليَّةً -﴿هُمْ يُنصَرُونَ﴾- يَقتَضي تَكرارَ الإسنادِ؛ تأكيدًا لدوامِ نفيِ النَّصرِ عَنِ الكُفَّارِ؛ فقد أُسنِدَ النَّصرُ إلى الضَّمير (هُمْ) -وهو مِن إسناد الخَبَر إلى المبتدأ-، وأُسنِدَ النَّصرُ أيضًا إلى واوِ الجماعةِ، وهو مِن إسنادِ الفِعلِ إلى فاعِلِهِ، فلمَّا تكرَّرَ الإسنادُ تأكَّدَ المَعنَى وقَوِيَ.

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/698.

(2) ابن الزُّبير، ملاك التَّأويل، ص: 33.

﴿وَإِذۡ نَجَّيۡنَٰكُم مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ يَسُومُونَكُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبۡنَآءَكُمۡ وَيَسۡتَحۡيُونَ نِسَآءَكُمۡۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَظِيمٞ ٤٩﴾ [البقرة: 49]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لـمَّا قدَّم اللّٰه تعالى ذكر مِنَّتِهِ على بَنِي إِسْرَائيل على وجه الإجمالِ في قوله سبحانه: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ﴾، وحذَّرهم من مخالفةِ مُوجِبِ ذلك الإنعامِ بقولِه ﷻ: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا﴾؛ بيَّن بعد ذلك أقسامَ تلك النِّعَمِ على وجه التَّفصيل ليكون ذلك أبلغَ في تذكيرِهم وأعظمَ في الحجَّةِ علَيْهِم، فقال تعالى: ﴿وَإِذۡ نَجَّيۡنَٰكُم مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ يَسُومُونَكُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ﴾[1]، وبدأ بنعمة تنجيتهم لِتَرتُّبِ باقي النِّعَمِ عليها.

شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

1) ﴿نَجَّيۡنَٰكُم﴾: النُّون والجِيم والوَاو تدُور تصاريفُها على: الانفصالِ مِنَ الشَّيء، وخُلُوصِه مِن بين ما يُحيط به، أو يُجاوره[2].

ومِنْهُ: الإنْجَاء والتَّنجية؛ بمعنى: التَّخْلِيصِ مِنَ الهَلَكَةِ[3]، كأنَّ الشَّيءَ ارتفعَ عمَّا حولَهُ، فلَمْ يُخْلَصْ إِلَيْهِ بأذًى، وهذا المعنى: هو الواردُ في قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ نَجَّيۡنَٰكُم مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ﴾.

2) ﴿يَسُومُونَكُمۡ﴾: السِّين والواوُ والـمِيم تدلُّ اشتقاقاتُها على: امتدادِ بقاءٍ أو مرورٍ وذهابٍ في حيِّز بِلَا حَدٍّ، ومِنْهُ قولُهم: سَامَتِ الماشيةُ؛ إذا رَعَتْ حَيْثُ شَاءَتْ، وسامَهُ الذُّلَّ: أَوْلَاهُ إِيَّاهُ، وفيه معنى الدَّوامِ[4].

(1) الرَّازيّ، التّفسير الكبير: 3/504.
(2) الرّاغب، المفردات: (نجو)، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصَّل: (نجو).
(3) أبو هلال العسكريّ، الفروق اللُّغويَّة، ص: 77.
(4) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصَّل: (سوم).

والسَّوْمُ: أَن تُجَشِّمَ إِنْسَانًا مَشَقَّةً أَو سُوءًا أَو ظُلْمًا[1]، وأكثرُ ما يُستعمل في العذاب والشَّرِّ[2].

3) ﴿سُوٓءَ﴾: السِّين والواو والهمزَة تدلُّ تصريفَاتُهَا على: القُبْح، ومِنْهُ سمِّيت النَّارُ: سُوأَى؛ لقُبْحِ مَنْظَرِهَا[3]، ومنه قيل لفَرْجِ الرَّجُلِ أوِ المرأةِ: سَوْأَةٌ؛ لأنَّ الفطرَةَ السَّوِيَّةَ تَسْتَقْبِحُ إِظْهَارَهَا[4].

وسُمِّيت السَّيِّئَةُ سَيِّئَةً؛ لأنَّها عَمَلٌ قبيحٌ[5]، والسُّوءُ: كُلُّ ما يَغُمُّ الإنسانَ مِنَ الأمورِ الدُّنْيَوِيَّةِ والأُخْرَوِيَّةِ[6].

وسوءُ العذاب في قول الله تعالى: ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾، هُو: شديدُهُ وَأَقْبَحُهُ[7].

4) ﴿يُذَبِّحُونَ﴾: يدورُ جِذر هذه الكلِمة -وهو الذَّال والباءُ والحاءُ- على معنى: الشَّقِّ، ومنه: الذُّبَّاح: وهي شُقُوق في أصول الأصابِع، والمَذابح: وهي سيول صغار تَشُقُّ الأرض شَقًّا[8]، والذَّبْحُ في الحيوان: قَطْعُ الحُلْقُوم مِن باطنٍ[9]، وهو المرادُ بقول الله تعالى: ﴿يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ﴾، إلَّا أنَّ فيه معنَى التَّكثِير؛ أَيْ: يُذَبِّحُون بَعْضَهُم إِثْرَ بعضٍ[10]، وقَدْ يُطلق الذَّبْحُ على الغَلَبَةِ وَالإهلاك[11].

5) ﴿وَيَسْتَحْيُونَ﴾: الحاءُ واليَاءُ والحَرْفُ المُعْتَلُّ، تَدُلُّ تصاريفها على مَعْنَيَيْنِ: أحدهما: ضِدُّ الموت، وهو الحياةُ، والآخَر: ضِدُّ الوقاحةِ، وهُوَ الاسْتِحْيَاءُ[12].

والفعل: ﴿وَيَسْتَحْيُونَ﴾؛ مِن الأصل الأوَّلِ -وهو ضدُّ الموتِ- يقال: استحياهُ؛ إذا تركه حيًّا، ومعنى (يَسْتَحْيُونَ): يَسْتَبْقُونَ[13]؛ فهم يُبْقُونَ الإناثَ؛ ليجعلوهُنَّ إماءً وخَدَمًا[14].

---

(1) الخليل، العين: (سوم)، وابن منظور، لسان العرب: (سوم).
(2) الزَّبيديّ، تاج العروس: (سوم).
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (سوء).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصَّل: (سوأ).
(5) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة: (سوأ).
(6) الرّاغب، المفردات: (سوأ).
(7) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة: (سوأ). إسماعيل حقّي، روح البيان: 1/129.
(8) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (ذبح).
(9) الزَّبيدي، تاج العروس: (ذبح).
(10) الرّاغب، المفردات: (ذبح).
(11) أبو موسى المدينيّ، المجموع المغيث: (ذبح).
(12) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (حيي).
(13) نشوان الحِميريّ، شمس العلوم: (حيا).
(14) أبو عُبيد الهرويّ، الغريبين: (حيا).

6) ﴿بَلَآءٌ﴾: الباءُ واللَّام والياء تدور كثيرٌ مِن اشتقاقاتِها على: معنى الاختِبار[1].

ومِنْهُ: البَلَاءُ، ويُستعمل في الخَيْر والشَّرِّ -فهو مِنَ الأضداد-؛ فالبَلَاء: المِحنة والبَلِيَّة، والبلاء: المنحةُ والنِّعمة أيضًا[2]، وسُمِّي ذلك بلاءً؛ لأنَّ الاختبار يقع بالخَير كما يقع بالشَّرِّ[3]، كما في قول الله تعالى: ﴿وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الأعراف: 168].

والبلاء في قول الله تعالى: ﴿وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾، يَتَنَازَعُهُ المَعْنَيَانِ - معنى الشرّ ومعنى الخير-، وذلك راجع إلى المراد باسم الإشارة ﴿ذَٰلِكُم﴾؛ وَعَلَيْهِ فالبلاء يحتَمِلُ أن يكون بمعنى: المِحنة والنِّقمة، أي: وفي سَوْمِكُم سوءَ العذاب وذَبْحِ أبنائكم واستحياء نسائكم محنةٌ ونِقمة، ويحتَمِلُ أن يكون بمعنَى: المِنْحَة والنِّعمة، أي: وفي إنجائِكُمْ من آل فرعون منحةٌ ونِعمة[4]، والثَّاني أَوفَقُ لسياقِ الامتنانِ.

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

تذكير بني إسرائيل بنعمة الله تعالى لإنجائهم من فرعون وقومه

واذكروا -يا بني إسرائيل- حين خلَّصنا آباءَكُم وأسلافَكُمْ مِن بطش فرعون وأتباعِه الذين كانوا يُذيقونَكم أشدَّ العذابِ وأَقْبَحَهُ، فقد كانوا يُكثرون مِن ذبح أبنائكم، ويَسْتَبْقُون نساءَكم ليجعلوهُنَّ إماءً وخدَمًا، وفي إنجائِكُمْ من ذلك نعمةٌ ومِنَّةٌ عظيمةٌ من ربِّكُمْ ﷻ، تستحقُّ مِنكم أن تشكروهُ في جميع عصورِكُم وأجيالكم[5].

الإِيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

العُدُولُ عَنِ التَّعْبِيرِ بِالمَصْدَرِ الصَّرِيحِ إِلَى التَّعْبِيرِ بِالجُمْلَةِ

عِظَمُ قَدْرِ نجَاة العَبْدِ بمِقْدَارِ الهَوْلِ الذي كانَ فيه.

العطف في قول الله تعالى: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم﴾ على قولِه قبلُ: ﴿نِعْمَتِيَ﴾ من قوله: ﴿يَٰبَنِيٓ

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (بلو/ي).
(2) الزَّبيديّ، تاج العروس: (بلي).
(3) ابن جرير، جامع البيان: 2/49.
(4) ابن جرير، جامع البيان: 2/48، وابن الجوزيّ، زاد المسير: 1/63.
(5) ابن جرير، جامع البيان: 2/36-49، والبغويّ، معالم التَّنزيل: 1/90، والسّعدي، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 52، ونخبة من العلماء، التّفسير الميسّر، ص: 8.

﴿إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: 47]، والتَّقدير: اذكروا حين إنجائكم، وعُدِلَ عَنِ الإتيان بالمصدر الصَّريح إلى (إذ) المقتضيَةِ للجملةِ؛ لما فيها مِن استحضارٍ للتَّكوينِ العجيب الذي تُفيدُهُ صيغةُ الفعلِ؛ إذ النَّفْسُ تتصوَّرُ مِنَ المصدرِ الصَّريحِ معنَى الحدثِ المجرَّدِ، بخلاف الجملةِ الفعليَّةِ؛ فإنَّ النَّفس تتصوَّرُ مِنْهَا الفعلَ وفاعلَهُ ومفعولَهُ ومتعلَّقاتِهِ دفعةً واحدةً، وفي ذلك صورة عجيبةٌ؛ إذْ فيها استحضارٌ لِلْأَهوال التي كانوا يعيشونَها بأسمائِهَا وأضرارِهَا، ويترتَّب على ذلك استحضارُ عظيمِ منَّة الله تعالى بالإنجاءِ؛ إذِ مقدارُ الإنْجَاء بمقدار ما كانوا فيه مِنَ الأهوال[1].

نُكْتَةُ التَّعْبِيرِ بِضَمِيرِ الجَمْعِ الدَّالِّ على التَّعظيم:

العدولُ عنِ التَّعبير بضمير المتكلِّم الدَّالِّ على المفردِ في قول الله تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: 47] إلى التَّعبير بضمير المتكلِّم الدّالّ على التَّعظيم في قوله سبحانه: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾، فلم يقل: (وَإِنْجَائِي)؛ لأنَّ التَّنْجِيَةَ مِنَ العدُوِّ من أعظَمِ المِنَنِ عليهم، فكان المناسبُ أن تُنْسَبَ النِّعْمَةُ العُظْمَى للمعُظِّم نفسَهُ[2].

التَّنْجِيَةُ مِنَ العَدُوِّ مِن أعظَمِ النِّعم

سِرُّ ذكرِ آلِ فرعون وعدَمُ الاكتفاءِ بفرعون:

جعلَ اللهُ تعالى النَّجاة مِن آل فرعونَ، ولَم يَجْعَلْهَا مِن فرعون نفسِه، مع أنَّه الآمرُ بتعذيب بني إسرائيل؛ تَعْلِيقًا لِلْفِعل بِمن هو مِن متعلَّقاته على طريقة الحقيقة العقليَّة، وتَنْبِيهًا على أنَّ هؤلاء الوَزَعَة والمكلَّفين ببني إسرائيل كانوا يتجاوزون الحدَّ المأمور به في الإعْنَات على عادة المُنَفِّذين؛ فإنَّهم أقلُّ رحمةً وأضيقُ نفوسًا من وُلاةِ الأمور[3].

الإشـارةُ إلى أنَّ التَّابعَ أشدُّ ظُلمًا من المتبوعِ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/489، ومحمّد أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 1/224.
(2) أبو حيَّان، البحر المحيط: 1/311.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/490.

سِرُّ الوَصْفِ بِالمَصْدَرِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ﴾:

تصويرُ شِدَّةِ ظلمِ آلِ فرعَوْن

إِضَافة العذَابِ إلى السُّوء في قول الله تعالى: ﴿يَسُومُونَكُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ﴾ مِن إِضَافَةِ الصِّفة إلى الموصوفِ، أي: يسومونَكُمُ العذابَ السُّوءَ، فَوَقَعَ الوَصْفُ بالمصدرِ قَصْدًا لِلْمُبَالغةِ في وصف شدَّةِ العذابِ وفظاعَتِهِ، فكأنَّ ما عداه مِنَ العَذَابِ بالنِّسبة لَهُ لَيس بسُوءٍ[1].

بلاغةُ فَصْلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يُذَبِّحُونَ أَبۡنَآءَكُمۡ﴾:

فُصلَ قولُ الله تعالى: ﴿يُذَبِّحُونَ أَبۡنَآءَكُمۡ﴾ عمَّا قبلُ؛ لوقوعِهِ استئنافًا بيانيًّا، فكأنَّه لما ذُكر سوءُ العذابِ؛ قيل: ما الذي سامُوهم إيَّاهُ؟ فجاء الجوابُ: ﴿يُذَبِّحُونَ أَبۡنَآءَكُمۡ﴾[2].

بَلاغةُ الفصْلِ والوَصْلِ فِي تَوْجِيهِ المُتَشَابِهِ اللَّفْظِيِّ:

الإشارَةُ إلى مِنَّةٍ خاصَّةٍ كانت لموسى عليه السلام

وَرَدَ ذِكر التَّذبيح ههنا مفصولًا بغير واوٍ، قالَ الله تعالى: ﴿يَسُومُونَكُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبۡنَآءَكُمۡ﴾، وجاء موصولًا بالواو في قوله سبحانه: ﴿يَسُومُونَكُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبۡنَآءَكُمۡ﴾ [إبراهيم: 6]؛ لأنَّ ما في سورة البقرة لم يُرَدْ به تعدادُ المِحَنِ عليهم، بخلاف ما في سُورة إبراهيمَ، فقد عدَّد عليهم المِحَنَ استجابةً لأمْرِ الله له بذلك في قوله: ﴿وَذَكِّرۡهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِۚ﴾[3] [إبراهيم: 5]، وذِكْرُ الواوِ أنسَبُ لتحقيق هذا الغرضِ؛ لأنَّه يقتضي أنَّ التَّذبيحَ جِنْسٌ آخَرُ مِنَ المِحَنِ غيرِ سُوءِ العذابِ، وأنَّ سَوْمَ سُوءِ العذاب كان بالتَّذبيح وبغيره؛ لأنَّ الامتنانَ جاءَ على لسانِ موسى عليه السلام، فهو يستشعرُ بذلك الامتنانِ شعورًا خاصًّا، خاصةً وأنَّه نجا منَ الذَّبحِ، بخلاف ما في سورة البقرة، فإنَّ التَّذبيحَ وَقَعَ تَفْسِيرًا لسُوءِ العَذَابِ.

(1) الخفاجي، عناية القاضي: 2/158.
(2) البيضاويّ، أنوار التَّنزيل: 1/79.
(3) الكرمانيّ، غرائب التَّفسير: 1/138، وأبو حيَّان، البحر المحيط: 1/311.

بَرَاعَةُ اِخْتِيارِ المُفْرَدَةِ في آياتِ المُتَشَابِهِ اللَّفْظِيِّ:

الإشارةُ إلى الإعجازِ التَّاريخيِّ وإلى الضَّامرِ في نفسِ موسى عليه السلام

جاء التَّعبير ههنا عَن صَنِيع آل فرعون بأبناء بني إسرائيل بالفِعل (ذبَّح) فقال تعالى: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ﴾، وفي سُورة الأعراف وقع التَّعبير عن ذلك بالفعل (قَتَّلَ)، فقال سبحانه: ﴿وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ﴾ [الأعراف: 141]؛ لأنَّ الذَّبحَ دالٌّ على القتلِ وصِفَتِهِ، بخلاف القَتْلِ فلا يُفْهَمُ منهُ إلَّا إعدامُ الحياةِ، فجاء التَّعبير في أول موضعٍ بما يُوفِي المقصودَ مِنَ الإخبار بالقتل وصِفَتِهِ على وجه الإيجاز؛ لكونه وقع بلفظٍ واحدٍ وهو ﴿يُذَبِّحُونَ﴾، بخلاف ما لو ذُكِرَ القتلُ، وأُتْبِعَ ذلك بذِكْرِ الوصفِ، فإنَّه لا يكون إيجازًا، ثُمَّ في سورة الأعراف جاء التَّعبيرُ بالقتل؛ لحصولِ وصفِهِ بما ذُكِرَ في سورة البقرةِ، وليتناسبَ ذلك مع قوله تعالى قبلُ: ﴿قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ﴾[1] [الأعراف: 127].

وأمرٌ آخرُ وهو إشارةٌ قرآنيَّةٌ إلى أنَّ العامَ الذي وُلِدَ فيه موسى عليه السلام هو العامُ الذي كان نوعُ القتلِ السَّائدِ فيه هو الذَّبحَ، فهناك استشعارٌ خاصٌّ لتلك المنَّةِ، ففي الآيةِ إشارةٌ إلى إعجازٍ غيبيٍّ تاريخيٍّ، يكشفُ عن حقيقةٍ ضامرةٍ في نفس موسى[2] عليه السلام.

سِرُّ تَقْدِيمِ ذَبْحِ الأَبْنَاءِ عَلَى اسْتِحْيَاءِ النِّسَاءِ:

ذَبْحُ الولدِ أشدُّ في العذابِ مِن مجرَّدِ إبقاءِ النِّساءِ للخدمةِ

قُدِّمَ ذبح الأبناء على استحياء النِّساء في قول الله تعالى: ﴿يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ﴾؛ لكون ذبح ولدِ الرَّجُلِ والمرأةِ أشدَّ في العذابِ مِن استحياء النِّساءِ، أي: إبقائهنَّ أحياءً للخدمةِ[3]، فيكون من باب التَّدَلِّي[4].

(1) ابن الزُّبير الغرناطِيّ، مِلاك التَّأويل: 1/34، والزَّركشي، البرهان: 1/120.
(2) المثنى محمود، نظرية السياق القرآني، دار النفائس، ط2، ص: 259.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 1/314.
(4) التَّدليّ: أن يُذكرَ المعنى، ثُمَّ يُرْدَفَ بما هو أدنى مِنْهُ، يُنظر: السُّيوطيّ، شرح عقود الجمان، ص: 135.

نُكْتَةُ التَّعْبِيرِ بِالنِّسَاءِ دُونَ البنَاتِ:

عُدُول التَّعبيرِ عن المُقَابلَةِ اللَّفظيَّةِ لأجلِ بَيانِ المَعْنَى.

جاء التَّعبيرُ القرآنيُّ بـ: ﴿وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ﴾ دون (وَيَسْتَحْيُون بناتِكُم) مع أنَّه أنسبُ في الظَّاهِرِ ليُقابِلَ: ﴿أَبْنَآءَكُمْ﴾؛ لِنكتَتين[1]:

إحداهما: أنَّ البناتِ في حالِ صغرهنَّ لا مؤونة منهنَّ، ولا مشقَّة، وإنَّما تلحق المؤونة والمشقَّةُ آباءهُنَّ؛ إذا كبِرْنَ، وصرنَ نساءً.

الأخرى: فيهِ إشارةٌ إلى الوصف الذي مِن أجله أُبْقِينَ أحياءً، وهو أن يَصِرْنَ نساءً، ويتطَلَّعن لطلب الرِّجال، فلا يجدْنَ، فيُحتَقَرْنَ، ويُذَلَّلْنَ؛ لبقائهنَّ من غير رجالٍ، فيصِرْنَ مفترشاتٍ لأعدائِهنَّ، ويلحقُ العارُ بِهِنَّ حينئذٍ.

فائدَةُ خطابِ بني إسرائيل فيما وقَعَ لأسلافِهم:

كمالُ الامْتِنَان على بني إسرائيل

علَّق اللّه تعالَى الإنْجَاء بالمخاطبين؛ لأنَّ إنجاء سَلَفِهم إنجاءٌ لهم، فإنَّه لو أبقى سلفَهُم هنالك؛ لَلَحِقَ المخاطبين سوءُ العذابِ وتذبيحُ الأبناء. أو هو على حذف مضاف، أي: نجَّينا آباءكم. أو هو تعبيرٌ عن الغائبِ بضمير الخطابِ: إمَّا لنُكتة استحضارِ حالِه، وإمَّا لكون المخاطَبِين مثالَهم وصُورَتَهم، فإنَّ ما يثبت مِنَ الفضائل لآباء القبيلةِ يثبتُ لأعقابهم، فالإتيان بضمير المخاطب على خلاف مقتضى الظاهر على حدِّ ما يقال في قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ﴾ [الحاقة: 11]، فالخطابُ ليس بالتفاتٍ؛ لأنَّ اعتبارَ أحوال القبائل يُعدُّ لِلْخَلَفِ ما ثبت مِنْهُ للسَّلف[2].

دلالة تَنْكِيرِ البَلَاءِ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ﴾:

عَظَمَةُ المِنَّة الإلَهيَّة على العِبَادِ

تنكير (بلاء) من قوله تعالى: ﴿وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ يُرادُ به النَّوعيَّةُ المستلزِمَةُ القولَ بالتَّعظيمِ والتَّفخيم،

(1) السّيوطي، معترك الأقران: 3/310، وعبد الفتَّاح لاشين، صفاء الكلمة، ص: 187.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/493-494.

ويُقصدُ بالنَّوعيَّة: أنَّ في ذلك نوعًا مِنَ البَلاءِ، لا يعلم كُنْهَهُ إلَّا اللهُ تعالى، وفي هذا مِنَ التَّعظيمِ ما لا يخفَى، فيكون وصفُ البلاءِ بالعَظَمَةِ بمنزلة التَّوكيد المعنويِّ لَهُ[1].

نُكْتَةُ اخْتِيَارِ اسْمِ الرَّبِّ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾:

في اختيار اسم الرَّبِّ في قوله تعالى: ﴿وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ مناسبَةٌ ظاهرةٌ مع سياقِ الامتنانِ؛ فإنَّ اسم الرَّبِّ المالك، والمتصرف، والمدبِّر، والمربّي لجميع مخلوقاته؛ مُشعرٌ بالإنعامِ والإحسانِ.

سِرُّ الفصْلِ بين الصِّفةِ والموصوفِ:

قُدِّمَ الجارُّ والمجرورُ ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾ على النَّعت ﴿عَظِيمٌ﴾، إذِ الأصلُ: (وفي ذلكم بلاءٌ عظيمٌ من ربِّكُمْ)؛ فهو من قبيلِ الفصْلِ بين الصِّفةِ والموصوفِ لسرٍّ، بيانيٍّ وهو: أن يعلمَ المخاطَبُ أنَّ البلاءَ من اللهِ سبحانه، ولتقعَ الصِّفةُ موقعًا مستقلًّا في البيانِ، ولو وُصِلتْ لفاتتْ نُكتةُ الاستقلالِ، فكأنَّه أخبرَ عن البلاءِ مرَّتين، الأولى بأنَّه بلاءٌ من اللهِ، والأخرى أنَّه عظيمٌ، وهذا من بديع الفصْلِ بين الصِّفةِ وموصوفِها، وفيه مزيدُ امتنانٍ، بالإضافةِ إلى تحسينِ الفاصلةِ القرآنيَّةِ، وإيقاعِ الصَّوتِ موقعًا مُؤثِّرًا في السَّماعِ.

الإخبارُ عن البلاءِ مرَّتين، يزيدُ من الامتنانِ واستحضارِ الإنعامِ

الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

نَجَّى وَأَنْجَى:

ذكر جماعةٌ مِن أهل العلم أنَّ التَّنجيةَ والإنجاءَ واحدٌ، وأنَّهُ: مطلقُ الإنقاذِ مِنَ المَكْرُوه[2]، وكُلُّ ما في القرآن مِن هذا التَّركيبِ فهو بمعنى: الخُلُوص مِن خَطَرٍ مُحْدِقٍ أو عذابٍ أو غَرَقٍ أو كَرْبٍ، ونحو ذلكَ[3].

وفرَّق آخرونَ بينَهما: بأنَّهما يَشْتَرِكَان في التَّخليص مِن المَهْلَكَةِ، ثُمّ يختصُّ الإنجاء بأنَّه: الخلاص قبل الوقوعِ في المَهْلَكَة، وتختصُّ التَّنجيةُ بأنَّها: الخلاص بعد الوقُوع فيها[4].

(1) الآلوسّي، روح المعاني: 1/255.

(2) الواحديّ، التَّفسير الوسيط: 1/134، وأبو المظفَّر السَّمعانيّ، تفسير القرآن: 1/76، ومحمّد الأمين الشّنقيطي، أضواء البيان: 2/285.

(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصَّل: (نجو).

(4) أبو هلال العسكريّ، معجم الفروق اللّغويَّة، ص: 77، والمذكورُ هُوَ من زيادات طبعة مؤسسة النَّشر الإسلاميّ بِقُمّ على أصل كتاب أبي هلالٍ.

ويدلُّ على المعنى المذكور للإنجاء قولُ الله تعالى: ﴿ثُمَّ صَدَقْنَٰهُمُ ٱلْوَعْدَ فَأَنجَيْنَٰهُمْ وَمَن نَّشَآءُ وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ [الأنبياء: 9]، فإنَّ الكلام ههنا عَنِ الأنبياءِ؛ لأنَّه قال قبلها: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ﴾ [الأنبياء: 7]، وقد أنجاهمُ الله تعالَى مِنَ العذاب قبل وقوعِهِ على أُمَمِهِمْ.

ويدلُّ على المعنى المذكور للتَّنجيةِ قولُ الله سبحانه: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾، فإنَّ تنجيةَ الله تعالى لبني إسرائيلَ كان بعد وقوع العذابِ عَلَيْهِم[1].

ويُشكِلُ على هذا الفرقِ ذِكْرُ الله سبحانه إنجاءَ بني إسرائيل بصيغة (أَنْجَى) بعد وقوع العذابِ عليهم، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ [الأعراف: 141].

والجواب عَن هذا بأنَّ الصِّيغَتَيْنِ قد تتقارضَانِ: إمَّا بحسب اللُّغةِ، وإما مجازًا.

وثَمَّ تفريقٌ آخَرُ بين الفعلين في السِّياق القرآنيّ: وذلك أَنَّ الغالبَ استعمالُ (نجَّى) لِما فيه تلبُّثٌ وتمهُّلٌ في التَّنجية، بخلاف (أنجى)، فهو لِلْإِسْرَاع فيها، فالإنجاء -على هذا- أسرع مِنَ التَّنجية في التَّخلُّص من المَهْلَكَةِ، كما في قول الله تعالى: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٤٩﴾ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَٰكُمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [البقرة: 49-50]، فاستُعمِلَ ههنا كِلَا الفعلين، فـ (نَجَّى)؛ لِمَا كان فيه التَّخليصُ بعد شدَّةٍ وعذابٍ طالَ أمدُهُمَا، وهو تذبيحُ الأبناء واستحياءُ النِّساء، بخلاف (أنجى)، فهو مستعمَلٌ في التَّخليص من هَوْلِ البحرِ بفَرْقِهِ، وتلك الشدَّةُ لم تَطُلْ عليهم.

وقد يُستعمل في الحادثة الواحدةِ الفعلانِ: (أنجى) و(نجَّى)، في موضعين مختلفين، وذلك بحسب ما يَقْتَضِيه السِّياقُ، فقد يتطلَّبُ المقامُ ذكر الإسراعِ في النَّجاةِ، فيُستعمل الفعل (أَنْجَى)، وقد لا يتطلَّب ذلك، فيُستعمل الفعلُ (نَجَّى)، وذلك لأنَّ طولَ الزَّمن وقِصَرَهُ أمران نسبيَّانِ، فقد يستطيلُ أحدٌ أمرًا، وقد يستقصِرُهُ بحسب المقامِ[2].

(1) أبو هلال العسكريّ، معجم الفروق اللّغويَّة، ص: 77.

(2) فاضل السّامرائّي، بلاغة الكلمة في التّعبير القرآنّي، ص: 71-66.

ذَبَحَ وَذبَّحَ:

صيغةُ (فعَّل) تَرِدُ لِمَعَانٍ، مِنْهَا: التَّكثيرُ[1]، ومن ذلك (ذبَّحَ): فإنَّه دالٌّ على تكثيرِ الذَّبْحِ، بخلاف (ذَبَحَ)، فإنَّه لا يستلزمُ التَّكثير، فيُستعمل لِلْقَلِيل والكثيرِ[2].

القَتْلُ وَالذَّبْحُ:

بينَ القَتْلِ والذَّبح عمومٌ وخصُوص مُطلَق: فكلُّ ذبحٍ قتْلٌ، وليس كلُّ قتْلٍ ذَبْحًا[3]، فقد يكون القَتْلُ بالضَّرْبِ أو الخَنْقِ أو الإغراقِ أو نحوِ ذلك، بخلاف الذَّبْحِ، فهو قَتْلٌ مخصوصٌ بشقّ حلق المذبوح.

(1) ابن السَّرّاج، الأصول في النَّحو: 3/116.

(2) الزَّبيديّ، تاج العروس: (ذبح).

(3) أبو هلال العسكريّ، الفروق اللّغويَّة، ص: 104.

﴿وَإِذۡ فَرَقۡنَا بِكُمُ ٱلۡبَحۡرَ فَأَنجَيۡنَٰكُمۡ وَأَغۡرَقۡنَآ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ وَأَنتُمۡ تَنظُرُونَ ٥٠﴾ [البقرة: 50]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لـمَّا بيّنَ اللّه تعالى إنعامَه على بني إسرائيل في تنجِيَتهم مِن آل فرعون الذين كانوا يقتلون الرِّجالَ ويُبْقُونَ النِّساءَ؛ ذكر إنعامًا زائدًا على التّنجية، وهو إنعامُهُ عليهم بإهْلَاكِ عَدُوِّهم إهلاكًا مِن جنس ما كان يفعلُهُ ببني إسرائيلَ، فأهلكَ اللّه تعالى رجالَهم في البحر، وأبقَى نساءَهُمْ، فقال تعالى: ﴿وَإِذۡ فَرَقۡنَا بِكُمُ ٱلۡبَحۡرَ فَأَنجَيۡنَٰكُمۡ وَأَغۡرَقۡنَآ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ وَأَنتُمۡ تَنظُرُونَ﴾[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

1) ﴿فَرَقۡنَا﴾: الفاء والرَّاء والقافُ تدلُّ اشتقاقاتُها على: تمييزٍ بين شيئين[2]، ومنه سُمِّيَ القرآنُ الكريم فُرْقَانًا؛ لأنَّه يُمَيِّزُ بين الحقِّ والباطلِ[3]، وسُمِّيَ عُمَرُ رضي الله عنه: الفاروقَ؛ لذلكَ[4].

وفَرْقُ البَحْرِ في قول اللّه تعالى: ﴿وَإِذۡ فَرَقۡنَا بِكُمُ ٱلۡبَحۡرَ﴾، بمعنى: شقَقْنَاهُ، وقَسَمناهُ، وَفَصَلْنَاهُ[5]، بحيثُ تميَّزَتْ أجزاؤُهُ عن بعضِهَا، وجُعِلَ بينهَا حاجِزٌ من غيرِ جِنسها، كما جاء مُبيَّنًا في قوله سبحانه: ﴿فَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡبَحۡرَۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرۡقٖ كَٱلطَّوۡدِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ [الشعراء: 63][6].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

واذْكُرُوا -يَا بَنِي إسرائيلَ- مِن نِعَمِنَا عليكم أَنْ شقَقْنا البحر، فَفَصَلْنَا بَيْنَ بعضِهِ

(1) البِقاعيّ، نظم الدُّرر: 1/358.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (فرق).
(3) ابن دُريد، جمهرة اللّغة: (فرق).
(4) ابن سِيده، المخصَّص: 3/409.
(5) ابن سِيده، المحكم: (فرق)، والرّاغب، المفردات: (فرق).
(6) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة: (فرق).

وبعضٍ، وَصَيَّرْنَاهُ فِرْقَتَيْنِ؛ حتَّى صارت فيه طرُقٌ لكم، تسيرونَ فيها، فخلَّصناكم مِن الهلَكَةِ، وأغرقْنا فرعونَ وأتباعَهُ، وأنتم تشاهدُونَ غرقَهُم وإطباقَ البحر عليهم[1].

الإيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

دلالة البَاءِ فِي ﴿بِكُمُ﴾:

الباءُ في ﴿بِكُمُ﴾ تَحْتَمِلُ أَوْجهًا:

سَبَبِيَّةُ الباء الدَّالة على تَمْكِينهم مِن دخُول البحرِ

إحداها: أن تكون لِلاستعانَةِ والتَّشبيه بالآلةِ، فتكون مِن باب الاستعارة التَّبعيَّةِ، وإلى هذا الوجهِ أشار البيضاويُّ بقوله: "﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ﴾: فَلَقْنَاهُ، وفصَلْنا بين بعضه وبعض، حتى حصلت فيه مسالكُ بِسُلُوكِكُمْ فيهِ"[2]، وذكر الشّهابُ أنَّ تخريجَ الباءِ على هذا الوجهِ تكلُّفٌ[3].

ثانيهَا: أن تكون سببيَّةً بمنزلةِ اللَّامِ، أي: فَرَقْنَا بسبب دخولكم فيه؛ لإنجائِكُمْ.

ثالثُهَا: أن تكون لِلْمُصَاحَبَةِ، أي: فرقنَا البحرَ مُلْتَبِسًا بِكُم[4].

والأظْهَرُ هو الوجهُ الثَّاني: أنَّها للسَّببيَّةِ، والمعنى: فصلنا بعض أجزاء البحر عَن بعضه الآخرِ بسبب دخولكم فيه؛ لتتمكَّنوا مِنَ المرور سُلُوكًا بين أجزائِهِ[5].

دلالة اللَّامِ فِي ﴿ٱلْبَحْرَ﴾:

اللَّام في البحر: للعهد العلميِّ، وهو البحر الذي عهدوُهُ، المشرفُ على الأجزاء الشرقيّة من بلاد مصرَ، والمعروف بـ: بحر القُلْزُم، والمسمّى اليوم بالبحر الأحمر[6].

بَلَاغَةُ الفاءِ الفصيحةِ فِي تقديرِ الحَذْفِ:

بينَ قول الله تعالى: ﴿فَأَنجَيْنَٰكُمْ﴾ وقوله سبحانه: ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ﴾ محذوفٌ،

(1) الزَّمخشري، الكشَّاف: 1/138، والبيضاوي، أنوار التَّنزيل: 1/80، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 1/259-260، ونخبة مِنَ العلماء، التّفسير الميسّر، ص: 8.

(2) البيضاويّ، أنوار التَّنزيل: 1/79.

(3) الخفاجي، عناية القاضي: 2/159.

(4) الخفاجي، عناية القاضي: 2/159.

(5) محمّد الأمين الشِّنقيطيّ، العذب النَّمير: 1/75.

(6) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/494.

مِنْ طَرَائِقِ القُرآن الكريمِ طيُّ ما يُفْهَم مِنَ الكلامِ إيجازًا

دلَّ عليه المعنَى، والتَّقدير: وإذْ فرقنا بكم البحر فتقحَّمتوُه، وتبعكم فرعون وجنودُهُ في دخولِه، فأنجيناكم[1]، فطُوِيَت هذه الجُمَلُ في الذِّكْرِ، والقارئُ الفَطِنُ تلُوحُ له مَعَانِيهَا عند قراءتِهِ للطَّرفين المذكُورِ لفظُهُمَا في الآيَةِ؛ إذِ البَيْنُ مستحضَرٌ في الطّرفَين.

تَقْدِيرُ مُتَعَلَّقِ الإِنْجَاءِ المَحْذُوفِ:

حَذْفُ المُتَعَلَّق مُؤْذِنٌ بالعُمُوم

متعلَّقُ الإنجاءِ في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَٰكُمْ﴾ محذوفٌ، دلَّ عليه قولُهُ سبحانه بعدُ: ﴿وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ﴾، فيكون التَّقديرُ: فأنجينَاكم من الغَرَقِ، أَوْ مِنْ إدراكِ فرعونَ لَكُمْ، أو ممَّا تَكرهونَهُ[2].

والأخِيرُ يشمَلُ ما قبلَهُ؛ لأنَّ كُلًّا مِنَ الغرقِ وإدراك فرعونَ لهم: مكروهٌ عِنْدَهُم، وهو الأوفَقُ لقاعدةِ حذف المتعلَّقِ، فإنَّها تقتضي أنَّ حذفَهُ مُشْعِرٌ بالعُمُومِ، وتقديره بـ (ممَّا تكرهونَهُ): أَعَمُّ وأشملُ.

سِرُّ تَقْدِيمِ إِنْجَاءِ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى إِغْرَاقِ آلِ فِرْعَوْنَ:

التَّرَقِّي في سَرْدِ النِّعَمِ

قُدِّمَ الإنجاءُ على إغراق آل فِرعون، مع أنَّ في الإغراقِ دفعَ الضَّرَرِ، وهو آكَدُ؛ لنكتَتَيْنِ:

الأولى: مراعاةُ التَّرتيبِ الوجودِيِّ، فإنَّ الإنجاءَ متقدِّمٌ على إغراق آل فرعون[3]، وذلك أنَّ بني إسرائيلَ لـمَّا تكامَلوا مِنَ البحر خروجًا -وهو الإنجاء- وتكامل آل فرعون منه دخولًا؛ أغرقهم اللّه تعالى.

الأخرى: أنَّ المِنَّةَ بإغراق فِرعون وآلِه أكبر مِنَ المنَّةِ بالإنجاءِ[4]، فكان في تقديم الإنجاء تَرَقٍّ[5] في سَرْدِ النِّعَمِ.

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 1/320.
(2) أبو حيَّان، البحر المحيط: 1/320، والآلوسّي، روح المعاني: 1/256.
(3) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/113.
(4) البِقاعيّ، نظم الدُّرر: 1/359-360.
(5) التَّرَقِّي: أن يُذكرَ المعنى ثُمَّ يُرْدَفَ بما هو أبلغُ مِنْهُ، يُنظر: السُّيوطيّ، شرح عقود الجمان، ص: 135.

نُكْتَةُ الِاكْتِفَاءِ بِذِكْرِ آلِ فِرْعَوْنَ دُونَهُ:

المَتْبُوع في الإجْرَام أَوْلَى باستحْقَاق الهلَاك مِنَ التَّابِع فيه

ذُكِرَ إغراقُ آل فرعونَ في قوله تعالى: ﴿وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ﴾، والمقصودُ: فرعونُ وأتباعُهُ، وإنَّما اكتُفِيَ بذِكْرِ أتباعِهِ دُونَهُ؛ لثلاثِ نِكاتٍ:

الأولى: لِمَا استقرَّ مِنَ العلم بأنَّهُ كانَ أَوْلَى بالإغراقِ[1]؛ لأنَّهم إذا عُذِّبوا بالإغراق؛ لِكَوْنِهم تابعِين في الإجرام، فرَئِيسُ المجرمين أولى بالعذاب والإغراق[2].

الثَّانية: أنَّ محلَّ المِنَّة هو إهلاكُ مَن كانوا مباشِرين لتَسْخِير بني إسرائيل وتعذيبِهم، والذين هُم قُوَّةُ فِرعون[3].

الثَّالثةُ: الإشارةُ إلى أتباعِ الفراعنةِ في كلِّ حين، أنَّهم ليسوا ناجينَ من الهلاكِ بالاتِّباعِ، فعلَيْهم أن يعلمُوا أنَّ المصيرَ واحدٌ، وأنَّ سنَّةَ اللّٰه لا تتبدَّل.

حذْفُ مَعْمُولِ النَّظَرِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾:

كَثْرَةُ نِعَمِ الله على عِبَاده وتنَوُّعُها

حُذِف معمولُ النَّظر في قول اللّٰه سبحانه: ﴿وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾، وذُكِرتْ في تقديرِهِ أَوْجُهٌ، مِنْهَا: وأنتم تنظرونَ ذلكَ، أي: جميعَ ما مرَّ، أو غرقَهم، أو إطباقَ البحر عليهم، أو انفلاقَ البحرِ عَن طُرُقٍ يابسَةٍ يسهلُ عليكم سُلوكُها، أو جُثَثَهم التي قَذَف بها البحرُ إلى السَّاحل، أو ينظر بعضُكم بعضًا، وأنتُم سَائِرُون في البَحْرِ[4].

ولا تعارضَ بين هذه التَّقديراتِ، فقد رأَوا كُلَّ ذلك[5]، وكلُّ واحدٍ ممَّا ذُكِرَ مِن جملةِ ما أنعم اللّٰه تعالى به عليهم.

---

(1) البيضاويّ، أنوار التَّنزيل: 1/79.

(2) القُونَوِيّ، حاشية على البيضاوي: 3/287.

(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/496.

(4) الرّازيّ، التّفسير الكبير: 3/510، وأبو حيَّان، البحر المحيط: 1/321، وأبو السّعود، إرشاد العقل السَّليم: 1/101، ومحمّد القوجَوِيّ، حاشية زادَه على تفسير البيضاوي: 2/47.

(5) الآلوسّي، روح المعاني: 1/257.

فَائِدَةُ مَجِيءِ الخَبَرِ جُمْلَةً فِعْلِيَّةً:

تَقْرِيرُ نِعَمِ اللهِ تعالى في أذهَانِ العِبَادِ

ورَدَ خبرُ المبتدأ ﴿وَأَنتُمْ﴾ جملةً فعليَّةً، وذلك يَقْتَضِي تَكرارَ الإسنادِ، فَقَدْ أُسْنِدَ النَّظَرُ إلى ضَمير المُنَجَّيْنَ (أنتُم) -وهذا مِن إسناد الخَبَرِ إلى المبتدأ- وأُسْنِدَ النَّظرُ كذلك إلى وَاوِ الجَمَاعَةِ الرَّاجعة إِلَيْهِمْ، وهو مِن إسناد الفعل إلى فاعِله.

ونكتةُ تَكْرَارِ الإسنادِ تأكيدُ تحقُّقِ نَظَرِهِم؛ تقريرًا لنِعمة الله تعالى في أذهانِهِمْ.

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

فَرَقَ وَفَرَّقَ:

نقل القرافيُّ عن بعض مشايخِه: أنَّ العربَ تُفرِّق بين (فَرَقَ) مخفَّفًا و(فَرَّقَ) مشدَّدًا، بأنَّ المخفَّف خاصٌّ بالمعاني، والمشدَّدَ مختصٌّ بالأجسام، ومناسبَتُهُ: أنَّ (فرَّق) أكثر حروفًا، فيقتضي كثرةَ المعنَى أو زيادَتَهُ وقُوَّتَهُ، ومِنَ المتقَرِّرِ أنَّ الأجسامَ كثيفةٌ، بخلاف المعاني، فإنَّها لطيفةٌ، فناسبَ التَّشديدُ الأجسامَ لكثافتِهَا، وناسبَ التَّخفيفُ المعانيَ لخِفَّتِهَا.

ثمَّ ذكر القرافيُّ ما ينقضُ اطِّرادَ هذا، فقد ورد استعمالُ (فَرَق) مخفَّفًا مع الأجسام، كما في قول الله تعالى: ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ﴾[1].

والتَّحقيقُ: أنَّ (فَرَقَ) و(فرَّقَ) يشتركانِ في أصل المعنَى؛ وهو التَّمييزُ بين شيئين[2]، إلَّا أنّ (فرَّق) بالتَّشديدِ يدلُّ على شدَّة التَّفرقَة، كقوله تعالى حكاية عن تعلُّم الناس من المَلَكين ما يُحْدِثون به الكراهية بين الزوجين حتى يتفرَّقا: ﴿ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ﴾.

وأمَّا التَّخفيفُ في قول الله تعالى: ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ﴾؛ فمَنظُورٌ فيه إلى عظِيم قدرة الله سبحانه، فكان ذلك الفرقُ الشَّديد خفيفًا[3].

---

(1) القرافيّ، الفروق: 1/4.

(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (فرق).

(3) ابن عاشور، التَّحرير والتّنوير: 1/494.

البَحْرُ وَاليَمُّ:

لفظُ البحرِ مُشعِرٌ بالسَّعَةِ والانبساطِ[1]، يقال: أبحرتِ الرَّوضةُ؛ إذا كَثُرَ ارتفاعُ الماءِ فيها، فأنبتتِ النَّباتَ[2]، ويقال لِلرَّجل الذي كثُرَ معروفُهُ: رجلٌ بحْرٌ[3].

ويختصُّ (البحرُ) غالبًا بالماءِ المِلْحِ، ولذا يقال: أَبْحَرَ الماءُ، أَيْ: صارَ مِلْحًا[4].

وأمَّا (اليَمُّ)؛ فيُطلق على ما كان ماؤه مِلْحًا، وعلى ما كان ماؤُهُ عَذْبًا، فاليمُّ: البحرُ، واليمُّ كذلك: النَّهرُ[5].

فالفرق بينَ البحْر واليمِّ في الاستعمالِ اللُّغويّ: هو ملاحظةُ معنى السَّعَة والانبِسَاطِ في لفظ (البَحْرِ)[6]، ويُؤيِّدُ هذا: الاستعمالُ القرآنيُّ، فمِن ذلك قول الله تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا﴾ [الكهف: 109]، فإنَّ معنى السَّعَة فيه ظاهِرٌ.

بخلافِ اليَمِّ، فليس فيه هذا المَلْحظُ، كما في قول الله تعالى: ﴿أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ﴾ [طه: 39]، فإنَّ المرادَ باليمِّ ههنا: نهرُ النِّيل[7].

النَّظَرُ وَالبَصَرُ وَالرُّؤْيَةُ:

أوَّل ما تقع عليه العينُ مِنَ الصُّوَرِ: نَظَرٌ، ومعرفةُ الخُبْرِ الحسّيِّ للصُّورة: بَصَرٌ، والنُّفوذُ إلى حقيقتِهَا: رُؤيَةٌ[8].

فالنَّظَرُ: الإقبَالُ بالبَصَرِ نحوَ المرئيِّ[9]، ولو لم يكُن فيه اعتبارٌ، ولذا قال الله تعالى عمَّا اتّخذه المشركون آلهة مِن الأصنام والأوثان ممَّا لا أبصارَ لَهُمْ، ولا بصائِرَ: ﴿وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: 198]، وفي قوله تعالى: ﴿وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (بحر).
(2) الأنباريّ، الزّاهر: 2/111.
(3) كُراع النَّمل، المُنَجَّد في اللغة: (بحر).
(4) ابن قُتيبة، الجراثيم: 2/14.
(5) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (يمم).
(6) محمّد داود، معجم الفروق الدّلاليّة في القرآن الكريم، ص: 105-103.
(7) ابن جرير، جامع البيان: 18/303، وابن الجوزيّ، زاد المسير: 3/158.
(8) البِقاعيّ، نظم الدُّرر: 4/266.
(9) أبو هلال العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 544.

تَنظُرُونَ﴾؛ فإنَّ اللّه تعالى قرَّرهم "على نظرهم إليهم، وفيه: إشعارٌ بفَقْدِ بَصَرِهم؛ لضعف بصائِرِهم، مِن حيثُ لَم يقل: (وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ)، ولذلك عادوا بعدها إلى أمثال ما كانوا فيه مِنَ الشّكِّ والإباء على أنبيائهم بعدَ ذلك"[1].

وفي الاستعمال القرآنيِّ وردت مادَّة (بَصَرَ) للإدراك بحاسَّةِ البصرِ، والإدراكِ بالبصيرةِ، كما قال اللّه تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَـٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا﴾ [مريم: 42]، وقال سبحانه: ﴿وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: 198].

وأمَّا النَّظَرُ؛ فالغالب استعمالُهُ لتوجيهِ العَينِ نحوَ شيءٍ، وقد يُستعمَلُ فيما معه تأمُّلٌ، كما في قول اللّه ﷻ: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ [الغاشية: 17]، فإنَّ النَّظَرَ هُنَا يُرادُ به: نظرُ العينِ المفيدُ الاعتبارَ بدقائق المنظورِ[2].

وأمَّا الرُّؤيةُ؛ فتستعمَلُ للإدراك بحاسَّة البصر، وللإدراك بالفكرِ والعقل، إلَّا أنَّ للرُّؤية مزيَّةً على الإبصار؛ لكونِهَا دالَّةً على علمٍ ثابتٍ لا يقبَلُ النَّقيضَ.

فالحاصِلُ أنَّ أقوَى الثلاثةِ من جهةِ الدّلالة: الرُّؤيةُ، ثُمَّ الإبصارُ، ثم النَّظَرُ[3].

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 4/260.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/304.

(3) محمّد داود، معجم الفروق الدّلاليّة في القرآن الكريم، ص: 136-133.

﴿وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ۝٥١ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝٥٢﴾ [البقرة: 51-52]

مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِمَا قَبْلَهَما:

لَمَّا ذكر اللّه إنعامَهُ على بني إسرائيل في فرْق البحرِ لإنجائهم من فرعون وآله، فقال تعالى: ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَٰكُمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾، وكان في فرق البحر إبقاءٌ لأبدانهم أعقبَهُ بذكر نعمة إنزال الكتابِ على نبيِّهم؛ لأنَّ في إنزالِهِ إبقاءً لدِينِهِمْ، فقال سبحانه: ﴿وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾.

ولَمَّا كان الطَّبعُ السَّليمُ يقتضي إحسانَ العملِ مقابِلَ عظيم الإحسانِ إليهم؛ أنكرَ عليهم عَمَلَهُمْ بخلاف ما يقتضيه ذلك، فقال تعالى: ﴿ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ﴾[1].

شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

1) ﴿وَٰعَدْنَا﴾: الواو والعين والدّال تدلُّ تصاريفُهَا على: تَرْجيَةٍ بقولٍ[2]، ومنه: الوَعْدُ والوَعيدُ، إلَّا أَنَّ الوَعدَ يكون بالخير والشّرِّ، كما قال اللّه تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [المائدة: 9]، وقال سبحانه: ﴿ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ [الحج: 72]، بخلاف الوعيدِ، فإنَّه لا يكون إلَّا بالشّرِّ[3].

وَ(وَاعَد) -بزِنَةِ (فَاعَلَ)- يَقتضي مشاركةً، تقول: واعدتُ فلانًا؛ إذا وعدتَهُ ووعَدَكَ، وَوَعَدْتُ فلانًا؛ إذا كَانَ الوَعْدُ مِنْكَ خاصّةً[4]، وقد يُستعملُ (فَاعَلَ) على غير بابِهِ، مثل: سافَرَ، وعافاهُ اللّه، وتكونُ لمجرَّد التَّأكيدِ[5].

(1) البِقاعيّ، نظم الدُّرر: 1/360-361.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (وعد).
(3) الخليل، العين: (وعد)، والأزهريّ، تهذيب اللّغة: (وعد)، والواحديّ، التّفسير البسيط: 2/510.
(4) الأنباريّ، الزّاهر: 2/129، والأزهريّ، تهذيب اللّغة: (وعد).
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/497.

والمواعدَةُ في قول الله تعالى: ﴿وَإِذْ وَعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾، يحتمل أن تكون على غير بابِهَا؛ لكون الوَعْدِ صادرًا مِنَ الله تعالى وحده، كما تدلُّ عليه القراءةُ الأخرى: ﴿وَإِذْ وَعَدْنَا﴾[1]، ويحتمل أن تكون على بابِهَا، والمعنى: أَنَّ الوعدَ مِنَ الله تعالى، ومِن مُوسَى التَّلقّي والاستجابةُ وإنجازُ ما وعدَ الله سبحانه[2].

2) ﴿ظَٰلِمُونَ﴾: الظَّاء واللَّام والميم تدور اشتقاقاتُها على حَجْبِ ما ينبغي أو مَا يُسْتَحق، أي: مَنْعُه أو انتقاصُه[3].

وَمِنْهُ: الظَّلَامُ؛ لحجبِهِ الرُّؤْيَة، والأرضُ المظلومةُ: التي لم ينلْها المطرُ[4].

والظُّلم: وضعُ الشَّيْء في غير مَوْضِعه المُخْتَصِّ به، إمَّا بنُقْصَانٍ أو بِزِيَادَةٍ، وإمَّا بعدولٍ عَن وَقْتِه أو مكَانِه[5].

والظُّلمُ في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ هو الشِّرْكُ، وسُمِّيَ الشِّرْكُ ظُلْمًا؛ لأنَّه وضْعُ العبادةِ وَصَرْفُها لغير مستحقِّها وهو الخالق جَلَّ وَعَلا[6]، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: 13].

3) ﴿عَفَوْنَا﴾: العَيْنُ والفاءُ والواوُ تدلُّ كثيرٌ من تصاريفِهَا على تركِ الشَّيْءِ[7]، ومنه: العَفْوُ، وهي الأرضُ التي لا أَثَرَ فيهَا[8]، كأنَّها تُرِكَتْ، وأُهْمِلَتْ.

والعَفْوُ عَنِ الذَّنب: تَرْكُ العقُوبَةِ عَلَيْهِ[9]، وحقيقة العَفْوِ شرعًا: التَّجاوزُ عَنِ العَبْد بغفران ذنُوبه، وَعدمُ مؤاخذتِه بِمَا اقترفه مِنْهَا[10].

4) ﴿تَشْكُرُونَ﴾: الشِّين والكاف والرَّاء تدور اشتقاقاتُهَا حول امتلاءِ جوفِ الشَّيء برَخْوٍ طيِّب وظُهورِه عليهِ، ولو كانَ رافِدُهُ قليلًا[11]، حسِّيًّا كان ذلك أو معنويًّا.

---

(1) قرأ بها أبو عَمْرٍو ويعقوبُ وأبو جعفر، يُنظر: ابن الجزريّ، النّشر: 2/212.
(2) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 1/230.
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصَّل: (ظلم).
(4) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (ظلم)، والزَّبيديّ، تاج العروس: (ظلم).
(5) ابن سِيده، المحكم: (ظلم)، والرّاغب، المفردات: (ظلم).
(6) مُحَمَّد الأمين الشِّنقيطيّ، العذب النَّمير: 1/82.
(7) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عفو).
(8) ابن سِيده، المخصَّص: (عفو).
(9) نشوان الحميريّ، شمس العلوم: (عفو).
(10) الشَّوكانّي، تحفة الذَّاكرين، ص: 459.
(11) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصَّل: (شكر).

فَمِنَ الحسيِّ قولهم: شاةٌ شَكْرَى؛ وهي ممتلئَةُ الضَّرع لَبَنًا[1]، ودابَّة شكور؛ وهي الَّتي يكفيها قليلُ العَلَفِ، فَتَسْمَنُ عليهِ، وَتَصْلُحُ[2].

ومِنَ المعنويِّ: الشُّكْر: وهو عِرفانُ الإِحْسَانِ ونَشْرُه[3]؛ "إِذْ هُو تعبيرٌ عَنِ امتلاء النَّفْس ورضاها بما قُدِّم لها مِن خير، ونُجوع هذا الخير فيها"[4].

وحقيقة الشُّكر شرعًا: ظُهور أثر نعمة اللّه على لسان عبده ثناء واعترافًا، وعلى قلبه: شهودًا ومحبة، وعلى جوارحه: طاعةً وانقيادًا[5].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

واذكروا -يا بَنِي إِسْرَائيل- نعمتنَا عليكم حين واعدنَا موسى أربعين ليلةً لإنزال التّوراةِ، ثُمَّ في غيابِهِ لمناجاتِنَا عبدتُم العجلَ، وأنتم بهذا الصَّنيع ظالمونَ أشدَّ الظُّلْمِ، ثُمَّ تُبْتُمْ فتجاوزنَا عنكم؛ لتشكروا نعمةَ العفو، وتَسْتَمِرُّوا بعد ذلك على الطَّاعةِ[6].

❁ الإِيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

جَرْيُ المُفَاعَلَةِ عَلَى بَابِهَا فِي المُشَارَكَةِ أَوْ عَلَى غَيْرِ بَابِهَا مَجَازًا:

كُلُّ اتِّعادٍ بَيْنَ اثْنَيْنِ؛ فَهُوَ وَعْدٌ مِن كُلِّ واحدٍ مِنْهُما

المواعدَةُ في قول اللّه تعالى: ﴿وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ﴾ تقتضي اشتراكًا من اثنينِ؛ لأنَّ الأصلَ في المفاعلة كذلك، فيحتَمِلُ أن تكونَ على بابِهَا، والمعنى حينئذٍ: وعدَ اللّه تعالى موسى عليه السلام، ووعد موسى ربَّه سبحانه بالاستجابة، وهي بهذا غيرُ مخالفةٍ لقراءةِ مَن قرأَ ﴿وَإِذْ وَعَدْنَا مُوسَىٰٓ﴾[7]؛ ذلك أنَّ من أخبر عن أحدٍ ما بأنَّه وعدَ غيرَه اللّقاءَ بمكانٍ، فمِنَ المعلوم أنَّ الموعودَ واعدٌ صاحبَهُ مِن لقائه كذلك، فيكون في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ﴾ أنَّ اللّه سبحانه وعد موسى عليه السلام الطّورَ، ووعده موسى عليه السلام اللِّقاءَ، فكان اللّه تعالى لِمُوسَى واعدًا مُوَاعَدًا[8].

---

(1) نشوان الحِميريّ، شمس العلوم: (شكر).
(2) الزَّمخشريّ، أساس البلاغة: (شكر).
(3) الفيروزابادي، القاموس المحيط: (شكر).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصَّل: (شكر).
(5) ابن القيِّم، مدارج السَّالكين: 2/234.
(6) البيضاويّ، أنوار التَّنزيل: 1/80، وأبو السّعود، إرشاد العقل السَّليم: 1/100-101، ونخبة من العلماءِ، التّفسير الميسّر، ص: 8.
(7) قرأ بها أبو عمرو ويعقوب وأبو جعفر، يُنظر: ابن الجزريّ، النّشر: 2/212.
(8) ابن جرير، جامع البيان: 2/59.

ويحتمِلُ أن تكون على غير بابِهَا، والقصدُ مِن ذلك: التَّوكيدُ، "فتكون مجازًا في التَّحقيق؛ لأنَّ المفاعلة تقتضي تكرُّر الفعل مِن فاعلين، فإذا أُخرِجَت عن بابِها؛ بقي التّكرّر فقط من غير نَظَرٍ لِلْفَاعل، ثُمَّ أُريد مِن التَّكرّر لازمه، وهو المبالغة والتَّحقّق، فتكون بمنزلة التّوكيد اللّفظيّ"[1].

تَوْجِيهُ المُتَشَابِهِ اللَّفْظِيِّ:

دِقَّةُ النَّظمِ في اختِيار التَّفصيلِ والإجمالِ المُناسِبِ للسِّياقِ

جاء قول الله تعالى: ﴿وَإِذْ وَعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ بذكر العددِ جملةً واحدةً، وجاء في موضع آخرَ تفصيلٌ له، وذلك في قوله سبحانه: ﴿وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ [الأعراف: 142]، ووجه الفرقِ بينَهُمَا: أنَّ آية سورة البقرةِ سُبقت بقوله تعالى: ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ﴾، وقبلَهُ قولهُ سبحانه: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾، فكان السِّياقُ قائمًا على تعداد النِّعَم على بني إسرائيلَ؛ تمهيدًا لإنكارِ عنادِهِم وتعنُّتِهِم وكفرِهم، ولـمَّا كان الإجمالُ أنسبَ لتحقيق هذا الغرضِ؛ ناسب ذلك أن يُذكر العددُ جُملةً واحدةً، فقال ﷻ: ﴿وَإِذْ وَعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾.

بخلاف آية سورة الأعراف؛ فغالب السِّياق الذي وردت فيه ذِكْرُ أحداث قصَّة موسى عليه السلام عَطْفًا بالواو، كما في قوله تعالى: ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾﴾ [الأعراف: 138-139]، وكان سياق السُّورة قائمًا على تفصيلِ لقاء موسى عليه السلام ربَّهُ سبحانه وتعالى، فناسب ذلك أن يُعطف بالواوِ ﴿وَوَٰعَدْنَا﴾، وأن يُفصَّلَ الميقاتُ؛ فقال تعالى: ﴿وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ [الأعراف: 51][2].

نُكتةُ التَّعْبِيرِ بِاللَّيْلَةِ دُونَ اليَوْمِ:

عُبِّرَ عَنِ المعدُودِ بـ (ليلة) دون (يومًا) في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ وَعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/497.

(2) سعد عبد العظيم، استدراك ما فات من بلاغة الآيات المتشابهات، ص: 101.

فلم يقُل: يومًا، مع أنَّ المرادَ باللَّيلةِ ههنا: ما يشملُ اللَّيل والنَّهار؛ لأنَّه هو معنى (اللَّيلة) في عُرْفِ العرَبِ عند الإطلاق[1]، فشهورُ العربِ وُضعَت على سَيْرِ القمَرِ، والهلالُ يهِلُّ باللَّيلِ، فصارت الأيامُ تبعًا للَّيالي[2]، فذكرُ الليلةِ دون النَّهار لِنُكْتَتَيْنِ:

إحداها: الإشعارُ بعبادةِ اللّيلِ؛ فإنَّ النَّاس يغفلون عنها، فذكرُها للتَّذكيرِ بها، وأنَّها شأنُ الصَّالحين، والوعدُ كان لِلْمُنَاجاةِ وإنزال التَّوراةِ[3]، وذِكْرُ اللَّيالي أنسَبُ؛ لِما في ذِكْرِهَا مِنَ الإشارة إلى حضور القَلب وفراغه مِنَ الشَّواغل.

الإشعارُ بعبادةِ اللّيلِ وأنَّها شأنُ الصَّالحين

الأخرى: المبالغةُ في ذمِّ المُخالفين من بني إسرائيل؛ فكأنَّها تُخاطِبُهم بحالِهم التَّعبديّ في اللّيلِ، وحالِهم الفاسدِ في النَّهارِ، وشأنُ الفسادِ أن يستشري في الليلِ لا العكس.

دلالة (ثُمَّ) فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ ٱتَّخَذۡتُمُ ٱلۡعِجۡلَ﴾:

(ثُمَّ): حرفُ عطفٍ دالٌّ علَى التَّرتيب مع التَّراخي[4]، وفي عطف هذه الجملةِ بهِ: إشارةٌ إلى "ترتيبٍ في درجات عِظَم هذه الأحوال، وعطفُ ﴿ثُمَّ عَفَوۡنَا عَنكُم مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ﴾ أيضًا لتراخي مرتبة العفو العظيم عن عظيم جُرمهم، فَرُوعِيَ في هذا التَّراخي أنَّ ما تضمَّنَتْهُ هذه الجُمَلُ عظائمُ أمورٍ في الخير وضِدّه؛ تنبيهًا على عِظَم سَعة رحمة الله بهم قبلَ المعصية"[5].

عِـظَـمُ سَـعـةِ رَحمة اللهِ بِبَنِي إِسْـرَائِـيـل قبلَ المعصيةِ

نُكْتَةُ العَطْفِ بِـ(ثُمَّ) دُونَ (الوَاوِ):

وقع العطفُ بـ (ثُمَّ) في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱتَّخَذۡتُمُ ٱلۡعِجۡلَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ﴾ دُون الواو؛ لأنَّ الآيةَ سيقَتْ لبيانِ ظُلْمِهم وطُغيانِهم، فكان

الـمُخَالَفَةُ بعدَ ورُودِ البَيِّنات أعظَمُ جُرْمًا

(1) محمّد رشيد رضا، تفسير القرآن الحكيم: 9/105.

(2) الواحديّ، التّفسير البسيط: 2/516، وابن الجوزيّ، زاد المسير: 1/64، والشَّوكانّي، فتح القدير: 1/100.

(3) طنطاويّ، التَّفسير الوسيط: 1/127.

(4) محيي الدّين درويش، إعراب القرآن وبيانه: 1/148.

(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/499.

العطف بـ (ثُمَّ) أبلغَ في التَّقريع والتَّوبيخِ؛ لأنَّها تقتضي أنَّهم فعلوا ذلك بعد تمكُّنهم مِنَ النَّظَرِ في الآيات والبيِّنَاتِ، فوقَعَت مخالفتُهم بعد ذلك، وذلك أعظمُ جرمًا[1]، ففيه معنى الاستبعادِ والتَّعجُّبِ، فكأنَّه خاطبَهم: ثمَّ وقع منكم ما وقعَ، والظَّنُّ استبعادُ وقوعِ مثلِه ممَّن هو مثلكم!

نُكْتَةُ حَذْفِ المَفْعُولِ الثَّانِي لِ ﴿ٱتَّخَذۡتُمُ﴾:

اسْتِبْشَاعُ ذكرِ اتِّخاذِ إلَهٍ غيرِ اللهِ تعالَى

الفعلُ (اتَّخذتُم) من قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱتَّخَذۡتُمُ ٱلۡعِجۡلَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ﴾ يتعدَّى إلى مفعولَين اثنين؛ أوَّلُهما: ﴿ٱلۡعِجۡلَ﴾، والآخَرُ محذوفٌ، تقديرُهُ: اتَّخذتُم العجلَ إلهًا، وإنَّما حُذِفَ لظهورِهِ وعِلْمِهِم به واستِبشاعًا لذِكْرِهِ[2].

سِرُّ تَذْيِيلِ الآيَةِ بِقَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿وَأَنتُمۡ ظَٰلِمُونَ﴾:

الظُّلْمُ مِن طَبَائِعِ اليَهُودِ

الجُملة في قول الله تعالى: ﴿وَأَنتُمۡ ظَٰلِمُونَ﴾ يحتمِلُ أن تكون حاليَّةً، والوصفُ المستفادُ مِنْهَا يكون وصفًا كاشفًا؛ لأنَّ عبادَةَ العجلِ لا تكون إلَّا ظُلْمًا[3].

ويَحتمل أن تَكُون تذييلًا، أي: وأنتم قومٌ عادَتُكُم الظُّلْمُ، ولذا اتَّخذتُم العجلَ إلهًا[4]، وهذا أبلَغُ في ذمِّهِمْ وتقريعِهِم، ويؤيِّدُهُ: الإتيانُ بجملةِ التَّذييل اسميَّةً؛ وهي دَالَّة على ثبات الظُّلم فِيهِم واستمرارِهم عَلَيْهِ، وأنَّه مِن دأبِهم وطبعِهم[5].

دلالة حَرْفِ العَطْفِ (ثُمَّ) فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ عَفَوۡنَا عَنكُم﴾:

عَظِيمُ عَفْوِ اللهِ تعالى ولُطْفِه بعِبَادِه

عُطفَ قولُ اللهِ تعالى: ﴿ثُمَّ عَفَوۡنَا عَنكُم مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ﴾ على ما قبله بـ (ثُمَّ)، وهي دالَّةٌ -في الأصل- على التَّرتيب مع التَّراخي،

(1) الخفاجيّ، عناية القاضي: 2/204.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/499.
(3) الخفاجي، عناية القاضي: 2/205.
(4) الطّيبي، فتوح الغيب: 2/439.
(5) الخفاجي، عناية القاضي: 2/205.

إلَّا أنَّ حملها هَهُنا على هذا المعنى يَقْتَضِي أَنْ يَكُونَ قولُه سُبْحَانَهُ بعدُ ﴿مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ﴾ تَكرارًا؛ لأنَّ معناه مُسْتَفَادٌ مِن الدّلالة الأصليَّةِ لـ (ثُمَّ)، فتُحمَلُ (ثُمَّ) على التَّرَاخي الرُّتْبِيِّ؛ لبيانِ تَفَاوُت ما بينَ فِعْلِهِمُ القَبيحِ ولُطْفِهِ تعَالَى في شأنهمْ[1].

نُكْتَةُ التَّعْبِيرِ بِاسْمِ الإِشَارَةِ فِي قَوْلِهِ: ﴿مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ﴾:

جلالَةُ عَفْوِ اللهِ تعالَى مع عظمَةِ الجُرْمِ

الإشَارة في قول اللّه تعالى: ﴿ثُمَّ عَفَوۡنَا عَنكُم مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ﴾ راجَعةٌ إلى الاتِّخاذِ المفهومِ مِنَ الفعل ﴿ثُمَّ ٱتَّخَذۡتُمُ ٱلۡعِجۡلَ﴾، وفائدتُهَا: بيانُ العنايةِ بتمييزِهِ أكملَ تَمْييزٍ، حتَّى كأنَّ ظُلْمَهم صار مُشاهدًا لهم، تَصِحُّ الإشارةُ إليه كسائرِ المُشاهدَاتِ.

وجاءتِ الإشارةُ بصيغةِ البَعيدِ مع قُرْبِ ذكر الاتِّخاذِ؛ لبيانِ عَظَمَةِ جُرْمِهم وقبيحِ فعلِهم؛ ليُتوسَّلَ بذلك إلى جلالةِ قَدْرِ عَفْوِ اللّه تعالى عليهم؛ فإنَّ عظمةَ العفوِ عَنِ الذَّنْبِ تزدادُ بحسبِ عظمَةِ ذلك الذَّنْبِ[2].

فائدةُ التَّعبيرِ بـ ﴿لَعَلَّكُمۡ﴾ دونَ لامِ التَّعليل:

تَرْكُ شُكْرِ النِّعَمِ مِنْ عَادَاتِ اليَهُود

عُدِلَ عن لامِ التَّعليلِ إلى التَّعبير بـ (لعلَّ) في قوله سبحانه: ﴿لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾؛ لفائدتَيْن:

إحداهما: الإيماءُ إلى أنَّ شُكْرَهُمْ مع عظيمِ مِنَّة اللّه تعالى عليهم أمرٌ ليس متحقِّقًا، بل يحتمِلُ تخلُّفَهُ[3].

الأخرى: حسنُ تناسُبِ الفواصلِ؛ إذْ لو جيءَ بلام التَّعليل لحُذفت نونُ الفعلِ للنَّاصِب (لِتَشْكُرُوا)، وذلك يُفوِّتُ تناسُبَ الفاصلةِ مع ما قبلهَا وبعدها، وهذه الفائدةُ تَبَعٌ للسَّابقةِ، إذ لا تُتصوَّرُ بدونِها.

(1) الآلوسّي، روح المعاني: 1/259.
(2) الآلوسّي، روح المعاني: 1/259.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/501.

نُكْتَةُ التَّعْبِيرِ بِالفِعْلِ المُضَارِعِ فِي قَوْلِهِ: ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾:

العَبْدُ مُطَالَبٌ بتَجْدِيد الشُّكْرِ كُلَّما تَجدَّدتِ النِّعَم

وقعَ التَّعبير بالفعل المُضارعِ في قوله سبحانه: ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾؛ للدّلالة على استمرارِ الشُّكْرِ استمرارًا تجدُّديًّا[1]؛ وذلك لأنَّ حقيقة الشُّكْرِ: عرفانُ الإحسانِ ونشرُهُ، ولا يكون إلَّا في مقابلَةِ نِعْمَةٍ، فكُلَّما تجدَّدَتِ النِّعْمَةُ على العبد؛ كان مطالبًا بإحداثِ شُكْرٍ جديدٍ عليها.

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

العَفْوُ وَالمَغْفِرَةُ:

الفَرْقُ بَيْنَ العَفْوِ والمَغْفِرَةِ مِنْ ثَلَاثَةِ أَوْجُهٍ:

أولها: أنَّ أصلَ العَفْوِ: المحْوُ وَتركُ الشَّيْءِ[2]، وأصلَ الغَفْرِ: السَّتْرُ[3].

ثانيها: أنَّ الغالبَ استعمال العفوِ في تَرْكِ الواجباتِ، واستعمالُ المغفرةِ في فِعْلِ المحرَّماتِ[4].

ثالثها: أنَّ أحدَهُمَا أبلغُ من الآخَرِ، وقد وقع خلافٌ في تعيينِ الأبلَغِ منهما على قولَيْنِ:

أحدهما: أنَّ العفوَ أبلغُ من المغفرة؛ لأنَّ المغفرة تُنْبِئُ عَنِ السَّتْرِ، بخلاف العفو فإنَّه مشعِرٌ بالمَحْوِ، والمحوُ أبلغُ من السَّتْرِ[5].

ثانيهما: أنَّ المغفرةَ أبلغُ مِنَ العفوِ؛ لأنَّ المغفرةَ متضمِّنَةٌ وقايةَ المغفورِ له شرَّ ذنبِهِ وإقبالَ الغافرِ عليهِ ورضَاهُ عنه، بخلاف العفوِ، فإنَّهُ متضمِّنٌ إسقاطَ صاحبِ الحقِّ حقَّهُ ومسامحتَهُ، فقد يَعْفُو، ولا يُقْبِلُ على من عفا عَنْهُ، ولا يرضَى عنه، وبهذا يكون العفوُ تركًا محضًا، والمغفرةُ إحسانًا وفضلًا وجودًا[6].

والأوَّلُ أشهَرُ، والاشتقاقُ اللُّغَوِيُّ يدلُّ عليهِ.

---

(1) إسماعيل حقِّي، روح البيان: 1/134.

(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عفو)، وابن الأثير، النِّهاية: (عفا).

(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (غفر).

(4) ابن عثيمين، شرح الواسطيَّة: 1/341.

(5) الصَّفُّوري، نزهة المجالس: 1/88.

(6) ابن تيميَّة، مجموع الفتاوى: 14/140.

﴿وَإِذۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡفُرۡقَانَ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ٥٣﴾

[البقرة: 53]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لـمَّا ذكر اللّٰه سبحانه عملَ بني إسرائيل ـ بخلافِ ما يقتضيه عظيمُ إحسانه تعالى إليهم؛ فاتَّخذوا العجلَ معبودًا، وكان ذلك دليلًا على سُوء طِباعِهم واختلال مزاجِهم، وأنَّهم لا يحفظون عهدًا، ولا يستقيمُون على طريقٍ؛ ذكَّرهم اللّٰه تعالى ههنا بنِعمة إنزال الكتاب –وهو التَّوراة– على نبيِّهم موسى عليه السلام، والكتاب المُنزَّل مِن شَأنه تقويمُ أحوالهم وتحسينُ طِباعهم عندَ الرُّجوعِ إليه والاهتداءِ به[1].

شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

1) ﴿ءَاتَيۡنَا﴾: الهمزةُ والتَّاء والحرف المعتلُّ تدلُّ اشتقاقاتها على: وصولٍ، أو تقدُّمٍ وحضورٍ، إلَى محلٍّ بِتَهْيِئَةٍ أو قُوَّةٍ تُزيل ما يعوقُ، ومنه قولُهم: آتى إلَيه الشّيءَ؛ أي: ساقَه ودَفعَهُ، فجعله يأتِي إليه، وآتى فلانًا شيئًا: أعطاه إيَّاه[2]، فالإيتاءُ: الإعطاءُ[3]، وهو المرادُ بقوله تعالى: ﴿وَإِذۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ﴾.

وكلُّ موضع ذُكر فيه في وصفِ الكِتَاب (ءَاتَيۡنَا)؛ فهو أبلغ من كُلّ موضع ذُكر فيه (أوتوا)؛ لأنّ (أوتوا) قد يقال: إذَا أُوتِيَ مَن لم يَكُن منهُ قَبُولٌ، و(آتيناهم) يُقال: فيمن كان منه قَبولٌ[4].

2) ﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾: وهو على وَزْنِ فِعَالٍ مِنَ الكَتْبِ، وأصْلُهُ: جمعُ شيءٍ إلى شيءٍ[5].

ويُطلق الكِتَابُ على الخطِّ والكتابةِ، كمَا قال اللّٰه تعالى عن عِيسَى عليه السلام: ﴿وَإِذۡ عَلَّمۡتُكَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ﴾[6] [المائدة: 110].

---

(1) البِقاعيّ، نظم الدُّرر: 1/369.

(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (أتو/أتى).

(3) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة: (أتى).

(4) الرّاغب، المفردات: (أتى).

(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (كتب).

(6) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 3/223، ونصر الهُورِينِيّ، المطالع النَّصْرِيَّة، ص: 41.

ويُطلق مرادًا به المكتوبُ، فيكون مِن إطلاقِ المصدَرِ مرادًا به اسمُ المفعول، كقَوْلِهم: فِراشٌ، بمعنى: مفروشٍ، وغِراس، بمعنى: مَغْرُوس، ولِباس، بمعنى: مَلْبُوس، ثم أُطْلِقَ على الصَّحيفة مَعَ ما كُتِبَ فِيهَا[1].

ويأتي (الكِتابُ) في القرآن الكريم على أحدَ عشَرَ وَجْهًا[2]، والمُرَادُ بِهِ في قول الله تعالى: ﴿وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾: التَّوراةُ[3].

3) ﴿وَٱلْفُرْقَانَ﴾: الفاء والرَّاء والقافُ تدلُّ اشتقاقاتُها على تمييزٍ بين شيئين[4]، ومنه سُمِّيَ القرآنُ الكريم فُرْقَانًا؛ لأنَّه يُمَيِّزُ بين الحقِّ والباطلِ[5].

والفُرقَانُ أبلَغُ مِن الفَرقِ؛ لأنَّ الفرقانَ يُسْتَعْمَلُ في التَّمييزِ بينَ الحقِّ والباطل، بخلافِ الفَرْقِ؛ فإنَّهُ يُسْتَعْمَلُ في ذلِكَ وفي غَيْرِهِ[6].

والمرادُ بالفرقانِ في قول الله تعالى: ﴿وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ﴾ التَّوراة، ويكون عطف الفرقان على الكتاب مع أَنَّ المرادَ منهما واحد؛ تنزيلًا لتغايُرِ الصِّفات منزلة تغاير الذَّوات، وذلك أنَّ التَّوراة موصوفةٌ بكونها كتابًا، وبكونها فرقانًا؛ أي: فارقة بين الحقِّ والباطلِ[7].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

واذكروا -يا بني إسرائيل- نعمتنَا عليكم حينَ أعطَيْنَا موسى التَّوراةَ الجامعةَ بين كونِها كتابًا مُنْزَلًا وفرقانًا يُفرِّقُ بين الحقِّ والباطلِ؛ لتهتدُوا بها مِنَ الضَّلال[8].

❁ الإِيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

نُكْتَةُ التَّعْبِيرِ بِـ (نَا) فِي قَوْلِهِ: ﴿وَإِذْ ءَاتَيْنَا﴾:

ضَمِير (نَا) من قوله تعالى: ﴿وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ للعَظَمَةِ لا للجمعِ؛ إذِ المتكلِّمُ

(1) نصر الهُورِينيّ، المطالع النَّصريّة، ص: 41.
(2) ابن الجوزيّ، نزهة الأعين النَّواظِر، ص: 527-526.
(3) ابن أبي حاتم، تفسير القرآن العظيم: 109-1/108.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (فرق).
(5) ابن دُريد، جمهرة اللّغة: (فرق).
(6) الرّاغب، المفردات: (فرق).
(7) محمّد الأمين الشِّنقيطيّ، أضواء البيان: 1/37.
(8) الواحديّ، الوجيز، ص: 105، والنَّسفي، مدارك التَّنزيل: 1/89، ونخبة مِنَ العلماء، التّفسير الميسّر، ص: 8.

اللهُ ﷻ وهو الواحد الأَحَدُ، والتَّعبير بـ (نَا) ـ الدالَّةِ على عظَمَةِ المُؤْتِي، وهُوَ اللهُ تعالى[1] ـ دالٌّ بالالتزامِ على عظَمَةِ الكتابِ المُؤْتَى، فإنَّ ما يُؤتيهِ العظيمُ عَظِيمٌ.

عَظَمَةُ المُؤْتَى مِن عَظَمةِ المُؤْتِي

دلالة اللَّامِ في ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾:

اللَّام في ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ من قول الله تعالى: ﴿وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ يُرادُ بها العهد العلميُّ، والمرادُ به: التَّوراةُ؛ إذْ هُوَ الكتاب المعهودُ إنزالُهُ على موسى[2] عليه السلام.

كَمالُ التَّوراةِ التي أنزلَها اللهُ تعالى عَلَى مُوسَى عليه السلام

ويُضَافُ إلى دِلالتهَا على العهدِ: دلالَتُهَا على الكَمالِ، أي: آتينَا موسى الكتابَ الكاملَ في نفسِه الجامعَ لَكُمْ على طريق الحقِّ[3].

دلالة (الوَاوِ) في قَوْلِهِ: ﴿وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ﴾:

الوَاوُ في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ﴾ حرفُ عطفٍ، والأصلُ في العطف: المغايَرةُ بين المعطوفِ والمعطوفِ عليه، وليس هنا كذلك؛ إذِ المرادُ بالكتاب والفُرقَانِ وَاحِدٌ، وهُوَ التَّوراةُ[4]، فيكون مِن باب الكنايةِ التي يُطلب بها نفسُ الموصوفِ، وإنَّما جيءَ بالواوِ بينَ الوصفينِ؛ للإعلام باستقلال كلٍّ مِنْهُمَا[5]، فتغايُرُ الصِّفتين بمنزلةِ تغاير الذَّاتين[6].

تَنزِيلُ تغايُرِ الوَصْفَيْنِ منزلةَ تغايُرِ الذَّاتَيْنِ

فالكتابُ وصفٌ أُقيمَ مقامَ الذَّاتِ، والفرقانُ وصفٌ وظيفيٌّ، عوملَ معاملةَ الذّاتِ لِعظيمِ أثرِه، وبالغِ الاحتياجِ إليه في بني إسرائيل.

مُنَاسَبَةُ الفواصِلِ: ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ و﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾:

خُتِمَت هذه الآية بقول الله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾،

تَنَاسُب مقاطِعِ الآياتِ مَعَ مَضَامِينِهَا

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 1/369.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/232.
(3) البِقاعيّ، نظم الدُّرر: 1/369.
(4) ابن جرير، جامع البيان: 2/71.
(5) الطِّيبي، فتوح الغيب: 2/486، والسّيوطي، نواهد الأبكار: 2/244.
(6) محمّد الأمين الشِّنقيطيّ، أضواء البيان: 1/37.

وخُتِمَت الآية التي قبلها بقوله سبحانه: ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾؛ لمناسبة كلِّ فاصلةٍ لآيتِهَا، ووجه ذلك:

أنَّ اللّٰه تعالى ذكر جُرمًا عظيمًا فعله بنو إسرائيل، وهو عبادَةُ العجلِ، ومع عِظَم جُرْمِهم وظُلْمِهم فإنَّ اللّٰه سبحانه تجاوزَ عنهم، وعفَا عنهم، فقال سبحانه: ﴿ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾، وهذه مِنَّةٌ عظيمةٌ ونعمةٌ جَسيمَةٌ تستحقُّ شُكْرَهُ تعالَى عليها، فجاء ختم الآية: ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

أمَّا الآية التي بعدَها؛ فذكر اللّٰه تعالى إنزاله التَّوراةَ على موسَى، ووصفَهَا بكونِهَا فُرْقَانًا يُفَرِّقُ بين الحقِّ والباطِلِ، ومن شأنِ مَن هذا وَصْفُهُ أن يهتدِيَ مُتَّبِعُهُ، فقال سبحانه: ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾[1].

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الإِيتَاءُ وَالإِعْطَاءُ:

الإيتَاءُ والإعطاءُ معناهُمَا واحدٌ عند كثيرٍ من أصحاب المُعْجَمات[2].

وفرَّق آخرونَ بينهما، والتَّفريقُ راجعٌ إلى ثلاثَةِ أوجهٍ[3]:

أحدها: أنَّ الإيتاءَ لا مُطَاوِعَ لفعلِهِ، فتقول: آتاني شيئًا، فأخذتُه، بخلاف الإعطاءِ فإنَّ له مُطاوعًا، فتقول: عاطاني فَعَطَوْتُهُ، أي: غلبتُه[4]، ويترتَّب على هذا: أَنَّ الإيتاء أقوَى مِنَ الإعطاء؛ لأنَّ المتقرِّرَ أنَّ ما له مُطاوِعٌ مِنَ الأفعال أضعفُ في إثبات مفعولِهِ مِمَّا لا مطاوِعَ له.

ثانيها: أنَّ الإيتاء يُستعمَلُ غالبًا فيما له ثباتٌ وقرارٌ، بخلاف الإعطاءِ فإنَّ الغالبَ استعمالُهُ فيما يَنتقِلُ مِنْهُ بعد قضاء الأَرَبِ منهُ، ومِنْ هذا البابِ عندَهُم قول اللّٰه تعالى: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ﴾ [الكوثر: 1]؛ لأنَّ فيه انتقالًا مِنْهُ إلى ما هو أعظَمُ مِنْهُ.

ثالثها: أنَّ في الإعطاءِ دليلًا على التَّمَلُّكِ بخلاف الإيتاء.

---

(1) أحمد المنيراوي، المناسبة بين الفواصل القرآنيَّة وآياتها، ص: 77.

(2) الخليل، العين: (أتى)، والجوهريّ، الصِّحاح: (أتى).

(3) أبو هلال العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 87، والكفويّ، الكلّيَّات، ص: 212.

(4) الجوهري، الصِّحاح: (عطا).

وأمَّا في خصوصِ الاستعمال القُرآنيِّ لِلَفظَتَي (الإيتاء) و(الإعطاء)؛ فإنَّ بينَهُمَا فرقًا من جِهَتَيْنِ[1]:

إحداهما: أنَّ الإيتاءَ لم يُستعمل إلَّا لِلشَّيْءِ الكَثِير والعظيم الشَّأْنِ، كالقرآنِ الكريمِ، والتَّوراةِ، والمُلْكِ، والرَّحمة، بخلاف الإعطاءِ فإنَّهُ يُستعمَلُ لِلشَّيْءِ القليل، ولم يَرِد الإعطاءُ مرادًا به الشَّيءُ الكثيرُ إلَّا بقيدٍ يدلُّ على الكثرَةِ.

الأخرى: أنَّ الإيتاءَ إذا صدَرَ مِنَ العَبْدِ يكون عَنْ طِيبِ نفسٍ، بخلاف الإعطَاءِ فَهُوَ مُطْلَقٌ.

(1) محمّد داود، معجم الفروق الدّلاليَّة في القرآن الكريم، ص: 29-27.

﴿وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ إِنَّكُمۡ ظَلَمۡتُمۡ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلۡعِجۡلَ فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمۡ فَٱقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ عِندَ بَارِئِكُمۡ فَتَابَ عَلَيۡكُمۡۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ٥٤﴾ [البقرة: 54]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لمَّا ذكر الله تعالى جُرم بني إسرائيل باتِّخاذهم العجل إلهًا يتوجَّهون إليه بأنواع العبادات، في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱتَّخَذۡتُمُ ٱلۡعِجۡلَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ وَأَنتُمۡ ظَٰلِمُونَ﴾، وذكر سبحانه أنَّه عفَا عنهم، فقال: ﴿ثُمَّ عَفَوۡنَا عَنكُم مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ﴾ بيَّن ﷻ كيفيَّةَ وقوع ذلك العفو، فقال جلَّ شأنُه: ﴿وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ إِنَّكُمۡ ظَلَمۡتُمۡ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلۡعِجۡلَ فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمۡ فَٱقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ﴾[1].

شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

1) ﴿يَٰقَوۡمِ﴾: القاف والواو والميمُ تدورُ تصاريفها على أمرين، أحدهما: جماعةُ ناسٍ، والآخَر: انتصابٌ أو عَزْمٌ[2].

وَالقَوْمُ عند جمعٍ من علماء العربيَّةِ: اسْمٌ يشمَلُ الرِّجَالَ وَالنِّسَاء[3].

وخصَّهُ آخرونَ بالرِّجَالِ؛ إذْ لفظُ (القَوْم) في الأصل: مَصْدَرٌ وُصِفَ به، ثم غلب على الرِّجالِ دون النِّساء؛ لكونهم قوَّامِينَ عليهنَّ بالأمور التي ليس لهنَّ أن يقُمْنَ بها[4]، ويُؤيِّدُ هذا أنَّ لفظَ (القوم) يُقابَلُ بلفظ (النِّساءِ)، كما في قوله تعالى: ﴿لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّۖ﴾ [الحجرات: 11]، وفي قول زُهيرٍ[5]:

(1) الهرريّ، حدائق الرَّوح والرّيحان: 1/408.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (قوم).
(3) ابن دُريد، جمهرة اللُّغة: (قوم).
(4) ابن الأثير، النِّهاية: (قوم).
(5) ديوان زهير بن أبي سُلمى، تح: علي فاعور، ص: 17.

وَمَا أَدْرِي، وَسَوْفَ إِخَالُ أَدْرِي *** أَقَوْمٌ آلُ حِصْـنٍ أَمْ نِسَاءُ؟

وإذا ذُكِرَ القومُ على جهةِ الانفرادِ دخل النِّساءُ فيه ، ليس بمقتضى الوضع، وإنَّما على سبيل التَّبَع، كما في قول الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ﴾؛ إذْ قَوْمُ كلِّ نبيٍّ: رجالٌ ونساءٌ[1].

2) ﴿فَتُوبُوٓاْ﴾: التَّاء والواو والباء تدور اشتقاقاتُهَا على معنَى الرُّجوعِ، ومنه قولُهم: تابَ مِنْ ذنبه؛ إذا رَجَع عَنْهُ[2]، وتاب إلى اللهِ: رجَعَ إِلَيْهِ بالطَّاعَةِ بعدَ المَعْصِيَةِ، وتاب اللهُ على العبد: رجع إِلَيْهِ بالمغفرة[3].

وحقيقةُ التَّوبةِ شرعًا: ترْكُ الذَّنب مخافةَ الله تعالى، واستشعارُ قُبْحِهِ، والنَّدَمُ عَلَى ذلكَ، والعزيمةُ على ألَّا يعود إليهِ؛ إذَا قدَر عليهِ[4].

و(التَّوَّاب): اسمٌ من أسماء الله تعالى، معناه: أنَّهُ يوفِّقُ عبادَهُ لِلتَّوبةِ، ويقبلُهَا مِنْهُمْ[5].

3) ﴿بَارِئِكُمْ﴾: الباء والرَّاء والهمزة تدلُّ كثيرٌ من تصاريفِهَا على معنى: الخَلقِ[6]، ومنه قولهم: برأَ اللهُ الخَلْقَ، أي: خَلَقَهم[7]، والبريئةُ: الخَلْقُ[8]، وهي فعيلَةٌ، بمعنَى: مفعولةٍ[9]، وتُبْدَلُ همزتُهَا ياءً، فتُدغم فيما قبلها: (بَرِيَّة)[10].

والبارئُ: اسمٌ من أسماء الله تعالى، ومعناه: الخَالِقُ الخلقَ على تنَاسُبٍ وتعديلٍ، فَهُوَ بهذا أَخَصُّ مِن اسمه سبحانه الخالقِ[11].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

واذكروا - يا بنِي إسرائيل - نعمتَنا عليكم حينَ قال موسى لقومِهِ: إنَّكم ظَلَمْتُم أنفسَكم؛ إذِ اتَّخذتُم العجلَ معبودًا، فتوبُوا إلى الله تعالى خالقِكُم بأن يقتُلَ بعضُكم بعضًا،

(1) الجوهريّ، الصّحاح: (قوم).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (توب).
(3) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة: (توب).
(4) صالح السَّدلان، التَّوبة إلى الله، ص: 10.
(5) سعيد القحطانّي، شرح أسماء الله الحسنى، ص: 110.
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (برأ).
(7) ابن سيده، المخصّص: 5/226.
(8) الجوهريّ، الصّحاح: (برأ).
(9) الفيّوميّ، المصباح المنير: (بري).
(10) الأنباريّ، الزَّاهر: 2/114.
(11) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/504.

فإنَّ هذا خيرٌ لكم عند خالِقكم مِنَ التَّمادِي في كُفْرِكُم المُؤَدِّي بكم إلى الخلودِ في نار جهنَّمَ؛ إذْ إنَّ في التَّوبةِ على النَّحْوِ الذي أُمِرْتُمْ بهِ؛ طُهْرَةً مِنَ الشِّرك، ووُصْلَةً إِلَى الحياةِ الأبديَّةِ والبهجة السَّرمديَّة، فلمَّا امتثلتُم ما أُمِرْتُمْ به مِن التَّوبة؛ منَّ اللّه تعالى عليكُمْ بقبُولِهَا، فَإِنَّهُ سبحانَهُ هو التَّوَّابُ الذي يُوفِّقُ عبادَهُ للتَّوبةِ، ويقبلُهَا مِنْهُم، الرَّحيمُ بهم[1].

الإيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

نُكْتَةُ تَقْدِيمِ الجَارِّ وَالمَجْرُورِ ﴿لِقَوْمِهِۦ﴾:

اسْتِمَالَةُ القائدِ قُلُوبَ مُتَّبِعِيه؛ لِيكونَ ذلك أَدْعَى لقَبُولِهِمُ الحقَّ

قُدِّم الجارُّ والمجرور ﴿لِقَوْمِهِۦ﴾؛ لأنَّ تقديمَهُ أوفقُ لتحقيق الحكمة مِن النِّداء، وهو الإقبالُ على المنادَى وتخصيصُ القول لَهُ، وليدُلَّ تَكرارُ ذِكْرِ القومِ على شدَّة تحنُّنِه وتودُّدِهِ لهم، فيكون ذلك أدعَى لاستمالةِ قلوبهم إلى قبول الحقِّ، ولو أُخِّر الجارُّ والمجرور؛ لَما ساغَ هذا التَّكرار، ولفاتت هذه الفائدةُ؛ إذ تكون الجملة هكذا: (وإذ قال موسى: يا قوم إنَّكم ظلمتُم أنفسَكم)، فلم تبقَ فائدةٌ لذِكْرِ ﴿لِقَوْمِهِۦ﴾ بعدُ[2].

دلالة النِّدَاءِ فِي قَوْلِهِ: ﴿يَٰقَوْمِ﴾:

صِدْقُ نُصْحِ مُوسَى عليه السلام لِقَوْمِهِ

النِّداءُ في قولِ اللّه تعالى حكايةً لمُوسى عليه السلام: ﴿يَٰقَوْمِ﴾ يُؤذِن بأنَّه منهم، وأنَّهم منه، وفيه إشارة إلى ما يربطه بِهم مِن مودَّة وتأييد ونُصرةٍ وإعزازٍ، وفيه إشعارٌ بالتَّحنُّن عليهم[3].

نُكْتَةُ حَذْفِ المَفْعُولِ الثَّانِي لِ ﴿بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ﴾:

شِدَّةُ اسْتِبْشَاعِ اتِّخَاذِ العِجْلِ مَعْبُودًا!

المصدر (اتِّخَاذِكُم) من قول اللّه سبحانه: ﴿إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ﴾ أُضيفَ إلى فاعلِهِ، ونصبَ ﴿لَعَجَّلَ﴾

(1) ابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 1/106-107، البيضاوي، أنوار التَّنزيل: 1/81، نخبة من العلماءِ، التّفسير الميسّر، ص: 8.

(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/114.

(3) الآلوسّي، روح المعاني: 1/260، محمّد أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 1/233.

على أنَّه مفعولُهُ الأوّل، وأمَّا مفعولُهُ الثَّاني؛ فمحذوفٌ؛ "لأنَّهم لَو اتَّخَذُوه ، ولم يجعلوه إلهًا؛ لم يكن فِعْلُهم ظلمًا، فالمراد باتِّخاذكم العجلَ إلَهًا"[1]، وحُذِفَ لدلالة مقدِّمة الآيةِ عليه وعِلْمِهم به، واستِبشاعًا لذِكْرِهِ[2]، حتَّى قال بعضُ أهل العلم: إنَّ في حذفِهِ تنبيهًا "على أنه لا ينبغي لعاقلٍ أن يتلفَّظَ بأنَّ عِجْلًا مُصْطَنَعًا من حُلِيٍّ أنَّه إلَهٌ"[3]، ولذا اطَّردَ حذف المفعول الثَّاني في مثل هذا التَّركيب في القرآن الكريم، كما في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱتَّخَذۡتُمُ ٱلۡعِجۡلَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ وَأَنتُمۡ ظَٰلِمُونَ﴾ [البقرة: 92]، وقوله ﷻ: ﴿ثُمَّ ٱتَّخَذُواْ ٱلۡعِجۡلَ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ فَعَفَوۡنَا عَن ذَٰلِكَۚ﴾ [النساء: 153]، وقوله سبحانه: ﴿وَٱتَّخَذَ قَوۡمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِنۡ حُلِيِّهِمۡ عِجۡلاً جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌۚ﴾ [الأعراف: 54].

نُكتةُ اخْتِيَارِ اسْمِ اللهِ البَارِئِ:

في التَّعبير باسم الله (البارئ) في قوله تعالى: ﴿فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمۡ﴾ نِكَاتٌ:

إحداها: أنَّ ذلك تقريعٌ لهم بما بدر مِنهم، وإشارة إلى عظيم جُرمهم؛ إذِ المعنى: تُوبوا إلى الذي خلقكم، وبرأكُمْ، ثُمَّ عبدتُم غيرَهُ[4].

ثانيهَا: هو كإقامةِ الحُجَّة عليهم في أَنَّ العجل الذي عَبَدوه، لا يستحِقُّ أن يكون إلهًا؛ إذِ الذي يستحِقُّ العبادةَ هو الخالق البارئُ[5].

ثالثها: أنَّ فيه الإيماءَ إلى أنَّهم بلغوا مِن أقصى غايات الجهل ومُنتهى دركَاتِ الغَواية؛ حيث تركوا عبادةَ البارئ، وعبدوا البقَرَ الذي هو مثَلٌ في الغباءِ[6].

بُلُوغُ عُبَّاد العِجل غاياتِ الجَهْلِ ومُنتهى دركاتِ الغَواية

رابعها: أنَّ فيه تحريضًا على التَّوبةِ؛ لأنَّ التَّوبةَ رجوعٌ عَنِ المعصية إلى الطَّاعةِ، فهي ضَرْبٌ مِنْ ضروب الشُّكْرِ، وكَوْنُ الخَلْقِ على مثالٍ متناسبٍ يزيدُ في الحثِّ على شُكْرِ الخالقِ سُبْحَانَهُ[7].

(1) الرَّازيّ، التّفسير الكبير: 3/515.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتَّنوير: 1/499.
(3) محمّد الأمين الشِّنقيطيّ، العذب النَّمير: 1/82.
(4) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 1/261، القِنَّوجيّ، فتح البيان: 1/170.
(5) ابن عثيمين، تفسير الفاتحة والبقرة: 1/189.
(6) محمد علي جميل، صفوة التَّفاسير: 1/50.
(7) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/504.

نُكْتَةُ تَكْرَارِ اسْمِ اللهِ البَارِئِ:

كُرِّر اسم الله تعالى (البارئ) في قوله سبحانه: ﴿فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمۡ فَٱقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ عِندَ بَارِئِكُمۡ﴾؛ لثلاث نِكاتٍ[1]:

الأُولى: أنَّ تكرارَهُ أَوْكَدُ وأعلَقُ بالذِّهن، وذلك مدعاةٌ لاستحضارِ لوازمِ معناهُ.

الثَّانية: أنَّ قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ عِندَ بَارِئِكُمۡ﴾ جملة مستأنَفَةٌ، فكان الأنسبُ فيها الإظهارَ.

وُجُوبُ التَّسْلِيمِ للهِ تعالَى فِي جَمِيعِ أحكامِه

الثَّالثة: التَّنبيه على أنَّ الأمر بالتَّوبة بطريق القتلِ ناشئٌ عَن حِكمة بالغةٍ؛ إذ إنَّ البارئَ الذي قضى بإنشائكم، وكان في ذلك غايةُ الحكمةِ؛ هو الذي قضى بإعدامكم بهذا الوجهِ، وفي ذلك غاية الحكمة كذلك، فواجبٌ عليكم أن تُسلِّموا له في جميع أحكامه.

جُمْلَةُ ﴿ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ عِندَ بَارِئِكُمۡ﴾ بَيْنَ الإِطْنَابِ بِالاعْتِرَاضِ والاستئنافِ البَيَانِيِّ:

الجملة في قولِ الله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ عِندَ بَارِئِكُمۡ﴾ تحتَمِلُ وجهين[2]:

الحَثُّ على التَّوبَةِ ولزومِها

أحدهما: أنَّها مِن باب الإطنابِ بالاعْتِرَاض، وفائدةُ الاعتراض ههنا: التَّحريضُ على التَّوبةِ والحثُّ على لزومِهَا.

الآخَرُ: أن تكون استئنافًا بيانيًّا؛ إذ لمَّا قال الله سبحانه: ﴿فَٱقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ﴾؛ أورَثَ ذلك سؤالًا في نفوس المخاطبِينَ: وما الحكمةُ في ذلك؟ فجاء الجواب: ﴿ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ عِندَ بَارِئِكُمۡ﴾، فكانتِ الجملةُ تعليلًا لما قبلَهَا.

(1) أبو حيَّان، البحر المحيط: 1/338، الآلوسي، روح المعاني: 1/261، الهرريّ، حدائق الرَّوح والرّيحان: 1/411.
(2) الآلوسّي، روح المعاني: 1/261.

بَلَاغَةُ الِالتِفَاتِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾:

مِنْ صفات البَارِئِ قَبُولُ تَوْبَةِ التَّائِبِين

في قول الله تعالى: ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ حذفٌ، وفي تقديرِه مسلَكَان اثنان:

أحدهما: أنَّ تقديره: (فَعلتم ما أُمِرْتُم به، فَتَابَ عَلَيْكُم)، فيكون قوله سبحانه: ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ معطوفًا على محذوفٍ باعتبارِ أنَّه خطابٌ من الله تعالى على طريقة الالتفاتِ؛ إذ مقتضى كونه خطابًا مِنَ الله سبحانه أن يُقال: (فتُبْنَا عليكم)، كما يدلُّ عليه سباقُ الآية ولحاقُها، كقوله تعالى: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم﴾، وقوله: ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَٰكُمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ﴾، وقوله: ﴿وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ﴾، وقوله: ﴿ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم﴾، وقوله: ﴿وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾، وقوله: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم﴾، وقوله: ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ﴾، فالعدول في قوله: ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ مِنَ التَّكلُّم إلى الغَيْبَةِ؛ وذلك "ليكون ذريعة إلى إسناد الفعلِ إلى ضمير (بارئِكم) المُسْتَتْبِعِ لِلْإيذان بعلِّيَّةِ عنوانِ البارئيَّة والخلق والإحياءِ لقبول التَّوبة؛ التي هي عبارةٌ عَنِ العفو عَنِ القتل"[1].

الآخَرُ: أنَّ تقديره: (إن فعلتُم ما أُمرتُم به مِن قتل أنفسكم؛ فقد تاب عَلَيْكُم)، فيكون مِن كلام موسى عليه السلام، وأومأ أبو السُّعود إلى وهن هذا الوجهِ[2].

نُكْتَةُ التَّعْبِيرِ بِضَمِيرِ الخِطَابِ دُونَ ضَمِيرِ الغَيْبَةِ:

مِن أعظمِ النِّعمِ سُرعةُ القبولِ

في التَّعبير بضمير الخطاب في قول الله تعالى: ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ دُون الغَيبة؛ إذ لم يَرِدْ: (فتابَ عليهم) باعتبار أَنَّ الضَّمير راجعٌ إلى القومِ؛ لأنَّ المرادَ تذكيرُ المخاطَبين بهذه النِّعمة العُظمى[3].

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السَّليم: 1/102.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السَّليم: 1/102.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السَّليم: 1/102.

سِرُّ فَصْلِ جُمْلَةِ ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ عَمَّا قَبْلَهَا:

فُصِلَ قولُ اللّه تعالى: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ عمَّا قبلُ؛ لكونِهِ استئنافًا بيانيًّا، فقد سيقَتِ الجملةُ مساقَ التَّعليلِ لِلْجُملةِ قبلهَا، وهي قوله ﷻ: ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾[1].

عُـمُـومُ تَـوْبَـةِ اللّه تعالى عَلَى التَّائِبِين

ويحتَمِلُ أن تكون الجملةُ تأكيدًا لما قبلَهَا، فيكون فصلُهَا مِن باب كمالِ الاتِّصالِ بين الجملتينِ، والجملةُ تذييلٌ غيرُ جارٍ مجرَى المثلِ، والقصدُ منه: تأكيدُ توبةِ اللّه تعالى على عبادِهِ، وَشمولُ ذلك لمن تاب من عُبَّادِ العجلِ وغيرِهِمْ.

نُكْتَةُ تَأْكِيدِ الجُمْلَةِ بِأَنْوَاعٍ مِنَ المُؤَكِّدَاتِ:

أُكِّدَ قول اللّه تعالى: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ بمؤكِّداتٍ أربَعَةٍ:

أوَّلها: (إِنَّ) في قوله: ﴿إِنَّهُۥ﴾؛ فإنَّها من جملة مؤكِّدَاتِ الجمَلِ الاسميَّةِ.

ثانيها: القَصر، وذلك بتعريف جُزأي الجملةِ.

ثالثها: ضَمير الفصل ﴿هُوَ﴾، فإنَّه مُفيدٌ القصرَ؛ إن انفردَ طريقًا لهُ، ويُؤكِّدُهُ -كما ههنا- إنْ وُجِدَ طريقٌ غيرُهُ للقصرِ.

رابعُها: اسميَّة الجملة، فإنَّ التَّعبيرَ بها آكدُ مِنَ التَّعبير بالجملةِ الفعليَّةِ؛ لِمَا تُفيده مِنَ دلالة الثَّباتِ والدَّوَامِ.

تحريضُ العِبَادِ عَلَى التَّوبَةِ

وتأكيدُ الجملةِ بهذه المؤكِّدَات الأربعَةِ: تحريضُ العبادِ علَى التَّوبَةِ مِنَ الذُّنُوبِ؛ إذْ إنَّ توبةَ اللّه تعالى ورحمتَهُ ليست خاصَّةً بِمَنْ تابَ مِن عُبَّادِ العِجْلِ، بل هي عامَّةٌ لجميعِ من تَابَ إليهِ سبحانَهُ.

(1) الهرريّ، حدائق الرَّوح والرَّيحان: 1/435.

الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

البَارِئُ وَالخَالِقُ:

البارئ والخالق في ظاهر كلام بعض أهل العلم مترادِفَانِ[1]، ولعلَّهم أرادُوا تقريبَ المعنَى بجعل أحدِهما تفسيرًا للآخَرِ.

والتَّحقيقُ أنَّ بينهمَا فرقًا: فإنَّ اللّه تعالى جمع بينَهما في قوله: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الحشر: 24]، فدلَّ ذلك على المغايَرَةِ بينَهُما.

والفرق بينَهما العموم والخصوصُ: فالبارئُ أخصُّ من الخالق مُطْلقًا، وذلكَ أنَّ البارئَ هو الخَالِقُ الخلقَ على تنَاسُبٍ وتعديلٍ؛ ولِذَلكَ وقعَ اسمُ اللّهِ (البارئُ) تابعًا لاسمه (الخالق) في قوله ﷻ: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ﴾ [الحشر: 24]؛ جريًا على الأصل في تقديم الأعمِّ من الأوصاف على الأخصِّ[2].

(1) الزَّجّاج، معاني القرآن وإعرابُه: 5/152، الأنباريّ، الزَّاهر: 1/87، بطَّال الرَّكْبِيّ، النَّظم المُستعذَب: 2/196.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/504.

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ۝٥٥ ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝٥٦﴾ [البقرة: 55-56]

مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِمَا قَبْلَهَما:

لـمَّا استُتِيبَ بنُو إسرائيل مِنْ عبادة العجل التي تقيَّدوا فيها بالمحسوسِ الذي هو مثَلٌ في الغباءِ وانطماس البصيرة؛ طَلَبوا رؤية ربِّهم تعالى في الدُّنيا عِيانًا، ناسِينَ جميعَ ما أنعم اللّه تعالى به عليهم، مُسرعين في الكفر الدّالِّ على استيلاءِ الحَيرة عليهم، مع أنَّ الفرقانَ -الهادِمَ كُلَّ شُبهةٍ، الماحيَ كُلَّ حيرةٍ- قائمٌ بين أَيْديهم؛ وذلك لفسادِ بواطِنِهم، حيثُ جَمُدوا على الوهم والحسِّ، فذكَّرهم اللّه تعالى بذلك مُسلِّيًا نبيَّهُ محمَّدًا ﷺ في إبائهمُ الإيمانَ به بما فعلوهُ مع نبيِّهم موسى عليه السلام، فقال سبحانه: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾، وبيَّن عقابَهُ إيَّاهم على عظيم جُرأَتِهم في الباطِلِ، فقال: ﴿فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾، ثمَّ أعقبَهُ ببيان عظيمِ مِنَّتِهِ عليهم بإحيائِهم بعد موتِهم، فقال تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ﴾[1].

شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

1) ﴿جَهْرَةً﴾: الجيم والهاء والرَّاء تدلُّ اشتقاقاتُهَا على إعلان الشَّيءِ وكشفِهِ وعُلُوِّهِ[2]، يقال: جهرَ الكلامَ وجهرَ به، فيكون لازمًا ومتعدّيًا، بمعنى: أعلَنَه، وأعلنَ به[3]، ورجلٌ جَهِيرُ الصّوتِ، أَي: عالِيه، والجهرُ: العلانيَةُ[4].

ويُطلقُ الجَهْرُ مرادًا به: ظهورُ الشَّيْءِ بإفراط حاسَّةِ البصَرِ أو السَّمْعِ[5].

و﴿جَهْرَةً﴾ في قول اللّه تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾، أي: علانيةً أو عيانًا[6].

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 1/377.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (جهر).
(3) الزَّبيديّ، تاج العروس: (جهر).
(4) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة: (جهر).
(5) الرّاغب، المفردات: (جهر).
(6) ابن جرير، جامع البيان: 2/80-81، الواحديّ، التَّفسير البسيط: 2/538.

2) ﴿ٱلصَّٰعِقَةُ﴾: الصَّاد والعين والقاف تدور تصاريفُها على الصَّوْتِ الشَّديد[1]، ومِنْهُ: الصَّاعقة والصَّعْقة، وهي: الصَّيحَةُ يُغْشَى مِنْهَا على مَن يَسْمعُها، أَو يَمُوتُ[2]، وأصلُ الصَّاعقة: "كُلُّ أمر هائل رآه الإنسانُ أو عاينَه أو أصابَه حتَّى يصير مِن هَوْلِه وعظيمِ شأنِه إلى هلاكٍ وعطَب، وإلى ذهاب عقل وغُمُور فَهْم، أو فَقْد بعض آلاتِ الجسم، صوتًا كان ذلك أو نارًا أو زَلْزَلة أو رَجْفًا"[3].

وتُسْتَعْمَلُ في خُصُوص: صَوتِ الرَّعدِ الشَّديدِ الذي يُغشى على الإنْسَانِ مِنْهُ[4]، وتُطلق على قِطْعَةِ النَّار النَّازلة مِنَ السَّماءِ[5]، ولا تُصِيبُ شَيْئًا إلَّا دكَّته وأَحْرَقَتْهُ[6].

والصَّاعقةُ في قول الله تعالى: ﴿فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ﴾، يحتَمِلُ أن تكون نارًا أو صوتًا عظِيمًا، وبكلا الاحتمالَيْنِ قالَ السَّلفُ[7].

3) ﴿بَعَثْنَٰكُم﴾: الباء والعين والثَّاءُ تدلُّ اشتقاقاتُها على إثَارَةِ الشَّيء وتوجيهه، ويختلِفُ البَعْثُ بِحَسَبِ اختلاف ما عُلِّق بِهِ، كإثارةِ الحيِّ مِن مكانٍ يَلْزَمُهُ بقُوَّةٍ، فَيَنْدَفِعُ ناهِضًا أو مُبْتَعِدًا، وكَبَعْثِ النَّائم والبَعِير[8].

يُقَالُ: انْبَعَثَ فُلانٌ لشَأْنِه؛ إذا ثارَ، ومَضَى ذاهِبًا لحاجَتِهِ[9]، ومنه قيل لنَشْرِ الميِّت وإحيائِه: بعثٌ؛ لأنَّ فيه إثارةً له عن مكانِهِ[10].

و﴿بَعَثْنَٰكُم﴾ في قول الله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ﴾، بمعنى: أثرناهم، وحرَّكناهم وأوجدنا فيهم الإحساسَ[11].

4) ﴿مَوْتِكُمْ﴾: الميم والواو والتَّاء تدلُّ تصريفَاتُهَا على ذَهاب القوَّة في الشَّيءِ، ومنه:

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (صعق).
(2) الأزهري، تهذيب اللُّغة: (صعق).
(3) ابن جرير، جامع البيان: 2/83.
(4) أبو عُبيد الهرويّ، الغريبين: (صعق).
(5) ابن جُزيّ، التَّسهيل: 1/73.
(6) الفيُّوميّ، المصباح المنير: (صعق).
(7) ابن جرير، جامع البيان: 83-2/82.
(8) الرّاغب، المفردات: (بعث)، جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصَّل: (بعث).
(9) الزَّبيديّ، تاج العروس: (بعث).
(10) الواحديّ، التَّفسير البسيط: 2/543.
(11) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 1/237.

الموتُ، وهو ضدُّ الحياةِ[1]، ومنه قيل لسُكون الرِّياحِ: مَوْتٌ[2]، وقيل: ماتتِ النَّارُ؛ إذا خَمَدَت[3].

وقال النَّبيّ ﷺ عنِ الثُّوم والبصل: «مَنْ أَكَلَهُمَا فَلَا يَقْرَبَنَّ مَسْجِدَنَا»، وَقَالَ: «إِنْ كُنْتُمْ لَا بُدَّ آكِلِيهِمَا؛ فَأَمِيتُوهُمَا طَبْخًا»[4]؛ إذ إنَّ حياة الشَّجرتين عبارةٌ عن قوَّة رائحتِهما عندَ طَرَاوَتِهما، بخلاف موتِهما، فإنَّهُ إزالةٌ لِتِلْكَ الرَّائحةِ بالطَّبْخِ[5].

والموتُ في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ﴾ هو موتٌ حقيقيٌّ، وليس غَشْيَةً أو نَوْمًا[6].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

واذكروا -يا بني إسْرَائيل- حين قال آباؤكم لموسى عليه السلام متجرِّئين على عظيم مقامِهِ: لن نُصَدِّقَ أنَّ الكلام الَّذي تُبلِّغُنَا إيَّاهُ هو كلامُ اللّه تعالى، حتَّى نرَى اللّه سبحانه عِيانًا بأبصارِنَا، فأصابتكم نارٌ، أو سمعتُمْ صوتًا شديدًا؛ فمِتُّمْ بسبب ذلك، وبعضُكم ينظُرُ إلى بعضٍ، ثُمَّ أحييناكم بعد موتِكم بسبب الصَّاعقةِ، مِن أجل أن تَشْكُرُوا نعمةَ اللّه تعالى عَلَيْكُم[7].

❁ الإِيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

دلالة نِدَاءِ بَنِي إِسْرَائِيلَ نَبِيَّهُمْ بِـ﴿يَٰمُوسَىٰ﴾:

الإشعارُ بجفَاءِ بني إسرائيلَ لمُخَالفَتِهم

نداءُ بني إسرائيلَ نبيَّهُم مُوسَى عليه السلام باسمِه المُجرَّد، كما يدعُو بعضُهم بعضًا، وتَكرار هذا مِنهم في مواضعَ أخرى، ولم يخصُّوه بما يدلُّ على تعظيمٍ، كندائِهِ بوصف النَّبيِّ أو الرَّسولِ؛ مُشْعِرٌ بجفائهم وغِلْظَتِهم[8].

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (موت).
(2) الصَّغانِّي، التَّكملة: (موت).
(3) الزَّمخشريّ، أساس البلاغة: (موت).
(4) رواه أحمد، حديث رقم: (16247)، وأبو داود، حديث رقم: (3827)، والنَّسائي في الكبرى، حديث رقم: (6647)، وصحَّحه الألبانيُّ في تخريج المشكاة، حديث رقم: (736).
(5) الطِّيبيّ، الكاشف عن حقائق السُّنن: 3/953.
(6) ابن عثيمين، تفسير الفاتحة والبقرة: 1/192.
(7) النَّسفيّ، مدارك التَّأويل: 1/90، ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/507، نخبة من العلماءِ، التَّفسير الميسّر، ص: 8.
(8) البقاعيّ، نظم الدّرر: 1/378، محمّد سيّد طنطاويّ، التَّفسير الوسيط: 1/137.

تَضْمِينُ فِعْلِ ﴿تُؤْمِنَ﴾ مَعْنَى الإِقْرَارِ أَوِ الإِذْعَانِ:

تَكْثِيرُ دِلَالاتِ الفِعْلِ الوَاحِدِ بالتَّضْمِينِ

اللَّامُ في ﴿لَكَ﴾ من قول الله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ﴾ مُفيدَةٌ تضمينَ الفعلِ ﴿نُّؤْمِنَ﴾ معنى الإقرار، والمعنى: لن نُقِرَّ لك، فالمُقَرُّ له: موسى عليه السلام، والمُقَرُّ به محذوفٌ، وهو أنَّ الله سبحانه أعطاه التَّوراةَ، أو أنَّه تعالى كلَّمَهُ بالأمر والنَّهْيِ، فالنَّفْيُ في ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ﴾: نفيٌ لأمر خاصٍّ، أو نفيٌ لكمال الإيمانِ؛ لأنَّ القائلين كانُوا مؤمنينَ، والقولُ بعدمِ إيمانِهم ليس مِن قول أئمة التَّفسير[1].

واستظهَرَ بعضُ أهل العلم تضمينَ ﴿نُّؤْمِنَ﴾: معنى الإذعانِ، والمعنى: لن نُذْعِنَ لك؛ لأنَّ المتعدِّيَ باللَّامِ هو الإذعانُ، أمَّا الإقرار؛ فيُعدَّى بالباءِ[2].

فَائِدَةُ تَقْيِيدِ الرُّؤْيَةِ بِـ﴿جَهْرَةً﴾:

الاحتراسُ من مزالقِ الأوهامِ للإشارةِ إلى فسادِ الأفهام

تقييد الرُّؤية في قوله تعالى حكايةً عنهم: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ﴾ بـ: ﴿جَهْرَةً﴾؛ دفعًا لاحتمالِ أنَّ مَطْلَبَهُم هو الرُّؤيَةُ المناميَّةُ أو الرُّؤيةُ العلميَّةُ القَلْبِيَّةُ؛ فالتَّقييد المذكور أَشْبَهُ بالاحتراسِ عنِ الوقوعِ في إحسانِ الظَّنِّ بهم وهمًا؛ بقصدِ الدِّفاعِ عنهم.

وفي ذلك القَيْدِ تنبيهٌ إلى غِلَظِ قلوبهم، وجفاءِ طباعِهم؛ حيث لا يعتقدُونَ إلَّا بالرُّؤيةِ الحِسِّيَّةِ[3]، وهو ما يدلُّ على فسادِ أفهامِهم.

بَلَاغَةُ الِاسْتِعَارَةِ فِي قَوْلِهِ: ﴿جَهْرَةً﴾:

تَعَنُّتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي مَطَالِبِهِمْ

الجَهْرُ: العلانيَةُ، وحقيقتُهُ -عندَ بعض أهل العلم- الجهرُ في الصَّوتِ، ثُمَّ استُعير للمعايَنَةِ على سبيل الاستعارة التَّصريحيَّةِ، والجامع بين المعنى الأصليِّ والمجازيِّ: الظُّهور التَّامُّ، ونكتَةُ ذلك:

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 1/340.
(2) محيي الدّين زاده، حاشية على البيضاوي: 2/51.
(3) محمّد سيّد طنطاوي، التَّفسير الوسيط: 1/137.

بيانُ أنَّ المطلوبَ كمالُ الرُّؤيةِ بحيث لا يُرتابُ في الإدراكِ بالعَيْنِ كما لا يُشَكُّ في جَهْرِ الصَّوْت المُدْرَكِ بالسَّمْعِ.

واستظهرَ كونَهُ مجازًا القُونَوِيُّ، وذكر أنَّ هذا المَسْلَكَ ينصرُهُ الاستعمالُ العُرْفيُّ والشَّرْعِيُّ[1].

دلالة الفَاءِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَأَخَذَتْكُمُ﴾:

سُرْعَةُ حُلُولِ عِقَابِ اللهِ تعَالَى بالظَّالِمِين

الفَاءُ في قوله ﷻ: ﴿فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ﴾ على الأصلِ في دِلالَتِهَا على التَّرتيبِ والتَّعقيبِ، وفي ذلك إيماءٌ إلى أنَّ تأديبَ اللّٰه تعالى لهم وعقابَه فاجأَهُم بعد وقت يسيرٍ من طَلَبِهِم المُتَعَنِّتِ[2].

بَلَاغَةُ الِاسْتِعَارَةِ فِي التَّعْبِيرِ بِالأَخْذِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ﴾:

شِدَّةُ بَأْسِ اللهِ تعَالَى بِالقَوْمِ المُجْرِمِينَ

أصل الأخذِ: القبضُ باليَدِ، فاستعمالُهُ في إصابة الصَّاعقةِ من قوله تعالى: ﴿فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ﴾ استعارةٌ تصريحيَّةٌ، ونكْتَةُ هذا التَّجَوُّزِ: بيانُ استيلاءِ الصَّاعقةِ عليهم وإحاطتِهَا بهم، بحيث لم يُفْلِتْ أحَدٌ من آثارِهَا[3].

دلالة اللَّامِ فِي ﴿ٱلصَّٰعِقَةُ﴾:

ثَرَاءُ المَعَانِي بِتَعَدُّدِ دِلَالَاتِ الحُرُوفِ

اللَّام في ﴿ٱلصَّٰعِقَةُ﴾ يحتمل أن تكون لِلْعَهْدِ العلميِّ، أي: أخَذَتْكُمُ الصَّاعقة التي عِلْمتُمُوهَا، وعاينتُم آثارَهَا.

ويَحتَمِلُ أن تكون لِلْكَمَالِ، والمعنى: فأخذتكم الصَّاعقةُ التِي بلغَت قُوَّتُهَا الغايةَ، وشدَّتُهَا النِّهايةَ.

والمعنيَانِ صحيحَانِ، وَلا تنافيَ بينهما، ولا ترجيحَ لأحدهما على الآخر، فيُحْمَلُ تعريفُ ﴿ٱلصَّٰعِقَةُ﴾ عليهِمَا معًا.

(1) القُونَوِيّ، حاشيةٌ على البيضاوِيّ: 3/306.
(2) طنطاوي، التَّفسير الوسيط: 1/137.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 1/342.

حَذْفُ مُتَعَلَّقِ النَّظَرِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾:

حُذِفَ مُتعلَّقُ النَّظر في قول الله سبحانه: ﴿وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾، والتَّقدير: وأنتُم تنظرون إلى ما حلَّ بكم مِنَ الصَّاعقة[1]، أو: وأنتم يَنْظُر بعضُكم إلى بعضٍ كَيْفَ يأخُذُهُ الموتُ، وكَيْفَ يَحْيَا[2].

ويجوز أن يكونَ كلُّ ذلك مرادًا؛ إذ لا تعارُضَ بين هذه المعاني، ويكون التَّقديرُ: وأنتم تنظُرون إلى ما حلَّ بكم، وينظرُ بعضُكم إلى بعضٍ كيف يموتُ، وتنظرون إلى الإحياءِ.

فَائِدَةُ مَجِيءِ الخَبَرِ جُمْلَةً فِعْلِيَّةً:

جاءَ خبرُ المبتدأ ﴿وَأَنتُمْ﴾ جملةً فعليَّةً، وهذا مفيدٌ تَكرارَ الإسنَادِ؛ إذْ أُسْنِدَ النَّظَرُ إلى ضَمِير الذين أصابتهُم الصَّاعقةُ (أنتُم) -وهُوَ مِن إسناد الخَبَرِ إِلَى المبتدأ- وأُسْنِدَ النَّظرُ أيضًا إلى وَاوِ الجَمَاعَةِ العائدَةِ إِلَيْهِمْ، وهذَا مِن إسنَاد الفِعْلِ إلى فاعِله.

عَظَمَةُ نِعْمَةِ اللهِ تَعالَى علَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِالإِحْيَاءِ

وفائِدَةُ تَكْرَارِ الإِسْنَادِ ههنَا: تَأْكِيدُ تحقُّقِ نَظَرِهِم؛ تمهيدًا لبيانِ عظمَةِ نعمةِ الله تعالى عليهم بالإحياءِ.

دلالة (ثُمَّ) مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكُم﴾:

(ثُمَّ) من قول الله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ﴾ على أصلها في إفادة التَّراخِي، وفي ذلك: إشارةٌ إلى بُعْدِ ما بينَ حالَيْهِم: حالِهم وهم موتَى بما أَخَذَهُم مِنَ الصَّاعقة، وحالِهم في بَعْثِهم وشعورِهم بالحياةِ والحركَةِ بعد فَقْدِهم ذلكَ بسبَبِ سُوءِ صنيعِهم وجرأتِهم على نبيِّهم[3] عليه السلام.

جَلِيلُ نِعْمَةِ اللهِ تعالَى بالحَيَاةِ والحَرَكَةِ بَعْدَ فَقْدِهِمَا

نُكْتَةُ تَقْيِيدِ البَعْثِ بِـ ﴿مِّنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ﴾:

قُيِّدَ البَعْثُ بكونِهِ من بعد المَوْتِ مع أنَّ ذِكْرَ البعثِ يُشْعِرُ بالموتِ؛

البَعْثُ يَكُونُ بَعْدَ مَوْتٍ أَوْ نَوْمٍ أَوْ إِغْمَاءٍ

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 1/342.
(2) القِنَّوجِيّ، فتح البيان: 1/172.
(3) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 1/237.

لبيانِ أنَّ البعثَ واقعٌ بعدَ موتٍ حقيقيٍّ، لا من نومٍ أو إغماءٍ، فكان أشبه بالاحتراس؛ إذِ البعثُ لا يلزمُ أن يكون بعدَ الموتِ، فقد يقع على إيقاظ النَّائم، كما في قول الله تعالى: ﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا﴾ [الكهف: 11-12]، ويقع على الإفاقة بعد الإغماء، ويُطْلَقُ بإزاءِ الإرسالِ، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾[1] [النحل: 36].

حَذْفُ مَعْمُولِ الشُّكْرِ فِي قَوْلِهِ سُبْحَانَهُ: ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾:

حَذْفُ المَعْمُولِ مُشْعِرٌ بِالعُمُومِ

حُذِفَ معمول الشُّكْرِ في قول الله سبحانه: ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾، والتَّقدير: لعلَّكم تشكرون نعمةَ البعثِ بعد الموتِ[2]؛ فإنَّ الإعادةَ بعد الموتِ مِنَّةٌ عظيمةٌ، وهي كالمُضطَرّة إلى عبادةِ الله تعالى[3].

ويحتَمِلُ أن يكون المعمولُ محذوفًا؛ لإفادة العموم، فإنَّ حذف المعمولِ مُؤْذِنٌ بهِ، ويكون المعنى: لعلَّكم تشكرونَ اللهَ تعالى على عموم نِعَمِهِ، ومنها: نعمة الإحياءِ، ومن شُكْرِ الله تعالى: العمَلُ بطاعتِهِ واجتنابُ معصيَتِهِ.

ويحتملُ أن يكون الفعلُ عوملَ معاملةَ اللَّازمِ، أي: لعلكم تقومون بالشُّكرِ.

نُكْتَةُ التَّعْبِيرِ بِالفِعْلِ المُضَارِعِ فِي قَوْلِهِ: ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾:

وُجُوبُ تَجْدِيدِ الشُّكْرِ عِنْدَ تجدُّدِ النِّعَمِ

في التَّعبير بالفعل المضارع ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ إيماءٌ إلى التَّجدُّدِ الاستمراريِّ، وذلك أنَّ الشُّكْرَ مُتعَلَّقُهُ النِّعْمَةُ، وهي متجدِّدَةٌ، فينبغي أن يُحْدِثوا شُكْرًا كُلَّما أحدثَ الله تعالى لهم نِعْمَةً.

(1) محيي الدّين زاده، حاشية على البيضاوي: 2/54.
(2) الزَّمخشريّ، الكشَّاف: 1/142.
(3) الطِّيبيّ، فتوح الغيب: 2/494.

الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الجَهْرُ وَالإِعْلَانُ:

بينَ الجَهْرِ والإعلان عمومٌ وخصوص وجهيٌّ، فيشتركان في وجهٍ، ويفترقُ كلٌّ واحدٍ منهما عن الآخر بوجهٍ؛ وذلك أنَّ الإعلانَ هو: ضدُّ الكِتْمَانِ، ومعناه: إظهارُ المعنَى للنَّفْسِ، من غير اقتضاءٍ لرفعِ الصَّوْتِ بهِ، وأمَّا الجهرُ؛ فيلزَمُ منه رفعُ الصَّوْتِ، ومنه قولهم: رجلٌ جهيرُ الصوتِ، أي: رفيعُهُ[1].

فإظهار المعنى للنَّفْس برفعِ صوتٍ يكون إعلانًا وجهرًا، وأمَّا إظهار المعنى للنَّفْسِ من غير رفعِ صوتٍ؛ فهو إعلانٌ، وليس جهرًا، وأمَّا الجَهْرُ؛ فينفرِدُ في رفعِ الصَّوْتِ مِنْ غَيْرِ بلوغِهِ مَنْ يسمَعُهُ.

(1) أبو هلال العسكريّ، الفروق اللُّغويّة، ص: 287.

﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [البقرة: 57]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

بينَ هذه الآيَةِ والتي قبلَها مناسبةٌ مِن وَجْهَيْن:

الأوّل: أنَّ اللّه تعالى لـمَّا ذكر ما دفَع عَنْ بني إسرائيلَ مِنَ النِّقم؛ شرع يُذَكِّرهم بِمَا أسبغ عَلَيهم مِنَ النِّعم[1]، وذكْرُ الجائزةِ عَقِبَ ذِكْرِ الوَحْشَةِ مِن شأنِ الرَّحيم في تربيتِهِ عبادَهُ[2].

الثاني: أنَّ اللّه سبحانه لَمّا ذكر إنعامَه على بني إسرائيل ببَعْثِهِمْ مِنْ بعد موتِهم؛ ذكر إنعامًا آخرَ عليهم، وقَرَنَهُ بسابِقِهِ لاشتراكهما في التَّعَلُّق بمُطْلَقِ البَعْث، فبيَّن هَهُنا حالًا تُشبه أحوالَ أهل الجنَّة التي ينالُونَهَا بعد البعثِ، وذلك أنَّ ظِلَّ الغمام والأرزاقَ الحاصلةَ بغير كُلْفةٍ مِن جملة ما يكونُ بعدَ البعث، فقال سبحانه: ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ﴾[3].

شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

1) (ظَلَّلْنَا): الظَّاء واللَّامان تدلُّ اشتقاقاتها على سَتْرِ شيءٍ لشيءٍ[4]، ومِنْهُ الظُّلَّةُ: وهي ما سترَ من فوق، وتقول العربُ: أَظَلَّنا يومُنَا؛ إذا كان يومًا ذَا سحابٍ؛ لأنَّ السَّحاب يستُرُ الشَّمْسَ[5].

ويُطْلَقُ الظِّلُّ كِنايَةً عَنِ العِزَّة والمنَعَةِ، وعَنِ الرَّفاهَةِ[6].

ومعنى ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ﴾: جعلنا الغمامَ يُظِلُّكم[7]، أي: يستُرُكم من حرِّ الشَّمْسِ في التِّيه.

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 1/266.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/509.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 1/385.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ظل).
(5) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (ظل)، الواحديّ، التَّفسير البسيط: 2/545.
(6) الرّاغب، المفردات: (ظلل).
(7) النَّسفيّ، مدارك التَّنزيل: 1/91.

2) ﴿ٱلْغَمَامَ﴾: الغَيْنُ والـميمان تدُور تصاريفُها على تغطيةٍ[1]، ومنه: الغَمَامَةُ؛ لكونها تغطِّي السَّماءَ أو ضوءَ الشَّمْسِ[2]، يُقال: غَمَّ الشيءَ؛ إذا غطاه[3]، ومنه قولُ النَّبِيِّ ﷺ عَنِ الهِلال: «فَإِنْ غُمَّ عَلَيْكُمْ»[4]، أَيْ: غُطِّيَ، فلم يُرَ[5].

والغَمام في قوله تعالى: ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ﴾: ضربٌ مِن السَّحَابِ أبيضُ رقيقٌ[6].

3) ﴿ٱلْمَنَّ﴾: الميم والنُّونان تدلُّ اشتقاقاتها على معنيين، أحدهما: القطعُ والانْقِطَاع، والآخر: اصطناعُ الخير[7].

ومِن الثَّاني: الـمَنُّ، وهو عند العرب: ما منَّ اللهُ ﷻ به على خلقه، من غير تكلُّفٍ لزرْعِهِ وسَقْيِه[8].

وقد اختُلِفَ في معنَى المنِّ الواردِ في قول الله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ﴾ على أقوالٍ[9]، قال ابنُ كَثِيرٍ -بعد أن حكَاها-: "والغَرَضُ أنَّ عبارات الـمُفسِّرين متقاربةٌ في شرح الـمَنِّ، فمنهُم مَن فسَّره بالطَّعام، ومنهم مَن فسَّره بالشَّراب، والظَّاهر -والله أعلَمُ- أنَّه كلُّ ما امتنَّ الله به عَلَيْهِم مِن طعامٍ وشراب وغيرِ ذلك، مِمَّا ليسَ لهُم فيه عمَلٌ ولا كَدٌّ، فالـمَنُّ المشهُور: إن أُكِل وحدَه ؛ كانَ طعامًا وحلاوةً، وإن مُزِج مع الماءِ؛ صار شرابًا طيِّبًا"[10].

4) ﴿وَٱلسَّلْوَىٰ﴾: السّين واللَّام والحرف المعتلُّ تدلُّ على طِيبِ عَيْشٍ[11]، يُقال: هو في سَلْوَةٍ مِنَ العيشِ، أيْ: في رغدٍ مِنْهُ[12].

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (غم).
(2) ابن دُريد، جمهرة اللّغة: (غمم)، والرّاغب، المفردات: (غم).
(3) نشوان الحِميريّ، شمس العلوم: (غم).
(4) رواه البخاريّ، حديث رقم: (1900)، ومسلمٌ، حديث رقم: (1080).
(5) الزَّبيديّ، تاج العروس: (غمم).
(6) ابن سِيده، المحكم: (ظلّ)، محمّد الأمين الشِّنقيطيّ، العذب النَّمير: 1/107.
(7) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (منّ).
(8) الأنباريّ، الزَّاهر: 2/45.
(9) ابن الجوزيّ، زاد المسير: 1/67.
(10) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 1/268.
(11) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سلوى).
(12) الجوهريّ، الصّحاح: (سلا).

وذكر جماعة أنَّ السَّلْوَى في لغة العربِ: إنَّما هو العَسَلُ[1].

السَّلْوَى المذكورُ في القرآن عند جمهور أهل التَّفسير أو عامَّتِهم: طائرُ السُّمَانَى أو طائرٌ شبيهٌ بهِ[2].

5) ﴿طَيِّبَٰتِ﴾: الطَّاء والياءُ والباءُ تدور تصاريفُهَا على لُطْفِ وَقْعِ الشَّيء على الحِسّ وصُلوحه في باب ما يُراد مِنْهُ[3].

ومِنْهُ: الطِّيبُ، وهو الأَفْضَلُ مِن كُلِّ شَيْءٍ[4]، والطَّيِّبُ مِن الكلام: أَفْضَلُهُ[5]؛ وذلكَ لحُسْنِ وقْعِهِ وعاقبَتِهِ.

وطَيِّبَاتُ الرِّزْقِ في قول الله تعالى: ﴿كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْۚ﴾ هِيَ المُسْتَلَذَّاتُ والمُشْتَهَيَاتُ مِنَ المَآكِلِ وَالمَشَارِبِ[6].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

ومِن نِعَمِنَا عليكُم -يا بني إسرائيل- إظلالُكُم بالغمام يقيكم حرَّ الشَّمسِ، وإنزالُنَا عليكم المَنَّ -وهو مادَّة حلوة لَزِجَة كالعسَلِ تسقط على الشَّجر تنشأ مِن طُلُوع الشَّمس، أو هو كلُّ ما امتنَّ الله تعالى به عليهم مِن طعَامٍ أو شَرابٍ- وإنْزالُنا عليكمُ السَّلْوَى -وهو طائرٌ لذيذ اللَّحْم هو السُّمَانَى أو شَبِيهُهُ- وقلنا لكم: كُلُوا مِن طيِّبات ما رزقناكم، فكفرتُم بالنِّعْمَةِ، ولم يَضُرَّنا كفرُكُم بها، وإنَّما ظلمتُمْ أنفسَكُمْ؛ لأنَّ ضررَ كُفْرِكُمْ راجعٌ عَلَيْكُمْ[7].

❁ الإِيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

نُكْتَةُ عَطْفِ جُمْلَةِ ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ﴾:

عُطِفَ قوله تعالى: ﴿وَظَلَّلْنَا﴾ على ﴿بَعَثْنَٰكُم﴾ لا على ﴿قُلْتُمْ﴾؛ لكون الأوَّل أقربَ، وله

(1) القاسم بن سلاَّم، الغريب المصنّف: 2/465، والأنباريّ، الزّاهر: 2/45.
(2) الخطَّابي، غريب الحديث: 3/236، ومحمّد الأمين الشِّنقيطي، العذب النَّمير: 1/108.
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (طيب).
(4) الزَّبيدي، تاج العروس: (طيب).
(5) الخليل، العين: (طيب).
(6) ابن جرير، جامع البيان: 2/101، والمُطَرِّزِيّ، المغرب في ترتيب المعرب: (طيب).
(7) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 1/266-273، والبيضاويّ، أنوار التَّنزيل: 1/82، ومحمّد سيّد طنطاوي، التَّفسير الوسيط: 1/135، ومحمّد الأمين الشِّنقيطي، العذب النَّمير: 1/108، ونخبة من العلماءِ، التّفسير الميسّر، ص: 8.

معه اشتراكٌ في المسنَد إليه، وهو (نَا) في كلٍّ منهما، مع تناسُبٍ في المُسنَدَيْن؛ إذْ كلٌّ منهما نِعْمَةٌ، وهما: تظليلُ الغمام والبعثُ بعد الموتِ.

ولم تُذكَرْ (إذْ) ههنا اكتفاءً بالدّلالة العقليَّة على كون كلٍّ مِنْهُمَا نعمةً مستقِلَّةً[1].

سِرُّ مَجِيءِ المُسْنَدِ إِلَيْهِ ضَمِيرَ المُعَظِّمِ نَفْسَهُ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَظَلَّلْنَا﴾:

يَعْظُمُ قَدْرُ النِّعْمَةِ بِحَسَبِ المُنْعِمِ بِهَا

مجيء المسند إليه ضميرَ جَمْعٍ دَالٍّ على الواحدِ المُعَظِّم نفسَه مِن قول الله سبحانه: ﴿وَظَلَّلْنَا﴾ وقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا﴾، يُرادُ به الإيماءُ إلى عَظَمَةِ هاتَيْنِ المِنَّتَيْن؛ إذِ المُنْعِمُ بِهِمَا هو العظيمُ المعَظِّمُ نفسَهُ، والنِّعْمَةُ تَعْظُمُ بحسب المُنْعِم بها.

طَيُّ فِعْلِ القَوْلِ فِي الكَلَامِ:

جَرَيَانُ التَّعْبِيرِ القُرْآنِيِّ عَلَى طَرِيقَةِ العَرَبِ فِي الإِضْمَارِ

طُوِيَ فعلُ القولِ في قول الله تعالى: ﴿كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾ من باب الإيجاز بالحذف، وإنَّما استُغْنِيَ عنه لظهورِ المعنَى مع حذفِهِ، والتَّقدير: وقيل: لهم كُلُوا من طيِّبات ما رزقناكُمْ، ونظيرُ هذا الحذفِ حذفُهُ من قول الله ﷻ: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ [آل عمران: 106]، أي: يُقال لهم: أكفرتُمْ[2].

دلالة الأَمْرِ فِي قَوْلِ اللهِ ﷻ: ﴿كُلُواْ﴾:

عِصْيَانُ المُحْسِنِ المُكْرِمِ أَعْظَمُ خَطَرًا وَجُرْمًا مِن عِصْيَانِ غَيْرِهِ

الأمرُ في قول الله تعالى: ﴿كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾ يُرادُ به الإذنُ والإباحَةُ[3]، أو الاستدامَةُ على الإباحَةِ[4]؛ إذِ الأكل من الطَّيِّباتِ كان مباحًا في الأصل.

ويَحْتَمِلُ أن يكون الأمرُ دالّاً على الإكرامِ؛ لكونِهَ واردًا بعد ذكر

(1) الآلوسي، روح المعاني: 1/264.
(2) السَّمرقنديّ، بحر العلوم: 1/54.
(3) الآلوسّي، روح المعاني: 1/265.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 1/347.

الامتنانِ عليهم بنِعَم خاصَّةٍ عظيمةٍ، ويكون هذا أبلغَ في ذمِّهِمْ بعدَ ذِكرِ ظُلْمِهِمْ؛ إذْ لم يَجْرُوا في معاملةِ المُكْرِمِ بما ينبغِي أن يكونوا عليهِ من المبالغَةِ في الشُّكْرِ.

نُكْتَةُ إِيثَارِ جَمْعِ ﴿طَيِّبَٰتِ﴾ عَلَى إِفْرَادِهَا:

كَثْرَةُ الطَّيِّبات التي مَنَّ الله تعالى بِهَا على عِبَادِهِ

وقع التَّعبير عَنِ الطَّيِّب بالجمع، فقال سبحانه: ﴿كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾ دون (كُلُوا من طَيِّب ما رزقناكم)؛ للإشارة إلى كَثْرَةِ الطَّيِّبات.

ويُؤَيِّدُ هذه الدّلالة تقديمُ حرفِ الجرِّ (مِنْ) الدَّالّ على التَّبعيض[1]؛ لإفادَةِ تعذُّرِ استيعابِ الطَّيِّباتِ بالإفْنَاءِ بالأكلِ؛ لكثرَتِهَا كثرةً تتعذَّر عَنِ الإفْنَاءِ بهِ.

تَوْجِيهُ المُتَشَابِهِ اللَّفْظِيِّ:

دِقَّةُ اخْتِيَارِ الضَّمَائِرِ بِمَا يَتَنَاسَبُ مَعَ السِّيَاقِ

جاء التَّعبيرُ بتظليل الغمام وإنزال المنِّ والسَّلْوَى ههنا بأسلوب الخطاب، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ﴾، وجاء ذلك في سورة الأعراف بأسلوب الغَيْبَةِ، فقال سبحانه: ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ﴾ [الأعراف: 160]؛ لأنَّ آية البقرة في سياقٍ قائم على خطاب بني إسرائيل، فكان الأنسبُ استمرارَ الخطاب، بخلاف آية الأعراف فإنَّ صدرَها قولُ الله تعالى: ﴿وَقَطَّعْنَٰهُمُ ٱثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا﴾، فكان السِّياقُ سياقَ غَيْبَةٍ، وكان الأنسَبُ الحديثَ عنهم بأسلوب الغائب، إلَّا أنَّه التُفِتَ في الأعراف إلى الخطاب عند قوله سبحانه: ﴿كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾؛ لأنَّه لمَّا كان الإنعامُ على الآباءِ إنعامًا على الأبناءِ، وكان أمرُ الحاضرِ آكدَ في الحجَّةِ والإبلاغِ؛ ناسبَ ذلك العدولَ من الغيبةِ إلى الخطاب، فقال تعالى: ﴿كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾[2].

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 1/347.

(2) سعد عبد العظيم، استدراك ما فات من بلاغة الآيات المتشابهات، ص: 106.

نُكْتَةُ الإيجَازِ بِالحَذْفِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا﴾:

بُلُوغُ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي جَحْدِ النِّعْمَةِ مَبْلَغًا عَظِيمًا

قول الله سبحانه: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا﴾ معطوفٌ على محذوفٍ، والتَّقدير: فَعَصَوْا، ولم يقابلوا إنعامَنَا عليهم بالشُّكْرِ، أو فظلَمُوا بكفرانِ النِّعَمِ التي أنعمْنَا عَلَيْهِم بها، ونُكْتَةُ الحذفِ ههنا: الإيجازُ والاِخْتِصَارُ، والإيذانُ بأنَّهُ بلغَ في تحقُّقِ صدورِهِ مِنْهُم مبلَغًا ظاهرًا أغنَى عَنِ التَّصريح بِهِ[1].

سِرُّ الِالتِفَاتِ مِنَ الخِطَابِ إِلَى الغَيْبَةِ:

مقابلةُ فَظَائِعِ بَنِي إِسْرَائِيلَ بالإِعْرَاضِ

جاء التَّعبير في أوَّلِ الآيةِ بأسلوبِ الخطاب الموجَّهِ لبَنِي إسرائيلَ؛ وذلك في قوله: ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ﴾، ﴿وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ﴾، ﴿كُلُواْ﴾، ﴿رَزَقْنَٰكُمْۚ﴾، ثُمَّ عُدِلَ عنه إلى الغَيْبَةِ في قوله: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾، وكان مقتضى الظاهر: (وما ظَلَمْتُمُونا، ولكن كنتُم أنفسكُم تظلمونَ)، وهذا العدولُ واقعٌ على وجهِ الالتفاتِ، ونُكْتَتُهُ: الإشعار بأنَّ فَظَائِعَهم وكُفْرَانَهم موجِبٌ لِلْإِعْرَاضِ عنهم، فلم يستحقُّوا الإكرامَ بتوجيه الخطابِ لهم[2].

نُكْتَةُ التَّعْبِيرِ بِالفِعْلِ المُضَارِعِ ﴿يَظْلِمُونَ﴾ وَذكرِ ﴿كَانُوٓاْ﴾:

انْطِبَاعُ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِطَابِعِ الظُّلْمِ وَاسْتِمْرَارُهُمْ عَلَيْهِ.

﴿كَانُوٓاْ﴾ من قول الله تعالى: ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ مفيدَةٌ استمرارَهم على ظُلْمِهم وَدوامَهم عليه، ويُؤَيِّدُهُ: الإتيان بالفعل ﴿يَظْلِمُونَ﴾ فعلًا مضارعًا، وهو دالٌّ على التَّجدُّدِ الاستمراريِّ بقرينَةِ الذَّمِّ الواقع عليهم، فأفاد مجموعُ الأمرين: أنَّهم مستمرُّون على ظلمهم، مداوِمُونَ عليه، متجدِّدٌ فيهم، حتَّى صارَ الظُّلْمُ طَبْعًا لهم[3].

---

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السَّليم: 1/104، الآلوسّي، روح المعاني: 1/265.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقلِ السَّليم: 1/104.

(3) محمّد سيّد طنطاوي، التَّفسير الوسيط: 1/139.

سِرُّ جَمْعِ النَّفْسِ جَمْعَ قِلَّةٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿أَنفُسَهُمْ﴾:

حَقَارَةُ النَّفْسِ المُتَوَغِّلَةِ فِي العِصْيَانِ

جُمِعَتِ النَّفْسُ جَمْعَ قِلَّةٍ -(أَنْفُس) على زِنَةِ (أفعُل)- في قول اللّه تعالى: ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾؛ تحقيرًا لهم وتقليلًا من شأنِهم؛ إذ ارتكبوا القبائح والجرائمَ، والنَّفْسُ إذا توَغَّلَتْ في العصيانِ كانَتْ أقلَّ مِنْ كُلِّ قليلٍ[1].

دلالة تَقْدِيمِ المَعْمُولِ عَلَى عَامِلِهِ:

وَبَالُ ظُلْمِ الظَّالِمِ رَاجِعٌ عَلَيْهِ

قُدِّمَ المفعولُ ﴿أَنفُسَهُمْ﴾ على عاملهِ ﴿يَظْلِمُونَ﴾ في قول اللّه تعالى: ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾؛ لِنكاتٍ ثلاثٍ[2]:

إحداها: إفادَةُ القصرِ الذي أفادَهُ الجمع بين النَّفي والإثباتِ قبلُ، فالقصرُ في الآيَةِ مُؤكَّدٌ، والقصدُ من ذلك: بيانُ أنَّ ضررَ ظُلْمِهم لا يتخطَّاهُمْ، بل هو راجعٌ إليهِمْ.

ثانيها: الدّلالة على الاعتناء بالإخبار عمَّنْ حَلَّ به الفعلُ.

ثالثها: حُسنُ الفواصلِ؛ إذْ لو لم يُقدَّمْ؛ لفاتَ التَّناسُبُ اللَّفظيُّ بين الآيِ.

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الغَمَامُ وَالسَّحَابُ:

الغمام: هو سحابٌ أبيضُ رقيقٌ، والغالب استعمالُهُ فيما لا ماءَ فِيهِ[3]؛ وإنَّما المقصودُ الأعظَمُ مِنْهُ هو السَّتْرُ، كما تدلُّ عليه مادةُ الغين والـمِيمَيْن؛ وهو التَّغطية[4].

وأمَّا السَّحابُ: فالغالبُ استعمالُهُ فيما فيه ماءٌ؛ وذلك أنَّ مادَّتَهُ

(1) الآلوسّي، روح المعاني: 1/265.

(2) البيضاويّ، أنوار التَّنزيل: 1/82، أبو حيَّان، البحر المحيط: 1/349، السَّمين، الدُّرُّ المصون: 3/361، أبو السّعود، إرشاد العقل السَّليم: 1/104.

(3) محمّد ياس خضر الدّوري، دقائق الفروق اللّغويّة في البيانِ القرآنِي، ص: 130.

(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (غم).

-وهي السِّين والحاء والباء- تدلُّ على الجرِّ[1]، والسَّحابُ سُمِّيَ سحابًا؛ إمَّا لجرِّ الرِّيح له أو لجرِّه الماءَ[2]، ولذا وردَ في القرآن الكريم موصوفًا بما يدلُّ على ما فِيه مِنَ الماء، كقول اللّه تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ﴾ [الرعد: 12].

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سحب).
(2) الرّاغب، المفردات: (سحب).

﴿ وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُواْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُواْ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُواْ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُواْ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ ۚ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾ [البقرة: 58-59]

❁ مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِمَا قَبْلَهَما:

لـمَّا ذكر اللّه تعالى في الآية السَّابقةِ تظليلَهم بالغمام، وإكرامهم بالـمَنِّ والسَّلوى، وهما مِنَ النِّعَمِ الدُّنيويَّةِ؛ أعقبَهُ بذكر مغفرة الذّنوب وزيادةِ أجر المحسنين، وهما مِنَ النِّعَمِ الدِّيْنِيَّة[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

1) ﴿ٱلْقَرْيَةَ﴾: القاف والرَّاء والياءُ، تدلُّ تصاريفُهَا على جمعٍ واجتماعٍ[2]، يقال: قرى الماءَ في الحوضِ، أي: جَمَعَهُ[3]، ويقال لِلْمدينةِ: قريةٌ؛ لاجتماع النَّاس فيها[4].

وللقرية إطلاقات ثلاثة[5]:

أوَّلها: على المكان الذي يجتمع فيه النّاسُ.

ثانيها: عَلَى النَّاسِ المجتمعين في مكان واحد.

ثالثها: على المكان الذي يجتمع فيه النَّاسُ وعلى النَّاسِ معًا.

فدلالة الثَّالث مُركَّبَةٌ مِنَ الأَوَّل والثَّاني.

وتُطْلَقُ القَرْيةُ عَلى البَلْدَةِ الصَّغيرَةِ، وعَلى المَدينَةِ الكَبيرَةِ ذاتِ الأسْوارِ والأبْوابِ كَما أُرِيدَ بِها هُنا بِدَليلِ قَوْلِهِ تعالى: ﴿وَٱدْخُلُواْ ٱلْبَابَ سُجَّدًا﴾.

(1) البقاعِيّ، نظم الدّرر: 1/390-401.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (قري).
(3) القاضي عِياض، مشارق الأنوار: (قرى).
(4) النّحّاس، معاني القرآن: 3/57.
(5) الرّاغب، المفردات: (قرى).

والمرادُ بالقرية في الآية: (بيتُ المَقْدس).

2) ﴿سُجَّدًا﴾: السِّينُ والجِيمُ والدَّالُ تدُور تصاريفُهَا عَلى الذُّلِّ والتّطامُنِ، أي: الانْخِفَاضِ[1]، يُقال: سَجدتِ الدَّابَّةُ؛ إذا خَفَضَت رأسَها؛ لتُرْكَبَ[2]، ونَخْلَةٌ ساجدةٌ؛ إذا أَمالَها حِمْلُها[3].

والسُّجُودُ يُطْلَقُ بمعنى وضْعِ الجَبْهةِ على الأرضِ[4]، وبمعنى: الانحنَاءِ[5]، ومِنَ الانحناءِ تسميةُ الرُّكوعِ: سُجودًا[6]، وذلك لاشتراكهما في أصل الانحناء، وإن كان السَّاجدُ أشدَّ انحناءً من الرَّاكِعِ[7].

والسُّجَّدُ: جمعُ ساجِدٍ، كالرُّكَّع: جمع راكعٍ، والمرادُ بالسُّجود في قول الله تعالى: ﴿وَٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ سُجَّدٗا﴾ الخضوعُ، والمعنى: ادخلوا مُنْحَنِينَ خَاضِعِينَ[8].

3) ﴿حِطَّةٞ﴾: الحاءُ والطَّاءان تدور تصاريفُها على إِنْزَالِ شيءٍ مِن عُلُوٍّ[9]، ومِنْهُ حطُّ الأحمالِ عنِ الدَّوابِّ[10]؛ أي: وَضْعُهَا عن ظهورِهَا إلى الأرضِ، ومِنْهُ: حَطُّ الأوزَارِ[11]؛ بمعنَى: مغفرتِهَا؛ لأنَّ الوِزْرَ يُثْقِلُ العبدَ، فإذا غفرَ الله تعالى للعبدِ ذَنْبَهُ؛ فقد خَفَّفَ عَنْهُ ما كان يجدُهُ ثقيلًا، كالدَّوابِّ التي تُحَطُّ عَنْ ظهورِهَا الأحمالُ.

والحِطَّةُ في قول الله تعالى: ﴿وَقُولُواْ حِطَّةٞ نَّغۡفِرۡ لَكُمۡ خَطَٰيَٰكُمۡۚ﴾ أَيْ: قُولُوا: حُطَّ عَنَّا ذُنوبَنا؛ أي: اغفرها[12].

4) ﴿نَّغۡفِرۡ﴾: الغين والفاء والرَّاء تدورُ أكثرُ اشتقاقاتِهَا على معنى: السَّتْرِ، ومنه:

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سجد).
(2) الأنباريّ، الزَّاهر: 1/47.
(3) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة: (سجد).
(4) ابن سِيده، المخصَّص: 4/57.
(5) ابن القطَّاع، كتاب الأفعال: 2/125.
(6) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة: (سجد).
(7) ابن جرير، جامع البيان: 2/105.
(8) السُّيوطي والمحليّ، تفسير الجلالين، ص: 13، والسّعدي، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 53.
(9) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حط)، والرّاغب، المفردات: (حط).
(10) الخليل، العين: (حط).
(11) الزَّمخشريّ، أساس البلاغة: (حطط).
(12) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 50، وابن الأثير، النِّهاية: (حطط).

الغَفْرُ؛ وهو السَّتْر[1]، وقال الرَّاغب: "الغَفْرُ: إِلْبَاسُ ما يَصُونُه عَنِ الدَّنسِ"[2]، وهو راجعٌ إلى معنى السَّتْرِ.

وَالمغفرةُ شرعًا: سَتْرُ الذَّنب والتَّجاوزُ عَنْهُ[3].

5) ﴿خَطَٰيَٰكُمۡ﴾: الخاء والطَّاءُ والهمزةُ تدلُّ اشتقاقاتُها على تخطِّي مَوقعِ الشَّيء أو تجاوزِه باندفاعٍ[4]، ومِنْهُ: الخَطَأُ، وهو العدولُ عَنِ الجهة، وهو ثلاثةُ أضربٍ[5]:

الأوَّل: أن يُريدَ أحدٌ غيرَ ما تَحْسُنُ إرَادُتُه، فَيَفْعَلَه، وهذا يُؤاخَذُ به الإِنْسَانُ، وَيُقَالُ فيه: خَطِئَ يَخْطَأُ، كما قال الله تعالى: ﴿وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنۡ غِسۡلِينٖ ٣٦ لَّا يَأۡكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلۡخَٰطِـُٔونَ﴾ [الحاقة: 36-37].

الثَّاني: أن يُريدَ ما يَحْسُنُ فِعْلُهُ، ولكنْ يقَعُ منهُ خلافَ ما يُرِيدُ، فيقال: أَخْطَأَ يُخْطِئُ، وهذا رُفِعَت المؤاخذةُ به عن أمَّةِ الإسلام، كما قال الله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذۡنَآ إِن نَّسِينَآ أَوۡ أَخۡطَأۡنَا﴾ [البقرة: 286]، وقد جاء في صحيح مُسْلم أنَّ الله تعالى قال: «قَدۡ فَعَلۡتُ»[6].

الثَّالث: أن يُريدَ ما لا يَحْسُنُ فِعْلُه، ولكنْ يقعُ مِنْهُ خِلَافُهُ على وجهٍ صوابٍ، فهذا مُخْطِئٌ في إرادته، فيؤاخذُ بِقَصْدِهِ، ولا يثاب على فعله.

والخطايا جمع خطيئة، والمراد بها في قول الله تعالى: ﴿نَّغۡفِرۡ لَكُمۡ خَطَٰيَٰكُمۡ﴾: الذّنوب العظيمةُ التي يستحقُّ صاحبُها التَّنكيلَ[7].

6) ﴿ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾: مادَّةُ الحاءِ والسِّين والنّون تدلُّ على ضدِّ القُبْحِ[8]، والمحاسنُ مِنَ الأعمال: ضدُّ المساوئ، ومِنْهُ سُمِّيت الجنَّةُ: الحُسْنَى؛ ضدُّ السُّوأَى وهي النَّارُ[9].

والحَسَنُ: كُلُّ مُبْهِجٍ مرغُوبٍ فيه، وَالْحَسَنَةُ يُعَبَّر بهَا عَن كُلّ ما يَسُرُّ مِن نعمةٍ تَنالُ العبدَ في نفسِه أَو بدنِه ونحو ذلكَ- والسَّيِّئَةُ ضدُّهَا[10].

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (غفر).
(2) الرّاغب، المفردات: (غفر).
(3) ابن عثيمين، القول المفيد: 1/85.
(4) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (خطأ).
(5) الرّاغب، المفردات: (خطأ).
(6) رواه مسلم، حديث رقم: (126).
(7) محمّد الأمين الشِّنقيطيّ، العذب النَّمير: 1/114.
(8) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حسن).
(9) الخليل، العين: (حسن).
(10) الرّاغب، المفردات: (حسن).

والإِحْسَانُ: ضدُّ الإِسَاءَةِ[1]، وحدُّ الإحسانِ شرعًا ، كما قال النَّبيُّ ﷺ: «أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ؛ فَإِنَّهُ يَرَاكَ»[2].

وفي معنى (المحسنِين) المذكورين في قول الله تعالى: ﴿وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ أقوالٌ، أصحُّها: أنَّ (المحسنينَ): هُمُ الذين يعبدُونَ اللهَ تعالى كأنَّهم يَرَوْنَهُ، فهمُ أشدُّ الناسِ مراقبةً للهِ تعالى في أعمالهم[3].

7) ﴿رِجْزًا﴾: الرَّاء والجيمُ والزَّايُ تدور تصاريفُها على ارتعادٍ عندَ النُّهوض أو الحَمْلِ؛ بسببِ الثِّقل العظيم، ومِنْهُ: الرِّجْزُ؛ وهو العذاب المُثْقِلُ المعجِزُ[4]، يقال: ناقةٌ رَجْزَاءُ؛ وهي التِي يرعُدُ فخذُها أو عَجُزُها حين تقوم[5]، أو هي: التي تَقَارَب خَطْوُها واضطرَب؛ لضعفٍ فِيها[6].

والرِّجز في قول الله تعالى: ﴿رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾: العذابُ[7].

8) ﴿يَفْسُقُونَ﴾: الفَاءُ والسِّينُ والقَافُ تدورُ تصاريفُها على خُروجٍ عَن مُحِيطٍ، كالْكِمَامِ لِلثَّمَرَةِ، والجُحْرِ لِلْفَأْرَةِ[8]، يُقال: فَسَقَت الرُّطَبَةُ؛ إذا خرجت مِنْ قِشْرِها[9].

ويُطلَقُ الفِسْقُ في الشَّرعِ: على الخُرُوجِ عَنِ الطَّاعة[10]؛ فِعْلًا للمنهيِّ عنه أو تَرْكًا للمأمور به، وهو المراد في قوله سبحانه: ﴿بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ﴾.

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

واذكروا - يابني إسرائيلَ - من نِعَمِنا عليكم حين قلنا لَكُم: ادخلوا بيتَ المَقْدِس، فكلوا ممَّا فيه أكلًا هنيئًا واسعًا غير مضَيَّقٍ عليكم فِيهِ، وكونوا في دخولِكُم له خاضعينَ للهِ تعالى، واسألوا الله قائلين: ربَّنا حُطَّ عنَّا ذنوبنا، نستَجِبْ لكُم، فنتجاوزُ عنكم، ونسترُ

(1) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة: (حسن).
(2) رواه البخاري، حديث رقم: (50)، ومسلم، حديث رقم: (9).
(3) ابن تيميَّة، الإيمان، ص: 281، ومحمّد الأمين الشِّنقيطيّ، العذب النَّمير: 1/114-115.
(4) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (رجز).
(5) أبو هلال العسكريّ، التَّلخيص في معرفة أسماء الأشياء، ص: 359.
(6) الرّاغب، المفردات: (رجز).
(7) ابن قُتيبة، غريب القرآن، ص: 50.
(8) المُناويّ، التَّوقيف على مهمّات التَّعاريف، ص: 260.
(9) الأنباريّ، الزَّاهر: 1/120.
(10) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (فسق).

ذنوبَكُم، وسنزيدُ الذين أحسنوا في أعمالهم خيرًا وثوابًا عاجِلَيْنِ وآجِلَيْنِ جزاءً على إحسانهم.

فبدَّلَ أهلُ الظُّلْمِ مِنْهُم ما أُمروا به مِنَ القول والعمَل؛ فقالوا: (حِنْطَة) بدلًا من (حِطّة)، ودخلوا زاحفين على استاهِهِمْ، فعاقبهم اللّه تعالى بأن أنزل عَلَيهِم مِنَ السّماءِ عذابًا شديدًا؛ بسبب خُرُوجِهم عن طاعة اللّه تعالى واستهزائهم بأمرِهِ سُبحانه[1].

الإيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

نُكْتَةُ التَّعْبِيرِ بِضَمِيرِ الجَمْعِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْنَا﴾:

أَوَامِرُ الله تعالى جليلةُ القَدْرِ، جديرَةٌ بالاعتناء

التَّعبيرُ بـ (نَا) الدَّالّةِ على العَظَمةِ في قوله سبحانه: ﴿وَإِذْ قُلْنَا﴾ إشعارٌ بتعظيمِ القول وتشريفِهِ والاهتِمَام به، وفي هذا إيماءٌ إلى أهميَّة الأمر المذكورِ بعدُ، وأنَّه جديرٌ بتوجُّهِ العنايَةِ إليْهِ.

دلالة اسْمِ الإِشَارَةِ ﴿هَٰذِهِ﴾:

الأَمْرُ بدُخُول القَرْيَة كان عندَ مُقَارَبَتِهم لَها

اسمُ الإشارةِ ﴿هَٰذِهِ﴾ دالٌّ على القريب الحاضِرِ، وفيه إشارةٌ إلى أنَّهم أُمروا بدخولِهَا عند مقاربَتِهم لها ومعاينتِهم إيَّاهَا[2]؛ ففيه تصويرٌ لحالِ بني إسرَائيل عندَ تلقِّي الخطابِ.

دلالة الْأَمْرِ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَكُلُواْ﴾:

الأمر في قولِ اللّه تعالى: ﴿فَكُلُواْ مِنْهَا﴾ يُراد به الإباحَةُ والامْتِنَانُ، ويقوِّيه وجهان:

عِظَمُ مِنّة الله تعالى على بَنِي إِسْرَائيلَ

الأوَّل: قوله تعالى: ﴿حَيْثُ شِئْتُمْ﴾، ففيهِ عُمومُ الإباحةِ والإذنِ؛ إذْ إنَّ مشيئَتَهُم غيرُ مُنْحَصِرَةٍ.

والآخَر: قوله تعالى: ﴿رَغَدًا﴾، ففيه الامتنانُ؛ إذ جَعَلَ أَكْلَهُم هنيئًا واسعًا غيرَ مُضَيَّقٍ عليهم فيهِ.

(1) أبو المظفَّر السَّمعانيّ، تفسير القرآن: 1/83-84، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 1/273-279، والسّعدي، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 53، ونخبة من العلماء، التّفسير الميسّر، ص: 9.

(2) أبو حيَّان، البحر المحيط: 1/357.

تَوْجِيهُ المُتَشَابِهِ اللَّفْظِيِّ:

دِقَّةُ التَّعبيرِ القرآنيِّ في تقديمِ اللَّفظِ الأنسَبِ لِسِيَاقِه

قُدِّمَ الظَّرْفُ ﴿حَيْثُ﴾ - ههنا - على الرَّغَدِ، فقال تعالى: ﴿فَكُلُواْ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا﴾، وفي قصَّةِ آدمَ عليه السلام المتقدِّمَة قُدِّمَ الرَّغَدُ على الظَّرْفِ، فقال سبحانه: ﴿وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا﴾ [البقرة: 35]، وذلك أنَّ الرَّغدَ من صفاتِ الأكل أو الآكلِ، فتقديمُهُ في قصَّة آدمَ عليه السلام ظاهرةٌ؛ لأجل أن يكون قريبًا من عاملِهِ من غير فاصلٍ بينَهما، وأمَّا تأخيره ههنا؛ فلأجل التَّناسُبِ الصوتيِّ بين نِهَايَتَي الجُمْلَتَيْنِ؛ وهما: ﴿فَكُلُواْ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا﴾ و﴿وَٱدْخُلُواْ ٱلْبَابَ سُجَّدًا﴾[1].

دلالة اللَّامِ في ﴿ٱلْبَابَ﴾:

اللَّامُ في ﴿ٱلْبَابَ﴾ من قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُواْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُواْ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُواْ ٱلْبَابَ سُجَّدًا﴾؛ لِلْعَهْدِ، أي: باب القريةِ التي أُمروا بدخولها؛ وهي بيتُ المقدسِ[2].

ويحتَمِلُ أن تكون اللَّامُ عِوضًا عن مضافٍ إليه، والتَّقدير: وادخلوا بابَهَا، أي: بابَ القريةِ.

دلالة تَنْكِيرِ ﴿حِطَّةٌ﴾:

اسْتِشْعَارِ عِظَمِ الكَرَمِ الإلهيّ

تَنْكِيرُ ﴿حِطَّةٌ﴾ من قول الله تعالى: ﴿وَقُولُواْ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ﴾ يُرادُ به التَّعظيمُ[3]، أي: احطُطْ عنَّا خطايانَا حطًّا عظيمًا، وفي دلالة ذلك على التَّعظيم: إيماءٌ إلى عِظَمِ مغفرة الله لذنوب عباده، وبيانٌ لجزيلِ الكرم الإلهيّ في التجاوز عن خطاياهم.

سِرُّ التَّعْبِيرِ بِـ(نَا) الدَّالَّةِ عَلَى العَظَمَةِ فِي قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿نَّغْفِرْ لَكُمْ﴾:

اللهُ عز وجل لَا يَتَعاظَمُهُ ذَنْبٌ أَنْ يَغْفِرَهُ

جاء التَّعبيرُ بـ (نَا) المفيدةِ العظمَةَ في قول الله تعالى: ﴿نَّغْفِرْ لَكُمْ﴾؛ لِلْإيماء إلَى أنَّه سُبحانَهُ لا يتعاظمُه ذنبٌ أن يغفرَهُ، ولو كان

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 1/357-358.
(2) ابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 2/132.
(3) البِقاعيّ، نظم الدّرر: 1/394.

شِرْكًا كاتِّخاذ العجلِ إلهًا؛ إذا تابَ صاحبُهُ من ذلك[1]، وفيه إلماحٌ إلى تكرار العفو منه سبحانه، وأنه لا يمل من مغفرة ذنوب عباده مع كثرتها.

التَّكَامُلُ الدّلَالِيُّ بَيْنَ القِرَاءَاتِ القُرْآنِيَّةِ

تَوْجِيهُ القِرَاءَاتِ: ﴿نَّغْفِرْ لَكُمْ﴾، ﴿يُغْفَرْ لَكُمْ﴾، ﴿تُغْفَرْ لَكُمْ﴾:

قُرِئَ هذا الموضعُ من سورة البقرة ﴿نَّغْفِرْ لَكُمْ﴾ بالبناءِ للمفعولِ على خلافٍ في كيفيَّة ذلك، فقرأ نافعٌ وأبو جعفر ﴿يُغْفَرْ لَكُمْ﴾، وقرأ ابن عامر بالتَّاءِ ﴿تُغْفَرْ لَكُمْ﴾، ونكتةُ بناءِ الفعل لِلْمَفعول على الوجهينِ المذكورين: أنَّه "إشارةٌ إلى تحقير الذّنوب إذا أرادَ غُفْرَانها، بحيث إنَّه بأدنى أمرٍ وأدقِّ إشارة يَمْحُوها، وهي أقلُّ من أن يُبَاشِرَها بنفسِه المُقَدَّسة، كلُّ ذلك استعطافٌ إلى التَّوبة"[2].

وهذان الوجهان - ﴿يُغْفَرْ لَكُمْ﴾ و﴿تُغْفَرْ لَكُمْ﴾ - مع وجهِ قراءة الفعل بالبناء لِلْفَاعل - ﴿نَّغْفِرْ لَكُمْ﴾[3]- متوافقانِ؛ فإنَّ الذَّنْبَ قد يُعَظِّمُهُ الشَّرْعُ، وَيَعْظُمُ عند مرتَكِبِهِ، ولكنَّ اللّه تعالى لا يَتَعَاظَمُهُ أن يغفرَ ذلك لمن تابَ إليهِ؛ فإنَّ سَتْرَها ومحوَهَا هيِّنٌ عليهِ سبحانَهُ.

نُكْتَةُ اخْتِيَارِ جَمْعِ الكَثْرَةِ ﴿خَطَٰيَٰكُمْ﴾:

عَظِيمُ إِحْسَانِ اللهِ تعالى بِغَفْرِ الذُّنُوبِ؛ وإِنْ كَثُرَت

جاء التَّعبيرُ بجمع الكثرة ﴿خَطَٰيَٰكُمْ﴾ من قول اللّه تعالى: ﴿وَقُولُواْ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ﴾؛ لأنَّ السّياقَ -هَهُنا- جاء لتَعداد النِّعَم؛ فحَسُنَتِ الإشارة إلى أنَّ الذُّنوبَ كثُرَ صدورُها مِنْهُم، حتَّى كأنَّهم جعلوا مقابلَ كلِّ نعمةٍ أنعم اللّه تعالى بها عليهم ذنبًا، وهذا إغراقٌ في العصيانِ، ومع هذا كُلِّهِ فإنَّ اللّه تعالى يغفرُهَا، وهو دالٌّ على عظيم إحسانِهِ سبحانَه عَلَيهِم[4].

(1) البِقاعيّ، نظم الدّرر: 1/395.
(2) البِقاعيّ، نظم الدّرر: 1/395.
(3) وهي قراءة جمهور القرَّاء، ينظر ابن الجزري، النشر: 2/215.
(4) البِقاعيّ، نظم الدّرر: 1/396-397.

حَذْفُ المَفْعُولِ الثَّانِي للفِعْلِ (نَزِيدُ):

حُسْنُ جَزَاءِ المُحْسِنِين في الدُّنيا والآخرة

حُذِفَ المفعولُ الثَّاني لِلْفِعْل (نَزِيدُ) من قول الله تعالى: ﴿وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾، للدّلالة على العموم؛ إذ إنَّ حذف المعمولِ مُؤْذِنٌ بهِ، والتَّقدير: وسنزيدُ المحسنين مِن خَيْرَيِ الدُّنيا والآخرةِ[1].

دلالة اللَّامِ فِي ﴿ٱلْمُحْسِنِينَ﴾:

مُجازاةُ المُحسنين جَزيلَ الثَّوابِ عَلَى يَسِيرِ العَمَلِ

اللَّام في ﴿ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ يحتَمِلُ أن تكونَ لِلْكَمَالِ، أي: هُمُ كَامِلُو الإحسانِ البالغُونَ فِيهِ غايتَهُ.

ويحتمِلُ أن تكونَ موصولَةً، أي: الذين أَحْسَنُوا، فيصدقُ علَى مَنِ اتَّصفَ بمطلقِ صفةِ الإحسانِ؛ ولو لَمْ يبلُغْ هذا الوصفُ عِنْدَهُ الكمالَ، وهذا أليقُ بمقام الامتنانِ وأنسبُ لجودِ الله تعالى وكرَمِهِ بعبادِهِ؛ حيث يُجازيهم على العمل اليسير الثَّوابَ الجزيلَ.

نُكْتَةُ التَّعْبِيرِ عَنِ المُخَالَفَةِ بِالتَّبْدِيلِ:

مُخَالَفَةُ المَأْمُورِ بِهِ مَعَ تَبْدِيلِهِ أَشْنَعُ مِنْ مُطْلَقِ المُخَالَفَةِ

سمَّى الله تعالى مخالفَةَ الظَّالمينَ الأمرَ: تبديلًا، في قوله سبحانه: ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ﴾؛ للإيماء إلى أنَّ المخالِفَ كأنَّهُ أنكرَ ما أُمِرَ به بالكُلِّيَّةِ، وتظاهَرَ ادِّعاءً أنَّه مأمورٌ بغَيْرِه[2].

سِرُّ التَّعْبِيرِ بِالاسمِ الموصولِ:

تَعْلِيقُ الذَّمِّ على الوصفِ الأعمِّ يستلزِمُ الذمَّ على الوصفِ الأخصِّ بطريقِ الأولَوِيَّةِ

جاء التَّعبير بالاسم الموصول مع صلتِهِ في قوله سبحانه: ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ دون (فبدَّل الظالمون)؛ لأنَّ تعليق الذَّمِّ على الوصف الأعمِّ يستلزِمُ الذمَّ على الوصف الأخصِّ بطريق الأولَوِيَّةِ والأَحْرَوِيَّةِ؛ وذلك أنَّ ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ يصدقُ بمطلق الظُّلْم، بخلاف (الظَّالمين)؛ فإنَّه دالٌّ على ثبوتِ وصفِ الظُّلْمِ لهم وكمالِهِ فيهم، فيكون تعليق الذمِّ على الاسم الموصولِ تعليقًا للذمِّ على الوصف الأعمِّ[3].

---

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتّنوير: 1/516.

(2) وهبة الزُّحيلِّي، التَّفسير المُنير: 1/168.

(3) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/117.

نُكْتَةُ التَّعْبِيرِ بِالفِعْلِ المَاضِي فِي الصِّلَةِ:

تَحَقُّق وصفِ الظُّلم في بني إسْرَائِيل

وقعت الصِّلَةُ فعلًا ماضيًا، فقال سبحانه: ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ دون الفعل المضارع (فبدَّلَ الذين يظلمون)؛ لأنَّ الفعل الماضي مُفِيدٌ تحقُّقَ وصفِ الظُّلْمِ فيهم.

دلالة تَنْكِيرِ ﴿قَوْلًا﴾:

تنكيرُ ﴿قَوْلًا﴾ من قول الله تعالى: ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ﴾؛ لإفادة التَّحقيرِ، فهو قولٌ مرذولٌ؛ لكونِه قولًا مخالِفًا لما أمرَهم اللّه تعالى أن يقولُوهُ.

نُكْتَةُ إِظْهَارِ القَوْلِ فِي قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿قَوْلًا﴾:

دَفْعُ تَوَهُّمِ اقْتِصَارِ التَّبْدِيْلِ عَلَى لَفْظِ (حِطَّة)

أُظْهِرَ القولُ في قوله سبحانه: ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوْلًا﴾، بدلًا من إضماره؛ بأن يَأْتِيَ النَّظْمُ: (فبدَّلوهُ)؛ لدفعِ توهُّم أنَّهم بدَّلوا لفظ (حِطَّة) خاصَّةً، وأنَّ ما عداه ممَّا قيلَ لهم قد امتَثَلُوهُ[1].

بَلَاغَةُ الِاكْتِفَاءِ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ﴾:

مَنْ يُخَالِفِ المَأْمُورَ بِهِ مِنَ القَوْلِ؛ فَهُوَ لِمُخَالَفَةِ الفِعْلِ أَحْرَى

في قول اللّه تعالى: ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ﴾ اكتفاءٌ بذِكْرِ تبديل القول عن تبديل الفعل، وإلَّا فإنَّهم بدَّلوا القول والفعل معًا، وتقديرهُ: فبدَّل الَّذين ظلموا قولًا غير الَّذي قيل لهم بقولٍ غيره، وبدَّلوا فعلًا غير الَّذي قيل لهم بفعلٍ غيرِه[2].

وفي هذا الاكتفاءِ نكتتانِ:

إحداهما: الإيماء إلى أنَّ تبديل القولِ وحدَهُ موجِبٌ لهذا العذابِ الشَّديد؛ فكيف الظنُّ بعذابِ مَن بدَّل الفعلَ، وهو أعظَمُ؟[3]

والأخرى: الدّلالة علَى أنَّهم إذا بدَّلوا القولَ، وهو أسهَلُ؛ لعدم المشقَّةِ في امتثالِه؛ فتبديلُهم الفعلَ من بابِ أَوْلَى، وفيه إشارةٌ إلى أنَّه لم يكن عِنْدَهُمْ قابليَّةٌ لِلامْتِثَالِ.

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/516.
(2) محمّد الأمين الشِّنقيطي، العَذب النَّمير: 1/115.
(3) القُشَيريّ، لطائف الإشارات: 1/580، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 1/415.

دلالة التَّعْبِيرِ بِإِنْزَالِ العَذَابِ:

الجَزَاءُ مِنْ جِنْسِ العَمَلِ

عُبِّر عن وقوع العذاب عليهم بإنزاله في قوله تعالى: ﴿فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ تعظيمًا لشأنِه، وأنَّه مما لا قِبَلَ لهم به، وللإشارة إلى أنَّ إيقاع العذاب عليهم ملائمٌ لجنس عصيانِهم؛ فإنَّهم أُمروا بشيئين: الدُّخولِ سُجَّدًا؛ أي: خاضعينَ، وسؤالِهم ربَّهم: حطَّ الخطايا عنهم، فعُوقبوا بإنزال العذابِ عليهم، وملاءمتُهُ لعصيانِهم من وجهين:

أوَّلهما: أنَّهم أُمروا بسؤالِ الله تعالى حطَّ الخطايا، وأصلُ الحطِّ: إنْزَالُ شيءٍ من عُلُوٍّ[1]، فلمَّا لم يمتثِلُوا ذلك؛ استحقُّوا أن يُنْزَلَ عليهم العذابُ إنزالًا، فكانت عقوبتُهُم من جنسِ عصيانِهم: إنزالٌ بإنزالٍ.

مِنْ أَنْوَاعِ العُقُوبَةِ المُعَامَلَةُ بِنَقِيضِ القَصْدِ

والآخر: أنَّهم أمروا بالدخول خاضعين؛ فترفَّعوا واسْتَعْلَوْا، فأنزلَ الله تعالى عليهم العذَابَ؛ عقابًا لهم بنقيضِ قصدِهم؛ فإنَّ العادةَ جاريَةٌ بأنَّ النَّازِلَ -إذا كان قويًّا شديدًا- على أحدٍ مَا، من فوقُ؛ دكَّهُ، فسوَّاهُ بالأرض ، أو أَدْغَمَهُ فيها.

وفيه أيضًا أنَّ الله تعالى أمرهم بالخضوع طوعًا، فلم يفعلوا، فَأَخْضَعَهُم اللهُ تعالى قهرًا.

ففي كلا الوجهين مناسَبَةٌ تخصُّهُ.

سِرُّ التَّعْبِيرِ بِضَمِيرِ الْجَمْعِ:

عَظَمَةُ العذَابِ الصَّادر مِنَ الله العظِيم

في إسناد فعل الإنزال إلى (نَا) المفيدَةِ العظمَةَ[2] في قول الله تعالى: ﴿فَأَنزَلْنَا﴾؛ إيماءٌ إلى عَظَمَةِ المُنْزِلِ؛ وهو الله ﷻ، وعَظَمَةِ المُنْزَلِ؛ وهو العذابُ.

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حط)، والرّاغب، المفردات: (حط).
(2) محمّد الأمين الشِّنقيطيّ، العذب النَّمير: 1/88.

ويُقوِّيه تنكيرُ كلمة ﴿رِجْزًا﴾ من قول الله سبحانه: ﴿فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾؛ فإنَّ تنكيرَهَا يُرادُ به التَّهويلُ والتَّفخيمُ[1].

سِرُّ الإِظْهَارِ فِي مَوْضِعِ الإِضْمَارِ:

الظُّلْمُ مِن مُوجِبَات حلُولِ العذَاب

في قول الله تعالى: ﴿فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ إظهارٌ في محلِّ الإضمار؛ إذْ مُقتضى الظَّاهر: (فأنزلنا عليهم رِجْزًا)؛ لتقدُّم ذكر ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ بالاسم الظَّاهر في صدر الآيةِ عندَ قول الله سبحانه: ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾، ولذلك ثلاثُ نِكَاتٍ[2]:

إحداهما: تسجيلُ موجِبِ العذابِ عليهم؛ فالرِّجْزُ المُنَزَّلُ عليهم إنَّما هو بسببِ الظُّلْم.

ثانيهما: المبالغةُ في تقبيحِ أمرهم وتعظِيمه.

ثالثها: لئلَّا يُتَوَهَّم أنَّ الرِّجْزَ عَمَّ جَمِيعَ بني إسرائيلَ.

فَائِدَةُ ذِكْرِ ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾:

عذَابُ اللهِ تعالى لَيْسَ لَهُ دافِعٌ

لـمَّا ذكر اللهُ تعالى الإنزالَ في قوله: ﴿فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾، وكان ذلك مُفْهِمًا جهةَ العُلُوِّ؛ حقَّقَهُ تعظيمًا وتفخيمًا[3]؛ فقال سبحانه: ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾.

وَلِأَنَّ العذابَ نَوْعَانِ:

أحدهما: ما يُمكِنُ دفعُهُ، أَوْ يُظَنُّ إمكانُ دفعه؛ كَالْعَذَابِ الوَاقع على يدِ آدميٍّ.

الآخَر: ما لا يُمْكِنُ دفعُهُ؛ كالصَّاعقة والمَوْتِ.

فذكر سبحانه أنَّ هذا العذابَ ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾؛ أي: أنَّهُ منَ الجِنْسِ الذِي لا يتأَتَّى دَفْعُهُ؛ تفخيمًا لشأنِهِ[4].

(1) محمد علي جميل، صفوة التَّفاسير: 1/53.

(2) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 3/525، وأبو حيّان، البحر المحيط: 1/363، والآلوسي، روح المعاني: 1/267، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/516، ومحمّد الأمين الشِّنقيطيّ، العذب النَّمير: 1/118.

(3) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 1/402.

(4) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 1/205.

نُكْتَةُ التَّعْبِيرِ بِالفِعْلِ المُضَارِعِ:

اعتيادُ الفِسْقِ حتَّى صارَ طَبْعًا

مجيءُ الفعل مضارعًا في فاصلةِ الآية ﴿يَفْسُقُونَ﴾ مفيدٌ الاستمرارَ التَّجدُّدِيَّ، ويقوِّيه: ﴿كَانُواْ﴾؛ الدالَّةُ على تحقُّقِهم بالفِعل وثبوتِه لهم واستمرارِهم عليه.

فدلَّ مجموعُ ذلك على استمرارهم في فِسقهم، ودوامهم عَلَيهِ، وتجدُّدِهِ فِيهِم، حتَّى صار الفسْقُ مِنْ جملةِ طبَاعِهِم.

تَوْجِيهُ المُتَشَابِهِ بَيْنَ أَلْفَاظِ هَذِهِ القِصَّةِ فِي سُورَتَيِ البَقَرَةِ وَالأَعْرَافِ:

دِقَّةُ اخْتِيَارِ المُفْرَدَاتِ واشْتِقَاقَاتِها بِما يُنَاسِبُ سِيَاقَها

وردت قصة أمر بني إسرائيل بدخول القرية في موضعين من سور القرآن الكريم بألفاظ متقاربة: أما الموضع الأول؛ فهو الذي بين أيدينا من سورة البقرة حيث قال الله ﷻ: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُواْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُواْ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُواْ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُواْ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْۚ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾﴾. وأما الموضع الثاني ففي سورة الأعراف حيث قال الله ﷻ: ﴿ وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ٱسْكُنُواْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ وَكُلُواْ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُواْ حِطَّةٌ وَٱدْخُلُواْ ٱلْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيٓـَٰٔتِكُمْۚ سَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٦١﴾ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٢﴾﴾ [الأعراف: 161-162].

وعند التدقيق يظهر اختلاف بين ألفاظ القصة في السورتين، وذلك من أحدَ عشرَ وجهًا؛ هي[1]:

أوَّلًا: في سورة البقرة: ﴿وَإِذْ قُلْنَا﴾، وفي سورة الأعراف: ﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ﴾؛ فصُرِّحَ في آية البقرة بالقائلِ، وهو الله تعالى؛ بإسنادِ القولِ إلى ضمير العظمَةِ الرَّاجِعِ إليه سُبحانه: ﴿وَإِذْ قُلْنَا﴾؛ إزالةً

(1) البرهان في توجيه متشابه القرآن، ص: 74-72، والرَّازي، مفاتيح الغيب: 3/526-527، وفاضل السَّامرَّائي، التَّعبير القرآنيّ، ص: 380-365، وسعد عبد العظيم، استدراك ما فات من بلاغة الآيات المتشابهات، ص: 108.

للإبهام، ولأنَّه أليقُ بسياقِ تَعداد النِّعَم؛ إذ آية البقرة جاءت في سياقِ آياتٍ، عَدَّدَ الله تعالى فيها نِعَمَهُ نعمةً نعمةً، وصدَّرها بقوله: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ﴾ [البقرة: 40]، إضافة إلى أن الآيات من أول السورة جاءت بالتصريح بالفاعل بضمير العظمة؛ نحو: ﴿وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ﴾ [البقرة: 34] و﴿وَقُلۡنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ﴾ [البقرة: 35] و﴿قُلۡنَا ٱهۡبِطُواْ مِنۡهَا جَمِيعٗاۖ﴾ [البقرة: 38].

أمَّا آية الأعراف؛ فجاءت في سياق تعداد قبائحهم؛ فكان ذلك سببًا للإعراضِ عَنْهُم، فناسبَهُ بناءُ الفعل للمفعولِ؛ لأنَّهم لا يستحقُّون التَّشريفَ، وأورَدَ ﴿لَهُمۡ﴾ فيها؛ نكايةً في تبكِيتِهم.

ثانيًا: في سورة البقرة: ﴿ٱدۡخُلُواْ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةَ﴾، وفي سورة الأعراف: ﴿ٱسۡكُنُواْ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةَ﴾؛ أما آية البقرة؛ فجاء فيها الأمر بالدّخول مقرونًا مع الأمر بالأكل والتطمين برغد العيش، والأكل ورغد العيش إيماءٌ إلى تحقُّق المقصود من السُّكنى بالاستقرار وراحة البال. وأمَّا آية الأعراف؛ فجاء فيها الأمر بالسُّكنى مع الأكل دون الإشارة إلى الرغد؛ لأنَّه متحقَّق من السُّكنى، إذ السُّكنى تعدل الدُّخول والرّغد، فالتّعبير في الآيتين متساوي الأطراف، وأُدمج في الأعراف الدخول والرغد، وعبِّر عنه بالسكنى.

ثالثًا: في سورة البقرة: ﴿فَكُلُواْ مِنۡهَا﴾، وفي سورة الأعراف: ﴿وَكُلُواْ مِنۡهَا﴾؛ لأنَّ الأوَّلَ وردَ عقِبَ الأمر بالدّخولِ؛ وهو سَريع الانْقِضَاء، فيَتْبَعه الأكلُ، بخلاف ما في الأعراف؛ فإنَّه واردٌ عقِبَ الأمر بالسُّكْنَى، وهي الإقامَةُ؛ وذلك مُمْتَدٌّ زَمَنُهُ.

والإتيانُ بالفاء الدَّالَّةِ على التَّعقيبِ في سورة البقرةِ أَدْخَلُ في الإكرام، وهو مناسِبٌ لسياقِ الآياتِ فيها؛ إذْ هي واردةٌ في تَعدادِ النِّعَم، بخلاف ما في الأعرافِ؛ فالآيات في تَعداد قبائحِهِمْ.

رابعًا: في سورة البقرة: ﴿فَكُلُواْ مِنۡهَا حَيۡثُ شِئۡتُمۡ رَغَدٗا﴾، وفي سورة الأعراف: ﴿وَكُلُواْ مِنۡهَا حَيۡثُ شِئۡتُمۡ﴾؛ فلم يُذكر فيها الرَّغَدُ؛ لأنَّ سياقَ سورةِ البقرة في تعدادِ النِّعَم، وذِكْرُ ﴿رَغَدٗا﴾ مناسبٌ له؛ لأنَّ كونَ الأكلِ واسعًا هنيئًا غيرَ مضيَّقٍ عليهم فيهِ مِن جملة المِنَن، بخلاف ما في الأعراف؛ فإنَّ المقام مقامُ تقريعٍ وتأنيبٍ، فلم يكن ذِكر الرَّغَدِ مناسبًا معه.

ولأنَّ آيةَ سورة البقرة مُصدَّرةٌ بقول الله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا﴾، بلفظ التَّعظيم، فناسَبَ ذلك ذِكْرَ الرَّغَدِ؛ لأنَّ عطاء العظيمِ عظيمٌ، بخلاف ما في الأعراف؛ فإنَّ الآية مصدَّرة بقوله: ﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ﴾.

خامسًا: في سورة البقرة: ﴿نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ﴾، وفي سورة الأعراف: ﴿نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيٓـَٰٔتِكُمْ﴾؛ فالأوَّلُ -وهو الخطايا- جمعُ كثرةٍ، والثَّاني -وهو الخطِيئَات- جمع قلَّةٍ، ووجه المغايرة بينهما: أنَّ الله تعالى لـمَّا أضاف القولَ إلى نفسِه العليَّةِ؛ فقال ﷻ: ﴿وَإِذْ قُلْنَا﴾؛ قرَنَهُ بما يدلُّ على جودِهِ وكرمِه، وهو مغفرة الذّنوب الكثيرةِ، بخلاف ما في الأعراف؛ فإنَّه لم يُضِفِ القولَ إلى نفسِه، وإنَّما قال: ﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ﴾، فلمَّا لم يُسمِّ الفاعِلَ؛ لم يَذْكُر اللَّفظَ الدّالَّ على الكثرةِ.

ولأنَّ سياق آيات البقرةِ في تَعداد النِّعَمِ، ولا جرَمَ أنَّ مغفرة الذّنوب الكثيرة أدخَلُ في بيان الإنعام والامتنان.

سادسًا: في سورة البقرة: ﴿وَٱدْخُلُواْ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُواْ حِطَّةٌ﴾، وفي سورة الأعراف: ﴿وَقُولُواْ حِطَّةٌ وَٱدْخُلُواْ ٱلْبَابَ سُجَّدًا﴾، فقُدِّمَ السّجود على القول في سورة البقرة؛ وذلك لثلاثة أوجهٍ:

أحدها: أنَّ السّجودَ أشرفُ من مطلَقِ القول؛ فكان تقديمُ الأشرفِ أنسبَ لمقام التَّكريمِ.

ثانيها: أنَّ تقديم السُّجودِ في البقرة أنسبُ لسياقِ آياتِهَا؛ لأنَّ القصَّةَ وردت بعدَ الأمر بإقامةِ الصَّلاة، كما قال الله تعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [البقرة: 43]، و﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾ [البقرة: 45].

ثالثها: أنَّ الواردَ في سورةِ البقرة الأمرُ بالدُّخولِ، فكان تقديم السُّجودِ أنسبَ؛ لكونِهِ مذكورًا لبيانِ كيفيّة الدّخولِ، بخلاف ما في الأعراف؛ فإنَّ المأمور به هو السُّكْنَى لا مجرَّد الدُّخول.

سابعًا: في سورة البقرة: ﴿وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾، وفي سورة الأعراف: ﴿سَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: 161]، وزيادةُ الواو في البقرة دالٌّ على الاهتمامِ والتَّنْويعِ، وهو مناسبٌ لسياقِ الامتنانِ، بعكسِ ما في الأعراف.

ثامنًا: في سورة البقرة: ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوۡلًا﴾، وفي سورة الأعراف: ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡ قَوۡلًا﴾ [الأعراف: 162] - بزيادة: ﴿مِّنۡهُمۡ﴾ - لأنَّ أوَّلَ قصَّةِ الأعراف مبنيَّةٌ على التَّخصيص بلفظ (مِنْ)، فإنَّ الله تعالى قال: ﴿وَمِن قَوۡمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٞ يَهۡدُونَ بِٱلۡحَقِّ وَبِهِۦ يَعۡدِلُونَ﴾ [الأعراف: 159]، فلمَّا انتهتِ القصَّةُ قال الله تعالى: ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡ قَوۡلًا﴾ [الأعراف: 162]، فذكر ﴿مِّنۡهُمۡ﴾ في آخر القصَّة كما ذكرها في أوَّلِهَا؛ ليكون مقطَعُ الكلام موافقًا لمطلَعِهِ، بخلاف ما في سورة البقرة؛ فإنَّه لم يُذكر في الآيات قبل قوله: ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ تخصيصٌ وتمييزٌ حتَّى يحسُنَ ذكره في آخر القصّة.

وثَمَّ وجهٌ آخرُ؛ وهو أنَّ ذِكْر ﴿مِّنۡهُمۡ﴾ في سورة الأعراف تصريحٌ بأنَّ الظَّالمين كانوا من بني إسرائيلَ، بخلاف سورة البقرةِ؛ فلم يُصرِّحْ بكونهِم مِنْهُم تكريمًا لَهُم؛ لأنَّ ذلك أنسبُ لسياقها.

تاسعًا: في سورة البقرة: ﴿فَأَنزَلۡنَا﴾، وفي سورة الأعراف: ﴿فَأَرۡسَلۡنَا﴾ [الأعراف: 162]، وفي ذلك نُكْتَتَانِ:

الأُولَى: أنَّ الإرسالَ أشدُّ في العقوبةِ مِنَ الإنزال، ولـمَّا كان سياقُ آية البقرةِ لتَعداد النِّعَم؛ ذُكرَتِ العقوبةُ الأخَفُّ، بخلاف سياق آية الأعراف؛ فهو لتَعداد قبائحهم، فكان الأنسبُ ذكرَ العقوبةِ الأشدِّ.

ولأنَّ مشتقَّاتِ الإرسالِ كَثُرَتْ في سورة الأعراف، فجاء ﴿فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِجۡزٗا﴾ [الأعراف: 162] موافقًا لما قبلَهُ، وليس الأمر كذلك في سورة البقرة.

عاشرًا: في سورة البقرة: ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾، وفي سورة الأعراف: ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾ [الأعراف: 162]؛ والثَّاني أَعَمُّ من الأولِ، وذلك يقتضِي أنَّ العقوبةَ أعمُّ وأشمَلُ من الأوَّلِ؛ وهو الأنسبُ لمقام التَّقريعِ.

حَادِيَ عَشَر: في سورة البقرة: ﴿بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ﴾، وفي سورة الأعراف: ﴿بِمَا كَانُواْ يَظۡلِمُونَ﴾ [الأعراف: 162]، وفي ذلك نُكْتَتَانِ:

الأولى: أنَّ الظُّلْمَ أشدُّ مِن الفسقِ، فكان أنسبَ لذكر إرسال العذاب ﴿فَأَرۡسَلۡنَا﴾.

الأخرى: أن آية البقرة ذكرت موجِبَ حلولِ العذاب من الظّلم: ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾،

وأكَّدته بالإظهار في مقام الإضمار: ﴿فَأَنزَلۡنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾، فكان الختم بالفسق من باب ذكرِ بداياتِ الظُّلم، فالفسقُ بريدُ الظُّلم، فنبَّه في كلِّ سورةٍ ما يلائمُها.

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

سُجَّدٌ وَسُجُودٌ[1]:

أنَّ جمعَ (ساجدٍ) على (سُجَّدٍ) مُشْعِرٌ بالحركةِ الظَّاهرةِ التي تُدركُها العينُ؛ لأنَّ هذا الجمع (فُعَّل) يدلُّ على الحركة الظَّاهرة، ويدلُّ أيضًا على تكثير القيام بالفعل، ودلالتُهُ على الحركة الظَّاهرةِ أبرزُ، بخلافِ (السُّجودِ)؛ فإنَّهُ يُطْلَقُ على المصدر، ويُطلق جمعًا لـ (ساجدٍ)، ويدلُّ هذا الجمعُ على السُّجود الظَّاهر والباطنِ، ولذا قال ابنُ القيِّم: "السُّجودُ في الأَصْلِ مصدرٌ، كالخشوع والخضوع، وهو يتناول السُّجود الظاهر والباطن و(السُّجَّد) في جمع (ساجد) لم يتناول إلَّا المعنى الظَّاهر، وكذلك الرُّكَّع، ألا تراه يقول: ﴿تَرَىٰهُمۡ رُكَّعٗا سُجَّدٗا﴾ [الفتح: 29]، وهذه رؤية العين، وهي لا تتعلَّق إلَّا بالظَّاهر"[2].

فالسُّجَّدُ دالٌّ على مجرَّد الحركةِ الظَّاهرةِ، وقد ورد لفظ (السُّجَّد) في القرآن الكريم في أحدَ عشرَ موضعًا، كلُّها تدلُّ على هذا المعنى، نحو قوله تعالى: ﴿إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُ ٱلرَّحۡمَٰنِ خَرُّواْ سُجَّدٗا وَبُكِيّٗا﴾ [مريم: 58].

أمَّا (السّجود)؛ فقد ورد في ستَّةِ مواضعَ، منها موضعان، يُرادُ بهما جمع (ساجدٍ)، وهما قول الله تعالى: ﴿أَن طَهِّرَا بَيۡتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلۡعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ [البقرة: 125]، وقوله سبحانه: ﴿وَطَهِّرۡ بَيۡتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلۡقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ [الحج: 26]، والمقصود: السُّجودُ الكاملُ الجامع بين الظَّاهر والباطنِ؛ لأنَّه هو المناسبُ لمعنَى التَّطهير.

(1) فاضل السَّامرائيّ، معاني الأبنية، ص: 135-133.
(2) ابن القيّم، بدائع الفوائد: 1/66.

﴿وَإِذِ ٱسۡتَسۡقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦ فَقُلۡنَا ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡحَجَرَۖ فَٱنفَجَرَتۡ مِنۡهُ ٱثۡنَتَا عَشۡرَةَ عَيۡنٗاۖ قَدۡ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٖ مَّشۡرَبَهُمۡۖ كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ مِن رِّزۡقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ٦٠﴾ [البقرة: 60]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا بيَّن الله تعالَى نِعْمَتَهُ عَلَى بني إسرائيل - بالإمكان مِنَ القَرْيَةِ بالنَّصر على أهلِها والتَّمَتُّعِ بمنَافِعِهَا، وما قابلُوا بهِ ذلكَ من الكُفْرِ ومخالفةِ الأَمْرِ، وخَتَمَ ذلكَ بذِكْرِ إنزال العذاب عليهم، وتبيَّن مِن ذلكَ كُلِّه أنَّ قلوبهم بلغَتْ في القَسْوَةِ مبلغًا عظيمًا، وأنَّهُ لا يُرْتَجَى فِيهَا نفعٌ- أَتْبَعَهُ التَّذْكِيرَ بنِعَمِهِ عليهم في البَرِيَّةِ؛ فذكَر انفجارَ الماءِ مِنَ الحَجَرِ عَلَى وجهٍ عمَّهُمْ نفعُهُ، ونجَّاهُم فِيهِ مِنَ المَوْتِ، فكان في ذلك دلالة لهم على قدرةِ الله سبحانَهُ بما يقُودُهُم للانقيادِ إليه وطاعتِهِ واتِّباعِهم رسولَهُ موسَى عليه السلام، فيكون بهذَا قد جمَعَ لهم بينَ النِّعمةِ الدِّينيَّة والنِّعمة الدُّنيويَّة[1].

شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

1) ﴿ٱسۡتَسۡقَىٰ﴾: السِّين والقاف والحرف المعتلُّ تَدُور اشتقاقاتُها على إشرابِ الماءَ وما أشبَهَهُ[2]، وَالسَّقْيُ والسُّقْيَا: إعطاء الشراب[3]، والاِسْتِقاءُ: الأخذُ مِنَ النَّهر والبئر[4].

والاِسْتِسْقَاء: طلبُ السُّقْيَا، فالسِّينُ والتَّاءُ للطَّلَبِ على ما هو الغالبُ فيها، وهو المرادُ في قول الله تعالى: ﴿وَإِذِ ٱسۡتَسۡقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦ﴾.

2) ﴿فَٱنفَجَرَتۡ﴾: الفاءُ والجيمُ والرَّاءُ تدلُّ تصاريفُهَا على التَّفتُّحِ[5]، ومنه سُمِّيَ الفجرُ بذلك؛ لأنَّه تفتُّحُ الظُّلْمَةِ عنِ الضِّياءِ[6]، ومنه سُمِّيَ الكرمُ والعطاءُ فَجْرًا؛

(1) البقاعِيّ، نظم الدّرر: 1/403.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (سقى).
(3) الرّاغب، المفردات: (سقى).
(4) الخليل، العين: (سقى).
(5) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (فجر).
(6) أبو عُبيد الهرويّ، الغريبين: (فجر).

لأنَّ المالَ في الأصلِ محبوسٌ في محلٍّ مُحْكَمٍ غَلْقُهُ، فإذا جَادَ صاحبُهُ به ؛ فَتَحَ المحلَّ؛ ليُخرِجَ مِنْهُ[1].

وانْفَجَرَ: مطاوعُ الفعلِ: فَجَرَ، يقال: فجَر اللّه تعالى العينَ، فانفجرَتْ[2].

والانفجار في قوله تعالى: ﴿فَٱنفَجَرَتۡ مِنۡهُ ٱثۡنَتَا عَشۡرَةَ عَيۡنٗاۖ﴾، يُرادُ به: التفتُّحُ والانشِقَاق[3].

3) ﴿عَيۡنٗاۖ﴾: العين والياءُ والنُّونُ تدلُّ اشتقاقاتُهَا على: دائرةٍ ينفُذُ منها لَطِيفٌ لامِعٌ دائمُ الجَرَيانِ عَن مُخْتَزَنٍ كثيرٍ، ومِنْهُ عينُ الماءِ، والعينُ الباصرَةُ؛ فإنَّها مستديرةٌ تمتدُّ مِنْهَا وإلَيْها أشعةُ قُوَّة الرُّؤية، ومِنهُ قولُهم للشَّمس: عينٌ؛ لأنَّ قُرصَها دائرةٌ لامعةٌ تصدرُ منها أشعةٌ لطيفةٌ دائمةٌ[4].

والعينُ لها معانٍ كثيرةٌ جدًّا، أوصلها بعضُ أهل العربيَّة إلى أكثر مِن مئة معنًى[5]، وقد أورد الفيروزابادي لها نيِّفًا وخمسين معنًى مرتَّبةً على حروف المعجم[6].

والعين في قول اللّه تعالى: ﴿ٱثۡنَتَا عَشۡرَةَ عَيۡنٗاۖ﴾ يُراد بها: منبع المَاء الجَارِي.

4) ﴿مَّشۡرَبَهُمۡۖ﴾: الشِّين والرَّاء والباءُ تدل تصريفَاتُهَا على سَحْبِ الماءِ ونحوِهِ من المائعِ إِلَى الجوفِ[7]، والشَّرابُ: اسمٌ لما يُشرَبُ، وكلُّ شيءٍ لا يُمضَغ؛ فإنه يُقال فيه: يُشْرَبُ[8].

والمشْرَبُ في قول اللّه تعالى: ﴿قَدۡ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٖ مَّشۡرَبَهُمۡۖ﴾ يحتمل وجهين[9]:

أحدهما: أن يكون مصدرًا، يُراد به اسمُ المفعول، أي: المشروب.

الآخر: أن يكون اسم مكانٍ، وهو أَظْهَرُ، وإن كان لا تعارُضَ بين هذين المَعْنَيَيْن.

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (فجر).
(2) أبو إبراهيم الفَارَابيّ، معجم ديوان العرب: 2/424.
(3) الواحديّ، التَّفسير البسيط: 2/567.
(4) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (عين).
(5) الزَّبيدي، تاج العروس: (عين).
(6) الفيروزابادي، بصائر ذوي التَّمييز: 4/4-5.
(7) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (شرب).
(8) الخليل، العين: (شرب).
(9) الواحديّ، التَّفسير البسيط: 2/577، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 1/421، وابن عادل، اللُّباب في علوم الكتاب: 2/109.

5) ﴿تَعۡثَوۡاْ﴾: العين والثَّاءُ والحرف المعتلُّ تدور اشتقاقاتُها على معنى الفسادِ[1]، يقال: عاثَ؛ إذا أَفْسَدَ[2].

والعِثيُّ والعَيْثُ متقاربَان، إلا أنَّ العِثيَّ -ومثله: العُتُوُّ[3]- أكثر ما يُقال في الفساد الذي يُدْرَك حُكْمًا، وَالعَيْثُ فيما يُدرك حِسًّا[4]، ومن الأوَّلِ قول الله سبحانه: ﴿وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ﴾، ومعنى الآية: لا تسعوا في الأرض مُفْسِدين[5].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

واذكروا - يابني إسرائيل - من نِعَمِنَا عليكم حينَ كنتم في التِّيه، فأصابكم العَطَشُ الشَّديدُ، فتضرَّع إلينا موسى عليه السلام، وسألنَا أن نسقيَكُم، فقلنا له: اضربْ بعصاك حَجرًا مِنَ الأحجارِ، فضربهُ، فتفجَّرت مِنَ هذا الحَجَر اثنتا عشرة عينًا بعدد قبائل بني إسرائيل، وبيَّنَّا لكلِّ قبيلةٍ موضعَ شُرْبِهِم؛ لئلَّا يزاحمَ بعضُهم بعضًا فيتنازَعُوا، وقلنا لهم: كلوا مِنَ المنِّ والسَّلْوَى، واشربوا من ماء العيونِ، ولا تسعَوْا في الأرض مفسدين بأن تُقابِلوا النِّعم بالعصيان؛ فَتُسلَبوها[6].

❁ الإِيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

نُكْتَةُ التَّعْبِيرِ بِضَمِيرِ الجَمْعِ:

عَظَمَةُ القولِ الصَّادر مِنَ الله تعالى وشَرَفُه

جاء التَّعبير بالنُّونِ المفيدةِ العظمَةَ في قول الله تعالى: ﴿فَقُلۡنَا ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡحَجَرَۖ﴾[7]؛ لِلْإِيمَاء بعظَمَةِ القول وتشريفِهِ، ولبيان أهميَّة الأمر المذكورِ بعدَهُ، وما تضمَّنه من الخوارق التي لا تصدُرُ إلَّا عن عظيمٍ.

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (عثى).
(2) ابن دُريد، جمهرة اللُّغة: (عثي).
(3) فرَّق بعض أهل العلم بين العِثيِّ والعُتُوِّ: بأن العِثيَّ إفساد أهلِ المكر بالحيلَةِ، والعُتُوّ: إفسادُ أهل القوّة بالسَّطوةِ، يُنظر: البقاعيّ، نظم الدّرر: 1/410.
(4) الرّاغب، المفردات: (عثى)، والزَّبيديّ، تاج العروس: (عيث).
(5) ابن أبي حاتم، تفسير القرآن العظيم: 1/122.
(6) ابن جرير، جامع البيان: 2/119-123، والنَّسفيّ، مدارك التَّنزيل: 1/92-93، ونخبة من العلماء، التّفسير الميسّر، ص: 9.
(7) البقاعيّ، نظم الدّرر: 1/404.

دلالة الفَاءِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَقُلْنَا﴾:

كَرَامَةُ مُوسَى عليه السلام عِنْدَ رَبِّهِ سُبْحَانَه

الفاءُ في قول الله تعالى: ﴿وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا﴾، تفيدُ -كما هو الأصلُ فيها- التَّرتيب معَ التَّعقيبِ، وفي هذا: إشعارٌ بسُرعةِ استجابةِ الله سبحانه لطلب موسَى عليه السلام السُّقْيَا، وذلك دالٌّ على كرامَتِه عند ربِّه سبحانه وتعالى.

دلالة اللَّامِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ٱلْحَجَرَ﴾:

إِبْهَامُ الحَجَرِ أقوى في الحجَّة وأبلغُ في المُعْجِزَةِ

اللَّامُ في قول الله عز وجل: ﴿فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ﴾ تَحْتَمِلُ وجهين[1]:

أحدهما: أن تكون اللَّامُ للعَهْدِ العلميِّ، فيكون حَجرًا معلومًا، والمعنى: اضرب بعصاك الحَجر المعيَّنَ.

الآخر: أن تكون لِلعهدِ الذِّهْنِيِّ -وهو من أفرادِ لام الجنس عند البلاغيِّين[2]-وهي الدَّالَّةُ على أنَّ مدخولَها فردٌ غيرُ معيَّنٍ، والمعنى: اضرِبْ حَجرًا مِنَ الأحجارِ.

والثَّاني أظهرُ في الإعجاز، وأبيَنُ في القدرةِ، وأقوى في الحجَّة على أنَّه رسولٌ مِن عند الله؛ لأنَّ الأحجار المتعيِّنَةَ تحتمِلُ اتِّصافها بخاصَّةٍ تفيد المذكورَ، بخلاف حملِ اللَّام على العهد الذِّهْنِيِّ؛ فإنَّه مفيدٌ أنَّ تفجُّرَ العيونِ حاصلٌ بضربِ أيِّ فردٍ مِن أفراد الحجارة[3].

بلاغةُ الفاءِ الفصيحةِ فِي قَوْلِهِ عز وجل: ﴿فَٱنفَجَرَتْ﴾:

سُرْعَةُ تَحَقُّقِ الانفجَارِ عَقِيبَ ضَرْبِ الحَجَرِ

قول الله تعالى: ﴿فَٱنفَجَرَتْ﴾، معطوفٌ على مقدَّرٍ، والتَّقدير: فَضرَبهَا فانْفَجرتْ، ودلَّ على المحذوفِ أمران[4]:

الأوَّل: منزلةُ موسَى عليه السلام المقتضِيَةُ أن لا يُشكَّ في امتثالِه أمرَ ربِّه سبحانه بالضَّرْبِ.

---

(1) الزَّمخشريّ، الكشَّاف: 1/144، والرّازي، مفاتيح الغيب: 3/528، والآلوسي، روح المعاني: 1/271، والقِنَّوجي، فتح البيان: 1/179.

(2) لام العهدِ الذِّهْنِيِّ عند البلاغيِّين من أفراد لام الجنس، وهي عند النُّحاة من أفرادِ لام العَهْدِ.

(3) القُونَوِيّ، حاشيةٌ على البيضاوِيّ: 3/326.

(4) الرّازي، مفاتيح الغيب: 3/529، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/519.

الآخرُ: أنَّه إذا لم يكن ثمَّةَ حذفٌ؛ لكان انفجار العيونِ من غير ضربٍ، وذلك يستلزِمُ أنَّ أمر اللّٰه تعالى بالضَّرب بالعصا عبثٌ، وهذا غيرُ لائقٍ.

ونُكْتَةُ الحذفِ: الإيماءُ إلى كَمالِ سُرعةِ تحقُّق الانفجارِ؛ حتَّى كأنَّه حصلَ عَقيبَ الأمرِ بالضَّرب[1]، ويُقوِّيه كون العاطِفِ الفاءَ؛ وهي مفيدَةُ التَّعقِيبَ.

دِقَّةُ انْتِقَاءِ الأَلْفَاظِ المُلَائِمَةِ لِسِيَاقَاتِهَا:

العينُ الجاريةُ تحتملُ النُّضوبَ، بخلافِ الينبوعِ فمستمرٌّ دائمٌ

جاء التَّعبير عن مَخْرَجِ الماء بِالعَين في قوله سبحانه: ﴿فَٱنفَجَرَتۡ مِنۡهُ ٱثۡنَتَا عَشۡرَةَ عَيۡنٗا﴾ دون (الينبُوعِ)؛ لأنَّ اليَنْبُوعَ: العينُ التي لا يَنْضَبُ ماؤُها[2]، فماؤه مستمرُّ الخروج والجريانِ[3]، وهذا لا يُلائمُ حالَ معجزة موسى عليه السلام؛ كونها معجزة مخصوصة الوقت والمكان والإنسان، فهي لوقت معين في مكان معين لطائفة معينة.

نُكْتَةُ فَصْلِ جُمْلَةِ: ﴿قَدۡ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٖ مَّشۡرَبَهُمۡۖ﴾:

أَثَرُ الِاسْتِئْنَافِ البَيَانِيِّ فِي الكَشْفِ عن حقائقِ النُّفوسِ

فُصل قولُه سبحانه: ﴿قَدۡ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٖ مَّشۡرَبَهُمۡۖ﴾ عمَّا قبلَهُ؛ لكونه استئنافًا بيانيًّا؛ فإنَّ قول اللّٰه تعالى: ﴿فَٱنفَجَرَتۡ مِنۡهُ ٱثۡنَتَا عَشۡرَةَ عَيۡنٗاۖ﴾ يبعَثُ في النَّفْسِ سؤالًا: هل كانت الأعينُ موزَّعةً بينهم توزيعًا معروفًا، أو كانت مُلْبِسَةً غير موزعة؟ فجاء الجواب: ﴿قَدۡ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٖ مَّشۡرَبَهُمۡۖ﴾[4]، وهذا العلم مُتلقًّى من الوحي، وهم قد عَلِموه بوسَاطَةِ موسى عليه السلام، فالعبرةُ بمعرفتِهم لمشرَبِهم؛ وفي هذه الجملةِ إنباءٌ ضِمنيٌّ أنَّ القومَ بَيْنَهم تنازُعٌ كبيرٌ، ولذلكَ أعلمَ كلَّ أُناسٍ مَشْرَبَهم.

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السَّليم: 1/106.
(2) المَراغي، تفسير المراغي: 15/93، ومحمّد سيّد طنطاوي، التَّفسير الوسيط: 8/428.
(3) محمّد أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 8/4452.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 1/407.

فَائِدَةُ الإِضَافَةِ فِي قَوْلِهِ: ﴿مَّشْرَبَهُمْ﴾:

إِكْرَامُ اللهِ تعالَى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ وامْتِنَانُه عَلَيهِم

إضافَةُ المَشرَب إلى الضَّمير الرَّاجعِ إلى بني إسرائيل في قوله تعالى: ﴿مَّشْرَبَهُمْ﴾؛ لِما سبقَ من تخصيص كلِّ مَشْرَبٍ بسِبْطٍ من الأسباطِ، فصار بِهَذَا التَّخصيصِ كأنَّه مِلْكٌ لهم[1]، وهو مُشْعِرٌ بِمَزِيدِ الامتنَانِ والإكرام.

دلالة الأَمْرِ فِي قَوْلِهِ: ﴿كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ﴾:

إباحةُ الطَّيِّبات من مِنَنِ اللهِ تعالَى على العِباد

فعل الأمر ﴿كُلُواْ﴾ و﴿ٱشْرَبُواْ﴾ من قول الله تعالى: ﴿كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ﴾ يُرادُ به الإباحَةُ والامتنانُ؛ فإنَّ السِّياقَ لمَّا كان سياقَ امتنَانٍ، وكان الإيجادُ غيرَ مستلزمٍ إباحةَ التَّنَاوُلِ؛ نصَّ عليه زيادَةً في مِنَّتِه عليهم، فأباحهُ ممتنًّا عليهم بذلكَ، فقال سبحانه: ﴿كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ﴾[2].

نُكْتَةُ تَقْدِيمِ الأَكْلِ عَلَى الشُّرْبِ:

دِقَّةُ النَّظْمِ القُرآنِيِّ في تَقْدِيمِ الألفاظِ المُتَنَاظِرَةِ

قُدِّمَ الأمرُ بالأكل على الأمر بالشُّرْبِ في قول الله تعالى: ﴿كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ﴾؛ لنكتَتَين:

الأولى: أنَّ المِنَّةَ بالمأكولِ سبقَت المِنَّةَ بالمشروبِ في الذِّكْرِ؛ فإنَّ المأكولَ ذُكر في قوله سبحانه: ﴿وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾ [البقرة: 57]، والمشروبَ ذُكرَ في هذه الآيةِ، فقُدِّمَ المقدَّمُ، وهذا اقتضاءٌ سياقيٌّ.

الأُخرى: أنَّ الأكلَ بِهِ قوام الجسدِ، والاحتياجُ إلى الشُّربِ حاصِلٌ عَنهُ[3].

نُكْتَةُ وَضْعِ المُظْهَرِ مَوْقِعَ المُضْمَرِ:

في قول الله تعالى: ﴿كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ﴾ إظهارٌ في موضعِ

(1) الآلوسّي، روح المعاني: 1/272.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 1/408.
(3) الآلوسّي، روح المعاني: 1/272.

الإضمار؛ فإنَّ مقتضى الظَّاهر: كلوا واشربوا من رِزْقِنَا؛ لأنَّ قبله: ﴿فَقُلْنَا﴾، وفي ذلك نِكاتٌ، منها:

رُبُوبِيَّةُ اللهِ تعالى تَسْتَلْزِمُ أُلُوهِيَّتَه سُبْحَانَه

أولًا: إظهارُ جَلال هذه النِّعَم وعظمَتِهَا بإضافتها إلى صريح الاسم الأحسنِ ﴿ٱللَّهَ﴾؛ فإنَّ ذلك أدخَلُ في بيان جلالتِهَا مِنْ إضافتها إلى الضَّمير الرَّاجعِ إليهِ[1]؛ لما يدُلُّ عَلَيْهِ الاِسْمُ الأحسَنُ ﴿ٱللَّهَ﴾ مِنَ الجلال والجمال والمهابة.

ثانيًا: نَقْلُهُم مِنَ الإقرار بما اقتضتْهُ ربوبيَّتُهُ سبحانَهُ إلى العمل بما تقتضيهِ ألوهيَّتُهُ؛ فإنَّ الرِّزْقَ من أفرادِ ربوبيَّتِهِ، واسمه (اللّٰه) دالٌّ على كونِهِ مألوهًا معبودًا، وإقرارهم بربوبيَّة الرَّازق يقتضي الإقرار بألوهيَّته.

دلالة اللَّامِ فِي ﴿ٱلْأَرْضِ﴾:

إفسادُ بَعْضِ الأرضِ يَؤولُ إلى إفسادِها كُلِّها

اللَّامُ في ﴿ٱلْأَرْضِ﴾ من قول اللّٰه تعالى: ﴿وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ لامُ الجِنسِ المفيدَةُ عمومَ البقاعِ المندرجةِ في لفظها، وهذه الدّلالة تقتضي شناعَةَ من أفسدَ في أيِّ بقعةٍ من بقاعِ الأرضِ؛ لأنَّه من فعل ذلك؛ فقد أفسدَ في تلك البقعةِ بالفعلِ، وفي جميع البقاعِ الأخرى بالقُوَّةِ[2].

فَائِدَةُ تَقْيِيدِ الفِعْلِ بِالْحَالِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾:

النَّهْيُ عَنِ القَصْدِ إِلَى الإِفْسَادِ عَلَى وَجْهِ التَّمَادِي

قُيِّدَ الفعل (تَعْثَوْا۟) بالإفسادِ في قوله سبحانه: ﴿وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ مع أنَّ معنى الفسادِ مستفادٌ من العُثُوِّ؛ إذِ العُثُوُّ: أشدُّ الفسادِ[3]، والنُّكْتَةُ في ذلك: بيانُ العُتُوِّ؛ وأنَّهُ القَصْدُ إلى الإفسادِ، فقوله: (مُفْسِدِينَ) أي: قاصدِينَ إلى الإفسَاد على وجهِ

(1) الآلوسّي، روح المعاني: 1/272-273.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 1/410، الفعل والقوة من مصطلحات المناطقة، ويراد بالفعل: تحقق الوجود، وتمام العمل، ويراد بالقوة: جواز الوجود، وإمكانية الحدوث. ينظر: فريد جبر وآخرون، موسوعة مصطلحات علم المنطق عند العرب، ص: 604، 651.

(3) ابن جرير، جامع البيان: 2/123، وأبو هلال العسكريّ، الفروق اللُّغويَّة، ص: 213.

التَّمادِي فيه[1]، وليس المعنى النَّهْيَ عن التَّمادِي في الفسادِ مع تجويزِ أصلِهِ، بل هو كقول اللّه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضۡعَٰفٗا مُّضَٰعَفَةٗۖ﴾[2] [آل عمران: 130].

ويَحتمِلُ أن يُحملَ العُثُوُّ على الاعتداء، والاعتداءُ لا يكون فسادًا بكلِّ حالٍ، بل منه ما ليس بفسادٍ؛ كمقابلةِ المعتدِي بفعله، مثل قول اللّه تعالى: ﴿فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ بِمِثۡلِ مَا ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡۚ﴾ [البقرة: 194]، "فهذا الاعتداء ليس بإفساد، بل هو بالإضافة إلى ما قوبل به عدلٌ، فلولا كونه جزاءً؛ لكان إفسادًا، فبَيَّن تعالى أن العُثُوَّ المنهيَّ عنه هو المقصودُ به الإفسادُ، وهو مكروه على الإطلاق"[3].

تَوْجِيهُ المُتَشَابِهِ اللَّفْظِيِّ:

دِقَّةُ اخْتِيَارِ المُفْرَدَاتِ بِمَا يُنَاسِبُ سِيَاقَهَا

وردت قصة استسقاء موسى عليه السلام لقومه في موضعين من سور القرآن الكريم بألفاظ متقاربة: أما الموضع الأول؛ فهو الذي بين أيدينا من سورة البقرة حيث قال اللّه عز وجل: ﴿وَإِذِ ٱسۡتَسۡقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦ فَقُلۡنَا ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡحَجَرَۖ فَٱنفَجَرَتۡ مِنۡهُ ٱثۡنَتَا عَشۡرَةَ عَيۡنٗاۖ قَدۡ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٖ مَّشۡرَبَهُمۡۖ كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ مِن رِّزۡقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ﴾. وأما الموضع الثاني؛ ففي سورة الأعراف حيث قال اللّه عز وجل: ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسۡتَسۡقَىٰهُ قَوۡمُهُۥٓ أَنِ ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡحَجَرَۖ فَٱنۢبَجَسَتۡ مِنۡهُ ٱثۡنَتَا عَشۡرَةَ عَيۡنٗاۖ قَدۡ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٖ مَّشۡرَبَهُمۡۚ﴾ [الأعراف: 160].

وعند التدقيق يظهر اختلاف بين ألفاظ القصة في السورتين، وذلك من أربعةِ أوجُهٍ؛ هي[4]:

استجابةُ القائدِ لمطالب قومِه في الخيرِ من أعظمِ الخيرِ

أوَّلًا: في البقرة: ﴿وَإِذِ ٱسۡتَسۡقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦ﴾، وفي الأعراف: ﴿إِذِ ٱسۡتَسۡقَىٰهُ قَوۡمُهُۥٓ﴾؛ فالأولى دالَّةٌ على أنَّ موسى عليه السلام هو الذي طلب السُّقْيَا لقومِه، وفي الأعراف دالَّةٌ على أنَّ قوم مُوسى اسْتَسْقَوْا

(1) الرَّازي، مفاتيح الغيب: 3/530. محمّد أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 1/248.
(2) الخفاجي، عناية القاضي: 2/166.
(3) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 1/207.
(4) البرهان في توجيه متشابه القرآن، ص: 74، والرَّازي، مفاتيح الغيب: 3/529، وفاضل السَّامرَّائي، التَّعبير القرآنيُّ، ص: 379-387، وسعد عبد العظيم محمّد، استدراك ما فات من بلاغة الآيات المتشابهات، ص: 110-109.

موسى، ولا تعارُضَ بينهما: فإنَّ قومه طلبوا مِنْهُ أن يَسْتَسْقِيَ لهم، فاستسقى موسَى ربَّهُ سبحانَهُ، إلَّا أنَّ آية البقرةِ لـمَّا كانت في سياق الامتنانِ ؛ خُصَّتْ بذِكْرِ استسقاءِ موسى عليه السلام ربَّهُ تعالى؛ لأنَّ هذا أكمل وأبلغُ في النِّعْمَةِ والـمِنَّةِ، فهو استسقاءٌ لبني إسرائيل، وهذا هو وجه المنَّة.

ثانيًا: في البقرة: ﴿فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ﴾، وفي الأعراف: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ﴾؛ ولما كان القول المباشِر من الله تعالى أكملَ وأشرفَ مِنَ الإيحاء؛ كان سياق آية البقرة الدَّالُّ على الامتنانِ أنسبَ إليه وأليقَ به.

الانبجاسُ أوَّلُ الاستسقاءِ، والانفجارُ آخرُه

ثالثًا: في البقرة: ﴿فَٱنفَجَرَتْ﴾، وفي الأعراف: ﴿فَٱنۢبَجَسَتْ﴾؛ وسرُّ المغايرةِ بينهما من أربعةِ أوجهٍ:

الأوَّل: أنَّ كلَّ موضعٍ مناسبٌ لسياقِه؛ لأنَّ الانفجار دالٌّ على خروجِ ماءٍ كثير، والانبجاس دالٌّ على خروج ماءٍ قليلٍ، ولا تعارُضَ بينهما؛ لأنَّ الماء خرَجَ قليلًا، ثمَّ تتابع خروجُهُ، وكَثُرَ، أو أنَّ الماء خرجَ غزيرًا أوَّل الأمر، ثمَّ قَلَّ بسببِ عصيانِهم، إلَّا أنَّ كلَّ موضعٍ خُصَّ بما يناسبُهُ، فمقامُ سورة البقرة مقام تَعداد النِّعَمِ، فكان الأنسبُ ذكرَ خروجِ الماءِ الكثيرِ.

الثَّاني: أنَّ الـمُسْتَسْقِي في سورة البقرة هو موسى عليه السلام، بخلاف الأعراف؛ فإنَّ الـمُسْتَسْقِي هُم قومُ موسى عليه السلام؛ فلـمَّا عَظُمَ قَدْرُ المستسقِي في سورة البقرةِ ؛ ناسبَ ذكرُ عِظَمِ الماءِ الخارجِ، فعُبِّر عَنْهُ بالانفجارِ، بخلاف ذلك في سورة الأعراف، وكذلك استسقاءُ موسى عليه السلام كان بعد استسقائهم، فلـمَّا استسقوا كانت بدايةُ الانبجاس، ولـمَّا استسقى كانت بدايةُ الانفجارِ؛ ليُعلم فضلُ موسى على قومِه.

الثَّالث: أنَّ ظاهر سورة البقرةِ مفيدٌ أنَّ الله تعالى قال لموسى: اضرب بعصاك الحَجرَ، ولم يُوحِ إليه وحيًا، فناسَب ذلك انفجارَ الماءِ الكثير الغزير.

الرَّابع: أنَّ الله تعالى ذكرَ في سورة البقرة أنَّه جمع لهم بين الأكل والشُّرب، فقال

سبحانه: ﴿كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ مِن رِّزۡقِ ٱللَّهِ﴾، ولم يرد ذكرُ الشُّرْبِ في سورة الأعراف، فلمَّا نُصَّ في البقرة على المبالغةِ في الامتنانِ عليهم؛ كان الأنسبُ في المِنَّةِ ذكرَ خروج الماء الغزير.

رابعًا: في البقرة: ﴿كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ مِن رِّزۡقِ ٱللَّهِ﴾، ولم يُذكر هذا في الأعراف، بل ذُكر في الأعراف قولُه سبحانه: ﴿كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡۚ﴾؛ وهذا وردَ بعينِه في سورة البقرة: ﴿كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡۚ﴾ [البقرة: 57]، وزادت الآيةُ هنا الجمعَ بين الأكل والشُّرْبِ في قوله تعالى: ﴿كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ مِن رِّزۡقِ ٱللَّهِ﴾، وهذا ضربٌ من ضُروبِ التَّكريم، فهو أنسبُ لمقام تعداد النِّعَمِ الذي هو سياق آيات البقرة.

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

العُتُوُّ وَالإِفْسَادُ:

الفرق بين اللَّفظتَيْنِ هو العموم والخصوص المُطْلَقُ؛ فالعُتُوُّ أخصُّ مطلقًا من الإفسادِ؛ وذلك من وجهين اثنين:

الأوَّل: أَنَّ العُتُوَّ شدَّةُ الإفسادِ أو أشدُّ الإفسادِ[1].

الآخر: أنَّ العُتُوَّ إفسادٌ من قومٍ مخصوصينَ على وجهٍ مخصوصٍ؛ فإنَّ حقيقتَهُ: إفسادُ أهلِ القُوَّةِ بالسَّطوة.

فكان العُتُوُّ من هذين الوجهين أخصَّ من الإفساد.

(1) ابن جرير، جامع البيان: 2/123، وأبو هلال العسكريّ، الفروق اللُّغويَّة، ص: 213.

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ۚ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٦١﴾﴾ [البقرة: 61]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا ذكر اللّه تعالى إنعامَهُ على بني إسْرَائِيل في المأكَل والمَشْرَب على وجهٍ يَصِلُهم فيهِ دُون مشقَّة أو تكلّف؛ ذكرَ ما قَابَلُوا به تلكَ النِّعَمَ الجليلَةَ من عدم الشُّكْرِ وطلبِ التحوُّلِ عنها إلى ما هو أَدْنَى، ثمَّ ما ترتَّبَ على كفرانِهم النِّعَمَ من المجازاةِ والعقوبَةِ[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

1) ﴿طَعَامٍ﴾: الطَّاءُ والعين والميم تدور تصاريفُها على ما يدخل مِن الفم إلى الجَوْفِ غِذاءً لِلْبَدَن، ومِنْهُ: الطَّعام[2]، واختص في عُرْف الشرع بالبُرِّ[3]، ومن ذلك ما رواه أبو سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بقوله: " كُنَّا نُخْرِجُ زَكَاةَ الفِطْرِ صَاعًا مِن طَعَامٍ، أوْ صَاعًا مِن شَعِيرٍ، أوْ صَاعًا مِن تَمْرٍ، أوْ صَاعًا مِن أقِطٍ، أوْ صَاعًا مِن زَبِيبٍ"[4].

والطَّعامُ في قول اللّه تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ﴾ بمعناهُ الأعَمِّ؛ لأنَّ مطعومَهُمْ لم يكُنْ بُرًّا، وإنَّما كان المنَّ والسَّلْوَى.

2) ﴿تُنۢبِتُ﴾: النّون والباء والتَّاء تدور اشتقاقاتُها على نماءٍ في مَزْرُوعٍ[5]، ويُتَجَوَّزُ به

(1) البقاعِيّ، نظم الدّرر: 1/412، والآلوسّي، روح المعاني: 1/276-277.
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (طعم).
(3) السمين، عمدة الحفاظ: (طعم).
(4) رواه البخاري، حديث رقم: (1506).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نبت).

في النَّشأَةِ والتَّربيةِ، فيقال: نبتَ فلانٌ في مَنْبَتِ صِدْقٍ، وفي أكرم المنَابِت[1]، ومنه قول الله تعالى: ﴿وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾ [آل عمران: 54]؛ فَشُبِّه إنشاؤُها بإنباتِ النَّبات الغَضِّ على وجهِ الاستعارة[2].

والنَّبات في قوله تعالى: ﴿مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلۡأَرۡضُ﴾ هُوَ ما ينموُ فيهَا، سواءٌ أكان له ساقٌ وهو الشَّجَرُ، أم لا ساقَ لهُ، وهو المسمَّى: النَّجْمَ[3].

3) ﴿بَقۡلِهَا﴾: البَاء والقافُ واللَّامُ تدور تصريفَاتُها على نباتٍ أو شيءٍ ينبتُ ضَعيفًا في ظاهرِ شيءٍ[4]، ومِنْهُ الباقِلُ؛ وهو ما يخرج في أعراض الشَّجرِ؛ إذا دَنَا الرَّبيعُ، يقال: أَبْقَلَتِ الأرضُ؛ إذا أنبتَتِ البَقْلَ[5]، والبَقْلُ في قول الله تعالى: ﴿مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلۡأَرۡضُ مِنۢ بَقۡلِهَا﴾: هو ما ينبُتُ في الأرضِ ممَّا لا ساقَ له[6].

4) ﴿وَقِثَّآئِهَا﴾: القِثَّاءُ جمعُ: قِثَّاءَةٍ[7]، وهو اسم جنس جمعيٍّ؛ لكونِهِ ممَّا يُفرَّق بينه وبين مفردِهِ بالتَّاءِ، والقِثَّاءُ: نباتٌ تُشبِهُ ثمارُهُ الخيارَ، إلَّا أنَّه أطوَلُ[8]، وقد يُطلق على الخِيار[9].

5) ﴿وَفُومِهَا﴾: الفاءُ والوَاو والميمُ تدلُّ اشتقاقاتُهَا على صلاحيَّةِ شيءٍ لِلْأَكل، فيُملأُ الفمُ بهِ، كاللُّقمة مِنَ الخبزِ، وسمِّيتِ الحبوبُ فومًا؛ لصلاحيَّتِها لِلْأكلِ، ولما يَؤولُ إليه أمرُها من مِلءِ الفمِ بهَا[10].

ويُطلَقُ الفومُ على القِطْعَةِ؛ تشبيهًا لها باللُّقمة في مقدارِهَا، يقال: قُطِّعَتِ الشَّاةُ فُومًا فُومًا؛ أَي: قِطَعًا قِطَعًا[11].

---

(1) الزّمخشريّ، أساس البلاغة: (نبت).
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتّنوير: 3/235.
(3) محمّد بن الطيّب الفاسي، تحرير الرِّواية، ص: 478.
(4) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (بقل).
(5) الخليل بن أحمد، العين: (بقل).
(6) ابن دُريد، جمهرة اللُّغة: (شجر).
(7) ابن دُريد، جمهرة اللُّغة: (شجر).
(8) حسن عزّ الدّين الجَمَلَ، مخطوطة الجمَلِ: (قثأ).
(9) الخليل، العين: (قثأ)، ومحمّد الكَرمانّي، الكواكب الدّراري: 20/55.
(10) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (فوم).
(11) الزَّبيديّ، تاج العروس: (فوم).

واختُلِفَ في معنَى الفوم في قول اللّه تعالى: ﴿وَفُومِهَا﴾ على أقوالٍ؛ هي: الحِنطةُ، والحبوبُ، والثُّومُ[1]، فأما الأَوَّلُ؛ فداخلٌ في الثَّاني؛ لأنَّ الحنطةَ من جملة الحبوبِ، وأما الثالث فلقرينة ذكر البصل بعده[2].

ونقل الزَّجَّاجُ إجماعَ أهل اللُّغةِ على أنَّ الفومَ: الحِنطةُ وَسَائِرُ الحُبوب التي تُخْتَبَزُ، وَضَعَّفَ القولَ: بأنَّ الفومَ الثُّومُ؛ وأبان أنَّه مخالفٌ لإجماعِ أهل العربيَّةِ، ولا يُساعِدُهُ معنى الآية، فقال: "وهذا ما لا يُعرف أنَّ الفومَ الثُّوم، وههنا ما يقطع هذا، فمحالٌ أن يَطْلُب القومُ طعامًا لا بُرَّ فيه، والبُرُّ أصل الغِذاءِ كلِّه"[3].

وأمَّا ما جاء مِن قراءة ابنِ مسعودٍ رضي الله عنه: (وَثُومِهَا) بدلًا من ﴿وَفُومِهَا﴾، فهو مِن إبدالِ الحروفِ، كقولهم: وقعوا في عاثور شرٍّ وعافور شرٍّ، وكقولهم للأثافي: أثاثي، وللمغافير مغاثير، وما أشبه ذلك ممّا تقلب فيه الثّاء فاءً والفاء ثاءً؛ لتقارب مخرج الفاء من مخرج الثّاء[4].

6) ﴿أَدْنَىٰ﴾: الدَّال والنُّون والحرف المعتلُّ تدور تصريفَاتُه على معنى: قُرْبِ الوصُولِ إلى المقَرِّ المُراد أو المُعْتَاد نُزولًا[5]، ومن ذلك: الدَّنيّ؛ وهو القريبُ[6].

وَالأصل في الدُّنُوِّ أن يكون إلى سُفْل، ومن هنا استُعْمل الدُّنُوّ في النُّزول المعنويِّ المفيدِ قِلَّةَ قيمةِ الشَّيءِ[7]، ومنه قيل للرجلِ الخسيس: دَنِيءٌ.

و﴿أَدْنَىٰ﴾ في قول اللّه تعالى: ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ﴾ أي: أخس[8]، وهو خسيسٌ بالنِّسبةِ لما رُزقُوه من المنِّ والسَّلْوَى.

7) ﴿مِصْرًا﴾: الميم والصّاد والرّاء لها معانٍ مختلفةٌ، منها: تحديدٌ في شيءٍ[9]، ومِنْهُ المِصر: وهو كلُّ بلدٍ مَمْصُورٍ، أي: محدودٍ[10].

---

(1) ابن الجوزيّ، زاد المسير: 1/71.
(2) الزحيلي، التفسير المنير: 1/173.
(3) الزجّاج، معاني القرآن وإعرابُه: 1/143.
(4) ابن جرير، جامع البيان: 2/130.
(5) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصَّل: (دنو).
(6) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (دنى).
(7) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصَّل: (دنو).
(8) أبو عُبيد الهروي، الغريبين: (دنا).
(9) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (مصر).
(10) الرّاغب، المفردات: (مصر).

وفي ﴿مِصْرًا﴾ الواردِ في قول الله تعالى: ﴿ٱهْبِطُواْ مِصْرًا﴾ قولان[1]:

أحدهما: أنَّه البلَدُ المعروفُ المخصوصُ.

والآخر: أنَّه أيُّ بلد من البلدان، لا على التعيين، والمعنى: اهبطُوا مصرًا مِنَ الأمصارِ.

والثَّاني أقوى؛ لكونِهِ منصرِفًا، وجزَمَ بهذا التَّرجيحِ ابنُ كثير، والمعنى على ذلك: "أنَّ مُوسى عليه السلام يقول لهم: هذا الذي سألتُم ليس بأمرٍ عزيز، بل هو كثير في أيِّ بلدٍ دخلتموهُ؛ وجدتُمُوه، فليس يُساوي مع دناءته وكثرته في الأمصار أن أسألَ الله فِيهِ"[2].

8) ﴿ضُرِبَتْ﴾: الضَّاد والرَّاء والباءُ تدلُّ اشتقاقاتُها على غِلَظٍ يُخَالِطُ الرِّخو، أو يُداخِلُه مداخلةً قويَّة، فيتَمَاسَك، أو يَشْتَدّ، وَمِنْهُ: ضَرْبُ الدَّرَاهِمِ؛ فإنَّ ذلك يحصُلُ بتجميد الفِضَّة الذَّائبة في قالَب على هيئتِهِ[3].

وضَرْبُ الذِّلَّة في قول الله تعالى: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ﴾ بمعنى: أُحِيطَت بِهم كَإحاطةِ الْقبَّةِ بِمن نُصِبَت عَلَيْهِ[4].

9) ﴿ٱلذِّلَّةُ﴾: الذّال واللَّامان تدلّ تصاريفُها على خضوعٍ واستكانةٍ ولِينٍ[5]، ومنه الذِّلَّةُ؛ وهي الصَّغَار والهَوان[6].

والذُّلُّ: ما كان عن قَهْرٍ، ومِنهُ قول الله تعالى: ﴿وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ﴾ [الإسراء: 24]، أي: كُن كالمقهورِ لَهُمَا[7].

والذُّلُّ إذا كان من جهةِ الإنسانِ نفسِه لنفسِهِ، فهُوَ محمودٌ[8]، ومنه قول الله تعالى: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة: 54]، قال الزَّجاج: "أي: جانِبُهُم لَيِّنٌ على المؤمنين، ليس أَنَّهم أذلَّاء مهَانون"[9].

(1) ابن أبي حاتم، تفسير القرآن العظيم: 1/124.
(2) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 1/281-282.
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (ضرب).
(4) أبو البقاء الكفويّ، الكلّيّات، ص: 579.
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ذلّ).
(6) محمّد الأمين الشّنقيطيّ، العذب النَّمير: 4/184.
(7) الرّاغب، المفردات: (ذلّ).
(8) الرّاغب، المفردات: (ذلّ).
(9) الزّجّاج، معاني القرآن وإعرابُه: 2/183.

10) ﴿وَٱلۡمَسۡكَنَةُۚ﴾: السِّين والكاف والنُّون تدل تصاريفُها على نقيضِ الحركة والاضطراب[1]؛ فهي دالَّةٌ على الِاستقرار[2]، ومنه: السُّكون؛ وهو ثبوتٌ بعد تحرُّكٍ[3]. وتقول العربُ لكُلِّ شَيْءٍ مَاتَ: قد سَكَنَ[4]؛ لذهاب حركتِه، وَالـمَسْكَنَةُ: مَفْعَلة مِن السُّكون، ومِنهُ سُمِّي المسكينُ بذلك؛ لقلَّةِ حركاتِه وفتور نشاطِه[5].

والـمَسْكَنَةُ في قول الله تعالى: ﴿وَضُرِبَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلۡمَسۡكَنَةُ﴾ الفقرُ، وفُسِّر بأنَّهُ فقرُ النَّفْسِ، ولو كان غنيًّا في الظَّاهر، أو أنَّ المسكنَةَ الضَّعفُ[6].

11) ﴿وَبَآءُو﴾: الباء والواو والهمزة تدلُّ تصريفَاتُهَا على معنى: الرُّجوعِ[7]، يقال: بَاء بإثمه؛ إذا رَجَعَ بِهِ[8].

ومعنى: ﴿وَبَآءُو بِغَضَبٖ مِّنَ ٱللَّهِۚ﴾ أي: وانصرفوا، ورجعوا بغضب مِن الله.

12) ﴿بِغَضَبٖ﴾: الغين والضَّاد والباء تدور اشتقاقاتُها على معنى الشدَّةِ والقوّة، ومِنْهُ سُمِّيت الصَّخرةُ الصُّلْبةُ بالغَضْبَةِ[9]، ومِنْهُ الغضَبُ؛ فإنَّه دالٌّ على شدَّةِ الغاضبِ وقوَّتِه، والغضب هو السُّخْط؛ ضد الرِّضا[10].

وغضبُ اللهِ تعالى المذكورُ في قوله سبحانه: ﴿وَبَآءُو بِغَضَبٖ مِّنَ ٱللَّهِۚ﴾ هو غضبٌ يليقُ بجلَالِ الله وعظَمَتِه، المتضمِّنُ سُخْطَه عليهم وعدمَ رضاه عنهم.

13) ﴿عَصَواْ﴾: العين والصَّاد والحرف المعتلُّ تدلُّ تصاريفُهَا على معنيين متباينَين؛ أحدهما: التَّجمُّعُ، والآخر: الفُرقةُ.

فمن الأوَّلِ: العصا، سُمِّيت بذلك لاشتمالِ يدِ مُمْسِكِها عَلَيْهَا، ثُمَّ قِيس على ذلك، فأُطلقت على الجماعة مطلقًا، وعلى جماعة الإسلام[11].

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سكن).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصَّل: (سكن).
(3) الرّاغب، المفردات: (سكن).
(4) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (سكن).
(5) ابن الهائم، التِّبيان في تفسير غريب القرآن، ص: 78.
(6) نشوان الحِميريّ، شمس العلوم: (سكن).
(7) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (بوأ).
(8) ابن دُريد، جمهرة اللُّغة: (بوأ).
(9) ابن فارس، مقاييس اللغة: (غضب).
(10) ابن منظور، لسان العرب: (غضب).
(11) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عصو/ى).

ومِن الثَّاني: قولهُم في الفَصِيلِ إذا لم يَتْبَعْ أُمَّهُ: عاصٍ[1]؛ فإنَّه إذا لم يَتْبَعْها؛ فقد فارقَهَا، ومنه العِصيانُ؛ لأنَّه مفارقَةُ المأمورِ بِهِ.

وفي كلام الرَّاغبِ ما يقتضي إرجاعَ هذا الأصلِ إلى الأوَّلِ؛ فقد قال: "عَصَى عِصْيَانًا؛ إذا خرج عن الطاعة، وأصله: أن يَتَمَنَّعَ بِعَصَاهُ"[2].

والعصيانُ في قول الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ﴾ هو مخالفة ما أُمروا به[3].

14) ﴿يَعْتَدُونَ﴾: العين والدَّال والحرف المعتلُّ تدور اشتقاقاتها على تجاوزٍ وتقدُّمٍ لما ينبغي أن يُقتصَر عليه[4]، وهذا التَّجاوزُ: إن اعتُبِرَ بالقلبِ؛ قيلَ له: عداوَةٌ ومعاداةٌ، وإن اعتُبر بالمشي؛ قيل له: عَدْوٌ، وإن كان إخلالًا بالعدلِ في المعاملة؛ قيلَ له: عُدوانٌ[5].

والاعتداء: تجاوزُ الحدِّ مطلقًا، ومعناه في قول الله تعالى: ﴿وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ﴾: أي: "وتجاوَزُوا حَدِّي إلى ما نهيتُهم عَنْهُ"[6].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

واذكُروا - يابني إسرائيل - حين أنزلنَا عليكُم طعامًا حُلوًا طيِّبًا -وهو المَنُّ- وطيرًا شهيًّا -وهو السَّلْوى- فمَلَلْتم، ولم تشكروا نعمةَ الله عليكم، بل طلبتُم الانتقالَ إلى غيرِها، فقلتم: يا موسى لن نَصْبِر على طعام، لا تنوُّعَ فيه، ولا يتغيَّر مع الأيَّام، فادع ربَّك؛ ليُخرج لنا مِن نبات الأرض بُقولًا وقثَّاءً وحبوبًا وعدسًا وبصلًا، فقال موسى عليه السلام منكرًا عليكُم: أتستبدلُون هذه الأطعمةَ، وهي أقلُّ قَدْرًا بما اختاره الله تعالى، وأنزله لكُم حُلْوًا شهيًّا؟ انزِلُوا إلى أيِّ مدينةٍ مِنَ المُدُنِ؛ تَجِدُوا ما طلبتُمُوه متكاثِرًا. ولأجل تقديمِ اختيارهم على اختيار الله لهم؛ لزمَتْهم صفةُ الهوانِ وفَقْرِ النُّفوس، ورجعوا بغضبٍ مِن الله تعالى وسُخْط ملازم لهم؛ لأنَّهم كانوا يكفرون بآيات الله تعالى، ويقتلون أنبياءهُ ظلمًا وعدوانًا جاحدين رسالَتَهُم؛ بسببِ مخالفتِهم أمرَ الله عز وجل ومُجاوَزَتِهم حدودَهُ[7].

---

(1) ابن سِيده، المحكم: (عصي).

(2) الرّاغب، المفردات: (عصا).

(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 1/421.

(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عدو).

(5) الرّاغب، المفردات: (عدا).

(6) ابن جرير، جامع البيان: 2/142.

(7) ابن جرير، جامع البيان: 2/124-142، والخازن، لباب التَّأويل: 1/49-50، ونخبة من العلماء، التّفسير الميسّر، ص: 9.

الإيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

نُكْتَةُ تَوْجِيهِ الخِطَابِ إِلَى الخَلَفِ مَعَ أَنَّ القَائِلَ أَسْلَافُهُمْ:

وُجِّهَ الخِطاب لليهودِ زمَنَ النَّبِيِّ ﷺ في قوله سبحانه: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ﴾ مع أنَّ قائلَ ذلك هم أسلافُهُم؛ لكونِ المعاصرين للنّبي ﷺ ذرِّيَّتَهم وعلى دينِهم، وهم مُتَّبِعون لهم، فحُكمهم كحُكمهم.

رضا الأبناءِ عن مَعَاصِي الآباءِ مشاركةٌ قبيحةٌ ومتابعةٌ ذميمة

وقد ورد لهذا نظائرُ متعدِّدَةٌ؛ منها قوله تعالى: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ و﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ﴾ [البقرة: 48-49]، وقوله ﷻ: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُواْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُواْ﴾ [البقرة: 58]، في مواضعَ أخرَى؛ وفي كُلِّهَا خطابٌ للحاضِرين بحسب الظَّاهرِ؛ فما كان من تَعداد النِّعَمِ عليهم؛ فوجهه: أنَّ الإنعامَ على الآباء إنعامٌ على الأبناءِ، وما كان من ذكر مساويهم؛ فلأنَّ الذرِّيَّةَ راضيةٌ بهَا، فكأنَّهم مشاركُونَ للآباءِ فيها[1].

نُكْتَةُ النَّفْيِ بِـ﴿لَن﴾ بَدَلًا مِنْ (لَا):

الكشفُ عن عنادِ الشَّخصيَّة اليهوديَّة وشِدَّةِ إِعْنَاتِها

في تعبيرهم عن نفي صبرِهم بـ (لن) دون (لا) في قولهم: ﴿لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ﴾ إشعارٌ بشدّة ضجرهم، وبلوغ الكراهية لهذا الطعام منهم منتهاها[2]، وفيه: إيماءٌ إلى شدَّةِ إعناتِهم؛ حيثُ عبَّروا عن طلبِهم بالحرفِ المستعمل لتأكيد النَّفي في الزّمنِ المستقبل، "فكأنّهم قالوا: اعلم أنّه لم يبق لك أمل في بقائنا معك على هذه الحالة من التزام طعام واحد، فإن كانت لك منزلة عند الله كما تزعم؛ فادْعُهُ يُخْرِجْ لنا ما يمكن معه أن نبقى معك؛ إلى أن يتم الوعد الّذي وعدك ووعدتنا، وهم يعلمون أنهم كانوا في بَرِّيَّة غير مُنْبِتة، وربما لم يكن قولهم هذا عن سآمة ولا أَجَمٍ من وَحْدَةِ

(1) ابنُ جُزيّ، التَّسهيل: 1/83.
(2) محمّد سيّد طنطاوي، التَّفسير الوسيط: 1/148.

الطعام، ولكنه نَزَقٌ وَبَطَرٌ، وَطَلَبٌ للخلاص مما يخشون على أنفسهم، ويؤيد ذلك ما هو معروف في أخبارهم"[1].

عِلَّةُ التَّعْبِيرِ عَنِ المَنِّ وَالسَّلْوَى- وَهُمَا اثْنَانِ- بِـ ﴿طَعَامٍ وَاحِدٍ﴾:

مِنْ عَظَمَةِ النَّصِّ القُرْآنِيِّ وَفْرَةُ المَعَانِي الصَّحِيحَةِ التِي يَحْتَمِلُهَا

في الإخبار عن المنِّ والسَّلْوَى- في قول الله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ﴾- بأنَّهما طعامٌ واحدٌ؛ أَوْجُهٌ[2]:

أوَّلها: أنَّهم كانوا يأكلون المنَّ بالسَّلْوَى مخلوطًا؛ فكان بهذا الاعتبار طعامًا واحدًا، ككثيرٍ من الأطعمة تُتَّخذُ من أطعمةٍ مختلفةٍ، ويكون لها اسمٌ واحدٌ.

ثانيها: أنَّ طعامَهُمْ المنُّ، وشرابَهم السَّلوى؛ فكانوا يجمعون بينهما في مائدة واحدة، فيأكلونَهُ طعامًا واحدًا، وهو قريبٌ من الأوَّلِ، وليس عَيْنَهُ.

ثالثها: أنَّ غذاءهم لـمَّا كان ثابتًا في كلِّ يوم لا يتغيَّر؛ قيل عنه: طعامٌ واحدٌ، كما يُقال للمُداوم على الصَّلاة والصَّوم: هُو على أمرٍ واحدٍ؛ لملازمتِهِ لِذَلِكَ لا يتغَيَّر عَنْهُ، ولو كان الَّذي يُلازِمُهُ متعدِّدًا. وكقولهم: طعامُ مائدةِ الأمير واحدٌ ، ولو كان أصنافًا شتّى، والمعنى: أنَّه لا يتبدَّلُ، ولا يتغيَّر باختلاف الأوقات.

فالمنّ والسّلوى طعامٌ واحدٌ بهذا الاعتبار؛ لكونِه لونًا واحدًا متكرِّرًا مستمرًّا لا يتغيَّر، فهو يُعْرَضُ بطريقةٍ واحدةٍ، والشَّيءُ المتكرِّرُ يُعدُّ شيئًا واحدًا، ولو تجدَّد، وتكرَّر.

رابعُها: أنَّهم جعلوه طعامًا واحدًا؛ لأنَّ المَنَّ وَالسَّلْوى مِن طعام أهل التَّلذُّذ والسَّرف، وكأَنَّ القومَ كانُوا فلَّاحينَ؛ فما رَغِبُوا إلا فِيمَا أَلِفُوه.

خامسُها: أنَّهما عُدَّا طعامًا واحدًا؛ لكونِهمَا طعامَيْنِ سمَاوِيَّيْنِ؛ فكانا بهذا الاعتبار جنسًا واحدًا.

سَادِسها: لأنَّ العربَ تُعَبِّر عنِ الاثنَيْنِ بلَفْظِ الواحدِ، كقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [التوبة: 34]، "والعَرَبُ تَفْعَلُ

(1) محمّد رشيد رضا، تفسير المنار: 1/274.

(2) الواحديّ، التَّفسير البسيط: 2/580، والثعلبي، الكشف والبيان: 3/336، وعبد القاهر الجرجاني، درج الدُّرر: 1/185، والآلوسي، روح المعاني: 1/274، والقِنَّوجي، فتح البيان: 1/181، ومحمّد أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 1/248-249.

ذلك، إذَا أَشْرَكُوا بين اثنين؛ قَصَرُوا، فخَبَّرُوا عن أحدهما اسْتِغْنَاءً بذلك وتخفيفًا؛ لِمَعْرِفَة السَّامع بأنَّ الآخَرَ قَد شاركه، ودخل معه في ذلك الخبر"[1].

نُكْتَةُ تَقْدِيمِ الجَارِّ وَالمَجْرُورِ (لَنَا):

شِدَّةُ حِرْصِ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى إِنْفَاذِ مَا يَشْتَهُونَ

تقديم الجارِّ والمجرورِ (لَنَا) من قول الله سبحانه: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾، يحتمل أن يكون دالًّا على الاختصاصِ؛ لأنَّ تقديم ما حقُّه التأخير يُفيدُ ذلك كثيرًا؛ لدفع توهُّم أنَّ موسى عليه السلام يُشاركهم في شيءٍ من تلك الكراهةِ.

ويحتمِلُ أنَّ تقديمَ الجارِّ والمجرور يُرادُ به الاهتمامُ؛ إظهارًا لشدَّةِ حرصِهِمْ على ما سألوه، والاحتمالان وارِدان، لاسيَّما أنَّهما مفهومانِ من كلامِ القومِ لا من معيَّنٍ.

سِرُّ اخْتِيَارِ اسْمِ اللهِ (الرَّبِّ) دُونَ اسْمِهِ (اللهِ):

مِنْ دِلَالَاتِ اسْمِ اللهِ (الرَّبِّ) إِحْسَانُهُ لِخَلْقِهِ وَإِنْعَامُهُ عَلَيْهِمْ

قالوا: ﴿فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾ دون (فادع لنا الله)؛ لما في (الرَّبِّ) من المعاني المناسبة لمطلوباتِهم؛ فإنَّهم طلبوا شيئًا من جنس الإحسانِ والإنعامِ، وهو ضربٌ من الطَّعام -بصرف النَّظر عن دونيَّتِه لما في أيديهم- ولذا كان الأنسبُ التَّعبير باسم الله (الرّبِّ)، فإنَّه دالٌّ على تربيتِهِ لخلقِهِ بالنِّعَمِ وإحسانِهِ إليهم بِصُنُوفٍ من الإحسانِ.

نُكْتَةُ التَّعْبِيرِ بِـ﴿فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾ دُونَ (ادْعُ لَنَا رَبَّنَا):

عَدَمُ خُلُوصِ العَقِيدَةِ عِنْدَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَعُدُولُهُمْ عَنِ الصِّدْقِ فِي النِّيَّاتِ

في التَّعبير عنهم بأنَّهم قالوا: ﴿فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾ دون أن يقولوا: (ادع لنا ربَّنَا) مع تَكرار هذه الصِّيغةِ مرَّاتٍ عديدةً: إيماءٌ إلى أنَّهم لم يرجعوا إلى الله تعالى بصدق النِّيَّةِ وخلوص العقيدةِ[2].

وكأنَّهم بتعبيرهم ذلك: لا يزالون في شكٍّ من أمر الله، وأنَّهم لا يَعُدُّونه ربًّا لهم بِقَدْرِ ما يعُدُّونَهُ ربًّا لموسى عليه السلام وحدَه، وفي هذا:

(1) أبو عبيدة، مجاز القرآن: 1/257.

(2) إسماعيل حقّي، روح البيان: 8/376.

جراءةٌ على مقام الرُّبوبيَّةِ، وجَحْدٌ لها، وهذا ليس أمرًا مستغربًا منهم؛ فقد سبق أن قالوا لموسى عليه السلام: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾[1].

وفيه أيضًا دلالة على جفاءٍ عظيمٍ مِنْهُمْ، حتَّى كأنَّهم متبرّئُونَ مِن ربوبيَّةِ الله تعالى لهم[2]

نُكْتَةُ العُدُولِ مِنَ التَّعْبِيرِ بِـ: (أَنْ يُخْرِجَ لَنَا) إِلَى التَّعْبِيرِ بِـ ﴿يُخْرِجْ﴾:

جُزِمَ الفعلُ (يُخْرِجْ) من قول الله تعالى: ﴿فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا﴾؛ لأنَّه على تقدير الجزاء، والمعنى: ادع لنا ربَّك؛ فإنَّك إنْ تَدْعُهُ؛ يُخْرِجْ، أو أنَّ المعنى: ادعُ لنا ربَّكَ، وقل له: أَخْرِجْ؛ يُخْرِجْ[3]، والثَّاني له نظائرُ كثيرة في القرآن الكريم، مِنْهَا قول الله سبحانه: ﴿قُل لِّعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ [إبراهيم: 31]، إذ التقدير: قُل لِّعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ أقيموا الصلاة يُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ، وأنفقوا.... ينفقوا.....، وقوله ﷻ: ﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُواْ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ﴾ [الإسراء: 53]، إذ التقدير: وَقُل لِّعِبَادِي: (قولوا ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ يقولوا)...

اليقينُ المعرفيُّ لا يُغني عن السُّلوكِ القويمِ

وجملة ﴿يُخْرِجْ لَنَا﴾ هي مضمونُ مطلوبهم مِنْ موسى عليه السلام أن يدعُوَ به، وكان مقتضى الظَّاهر أن يقال: (أن يُخرجَ لنا)، فعدلَ عنه إلى فعلٍ مضارعٍ مجزومٍ في صورةِ جوابِ طلبِهم؛ للإشارة إلى وُثُوقِهم بدعاء نبيِّهم، وأنَّه إن دعا ربَّه سبحانه أجابَهُ، حتَّى كأنَّ إخراجَ ما تُنْبِتُ الأرضُ يحصُلُ بمجرَّدِ دعائِهِ ربَّهُ[4].

وفي هذا تَحْرِيضٌ لَهُ عَلَى الدُّعاءِ، حتَّى كأنَّهُ إذَا لَم يفعل؛ فقد بَخِلَ عَلَيْهِم بما فيهِ منفَعَتُهم[5].

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/152، ومحمّد المكّيّ النّاصريّ، التَّيسير في أحاديث التَّفسير: 1/49.
(2) ابن عثيمين، تفسير الفاتحة والبقرة: 1/211.
(3) الواحديّ، التَّفسير البسيط: 2/581، وابن عثيمين، تفسير الفاتحة والبقرة: 1/211.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/522.
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/522.

المَجَازُ العَقْلِيُّ فِي قَوْلِهِ: ﴿تُنۢبِتُ ٱلۡأَرۡضُ﴾:

الاعْتِدَاد بالمَادِّيَّات يُضعفُ التَّوكُّلَ على الله

إسنادُ الإنباتِ إلى الأرضِ في قوله تعالى: ﴿تُنۢبِتُ ٱلۡأَرۡضُ﴾ إسنادٌ مجازِيٌّ، من إقامة القابِلِ مُقامَ الفاعل؛ إذ المُنْبِتُ حقيقةً هو اللّه ﷻ، لكنْ لـمَّا جُعِلَت في الأرضِ قابليَّةُ الإنباتِ؛ نُسِبَ الإنباتُ إليها[1]، ونُكتة هذا الإسنادِ الإيماءُ إلى إغراقِهم في الاعتداد بالمادِّيَّاتِ.

نُكْتَةُ فَصْلِ جملة: ﴿قَالَ أَتَسۡتَبۡدِلُونَ﴾ عَمَّا قَبْلُ:

تثويرُ الاِسْتِئْنَافِ البَيَانِيِّ لذهنِ المُتَلَقِّي

فُصِل قول اللّه ﷻ: ﴿قَالَ أَتَسۡتَبۡدِلُونَ ٱلَّذِي هُوَ أَدۡنَىٰ بِٱلَّذِي هُوَ خَيۡرٌۚ﴾ عمَّا قبلُ؛ لأنَّه استئنافٌ بيانيٌّ ناشئٌ عن سؤال أورَثَتْهُ الجملةُ السَّابقةُ؛ وهي قول اللّه سبحانه: ﴿فَٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُخۡرِجۡ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلۡأَرۡضُ مِنۢ بَقۡلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَاۖ﴾، فكأنَّه قيل: إنَّ هذا الطلب منهم لعجيب، فبمَ أجابهم موسى عليه السلام؟ فجاء الجواب: ﴿قَالَ أَتَسۡتَبۡدِلُونَ﴾[2].

وكون قائلِ ذلك هو موسَى نفسُه عليه السلام هو الأنسبُ بسياقِ النَّظْمِ، ويحتَمِلُ أن يكون القائلُ لهم ذلك اللّه تعالَى؛ لكون المقامِ مقامَ تَعْدَادِ النِّعَمِ[3].

دلالة الاِسْتِفْهَامِ فِي قَوْلِهِ: ﴿أَتَسۡتَبۡدِلُونَ﴾:

طلبُ الأدنى مع تحقُّقِ الأعلى قلَّةُ توفيقٍ

الاستفهام في قول اللّه سبحانه: ﴿أَتَسۡتَبۡدِلُونَ ٱلَّذِي هُوَ أَدۡنَىٰ بِٱلَّذِي هُوَ خَيۡرٌۚ﴾ يُرادُ به الإنكارُ مع التَّوبيخ[4]؛ وذلك لرغبتِهم عَنِ الطَّعام الألذِّ، الواصلِ لهم مِن عند اللّه تعالى من دونِ واسطةِ أحدٍ، وهو في الحِلِّ بمنزلةٍ لا تتطرَّقُ إليه شُبْهَةٌ، ولا كُلفةَ ولا تعبَ في تحصيلِهِ[5].

---

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 1/375، والبيضاويّ، أنوار التَّنزيل: 1/84، وأحمد الكورانّي، غاية الأماني: 1/455.

(2) البقاعِيّ، نظم الدّرر: 1/414.

(3) الآلوسّي، روح المعاني: 1/275.

(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 1/377، والقِنَّوجيّ، فتح البيان: 1/182.

(5) القِنَّوجيّ، فتح البيان: 1/182.

نُكْتَةُ التَّعْبِيرِ بِالْهُبُوطِ:

دَنَاءَةُ الطلبِ تدلُّ على دناءَةِ النُّفُوسِ

يُستعمَلُ الهبوطُ لإرادة النُّزول من مكانٍ عالٍ إلى أسفلَ، ويُطلق مرادًا به الخروجُ من أرضٍ إلى أرضٍ مطلقًا، وهذا الإطلاقُ مجازٌ[1]، والظَّاهرُ أنَّ هذا المعنَى المجازيَّ هو المرادُ من قول الله تعالى: ﴿ٱهۡبِطُواْ مِصۡرٗا﴾، ونُكْتَةُ التَّعبير بالهبوطِ ههنا: الإيماءُ إلى دناءَةِ ما طلبُوه مقارنةً بالذي هُم فِيه.

دلالة الأَمْرِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ٱهۡبِطُواْ مِصۡرٗا﴾:

مَن غفلَ عن نعمةِ الله، هبطَ في الغفلةِ

الأمر في قول الله سبحانه: ﴿ٱهۡبِطُواْ مِصۡرٗا﴾ يُرادُ به الإباحةُ المشوبَةُ بالتَّوبيخِ؛ أي: إن كان هذا همَّكم؛ فاهبِطوا، والتَّوبيخُ من أجلِ تذكُّرهم أيَّامَ ذلِّهم وتَعَبِهم، وتمنِّيهم العَوْدَةَ إلى تلكِ العِيشَةِ، "كأنَّه يقول لهم: ارْجِعوا إلى ما كنتم فيه؛ إذْ لم تَقْدُروا قدرَ الفضائلِ النفسيَّةِ ونعمةِ الحريَّة والاستقلال"[2].

وذهب جماعةٌ إلى أنَّ الأمرَ يُرادُ به التَّعجيزُ؛ لأنَّهم كانُوا في التِّيه، فأمْرهم بهبوطِ مِصْرٍ مِنَ الأمصارِ أو بلادِ مصْرَ لا يُرَادُ به إلَّا التَّعجيزُ؛ إذِ المقام مقام إظهار عجزِهم عَن هذا الهبوطِ؛ لانسداد الطُّرق عَلَيْهِم؛ فإنَّهم لو عرَفوا طريقًا إلى شيءٍ مِن ذلك؛ لما بَقَوْا أربعين سنةً حائرين لا يهتدونَ إلى سبيلٍ مِنَ السُّبُلِ[3].

دلالة (مَا) فِي قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلۡتُمۡۗ﴾:

(مَا) في قول الله سبحانه: ﴿فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلۡتُمۡۗ﴾ اسمٌ موصولٌ بمعنى الذي، وقد حُذِفَ عائدُهُ، أي: فإنَّ لكم الذي سألتمُوهُ[4]، والإتيان بالاسم الموصول يُرادُ به: الإيماءُ إلى حقارةِ ما سألُوه بالنِّسبةِ إلى الذي رُزِقُوهُ مِن المنِّ والسَّلْوَى.

---

(1) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 3/338.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/524-525.

(3) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 1/429، والقِنَّوجي، فتح البيان: 1/182.

(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 1/380.

بَلَاغَةُ الِاسْتِعَارَةِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ﴾:

انْغِمَاسُ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الذِّلَّةِ وَالمَسْكَنَةِ انغِمَاسًا كُلِّيًّا

في قول الله تعالى: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ﴾ استعارةٌ؛ إذ شُبِّهت الذلَّةُ والمَسْكَنَةُ في الإحاطة بهم واللُّزوم؛ بالقُبَّة المضروبةِ ليَلْزَمَهَا ساكنُهَا، فتكون محيطةً به، وهي استعارةٌ بالكنايةِ؛ ونُكْتَتُها: الإشعارُ بأنَّهم بلغُوا في الذِّلَّة والمسكنَةِ مبلغًا عظيمًا، حتَّى كأنَّهم منغمسونَ فيهما انغماسًا كلِّيًّا، وهما محيطَتانِ بهم من كلِّ جِهَةٍ[1].

أو أنَّه قد شُبِّهَ لزومُ الذِّلَّة والمسكنةِ ولصوقُهما بلصوقِ الطِّين بالحائطِ[2]، وهذا مُشْعِرٌ بدَرَكِ الذِّلَّةِ والمسكنةِ التي وصلُوا إليهما، وفيه ضربٌ مِنَ الإذلالِ لهم ما ليس في الوجه الأوَّلِ؛ إذِ الطِّين الذي يُرادُ لصوقُهُ بالحائطِ يُرْمَى به تُجَاهَهُ؛ ليشتدَّ تعلقُّه به، فكذلك هؤلاءِ قد ارتَمَوْا في الذِّلّة والمسكنةِ ارتماءً، فلزِمُوهُمَا.

ويحتمل أن يكون ذلك مِن قولهم: ضُرِبَ عليه كذا؛ إذا أُلْزِمَهُ، كما يُضرَب المِسْمَارُ على الشَّيءِ، فيلزمُهُ[3].

والأوَّلُ أشْهَرُ في العربيَّةِ، ولا مانعَ من تضمينِ هذه المعاني جميعًا؛ لعدم التَّعارُضِ بينهَا، ولاشتراكِهَا في أصل المعنَى، وهو اللُّزومُ.

وتخريج الأسلوبِ الآنِفِ الذِّكْرِ على الاستعارةِ، لا ينافي -بالنَّظَرِ إلى لازمِ المعنى- كونَهُ كنايةً عن كونهم أذلَّاءَ صاغِرينَ[4]، كقول زيادٍ الأعجَمِ[5]:

إِنَّ السَّمَاحَةَ وَالمُرُوءَةَ وَالنَّدَى *** فِي قُبَّةٍ ضُرِبَتْ عَلَى ابْنِ الحَشْرَجِ

(1) الرّازي، مفاتيح الغيب: 3/534، وأبو حيّان، البحر المحيط: 1/380، وابن النَّجيد، حاشية على تفسير البيضاوي: 3/342، والبقاعي، نظم الدّرر: 1/417، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/527.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/527.

(3) الواحديّ، التَّفسير البسيط: 2/589.

(4) أحمد الكورانيّ، غاية الأماني: 1/458-459، والآلوسّي، روح المعاني: 1/276، ومحمد علي جميل، صفوة التَّفاسير: 1/55.

(5) شعر زياد الأعجم، تح: يوسف بكّار، ص: 49، والنُّويريّ، نهاية الأرَب: 7/60.

نُكْتَةُ بِنَاءِ الفِعْلِ لِمَا لَمْ يُسَمَّ فَاعِلُهُ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ﴾:

تعليمُ مُرَاعَاةِ الأَدَبِ مَعَ اللهِ تَعَالَى فِي الأَلْفَاظِ

بِنَاءُ الفعل لِمَا لم يُسَمَّ فاعلُه (وَضُرِبَتْ) في قوله سبحانه: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ﴾، فيهِ تعظيمٌ للّه تعالى ومراعاةٌ لِلْأدبِ معَهُ سُبحانه، ولأنَّ هذا الْبِنَاءَ مُشعرٌ بالعمُوم، فيشمَلُ إذلالَ اللّهِ تعالى لهم، وإذلالَ النَّاسِ لهم، وقد جرت عادة القرآن على نسبة الخير إلى اللّه ونسبة الشَّرِّ إلى غيره، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة: 7]، حيث صرَّح بالخِطاب عند ذِكر النِّعمة فقال: أَنْعَمْتَ عليهم، ثم زَوَى لفظ الغضب عن اللّه تعالى أدبًا ولُطفًا؛ فلم يقل: غَضِبْتَ عليهم، ويُشيرُ إلى هذا قولُ النَّبيِّ ﷺ: «لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ، وَالخَيْرُ كُلُّهُ فِي يَدَيْكَ، وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ»[1].

سِرُّ تَنْكِيرِ الغَضَبِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾:

عِظَمُ العَذَابِ مِنْ عِظَمِ الجُرْمِ

تنكيرُ الغضبِ في قول اللّه سبحانه: ﴿وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ يُرادُ به التَّعظيمُ والتَّفخيمُ، فهم قد باؤُوا بغضبٍ عظيمٍ؛ لعِظَمِ جُرْمِهم وشناعَةِ صنيعِهم، وجرأتِهِمْ على الملك الأعْظَم.

وزَادَ الغضبَ دلالة على التَّعظيم وصفُهُ بـ ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾؛ فإنَّ الجارَّ والمجرور متعلِّقٌ بمحذوفٍ صفةٌ لـ (غَضَبٍ)، فأفاد مجموعُ ذلك: كونَهم باؤُوا بغضبٍ مؤكَّدٍ؛ فقد اجتمعت الفخامةُ الذَّاتيَّة المستفادة من تنكير الغضب، والفخامةُ الإضافيَّةُ المستفادةُ مِن إضافتها إلى الاسمِ الأحسَنِ ﴿ٱللَّه﴾[2].

---

(1) رواه مسلم، حديث رقم: (771).

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 1/419، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 1/107، والآلوسّي، روح المعاني: 1/277.

سِرُّ تَرْتِيبِ العُقُوبَاتِ الحَالَّةِ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ:

تَرْتِيبُ العُقُوبَاتِ موافقٌ لترتيبِ المعاصي

جاءت العقوباتُ الواقعة على بني إسرائيل مرتَّبَةً بنسقٍ فريدٍ، وذلك في قوله سبحانه: ﴿وَضُرِبَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلۡمَسۡكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٖ مِّنَ ٱللَّهِۚ﴾؛ فبُدِئَ بضرب الذِّلَّة، ثم بِضرب المسكنةِ، ثم ذُكر غضب الله تعالى عليهم، وهو ترتيبٌ للعقوباتِ على وجهِ التَّرقِّي، أي: الشَّديد فالأشدّ.

فأوَّلها: الذِّلَّةُ؛ وهو هوانٌ تجيءُ أسبابهُ من الخارجِ؛ كأن يُغلبَ المرءُ على أمره؛ جرَّاء انتصارِ عَدُوٍّ عليه، فيصير ذليلًا لهذا العدُوِّ.

وثانيها: المسكنةُ؛ وهي هوان ناشئٌ من داخل النَّفسِ، جرَّاء بُعدها عن الحقِّ واستيلاءِ الباطلِ عليها، فالمسكنةُ بهذا الاعتبارِ أشدُّ.

وثالثُها: غضَب اللهِ تعالى عليهم؛ وهذا أشدُّ عقوباتِهم[1].

وهذا التَّدرُّجُ في التَّرْتِيبِ أوقعُ في النَّفْسِ وأرهَبُ للقَلْبِ.

تَوْجِيهُ المُتَشَابِهِ اللَّفْظِيِّ فِي تَقْدِيمِ المَسْكَنَةِ عَلَى الغَضَبِ وَالعَكْسِ:

بَـرَاعَـةُ النَّـظْـمِ الـقُـرآنِيِّ في الـتَّـقْـدِيـمِ والتَّأخيرِ

وردَ في الآية التي بين أيدينا من سورة البقرة تقديمُ المسكنَةِ على الغضب؛ إذ قال سبحانه: ﴿وَضُرِبَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلۡمَسۡكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٖ مِّنَ ٱللَّهِۚ﴾، وورد في سورة آل عمرانَ تقديمُ الغضبِ على المسكنة؛ إذْ قال سبحانه: ﴿ضُرِبَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيۡنَ مَا ثُقِفُوٓاْ إِلَّا بِحَبۡلٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبۡلٖ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَسۡكَنَةُۚ﴾ [آل عمران: 112]، ووجهُ تَقْدِيمِ المَسْكَنَةِ عَلَى الْغَضَبِ وَالعَكْسِ: أنَّهم لَمَّا تقدَّم في سورة البقرة ذكرُ سؤالِهم عن ما فيه خسَّةٌ في المأكل، وما يستلزمُ ذلك مِنَ الذّلّ والصَّغار؛ إذ طلبوا الأدنى؛ لِيَعْتَاضُوا به عمَّا هو خيرٌ؛ ناسبَ ذلكَ أن تُذكر المسكنَةُ، ثُمَّ أعقبها بما باؤوا به مِن غضب الله تعالى، بخلاف الذي في سورة آل

(1) محمّد سيّد طنطاوي، التَّفسير الوسيط: 1/153.

عمران؛ فإنَّ قبلَهُ: ﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى ۖ وَإِن يُقَٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾ [آل عمران: 111]، فكان الأنسبُ تقديمَ ما لا نُصرةَ لهم معه ولا فلاحَ؛ وهو ما باؤوا به مِن غضَبِ اللّه سبحانه، فكان كلُّ موضعٍ ملائمًا للسِّياقِ الواردِ فيه[1].

نُكْتَةُ فَصْلِ جملةِ ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ﴾ عَمَّا قَبْلُ:

فَائِدَةُ الِاسْتِئْنَافِ الْبَيَانِيِّ فِي إِظْهارِ العللِ المسؤولِ عنها

فُصِل قول اللّه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ عمَّا قبلُ؛ لكونِه استئنافًا بيانيًّا، فالجملةُ ناشئةٌ عن سؤالٍ أورَثَهُ ما ذُكِرَ ممَّا شُنِّعَ عليهم بهِ من لزوم الذِّلَّة والمسكنَةِ[2]، والتَّقدير: ما سبَبُ هذه العقوبةِ الفظيعَةِ؟ فجاء الجواب: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾.

دلالة اسْمِ الإِشَارَةِ ﴿ذَٰلِكَ﴾:

عِظَمُ العقُوبَةِ بحسَبِ فظَاعَةِ الذَّنْبِ

اسمُ الإشارةِ ﴿ذَٰلِكَ﴾ من قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ دالٌّ على البُعْدِ، وفيه إيماءٌ إلى عِظَمِ الأمرِ الذي حلَّ بهم وفظاعَتِهِ؛ مِنَ ضربِ الذِّلّة والمسكنةِ والبَوءِ بالغضبِ العظيم.

ويحتمِلُ أن تكون الإشارةُ إلى اهتمامِهم بأمر المعاش واعتنائهم بشهوات النُّفوس، وبناءً عَلَيْهِ؛ فالإشارةُ دالَّةٌ على البُعْدِ في الانحطاطِ؛ لخسَّةِ مطلوبَاتِهم[3].

نُكْتَةُ التَّعبير بالفعلِ المُضَارع ﴿يَكْفُرُونَ﴾:

بُلُوغُ اليَهُود في العِنَاد مبلَغًا عَظِيمًا حتَّى صار مِن جُملة طِبَاعِهِم

التَّعبير بالفعل المضارع (يَكْفُرُونَ) في قوله سبحانه: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾؛ لإفادة التَّجدّد والاستمرار، أي: أنَّهم مستمرّون في كفرهم بآيات اللّه تعالى ماضُونَ في ذلك، متجدِّدٌ هذا الكُفْرُ فيهم؛ كلَّما تَجدَّدت آياتُ اللّهِ سبحانَهُ، وهذا غايةٌ في العناد.

(1) ابن الزّبير الغَرناطيّ، ملاك التَّأويل: 1/40-41.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتّنوير: 1/529.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 1/419، والآلوسّي، روح المعاني: 1/277.

ويُؤَيِّدُهُ: التَّعبير بـ ﴿كَانُواْ﴾، مُشْعِرَةً بأنَّه ديَدَنُهم في الماضي، وهم مستمرُّون فيه، حتَّى صار طبعًا لهم وجِبِلَّةً وخُلُقًا قائمًا بهم[1].

فَائِدَةُ الإِضَافَةِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾:

إضافةُ الآياتِ إلى الاسم الأحسن ﴿ٱللَّهِ﴾ في قوله سبحانه: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَانُواْ يَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ يُرادُ به زيادةُ التَّشنيعِ عليهم؛ إذ الكفرُ بما جاء عَنِ العظيم الجليل بالغٌ في الشَّناعةِ غايَتَها[2].

الكُفْرُ بِمَا جاءَ عَنِ العَظِيمِ عَظِيمٌ

ويزيدُ الأمرَ شناعةً جمعُ الآياتِ؛ فهم إن كَفَرُوا بآية واحدةٍ من آيات اللّه تعالى كان ذلك شنيعًا، فكيف، وقد كفروا بآياتٍ؟

سِرُّ تَقْيِيدِ قَتْلِ النَّبِيِّينَ بِكَوْنِهِ ﴿بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ﴾:

فائدةُ تقييد قتلهم النَّبيِّين بغير الحق في قوله تعالى: ﴿وَيَقۡتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ﴾ مع أنَّ قتل النبيِّ لا ينقسم إلى قتلٍ بحقٍّ وقتل بغير حقٍّ، بل ما وقع مِن قتلهم، إنَّما هُوَ بغير حقٍّ قطعًا؛ لِما عُلِمَ بالاضطرارِ من أنَّ النبيِّين معصومونَ من أن يصدرَ منهم شيءٌ يستحقُّون القتلَ بسببِه، وإنَّما جيءَ بهذا القيد ﴿بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ﴾ لنِكَاتٍ[3]:

أوَّلها: أنَّ ذلك على سبيل التَّأكيد، كالوارد في قول اللّه تعالى: ﴿وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: 46]، وكقوله سبحانه: ﴿وَمَن يَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرۡهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓۚ﴾ [المؤمنون: 117].

ثانيها: تعظيمُ جرُمهم وذنبِهم الذي أتوهُ وتقبيحُهُ، وزيادةٌ في تشنيع عدوانِهم.

قَبِيحُ جُرمِ اليهُود وشناعَةُ عُدوانِهم علَى أَنْبِيَائِهم

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 1/420.

(2) الآلوسّي، روح المعاني: 1/277.

(3) الرَّازي، مفاتيح الغيب: 3/534-535، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 1/432، وأبو حيَّان، البحر المحيط: 1/382-383، والبقاعي، نظم الدّرر: 1/421، والقُونَوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 3/347-348، والآلوسيّ، روح المعاني: 1/277، والسّعدي، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 53، ومحمد علي جميل، صفوة التّفاسير: 1/55.

ثالثها: أنَّ قتل الأنبياء، وإن كان لا يقع إلَّا بغير حقٍّ، إلَّا أنَّ هذا لا ينفي أن تكُون ثَمّةَ شبهةٌ؛ كظَنِّ تَنَبُّئِهِمْ، فوقع ذَمُّ هؤلاءِ على الإقدام علَى إراقة الدَّم مع علمهم بصدقِ نُبُوَّتِهِمْ، وذلك أنَّ الباطِلَ قد يأتيه أحدٌ ما معتقدًا كونَهُ حقًّا؛ لشبهة وقعت في قلبِه، وقد يأتيه عالمًا بكونِه باطِلًا، والثَّاني أقبَحُ، أي: أنَّهم قتَلُوا النبيِّين دون أن يكون قتلُهُم لَهُمْ حقًّا في اعتقادهم وظنِّهم، بل كانوا عالِمين بشناعتِهِ وقُبحه، ومع ذلك فقد أقدمُوا عَلَيْهِ.

نُكْتَةُ عَطْفِ قَتْلِ النَّبِيِّينَ عَلَى الكُفْرِ بِآيَاتِ اللهِ:

التَّرقِّي في ذِكْرِ العظَائِمِ المُوجِبَةِ لِلْعَذَاب

عطفُ قتلِ النَبيِّين على الكفر بآياتِ اللّه تعالى في قول اللّه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقۡتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۚ﴾ يحتملُ أن يكون من باب عطفِ الخاصِّ على العامِّ؛ لكونِ قتل النَّبيِّ من جملةِ الكفرِ العَمَلِيِّ الذي يُضادُّ الإيمانَ[1]، ويكون نُكتةُ هذا العطفِ الإشعارَ بشناعَةِ قتلِ النبيِّينَ؛ لأنَّه أمرٌ زائدٌ على الكفر بآيات اللّهِ تعالى؛ لأنَّه لا يُقْدِمُ على قتلِ النَّبيِّ إلَّا كافرٌ بآيات اللّهِ سبحانه، وليس كلُّ من كفر بآيات اللّه ﷻ يقتلُ نبيًّا؛ فكان قتلُ النَّبيِّ بِهَذَا الاعتبار أشنعَ وأقبَحَ.

ويحتَمِلُ أن يكون من عطفِ المتباينَيْنِ، كما مال إليه الفَخْرُ[2].

وعلى كلَا الوجهين فالعطفُ من بابِ التَّرقِّي؛ بذكر الجُرمِ، ثُمَّ الذي هو أعظَمُ، بالاعتبار الذي تقدَّمَ.

تَوْجِيهُ المُتَشَابِهِ اللَّفْظِيِّ:

دِقَّةُ البَيَانِ القُرْآنِيِّ في انتِقَاءِ الألفَاظِ والأبنِيَةِ المُنَاسِبَةِ لِلسِّيَاق

وردَ ههنا قول اللّه تعالى: ﴿وَيَقۡتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۚ﴾، وجاء في سورة آل عمران نظيرُها في المعنى مع اختلاف اللَّفظِ وهو قول اللّه سبحانه: ﴿وَيَقۡتُلُونَ ٱلۡأَنۢبِيَآءَ بِغَيۡرِ حَقّٖۚ﴾ [آل عمران: 112]، والفرق بينهما مِنْ وَجْهَيْنِ:

(1) ابن القيّم، الصّلاة وأحكام تاركها، ص: 57.

(2) الرّازي، مفاتيح الغيب: 3/534.

أحدهما: أنَّ الجمعَ في سورة البقرةِ جمعُ مذكر سالم، وفي آل عمرانَ جمعُ تكسيرٍ.

الآخر: أنَّ الحقَّ في سورة البقرة وردَ معرَّفًا، وفي آل عمران جاء مُنَكَّرًا.

وتوجيه ذلك أن يُقالَ[1]:

أوَّلًا: المغايرة بين جمع (النَّبيِّ) جمعَ مذكر سالم وجمعِهِ جمعَ تكسيرٍ.

أنَّ آيةَ آلِ عمران المتقدِّمَ ذكرُها جاءت في سياقٍ أشدَّ ذمًّا وتشنيعًا مِنَ الواردِ في سورة البقرة، وقد دلَّ على ذلك أنَّ الله تعالى جَمَعَ لَهُم في سورة البقرة بينَ الذِّلّة والمسكنة، فقال سبحانه: ﴿وَضُرِبَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلۡمَسۡكَنَةُ﴾، بخلاف ما في آل عمران؛ فقد جاء ذلك مكرَّرًا ومؤكّدًا، فقال تعالى: ﴿ضُرِبَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلذِّلَّةُ﴾ و ﴿وَضُرِبَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَسۡكَنَةُۚ﴾، وجاء أيضًا على وجه التَّعميم، فقال ﷻ: ﴿ضُرِبَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيۡنَ مَا ثُقِفُوٓاْ﴾، فلمَّا كان السِّياقُ في آل عمرانَ أشدَّ ذمًّا وتشنيعًا؛ كان الأنسب أن يُجمعَ النَّبيُّ جمعًا دالًّا على الكثرة، فجُمِعَ جمع تكسير ﴿ٱلۡأَنۢبِيَآءَ﴾، أي: يقتلون العدد الكثير من الأنبياء بغير حقٍّ، بخلاف ما في البقرة؛ فجاء جمعًا دالًّا على القلَّةِ بإيرادِهِ جمع مذكر سالم (لِّنُبَيِّنَ).

ثانيا: المغايرَةُ بين تعريف الحقِّ وتَنْكِيرِه، وفي ذلك ثلاثةُ أوجهٍ:

أحدهما: أنَّ ما في سورة البقرة يُشير إلى الحقِّ الذي أذِنَ الله تعالى أن تُقتلَ النَّفْسُ به، وهو المرادُ بقوله سبحانه: ﴿وَلَا تَقۡتُلُواْ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۚ﴾ [الأنعام: 151]، فكان الأَوْلَى ذِكره معرّفًا؛ لأنَّه مِنَ الله ﷻ، وما في آل عمرانَ يُرادُ به: بغيرِ حقٍّ في اعتقادِهم، فكان هذا أولَى بالتَّنكيرِ.

الثاني: أنَّ المرادَ بالحقِّ في سورة البقرة ما تقدَّمَ في الوجه الأوَّلِ، وأمَّا الحقُّ المُنكَّر في سورة آل عمران؛ فالمراد به: تأكيدُ العموم ، فإنَّه نكرةٌ في سياق النَّفي، فتعمُّ، أي: لَم يَكُنْ ثَمَّ حقٌّ، لا الذي أذِنَ الله تعالى أن تُقتل النَّفسُ به -وهو: الكفرُ بعدَ الإيمانِ، والزِّنا بعد الإحصان، وقتلُ نفسٍ عمدًا عدوانًا- ولا غيرُهُ البتَّة.

الثالث: أنَّ مقام التَّشنيعِ والذَّمِّ في سورة آل عمرانَ أقوَى وأظهرُ مِنْهُ في سورة البقرةِ -وكلاهما ذمٌّ وتشنيعٌ-، فجِيءَ بالتَّنكير في مقام المبالغة في ذمِّهم وزيادةِ التَّشنيعِ عَلَيْهِم.

(1) الرّازي، مفاتيح الغيب: 3/535، ومحمود الكرمانّي، البرهان في توجيه متشابه القرآن، ص: 75-74.

نُكْتَةُ التَّعْبِيرِ بِالفِعْلِ المُضَارِعِ ﴿وَيَقْتُلُونَ﴾:

مِن قبَائِحِ اليهُودِ دوامُ سَعْيِهم في قَتْلِ الأنبِيَاءِ

جاء التَّعبير عَن قَتْلهم النَّبيِّين بصيغة المضارعِ في قول الله تعالى: ﴿وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾، وفي ذلك نُكْتَتَانِ[1]:

إحداهما: استحضارُ تلك الصُّورة الشَّنيعةِ الذَّميمةِ.

والأخرى: الدّلالة على تجدُّدِ القتل فيهم؛ كُلَّما جَدَّ فيهم نَبِيٌّ، وهذا غايةٌ في القُبْحِ والفظاعَةِ، بل إنَّ فيه إيماءً إلى أنَّهم كانُوا يَسْعَوْنَ في قتل النَبِيِّ محمَّدٍ ﷺ.

دلالة اسْمِ الإِشَارَةِ ﴿ذَٰلِكَ﴾:

شَنَاعَةُ الكُفْرِ بآياتِ اللهِ تعالَى وفَظَاعَةُ قَتْلِ النَّبِيِّ

اسمُ الإشارةِ (ذلك) من قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ﴾ الدَّالُّ على البَعِيدِ، فيه إشارةٌ على الأمر العظيمِ الصَّادر مِنْهُمْ مِنَ الكُفْرِ والقتلِ[2].

نُكْتَةُ ذكرِ (كَانُوا) مِنْ قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ﴾:

العِصْيَانُ وَالِاعْتِدَاء طَبْعَانِ فِي اليَهُودِ

ذكرُ (كَانُوا) في قول الله سبحانه: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ﴾؛ للتَّنبيه على دوامِ اعتدائِهم واستمرارِهم فيه.

وانضمَّ إلى دلالة (كَانُوا) على الدَّوام والاستمرار: الإتيانُ بـ ﴿يَعْتَدُونَ﴾ بصيغة المضارعِ؛ فأفادَ مجموعُ ذلك: أنَّهم مداومون على الاعتداء، مستمرُّونَ فيه، وأنَّ ذلك أمرٌ متجَدِّدٌ فيهم، حتَّى صار طبعًا وجِبِلَّةً لهم[3].

حُسْنُ التَّرْتِيبِ:

دِقَّةُ البَيَانِ القُرآنِي في تَرْتِيبِ المَعْطُوفَاتِ

ذَكَر اللهُ سبحانه علَّةَ إنزالِ العقوبة بهم، فَعدَّدَ جرائمَهم قائلًا: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ﴾، وهذا في غاية الحسن في التَّرتيب،

(1) أحمد الكورانّي، غاية الأماني: 1/459-460.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 1/421.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 1/421.

فإنَّهُ بدأ بما فعلوه في حقِّه سبحانه، وهو جحدُهم لآيات الله ﷻ، ثُم ثنَّاه بما هو أعظَمُ؛ وهو قتلُ الأنبياء -لكون قاتل النَّبيِّ جاحدًا لآيات اللهِ تعالى، فيكون جامعًا بين مُوجبَيْن من موجباتِ الكفر- ثُمَّ ذكر سببَ ذلك وهو صُدُورُ المعاصي عنهم، والاعتداء على الآخرين[1].

فَائِدَةُ ذِكْرِ الِاعْتِدَاءِ بَعْدَ الْعِصْيَانِ:

تَعْدَادُ الْمُخَالَفَاتِ أَدْخَلُ فِي التَّقْرِيعِ وَالتَّبْكِيتِ

ذِكْرُ الاعتداءِ بعدَ العصيان في قوله سبحانه: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ﴾ تأكيدٌ بتَكْرَار الشَّيء بغير لفظِهِ الأوَّلِ؛ بيانًا لعلَّةِ الجزاءِ المذكورِ قبلُ، وفيه: زيادَةُ التَّبكيتِ والتَّقريعِ، فهو كقول الرَّجُلِ لخادِمِهِ وقد صدرت منه مخالفاتٌ من قبلُ، ثمَّ عاقبَهُ سيِّدُهُ عند آخرها: هذا بما عصيتَني، وخالفتَ أمري، أو يقول: هذا بما تجرَّأتَ على مخالفتِي، واغترزْتَ بحِلْمِي، ونحو هذا؛ فيُعَدِّدُ عليه مخالفاتِهِ بألفاظٍ متغايرةٍ بيانًا لعلَّةِ العقابِ، وتبكيتًا له وتقريعًا[2]، وهو انتقالٌ من المعاصي العامَّة، إلى المعاصي التي فيها اعتداءٌ على حقوقِ النَّاسِ.

بَلَاغَةُ اللَّفِّ وَالنَّشْرِ:

جَمْعُ الْيَهُودِ بَيْنَ الْجَرَائِمِ إِمْعَانٌ مِنْهُمْ فِي الْعِصْيَانِ

في قول الله سبحانه: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ﴾ لفٌّ ونَشْرٌ مُرتَّبٌ، فإنَّ العصيانَ راجعٌ إلى كفرِهم بآيات الله تعالى، والاعتداءَ عائدٌ إلى قَتْلِ النَّبيِّين؛ ووجهُ ذلك أنَّ الاعتداءَ ههنا يُرادُ به الإمعانُ في العِصيانِ، وهو مناسبٌ لقتل النَّبيِّين؛ لأنَّهُ أشنعُ وأقبحُ مِنَ الكُفر بآيات اللهِ تعالى، من جِهَة أنَّ قاتِلَ النَّبيِّ لا يكونُ إلَّا كافرًا بآيات اللهِ سبحانه، فيكون قد جمع بين جُرمَيْنِ إمعانًا في العصيانِ.

(1) الرّازي، مفاتيح الغيب: 3/535.

(2) الرَّازي، مفاتيح الغيب: 3/535، وهْبَة الزُّحيلي، التَّفسير المنير: 1/173.

الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

بَدَّلَ وَأَبْدَلَ:

ذهب جماعةٌ من أهل العلم إلى أنَّ التَّبديل والإبدالَ بمعنًى واحدٍ، ومثلُهما: الاستبدالُ؛ ومعنى الجميع: جعل شيءٍ مكان آخر[1].

وفرَّق آخرونَ بين التَّبديل والإبدال[2] بأنَّ التَّبديلَ: التَّغييرُ مِن غير إزالة العين، بخلاف الإبدال؛ فإنَّه تغييرٌ معَ إزالةِ العَين، وهو معنى قول أبي العبَّاس ثعلب: "التبديل: تغييرُ صورةٍ إلى صورة أخرى، والجوهرةِ بعَيْنِها، والإبدالُ: تنحيةُ الجوهرةِ، واستئنافُ جوهرةٍ أخرى"[3]، وهذا هو المشهورُ في الفَرْقِ بَيْنَهُما.

وفرَّق جماعةٌ من أهل العلم بينَهُما مِن وجهٍ آخر[4]؛ وهو أنَّ التَّبديلَ: التَّغييرُ، وإن لم يُؤتَ بِبدَلِهِ، بخلاف الإبدال: هو التَّغييرُ مع الإتيان بِبَدَلِهِ، فالتَّبديلُ أَعمُّ -عَلَى هذَا- عمومًا مطلقًا.

الذِّلَّةُ وَالصَّغَارُ:

الذّلّة والذّلّ: الخضوع واللّين والانقياد، وأمَّا الصَّغارُ؛ فهو القِلّة والحقارة والهَوَان.

وهُمَا يشتركان في مطلق الخُضوع والهَوان، ويَفْتَرِقانِ مِن وجهين[5]:

أحدهما: أنَّ الصَّغارَ: هو الرِّضا بهذا الهوانِ والمنزلة الدَّنيَّةِ، أو هو الانْحِطاط إلى تلك الرُّتبة بعد عِزٍّ وشرفٍ، وأمَّا الذّلّة: فلا تستلزم الرضا، فتكون الذِّلَّةُ من هذه الحيثية أعَمَّ.

ثانيهما: أنَّ في الذّلّةِ معنى القَهْرِ بقُوَّة خارجيَّةٍ، بخلاف الصَّغارِ؛ فلا يلزَمُ أن يكونَ فيه قهرٌ؛ إذ هو رضا المرءِ بالهوانِ، وقد يكون داعِيهِ دناءَةَ نفسِ المرءِ لا قُوَّةَ القهرِ، فيكون الصَّغارُ من هذه الحيثيَّةِ أَعَمَّ.

والحاصلُ: أنَّ الذّلَّةَ أعمُّ من وجهٍ، والصغَّارَ أعمُّ من وجهٍ آخرَ.

---

(1) السَّمين، عمدة الحفَّاظ: (بدل)، والدّرّ المصون: 1/380.

(2) الثَّعلبي، الكشف والبيان: 10/18، والبغويّ، معالم التَّنزيل: 5/195، وابن الجوزي، زاد المسير: 4/324، والسَّمين، الدّرّ المصون: 1/380.

(3) الواحديّ، التَّفسير البسيط: 6/529.

(4) الخفاجي، عناية القاضي: 2/165.

(5) محمّد محمَّد داود، معجم الفروق الدّلاليَّة في القرآن الكريم، ص: 261-260.

الغَضَب وَالسُّخْط:

الفرقُ بينَهُما مِن وجهين[1]:

أحدهما: أنَّ الغضَبَ يكون مِن الصَّغير على الكبِير، ومِنَ الكبِير على الصَّغير، بخلاف السُّخْط؛ فلا يكون إلَّا مِنَ الكبير على الصَّغير.

الآخر: أنَّ الغضبَ هو اشتدادُ السُّخْطِ، فهو أخصُّ.

وبهذا يتبيَّنُ أَنَّ الغضبَ أعمُّ مِنَ السُّخْطِ من وجهٍ، وأخصُّ مِنْهُ مِنْ وجهٍ آخرَ.

(1) أبو هلال العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 130.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأٓخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [البقرة: 62]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لما بيَّن الله تعالى حالَ من خالف أوامرَه، وارتكب زواجرَه، وتعدَّى في فعل ما لا إذنَ فيه، وانتَهك المَحارمَ، ووصف ما أحلَّ بهم من النَّكال، نبّه تعالى على أنَّ مَن أحسنَ منَ الأمم السالفة وأطاع، فإنّ له جزاءً الحُسنى، وكذلك الأمرُ إلى قيام السّاعة؛ كلُّ مَن اتّبع الرسولَ النّبيَّ الأمّيَّ فله السعادةُ الأبديةُ، ولا خوفٌ عليهم فيما يَستقبلونه، ولا هُم يحزنون على ما يتركونه ويُخلِّفونه[1].

مَنْ خالف أوامرَ الخالِق، فلا ييأسْ، فإنَّ مَنْ أحْسَنَ منهم وأطاع فله جزاءُ الحُسنى

فمناسبةُ الآية لما قبلها أنَّه تعالى لـمَّا قال: ﴿وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: 61] بيَّن أنَّ مَن آمن منهم، وعمِل صالحاً فإنَّ الله لا يُضيع أجرَه[2].

فلـمّا أوعدَ أهلَ الكتاب في الآي المتقدّمةِ قرَن به ما يتضمّنُ الوعدَ لـمَن صدَق في الإيمان باللّه واليومِ الآخِر، وسطَع على قلبه نورُ اليقين، وأرشد إلى أنهم الفائزون بخيرَيِ الدنيا والآخرة.

شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

1) ﴿ءَامَنُواْ﴾: يدور معنى الجَذر اللُّغوي (أمن) حول وَثاقة الباطن، ومنه: "آمن بالشّيء: صدَّق" أي: قَبِلَ الكلام، ووَثِق به؛ فتمكَّن من قلبه[3].

2) ﴿هَادُواْ﴾: هم اليهودُ المُنتسِبون إلى دين موسى عليه السلام، من هادَ يَهُود وتَهَوَّد: تابَ

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 1/182.
(2) ابن العثيمين، تفسير العثيمين: 1/221.
(3) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصَّل: (أمن).

ورجَع إلى الحقّ، فهو هائدٌ، والمعنى المِحوريّ: لِيْنٌ - أو رَخاوة وفُتور-[1]، ومنه الهَوَادة: وهو اللِّينُ وما يرجَى به الصلاحُ بين القوم.

ومعنى هادوا: تابوا، يقال منه: هَاد القوم يَهُودُون هَودًا وهَادَةً[2]، وَسُمُّوا بِهِ لِأَنَّهُمْ تَابُوا عَنْ عِبَادَةِ الْعِجْلِ.

ويرى أبو عَمْرِو بْنُ العَلَاءِ بأنهم سمُّوا يهوداً؛ لِأَنَّهُمْ يَتَهَوَّدُونَ، أَيْ: يَتَحَرَّكُونَ عِنْدَ قراءة التوراة[3].

3) ﴿وَٱلنَّصَٰرَىٰ﴾: هم أمَّة عيسى عليه السلام واشتقاقُه منَ النَّصر والنُّصرة بمعنى العون[4]، ﴿وَٱلنَّصَٰرَىٰ﴾، جمع، وواحده (نصرانيٌّ)، وهو المستعمَل، وسُمُّوا بذلك؛ لتناصرِهم بينهم، أو لنَصرهم عيسى عليه السلام أو لأنَّهم سكنوا مدينةَ ناصرة، وقد اختلفوا وتفرّقوا في زمن عيسى عليه السلام وزاد اختلافُهم بعدما رفعه الله إليه.

4) ﴿وَٱلصَّٰبِـِٔينَ﴾: جمع، واحده: صابئ، واخْتُلِف في المأخوذ منه هذا الاسمُ، على ثلاثة أقاويلَ:

أحدها: أنّه مأخوذ منَ الطُّلُوعِ والظُّهُورِ، من قولهم: صبأ نابُ البعير، إذا طلع، وهذا قولُ الخليل.

والثاني: أنَّ الصابِئَ: الخارجُ من شيءٍ إلى شيءٍ، فسُمِّي الصابئون بهذا الاسم؛ لخروجهم من اليهودية والنصرانية، وهذا قولُ عبد الرحمن بن زيدِ بن أسلم.

والثالث: أنه مأخوذ من قولهم: صَبَا يَصْبُو، إذا مالَ إلى الشّيءِ وأحبَّه، وهذا قولُ نافع؛ ولذلك لم يَهْمز هذا اللَّفظ في قراءته[5].

والمراد منهم في الآية: قومٌ باقون على فِطرتهم، ولا دينَ مقرَّرٌ لهم يتَّبعونه.

5) ﴿أَجْرُهُمْ﴾: الأَجرُ والأُجْرة: ما يعود من ثواب العمل دُنيويًّا أو أُخرويًّا.

(1) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (هود).
(2) ابن جرير، جامع البيان: 2/32.
(3) البغوي، معالم التنزيل: 1/124.
(4) الرّاغب، المفردات: (نصر).
(5) الماوردي، النكت والعيون: 1/131.

والأُجرة في الثّواب الدُّنيوي، والأَجر والأُجْرة يقال فيما كان عن عَقد، وما يجري مجرى العَقد، ولا يقال إلا في النَّفع دون الضّرّ[1]، والمراد هنا: لهم ثوابُ أعمالهم في الآخرة.

6) ﴿خَوْفٌ﴾: الخوف: تَوَقُّع مكروهٍ عن أمارةٍ مظنونةٍ أو معلومةٍ[2]، ويكون في المستقبل. أي: "ولا خوفٌ عليهم فيما قدِموا عليه من أهوال القيامة"[3].

7) ﴿يَحْزَنُونَ﴾: الحَزَن والحَزُونَة: خُشونة في الأرض، وخُشونة في النَّفس؛ لما يحصُل فيه منَ الغمّ[4]، ويكون في الماضي.

أي: "ولا هم يحزنون على ما خَلَّفوا وراءَهم منَ الدنيا وعيشِها، عند مُعاينتِهم ما أعدَّ اللّه لهم منَ الثَّواب والنَّعيم المُقيمِ عندَه"[5].

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

إنَّ المؤمنين من هذه الأمَّة، والذين كانوا قبلَ بعثة النّبيِّ محمدٍ ﷺ، منَ اليهودِ والنَّصارى والصَّابئين، وهم قومٌ باقون على فِطرتهم، ولا دينَ مقرَّرٌ لهم يَتَّبعونه، إذا صدَّقوا باللّه تصديقًا صحيحًا خالصًا، وبيوم البعث والجزاء، وعملوا بشرعه، فثوابُهم ثابتٌ عند ربهم، ولا خوفٌ عليهم فيما يستقبلونه من أمر الآخرةِ، ولا هم يحزنون على ما فاتهم من أمور الدنيا، فمدارُ الفلاح هو الإيمانُ الصحيح الذي له سلطانٌ على النّفوس، والعملُ الصّالح الذي به تتمّ سعادتُها ويُكتَبُ لها به الفوزُ في الدّنيا والآخرة[6].

الإِيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

بلاغةُ الفَصْل في الآية الكريمة:

جاءت هذه الآيةُ الكريمةُ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ متوسِّطةً بين آيات ذكر بني إسرائيل بما أنعم اللّه عليهم، وبما قابلوا به تلك النِّعمَ منَ

(1) الرّاغب، المفردات: (أجر).
(2) الرّاغب، المفردات: (خوف).
(3) ابن جرير، جامع البيان: 2/150.
(4) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (حزن).
(5) ابن جرير، جامع البيان: 2/150.
(6) المراغي، تفسير المراغي: 1/133، ونخبة من العلماء، التفسير الميسر، ص: 10.

بيانُ طريقِ الخلاصِ للفاسِدين، منهجٌ قرآنيٌّ، وهدايةٌ رحمانيَّةٌ

الكُفران، فجاءت مُعترضةً بينها؛ لأنَّ ما تقدَّم من حكاية سُوء مقابلتهم لنعم الله تعالى قد جَرَّتْ عليهم ضربَ الذّلّة والمَسكنة، ورجوعَهم بغضبٍ منَ الله تعالى عليهم، فبينهما شبهُ كمالِ اتّصال؛ وكأن سائلًا سأل: ما الخلاصُ من غضب الله، ومن هذه المَذَمَّات التي لَحِقَتِ اليهودَ ومَن على شاكلتهم؟

فأجابتِ الآيةُ الكريمة بالجواب الكافي، والدّواء الشافي؛ بأنَّ بابَ اللهِ مفتوحٌ لهم، وأنَّ اللَّجَأ إليه أمرٌ هَيِّنٌ عليهم، وذلك بأن يُؤمنوا، ويَعملوا الصالحاتِ[1].

إنصافُ القرآنِ للآخرِ قُدوةٌ تعليميَّةٌ

مقصودُ التَّأكيدِ المُصدَّر به الآية:

مجيء "إنَّ" هنا لمجرّد الاهتمام بالخبر وتحقيقِه؛ لدفع توهُّم أنَّ ما سبقَ منَ المَذَمَّات شاملٌ لجميع اليهود؛ فإنَّ كثيرًا منَ النّاس يَتوهّمُ أنَّ سلَفَ الأمم التي ضلَّت كانوا مثلَهم في الضَّلال[2].

سِرُّ اختيار الاسمِ الموصول في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ﴾:

العدولُ عنِ التّعريفِ بالاسمِ الظَّاهرِ إلى الموصولِ في قولِه تعالَى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ﴾؛ بدلًا من: إنَّ المؤمنين واليهود، كما قال: ﴿وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ﴾ لِنكاتٍ:

صلةُ الموصولِ علَّةٌ للحكمِ

أولًا: تسجيل إيمانهم.

ثانيًا: ليكونَ الاسمُ الموصول مُوحيًا بسبب الحُكم المُخبَر به عنهم، ومشيرًا إلى أنَّ مضمونَ الصِّلة علةٌ للجملة التي بُنيت عليها هذه الجملةُ، وهو قولُه: ﴿فَلَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾.

ثالثًا: الدّلالة على أنّ ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ﴾ فريقٌ آخر غيرُ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/514.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/514.

المؤمنين الصّادقين - على رأيٍ - ولذلك كان قولُه: ﴿مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ﴾ مُبَيِّنًا لحقيقتهم، فإنَّ الاسمَ الموصول قد يُراد به فريقٌ واحدٌ، فيكونُ كالمعهود باللَّام، وقد يكون جنسًا.

رابعًا: ما في الصّلةِ منَ التَّعريض بمَن ظلَّ على كفرِه وضلالِه منَ اليهودِ والمنافقينَ، وللاهتمام بالصِّلة؛ لأنَّ الحديثَ عليْها يُدارُ.

بلاغةُ تعريف ﴿وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ﴾ بـ(ال) بدلًا منَ الاسمِ الموصول:

تبعيَّةُ النَّصارى والصّابئين في الذِّكرِ، ففرّق السّياقُ بين الأصلِ وتابعِه

المؤمنون واليهودُ هم المَعْنِيُّون بهذه الآيةِ الكريمة، وجاء ذكرُ النَّصارى والصّابئين تبعًا، ففرّق السّياقُ بين الفريقين، ولأنَّه لم يَرِدْ في القرآن الكريم (الذينَ نَصروا) للنَّصارى؛ لأنَّه صار وصفًا مقصورًا على أَتْباع عيسى عليه السلام، ولِئَلَّا يلتبسَ اسمُ الموصول وصلتُه بالأنصارِ المذكورين به في أكثرَ من موضعٍ، كقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ﴾ [الأنفال: 72، 74].

فائدةُ حذفِ المُتعلِّق في ﴿ءَامَنُواْ﴾:

الإيمانُ صار لقبًا للإيمان بالله وحدَه، وهو المرادُ

لم يُذْكرْ متعلّق لـ ﴿ءَامَنُواْ﴾؛ لأنَّ الإيمانَ صار كاللَّقب للإيمان الخاصِّ الذي جاء به دينُ الإسلام وهو الإيمانُ باللّه وحدَه[1].

وقد يكون حذفُ المُتعلِّق لبيانِ ظاهر الفعل - كما قال بعضُ المفسرين- "آمنوا بألسنتهم ولم تُؤمنْ قلوبُهم"[2]؛ فلم تتعلَّق قلوبُهم بما آمنوا به، ولَمَّا يَرْسَخِ الإيمانُ في قلوبِهم.

سرُّ ذكرِ النَّصارى والصّابئين في مقام الحديثِ عنِ اليهود:

تأنيسُ وَحْشة اليهود منَ القَوارع في الآياتِ الماضية

مِنْ بديع البلاغةِ أن قَرَن مع اليهودِ ذكرَ بقيّةٍ منَ الأممِ؛ ليكونَ ذلك تأنيسًا لوَحْشة اليهودِ منَ القَوارع السّابقةِ في الآيات الماضية، وإنصافًا للصَّالحين منهم، واعترافًا بفضلهم، وتبشيرًا لصالحي

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 8/100.

(2) وقال القتبي: «قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ هم قوم آمنوا بألسنتهم ولم يؤمنوا بقلوبهم، فكأنه قال: (إنّ المنافقين)»، السمرقندي، بحر العلوم: 1/59.

الأُمم منَ اليهود وغيرِهم الذين مَضَوا، مِثْلَ الذين كانوا قبْل عيسى وامتثلوا لأنبيائهم، ومِثْلَ الحَواريّين، والموجودين في زَمَنِ نُزُول الآية مثلَ عبدِ اللهِ بنِ سَلّام وصُهَيب، فقد وَفَّت الآيةُ حقَّ الفريقين منَ التَّرغيب والبِشارة، وراعت المُناسبتين للآيات المتقدِّمة مناسبةَ اقترانِ التَّرغيب بالتَّرهيب، ومناسبةَ ذكر الضِّدِّ بعد الكلام على ضِدِّه[1].

بلاغةُ التَّغايُر بين صيغَتَيْ جمعِ التَّكسير والمُذكَّر السّالم في ﴿وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ﴾.

يتميَّزُ كُلٌّ من جمعِ التَّكْسيرِ وجمعِ المذكَّرِ السَّالم، بأمرين:

الأول: جمعُ الصفاتِ جمعَ مذكّرٍ سالمًا يُقَرِّبُه منَ الفعلية (الحدَث)، وجمعُ التَّكسير يقرِّبُه للاسْمِية، فـ (النَّصارى) أشخاص، و(الصابئين) إشارةٌ إلى فعلهم (صبؤوا).

الآخر: جمعُ المذكّر السّالم يدلُّ على القلَّة بالنَّظر إلى جمع التَّكسير.

اتِّفاقُ الواقعِ مع النَّظمِ في كونِ النَّصارى أكثرَ منَ الصّابئين

وعليه فإنَّ جمعَ النَّصارى جمعَ تكسيرٍ هو الأنسبُ؛ لأنَّهم أكثرُ منَ الصَّابئين، ولأنَّ ما هم عليه مِن الدِّين- بعد بعثة النَّبيّ محمدٍ ﷺ- منسوبٌ إلى أشخاص، لا إلى نُصرتهم نبيَّهم عيسى عليه السلام، فهدايتُهم بعد ضَلالهم أيسرُ على الدَّاعي.

في حين أنّ (الصّابئين) يُراعَى في دعوتهم فعلُهم (صبؤوا)، وهو الخروجُ ممّا كانوا عليه من دينٍ إلى آخرَ، فَهُم على قِلَّتِهم في حاجةٍ إلى مُراعاة أسبابِ خُروجهم ومَيْلِهم، وتبيانِ الحقِّ لهم، وما ذلك على الله بعزيز.

سرُّ ذكر الإيمان في أوَّلِ الآيةِ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ وآخرِها: ﴿مَنْ ءَامَنَ﴾:

تقريرُ أنَّ الإيمانَ بالألسنةِ لا بالقلوبِ

فائدتُه: أنَّ المنافقين كانوا يُظهرون الإسلامَ ويَزعمون أنَّهم مؤمنون، ففي هذا التّكرار إخراجُهم من قَبيل المؤمنين، فيكون معنى ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أي: بألسنتهم لا بقلوبهم.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/531.

ثم قال: ﴿مَنْ ءَامَنَ﴾ يعني: مَن ثَبَت على إيمانِه ورجَع عن نفاقِه منهم.

وقيل: فيه فائدةٌ أخرى، وهي أنَّ الإيمانَ يَدخل تَحتَه أقسامٌ كثيرةٌ، وأشرفُها: الإيمانُ باللّه واليومِ الآخر، ففائدةُ التّكرار: التَّنبيهُ على أشرف أقسام الإيمان وهما هذان القسمان وفي قوله: ﴿مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ﴾ حَذْفٌ، تقديره: (من آمن منهم باللّه واليوم الآخر)، وإنَّما حَسُنَ هذا الحذفُ لكونِه معلومًا عند السّامعين[1].

سرُّ حذفِ الإيمانِ بمحمدٍ ﷺ:

الاكتفاءُ نوعٌ منَ الإيجاز[2]، ولم يُذْكَر في الآية الإيمانُ بمحمدٍ ﷺ؛ لأنَّه لـمَّا ذُكر الإيمانُ بِاللَّهِ تعالى فَقَد دَخل فيه الإيمانُ بالنَّبيّ محمدٍ ﷺ؛ لأنَّه لا يكونُ مؤمنًا باللَّهِ تعالى مَا لَم يُؤمنْ بِجميعِ مَا أَنزَلَ اللّه تعالى على محمدٍ وعلى جميع الأنبياء عليهم الصّلاة والسلام، وهذا يناسب سياقَ الآية؛ حيث إنها كسفينة النَّجاة قبل فوات الأوان[3]، وعدمُ ذكرِ الإيمانِ برسولِ اللّه للتَّنبيه على عدمِ صحَّةِ إيمانِهم باللّه تعالى؛ فعليهم أن يُؤمنوا أوَّلًا باللّه تعالى الإيمان الصَّحيح؛ ليتضمَّن بعد ذلك الإيمانَ بالنَّبيِّ ﷺ؛ فكان الحذفُ دليلًا على وقوعِ الخلّلِ في أصلِ الإيمان.

التَّنبيهُ على وقوعِ الخَلَلِ في أصلِ الإيمانِ

مناسبةُ اختيار ﴿وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾ دون بقيَّة أسماء القيامةِ:

ليومِ القيامة أسماءٌ كثيرةٌ في القرآن الكريم[4]، وكُلُّ اسمٍ أو وصف جيءَ بِه لمناسبةٍ سياقيَّةٍ، وقد ورد اليومُ الآخرُ اسمًا ليومِ

تحريكُ الأملِ في النُّفوسِ، فإنَّ التَّطلُّع إلى آخرِ الأمرِ يبعثُ على الإنابةِ

(1) الخازن، لباب التأويل: 2/75.

(2) وهو أن يقتضي المقام ذكر شيئين بينهما تلازم وارتباط، فيُكتفى بأحدهما عن الآخر لنكتة بلاغية، عبد الرحمن حبنكة، البلاغة العربية: 1/501.

(3) السمرقندي، بحر العلوم: 1/59.

(4) كيوم القيامة، واليوم الآخر، والواقعة، والساعة، ويوم البعث، ويوم الخروج، ويوم التلاق، ويوم الفصل، والطامة، والصاخة، وغير ذلك. القرطبي، التذكرة، ص: 203.

القيامة في القرآن الكريم ستًّا وعشرين مرةً، في إحدى عشرةَ سورة[1]، كلُّها مدنيةٌ، عدا سورةِ العَنكبوت؛ فقد وقع الخلافُ فيها، وهي من أواخرِ ما نزلَ في مكَّة.

وقد ورد تركيبُ ﴿وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾؛ لمناسبة سياق الآية وسباقها؛ فقد جاءت فتحًا لباب الأمل، وفرصةً أخيرةً للتَّوبة والإنابة والفَيْءِ إلى بُستانِ الإيمان، تُؤَمِّنُهم عذابَه، وتُجَنِّبُهم غضبَه، وتُدنيهم من رحمتِه، فالوصفُ باليوم الآخر أنسبُ للسِّياق، وأليقُ بالمَقام، وأشدُّ تأثيرًا في نفوس المَدْعُوِّين.

فائدةُ عَطفِ قوله: ﴿وَعَمِلَ صَٰلِحٗا﴾ على الإيمانِ:

الإيمانُ دعوى دليلُها العملُ الصَّالحُ

قُرِنَ الإيمانُ بالعمل الصَّالح؛ ليشيرَ إلى أنَّهما لا يفترقان، فالإيمانُ تصديقٌ، وقولٌ، وعملٌ[2]، ولأنَّه به يُصَدِّقُ ما ادَّعاه منَ الإيمان، باتِّباع شرعِ الرّسولِ الذي في زمانِه في الأعمال الظاهرةِ، ولم يُفَرِّقْ بينَ أحدٍ منَ الرُّسل، ولا أَخَلَّ بشيءٍ من اعتقادِ ما جاءت به الكتبُ منَ الصّلاح.

قال عليُّ بنُ أحمد الحَرَالِّيُّ: "وهو العملُ المُراعَى منَ الخلل، وأصلُه الإخلاصُ في النِّيّة وبلوغِ الوُسْع في المحاولة بحسب عِلم العامل وإحكامِه"، وقال: "والعملُ ما دُبِّر بالعلم". انتهى[3].

وفي قَرْنِ الإيمان بالعمل الصالح دليلٌ على أنّ العَملَ لا بدَّ منهُ، مع التَّصديق والإذعان[4]، وللإشارة إلى أنَّ الإيمان بلا عمل كزرعٍ بلا ثمرٍ[5].

تردُّدُ ﴿مَنۡ﴾ بين الشَّرط والموصول، وما يترتّبُ عليهما من معنى:

اجتماعُ معنى العُمُومِ في الشَّرطِ والمَوْصُولِيَّةِ، واستقلالُ الشَّرطيَّةِ بالاستقبالِ

يجوز أن تكون "مَن" في قوله: ﴿مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ﴾ شرطًا في موضع المبتدأ، ويكون ﴿فَلَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ﴾ جوابَ الشَّرط، والشرطُ مع الجواب

(1) هي البقرة: 8، 62، 126، 177، 228، 232، 264، وآل عمران: 114، والنساء: 38، 39، 59، 136، 162، والمائدة: 69، والتوبة: 18، 19، 29، 44، 45، 99، والنور: 2، والعنكبوت: 36، والأحزاب: 21، والمجادلة: 22، والممتحنة: 6، والطلاق: 2.

(2) محمد علي جميل، صفوة التفاسير: 2/520.

(3) البقاعي، نظم الدرر: 1/457.

(4) مجمع البحوث، التفسير الوسيط: 2/1028.

(5) مجمع البحوث، التفسير الوسيط: 10/2011.

خبرُ ﴿إِنَّ﴾، فيكونُ المعنى: إنَّ الذين آمنوا مَن يؤمنُ باللّٰهِ منهم فلَهُ أجرُه، وحُذِفَ الرَّابطُ بين الجملة وبين اسم "إنَّ"؛ لأنَّ "مَن" الشَّرطيةَ عامَّةٌ، فكان الرابطُ العمومَ الذي شمِل المبتدأَ، أعني: اسم إنَّ، ويكونُ معنى الكلام على الاستقبال؛ لوقوع الفعل الماضي في حيِّز الشَّرط، أي: من يؤمنُ منهم باللّٰه ويعملُ صالحًا، فله أجرُه، ويكونُ المقصودُ منه فتحَ بابِ الإنابةِ لهم، بعد أن قُرِّعوا بالقَوارع السَّالفة.

ويجوز أن تكون "مَن" موصولةً، بدلًا من اسم "إنَّ" والفعلُ الماضي حينئذٍ باقٍ على المُضي؛ لأنَّه ليس ثمّةَ ما يُخَلِّصُه للاستقبال، ودخلتِ الفاءُ في ﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ﴾ إمّا على أنَّها تَدخُل في الخَبَر، نحوَ قولِ الشاعر – وهو من شواهد كتاب سيبويه – [1]:

وقائلةٍ خَولانُ فَانكِحْ فتَاتَهُم *** .....

ونحوَ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُواْ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ﴾ [البروج: 10] عند غيرِ سيبويه، وإمَّا على أنَّ الموصول عُومل معاملةَ الشَّرط؛ للإيذان بالتّعليل، فأُدخلت الفاءُ قرينةً على ذلك، ويكونُ المفادُ منَ الآية حينئذٍ استثناءَ صالحي بني إسرائيل مِنَ الحُكم، بضرب الذّلّة والمَسكنة والغضبِ من اللّٰه، ويكونُ ذكرُ بقيَّةِ صالحي الأمم معهم على هذا إشارةً إلى أنَّ هذه سُنَّةُ اللّٰهِ في مُعاملتِه خلقَه ومجازاتِه كلًّا على فعلِه[2].

بلاغةُ الحملِ على اللّفظ مرةً والمعنى أخرى:

رُوعي لفظُ «مَن» فأُفرد الشَّرطُ، ورُوعي معناه، فجُمع في الجواب؛ لإفادة أنّ الأمر هنا منَ العامِّ الواردِ على سببٍ خاصٍّ

جُمِع الضَّميرُ في قوله: ﴿أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ مراعاةً لِماصدق[3] (من)، وأُفرد شرطُها أو صلتُها: ﴿ءَامَنَ﴾ و﴿عَمِلَ﴾ في قولِه: ﴿ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ مراعاةً للفظها، وممّا حسَّن ذلك، وجَعَلَه في الموقع الأعلى مِنَ البلاغة أنَّ هذين الوجهين الجائزَيْن عربيةً في مَعاد الموصولات وأسماء الشروط قد جُمِع بينَهما على وجهٍ أنبَأ على قَصدِ العُموم في الموصول أو الشرط؛ فلذلك أتى

(1) من بحر الطويل، والقائل مجهول، وقال الطِّيبي: «قال شارحُ اللُّباب في قوله: وقائلة خولان فانكح فتاتهم: «إنّ (خولان) مبتدأ، (فانكح) خبره وقد دخل عليه الفاء، والتقدير: هؤلاء خولان فانكح، كما تقول: زيد فلتقم إليه، أي: هذا زيد، فدخول الفاء يدل على أنّ وجودَ هذه القبيلة علّةٌ لأن يتزوج منها ويتقرّبَ إليها لحسن نسائها وشرفها». الطيبي، فتوح الغيب: 5/352، ويُنظر: السيوطي، نواهد الأبكار: 3/260.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/521.

(3) (الماصدق) عِنْد المناطقة: الْأَفْرَاد الَّتِي يتَحَقَّق فِيهَا معنى الْكُلِّيّ، مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط (باب الصاد): 1/511.

بالضَّمير الذي في صلتِه أو فعلِه مناسبًا للفظه لقَصْدِ العُموم، ثمَّ لـمَّا جِيء بالضَّمير مع الخبرِ أو الجوابِ جُمِعَ؛ ليكونَ عَودًا على بَدء، فيرتبطَ باسم "إنَّ" الذي جِيء بالموصول أو الشَّرط بدلًا منه أو خبرًا عنه؛ حتى يُعلمَ أنَّ هذا الحكمَ العامَّ مرادٌ منه ذلك الخاصُّ أوَّلًا، كأنه قيل: إنَّ الَّذِينَ آمَنُوا إلخ كلُّ مَن آمَن باللَّهِ وعَمِلَ إلخ، فَلِأولَئك الَّذين آمَنُوا أجرُهم، فَعُلِمَ أنَّهم مِمَّا شَمِلَه العُمومُ على نحو ما يذكره المناطقةُ في طيِّ بعض المُقدِّمات للعلم به، فهو منَ العامِّ الواردِ على سببٍ خاصٍّ[1].

سِرُّ التَّعبيرِ بالأجرِ عن الثَّوابِ:

تسميةُ الثَّوابِ أجرًا لعدم تخلُّفه

المرادُ منَ الأجر: الثَّوابُ الذي وُعِدُوه على الإيمان والعملِ الصّالحِ؛ فإضافتُه إليهم واختصاصُه بهم بمجرّد الوعْد، لا بالاستيجاب - كما زعمه الزمخشريُّ، رعايةً للاعتزال -، وتسميتُه أجرًا لعدم التَّخَلُّف[2].

أُطْلِقَ الأجرُ على الثَّوابِ مَجازًا؛ لأنَّه في مقابلةِ العملِ الصَّالح، والمرادُ به نَعِيمُ الآخرة، وليس أجرًا دُنيويًّا بقرينة المَقام[3].

فائدةُ الظّرفيّة في قوله: ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾:

الأجرُ المحفوظُ عند الله يورث الطُّمأنينة بتحصيله، والسَّكينة بملاقاته

فائدةُ الظَّرفيةِ في قولِه: ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ الإشارةُ إلى أنَّ الأجرَ لا يَضيعُ؛ لأنَّه عند لطيفٍ حفيظٍ، وهو متعلِّقٌ بما تَعَلَّقَ به (لهم)، ويَحْتَمِلُ أن يكونَ حالًا من ﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ﴾[4].

وقوله: ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ عنديّةٌ مجازيّةٌ مُستعمَلةٌ في تحقيق الوعد كما تُستعمل في تحقيق الإقرار في قولهم: لك عندي كذا. ووجهُ دلالة ﴿عِندَ﴾ أنَّها دالَّةٌ على المكان، فإذا أُطْلِقَتْ في غيرِ مَا مِن شأنِه أن

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/522.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 1/280.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/523.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/523.

يحِلَّ في مكانٍ كانت مستعمَلةً في لازمِ المكانِ، وهو وجودُ مَا مِن شأنِه أن يكونَ في مكانٍ، على أنَّ إضافةَ ﴿عِندَ﴾ لاسم الرّبِّ تعالى مِمَّا يزيدُ الأجرَ تَحَقُّقًا؛ لأنَّ المضافَ إليه أكرمُ الكُرَماء، فلا يَفُوتُ الأجرُ الكائنُ عنده[1] ولذلك قُرِنَ بـ﴿عِندَ﴾ الدّالَّةِ على العِناية والرِّضَا[2].

سِرُّ اختيارِ اسمِ ﴿رَبَّ﴾ دونَ لفظِ الجلالة (ٱللَّهِ):

عنوانُ الرُّبوبيةِ يُشيرُ إلى فُيوضاتِ العَطاء، وكثرةِ النِّعم

"الرّبّ هو: المُتَوَلِّي تربيةَ الشّيء، خَلْقاً من عَدَم وإمدادًا من عُدْم"[3].

"والذين يَدخلون في عَطاءِ الأُلُوهيَّة هم المؤمنون، أمَّا عطاءُ الرُّبُوبيَّة فيَشْمَلُ الجميع"[4].

وهذا أنسبُ للمقام؛ إذْ إنَّه مَقامُ رحمةٍ، وعطاءٍ، ومعاملةٍ بالفضلِ لا بالعدلِ، وبالإحسانِ لا بالميزانِ، فمَهْما يَكُن مِن جرائمِ اليهود وغيرِهم، فإنَّ بابَ التَّوبةِ مفتوحٌ، لـمَنْ آمَنَ وعَمِل صالحًا.

ولمناسبة الحديثِ عنِ اليهود المُتعلِّقين بالنِّعم أكثرَ من تَعَلُّقِهم بالمُنْعِم ﷻ، حثًّا لهم، ومزيدَ ترغيب.

فائدةُ إضافة الرّبِّ إلى ضمير الغَيبة في قوله: ﴿رَبِّهِمْ﴾:

في إضافةِ الرَّبّ إلى الضَّميرِ مزيدُ لُطفٍ بهم، وإيذانٌ بأنَّ أجرَهم مُتَيَقَّنُ الثُّبوت، مأمونٌ منَ الفوات[5].

نكتةُ اقترانِ الخوف بالحُزنِ:

انتفاءُ الخوفِ من المُستقبلِ والحزنِ على الماضي، تمامُ السَّعادةِ النَّفسيَّةِ

الفرقُ بين الخوفِ والحزنِ أنَّ الخوف على المتوقَّع، والحزنَ على الواقع والماضي، وفيه نظر؛ لقوله تعالى: ﴿إِنِّي لَيَحْزُنُنِيٓ أَن تَذْهَبُواْ بِهِۦ﴾ [يوسف: 14]، ويمكن أن يُدفع بأنَّ المرادَ أنَّه يَحزُنُني قصدُ ذهابكم به[6]، فالحزنُ يقعُ بعد الذَّهابِ، فهو على الواقع والماضي.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/523.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/523.
(3) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 4/1985.
(4) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 1/63.
(5) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/108.
(6) بهاء الدين الهمذاني، الكشكول: 2/35.

و(الخوفُ) في لغةِ العربِ: هو الغَمُّ من أمرٍ مستقبلٍ خاصةً.

و(الحزنُ) في لغةِ العربِ: هو الغمُّ من أمرٍ قد فاتَ وَمَضَى، تقولُ: "فلانٌ أُصِيبَ بالأمسِ، فهو اليومَ حزينٌ" وتقولُ: "فلانٌ خائفٌ" أي: يَغْتَمُّ مِنْ أمرٍ مستقبلٍ[1].

ومِمَّا سبق يَتَبَيَّنُ مناسبةُ نَفي الحُزن خاصةً، دون سواه مما يقاربُه في المعنى؛ لأنه يدلُّ على نَفي حصولِ خُشونة في النَّفس، بسبب الغمِّ على ما مضى، و يشملُ نفيِ أسبابه من بابٍ أولى، ولا يحسُنُ لفظٌ سواه مجاوِرًا لنفي الخَوف إلا نفيُ الحُزن؛ لِتَحْصُلَ السعادةُ الأبديةُ، وهذا لا يكون إلَّا في الجنَّةِ، وفيه بيانُ أنَّ حالَ الإنسانِ في الدُّنيا لا يخلو منهما.

سرُّ ذكرِ الخوفِ بالاسمِ والحُزن بالفعل المضارع:

يدلُّ نفيُ المضارع (يَحْزَنُونَ) على دَيمومة النَّفي في المُستقبل

كما يدلُّ إثباتُ المضارع على الدَّيمومة في قولِهم: هو يُعطي ويَمنع، كذلك يجيء نفيُه، وجاء حرفُ النفي لا؛ لأنها أوسعُ في نفي المضارع من ﴿مَا﴾، وأدلُّ على انتفاء الحُزن في المستقبل، أي: هم مِمَّن لا يقبل أن يَحزن[2]، ولـمَّا كان الحزنُ على الفائت، فكأنه انتفى حدوثُه في كلّ الأوقات، وجاء في الحزن بلفظ ﴿هُمْ﴾ لاستبطانه، وبالفعل؛ لأنه بادٍ من باطن تفكُّرهم في فائتهم، وجاء نفيُ الخوف منعزلًا عن فعلهم؛ لأنه من خوف بادٍ عليهم من غيرهم[3].

العُدولُ عن المُفرَد إلى الجُملة في قوله: ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾:

قصْرُ نَفي الحُزنِ عن أهلِ الجنَّةِ، وإثباتـه لأهـل النَّارِ

عدلَ عن المُفرد بأنْ يقال: (ولا حزنَ) إلى الجملة؛ ليَتَأَتَّى بذلك بناءُ المُسند الفعلي على ضميرهم، فيدلُّ على أنَّ الحزن واقعٌ بغيرهم، وهم الذين كفروا، فإنَّ بناء الخَبر الفِعلي على المُسنَد

(1) الشنقيطي، العذب النمير: 1/284.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 5/299.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 1/299.

إليه المتقدِّم عليه يُفيد تخصيصَ المُسند إليه بذلك الخبر (قصر صفةٍ على موصوف).

كما أنَّه يُفيدُ - بمفهوم المُخالفَة - بأنَّ الذين كفروا يَحزنون؛ ليكونَ كالمقدِّمة للخبر عنهم بعد ذلك بأنَّهم أصحابُ النار، هم فيها خالدون.

توجيهُ القِرَاءَاتِ القُرآنِيَّةِ:

الخوفُ على القراءتين مَنفيٌّ عن أهلِ الجنَّةِ قليلُه و كثيرُه

قرأ الجمهورُ: ﴿فَلَا خَوْفٌ﴾ بالرفع والتنوين، وقرأ يعقوبُ: ﴿فَلَا خَوْفَ﴾ بالفتح من غير تنوين[1] على النَّصب بـ ﴿لا﴾ التي للتَّبرئة يعني النافيةَ للجنس،"وقد نفى الخوفَ نفيَ الجنس بـ﴿لَا﴾ النافيةِ له، وجيء باسمها مرفوعًا؛ لأنَّ الرَّفع يساوي البناءَ على الفتح في مثل هذا؛ لأنَّ الخوف منَ الأجناس المعنوية، التي لا يُتوهّمُ في نفيها أن يكون المرادُ نفيَ الفرد الواحد، ولو فُتح مثلُه لصحَّ، ومنه قول الرابعة من نساءِ حديثِ أمّ زَرْع: «زَوْجِي كَلَيْلِ تِهَامَةَ، لا حَرٌّ ولَا قُرٌّ، ولَا مَخَافَةَ ولَا سَآمَةَ»[2]، فقد روي بالرفع والفتح[3]، فالخوفُ على القراءتين منفيٌّ عن أهل الجنة قليلُه و كثيرُه.

سِرُّ تقديم نَفيِ الخوف على نفيِ الحُزن:

الخوفُ أشدُّ الأمرينِ، والحزنُ أقعدُ الحالينِ

لـمَّا كان الخوفُ أشدَّ؛ لأنه يزداد بمرّ الزّمان، واقترابِ المخوفِ منه، والحزنُ يخفُّ، مع توالي الأيَّام، قُدِّمَ الخوفُ فقال: ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾، أي: من شيء آتٍ، فإنَّ الخوفَ اضطرابُ النفس من توقّع فعل ضارّ، ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ أي: على شيء فائت؛ لأنهم يَنجَوْنَ منَ النّار، ويَدْخُلُونَ الجنَّةَ[4]، والخوفُ وإن كان أشدَّ إلَّا أنَّ الحزنَ إذا لازمَ صاحِبَه أقعدَه عن العملِ، وأذهبَ عنه لذَّةَ الأملِ.

(1) ابن الجزري، النشر: 2/211.
(2) البخاري، حديث رقم: (5189)، ومسلم، حديث رقم: (2448).
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/110.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 1/299.

توجيهُ المخصوصِ بالذِّكرِ:

وجهُ الاقتصارِ في الآية، على ذكر هذه الأديان الثّلاثةِ مع الإسلام دون غيرها من نحو المَجوسيةِ والدَّهريين والزَّنادقة أنَّ هذا مقامُ دعوتهم للدُّخول في الإسلام، والمتابِ عن أديانهم، التي أُبطِلتْ؛ لأنهم أرجى لقَبول الإسلام منَ المَجوس والدَّهريين؛ لأنهم يُثبتون الإلهَ المتفرِّدَ بخلق العالَم، ويَتبعون الفضائلَ على تفاوتٍ بينهم في ذلك، ألا ترى أنَّه ذكر المجوسَ والمشركين معهم في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلۡمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشۡرَكُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡصِلُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ﴾ [الحج: 17]؛ لأنَّ ذلك مقامُ تثبيتٍ للنّبيّ ﷺ والمسلمين[1]، فذكرَ المخاصمين له من معظم الأصنافِ، لأنَّ المقامَ مقامُ خصومةٍ ومفاصلةٍ؛ فإنَّ أصحابَ الأديانِ إمَّا أن يكونوا على طرفِ الدَّعوةِ لقبولِ الهدايةِ، كما هو في آية البقرةِ، وإمَّا على طرف العداوةِ والخصامِ، كما هو في آيةِ الحجِّ، فذكرت كلُّ آيةٍ الأصنافَ بحسبِ الاعتبارِ المفهومِ من السِّياق.

مقامُ أصحابِ الأديانِ من الإسلامِ ما بين هدايةٍ ومُخاصمةٍ

توجيهُ المُتشابِه اللَّفظيّ:

قال تعالى في سورة البقرة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَلَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾، وقال في سورة المائدة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ [المائدة: 69]، وفى سورة الحج: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلۡمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشۡرَكُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡصِلُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ﴾ [الحج: 17].

سرُّ التَّقديم والتَّأخير بين الأصنافِ:

إنَّ المؤمنين أحقُّ بالتَّقديم، وهم أهلُ الخطاب والمُتكلَّمُ معهم فى الآي قبلُ، فهم من حيث أحوالُهم معظمُ من قُصد بالخطاب والتَّأنيس، ثم إنَّ أهلَ الكتابين يَلُون المؤمنين؛

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/520.

فإنَّهم ليسوا كافرين بكلِّ الرُّسل، ولا مُنكرين كلَّ الرُّسل، ولا منكرين لكلّ ما أُنزِلَ منَ الكُتب، فقد كانوا أقربَ شيءٍ لولا التَّبديلُ والتَّغييرُ والتَّحريفُ المُقدَّر وقوعُه عليهم، فإنَّهم قد قدَّم إليهم فنَكَثُوا ونَقَضُوا وكَفَرُوا بمن قدَّم إليهم من أمره، واليهود أقدمُ تعريفًا وأسبقُ زمانًا، فلمّا اجتمع الأصنافُ الثّلاثةُ في أنَّهم أهلُ الكتاب والمُقِرُّون بالبَداءة والعودةِ وإرسالِ الرُّسل على اختلاف حالاتِهم في ذلك وأزمانِهم، كان تقديمُهم على غيرهم أوضحَ شيءٍ على الوارد في سورة البقرة، إلا أنَّ ذكرَهم لم يقع بحرفٍ مُرَتَّبٍ بل وقع الاكتفاءُ بترتيب الذِّكر؛ لاستوائهم في الغايات منَ استواء العواقب، وإنَّ الفائزَ منَ الكلِّ إنما هو من كانت خاتمتُه في دار التَّكليف الموافاةَ على الإيمان والإسلام و ﴿إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ﴾ [الحجرات: 13]، وإنَّ المُوافى في الكلِّ على الكفر في النّار، ثم عذابُهم بحسب جرائمهم جزاءً وفاقًا، فرُتِّبُوا ذكرًا بحسَبِ حالِهم الدُّنياوي، ولم يتقعّد التَّرتيُب بالحرف المرتَّب لحْظًا لحالِهم الأخراوي، فجرى ذكرُهم في سورة البقرة على هذا، وأُخِّرَ ذكرُ الصَّابئين لتأخُّرهم عن هؤلاء الأصنافِ في أنّهم ليسوا من أهل الكِتاب، أو ليسوا مثلَهم في ما وراء ما ذُكِر من أحوالِهم، فإيرادُ ذكرِهم على ما في سورة البقرة بيِّنٌ[1].

ثم قُدِّم ذكرُ الصَّابئين فى سورة المائدة وزيادةُ بيانٍ للغرض المذكور، من أنَّه لا ترتيبَ فى الغاية الأخراوية إلا بنظرٍ آخرَ، لا بحسب الدُّنياوى، والاشتراك فيما قبْلَ المُوافاة، بل المُستجيب المؤمن منَ الكلّ مُخَلَّصٌ والمكذب مُتَوَرِّطٌ، ثمّ مراتب الجزاء بحسب الأعمال، فأوضح تقديمُ ذكر الصَّابئين في سورة المائدة ما ذكرناه[2].

لقد جاءت هنا في مكانها ودون كسرٍ للإعراب، وهي قد جاءت مرةً قبل كلمة (النَّصارى)، وجاءت مرةً أخرى بعد كلمة (النَّصارى)، وهنا لا بدَّ أن نتعرّفَ على زمنية الصَّابئين، فقد كانوا قوماً متقدِّمين قبل مجيء النَّصرانية، فإنْ أردنا أن نعرفَ زمانَهم نجدُ القولَ الحقَّ يقدمُّهم على النَّصارى، وإنْ أردنا أن نعرف منزلتَهم فإنَّنا نقرؤها في موضع آخرَ منَ القرآن ونجدُهم يأتون بعد (النصارى)، إذن فعندما أرّخ الحقُّ لزمانهم

(1) ابن الزبير الغرناطي، ملاك التأويل: 1/43.

(2) ابن الزبير الغرناطي، ملاك التأويل: 1/43.

جاء بهم متقدِّمين، وعندما أرّخ لكمِّهم وعددِهم ومقدارِهم يؤخّرُهم عنِ النَّصارى؛ لأنهم أقلُّ عددًا فهم لا يمثِّلون جمهرةً كثيرةً كالنَّصارى[1].

تخصيصُ آيةِ البقرة بقوله تعالى: ﴿فَلَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ﴾:

خُصِّصَت آيةُ البقرةِ بقولِه: ﴿فَلَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ﴾ وقد تقدّم في المائدة ما يُعطيه ويُحرزُه فاكتُفيَ به، ألا ترى أنَّ قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ أَنَّ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ لَكَفَّرۡنَا عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَلَأَدۡخَلۡنَٰهُمۡ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ [المائدة: 65]، " تفسيرٌ بيّنٌ للأجر الأخراوي المُجمَل في قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿فَلَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ﴾ إلى آخر الآية، فقد حصلَ ما في سورة المائدة مفصَّلًا مبيَّنًا ما ورد في البقرة مُجملًا، فلو قيل في آية المائدة فلهم أجرُهم لكان تكرارًا ورجوعًا إلى الإجمال بعد التّفصيل، وذلك عكسُ ما ينبغي.

فقولُه: ﴿فَلَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ﴾ أي: أنَّه غفرَ لهم ما فعلوا من سُوءٍ، وجزاهم على عملهم الصَّالح الذي لم يُحبِطوه، ويُذهِبوه بعمل السَّيّئات والآثام، هذا ما يتعلَّق بالآيتين؛ آية سورة البقرة، وآية سورة المائدة، ونلاحظ أنَّ آية سورة المائدة لم يرد فيها قولُه: ﴿فَلَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ﴾، ولعلَّ ذلك راجعٌ إلى الاكتفاء بذكرها في سورة البقرة، وذلك له نظيرٌ في القرآن الكريم، كحمل المُطلق على المقيّد.

أما في آية سورة الحج فهي التي يأتي فيها الحكمُ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡصِلُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ﴾ [الحج: 17] كأنَّهم لن يؤمنوا، ولن يعملوا الصَّالحَ، فتكون هذه هي التَّصفيةُ العقديةُ في الكون[2].

السِرُّ البلاغيُّ في رفع ﴿وَٱلصَّٰبِـُٔونَ﴾ في سورة المائدة:

قُدّم: ﴿وَٱلصَّٰبِـُٔونَ﴾ على خبر إنَّ، وهو مبتدأ، أي: الصَّابئون كذلك؛ وذلك لأنَّ الصَّابئين أشدُّ هذه الفرق، ويُظنُّ أنَّهم لا يستوون مع غيرهم، فأُقحم للدّلالة على التَّساوي.

"وجاء بها الحقُّ مرّةً منصوبةً ومرّةً مرفوعةً، لنعرفَهم ونلتفتَ إليهم، وكسرُ الإعراب كان لمقتضَى لَفْت الانتباه"[3].

(1) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 6/3295.
(2) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 6/3295.
(3) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 6/3295.

سببُ ذكر المَجوس والذين أشركوا في سورة الحجّ:

ورد اسمُ الصّابئين في المائدة بالرَّفع؛ تنبيهًا على الغرَضِ المذكور، وتأكيدًا للتّسوية في الحُكم، وإذا اتَّفقوا في المُوافاة على الإيمان، فنبَّه التَّقديمُ على هذا كما تقدَّم وزاد القطعُ على الرَّفع تأكيدًا؛ لأنَّ قطعَ اللَّفظ عنِ الجَريان على ما قبله مُحرِّكٌ للفظ توجيهه..، وكأنَّه لما ذكر حُكمَ المذكورين سواهم، قيل: والصَّابئون كذلك، أي: لا فرقَ بين الكُلِّ في الحُكم الأخراوي، وهو على هذا التقدير أوضحُ شيءٍ فيما ذُكر، وأمَّا على طريقة الفرّاء ومن قال بقوله مِنْ حَمْلِه على الموضع ففيه التّقديمُ، وأنَّ التَّحريكَ القطعيَّ في اللّفظ وإن لم يكن مقطوعًا في المعنى، لا يكون إلا لإحراز معنى وليس إلا ما تقدَّم، وآيةُ سورة الحجّ إنما وردتْ مُعَرِّفةً بمن ورد في القيامة على ما كان من يهوديةٍ أو نصرانيةٍ أو غيرِ ذلك، والآي الأُخر فيمن ورد مؤمنًا، فافترق القَصدان واختلف مساقُ الآي بحسب ذلك[1].

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الأَجر والثّواب والجزاء:

الأَجْر في الأصل مصدرٌ، يقال: أَجَرَهُ اللهُ يَأْجُرُه أَجْرًا، وقد يُعَبَّر به عن نفس الشَّيء المُجازَى به، والآية الكريمة تحتملُ المَعنيين[2]، والأُجرة في الثّواب الدُّنيوي[3].

والثَّواب: ما يرجعُ إلى الإنسان من جزاء أعماله، والثَّوابُ يقال في الخير والشّرّ، لكنَّ الأكثرَ المتعارفَ في الخير[4].

والجزاء: الغَناء والكفايةُ، وما فيه الكِفايةُ منَ المقابلة، إنْ خيرًا فخيرٌ، وإنْ شرًا فشرٌ[5].

الثَّوَاب وَالأَجْر:

فَرّق أبو هلال العسكريُّ بينهما بقوله:

"إنَّ الأَجْرَ يكون قبْل الفِعْل المَأْجُور عليه، والشَّاهِدُ أَنَّك تَقول: مَا أعملُ حَتَّى أَخذَ أجري، ولا تَقول: لا أعملُ حَتَّى أَخذ ثوابي؛ لِأَنَّ الثَّوَابَ لَا يكونُ إِلَّا بعد العَمَل على مَا

(1) ابن الزبير الغرناطي، ملاك التأويل: 1/43.
(2) القنوجي، فتح البيان في مقاصد القرآن: 1/187.
(3) الرّاغب، المفردات: (أجر).
(4) الرّاغب، المفردات: (ثوب).
(5) الرّاغب، المفردات: (جزأ).

ذكرنَا، هذا على أَنَّ الأجر لَا يُسْتَحق لَهُ إِلَّا بعد العَمَل كالثَّواب، إِلَّا أَنّ الاسْتِعْمَال يجْرِي بِمَا ذَكرْنَاهُ، وَأَيْضًا فإِنَّ الثَّوَاب قد شُهر فِي الجَزَاء على الحَسَنَات، وَالأَجْر يُقَال في هذا المَعْنى، ويُقَال على معنى الأُجْرة التي هي من طرِيق المُثامنة بِأَدْنَى الأَثْمَان، وفيها معنى المُعَاوضَة بِالانْتِفَاع"[1].

الخَوف والحذر:

أَنَّ الخَوْفَ توقُّعُ الضَّرَر المَشْكُوك في وُقُوعه، والحذر توقِّي الضَّرَر، قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ وَأَوۡلَٰدِكُمۡ عَدُوّٗا لَّكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُمۡۚ﴾ [التغابن: 14]، وسواء كَانَ مظنونًا أَو متيقّنًا، والحذرُ يدْفع الضَّرَر، والخَوْف لَا يَدْفَعُهُ؛ ولهذا يُقَال: خُذ حذرك، ولَا يُقَال: خُذ خوفَك[2].

الخَوْف والخَشية:

أَنَّ الخَوْف يتَعَلَّقُ بالمكروه، وبتْركِ المَكْرُوه، تَقول: خِفْتُ زيدًا، وتقول: خفت المَرَض، كما قال سبحانه: ﴿وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلۡحِسَابِ﴾ [الرعد: 21]، والخشية تتَعَلَّق بمُنْزل المَكْرُوه، ولا يُسمَّى الخَوْف من نفس المَكْرُوه خشيَة؛ ولهذا قالَ: ﴿وَيَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلۡحِسَابِ﴾ [الرعد: 21][3].

وأصلُ الخَشية: الخوفُ مع التَّعظيم؛ ولذلك خُصَّ بها العلماءُ[4].

والخَشية: أَشدُّ منَ الخَوْف؛ لِأَنَّهَا مأْخُوذَةٌ من قَوْلهم: شَجَرَةٌ خاشية: أَي يابسة، وهو فَوَات بالكُلِّيَّة، والخَوْفُ: النَّقْصُ، من نَاقةٍ خوفاء: أَي بها داءٌ وليس بفَوَات، ولذَلك خُصَّت الخَشيةُ بِاللَّه في قَوْله: ﴿وَيَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ﴾، والخَشيةُ تكون من عِظَم المَخْشِيّ وإِن كَانَ الخاشي قَوِيًّا، والخَوْفُ يكونُ من ضَعفِ الخَائِف وإِن كَانَ المخوف أمرًا يَسِيرًا[5].

الخَشية والشَّفقة:

والإشفاقُ عنايةٌ مختلَطة بخوف؛ لأَنَّ المُشْفِقَ يُحِبُّ المُشفَقَ عليه، ويَخاف ما يَلحقُه، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشۡفِقُونَ﴾ [الأنبياء: 49]، الخَشيةُ

(1) أبو هلال العسكري، الفروق اللغوية، ص: 237.
(2) أبو هلال العسكري، الفروق اللغوية، ص: 240.
(3) الكفوي، الكليات: فصل الخاء، ص: 428.
(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/64.
(5) الكفوي، الكليات: فصل الخاء، ص: 428.

والإشفاقُ متقاربانِ في المعنى، والفرقُ بينهما: أنّ المنظور في الخَشية جانبُ المَخشيّ منه، وهو عظمتُه ومهابتُه، وفي الإشفاق جانبُ المخشي عليه، وهو الاعتناءُ بشأنه، وعدمُ الأمن مِنْ أن يُصيبَه مكروهٌ[1].

فالشَّفَقَةُ ضربٌ منَ الرِّقَّة وضَعفِ القلب، ينَالُ الإنْسَانَ، وَمن ثَمَّ يُقَال للْأُم إنَّهَا تُشفق على ولَدها، أَي: تَرِقُّ لَهُ، ولَيْسَت هي منَ الخَشية وَالخَوْف في شَيْء، والشّاهدُ قَوْلُه تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنۡ خَشۡيَةِ رَبِّهِم مُّشۡفِقُونَ﴾ [المؤمنون: 57]، ولو كانت الخشيةُ هي الشَّفَقَةُ، لما حَسُن أَن يقول ذَلِك، كما لا يَحْسُنُ أَن يقولَ: يَخْشونَ من خشيَة رَبّهم، ومن هذا الأَصْل قَوْلُهم: ثوبٌ شَفِقٌ إذا كَانَ رَقِيقًا وشُبِّهت بِهِ البداة؛ لِأَنَّهَا حُمْرَةٌ لَيست بالمُحْكَمَة، فقولُك أشفقتُ من كذا معناه: ضعف قلبِي عن احْتِمَاله[2].

الخَوْف والرَّهبة:

أَنَّ الرَّهبة طولُ الخَوْف واستمرارُه، قال تعالى: ﴿وَفِي نُسۡخَتِهَا هُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلَّذِينَ هُمۡ لِرَبِّهِمۡ يَرۡهَبُونَ﴾ [الأعراف: 154]، ومن ثمَّ قيل للرّاهب رَاهِبٌ؛ لِأَنَّهُ يُديم الخوفَ، وأصلُه من قَوْلهم: جَمَلٌ رهْب، إذا كان طويل العِظَام مشبوحَ الخلق[3].

التَّخويف والإنذار:

أَنَّ الإنْذَار تخوِيف مع إعلام موضِع المَخافة، قال تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلۡوَحۡيِۚ وَلَا يَسۡمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ﴾ [الأنبياء: 45]، من قَوْلك: نَذِرْتُ بالشَّيْء، إذا عَلِمْتَه، فاستعْدَدْتَ لَهُ، فَإذا خوَّفَ الإنْسَانُ غيرَه، وأعلمَه حالَ ما يخوِّفه بِهِ، فقد أنذره، وإن لم يُعلمهُ ذَلِك لم يُقَلْ: أنذره[4].

الخَوْف والهَلَع:

والهَلَع هو أَسْوَأ الجزع، وقيل: الهلوعُ على ما فسَّره اللّهُ تعالَى في قوْله تعالَى: ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ١٩ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ٢٠ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلۡخَيۡرُ مَنُوعًا ٢١﴾ [المعارج: 19-21]، وَلَا يُسمَّى هلوعًا حتَّى تُجمَعَ فيه هذه الخِصَالُ[5].

---

(1) إسماعيل حقي، روح البيان: 5/469.
(2) أبو هلال العسكري، الفروق اللغوية، ص: 240.
(3) أبو هلال العسكري، الفروق اللغوية، ص: 242.
(4) أبو هلال العسكري، الفروق اللغوية، ص: 242.
(5) أبو هلال العسكري، الفروق اللغوية، ص: 242.

الخوف والفَزَع:

الفَزَعُ مفاجأةُ الخَوْف، عِنْد هجوم غَارةٍ، أَو صوت هَدَّة وما أشبه ذلك، قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُواْ فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُواْ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ [سبأ: 51]، وهو انزعاجُ القلب بتوقُّع مَكْرُوهٍ عَاجلٍ[1].

الخَوْف والوَجَل:

أَنَّ الخَوْف خلافُ الطُّمَأْنِينَة، وَجِل الرجل يوجَلُ وجلًا، وإذا قلت: وَلم يطمئن، ويُقَال: أَنا من هذا على وَجَلٍ، ومن ذَلِك على طُمأنينة، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنفال: 2]، لَيْسَ الوجلُ منَ الخَوْف في شَيْء، وخافَ مُتَعَدٍّ، ووجل غيرُ مُتَعَدٍّ، وصيغتاهما مُخْتَلِفَتَانِ أَيْضًا، وَذَلِكَ يدلُّ على فرق بَينهمَا في المَعْنى[2].

الاتِّقاء والخشية:

أَنَّ في الاتِّقاء معنى الاحتراس مِمَّا يُخَاف، وليس ذلك في الخشية، ﴿وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِيٓ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران: 131].

الخَوْف والبأس والبُؤس:

أَنَّ البَأْس يجْرِي على العدَّة منَ السِّلَاح وغَيرهَا، ونَحْوُه قَوْلُه تَعَالَى: ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ [الحديد: 25]، وَيُسْتَعْمل في مَوضِع الخَوْف مجَازًا فَيُقَال: لَا بَأْس علَيْك، ولا بَأْس في هذا الفِعْل، أَي: لا كَرَاهَة فيه[3].

مناسبةُ نفيِ الخَوف للسِّياق دون سواه مما يرادفُه:

وممّا سبق يَتبيّنُ أَنَّ نفيَ الخَوف أبلغُ من نفيِ ما سواه منَ الألفاظ الأخرى المتقاربة؛ وذلك لأنَّ الخوفَ يكون من أمرٍ في المُستقبل مظنونٌ به الضُّرُّ أو الشَّرُّ أو المكروهُ، ونفيُ هذا المعنى يستلزم نفيَ ما عداه.

الحُزن والكرب:

الفرق بين الحُزن والكرب أَنَّ الحُزنَ تكاثفُ الغَمِّ وغلظُه مأْخُوذَةٌ منَ الأَرْض الحَزَن، وهو الغَليظُ الصُّلْب، والكَرب تكاثفُ الغَمِّ مع ضِيق الصَّدْر، قال تعالى: ﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن

(1) أبو هلال العسكري، الفروق اللغوية، ص: 242.
(2) أبو هلال العسكري، الفروق اللغوية، ص: 242.
(3) أبو هلال العسكري، الفروق اللغوية، ص: 242.

قَبْلُ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الأنبياء: 76]، ولهذا يُقَال لليوم الحَارِّ: يَوْمٌ كَربٌ أَي: كَرْبٌ مَن فيه، وقد كَرِبَ الرجلُ وهو مَكْروبٌ وقد كَرِبه إذا غمَّه وضَيّقَ صَدرَه[1].

الكُرْبَة: هي أَشدُّ منَ الحزن والغَمِّ، ويُقَال: هو الحزن الَّذِي يُذيب القلبَ، أَي: يُحيِّره ويُخرجه عن أَعمال الأَعْضَاء، ورُبَّما أهلك النَّفسَ[2].

الغمّ والحَسْرَة والأَسَف:

أَنَّ الحَسْرَةَ غمٌّ يَتَجَدَّد لفَوْت فَائِدَةٍ، قال تعالى: ﴿يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِۚ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [يس: 30]، فلَيْسَ كلُّ غمٍّ حسرةً، والأسفُ حسرةٌ معها غضبٌ أَو غيظٌ، ثمَّ كثُر ذلِك حَتَّى جَاءَ في معنى الغَضَب وحدَه[3].

الحُزن والبَثّ:

إنَّ قَوْلنَا: الحُزن يُفِيد غِلَظَ الهَمِّ، وقَوْلُنا: البثُّ يُفِيد أَنه يَنبَثُّ وَلَا يَنكتمُ، من قَوْلك: أبثثْتُه ما عِنْدي، وبَثثْتُه إذا أعلمتُه إيَّاه، وأصلُ الكَلِمَة كَثْرَةُ التَّفْرِيق، ومِنْه قَوْلُه تعالَى: ﴿كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ۝٤﴾ [القارعة: 4]، وقال تعالَى: ﴿إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [يوسف: 86]، فعطفَ البثَّ على الحُزن؛ لما بَينهما منَ الفرق في المَعْنى، وهو ما ذَكرْنَاهُ[4].

فالبَثُّ: أشدُّ الحُزن[5]، فكأنَّه من شدَّتِه لا يستطيع المرءُ كتمانَه، فيَبُثُّه إلى من يُتوقّعُ منه السُّلوانُ والتَّسرية.

الحُزن والغضب:

الغضب: ثورانُ دمِ القلب إرادةَ الانتقام[6]، قال تعالى: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَۖ﴾ [الأعراف: 154]، وقد سُئِلَ ابْن عَبَّاس عَن الحُزن وَالغَضَب فَقَالَ: مَخرجُهما وَاحِدٌ وَاللَّفْظ مُخْتَلف، فَمن نَازع من يقوى عَلَيْهِ أظهر غيظًا وغضبًا، وَمن نَازع من لَا يقوى عَلَيْهِ أظهر حزنًا وجزعًا[7].

---

(1) أبو هلال العسكري، الفروق اللغوية، ص: 267.
(2) الكفوي، الكليات، فصل الكاف، ص: 772.
(3) الكفوي، الكليات، فصل الكاف، ص: 772.
(4) أبو هلال العسكري، الفروق اللغوية، ص: 267.
(5) الكفوي، الكليات، فصل الألف والسين، ص: 114.
(6) الرّاغب، المفردات: (غضب).
(7) الكفوي، الكلّيّات، فصل الألف والسين، ص: 114.

الحُزن والأسَى:

والأسَى: حُزنٌ على الشَّيْء الَّذِي يفوت، ﴿وَنَصَحۡتُ لَكُمۡۖ فَكَيۡفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوۡمٖ كَٰفِرِينَ﴾ [الأعراف: 93].

بلاغةُ الآية مع ما يُشابهُها:

تشابهُ ختام هذه الآيـة الكريمةِ مع ختامِ قصّةِ آدمَ عليه السلام

في ختام قصّةِ آدمَ عليه السلام ورد قولُه تعالى: ﴿فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ [البقرة: 38]، وورد الختامُ ذاتُه في نهاية الآية الكريمة إشارةً إلى أنَّ ما كان من أمر اليهود منَ العصيان والطُّغيان والجحود والنُّكران، ثم فتحِ بابِ التَّوبة والإنابة لمن آمن منهم، كُلُّ هذا كان أنموذجًا لأمّة أُنزل عليها وحي، فكان لهم موقفٌ من هذا الوحي؛ لتتعلمَ الأمَّةُ من هذا الأنموذج العبرَ والدّروسَ.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٤﴾﴾ [البقرة: 63-64]

مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِمَا قَبْلَهما:

بعد أنْ أطمعَ اللّهُ تعالى بالآية السابقة بني إسرائيلَ في رحمته بعدما قرّعهم بالنُّذُر التي تكاد تُوقع اليأسَ في قلوبهم، عقَّب ذلك الإطماعَ بالتَّذكير ببعض الوقائع التي استحقُّوا فيها العقوبةَ، فحالت دون وقوعها الرّحمةُ، فقال: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ﴾ وهو العهدُ الذي أخذه عليهم[1].

شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

1) ﴿مِيثَٰقَكُمْ﴾: الميثاقُ والمُواثَقَةُ: المعاهدةُ، ومنه قولُه تعالى: ﴿وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِي وَاثَقَكُم بِهِۦٓ﴾ [المائدة: 7]، وأوْثَقَهُ في الوَثاقِ، أي شدَّهُ، وقال تعالى: ﴿فَشُدُّواْ ٱلْوَثَاقَ﴾ [محمد: 4]، والوِثاقُ بكسر الواو لغةٌ فيه، والوثيق: الشَّيء المُحكم، والجمع وَثاق، وقد وثُقَ بالضمِّ وَثاقَةً، أي صار وَثيقًا، ويقال: أخذ بالوَثيقَةِ في أمره، أي بالثِقَةِ، وتَوَثَّقَ في أمره مثله، ووَثَّقْتُ الشَّيءَ توثيقًا فهو مُوَثَّق، وناقةٌ مُوَثَّقَةُ الخَلْقِ، أي مُحْكَمَتُه، ووَثَّقْتُ فلانًا، إذا قلتُ إنَّه ثِقَةٌ واسْتَوْثَقْتُ منه، أي أخذت منه الوثيقةَ[2].

والميثَاقُ: العَهْدُ، مِفعالٌ مِنَ الوِثَاقُ، وهو في الأَصْلِ حَبْلٌ أَوْ قَيْدٌ يُشَدُّ بِهِ الأَسِيرُ والدَّابَّة[3].

والمِيثاق: عقد مؤكَّد بيمين أو عهد، يقال: أوثقتُ كذا ووثقته ووثق به ثقة، ثم قيل: رجلٌ ثقةٌ، وقومٌ ثقةٌ، فاستعير لفظُها للموثوق به، والميثاقُ الذي أُخذ منهم ما ذكره اللّه تعالى في قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ [البقرة: 83]، وفي قوله:

(1) محمد رشيد رضا، تفسير المنار: 1/281.
(2) الجوهري، الصِّحاح: (وثق).
(3) ابن الأثير، النهاية: (وثق).

﴿وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا﴾ [المائدة: 12]، وفي قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ﴾[1] [آل عمران: 81].

2) ﴿ٱلطُّورِ﴾: قال ابن عباس: الطُّور كلُّ جبل يُنبِتُ، وكلُّ جبل لا يُنبِتُ فليس بطور، قال القاضي ابنُ عَطِيَّة رحمه الله: وهذا كلّه على أنَّ اللّفظة عربيةٌ، وقال أبو العالية ومجاهد: هي سُريانيّةٌ اسمٌ لكلّ جبل[2]، والطُّور بالسُّريانية طُوْرا، أعربته العربُ فقالت: طور، وأجروا عليه الإعراب، وأدخلوا عليه الألف واللام فصار من كلامهم[3]، وقال بعضُهم: إنَّ الطّور اسمُ جنس للجبال في لغة الكنعانيّين، نُقل إلى العربية[4].

والطُّور: قيل: هو اسمٌ لجبل مخصوص، وقيل: هو اسمٌ لكلّ جبل يُنبتُ شيئًا[5].

والطُّور في الآية: هو الجبلُ المعروف الذي ناجى عليه الله موسى عليه السلام، وهو الذي رفعَه فوق بني إسرائيل؛ كما جاء في سورة الأعراف، فقال: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ﴾[6] [الأعراف: 171].

3) ﴿بِقُوَّةٍ﴾: القُوَّةُ تستعمل تارة بمعنى القدرة، وتارة للتهيُّؤ الموجود في الشَّيء، نحو أن يقال: النَّوى بالقوَّة "نخلة"، أي متهيّأ ومترشّحًا أن يكون منه ذلك، وتستعمل القوَّة في البدن تارة، وهو الأظهر، وتارة في النفس، ولـمَّا كانت القوَّة للشدَّة الموجودة في الشَّيء سُمِّيت المفازة قوى - تصوُّرا منها ذلك، ثم قيل: أقوى فلان، إذا صار في قوى، أي قفر، وتصور من حال الفقر، فاستعير الأقوى للافتقار استعارة قولهم أَتْرب وأَرْمل، لذلك، فقوله: ﴿خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ﴾ أي: تعاطَوْا ما فيه بعلم ودراية، فالعلم هو الذي يُقَوِّي الإنسان، ويُبَلِّغُه المقصود في أمور الدين، وقال الضحّاك: ﴿بِقُوَّةٍ﴾: أي بطاعة الله، وذلك لما روى " أقوى الناس من أطاع الله

(1) الرّاغب، تفسير الرّاغب الأصفهاني: 1/216.
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 1/158.
(3) سَلَمة الضِّحاري، الإبانة في اللغة العربية، ص: 104.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/542.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/542.
(6) المراغي، تفسير المراغي: 1/135.

واتَّقاه "، وقيل: بقوَّة، أي بعمل ما فيه، وذلك صحيح بنظر؛ فإنَّ تعاطي كلَّ جزء منَ العمل الصالح يقوِّي الإنسانَ على ما فوقه.

4) ﴿وَٱذۡكُرُواْ﴾: الذِّكرُ ذِكْران، ذِكْرٌ باللِّسان، وذِكْرٌ بالقلب، وأنه يُتَجَوَّز به في الحفظ والمُراعاة، فيقال: اذكر كذا، كما يقال في التَّرك: النِّسيان[1].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

ذكر سبحانه في هاتين الآيتين بيانًا لطبيعة اليهود الغادرةِ، وفضحًا لهم كيف أنَّهم يرفضون رسالةَ رسولهم، مع ما أنعم الله به عليهم، نِعمًا ما أعظمَها، وما أَوْلاها بالتَّلقِّي بالشُّكر والولاء للمُنعم، ولكنْ أنَّى للعُمْي أن يُبصروا، وللصُّمِّ أن يسمعوا؟

وهذه جنايةٌ أخرى حدثتْ من أسلافكم -أيها المخاطَبون وقتَ التَّنزيل - ذاك أنّه بعد أن أخذ الله عليهم المواثيقَ المؤكَّدة منكم بالإيمان بالله وإفراده بالعبادة، فقبلوها، وأَراهم منَ الآيات ما فيه مَقنعٌ لهم؛ فرفعَ الجبلَ فوقهم كالظُّلّة، حتى ظنُّوا أنه واقعٌ بهم، وطلب إليهم التّمسُّكَ بالتوراةِ، والعملَ بما فيها بالجِدِّ والنَّشاط كي يُعِدُّوا أنفسَهم لتقوى الله ورضوانه، ثمَّ كان منهم أنْ أعرضُوا عن ذلك، وانصرفوا عن طاعته، ولولا لُطفُ الله بهم لاستحقُّوا العقابَ في الدّنيا، وخسروا سعادةَ الآخرة، وهي خيرٌ ثوابًا، وخيرٌ أملًا، لكنْ وفَّقهم الله تعالى بعد ذلك فتابوا، ورحِمَهم، فقبل توبتَهم.

❁ الإِيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

سببُ الوصل بين الجملِ:

اشـتراكُ الآيـاتِ في تَعداد قبائحِ بني إسرائيل، وذكـرِ أنواعِـها المختلفة

عُطفت جملةُ ﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَكُمۡ﴾ على ما قبلها، وهي الآيةُ المُصَدَّرة بـ (إذ) في قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ قُلۡتُمۡ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصۡبِرَ عَلَىٰ طَعَامٖ وَٰحِدٖ فَٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ﴾ [البقرة: 61]؛ لاشتراكهما في تَعداد جرائمِهم، فعاد القولُ إلى بني إسرائيل بعد أن ذكر اليهودَ والنَّصارى والصَّابئين؛ لبيان أنه لا يصحُّ أن ييأسوا من رحمة الله تعالى بعد ما كان منهم في ماضِيهم، وما يكون منهم في حاضرهم إن آمنوا

(1) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 1/216.

بالله حقَّ إيمانه، وبالآخرة إيمانَ إذعان ورجاء إن أطاعوا، وخوفَ العقاب إن عصَوْا.

بلاغةُ التّكرار في (إذ) الظّرفية:

تفصيلُ النِّعمِ بعد إجمالِ ذِكرِها دليلُ غفلةِ المخاطَبِ

تعدّد ذكرُ نعمِ الله على بني إسرائيل؛ لتذكيرِهم بها وبأحوالِهم معها؛ لمناسبة تَعداد النِّعم التي أنعم الله بها عليهم تفصيلًا، بعد ما ذَكر الله ﷻ نِعمَه على بني إسرائيل إجمالًا؛ ليكونَ أبلغَ في ذكرها وأَدْعى لشُكرها، فكأنَّه قال: اذكروا نِعمتي، واذكروا إذْ نجيناكم، واذكروا إذ فرقنا بكم البحرَ، واذكروا إذ واعدنا موسى، وإذ آتينا موسى الكتابَ، إلى آخر ما عدَّده منَ النِّعم عليهم، وكلُّ هذه النِّعم تستدعي شكرَ المُنْعِم جلَّ وعلا، لا كفرانَه وعصيانَه[1].

بلاغةُ حذفِ العامل في الظّرف (إذ):

اقترانُ كثرةِ الجرائمِ مع النِّسيانِ، دليلُ بلادةِ الشُّعورِ

المشهورُ أنّ العاملَ في الظَّرف في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ﴾ فعلٌ مُقَدَّرٌ، أي: اذكروا إذْ، وهو مشتقٌّ منَ الذُّكر بضمّ الذّال، وهو التّذكُّر بالعقل والنَّظر، وليس ذكرَ اللّسان، وقد حُذِفَ العاملُ للتَّنبيه على تَعداد جرائمِهم، وكثرةِ نسيانهم، فهو يأمرُهم بتذكّر ذلك، ويُشيرُ النَّظم إلى أنَّ أنهم لن يذكروا إلَّا قليلًا؛ فالله لا يخفى عن علمه شيءٌ، فهو بكلّ شيءٍ عليم.

وحذفُ العامل في نحو هذا كثيرٌ في القرآن، وذكرُ العاملِ في (إذ) جائزٌ في اللّغة، وقد ورد في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً ۖ فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: 69]، وقوله: ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا ۖ فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: 74].

(1) الهرري، تفسير حدائق الروح والريحان: 1/349.

وقولِه: ﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ كُنتُمۡ قَلِيلٗا فَكَثَّرَكُمۡۖ وَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ [الأعراف: 86].

وقولِه: ﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ أَنتُمۡ قَلِيلٞ مُّسۡتَضۡعَفُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [الأنفال: 26].

ونلْحَظُ أنَّ ذكرَ العامل في الظَّرف يأتي في سياق دعوةِ الأنبياء أقوامَهم أن يتذكّروا آلاءَ اللّه عليهم، ومخاطبةِ اللّه المؤمنين، وحَذْفَ العاملِ في سياق الحديث عن بني إسرائيل، وسوابقِهم مع أنبيائهم، وجحودِهم الحقَّ.

بلاغةُ التَّعبيرِ بمادة (أخذ) المُضافةِ إلى ضميرِ العظَمة (نا):

تدلُّ مادَّة (أخذ) في قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَكُمۡ﴾ على تحصيل الشّيء في الحَوزة بقوَّة، وعلى المأخوذ منه الميثاقُ تنفيذُ أوامر الآخذ من دون تعقيبٍ أو اتِّباعِ هوى، وفيه إشارةٌ إلى مِنَّة اللّه تعالى ونِعمتِه على بني إسرائيل[1]، فبلاغةُ المفردةِ يظهرُ في أنَّ الأخذَ كان بهذه القوَّةِ ومع ذلك فقد صدَرَ عنهم ما صَدَر!

قـوَّةُ الأخـذِ تقتضي الحفاظَ على المواثيقِ إلَّا عند المخاريقِ

وقد ورد هذا التَّركيبُ ﴿أَخَذۡنَا مِيثَٰقَكُمۡ﴾[2] و﴿أَخَذۡنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾[3] في حقِّ بني إسرائيل خاصةً؛ لزيادة تعظيم الميثاق المأخوذِ عليهم، وأنّ الذي تولَّى ذلك هو اللّه ﷻ، ولمناسبة ما سبق من نحو قولِه: ﴿وَإِذۡ نَجَّيۡنَٰكُم﴾ [البقرة: 49]، ﴿وَإِذۡ فَرَقۡنَا بِكُمُ ٱلۡبَحۡرَ فَأَنجَيۡنَٰكُمۡ وَأَغۡرَقۡنَآ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ﴾ [البقرة: 50]، ﴿ثُمَّ بَعَثۡنَٰكُم مِّنۢ بَعۡدِ مَوۡتِكُمۡ﴾ [البقرة: 56]، ﴿وَإِذۡ قُلۡنَا ٱدۡخُلُواْ﴾ [البقرة: 59].

سرُّ إفراد الميثاق دونَ جمْعه:

جاء التعبير في قوله تعالى: ﴿مِيثَٰقَكُمۡ﴾ بالإفراد لوجهين: قال القفَّال: إنما قال ﴿مِيثَٰقَكُمۡ﴾ ولم يقُل: (مواثيقكم) لأنه أراد ميثاقَ كلّ واحدٍ منكم كقوله: ﴿ثُمَّ يُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا﴾ [غافر: 67]، أي يخرج كلُّ واحدٍ منكم طفلًا[4].

(1) نصر سعيد، بلاغة الكلمة، ص: 237.
(2) كما في سورة البقرة: 63، 84، 93.
(3) كما في سورة البقرة: 83، وسورة المائدة: 70.
(4) محمد علي جميل، صفوة التفاسير: 1/57.

والثّاني: أنَّه كان شيئًا واحدًا أُخِذَ من كلِّ واحدٍ منهم، كما أُخذ على غيره، فلا جَرَم كان كلُّه ميثاقًا واحدًا، ولو قيل: (مواثيقكم) لأشبه أن يكون هناك مواثيقُ أُخِذَتْ عليهم لا ميثاقٌ واحد[1].

دلالة إضافةِ الميثاق إلى ضميرِ المخاطَبين:

لأنَّه تعالى إنما أخذ ميثاقَهم لمصلحتِهم، فصار ذلك من إنعامِه عليهم[2]، وفيه زيادةُ تنبيهٍ إلى أنّ المخاطَبين به مُطالَبون بهذا الميثاق كأسلافِهم؛ و"لتحميلِ الخلَف تبعاتِ السَّلف؛ كيلا يقعُوا في مثلِها، ولِيستغفِروا لأسلافهم عنها"[3].

سرُّ ذكرِ ﴿ٱلطُّور﴾ هنا و﴿ٱلْجَبَلَ﴾ في الأعراف:

يُلحَظُ أنَّ النَّتْقَ بمعنى الفصْل والقَلْع مقدَّمٌ في الفعل على الرَّفع، فناسبَ ذكرَ النَّتْق في سورة الأعراف المكيةِ، وذكرُ ﴿ٱلْجَبَلَ﴾ مع القلع أنسبُ؛ لبيان عظمةِ الفاعل، وعِظَم الفِعْلِ، كما ناسبَ ذكرَ الرَّفع في سورتَيِ البقرة والنساء المَدَنِيَّتَيْنِ[4]، وإيقاعُ الرَّفع على اسم ﴿ٱلطُّور﴾؛ لمناسبة الرَّفع في الهواء، "وطابق لفظُه الطّورَ أي: الفَناءَ و"طار يطُور لسرعة المشي، كما أنَّ طار يطير للسِّباحة في الهَواء"[5]، ولدلالتِه على الامتداد بإزائهم فوقَهم، فلا يَستطيعون منه فِكاكًا، ولذلك سُمّي جبلُ سَيناء بالطُّور؛ لدوران ماء البحر حولَه؛ إذ هو زاويةُ شبهِ جزيرةِ سَيناء المُمتدّةِ في البحر الأحمر، وكأنّ معنى الاسم: المَدُورُ حولَه[6]، قال أبو جعفر: وأمّا الطّور؛ فإنه الجبلُ في كلام العرب، ومنه قول العجّاج[7]:

الجبلُ بِثِقَله يُناسبُ الحديثَ عن نَتْقِه، والطُّورُ يناسبُ الحديثَ عن رَفْعِه

دانَى جَنَاحَيْهِ مِنَ الطُّورِ فَمَرّ *** تقضي البازي إذا البازي كسر

(1) الرازي، التّفسير الكبير: 3/538.
(2) الرازي، التّفسير الكبير: 3/537.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/542.
(4) في الآيتين (63، 93) من سورة البقرة، والآية (154) من سورة النساء.
(5) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 1/216.
(6) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (طور).
(7) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/157.

بلاغةُ الإيجازِ بالحَذْفِ في قولِه: ﴿خُذُواْ مَآ ءَاتَيۡنَٰكُم بِقُوَّةٖ﴾:

اختلَف أهلُ العربيّة في تأويل قولِه تعالى: ﴿خُذُواْ مَآ ءَاتَيۡنَٰكُم بِقُوَّةٖ﴾؛ فقال بعضُ نحْوِيِّي أهلِ البَصرة: هو ممّا استُغنيَ بدلالة الظَّاهر المذكور عما تُرك ذكرُه له، وذلك أنَّ معنى الكلام: ورفعنا فوقَكم الطّورَ، وقلنا لكم: خذوا ما آتيناكم بقوّة، وإلا قَذفناه عليكم[1]؛ ففيه إيجازٌ بالحذف، أي قلنا لهم: خذوا، أي: على إرادة القول[2].

إيثارُ ﴿وَٱذۡكُرُواْ مَا فِيهِ﴾ بدلًا من (اذْكُرُوه):

يشير استعمالُ ﴿مَا﴾ في قولِه تعالى: ﴿وَٱذۡكُرُواْ مَا فِيهِ﴾ إلى عِظَم ما في هذا الميثاق، ومَزيدِ أهميّتِه، كما يدلُّ على الأمر بذكْره تفصيلًا، أمرًا أمرًا، ونهيًا نهيًا، في حين أنَّ الضميرَ الواقعَ معمولًا للذّكْر في (اذكروه) لا يُفهم منه ذانِك الأمران: الأهمية والتفصيل.

المطلوبُ ذكرُ ما في الميثاقِ التَّفصيليِّ لا ذكرُه العُنوانيُّ

أي: واذْكُروا ما فيه منَ الأحكام أوامرِها ونواهِيها، أو اعمَلُوا به لئلَّا تَنْسوه - فإنّ ذلك يُعدّكم للتقوى ويجعلُها مرجوّةً لكم، فإنَّ الجدَّ وقوّةَ العزم في إقامة الدِّين يُهذِّبُ النَّفس ويُزكِّيها، والتّهاوُنَ والإغماضَ فيه يُدسِّيها ويُغويها ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠﴾ [الشمس: 9-10].

دلالة التّرجّي في قوله: ﴿لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾:

(لعلَّ) في المشهور موضوعةٌ للتّرجّي، وهو الطّمعُ في حصول أمرٍ محبوبٍ مُمكنِ الوقوع والإشفاق، وهو تَوقُّعُ مَخوفٍ مُمكنٍ، والظاهرُ التَّقابلُ، فتكونُ مشتركةً، وذكرَ الرّضيُّ أنها للتَّرجّي، وهو ارتقابُ شيءٍ لا وُثوقَ بحصوله، فيدخلُ فيه الطّمعُ والإشفاقُ، والذي يميل إليه القلبُ ما ذكره بعضُ المحقّقين إنّها لإنشاء توقُّع أمرٍ متردّدٍ بين الوُقوع وعدمِه مع رُجحان الأوّل، إما محبوبٌ فيُسمّى رجاءً، أو مكروهٌ فيُسمّى إشفاقًا[3].

والرَّجاءُ الذي يقتضيه حرفُ (لعلّ) مستعمَلٌ في معنى تقريبِ سببِ التَّقوى بحضِّهم على الأخذ بقُوّة، وتعهُّدِ التّذكّر لما فيه، فذلك التَّقريبُ والتّبيين شبيهٌ برجاء الرَّاجي.

(1) ابن جرير، جامع البيان: 2/160.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 2/161.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 1/525.

ويجوز أن يكون (لعلّ) قرينةَ استعارةِ تمثيلِ شأنِ الله حين هيّأ لهم أسبابَ الهداية بحال الرَّاجي تقواهم، وعلى هذا محملُ موارد كلمةِ (لعلّ) في الكلام المُسنَدِ إلى الله تعالى[1].

توجيه المخصوصِ بالذّكرِ:

التَّقوى قُصارى أمـرِ العـابـد، فيكونُ الكلامُ أبعـثَ على العِبادةِ

خُصّتِ التَّقوى بالذِّكرِ في هذا السِّياقِ في قوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾؛ لأنّه إذا حصل لهم ذلك نجَوًا في الدّنيا والآخرة، ولأنَّ التَّقوى قُصارَى أمرِ العابد، فيكونُ الكلامُ أبعثَ على العِبادة، أي: لِيُعدّ نفوسَكم لتقوى الله ﷻ: ذاك أنَّ المواظبةَ على العمل تطبعُ في النَّفس سجيّةَ المراقبة لله، وبها تصيرُ تقيّةً نقيّةً من أدْران الرَّذائل راضيةً مرضيّةً عند ربّها ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [طه: 132][2].

دلالة حرفِ العطف ﴿ثُمَّ﴾ في قوله: ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ﴾:

أفادَ حرفُ العطفِ ثمَّ التَّرتيبَ والتَّراخي، وهو على بابه منَ التَّراخي الزَّمني، إشارةً إلى عبادتِهم العِجْلَ في مُدّة مناجاةِ موسى، وأنّ الله تاب عليهم بفضله، ولولا ذلك لكانوا منَ الخاسرين الهالكين في الدّنيا أو فيها وفي الآخرة[3].

دلالة البُعد في اسم الإشارة في قوله: ﴿مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾:

عِـظَـمُ الميثـاق المأخوذِ عليهم

المُشارُ إليه بقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ﴾: أخذُ الميثاق عليهم، وقَبولُ ما أُوتوه منَ الكتاب، وإن كان ثَمَّةَ بُعدٌ زمانيٌّ، ولكنَّه يَحْمِلُ بعدًا آخر، يتعلّقُ بمنزلة الميثاق المأخوذِ عليهم.

أثرُ التَّفسير في الحقيقةِ والمجازِ والوقفِ والابتداء:

الفضلُ: التَّوفيقُ للتوبة، والرَّحمةُ قَبُولُها، أو الفضلُ والرَّحمةُ: بِعثةُ رسولِ الله ﷺ وإدراكُهم لمُدّته، فالخطاب على الأوّل جارٍ على

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/542.
(2) المراغي، تفسير المراغي: 1/135.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/523.

سُنن الخِطابات السَّابقةِ مَجازًا باعتبار الإسلاف، وعلى الثاني جارٍ على الحقيقة[1].

نجاتُهم وإمهالُهم فضلٌ من الله وحده ورحمةٌ منه بهم

وذكر القفَّال في تفسيره وجهين؛ الأول: لولا ما تفضَّل اللّه به عليكم منْ إمهالكم وتأخيرِ العذاب عنكم لكُنْتم منَ الخاسرين، أي: منَ الهالكين الذين باعوا أنفُسَهم نارَ جهنّمَ، فدلّ هذا القولُ على أنَّهم إنّما خرجُوا عن هذا الخُسْران؛ لأنَّ اللّه تعالى تفضَّل عليهم بالإمهال حتى تابوا. الثاني: أن يكون الخبرُ قد انتهى عند قوله تعالى: ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَۖ﴾، ثم قيل: ﴿فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ﴾ رجوعًا بالكلام إلى أوّله، أي: لولا لطفُ اللّه بكم برفعِ الجَبل فوقَكم لدُمتم لردِّكم الكتابَ، ولكنَّه تفضّل عليكم ورحمَكم، فلَطَف بكم بذلك حتى تُبْتم[2].

سِرُّ العُدول عنِ الفعل (لخسرتم) إلى جملة: ﴿لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾:

المُبالغةُ في خُسران ذواتِهم

دخولُ (كان) في جواب (لولا) يُفيدُ المبالغةَ في الخَبر، أي: المبالغةُ في الخُسران، كما أنّ وقوعَ الكَون بعد لام الجواب ﴿لَكُنتُم﴾ يدلُّ على أنّ الخُسران لو وقعَ لكان على ذواتِهم، فأهلَكَهم، في حين أنّ قولنا: (لخسرتم) لا يُثبتُ سوى نوعِ خُسران، ولو كان يَسيرًا، مع بقائهم أحياءً، فلمَّا أدخلَهم في زمرة الخاسرين، أثبت عليهم استحقاقَهم الخسارة الجديرة بهم، والتي لا تكون إلَّا لمن غرِق في بحر المعاصي والظلمات.

توجيه المُتشابه اللَّفظيّ:

العنايةُ بخطابِ أسلافِ بني إسرائيل دليلُ حرصِ القرآنِ على العالمين

قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [البقرة: 63]، وقال في الآية اللَّاحقة: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُواْ مَآ

(1) الآلوسي، روح المعاني: 1/282.
(2) الرازي، التّفسير الكبير: 3/539.

ءَاتَيۡنَٰكُم بِقُوَّةٖ وَٱسۡمَعُواْۖ قَالُواْ سَمِعۡنَا وَعَصَيۡنَا وَأُشۡرِبُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡعِجۡلَ بِكُفۡرِهِمۡۚ قُلۡ بِئۡسَمَا يَأۡمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٩٣﴾ [البقرة: 93].

فالخطابُ فى الآيتين لبني إسرائيلَ، ووجهُ تخصيص كلٍّ منَ الآيتين بما أُعْقِبتْ به، أنَّ الآية الأولى تقدّم قبْلها قولُه تعالى: ﴿وَإِذۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡفُرۡقَانَ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [البقرة: 53]، والكتابُ: التَّوراةُ وقد سمعوه وعنه قيل، وإليه أُشيرَ بقوله تعالى: ﴿خُذُواْ مَآ ءَاتَيۡنَٰكُم بِقُوَّةٖ وَٱذۡكُرُواْ مَا فِيهِ﴾، وقد زاد هذا إيضاحًا قولُه فى سورة الأعراف: ﴿۞وَإِذۡ نَتَقۡنَا ٱلۡجَبَلَ فَوۡقَهُمۡ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٞ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُۥ وَاقِعُۢ بِهِمۡ خُذُواْ مَآ ءَاتَيۡنَٰكُم بِقُوَّةٖ وَٱذۡكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿١٧١﴾﴾ [الأعراف: 171]، والاشارةُ بالقوّة إلى عظيم تَخويفِهم برفع الجَبل فوقَهم كالظُّلّة، فقولُه تعالى: ﴿خُذُواْ مَآ ءَاتَيۡنَٰكُم﴾ عقبَ ذكْرِ كتابهم أوضحُ شيء وأنسبُه، ولـمَّا تقدّم قبل الآية الثانية قولُه تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمۡ كِتَٰبٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٞ لِّمَا مَعَهُمۡ﴾ [البقرة: 89]، وهذا الكتابُ هو الكتابُ العزيز، وإليه الإشارةُ بقوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ ءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ بدليل قولهم - حيْدةً عن إيمانهم -: ﴿نُؤۡمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا﴾، قال تعالى: ﴿وَيَكۡفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ﴾، أى: يكفُرون بالقرآن، قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلۡحَقُّ﴾، والإشارة للقرآن: ﴿مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَهُمۡۗ﴾، أى: منَ التوراة، فلمّا تقدَّم هنا ذكْرُ القرآن وخلَف يهودُ المعاصرون لرسول الله ﷺ مُعرِضون إلا القليل عنِ الإيمان وسماعِ القرآن فناسبَ إعراضُهم عن سماعه تخصيصَه هذا المَوضعَ منَ المقول لسلفهم بقوله للخلف: "واسمعوا " ليكون إخبارًا عن سَلَفهم، وتعريضًا لخلَفهم، فوضح التّناسبُ وأنَّ العكسَ لا يُناسبُ[1].

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الميثاق والعَهْد:

أنَّ الميثاقَ توكيدُ العَهْد من قولك: أوثقتُ الشيءَ إذا أحكمتَ شدَّه، وقال بعضُهم: العهدُ يكون حالًا منَ المُتعاهِدَيْن، والميثاقُ يكون من أحدِهما[2].

(1) ابن الزبير الغرناطي، ملاك التأويل: 1/45.

(2) أبو هلال العسكري، الفروق اللغوية، ص: 525.

الرَّفع والنَّتْق:

الرَّفعُ: المرحلةُ التَّاليةُ للنَّتق، يقال تارةً في الأجسام الموضوعةِ إذا أَعْلَيتَها عن مقرِّها، وتارةً في البناء إذا طوَّلْته، وتارةً في الذِّكْر إذا نوَّهْته، وتارةً في المَنزلة إذا شرّفْتها[1].

النَّتْق: الجذب، ونتقتُ الغَرْبَ منَ البئر، إذا اجتذبته بمرة جذبًا، ونتقتِ الملائكةُ جبلَ الطُّور، أي: اقْتَلعُوه من أصْله حتى أَطْلَعوه على عسكر بني إسرائيلَ[2].

كما يدلُّ على الزَّعْزعةِ والهَزِّ[3]، وهو أن يقلعَ الشَّيء فيرفَعه من مكانه ليرميَ به، هذا هو الأصل[4].

(1) المُناوي، التوقيف على مهمات التعاريف: (الرفع)، ص: 149.

(2) الخليل، العين: (نتق).

(3) ابن سِيده، المحكم: (نتق).

(4) ابن منظور، لسان العرب: (نتق).

﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْاْ مِنكُمْ فِي ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿٦٥﴾ فَجَعَلْنَٰهَا نَكَٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٦٦﴾﴾ [البقرة: 65- 66].

مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِمَا قَبْلَهما:

قصَّةُ أصحابِ السَّبْت أُنموذجٌ لنقض اليهودِ العَهدَ مع الله تعالى

لـمّا ذكَر أخذَ الميثاق عليهم فيما سبق، بيّن هنا أنَّ فريقًا منهم نقضُوا عهدَهم مع اللّه، فجاءت قصّةُ الـمُعتدِين في السَّبت مؤكِّدةً لذلك، إذْ كان حاصلُها أنَّهم لما ضيَّعوا أمرًا واحدًا من أوامره، واستخفُّوا به، وهو تحريمُ الصَّيد في السَّبت، عذَّبهم بعذابٍ لم يُعذِّبْ به أحدًا منَ العالمين، فقال: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْاْ مِنكُمْ فِي ٱلسَّبْتِ﴾.

أصحابُ السَّبت غلبَ عليهم الخُسران؛ ورضَوا به بدلًا منَ العَفوِ والغُفران

إنَّه سبحانه لـمَّا ذكّرهم بنعمة العَفْو الحافظِ لهم منَ الخُسران، قرَّعهم بحلافةٍ أُخرى لهم خذلَ بها فريقًا منهم؛ حتى غلبهمُ الخُسران، فما ضَرّوا إلاّ أنفسَهم، مُقْسمًا على أنّهم بها عالمون، ولها مستحضِرون، فقال تعالى عاطفًا على ما تقديره: لقد علمْتُم جميعَ ذلك من عهودنا، وما ذكرنا منَ الإيقاع بمن نقضَ من شديدِ وعيدنا، ومنَ التَّهديد على ذلك بضرب الذّلّة وما تَبعها من أنواع النَّكال[1].

وفي الآية الكريمة استمرارٌ للخطاب الـمُوجَّه لبني إسرائيل السَّامعين، في صدد ما كان من آبائهم من مواقفَ منحرفةٍ، بضمير الجمع المخاطَب توكيدًا لِلُّحْمَة الوَثيقةِ بين السَّامعين والآباء الغابرين بقصد الإنذار والتَّحذير من أن يُكرِّروا مواقفَ وانحرافاتِ أولئك الآباء[2].

(1) البقاعي، نظم الدرر: 1/464.
(2) دروزة، التفسير الحديث: 6/175.

شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

1) ﴿عَلِمْتُمُ﴾: العلمُ ههنا بمعنى المعرفةِ، ويتعدَّى ذلك إلى مفعولٍ واحدٍ، وحقيقةُ ذلك أنَّ معارفنا ضربان: أحدُهما: حصولُ صُوَرِ الموجودات في النَّفس وذلك كالمَعرفة بذات الشَّيء، والثَّاني: الحُكمُ بوجود شيءٍ لشيءٍ هو مُوجدٌ له، أو الحُكمُ بنفي شيءٍ عن شيء هو مُنتفٍ عنه، فالأول: يقال له معرفةٌ وعلمٌ، ويتعدَّى إلى مفعولٍ واحدٍ، وعلى ذلك قولُه تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ﴾، وقولُه: ﴿لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ [الأنفال: 60]، والثاني: يقال له علمٌ، ولا يقال له معرفةٌ، ويتعدَّى إلى مفعولين لا يصحُّ الاقتصارُ فيه على أحدِهما من حيث إنَّ ذلك يقتضي إثباتَ حُكم أو نفيَ حُكم لمعلوم[1].

2) ﴿ٱعْتَدَوْا۟﴾: الاعتِداءُ مُجاوَزةُ الحدِّ، يقال: اعتدى فلانٌ وتعدَّى إذا ظلم، والاعتداءُ: مُجاوَزةُ الحقِّ على وجهٍ محظورٍ[2]، والاعتداءُ: مُجاوَزةُ الحقِّ، قال تعالى: ﴿وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا۟﴾ [البقرة: 231]، وقال: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ﴾ [النساء: 14]. ومعنى ﴿ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ﴾ [البقرة: 65]، عصيانهم أمرَ اللهِ بأخْذهم الحيتانَ على جهة الاستحلال[3].

3) ﴿ٱلسَّبْتِ﴾: المرادُ به اليومُ المسمَّى بهذا الاسم، أصل السَّبْتِ: القطعُ، ومنه سَبَتَ السَّيرَ: قطعه، وسَبَتَ شَعرَهُ: حَلَقَه. وقوله: ﴿إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ﴾ [النحل: 124]، أي: تَرْك العمل فيه، ومنه قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا﴾ [النبأ: 9]، أي: قطعًا لأعمالكم في الليل[4].

4) ﴿خَٰسِـِٔينَ﴾: الْخَاءُ وَالسِّينُ وَالْهَمْزَةُ يَدُلُّ عَلَى الْإِبْعَادِ. يُقَالُ: خَسَأْتُ الْكَلْبَ. وَفِي الْقُرْآنِ: ﴿قَالَ ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون: 108]، كَمَا يُقَالُ ابْعُدُوا.

والمعنى: أذلَّاء، مبعدين[5].

---

(1) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 1/219.

(2) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 1/219.

(3) الرّاغب، المفردات: (عدى).

(4) الرّاغب، المفردات: (سبت).

(5) ابن فارس، مقاييس اللغة، والسمين، عمدة الحفاظ: (خسأ).

5) ﴿نَكَٰلٗا﴾: أي عبرةً تنكِل المُعتبِر بها، بحيث تمنعُه وتردعُه منَ ارتكاب الشّرّ.

يقال: نكّل به تنكيلاً، إذا صنع به صُنعًا، يردعُه ويجعلُ غيرَه يخافُ ويحذرُ، والاسم النّكال وهو ما نكلتَ به غيرَك، وأصلُه من النِّكل- بالكسر- وهو القَيدُ الشَّديد، وجمعُه أنكال[1].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

ولقد علمتم -يا معشرَ اليهود- ما حلَّ من البأس بأسلافكم من أهل القَرْية التي عصت أمرَ اللّه، فيما أخذه عليهم من تَعْظيم يومِ السَّبْت، فاحتالوا لاصطيادِ السَّمَك فيه؛ بوضع الشِّباك وحفر البِرَك، ثم اصطادوا السَّمَك يوم الأحد؛ حيلةً إلى المحرَّم، فلمَّا فعلوا ذلك، غضِبَ اللّه عليهم فمسخهم اللّهُ قردةً منبوذين حقيرين ذليلين.

فجعلنا هذه القريةَ العاصيةَ عبرةً لمن بحضرتها من القُرى، يبلغهم خبرها وما حلَّ بها، وعبرةً لمن يعمل بعدها منَ الأُمم والقرون مثلَ تلك الذُّنوب، وجعلناها تذكرة للصالحين الذين نَهَوْهم عن تجاوزِ حدودَ اللّه من صالحي قومِهم، أو لكلِّ متَّقٍ سمِعَها؛ ليعلموا أنهم على الحق، فيثبتوا عليه[2].

❁ الإِيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

عطفُ القصَّةِ على القِصَّةِ من بديعِ العطْفِ الإجماليِّ في القرآنِ

تنوُّعُ معنى الواوِ في الآية الكريمة:

الواوُ إمَّا أن تكون من قبيل عطفِ القصَّةِ على القصَّةِ، وإمَّا أن تكون استئنافية، والأَوْلى حملُها على العطفِ؛ لما فيه من سردِ أحوال بني إسرائيل، وما ارتكبوه من الجرائم المتنوِّعةِ والمختلفةِ في أشكالِها وأنواعِها؛ فهي امْتدادٌ لجرائمِهم، وتَعدادٌ لمواقفِهم المُنحرفةِ.

بلاغةُ القسَمِ وأثرُه في كشفِ ما يجولُ في نفوسِ المُخاطبين

صُدِّرت الآيةُ الكريمةُ بلام القَسَم، وقد التّحقيقيةِ؛ لإفادة أنَّ مثلَ هذه القصّةِ يُمكنُ أن يُبهتوا في إنكارها؛ وذلك لما نال في عقبى أولئك المُعتدين من مسخِهم قردةً، فاحتيج في ذلك إلى توكيد،

(1) طنطاوي، التفسير الوسيط: 1/160.

(2) الزمخشري، الكشاف: 1/176، والسعدي، تيسير الكريم الرحمن: 1/54، نخبة من العلماء، التفسير الميسر، ص: 10.

وأنّهم علموا ذلك حقيقةً[1]، فأفاد التَّوكيدُ مباغتةَ القَوْمِ بشيءٍ يعلمونَه ويُخفونَه، وفي ذلك كشفٌ بديعٌ لِمَا يجولُ في النُّفوسِ.

سرُّ تركِ (إذ) إلى هذا التَّصدير المُؤكَّد: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ﴾:

لمحُ الاختلافِ التَّاريخيِّ في النَّظمِ القرآنيِّ من روائعِ البيان

خالفَ في قصِّ هاته القصَّةِ أسلوبَ حكايةِ ما تقدَّمها وما تلاها من ذكْر (إذ) المُؤذِنةِ بزمن القصَّة، والمُشعرةِ بتحقُّق وقوعِها، إلى قوله هنا: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ﴾ لمعنى بديعٍ، هو من وجوهِ إعجازِ القرآن، وذلك أنَّ هذه القصّةَ المُشارَ إليها بهذه الآية ليست منَ القِصص التي تضمّنتْها كتبُ التَّوراة، مثل القِصص الأخرى المَأتي في حكايتها بكلمة (إذ)؛ لأنّها متواترةٌ عندهم، بل هذه القصّةُ وقعت في زمن داودَ عليه السلام، فكانتْ غيرَ مسطورةٍ في الأسفار القديمةِ، وكانت معروفةً لعلمائِهم وأحبارهم، فأطلَعَ اللّه تعالى نبيَّه ﷺ عليها، وتلك معجزةٌ غيبيّةٌ، وأوحى إليه في لفظها ما يُؤذنُ بأنَّ العلمَ بها أخفَى مّن العلم بالقِصصِ الأخرى؛ فأسند الأمرَ فيها لعلْمِهم؛ إذْ قال: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ﴾[2].

سرُّ التَّعبيرِ بمادَّة العِلمِ لا بمادَّةِ المعرفة في قولِه: ﴿عَلِمْتُمُ﴾:

المعرفةُ تمييزٌ للشَّخص في ظاهر أمره، فتقول: عرَفتُ فلانًا، إذا لقيتَه ولَمْ تَخْبُر أحواله، وإذا قلت: علِمْته؛ فمعنى ذلك أنك علمتَ أحوالَ ظاهره وباطنِه، فتقول: علِمْتُ زيدًا إذا علمتَ أحوالَه ظهورَها، وخفاياها[3].

بلاغةُ إيقاعِ العِلْمِ على الأشخاصِ لا على العُقُوبَةِ:

الجريمةُ المذكورةُ هي كالمثالِ، والمقصودُ منهجُ الاعتداءِ

آثر النَّظمُ إيقاعَ العلمِ على المُعتدين لا الاعتداءِ، فقال: ﴿عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْاْ﴾، وفي ذلك تنبيهٌ لطيفٌ للمخاطبين بأنَّ ما كان إيقاعِ العقوبةِ على السَّابقين؛ فإنَّه لاحقٌ بكم إن صنعتم صنيعَهم، فهو

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 1/396.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/543.
(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 1/261.

تلويحٌ بعصا التَّأديب، وبسوطِ العقوبةِ، ومن هنا تعلم أنَّ جعلَ الكلامِ على إيجازِ الحذفِ بعيدٌ، والمُقدَّر بـ: ولقد علمتُم اعتداءَ من اعتدى منكم في السَّبت؛ لكي يكونَ المذكورُ منَ العقوبة جزاءً لذلك[1]، فإنَّ الاعتداءَ الصَّادرَ عن المعتدين له صورٌ كثيرةٌ، والمذكورُ أحدها، والمقصودُ تهديد المعتدين بكل صورِ الاعتداءِ، لا تهديد المعتدين بالصُّورةِ المذكورةِ فحسب.

دلالة الأمرِ في ﴿كُونُواْ﴾:

كمالُ العقوبةِ أن يُؤمرَ المُعاقَبُ بالقيامَ بها

فعلُ ﴿كُونُواْ﴾ أمرٌ تكوينيّ[2] يحصلُ به وجودُ الأشياء، فيكونُ الشَّيءُ الذي أراده اللّه تعالى، التَّكوين: ويُسمِّيها بعضُ البلاغيين (التَّسخير)[3]، وهو التَّذليلُ والإهانةُ، وذلك حيث يكونُ المأمورُ مسخّرًا مُنقادًا لما أُمِر به، نحو قوله تعالى: ﴿كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ﴾، أي: صَاغرين مَطرودين، فما أُمروا به، وهو أن يكونوا قردةً، لم يكنْ في مقدورهم أن يفعلوه، ولكنَّهم وجدوا قدرةَ اللّه قد تسلَّطت عليهم فحوّلتْهُم من أَناسيّ إلى قردةٍ دونَ أن يكون لهم يدٌ فيما حلّ بهم، وذلك هو معنى التَّكوينِ والتَّسخير، وسواءً أكان المسخُ لذواتهم، أم لقلوبهم، فإنّ الأمرَ لا يخرجُ عن معنى التّكوينِ أو التّسخيرِ.

بَلاغةُ التَّعبير بالجَعْل في قوله: ﴿فَجَعَلْنَٰهَا﴾:

استمرارُ الجعلِ موعظةً باقيةً إلى يومِ الدِّين

يُطلقُ فعلُ الجَعْلِ ويُراد به التَّصييرُ والتَّحويلُ والتَّغييرُ، كما في قولنا: جعلتُ القطنَ ثوبًا، كما يُعَبَّر به عنِ الخلق، كما في قوله تعالى: ﴿جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ﴾ [الأنعام: 97]، والجَعْلُ هنا بالمعنى الأوّل، وهو المناسبُ لمسخِهم، أو لمسخ قلوبهم، والضّميرُ في قوله: ﴿فَجَعَلْنَٰهَا﴾ يعود على (المسخةِ) المفهومةِ منَ السياق، أو (العقوبةِ)، أو

(1) الرازي، التّفسير الكبير: 2/540.
(2) ابن فارس، الصاحبي، ص: 185.
(3) القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة: 3/85، وعبد العزيز عتيق، علم المعاني: 1/82.

(القردةِ)، أو القرية، وهو دالٌّ على القدرة، كما يدلّ على أثر تلك العقوبةِ، وأنَّ أثر جعلِها نكالًا لهم، وموعظةً للمتّقين سيكون فيهم وفي الأجيال مِن بعدهم.

مناسبةُ لفظِ (النَّكال) لسياق القصَّةِ:

النَّكال: "عقوبةٌ يُزجَر ويُردعُ بها غيرُهم عن ارتكاب مثلِ ما استحقُّوها به من ذنوب، ثم عُمّمت في العقوبة الشَّديدة"[1]، وهو مناسبٌ لتلكم العقوبة الشَّديدة الفَريدةِ التي وقعت بهم جزاءً وِفاقًا.

بلاغةُ النَّظم في قوله: ﴿لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا﴾:

كلٌّ من ظرفَي المكان مستعارٌ للزّمان، و(مَا) أقيمت مقامَ (مَن) إمّا تحقيرًا لهم في مَقام العظمة والكبرياء، أو لاعتبار الوصف، فإنَّ (مَا) يُعَبّر بها عنِ العقلاء تعظيمًا إذا أريد الوصف، كقولِ: "سبحان ما سخرَكُنَّ"[2].

شُمولُ النَّكالِ للمكانِ والزَّمانِ بدون قَيْدٍ أبلغُ في العقوبةِ

لما قبلها وما بعدها منَ الأمم إذ ذُكرت حالُهم في زُبُرِ الأوّلين، واشتهرت قصّتُهم في الآخرين، أو لمعاصريهم ومن بعدهم، أو لما بحضرتها منَ القُرى وما تباعد عنها، أو لأهل تلك القرية وما حوالَيْها، أو لأجل ما تقدَّم عليها من ذنوبهم وما تأخَّر منها[3].

﴿لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا﴾ أي: لمُعاصريهم ومَن خلْفَهم، وهو المَرويُّ عنِ ابنِ عباس رضي الله تعالى عنهما وغيره، ورُوي عنه أيضًا لِما بحضرتها منَ القرى، أي: أهلها وما تباعد عنها أو للآتين والماضين.. وصحّح كونَها نَكالًا للماضين أنها ذُكرت في زُبُر الأولين فاعتَبروا بها، وصحّت الفاء؛ لأنَّ جَعْل ذلك نَكالًا للفريقين إنَّما يتحقّق بعد القول والمَسخ، أو لأنَّ الفاء إنما تدلُّ على ترتُّب جَعْلِ العُقوبة نَكالًا على القول وتسبُّبِه عنه، سواءً كان على نفسه أو على الإخبار به، فلا ينافي حصولَ الاعتبار قبْل وقوعِ هذه الواقعةِ بسبب سماعِ هذه القصَّةِ، وقيل: اللّامُ لامُ الأجل و﴿مَا﴾ على حقيقتها، والنَّكال بمعنى

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (نكل).

(2) ابن حِجّة الحموي، خزانة الأدب: 9/588، وفيه: « وقد تطلق على ذوي العلم، حكى أبو زيد: سبحان ما سخّركنّ لنا»، وينظر: الآلوسي، روح المعاني: 1/284.

(3) البيضاوي، أنوار التنزيل: 1/86.

العقوبة لا العِبرة، والمرادُ بما بَيْنَ يَدَيْها ما تقدَّم من سائر الذُّنوب قبل أخذ السَّمك، وبما خَلْفَها ما بعدَها[1].

توجيهُ المخصوصِ بالذِّكرِ:

تنبيه القرآنِ على أنَّ التَّقوى مهمازُ كلِّ خيرٍ

وخَصَّ ﷻ تأثيرَ المَوعظة بالمتّقين، وإن كانت هي للعالَمين؛ لتفرُّدِهم بالتأثّر بها، والاهتداءِ بهديها، وهم الذين تنفعلُ نفوسُهم للخير؛ لأنهم ليسوا مَغرورين بعزَّة الشَّيطان، ولكنْ تمتلئُ قلوبُهم بتقوى الله تعالى، بأن يجعلوا بينهم وبين عذاب الله تعالى وقايةً، فمِن دأْبِهم الحذرُ منَ الشّرّ، وإذا ذُكِّروا ذَكَروا، والله هو الهادي إلى الرَّشاد[2]؛ فالموعظةُ هنا أنسبُ لاقترانها بمن هم أهلٌ لتليين القلوبِ وإصلاحِ ما فسد، وهم المُتّقون.

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

المَوعظة والاعتبار:

الوعظُ: هو الإذكارُ بالخير بما يرقُّ له القلبُ[3]، ويدور معناه حول: كلامٍ أو عملٍ يُنَبَّه به الإنسانُ إلى عواقبِ ما يفعلُه، أو ما هو مُقْدِمٌ عليه، ليتوقَّفَ عنه[4].

أمَّا الاِعْتِبَارُ فمأْخُوذٌ منَ العُبور والمُجاوَزة من شَيْءٍ إِلَى شَيْءٍ، ولِهذا سُمِّيت العِبْرَةُ عِبْرَةً، والمعبِّرُ معبِّرًا وَاللَّفْظُ عبارَةً، وَيُقَال: السَّعيدُ مِن اعْتبر بِغَيْرِه، والشَّقيُّ مِن اعْتبر بِهِ غَيرُه، ولِهذا قالَ المُفَسِّرُونَ: الاِعْتِبَار هو النّظرُ فِي حقائق الأَشْيَاء وجهاتِ دَلالتها؛ ليُعرف بِالنّظرِ فِيهَا شَيْءٌ آخر من جِنْسهَا.

وقيل: الاِعْتِبَارُ هو التّدبّرُ وقِيَاسُ ما غَابَ على ما ظهر[5].

---

(1) الآلوسي، روح المعاني: 1/284.
(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 1/261.
(3) أبو حيان، البحر المحيط: 1/403.
(4) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (وعظ).
(5) الكفوي، الكليات: 1/147.

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟
أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟
ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ
وَلَا بِكْرٌ ۖ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ ۖ فَٱفْعَلُوا۟ مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا
رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ
لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ﴿٦٩﴾ ﴾ [البقرة: 67-69]

مُنَاسَبَةُ الآياتِ لِمَا قَبْلَهَا:

لمّا ذكَر الله ﷻ فيما سبق بعضَ قَبائحِ بني إسرائيلَ، وجملةً من جرائمِهم، من نقْضِ المواثيق، واعتدائِهم في السَّبت، أردفَه بذكر نوعٍ آخرَ من مساوئِهم وقبائِحِهم، ألا وهو مخالفتُهم لأنبيائهم وتكذيبُهم لهم، وعدمُ مسارعتِهم لامتثال الأوامر التي يُوحيها الله إليهم، مع كثرة اللّجاج والعِنادِ للرُّسل - صلوات الله وسلامه عليهم - وجفائِهم في مخاطبة نبيّهم موسى[1] عليه السلام.

شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

1) ﴿تَذْبَحُوا۟﴾: الذَّبحُ قطعُ الوَدَجَين والمارِن، وذَبَحَ الشاة وغيرَها: قَطَعَ حُلْقُومها من باطنٍ عند مَوضع الذَّبح. المعنى المحوريُّ: شَقٌّ يَغُورُ دقيقًا فى جِرْمٍ مُلتحم: كالشَقِّ في الأرض بدقّته الموصوفةِ، وكالشُّقوق في أصول الأصابع، وكالذَبْح المعروفِ ﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ [البقرة: 71]، ﴿يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ﴾ [القصص: 4][2].

2) ﴿بَقَرَةٌ﴾: البقرةُ واحدةُ البقر، والذّكَرُ ثورٌ، والأنثى بقرةٌ، البقر: جماعةُ البقرة، والبقيرُ والبقْرُ: شقُّ البطن، والتّبقُّر: التّفتُّح والتّوسُّع من بقرتُ البطنَ، ونُهي عن التّبقّر في المال[3].

(1) الهرري، تفسير حدائق الروح والريحان: 1/481.
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (ذبح).
(3) الخليل، العين: (بقر).

المعنى المِحوريُّ هو: انفتاحُ جوفِ الشّيء عما فيه باتساعٍ: كالدَّارات، والرَّكايا، والبيتُ المبقورُ، وجوفُ النّاقة البقيرُ، وبَقَرة النّحاس، والبقير (الذي يُلبَس) مشقوقٌ في منتصفه فتحةٌ ينفذ منها الرأس، والبقيرُ (ذاك المولود) مبقور عنه.

أمَّا البَقَرةُ المعروفةُ فسُمِّيت كذلك لاتِّساع جوفِها بالنِّسبة إلى الجوازئ من الظِّباء، ويمكن أن تكون علّةُ تسمية الأهلية كذلك بَقْرَها الأرْضَ، أي حرثَها إياها، وقد وُصفتِ البقرةُ في القرآن الكريم بأنّها تثيرُ الأرضَ ﴿إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ﴾ [البقرة: 71]- ثم حُملتِ الوَحشية الجازئةُ على الأهلية اتِّساعًا لشَبَهها بها[1].

3) ﴿هُزُوًا﴾: الهُزؤُ السُّخريةُ واللَّعبُ، يقال: هزأ: الهُزْءُ والهُزُؤُ: السُّخْرِيةُ، هُزِئَ بِهِ وَمِنْهُ[2].

والمعنى في الآية: أتجعلنا موضعًا للسُّخرية.

4) ﴿ٱلْجَٰهِلِينَ﴾: الجاهلُ الذي يقول أو يفعل ما لا ينبغي قولُه أو فعلُه، ويدور معناه حول خُلوِّ الباطن ممّا يُفيد أو يطلبُ، ويلزم ذلك الخفّةَ كالنّاقة المجهولة تُعَدُّ خاليةً الباطن، أو جافّتَه؛ إذْ لم يُرَ لها لبنٌ قَطُّ، ومن هذا الجهل: ضدُّ العلم؛ لأنَّ الجاهل خاليَ الذِّهن منَ المعلومات، وكذلك الجهلُ: ضدّ الحِلْم، لما في الباطن من فراغٍ يتمثّلُ في السُّلوك بخفَّةٍ، وطيشٍ، وسفهٍ، أو من جفافٍ يتمثَّلُ في السُّلوك بجفاء وغِلْظة[3].

ومعنى الجاهلين في الآية: السفهاء الذين يَرْوون عن اللّه الكذبَ والباطل.

5) ﴿لَّا فَارِضٌ﴾: الفارضُ: المُسِنُّ منَ البقر، وقيل: إنَّما سُمِّي فارضًا؛ لكونه فارضًا للأرض، أي: قاطعًا، أو فارضًا لما يُحمّلُ منَ الأعمال الشّاقةِ، وقيل: بل لأنَّ فريضةَ البقرة اثنان: تبيعٌ ومُسِنَّة، فالتّبيعُ يجوز في حالٍ دون حالٍ، والمُسِنَّة يَصِحُّ بَذْلُها في كلِّ حالٍ، فسُمِّيتْ المُسِنَّة فارضةً لذلك، فعلى هذا يكون الفارضُ اسمًا إسلاميًّا[4].

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (بقر).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (هزأ).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (جهل).
(4) الرّاغب، المفردات: (فرض).

6) ﴿وَلَا بِكۡرٌ﴾: البِكْرُ الصّغيرةُ التي لم تلدْ بعدُ[1].

7) ﴿عَوَانُۢ﴾: العَوانُ النَّصَفُ وسطٌ بين المُسِنّة والصَّغيرة.

8) ﴿فَاقِعٌ﴾: من الفُقوع، وهو النُّصُوع، أَى خُلُوص اللَّون، يقال فَقَعَ فَقْعاً وفُقُوعًا: اشْتدَّت صفرته، وأصفرُ فاقعٌ: إذا كان صادقَ الصُّفْرة، كقولهم: أسودُ حالكٌ[2].

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

واذكروا -يا بني إسرائيل حين قتلْتُم قتيلًا وتدافعْتُم واختلفْتُم في قاتله- جنايةَ أسلافكم، وكثرة تعنُّتهم وجِدالهم لموسى عليه الصلاة والسَّلام، حين قال لهم: إنَّ اللّه يأمركم أن تَذْبحوا بقرةً، فقالوا -مستكبرين-: أتجعلنا موضعًا للسُّخرية والاستخفاف؟ فردَّ عليهم موسى بقوله: أستجيرُ باللّه أن أكون من المستهزئين.

قالوا: ادع لنا ربَّك يوضح لنا صفة هذه البقرة، فأجابهم: إن اللّه يقول لكم: صفتها ألا تكون مسنَّة هَرِمة، ولا صغيرة فَتِيَّة، وإنما هي متوسطة بينهما، فسارِعوا إلى امتثال أمر ربكم، واتْركُوا التّشديدَ والتعنُّتَ، فعادوا إلى جدالهم قائلين: ادع لنا ربك يوضح لنا لونها. قال: إنه يقول: إنها بقرةٌ صفراءُ شديدةُ الصُّفْرة، تَسُرُّ مَن ينظر إليها من حُسنها[3].

الإِيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

بلاغةُ النَّظمِ في تقديمِ المُؤخَّر، وتأخيرِ المقدَّم زمانيًّا:

إيرادُ قصَّةِ البقرةِ ليس لذاتِها، بل لبيانِ مسلكِ التَّحايلِ على الشَّرعِ

أمَرُ اللّه لبني إسرائيل بذبح البقرة كان بعد تنازُعِهم في تحديد شخصِ شأن القاتل؟ فكانت البقرةُ أداةَ المعجزة؛ وذلك ليُعرف القاتلُ الحقيقيُّ إذا ضُرب القتيلُ ببعضها، فقولُ موسى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تَذۡبَحُواْ بَقَرَةٗۖ﴾ ناشِئٌ عن قتل النَّفس المذكورة في قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ قَتَلۡتُمۡ نَفۡسٗا فَٱدَّٰرَٰٔتُمۡ فِيهَاۖ﴾ [البقرة: 72]، ولكنَّ قوله قُدِّم في القصَّةِ؛ لأنّ خطابَ موسى عليه السلام لهم قد نشأ عنه ضرْبٌ من مَذامِّهم

(1) الرّاغب، المفردات: (بكر).

(2) الرّاغب، المفردات، والفيروزابادي، بصائر ذوي التمييز: (فقع).

(3) السعدي، تيسير الكريم الرحمن: 1/54، ونخبة من العلماء، التفسير الميسر، ص: 10.

في تلقِّي التَّشريع وهو الاستخفافُ بالأمر حين ظنُّوه هزؤًا والإعناتُ في المسألة، فأريد من تقديم جزء القصّة تعدُّدُ تَقريعهم[1]، فالمقصودُ من إيرادِ القصَّة ليس الإعلام بأمرِ البقرةِ مع القتيلِ بقدر ما هو إخبارٌ بموقفِ بني إسرائيل من أوامر الله وتحايلهم عليها.

غرضُ استعاذةِ موسى أن يكون منَ الجاهلين:

استعاذ موسى بالله أن يكون منَ الجاهلين؛ إذِ الهزءُ والسّخريةُ، من أفعال أهل الجهل، فكان قولُ موسى هذا تعريضًا لبني إسرائيل بالجهل وفسادِ العقل، وسوءِ الأخلاق.

بلاغةُ تركيبِ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ﴾:

التّأكيدُ في قوله: إنَّ الله يأمركم حكايةً لما عبَّر به موسى منَ الاهتمام بهذا الخبر الذي لو وقعَ في العربيّة لوقع مؤكَّدًا بإنَّ[2]، وجيءَ بالاسمِ الأحسنِ لتوريثِ المهابةِ في صدور المأمورين، وبصيغةِ الفعلِ المضارعِ لبيانِ أنَّ الأمرَ قد صدَرَ الآن وما زالَ صادرًا حتَّى يتحقَّق المأمور به.

أمرُ الله إذا صدرَ فلا بدَّ من امتثالِه

سِرُّ السُّؤال بـ(مَا) دون (أي):

مقامُ السُّؤال في قوله: ﴿يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ﴾ بـ﴿مَا﴾ دون (أي)؛ لأنَّ أيّا إنَّما يُسأل بها عن مميّز الشّيء عن أفرادٍ من نوعه التبستْ به، وعلامةُ ذلك ذكرُ المضاف إليه مع أيّ نحو: ﴿أَيُّ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ خَيۡرٞ﴾ [مريم: 73]، وأيُّ البقرتين أعجبتك؟ وليس لنا هنا بقراتٌ معيَّناتٌ يراد تمييزُ إحداها.

بلاغةُ التّأكيدِ في قولِه: ﴿قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ﴾:

أُكِّد مقولُ موسى ومقولُ الله تعالى بإنَّ؛ لمحاكاة ما اشتمل عليه كلامُ موسى منَ الاهتمام بحكايةِ قول الله تعالى فأكّده بإنَّ، وما

بيانُ وقاحة بني إسرائيل في الاستكثارِ من السُّؤالِ بما لا داعيَ له

(1) الزمخشري، الكشاف: 1/153.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/546.

اشتمل عليه مدلولُ كلام الله تعالى لموسى من تحقيق إرادته ذلك تنزيلًا لهم منزلةَ المُنكرين؛ لما بدا من تعنُّتهم وتنصُّلهم، ويجوز أن يكون التأكيدُ الذي في كلام موسى لتنزيلهم منزلةَ أن يكون الله قال لموسى ذلك جريًا على اتّهامهم السَّابقِ في قولهم: ﴿أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا﴾ جوابًا عن قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ﴾[1]؛ فكأنَّه يقولُ: إنَّ الآمرَ هو الله تعالى وليس أنا، وإنَّ الآمر يقول جوابًا عن سؤالكم...، وفيه تأنيبٌ لهم، وإظهارُ وقاحتِهم وتعدِّيهم حقوقَهم ما لا مثيلَ له.

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الهُزؤ والمَزْح:

الهُزؤ أخصُّ منَ المَزْح؛ لأنَّ في الهُزؤ مزحًا مع استخفافٍ واحتقارٍ للمَمْزوحِ معه، على أنَّ المَزحَ لا يليق في المجامع العامّةِ والخطابة، على أنَّه لا يليق بمقام الرّسول؛ ولذا تبرّأَ منه موسى، بأنّه نفى أن يكون منَ الجاهلين، كنايةً عن نفيِ المَزح بنفي ملزومه، وبالغ في التنزُّه بقوله أعوذ بالله أي منه؛ لأنَّ العياذَ بالله أبلغُ كلمات النّفي؛ فإنَّ المرءَ لا يَعوذُ بالله إلا إذا أراد التّغلُّبَ على أمر عظيم لا يَغلبُه إلا الله تعالى[2].

كما أنَّ فيه -أيضًا- ردًّا لهم -عن طريق التَّعريض بهم- إلى جادَّة الأدبِ الواجبِ في جانبِ الخالق، حيث بيَّن لهم أنَّ ما ظنُّوه به لا يليقُ إلا بمن يجهلُ عظمةَ الله تعالى[3].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/546.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/548.
(3) طنطاوي، التفسير الوسيط: 1/164.

﴿قَالُواْ ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ ٱلۡبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيۡنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهۡتَدُونَ ٧٠﴾ [البقرة: 70]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الآيـة تَتِمَّة لما سبق من لَجاجة بني إسرائيل مع نبيِّهم وكثرة سؤالهم عن صفات البقرة

لمَّا أمر موسى عليه السلام قومه أن يذبحوا بقرة؛ ليَعلموا القاتِل، وأجابهم: أنَّ الله يأمرهم أن يذبحوا بقرة دون أن يُحدّد لهم صفاتها، وشدّدوا على أنفسهم، ولم يُقدِّروا الله حقَّ قَدْرِه، ولم يُعَظِّموا رسولَهم، بيَّن هنا فرْطَ لجاجتهم، وشدّةَ سفاهتِهم، وسوءَ أدبهم؛ فلم يكتفوا بما ذُكر لهم من أوصاف، بل سألوا عن بقيَّة صفاتها في صورة السّؤال عن ماهيّتَها، في قوله تعالى ﴿قَالُواْ ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ﴾، فأعادوا طلبهم سؤالا عن حقيقتها لتشابه البقر عليهم[1].

شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

1) ﴿قَالُواْ﴾: من القول، وهو الكلام على التّرتيب، أو اللّفظ الموضوع لمعنى[2]، و"القولُ منَ النّطقِ. يُقالُ: قالَ يقولُ قولًا. والمِقوَلُ: اللِّسانُ، ورجلٌ قُوَلَةٌ وقوَّالٌ: كثيرُ القولِ"[3]، ويُطلق القول على الكلام أيضًا[4]، وهناك استعمالات أخرى للقول كالاعتقاد، والدّلالة على شيء، والعناية الصّادقة بالشّيء، وكذلك الحدّ والإلهام، ومن أظهر استعمالات القول: "أن يكون للمركَّب من الحروف المُبرَز بالنّطق، مفردًا كان أو جملة"[5].

2) ﴿ٱدۡعُ﴾: جذره اللّغويّ (دعو)، والأصل في معناه"أَن تُمِيلَ الشَّيءَ إليك بصوتٍ وكلامٍ يكونُ منك. تقولُ: دَعَوتُ أَدعُو دُعاءً. والدَّعوةُ إلى الطَّعام بالفَتح، والدِّعوَةُ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 1/469.
(2) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصَّل: (قول).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (قول).
(4) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (قول).
(5) الرّاغب، المفردات: (قول).

في النَّسب بالكَسر"[1]، "وكلّ ما عُدِّيَ بـ (إلى)، أو بـ(اللّام) فهو من الدّعوة إلى دين أو عمل، وبعض ما هو بهذا المعنى مُعَدًّى بنفسه"[2].

والدّعاء هنا بمعنى السّؤال، يُقال: دَعَوتهُ: إذا سألتَه، وإذا استغثتَه.

3) ﴿رَبَّكَ﴾: اسمٌ مُضعّفٌ ثُلاثيّ (ربّ)، والجذرُ اللّغويّ منهُ (ربب)، والرّبُّ "الملكُ والسّيّدُ والمصلحُ والصّاحبُ، وكلّها معانٍ متقاربةٌ، ولا يُقالُ مُطلقًا إلاّ للباري تعالى"[3]، وهو أيضًا "الرَّبُّ في الأصل التّربيةُ، وهو إنشاءُ الشّيءِ حالاً فحالاً إلى حدّ التّمامِ، يُقالُ: رَبَّهُ، ورَبَّاه ورَبَّبَهُ"[4].

والرّبُّ -بالفتح: المربِّي (فَعْل بمعنى فاعِل- ويشمل الإصلاح والرعاية)، كما يطلق على المدبِّر، والقيِّم، والمُنعِم من معنى الجمع في صورة حَوْزٍ مع الإصلاح. ووصفه ﷻ بالرَبِّ يشملُ كلّ هذه المعاني، فهو المنشئ بدءًا والمربِّي، والمنعِمُ، والمالِك، والجمهور الأعظم من هذا التّركيب في القرآن هو (ربّ)، كقوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة: 2][5].

4) ﴿يُبَيِّن﴾: الباءُ والياءُ والنّونُ، لهُ أصلٌ في لُغة العرب، بمعنى البُعد والانكشاف والظُّهور والتّوضيحُ، من بيّنَ يُبينُ تبيينًا، وبانَ الشَّيءُ وأَبانَ إذا اتَّضحَ وانكشفَ. وفُلانٌ أَبْينُ من فُلانٍ؛ أَي: أَوضحُ كلامًا منهُ[6].

و"معنى يُبَيِّن لنا: يُعلِمُنا ما هي، لأَنَّ التَّبيينَ يَلزَمُهُ الإعلامُ..."[7].

5) ﴿ٱلْبَقَرَ﴾: جذره اللّغويّ (بقر)، وهو اسم جنس جمعيّ، وهو: ما يفرق بينه وبين واحدِه بالتّاء، فيقال: (بقَر وبقرة)، وله أصلان في المعنى، ورُبَّما جَمَعَ ناسٌ بَينَهُما، وزعمُوا أَنَّه أَصلٌ واحدٌ، وذلك البَقرُ. والأصلُ الثَّاني منه: التَّوَسُّعُ في الشَّيءِ، وفَتحُ الشَّيءِ[8].

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (دعو).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصَّل: (دعو).
(3) السّمين، عُمدة الحفّاظ: (ربّ).
(4) الرّاغب، المفردات: (رب).
(5) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصَّل: (ربب).
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (بين).
(7) أبو حيّان، البحر المحيط: 1/405.
(8) ابن فارس، مقايس اللّغة: (بقر).

"البَقَرُ واحدَتُه بَقَرَة... واشتُقّ من لفظه لفظٌ لفعله، فقيل: بقر الأرض، أي: شقّ"[1] وسمّي البقر بهذا الاسم؛ لأنّه يبقر الأرض، ويشقّها للحراثة[2]، أو لاتّساع جوفها بالنّسبة إلى الجوازئ من الظّباء[3]

6) ﴿تَشَٰبَهَ﴾: من الجذر اللّغويّ (شبه)، والأصل اللّغويّ له "يدُلُّ على تشابُه الشّيء، وتشاكُلِه لونًا ووَصفًا. يقال: شِبْه وشَبَه وشبيه. والشّبه من الجواهر الّذي يشبه الذّهب. والمُشبِّهات من الأمور: المُشْكِلات. واشتبه الأمرانِ، إذا أشكَلَا"[4]، أمّا المعنى العام للشّبه فهو "في المماثلة من جهة الكَيفيّة كاللّون والطّعم، وكالعدالة والظّلم... والمُتَشابِهُ من القرآن ما أَشكلَ تفسيرهُ لمُشابهته بغيره، إمّا من حيث اللّفظُ، أو من حيث المعنى"[5].

ومعنى تشابه في الآية: "جِنسُ البقر تشابه، أي: التَبَسَ واشتَبَهَ أمرُهُ علينا؛ فلا نهتدي إليه"[6].

7) ﴿شَآءَ﴾: جذره اللّغويّ (شيأ)، وأصله من الشّيء، "والمشيئة: الإرادة، وقد شئتُ الشّيء أشاؤُه"[7]. "والتّركيب رغم غزارة مفرداته الّتي في القرآن ليس فيه ما يخرج عن الفعل (شاءَ) ماضيه ومضارعه بمعنى (أراد)"[8].

والفعل هنا يدُلُّ على "مشيئة اللّه إلى كلّ ما يذكر من مستقبل الأمر"[9] مِصداقًا لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ [الكهف: 23- 24]؛ فإنّ المسلم يجب أن يربط قابل أموره بمشيئته تعالى.

8) ﴿ٱللَّهُ﴾: اسم الجلالةِ، عَلَمٌ على المعبودِ بحقّ، وهو مُشتقّ على الصّحيحِ وليس

(1) الرّاغب، المفردات: (بقر).
(2) الآلوسّي، روح المعاني: 1/289.
(3) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصَّل: (بقر)، والجوازئ من الظّباء: الّتي جَزَأت، أي: استغنت بالرَّطْب من المرعَى عن الماء.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (شبه).
(5) الرّاغب، المفردات: (شبه).
(6) البغويّ، معالم التّنزيل: 1/108.
(7) الجوهريّ، الصّحاح: (شيأ).
(8) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصَّل: (شيأ).
(9) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 1/227.

جامدًا؛ فإنّ أسماء اللّه تعالى أعلامٌ وأوصافٌ باتّفاق أهل السّنّةِ والجماعةِ[1]، ولازمُ ذلك أنّها مُشتقّة[2]، إذِ الجامدُ لا وصفَ لهُ، وقيلَ: إنّ "أصلَهُ الإلاهُ؛ فحُذفتِ الهمزةُ، وأُدغمتِ اللّامُ في اللّامِ، فصارَ اللّه"[3] لكثرةِ دورانِه على الألسنة[4]، وأُدغمتِ اللّامُ في مثلِها، وفخّمَت تعظيمًا للّهِ تعالى[5] والتّرقيقُ بعدَ الكسر؛ لأجل التّخفيف لا لسلب التّعظيم.

ومهما قِيلَ في حقّه، فهو قطرةٌ من بحرٍ، أو ثانيةٌ من دهرٍ؛ لأنّ عظمتَه لا حُدُودَ لكمالِها، ومعنى اسم (اللّه) علمًا - كما قال ابن عبّاسٍ رضي الله عنهما - ذو الألوهية والعبودية على خلقِه أجمعين[6].

9) ﴿لَمُهْتَدُونَ﴾: من الجذر اللّغويّ (هدي)، ومعناه يقوم على أصلين؛ أحدهما "التّقدُّم للإرشاد، والآخر بَعثة لَطَفٍ"[7]، وهما متقاربان في المعنى؛ لذلك فقد ذكر الرّاغب في معنى الهدى أنّ "الهدايَةَ دلالة بلُطف"[8].

والمذكور في الآية (هدى اللّه) هو بمعناه الاصطلاحي، وهو هدايَة اللّه تعالى للإنسان، وقد جعله الرّاغب على أربعة أوجهٍ: "الهدايَة الّتي عمّ بجنسِها كلّ مُكلَّف، و الهدايَة الّتي جعل للنّاس بدعائه إيّاهم على ألسنة الأنبياء، والتّوفيق الّذي يختصّ به من اهتدى، والهدايَة في الآخرة إلى الجنّة"[9].

ومعنى مهتدون في الآية، أي: "إلى البقرة المراد ذبحها، أو إلى ما خفي علينا من أمر القاتل"[10].

---

(1) ابن القيّم، بدائع الفوائد: 1/285.
(2) ابن القيّم، الكافية الشافية، ص: 216.
(3) الاستراباذي، شرح شافية ابن الحاجب: 2/981.
(4) الجوهريّ، الصّحاح: (أله).
(5) الفيوميّ، المصباح المنير: (لاه).
(6) ابن جرير، جامع البيان: 1/123.
(7) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (هدي).
(8) الرّاغب، المفردات: (هدى).
(9) الرّاغب، المفردات: (هدى).
(10) النّسفيّ، مدارك التّنزيل: 1/98.

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

جاءتِ الآية الكريمة على طريقة المحاورات المحكيّة، وقد بدأ بنو إسرائيل كلامهم - في الطلب إلى موسى عليه السلام - بعد القول بالفعل (ادعُ) الّذي يَحتمل الدّعاء، وهو الطّلب مع الخضوع، ويَحْتَمِلُ أنَّهم أرادوا مُطلَقَ السُّؤال، ويَحْتَمِلُ أنّهم أرادوا النّداء جهرة ظنّاً منهم أنّ اللّه بعيدٌ مكانُه[1]، وهذا نوع من أنواع تعنتهم المألوفة، فقد كانوا يسلكون هذه المسالك في غالب ما أمرهم اللّه به، ولو تركوا العنت والأسئلة المتكلَّفة لأجزأهم ذبح بقرة من عَرَض البقر، ولكنهم شدَّدوا فشدَّد اللّه عليهم.

وكان طلبهم لبيان صفة البقرة الّتي أُمروا بذبحها، وعلّلوا سؤالهم باختلاط البقر عليهم؛ فإنّه متشابه، ولا يمكنهم تمييز المراد منه بحسب زعمهم، فإن تبيّن لهم ما أمروا بفعله طلبوا "منه الهداية بعد أن تاهوا وضاعوا بسبب عنادهم وجدلهم"[2]، وسؤالاتهم لا معنى لها لو أطاعوا اللّه في مبتدأ أمرهم، وكلامهم هذا "تكرير للسّؤال عن حالها، وصفتها واستكشاف زائد؛ ليزدادوا بياناً لوصفها"[3].

❁ الإِيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

قلبُ الجافي يتخيَّرُ الألفاظَ التي تُناسِبُ مقامَه، وتُبرهنُ على حالِه

بلاغة فعل ﴿ٱدۡعُ﴾ وبيانُ غرضِه:

الفعل (ادعُ) في قوله تعالى: ﴿قَالُواْ ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ﴾ منَ الدّعاء وهو مقول القول، وهو في حقيقته سؤال، فقد سألوا "موسى أن يسأل ربّه لهم ما كان اللّه قد كفاهم بقوله لهم: اذبحوا بقرة"[4].

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/405.

(2) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 1/395.

(3) النّسفيّ، مدارك التّنزيل: 1/98.

وقال ابنُ أبِي حاتِمٍ: حدَّثنا أحمدُ بن يحيى الأَوديُّ الصُّوفيُّ، حدَّثنا أبو سعيدٍ أحمدُ بن داوُدَ الحدَّاد، حدَّثنا سُرور بن المغيرة الواسطي بن أخي منصورِ بنِ زاذان، عن عبَّاد بنِ منصور، عنِ الحَسَنِ، عَن أَبِي رافِعٍ، عَن أَبِي هُريرة: قال: قال رسول اللَّه ﷺ «لولا أنَّ بني إسرائيلَ قالوا: وإِنَّا إِنْ شاء اللَّهُ لَمُهتدون لما أُعطوا أبدًا، ولو أنَّهُمُ اعتَرَضوا بَقَرَةً مِنَ البقر فذبحوها لأجزأت عنهم، ولكن شَدَّدوا، فشدَّدَ اللَّهُ عليهم»، وهذا حديثٌ غريبٌ مِن هذا الوَجهِ، وأحسَنُ أحوالِهِ أَن يكونَ مِن كلام أَبِي هريرةَ كما تقدَّمَ مثلُهُ عن السُّدِّيِّ. يُنظر: ابن جرير، جامع البيان: 2/205.

(4) ابن جرير، جامع البيان: 2/189.

والتّعبير بالفعل (ادع) مجاز مُرسَل، غرضه استعطاف موسى، ومعناه: "سلْ لأجلنا رَبَّكَ الّذي عوّدك ما عوّدك، يُظهر لَنا ما حالها وصفتها"[1].

فالأمر للاستعطاف، والتّعبير بالدّعاء عن السّؤال؛ لأنّه يُناسب جَفوةَ بني إسرائيل وقسوةَ قلوبهم واستكبارهم؛ حيث إنَّ في المسألة خضوعًا وتذلّلًا واستكانةً، كما أنَّ "السّؤال يكون من الأدنى في الرُّتبَة"[2]؛ فعدلوا عن السّؤال إلى الدّعاء؛ لما للدّعاء من اتِّساع في المعنى.

بلاغةُ تقديمِ المُتعلّقِ ﴿لَنَا﴾ على المفعول:

قُدِّم الجارُّ والمجرور (لنا) في قوله تعالى: ﴿قَالُواْ ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ﴾ على المفعول به (ربَّك)؛ وسرّ التّقديم هو طلبُ الاختصاص؛ فكأنّهم أرادوا أن تكون دعوة موسى ربّه مُختصّة بهم لا بغيرهم؛ لأنّهم هم المعنيون بالأمر لا سواهم، ويُعزِّزُ ذلك أنّ اللّام في (لنا) دالّة على الاختصاص، كقولهم: (الجلّ للفرسِ)[3].

طلبُ الاختصاص يدلُّ على الاعتزاز بالذَّاتِ

فائدةُ اختيار لفظ الرّبّ، وسرُّ إضافته إلى ضمير موسى عليه السلام:

أُوثر لفظ الرّبّ في قوله تعالى: ﴿قَالُواْ ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ﴾؛ لأنّه "النّاظرُ في مصالحهِ ومربّيهِ ومدبّرِ أحوالهِ؛ ليكونَ ذلكَ أطمعَ لهُ، فلذلكَ أتى بصفةِ الرّبّ"[4]، ولأنّ الرّبّ هو المصلح والمسيّر لأحوال العباد، فهي من قبيل تقديم الدَّليل على تحقُّقِ الاستجابةِ، وأضافوا لفظَ الرُّبوبيَّة إلى الضّمير العائد على موسى عليه السلام "لـمَا علموا له عند اللَّه مِنَ الخصوصيَّةِ والـمَنزِلَةِ الرَّفيعةِ"[5]، وهذا يدلُّ على معرفتِهم بأسباب الاستجابةِ؛ لكنَّها معرفةٌ غير نافعةٍ إن لم تقترن بالتَّزكية!

تقديمُ الدَّليلِ على قبولِ الاستجابةِ دليلُ معرفةٍ محضة

(1) الآلوسّي، روح المعاني: 1/286.
(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 37.
(3) السّامرائّي، معاني النّحو: 3/64.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 1/564.
(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 1/406.

المجازُ في سؤالِهم: ﴿مَا هِيَ﴾ وسرُّ تكرارِها:

طلبُ الصِّفةِ لعلمِهم بماهيّة المُنفق

ذُكِرَ سؤالُ (ما هي) في قوله تعالى: ﴿قَالُواْ ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ﴾، وهو سؤالٌ في الأصل لطلبِ الماهيّة، إلَّا أنّه لا يمكن حمله على طلب الماهيّة حقيقة، فيُحملُ على الطَّلب المجازيّ؛ "فتَعَيَّنَ أن يكونَ المُرادُ منهُ طَلَبَ الصِّفَة الَّتي بها تتميَّزُ تلك البقرةُ عن غيرِها... لمَّا عَلِمْنا أنَّهم كانوا عالِمين بأنّ الّذي أُمِروا بإنفاقِه ما هو"[1]، وآية ذلك أنّ العرب "يسألون بـ(ما) عنِ الصِّفاتِ الَّتي تميِّزُ الشَّيءَ في الجملة كالّذي ذكرَه في الجواب"[2].

وقد أعادوا السّؤال مرّة أخرى بـ(ما هي) في قوله تعالى: ﴿قَالُواْ ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ﴾؛ لأنَّ هذا سؤال لطلب إيضاح زيادة على ما تقدّم، ككونها عاملة أو سائمة، وإظهار؛ لأنّه لم يحصل لهم تمام البيان، ثم ذكروا السّبب في إعادة السّؤال[3]، ولا ريب أنّ التكرار يُحقّق تناسبًا وترابطًا بين الآية السّابقة والآية التّاليّة.

اللفتةُ البلاغيّةُ في تأخير المُتعلّق ﴿عَلَيۡنَا﴾:

تأخيرُ المُتعلّقِ يفيدُ نفيَ تهمةِ التّقصيرِ، وتعميم التّشابه

أخّر المُتعلّق (علينا) في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيۡنَا﴾ ولم يقدَّم؛ لغرض بلاغيّ، هو نفي التّهمة عنهم، وتعميم التّشابه؛ لأنّه لو قدّمه فقال: (إنّ البقرَ علينا تشابهَ) للزم أن يكون التّشابه عليهم حصرًا؛ فيكون تهمة لهم في عدم إنجاز ما هو مطلوب منهم؛ لأنّ التّقديم يفيد القصر، أمّا في تأخيره فقوله لا يحتمل القصر، فيكون معنى: (تشابهَ علينا)، أي: وعلى غيرنا، فتعميم التّشابه ينفي عنهم تهمة التّفريط والتّقصير فيما أمروا به، فهم يجعلون التَّشابه سببًا في التباسِ الأمرِ عليهم، بقطع النَّظرِ عن الاعتبارات الأخرى.

(1) محمّد رشيد رضا، تفسير المنار: 2/246.
(2) محمّد رشيد رضا، تفسير المنار: 1/289.
(3) المَراغيّ، تفسير المَراغيّ: 1/143.

بلاغة الفصل في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيۡنَا﴾:

بيانُ سببِ كثرةِ السُّؤالِ دليلٌ على معرفتِهم بتحايلِهم وسوءِ امتثالِهم

قولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيۡنَا﴾ استئنافٌ بيانيٌّ يُرادُ منه التّعليلُ والاعتذار؛ فهو بيانٌ لعلّة سؤالهم المكرر قبلها؛ "لأنّهم عَلِموا أنّ إعادَتَهُمُ السُّؤالَ تُوقِعُ في نَفس موسى تساؤلًا عَن سبب هذا التَّكرير في السُّؤال، وقولُهُم: إنَّ البقرَ تشابهَ علينا اعتذارٌ عن إعادةِ السُّؤال"[1]، وجاء اعتذارُهم الضّمنيّ هنا؛ لأنّ تَكرار السّؤال ثلاث مرّاتٍ فيه وقعٌ ممزوجٌ بالسّآمة والإملالِ في نفس السّامع، وهو هنا موسى عليه السلام، وهو يدلُّ على معرفة القومِ بتحايلِهم على الأمرِ، وسوء امتثالِهم للمطلوبِ منهم.

فائدةُ التّوكيدِ تعليلُ السُّؤالِ

صُدِّر قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيۡنَا﴾ بحرف التّوكيد (إنّ)، ومجيئه للاهتمام "ثمّ يُتَوَسَّلُ بالاهتمام إلى إفادة معنى التَّفريع والتَّعليل؛ فتفيدُ (إنَّ) مفاد فاءِ التَّفريعِ والتَّسَبُّب"[2]؛ فهم يذكرون علَّة تَكرارِ سؤالِهم، وهو التَّشابه.

غرضُ التّوكيد في قولِه: ﴿وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهۡتَدُونَ﴾:

جاء في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهۡتَدُونَ﴾ مُؤكّدات عدّة؛ الأوّل تصديرها بـ(إنّ) المؤكّدة الدّاخلة على الاسم، والثّاني: اللّام الدّاخلة على الخبر[3]، فضلًا عن مجيء "خبر (إنَّ) اسمًا؛ لأنّه أدَلُّ على الثُّبوت، وعلى أنّ الهدايةَ حاصلةٌ لهم"[4].

فائدةُ توسيطِ فعل المشيئة بين اسمِ إنَّ وخبرِها:

وعدٌ بالانقيادِ، واعترافٌ ضمنيٌّ بالنَّدمِ

ذكر في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهۡتَدُونَ﴾ فعل المشيئة، وهو دالٌّ على الوعدِ بالانقيادِ وإشعارٌ بالنَّدم، بين اسم إنَّ وخبرِها ﴿لَمُهۡتَدُونَ﴾، "وتقديرُ الكلام: وإنَّا لَمُهتَدونَ إنْ شاءَ اللّه، فَقُدِّمَ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/554.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/554.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 1/189.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 1/411.

على ذِكرِ الاهتداء اهتمامًا به"[1]، وهو دالّ على صدق دعواهم، "ولو كان تَعليقًا مَحضًا لمَا احتِيجَ إلى تأكيدٍ، ولكنَّه على قول القائل: أنا صانِعُ كذا إنْ شاء اللّٰه، وهو مُتلبِّسٌ بالصُّنعِ"[2] فكأنّهم قالوا: لقد اهتدينا إلى ما أمرتنا به، بل نحن مُتلبّسون به فعلاً، ويؤيّد هذا الاهتمام أنّه مُكتنفٍ بين توكيدَين؛ هما (إنّ) في الاسم، واللّام ﴿لَمُهۡتَدُونَ﴾ في الخبر، فضلاً عن موافقة رؤوس الآيات.

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الدّعاء والسّؤال:

في قوله: ﴿ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ﴾ بمعنى: سلْه، وأصل الدُّعَاء طلب الفِعل، والدُّعاء يكون برفعِ الصَّوت وخفضه، يُقال: دَعوته من بعيد، ودعوت اللّٰه في نَفسِي.

ويظهر الفرق بينهما في أنَّ السّؤال هو استدعاء معرفَة أو ما يُؤدِّي إلى المعرفة، والسُّؤال يكون طلب الخَبَر، وطلب الأمر والنَّهي، وهو أن يسأل السَّائل غَيره أَن يأمُرهُ بالشّيء أو ينهاه عنه، والسّؤال يكون من الأدنى في الرُّتبَة[3].

فاستعمال ﴿ٱدۡعُ﴾ بدلًا من (سلْ) أنسب للسّياق؛ حيث اتِّساقُه مع طلبهم من موسى عليه السلام بيان صفة البقرة المأمورين بذبحها، مع الإشارة إلى استنكافهم، وعدم تصديقهم موسى عليه السلام، فلو قالوا: سل لنا ربَّك، لظهر جهلهم، وخضوعهم.

البيان والهدى:

في قوله تعالى: ﴿قَالُواْ ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ﴾ آثر البيان القرآنيّ لفظ (يبيّن) هنا، في حين استعمل لفظ (يهدي) في مواضع أُخَر، كقوله: ﴿وَٱهۡدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ﴾ [ص: 22]؛ لأنَّ البيانَ في الحقيقةِ إظهارُ المَعنى للنَّفس كائنًا ما كان، فهو من قبيل القَول. والهدى بَيَان طريق الرّشد؛ ليُسْلك دون طَريق الغيّ إذا أطلق، فإذا قُيّد استُعمل في غيره فقيل: هدى إلى النّار وغيرها، فقوله: ﴿يُبَيِّن لَّنَا﴾ يناسب مقام الاسترشاد المُتعلّق بسؤالهم؛ لأنّهم في حاجة إلى إجابة قوليّة واضحة[4].

(1) القُرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 2/188.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 1/411.
(3) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 37.
(4) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 172.

التَّبيين والتَّعريف:

قوله تعالى في الآية ﴿يُبَيِّن﴾ مُشتقّ من البين الدّالّ على المسافة بين أمرين.

ولم يعبّر بالفعل (يعرّف) من التّعريف على الرّغم من أنّ "التّبيين كالتّعريف، إلاّ أنّ التّبيين يقتضي إظهار الفضل بين الشّيء وغيره، والتّعريف قد يكون إظهار الشّيء في نفسه من دون اعتبار بغيره"[1]، وثمّة فرق آخر وهو أنّ "لفظَ المعرفة يُفيد تَمييز المَعلوم من غيره"[2].

فالتّعريف بيان الماهيّة والذّات، وهو غير مراد في الآية، فهم لم يُريدوا تَبيينَ ماهيَّةِ البقرةِ، ولكنَّهم أرادوا الوَصفَ؛ فحسُن التّعبير بالفعل (يبيّن)، ولم يحسن بالفعل (يعرّف).

(1) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 1/224.

(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 80.

﴿قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا ۚ قَالُوا۟ ٱلْـَٔـٰنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾﴾ [البقرة: 71]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

هذه الآية فيها الجواب الشافي لسؤالاتهم المُتعنّتة؛ فإنّهم "لو أخذوا أدنى بقرة لاكتفوا بها، ولكنّهم شدّدوا فشدّد عليهم"[1]، فالتّناسب بين الآيتين كالعلاقة بين السّؤال والجواب، سألوا فأجابهم: بأنّ من صفتها كيت وكيت، فأذعنوا لـمَا أُمروا، وذبحوها على طولِ كرهٍ ومماطلةٍ.

شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

1) ﴿ذَلُولٌ﴾: صيغة مبالغة زنة فَعُول، والجذر اللّغويّ (ذلل)، و"الذُّلُّ مصدر الذَّلُول، أي: المُنْقاد من الدّوابِّ، ذَلَّ يَذِلُّ، ودابَّةٌ ذَلُولٌ: بَيِّنَة الذُّلِّ"[2]، وأصل معناه دلالته "على الخُضوع، والاستكانةِ، واللِّينِ، فالذُّلُّ: ضِدُّ العِزِّ"[3]، و"الذُّلُّ: ما كان عن قهرٍ، يُقال: ذَلَّ يَذِلُّ ذُلًّا، والذِّلُّ ما كان بعد تصعُّب، وهي ذَلُولٌ، أي: ليست بصعبة"[4].

ومعنى الذّلول هنا: "أنّها بقرة لم تذلّل بالعمل في الحراثة والسّقي"[5].

2) ﴿تُثِيرُ﴾: من الجذر اللّغويّ (ثير) "يُقال: ثَار ثائرُه، وفار فائرُه، إذا غَضِبَ... ويُقال: ثارت نَفسُه، إذا جَشَأت، أي: ارتَفَعت وجاشَت، أي فارَت... وأثار التُّراب إثارةً، إذا بَحثَه بقَوائِمه"[6].

وأحد أصليهِ في المعنى انبعاثُ الشّيءِ من "قَولهم: ثارَ الشَّيءُ يَثورُ ثَورًا وثُؤُورًا وثوَرانًا.

(1) القاسميّ، محاسن التّأويل: 2/154.
(2) الخليل، العين: (ذل).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ذل).
(4) الرّاغب، المفردات: (ذل).
(5) المَراغيّ، تفسير المَراغيّ: 1/144.
(6) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (ثور، ثير).

وثارَتِ الحَصبَةُ تَثُورُ.وثاوَرَ فُلانٌ فُلانًا، إذا واثَبَه، كأَنَّ كُلَّ واحدٍ منهما ثارَ إلى صاحِبِه. وثَوَّرَ فُلانٌ على فُلانٍ شرًّا، إذا أظهَرَهُ"[1]، و"ثارَ الغبارُ والسّحابُ ونحوُهما: انتشر ساطعًا، وقد أَثَرتُهُ، يقال: أَثَرتُ الأرض، كقوله تعالى: ﴿وَأَثَارُواْ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا﴾ [الرّوم: 9]، وثَارَتِ الحَصبة ثَوراً تشبيهًا بانتشار الغبار"[2].

ومعنى (تُثِيرُ) في الآية: بتقليب الأرض، فيخرج ما بباطنها إلى ظاهرها، والمقصود حرث الأرض بالمحراث[3].

3) ﴿ٱلْأَرْضَ﴾: من الجذر اللّغويّ (أرض)، وأحد أصوله أنه كلّ "شيءٍ يَسفُلُ ويُقابِلُ السَّماء، يُقالُ لأعلى الفَرَسِ سماءٌ، ولقوائِمِهِ أَرضٌ... والأرضُ: الَّتي نحنُ عليها، وتُجمَعُ أرَضِينَ - بفتح الرّاء وسكونها -، ولم تَجِئ في كتاب اللّهِ مَجمُوعَةً"[4].

و"الأرض: الجِرمُ المقابلُ للسّماء، ويُعبّرُ بها عن أسفل الشّيء، كما يُعبَّرُ بالسّماء عن أعلاه"[5]، والأرض المقصودة هنا: الأرض المعروفة الّتي يعيش عليها البشرُ، ومن ذلك قولهم في الإثارة: "قلبَ الأرضَ للزّراعةِ، يُقال: أثرتُ الشّيء واستثرتُه، إذا هيّجتَهُ"[6].

4) ﴿وَلَا تَسۡقِي﴾: من الجذر اللّغويّ (سقي)، والأصل في معناه "إشرَابُ الشَّيءِ الماءَ وما أَشبَهَهُ. تَقولُ: سَقَيتُهُ بيدي أَسقِيهِ سَقيًا، وأَسقَيتُهُ، إذا جَعَلتَ له سِقيًا. والسُّقيُ: المَصدَرُ، وكَم سِقيُ أرضِكَ، أي: حَظُّها مِنَ الشُّرب"[7].

و"السَّقيُ والسُّقيَا: أن يُعطِيه ما يشرَبُ، والإِسقاءُ: أن يجعلَ لهُ ذلك حتّى يتناولَه كيف شاء، فالإسقاءُ أبلغُ من السّقي؛ لأنّ الإسقاءَ هو أن تجعلَ له ما يُسقَى منه ويشرَب"[8].

ويدور معناه حول "تحصيل الماء ونحوه من المائع في الجوف بإنفاذه إليه: كما في شُرب الماء، وسَقْي الثّوب. والسِّقاء أداة لذلك، والسّاقيّة تسقى الزّرع"[9].

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ثور).
(2) الرّاغب، المفردات: (ثور).
(3) السّمين، عُمدة الحفّاظ: (ثور).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (أرض).
(5) الرّاغب، المفردات: (أرض).
(6) الواحديّ، التّفسير الوسيط: 1/156.
(7) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سقي).
(8) الرّاغب، المفردات: (سقى).
(9) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (سقى).

ومعنى ﴿وَلَا تَسۡقِي ٱلۡحَرۡثَ﴾ في الآية: "لا يُستقى عليها الماء لسقي الزّرع"[1].

5) ﴿ٱلۡحَرۡثَ﴾: الجذر اللّغويّ له (حرث)، وهو"حرث الزَّرع، حرَث يحرُث حرثًا وحراثةً، وحرثَ الرّجلُ لدنياه أَو آخرته؛ إذا عمل لها"[2]، والمعنى المحوريُّ فيه: شقُّ السّطح الملتئم، وإثارتُه بإخراج بعض ما استوى به ظاهرُه كُتَلًا، كالأرض وأماكن الحوافر فيها[3].

"ومن هذا البابِ حَرثُ الزَّرعِ. والمَرأَةُ حَرثُ الزَّوجِ؛ فهذا تشبيهٌ، وذلك أَنَّه مُزدَرَع ولده"[4]، وهو أيضًا "إلقاءُ البَذرِ في الأرض، وتهيُّؤُها للزّرع، ويُسمّى المحروثُ حَرثًا"[5]. ومعنى الحرث في الآية: ما تمّت حراثته وزراعته[6].

6) ﴿مُسَلَّمَةٌ﴾: جذرهُ اللّغويّ (سلم)، و"معظمُ بابهِ منَ الصِّحَّةِ والعافيةِ...فالسّلامةُ أَن يسلمَ الإنسانُ منَ العاهةِ والأذَى"[7]، "والسَّلم: الصّلحُ... والسِّلمُ: المُسالِمُ. تقول: أنا سِلمٌ لمن سالمني، والسَّلامُ: السّلامَةُ. والسّلامُ: البراءة من العيوب"[8].

و"السِّلمُ والسَّلَامَةُ: التّعرّي منَ الآفات الظّاهرة والباطنة، قال اللّه تعالى: ﴿بِقَلۡبٖ سَلِيمٖ﴾ [الشّعراء: 89]، أي: مُتَعرٍّ من الدَّغَل، فهذا في الباطن، وقال تعالى: ﴿مُسَلَّمَةٞ لَّا شِيَةَ فِيهَاۚ﴾، فهذا في الظّاهر"[9].

ومعنى (مسلّمة) في الآية: "أي: هي سالمةٌ من كل عيبٍ، وقيل: من آثار العمل التي تعملها البقر كالحرث والنَّضح"[10].

(1) ابن الجوزيّ، زاد المسير: 1/77.
(2) ابن دريد، جمهرة اللّغة: (حرث).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصَّل: (حرث).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حرث).
(5) الرّاغب، المفردات: (حرث).
(6) ابن عطيّة، المُحرّر الوجيز: 1/164.
(7) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سلم).
(8) الجوهريّ، الصّحاح: (سلم).
(9) الرّاغب، المفردات: (سلم).
(10) السّمين، عُمدة الحفّاظ: (سلم).

7) ﴿لَّا شِيَةَ﴾: اسم مشتق من الوشي، و"الشِّيةُ: بَياضٌ في لون السَّوادِ، أو سوادٌ في لون البياض"[1]، وأحد أصليه "يدُلُّ على تَحسينِ شَيءٍ وتَزيينِهِ... وَشَيتُ الثَّوبَ أَشِيهِ وَشيًا. ويقولون للَّذي يَكذِبُ وَيَنِمُّ ويُزَخرِفُ كلامَهُ: قَد وَشَى، وهو واشٍ"[2].

ومنه "وَشَيتُ الشّيء وَشياً: جعلتُ فيه أثرًا يُخالِف معظمَ لونِه، واستُعمل الوَشيُ في الكلام تشبيهًا بالمَنسُوج، والشِّيَةُ فِعلَةٌ من الوَشيِ، قال تعالى: ﴿مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا﴾"[3].

والمعنى في الآية: "أي: ليس فيها لَونٌ آخَرُ غير الصُّفرَةِ الفاقِعَةِ"[4].

8) ﴿جِئْتَ﴾: جاء من الجذر اللّغويّ (جيء)، والمعنى المحوريُّ فيه "انحدار إلى حيّز، أو تجوّف سُفليّ مُهَيّأ جامع: كالماء في الهبطة- ومن هذا المعنى المجيء: الإتيان إذ هو حضور الجائي من حيث كان إلى مكان (حيّز)؛ للقاء أو لأمر"[5].

والمعنى في الآية: "كما تقولُ جاءَ بالأمرِ على وَجهِهِ"[6].

9) ﴿بِٱلْحَقِّ﴾: من الجذر اللّغويّ (حقق)، والأصل في معناه دلالته"على إحكام الشَّيء وصحَّته. فالحقُّ: نقيضُ الباطل، ثمَّ يرجعُ كُلُّ فرع إليه بجودة الاستخراج، وحُسن التّلفيق، ويُقال حَقَّ الشَّيءُ: وَجَبَ"[7].

و"أصل الحَقّ: المُطابقة والمُوافقة، كمطابقة رِجلِ الباب في حقّه لدورانه على استقامةٍ"[8] و"الحقّ في الأصل: الثّبوت، والشّيء الثّابت، يُقال: حقّ الأمر يحقّ حقًّا، فهو حقّ: أي: ثبت واستقرّ"[9].

ومعنى ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ في الآية أنّهم: "أرادوا بالحق الأمر الثابت الذي لا احتمال فيه"[10].

10) ﴿فَذَبَحُوهَا﴾: من الجذر اللّغويّ(ذبح)، والأصل في معناه "يدُلُّ على الشَّقِّ.

(1) الخليل، العين: (وشي).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (وشي).
(3) الرّاغب، المفردات: (وشى).
(4) محمّد رشيد رضا، تفسير المنار: 1/289.
(5) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصَّل: (جيأ).
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/555.
(7) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حق).
(8) الرّاغب، المفردات: (حق).
(9) السّمين، عُمدة الحفّاظ: (حقق).
(10) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/555.

فالذَّبحُ: مَصدَرُ ذَبَحتُ الشَّاةَ ذَبحًا. والذِّبحُ: المَذبوحُ. والذُّبَّاحُ: شُقوقٌ في أصول الأصابع. والمَذابِحُ: سيولٌ صِغارٌ تَشُقُّ الأرضَ شَقًّا"[1]، و"أصل الذَّبح: شقّ حَلقِ الحيوانات"[2]، وهو المعنى المقصود في الآية.

11) ﴿وَمَا كَادُواْ﴾: فعلٌ من أفعال المقاربة، الجذر اللّغويّ منه (كود)، و"كادَ يفعل كذا، يَكادُ كَوْداً ومَكادَةً، أي: قارَبَ ولم يفعل... وكادَ وُضِعَت لمقاربة الشّيء، فُعِلَ أو لم يُفعَل، فمجرَّدُهُ يُنبئ عن نفي الفعلِ، ومقرونُهُ بالجحد ينبئ عن وقوعِ الفعلِ"[3] والأصل في معناه"كلمةٌ تدُلُّ على التِماسِ شَيءٍ ببعضِ العَناءِ. يقولون: كادَ يَكودُ... فأمَّا قَولُهُم في المُقاربة: كادَ، فمَعناها قاربَ"[4]، وإذا اقترنت (كاد) بالنّفي كالآية مَوضِع الشّاهد "فإنّها تفيد وقوعَ الفعل بعد صعوبة أو محاولات، وهذا أيضًا من المُقاربة"[5]. والمعنى في الآية دالٌّ على: " استثقال لاستقصائهم واستبطاء لهم، وأنّهم لتطويلهم المفرط، وكثرة استكشافهم، ما كادوا يذبحونها"[6].

12) ﴿يَفْعَلُونَ﴾: من الجذر اللّغويّ(فعل)، والأصل في معناه "يدُلُّ على إحداثِ شَيءٍ مِن عملٍ وغيره، من ذلك: فَعَلتُ كذا أَفعَلُه فَعْلًا. وكانت مِن فُلانٍ فَعْلَةٌ حَسَنَةٌ أو قَبيحَةٌ"[7].

و"الفِعلُ: التّأثير من جهةِ مُؤثِّرٍ، وهو عامٌّ لِما كان بإجادةٍ أو غيرِ إجادةٍ، ولِما كان بعلمٍ، أو غيرِ علمٍ، وقصدٍ أو غيرِ قصدٍ، ولِما كان من الإنسان والحيوان والجمادات"[8]، والفعل هو القدرة على إحداثِ الشّيء[9].

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ذبح).
(2) الرّاغب، المفردات: (ذبح).
(3) الجوهريّ، الصّحاح: (كود).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (كود).
(5) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصَّل: (كود).
(6) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/283-284.
(7) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (فعل).
(8) الرّاغب، المفردات: (فعل).
(9) السّمين، عُمدة الحفّاظ: (فعل).

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

الآية جواب عن آخر أسئلتهم الّتي شدّدوا فيها على أنفسهم من حيث لا يدرون؛ فشدّد اللّه عليهم؛ فأخبرهم عن صفة تلكم البقرة، وأنّها لم يذلّلها العمل، ولم تبتذل في الكسب من إثارة للأرض، وسقي الزَّرع، فكانت من البقر الوحشيِّ، ثمّ زاد عليهم أن تكون سالمة من العيوب، وختمها بأن لا يخالط صفرتها أيّ لون آخر من بياض ونحوه.

ولـمّا استوفى اللّه لبني إسرائيل جميعَ الـمُمَيِّزاتِ والـمُشَخِّصاتِ لهذه البقرة، ولم يَرَوا سبيلًا إلى سؤالٍ آخَرَ، فما قاربوا أَن يَذبَحوها إلَّا بعدَ أنِ انتَهَت أسئِلَتُهم، فاضطروا إلى ذبحها بعد طول المراوغة، وانقَطَعَ ما كان مِن تَنَطُّعِهم وتَعَنُّتِهم[1].

الإِيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

سرُّ اختيارِ ذبحِ البقرِ دون سائرِ الحيوان:

جاءَ الأمر بذبح بقرةٍ في قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ﴾ من بين سائرِ الحيوان؛ "لأنَّها مِن جنسِ ما عبدُوهُ مِنَ العِجلِ؛ لِيُهَوِّنَ عندَهم ما كان يَرَونَهُ مِن تَعظِيمِه، ولِيَعلَمَ بإجابَتِهم ما كان في نُفوسِهم مِن عبادتِه"[2].

بلاغة الوصف بـ﴿ذَلُولٌ﴾:

قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ﴾ جوابٌ عن سؤالهم الثّالث في صفة البقرة الّتي أُمروا بذبحها، فذكر لهم الحقّ تبارك وتعالى أولى صفاتها بقوله: (لا ذلولٌ)، وهو نفي أن تكون على هذه الصّفة، و"ذَلُولٌ صفة لبقرة بمعنى: بقرةٌ غيرُ ذلولٍ، يعني: لم تذلّل"[3] للحراثةِ، وزِنةُ (ذَلُول) (فَعُول)، وهي صيغة مبالغة منفيَّة، ولهذا النّفي غرضٌ، وهو إفادةُ النَّفي من كلِّ وجهٍ، فنفي الكثير يحتِّم نفيَ القليل، ولا عكس، فجاء بالمبالغة ليدخل فيه ما دونه، وفي نفي ذلك عن البقرة تشديد عليهم لـمّا شدّدوا على أنفسهم، والتّشديد قرين المبالغةِ.

التّعبيرُ بالمبالغة فيه تشديدٌ عليهم، جزاءً لتشدُّدِهم على أنفسهم

(1) محمّد رشيد رضا، تفسير المنار: 1/289.
(2) القُرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 1/372.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/282-283.

سرّ تعدُّد الصّفات المَنفيّة في ختام الوصف:

تَكرارُ النّفي مع صفاتِ البقرةِ فيه تصعيبٌ عليهم، جزاءً على أعمالهم

يشتملُ قوله تعالى: ﴿لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا﴾ على صفات متعدّدة للبقرة المأمور بذبحها من لدن ﴿ذَلُولٌ﴾ وقد ذُكِرت سابقًا، وهنا تثير الأرض، أي: تقلِّبها لأجل زراعتها[1]، ثمّ ذكر الفعل ﴿تَسْقِي﴾ مَنفيًّا، ثمّ قوله ﴿مُسَلَّمَةٌ﴾، أي: لا عيبَ فيها، ثمّ نفى عنها ﴿شِيَةَ﴾، "والشِّيَةُ أصلُها وَشِيَةٌ... والمُرادُ أنّ هذه البقرةَ خالصةُ الصُّفرة ليس في جسمها لَمَعَةٌ من لونٍ آخَرَ"[2]، فهذه الصّفات جميعًا داخلة تحت حيّز النّفي إمّا لفظًا، وإمَّا معنًى، والمُتأمّل في ذلك "يرى الصّعوبة والتّشدّد في اختيار أوصافها... كأنّ الحقّ تبارك وتعالى يريد أن يجازيهم على أعمالهم"[3]؛ فالنّفي أصعب من الإيجاب في اختبار الصّفات، وقد جاء النّفي في الصّفة الأخيرة على الغاية من التّشديد، فأراد منهم ألَّا يكون أيُّ لونٍ مخالطٍ لصفرتها وإن كان صغيرًا، بدلالة لا النّافيّة للجنس الّتي تنفي القليل فضلًا عن الكثير.

بلاغةُ اختيارِ صفةِ ﴿ذَلُولٌ﴾ وتقديمها على الصّفتين الأُخريين:

تقديمُ الأصلِ على الفرعِ، فمن ذلَّ هان في بقيَّة الصِّفات

يشتمل قوله تعالى: ﴿تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا﴾ على أوصاف متعدّدة للبقرة الّتي أُمِروا بذبحها، وقد تقدّم وصفٌ على آخر في سياق النّفي، فتصدّر وصف ﴿ذَلُولٌ﴾ ثمّ ﴿تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ﴾، وبعده ﴿وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ﴾، ثمّ ﴿مُسَلَّمَةٌ﴾، وختمها بـ﴿لَّا شِيَةَ﴾، وفي هذا التّقديم والتّأخير سبب، هو أنّه قدّم ما قدّم من باب تقديم الأصل على الفرع، فلا ذلول "أي: غيرُ مُذلَّلةٍ بالعمل في الحراثةِ، ولا في السَّقي"[4]؛ فكونها لا ذلول يجعلها لا تثير الأرض،

(1) البغويّ، معالم التّنزيل: 1/108.
(2) الشّوكانّي، فتح القدير: 1/116.
(3) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 1/396.
(4) محمّد رشيد رضا، تفسير المنار: 1/289.

ولا تسقي الحرث فكأنّ الذّلولَ أصلٌ، وإثارة الحرث، وسقي الزّرع فرعان متّصلان بالأوّل، وفيها لمحةٌ إشاريَّةٌ وهي أنَّ من ذلَّ هان، والمقصودُ التَّلويحُ للمأمورين بذبح البقرةِ أن لا تكونَ أكرمَ منهم.

التّعبيرُ بإثارة الحرثِ وسقي الزّرع بالفعليّة وغيرهما بالاسميّة:

الحركةُ والتّجدّدُ هما الصّفة الغالبةَ على هذه الأفعال

ذُكِر في قوله تعالى: ﴿تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا﴾ فعلان، هما وصفان من أوصاف بقرة بني إسرائيل، وقد ذُكِر هذان الوصفان بالصّيغة الفعليّة الدّالّة على الحدوث والتّجدّد وعدم الاستقرار؛ فإثارةُ الأرض، وسقيُ الحرث من الألفاظ المُقترنة بالحدوث والتّجدّد، "وإثارةُ الأرضِ حَرثُها وقَلبُ داخلِ تُرابها ظاهرًا وظاهره باطنًا، أُطلِقَ على الحَرثِ فِعلُ الإثارة تَشبيهًا لانقلاب أجزاءِ الأرضِ بثورةِ الشَّيءِ مِن مكانِه إلى مكانٍ آخَرَ"[1]، ويشبهه في تجدّده السّقي؛ فنجد أنّ أكثرَ الآيات جاءَت بالفعليّة، وهناك آيات قليلة جداً جاءَت بالاسميّة؛ ذلك أنّ السّقيَ والسّقاية أمرٌ فعليٌّ يتجدّد وينقطع، وفيه حركة وعدم ثبات، أي: أنّ الصّفة الغالبة عليه هي الحركة والتّجدّد، وآية ذلك أنّ أغلب الألفاظ المُشتقّة من (سقي) في القرآن الكريم واردة بالصّيغة الفعليّة، أمّا الصّفتان الأخريّان؛ وهما سلامتها من العيوب ﴿مُسَلَّمَةٌ﴾، ووجود لون آخر مع صفرتها ﴿لَّا شِيَةَ﴾، فلا يتخيّل فيهما الحدوث؛ لأنّهما أمران مُتعلّقان بالخِلقة.

دلالة اسمِ المفعولِ ﴿مُسَلَّمَةٌ﴾:

دلالة (مسلّمة) على أصلِ الخِلقةِ

في قوله تعالى: ﴿مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا﴾ وردت هذه الصّفة (مسلّمة)، وهي بمعنى الخلوّ من العيوب، "فهي اسمُ مَفعولٍ مِن (سُلِّمَت) المَبنيّ للمَفعول، وكثيرًا ما تُذكَرُ الصِّفاتُ الَّتي تُعرَضُ في أَصلِ الخِلقَةِ بصيغة البناء للمَفعول في الفِعل والوَصف؛ إذ لا

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/555.

يخطر على بَال المُتكلِّم تَعيينُ فاعِلِ ذلك"[1]، وهكذا تأتي الأوصاف الدّالّة على الخِلقة غالبًا على هذه الصّيغة.

معنى (الحقّ) في قوله: ﴿قَالُواْ ٱلۡـَٔـٰنَ جِئۡتَ بِٱلۡحَقِّ﴾:

المُرادُ بالحقِّ البيانُ لا الذي يُقابل الباطلَ

المقصودُ بالحقِّ في قولِه تعالى: ﴿قَالُواْ ٱلۡـَٔـٰنَ جِئۡتَ بِٱلۡحَقِّ﴾ البيان، أي: الآن بيّنت لنا، فبعد أن بيّن لهم صفات البقرة أجابوا وأذعنوا، وقالوا: الآن جئتَ بالحقّ، أي: "بيّنت لنا غاية البيان، وجِئتَ بالحقِّ الّذي طلبناه، لا أنّه كان يجيء قبل ذلك بغير حقّ"[2] فلو كان مقصدهم معنى الحقّ في كلام العرب لأدخلهم ذلك في زمرة الكافرين، فالمُرادُ "الآنَ ظَهَرَت حقيقةُ ما أُمِرنا به؛ حتّى تميَّزَت مِن غيرِها فلا يكون كُفرًا"[3].

بلاغة الإيجازُ بالحذفِ في قوله: ﴿فَذَبَحُوهَا﴾:

تركُ ذكرِ التَّفاصيلِ مقصودُه توجيه الاهتمام بمقصود القصَّة

في قوله تعالى: ﴿فَذَبَحُوهَا﴾ إيجازٌ بالحذف؛ لأنّهم بعد أن علموا من أوصافها ما علموا، طلبوا البقرة الجامعة لهذه الأوصاف، وبحثوا عنها، ثمّ اهتدوا إليها بنعوتها، فلمّا وصلوا إليها ذبحوها[4]؛ لأنّ معرفة أوصافها مقدِّمة للبحث عنها، والعثور عليها، ثمّ ذبحها، فالفاء فصيحةٌ على رأي من لا يشترط أن تكون الجملةُ المحذوفةُ شرطًا.

بلاغة التّعريض في قولِه: ﴿وَمَا كَادُواْ يَفۡعَلُونَ﴾:

تنزيلُهم منزلةَ مَن لم يفعل؛ لأنّهم ذبحوها كارهين مُماطلين

فعلُ كادَ في قوله تعالى: ﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفۡعَلُونَ﴾ يُفيد المقاربة، والمعنى: "وما قارَبوا ذبحَها قبل ذلك، أي: وقع الذَّبحُ بعدَ أن نَفى مُقارَبَته، فالمعنى: أنَّهم تَعَسَّروا في ذبحها، ثمَّ ذَبَحوها بعد ذلك"[5]، ولـمّا كان أمرهم كذلك ففي التّعبير بـ(كاد) تعريض بهم؛

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/555.
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 1/165.
(3) الرّازيّ، التّفسير الكبير: 3/130.
(4) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 1/87.
(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 1/416.

لأنّهم "ذَبَحُوها في حالٍ تَقرُب مِن حالِ مَن لا يَفعَلُ، والمعنى: أَنَّهُم ذَبَحوها مُكرَهِينَ، أَو كالمُكرهِين لمَا أَظهَروا مِنَ المُماطَلَة"[1]، فنفي مقاربة فعلهم حصل قبل الذّبح؛ لكثرة مماطلتهم، وتَكرار سؤالاتهم، أي: ما كادوا يفعلون ذلك في مضي زمانهم.

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

المجيء والإتيان:

في قوله تعالى: ﴿قَالُواْ ٱلْـَٔـٰنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّۚ﴾ ورد المجيء، ولم يرد الإتيان، مع أنّهما متقاربان؛ ولذلك وردا في سياق واحد، في قوله تعالى: ﴿قَالُواْ بَلْ جِئْنَٰكَ بِمَا كَانُواْ فِيهِ يَمْتَرُونَ ۝٦٣ وَأَتَيْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ [الحِجر: 63-64].

غير أنّ الأنسبَ للسّياق هنا هو المجيء؛ حيث إنَّه يدُلُّ على "انحدار إلى حيّز- أو تجوُّف- سفليّ مُهيَّأ جامع"[2]، ومجيئُه بصفات البقرة واضحةً جليّةً وضَعَهم في هيئَةِ المُضطر إلى تنفيذ أمر اللّه تعالى؛ كأنَّه دفعهم إليه دفعًا، كمن ينحدر إلى حيِّز.

المجيء انحدار إلى حيّز، وهو أعمّ؛ لأنّ الإتيان مجيء بسهولة

وجاء يجِيء ومَجِيئًا، والمَجيء كالإتيان، لكنِ المجيءُ أَعمُّ؛ لأنّ الإتيانَ مجيءٌ بسهولة. ويُقال: جاء في الأعيان والمعاني، ولما يكون مجيئُه بذاته وبأمره، والإتيان قد يُقال باعتبار القَصد وإن لم يكن منه الحُصول، والمجيء يُقال اعتبارًا بالحُصول[3].

الحقّ والصّدق:

الحقُّ هنا، أي: في أمر البقر، فعرفنا أيها الواجب علينا ذبحها منها، و﴿جِئْتَ بِالحَقِّ﴾ الَّذِي طَلَبْناهُ، لا أنَّ موسى عليه السلام كانَ يَجِيءُ قَبْلَ ذَلِكَ بِغَيْرِ حَقٍّ[4]، وبَينَ الحقّ والصّدق وشائجُ وعلائقُ، إلاّ "أَنّ الحقَّ أَعمُّ؛ لأَنَّه وقوعُ الشَّيء في موقعه الَّذي هو أولى به. والصّدقُ: الإخبار عن الشَّيء على ما هو به، والحقُّ يكون إخبارًا وغير إخبار"[5]؛ لذا لا يحسُنُ في هذا المَوضِع إلّا كلمةُ الحقّ؛ فهي المُناسِبةُ لفظًا ومعنًى؛ لما للحقّ من سعةٍ وعُمُوم، قُبالة التّقييد المُنبِئ عنِ الصِّدق.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/557.
(2) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (جيأ).
(3) الرّاغب، المفردات: (جاء).
(4) ابن جرير، جامع البيان: 2/217، وابن عطية، المحرر الوجيز: 1/165.
(5) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 48.

﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَٱدَّٰرَٰٔتُمْ فِيهَا ۖ وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ٧٢﴾ [البقرة: 72]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

تقعُ هذه الآية من سابقاتها موضع السّبب من النّتيجة، وإن قدّم النّتيجة لشرفها؛ فـ"هذه الآية مُؤخَّرة في التّلاوة، مُقدَّمة في المعنى؛ لأنّ السّبب في الأمر بذبح البقرة قتل النّفس، فتقدير الكلام: وإذ قتلتم نفساً فادّارأتم فيها، فسألتم موسى فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً﴾" [البقرة: 67][1].

وقد "ابتدأ بأشرف القصدين من معنى التّشريع الّذي هو القائم على أفعال الاعتداء وأقوال الخصومة"[2]

شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

1) ﴿قَتَلْتُمْ﴾: من الجذر اللّغويّ (قتل)، و"القتلُ معروف، يُقال: قَتَله إذا أَمَاتَهُ بضربٍ أَو حجر أَو سمّ أَو علّة، والمنيّة قاتلة"[3].

والأصل في معنى القتل "يدُلُّ على إذلالٍ وإماتَةٍ. يُقالُ: قَتَلَهُ قَتلًا. والقِتلَةُ: الحالُ يُقتَلُ عليها. يُقالُ: قَتَلَهُ قِتلَةَ سُوءٍ. والقَتْلَةُ: المَرَّةُ الواحِدَةُ"[4]، وقد لا يكون بهذا المعنى، كقوله تعالى: ﴿قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [التّوبة: 30]، ومعناه "لعنهم الله أنّى يُصرفون، وليس هذا من القتالِ الّذي هو بمعنى المقاتلة والمحاربة بين اثنين"[5].

والوارد في الآية (لا تقتلوا) على المعنى الأوّل المعروف، وهو بمعنى "أَزال رُوحه عن جسده"[6]

(1) ابن الجوزيّ، زاد المسير: 1/78.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 1/475.
(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (قتل).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (قتل).
(5) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (قتل).
(6) الفيروزابادي، بصائر ذوي التّمييز: 4/238.

وقتلُ النّفس في الآية إزهاقُ روحِ رجلٍ من بني اسرائيل[1].

2) ﴿نَفۡسًا﴾: من الجذر اللّغويّ (نفس)، وهو "يدُلُّ على خروج النَّسيم كيف كان، من ريحٍ أو غيرها... والنّفسُ: الدَّمُ، وهو صحيحٌ، وذلكَ أنَّه إذا فُقِدَ الدَّمُ من بَدن الإنسان فَقَدَ نفسَهُ"[2].

وهو شيءٌ "لطيفٌ يسري في فُتُوقٍ أثناء الشّيءِ فيصلحُه ويتيحُ لهُ التّصرفَ. كالنّفَسِ في أثناءِ بدنِ الحيِّ فهو علامةُ حياتِه الّتي تتيحُ لهُ التّصرفَ"[3].

ومعنى ذلك أنّ النّفسَ يعبّرُ بها عن الإنسان، وهو تعبيرٌ مجازيٌّ وفقًا لـمَا سبق، وهو كذلك في هذه الآية؛ فالأنفسُ هم المخاطَبونَ بهذه الآية، وقد يكون معناها الرُّوحُ[4]، والنّفس في الآية بمعنى الشّخص[5]؛ فهم قد قتلوه حقيقة.

3) ﴿فَٱدَّٰرَٰٔتُمۡ﴾: أصله (تَدارَأْتُم): (تفاعَلْتم)، وجذره اللّغويّ (درأ)، وقُلبت التّاءُ دالاً فصار (ادْدَارَأْتم)، ثمّ أُدغمت فصار (ادَّارأتم)[6]، والأصل في معناه يأتي من الدَّفع، كقولهم "درأتُ الشّيء: دفعتُه"[7]، ومن معانيه أيضًا "الميل إلى أحد الجانبين... وفلان ذو تَدَرُّؤٍ، أي: قويّ على دفع أعدائه، ودَارَأْتُهُ: دافعتُه"[8].

ومعنى (فادّارأتم) في الآية، أي: تدافعتم، وهو تدافع معنويّ؛ فكلّ واحد يريد أن يدفع الجريمة عن نفسه ويبرئها[9].

4) ﴿مُخۡرِجٞ﴾: والجذر اللّغويّ له (خرج)، ومنه الخروجُ، وهو"نقيض الدُّخول... والخُروجُ: السّحاب أوّل ما يبدأ، والخَرْجُ والخَراجُ: ما يُخرَجُ من المال في السّنة بقَدْرٍ مَعلوم"[10].

---

(1) البغويّ، معالم التّنزيل: 1/130.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نفس).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصَّل: (نفس).
(4) الجوهريّ، الصّحاح: (نفس).
(5) الخفاجي، عناية القاضي وكفاية الراضي: 2/182.
(6) السّمين، الدّرّ المَصون: 1/434.
(7) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (درى).
(8) الرّاغب، المفردات: (درأ).
(9) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 1/398.
(10) الخليل، العين: (خرج).

والأصل في معناه على ضربين؛ الأوّل: وهو المقصود أن ينفذ عن الشّيء، ومنه الخَراجُ، أي: "الإِتاوةُ؛ لأنَّه مالٌ يُخرِجُه المُعطِي...والخُروجُ: خُروجُ السَّحابة؛ يُقالُ: ما أَحسَنَ خُروجَها"[1]، فالمعنى الظّهور والبروز والنّفاذ عن الشّيء؛ لذلك يُقال هذا لكلّ من برز من مكان قراره أو وضعه، إن كان ذلك المقَرُّ بيتًا أو مَوطنًا أو لباسًا، أو غير ذلك، ولو كان حالة نفسيّة[2].

ومعنى ﴿مُخْرِجٌ﴾: مُظهِرٌ الأمرَ الّذي تخفونه، وهو أمر القتل[3].

5) ﴿تَكْتُمُونَ﴾: من الكتم والكتمان، وهو يناقض الظّهور والإعلان[4]، والأصل في معناه دلالته على الاستتار والإخفاء، ككتمان الحديث[5].

"وحقيقة الكتم ستر الشّيء وتغطيته"[6]، وهذه المعاني مُتقاربة، وهي المقصودة في الآية الكريمة، وما جاء في القرآن الكريم من اشتقاق هذه اللّفظة معناه: حبس القول الموجود في الفؤاد، كالشّهادة أو العقيدة أو نحوها[7].

و﴿تَكْتُمُونَ﴾ في الآية بمعنى: تخفون وتُغيِّبون[8].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

واذكروا - يابني إسرائيل - حين قتلتم واحدًا منكم في ذلك الوقت الّذي ارتكبتم جُرمكم في إزهاق رُوح إنسان بريء.

ونسب اللّه القتل إليهم جميعًا إشارة إلى وُقوعِ قَتلٍ فيهم دون إنكار، وهي طريقةُ القُرآن في إسناد أفعال البعض إلى الجميع؛ جَريًا على طريقة العرب في قَولِهِم: قَتَلَت بَنو فُلانٍ فُلانًا[9]، فلمّا علموا ذنبهم تدافعوا واختلفوا، كلٌّ يدفع التّهمة عن نفسه، ويلقيها على غيره، حتى تنازعتم، ولكنّ اللّه تعالى بعلمه سَيُظْهِرُ ما تخفونه من أمر الجريمة،

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (خرج).
(2) الرّاغب، المفردات: (خرج).
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/284.
(4) الخليل، العين: (كتم).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (كتم).
(6) السّمين، عُمدة الحفّاظ: (كتم).
(7) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (كتم).
(8) الشّوكانّي، فتح القدير: (كتم).
(9) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/560.

وإرادتكم "الإيقاع بقوم بُرآء تَتَّهِمونَهُم بالقتل؛ لإخفاء القاتل؛ لأنَّه لا يَخفى عليه مَكرُكُم"[1].

الإيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

بلاغة قوله ﴿فَٱدَّٰرَٰٔتُمۡ﴾، ودلالة صيغةِ الافتعالِ فيه:

تصويرُ حرصِ بني إسرائيل على تبرئة النّفس واتّهام الآخَر

في قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ قَتَلۡتُمۡ نَفۡسٗا فَٱدَّٰرَٰٔتُمۡ فِيهَاۖ﴾ تعبير فريد من نوعه لم يَرد في القرآن الكريم إلَّا في هذا المَوضِع، وفعلُ "تَدَارَأْتُم: تَفاعُلٌ مِنَ الدَّرء، وهو الدَّفعُ؛ لأنّ كُلَّ فريقٍ يَدفعُ الجِنايةَ عَن نَفسِهِ، فلمَّا أُرِيدَ إدغامُ التَّاء في الدَّال على قاعدة تاءِ الافتِعالِ معَ الدَّالِ والذَّالِ جُلِبَتْ هَمْزَةُ الْوَصْلِ لِتَيْسِيرِ التَّسْكِينِ لِلْإِدْغَامِ"[2].

و"التّدارؤ هنا إمّا مجاز عن الاختلاف والاختصام، أو كناية عنه، إذ المتخاصمان يدفع كلٌّ منهما الآخر، أو مستعمل في حقيقته، أعني التّدافع بأن طرَح قتلَها كلٌّ عن نفسه إلى صاحبه، فكلٌّ منهما من حيث إنَّه مطروح عليه يدفع الآخر من حيث إنَّه طارح، وقيل: إنّ طرح القتل في نفسه نفس دفع الصّاحب، وكلٌّ من الطّارِحَيْن دافع، فتطارحهما تدافع، وقيل: إنَّ كلّا منهما يدفع الآخر عن البراءة إلى التّهمة، فإذا قال أحدهما: أنا بريء وأنت متّهم، يقول الآخر: بل أنت المتّهم وأنا البريء، ولا يخفى أنّ ما ذكر على ما فيه بالمجاز أليق، ولهذا عدّ ذلك أبو حيّان من المجاز"[3]؛ فأفاد هذا الفعلُ تصويرَ التّدافع والتّخاصم إلى منتهاه؛ بحيث يتداخل البريء والمتّهم؛ فلا يستبين الحقّ، ولا يظهر الجاني.

بلاغة التَّعبير بالاسم ﴿مُخۡرِجٞ﴾ لا الفعل:

إخراجُ الله لما يكتمُه النَّاس ثابتٌ، فإن تجدَّد الكتمُ تجدَّد الإخراج

قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ مُخۡرِجٞ مَّا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ﴾ جملة اسميّة محكيّة، وجاء الخبر (مُخرج) اسمًا، لا فعلًا فلم يقل: (والله أَخْرَجَ)، وسرُّ التّعبيرِ بالصّيغةِ الاسميّة؛ لدلالتها على الثّبوت والاستقرار[4]، وقد

(1) محمّد رشيد رضا، تفسير المنار: 1/290.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/560.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 1/293.
(4) الرّضّي، شرح الرّضّي على الكافية: 1/316.

أخرج الحقّ تبارك وتعالى ما كان أصحاب البقرة يخفونه من أمر القاتل، وهذا الخطاب ليس مُوجَّهًا لبني إسرائيل، بل هو خطاب عامّ مَبنيّ "على تَنزيل المُخاطَبين مَنزلةَ أَسلافِهِم لِحَملِ تَبِعَتِهِم عليهم بناء على ما تقرَّرَ مِن أنَّ خُلُقَ السَّلَفِ يَسري إلى الخَلَف"[1]، ويتوافر على رسالة هي أنّه تعالى "عالمٌ بجميع المعلومات، وإلَّا لـمَا قَدَرَ على إظهارِ ما كَتَموهُ"[2]، ويعلم ما يكتمه المرء؛ بدلالة الاسم الدّالّ على الثّبوت، أي: أنّه تعالى يعلم دائمًا ما تكتمونه، وأنّ الأمر ليس مُتعلِّقًا بقصة قتيل بني إسرائيل.

سرُّ تقديم ذبح البقرة على قتل النَّفس:

من باب تقدّم النّعمةِ على الذّنب

في قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ قَتَلۡتُمۡ نَفۡسٗا فَٱدَّٰرَٰٔتُمۡ فِيهَاۖ وَٱللَّهُ مُخۡرِجٞ مَّا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ﴾، تقديمٌ وتأخير، فالآية بتمامها مُؤخَّرة في اللّفظ والتّلاوة، مُقدَّمة في الوقوع، "فالآيتان في قوّة أن لو قيل: وإذ قتلتم نفساً فادّرأتم فيها، فأمرتم بذبح البقرة، فأوضّح لكم ذلك حكم القتيل"[3].

ولأنّ ذبح البقرة كان سببًا في معرفة القتيل من خلال قوله تعالى: ﴿ٱضۡرِبُوهُ بِبَعۡضِهَاۚ كَذَٰلِكَ يُحۡيِ ٱللَّهُ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾، وسبب ذلك أنّهم كانوا مختلفين في القاتل قبل الذّبح، فلمّا أنزل الحقّ تبارك وتعالى: ﴿وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تَذۡبَحُواْ بَقَرَةٗۖ﴾ [البقرة: 67] "علم المخاطَبون أنَ البقرة لم تُذبَح إلاّ للدّلالة على قاتل خفيت عينه عليهم، فلمّا استقرّ علم هذا في نفوسهم أتبعه بقوله: ﴿وَإِذۡ قَتَلۡتُمۡ نَفۡسٗا﴾ على جهة التّوكيد، لا أنّه عرّفهم الاختلاف في القاتل بعد أن دلّهم على ذبح البقرة"[4].

ففائدة تقديم الذّبح في الذّكر أنّ آياتِ البقرة سِيقت لبيان النّعم كما تقدّم، فناسب تقدّم ذكر النّعمة على ذكر الذّنب[5]، و"ليتوجّه العتاب إليهم مرّتين على ترك المسارعة لامتثال أمر نبيّهم، وعلى قتل النّفس، ولو قدّمها لكانت قصّة واحدة بتوبيخ واحد"[6].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/561.
(2) الرّازيّ، التّفسير الكبير: 3/133.
(3) ابن الزبير، مِلاك التّأويل: 2/363.
(4) الواحديّ، التّفسير البسيط: 3/56.
(5) ابن جماعة، كشف المعاني، ص: 102.
(6) ابن عجيبة، البحر المديد: 1/106.

﴿فَقُلۡنَا ٱضۡرِبُوهُ بِبَعۡضِهَاۚ كَذَٰلِكَ يُحۡيِ ٱللَّهُ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَيُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ٧٣﴾ [البقرة: 73]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لـمّا بيّن في الآية السّابقة سببَ أمرهم بذبح بقرة، وهو إرادة تعريفهم بالقاتل، ذكر هنا أمرًا صريحًا بضربها تنفيذًا للمقصود من ذبحها، وأشار ضمنيًّا إلى أنّ إحياء هذا القتيل هو أنموذج تعريفيّ توضيحيّ لهم وللنّاس كافّة بأنّ اللّه تعالى يُحيي الموتى في يوم البعث.

شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

1) ﴿ٱضۡرِبُوهُ﴾: من الجذر اللّغويّ منه (ضرب)، وله أصل واحد "ثمَّ يُستعارُ ويُحمَلُ عليه. مِن ذلك ضَرَبتُ ضَربًا، إذا أَوقَعتَ بغَيرِكَ ضَربًا"[1]، "ومنه هذا المعنى المشهور للضّرب، أعني: صدم البدن بعصا أو يد"[2].

و"الضَّربُ: إيقاعُ شيءٍ على شيء، ولتصوُّر اختلاف الضّرب خُولِف بين تفاسيرها، كضربِ الشّيءِ باليد، والعصا، والسّيف ونحوها، قال: ﴿فَقُلۡنَا ٱضۡرِبُوهُ بِبَعۡضِهَاۚ﴾"[3]، وهو أيضًا "إيقاع جسمٍ على جسمٍ قصدًا للتّأليم والإيلام.

ومعنى الضّربِ في الآية: الضَّرب المباشر للقتيل.

2) ﴿بِبَعۡضِهَاۚ﴾: جذره اللّغويّ (بعض)، والأصل في معناه " تَجزِئَةٌ للشَّيءِ. وكُلُّ طائفةٍ منه بَعضٌ. قال الخليلُ: بَعضُ كُلِّ شَيءٍ طائفةٌ منه"[4].

"وكلّ ما في القرآن من التّركيب (بعض) بمعنى: جزء من شيء، أو فريق من جماعة"[5].

والمعنى في الآية: "أيُّ شَيءٍ كانَ مِن أعضاءِ هذه البَقَرَةِ، فالمعجزةُ حاصِلَةٌ به، وخَرقُ العادةِ به كائنٌ"[6].

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ضرب).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصَّل: (ضرب).
(3) الرّاغب الأصفهانّي، المفردات، والسّمين، عُمدة الحفّاظ: (ضرب).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (بعض).
(5) السّمين، عُمدة الحفّاظ: (بعض).
(6) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 1/302.

3) ﴿يُحۡيِ﴾: جذره اللّغويّ (حيي)، والأصل في معناه أنّه ضدّ الموت في أحد معنييه[1]، وهو أيضًا " قوّة سارية تتمثّل في الحِسّ والنّموّ، وهو حركة واتّصال وامتداد مع الطّراءة، وجسمُ الميّت يتصلّب"[2].

ويستعمل هذا اللّفظ "للقوّة النّامية الموجودة في النّبات والحيوان، ومنه قيل: نبات حَيٌّ، قال ﷻ: ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ﴾ [الحديد: 17]»[3].

"والحياة: ضدّ الموت، فكما يستعمل حقيقةً ومجازًا نحو: مات الإنسان، وماتتِ الأرض، كذلك الحياة، نحو: أحيا الله فلانًا، وأحيا الأرض بعد موتها"[4].

والمعنى في الآية: "اعتبروا بإحيائي هذا القتيل بعد مماته"[5].

4) ﴿ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾: من الجذر اللّغويّ (موت)، والأصل في معناه "يدُلُّ على ذَهابِ القُوَّةِ مِنَ الشَّيءِ. منه المَوتُ: خِلافُ الحَياةِ"[6].

ومن أنواع الموت بحسب أنواع الحياة ما هو بإزاء القوَّة النّامية الموجودة في الإنسان والحيوانات والنّبات، نحو قوله تعالى: ﴿يُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَآۚ﴾ [الرّوم: 50][7].

"ولم يأت في القرآن من التّركيب إلّا موتُ الأحياء من النّاس ومن البلاد والأرضين. وهي واضحة في سياقاتها"[8].

ومعنى إحياء الموتى في الآية: "بأن يبعثهم من قبورهم يوم القيامة، ليحاسبهم على أعمالهم"[9].

5) ﴿وَيُرِيكُمۡ﴾: من (أرى)، المزيدُ بالهمزة، وجذرهُ اللّغويّ (رأي)، والأصلُ في معناهُ من "نظَرٍ وإبصارٍ بعينٍ أو بصيرةٍ. فالرَّأْيُ: ما يراهُ الإنسانُ في الأمرِ، وجَمعُهُ الآرَاءُ"[10]، ورؤيةُ الإنسانِ للمرئيّ هو الإدراكُ له، ويكونُ بطرقٍ عدّة كالحاسّةِ

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حي).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصَّل: (حيي).
(3) الرّاغب، المفردات: (حيى).
(4) السّمين، عُمدة الحفّاظ: (حيي).
(5) ابن جرير، جامع البيان: 2/232.
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (موت).
(7) الرّاغب، المفردات: (موت).
(8) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصَّل: (موت).
(9) سيد طنطاوي، التّفسير الوسيط: (موت).
(10) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (رأي).

والوهمِ والتّخيُّلِ والعقل[1]، والفعل (رأى) له معانٍ كثيرة، كالبصر بالعين، والعلم، والظّنّ، ورأى الحُلْميّة (المنامية)، وغير ذلك[2].

ومعنى ﴿وَيُرِيكُمْ﴾ في الآية: "الرؤيةُ هنا بصريَّةٌ، فالهمزةُ للتّعديّةِ أَكسَبَتِ الفعلَ مفعولاً ثانيًا، هو ﴿ءَايَٰتِهِۦ﴾، والمعنى: يَجْعلكم مُبصِرينَ آياتِه"[3].

6) ﴿ءَايَٰتِهِۦ﴾: أصلُها (أأْية)، فأبدلت الثانية الساكنة من جنس حركة الهمزة الأولى، فصارت (أاية)، ثمّ صارتَا مدّةً، وذكرَ "أنّها مُشتقّةٌ منَ التّأيِّي الّذي هو التّثبّتُ والإقامةُ على الشّيءِ"[4]، والآيةُ تأتي بمعنى العلامةِ والشّخصِ والجماعةِ[5]، وكونُها مؤلفةً منَ الكلماتِ والجملِ؛ سمّيَت آيةُ القرآنِ بهذا الاسمِ؛ لأنّها "طائفةٌ منَ القرآنِ، يتّصلُ بعضُها ببعضٍ إلى انقطاعِها، طويلةً كانَت أو قصيرةً"[6].

"ولكلِّ جملةٍ منَ القرآنِ دالّة على حكمِ آيةٍ... وقد يُقالُ لكلِّ كلامٍ منهُ مُنفَصلٍ بفاصلٍ لفظيٍ: آيةٌ، وعلى هذا اعتبارُ آياتِ السّورِ الّتي تُعَدُّ بها السّورةُ"[7].

ومعنى آياته: دلائله وبراهينه الّتي تدُلُّ على قدرته الكاملة، ورحمته الوافرة[8].

7) ﴿تَعْقِلُونَ﴾: جذره اللّغويّ من (عقل)، الفعل منه عقلَ يعقِلُ، و"العَقل: نقيض الجَهل. عَقَل يَعقِل عَقلاً فهو عاقل. والـمَعقُولُ: ما تَعقِلُه في فؤادك. ويُقال: هو ما يُفهَمُ من العَقل، وهو والعقلُ واحد، كما تقول: عَدِمتَ مَعقُولاً، أي: ما يُفهَمُ منك من ذهنٍ أو عَقل"[9].

والأصل دلالته "على حُبسةٍ في الشَّيء أو ما يُقاربُ الحُبسَةَ. من ذلكَ العَقلِ، وهو الحابِسُ عن ذميم القَول والفِعل"[10].

(1) الرّاغب، المفردات: (رأى).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصَّل: (رأى).
(3) السّمين، الدّرّ المصون: 1/436.
(4) الرّاغب، المفردات: (أي).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (أيى).
(6) الكفويّ، الكليّات، ص: 41.
(7) الرّاغب، المفردات: (أيّ).
(8) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 1/192.
(9) الخليل، العين: (عقل).
(10) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عقل).

وفيه كثير من المعاني الأخرى، لكنّها تدور في فلك الحبس والمنع، فالعقل يحبس الإنسان، ويمنعه من ارتكاب المحظورات، والعَقل يُطلق على القوّة المُستعدّة لموافقة العلم وتقبّله[1].

ومعنى ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ في الآية: "لتكونوا برؤية تلك الآيات على رجاء من أن يحصل لكم عقل، فيرشدكم إلى اعتقاد البعث وغيره، ممّا تخبر به الرّسل عن اللّه تعالى"[2].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

بعد أن اهتدى النَّفرُ من بني إسرائيل إلى البقرة الّتي أُمروا بذبحها، فذبحوها، أمَرَهم الحقّ تبارك وتعالى بأن يضربوا القتيل ببعضها، فإن اللّه سيبعثه حيًّا، ويخبر عن قاتله، فضربوه ببعضها فأحياه اللّه وأخبر بقاتله؛ فتبيّن لهم سرّ ذبحها، "وهذا الأسلوب أدعى لتشويق السّامع، وأبعث له على البحث عن معرفة السّبب في ذبح البقرة، والمفاجأة بحكاية ما كان من الجدل بين موسى وقومه، فإنّ الحكمة في أمر اللّه أمَّة بأن تذبح بقرة قد تخفى؛ فيحرص السّامع على طلبها"[3]، فلمّا أجابوا ما أمرهم اللّه، ورأوا ما حصل؛ فكان إحياؤه وكلامه من الآيات البيّنات الّتي أراها اللّه لكم يا بني إسرائيل، لعلّكم تُعملون عقولكم فيما شاهدتموه من معجزاتِه الدالَّةِ على كمال قدرته تعالى، وأنَّه يُحيي اللّه الموتى يوم القيامة، فتمتنعوا عن معاصيه.

❁ الإِيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

بلاغة الإيجازِ بالحذفِ في جملة ﴿ٱضْرِبُوهُ﴾:

أثر الفاءِ في وفرةِ المعاني المقدَّرة

معنى قوله تعالى: ﴿فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَاۚ كَذَٰلِكَ يُحْيِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾: قلنا اضربوا القتيل، "وفي الكلام حذفٌ تَقديرُهُ فضَرَبوها فَحَيِيَت"[4]؛ إذ غير جائز أن يحصل الإحياء من دون ضرب، أو لئلا يصبح فعلُ الأمر (اضربْ) لغواً لا فائدة فيه، وهو مُمتنع.

(1) الرّاغب، المفردات: (عقل).
(2) القاسميّ، محاسن التّأويل: 1/156.
(3) المَراغيّ، تفسير المَراغيّ: 1/142.
(4) العكبري، التبيان في إعراب القرآن: 1/78.

فائدةُ الأمرِ بضربِ الميت ببعض البقرةِ:

توكيدُ الحجّةِ وتبعيدُ الحيلةِ وتبرئةُ موسى ممَّا اتُّهم به سليمان عليهما السلام

إن قيل: ما فائدة إحياء الميّت بضربه ببعضها، في قوله تعالى: ﴿فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَاۚ كَذَٰلِكَ يُحْيِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾، واللّه قادر على إحيائه مباشرة؟ والجواب عن ذلك لتكون "الحُجَّةُ أَوكَدَ، وعنِ الحيلَةِ أبعَدَ، فقد كان يجوزُ لِمُلحِدٍ أن يُوهِمَ أنَّ موسى عليه السلام إنَّما أحياهُ بضربٍ مِنَ السِّحرِ والحيلةِ، فإنَّهُ إذا حيي عندما يُضرَبُ بقطعةٍ مِنَ البقرةِ المَذبوحَةِ انتَفَتِ الشُّبهَةُ في أنَّه لم يَحيَ بشَيءٍ انتقلَ إليه مِنَ الجِسم"[1].

بلاغةُ التَّشبيهِ وتنوُّعُ دلالتِه في قولِه: ﴿كَذَٰلِكَ يُحْيِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾:

إثباتُ البعثِ، وبيانُ أثرِ القصاصِ في المحافظةِ على إحياءِ النُّفوس

أي: إنّ مثل ذلك الإحياء الّذي جعله اللّه للقتيل في قصَّة البقرة سيكون كذلك للموتى يوم البعث، وفيه "مخاطبةٌ من اللّه عبادَه المؤمنين، واحتجاجٌ منه على المشركين المكذّبين بالبعث، وأمرهم بالاعتبار بما كان منه جلّ ثناؤه من إحياء قتيل بني إسرائيل بعد مماته في الدّنيا، فقال لهم تعالى ذكره: أيُّها المكذِّبون بالبعث بعد الممات، اعتبروا بإحيائي هذا القتيل بعد مماته، فإنّي كما أحيَيْته في الدّنيا، فكذلك أحيي الموتى بعد مماتهم، فأبعثهم يوم البعث"[2].

فالتَّشبيه في التَّحقُّق، وإن كانت كيفيَّة المشبَّه أقوى وأعظمَ؛ لأنَّها حياةٌ عن عدم بخلاف هاتِه، فالمقصد من التّشبيه بيانُ إمكانِ المشبَّه كقول المتنبّي[3]:

فإن تَفُقِ الأنامَ وأنتَ منْهُم *** فإنَّ المِسكَ بَعضُ دمِ الغَزَالِ

وهذا استطراد تخلص به إلى قرع أسماعهم بإثبات البعث الحقيقيّ يوم القيامة[4].

(1) الرّازيّ، التّفسير الكبير: 3/134.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 2/232.
(3) المتنبّي، ديوان المتنبي، ص: 146.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/543، 544.

وقد يكون معنى إحياء الموتى - على هذا - حفظ الدّماء الّتي كانت عُرضةً لأن تُسفَك، بسبب الخلاف في قتل تلك النّفس، أي: يحييها بمثل هذه الأحكام، وهذا الإحياء على حدِّ قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المائدة: 32] وقوله: ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ﴾ [البقر: 179]، فالإحياءُ هنا معناه الاستبقاء كما هو المعنى في الآيتين[1]، والمعنيان قويَّان في الآيةِ، وظهورُ أحدهما لا يدفعِ الآخر.

تلوين الخطاب في قوله: ﴿كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾:

اجتماعُ دلالة الإشارةِ والعبارةِ من بديعِ النظمِ الجميلِ

يحتمل أن يكون هذا خطابًا للّذين حضروا إحياءَ القتيل، ففيه مجاز بالحذف[2]، أي: وقلنا لهم: كذلك يحيي اللّه الموتى يوم القيامة. وقدّره الماورديّ خطابًا من موسى عليه الصّلاة والسّلام، ويحتمل أن يكون لمنكري البعث في زمن رسول اللّه ﷺ؛ فيكون من تلوين الخطاب، والمعنى: كما أُحْيِيَ قتيلُ بني إسرائيل في الدّنيا، كذلك يحيي اللّه الموتى يوم القيامة[3].

والمعنى الأوّل هو الظّاهر والمتبادر، وعليه يكون الخطاب مجازًا بالحذفِ، والمعنى الآخر وإن لم يتّسق مع معاني السِّياقِ، إلّا أنَّ له حضورًا في إشارةِ الكلامِ، والإشارةُ تبلغ في بعض الأحايين مبلغَ العبارةِ، وعليه فالخطاب يتّجه صوبَ الفريقين، عبارةً وإشارةً، وهذا من بليغ الكمال الجميل، وبديع اللفظِ السليم.

دلالة جمع الآيات في قوله: ﴿وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾:

تعدُّدُ الآياتِ الناشئةِ عن آيةِ إحياءِ الموتى

عبّر في قوله تعالى: ﴿وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ عنِ المَرئيّ بجمع المؤنث السّالم؛ لمَا تشتمله هذه القصّة من الآيات الدّالّة على عظمة اللّه

(1) محمّد رشيد رضا، تفسير المنار: 1/290.

(2) له أنواع عدّة؛ منها الالتفات، ومنها العدول عن الخطاب الخاصّ إلى العامّ، ومنها صرف الخطاب عن مخاطَب إلى مخاطَب آخر (وهو المقصود هنا)، وغير ذلك، يُنظر: ابن كمال باشا، تلوين الخطاب، ص: 311.

(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 1/420.

تعالى، "ويجوز أن يُرادَ بها هذا الإحياء، والتّعبير عنه بالجمع؛ لاشتماله على أمور بديعة، من ترتّب الحياة على الضّرب بعضو ميّت، وإخبارِ الميّت بقاتله، وما يلابسه من الأمور الخارقة للعادات"[1].

التّعبيرُ بالجملة الفعليّة في خبر (لعلّ):

يفيدُ الحرف (لعلّ) في قوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ الرّجاء، وقد دخل على الضّمير العائد على مَن شملتهم قصّة البقرة من ذبح وإحياء ببعضها، ثمّ جاء الخبر فعلاً، والفعل عادة يدُلُّ على التّجدّد والاستمرار؛ لأنّ "المُراد لعلَّكم تَعمَلون على قضيَّة عُقولِكم، وأَنَّ مَن قَدرَ على إحياءِ نَفسٍ واحدةٍ قَدرَ على إحياءِ الأَنفسِ كُلِّها لعدمِ الاختصاصِ، حتّى لا يُنكِروا البَعثَ"[2]، أي: أن يُعمِل الإنسان عقله في تجدّد واستمرار.

في الكونِ آياتٌ بيّناتٌ على المرء أن يُعمِلَ عقلَه فيها تجدّدًا واستمرارًا

(1) الآلوسّي، روح المعاني: 1/294.

(2) الرّازيّ، التّفسير الكبير: 3/135.

﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾﴾ [البقرة: 74]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

هذه الآية تتمّةٌ لخطاب بني إسرائيل حيث ختم الآية السّابقة بقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾، ثمّ ابتدأ هذه بقوله: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم﴾، والعطفُ بـ﴿ثُمَّ﴾ في هذا المقام يُفيدُ التّرتيبَ الرُّتبِيّ الَّذي تتهيّأ له ﴿ثُمَّ﴾ إذا عَطَفتَ الجُملَ، كأنّه قيل: ومع ذلك كُلِّه لم تلن قُلوبُكم، ولم تنفعكم الآيات، ثمّ قَسَت قلوبُكم، وكان مِنَ البعيد قَسوَتُها[1].

أي: مع كلّ ما مضى من شأنهم في قصّة البقرة الّتي أُمروا بذبحها؛ لتكون آية على إحياء الموتى، وإظهار القاتل، يبست قلوبكم وتحجّرت، ولم تتأثر"مع وجود ما يَقتضي خلافَ هذه القَسوَةِ، مِن إحياءِ القَتيلِ وتَكَلُّمِهِ وتَعيينِهِ لِقاتِله"[2]، بل الحجارة أنفع منكم في أنّها مظنّة تفجّر الأنهار، وخروج الماء، وهبوطها من خشية اللّه.

شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

1) ﴿قَسَتْ﴾: من الجذر اللّغويّ (قسو)، ومنه"القَسْوة: الصّلابة في كلّ شيء، وقَسَا يَقسُو فهو قاسٍ. وليلة قاسِيةٌ: شديدة الظُّلمة. والمُقاساةُ: مُعالجة الأمر ومُكابَدته"[3].

والأصل في معناه: الدّلالة على الصّلابة والقوّة والشّدّة، كالأحجار القاسية، وقد يشبّه بها القلوب القاسية؛ لما فيها من الغلظة[4].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/562.
(2) الشّوكانّي، فتح القدير: 1/118.
(3) الخليل، العين: (قسو).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (قسي).

و"القَسوَةُ: غِلَظُ القلبِ، وأصله من: حَجَرٍ قاسٍ، والـمُقاساةُ: مُعالجةُ ذلك، قال تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم﴾"[1]، ومعناه: اشتدَّت وصلُبت.

2) ﴿قُلُوبُكُم﴾: من الجذر اللّغويّ (قلب)، وله أصلان صحيحان: "أحدهما يدُلُّ على خالص شيءٍ وشريفه، والآخر على ردّ شيءٍ من جهة إلى جهة"[2].

والمعنى المحوريّ لهذا الجذر "باطنُ الشّيء ولُبُّه: كالقلوبِ المذكورةِ، وقَلبُ الأرض إخراجُ لباطنها، ومن ذلك القَلبُ: المضغةُ المعروفةُ؛ لأنّها أهمّ ما في الباطن وأقواه"[3]، وهو الـمُرادُ في الآية.

وأطلق على القلب قلبًا "لكثرة تقلّبه، ويُعبَّر بالقلب عن المعاني الّتي تختصّ به من الرّوح والعلم والشّجاعة"[4].

3) ﴿كَٱلْحِجَارَةِ﴾: الجذر اللّغويّ له (حجر)، والأصل في معناه: الـمَنعُ والإحاطَةُ على الشَّيء. فالحَجْرُ حَجْرُ الإنسان، والحَجَرُ الصَّخرة، وأحسِبُ أنَّ البابَ كُلَّه مَحمولٌ عليه، ومأخوذٌ منه؛ لِشدَّته وصلابتِهِ[5]، أي: أنّ المنعَ يشبه الحَجَر؛ لشدّته وصلابته ومنعته[6].

وهو أيضًا "الجَوهر الصُّلبُ المعروف، وجمعُه: أحجارٌ وحِجَارَة ... وقيل: أراد بالحجارة الّذين هم في صلابتهم عن قَبُول الحقّ كالحجارة، كمن وصفَهم بقوله: ﴿فَهِيَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾"[7].

4) ﴿يَتَفَجَّرُ﴾: من الجذر اللّغويّ (فجر)، والأصل في معناه "التَّفتُّحُ في الشَّيءِ. مِن ذلك الفَجرُ: انفِجارُ الظُّلمَة عَنِ الصُّبح. ومنه: انفَجَرَ الماءُ انفِجارًا: تَفَتَّحَ. والفُجرَةُ: مَوضِعُ تَفَتُّحِ الماء"[8].

(1) الرّاغب، المفردات: (قسو).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (قلب).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصَّل: (قلب).
(4) السّمين، عُمدة الحفّاظ: (قلب).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حجر).
(6) السّمين، عُمدة الحفّاظ: (حجر).
(7) الرّاغب، المفردات: (حجر).
(8) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (فجر).

و"الفَجرُ: شقّ الشّيء شقّاً واسعًا، كَفَجَرَ الإنسانُ السِّكْرَ (سِكْر النَّهْر: ما يسدُّ به)، يُقال: فَجَرتُه فانفَجرَ، وفَجَّرتُه فتَفجَّرَ"[1]. والوارد في القرآن الكريم من المادّة على نوعين؛ إمّا انفجار مادّي كالعيون والأنهار ونحوها، وإمّا انفجار معنويّ، وهو الفجور لما فيه من شقّ حدود الشّريعة[2].

ومعنى الفعل ﴿يَتَفَجَّرُ﴾ في الآية، أي: يتفتّح بصورة واسعة وكثيرة[3]؛ لأنّ التفجّر فيه معنى المبالغة والكثرة.

5) ﴿ٱلْأَنْهَٰرُ﴾: جذره اللّغويّ (ن هـ ر)، "ونَهرتُ النّهرَ: حفرتُهُ. ونَهَرَ الماءُ، إذا جَرى في الأرض، وجعل لنفسه نَهرًا"[4].

والأصل في معناه دلالته على الفتح والتّفتّح والشّقّ، وتسمية النّهر المعروف؛ لأنّه يَنْهَر الأرض، أي: يجري فيها، ويشقُّها[5].

ومعنى النّهر: هو "مَجرى الماءِ الفائِض، وجمعُه: أَنهَارٌ...والنّهر: السّعةُ، تشبيهًا بنهر الماء، ومنه: أَنْهَرتُ الدَّمَ، أي: أسلته إسالةً، وأَنهَرَ الماءُ: جرى، ونَهْرٌ نَهِرٌ: كثير الماء"[6].

6) ﴿يَشَّقَّقُ﴾: فعل مضارع، أصله يتشقّق، الجذر اللّغويّ منه (شقق)، و"شققتُ الشَّيء أشقّه شقّاً، وكلّ قِطعَة منه شَقّة، يجمع ذَلِك الثَّوب والخشبة وما أشبههما"[7]، والأصل في معناه: دلالته على الانصداع، وهو قرين التّشقّق والتّشظّي[8].

و"الشَّقُّ: الخَرمُ الواقعُ في الشّيء، يُقال: شَقَقتُهُ بنِصفين، قال تعالى: ﴿ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا﴾ [عبس: 26]»[9].والشّقّ هو الخرم الكبير الواسع.

ومعنى تشقّق الحجارة في الآية: هو التّصدّع[10].

(1) الرّاغب، المفردات: (فجر).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصَّل: (فجر).
(3) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 1/88.
(4) الجوهريّ، الصّحاح: (نهر).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نهر).
(6) الرّاغب، المفردات: (نهر).
(7) ابن دريد، جمهرة اللّغة: (شقق).
(8) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (شق).
(9) الرّاغب، المفردات: (شق).
(10) ابن جرير، جامع البيان: 2/239.

7) ﴿فَيَخۡرُجُ﴾: الجذر اللّغويّ له (خرج)، ومنه " الخُرُوجُ : نقيض الدُّخول... والخُروجُ: السّحاب أوّل ما يبدأ. والخَرْجُ والخَراجُ: ما يُخرَجُ من المال في السّنة بقَدَرٍ معلوم"[1].

والأصل في معناه على ضربين؛ الأوّل وهو المقصود أن ينفذ عن الشّيء، ومنه الخَرَاجُ، أي: الإتاوَةُ؛ لأنَّه مالٌ يُخرِجُه المُعطِي...والخُروجُ: خُروجُ السَّحابَة؛ يُقالُ: ما أحسَنَ خُروجَها[2]، فالمعنى الظّهور والبروز، والنّفاذ عن الشّيء؛ لذلك يُقال لكلّ من برز من مكان قراره أو وضعه، إن كان ذلك المقرّ بيتًا أو مَوطِنًا أو لباسًا أو غير ذلك، ولو كان حالة نفسيّة[3].

ومعنى ﴿فَيَخۡرُجُ مِنۡهُ ٱلۡمَآءُ﴾ في الآية، أي: "فيكونُ عَينًا لا نَهرًا جاريًا، أي: أنَّ الحِجارَةَ قد تَندَى بالماءِ الكثيرِ، وبالماءِ القليلِ"[4].

8) ﴿ٱلۡمَآءُ﴾: اسم جنس يُطلق على القليل والكثير، جذره اللّغويّ (موه)، و"المُوهَةُ: لونُ الماءِ، يقال: ما أَحسَنَ مُوهَةَ وَجْهه. وتصغير الماء: مُوَيْه. والجميعُ: المياه، والنِّسبَةُ إلى الماء: ماهِيٌّ، وماهتِ السَّفينةُ تَمُوهُ وتَماهُ، إذا دَخَلَ فيها الماءُ"[5]، ولا يبعد الأصل عند ابن فارس عن هذا المعنى؛ فإنّ "مَوَّهتُ الشَّيءَ، كأَنَّك سَقَيتَهُ الماءَ. ومَوَّهتُ الشَّيءَ: طَلَيتُهُ بفضَّةٍ أَو ذهبٍ، كأَنَّهُم يَجعَلون ذلك بمَنزِلَة ما يُسقَاهُ. وقالوا: ما أَحسَنَ مُوهَةَ وَجهِهِ، أي: تَرَقرُقَ ماءِ الشَّبابِ فيه"[6].

ومعنى ﴿ٱلۡمَآءُ﴾ في الآية هو الماء القليل الّذي يكون عينًا؛لأنّ الحجارة تتفاوت فيها الرّطوبة، فقد تكون ندية بالماء القليل، وهو المعنيّ هنا[7].

9) ﴿يَهۡبِطُ﴾: الجذر اللّغويّ منه (هـ ب ط)، و"هَبَط الإنسَان يَهبِط: إذا انحدر في هَبوط من صَعود، قَال: والهَبطَة: ما تَطامَن من الأرض... وهو نَقيض ارتفَعوا"[8].

(1) الخليل، العين: (خرج).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (خرج).
(3) الرّاغب، المفردات: (خرج).
(4) الرّازيّ، التّفسير الكبير: 3/139.
(5) الخليل، العين: (موه).
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (موه).
(7) الرّازيّ، التّفسير الكبير: 3/139.
(8) الأزهري، تهذيب اللغة: (هبط).

أمّا الأصلُ في معناه فإنّ الهبوطَ "كلمةٌ تدُلُّ على انحدارٍ، وهَبَطَ هُبوطًا. والهَبُوطُ: الحُدُورُ. وهَبَطتُ أَنَا وَهَبَطتُ غَيرِي"[1]، فيما زاد الرّاغب على معنى الهبوط أنّه انحدار على سبيل القهر[2].

ومعنى الآية: أنَّ اللّهَ تَعالى يَخْلُقُ لِلْحِجارَةِ قَدْرًا ما مِنَ الإدْراكِ تَقَعُ بِهِ الخَشْيَةُ والحَرَكَةُ[3].

10) ﴿خَشْيَةِ﴾: مصدر للفعل (خشى يخشى)، والجذر اللّغويّ منه (خشي)، وهو "يدُلُّ على خَوفٍ وذُعرٍ، ثمَّ يُحمَلُ عليهِ المَجازُ. فالخَشيَةُ الخَوفُ. ورَجُلٌ خَشيَانُ. وخاشاني فُلانٌ فَخَشَيتُهُ، أي: كُنتُ أشدّ خَشيَةً منه"[4].

وفيه بعض الاختلاف عند الرّاغب؛ لأنّ "الخَشيَة خوفٌ يشُوبُه تعظيمٌ، وأكثر ما يكون ذلك عن عِلم بما يُخشى منه؛ ولذلك خُصّ العلماء بها في قوله: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: 28]»[5].

ومعنى خشية الحجارة من اللّه تعالى، أي: أنّها صاغرة للّه، وأنّها تهبط من شدّة خضوعها، وتذلّلها لربّها[6].

11) ﴿بِغَٰفِلٍ﴾: الجذر اللّغويّ له (غفل)، ومعناه: من "لَا فطنةَ لَهُ... وغفّلتُ الشيءَ تغفيلاً، إذا كتمتَهُ وسترتَه، وأغفلتُ الشيءَ، إذا أُنسيتَه"[7].

والأصل في معنى الكلمة "تَرك الشَّيءِ سَهوًا، وربَّما كان عَن عَمْدٍ. مِن ذلك: غَفَلتُ عَنِ الشَّيءِ غَفلَةً وغُفولًا، وذلك إذا تَرَكتَهُ ساهِيًا. وأغفَلتُهُ، إذا تَرَكتَهُ على ذُكْرٍ مِنكَ له"[8].

ومنه الغفلة، وهي السّهو الّذي يصيب الإنسان إذا لم يتحفّظ ويكن مُتيقّظًا[9] "وكلّ ما في القرآن من التّركيب هو من الغفلة بمعنى عدم التّنبّه، وما إليه"[10]، وكلّ هذه المعاني

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (هبط).
(2) الرّاغب، المفردات: (هبط).
(3) ابن عطية، المحرر الوجيز: 1/167.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (خشي).
(5) الرّاغب، المفردات: (خشي).
(6) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 9/102.
(7) ابن دريد، جمهرة اللّغة: (غفل).
(8) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (غفل).
(9) الرّاغب، المفردات: (غفل).
(10) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (غفل).

متفرقة ومجتمعة لا تكون في حقّه تعالى؛ لذلك جاء التّعبير القرآنيّ مَنفيًّا مُؤكَّدًا بالباء بقوله: ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾، والمعنى: "إشارة إلى غفلتهم عن نزول العذاب بهم، أي: لا تتوهموا أنّ إمهال الله لكم بالعقوبة غفلة منه عنكم ، بل هو يعلم منه بتأخير ذلك إلى يوم القيامة"[1].

12) ﴿تَعۡمَلُونَ﴾: الجذر اللّغويّ منه (عمل)، والأصل في معناه الفعل عامّة[2]، و"العَمَلُ كلُّ فعلٍ يكون من الحيوان بقصد"[3].

و"تركيب (عمل) يعبّر عن الجهد المادّي وتأثير الأشياء بعضها في بعض، ويعبَّر به عمّا لَهُ إمداد، ووراءه فكر. وقد جاء منه في القرآن الكريم نحو 350 مفردة بالمكررات"[4]

ومعنى ﴿تَعۡمَلُونَ﴾ في الآية: هي الأعمال الخبيثة، والأفعال المنكرة الرّديئة الّتي يتّصفون بها؛ فهو عالم بها مُحصيها عليهم[5].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

وصف الله تعالى - بني إسرائيل - بأنّه قد طرأ عليهم بعد رؤية تلك الآيات والمعجزات الخارقة ما أزال أثرها من قلوبهم، وذهب بِعِبرتها من عقولهم، لقسوة القلوب المنافية للخشوع؛ لأنّهم استمروا في المخالفات، وانتهاك الحرمات؛ فتصلّبت قلوبهم وغَلُظت، فلم يَنْفُذ إليها خير، ولم تَلِنْ أمام الآيات الباهرة، بل باتت لا تنقص عن الحجارة قسوة، وبعضها زاد على الحجارة قسوة وغلظة، ثمّ عذرَ اللّهُ الحجارة، وعابَ على تلك القلوب؛ لأن من الحجارة ما يتسع وينفرج حتى تنصبَّ منه المياه صبًّا، فتصير أنهارًا جاريةً، ومن الحجارة ما يتصدع فينشق، فتخرج منه العيون والينابيع، ومن الحجارة ما يسقط من أعالي الجبال مِن خشية الله تعالى وتعظيمه، وبنو إسرائيل لا يخشون اللّه، ولا ترقّ قلوبهم[6]، ثمّ ختم الآية بوعيد وتهديد لهم، وأنّهم على أفعالهم الذّميمة فإنّه مراقبهم،

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/389.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عمل).
(3) الرّاغب، المفردات: (عمل).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصَّل: (عمل).
(5) ابن جرير، جامع البيان: 2/243.
(6) مقاتل بن سليمان، تفسير مقاتل: 1/116، ونخبة من العلماء، التفسير الميسر، ص: 11.

وليس غافلاً عنهم، وعن أعمالهم؛ فإنَّ الله ﷻ إذا كان عالمًا بما يعملونه مطلعًا عليه غير غافل عنه، كان لمجازاتهم بالمرصاد.

الإيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

بلاغةُ الاستعارةِ في قولِه: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم﴾:

قسوةُ القلبِ وجفافُه نتيجةُ أفعالِ التَّحايل على الشَّرعِ

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم﴾ تعبيرٌ فريد لم يرد مثله إلاّ في هذا المَوضِع من القرآن الكريم، وهو تعبير يتوافر على استعارة مكنيّة تبعيّة؛ فإن "يَبِسَت وجَفَّت، وجَفافُ القَلبِ: خُروجُ الرَّحمة واللِّينُ عنه"[1]، وهو ليس على الحقيقة؛ لأنّ القلوب دم ولحم، ونسبتها للقساوة والصّلابة تشبيهًا لحالها في عدم التّأثّر والاعتبار بالحجارة القاسية، "والقسوةُ عبارةٌ عن الغِلَظ والجفاء والصَّلابة كما في الحَجَر، استُعيرت لنُبوِّ قلوبهم عن التّأثّر بالعِظات والقوارعِ الّتي تميعُ منها الجبالُ، وتلينُ بها الصّخور"[2].

بلاغةُ قولِه تعالى: ﴿مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ﴾:

إفادةُ المسارعةِ في حصولِ قسوةِ القلوبِ

حرف الجرِّ (من) في قوله تعالى: ﴿مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ﴾ توقيت لقساوة القلوب، واستعمل لإفادةِ ابتداءِ الغايةِ؛ وأتى به لتقريبِ البعديَّةِ، والتّبكير في حصول القساوة؛ للاهتمام به، وبيان خطورته، وثمّة فرق بين قوله: (مِنْ بَعْدِ ذلك)، و(بَعْدَ ذلك)، في أنّ الثّاني يحتمل وقتًا متمادًا قد يطول، أمّا الأوّل فيكون غِبَّ ذلك الحدث مباشرة، وهو إحياء القتيل، فـ(مِن) دلّت على المسارعة في قساوةِ القلوب، وأنّها لم تحتج وقتًا طويلاً لذلك، وفيه دليل على عظم مرتكبهم، وعلى هذا يكون حرفُ التَّراخي مفيدًا للرُّتبةِ لا لتراخي الزَّمانِ، أي: ثم قست القلوب بعد التَّحايل على الشَّرع، والامتثال بطولِ مماطلةِ، لكنَّها لم تُماطل في القسوةِ بل كان ذلك سِراعًا.

(1) البغويّ، معالم التّنزيل: 1/110.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 1/193.

وأفاد قوله تعالى: ﴿مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ﴾ "زيادة تَعجيبٍ مِن طُرُقِ القَساوة للقلب بعد تَكَرُّر جميع الآيات السَّابقة المُشار إلى مَجموعِها بذلك"[1] أي: مع كلّ ما مضى من الآيات قست قلوبكم.

مقصدُ التّشبيهِ في قولِه: ﴿كَٱلۡحِجَارَةِ﴾:

الضّمير (هي) في قوله تعالى: ﴿فَهِيَ كَٱلۡحِجَارَةِ﴾ عائدٌ على القلوب، وأكثر معاني قسوة القلب تدور حول الغلظة والصّلابة والشّدّة والخلوّ من الرّحمة واللّين[2]، ومعنى قسوة القلوب في الآية: صلابتها بتشبيهها بالأجسام الصّلبة كالحجارة، فالقسوة في القلوب مجازيّة للمبالغة[3].

تشبيهُ قلوبِهم بالحجارةِ تشنيعٌ عليهم وتقريعٌ على أحوالِهم

وقد شبّه هذه القلوب بالحجارة في تشبيه مُجمَل مُرسَل بوجود أداة الشّبه (الكاف)، وحذف وجه الشّبه وهو القساوة والصّلابة، وفي ذلك تشنيع عليهم وتقريع؛ فإنّ مظنّة القلوب اللّين والرّأفة والخشوع والخضوع، لا القسوة والغلظة، ومعنى تشبيه القلوب بالحجارة تشبيه تلك القلوب بالحجارة بجامع الصّلابة والغلظة والقساوة؛ فإنّ في إطلاق قساوة القلوب انصراف الذّهن إلى الحجارة القاسية[4].

فائدةُ الإتيانِ بحرفِ العطفِ (أو) في قولِه: ﴿فَهِيَ كَٱلۡحِجَارَةِ أَوۡ أَشَدُّ قَسۡوَةً﴾:

تـردُّدُ قساوةِ قُلوبِ بَنِي إسرائيل بين قَساوَةِ الحِجارةِ وما هو أَشَدُّ

في قوله تعالى: ﴿فَهِيَ كَٱلۡحِجَارَةِ أَوۡ أَشَدُّ قَسۡوَةً﴾، لمّا شبّههم بالحجارة ابتداء "بما هو أَشهَرُ، ثمَّ عَقَّبَ التَّشبيهَ بالتَّرقِّي إلى التَّفضيل في وَجهِ الشَّبهِ"[5]، وفيه تقبيحٌ لهم أراد زيادة هذا التّقبيح والتّقريع فأضربَ عن صلابة الحجارة إلى وصف أبلغ منه؛ فقال:

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/562.
(2) السّمين، عُمدة الحفّاظ: (قسو).
(3) محمّد رشيد رضا، تفسير المنار: 1/292.
(4) البدويّ، من بلاغة القرآن: 152.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/563.

(أو أشدّ قسوة) "فقلوبهم كالحجارة، بل أشدّ، أو إن شَبَّهتم قلوبهم بالحجارة أصبتم، وبما هو أشدّ أصبتم"[1]؛ فقلوبهم كالحجارة، بل أشدّ قسوة منها، وفي ذلك زيادة تبكيت وتقريع لمرتكباتهم وأفعالهم السّيئة.

بلاغة التّعبير بأفعل التّفضيل في قوله ﴿أَوۡ أَشَدُّ قَسۡوَةٗۚ﴾:

شُبِّهتِ القلوبُ في قوله تعالى: ﴿فَهِيَ كَٱلۡحِجَارَةِ أَوۡ أَشَدُّ قَسۡوَةٗ﴾ "بالحجارة بجامع القساوة في كُلٍّ منهما، لكِنّ قساوة قلوبهم قساوة معنويّة تجاه الحقّ والخير والفضيلة، أمّا الحجارة فقساوتُها مادّيّة"[2]، فهو تشبيه لا يُراد منه المساواة، بل تفضيل الحجارة في قساوتها على القلوب؛ لأنّ قساوةَ الأولى طبيعيةٌ، وقساوة الأخرى ناتجةٌ عن سُوءِ الأعمال.

طُروُّ القساوةِ على القلوبِ دليلُ قبحِها، وقساوة الحجارةِ دليلُ جمالِها

والتَّعبيرُ بأشدِّ قسوة في قوله تعالى: ﴿فَهِيَ كَٱلۡحِجَارَةِ أَوۡ أَشَدُّ قَسۡوَةٗ﴾، دون أقسى؛ "لكونه أبين وأدلّ على فرط القسوة، ووجه آخر؛ وهو أن لا يقصد معنى الأقسى، ولكن قصد وصف القسوة بالشّدّة، كأنّه قيل: اشتدّت قسوة الحجارة، وقلوبهم أشدّ قسوة"[3]، فلفظة (أشدّ) مُتضمنة معنى المبالغة، ودلالته على ذلك بالجوهر والهيئة، أمّا أقسى فدلالته بالهيئة فقط[4].

فبانَ لنا ممّا سبق أنّ تشبيه القلوب بالحجارة ليستِ الغاية منه المساواة في القساوة، وإنْ كان الجنس مُختلفًا، بل إنّ الحجارة في هذا التّشبيه أفضل من القلوب؛ لأنّ ذلك يرجع "إلى معنى عدم قَبول التَّحوُّل كما تقدَّم؛ فهذه القلوبُ قَساوتُها عند التَّمحيصِ أشدُّ من قساوةِ الحجارةِ؛ لأنَّ الحجارةَ قد يعتريها التَّحوُّلُ عن صلابتها وشِدَّتِها بالتَّفرُّق والتَّشقُّق، وهذه القلوبُ لم تُجدِ فيها مُحاولةٌ"[5].

(1) ابن عجيبة، البحر المديد: 1/193.
(2) البدويّ، البلاغة العربية: 2/128.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/286.
(4) الآلوسّي، روح المعاني: 1/296.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/564.

بلاغة تعدّد التّعقيب بعد ذكر التّشبيه:

قساوةُ الحجارةِ نافعةٌ، وقساوةُ القلوبِ مُضرَّةٌ ومفسدةٌ

بعد تشبيه القلوب القاسية بالحجارة، والإضراب عن درجة قسوتها، وإثبات أنّ قلوبهم أشدّ قسوة، ذكر أنواعَ الحجارةِ بقولِه تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ الذي فيه "معذرة للحجارة، وتفضيل لها على قلوبهم في معنى قلّة القسوة.

معذرةٌ لِقسوةِ الحجارةِ، وتبكيتٌ للقلوبِ القاسيةِ

وقال قتادة: عذر اللّه تعالى الحجارة، ولم يعذر شقيّ بني آدم"[1]، فالحجارة على قسوتها فيها شيء نافع، والقلوب ليست كذلك، وقد "فضَّلَ الحجارةَ على قلوبِهم بأنْ بيَّنَ أنَّ الحجارةَ قد يَحصُلُ منها ثلاثةُ أنواعٍ مِنَ المنافع، ولا يوجدُ في قلوب هؤلاء شيءٌ مِنَ المنافع"[2]، وهذه المنافع هي تفجُّرُ الأنهار، وخروجُ الماء من الحجارة، وهذه منافع مادّيّة، وهبوطها من خشية اللّه، وهذه منافع معنويّة مقابل القلوب التي لا نفع فيها.

التّعبيرُ بصيغةِ المضارعِ في الأفعالِ المشبّهِ بها:

الدّلالة على أنّ هذه الأحداثَ مُتجدّدةٌ مستمرةٌ وهي من آيات اللّه الباهرة

ذُكِر في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ﴾ الأفعالُ المُتعلِّقة بالحجارة بصيغة أفعال مضارعة: (يتفجّر) و(يشّقّق)، على زِنةِ (يتَفَعّل)، ماضيه (تفعّلَ) فـ"(تفعّلَ) الّذي للعمل المتكرر في مهلة مطاوع (فَعّلَ) الّذي للتّكثير"[3]؛ فهذه الأفعال تدُلُّ على أحداث متجدّدة مستمرة، فالتّفجّر "التّفتّح بالسّعة والكثرة... ويَشَّقَّقُ: يتشقّق.. والمعنى: إنّ من الحجارة ما فيه خروق واسعة يتدفّق منها الماء الكثير الغزير"[4]، وهي من الآيات الكونيّة المعجزة في تعبيرها القرآنيّ.

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 1/167.
(2) الرّازيّ، التّفسير الكبير: 3/139.
(3) الرّضي، شرح الشّافية: 1/105.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/565.

بلاغة إسناد التّفجُّر للأنهار لا لماء الأنهار:

المبالغة في كثرة الماء المُتفجّر، وشدة تدفُّقه

"النّهر: أصله الشّقّ الواسع الّذي يجري فيه الماء، من: نهرتُ الشّيء، أي: شققته شقًّا واسعًا، ثمّ تجوّز به عن الماء الجاري فيه للمجاورة"[1]، والمُرادُ من الأنهار في الآية "الماء الكثير الّذي يجري في الأنهار، والكلام إمّا على حذف المضاف، أو ذكر المحلّ وإرادة الحال، أو الإسناد مجازي"[2]، فهو ليس على الحقيقة؛ لأنّه إسناد الجريان إلى المكان، وهو من باب إطلاق اسم المحلّ على الحالّ، والغرض منه المبالغة في وصف جريان الماء وشدّة تدفُّقه.

نكتةُ توالي التّوكيداتِ في الآية:

دفعُ توهّمِ مَن لا يتيقّنُ وقوعِ المذكوراتِ

جاء قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ مشحونًا بأنواع من التّوكيدات، منها التّوكيد "بإنَّ للاهتمام بالخبر، وهذا الاهتمامُ يُؤذِنُ بالتّعليل، ووجودُ حرفِ العَطفِ قبلَها لا يُناكِدُ ذلك"[3]، فضلاً عن وجود اللّام الدّاخلة على ما[4]، وتَكرار هذا التّوكيد مع كلّ جملة من هذه الجمل الثّلاث، فهذه التّوكيدات الغرض منها رفع توهّم من ليس له يقين بحصول هذه الأشياء، كتفجّر الأنهار، وخروج الماء، وهبوط الحجارة.

سرُّ ترتيبِ أنواعِ الحجارةِ بعضها على بعض:

رتبّها بحسبِ منفعةِ كلّ منها مادّيّةً كانت أم معنويّةً

في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾، جملٌ ثلاث تتحدّث عن أنواع حجارة لها فوائد، "وقد ترقّى النَّظْمُ الكريمُ في بيان التّفضيل، كأنّه بيّن أوّلًا تفضيل قلوبهم في القساوة

(1) السّمين، عُمدة الحفّاظ: (نهر).
(2) الآلوسي، روح المعاني: 1/296.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/287.
(4) الأخفش، معاني القرآن: 1/116.

على الحجارة الّتي تتأثّر تأثّرًا يترتّب عليه منفعة عظيمة من تفجّر الأنهار، ثمّ على الحجارة الّتي تتأثّر تأثّرًا ضعيفًا يترتّب عليه منفعة قليلة من خروج الماء، ثمّ على الحجارة التي تتأثّر من غير منفعة"[1]. فكأنّ الحقّ تبارك وتعالى يقول: إنّ قلوب هؤلاء قاسية كالحجارة، مع أنّ هذه فيها من المنفعة العظيمة ما ليس موجودًا في تلك القلوب.

الآيــةُ الأعـظـمُ مقدَّمةٌ في الذِّكرِ

وقدّم الحقّ تعالى في قوله: ﴿وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ﴾ الحجارة التي تتفجّر منها الأنهار على الحجارة التي تتشقّق فيخرج منها الماء، ولا شكّ أنّ الأولى أكبر وأعظم من الثّانية؛ فبدأ بها، إذِ العطاء الرّبانيّ مع الأنهار أكبر من الأخرى؛ لأنّه "عندما تتفجّر منها الأنهار فالماء هو الّذي يأتي إلينا، ونحن في أماكننا.. وفرق بين عطاء تذهب إليه، وعطاء يأتي إليك"[2].

تأخّرُها من بابِ حسنِ التّخلّص

وذكر في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ من أمر هؤلاء صفتين للحجارة تفضُل بهما بني الإنسان؛ وهما تفجّر الأنهار، وتشقّقها ليخرج الماء، ثمّ ثلّث بأنّ منها ما يهبط من خشية الله، فكان من حسن التّخلص[3]، وبديعه في التّعبير "عَنِ التَّسخُّر لأمر التَّكوين بالخَشية؛ لِيَتِمَّ ظهورُ تَفضيل الحجارَةِ على قلوبِهم في أحوالِها التي نهايَتُها الامتثالُ للأمرِ التّكليفيّ، مع تَعاصي قلوبِهم عَنِ الامتثالِ للأمرِ التَّكليفيِّ"[4]؛ لينتقل إلى قوله تعالى: ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾، فحسن خروجه إلى هذا المعنى بعد المعنيين السّابقين.

---

(1) الآلوسّي، روح المعاني: 1/296.

(2) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 1/403.

(3) حسن التّخلص يُقصد منه «إيجاد الرّبط بالمناسبة على وجه لا يُقال فيه: إنّ هنا كلامين منفصلين مستقلّين أتى بأحدهما وهو الثّاني بغتة، والاقتضاب فيه القصد إلى الإتيان بكلام بعد آخر على وجه يُقال فيه: إنّ الأوّل منفصل عن الثّاني ولا ربط بينهما» الدّسوقيّ، حاشية الدّسوقيّ على مختصر المعاني: 4/296.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/565.

إسنادُ الخشيةِ إلى الحجارةِ مجازٌ عقليّ:

تلميحٌ إلى أفضليّةِ الحجارةِ على بعضِ البشرِ

إذا كان الهبوط أمرًا مشتركًا بين بني الإنسان وغيره كالحجارة، فإنّ الخشيةَ أمرٌ مُختصّ ببني آدم من المُتّقين، إلا أنّ التّعبير القرآني في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنۡهَا لَمَا يَهۡبِطُ مِنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِ﴾ خَلَعَهُ على الجمادات من الحجارة، وهو "مجاز عن انقيادها لأمر اللّه تعالى، وأنّها تمتنع على ما يريد فيها، وقلوب هؤلاء لا تنقاد، ولا تفعل ما أمرت به"[1].

وضعُ الظّاهرِ مَوضعِ المُضمَرِ:

تفخيمٌ للشّأنِ وتخويفٌ للنّاسِ من سوءِ أفعالِهم

قوله تعالى: ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾ جملة مُشتمِلة على اسمه تعالى (اللّه)، جاءت بعد جملة ﴿وَإِنَّ مِنۡهَا لَمَا يَهۡبِطُ مِنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِ﴾ وهي الأخرى مُشتمِلة على اسمه تعالى (اللّه)، فذِكرُ الاسم في الجملة الثّانية يدُلُّ على "أنّ اللّه تعالى بالمرصاد لهؤلاء القاسيةِ قلوبُهم، وحافِظٌ لأعمالِهم مُحصٍ لها؛ فهو يُجازِيهم بها في الدُّنيا والآخرة... وفي هذا وَعيدٌ لهم، وتَخويفٌ كبيرٌ لِيَنزَجِروا"[2]، وهو من باب وضع الظّاهر مَوضِع المُضمَر؛ تفخيمًا للشّأن، وتخويفًا لهم من سوء أعمالهم.

سِرُّ التّعبيرِ بالاسميّةِ والفعليّةِ في قولِه: ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾:

نفي الغفلةِ يُراد منه التّهديد على أعمالِهم حاضرًا ومستقبلاً

جاء قوله تعالى: ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾ جملة مَنفيّة بالاسميّة مبتدأً وخبرًا مع الباء الدّالّة على التّوكيد؛ للدّلالة على نفي الغفلة عنه تعالى على الدّوام؛ لدلالة الاسم على الثّبات والدّوام، وأنّهم مراقَبون على أعمالهم حاضرًا ومُستقبلاً بدلالة وصف حالتهم العمليّة بالفعليّة ﴿تَعۡمَلُونَ﴾ الدّالّ على الحاضر والمستقبل؛ وفي هذا التّعبيرِ تهديدٌ وترهيبٌ، فإذا كانتِ الأعمالُ القبيحةُ

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/287.
(2) الرّازيّ، التّفسير الكبير: 3/558.

مُتجدِّدةً فيهم، فعقوبةُ اللّه ثابتةٌ لمرتكبيها، إذِ التَّعبير: ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ﴾ يُراد منه التَّهديدُ والوعيد.

توجيه القراءات القرآنيّة في قولِه: ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعۡمَلُونَ﴾:

الجمعُ بين الوعيد للمستقبل، والتقريع على الماضي

قرأ ابن كَثير: ﴿يَعۡمَلُونَ﴾ بالياء[1]، وفي ذلك التفات من الخطاب إلى الغَيْبَة، فسياق الآية: ﴿ثُمَّ قَسَتۡ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ﴾، "يقتضي الخطاب، فيُقال: تعملون، ولكن التفت إلى الغيبة إعراضًا عن خطاب هؤلاء الّذين قست قلوبهم، وتحقيرًا لشأنهم، وإشعارًا بأنّهم في حالة من البعد عن أهليّة خطاب اللّه تعالى لهم"[2]، فقراءةُ الجمهور جاءت على ما يقتضيه الظَّاهر، وفيه تهديد ووعيد مباشر، وقراءة ابن كثير جاءت التفاتًا، تحقيرًا لشأنِهم، فاجتمعت القراءتان في وعيدهم وتحقيرهم، جزاءً على أعمالِهم الصَّادرة عنهم، والتي ستصدر في المستقبل، وفيها من القوّة الدّلاليّة ما لا يخفى.

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

القسوة والغلظة:

وُصفت القلوب هنا بالقسوة؛ بإسناد الفعل (قست) إليها في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتۡ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ﴾، ولم تُوصف بالغلظة، كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَۖ﴾ [آل عمران: 159]، مع تقارب معنييهما؛ لأنّ القسوة في كلّ شيء تعني: صلابة الأثناء مع حدّة أو جفاف كالصّخر والحجر، والأرضُ القاسيةُ صُلبَةٌ جَافّة لا تتفلّق بالنّبات، في حين أنّ الغلظة تعني عِظَمَ الجِرم وتجسُّمَه مع صلابة، ويلزمه الشّدّة والقوّة، والحدّة كغَلَظ الأرض، والثّوب الغليظ، والسّنبل الّذي فيه الحَبّ. ومنه: "استغلظ النّبات والشّجر: صار غليظًا" ﴿فَٱسۡتَغۡلَظَ فَٱسۡتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ﴾ [الفتح: 29][3].

(1) ابن مجاهد، السّبعة في القراءات، ص: 161.
(2) محمّد سالم محيسن، القراءات وأثرها في علوم العربية: 2/109.
(3) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصَّل: (غلظ)، (قسو).

فالقَسوَة تُستَعمل في ما لا يقبل العلاج، ولهذا يُوصَف بها القلب وإن لم يكن صُلبًا[1].

والقلب القاسي لا ينتفع بالمواعظ، ولا يعتبر بالآيات؛ لشدّة صلابته وحدَّته؛ بحيث لا يخرق شَغافه حبّ، ولا يتسلّل إليه ذكر، ولا تخالطه رحمة.

والغِلَظ يدُلُّ على عظم الجِرم وحدّته، كما يشير إلى الجفوة، وعدم احتواء المخالط، وهذا المناسب لنفي غلظة قلبه ﷺ، وإثبات رقّته ورحمته، بمفهوم المخالفة، وبنصوص أخرى كثيرة.

ولذلك آثر الأسلوب القرآنيّ لفظ القسوة هنا في مقام عدم الاعتبار، ورفض العظة، واجتناب الحقّ والخير، وهو ما يتناسب وقلوب بني إسرائيل.

الخشية والخوف:

في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ آثر السّياق هنا الخشية دون الخوف مع أنّهما متقاربان في المعنى؛ ذلك "أنّ الخَوف يتَعَلَّق بالمكروه، ويترك المَكروه، تقول: خفت زيدًا، كما قال تعالى: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾ [النّحل: 50]... والخشية تتَعَلَّق بمنزل المَكروه، ولا يُسمّى الخَوف من نفس المَكروه خشيَة؛ ولهذا قال ﴿وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ﴾ [الرّعد: 21] "[2].

فالخوف مقرون بمعرفة، وتعظيم للمخوف منه، والخشية أخص من الخوف الذي هو بمعنى هرب القلب من حلول المكروه عند استشعاره. وإن لم يكن المخوف منه معظماً. فهي خوف مبني على العلم بعظمة من يخشاه، وكمال سلطانه. قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: 28]، وجاء في قوله ﷺ: «عينان لا تمسهما النار؛ عين بكت من خشية الله، وعين باتت تحرس في سبيل الله»[3].

فلفظ الخشية هنا أنسب؛ لأنّها تدُلُّ على معرفة الخاشي، كما تدُلُّ على عظمة المخشيّ منه ﷻ.

---

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 109.

(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 241.

(3) رواه الترمذي، حديث رقم: (1639)، وينظر: ابن تيمية، مجموع الفتاوى: 1/71-73، وابن القيم، مدراج السالكين: 1/549، وابن عثيمين، مجموع الفتاوى: 6/56، وابن عثيمين، القول المفيد: 2/170-171.

الفعل والعمل:

العمل أخصّ من الفعل؛ لأنّ الفعل قد يُنسب إلى الحيوانات الّتي يقع منها فعل بغير قصد، وقد يُنسب إلى الجمادات، والعَمَلُ قلّما ينسب إلى ذلك.

والعملُ أعمُّ لأنّه من أعمال الجوارح والقلب، ويدخل فيه الأقوال؛ لأنّها عمل اللّسان، وهو من جملة الجوارح، وقد وقع في التّقابل الفرق بين الأقوال والأفعال، فيقولون: سديد الأقوال والأفعال[1].

والعمل لـمّا كان مع امتداد زمان نحو ﴿يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ﴾ [سبأ: 13] وكذا ما في [الأنبياء: 82] وأنّ العمل لا يُقال إلّا في ما كان عن فكر ورويّة، ولهذا قُرِن بالعلم[2].

وأضيف أنّ الملحظ الأخير عن الفكر والرّويّة كأنّه مُتمّم أو لازم لملحظ امتداد زمن العمل، كما أضيف أن ممّا يؤيّد ملحظ الامتداد هذا أنّنا نسأل الشّخص عن حرفته فنقول له: ما عملك؟ والعرب تقول: "رجل عَمُول: إذا كان كسوبًا. وفلان خبيث العِمّلة -بالكسر- أي الكسب (السّعي الّذي يحصّل منه رزقه)[3].

فلفظ (العمل) هنا في قوله تعالى: ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ أنسب؛ لأنّه أعمّ، ولأنّه يشير إلى أعمال القلوب والجوارح.

(1) الرّاغب، المفردات، والسّمين، عُمدة الحفّاظ: (عمل).
(2) الكفوي، الكليات، ص: 616.
(3) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (عمل).

﴿أَفَتَطۡمَعُونَ أَن يُؤۡمِنُواْ لَكُمۡ وَقَدۡ كَانَ فَرِيقٞ مِّنۡهُمۡ يَسۡمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعۡدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ٧٥﴾ [البقرة: 75]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

حديث الحقّ تبارك وتعالى في الآية السّابقة عن قلوب هؤلاء الّتي غدت كالحجارة أو أشدّ قسوة؛ لملابستها المعاصي، وكثرة التّجرؤ على الله؛ "تسبب عن ذلك بُعْدَهم عن الإيمان، فالتفت إلى المؤمنين يؤيسهم من فلاحهم؛ تسلية للنّبيّ ﷺ عمّا كان يشتدّ حرصه عليه من طلب إيمانهم في مَعرِض التّنكيت عليهم، والتّبكيت لهم منكرا للطّمع في إيمانهم بعد ما قرّر أنّه تكرّر من كفرانهم، فقال: أفتطمعون"[1]، أفبعد ذلك يطمع طامع في أن يؤمن هؤلاء القوم، وقد ورثوا من أسلافهم تاريخًا مُلوّثًا؟.

شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

1) ﴿أَفَتَطۡمَعُونَ﴾: الجذر اللّغويّ له (طمع)، والأصل في معناه " يدُلُّ على رجاءٍ في القَلبِ قويٍّ للشَّيءِ، يُقالُ: طَمِعَ في الشَّيءِ طَمَعًا وطَماعَةً وطَماعِيَةً"[2]، وهو النّزوع إلى الشّيء؛ لأجل شَهوة في النّفس[3].

"وأكثرُ ما يُستَعمَلُ فيما يَقرُبُ حصولُهُ، وقد يُستَعمَلُ بمعنى الأمل، ومِن كلامِهِم: طَمِعَ في غيرِ مَطمَعٍ، إذا أمَّلَ ما يَبعُدُ حصولُهُ؛ لأنَّه قد يقعُ كلُّ واحدٍ مَوقِعَ الآخَرِ"[4]، ومعنى الفعل في الآية: أفترجون يا معشر المؤمنين.

2) ﴿يُؤۡمِنُواْ﴾: جذره اللّغويّ (أمن)، وهي تدُلُّ على سكون القلب وتصديقه[5]، وأصلُ الأمن طمأنينة النّفس وزوال الخوف، وفعله أمن، أمّا آمن فله وجهان[6].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 1/484-485.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (طمع).
(3) الرّاغب، المفردات: (طمع).
(4) الفيوميّ، المصباح المنير: (طمع).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (أمن).
(6) الرّاغب، المفردات: (أمن).

أحدهما: أن يكون مُتعدّيًا، تقول: آمنتُه، إذا جعلت له الأمن والأمان، ومنه في وجه[1] اسم الله المؤمن. والآخر أن يكون لازماً، ومعنى (آمن) على هذا: صار ذا أمن، والمصدر الإيمان، وهو التّصديق باتّفاق أهل اللّغة[2].

والإيمان في الشّرع يُطلق إطلاقين[3]: إطلاقًا عامًّا تندرج فيه جميع أمور الدّين العلميّة والعمليّة؛ فهو بهذا الاعتبار قول وعمل واعتقاد، وإطلاقًا خاصًا، والمُرادُ به التّصديق والإقرار بأصول الإيمان السّتة المشهورة.

والفعل (يؤمنوا) في الآية على "معنى: (يُقِرُّوا)، وكأنَّ فيه تَلميحًا إلى أنَّ إيمانَهُم بصدقِ الرَّسولِ حاصِلٌ، ولكنَّهُم يُكابِرونَ ويَجحَدونَ"[4].

3) ﴿فَرِيقٌ﴾: جذره اللّغويّ من (فرق)، وهو من الفصل والتّفريق، "وكلّ شَيئَينِ فصلت بَينهما فقد فرَقتهما فَرْقاً، وكلّ ناحية منهما فرْق وفَريق"[5]، والأصل في معناه " يدُلُّ على تمييزٍ وتَزييلٍ بين شَيئَينِ. مِن ذلك الفَرْقُ... ومِنَ الباب: الفَريقَةُ، وهو القَطيعُ مِنَ الغَنَم، كأنّها قِطعَةٌ فارَقَت مُعظَمَ الغَنَم"[6].

والفَرق: الانفصال عن الشّيء، والفريق جماعة تتفرّق وتنفصل عن غيرها[7] ومعنى الفريق في الآية: "جمع، كالطّائفة، لا واحد له من لفظه، وهو فعيل من التّفرّق، سمّي به الجُمَّاع (أَخْلاطُ الناس من قبائلَ شتَّى)، كما سمّيت الجماعة بالحزب، من التّحزّب"[8].

4) ﴿يَسْمَعُونَ﴾: الجذرُ اللّغويّ لهُ (سمع)، وأصلُ معناه "إيناسُ الشَّيءِ بالأُذُنِ، مِنَ النَّاس، وكلِّ ذي أُذُن. تَقولُ: سَمِعتُ الشَّيءَ سَمعًا. والسّمعُ: الذِّكرُ الجَميلُ"[9].

ومعنَى السّمع "قوّةٌ في الأُذن، بهِ يُدرِكُ الأصواتَ وفعلُه يُقالُ له السَّمعُ أيضًا، وقد سمِعَ

(1) الزّجّاج، تفسير أسماء الله الحسنى، ص: 32-31.
(2) الأزهري، تهذيب اللّغة: (أمن).
(3) عبد الرّحمن البراك، شرح العقيدة الطحاويّة، ص: 293.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/567.
(5) ابن دريد، جمهرة اللّغة: (رفق).
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (فرق).
(7) الرّاغب، المفردات: (فرق).
(8) ابن جرير، جامع البيان: 2/244.
(9) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سمع).

سمعًا"[1]. وكلُّ "ما في القرآنِ من التركيبِ... من سماعِ الأذنِ - إلاّ في وصفِ المولى ﷻ؛ فهو عِلمُ ما يُقالُ بكيفيّةٍ يعلمها ﷻ"[2].

ومعنى ﴿يَسْمَعُونَ﴾ في الآية: سماعهم الوحي بوساطة الرّسول ﷺ في زمن موسى عليه السلام، أو بوساطة النّقل لمن جاء فيما بعد[3].

5) ﴿كَلَٰمَ﴾: اسم مصدر، والفعل منه (كلّمَ)، وجذره اللّغويّ من (كلم)، وأحد أصلي الكاف واللّام والميم "يدُلُّ على نطق مُفهِم... تقول: كلّمته أُكلّمه تكليمًا؛ وهو كَليمِي إذا كلّمك أو كلّمته. ثمّ يتّسعون فيسمُّون اللّفظة الواحدة المُفهمة كلمة، والقصّة كلمة، والقصيدة بطولها كلمة"[4].

والكلامُ "يقع على الألفاظ المنظومة وعلى المعاني الّتي تحتها مجموعةً، وعند النّحويين يقع على الجزء منه، اسمًا كان أو فعلاً أو أداة، وعند كثير من المُتكلّمين لا يقع إلّا على الجملة المركّبة المفيدة"[5].

ومعنى كلام اللّه المُراد في الآية: ما أوحاه اللّه تعالى لموسى[6] عليه السلام.

6) ﴿يُحَرِّفُونَهُۥ﴾: من الجذر اللّغويّ (حرف)، "وتحَرَّفَ فلانٌ عن فلان وانحرَف، واحرَورَفَ واحد، أي: مالَ"[7]، فالتّحريف من الميل، ومنه الانحراف.

وله أصل في المعنى دالّ على "الانحِرَافِ عَنِ الشَّيءِ، يُقالُ: انحرفَ عنه يَنحَرِفُ انحِرافًا. وحَرَّفتُهُ أنا عنه، أي: عَدَلتُ به عنه، ولذلك يُقالُ مُحَارَفٌ، وذلك إذا حُورِفَ كَسبُهُ، فميل به عنه، وذلك كتحريف الكلام، وهو عَدلُه عن جهته"[8].

والتّحريف مصدر، فعله (حرّف) فعل مُضعّف، وهو التّغيير والتّبديل والخروج عن

(1) الرّاغب، المفردات: (سمع).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (سمع).
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/568.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (كلم).
(5) الرّاغب، المفردات: (كلم).
(6) محمّد رشيد رضا، تفسير المنار: 1/295.
(7) الخليل، العين: (حرف).
(8) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حرف).

الطّريق[1]، والتّحريف من الإمالة، ومنه تحريف الكلام[2]، وهو الوارد في الآية، والمعنى: "تحريفهم له تبديل لفظ بلفظ آخر يغيّر معناه، وقيل: بل هو تحريف المعنى دون اللّفظ"[3].

7) ﴿يَعْلَمُونَ﴾: أصل حروفه (علم)، وله "أصل صحيح واحد، يدُلُّ على أثر بالشّيء يتميّز به عن غيره. من ذلك العلامة"[4]، ومن معانيه أنّه "ضدّ الجَهل، رجل عَالم من قوم عُلَماء وعالمين، وأعلام القَوم ساداتهم، ومَعالم الدّين: دلائله"[5]. والعلم بمعناه الاصطلاحيّ "إدراك الشّيء بحقيقته؛ وذلك ضربان: أحدهما: إدراك ذات الشّيء، والثّاني: الحُكم على الشّيء بوجود شيء هو مَوجود له، أو نفي شيء هو مَنفِيّ عنه"[6].

والعلم يدُلُّ أيضًا على "اليقينُ، يُقالُ: عَلِمَ يَعلَمُ إذا تَيَقَّنَ. وجاء بمعنى المعرِفَةِ أيضًا كما جاءَت بمعناهُ ضُمِّنَ كلُّ واحدٍ معنى الآخرِ؛ لاشتِراكِهما في كونِ كُلِّ واحِدٍ مَسبوقًا بالجَهلِ"[7].

ومعنى ﴿يَعْلَمُونَ﴾ في الآية: أنّهم موقنون ببطلانهم وكذبهم في ما يقومون به من تحريف[8].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

خطابٌ للرّسول ﷺ وللمؤمنين معه صدَّره الحقّ تبارك وتعالى بهمز الاستفهام المتضمِّن للإنكار: أنسيتم أفعالَ بني إسرائيل، فطمعت نفوسكم أن يصدِّق اليهودُ بدينكم؟ فهو أسلوب يفيد زوال الطّمع في إيمانهم؛ لمكابرة هؤلاء اليهود الّذين بين أظهركم، وهم متماثلون في الأخلاق الذّميمة، لا يأتي من أخلافهم إلاّ مثل ما أتى من أسلافهم، وقد كان طائفة فيمن سلف منهم، يسمعونَ كلامَ اللّهِ، وهو ما يتلونه من التّوراة ثمَّ يُحَرِّفونه

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/568.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (حرف).
(3) السّمين، عُمدة الحفّاظ: (حرف).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (علم).
(5) ابن دريد، جمهرة اللّغة: (علم).
(6) الرّاغب، المفردات: (علم).
(7) الفيوميّ، المصباح المنير: (علم).
(8) ابن جرير، جامع البيان: 2/249.

– من بعد ما فهموه بعقولهم – عن قصد، وسوء طويّة، بِصَرْفِه إلى غير معناه الصحيح، أو بتحريف ألفاظه؛ لأنّهم كانوا عالمين به[1].

❁ الإيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

غرضُ تصديرِ الآيةِ بالهمزة:

تيئيسُ المؤمنين من إيمانِ هؤلاءِ المتَّصفين بالمذكورِ

قوله تعالى: ﴿أَفَتَطۡمَعُونَ أَن يُؤۡمِنُواْ لَكُمۡ﴾ تركيبٌ قرآنيّ فريدٌ لم يأتِ على هذه الشّاكلة إلّا في هذا المَوضِع من القرآن الكريم، وهو اقتران الفاء مع الهمزة مع الفعل (تطمعون)، وقد تأخّرتِ الهمزة، وحقُّها التّقدّمُ؛ لأنّها رابطة للجملة السّابقة، وهي "لتفريعِ الاستفهامِ الإنكاريِّ أوِ التَّعجيبيِّ على جملة (ثُمَّ قَسَت)"[2]، لكن لخصوصية الهمزة في الصّدارة تأخّرتِ الفاء، والهمزة هنا "استفهامٌ فيه معنى الإنكارِ، كأنَّه أيأسَهُم مِن إيمان هذه الفِرقَةِ مِنَ اليهود، أي: إنْ كفروا فلهم سابقةٌ في ذلك"[3]؛ فالهمزة دالّة على تيئيس المؤمنين من إيمان اليهود، وقطع لطمعهم المُتجدّد الّذي يمثّل جانبًا من صفاتهم الحميدة في حبّ الخير للآخرين.

إيثارُ التّعبيرِ بالمصدر المؤوّل ﴿أَن يُؤۡمِنُواْ﴾ على الصّريحِ (إيمانهم):

تنبيهُ المؤمنين على منهجِ اليهودِ الثّابتِ؛ فلا يغفلوا عن حقيقتِهم

الهمزة في قوله تعالى: ﴿أَفَتَطۡمَعُونَ أَن يُؤۡمِنُواْ لَكُمۡ﴾ للاستفهام الإنكاري، والسُّؤال موجَّهٌ للمؤمنين عن طمعهم بإيمان أهل الكتاب، وقد عبّر عنه بالمصدر المؤول ﴿أَن يُؤۡمِنُواْ﴾، ولم يعبّر بالمصدر الصّريح (إيمانهم)؛ لأنّ المصدر المؤول ذو دلالة تجدّديّة حاضرًا ومستقبلًا؛ لدلالته على الحدوث مع لمح الزّمن؛ ولحرصِ المؤمنين "الشّديد على إيمانهم؛ جعلهم يطمعون في ذلك"[4]، وبما جُبلوا على

(1) القاسميّ، محاسن التّأويل: 1/166، ونخبة من العلماء، التفسير الميسر، ص: 11.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/566.
(3) القُرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 2/210-211.
(4) السّمين، عُمدة الحفّاظ: (طمع).

حبّ الخير لغيرهم؛ يطمعون دائمًا في إيمان أولئك، ولا ينفكّون عن دعوتهم لاتّباع سبيل الهدى والإيمان.

إيحاءُ حذفِ حرف الجرِّ مع فعل الطّمع:

حُذفَ حرفُ الجرِّ في قوله تعالى: ﴿أَفَتَطۡمَعُونَ أَن يُؤۡمِنُواْ لَكُمۡ﴾ والتَّقدير: "في أن يُؤمنوا"[1]، وفي حذف حرف الجرّ إيحاءٌ بأنّ الطّامعين في إيمان أولئك النّفر من اليهود مُتعجِّلون في حصول الإيمان؛ لأنّ الحذف قرين السّرعة والاختصار.

تعديةُ الفعل ﴿يُؤۡمِنُواْ﴾ باللّام:

تضمينُ الإيمانِ معنى الإذعانِ والتّسليمِ

تعدَّى فعل (يؤمنوا) في قوله تعالى: ﴿۞أَفَتَطۡمَعُونَ أَن يُؤۡمِنُواْ لَكُمۡ﴾ باللّام، "واللَّام في قوله ﴿لَكُمۡ﴾ لِتضمِينِ يُؤمنوا معنى يُقِرُّوا، وكأنّ فيه تَلميحًا إلى أنّ إيمانَهُم بصِدقِ الرَّسول حاصلٌ، ولكنَّهُم يكابرون، ويَجحَدون"[2]، ولتضمينِ الفعلِ معنى الإذعانِ والإقرارِ والتّسليمِ، وهو مجرَّدُ طمعٍ، ومع ذلك فهم لا يؤمنون.

سرُّ دخولِ (مِنْ) في قولِه ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا عَقَلُوهُ﴾:

المسارعةُ في التَّحريفِ، تكشِفُ شديدَ قبحهم

قوله تعالى: ﴿يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعۡدِ مَا عَقَلُوهُ﴾، توقيتٌ مُستعجل لتحريف كلام اللّه، وقوله: (مِنْ) حرف جرّ، يفيد ابتداء الغاية، والإتيان بها لتقريبِ البعيدِ، والإسراع في تبديل كلام اللّه وتحريفه، وثمّة فرق بين قوله: ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا عَقَلُوهُ﴾ و(بَعْدَ ما عقلوه)، في أنّ الثّاني يحتمل وقتًا ممتدًّا قد يطول، أمّا الأوّل فيكون بعد الحدث مباشرة، وهو تحريف الكلام، وهو دليل على تعاظم ذنبهم فيما ارتكبوه؛ فلم يعطوا لأنفسهم مُهلةً، بل باشروا بتحريفه على وجه السّرعة.

(1) العكبريّ، التّبيان: 1/79.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/567.

دلالة الجملةِ الحاليّةِ على الذّمّ والتّقبيح:

ارتكابُ المعصيةِ مـعَ العلـمِ بها يستحقّ الـذّمّ الشَّديد

قوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ جملة خبريّة حاليّة، خرجت إلى معنى الكمال في قبح العمل والصّنيع؛ لأنّهم حرّفوا التّوراة عن قصد وعلم، "وفي قوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ قولان: أحدهما: وهم يعلمون أنّهم حرّفوه، والثاني: وهم يعلمون عقاب تحريفه"[1].

ومَن كان هذا حاله في ارتكاب المعصية والذّنب، وتعمد التّحريف مع علمه، فإنّه يستحقّ الذّمّ، والتّوبيخ، والتّقريع، كمن يصنع قبيحًا، فيُقال له: تفعل ذلك، وأنت تعلم!!

(1) ابن الجوزيّ، زاد المسير: 1/80.

﴿وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ قَالُوٓاْ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمۡۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ٧٦﴾ [البقرة: 76]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لـمّا بيّن ﷻ بأنّ بني إسرائيل المقصودين بالحديث لا مطمع في إيمانهم لغِلَظ طباعهم وقسوة قلوبهم، عطف مبيّنا بأنّهم ذوو طباع وصفات مُتقلِّبَة ووجوه متعدّدة حيثُ إنّهم إذا لقوا الذين آمنوا بادروا يُخبرونهم بأنّهم مؤمنون مثلهم، وإذا انفردوا بأشياعهم وأتباعهم قال بعضهم لبعض: لا تُحدّثوهم بما فتح اللّه به عليكم فينافسوكم في ملككم، ويُحاجّوكم به عند ربّكم.

فالحديث تتمّة لذكر نعوتهم السّيّئة وصفاتهم المتقلّبة التي يبغون من ورائها الإضرار بالمؤمنين والفتّ في عضدهم وكسر شوكتهم.

والجملة الأولى من هذه الآية (إذا لَقُوا) معطوفة على جملة ﴿وَقَدۡ كَانَ فَرِيقٞ مِّنۡهُمۡ﴾ من الآية السّابقة "على أنّها حالٌ مثلها مِن أحوالِ اليهودِ، وقد قُصِدَ منها تَقييدُ النَّهي، أو التَّعجيبُ مِنَ الطَّمع في إيمانِهِم؛ فهو معطوفٌ على الحال بتأويل: وقد كان فريقٌ منهم آخَرُ إذا لَقُوا"[1].

شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

1) ﴿لَقُواْ﴾: جذره اللّغويّ (لقي)، وأحد أصوله يدلُّ على التقاء اثنين وتوافيهما[2]، "وكلُّ شيءٍ استقبلَ شيئًا أو صادفَه فقد لقِيه، من الأشياء كلّها، واللَّقِيّان: كلُّ شيئَينِ يَلقى أحدُهما الآخر"[3].

والمعنى المحوري فيه: تحصيلٌ بالمقابلة مواجهةً أو تماسًّا أي بقوة، كالشيء المطروح

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/569.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (لقي).
(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (لقي).

على الأرض يُعثر عليه أو به، وعُلوق المرأة وجودٌ للجنين – قوى؛ لأن بذرته تَعْلَق بالرَحِم. ومنه: لقيتُ فلانًا، وكلُّ شيء استقبل شيئًا أو صادفه فقد لَقِيَه[1].

ويكون اللقاءُ حسّيًّا بالبصر، ويكون بالبصيرة كقوله تعالى: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [البقرة: 223]، فعبّر عن يوم القيامة بملاقاة الله تبارك وتعالى[2].

ولا يخرج الفعل (لقوا) في الآية عن المعاني الّتي وردت عند المعجميّين، وهو مقابلة هؤلاء اليهودِ للمؤمنين الصّادقين[3].

2) ﴿خَلَا﴾: الجذر اللّغويّ منه (خلو)، "خَلا يَخلو خَلاءً فهو خالٍ، والخَلاءُ من الأرضِ: قرارٌ خالٍ لا شيءَ فيه. والرّجل يخلو خَلْوةً. واستَخلَيتُ المَلِك فأخْلاني، أي: خَلا معي، وأَخلَى لي مجلسَه"[4]، والأصل في معناه "يدُلُّ على تَعَرِّي الشَّيءِ مِنَ الشَّيءِ. يُقالُ: هو خِلْوٌ مِن كذا، إذا كان عِروًا منه. وَخَلَتِ الدَّارُ وغيرُها تَخلو. والخَلِيُّ: الخالي مِنَ الغَمِّ"[5] ويُطلق هذا الفعل إذا التقى إنسان بغيره في خلوة[6]، كناية عن الانفراد من دون إظهار ذلك.

والمعنى الوارد في الآية "أي: انفردوا معهم، وإنّما عدّي بـ(إلى)؛ لأنّه ضمّن معنى (انتهى)، كأنّه قيل: انتهوا إليهم في خلاءٍ"[7]، وخلا بعضهم إلى بعض: اجتمع النّفر الّذي لم ينافق إلى من نافق فعاتبوهم على ما تحدّثوا به ممّا يقيم الحجّة عليهم[8].

3) ﴿أَتُحَدِّثُونَهُم﴾: الجذر اللّغويّ منه (حدث)، وهو بمعنى الكلام والخبر، قليلاً كان أو كثيرًا[9]، والأصل في معناه "كونُ الشَّيء لم يكن. يُقالُ: حدثَ أمرٌ بعد أن لم

(1) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصَّل: (لقى).
(2) الرّاغب، المفردات: (لقى).
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/289.
(4) الخليل، العين: (خلو).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (خلو).
(6) الرّاغب، المفردات: (خلا).
(7) السّمين، عُمدة الحفّاظ: (خلو).
(8) المَراغيّ، تفسير المَراغيّ: 1/150.
(9) الجوهريّ، الصّحاح: (حدث).

يكنْ... والحديثُ مِن هذا؛ لأنّه كلامٌ يحدُثُ منه الشَّيءُ بعد الشَّيء"[1]، والحديث هو الكلام الّذي يصل إلى المرء عن طريق السّمع أو الوَحي، يقظةً أو منامًا[2].

والمعنى في الآية: "أنّهم جرى بَينَهم حديثٌ في ما يَنزِلُ مِنَ القُرآنِ فاضِحًا لأحوال أسلافِهِم، ومَثالِبِ سِيرَتِهم مع أنبِيائِهِم وشَريعَتِهِم"[3].

4) ﴿فَتَحَ﴾: الجذر اللّغويّ منه (فتح)، وله معانٍ عدّة، منها كونه نقيض الإغلاق، وفتح دار الحرب، والفتح على القارئ، والنُّصرة، والحكم، وغيرها[4] والمعنى المُراد هنا هذا الأخير، وهو الحكم، وكذلك يحتمل العلم والإعلام، والأصل في معنى الفتح "يدُلُّ على خلاف الإغلاق. يُقالُ: فَتَحتُ البابَ وغيرَهُ فَتحًا. ثمَّ يُحمَلُ على هذا سائرُ ما في هذا البناء. فالفَتحُ والفِتَاحَةُ: الحُكمُ. واللّٰهُ تعالى الفاتِحُ، أي: الحاكم"[5].

والمعنى الآخر له "فتح المُستغلَق من العلوم، نحو قولك: فلانٌ فَتَحَ من العلم بابًا مُغلَقًا... وفتح عليه كذا: إذا أعلَمه ووقّفَه عليه"[6].

ومعنى ﴿بِمَا فَتَحَ﴾ في الآية: بما حكم اللّٰه به عليكم، وقضاه فيكم[7].

5) ﴿لِيُحَآجُّوكُم﴾: الجذر اللّغويّ منه (حجج)، ومنه الحُجَّة وهي"وَجهُ الظَّفَر عند الخُصومة. والفعل حاجَجتُه فَحَجَجتُه. واحتَجَجتُ عليه بكذا. وجمع الحُجَّة: حُجَجٌ. والحِجاج المصدر"[8]. ويدور معناه حول تجوُّف كهفيّ صُلب أو مَتين (يحمي ضعيفًا في داخله) كحِجاج العين (يحمي مُقلَة العين بكلّ ما حولها)، ومنه "حَجَّ البيت: قصده (زاره) (دخل حَوزَته وحَرَمه). ولعلَّ الأصل كان دخول البيت (الكعبة). الحُجّة -بالضّمّ: البرهان "وهي من المعنى المحوريّ كأنّها ظرف قويّ صُلب للرّأي

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حدث).
(2) الرّاغب، المفردات: (حدث).
(3) ابن عاشور: التّحرير والتّنوير: 1/569.
(4) الخليل، العين: (فتح).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (فتح).
(6) الرّاغب، المفردات: (فتح).
(7) ابن جرير، جامع البيان: 2/150، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/570.
(8) الخليل، العين: (حج).

يحفظه ويَدعمه. و"المحاجّة: المجادلة "من هذا كلٌّ يأتي بحُجّته، كقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ﴾ [البقرة: 258][1].

"وممكنٌ أن يكونَ الحُجَّةُ مُشتقَّةً مِن هذا؛ لأنّها تُقصَدُ، أو بها يُقصَدُ الحقُّ المَطلوبُ"[2]، "والحُجَّة: الدّلالة المبيِّنة للمحجَّة، أي: المَقصد المستقيم الّذي يقتضي صحّة أحد النّقيضَين"[3].

والمحاججة: مفاعلة ومشاركة؛ لأنّ كلّ واحد من الخصمَين يريد ردّ صاحبه والانتصار عليه في حجّته[4].

ومعنى ﴿لِيُحَآجُّوكُم﴾ في الآية: ليقيموا عليكم الحجّة، ولتكون الحجّة في الآخرة للمؤمنين[5].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

يخبر اللّه تعالى في الآية الكريمة عن صورتَين متغايرتَين من اليهود؛ الأولى في أنّ منافقيهم إذا لقوا المؤمنين من أصحاب الرّسول ﷺ قالوا بألسنتهم: آمنا، وإنّكم على الحقّ، وإنّ محمّدًا ﷺ هو الرّسول الّذي بُشِّرنا به فيما نُقل لنا.

الصّورة الثّانية: فإنّهم إذا خَلا بَعضُهُم ممّن لم ينافق إلى بعضهم الآخر المُتّصف بالنّفاق عتبوا عليهم وقالوا لهم في إنكار: أتخبرونهم بما حكم اللّه به عليكم، وقضاه فيكم، وبما بيّن لكم في التّوراة من صفة الرّسول محمّد ﷺ، ونعتِه، ونُبوَّتِه؛ لتكون لهم الحجة عليكم عند ربكم يوم القيامة، أفلا تعقلون ما فيه الضرر عليكم من هذا التحدث الواقع منكم لهم[6].

وترشد الآية إلى حقيقة ما انطوت عليه نفوس اليهود؛ إذ توارثوا النِّفاق والخِداع والتلاعب بالدين.

---

(1) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصَّل: (حجج).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حج).
(3) الرّاغب، المفردات: (حج).
(4) السّمين، عُمدة الحفّاظ: (حجّ).
(5) القاسميّ، محاسن التّأويل: 1/170.
(6) ابن جرير، جامع البيان: 2/150، والشّوكانّي، فتح القدير: 1/122، ونخبة من العلماء، التفسير الميسر، ص: 11.

الإيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

فائدةُ التَّقابلِ بين الجملتين المُصدَّرتين بـ(إذا) الظّرفيّة:

بيانُ ذبذبةِ اليهودِ وتلوّنِهم، وفي ذلك دلالة على ضعفِهم سلوكًا وعلمًا

في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ قَالُوٓاْ أَتُحَدِّثُونَهُم﴾ جملتان في وصف اليهود، دلَّتِ الأولى على حالهم عند لقاء المؤمنين، وقولهم: (آمنَّا) بحسب زعمهم، ودلَّت الأخرى على حالهم عند انفرادهم، وتوبيخ بعضهم بعضًا بسبب تحدُّثهم عن صفة النّبيّ محمّد ﷺ المذكورة في التّوراة، وهما في مجموعهما تدلّان على ذبذبة اليهود، وتلوّنهم، وعدم ثباتهم، و"مِثلُ هذه الذَّبذَبَةِ تكونُ مِنَ الأمم في طور الضَّعف، ولا سيَّما ضَعفُ الإرادةِ والعِلم، ولو كان لأولئك القوم إرادةٌ قويَّةٌ لَثَبَتوا ظاهرًا على ما يَعتقِدونه باطلًا، ولم يُصانِعوا مُخالفيهم من أهل المِلَّة الأولى، أوِ المِلَّة الآخرة"[1].

غرضُ الهَمْزَةِ في قولِه: ﴿أَتُحَدِّثُونَهُم﴾:

توبيخُ اليهودِ بعضِهم لبعضٍ بسبب كشفِهم الحقائق

الهمزة في الفعل (أتحدّثونهم) في قوله تعالى: ﴿أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ﴾ همزةُ "استفهام للإنكار أو التَّقرير أو التَّوبيخ، بقرينة أنّ المَقامَ دلَّ على أنّهم جرى بينَهم حديثٌ فيما يَنزِلُ مِنَ القُرآنِ فاضحًا لأحوالِ أسلافِهم، ومَثالِبِ سِيرَتِهم مع أنبيائِهم وشَرِيعَتِهم"[2].

ففي الاستفهام توبيخٌ من بعض اليهود لبعضهم الآخر؛ لأنّ هؤلاء "ظنُّوا أنّ ذلك خَلَصَ للنَّبيّ ﷺ مِن بَعضِ الَّذين أظهَروا الإيمانَ مِن أتباعِهم، وأنّ نِفاقَهم كان قد بَلَغَ بهم إلى أن أخبَروا المُسلمينَ ببعضِ قَصَصِ قَومِهم سَترًا لِكُفرِهِمُ الباطِنِ؛ فوَبَّخوهم على ذلك تَوبيخَ إنكارٍ"[3] أي: من بعضهم لبعضهم الآخر، وهو توبيخ المبطل للمحقّ.

(1) محمّد رشيد رضا، تفسير المنار: 1/297.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/569.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/570.

بلاغة المجاز في قولِه تعالى: ﴿بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ﴾:

نظرةُ الاستعلاءِ عند اليهودِ بأنَّهم مفتوحٌ عليهم وغيرهم محصورون

ابتدأ قوله تعالى: ﴿أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ﴾ بفعل الحديث، ثمّ ذكر فعلًا آخر يبدو بعيدًا عن سياق الجملة، وهو فعل الفتح، و"المُرادُ بالفَتح هنا: الإنعامُ بالشَّريعة والأحكام، والبِشارةُ بالنَّبيِّ ﷺ، شبّه الّذي يُعطَى الشَّريعةَ بالمَحصور يُفتَحُ عليه فيَخرُجُ مِنَ الضِّيق"[1]، ويؤيّد ذلك أنّ الحديث هو إخبار الشّخص عن نفسه من غير إسناد إلى غيره[2]، فكأنّ الحديثَ محصورٌ في الشّخص نفسه، فيفتح اللّه عليه فيظهره.

دلالة العنديّة في قولِه تعالى: ﴿لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمۡۚ﴾:

العنديّة مجازيَّة، أي عند ربّكم في الآخرة أو في حكمه وقضائه

قوله تعالى: ﴿لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمۡۚ﴾ أي: في الآخرة، وقيل: المعنى عند ذكر ربّكم[3]، ولفظ المحاججة يوحي بأنّهم "جعلوا محاجّتهم به، وقولهم: هو في كتابكم هكذا محاجّة عند اللّه"[4]، هذا ظاهر الكلام إلاّ أنّ قوله: (عند اللّه) ليس على الحقيقة اللّغويّة، بل هو من باب المجاز، أي: في حكمه وشرعه، فقد يُقال: "وهذا عند الشَّافعيِّ حلالٌ، وعند أبي حنيفةَ حرامٌ، أي: في حُكمِهما، وقولُهُ: ﴿لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمۡۚ﴾، أي: لِتَصيروا مَحجوجينَ بتلك الدَّلائِلِ في حُكم اللّه"[5]، فليستِ العنديّة هنا على الحقيقة.

بلاغة الاستفهام في قوله تعالى: ﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾:

نفيُ العقلِ المُقترنِ بالهمزةِ توبيخٌ لكلِّ من يصدرُ عنه مثل فعلهم

قوله تعالى: ﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ جملة من الهمزة والفاء العاطفة و(لا) النّافية الّتي دخلت على الفعل (تعقلون)، والغرضُ من هذا الاستفهام التّوبيخ، وهو "مِن بقيَّة مَقولِهم لقَومِهم، ولا يَصِحُّ جَعلُهُ

(1) محمّد رشيد رضا، تفسير المنار: 1/296.
(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 41.
(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 1/168، والقُرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 2/3.
(4) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/288.
(5) الرّازيّ، التّفسير الكبير: 3/147.

خِطابًا مِنَ اللّهِ للمُسلمِين تَذييلًا لقوله: ﴿۞أَفَتَطۡمَعُونَ أَن يُؤۡمِنُواْ لَكُمۡ﴾؛ لأنّ المُسلمِينَ - وفيهم الرَّسول ﷺ - ليسُوا جديرينَ بمثل هذا التَّوبيخ، وحَسْبُهم ما تضمَّنَه الاستِفهامُ مِنَ الاستِغراب أوِ النَّهي"[1].

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الحديث والخبر:

ثمّة فرق بين الحديث والخبر في الآية الكريمة؛ ذلك بأنّ الحديث "في الأصل هو ما تخبر به عَن نفسك من غير أن تسنده إلى غَيرك، وسمّي حَدِيثًا؛ لأنّه لا تقدّم له، وإنّما هو شَيء حدث لك فَحدّثتَ به"[2]، وقد اقترن الحديث في الآية بالفتح، فالعلاقة واضحة بين الحديث المُختصّ بالنّفس حسب، ومعنى الفتح في الآية في محصور يخرج من الضّيق، وحديث يخرج من النّفس، وليس ذلك في الخبر الّذي يمثّل "القول الَّذي يَصحّ وصفه بالصّدق والكذب، ويكون الإخبار به عن نَفسك، وعن غيرك"[3].

فقوله: ﴿أَتُحَدِّثُونَهُم﴾ أنسب للسّياق؛ للدّلالة على ما كان يضمره هؤلاء اليهودُ من كتمان الحقّ، وقد شاء اللّه إظهاره.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/572.
(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 41.
(3) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 40.

﴿أَوَلَا يَعۡلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَ ٧٧﴾ [البقرة: 77]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

توبيخُ المنافقين من اليهودِ بعلمِ اللهِ تعالى بهم هو الأنسبُ في إقامةِ الحُجَّةِ عليهم

لمَّا ذكرَ اللهُ تعالى في الآياتِ السَّابقةِ عِلْمَ اليهودِ بمضامينِ التَّوراةِ، وذَكَرَ نفاقَ اليهودِ معَ المؤمنينَ، ناسَبَ ذلكَ توبيخُهُمْ بأَنَّ علمَ اللهِ شاملٌ للسِّرّ والعلَن، فَكَيْفَ يَسوغُ لَهُم النِّفَاقُ أَو الكِتمانُ، والحالُ أَنَّ اللهَ يعلمُ جميعَ ما يُسِرُّونَ وما يُعلنونَ، فحالُ نِفاقِهم لا يُجامِعُ بحالِ علمهم بِأَنَّ اللهَ يعلمُ جميعَ ما يُسِرُّونَه وما يُعلنونَه[1].

شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

1) ﴿يَعۡلَمُونَ﴾: العِلْمُ مَعْرفةُ الشَّيءِ عَلى حَقيقتِهِ، وَعِلمُ النَّاسِ مُقَيَّدٌ بِمعرفةِ ذلك الشّيءِ، ومَنازِلُ العُلوم مُتفاوتةٌ بِتفاوتِ أَربابِها، قالَ اللهُ تَعالَى: ﴿وَفَوۡقَ كُلِّ ذِي عِلۡمٍ عَلِيمٞ﴾ [يوسف: 76]، وَأَمَّا عِلمُ اللهِ فَهو مُطلَقٌ، والعَالِمُ - الّذي هو وصفٌ للهِ تعالى - هو الّذي لا يَخفَى عليهِ شَيءٌ؛ وذلك لا يَصِحُّ إلّا في وصْفِهِ تَعَالى[2]. وضَميرُ الجَمَاعةِ في ﴿يَعۡلَمُونَ﴾ في الآيَة عائِدٌ إلى المُوَبَّخينَ، وَيحتملُ عودُه إلى المُوَبَّخينَ والمُنافقينَ معًا.

2) ﴿يُسِرُّونَ﴾: السِّرُّ هو إخفاءُ الشّيءِ أَو كِتمان مَا في النَّفْسِ، وَالجَمْعُ أَسرارٌ، وَيُستعملُ في الأَعيان والمَعاني، وَأَسْرَرْتُ إلى فلان حديثًا: أَفضيتُ إليْهِ في خُفْيَةٍ، والسِّرُّ كلُّ ما نتكلّمُ بِهِ في خَفاءٍ، وهو ضدُّ العَلانيَة[3].

3) ﴿يُعۡلِنُونَ﴾: العَلَنُ: أَعْلَنَ يدلُّ على إظهارِ الشَّيءِ وإشاعته بين النَّاسِ، وأَكثرُ مَا يُقالُ ذلك في المعاني دونَ الأَعيان، ويقالُ: عَلَنَ الأَمرُ وأَعلنَه، العلانيةُ ظهورُ الأَمْر[4].

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 1/443.
(2) ابن منظور، لسان العرب، والرّاغب، المفردات: (علم).
(3) الرّاغب، المفردات، والسمين، عمدة الحفاظ: (سرر).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات: (علن).

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

إقامةُ الحجَّة على المخاطبين من جنسِ حجَّتِهم

تمثِّل الآية بيانًا قرآنيًّا ناصعًا في إقامة الحجّةِ على اليهود؛ وذلك بالبدءِ بالاستفهام التّوبيخيِّ لهم؛ لحملِهم على الإقرارِ بعلمِ اللّهِ تعالى، وشمولِ علمِهِ بسرائرِهم وعَلانيتِهم، بما دلَّ عليه السّباقُ والسّياقُ، فكيف يُحرِّفون الكتابَ ويكتمونَ صفاتِ النَّبيِّ مُحمَّد ﷺ المكتوبةَ عندهم في التَّوراةِ وينافقونَ! فَوَبَّخَهُم اللّهُ تعالى على عملِهم الذي يَدُلُّ على جَهلِهم بِصفاتِ اللّهِ، أَو يكونُ المَعْنَى على التّعَجُّبِ من جُرأَتِهم وصَنيعِهم، وَهُم يَعلمونَ أَنَّ اللّهَ يَعلمُ سرَّهم وَعَلانيَتَهم.

الإِيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

معاني همزةِ الاستفهامِ سياقيًّا:

تنوَّعَتْ أقوالُ المُفسِّرينَ والبيانيينَ في تَجليةِ معنى الهمزة على ثلاثةِ أقوالٍ، وهي على النّحوِ الآتي:

تَنوّعُ معاني همزةِ الاستفهامِ دليلٌ على ثراءِ المَعنَى ودِقّةِ البَيان

أولًا: التَّوبيخُ والتَّقريعُ: ومعناه توبيخُ اللّهِ للمنافقينَ من اليهودِ، على صنيعِهم في كتمانِ الحقِّ، وتواصيهم بذلك الكتمانِ، خوفًا من إقامةِ المؤمنينَ الحجَّةَ عليهم، وَهُمْ بذلك يَقعونَ في الطامَّةِ الكبرى في إنكارِ أمرٍ معلومٍ مِنْ دينِهم بالضَّرورةِ، وهذا مذهبُ جمهورِ المُفسِّرينَ[1]، قال الرازي: "وَالأَقْرَبُ أَنَّ اليَهُودَ المُخَاطَبِينَ بِذَلِكَ كانوا عَالِمِينَ بِذَلِكَ؛ لِأَنَّهُ لَا يَكَادُ يُقَالُ عَلَى طَرِيقِ الزَّجْرِ: أَوَلَا يَعْلَمُ كَيْتَ وَكَيْتَ إِلَّا وَهُوَ عَالِمٌ بِذَلِكَ الشَّيْءِ، وَيَكُونُ ذَلِكَ الشَّيْءُ زَاجِرًا لَهُ عَنْ ذَلِكَ الْفِعْلِ"[2].

ثانيًا: التقريرُ: ومعناهُ حَملُ المخاطَبينَ على الإقرارِ بمَضمُونِ الآيةِ، والمعنى تقريرُ إنكارِ علمِ اليَهودِ بأَنَّ اللّهَ يعلمُ ما يُسِرُّونَ

(1) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 2/4، وأبو حيّان، البحر المحيط: 1/443، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/118.

(2) الرازي، التّفسير الكبير: 3/147.

ومايُعلنونَ؛ أي إنهُمْ مَا عَلِمُوا بذَلِكَ، فَرَغَّبَهُمْ بهَذَا القَوْلِ في أَنْ يَتَفَكَّرُوا فَيَعْرِفُوا أَنَّ لَهُمْ رَبًّا يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَعلانِيَتَهُم، وَأَنَّهُمْ لَا يَأْمَنُونَ حُلُولَ العِقَابِ بِسَبَبِ نِفَاقِهِمْ، وهَذَا الكَلَامُ زَجْرٌ لَهُمْ عَنِ النِّفَاقِ، وَعَنْ وَصِيَّةِ بَعْضِهِمْ بَعْضًا بِكِتْمَانِ دَلَائِلِ نُبُوَّةِ مُحمَّد [1] ﷺ، ويمكنُ أَنْ يكونَ التَّقريرُ على طريقةٍ أُخرى، بأَنْ يُقال: لـمّا كانوا يعلَمون أَنَّ اللّه يعلمُ جميعَ ما يُسِرُّونَ وما يُعلنونَ، ومع هذا فقد كانوا يُظهرونَ الإيمانَ، ويُبطنونَ الكُفرَ، ويَكتمونَ ما ثبتَ في التَّوراةِ قبلَ تحريفِها من نعوتِ رسولِ اللّهِ مُحمَّدٍ ﷺ، فكأنَّهم لا يَعلمونَ؛ لأَنَّهم لم يَعملوا بمُقتضى علمِهم، فالعلمُ بالشَّيءِ إنْ لم يُثمرْ فهو في مقامِ الجهلِ به.

ثالثًا: التَّحضيضُ: وإليهِ ذهبَ ابنُ عاشور واستظهرهُ بمعونةِ استعمالِ ﴿يَعْلَمُونَ﴾ بصيغةِ الفعلِ المضارعِ الدَّالِّ على تجدّد الأَمرِ واستمرارِه، والمعنى: هَلّا كانَ وُجُودُ أَسْرَارِ دِينِهِمْ في القرآنِ ممّا ذكره اللّه من تحريفِهم الكتابَ وغيرَه مُوجِبًا لِعِلْمِهِمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ، والـمُرَادُ لَازِمُ ذَلِكَ؛ أَيْ هم يَعْلَمُونَ أَنَّ القرآنَ مُنَزَّلٌ مِن عندِ اللَّهِ، فَهَلَّا كان ذَلِكَ دَلِيلًا عَلَى صدق الرَّسُول[2].

اجتماعُ قيمةِ الحضِّ على الهدايةِ وتوبيخِ المُخاطبين ببلاغةٍ عاليةٍ

ومَنْ يُدقِّقِ النَّظرَ يَجدْ أَنَّ جميعَ هذهِ المعاني مقبولةٌ، ويَسعُها النَّصُّ القرآني، فمعنى التَّقريرِ والتَّحضيضِ حاضرٌ؛ حيث إنَّ الآيةَ تُقَرِّرُ المخاطَبينَ وتحضُّهم على معرفةِ مُقتضى علمِ اللّهِ تعالى بما يُسِرُّونَه وما يُعلنونَه، وكذلك تُوبِّخُهم على تَجاهلِهم وتحايلِهم على هذا الأمرِ العظيمِ، الذي لا يصحُّ أَنْ يجهلَه كِتابيٌّ، ومقصودُ الجمعِ بين هذهِ المعاني توبيخُ مَنْ أَصرَّ وكابَرَ وتقريعُهُ، وحَضٌّ لِمَن في قلبِه بقايا خيرٍ وتقريرٌ له، فاجتمعتْ في الآيةِ قيمتانِ عظيمتان، وهما: الحضُّ على الهداية والرجوعُ إلى الحقِّ، وتوبيخُ المكابرين، وهذا من الاتِّزانِ البلاغيِّ في تقريرِ القيمِ الذي لا مَزيدَ عليه.

(1) الرازي، التّفسير الكبير: 3/147.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/572.

الرَّبْطُ بالوَاوِ علَى مَعْنَى تجدُّد الحَال:

في قوله تعالى: ﴿أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾: جَاءَت جملةُ: ﴿أَوَلَا يَعْلَمُونَ﴾ فعليةً معطوفةً -على تقدير الحَال- على سابقتِها الفعليّة كذلك لإفادةِ معنًى جديدٍ، هو أَنَّهُ كُلَّما تجدّد نفاقُهم فَعِلْمُ اللّهِ مُحيطٌ بهم، فوبّخهم اللّه على فعلهم مع علمِهم أَنَّه يعلمُ مَا يُسِرُّونَ ومَا يُعلنونَ، فَدَلّتِ الأَفعالُ المُضارِعةُ في الآيةِ على الحالِ المُتجدِّدةِ في المُستقبلِ المتدّ[1]، والغَرضُ هو توبيخُهُم والإنكارُ المُتجدّد عليهم لِكُلِّ فعلٍ قبيحٍ يَفعلونَهُ.

لا يَنْفَعُ المُنافقينَ إلَّا الرُّجوعُ إلى الإيمان، فَعلمُ اللهِ مُحيطٌ بِهم وبِأَفعالِهم مَهما كتمُوا حقائِقَ الإيمان أَو أَبطنُوا الكفرَ

بلاغةُ إيلاءِ حَرْفِ الاستفهامِ حرفَ العطف:

الكلامُ في مثلِ قولِه تعالى: ﴿أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ له طريقتانِ في التَّقديرِ:

قدْ يختلفُ التَّوجيهُ والمعنى واحدٌ لِيَدُلَّ على تقريرِ المعنى وتأكيدِهِ

الطريقةُ الأولى: مذهبُ جمهورِ النُّحاةِ والمفسِّرينَ، هو أَنَّ أَصْلَ الكَلَامِ كان بتَقْديمِ حَرْفِ العَطْفِ على الهَمْزَةِ[2]، وتقديرُ الكلامِ: (ويفعلونَ هذهِ الأفعالَ القبيحةَ، أَلَا يعلمونَ أنّ اللّه يعلمُ مايُسِرُّونَ ومايُعلِنونَ).

الطريقةُ الثَّانيةُ: عطفُ الجملة المذكورةِ على أخرى محذوفةٍ بعدَ همزةِ الاستفهام، وهذه طريقةُ الزَّمخشريِّ وأبي السّعودِ في تقديرِ الكلام[3]، ونكتتُه: تنبيهُ المخاطَبِ إلى عجيبِ أمرِهم، ويُقدَّرُ المحذوفُ منْ سياقِ الكلام، والتَّقديرُ: (أيَجهلون ولا يَعلمون أَنَّ اللّه يعلمُ ما يُسِرُّونَ ومايُعلنونَ).

وإنَّما قُدِّم الاسْتِفْهامُ في مثلِ هذه التَّراكيبِ؛ لأنّه يأتي في مقام إقامةِ الحجَّةِ والاستدلال، سواء أَكانت الهمزةُ للإنكارِ والتوبيخِ

(1) عبد الكريم الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 4/196.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 1/443، والسمين، الدر المصون: 1/444.
(3) أبو حيان، البحر المحيط: 1/443، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/118.

المقتضي الزجرَ عن الفعلِ، أمْ كانت للتَّقريرِ، أمْ كانت للتَّحضيضِ، ولا يحقِّقُ هذه المعانيَ البلاغيَّةَ إلّا الاسْتِفْهامُ المجازيُّ الذي يكونُ بالهمزةِ فحسب، فناسبَ تقديمُ همزةِ الاسْتِفْهامِ على حرفِ العطف (الواو) المفيدة للحاليَّة.

فائدةُ إيثارِ صيغةِ الأفعالِ المُضارعةِ في الآية:

كُلَّما تجدّد إسرارُهُم أو إعلانُهم، فعلمُ اللهِ مُحيطٌ بِهم وبِمَا يَفعلون

آثرت الآيةُ صيغةَ الفعلِ المضارعِ على الماضي؛ فلمْ يقلْ: (أمَا علموا)، فوَرَدَ الفعلُ ﴿يَعْلَمُونَ﴾ بصيغة المضارعِ لإفادَة تَجدّدِ الحدوثِ، على معنى: إنّهم يَعلمون أَنَّ كلَّ فعل يفعلونَه سِرًّا أو عَلَنًا فإنَّ اللّه يعلمُه، وإنَّ الأمرَ ماثلٌ أَمامَهم في كلِّ وقت.

اليَهودُ في حالةِ مُتجدّدةٍ مِنْ كتمانِ الحَقائق وإعلانها

ورد التّعبيرُ بالفعلِ المضارعِ دونَ الماضي فلم يقلْ: ما أَسَرُّوا وما أَعلَنوا؛ بل قال: ﴿يُسِرُّونَ﴾ و﴿يُعْلِنُونَ﴾ بصيغة الفعل المضارع التي تدلّ على تجدّد الحدوث واستمراريته، وفي صيغةِ الفعلِ المضارعِ إشارةٌ إلى ما يقعُ في المستقبلِ؛ فاليهودُ في حالةٍ مستَمِرَّةٍ لا يتوقَّفونَ عنْ إسرارِ الحقائقِ وكتمانِها، وإعلانِ الأباطيلِ والكذبِ تحقيقًا لما يَزعمون أنّه يحفظُ بقاءَهم.

سرُّ تَكرارِ ﴿مَا﴾ في الآيةِ:

تعيينُ نَوْعَين مُتناقِضَيْن من الكَلامِ الصَّادرِ عن ذاتٍ واحدةٍ

كُرِّرت ﴿مَا﴾ في قولِه تعالى: ﴿مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ للبيانِ والتَّفصيلِ، فإنَّ المقامَ مقامُ تفصيلٍ وإيضاح في أَنَّ اللّه يعلمُ كلَّ شيءٍ يُسِرُّونَه وكلَّ شيءٍ يُعلنونَه، وفي التَّكرارِ نُكتةٌ بلاغيةٌ أُخرى، وهي أَنَّ ما يُسِرُّونَه مناقضٌ لِما يُعلنونَه، فوبّخهم على الكلام الّذي يُسَرُّ، والكلام الّذي يُخالِفُهُ ويناقِضُهُ حينما يُعلن، فكرّرت ﴿مَا﴾ لإظهار نفاقِهم، فلمّا اختلفَ المتعلّقُ، استوجبَ تَكرارُ ﴿مَا﴾، ومنهُ قولُه تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [المجادلة: 7]؛ لأَنَّ السِّياقَ يدلُّ على اختلافِ المتعلَّق فكرَّرَ ﴿مَا﴾، ولو كانَ الذي يُسِرُّونَه هو عينَ الّذي يُعلنونَه لَقالَ: (أَنَّ اللّه يَعلَمُ ما يُسِرُّونَ

ويُعلنونَ)؛ ولهذا قال في آية أخرى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحج: 71] لأَنَّ متعلّقَ علم اللّهِ شيءٌ واحدٌ، باعتبارِ أَنَّ كلَّ ما في السماوات والأرض معلومٌ للّه سبحانَه؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ ۚ﴾ بصيغةِ الإشارةِ إلى المفرد.

فائدةُ حذفِ المفعولِ:

بيانُ إحاطةِ علمِ اللهِ بجميعِ الخفيّاتِ والمُعلنات

حُذِفَ مفعولُ الفعلين ﴿يُسِرُّونَ﴾ و ﴿يُعْلِنُونَ﴾ لإفادة العموم؛ فعلمُ اللّه لا يقتصِرُ على مُعيّن ممّا يُسِرُّونَ ومما يُعلنونَ، بل يتناول كلّ ما يُسرُّونَ وما يُعلِنونَ، فدلَّ حذفُ الضَّميرِ العائدِ على الاسمِ الموصولِ على عموم ﴿مَا﴾ في الآية كما تقدّم، وهو مناسبٌ لسياقِ الآية الدَّالِّ على إحاطة علمِ اللّهِ بما يُسِرُّونَ وما يُعلنونَ، فقد توصّلَ بتقليلِ اللَّفظِ إلى تَكثيرِ المَعنَى.

بلاغةُ تقديمِ الإسرارِ على الإعلانِ:

ما مِنْ عَلَنٍ إلَّا ويسبِقُهُ إسرارٌ في القَلبِ

بعضُ كلماتِ القرآنِ تقترنُ مع صاحبتِها ولِفْقِها وتُلازِمُها ولا تنفصلُ عنها في غالبِ الاستعمالِ، وقد قُدِّم ﴿يُسِرُّونَ﴾ على ﴿يُعْلِنُونَ﴾ في الآية لنُكَتٍ بلاغيةٍ منها[1]:

أولًا: مرتَبةُ السّرِّ مقدَّمةٌ على مرتبةِ العَلَنِ؛ إذ ما مِنْ عَلَنٍ إلَّا ويَسبِقُهُ إضمارٌ في القلب يتعلَّق به الإسرار غالبًا.

ثانيًا: إذا كان اللّه يعلمُ ما يُسِرُّونَ، فبطريقِ الأولى يعلمُ ما يُعلنونَ؛ فقدَّم علمَ الأخفى ليدلَّ على علمِ الأظهر.

ثالثًا: الإيذانُ بافتضاحِ اليَهودِ ووُقوعِ ما يَحْذَرونَه من أوَّلِ الأمرِ.

رابعًا: المبالغةُ في بيان شُمولِ علمِهِ المحيطِ لجميعِ المعلوماتِ، كأَنَّ علمَه بما يُسِرُّونَه أقدمُ منه بما يُعلنونَه مع كونِهما في الحقيقةِ على

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/118-119.

السويةِ؛ فإنَّ علمَه تعالَى بمعلوماته ليسَ بطريقِ حصولِ صُورِها، بل وجودُ كلِّ شيءٍ في نفسِه يعلمُهُ اللّه تعالى.

بديعُ الطِّباق في الآية:

أفاد الطِّباقُ في ﴿يُسِرُّونَ﴾ و﴿يُعْلِنُونَ﴾ استواءَ الأمرين في علمِه ﷻ، كما أنَّه أفادَ توكيدَ المعنى وتقريرَه.

العطفُ بقصدِ التَّأكيدِ:

اجتماعُ دلالة المطابقةِ والالتزامِ في الكلمةِ القرآنيَّة

دَلَّتْ كلمةُ ﴿يُسِرُّونَ﴾ على معنى الإسرارِ بدلالة المطابقةِ، ودلالتُها على الإعلانِ بطريقِ الالتزام؛ فإنَّ اللّه إذا كان يعلمُ ما يُسِرُّونَ، فمِنْ بابِ أَوْلَى أَنْ يعلمَ ما يُعلنونَ، فلمَّا ذكرَ ﴿يُعْلِنُونَ﴾ دلَّ على علمِه بما يُعلنونَ مطابقةً، فكأنَّه كرَّرَه مَرتَين؛ ولهذا قال ابن عرفة: "عطْف ﴿يُعْلِنُونَ﴾ على ﴿يُسِرُّونَ﴾ تأكيدٌ ليدلَّ اللَّفظ عليه بالمطابقةِ واللّزومِ"[1].

تَوْجِيهُ المُتشَابِهِ اللَّفظيِّ:

تقديمُ الإسْرَارِ عِندَ بَيانِ العِلْمِ، وتقديمُ الإعلانِ عند بَيَانِ المُحَاسَبَةِ

قُدِّمَ ذكرُ الإسرارِ على الإعلانِ، وقد جاءَ في آيةٍ أخرى تقديمُ الإظهارِ على الإخفاءِ؛ فقال تعالى: ﴿وَإِن تُبْدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: 284]؛ ذلك أنَّ المقامَ في الآيةِ الأخرى هو في بيانِ محاسبةِ اللّه لنا على أعمالِنا، والأصلُ أنَّ المُحاسبةَ تكونُ في الأمورِ الباديةِ دونَ الخافية[2]، فلمّا اختلف السِّياقُ قُدّم في كلِّ آيةٍ ما يُناسِبُها.

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

استعمَلَ القرآنُ في هذه الآية ﴿يُسِرُّونَ﴾، ولم يستعمل (يُخفون) أو (يَكتمون)، كما أنَّه استعمل ﴿يُعْلِنُونَ﴾، ولم يستعمل (يُبدونَ)؛ لِخَصُوصيَّة الكَلِمَةِ في سياقِ الآيةِ، ويمكن معرفةُ هذا ببيان الفروقِ المُعْجَميَّة بين الكلماتِ.

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/344.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 1/301.

الإسرارُ والخِفيةُ:

الفَرْقُ بين الإسرارِ والخُفيةِ من ثلاثةِ وجوه:

إنَّ ما هو أَخفى مِن السِّرِّ يُسَمَّى خُفْيةً وخَفَاءً، قال تعالى: ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ [النمل: 25]؛ فالخبءُ هو المخبوءُ والمَخفيُّ الّذي لا يعلمُهُ إلا اللّه، ولهذا قالَ تعالى في نهايةِ الآية: ﴿وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾، ولم يقلْ: (يعلم ما تُسِرُّونَ وماتُعْلِنُونَ). وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ [آل عمران: 5]؛ لأَنَّ الخفاءَ أَدقُّ مِنَ السِّرِّ، وقال تعالى: ﴿فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾ [طه: 7]؛ أي يعلمُ ما هو أَخفَى من السِّرّ.

الخُفية أخفَى من السِّرّ، واللّه يعلم السرّ وأخفى، ومن الخَفِيّ ما هو مَخبوءٌ ولا يعلمه أَحدٌ إلّا الله

إنَّ السِّرَّ ما يصحُّ أَنْ يَقعَ فيه إسرارٌ إلى الغَيرِ، وأمَّا الخُفيةُ فهو ما خَطَرَ بالبالِ ممَّا لا يقعُ منه إسرارٌ ولايُتفوَّهُ بِهِ[1]، فالإسرارُ قدْ يكونُ في النَّفْسِ: ﴿فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ﴾ [يوسف: 78]، وقد يكونُ إلى الغير ﴿وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ﴾ [التحريم: 3]، وأمَّا الخُفيةُ فلا تكونُ إلى الغَيرِ، بل تكونُ في النَّفسِ أو في الصَّدرِ، ولهذا جاءَ في الآيةِ: ﴿مَايُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾؛ لأَنَّ اللّه أخبرَ عنهم في الآيةِ السَّابقة بأَنَّهم: ﴿إِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ﴾، فقد كان بعضُهم يُسِرُّ إلى بعضِهم حديثًا.

الإسرارُ قد يكونُ في النَّفس، فلا يعلمُه أَحدٌ، وقد يكونُ إلى الغَيرِ، وأما الخِفْيَةُ فلا تكونُ إلى الغَيرِ

إنَّ الخفاءَ أَخفى مِنَ السِّرِّ كما تقدَّم ويكونُ لِمقصدٍ أَو غاية، وأمَّا الإسرارُ فهو يدلُّ على مُطلَقِ ما يكونُ في النَّفس ممَّا لم يُعلَنْ به، ويدلُّ عليه قوله تعالى: ﴿تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنتُمْ﴾ [الممتحنة: 1]؛ فلمّا كان لهم غايةٌ ومقصدٌ في الإسرارِ سمَّاه خفاءً، وممَّا يؤيّدُ هذا أَنَّ إبراهيمَ عليه السلام لمَّا أَسكنَ ذريَّته بوادٍ غيرِ

إخفاء الأمر يدلُّ على أَنَّ لصاحبه مقصدًا وغايةً في النَّفس، وأَمَّا الإسرارُ فيدلُّ على ما في النَّفسِ ولا يقتضي أَنْ يكونَ لغاية

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/5.

ذي زَرْعٍ، كانت نِيَّتُه وغايتُه أَنْ يُقيموا الصَّلاةَ فيه ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [إبراهيم: 37]، فلمَّا كان له غايةٌ في عملِه قال: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعۡلَمُ مَا نُخۡفِي وَمَا نُعۡلِنُۗ﴾ [إبراهيم: 38].

الفرقُ بينَ السِّرِّ والخَفَاءِ قد يكونُ باعتبارِ زمنِ الحالِ والاستقبالِ، أو أنَّ الخفيَةَ أخفَى من السِّرِّ

وقد يكونُ الفرقُ بينهما في الوضعِ الزَّمنيّ بينَ الحالِ والاستقبالِ؛ فالسِّرُّ ما يكونُ في النَّفْسِ متحصَّلا ممَّا لمْ يُعلَنْ بهِ، والخَفاءُ ما سيكونُ في النَّفسِ ممَّا سيستأنفُ في المُستقبلِ[1]. وقد يكونُ الفرقُ بين الإسرارِ والخفيةِ هو أَنَّ الخفية هي: "مَا يَتَكَلَّمُ اللِّسَانُ مِنْ حَدِيثِ النَّفْسِ وَنَحْوِهِ مِنَ الأَصْوَاتِ الَّتِي هِيَ أَخْفَى مِنْ كَلَامِ السِّرِّ"[2].

الإعلانُ والإبداء:

الفرقُ بينَ ﴿يُعۡلِنُونَ﴾ و(يُبدونَ): هو أَنَّ الإبداءَ ما كان فيه تكلُّفٌ في إظهار ماخَفِيَ، أَو ما يظهرُ ظهورًا بيّنا بعدَ خَفاءٍ، فيكونُ البَدْوُ في مقابل الخِفْيَة أولى، ولهذا أكثرُ ما وردت كلمةُ (يُبْدونَ) ومشتقَّاتُها في القرآنِ الكريمِ في مُقابلِ (الخِفْيَةِ) ومشتقَّاتِها، وما وردَ من الخَفاءِ في مقابل العلنِ قد تقدَّم سببُه، وأمَّا الإعلانُ فيُطلَقُ على ما هو ظاهرٌ ممَّا يكون مقابلًا للإسرار؛ ولهذا ورد (يُعْلِنُون) مقابلًا لِـ(يُسِرُّونَ)، كقوله تعالى: ﴿إِنَّا نَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَ﴾ [يس: 76].

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/37.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/191.

﴿وَمِنۡهُمۡ أُمِّيُّونَ لَا يَعۡلَمُونَ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ وَإِنۡ هُمۡ إِلَّا يَظُنُّونَ ٧٨﴾ [البقرة: 78]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لـمَّا أخبرتِ الآياتُ السَّابقةُ عن واقعِ الـمُنافقين من اليَهودِ، الّذين يُحرِّفون كلامَ التَّوراةِ من بعد عَقلِهِ وفهمِهِ، كان من الـمُناسبِ جدًّا - وممّا يقتضيهِ العدلُ والإنصافُ - الإخبارُ عمَّن هم أمّيّون مُقلّدون ولا علمَ لهم إلّا الأمانيّ؛ لأنَّهم مجرّدُ أتباعِ الـمُحرِّفين، فاستَوَى الطرفانِ: طرفُ العالِمِ الـمُحرِّف، وطرفُ الأميّ الجاهلِ في الموقف من القرآنِ الكريم، وعليه فلا مَطمعَ في إيمانِ أحدٍ منهم، لا العالِمُ الـمُحرِّفُ، ولا الأمِّيُّ الجاهلُ؛ فكان العطفُ على قوله تعالى: ﴿وَقَدۡ كَانَ فَرِيقٞ مِّنۡهُمۡ يَسۡمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعۡدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: 75]، من قبيل عطفِ حالِ أُمِّيِّي اليهودِ وموقفِهم من الإسلامِ، على حالِ الفريقِ المحرِّفِ، فهم وإن اختلفُوا في مقامِهم العلميِّ، لكنَّهُم لا يختلفون في مَوقِفهم الدينيِّ.

قال البقاعي رحمه الله تعالى: "لَمّا ذَكَرَ سُبْحانَهُ هَذا الفَرِيقَ الَّذِي هو مِن أعْلاهم كُفْرًا وأعْتاهم أمْرًا، عَطَفَ عَلَيْهِ قِسْمًا أعْتى مِنهُ وأفَظَّ؛ لِأنَّ العالِمَ يُرْجى لَفْتُهُ عَنْ رَأْيِهِ أوْ تَخْجِيلُهُ بِالحِجاجِ بِخِلافِ الـمُقَلِّدِ العاتِي الكَثِيفِ الجافِي فَقالَ ﴿ومِنهم أُمِّيُّونَ﴾"[1].

شَرْحُ الـمُفْرَدَاتِ:

1) ﴿أُمِّيُّونَ﴾: جَمْعُ أُمّيّ، وأصله (أمم)، وهو الّذي لا يكتبُ ولا يقرأُ مِنْ كِتاب[2]، وفي وجه تسمية الأُمّيِّ ثلاثةُ أقوالٍ:

أولًا: لأَنّه باقٍ على أصلِ ولادةِ أمّهِ لم يتعلّم الكتابةَ والقراءةَ.

ثانيًا: كونه منسوبًا إلى أمّهِ الّتي ولدته؛ ولأَنَّه ليس من شغل النّساءِ عندهم القراءة ولا الكتابة[3].

(1) البقاعي، نظم الدرر: 1/490.

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات: (أمم).

(3) السمين، عمدة الحفاظ: (أمم)، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 2/5.

ثالثًا: أَنْ يكون مَنْسُوبًا إِلَى الْأُمَّةِ بِمَعْنَى عَامَّةِ النَّاسِ فيكون مرادفًا لِلْعَامِّيِّ، وهو ما استَظهَرَه ابنُ عاشور[1].

وذهب البِقاعيُّ[2] إلى أنَّ الأُمِّيّين هم عامّةُ اليَهودِ، الّذين يتّبِعُون علماءَهم، ولا يعلمونَ من التَّوراةِ إلَّا ما قيل لهم من الأمانيِّ، وهُم نوعان:

الأوّل: منْ لا يُحسِنُ القراءةَ والكتابةَ مُطلقًا.

والثّاني: من يُحسِنُ القراءةَ والكتابةَ، ولكنَّه بليدُ الطَّبعِ، غَليظُ الفَهمِ، يقرأُ ولا يَفهَمُ المَعَاني.

2) ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾: المقصودُ بالكِتَابِ في سِياقِ الآية التَّوراةُ، وهو اسمٌ للمكتوبِ[3]، وهناك تأويلٌ ضعيفٌ بأن يكونَ المقصودُ بالكتابِ الكتابَةَ؛ ووجهُ ضَعفِه: أنَّه يؤولُ إلى التَّكرارِ؛ فيكونُ المعنى: ومنهم أمّيون – أي: لا يعلمونَ الكتابةَ، كما أنَّه "يأباه سِياقُ النَّظمِ وسياقه"[4]، واستبعدَه ابنُ عاشور لقرينةِ الاستثناءِ بـ﴿أَمَانِيَّ﴾ العائدِ إلى التّوراة[5].

3) ﴿أَمَانِيَّ﴾: أصله (مَنَى)، يَدُلُّ عَلَى تَقْدِيرِ شَيْءٍ وَنَفَاذِ القَضَاءِ بِهِ. مِنْهُ قَوْلُهُمْ: مَنَى لَهُ المَانِي، أَيْ قَدَّرَ المُقَدِّرُ، وَالمَنِيَّةُ: المَوْتُ لِأَنَّهَا مُقَدَّرَةٌ عَلَى كُلٍّ. وأمنيةُ الإنسانِ: أَمَلٌ يُقَدِّرُهُ؛ لأَنَّ المُتمنّي يقدّرُ في نفسه ويحزرُ ما يتمنّاه، والأُمنيّةُ الصّورةُ الحاصلةُ في النّفس مِنْ تَمنّي الشّيء؛ لأَنّ القَائِل إذا قَالَ مَا لَا يَعلمه فَكأَنَّهُ يتمنّاه،، والأَمانيُّ على وزن (أفاعيل) جمعُ أُمْنِيَّة، وهي في الآيَةِ بمعنى الاعْتقاداتِ الّتي وضَعَها الأَحْبَارُ تَضلِيلًا للأَتْباعِ والمقَلِّدين بغير حقٍّ[6].

4) ﴿يَظُنُّونَ﴾: يدورُ معنَى الظّنّ على توقُّعٍ قَلبيٍّ لوجودِ شيءٍ مهمٍّ في أمرٍ غيرِ ظاهرٍ لأمارَةٍ قويّةٍ على ذلك؛ فالظّنُّ اسمٌ لما يحصلُ من أمارَةٍ، ومتى قَوِيَت أدّت إلى

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/573.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 1/491.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 1/444.
(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/119.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/574.
(6) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (مني).

العلم، ومتى ضَعُفَت لم تجاوز حدَّ الوهم، والظّنُّ في الآيةِ بمعنى تجويزِ الطَّرَفِ الرَّاجحِ على وَفْقِ اعتقادِهم، لكنَّه في الأمرِ نفسِهِ ليس كذلك، فهؤلاء ليس لهم من الاتِّصاف بالعلمِ شَيءٌ[1].

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

ذكرت هذهِ الآيةُ الفريقَ الآخرَ الّذي لا مطمعَ في إيمانِهِ من اليَهودِ، وهو فريقُ الأمّيّين الّذين لم يُطالعوا التَّوراةَ؛ ليَعلمُوا حقائقَ الإيمان، ويطّلعُوا على أَوصافِ الرَّسولِ مُحمَّدٍ -ﷺ- فهم لا يعلمونَ التَّوراةَ الْبَتَّةَ، لكنْ يتمنّون على اللّهِ ما لا ينالون ممّا سَمِعُوه من الأحبارِ ممّا لاعِلْم لهم بصحَّتِه، فليس لهم إلّا تقليدُ علمائِهم فيما أخبَرُوهم بهِ مِن أَنَّ اللّهَ يعفُو عنهم ويرحمُهم ولا يؤاخذُهم بخَطاياهُم، وأَنَّ آباءَهم الأنبياءَ يَشفعُون لهم، وما تُمنّيهم أَحبارُهم مِنْ أَنَّ النَّارَ لا تَمَسُّهم إلّا أَيَّامًا معدودةً، وما هذه الأَمانيُّ إلا ظُنونٌ فاسدةٌ[2].

الإِيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

فائدةُ تقديمِ المُسندِ:

تشويقُ المُخاطَبِ لاستكمالِ صِفاتِ فريقٍ آخرَ من المَذكورين

أفادَ تقديمُ الخبرِ ﴿مِّنْهُمْ﴾ التَّشويقَ[3]؛ فإنَّ المتلقِّي يتشوّقُ إلى سماعِ صفاتٍ جديدةٍ للمذكُورين سابقًا، والتَّشويقُ لم يبدأْ من تقديمِ الخبرِ فحَسب، بل بدأَ من قولِه تعالى: ﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ﴾، فعُلِمَ حينئذٍ بوجودِ فريقٍ آخرَ؛ إذ ذِكْرُ فريقٍ مؤذِنٌ بوجودِ غيرِه، فلمَّا بدأَ النَّظمُ بحرفِ العطفِ والجارِّ والمجرورِ ترقَّبَ المخاطَبُ تلقِّي صفاتِ الفَريقِ الآخرِ.

سرُّ استعمالِ لفظِ الأميّ دون الجاهلِ في هذه الآيةِ:

الأميُّ هو الجاهلُ في التَّوراةِ، وقد يكونُ عالمًا في سائرِ العلومِ

لاستعمالِ لفظِ الأميّ في هذا السّياقِ ملحظٌ دقيقٌ قد لا يتنبَّهُ له كثيرٌ ممَّن يمرُّ على هذه الآيةِ، فالمقصودُ بالأميِّ هُنَا هو الّذي لا يقرأ ولا يكتبُ في التَّوراةِ على وجهِ الخُصوصِ؛ أي: هو أميٌّ في التَّوراةِ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (ظنن).
(2) الزمخشري، تفسير الكشاف: 1/157، وابن عطية، المحرر الوجيز: 1/169.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/573.

لا في غيرِها، وقد بُيِّن هذا الوصف بقوله: ﴿لَا يَعۡلَمُونَ ٱلۡكِتَٰبَ﴾؛ أي: هذه صفَتُهم الثابتةُ في علم التَّوراةِ، ولا تعني الأميَّةُ هنا أميَّةَ القراءةِ والكتابةِ مطلقًا؛ فإنَّ هذا ينازعُهُ الواقعُ والتّاريخُ، فهم أميّون في التَّوراةِ لا في غيرها، فاليهودُ قسمان: العلماءُ في التَّوراةِ، والأميّونَ فيها، والأميّون لا أثرَ لهم إلّا المُتابعَةُ والتَّسليمُ مهما قيل لهُم، ومن هنا اكتسبُوا الذّمَّ، فهم ارتَضَوا أميَّتهم واستمرُّوا عليها.

اقترانُ ﴿لَا﴾ النّافيةِ مع الفعلِ المضارعِ:

الأمـيّـةُ قـرارٌ ثـابتٌ، لا ظَـرفٌ طارِئ

أفادَ اقترانُ (لا) النّافيةِ مع الفعلِ المضارعِ في قوله تعالى: ﴿لَا يَعۡلَمُونَ﴾ الدَّيمومَةَ؛ أي: الأميّون لا يعلَمُون التَّوراةَ على الدّوام، ولا يُتوقَّع منهم سِوَى ذلك؛ لأنَّهم ارتَضَوا الأميَّةَ في التَّوراةِ، فالأميَّةُ قَرارٌ ثابتٌ، لا ظرفٌ طارئٌ!.

نوعُ التَّعريفِ في ﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾:

اختلفَ المفسِّرونَ على أقوالٍ في معنى التَّعريفِ في لفظ الكِتابِ، على النَّحو الآتي[1]:

الكِتابُ في الآية يُقصَد به التَّوراةُ

أولًا: العهدُ الذهنيُّ، وهو المفهومُ مِنْ سياقِ الآياتِ؛ إذِ التَّحريفُ هو لكلامِ اللّهِ تعالى النَّازل على قلبِ موسى -عليه السلام-، وهو التَّوراةُ، ويكون مَعنَى إلَّا أمانيّ؛ أي: لا يعلَمُون شيئًا من التَّوراةِ إلَّا ما يسمَعونَه من الفَريقِ المحرِّفِ.

ثانيًا: الغَلَبَةُ: وهذا القولُ يلتقي مع القَولِ الأوَّلِ؛ حيثُ يكونُ المقصودُ بالكِتابِ التَّوراةَ؛ إذ هو من الأعلامِ المُلازمةِ للتَّوراةِ، وهذا وإنْ كان من حيثُ المعنى صَحيحًا، إلَّا أنَّه من حيثُ الصّنعةُ ضعيفٌ.

ثالثًا: الجِنسُ، إرادةً للمصدرِ؛ أي: الكِتابةُ، وهو ضَعيفٌ لخلوِّ

(1) الزمخشري، الكشاف: 1/157، وأبو حيان، البحر المحيط: 1/444، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/119، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/574.

المقامِ من الدّلالة عليهِ، ويكونُ المَعنَى على هذا القولِ، لا يعلمُون الكتابةَ إلّا تمنّيها، فهو بيانٌ لنفيِ علمِ الكتابةِ عنهم.

بلاغةُ أسلوبِ تأكيدِ الذّمِّ بِما يُشْبِهُ المَدحَ:

ذُمَّ الأمّيّون مرتين؛ بنفيِ العلمِ عنهم، وبكسرِ المُتوقَّعِ في الخِطابِ

في قوله: ﴿لَا يَعۡلَمُونَ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ﴾ أسلوبٌ بلاغيٌّ لطيف يُسمَّى تأكيدَ الذَّمِّ بما يشبهُ المدحَ[1]، على طريقةِ الاستدراكِ للمبالغَةِ في الذمّ؛ فإنَّ الاستثناءَ يُوحِي أنّ المتكلّمَ سيَستَثني شيئًا يُثبتُ لهُم بهِ العلمَ بعدَ أنْ نفاه عنهُم، فلما جاءَ التَّخصيصُ بـ(إلَّا) ظُنَّ أنّ لهم علمًا، وإنْ كان قليلًا، ولكنَّه لـمَّا قال: ﴿أَمَانِيَّ﴾ - وهي ليست بعلم بلْ هي اعتقاداتٌ يظنُّها صاحبُها حقًّا، وهي ليست بحقٍّ - انقلبَ الأمرُ من المَدحِ إلى الذَّمِّ، ولـمَّا كان ما قبلَ (إلّا) ذمًّا لتضمُّنه نفيَ صفةِ المدحِ؛ أي: نفيَ العلم، وكان ما بعدَ (إلَّا) تكرَّرَ الذَّمُّ، وهو أشدُّ تأثيرًا في المخاطَب من الذَّمِّ نفسِه؛ لأنَّه كسرٌ لِأُفق توقُّعِ المُخاطَبِ المقتضِي الخيبةَ والخذلانَ.

بلاغةُ القَصْرِ في ﴿لَا يَعۡلَمُونَ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ﴾:

تقريرُ جهلِ الأُمّيِّين وافتِراءاتِهم وتأكيدُها

في التَّركيب ﴿لَا يَعۡلَمُونَ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ﴾ استثناءٌ مُنقطعٌ كما قال ابنُ الأنباري[2]، وفيه قصرُ الموصوفِ على الصِّفةِ؛ فالأميّونَ ليس لهم علمٌ إلّا الأَمانيّ لا يتجاوزُونها إلى غيرِها ممَّا هو علمٌ صَحيحٌ، وهو الّذي وَرَدَ في التَّوراةِ قبل التَّحريفِ، أو ما جاءَ في القرآنِ، وفي هذا الأسلوبِ من الذَّمِّ لهم ما لا يَخفَى؛ لقصرِ ما اعتقدُوه على الاختلاقِ والكَذِبِ، وفيه حثٌّ على أَنْ يستَفيقُوا من غَفلتِهم، ويؤمنُوا بما أَنزلَ اللهُ على رسولِ اللهِ مُحمَّدٍ ﷺ، فتَضَمَّنَ هذا الاستثناءُ نَوعَين من الذَّمِّ: تأكيدَ الذَّمِّ بما يُشبهُ المدحَ، ونفيَ علمِهم إلَّا من الأَمانيّ الّتي هي اختلاقٌ وافتراءٌ، فجمَعُوا بين الجَهلِ والافتراءِ، ثمَّ

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/346.

(2) الواحدي، التفسير الوسيط: 1/162.

إنَّ مجيءَ هذا المَعنَى على طريقةِ القَصْرِ أكَّدَ الذَّمَّ؛ لأَنَّ القَصْرَ يُفيدُ تأكيدَ المَعنَى وتقريرَه.

سرُّ استعمالِ الاستثناءِ المُنقطعِ:

إثباتُ الجهلِ المركَّبِ للأميّين، وبيانُ أنَّ الجهلَ وحدَهُ خيرٌ من العلمِ الفاسِدِ

آثرَ النَّظمُ الكريمُ استعمالَ أداةِ (إلَّا) التي جاءت لمعنى الاستدراكِ؛ فكان استثناءً منقطعًا؛ وذلك أنَّ المخاطَبين سيظنُّون أنَّ أولئك الأميّين لا يعلَمُون شيئًا من التَّوراةِ على الإطلاقِ، فجاءَ الاستثناءُ المنقطعُ؛ ليوقفَ هذا الظنَّ، ويُعلِمَ صاحبَه أنَّهم يعلمُون، لكنَّ علمَهم لا يعدُو أنْ يكونَ أمانيّ؛ فهم على الحقيقةِ يعلمُون الأمانيّ التي عَدَمُها خيرٌ من وجودِها، وهذا أبلغُ من نفيِ العلمِ على الإطلاقِ؛ لأنَّه يبيِّن حالَهم من انتفاء العلمِ أوّلًا، ثمّ إثباتِ العلمِ بالأمانيّ ثانيًا، فأفاد الاستثناءُ المنقطعُ بيانًا لواقع الأميّين في جهلهم المركَّب.

موقعُ الجملةِ الحاليّةِ من الاستثناءِ المركَّبِ:

العِلمُ الباطلُ أصلُ الظنِّ الباطلِ

جاءت الجملةُ الحاليّةُ في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾؛ لتأكيدِ ما دلَّ عليه الاستثناءُ من علم الأميّين للأمانيّ، فهُمْ مُتلبِّسون بالظّنِّ الباطلِ المُتَجدّد[1]، كما أنّ أمانيَّهم باطلةٌ، فعقولُهُم ليست خاليةً من أيّ اعتقادٍ؛ لأنّهم كانوا مُتمَسّكين بحبالِ الأَمانيّ، وما هي إلّا ظنونٌ باطلة يَظُنّونَها، ليس لها أيُّ نسبةٍ إلى العلمِ.

صيغةُ المضارعِ تفيدُ التجدّدَ:

ظنونُ اليَهودِ المعبِّرةُ عن كذبِهم مُستمرَّةٌ ومتجدّدةٌ

أتى النَّظمُ بالخبرِ فعلًا مضارعًا، ولم يأتِ بصيغةِ اسمِ الفاعلِ؛ لإفادةِ حدوثِ الظّنِّ وتجدّده شيئًا فشيئًا، فليسُوا ثابتين على ظنٍّ واحدٍ، بل ظنونُهم تتجدّدُ، ممَّا يدلُّ على اضطرابِ عقائدِهم واختلافِ أهوائِهم، وأنَّهم يستمرُّونَ في أكاذيبَ يبتدعونَها، وظنونٍ يختلقونَها أو يختلقُها لهم أحبارُهم[2]، وأفادَ مجيءُ الخبرِ جملةً

(1) الفخر الرازي، التّفسير الكبير: 3/564.

(2) أبو حيان، البحر المحيط: 1/445.

فعليَّةً فائدةً أخرى هي تقويَةُ الحكم؛ فإنَّ المسندَ إليه ﴿هُمْ﴾ قدْ تكرّرَ بذكرِ الضَّميرِ في ﴿يَظُنُّونَ﴾؛ لأنّه يعودُ على ﴿هُمْ﴾، فآذَنَ باكتساءِ الحكم (يظنّ) قوّةً وتقريرًا، والمرادُ تحقيقُ الأمرِ عندَ المخاطَبِ أنّ الاتِّصافَ بالظّنِّ ملازمٌ لهم، وأنّ هذا دأبُهم، وأنّه قد تمكَّنَ من أنفسِهم، وقد أشارَ علماءُ البلاغةِ إلى هذا الوجهِ البلاغيّ في مثلِ هذهِ الأساليبِ[1].

دلالة حذفِ مفعولَي (ظنَّ):

فيكون الحذفُ للاقتصار، وذلك بمعاملة الفعلِ المتعدّي معاملةَ اللّازم[2]، وهذا الوجهُ أولى لمناسبتِه لِقوله ﴿أُمِّيُّونَ﴾؛ فالأمّيّ لاعِلمَ له، وقُصارى أمرِه هو الظّنّ الّذي صارَ كأنَّهُ وصفٌ لازمٌ له، باعتبار أنَّ الفعلَ قُصِدَ به اللّزومُ، مثل: (فلانٌ يأمرُ وينهى ويُعطي ويَمنعُ)، فأكثرُ ما يكونُ عليه من الاعتقادِ هو الظَّنُّ الّذي لا يُغني من الحقِّ شيئًا، حتى صارَ الظَّنُّ خبرًا عنهم.

يحتملُ حذفُ مفعولي (ظنّ) أنْ يكونَ للاقتصارِ أو للعلمِ بهما

أو يكون من بابِ الحَذفِ للعلمِ بالمحذوفِ من السّياقِ إيجازًا؛ أي يظنّون أنّهم يعلَمُون الكتابَ.

(1) عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص: 129، والسكاكي، مفتاح العلوم: 223-221.

(2) السمين، الدر المصون: 1/449.

﴿فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ يَكۡتُبُونَ ٱلۡكِتَٰبَ بِأَيۡدِيهِمۡ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشۡتَرُواْ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلٗاۖ فَوَيۡلٞ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتۡ أَيۡدِيهِمۡ وَوَيۡلٞ لَّهُم مِّمَّا يَكۡسِبُونَ ٧٩﴾ [البقرة: 79]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

دلَّت (الفاءُ) على أَنّ ما بعدها مُسبَّبٌ عمَّا قبلها مترتِّبٌ عليه؛ لمَّا بَيَّن حالَ الّذين يُحرِّفون كلامَ اللّه عن عمدٍ، وإضلالهم الأمّيّين الذين لا يعلَمُون الكتابَ المُتمسّكين بحبالِ الأَمانيّ واتّباعِ الظّنِّ، رُتِّبَ عَلَيْهِ إنشاءُ استِفظَاعِ حالِهِم، وَأُعِيدَ فِي خِلَالِ ذَلِكَ مَا أُجمِلَ فِي الكَلامِ المَعْطُوفِ عَلَيْهِ إِعَادَةَ تَفْصِيلٍ[1].

ولا شيءَ يترتَّبُ على قبيحِ تحريفِ كلامِ اللّه مثلُ دعاءِ اللّه تعالى عليهم بالوَيلِ، فاستحقّوا الهلاكَ بأنواعِهِ، واستأهلوا سوءَ الحالِ بضروبِه، وكلُّ هذا مُترتِّبٌ على شناعةِ فعلِهم.

قال جمال الدّين القاسميّ في بيان وجه المناسبة: "ولَمّا بَيَّنَ حالَ هَؤُلاءِ في تَمَسُّكِهِمْ بِحِبالِ الأمانيِّ واتِّباعِ الظَّنِّ، عَقَّبَ بِبَيانِ حالِ الَّذِينَ أَوْقَعُوهم في تِلْكَ الوَرْطَةِ، وهُمُ الدُّعاةُ إلى الضَّلالِ بِالزُّورِ والكَذِبِ عَلى اللَّهِ، وأَكْلِ أَمْوالِ النّاسِ بِالباطِلِ، فَقِيلَ عَلى وجْهِ الدُّعاءِ عَلَيْهِمْ: ﴿فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ يَكۡتُبُونَ ٱلۡكِتَٰبَ بِأَيۡدِيهِمۡ﴾[2].

شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

1) ﴿فَوَيۡلٞ﴾: المعنى المحوري لـ(وَيْل) يدورُ على إعلانٍ بإيقاعِ عاقبةٍ مهلكةٍ لعملٍ أو تَصَرُّفٍ: وعيدًا أو نُدبةً واستغاثةً أو تحذيرًا أو ما إلى ذلك.

والويلُ يأتي بمعنى الحُزْنِ والهلاكِ والمشقَّةِ من العذابِ، فيقصدُ بالكلمةِ في الوعيد حلولُ الشرِّ، وكلُّ مَن وَقع في هَلَكة يستحقّها دَعا بالوَيْل، ويُقصدُ به في النُّدبةِ وغيرِها الحُزنُ، وقد يَرِدُ بمعنى التعجّب[3]، و(ويلٌ) في الآيةِ بمعنى الدُّعاءِ بالهلاكِ[4].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/575.
(2) القاسمي، محاسن التأويل: 1/338.
(3) ابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (ويل).
(4) السجستاني، غريب القرآن، ص: 478.

2) ﴿لِيَشۡتَرُواْ﴾: أصله (شَرَى)، ويَدُلُّ عَلَى تَعَارُضٍ مِنَ الاثنَينِ في أَمْرَينِ أَخذًا وَإِعطَاءً مُماثَلَةً، وَمِمَّا يَدُلُّ عَلَى المُماثَلَةِ قَولُهُمْ: هَذَا شَرْوَى هَذَا، أَيْ مِثْلُهُ؛ ولأَنَّ الأصلَ يدلّ على المماثلة اسْتُعمِلَ اللفظُ في البيعِ والشِّراء معًا، والغالبُ أنْ يكونَ الشّراءُ بمعنى إعطاءِ الثَّمنِ وأخذِ المُثَّمنِ، والبيعُ بمعنى إعطاءِ المُثَمَّن وأخذِ الثّمَنِ، والغالبُ كذلك استعمالُ اشتَرَى بمعنى الشِّراءِ، و شَرَوا بمعنى البيع [1].

3) ﴿ثَمَنٗا﴾: يدلُّ على ما يُسْتَحَقُّ به الشَّيءُ؛ أي هو عِوَضُ ما يُباعُ، وصارَ الثَّمَنُ اسمًا لِمَا يأخذُه البائِعُ في مقابلةِ البيعِ، عَينًا كانَ أو سِلعَةً، وكلُّ ما يَحصلُ عِوَضًا عن شيءٍ فهو ثَمَنُهُ[2].

4) ﴿يَكۡسِبُونَ﴾: أصلُ الكلمةِ يَدُلُّ عَلَى ابْتِغَاءٍ وَطَلَبٍ وَإِصَابَةٍ، ومنه الكَسْبُ: طَلَبُ الرِّزْقِ، وقد يُستعملُ فيما يظنُّ الإنسانُ أنّه يجلِبُ منفعَةً، ثمّ استجلَبَ به مضرّةً، ويستعملُ في فعل الصالحاتِ والسيّئاتِ، والكَسْبُ يقالُ فيما أخذَهُ لنفسِهِ ولغيره، والاكْتِسَابُ لا يقالُ إلّا فيما استفاده لنفسِهِ[3].

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

بَيّنَتِ الآيةُ أَنَّ الهلاكَ واقعٌ لامحالةَ لأحبارِ السُّوءِ من اليَهودِ الذينَ يكتبونَ الكتابَ بأيديهم، ثمَّ يقولونَ: هذا مِنْ عندِ اللّهِ، وهو مخالِفٌ لِمَا أنزلَ اللّهُ على نبيِّهِ موسى - عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ- لِيأخذُوا في مقابلِ هذا عَرَضَ الدُّنيا، فلهُم عقوبةٌ مُهلِكةٌ؛ بسببِ تحريفِهم الكتابَ بأيدِيهم، ولهُم عقوبةٌ مهلِكةٌ أشنعُ وأشدُّ؛ بسببِ نسبةِ ما يكتبونَه إلى اللّهِ - ﷻ -، ولَهم الويلُ على ما يأخذونَه في المقابلِ من المالِ الحَرامِ، كالرَّشوةِ وغيرِها، فما أَغباهُم وما أَشقاهُم؛ إذِ اشتَرَوا النَّفعَ الحَقيرَ العاجلَ الزائلَ بالأجرِ العظيمِ الآجلِ الدَّائمِ[4].

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (شرى).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (ثمن).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات: (كسب).
(4) نخبة من العلماء، التفسير الميسَّر، ص: 12.

الإيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

دلالة (الفاءِ) على السّبَبِيَّةِ:

تـرتُّـبُ عـقـابِ الـلـهِ لـلـيَـهـودِ عـلى أفعالِـهـم الـقـبـيـحـةِ وافترائِـهـم على اللهِ

أفادت الفاءُ أنَّ ما قبلَها سَببٌ لِمَا بعدَها؛ أي تَرَتَّبَ استحقاقُ اليهودِ الهلاكَ بسببِ أفعالِهم القبيحةِ الشَّنيعةِ من تحريفِ التَّوراةِ ونسبتِها إلى اللّهِ تعالى، استفظاعًا لحالِهم[1].

بلاغةُ التَّعبيرِ بالاسْمِ المَوصولِ دون الاسمِ الظَّاهِرِ:

بـيـان هَـلاكِ الـيَـهـودِ بسببِ تحريفِهم كتابَ اللهِ ونسبتِه إلى الله

قال تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ﴾، ولَم يقل: فويلٌ لليَهود، أو فويلٌ لأهلِ الكتابِ؛ لبيانِ وجهِ الحكمِ عليهم بالويلِ والهلاك، فلو قال: الويلُ لليهودِ، لَمَا علمنا سببَ هذا الوعيدِ، فلَمَّا جاءتْ جملةُ الصِّلةِ ﴿يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ﴾، عَلِمْنا أَنَّ سببَ الحكمِ عليهم بالويلِ هو أَنّهم كانوا يكتبونَ الكتابَ بأيديهم، ثمَّ يدّعونَ نسبتَه إلى اللّهِ ﷻ؛ فيكون تأكيدًا وتقريرًا لِمَا أفادته الفاءُ السَّببيَّةُ مِن تَرَتُّبِ الحكمِ على تحريفِ كلامِ اللّهِ، ونسبتِه إليه.

دلالة صيغةِ الفعلِ المضارعِ ﴿يَكْتُبُونَ﴾:

أفادت صيغةُ المضارعِ تجدّدَ الحُدوثِ واستمراريَّتَهُ، فيفيدُ تجدّدَ الحكمِ عليهم بالويلِ، بتجدّدِ تحريفِهم أو بتجدّدِ نسبة المحرَّفِ إلى اللّهِ تعالى واستمراريّتِه.

(أَلْ) في ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ للعَهدِ العلميِّ:

تحريفُ كتابِ اللهِ عظيمُ الخَطَرِ وقلَّما يُنسَى

(أَلْ) في ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ للعهدِ العلمِيِّ (العهد الذّهنيّ)، للإشارةِ إلى الكتابِ المحرَّف[2]؛ لأَنّ تعليقَ الوَيلِ على كتابةِ الكتابِ يقتَضِي أَنْ يكونَ الكتابُ مُحرَّفًا، ولعلَّ الزَّمخشريَّ قصدَ العهدَ العلميَّ أكثرَ ممَّا قصدَ حذفَ الصِّفة حينَ قدَّر "الكتاب المحرَّف"[3]، فعدمُ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/575.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/120.
(3) الزمخشري، الكشاف: 1/157.

التَّقديرِ أولى من التَّقديرِ؛ فالقولُ بأَنَّ (أَلْ) للعهدِ الذِّهنيِّ أولى وأوفَقُ بالسّياقِ، والإشارةُ إلى العهدِ الذّهنيِّ له وجهٌ بلاغيٌّ[1]، إمَّا لأَنّ تحريفَ الكتابِ عظيمُ الخَطَرِ، فكأَنّه قلَّما يُنسى، وإمَّا لكثرةِ جَرَيانِ تحريفِ اليَهودِ للتَّوراةِ في القرآنِ، ولا سيَّما أَنّه قد ذكرَ في السِّياقِ أَنّهم كانوا يَسمعونَ كلامَ اللّهِ ثُمَّ يحرِّفونَه، فكأَنّه لا يَغيب عن المُخاطَب.

بلاغةُ الإطنابِ في الآيةِ:

تأكيدُ نسبةِ الفعلِ إلى فاعلِه ودَفْعِ المجازِ

جاءت كلمةُ ﴿بِأَيْدِيهِمْ﴾ على طريقِ الإطنابِ؛ لأنَّ الكتابةَ تكونُ باليَدِ، وأفادَ ذكرُ ﴿بِأَيْدِيهِمْ﴾ تأكيدًا وتقريرًا؛ لبيانِ هولِ التَّحريفِ وفظاعتِهِ وإثباتِ جرأتِهم بمباشرتِهم الأمرَ بأَنفسِهم، ولرفعِ تَوَهُّمِ مجازِ أنْ يكونُوا قد أَمرُوا غيرَهم به، فذِكرُ ﴿بِأَيْدِيهِمْ﴾ تأكيدٌ وهو من محازِّ التَّأكيدِ، كما تقولُ لِمَنْ يُنكِرُ معرفةَ ما كتبَهُ: يا هذا كتبتَه بيمينِكَ هذهِ[2]، ومنهُ قولُه تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾ [الأنعام: 38]؛ فدلّ ذكرُ أيديهم على قبيحِ جُرمِهم؛ إذِ المتولّي للفعلِ أشدُّ مواقعةً ممَّن لم يتولَّه، وإنْ كان رَأيًا لهُ، وفَرْقٌ بين مَنْ كَتَب وبين مَنْ أَمَر[3].

فائدةُ العطْفِ بين جملِ صِلةِ المَوصولِ:

استحقاقُ اليهودِ الوَيلَ للتَّحريفِ والافتراءِ

جاءت العقوبةُ بالويلِ على مجموعِ المعطوفِ عليه والمعطوفِ ﴿لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾؛ فالعقوبةُ على التَّحريفِ، وعلى نسبةِ التَّحريفِ إلى اللّهِ تعالى؛ أي: "على الأمرين كَمَنْ يكتبُ عقودًا يضربُ فيها على الخطوطِ والشَّهاداتِ ويُخَلِّيها عندَه، فإنَّه قد ارتكبَ مَحظورًا، فإنْ أظهرَها

(1) السكاكي، مفتاح العلوم، ص: 215.
(2) الزمخشري، الكشاف: 1/157-158.
(3) الرازي، التّفسير الكبير: 3/565، وابن عطية، المحرر الوجيز: 1/170.

ونسبَها إلى تلك الشُّهودِ وطالبَ بها فهو قد فعلَ محظورًا آخرَ"[1]، ففصلَ بينهما بحرفِ العطفِ، لِيكونَ الويلُ مُتَعَلِّقًا بكلٍّ واحدٍ منهما، فكيفَ بِمَنْ يفعلُ الأمرينِ معًا؟!

دلالة ﴿ثُمَّ﴾ على التَّرتيبِ في المنزلةِ:

تفيدُ (ثمَّ) في الآيةِ التَّرتيبَ والتَّراخيَ في الرُّتبةِ والمنزلةِ وليس التَّرتيبَ في الزَّمنِ؛ فجاءت (ثمَّ) لبيانِ بُعدِ ما بينَ منزلةِ الكَتْبِ والقولِ[2]، على اعتبار أَنّ منزلةَ نسبةِ المحرَّفِ إلى اللّهِ أشنعُ من منزلةِ كتابةِ المحرَّفِ، قال ابن عاشور: "(ثمَّ) لِلتَّرْتِيبِ الرُّتبِيِّ؛ لِأَنّ هَذَا القَولَ أُدْخِلَ فِي اسْتِحْقَاقِهِمُ الوَيلَ مِنْ كِتَابَةِ الكِتَابِ بِأَيْدِيهِمْ؛ إِذْ هُوَ المَقصُودُ، وَلَيْسَ هَذا القَولُ مُتَرَاخِيًا عَنْ كِتَابَتِهِمْ مَا كَتَبُوهُ فِي الزَّمَانِ بَلْ هُمَا مُتَقَارِنَانِ"[3].

بلاغةُ وَضعِ اسمِ الإشارةِ موضعَ الضَّميرِ:

مجيءُ اسمِ الإشارةِ لإقامةِ الحجَّةِ على ما كانُوا يَفتَرونَهُ

وُضِعَ اسمُ الإشارةِ ﴿هَٰذَا﴾ موضعَ الضَّميرِ (هو)؛ لكمالِ العنايةِ بتمييزِهِ وتعيينِه[4]؛ أي: هذا كتابُ اللّهِ، وليس غيرَهُ؛ للإشارةِ إلى ما كَتَبُوه بأيديهم، واستعمالُ اسم الإشارَةِ ﴿هَٰذَا﴾ للإشارةِ إلى المَحسوسِ، الذي يُمَيِّزُ المقصودَ أكملَ تمييزٍ؛ كي لا يدخلَ الشَّكُّ في نفوسِ أتباعِهم، فكأَنّهم كانوا يُمْسِكونَ الكتابَ المحرَّفَ بأيديهم، وهم يُخاطِبونَ النَّاسَ لإقناعِهم بهذا الافتراءِ الشَّنيعِ.

دلالة اللَّامِ في ﴿لِيَشْتَرُواْ﴾:

تحتملُ اللَّامُ أنْ تكونَ تعليلًا لقولهم ﴿هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾، وإليه ذهبَ أبو حيّان وغيرُه[5]، وتحتملُ أنْ تكونَ تعليلًا للقولِ والكتابةِ كلًّا على حدَةٍ؛ ولاسيَّما أَنّ الكتابةَ والقولَ كانا مُقترنين كما تقدّمَ عن ابنِ عاشورٍ، فيكونُ التَّعليلُ للأمرينِ معًا، وهذا المعنَى أعمُّ من الأوّلِ، فهم يكتُبُون الكِتابَ المحرَّفَ لِيشتَرُوا به ثمنًا قليلًا، وينسبونَه إلى اللّهِ لِيَشتَرُوا به ثمنًا قليلًا، فهذا التوجيهُ هو الظَّاهرُ والأنسبُ بالسِّياقِ؛ لبيان شدّةِ حرصِهم على عَرَضِ الحياةِ الدُّنيا.

---

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/350.

(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/349، والآلوسي، روح المعاني: 1/303.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/576.

(4) السكاكي، مفتاح العلوم، ص: 197.

(5) أبو حيان، البحر المحيط: 1/447، والآلوسي، روح المعاني: 1/303.

معنى الباء ودلالة تقديمِه في قولِهِ تعالى: ﴿لِيَشۡتَرُواْ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلٗاۖ﴾:

قُدِّمَ الجارُّ والمجرورُ (به) على المفعولِ بهِ في قولِه تعالى: ﴿لِيَشۡتَرُواْ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلٗاۖ﴾؛ لإفادةِ الاهتمامِ به؛ لبيانِ عِظَمِ جُرمِ التَّحريفِ ونسبتِه إلى اللّٰه وقباحةِ هذا الفعلِ، وأفادَ حرفُ الجَرِّ (الباء) المُقابَلَةَ[1]؛ لأَنَّ الكلامَ في سياقِ أخذِ ثمنِ الكتابِ المُحرَّفِ المنسوبِ إلى اللّٰهِ تعالى؛ أي: لِيشتَرُوا في مُقابلِ ما قدّموه ثمنًا قليلًا.

دلالة الفاءِ في قوله ﴿فَوَيۡلٞ لَّهُم﴾:

جاءت (الفاءُ) في قولِه تعالى: ﴿فَوَيۡلٞ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتۡ أَيۡدِيهِمۡ﴾؛ لِتفصيلِ ما أُجمِلَ في قولِه: ﴿فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ﴾؛ للدّلالة على أَنَّ ثبوتَ الويلِ ليسَ لمجموعِ فعلِهم، بل لِكلِّ فعلٍ ويلٌ له خاصٌّ به، إمعانًا في هلاكِهم.

لكلّ فعلٍ جزاؤُه الخاصُّ بِهِ

بلاغةُ تكرارِ ﴿وَيۡلٞ﴾ في الآيةِ:

وردت كلمةُ ﴿وَيۡلٞ﴾ نكرةً؛ لِتفيدَ أَنَّ الويلَ في قولِه تعالى ﴿وَوَيۡلٞ لَّهُم﴾ غيرُ الّذي قبلَه، فلِكُلِّ فعلٍ زجرٌ وعقوبةٌ خاصَّةٌ به؛ ولِيفيدَ التَّنصيصَ على العلَّةِ كذلك[2]، فقال تعالى: ﴿فَوَيۡلٞ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتۡ أَيۡدِيهِمۡ﴾، فبيّنَ هنا أَنّهم استَحَقُّوا الويلَ لِأَجلِ مَا وَضَعُوهُ وما حرّفُوه، ثمّ قال: ﴿وَوَيۡلٞ لَّهُم مِّمَّا يَكۡسِبُونَ﴾، فبيّن أَنّهم استحَقُّوا الويلَ لِأَجلِ مَا اكۡتَسَبُوهُ مِنۡ جَرَّاءِ ذَلِكَ، فَهُوَ جَزاءٌ بِالشَّرِّ عَلَى الوَسِيلَة وهي ما كتَبُوه، وَعَلَى المَقۡصِدِ وهو ما اكتَسَبُوه من الثَّمنِ القَليلِ[3].

الجزاءُ بالشرِّ على الوَسيلةِ وعلى المَقصِدِ

سِرُّ مخالفةِ الصِّيغةِ الزَّمنيةِ في الفعلينِ ﴿كَتَبَتۡ﴾ و﴿يَكۡسِبُونَ﴾:

جاءَ الفعلُ (كَتَبَ) بصيغةِ الماضي؛ لِيدلَّ على أَنَّ فعلَ التَّحريفِ انتهَى، وقدِ اسۡتَحَقُّوا الوَيلَ عليه، وأَمَّا الفعلُ ﴿يَكۡسِبُونَ﴾ فجاءَ

تجدُّدُ الكَسبِ المحرَّمِ بثباتِ التَّحريفِ

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/120.

(2) الآلوسي، روح المعاني: 1/303.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/577.

مضارعًا؛ لِأنَّه قصدَ بهِ استمرارَ الاكتِسابِ حالًا فحالًا[1]، فهُمْ قد سَنُّوا هذهِ السُّنّةَ السَّيئةَ فعلَيهم وِزرُها وَوِزرُ مَنْ عَمِلَ بها إلى يومِ القيامة[2].

دلالة حَرْفِ الجَرِّ (مِنْ):

اجتماعُ معنى السَّببيَّةِ والابتداءِ

أفادَ حرفُ الجرِّ (مِنْ) هنا تكثيرَ المعنى؛ ففي قولِه تعالى: ﴿مِّمَّا كَتَبَتْ﴾ و﴿مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾ دلّ حرف الجرِّ (مِنْ) على التَّعليلِ مَضمومًا إليه دلالة الابتداءِ الّتي هي الأصلُ في معنى (مِنْ)، والمعنى: الويلُ لَهم منذُ أَنْ بدَؤُوا كتابةَ الكتابِ المُحرَّفِ، وبسببِ كتابتِهم، وكذلك القولُ في ﴿مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾، والمعنى: الويلُ لَهم منذُ أَنْ أخذوا أوَّلَ ثَمَنٍ على فعلِهم، وبسببِ استمرارِهم على كَسبِهمُ الثَّمَنَ القليلَ.

تردُّدُ (ما) بين الموصوليَّةِ والمصدريّةِ:

الويلُ للفعلِ الحرامِ ولِلثَّمنِ الحرامِ

إذا كانت (ما) اسمًا موصولًا فيكونُ العائدُ محذوفًا، والتَّقديرُ: (ممَّا كَتَبَتْهُ أيديهم وممَّا يَكْسِبونَه)؛ بمعنى: الويلُ لَهم بِسببِ كتابَتِهم بأيديهم الكتابَ المحرَّفَ، والويلُ لهم بِسببِ الثَّمنِ الذي يأخذونَهُ، فيكونُ الزَّجرُ أدخلَ في تعاطي المحرَّفِ وهو الكتابُ، وإذا كانتْ (ما) مصدريةً، فتكونُ بتقديرِ (مِنْ كتابتِهم ومِنْ تكسُّبِهم) بمعنى: الويلُ لهم بِسببِ فعلِهم الكتابةَ، والويلُ لهم بِسببِ تكسُّبِهم وأَخذِ الثَّمنِ مُقابلَ عملِهم، وهذا الوجهُ أدخلُ في الزَّجْرِ عن التَّحريفِ وهو فِعلُهُ[3]، كما أنَّ هذا الوجهَ يتضمَّنُ دعاءً بالهلاكِ على الثَّمنِ الحرامِ الذي أَخذوه، فهوَ أوسعُ معنًى.

(1) السكاكي، مفتاح العلوم، ص: 247.
(2) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 1/241.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 1/303.

﴿وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعۡدُودَةٗۚ قُلۡ أَتَّخَذۡتُمۡ عِندَ ٱللَّهِ عَهۡدٗا فَلَن يُخۡلِفَ ٱللَّهُ عَهۡدَهُۥٓۖ أَمۡ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ٨٠﴾ [البقرة: 80]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لـمَّا ذكرَ اللّٰه أفعالَ اليهودِ القبيحةَ؛ مِنْ تحريفِهم كتابَ اللّٰهِ ونسبتِه إلى اللّٰهِ تعالى، وظنّهم أَنَّهم كَسبُوا ما حَصَلوا عليه مِنَ الثَّمنِ القليلِ، عطفَ عليه ما بيَّنَ بِسببِهِ جُرأتَهم على هذهِ الأفعالِ، وعدم اكتراثِهم بِما يَرتكبونَه مِنَ القبائحِ [1]، فقال تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ﴾، والآيةُ في الوقت نفسه إخبارٌ عن نوعٍ آخرَ مِنْ جناياتِهم، وهو ادّعاؤُهم أنَّ النّارَ لا تَمسُّهم إلَّا أَيّامًا مَعدودةً، فاجتمعَ عليهم قُبحُ الفعلِ بتحريفِ كتابِ اللّٰهِ ونسبتِهِ إلى اللّٰهِ، وقُبحُ القولِ وكَذِبُهُ، بادِّعائِهم أَنّهم لا تَمسُّهم النَّارُ في الآخرةِ إلّا أَيَّامًا معدودةً قليلةً[2].

شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

1) ﴿وَقَالُواْ﴾: القولُ هنا يدلُّ على الاعتِقاد؛ لأَنّ الأصلَ في القولِ أَن يكونَ صِدقًا وعلى وفقِ الاعتِقادِ[3].

القائل: هم بنو إسرائيل.

2) ﴿تَمَسَّنَا﴾: المسُّ يُقالُ في كلِّ ما يَغشاه الإنسانُ فيما يكونُ معه إدراكٌ بحاسّةِ اللّمسِ، ويقالُ في كلِّ ما يَنالُ الإنسانَ من أذًى، وأوّلُ درجاتِ الأذى يقالُ له مَسٌّ، وهو أقلّ تمكُّنًا من الإِصَابَة، وَهُوَ أقلُّ درجاتِها، ومنه قوله تعالى: ﴿ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ﴾ [القمر: 48]؛ أي: أوَّلَ ما يَنالُكُمْ منها[4].

3) ﴿أَيَّامًا﴾: اليومُ يُعبَّرُ بِهِ عن وقتِ طلوعِ الشَّمسِ إلى غروبِها، وقد يعبَّرُ بِهِ عن مدّةٍ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 1/494.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/579.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/579.
(4) الأزهري، تهذيب اللغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، والكفوي، الكليات: (مسس).

من الزَّمانِ؛ أيَّ مدّةٍ كانت، وأيَّامٌ على وزنِ أَفْعال، وهو جمعُ قلَّةٍ يتناولُ من الثَّلاثةِ إلى العَشرةِ، واليوم في الآيةِ يُقصَدُ به مدّةُ اليومِ المعروفِ[1].

4) ﴿مَّعۡدُودَةٗ﴾: أصلُ الكلمةِ من (عدّ)، وهو ضَمُّ الأعدادِ بعضِها إلى بعضٍ، وهو الإحصاءُ، و﴿أَيَّامٗا مَّعۡدُودَةٗ﴾ بمعنى محصورةٍ في أيَّامٍ قليلة؛ لأنّ كلمةَ أيامٍ لا تُضافُ إلَّا إلى العشرَة فَمَا دونهَا لَا إِلَى مَا فَوْقهَا. وَقَولُه تَعَالَى: ﴿أَيَّامٗا مَّعۡدُودَٰتٖ﴾ قدّروها بسبعَةِ أَيَّام[2]، ومنه قولُه تعالى: ﴿وَشَرَوۡهُ بِثَمَنِۭ بَخۡسِ دَرَٰهِمَ مَعۡدُودَةٖ﴾ [يُوسُف: 20]، وقد شاعَ في العُرفِ والعوائدِ أَنَّ كلمةَ المعدودِ تدلُّ على القلَّةِ أو ما يحصرُها العددُ، وذهب بعضُ المفسّرينَ إلى أنَّ الأيامَ هنا محدودةٌ بسَبعَةِ أيّامٍ أَوْ أَرْبَعينَ يومًا، لمناسباتٍ معيّنةٍ[3].

5) ﴿عَهۡدٗا﴾: يدلُّ في الأصلِ على الاحْتِفَاظ بِالشَّيْءِ، وَإِحْدَاث العَهْدِ بِهِ ومراعاتِه حالًا بعدَ حالٍ، وسُمِّيَ المَوثِقُ الّذي يلزمُ مراعاتُه عَهْدًا، وعَهِدَ فلانٌ إلى فلانٍ يَعْهَدُ؛ أي: ألقى إليه العهدَ وأوصاهُ بحفظِه، قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ عَهِدۡنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ﴾ [طه: 115]، والعهدُ لا يكونُ إلّا مؤكَّدًا[4]، والتعهُّدُ: الاحتفاظُ بالشَّيءِ وتجديدُ العهدِ به.

والعهدُ في الآيةِ يحتملُ أَنْ يكونَ بمعنَى الوَعدِ المؤكَّدِ والميثاقِ المحفوظِ على ما تدَّعونه، ويحتملُ أَنْ يكونَ المقصودُ هو الإيمانَ والعملَ الصالحَ[5]، والأوَّل أولى لمناسَبَتِه للسّياقِ.

6) ﴿يُخۡلِفَ﴾: مادة (خَلَفَ) تأتي لمعانٍ منها التغيّرُ وخلافُ القدّام، ومن التغيُّر إخلافُ الموعِدِ، يقال: وَعَدَني فأخلَفَني؛ أي: خالَفَ في الميعادِ، ومنه قوله تعالى: ﴿بِمَآ أَخۡلَفُواْ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ﴾ [التوبة: 77]، والخُلفُ يكونُ في المُسْتَقبَلِ كالكَذِبِ في الماضي، أو هو أَنْ تَعِدَ عِدَةً ولا تُنْجِزَها[6].

(1) الرّاغب، المفردات: (يوم).
(2) الأزهري، تهذيب اللغة، والرّاغب، المفردات، والكفوي، الكليات: (عدد).
(3) أبو حيان، البحر المحيط: 1/448.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات: (عهد).
(5) ابن عطية، المحرر الوجيز: 1/171.
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات ألفاظ القرآن، والفيروزابادي، القاموس المحيط: (خلف).

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

وقال بَنُو إسرائيلَ مُعتقدِين جازِمينَ بقولهم: لنْ تصيبَنا النَّارُ في الآخرة إلّا أيامًا قليلةً مَقْضيَّة؛ فإذا انقضَت انقطعَ عنهم العذابُ، فأمرَ اللّهُ رسولَه أنْ يقولَ لهم - مبطِلًا دعواهم - : أَعِندَكُم عهدٌ مِنَ اللّهِ بهذا، فإنَّ اللّهَ لا يُخلِفُ عهدَهُ؟ فإذا كانُوا لم يتّخذُوا عندَ اللّهِ عَهدًا، لا بِوعدٍ مؤكّدٍ بينَهم وبينَ اللّهِ تعالى، ولا بعملٍ صالحٍ يوجِبُ ذلك، فما قولُهم إلَّا كَذِبٌ وافتراء[1].

الإِيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

التعبير بالإفراد في الأيام:

إيجاز القول يناسبه الإفراد

جاء وصفُ ﴿أَيَّامًا﴾ مفردًا في آية البقرة، وجمعًا في آية آل عمران، في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ ۖ وَغَرَّهُمْ فِى دِينِهِم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [آل عمران: 23-24]، والفرقُ بينهما: أنَّه لـمَّا كانت آيةُ آلِ عمرانَ فيها بَسطٌ لحالِهم على سوءِ مرتكبِهم، ولم يقعْ في سورةِ البقرةِ تَعرُّضٌ لشيءٍ مِنْ ذلكَ، بَلْ أَوجزَ القولَ ولـمْ يذكرْ سَبَبَهُ فناسبَ الإفرادُ الإيجازَ، وناسبَ الجمعُ الإسهابَ[2]، كما أَنَّ سياقَ آيةِ آلِ عمرانَ أشدُّ زجرًا لليَهودِ لشناعةِ أفعالِهم المذكورةِ في سياقِ آيةِ آلِ عمرانَ، ففيها ذكرُ كفرِهم بآياتِ اللّهِ وقتلِهم النَّبيّينَ، والذين يأمرونَ بالقسطِ من النَّاسِ، وتولِّيهم عنْ حكمِ رسولِ اللّهِ مُحمَّدٍ ﷺ، فناسبَ أَنْ يقولَ ﴿مَّعْدُودَٰتٍ﴾.

سببُ إيثارِ كلمة ﴿أَتَّخَذْتُمْ﴾:

ذَكَرَ ﴿أَتَّخَذْتُمْ﴾ ولم يقلْ: أَعَاهَدْتُمْ اللّه أَوْ أَعَاهَدَكُمُ اللّهُ، لِمَا فِي دلالة الاتِّخَاذِ مِنْ تَوْكِيدِ العَهْدِ[3].

(1) الشوكاني، فتح القدير: 1/123، ونخبة من العلماء، التفسير الميسر، ص: 12.
(2) ابن الزبير، ملاك التأويل: 1/47.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/580.

معنى الاستِفْهامِ في قولِه: ﴿أَتَّخَذْتُمْ﴾ و﴿أَمْ تَقُولُونَ﴾:

تنوّعُ المَعاني لتوسُّعِ التَّوجيهِ البَلاغيِّ

لمعنى همزةِ الاستِفهامِ في قولِه تعالى: ﴿أَتَّخَذْتُمْ﴾ ثلاثةُ توجيهاتٍ:

أولًا: يحتملُ الاسْتِفهامُ أَنْ يكونَ إنكاريًّا توبيخيًّا، وتقديرُ الكلامِ: أتّخذتُم عندَ اللّهِ عهدًا أم أتقولُون على اللّهِ ما لا تعلمون؟ أي: قُلتُم ما قلتُمُوه وأنتُم تعلَمُون خلافَه، فانتَفَى الأمران، وعُلِم أَنَّ الكائنَ غيرُ ما ادَّعوه[1].

ثانيًا: يحتملُ أنْ يكونَ الاسْتِفهامُ في المَوضِعين تقريريًّا، ويكونُ الدّليلُ استدلاليًّا، والمعنى: إنَّ هذا القولَ لا يصدرُ إلَّا عن أحدِ أمرين: إمّا اتّخاذُ عهدٍ من اللّه، وإمَّا افتراءٌ وتقوّلٌ عليه، وَأَخْرَجَ ذَلِكَ مُخْرَجَ المُتَرَدَّدِ فِي تَعْيِينِهِ عَلَى سَبِيلِ التَّقْرِيرِ؛ فإذا كانَ اتّخاذُ العهدِ لم يحصُل، فأنتم تَفتَرُون على اللّه، فاستلزَمَ هذا الدّليلُ العقليُّ إلجاءَهم إلى الاعترافِ بأصدقِ الأمرين، وهو أنّهم يقولُون على اللّه ما لا يعلمون، وَنَظِيرُهُ: ﴿وَإِنَّآ أَوۡ إِيَّاكُمۡ لَعَلَىٰ هُدًى أَوۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ [سبأ: 24]، وَقَدۡ عُلِمَ أَيُّهُمَا عَلَى هُدًى وَأَيُّهُمَا هُوَ فِي ضَلَالٍ[2]، فيكون من الأسلوبِ المنصِفِ الّذي يُؤتى بهِ لتشكيكِ السّامعِ، فيرجِعُ إلى نفسِهِ ويخضعُ للحقِّ[3]، وقد جيءَ بهِ هنا ليرجِعُوا إلى أَنْفسهم، فيتيقَّنُوا أَنْ لا عهدَ لهم عندَ اللّه، وأَنَّهم يفْتَرونَ على اللّه الكذبَ.

ثالثًا: يحتملُ أَنْ يكون الأول إنكاريًّا والثّاني تقريريًّا، والمعنى: يُنكِرُ عليهم اتِّخاذَ عهدٍ عندَ اللّهِ، ويُقرُّهم توبيخًا على أَنَّهم يقولون على اللّهِ ما لا يَعلَمُون، حين قالوا: لن تمسَّنا النَّار إلّا أيَّامًا معدودةً قليلةً منقضيةً[4].

دلالة (الفاء) بين السَّببيّةِ والفصيحَةِ في قوله ﴿فَلَن يُخۡلِفَ ٱللَّهُ عَهۡدَهُۥٓۖ﴾:

أفادت الفاءُ السَّببيَّةَ، بترتُّبِ ما بعدَها على ما قبلَها؛ أي: يترتّبُ على اتّخاذِ العهدِ عندَ اللّهِ أَنْ لا يُخلِفَ اللّهُ عهدَه[5]، وذهبَ بعضُ المفسِّرين إلى أنَّ الفاءَ هي الفصيحةُ التي

(1) الرازي، التّفسير الكبير: 3/567-668، والبقاعي، نظم الدرر: 1/496.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 1/449، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/580.
(3) السكاكي، مفتاح العلوم، ص: 246، والدسوقي، حاشية الدسوقي على مختصر المعاني: 1/621.
(4) الزمخشري، الكشاف: 1/158.
(5) الطيبي، فتوح الغيب: 2/551.

تُفصِحُ عن شرطٍ مقدَّر، والتقدير: (إن اتَّخذْتُم عندَ اللَّهِ عهدًا فلنْ يخلفَ اللَّهُ عهدَه)، وعلى هذا تكون الجملةُ استئنافيَّةً اعتراضيَّةً[1].

منْ بلاغةِ التّقديمِ والتَّأخيرِ في الظَّرفِ والجارِّ والمجرور:

عهدُ اللهِ له خصوصيَّةُ التّعظيمِ

أصلُ الكلامِ (أتّخذتُم عهدًا عندَ اللهِ)، فقدَّمَ الظَّرفَ (عندَ اللّه) على المفعولِ (عهدًا)؛ لإفادةِ العنايةِ والاهتمامِ بالظَّرفِ، للتَّذكيرِ بأَنَّ العهدَ عندَ اللّهِ، وليسَ عندَ غيرِهِ لتعظيمِ العهدِ وإجلالِه، فيزدادُ الإنكارُ والتَّوبيخُ عليهم، كما قدّمَ الجارَّ والمجرورَ ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾ على المفعولِ في قولِه ﴿مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾، والأصلُ (تقولُون ما لا تعلَمُون على اللّهِ)؛ فقدّم لإفادة تعظيمِ التقوّلِ على اللّهِ بما لايعلَمُونَ.

بلاغةُ العُدولِ عن الضَّميرِ إلى الاسمِ الظَّاهرِ:

بيانُ أثرِ اسمِ اللهِ تعالى في القلوبِ، وقبحِ من لم يرتدِعِ عند سماعِه

عُدِلَ عن الضَّميرِ إلى الاسمِ الظَّاهرِ في قولِه: ﴿فَلَن يُخۡلِفَ ٱللَّهُ عَهۡدَهُۥٓ﴾؛ فلم يقلْ: (فلن يخلفَه اللّهُ)، فأعادَ الاسمَ الظَّاهرَ (عهدَه) إشعارًا بأهميَّتِه، أو أَعادَهُ؛ لأَنَّ المرادَ بهِ جميعُ عهودِه؛ لِعمومِهِ بسببِ الإضافةِ فيدخلُ فيه العهدُ المعهودُ دخولًا أوليًّا.

وفي قوله تعالى: ﴿أَمۡ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾، فلم يقلْ: (أم تقُولُون عليهِ ما لا تَعلَمون)، فذكر الاسمَ الظَّاهرَ الجليلَ؛ لنُكتَتين: إحداهما: للإشعار بعلَّةِ الحُكم؛ فإنَّ عدمَ الإخلافِ من قضيَّةِ الألوهية، والأخرى: لِتذكيرِ المخاطَبين باللّه وللتَّأثير فيهم، بتكرارِ اسمِ الجلالةِ ﴿ٱللَّهِ﴾؛ فإنّ تكرارَ اسمِ الملكِ العظيمِ لَهُ هَيبةٌ وإجلالٌ، لعلّهم بتكرّر سماعِه يتذكَّرون فيتأثَّرون فيُقلِعُون عن أفعالِهم القبيحة، فيتوبونَ إلى اللّهِ ويستغفرونَه.

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/121، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/580.

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

المسّ والإصابة:

قد يُقال: لِمَ قالَ في هذهِ الآيةِ ﴿تَمَسَّنَا﴾ ولم يقلْ (تصيبنا)؟ والجواب: للمناسبةِ بينَ قلَّةِ الإصابةِ في النَّارِ وضعفِها مع قلَّةِ الأيَّامِ وعددِها، فعبَّر بالمسِّ؛ لأنَّه أوَّلُ درجاتِ الأذى وأقلُّ تمكُّنًا من الإِصَابَةِ، كنايةً عن خفَّةِ العذابِ وقلَّةِ زمانِه؛ وَفْق اعتقادِ اليهود، فكذّبَهم اللهُ فيما قالُوا، وحكمَ عليهم بالبقاءِ في النَّارِ خالدينَ فيها، وليسَ أيَّامًا قليلةً.

﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتۡ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٨١ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٨٢﴾

[البقرة: 81 - 82]

مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِمَا قَبْلَهَما:

لـمّا ادّعى اليهودُ أنَّ النَّارَ لا تمسُّهم إلَّا أيَّامًا معدودةً، عُلِمَ أنَّ الواقعَ غيرُ ما ادَّعوه، فصرَّحَ بهِ بحرفِ الجوابِ في قولِه: ﴿بَلَىٰٓ﴾، والمعنى: بَلَى بَلْ أَنْتُمْ تَمَسُّكُمُ النَّارُ، وتَخلدُونَ فيها على خِلافِ ما تزعمون، وعلَّلَ ذلك بوصفٍ هم بهِ مُتَلبِّسونَ مِنْ كسبِ السَّيِّئةِ وإحاطةِ الخَطيئةِ، ثُمَّ ذكرَ ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ لِتَعْقِيبِ الوَعيد بالوعدِ، والنِّذارةِ بِالبِشَارَةِ عَلَى عَادَةِ الْقُرْآنِ[1].

شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

1) ﴿كَسَبَ﴾: الكسبُ يَدُلُّ عَلَى ابْتِغَاءٍ وَطَلَبٍ وَإِصَابَةٍ، وقد يستعملُ فيما يَظنّ الإنسانُ أَنّه يجلبُ منفعةً، ثمَّ استُجْلِبَ به مَضَرّةٌ، ويُستعملُ في فِعْلِ الصَّالحاتِ والسَّيئاتِ، والكَسْبُ يُقالُ فيما أَخذَهُ لِنفسِهِ ولِغيرِه[2].

والمعنى هنا: ارتكب.

2) ﴿سَيِّئَةً﴾: أصلُ الكلمةِ (سَاءَ) الشَّيءُ: إذا قَبُح، وسيِّئَةٌ على وزنِ فَيْعِلَة، وهي تأْنيثُ السَّيِّئ، وتدورُ الكلمةُ على معنى عَيبٍ أو نَقصٍ (قُبحٍ أو فَسادٍ أو مَرَضٍ) يخالطُ ظاهرَ الشَّيءِ أو باطنَهُ، وتقالُ السّيّئةُ لِمَا يوجبُ الإثمَ صغيرةً كانتْ أو كبيرةً، ولِمَا يستقبحُه الطَّبعُ[3]، وهي في الآيةِ بمعنى الشّركِ؛ لأَنَّه يتكلّمُ عن أفعالِ اليهودِ، وذهبَ بعضُ المفسِّرينَ إلى أنَّ السَّيّئَةَ هنا بمعنى الكبيرةِ، والخَطيئةَ بمعنَى الكفرِ[4].

(1) الرازي، التّفسير الكبير: 3/584، والبقاعي، نظم الدرر: 1/496.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات: (كسب).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات: (سوء).
(4) ابن جرير، جامع البيان: 2/281، وابن عطية، المحرر الوجيز: 1/171.

3) ﴿وَأَحَٰطَتۡ﴾: الإحاطةُ من الحَوْطِ، ويدورُ على معنى الشَّيْءِ يُطِيفُ بِالشَّيْءِ في استدارةٍ تامّةٍ، فالإحاطةُ الإحداقُ بالشّيء، والإحاطةُ بالشَّيء استُعمِلَت كنايةً عن العلمِ بالشَّيءِ من جميعِ جوانبِه، وعن حفظِهِ، وعن التَّمكُّنِ منه والقدرةِ عليه وإهلاكِه، وتُستعملُ الإحاطةُ في الأجسامِ، ومنه الحائطُ وهو الجدارُ الذي يحوطُ بالمكانِ، كما تستعملُ في المعاني[1]، ومنها قولُه تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٖ مُّحِيطٗا﴾ [النساء: 126]، ومعنى أحاطتْ به خَطيئتُهُ : أَخذتْهُ خطيئتُهُ من جميعِ نواحيه، إمّا لشِركِه، وإمَّا لإصرارِه على الكبيرةِ[2].

4) ﴿خَطِيٓـَٔتُهُۥ﴾: أصلُ الكلمةِ (خَطَأَ)، والمعنى المحوريُّ للكلمة يدورُ على تخطِّي مَوقعِ الشَّيءِ أو تجاوزِهِ باندفاعٍ، ومنه الخَطَأ ضدُّ الصَّوابِ؛ إذ هو تَخَطٍّ للوضعِ المقصودِ، والخطأُ: الذنبُ؛ لأنّه يتركُ وجهَ الخيرِ، والجمعُ الخَطيئاتُ والخَطايا، ويقالُ: أخطأَ، إذا سلكَ سبيلَ خطأٍ عامدًا أو غيرَ عامدٍ، والخاطِئُ هو القاصدُ للذّنبِ[3].

5) ﴿أَصۡحَٰبُ﴾: جمعُ صاحِب، والصُّحبةُ تدلُّ عَلَى مُقَارَنَةِ شَيْءٍ وَمُقَارَبَتِهِ، وكُلُّ شَيْءٍ لَاءَمَ شَيْئًا فَقَدِ اسْتَصْحَبَهُ؛ فالأصلُ في الصُّحبةِ هو الملازمةُ، وإذا كانت بين شَخصَين فتقتَضِي الملاءَمةَ كذلك، وذهبَ بعضُ اللُّغويين إلى اشتراطِ كَثرةِ الملازمةِ للاتِّصافِ بالصُّحبَةِ، بينما ذهبَ آخرُون إلى أنَّ الصُّحبةَ تدلّ على الاجتماعِ، طالَ الزَّمنُ أو قَصُرَ[4]، والمرادُ بأصحاب النار: الذين يلازمون نارَ جهنَّم ملازمةً دائمةً لا تنقطع.

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

بيّنتِ الآيةُ أنَّه ليسَ الأمرُ كما ذَكرتُم - أيُّها اليهود - من أنَّ النارَ لا تَمسُّكُم إلّا أيّامًا مَعدودةً، بل كلُّ مَنْ كسبَ سيّئةً وعملَ بمثلِ عملِكُم وكفرَ باللهِ، وانغمسَ في المعاصي - وأَنتم منهم -، وأحاطَتْ به خطيئتُه فصارتْ خَطاياهُ كالحائطِ الذي يحيطُ به مِنْ كلِّ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (حوط).
(2) البغوي، معالم التنزيل: 1/138.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، والسمين، عمدة الحفاظ: (خطأ).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، والسمين، عمدة الحفاظ: (صحب).

جانبٍ، ثمَّ ماتَ على هذه الذُّنوبِ ولمْ يتبْ منها، فجزاؤُهُ جهنّمُ خالدًا فيها، وفي المقابلِ فإنَّ كلّ مَنْ آمن باللهِ وعَمِلَ صالحًا جزاؤُهُ الجنّةُ خالدًا فيها، فهذا هو مقتَضَى العَدلِ.

❁ الإيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

بلاغةُ التَّصديرِ بـ﴿بَلَىٰٓ﴾:

استَحَقّت هذه الكلمةُ المَزيّةَ بموقعِها في النّظم؛ إذ تناسقتْ دلالتُها في نَسجِ ربطِ ما قبلَها بما بعدَها، فجاءتْ ردًّا على ما قالَهُ اليَهودُ ﴿لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعۡدُودَةً﴾، كما أنَّها مهَّدت لِمَا بعدها ببيان علّةِ الرّدِّ، وذِكْر الحكمِ العامِّ الّذي يشملُ اليهودَ وغيرَهم ممَّن كسبَ سيّئةً وأحاطتْ به خطيئتُه بأنَّهم أصحابُ النّارِ، ثمَّ إنَّها مهَّدت لاقترانِ الوَعدِ بالوعيدِ، فذُكِرَ المقابلُ، وهم الّذين آمَنُوا وعَمِلوا الصّالحاتِ، الّذين هُم أصحابُ الجنَّةِ بأنَّهم فيها خالِدُون.

(بَـلَىٰ) تنفي الماضِي الذي قبلَها، وتُثبتُ المُستقبَلَ لِمَا بعدَها

بلاغةُ استعمالِ صيغةِ العُموم ﴿مَن﴾:

تحتملُ ﴿مَن﴾ أنْ تكونَ اسمًا موصولًا، وأنْ تكونَ اسمَ شرط، وكلا الاحتمالَين يُفيدان العُمومَ، وكونُها موصولةً أولى لمقابلتِها بما بعدَها ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾، وجاءت صيغةُ التَّعميم للتّهويلِ وبيانِ حالِهم بالبُرهانِ والدّليل، كما أشعر التَّعميمُ بالتَّعليلِ بسببِ صلةِ الموصولِ في قوله: ﴿كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتۡ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ﴾[1]، كما أنَّ هذا التّعميمَ مهّدَ لتعميمِ المقابلِ في قولِه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾.

استدلالُ القرآنِ يقومُ على الإقناعِ بالتّعليلِ المناسبِ للحُكمِ

بلاغةُ الإخبارِ عن ﴿مَن﴾ بالجَمعِ:

﴿مَن﴾ لفظُها مفردٌ ومعناها جَمعٌ؛ لأنّها تفيدُ العمومَ، فحُمِلَ على اللَّفظِ في عودِ الضَّميرِ في قولِه: ﴿كَسَبَ سَيِّئَةً﴾ و﴿بِهِۦ﴾

كلُّ فردٍ له جزاؤُه، والحكمُ بالنّكالِ على الكُلِّ للتَّفظيعِ والتَّهويلِ

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/122.

و﴿خَطِيٓـَٔتُهُۥ﴾، ثمّ أعادَ على المعنى في قوله: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾، فاسم الإشارة ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾، والضّمير ﴿هُمۡ﴾، وضمير الجمع في ﴿خَٰلِدُونَ﴾ تعود على ﴿مَن﴾، فعاد الضّميرُ أولًا على المفردِ؛ للإشارةِ إلى أَنَّ كلّ نفسٍ تَحملُ ما عليها فـ﴿كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡ رَهِينَةٌ﴾ [المدّثر: 38]، ثمّ حُمِلَ على المعنى، وهو الجمعُ بعد ذلك للإشارةِ إلى اجتماعِ أهلِ النّارِ؛ فيكونُ أكثرَ وبالًا عليهم، وللدّلالة على قدرته ﷻ، وإلى هذا المعنى أشارَ البقاعيُّ في قوله: "ولـمّا كان إفرادُ الضّميرِ أنصَّ على جزاءِ كلّ فردٍ، والحكمُ بالنّكالِ على الكلِّ أنكأَ وأروعَ وأقبحَ وأفظعَ وأدلَّ على القدرةِ، أفردَ ثمّ جَمَعَ"[1].

بلاغةُ أسلوبِ التَّهكُّمِ في استعمالِ الفِعلِ ﴿كَسَبَ﴾:

تحريكُ المخاطَبِ للإقلاعِ عن ذنبِه بوصفِ ذنبِه

أصلُ الكَسبِ يكونُ في الرّبحِ وجلبِ المنافعِ، فاستعمالُه في السّيئةِ من بابِ التّهكُّم[2]؛ لأنّه يُتوهّم في السَّيِّئةِ الكسبُ؛ فقد يكونُ فيها ربحٌ عاجلٌ أو منفعةٌ زائلةٌ، ولكنَّها تبقَى سيّئةً، فلا ينبغي فعلُ السّيئةِ، وإنْ تلبَّستْ بالمنفعةِ الزّائلةِ[3]، وأسلوبُ التّهكم يُقصدُ به التّأثيرُ في المخاطَب لِيرجعَ إلى نفسِه ويتركَ الخَطَأ، فإنَّ السَّيِّئَةَ ليستْ بكسبٍ يُحرَصُ عليه.

بلاغةُ الاستِعارةِ التّمثيليّةِ في قوله تعالى: ﴿وَأَحَٰطَتۡ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ﴾:

كلمةُ ﴿وَأَحَٰطَتۡ﴾ مستعارةٌ من الحَوْطِ، ومنه الحائطُ الذي يُحيطُ بالشّيءِ فلا يكونُ له نَفاذٌ؛ فالفعل ﴿وَأَحَٰطَتۡ﴾ يفيدُ تصويرَ حركةِ إحاطَةِ الخَطيئةِ حتّى تكونَ سورًا لا منفذَ له، فصارت كالحائطِ الّذي يحيطُ من جميعِ الجوانب، "فَالعَرَبُ يَقُولونَ: أَحَاطَ العَدُوُّ بِالقَبِيلَةِ إِذَا تَمَكَّنَ مِنْهَا وَغَلَبَهَا، لأنّ الإِحَاطَةَ بِهَا تَدُلُّ عَلَى الإِحْداقِ بِهَا وَتَطويقِهَا. وَلَمَّا كان ذَلِكَ هَزِيمَةً وَامْتِلَاكًا لَهَا صَارَ تَرْتِيبُ أُحِيطَ بِهِمْ اسْتِعَارَةً تَمْثِيلِيَّةً لِلهَلَاكِ، فالإِحَاطَةُ مُسْتَعَارَةٌ لِعَدَمِ الخُلُوِّ عَنِ الشَّيْءِ؛ لأنّ مَا يُحِيطُ بِالمَرْءِ لَا يَتْرُكُ لَهُ مَنْفَذًا لِلإِقْبَالِ عَلَى غَيْرِ ذَلِكَ"[4].

(1) البقاعي، نظم الدرر: 1/497.
(2) البيضاوي، أنوار التنزيل: 1/90.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 1/306.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/581، و11/137.

بلاغةُ ذكرِ السّيّئةِ قبل الخَطيئَةِ:

الخطئيةُ نتيجةُ اجتماعِ السَّيِّئات وتراكُمِها

قد يقال: لِمَ لَمْ يقل: مَنْ كسَبَ خَطيئةً وأحاطَتْ به سَيِّئَتُهُ، وقال: ﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتۡ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ﴾؟ والجواب: أَنَّ فعلَ السّيئةِ والمُداومةَ عليها يَجرُّ إلى الوقوعِ في الخطأ، ومُعاودتِه والانهماكِ فيه حتّى يستوليَ عليه؛ فكأَنَّ الخطأَ يُحيطُ به من كلِّ جانبٍ، فعاقبةُ السّيئةِ الوقوعُ في الخطأِ ما لم يَتُبْ صاحبُها، ثم يزدادُ الخطأُ حتّى يصيرَ خطيئةً مُلازمةً؛ ويُعزِّزُ ذلك أنَّ (خَطيئة) على وزن فَعيلة الدالِّ على الأوصافِ الملازمة.

دلالة الإضافَةِ في ﴿خَطِيٓـَٔتُهُۥ﴾:

مـن تـلـبّـسَ بـالـخـطـيـئـةِ واستَـسـهَـلَـهـا وعاودَها لازمتْهُ وما تـزالُ تُحيطُ به حتى تُهْلِكَهُ

الخطيئةُ هُنا يُقصَدُ بها جِنسُ الخطيئةِ، والمعنى: أحاطَتْ به جميعُ أنواعِ خَطاياهُ المُلازِمَةِ له، كما أفادت الإضافةُ ملازمةَ الخطيئةِ لصاحبِها، وكأنّها صارت من خواصِّه التي لا تنفكُّ عنه؛ لأنَّ الإضافةَ على معنى اللّامِ التي تُفيدُ الاختصاصَ، فلمَّا لازمَها ولازمتْه أُضيفت الخطيئةُ إليه؛ ولِهذا لَمْ تقعْ كلمةُ (سيِّئَة) مضافةً؛ لِأنّها لَمْ ترسَخْ إلّا بعد إحاطةِ الخطيئةِ، وقراءةُ نافع: ﴿خَطِيٓـَٰٔتُهُۥ﴾ بالجمع[1] تؤكِّدُ العمومَ، أي: أحاطتْ بِهِ جميعُ أنواعِ خطيئاتِه، واستحسَنُوا قراءةَ الجمعِ؛ لأنّ الإحاطة لا تكونُ بشيءٍ واحدٍ غالبًا[2].

دلالة الفاءِ في ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾:

أفادتِ الفاءُ ترتُّبَ الجزاءِ على العملِ، للدّلالة على أنّ اليهودَ لم يَسْتَحِقُّوا النّارَ إلّا بفعلِهم؛ فالمقامُ ليس مقامَ إخبارٍ، بل هو مقامُ استدلالٍ وإقامةِ الحجّةِ على اليهود؛ فاقتضَى إيرادُ الفاءِ الدّالةِ على التّرتُّبِ وبيان السَّببِ إذا وقعت بين الجملِ.

(1) ابن مجاهد، السبعة في القراءات، ص: 162.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 1/306.

دلالة اسمِ الإشارةِ ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ﴾ الّذي هو للبَعيدِ:

﴿أُوْلَـٰٓئِكَ أَصۡحَـٰبُ ٱلنَّارِۖ﴾: تقدّمَ أنَّ إيرادَ اسمِ الإشارةِ جمعًا مراعاةٌ للجمعيّةِ في معنى (مَنْ)، وجاء إيرادُ اسم الإشارة؛ لِينبّهَ إلى استحضارِ المشارِ إليه بِمَا ذكرَ من أوصافِهِ؛ لِيدلَّ على استحقاقِهم صحبةَ النّارِ وملازَمَتهم لها وخلودهم فيها بما اتّصفُوا به؛ فيدلّ على عِلّيَّةِ المَأخذِ، من أنّ الحكمَ على المذكورين بالنّار بما استحقُّوه بالمشارِ إليه[1]؛ أي: استحقّوه بكَسبِ السيّئةِ وإحاطةِ الخَطيئةِ بهم، كما دلّ اسمُ الإشارةِ ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ﴾ الّذي هو للبَعيدِ على بُعدِ مَنزِلَتِهم في السّيئاتِ والخَطايا.

بلاغةُ الاحتراسِ بذكرِ الخلودِ بعد الصُّحبةِ:

لـمَّا أخبرَ اللهُ عمّنْ كسبَ سَيِّئَةً وأحاطتْ به خطيئتُه بأنّهم أصحابُ النّارِ دلَّ على أنّهم مُلازِمُون لها؛ لأنّ صاحبَ الشّيء يلازمُهُ، وإنّما عبّرَ بالمُصاحبَةِ دونَ الاجتماعِ؛ لأنَّ المصاحبةَ تقتضي طولَ لُبثٍ، فكلُّ اصْطِحَابٍ اجتماعٌ، وليس كلُّ اجتماع اصطِحابًا[2]، ولا يُشترطُ في الصُّحبةِ الخلود، فقد يعقبُها الفِراقُ، وأمّا الخلودُ فهو دائمٌ، "فزيادَةُ لفظِ الخلودِ دليلٌ على أنَّ الصّحبةَ تطلقُ على مطلقِ الاجتماعِ وإن لم يكنْ معَهُ دوامٌ"[3]، فيكون ذكرُ الصُّحبةِ عذابًا معنويًّا، والخلودُ عذابًا حِسيًّا، وذكرُ الخلود بعد الصُّحبة احتراسٌ عن توهُّمِ انقطاعِ العذابِ.

صُحبةُ النّارِ دليلُ المُلازَمَةِ، والخُلودُ دليلُ الدّوامِ

نوعُ القَصْرِ في قولِه: ﴿فَأُوْلَـٰٓئِكَ أَصۡحَـٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَـٰلِدُونَ﴾:

ورد المُسندُ إليه والمُسندُ مَعرفَتين، فأفادَ تعريفُهما القصرَ الإضافيَّ لا الحَقيقيّ[4]، فالمعنى: إنَّكم أنتم أصحابُ النّارِ وليس

قلبُ اعتقادِ أهلِ الباطلِ دفعٌ للمراءِ وتحقيقٌ للحقِّ

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/12.
(2) الرّاغب، المفردات: (صحب).
(3) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/357.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/581.

غيرَكُم ، فأفادَ القَصرُ قلبَ اعتقادِ اليَهودِ إذْ أخطَؤُوا فتوهَّمُوا أنّ النّارَ لن تمسَّهم إلَّا أيّامًا مَعدُودةً قليلةً، وأنّ الخلودَ في النّارِ ليسَ لَهُم، فمفهومُ قَصْرِ القلبِ مأخوذٌ من السِّباقِ.

بلاغةُ تقديمِ الجَارِّ والمَجرورِ في قوله: ﴿هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾:

خلودُ أهلِ الجنّة تمامُ السّعادةِ، وخلودُ أهلِ النَّارِ تمامُ الشَّقاءِ

تقدّمَ ﴿فِيهَا﴾ وهو حالٌ في المَوضِعَين عندَ ذكرِ خلودِ أهلِ النّار وخلودِ أهلِ الجنّة، فأفادَ التّقديمُ تخصيصَ المكانِ؛ لبيانِ هَولِه لأصحابِ النّارِ، وجَمالِه وطِيبتِه لأصحابِ الجنّة، فيكونُ المعنى: هُم خالدُون فيها وليسَ في غيرها، فلا ينتقلُ أصحابُ النّارِ عن النّارِ، ولاينتقلُ أصحابُ الجنّةِ عن الجنّةِ، وهذا من التَّمامِ للفريقين، أمَّا أهلِ الجنةِ فتمامُ سعادتِهم، وأمَّا أهلِ النَّار فتمامُ شقائهم.

بلاغةُ الوَصلِ بين الجملِ:

تمامُ مَدحِ المُؤمنين بذكرِ جزائهم بعدَ بيانِ جزاءِ الكافرين

وُصِلَ قولُه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ بما قبلَه استكمالًا للمقابلةِ بين الفريقين؛ فقد "جَرَتِ السُّنَّةُ الإلهيَّةُ على شفْعِ الوَعدِ بالوَعيدِ مُراعاةً لما تقتَضيه الحِكمةُ في إرشادِ العبادِ من التّرغيبِ تارةً، والتَّرهيبِ أخرَى، والتّبشيرِ مَرةً، والإنذارِ أخرى"[1]، وتَردُ المقابلةُ للتّأثيرِ في المخاطَبِ، فيقارنَ بين الحقِّ والباطلِ، فيقتَنِعَ بالحقِّ ويَعملَ بعملِ أصحابِ الجنّةِ، وينتَهِي عن عملِ أصحابِ النّارِ، ولدفْعِ اعتقادِ اليهودِ الباطلِ في أنَّهم أصحابُ الجنَّة، فكان الوَصْلُ لبيانِ الفريقِ المرضيِّ، بعد ذكرِ الفريقِ المغضوبِ عليه، وهذا في غايةِ الحمْدِ للمؤمنين، وغايةِ الذَّمّ لليهودِ.

دلالة اقترانِ العَملِ الصّالحِ بالإيمانِ:

في القرآنِ أكثرُ من خَمسِين آيةً وردَ فيها الإيمانُ مقترنًا بالعملِ الصَّالحِ؛ تنبيهًا على أنّه لا بدَّ من أنْ يَقتَرِنَ بالاعتقادِ الأعمالُ

(1) إرشاد العقل السليم: 1/122.

الصّالحةُ، والعطفُ يقتضي المغايرةَ كما تقدّمَ غيرَ مَرَّةٍ، فدلّ على أنّ الإيمانَ يكون بالقلبِ، والعملَ الصّالحَ يصدّقُهُ.

بلاغةُ نظمِ اسمِ الإشارَةِ في قولِه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ﴾:

جمالُ الإشارةِ بحسنِ العبارةِ في مدحِ أهلِ الجنَّةِ

أفادَ اسمُ الإشارةِ بُعْدَ منزلةِ أهل الإيمانِ وعلوّ مَرتَبتِهم وشَرَفَ مكانتِهم العاليّةِ، فاختلَفَت دلالة اسمِ الإشارةِ هنا عمَّا سَبَقَ؛ لأنّ السّياقَ هو المرشِدُ إلى هذِهِ الدّلالة، وخلا اسمُ الإشارةِ من الفاءِ العاطفةِ، زيادةً في الإكرامِ والمَدْحِ، فإنَّهم هم المُستحقّون أن يوصفوا بأنَّهم أصحابُ الجنَّةِ، فالجملةُ مستقلَّةٌ بهذا البيانِ، بقطعِ النَّظرِ عن أيِّ اعتبارٍ كان، وفيه من جمالِ الإشارة بحسن العبارةِ بالاقترانِ بما جاءَ في وصْفِ اليهودِ ما لا مزيدَ عليه في الحُسنِ والجمالِ.

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الكسب والاكتساب:

الفرقُ بين (كَسَبَ) و(اكتَسَبَ): تقدَّم أنّ الكَسبَ يكونُ من غيرِ جُهدٍ، وأمَّا اكتَسَبَ فهو على وزن افتَعَلَ المُنبِئ عن الاجتهادِ والطَّلبِ؛ أي اجتهدَ في تحصيلِ الإصابةِ بأنْ زاولَ أسبابَها[1]، فقال في الآية: ﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ﴾ ولم يقل: (بَلَى من اكتَسَبَ)؛ للدّلالة على أنّ فعلَ اليهودِ السّيئاتِ من دونِ جهدٍ يبذلونَه، لأُلْفَتِهم لَها، واستِسهالِهم فعلَها، حتّى صارَ دَيدنُهم فعلَ السّيئةِ.

السّيّئةُ والخَطيئَة:

ذهبَ أكثرُ المفسِّرين إلى أَنَّ السّيئةَ هي الكفرُ، والخطيئةَ هي الذّنوبُ التي ليست بكفرٍ، وذهبَ آخرونَ إلى أَنَّ السّيئةَ هي الذّنوبُ الّتي ليست بكفرٍ والخطيئةَ هي الكفرُ، وهناك قولٌ ثالثٌ يذهبُ إلى أَنَّ السّيئةَ والخَطيئةَ شيءٌ واحِدٌ وأَنَّ الخَطيئةَ وصفٌ للسّيئَةِ[2]، والقولُ بأنّهما شيءٌ واحدٌ ليسَ بصَحيحٍ؛ لِأَنَّ العطفَ يقتضي المغايرةَ، فلا شكّ في أنّ واحدًا من اللَّفظين يدلّ على الكفرِ والآخرَ على الذّنوبِ، ولو قلنا: السّيئةُ هي الكفرُ- كما ذهبَ إليه

(1) الرضي الأستراباذي، شرح الرضي على الشافية: 1/110.

(2) ابن جرير، جامع البيان: 1/281-282، أبو حيان، البحر المحيط: 1/450، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/122.

جمهورُ السّلفِ – فهذا لا يدلّ على الاطّرادِ في معناها في كلِّ آيةٍ تردُ فيها؛ فإنّ سياقَ الآيةِ هنا هو الّذي خصَّصَ السّيئةَ بمعنَى الكفرِ والخطيئةَ بمعنَى الذّنبِ الذي ليس بكفرٍ.

ومنْ أجملِ ما قيلَ في الفَرقِ بين السّيئةِ والخطيئةِ أنَّ الفرقَ بينهما من حيثُ الدّلالة المعجميّةُ واضحٌ، وأمّا الدّلالة على الكفرِ فهو في تركيبِ ﴿وَأَحَٰطَتۡ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ﴾؛ فالتّركيبُ دلّ على الكفرِ، وليس خصوصُ كلمةِ خطيئةٍ؛ لأنّ إِحاطَة الخَطِيئَاتِ هِيَ حالَةُ الكفْرِ؛ لِأَنّهَا تَجْرِيءُ عَلَى جَمِيعِ الخَطايَا[1].

(1) البقاعي، نظم الدرر: 2/1، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/581.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴿٨٣﴾﴾ [البقرة: 83]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لـمّا ذكرَ اللّهُ في الآيةِ السابقةِ أنّ من كَسَبَ سَيِّئَةً وأَحاطَت بهِ خطيئتُه هم أصحابُ النَّارِ، شرعَ في ذكرِ الأدلَّة على ذلك بذكرِ تَوَلّي بني إسرائيلَ عن أخذِ العَهدِ وإعراضِهم عنه، كما أنّ هذِهِ الآيةَ وردت بصيغةِ خطابِ بني إسرائيلَ ليجمعَ الأسلافَ والأخلافَ؛ لتكونَ مدخلًا إلى خطابِ المعاصرين لزمنِ نزولِ القرآنِ الكريمِ، فالـمَقصُودُ الأَوَّلُ من الخطاب إثبَاتُ سُوءِ صَنِيعِ الـمَوجُودِينَ في زَمَنِ القرآن، وبيان أَنَّهم مُخاطَبون بما خُوطِبَ به أسلافُهُم ومُكَلَّفُون بما كُلِّفُوا به، فهذا الميثاقُ لا يُنسَخُ بتغيّرِ الزّمانِ والـمَكَان[1].

شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

1) ﴿مِيثَٰقَ﴾: على وزن (مِفْعَال) منْ وَثَقَ، والوَاوُ وَالثَّاءُ وَالقَافُ كَلِمَةٌ تَدُلُّ عَلَى عَقْدٍ وَإِحْكَام. وَوَثَّقْتُ الشَّيْءَ: أَحْكَمْتُهُ، ووَثِقْتُ به أَثِقُ ثِقَةً: سكنتُ إليه واعتمدتُ عليه، وأَوْثَقْتُهُ: شدَدْته.. والـميثاقُ: العهدُ أو العقدُ المؤكَّدُ بيَمينٍ وعَهدٍ، وَهُو في الأَصل حَبلٌ أَوْ قَيدٌ يُشدُّ بِهِ الأَسيرُ وَالدَّابَّةُ، وَالجَمْعُ مَواثِيقُ عَلَى الأَصلِ بوزنِ مَفاعِيل[2].

2) ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ﴾: الأبُ يقالُ له وَالِدٌ، والأمُّ وَالِدَةٌ، وقيل للأبِ والأمِّ الوالدانِ تغليبًا مثلُ الأبَوَين؛ لأنّ المذكّرَ والمؤنّثَ إذا اقتَرَنا غلبَ المذكّرُ لخفّتِهِ وقوّتِهِ[3].

3) ﴿إِحْسَانًا﴾: أصلُ الكَلِمَةِ (حَسَن)، والحُسْنُ اسمُ جنسٍ لكلِّ أنواعِ الخيرِ، ويقابله السَّيِّئُ، ومنه الحَسَنَةُ والسّيئةُ، والإحسانُ يُطلقُ على الإنعامِ على الغَير وعلى

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/582.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة ، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (وثق).
(3) الرّاغب، المفردات: (ولد).

الفعلِ الحَسَنِ، فيقالُ: أحسَنَ في عملِهِ، والإحسانُ فوقَ العدلِ وأفضلُ منه؛ لأنّ المُحسنَ يُعطي أكثرَ ممّا عليهِ، وهو فضلٌ، والعادلُ يُعطي ما عليه، وهو واجبٌ، والإحسانُ بالوالِدَين: القيامُ بكلِّ ما يطلقُ عليه حسنٌ معهُما، ومنه البِرُّ بهما والعطفُ عليهما والنّزُولُ عِنْدَ أَمرِهِمَا فِيما لَا يُخَالِفُ أَمْرَ اللَّهِ تَعالَى[1]، والدُّعاءُ لهما بعدَ مماتِهما.

4) ﴿ٱلْقُرْبَىٰ﴾: على وزنِ فُعْلَى، والقَريبُ والقَريبة ذُو القَرابةِ، والجَمعُ مِن النّساءِ قَرائِبُ، ومِن الرِّجَالِ أَقارِبُ، والقَرابَةُ والقُربَى: الدُّنُوُّ في النَّسب[2].

5) ﴿وَٱلْيَتَٰمَىٰ﴾: جمعُ يَتيم، ويدور معنَى اليُتْم على انفرادِ الشَّيءِ عن مُجانِسِه مُستقلًّا بذاتِه، ومنه اليُتم، بمعنى: انقطاعِ الصَّبيِّ عن أبيه قبلَ بلوغِه لانفرادِه بذاته، وكلُّ منفردٍ يَتِيمٌ، يقال: دُرَّةٌ يَتِيمَةٌ، تنبيهًا على أَنه انقطعَت مادّتها الّتي خرجَت منها، وقيل: بَيْتٌ يَتِيمٌ؛ تشبيهًا بالدّرّة اليَتِيمَةِ[3].

6) ﴿وَٱلْمَسَٰكِينِ﴾: جمعُ المِسكِين، مِنْ (سَكَن)، ويَدُلُّ عَلَى استقرارٍ في جوفِ حيِّز أو باطنٍ: كالقُوتِ في الجوفِ، وكهُمُودِ ما يُذْبح بالسِّكينِ في مكانِه، ومنه السَكَن للبيتِ والمنزلِ؛ لِأَنَّ الساكنَ يستقرُّ في جوفِه؛ فالسّكنُ خِلَافُ الِاضطِرَابِ وَالحَرَكَةِ، والمسكينُ القارُّ الصّابرُ على ما هو فيه، وذهبَ بعضُهم إلى أنَّ المسكينَ سُمِّيَ مسكينًا؛ لأنّ الحاجةَ أسكَنَتهُ[4].

7) ﴿تَوَلَّيْتُمْ﴾: على وزن (تَفَعَّلتُم)، وأصله من الوَلْيِ بمعنى القُرْبِ، والوليُّ والمُوالي يستعارُ ذلك للقربِ من حيثُ المكانُ، ومن حيثُ النِّسبةُ، ومن حيثُ الدِّينُ، وتَوَلَّى بحسبِ المُتعلَّقِ يأتي بمعنيين: أحدهُما: الإقبالُ المُقتضي القربَ؛ وذلك إذا عُدّي بنفسِه، أو بـ(إلى) كقوله تعالى: ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ [البقرة: 144]، الثّاني: بمعنَى الإعراضِ إذا عُدّي بـ(عن) لفظًا أو تقديرًا؛ فإذا قيل: (تولّى عن فلانٍ) فالمعنى انصرفَ عنه، وقد يكونُ بإدبارٍ، وقد يكونُ بغير إدبارٍ، ومنه قولُه

(1) الرّاغب، المفردات، والسمين، عمدة الحفاظ: (حسن)، والبغوي، معالم التنزيل: 1/139.
(2) ابن منظور، لسان العرب: (قرب).
(3) ابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (يتم).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة، والسمين، عمدة الحفاظ، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (سكن).

تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [آل عمران: 63]، والتَّوَلِّي قد يكونُ بالجِسمِ، وقد يكونُ بتركِ الإصغاءِ والائتِمَارِ[1].

8) ﴿مُّعْرِضُونَ﴾: أصلُ الكلمةِ مِنَ العَرْضِ الَّذِي يُخَالِفُ الطُّولَ. وإذا عُدِّيَ الفعلُ بـ(عن) أفاد التَّوليَ عن الشّيء، ومنه أَعْرَضْتُ عَنْ فُلَان، وأَعْرَضْتُ عَنْ هَذَا الأَمْرِ، وَأَعْرَضَ بِوَجْهِهِ، إذا ولَّى مبديًا عَرْضَهُ، ومنه قوله تعالى: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ﴾ [النساء: 63]، وربّما حَذَفَ (عنه) استغناءً عنه نحو: ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ﴾ [النور: 48][2].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

ذَكَّرَ اللّهُ تعالى في الآيتين الكريمتين بَني إسرائيلَ - الحاضِرينَ في زمَنِ نُزولِ القرآنِ الكريمِ - بِمَا أَخذَهُ على أسلافِهم من العهدِ، ممَّا لا يَخلُو منه شرعٌ؛ لاشتمالِ الميثاقِ على المصالحِ العامّةِ في كلِّ زمانٍ ومكانٍ، فذَكَرَ ميثاقًا اشتملَ على التّوحيدِ ومكارمِ الأخلاقِ والعبادةِ، فبيّنَ لهم أهمَّ ما أُمروا به في هذا الميثاقِ بأنْ لا يَعبدوا إلّا اللّه، وأنْ يُحسِنُوا إلى الوالِدَين إحسانًا، وأنْ يُحسِنُوا إلى الأقرباءِ وإلى الضّعفاءِ في المجتمعِ من اليتامَى الّذين لا أبَ لهُم، وهم صغارٌ لم يبلُغُوا بعدُ، ومنَ المساكينِ الّذين أسكنَتهُم الحاجةُ أو المرضُ وهم الذين لا يملكون ما يَكْفيهم ويسدُّ حاجَتهم، وأمرَهم بمعاملةِ النّاسِ جميعًا - وفي كلِّ أحوالِهم - بالقول الحَسَنِ، ودعاهُم إلى العباداتِ من الصلاة وإيتاء الزَّكاة، الّتي تتآلفُ مع التَّوحيدِ ومكارمِ الأخلاقِ، ثم أَعْرَضْتم ونقضتم العهد على عادتِكم السَّابقةِ وطريقتِكم المألوفةِ -إلا قليلًا منكم ثبت عليه مِمّنْ أقامَ اليهوديّةَ على وجهِها قبلَ النَّسخِ، ومَنْ دخلَ في الإسلامِ منكم- وأنتم مستمرّون في إعراضكم.

❁ الإِيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

بلاغةُ تصديرِ الكلامِ بـ ﴿إِذْ﴾:

﴿إِذْ﴾ ظرفُ زمانٍ أفادَ الشُّروعَ في بيانِ حالةٍ أخرى من أحوالِ بني إسرائيلَ، ممّا

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (ولي).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات: (عرض).

خالَفُوا به عهدَ اللهِ. وعادةُ القرآنِ إيرادُ ﴿إِذْ﴾ في بدايةِ قضيَّةٍ ذاتِ شأنٍ؛ بأنْ تكونَ ميثاقًا مؤكدًا، أو بيانَ نعمةٍ عظيمةٍ، أو حدَثٍ عظيمٍ؛ فهي تفيدُ التّنبيهَ على أمرٍ عظيمٍ وقعَ في زمنٍ ماضٍ، بحيثُ يستحقُّ ما بعدها مزيدًا من اليَقَظَةِ والتَّنبُّه، وقد أفادَ ﴿إِذْ﴾ بيانَ عِظَمِ الميثاقِ الذي أخذه اللهُ من بني إسرائيل، وَلِذَا فَقَدْ بَيَّنَتْ عِظَمَ الجريمةِ التي وقعُوا فيها بمخالفةِ ما جاءَ في الميثاقِ.

الإشعارُ بشأنِ حَدَثٍ عظيمٍ يحتاجُ مزيدَ تنبُّهٍ واعتبارٍ

دلالة إفرادِ الميثاقِ دون جمْعِه:

جاءَ التَّعبيرُ بإفرادِ ﴿مِيثَٰقَ﴾ دون جمعِه - معَ أَنَّ العهودَ التي أُخِذَتْ عليهم مُتَنَوِّعةٌ وليست شيئًا واحدًا -؛ لمعاملةِ تلك العهودِ معاملة الميثاقِ الواحدِ، فقد أُخِذَ مِنْ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ كَمَا أُخِذَ من غَيرِه، وتنوّعُها بحسب ظروفِ الزَّمانِ والمكانِ والإمكان، فَلَا جَرَمَ كان كُلُّهُ ميثَاقًا وَاحِدًا، وَلَوْ قِيلَ: (مَوَاثِيقكُمْ) لَأَشبَهَ أَن يَكُونَ هُناكَ مَوَاثِيقُ أُخِذَتْ عَلَيْهِمْ لَا مِيثاقٌ وَاحِدٌ[1]، وفيه أنَّ الإخلالَ بأحدِ المذكوراتِ إخلالٌ بالبقيَّةِ، فإنَّ المذكورات لا تتجَزَّأُ، ولا يسقطُ أحدُها فيقومُ الآخرُ، وهذا من بديعِ التَّعبيرِ المُنبئِ عن العَدْل.

الإخلالُ بأحدِ المذكوراتِ إخلالٌ بالجميعِ

بلاغةُ الفصلِ بينَ الجُملِ:

جملةُ ﴿لَا تَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ جاءت مفصولةً؛ لأنّ هذه الجملةَ بيانٌ للميثاقِ، وما بعدها جملٌ معطوفةٌ على الجملةِ المفسّرة؛ فتكونُ الجملُ المتتابعةُ في الآيةِ إلى قوله ﴿ثُمَّ تَوَلَّيۡتُمۡ﴾ مفسّرةً ومبيّنةً للميثاق[2]، وتحتملُ أنْ تكونَ بدلًا من الميثاقِ؛ لتكونَ بدلَ بعضٍ من كلٍّ[3].

الميثاقُ كلمةٌ تُبيِّنُها كلمةُ التَّوحيد

(1) الفخر الرازي، التّفسير الكبير: 3/538.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/582.
(3) الزمخشري، الكشاف: 1/159، وأبو حيّان، البحر المحيط: 1/457.

بلاغةُ مجيءِ الإنشاءِ بصُورةِ الخبرِ:

طلبُ المُسَارَعَةِ في الامتثالِ؛ كأنَّ المطلوبَ تحصِيلُ حاصِلٍ

جملة ﴿لَا تَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ خبريةٌ بمعنى الإنشاءِ؛ لإفادةِ النَّهي، فتفيدُ طلبَ إفرادِ العبادةِ للّه تعالى، فالمعنى قُلنا أو قائلين لهم لا تعبُدُوا إلّا اللّه، وهو من المجازِ؛ لِورودِ النّهي بصيغةِ الخَبرِ، فصار الخَبَرُ مُستَعمَلًا في غَيْرِ مَعْنَاهُ لِعَلَاقَةِ مُشابَهَةِ النّهي المَوثُوقِ بِامْتِثَالِهِ بِالشَّيءِ الحَاصِلِ حَتَّى إنهُ يُخْبِرُ عَنْهُ، وهو أبلغ من صريحِ الأمر والنّهي، لأنّه طُلب فيه المسارعةُ إلى الامتثالِ والانتهاءِ عن طريقِ الخبرِ[1]، أي: كأنَّه يجب أن يكونَ باعتبارِه تحصيلَ حاصِل.

بلاغةُ الالتفاتِ في الآيةِ:

وقعَ التفاتٌ في الآيةِ من الضَّميرِ إلى الاسمِ الظّاهرِ في قوله تعالى ﴿لَا تَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾؛ فإنَّ مقتضى ظاهرِ خطابِ المتكلِّمِ ونظمِ الكلامِ أَنْ يقول: (لَاتَعْبُدُونَ إِلَّا إِيَّاي)، وفي العدولِ عن الضَّميرِ إلى الاسمِ الظّاهرِ وجهان بلاغيَّان:

أحدُهما: تفخيمُ عبادةِ اللّهِ، وتذكيرٌ باسْمِه الأحسنِ الجامعِ لصفاتِ الكمالِ والجلالِ.

الآخر: التّناسبُ الحاصلُ في مَجيءِ ما بعدَه من الأسماءِ، فكلّها أسماءٌ ظاهرةٌ، فَنَاسَبَ مُجَاوَرَةُ الظَّاهِرِ الظَّاهِرَ[2].

بلاغةُ القراءاتِ القرآنيّةِ:

لكلّ قراءةٍ وجهٌ بلاغيٌّ بديعٌ

اختلف القرَّاءُ في قراءةِ: ﴿تَعۡبُدُونَ﴾ فهي بتاءِ الخطاب في قراءةِ نافعٍ وابنِ عامرٍ وأبي عمرو وعاصِم، وبياءِ الغَيْبَةِ في قراءةِ ابنِ كثيرٍ وَحَمْزَةَ وَالكسَائِيّ[3].

ففي قراءة ﴿تَعۡبُدُونَ﴾ التفاتٌ بلاغيّ عنِ السَّابقِ، وبلاغتُه:

(1) الزمخشري، الكشاف: 1/159.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 1/457.
(3) ابن مجاهد، السبعة في القراءات، ص: 163.

الإقبالُ عليهم بالخطَاب، ليَكُونَ أَدْعَى لِلقَبُولِ، وَأَقْرَبَ لِلامْتِثَالِ؛ إِذْ فِيهِ الإِقبَالُ مِنَ اللَّهِ عَلَى المُخَاطَبِ بِالخِطَابِ[1]، وكفى به ترغيبًا في الامتثالِ.

وفي قراءة ﴿يَعْبُدُونَ﴾ التفاتٌ بلاغيّ عن اللَّاحق من الغيبة إلى الخطابِ، ففي قولِه تعالى: ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ﴾ بعد قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾؛ وبلاغتُه: المبالغةُ في الزَّجرِ والتّعنيفِ والتّوبيخِ، كأَنَّ بني إسرائيل مواجهون الخِطابَ، فخاطبَهم موبِّخًا لهم، هذا إذا حملنَا قولَه تعالى: ﴿مِيثَاقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ على تخصيصِه بالأسلافِ، أمَّا إذا تناولَ الأسلافَ والمُعاصِرين فلا التفاتَ في قوله: ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُم﴾، بل هو خطابُ البعضِ من المجموعِ.

دلالة اقترانِ الإحسانِ بالوالِدَين بتوحيدِ اللهِ:

تأكيدُ تَعظيمِ حقِّ الوالِدَين

يظهرُ تعظيمُ حقِّ الوالِدَين بذكرِهما بعد ذكرِ حقِّ اللّه في إفرادِه بالعبادةِ؛ فالخلقُ والنَّشْأَةُ الأولى مِنْ عندِ اللّهِ سبحانَه، والنَّشأةُ الثّانيةُ وهي التّربية؛ فهي من جهةِ الوالِدَين؛ وَلِهَذَا قَرَنَ تَعَالَى شكرَه بشُكرِهما؛ فَقَالَ: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِي وَلِوَٰلِدَيْكَ﴾[2].

دلالة مجيءِ المصدرِ النّائبِ عن فعلِ الأمرِ:

الإحسانُ بالوالِدَين ثابتٌ لهما لا يُنزَعُ ولا يُخلَعُ

في قوله تعالى: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ أمرٌ بالإحسانِ إليهما؛ ليكونَ مناسبًا للطّلبِ في قولِه: ﴿لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ كما تقدّم، وإنّما كان ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ أمرًا؛ لأنّ ﴿إِحْسَانًا﴾ مَصْدَرٌ مَوضُوعٌ مَوضِعَ فِعْلِ الأَمْرِ، فتكونُ الجملةُ طلبيةً، والتّقدير: أحسِنُوا إلى الوالِدَين إحسانًا، ففيه توكيدٌ وتقريرٌ للإحسانِ إليهما؛ لدلالة المَصدَرِ على التَّأكيدِ، كما أنّ الأمرَ بالإحسانِ تعلّقَ بوَصْفِ الوالديّةِ، فالإحسانُ

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 1/451.
(2) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 2/13.

واجبٌ ما دامتْ صِفَةُ الوالديَّة، وهي صفة ثابتةٌ لا تُنتَزَعُ في حياةٍ ولا في موتٍ.

دلالة الباءِ في قوله تعالى: ﴿وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنًا﴾:

صُحبةُ الوالِدَيْن أمـــرٌ ربَّـــانيٌّ وهـذا من تمامِ الإحسانِ

أفادتِ الباءُ معنى الملابسةِ، كما هو أصل معناها؛ لِيكونَ الأمرُ بالإحسان حالَ كونِه متلبِّسًا بالوالدين لا ينفكُّ عنهما، ففيه معنى الصُّحبةِ والمجاورةِ وعدمِ الانقطاعِ عنهما بحالٍ.

بلاغةُ التّقديمِ والتّأخيرِ:

حقُّ القرابَةِ تابعٌ لحقِّ الوالِدَين

قُدِّمَ ﴿بِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ﴾ على المصدر النّائبِ عن فعلِ الأمر اعْتِنَاءً بِمُتَعَلَّقِ الحَرفِ، وهُمَا الْوَالِدَان، وَاهتِمامًا بِأَمْرِهِمَا[1]، فأفادَ قَصْرُ الإحسانِ المطلقِ عليهما، فأصلُ الكلامِ: وإحسانًا بالوالِدَين، فلمّا قدّم الجارَّ والمجرورَ ظهرت النُّكتةُ البلاغيَّةُ، وقُدِّمَ ذكرُهما على ذي القُربَى؛ لِأَنَّ حقَّ القَرابةِ تابعٌ لِحَقِّ الوالِدَيْنِ، والإحسانُ إليهم إنَّما هو بواسطةِ الوَالِدَيْنِ[2].

نكتةُ إفرادِ ﴿ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾:

أفردَ النّظمُ ﴿ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾ فلم يقل: (الأقرباءُ)، بل ورد على صيغةِ اسم الجنسِ، وأضافَ إليه ﴿وَذِي﴾ بمعنى صاحِبِ، لِأنّهُ أَرَادَ بِالقُربى الجِنْسَ، ولِأنّ إِضَافَتَهُ إِلَى المَصْدَرِ يَنْدَرِجُ فِيهِ كُلُّ ذِي قَرَابَةٍ[3]، كما أنّه نبّه إلى أَنَّ وجهَ مناسبةِ الإحسانِ إنّما هو لِمعنى القَرابةِ.

توجيهُ القراءاتِ القرآنيَّةِ:

قَرَأَ ابن كثيرٍ وَأَبُو عَمْرو وَنَافِعٌ وَعَاصِمٌ وَابنُ عَامر: ﴿حُسۡنًا﴾، وقرأ حَمْزَةُ وَالْكسَائِيُّ: ﴿حَسَنًا﴾[4]، فأمّا قراءةُ: ﴿حُسۡنًا﴾ على المصدريّة فللمبالغةِ فيه؛ فإنّ الإخبارَ بالمصدرِ أو الوصفِ بِهِ يفيدُ المبالغةَ،

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 1/459.
(2) الهرري، حدائق الروح والريحان: 2/34.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 1/459.
(4) ابن مجاهد، السبعة في القراءات، ص: 163.

كقولهم: زيدٌ عدلٌ، وزيدٌ رجلٌ عدلٌ، على معنى أنّه حَسَنٌ في نفسِه، وأمَّا على قراءة: ﴿حُسْنًا﴾ بالوصفيّة، فيكون التّقديرُ: قولوا قولًا حَسَنًا، فقامتِ الصّفةُ مقامَ الموصوفِ للمبالغةِ، فكلتا القراءتينِ أفادتِ المبالغةَ، وهذا من بديعِ التَّعبير المختلفِ الألفاظِ المتَّفقِ الدّلالاتِ.

دلالة (أَلْ) في ﴿لِلنَّاسِ﴾:

شيوعُ الكلامِ الحسنِ إرشادٌ قرآنيٌّ شاملٌ لكلِّ النَّاسِ

(أَلْ) في ﴿لِلنَّاسِ﴾ جنسيةٌ، فتفيدُ معنى الاستغراقِ، وهذه المعاني البلاغيّةُ تَحُضُّ عَلَى مَكَارِمِ الأَخْلَاقِ، فيَنبغِي للمسلمِ المتخلّقِ بخُلُقِ القرآنِ أنْ يكونَ قولُه حَسَنًا، ففيهِ من معاني الخيرِ دقّها وجلّها، مَعَ المسلمِ وغيرِه، ومع المُطيعِ والعاصِي؛ فإنَّ أثرَ الكلمةِ الطَّيِّبةِ عظيمٌ في النَّفسِ، ويُعزِّزُه تقديمُ الجَارِّ والمَجرُورِ ﴿لِلنَّاسِ﴾ على المَفعُولِ به ﴿حُسْنًا﴾؛ فكلمةُ ﴿لِلنَّاسِ﴾ لم تخصَّ أهلَ دينٍ أو فئةً أو قومًا معيّنين.

دلالة حرفِ التّراخِي ﴿ثُمَّ﴾:

استبعادُ صُدورِ التَّولِّي بعد أخذِ الميثاقِ!

أفادَت ﴿ثُمَّ﴾ التّرتيبَ والمهلةَ، فكأنّه قد أمهَلَهُم على تنفيذِ المطلوبِ، وبَقِيَ الأمرُ مدّةً من الزّمن، فلمّا أقيمتْ عليهم الحجّةُ، حُكِمَ عليهِم بالتّولّي والإعراضِ، وذهبَ الشّهابُ إلى أنَّ ﴿ثُمَّ﴾ للاستبعَادِ[1]، أي: استبعادُ أن يصدُرَ عنهم هذا التَّولي بعد هذا الميثاقِ؛ ففيه تشنيعٌ عليهم، والمعنيانِ متآيلانِ.

فائدةُ مَجيءِ الجملةِ الحاليَّةِ اسميَّةً:

الإعراضُ دَيْدَنُ بني إسرائيل ودالَّتُهم

جاءت الجملةُ الحاليَّةُ اسميّةً مُصَدّرةً بـ﴿وَأَنتُم﴾؛ لتفيدَ التوكيدَ، كما أَنَّ مجيءَ الخبرِ وصفًا مشتقًّا يدلّ على ثبوتِ الوصفِ للمبتَدأ، فبالغَ في التّأكيدِ، وكأنّه قال: (وأنتُم عادتُكُم الثّابتةُ الإعراضُ عن الحقّ)[2]، والحالُ هنا مؤسِّسَةٌ لامؤكِّدةٌ؛ أي: حَكَمَ عليهِم بالتّولّي وهم في حالِ الإعراضِ.

(1) الشهاب الخفاجي، عناية القاضي: 2/312.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 1/464.

بلاغةُ الإيجازِ بحذفِ المتعلّق:

في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ﴾؛ حُذِفَ (عنْ) ومتعلَّقُها معَ الفعل ﴿تَوَلَّيْتُم﴾ ومع الوصف ﴿مُّعْرِضُونَ﴾؛ وذلك لأمرين:

ظهورُ معنى التَّركيبِ دون النَّصِّ عليه من براعةِ السِّياقِ

أحدهما: الإيجازُ بدلًا من التّطويلِ الذي لا حاجةَ له؛ لِأَنَّ السّياقَ يدلّ على أَنَّ المحذوفَ هو: تولِّي بني إسرائيلَ عَنْ جَميعِ مَا أُخِذَ عليهم؛ أَي أَشْرَكتمْ بِاللَّه وَعَبَدتُم الْأَصنَامَ وَعققْتُم الوالدَيْنِ وَأَسأْتُمْ لِذَوي القُرْبى وَاليَتَامى وَالمَسَاكِينِ، وَقُلْتمْ لِلنَّاسِ أَفْحَشَ القَوْلِ وَتَرَكتُم الصَّلَاة وَمَنَعْتُم الزَّكاةَ، وأَنتم معرضُون عن هذه الأوامرِ[1].

الآخر: أفادَ حذفُ المتعلَّقِ وَصْفَهم بالتّولِّي والإعراضِ مطلقًا؛ فكأَنَّ التّولّي عن الأوامرِ حَدَثٌ متجدِّدٌ لَهم، فكلّما أمِرُوا بفعلٍ تولَّوا عنه، والإعراضُ وصفٌ ثابتٌ لهم من غيرِ تقييدٍ بنوعِ الإعراضِ.

تأكيدُ جملةِ التّذييلِ لما قبلَها:

قولُه تعالى: ﴿وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ﴾ جملةٌ تذييليّةٌ[2]، جاءَتْ لتقريرِ الكلامِ وتَتْميمِه، فأفادتْ تقريرَ مضمونِ ما قبلَها، وهو ﴿تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ﴾.

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الإعراضُ والتّوَلّي:

الفرقُ بين التّولّي عن الشّيءِ والإعراضِ عنه:

الإعراضُ أكثرُ سُوءًا من التّولّي

المُعرِضُ وَالمُتَوَلِّي يَشْتَرِكان في تركِ السّلوكِ السّليم، إِلَّا أَنَّ المعرِضَ أَسْوَأ حَالًا؛ لِأَنّ المُتَوَلّي هو الّذي يُطمعُ في رجوعِهِ؛ لَأَنَّ تَوَلّيَهُ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/584.

(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/123.

قد يكون لِحاجةٍ تدعُو إلى الانصرافِ مع ثبوتِ العَقدِ، والمعرِضُ لا يُطمعُ في رجوعِهِ بوجهٍ؛ لِأَنَّ معنَى الإعراضِ هو الانصرافُ عن الشَّيءِ بالقلبِ[1]، ولَمَّا كانَ الإعراضُ أسوأَ قُدِّمَ التَّولّي عليه، للترقّي في الذّمِّ، وَغَايَةُ الذَّم الجمعُ بَينهمَا.

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/358، والرّاغب، تفسير الرّاغب: 1/248، والكفوي، الكليات، ص: 2.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾﴾ [البقرة: 84]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لمّا ذكَّرَ اللّهُ بني إسرائيلَ في الآيةِ السَّابقةِ بِمَا أُمِروا بهِ مِنْ إفرادِ اللّهِ بالعبادةِ والإحسانِ إلى الوالِدَينِ وذوي القُربى واليتامى والمساكينِ، وأنَّهم تَوَلَّوْا وهم مُعرِضُونَ، ناسَبَ أنْ يُذَكِّرَهم بإقرارِهم بحُرمَةِ سَفْكِ الدِّماءِ، وإخْرَاجِ الأنْفُسِ مِن دِيَارِهَا؛ فلمَّا "كان أكبرَ الكبائرِ بعدَ الشِّركِ القتلُ، تَلاهُ بالتَّذكيرِ بِمَا أُخِذَ عليهم فيهِ من العَهدِ، وقَرَنَ به الإخراجَ من الدّيارِ، لأنَّ المال عديل الرّوح، والمنزِلَ أعظمُ المال، وهو للجَسَدِ كالجسدِ للرُّوحِ"[1].

شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

1) ﴿تَسْفِكُونَ﴾: السِّين والفاء والكاف تدلُّ على إراقةِ المائعِ المحتَبسِ في البدنِ بحِدَّةٍ أو قُوَّةٍ، ومنه قولُه تعالى: ﴿وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾ [البقرة: 30] أي يَصُبُّها بقوّةٍ، بقتلِ أصحابِها، ومنه: رَجلٌ سَفَّاكٌ للدِّماءِ، بمعنى: كثير القتل، وَيقال: سَفَكَ دمعَه؛ إذا سَالَ بقوّة كأنَّه صَبّهُ، وسفَّاكٌ بالْكلَامِ: كثير الكلام ينثُرُه نَثْرًا، وأغلبُ ما يستعملُ السَّفكُ مع الدِّماءِ المُسالة بغير حقٍّ[2].

2) ﴿دِمَآءَكُمْ﴾: الدِّماء: جَمْعُ دَم؛ وهو السّائل الأحمر الذي يجري في عروق الإنسان والحيوان. ولفظ دَم؛ على حَرفَين، ولامُهُ محذوفةٌ وفيها قولان: بالياءِ- وهو قولُ الأكثرِ-؛ فالأَصلُ: دَميٌ، وتثنيته: دَمَيَان، أو بالواو؛ فالأصلُ دَمَوٌ وتثنيته: (دَمَوَان)، بدليلِ دَمَويّ في النَّسَبِ[3].

3) ﴿دِيَٰرِكُمْ﴾: جَمْعُ دارٍ وهي المنزلُ، وأصلُ الكلمةِ (دور)، ويدورُ معنى الجذر على إحْدَاقِ الشَّيْءِ بِالشَّيْءِ مِنْ حَوَالَيْهِ، وسُمِّيت دارًا؛ لِدَوَرانِ أَهلِها بها أَو لِدَوَرانِها

(1) البقاعيّ، نظم الدرر: 2/8، ويُنظر: تفسير المراغي: 1/160.
(2) الأزهريّ، تهذيب اللغة، والرّاغب، المفردات، والحميريّ، شمس العلوم: (سفك).
(3) الأزهري، تهذيب اللغة، والرّاغب، المفردات، السمين، عمدة الحفاظ: (دم).

هي على أَهلِها وإحاطتِها بِهِم، وَلا تُسمَّى دارًا إلَّا إذا سُكِن فيها، وتُسمَّى الدّارُ دارًا بِحسَبِ ساكنيها وما يتَّصفون به فيها، فيُقال: دارُ الدُّنيا، ودارُ الآخرةِ، ودارُ السلامِ، ودارُ المتَّقين، ودارُ البَوارِ، ودارُ الفاسقين[1].

4) ﴿أَقْرَرْتُمْ﴾: أَقْرَرَ -الرُّباعيّ-: أَصلُه الفعل الثلاثيّ (قَرَّ)، ويدورُ مَعنى الكلمةِ على ثَباتِ الشَّيءِ وتمكُّنِه، فيُقالُ: قَرَّ في مَكانِه يَقِرُّ قَرَارًا، إذا ثبت ثبوتًا جامدًا، وأَصلُه مِنَ القُرِّ، وهو البَرْدُ، الَّذي يقتضي السّكونَ، وضدّه الحَرّ الَّذي يقتضي الحركةَ، والإِقْرَارُ: الإذعان للحقّ والاعتراف به، فهو مِن إقْرارِ الأمرِ في النّفسِ تسليمًا وعدمَ مُنازَعَةٍ، ويظهر فيه معنى الثبات[2].

5) ﴿تَشْهَدُونَ﴾: من الفعل (شَهِدَ)، ويدورُ هذا الأَصلُ على معنى: الحُضُورِ وَالعِلْمِ وَالإِعْلَامِ؛ وأصلُ شَهِدَ: حَضَرَ، ثم صُرِّفت الكلمةُ في أداءِ ما تقرَّرَ علمُه في النَّفسِ بأيِّ وجهٍ تَقَرَّر من حُضورٍ أو غيره، والشَّهَادَةُ: الحضورُ مع المشاهدةِ، إمّا بالبصرِ أَو بالبَصيرةِ، كما تُطلقُ الشَّهَادَةُ على: القولِ الصَّادرِ عن علمٍ حاصِلٍ بمشاهدةِ بَصيرةٍ أَو بَصَرٍ[3].

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

توجِّه الآية الكريمة خطابًا لبني إسرائيل مفاده: أن اذكروا حين أَخَذَ اللّه عليكم عهدًا مؤكدًا في التوراة: يحرِّم سفكَ بعضكم دمَ بعض، وإخراجَ بعضكم بعضًا من دياركم، ثُمَّ اعترفتم بما أخذناه عليكم مِن عَهْدٍ بذلك، وأنتم تشهدون على صحَّته، فالحجة قائمة عليكم.

الإِيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

فائدةُ الابتداءِ بـ(إِذْ):

الإيذانُ بالشُّروع في قضيَّةٍ ذات شأنٍ، تتطلَّبُ انتباهًا ويقظةً

أفادَ ابتداءُ الآيةِ بِظَرْفِ الزَّمانِ (إِذْ)، إيذانًا بالشُّروعِ في الكلامِ على قَضيَّةٍ ذاتِ شَأْنٍ، بِأَنْ تكونَ ميثاقًا مُؤَكَّدًا، أَوْ بَيانَ نِعمةٍ عظيمةٍ، أَوْ ارتكابَ ذنْبٍ عظيمٍ؛ لِأَنَّ التَّقديرَ: واذْكُرْ وَقْتَ، أَوْ:

(1) الأزهري، تهذيب اللغة، والرّاغب، المفردات، السمين، عمدة الحفاظ: (دور).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (قرر).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (شهد).

واذْكُرْ حينَ؛ فيكونُ الكلامُ موجَّهًا إلى مخاطَبٍ معيَّنٍ، أَو مخاطَبينَ مُعيَّنينَ؛ لِلتَّذكيرِ بأَمرٍ مُهمٍّ قدْ حَصَل، مِمّا يَسْتَدعي انتِباهَ المخاطَبِ لما سيُقالُ.

فائِدَةُ إضافَةِ (ميثاق) إلى الضَّميرِ:

تَخْصيصُ الخِطابِ بِالمُخاطَبين بِقَصْدِ الإِلْزامِ

الخِطابُ في قولِه: ﴿مِيثَٰقَكُمْ﴾ موجَّهٌ إلى اليهودِ الّذين كانوا في زَمَنِ نُزولِ القرآنِ؛ وعليهِ فالخِطابُ على التَّخصيصِ ولا مجازَ فيه، ومعنى التَّخصيصِ أَنَّ الميثاقَ خاصٌّ بهم؛ لِأَنَّ الإِضافةَ على معنى لامِ الاختصاصِ، فإذا كانَ الميثاقُ مختَصًّا بهم فعليهم الالتزامُ به، قال ابنُ عاشور: "إِضَافَةُ (مِيثَاق) إِلَى ضَمِيرِ الْمُخَاطَبِينَ مُرَاعًى فِيهَا أَنَّهُمْ لَمَّا كَانُوا مُتَدَيِّنِينَ بِشَرِيعَةِ التَّوْرَاةِ، فقَدِ الْتَزَمُوا بِجَمِيعِ مَا تَحْتَوِي عَلَيْهِ"[1].

إيثارُ أُسلُوبِ الخِطابِ عَلى غَيْرِهِ:

التَّأثيرُ في نفسِ المخاطَبِ؛ لِتَقَعَ الاستِجابَةُ مَوْقِعًا راسِخًا

في استعمالِ أُسلوبِ المُخاطبةِ وجهٌ بَلاغيٌّ تَأثيريٌّ في نفسِ المُخاطَبِ، فإنَّ الخطابَ إقبالٌ مِنَ المخاطِبِ إلى المخاطَبِ، والإقبالُ يحتملُ أَنْ يكونَ تَرغيبًا وأَنْ يكونَ تَرهيبًا، ففيهِ تحضيضٌ ورضًا إذا كان المقامُ مقامَ مَدْحٍ، وفيه تَوْبيخٌ وتقريعٌ إذا كان المقامُ مقامَ ذَمٍّ، ولِكلِّ مَقامٍ مَقالٌ؛ فَلَمَّا وردَ أُسلوبُ المُخاطبةِ وهم قدْ تولَّوا عن الميثاقِ وأَعرضُوا عنه، كانَ الخِطابُ أَشدَّ توبيخًا وتقريعًا، والمخاطَبَةُ تقتضي منهم أَنْ يتذكَّروا نِعَمَ اللهِ عليهم وأَنْ يُقَدِّروا المُنْعِم.

بَلاغَةُ الكِنايَةِ في ﴿تَسْفِكُونَ﴾:

اشْتِمالُ التَّركيبِ عَلى دلالَةِ العُمومِ، ودلالَةِ الإِشارَةِ

آثَرَ النَّظمُ الكريمُ التَّعبيرَ عنِ القتلِ بقوله: ﴿تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ﴾، على طريقِ الكنايةِ، والتعبيرُ بأُسلوبِ الكنايةِ أشدُّ قوَّةً في النَّهيِ عنِ الْقتلِ[2]، إذِ الفعلُ (يَسْفِكُ) يَدُلُّ على صَبِّ الدَّمِ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/586.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/82.

صَبًّا، وهو أَمرٌ تَشْمَئِزُّ منهُ النُّفوسُ، ويدخُلُ في سَفكِ الدِّماء عمومُ الجراحاتِ، فيشمَلُ هذا التَّعبيرُ: القتلَ، والجرحَ؛ والمرادُ منه ما كان باطِلًا، ويُشيرُ هذا التَّعبيرُ إلى القتْلِ والجرْحِ الناشئِ عن فتنةٍ؛ لأنَّ الفتنةَ يكثُرُ فيها سَفْكُ الدِّماءِ قتلًا وجرحًا، ولو قالَ: (ولا تقتُلُون أَنْفُسَكُمْ)؛ لمَا أفادَ ما تقدَّم.

بَلاغَةُ المَجازِ في الخِطابِ:

التَّأْثيرُ في نُفوسِ المُخاطَبين؛ للارْتِداعِ والامْتِثالِ

جاءَ تشْبيهُ "الْغَيْرِ بِالنَّفْسِ لِشِدَّةِ اتِّصَالِ الْغَيْرِ بِالنَّفْسِ فِي الْأَصْلِ أَوِ الدِّينِ؛ فَإِذَا قَتَلَ الْمُتَّصِلَ بِهِ نَسَبًا أَوْ دِينًا، فَكَأَنَّمَا قَتَلَ نَفْسَهُ، وَمَبْنَاهُ عَلَى الْمَجَازِ فِي الضَّمِيرِ الْمُضَافِ إِلَيْهِ فِي قَوْلِهِ: ﴿دِمَآءَكُمْ﴾ و﴿أَنفُسَكُمْ﴾"[1]، وجعَلَهُ الطِّيبِيُّ من بابِ المَجازِ لأَدنى مُلابسةٍ[2]، وأَدنى مُلابسةٍ في هذا الموضعِ تَتَمثَّلُ في علاقةِ النَّسَبِ والدِّينِ بينهما؛ فأَقامَ المخاطَبِينَ مَقامَ غيرِهم مِمَّنْ هُمْ في مَوطنِهم لِوجودِ عَلاقةِ مناسبةِ النَّسَبِ والدِّينِ، ونظيرُ هذا الأُسْلوبِ قولُه: ﴿وَلَا تَلْمِزُوٓا أَنفُسَكُمْ﴾ [الحجرات: 11]، وقولُه: ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا﴾ [النور: 12] وَقَوْلُه: ﴿فَٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ [البقرة: 54]، وقولُه: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾ [النُّور: 61].

تَوْجيهُ المَجازِ المُرْسَلِ لتَكْثيرِ المَعْنى:

قَتْلُ الآخَرين مُوصِلٌ إلى قَتْلِ النَّفسِ، وإخراجُهُمْ مُؤَدٍّ إلى إخراجِها

وتحتملُ الآيةُ أنْ تُحمَلَ على المَجازِ المُرسَلِ بإطلاقِ المُسَبَّبِ على السَّبَبِ، على مَعْنَى: إذا قَتَلَ غيرَهُ فكأَنَّما قَتَلَ نَفْسَهُ؛ لأَنَّه يُقتَصُّ مِنْهُ[3]، ومعنى الآيةِ على هذا التَّوجيه البلاغيِّ: لا تَقتلُوا غيرَكم، فإنَّ مَنْ يفعلْ هذا فقد قَتَلَ نَفْسَه؛ لأَنَّهُ تسبَّبَ بالقَصاصِ مِنْه، وَلَا تُخْرِجُوا أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ بِالْجِنَايَةِ عَلَى الْغَيْرِ فَتُنْفَوْا مِنْ دِيَارِكُمْ[4].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/586، ويُنظر: الزمخشري، الكشاف: 1/160.
(2) الطيبي، فتوح الغيب: 2/559.
(3) الزمخشري، الكشاف: 1/160.
(4) الرازي: التّفسير الكبير: 3/591، والطيبي: فتوح الغيب: 2/559، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/586.

فائِدَةُ إِضافَةِ الدِّمَاءِ إلى الضَّميرِ:

المصلحةُ الجامعةُ والمفسدةُ الجامعةُ هي المُعتبَرةُ في الأحكامِ الكليَّةِ

وَجْهُ إِضَافَةِ الدِّمَاءِ إِلَى ضَمِيرِ السَّافِكِينَ، أَنَّ هَذِهِ الْأَحْكَامَ الْمُتَعَلِّقَةَ بِالجماعَةِ يَكُونُ مَدْلُولُ الضَّمَائِرِ فِيهَا مَجْمُوعَ النَّاسِ، فَإِذَا تَعَلَّقَتْ أَحْكَامٌ بِتِلْكَ الضَّمَائِرِ مِنْ إِسْنَادٍ أَوْ مَفْعُولِيَّةٍ أَوْ إِضَافَةٍ أُرْجِعَ كُلٌّ إِلَى مَا يُنَاسِبُهُ عَلَى طَرِيقَةِ التَّوْزِيعِ، وَنُكْتَتُهُ: الْإِشَارَةُ إِلَى أَنَّ الْمُغَايَرَةَ فِي حُقُوقِ أَفْرَادِ الْأُمَّةِ مُغَايَرَةٌ صُورِيَّةٌ، وَأَنَّهَا رَاجِعَةٌ إِلَى شَيْءٍ وَاحِدٍ، وَهُوَ الْمَصْلَحَةُ الْجَامِعَةُ أَوِ الْمَفْسَدَةُ الْجَامِعَةُ، وَمِثْلُهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ﴾ [البَقَرَة: 188][1].

بَلاغَةُ إِطْلاقِ الخَبَرِ وإِرَادَةِ الإِنْشَاءِ:

تَنْزِيلُ النَّهْيِ مَنْزِلَةَ الخَبَرِ الصَّادِقِ؛ لبيانِ شَناعَةِ مُخالَفَةِ المَواثيقِ

أُرِيدَ بالخَبَرِ الإِنْشَاءُ في قولِه تعالى: ﴿لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ﴾، أي: النَّهيُ عنْ سَفكِ الدِّماء، والإخراجِ من الدِّيارِ، والتقديرُ: لا تَسْفِكُوا دماءَكُم ولا تُخرجوا أَنفسَكُم؛ فهو من المَجَازِ؛ إذ استُعمِلَ الْخَبَرُ في غَيْرِ معناهُ؛ لِعلَاقةِ مُشابهَةِ النَّهي الموثوقِ بِامْتثالِه بِالشَّيْءِ المُتحقِّقِ الحُصُولِ، حتَّى إِنَّهُ يُخْبِرُ عنهُ، وهو أَبلَغُ مِنْ صَريحِ النَّهي، فنكتَةُ العُدُولِ إلى أُسلوبِ الخَبرِ المُسارعةُ إلى الامتثالِ والانْتهاءِ، بتَنْزيلِ النَّهي مَنْزِلةَ الخَبرِ الذي لا يُكذَّب، فتَولِّي المُخَاطَبين تكذيبُ لمواثيقِهم، وشهادتِهِمْ عليها.

بَلاغَةُ الفَصْلِ بَيْنَ الجُمَلِ:

تَفْسيرُ المُجْمَلِ وتَبْيينُ المُبْهَمِ

وقعتْ جملةُ: ﴿لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ﴾ مفسِّرةً ومُبيِّنةً لِلميثاقِ، والجملةُ التي بعدَها معطوفةٌ عليها؛ فلها حُكمُهَا، والمعنى: من بعض الميثاق، كما يُفسِّرُه سياقُ الآيات، ويجوزُ في إعرابِها: البدلُ - بدلُ بعضٍ من كُلٍّ - وعطْفُ البيانِ.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/585.

بَراعَةُ التَّعْبيرِ بالمُفرَدَةِ:

تَصْويرُ بَشاعَةِ القَتْلِ، وما يَلْحَقُهُ مِنْ جِراحاتٍ وإعاقاتٍ

عبّرتِ الآيةُ بمفردَةِ السَّفْكِ دون القتلِ المُصرَّحِ به في الآيةِ التَّالية: ﴿ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ﴾، وذلك أنَّ سَفْكَ الدَّمِ فيه بَيانٌ لبشاعَةِ القتلِ أَبلغُ مِن لفظِ القتلِ، إذ يُصوِّرُ إراقَةَ الدَّمِ وصبَّه صَبًّا، ويُساعِد على ذلك التَّعبيرُ بصيغةِ المضارِعِ الدَّالِ على تجدُّدِ الفعلِ في حركةٍ مستمرَّةٍ، ويُشيرُ إلى الآلَةِ الحادَّةِ التي يُرَاقُ بها الدَّمُ، ويدلُّ على المبالغةِ في القَتْلِ، وعلى تحقُّقِ القتْلِ وما يُصاحِبُه من جرَاحاتٍ وإلحاقِ عاهاتٍ بالآخرين.

بَلاغَةُ التَّقْديمِ والتَّأْخيرِ:

بَيانُ الأَشَدِّ فَظاعَةً، المُنزَّلِ مَنْزِلَةَ المُقَدَّمَةِ مِن النَّتيجَة

قُدِّمت جملةُ ﴿لَا تَسْفِكُونَ﴾ على ﴿وَلَا تُخْرِجُونَ﴾؛ لفظاعةِ سفكِ الدِّماءِ، ولأنَّه مُقدِّمةٌ من مقدِّماتِ الإخراجِ؛ فقُدِّم الأشدُّ والأفظعُ لأهمِّيَّةِ اجتنابِه، وقُرِنَ الإخراجُ بالسَّفكِ؛ للإيذانِ بأنّ الإخراجَ من الدِّيارِ بمنزلةِ القَتْلِ[1].

نُكْتَةُ التَّعْبيرِ بِصيغَةِ المُضارِعِ:

تَصْويرُ قُبْحِ مَضْمونِ الأَفْعالِ، وإشارَةٌ إلى تَجَدُّدِها

جَاءَ الفعلان ﴿تَسْفِكُونَ﴾ و﴿تُخْرِجُونَ﴾ بصِيغَةِ المُضارِعِ، تصويرًا لقُبحِ مضمونِ الفعلَيْنِ، وإشارةً إلى تجدُّدِهما، وأنّهما مستمرَّان لم ينقطعا، وفي ذلك بيانٌ بأنَّ ما يقومون به من مخالفةِ المواثيقِ هو منهجُهُم، ودَيْدَنُهم في التَّعامُلِ مع أنفسِهم، فكيف بتعاملِهم مع غيرِهم؟!

فائِدَةُ حَرْفِ التَّراخي:

تَوبيخُ المُخاطَبين على ما أَقْدَمُوا عَلَيْهِ مِن نَكْثِ المواثيقِ

معنى حرفِ التَّراخي في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ﴾: التَّرتيبُ الرُّتبيُّ، أي: "أَخَذَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدَ وَأَقْرَرْتُمُوهُ، أَيْ: عَمِلْتُمْ بِهِ وَشَهِدْتُمْ عَلَيْهِ"[2]، وفائِدتُه: تَوبيخُهم لِمَا أَقْدَمُوا عليه بعدَ الإقْرَارِ والشَّهادةِ.

(1) البروسوي، روح البيان: 1/174.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/586.

وذهب الزمخشريُّ وغيرُهُ[1] إلى أنَّ (ثمَّ) هنا للاسْتِبعادِ من اسْتِعمالِ حرفِ العطفِ في المجازِ، أَي استبعادِ وقوعِ ذلك ممَّن أقرَّ وشَهِدَا!، وهو قريبٌ من مَعنى التّرتيب الرُّتبيّ، ولكنّه على معنى اسْتِبْعاد رُتْبَة فِعْلِهم مع ما أقرُّوا به من الميثاق، يعني: يَبْعُد مِنَ العاقل ارتِكابُ هذا المَحْذورِ، مِنَ القتْل والتّشريدِ بَعد حُصولِ ما يُنافيهِ مِن أخْذِ الميثاقِ على ألّا يفعَلوا ذَلِك[2].

فائِدَةُ الجُمْلَةِ الحاليَّة:

بَيانُ مَوْقِعِ الشَّهادَةِ مِنَ الإقْرارِ؛ إقامَةً للحجَّةِ على المخاطَبين، وإلقامُهُمُ الحَجَرَ

جملةُ: ﴿وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ حاليَّةٌ، وجيءَ بها بعد جُملةِ الإقرَارِ؛ للانتِقالِ من المقْصَدِ إلى أداتِه، إذِ الإقرارُ وحْدَهُ غَيْرُ كافٍ؛ فالإقرارُ لا يثبُتُ إلّا بالشَّهادَةِ، "أَيْ: لَا تُنْكِرُونَ إِقْرَارَكُمْ بِذَلِكَ إِذْ قَدْ تَقَلَّدْتُمُوهُ وَالْتَزَمْتُمُ التَّدَيُّنَ بِهِ"[3].

بَلاغَةُ التَّغايُرِ بَيْنَ صِيَغِ الأَفْعالِ في سِياقٍ واحِدٍ:

شَهادَةُ المُخاطَبين هِيَ أَداةُ إِقْرارِ ميثاقِ الأَسْلافِ

جاءَ فعْلُ الإقرارِ بصيغةِ الماضي، وفعلُ الشَّهادَةِ بصيغةِ المُضارِعِ؛ لفتًا إلى أنَّ الإقرارَ وقعَ من أسلافِهم، وثبتَ فيهم، وأنَّ الشَّهادَةَ مسْتَمِرَّةٌ فيهم، فهم يَشْهدُون على إقرارِ أسلافِهم وشهادتِهم، وعليه فشَهادَتُهُم هِيَ الإقْرارُ بمَضْمونِ الميثاقِ الصَّادرِ عن أسلافِهم، وبه يُنسَبُ إليهم.

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

القَتْل والسَّفْك:

القتلُ هو الإماتةُ أو إزالةُ الرُّوح عن الجَسَدِ بِفعلِ المُتَولِّي لذلك، والقتلُ ضُروبٌ مُخْتَلِفَةٌ[4]، وأمّا سفكُ الدَّم فلا يُطلقُ إلّا على نوعٍ

(1) الزمخشري، الكشاف: 1/160، وأبو حيّان، البحر المحيط: 1/466، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/124.
(2) الطيبي، فتوح الغيب: 2/541.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/586.
(4) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 104.

مُعَيَّنٍ من القَتْلِ، وهو أَنْ يكونَ فيهِ إراقةُ الدَّم حتَّى يموتَ صاحبُه، ويدلُّ على المبالغة في القتلِ حتّى يَصُبَّ الدَّمَ صبًّا، كما يدلّ على تعدِّي القاتلِ وظُلم المَقْتولِ. فسفْكُ الدَّم أقبحُ أنْواعِ القَتْل وأفظَعُهُ، فكانَ التعبيرُ بالسَّفك أَنسَبَ لِنَظْمِ الآيةِ وسياقِها.

الإقرار والشَّهادَة:

الإقرارُ هو التكلُّمُ بالحقِّ، وإثباتُه على النَّفسِ، مع تَوْطينِ النَّفسِ على الانقِيادِ والإذعانِ[1]، والشَّهادةُ لا تكونُ إلا عَن حُضُورٍ وَعِلْمٍ وَإِعْلَامٍ، فالشَّهادَةُ أعْلى تَوْثيقًا من الإقرارِ، فقَدْ يُنكِر المُقرّ ويَنْكَلُ عن إقرارِهِ، ولهذا قال اللّه تعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِۚ﴾ [آل عمران: 18]، فليس بعدَ الشَّهادةِ عِلْمٌ وإعلامٌ. وذكر الرَّاغبُ الفرقَ بينَ الإقرارِ والشَّهادةِ فقال: "الشَّهادةُ إقرارٌ مَعَ العلم وثَباتِ اليقينِ، والإقرارُ قد ينفكُّ مِن ذلِكَ، ولِهذا كَذَّب اللّه تعالى الكفَّارَ في قولِهم: ﴿نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِۗ﴾ ولو قالوا: نُقِرُّ إنَّك لَرسولُ اللّهِ لم يُكَذَّبُوا"[2]. فلمَّا تغايرَ مَعْنى الكَلِمَتينِ، وكانت الشَّهادةُ أثبتَ؛ قَرَنَ بينَ الإقرارِ والشَّهادَةِ، وجعلَ الشَّهادةَ حالًا لإقرارِهِمْ، فلا يمكنُ إنكارُ إقرارِهم ولا جَحدُهُ.

(1) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 65.
(2) تفسير الرّاغب: 1/249.

﴿ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ۚ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾﴾ [البقرة: 85]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لـمَّا ذكرتِ الآيةُ السَّابقةُ توكيدَ الميثاقِ على الـمُخاطَبينَ، وإقرارَهُمْ وشَهادَتَهُم على أَلّا يَسْفِكُوا دِماءَ بَعْضِهم بَعْضًا، ولا يُخرِجُوا فريقًا منهُم مِنْ دِيارِهِمْ، بَيَّنَتْ هذه الآيةُ حالَهم في عَدَمِ تَحَمُّلِهِمُ الميثاقَ؛ بنقْضِهِمُ العهدَ كما كان يفعلُ مَنْ كان قبلَهم؛ فاستحقّوا التَّوبيخَ على ذلك، فمَوْقِعُ هذه الآيةِ من السَّابِقةِ بيانُ حالِ اليَهودِ من الميثاقِ الذي تعهَّدُوا بالتِزامِه، وشَهِدُوا على ذلك، فالمناسبةُ هي الانتقالُ من بيانِ الدَّعوى الكاذِبَةِ، إلى الواقِعِ الصَّادِقِ، وهو القتلُ والإخراجُ.

شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

1) ﴿تَظَٰهَرُونَ﴾: أَصلُهُ: تتظاهرون، حُذِفت إحدى تاءيْهِ تخفيفًا، وهو من الفعل (ظهر) الَّذي يدور عَلَى معْنَيَيْنِ؛ هُما: القُوَّةُ وَالبُروزُ، يقال: ظَهرَ الشَّيْءُ يَظْهرُ ظُهورًا فَهُوَ ظَاهِرٌ؛ إِذَا انْكَشَفَ وَبَرزَ، وَالْأَصلُ فِيهِ كُلِّهِ: ظَهرُ الإِنْسانِ، وجَمْعُه: أَظْهُرٌ وظُهورٌ، وَالظَّهِيرُ: الـمُعِينُ، كَأَنَّهُ أَسْنَدَ ظَهْرَهُ إِلَى ظَهْرِكَ. وتَظاهرَ القومُ: تَعاوَنوا، وظاهَرَه: عاوَنَهُ، والظَّهِيرُ: العَوْنُ، يُقال للواحد وللجَميع، فيقال: هو ظَهيرٌ، وهم ظَهيرٌ، ومعنى: ﴿تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم﴾ أي: تَتَعاونونَ عليهم[1].

2) ﴿بِٱلْإِثْمِ﴾: تدورُ معاني كلمةِ (أثم) على: البُطْءِ وَالتَّأَخُّرِ، يُقَالُ: نَاقَةٌ آثِمَةٌ، أَيْ:

(1) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، وابن سِيده، المحكم، والرّاغب، المفردات: (ظهر).

مُتَأَخِّرَةٌ. وَالإِثْمُ مُشْتَقٌّ مِنْ ذَلِكَ؛ لِأَنَّ ذَا الإِثْمِ بَطِيءٌ عَنِ الْخَيْرِ مُتَأَخِّرٌ عَنْهُ. ولهذا قال الرَّاغب في الإثم: "اسمٌ للأفعالِ المُبَطِّئَةِ عن الثَّوابِ، وجَمعُه: آثامٌ"[1]. والإِثْمُ: الذَّنْبُ؛ لأنَّه يُبطِّئُ عن الخير، ويطلقُ الإثم في مقابلِ البرِّ، فهُوَ كل فِعْلٍ يستَحِقُّ فاعلُهُ الذَّمَّ واللَّومَ[2].

3) ﴿وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾: أصلُهُ من الفعل (عَدَوَ)، ويَدورُ مَعْنى الكلمةِ علَى تَجَاوُزٍ في الشَّيْءِ لِمَا يَنْبَغِي أَنْ يُقْتَصَرَ عَلَيْهِ، يقال: عَدَا يَعْدُو عَدْوًا وعُدوانًا، والاعْتِدَاءُ مُشْتَقٌّ مِنَ العُدْوَانِ، وَالعُدْوَانُ: تَجاوزُ الحدِّ في الظُّلْمِ، وهو المقصودُ في الآيةِ[3].

4) ﴿أُسَٰرَىٰ﴾: جمع؛ أصلُه من الفعل (أَسَرَ)؛ وهو الشَّدُّ والإمْساكُ، والإِسارُ: الحَبْلُ الذي يُشدّ به، ويُطلق على الحَبْس، ومن ذلك الأَسِير؛ لأنَّه يُشدّ بالإسار، ويجمعُ أَسِيرٌ على: أَسارى -بفتح الهمزة-، وأُسارى -بضمها-؛ وهو الأصل، وأَسْرَى[4]. ومِن اشتقاقات (أَسَرَ) بمعنى الشدة: أُسرةُ الرجل، وهم أَهلُ بيته ورهطُه الأَدْنَوْن الَّذين يَشْتَدّ بِهِم، وكلُّ محبوس في سِجْنٍ أو في موضعٍ مِثْلِه فهُو أَسِيرٌ[5].

5) ﴿تُفَٰدُوهُمْ﴾: أَصْلُهُ من الفعل (فَدَى): يَفْدِي فِدَاءً، والفِداءُ: أَنْ يُجْعَلَ شَيْءٌ مَكَانَ شَيْءٍ حِفْظًا له، أو هو حِفْظُ الإنسانِ مِنَ المكروه بما يَبذُلُه عَنْه، ويقال: فَدَيْتُهُ أَفْدِيهِ، كَأَنَّكَ تَحْمِيهِ بِنَفْسِكَ أَوْ بِشَيْءٍ يُعَوِّضُ عَنْهُ، والمُفَادَاةُ: أن يُرَدَّ أَسْرُ العِدَى ويُسترجعَ مِنْهم مَن في أيديهم[6].

6) ﴿مُحَرَّمٌ﴾: على وزْنِ (مُفَعَّل) مِنْ (حَرَّمَ) المُضَعَّفِ العين، ويَدُلّ على المَنْعِ وَالتَّشْدِيدِ. ومنه الحَرَامُ: ضِدُّ الحَلَالِ[7]، وهو المراد في الآية، ومنه الحَرَمُ - حَرَمُ مكَّة والمدينة- سُمِّيَ بذلك لتَحريمِ اللّٰه تعالى فيه كثيرًا ممّا ليس بِمُحَرَّمٍ في غيره من المَواضِعِ، ومثلُهُ الشَّهْرُ الحرام، والحِرمة بالكسرِ هيَ المَنْعُ مِنَ الشيءِ

(1) الرّاغب، المفردات: (أثم).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (أثم).
(3) ابن سيده، المحكم: (عدو).
(4) الزجّاج، معاني القرآن: 1/166.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن سيده، المحكم، ابن منظور، لسان العرب: (أسر).
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (فدى).
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات: (حرم).

لِدَنايَتِه، والحُرمة بالضَّمّ: المنعُ مِنَ الشيْءِ لِعُلُوِّه[1]، فيخْتَلفُ المَعْنى دُنُوًّا ورِفْعَةً باخْتِلاف الحَرَكَةِ كَسْرَةً وضَمَّةً.

7) ﴿جَزَآءُ﴾: أَصلُه من الفعل (جَزَيَ)، قُلِبَت الياء ألِفًا لتَحَرُّكِها وانفِتاح ما قبلها، فصار (جَزَى)، وتَدورُ الكلمة على مَعْنى قِيَام الشَّيْءِ مَقَامَ غَيْرِهِ وَمُكَافَأَته إِيَّاهُ، والجَزَاء: ما فيه الكِفايَةُ مِنَ المُقَابَلَة، واسْتُعملَ الجزاءُ في القرآنِ في مُقابِلِ الخيرِ والشَّرِّ، كَما في قولِه تعالى: ﴿فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الكهف: 88]، وقوله: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ [الشورى: 40]، ويُقال في الاستِعمالِ: جَزَيْتُهُ بكذا وجَازَيْتُهُ، ولم يَرِد في القرآن إلّا جَزَى، ولَم يستعملْ جَازَى، وذاك أَنّ المُجازاة: هِيَ المُكافَأَةُ، وهي: مُقابَلَةُ نِعمَة بنِعْمَةٍ هيَ كُفْؤُها. ونِعْمةُ اللّه تَتَعالى عن ذلِكَ، فلا كُفْءَ لِنِعَمِ اللّه، ولِهذا لا يُسْتَعْمل لَفْظ المكافَأة في الدُّعاءِ معَ اللّه ﷻ. فلا يَصِحُّ أنْ نقولَ: كافأكَ اللّه، بل نَقولُ: جَزاكَ اللّه خيرًا، ويُسْتَعمل لفظُ المُكافأةِ بينَ النَّاس[2].

8) ﴿خِزْيٌ﴾: أصله من الفعل (خَزِيَ)، ويَدلّ على: الإبعادِ، وخَزِيَ الرجلُ خِزْيًا فَهُوَ خَزْيَانُ، إذا وَقعَ في بلِيّةٍ وشَرٍّ، فَذَلَّ بذلك وَهَان واسْتَحْيَا مِنْ قُبْحِ فِعْلِه فتَبَاعَدَ وَنَأَى، ومنه قَوْلُهُمْ: أَخْزَاهُ اللَّهُ، أَيْ أَبْعَدَهُ وَمَقَتَهُ[3]، والخِزْيُ في الآيةِ بمعنى: الهَوانِ والذِّلَّة[4].

9) ﴿يُرَدُّونَ﴾: أصله من الفعل (ردّ)، وَيَدلُّ على: صَرْفِ الشَّيءِ ورَجْعِه، يُقال: رَدَدْتُ الشَّيْءَ أَرُدُّهُ رَدًّا، تقول: رَدَدْتُ عَلَيْهِ الوَدِيعَةَ؛ إذا أرجَعْتَها إليه، وَسُمِّيَ المُرْتَدُّ مُرتَدًّا؛ لِأَنَّهُ رَدَّ نَفْسَهُ إِلَى كُفْرِهِ[5]. و معنى: ﴿يُرَدُّونَ﴾ في الآية: يُرْجَعُونَ.

10) ﴿بِغَٰفِلٍ﴾: أصله من الفعل: (غَفَلَ) يغفل غَفْلَةً وَغُفُولًا، وَيَدلُّ على: تَرْكِ الشَّيْءِ سَهْوًا من قلّة التّحفّظ والتّيقّظ، تقول: غَفَلْتُ عَنِ الشَّيْءِ؛ إِذَا تَرَكْتَهُ سَاهِيًا. وَأَغْفَلْتُهُ، إِذَا تَرَكْتَهُ عَلَى ذُكْرٍ مِنْكَ لَهُ، وهَمْزَةُ (أَغْفَلته) لِسَلْبِ السَّهْوِ؛ فيَقتَضي

(1) تراث أبي الحسن الحرالي: 1/237.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، وابن سيده، المحكم: (جزي).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، والسمين، عمدة الحفاظ: (خزي).
(4) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 61.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات: (ردد).

ضِدَّهُ وهُوَ الذِّكْرُ. والتَّغافُلُ، والتَّغَفُّلُ: تَعَمُّدُ الغَفْلَةِ، والغَفْلَةُ صِفَةُ نَقْصٍ للإنْسانِ؛ لأنها تَدُلّ على ضَعْفِهِ، واللّه تَعالى مُنَزَّهٌ عنْ صِفاتِ النَّقْصِ، فلَه صِفاتُ الكَمالِ[1]، فقال تعالى: ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾.

المَعْنَى الإجْمَالِيُّ:

تخاطب الآيةُ اليَهودَ في زَمنِ نُزولِ القُرآنِ، مُبَيِّنَةً حالَهُم معَ الميثاقِ الّذي أَخَذوهُ على أَنفُسِهِم، فهُمْ على حالَةِ أَسلافِهِم مِنْ نَقْضِ الميثاقِ؛ فيقتُلُ بعضُهم بعضًا، ويُخْرِجُ بَعضُهم بَعْضًا مِنْ ديارِهِمْ؛ حيث اتخذت كلُّ قبيلةٍ مِنَ اليهودِ حليفًا لها من مشركي العربِ يتظاهرون بهم على إخوانِهم من غير قبيلتهم، إثمًا وعُدوانًا وظُلمًا، وكانوا إذا دار بينهم قتال وانتهى السّجال عن أسرى، واتَّفقوا على فدائهم، جاء اليهودُ يدفعون فِديَةَ الأَسْرى من أَبناءِ جِنسِهم وإنْ كانوا مِنْ أَعدائِهِم، ثُمَّ يَعتَذِرونَ عَن هذا بِأَنَّ الكتابَ أَمَرَهم بِفداءِ أَسْراهُمْ، فإذا كانَ مُحرَّمًا عليهم أَن يَتركوهم أسرى، فإنَّه مِنَ المُحرَّمِ عليهم قبلَ ذلك أَن يَتعاونوا معَ المشركينَ ويُخرجوهم من ديارِهم، فوبَّخَهُمُ اللّه تعالى على إيمانِهم ببعضِ ما هو موجودٌ في التَّوراةِ من وجوبِ فداءِ أَسْراهُم وكُفْرِهم ببعضٍ آخَرَ ممَّا نهاهم عنه من قَتْلِ بَعْضِهم بعضًا، وإخراجِهم من دِيارِهِم، فاستَحلُّوا دمَاءَ بعضِهم بَعضًا وأَخرَجوا بعضَهم من ديارهم، وهم معَ هذا قد كفروا بغيرِ هذا مِنَ الكتاب. فجزاؤُهُم على فِعْلِهِمُ القبيحِ هو الخِزيُ والذّلُّ والهَوَانُ في الحياةِ الدُّنيا، ويومَ القيامةِ مصيرُهم ومرجعُهم إلى أَشَدِّ العذاب، ولا يتوهّمون أَنَّ اللّه غافلٌ عمَّا يعملون بل هو سبحانَه بالمرصاد لكلِّ كافرٍ وعاصٍ وإنَّما يُؤَخِّرُهم ليومِ العذاب[2].

الإيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

دلالة حَرْفِ التَّراخي:

ابتدَأَتِ الآيةُ بحرْفِ التَّراخي الرُّتْبِيّ[3]، أي: أَخَذَ عليكمُ الميثاقَ، وأقرَرْتم بهِ، وأنتم تَفْعَلونَ هذهِ الأفْعالَ، تَقْتُلونَ أنفُسَكُم، وتُخرِجونَ فريقًا منكُم مِن دِيارِهم، تَتَعاونونَ مع

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، والفيروزآبادي، القاموس المحيط: (غفل).
(2) المراغي، تفسير المراغي: 1/162، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 1/279.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/586.

بَيانُ حالِ اليَهودِ وبُعْدِهِمْ عَنِ الميثَاقِ المَأْخُوذِ عَلَيْهِم

غيرِكم إثمًا وعدوانًا، وفي (ثُمَّ) معنى الاستِبْعاد[1]، نحوُ قَولِك لصاحِبِكَ: وجَدْتَ مثلَ تلك الفُرصَةِ ثمّ لم تَنْتَهِزْها! يَعْني: يَبْعُدُ منَ العاقِلِ ارتِكابُ هذا المَحْذورِ مِنَ القَتْلِ والتَّشريدِ بعدَ حُصولِ ما يُنافيه مِنْ أخذِ الميثاقِ على ألّا يَفعلوا ذلك[2].

بَلاغَةُ أُسْلُوبِ ﴿أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ﴾:

إيجازُ العِبارَةِ بِتَنْبيهِ المُخاطَبِ والتَّعجُّبِ مِنْ حالِهِ

اقْتَرَنَ الضَّميرُ باسْمِ الإشارَةِ (هؤلاءِ)؛ لبيانِ أنَّ المخاطَبين هُمْ هؤُلاءِ الذينَ نَقَضُوا الميثاقَ، لا يَخْتَلِفون عَنْهُمْ بحالٍ، كَما يُقال: أنتَ ذلك المُجْرِم، "فعَدَّهُم باعتِبارِ مَا أُسْنِد إليهم حُضُورًا، وباعْتِبارِ مَا سَيُحْكَى عَنْهُم غَيْبًا"[3]، وهذا من بليغِ الخِطابِ الذي يُؤتى به لبيانِ الحالةِ التي عليها المخاطَبُ بأوجزِ عبارةٍ، وقد أفادَ هذا الأُسْلوبُ تنبيهَ المخاطَبِ على حالِه التي يستقبِحُها من غيرِه، بتَنزيلِه مَنْزِلةَ غيرِه؛ لذلك جاءَ فعلُ القَتْلِ حالًا بعدَ اسمِ الإشارَةِ لبيانِ حالِهم التي غَفَلُوا عنْها[4]، والتَّعجُّبِ من حالِ المخاطَبِ، فهذا "اسْتِعْمَالٌ عَرَبِيٌّ يَخْتَصُّ غَالِبًا بِمَقَامِ التَّعَجُّبِ مِنْ حَالِ الْمُخَاطَبِ"[5]، ووردَ هذا الأُسْلُوبُ في قولِه تعالى: ﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: 66].

وقولِه تعالى: ﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾ [النساء: 109].

وقوله تعالى: ﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُۖ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦۚ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُۚ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم﴾ [محمد: 38].

(1) الزمخشري، الكشاف: 1/160، وأبو حيّان، البحر المحيط: 1/466، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/124.
(2) الطيبي، فتوح الغيب: 2/541، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 1/295.
(3) البيضاوي، أنوار التنزيل: 1/92.
(4) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 2/621.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/586.

بديعُ استعمَالِ صِيغَةِ المُضَارِع:

تَصْويرُ الحَالِ القَبِيحَةِ، والاسْتِمْرَارِ عَلَيْها

مِن بَديعِ اسْتِعْمالِ الصِّيَغِ مَجيءُ الأفعالِ جَميعِها في هَذه الآيَةِ بِصيغَةِ المُضَارِع: ﴿تَقْتُلُونَ﴾، ﴿تُخْرِجُونَ﴾، ﴿تَظَٰهَرُونَ﴾، ﴿يَأْتُوكُمْ﴾، ﴿تُفَٰدُوهُمْ﴾، ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ﴾، ﴿تَكْفُرُونَ﴾، ﴿يَفْعَلُ﴾، ﴿تَعْمَلُونَ﴾، وذلك لِتَصويرِ حالِهِمُ القَبيحَةِ، وبَيانِ اسْتِمرارِهِمْ عَليها، فهُم لا ينْفكُّونَ عن اقترافِها.

بَلاغَةُ التَّعْبيرِ القُرْآنِيِّ بقَتْلِ النَّفْسِ:

تَشْنيعُ الحالِ وتَقْبيحُ الفاعِلِ بِبَيانِ القَتْلِ الجَماعِيِّ

عبَّرتِ الآيةُ عن قتْلِ الآخرينَ بقتلِ النَّفْسِ، وسِرُّ ذلك يكمُنُ في تَنزيلِ المُشارِكِ في الدِّين منزلةَ الذَّاتِ؛ فإنَّ من يقتُلُ غَيْرَه من أبناءِ دينِهِ فهُوَ يقتُلُ نفسَه؛ لإيجابِ إيقاعِ القِصاصِ في حَقِّه، ولأنَّ أبناءَ الدِّين الواحِدِ يَقَعُ بعضُهُم مِن بعضٍ موقعَ الجَسَدِ الواحِدِ؛ ففيه تشنيعُ هَذه الحالِ، وتَقْبيحُ فاعِلِها، وبيانُ ما يترتَّبُ عليها من القَتْلِ الجَماعِيّ.

سِرُّ الانْتِقالِ في التَّعْبيرِ مِنَ السَّفْكِ إلى القَتْلِ:

الانْتِقالُ مِنْ عُمومِ سَفْكِ الدِّماءِ إلى خُصوصِ القَتْلِ تَنْبيهٌ عَلى أَقْبَحِ صُوَرِ السَّفكِ

اختلف التَّعبيرُ بين الآيتين في السَّفكِ والقتلِ؛ فجاءَ في الأُولى: ﴿لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ﴾، وفي الثَّانيةِ: ﴿تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ﴾، وسِرُّ ذلك الانتقالُ مِن العُمومِ إلى الخُصوصِ؛ فإنَّ سَفْكَ الدِّماء يعُمُّ القتلَ والجَرْحَ وقطعَ الأعْضاءِ، أمَّا القتلُ فيَخْتَصُّ بزَهْقِ الرُّوحِ، وفائدتُه: التَّنبيهُ على أشدِّ ما في سَفْكِ الدِّماء مِنَ المَحْظورِ.

بَراعَةُ الاخْتِلافِ في التَّعْبيرِ بَيْنَ الإجْمالِ والتَّفْصيلِ:

تَنْزيلُ الجَماعَةِ مَنْزِلَةَ النَّفْسِ الواحِدَة، وإشارَةُ القُرْآنِ إلى غَيْبِ المُسْتَقْبَلِ

اختلفَ التَّعبيرُ القرآنيُّ في الإخراجِ؛ ففي الآيَةِ الأولى جاءَ قَوْلُهُ: ﴿وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم﴾، بينما في الثَّانية قال: ﴿وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ﴾، فاختلَفَ التَّعبيرُ في وقوعِ الفعلِ في الأولى على الأنْفُسِ، بخِلافِ الثَّانيةِ فعلى الآخَرينَ! وسِرُّ ذلكَ يَكْمُنُ في كَوْنِ الأولى جاءَتْ مُجمَلةً، بخلافِ الثَّانيَة فوقَعَ فيها التَّفصيلُ: ﴿تَظَٰهَرُونَ

عَلَيۡهِم بِٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ وَإِن يَأۡتُوكُمۡ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمۡ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيۡكُمۡ إِخۡرَاجُهُمۡۚ﴾، وحكم التَّفصيلِ يَختلفُ عن حُكْمِ الإجمالِ، فعُلِم من التَّعبيرَيْن أنَّ الإخراجَ هو إخْراجُ الإنسانِ لنَفْسِه، ونَفْسُه هذه هِيَ نَفْسُ الجَماعَةِ الواحِدَة، فهُوَ تعبيرٌ عنِ التَّمزُّقِ والتَّشرذم بين أبْناءِ الدِّين الواحِدِ، فمَنْ أخْرَجَ غيرَه من أبناءِ دِينِه فقَدْ عَرَّضَ نَفْسَهُ للتَّمزُّقِ، وهو ما حصَلَ وتَحَقَّقَ؛ فهي إشارةٌ قرآنيَّةٌ لغيْبِ المُسْتَقْبلِ، وأنَّ ما أوقَعوهُ فيما بَيْنَهم، سَيقَعُ عليْهِم مِن غَيْرِهِمْ.

دلالة الصِّيغَةِ الصَّرْفِيَّةِ:

التَّوْبيخُ وتَقْبيحُ أَفْعالِ الاِعْتِداءِ عَلى الأُخُوَّةِ الدِّينيَّةِ، ممّا يَسْتَدْعِي النَّدامَةَ وَالحَسْرَةَ

دَلَّتْ صيغَةُ: ﴿تَظَٰهَرُونَ﴾ على المُشارَكَةِ[1]، وفي هذه الصِّيغَةِ مَعْنى الكُلْفةِ في طلبِ اليَهودِ المُظاهَرَةَ والمُساندَةَ[2] على إخْوانِهِمْ من العَرَبِ المُشركين؛ فلَمْ يكنْ تَظاهُرُهُمْ على إخوانِهم سهلًا ميْسورًا، بل فيهِ كُلْفةٌ وجَهْدٌ، ومع هذا فقد أَخْرَجوهم مِن دِيارِهم وهم آثِمُون مُعْتَدون، وفيهِ من التَّوبيخِ ما يستدعي أشدَّ النَّدامةِ والحَسْرَةِ، وهو تلويحٌ بالتَّأديبِ؛ فإنَّ مَنْ يُناصِرُ أعداءَه ضدَّ إخوانِه فمصيرُه ما تمنَّاه لإخوانِه من أبناءِ دِينِه.

نُكْتَةُ اسْتِعْمالِ حَرْفِ الاِسْتِعْلاءِ:

الكَشْفُ عَن بَواطِنِ القُلوبِ الحاقِدَةِ، وحَقائِقِ الأَفْعالِ

تعدَّى فعلُ المظاهَرَةِ بحرفِ الاستِعْلاءِ ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾، زِيادةً في تَصْويرِ كِبْرِ المُظاهِرين وطُغيانِهم؛ فهم يَتَظاهرُون على إخوانِهم طلبًا للتَّمَكُّنِ مِنْهم، والتَّحكُّمِ فيهم، وإبقائِهم أقلَّ حالًا، وأهشَّ مَنْزِلةً، وفي ذلك بَيانٌ للُؤْمِهم، وسُوءِ طَوِيَّتِهم، وشَراسَةِ أخلاقِهم، وضَعفِ اعتِقادِهم؛ فالمُظاهَرَةُ لم تكنْ لأخذِ حَقٍّ مَسْلُوبٍ، ولا لإيقاعِ قِصاصٍ مَطْلوبٍ.

(1) الرضي الأستراباذي، شرح الشافية: 1/100.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 2/11.

دلالة المُقابَلَةِ بَيْنَ الأَفْعالِ:

الكَشْفُ عَنْ عِلَّةِ الفِداءِ وأنَّهُ أَداةٌ لا غايَةٌ

قابَلَتِ الآيةُ بين فِعْلَيْن مِنْ أفْعالِ اليَهودِ، وهُما الإخْراجُ والإتْيانُ؛ في قولِه تعالى: ﴿تُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُمْ﴾، وفي قولِه تعالى: ﴿وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسَارَىٰ تُفَادُوهُمْ﴾، فالّذين أَخْرَجُوا هم الذين فادَوْا، "وحَسُنَ لفظ الإتيانِ من حيثُ هو في مقابلةِ الإخراج؛ فيَظْهَرُ التَّضادُّ المُقَبِّحُ لفِعْلِهم في الإخراج"[1]، أي: كَيفَ يَكونُ مِنكمُ الفداءُ لمن أخرجتُموهُمْ مِن دِيارِهِمْ! وهذا دليلٌ واضحٌ بيِّنٌ في كَوْنِ الفداءِ أداةً للتَّحكُّم في حالِ من فُدِيَ، لا أنَّه كان حبًّا ورغبةً في الإعانةِ والإنقاذِ.

تَوْجيهُ القِراءاتِ:

التَّناقُضُ الظَّاهِرُ يَكْشِفُ عَنِ الطُّغْيانِ الباطِنِ

قرأَ نافعٌ وعاصِمٌ والكِسَائِيُّ: ﴿تُفَدُوهُمْ﴾، وهُو جَوابُ الشَّرط في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسَارَىٰ﴾، وتُفادُونَ على وزن تُفاعِلُون، مِنْ فَاعَلَ الذي يدلُّ على المُشاركَةِ بين اثنين، على معنى: "يَفْدي هَؤُلَاءِ أُساراهم من هَؤُلَاءِ، وَهَؤُلَاء أُساراهم من هَؤُلَاءِ"[2]، أو الآسرُ يُعطي الإطلاقَ، فتَحْصُل المفاداةُ بين الطَّرفين. وذهبَ ابنُ عاشور إلى أنَّ صيغةَ (فاعل) في قولِه: ﴿تُفَدُوهُمْ﴾ مُسْتَعملةٌ للمبالغةِ أيْ تَحْرِصُونَ على فدائِهم[3].

وقرأ الباقون: ﴿تَفْدُوهُمْ﴾، وهو فِعلٌ لا يدُلُّ على المُشَارَكةِ، والمعنى يَفْدِي أَحدُهم الأَسيرَ بإعطاءِ المالِ أو غيرِه[4]، والقراءتان دلَّتا على حِرْصِ اليهودِ على فِداءِ أَسْراهُمْ، سَواءٌ أكان ذلك بالمشاركةِ مع الطَّرفِ الآخرِ بالمُبادَلةِ، أو بدفْعِ الفِديةِ دُونَ مشاركةٍ، وحرصُهم هذا مع فعْلِ الإخراجِ يَدلُّ على تناقُضِهم الظَّاهرِ، الكاشفِ عن طغيانِهم الباطنِ.

(1) ابن عطيّة، المحرر الوجيز: 1/175.
(2) ابن زنجلة، حجة القراءات، ص: 105.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/590.
(4) ابن عادل، اللباب في علوم الكتاب: 2/252.

فائِدَةُ ذِكْرِ ضَميرِ الشَّأْن:

التَّنْبيهُ عَلى التَّناقُضِ الإيمانيِّ، والاخْتِلافِ العَقَدِيِّ

جاءَ ضميرُ الشَّأنِ في قولِه تعالى: ﴿وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ﴾؛ للتَّنبيهِ على تناقُضِهم في فِعْلَين مُتَقابِلَين، فِعل الإخراجِ، وفِعل الفِداءِ، ويُؤكِّدُهُ قولُه تعالى: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾؛ فلا مَصيرَ إلى هذا الفِعْلِ إلَّا من الإيمانِ ببعضِ الكتابِ والكفرِ ببعضِه الآخَرِ.

تَوْجيهُ المَخْصوصِ بِالذِّكْرِ:

إظْهارُ أصْعَبِ الأفْعالِ المَذْكورَةِ في سِياقٍ واحِدٍ

خَصَّتِ الآية بِالذِّكرِ تَحريمَ الإخراجِ، وإنْ كانَتْ أفعالُ القتلِ والمظاهَرَةِ كلُّها حَرامًا؛ لِما فيها مِنْ مَعَرَّة الجَلاءِ والنَّفْي الذي لا ينقطعُ شرُّهُ إلا بالمَوْتِ والقَتْلِ، وإنْ كان أعظمَ منه، إلّا أنَّ فيه قطعًا للشرِّ؛ فالإخراجُ من الدِّيارِ أصعبُ الأفعالِ بهذا الاعتبارِ[1]، ولدفعِ توهُّم أنَّ المحرَّم هو المفاداةُ.

دلالة هَمْزَةِ الاِسْتِفْهامِ:

الإنْكارُ والتَّوْبيخُ بِسَبَبِ العُدُولِ عَنِ الحَقِّ، والتَّعَجُّبُ مِنْ جَمْعِهِمْ بَيْنَ مُتَناقِضَيْن

أفادتْ هَمزةُ الاستفهامِ في قولِه تعالَى: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾، الإنْكارَ والتَّوبيخَ والتَّعجُّبَ، والإنكارُ داخِلٌ على مَجْموعِ الجُمْلَتَيْن؛ فوقعَ الإنكارُ عليهم بسبَبِ إيمانِهم ببعضِ التَّوْراةِ، وكفْرِهِمْ ببَعضِها الآخَرِ الذي لا يُوافِقُ هواهُمْ، ومِنْ هُنا يَتَبَيَّنُ مَدْحُ المؤمنين: ﴿وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ﴾ [آل عمران: 119]، فالاسْتِنكارُ هو بِسَبَبِ عُدولِ اليَهودِ عنِ الحقِّ، واتِّباعِهِمُ الباطِلَ، "وَإِنَّمَا وَقع ﴿تُؤْمِنُونَ﴾ في حَيِّزِ الإِنْكَارِ تَنْبِيهًا عَلَى أَنَّ الْجَمْعَ بَيْنَ الْأَمْرَيْنِ عَجِيبٌ، وَهُوَ مُؤْذِنٌ بِأَنَّهُمْ كَادُوا أَنْ يَجْحَدُوا تَحْرِيمَ إِخْرَاجِهِمْ، أَوْ لَعَلَّهُمْ جَحَدُوا ذَلِكَ"[2].

(1) السمين، الدر المصون: 1/488.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/591.

بَلاغَةُ الإيجازِ:

عَطْفُ المَذْكورِ عَلى مُقَدَّرٍ مَفْهومٍ مِن السِّياقِ

الفاءُ في قولِه تعالى: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ﴾، عطفتْ فعلَ ﴿تُؤْمِنُونَ﴾ على مقدَّرٍ محذوفٍ وهو: "أَتَفْعَلون ما ذُكِرَ فَتُؤْمِنُونَ"[1]، وفيه إيجازٌ بَديعٌ؛ إذ جَمَعَ جَميعَ الأفعالِ القَبيحَةِ بَين همزةِ الإنكارِ والفاءِ المفيدةِ للتَّعقيب، بتقديرِ مفهومٍ من السِّيَاقِ، إيذانًا بأنَّ هذا الإيمان مُسْتَنكَرٌ أمْرُهُ وهُو على هذهِ الحالِ، ولَك أن تَجْعلَ الفاءَ مَعْطوفةً على ما قَبْلَ هَمْزَةِ الاستِفهام، أي عَلى فِعْل: ﴿تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ﴾، وما بَعْدَه مِنَ المَعْطوفاتِ[2]، والنَّهجُ الأوَّلُ هُوَ الأقْرَبُ لرُوحِ الفَصاحَةِ.

بَلاغَةُ الاسْتِعارَةِ:

تَشويهُ المُشَبَّهِ؛ بِتَشْبيهِهِ بِأَخْطَرِ الأَوْصافِ، مُبالَغَةً في الرَّدْعِ

شُبِّه امتثالُ اليهودِ بأمْرِ فِداءِ الأسْرى بالإيمانِ، وإقْدامُهُم على القَتْلِ والإخْراجِ بالكُفرِ، فحُذِفَ المُشَبَّهُ وصُرِّح بالمُشَبَّهِ به على طَريقَةِ الاسْتِعارَةِ التَّصْريحِيَّةِ؛ "لِتَشْويهِ الْمُشَبَّهِ وَلِلإِنْذَارِ بِأَنَّ تَعَمُّدَ الْمُخَالَفَةِ لِلْكِتَابِ قَدْ تُفْضِي بِصَاحِبِهَا إِلَى الْكُفْرِ بِهِ"[3].

بَلاغَةُ أسْلوبِ القَصْرِ:

مَجيءُ أُسْلوبِ القَصْرِ أبْلَغُ لِمُقْتَضى الحالِ ومُناسَبَةِ المَقامِ

في قولِه تعالى: ﴿فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ﴾، لو لَمْ يَأْتِ الكَلامُ على أسْلوبِ القَصْرِ لفاتَ المعنى المقصودُ، والقَصْرُ هنا إضافيٌّ، أيْ لا يَتَجاوَزُ جَزاءُ مَنْ يفعلُ ذلك منكم الخزيَ في الحياةِ الدُّنيا إلى العِزِّ الذي قَصَدوهُ مِنْ أفْعالِهم، فليْسَ لَهم جَزاءٌ في الحياةِ الدُّنيا إلا الخزيُ والهوانُ، كما لا يتجاوزُ جزاؤُهُم يَومَ القيامةِ أشَدَّ العذابِ إلى العذابِ اليسيرِ، بما كانوا يَفْترونَه مِنْ أنَّهم لنْ تمسَّهم النَّارُ

(1) الآلوسي، روح المعاني: 1/313.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/591.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/591.

إلَّا أَيَّامًا معدودةً، وقال أبو العبَّاسِ البسيلي: "أتى بالحَصْرِ، وإنْ كان عدمُه في مثلِ هذا التركيبِ أبلغَ دَفعًا لِمَا يُتوهَّم مِنْ أنَّ إيمانَهم بالبعضِ يوجِبُ تخفيفَ العذابِ عنهم"[1]، فكان الإتيان بالقَصْر أبلغ لمُقتَضى الحال ومُناسَبَةِ المقام.

سِرُّ التَّعْبيرِ بإشارَةِ البَعيدِ المُفْرَدِ:

بَيانُ بُعْدِهِمْ عَنِ الحَقِّ، والدّلالة عَلى أنَّ أفْعالَهُمْ لَها مَنْزِلَةُ الفِعْلِ الواحِد

أشارتِ الآيةُ باسمِ الإشارةِ ﴿ذَٰلِكَ﴾ إلى مجموعِ المتقدِّم؛ من الإيمانِ ببعضِ الكتابِ، والكفرِ ببعضه الآخر[2]، وأُوثِرَ البَعيدُ دون القريبِ فلم يُقل: (هذا)؛ لِبُعْدِ إيمانِهم عن الحقِّ، وسَفالَةِ أمرِهِمْ فيُسْتَحقَرُ قُرْبُهم، وجاء مُفْرَدًا؛ للدّلالة على أنَّهما بمَجموعِهما شَيْءٌ واحدٌ؛ فالإنكارُ على مجموعِ الأمرين لأنّ من يؤمن ببَعْض الكِتاب لا يُسَمّى مُؤْمِنًا حتى يُؤمِنَ بالكِتاب كُلِّه.

بَلاغَةُ التَّعْبيرِ القُرْآنِيّ:

مُعاقَبَةُ المُجْرِمِ بِضِدِّ مَقصَدِه مِن أَوْفَقِ دَرَجاتِ العَدْلِ

إيقاعُ العُقوبَةِ على المُجْرِم بضدِّ ما أرادَه هِيَ مِنْ أرْدَعِ العُقوباتِ، وأزْجرِ التَّأديبات، فقولُه تعالى: ﴿خِزْيٌ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ هو عَلى ضِدِّ ما أرادوهُ؛ فهُم أرادوا العِزَّةَ على أبناءِ ملَّتِهم، فعاقَبَهمُ اللّه تعالى بالخِزيِ في الحياةِ الدُّنْيا[3].

دلالة التَّنْوينِ في كَلِمَةِ ﴿خِزْيٌ﴾:

التَّنوينُ في كلمةِ: ﴿خِزْيٌ﴾ أفادَ تفخيمَ الخِزْيِ الذي يصيبهم في الحياةِ الدُّنيا، وتهويلَه عليهم[4]، فهو خِزيٌ لا يُقوى عليه، ومِنْ شَأنِه إلحاقُ الأذى العَظيمِ بمَن أصابَه.

بَلاغَةُ تقديمِ الظَّرفِ:

تَهْويلُ المَقامِ، وتَعْظيمُ المَوْقِفِ، وتَفْظيعُ الحالِ

مِنْ حقِّ الظَّرف أنْ يتأخَّر عَن عامِلِه، ولكنْ تَقدَّمَ الظَّرفُ ﴿يَوْمَ

(1) البسيلي، التقييد الكبير: 1/268.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 1/314.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 2/12.
(4) القاسمي، محاسن التأويل: 1/346.

﴿ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ على الفعل ومتعلَّقِه ﴿يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلۡعَذَابِ﴾؛ لأنَّ المَقام لتَهْويلِ الخَطْبِ وتفْظيعِ الحالِ مِنْ أوّلِ الأمْرِ[1]، ويُؤكِّد هذا مُقابلَةُ وصْفِ الحياةِ الدُّنيا بيومِ القيامةِ، لا بالحياةِ الآخِرَةِ؛ للإشارة إلى قيامِ الأمورِ العَظيمَةِ، ومِنها رَدُّ الكافِرينَ إلى أشدِّ العَذابِ.

سِرُّ التَّعبيرِ بمفردةِ الرَّدِّ:

بيانُ أشدِّ العذابِ في الدُّنيا، بأشدِّ العذابِ في الآخِرَةِ

آثرَ النَّظْمُ الكريمُ مفردَةَ الرَّدِّ؛ لبَيان أنَّ أشدَّ العذابِ يومَ القِيامَةِ هُوَ مَوْضِعُهم ومَوْطِنُهم، وهو خليقٌ بهم بسببِ أفعالِهِمُ القبيحةِ، وكُفْرِهِم بالكِتابِ؛ فليس شَأْنُهم إلَّا الرّجوع إلى مَوْطِنِهم ومُنْتَهى أمرِهِم، وهو مَوْضِعُ أشدّ العذاب، وفيه إشارَةٌ تَهْويليَّةٌ إلى أنَّهم سَيُرَدُّون إلى أشَدِّ العَذابِ الذي لاقَوْه في الدُّنيا؛ فإنَّ أشدَّ العذابِ في الآخرةِ لهم، كما أنَّ أشدَّ العذابِ في الدُّنيا هُوَ لَهم كذلكَ، "كأنَّهم كانوا في الدُّنيا في أشَدِّ العذابِ أيضًا؛ فرُدُّوا إليه"[2]. والجُمْلَةُ فيها تَعْريضٌ بعُمومِ العُقوبةِ لمن يكونُ على هذا الكفرِ، وأنَّها لا تختصُّ بالمخاطَبين من قَبْلُ[3]؛ فهي تقعُ على كلِّ من شابَهَهُم بأفعالِه وتَحايُلاتِه، طلَبًا للعِزَّة على حِسابِ إخْوانِه، والتَّنَعُّم على حِسابِ دينِه.

بَلاغَةُ الإفْرادِ والجَمْعِ:

تَكْرارُ وُقوعِ الأَفْعالِ في الدُّنيا، ووُقوعُ الرَّدِّ مَرَّةً واحِدَةً في الآخِرَةِ

ورَدَ الفِعْلُ (يَفعلُ) مفرَدًا غَيرَ مُتّصلٍ بِضَميرِ الجَماعَةِ بالنَّظَرِ إلى لَفْظ الاسْمِ المَوصولِ (مَنْ)، ووَرَد الفِعْل ﴿يُرَدُّونَ﴾ مع ضَميرِ الجَمعِ الواوِ العائدِ إلى مَعْنى (مَنْ)، وأُوثِرَت صيغَةُ الجَمعِ في صيغة ﴿يُرَدُّونَ﴾ نَظَرًا إلى أنَّ الردَّ سَيكونُ للجميعِ مرَّةً واحِدةً، بخِلاف الفِعْلِ في الدُّنيا؛ فيَكونُ في أزمانٍ متَبَاينةٍ، فتَحَقَّقَ التَّناسُبُ[4].

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/126.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 1/472.
(3) مجمع البحوث في الأزهر، التفسير الوسيط للقرآن الكريم: 1/132.
(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/126.

تَوْجيهُ القِراءاتِ:

تَكامُلُ القِراءَتَيْنِ في وَعْظِ المُخاطَبين، تَنْويعًا بِحَسَبِ تَنَوُّعِ النُّفوس

قَرَأ نافِعٌ وابنُ كَثِير، وفي رِواية أبي بكرٍ عن عاصم، بالياءِ في قولِه تعالى: ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعۡمَلُونَ﴾، وقَرَأ الباقون بالتّاءِ، على الخِطاب[1].

فعلى قراءةِ الياءِ، يكون الكلامُ مَرْدودًا إلى قوله تَعالى: ﴿يُرَدُّونَ﴾، فالكلامُ عَلى أصْلِه، وفائِدَتُه: بيانُ بُعدِهم عن مواضعِ الشَّرفِ، وعلى قراءة التَّاءِ، يكونُ هناك الْتفاتٌ من الغَيبةِ إلى الخطاب، "ولمَّا كانت المواجهةُ بالتهديد أدلَّ على الغضب التفت إليهم"[2]، وفائدتُه توبيخُ اليهود بمُباغَتَتِهم في الخِطاب، فيَقَعُ شديدًا عليهم، وفيه تَنبيهٌ لمن كان غافلًا فلم يَرْعَوِ عن أعمالِه، والقراءتان ملتَقِيَتان في بيانِ المَعنى؛ إحداهُما حَقَّقتْ مَعْنى المُباغَتةِ بقصدِ التَّنبيه، والأُخرى حَقَّقَتْ معنى الإبعادِ عن شرفِ الخطابِ، فمَن لم تَعِظْه الأولى، اتَّعظَ بالأخرى.

بَلاغَةُ حَذْفِ المُتَعَلَّق:

إفادَةُ العُمومِ؛ بِغَرَضِ دَفْعِ تَوَهُّمِ أنَّ الحِسابَ مُنْحَصِرٌ في الأَعْمالِ المَذْكورَةِ

حُذِف المفعول به العائِدُ إلى الاسم المَوصولِ (ما) في قولِه تعالى: ﴿عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾؛ لإفادة العُموم، وعلى افْتِراضِ ذِكْرِه أوْهَمَ ذلك تَخَصُّصَ الفِعْلِ بأعْمالِهم؛ ونكتةُ ذلك: بَيانُ أنَّ اللّٰه مُراقِبُهم في جميعِ أعمالِهم، صغائِرِها وكبائِرِها؛ فيُدفع تَوَهُّمُ أنَّ الحسابَ على الكبائرِ فحَسْبُ.

سِرُّ نَفْيِ الغَفْلَةِ لا إثْباتِ العِلْمِ:

تَوْبيخُ اليَهودِ عَلى شَديدِ جَهْلِهِمْ بِصِفاتِ اللهِ، وبِشارَةٌ لِمَنْ كانَ عَلى خِلافِهِمْ

لسائلٍ أن يسألَ عن سرِّ قولِه تعالى: ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾ ولم يَقُل: (واللّٰه عَليم بما تَعْمَلون)، أوْ غَيْرَه ممّا يَجْري في هذا المعنى، وجوابُ ذلكَ: أنَّ القومَ باسْتِمْرارِهم في غَيِّهم وفَسادِهم، نُزِّلُوا منزلةَ الشّاكّ في عِلم اللّٰه بِهم وبأفعالِهم؛ فكأنَّهُم

(1) ابن مجاهد، السبعة في القراءات، ص: 162-161.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 2/13.

توهَّموا أنَّ اللّه غافِلٌ عَنْهُم، كما أنَّ النَّفْي يَقْتضي أنَّ هناك من كان تَوَهّمَ إثباتَ الغفلةِ له سبحانه؛ فكان تماديهم في أفعالِهِمُ الفظيعَةِ يُوحي بتوهُّمِهم - والعياذ باللّه - أنَّ اللّه غافلٌ عمَّا يعملون، فاقتضى السِّيَاقُ نَفْيَ الغفلة عن اللّه تعالى، توبيخًا لهم على غفلتهم عن حَقيقةِ علم اللّه تعالى؛ فهُوَ "تَهْدِيدٌ شَدِيدٌ وَزَجْرٌ عَظِيمٌ عَنِ الْمَعْصِيَةِ، وَبِشَارَةٌ عَظِيمَةٌ عَلَى الطَّاعَةِ؛ لِأَنَّ الْغَفْلَةَ إِذَا كَانَتْ مُمْتَنِعَةً عَلَيْهِ سُبْحَانَهُ مَعَ أَنَّهُ أَقْدَرُ الْقَادِرِينَ، وَصَلَتِ الْحُقُوقُ لَا مَحَالَةَ إِلَى مُسْتَحِقِّيهَا"[1].

(1) الفخر الرازي، التّفسير الكبير: 3/594.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا بِٱلۡأٓخِرَةِۖ فَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ٨٦﴾ [البقرة: 86]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لـمَّا بيّن اللّهُ أَوصافَ بَني إسْرائيلَ وأَفعالَهم القبيحةَ في تَعاملِ بَعضِهم مع بعضٍ، ناسبَ ذلك أَنْ ينتقلَ مِن بيانِ الأفعالِ التي هيَ نتائجُ الأسْبابِ، إلى التَّنبيهِ بالأسْبابِ نفسِها، وهيَ اشْتِراءُ الحياةِ الدُّنيا، وتَقْديمُها على الآخِرَةِ؛ ليزولَ العَجَبُ، ويتَحَقَّقَ الأمرُ على وجهِهِ الحَقيقيّ.

شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

1) ﴿ٱشۡتَرَوُاْ﴾: أصلهُ (شَرَوَ)، قُلِبَت الواوُ ألفًا لتَحَرُّكها وانفتاحِ ما قَبْلَها، ويَدُلُّ الشِّراءُ عَلَى تَعَارُضٍ مِنَ الاثْنَيْنِ في أَمْرَيْنِ؛ أَخْذًا وإِعْطَاءً مُمَاثَلَةً، وشَرَيْتُ الشَّيْءَ وَاشْتَرَيْتُهُ: إِذَا أَخَذْتَهُ مِنْ صَاحِبِهِ بِثَمَنِهِ. والشِّرَاءُ والبيع يَتَلازَمان؛ فَالمُشْتَرِي دافعُ الثّمن، وآخذُ المُثْمَن، والبائِعُ دافِعُ المُثْمَن، وآخِذُ الثَّمَن، ولَفْظُ البَيْع والشِّراءِ يُسْتَعمل كلُّ واحدٍ منهما في مَوضِعِ الآخَرِ. وشَرَيْتُ: بمعنى بِعْتُ -أكثَرُ-، واشْتَرَيْتُ بمعنى: ابتَعْتُ -أكثَرُ-؛ فيكونُ شَرَيْتُ مِنَ الأضدادِ، والسِّياقُ يُحَدِّدُ أَحَدَ المَعْنَيَيْنِ[1].

2) ﴿يُخَفَّفُ﴾: أصل الكَلِمَة (خَفَفَ)، ويَدورُ المَعْنى على: قِلَّةِ كثافةِ الشَّيءِ في نفْسِهِ، أو قِلَّةِ كثافَتِهِ وتَرَكُّزِهِ على حامِلِهِ، والخفّةُ تُخَالِفُ الثِّقَلَ وَالرَّزَانَةَ، وتخفيفُ العذابِ يقابِلُ ثِقَلَهُ[2].

3) ﴿يُنصَرُونَ﴾: أصل الكَلِمَة (نصر) ويَدورُ المَعْنى عَلَى: إِتْيَانِ خَيْرٍ وَإِيتَائِهِ. يقال: نَصَرَ اللّهُ المُسْلِمِينَ؛ بمعنى: آتَاهُمُ الظَّفَرَ عَلَى عَدُوِّهِمْ. والنصر: العَوْنُ؛ قال تعالى: ﴿نَصۡرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتۡحٞ قَرِيبٞ﴾ [الصف: 13]، وقال تعالى: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ﴾ [النصر: 1]، وَالانْتِصَارُ والاسْتِنْصَارُ: طَلَبُ النَّصْر أي العَوْنِ، والتَّناصُر: التَّعاون عَلَى

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، والسمين، عمدة الحفاظ: (شرى).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (خفف).

النَّصْر. وتَناصَرُوا: نَصَر بعضُهم بَعْضًا، والنَّصِير فَعِيلٌ بِمَعْنَى فاعِلٍ أو مَفْعُولٍ، لأَن كُلَّ وَاحِدٍ مِنَ المتَناصِرَيْن ناصِرٌ ومَنْصُورٌ[1].

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

أخبَرَ اللهُ عنِ السَّبَبِ الذي دَفَعَ أولئِكَ اليَهودَ إلى أنْ يَنْقُضوا الميثاقَ ويَفْعَلوا الأفْعالَ القَبيحَةَ، وهو اشْتِراءُ الحياةِ الدُّنيا مِن مالٍ وجاهٍ ورَغْبَةٍ في المَغانِمِ الزَّائِلَةِ في مقابلِ الآخرَةِ التي فيها نَعيمُ الجنَّة ودَوامُها. والذين يؤثرون الحياة الدُّنيا على الآخِرَةِ لا يُخَفَّفُ عَنْهُم العَذابُ يَوْمَ القيامَةِ، فلا يَقِلُّ ولا يَنقطعُ، وَلَيْسَ لَهُمْ نَاصِرٌ يُنْقِذُهُمْ بقُوّتِهِ أو بِشَفاعته مِمَّا هُمْ فِيهِ مِنَ العَذَابِ الدَّائِمِ[2].

وفي الآية حثٌّ على تَجَنُّبِ المعاصي وتَرْكِ المَنْهِيّاتِ، وفيها "تَنْبيهٌ على أنَّ الجَمْعَ بَينَ تَحْصيلِ لَذَّاتِ الدُّنيا إذا كانت على وَفْقِ الهَوى لا الشَّرعِ، وبَيْنَ لَذَّات الآخِرَةِ مُمْتَنِعٌ يَسْتَتبعُ وجودُ إحداهما عَدمَ الأُخْرى"[3].

بَراعَةُ الاستِهْلالِ بِاسْمِ الإشارَةِ:

الإيجازُ وتَمْييزُ المُشارِ إليهِ أَكْمَلَ تَمْييز

دلّ اسمُ الإشارةِ على جَميعِ أوصافِ اليَهودِ المَذكورَةِ في الآيات السَّابِقَةِ؛ فبَدَلًا من إعادَةِ أوصافِهِمْ، أوْجَزَ النَّظمُ ذلكَ باسْمِ الإشارَةِ، كما أنَّهُ مَيَّزَ الذّاتَ مَعَ الأوصافِ أكمَلَ تَمْييزٍ؛ لِأنَّ الأصْلَ في استِعمالِ اسْمِ الإشارَةِ أنَّه يُمَيِّزُ الذّاتَ أكملَ تَمْييزٍ، فاسْتُعْمِلَ ليُشارَ بِهِ إلَى الَّذِينَ جَمَعُوا الأَوْصَافَ السَّابِقَةَ الذَّمِيمَةَ[4].

بَلاغَةُ الفَصْل:

تَعْيينُ العِلَّةِ لِلْأعْمالِ، وتَفْسيرُ ما تَقَدَّمَ وبَيانُهُ

فُصِلَتِ الجُمْلَةُ عمَّا قَبْلَها؛ إمَّا لِكَمالِ الاتِّصالِ، وإمَّا لِشِبْهِ كَمالِ الاتِّصالِ، فإذا حَمَلْناها على كَمالِ الاتِّصالِ تَكونُ بَيانًا وتَفْسيرًا للآيَةِ السَّابِقَةِ، أي فَعَلَ اليهودُ ما فَعَلوا اشتِراءً للحَياةِ الدُّنيا، وإذا

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والفيروزابادي، القاموس المحيط: (نصر).
(2) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 1/212.
(3) النيسابوري، غرائب القرآن: 1/328.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 1/473.

حَمَلْناها على شِبْهِ كَمال الاتِّصالِ، فهي على تَقْديرِ سؤالٍ صادرٍ عن سائِلٍ: لماذا فعلوا هذه الأفعال القبيحة؟ وما السَّبَبُ الذي ألجَأَهُم لَها؟ وما مَصيرُهُم يومَ القِيامَةِ؟ فجاء قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا بِٱلۡأٓخِرَةِ﴾، جوابًا عن السُّؤالِ؛ بِتَعيينِ سَبَبِ الأعْمالِ الّتي قاموا بها، وهو حُبُّهم للدُّنْيا، ورَغْبَتُهم فيها وإيثارُها على الآخِرَةِ[1].

بَلاغَةُ الاسْتِعارَةِ التَّصْريحِيَّةِ التَّبَعِيَّةِ:

التَّصْريحُ بِلَفْظِ الـمُشَبَّهِ بِهِ؛ لِبَيانِ الرَّغْبَةِ لَدى الـمُسْتَبْدِلِ الدُّنْيا بِالآخِرَةِ

استُعيرَ الاشْتِراءُ للاخْتِيار والإيثار، بِجامِعِ الفائِدَةِ للشِّراءِ وللاخْتِيارِ، ثم اشْتُقَّ من الاشتراءِ الفعلُ ﴿ٱشۡتَرَوُاْ﴾ بِمَعنى آثَرُوا واختارُوا؛ لتَكونَ الاسْتِعارةُ تَبَعِيَّةً، والقَرينَةُ هيَ (الحياةُ الدّنيا والآخِرَة)، لأنَّهما ليستا محلَّ الشِّراء، إذْ لم يقعْ شراءٌ حقيقيٌّ بين الدُّنيا والآخرة، واخْتِيرَت كَلِمة المشبَّه به (اشْتَرَوا) ولم يُقَلْ: (اسْتَبْدَلوا أو آثَرُوا أو اختارُوا)؛ لِأَنَّ الشِّرَاءَ إِنَّمَا يَكُونُ فِيمَا يُحِبُّهُ مُشْتَرِيهِ، فهم كانوا يَفْعَلون أفْعالَهُمُ القَبيحَةَ حُبًّا لَها ورَغْبَةً فيها، فكَأنَّهم كانوا يَدْفَعون نَعيمَ الآخِرَةِ الدّائِمَ ثَمَنًا لرَغَباتِهِمْ وجاهِهِم في الحياة الدّنْيا؛ فاسْتُعْمِلَت كلمة (اشْتَروا) مَجازًا لُغَوِيًّا؛ لِأَنَّ الشِّرَاءَ وَالتِّجَارَةَ رَاجِعَانِ إِلَى الِاسْتِبْدَالِ، وَالْعَرَبُ تَسْتَعْمِلُ ذَلِكَ فِي كُلِّ مَنِ اسْتَبْدَلَ شَيْئًا بِشَيْءٍ[2].

دلالة حَرْفِ الباءِ:

التَّفْريطُ في الآخِرَةِ بَعْدَ القُدْرَةِ عَلى تَحْصيلِها، بَيْعٌ مَغْبونٌ

أفادتِ الباءُ مَعْنى الـمُقابَلَة، وتُسمّى باءَ العِوَضِ، وإذا أُدْخِلَتِ الباءُ في الـمَبيعِ أو الـمُشْتَرَى فتُوضَعُ الباء في الثَّمَن، كما في قوله تعالى: ﴿وَشَرَوۡهُ بِثَمَنِۭ بَخۡسٖ دَرَاهِمَ مَعۡدُودَةٖ﴾ [يوسف: 20]؛ لأنَّ الدّراهم ثَمَنٌ أبدًا، والباءُ إنَّما تَدْخُل في الأثْمانِ[3]، وهُمْ قد جَعَلوا الآخِرَةَ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 2/14، ومحمد رشيد رضا، تفسير المنار: 1/310.
(2) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 1/210.
(3) الفراء، معاني القرآن: 1/30.

ثمنًا مُقابِلَ ما حَصلوا علَيهِ في الحَياةِ الدُّنْيا مِنَ المَلَذَّات والعَرَضِ الفاني، ودلَّتِ المُقابَلَةُ على أنَّهم كانوا قادِرينَ على تَحْصيلِ نَعيمِ الآخِرَةِ؛ لأنَّ دَفْعَ الثَّمَنِ المُعَبَّرِ عَنْهُ بـ(الآخرة) يَقْتَضي أنْ يَكون حاصِلًا وقتَ الشِّراءِ.

دِقَّةُ التَّعْبيرِ بِمُفْرَدَةِ التَّخْفيف:

صِحَّةُ اجْتِماعِ عِدَّةِ مَعانٍ تُقابِلُ التَّخْفيفَ؛ لِمَزيدِ التَّهويلِ والتَّرْهيبِ

للتَّخفيفِ اعتِباراتٌ مُخْتَلِفةٌ؛ فالخِفَّةُ تكون بإزاءِ القُوَّةِ (الشدَّة)، والدَّوامِ، وما تَسْتَثْقِلُه النَّفْسُ ولا تَتَحَمَّلُهُ، ويُمْكِنُ اجْتِماعُ هذهِ المَعاني في قوله: ﴿فَلَا يُخَفَّفُ﴾[1]؛ لأنَّ النَّفي يَسْتَوْعِبُ أكْثَرَ مِن مَعْنًى مِن مَعاني الإيجابِ؛ فكانَ اخْتِيارُ هَذِهِ الكَلِمَةِ دَالًّا على المُرادِ في هذا النَّظمِ. ويُفهَمُ مِنْ نَفْيِ التَّخْفيفِ أنَّ العذابَ ثَقيلٌ عَليهِمْ، بالدّوامِ وعدمِ الانقطاعِ، كما جاءَ في قولِه تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِي ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ﴾ [غافر: 49]، ويكونُ بِقُوَّةِ العَذابِ وشِدَّتِه، ويَكونُ بِما يَثْقُلُ على النَّفسِ فلا تَتَحَمَّلُهُ، وهذه المَعاني صَحيحَةٌ مُرادَةٌ في العَذابِ المُعَدِّ لهُمْ يَوْمَ القِيامةِ.

بَلاغَةُ الوَصْلِ بَيْنَ الجُمَلِ:

دَفْعُ أوْهامِ الأَفْهامِ في وُجودِ ناصِرٍ يَوْمَ القِيامَةِ

عُطفتْ جملةُ: ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ بجملة: ﴿فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾؛ لأنَّ نَفْيَ تَخْفيفِ العَذابِ لا يَسْتَلْزِمُ ألَّا يَكون لهم ناصِرٌ فيما قَدْ يَتَصَوَّرُهُ ذِهْنُ المُخاطَبِ؛ فنَفَى اللهُ تَعالى الأمْرَيْنِ لِكَيْ يَقْطَعَ عنْهُم كلَّ سَبيلٍ في الطَّمَعِ؛ فتَنْصَرِفَ هِمَمُهُمْ إلى العملِ الذي سيُنْجِيهم بتوفيق اللهِ تعالى.

أثَرُ صورَةِ الإسْنادِ في تَقْوِيَةِ الحُكْمِ:

تَأْكيدُ الخِطابِ لِلشَّاكِّ أو لِتَنْزيلِهِ مَنْزِلَةَ الشَّاكِّ

جاءَ المسندُ إليه في قوله تعالى: ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾: (هم)، والمسند جملةً فعليَّةً (ينصرون)؛ لتَقْريرِ نَفْيِ النَّصيرِ وتَحْقيقِهِ

(1) الرازي، التّفسير الكبير: 3/594.

وتَقْوِيَتِهِ[1]؛ فإنَّ هذا التركيبَ أقْوى حُكْمًا ومَعْنًى مِنْ أنْ يَقولَ: (فلا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ العَذاب ولا يُنْصَرون)؛ لأنَّ المُسْنَدَ إليهِ تَكَرَّرَ بالضّميرِ (هم)، وبالضَّميرِ المُتَّصِلِ بالفِعْلِ (واو الجماعة)، وتَكْرارُهُ مُؤْذِنٌ بتَكْرارِ المُسْنَدِ، ولا يَكون ذلِكَ إلّا إذا كان المُخاطَبُ شاكًّا في مَضمونِ الخِطاب، أو مُنَزّلًا منزلةَ الشَّاكِّ، وقُدِّم المسندُ إليه؛ "لِرِعايَةِ الفاصِلَة والتّقَوّي، لا للحَصْرِ، إذ لَيْسَ المَقامُ مقامَهُ، ولذا لم يُقَل: (فلا عَنْهم يُخَفَّف العذابُ)"[2].

فائِدَةُ التّعْبيرِ بِصيغَةِ المَبْنِيِّ للمَفْعولِ:

تَعْظيمُ المَوْقِفِ وتَهْويلُ المَشْهَدِ

جاء فِعْلا التَّخْفيفِ والنَّصْرِ مَبْنِيَّيْن للمَفعولِ، وذلِك لِقَصْدِ إبهام الأمْرِ وتعظيم الموقف؛ فإنَّ عدمَ التَّصريح بالفاعلِ مِنْ شَأْنِهِ تَهْويلُ المَشْهَدِ، وتَفْخيمُ الحَدَثِ، لاسِيَّما أنَّ الأمرَ مُرْتَهِنٌ بالعَذابِ.

(1) السّكّاكي، مفتاح العلوم، ص: 217.

(2) الآلوسي، روح المعاني: 1/315.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ ۖ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾﴾ [البقرة: 87]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

بَعدَ بَيانِ جِناياتِ بَني إسرائيلَ، وما اقْتَرفُوهُ مِنْ مَعاصٍ وكَبائرَ في حَقِّ أنفُسِهم، شَرعَتِ الآياتُ في بَيان الحُججِ التي قامَتْ عَليْهِم[1]، وأنَّ ما قاموا بِهِ مِنْ تلكَ الفَظاعاتِ إنّما كان بعد البيانِ الكاشِفِ المُتتابِعِ، ابْتِداءً من لَدُنْ مُوسى إلى عيسى وما بَينَهما مِنَ الرُّسُل عليهِمُ الصَّلاةُ والسَّلامُ، فلم يُؤمِنوا ولم يَمْتَثِلوا للرُّسُل بسببِ تَكبُّرِهم وطغيانِهم[2].

ثم إنَّ هذه الآيةَ مهَّدَتْ لِلْإِنْحَاءِ عَلَى بَني إسرائيلَ في مُقَابَلَتِهِمْ لدَعوةِ الرّسولِ محمد ﷺ الّآتِي ذِكْرُهَا في قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلْفُۢ﴾ [البقرة: 88]، لأنَّها أَنْحَت عليهم بسوءِ مُقابَلَتِهم لِرُسُلِ اللّهِ بعدَ موسى عليه السلام مثل مقابلتهم السّيّئَة لعيسى ابنِ مَريمَ عليه السلام، فلم يبقَ إلّا الكلامُ على فِعالِهم مع رسولِ اللّهِ محمَّدٍ ﷺ[3].

شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

1) ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾: على وزنِ فِعالٍ مِنَ الكَتْبِ، وأَصْلُهُ: ضمُّ الشَّيءِ إلى الشَّيء[4].

ويُطلق الكتابُ على الخطِّ والكتابةِ، كما قال اللّه تعالى عن عِيسَى عليه السلام: ﴿وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾[5] [المائدة: 110].

ويُطلق مُرادًا به المكتوبُ، فيكون مِن إطلاقِ المصدَرِ مُرادًا به اسمُ المفعول، كقَوْلِهم:

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/126.
(2) تفسير الرّاغب: 1/255.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/592.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (كتب).
(5) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 3/223، ونصر الهُورِينِيّ، المطالع النَّصْرِيَّة، ص: 41.

فِراشٌ يعنى: مفروش، وغِراس بمعنى: مَغْروس، ولِباس بمعنى: مَلْبوس، ثم أُطْلِقَ على الصَّحيفة مَعَ ما كُتِبَ فِيها[1].

ويأتي (الكِتابُ) في القرآن الكريم على أحدَ عشَرَ وَجْهًا[2]، ويقصد به هنا التّوراةُ[3].

2) ﴿وَقَفَّيْنَا﴾: أصله من (قَفَو) أو (قَفِي)، فالْقَافُ وَالْفَاءُ وَالْحَرْفُ الْمُعْتَلُّ تدور معانيها على: إِتْبَاعِ شَيْءٍ لِشَيْءٍ، يُقالُ: قَفَا يَقْفُو قَفْوًا، وَقَفَّيْتُ فُلَانًا بِفُلَانٍ، إِذَا أَتْبَعْتَهُ إِيَّاهُ، تَقَفَّيْتُ فُلَانًا بِعَصًا فضَرَبْتُه، واسْتَقْفَيْتُه -كَذَلِك-: إذا جِئْتَه مِنْ خَلْف، وسُمِّيَتْ قافِيَةُ الشِّعْر قافِيَةً؛ لِأَنَّهَا تَقْفُو سَائِرَ الكَلَام، أَيْ: تَتْلُوهُ وَتَتْبَعُهُ، وقافِيَةُ الرّأس: مُؤَخِّرَتُهُ، و﴿قَفَّيْنَا﴾: بِمَعْنى: أَتْبَعْنا، يُقال: هذا يَقْفو هَذا؛ أَيْ: يَتْبَعُهُ[4]. وقَفَّيْنا تُفيدُ التَّكثيرَ في الإرسال؛ لأنَّه على وزن فَعّل.

3) ﴿ٱلْبَيِّنَٰتِ﴾: من الأصلِ (بَيَنَ)، وبَانَ الشَّيْءُ وَأَبَانَ إِذَا اتَّضَحَ وَانْكَشَفَ. وَفُلَانٌ أَبْيَنُ مِنْ فُلَانٍ؛ أَيْ أَوْضَحُ كَلَامًا مِنْهُ، وتَأتي البيِّنَةُ بِمَعْنى: الأمْرِ الواضِح، وبِمَعْنى: الحُجّة؛ لأنَّ بها يَنْكَشِفُ الحقُّ ويتّضِحُ، والبَيّنَةُ: الدّلالة الواضِحَةُ؛ عَقْلِيَّةً كانَتْ أو حِسِّيّةً[5]، فالبيّنة لا يُنازِع فيها مُنازِعٌ لِوُضوحِها، وجَمْعُ البيِّنة: بيِّناتٌ. والمُرادُ بالبيِّنات -هُنا-: مُعْجِزاتُ سَيّدنا عيسى عليه السلام كلُّها ومَعَها الإنجيلُ، "لِأَنَّ الْمُعْجِزَاتِ تُبَيِّنُ صِحَّةَ نُبُوَّتِهِ، كَمَا أَنَّ الإِنْجِيلَ يُبَيِّنُ كَيْفِيَّةَ شَرِيعَتِهِ"[6].

4) ﴿وَأَيَّدْنَٰهُ﴾: أصل الكلمة (أَيَدَ)، ويَدورُ مَعناه عَلَى: القُوَّةِ وَالحِفْظ. يُقَالُ: أَيَّدَهُ اللَّهُ، أَيْ: قَوَّاهُ اللَّهُ، وكأنّ مَعنَى اليَدِ مُضَمَّنٌ في (أَيدَ)، فيُقالُ: أَيّدَ فُلانٌ فُلانًا، أَي: أَخَذَ مَعَهُ بِيَدِه في الشَّيءِ الذي يُقَوّيه فيه، و(أيّد) بِوزْنِ (فَعَّلَ) تَدلُّ على القُوّة الشَّديدَةِ[7]، فزِيادَةُ اللفْظِ تَدلُّ على زِيادَةِ المَعْنى غالِبًا، فيَكونُ أَيّدَهُ أَبْلَغَ مِنْ قَوّاهُ، ومعنى: ﴿وَأَيَّدْنَٰهُ﴾: وَقَوَّيْنَاهُ.

(1) نصر الهُورِينيّ، المطالع النصريّة، ص: 41.
(2) ابن الجوزيّ، نزهة الأعين النَّواظِر، ص: 527-526.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 1/478.
(4) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة: (قفو)، وينظر: الهروي، الغريبين: 5/1571.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب، والسمين، عمدة الحفاظ: (بين).
(6) الرازي، التّفسير الكبير: 3/595.
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات: (أيد)، وينظر: تراث أبي الحسن الحرالي: 1/238.

5) ﴿بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾: هذا التركيبُ الإضافيُّ من إِضَافةِ المَوصُوفِ إلى الصِّفَةِ لِلمُبالغَةِ في الاخْتِصَاصِ[1]، وأَصْلُه الرُّوحُ القُدُسُ، والقُدُس مَصدرٌ على معنى اسم المَفعولِ، أَي الرُّوحُ المُقَدَّسَةُ، ومعنى القُدُسِ: الطَّهَارةُ الدّائمةُ الَّتي لا يَلْحقُها نَجَسٌ ظَاهِرٌ ولا رِجْسٌ باطنٌ، فـ(روحُ القُدُسِ) بمعنى: الرُّوحِ المُطَهَّرةِ، ويُطلقُ هذا التركيبُ وَصْفًا لِجبريلَ عليه السلام، كما جاءَ عن عبدِ اللّهِ بنِ مسعودٍ رضي الله عنه وغيره، وعليه جُمْهورُ المُفَسِّرينَ والمُحَدِّثين[2].

6) ﴿تَهْوَىٰٓ﴾: أصله من (هوي)، ويَدُلُّ عَلَى معنَيَين؛ الأول: الخُلُوّ، والثاني: السُّقُوط، فمن الخُلُوّ: الهَوَاءُ، وهو الفراغ بَيْنَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاءِ، سُمِّيَ هواءً لِخُلُوِّهِ، ومن السُّقوطِ: هَوَى الشَّيْءُ يَهْوِي: إذا سَقَطَ، والهَوى: المَيْلُ، ومنهُ مَيْلُ النَّفْسِ إلى الشَّهْوَةِ، وجَمْعُه أَهْواءٌ، ومِنه: أَهْلُ الأَهْواءِ، وسُمِّيَ هَوى النَّفْسِ بذلِكَ؛ لِأنّه يَهْوِي بِصاحِبِه في الدُّنْيا إلى كُلِّ داهِيَةٍ، وفي الآخرة إلى الهَاوِيَةِ[3]. ومعنى: ﴿تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمْ﴾: توافق أنفسكم وتميل.

7) ﴿ٱسْتَكْبَرْتُمْ﴾: من الاستكبار، على وزْنِ اسْتِفْعَالٍ، وأَصْلُ الكَلمةِ من (كَبَرَ)، ويَدُلُّ عَلَى خِلَافِ الصِّغَرِ، والكَبيرُ والصَّغيرُ من الأَسماءِ المُتَضايِفَةِ، فالشَّيءُ قد يكون صَغيرًا في جَنْبِ شَيْءٍ، وكبيرًا في جَنبِ غَيْرِه، ويُسْتَعمل في الأَجْسامِ فيُقالُ: بَيتٌ كَبيرٌ، وفي الأعدادِ مِثْل: عَددٌ كَبير، وفي المَنْزِلةِ كَقَوْلِهِمْ: كَبيرُ القَوْمِ، والاسْتِكبارُ: الِامْتِنَاع عَن قَبولِ الحَقِّ مُعانَدةً وتكَبُّرًا، بأَنْ يَتَشَبَّعَ بِمَا لَمْ يُعْطَ؛ فيُظْهِرَ مِن نَفْسِهِ ما لَيْسَ لَه، أو يَرى نَفسَه أكبرَ منْ غَيرِه بِما أَنْعَمَ اللّه عليهِ مِن مالٍ أو جاهٍ، فيستعلي عليهم[4]. وجميعُ ما وَرَدَ في القرآنِ الكَريمِ من الاستكبارِ مَذْمومٌ. ومعنى ﴿ٱسْتَكْبَرْتُمْ﴾: تَعَالَيْتُمْ عَنِ الْإِيمَانِ وَتَعَظَّمْتُمْ.

(1) الآلوسي، روح المعاني: 1/316.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 2/320، وابن حجر، فتح الباري: 8/384.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، والزمخشري، أساس البلاغة: (هوي).
(4) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، والسمين، عمدة الحفاظ: (كبر).

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

ولقد أعطينا موسى التوراة، وأتبعناه برسل من بني إسرائيل على أثره، وأعطينا عيسى ابن مريم الآيات الواضحة المبيِّنةَ لصدقه، كإحياء الموتى، وإبراء الأكمه والأبرص، وقوَّيْناه بالمَلَكِ جبريل عليه السلام، أفكلّما جاءكم - يا بني إسرائيل - رسول بوحي من عند الله بما لا يوافق أهواءكم استكبرتم على الحقِّ، وتعالَيْتُم على رسل الله، ففريقًا كذَّبْتُم إنْ لم تَتَمكَّنوا من قَتْلِهِ مِثْلَ عيسى ورَسولِ الله محمَّدٍ صلوات الله وسلامُه عليهما، وفريقًا تقتلون إنْ تَهَيَّأَ لَكم قَتْلُهُ مثل زكريا ويَحيى صلواتُ الله وسلامُه عليهما[1].

الإِيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

أَثَرُ التَّأْكِيدِ فِي بَيانِ المَعاني:

تَنْزِيلُ المُخاطَبِ مَنْزِلَةَ المُنْكِرِ؛ زَجْرًا لضعْفِ إيمانِهِ، وتَقْبيحًا لأَعْمالِه

أفادت اللامُ الواقعةُ في جوابِ القَسَمِ المحذوفِ التَّأكيدَ، ومثلُها حَرفُ التَّحقيق (قد)؛ فاجتمعَ تأكيدانِ لمَضمونِ الجُمَلِ المتَعاطِفةِ في الآيةِ؛ فنُزِّلَ المخاطَبون من بني إسرائيل منزلةَ المُنكرينَ؛ لِمَا يَصْدُرُ عنهم من أفعالٍ تُنافي الإيمانَ بالتَّوراة، وبالرُّسُلِ، فكان مُقتَضى التَّأكيدِ بيانَ حالِهِمُ القَبيحَةِ في المُخالَفةِ بعدَ العلمِ، لاسِيَّما بعد إنكارِ الآيةِ السَّابقةِ وتشنيعِها عليهم: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍۚ﴾، وما جاءَ في هذه الآية من تكذيبِ الرُّسُلِ وقتلِهم؛ فإنَّ مثل هذا لا يصدُرُ إلا عن قلبٍ منكرٍ جاحِدٍ!

فائِدَةُ ذِكْرِ الظَّرْفِ:

دَفْعُ تَوَهُّمِ حُصولِ التَّقْفِيَةِ في زَمَنِ موسى عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلام

حُذِفَ مفعولُ (قَفَّيْنَا) للعلم به، للإيجازِ في الكلام، ولاقترانِ الضَّميرِ بالظَّرفِ، وهُوَ ﴿مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾، ولو ذُكِر لَكانَ النَّظْمُ: قَفَّيناه مِنْ بَعدِهِ بالرُّسُل، ففيه تَكْرارٌ مُخِلٌّ، فَضلًا عن الثِّقَلِ الصَّوتي، وذُكِر الظَّرفُ ﴿مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾، ولم يأتِ النَّظمُ: (قفَّيناه بالرُّسُلِ)؛ لِما

(1) الرازي، التّفسير الكبير: 3/595، ومجموعة من العلماء، المختصر في التفسير، ص: 13.

فيه من مَلْحَظِ البَعْديّة التَّامّة؛ فقد يَتَوَهّمُ مُتَوَهِّمٌ أنَّ التَّقْفِيةَ كانت في زمانِ مُوسَى عليه الصَّلاةُ والسَّلام، وهو غَيرُ مُرادٍ؛ إذِ التَّقفِيَةُ ما كانتْ إلَّا بَعْدَه.

دلالة حَرْفِ ابْتِداءِ الغايَةِ:

استِمْرارُ إرْسالِ الرُّسُلِ دون أدْنى انْقِطاعٍ

أفادَ حرفُ الجرِّ (مِنْ) ابتِداءَ الغايَةِ الزَّمانِيَّةِ، أيْ: ابْتُدِئَ إرسالُ الرُّسُلِ في إثْرِ موسى من غير مُهْلَةٍ ولا انقِطاعٍ، فلم يَبْقَ بنو إسرائيلَ مِن دُونِ رَسولٍ مُؤَكِّدٍ لِشَريعَةِ موسى عليه السلام؛ ليَدُلّ ذلك على اسْتِمرارِ نِعْمةِ اللّه فيهم، ومع ذلك فقدْ قابَلوها بِالكُفْرِ والأفعال القَبيحَةِ، ولو قال: (وقَفَّينا بَعْدَهُ بالرُّسُل) مِنْ غَيْرِ (مِنْ) لما أفاد سِوى أنَّ اللّه أرسلَ الرُّسُلَ بَعدَ موسى مِنْ غَيْرِ بيانٍ لِوُجودِ مُهْلَةٍ أو لا.

دلالة (أل) التَّعْريفِ في الرُّسُل:

التَّعريفُ هنا للجنسِ لا للعَهْد؛ لِأنَّهُ لا يُقصَدُ بها رُسُلٌ مَعْهودونَ عندَ المخاطَب؛ لأنَّهم بمَجْموعِهم غيرُ مَعلومينَ عَددًا وعَيْنًا، وهذا "شَأْنُ لَفْظِ الْجِنْسِ الْمُعَرَّفِ إذَا لَمْ يَكُنْ عَهْدٌ أَنْ يَدُلَّ عَلَى الاسْتِغْرَاقِ، فلَمَّا كَانَ الاسْتِغْرَاقُ هُنَا مُتَعَذِّرًا دَلَّ عَلَى التَّكْثِيرِ مَجَازًا لِمُشَابِهَةِ الْكَثِيرِ بِجَمِيعِ أَفْرَادِ الْجِنْسِ، كَقَوْلِكَ: لَمْ يَبْقَ أَحَدٌ فِي الْبَلَدِ لَمْ يَشْهَدِ الْهِلَالَ، إذَا شَهِدَهُ جَمَاعَاتٌ كَثِيرَةٌ. وَهُوَ قَرِيبٌ مِنْ مَعْنَى الاسْتِغْرَاقِ الْعُرْفِيِّ"[1]؛ فيكونُ المَقصودُ اسْتِغراقَ أفْرادِ الرُّسُلِ في ذلك الزَّمانِ.

دلالة إضافَةِ رُوحٍ لِلْقُدُس:

المُبالَغَةُ في بيانِ قُدْسِيَّةِ جِبْريلَ عليه السلام

إضافةُ رُوحٍ لِلْقُدُسِ مِنْ قَبيلِ إضافَةِ المَوصوفِ إلى صِفَتِه، أيْ: الرُّوحُ الْمُقَدَّسَةُ، وفائِدَتُهُ: تَحْقيقُ المُبالَغَةِ مِنْ وَجْهَين؛ أحَدُهُما: وُقوعُ الصِّفَةِ بِصيغَةِ المَصْدَرِ؛ لِتَدُلَّ على المُبالَغَةِ في الوَصْفِ، فإذا قيل: (رَجُلٌ عَدْلٌ)، فكَأنَّه وُصِف بِجَميعِ جِنْسِ العَدْلِ مُبالَغَةً[2]،

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/593.

(2) ابن جنّي، الخصائص: 2/204.

والثّاني: لِزيادَةِ المُبالَغَةِ في المَعْنى؛ فيَكونُ المَوْصوفُ مُخْتَصًّا بالصِّفَةِ بِسَبَبِ الإضافَةِ؛ لأنَّها على مَعْنى اللّام[1]، فوُصِفَ جِبْرِيلُ بِذَلِكَ تَشْرِيفًا لَهُ وَبَيَانًا لِعُلُوِّ مَرْتَبَتِهِ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى.

تَسْمِيَةُ جِبْرِيلَ بِرُوحِ القُدُسِ عَلى المَجازِ:

تَنْزِيلُ جِبْرِيلَ في إِحْياءِ القُلوبِ، مَنْزِلَةَ الرُّوحِ في إِحْياءِ الأَبْدانِ

سُمِّيَ جِبْرِيلُ بِرُوحِ القُدُسِ تَشْبِيهًا لَه بالرُّوحِ الّتي هِيَ سَبَبُ حَياةِ الإنسانِ؛ فكَذَلِكَ جِبْرِيلُ عليه السلام سَبَبٌ لِحَيَاةِ القُلُوبِ بِالعُلُومِ[2]؛ فشُبِّه جِبْرِيلُ بِروحِ الإنسانِ، بِجامِعِ سَبَبِيّةِ الحَياةِ، ثُمّ حُذِفَ المشبَّهُ وصُرِّحَ بالمُشبَّه بِه على سَبيلِ الاسْتِعارَةِ التَّصْرِيحيَّة.

بَلاغَةُ الاسْتِفْهامِ:

بَيانُ الاِسْتِفْهامِ لِدلالةِ الإنْكارِ والتَّوْبيخِ والتَّعْجيبِ للتَّقْريرِ بِقَصْدِ الارْتِداعِ عَنِ المَعاصي

أفادَ الاسْتِفهامُ في قولِه تَعالى: ﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ﴾، الإنكارَ والتَّوْبيخَ والتَّعْجيبَ[3]، فالآيَةُ تُنْكِرُ عَلى بَني إسْرائيلَ اتِّباعَهُمْ لِهَوى أَنْفُسِهِمْ، واسْتِكبارَهُم عَنِ الحقِّ؛ فجَمَعَ الاستفهامُ بَيْنَ مَعاني الإنْكارِ والتَّوبيخِ والتَّعجُّبِ من شأنِ بَني إسرائيلَ في تَعامُلِهم مَعَ رُسُلِهِمْ، ومَقْصودُ ذَلكَ حَمْلُهم عَلى الإقرارِ ليَرْتَدِعوا عمَّا هُم فيه من الغِوايَةِ والكِبْرِ[4].

إِيلاءُ حَرْفِ الاسْتِفْهامِ حَرْفَ العَطْفِ:

تَعَدُّدُ أوجُهِ الرَّبْطِ بَيْنَ الفاءِ والجُمَلِ المَعْطوفِ عَلَيْها

الفاءُ في قولِه تعالى: ﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ﴾، إمَّا أن تَكونَ عَطَفَتِ الجُمْلَةَ المَذْكورَةَ على أخْرى مَحْذوفَةٍ بَعْدَ هَمْزَةِ الاسْتِفهام، تَقْديرُها: أَعَصَيْتُموهُمْ فكُلّما جاءَكُمْ رَسولٌ مِنْهم بِما لا تَهْوى أَنْفُسُكُم[5]، وهَذا مَذْهَبُ

(1) الآلوسي، روح المعاني: 1/316.
(2) الرازي، التّفسير الكبير: 3/596.
(3) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 1/256، وأبو حيّان، البحر المحيط: 1/482، والنيسابوري، غرائب القرآن: 1/331.
(4) ابن عطيّة، المحرر الوجيز: 1/176.
(5) أبو السعود: إرشاد العقل السليم: 1/127.

الزَّمَخْشريّ[1]، ونُكْتَتُه: تَحريكُ ذِهْنِ المُخاطَب في اسْتِنباطِ المَعاني. وإمَّا أن تكون على التّقديمِ والتّأخيرِ، والأَصْلُ (فَأَكُلَّمَا)، وَقُدِّمَ حرفُ الاستفهام؛ لأنَّ لَه الصَّدارَةَ في الكَلامِ[2]، وهذا مَذهبُ سيبَوَيْهِ، ونُكْتَتُه: تَوبيخُهُم على تَعْقيبِهِم ذلك بهذا، وللتَّعْجيب مِنْ شَأْنِهِم[3]، ولإثارَةِ المُخاطَبِ وتَهْيِئَتِه لاسْتِماعِ ما يرِدُ في الكلامِ؛ لأنَّه مصدَّرٌ بالإنكارِ على فِعْلٍ متكرِّرٍ واقِعٍ منَ المخاطَبِ.

نُكْتَةُ ذِكْرِ ﴿أَفَكُلَّمَا﴾:

تَكْرارُ وُقوعِ الفِعْلِ بِصَيْرورَتِهِ مَنْهَجًا وسَجِيَّةً

أفادَتْ (كُلَّمَا) التَّكرارَ، والمَعْنى: إنَّ فِعْلَهم كَان يَتَكرَّرُ منْهُمْ مِنْ غيرِ انْقطاعٍ بِتكرُّرِ مَجيءِ الرُّسل إلَيْهم، فالاسْتِكْبارُ وما يَنْشَأُ عنه مِنَ القَتْل والتَّكذيبِ هوَ مَنْهجٌ مُتَكرِّرٌ لا يَحيدونَ عَنْهُ، و"سَجِيَّةٌ لَهُمْ، وَلَيْسَ ذَلِكَ لِعَارِضٍ عَرَضَ فِي بَعْضِ الرُّسُلِ وَفِي بَعْضِ الْأَزْمِنَةِ"[4].

بَلاغَةُ حَذْفِ العائِدِ:

بَيانُ اسْتِحْكامِ الهَوى في النُّفوسِ، وللكَراهَةِ اللَّفْظِيَّةِ

حُذِفَ العائِدُ في قَوْلِه: ﴿بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ﴾، فلمْ يَقُلْ: (بما لا تَهْواه أنفُسُكمْ)؛ لأمْرَيْنِ اثْنَين، أحدُهما مَعْنَويٌّ، والآخَرُ لَفْظيٌّ، فأمَّا المَعْنَويّ؛ فلِيُفيدَ إثباتَ الهَوى لِأَنْفُسِهم على الإطلاق، فكَأنَّ الهَوى اسْتَحْكَم في أَنْفُسِهم فصارَ ثابتًا فيها لا يَتَجاوَزُها، إمْعانًا في ذمِّهم، ولِبَيانِ أَنّ مَنْشَأَ اسْتِكبارِهِمْ هَوى أَنْفُسِهم، ولا يُتَوَهَّم أنَّهم يَسْتَكْبِرون؛ لأنَّهم يستحقون الاستكبار، وأمَّا اللفْظيّ "فلِطولِ الاسْم، أَيْ: بِمَا لَا تَهْوَاهُ"[5]، وطولُ الصِّلَةِ في مقامِ الإيجازِ مَذْمومٌ، واجْتِماعُ أكثرَ مِنْ تَعْليلٍ لُغَوِيٍّ هُوَ في مقامِ المَدحِ والقَبولِ.

(1) الزمخشري، الكشاف: 1/162.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 1/443.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/127.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/598.
(5) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 2/24.

سِرُّ العُدولِ عَنِ الضَّميرِ إلى الاِسْمِ الظاهِرِ:

التَّنْبيهُ عَلى سَبَبِ الاِسْتِكْبارِ لِلحَذَرِ مِنَ الوُقوعِ فيه

مُقْتَضى ظاهرِ سياقِ الخِطابِ في قولِه تَعالى: ﴿بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ﴾، التَّعْبيرُ بِضَميرِ المخاطَبةِ؛ فكان التقديرُ: (تَهْوَوْنَ)، لكنَّه عَدَلَ عَنْ ضَميرِ المُخاطَبةِ إلى الاسمِ الظَّاهرِ؛ للإشارَةِ إلى عِلِّيَّةِ المَأخَذ، والسَّبَبِ الذي جَعَلَهُم يَفْعَلون ما يَفْعَلون، فأنْفُسُهم هِيَ الّتي سوَّلَتْ لهمُ التَّكْذيبَ والقَتْلَ، وقادَتْهم إلى هذهِ الأفعالِ القبيحَةِ[1]، كما قالَ تعالى: ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ﴾ [المائدة: 30].

عِلَّةُ الاخْتِلافِ بَيْنَ المُتَقابِلين:

تَصْويرُ قَباحَةِ القَتْلِ كَأنَّهُ واقِعٌ مُشاهَد، وبَيانُ إصْرارِهِمْ عَلَيْهِ

غايَرَ النَّظمُ بينَ فِعْلِ التَّكذيبِ إذْ جاءَ ماضيًا، وفعْلِ القَتْلِ إذْ جاءَ مضارعًا في قوله تعالى: ﴿فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾، فجاءَ فعلُ القَتْلِ بصيغَةِ المُضارِعِ؛ لاستِحْضارِ الحالِ الماضِيَةِ، وَتَصْويرِ الحالِ حَتَّى كَأَنَّهُ مُلْتَبِسٌ بِها[2]، ولبيانِ إصْرارِهِمْ وعَدَمِ نَدَمِهِم؛ فهُمْ مُسْتَمِرُّونَ على ذلك، "فذَكَرَ القتْلَ بلفظِ الاسْتِقبالِ تَنْبيهًا إلى أنَّهم يُزاوِلونَ قَتْلَه، قَدَروا عليْهِ أمْ لم يَقدِروا"[3]، ولِتَناسُبِ رُؤوسِ الآيِ، ففي تَجانُسِ الفواصِلِ تَأثيرٌ نَفْسِيٌّ عَجيبٌ في قلوبِ السَّامعينَ.

مَعْنى الفاءِ في ﴿فَفَرِيقًا﴾:

تَنَوُّعُ مَعاني الفاءِ بِناءً عَلى تَعَدُّدِ أَوْجُهِ التَّفْسير

حَمَلَ حَرْفُ الفاءِ في قولِه تعالى: ﴿ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ أَحَدَ مَعْنَيَيْنِ، السَّبَبِيَّة، أو التَّفْصيلِ، ومَعْنى السَّبَبِيَّةِ له وَجْهانِ:

الأوَّلُ: الاسْتِكْبارُ، بِتَرْتيبِ التَّكذيبِ والقَتْلِ عَلى اسْتِكْبارِهِمْ؛ "فَنَشَأَ عَنِ الاسْتِكْبَارِ مُبَادَرَةُ فَرِيقٍ مِنَ الرُّسُلِ بِالتَّكْذِيبِ فَقَطْ، حَيْثُ لَا يَقْدِرُونَ عَلَى قَتْلِهِ، وفَرِيقٍ بِالْقَتْلِ إِذَا قَدَرُوا عَلَى قَتْلِهِ، وَتَهَيَّأَ لَهُمْ

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 1/482.
(2) الزمخشري، الكشاف: 1/162، وأبو حيّان، البحر المحيط: 1/483.
(3) تفسير الرّاغب: 1/256.

ذَلِكَ، وَيُضَمَّنُ أَنَّ مَنْ قَتَلُوهُ فَقَدْ كَذَّبُوهُ، وَاسْتَغْنَى عَنِ التَّصْرِيحِ بِتَكْذِيبِهِ، لِلْعِلْمِ بِذَلِكَ، فَذَكَرَ أَقْبَحَ أَفْعَالِهِمْ مَعَهُ، وَهُوَ قَتْلُهُ"[1].

الثَّاني: مَجيءُ الرُّسُل، لأنَّه قالَ: ﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌ﴾؛ فتَعَلَّق الحُكْمُ -وهُو التَّكذيبُ والقَتلُ- بِوَصْفِ الرِّسالَةِ عِنْدَهُمْ؛ "كَأَنَّ وَصْفَ الرِّسالَةِ عِنْدَهُم هُو الذي اقتَضى عِندَهم أحَدَ هذينِ، حَتَّى خُصَّ المَنْعوتُ بِهِ دونَ سائِرِ النَّاسِ بِأَحَدِ الأَمْرَين، وهذا نِهايةُ الجَهالةِ، حيثُ اسْتَقْبَلوا أشْرَفَ الأصنافِ لأكْرَمِ الأوصافِ بِغايَةِ الاستِخْفافِ"[2].

وأمَّا التَّفْصيلُ[3]؛ فإمّا أنْ يَكون تَفْصيلًا لِمُجْمَلِ قوله تعالى: ﴿وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾، فتَكونَ الفاءُ عاطِفةً على جُملةِ ﴿وَأَيَّدْنَٰهُ﴾، ويَكونَ قولُهُ ﴿أَفَكُلَّمَا﴾ مَعَ مَا بَعْدَهُ فَصْلًا بَيْنَهُمَا عَلَى سَبِيلِ الْإِنْكَارِ، فقد جاءَتْهُم الرُّسُلُ تَتْرا وجاءَهُمْ عيسى ابنُ مَرْيَمَ بالبيِّناتِ، ففصّلَ في ما فعلَه بنو إسرائيل بالرُّسُلِ، وإما أنْ تَكونَ تَفْصيلًا لمُجْمَلِ قوله تعالى: ﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ﴾، كما أشارَ إليهِ ابْنُ عاشور[4]، فتَكونُ الفاءُ تفصيلًا للاسْتِكْبارِ، فكانَ اسْتِكبارُهُم على نَوْعَيْنِ؛ التَّكذيبِ والقَتْلِ[5].

والمَعْنَيان كلاهُما مُحْتَمَلٌ، وتَوَسُّعُ المَعاني مِنْ لَطائفِ مَداخِلِ البَلاغةِ، ولاسِيَّما مع هذه الألْفاظِ المُتَخَيَّرَةِ والمَعاني المُنتَخَبَةِ، وتَعَلُّقِ اللَّفظِ بِمُناسِبِهِ.

بَلاغَةُ تَقْديمِ المَفْعولِ بِهِ:

الاهْتِمامُ وتَشْويقُ السَّامِعِ إلى مَعْرِفَةِ مَضْمونِ الكَلامِ

قُدِّمَ المَفْعولُ بِهِ في قوله تعالى: ﴿فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾؛ لِلاهتِمامِ ولِتَشْويقِ السّامِعِ إلى مَعْرِفةِ ما فَعلَ بَنو إسْرائيلَ بِالرُّسُلِ، ولِمُراعاةِ رُؤوسِ الآيِ، ولا يُفيدُ تَقديمُ المَفعول هنا القَصْرَ، لأنَّه في مَقامِ التَّفصيلِ[6]، وزادَ ابنُ عاشور فائِدَةً أسلوبيَّةً أخرى، وهِيَ

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 1/483.
(2) النيسابوري، غرائب القرآن: 1/331.
(3) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 1: 256، والشوكاني، فتح القدير: 1/130، وخان، فتح البيان: 1/219.
(4) التحرير والتنوير: 1/598.
(5) الآلوسي، روح المعاني: 1/318.
(6) أبو حيّان، البحر المحيط: 1/483، البروسوي، روح البيان: 1/177.

تَفصيلُ المُجمَلِ، فإنَّ كَلِمَةَ فَريقٍ إذا وَردتْ على جِهَةِ تَفْصيلِ مُجْمَلٍ تكونُ في مُقدّمِ الكَلامِ غالِبًا، "وَهَذَا اسْتِعْمَالٌ عَرَبِيٌّ كَثِيرٌ في لَفْظِ (فَرِيقٍ) وَمَا في مَعْنَاهُ، نَحْو (طَائِفَةٍ) إِذَا وَقَعَ مَعْمُولًا لِفِعْلٍ في مَقَامِ التَّقْسِيمِ"[1].

سِرُّ تَقْديمِ التَّكذيبِ عَلى القَتْلِ:

مُراعاةُ التَّدرُّجِ في ذِكْرِ القُبْحِ والشَّر

بَدَأَ بِالتَّكْذِيبِ؛ لِأَنَّهُ أَوَّلُ مَا يَفْعَلُونَهُ مِنَ الشَّرِّ، وَلِأَنَّهُ الْمُشْتَرَكُ بَيْنَ الْفَرِيقَيْنِ: الْمُكَذَّبِ وَالْمَقْتُولِ[2]؛ فالمَقْتولُ مُكَذَّبٌ كَذلك، ولَولا أنّه مُكَذَّبٌ لَما قَتَلوهُ، كَما أنّه جَرى على طَريقَةِ التَّدَرُّجِ في فِعْلِ القَبيحِ؛ فبَدأ بالأسْفَلِ فالأشَدِّ قبحًا وجُرمًا.

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الاِسْتِكْبار والتَّكَبُّر:

اختلافُ المَبْنَى يدلُّ على اخْتِلافِ المَعْنى غالِبًا، فالمُسْتَكْبِرُ يَعْتَقِدُ أنَّ نَفْسَهُ كَبيرَةٌ تَكَلُّفًا واسْتِشْعارًا في النَّفْس، ولا يَبْلُغُ حَقيقتَه، وهُوَ في الوقتِ نَفْسِهِ يَطلبُ الكِبْرَ، وهُو ليسَ لهُ حَقٌّ بِهِ؛ ولِهذا لمْ يَرِدِ الاسْتِكبارُ في جَميعِ القُرْآنِ إلَّا على الذَّمِّ؛ نحو: ﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْاْ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّواْ وَٱسْتَكْبَرُواْ ٱسْتِكْبَارًا ۝٧﴾ [نوح: 7]، وأمَّا المُتَكَبِّرُ فقد وردَ وصفًا للّه تعالى؛ نحو: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ﴾ [الحشر: 23]؛ فهو مَحْمُودٌ، ووَردَ وَصْفًا للكافرينَ الرَّاغبينَ عن الحقِّ تعنُّتًا وتَكَبُّرًا؛ نحو: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ۝٢٧﴾ [غافر: 27]؛ فهو مذمومٌ[3].

(لا تَهْوَى) و(تَكْرَهُ):

عبّر بـ﴿بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمْ﴾ ولم يَقل (بما تكرَهُه أنفُسُكُم)؛ لِيُفيدَ أنَّهم مَهْما يأتِهم أمرٌ من رُسُلِهم لا تهواهُ أنفسُهُم، سواءٌ أكانوا يكرَهونَهُ أم لا، فإنَّهم يَستكْبِرون ولا

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/598.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 1/483.
(3) الطحاوي، شرح مشكل الآثار: 14/189، أبو حيّان، البحر المحيط: 1/482.

يُذْعِنون. فقد يَكونُ الأمرُ ممَّا لا يكرَهونَه، ولكنْ يَمْنَعُهُم من فِعْلِه جاهُهُم أو عرَضٌ من الدُّنيا. قال ابنُ عَرَفةَ: "هذا نَهيٌ عليهم، ومبالَغَةٌ في ذَمِّهِم؛ لأنَّ ما لا تَهواهُ النّفس أعَمُّ ممّا تَكْرَهُه النّفسُ، والمَعنى: أنَّهم مَهما أتاهُم رَسولٌ من عندِ اللّهِ تعالى بأمرٍ لا يحبُّونَه سواءٌ كانوا يكرهونَهُ أو لا، فإنّهُمْ يَسْتَكبِرون ويَكفُرون بِهِ"[1].

كما أنّ كلمةَ (تَكْرَهُ) فيها من الثِّقَلِ الصّوتِيّ هنا ما لا يَخْفى، وهي وإنْ وَرَدَت في القرآن كما في قوله تعالى: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ﴾ [البقرة: 216]، فلا يَدلّ ذلك عَلى فَصاحَتِها أينَما وَرَدَتْ، فإنَّ فصاحَةَ الكَلِمَةِ ليْسَتْ وَصْفًا ذاتِيًّا لها، بل العِبْرَةُ بِمَوضِعِها في نَظْمِ الكَلام؛ فقد تَكونُ الكَلِمةُ فَصيحَةً في مَوْضعٍ، وليستَ كذلك في موضِعٍ آخَرَ. فلِكُلّ كلِمَةٍ مَقامٌ مع صاحبتِها ولِفْقِها من الكلماتِ.

(1) تفسير ابن عرفة: 1/365.

﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلۡفُۢ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفۡرِهِمۡ فَقَلِيلٗا مَّا يُؤۡمِنُونَ ٨٨﴾ [البقرة: 88]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لمَّا ذكَرَ اللهُ أفعالَ بَني إسرائيلَ القَبيحَةَ، ناسَبَ أنْ يَنْتَقِلَ إلى ذكرِ بعضِ قبائحِ أقوالِهِم؛ فبعدَ أنْ عَرفوا أنَّ القرآنَ وَحْيٌ منَ اللهِ، لَجَأوا إلى طَريقَتِهِم في التَّكْذيبِ؛ فكذَّبوا رَسولَ اللهِ مُحَمَّدًا ﷺ، وافترَوا عليه اسْتِكْبارًا وعِنادًا وجُحودًا، فتَكونُ هذهِ الآيةُ تمثيلًا لِمَا ذكَرَتْه الآيةُ السَّابِقَة مِنْ تَكذيبِ رُسُلِ اللهِ، ومنْهُم رسولُ اللهِ محمّد ﷺ، فنُزِّلت هذه الآيةُ مِنَ السَّابقةِ مَنْزِلةَ المثالِ من القاعدةِ، وبمُحاوَلَتِهم قَتْلَه يَكونُ ذلك مِثالًا آخرَ على شَديدِ عَداوتِهِمْ، وقَبيحِ إصْرارِهِمْ.

شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

1) ﴿غُلۡفُۢ﴾: أصلُ المادَّةِ: (غَلَفَ)، ويَدورُ مَعْناها عَلَى: غِشَاوَةٍ، وَغِشْيَانِ شَيْءٍ لِشَيْءٍ، أو سَتْرِ الشَّيْءِ بالشَّيْءِ الّذي يُجْعَل فيه، يُقَالُ: غِلافُ الكِتابِ، وقَلْبٌ أَغْلَفُ: كَأَنَّمَا أُغْشِيَ غِلَافًا فَهُوَ لَا يَعِي شَيْئًا، و(غُلْف): جَمْعُ أَغْلَفَ، مثلَ حُمْرٍ وأَحْمَرَ، ويَصحُّ أن تكونَ كَلِمَةُ غُلْفٍ، بِمَعنى الأَقْلَفِ، وهُو الغُلامُ الّذي لم يَخْتَتِنْ، أي: بِمَعْنى الغِطاءِ، على مَعْنى: قُلوبُنا مُغَطَّاة فلا نَفْهَمُ مِنْ كَلامِكَ شَيْئًا[1]، والمَعْنى في الآيةِ: فلا نَفْقَهُ شَيْئًا ممّا تَقولُه، لِأَنّ كَلامَك لا يَدْخُل قُلوبَنا أَصْلًا، فالغُلْفُ يطلق على الوِعَاءِ الحَافِظِ لِلشَّيْءِ وَالسَّاتِرِ لَهُ مِنْ وُصُولِ مَا يُكْرَهُ لَهُ[2].

2) ﴿لَّعَنَهُمُ﴾: اللَّعْن يَدُلُّ عَلَى إِبْعَادٍ وَطَرْدٍ على سبيل السُّخْط والذّمّ، واللَّعْنَةُ: الاسْمُ، وَالْجَمْعُ: لِعانٌ ولَعَناتٌ، يقال: لَعَنَ اللَّهُ الشَّيْطَانَ؛ أي: أَبْعَدَهُ عَنِ الخَيْرِ وَالجَنَّةِ، واللَّعينُ: صِفَةٌ غَالِبَةٌ تطلق على الشَّيْطَانِ، لأَنه طُرِدَ مِنَ السَّمَاءِ، أو لأَنَّهُ أُبْعِدَ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ، ولَعَنْتُ الكَلبَ والذِّئبَ: طَرَدْتُهما، وتَلاعَنَ القَوْمُ وتَلَعَّنوا والْتَعَنوا: بِمَعْنى

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والزمخشري، أساس البلاغة، والسمين، عمدة الحفاظ: (غلف).
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/599.

لَعَنَ بَعْضُهُم بَعضًا، والتّلاعُنُ يَكونُ بَين اثْنَين فصاعِدًا، ومِنَ المَجازِ: "أبَيتَ اللّعْنَ"، وهيَ تَحِيّةُ المُلوكِ في الجاهِليَّةِ، أيْ: لا فَعَلْتَ ما تَسْتَوْجِبُ به اللّعْنَ، واللّعْنُ مِنَ اللّهِ تَعالى؛ في الدُّنيا: انْقطاعٌ مِنْ رَحْمَةِ اللّهِ وتَوْفيقِه، وفي الآخرةِ: عُقوبَةٌ، واللّعْنُ مِنَ الإنسان: سَبٌّ ودُعاءٌ عَلى غَيْرِه بِالطّرْدِ، واللّعّانُ: كَثيرُ اللّعْنِ، واللُّعْنَةُ: الّذي يَقَعَ عَليه اللّعنُ كثيرًا، ومِنهُ قولُهم: لَا تَكُ لُعْنَةً عَلَى أَهل بَيْتِكَ؛ أَيْ لَا يُسَبَّنَّ أَهلُ بَيْتِكَ بِسَبَبِكَ، واللُّعَنَةُ: الذي يَلْعَن كَثيرًا[1].

3) ﴿قَلِيلًا﴾: أصلُ الكلمةِ: (قلل)، يقال: قَلَّ الشَّيْءُ يَقِلُّ قِلَّةً فَهُوَ قَليلٌ، والقِلَّة تدلّ على: نزارة الشيء، وَيُقَالُ: اسْتَقَلَّ القَوْمُ، إِذَا مَضَوْا لِمَسِيرِهِمْ، وَذَلِكَ مِنَ الإِقْلَالِ أَيْضًا، كَأَنَّهُمُ اسْتَخَفُّوا السَّيْرَ وَاسْتَقَلُّوهُ، والقِلّةُ تُقابِلُ الكَثْرَةَ، وتُسْتَعْمَلُ القِلّةُ والكَثْرَةُ في الأَعْدادِ وفي المَعاني كَذلكَ، فيُقالُ: إيمانُه قَليلٌ، وإيمانُه كَثيرٌ[2].

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

تُبيِّن الآيةُ ما قالَهُ اليَهودُ مِنْ أقوالِ التَّحايُلِ على قَبولِ الحقِّ والإذْعانِ لَه، وما أبانوا عنه من حججٍ واهيةٍ ومزاعمَ داحضةٍ؛ ليَتَهرَّبوا مِنَ الإيمانِ والاسْتِسْلام، فادَّعوا إحاطة قلوبهم بغلافٍ يَمْنَعُها مِنَ السَّماعِ والفَهم، والقلوبُ مُسْتَعْمَلَةٌ في مَعْنَى الأَذْهَانِ، عَلَى طَرِيقَةِ كَلَامِ العَرَبِ في إِطْلَاقِ القَلْبِ عَلَى الْعَقْلِ[3]، وهُمْ في حَقيقَةِ حالِهِمْ مَلْعونونَ؛ فقليلًا ما يُؤْمِنونَ، والآيَةُ تشرحُ حقيقةَ حالِهم الظَّاهِرةَ والباطِنَة؛ للحَذَرِ من مَسْلَكِهِم، والبُعدِ عَنْ مَنْهَجِهِم.

الإِيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

بَلاغَةُ الوَصْلِ في الآيةِ:

بَيانُ اسْتِمْرارِ اليَهودِ عَلى مَنْهَجِ آبائِهِمْ في تَكْذيبِ الأَنْبِياءِ والرِّسالاتِ

الآيةُ معطوفةٌ على ما قبلها، استمرارًا لعَرضِ أفعالِ اليهودِ القبيحةِ، وقولِهِمُ الكَذِبَ مع الرُّسُل، فلم يكنْ كَذِبُهم مُقْتصِرًا على رُسُلِ بني إسرائيلَ، بل كَذَبوا على رسول الله محمَّدٍ ﷺ، وكَذَّبوه

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، ابن منظور، لسان العرب: (لعن).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، الرّاغب، المفردات: (قلل).
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/599.

كذلك، فبَيّنتْ هذه الآيةُ قولَهم، فناسَبَ أنْ يكونَ العطفُ بالواوِ لِمُناسَبةِ المعنى واللَّفظِ، إذْ جاءَ العطفُ بجملةٍ فعليَّةٍ على جملةٍ فعليَّةٍ.

نُكْتَةُ الالْتِفاتِ مِنَ الخِطابِ إلى الغَيْبةِ:

الإعْراضُ عَنِ المُسيءِ، وإبْعادُهُ عَنْ مَكارِمِ الخِطابِ

التَفَتَ السّيَاقُ من الخِطابِ إلى الغَيْبَة، ونُكْتَةُ الانتقال أنَّ مَنْ أعْرَضَ عن الحقِّ وفعلَ الأفعالَ القبيحةَ والفَظيعةَ، يَسْتَحقُّ الإبعادَ، وإنْ كانَ حاضرًا لا يُلتفتُ إليه بالخطاب، بل يُعرَضُ عَنه، فيُشارُ إلى هذا الإبْعادِ والإعْراضِ بخطابِ الغَيْبةِ، "وَقَدْ حَسَّنَ الالْتِفَاتَ أَنَّهُ مُؤْذِنٌ بِانْتِقَالِ الْكَلَامِ إِلَى سُوءِ مُقَابَلَتِهِمْ لِلدَّعْوَةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ وَهُوَ غَرَضٌ جَدِيدٌ، فَإِنَّهُمْ لَمَّا تَحَدَّثَ عَنْهُمْ بِمَا هُوَ من شُؤونِهم مَعَ أَنْبِيَائِهِمْ، وَجَّهَ الْخِطَابَ إِلَيْهِمْ، وَلَمَّا أُرِيدَ الْحَدِيثُ عَنْهُمْ فِي إِعْرَاضِهِمْ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، صَارَ الْخِطَابُ جَارِيًا مَعَ الْمُؤْمِنِينَ، وأُجْرِيَ عَلَى الْيَهُودِ ضَمِيرُ الْغَيْبَةِ"[1].

تَرَدُّدُ الكَلِمَةِ بَيْنَ الاسْتِعارَةِ والتَّشْبيهِ البَليغِ:

الامْتِناعُ عَنِ السَّماعِ بِأَبْلَغِ عِبارَةٍ، ذَهابًا في الضَّلالةِ، وتَمَكُّنًا مِنَ الغَضَبِ

في قولِه تعالى: ﴿قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ اسْتِعارةٌ على ظاهرِ كلامِ الزَّمخشريِّ، إذْ رأى أنَّ (غُلْف) في الآيَةِ مُسْتَعارٌ مِنَ الأغْلَف الّذي لم يُخْتَنْ[2]، والاستِعارَةُ هُنا مِثْلُ قولِه تعالى: ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة: 223]، فـ(حَرْثٌ) مَجازٌ بالاستِعارَةِ، وأصلُه تشبيهُ النِّساء بالمَحارِث، تَشْبيهًا لما يُلقَى في أرْحامِهِنَّ - من النُّطَف التي منها النَّسلُ - بالبذور[3].

أو أنْ يَكونَ تشبيهًا بليغًا حُذِفَتْ أداتُه ووَجْهُ الشَّبَهِ، لزِيادَةِ التَّقْريبِ في مُشابَهَةِ قُلوبِهم للغُلْفِ، ووجهُ الشَّبهِ المَحذوفُ هو كَوْنُ كلٍّ مِنْهما مَحْفوظًا في غِطاءٍ يَمْنَعُ من دُخولِ أيِّ شيءٍ إليه ممَّا يضُرُّهُ ويُؤذيه، قالوا ذلِكَ على سَبيلِ التَّهَكُّمِ؛ لأنَّهُم كانوا يَعْتَقدونَ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/599.
(2) الزمخشري، الكشاف: 1/163، البيضاوي، أنوار التنزيل: 1/93.
(3) الزمخشري، الكشاف: 1/266.

أنَّهم أعْقَلُ خَلْقِ اللّهِ وأهْداهُمْ[1]، وقَصَدوا بِكلامِهِمْ أنَّهم لَيسوا بِحاجةٍ إلى سَماعِ كلامِ رسولِ اللّهِ محمَّدٍ ﷺ، فهُمْ في غِنًى عنه بما عندَهم من التَّوْراةِ.

سِرُّ التَّعْبيرِ بِكَلِمَةِ ﴿غُلْفٌ﴾:

استَعْمَلتِ الآيةُ مُفْرَدَةَ الغُلْفِ؛ لأنَّها تَتَضَمّنُ مَعْنَيَيْنِ؛ أحَدُهما ظاهِرٌ والآخَرُ إشارِيّ:

الجَمْعُ بَيْنَ المَعْنى الظَّاهِرِ والإشاريّ بِبَديعِ الاِسْتِعْمال

المَعْنى الظّاهِرُ، وهُو أنَّ القلوبَ مَحْفوظَةٌ مِنْ أنْ يَصِلَ إليها كلامُك فلا نَفْهَمُ ولا نَعي ما تَقولُ. والمَعْنى الإشارِيُّ: أنّ كلام النّبي ﷺ ضُرٌّ وأذًى؛ لأنّ الغُلفَ هو الوعاءُ الّذي يَحْفَظ ما بِداخِلِه مِنَ الأذى والضُّرّ، وإذا كان ما يَسْمعونَه منَ القُرْآن ضُرًّا وأذًى؛ فهذا يَعْني تَكْذيبَ أنْ يَكونَ القُرآنُ كلامَ اللّهِ، وأنْ يكونَ رسولُ اللّهِ محمَّدٌ ﷺ نبيّا ورسولًا، وأنّ ما يقوله رسولُ اللّهِ ﷺ ليس إلّا ضَلَالاتٍ، ولو كان حَقًّا لوَعَتْه قلوبُهُم، وجَمْعُ هذه المفردة لِهذَيْنِ المَعْنَيَيْنِ، يُناسِبُ طَبيعَةَ كَلامِ اليهودِ مِنْ رَمْيِ الآخَرينَ بِألْفاظٍ إشارِيَّةٍ، فناسَبَ الكلامُ الكلامَ.

اخْتِيارُ الأَلْفاظِ المُناسِبَةِ للمَعاني:

لَفْظُ اللَّعْنِ مُناسِبٌ لِعَظيمِ جُرْمِ اليَهودِ في حَقِّ الرُّسُلِ جَميعًا

جاء التعبيرُ باللَّعْنِ للدّلالة على أنَّهُمُ ارْتَكبوا أشَدَّ الذُّنوبِ، فما قالوا: ﴿قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ إلّا اسْتِكبارًا مِنْهم أنْ يَتّبَعوا رَسول اللّه ﷺ، وهذا الاسْتِكبارُ هُوَ امْتِدادٌ لِمَا ذَكَر في الآية السابقة من اسْتِكبارِهِم على رُسُلِ اللّه؛ لأنَّ اللَّعْنَ لا يَكونُ إلّا عَلى أشَدِّ القَبائِحِ، وَهَذَا هُوَ الْجَزَاءُ عَلَى الذَّنْبِ بِأَعْظَمَ مِنْهُ[2]، وأفادَتِ الباءُ السَّبَبِيّةَ[3]، فلَعَنَهم اللّه بِسبَبِ كُفْرِهِم وإصْرارِهِمْ عَلَيْه، فجاءَتِ العُقوبَةُ جَزاءً لعَمَلِهِم.

(1) السمين، عمدة الحفاظ: 3/169.
(2) تراث أبي الحسن الحرالي: 1/239، القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 2/25.
(3) البروسوي، روح البيان: 1/17.

دلالة حَرْفِ الإضْرابِ الإبْطالِيِّ:

وردَتْ أداةُ (بَل) لإبْطالِ قولِ اليهودِ: (قُلوبُنا غُلْفٌ)[1]، والّذي دَلَّ على هذا الإبطالِ ذمُّ قولِهم ولعْنُهم عَليه، وإنَّما يُذَمُّ الكاذبُ المبْطِلُ، فدلَّ الإضْرابُ على ثَلاثَةِ معانٍ:

الأوّل: الإضْرابُ عن القَولِ الأولِ وإبطالُه، بمَعْنى أنَّها أبْطلَتْ مَعْنى قَوْلِهم: (قُلوبُنا غُلْفٌ)، فقُلوبُهُم لَيْسَتْ بِغُلْفٍ؛ لأنَّها خُلِقَتْ مَفْطورَةً على قَبولِ الحَقّ، مُدْرِكةً للصّوابِ.

الثّاني: تَكذيبُ ما قَبْلَها وصِدقُ ما بَعْدَها، فقد كَذّبَهُم اللّه في قَوْلِهم، ودَلَّ على أنَّ لَعْنَهم ثابتٌ صادِقٌ، أيْ لَيْس الأمرُ كما قالوا، بل قُلوبُهم مُسْتَعِدَّةٌ لِقَبول الحَقِّ، وسَبَبُ خذْلانِهم ورَفضِهِمُ الحقَّ هُوَ كُفْرُهُم.

الثّالث: الانتِقال إلى ذِكرِ عُقوبَتِهمْ وبَيانُ سَبَبِها، فبَدلًا مِنْ أنْ يَقول: بَل قُلوبُهم ليْسَتْ بِغُلْفٍ، انْتقلَ إلى ذِكرِ لَعْنِهم، وأنَّه بِسَبَبِ كُفْرِهم وتَماديهِم فيه؛ لِأنّ مَفْهومَ الإبطالِ يقْتَضي إثْبَاتَ نَقيضِهِ، فأوْجَزَ في الكَلامِ[2].

سِرُّ التَّعْبيرِ بالفاءِ دُونَ الواوِ:

تَفْريعُ عَدَمِ الإيمانِ عَنِ اللَّعْنِ، وأنَّ الكُفْرَ سَبَبُ كُلِّ مُصيبَةٍ

جاء التَّعْبيرُ بالفاءِ العاطِفةِ في قولِهِ تعالى: ﴿فَقَلِيلًا﴾، دونَ التَّعبيرِ بالواوِ؛ ليتَرتَّبَ على لَعْنِهم وطَرْدِهم مِنْ رَحْمَةِ اللّهِ عَدَمُ الإيمانِ، فالفاءُ تَفْريعٌ على اللَّعْنِ، أي: بِسَبَبِ اللَّعنِ اسْتَحقُّوا ألَّا يُؤمِنوا إلَّا قليلًا.

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الغُلْف والأَكِنَّة:

قال اللّهُ هنا على لِسانِ بَني إسْرائيلَ: ﴿قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾، وفي آيةٍ أخرى قال: ﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٞ وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٞ﴾ [فصّلت: 5]، والفرق بينهما: أنّ الغلاف هو الغِطاءُ الذي يمنعُ الخُلوصَ إلى الشَّيْءِ ويَحْفَظُه منَ الأذى، والكِنُّ

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 1/484.

(2) مجمع البحوث الأزهري، التفسير الوسيط: 1/137.

هو ما يُحْفَظ فيه الشَّيْءُ، فمَدْلولُ الأكِنَّةِ ظَرْفٌ يَقَعُ فيه مَظْروفٌ، ولهذا وَرَدَتِ الكَلِمَةُ في سِياقِ الظَّرْفِيَّةِ، فاسْتُعْمِلَت مَعَها (في) الظرفيَّةِ ﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ﴾ [فصّلت: 5]، فناسَبَ عِندَ سِياقِ منع دُخولِ الكَلامِ إلى القَلبِ المُقتضي أنْ لا يُفْهَم ولا يُفْقَه أنْ يُسْتعملَ (غُلْف)، عَلى مَعنى مَنْعِ الخُلوصِ إلَيْهِ، وعِندَ سِياقِ الظَّرْفِيّةِ أنْ تُسْتَعملَ الأكِنَّةُ؛ ولِهذا وَرَدَ في سِيَاق الأكِنّة: ﴿وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٞ وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٞ﴾ [فصّلت: 5].

﴿وَلَمَّا جَآءَهُمۡ كِتَٰبٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٞ لِّمَا مَعَهُمۡ وَكَانُواْ مِن قَبۡلُ يَسۡتَفۡتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦۚ فَلَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ٨٩﴾ [البقرة: 89]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

بَعْدَ أنْ بَيَّنتِ الآياتُ السَّابقةُ كُفرَ اليَهودِ بسَببِ مَوقفِهم مِنْ رُسلِ اللهِ حيثُ كذّبوا فريقًا منهم وقتلوا فريقا، شرَعتِ هذه الآيةُ في بَيانِ مَوقفِهم من القرآنِ الكَريمِ ورَسولِ اللهِ ﷺ، وهُوَ الكُفرُ بَعدَ المَعرفةِ اليَقينيَّةِ؛ وبِذلكَ اسْتَحَقُّوا اللَّعنةَ التي ذُكرَتْ في الآيةِ السَّابقةِ، وللسَّببِ نَفسِه، والآيةُ وَرَدَتْ لِقَصْدِ الزِّيَادَةِ في الإِنْحَاءِ عَلَيْهِمْ بِالتَّوْبِيخِ - فقَدْ وَرَدَ تَوبيخُهُم في الآياتِ السَّابقةِ كذلكَ - بَعدَ ظُهورِ الأَدِلّةِ على صِدْقِ الدَّعوةِ المُحَمَّديةِ الإلهيّةِ؛ إذْ إنَّهم كَفَروا بِالكِتابِ الذي عَرَفُوا أَنَّهُ مِنْ عِندِ اللهِ، وأَنَّهُ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُم[1].

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

بَيَّنتِ الآيةُ نِعَمَ اللهِ على اليَهودِ، وما قَابَلوا بِه تلك النِّعَم مِنَ الأَفعالِ القبيحةِ؛ فأَخبرَتْ عن مَجيءِ القرآنِ، وذكرَتْ وصفَيْنِ: أَحدَهُما: أَنَّهُ مِنْ عندِ اللهِ، وما يَكونُ مِنْ عندِ اللهِ جَديرٌ بِأَنْ يتَقَبَّلوهُ بِقَبولٍ حَسَنٍ، وأَنْ يأخُذوهُ بِمَأخَذِ الطَّاعةِ لِأَوامِرِه ونَواهِيه، والوَصفَ الثّاني: أَنَّه مُصَدِّقٌ لِمَا مَعهُم؛ فهو مُصَدِّقٌ غيرُ مُخالفٍ لِمَا جاءَ في التَّوراة الّتي مَعَهُم في التَّوحيدِ وأُصولِ الدِّينِ، ومُصَدّقٌ لِمَا جاءَ مِنْ وَصفِ النَّبيِّ ﷺ؛ فَلمَّا جَاءَهم القُرآنُ الّذي هُوَ مُصَدِّقٌ للتَّوراةِ عانَدوا، مَعَ أَنَّهُم كانوا يَعْرِفونَ نُعوتَ رسولِ اللهِ ﷺ، عالمين بِمَجيئِه؛ إذْ إنَّهم كَانوا يَسْتنصرونَ بِه على العَربِ المُشركين؛ ويقولون: قَرُبَ مبعث نبيٍّ آخرِ الزمان، وسنتَّبعه ونقاتلكم معه، فلمَّا جَاءَهم رَسولُ الإسلامِ ﷺ بِما عَرَفُوا، كَفَروا بِالقرآنِ وبالرَّسولِ؛ فاسْتَحَقُّوا اللَّعنةَ بسببِ كُفرِهم[2].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/601.

(2) البيضاوي، أنوار التنزيل: 1/93.

شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

1) ﴿مُصَدِّقٌ﴾: يَدورُ مَعْنى الصِّدْقِ عَلَى: قُوَّةٍ في الشَّيْءِ في القَوْلِ وَغَيره. مِنْ ذَلِكَ؛ الصِّدْقُ: ضِدُّ الْكَذِبِ، سُمِّيَ صِدْقًا؛ لِقُوَّتِهِ في نَفْسِهِ؛ وَلِأَنَّ الكَذِبَ باطِلٌ لَا قُوَّةَ لَهُ، فَيقالُ: هُوَ صَادِقٌ، وَصَدُوقٌ مُبَالَغَةٌ، وصَدَّق يَدُلُّ على كثرةِ الصِّدقِ، ومُصَدِّقٌ للشَّيءِ بِمَعْنى: مُحَقِّق له، وَإذا قيلَ: صَدَّقْتُهُ بِالتَّثْقِيلِ؛ فالمعنى: نَسَبْتُهُ إلَى الصِّدْقِ، وَصَدَّقْتُهُ؛ قُلْتُ لَهُ: صَدَقْتَ[1].

2) ﴿يَسْتَفْتِحُونَ﴾: أَصْلُه (فَتَحَ)، وهُوَ نَقيضُ الإغْلاقِ، يقال: فَتَحْتُ البَابَ وَغَيْرَهُ فَتْحًا. ثُمَّ يُحْمَلُ عَلَى هَذَا سَائِرُ مَا في هَذَا البِنَاءِ، والفتحُ نوعانِ: أَحَدُهما: مُدرَكٌ بالبَصَرِ؛ كفَتْحِ الباب والقُفْلِ والمَتَاع، والثّاني: مُدْرَكٌ بالبَصيرَةِ؛ كفَتحِ الهَمِّ، وهُو إزالَةُ الغَمِّ، وفَتحُ ما اسْتُغْلِقَ مِن العِلمِ، ومِنْه الفُتُوحاتُ الرَّبّانِيَّةُ، ومايَفتَحُهُ اللّهُ على عِبادِهِ من العُلومِ، وفَاتِحَةُ كُلِّ شيءٍ: مَبْدؤُه الّذي يُفتحُ به ما بَعدَهُ، وَبِهِ سُمِّيَتْ فاتحةُ الكِتابِ، ويأتِي الفتْحُ بِمعْنَى: الحُكمِ والقضاءِ، وبِمعْنَى النَّصرِ، ومنه اسْتَفْتَحْتُ: اسْتَنْصَرْتُ، ويُحتملُ أنْ يكونَ إنْ طَلَبْتُمُ النَّصرَ أَو طَلبتُمُ الفَصْلَ في الأَمرِ والحُكْمِ[2]. وكلمةُ ﴿يَسْتَفْتِحُونَ﴾ في الآية بِمَعْنى: يَسْتَنْصِرونَ؛ أي يَسْتَنْصِرونَ اللّهَ بِبعثَةِ مُحَمّدٍ - عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ -، أَو بِمَعْنَى: يَسْتعلمُونَ خَبَرَه مِنَ النَّاسِ مرَّةً، ويَستَنبِطُونَهُ من الكُتُبِ مرّةً، والأَوَّلُ أَكثرُ ظُهورًا عندَ المُفَسِّرينَ[3].

3) ﴿فَلَعْنَةُ﴾: أَصْلُهَا مِنْ (لَعَنَ) الدَّالُّ عَلَى: إبْعَادٍ وطَردٍ على سبيل السُّخطِ و الذَّمِّ، واللَّعْنُ من اللّهِ تعالى في الدُّنْيا انقطاعٌ مِنْ رحمةِ اللّهِ وتَوفيقِهِ، وفي الآخِرةِ عُقوبةٌ، واللَّعْنُ مِنَ الإنسانِ سَبٌّ ودُعاءٌ على غَيرِهِ بالطَّرْدِ، واللّعّانُ كَثيرُ اللَّعْنِ، واللُّعْنَةُ: الّذي يَقَعُ عليهِ اللَّعْنُ كَثيرًا[4]، وتَقَدّمَ مَعنَى اللَّعنِ في بَيانِ مَعاني مُفرداتِ الآيةِ الثامِنَةِ والثّمانين.

---

(1) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، والفيومي، المصباح المنير: (صدق).

(2) النيسابوري، غرائب القرآن: 1/33.

(3) الرّاغب، المفردات، ص: 622، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/601.

(4) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (لعن).

الإيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

دلالة حَرفِ الواوِ:

عطفُ الدَّليلِ الفعليِّ على الدَّليلِ القوليِّ

جاءَتِ الآيةُ على طَريقَةِ الوَصْلِ بِواوِ العَطْفِ في قولِه تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ﴾ المُقْتضيَةِ التَّشْريكَ في المَعْنى مَعَ ما قَبْلَها؛ لإفادةِ تَوالي نِعَمِ اللهِ الكُبرى على بَني إسْرائيلَ واسْتِمرارِهِم في مُقابَلةِ هذهِ النِّعَمِ بِقَبائِحِ الأَفْعالِ والأَقْوالِ، فَعَطَفَ بالواوِ للتَّشْريكِ في الجَمْعِ بَينَ مَعْنى هَذِهِ الآيةِ وما سَبَقَها.

فَائِدةُ استعمالِ ﴿وَلَمَّا﴾:

بيانُ سُرْعةِ المُكذِّبين إلى تَكذيبِ القُرآنِ مِنْ غَيرِ رَوِيَّةٍ

(لَمَّا) ظَرفٌ بمَعنَى حِينَ وتُفيدُ الشَّرطَ[1]، وتأتي في سِياقِ الزَّمَانِ الماضي، وهي مَعَ إفادَتِها الحِينَ تُلمِحُ إلى التَّعليلِ في بناءِ الجَزاءِ على الشَّرطِ؛ فيكونُ "التَّكْذيبُ حَاصِلًا بِنَفْسِ مَجيءِ الكِتَابِ مِنْ غَيْرِ فِكْرٍ فِيهِ وَلَا رَوِيَّةٍ، بَلْ بَادَرُوا إِلَى تَكْذِيبِهِ"[2]؛ أي: بمُجرَّدِ مجيءِ الكِتابِ مِنْ عِنْدِ اللهِ، مُصدِّقًا لِمَا مَعَهُم حَصَلَ التَّكذيبُ.

العُدولُ عَن مُقتَضَى الظَّاهِرِ بِحَذفِ جَوابِ الشَّرْطِ:

استِحضارُ سَعَةِ المَعَاني المُقدَّرةِ ممَّا يَقْتضِيه سِياقُ الكَلَامِ

جَاءَ جَوابُ الشَّرطِ مَحْذوفًا في قَولِه تعالَى: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ﴾، وحَذفُه أَبلغُ مِن ذكرِه لِسَعَةِ المَعاني المُعبِّرةِ عَنهُ مِمّا هُو مَعروفٌ مِنْ أَفعالِ اليهودِ، من مثلِ التَّكذيبِ والإهانةِ والجُحودِ والاستكبارِ والإعراضِ والتَّولّي وغيرِها، فلَوْ قِيلَ في الجَوابِ: (كَذَّبُوا، أو جحدُوا، أو كفرُوا) لَصَحَّ الجوابُ، ومثلُه بَقيَّةُ المعاني، ويَرِدُ هذا الأسلوبُ في مثلِ مقامِ التَّهويلِ أو التعظيمِ؛ "وإنَّما صَار الحذفُ في مثلِ هذا أبلغَ مِنَ الذِّكرِ؛ لِأنَّ النَّفسَ تذهبُ فيه كُلَّ مَذهبٍ، ولَو ذُكِرَ الجوابُ؛ لَقُصِرَ على الوجْهِ الذي تَضَمّنَه البيانُ"[3]؛ لهذا قالَ الزَّمخشري: "وجوابُ لَمَّا مَحذوفٌ وهو نحو:

(1) ابن هشام، مغني اللبيب: 1/369.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 1/487.
(3) الرمّاني، النكت في إعجاز القرآن، ص: 77.

كَذَّبُوا به، واسْتهانوا بِمجيئِه"[1]؛ فليس جوابُ (لـمّا) الثانيةِ دليلًا على الـمَحذوفِ، الّذي قدَّرَه بعضُهم: (كَفَرُوا)[2] فحسب، بلْ هو أَوسعُ من ذلك[3].

بلاغة المجاز العقلي:

إظهارُ عَظَمةِ الكِتابِ، وبيانُ طُغيانِ المُقابلِ وكِبْرِه

إسنادُ الـمَجيءِ إلى الكِتابِ في قَولِه تعالَى: ﴿جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ﴾ مجازٌ عقلي[4]؛ لاستِحالَةِ صدورِ المجيءِ عنِ الكتاب؛ إذِ الّذي جاءَ به هُو رَسولُ اللّهِ ﷺ، وفي هذا الأسلوبِ البَلاغيّ أربَعُ لَطائِفَ تَعبيريَّةٍ:

الأُولَى: إظهارُ عَظَمةِ الكِتابِ وأَهمّيَّتِه.

الثَّانية: إبرازُ نِعَمِ اللّهِ عليهِم؛ فقدْ جاءَهُم الكِتابُ، ولمْ يُطلبْ مِنْهم الذَّهابُ إليهِ.

الثَّالثة: بيانُ استِكبارِهِم وتعنّتِهِم؛ فَهُم لمْ يَطلُبوه، ولا بَحَثُوا عنه، بلْ جاءَهُمْ وهُمْ في دِيارِهِم.

الرَّابعة: الإشارَةُ إلى أنَّ الكِتابَ نزَلَ على رَسولِ اللّه ﷺ، ولم يَنْزِلْ عليهم، ثمَّ جاءَهُم الرّسولُ بهذا الكِتابِ لِيُؤمِنُوا بِهِ.

فائِدةُ التَّعديةِ بالفعلِ لا بالحَرفِ:

دَفعُ تَوهّمِ خُصوصِ مَجيءِ الكِتابِ إلى اليَهودِ

يتعدَّى فِعلُ المجيءِ بنَفسِه وبالحَرفِ، وفي هذا السِّياقِ تَعدَّى الفِعلُ بِنَفسِه؛ فلم يُقلْ: جاءَ الكِتابُ إليهِم؛ لدَفعِ تَوهّمِ خُصوصِ الـمَجيءِ إليهِم، فلو قالَ: إليهِم؛ لَظُنَّ أنَّ الكِتابَ جاءَ إليهِم على وَجهِ الخُصوصِ.

سِرُّ التَّعبيرِ بالمَجيءِ دونَ الإتيانِ:

تقويةُ حُكمِ المَجازِ العَقليِّ في الإسنادِ، وتَصويرُ الكِتابِ عِيانًا

عَبَّرتِ الآيةُ بفعلِ الـمَجيءِ لا بفعلِ الإتيانِ؛ فلَمْ يُقَلْ: "ولـمَّا أَتاهُم كِتابٌ"؛ ذلك أَنَّ الـمَجيءَ فيهِ قَصْدٌ مَعَ اعْتِبارِ تَحَقّقِ حُصُولِ مَجيءِ

(1) الزمخشري، الكشاف: 1/164.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 1/487.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 1/487.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 1/468.

الكِتابِ إليهم، والإتيانُ قدْ لا يَكونُ فيهِ ذلكَ الحُصولُ[1]، وَلِملاحظةِ المَعْنى الحِسّيِّ في الكِتابِ؛ فَإنَّ المَجِيءَ يَغلُبُ في المَادِّيَّاتِ المَحْسوساتِ؛ فَهُو الكِتابُ المَرئيُّ المشَاهَدُ، وهُوَ مَا يُقوِّي حُكمَ المَجازِ العَقْليِّ.

فائِدةُ التَّنوين في كلمةِ ﴿كِتَٰبٌ﴾:

الدّلالة على تَعظيمِ الكِتابِ أَصالةً وإِضافَةً

أَفادَ التَّنوينُ في كلمةِ ﴿كِتَٰبٌ﴾ تعظيمَ الكتابِ وتَفخيمَه[2] وعلوّ شأنه، فَكَأنَّهُ قال: جاءَهُم كِتابٌ عَظيمٌ شأنُه، ثُمَّ بَيَّن سَبَبَ عَظَمتِه حينَ وَصَفَه بأَمرين: الأوّل: أنَّهُ ﴿مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾، وهذِه عَظَمةٌ ذاتيَّةٌ، الثَّاني: أنَّهُ ﴿مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ﴾، وهذِه عَظَمةٌ إضافيَّةٌ، تقْتضي مَزيدَ تَعظيمٍ مِنْ جِهَةِ اليَهودِ لهذا الكِتابِ، وإنْ كان حالُهُم على خِلافِ ذلك.

فائِدةُ حَرفِ الابتِداءِ ﴿مِّنْ﴾:

الإلزامُ بقبولِه واتِّباعِ ما فيه؛ لربَّانيَّتِهِ ومَصدريَّتِهِ

نبَّهَ حَرفُ الابتِداءِ على أنَّ هذا الكِتابَ جاءٍ ابتداءً ﴿مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ الّذي يدَّعون عِبادتَه واتِّباعَ أوامِرِه؛ فَليسَ للرَّسولِ إلَّا إيصالُه وبَيانُه للنَّاسِ، وهوَ مَوصوفٌ بأنَّهُ مِنْ عِنْدِ اللهِ[3]، وفائِدَةُ ذلك الإشعارُ بأنَّه "جَدِيرٌ أَنْ يُقْبَلَ، وَيُتَّبَعَ مَا فِيهِ، وَيُعْمَلَ بِمَضْمُونِهِ؛ إِذْ هُوَ وَارِدٌ مِنْ عِنْدِ خَالِقِهِمْ وَإِلَهِهِمُ الَّذِي هُوَ نَاظِرٌ فِي مَصَالِحِهِمْ"[4].

نُكْتَةُ تَوالي الصِّفاتِ:

إثباتُ تصديقِ الكتابِ للتَّوراةِ وعدَمِ معارَضتِها

جاءَ قولُه تعالَى: ﴿مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ﴾ صفةً[5] ثانيةً لكتاب؛ وذلك لإثباتِ أمرٍ زائدٍ عمَّا جاء في الصِّفةِ الأولى، وهو أنَّ الكِتابَ لمْ يجِئْ معارِضًا أو مكذِّبًا، بل جاءَ مُصدِّقًا لِمَا مَعَهُم من التَّوراةِ، وهذا دَليلٌ

(1) الرّاغب، المفردات، ص: 221.
(2) القاسمي، محاسن التأويل: 1/349.
(3) الزمخشري، الكشاف: 1/164، والبروسوي، روح البيان: 1/176، وابن عادل، اللباب في علوم الكتاب: 2/273.
(4) أبو حيان، البحر المحيط: 1/468.
(5) الزمخشري، الكشاف: 1/164، وأبو حيان، البحر المحيط: 1/468.

آخرُ على صِدقِهِ لَدَى المخاطَبين، وهو يُؤيِّدُ أنّه منْ عِندِ اللّهِ تعالى لديهم كذلك، وبه يُلزَمون الحجَّةَ بهذا الدَّليلِ.

نُكْتةُ مَجيءِ اسمِ الفاعِلِ بِصيغةِ مُصَدِّق:

الدّلالة على كَثرةِ التَّصديقِ والمَوافقةِ لِبناءِ قِيَمِ التَّواصُلِ

مَجيءُ الصِّفةِ ﴿مُصَدِّقٌ﴾ على صيغةِ اسمِ الفاعِلِ؛ لإفادةِ كَثرةِ ما فيهِ مِنْ تَصديقِ التَّوراةِ ومُوافَقَتِها؛ لأَنّ ﴿مُصَدِّقٌ﴾ مُشْتَقٌّ مِنَ الفِعلِ "صَدَّقَ" على وزنِ فَعَّلَ الدَّالِّ على الكَثرةِ، ولَمَّا تَعَلَّقَ اسمُ الفاعلِ ﴿مُصَدِّقٌ﴾ بـ﴿لِّمَا مَعَهُمْ﴾ دلَّ على أَنَّهُ مُتَّصِفٌ بكَثرةِ التَّصديقِ والمُوافقةِ لِمَا مَعَهُم، وهوَ يُعزِّز بناءَ قِيَمِ التَّواصلِ التي يَحرِصُ عليها الإسلامُ، لا قِيمِ الانقِطاعِ والتَّخاصُمِ الّتي يمارِسُها المُكذِّبون.

تقديمُ الصِّفةِ الأولى على الثَّانيةِ:

تقديمُ الأصلِ على الفَرعِ، والقاعِدَة على أَركانِها

قُدِّمتِ الصِّفَةُ الأُولى ﴿مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ على الصِّفةِ الثّانية ﴿مُصَدِّقٌ﴾؛ لأَنَّ "الوصْفَ بكَينونَتِهِ مِنْ عِنْدِ اللّهِ آكَدُ، وأنَّ وصفَهُ بالتَّصديقِ ناشِئٌ عنْ كَونِهِ مِنْ عِندِ اللّهِ"[1]، فالوصفُ الثَّاني ﴿مُصَدِّقٌ﴾ مُتَرَتِّبٌ على كونِهِ مِنْ عِنْدِ اللّهِ، كمَا يُفيدُ أَنَّ كُلَّ ما كانَ مِنْ عندِ اللّهِ فهوَ حَقٌّ؛ لأَنَّ المُصدِّقَ لا يكونُ كذلك إلَّا إذا كانَ هُوَ بِنفسِهِ صِدْقًا وحَقًّا.

سرُّ تَعْديةِ اسْمِ الفَاعِلِ باللَّامِ:

مِنْ خَصائِصِ القرآنِ أنّهُ مُصَدِّقٌ للكُتُبِ السَّابِقَةِ

تعدَّى اسمُ الفاعِلِ باللَّامِ لا بنفسِه، فلم يقُل: مصَدِّقٌ مَا مَعَهم، فأَفادَتِ اللَّامُ تقويةَ تَعلُّقِ ﴿مُصَدِّقٌ﴾ بـ﴿لِّمَا مَعَهُمْ﴾؛ لأَنَّ الذي مَعَهُمْ هوَ مِنْ عندِ اللّه، والقرآنُ الّذي نَزَلَ على النَّبيِّ مُحَمَّدٍ ﷺ هو مِنْ عندِ اللّهِ كذلكَ، فَناسَبَ استعمالُ لامِ الاختصاصِ في الكلامِ، تقويةً لِمعنى اختِصاصِ التَّصديقِ بِالقرآنِ لِمَا مَعَهُمْ مِنَ التَّوراةِ.

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 1/468، وينظر: ابن عادل، اللباب في علوم الكتاب: 2/273.

سِرُّ التَّعبيرِ بالمَعِيَّةِ دُونَ العِنْديَّةِ:

قيامُ الخِطابِ القرآنيِّ على قِيمِ الهِدايةِ والحِوارِ؛ إلزامًا لِلخَصْمِ، وتَثبيتًا لِلحُجَّةِ

عبَّرتِ الآيةُ القرآنيَّةُ بالمَعيَّةِ دونَ العِنديَّةِ في قولِه تعالَى: ﴿مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ﴾ ولم يُقلْ: (لِمَا عِندهُم)؛ وهذه سُنَّةُ القرآنِ في الإخبارِ عن التَّوراةِ في أيدي اليهودِ، كَما في قولِه تعالَى: ﴿وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِۦ﴾ [البقرة: 41]، وقولِه تعالى: ﴿ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ﴾ [آل عمران: 81]، وقولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ ءَامِنُواْ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم﴾ [النساء: 47]، والمَعيَّةُ تدلُّ على مُصاحبتِهم للتَّوراةِ، والواقِعُ يدُلُّ على أنَّ التَّوراةَ عندَهُم لا مَعَهُم؛ فالتَّوراةُ كانَت بأيديهِم وكانوا يَدرُسونَها فيما بينَهم، ولَمْ يلتَزِمُوا العملَ إلّا بِمَا يُوافِقُ أَهواءَهم؛ فلا يُطلق على ذلك مَعيَّة، بل عِنديَّة؛ فيُسأل عن سرِّ ذلك؟ والجوابُ: أنَّ الخطابَ القرآنيَّ قامَ على قِيَمِ الهِدايةِ والحوارِ، لا على الخُصومةِ والشِّجارِ، إلَّا إنْ صَدرَ عنِ الخَصمِ خلافُ ذلك، فالرَّدُّ خلافُ ذلِك، واليهودُ يدَّعونَ العملَ بالتَّوراةِ ومُصاحَبَتَهُم لَها؛ فكانَ المُناسِبُ خِطابَهم بِمَا يدَّعونَهُ استمالةً لقلوبِهم وإلزامًا لَهم؛ فإذا كان ادَّعاءُ ذلك صَحيحًا فهم مُلزَمون بالإيمانِ بهذا الكِتابِ المُصَدِّقِ لكتابِهم الّذي يصْحَبونَه، وإلَّا كَذَبوا في زَعْمِهم وادِّعائهم.

فائدةُ جُملةِ الحالِ:

بيانُ التَّناقُضِ بين انتظارِ الرَّسولِ، والتَّكذيبِ به عندَ مَجيئِه

قولُه تعالى: ﴿وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ﴾ جملةٌ حاليَّةٌ، وفائدتُها: "اسْتِحْضَارُ حَالَتِهِمُ العَجِيبَةِ، وَهِيَ أَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِالكِتَابِ وَالرَّسُولِ فِي حَالِ تَرَقُّبِهِمْ لِمَجِيئِهِ وَانْتِظَارِ النَّصْرِ بِهِ، وَهَذَا مُنْتَهَى الخِذْلَانِ وَالبُهْتَانِ"[1].

بلاغةُ تَقديمِ الجارِّ والمجرورِ على المُسْنَدِ:

العنايةُ بالحالةِ الزَّمانيَّةِ؛ لِزيادةِ التَّعجُّبِ من حالِ المُكذِّبين

قُدِّم الجارُّ والمجرور ﴿مِن قَبْلُ﴾ في قولِه تعالى: ﴿وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾، على المُسْنَدِ ومُتَعلَّقِه ﴿يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾؛ إذ الأصلُ في ترتيبِ الكلامِ: "وَكَانُوا يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/602.

الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ"؛ لِيدلَّ على أَهميّةِ الحالَةِ الزَّمنيَّةِ والعِنايَةِ بها، فمَعرفتُهم بالنَّبيِّ الأُميِّ كانت قبلَ مجيءِ القرآنِ إليهم، وكانت صِفاتُه ونُعوتُه - ﷺ - مكتوبةً عندهم في التَّوراةِ والإنجيلِ، وليدلَّ كذلكَ على الزيادةِ في التَّعجُّبِ من الحالِ التي كانوا عليها، ثمّ صاروا إليها.

نُكتةُ تَعْديةِ فعلِ الاستفتاحِ بِحرفِ الاسْتعلاءِ:

بيانُ تكبُّرِ اليَهودِ على العَربِ، وشَديدِ كفرِهِم وعِنادِهم

تعدَّى الفعلُ ﴿يَسْتَفْتِحُونَ﴾ بحرفِ الاستعلاءِ لفائدتين: إحداهما ظاهرةٌ، والأخرى إشاريَّةٌ؛ أمَّا الظَّاهرةُ فهي أنَّ اليهودَ يَعتقدونَ أنَّهُم أَفضلُ مِنَ العربِ المُشركينَ؛ فقدْ كانُوا أَهْلَ كِتابٍ وَمَعرفةٍ باللّهِ وشرائعِه؛ ولهذا كانَ الاستفتاحُ بعُلُوٍّ واستظهارٍ على العربِ، كمَا أَنَّ النَّصرَ الّذي يَدلُّ عليه الفَتحُ يدلُّ على عُلُوِّ المُنتصرِ واستظهارِهِ على المَهزومِ، وأَمَّا الإشاريَّةُ فهي بيانُ شديدِ كُفرِهم وعِنادِهم؛ فقد استَغْنَوا عن النَّصرِ والتَّمكينِ الّذي يَعلمونَه من هذا النَّبيِّ، إلى الكفرِ والهَزيمةِ الّتي يَعرفونَها ممَّنْ يُعادِيه.

سِرُّ التَّعبيرِ بالكفرِ دونَ الشِّركِ:

بيانُ الاعتبارِ الّذي ينطلِقُ منهُ اليَهودُ في مُعاداةِ الآخَرِ

عبَّرتِ الآيةُ بلفظِ الكُفرِ في صِلةِ الموصولِ في قولِه تعالَى: ﴿يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ دونَ أَشْرَكوا؛ ذلك أَنَّ اليهودَ لم يَكونُوا مُلْتَفِتين إلى خَطرِ الشِّركِ باللّهِ تعالَى - معَ زَعْمِهم التَّوحيدَ -، بلْ كانَ غايةُ حالِهم هو معاداةَ مَنْ يُخالِفُهم في دينِهم بوصفِهم أصحابَ ديانَةٍ كتابيَّةٍ، فالاعتبارُ عندَهم هو مخالفَةُ الآخَرِ لذاتِهم الدِّينيَّةِ، لا مخالفةُ الآخرِ للحَقِّ؛ فلذلكَ آثرَ النّظمُ الكريمُ استعمالَ لفظِ الكفرِ، بخلافِ الشِّركِ؛ للتَّنبيه على منهجِهم، والحَذَرِ مِنْ زَيفِهم.

بلاغةُ كَسْرِ المُتَوقَّعِ:

المَجيءُ بعَكسِ المَطلوبِ إيغالٌ في الكُفرِ، وقبحٌ في السُّلوكِ

أَفَادَت (لـمَّا) الثَّانيةُ أَنَّ مَعرفتَهم بالقرآنِ والرَّسولِ كانَتْ سَبَبًا لِكُفرِهم، علَى عَكْسِ المَرْجُوِّ وهوَ أَنْ تَكونَ المَعرفةُ سَبَبًا إلى الإيمانِ؛ لِيدلَّ على قُبحِ أَفعالِهم وفَظاعةِ تَصَرُّفاتِهم مَعَ رُسُلِ اللّهِ،

وتختلفُ النُّكتةُ هنا عن النُّكتةِ الأولى في إسنادِ المجيء ففي الأولى لـ(كتاب)، وهنا لـ(ما عَرَفوا)؛ فمجيءُ (الكتاب) هو علَّةُ الكفرِ والتَّكذيبِ، ومجيءُ (ما عَرَفوا) هو المُفاجِئُ في الكُفْرِ، فهما نُكتَتان مُستقلَّتان مُتواصِلَتان، واستقلالُ النُّكتَتَيْن هو الذي يَجعلُ وظيفةَ (لـمَّا) الثَّانيةَ بيانيّةً مُختلِفةً عن وظيفةِ الأُولى، وإلَّا لوَقَعَ التِّكرارُ الّذي لا يَلِيقُ بنظمِ القُرآنِ الكريم.

نكتةُ العُدولِ عن مُقتَضَى الظّاهِرِ:

الدّلالة على العُموم؛ ليشملَ الكِتابَ والرَّسولَ

عَدَلَ النَّظمُ عَنْ: "فَلَمَّا جَاءَهُمُ الكِتَابُ"؛ أي: المذكورُ في أوَّلِ الآية؛ فتكون اللامُ للعهدِ الذِّكريّ، إلى إيرادِ لفظٍ يُفيدُ العُمومَ، وهو الاسمُ المَوْصُول؛ فقال: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ﴾؛ ليَكُونَ اللَّفْظُ أَشْمَلَ؛ فَيَشْمَلَ الكِتَابَ وَالرَّسُولَ الَّذِي جَاءَ بِه؛ فَإِنَّهُ لَا يَجِيءُ كِتَابٌ إِلَّا مَعَ رَسُولٍ، وَوَقَعَ التَّعْبِيرُ بِـ(مَا) المَوْصُولَةِ دُونَ (مَنْ) لِأَجْلِ هَذَا الشُّمُولِ؛ لأَنَّ (ما) تشملُ العاقِلَ وغيرَه إذا اجتمعا[1].

بلاغةُ الإيجازِ بالحَذفِ:

تَقليلُ اللَّفظِ لِتكثيرِ المَعنَى وتَعميمِهِ

حُذِف العائدُ في قولِه تعالَى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ﴾، فَلَمْ يَقُل: "فَلَمَّا جَاءَهُمْ ماعرَفُوه"؛ ليُفيدَ عُمومَ المتعلّق[2]، فصار المعنى: فلمّا جاءَهُم كُلُّ ما عَرَفوه من الكِتابِ والشَّريعةِ وأَوصافِ سيِّدِنا محمّد ﷺ؛ فحُذِفَ ليَشملَ اللَّفظُ هذه المعاني كلَّها.

سرُّ التَّعبيرِ بلَفظِ الكُفرِ دونَ التَّكذيبِ:

التَّوبيخُ والتَّحقيرُ بإلحاقِ اليَهودِ بِمَن كانوا يحتَقِرُونَهُم لِكُفرِهم

عبَّرَت الآيةُ بلفظِ الكفرِ في قولِه تعالَى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦۚ﴾، دونَ التَّكذيبِ أو الافتراءِ عليه؛ لاشتمالِ لفظِ الكفرِ على هذِهِ المعاني، ولِلَمْزِهم بإلحاقِهم بالّذين كفرُوا المُستَفتح عَلَيْهِم في قولِه تعالى: ﴿يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾؛ فاليهودُ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/601.

(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 1/487.

كَفَرُوا كَمَا كفَرَ غيرُهم من المُشركينَ، فهُمْ في ذلك سَواءٌ، بلْ هُمْ أَشَدُّ كُفْرًا لِمعرفتِهم وجَهلِ العَربِ، وليسَ العارفُ كالجاهلِ! وفيهِ مِنَ التَّبكيتِ والتَّوبيخِ والتَّحقيرِ ما لا مَزيدَ عليهِ.

دلالة حَرْفِ الفَاءِ:

تَرتيبُ النَّتيجةِ على السَّببِ، ومُقابلةُ الاستهانةِ بالاستهانةِ

لَمَّا كَانَ الكِتَابُ جَائِيًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِلَيْهِمْ، فَكَذَّبُوهُ وَسَتَرُوا مَا سَبَقَ لَهُمْ عِرْفَانُهُ، فَكَانَ ذَلِكَ اسْتِهَانَةً بِالمُرْسِلِ وَالمُرْسَلِ بِهِ، قَابَلَهُمُ اللَّهُ بِالاسْتِهَانَةِ وَالطَّرْدِ[1]؛ فكانت لعنةُ اللهِ مُترتّبةً على اسْتِهانَتِهم بِمَا أَنْزَلَ اللهُ وبالرَّسولِ، فقال الله تعالى: ﴿فَلَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾.

التَّغايُرُ في وَصفِ الفاعِلِ:

تَنزيلُ الجُملةِ الأولى منزلةَ التَّوطِئةِ للثَّانيةِ، تدرُّجًا في بيانِ الحقائقِ

غايَرَتِ الآيةُ بين فاعِلِ المجيءِ في قولِه تعالَى: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمۡ كِتَٰبٞ﴾، وقولِه تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ﴾، فذَكَرتِ الجُملةُ الأولى الكتابَ، والثَّانيةُ الاسمَ الموصولَ المُتضمِّنَ معرفتَهم بالرَّسولِ والرِّسالةِ وعلاماتِهما؛ ذلك لتنزيلِ الجملةِ الأولى منزلةَ التَّمهيدِ والتَّوطِئةِ للجملةِ الثَّانيةِ، فلمَّا جاءَهم الكِتابُ، جاءَهم المَعروفُ لَدَيهم من كتابِهم، فوقعتِ الثَّانيةُ مباغتةً ومفاجئةً للمتلقِّي، فكانتِ الأولى مصرِّحةً بمجيءِ الكتابِ، متضمِّنةً مجيءَ الرَّسولِ، والثَّانيةُ مصرِّحةً بهما معًا، وهذا من بديعِ التَّدرُّجِ في بيانِ الحقائقِ بما يتَّفقُ مع واقعِ المُتحدَّثِ عنهُم.

فائدةُ وَضْعِ الظَّاهرِ موضعَ المُضمَرِ:

سببُ اللَّعنةِ، الاعتبارُ العَقَدِيُّ لا الاعتبارُ الشَّخصيُّ

وُضِعَ الظَّاهرُ موضعَ المُضْمَرِ في قولِه تعالى: ﴿فَلَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾، إذِ الظَّاهرُ: فلعنةُ اللهِ عليهم، لكنَّه آثرَ ذلك لبيانِ أنَّ سببَ اللعنةِ هو كفرُهُم، أي: باعتبارِهم العقديِّ، لا باعتبارِهم الشخصيِّ، ولمراعاةِ الفواصِلِ بعد ذلك.

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 1/487.

دلالة (أَلْ) في لفظِ ﴿ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ بَينَ العَهديةِ والجِنسيَّةِ:

تحتملُ اللامُ في كلمةِ ﴿ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ الجِنسَ، أي: جِنسَ الكافرين؛ فيكونُ ذلكَ مِنْ قَبيلِ ذِكرِ الجِنسِ، فتفيدُ عمومَ الكافرينَ، ويُلحَقُ المتحدَّثُ عنهم بهم[1]، ويُحتمَلُ أَنْ تكونَ للعَهدِ، أَخذًا مِمَّا وَرَدَ في السِّياقِ: ﴿بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ﴾[2]، والوَجهانِ مُتآيلانِ لا متدافعانِ.

فائدةُ حرفِ الاستعلاءِ:

أفادَ حرفُ الجَرِّ (على) استعلاءَ اللَّعنةِ وتمكُّنَها من الكَافِرين، فلَمْ يَكْتَفِ النَّظمُ بِاللَّعْنَةِ حَتَّى جَعَلَهَا مُسْتَعْلِيَةً عَلَيْهِمْ، كَأَنَّهُ شَيْءٌ جَاءَهُمْ مِنْ أَعْلَاهُمْ، فَجَلَّلَهُمْ بِهَا[3]؛ ليدلَّ على تمكُّنِ اللَّعنةِ منهم.

(1) الزمخشري، الكشاف: 1/165، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/603.
(2) الزمخشري، الكشاف: 1/165، وأبو حيّان، البحر المحيط: 1/488.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 1/488.

﴿بِئۡسَمَا ٱشۡتَرَوۡاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمۡ أَن يَكۡفُرُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغۡيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۖ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٖۚ وَلِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٞ مُّهِينٞ ٩٠﴾ [البقرة: 90].

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا ختمَ اللهُ الآيةَ السَّابقةَ بلعنةِ اللهِ على الكافرينَ التي تُفيدُ نهايةَ الذَّمِّ لَهُم، وَصلَ بِهِ قولَه تعالى ﴿بِئۡسَمَا﴾، فأَتَى بالكلمَةِ الجَامعةِ للمذامّ كلِّها، مُبيّنًا علَّةَ كفرِهم، وسَبَبَ ما استَحَقُّوه بهذا الذّمِّ، وهوَ شِراؤُهُم أَنفسَهم بالكفرِ، بَغيًا وَحَسَدًا أَنْ يُنَزِّلَ اللهُ من فضلِه على رَسولٍ لَيسَ مِنْ قَومِهم، وأَنْ يَرَوا كِتابًا مُصَدِّقًا لِكتابهم[1]، وقدْ تكونُ المناسبةُ استئنافًا لذمِّهم وتَسفيهًا لِعقولِهم؛ إذْ كَفروا بالقرآنِ وَبِرسولِ اللهِ محمَّدٍ ﷺ، بغيًا وحسدًا أنْ يُنَزِّلَ اللهُ مِنْ فَضلِهِ على رَسولٍ اصطفاهُ من العَربِ[2].

شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

1) ﴿بِئۡسَمَا﴾: أَصْلُ الكلمةِ مِنَ: البُؤْس، ويدورُ على معنى: الشِّدَّة، والكلمةُ مَنْقُولةٌ مِنْ: بَئِسَ فُلَانٌ؛ إذا أَصابَ بُؤْسًا، فتكونُ بمعنى: شِدَّةِ الحربِ وشِدَّةِ العذابِ، والبُؤْسُ: شِدَّةُ العَيشِ، ولا بأسَ عليكَ؛ بمعنى: لا شِدَّةَ عليك، ثُمَّ كَثُرَ حَتَّى قِيلَ: لَا بَأْسَ عَلَيْكَ؛ أَي: لَا خَوْفَ، و(بِئْسَ) كلمةٌ تُستعملُ في جميعِ المَذَامّ مُسْتوفيةً لَها، وتتَّصلُ بها (ما)، فإذا قلتَ: بِئْسَما كانَ يفعلُ زيدٌ، فَكأَنَّكَ قُلتَ: استحقَّ زيدٌ الذَّمَّ الّذي يكونُ في سائرِ جِنسِه[3].

2) ﴿ٱشۡتَرَوۡاْ﴾: يَدُلُّ الشِّراءُ عَلَى تَعَارُضٍ مِنَ الاثْنَيْنِ في أَمْرَيْنِ أَخْذًا وَإِعْطَاءً، ولفظُ البيعِ والشِّراءِ يُستعملُ كلُّ واحدٍ منهما في مَوضعِ الآخَرِ، وذهبَ أكثرُ المُفسِّرينَ إلى أَنَّ (اشْتَرَوا) في الآيةِ بمعنى: بَاعُوا، وذهبَ بعضُهم إلى أَنَّهُ على أَصلِه بمعنى الشِّراء[4].

(1) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 2/43.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/603.
(3) ابن عجيبة، البحر المديد: 1/133.
(4) الرازي، التّفسير الكبير: 3/601، وأبو حيّان، البحر المحيط: 1/489.

3) ﴿بَغۡيًا﴾: البَغْيُ يدور على معنيين؛ أَحدهما: طَلَبُ الشَّيْءِ، وَالثَّاني: جِنْسٌ مِنَ الفَسَادِ. فَمِنَ الأَوَّلِ بَغَيْتُ الشَّيْءَ أَبْغِيهِ: إِذَا طَلَبْتَهُ، وما ينبغي كذا؛ أي: ليس بصوابٍ طَلَبُهُ. ومن الثاني قَوْلُهُمْ: بَغَى الجُرْحُ: إِذَا تَرَامَى إِلَى فَسَادٍ، وَالبَغْيُ: الظُّلْمُ، ويكونُ مذمومًا إذا تجاوزَ الحَقَّ إلى الباطلِ -بِمعنى المُعاملةِ بغيرِ حَقٍّ-، وَهُوَ المَقصودُ في الآيةِ، أو تَجاوزه إلى الشّبهِ؛ فالبغي في أكثرِ المَواضعِ مذموم[1]، وذهب أكثرُ المفسّرينَ إلى أنَّ ﴿بَغۡيًا﴾ في الآيةِ بمعنى: (حسدًا)[2]، والحَسَدُ طَلَبُ ما ليسَ للحاسدِ، فيكونُ مِنَ البغيِ بمعنى الطَّلَبِ، أَو هو نوعٌ من الظُّلْمِ للمَحسودِ، فيكونُ مِنَ البغيِ بِمعنى: الظُّلْمِ.

4) ﴿فَبَآءُو﴾: أصله (بَوَأَ)، قُلِبَت الواوُ ألفًا لِتحرُّكِها وانفتاحِ ماقبلَها، فيُقالُ: باءَ يَبُوءُ بَوْءاً، ويدلُّ أصلُ باءَ على معنيين؛ أَحدهمَا: الرُّجُوعُ إِلَى الشَّيْءِ، ومنه: باءَ إلى الشَّيءِ: رجعَ إليه، ومنه: بَوّأتُه مَنزلًا، بمعنى: أَنزلتُه، والمَعنَى الثاني لِـ(باءَ) يدلُّ على تَسَاوِي الشَّيْئَيْنِ وتَكافئهما، فيقالُ: فلانٌ بَواءٌ لِفلانٍ؛ إذا سَاواه، و(باؤوا) في الآية بمعنى: رَجَعُوا بِغَضَبِ اللّٰهِ، أو بمعنى: حَلُّوا مُبَوَّءًا مُكافِئًا لَهم ومعهم غَضَبُ اللّٰهِ؛ أي: عقوبتُه[3]، وكلمةُ (باؤوا) أَكثرُ ما تُقالُ في الاستعمالِ الشَّائعِ في الشَّرِّ[4].

5) ﴿بِغَضَبٍ﴾: الغين والضَّاد والباء تدور اشتقاقاتُها على معنى الشدَّةِ والقوّة، ومِنْهُ سُمِّيت الصَّخرةُ الصّلبةُ بالغَضْبَةِ[5]، ومِنْهُ الغضَبُ؛ فإنَّه دالٌّ على شدّةِ الغاضبِ وقوَّتِهِ، والغضب هو السخط؛ ضد الرضا[6].

وغضبُ اللّٰهِ تعالى المذكورُ في قوله سبحانه: ﴿وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِۚ﴾ هو غضبٌ يليقُ بجلَالِ اللّٰه وعظَمَتِهِ، المتضمن سخطه عليهم وعدم رضاه عنهم.

6) ﴿مُّهِينٌ﴾: أَصلُهُ: (هَانَ) يَهونُ هَوْنًا، ويدورُ على مَعنَيَين مُتضادّين بِحسَبِ سياقِ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، والسمين، عمدة الحفاظ: (بغي).
(2) الزجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 1/173، وابن جرير، جامع البيان: 2/342.
(3) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات: (بَوَأ).
(4) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 2/28.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (غضب).
(6) ابن منظور، لسان العرب: (غضب).

المَدحِ أو الذَّمِّ: فيكونُ مَدحًا بمعنى: السَّكينَةِ وَالوَقارِ، ويكونَ ذَمًّا بمعنى: هَوَانِ الشَّيْءِ الحَقيرِ الهيِّنِ الَّذي لَا كَرامةَ لَهُ، ومنه: أهنتُ فُلانًا وتهاوَنتُ بِهِ واستهنتُ بِهِ، "والعربُ إذا أرادتْ بـ(الهُون) معنى الهَوانِ ضَمَّت(الهاءَ)، وإذا أرادتْ به الرِّفقَ والدَّعَةَ وخِفَّةَ المَؤونةِ فَتَحت(الهاءَ)، فقالوا: هو قليلُ هَوْنِ المَؤونَةِ"[1]، وكلمةُ (مَهين) لمْ تُستعملْ في الكلامِ إلَّا في الذَّمِّ بمعنى الإهانةِ، ويوصفُ بها مَنْ نُزِعَتْ منهُ الكرامةُ[2].

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

ذَمَّ اللهُ تعالى اليهودَ بكلمةٍ تَجمعُ كُلَّ أَنواعِ الذَّمِّ وَمُوجباتِه، فَبِئْسَ الشَّيءُ الذي باعَ به اليهودُ أنفسَهم لِيختارُوا الكفرَ على الإيمانِ، وكفرُهم ليس عنْ جهلٍ باللهِ وبرسلِه وبرسولِه، بلْ هو عن ظُلْمٍ وَحَسَدٍ أَنْ يُنَزِّلَ اللهُ الوحيَ مِنْ فضلِهِ على مَنْ يختارُه ويَصطفيه مِنْ عبادِه الذين هُمْ أَهلٌ لِحَملِ أَعباءِ الرسالةِ؛ فاليَهودُ كَفَرُوا حَسَدًا عَلَى خُرُوجِ النُّبُوَّةِ مِنْهُمْ إلى العَرَبِ، واختيارُ الرَّسولِ هو بمشيئةِ اللهِ؛ فهو الذي يَعلمُ حيثُ يجعلُ رسالتَهُ، وليسَ الأمرُ برغباتِهم وتَمنِّياتِهم، فخابَ هؤلاءِ القومُ، ورجَعُوا مستحقّين غَضبًا منَ اللهِ على غَضَبٍ؛ لِتكثُّرِ أَفعالِهم القبيحةِ: مِنْ نَقْضِ الميثاقِ، وتحريفِهم كلامَ اللهِ، واتِّخاذِهِمُ العِجلَ، وقولِهم: لنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إلَّا أَيَّامًا مَعدودةً، وغيرِها منَ الأَفعالِ والأقوالِ الشَّنيعةِ. أو يكونُ المعنى: استحَقُّوا غَضَبَينِ: غضبَ الكُفرِ بالنَّبيِّ ﷺ عندَ بعثتِه، فوقَ الغَضَبِ الذي استحقُّوه مِنْ قَبْلُ بِإِعْنَاتِ موسى عليه السلام والكُفرِ بهِ، أَو بِكُفرهم بعيسى بنِ مريمَ -عليه السلام-، وللجاحدين نبوَّة محمد ﷺ عذابٌ يذلُّهم ويخزيهم يوم القيامة[3].

الإِيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

بلاغةُ استعمالِ (بئسَ) مع (ما):

لمْ يَرِدْ في القُرآنِ استعمالُ (مَا) بعدَ الفعلِ (بِئْسَ) إلَّا في سِياقِ ذَمِّ بني إسرائيل[4]؛

(1) القرطبي، جامع البيان: 11/541.

(2) الأزهري، تهذيب اللغة، والرّاغب، المفردات: (هان).

(3) المراغي، تفسير المراغي: 1/167.

(4) كما في الآية 93، والآية 102، من سورة البقرة، والآية 187، من سورة آل عمران، والآية 62، و63، و79، و80، من سورة المائدة، والآية 150، من سورة الأعراف.

خُصوصيَّةُ استعمالِ تَركيب (بِئْسَمَا) في سِياقِ الحَديثِ عن بَني إسرائيل

فتركيبُ (بِئْسَ ما) يَجمعُ بينَ طَرفَي الإجمالِ والتَّفصيلِ، وفيهِ تقريرُ الذَّمِّ بأَعَمِّ كلماتِ العمومِ (ما)، فيستَوعبُ كلَّ خَصْلَةٍ من خِصالِ الذَّمِّ الّتي تدلّ عليه بِئْسَ؛ فيكونُ المذمومُ مَذكورًا طَيًّا في العمومِ، ثمَّ يُذكرُ مرَّةً أخرى بِذكرِ المَخصوصِ بالذَّمِّ؛ فَكأنَّه ذَمَّهم مَرتين: إحداهُما بدخولِهم في عمومِ (بِئْسَمَا)، والثَّانيةُ بذكرِ مَخصوصِ الذَّمِّ في قولِه تعالى: ﴿أَن يَكۡفُرُواْ﴾؛ فبالغ في ذمِّهم غايةَ الذّمّ، وفي هذا التّركيبِ مِنْ براعةِ الكلامِ وسِحرِ البلاغةِ الأمرُ العَجيبُ؛ إذ أَطنبَ من جهةٍ، وأَوجزَ من جهَةٍ، فتقديرُ الكلامِ: (بِئْسَمَا اشْتَرَوا بِهِ أَنْفُسَهُمْ هُوَ أَنْ يَكْفُرَوا)، فحَذَفَ المبتدأَ (هو) إيجازًا وفَصّلَ في المخصوصِ بالذَّمِّ؛ إذْ ذَكَرَهُ إجمالًا ثمَّ تفصيلًا، فاجتمعَ الإطنابُ والإيجازُ في تركيبٍ واحدٍ، فَسُبْحانَ مَنْ جَعَلَ العَربيَّةَ لِسَانَ القرآنِ الكريمِ وَمَنَاطَ إعْجازِهِ.

بلاغةُ الاستعارةِ في قولِه تعالى ﴿ٱشۡتَرَوۡاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمۡ﴾:

بَيانُ قُبحِ مَنْ بَاعَ نفسَه، وَرَضِيَ لَهَا الخَسَارةَ عن عِلْمٍ وَمَعْرِفَةٍ

وُضِعَت الأنفسُ موضِعَ الإيمانِ؛ فالأنفسُ هي المُثْمَنُ والكفرُ هو الثَّمن؛ وَذلك بحملِ ﴿ٱشۡتَرَوۡاْ﴾ على معنى باعوا[1]؛ فشبّه الإيمانَ بالنَّفسِ بجامعِ وُجُوبِ الحِرْصِ عليه، كما أنَّ الإنسانَ حَريصٌ على نفسِه بفطرتِه وغريزتِه، ثمَّ حَذَفَ المُشبَّه وذكرَ المشبَّه به على سبيلِ الاستعارةِ التَّصريحيَّةِ، وَجعلَ استبدالَ الإيمانِ بالكفرِ بمنزلةِ البَيعِ والشِّراءِ؛ ليكونَ مَجازًا مُرسَلًا، بذكرِ معنى البيعِ بلفظِ الاشتراءِ، وَإرادةِ الاستبدالِ الذي هو اللَّازمُ الأوَّلُ للبيعِ والشِّراءِ؛ فباعُوا أنفسَهم بالكفرِ؛ أي: إنَّهم استبْدَلُوا الكفرَ بالإيمانِ؛ فَبَذَلوا أَنفسَهم، وزهِدُوا فيها مِنْ أجلِ تَحصيلِ الكفرِ بالكتابِ المُنَزَّلِ مِنْ عندِ اللّٰهِ وَهوَ القرآنُ.

(1) ابن جرير، جامع البيان: 2/340، والزمخشري، الكشاف: 1/165، وابن عطية، المحرر الوجيز: 1/178، والآلوسي، روح المعاني: 1/321.

ويُحتملُ أنّه أرادَ مِنَ البيعِ لازمَه الثَّاني، وهو الزُّهدُ في المُباعِ والحرصُ على المُشترى؛ فكأنَّهم زَهِدُوا في أنفسِهم وحَرِصُوا على الكفر، والعقلُ والفِطرةُ يَمنعَانِ مِثلَ هذا الاستبدالِ لِحرصِ الإنسانِ على نفسِه وحبِّه لَهَا، فَكيفَ يَبيعُها؟! ووضَع الأنفسَ موضِعَ الإيمانِ لِيُؤذِنَ بِأنَّ الإيمانَ بِمنزلةِ الأَنفسِ مَعَزّةً وحِرصًا عليه؛ فكأنَّهم باعُوا الإيمانَ الذي هو بِمَنزلةِ الأَنفسِ لِتحصيلِ الثَّمنِ البَخْسِ وهو الكفرُ بالقرآن، ومَنْ باعَ إيمانَه فقدْ باعَ نفسَه، ومَنْ باعَ نفسَه فَقَدَها، وذهب الطِّيبيُّ إلى أَنَّ سببَ وضعِ الأَنفسِ مَوضِعَ الإيمانِ هو الإيذانُ بـ"أنَّ الأنفسَ إنَّما خُلِقَتْ للعلمِ والعَمَلِ به المُعَبَّر عنه بالإيمانِ، فلَمَّا بدَّلوا الإيمانَ بالكفرِ فَكأنَّهم بَدَّلُوا الأَنفسَ به"[1]، وتتجلّى بلاغةُ هذهِ الاستعارةِ وجمالُها في كونِها لم تكنْ مألوفةً في الكلامِ العربيِّ البليغِ؛ فهي مِنْ غَرائِبِ الاستعاراتِ وفرائِدِها.

مجيءُ صيغةِ الفعلِ ﴿يَكۡفُرُواْ﴾ على خِلافِ مُقتضَى الظَّاهِرِ:

التَّنبيه على إضمارِ الكفرِ في النَّفسِ وأنَّه عملٌ مُستقِرٌّ فيها

الأصلُ في الفعلِ ﴿يَكۡفُرُواْ﴾ أَنْ يكونَ مُوافِقًا في صِيغتِه للفعلِ ﴿ٱشۡتَرَوۡاْ﴾؛ لأنَّه صفةُ المبيَّن (ما)، والصِّفةُ قَيدٌ للمَوصوفِ، فوردَ على خلافِ الظَّاهرِ؛ "للدّلالة عَلَى أَنَّهُمْ صَرَّحُوا بِالكُفْرِ بِالقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ نُزُولِ الآيَةِ فَقَدْ تَبَيَّنَ أَنَّ اشْتِرَاءَ أَنْفُسِهِمْ بِالكُفْرِ عَمَلٌ اسْتَقَرَّ وَمَضَى، ثُمَّ لَمَّا أُرِيدَ بَيَانُ مَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ نُبِّهَ عَلَى أَنَّهُمْ لَمْ يَزَالُوا يَكْفُرُونَ، وَيُعْلَمُ أَنَّهُمْ كَفَرُوا فِيمَا مَضَى أَيْضًا إِذْ كَانَ الْمُبَيَّنُ بِأَنْ يَكْفُرُوا مُعَبَّرًا عَنْهُ بِالماضي بقوله: بِئْسَمَا اشْتَرَوْا"[2]. كَمَا دلّتْ (أَنْ) المَصدريَّةُ الدَّالّةُ على المستقبلِ على أَنّهُم كانوا مُصِرّينَ على الكُفْرِ، مُضْمِرينَ لَهُ قبلَ نزولِ القرآنِ إذا لَمْ يَكنْ اختيارُ الرَّسولِ على وفقِ أَهوائِهِمْ.

سِرُّ ذكرِ الكفرِ بالمُنْزَلِ لا الكفرِ بالقُرآنِ:

الإيذانُ بقُبحِ كُفرِهِم، والإشارةُ إلى كفرِهم بالتَّوراةِ

جاءَ التَّعبيرُ في قولِه تعالى: ﴿أَن يَكۡفُرُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ ولم يقلْ: بالقرآنِ؛ للإيذانِ بقُبحِ كفرِهِم وجُرأتِهِم على اللهِ؛ فَهُم يَكفرونَ بِمَا

(1) الطيبي، فتوح الغيب: 2/576.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/605.

أَنزلَ اللّهُ، ولِلإشارةِ إلى عُلُوّ شَأنِ القرآنِ وتقريرِ أَنَّهم يَعلمونَ أَنَّه مِن عندِ اللّهِ؛ لِأَنَّ صِلَةَ الموصولِ مَعلومةٌ للمُخاطَبِ، فيكونُ التَّعبيرُ مُمَهِّدًا لِأَنْ يكونَ كفرُهم حَسَدًا على أَنْ يُنَزِّلَ اللّهُ الوَحيَ على رَسولِه المُصطفى مُحَمّدٍ ﷺ؛ فلا يكونُ كُفرُهم جَهْلًا بِمَا أَنزَلَ اللّهُ؛ وللإشارةِ إلى أَنَّ كفرَهم هُو بِكلِّ ما أَنزلَ اللّهُ ومِنهُ التَّوراةُ؛ فإنَّ مَنْ يَكفرْ بِكتابٍ مُنزَلٍ، يكفرْ بِمَا سِواهُ؛ إذِ العبرةُ في المُنَزِّلِ سُبْحانَهُ، لا بِالنَّازلِ فَحَسبُ.

تنوُّعُ معاني الإعرابِ:

اختلفَ المُفسِّرون في إعرابِ كلمةِ ﴿بَغْيًا﴾ على ثلاثةِ أَعاريبَ: الأوَّل: مفعولٌ لأجلِه، وهو مُستوفٍ لشروطِ النَّصبِ، الثَّاني: مفعولٌ مُطلقٌ، بجعلِه منصوبًا على المصدرِ بتقديرِ: بَغَوا بغيًا، الثَّالث: حالٌ بتقديرِ: أنْ يكفروا بَاغِين، والأوجهُ الثَّلاثةُ مُعتَبَرَةٌ، ولَها وجهٌ مِنَ القَبولِ؛ أمَّا الأوَّلُ: فمعناه أنَّ كفرَهم ما كانَ لِشَيءٍ بقدْرِ ما كان للبَغْيِ، وأمَّا الثَّاني: فمعناه أنَّهم في كفرِهم بغَوْا بغيًا، وأمَّا الثَّالث: فمعناه أنَّهم كفروا حالَ كونِهم باغين، وهذا مِنْ بَديعِ استجماعِ معاني النَّحوِ في توجيهِ الأعاريبِ القرآنيَّةِ.

ائتلافُ مَعاني النَّحوِ في دلالةِ السِّياقِ من بَديعِ النَّظمِ القرآنيِّ

سِرُّ التَّعبيرِ بالبَغيِ دون الحَسَدِ:

ظاهرُ السِّياقِ أنَّ اليهودَ حَسَدُوا العَربَ أَنْ جَعَلَ اللّهُ النُّبوَّةَ فيهم، لكنَّ السِّياقَ لم يُصرِّحْ بالحَسدِ، بلْ أَتى بمفردةِ البغيِ؛ ذلك أَنَّ البَغيَ هُو تَجاوزُ الحَدِّ في الأمرِ كلِّه[1]، فدلَّ البغيُ على الحَسَدِ تَضمُّنًا، فجمعتْ هذهِ المفردةُ مَعنى التَّجاوزِ، وجمعَ السِّياقُ معنى الحَسَدِ، فاجْتَمَعَا في كونِ هذا البغيِ ناشئًا عن الحَسَدِ مِنْ كَوامِنِ أَنفسِهم، فيكونُ قدْ وَصفَهم بالوَصفِ الأعمِّ وَهو البغيُ، دونَ الأَخَصِّ وَهو الحَسَدُ، زِيادةً في ذَمِّهِم.

الجمعُ بين دلالةِ المفردَةِ ودلالةِ السِّياقِ، زيادةً في البيانِ والإيضاحِ

(1) الرّاغب، المفردات، ص: 136.

نُكتةُ إيثارِ صيغةِ التَّفعيل:

تَجدُّدُ البغيِ بتجدُّدِ النُّزولِ

آثرَ النَّظمُ صيغةَ التفعيلِ؛ للإيذان بتجدُّدِ بَغْيهم حسَب تجدُّدِ الإنزالِ وتكثُّره حَسَب تكثره[1]؛ فكلّما نزلت آياتٌ مِنَ القرآنِ على رَسولِ اللّهِ مُحَمّدٍ ﷺ تَجدّدَ بَغيُهم وتَكَثَّرَ.

مَعنَى الإضافةِ في قولِهِ ﴿عِبَادِهِۦ﴾:

تَشريفُ العبادِ بإضافتِهم إلى ضَميرِ لفظِ الجَلالةِ

التَّصريحُ بأنَّ الرُّسُلَ الذين يُنَزِّلُ اللّهُ عليهم الكتبَ هُمْ مِنْ خَواصِّ عِبادِه؛ فالإضافةُ تفيدُ الاختصاصَ الذي يقتضي تَشريفَ الرُّسلِ؛ بإضافتِهم إلى اللّهِ تعالى، فَهو سَبحانَه الذي يُدافعُ عنْهمْ وَهو وَليُّهم في الدُّنيا والآخرةِ.

معنى الفاءِ في قولِه: ﴿فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ﴾:

للفاءِ احتمالانِ مِنَ المعاني، هما:

الأوَّل: التَّرتيبُ والتَّعقيبُ، وهو على أَصلِ معناها عندَ مجيئِها عاطفةً بينَ الجُملِ؛ فدلَّ على أَنَّهم مُستحقُّونَ لِتوالي الغَضَبِ، ودلَّ الحكمُ عليهمْ وهو قولُه: ﴿بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍۚ﴾ على أنَّه مُترتّبٌ على ما وُصِفُوا بهِ مِنْ بيعِهم أَنفُسَهم بالكفرِ حَسَدًا على أَنْ يُنَزِّلَ اللّهُ جبريلَ بالقرآنِ على رسولِه مُحَمَّدٍ ﷺ، قال الطِّيبيُّ: "دلَّ على كونِهم أَحِقَّاءَ به تَرَتُّبُ الحُكمِ على الوصفِ بالفاءِ"[2].

الثَّاني: أَنْ تكونَ فَصيحةً؛ بمعنى أنّها أفصحتْ عنْ جَوابِ شرطٍ محذوفٍ، تقديرُه: إذا عرفتَ بَغيَهم الشّنيعَ، وحسَدَهم الفَظيعَ، وأردتَ مَعْرِفةَ جَزائِهم؛ فقد باؤُوا بغَضَبٍ على غَضَبٍ[3].

بيانُ المُفردةِ للمعاني المُتنوِّعَةِ:

تكاملُ معاني المفردةِ سياقًا ودلالةً، في تحقُّقِ الخَيْبةِ واقعًا واستقرارًا

تدُلُّ مفرَدَةُ (البَوْءِ) على خَيْبَةِ اليهودِ في اختيارِهم الكفرَ؛ وذلك إذا حملنَا البَوْءَ على معنى الرُّجوعِ؛ فيكونُ المَعنَى: فرجَعُوا بغَضَبٍ

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/129.
(2) الطيبي، فتوح الغيب: 2/578.
(3) الهرري، حدائق الروح والريحان: 2/97.

على غَضَبٍ بعدَ أنْ ظَنُّوا الفوزَ والفلاحَ ببَيعِهم؛ ليدلَّ على خيبتِهم في عملِهم.

وإذا حَملْنا البَوءَ على مَعنَى المُكافِئ؛ فالمراد: فَحَلّوا مَنزِلًا مُكافئًا لهم، ولكنَّه مُلْتَبِسٌ بحالِ غضَبِ اللّهِ؛ أي: المَنْزِلُ الذي يَتَبَوَّؤونَ معهُ غضَبَ اللّهِ! فكيفَ غيرُه مِنَ المَنازل؟! فيكونُ استعارةً تَهَكُّميَّةً [1] على حدّ ما ذكر في قوله: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [آل عمران: 21]، والاستعارةُ التَّهكميَّةُ تتضمّنُ احتِجاجًا للتّأثير في المتلقِّي؛ ليقارِنَ بين الصّواب والخطأ؛ فيرجعَ إلى نَفسِهِ ويُذعِنَ إلى الحقِّ؛ فيفعلَ الصَّوابَ ويتركَ الخَطأَ.

والمعنيانِ مقبولانِ سِياقًا ودلالة؛ فالخَيْبةُ واقعةٌ، وهُم باؤُوا بمكانِ غَضَبٍ، سواءً على الحقيقةِ أو على التَّهكمِ؛ فخابَتْ أَعمالُهم على خِلافِ مُرادِهم؛ فاستقرُّوا فيه.

فائدةُ التَّنكيرِ في كَلِمَةِ الغَضَبِ:

تعظيمُ الغَضَبِ والتَّشديدُ على من وَقَعَ عَليهِ

الدّلالة على تَعظيمِه، وأنَّ الغَضَبَ الثّاني غيرُ الأول[2]؛ فلا يكونُ غَضَبُهُ على مَنْ كَفَرَ بسَبَبِ أمرٍ واحدٍ؛ كغَضَبِه على مَنْ تنوّعَ كفرُه وتكثّرَ؛ لِيدلَّ على تَشْديدِ الحَالِ عَلَيْهِمْ[3]، أو هما شيءٌ واحدٌ، ذُكرا للتَّشديدِ، كما يُقال: ضَلالٌ على ضَلالٍ، أو خَيْبَةٌ على خَيْبَةٍ، وهكذا مِمَّا قُصِدَ بِهِ التَّكثُّرُ والمُضاعَفَةُ والاجتماعُ؛ لأجلِ أَفعالٍ مُتَواليةٍ صَدَرَتْ عنهم؛ فتعدَّدَ الجزاءُ وتوالى بتَعَدُّدِ أَعمالِهم القبيحةِ وتَواليها.

دلالة حرفِ الاستعلاء في قولِهِ ﴿عَلَىٰ غَضَبٍۚ﴾:

شِدَّةُ الغَضَبِ واجتماعُه، وعدمُ الفُتورِ بين الغَضَبَينِ

اختارَ النَّظم القرآنيُّ حَرفَ الاستعلاءِ دونَ ظرفِ البعديَّةِ، فقال: ﴿عَلَىٰ غَضَبٍۚ﴾، ولم يقلْ: بعدَ غَضَبٍ، إشعارًا بشدَّتِه؛ فإنَّه

(1) الرّاغب، المفردات، ص: 159.

(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/369.

(3) الرازي، التّفسير الكبير: 3/602، وأبو حيّان، البحر المحيط: 1/491.

مُجْتَمِعٌ مُتَراكِمٌ بعضُه على بَعضٍ[1]، كما في قوله تعالى: ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾ [النور: 35]، ولو قال: بَعْدَ غَضَبٍ؛ لفُهِمَ التَّراخي بين الغَضَبَيْن، وطُروُّ الفُتور.

بلاغةُ الإظهارِ في موضعِ الإضمارِ:

إفادةُ وقوعِ العَذابِ على كُلِّ من كَفَرَ، والإشعارُ بعلَّةِ التَّعذيبِ

جَاءَ النَّظمُ بلفظ ﴿ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ مُظْهَرًا في مَوْضعِ المضمَرِ؛ فلمْ يقُلْ: ولهمْ عذابٌ مهينٌ، وذلك لأَمرينِ: أحدُهما: إفادَةُ العُموم في الكافرين؛ بسببِ دُخول (ال) المفيدةِ للعُموم؛ أي: إنَّ العذابَ المُهينَ سَيَكونُ لكلّ مَنِ اتَّصفَ بالكُفْرِ، وهذا "مبالغةٌ في إسنادِ العذابِ على كلِّ منِ اتَّصفَ بالكفرِ بالإطلاق"[2]، ثانيهما: الإشْعَارُ بِعِلَّةِ كَوْنِ العَذَابِ المُهِينِ لَهُمْ[3]؛ فَهُمْ في العذابِ المُهينِ بِسببِ كفرِهم، وذلكَ على جعلِ اللَّامِ في الكافرينَ للجِنسِ، ومَنْ حَمَلَها على العهدِ[4]؛ فيكونُ المرادُ بالكافرينَ اليَهودَ أَنفسَهم؛ فيأتي الإشعارُ بِعِليّةِ المَأخذِ أخصَّ وأَوضحَ مبالغةً في النِّكاية بهم.

بلاغَةُ المَجازِ العَقليِّ في الإسنادِ الوَصفي ﴿عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾:

إبرازُ العلاقةِ بين الصِّفةِ والموصوفِ المقتضيةِ الملابسةَ أو السَّببيَّةَ

جاءت كلمةُ ﴿مُّهِينٌ﴾ وصفًا مقيّدًا للعَذابِ، على أنَّه مجازٌ عقليٌّ، والعَذَابُ في الحَقِيقَةِ "لَا يَكُونُ مُهِينًا؛ لأَنَّ مَعْنَى ذَلِكَ أَنَّهُ أَهَانَ غَيْرَهُ، وَذَلِكَ مِمَّا لَا يَتَأَتَّى إِلَّا فِيمَا يَعْقِلُ، فَاللَّهُ تَعَالَى هُوَ المُهِينُ لِلمُعَذَّبِينَ بِالعَذَابِ الْكَثِيرِ"[5]؛ فجاء وصفُ العذابِ بالمُهينِ ليدلَّ على ملابسةِ العَذابِ للإهانةِ وأَنّها غيرُ مُنْفَكّةٍ عنه، والعَلاقةُ في هذا المَجازِ هيَ المُجَاورةُ؛ لِأَنَّ الإهانةَ تحصُلُ مع العذابِ[6]، أو السّببيةُ[7]؛ لأَنَّ

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/370.
(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/370.
(3) أبو حيان، البحر المحيط: 1/491.
(4) أبو حيان، البحر المحيط: 1/491، وابن عجيبة، البحر المديد: 1/133.
(5) الفخر الرازي، التّفسير الكبير: 3/602.
(6) الفخر الرازي، التّفسير الكبير: 3/602.
(7) النيسابوري، غرائب القرآن: 1/333، والهرري، حدائق الروح والريحان: 2/109.

عذابَ الكافرينَ سَببٌ للإهانةِ وهي متَرَتِّبةٌ عليهِ؛ لاقتضائِه خلودَهُم في النَّارِ لا ينتقلونَ مِن هَوانِ العذابِ إلى عزٍّ وكرامةٍ أَبَدًا، والصِّفةُ مقيِّدةٌ لا مُوضّحةٌ؛ لِأَنّ العذابَ قد يكونُ غيرَ مُهينٍ لصاحبِه، وهو ما كانَ تَطهيرًا وتمْحيصًا لِصاحبِه مِثل أَهلِ الكبائرِ[1].

مناسبةُ الصِّفةِ للموصوفِ في قولِه: ﴿عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾:

جـزاءُ الأفـعـالِ الـقـبـيـحـةِ على ضدِّ مقصدِها

لـمّا كانَ حَسَدُ اليهودِ نابعًا من حُبّهم للرّياسةِ وادِّعاءِ الفَضلِ على النَّاسِ، واستكبارًا على عبادِ اللّه المُرسَلين وعلى الحَقّ طلبًا للعزِّ والكرامةِ، كان جزاؤُهم بالعذابِ المتَّصفِ بالمُهينِ هو الأنسَبَ؛ فقُوبلُوا بالعَذابِ المُذِلِّ المُخزي الّذي فيهِ احتقارُهم؛ على ضِدِّ ما طَلبُوا، وهو ما يَتناسبُ كذلكَ معَ الخَيبةِ الّتي حصَّلُوها مِنْ غضبِ اللّه المُذِلِّ المُخزي.

بلاغةُ التَّقديم والتَّأخير: في قولِه: ﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾:

مَنْ يطلُبْ بكفرِه الكَرامةَ يُخَصَّ بالذّلِ والمَهانةِ

اقتضى تقديمُ المُسندِ على المُسندِ إليه الموصوفِ في قوله: ﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ اختصاصَ العذابِ المُهينِ بالكافرين[2]، الّذين اتَّصفوا بما ذُكِرَ في السِّياقِ؛ فكلُّ من كفرَ طلبًا للجَاهِ والعِزِّ؛ فسَينالُ مهانةً من فوقِها ذُلٌّ وصَغارٌ.

بَراعَةُ التَّمثيلِ في الآيةِ:

احتوَتِ الآيةُ على تمثيلٍ وتصويرٍ لحالِ اليهودِ، بِحَالِ مَنْ حَاوَلَ أن يشتغلَ بالتِّجَارَةِ لِيَرْبَحَ فكانت تجارتُه بِئْسَتِ التِّجارةُ؛ إِذْ أَصَابَهُ خُسْرَانٌ وذُلٌّ وهَوَانٌ، وَهُوَ تَمْثِيلٌ يَقْبَلُ بَعْضُ أَجْزَائِهِ أَنْ يَكُونَ اسْتِعَارَةً، وَذَلِكَ مِنْ مَحَاسِنِ التَّمْثِيلِيَّةِ[3]

(1) ابن جرير، جامع البيان: 2/347.
(2) الخفاجي، عناية القاضي: 2/328.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/605.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ۗ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾﴾ [البقرة: 91]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

عَودٌ إلى بيانِ قبائحِ أقوالِ اليهودِ وأفعالِهم، وما يَتَعذَّرُون به من كُفرِهم بما أَنزلَ اللهُ وبرسولِه الأمينِ محمّدٍ ﷺ، وتوبيخِهم على أفعالِهم، ولَمَّا أقامَ ﷺ الحُجَّةَ على استحقاقِهم الخُلودَ والعَذابَ المُهين في النَّار بكفرِهم بكتابِ اللهِ، أَقامَ حُجَّةً أخرى عليهم أبينَ منها وأظهرَ؛ وذلكَ بكُفرِهم بكتابِهم نفسِهِ؛ إذْ لَمّا كفروا بالقرآنِ الّذي هو مُصدّقٌ للتَّوراةِ، كفروا بالتَّوراةِ نفسِها؛ لأنَّ المُكَذِّبَ بالمُصَدِّقِ لِشَيءٍ مُكَذِّبٌ بذلكَ الشَّيءِ[1].

وبعبارة العلاّمة ابن عاشور، هذا الكلامُ "مِن عَطْفِ حِكاياتِ أحْوالِهِمْ في مَعاذِيرِهِمْ عَنِ الإعْراضِ عَنِ الدَّعْوَةِ الإسْلامِيَّةِ، فَإذا دُعُوا قالُوا قُلُوبُنا غُلْفٌ، وإذا سَمِعُوا الكِتابَ أعْرَضُوا عَنْهُ بَعْدَ أنْ كانُوا مُنْتَظِرِيهِ حَسَدًا أنْ نَزَلَ عَلى رَجُلٍ مِن غَيْرِهِمْ، وإذا وُعِظُوا وأُنْذِرُوا ودُعُوا إلى الإيمانِ بِالقُرْآنِ وبِأنَّهُ أنْزَلَهُ اللهُ أنْ يَنْظُرُوا في دَلائِلِ كَوْنِهِ مُنَزَّلًا مِن عِنْدِ اللهِ أعْرَضُوا وقالُوا: ﴿نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾ أيْ: بِما أنْزَلَهُ اللهُ عَلى رَسُولِنا مُوسى، وهَذا هو مَجْمَعُ ضَلالاتِهِمْ ومَنبَعُ عِنادِهِمْ؛ فَلِذَلِكَ تَصَدّى القُرْآنُ لِتَطْوِيلِ المُحاجَّةِ فِيهِ بِما هُنا وما بَعْدَهُ تَمْهِيدًا لِقَوْلِهِ الآتِي ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ﴾ [البقرة: 106] الآياتِ"[2].

شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

1) ﴿مُصَدِّقٌ﴾: أَصلُه (صَدَقَ)، ويَدورُ المعنى عَلَى: قُوَّةٍ في الشَّيْءِ في القَوْلِ وَغَيره، ومِنْ ذَلِكَ: الصِّدْقُ؛ ضِدُّ الكَذِبِ، سُمِّيَ صِدْقًا؛ لِقُوَّتِهِ في نَفْسِهِ؛ وَلِأَنَّ الكَذِبَ باطِلٌ لَا قُوَّةَ لَهُ، فَيقالُ: هُوَ صَادِقٌ، وَصَدُوقٌ مُبَالَغَةٌ، وصَدَّق يدلُّ على: كَثرةِ الصِّدقِ، واسمُ الفاعِلِ: مُصَدِّقٌ، يقال: مُصَدِّقٌ للشَّيءِ؛ بمَعنَى: مُحَقِّق له[3].

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 2/48.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/606.

(3) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، والفيومي، المصباح المنير: (صدق).

2) ﴿وَرَآءَهُۥ﴾: هو في الأصلِ مَصدَرُ (وَارَى) بمعنى سَتَرَ، ويقتضي أنْ يكونَ المَستورُ مَخفيًّا، ويستعملُ بمَعنَى: خَلْفَ، وهو الغالبُ في الاستِعمالِ، وبمَعنَى: قُدَّام، فيكون من الأضدادِ، وقيل: الوَراءُ يأتي بمَعنًى آخَرَ كما في قولِهِ تعالى: ﴿فَمَنِ ٱبۡتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ﴾ [المُؤمِنُونَ: 7]؛ أَي: سِوى ذَلِك، فيكون (وَرَاء) له أكثرُ من المَعنَيَين المُتَضادَّين (خلف وقدّام)، فيكون اللَّفظُ مُتَواطئًا[1]، والظَّاهرُ أنَّ وراءَ بمَعنَى: خَلْفَ المُقتضي السِّترَ والخَفاءَ، وكلُّ ماجاءَ بخِلافِ الخَلْفِ فهُو على مَعنَى السَّترِ والخَفاءِ. و معنى: ﴿بِمَا وَرَآءَهُۥ﴾ في الآيَةِ: بمَا عَدَاهُ وَتَجَاوَزَهُ؛ أَيْ: ويكفرونَ بِغَيْرِهِ، ويقصدُ به القرآن[2].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

تخبر الآية عن تناقضِ اليَهودِ في أفعالِهم، وتُقيم الدَّليلَ على إبطالِ ما يَدَّعُونَهُ من إيمانهم بالتَّوراةِ؛ فإنَّهم إذا قال لهم بعض المسلمين: صدِّقوا بما أَنزل اللّه من القرآن، قالوا: نحن نصدِّق بما أنزل اللّه على أنبيائنا، ويجحدون ما أنزل اللّه بعد ذلك، وهو الحق مصدِّقًا لما معهم. فلو كانوا يؤمنون بكتبهم حقًّا لآمنوا بالقرآن الذي صدَّقها. قل - أيها النبي - جوابًا لهم: لِمَ تقتلون أنبياء اللّه من قبل إن كنتم مؤمنين حقًّا بما جاؤوكم به من الحق؟!

❁ الإِيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

بَلَاغَةُ عَطْفِ القِصَّةِ على القِصَّةِ:

بيانُ أحوالِ اليَهودِ في الإعراضِ عن الحَقِّ، والتَّعذُّرِ عن قبولِهِ

قولُه تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ ءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ مَعْطُوفٌ عَلَى قَوْلِهِ: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمۡ كِتَٰبٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: 89]، المَعْطُوفِ عَلَى قَوْلِهِ: ﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلۡفُۢ﴾ [البقرة: 88]، وَهَذَا كُلُّهُ مِنْ عَطْفِ حِكَايَاتِ أَحْوَالِهِمْ فِي مَعَاذِيرِهِمْ عَنِ الإِعْرَاضِ عَنِ الدَّعْوَةِ الإِسلَامِيَّةِ؛ فَإِذَا دُعُوا قَالُوا: ﴿قُلُوبُنَا غُلۡفُۢ﴾، وَإِذَا سَمِعُوا الكِتَابَ أَعْرَضُوا عَنْهُ بَعْدَ أَنْ كَانُوا مُنْتَظِرِيهِ، وَإِذَا وُعِظُوا وَأُنْذِرُوا وَدُعُوا إِلَى الإِيمَانِ بِالقُرْآنِ أَعْرَضُوا وَقَالُوا: ﴿نُؤۡمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا﴾ أَيْ: بِمَا أَنْزَلَهُ اللّهُ عَلَى

(1) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، والسمين، عمدة الحفاظ: (ورى).
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/607.

رَسُولِنَا مُوسَى، وَهَذَا هُوَ مَجْمَعُ ضَلَالَاتِهِمْ وَمَنْبَعُ عِنَادِهِمْ؛ فَلِذَلِكَ تَصَدَّى القُرْآنُ لِتَطْوِيلِ المُحَاجَّةِ فِيهِ بِمَا هُنَا وَمَا بَعْدَهُ تَمْهِيدًا لِقَوْلِهِ الآتِي: ﴿۞مَا نَنسَخۡ مِنۡ ءَايَةٍ﴾ [البقرة: 106][1].

نكتةُ اسْتِعمالِ ﴿إِذَا﴾ دُونَ غيرِها:

بيانُ حالِ المُؤمِنين في حِرصِهم على دَعوةِ الآخرِ للحَقِّ

جاءتْ حكايةُ قصَّةِ دَعوةِ اليهودِ بـ(إذَا) للإشارةِ إلى القَطعِ بوقوعِ دَعوةِ المُؤمنينَ لبني إسرائيلَ، وأنَّ العَلاقةَ قائمةٌ بين المُؤمِنين واليَهودِ على التَّواصلِ الدَّعَويّ، ابتداءً من جهةِ المُؤمِنين، حِرصًا على إيمانِ اليَهودِ، وانتِهاءً بإعراضِ اليَهودِ عن ذلكَ، وإتيانِهم بالتَّعذُّراتِ الواهِيةِ.

فائدةُ بناءِ الفِعلِ للمَفعُول:

بيانُ حَالِ اليَهودِ ممَّن يَدعُوهم، وأنَّها حالٌ ثابتةٌ لا تَتَغيَّر

جاءَ فِعلُ القولِ مَبنيًّا للمفعولِ ﴿قِيلَ﴾ دون النَّصِّ على الفاعلِ وأنَّهم المُؤمِنون؛ لتحقُّقِ مَعرفةِ ذلك الأمرِ لدى المخاطَبِ، ولبيانِ حقيقةِ موقفِ اليَهودِ ممَّن يَدعُوهم إلى الإيمانِ بقطعِ النَّظرِ عن مكانتِه، سواءٌ أكانَ نبيًّا أَم صَحابيًّا أَم أَعرابيًّا، فموقفُهم واحدٌ، وهو الرَّفضُ، فهُم يَرفُضونَ لأجلِ الرَّفضِ والإعراضِ، ففيه بيانُ أحوالِهم القَبيحةِ، ونُفُوسِهم المَريضةِ.

معنى حرفِ اللَّامِ في قوله ﴿لَهُمۡ﴾:

تبليغُ القولِ ووُصولُه للمَقُولِ له

أفادتِ اللامُ معنى التبليغِ، وهي التي تأتي مع قولٍ أَو ما في معناه، مثل: قلتُ له، وبينتُ له[2]، بمعنى وُصولِ القَولِ لَهم، وتبليغِهم بِهِ، وفيهِ تأكيدُ وصولِ القَولِ، معَ نَكهةِ الاختِصاصِ.

سِرُّ التَّعبيرِ عن القرآنِ بـ﴿مَا﴾ المَوْصُولَةِ:

المَطلوبُ هو الإيمانُ بالمُنزَلِ من عندِ اللهِ بقَطعِ النَّظرِ عن صفتِهِ

يتخيَّرُ النَّظمُ أسلوبَه لإفادةِ مَعنًى مَخصوصٍ، فجاء بحرفِ (مَا)؛ لإفادةِ العُمومِ - وهو وإن أُريدَ به خصوصُ القرآنِ إلَّا أنَّ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/606.
(2) الشاطبي، المقاصد الشافية: 3/613.

العُمومَ مرادٌ -؛ ذلك أَنَّ الآيةَ أفادَتْ أمرين: الأوَّل: طلبُ الإيمانِ بالقرآنِ، الثَّاني: إقامةُ الدَّليلِ عليه بأنَّه منزَلٌ من عندِ اللّه تعالى؛ فكما أنَّ اليهودَ يدَّعون الإيمانَ بالتَّوراةِ لأنَّها نازلةٌ من عندِ اللّه؛ فَعَلَيْهِم الإيمانُ بالقرآنِ لأنَّه نازلٌ من عند اللّهِ كذلكَ، فدلالة العُمومِ ظاهرةٌ في أنَّ المطلوبَ هو الإيمانُ بما أنزلَه اللّه، بقطعِ النَّظرِ عن كونِه توراةً أو قرآنًا؛ فجمَعَ هذا الأسلوبُ الدَّعوَى ودليلَها، بعبارةٍ وجيزةٍ دالَّةٍ على المقْصُودِ.

نكتةُ حذفِ مُتعلَّقِ الفِعلِ ﴿أُنزِلَ﴾:

بيانُ أنَّ الإيمانَ هو بالمنزَلِ ابتداءً، وهو الذي تقومُ به الحُجَّةُ

لم يُقيَّدِ الفعلُ ﴿أُنزِلَ﴾ ببيانٍ على مَنْ أُنْزِلَ، معَ أنَّهُ جزءٌ مُتَمِّمٌ لوصفِ القرآنِ المَقصودِ بالدَّعوةِ؛ لمعرفتِه، ولدلالة اللِّحاقِ عليه، ولتأكيدِ أنَّ الإيمانَ هو بالمُنزَلِ ابتداءً؛ فالّذي تَلزَمُ بِهِ الحُجَّةُ كونُ القرآنِ مُنَزَّلًا مِنْ عندِ اللّهِ، فالقَيدُ المَحذوفُ لا مَدخلَ له في إلزامِ الحُجَّةِ.

نُكْتَةُ مَجِيءِ الفِعلِ ﴿نُؤْمِنُ﴾ بصيغةِ المُضَارِعِ:

التَّواري خلفَ الإيمانِ بالتَّوراةِ، تَعِلَّةٌ للامتناعِ عنِ الإيمانِ بالقُرآنِ

جاءَ قولُه تعالى على لِسانِ اليَهودِ: ﴿نُؤْمِنُ﴾ بصيغةِ المُضارِعِ؛ لبيانِ استمرارِ إيمانِهم المخصَّصِ بما أُنزِلَ عليهم وهو التَّوراةُ، وأرادوا كذلك "الاعْتِذَارَ وَتَعِلَّةَ أَنْفُسِهِمْ؛ لِأَنَّهُمْ لَمَّا قِيلَ لَهُمْ: آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ، عَلِمُوا أَنَّهُمْ إِنِ امْتَنَعُوا امْتِنَاعًا مُجَرَّدًا عُدَّتْ عَلَيْهِمْ شَنَاعَةُ الامْتِنَاعِ مِنَ الإِيمَانِ بِمَا يُدَّعَى أَنَّهُ أَنْزَلَهُ اللَّهُ؛ فَقَالُوا فِي مَعْذِرَتِهِمْ وَلِإِرْضَاءِ أَنْفُسِهِمْ نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا؛ أَيْ أَنَّ فَضِيلَةَ الانْتِسَابِ لِلإِيمَانِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَدْ حَصَلَتْ لَهُمْ؛ أَيْ: فَنَحْنُ نَكْتَفِي بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَزَادُوا إِذْ تَمَسَّكُوا بِذَلِكَ وَلَمْ يَرْفُضُوهُ"[1].

العُدُولُ عنِ الفِعلِ المَبنيِّ للفَاعلِ إلى المَبنيِّ للمفعولِ:

مبلغُ تعظيمِ اليَهودِ لأنفسِهم، وعدمُ العنايةِ بالأدبِ مع اللهِ تعالى

عدلَ النَّظمُ عن ذكرِ الفاعلِ في قولِه تعالى: ﴿أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾، ولم يوافقْ ما قبلَهُ مِنْ قولِه تعالى: ﴿بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾؛ لأنَّ غرضَ اليهود

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/607.

تعظيمُ أنفسِهم، وتَعظيمُ التَّوراةِ، فكأنَّ إيمانَهم بالتَّوراةِ حصلَ بِسَبَبِ خَصوصيَّة إنزالِها عليهم، ولِهذا أَتبعَهُ بِجملةِ الحالِ: ﴿وَيَكۡفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ﴾، معَ أنَّ الذي يُناسِبُ مقامَ ادِّعاءِ الإيمانِ بالتَّوراةِ، هو ذكرُ الفاعلِ ففيهِ تشريفٌ عظيمٌ، لكنَّهم عَدَلوا عن ذلك لسوءِ أَدبِهم وعدمِ اكتراثِهم إلَّا بأنفسِهم، وهذا من قبيحِ أقوالِهم، وهذا لا يُنافي العِلمَ بالفاعلِ؛ إذ لَا يُنَزِّلُ الكُتُبَ الإلَهِيَّةَ إلَّا اللَّهُ[1]؛ فإنَّ من شروطِ حذفِ الفاعلِ وإقامةِ المفعولِ مكانَه أَمْنَ اللَّبْسِ.

دلالة صيغة الفعل المضارع ﴿وَيَكۡفُرُونَ﴾:

كفرُ اليهودِ غيرُ مقيّدٍ بزمنٍ دون آخرَ، فهمْ يستمرُّونَ على الكفرِ بِمَا وراءَ ادِّعاءِ الإيمانِ بالتَّوراةِ حالًا فحالًا؛ فجاء الفعلُ مضارِعًا إشعارًا بالمداومةِ، ومُحَاكَاةً لِقَوْلِهِمْ: نُؤْمِنُ بِما أُنْزِلَ عَلَيْنا، وتصريحًا بما كَنَّوا عنه ولَوَّحُوا به بقولهم: ﴿نُؤۡمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا﴾[2].

الإعجاز الغيبيُّ في الإخبارِ عنِ المُداوَمَةِ على الكُفرِ زمنًا تِلْوَ الآخَرِ

بلاغةُ حَذفِ المُسندِ إليه في قولِهِ: ﴿وَيَكۡفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ﴾:

حُذِفَ المُسندُ إليه في الجملة الحاليّة: ﴿وَيَكۡفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ﴾؛ لاستحضارِه والعلمِ به بدلالة السِّياقِ، والتقدير: "وهم يكفرون"، ولتوجيه النَّظرِ إلى كفرِهم؛ فإنَّه شيءٌ عجيبٌ غريبٌ أَنْ يجتمعَ نقيضانِ؛ إذ قالوا نؤمنُ بالتَّوراةِ في حالِ أَنَّهم يكفرونَ بما هو مُصدِّق للتَّوراةِ!، فجاء قولُهم مُناقضًا حالَهم[3]؛ فآل الأمرُ إلى الاستدلالِ بإقامةِ الحجَّةِ عليهم؛ "لأَنَّهم إذا كَفَرُوا بما يُوافقُ التَّوراةَ فقدْ كَفروا بها"[4].

توجيه النَّظرِ إلى المُسندِ؛ فإنَّه مَحَطُّ الفائدةِ؛ لإظهارِ التَّعجُّبِ من تناقضِ اليهودِ

أَثَرُ مَعنَى المُفردةِ ﴿وَرَآءَهُۥ﴾ في اسْتِجْلاءِ البَلاغةِ:

يختلفُ بيانُ النُّكتةِ البيانيَّةِ بحسبِ تحديدِ معنى كلمةِ (وراءَ) في قولِه تعالَى: ﴿وَيَكۡفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ﴾؛ فإذا قلنا: إنَّ كلمةَ (وراءَ)

اجتماعُ الأقوالِ وتكاملُها في ذَمِّ من لا يُؤمنُ بالقرآنِ

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 1/492، والسمين، الدر المصون: 1/514.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/607.
(3) السمين، عمدة الحفاظ: 1/513.
(4) الزمخشري، الكشاف: 1/165.

بمعنى الخَلْفِ؛ فتكونُ إمَّا كنايةً عن رفضِهم الإيمانَ بالقرآنِ؛ إذ جعلوه وراءَ ظهورِهم، وإمَّا استعارةً تصريحيَّةً تبعيَّةً إذ شبَّهوا القرآنَ الّذي لم يؤمنُوا به بالشَّيءِ الذي يكونُ وراءَهم فلا يُرى، وإذا قلنا: إنَّ كلمةَ (وراءَ) بمعنى قدَّام؛ فيكون مدحًا للقرآنِ، إذ هو المُهيمنُ على الكُتُبِ المنزَّلةِ وإمامُها، ومن حَيثُ هو مدحٌ للقرآنِ هو ذمٌّ لهم إذْ كفروا به، ومثلُه لا يُكفرُ به، وعلى القَولين؛ فإنَّهما يتَكامَلانِ في ذمِّ اليهودِ لعَدمِ إيمانِهم بالقرآنِ.

معنى اللَّامِ في كلمةِ ﴿ٱلۡحَقُّ﴾:

اجتماعُ معاني الكمال والتَّمامِ في القرآنِ الكريم

إمَّا أنْ نحملَ اللَّامَ في كلمةِ ﴿ٱلۡحَقُّ﴾ على معنى كمالِ الصِّفةِ؛ أي: استغراقِ مَعنَى الوصفِ على سَبيلِ المَدحِ[1]، فالمَعنَى وصفُ القرآنِ بكمالِ الحَقِّ؛ لأنَّه ثابتٌ ولا زَوالَ له، فانتهَت غايةُ الحقِّ إليه، وما ثَبَتَ لغيرِه وَقتًا فَهو حَقٌّ، لكنَّه ليس الحقَّ الموصوفَ به القرآنُ.

وإمَّا أنْ نحملَها على مَعنَى الجنسِ؛ فيكونُ المرادُ وصفَ القرآنِ واشتهارَه بالحَقِّيَّةِ المعروفِ بها المُسَلَّم لَهُ الاتصافُ بها، وعلى معنى الجنسِ؛ فإمَّا أنْ تُفيدَ الحَصْرَ على مَعنَى أنَّ القرآنَ حقٌّ معَ كونِه مُصَدِّقًا، أو أنْ لا تُفيد الحَصْرَ؛ لأنَّ التَّوراةَ حقٌّ كذلكَ ومثلَها الإنجيلُ، وتكونُ فائدةُ تعريفِ المسندِ هنا زيادةَ التَّوبيخِ والتَّجهيلِ لبني إسرائيلَ بمَعنَى: وأنَّه خاصّةً هو الحقُّ الذي يقارِنُ تَصديقَ كتابِهم[2]، وكِلا المَعنَيَين الاستغراق والجنس مُتَحَقِّقٌ ثابتٌ للقرآنِ.

تحديدُ نوعِ الحالِ في قولِهِ: ﴿مُصَدِّقًا﴾:

التقاءُ مَعنَى التَّأكيدِ والتَّأسيسِ في بيانِ جُملةِ الحالِ

اختلفَ المفسِّرونَ في تَعيينِ نوعِ الحالِ في كلمةِ: ﴿مُصَدِّقًا﴾؛ فمن قال بأنَّ مَعنَى الحقِّ في قولِه: ﴿وَهُوَ ٱلۡحَقُّ﴾ هو تصديقُ الكتبِ السَّابقةِ؛ إذ لا يكونُ حقًّا إلَّا إذا صَدَّق الكتبَ السَّابقةَ[3]، فالمصدرُ

(1) ابن مالك، شرح الكافية الشافية: 1/323، والمرادي، الجنى الداني، ص: 149.
(2) الخفاجي، عناية القاضي: 2/329، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/608.
(3) الزجاج، معاني القرآن: 1/174.

واحدٌ، ويُقصَدُ بالحالِ المؤكِّدة تقريرُ المعنى وتأكيدُه، وفيها فائدةٌ وهي أنَّها تأتي لازمةً لِمَا سَبقَها، فضلًا عن أنّ فائدةَ التأكيد بيانُ أهميَّةِ المؤكَّد وعِظَم شأنه.

ومن قال بأنَّ الحقَّ لا علاقةَ له بكونه مصدِّقًا أو غيرَ مُصدِّق، بل الحقُّ في نفسه حَقٌّ سواءٌ أكان مصدِّقًا لغيره أم لا، قال بأنَّ الحالَ مُؤسِّسةٌ[1]؛ "لأنَّ قَوْلَهُ: ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ﴾ مُشْعِرٌ بِوَصْفٍ زَائِدٍ عَلَى مَضْمُون ﴿وَهُوَ ٱلْحَقُّ﴾ إِذْ قَدْ يَكُونُ الْكِتَابُ حَقًّا وَلَا يُصَدِّقُ كِتَابًا آخَرَ وَلَا يُكَذِّبُهُ"[2].

ولا تعارضَ بين القولين؛ إذ مفهومُ التَّأسيسِ يلتقي بما يُفيدُه التَّأكيدُ، لكنْ لا باعتبارِه شرطًا كما هو الأمرُ في التَّأكيدِ.

فائِدَةُ الفَصْل في المُحاجَّةِ:

مُباغَتَةُ القومِ بإلقامِ لَهَواتِ حَناجِرِهم الحجرَ الصَّلدَ، جزاءً لأعمالِهم الباطلةِ

فُصِلَتْ جملةُ: ﴿قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ﴾ عمَّا قبلَها؛ لأنَّها "اعْتِرَاضٌ[3] في أَثْنَاءِ ذِكْرِ أَحْوَالِهِمْ قَصَدَ بِهِ الرَّدَّ عَلَيْهِمْ في مَعْذِرَتِهِمْ هَذِهِ؛ لإِظْهَارِ أَن مُعاداةَ الأَنْبِيَاء دَأْبٌ لَهُمْ، وَأَنَّ قَوْلَهُمْ: ﴿نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾ كَذِبٌ؛ إِذْ لَوْ كَانَ حَقًّا لَمَا قَتَلَ أسلافُهم الْأَنْبِيَاءَ الَّذِينَ هُمْ مِنْ قَوْمِهِمْ وَدَعَوْهُمْ إِلَى تَأْيِيدِ التَّوْرَاةِ، وَالأَمْرِ بِالعَمَلِ بِهَا، وَلَكِنَّهُمْ يُعْرِضُونَ عَنْ كُلِّ مَا لَا يُوَافِقُ أَهْوَاءَهُمْ، وَهَذَا إِلْزَامٌ لِلحَاضِرِينَ بِمَا فَعَلَهُ أَسْلَافُهُمْ؛ لأَنَّهُمْ يَرَوْنَهُمْ عَلَى حَقٍّ فِيمَا فَعَلُوا من قتل الأَنْبِيَاء"[4]، وفائدةُ الفصْلِ: مُباغتةُ القومِ بإلقامِ لهواتِ حناجرِهم الحجرَ الصَّلدَ؛ فإنَّهم في غمرةِ باطلِهم ساهُون عمَّا يُحيطُ بهم من أفعالِ الباطلِ الّتي تُجلِّلُهم من كلِّ اتِّجاه؛ فكان هذا الفصلُ مُباغتًا غيرَ متوقَّعٍ.

بلاغةُ تقديمِ جوابِ الشَّرطِ:

بيانُ بَشاعةِ الأفعالِ بذكرِ أقبَحِها على الإطلاقِ

قُدِّمَ جوابُ الشَّرطِ ﴿فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ﴾ على شرطِه ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ على رأي الكُوفِيين[5]؛ لبيانِ بَشاعةِ أفعالِهم بذكرِ

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/171، والسهيلي، نتائج الفكر: 1/305.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/608.
(3) البيضاوي، أنوار التنزيل: 1/94.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/608.
(5) الآلوسي، روح المعاني: 1/325.

أقْبَحِها على الإطلاق - وهو قتلُ الأنبياء - ولتقويةِ مَعنَى المُباغتةِ الّذي أرادتْه الجُملةُ في إلقامِهم الحُجَّة، وعلى رأي جُمهورِ النُّحاةِ أنْ لا تقديمَ في الكلام[1]؛ فيكون الكلامُ على أصلِه، وهو ما يُمحِّضُ مَعنَى المُباغتةِ وإنكارِ ما قامَ بهِ أولئكَ بأنبيائِهم.

بَديعُ الاحْتِباكِ:

إيجازُ الألفاظِ، دليلٌ على اكتنازِها بالمَعاني

تضمَّن قولُه تعالى: ﴿فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ فنَّ الاحْتِباكِ البديعي[2]؛ إذْ حَذَف من الجملةِ الأولى ﴿فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ﴾ ما ذَكَرَه في الثانية ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾، وحَذَفَ من الثَّانية ما ذَكَرَه في الأولى[3]، فيكونُ تقديرُ الكلام: إنْ كُنتم مؤمنينَ؛ فَلِمَ تَقتلونَ أَنبياءَ اللّهِ مِنْ قَبْلُ، فَلِمَ تَقتلونَ أَنبياءَ اللّهِ مِنْ قَبْلُ إنْ كُنتُم مُؤمنينَ، وَهو وإنْ كانَ مُتكلَّفًا في التَّقديرِ، إلَّا أنَّه مُستساغٌ في الظَّاهِرِ.

معنى الاستفهامِ في قولِه تعالَى: ﴿فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ﴾:

بيانُ شديدِ الإنكارِ، تبكيتًا وتقريعًا وتشنيعًا

أَفادَ الاستفهامُ في قولِه تعالَى: ﴿فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ﴾ الإنكارَ البليغَ، تبكيتًا لفعلِهم وتَقريعًا لهم وتَشنيعًا[4]، وحُذِفتْ أَلفُ (مَا) فَرْقًا بين الاستفهاميَّةِ والخَبَريَّةِ[5].

بيانُ مَعنَى التَّهكم بتَقديرِ المَحذوفِ:

نزْعُ صفةِ الإيمانِ عن المُخاطَبين، بحَملِ الكلامِ على الاتِّساعِ المُستَساغ

يُشْعِرُ الشَّرطُ ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ بالتَّهكُّم والاستهزاءِ، كَمَا تَقُولُ لِمَنْ بَدَا مِنْهُ مَا لَا يُنَاسِبُهُ: فَعَلْتَ كَذَا وَأَنْتَ عَاقِلٌ، أَيْ بِزَعْمِكَ[6]؛ فيكونُ معنى الشَّرطِ ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ بزعمِكم أَنَّكُم مُؤمنونَ؛ وعليه

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 1/179، والسمين، الدر المصون: 1/517.
(2) وهو أن يجتمع في الكلام متقابلان؛ فيحذف من كل واحد منهما مُقَابِلُهُ لدلالة الآخر عليه، يُنظر: الزركشي، البرهان: 3/129، والجرجاني، التعريفات، ص: 12.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 1/325.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 1/324.
(5) البغوي، تفسير البغوي: 1/143، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/130.
(6) أبو حيان، البحر المحيط: 1/493.

فَلَمْ يُثبِتِ الإيمانَ لَهُم، بل نفاهُ عَنْهم، لِمُقتضى التَّشكيكِ الحاصلِ بـ﴿إِن﴾؛ أَي: فليسَ إيمانُكم إيمانًا إذَا كان يَدْعُو إلى قَتلِ الأَنبياءِ[1]، فخرجت أَداةُ الشَّرطِ ﴿إِن﴾ عنْ أَصلِ وضْعِها الّذي هو الشَّكُّ إلى معنى النَّفي على المجازِ، وهذا على جعْلِ جُملةِ الشَّرطِ على أَصلِها في النَّظمِ، لا على أصلِها في الظَّاهِرِ؛ أَي: دونَ تَقديمٍ أَو تَأخيرٍ.

الإضافَةُ للاختِصاصِ المُقتَضي التَّشريفَ:

والإضافَةُ تَحملُ مَعنَى التَّخصيصِ الّذي يَقتَضِي تَشريفَ الأنبياءِ وقُربَهم من اللّه[2]، فأفادَ هذا الأسلوبُ الشّرطيُّ التّكرارَ وتقديمَ ما ظاهِرُه التأخيرُ، وكلا الأسلوبَين يُفيدان الاهتِمامَ والعِنايَةَ وتَقريرَ مَعنَى الإنكارِ على فِعلِهم، ولا بدّ من الإشارَةِ إلى أنَّ بعضَ النُّحاةِ والمُفسّرين ذَهَبُوا إلى أنْ لا تَقديمَ ولا تأخيرَ في الجَوابِ والشّرطِ، بل هو على حالِهِ؛ إذ قدّم الجوابَ على الشَّرطِ[3]، فيكونُ في الكلامِ تَقديمٌ وتأخيرٌ من غيرِ تَكرارٍ.

معنى الإضَافةِ في قوله ﴿أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ﴾:

حملتْ الإضافةُ معنى أنَّهم أنبياءُ مُرسَلون من اللّهِ تعالَى، أو أنبياءُ للّه تعالَى في دَعوتِهم وأعمالِهم، أو كلاهما وهو الصَّحيحُ، "وفي إضافة أَنْبياءَ إلى الاسمِ الكَريمِ تَشريفٌ عَظيمٌ، وإيذانٌ بأنَّه كان يَنبَغي لمن جاءَ من عندِ اللّهِ تعالى أنْ يُعظَّم ويُنصَر، لا أنْ يُقتَل"[4].

تشريفُ الأنبياءِ بكونِهم مُرسَلين من اللهِ تَعَالى، وأنَّ أعمالَهم خالصةٌ لَهُ

سِرُّ اقترانِ الحالِ والاستِقبالِ بقَيدِ الماضي:

للسَّائلِ أنْ يسألَ عن سرِّ ذكرِ صيغةِ المُضارعِ ﴿تَقْتُلُونَ﴾ المفيدةِ للحالِ والاستقبالِ، مع اقترانِها بقيدِ ﴿مِن قَبْلُ﴾، وكونِ الخطابِ لليَهودِ المُعاصِرين لنزولِ القرآنِ؟!. والجوابُ: أنَّه أتى بالمضارِعِ

الرِّضا بفعلِ الأسلافِ يُؤدِّي إلى العَزمِ على مُشابَهتِهم

(1) الزجاج، معاني القرآن وإعرابه: 1/175.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 1/493.
(3) ابن عطية، المحرر الوجيز: 1/179، والسمين، الدر المصون: 1/517.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 1/325.

لاستحْضَارِ بَشاعةِ صُورَةِ قَتْلِ الأنبياءِ، كأنَّه وَقَعَ وقتَ نزولِ الآيةِ، تأكيدًا لغَضَبِ اللّهِ تعالَى على هذا الفعلِ، وأنَّه سُبحانه مُعاقِبٌ مَن اقترَفَه ورَضِيَ به؛ ليدخُلَ المُعاصِرون المتابِعون لمنهجِ أسلافِهم، فوقعَ قيدُ ﴿مِن قَبْلُ﴾ احتراسًا أن يظنَّ ظانٌّ أنَّ القتلَ كان منهُم مباشرةً، وتأكيدًا لرضا الأتباعِ عمَّا اقترَفه الأسلافُ؛ فذِكرُ ﴿مِن قَبْلُ﴾ بَعد خِطابِ المُعاصِرين بيانٌ لِرِضَاهم بِما حَصَلَ منْ قَبْلُ على أيدي أَسْلافِهم الّذين خُوطِبوا به، فنُزِّل المعاصِرُون منزلةَ الأسلافِ بالخطابِ، وبقيد ﴿مِن قَبْلُ﴾، كأنَّهم كانوا من قَبْلُ؛ فَصَنَعوا صَنيعَهم، وهذا من تمامِ التَّأكيدِ بل المبالغة فيه، فهذا شأنهُم الّذي يُداومُون عليهِ. ولـمّا كانوا راضين بفعلِ آبائهم صَراحةً، عازِمين عليهِ مع سيِّدِ الخلقِ إشارةً؛ أُسْنِدَ القتلُ إليهم[1].

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 1/179، والرازي، التّفسير الكبير: 3/603، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 1/94.

﴿وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٩٢﴾﴾ [البقرة: 92]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

بعدَ ذكرِ قتلِ أنبياءِ اللّهِ مِنْ قِبَلِ اليهودِ، ناسبَ أَنْ يذكُرَ جَريمةً أخرى من جرائمِهم، وهي اتِّخاذُ العِجلِ بعدَ مَجيءِ موسى - عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ - بالبيِّناتِ، بقصدِ إقامةِ الحُجَّةِ عليهم، وتعليمِ النَّاسِ أنَّهم أدْعياءُ الباطلِ، لا تَنطلي أقوالُهم وادِّعاءاتُهم إلَّا على غافلٍ أو مُتغافلٍ، وتَوبيخِهم على مَوقفِهم بعد رِضاهُم على نَهْجِ آبائهم واستِمرارِهم عليهِ، وعَطَفَ قصَّةَ اتِّخاذِ العِجلِ، على قصَّةِ قتلِ أنبياءِ اللّهِ، تدرُّجًا بذكرِ الأقدمِ فالأقدمِ، من قبيلِ التَّرقّي من الأقربِ إلى الأبعدِ؛ لبيانِ أنَّهم أجيالٌ يأخُذُ بعضُهم عن بعضٍ، فكما أخذَ القتلةُ منهجَهم عن متَّخذي العجلِ إلهًا، فالمُعاصِرون كذلك أخَذُوا المَنهجَ كابرًا عن كابرٍ.

قال الفخر الرّازي في بيان وجه مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها: "لَمّا حَكى طَرِيقَةَ اليَهُودِ في زَمانِ مُحَمَّدٍ ﷺ ووَصَفَهم بالعِنادِ والتَّكْذِيبِ ومَثَّلَهم بِسَلَفِهِمْ في قَتْلِهِمُ الأنْبِياءَ الَّذِي يُناسِبُ التَّكْذِيبَ لَهم بَلْ يَزِيدُ عَلَيْهِ، أعادَ ذِكْرَ مُوسى عليه السلام وما جاءَ بِهِ مِنَ البَيِّناتِ وأنَّهم مَعَ وُضُوحِ ذَلِكَ أجازُوا أنْ يَتَّخِذُوا العِجْلَ إلَهًا، وهو مَعَ ذَلِكَ صابِرٌ ثابِتٌ عَلى الدُّعاءِ إلى رَبِّهِ والتَّمَسُّكِ بِدِينِهِ وشَرْعِهِ، فَكَذَلِكَ القَوْلُ في حالِي مَعَكم وإنْ بالَغْتُمْ في التَّكْذِيبِ والإنْكارِ"[1].

شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

1) ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾: جمعُ بيّنةٍ، وأَصلُ الكلمةِ (بَانَ)، يُقالُ: بَانَ الشَّيْءُ بَيَانًا وَأَبَانَ؛ إِذَا اتَّضَحَ وَانْكَشَفَ، فَهُوَ بَيِّنٌ، والبَيِّنَة: الدّلالة الواضحةُ عقليَّةً كانَتْ أَو مَحسوسَةً، وهِيَ مِنْ إبانَةِ أَحَدِ الشَّيئينِ عن الآخَرِ فَيزولُ الالتباسُ بِها[2].

(1) الرازي، مفاتيح الغيب: 3/201.

(2) السمين، عمدة الحفاظ: (بَيَنَ)، وينظر: الواحدي، الوسيط: 1/180.

2) ﴿ٱتَّخَذۡتُمُ﴾: أصلُ الكَلمةِ (أَخَذَ)، ويَدورُ المَعنَى على: حَوْزِ الشَّيءِ وتَحْصيلِه، وهو خِلَافُ العَطَاءِ، واتَّخَذَ بوزنِ افْتَعَلَ، أَصْلُهُ ٱتَخَذَ، والاتِّخاذُ: افْتِعَالٌ مِنَ الأَخْذِ، إلّا أَنَّه أُبدلَتِ الهمزةُ تاءً ثُمَّ أُدْغِمَتْ مَعَ تاءِ الافتعالِ، والاتِّخاذ: إذا كانَ بمعنَى الكسْبِ تعدَّى لواحدٍ، وإنْ كان بمعنى التَّصيير تعدَّى لاثنين، وهو في الآية متعدٍّ لمفعولين، إذ التّقدير: اتَّخذتم العجلَ إلهًا، وعليه فمعنى: ﴿ٱتَّخَذۡتُمُ﴾: جَعلتم وصَيَّرتم[1].

3) ﴿ٱلۡعِجۡلَ﴾: مَعْرُوفٌ، وَهُوَ وَلَدُ البَقَرَةِ الصَّغِيرُ الذَّكَرُ، والمرادُ في الآيةِ الَّذي صَنَعَهُ لَهُمُ السَّامريُّ مِن حُليّهم، وجَعَلُوهُ إلَهًا وعَبَدوه، وسُمِّيَ ولدُ البقرةِ عِجلًا؛ لِتَصَوّرِ عَجَلَتِه الَّتي تُعْدَمُ منه إذا صارَ ثَورًا[2].

4) ﴿ظَٰلِمُونَ﴾: الظَّاءُ وَاللَّامُ وَالمِيمُ كلمة تَدورُ على مَعنَيَين؛ أَحدهمَا: خِلَافُ الضِّيَاءِ وَالنُّورِ، ومنه: الظُّلْمَةُ، وَالجَمْعُ: ظُلُمَاتٌ، وَالآخَر: وَضْعُ الشَّيْءِ في غَيْرِ مَوْضِعِهِ تَعَدِّيًا، إمّا بنُقصانٍ أو بزيادةٍ، وإمّا بعدولٍ عن وقتِه أو مكانِه، ويقالُ فيما يَكثرُ وفيما يَقِلّ مِنَ التّجاوزِ، ولِهذا يُستعملُ في الذّنبِ الكبيرِ، فيقالُ للكافرِ: ظالمٌ، وأَعظمُ الظُّلم الشِّركُ باللّهِ تعالى، ﴿إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ﴾ [لقمان/ 13]، كما يُستعملُ الظُّلمُ في الذَّنْبِ الصّغيرِ؛ فيقالُ لصاحبِه ظالمٌ[3]، ومعنى ﴿ظَٰلِمُونَ﴾ في الآية: متجاوزون حدود اللّه، صارفون العبادة لغير اللّه.

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

وَلَقَد جاءَكُمْ مُوسى بِالدَّلَالَاتِ الوَاضِحَةِ وَالمُعْجِزَاتِ البَاهِرَةِ؛ كالطوفان والجراد والقُمَّل والضفادع، وغير ذلك مما ذكره اللّه في القرآن العظيم؛ فلم تَعمَلُوا بها مع وُضوحِها، بل اتَّخذْتُم العِجلَ إلَهًا لكُم تعبدونه بعد ذهاب موسى لميقات ربّه، وأنتم في حالِ عبادتِكُم العِجلَ ظالِمُون؛ إذْ وَضعتُمُ العبادةَ في غَيرِ موضعِها، وأيُّ ظُلم أَعظمُ مِنَ الإشراكِ باللّهِ؟، أَو المعنى: وأَنتم قومٌ عادتُكُم الظُّلمُ، فصارَ سَجِيَّةً لكم، فَمَنْ آمنَ بِمَا أُنْزِلَ عليه كيفَ يَتَّخِذُ العِجلَ إلهًا، وقدْ بلغتْهُ الدَّعوةُ وقامتِ الحُجَّةُ عليه؟! فهذهِ الآيةُ ردٌّ

(1) الرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (أَخَذ).
(2) السمين، عمدة الحفاظ: 3/33.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (ظلم).

عليهم في قولِهم إنَّهم لا يُؤمنونَ إلّا بما أُنزل إليهم، وتكذيبٌ لَهم في دَعواهُم، وتسليةٌ للرسول ﷺ وتثبيتٌ له[1].

الإيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

بلاغةُ الوَصْل:

تعليمُ المُحاجَّة بالإخبارِ عن غَيبِ الماضي، وهذا من دَلائلِ صِدقِ الرَّسولِ والرِّسالةِ

جاءَتْ هذهِ الآيةُ على طَريقَةِ الوَصلِ مَعطوفَةً عَلَى قَوْلِهِ تعالى: ﴿فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: 91]، والتّقديرُ: "قل: فلِمَ تقتُلُون أنبياءَ اللّهِ... ولقدْ جاءَكُم مُوسَى بالبيّناتِ"؛ أي: قلْ هذا، وهذا على سَبيلِ المُجادَلَةِ وإقامةِ الحُجّةِ عليهم[2]، وهي من طرائِقِ تَعليم الرَّسولِ ﷺ المُحاجَّةَ بالغَيبِ الّذي لا يقبلُ المخاصَمة.

سرُّ التَّأكيدِ لما ظاهِرُهُ لا يَحتاجُ إلى تَأكيدٍ:

مُقتَضَى اتِّخاذِ العِجلِ إنكارُ البيِّناتِ الواضِحاتِ

المُخاطَبون من اليَهودِ مُقِرُّون بمجيءِ مُوسَى -عليه السلام- بالبيِّناتِ، وإنْ كان عندَهم شيءٌ من المُشاغبةِ فهو في اتِّخاذِ العِجْلِ، فيُسألُ عن سرِّ تأكيدِ الآيةِ بتأكيدَينِ للأمرَين معًا، دون الاكتِفاءِ بتأكيدِ اتِّخاذِ العجلِ؛ "فَهَلَّا قيل: ولقد اتَّخذتُم العِجلَ مِنْ بعدِ ما جَاءَكُم مُوسَى بالبيِّناتِ؟ فالجواب: إنَّه ظَهرتْ عليهِ مَخايلُ الإنكارِ لِمجيئِهِ لَهُم بالبيّناتِ بسببِ اتّخاذِهم العِجْلَ؛ فلذلك عَطَفَهُ عليه (بَيانًا لسَببِه) المُوجِب للقَسَمِ"[3]؛ أي: إنَّهم لمَّا اتَّخذُوا العجلَ؛ فكأنَّهم أَنكرُوا مجيءَ مُوسَى -عليه السلام- بالبيِّناتِ! فكان التَّأكيدُ مُناسِبًا لمُقتَضى حالِهم، وبه يتخرَّجُ لنا ذمٌّ جديدٌ لهم، بإنكارِهم للبيِّناتِ التي أَتى بها مُوسَى -عليه السلام-.

معنى الباءِ في قولِهِ ﴿بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾:

أفادت الباءُ في قولِهِ ﴿بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ المُلابسَةَ على مَعنى المَعيَّةِ؛

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 1/108، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 1/94، والنيسابوري، غرائب القرآن: 1/336.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/325.

(3) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/372.

أَي: لقدْ جاءَ مُوسَى والبيّناتُ مُتَلَبِّسَةٌ بِهِ، فجاءتِ (الباءُ) لِتُفيدَ تَلَبُّسَ مُوسَى عليه السلام بالبيّنات لِشِدّةِ مَعِيَّتِه لها، وأَنَّه بمجرَّدِ مَجيئِه بها ظَهرَتِ الدَّلائلُ على وحدانيَّةِ اللّهِ.

نُكتةُ استعمالِ(ثُمَّ) دونَ (الواوِ) في قولِه تعالى ﴿ثُمَّ ٱتَّخَذۡتُمُ﴾:

نُشوءُ مَعنَى الاستِبعادِ والتَّعجُّبِ عن التَّراخي الزَّمنيِّ

استُعمِل حرفُ التَّراخي (ثُمَّ) ولم تُستعمل (الواو)، فلم يقل: "واتّخذتُم العِجلَ"؛ لنكتٍ معنوية، وهي:

الأولى: أنَّهم لمْ يتَّخذوا العجلَ مباشرةً بعد مجيءِ الآياتِ البيِّنات، وإنَّمَا بعدَ مهلةٍ مكَّنَتْهُم من تدبُّرِ الآياتِ البيّنَاتِ الوَاضحاتِ، والنَّظَرِ فيها، ومعَ ذلكَ فقد اتَّخذُوا العجلَ، وفيهِ من شديدِ التَّقريعِ والتَّوبيخِ ما لو عَطفَ بالواو[1].

الثَّانية: أنّ اتخاذَهم العجلَ إلهًا في غايةِ الاستبعادِ[2]؛ فلا يُعقلُ بعدَ مجيءِ البيِّناتِ الواضِحاتِ، وفَهمِها على وجهِها، أنْ يُتَّخذَ العِجْل!.

الثَّالثة: التَّعجُّبُ ممَّن هذه حالُه؛ إذْ مرورُ تلك المدَّةِ يَقتضي الثَّباتَ على الحقِّ والتَّوحيد، لا الكُفرَ والشِّركَ؛ وذلكَ لتَرتُّبِه على أوضَحِ بيانٍ على وحدانيَّةِ اللّهِ؛ فكأنَّه قال: كيفَ تَتَّخذونَ عِجْلًا إلهًا بعدَ مجيءِ الآياتِ البيّناتِ الدّالَّةِ على صدقِ مُوسَى عليه السلام وَوَحْدَانِيَّةِ اللّهِ؟!

سرُّ التَّعبيرِ بالاتِّخاذِ:

اتِّخاذُ العِجلِ لم يبلُغ مَبلغَ العِبادةِ التَّامةِ، فكان هو الأصدَقَ في وصفِ فِعلِهم

قال اللّهُ تعالى: ﴿ٱتَّخَذۡتُمُ ٱلۡعِجۡلَ﴾، ولم يَقُل: (عَبَدتم العِجْلَ)، على أنَّ الظَّاهر هو العِبادةُ، وهذا في القرآنِ كلِّه، فيُسألُ عن سرِّ ذلك؟ والجوابُ عنه: أنَّ الاتِّخاذَ فيه مَعنَى حوزِ الشَّيءِ وتَحصيلِه بعدَ الطَّلبِ، "مِثل الدَّار يتَّخذُها مَسكنًا"[3]؛ فالمتَّخذُ مُريدٌ للشّيءِ راغبٌ فيه مستمرٌّ عليه، كأنَّه حَصَلَ على مُبتغاه؛ ولهذا كانَ حالُ

(1) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 1/261، وابن عطية، المحرر الوجيز: 1/180، والبقاعي، نظم الدرر: 2/50.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 2/50.
(3) أبو هلال العسكري، الفروق اللغوية، ص: 138.

بني إسرائيلَ بعدَ اتِّخاذِهم العِجلَ أنَّهم أُشْرِبوا في قلوبِهم العِجلَ، وأمّا العِبادةُ فهي تمامُ الخُضوعِ والانقيادِ، وهم لمْ ينقادُوا للعجلِ في جميعِ أُمورِهم، بل فيما يُوافق أهواءَهم، كما أنَّ اقترانَ فعل (عبدتم) بالعجل فيه شَناعةٌ قبيحةٌ، فكان استعمالُ ﴿ٱتَّخَذۡتُمُ﴾ هو الأنسَبَ لسِياقِ الكلامِ ونَظمِه.

من ناحية الفعل ﴿ٱتَّخَذۡتُمُ﴾ فيه تكلّفٌ واجتهادٌ للقيام بالفعل، وهذا يوحي بأنّهم بعبادتهم العجل مُخالفون للفطرة السّليمة.

بلاغَةُ الإيجازِ بحَذفِ المَفعولِ:

استجماعُ خفيّاتِ النُّفوسِ من أسبابِ اتِّخاذِ العجلِ، وتقديرِها بحُسنِ التَّدبُّرِ

يأخُذُ فعلُ ﴿ٱتَّخَذۡتُمُ﴾ مفعولَيْن، ذكرتِ الآيةُ الأوَّلَ، وحذفتِ الثَّاني، وتقديره: إلهًا[1]، وقد حُذِفَ لعلمِ المخاطَبِ به[2]؛ فالسِّياقُ يدُلُّ على المحذوفِ، فكيفَ إذا اجتمعَ للحَذفِ نِكاتٌ أخرى، منها: صونُ ذكرِه لئلا يصرَّحَ بوصفِ العجلِ بالألوهيَّةِ الدَّال على قبحِ الوصفِ وشَناعتِه، فحذفُه أَنسَبُ بالمقامِ[3]، ولإفادةِ عمومِ اتِّخاذِ العجلِ؛ أي: إنَّكم اتَّخذتُمُ العِجلَ معبودًا وسندًا تَلجَؤون إليه، وحَبيبًا قد أُشرِبَتْ قلوبُكُم حُبَّه، فَيصِحُّ تقديرُ مفعولٍ ثانٍ يَتَضَمَّنُ صِفاتٍ من أَجلِها اتُّخذَ العجلُ، وذهبَ بعضُ المفسِّرين إلى توجيهِ آخرَ، وهو أنَّ الفعلَ نَصَبَ مفعولًا واحدًا[4]، وما ذكرناه أولى وأنسبُ بالسِّياقِ.

فائِدَةُ قيدِ ﴿مِنۢ بَعۡدِهِۦ﴾:

الإشعارُ بالغَدرِ والخيانةِ الصَّادِرةِ عن بني إسرائيلَ

يُشعِرُ قيدُ ﴿مِنۢ بَعۡدِهِۦ﴾ بالغَدْرِ والخيانةِ؛ فإنَّ اتِّخاذَ العِجلِ لم يكن إلَّا من بَعدِ مَجيئِه بالبيِّنات وذَهابِه عنهُم؛ فهُم انتظروا ذَهابَه ليتَّخذوا العِجلَ، ولمَّا كان مُوسَى -عليه السلام- رسولًا وقائدًا، كان اتِّخاذُ ما يُخالفُه عينَ الغَدرِ والخيانةِ، ويُبيِّنُ الجُبنَ والنَّذالةَ فيما أتَوْا به من الاتِّخاذِ.

(1) الزجاج، معاني القرآن: 1/135، 2/397.
(2) الهروي، الغريبين: 1/52.
(3) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/372.
(4) أبو حيان، البحر المحيط: 1/323.

معنى (الواوِ) في قولِه: ﴿وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ﴾:

معنى الاستِئنافِ والحالِ يلتقيانِ في تعليلِ الأفعالِ

حرفُ (الواوِ) في قولِه تعالى ﴿وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ﴾: إمَّا أنْ يُحملَ على الحالِ أو الاستئنافِ، أمَّا حملُهُ على الحالِ فمعناه: وقوعُ الظُّلمِ فيهم، مِنْ مبدأِ الاتّخاذِ إلى مُنتَهاه، فلا عُذرَ و"لا شُبهةَ لكم في اتّخاذِهِ، بل ذلك مَحضُ ظُلمٍ مِنكُم وتَعنّت"[1]، وأمَّا حملُهُ على الاستئنافِ فمعناه: إخبارٌ منَ اللّهِ أنَّكم قومٌ عادتُكُم وسجيّتُكم الظُّلم[2]، وتكون الجملةُ اعتراضيةً لتَتميمِ المَعنَى وتذييلِهِ، وهذانِ المعنيانِ صَحيحانِ بقطعِ النَّظرِ عن التَّوصيفِ النَّحوي لهمَا؛ فإنَّهم اتَّصفُوا بالظُّلمِ حالَ اتِّخاذِهم العجلَ؛ لأنَّهم قومٌ ظالمون في الأصلِ، ففيهِ معنى التَّعليلِ.

نكتَةُ التَّعبيرِ بالجُملةِ الاسميَّةِ:

الـدّلالـة على ثُبوتِ الوَصفِ كُمونًا وحركةً

جاءت الجملة اسميَّة ﴿وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ﴾؛ لتدُلَّ على ثُبوتِ وصفِ الظُّلمِ لهم ودَوامِهِ فيهم، سواءٌ قلنا: إنَّ الجُملةَ حاليَّةٌ، أم قلنا: إنَّها استئنافيَّة؛ فإنَّ ثباتَ الظُّلمِ فيهم هو في سَجيَّتهم وعادتِهم، فهو ظلمٌ ثابتٌ كامِنٌ، وهو كذلك ثابتٌ وقتَ القيامِ بالاتِّخاذِ؛ فنَاسَبَ أنْ يكونَ الوصفُ بالجملةِ الاسميَّةِ؛ لأنَّها أبلغُ وآكَدُ من الجملةِ الفعليَّةِ، ولكلٍّ سياقُه ومناسبتُه في الكلامِ.

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/288.

(2) أبو حيان، البحر المحيط: 1/324، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 1/94.

﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَكُمۡ وَرَفَعۡنَا فَوۡقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُواْ مَآ ءَاتَيۡنَٰكُم بِقُوَّةٖ وَٱسۡمَعُواْۖ قَالُواْ سَمِعۡنَا وَعَصَيۡنَا وَأُشۡرِبُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡعِجۡلَ بِكُفۡرِهِمۡۚ قُلۡ بِئۡسَمَا يَأۡمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ٩٣﴾ [البقرة: 93]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

سِيقَتْ هذه الآيةُ لبيانِ تَوالي عِنادِ بني إسرائيلَ وحِيَلِهِم، وأنّهم مع الهَوَى لا يُفارِقونه في مُحاجّةٍ جَديدَةٍ وغَرَضٍ جديدٍ؛ فقد أخذَ اللّه تعالى ميثاقَهم وخوَّفَهم بجَبَلِ الطُّورِ، وأمرَهم بأنْ يأخذُوا ما في التَّوراةِ بقُوّةٍ وجِدٍّ، فكان ردُّهُم وجوابُهم أن قالوا: سَمِعنا وعَصَينا؛ فقد جاءتِ الآيةُ ردّا على الّذين لم يُؤمِنُوا بالنَّبيِّ مُحمّدٍ ﷺ في زَمَنِ نزولِ القُرآنِ حيث أقامَ دليلًا آخَرَ على إبطالِ دَعوى إيمانِهِم بالتَّوراةِ التي أنزِلَتْ إليهم، ودَعوى أنّ اللّه لا يُطالِبُهُم بالإيمانِ بغيرها.

شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

1) ﴿مِيثَٰقَكُمۡ﴾: أصل الكلمة (وَثِقَ)، وهي كَلِمَةٌ تَدُلُّ عَلَى عَقْدٍ وَإِحْكَام. ومنه: وَثَّقْتُ الشَّيْءَ: أَحْكَمْتُهُ، وعقدٌ وثيقٌ أي: مُحكَم، والوِثاقُ: ما يُشدُّ به الحَبلُ وغيرُه، ثمّ استعملَ المِيثاقُ بمَعنَى: العَهْدِ المُحْكَمِ، أو العقد المؤكّد بيمينٍ وعَهدٍ، وهو المراد في الآية[1].

2) ﴿ٱلطُّورَ﴾: اسمُ جبلٍ مَخصوصٍ، وقيل: اسمٌ لكلّ جبلٍ، ثمّ تَخصَّصَ بدليلِ تَخَصّصِهِ بالإضافةِ في قوله: ﴿وَطُورِ سِينِينَ﴾ [التين: 2]، وقوله ﴿تَخۡرُجُ مِن طُورِ سَيۡنَآءَ﴾ [المؤمنون: 20]. وعلى هذا القولِ تكونُ (ال) في قوله تعالى: ﴿وَرَفَعۡنَا فَوۡقَكُمُ ٱلطُّورَ﴾ للعهد العلمي[2].

3) ﴿بِقُوَّةٖ﴾: القُوَّةُ: نقيضُ الضَّعفِ، وتُستعملُ في معنى القدرةِ، فتكونُ في البدنِ نحو

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، والمعجم الوسيط: (وثق).
(2) الرّاغب، المفردات، والسمين، عمدة الحفاظ: (طور).

قولِه: ﴿وَقَالُواْ مَنۡ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةٗۖ﴾ [فصلت: 15]، وفي القلبِ نحو ﴿يَٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ بِقُوَّةٖۖ﴾ [مريم: 12]؛ أي: بقوّةِ قلبٍ، وفي القدرةِ الإلهيَّةِ مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٞ﴾ [المجادلة: 21]، والقوّةُ في الآية بمَعنَى: بِجِدٍّ وبعَزمٍ على أداءِ ما افترضَه اللّهُ عليكم[1].

4) ﴿وَٱسۡمَعُواْۖ﴾: أصلُهُ (سَمِعَ)، وهو قوّةٌ في الأذنِ بها تُدركُ الأصواتُ، وَسَمِعَ يَكُونُ بِقَصْدٍ وَبِدُونِهِ، واسْتَمَعَ لِمَا كَانَ بِقَصْدٍ؛ لِأَنَّهُ لَا يَكُونُ إِلَّا بِالإِصْغَاءِ، وَسَمِعْتُ كَلَامَهُ؛ أَيْ: فَهِمْتُ مَعْنَى لَفْظِهِ، فَإِنْ لَمْ تَفْهَمْهُ لِبُعْدٍ أَوْ لَغَطٍ فَهُوَ سَمَاعُ صَوْتٍ لَا سَمَاعُ كَلَامٍ، ولا يدلُّ السَّمعُ على الطّاعةِ إلّا في مَقامِ طلبِ الامتِثالِ، كقولنا: اسمَعْ كلامي، فالسَّمعُ هنا بمَعنَى طَلَبِ الامتِثالِ والطّاعة[2].

5) ﴿وَأُشۡرِبُواْ﴾: أصله شَرِبَ يَشْرَبُ شَرْباً وشُرْباً، والشُّرْبُ: تناولُ كلّ مائعٍ، ماءً كان أو غيره، والإِشْرابُ: مُخَالَطَةُ المَائِعِ الجَامِدَ، وَتُوُسِّعَ فِيهِ حَتَّى صَارَ فِي مخالَطَةِ لونٍ بلَونٍ، يقال: لَوْنٌ أُشْرِبَ بلَونٍ؛ أي: خُلِطَ. كأَنَّ أَحد اللَّوْنَين سُقِيَ اللَّونَ الآخَرَ؛ يُقَالُ: بياضٌ مُشْرَبٌ حُمْرَةً مُخَفَّفًا. وإذا شُدِّد كَانَ لِلتَّكْثِيرِ وَالمُبَالَغَةِ، وأُشْرِبَ فُلَانٌ حُبَّ شيءٍ؛ أَي: خالَطَ قَلْبَه. وأُشْرِبَ قلبُه مَحَبَّةَ هَذَا؛ أَي: حَلَّ مَحَلَّ الشَّرابِ؛ كأَنَّ الشَّيءَ المَحبوبَ شَرابٌ يَسْري في قَلبِ المُحبِّ ويُخالِطُه؛ كما يسري الشّرابُ العَذبُ الباردُ في اللَّهاة[3].

6) ﴿بِئۡسَمَا﴾: أَصلُ الكلمةِ من البُؤْس وهو الشِّدّةُ، مَنْقُولٌ مَنْ بَئِسَ فُلَانٌ إذا أَصاب بؤْسًا، فتكون بمعنى: شِدَّةِ الحربِ وشِدَّةِ العذابِ، والبؤسُ شِدَّةُ العَيشِ، ولا بأسَ عليكَ بمعنى لا شِدَّةَ عليكَ، ثُمَّ كَثُرَ حَتَّى قِيلَ: لَا بَأْسَ عَلَيْكَ؛ أَي لَا خَوْفَ، وبِئْسَ: كلمةٌ تُستعملُ في جميعِ المَذامّ ومُستوفيةٌ لَها[4].

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

يذكرُ اللّهُ في هذهِ الآيةِ تَوالي نِعَمِ اللّهِ على اليَهودِ وإمهالَهُ لَهُم، والخطابُ لليَهودِ في زَمَنِ نزولِ القرآنِ، وذَكَرَ أَفعالَ أَسلافِهِم ونَسَبها إليهم لأَنَّهم رَاضونَ بِها، سائرونَ

(1) الفراء، معاني القرآن: 1/43، والزجاج، معاني القرآن: 1/148، والرّاغب، المفردات، والسمين، الدر المصون: (قوي).
(2) الرّاغب، المفردات، والفيومي، المصباح المنير، والمعجم الوسيط: (سمع).
(3) الرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (شرب).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (بؤس).

على طريقِهم في الكُفرِ والعِنادِ والتّكذيبِ، وَإِذْ أَخَذْنا ميثاقَكُمْ بالعَمَلِ على ما في التَّوراةِ، وأعلينا فوق رؤوسكم الطورَ وجعلناه كالمِظَلَّةِ تَرهيبًا لكم حتَّى قَبِلتُم وأَعطيتُم الميثاقَ، خُذوا ما آتَيْناكُمْ مِن الكتابِ بِقُوَّةٍ بجدٍّ وعَزيمةٍ والتَزِمُوا ما فيهِ واسمعوه سَماعَ طاعةٍ، لكنَّهم قالوا سَمِعْنا قولَك وعَصَيْنا أوامرَك، فَخالفُوا في سَماعِهم وعَصَوا، مُبالغةً في التَّعَنُّتِ والعِصيانِ، فقدْ خالطَ قلبَهم حُبُّ عبادةِ العجلِ الذي اتَّخذوه إلهًا بِسببِ كفرِهم، إذْ كانوا يُؤمنونَ ببعضِ الكتابِ ويكفرونَ ببعضٍ، فَكذَّبَهم اللهُ فيما ادّعوه بأنَّهم يُؤمنونَ بما أُنْزِلَ إليهم، فأَمَرَ رسولَه مُحمَّدًا ﷺ، أو مَنْ يُجادلُهُم أنْ يَقولَ لَهم على طريقةِ عُمومِ الذَّمِّ: بِئْسَ الشَّيءُ الذي يَأْمُرُكُم بِهِ إيمانُكُم -الذي تَزعمونَهُ مِنْ أَنَّكُم تُؤمنونَ بِما أُنزِلَ إليكُم- تَكذيبُ الأنبياءِ وقتلُهم واتِّخاذُكُم العجلَ إلهًا لَكُم إنْ كنتُم مُؤمنينَ؛ فَنَفَى إيمانَهم بالتَّوراةِ؛ لِأَنَّ دعوى إيمانِهم باطِلَةٌ، فَأَفعالُهم تُناقضُ ما في التَّوراةِ.

❁ الإيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

بلاغَةُ الوَصلِ:

بيانُ تواصلِ الحِجاجِ في إقامةِ الأدلَّةِ على مَوقِفِ بني إسرائيلَ مِنْ نِعَمِ اللهِ عليهم

جاءت هذه الآيةُ على طَريقةِ الوَصلِ؛ وذلك لإظهارِ مناسبةِ ما قبلَها مِنَ الآياتِ مِنْ تذكيرِ اليَهودِ في زمنِ رسولِ اللهِ ﷺ بما حَصلَ معَ أَسلافِهم، فتكونُ معطوفةً على ما تقدَّمَها مِنَ الآياتِ الّتي ذكرتْ قبائِحَ أفعالِ اليَهودِ وأَقوالِهم، معَ طريقةٍ جديدةٍ في إقامةِ الحُجَّةِ عليهم، فتكونُ معطوفةً في الأَصلِ على قولِه تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ﴾ [البقرة: 40]؛ أي: اذْكُروا نِعمتي واذْكُروا إذْ أَخَذْنا ميثاقَكُم ورفعْنا فوقَكم الطُّورَ، لكنْ هذه الآيةُ سِيقَتْ مَساقًا جَديدًا في الاحْتجاجِ والاسْتدلالِ على بُطلانِ دَعوَى إيمانِ أَسلافِهم؛ لِيعلموا أَنَّ ما يَدَّعونَه مِنْ إيمانِهم بما أُنزِلَ عليهم باطلٌ كذلكَ.

تكرارُ الأغراضِ ليس تَكرارًا للآياتِ نظمًا ومعنًى محضًا

أَغراضُ التَّكرارِ في القرآنِ:

هذه الآيةُ ليستْ تكرارًا لقولِه تعالَى: ﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَكُمۡ وَرَفَعۡنَا فَوۡقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُواْ مَآ ءَاتَيۡنَٰكُم بِقُوَّةٖ وَٱذۡكُرُواْ مَا فِيهِ

﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: 63]، وإنَّما هي تكرارٌ لأغراضٍ سبقَ التَّنبيهُ عليها، وتكرارُ هذه الآيةِ عن الأولى لِمَا نيطَ بِهِ مِنَ الزِّيَادَةِ عَلَى مَا فِي الآيَةِ السَّابِقَةِ مَعْنًى فِي قَوْلِهِ: ﴿قَالُواْ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾، ولِلتَّنْبِيهِ عَلَى أَنَّ طَرِيقَتَهُمْ مَعَ مُحَمَّدٍ ﷺ طَرِيقَةُ أَسْلَافِهِمْ مَعَ مُوسَى، وَهَذَا إِلْزَامٌ لَهُمْ بِعَمَلِ أَسْلَافِهِمْ بِنَاءً عَلَى أَنَّ الفَرْعَ يَتْبَعُ أَصْلَهُ، وَالوَلَدَ نُسْخَةٌ مِنْ أَبِيهِ، وَهُوَ احْتِجَاجٌ خِطَابِيٌّ[1].

فائدةُ إيرادِ (إذ) مبدأَ الكلامِ:

التَّنبيهُ على أمرٍ غابرٍ للاتِّعاظِ منه في أمرٍ حاضِر

يغلبُ إيرادُ (إذ) عندَ الكلامِ على أَمرٍ له شَأنٌ، كأنْ يكونَ ميثاقًا مؤكَّدًا، أَو بيانَ نعمةٍ عظيمةٍ، أَو ارتكابَ ذَنبٍ عظيم؛ فيفيدُ إيرادُها التّنبيهَ على أَمرٍ عظيم وقعَ في زمنٍ ماضٍ، يَستحقُّ أَنْ يكونَ ما بعدَها مَثَلًا للذِّكرى والتّدبُّرِ والعِظَةِ، وقدِ اجْتمعَ في هذهِ الآيةِ التَّذكيرُ بالميثاقِ، ورفعِ الطُّورِ، وموقفِ اليَهودِ من أَمرِهم بالاتِّباعِ، والتَّنبيهِ على سَببِ العِصيانِ، وهو إشرابُهم حُبَّ العِجلِ في قلوبِهم بسببِ كُفرِهم ابتداءً.

بلاغةُ الإفرادِ فيما ظاهرُه الجَمعُ:

إلحاقُ الفُروعِ بأصلٍ واحدٍ، لتوقُّفِ اعتبارِها على اعتبارِه

جاء التَّعبيرُ عنِ الميثاقِ بالمُفرَدِ في قولِهِ تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ﴾، ولم يقل: (مواثيقكم)، مع أنَّ المَذكُورَ هو مَواثيقُ لا ميثاقٌ واحد؟! وتعليلُ ذلكَ أنَّ العهودَ التي أُخِذت عليهم مَردُّها إلى ميثاقٍ غليظٍ واحدٍ، وهو ميثاقُ العقيدةِ والتَّوحيد، فَمَنْ أَخلَّ به فقدْ أَخلَّ بالجَميعِ؛ فكانَ التَّنبيهُ عليه بالإفرادِ لبيانِ أنَّه المقصودُ أصالةً وغيرُه بالتَّبَعِ، فألحقَ الفُروعَ بأصلٍ واحدٍ لتأخذَ حكمَه؛ ولذلكَ كان التَّنبيهُ على علَّة الكفر في غالبِ الكلامِ، من مثلِ قولِهِ تعالى: ﴿وَأُشْرِبُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْۚ﴾، هو المقصودَ في الكلامِ المُنبَّه عليه.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/609.

بلاغةُ تقديمِ الظَّرفِ:

التَّخويفُ والتَّرهيبُ للحَثِّ على الامتِثالِ

قُدِّم ظرفُ المكانِ ﴿فَوۡقَكُمُ﴾ على ﴿ٱلطُّورَ﴾ لِبيانِ الاهتمامِ والعنايةِ بِكونِ الجَبلِ فوقَهم؛ فهذا أَدعى للتَّخويفِ والتَّرهيبِ؛ لِحثِّهم على الامتثالِ والطَّاعةِ، وهُمُ المعروفونَ بالتَّولّي والإِعراضِ، وما يُعطيهِ تقديمُ الظَّرفِ من استحضارِ صورةِ الجبلِ وهو فوقَهُم.

جمالُ الإيجاز بالحذفِ:

الحثُّ على المبادَرَةِ بالمُباغَتَةِ

أَوجز النَّظمُ الكلامَ بحذفِ القول، والتقديرُ: (قلْنا لَهم خُذُوا ما آتينَاكُم بِقوّة)؛ فحذَفَ ليَستَمِرَّ سياقُ الكلامِ بصيغةِ الخِطابِ المُفيدِ طلبَ المبادرةِ إلى الامتثالِ؛ لِمَا في مُخاطبةِ اللّهِ لهم مِنَ الرَّهبةِ المقرونةِ بوجُوبِ استحيائِهم مِنَ اللّهِ تعالى، وأَنْ لا يُعرِضُوا عن الامتثالِ، ولِمَا في ذلكَ من تحَقُّقِ عُنْصرِ المفاجأةِ في الخِطابِ، وبيانِ أَنَّهُ المقصودُ بالدَّرَجةِ الأولى للمُخاطَبين.

إيجازُ التَّعبيرِ بقولِه: ﴿وَٱسۡمَعُواْۖ﴾:

الأمرُ بالامتثالِ بكلمةٍ تَجمعُ بين طَلَبِ الإصغاءِ والفَهمِ، وطَلَبِ الامتثالِ والطَّاعةِ

التَّعبيرُ بـ﴿وَٱسۡمَعُواْۖ﴾: إمَّا أَنْ يكونَ كِنايةً عن الامتثالِ، وتَحْصيلًا للمأمورِ، وهوَ أَوقعُ بَيانًا مِنَ الإفصاحِ بِذِكرِهِ؛ فَيتحقَّقُ الملزومُ وهو طلبُ الإصغاءِ، ولازمُهُ وهو طلبُ الامتثالِ بكلمةٍ واحدةٍ، أو هو مَجازٌ مُرسَلٌ بإطلاقِ السَّببِ وإرادةِ المُسَبّبِ؛ فذَكَرَ فعلَ الطَّلبِ (اسْمَعُوا) وأَرادَ ما يَتَرَتَّبُ على الإصغاءِ مِنَ الامتثالِ والطَّاعةِ، والقرينةُ الطَّلبُ من الأَعلى إلى الأَدنى، ومآلُه تَحقُّقُ المَلزومِ واللازمِ بكلمةٍ واحدةٍ كذلكَ، والقومُ قد أُمروا بالطَّاعةِ، فغالَطُوا في ذلك، وحَملُوا الأَمرَ بالسَّماعِ على ظاهرِهِ الذي لا يفهمُهُ على ظاهرِه إلَّا أَصحابُ السَّماجةِ، فقالوا: ﴿سَمِعۡنَا وَعَصَيۡنَا﴾[1].

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/373.

تردُّدُ المعنى بين التَّأكيدِ والتَّأسيسِ:

تأكيدُ العامِّ بأخصِّ ما فيه يُشابِه معنى التَّأسيسِ

يحتملُ قولُه تعالَى: ﴿وَٱسۡمَعُواْۖ﴾ أنْ يكونَ تأكيدًا لقولِه: ﴿خُذُواْ مَآ ءَاتَيۡنَٰكُم بِقُوَّةٖ﴾، بأنْ يكونَ الأَخذُ بقوَّةٍ شاملًا لطلبِ الامتثالِ والطَّاعةِ، وقولُه: ﴿وَٱسۡمَعُواْۖ﴾ أكَّدَ ذلك، وتكونُ نكتةُ التَّأكيدِ هي الإشعارَ بأَنَّهم مَظِنَّةُ إِهْمَالِ الميثاقِ وَالإِخْلَالِ ببنودِه؛ ولهذا كانَ الميثاقُ عَهدًا مُوثَّقًا لِأنّهم في طبعِهم لا يَمتثلونَ بغيرِ مؤكِّداتٍ لِمَا يُطلَبُ مِنْهم.

ويحتمِلُ أن يكونَ قولُه: ﴿وَٱسۡمَعُواْۖ﴾ تأسيسًا لإيرادِ معنًى جديدٍ؛ بحملِ قولِه: ﴿خُذُواْ مَآ ءَاتَيۡنَٰكُم بِقُوَّةٖ﴾ على معنى: تلقَّوا تعاليمَ التَّوراة بجِدٍ وعَزمٍ واهتمام، فيكونُ معنى قولِه: ﴿وَٱسۡمَعُواْۖ﴾: أَصْغُوا إلى هذهِ التَّعاليم وتدبّروها وامْتَثِلُوها، "والظَّاهِرُ أَنَّ قَوْلَهُ: ﴿خُذُواْ مَآ ءَاتَيۡنَٰكُم بِقُوَّةٖ﴾ لَا يَشْمَلُ الِامْتِثَالَ؛ فَيَكُونُ قَوْلُهُ: ﴿وَٱسۡمَعُواْۖ﴾ دَالًّا عَلَى مَعْنًى جَدِيدٍ وَلَيْسَ تَأْكِيدًا"[1].

وقاعدةُ "التَّأسيسِ أولى من التَّأكيدِ" أصلٌ في فهمِ الكلامِ القرآنيِّ، إلَّا أنَّها غيرُ مطَّردةٍ؛ فالتَّأكيدُ هنا أظهرُ، إذ مقصودُه تأكيدُ ما اعتادَ بنو إسرائيلَ على نسيانِه؛ فهم بحاجةٍ إلى مُؤكِّداتٍ من الكلامِ كي يَمتَثِلوا، فأكَّدَ لهم بأكثرِ شَيْءٍ يَنفَلِتون منه وهو الامتثالُ، فهو من قَبيلِ تأكيدِ العامِّ بأخصِّ ما فيه؛ فيُشابِه معنى التَّأسيس، ونكتتُه عند ابنِ عاشور: "الإِشْعَارِ بِأَنَّهُمْ مَظِنَّةُ الإِهْمَالِ والإِخْلَالِ حَتَّى أَكَّدَ عَلَيْهِمْ ذَلِكَ قَبْلَ تَبَيُّنِ عَدَمِ امْتِثَالِهِمْ فِيمَا يَأْتِي"[2].

توجيهُ المُتشابِهِ اللَّفظيِّ:

جاءَ الأمرُ بالسَّماعِ في هذه الآية: ﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَكُمۡ وَرَفَعۡنَا فَوۡقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُواْ مَآ ءَاتَيۡنَٰكُم بِقُوَّةٖ وَٱسۡمَعُواْۖ﴾، بينما أمرَهم بذكرِ ما فيه في قولِه تعالى: ﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَكُمۡ وَرَفَعۡنَا فَوۡقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُواْ مَآ ءَاتَيۡنَٰكُم بِقُوَّةٖ وَٱذۡكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: 63]، والفرقُ بينهما أنَّ الآيةَ المتقدِّمةَ جاءَتْ في مساقِ التَّذكيرِ بإنعامِ اللهِ على بني إسرائيلَ،

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/610.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/610.

وبيانِ آلاءِ اللّهِ عليهم؛ لهذا قالَ في فاصِلَتِها: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾، وقالَ في الآيةِ التي بعدَها: ﴿فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾، فذَكَرَ فضلَهُ تعالى عليهم ورحمتَهُ، فكان المناسبَ أنْ يذكِّرَهُم بحفظِ ما في الكتابِ وتعاهدِه وأنْ لا ينسَوه، بَيْنما هذه الآية فيها بيانُ أقوالِهم القبيحةِ، وأفعالِهم الشَّنيعةِ التي استحقّوا بها الكفرَ، وإقامةُ الحُجَّةِ على كفرِهم في أقوالِهم وأفعالِهم، فناسبَ أنْ يقولَ: ﴿وَٱسْمَعُوا۟﴾؛ ليَصِلَ إلى عنادِهم بقولِهم: ﴿سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾.

نكتةُ الالتفاتِ من الخِطابِ إلى الغَيْبةِ:

نسبةُ القولِ إلى قائلِه، دون تجوُّزٍ في الكلامِ

وقعَ التفاتٌ في الخِطابِ في قولِه: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ﴾ إلى الغَيبةِ في قولِه: ﴿قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾، ولم يقل: قُلتُم سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا)، ونكتتُه: نِسبةُ القولِ إلى أَصحابِه على الحَقيقةِ دونَ تَجوُّزٍ في الكلامِ؛ فإنَّ هذا الكلامَ صَدَرَ عن المتقدِّمينَ، فنُسِبَ إليهم، واستمالةُ المُخاطَبين بإبعادِهم عن مثلِ هذا القولِ؛ تنشيطًا لقلُوبِهم، وتَحريكًا لمَشاعرِهم.

براعةُ الاستعارةِ القرآنيَّةِ:

بيانُ شدَّةِ تغلغلِ حُبِّ عِبادةِ العِجلِ في القلوبِ وأثرِه الخرافيِّ في الضَّلالِ

في قولِه تعالى: ﴿وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ﴾ استعارةٌ بديعةٌ؛ فالعِجلُ لا يُشرَب، لكنَّ الآيةَ شبَّهت شدَّةَ تَغلغُلِ حُبِّ العجلِ في قلوبِهم بالشَّيْءِ الذي يُشرَب، فشبَّهَت تداخُلَ حُبِّهمْ عبادةَ العجلِ في قلوبِهم بإشرابِ الصَبْغِ الثَّوبَ في شِدَّةِ الامتزاجِ، ثمَّ حذفَ المُشبَّهَ بهِ واستعارَ ما يدلُّ على الامتزاجِ في المشبَّهِ بهِ، وهو كلمةُ ﴿وَأُشْرِبُوا۟﴾؛ للدّلالة على أَنَّهُ حَلَّ مَحَلَّ الشَّرَابِ وَمَازَجَهُ، و"من عادةِ العربِ أَنَهم إذا أَرادوا العِبارةَ عنْ مُخامرةِ حُبٍّ أَو بُغضٍ في القلبِ أَنْ يستعيرُوا لَها اسمَ الشَّرابِ"[1]، وَإِنَّمَا عَبَّرَ عَنْ حُبِّ العِجْلِ

(1) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 1/262.

بالشُّرْبِ دُونَ الأَكْلِ، لِأَنَّ شُرْبَ المَاءِ يَتَغَلْغَلُ في الأَعْضَاءِ حَتَّى يَصِلَ إِلَى بَاطِنِهَا، وَأَمَّا الطَّعَامُ فلا يَتغلغلُ فِيهَا كتَغَلْغُلِ الماءِ، وهو يَرمي بحظٍّ وافرٍ لفهمِ شخصيَّةِ بني إِسْرائيل، وأثر ذلك في ثقافتِهم، وتعاملِهم مع الآخرين.

بلاغةُ حذفِ المضافِ:

بيانُ استحكامِ حُبِّ عبادةِ العِجلِ على قُلُوبِهم

أُسنِدَ فعلُ ﴿وَأُشْرِبُواْ﴾ إلى العِجلِ فصارَ: وأُشْرِبُوا في قلوبِهم حُبَّ عِبادةِ العجلِ؛ فَحَذفَ "حُبَّ عبادةِ"، وأَقامَ العجلَ مقامَ المضافِ، مُبالغةً في بيانِ استحكامِ العِجلِ في قلوبِهم؛ كَأَنَّهم أُشْرِبُوه بذاتِه، "ويَجِبُ أَنْ يُعلَمَ أَنَّهُ لو قيلَ: حُبُّ العجلِ، لم يكنْ له منَ المبالغةِ ما لَهُ بحذفِهِ؛ لِأَنَّ فيه تنبيهًا أنَّ لِفَرطِ شَغفِهم به ثَبَتَت صورةُ العجلِ في قلوبِهم راسخةً، وإنْ زالَتْ ذاتُه الجِسْميَّة،"[1]، وإنَّما كانَ التقديرُ (بِحُبِّ عبادةِ) لِقرينةِ (في قلوبِهم)؛ لِأَنَّ الإشرابَ لا يَختصُّ بالقلبِ؛ فلمّا ذكرَ ﴿فِي قُلُوبِهِمُ﴾ دلّ على أنّ المَحذوفَ هُوَ "حُبُّ عبادةِ".

نكتةُ التَّعبيرِ بصيغةِ المَبنيّ للمفعولِ:

بيانُ أثرِ الخُرافةِ في الاستيلاءِ على العُقولِ وإذهابِ مائها

جاء النَّظمُ بصيغةِ المبني للمفعولِ؛ لبيانِ أنَّهم فَقَدُوا عقولَهم بعبادتِهم العجلَ؛ لمنافاتِها العَقْلَ؛ فكأنَّ غيرَهم أَشْرَبَهُم عبادتَه بإرغامٍ وقهرٍ وإجبارٍ، فأفادتْ صيغةُ المبنيِّ للمفعولِ الإشعارَ بأنَّ حُبَّهُمُ العِجْلَ صارَ كأنَّه لَا اخْتِيَارَ لَهُمْ فِيهِ؛ كَأَنَّ غَيْرَهُمْ أَشْرَبَهُمْ إِيَّاهُ؛ كَقَوْلِهِمْ: أُولِعَ بِكَذَا وَشُغِفَ[2].

نكتةُ ذكرِ مكانِ الإشرابِ:

بيانُ رُسوخِ حُبِّ العجلِ، وأثرِهِ في الإغراقِ في الضَّلالةِ والغَضبِ

أَسْنَدَ النَّظمُ الإِشْرَابَ إِلَى ضَمِيرِ ذَوَاتِهِمْ ثُمَّ ذكر مكانَه بِقَوْلِهِ: ﴿فِي قُلُوبِهِمُ﴾ مُبَالَغَةً، ولم يقلْ: (وأُشْرِبَتْ قلوبُهُمُ العجلَ)، بل أسندَ الضَّميرَ إلى الذَّواتِ مبالغةً في حصولِ إشرابِ الحُبِّ في الذَّاتِ

(1) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 1/263.

(2) النّيسابوري، غرائب القرآن: 1/336، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/611.

كلِّها، ثمَّ بيّنَ مكانَه المعروفَ وهو القلبُ، فقَوْلُهُ: في قُلُوبِهِمُ بَيَانٌ لمكانِ الإشرابِ[1]، ونكتتُه: بيانُ أنَّ حبَّ العجلِ متمكِّنٌ في القلوبِ، راسخٌ في الأفئدةِ، فبقدرِ رُسوخِه يجبُ أَنْ يعملَ بنو إسرائيلَ على التَّخلُّصِ منه، وفيه تنبيهٌ للمسلمينَ بأنَّ دعوةَ اليهودِ ليستْ كدعوةِ غيرِهم.

مَعنَى (البَاءِ) في قولِهِ ﴿بِكُفْرِهِمْ﴾:

التَّنبيهُ على سببِ الوقوعِ في الضَّلالةِ؛ للحَذَرِ والانتِباهِ

الظاهرُ أنّ (الباءَ) سببيَّةٌ والمَعنَى: تَعلّقوا بالعجلِ وأَحَبُّوه واستحسَنُوا فعلَهُم بسببِ اعتقادِهم أُلوهيَّتَه، وأَنَّهُ ينفعُهُم ويضرُّهُم، فلمّا استحكمَ اعتقادُهم بأُلوهيَّةِ العجلِ تعلَّقوا به حُبًّا وشَغَفًا، فكانَ اعتقادُهُم أُلوهيَّةَ العِجلِ أَصْلًا في حُبِّهم وتعلُّقِهم بعبادةِ العجلِ، وتحتملُ أَنْ تكونَ (الباءَ) بمعنى "مع"؛ فيكونُ المرادُ فَعَلوا ما فَعَلُوا من عبادة العجل مع كُفرِهم؛ أي: كان أمرُهم كُفرًا على كفر[2]، وحملُها على السَّببيَّة هو الأوفقُ بالسِّياقِ، وهو ما يقتضيه الظَّاهرُ، وهو ما يلتَئِمُ معَ دقَّةِ القرآنِ في اختيارِ الحرفِ الأنسبِ في نظمِهِ؛ إذِ القولُ بالتَّناوبِ قولٌ نائبٌ لا أَصيلٌ.

بلاغةُ الفصْلِ:

البيانُ والتَّقريرُ للمعاني المتآخيةِ، والدّلالاتِ المُتراخِيةِ

جاء قولُه تعالى: ﴿قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ مفصولًا؛ لوقوعِه موقعَ البيانِ والإيضاحِ والتَّقريرِ لقولِه تعالى: ﴿قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[3]، فهو تعليمٌ وإرشادٌ لِمَا يجبُ أَنْ يُقالَ للمراوغين، مِمَّنْ يرفعونَ لواءَ الشَّريعةِ واتِّباعِ الأنبياء، وهم عنها غافلونَ، وفيه تنبيهٌ على شدَّةِ التصاقِ الآياتِ بعضِها ببعضٍ، وأنَّ بعضَها آخذٌ بعُرى بعضٍ.

(1) الرّازي، التّفسير الكبير: 3/604.

(2) أبو حيان، البحر المحيط: 1/495، وابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/373، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/611.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/612.

أثرُ السِّياقِ في بيانِ مَعنَى التَّهكُّمِ:

التَّهكُّمُ مقصودٌ بالتَّبعِ لا بالأصالةِ، وهو مأخوذٌ من ادِّعاء المُخاطَبين للرَّدِّ عليهم

أفادَت إضافةُ الإيمانِ للمُخاطَبين في قولِه تعالى: ﴿قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ﴾ معنى التَّهكُّم، فإيمانُهم ليس إيمانًا مقبولًا بدليلِ: ﴿بِئْسَمَا﴾، و﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾، لكنَّه أتى بهِ لا على قصْدِ التَّهكُّم ابتداءً، بل على قصْدِ الرَّدِّ عليهم فيما يَزعُمُون، فيكون التَّهكُّمُ تابعًا للرَّدِّ، وهذا من بديعِ استعمالِ غَرَضِ التَّهكُّم في الخِطابِ؛ فالتَّهكُّمُ أمرٌ يُفهم من السِّياق.

بلاغة المَجازِ:

أوصافُ الإنسانِ هي الدَّاعيةُ إلى الخَيرِ أو الشَّرِّ

أُسنِد الأمرُ إلى الإيمانِ في قولِهِ: ﴿يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ﴾، والإيمانُ لا يأمرُ ولا يَنهَى، فإسنادُه إليه إسنادٌ مجازيٌّ لا حقيقيٌّ، وبلاغةُ الإسنادِ المجازيِّ في هذا السِّياقِ ظاهرةٌ في كونِ الإيمانِ هو المُحرِّكَ للأفعالِ على الحقيقةِ، وأنَّ جميعَ ما يصدُرُ عن الإنسانِ هو بسببِ إيمانِه؛ فأقامَ وصفَ الإيمانِ مقامَ الآمرِ؛ لتغلُّبِ إيمانِهم الباطل على عقولِهم.

﴿قُلۡ إِن كَانَتۡ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةٗ مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلۡمَوۡتَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٩٤ وَلَن يَتَمَنَّوۡهُ أَبَدَۢا بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ٩٥ وَلَتَجِدَنَّهُمۡ أَحۡرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٖ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْۚ يَوَدُّ أَحَدُهُمۡ لَوۡ يُعَمَّرُ أَلۡفَ سَنَةٖ وَمَا هُوَ بِمُزَحۡزِحِهِۦ مِنَ ٱلۡعَذَابِ أَن يُعَمَّرَۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ ٩٦﴾ [البقرة: 94-96]

مُنَاسَبَةُ الآياتِ لِمَا قَبْلَهَا:

لمَّا تتابَعَت الأدلَّةُ في الآياتِ السَّابقةِ على أنّهُ لا حظَّ لليهودِ في الآخرةِ غيرُ النَّارِ، وذلكَ نقيضُ دعواهُمْ أنَّهمْ آمَنوا بِمَا أُنْزِلَ إليهِمْ وأنَّ النَّارَ لا تَمسُّهُمْ إلّا أيّامًا مَعدودةً، وأنَّ الجنَّةَ لَهُم خالصَةً مِنْ دونِ النَّاسِ، خَتَمَ هذهِ الأدلّةَ بإقامةِ الحُجَّةِ البالغةِ الواضِحةِ، فخاطبهم مهدّدا مُقرّعا: إنْ كنتم صَادقينَ في إيمانِكُم فَتَمَنَّوا الموتَ، وجاءَ الحُكمُ الإلهي بأنَّهم لنْ يتَمَنَّوه أبدًا لِعلمِهم بِمَا قدَّمت أيديهم مِنَ الأقوالِ السَّيِّئةِ، والأفعالِ القبيحةِ، والظُّلمِ الذي صارَ وَصْفًا راسخًا فيهم، ولِتبلغَ الحُجَّةُ مَبلغَها أثبتَ لَهُم ما هوَ فوقَ ذلكَ مِنْ شدَّةِ حِرصِهم على الضِّدِّ، وهو كونُهم أحرصَ النَّاسِ على حياةٍ، وأحرصَ مِن الذين أشركوا[1]؛ لِتدلَّ هذهِ الحُجَّةُ البالغةُ المُجتَمِعَةُ على ظُهورِ كَذِبِهم فيما يَدَّعونَه، ولِيزدادَ الذين آمنُوا إيمانًا.

شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

1) ﴿ٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ﴾: مُركَّبٌ وصْفيٌّ مُؤَلَّفٌ مِن موصوفٍ (الدار) وصفتِهِ (الآخرة)، والدَّارُ: مُؤنَّثةٌ؛ أَصلُها دَوَرٌ، بمعنى: إحاطةِ الشَّيءِ بالشَّيءِ مِنْ حَوَاليه، وسُمِّيَ المَنزلُ دارًا؛ لإحاطتِها بأَهلِها، أَو لِدورانِ أهلِها بها، وتُطلقُ الدَّارُ ويُرادُ بها: القبيلةُ والبلدُ والدُّنيا كلُّها، وإذا أُضيفتْ فيكونُ معناها بِحسبِ ما تُضاف إليه،

(1) البقاعي، نظم الدرر: 2/61.

فيُقال: دارُ السَّلام ودارُ البَوارِ ودارُ الفاسقين، ودارُ الدُّنيا ودارُ الآخرةِ؛ إشارةً إلى مَقَرَّي النَّشأةِ الأُولى والآخرةِ، وإنَّما وُصِفَت الدَّارُ بالآخرةِ بالنَّظَرِ إلى أنَّها آخِرةٌ لِأُولى كانت قبلَها، وكلُّ الآياتِ التي وردَ فيها تركيبُ ﴿ٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ﴾ بالوَصفِ أَو بالإضافةِ في القرآنِ الكريمِ جاءتْ في سِياقِ المَدحِ، وَأَنَّهُ مَنزلٌ مَرغوبٌ فيه، والمرادُ هو الجَنَّةُ.

2) ﴿خَالِصَةً﴾: الخاء واللّام والصّاد أصلٌ يدلُّ على تَنْقِيَةِ الشَّيْءِ وَتَهْذِيبِهِ بعد شَوْبٍ، وخَلَصَ الشَّيءُ: إذا صَفَا وزَالَ عنه شَوْبُه، ومنه الإخلاصُ: وهو صَفاءُ التَّوحيدِ بالتّبرّي عنْ كُلِّ ما دُونَ اللّهِ تَعالى، وخَلَّصْته مِن كذا تَخْليصًا؛ أي: نجّيته فتَخَلَّصَ، فيكونُ ﴿خَالِصَةً﴾ بمعنى: صافيَة.

ويُقال: هذا الشَّيء خالصةٌ لكَ؛ أَي: خَالِصٌ لَكَ خاصَّةً لا يُشاركك فيهِ أَحدٌ، ومنه اسْتَخْلَصَهُ لنَفْسِه؛ أَي: استخَصَّه، فيكونُ معنى خالصةً: خاصَّةً، وهو قريبٌ مِنْ معنى الصَّفاءِ.

وقَدْ أُوِّلَتْ خَالِصَة في الآيةِ على معنى: الصَّفاءِ، ومعنى: الخاصَّة؛ أَي: إنْ كانت الدَّارُ الآخِرةُ عندَ اللّهِ لكم صافيةً مِنْ دُونِ النَّاسِ، أَو لَكُم خاصَّةً مِنْ دُونِ النَّاسِ[1]

3) ﴿دُونِ﴾: ظَرْفٌ غَيْرُ مُتَصَرِّفٍ لِلمَكانِ الأَقْرَبِ مِنْ مَكانٍ آخَر، ففيه معنى التَّجاوز، ثمَّ استعير لتفاوتٍ في المَراتِبِ المعنويَّةِ في الأَوصافِ والأَحوالِ؛ تَشْبِيهًا لهَا بالمراتبِ المحسوسَةِ، فَقيل: زيدٌ دُونَ عَمْرٍو في الشّرف، ثمَّ اتُّسِعَ في هَذا المُسْتَعَار فَاسْتُعْمِلَ في كلِّ تجَاوُزِ حدٍّ، وتخطِّي حُكمٍ إِلَى حُكمٍ، وَإِنْ لم يكن هُناكَ تفَاوتٌ وانحطاطٌ، وَيُسْتَعْمَلُ للاختصاصِ وقطعِ الشَّرِكَة، تَقولُ: هَذا لي دُونَك أَو من دُونِك؛ أَي: لَا حقَّ لَك فِيهِ وَلَا نصيبَ، وبمعنى: سِوَى، ويَأْتِي بِمَعْنى: الانتقاص في المنزلة أَو المَكَان أَو المِقْدَار[2]، وكلّ هذه المعاني ترجع إلى معنى التَّجَاوزِ.

4) ﴿فَتَمَنَّوُاْ﴾: الميم والنّون والحرف المعتلّ (الياء) أصلٌ يَدُلُّ عَلَى تَقْدِيرِ شَيْءٍ وَنَفَاذِ القَضَاءِ بِهِ، ومِنْهُ قَوْلُهُمْ: مَنَى لَهُ المَاني؛ أَيْ: قَدَّرَ المُقَدِّرُ، وسُمّيَ الموتُ مَنِيّةً؛ لأَنَّهُ أجلٌ مقدَّر لكلّ حيٍّ، وتمنّيتُ الشَّيْء قدّرتُه، وأحببتُ أَنْ يَصير إليّ، فالتمنّي تقديرُ

(1) ابن جرير، جامع البيان: 2/365، والأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللغة: (خلص).
(2) الكفوي، الكليات، تح: عدنان درويش: 1/451.

شيءٍ في النَّفسِ وتصويرُه فيها معَ محبَّةِ حصولٍ لذلكَ الشَّيءِ، وأَكثرُ ما يكونُ عنْ ظَنٍّ وتَخمينٍ؛ ولهذا كان الكَذِبُ لهُ أملكَ، وكانَ غالبُ التَّمنّي كَذِبًا وتصوُّرَ مَا لا حقيقةَ له؛ ولذلكَ وقعَ في المستحيلاتِ عكسَ التَّرجي، فلا يقعُ إلَّا في المُمْكنِ، يقال: ليتَ شَبابي يعودُ؛ لاستحالةِ رجوعِ الشَّبابِ، وأمّا قولُه تعالى: ﴿فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ﴾ فَلَا يكونُ إلَّا قولًا، وَهُوَ أَنْ يَقُول أَحدُهم: ليتَهُ مَاتَ، فالتَّحدي وَقعَ بالتَّمنّي لفظًا، بكلمةِ (ليت)، أَو بلفظِ التَّمنّي نفسِه، ومَعنى (تمنَّوا المَوْتَ): اسألوا الموتَ واطْلُبوه بلسانِكُم[1].

5) ﴿ٱلْمَوْتَ﴾: المِيمُ وَالْوَاوُ وَالتَّاءُ أَصْلٌ يَدُلُّ عَلَى ذَهَابِ الْقُوَّةِ مِنَ الشَّيْءِ، ومنه الموت: ضدّ الحياة؛ فموت الحي -بخروج روحه- ذهابٌ لقُوَّته، والمَوْتُ خَلْقٌ مِنْ خَلق اللهِ تَعَالَى، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ﴾[2].

6) ﴿صَٰدِقِينَ﴾: جمع صادق، وأَصلُه صَدَقَ، ويَدُلُّ عَلَى قُوَّةٍ في الشَّيْءِ قَوْلًا وَغَيْرَهُ، ومِنْ ذَلِكَ الصِّدقُ ضِدُّ الكَذِبِ، سُمِّيَ صِدْقًا؛ لِقُوَّتِهِ في نَفْسِهِ، وَلِأَنَّ الكَذِبَ لَا قُوَّةَ لَهُ، إذ هُوَ بَاطِلٌ. والصَّادق مَن يقوم به وصفُ الصِّدق.

7) ﴿أَبَدًا﴾: الأبدُ هو الزَّمان الممتدّ الّذي لا يتجزأُ كما يتجزأ الزَّمانُ، ويُعبَّرُ بالأبد عن الزَّمنِ الطَّويلِ الّذي ليس بمحدودٍ، قَالَ الرُّمَّانيُّ: فَإِذَا قُلْت: لَا أُكَلِّمُهُ أَبَدًا؛ فَالْأَبَدُ مِنْ لَدُنْ تَكلَّمْتَ إِلَى آخِرِ عُمْرِك[3].

8) ﴿قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾: مُرَكَّبٌ لُغَوِيٌّ من الفعلِ والفاعلِ، والقِدَم يدلّ على سبقِ الشَّيء، وَتَقَدَّمْتُ الْقَوْمَ سَبَقْتُهُمْ، ﴿قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ هو من التَّقْدِمَةِ، وهي وضعُ الشَّيءِ قُدَّامًا، أي: جهة الأَمام، وبعد التَّركيبِ صار بمعنى: ما أَسْلَفَتْه أَيديهم وصار أَمامًا لهم.

9) ﴿بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾: جَمْعُ ظَالِم، والظُّلْمُ هو وَضعُ الشَّيءِ في غيرِ مَوضعِهِ المُختَصِّ به؛ إمّا بنُقصانٍ أَو بزيادةٍ، وإمّا بعُدولٍ عن وقتِهِ أَو مكانِهِ، وَيقالُ فيما يَكثُر وفيما يَقلُّ مِنَ التَّجاوزِ؛ ولهذا يُستعملُ في الذَّنبِ الكبيرِ، فيُقالُ للكافِرِ: ظالمٌ، وأَعظمُ الظُّلمِ

(1) أبو هلال العسكري، الفروق اللغوية: 1/123.

(2) ابن منظور، لسان العرب، والفيومي، المصباح المنير: (مَوَتَ).

(3) ابن قتيبة، غريب الحديث: 2/309، والرّاغب، المفردات: 1/59، والفيومي، المصباح المنير: 1/1.

الشِّركُ باللهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ﴾ [لقمان: 13]، كما يُستعملُ الظُّلمُ في الذَّنبِ الصَّغيرِ، فيقالُ لصاحبِهِ: ظالمٌ[1].

10) ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمۡ﴾: أصله من وَجَدَ الشيء: بمعنى أصابَه على صِفَةٍ، نحو: وجدتُ زيدًا كريمًا، ومصدرُه وِجْدان[2].

11) ﴿أَحۡرَصَ﴾: الحاء والرّاء والصّاد تدلُّ على مَعْنَيَيْنِ؛ هما: الجَشَع، و: الإفراط في الرَّغبةِ، يُقالُ: حَرَصَ يَحرِصُ حِرْصًا فهو حَريصٌ، وحَرِيصٌ عَلَيْك مَعْنَاهُ حَرِيصٌ على نفعِكَ، ويُقالُ: حَرَصَ على كذا يَحْرِصُ عليه إذا فَرَطَ في محَبَّتِه وإمساكِه، وقال تعالى: ﴿إِن تَحۡرِصۡ عَلَىٰ هُدَىٰهُمۡ﴾ [النحل: 37]؛ أي: إنْ تُبالِغْ في طلبِك لذلكَ؛ تنبيهًا على وُفورِ شَفَقَتِهِ ﷺ، وقولُه تعالى: ﴿أَحۡرَصَ ٱلنَّاسِ﴾ بمعنى الإفراطِ في الرَّغبَةِ في الحياةِ والشَّرَهِ فيها[3].

12) ﴿أَشۡرَكُواْ﴾: الشِّينُ وَالرَّاءُ وَالْكَافُ أَصْلَانِ، يَدُلُّ أَحَدُهُمَا عَلَى مُقَارَنَةٍ وَخِلَافِ انْفِرَادٍ، ويَدُلُّ الْآخَرُ عَلَى امْتِدَادٍ وَاسْتِقَامَةٍ، والفعل ﴿أَشۡرَكُواْ﴾ من الأصل الأول، فالشِّرْك أنْ يُوجدَ شَيءٌ لاثنينِ فَصاعِدًا، والشِّرْكةُ: مُخالطة الشَّريكين، يقالُ: اشْتَرَكْنَا بِمَعْنى تَشارَكْنا، وَجمعُ الشَّريكِ: شُرَكاءُ، وشِرْكُ الإنسانِ في الدّين ضربان؛ أحدُهما: الشِّرْكُ العظيم، وهو: إثباتُ شريكٍ للّهِ تعالى، يقال: أَشْرَكَ فلانٌ باللّه، وذلك أعظمُ كفرٍ، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ﴾ [النساء: 48]، وقال: ﴿وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا﴾ [النساء: 116]، والثاني: الشِّرْكُ الصّغير، وهذا يُصيب المؤمنين ولا يخرجهم من دائرة الإسلام، وهو مراعاةُ غيرِ اللّهِ معَه في بعضِ الأمورِ، وهو الرّياءُ المُشارُ إليه بقوله تعالى: ﴿وَمَا يُؤۡمِنُ أَكۡثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشۡرِكُونَ﴾ [يوسف: 106][4].

13) ﴿يَوَدُّ﴾: الفعل ودَّ يَوَدُّ يدلُّ عَلَى مَحَبَّةٍ، فيقال: ودِدْتُهُ بمعنى أَحْبَبْتُهُ، فالودُّ محبَّة الشَّيءِ، وتمنّي حصولِه، فيكمنُ فيه معنى التَّمني، فيقالُ: وَدِدْتُ أَنَّ ذَاكَ كَانَ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (ظلم).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (وجد)، والرضي، شرح الكافية: 4/150.
(3) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (حرص).
(4) الأزهري، تهذيب اللغة، والرّاغب الأصبهاني، المفردات: (شرك).

كذا؛ إذَا تَمَنَّيْتَهُ، والفعلُ أَوَدُّ يُستعملُ في المحبَّة وفي التَّمنّي، ومصدرُ الفعلِ وَدَّ إذا كان بمعنى المحبَّة هو الوُدُّ، وإذا كان بمعنى التَّمَنِّي فمصدره الوَدَادَةُ، ومن المودَّةِ التي تقتضي المحبَّةَ قولُه تعالى: ﴿لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰۗ﴾ [الشورى: 33]، ومن المودَّةِ التي تقتضي معنى التمنّي قوله: ﴿يَوَدُّ أَحَدُهُمۡ لَوۡ يُعَمَّرُ﴾ [البقرة: 96]، وقوله: ﴿وَدُّواْ لَوۡ تُدۡهِنُ﴾ [القلم: 9]، وإذا جاءت الكلمةُ بمعنى التَّمنّي فهي مُشْرَبَةٌ معنى المَحبَّة والرَّغبَة[1].

14) ﴿يُعَمَّرُ﴾: أَصلُه عَمَرَ يَعمُر، والاسمُ العُمُر، والعُمُرُ والعَمْرُ واحد؛ لكنْ خُصَّ القَسَمُ بِالعَمْرِ بفتح العين دون العُمُرِ، كقوله تعالى: ﴿لَعَمۡرُكَ إِنَّهُمۡ لَفِي سَكۡرَتِهِمۡ﴾ [الحجر: 72]، والعُمُر اسمٌ لِمُدَّةِ عِمارةِ البَدَنِ بالحياةِ، وعمَّرَه اللّه تعْميرًا؛ أي: طوَّلَ اللّه عُمْرَهُ فهو مُعَمَّرٌ، وعَمَّر الرجلُ عُمْرًا: عَاشَ زَمَانًا طَويلًا أَكثرَ مِنْ أَقرانِه، وَعَمَّرَ المَالُ صَارَ كثيرًا وافرًا، وعمّرَ المنزلُ بأَهْلِه إذا كَانَ مسكونًا بهم فَهُوَ عَامر[2].

15) ﴿سَنَةٍ﴾: تدلُّ على الزَّمانِ، وهو الحَولُ اثنا عَشَرَ شَهرًا، وغَلَبَتِ السَّنَةُ في الحَولِ المُجْدِبِ الذي فيه ضِيقٌ ومَشَقَّةٌ، ويقالُ: أَصابتِ النَّاسَ سَنَةٌ؛ أَي: جَدْبٌ، وغلَبَ العامُ في الحَولِ المُخْصِب[3].

16) ﴿بِمُزَحۡزِحِهِۦٓ﴾: فِعلُه زَحْزَحَ، وأَصلُه زاحَ أو زحَّ؛ يُقال: زَحَّ الشَّيءَ وزَحْزَحَه: دفعَه ونحّاه عن موضعِه، وباعدَه منه وأَزالَه، وزَحْزَحْتُهُ فتَزَحْزَحَ وانْزَاحَ؛ أي: تَبَاعَدَ، وقال ابنُ عرفة: بِهِ يُسمَّى المُزاحُ؛ لأَنَّه أُزيحَ عن الحَقِّ[4]، وتفيد الزَّحزحَةُ الانتقالَ من مكانٍ إلى مكانٍ على وجهِ التَّباعدِ عنه قليلًا بِبُطءٍ وثِقَلٍ.

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

أَمرَ اللّهُ تعالى رسولَهُ ﷺ أَنْ يَتحدَّى اليهودَ في ادِّعائِهم أَنَّ الدَّارَ الآخرة بِنعيمِها خالصةٌ لَهُم من دونِ النَّاسِ، ويقول لهم: إن كنتم صادقين في دعواكم هذه فتمنوا الموت واطلبوه، لتنالوا هذه المنزلة بسرعة، وتستريحوا من أعباء الحياة الدنيا وهمومها،

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والسمين، عمدة الحفاظ: (ودد).
(2) السمين، عمدة الحفاظ، ومجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط: (عمر).
(3) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 171، والسمين، عمدة الحفاظ: (سنه).
(4) الهروي، الغريبين، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (زحح).

وأَخبرَتِ الآيةُ أَنَّ طَلبَ التَّمنّي لنْ يقعَ منهم أبدًا؛ لعلمِهم بأَنَّهم إنْ فعلوا ذلك فالوعيدُ بهم نازِلٌ، والموتُ بهم حالٌّ؛ ولِمعرفتِهم بصدقِ محمَّدٍ ﷺ، وأَنَّه رسولُ اللهِ ﷻ، وأَنَّه لمْ يُخبرْهُم خبرًا إلَّا كانَ حقًّا كمَا أَخبَر، فهمْ يَحذرونَ تَمَنِّيَ الموتِ؛ خوفًا مِنْ أنْ يَحِلَّ بهم عِقابُ اللهِ بِما كسبتْ أيديهمْ مِنَ الذُّنوبِ، فَهمْ ظالمونَ لِكذبِهم وشَناعةِ أَعمالِهم، واللهُ عليمٌ بِمَا يفعلونَه مِنَ الظُّلم، وسَيُجازيهم على ظلمِهم، ولتَجِدَنّ - أيها النبي - اليهودَ أشدَّ الناس حرصًا على الحياة أيًّا كانت هذه الحياة من الذلَّة والمهانة، بل هم أحرص من المشركين الذين لا يؤمنون بالبعث والحساب، يتمنى اليهودي أن يعيش ألف سنة، وليس بمُبْعِدِه عن عذاب الله طولُ عمره مهما بلغ، والله مطَّلع على أعمالهم بصير بها، لا يخفى عليه منها شيء، وسيجازيهم عليها بما يستحقونه من العذاب [1].

الإيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

بلاغةُ الفَصْل بين الجُمل:

اتِّفاقُ الجملتين في المعنى الكليِّ، وتبايُنُهما في المعنى الجُزئيِّ

جاءَ الفصْلُ بين الجملةِ المُصدَّرِ بها في هذه الآيةِ والجملةِ المختومِ بها في الآيةِ السَّابقةِ؛ لقيامِ كلِّ آيةٍ بمعنًى مستقلٍّ في ذاته، مبيِّنٍ غرضًا واحِدًا من مجموعِ الجملتين، فالجملةُ الأُولى: ﴿قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ﴾ جاءَتْ لبيانِ حالِ زَعمِهم الإيمان، وأثر ذلك في أفعالِهم وأحوالِهم، وجملةُ: ﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ﴾ جاءَتْ لإقامةِ الدَّليلِ على كذِبهم في دعوى الإيمانِ، فالجملتان اتَّفقتا على كذبِ اليهودِ، ولإظهار العلاقة بين الجملتين هناك مسلكان؛ أحدهما قائمٌ على كمال الاتِّصالِ، والآخرُ على كمال الانقطاع.

كَمَالُ الانقطاع: جاءَتْ الجملةُ الأولى بأُسلوبِ الذَّمِّ المفيدِ للإخبارِ، والثَّانية بأُسلوبِ الطَّلبِ القائمِ على التَّحدِّي، فتكون الجملتان قائمتين على معنَيَيْن منفصلين في الذَّاتِ، متَّصلين في

(1) ابن جرير، جامع البيان: 2/367، والزجاج، معاني القرآن: 1/178.

المآلِ؛ إذ مآلُ ذمِّهم وتحدِّيهم إثباتُ كَذِبهم، وهذه بلاغةُ الفصْل في قطع الأولى عنِ الثَّانيةِ؛ إذِ المآلُ واحدٌ.

كمالُ الاتِّصال: وفيه وجهان:

الأوَّل: تنزيلُ الثَّانيةِ من الأولى منزلةَ الدَّليل من الدَّعوى؛ فالثَّانيةُ مبيِّنةٌ الأولى؛ لشديد الارتباطِ بينهما، فتكون الجملتان مُؤدِّيتين جملةَ المعنى المُرادِ إيصالُه، وهو كذبُ اليهودِ في زعمِهم بالدَّعوى والدَّليلِ.

الثَّاني: أن تكون الثَّانيةُ بدلًا من الأولى على نيّةِ استئنافِ القَصْدِ إلى مضمونها، ومجموعُ البدلِ معَ المُبدلِ منه أَوفى بتمامِ المرادِ وإيرادِه، وليظهرَ بمجموعِ القَصدينِ - البدلِ والمبدلِ منهُ - مزيدُ اعتناءٍ بشأنِ ظهورِ الحُجَّةِ عليهم[1].

بلاغةُ أُسلوبِ الشَّرطِ:

التَّهكُّمُ بزعمِ اليهودِ، وتوبيخُهم بما وقَعَ منهم من الجَزمِ بعكسِ الواقعِ المتيقَّنِ

استُعمِلَت إنْ في هذا السِّياقِ، وهي تُستعملُ فيما هو مشكوكٌ في وقوعِه، فعلامَ استُعمِلَتْ هذه الأداةُ في هذا السِّياقِ، مع علمِ اللّٰه تعالى القطعيِّ بأنَّ الدَّار الآخرةَ ليستْ لهم مطلقًا على ما هم عليه، وهم يعلمون ذلك كذلك؟

والجوابُ: هو تنزيلُ المُخَاطَبِ منزلةَ الشَّاكِّ فيما يدَّعيه بشكلٍ قطعيٍّ؛ تهكُّمًا بزعمِه، وتوبيخًا على دعواه، وكشفًا لحقيقةِ كذِبهم بأسلوبِ الحوارِ الكاشِفِ عن حقيقةِ حالِهم.

نكتةُ تقديمِ ما حَقُّهُ التَّأخيرُ:

الاعتدادُ بالباطلِ والتَّعصبُ له، بغمطِ الآخرين حقوقَهم

قُدِّمَ الجارُّ والمجرورُ (لكم) على اسمِ كان، وأَصلُ الكلامِ: كانتِ الدارُ الآخرةُ لكم؛ للتَّخصيصِ على زَعْمِهم، بيانًا لتعريضِهم بغيرِهم، وهو ما بيَّنَه اللِّحاقُ ﴿خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ﴾ الذي أفادَ توكيدَ معنى الاختصاصِ[2]، والمعنى: إنْ كانت الدارُ الآخرة لكم

(1) التفتازاني، شرح مفتاح العلوم: 1/198، وبهاء الدين السبكي، عروس الأفراح: 1/327.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/614.

على الخصوصِ دون غيرِكم ممَّن جاءَ بعد موسى منْ غيرِ بني إسرائيلَ، وهو ما يُبيِّنُ تطرُّفَهم وتعصبَهم لباطِلِهم، مع معرفتِهم الحقَّ على وجهِه.

نكتةُ التَّعبيرِ بالدَّارِ الآخرةِ:

بلوغُ أعلى درجاتِ النَّعيمِ، وخلوصُها من مشاركةِ الآخرين

لسائلٍ أن يسألَ عن سرِّ ذكرِ الدَّار الآخرة دون الجنَّةِ، وهي المُصرَّحُ بها في قولِه: ﴿وَقَالُواْ لَن يَدۡخُلَ ٱلۡجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰۗ﴾ [البقرة: 111] في تضاعيفِ الآيات.

والجوابُ: إنَّ هذا اللَّفظَ يدلُّ على الجنَّةِ الخالصةِ من دخولِ أحدٍ سواهم؛ أي: الدَّارُ الآخرةُ التي لا دارَ بعدَها، وذلك على فرضِ وجود ديارٍ قبلَها يدخلُها غيرُهم؛ فإنَّ الدَّارَ الآخرةَ لن تكون لأحدٍ سواهم، فهذا التَّركيبُ يدلُّ على المَنزلِ الأخيرِ الممدوحِ في القرآنِ والذي فيه الاستقرارُ والرَّاحةُ، ويدلُّ على الانتهاءِ والغايةِ التي تَظهرُ فيها منزلتُهم وشرفُهم؛ أي: فيما كانوا يدّعونَه.

فائدةُ تنوُّعِ قيودِ الإسنادِ:

بيانُ قسوةِ القلبِ والكبرِ والغُرورِ والغلوِّ في حبِّ النَّفس

جاءَت مقيّداتُ الإسنادِ متنوِّعةً لبيانِ غلوِّ اليهودِ في حبِّ أنفسِهم وتكبّرِهم على غيرِهم:

أوَّلًا: التقييدُ بالظَّرفِ ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾، والمرادُ من العِنديَّةِ المنزلةُ، فهم كانوا يَظنُّونَ أنفسَهم على منزلة عظيمة ومرتبة رفيعة، وأنّ لهم عند الله شأنًا عظيمًا، "وَالعِنْدِيَّةُ عِنْدِيَّةُ تَشْرِيفٍ وادِّخَارٍ؛ أَيْ: مُدَّخَرَةٌ لكُمْ عِنْدَ اللَّهِ"[1].

ثانيًا: التَّقييدُ بالحالِ (خالِصَةً)؛ أي: صافيةً لَكم مِنْ أيِّ كَدَرٍ، وخاصَّةً بكم دون غيرِكم؛ كمَا زَعَموا في قولِهم: ﴿لَن يَدۡخُلَ ٱلۡجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا﴾.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/614.

ثالثًا: التَّقييدُ بتأكيدِ تخصيصها لهم بقوله: ﴿مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ﴾؛ لبيانِ اعتقادِهم في فضلِهم، وعلوِّهم على النَّاس، وكأنَّ اجتماعَ النَّاسِ معهم في الجنَّةِ كَدَرٌ لَهُم، فلا تكون صافيةً لهم بهم.

فهذه القيود الثلاثةُ أبانَتِ اعتقادَهم ونظرَتهم إلى النَّاس في الآخرةِ، فما بالُك بنظرتِهم إليهم في الدُّنيا، وهو ما يُثبتُ قسوةَ قلوبِهم وتكبُّرَهم وغرورَهم وسوءَ اعتقادِهم.

دلالة (أل) بينَ العُمومِ والعَهْديَّةِ

لمعنى التَّعريف في لفظِ النَّاسِ احتمالان، وهما:

الأوَّل: الجِنسُ؛ فيُفيدُ العمومَ، وهو الظَّاهر؛ لأنَّه لم يوجدْ ههنا معهودٌ[1]، ولتكونَ على نسقِ ما كانوا يدَّعونهُ من خَصوصيَّةِ التَّشريفِ والتَّعظيم على غيرِهم.

الثَّاني: العهدُ، ويرادُ بالنَّاسِ المسلمون؛ لِأَنَّ الخِطابَ معهم؛ فيكونُ اللفظُ عامًّا يُراد به الخاصُّ بقرينةِ السِّياق، والنُّكتةُ فيه اعتبارُ المسلمين هم النَّاس؛ لقيامِهم بمقتضى كونِهم ناسًا، وهو إيمانُهم بالقرآنِ وبنبوَّةِ محمّدٍ ﷺ، وغيرُهم ليس كذلك؛ لأنَّهم لم يتفكّروا فيؤمنوا.

والصَّحيحُ أنَّ المراد بالتَّعريفِ الجنسُ، على إرادةِ عمومِ النَّاسِ، وهو ما تُفيدُه بقيَّةُ النُّصوص، لاسيَّما في قولِهم: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ [البقرة: 113]، فبُغضُ اليهودِ لجميعِ النّاسِ، لكنَّه الأظهر في جانب المسلمين؛ لأنَّهم هم أصحابُ الحقِّ والهدى، وهم من سلبَ اليهود ما كانوا يُفاخرون به، فيدخل المسلمون في النَّاسِ دُخولًا أوَّليًّا.

بلاغة الأمرِ في قولِه تعالى: ﴿فَتَمَنَّوُاْ﴾:

تظهرُ بلاغة الأمرِ في قولِه تعالى: ﴿فَتَمَنَّوُاْ﴾ على احتمالين اثنين:

الأوَّل: أن نجعلَ المجازَ في الصِّيغةِ.

الثَّاني: أن نجعلَ المجازَ في اللَّفظِ.

حملُ المجازِ على الصِّيغةِ:

وَجَّهتِ الآيةُ النَّبيَّ ﷺ أنْ يَطْلُبَ من اليهودِ تَمنّيَ الموتِ لإثباتِ صدقِهم في دعوى الإيمانِ، وغرضُ الأمرِ التَّحدِّي والتَّعجيز؛ فمن المُحالِ أنْ يَتَمَنَّوُا الموتَ، فأَمَرَهُم بِه لإثباتِ عجْزِهم

(1) الرازي، التّفسير الكبير: 3/608.

إظهارُ حقائقِ نفوسِ الخَصْمِ بالأدلّةِ القاطعةِ مُمْكنةِ الحصولِ

عن ذلك؛ بسببِ معرفةِ سُرعةِ تحقُّقِ ذلك؛ لقولِه ﷺ: «لو أنَ اليهود تمنَّوا الموت لماتُوا ورأَوْا مقاعدَهم في النار»[1]، ومعرفةِ مآلِهم في الآخرةِ، فإنَّ الموتَ لأهلِ الجنَّةِ المُصْطَفَيْنَ لها خلاصٌ من الدَّارِ الفانيَةِ؛ فيتوجَّهُ الأمرُ بتمنّي الموتِ إلى مطلوبٍ ممكنِ الحصولِ[2]، بعد امتناعِ حملِه على الحقيقة، والممكنُ حصولُه هنا هو بيانُ عجزِهم عنْ فعلِ المَطلوبِ؛ ليكونَ أوثقَ في بيانِ الحُجَّةِ والتَّحدي، فالغرضُ من الأمرِ التَّعجيزُ بقصْدِ بيانِ كفرِهم وحقيقةِ حالِهم.

حملُ المجازِ على اللَّفظِ:

التَّعبيرُ بالتَّمنِّي وإرادةُ الدُّعاءِ والسُّؤالِ

حُمِلَ الأمرُ على حقيقتِه، وحُمِلَ التَّمني على معنى السُّؤالِ والدُّعاء؛ فمعنى تمنَّوُا الموتَ: سلوه، وادْعُوا به على المبطلِ الكاذبِ المفتري؛ فيكون من جنسِ آيةِ المباهلة[3]؛ فالمجازُ في معنى اللَّفظةِ لا في صيغةِ الأمرِ، وهذا الوجه والذي قبلَه في حملِ الأمرِ على التَّعجيزِ في المآلِ واحدٌ؛ إذْ منتهى التَّمنِّي من قِبَلهم هو الموتُ، سواءٌ أكان المجازُ في صيغةِ الأمرِ أم في معنى اللفظِ الذي اشتُقَّ منه الأمر.

بلاغةُ الشَّرطِ في: ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾:

التَّتميمُ في إلزامِ الخصْمِ الحُجَّةَ لما بدَأَته الآيةُ

استُعمِلَت إنْ في قولِه تعالَى: ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ كما استُعمِلَت في: ﴿إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ﴾ وهي تُستعملُ فيما هو مشكوكٌ في وقوعِه، فعلامَ استُعمِلَتْ هذه الأداةُ في هذا السِّياقِ، مع علمِ اللّه تعالى بأنَّهم كاذبون، وهم يعلمون ذلك كذلك؟

---

(1) أحمد، مسند أحمد: 3/24.

(2) السكاكي، مفتاح العلوم، تح: زرزور، ص: 305.

(3) آية المباهلة هي قوله تعالى: ﴿فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْاْ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ۝ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ ۚ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝﴾ [آل عمران: 61- 62]، وفيها دعا القرآن نصارى نجران إلى المباهلة، وهي بمعنى الابتهال والضراعة إلى الله بإخلاص بأن يأتي النصارى بأبنائهم ونسائهم ويأتي الرسول بأبنائه ونسائه ثم يجتمع الجميع في مكان واحد يبتهلون إلى الله ويضرعون إليه بإخلاص وقوة أن ينزل لعنته وغضبه على من كان كاذبًا من الفريقين، ينظر: الزرقاني، مناهل العرفان: 2/400.

والجوابُ: إنَّ استعمالَ إنْ هو لغرضِ إثارةِ نفوسِهم وتحريكِ مشاعرِهم، وفضحِهم أمامَ أنفسِهم وأمامَ العَالمين؛ فإنَّ عدَمَ الاستجابةِ للتّمني يُثبِتُ كَذِبَهم، ففيه تهكُّمٌ وتقبيحٌ لصَمْتِهم وعدمِ استجابتِهم للأمرِ، فكان لا بدَّ من ذكرِ شرطٍ آخرَ يُحرِّكُهم تُجاه تحقيقِ التَّمني؛ وجودًا وعدمًا، فكانت بلاغةُ الشَّرطِ دعامةً أساسيَّةً لتتميمِ الكلامِ، ففي الآيةِ فنُّ التَّتميمِ في إلزامِ الخصْمِ الحُجَّة.

بلاغةُ حذفِ المفعولِ:

تأكيدُ التَّهكُّمِ بشأنِ الكاذبين، وبيانُ أنَّ هذا دَيْدَنُهم في الحياةِ كلِّها

حُذِفَ مفعولُ ﴿صَٰدِقِينَ﴾ فلم يُقيَّد بكذبٍ خاصٍّ؛ لتأكيدِ التَّهكُّمِ المذكورِ في الآيةِ، فهم غير صادِقين في عمومِ أقوالِهم وأعمالِهم وادّعاءاتهم، ولو كانوا يمتلكون الصِّدقَ في شأنٍ من شؤونِ حياتِهم لصَدَقوا في إيمانِهم برسالة محمَّدٍ ﷺ.

بلاغةُ الوَصْلِ في قولِه: ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ﴾:

تقويةُ المعاني المجازيَّةِ في الجملِ الخبريَّةِ

لمّا كان هذا الكلام خبرًا من اللّه تعالى، وليس تتمَّةً للأمر بمخاطبة اليهود في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ﴾، ناسبَ أنْ يكونَ بالواوِ الاعتراضيَّةِ[1]؛ لِيُعلَمَ أنَّ جملةَ ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ﴾ ليست تتميمًا لما سبقَ؛ بل هي تقريرٌ لِحكمٍ إلهيٍّ قاطعٍ بأنَّهم لن يتمنّوا الموت أبدًا؛ دفعًا لتوهُّمِ أنّهم قد يتمنَّون الموتَ عِنادًا أو جَهْلًا، والجملةُ خطابٌ للنَّبيِّ ﷺ، فلا التفاتَ فيها، وفيها ترشيحٌ لمعنى التَّحدِّي والتَّعجيزِ الواردِ في غرضِ صيغةِ الأمرِ في قولِه تعالى: ﴿فَتَمَنَّوُاْ﴾، فإنَّهم عاجزون عن مُجرَّدِ التَّمنِّي، وهذه الجملةُ الخبريَّةُ هي التي عيَّنتِ المقصودَ بالأمرِ بالتَّمني.

الإعجازُ الغيبيُّ في كلمةِ ﴿أَبَدًا﴾:

الإخبارُ باستحالةِ تمنّي الموتِ ولو بالكلمةِ الكاذبةِ

وقعَ الإخبارُ بنفي تمنّي اليهودِ للموتِ مقيَّدًا بكلمةِ ﴿أَبَدًا﴾؛ إذِ النَّفيُ قد يرِد عليه الاستثناءُ أو التَّخصيصُ، بخلافِ ورودِ (أبدًا)؛

(1) التفتازاني، المطول، ص: 500.

فهي نصٌّ في استحالةِ وقوعِ ذلك منهم؛ أي: في طول عُمرهم إلى موتهم[1]، لذلك فهي "معجزةٌ للنَّبيِّ ﷺ، أعجَزَ بها اليهودَ، ودعاهم إلى تمنِّي الموت، وأخبَرَ أنَّهم لا يتمنَّونَه أبدًا، وهذا عَلَمٌ من أَعْلامِ نُبوَّتِه ﷺ؛ إذْ لا يُمكنُ الاطِّلاع على بواطِنِهم إلا بإخبارِ عالم الغيب، ولن يُنطقَ اللّه ألسنتهم بتمنّيه أبدًا"[2].

بلاغةُ المجازِ مع الإيجازِ في قولِه: ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾:

إسنادُ الفعلِ إلى الجزءِ مع إرادة عمومِ الأفعالِ باعتبارِ ظهورِ أثَرِ الكُلِّ في الجُزْءِ

يُقالُ هذا التركيبُ ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ لِمَنْ يَفعلُ جِنايةً أو يرتكبُ جَريرةً، ثُمَّ استعمل كالمثل: على نحوِ ما تَتَمَثَّلُ به العربُ في كلامِها: هذا بِمَا جَنَتْ يَداك، وبِمَا كسَبَتْ يَداك، وبِمَا قَدَّمَتْ يَداك، فتضيفُ ذلك إلى اليدِ، ولعلَّ الجِنايةَ التي جَناها فاستحقَّ عليها العقوبةَ كانت باللّسانِ أَو بالفرجِ أَو بغيرِ ذلك من أَعضاءِ جَسدِهِ سِوى اليَدِ، وإنَّما قيلَ ذلك بإضافتِهِ إلى اليدِ؛ لِأَنَّ أكثرَ جِناياتِ النَّاس بأَيديهم، فجَرى الكلامُ باستعمالِ إضافةِ الجِناياتِ التي يَجْنيها النَّاسُ إلى أَيديهِمْ.

وإسناد التَّقديم إلى اليدِ على طريقةِ المجازِ المُرسَل[3]، بذكرِ الجزءِ الخاصّ الذي يكونُ به أَكثرُ الاكتسابِ بالأفعالِ وإرادةِ كلِّ ما يقعُ بهِ الاكتسابُ من قولٍ أو فعلٍ أو اعتقادٍ؛ لأنَّ الأفعالَ هي الظَّاهرُ من آثارِهم، والأقوالُ والاعتقاداتُ منتهى حالِها إلى الأفعالِ، وتضمَّن الكلامُ إيجازًا بحذفِ الضَّميرِ في (قدَّمت)، العائدِ إلى الاسمِ الموصولِ (ما)؛ ليفيدَ أنّ الذي تُقَدِّمُه أيديهم من السّيّئاتِ والخَطايا صارَ سجيَّةً لهم، ويحتمل أنْ يكونَ الحذفُ لإفادةِ العموم، والمعنى: بسبب كلِّ ما قدَّمَتْه أيديهم؛ فانظرْ كيف عبّر القرآنُ عن كثير المعاني بقليلِ اللّفظِ مع استيفاءِ المعنى وتمامِه.

بلاغةُ الفاصِلةِ القرآنيَّة:

لـمّا ذكر اللّه كذبَ اليهود فيما يدّعونَه من الإيمانِ، وأقامَ الحُجَّةَ عليهم، ناسبَ أنْ يَختِمَ الكلامَ ببيانِ علمِه بِما قَدَّمتْه أَيديهم من الظُّلم في أقوالِهم وأفعالِهم فقال تعالى:

(1) الزجاج، معاني القرآن: 1/177.
(2) ابن القيم، التفسير القيم، ص: 140.
(3) النيسابوري، غرائب القرآن: 1/339.

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾؛ فناسبتْ جملةُ التَّذييل سياقَ الآيةِ، والواوُ استئنافيَّةٌ، كما استعملت الجملةُ الخبريَّةُ في التَّهديد[1]، وذلك بمجازاتِهم على ظلمِهم؛ فهو عليمٌ بمجازاتِهم على ظُلمِهم يوم القيامة[2]، كما أنَّ جملةَ التَّذييلِ تُعدُّ كالمَثَلِ في الكلام، كما تقدَّمَ غيرَ مرَّةٍ؛ لعمومِ معناها واتِّساعِه.

تَنَوُّعُ المَقاصدِ البَلاغيَّةِ في جُملةِ التَّذييلِ دليلٌ على ثرائها المعنويّ واتِّساقِها الدّلاليّ

سرُّ التَّعبيرِ بجملةِ: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ﴾:

الفِعْلُ وَجَدَ مِنَ الْوِجْدَانِ الْقَلْبِيِّ الْمُتَعَدِّي إِلَى مَفْعُولَيْنِ[3]، وهو مختصٌّ بما يقعُ بعدَ التّجربة[4]؛ أي: إذا تتبَّعْتَ أمورَهم، وخبرتَ أحوالَهم الظَّاهرةَ والباطنةَ، سَتَجِدُهُم على صفةٍ لازمةٍ لهم، وستكونُ هذه الصِّفةُ علامةً لهم يُعرَفون بها، وهي كونُهم أشدَّ الطَّائفتينِ حِرصًا على حَياةٍ؛ فهي دعوةٌ قرآنيَّةٌ إلى معرفةِ النَّاس والإحاطةِ بأحوالِهم وصفاتِهم؛ كيلا يقعَ المسلمُ ضحيَّةَ الانخداعِ بما يُقال من أكاذيب في الأسمارِ.

دعوةُ القرآنِ إلى خُبْرِ النَّاس ومعرفةِ أحوالِهم عن قُرْبٍ، وعدمِ الاكتفاءِ بظاهرِ الحالِ

بديعُ المُناسبةِ والانتقالِ:

لمّا بيَّنتِ الآيةُ السَّابقةُ حالَ اليهودِ في عدمِ تمنّي الموتِ، ناسبَ بيانَ حالِهم في حرصهم على الحياةِ، وهذا من تتميم المعنى وتكميلِه، فهو انتقالٌ من جزءِ الغرضِ إلى مُتمِّمِه؛ إذْ عدمُ تمنّي الموتِ لا يلزمُ منه أن يكونوا أحرصَ النَّاسِ على حياةٍ، وهذا في غايةِ تقبيحِ حالِهم، بأن يجعلَهم أحرصَ النّاسِ على الإطلاقِ.

تتميمُ المعنى وتكميلُه بغرضِ تقبيحِ الحالِ

نُكتةُ اقترانِ اسْمِ التَّفضيل بحرفِ الاستعلاءِ:

وردَ اسمُ التّفضيل ﴿أَحْرَصَ﴾ للدّلالة على استغراقِ حرصِهم لِمَا أُضيفَ له، فجاءَ مُضافًا إلى النَّاس، والمعنى: لتجِدنَّهم أحرصَ كلِّ

استعلاءُ اليهودِ على أعلى مراتبِ الحِرصِ بين النَّاسِ

(1) الواحدي، الوسيط: 1/177.
(2) الزجاج، معاني القرآن: 1/177.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/617.
(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/132.

النَّاس على حياةٍ، وَالمُرَادُ مِنَ النَّاسِ في الظَّاهِرِ جَمِيعُ النَّاسِ؛ أَيْ: جَمِيعُ البَشَرِ فَهُمْ أَحْرَصُهُمْ عَلَى الْحَيَاةِ؛ فَإِنَّ الْحِرْصَ على الْحَيَاة غَرِيْزَةٌ في النَّاسِ إِلَّا أَنَّ النَّاسَ فِيهِ مُتَفَاوِتُونَ قُوَّةً وَكَيْفِيَّةً وَأَسْبَابًا[1]؛ فهم أحرَصُ النَّاسِ جميعًا، فعلى فَرْضِ أنَّ للنّاسِ منازلَ معهودةً فهم في أعلاها، وهذا سرُّ ذكر حرفِ الاستعلاء؛ فلم يقُل: في الحياةِ؛ أي: هم مُستعلونَ في حِرصِهم، دونَ حياءٍ أو خجلٍ.

بلاغةُ عطفِ المشركين على النَّاسِ:

المبالغةُ في ذمِّ اليهودِ، والتَّرقي في ذمِّهم، وعطفُ الخاصِّ على العام

عطفتِ الآيةُ قولَه تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْۚ﴾ على (النَّاسِ)، وجاءَ بـ (مِنْ) التفضيليَّة، ولم يقلْ: (أحرصَ النَّاسِ والمشركينَ على حياةٍ)؛ ولمّا كانوا مختلفين عن المشركين في الوصف، فهم أهل كتابٍ، فالأصلُ فيهم الإيمانُ بالغيبِ وعدمُ الحرصِ على الحياةِ؛ فأفادَ اسمُ التّفضيل:

1- المبالغةَ في ذمِّ اليهودِ في حِرْصِهم على الحياةِ.
2- التَّرقيَ في ذمّهم بمجيء المعطوف ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْۚ﴾ بعد النَّاسِ.
3- عَطْفَ الخاصِّ على العامِّ لنكتةٍ في الخاصِّ، وهو بيانُ شدّةِ حرصِهم مقارنةً بأشدِّ النَّاس حرصًا على الحياةِ، وهم المشركون، فهو حرصٌ مِن ورائه حرص.

نكتَةُ التَّنكيرِ في مفردةِ ﴿حَيَوٰةٍ﴾:

التَّنويعُ بقصدِ جمعِ التَّقليل والتَّعظيم

نُكِّرَتِ الحياة في الآيةِ قَصْدًا لِلتَّنْوِيعِ؛ أَيْ: كَيْفَمَا كَانَتْ تِلْكَ الْحَيَاةُ[2]؛ لأنّ المرادَ أيُّ حياة كانت عزيزةً أو ذليلةً، فالمطلوبُ أنْ يكون لهم حياة متطاولة[3]؛ فتضمَّن التَّنكيرُ معنى التقليل؛ فهم

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/617.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/617.
(3) الزجاج، معاني القرآن وإعرابه: 1/178، والزمخشري، الكشاف: 1/168، وابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/377.

أحرصُ النَّاس على أيِّ حياة، ولو كانت حقيرةً، فهي خيرٌ من الموت لما يتوقّعون من سخط اللّه يوم القيامة، كما تضمَّن التنكير معنى التعظيم، من وجهٍ آخرَ؛ لأنّهم كانوا أحرصَ النَّاس على الحياة المتطاولة، وهذا من بديع لطائفِ بلاغةِ القرآن، بأنْ يجتمعَ معنى التَّقليل ومعنى التَّعظيم في كلمةٍ واحدةٍ.

فائدة التعبير بـ ﴿يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾:

الكشفُ عن مكنوناتِ ما تحويه النُّفوسُ من التَّمسُّكِ الشّديدِ بالحياةِ

أفاد التّعبير بصيغة المضارع (يودّ) تجدّد حدوث هذا الودّ، وبدلًا من أن يقول: يتمنّى أحدهم لو يعمّر ألف سنة ليكون مقابلًا لنفي تمنّيهم الموت كما يبدو ظاهرًا، قال: ﴿يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ﴾؛ ليدلَّ (يودّ) على حبّ كلّ واحدٍ منهم وشغفه بأن يُعمّر في الحياة الدّنيا، ولأَنَّ التّعمير ألف سنة بالنّسبةِ لطبيعة تفكير اليهوديِّ ليس مستحيلًا، فهو أمرٌ مستقرٌّ بوجدانه؛ استعمل مع التَّعمير الفعل (يودّ)، ولـمّا كان تمنّيهم الموتَ غيرَ ممكن استعمل معه فعل التّمنّي، ولكي يفيدَ أَنّهم لنْ يصلوا إلى التّعمير ألف سنة اقترن (يودّ أحدهم) بـ(لو)، فتولّد معنى التّمنّي مجازًا[1]، لِمَا تفيده (لو) من تقدير غير الواقع واقعًا، فأفاد هذا التّركيب حبّهم الشّديد المشوب بالتّمنّي لما لا مطمع لهم في وقوعه في المستقبل.

سرّ التّعبير بقوله: ﴿أَحَدُهُمْ﴾:

دلالة الاستغراقِ الحقيقيِّ لكلِّ فردٍ دون استثناء

ليس المرادُ بـ﴿أَحَدُهُمْ﴾ قولَ واحدٍ مُعيَّنٍ منهم، بل هو عامّ على البدليّة؛ أي: يستغرقُ كلَّ أحدٍ منهم واحدًا واحدًا منهم على البدل[2]، فهو تمثيلٌ لصورةِ كلِّ واحد منهم بمفردِه؛ أي: ليس هذا الحالُ خاصًّا بواحدٍ دون الآخر، بل هو أمرٌ عامٌّ يستغرقُ الجميعَ دون استثناء.

(1) السكاكي، مفتاح العلوم، ص: 304، والشهاب الخفاجي، كفاية القاضي: 2/209.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 1/504.

دلالة الفعلِ المُضارِعِ ﴿يُعَمَّرُ﴾:

دلَّتْ صيغةُ الفعلِ المضارِعِ على أنَّ ودادَ التَّعميرِ متجدِّدٌ بتجدُّدِ الحياةِ، فهم يودُّون باستمرارٍ أن يُعمَّروا باستمرارٍ، فهم لا يطلبون عُمرًا واحدًا؛ بل يطلبون العمرَ تلو العمرِ إلى انقضاءِ الحياةِ كلِّها.

دلالة ﴿أَلْفَ سَنَةٍ﴾ على التَّكثيرِ:

كنايةٌ عن الحياةِ كلِّها وليست كنايةً عن خصوصِ العددِ

لم يُقصَدْ بـ﴿أَلْفَ سَنَةٍ﴾ خصوصُ العددِ بعينِه؛ بل جرى ذكرُ هذا العددِ على معنى التَّكثيرِ، وهو أسلوبٌ معروفٌ في الكلامِ العربيِّ، والمعنى: يودّون البقاءَ أطولَ مدّةٍ مُمْكنةٍ في الدُّنيا خوفًا من الموتِ أو ممّا بعده، فيكون (ألفَ سنةٍ) كنايةً عن الزَّمان الطّويلِ بينَ أبناء جنسه[1].

مناسبة كلمة ﴿سَنَةٍ﴾ للسِّياق:

بيانُ اختيارِ الزَّمنِ الذَّليلِ على الموتِ خوفًا ممَّا بعدَه من الشَّقاءِ

اختارَ النَّظمُ الكريم كلمةَ سنة دون كلمة عام أو حِجّة؛ لأنَّ السَّنة تُستعمل غالبًا للحولِ الذي فيه جدْبٌ وضيقُ عيشٍ وكدٌّ وتعبٌ، بخلافِ العام فهو يُستعملُ غالبًا للحول المخصِب الذي فيه خير؛ فناسبَ السّياقَ ذكرُ كلمةِ سنة؛ فإنّه لما كان المرادُ ذمَّهم بسببِ حرصِهم الشَّديد على بقائهم في الدُّنيا على أيِّ حالةٍ ذليلةٍ أو عزيزةٍ، ناسبَ ذكرُ السَّنةِ لبيانِ أنَّهم يودُّون الحياةَ ولو كانت متناهيةً في الذُّلِّ على أسوأ الأحوال من ضيق العيش والقحط والتعب فهي - كما يَظُنُّونَ- خيرٌ لهم ممَّا بعد الموت لتحقُّقِ شقائهم[2].

دلالة الباءِ على استغراقِ النَّفْيِ:

أفادت الباءُ تأكيدَ النَّفيِ واستغراقَهُ لِأَيِّ نوعٍ من الزَّحزحَةِ من العَذابِ[3]، ففيه وعيدٌ شديدٌ وتهديدٌ رادعٌ.

(1) الرازي، التّفسير الكبير: 3/609، وأبو حيّان، البحر المحيط: 1/504.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 2/63.
(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 1/325.

مُناسَبَةُ تَكرارِ الصَّوتِ لِدلالة المَعْنى المُعْجَمِيِّ:

ثِقَلُ الصَّوتِ يدلُّ على ثِقَلِ الحَرَكَةِ

تكرار الصّوتين في (زحزح) يدلّ على حركة التَّباعدِ ببُطْءٍ وتثاقُلٍ وجُهدٍ، والتَّكرارُ الصَّوتيُّ الموجودُ في الكلمةِ يوحي بمعنى الثِّقَلِ وبطءِ الحركةِ، فتنسجمُ الدّلالة المعجميَّةُ معَ الإيحاءِ الصَّوتيِّ؛ لِتمثِّلَ هذهِ المفردةُ بإيقاعِها الصَّوتيِّ حركةً مكرَّرَةً فيها ثِقَلٌ وتباطؤٌ وجهدٌ، وكأنّ أحدَهم يودُّ ببقائِه في الدُّنيا أنْ يتزحزحَ، ولو قليلًا من مكان العذابِ، فجاء الردّ الإلهي الحاسم بالنَّفي المؤكّد بـ(الباء) في أنَّ تعميره في الدّنيا لا يؤثِّر في إزالة العذابِ أقلَّ تأثير، وإذا انتفى الأقلُّ انتفى الأكثرُ، ولو قال اللّه تعالى: (وما هو بِمُبْعِدِهِ) أو (وما هو بمُنْجيهِ) لم يدلَّ على قِلَّةِ التّأثيرِ كدلالة هذا القولِ[1].

بديعُ التَّصدير:

مُناسبةُ ختمِ الآيةِ لِصَدرِها

من بديع اختتام الكلام أن يناسِبَ آخرُه أوَّلَه في المعنى[2]، ولمّا جاءت الآيةُ مُصدّرة بقوله: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ﴾ على معنى لَتُلْفِيَنَّهُمْ بعدَ خِبرةٍ بأحوالِهم، ومعرفةٍ بدقائق أمورهم؛ دلّ هذا على نفي علمِ أحدٍ من النّاس بما يخفونَه من أعمالِهم وأحوالِهم، فناسبَ مجيءَ قولِه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ﴾؛ فتشابهَ طرفا الآيةِ صدرُها مع فاصلتِها، وفائدةُ النُّكتة البلاغيَّة بيانُ أنّ ما خَفِيَ على رسولِ اللّه ﷺ وعلى المؤمنين من أعمالهم فاللّه بصيرٌ به، وسيجازيهم على فعلِهم.

تضمينُ الخبرِ معنى التَّهديد:

تضمَّنَتِ الجملة الخبريَّة: ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ﴾ معنى التَّهديدِ والوعيدِ، فهي تحملُ معنى مجازاتهم بالتّعذيب لما فعلوه، كما تقول لمن يعصي: قد رأيتُ ما فعلتَ؛ فيكون تهديدًا له بالعقاب وتوبيخًا لمعصيته[3]، ولمّا كانت جملةُ التّذييل تتضمّن عمومَ المعنى؛

(1) الرازي، التّفسير الكبير: 3/610.
(2) الخطيب القزويني، الإيضاح، ص: 507.
(3) الشهاب، عناية القاضي: 2/339، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/619.

لتضَمُّنِها ألفاظَ العمومِ ومعانيه، مثل (ما) الموصولة في الآية، فالتَّهديدُ والتّخويفُ لا يخصُّهم؛ بل يعُمُّ كلَّ مَنْ يَجترحُ السّيّئات، لكنَّهم يدخلون دخولًا أوَّليًّا بسياقِ الكلامِ وسباقِه.

توجيه المتشابه اللَّفظيّ:

لكلِّ سِياق نظمُهُ، ولكلِّ كلامٍ اعتبارُه المُناسِبُ لَهُ

جاء نظمُ هذه الآية بقوله: ﴿وَلَن يَتَمَنَّوۡهُ﴾، بخلافِ نظمِ آيةِ الجمعة بقوله: ﴿وَلَا يَتَمَنَّوۡنَهُۥٓ﴾، مع اتِّحادِ الخَبرِ مِنْ جِهتين:

المُناسبة في قوّة الدّعوى: ففي هذهِ السّورةِ ادّعَوا دَعوى بَالِغَةً قاطِعةً هي نهايةُ مطلبِ المؤمن، وغايةُ سَعيهِ، فقد عُلّقت صحَّةُ الشَّرطِ، وهو كونُ الدَّارِ الآخرةِ لَهم عند اللّه سالمةً خاصةً، بتمنِّي الموتِ، فوجبَ أنْ يكونَ بطلانُ تمنّي الموتِ المقتضي بطلانَ كونِ الدَّارِ الآخرةِ لهم أقوى ما يستعملُ في بابِهِ، فَبَالغ في الرَّد عَلَيْهِم بـ(لن) التي تفيد تأكيد النَّفي، وهي أبلغُ أَلْفَاظ النَّفْي، وفي سورةِ الجمعة ادَّعوا أَنَّهم أَوْلِيَاءُ اللّه، وليس هو المطلبَ الذي لا مطلوبَ وراءَه، فهي دعوةٌ قَاصِرَةٌ؛ لأَنَّهم وإنْ كانوا أولياءَ اللّهِ حسبَ زعمِهم سيطلبونَ بعدَ ذلك الدّارَ الآخرةَ، فاقتصر على (لَا) التي هي لنفي الحال والاستقبال من غير تأكيد.[1]

المُناسبةِ في الزَّمنِ: لـمَّا كان الواردُ في سورة البقرة جوابًا لشرطٍ فيما يستقبل، وهو قوله: ﴿إِن كَانَتۡ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً﴾، فالدّارُ الآخرة حُكمٌ أخرويٌّ يكون في المستقبل؛ جاء جوابُه بـ(لنْ) التي تخصُّ الاستقبال، فإنّ (لنْ يفعلَ) نفيُ (سيفعلُ)، ولـمَّا كان الشَّرطُ في سُورة الجمعةِ يتعلَّق بالحياةِ الدّنيا، وهي حكم دنيويٌّ، ووصفٌ حاليٌّ لا استقبالَ فيه، وهو قوله: ﴿إِن زَعَمۡتُمۡ أَنَّكُمۡ أَوۡلِيَآءُ لِلَّهِ﴾، فزعمُهم أنَّهم أولياءُ اللّه هو في الدُّنيا، فناسبَه الجوابُ بـ(لا)، التي تدخلُ على الحال[2].

(1) الإسكافي، درة التنزيل، ص: 267، وابن جماعة، كشف المعاني: 1/103.
(2) الغرناطي، ملاك التأويل: 1/47، والكرماني، البرهان في متشابه القرآن: 1/91.

الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

سَنة وعام:

للعلماء في الفرق بين سنة وعام قولان:

الأول: أنّهما بمعنى واحد، ولا فرق بينهما.

الثاني: أن استعمال القرآن للفظ السّنة يكون في الشقاء والجدب والشّدّة، بينما العام يكون في الرّخاء والخصب، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ١٣٠﴾ [الأعراف: 130]، وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾ [يوسف: 49][1].

(1) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 171، والسمين، عمدة الحفاظ: (سنه).

﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾﴾ [البقرة: 97]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

بعدَ بيانِ كذبِ بني إسرائيل بالدَّليلِ البيِّنِ، وإقامةِ الحجَّةِ عليهم بأنَّهم أخسُّ النَّاسِ شأنًا؛ لحرصِهم على أخسِّ حياةٍ، ناسبَ ذكرُ عداوتِهم لجبريل عليه السلام؛ ليقعَ التَّهديدُ الضّمنيُّ لهم بسببِ معاداتِهم له، فكيف لأخسِّ النَّاسِ أن يُعادي أشرفَ الملائكةِ شأنًا ومكانةً؟ فهي عداوةٌ في حقيقتِها للّه ربِّ العالمين، فجاءَتْ هذه الآية دليلًا آخر لِلرَّدِّ عَلَى قَوْلِهِمْ: ﴿نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾ [البقرة: 91]؛ لِأَنَّهُمْ أَظْهَرُوا بِهِ عُذْرًا عَنِ الْإِعْرَاضِ عَنِ الدَّعْوَةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ، وَهُوَ عُذْرٌ كاذِبٌ سَتَرُوا بِهِ السَّبَبَ فِي الوَاقِعِ، وهُو الْحَسَدُ عَلى نُزُولِ الْقُرْآنِ عَلى رَجُلٍ مِنْ غَيْرِهِمْ، فأبطلَ في هذه الآية عُذرَهم، وأثبتَ الصَّارفَ الحقيقيَّ عن إعراضِهم وهو الحَسَدُ؛ ولهذا عادَوْا جبريلَ عليه السلام الذي أنزل الكتاب على موسى عليه السلام، والذي نزَّل القرآن على قلب نبيّنا صلى الله عليه وسلم[1].

شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

1) ﴿عَدُوًّا﴾: الْعَيْن والدَّال والحرف المعتلّ تدلّ اشتقاقاتها على تَجَاوُزٍ فِي الشَّيْءِ وَتَقَدُّمٍ لِمَا يَنْبَغِي أَنْ يُقْتَصَرَ عَلَيْهِ، يُقال: عَدَا الفَرَسُ: إذا جَرَى ووثب؛ لأنه يتخطى المسافات والفجوات ويتجاوزها، ومنه التعدّي لأنّه تجاوز ما ينبغي أن يقتصر عليه، وسُمِّيَ العدوُّ عدوًّا لمجاوزته ما حُدَّ له وهو ضدّ الصّديق، والعَدَاوة: المباعدة والخصومة ففيها معنى التّجاوز، والأصل فيها تباعُدُ القلوب والنّيّات، والعَادِي: الَّذِي يَعْدُو عَلَى النَّاسِ ظُلْمًا، وَالعُدْوَانُ: الظُّلْمُ الصُّرَاحُ، وَالِاعْتِدَاءُ مُشْتَقٌّ مِنَ الْعُدْوَانِ، والعدوُّ يستوي لفظه للمذكّر والمؤنّث والواحد والجميع، والعدوّ في الآية بمعنى المُبغِض؛ لِأَنَّ الْمُبْغِضَ يَثِبُ عَلَى الْمَبْغُوضِ لِيَنْتَقِمَ مِنْهُ[2].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/620.

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والهروي، الغريبين، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (عَدَوَ)، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/620.

2) ﴿لِّجِبْرِيلَ﴾: اسمُ مَلَكٍ من الملائكة، وهو رُوحُ القُدُسِ وأَمينُ الوحي بينَ اللّهِ ورسلِه، وَهُوَ الَّذِي نَزَلَ بِالْقُرْآنِ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَجبريل اسْمٌ أَعْجَمِيٌّ مَمْنُوعُ الصَّرْفِ لِلْعَلَمِيَّةِ وَالْعُجْمَةِ، مركّب من جبْر وإيل[1].

3) ﴿مُصَدِّقًا﴾: الصِّدْقُ ضِدُّ الكَذِبِ، وصَدَّق يدلّ على كثرة الصِّدقِ، واسمُ الفاعلِ مُصَدِّق، يقال: مُصَدِّق للشّيء بمعنى محَقِّق له. ومعنى ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ مُوافِقًا لما قبلَه من كُتُبِ الأَنبياءِ.

4) ﴿بَيْنَ يَدَيْهِ﴾: أَي لِمَا جاءَ قبلَه وتَقدَّمَه، والأصلُ في هذا التّركيبِ أنْ يكونَ بمعنى أمامَ، ضِدُّ خَلْفَ، فيقالُ: بينَ يديْهِ وخَلفِه، ثمّ استُعملَ مجازًا لِمَا تقدَّم وسبقَ؛ لأنّ السَّابقَ أمام.

5) ﴿بِإِذْنِ﴾: يُعبّر بالإذْن عن العِلْم، يقال: قَدْ أَذِنْتُ بِهَذَا الْأَمْرِ؛ أَيْ: عَلِمْتُ، وآذَنَنِي فُلَانٌ أَعْلَمَنِي، والإذْنُ في الشّيء الإعلام بإجازته والرُّخصة فيه؛ لكنْ بيْن العلم والإذْنِ فرقٌ، فإنّ الإذْنَ أخصُّ، ولا يكادُ يستعملُ إلّا فيما فيه مشيئةٌ به، وإذا أُسنِدَ الإذْنُ إلى اللّهِ فقد يراد أمرهُ وإرادتُه أو تيسيرُه، وهي معانٍ مجازيَّة[2].

6) ﴿وَهُدًى﴾: الهَاءُ وَالدَّالُ وَالحَرْفُ المُعْتَلُّ، تدلُّ في أحد أصليها على الدّلالة بلُطْفٍ، يُقال: هداه؛ إذا دلّه على الطَّريقِ الحقِّ، فالهدى نقيضُ الضَّلالِ، والقرآن هدىً؛ أي: رُشدٌ وبيانٌ؛ لأنّه يرشِدُ النَّاسَ إلى الحقّ، وإلى الحالة التي هي أقوم، وإنَّما سَمَّى اللّهُ جلَّ ثناؤُه القرآنَ هدًى؛ لاهتداءِ المؤمنِ به[3].

7) ﴿وَبُشْرَىٰ﴾: البَاءُ وَالشِّينُ وَالرَّاءُ أَصْلٌ وَاحِدٌ تدلُّ على معنى ظُهُورِ الشَّيْءِ مَعَ حُسْنٍ وَجَمَالٍ، فَالبَشَرَةُ ظَاهِرُ جِلْدِ الإنسانِ، وَسُمِّيَ البَشَرُ بَشَرًا لِظُهُورِهِمْ، وَالبَشِيرُ الحَسَنُ الْوَجْهِ، وَالبِشَارَةُ الخبر السارّ، والأصل في البِشارةِ أنْ تكونَ بالخَيْرِ وبما يَسُرُّ، وَالنِّذَارَةُ بغَيْرِهِ، وبُشرى في الاستعمال القرآني للبِشارة بالخير[4].

(1) الجوهري، الصّحاح، وابن منظور، لسان العرب: (جبر).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات: (أذن)، والشهاب، عناية القاضي: 2/342.
(3) الهروي، الغريبين، والسمين، عمدة الحفاظ: (هدى)، وابن جرير، جامع البيان: 2/393.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة، والأصبهاني المديني، المجموع المغيث في غريبي القرآن والحديث، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (بشر).

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

يأمرُ اللّه ﷻ نبيَّه ﷺ أن يُخاطِبَ اليهودَ من بني إسرائيل الذين زعموا أنَّ جبريل عَدُوُّهم، بأنَّه مَن كان مِن النّاس لجبريل عدوًّا فإنّي له وليٌّ وخليل، فإنْ عاداه أحد فعداوته باطلة؛ لأنه إنّما نزَّل القرآن على قلب محمدٍ ﷺ بإذن اللّه وأمره، ولا سبيلَ إلى مخالفة أمرِ اللّه، وجاء جبريلُ بالقرآن مصدِّقًا لِما سبقه من كتب اللّه، وهاديًا إلى الحق، ومبشرًا للمصدِّقين به بكل خير في الدنيا والآخرة، فجبريل عليه السلام من حيث إنّه مأمورٌ وجب أن يكون محبوبًا، ومن حيث إنّه أتى بالهداية والبشارة يلزم أن يكون مشكورًا؛ لإنزاله ما ينفعهم، فعداوةُ مَن هذا سبيلُه هي عداوةٌ للّه ﷻ [1].

❁ الإِيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

نكتةُ اختلافِ النَّظمِ:

بيانُ شُمولِ غضبِ الله لكلِّ مَن عادَى رسولًا مِن رسلِه

اختلفَ نظمُ الآيةِ عن الآيةِ المثيلةِ السَّابقة: ﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ﴾، فلم يقل: (إن كنتم أعداء لجبريل)، وهم قد صرّحوا بمعاداتهم لجبريل [2] عليه السلام؛ ذلك أنَّ مقامَ معاداةِ جبريلَ عليه السلام يختلفُ عن مقامِ إقامةِ الدَّليلِ على كذبِ اليهودِ؛ فحسُن أن يأتيَ بالغَيبَةِ، وبصيغة العموم (مَن)، وهو شَرْطٌ عَامٌّ مُرَادٌ بِهِ خَاصٌّ وَهُمُ الْيَهُودُ، فقَصدَ الإِتْيَانَ بِالشُّمُولِ باستعمال لفظ العموم؛ لِيَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْبَأُ بِهِمْ وَلَا بِغَيْرِهِمْ مِمَّنْ يُعَادِي جِبْرِيلَ إِنْ كَانَ لَهُ مُعَادٍ آخَرُ [3]، ولأَنَّ معاداة جبريل عليه السلام كفر في كلِّ الشّرائع، ولا يختصّ ذَمُّه بشريعة معيّنة، فالقضيّة من أصولِ الدِّينِ التي لا تختلفُ بينَ شرائعِ الأنبياءِ والرُّسُلِ.

بلاغةُ حذفِ جوابِ الشَّرطِ:

حذفُ جوابِ الشَّرطِ وذكرُ علَّته للجَمْعِ بينَ التَّخويفِ والوَعيدِ

لـمّا كانتْ عداوةُ جبريلَ أمْرًا مَهولًا وعظيمًا عند اللّه حذفَ الجوابَ؛ لِيذهبَ السَّامعُ كلَّ مَذهَبٍ ممكنٍ، فلا يَتَصَوَّرُ مَطلوبًا ولا

(1) ابن جرير، جامع البيان: 2/387، والنيسابوري، غرائب القرآن: 1/342.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 2/387.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/621.

مَكروهًا إلَّا ويُجَوِّزُ أنْ يكونَ الجزاءُ والوعيدُ أعظمَ منهُ؛ تَخويفًا له مِنْ أنْ يفعلَ هذا الفعلَ، بِخلافِ ما لو ذُكر فقيل: فاللّه عدوٌّ لهُ، أو فَلا وجهَ لِعداوتِهِ، أو نحوُ ذلك، وإلّا لكانَ الجزاءُ مخصوصًا وفاتَ المقصودُ من هولِ شدّة التَّخويف لشدّة أَمرِ عداوَةِ جبريلَ عليه السلام عندَ اللّهِ، ولا يَخفى حسنُ العدولِ إلى ذكرِ عِلّةِ جوابِ الشَّرطِ، ولو لم يكنْ فيه شيءٌ سِوى أنّهُ احتَجّ على بُطلانِ عداوتِهم من وجهٍ، وذَكرَ موجباتِ محبّةِ جبريلَ وتقريرَ تنزيلِ القرآنِ وبيانَ أوصافِهِ من وجهٍ آخرَ، فجمعَ بينَ الوجهينِ بكلامٍ واحدٍ؛ لكفَى، فسببُ عداوتِهم جبريلَ هو أنَّه نزَّل عليك القرآنَ مصدِّقًا لكتابِهم وموافقًا له، فَهُم كارهون للقرآن [1].

دلالة حرفِ الفاءِ:

أفادت الفاءُ أنّ ما بعدها من الكلام، وهو كونُ جبريلَ نزّل القرآنَ على قلبِ رسولِ اللّهِ ﷺ، سببٌ لامتناعِ عداوةِ جبريلَ عليه السلام، وأَفاد الربطُ بالفاء أنَّ الأَولى بمَنْ يكون مُرسلًا من اللّه تعالى ويُنزِّلُ عليك القرآن أنْ يكونَ محبوبًا لا مَكروهًا.

ترتيبُ ما بعدَ الفاء على ما قبلَها لبيان الأولويَّة التي يجب أن يكون عليها العقلاءُ

تنزيل المنكِر منزلتَه فاقتضى الكلامُ تأكيدًا:

لمّا كان اليهودُ منكرين للقرآن ولرسالة رسولِ اللّه ﷺ أتى بـ(إنّ) المؤكِّدةِ؛ لتقريرِ هذا التّنزيل، ثم تقويتِه بمجيء الخبر جملةً فعليةً [2]، فتضمّن الكلامُ تأكيدين: (إنّ) و(تقوية الحكم)؛ لكون المسندِ جملةً فعليةً، وأفاد تقريرَ أنّ جبريلَ نزّله على قلبكَ يا محمّدُ، وأنَّ جبريلَ هو الذي نزّله لا غيرُه.

توجيه المتشابه اللَّفظيّ:

اختلف التَّعبير في صيغة النُّزولِ بين ما جاء في هذه الآية: ﴿فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلۡبِكَ﴾، وبين قولِه في سورة الشّعراء: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ

مراعاةُ اختيارِ الصِّيَغِ ملحوظٌ بِهِ مراعاةُ معنى السِّياقِ

(1) الزمخشري، الكشاف: 1/170، والبهاء السبكي، عروس الأفراح: 1/593، والشهاب، عناية القاضي: 2/342.

(2) السكاكي، مفتاح العلوم، ص: 217.

﴿عَلَىٰ قَلۡبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ﴾ [الشّعراء: 193-194]؛ ذلك أنَّ لَفْظَة (نَزَّلَ) تَدُلُّ عَلَى التَّفْرِيقِ وتقويةِ الفعلِ بسببِ التَّضعيف من حيث الكمّيةُ أو الكيفيةُ، والقرآنُ عظيمُ الشَّأن بكثرة تنزيلِه من عندِ اللّه العليِّ الكبير، بخلافِ لَفْظَةِ (أَنْزَلَ) فهي تَدُلُّ عَلَى الجَمْعِ[1]، فناسب كلّ لفظةٍ موضعَها؛ لأنَّ آيةَ سورةِ البقرة في مقام تثبيتِ قلبِ رسولِ اللّه ﷺ أمامَ أكاذيبِ اليهود وادّعاءاتِهم الباطلةِ، وكذلك في مقام ذكرِ أوصافِ القرآن، فأشار إلى تفريقه وتكثُّرِ نزولِه ليكون أكثر تثبيتًا وتقريرًا في قلب رسول اللّه ﷺ وللدّلالة عَلَى تعظيم شَأْنِ نُزُولِ القُرْآنِ، والمقامُ في سورةِ الشُّعراءِ للنّذارةِ، فقصَدَ جميعَ القرآن؛ لأنَّ النِّذارة بجميعِه أبلغُ.

نكتةُ إبهامِ الضميرِ:

عُلُوُّ شَأنِ القرآنِ وكَمالُ شُهرتِهِ يجعلان إبهامَه أوضحَ مِن تعيينه

أُبهم الضَّميرُ في قوله: ﴿نَزَّلَهُۥ﴾، والمقصودُ به القرآنُ كما هو ظاهر[2]، ولم يتقدّمْ للقرآنِ ذكرٌ في قريبِ الكلام، فيكون كقوله تعالى: ﴿فَلَوۡلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلۡحُلۡقُومَ﴾ [الواقعة: 83]؛ إذْ لمَّا كانَ القرآنُ عظيمَ الشَّأنِ فإضْمارُهُ يُغني عن ذكرِه بالاسمِ الظَّاهر، فـ"أَضمرَ من غيرِ ذكرٍ إيذانًا بفخامةِ شأنِه واستغنائِه عن الذِّكرِ لكمالِ شُهرتِه، لا سيَّما عندَ ذكرِ شيءٍ من صفاتِه"[3]، والقرينةُ الدّالّة عليه هي قولُه: ﴿نَزَّلَهُۥ﴾؛ فمِن صفاتِ القرآنِ الكريمِ أنَّه مُنزَّلٌ من عند اللّه، وكونُ النَّازلِ به هو جبريلُ عليه السلام.

براعةُ تَوالِي الضَّمائرِ:

فخامةُ التَّعبيرِ عن الرِّسالةِ والرَّسولِ والوساطةِ بالإضمارِ، وإظهارُ لفظ الجلالةِ

وردتْ ثلاثةُ ضَمائرَ متواليةً تَكمنُ فيها مفاهيمُ الإيمانِ، وعُلِّقَ مجيئُها بإذن اللّه؛ فإنَّ ﴿بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾ متعلّقٌ بالفعل ﴿نَزَّلَهُۥ﴾ مع مقيِّداتِه من الفاعل والمفعول والجارِّ والمجرور، فيكون ﴿بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾

(1) الفخر الرازي، التّفسير الكبير: 24/429، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/147.
(2) ابن جرير، جامع البيان، تح: شاكر: 2/387.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/134، والنيسابوري، غرائب القرآن: 1/1/343.

قيدًا يستغرق الإسنادَ كلّه، وعُبِّر عن لفظِ الجلالةِ بالاسمِ الظَّاهر؛ لتوريث المَهابةِ، فإنَّ إظهارَ لفظِ الجلالةِ بعد التَّعبيرِ عن الرِّسالةِ والرَّسولِ والوساطةِ بالإضمار؛ له من الرَّوعةِ والمهابةِ في نفسِ المتلقّي ما يُسندُ الأمرَ لصاحبِ الأمرِ على الحقيقة.

ترتيبُ الضَّمائر:

ترتيبُ الضّمائِر في اللّفظ مراعًى فيه ترتيبُها في الوجودِ

المقصودُ بالضَّميرِ الأوَّلِ في قولِه: ﴿فَإِنَّهُۥ﴾ جبريلُ الواسِطةُ الذي جاء بإذنِ اللّهِ وبأمرِه، والمقصودُ بالثَّاني ﴿نَزَّلَهُۥ﴾ القرآنُ المنزَّلُ، والمقصودُ بالثَّالث ﴿قَلْبِكَ﴾: رسولُ اللّهِ مُحمّدٌ ﷺ، وخُصَّ الضَّميرُ العائدُ إلى رسولِ اللّهِ بضميرِ المُخاطَبَةِ تكريمًا له وتَشريفًا، معَ ما سيأتي من لطيفِ البلاغةِ في بيانِ سببِ إضافةِ القلبِ إلى كافِ الخِطاب، والنِّكاتُ البلاغيَّةُ لا تتقاطَعُ.

دلالة التَّعبيرِ بحرف الاستعلاء:

استعلاءُ القرآن تشريفٌ لأصحابِه وتكريمٌ لهم

عبّر بـ﴿عَلَىٰ﴾ للإشارةِ إلى استعلاء القرآن على القلوب واستيعابه لها؛ لما تتضمّنُه (على) مِن معنى الفَوقيَّةِ والتمكّن، كما يدلّ على أنّ اللّه قد شرّف رسوله وأعلى ذكرَه. وتمكّنُ القرآنِ في قلبِ المؤمنِ تشريفٌ له وتكريمٌ لقلبِه، وللإشارة إلى وجوب الاعتناء به، ولو قال: (إلى قلبك)، لأفاد الانتهاءَ وبلوغَ الغاية من غير استيعابٍ وإحاطة؛ لأنّ (إلى) لا تختصُّ بجهة دونَ جهة، والإحاطةُ بالاستعلاء تُحقِّق معنى انتهاءِ الغاية، ولذلك كان أكثر المواضع التي ذُكر فيها إنزالُ القرآنِ على النبيّ ﷺ عُدّي بـ(على)، كقوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ﴾، وأكثر ما ذُكر إنزالُه بمعنى تبليغِه للنَّاس جاء مُعدًّى بـ(إلى)[1]، كقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ [الزمر: 2].

(1) الإسكافي، درّة التنزيل، ص: 1107.

إِضَافةُ القَلبِ إِلَى كافِ الخِطَابِ لا ياء المُتكلِّم:

بلاغة الالتفاتِ للتَّنبيهِ إلى عِظَمِ شأْنِ المخاطَبِ

أُضيفَ القلبُ إلى كافِ الخطابِ بدلًا من يَاءِ المُتَكَلِّم كما يقتضيه ظاهرُ الكلام، بأنْ يقولَ: (نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِي)؛ ليكون واردًا عَلَى طَرِيقِ الالْتِفَاتِ عَنِ التَّكَلُّمِ إِلَى الْخِطَابِ[1]؛ للتَّنبيه إلى عِظَم شأنِ المخاطَبِ، وعِظَمِ موضع التّنزيل، وهو قلبُ رسولِ اللّهِ ﷺ، وجَعل تنزيلَه على القلبِ زيادةً في تقريرِ التّنزيل ببيانِ محلِّ الوحي[2].

مناسبةُ التَّرتيب اللفظيّ للأحوال:

مقدِّماتُ التَّأييدِ فمضمونُ الهدايةِ فالنَّتيجةُ

لمّا كانت مَدْلُولَاتُ الأحوال من الضّمير ﴿نَزَّلَهُۥ﴾، وهي ﴿مُصَدِّقًا﴾ ﴿وَهُدًى وَبُشْرَىٰ﴾، تَرَتَّبَتْ تَرْتِيبًا وُجُودِيًّا؛ ناسب ترتيبُ هذه الأحوالِ على هَذا التَّرْتِيبِ اللَّفْظِيِّ، فَالْأَوَّلُ: كَوْنُهُ مُصَدِّقًا لِلْكُتُبِ، وَذَلِكَ لِأَنَّ الْكُتُبَ كُلَّهَا مِنْ يَنْبُوعٍ وَاحِدٍ، وَالثَّانِي: أَنَّ الْهِدَايَةَ حَصَلَتْ بِهِ بَعْدَ نُزُولِهِ عَلَى هَذِهِ الْحَالِ مِنَ التَّصْدِيقِ، وَالثَّالِثُ: أَنَّهُ بُشْرَى لِمَنْ حَصَلَتْ لَهُ بِهِ الْهِدَايَةُ[3]، ولم يقيّد البُشرى بزمان معيّن، فلم يقل وبُشرى للمؤمنين في الدنيا أو في الآخرة؛ ليدلَّ الإطلاق على عُموم البُشرى زمانًا ومكانًا.

توجيه المتشابه اللَّفظي:

أثرُ السِّياقِ في بيانِ العمومِ والخُصوصِ

لم يُخصِّص الحالَ في قوله: ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾؛ بل أتى به عامّا، وقد خصّصه في قوله: ﴿وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ﴾ [البقرة: 91]؛ لاختلاف سياقِ الآيتين، فهذه الآيةُ جاءَت لتفخيم شأنِ القرآنِ وتعظيمِه، وبيانِ الموقفِ ممَّن يُعادي جبريلَ عليه السلام الذي نزلَ بجميعِ الكتبِ؛ فاقتضى إطلاقَ الوصفِ، فالقرآنُ مصدّقٌ لكلِّ الكتب السَّابقة، وأمَّا قولُه: ﴿وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ﴾ فسياقُها في مخاطبةِ اليهودِ، وإلزامِهم الحجَّةَ؛ فاقتضى ذِكر أنَّه مصدِّقٌ لِمَا معهم من التَّوراةِ.

(1) رشيد رضا، تفسير المنار: 1/325.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/134.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 1/514.

توجيه المخصوصِ بالذِّكر:

خُصَّ هذان الوصفانِ ﴿وَهُدًى وَبُشْرَىٰ﴾ بالذِّكرِ؛ لإشعارِ اليهود وغيرِهم بأَنَّ مَنْ أراد السَّير على أقوم طريق وأوضحِه وأرشدِه، ويكونُ له فيه بُشرى فعليه بالقرآن، وإذا كنتم أيّها اليهود تخافون العذابَ فعليكم بالقرآن فهو هُدى وبُشرى للمؤمنين؛ وهذان وصفان جامعان، فالهُدى طريقُ الحقِّ الموصِلُ، والبُشرى نتيجة طريقِ الإيمانِ، فاجتمع في الوصفين الطَّريق وثمرتُه، وهذا غايةُ ما يرجوه العبدُ.

اجتمعَ في الوصفين الطَّريقُ وثمرتُه، وهذا غايةُ ما يرجوه العبدُ

سرُّ العدولِ في الصِّيَغ:

ممَّا يقتضيه الظَّاهرُ أنْ يأتيَ الحالانِ بصيغةِ اسم الفاعل (هاديًا مبشّرًا) مثلَ ﴿مُصَدِّقًا﴾؛ لكنَّه عدَلَ عن هذا إلى المصدر مبالغةً في تعظيمِ القرآن وتفخيمِ شأنِه، ليُناسِبَ تفخيمَه بمجيءِ الضَّمير من غير عودٍ على مذكورٍ في قوله: (نزّلَه)؛ فإنَّه لـمَّا حَصَلَ بِهِ عميمُ الهُدَى وَالبُشْرَى للمؤمنين جُعِلَ نَفْسَ الهُدَى وَالبُشْرَى[1].

المبالغةُ في وصفِ القرآنِ بالهداية والبُشرى

نكتةُ تقديمِ الهدى على البشرى:

لـمّا كان الهُدى يُرشِد إلى الطّريق، ولـمّا كان القرآنُ فيه بيانُ ما وقعَ التّكليفُ به من أعمالِ القلوبِ وأفعالِ الجوارحِ، ولـمّا كان المؤمنون هم المنتفعين بهَدْيِ القرآنِ وطريقِه؛ فهو من هذا الوجه هُدًى للمؤمنين، ثمَّ جاء بيانُ أنَّ الآتي بتلك الأعمال كيف يكون ثوابُه، فهو من هذا الوجه بُشرى، والهُدى مُقدَّم على البُشرى في الوجودِ فقُدِّمَ في الذكر أيضًا[2].

الهُدى هو المقدَّمُ لأنَّه الطَّريقُ الموصِلُ، والبُشرى نتيجتُه

توجيه المخصوص بالذِّكرِ:

أفادت لامُ الجرِّ تخصيصَ الهدايةِ والبُشرى بالمؤمنين؛ لكونِهم هم المنتفعينَ به، وإلّا فالقرآنُ في نفسِه هادٍ لكلِّ النَّاسِ كما قال

لَحْظُ وجهِ الانتفاعِ بالقرآنِ، وحثُّ غيرِ المُهتدين إلى الانتفاعِ به

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 1/514.
(2) النيسابوري، غرائب القرآن: 1/343.

تعالى: ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ﴾؛ فهدايةُ القرآنِ وبِشارتُه عامَّةٌ في جميعِ النَّاسِ، لكنْ لـمَّا كان المؤمنون هم المنتفعين به ذُكروا، ولم يُذكر غيرُهم من قبيلِ الحثِّ والتَّحريضِ؛ فإنَّ من شأنِ القلوبِ التي تطلب المعالي أن تبحثَ عمَّا يجعلُها في مصافِّ المصطفَين.

فائدةُ تَعدادِ أوصافِ القرآن:

كـثرةُ أوصـافِ الـقرآنِ تقتضي عظمتَه ومكانتَه

أثنتِ الآيةُ على القرآنِ الكريمِ بذكرِ أوصافِه البالغةِ، فوصَفه بأنّه مُنَزَّلٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ بِإِذن اللّه، وَبِأَنَّهُ مُنَزَّلٌ عَلَى قَلْبِ الرَّسُولِ المخصوص بالتّشريف والتّكريم، وَأَنَّهُ مُصَدِّقٌ لِمَا سَبَقَهُ مِنَ الكُتُبِ، وَأَنَّهُ هَادٍ أَبْلَغَ هُدًى، وَأَنَّهُ بُشْرَى[1]، كما تضمّن الكلامُ وصفَ القرآن بعِظَمِ الشَّأنِ، كما سيأتي منْ دلالة صيغةِ التَّضعيفِ في ﴿نَزَّلَهُۥ﴾.

توجيه المخصوصِ بالذِّكر:

الإيـمـانُ حكمٌ قـرآنيٌّ يُنتَسَبُ إلـيـه بـشـرطِ القرآنِ لا بادِّعاءِ الكاذبين

خصَّتِ الآيةُ الهدايةَ والبشرى بالمؤمنين، ومَن لم يكن مهتديًا لم يكن مؤمنًا، وبه تُنزعُ صفةُ الإيمانِ عن كلِّ مَن لا يُؤمنُ باللّه ورسولِه والقرآنِ؛ فاليهودُ وكلُّ من على شاكلتِهم ممَّن يزعم الإيمانَ ليسوا بمؤمنين؛ فلمّا لم ينتفعوا بالقرآن ولم يُسَرّوا به دلّ على بُطلان إيمانِهم وكذبهم في دعواهم، فخُصّ الهُدى والبُشرى بالمؤمنين، وتعليقُ الحُكمِ على الوصف يدلّ على عِلِّيَّة المأخَذ، فالمؤمنُ هو الذي ينتفع بالقرآن ويهتدي به فيكونُ مبشّرًا له بالـمَسرّات، فاختِير كلمةُ ﴿لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ للردّ على ما ادّعَوه من انتسابِهم للإيمانِ.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/623.

المحتويات

مقدمة موسوعة التفسير البلاغي	**7**
مقدمة المدير العلمي لمشروع التّفسير البلاغيّ	**11**
المشاركون في تحرير الموسوعة	**19**
منهج موسوعة التّفسير البلاغي	**25**
الجزء الأول	**35**
سورة الفاتحة	**37**
- [الفاتحة: 1]	43
- [الفاتحة: 2]	53
- [الفاتحة: 3]	64
- [الفاتحة: 4]	66
- [الفاتحة: 5]	73
- [الفاتحة: 6]	82
- [الفاتحة: 7]	91
سورة البقرة	**97**
- [البقرة: 1-2]	103
- [البقرة: 3]	115
- [البقرة: 4]	124
- [البقرة: 5]	133
- [البقرة: 6]	139
- [البقرة: 7]	147
- [البقرة: 8]	159
- [البقرة: 9]	165
- [البقرة: 10]	171
- [البقرة: 11]	179
- [البقرة: 12]	184
- [البقرة: 13]	188
- [البقرة: 14]	194
- [البقرة: 15]	201
- [البقرة: 16]	207
- [البقرة: 17]	215
- [البقرة: 18]	224
- [البقرة: 19-20]	228
- [البقرة: 21-22]	241
- [البقرة: 23-24]	252
- [البقرة: 25]	266
- [البقرة: 26]	278
- [البقرة: 27]	289
- [البقرة: 28]	300
- [البقرة: 29]	307
- [البقرة: 30]	312
- [البقرة: 31-33]	324
- [البقرة: 34]	336
- [البقرة: 35-37]	342
- [البقرة: 38]	360
- [البقرة: 39]	371
- [البقرة: 40-41]	377
- [البقرة: 42-43]	389
- [البقرة: 44]	398
- [البقرة: 45-46]	405
- [البقرة: 47]	412
- [البقرة: 48]	415
- [البقرة: 49]	420
- [البقرة: 50]	430
- [البقرة: 51-52]	437
- [البقرة: 53]	445
- [البقرة: 54]	450
- [البقرة: 55-56]	458
- [البقرة: 57]	466
- [البقرة: 58-59]	474
- [البقرة: 60]	490
- [البقرة: 61]	500
- [البقرة: 62]	523
- [البقرة: 63-64]	545
- [البقرة: 65- 66]	556
- [البقرة: 67-69]	563

- [البقرة: 70] 568
- [البقرة: 71] 578
- [البقرة: 72] 588
- [البقرة: 73] 593
- [البقرة: 74] 600
- [البقرة: 75] 616
- [البقرة: 76] 623
- [البقرة: 77] 630
- [البقرة: 78] 639
- [البقرة: 79] 646
- [البقرة: 80] 653
- [البقرة: 81 - 82] 659
- [البقرة: 83] 668
- [البقرة: 84] 678
- [البقرة: 85] 686
- [البقرة: 86] 700
- [البقرة: 87] 705
- [البقرة: 88] 716
- [البقرة: 89] 722
- [البقرة: 90] 733
- [البقرة: 91] 743
- [البقرة: 92] 753
- [البقرة: 93] 759
- [البقرة: 94-96] 769
- [البقرة: 97] 788

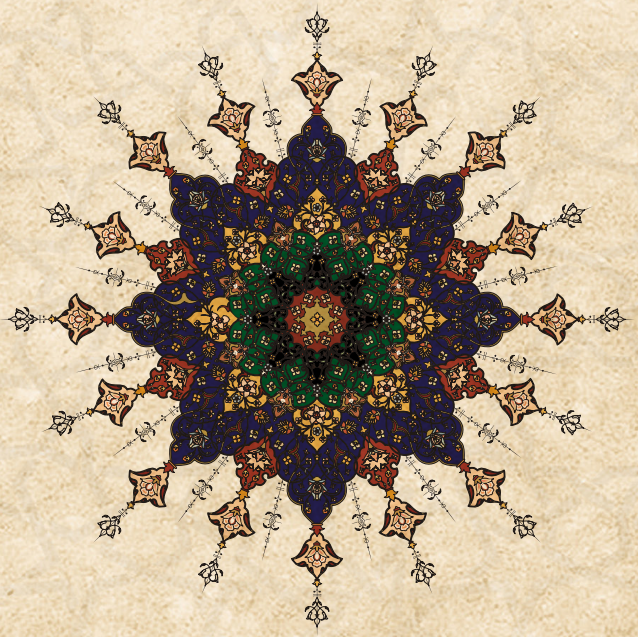

مجمع القرآن الكريم بالشارقة

موسوعة التفسير البلاغي

المُجَلَّدُ الثَّانِي

سورة البقرة من الآية 98 إلى الآية 180

موسوعة التفسير البلاغي

Government of Sharjah حكومة الشارقة
مجمع القرآن الكريم بالشارقة
HOLY QURAN ACADEMY IN SHARJAH

موسوعة التفسير البلاغي

المجلد الثاني

سورة البقرة من الآية 98 إلى الآية 180

نخبة من علماء مجمع القرآن الكريم بالشارقة

منشورات القاسمي
AL QASIMI PUBLICATIONS
2023

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثاني، سورة البقرة من الآية 98 إلى الآية 180
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1444هـ - 2023م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2023م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: سورة البقرة من الآية 98 إلى الآية 180 [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2023.
مج. 2 ، 804 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-798-53-8
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 2 : سورة البقرة من الآية 98 إلى الآية 180.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث ج- المستغانمي، امحمد صافي

الترقيم الدولي : 978-9948-798-53-8
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-7984852 بتاريخ 2023/03/10م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الجُزْءُ الأَوَّلُ

سُورَةُ البَقَرَةِ

﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبۡرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوّٞ لِّلۡكَٰفِرِينَ ٩٨﴾ [البقرة: 98]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا كَانَ السَّببُ في عَدَاوَة اليهود لجِبْرِيلَ هو عدمَ إنزالِه الرِّسالةَ عليهم، نبَّه في هذه الآيةِ إلى مآلِ عداوتِهم لجبريلَ، وهو عداوةُ اللّه وعموم ملائكتِه ورُسُلِه؛ لِأَنَّ سَبَبَ الْعَدَاوَةِ هُوَ مَجِيءُ جبريلَ بِالرِّسَالَةِ فتَسَنَّى أَنْ سَجَّلَ عَلَيْهِمْ أَنَّهُمْ أَعْدَاءُ اللّهِ لِأَنَّهُ الْمُرْسِلُ، وأعداءُ المَلائِكَة لأَنّهم بِأَمْرِ اللّهِ يعمَلُون، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَهُم بِأَمۡرِهِۦ يَعۡمَلُونَ﴾ [الأنبياء: 27]، وَسجّل عليهم أَنَّهمْ أَعْدَاءُ رُسُلِهِ لِأَنَّهُمْ عَادَوا الرَّسُولَ، فكانت معاداةُ واحدٍ من الملائكةِ معاداةً للّه وملائكتِه ورسلِه جميعًا[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

1) ﴿وَمِيكَىٰلَ﴾: هو مِيكائِيلُ، اسمٌ علَمٌ على ملَكٍ من الملائكةِ، وذكر أهل اللغة أنَّ لفظ ميكائيلَ، إمَّا أنْ يكون بسيطًا غير مركّب وإمَّا أَنْ يكون مُرَكّبًا من: (مِيكا وإيلَ) كتركيبِ جِبْرائِيلَ وغيرِهما من أسماءِ الملائكةِ[2].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

تحمل هذه الآيةُ الكريمةُ وعيدًا شديدًا لكلِّ مَنْ يخالفُ أوامرَ اللّهِ تعالى، فمَنْ كان عدوًّا للّه بمخالفةِ أوامرِه، وللملائكةِ بكراهة أفعالِهم ورفضِه الحقَّ الذي جاءُوا به من عنده تعالى، ولرسله بتكذيبهم أو قتلِهم، وعدوًّا لجبريلَ وميكائيلَ خاصَّة، فإنَّ اللّهَ عدوٌّ له بسبب كفره، ومَنْ عاداه اللّهُ باءَ بكلّ عذابٍ تقتضيه عداوةُ اللّهِ تعالى، فهو في العذاب المهين[3].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/623.
(2) الزبيدي، تاج العروس: (ميكل).
(3) مجمع البحوث الإسلامية، التفسير الوسيط: 1/149.

الإيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

بلاغةُ المجازِ في الشَّرطِ والجزاءِ:

ذِكْرُ الملزومِ وإرادةُ اللَّازمِ لأثرِه في النَّفس؛ تقبيحًا له وتحذيرًا من نتيجتِه

لمّا كانت مخالفةُ اليهودِ أوامرَ اللهِ، وكراهتُهم القيامَ بطاعتِه، وتربُّصُهم بأوليائِه ومعاداتُهم لهم؛ لازمةً لعداوتِه سبحانَه، ناسبَ استعمالَ لفظِ العدوِّ للتَّعبير عنها؛ لأنَّ العدوَّ للغير هو الذي يريد إنزالَ المَضارِّ به، وهذا التَّصورُ يستحيل في حقِّه تعالى من العاقلِ المتفطِّنِ لا الغافلِ المُتغابي، فذكرَ الملزومَ وأرادَ اللَّازمَ؛ لِعمومِ المعنى الذي يتضمّنُه الملزومُ بلفظٍ واحد إيجازًا في الكلام، ولإقامةِ الحُجَّةِ عليهم، كما أنّ قولَه تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلۡكَٰفِرِينَ﴾ مجازٌ كذلك[1]؛ بذِكر الملزومِ وهو العداوةُ وإرادةِ اللَّازمِ وهو مجازاتُهم على مخالفاتِهم، واستعملَ المجازَ لأنَّ لفظَ العداوةِ أشدُّ تأثيرًا في النَّفسِ من أيِّ لفظٍ دالٍّ على المُجازاةِ.

معنى حرفِ الواوِ:

مقصودُ العطفِ البيانُ والتَّمثيلُ، لا الحصرُ والتَّعيينُ

جاءَتْ الواو تحملُ معنى العطفِ على الأصلِ، فمن عادَى ملائكةَ اللهِ أو رسلَه فإنَّه على الحقيقةِ قد عادَى اللهَ تعالى، فالعطفُ في قولِه تعالى: ﴿وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبۡرِيلَ وَمِيكَىٰلَ﴾ للبيانِ والتَّمثيلِ، لا للحصْرِ أو التَّعيينِ، فمن عادَى أولياءَ اللهِ باعتبارِهم أولياءَه فقد عادَى اللهَ، وهكذا يُقال في كلِّ مَنِ انتسبَ إلى اللهِ تعالى بنوعِ انتسابٍ، ولا تُتصوَّرُ معاداةُ جبريلَ عليه السلام وحدَه إلَّا بمعاداةِ اللهِ تعالى.

نُكتةُ ذِكرِ الجمعِ في مَقامِ إرادةِ الجِنسِ:

عداوةُ أحدِ الرُّسُلِ معاداةٌ للجميعِ، فالعداوةُ في اللهِ لا تتجزّأ

ليس المقصودُ أنْ يكونَ العدوُّ عدوًّا لجميعِ الملائكةِ ولا لجميعِ الرُّسُلِ؛ لأنّهُ أرادَ جنسَ الملائكةِ وجنسَ الرسلِ، وآثر ذكرَ الجمعِ؛ لأنّهُ قصدَ أنْ يكون الحكمُ على الواحدِ من الملائكةِ والرُّسُلِ حكمًا على الجميعِ، وأنّه لا تفرقةَ بينهم جميعًا، فمَنْ عادَى واحدًا من

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 1/515، والنيسابوري، غرائب الفرقان: 1/343.

الملائكة فقد عادَى اللّهَ وملائكتَهُ ورسلَه جميعًا، ومَنْ عادَى واحدًا من رُسُلِ اللّهِ فقد عادَى اللّهَ وملائكتَهُ ورسلَه جميعًا.

بلاغة وضع الاسم الظاهر موضع المضمر:

دفعُ الالتباسِ، وتفخيمُ الأمرِ وتعظيمُه المناسبُ لتفخيمِ الجزاءِ

أظهرتِ الآيةُ ما حقُّه الإضمارُ في قولِه تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلۡكَٰفِرِينَ﴾ ولم يقل: (فإنّه)؛ لوجهين:

أحدهما: لئلا يلتبس الكلام، فلو قيل: (فإنَّه عدوٌّ للكافرين)؛ لتردَّد السامع في المَعْنِيّ بالضَّميرِ: آللّهُ أم رسلُ اللّهِ جلَّ ثناؤه، أم جبريلُ، أم ميكائيلُ؟ والإظهارُ يدفع الالتباسَ[1].

الثاني: إظهارُ اسمِ الجلالة ﴿ٱللَّهَ﴾ الجامعِ لأوصافِ الجلال والجمالِ يشعر بالقدرة العظيمة؛ فهو لتفخيمِ الأمرِ وتعظيمه[2]، فلمّا كان الجزاءُ مبهمًا لعظمة عداوة اللّه تعالى ناسبَ ذكرَ اسمِ الجلالةِ بلفظِه الظَّاهر؛ تخويفًا وترهيبًا، وحثًّا على تركِ عداوة اللّه وملائكته ورسله.

نكتة تقديم الملائكة على الرسلِ:

ملاحظةُ التَّرتيب الوجودي، ومتابعةُ الفرعِ للأصلِ

جاء التَّرتيبُ اللفظيُّ متناسِبًا مع التَّرتيبِ الوجوديِّ، فوجودُ الملائكةِ سابقٌ لوجودِ الرُّسُلِ عند ظهور الإرسال، وكذلك عداوةُ الملائكةِ مقدَّمٌ على عداوةِ الرُّسُل في الحقيقةِ، إذ معاداةُ الفرعِ تابعٌ لمعاداةِ الأصلِ، والكلُّ تابعٌ للّه تعالى.

توجيه المخصوصِ بالذِّكرِ:

العنايةُ بمن عُودي بغيرِ وجهٍ حقٍّ بالذِّكر تشريفًا وتعظيمًا

خُصَّ المَلَكانِ ﴿وَجِبۡرِيلَ وَمِيكَىٰلَ﴾ بالذِّكر بعدَ دخولِهما إجمالًا في لفظ ﴿وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ﴾؛ تشريفًا لهما وتفضيلًا على غيرِهما، فإنَّ ما نالاه من عداوةِ اليهودِ حريٌّ أن يُخصَّا بالذِّكرِ في موطنِ الشَّرفِ، وهذا من قبيلِ تنزيلِ التَّغايرِ في الوصفِ منزلةَ التَّغاير في الذات[3]،

(1) ابن جرير، جامع البيان: 2/396.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 1/333، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/624.
(3) الزمخشري، الكشاف: 1/170.

ولأنَّ الآيةَ نزلت فيما يتعلَّق بهما كما جاء في الرِّوايات، فحَسُنَ أنْ يَنُصَّ على اسميهما[1].

العُدولُ عن الضَّميرِ إلى ظاهرٍ مقصودِ الوصفِ:

تعليلُ العداوةِ سببٌ للانكفاءِ عنها، وطريقٌ إلى الإيضاحِ والبيانِ

عدلتِ الآيةُ عن الضَّميرِ إلى الوصفِ الظَّاهرِ: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلۡكَٰفِرِينَ﴾ فلم يُقَل: (فإنَّ اللّه عدوٌّ لهم)، بالضَّميرِ مع أنَّه أوجزُ لفظًا؛ ليفيدَ أنّ اللّه عدوّ للكافرين بوصفِهم كافرين، وأنّ اللّه اتَّخذَ المعادين له أعداءً بسببِ كفرِهم، ولِتَكُونَ الجُمْلَةُ تَذْيِيلًا لما قبلهَا[2]، وفي هذا الكلامِ تسليةٌ للمؤمنين؛ فإذا كان اللّهُ عدوًّا للكافرين فهو قريبٌ من المؤمنين محبٌّ لهم.

فائدةُ تأكيدِ الفاصلةِ القرآنيَّة:

التَّأكيدُ على أنَّ مضمونَ الفاصلةِ حكمٌ عامٌّ ثابتٌ لا يتغيّرُ

جاءتِ الفاصلةُ القرآنيَّةُ: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلۡكَٰفِرِينَ﴾ مصدّرةً بـ(إنَّ) لتقريرِ المعنى وتأكيدِه مع ثباتِه وقَراره، وجاءت الجملةُ التذييليَّةُ اسميّةً للدّلالة على تحقيقِ المعنى وثَباتِه[3]، وللتَّأكيدِ على أنَّه حكمٌ عامٌّ ثابتٌ لا يتغيّرُ.

بديعُ المُقابلةِ بينَ الفاصلتين:

اختلافُ النَّظمِ تابعٌ لاختلافِ المعنى وموقفِ الفريقين

قابلتْ فاصلةُ هذه الآيةِ: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلۡكَٰفِرِينَ﴾ فاصلةَ الآيةِ السَّابقةِ: ﴿وَهُدًى وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾؛ لبيانِ الفرقِ بين الفريقين المبنيّ على الموقف المتباين من رسلِ اللّه ورسالاته، وقد اختلف النَّظمُ في الفاصلتين؛ إذْ جاءتْ في حقِّ المؤمنين سَلِسةً رَقْراقةً عذبةً، بينما جاءتْ في حقِّ الكافرين مُؤكَّدَةً ثابتةً فخمةً.

(1) ابن جرير، جامع البيان: 2/396، والنيسابوري، غرائب القرآن: 1/343.
(2) الزمخشري، الكشّاف: 1/170، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/624.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 1/333.

﴿وَلَقَدۡ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖۖ وَمَا يَكۡفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلۡفَٰسِقُونَ ٩٩﴾ [البقرة: 99]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

بعد بيانِ الموقفِ ممَّن يُعادي اللّهَ وملائكتَه ورسلَه، ناسب ذلك ذكرَ إنزالِ الكتاب على النَّبيِّ ﷺ، بيانًا وإيضاحًا بأنَّ العداءَ معذوقٌ بهذا النَّبيِّ وهذا الكتابِ، وأنَّ الإيمان لن يتحقَّق إلّا بهما، ولذلك ذكر أنَّ الكفرَ مُرتَهَنٌ بالفسقِ الجاثم على القلوبِ الخَربةِ، والآيةُ انْتِقالٌ إلَى خِطابِ النَّبيِّ ﷺ وإقْبَالٌ عليهِ تَسْلِيةً لهُ عمَّا لَقِيَ مِن اليهود وأَنَّ ما أُنْزِلَ إليه لا يُكذِّبُ بِهِ إلَّا مَنْ لا يُؤْبَهُ بِتَكْذِيبِه فكفرهم هو سبب تكذيبهم، لكون الذي أُنزلَ إليهِ دلائِلَ واضِحةً لا تُقَصِّرُ عن إقناعِهِمْ بأَحَقِّيَّتِها ولكِنَّهُمْ يُظْهِرُونَ أَنْفُسَهُمْ أَنَّهُمْ لَمْ يُوقِنُوا بحَقِّيَّتِهَا[1].

شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

1) ﴿ءَايَٰتِۭ﴾: جَمعُ آيةٍ، مِنْ أَيِيَ، والآيةُ مشتقَّةٌ من التّأيّي الذي هو التّثبّتُ والإقامةُ على الشَّيءِ، ويدورُ المعنى المحوريُّ على بقاءِ الشَّيءِ في مكانِه شاخِصًا؛ أي مُجسّمًا، علامةً لشيء، وفي الكلمةِ معنى الجَسامة الماديّة أو المعنويَّة، فمِن الجَسامةِ الماديَّةِ قوله تعالى: ﴿أَتَبۡنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةٗ تَعۡبَثُونَ﴾ [الشعراء: 128]، ومِنَ الجَسَامةِ المعنويّةِ الآية التي هي لِجماعة من حروف القرآن [2]، يقال: خرجَ القومُ بآياتهم، أي: بجماعاتهم، ومنه سُمّيت الآية؛ لِأنَّها جماعةٌ من حروفِ القرآن، ويحتمل أنّها سُمِّيَت آية لأنَّها علامة لانقطاع كلامٍ من كلام، أو علامة صدق وبرهان على أنَّ القرآن وحي من عند اللّه ﷻ، وقُصِدَ بالآياتِ في الآية آياتُ القرآن، ولاسيّما مع اقترانها بالتّنزيل؛ لِأنَّ الآياتِ إذا قُرنت إلى التّنزيل كانت أخصَّ بالقرآن[3].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/624.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل:(أيي).
(3) الرازي، التّفسير الكبير: 3/614، والقاسمي، محاسن التأويل: 1/361.

2) ﴿بَيِّنَٰتٖۖ﴾: أَصلُ الكلمةِ بَيَن، فقُلِبَت الياءُ ألفًا لِتحرُّكِ الياءِ وانفتاحِ ما قبلَها، وتدورُ المادَّةُ على معنى بُعْدِ الشَّيْءِ وانْكِشافِهِ، ويقال: بانَ الشّيءُ بَيانًا اتَّضَح وظَهر، وَفُلَانٌ أَبْيَنُ مِنْ فُلَانٍ؛ أَيْ: أَوْضَحُ كَلَامًا مِنْهُ، والبيّنةُ هي الدّلالة الفاصلةُ بين الصِّدقِ والكَذِبِ؛ لأنَّها مِنْ إبانةِ أحدِ الشَّيئينِ عن الآخر والفَصْلِ بينهما، فيزولُ الالتباسُ بين الشَّيئين بها، وينكشفُ حالُهما[1].

3) ﴿ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾: أَصْلُ الكلمةِ فَسَقَ، ويدلّ الفِسقُ على الخروجِ عن الشَّيءِ، قال الفرّاء: ومنه يُقال: فَسَقَت الرُّطَبَةُ: إذا خرجت من قِشرها، ويُقال للفأْرَةِ: فُوَيْسِقَة؛ لخروجها من جُحرها على النَّاس. والفِسق أنواع، وبين فِسقٍ وفِسقٍ بونٌ كبيرٌ؛ قال ﷻ في إبليس: ﴿فَفَسَقَ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِۦٓۗ﴾ [الكهف: 50]، وقال فيمن يرمي المحصنات: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾ [النور: 4]، وقال: ﴿إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾ [التوبة: 67] فبين الفاسق والفاسق بونٌ، وإِذَا اسْتُعْمِلَ الْفِسْقُ فِي شَيْءٍ مِنَ الْمَعَاصِي وَقَعَ عَلَى أَعْظَمِ أَفرادِ ذلك النَّوعِ مِنْ كُفْرٍ أَوْ غَيْرِهِ، فإذا قيل: هو فاسقٌ في الشُّربِ فمعناه هو أكثرُ ارتكابًا له، وإذا قيل: هو فاسق في الزِّنا يكون معناه هو أشدُّ ارتكابًا له، ومعنى الفاسقون في الآية: أي الخارجون عن دين الله وطاعته المتعدّون حدوده[2].

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

يقولُ الحقُّ ﷻ مخاطبًا رسولَه ﷺ مؤكِّدًا له أنّه قد أنزل إليه القرآنَ الكريمَ بما تضمّنه من الآيات الواضحاتِ الدّلالة على معانيها، وعلى كونها من عند الله، والدّالّة على صحّة نُبوَّتِه، فهو في نَفْسِهِ آياتٌ بَيِّنَاتٌ لَا يَحْتاجُ إِلَى آيةٍ أُخْرَى تُبَيِّنُهُ وَتَشْهَدُ لهُ، وما يَكْفُرُ بِهذه الآياتِ الواضحاتِ إِلَّا الْفاسِقُونَ المتمرِّدون في الكفرِ الخارجون عن دين الله وطاعته المتعدّون حدوده[3].

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بين)، والهروي، الغريبين: 1/235.
(2) الأزهري، تهذيب اللغة: (بَيَنَ)، وابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 29، وأبو حيّان، البحر المحيط: 1/518.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 2/397، والبروسوي، روح البيان: 1/188.

الإيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

فائدةُ تأكيدِ الخبرِ:

بيانُ مناسبةِ تأكيدِ الخبرِ لعِظَمِ إنكارِ اليهودِ

لمّا استحكم إنكارُ اليهود أنْ يكونَ اللّهُ قد أنزلَ القرآنَ إلى رسولِ اللّهِ محمَّد ﷺ، وحَكموا بخلافِ هذا، أكّدَ اللّهُ تعالى هذا التَّنزيلَ بمؤكِّدَين في صدرِ الكلامِ؛ ليتقَرَّرَ تنزيلُ القرآنِ تأكيدًا على وفق ما أشربوا الإنكار في اعتقادهم، فجاء بـ(لامِ القسم) وحرفِ التحقيق (قد)، فهو خبرٌ إنكاريٌّ خرجَ على مقتضى الظّاهرِ؛ لِأَنَّ المقامَ مقامُ إيضاحٍ وبيانٍ؛ للدّلالة على أنّ الإخبارَ عن إنزالِ الآياتِ البيّناتِ يحتاج إلى تقريرِ التَّأكيدِ وتثبيتِه؛ لعِظَمِ إنكارهم وغرابته، وإنّما كان إنكارُهم غريبًا لأَنَّ الآياتِ البيّناتِ الواضحاتِ لا يمكن إنكارُها، فلا عقلَ لمن يَجحد أنّ النهارَ نهارٌ.

مُناسبةُ اختيارِ كلمةِ ﴿أَنزَلْنَآ﴾:

الإشارةُ إلى مَن نزلَ به بعد التَّصريح باسمه، والتَّنبيهُ على عُلوِّ مكانته

لمّا أشارتِ الآيةُ السَّابقةُ إلى أنَّ جبريلَ هو المُكلَّفُ بإنزالِ القرآنِ على رسولِ اللّهِ، صرّحَت هذه الآيةُ بالإنزالِ، وهو عِبارةٌ عن إهباطِ الشَّيْءِ مِنَ الأَعْلى إلى الأَسْفَلِ، وَذاكَ لا يَتَحَقَّقُ إلَّا في الجِسْمِيِّ، فذكر ﴿أَنزَلْنَآ﴾ للإشارةِ إلى أنّ جبريلَ هو الذي نَزَلَ به[1]، وللتّنبيه على علوّ المنزَّل، ولتشريفِ النبيّ محمّدٍ ﷺ، فقد كانت نهايةُ إنزالِ القرآنِ المعظّم وغايتُه عندَه.

نُكتةُ الإضافةِ إلى ضميرِ العَظَمةِ في ﴿أَنزَلْنَآ﴾:

الإشارةُ إلى تعظيم قدْرِ المُنَزِّلِ وتفخيم شأنه، كما تدلُّ الإضافةُ على اختصاصِ المُنَزَّلِ باللّهِ تعالى؛ فليسَ لأَحدٍ الاعتراضُ على القرآنِ الكريمِ؛ لِنسبتِهِ إلى اللّهِ، فهو كلامُ اللّهِ وصِفَةٌ مِنْ صِفاتِهِ.

(1) الرازي، التّفسير الكبير: 1/614.

اختيارُ حرفِ تعديةِ الأفعالِ قائمٌ على التَّناسبِ بين المعاني:

تعدَّى فعلُ الإنزالِ بحرف إلى، فقالَ: ﴿أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ﴾، دونَ التَّعدية بحرفِ الاستعلاءِ؛ لبيانِ أنَّ غايةَ نزولِ القرآنِ هي بلوغُه النبيَّ ﷺ، فهذا النَّبيُّ الأُميُّ هو المقصودُ بالرِّسالةِ وليس غيرُه، وللإشارةِ إلى الرّسالة، وتبليغِ القرآنِ إلى النَّاسِ، فَكان حقًّا عليهم أنْ يتَّبعوه بمقتضَى البشارةِ التي بَشَّرتْ بهِ التَّوراةُ والإنجيلُ.

فَائدةُ التَّنوينِ في قولِه: ﴿ءَايَٰتٖ﴾:

أفاد التَّنوينُ تعظيمَ شأنِ الآياتِ وتفخيمَ أمرِها، ولاسيَّما أنَّها قد اقترنت بالإنزال من عُلُوٍّ.

بلاغةُ التّقديم والتّأخير:

بيانُ منزلةِ الرسولِ، وأنَّ معاداتَه من قِبل أهلِ الباطلِ سببٌ في العنايةِ بذكرِه

قُدّمَ الجارُّ والمجرور ﴿إِلَيۡكَ﴾ على المفعولِ به وصفتِه ﴿ءَايَٰتٖ بَيِّنَٰتٖ﴾، فلم يقل: "أنزلنا آياتٍ بيّناتٍ إليكَ"، فقصدَ الاهتمامَ بالمقدَّم والعنايةَ به؛ لِيجعلوه نُصْبَ أعينِهم، ويلتفتَ خاطرُهم إليه، كما أفادَ التَّقديمُ تخصيصَ إنزالِ الآياتِ البيّناتِ برسولِ اللّهِ ﷺ، وأَنَّ غيرَه لم تنزلْ إليه الآياتُ، وقرينةُ التَّخصيصِ زمنُ الإنزالِ، فدلّتِ الآيةُ على خَتْمِ النُّبُوَّةِ كذلك، وناسبَ التَّقديمُ الرَّدَّ على عداوةِ اليهودِ؛ فإنَّ من يُعاديه اليهودُ حقيقٌ أنْ يُقدَّمَ.

فائدةُ وصفِ الآياتِ بالبيّنات:

وضوحُ معجزةِ القرآنِ في ذاتِه وآثارِه

لا تكون الآيةُ إلّا دليلًا واضحًا كما هو مقتضى المعنى اللغويّ، والسّببُ في وصف الآيات بـ﴿بَيِّنَٰتٖ﴾ هو الإشعار بأنّ طريق معرفتها واضحٌ والوصول إليها واضحٌ[1]؛ كما تدلّ البيّنة على أنّه بها يزول الالتباس، فالقرآن الكريم المشتمل على هذه الآيات يزول الالتباس به، فيفصِلُ بين الحقّ والباطل، فيكون الإيمان بالقرآن أَولى بالقبول،

(1) الرازي، التّفسير الكبير: 3/614.

وأدعى إلى التمسّك به من غيره؛ فهذه الآياتُ كَالنُّورِ يُظْهِرُ الأَشْياءَ وَهُوَ ظَاهِرٌ بِنَفْسِهِ لَا يَحْتَاجُ إِلَى شَيْءٍ آخَرَ يُظْهِرُهُ[1].

تناسبُ المقابلةِ بينَ الألفاظِ:

مقابلةُ الواضحِ للمُلبسِ والمكشوفِ للمُغطَّى بيانٌ كافٍ في الهدى

تُلاحَظُ المقابلةُ في المعنى، بين (البيّنات والكفر)، فقد ناسبَ "قَوْلُهُ: ﴿بَيِّنَٰتٍۖ﴾ لَفْظَ الكُفْرِ، وَهُوَ التَّغْطِيَة؛ لِأَنَّ الْبَيِّنَ لَا يَقَعُ فِيهِ إِلْبَاسٌ، فَعَدَمُ الْإِيمَانِ بِهِ لَيْسَ لِشُبْهَةٍ لِأَنَّهُ بَيِّنٌ، وَإِنَّمَا هُوَ تَغْطِيَةٌ وَسَتْرٌ لِمَا هُوَ وَاضِحٌ بَيِّنٌ، وَسَتْرُ الوَاضِحِ لَا يَقَعُ إِلَّا مِنْ مُتَمَرِّدٍ فِي فِسْقِهِ"[2]، وفيه بيانٌ كافٍ لمن طلبَ الهُدى، والتمس التُّقى.

براعةُ أسلوبِ القَصْرِ الإضافيّ:

كُلُّ كَافِرٍ فَاسِقٌ وَلَا يَنْعَكِسُ

قَصَرَتِ الآيةُ الكفرَ على الفاسقين دونَ غيرهم قصرًا إضافيًّا[3]، بدلالة أَنَّ هَذِهِ الْآيَاتِ لَمَّا كَانَتْ بَيِّنَةً ظَاهِرَةً واضحةً، لَمْ يَكْفُرْ بِهَا إِلَّا الْكَافِرُ الذِي بَلَغَ فِي الْكُفْرِ النِّهَايَةَ الْقُصْوَى، وَتَجَاوَزَ عَنْ كُلِّ حدٍّ مستحسَنٍ في العقل والشّرع؛ فإنَّ مَنْ لم يكنْ على تلكَ الصِّفةِ مِنَ الكفرةِ لا يَجترئُ على الكُفرِ بمثلِ هاتيكَ البيّناتِ[4]، وفيه بيانُ وصفِ الكافرين بأنَّهم فاسقون؛ فإنَّ الفِسْقَ حنظلةُ الكفرِ.

توجيهُ تخصيصِ الفِسقِ بالذِّكرِ:

بيانُ تجاوزِ الكافرين حدَّهم في الكفرِ، فهم فسقوا بكفرِهم، وهذا في غايةِ الذَّمِّ

آثرَ النَّظمُ الكريم تخصيصَ صفةِ الفِسق بالذِّكر مع فعل الكفرِ، دون الظُّلم أو التَّكذيب؛ لخَصوصيّة اقتضاءِ المَقامِ ذلك؛ فإنّ الفِسقَ إذا استُعمِلَ في نوعٍ من المعاصي وقعَ على أعظمِ أفرادِ ذلك النَّوعِ مِن كُفرٍ أو غيرِه، فإذا قيلَ: هو فاسقٌ في الشُّربِ فمعناه هو أكثرُ ارتكابًا لهُ، وإذا قيلَ: هو فاسقٌ في الزِّنَا يكون معناه هو أشدُّ

(1) رشيد رضا، تفسير المنار: 1/326.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 1/518.
(3) الرازي، التّفسير الكبير: 3/615.
(4) الرازي، التّفسير الكبير: 3/615، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/135.

ارتكابًا له[1]، واختارَ كلمة ﴿ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾ هنا للإشعارِ بأنّهم قد اتّصَفوا بوصفٍ أَبعَدوا بهِ في كفرِهم، وخرجوا بهِ عن الحدّ المعقولِ فيهِ، ففيه بيانُ تجاوزِ الكافرين حدَّهم في الكفرِ، فهم فسَقوا بكفرِهم، وهذا في غاية الذَّمِّ.

احتمالُ الواوِ للعطفِ والحال:

تحتمل الواوُ في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَكۡفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾ أنْ تكون حاليّة، وأن تكون عاطفة[2]، فإذا كانت حاليّة فالمعنى: في حال إنزال الآيات البيّنات ووصولها إليك يا محمّد يكفر بها الفاسقون، فلا يتدبّرون ولا يتفكّرون؛ بل يباشرون الكفر بالآيات البيّنات من غير رَوِيّة، ففي الكلام إشعارٌ بإضمارهم الكفرَ من بداية الأمرِ، وتتضمّن توبيخًا لهم على هذا، ولهذا كانوا فاسقين في كفرهم، وإذا كانت الواو عاطفةً فهي تعطفُ ما بعدَها على جملةِ (أنزلنا)، فيكون القَسمُ والتأكيد موجّهًا إلى الجملتين، والمعنى: وعزَّتي وجَلالي أَنۡزَلۡنا إليك آياتٍ بيِّناتٍ، وعزَّتي وجَلالي ما يَكفرُ بها إلَّا الفاسقون.

بلاغة اختيارِ نوعِ القصرِ:

نفيُ وقوعِ الكفرِ من أحدٍ وإثباتُه للفاسقين للمبالغةِ في بيانِ فسقِهم

أفاد أسلوبُ القصرِ تخصيصَ الكفرِ بالفاسقين؛ لإنكارِهم أنْ يكونَ رفضُهم للقرآن الكريم كفرًا، فجاء الردّ عليهم بقلبِ ما اعتقدوه وبيانِ خطئِهم فيما تصوَّروه؛ بأسلوبِ القَصْرِ بالنَّفي والاستثناء[3]، فأفادَ أنّ إنكارَهم للقرآن كفرٌ، وأنّ كفرَهم خرجَ عن الحدّ المعقولِ، ووصلَ إلى حدِّ الفسقِ فيه.

نكتةُ التَّعبير بالفعل المضارع:

تجدُّدُ وقوعِ الكفرِ بسببِ ثباتِ الفسقِ في القلوبِ

أفاد إسنادُ صيغةِ المضارع ﴿يَكۡفُرُ﴾ إلى الوصفِ ﴿ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾ تجدّدَ كفرِ مَنۡ صارَ الفِسۡقُ وصۡفًا لازمًا له، وكأَنّ فسقَهُم الثَّابتَ في قلوبِهم يَدفَعُهم إلى تجدُّدِ الكُفرِ حالًا فَحالًا.

(1) ابن جرير، جامع البيان: 2/397، والزمخشري، الكشاف: 1/171، والآلوسي، روح المعاني: 1/334.
(2) النيسابوري، غرائب القرآن: 1/314، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/615.
(3) البهاء السبكي، عروس الأفراح: 1/395.

دلالة (أل) بين الجنسيّة والعهديّة:

تحتمل (أل) في قوله: ﴿ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾ أنْ تكون جنسيّةً وأنْ تكونَ عهديَّةً[1]، فإذا كانت جنسيّةً فالمعنى على العموم، واليهودُ يدخلون في المعنى لكفرهم بالآيات، وتكون الجملة تذييليّةً؛ لتَجريَ مَجرى المَثَلِ لكلّ مَنْ يَكفُرُ بآياتِ اللّهِ، وإذا كانت عهديَّةً فيكون ﴿ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾ عائدًا إلى اليهودِ الذين كانوا في زمنِ نزولِ القرآنِ، والمعنى هو وصفُ اليهودِ بالفسقِ على التَّعيين إمْعانًا في تَوبيخِهم وذَمِّهم.

بلاغةُ نظمِ الآيةِ:

استحواذُ الآية على معنى التّعظيم والتَّفخيمِ

دلَّتِ الآيةُ بنظمِها الجزيلِ وبتراكيبها وألفاظِها علَى التَّفخيمِ والتَّعظيم، ابتدَاءً مِنْ صَدْرِهَا المبدوءِ بلامِ القَسَم، ثُمَّ بتَأكيدِ القَسَمِ بحرفِ التَّحقيقِ (قَدْ)، ثُمَّ بإضافةِ الفعلِ (أَنْزَلَ) إلى ضميرِ العَظَمَة (نا)، ثمَّ بذكرِ بلوغِ غايةِ الإنزالِ، وَهي ذاتُ رَسولِ اللّهِ ﷺ المشرَّفةُ، والمُعَظّمَةُ بكافِ الخِطابِ، ثمَّ بذكرِ الآياتِ المُعَظّمَةِ بلاحِقةِ التنوينِ، وَبوصْفِ الإيضاحِ والتّبيينِ للآيات؛ فيلحق الصِّفةَ تعظيمُ الموصوفِ، ثمَّ تعظيمُ شأنِ إنكارِها والكفرِ بها، فسُبحانَ مَنْ جعلَ القرآنَ العظيمَ مُعجِزَةً ظَاهِرَةً لِنبيّهِ المُكَرّمِ ﷺ.

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 1/518.

﴿أَوَ كُلَّمَا عَٰهَدُواْ عَهۡدٗا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٞ مِّنۡهُمۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ١٠٠﴾ [البقرة: 100]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لـمّا ذَكر اللّه تعالى في الآية السابقة عِظَمَ كفرِ اليهود وغرابتَه؛ إذْ كفروا بالكتاب الذي أنزله اللّه تعالى إلى رسوله محمّدٍ ﷺ؛ ناسب أنْ يذكر سبب هذا الكفرِ، وأنْ ينكرَ عليهم كفرَهم بما أتى به الرسلُ، فذكر نقضهم العهدَ الذي أُخذ عليهم مرارًا، فقد عُرِفَ عَنْهُمْ نَقْضُهم الْعُهُود، وأنَّ هذا هو شأنُهم وديدَنُهم، وَأَنَّهُ لَا رَجَاءَ فِي إِيمَانِ أَكْثَرِهِمْ؛ لِأَنَّ الكفر قَدْ أُشربَ في قلوبهم إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ[1].

شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

1) ﴿عَٰهَدُواْ﴾: يدور معنى العهد على حفظ الشّيء ومُراعاته حالًا بعد حالٍ، فسُمِّي الـمَوْثِقُ الّذي يَلزم مراعاتُه عهدًا، وعَهِدَ فلان إلى فلان: ألقى إليه العهد وأوصاه بحفظه، فكلّ ما يلزم الاحتفاظ به يسمّى عهدًا، والـمُعَاهَدُ في عُرف الشّرع يختصّ بمن يدخل من الكفّار في عَهْدِ المسلمين، فيلزم حفظُه وحفظ ما يجب له، والعهد في الآية الـمِيثاق الّذي أعطتْه بنو إسرائيل ربَّها من لزومهم العمل بما في التّوراة والمداومة عليه، ومِنْ جُمْلةِ العَهْدِ أَن يؤمنوا برسول اللّه محمّدٍ ﷺ الْمُصَدِّقِ لِلتَّوْراةِ[2].

2) ﴿نَّبَذَهُۥ﴾: أَلقى الشّيءَ وطرحَه لقلّة الاعتداد به، والنَّبْذُ والطَّرْحُ والإلقاءُ متقاربة، لكنَّ النَّبذ أكثر ما يقال فيما يُنسى، ولذلك يقال: نَبَذْتُهُ نَبْذَ النَّعْل الخَلِق، وَنَبَذْتُ الشَّيْءَ أَيضًا إذا رَمَيْتَهُ وأَبعدتَه، وكلّ ما يُهمل فيُترك فهو منبوذ، ومنه المنبوذة لِما لَا يُؤْكَلُ مِنَ الْهُزَالِ؛ شَاةً كَانَتْ أَو غَيْرَهَا، ومنه سُمّي النَّبيذُ لأَنَّه يُنَحَّى زمنًا طويلًا إلى أن يَصلُح، والانتباذُ الاعتزالُ والتّنحّي ناحيةً، ومن المجاز: نَبَذَ أمري وراء ظهره

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 1/333.

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات: (عهد)، وابن جرير، جامع البيان: 2/400.

إذا لم يعمل به، ونبذ العهدَ نقَضه، وقوله تعالى: ﴿نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنۡهُمۡۚ﴾من الطَّرح المَجازيّ، بمعنى نقضِ العهدِ والإعراضِ عنه، بحيث يُنسى لقلّة الاعتداد به[1].

3) ﴿فَرِيقٌ﴾: أصلُ الكَلِمَةِ فَرَقَ، والفَرَقُ يَدُلُّ عَلَى تَمْييزٍ وَفَصلٍ بَيْنَ شَيْئَيْنِ؛ أي فَصْلٍ بَينَ أَبعاضٍ، وَمِنه الفَرِيقَةُ، وهُوَ القَطِيعُ مِنَ الغَنَم، كَأَنَّهَا قِطْعَةٌ فَارَقَتْ مُعْظَمَ الغَنَم، والفُرْقَانُ: كِتَابُ اللَّهِ تَعَالَى فصَل بِهِ بَيْنَ الحَقِّ والبَاطِلِ، والفُرْقَانُ: الصُّبْحُ؛ سُمِّيَ بِذَلِكَ لأَنَّهُ بِه يُفْرَقُ بَيْنَ اللَّيْلِ والنَّهَارِ، والفريق الجماعةُ من مجموعٍ، لا واحدَ له من لفظه، يُطلق على القليل والكثير[2].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

تشير الآية الكريمة إلى عادة قبيحة في اليهود وهي: نقض العهود، فهم كلما عاهدوا عهدًا- ومن جملة العهود التي أخذوها على أنفسهم الإيمان بما دلت عليه التوراة من نبوة محمد ﷺ طرح ذلك العهد فريق منهم، ونقضوه، لأن أكثر هؤلاء اليهود لا يؤمنون بما أنزل اللّه تعالى حقيقة، إذ الإيمان يحمل صاحبه على الوفاء بالعهد[3]، وفي الآيةِ مِن شدّةِ الذَّمِّ ما فيها؛ فإنَّ "ذمّ الإنسانِ على عَدم العملِ بما كان التزمَ العَمَلَ به أَشَدُّ من ذَمِّه على إنكارِ ما يَعلمُ صِحَّتَهُ"[4].

❁ الإِيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

غرضُ الاستفهام في صدرِ الآيةِ:

الإنكارُ والتَّوبيخُ والتَّعجيبُ بِقصْدِ الارتداعِ عنْ نبذِ العَهْدِ

أفادَ الاستفهامُ في قولِه تعالى: ﴿أَوَ كُلَّمَا عَٰهَدُواْ عَهۡدٗا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنۡهُمۡ﴾ الإنكارَ والتَّوبيخَ والتَّعجيبَ[5]، فالآيةُ تُنكرُ على بني إسرائيلَ نَبْذَهُم العهدَ، واستمرارَهم على نقضِه، معَ التَّوبيخِ والتَّقريعِ على

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والزمخشري، أساس البلاغة، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (عهد)، والرّاغب، تفسير الرّاغب: 1/272.

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والفيومي، المصباح المنير، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (فرق).

(3) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 1/272، وابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/382.

(4) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/382.

(5) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 1/256، وأبو حيان، البحر المحيط: 1/482، والنيسابوري، غرائب القرآن: 1/331، ومحمد رشيد رضا، تفسير المنار: 1/312، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/597.

هذا الفعلِ الشَّائن، وفي الاستفهامِ تعجيبٌ من عَدم التزامِهم بالعهودِ المذكورةِ في التَّوراةِ، ومنها أنّهُ أَخذَ عليهم الإيمانَ برسولِ اللّهِ محمّدٍ ﷺ ثمّ نبذَهُم لهُ عِنادًا واسْتكبارًا؛ فجمعَ الاستفهامُ بين معاني الإنكارِ وَالتَّوبيخِ والتَّعجُّبِ من شأنِ بني إسرائيل في تعامُلِهم مع رُسُلهم ومع القرآن، ومقصودُ ذلك حملُهم على الإقرارِ لِيَرتدِعوا عمَّا همّ فيه من الغِوايةِ والكِبْرِ[1].

تعدُّدُ أَوْجُهِ الرَّبط بين الواو والجملِ المعطوفَةِ عليها:

الواوُ في قولِه تعالى: ﴿أَوَ كُلَّمَا عَٰهَدُواْ عَهدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنهُم﴾ إمَّا أنْ تكونَ عَطفتِ الجملةَ المذكورةَ على أخرى محذوفةٍ بعدَ همزةِ الاستفهامِ، والتقدير: أَكَفَرُوا بِالْآيَاتِ الْبَيِّنَاتِ وَكُلَّما عاهَدُوا، وهذا مذهبُ الزَّمخشريّ[2]، فالاستفهامُ الإنكاريُّ متوجِّهٌ إلى الجُملةِ المحذوفةِ والمعطوفةِ، ونُكْتَتُهُ: تحريكُ ذهنِ المُخاطَبِ إلى استنباطِ المعاني.

وإمَّا أنْ تكون على التَّقديمِ والتَّأخيرِ، وَالْأَصْلُ (وَأَكُلَّمَا)، وَقُدِّمَ حرفُ الاستفهامِ لأنَّ لَهُ الصَّدارةَ في الكلامِ، وهذا مذهبُ سيبويه[3]، ونُكتَتُه: تَوبيخُهم والتَّعجيبُ من نبْذِهم عهدَ اللّهِ ثمَّ اسْتِمْرَارِ ذلكَ مِنْهُم حتّى صار سَجِيَّةً لهُمْ[4]، ولإثارةِ المخاطَبِ وتهيئتِه لاستماعِ ما يردُ في الكلامِ؛ لأنّه مصدَّرٌ بالإنكارِ على فعلٍ متكرِّرٍ واقعٍ من المخاطَبِ.

العُدولُ عن المصدرِ إلى اسمِه:

تضمينُ فعلِ العهدِ معنى الإعطاءِ

عدلَتِ الآيةُ عن المصدرِ إلى اسمه في قولِه تعالى: ﴿عَٰهَدُواْ عَهْدًا﴾، ولو جاء على الأصلِ لَقال: "عَاهَدوا مُعاهَدَةً"؛ لأَنَّ مصدرَ عاهَدَ هو المُعاهَدةُ، فعَدلَ عنْ مصدرِ الفعلِ المذكورِ إلى ﴿عَهْدًا﴾ لتَضمينِ الفعلِ ﴿عَٰهَدُواْ﴾ معنى أَعْطَوا[5]؛ أي: أَعْطَوا عَهْدًا؛ لِيدلّ الفعلُ ﴿عَٰهَدُواْ﴾ على مدلولِهِ اللّغويِّ وهو الالتزامُ، وعلى مدلولِ الفعلِ المُضَمَّنِ وهو الإعطاءُ، فذكرَ فِعْلًا واحدًا ودلَّ على معنيين، فكأنّهم قد أَعْطَوا مِيثاقًا على التزامِهم بالعَهْدِ.

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 1/176.
(2) الزمخشري، الكشاف: 1/162، وأبو حيّان، البحر المحيط: 1/518.
(3) ابن عطية، المحرر الوجيز: 1/184، وأبو حيّان، البحر المحيط: 1/518.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/598.
(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 1/519.

دلالة التَّنوينِ في قوله﴿عَهۡدٗا﴾:

أفادَ التَّنوينُ في كلمة: ﴿عَهۡدٗا﴾ التَّقليلَ؛ أي: كلّما عاهدوا عهدًا، وإنْ كانَ عهدًا صغيرًا وقليلًا بحيث لا يكلّفُهم ولا يُجْهِدُهُم، نَبَذوه وطَرحُوه غيرَ مُبالين بهِ، وهو دليلٌ على أنَّ نقض العهودِ لا تعلُّقَ له بشيءٍ بقَدْرِ تعلُّقِه بأخلاقِهم الرَّديَّةِ في التَّعاملِ مع المعاهَدين، فهم يحتقرون كلَّ من يُعاهدُهم، ويمدُّ يدَ التَّعاونِ إليهم.

العدُولُ عن المضارِعِ إلى الماضي:

إبـــرازُ مكـنـونِ أنفسِ المعاهدين بأنَّ نقضَهم لأمرٍ نفسيٍّ ثابت

عدَلَ النَّظمُ عن صيغة الفعلِ المضارِع حسب ما يقتضيه الظَّاهرُ إلى صيغة الفعل الماضي في قولِه تعالى: ﴿أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُواْ عَهۡدٗا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٞ مِّنۡهُمۚ﴾؛ لنكتةِ إبرازِ نبْذِهم العهدَ في مَعْرِضِ الحاصلِ والواقعِ؛ لِقوَّةِ الأَسبابِ المُتآخِذَةِ في وُقوعِه، وهي إضمارُهُمْ مِنْ قبلُ على نقضِ العهدِ، وإصرارُهم عليه، فما هو آيلٌ للحُصولِ كالحَاصِل[1].

بلاغةُ الاستعارة في إسناد النّبذ إلى العهد:

تشبيه المعقولِ بـالمحـسـوسِ لإيـضـاحِ قبيحِ أفعالِهم، وسُوءِ صنائِعِهم

أَسْنَدَ النَّبْذَ إلى العَهدِ عَلى طَريقةِ الاستعارةِ التَّصريحيّةِ التَّبعيَّةِ، فقالَ: ﴿نَّبَذَهُۥ﴾، والضَّميرُ يعودُ إلى العَهْدِ، وإنّما كانَ مَجازًا بالاستعارةِ؛ لِأَنَّ الْعَهْدَ مَعْنًى، وَالنَّبْذَ محسوسٌ، ويكون بإلقاء الشَّيْءِ مِنَ الْيَدِ، فَـ"شَبَّهَ إِبْطَالَ العَهْدِ وعَدَمَ الوَفَاءِ بِهِ بِطَرْحِ شَيْءٍ كَانَ مَمْسُوكًا بِاليَدِ؛ كَمَا سَمَّوُا الْمُحَافَظَةَ عَلَى العَهْدِ وَالْوَفَاءَ بِهِ تَمَسُّكًا"[2]، وأفادت الاستعارةُ قُبحَ فعلِهم معَ إقامةِ الحجّة على شناعتِه؛ إذ جعلوا عهدَ اللّه سُبحانه شَبيهًا بالشَّيءِ المنبوذِ، إذِ النَّبذُ طَرْحٌ مع احتقارٍ[3]، فكأنَّهم رمَوْهُ بعيدًا كما تُرمَى المحقَّراتُ للتَّخَلّصِ منها، ثمَّ نَسُوهُ ولـمْ يَعْتَدّوا بِهِ.

(1) السكاكي، مفتاح العلوم، ص: 244.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/625، وأبو حيّان، البحر المحيط: 1/519.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 2/71.

إيثارُ استعمالِ كلمةِ ﴿فَرِيقٌ﴾:

افتراقُ القومِ ليس افتراقَ اختلافٍ؛ بل هو افتراقُ توزيعِ مَهامَّ

آثرتِ الآيةُ ذكرَ لفظِ فريقٍ دون جماعةٍ أو حزبٍ أو طائفةٍ؛ لأنَّه لمّا أسندَ النَّبْذَ إلى الفريق دلَّ على أنّ له صفاتٍ من جنسِ المجموعِ؛ لأنَّ الفريقَ بمفهومِه اللغويّ يدلُّ على فصلٍ بين أبعاضِ مجموعٍ متجانسٍ، فمَا يقومُ به الفريقُ من نَبْذِ العهدِ قد يقومُ به المجموعُ؛ لتآلفِ صفاتِهم في مَجموعهم، وأشارتِ الآيةُ إلى أنَّ القومَ يتعاقبون في أعمالِهم على شكلِ فِرَقٍ، ففي كلِّ مرَّةٍ يتولَّى فريقٌ منهم المهمّةَ، فهم لم يفترقوا افتراقَ اختلافٍ؛ بل افتراقَ توزيعِ مَهامَّ.

اجتماعُ الاستغراقِ والاحتراسِ في معنى الكلامِ:

دلَّ العُمومُ في كلَّما وتنكيرُ فريقٍ وإسنادُ النَّبْذِ إِلَى فَرِيقٍ على الاستغراق الزَّمني، بِاعْتِبَارِ الْعُصُورِ التِي نَقَضُوا فِيهَا الْعُهُودَ، كَمَا يُؤْذِنُ بِهِ التّكرُّر الزَّمنيُّ في (كُلَّمَا)، وأُسنِدَ النَّبذُ لفريقٍ دون الجميع للاحْتِرَاسِ مِنْ شُمُولِ الذَّمِّ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ[1]، والاستغراقُ والاحتراسُ فائدتان بيانيَّتان تُستنطقان من نظمِ الكلامِ وسياقِه.

بلاغةُ حرفِ الإضرابِ:

الاحتراسُ عن توهمِ القلَّةِ، والتَّقريرُ لموافقةِ الأكثرِ للفريقِ

جيءَ بحرف الإضرابِ للاحتراسِ، ولدفعِ الإلباس من توهُّمِ السَّامع أنَّ الفريقَ الذي نَبَذَ العهدَ قليلٌ منهم، فقيل: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ﴾ لِيُعلم أنَّ من يوافقُ المُسيءَ النَّابذَ في قلبه ولسانه فهو مشاركٌ له في أعمالِه، فيكونُ قولُه: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ﴾ تقريرًا لدلالة الفريقِ على الأكثرِ وتأكيدًا له؛ فليست ﴿بَلْ﴾ ناقضةً لمعنى الكثرةِ المرادةِ في ﴿فَرِيقٌ﴾، وإنّما هي للتَّأكيدِ وللتّقريرِ[2].

الترقّي في التَّوبيخِ والذّمِّ إلى الأغلظِ فالأغلظِ

أفادَ حرفُ الإضرابِ ﴿بَلْ﴾ الانْتقالَ مِنْ خبرٍ إلى خبرٍ، ومن أساليب البلاغةِ أَنْ يُظْهِرَ المُتَكَلِّمُ أَنَّهُ يُوَفِّي حَقَّ خَصْمِهِ في الجِدَالِ،

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/135، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/625.
(2) المنتجب الهمذاني، الكتاب الفريد: 1/344.

فَلَا يَنْسُبُ لَهُ المَذَمَّةَ إلَّا بتَدَرُّجٍ وانتقالٍ مِمَّا يُظنّ أنّه قد تمَّ به الخبرُ إلَى مَا هُوَ أَقْوَى مِنْهُ في ذَلِكَ الْغَرَضِ[1]، فقد نَسَبَ نَبْذَ العَهْدِ إلى فَريقٍ مِنْهُمْ، ثُمَّ أَخْبَرَ عنْهُمْ بعدُ بِأَنَّ أَكثرَهُمْ لا يؤمنونَ، فَتَرَقّى مِنَ الإخبارِ عنْهُمْ بنَبْذِ عَهْدِ اللّهِ إلى ما هو أَغلظُ منهُ، وهو الإخبارُ عنهمْ بحرفِ الإضرابِ بأَنَّ أكثرَهُم لا يُؤمنونَ.

الإعجازُ الغَيْبيُّ في الإخبـارِ عن كفرِ أكثرِهم

أخبرَتِ الآيةُ أَنَّ أكثرَ اليهودِ لا يؤمنونَ؛ بدلالة الإقرارِ التي يتضمّنُها حرفُ الإضرابِ الانتقاليّ ﴿بَلْ﴾، وصيغةُ الفعلِ المضارعِ المفيدةُ لِتجدّدِ نفيِ الإيمانِ عنهم تدلُّ على هذا الإعجازِ.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/625.

﴿وَلَمَّا جَآءَهُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٞ لِّمَا مَعَهُمۡ نَبَذَ فَرِيقٞ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمۡ كَأَنَّهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ١٠١﴾ [البقرة: 101]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لمّا أَنكر اللّهُ تعالى على اليهودِ في الآيةِ السَّابقةِ كفرَهُم بالقُرآن الكريمِ، وبيّنَ أنَّ أكثرَهم لا يؤمنونَ بالكتابِ، أتبعَ هذا الإنكارَ ذكرَ الرَّسولِ الذي جاءَ بالقرآنِ، فإذا كانوا لا يؤمنونَ بكتابِ اللّهِ تعالى الذي أَنْزَلَهُ إلى مُحمَّدٍ ﷺ، فإنَّهم أيضًا لا يؤمنونَ بِمُحَمَّدٍ ﷺ، وذكرَ علّةَ ما يصدرُ عنهم مِنْ جُحودٍ لهذا الرَّسولِ، وهِيَ أنَّ فريقًا مِنْهم نَبَذُوا كتابَ اللّهِ الذي بِهِ يَفْخَرونَ وراءَ ظهورِهم كأَنّهم لا يعلمونَ.

شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

1) ﴿وَرَآءَ ظُهُورِهِمۡ﴾: هَذَا التركيب اللغويّ مَثَلٌ يُضْرَبُ لِمَنِ اسْتَخَفَّ بِالشَّيْءِ فتركه ولم يلتفت إليه، تَقُولُ الْعَرَبُ: اجْعَلْ هَذَا خَلْفَ ظَهْرِكَ، وَدُبُرًا مِنْكَ، وَتَحْتَ قَدَمِكَ؛ تهاونًا به، أو هو من المجازِ، بمعنى اتْرُكْهُ وَأَعْرِضْ عَنْهُ، أو لا تعملْ به[1].

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

ولما جاء أولئك اليهود رسول كريم من عند الله (هو نبينا محمد ﷺ) ووصْفه ونعْته وكتابه موافق لما في التوراة؛ أعرض فريق منهم عما دلت عليه، وطرحوها وراء ظهورهم غير مبالين بها، مشابهين حال الجاهل الذي لا ينتفع بما فيها من الحق والهدى[2]، فالآية أثبتت أنَّ علمَهم بالحقِّ رصينٌ، ولكنَّهم لمّا كابَروا وعانَدوا ونَبذُوا كتابَ اللّهِ وراءَ ظهورِهم، وتركوا العملَ به، صاروا كأَنَّهم لا يعلمون[3].

(1) الزمخشري، أساس البلاغة، وابن منظور، لسان العرب: (ظهر)، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 2/40.
(2) الرّاغب، تفسير الرّاغب الأصبهاني: 1/273، وابن عطيّة، المحرر الوجيز: 1/185، والفخر الرازي، التّفسير الكبير: 3/616.
(3) الرّاغب، تفسير الرّاغب الأصبهاني: 1/273، وابن عطيّة، المحرر الوجيز: 1/185، والفخر الرازي، التّفسير الكبير: 3/616.

الإيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

دلالة التَّنوينِ في ﴿رَسُولٌ﴾:

تعظيمُ شأنِ الرَّسولِ عندَ اللهِ يقتضي الأخذَ منهُ والاقتداءَ بِهِ

يدلّ تنوينُ التَّنكيرِ هنا على التَّعظيمِ والتَّفخيمِ مِنْ شأنِ الرَّسولِ[1]؛ لِأَنَّه ورد في سياقِ المدحِ، فلا يُناسبُ هذا التَّعظيم ما فعلوه من الاستخفافِ والعنادِ ونبذِهم الكتابَ وراءَ ظهورِهم، ودلّ تعظيم شأنِ الرَّسولِ على التعجُّبِ من شأنِهم، فكيفَ يأتيهم رسولٌ ذو مكانَةٍ عظيمة عند اللّه وينبذون الكتاب الذي جاء به ولا يتّبعونه؟

فائدةُ التَّقييدِ بوصفينِ:

تكريمُ رسولِ اللهِ ﷺ وتعظيمُ قدرِه، والتّأكيدُ على صدقه

ذكرتِ الآيةُ وصفينِ آخرين لصفةِ الرَّسول المنزَّلةِ منزلةَ الذَّات، الأوَّل: أنَّه من عند اللّه؛ ليدلّ على تشريفه وتعظيم قدره، ﷺ، فهو رسولٌ من عند اللّه، تَفْخِيمًا لِشَأْنِهِ، إِذِ الرَّسُولُ عَلَى قَدْرِ الْمُرْسِلِ[2]، والثّاني: وُصِفَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ بأنَّه ﴿مُصَدِّقٌ﴾، مع أنَّ القرآنَ هو المصدِّقُ للتَّوراةِ؛ بما تضمّنه من التَّوحيد وأصولِ الدِّين؛ لزيادةِ تأْكيدِ صدقِه وأنَّه لا يُبدِّلُ شيئًا من تلقاءِ نفسِه.

فائدة اللّام في ﴿مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ﴾:

أفادتِ اللامُ تقويةَ الاختصاصِ، أي تقويةَ اختصاصِ تصديقِ الرَّسولِ لِمَا معهم من الكتاب.

بلاغةُ الاستعارةِ التَّصريحيَّة:

تشبيه المعنويِّ بالمحسوس لبيان قبيحِ الأفعالِ الصَّادِرَةِ عن النَّابِذين

شبَّهتِ الآيةُ تركَ العملِ بكتابِ اللّهِ بالشَّيءِ الذي يُطرَحُ من اليَدِ استخفافًا به ورَفْضًا له، على طريقةِ الاستعارةِ التَّصريحيَّةِ التَّبَعيَّة، ثمَّ أَكَّدَ هذا الرَّفضَ والاستخفافَ بقولِه: ﴿وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ﴾؛ فأفادت الاستعارةُ قبحَ فعلِهم؛ إذ جَعلوا كتابَ اللّهِ شبيهًا بالشَّيءِ المنبوذِ الذي يُرمَى كما تُرمَى المحقَّراتُ استخفافًا بها؛ فلم يَرمُوه بعيدًا

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/135.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 1/520.

فقط كما يدلّ عليه لفظُ ﴿نَبَذَ﴾؛ بلْ رمَوه بعيدًا وراءَ ظُهورِهم زيادةً في تعنُّتِهم، وعِنادًا لرسولِ اللّهِ محمّدٍ ﷺ، ورفضًا للعملِ بكتابِ اللّهِ.

دلالة التّنوين في ﴿فَرِيقٌ﴾:

دلَّ التَّنوينُ على التَّنكير في كلمةِ فريقٍ، فالفريقُ المذكورُ في هذه الآيةِ غيرُ الفريق المذكورِ في الآيةِ الأولى، ولهذا لم يُعرَّف بالعهدِ الذِّكريِّ فتدخلَ فيه الألف واللّام[1]، فالفريقُ الأوّل نبذ العهود التي عاهدوا اللّه بها من قبلُ، والفريقُ الثّاني المذكور في هذه الآية هو الذي نبذ كتاب اللّه الذي جاء به الرَّسولُ محمَّدٌ ﷺ، فألقاه وراء ظهره، والفريقُ الثاني أشدّ شناعةً وأقبح وصفًا.

نكتةُ مجيءِ المسندِ إليه اسمًا موصولًا:

قال تعالى: ﴿نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ﴾، ولم يقلْ: نبذ فريقٌ منهم؛ فعبّرَ بالاسمِ الموصولِ لاستحضارِ جملةِ الصِّلةِ، وليتّصلَ باستحضارِها ثلاثةُ أمورٍ:

أحدُها: التّعجيبُ من نبْذهم كتابَ اللّه، فهم قد أُوتوا الكتابَ، ومَنْ أُوتيَ كتابَ اللّهِ فعليه أنْ يتَّبعَ ما يكونُ مُصدِّقًا له، ولا يُفرّطَ به، فكيف إذا نَبَذَهُ وراءَ ظهرِه؟

الثّاني: التّعريضُ بشناعةِ فعلِهم، وتوبيخُهم على نبْذِهم كتابَ اللّهِ.

الثّالث: الإشارةُ إلى أنَّ ﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾ هو التّوراةُ، و﴿كِتَٰبَ ٱللَّهِ﴾ يُقصَدُ به القرآنُ، فإنَّ المعرفةَ إذا تكرَّرت لا تقتضي أنْ تكون نفسَها، إلّا إذا كان كِلا الاسمينِ مُعرَّفًا بـ(أل)، ومع وجود القرينةِ[2].

دلالة الإضافة:

معنى الإضافةِ في ﴿كِتَٰبَ ٱللَّهِ﴾ يُشبه معنى اللّام التي للمِلْك؛ فيقتضي هذا تعظيمَه وتشريفَه، والالتزامَ بهِ، لا التّفريطَ به ونبْذَهُ وراءَ الظَّهرِ.

بلاغةُ التَّشبيه في قوله ﴿كَأَنَّهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾:

قولُه تعالَى: ﴿كَأَنَّهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ جُمْلَةٌ حَالِيَّةٌ، وَهُوَ تَشْبِيهٌ لِمَنْ يَعْلَمُ بِمَنْ يَجْهَلُ؛ لِأَنَّ الجَاهِلَ بِالشَّيْءِ لَا يَحْفِلُ بِهِ ولَا يَعْتَدُّ بِهِ، لِأَنَّهُ لَا شُعُورَ لَهُ بِما فِيهِ مِنَ المَنْفَعَةِ. ومُتَعَلَّقُ

(1) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 1/273.

(2) السمين، الدرّ المصون: 11/46، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/626.

تشبيه العالِمِ بالجاهلِ لبيان عنادِه ومكابرتِه ومجانبتِه للحقِّ

العلم مَحْذُوفٌ؛ أَيْ: كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ أَنَّهُ كِتَابُ اللّه، لَا يُدَاخِلُهُمْ فِيهِ شَكٌّ لِثُبُوتِ ذَلِكَ عِنْدَهُمْ وَتَحَقُّقِهِ، وَإِنَّمَا نَبَذُوهُ عَلَى سَبِيلِ الْمُكَابَرَةِ وَالعِنَادِ[1]، فَهُمْ على علم رصينٍ، ولكنَّهم تظاهروا بعدم العلم[2]، ونلمحُ في هذا التَّعبير السُّخريةَ والاستهزاءَ بهم؛ إذْ أَكّدَ علمَهم بما يَشبهُ نفيَه عنهم.

التَّعبيرُ بصيغةِ المضارعِ ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾:

جاءَ نفيُ العلم بصيغة المضارِع لا الماضي مع أنَّه ظاهرُ الكلام؛ فلم يقُل: (كأنَّهم لم يعلموا)؛ لإفادة أنَّ هَذَا الفَرِيقَ النَّابِذَ لِكِتَابِ اللّهِ يَتَمَادَى بِهِمُ الزَّمَانُ وَلَا يَتُوبُونَ ولا يَرْجِعُونَ، وأنّ السُّخرية من فعلِهم وعملِهم مستمرَّةٌ لا تنقطعُ، فما أَحْسَنَ التَّعْبِيرَ عن ذَلِكَ بِنَفْيِ الحَالِ والاسْتِقْبَالِ دُونَ نَفْيِ المَاضِي[3].

حذفُ المفعولِ لإفادةِ العمومِ:

إثباتُ علمِ اليهودِ بكلِّ ما نَفَوا علمَهُم بِهِ

حَذَفَ المفعولَ ليفيدَ عمومَ ما تظاهروا بهِ من عدم العلم، والمعنى: كأنَّهم لا يعلمون في كتابِهم ببشارةِ رسولِ اللّهِ ﷺ وأوصافِه، أو كأنَّهم لا يعلمونَ صدقَ الرَّسولِ، أو كأنَّهم لا يعلمونَ استحقاقَهم العذابَ على نبْذِهم كتابَ اللّهِ، وكلُّ ما كانوا يعلمونَه وهم يَتظاهرونَ بنفيِه عنهم يَستغرقُه العمومُ، والمعنى على إثباتِ علمِهم بكلِّ ما نَفَوا علمَهم بِهِ.

توجيه المتشابه اللّفظي:

الفرقُ بينَ ﴿نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُمْۚ﴾ و﴿نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ﴾، أنّ قوله تعالى: ﴿أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُواْ عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم﴾ يفيدُ نبذَهم لأيِّ عهدٍ بالرَّفضِ وعدمِ الاعتدادِ بهِ، فجاءتْ كلمةُ ﴿عَهْدًا﴾ نكرةً لتشملَ أيَّ عهدٍ من العهود،

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 1/521.
(2) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 1/487.
(3) رشيد رضا، تفسير المنار: 1/328.

سواءً أكانَ في التَّوراةِ أمْ ممّا أخذَه عليهم موسى عليه السلام، وسواءً أكان صغيرًا أم كبيرًا، وأمّا سببُ ذكرِ النَّبذِ وراءَ الظّهرِ في هذه الآية فإنّه لمّا جاءَ السِّياقُ مشتَمِلًا على ذكرِ مجيءِ رسولِ اللّه ﷺ مِنْ عِنْدِ اللّهِ مُصدِّقًا لِمَا مَعَهم، وعلى التّصريحِ بنبذِ كتابِ اللّهِ، ذكرَ ﴿وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ﴾؛ ليدلّ على شدّة استخفافِهم وجَحْدِهم، وعلى تأكيدِ رفضِهم وإهمالِهم، بنبْذ العملِ بما جاء به الرسولُ محمّدٌ ﷺ، ورفضِهم لَه ﷺ، فالنَّبذُ في هذه الآية أشنعُ وأقبحُ.

﴿وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتۡلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلۡكِ سُلَيۡمَٰنَۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيۡمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحۡرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلۡمَلَكَيۡنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنۡ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحۡنُ فِتۡنَةٞ فَلَا تَكۡفُرۡۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنۡهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَزَوۡجِهِۦۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنۡ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمۡ وَلَا يَنفَعُهُمۡۚ وَلَقَدۡ عَلِمُواْ لَمَنِ ٱشۡتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنۡ خَلَٰقٖۚ وَلَبِئۡسَ مَا شَرَوۡاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمۡۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ١٠٢﴾ [البقرة: 102]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لـمّا بيّن اللّهُ تعالى أنَّ بني إسرائيلَ نَبَذوا كتابَ اللّهِ وراءَ ظهورِهم، ناسَبَ في هذهِ الآيةِ أَنْ يَذْكُرَ الـمُقابِلَ، وهو اتّباعُهمُ الأباطيلَ، فَقَدِ اتَّبَعُوا ما تَتْلو الشَّياطينُ وأَقبلُوا عليها، ومَنِ اتَّبَعَ شَيْئًا فَضَّلَهُ على غَيرِهِ، فجاءتْ هذهِ الآيةُ زيادةً في توبيخِهِم، وتعجيبًا مِنْ حالِهم، وقِلَّةِ عقولِهِمْ[1].

شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

1) ﴿وَٱتَّبَعُواْ﴾: يدورُ أَصْلُ (تَبِعَ) على معنى: التُّلُوِّ والقَفْوِ، فيكونُ حقيقةً في الأَجسامِ، بمعنى الـمَشْيِ وراءَه، واتَّبَعَ الشَّيءَ: تَطلَّبَه ولَحِقَه، وسارَ في إِثْرِه، ويكونُ ائتمارًا في العَمَلِ، بِقَوْلِ الْغَيْرِ وَبِرَأْيِهِ، وَفِي الِاعْتِقَادِ؛ نحو: اتَّبَعَ فلانٌ مَذْهَبَ الإمامِ مالِكٍ، ومعنى: ﴿وَٱتَّبَعُواْ﴾: أَصْغَوا إلى الشَّياطين، وعَمِلُوا بِمَا تَتْلوه عليهم[2].

2) ﴿تَتْلُواْ﴾: تَلَا يَتْلو بمعنى: تَبِعَه، ويَدورُ المعنى المحوريُّ على اتّباعِ الشَّيءِ ما يَسْبِقُهُ، لُحوقًا به مِن خَلفِه، وذلكَ يكونُ تارةً بالجِسمِ، وتارةً: بالاقتداءِ في

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/172، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 2/72.

(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، وابن منظور، لسان العرب: (تبع)، وينظر: التّحرير والتّنوير: 1/629.

الحُكم واتِّباعِه، ومصدرُه: تُلُوٌّ وتِلْوٌ، وتارةً: بالقراءةِ وتدبُّرِ المعنى، ومصدرُهُ: تِلَاوَةٌ، والتِّلاوةُ: تَختَصُّ باتِّباع كُتُبِ اللهِ المُنَزَّلةِ، قراءةً أوِ اتِّباعًا، وهي أَخَصُّ من القراءةِ، فكلُّ تلاوةٍ قراءةٌ، وليس كلُّ قراءةٍ تِلاوةً، وَالتِّلاوَةُ: قِرَاءَةُ المَكْتُوبِ وَالكِتَابِ، وعَرْضُ المَحْفُوظِ عَنْ ظَهْرِ قَلْبٍ، وتكونُ بصوتٍ[1]، والمعنى في الآية: ما تَتَقَوَّلُهُ الشّياطينُ كَذِبًا.

3) ﴿ٱلشَّيَٰطِينُ﴾: جمعُ شَيطانٍ، وأصلُه من: شَطَنَ، ويَدُلُّ عَلَى معنى الْبُعْدِ، ومنه بئرٌ شَطُونٌ، وشَطَنَتِ الدّارُ، وسُمِّيَ الشَّيطانُ بِذَلِكَ؛ لِبُعْدِهِ عَنِ الْحَقِّ وَتَمَرُّدِهِ، ووَزْنُ شَيْطان على هذا الاشتقاق هو: فَيْعال.

وذَهَبَ بعضُ اللُّغويِّين إلى أنّ أصلَ الكلمةِ: شَاطَ يَشِيطُ، بمعنى: احتَرَقَ غَضَبًا، فتكونُ النُّونُ زائدةً، ووَزْنُ شَيْطان على هذا الاشْتقاق: فَعْلان، وَذَلِكَ أَنَّ كُلَّ عَاتٍ مُتَمَرِّدٍ مِنَ الجِنِّ وَالإِنْسِ شَيْطَانٌ.

والشَّيْطَانُ: مخلوقٌ من النّار ، كما دلَّ عليه قولُه تعالى: ﴿وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ﴾ [الرحمن: 15]، ولكونِ خَلْقِه من ذلك: اختصَّ بفَرْطِ القُوّةِ الغضبيّةِ، والحَمِيّةِ الذّميمةِ، وامتنعَ من السّجودِ لآدم[2].

4) ﴿ٱلْمَلَكَيْنِ﴾: أَصْلُ مَلَك هو: أَلَك، والمعنى المحوريُّ هو: مَضْغُ الشَّيءِ، أَو إدارتُه في الفم، على شدَّةٍ فيه، وسُمِّيت الأَلُوكة والأَلُوك والمَأْلُكة -بضمِّ اللّام وفتحِها-: الرِّسالة؛ لأنّها رسالةٌ شَفَوِيَّةٌ تُدار في الفم، والمَلَك من هذا، وأصلُه: مَأْلَك، ثمّ بالنَّقل: مَلْأَك، ثمّ خُفِّفَ فصار: مَلَكًا، لأنّ المَلَكَ رسولٌ، يَحمِلُ رسالةً من الله ﷻ، إلى مَن أراد مِن عبادِه، فوزنُ مَلَك: مَعَل، وجمعُه مَلَائِكَة، بوزن: مَعَافِلَة.

وذهبَ بعضُ اللُّغويّين إلى أنّ أصلَ الكلمةِ: لَأَك، على معنى: أرسل كذلك، والمَلْأَك: المَلَك؛ لأنَّه يُبلِّغُ الرِّسالةَ عن اللهِ ﷻ، فيكونُ وزنُ مَلَك: مَفَل، ومَلَائِكَة على وزنِ: مَفَاعِلَة[3]، وتُطلَقُ الملائكةُ على الواحد والجمع.

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (تلَوَ).
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرّاغب، المفردات: (شطن).
(3) السّمين، عمدة الحفّاظ، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (ألَك).

5) ﴿ٱلسِّحۡرَ﴾: هو صَرْفُ الشَّيْءِ عَن حَقِيقَتِه إِلَى غَيره، بِمَا لَطُفَ مَأْخَذُهُ، وَدَقَّ وخَفِيَ سببُه، فكأَنَّ السَّاحِرَ لَمَّا أَرَى الباطلَ في صُورَةِ الْحَقِّ، وخَيَّلَ الشَّيءَ عَلَى غَيْرِ حَقِيقَتِه، قَدْ سَحَرَ الشَّيْءَ عَنْ وَجْهِه، أَي: صَرَفَهُ، ويُقَالُ: سَحَرَه بِكَلَامِه، بمعنى: استمالَه، وسَلَبَ لُبَّه، بِحُسْنِ بَيَانِه، ولُطْفِ مَأْخَذِه، ومنه الحديث: (إنَّ من البيانِ لَسِحْرًا)[1]، وكلُّ ما حَسُنَ جمالُه، وخَفِيَ سببُ حُسنِه، يوصَفُ بالسِّحرِ، والسِّحرُ في عُرْفِ الشَّرْعِ مُخْتَصٌّ بِكُلِّ أَمْرٍ، يَخْفَى سَبَبُهُ، وَيُتَخَيَّلُ عَلَى غَيْرِ حَقِيقَتِه، وَيَجْرِي مَجْرَى التَّمْوِيهِ وَالْخِدَاعِ[2].

6) ﴿فِتۡنَةٌ﴾: يَدُلُّ المعنى المحوريُّ لـ (فَتَنَ): على إذابةٍ بالنّار، لتَظْهَرَ جُودة المذاب مِنْ رَداءته، كإذابةِ الذَّهبِ والفِضَّةِ، ومِنَ الذَّوَبانِ والتَّحَوُّلِ المَعْنَوِيّيْن: الافتتانُ بالنِّساءِ والمالِ والأولادِ، برِقَّةِ القلبِ ونحوِها، حتَّى يَرْتَكِبَ المَحظورَ في سبيلِه، واستُعملَت الفِتنةُ في تَمْحيصِ حقيقةِ ما في القلوبِ، بتَعريضِها للشَّدائدِ كما يُصْهَرُ الذَّهبُ أو الفضَّةُ؛ فيمتازُ خَبَثُهما عن جَوهرِهما الخالصِ، فصارت الفتنةُ تَدُلُّ عَلَى إيقاع الابْتِلاءِ، أو التّعريضِ له بالاخْتِبَارِ[3]، و(فِتْنَةٌ) في الآية بمعنى: اختبار وابتلاء[4].

7) ﴿ٱلۡمَرۡءِ﴾: أصلُه: مَرَأَ، والمَرْءُ: بمعنى رَجلٍ من أسماءِ بني آدمَ، والأنثى منه: المَرْأَةُ، والمَرْءُ: يَدُلُّ على معنى الإنسانيَّةِ، وكمالِ الرُّجولةِ، ويُطلَقُ على الرَّجُلِ المَقْبولِ في خَلْقِه وخُلقِه، والمَرْءُ: يُوَحَّدُ ويُثَنَّى، ولا يُجْمَعُ على صُورته، فيُقالُ: هذا امْرُؤٌ، وهذانِ امْرَآنِ، وفي الجمع يُقالُ: هؤلاءِ رجالٌ[5]، والمَرْءُ في الآية بمعنى: زَوجِ المَرْأَةِ.

8) ﴿وَزَوۡجِهِۦۚ﴾: هو الفَرْدُ الّذي له قَرينٌ، فالمرأةُ زوجُ الرَّجلِ، والرَّجلُ زوجُ المرأةِ، ولا يُقالُ للشَّيءِ زَوْجٌ، إلّا إذا صار تَداخُلٌ بين شيءٍ وآخرَ، حتَّى يَخْتَلِطا، فالزَّوجُ هو الشَّيءُ المُرْتَبِطُ بآخرَ، ارْتباطًا مادِّيًّا أو معنويًّا، وبعضُ قبائل العرب -مثل تَمِيم- تُلْحِقُ به التّاءَ، فتقولُ: زوجة[6].

---

(1) البخاريّ، صحيح البخاريّ، رقم الحديث: 5146.

(2) الأزهريّ: تهذيب اللُّغة، وابن فارس، مقاييس اللُّغة: (سحر)، وينظر: الرّازيّ، التّفسير الكبير: 3/619.

(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (فتن).

(4) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 59.

(5) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (مرأ).

(6) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (زوج).

9) ﴿بِضَآرِّينَ﴾، ﴿يَضُرُّهُمْ﴾: أصلُ الكلمةِ: ضَرّ، يَدُلُّ على التَّضييقِ والنَّقْصِ، والضُّرُّ: ضِدُّ النَّفْعِ، ويُحْمَلُ على هذا المعنى: كُلُّ مَا جَانَسَهُ، أَوْ قَارَبَهُ، وَكُلُّ مَا كَانَ مِنْ سُوءِ حَالٍ وَفَقْرٍ، أَو شِدَّةٍ في بَدَنٍ، فَهُوَ ضُرٌّ، وَمَا كَانَ ضِدًّا لِلنَّفْعِ فَهُوَ ضَرٌّ، والأصلُ واحدٌ، ويُقالُ: ضَرَّهُ يَضُرُّهُ: إِذَا فَعَلَ بِهِ مَكْرُوهًا[1].

10) ﴿خَلَٰقٍ﴾: أصلُ الكلمةِ: خلَقَ، بمعنى تَقْدِيرِ الشَّيْءِ وتهيئته، وَمِنْ ذَلِكَ: الخُلُقُ، وَهُو السَّجِيَّةُ؛ لِأَنَّ صَاحِبَهُ قَدْ قُدِّرَ عَلَيْهِ، وَفُلَانٌ خَلِيقٌ بِكَذَا، أَيْ: هُوَ مِمَّنْ يُقَدَّرُ فِيهِ ذَلِكَ، وَالخَلَاقُ: الحَظُّ؛ لِأَنَّهُ قَدْ قُدِّرَ لِكُلِّ أَحَدٍ نَصِيبُهُ، وصار الخَلَاقُ مُستعمَلًا في الحظِّ والنَّصيب مِنَ الْخَيْرِ وَالصَّلَاحِ[2].

11) ﴿ٱشْتَرَىٰهُ﴾ ﴿شَرَوْاْ﴾: الأَصْلُ: شرَوَ، قُلِبَتِ الواوُ ألفًا؛ لِتحرُّكِها، وانفتاحِ ما قبلَها، ويَدُلُّ الشِّراءُ عَلَى تعاوُضٍ مِنَ الاثْنَيْنِ، في أَمْرَيْنِ أَخْذًا وَإِعْطَاءً مُمَاثَلَةً، واشتريت الشَّيءَ: إِذَا أَخَذْتَهُ مِنْ صَاحِبِهِ بِثَمَنِهِ، فَالْمُشْتَرِي دافعُ الثَّمَنِ، وآخِذُ المُثْمَنِ، والبائعُ دافعُ المُثْمَنِ، وآخِذُ الثَّمَنِ، ولَفْظُ البيع والشّراء: يُستعمَلُ كلُّ واحدٍ منهما في موضِعِ الآخَرِ، وشَرَى: يأتي -غالبًا- بمعنى: باع، و﴿ٱشْتَرَىٰهُ﴾ في الآية بمعنى: الاسْتِبْدالِ، أي: اسْتَبْدَلَ ما تُحَدِّثُ به الشَّياطِينُ من السَّحْرِ بكِتابِ اللَّهِ، و(شرَوا) بمعنى: باعوا[3].

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

يُخبِرُ اللّهُ عن اليهود أنّهم تَركوا ما ينفعُهم، فابتُلوا بالاشْتغال بما يضرُّهم، واتَّبَعوا ما لا يَنبغي اتِّباعُهُ، ممَّا تُحَدِّثُ الشّياطينُ بِهِ السَّحَرةَ منَ السِّحرِ، على عَهدِ مُلكِ سليمانَ بنِ داودَ عليهما السلام، وما كفرَ سليمانُ، وما تَعَلَّم السِّحرَ، ولكنَّ الشَّياطينَ همُ الّذين كفروا باللّهِ، حينَ علَّموا النَّاسَ السِّحرَ، وعَمِلوا بِهِ؛ إفسادًا لدينِهم، وكذلكَ اتَّبعَ اليهودُ السِّحرَ الّذي أُنزلَ على المَلَكَينِ: هاروتَ وماروتَ، بأرضِ بابلَ في العِراقِ؛ امتحانًا وابتلاءً من اللّهِ لعبادِهِ، وما يُعلِّمُ المَلَكانِ من أحدٍ حتّى يَنْصحاهُ، ويُحَذِّراه مِن تعلُّمِ السِّحرِ، ويَقولا لَه: لا تَكْفُرْ؛

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ (ضرر).
(2) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة، وابن فارس، مقاييس اللُّغة، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (خَلَق).
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرّاغب، المفردات، والسّمين، عمدة الحفّاظ: (شَرَوَ)، وينظر: ابن جرير، جامع البيان: 2/340، 445.

بتعلُّم السِّحرِ، وطاعةِ الشَّياطينِ، فيتعلَّمُ النَّاسُ من المَلَكَينِ ما يُحدِثُونَ به الكراهيَّةَ بينَ الزَّوجينِ، حتَّى يَتفرَّقا، وَلا يَستطيعُ السَّحرةُ أَنْ يَضُرُّوا به أَحدًا إلَّا بإذنِ اللّٰهِ وقضائِه، وَما يتعلَّمُ السَّحرةُ إلَّا شَرًّا يَضرُّهُم، ولا يَنفعُهُم، وقد نقلتْه الشَّياطينُ إلى اليهودِ، فشاعَ فيهم، حتَّى فضَّلوه على كتابِ اللّٰهِ، وأقبلوا على السِّحرِ، الّذي كانَ إبطالُه من أَوَّلِ معجزاتِ نبيِّهم وأعظمِها؛ فَهو أشدُّ شيءٍ منافاةً لِشَرعِهم، معَ علمِهم بأنَّ ذلك يَضرُّهم في الدَّارينِ، ولا يَنفعُهم، وَلقدْ علِمَ اليهودُ أنَّ مَنِ اخْتارَ السِّحرَ، وَتركَ الحقَّ، ما لَه في الآخرةِ من نصيبٍ في الخيرِ، وَلَبِئْسَ ما باعُوا به أنفسَهم مِن السِّحرِ والكُفرِ، عِوَضًا عن الإيمانِ ومتابعةِ الرَّسولِ، لَو كان لَهمْ عِلْمٌ ينتفعونَ به، وَيُثمِرُ العملَ بِمَا وُعِظوا به[1]، وفي هذهِ الآيةِ: توبيخٌ آخرُ منَ اللّٰهِ ﷻ لليهودِ، الَّذين أَدركُوا رسولَ اللّٰه ﷺ، فجَحدُوا نبوَّتَه، وَرفضُوا اتِّباعَ القرآنِ، وَهو بينَ أيديهم يعلَمونَه، وَيعرفونَ أنَّه كتابُ اللّٰهِ، وَفيها تعجيبٌ من حالِهم كذلكَ؛ لِأَخْذِهم بِالْأَبَاطِيلِ، بعدَ نبذِهمْ كتابَ اللّٰهِ.

❁ الإيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

دلالة الاسمِ الموصولِ (ما) في قولِه: ﴿وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ﴾:

مَن استغرقَ نفسَهُ في الباطِلِ فَليسَ لَهُ في الحقِّ نَصيبٌ

أفادتْ (ما) الموصولةُ العُمومَ، والمعنى: اتَّبَعُوا كُلَّ ما تلتْهُ الشَّياطينُ على ملكِ سليمان من غير نَقْصٍ، للإشارة إلى استغراقِ اتِّباعِ مَتْلوِّ الشَّياطينِ، فلم يَتركوا منه شيئًا؛ ليدلَّ على حرصِهم عليه، وأنَّهُ لم يَبقَ لاتِّباعِ كتابِ اللّٰهِ نصيبٌ؛ توبيخًا لهم، وتَهكُّمًا عليهم، لِقلَّةِ عَقْلِهم؛ فإنَّ شأنَ العاقِلِ أنْ يتأمَّلَ المَتبوعَ، وينقدَ الخطأَ، لكنَّ اتِّباعَهم كان لِمامًا، ومتبوعَهم كانَ إمامًا.

نكتةُ مجيءِ الفعلِ: ﴿تَتْلُواْ﴾ على التَّضمين:

بيانُ افتراءِ الشَّياطينِ وكذبِها على مُلكِ سليمان

لمّا كانَ الشَّياطينُ يَكْذِبونَ دائمًا، نبّهَ النَّظمُ إلى أنَّ تلاوتَهم كانت كَذِبًا، فَضمَّنَ الفعلَ: ﴿تَتْلُواْ﴾ معنى تَكْذِبُ، وأَشْعَرَ به بتعديَتِه بـ﴿عَلَىٰ﴾ على ﴿مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ﴾، فإنَّ التِّلاوةَ لا تكونُ على الأشياءِ،

(1) ابن جرير، جامع البيان: 2/209، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 2/75، ونخبة من العلماء، التّفسير الميسّر، مجمع الملك فهد: 1/16.

بلْ على الأشخاصِ، والتَّقديرُ: تكذبُ على مُلْكِه[1]، وتفتري وتختلِقُ، ونكتةُ التَّضمينِ إظْهارُ التِّلاوةِ، وإبطانُ الافتراءِ، وهو ما يتناسبُ مع واقعِ اليهودِ، فهم يُظهِرون خلافَ ما يُبطنون، فناسبَ اللَّفظُ المعنى.

فَائِدةُ اسْتِعمالِ كلِمةِ ﴿تَتْلُواْ﴾ دُونَ غَيْرِها:

أتتِ الآيةُ بالفعلِ: ﴿تَتْلُواْ﴾ دونَ: (تقرأ) أو: (تتقوّلُ)، والتِّلاوةُ لا تكون إلَّا لكُتُبِ اللّه[2]، فاستُعمِلَ الفعلُ: (تتلوا) للدّلالة على أنَّ القراءةَ هي تلاوةٌ ذات صبغةٍ دينيَّةٍ؛ ليخْدَعُوا بها السَّامعين؛ لِمَا تُشْعِرُ به التِّلاوةُ، بأنّها كانتْ إلقاءً بصوتٍ، مع حُسنِ تَنغيمٍ، وقراءةٍ واضحةٍ بيِّنةٍ تتوالى كلماتُها؛ كي يكونَ المَتْلوُّ مُؤثّرًا[3].

التِّلاوةُ ذاتُ صبغةٍ دينيَّةٍ مُؤثِّرةٍ، أمَّا القراءَةُ فهي عامَّةٌ

نكتةُ مجيءِ الفعل ﴿تَتْلُواْ﴾ بصيغةِ المضارعِ:

كانَ الظَّاهرُ أنْ يقولَ: (وَاتَّبَعوا ما تَلتْهُ الشَّياطينُ)، فعَدَلَ إلى المضارعِ؛ للإشارةِ إلى كَثْرَتِه وفُشُوِّه واسْتمرارِه؛ فَإِنَّ أحبارَ اليهودِ لَمْ يَزَالُوا يَتْلُونَ ذَلِكَ، فَيَكُونُ الْمَعْنَى: إِنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا تَلَتْهُ الشَّيَاطِينُ، وَلَمْ تَزَلْ تَتْلُوهُ[4]؛ لبيانِ أنَّ الأسْلافَ ما زالُوا على نَهْجِ الآباءِ.

بلاغةُ نفيِ الكُفرِ دون السِّحرِ:

لَمْ يَتَقَدَّمْ فِي الْآيَةِ أَنَّ أَحَدًا نَسَبَ سليمانَ عليه السلام إِلَى الْكُفْرِ، فإنّ النَّفيَ يَقتضي الإثباتَ، وكيف يُنسَبُ إلى الكفر وهو نبيٌّ!، وَلَكِنَّ الكلامَ على إيجازِ الحَذْفِ، وطيِّ الكلامِ، مِنْ أَنَّ الْيَهُودَ نَسَبَتْ سليمانَ إِلَى السِّحْرِ، وأضافتْه إليه، ولَمَّا أرادَ أَنْ يُظهرَ غلَطَ أمرِ السِّحرِ وشناعتِه، وأنَّ السِّحْرَ كُفْرٌ، صَارَ مَنْ نَسَبَ سليمانَ إلى السِّحرِ، بِمَنْزِلَةِ مَنْ نَسَبَهُ إِلَى الْكُفْرِ[5]، فنَفى لازمَ السِّحرِ وهو الكفرُ؛ ليَدُلَّ على أنّه كفرٌ،

بيانُ قبيحِ فعلِ اليهودِ في اتِّهامِ سليمان بالسِّحرِ، وأنَّ مآلَه الكُفرُ

(1) ابن جرير، جامع البيان: 2/212، وأبو حيّان، البحر المحيط: 1/523، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 2/73.
(2) الرّاغب، المفردات: تلَوَ.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 2/209، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 1/337.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 2/73، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/629.
(5) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 2/43، وابن جرير، جامع البيان: 2/217.

فكأنَّ السِّحرَ من المُلازمِ المُساوي للكفرِ، ونُكتةُ ذلك بيانُ شناعةِ السِّحرِ، وبيانُ قبيحِ من يَنسِبُ سليمان عليه السلام للسِّحرِ، ولو نفى عنه السِّحرَ بدَلَ الكُفرِ لكان ذلك أخفَّ في بيانِ الافتراءِ عليه.

وفي المُقابِلِ نَفَتِ الآيةُ الكُفرَ المقصودَ به السِّحرعن سليمانَ عليه السلام، وأثبتَته للشَّياطين، فأرادَت أنْ تُظهِرَ شَناعةَ السِّحرِ وقبحَهُ، فسمَّتْه كُفرًا، ولمّا كانَ السِّحرُ من اللّازمِ المُساوي للكفرِ، صاروا كأنَّهم يُعَلِّمون النَّاسَ الكفرَ بتعليمِهمُ السِّحرَ، وأثبتَتِ الكُفرَ للشَّياطينِ على صيغةِ الماضي؛ لِيفيدَ أنَّ المرادَ شياطينُ الإنسِ؛ لِأَنَّ كُفْرَ الشَّيَاطِينِ مِنَ الجِنِّ أَمْرٌ مُقَرَّرٌ، لَا يَحْتَاجُ لِلْإِخْبَارِ عَنْهُ[1]، ولِيفيدَ: أنّ الكفرَ سببُ تعليمِ النَّاسِ السِّحرَ.

بلاغةُ وضعِ الظَّاهرِ موضعَ المُضمَرِ:

تفخيمُ شَأْنِ الأنبياءِ في معرضِ الاتِّهامِ

كَرَّر النَّظمُ اسمَ نبيِّ اللّه سليمانَ عليه السلام، فجاء به ظاهرًا في موضع الإضْمار، تَفْخيمًا له وتعظيمًا، ولاسيّما مع اقترانه بالمُلْكِ، وإظهارًا لنَزاهتِه عليه السلام، وكذِبِ باهِتيه بذلكَ[2].

دلالة حرفِ الاستدراكِ ﴿وَلَٰكِنَّ﴾:

صيانةُ احتمالِ الأفهامِ، بإثباتِ الكفرِ للشَّياطينِ

تُفيدُ: ﴿وَلَٰكِنَّ﴾ الاستدراكَ، والتَّغايرَ في المعنى، بين ما قبلَها وما بعدَها[3]، فلمّا نُفِيَ الكفرُ عن سليمانَ عليه السلام، قد يَتوهَّمُ المخاطَبُ أنّ الشّياطينَ لم يَكفروا، فتَداركت (لكنَّ) الخبرَ، وأثبَتَتْ كُفرَ الشَّياطينِ، فدلَّت على مُغايرةِ حُكمِ ما بعدَها في إثباتِ الكُفرِ للشَّياطينِ، لِحُكمِ ما قبلَها في نفيه عن سُليمان عليه السلام.

دلالة الجملة الحاليّة: ﴿يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحۡرَ﴾:

مراتبُ الكفرِ تُحدِّدُها الأفعالُ، وكلَّما كان منتشرًا زادَ بلاؤه

أفادتِ الجُملةُ الحاليَّةُ: اقترانَ تَعليمِ النَّاسِ السِّحرَ، بِكُفرِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/627.
(2) السّمين، الدّر المصون: 2/29، أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 1/137.
(3) المراديّ، الجنى الدّاني، ص: 614.

الشَّياطينِ[1]، فهمْ قدْ كَفروا في حالِ تعليمِ النَّاسِ السِّحرَ، وهم قد كفروا مِنْ قبلُ، إذ كان كُفرُهم سَببًا لِتعليمهمُ النَّاسَ السِّحرَ كما تقدّمَ، "وَالمَقْصِدُ مِنْهُ: تَشْنِيعُ حَالِ كُفْرِهِمْ، إِذْ كَانَ مَصْحُوبًا بِتَعْلِيمِ السِّحْرِ، عَلَى حَدِّ قَوْلِهِ: كُفْرٌ دُونَ كُفْرٍ"[2]، وفائدةُ الجملةِ الحاليَّةِ: بيانُ أنَّهم لم يكتفوا بالكُفرِ، بل زادُوه بلاءً بأنْ علَّموه للنَّاسِ، ونشروه بَيْنَهم.

دلالة ذكرِ: ﴿بِبَابِلَ﴾:

تعليمُ السِّحرِ كان حقيقةً، لا وَهْمًا

عبّرَ بالباءِ في قولِه تعالى: ﴿وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ﴾ دون حرفِ الظَّرفيَّةِ؛ لإفادةِ شدَّةِ لُصوقِ ما أُنزلَ على المَلَكَينِ بذلك المكانِ، وذكرَ كلمةَ: (بابلَ)، وفَصَلَ بها بينَ البدلِ: ﴿هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ﴾، والمُبدَلِ منه: ﴿ٱلْمَلَكَيْنِ﴾؛ تَحقيقًا لنزولِ المَلَكَين إلى الأرضِ[3]، ولبيانِ أنَّ تعليمَ النَّاسِ السِّحرَ كانَ على الحقيقةِ، لا بالإلهامِ أوِ الأوهامِ.

نُكْتةُ مَجيءِ البَدَلِ:

الجمعُ بين الصِّفةِ والاسمِ للبيانِ والتَّوضيحِ

ذُكِرَ المُبدَلُ منه: ﴿ٱلْمَلَكَيْنِ﴾، ثُمَّ جاءَ بالبدلِ: ﴿هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ﴾[4]؛ لأنَّ مَجموعَ البدلِ معَ المُبدلِ منه، أَوفى بِتمامِ المُرادِ وإيرادِه[5]، وليَظْهَرَ بمَجموعِهما فَضلُ تأكيدٍ وتَبيينٍ، لا يكونُ في أحدِهما، فقَصَدَ بالجمعِ بينَهما تمامَ الإيضاحِ والبيانِ، بأنَّهما مَلَكان من اللّه تعالى، يُعلّمانِ النَّاسَ السِّحرَ؛ اختبارًا من اللّهِ لعبادِه، وإذا كانَ ﴿هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ﴾ عطفَ بيانٍ مِن ﴿ٱلْمَلَكَيْنِ﴾[6]، وهو أقوى دلالة إذ يكونُ قد جَمَعَ بين الصِّفةِ والاسمِ للبيانِ والتَّوضيحِ.

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 1/524.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/630.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 2/77.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 1/528.
(5) التّفتازانّي، شرح مفتاح العلوم: 2/96.
(6) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 1/98.

بلاغةُ أسلوبِ القَصرِ: ﴿إنّما﴾:

الإعلامُ بكونِ السِّحرِ فتنةً غرَضُه التَّحذيرُ والتَّنبيه

أفاد أسلوبُ القَصْرِ بـ ﴿إنّما﴾ ثلاثةَ أمورٍ:

أحدُها: تُستعمَلُ ﴿إنّما﴾ في مَقام، لا يَعوزُ المُتكلِّمُ فيه دليلًا، ولا بيّنةً على الخبر؛ لِأَنّ الخبرَ جَلِيٌّ، أَو لادّعاءِ المُتكلِّم أنّه جَلِيٌّ، كما يُسلَك بـ (إنّما) مُخاطَبةُ مَنْ يجبُ أنْ لا يُصِرَّ على خَطَئِه، وأنْ يتلقّى الخبرَ بالقَبولِ[1]، فجاءَ بأداة القَصْرِ: (إنّما)؛ لإفادة أنَّ كونَهما فتنةً أمرٌ ظاهِرٌ مَكْشوفٌ، وأنّه يَتيسَّرُ بسهولةٍ معرفةُ أنّه سِحْرٌ، وأنّهُ لا يَنبغي أنْ يَتعلّمَ أَحَدٌ السِّحرَ؛ لظُهور فِتْنَتِه، ويجبُ أَنْ يَتلقّى المخاطَبون كونَهما فتنةً، واختبارًا بالقَبول.

الثّاني: تأكيدُ إثباتِ اتِّصافِهما بالفتنةِ، لِقَصْرِ الفتنةِ عليهما، وانحصارِها فيهما، فهو تأكيدٌ على تأكيد[2]، بأسلوب القَصْرِ الادِّعَائِيِّ، لِلْمُبَالَغَةِ في تخصيص اتِّصافِهما بالفتنةِ، فَجَعَلَا كَثْرَةَ افْتِتَانِ النَّاسِ بِالسِّحْرِ، الّذِي تَصَدَّيَا لِتَعْلِيمِهِ، بِمَنْزِلَةِ انْحِصَارِ الفتنة فيهما[3].

الثّالثُ: لِبيانِ أنَّه ليسَ لَهما فيما يَتعاطيَانِه شأنٌ سواها، لِينصرِفَ النَّاسُ عن تعلُّمِه، أي: وما يُعلّمان ما أُنزل عليهما من السِّحرِ، أحدًا مِنْ طالِبيه، حتَّى يَنصَحاه قبلَ التَّعليم، ويَقولا له: إنَّما نحنُ فتنةٌ، وابتلاءٌ مِن اللّهِ ﷻ، فَمَنْ عَمِلَ بِما تعلَّم منَّا، واعتقدَ حقيقتَه كَفَرَ، وَمَنْ تَوقَّى عن العملِ بِه، أَو اتَّخذَه ذَريعةً للاتِّقاءِ عن الاغترارِ بمِثله، بقيَ على الإيمانِ[4].

نُكْتةُ الإخبارِ بالمَصدر: ﴿فِتْنَةٌ﴾:

المبالغةُ في بيانِ شديدِ خطَرِ الفتنةِ

ما يَقْتضِيه ظَاهِرُ النَّظم أنْ يُقالَ: (إنّما نحن فَاتِنان)، بصيغةِ اسمِ الفاعِلِ المُثنَّى، لكنّه عَدَلَ عنه إلى الإخبارِ بالمصدرِ، مواطأةً

(1) التّفتازانّي، شرح مفتاح العلوم: 2/433-434.
(2) السّكّاكّي، مفتاح العلوم: 291.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/643.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 1/139.

لِلمبالغةِ، كأنَّهما نَفْسُ الفتنةِ، وقَدْ أُكِّدَتِ الْمُبَالَغَةُ بِالْحَصْرِ الْإِضَافِيِّ، الـمُفيدِ للتَّخصيصِ[1].

دلالة الفاءِ في قولِه: ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا﴾:

مُسارعةُ اليهودِ إلى تعلُّمِ السِّحرِ زرافاتٍ ووحدانًا

دلّتِ الفاءُ على التَّرتيبِ والتَّعقيبِ لِمَا قبلَها، وَتقديرُ الكلامِ: "إنَّمَا نَحنُ فِتنةٌ فلا تَكفُرْ: فَلا تَتَعلَّمْ، ولا تعملْ بالسِّحرِ، فَيأبَونَ فَيتعلَّمونَ"[2]، فأفادَ التَّعقيبُ بالفاءِ: توبيخَ اليهودِ، على عدمِ تَماهُلِهم، وسُرعةِ تعلُّمِهم السِّحرَ، بعدَما حُذِّرُوا مِنْ فتنةِ تَعلُّمِه، فَفَعلوا خلافَ الـمَنهيِّ عنه، مِن غيرِ تَرَيُّثٍ منهم، حِرْصًا منهم على تَعلّمِ السّحرِ، كما أَفادَ السِّياقُ: أنَّهم كانوا يَتعلّمونَ السِّحرَ جماعاتٍ جماعاتٍ؛ لقوله: ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ﴾، حِرصًا منهم على تعلُّمِه، بعد أنْ كانَ الـمَلَكَانِ يُخاطِبانِ كلَّ فردٍ على خُصوصِه، بقولِهما: ﴿فَلَا تَكْفُرْ﴾.

براعةُ التَّعبيرِ بصيغةِ المضارعِ في: ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ﴾ و﴿يُفَرِّقُونَ﴾:

الـجـمـعُ بين معنى الـمُضيِّ والاستـقـبـالِ لـبـيـانِ السببِ والغايةِ

جاء الفعلُ بصيغَةِ الْمُضَارِعِ مع ما بعده ﴿يُفَرِّقُونَ﴾؛ لِتَصْوِيرِ مَا كَانَ كَأَنَّهُ كَائِنٌ، فَالْكَلَامُ: تَصْوِيرٌ لِقصّة أنَّهم كَانُوا يَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا وُضِعَ لِأَجْلِ التَّفْرِيقِ بَيْنَ الزَّوْجَيْنِ، لبَيان شناعةِ أمرِ تَعَلُّمِ السِّحر، وقبيحِه[3]، فهو جمعٌ بين دلالة الماضي والـمُستقبلِ، أمَّا معنى الماضي ففي الفعلِ ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ﴾، وأمَّا معنى المستقبلِ ففي الفعلِ ﴿يُفَرِّقُونَ﴾، وجاءَ التَّعبيرُ عنهما بصيغةِ الـمُضارعِ لبيانِ الدّيمومةِ والاتِّصالِ، فهم يتعلَّمون السِّحرَ ويباشرون التَّفريق بين الأزواجِ دون مُهلةٍ؛ فغايةُ تعلُّمهم التَّفريقُ، وهذا من بديعِ الجمعِ بين معنى الـمُضيِّ والاستقبالِ في صيغةِ الـمُضارعِ.

سرُّ ذكرِ التَّفريقِ بينَ المرءِ وزوجِه:

من أشدِّ أواصرِ الاتِّصالِ في العلاقاتِ البشريَّةِ، ما يكونُ بينَ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 1/139، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/643.
(2) الزّجّاج، معاني القرآن: 1/185.
(3) محمّد رشيد رضا، المنار: 1/334.

التَّنبيهُ بالأعلى على الأدنى؛ لبيانِ خطورةِ السِّحرِ على المجتمعِ بأكملِه

المرءِ وزوجِه، كما قال تعالى: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾ [البقرة: 187]، فبينَهما آصِرَةٌ مَتينَةٌ، هِيَ آصِرَةُ مَوَدَّةٍ وَرَحْمَةٍ، وعقلٍ وتدبيرٍ، وتنشئةٍ وتربيةٍ؛ فلمَّا كان الأمرُ كذلك بيَّنتِ الآيةُ أنَّ تعلُّمهم السِّحرَ للتَّفريقِ بين أطرافِ هذه الآصِرَةِ الوثيقةِ، لِيُفْهَمَ منه أنَّ تَعلُّمَهم ما دونَه أيسَرُ وأسهل؛ فإذا وصل تأثيرُ السِّحر إلى هذا الأمر مع صُعوبتِه فمع غَيرِه أولى[1]، كما أنَّ ذكرَ هذه الرّابطةِ دونَ غيرِها؛ للإشارةِ إلى أهمِّيَّتِها عندَ اللهِ، وقوّتِها في المجتمعِ، فيَدُلُّ هذا: على قبحِ السِّحرِ وتعلُّمِه، ولِلتَّحذيرِ منه، فإنّهُ يَصِلُ إلى فَسْخِ أقوى رابطةٍ، بالتَّفريق بين المرءِ وزوجِه. وذِكْرُه التَّفريقَ دونَ سائرِ الصُّور الّتي يتعلَّمونها: تَنْبيهٌ على الباقي.

سِرُّ اختيارِ مفردةِ ﴿ٱلْمَرْءِ﴾ في الآية:

الآصرةُ الزَّوجيَّةُ التي تتحلَّى بالرُّجولةِ وَالأَدَبِ مهدَّدةٌ بالسِّحرِ، فكيف بما دونَها؟!

لـمّا جاءت الآيةُ لبيانِ قُبحِ السِّحرِ وشَناعةِ تَعلُّمِه، ذُكِرَ الأمرُ القبيحُ الذي كانوا يتعلَّمونه، وهو: التَّفريقُ بين المرءِ وزوجِه، واختيرت كلمةُ: ﴿ٱلْمَرْءِ﴾ دونَ الرَّجلِ؛ لِأَنَّ الرَّجلَ يُفيدُ القُوَّةَ على الأَعمالِ؛ ولِهذا يُمدحُ الإنسانُ بنعتِه بأنَّه رجلٌ، والـمَرْءُ: يُطلَقُ على الرَّجلِ الّذي يَجمَعُ أَدبَ النَّفْس، مع كمالِ الرُّجولةِ؛ فالـمُروءةُ مُشْتَقَّةٌ من الـمَرءِ[2]، فذَكَرَ ﴿ٱلْمَرْءِ﴾ لإفادةِ كمالِ القُوَّةِ وحُسنِ الأدب في الزَّوجِ؛ فمن كانت هذه صِفتُه فإنَّ التَّفريقَ بينه وبين زوجِه أمرٌ عسيرٌ؛ ففي ذلك إشارةٌ إلى عِظَمِ شَأْنِ السِّحرِ وَقُبحِه، في كونِه يبلُغ أقوى العلاقاتِ، وأفضلَها فيُفرِّق بينها، فكيف بأدناها وأتعسِها؟!

بلاغةُ أسلوبِ القَصرِ بـ(النَّفي وإلَّا) المفيدِ لِلتَّخصيصِ، ولِتوكيدِ الاستغراقِ:

إفادةُ الاستغراقِ؛ فلا تأثيرَ للسَّاحرِ في أيِّ شيءٍ إلَّا بإذنِ اللهِ

جاءَ أسلوبُ القَصرِ بالنَّفي و(إلّا)، مستغرِقًا في قولِه تعالى: ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾؛ لإفادةِ نفيِ كلِّ أنواعِ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 2/78، وابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 2/349.
(2) العسكري، الفروق اللّغوية، ص: 277، والسّمين، عمدة الحفّاظ: (مرء).

الضُّرِّ عن أيِّ واحدٍ من النّاس، إلّا بإذن اللّه؛ لِأَنَّ لفظَ (أَحدٍ) في موضعِ النَّفي يَعُمُّ القليلَ والكثيرَ، بصفةِ الاجتماعِ والافتراقِ، والمعنى: ما هم بضارّينَ بِهِ من واحدٍ ولا اثنينِ ولا ثلاثةٍ، ولا أكثرَ، ولا مُجتَمِعينَ ولا مُتَفرِّقينَ[1]، فأفادَ تَخصيصَ الضُّرِّ بأنَّه لا يكونُ إلَّا بإذنِ اللّهِ؛ لِيدفعَ أيَّ توهُّمٍ بتأثيرِ السِّحرِ بنفسِه، في أيِّ أحدٍ من النّاسِ، ومَفهومُ المُخالفةِ هنا مقصودٌ، فَمَا لم يأذَنْ بِه اللّهُ فَلا ضَرَرَ مِنه، وَلا فيهِ.

دلالة حرفِ الجرِّ ﴿مِنْ﴾:

أفادتْ: (مِن) تأكيدَ استغراقِ الجِنْسِ، في نفيِ الضُّرِّ عن النَّاسِ إفرادًا وجَمعًا[2]، والغَرَضُ من التَّوكيدِ: بيانُ أهميَّةِ مَضمونِ الخبرِ، ولِتقريرِ المعنى، وتثبيتِه عندَ المُخاطَب.

دلالة تَكرارِ الفِعلِ: ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ﴾:

التَّنبيهُ بتَكرارِ الفعلِ على اختلافِ مآلاتِهِ من التَّفريقِ والوقوعِ في الضَّررِ

أفادَ تَكرارُ فعل ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ﴾ أنَّ تعلُّمَهُمُ الأوَّلَ غيرُ تعلُّمِهم الثَّاني، فالأوَّلُ: يُبيِّنُ قُبحَ تعلُّمِ السِّحرِ؛ لِأَنَّهُ يُعلِّمُ التَّفريقَ بينَ المَرْءِ وزوجِه، وهو أَمرٌ دُنْيويٌّ؛ فيكونُ داعيًا إلى تَرْكِ تعلُّمِه، والثَّاني: يَذْكرُ عاقبةَ تعلُّمِ السِّحرِ، إذْ يتعلَّمونَ ما يَضرُّهم ولا يَنفعُهم؛ فيكونُ داعيًا كذلك إلى اجتنابِه، فافترقَ مآلُ التَّعلُّمِ؛ ففي الأوَّلِ التَّفريقُ بينَ الأزواجِ، وفي الثَّاني الوقوعُ في الضَّرر وعدمِ النَّفعِ، فلمَّا اختلفت مآلاتُ الأفعال كان لكلِّ تعلُّمٍ غرضٌ خاصٌّ، فنبَّه على ذلك بتَكرارِ الفعلِ ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ﴾، فالتَّكرارُ له غرضٌ محمودٌ، إذ لا تَكرارَ في القرآنِ مِنْ غيرِ مَعنىً جديدٍ، أو مَقصدٍ طَريفٍ.

دلالة عطفِ جملةِ: ﴿وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾:

السِّحرُ شرٌّ بَحتٌ، وضررٌ مَحْضٌ

وردَتْ جملةُ: ﴿وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾ معطوفةً على ﴿يَضُرُّهُمْ﴾، معَ أنّه قد يُتَوهَّمُ: أنَّ ما يَضُرُّ يُعلَمُ منه أنَّه لا يَنفعُ، فيُقالُ: لِمَ جاءَ بجملةِ ﴿وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾؟ والجوابُ: أنّه لَمَّا كَانَ إِثْبَاتُ الضَّرَرِ بِشَيْءٍ لَا يَنْفِي النَّفْعَ منه؛ لِأَنَّهُ قَدْ يُوجَدُ الشَّيْءُ، فَيَحْصُلُ بِهِ الضَّرَرُ، وَيَحْصُلُ بِهِ النَّفْعُ،

(1) الطِّيبيّ، فتوح الغيب: 3/19.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 1/529.

أتى بجملةِ: ﴿وَلَا يَنفَعُهُمۡۚ﴾؛ لإفادةِ التَّغايرِ بينَ المعطوفِ والمعطوفِ عليه، فيفيدُ معنىً مؤسِّسًا، لا مُؤكِّدًا، فأفادت الجملةُ نَفْيَ النَّفْعِ عَنْهُ بِالْكُلِّيَّةِ، إيذاناً بأنَّه ليسَ من الأمورِ المَشُوبةِ بالنَّفعِ والضَّرَرِ، بل هو شرٌّ بَحْتٌ، وضَررٌ مَحْضٌ لهم في الدُّنيا[1]، وأمّا حَالُهُمْ فِي الْآخِرَةِ: فَيُفِيدُهُ قَوْلُهُ: ﴿وَلَقَدۡ عَلِمُواْ لَمَنِ ٱشۡتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنۡ خَلَٰقٖۚ﴾[2].

سببُ العُدولِ عن صيغةِ القَصْرِ إلى الجَمعِ، بينَ إثباتِ الضُّرِّ، ونَفيِ النَّفعِ:

لَمّا أَثبتَ تَعلُّمَهم ما يَضرُّهم بِالسِّحرِ، ونَسَقَ عليه نفيَ النَّفعِ، دلّ على أنَّهُ في معنى الحَصْرِ بالقَصرِ، بتقديرِ: وَيَتَعَلَّمُونَ مَا لَيْسَ إِلَّا ضُرًّا لهم[3]، وعَدَلَ عَنْ صِيغَةِ الْقَصْرِ؛ ليَدُلَّ: ﴿وَلَا يَنفَعُهُمۡۚ﴾ على نَفيِ النَّفعِ مُطابقةً، بعدَ أنْ دلَّ عليهِ لزومًا، من إثباتِ الضّرِّ في قولِه: ﴿يَضُرُّهُمۡ﴾، كما تُفيدُ (لا) الدّاخلةُ على الفعلِ المُضارعِ: نَفيَ النَّفعِ حالًا وَمآلًا، وَلو جاءَ بأُسلوبِ القَصْرِ: لَفاتَتْ هاتانِ المُناسَبتانِ.

إيثارُ إطلاقِ الإسنادِ عنِ القيدِ الزَّمانيِّ وَالمكانيّ:

الضَّرَرُ وعدمُ الانتفاعِ من السِّحرِ مُتَجَدِّدٌ في كلِّ زمانٍ ومكانٍ

لمْ يُقيِّدِ الفعلانِ بالظَّرفِ، فلمْ يَقلْ: (ما يضُرُّهم في الآخرةِ، ولا ينفعُهم في الدُّنيا) مثلًا، بل أطلقَ الفعلَ عن التَّقييدِ؛ للدّلالة على عمومِ الضَّررِ منَ السِّحرِ، وتجدُّدِ هذا الضَّررِ، ونفيِ النَّفعِ منه، وتجدُّدِ نفيِ النَّفعِ في الدُّنيا والآخرةِ، فلا يَقتَصِرُ ضررُهم به، ونفيُ النَّفعِ على وقتٍ دونَ وقتٍ، ولا مكانٍ دونَ مكانٍ.

دلالة الإضافةِ إلى الضَّميرِ: ﴿يَضُرُّهُمۡ﴾:

السِّحْرُ يَضُرُّ مَنْ يَتَعَلَّمُه أوّلًا

لَمَّا ذَكَرَ: أَنَّهُ يَحْصُلُ بِالسّحرِ الضَّرَرُ لِمَنْ يَتَعلَّمُ التَّفريقَ بَيْنَ المَرْءِ

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 1/534، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 1/139.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/645.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/645.

وزوجه، ذَكَرَ أَيْضًا: أَنَّ ضَرَرَهُ لَا يَقْتَصِرُ عَلَى مَنْ يُفْعَلُ بِهِ ذَلِكَ، بَلْ هُوَ أَيْضًا يَضُرُّ مَنْ تَعَلَّمَهُ، لِبيانِ قُبحِ السِّحْرِ، وشناعةِ تعلّمِه[1].

توالي المُؤكِّداتِ لِتقريرِ المعنى وتَثْبيتِهِ:

تتابعتْ ثلاثةُ مُؤَكِّداتٍ[2] في قولِه تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُواْ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِي ٱلْآخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ﴾، هي: لامُ جوابِ القسمِ، مقترنةً بـ(قدْ) المفيدةِ للتَّوكيدِ، الدَّاخلةِ على إثباتِ علمِهم، معَ لامِ الابتداءِ في مُتعلَّقِ علمِهم، وهو قولُه: ﴿لَمَنِ﴾؛ لِيثبتَ أنَّهم على علمٍ، بأنّهم لا نصيبَ لَهم مِنْ خَيرٍ في الآخرةِ، مع ما أثبتَه مِنْ أنّ السِّحرَ يَضُرُّهم، ولا يَنفعُهم، فجاء هذا الوعيدُ؛ لِاستبدالِهمُ السِّحرَ بالإيمانِ بكتابِ اللّهِ واتِّباعِه، فأنزلَ السِّحرَ مَنزلةَ الكُفْرِ.

بلاغةُ مجيءِ النَّفيِ على الاستغراقِ في قولِه: ﴿مَا لَهُۥ فِي ٱلْآخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍۚ﴾:

ليسَ لِمَنْ يتعلَّمُ السِّحرَ أيُّ نَصيبٍ من الخيرِ

أفادَ النَّفيُ هنا: الاستغراقَ بدخولِ حرفِ الجرّ ﴿مِنْ﴾ على الاسمِ النَّكرةِ المَنفيِّ، وأفادَ التَّنوينُ في: ﴿خَلَٰقٍ﴾ التَّقليلَ، والمعنى: ليس لِمَنِ استبدَلَ السِّحرَ بالإيمانِ بكتابِ اللّهِ واتِّباعِه، أيُّ نَصيبٍ مِن الخيرِ في الآخرةِ، ولو كان قليلًا.

بلاغةُ التَّقديمِ والتَّأخيرِ في قولِه: ﴿مَا لَهُۥ فِي ٱلْآخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍۚ﴾:

تأكيدُ علمِ مَنْ يتعلّمُ السِّحرَ بخيبتِهم في الآخرةِ

أصلُ الكلامِ: (ما مِنْ خَلاقٍ له يومَ القيامةِ)، لكن جاءتِ الآيةُ بنظمِها، بتقديمِ المُسنَدِ، وهو الجارُّ والمجرورُ: ﴿لَهُۥ﴾ على المسنَدِ إليهِ: ﴿خَلَٰقٍۚ﴾، وذلكَ للعنايةِ بتأكيدِ علمِهم، بنفيِ أيِّ نصيبٍ لِمَنِ اشترى السِّحرَ بالإيمانِ، وقدّمَ قولَه: ﴿فِي ٱلْآخِرَةِ﴾؛ لِأجلِ التَّذكيرِ بخيبتِهم فيها.

بلاغةُ استعمالِ تركيبِ ﴿بِئْسَمَا﴾:

هذا التّركيبُ لم يردْ في القرآنِ إلّا في سياقِ ذمّ بني إسرائيلَ،

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 1/534.
(2) السّمين، الدّرّ المصون: 2/45.

خُصوصيّة ذمّ بني إسرائيلَ بتركيبِ (بِئْسَمَا) إذ لم يرِد إلَّا في حقِّهم في القرآنِ الكريمِ

ووردَ هنا في سياقِ ذمِّ اليهودِ؛ لِاتِّباعِهم ما تَتلو الشَّياطينُ على مُلْكِ سليمانَ مِن السِّحر، وبيعِهم إيمانَهم الّذي هو بمثابةِ أنفسِهم، مُقابلَ اتِّباعِهم ما تَتْلو الشّياطينُ على مُلْكِ سليمانَ، أو تَعَلُّمِهمُ السِّحرَ، فوَرَدَ هذا التَّركيبُ لخُصوصيّة المُبالغة في ذمّهم غايةَ الذَّمّ، ففيه تقريرُ الذَّمِّ باقتران (بئس) بأعمِّ كلماتِ العُموم (ما)، فيَستوعِبُ العمومُ كلَّ خَصْلَةٍ من خِصال الذَّمِّ، الّتي تَدُلّ عليه (بئس)؛ فيكونُ المَذمومُ داخلًا في العُموم، ثمَّ يَذُمُّ مَرَّةً أخرى بذكر المخصوصِ بالذَّمِّ؛ فكأنَّه ذمَّهم مرّتين؛ إحداهما: بدُخولِهم في عُموم: (بِئْسَمَا)، والثّانية: بذكرِ مخصوصِ الذَّمِّ المَحذوفِ هنا والمقدَّرِ بـ(اتِّباع ما تتلو الشّياطين على مُلك سليمان)، أو(تَعلُّمِهم السّحرَ)، والمعنى واحدٌ.

بلاغةُ الاستعارةِ في قوله تعالى: ﴿وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْۚ﴾:

الإيمانُ بمنزلةِ الأَنفسِ، فعَلَيه مدارُ الأمرِ وجودًا وعدمًا

وُضِعَت الأنفسُ موضِعَ الإيمانِ بكتاب اللّه واتِّباعه؛ فالأنفسُ بمنزلةِ المُثْمَنِ و(اتِّباعُهم ما تتلو الشّياطينُ على مُلك سليمان) أو (تَعَلُّمُ السِّحر) هو الثَّمَنُ، وذلك لأنَّ ﴿شَرَوْاْ﴾ بمعنى: باعُوا[1]؛ فشَبَّه الإيمانَ بكتاب اللّه واتِّباعَهُ بالنَّفْسِ، بجامعِ وُجُوبِ الحِرْصِ عليه، ووجوبِ بَذْلِ كلِّ شيءٍ من أجلِه، كما أنَّ الإنسانَ حريصٌ على نفسِه بفِطرتِه وغريزتِه، ويَبذُلُ كلَّ شيءٍ مِنْ أجلها، ثمَّ حَذَفَ المشبَّه: (الإيمان)، وذكرَ المشبَّه به، على سبيلِ الاستعارةِ التَّصريحيَّةِ، وجَعَلَ استبدالَ الإيمانِ - باتِّباع ما تَلَتْه الشّياطينُ وبتَعلُّم السِّحرَ- بمَنزلة البيعِ والشِّراءِ، والمعنى: إنَّهم استبدلوا تعلُّمَ السِّحرِ بالإيمان؛ فبَذَلوا أَنفسَهم، وزهِدوا فيها، من أجلِ تحصيلِ ما يضرُّهم ولا يَنفعُهم، وذكرَ الفخرُ الرَّازيُّ: أنّ سببَ مجيءِ الاستعارةِ هنا، هو: أَنَّهُمْ لَمَّا نَبَذُوا كِتَابَ اللَّهِ وراء ظُهورهم، وأقبلوا على التمسُّكِ بما

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 1/188.

تتلو الشَّيَاطِينُ، واسْتَعْمَلوا السِّحْرَ، فَكَأَنَّهُمْ قَدِ اشْتَرَوْا ذَلِكَ السِّحْرَ بِكِتَابِ اللَّهِ، واشْتَرَوا بِمَنَافِعِ الْآخِرَةِ مَنَافِعَ الدُّنْيَا[1].

ويُحتمَلُ: أنّه أرادَ اللّازِمَ الثّانيَ من البيعِ، وهو: الزُّهدُ في المُباعِ، والحِرصُ على المُشترى، فكأنَّهم زَهِدُوا في الإيمانِ بكتابِ اللّهِ، الّذي ينفعُهم في الدُّنيا والآخرةِ، وحَرِصُوا على اتِّباعِ الشَّياطينِ، وتَعلُّمِ السِّحرِ، الّذي يَضُرُّهم ولا ينفعُهم، وتقدّمَ أنَّ وضْعَ الأنفسِ موضِعَ الإيمانِ، هو إيذانٌ بأنَّ الإيمانَ بِمنزلةِ الأَنفسِ، مَعَزّةً وحِرصًا عليه؛ كما تقدّم: أنّ مَنْ باعَ إيمانَه فقدْ باعَ نفسَه، ومَنْ باعَ نفسَه فَقَدَها.

بلاغةُ قولِه تعالى: ﴿لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ﴾:

إنْ قيلَ: كيفَ أَثْبَتَ لَهم العلمَ أوَّلًا في قولِه: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُواْ﴾، على سبيلِ التَّوكيدِ بالقسَمِ، ثمَّ نفاه عنهم في قولِه: ﴿لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ﴾، فإنَّ (لو) تُفيدُ امتناعَ الثّاني لامتناعِ الأوَّلِ، وكذا أفادت (لو) التَّمنّيَ؛ فإنَّ التَّمنّيَ استدعاءُ أمرٍ هو كالمُمتنِعِ؟ والجوابُ: أنّه لمَّا لمْ يَعمَلوا بِمَا عَلمُوا، ولم يَنتفِعوا بعلمِهم، جعلَهم كأَنَّهم مُنسلِخون عنه[2]، وهذا من أفانين البلاغة، بتنزيلِ العالمِ بالشَّيءِ، إذا لم ينتفعْ بعلمِه، منزلةَ الجاهلِ به، ويُنفى عنه العلمُ، كما يُنفى عن الجاهلين؛ لأنَّ الصِّناعاتِ تُطلَب لِتحصيلِ مقاصدِها، وكما جاءَ في وصفِ المنافقين في قولِه تعالى: ﴿صُمٌّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ﴾ [البقرة: 18] لمّا لم يَنتفِعوا بحواسِّهم؛ فجَاءَ هذا الأسلوبُ على طريقةِ المجازِ؛ لإقامةِ الدَّليلِ للمخاطَبِ، وتَنبيهًا له: على أنّ مَنْ لم ينتفِعْ بعلمِه فهوَ جاهِلٌ.

تنزيلُ العالمِ منزلةَ الجاهلِ، لمّا لمْ ينتفعْ بعلمِه

بديع الطِّباق:

في الْجَمْعِ بَيْنَ: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُواْ﴾ و﴿لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ﴾ طِبَاقٌ

الخيبةُ لِمَن أُثبِتَ له العلمُ، ثمَّ نُفي عنه

(1) الرّازيّ، التّفسير الكبير: 3/633.

(2) الزّجّاج، معاني القرآن: 1/186، والزّمخشريّ، الكشّاف: 1/173، وابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/388.

عَجِيبٌ[1]؛ لأَنَّه جمعَ بين إثبات العلم لهم مع المؤكِّدات، ثم نفاه عنهم؛ نِكايةً بهم، لمّا لم يَنتفعوا بعلمهم، ولم يعملوا به، وكأنَّه قد سُقِطَ في أيديهم، لشدّةِ نَدَمِهم وتَحَيُّرِهم وعَجزِهم، بعدما أثبتَ لهم العلمَ، الّذي هو ممدوحٌ عُمومًا، ثمَّ نَفاه عنهم مُطلقًا.

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

التِّلاوةُ والقراءةُ:

آثرَ القرآنُ الكريمُ في هذه الآية استعمالَ: ﴿تَتْلُواْ﴾، دون (تقرأُ)؛ لمناسبةِ الكلمةِ لِنَظْمِ الآيةِ، فالقراءةُ تكونُ بصوتٍ وبغيرِ صوتٍ، ولِكتابِ اللّهِ أو لِغيره، وإذا عُدّيَ الفعلُ: (قرأَ) بـ (على) فإنَّها تكونُ بصوتٍ، يقال: (قرأَ فلانٌ عَلَيْنَا آياتٍ عَطِرةً).

وأمَّا التِّلاوةُ ففيها معانٍ تختَصُّ بها، هي:

أنْ تكونَ بقراءةِ كُتُبِ اللّهِ، المنزَّلةِ تارةً بالقراءةِ، وتارةً بالارتسام، لِمَا فيها من أمرٍ ونهيٍ وترغيبٍ وترهيبٍ، أو ما يُتَوهَّم فيه أنّه من كُتُبِ اللّه، والقراءةُ تكونُ لكُتُبِ اللّهِ وغيرِها.

وأنْ تكونَ مِنْ وحيٍ مكتوبٍ، أو مِنْ وحيٍ غيرِ مكتوبٍ.

وأنْ تكونَ بإقامةِ ألفاظِهِ مِنْ غيرِ تحريفٍ، ولا لَحْنٍ.

وأنْ تكونَ بتنغيمِ الصَّوتِ وتحسينِهِ.

ولا تُسمّى التِّلاوةُ تلاوةً إلّا بإتّباعِ الكلمةِ أختَها في القراءةِ، فالتِّلاوةُ تكونُ في ما يطولُ مِنَ الكلامِ ويكثُرُ.

فالتِّلاوةُ أخصُّ من القراءةِ، فكلُّ تلاوةٍ قراءةٌ، وليسَ كلُّ قراءةٍ تلاوةً، ولو نطقَ بكلمةٍ واحدةٍ من القرآن، فهذهِ قراءةٌ وليست تلاوةً، لِما في التِّلاوةِ من معنى الاتِّباعِ والتَّوالي، وَغلبتِ التِّلاوةُ في العُرفِ على قراءةِ القرآنِ؛ لأنَّ القارئَ يُتبِعُ كلَّ كلمةٍ أختَها، وحَقُّ التِّلاوةِ: فيه دلالة أعلى من التِّلاوةِ؛ لأنّها بمعنى القراءة، والاتِّباعِ له بالعلم والعمل، كما في قوله تعالى: ﴿يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾ [البقرة: 121]، وذهبَ السَّمينُ الحَلَبيُّ إلى أنَّه إنْ قَوَّمَ ألفاظَ القرآنِ ولم يَتَّبِعْهُ في العلمِ والعملِ فليسَ بتالٍ، وإنْ قرعَ دماغَه، ومَنْ تَبِعَه في العلمِ والعملِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/384.

فهو تالٍ، وإنْ لم يتلفَّظْ به[1] ، وإنَّما اسْتُعمِلَ التِّلاوةُ في قولِه تعالى: ﴿وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَۖ﴾ لـمّا كان يزعمُ الشّياطينُ أنَّ ما يَتلونَه هو مِنْ كُتُبِ اللّهِ[2].

الفتنة والابتلاء:

الابْتِلَاء: هُوَ اسْتِخْرَاج مَا عِنْد الْمُبْتَلى، لتُعرفَ حَالُه في الطَّاعَة وَالْمَعْصِيَة، ولَا يكون إلَّا بتَحميل المكاره والمشاقِّ، وأمّا الْفِتْنَةُ: فأُخِذَتْ من عَرْضِ الشّيءِ على النّار، لتَظهَرَ جُودتُه مِن رَداءته، كإذابةِ الذَّهبِ والفِضَّةِ، وَمِنْه قَوْله تَعَالَى: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ﴾ [الذّاريات: 13]، واسْتُعملَت لتَمحيص حقيقةِ ما في القلوب، وَتكونُ في الْخَيْر والشَّرّ، قال تَعَالَى: ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌۚ﴾ [التّغابن: 15]، فَجَعَلَ المَحبوبَ فتنةً، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ۝١٦ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِۚ﴾ [الجنّ: 16-17]، فَجَعَلَ النِّعْمَةَ فتْنَةً؛ لأَنَّهُ قَصَدَ بهَا الْمُبَالغَةَ في اختبار الْمُنعَم عَلَيْه بهَا، كالذّهب إذا أُرِيدَ الْمُبَالغَةُ في تَعَرُّف حَاله أُدخِلَ النَّارَ، وَاللّه تَعَالَى لَا يَختبرُ العَبْدَ لتَغيير حَاله في الْخَيْر وَالشَّرِّ، وَإِنَّمَا المُرَادُ بذلك شدَّةُ التَّكْليف، وقد يكونُ أمرُ الفتنة ظاهرًا مكشوفًا، وتتيسَّرُ معرفتُه بسُهولة، كما في أمر المَلَكَين، اللّذَين قالا: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ﴾؛ لِظهورِ وضوحِ كونِهما فتنةً، وقد لا يكونُ أمرُها ظاهرًا[3]، فكلُّ ابتلاءٍ فتنةٌ، وليس كلُّ فتنةٍ ابتلاءً، فبينَهما عمومٌ وخصوصٌ مُطلَقٌ.

فَرَقَ وَفَرَّقَ:

الفَرْقُ في الأصلِ: يَدُلُّ على تَمْييزٍ و تزييلٍ، أي: فَصْلُ بعضِ شيءٍ، أو أشياءَ مِنْ بعضِها الآخَرِ فَصْلًا تامًّا[4]، وفرَقَ: -بتخفيفِ الرَّاءِ- يَدُلُّ على مُطلَقِ الفَصلِ، وفرَّقَ - بالتّشديد - يَدُلُّ على تكثير فعل الفَصلِ؛ لمناسبة مَجيء ﴿يُفَرِّقُونَ﴾ على صيغة (فعّل)؛ فآذَنَ مَجيءُ الفعلِ: ﴿يُفَرِّقُونَ﴾ بكَثرةِ الفعلِ؛ لإفادةِ: أنَّ تَعلُّمَ السِّحرِ يُؤذنُ بكَثرةِ التَّفريقِ بين المرءِ وزوجِه، لِلتَّحذيرِ منه اجتماعيًّا، بعدَ وَصفِه بالكُفْرِ.

الاشْتراءُ والشِّراءُ:

يأتي الشِّراءُ والاشتراءُ بمعنى: البيعِ والشِّراءِ، و يُستعمَلُ كلُّ واحدٍ منهما في موضعِ

(1) السّمين، عمدة الحفّاظ: 1/268.
(2) الرّاغب، المفردات، والسّمين، عمدة الحفّاظ، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (تلو).
(3) العسكري، الفروق اللّغويّة، ص: 217-216.
(4) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (فرق).

الآخَرِ، ولكنْ يُطلقُ الشِّراءُ بمعنى أَخذِ السِّلعةِ، ودفعِ الثَّمنِ أَكثرَ، ويُطلَقُ الاشْتراءُ بمعنى: دفعِ الثَّمنِ وأَخذِ السِّلعةِ أكثرَ، وأمّا في الاستعمالِ القرآنيِّ، فكلُّ ما جاءَ من الفعلِ (شَرى يَشْري) فالمرادُ به: البيعُ، وكلُّ ما جاءَ من الفعل: (اشْتَرى - يَشْتَري) يُرادُ به: الاشْتراءُ بالمعنى المَشهورِ، أي: أَخذُ السِّلعةِ، ودَفعِ الثَّمنِ[1].

(1) الرّاغب، المفردات، والسّمين، وعمدة الحفّاظ، وجبل: (شرى).

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ خَيْرٌۚ لَّوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ١٠٣﴾ [البقرة: 103]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا بَيَّنَ اللّٰهُ تعالى فيهِمُ الْوَعِيدَ بِقَوْلِهِ: ﴿وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْۚ﴾، وذكرَ ما ارْتكبوه من المضارِّ، أَتْبَعَهُ بالوعدِ، بِما في الإعراضِ عنه من المنافع؛ لِيكونَ الكلامُ جَامِعًا بَيْنَ التَّرْهِيبِ وَالتَّرْغِيبِ؛ لِأَنَّ الْجَمْعَ بَيْنَهُمَا أَدْعَى إِلَى الطَّاعَةِ، وَالْعُدُولِ عَنِ الْمَعْصِيَةِ[1].

شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

1) ﴿لَمَثُوبَةٌ﴾: أصلُ الكلمةِ: ثَوَبَ، وتَدورُ على معنى العَوْدِ والرُّجوعِ، ومنه: ثَابَ فلانٌ إلى دارِه؛ لِرجوعِه إلى حالتِه الأولى الّتي كانَ عليها، وَالْمَثَابَةُ: الْمَكَانُ يَثُوبُ إِلَيْهِ النَّاسُ، والثَّوَاب: ما يَرْجِعُ إلى الإنسانِ من جزاءِ أعمالِه، والثَّوابُ: يُقالُ في الخيرِ والشَّرِّ، لكنَّ الأكثرَ المُتعارفَ هو ما كان في الخيرِ، فإذا استُعمِلَ الثّوابُ أَو المثوبةُ في الشَّرِّ: كانَ استعارةً تَهكُّمِيَّةً، والمَثوبةُ في الآيةِ بمعنى: الجزاءِ والأجرِ على الإيمانِ والتَّقوى، بأَنواعِ الإحسانِ[2].

2) ﴿خَيْرٌۚ﴾: يدورُ معنى الكلمةِ على الْعَطْفِ وَالْمَيْلِ، ثُمَّ يُحْمَلُ كلُّ ما يُتَصرَّفُ منه على هذا المعنى، وذهبَ بعضُ اللُّغويِّين إلى أنَّ الخيرَ: كلمةٌ جامعةٌ لِلمَرغوبِ فيه، كالعقلِ والعَدل والفَضل والشَّيءِ النَّافعِ، وضِدُّه: الشَّرُّ، والخيرُ والشَّرُّ يأتيانِ باعتبارِ كونِهما اسمين، مثلَ قولِه تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ﴾ [آل عمران: 104]، وباعتبارِ كونِهما اسمَي تَفْضيلٍ على الوصْفيَّةِ؛ لِيدلَّ على التَّفاوتِ في الخيريَّة، وإنْ كان كلاهما خيرًا، يُقال: هذا خيرٌ من ذاك، وأفضلُ[3].

(1) الرازيّ، التّفسير الكبير: 3/633، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 2/82.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرّاغب، المفردات: (ثوب)، وينظر: أبو حيّان، البحر المحيط: 1/537.
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرّاغب، المفردات: (خير).

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

لَو أنَّ هؤلاءِ -اليهودَ- الّذين يتعلَّمون السِّحْرَ، ويُؤثرونَه على ما أنزلَ اللّهُ، آمنوا باللّهِ وبالنَّبيِّ محمّدٍ ﷺ، وبالقرآنِ الّذي أُنزلَ عليه، واتَّقوا اللّه؛ بامتثالِ أوامرِه، واجتنابِ نواهيه، لَكان جزاءُ اللّه إيّاهم، وثوابُه لهم، على إيمانِهم به، وتقواهم إيَّاه، خيرًا لَهم مِنَ السِّحرِ، وما اكتَسبوا به، ولو كانوا يَعلمون ما يَحصُل بالإيمان والتّقوى من الثّواب والجزاء عِلْمًا حقيقيًّا لآمنوا، لكنّهم لم يَنتفعوا بعلمِهم[1].

الإِيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

بلاغةُ أسلوبِ الشَّرطِ بـ (لو) الدَّاخلةِ عليها ﴿أَنَّ﴾:

أفادَ أسلوبُ الشَّرطِ بـ (لو) في قولِه: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ خَيْرٌ﴾: امْتناعَ حُصولِ المَشروط[2]، أي: امْتناعَ حُصولِ المَثوبةِ المَذكورةِ لهم؛ لأنّهم لم يُؤمنوا ولم يَتَّقُوا، فأفادَ الشَّرطُ حِرمانَهم مِن أيِّ خيرٍ مِن عندِ اللّهِ، ولو كان مَثوبةً قليلةً.

وأفادت ﴿أَنَّ﴾: التّوكيدَ[3]، فجاءت لإفادةِ تأكيدِ الشَّرطِ وتَقريرِه، ولمّا كانَ الشَّرطُ مُمْتَنعًا عليهم؛ لأنَّهم لم يَعملوا به، فدَلَّ على تأكيدِ أنّهم لم يُؤمنوا، ولم يَتَّقُوا، كما دَلَّ على تأكيد حُصولِ المَثوبة من عندِ اللّهِ، للّذين آمنوا باللّهِ واتَّقَوه.

نُكْتةُ الجمعِ بينَ: ﴿ءَامَنُواْ﴾ و﴿ٱتَّقَوْاْ﴾:

استُعمِلَ الإيمانُ لِفعلِ المأموراتِ، والتَّقوى لِتركِ المَنْهيّاتِ

لمّا كانَ اليهودُ قد تَركوا المأموراتِ، وفَعلوا المَنهيّاتِ، ناسبَ أنْ يَذكُرَ: ﴿ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ﴾؛ ليَدُلَّ الإيمانُ على طلبِ فعلِ المأموراتِ، وهو الإيمانُ برسولِ اللّهِ، وما أُنزلَ عليه، واتِّصافُهم بالتَّقوى يَقتضي تَركَ المَنْهيَّاتِ، ومنها: نَبْذُهم كتابَ اللّهِ، واتِّباعُ ما تتلو الشَّياطينُ، وتعلّمُ السّحرِ.

بلاغةُ مَجيءِ الكلامِ على خلافِ مُقتضى الظّاهرِ:

الإيماءُ إلى مثوبةِ المؤمنين، بالتَّصريحِ بذمِّ الكافرين

الأصلُ في جوابِ (لو) أنْ يكونَ بالفِعلِ، فغَيّر سَبْكَ الكلامِ؛ لِتكونَ

(1) ابن جرير، جامع البيان: 2/458، وأبو حيّان، البحر المحيط: 1/538.
(2) البهاء السّبكّي، عروس الأفراح: 1/353.
(3) المراديّ، الجنى الدّاني، ص: 402.

الجملةُ الاسميَّةُ: ﴿لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ خَيْرٌ﴾ المفيدةُ للثُّبوتِ جوابًا للشَّرطِ؛ لِتَدُلَّ على ثباتِ المَثوبةِ للَّذينَ آمنوا واتَّقَوا، واسْتقرارِها واسْتمرارِها، معَ الجزمِ بخَيْريَّتِها، فخَيريَّةُ المَثوبةِ لا تعلّقَ لها بإيمانِ اليهودِ وعدمِه، فدلَّ على ثباتِ المَثوبةِ، وثباتِ نسبةِ الخَيريَّةِ إليها، معَ الجزمِ بخيريَّتِها، كأنّه قيلَ: لَمَثُوبَةٌ دائمةٌ خَيْرٌ لثباتها واسْتمرارِها[1]، فجاءَ الكلامُ على خلافِ مُقتضَى الظَّاهرِ؛ لئلّا يَشُكَّ أحدٌ أنَّ أيَّ مَثوبةٍ من عندِ اللّهِ هي خيرٌ.

سببُ تنكيرِ ﴿لَمَثُوبَةٌ﴾:

أفادَ التَّنْكيرُ التَّقليلَ، والمعنى: قليلٌ مِن المَثوبةِ، أو شَيءٌ مِن الثَّوابِ خيرٌ لَهم[2]، فكيفَ وثوابُ اللّهِ كثيرٌ مُسْتَمِرٌّ؟ والقَصْدُ من التَّنْكيرِ: بيانُ أنَّ الثَّوابَ مِن عندِ اللّهِ، وإنْ قلَّ في ذاتِه، فهو خيرٌ لَهم.

التَّنبيهُ على الكثيرِ بذكرِ القليلِ

بلاغةُ التَّعبيرِ في قولِه ﴿لَمَثُوبَةٌ﴾:

اقْترانُ (مثوبة) بلامِ الابتداءِ[3]، فيه إشْعارٌ بعُلُوِّ المَثوبةِ، وثباتِها مع قلّتِها، بسببِ التَّنكيرِ[4]، وعَدَلَ النَّظمُ الكريمُ عن الإضافةِ؛ فلمْ يَقُلْ: (مثوبةُ اللّهِ خيرٌ)، وقالَ: ﴿لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ خَيْرٌ﴾، فلو جاءَ بصيغةِ الإضافةِ: لَفاتَ المَقصودُ مِن تَنْكيرِ: (مثوبة)، وتعظيمِ وصفِها بأنّها من عندِ اللّهِ، مع الإشعارِ بأنَّها قليلةٌ، ومِنْ مُناسباتِ إيرادِ هذا الوصفِ: أنّه "سَوّى بينَ هذهِ المَثوبةِ ومَضمونِ الرِّسالةِ، في كونِهما من عندِ اللّهِ؛ تَشريفًا لهذهِ المَثوبةِ، وإلحاقًا لها بالنَّمَطِ العَلِيِّ، مِنْ علمِه وحكمتِه، ومَضَاءِ كلمتِه"[5].

تعظيمُ المَثُوبَةِ القَلِيلَةِ وتَفْخيمُها لِأنَّها مِن عِندِ الله تَعالَى

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/174، والآلوسّي، روح المعاني: 1/347.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/174، والرّازيّ، التّفسير الكبير: 3/634.
(3) السّمين، البحر المحيط: 2/50.
(4) الحرالّيّ، تراث أبي الحسن الحرالّيّ: 1/244.
(5) الحرالّيّ، تراث أبي الحسن الحرالّيّ: 1/244.

نُكتةُ مجيءِ الصِّفةِ ﴿مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾:

تعظيمُ ما كان من عندِ اللهِ وتفخيمُ شأنِه واجبٌ إيمانيٌّ

لمّا كانَتْ: ﴿لَمَثُوبَةٌ﴾ نَكرةً، مُفيدَةً التَّقليلَ، فقد يُزهَدُ فيها، ويُستَقَلُّ من شأنِها؛ فلذلك وَصَفَها بأنَّها مِن عندِ اللّهِ؛ لإجْلالِها وَتَفْخِيمِها وَتَعظِيمِهَا، وَلِمُنَاسَبَةِ الْإِيمَانِ وَالتَّقْوَى لذَلِكَ[1]، ولاسيّما معَ اقترانِها بـ ﴿مِّنْ﴾ المُفيدةِ لابتداءِ مكانةِ المَثوبةِ، كما أنَّ الحُكمَ على المَثوبةِ بالخيريَّةِ راجِعٌ إلى وصفِها بأنَّها مِنْ عندِ اللّهِ، فَحُكمُ المُسنَدِ راجعٌ إلى المُسنَدِ إليه، بقَيدِ صِفتِه، فالقليلُ من عندِ اللّهِ عظيمٌ وجليلٌ، ففي الآيةِ: حَثٌّ على أنْ لا نَستَقِلَّ ما كانَ خيرًا، ما دامَ من عندِ اللّهِ تعالى.

نكتةُ التَّعبيرِ باسمِ التَّفضيلِ على معنى الصِّفةِ:

رُسُوخُ صِفَةِ الخَيْرِ وبيانُ استحقاقِه العملَ

لمّا كانَ ظاهرُ الكلامِ أنّ كلمةَ: ﴿خَيْرٌ﴾ جاءتْ في سِياقِ المُفاضلةِ؛ لِبيانِ أنّ المَثوبةَ مِنْ عندِ اللّهِ أفضلُ مِنْ نبذِهم كتابَ اللّهِ، وتعلّمِهم السّحرَ، دلّ على أنَّها اسمُ تَفْضيلٍ، وحَذَفَ المُفضَّلَ عليه، إجلالًا للمُفَضَّلِ مِنْ أنْ يُنسَبَ إليه[2]، وهذا يَقتضي إثباتَ الخَيريَّةِ للأفضلِ، وللمفضَّلِ عليه، وهذا الظَّاهر ليس مرادًا؛ فلا خيرَ في نَبْذِ كتابِ اللّهِ، ولا في تَعلُّمِ السِّحرِ، فَدَلَّ على أنّ كلمةَ: ﴿خَيْرٌ﴾ استُعملَتْ لا بمعنى المُفاضلةِ، بل بمعنى: إثباتِ الخيرِ لِلمَثوبةِ المذكورةِ، ونفيها عن المقابلِ، ونُكتةُ مَجيءِ اسمِ التَّفضيلِ في غيرِ معنى المُفاضلةِ؛ الدّلالة على أنَّ اختيارَ الإيمانِ والتَّقوى هو خيرٌ بمعنى الصِّفةِ الرَّاسخةِ، التي تُقابِلُ الشَّرَّ، وللتَّنبيه على أنَّ هذا الخيرَ هو المستحقُّ للعملِ، وللمبالغةِ في بيانِ شأنِه وحالِه.

نُكتةُ تكريرِ الْجُمْلَةِ فِي الآيتَين:

تكرَّرَ نفيُ العلمِ في الآيةِ السَّابقةِ وفي هذه الآيةِ بقولِه: ﴿لَّوْ كَانُواْ

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 1/537.

(2) الآلوسّي، روح المعاني: 1/347.

يَعْلَمُونَ﴾، والفرقُ في دلالة: ﴿لَّوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ﴾ في الآيتَين: أنَّهم لـمّا باعوا إيمانَهم بالسِّحرِ، الّذي يَضرُّهُم ولا يَنفعُهُم، اسْتَحقُّوا أنْ يَنفيَ عنهم العلمَ؛ تَوبيخًا لهم، وتَقبيحًا لأمرِ السِّحرِ، وتَنْفيرًا منه، ولِئَلّا يَتوهّموا أنَّ السِّحرَ عِلْمٌ، فقد نفى عنهم العلمَ بتَعلّمِهمُ السِّحرَ، وأمّا هذهِ الآيةُ: فهي كالخاتِمةِ لِمَا تقدّمَها من الآياتِ، إذْ تضَمّنَتْ خُلاصةَ جميعِ ما تقدَّمَ، مِن طَلبِ الإيمانِ بالرَّسولِ محمّدٍ ﷺ، وبالقرآنِ الّذي أُنزِل عليه، وفِعلِ المأموراتِ، وتَركِ المنهيّاتِ، فلمّا لـمْ يَقوموا بها، وزَهِدوا فيما عندَ اللّهِ، استَحقُّوا أنْ يَنفيَ عنهم العلمَ، تَحقيقًا وتَقريرًا.

لَمَّا انْتَفَتْ ثَمَرَةُ الْعِلْمِ الَّذِي هُوَ الْعَمَلُ المقبولُ، نُفِيَ الْعِلْمُ عن صاحِبِه

وفي هذا إشعارٌ برُتبةِ العلمِ، الّذي يَتضَمّنُه القرآنُ الكريمُ، إذْ أَمَرَهُم بالإيمانِ بِهِ، وتَنبيهٌ إلى أنَّ القرآنَ هو العلمُ الّذي يَنبغي صَرفُ النَّظَرِ إليه.

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

المَثوبة والجزاء:

الغالبُ اسْتعمالُ المثوبةِ في الخيرِ، فإذا استُعمِلَت في الشَّرِّ كانَ استعارةً تَهَكميَّةً، فتكونُ المَثوبةُ في مُقابلة أمرٍ، بالجزاءِ عليه بأنواعِ الإحسانِ، وأمّا الجزاءُ: فهو المُكافأةُ على الشَّيءِ في الخيرِ والشَّرِّ، فيَصدُقُ في الثّوابِ والعقابِ[1]، فَمن اسْتعمالِ الجزاءِ في الخيرِ قولُه تعالى: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾ [الرحمن: 60]، ومِن اسْتعمالِ الجزاءِ في الشَّرِّ، قولُه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَسَبُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا﴾ [يونس: 27]؛ فكلُّ مَثوبةٍ جزاءٌ، وليسَ كلُّ جزاءٍ مَثوبةً، فبينَهُما عمومٌ وخُصوصٌ مُطلَقٌ.

(1) الرّاغب، المفردات، والسّمين، عمدة الحفّاظ: (ثوب).

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرۡنَا وَٱسۡمَعُواْۗ وَلِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٞ ١٠٤﴾ [البقرة: 104]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لـمَّا كانَ مِنْ ضُرُوبِ السِّحْرِ: مَا هُوَ تَمْوِيهُ أَلْفَاظٍ، وَقَدْ تَأَصَّلَ هَذَا عِنْدَ الْيَهُودِ، وَاقْتَنَعُوا بِهِ فِي مُقَاوَمَةِ أَعْدَائِهِمْ، وفي تَحصيلِ الأذى لهم، ناسبَ أنْ يَلْتَفِتَ إلى خِطابِ المؤمنينَ، ويُنبِّهَهم على ما كان يتأذّى بِه رسولُ اللّهِ محمّدٌ، ﷺ، مِنْ ألفاظٍ، كان اليهودُ يَقولونَها بنيّةِ إيذائه ﷺ؛ لِيكونَ النَّهيُ عن هذهِ الألفاظِ نَهيًا عن السِّحرِ بطريقِ الأَولى؛ لأَنَّه يقومُ على التَّمويه كذلكَ[1].

شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

1) ﴿رَٰعِنَا﴾: يَدُلُّ أصلُ كلمة: (رَعَى) على الـمُراقبة والحِفظ، ومنه: رَعَيتُ الشّيءَ: رَقَبْتُه، ورَعَيتُه: إذا لاحَظْتَه، والرّاعي: الوالي، والرّاعي: حافِظُ الماشيةِ، يُتيحُ لها الـمَرْعى، ويُمَكِّنُها ويُراقبُها، ويَحفظُها من الضِّبَاع والسِّبَاع، ومنه: أَرْعَيتُه سَمْعي: أَصْغيتُ إليه، وأَرْعِني سَمْعَك، أي: لِيَرْقُبْ سَمعُك ما أقولُه، و(راعِنا) في الآية: إمّا بمعنى الـمُفاعلةِ، أي: احْفَظْنا ولْنَحْفَظْكَ، أو: راعِنَا سَمْعَك، أي: اسْمَعْ منَّا ما نُريدُ أنْ نَسألَك عنه، وفي الـمُخاطبة بهذا: جَفاءٌ؛ لِتَضمُّنه معنى النِّدِّيَّةِ، وأسلوبِ الاشتراطِ والتَّعليقِ، وهذا لا يَليق بمَقامه ﷺ[2].

2) ﴿ٱنظُرۡنَا﴾: نَظَرَ: يَدورُ على مَعنى تَأَمُّلِ الشَّيْءِ، وَمُعَايَنَتِهِ بالبَصَرِ أو البَصيرة، ثُمَّ يُسْتَعَارُ وَيُتَّسَعُ فِيهِ، فيأتي بمعنى: الإمْهال والانْتظار؛ لأَنَّ التأمُّل يَستغرقُ زَمَنًا، يُقالُ: نَظَرْتُه، أَي: انْتَظَرْتُه، ومنه قَولُه: ﴿ٱنظُرۡنَا﴾ أَي: ارْقُبْنا، وتَأَنَّ علينا، وانتَظِرْ مَا يكونُ منّا[3].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 2/85، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/651.
(2) ابن قتيبة، غريب القرآن: 1/60، والأزهريّ، تهذيب اللُّغة، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (رعى).
(3) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة، والسّمين، عمدة الحفّاظ: (نظر).

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

نهى اللّهُ المؤمنينَ في هذا الخطابِ: أنْ يقولوا للرَّسولِ محمَّدٍ، ﷺ، مِنَ القولِ ما فيهِ جَفاءٌ، وأَمرَهم أنْ يتَخَيَّروا لِخطابِه مِنَ الألفاظِ أحسنَها، ومِن المعاني أَرقَّها، فلا تَقولوا لِنَبيِّكُم: راعِنَا سَمْعَكَ، وَفرِّغْهُ لَنَا نَفهمْكَ، وَتَفْهمْ عنَّا ما نقولُ؛ لِأنَّ اليهودَ كانوا يقولونَها للنَّبيِّ، ﷺ، يَلوُونَ ألسنتَهُم بِها، يَقصِدونَ سَبَّهُ، ولكنْ قولُوا بدلًا مِنها: انْظُرْنا، أي: انْظُرْ إلينَا، وَتعهَّدْنا، أو: انتَظِرْنَا وتَرَقَّبْنا، حتَّى نَفْهَمَ عنكَ ما تُعَلِّمُنَا، وتُبَيِّنُهُ لَنا، واسْمَعوا مِنْه ما يقولُ لَكم، فَعُوهُ واحْفَظُوهُ وافْهَموهُ، وامْتَثِلوا لَه، ومَنْ خالفَ أمرَ اللّه ونهيَهُ، وكَذَّبَ رسولَهُ ﷺ، أو آذاهُ، فَلَهُ العذابُ المُوجِعُ في الآخرةِ.

الإِيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

سِرُّ ابتداءِ الآيةِ بالنِّداءِ بالاسم الموصولِ ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾:

إقبالٌ، وتحبّبٌ للمؤمنين، بقصْدِ التَّوطئةِ للتَّكاليفِ

ابْتُدِئَ الكلامُ بنداءِ الّذين آمنوا، الدّالِّ على الإقبالِ عليهم؛ تلطُّفًا بالمُؤمنين؛ للإشعارِ بأَنَّ النَّهيَ والأمرَ اللَّذَينِ في الآيةِ، ليسا على التَّوبيخِ والتَّقريعِ، كما كانَ في الأمرِ والنَّهي الّذي وُجِّهَ لبني إسرائيلَ، ففي هذا النِّداءِ: تَحْبيبٌ وتَلطيفٌ للمؤمنين، بقصدِ التَّوطئة للنَّهي والأمرِ المذكُورَيْنِ، ولذلك كانَ اختيارُ الاسمِ الموصولِ؛ لتقويةِ إقبالِهم بصلةِ الموصولِ: ﴿ءَامَنُواْ﴾، وقَصَدَ بذلِكَ: توجيهَ المؤمنينَ إلى ما سَيخبرُهُم اللّهُ عنهُ، مِن الأوامرِ والنَّواهي؛ لِيكونوا مُنْتَظرينَ لوُرودِها عليهم، حتَّى يُبادِروا إلى الامتثالِ إذا وَرَدَتْ[1].

سببُ تَقدّمِ النَّهي، وتأخُّرِ الأَمرِ:

التَّخليَةُ قبلَ التَّحليةِ، والعملُ بعد التَّجلية

بُدِئَ بِالنَّهْيِ في قولِه تعالى: ﴿لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا﴾؛ لِأَنَّ اللَّفظَ شائعٌ موجودٌ في الاستعمالِ، فأمرَهم بتركِه ابتداءً، ثم أمرهم بما يقولون:

(1) السّكّاكي، مفتاح العلوم: 182.

﴿وَقُولُواْ ٱنظُرۡنَا﴾، فالأمرُ كان بمثابةِ إقامةِ البديل عن المنهيِّ عنه، فَحَسُنَ بذلك أن يكون من باب التَّخليةِ قبل التَّحلية، وقبل العملِ يحسنُ الفهمُ، وبعد التَّركِ يحسُن إيجادُ البديلِ، وَلـمّا كانَ الأمرُ أَشَقَّ من النَّهيِ؛ لأَنَّهُ إنْجازٌ وإيقاعٌ، حَصَلَ الاسْتِئْنَاسُ بالأمرِ، لورودِ النَّهيِ قبلَه[1].

بلاغةُ حذفِ المفعولِ:

تنوُّعُ المعاني بحذف المفعول

لتوجيه حذفِ مفعولِ: ﴿وَٱسۡمَعُواْۗ﴾ ثلاثةُ مسالك[2]:

الأوّل: إقامةُ الفعلِ المتعدّي مَقامَ اللَّازم، أي: وَلْيكنْ منكمْ سَماعٌ وإصغاءٌ، والمعنى: فَرِّغُوا أَسْمَاعَكُمْ لِمَا يَأْمُرُكُم به النَّبِيُّ ﷺ، حَتَّى لَا تَحْتَاجُوا إِلَى اسْتعادَةِ الكلامِ.

الثّاني: أنْ يُقَدَّرَ المفعولُ من السِّياقِ، فإنّه لـمّا كانَ اليهودُ يَسمعونَ ويَعصونَ أمرَ اللّهِ، فقالَ للمؤمنين: ﴿وَٱسۡمَعُواْۗ﴾، والتَّقديرُ: اسْمَعُوا سَمَاعَ قَبُولٍ وَطَاعَةٍ، وَلَا يَكُنْ سَمَاعُكُمْ سَمَاعَ الْيَهُودِ، حَيْثُ قَالُوا: سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا، فيكونُ قدْ قَصَدَ بالسَّماعِ لازمَهُ، وَهوَ: الطّاعةُ[3].

الثّالثُ: أنْ يُقَدَّرَ المفعولُ عامًّا، والتَّقديرُ: اسْمَعُوا مَا أُمِرْتُمْ بِهِ، حَتَّى لَا تَرْجِعُوا إِلَى مَا نُهِيتُمْ عَنْهُ، تَأْكِيدًا عَلَيْهِمْ، وهذا الوجْهُ قريبٌ مِنَ الثَّاني.

بلاغةُ وضعِ الظَّاهرِ مَوضعَ المُضمَرِ:

الاستهزاءُ بنبيّ الله مُغالاةٌ في الكُفر

كان مقتضى الظَّاهرِ في قولِه تعالى: ﴿وَلِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ أنْ يُوضَعَ الضَّميرُ موضعَ (الكافرين)؛ ليعودَ على اليهودِ؛ لأنَّ سياقَ الكلامِ فيهم، ولكنّهُ جاءَ على خِلافِ مُقتضى الظَّاهرِ؛ للإشعارِ بأنَّ قولَهم ذلك: كانَ تَهاوُنًا بالرَّسولِ، ومَنْ أهانَ نبيَّ اللّهِ وحبيبَه ﷺ كان

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 1/542.
(2) الرّازيّ، التّفسير الكبير: 3/635.
(3) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 2/60.

غاليًا في الكُفرِ، كاملًا فيه، مُستَحِقًّا لِأَنْ يُعذَّبَ بعذابٍ أليم، وَلِلتَّنْبِيهِ: عَلَى أَنَّ التَّقْصِيرَ فِي الْأَدَبِ مَعَهُ ﷺ ذَنْبٌ مُجَاوِرٌ لِلْكُفْرِ إِلَيْهِ[1].

دلالة (أل) في ﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ﴾:

(أَلْ): في قوله: ﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ عَهديَّةٌ، والمرادُ مِن الكافرين بالأَوْلويَّةِ اليهودُ؛ لِأَنَّ السِّياقَ واردٌ فيهم، وَنكتةُ التَّعْبِيرِ بِالْكَافِرِينَ دُونَ الْيَهُودِ زِيَادَةٌ فِي ذَمِّهِمْ[2]، وفيه إشارةٌ إلى اسْتحقاقِهِمُ الكفرَ، بأذيَّتِهم رسولَ اللهِ ﷺ.

بَلاغةُ تقديمِ المُسنَدِ على المسنَدِ إليه:

قدَّمَ ﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ﴾ على ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾؛ لإظهارِ تَخصيصِ العذابِ الأليمِ بالكافرين، تَوبيخًا لِقُبحِ فعلِهم معَ رسولِ اللهِ ﷺ، ويَقتضي هذا التَّخصيصُ أنَّ للمؤمنين النَّعيمَ الكريمَ، ففيه حَثٌّ وتَحْضيضٌ على امتثالِ قولِه للمؤمنين: ﴿وَٱسْمَعُوا۟﴾.

امتثالُ الأوامرِ مناطُ الإيمانِ

سرُّ وصفِ العذابِ بالأليمِ:

العذابُ لا يكونُ إلَّا أَليمًا، والمعنى: على المُبالغةِ في الإيلامِ، فكأَنَّ الإيلامَ تَكرَّرَ في الكلامِ، ومثلُه قولُهم في الكلامِ العربيِّ: جَدَّ جدُّهُ[3]، وهو محمولٌ على أنَّه مُؤلِم، لكن أتى بصيغة فعيل للمبالغةِ، ولبيانِ أنَّ الألم راسخٌ فيه.

رُسوخُ الألمِ في العذابِ فيه زيادةُ ترهيبٍ

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

﴿رَٰعِنَا﴾ و﴿ٱنظُرْنَا﴾:

تَحتمِلُ كلمةُ: ﴿رَٰعِنَا﴾ أنْ تكونَ بمعنى الإمهالِ والانتظارِ، أو بمعنى: (أَرْعِني سمعَك)، وكان الصَّحابةُ يقولونَها بمعنى: اسْمَعْ لَنَا مَا نُرِيدُ أَنْ نَسْأَلَ عَنْهُ، وَنُرَاجِعَكَ الْقَوْلَ فِيهِ، لِنَفْهَمَهُ عَنْكَ، وتَحتمِلُ

مناسبةُ اللَّفظِ والمعنى لِسياقِ الكلامِ

(1) الطِّيبيّ، فتوح الغيب: 3/29، ومحمّد رشيد رضا، المنار: 1/339.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/652.
(3) الطِّيبيّ، فتوح الغيب: 3/29.

أنْ تكونَ هُزْءًا، عَلَى النَّحْوِ الَّذِي كَانَتِ الْيَهُودُ تُطْلِقُهُ، يَقصدون به رميَه، ﷺ، بِالرُّعُونَة، وَيُوهمونَ أَنَّهم يَقولونَ: راعِنا، فَتكونُ كلمةُ: ﴿رَٰعِنَا﴾ فِيها احْتِمَالُ الْأَمْرَيْنِ، وَعِنْدَ الْإِطْلَاقِ تَكونُ بِالْهُزْءِ أَخَصَّ مِنْها بِالانتظارِ.

وأمّا دَلالاتُ: ﴿ٱنظُرۡنَا﴾ فهي مأخوذةٌ مِن اسْتدعاءِ نظرِ العينِ، المُقترنِ بتَدَبُّرِ الحالِ، ففيها معنى: الانتظارِ والإمهالِ الّذي في راعِنا، وليسَ في الكلمةِ معنى المُفاعلةِ الّذي في ﴿رَٰعِنَا﴾، وَهو ممّا لا يَليقُ بمُخاطبةِ الرَّسولِ الأكرمِ، ﷺ، معَ إفادتِها معنىً آخرَ، ليسَ في ﴿رَٰعِنَا﴾، وَهو: الرِّفقُ وَ المُراقبةُ وَتَدبّرُ الحالِ، كما أنّ التَّعبيرَ بـ ﴿ٱنظُرۡنَا﴾ فيهِ معنى: الرَّغبةِ لِفعلِ المأمورِ، على معنَى: انتَظِرْ منَّا فِعْلَ ما تأمرُنَا بهِ، وَهو يفيدُ امتثالَ الأمرِ والطّاعةِ، والمُسارعةَ إلى فعلِ الخيرِ.

فكلمةُ: ﴿ٱنظُرۡنَا﴾ أَخَفُّ صَوتًا، وأنسبُ معنًى، وليسَ فيها ما يُوهِمُ سُوءَ الأَدبِ؛ لِيَتَذَرَّعَ بِهَا الْكُفَّارُ لِأَذَى النَّبِيِّ[1] ﷺ.

(1) ابن قتيبة، تأويل مشكل القرآن، ص: 218، والجصّاص، أحكام القرآن: 1/72، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 1/189، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/651.

﴿مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ وَلَا ٱلۡمُشۡرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيۡكُم مِّنۡ خَيۡرٖ مِّن رَّبِّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَخۡتَصُّ بِرَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ١٠٥﴾ [البقرة: 105]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لـمّا أَمرَ اللّهُ المؤمنينَ في الآيةِ السَّابقةِ بِسماعِ أَوامرِهِ، والامتثالِ لَها، وَذكرَ عِلّةً حاملةً أُخْرَوِيَّةً، وَهي الوعيدُ بالعذابِ الأليم، لِمَن لم يمتثلْ أوامرَهُ، ذَكَرَ في هذهِ الآيةِ: عِلَّةً دُنيويَّةً باعثةً على الامتثالِ، وَهيَ كراهةُ الكافرينَ لِلمؤمنينَ، فَإِنَّهم ما يَودُّونَ أَنْ يُنَزَّلَ عليكم شيءٌ لَكم فيهِ خيرٌ، فَضلاً عنْ أَنْ تَمتثلُوهُ؛ حسَدًا وبَغيًا مِنْهم لَكم، كمَا ناسبتْ هذهِ الآيةُ ما قبلَها؛ لِأَنّه ذكرَ علّةَ العذابِ الأَليم لِلكافرينَ، وَهي لِأَنَّهم لا يَودُّونَ لَكم خَيراً؛ فَالتزامُكُمْ بالسّماعِ مِنْ جملةِ عذابِهم؛ لِأَنَّهُ واقعٌ على خلافِ ودادَتِهم، معَ ما يُدَّخَرُ لَهم في الآخرةِ، بكفرِهم وَتمنّيهم كُفرَكم، فَوجْهُ الْمُنَاسَبَةِ بَيْنَ الْآيَتَيْنِ ظَاهِرٌ، هو الحَثُّ على الامتثال؛ لِأَنَّ الدَّاعِيَ لِلسَّبِّ وَالْأَذَى هُوَ الْحَسَدُ[1].

شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

1) ﴿يَوَدُّ﴾: يَدُلُّ معنى الوُدّ: على الحُبّ، وتَمنّي حُصولِ الشَّيء، فَيُقالُ: وَدِدْتُهُ: أَحْبَبْتُهُ، فالوُدُّ: محبَّةُ الشّيءِ، وتمنّي حُصولِه، فيَكْمُنُ فيه معنى التَّمنّي، فيُقالُ: وَدِدْتُ أَنَّ ذَاكَ كَانَ كذا، إِذَا تَمَنَّيْتَهُ[2].

2) ﴿يَخْتَصُّ﴾: يَدُلُّ معنى: خَصَّ على فُرجَةٍ، تَحصُرُ النَّافذَ أَو النَّفاذ لِيكونَ دقيقًا، حَسَبَ القَدرِ المُرادِ، فَالخَصَاصُ: الفُرَجُ بَيْنَ الأَثَافيِّ، وَالخَصَاصَةُ: الإِمْلَاقُ، وَالثُّلْمَةُ في الحَالِ، وخَصَصْتُ فُلَانًا بِشَيْءٍ خَصُوصِيَّةً؛ لِأَنَّهُ إِذَا أُفْرِدَ وَاحِدٌ، فَقَدْ أَوْقَعَ فُرْجَةً بَيْنَهُ وَبَيْنَ غَيْرِهِ، وخَصَّ فُلانًا بكذا يَخُصُّه: آثرَه به على غيرِه، كاخْتَصَّهُ، كأَنَّما أَنفَذَهُ إليهِ، من خلالِ فُرجةٍ، تَصلُ إليه دونَ غيرِه ممَّنْ حولَه، والاخْتصاصُ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 2/88، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/652.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والسّمين، عمدة الحفّاظ:(ودد).

بالشَّيءِ: الانفرادُ بهِ، وَاخْتَصَّ الشَّيءَ: اصْطفاهُ وَاختارَهُ، وَيخْتَصُّ برحمتِهِ: بمعنى إفرادِهِم بها، دونَ غيرِهم مِنْ خَلْقِه[1].

3) ﴿ٱلْفَضْلِ﴾: يدلُّ معنى الفَضْلِ على زِيَادَةٍ في شَيْءٍ، ومِنْ ذَلِكَ: الفَضْلُ: الزِّيَادَةُ وَالخَيْرُ، والفَضِيلةُ: الدَّرجةُ الرَّفيعةُ في الفَضْلِ، والفَواضِلُ: الأَيادي الجَميلَةُ، وأَفْضَلَ الرَّجُلُ عَلَى فُلَانٍ وتَفَضَّلَ، بِمَعْنَى: إذا أَنالَه مِنْ فَضْلِه، وأَحْسَنَ إليه، والإِفْضال: الإحسانُ، وكلُّ عَطيّةٍ لا تُلزِمُ مَنْ يُعطي، يُقالُ لها: فَضْلٌ، وفَضْلُ اللّهِ عطاؤه[2].

المَعْنَى الإِجْمَاليُّ:

ما يُحِبُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ اليَهُودِ وَالنَّصَارَى، وَلَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ، أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ أَدْنَى خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ، حَسَدًا منهم، وَبُغضًا لَكم، لِمَا تَفَضّلَ بِهِ عليكُمْ مِنْ رحمتِهِ، وَلكنَّ ما يَوَدُّهُ الكافرونَ لنْ يَحْصُلَ، واللّهُ يَخْتَصُّ برحمتِهِ مَنْ يشاءُ بالنُّبوّةِ والرِّسالةِ، أَو بأيِّ نوعٍ مِنْ أنواعِ رحمتِه، وهي مواهِبُ منه، يَختَصُّ بِها مَنْ يَشاءُ مِنْ خَلْقِهِ، واللّهُ ذو العطاء العَميمِ وَالعظيمِ؛ لِسَعَتِهِ وَكَثْرَتِهِ[3].

الإِيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

بلاغةُ التَّعبيرِ بـ﴿مَّا يَوَدُّ﴾:

تمكُّنُ الحسَدِ في قلوبِ اليهودِ مدارُه على إنزالِ القرآنِ على المؤمنين

أفادَتْ (ما) نَفْيَ الْحَالِ، أي: هُمْ مُتَلَبِّسونَ بِالْبُغْضِ وَالْكَرَاهَةِ؛ بأَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خيرٍ من ربِّكم[4]، فبغضُهم للمؤمنين لا يفارقُهم، وجاءَ التَّعبيرُ بالفعلِ المضارعِ؛ لإفادةِ تجدُّدِ نَفْيِ وُدِّهِم، فَكَراهيَّةُ الكفَّارِ لِلخيرِ الّذي أَنزَلَهُ اللّهُ علَى المُؤمنينَ مُتَجَدِّدَةٌ، مُتَّصلةٌ مُستدامَةٌ.

وعبَّر بالوُدِّ دون الحُبِّ؛ لأنَّ الودَّ هو مَحبَّةُ الشَّيءِ المَمْزوجِ بِتَمنّيه[5]، ويُستعمَلُ في مَيلِ الطِّباعِ، إذا وَرَدَ بمعنى: التَّمنّي[6]، بينما

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (خَصَصَ)، وينظر: ابن جرير، جامع البيان: 2/471.
(2) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (فضل)، وابن قتيبة، غريب القرآن: 1/19.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 2/471.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 1/544.
(5) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 1/282.
(6) العسكري، الفروق اللُّغويّة، ص: 122.

الحُبُّ فيُستعمَلُ فِيمَا يُوجِبُهُ مَيلُ الطِّباعِ وَالْحكمَةِ جَمِيعًا، والتَّعبيرُ بـ ﴿مَّا يَوَدُّ﴾ هو الأنسبُ بالسِّياقِ، وأفاد نظمُ الكلمةِ ثلاثةَ مَعانٍ:

الأوّل: أنّ ما يَوَدُّونَهُ شرٌّ، وليس بخيرٍ، وَلِهذا ناسَبَ ذكرُ الخيرِ في مُقابلِهِ في قولِه: ﴿مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾.

الثّاني: أنّ ما يَوَدُّونَهُ مُوافِقٌ لِطباعِهم السَّيئةِ، وهو تَمنِّي زوالِ الخير، أو انقطاعِه أَصْلًا عن المؤمنين؛ إشارةً إلى حسَدِهم وَ بَغيِهم.

الثّالث: أنّ ما يَوَدُّونَهُ لا يَحصُل أبدًا؛ لِتَضَمُّنِ ﴿يَوَدُّ﴾ مَعنى التَّمنّي؛ فإنَّهُ لا مَطمَعَ في وقوعِ المُتَمَنَّى، ففيه تَقْريعٌ لَهم، ولمّا كانَ ما يَوَدُّونَه لا مَطمَعَ في وقوعه: اقتضى أنْ يكونَ تنزيلُ الخيرِ ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾ مُسْتَمِرًّا، غيرَ منقطعٍ، ففيه بِشارةٌ للمؤمنينَ.

ولو عبّر بـ (ما يُحِبّ) لفاتت هذه المعاني البلاغيّةُ اللَّطيفةُ المَقصودةُ.

نُكْتةُ التَّعبيرِ بالاسمِ الموصولِ:

الاستشهادُ على أهلِ الكتابِ بحيِّزِ الصِّلةِ، وليشملَ جميعَ الكافرين

عُبِّرَ بالاسم الموصولِ بوَساطةِ جُملةِ الصِّلةِ، الّتي أَفادَ ذكرُها الإشارةَ إلى نُكتَتَينِ بَلاغيَّتَين:

إحداهما: أنّه ذَكَرَ ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ هُنَا لِقَصْدِ شُمُولِ هَذَا الحُكْمِ اليَهُودَ وَالنَّصَارَى مَعًا، تَمْهيدًا لِمَا يَأْتي، مِنْ ذِكْرِ حِكْمَةِ النَّسْخِ، وَمِنْ قَوْلِه: ﴿وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ﴾ [البقرة: 111]، ولو قال: (ما يَوَدّ اليهودُ) لفاتَ الشُّمولُ المذكورُ[1].

الثّانية: الإيماءُ إلى وَجهِ بناءِ الخَبَرِ، على الاسم المَوصولِ بِوَاسطة صِلَتِه[2]، فَأفادَتْ صِلةُ الموصولِ: الإشعارَ بِأَنَّ كتابَهم يَدعوهُمْ إلى مُتابعةِ الحَقِّ، لكنَّ كُفرَهُم يَمنعُهم[3]، فقدْ علّقَ بناءَ الخَبَرِ (نَفْيَ المَوَدّةِ) على كُفرِهم، تَوبيخًا لَهم، وَتَقْبيحًا لِكُفرِهم، الّذي يَصُدُّهُم عن الخَيرِ، وَالفَضلِ العَميمِ.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/653.
(2) السّكّاكي، مفتاح العلوم: 182.
(3) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 3/29.

دلالة حرفِ الجرِّ (مِن) في قولِه: ﴿مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾:

(من) هنا: بيانيَّةٌ[1]، فتفيدُ بيانَ المَقصودِ مِنْ عمومِ الَّذينَ كَفروا؛ لأَنَّ المَقامَ مَقامُ إيضاحٍ، وبيانٍ لِتعريفِ المؤمنينَ بِمَنْ لا يَوَدُّ الخيرَ لَهم؛ ليحذروهم، فبيّنَ العُمومَ بـ (مِنْ)، وجعلَهم صِنفين: أهلَ الكتابِ والمشركين، وَيشهدُ لذلك قولُه تعالى: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ﴾ [البيّنة: 1]، فالقرآنُ يُفَسِّرُ بَعضُهُ بَعضًا، وَذهبَ بعضُ المُفسِّرينَ: إلى أنَّ (مِنْ) هنا تَبعيضيَّةٌ، وَالمعنى: أهلُ الكتابِ بعضٌ من الَّذينَ كَفَروا[2].

نُكتةُ ذكرِ حرفِ النَّفيِ في قولِه تعالَى: ﴿وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ﴾:

اشتراكُ أهلِ الكتابِ والمشركين في سببِ الكُفرِ

لِتأكيدِ أنَّ المُشركينَ كذلك، ما يَوَدّونَ أنْ يُنَزَّلَ عليكم مِنْ خَيرٍ مِنْ ربِّكم[3]، وَمِنْ لطائفِ التَّعبيرِ البلاغيِّ في القرآنِ الكريمِ في هذهِ الآيةِ: عدمُ اقترانِ حرفِ الجرِّ (مِنْ) معَ المشركين: فلمْ يَقُلْ: (ولا مِنَ المشركين)، لإفادةِ أنَّ كُرْهَ أهلِ الكتابِ والمشركينَ واحدٌ لا يَختلِفُ؛ لأنّ المسبِّبَ واحدٌ، وَهوَ كُفرُهم.

سببُ تقديمِ أهلِ الكتابِ على المُشركين:

كُفرُ حسدِ العالمِ بالشَّيءِ أشدُّ من كفرِ الجاهلِ به

قُدِّمَ أهلُ الكتابِ على المشركين؛ لِأنَّ السِّياقَ كانَ في أهلِ الكتابِ؛ وَلِلإشارةِ إلى أنَّ أولويَّةَ الكُفرِ تكونُ فيهم؛ لأنَّ الجحودَ منهم أشدُّ من جحودِ غيرِهم، الّذين لم يُؤتَوا كتابًا، فقدْ كانَ لِليهودِ عِلمٌ، وَلكنّهم لمْ يَنتفعوا بهِ، وإنَّ سببَ كراهيَّتِهم لِأنْ يُنَزَّلَ عليكم خَيرٌ مِنْ ربِّكم، يَختلِفُ عندَهم عمَّا هو عندَ المُشركينَ، فهو عندَ المشركين كُفرٌ لِلوحدانيَّةِ، وخوفُ الرِّيَاسةِ، والتَّنافسِ بينَ العشائرِ، وَأمَّا عندَ

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/175.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 1/544.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 1/544.

اليهودِ، فَهو كراهيَّةُ حَسَدٍ؛ أنْ تكونَ الرُّسُلُ في ولدِ إسماعيلَ، وَحَسَدٍ في أنْ يَرَوا غيرَهم على خَيرٍ وفَضلٍ من اللّهِ[1].

إيثارُ صيغةِ المَبنيِّ لِمَا لمْ يُسمَّ فاعلُه ﴿يُنَزَّلَ﴾:

تنزيلُ الخير تكريمٌ للمؤمنين

عبَّر النَّظم بصيغةِ ما لم يُسمَّ فاعلُه في قولِه ﴿أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم﴾، ولم يقل: (أنْ يُنَزِّلَ ربُّكم) للإشعارِ ببيانِ ابتداءِ الخيرِ من اللّهِ تعالى، المُفيدِ لِلتَّكريمِ.

دلالة حرفِ الاستعلاءِ في ﴿عَلَيْكُم﴾:

لمّا كانت (على) دالّةً على الاستعلاءِ: أفادتْ تَعظيمَ الخيرِ المُنزّلِ وإجلالَه؛ لِعُلُوِّهِ، كما تُفيدُ استيعابَ الخيرِ لِلمؤمنينَ، وتَمكّنَه فيهم.

دلالة صيغة المضارع: ﴿يَخْتَصُّ﴾:

تُفيدُ صيغةُ المضارعِ: تجدّدَ الاختصاصِ بالرَّحمةِ، واسْتمرارِيَّتَهُ لِلمؤمنينَ جميعًا.

نُكتةُ التَّعبيرِ بـ﴿يَخْتَصُّ﴾ دونَ (يَخُصُّ):

كمالُ الامتنانِ اختصاصُ المؤمنين بالرَّحمةِ، وخسارةُ الحاسِدين بالحرمانِ

وردَتْ كلمةُ: ﴿يَخْتَصُّ﴾ دونَ: (يَخصّ)؛ لِخَصوصيَّةِ -بفتح الخاء- الكلمةِ في هذا السِّياقِ؛ فكلمةُ ﴿يَخْتَصُّ﴾ بمعنى: يَنفَرِدُ بالشَّيءِ لِنفسِهِ، وَ(يَخُصُّ) بمعنى: إفرادِ الغَيرِ بشيءٍ، فالاختصاصُ أوكدُ من الخُصوصِ[2]؛ لِأنَّ الاختصاصَ لِنفسِكَ، ويَدُلُّ على خَصوصيَّةِ القُربِ، والخَصوصُ لغيرِكَ، ولا يَدُلُّ على خَصوصيَّةِ القُربِ، فَأشعرتْ كلمةُ ﴿يَخْتَصُّ﴾: بأَنَّ اللّهَ يَخْتَصُّ المؤمنين برحمتِه، وفَضلًا منه لنفسِه، وهذا من بديعِ المَدْحِ؛ ففيه إعناتٌ لأهلِ الكتابِ، فما أرادوه لأنفسهم تَمَنِّيًا حصل للمؤمنين فضلًا.

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 1/349.
(2) الثّعلبيّ، الكشف والبيان: 1/253.

بلاغةُ حذف مفعول ﴿يَشَآءُ﴾:

بَراعةُ الجمعِ بينَ العمومِ والاختصارِ

يَعلمُ السَّامعُ أنّ المشيئةَ قدْ عُلِّقَتْ بشيءٍ، تَقتضي أنْ يكونَ، وَمَفْعُولُ الْمَشِيئَةِ مَحْذُوفٌ، كما هُوَ الشَّأْنُ فِيهِ إِذَا تَقَدَّمَ عَلَيْهِ كَلَامٌ، أَوْ تَأَخَّرَ عَنْهُ، والتَّقديرُ: يَخْتَصُّ برحمتِه مَنْ يشاءُ اخْتصاصَه[1]، فلمّا كان المَقامُ مَقامَ مبالغةٍ، بسببِ فعلِ المَشيئةِ- فمَشيئتُه لا يَحصرُها شيءٌ- كان مِن البلاغة أنْ يُجاء به محذوفاً؛ لإفادةِ العُموم، مع الاختصارِ في الكلام[2].

بلاغةُ إقامةِ الظَّاهرِ مقامَ المُضمَرِ:

إنزالُ الخيرِ من مقتضياتِ الرُّبوبيَّةِ، والتَّخصيصُ بالرَّحمةِ من مقتضياتِ الأُلوهيَّةِ

قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾، وكان الظَّاهرُ أنْ يقولَ: (وهُوَ يَختصُّ برحمتِه)؛ لِقُربِ ذكرِ ﴿رَّبِّكُمْ﴾، فأقامَ لفظةَ: ﴿ٱللَّهِ﴾ مَقامَ الضَّميرِ؛ لِينبِّهَ به على أنَّ تَخصيصَ بعضِ النَّاسِ بالرَّحْمةِ دونَ بعضٍ، هو من مقتضياتِ أُلوهيَّته، كما أنَّ إنزالَ الخيرِ على العموم من مقتضياتِ ربوبيَّته[3]، وزادَهُ مُناسبةً: الإضافةُ في (ربِّكم)، المفيدةُ لاختصاصِ التَّشريفِ والتَّكريمِ.

دلالة (مِن) في قوله ﴿مِّنْ خَيْرٍ﴾:

اجتماعُ الاستغراقِ والتَّأكيدِ في دلالة (مِن)

أفادتْ: ﴿مِّنْ﴾ استغراقَ الخَيريَّةِ[4]، والمقصودُ: عمومُ الخيرِ[5]، والمعنى: ما يَوَدُّون أنْ يُنَزَّلَ عليكم أيُّ نوعٍ من أنواعِ الخيرِ، ولو كانَ قليلًا، كما أفادتْ تأكيدَ نفيِ مَوَدَّتِهم؛ لِأنْ يُنَزِّلَ اللّهُ أيَّ خيرٍ على المؤمنين.

دلالة حرف الجرِّ ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾:

من هنا: ابْتدائيَّةٌ[6]، فأفادتْ أنّ ابتداءَ تنزيلِ الخيرِ من اللّهِ تعالى؛ لِيدلَّ على التَّكريمِ والتَّفضيلِ.

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/653.
(2) التّفتازانّي، المطوّل، ص: 369.
(3) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 3/30.
(4) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 1/283.
(5) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 1/99.
(6) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/175، والرّازيّ، التّفسير الكبير: 3/636.

سببُ التَّعبيرِ بـ ﴿ذُو ٱلۡفَضۡلِ﴾:

الوصفُ بـ (ذو) لِزيادةِ التَّشريفِ، وكونِ الوصفِ غيرَ مُفارِقٍ

عبَّر النَّظمُ بذو الفضلِ؛ لأنَّه أَشْرَفُ في الاستعمالِ مِنَ الْوَصْفِ بِصَاحِبٍ، فإنَّ (ذُو) أَبَدًا لَا تَكُونُ إِلَّا مُضَافَةً لِاسْمٍ، فَمَدْلُولُهَا أَشْرَفُ، ومنه: (ذو الجلال)، كما أنَّ التَّعبير بـ (ذو)؛ لإفادةِ أنَّ وصفَه بالفضلِ العظيمِ مُلازمٌ للّهِ تعالى، غيرُ مُفارِقٍ له[1]، ولمّا كان عطاءُ اللّهِ ليس واجبًا عليه سُبحانَه، ناسبَ أنْ يكونَ أيُّ خيرٍ يُنَزِّلُه ومَنْ يَخْتَصُّهُ برحمتِه فضلًا منه، ولو كان ذلك واجبًا عليه لَمَا وُصِفَ بالإفضال، كما دلّ على أنَّه وإنِ اخْتَصَّ برحمته بعضَ النّاس، فليس ذلك لضِيقِ فضلِه، بلْ فضلُه عظيمٌ[2].

بلاغةُ جملةِ التَّذييل في قولِه ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾:

فضلُ اللهِ عميمٌ ومُستدامٌ

جاءت الجملةُ تذييليّةً لِمَا تقدّمَها مِنَ الكلام[3]؛ لِبيانِ أَنَّ الْفَضْلَ يَشْمَلُ إِعْطَاءَ الْخَيْرِ، وَالْمُعَامَلَةَ بِالرَّحْمَةِ، كما أنّها لكليّةِ معناها واسميّتها، أفادتْ دوامَ مَضمونِها واستمراريَّتَهُ، كما يَصِحُّ أنْ تكونَ كالمثلِ في الكلامِ، لعمومِ معناها ودَيمومتِه.

توجيهُ القراءاتِ القرآنيَّةِ:

معاني القراءاتِ القرآنيّةِ تتكثّرُ وَلا تتقاطَعُ

قَرَأَ الجُمْهُورُ: ﴿أَن يُنَزَّلَ﴾ بِتَشْدِيدِ الزَّاي مَفْتُوحَةً، وَالتَّعْبِيرُ بِالتَّنْزِيلِ دُونَ الإِنْزَالِ؛ للإشعار بنفي وِدادَتِهم تدفّقَ الخيرِ مِن اللّهِ على المؤمنين، وعدمَ انقطاعِه عنهم، ومِنْ هذا الخَيرِ المنزّلِ: القرآنُ، فيكونُ التّنزيلُ مُشيرًا كذلكَ إلى حِكَايَةِ الوَاقِعِ، إذِ القُرْآنُ نَزَلَ مُنَجَّمًا؛ لِتَسْهِيلِ حِفْظِهِ وَفَهْمِهِ وَكِتَابَتِهِ، وَلِلتَّيْسِيرِ عَلَى الْمُكَلَّفِينَ فِي شَرْعِ الأَحْكَامِ تَدْرِيجًا.

وَقَرَأَ ابْنُ كثير وَأبو عَمْرٍو: ﴿أَن يُنزَلَ﴾ بِتَخْفِيفِ الزَّاي، مَفْتُوحَةً

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 1/546، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 1/349.
(2) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنّة: 1/530، والرّاغب، تفسير الرّاغب: 1/283.
(3) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 3/30.

أَيْضًا[1]، للإشارة إلى أَنَّ نَفْيَ وِدَادَتِهِمْ مُتَعَلِّقٌ بِمُطْلَقِ إِنْزَالِ الخير؛ سَوَاءٌ كَانَ دَفْعَةً أَوْ مُنَجَّمًا، ومِنْ هذا الخير: القرآنُ، فيُفيدُ كرهَهم لمُطلقِ إنزالِ القرآنِ[2].

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

المودَّةُ والمَحَبَّةُ:

الوُدُّ هو حُبُّ الشّيءِ، وتَمنّي حُصولِه، ويُستعمَلُ في كلِّ واحدٍ من المَعنيَين، وأمّا الحُبُّ فلا يُستعمَلُ في التَّمنّي، والوُدُّ هو حُبٌّ مخصوصٌ بوصولٍ، مع اللِّينِ والرِّفقِ، قال اللّهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا﴾ [مريم: 96]، فوَرَدَ: (الوُدُّ) في سِياق الرّحمة، وقد سمّى اللّهُ تعالى نفسَه بالوَدودِ، فقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلۡوَدُودُ﴾ [البروج: 14]، واسْتُعملَ الوُدُّ في الآيةِ في قوله تعالى: ﴿مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ بمعنى: ما يَتمنَّونَ ولا يُحبُّونَ أنْ ينزَّلَ على المؤمنينَ مِنْ خيرٍ من ربِّهم، ويَقضي لازمُه أَنَّهم يَتَمَنَّونَ وَيُحبُّونَ الشَّرَّ لِلمؤمنينَ، ولو قال: (ما يحبُّ)، لَفاتتْ هذه المعاني المقصودةُ، وَلـمّا كانَ الوُدُّ يأتي بمعنى: التَّمنّي، فَرّقَ ابنُ فارسٍ بينَ الوُدِّ والحُبِّ بطريقةٍ أخرى؛ فرأى أنَّ الحُبَّ يكونُ في مَا يُوجِبُهُ مَيلُ الطِّباعِ وَالحكمَةِ جَميعًا، وأمَّا الوُدُّ فهو مَيلُ الطِّباعِ فَقَط، ولهذا يُمكنُ القَولُ: أُحِبُّ فلانًا وأَوَدُّه، وأُحبُّ الصَّلَاةَ، وَلَا يُقالُ: أودُّ الصَّلَاة، ويَصِحُّ أنْ يُقالَ: أَوَدُّ أَنَّ ذاك كَانَ لي، إذا تمنَّى وِدادَه[3].

(1) الأزهريّ، معاني القراءات: 1/166، وابن الجزري، النشر: 2/218.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/653.
(3) العسكري، الفروق اللّغوية، ص: 122.

﴿مَا نَنسَخۡ مِنۡ ءَايَةٍ أَوۡ نُنسِهَا نَأۡتِ بِخَيۡرٖ مِّنۡهَآ أَوۡ مِثۡلِهَآۗ أَلَمۡ تَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ١٠٦﴾ [البقرة: 106]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لما بيَّنتِ الآيةُ السّابقةُ موقفَ اليهودِ والمشركينَ منْ إنزالِ الوحيِ على المؤمنينَ، ناسبَ بيانَ الموقفِ منْ نسخهِ؛ فاليهودُ والمشركونَ يبحثونَ عنْ ثغرةٍ في دينِ اللّهِ تعالى ليُوَجّهُوا إليها سهامَهمْ، فآثرتِ الآيةُ بيانَ أنّ النسخَ إنْ وُجدَ فإنّهُ نسخٌ للأفضلِ ومُقَدَّرٌ عند اللّه العليم الحكيم أزلًا، وفيهِ مزيدُ تبكيتٍ وتقريعٍ لما يجولُ في نفوسِهم المريضةِ، فمناسبةُ الآيةِ للسّابقِ زيادةُ تقرير أنّ النازلَ على المؤمنينَ هو خيرٌ في بقائهِ وفي نسخهِ؛ دفعًا لأيِّ تمويهٍ، أو اعتراضٍ يصدرُ عنِ الشّانئينَ.

شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

1) ﴿نَنسَخۡ﴾: فعل مضارع مجرَّد مبدوء بنونِ المضارعةِ للدّلالةِ على الجمعِ، جذرهُ اللّغويُ (نسخ)، وأصلهُ واحدٌ، إلّا أنّهُ مختلفٌ في قياسهِ "قالَ قومٌ: قياسُهُ رفعُ شيءٍ، وإثباتُ غيرهِ مكانَهُ، وقالَ آخرونَ: قياسُهُ تحويلُ شيءٍ إلى شيءٍ"[1]، وهذانِ المعنيانِ ذكرَهما ابنُ عطيةَ؛ وهُما الإزالةُ والنقلُ[2].

والنسخُ "إزالةُ شيءٍ بشيءٍ يتعقّبهُ، كنَسخِ الشّمسِ الظلَّ، ونَسْخِ الظلِّ الشَّمْسَ، ونَسْخِ الشَّيبِ الشَّبابَ؛ فتارةً يُفهمُ منهُ الإزالةُ، وتارةً يُفهمُ منهُ الإثباتُ، وتارةً يُفهمُ منهُ الأمرانِ، ونَسْخُ الكتابِ: إزالةُ الحكمِ بحكمٍ يتعقَّبهُ"[3]، هو المقصود بالنَّسْخ هنا.

2) ﴿ءَايَةٍ﴾: أصلُها (أَأْيَة): سكنت الهمزة الثانية وانفتح ما قبلها، فقُلبت حرف مدٍّ من جنس حركة الهمزة الأولى، فصارت ألفًا، والآيةُ تأتِي بمعنَى العلامةِ والشخصِ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نسخ)، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (نسخ).
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 1/190.
(3) الراغب، المفردات: (نسخ).

والجماعةِ[1]، والآية: "طائفةٌ منَ القرآنِ، يتّصلُ بعضُها ببعضٍ إلى انقطاعِها؛ طويلةً كانتْ أوْ قصيرةً"[2]، وسُمّيتْ آيةُ القرآنِ بهذا الاسمِ؛ لكونها مؤلَّفةً مِنْ مجموعةٍ من الكلماتِ والجملِ.

3) ﴿نُنسِهَا﴾: فعل مضارع مزيد بهمزةِ التّعدية منْ (أَنْسَى)، جذرهُ اللّغويّ (نسي)، ومصدرهُ النّسيانُ "النّونُ والسّينُ والياءُ أصلانِ صحيحانِ يدلُّ أحدُهما على إغفالِ الشيءِ، والثّاني على تركِ شيءٍ"[3]، وهذانِ المعنيانِ مقصودانِ في الآيةِ الكريمةِ، وعليه فمعنى: ﴿نُنسِهَا﴾: أي: نُزيلُ العملَ بِها، أو نحْذِفُها عن قلوبِ العبادِ[4].

4) ﴿نَأْتِ﴾: فعل مضارع مبدوء بحرفِ المضارعةِ، أصلُه (نأتِي) حُذِفَ حرفُ العلّةِ منهُ للجزمِ؛ لأنّهَ جوابُ الشرطِ، والجذرُ منهُ (أتي)، ومنهُ: أتَى يأتِي، ومنْ معانيهِ أنّهُ "مجيءٌ بسهولةٍ، ومنهُ قيلَ للسّيلِ المارّ على وجهِه: أَتِيٌّ ... والإتيانُ يقالُ للمجيءِ بالذّاتِ وبالأمرِ وبالتّدبيرِ، ويقالُ في الخيرِ وفي الشرِّ وفي الأعيانِ والأعراضِ"[5]، ومعناهُ المحوريّ "وصولٌ أو تقدّمٌ وحضورٌ إلى مكانٍ، أو شيءٍ بتهيئةٍ، أوْ قوةٍ تُزيلُ ما يعوقُ"[6]، ومعنى: ﴿نَأْتِ﴾: نجيء.

5) ﴿بِخَيْرٍ﴾: اسمُ تفضيلٍ (أَخْيرُ) وزنُه (أَفْعَلُ) حُذفتْ همزتُه لغيرِ قياسٍ، وقدْ صُرّحَ بهِ في قولِهم: "بلالٌ خيرُ الناسِ، وابن الأَخْيَرِ"[7]، والجذرُ اللغويّ لهُ (خير).

وأصلُه "العطفُ والميْلُ، ثمَّ يُحملُ عليهِ، فالخيرُ خلافُ الشَّرِّ؛ لأَنَّ كلَّ أَحدٍ يميلُ إليهِ، ويعطِفُ على صاحبهِ ... ثمَّ يُصرَّفُ الكلامُ فيقالُ: رجلٌ خيّرٌ، وامرأةٌ خيّرةٌ فاضلةٌ، وقومٌ خيارٌ وأخيارٌ ... وامرأةٌ خيّرةٌ في جمالهَا وميسمِها"[8].

وعمومًا فالخيرُ هو كلُّ مَا كانَ خلافَ الشرّ، وما كانَ تحتَ بابِ الفضلِ، و"ما يَرغبُ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أيه).
(2) الكفويّ، الكليّات، ص: 41.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نسي).
(4) الراغب، المفردات: (نسخ).
(5) الراغب، المفردات: (أتى).
(6) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (أتو/أتى).
(7) الأنباري، الزاهر: 1/375.
(8) ابن فارس، مقاييس اللغة: (خير).

فيه الكُلّ؛ كالعقلِ مثلاً، والعدلِ، والفضلِ، والشّيءِ النافعِ، وضدّهُ الشرّ"[1]، وقولُه: ﴿نَأۡتِ بِخَيۡرٖ مِّنۡهَآ﴾ أي: بأفضلَ منهَا "إمّا بتخفيفِ ما كانَ ثقيلاً كثباتِ الواحدِ للاثنينِ بعدَ أنْ كانَ الثباتُ لعشرةٍ، وإمّا بكثرةِ ثوابِه وإنْ كانَ أثقلَ، كصومِ رمضانَ"[2].

6) ﴿مِثۡلِهَآۗ﴾: اسمٌ ثلاثيّ مجردٌ، جذرهُ اللغويّ (مثل)، وأصلُ حروفِه "يدلّ على مناظرةِ الشيءِ للشيءِ، وهذَا مِثلُ هذَا: أي نظيرُه"[3]، وَالمِثْلُ "شِبْهُ الشيءِ في المِثالِ والقَدْرِ ونحوِه حتّى في المعنَى، ويقالُ: ما لهذَا مَثيلٌ"[4].

7) ﴿ٱللَّهَ﴾: لفظُ الجلالةِ، علمٌ على المعبودِ بحقّ، وهو مشتقّ على الصّحيحِ وليسَ جامدًا؛ فإنّ أسماءَ اللّهِ تعالَى أعلامٌ وأوصافٌ باتّفاقِ أهلِ السّنّةِ والجماعةِ[5]، ولازمُ ذلكَ أنّها مشتقةٌ[6]، إذِ الجامدُ لا وصفَ لهُ.

وقيلَ إنّ "أصلَهُ الإلاهُ؛ فحُذفتِ الهمزةُ، وأُدغمتِ اللّامُ في اللّامِ، فصارَ ﴿ٱللَّه﴾"[7] لكثرةِ دورانِه على الألسنةِ[8] وأُدغمتِ اللامُ في مثلِها، وفُخّمتْ تعظيمًا للّهِ تعالَى[9]، والترقيقُ بعدَ الكسرِ؛ لأجلِ التخفيفِ لا لسلبِ التعظيمِ.

ومهمَا قِيلَ في حقّهِ، فهو قطرةٌ من بحرٍ، أو ثانيةٌ من دهرٍ؛ لأنّ عظمتَه لا حُدُودَ لكمالِها، ومعنَى اسمِ ﴿ٱللَّه﴾ عَلَمًا - كمَا قالَ ابنُ عباسٍ رضي الله عنهما -: ذو الألوهيةِ والعبوديةِ على خلقِه أجمعينَ[10].

8) ﴿كُلِّ﴾: اسمٌ ثلاثيّ جذرُه (كلل) ثمّ أُدغمتِ اللامُ في مثيلتِها، وهو "اسمٌ موضوعٌ للإحاطةِ مضافٌ أبدًا إلى ما بعدَهُ، وقولُهمُ الكلُّ، وقامَ الكلُّ فخطأٌ، والعربُ لا تعرفُهُ"[11].

---

(1) الراغب، المفردات: (خير).
(2) السمين الحلبي، عمدة الحفّاظ: (خير).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (مثل).
(4) الفراهيدي، العين: (مثل).
(5) ابن القيم، بدائع الفوائد: 1/285.
(6) ابن القيم، الكافية الشافية، ص: 216.
(7) الاستراباذي، شرح شافية ابن الحاجب: 2/981.
(8) الجوهري، الصحاح تاج اللغة: (أله).
(9) الفيومي، المصباح المنير: (ءله).
(10) ابن جرير، جامع البيان: 1/123.
(11) ابن فارس، مقاييس اللغة: (كلل).

و"هو لضمّ أجزاءِ الشيءِ، وذلكَ ضربانِ: أحدُهما: الضّامّ لذاتِ الشيءِ وأحوالِه المختصّةِ بهِ، ويفيدُ معنى التمامِ ... والثاني: الضّامّ للذّواتِ، وذلك يضافُ، تارةً إلى جمعٍ معرّفٍ بالألفِ واللامِ، نحو قولك: كُلُّ القوم، وتارة إلى ضمير ذلك، نحو: ﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ [الحجر: 30]"[1].

ويأتِي أيضًا في بابِ التوكيدِ المعنويّ؛ للدّلالةِ على الإحاطةِ والشّمولِ، كقولِه تعالَى: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة: 31]، وجميعُ ما وردَ في القرآنِ الكريمِ جاءَ معرّفًا بالإضافةِ لفظاً أو تقديراً.

والمعنَى في الآيةِ أنّ قدرتَه محيطةٌ بجميعِ الأشياءِ.

9) ﴿قَدِيرٌ﴾: صفة مشبَّهة بمعنَى قادِرٌ، وزنُه (فَعِيل)، جذرُه اللّغويّ (قدر)، والأصلُ في معناهُ "يدلّ على مبلغِ الشيءِ وكنهِه ونهايتِه، فالقَدْرُ: مبلغُ كلِّ شيءٍ، يُقالُ: قَدْرُه كذَا، أي مبلغُه"[2].

و"القَدَرُ القضاءُ الموافقُ، يُقالُ قَدّرهُ اللّهُ تقديراً، وإذَا وافقَ الشيءُ شيئاً قِيلَ جاءَ على قَدَرِه"[3].

والواردُ في الآيةِ ﴿قَدِيرٌ﴾، وهو "الفاعلُ لِما يشاءُ على قَدْرِ ما تقتضِي الحكمةُ، لا زائدًا عليهِ، ولا ناقصًا عنهُ"[4].

"والقادرُ يوصفُ بهِ الإنسانُ حسبَما تقدّمَ، والقديرُ لا يوصفُ بهِ إلّا اللّه تعالَى، وذلكَ لِمَا فيهِ من المبالغةِ"[5].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

بيَّنتِ الآيةُ الموقفَ منَ الآياتِ القرآنيّةِ من حيثُ بقاؤهَا أو نسخُها، وأنَّ نسخَ الآياتِ القرآنيّةِ إنْ وقعَ فهو إزالةٌ لآيةٍ، وإتيانٌ بآيةٍ فاضلةٍ في ذاتِها ومعناهَا، وذلكَ لا يقدحُ في الوحي، ولا في

(1) الراغب، المفردات: (كل).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قدر).
(3) الفراهيدي، العين: (قدر).
(4) الراغب، المفردات: (قدر).
(5) السمين، عمدة الحفّاظ: (قدر).

الرسولِ ﷺ، ولا في الشريعةِ، فمقصودُ الآيةِ بيانُ أنَّ النسخَ -إنْ وقعَ- ما هو إلّا تكميلٌ وتتميمٌ، وأنَّه صادرٌ عن قدرةِ اللّهِ تعالى.

❁ الإيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

سرُّ استعمالِ ما الشَّرطيّة:

إفادةُ معنَى العمومِ، وتحسينُ الصَّوتِ

لاستعمالِ ﴿مَا﴾ في هذا السِّياقِ نكتتانِ اثنتانِ؛ الأولى: إفادةُ معنى العمومِ، فإنَّ النَّسخَ متصوَّرٌ وقوعُه في كلِّ آيةٍ، ويرشِّحُ هذه النّكتةَ مجيءُ حرفِ ﴿مِنْ﴾ قبلَ كلمةِ ﴿ءَايَةٍ﴾، والثَّانيةُ: الإيقاعُ الصوتيّ، فإنَّ العربَ تكرهُ توالي الأمثالِ، أي: الحروفِ المتماثلةِ، ومجيءُ (إنْ) وبعدَها نونانِ في كلمةِ ﴿نَنسَخْ﴾ فيهِ ثقلٌ صوتيّ، فاستعمالُ ﴿مَا﴾ أحسنُ في الصوتِ، وهو أمرٌ تابعٌ للمعنَى بالدرجةِ الأولى؛ فهو تابعٌ لا متبوعٌ، وفرعٌ لا أصلٌ.

بلاغةُ الالتفاتِ:

تقويةُ النَّسخِ وتمكينُه في النُّفوسِ

انتقلتِ الآيةُ من الغيبةِ في فاصلةِ الآيةِ السَّابقةِ ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [البقرة: 105] إلى التَّكلّمِ ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ﴾، وذلكَ لما يُضفيهُ اسمُ الجلالةِ من الهيبةِ، وهذا شأنُ المتفضِّلِ جلَّ في عُلاهُ، ثمَّ جاءَ الالتفاتُ لبيانِ أنَّ النَّسخَ إنَّما صدرَ عن المتكلِّمِ سبحانَه، وهذا توجيهُ بَدْءِ الفعْلِ بنونِ العظمةِ؛ لـمَا فيهِ من تقويةِ النَّسخِ، وأنَّ اللّهَ تولَّاهُ بنفسه، فلم يقلْ: ما يُنسخُ من آيةٍ، وفي ذلكَ إشعارٌ بقوةِ النَّسخِ وتمكينِه في النُّفوسِ.

توجيهُ القراءاتِ في ﴿نُنسِخْ﴾:

القراءاتُ تشترِكُ في الإخبارِ عنِ المَنْسوخِ ماضيًا ومُستقبلًا

اختلف القرَّاءُ في قولِه تعالَى: ﴿نَنسَخْ﴾ على قراءَتَيْن؛ فقراءةُ الجمهورِ ﴿نَنسَخْ﴾ بفتحِ نونِ المضارعةِ المتّصلةِ بالفعلِ الثلاثيّ المجرَّدِ (نَسخَ)، فيما قرأَ ابنُ عامرٍ: ﴿نُنسِخْ﴾ بضمِّ النونِ الأولى وكسرِ السينِ[1] وعلى ذلكَ يكونُ الفعلُ من (أنسخَ).

(1) ابن الجزريّ، النشر في القراءات العشر: 2/219.

فتحتملُ الهمزةُ أنْ تكونَ بمعنى الوجدانِ من بابِ أفعلْتُ[1] أي أنْ "يكونَ المعنى ما نجدُه منسوخاً، كما يُقالُ: أَحْمَدْتُه وأَبْخلْتُه، أي: وَجَدْتُه كذلكَ"[2] والمعنى متقاربٌ؛ فإنّك لا تجدُه منسوخًا إلّا بأنْ ينسخَه الحقُّ تباركَ وتعالَى، وتحتملُ همزةُ (أنسخَ يُنسِخُ) أنْ تكونَ للتعديةِ "وإنساخُها: الأمرُ بنسخِها، وهو أنْ يأمرَ جبريلَ عليه السلام بأنْ يجعلَها منسوخةً، بالإعلامِ بنسخِها"[3]، والأصلُ في الفعلِ (نَسخَ) أنّه يتعدّى لمفعولٍ واحدٍ، ودخولُ همزةِ التعدّيةِ جعلتْه يتعدّى لاثنينِ، والقراءتان متّفقتان "في المعنى، وإنِ اختلفتَا في اللَّفظِ"[4]، فنسَخَ وأنْسَخَ إخبارٌ عمَّا هو منسوخٌ؛ إحداهما عنِ المُستقبلِ، والثَّانية عن الماضي.

أثرُ حروفِ المعاني في البيانِ:

بيانُ السَّابقِ واللَّاحقِ بالتّخصيصِ

أخذَ ﴿مِن﴾ موقعًا عجيبًا في بيانِ السابقِ واللاحقِ، أمَّا السَّابقُ فهوُ بيانٌ وتخصيصٌ لاسمِ الشرطِ ﴿مَا﴾؛ فأزالَ إبهامَه، ودفعَ غموضَه، وأمَّا اللَّاحقُ فهو بيانُ دلالةِ ﴿ءَايَةٍ﴾، وأنَّ المرادَ بها الجمعُ لا المفردُ[5]، فإنَّ ﴿ءَايَةٍ﴾ نكرةٌ وقعتْ في سياقِ الشَّرطِ فأفادتِ العمومَ، فصدقَ اسمُها على جميعِ الآياتِ، وحرفُ ﴿مِن﴾ أفادَ التبعيضَ؛ ففُهمَ أنَّ تطرُّقَ النَّسخِ محتملٌ لجميعِ الآياتِ، لكنَّ احتمالَه لا يكونُ إلَّا لبعضِها.

أثرُ السِّياقِ في دلالةِ حروفِ المعاني:

دلَّ حرفُ ﴿أَوْ﴾ على التقسيمِ[6]؛ أي: تقسيمِ الآيةِ المرادِ الإتيانُ بخيرٍ منها؛ إمّا أنْ يجري عليهَا النَّسخُ، أو الإنساءُ، ومآل الفعلينِ واحدٌ، لكنّ الاختلافَ في طريقةِ الوصولِ إلى الحكمِ، وهو إزالةُ الآيةِ بأمرِ الوحيِ، أو إنساؤُها من اللهِ تعالى، فمقتضَى العطفِ بيانُ أنَّ هناكَ آياتٍ جرَى عليهَا النَّسخُ، وأخرى جرَى عليها الإنساءُ، والقسمانِ حلَّتْ محلَّهما آيةٌ خيرٌ منهُما.

---

(1) الهمزة تفيد "مصادفة الشيء على صفة، كأحمدتُ زيدًا وأكرمتُه، وأبخلتُه، أي: صادفته محمودًا أو كريمًا أو بخيلًا"، الحملاوي، شذا العَرف في فنّ الصرف، ص: 30.

(2) السمين، الدرّ المصون: 2/56.

(3) الزمخشريّ، الكشّاف: 1/309.

(4) ابن عطية، المحرر الوجيز: 1/192.

(5) السمين، الدرّ المصون: 2/57.

(6) السمين، الدرّ المصون: 2/58.

توجيهُ القراءاتِ في ﴿نُنسِهَا﴾:

تكامُلُ القراءاتِ القرآنيَّةِ مظهرٌ من مظاهرِ الإعجازِ البيانيّ

اختلف القرَّاء في قراءةِ قولِه تعالى: ﴿نُنسِهَا﴾ على قراءتين:

أولاً: قراءةُ الجمهورِ: ﴿نُنسِهَا﴾ "بِضَمِّ النُّونِ وَكَسْرِ السِّينِ مِنْ غَيْرِ هَمْزَةٍ"[1]، ومعناهَا الترك "أي: نُنسِ الناسَ إيّاها، وذلكَ بأمرِ النبيّ ﷺ بتركِ قراءتِها حتّى ينساهَا المسلمونَ"[2] واستعمالُها بالبناءِ للمفعولِ فيه معنًى رمزيٌّ يرجّحُ أنّ معنى النسيانِ هو التركُ؛ لأنّه حذفَ (الناسَ) هنا باستعمالِه صيغةَ البناءِ للمفعولِ.

ثانيًا: قراءةُ ابْنِ كَثِيرٍ وَأَبِي عَمْرٍو: ﴿نَنسَأْهَا﴾ "بِفَتْحِ النُّونِ وَالسِّينِ، وَهَمْزَةٍ سَاكِنَةٍ بَيْنَ السِّينِ وَالهَاءِ"[3]، ومعناهَا التَّأخيرُ "أي: نؤخّرُ تلاوتَها، أو نؤخّرُ العملَ بها، والمرادُ: إبطالُ العملِ بقراءتِها أو بحكمِها"[4].

والقراءتانِ ﴿نُنسِهَا﴾ بمعنى الترك، و﴿نَنسَأْهَا﴾ بمعنى التأخيرِ تقابلانِ النسخَ، "والاحتمالاتُ المفروضةُ في نسخِ حكمٍ من الشريعةِ تتأتَى في نسخِ شريعةٍ بشريعةٍ وإنسائِها أو نسئِها"[5]؛ لأنّ الإنساءَ والنسأَ إبطالٌ في الأحوالِ كلِّها.

بلاغةُ التَّقديمِ والتَّأخيرِ:

تقديمُ الأصلِ على فرعِه، والأوضحُ على الواضحِ

قُدِّمَ ﴿نَنسَخْ﴾ على ﴿نُنسِهَا﴾ أو ﴿نَنسَأْهَا﴾؛ للعنايةِ والاهتمامِ، أمّا وجهُ هذا الاهتمامِ، وسرُّ تلكَ العنايةِ فلأنَّ الآياتِ المنسوخةَ معلومةٌ لدى المخاطَبينَ حينَ نسخِها، بخلافِ الآياتِ المنسيّةِ أو المؤخَّرةِ، فالتقديمُ من قبيلِ تقديمِ الواضحِ على الأقلِّ وضوحًا، ومن قبيلِ إلحاقِ الفرعِ بأصلِه، أي: كما حَصَلَ النسخُ الّذي تعرفونَه،

(1) ابن الجزري، النشر: 2/220.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/658.
(3) ابن الجزري، النشر: 2/220.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/658.
(5) المرجع السابق: 1/659.

فكذلكَ يحصلُ غيرُه، وهذا معنَى التقسيمِ الّذي أفادتْه ﴿أَوْ﴾، فالآياتُ ما بينَ هذينِ القسمينِ.

فوائدُ الحذفِ والذكرِ:

بـلاغـةُ الـنـظـمِ في تقريرِ قواعدِ الإيجازِ

دخلَ حرفُ الجرِّ (مِنْ) في قولِه تعالَى: ﴿بِخَيْرٍ مِّنْهَآ﴾ على المفضّلِ منه؛ لأنَّ أفعلَ التفضيلِ نكرةٌ، وفي قولِه ﴿نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ﴾ جاءَ على الغايةِ من دقّةِ النَّظمِ في تقريرِ قواعدِ الإيجازِ؛ فلم يُقلِ الحقُّ تباركَ وتعالَى (نأتِ بآيةٍ خيرٍ من آيةٍ) والخيريةُ هنَا تكونُ بمعنَى "أنفعُ لكمْ، وأسهلُ عليكمْ، وأكثرُ لأَجرِكمْ، لا أَنَّ آيةً خيرٌ منْ آيةٍ؛ لأَنَّ كلامَ اللَّهِ واحدٌ، وكلّهُ خيرٌ"[1] ولأنّ خيريَّتَها في كونِها ألينَ، وأيسرَ على الناسِ كمَا نُقلَ عن ابنِ عباسٍ[2] رضي الله عنهما؛ فالنَّظم الكريم يتحاشى المفاضلةَ بين الآيات؛ فلا تفاضلَ بينَ فصاحةِ الآياتِ القرآنيةِ وبلاغتِها، بلْ في مضمونِها وأثرِها.

فائدةُ العطف بقولِه: ﴿أَوْ مِثْلِهَآ﴾:

أثـرُ المعـطـوفِ في دفـعِ وهْـمِ حتميَّةِ التَّفاضلِ بـين الـنّـاسـخِ والمنسوخِ

وقولُه ﴿أَوْ مِثْلِهَآ﴾ أو عطفٌ يفيدُ التقسيمَ، و﴿مِثْلِهَآ﴾ يعنِي في الثوابِ والتكليفِ، ومن ذلكَ "أنَّ اللّه تباركَ وتعالَى حينَ أمرَ المسلمينَ بالتوجّه إلى الكعبةِ بدلاً من بيتِ المقْدسِ نسخَ آيةً بمثلِها"[3]؛ فنقلُ التوجّهِ من بيتِ المقْدسِ إلى الكعبةِ ليسَ فيه فرقٌ على المسلمِ، ولا مشقّةٌ، ولا تعبٌ، ولا نصبٌ، إنّما هوَ اختبارٌ لطاعةِ العبدِ لربّهِ، أي أنَّ إبدالَ الآيةِ بمثلِها جاءَ لغرضٍ وحكمةٍ ربّانيّةٍ، فإنَّ فائدتَه كامنةٌ في الاحترازِ من وهمٍ فكريّ، وهو اعتقادُ أنّ كلَّ آيةٍ ناسخةٍ هي خيرٌ من كلّ آيةٍ منسوخةٍ، فكانَ دورُ المعطوفِ دفعَ مثلِ هذا الوهمِ، لبيانِ أنَّ بعضَ المنسوخِ يماثلُ الناسخَ.

(1) البغويّ، معالم التنزيل: 1/135.
(2) ابن الجوزي، زاد المسير: 1/98.
(3) الشعراويّ، تفسير الشعراويّ: 1/513.

نكتةُ التقديمِ والتأخيرِ:

الفاضلُ مقدَّمٌ على المماثلِ في النفسِ والواقعِ

لتقديمِ المعطوفِ عليه على المعطوفِ أثرٌ في نفسِ المتلقّي، والأمرُ الفاضلُ مقدَّمٌ على المماثلِ، فإنَّ الإتيانَ بناسخٍ خيرٍ من المنسوخِ أفضلُ من الإتيانِ بمثلِه، كمَا أنَّ تقديمَه يُشعرُ بأنَّه الأكثرُ في النواسخِ، ولـمَا لكلمةِ (خيرٍ) من وقعٍ لطيفٍ في القبولِ الذهنيّ والنَّفسيّ على حدٍّ سواءٍ.

غرضُ همزةِ الاستفهامِ:

خطابُ التَّقريرِ للنَّبيِّ ﷺ والمرادُ به الأمَّةُ

قولُه تعالَى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ جملةٌ استئنافيةٌ جديدةٌ، وحَسُنَ الفصلُ هنَا لقوّةِ الارتباطِ المعنويّ بينَ هذهِ الجملةِ وما سبقَها؛ والهمزةُ للاستفهامِ التقريريّ[1]، و﴿لَمْ﴾ حرفُ نفيٍ وجزمٍ وقلبٍ؛ فالجملةُ منفيّةٌ، والهمزةُ التقريريةُ تقلبُها إلى الإثباتِ، والمعنَى: (أنتَ تعلمُ)[2]، والخطابُ وإنْ كانَ موجّهًا "للنّبيِّ ﷺ، والمرادُ بهِ غيرهُ منَ المؤمنينَ"[3] إلّا أنّ القصدَ منه أنْ يكونَ للأمّةِ جميعًا، وبطريقةٍ غيرِ مباشرةٍ، ولـمَن تأثرَ بما يطلقُه اليهودُ من أراجيفَ، ففيه تثبيتٌ لهؤلاءِ "وتوجيهُ الكلامِ إلى شخصٍ يرادُ غيرهُ شائعٌ في كلامِ العربِ والمولّدينَ"[4] ففي هذا الخطابِ تعريضٌ باليهودِ، والخطابُ ليسَ لهُ ﷺ؛ "لأنَّهُ لا يقرّرُ على الاعترافِ بأنَّ اللّهَ على كلِّ شيءٍ قديرٌ، فضلًا عنْ أنْ ينكرَ عنهُ، وإنَّمَا التَّقريرُ للأمّةِ"[5].

سرُّ التَّعبيرِ بـ ﴿قَدِيرٌ﴾ دونَ (قادر):

الملاءمةُ السياقيّةُ والتناسبُ الدّلاليّ في اختيارِ الصِّيَغِ

كلمة ﴿قَدِيرٌ﴾ جاءتْ على صيغةِ المبالغةِ من اسمِ الفاعلِ على زنةِ

(1) لفظ الواجب، إذا لحقته همزة التقرير عاد نفيًا، وإذا لحقت لفظ النفي عاد إيجابًا، ابن جنّي، الخصائص: 3/272.
(2) البغويّ، معالم التنزيل: 1/135.
(3) محمد رشيد رضا، تفسير القرآن الحكيم: 1/342.
(4) محمد رشيد رضا، تفسير القرآن الحكيم: 1/342.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/664.

(فَعِيل)[1]؛ لأنّه إذَا دلَّ اسمُ الفاعلِ على المبالغةِ والكثرةِ والتكرارِ، ووصولِ المعنَى إلى أعلَى درجاتِه، استُعمِلَتْ لهُ صيغةُ المبالَغةِ، لا اسمُ الفاعلِ الّذي يدلُّ على مجردِ الحدثِ وفاعلِه، فـ ﴿قَدِيرٌ﴾ أبلغُ من (قادر)، وقدْ ختمتْ بِه الآيةُ، وهو الملائمُ لسياقِ الآياتِ؛ لتناسبِه معَ العمومِ.

نكتةُ تقديمِ الخبرِ على المبتدأِ:

الـدّلالـةُ على استيلاءِ قدرتِه عـلى الأشـيـاءِ جميعًا

قُدِّم الجارُّ والمجرورُ في قولِه تعالَى ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ﴾ على المبتدأِ ﴿قَدِيرٌ﴾ وهو وإنْ كانَ تقديماً واجباً إلّا أنّه جاءَ ليفيدَ الاهتمامَ والاختصاصَ، وأنّ قدرتَه سبحانه محيطة بالأشياء جميعًا، وقُدِّم كذلك مراعاةً لرؤوسِ الآيِّ، تبعًا لمراعاةِ الدلالةِ.

فائدةُ تعدُّدِ المؤكّدات:

تقويةُ مضمونِ العمومِ في قدرةِ الـلـهِ عـلى كـلِّ شَيْءٍ

اشتملتْ جملةُ ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ على عدّةِ مؤكّداتٍ؛ لتقويةِ مضمونِ العمومِ الواردِ في الآيةِ، وهي: أنّ المؤكّدةُ الناصبةُ، والجملةُ الاسميةُ الدالّةُ على الثبوتِ، وتعريفُ المسندِ ﴿ٱللَّهَ﴾ لتقويةِ الجملةِ، وإدخالِ المهابةِ في نفوسِ السامعينَ، وتقديمُ ما حقّهُ التأخيرُ؛ تقديمُ الجارِّ والمجرورِ على ﴿قَدِيرٌ﴾، والتعبير بصيغةِ المبالغةِ ﴿قَدِيرٌ﴾ بدلًا من اسمِ الفاعلِ (قادرٌ) يُفيدُ نوعًا من التَّوكيدِ، والتَّعبير بأنّ المفتوحةِ الهمزةِ؛ فإنّهُ يمكنُ تأويلُها بمصدرٍ؛ فيكونُ التقديرُ: (ألمْ تعلمْ قدرةَ اللهِ على كلِّ شيءٍ حاضرةً أو موجودةً)، وهو تأويلٌ يعضدُ ما توافرَ من مؤكِّداتٍ في هذهِ الآيةِ.

فائدةُ الالتفاتِ من التكلّمِ إلى الخطابِ:

الاستدلالُ بعلمِ المـخـاطـبِ في تقريرِ مضَامينِ الكلامِ

وقعَ التفاتٌ في قولِه تعالَى: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ ۗ أَلَمْ تَعْلَمْ﴾؛ فالأفعالُ ﴿نَنسَخْ﴾، ﴿نُنسِهَا﴾، ﴿نَأْتِ﴾

(1) "وأجروا اسم الفاعل إذا أرادوا أن يبالغوا في الأمر مجراه إذا كان على بناء فاعل ... إلا أنّه يريد أن يحدث عن المبالغة فما هو الأصل الذي عليه أكثر هذا المعنى فعُول وفعّال ومِفْعال وفعِل"، سيبويه، الكتاب: 1/110.

هي للتَّكلُّم، ثمّ انتقلَ الخطابُ من التكلّم إلى الخطابِ بقولِه: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ﴾، وهو خطابٌ موجَّهٌ إلى الرسولِ ﷺ، والمرادُ أمَّتُه؛ وفائدةُ الالتفاتِ: تقريرُ ما جاءَ في جملةِ التَّكلُّم من القدرةِ على النَّسخِ والإنساءِ، والاستدلالُ بعلمِ المخاطَبِ على ذلكَ، وهو من أمتنِ طرقِ الإقناعِ في تقريرِ مضامينِ الكلامِ.

نكتةُ إظهارِ ما حقُّهُ الإضمارُ:

إظهارُ لفظِ الجلالةِ لتربيةِ المهابةِ في نفوسِ السامعينَ

وضعُ الظاهرِ وهو الاسمُ الجليلُ ﴿ٱللَّهَ﴾ موضعَ المُضْمَرِ في قولِه تعالَى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾؛ فلمْ يقلْ: (أنّهُ على كلِّ شيءٍ قديرٌ)؛ "لتربيةِ المهابةِ، ولأنّه الاسمُ العلمُ الجامعُ لسائرِ الصفاتِ، ففي ضمنِه صفةُ القدرةِ، فهو أبلغُ في نسبةِ القدرةِ إليه من ضميرِ المتكلّمِ المعظّمِ"[1].

التَّناسبُ التَّقابليّ في العمومِ:

مناسبةُ عمومِ الآياتِ القرآنيَّةِ معَ عمومِ الآياتِ الكونيَّةِ

احتوتِ الآيةُ على نوعٍ من التَّناسب الدّلاليّ بديع، وذلكَ في إثباتِ عمومِ قدرتِه سبحانه في الآياتِ القرآنيةِ والآياتِ الكونيةِ؛ فالآياتُ القرآنيَّةُ يُمثِّلُها قولُه تعالَى: ﴿مِنْ ءَايَةٍ﴾ فهو قادرٌ على نسخِ أيّةِ آيةٍ؛ والآياتُ الكونيَّةُ يمثِّلُها قولُه تعالَى: ﴿كُلِّ شَيْءٍ﴾، فكمَا أنّه قادرٌ على نسخِ أيّةِ آيةٍ؛ فهو قادرٌ على تبديلِ كلّ شيءٍ في هذا الكونِ.

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

أتَى وجاءَ:

في قولِه تعالَى: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ﴾ عبّرَ بفعلِ الإتيانِ ﴿نَأْتِ﴾ ومن معانيه المجيءُ بسهولةٍ، ويقالُ لمَن يجيءُ بالذاتِ والأمرِ والتدبيرِ وفي الأعيانِ والأعراضِ[2]، وممّا يقرُب من

(1) الآلوسي، روح المعاني: 1/354.
(2) الراغب، المفردات: (أتى).

لفظةِ (أتَى) لفظةُ (جاءَ) وقد يجعلُهما بعضُهم من بابِ الترادفِ، وهو ليسَ بسديدٍ؛ إذِ المقَّررُ أنّ الترادفَ غيرُ واقعٍ في القرآنِ الكريمِ؛ لما يمكنُ أنْ تحلّ لفظةٌ مكانَ أخرَى، وهو غيرُ جائزٍ في الكتابِ الكريمِ، فثمّةَ فرقٌ بينَ (جاءَ) و(أتَى) لأنَّ "قَوْلَك جَاءَ كَلَام تَامّ لَا يحْتَاج إِلَى صلَةٍ ... وَلِهَذَا يُقَال جَاءَ فلَانٌ نَفسُه"[1] أمّا الفعلُ (أتَى) فإنّه "يَقْتَضِي مجيئُه بِشَيْءٍ ... وَلَا يقالُ أَتَى فلَانٌ نَفسُه"[2] وهو قولٌ ظاهرُ البرهانِ في هذا الموضعِ؛ فإنّه استعملَ (أتَى) لأنَّ المجيءَ هنَا يكونُ معَ شيءٍ محددٍ وهو ﴿بِخَيْرٍ مِّنْهَآ﴾، فثبتَ أنَّ كلَّ لفظٍ يحسنُ موقعُه بحسبِ دلالتِه، ولا يقعُ لفظٌ موقعَ الآخرِ في الكتابِ الكريمِ، أمّا في اللغةِ فعلى سبيلِ التجوّزِ، أو لأنّه "كثرُ ذَلِكَ حَتَّى اسْتُعْمِلَ أحدُ اللَّفْظَيْنِ فِي مَوضِعِ الآخرِ"[3].

خير وأفضل:

اشتمالُ (خيرٍ) على الفضلِ الذّاتيّ والمتعدّيّ

في قولِه تعالَى: ﴿نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ﴾ جاءَ التعبيرُ بلفظةِ (خيرٍ)، ولمْ يَردْ بلفظةِ (أفضلَ)؛ وذلكَ لأنّ الخيرَ يتضمنُ معنَى الفضلِ الذاتيّ والمتعدّيّ، أي أنَّ الآيةَ هي خيرٌ في ذاتِها وفي أثرِها، فضلاً عمّا تحويهِ هذهِ الكلمةُ من معنى البشارةِ والبشرَى، ﴿بِخَيْرٍ﴾ اسمُ تفضيلٍ، وزنُه (أفْعَل) إلَّا أنّ همزتَه حُذفتْ لغيرِ قياسٍ، والمعنَى أنّنا نأتِي بأفضلَ ممّا ننسخُ أو نُنسِي، "وذلكَ أنَّ الآتِي به إنْ كانَ أخفَّ من المنسوخِ، أو المنسوءِ فخيريَّتُه بالنسبةِ إلى سقوطِ أعباءِ التكليفِ، وإنْ كانَ أثقلَ فخيريَّتُه بالنسبةِ إلى زيادةِ الثوابِ"[4] فهو على ذلكَ للتفضيلِ، والأولُ أقوَى معنًى؛ لدلالةِ الآيةِ، ولفظًا لوجودِ ﴿مِن﴾ الداخلةِ على المفضّلِ منه.

(1) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 309.
(2) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 309.
(3) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 309.
(4) السمين الحلبيّ، الدرّ المصون: 2/61.

﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ١٠٧﴾ [البقرة: 107]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لـمّا ذكرَ سبحانَه وتعالَى في الآيةِ السَّابقةِ النَّسخَ، وهو بيانٌ لقدرةِ اللّهِ تعالَى في رفعِ الآياتِ القرآنيّةِ والإتيانِ بخيرٍ منها بعدَ إنزالِها، ناسبَ أنْ يذكرَ في هذهِ الآيةِ كونه مالكًا للآياتِ الكونيّةِ، وأنَّه قادرٌ على التَّصرُّفِ فيها وحدَه دونَ سواهُ، فكانتْ هذهِ الآيةُ كالدَّليلِ على الآيةِ السَّابقةِ، فكما أنَّه وحدَه المتصرِّفُ في شؤونِ خلقِه، فهو كذلكَ وحدَه المتصرِّفُ في شؤونِ كتابِه، وليسَ لأحدٍ أن يُغيِّرَهُ من تلقاءِ نفسِه، أو أنْ يعترضَ على نسخِ شيءٍ منه.

ووقعتْ هذهِ الآيةُ كالبيانِ لفاصلةِ الآيةِ السَّابقةِ، كما وقعَ صدرُ الآيةِ السَّابقةِ كالتمهيدِ والتوطئةِ للفاصلةِ؛ إذْ مدارُ الأمرِ على قدرةِ اللّهِ تعالَى في الكتابِ المسطورِ والكونِ المنشورِ، فوقعتِ الفاصلةُ حَجَرَ زاويةٍ في تناسبِ المعاني واتّصالِها.

قال ابن عاشور في وجه ارتباط هذه الآية بما سبق: هذا الكلام "مَسُوقٌ لِبَيانِ حِكْمَةِ النَّسخِ والإتْيانِ بِالخَيْرِ والـمِثْلِ؛ بَيانًا غَيْرَ مُفَصَّلٍ عَلى طَرِيقَةِ الأُسْلُوبِ الحَكِيمِ؛ وذَلِكَ أنَّهُ بَعْدَ أنْ فَرَغَ مِنَ التَّنْبِيهِ عَلى أنَّ النَّسْخَ الَّذِي اسْتَبْعَدُوهُ وتَذَرَّعُوا بِهِ لِتَكْذِيبِ الرَّسُولِ هو غَيْرُ مُفارِقٍ لِتَعْوِيضِ الـمَنسُوخِ بِخَيْرٍ مِنهُ أوْ مِثْلِهِ أوْ تَعْزِيزِ الـمُبَقّى بِمِثْلِهِ؛ أُرِيدَ أنْ يَنْتَقِلَ مِن ذَلِكَ إلى كَشْفِ ما بَقِيَ مِنَ الشُّبْهَةِ؛ وهي أنْ يَقُولَ الـمُنْكِرُ: وما هي الفائِدَةُ في النَّسْخِ حَتّى يَحْتاجَ لِلتَّعْوِيضِ وكانَ مُقْتَضى الظّاهِرِ أنْ يَتَصَدّى لِبَيانِ اخْتِلافِ الـمَصالِحِ ومُناسَبَتِها لِلْأحْوالِ والأعْصارِ ولِبَيانِ تَفاصِيلِ الخَيْرِيَّةِ والـمِثْلِيَّةِ في كُلِّ ناسِخٍ ومَنسُوخٍ؟ ولَمّا كانَ التَّصَدِّي لِذَلِكَ أمْرًا لَمْ تَتَهَيَّأْ لَهُ عُقُولُ السّامِعِينَ لِعُسْرِ إدْراكِهِمْ مَراتِبَ الـمَصالِحِ وتَفاوُتَها لِأنَّ ذَلِكَ مِمّا يَحْتاجُ إلى تَأْصِيلِ قَواعِدَ مِن أُصُولٍ شَرْعِيَّةٍ وسِياسِيَّةٍ، عَدَلَ بِهِمْ عَنْ بَيانِ ذَلِكَ، وأُجْمِلَتْ لَهُمُ الـمَصْلَحَةُ بِالحِوالَةِ عَلى قُدْرَةِ اللّهِ تَعالى الَّتِي لا يَشِذُّ عَنْها مُمْكِنٌ مُرادٌ، وعَلى سَعَةِ مُلْكِهِ الـمُشْعِرِ بِعَظِيمِ عِلْمِهِ، وعَلى حاجَةِ الـمَخْلُوقاتِ إلَيْهِ إذْ

لَيْسَ لَهم رَبٌّ سِواهُ ولا ولِيٌّ دُونَهُ، وكَفى بِذَلِكَ دَلِيلًا عَلى أنَّهُ يَحْمِلُهم عَلى مَصالِحِهِمْ في سائِرِ الأحْوالِ"[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

1) ﴿مُلْكُ﴾: اسمٌ ثلاثيّ مجردٌ، جذرُه اللغويّ (ملك)، و"الميمُ واللّامُ والكافُ أصلٌ صحيحٌ يدلُّ على قوّةٍ في الشّيءِ ... ثمَّ قيلَ مَلكَ الإنسانُ الشّيءَ يملكهُ ملكًا، والاسمُ الملكُ؛ لأَنّ يدهُ فيهِ قويَّةٌ صحيحةٌ"[2].

والملكُ يكونُ على نوعينِ "مِلْكٌ هو التملّكُ والتّولّي، ومِلْكٌ هو القوّةُ على ذلكَ، تولّى أو لم يتولّ"[3] وعبّرَ عنه بأنّه "الحقّ الدّائم للّهِ"[4].

والملكُ هنَا جميعُ ما خلقَ اللّهُ من أجرامٍ وسماواتٍ وأرضينَ وبشرٍ وحيوانٍ وجمادٍ وغيرِه فهو ملكُه؛ لذلكَ قيلَ إنّ المُلكَ هو "التسلطُ على جماعة والتصرفُ في أمرَهم؛ فهو من إمساكِه بأمورِهم حُكمًا وتدبيرًا"[5].

2) ﴿دُونِ﴾: اسمٌ ثلاثيّ، جذرُه اللغويّ من (دون)، وأصلُ معناهُ "يدلُّ على المداناةِ والمقاربةِ، يُقالُ: هذا دونَ ذاكَ، أي هوَ أقربُ منهُ"[6] و"يُقالُ للقاصرِ عن الشيءِ: دونَ"[7].

وهو أيضًا "نقيضُ فوقَ، وهو تقصيرٌ عن الغايةِ؛ ويكونُ ظرفاً ... يقال: هذَا دُونك في التَّحقيرِ والتَّقريبِ ... ويقالُ: دونَك زيدٌ في المنزلةِ والقربِ والبعدِ"[8] وقدْ يأتِي بمعنَى غيرِ، والمعنَى المرادُ في الآيةِ "ليسَ لهم من يوالِيهم من دونِ أمرِ اللّهِ"[9].

3) ﴿وَلِيٍّ﴾: زنةُ (فَعِيل) صيغةُ مبالغةٍ، جذرُه اللغويّ من (ولي)، وهو بياءينِ (وليي) الأولَى ياءُ الوزنِ، والثانيةُ ياءُ الأصلِ، ثمّ أُدغمَتا فصارَ (وليّ).

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/663.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ملك).
(3) الراغب، المفردات: (ملك).
(4) الراغب، المفردات: (ملك).
(5) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (ملك).
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (دون).
(7) الراغب، المفردات: (دون).
(8) الزّبيديّ، تاج العروس: (دون).
(9) الراغب، المفردات: (دون).

والأصلُ في معناهُ دلالتُه على القربِ[1]، ومصدرُه الولاءُ من "واليتُ بَين الشّيئين موالاةً وولاءً ... والولايَةُ الإمارةُ، والوليّ خلافُ العدوِّ"[2]، وهو المرادُ في الآيةِ الكريمةِ، وهو الناصرُ والحليفُ.

وهو "لزومُ الشيءِ شيئًا آخرَ تبعًا له مع نحوٍ من الاشتمالِ، كما يتمثّلُ في لزومِ الوَليةِ الظهرَ مشتملةً عليهِ"[3] والوليةُ البرذعةُ على ظهرِ البعيرِ فهي ملازمةٌ لهُ، وكذا الحليفُ والنّاصرُ ملازمٌ ومعينٌ لا ينفكُّ عن مولاهُ.

4) ﴿نَصِيرٍ﴾: وصفٌ على صيغةِ فَعِيل بمعنَى فاعِلٌ ﴿نَصِيرٍ﴾ بمعنى (ناصِر)، وهو من (نصر) فعلُه نصرَ ينصرُ نصرًا، ومعناهُ المجردُ "مجاري الماءِ (مَسايِلُه) إلى الأوْديةِ، والنّاصرُ يجيءُ من مكانٍ بعيدٍ"[4] والعلاقةُ أنّ "الإمدادَ بما فيهِ زيادةٌ مناسبةٌ وقوةٌ: كما تمدّ النواصرُ الأوديةَ والتلاعَ بالماءِ"[5] ومن هذا الملحظِ جاءتِ النّصرةُ بمعنَى إعانةِ المظلومِ، ومَن به حاجةٌ لذلكَ.

و"النَّصرُ والنُّصرةُ: الإعانةُ والمنعةُ، يُقالُ: نصرتُه؛ أي: أعنتُه على عدوّهِ ومنعتُه منه"[6] فالنَّصيرُ في الآيةِ بمعنَى: المعينُ، وهو يشبهُ (الوليّ) "فكلاهمَا فَعِيلٌ بمعنَى فاعِل على وجهِ المبالغةِ"[7].

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

توجِّه الآيةُ الكريمة خطابًا للنَّبيِّ ﷺ وأُمَّتِه متضمِّنًا استفهامًا تقريريًّا مقصودُه الإلهابُ والتهييجُ للمؤمنينَ، والإقرارُ الملزِمُ بقدرةِ اللّهِ على النَّسخِ قياسًا على قدرتِه في ملكوتِ السَّماواتِ والأرضِ لغيرِهم، فكما أنَّ ملكوتَه سبحانَه تحتَ تصرُّفه وأمرِه؛ فإنَّ كتابَه كذلكَ بأمرِه ينزلُ وبأمرِه يُنسخُ، وما لأحدٍ من عموم خلقِه وليٌّ يقومُ بأمرَهم ويرعاهُم، ولا نصيرٌ يدفعُ عنهم الشَّرَّ والفسادَ، فمجمعُ الأمرُ الكونيّ والشرعيّ بيدِه دونَ سواهُ، ومَن لمْ يعلمْ ذلكَ فإنَّه واقعٌ في محظورٍ عقديٍّ كبيرٍ.

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ولي).
(2) ابن دريد، جمهرة اللغة: (ولي).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (ولي).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (نصر).
(5) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (نصر).
(6) السمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (نصر).
(7) الفخر الرازيّ، مفاتيح الغيب: 2/253.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبلاغيُّ:

بلاغةُ الاستفهامِ:

التقاءُ معنيي الاستفهامِ في مقصدٍ دلاليّ واحدٍ

اختلفَ المفسِّرونَ في معنَى الاستفهامِ في قولِه تعالَى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ﴾ على قولينِ: الأوَّل: التَّقريرُ، والثَّاني: الإنكارُ[1]، وهذانِ القولانِ مؤدَّاهُما واحدٌ؛ فالتَّقريرُ تحصيلُ مجملِ الكلامِ، أي: أنَّ مؤدَّى الجملةِ هوَ لتقريرِ المخاطَبِ على مضمونِ الكلامِ، وهو العلمُ بأنَّ اللّٰه لهُ ملكُ السَّماواتِ والأرضِ، والإنكارُ تحصيلُ تفصيلِ الكلامِ، أي: أنَّ الهمزةَ الدَّاخلةَ على الفعلِ المضارعِ دلَّتْ على إنكارِ عدمِ العلمِ، وذلكَ أنَّ أصلَ الكلامِ قبلَ دخولِ الهمزةِ: (لمْ تعلمْ...) ومعنى هذهِ الجملةِ منكرٌ، فلمَّا دخلتِ الهمزةُ كانتْ لإنكارِه، ومؤدَّى الإنكارِ أنْ يُقرَّ المخاطَبُ بمضمونِ عكسِه، وبهِ تلتقِي أقوالُ المفسِّرينَ بهذا التَّوجيهِ.

فائدةُ التِّكرارِ اللفظيّ:

توجيهُ العلمِ إلى معلومٍ واحدٍ؛ فالقدرةُ المطلقةُ علَّةُ الملكِ المطلقِ

جاءَ قولُه تعالَى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ﴾ في فاصلةِ الآيةِ السَّابقةِ، وصدرِ الآيةِ اللَّاحقةِ، وهذا التّوالي اللفظيّ ألجأَ المفسِّرينَ إلى توجيهِه بما يُبعدُ عنه شبهةَ التَّكرارِ المحضِ، وخُلاصةُ قولِهم بأنَّ الآيةَ الأولى جاءَ فيها تقريرُ قدرةِ اللّٰهِ تعالَى، والثَّانيةَ جاءَ فيها تقريرُ ملكِ السَّماواتِ والأرضِ للّٰهِ وحدَه، ولو كانَ في الآيتينِ تكرارٌ حقيقيّ؛ لكانَ الملكُ هوَ القدرةُ، ولكانَ تكرارًا لفظيًّا من غيرِ فائدةٍ[2]، والملكُ دليلُ القدرةِ ونتيجةٌ من نتائجِه، إذِ القدرةُ سابقةٌ له[3]؛ "لأنَّ الّذي يكونُ لهُ ملكُ السَّماواتِ والأرضِ، لا جرمَ أنْ يكونَ قديرًا على كلِّ شيءٍ"[4]، فالقدرةُ المطلقةُ علّةُ الملكِ المطلقِ.

(1) الآلوسي، روح المعاني: 1/353.
(2) الرازيّ، مفاتيح الغيب: 3/253.
(3) البيضاويّ، أنوار التنزيل: 1/99.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/665.

سرُّ التعبيرِ بلفظِ الجلالةِ وإيثارُه على الضميرِ:

في قولِه تعالَى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ عبّرَ بالاسمِ الظاهرِ وهو لفظُ الجلالةِ ﴿ٱللَّهَ﴾، وآثرَه على الضميرِ العائدِ عليهِ سبحانَه، فقالَ: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، ولمْ يقلْ (ألمْ تعلمْ أنّ له ملكَ السماواتِ والأرضِ) معَ إمكانِ ذلكَ لغةً ونظماً؛ وذلكَ لتربيةِ المهابةِ في النفوسِ؛ ولأنّه الاسمُ العلمُ الجامعُ لسائرِ الصفاتِ، ففي ضمنِه كونُه صفةَ الملكِ، فهو أبلغُ في نسبةِ الملكِ إليهِ من الضميرِ[1]؛ لأنّ الأصلَ في النظمِ الأسماءُ الظاهرةُ، وإنّما الضمائرُ عوضٌ منهَا.

قوّةُ التئامِ النَّظمِ بالسِّياقِ:

أثرُ التقديمِ في الاختصاصِ والتّشويقِ والتحسينِ الصّوتيّ

قُدِّم الجارُّ والمجرورُ في قولِه تعالَى: ﴿لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾، وهو تقديمٌ جائزٌ عربيَّةً، وأصلُ النَّظمِ: (ملكُ السماواتِ والأرضِ لهُ)؛ ولتقديمِه نكتتانِ بلاغيّتانِ، أمَّا الأولَى: فهي الاختصاصُ، أي: اختصاصُه بالملكِ دونَ سواهُ، وهو معنًى يُقرُّه السِّياقُ، وما أجملَ أنْ يلتئمَ النَّظمُ معَ دلالةِ السِّياقِ، وأمَّا الثَّانيةُ فهي التَّشويقُ، فإذا قرأَ القارئُ: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ﴾ تشوَّقَ السَّامعُ ليعرفَ ما لهُ، ولطيفةٌ لفظيَّةٌ ثالثةٌ وهي الجرْسُ الصَّوتيّ، فتأخيرُ ﴿لَهُۥ﴾ يختلفُ صوتًا عن تقديمِه.

سرُّ تقديمِ السّماواتِ على الأرضِ:

مكانةُ السَّماواتِ وأهميتُها وعظمتُها وكونُها أصلَ القرآنِ ومصدرَه

قُدِّمَ ذكرُ السَّماواتِ على الأرضِ لمجموعةٍ من الأسبابِ وهي:

أوّلًا: جريًا على عادةِ القرآنِ الكريمِ؛ فإنّ القرآنَ قدَّمَ ذكرَ السَّماواتِ على الأرضِ بما يزيدُ عن مئةِ آيةٍ، ولم يتأخَّرْ ذكرُها إلّا في آيتينِ لموجبٍ دلاليّ.

ثانيًا: أثرُ السِّياقِ في تقديمِها؛ فإنَّ السِّياقَ دالٌّ على نسخِ القرآنِ، والقرآنُ ونسخُه نازلٌ من السَّماءِ.

(1) الآلوسي، روح المعاني: 1/354.

ثالثًا: تقديمُ الأعظمِ والأعلَى، فالشأنُ أنْ يتقدَّمَ ذكرُ الأعظمِ والأعلَى مكانًا على غيرِه، إلّا إنْ كانَ هناكَ ما يوجبُ خلافَه.

رابعًا: التقديمُ للأهميةِ والقداسةِ، فالسماواتُ فيها العرشُ والكرسيّ، والأرواحُ تصعدُ إليها، وفيها الجنّةُ والنارُ، وسوى ذلكَ من الغيبياتِ.

توجيه المخصوصِ بالذِّكرِ:

عظمُ السَّماواتِ والأرضِ لاشتمالِهما سائرَ المخلوقاتِ

خصَّت الآيةُ "السَّماواتِ وَالأَرْضَ - بالملكِ -؛ لأنّهما من أعظمِ المخلوقاتِ الظاهرةِ، ولأنّ كلَّ مخلوقٍ لا يخلُو عن أنْ يكونَ في إحدى هاتينِ الجهتينِ؛ فكانَ في الاستيلاءِ عليهما إشارةٌ إلى الاستيلاءِ على ما اشتملا عليهِ"[1].

بلاغةُ عطفِ الجملةِ على الجملةِ:

إلحاقُ المعنويِّ المتصوَّرِ بالماديِّ المقطوعِ به

عُطِفَ قولُه تعالَى: ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ١٠٧﴾ على "الجملةِ الواقعةِ خبرًا لـ﴿أَنَّ﴾ داخلٌ معهَا حيثُ دخلتْ"[2]، ومقتضَى العطفِ ضرورةَ أنْ يعلمَ المخاطَبُ بأنَّه لا وليَّ ولا ناصرَ لهُ أحدٌ من دونِ اللّهِ سبحانَه، كما علمَ أنَّه لا مالكَ للسماواتِ والأرضِ أحدٌ سوى اللّهِ تعالَى سواءً بسواءٍ، وتظهرُ بلاغةُ العطفِ في تنزيلِ العلمِ بانتفاءِ الولايةِ والنصرةِ عن جميعِ المخلوقاتِ، منزلةَ ملكِ السماواتِ والأرضِ للّهِ وحدَه، وهذا أبلغُ في بيانِ المقصودِ بإلحاقِ المعنويّ المتصوَّرِ بالماديّ المسلَّمِ به.

نكتةُ تقديمِ الوليّ على النصيرِ:

قربُ الوليِّ وسهولةُ حالِهِ في الشفاعةِ والقيامِ بالأمورِ

قُدِّمَ الوليُّ على النَّصيرِ لسببينِ اثنينِ:

الأوَّل: القربُ؛ فالوليُّ أقربُ من النَّصيرِ، إذْ به تقومُ الأمورُ والأحوالُ، ثمّ يكونُ النصيرُ في أحوالِ النصرةِ والتأييدِ، والمعنى:

(1) الآلوسي، روح المعاني: 1/353.

(2) الآلوسي، روح المعاني: 1/351.

"وليسَ لكم، أيّها المؤمنونَ، بعدَ اللّهِ من قيّمٍ بأمرِكم، ولا نصيرٍ فيؤيِّدُكم ويقوِّيكُم، فيعينُكم على أعدائِكم"[1].

الثاني: السهولةُ؛ "لأنّ الركنَ الشديدَ الّذي يستندُ إليهِ، إمّا وليّ يشفعُ أو ناصرٌ يدفعُ، والأولُ أسهلُ الطريقينِ فلذلكَ قدّمَ الوليّ على النصيرِ"[2].

بلاغةُ الاحتراسِ:

نـفـيُ أوهـامِ الأفهامِ أن يكون نـصيرٌ مـن دون الله

عطفَتِ الآيةُ النصيرَ على الوليّ في قولِه: ﴿وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ - والعطفُ يقتضِي المغايرةَ -؛ للاحتراس[3]؛ فالوليّ "قد يضعُفُ عن النُّصرةِ، والنصيرُ قد يكونُ أجنبيًّا من المنصورِ"[4] فلحصولِ التكاملِ بينَ ولايةِ الوليّ ونصرةِ النصيرِ عطفَ الواحدَ على الآخرِ "لأنّ نفيَ الوليّ لا يقتضِي نفيَ كلّ نصيرٍ إذْ لا يكونُ لأحدٍ وليّ لكونِه دخيلاً في قبيلةٍ، ويكونُ أنصارُه من جيرتِه"[5]، فكمنتْ بلاغةُ الاحتراسِ في اكتمالِ المعاني، ونفي أيِّ ظنٍّ يردُ على الأذهانِ في نصرةِ أحدٍ من دونِ اللّهِ تعالى.

(1) ابن جرير، جامع البيان: 2/489.

(2) النيسابوري، غرائب القرآن: 5/380.

(3) الاحتراس: أن يأتي المتكلم بمعنًى فيه دخل وطعن، فيُفطن له؛ فيأتي بما يزيل ذلك الوهم ويخلّصه منه، القزويني، الإيضاح، ص: 192.

(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/235.

(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/695.

﴿أَمۡ تُرِيدُونَ أَن تَسۡـَٔلُواْ رَسُولَكُمۡ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبۡلُۗ وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلۡكُفۡرَ بِٱلۡإِيمَٰنِ فَقَدۡ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ١٠٨﴾

[البقرة: 108]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لـمَّا ذكرتِ الآياتُ السَّابقةُ النَّسخَ، وأنَّه بأمرِ اللّهِ تعالَى، كمَا أنَّ ملكَه ومخلوقاتِه هي بأمرِه، شرعَ في إنكارِ فعلٍ ذميمٍ صَدَرَ عن أصحابِ موسَى عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ؛ وهو سؤالُهم موسَى الكفرَ، وطلبُهم منه أن يتّخذَ لهم إلهًا من دون اللّه، وهذا القولُ وإنْ لـمْ يصدُرْ عن المخاطبينَ، إلّا أنَّ ردعَهم وزجرَهم بعدَ ذكرِ النَّسخِ هو المناسبُ للمقامِ، منعًا من التَّأثرِ بأقوالِ الكفرةِ فيما قالوهُ في شأنِ النَّسخِ، فكانتِ الإشارةُ إلى أمرٍ أعظمَ من ذلكَ بكثيرٍ إشعارًا بخُطورةِ اتِّباعِ شبهاتِهم ومطاعنِهم؛ فإنَّها قد توصلُ إلى ما وصلَ إليهِ أولئكَ من استبدالِ الكفرِ بالإيمانِ؛ فوقعتْ هذهِ الآيةُ موقعَ التَّمثيلِ الاحترازيّ، وهو في غايةِ البلاغةِ في المحافظةِ على أبعادِ الخطابِ القرآنيّ في تقريرِ الأحكامِ النَّازلةِ.

قال الفخر الرّازي في المسألة الخامسة في بيان وجه المناسبة: "ذَكَرُوا في اتِّصالِ هَذِهِ الآيَةِ بِما قَبْلَها وُجُوهًا:

أحَدُها: أنَّهُ تَعالى لَمّا حَكَمَ بِجَوازِ النَّسْخِ في الشَّرائِعِ، فَلَعَلَّهم كانُوا يُطالِبُونَهُ بِتَفاصِيلِ ذَلِكَ الحُكْمِ فَمَنَعَهُمُ اللَّهُ تَعالى عَنْها، وبَيَّنَ أنَّهم لَيْسَ لَهم أنْ يَشْتَغِلُوا بِهَذِهِ الأسْئِلَةِ كَما أنَّهُ ما كانَ لِقَوْمِ مُوسى أنْ يَذْكُرُوا أسْئِلَتَهُمُ الفاسِدَةَ.

وثانِيها: لَمّا تَقَدَّمَ مِنَ الأوامِرِ والنَّواهِي، قالَ لَهم: إنْ لَمْ تَقْبَلُوا ما أمَرْتُكم بِهِ وتَمَرَّدْتُمْ عَنِ الطّاعَةِ، كُنْتُمْ كَمَن سَألَ مُوسى ما لَيْسَ لَهُ أنْ يَسْألَهُ؛ عَنْ أبِي مُسْلِمٍ.

وثالِثُها: لَمّا أمَرَ ونَهى، قالَ: أتَفْعَلُونَ ما أُمِرْتُمْ، أمْ تَفْعَلُونَ كَما فَعَلَ مَن قَبْلَكم مِن قَوْمِ مُوسى ؟"[1].

(1) الرازي، مفاتيح الغيب: 3/255.

شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

1) ﴿تُرِيدُونَ﴾: فعلٌ مضارعٌ، مِن أرادَ يريدَ إرادةً، وأصلُه من رَوَدَ، وهو على ذلكَ جذرُه اللغويّ، وأصلُ معناهُ "تقدّمٌ أو نتوءٌ واتجاهٌ إلى غايةٍ أو حدٍّ معيّنٍ"[1]، "ومن ذلكَ المعنى الإرادةُ: المشيئةُ؛ وهي ذهابُ النفسِ إلى الشيءِ طلبًا ورغبةً قويةً في تحصيلِه، ومنه: أرادَ الشيءَ: أحبّه وعُنِي بهِ"[2].

"والإِرَادَةُ منقولةٌ من رَادَ يَرُودُ: إذا سعَى في طلبِ شيءٍ، والإِرَادَةُ في الأصلِ: قوّةٌ مركّبةٌ من شهوةٍ وحاجةٍ وأملٍ"[3]، والمعنى في الآيةِ رغبتُهم في سؤالِ الرسولِ ﷺ.

2) ﴿تَسْـَٔلُوٓاْ﴾: فعلٌ مضارعٌ من الأفعالِ الخمسةِ حذفتِ النونُ منه للجزمِ، أصلُه (تسألونَ)، الماضي المجردُ منه (سألَ) وهو جذرُه اللغويّ، والأصلُ في معناهُ "استخراجُ ما في حوزةٍ أخرَى؛ أي طَلَبُ تحصيلِه بَدفْعٍ أو حثٍّ: كما تخرجُ الصدقةُ والدرهمُ من المسؤولِ"[4].

والسؤالُ "استدعاءُ معرفةٍ، أو ما يؤدّي إلى المعرفةِ، واستدعاءُ مالٍ، أو ما يؤدّي إلى المالِ، فاستدعاءُ المعرفةِ جوابُه على اللّسانِ ... واستدعاءُ المالِ جوابُه على اليدِ"[5].

وله غيرُ نوعٍ في المتعدّي، "والسُّؤَالُ إذا كانَ للتّعريفِ تعدّى إلى المفعولِ الثاني تارةً بنفسِه، وتارةً بالجارّ، تقولُ: سألتُه كذا، وسألتُه عن كذا، وبكذا، وبـ: (عن) أكثرَ"[6].

والفعلُ ههنا متعدٍّ بحرفِ الجرِّ، والمرادُ هنا الاستخبارُ؛ أي طلبُ معرفةِ الخبرِ في أمرٍ ما.

3) ﴿رَسُولَكُمْ﴾ اسمٌ على وزنِ (فَعُول)، من الجذرِ اللغويّ (رسل) فعلٌ ماضٍ، المجرَّدُ منه (أرسلَ)، والجذرُ اللغويّ له (رسل)، وأصلُ المعنى "يدلُّ على الانبعاثِ والامتدادِ، فـ: (الرَّسلُ) السيرُ السهلُ"[7]، و"يُقالُ ناقةٌ رَسْلَةٌ، سهلةُ السّيرِ، وإبلٌ

(1) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (رود).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (رود).
(3) الراغب، المفردات: (رود).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (سأل).
(5) الراغب، المفردات: (سأل).
(6) الراغب، المفردات: (سأل).
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة (رسل).

مَرَاسِيلُ، مُنبعثةٌ انبعاثًا سهْلًا، وأرسلناكَ: بمعنَى جعلناكَ رسولاً من عندِنا للناسِ، أي: أنتَ الرَّسولُ المُنبعثُ"[1]، فالرّسولُ هو المبعوثُ من اللّهِ تعالى إلى خلقِه.

4) ﴿قَبۡلُ﴾: اسمٌ من الأسماءِ الملازمةِ للإضافةِ، جذرُه اللغويّ (قبل) وهو صالحٌ للظرفيةِ الزمانيةِ والمكانيةِ، و"القافُ والباءُ واللَّامُ أصلٌ واحدٌ صحيحٌ تدلُّ كلمهُ كلُّها على مواجهةِ الشَّيءِ للشَّيءِ"[2]، وله معانٍ كثيرةٌ جدًا تنتمِي لهذا الأصلِ، أمّا قبلَ المذكورِ في الآيةِ ففيه إشارةٌ إلى التقدّمِ الزمانيّ، وهو "يستعملُ في التّقدّمِ المتّصلِ والمنفصلِ، ويضادّه بعدَ"[3] وقد "حملَ اللفظُ معنَى الأوّليةِ والسَّبقِ؛ لأنّ ما هو قَبْلَ الشيءِ سابقٌ له ومتقدّمٌ عليهِ"[4].

5) ﴿يَتَبَدَّلِ﴾: فعلٌ مضارعٌ على وزنِ (يتفعّلُ)، الماضِي منه (تَفَعّلَ) مزيدٌ بالتاءِ والتضعيفِ، وهو فعلٌ ثلاثيّ مزيدٌ، جذرُه اللغويّ (بدل) والأصلُ في معناه "قيامُ الشيءِ مقامَ الشيءِ الذاهبِ، يقالُ: هذا بدلُ الشيءِ وبديلُه، ويقولونَ: بدّلتُ الشيءَ: إذا غيّرتُه، وإنْ لمْ تأتِ له ببدلٍ"[5].

و"الإبدالُ والتَّبديلُ والتَّبَدُّلُ والاستبدالُ جعلُ شيءٍ مكانَ آخرَ ... والتبديلُ قد يقالُ للتغييرِ مطلقًا، وإنْ لمْ يأتِ ببدلِه[6]، والمعنى في الآيةِ: أنّهم يجعلونَ الكفرَ مكانَ الإيمانِ، وهو من سوءِ صنيعِهم.

ويقولُ النحويونَ إنّ هذا الفعلَ يتحوّلُ منْ هيئةٍ إلى هيئةٍ أخرى[7] أيْ يتحوّلُ ويتغيّرُ وينقلبُ، وفيهِ معنى الاشتراءِ، أيْ يشتري الكفرَ بالإيمانِ، كمنَ يدفعُ مالاً، وهو هنا الإيمانُ، ويأخذَ سلعةً، وهيَ هنا الكفرُ، وبئستِ السلعةُ هيَ.

6) ﴿ٱلۡكُفۡرَ﴾: مصدرُ كفرَ يكفرُ، وجذرُهُ اللغويّ (كفر) ولهُ أصلٌ واحدٌ "يدلُّ على معنى واحدٍ، وهو السترُ والتغطيةُ، يقالُ لمنْ غطّى درعَهُ بثوبٍ: قدْ كفرَ درعَهُ"[8]

(1) الراغب، المفردات: (رسل).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة (قبل).
(3) الراغب، المفردات: (قبل).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (قبل).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بدل).
(6) الراغب، المفردات: (بدل).
(7) المبّرد، المقتضب: 1/78.
(8) ابن فارس، مقاييس اللغة: (كفر).

"ووصفُ اللّيلِ بالكافرِ لسترِه الأشخاصَ، والزّرّاعَ لسترِه البذرَ في الأرضِ"[1] ومعنى الكفرِ في الآيةِ "جُحُودُ الوحدانيّةِ أو الشّريعةِ أو النّبوّة"[2]؛ لأنّ الكافرَ غطّى على الحقّ والدِّينِ وسترَ عليهِ[3].

7) ﴿بِٱلۡإِيمَٰنِ﴾: مصدرُ آمنَ يؤمنُ، وجذرُه من الهمزةِ والميمِ والنونِ، وهي تدلُّ على سكونِ القلبِ وتصديقِه[4]وأصلُ الأمنِ طمأنينةُ النَّفْسِ وزوالُ الخوفِ[5] وفعلُه: أمنَ.

أمّا آمنَ فلهُ وجهانِ[6].

أحدُهما: أنْ يكونَ متعديًا، تقولُ: آمنتُه إذا جعلتَ له الأمنَ والأمانَ، ومنه –في وجهٍ[7]: اسمُ اللّهِ المؤمنِ.

والآخرُ: أنْ يكونَ لازمًا، ومعنى (آمنَ) على هذا: صارَ ذا أمنٍ.

والإيمانُ: التصديقُ باتّفاقِ أهلِ اللغةِ[8] ونازعَ في هذهِ الحقيقةِ اللغويةِ جماعةٌ[9]، والإيمانُ في الشرعِ يطلقُ إطلاقينِ[10]:

إطلاقًا عامًا تندرجُ فيه جميعُ أمورِ الدينِ العلميةِ والعمليةِ، فهو بهذا الاعتبارِ قولٌ وعملٌ واعتقادٌ.

وإطلاقًا خاصًا، والمرادُ بهِ التصديقُ والإقرارُ بأصولِ الإيمانِ السِّتةِ المشهورةِ، الواردةِ في الحديثِ الطويلِ، وفيه: "أَنْ تُؤْمِنَ بِاللّهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكِتَابِهِ، وَلِقَائِهِ، وَرُسُلِهِ، وَتُؤْمِنَ بِالبَعْثِ الآخِرِ"[11].

---

(1) الرّاغب، المفردات: (كفر).
(2) الرّاغب، المفردات: (كفر).
(3) السمين، عمدة الحفّاظ: (كفر).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أمن).
(5) الرّاغب، المفردات: (أمن).
(6) الرّاغب، المفردات: (أمن).
(7) الزجاج، تفسير أسماء الله الحسنى، ص: 31 - 32.
(8) الأزهري، تهذيب اللغة: 15/368، وهذا الاتفاق إنما هو في الحقيقة اللغوية للإيمان، أما معناه في الشرع فليس هو معناه في اللغة، بل له في الشرع حقيقة أخرى أوضحتها الأدلة.
(9) ابن تيمية، الإيمان، ص: 101، وما بعدها.
(10) عبد الرحمن البراك، شرح العقيدة الطحاوية، ص: 293.
(11) رواه مسلم، حديث رقم: (9).

والإيمانِ في الآيةِ "مَعْنَاهُ التَّصْدِيق الَّذِي هُوَ نقيض الكفْر"[1].

8) ﴿ضَلَّ﴾: فعلٌ ماضٍ، ويسمّى مضعَّفَ الثلاثيّ، أصلُه (ضلل)، وهيَ أحرفُ جذرِه، والأصلُ في معناهُ "ضياعُ الشيءِ، وذهابُه في غيرِ حقّه"[2].

"والضّلالُ ضدّ الهدَى، وضلّ في الأَمرِ ضلالاً إِذَا لمْ يهتدِ لَهُ، وضلّ في الأَرْضِ ضلالاً إِذا لمْ يهتدِ للسّبيلِ"[3].

والمقصودُ في الآيةِ: "العدولُ عن الطريقِ المستقيمِ؛ ويضادّهُ الهدايةُ"[4].

9) ﴿سَوَآءَ﴾: اسمٌ على وزنِ (فَعَال)، جذرُه اللغويّ من (سوي)، والأصلُ في معناهُ أنْ يدلّ "على استقامةٍ واعتدالٍ بينَ شيئينِ، يقالُ: هذَا لا يساوِي كذا، أيْ: لا يعادلُه، وفلانٌ وفلانٌ على سويّةٍ من هذا الأمرِ، أيْ: سواءٌ"[5].

"وَسَوَاء الشَّيْء وَسطُه ... وَوضعتُ الشَّيْءَ في سَوَاءِ كمِي؛ أَيْ: في وَسطِه"[6] ويمكنُ أنْ يكونَ السّواءُ هو القصدُ؛ لأنّ ابنَ قتيبةَ فسّرَ اللّفظةَ في الآيةِ بقولِه: "سَوَاءَ السَّبِيلِ، أيْ: قصدَ الطريقِ ووسطِه"[7].

ويوصفُ المكانُ بالسواءِ كنايةً عنْ عدلِه وتوسطِه بينَ الفريقينِ، والمرادُ في الآيةِ أنّهمْ ضلّوا عن وسطِ الطريقِ، فإذا كانُوا كذلكَ فهمْ لغيرِه أضلّ.

10) ﴿ٱلسَّبِيلِ﴾: اسمٌ على وزنِ (فَعِيل)، جذرُه اللغويّ من (سبل)، ولهُ أصلٌ واحدٌ "يدلّ على إرسالِ شيءٍ من علوّ إلى سفلٍ، وعلى امتدادِ شيءٍ ... والممتدُّ طولاً: السبيلُ، وهو الطريقُ؛ سمّيَ بذلكَ لامتدادِه"[8].

والسبيلُ "كلّ مأتيّ إِلَى الشَّيْءِ فهو سَبيلُه"[9] وقدْ وردَ كثيرًا في القرآنِ الكريمِ،

(1) الكفوي، الكليات، ص: 212.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ضلل).
(3) ابن دريد، جمهرة اللغة: (ضلل).
(4) الراغب، المفردات: (ضلل).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سوي).
(6) ابن دريد، جمهرة اللغة: (سوأ).
(7) ابن قتيبة، غريب القرآن: 141.
(8) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سبل).
(9) الكفوي، الكليات، ص: 494.

والغالبُ في معانيهِ أنّهُ بمعنَى الطريقِ[1]؛ وهو يذكّرُ ويؤنّثُ، وجمعُه على السُّبلِ، والسبيلُ في الآيةِ بمعناهُ المجازيّ[2] أيّ طريقُ الهدايةِ والإيمانِ، وليسَ الطريقَ بمعناهُ الموضوعِ في لسانِ العربِ.

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

تضمَّنتِ الآيةُ نصحًا وإرشادًا من الحقّ تباركَ وتعالَى إلى المسلمينَ أن يتّبعُوا الرسولَ ﷺ فيما يأمرُهم بهِ، وأنْ ينتهُوا عمّا ينهاهُم عنهُ، وأنْ لا يكونُوا كقومِ موسَى عليه السلام بسؤالاتِهم التي يطلبونَ فيهَا أمورًا فوقَ ما جاءَهم، ثمّ عقّبَ ذلكَ بأنْ أخبرَهم أنّ تركَ الآياتِ البيناتِ وطلبَ غيرِها تعنّتًا وعنادًا هو كمنْ يختارُ الكفرَ، ويتركُ الإيمانَ، ويستحبُّ العمَى على الهدَى، فيضلُّ عن طريقِ الحقِّ، ومَنْ ضلَّ عن وسطِه الواضحِ فهو لغيرِه أضلُّ وأعمَى.

❁ الإِيضاحُ اللُّغويُّ والبلاغيُّ:

تضمينُ (أمْ) معنَى الإضرابِ والاستفهامِ:

فصاحةُ الانتقالِ من الخطابِ التقريريّ إلى الخطابِ التحذيريّ بـ (أمْ)

تحتملُ ﴿أَمْ﴾ الاتّصالَ والانقطاعَ، فإذا حملناهَا على الاتّصالِ؛ فلا بدّ من تقديرِ محذوفٍ معلومٍ من السياقِ، فكأنَّه قيلَ: أيُّ الأمرينِ من عدمِ العلمِ بمَا تقدَّمَ ذكرُه، أو العِلْمِ بما تقدَّمَ مع اقتراحِ السؤالِ واقعٌ منكُم؟ والاستفهامُ حينئذٍ يكونُ للإنكارِ؛ بمعنَى: لا ينبغِي أنْ يكونَ شيءٌ منهمَا بتاتًا[3]، فهذا معنَى أنْ تكونَ ﴿أَمْ﴾ متصلةً.

ومعنَى الانقطاعِ هو الإضرابُ أيْ: "بلْ أتريدونَ، فهو استفهامٌ منقطعٌ عمّا قبلَه"[4]، والانقطاعُ أقوَى دلالةً من الاتصالِ، ومعنَى الكلامِ على الاحتمالينِ:

توصيةُ المسلمينَ بالثقةِ بالقرآنِ وبالرسولِ، وعدمِ الاستماعِ للطَّاعنينَ، وفي هذهِ

(1) السمين، عمدة الحفّاظ: (سبل).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (سبل).
(3) الآلوسي، روح المعاني: 1/354.
(4) الواحديّ، الوسيط: 1/191.

التوصيةِ كمالُ المبالغةِ والبلاغةِ حتّى كأنّهم بصددِ الإرادةِ فنهُوا عنهَا، فضلًا عن السؤالِ، يعنِي: من شأنِ العاقلِ ألاّ يتصدّى لإرادةِ ذلكَ[1].

وتحتملُ أنْ تكونَ للعطفِ "على قولِه: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ﴾ وتقديرُه: ألمْ تعلمُوا ذلكَ، أم لمْ تعلموُا فتسألُوا رسولَكم"[2]، وجعلَها بعضُ المفسرينَ استفهامًا فحسب، على نيَّةِ إسقاطِ الميمِ، أيْ: أتريدونَ[3].

ومعنَى الإضرابِ والاستفهامِ وجيهٌ حاضرٌ، فـ "إنَّ ﴿أَمْ﴾ هذهِ منقطعةٌ للإضرابِ عنْ عدمِ علمِهمْ بالسّابقِ إلى الاستفهامِ عنِ اقتراحهمْ، فهيَ تتضمّنُ الإضرابَ والاستفهامَ معًا"[4].

ومعنَى الاستفهامِ متوجّهٌ إلى الإرادةِ؛ لأنّه أردفَ الاستفهامَ بالفعلِ (تريدونَ) وهو أسلوبٌ قرآنيّ تعريضيّ بليغٌ؛ لأنّه إذَا "كانَ الاستنكارُ للإرادةِ، فهو للسؤالِ أشدّ؛ لأنّهُ إذا استنكرتَ ذاتَ الإرادةِ، فالأوْلى يكونُ للفعلِ"[5] والإرادةُ تسبقُ الفعلَ؛ فعُلمَ أنّه أرادَ أنْ يحذّرهُم من ذلكَ ابتداءً.

فائدةُ استعمالِ المصدرِ المؤوَّل:

تبرئةُ المؤمنينَ من تهمةِ السّؤالِ في الحاضرِ، وتحذيرُهُم في المستقبلِ

آثرَ النَّظمُ الكريمُ التَّعبيرَ بالمصدرِ المؤوَّلِ، لا بالمصدرِ الصريحِ لمفعولِ ﴿تُرِيدُونَ﴾؛ وذلكَ لبيانِ أنَّ المُخاطَبينَ لم يسألوهُ بعدُ، وإنَّما هوَ على التوقّعِ مستقبلاً، بدلالةِ ﴿أَن﴾ المصدريةِ المخلّصةِ للاستقبالِ؛ ليدفعَ عنهم مغبَّةَ الوقوعِ في الزَّمنِ الحاضرِ، ويحذّرَهم من إيقاعِه في المستقبلِ.

إيثارُ نعتِ الرّسالةِ على النّبوّةِ:

التَّحذيرُ في السّؤالِ هو عمَّا يتعلّق بالقرآنِ، لا بشخصِ الرَّسولِ

في قولِه تعالَى: ﴿رَسُولَكُمْ﴾ آثرتِ الآيةُ الإتيانَ بنعتِ الرِّسالةِ، فلمْ يُقلْ: (نبيكم)؛ وذلكَ لأنّ الاقتراحَ المحذَّرَ منه هو فيما يتعلَّقُ

(1) الآلوسي، روح المعاني: 1/354.
(2) الراغب، تفسير الراغب: 1/289.
(3) البغويّ، معالم التنزيل: 1/135.
(4) محمد رشيد رضا، تفسير القرآن الحكيم: 1/343.
(5) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 1/358.

بالرِّسالةِ، أيْ: القرآن، وهو ما يعنِي أنَّ سؤالَ قومِ موسَى لهُ عليهِ الصَّلاةُ والسّلامُ كانَ فيما يتعلّقُ برسالتِه لا بشخصِه، ولا بذاتِ نبوَّتِه، وهو ما يدلُّ على أثرِ اختيارِ الألفاظِ في بيانِ المعانِي.

نكتةُ إضافةِ رسول إلى ضميرِ المخاطبين:

أُضيفَ رسولُ في قولِه تعالَى: ﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُواْ رَسُولَكُمْ﴾ إلى ضميرِ المخاطَبينَ؛ لزيادةِ تبشيعِ فعلِ السّؤالِ؛ فهو رسولُكم الذي تعرفونَه في حرصِه عليكم، وحبِّه لكم، ورحمتِه بكم؛ فهو يخاطبُهم مستنكرًا صُدُورَ سؤالٍ يُشابِه سؤالَ بني إسرائيلَ موسَى عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ؛ لأنَّهُ سؤالٌ لمْ يقمْ على الحقِّ، بلْ على الهوَى واتِّباعِ غوايةِ النَّفسِ، فالاستنكارُ ليسَ لذاتِ السُّؤالِ بل لمشابهةِ السُّؤالِ للسؤالِ، وهذا من بلاغةِ التَّشبيهِ القرآنيِّ في إبرازِ المعانِي القرآنيَّةِ، ففيهِ تحذيرٌ في مشابهةِ منهجِ بني إسرائيلَ في التَّعاملِ مع رسولِ اللّهِ ﷺ.

التَّحذيرُ من مشابهةِ منهجِ بني إسرائيلَ في سؤالِهم لرسلِهم

بلاغةُ القرآنِ في استعمالِ الحروفِ:

استعملتِ الآيةُ القرآنيّةُ حرفَ ﴿مَا﴾ دونَ المصدرِ، فلمْ يُقل: "كسؤالِ"، ودونَ الاسمِ الموصولِ؛ فلمْ يُقل: "كالذي سُئلَ"، وكلاهُما محتملٌ؛ وهيَ إلى المصدريةِ أقربُ، ولمعناها أوقعُ؛ للذّهابِ في معنى العمومِ؛ لأنَّ المصدرَ يوحِي بنوعِ تحديدٍ للمسؤولِ، والاسمُ الموصولُ أشدُّ تحديدًا، فأُوثرَ حرفُ ﴿مَا﴾ ليكونَ الأمرُ عامًّا؛ ولينصبَّ التَّشبيهُ على المنهجِ لا على سؤالٍ بذاتِه، فأيُّ سؤالٍ من شأنِه أنْ يحومَ حولَ المحذورِ فمنهيٌّ عنهُ، وهذا أبلغُ في النَّهيِ من التَّعبيرِ بالمصدرِ أو الموصولِ، وهي إلى المصدريّةِ أدنَى؛ "لأنَّ المشبّهَ ﴿أَن تَسْـَٔلُواْ﴾ وهو مصدر، فالظَّاهرُ أنَّ المشبَّهَ به كذلكَ، وقُبْحُ السّؤالِ إنَّما هوَ لقبحِ المسؤولِ عنهُ، بل قد يكونُ السّؤالُ نفسهُ قبيحًا في بعضِ الحالاتِ، معَ أنَّ المصدريّةَ لا تحتاجُ إلى تقديرِ رابطٍ؛ فهو أولَى"[1].

التَّحذيرُ لا يقتصرُ على ذاتِ السّؤالِ بل يتعدَّاهُ إلى المنهجِ

(1) الآلوسي، روح المعاني: 1/355.

أثرُ الصّيغةِ في بيانِ المعاني:

التَّشنيعُ على السَّائلينَ بصونِ المقامِ من ذكرِهم، زيادةً في التَّحذيرِ من صنيعِهم

عبَّرتِ الآيةُ عن السّؤالِ بصيغةِ الفعلِ المبنيِّ للمفعولِ ﴿سُئِلَ﴾، "ولمْ يقلْ سبحانَه: كمَا سألَ أمَّةُ موسَى عليه السلام؛ للإشارةِ إلى أنَّ مَن سألَ ذلكَ يستحقُّ أنْ يُصانَ اللسانُ عن ذكرِه"[1]، ثمّ إنّ تمثيلَ الحقّ تباركَ وتعالَى سؤالَ هؤلاءِ بسؤالِ أولئكَ لموسَى عليه السلام، فيه تبكيتٌ وتقريعٌ لهم؛ فقولُه: ﴿كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ﴾ أيْ: لا تفعلُوا هذا الفعلَ، وفي ذلكَ تشنيعٌ لحالِ السَّائلينَ، بما يزيدُ من شدَّةِ التَّحذيرِ من صنيعِهم.

فائدةُ ذكرِ الظَّرفِ:

زيادةُ التَّشنيعِ، وإطلاقُ عنانِ الفكرِ في استيضاحِ المقصودِ

لسائلٍ أنْ يسألَ عن السِّرِّ في ذكرِ ﴿قَبْلُ﴾؛ فلمْ يكتفِ النَّظمُ بقولِه: ﴿كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ﴾، والظَّرفُ مقصودٌ به زمنٌ معيَّنٌ معلومٌ، غيرُ محدَّدٍ بإضافةٍ[2]، وللمتلقِّي أنْ يقدِّرَ ألفاظًا متعدِّدةً تدلُّ على مجموعةٍ من المعاني، كأنْ يقدِّرَ: من قبلِ رسولِكم، أو من قبلِ نزولِ كتابِكم، أو من قبلِ ضلالِهم وكفرِهم، فالكلامُ وإن كانَ ظاهرُه الإطنابَ فجوهرُه الإيجازَ، فقولُه ﴿مِن قَبْلُ﴾ من بابِ الإطنابِ الذي يُرادُ منه التّشنيعُ عليهم، "ورُبّ كلامٍ يكونُ الإطنابُ فيه أبلغَ من الإيجازِ، وتصيرُ البساطةُ له كالعلَمِ والطرازِ)[3] ففائدةُ الإطنابِ هنا زيادةُ التشنيعِ عليهم؛ لأنّ غرضَهم من سؤالاتِهم التعنّتُ واللّجاجُ، وليسَ الاستيضاحَ وطلبَ الاحتجاجِ، ويعزِّزُه قولُ رسولِ اللّهِ ﷺ: «ذَرُونِي مَا تَرَكْتُكُمْ، فَإِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِكَثْرَةِ سُؤَالِهِمْ، وَاخْتِلَافِهِمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ»[4]، إن لم يكنْ قولُه أُخِذَ من معينِ الآيةِ.

(1) الآلوسي، روح المعاني: 1/354.
(2) فاضل السامرائّي، معاني النحو: 3/139-140.
(3) العلوي، الطراز: 2/96.
(4) البخاري، الجامع المسند الصحيح، حديث رقم: (7288).

وجهُ الاتّصالِ بينَ الجُملِ:

اتِّحادُ الجملتينِ في تعيينِ السببِ والنَّتيجةِ في حكمٍ واحدٍ

إمَّا أنْ نحملَ الواوَ في قولِه تعالَى: ﴿وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلۡكُفۡرَ بِٱلۡإِيمَٰنِ فَقَدۡ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ على العطفِ أو الاستئنافِ، فمعنَاها على العطفِ: الاشتراكُ بينَ أسئلةِ التَّعنتِ واللّجاجةِ، وتبديلُ الكفرِ بالإيمانِ في حكمٍ واحدٍ، وهو ما يُعيِّن أنَّ الأسئلةَ في مضمونِها تقودُ إلى الكفرِ، وما قادَ إلى الكفرِ فهو كفرٌ؛ فهيَ لتأكيدِ النَّهي عن الاقتراحِ المفهومِ من قولِه: ﴿أَمۡ تُرِيدُونَ﴾، فهيَ تذييلٌ له باعتبارِ أنَّ المُقترحينَ الشَّاكّينَ من جملةِ الضَّالّينَ الطّريقَ المستقيمَ المتبدِّلين[1].

ومعناها على الاستئنافِ النّحويّ: إنشاءُ معنى جديدٍ؛ فإنّ تبديلَ الكفرِ بالإيمانِ مرتعُه وخيمٌ، وثمرتُه أن يتيهَ المرءُ الطَّريقَ الصَّحيحَ، وهذهِ حقيقةٌ مُستتبّةٌ؛ لذلكَ استأنفَ بها، وهي تصلحُ قاعدةً عامةً.

ومعنى العطفِ والاستئنافِ متدانيانِ، وإنْ كانَ من تقويةٍ فهي للعطفِ، إذْ به يظهرُ انسجامُ الكلامِ وائتلافُه؛ فهو يجعلُ مضمونَ الجملةِ شديدَ الارتباطِ بالسَّابقةِ، ويعيِّنُ السببَ والنتيجةَ بتنزيلِهما في منزلةِ الحكمِ الواحدِ، والاستئنافُ وإنْ كانَ قويًّا، إلَّا أنَّ حملَها على العطفِ أشدُّ قوَّةً، ذلكَ أنَّ العطفَ يحقِّق معنى الاستئنافِ وزيادةً، بخلافِ الاستئنافِ؛ فيقتصرُ على معنًى واحدٍ، وما تعدَّدتْ معانيهِ، مقدَّمٌ على ما انفردَ بأحدِها.

بلاغةُ الطِّباقِ:

بيانُ قبحِ الكفرِ في جانبِ جمالِ الإيمانِ

بينَ الكفرِ والإيمانِ في قولِه تعالى: ﴿وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلۡكُفۡرَ بِٱلۡإِيمَٰنِ﴾ طباقُ التضادِّ، فهما وإنْ كانَا على طرفيْ نقيضٍ، إلّا أنّ وجودَ أحدِهما بجانبِ الآخرِ في التركيبِ اللغويّ مما يخلعُ عليه نصاعةً بلاغيةً واضحةً، وبضدِّها تتبيَّنُ الأشياءُ، وفائدتُه تكمنُ في

(1) الآلوسي، روح المعاني: 1/355.

بيانِ قبحِ الكفرِ في جانبِ جمالِ الإيمانِ، وبيانُ شدَّة تعاسةِ الكافرِ وخسارتِه في إيثارِه الكفرَ على الإيمانِ.

معنى الباء في قوله ﴿بِٱلۡإِيمَٰنِ﴾:

تقاربُ معنيي البدلِ والمقابلةِ

تحتملُ الباءُ في قولِه تعالَى: ﴿وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلۡكُفۡرَ بِٱلۡإِيمَٰنِ﴾ معنيين؛ وهما: البدلُ والمقابلةُ، أمّا البدلُ فهو الذي يحسُنُ وضعُ لفظةِ (بدل) موضعَها؛ فالتقديرُ: (ومَن يتبدّلِ الكفرَ بدلَ الإيمانِ)، وأمّا المقابلةُ؛ وتسمّى العوضُ، فهيَ "الباءُ الداخلةُ على الأثمانِ والأعواضِ، نحو اشتريتُ الفرسَ بألفٍ"[1]، وقدْ جعلَ المفسرونَ معنَى التبدّلِ: الشِّراء، وهو ممّا يحسُنُ تفسيرُه هنا، والبدلُ والمقابلةُ معنيانِ متقاربانِ.

سرُّ التعبيرِ بـ: ﴿سَوَآءَ﴾:

التوبيخُ والتشنيع لمن يبيع إيمانه، وهو في وسط الطريق

قولُه تعالى: ﴿سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ يحتملُ أنْ يكونَ مفعولاً بهِ للضلالِ الصادرِ ممّن يتبدّلُ الكفرَ بالإيمانِ، ويحتملُ أن يكونَ مفعولاً فيه، أي: أنْ يكونَ ظرفًا منصوبًا، و"سواءَ ظرفٌ بمعنَى وسطِ السّبيلِ، وأعدلِه، والسّبيلُ يذكَّرُ ويؤنّثُ"[2] وقدْ أضيفَ إلى السبيلِ، وهو "الطريقُ الذي فيهِ سهولةٌ"[3] ولمّا كانَ هذا وصفَ الطريقِ، عُلمَ أنّ في هذهِ الآيةِ توبيخًا لمَن صدرَ منه ذلكَ أشدّ التوبيخِ والتشنيعِ لمَن يبيعُ إيمانَه، ويخطئُ طريقًا واضحًا فيه تيسيرٌ، بلْ ويخطئُ وسطَ الطريقِ، وما كانَ منهُ سهلاً يسيرًا، فكيفَ بمَنْ كانتْ سبيلُه شاقّة عسيرةً غيرَ معبّدةٍ، وهو يسيرُ على أطرافِها وأحرفِها، يخافُ أنْ تتخطّفَه النُّوبُ والحادثاتُ.

(1) المراديّ، الجنى الداني، ص: 41.
(2) العُكبريّ، التبيان: 1/104.
(3) عضيمة، دراسات لأسلوب القرآن الكريم: 3/24.

﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٩﴾﴾ [البقرة: 109]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

انتقلَ السِّياقُ من الحديثِ عن الظَّاهرِ القوليّ والفعليّ، إلى الباطنِ الحقيقيّ والعِلّيّ، فهو بيانٌ شارحٌ للتَّحذيرِ الواردِ في الآيةِ السَّابقةِ، وكشفٌ لحقائقِ النّفوسِ الخفيّةِ الدّسِّيَّةِ، وتوضيحٌ لحقيقةِ أسئلتِهم واقتراحاتِهم حولَ الرِّسالةِ، وتوضيحٌ لحقيقةِ أسئلتِهم واقتراحاتِهم حولَ الرِّسالةِ، وأنَّها قائمةٌ على وِدادِ ردَّة المؤمنينَ بعدَ إيمانِهم؛ بسببِ حسدِهم المتمكّنِ في نفوسِهم، لا أنَّها قناعاتٌ حقيقيّةٌ، بدليلِ: ﴿مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ﴾؛ فالآيةُ توضيحٌ وتبيينٌ وتعليلٌ لما سبقَ ذكرُه؛ لتمكينِ المؤمنينَ من الوقوفِ على حقائقِ الأشياءِ، وبواطنِ الأفعالِ؛ فيزدادُوا حذرًا ومُكنةً في مواجهةِ الباطلِ.

قال ابنُ عاشور في بيان وجه المناسبة: "مُناسَبَتُهُ لِما قَبْلَهُ أنَّ ما تَقَدَّمَ إخْبارٌ عَنْ حَسَدِ أهْلِ الكِتابِ وخاصَّةً اليَهُودَ مِنهم، وآخِرَتُها شُبْهَةُ النَّسْخِ، فَجِيءَ في هَذِهِ الآيَةِ بِتَصْرِيحٍ بِمَفْهُومِ قَوْلِهِ ﴿مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ الآيَةَ؛ لِأنَّهم إذا لَمْ يَوَدُّوا مَجِيءَ هَذا الدِّينِ الَّذي اتَّبَعَهُ المُسْلِمُونَ فَهُم يَوَدُّونَ بَقاءَ مَن أسْلَمَ عَلى كُفْرِهِ ويَوَدُّونَ أنْ يَرْجِعَ بَعْدَ إسْلامِهِ إلى الكُفْرِ، وقَدِ اسْتَطْرَدَ بَيْنَهُ وبَيْنَ الآيَةِ السّابِقَةِ بِقَوْلِهِ "ما نَنْسَخْ" الآياتِ لِلْوُجُوهِ المُتَقَدِّمَةِ؛ فَلِأجْلِ ذَلِكَ فُصِلَتْ هاتِهِ الجُمْلَةُ لِكَوْنِها مِنَ الجُمْلَةِ الَّتي قَبْلَها بِمَنْزِلَةِ البَيانِ إذْ هي بَيانٌ لِمَنطُوقِها ولِمَفْهُومِها"[1].

شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

1) ﴿وَدَّ﴾: فعلٌ ماضٍ مضعّفٌ ثلاثيّ، جذرُه (ودد)، والأصلُ فيها أنّها "كلمةٌ تدلّ على

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/669.

محبةٍ، وددتُه: أحببتُه، ووددتُ أنْ ذاكَ كانَ، إذا تمنّيتَه، أودّ فيهما جميعًا، وفي المحبّةِ الودّ، وفي التمنِي الودادةُ"[1].

ويفهمُ من ذلكَ أنّ له معنيينِ؛ الحبَّ والتّمنِّي "، ويستعملُ في كلّ واحدٍ من المعنيينِ، على أنَّ التّمنّي يتضمّنُ معنى الودّ، لأنّ التّمنّي هو تشهّي حصولِ ما تَوَدُّهُ"[2].

"الوُدُّ والوِدَادُ: الحُبُّ والصَّدَاقة، ثمَّ استُعِير للتَّمَنِّي، وقالَ ابنُ سِيدَه: الوُدُّ: الحُبُّ يكون في جَمِيعِ مَدَاخِل الخَيْرِ"[3]، والمراد في الآية: "تَمَنَّى وَأَرَادَ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ مِنَ اليَهُودِ"[4].

2) ﴿كَثِيرٌ﴾: اسمٌ على وزنِ (فَعِيل)، والجذرُ اللغويّ فيه (كثر)، والفعلُ منه كثرَ يكثرُ، وأصلُ معنَى الكثرةِ في لغةِ العربِ خلافُ القِلّة[5]، ومنه التّكاثر، وهو "المغالبةُ في الكثرةِ من الأشياءِ الدّنيويةِ كما تتغالبُ الجاهليةُ بكثرةِ أموالِها وأثاثِها"[6]، والمعنى في الآيةِ واضحٌ بيّنٌ في وصفهِم بالكثرةِ؛ فإنّ أكثرَ أهلِ الكتابِ لا يودّونَ الخيرَ للمسلمينَ.

3) ﴿أَهْلِ﴾: اسمٌ ثلاثيّ مجردٌ، جذرُه اللغويّ (أهل)، وهو اسمُ جمعٍ لا واحدَ لهُ من لفظِه بلْ من معناهُ، كرجلٍ وامرأةٍ، والهَمْزَةُ وَالهَاءُ وَاللَّامُ أَصْلَانِ مُتَبَاعِدَانِ، أَحَدُهُمَا الأَهْلُ، والآخر: الإهالة، وهي: الأَلْيَةُ وَنَحْوُهَا، ومن الأول: "أهلُ الرجلِ أخصُّ الناسِ به، وأهلُ البيتِ: سكانُه، وأهلُ الإسلام: من يدينُ بهِ"[7] وأهلُ الرجلِ "مَن يجمعُه وإياهُم نسبٌ أو دينٌ، أو ما يجري مجراهُما من صناعةٍ وبيتٍ وبلدٍ"[8]، ويتحدّد معنى أهل أنّها بحسبِ ما تضافُ إليهَا، وبحسبِ العلاقةِ، ومنهُ أهلُ الكتابِ، وهم المنتمونَ إلى الكتابِ المؤمنونَ بهِ[9].

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ودد).
(2) الراغب، المفردات: (ودد).
(3) الزبيدي، تاج العروس: (ودد).
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/136.
(5) ابن دريد، جمهرة اللغة: (كثر).
(6) السمين الحلبي، عمدة الحفّاظ: (كثر).
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أهل).
(8) الراغب، المفردات: (أهل).
(9) المعجم الاشتقاقي المؤصل: (أهل).

4) ﴿ٱلۡكِتَٰبِ﴾: اسمٌ على وزنِ (فِعَال) أحدُ أوزانِ المصادرِ، جذرُه الكافُ والتاءُ والباءُ، والأصلُ في ذلكَ ضمُّ الشيءِ إلى الشيءِ[1].

ويطلقُ الكتابُ على الخطِّ والكتابةِ، كما قالَ اللّهُ تعالى عن عيسَى عليه السلام: ﴿وَإِذۡ عَلَّمۡتُكَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ﴾ [المائدة: 110]، وقدْ يقالُ الكتابُ ويرادُ به المكتوبُ، من إطلاقِ المصدرِ وإرادةِ اسمِ المفعولِ، مثلُ الفِراشِ، ويرادُ به المفروشُ، والفِراشُ ويرادُ به المفروشُ، فالكتابُ هو الصحيفةُ التي كُتبَ فيها[2]، أمّا المقصودُ من الكتابِ في الآيةِ؛ فحيثُما "ذكرَ اللّهُ تعالَى أهلَ الكتابِ فإنّمَا أرادَ بالكتابِ التّوراةَ والإنجيلَ، أو إيّاهُما جميعًا"[3].

ويأتِي ﴿ٱلۡكِتَٰبِ﴾ في القرآنِ الكريمِ على أحدَ عشرَ وجهاً[4]، والمرادُ به هُنا التوراةُ والإنجيلُ.

5) ﴿يَرُدُّونَكُمۡ﴾: فعلٌ مضارعٌ من الأفعالِ الخمسةِ (يردّونَ)، ماضيه المجردُ (ردّ) مضعفُ الثلاثيّ، وجذرُه اللغويّ (ردد)، والأصلُ في معناهُ دلالتُه على "رجعِ الشَّيءِ، تقولُ رَدَدْتُ الشَّيءَ أَردّهُ ردًّا، وسمِّيَ المرتدُّ؛ لأَنَّهُ ردَّ نفسهُ إلى كفرِه"[5]، و"الرَّدُّ صرفُ الشيءِ بذاتِه، أو بحالةٍ من أحوالِه، يقالُ: رَدَدْتُهُ فَارْتَدَّ"[6].

ومعنَى اللفظةِ في الآيةِ "أيْ يُرْجعونَكم ويصيّرونَكم إلى حَالَةِ اَلْكُفرِ بَعْدَ أنْ فارقْتموهُ، والارْتدادُ والرِّدَّةُ: الرُّجوعُ في الطريقِ اَلذي كانَ فِيهِ، إلَّا أنَّ الرِّدَّةَ اِخْتصَّتْ بِالكفْرِ"[7].

والفعلُ ﴿يَرُدُّونَكُمۡ﴾ في الآيةِ يشيرُ إلى "أنّ ودادتَهمْ أَنْ يرجعَ المسلمونَ إلى الشِّركِ؛ لأنَّ الرّدَّ إنَّما يكونُ إلى أمرٍ سابقٍ"[8] والمعنَى عودةٌ للحالةِ التي كانُوا عليهَا.

6) ﴿كُفَّارًا﴾: جمعُ تكسيرٍ زنةُ (فعّال)، مفردُه كافرٌ، وهو مشتقٌ من الكفرِ، وجذرُه اللغويّ (كفر) ولهُ أصلٌ واحدٌ "يدلّ على معنًى واحدٍ، وهو السترُ والتغطيةُ، يُقالُ لمنْ غطّى درعَهُ بثوبٍ: قدْ كفرَ درعَهُ"[9] ومعناهُ "ووصفُ اللّيلِ بالكافرِ

(1) ابن دريد، جمهرة اللغة: (كتب).
(2) الهورينيّ، المَطَالِعُ النَّصرية: ص: 41.
(3) الراغب، المفردات: (كتب).
(4) ابن الجوزي، نزهة الأعين النواظر: ص: 526-527.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ردد).
(6) الراغب، المفردات: (ردد).
(7) السمين، عمدة الحفّاظ: (ردد).
(8) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/670.
(9) ابن فارس، مقاييس اللغة: (كفر).

لسترِه الأشخاصَ والزّرّاعِ لسترِه البذرَ في الأرضِ"[1] ومعنَى الكفرِ في الآيةِ "جُحُودُ الوحدانيّةِ أو الشّريعةِ أو النّبوّةِ"[2]؛ لأنَّ الكافرَ غطّى على الحقِّ والدِّينِ وسترَ عليهِ[3].

7) ﴿حَسَدًا﴾: مصدرُ حسدَ يحسُدُ، وجذرهُ اللغويّ (حسد)[4]، وجاءَ في معناهُ المحوريّ أنّهُ "شعورٌ حادٌّ يحتبسُ في جوفِ الحاسدِ فيكرَهُ وُجُودَ النّعمةِ عندَ المحسودِ إنْ كانتْ موجودةً، وصيروتَها إليهِ إنْ لم تكنْ"[5].

ومعنى الحسدِ "أنْ تتمنَّى زوالَ نعمةِ المحسودِ إليكَ"[6]، وهذا المعنَى هو المرادُ في الآيةِ، وزادَ الراغبُ في معناهَا العامّ أنْ يسعَى الحاسدُ في إزالةِ تلكَ النّعمةِ[7] وذلكَ ليسَ بغريبٍ على اليهودِ والنصارَى.

8) ﴿أَنفُسِهِم﴾: جمعُ قلّةٍ على وزنِ (أَفْعُل) المفردُ منهُ (نَفَس) وأصلهُ من (نفس) وهو "يدلُّ على خروجِ النَّسيمِ كيفَ كانَ، منْ ريحٍ أَوْ غيرهَا ... والنّفسُ الدَّمُ، ...، وذلكَ أَنَّهُ إذا فُقدَ الدَّمُ منْ بدنِ الإنسانِ فُقدَ نفسُهُ"[8].

وهو شيءٌ "لطيفٌ يسري في فُتُوقِ أثناءِ الشيءِ فيصلحُه ويتيحُ لهُ التصرفَ، كالنّفَسِ في أثناءِ بدنِ الحيِّ فهو علامةُ حياتِه التي تتيحُ لهُ التصرفَ"[9].

ومعنَى ذلكَ أنّ النَّفْسَ يعبّرُ بها عن الإنسانِ، وهو تعبيرٌ مجازيٌّ وَفقًا لمَا سبقَ، وهو هنَا كذلكَ في هذهِ الآيةِ؛ فالأنفسُ هم المخاطبونَ بهذهِ الآيةِ، وقدْ يكونُ معناهَا الرُّوحُ[10]، وهو صحيحٌ فكلّه يُستدَلُّ بهِ على الإنسانِ.

9) ﴿تَبَيَّنَ﴾: فعلٌ ماضٍ مزيدٌ وزنُه (تفعّلَ) منْ تبيّنَ يتبيّن تبيينًا، وجذرُه اللغويّ (بين)

(1) الرّاغب، المفردات: (كفر).
(2) الرّاغب، المفردات: (كفر).
(3) السمين، عمدة الحفّاظ: (كفر).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حسد).
(5) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (حسد).
(6) الجوهري، الصحاح: (حسد).
(7) الراغب، المفردات: (حسد).
(8) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نفس).
(9) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (نفس).
(10) الجوهري، الصحاح: (نفس).

ومعناهُ التّوضيحُ، و(الباءُ والياءُ والنّونُ) لهُ أصلٌ في لُغةِ العربِ، بمعنَى البُعدِ والانكشافِ والظُّهورِ، "وبانَ الشَّيءُ وأَبانَ، إذا اتَّضحَ وانْكشفَ، وفُلانٌ أَبْيَنُ من فُلانٍ، أَي أَوضحُ كلامًا منْهُ"[1]، ومنهُ البَيِّنَة وهي "الدلالةُ الواضحةُ عقليةً كانتْ أو محسوسةً"[2]، "ويقالُ تبينتُ الحقَّ واستبنتهُ أي استوضحتهُ فاتّضحَ"[3] وتبيّنَ الحقُّ في الآيةِ؛ أيْ: توضّحَ وظهرَ.

10) ﴿ٱلۡحَقُّ﴾ اسمٌ ثلاثيٌّ، جذرهُ اللغويّ (حقق)، وأصلُ معناهُ "يدلُّ على إحكامِ الشَّيءِ وصحَّتِه، فالحقُّ نقيضُ الباطلِ، ثمَّ يرجعُ كلّ فرعٍ إليهِ بجودةِ الاستخراجِ وحسنِ التّلفيقِ، ويقالُ حقَّ الشَّيءُ: وَجَبَ"[4].

و"الحقُّ في الأصلِ: الثّبوتُ، والشّيءُ الثابتُ، يقالُ: حقَّ الأمرُ يحقُّ حقًّا، فهو حقّ: أيْ ثبتَ واستقرَّ"[5] والحقُّ في الآيةِ: الدِّينُ، وما أنزلَ اللّهُ لعبادِه عن طريقِ أنبيائِه ورسلِه.

ويفسّرُ أيضًا "بالصَّحيحِ الصَّوابِ؛ أيْ: ضدّ الباطلِ الزائفِ"[6] إذا جاءَ في سياقاتِ الدِّينِ وإنزالِ القرآنِ.

11) ﴿فَٱعۡفُواْ﴾: فعلُ أمرٍ مضارعُه (يعفُو) مصدرُه (العفو)، وهو جذرُه اللغويّ أيضًا، والعينُ والفاءُ والحرفُ المعتلُّ لهُ أصلٌ يدلّ على تركِ الشَّيءِ، فـ"عفوُ اللّهِ تعالى عنْ خلقِه، وذلكَ تركُه إيّاهُم فلا يعاقبُهمْ، فضلًا منهُ"[7].

و"العَفوُ عن الذنوبِ: عَدَمُ المؤاخذةِ عليها، وكأنّ مَن عفَا غطّاهَا، أو أعرضَ عنهَا فلمْ ينظرُ إليهَا"[8]؛ لأنّ الأصلَ في العفوِ التَّغطيةُ، والعفوُ الواردُ في الآيةِ هو التجاوزُ عمّا ارتكبَه الإنسانُ من ذنبٍ[9].

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (بين).
(2) الراغب، المفردات: (بين).
(3) السمين الحلبي، عمدة الحفّاظ: (بين).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حقق).
(5) السمين، عمدة الحفّاظ: (حقق).
(6) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (حقق).
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عفو).
(8) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (عفو).
(9) السمين، عمدة الحفّاظ: (عفو).

12) ﴿وَٱصۡفَحُواْ﴾: فعلُ أمرٍ موجّهٌ لجماعةِ الحضورِ، جذرُه اللغويّ من (صفح) والاسمُ منهُ الصَّفْحُ، وأصلُ معناهُ العَرْضُ وهو صفحُ الشيءِ[1].

وهو أيضًا "الجَنْبُ من كلِّ شيءٍ، وصَفْحا السَيْفِ وَجْهاهُ"[2] "وأصلُ الصَّفحِ أنْ تنحرفَ عن الشيءِ فتوليهِ صفحةَ وَجهِك، أيْ: نَاحيَة وجهِك"[3].

وهذا هوَ المرادُ في الآيةِ؛ فإنّهُ عطف هذا الفعل على فعلِ العفوِ، وهو تركُ العقوبةِ، أمّا الصَّفحُ فمعناهُ أعرضُوا عن المذنبِ بصفحةِ الوجهِ كأنّهُ قدْ وَلّاهُ صفحتَه، وصُفْحُه -بالضمِّ - أيْ: عرضُه وجانبُه"[4].

13) ﴿بِأَمۡرِهِۦٓۗ﴾: اسمٌ ثلاثيٌّ مجردٌ، جذرهُ اللغويّ من (أمر)، أمرَ يأمرُ أمرًا، ولهُ عدّةُ معانٍ، منها "الواحدُ منَ الأُمورِ فقولُهمْ: هذا أَمرٌ رضيتهُ، و: أَمرٌ لا أَرضاهُ، وفي المَثلِ: أَمرٌ ما أَتَى بكَ"[5] وكذلكَ فإنّ "الأَمْرَ نقيضُ النَّهي"[6].

و"الأَمْرُ: الشأنُ، وجمعُه أُمُورٌ، ومصدرُ أَمَرْتُهُ: إذَا كلّفتَه أنْ يفعلَ شيئًا، وهو لفظٌ عامٌّ للأفعالِ والأقوالِ كلِّها"[7]، وفي الآيةِ: ﴿حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦٓۗ﴾، "أيْ: حتّى يجيءَ ما فيهِ شفاءُ غليلكُم"[8] من إجلاءٍ أو قتلٍ أو جزيةٍ.

المَعْنَى الإِجْمَاليُّ:

تعرضُ الآيةُ للعلَّةِ الحقيقيّةِ التي تحرِّكُ أهلَ الكتابِ في زرعِ الفتنِ والشِّقاقِ بينَ المؤمنينَ، بمَا تُثيرُه من شبهاتٍ فكريّةٍ، ومطاعنَ فاسدةٍ، وهو الحسدُ المتمكِّنُ من نفوسِهم، الجاثمُ فوقَ قلوبِهم، لـمَا نالَه المؤمنونَ من الإيمانِ، الذي يُؤهِّلُهم لاكتسابِ الصَّدارةِ بينَ الأمم، في كونِهم أصحابَ الشريعةِ الحقَّةِ، والقبولِ الثَّابتِ، وتضعُ الآيةُ أركانَ المعالجةِ بالعفوِ والصَّفحِ، وتركَ الأمرِ للهِ وحدَه، فهو على كلِّ شيءٍ قديرٌ، بمعاقبةِ مَن يُعادي دينَه، ويقتحمُ أسوارَ غيرِه.

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (صفح).
(2) الخليل، العين: (صفح).
(3) السجستاني، نزهة القلوب، ص: 111.
(4) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (صفح).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أمر).
(6) الخليل، العين: (أمر).
(7) الراغب، المفردات: (أمر).
(8) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/671.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبلاغيُّ:

فائدةُ التعبيرِ بـ ﴿كَثِيرٌ﴾:

استنباطُ القيمِ الهدائيَّةِ، وبيانُ عدالةِ القرآنِ المطلقةِ في التَّعاملِ مع الآخرِ

عبَّرتِ الآيةُ بـ﴿كَثِيرٌ﴾؛ لبيانِ أنَّ الوَدَّ صدرَ عن كثيرٍ من أهلِ الكتابِ لا عن جميعِهم ولا عن أكثرِهم، ومعنَى ﴿كَثِيرٌ﴾ أنَّهم ليسُوا بالعددِ القليلِ، بلْ هم كثيرٌ، وفي الوقتِ نفسِه ليسُوا الأكثرَ، وهذا يُترجمُ دقَّةَ القرآنِ في بيانِه لواقعِ النَّاسِ، وهذا من العدالةِ المطلقةِ في التَّعاملِ مع الآخرِ قلَّ نظيرُها في المذاهبِ والملِلِ والأديانِ؛ فودادُ كفرِ المؤمنينَ ليسَ عندَ جميعِ اليهودِ بلْ في كثيرٍ منهُم، وهيَ إشارةٌ قرآنيَّة إلى أنَّ بعضَ اليهودِ ممَّا "يُرجَى إيمانُه، ويسيرُ في طريقِ الإيمانِ"[1]، فهي قيمةٌ هدائيَّةٌ مستنبطةٌ من صيغةٍ لغويَّةٍ.

معنى التَّعريفِ في الكتابِ:

الألفُ واللامُ في ﴿ٱلْكِتَٰبِ﴾ عهديّةٌ، والقصدُ من ﴿ٱلْكِتَٰبِ﴾ التوراةُ والإنجيلُ، وعلى ذلكَ فأهلُ الكتابِ هنَا هم اليهودُ والنصارَى، والمعنَى أنّ كثيرًا من اليهودِ وغيرِهم يتمنّونَ كذا وكذا، ومن رجَّح أنَّهم اليهودُ؛ فالمقصودُ بالكتابِ هنَا التوراةُ[2]، والصَّحيحُ أنَّ الكتابَ عامٌّ في الكتبِ السَّابقةِ، وهذا السُّلوكُ وإنْ كانَ في اليهودِ أوضحَ، إلّا أنَّ النَّصارَى لا براءةَ لهم منهُ.

سِرُّ التَّعبيرِ بكلمة ﴿يَرُدُّونَكُم﴾:

الكشفُ عن بواطنِ النُّفوسِ، توطئةً لبيانِ الحسدِ

آثرتِ الآيةُ الكريمةُ استعمالَ مفردةِ الردِّ؛ للإشارةِ إلى أنّ رغبةَ أهلِ الكتابِ أنْ يحصلَ للمؤمنينَ رجعةٌ بعدَ تقدّمٍ، وانتكاسةٌ بعدَ استقامةٍ[3]؛ ففيهِ توبيخٌ وتقريعٌ لمنْ يطاوعُ أهلَ الكتابِ، وهو أشدُّ من التعبيرِ بـ(كفرتُم) لأنّه لوْ "قيلَ لوْ كفرتمْ لكانَ فيهِ بعضُ العذرِ

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 1/360.
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 1/196.
(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 1/360.

لأهلِ الكتابِ؛ لاحتمالِه أنّهمْ يودّونَ مصيرَ المسلمينَ إلى اليهوديّةِ"[1] فأهلُ الكتابِ يودُّونَ عودةَ المؤمنينَ إلى الوثنيَّةِ، والوثنيَّةُ عندَهم شرٌّ محضٌ، فالتَّعبيرُ بالودِّ توطئةٌ لبيانِ الحسدِ.

بلاغةُ اختيارِ الصِّيَغِ:

أثرُ اختيارِ الصّيغةِ في بيانِ معاني السياقِ

لفظةُ ﴿كُفَّارًا﴾ على وزنِ (فُعّال)، من صيغِ جموعِ التكسيرِ الدالّ على الكثرةِ، واختيارُ هذه الصِّيغةِ لبيانِ قصدِ أهلِ الكتابِ في أنّهم يتمنّونَ "أنْ يصرفوكُم عن توحيدِ اللّهِ، والإيمانِ بمحمّدٍ ﷺ، ويرجعوكُم كُفّارًا كمَا كنتُم، حسدًا لكُم"[2]، ويتمنّونَ ردّكُم جميعًا إلى ما كنتُم عليهِ من الضلالِ؛ بدلالةِ إضافةِ المفعولِ الأولِ الكافِ إلى ميمِ الجمعِ، وبدلالةِ مجيءِ المفعولِ الثاني على صيغةِ جمعِ التكسيرِ الدالِّ على جمعِ الكثرةِ؛ لأنَّ التعبيرَ بجمعِ الكثرةِ مناسبٌ لتمنّيهم ردَّ جميعِ المؤمنينَ ﴿كُفَّارًا﴾.

بلاغةُ مجيءِ حرفِ ابتداءِ الغايةِ:

تصويرُ نوعيَّةِ الحسدِ وعمقِه في نفوسِ أهلِ الكتابِ

دلَّ حرفُ ﴿مِّنۢ﴾ على ابتداءِ الغايةِ في قولِه تعالَى: ﴿مِّنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِكُمۡ﴾، ولوْ قيلَ "يردونَكم بعدَ إيمانِكم"؛ لصحَّ في البيانِ، لكنَّها لا تؤدِّي المعنَى الذي يُريدُ تصويرَه النَّظمُ الجليلُ، فإنَّ نفوسَ أهلِ الكتابِ تودُّ أنْ يرجعَ المؤمنونَ كفارًا إلى ساعةِ الصفرِ، أي: أنْ يرجعُوا كفَّارًا كمَا كانُوا، بحيثُ لا يبقَى معهُم أيُّ مزيَّةٍ اكتسبُوها في الإسلامِ، وهو يصوِّرُ حجمَ الحسدِ، وعُمقَه في نفوسِ أهلِ الكتابِ؛ لعلمِهم بأنَّ حياةَ العربِ في دائرةِ الإسلامِ قدْ نقلتْهم نقلةً نوعيَّةً تفوَّقوا بها عليهِم، فالعربُ قبلَ الإسلامِ ليسُوا هم قبلَه، وأهلُ الكتابِ يريدونَ عودةَ العربِ إلى كفرِهم ليرجعوا إلى ما كانوا عليه من الضَّعفِ والهوانِ.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/670.
(2) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 1/190.

الاحتمالُ الدّلاليّ بينَ معاني الأدواتِ:

تحتملُ أداةُ ﴿لَوْ﴾ في قولِه تعالَى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم﴾، الشَّرطيةَ والمصدريَّةَ.

أمَّا الشَّرطيَّةُ فهي تستلزمُ جوابًا، وقدْ قدَّرَ المفسِّرونَ "جوابَها محذوفاً تقديرُه: لو يَرُدُّونَكم كفاراً لَسُرُّوا، أو فرحُوا بذلكَ"[1].

وأمَّا المصدريّةُ فهيَ تتمحّضُ في ودادِ أهلِ الكتابِ ردَّ المؤمنينَ عن دينِهم، فودُّهم متمحِّضٌ لارتدادِ المؤمنينَ؛ فكأنَّهم لا يودُّونَ شيئًا سواهُ، بخلافِ الشّرطيَّةِ، ففيهَا تكرارٌ ضمنيٌّ، كأنّه قيلَ: ودَّ أهلُ الكتابِ لوْ تُردُّون ليفرحُوا، أي: ودّوا ليودّوا، فإنَّ الودَّ من معانيهِ الفرحُ والمسرّةُ، فمعنَى المصدريةِ أعرقُ في ميزانِ البلاغةِ والفصاحةِ، وهو ما يوافقُ بلاغةَ القرآنِ.

الرَّاجحُ في معاني الأدواتِ ما كانَ موافقًا لروحِ البلاغةِ، ومُصوِّرًا دقَّةَ المعنى

الإعرابُ فرعُ المعنَى:

اختلفَ المفسِّرونَ في بيانِ دقَّةِ معنَى الحسدِ في قولِه تعالَى: ﴿حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ﴾، وبناءً عليهِ اختلفَ المُعْربونَ في إعرابِ ﴿حَسَدًا﴾ على عدَّة أوجهٍ إعرابيَّةٍ؛ كالآتي:

1- أنْ تكونَ مفعولًا لأجلِه، والعاملُ فيهِ ﴿وَدَّ﴾ أوْ ﴿يَرُدُّونَكُم﴾[2]؛ فالحسدُ علّةُ رغبةِ أهلِ الكتابِ الذينَ يودّونَ أنْ تعودُوا للإشراكِ والكفرِ بعدَ أنْ اهتديتُم، والمقصدُ "أنّهُ تعالَى بيَّنَ أنَّ حبَّهمْ لأنْ يرجعُوا عنِ الإيمانِ، إنَّما كانَ لأجلِ الحسدِ"[3].

2- أنْ تكونَ مصدرًا منصوبًا[4]، أي: مفعولاً مطلقًا، وهو على هذا التخريجِ يكونُ نائبًا عن المفعولِ المطلقِ، عند مَن يشترطُ

قوَّةُ المعنَى البلاغيّ معيارُ الترجيحِ بينَ الأقوالِ النحويّةِ

(1) السمين، الدرّ المصون: 2/66.
(2) العُكبري، التبيان: 1/104.
(3) الرازيّ، مفاتيح الغيب: 3/264.
(4) أبو حيان، البحر المحيط: 1/558.

أنْ يكونَ المفعولُ المطلقُ مصدرًا للفعلِ العاملِ فيهِ، وقدْ جعلَ بعضُ المفسرينَ العاملَ فيهِ محذوفًا على تقديرِ "يحسدونَكم حسدًا"[1].

3- أنْ تكونَ حالاً، على تقديرِ: حاسدينَ[2]، وهو ضعيفٌ؛ لأنَّ القياسَ في الحالِ ألّا يكونَ مصدرًا؛ لدلالةِ المصدرِ على الثَّباتِ، بخلافِ الحالِ الدّالّةِ على الهيئةِ المنتقلةِ غيرِ الثابتةِ، وهذا الإعرابُ يعنِي أنّ الحسدَ غيرُ متأصلٍ في اليهودَ، وهذا خلافُ الواقعِ، وخلافُ ما أشارتْ إليهِ الآيةُ في سياقِها ﴿مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم﴾ أيْ: أنّه متأصّلٌ في أنفسِهم.

وإعرابُ ﴿حَسَدًا﴾ مفعولاً لأجلِه أقوَى دلالةً وسياقًا، فودُّ أهلِ الكتابِ لوْ يردّونَ المؤمنينَ عن دينِهم هوَ لأجلِ الحسدِ المتأصّلِ في نفوسِهم، وهذا لا يظهرُ في الإعرابينِ الآخرينِ، معَ جوازِهما صناعةً.

سِرُّ التَّعبيرِ بالحسدِ دونَ مرادفاتِه:

الإيجازُ في بيانِ المعـانِي بلفظٍ واحدٍ جامعٍ

جاءَ التَّعبيرُ بمفردةِ الحسدِ، دونَ الكراهيةِ أو البغضاءِ أو الغلِّ؛ لبيانِ خلّةٍ نفسيَّةٍ قبيحةٍ طالَما حذَّرَ منهَا القرآنُ؛ وذلكَ أنّ الحسدَ هوَ اللفظُ الجامعُ لهذهِ المعانِي، فإنّ الكارهَ المُبغضَ يؤدِي بهِ كرهُه وبغضُه إلى حسدِ المكروهِ؛ فالحسدُ لفظٌ جامعٌ لجميعِ هذهِ المعانِي، فلمَّا ذكرَ الحسدَ تضمّنَ هذه المعانِي، وهي من دلالةِ اللزومِ، وهو من إيجازِ اللفظِ وتكثيرِ المعنَى.

التعبيرُ بـ﴿مِن﴾ لابتداءِ الغايةِ:

تصويرُ نفوسِهم بأنَّها كالآبارِ العميقةِ المليئةِ بالحسدِ والكراهيةِ

معنَى ﴿مِن﴾ في قولِه تعالى: ﴿مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم﴾ لابتداءِ الغايةِ، وجيءَ بهَا "للإشارةِ إلى تأصّلِ هذا الحسدِ فيهِم، وصدورِه عنْ نفوسِهمْ"[3] فالحرفُ جاءَ ليصوِّرَ نفوسَهم بأنَّها كالآبارِ العميقةِ

(1) الواحديّ، الوسيط: 1/191، والبغويّ، تفسير البغويّ: 1/136، وأبو حيّان، البحر المحيط: 1/558.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 1/558.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/670.

المليئةِ بالحسدِ والكراهيةِ؛ فكأنَّه قالَ: الحسدُ مُستخرَجٌ ابتداءً من عندِ أنفسِهم.

فائدةُ إضافةِ ﴿عِندِ﴾ إلى النفوسِ:

حصرُ أصلِ الحسدِ في نفوسِ أهلِ الكتابِ، احتراسًا أن يُظنَّ بشرائعِ الرُّسلِ السوءُ

الظرفُ ﴿عِندِ﴾ مضافٌ إلى ﴿أَنفُسِهِم﴾، وهم أهلُ الكتابِ، وفي هذا التعبيرِ تشنيعٌ عليهم، وذمٌّ لهم، والمعنَى "أنّهم ودّوا ذلكَ للمؤمنينَ، من عندِ أنفسِهم، إعلامًا منه لهم بأنّهم لمْ يؤمرُوا بذلكَ في كتابِهم"[1] ومعنَى ذلكَ أنّهم يفترونَه افتراءً "متبالغًا منبعثًا من أصلِ أنفسِهم"[2]؛ لذلكَ عبّرَ عنهُ بالعنديَّةِ الدّالّةِ على الاستقرارِ والتمكّنِ منهم؛ لأنَّ الحسدَ يبدأُ من بابِها المعبَّرِ عنه بعندَ، فهو ظرفٌ يبينُ هذهِ النفوسَ، وأنّ لها شأنًا في اكتنازِ الحسدِ، وأنَّهُ صادرٌ عن نفوسِهم المريضةِ، لا عن شريعتِهم وكتابِهم، احتراسًا أنْ يُظنَّ بشرائعِ دينِ اللّهِ التي أنزلهَا على رسلِه سوى ذلكَ.

أثرُ السِّياقِ في بيانِ المتعلِّقاتِ:

تعلُّقُ الجارِّ والمجرورِ بالودادِ أو الحسدِ للتَّجانسِ في الأصلِ النَّفسيِّ

يجوزُ تعلُّقُ الجارِّ والمجرورِ ﴿مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم﴾ بالودِّ أو الحسدِ؛ لأنّهما حالتانِ نفسيّتانِ مجانستانِ لقولِه: ﴿مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم﴾، ولمّا كانتِ الحالتانِ الأوّليانِ نفسيَّتينِ؛ فإنّ ذكرَه ﴿مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم﴾ ما هوَ إلاّ توكيدٌ لتلكَ الحالتينِ، "إذِ الحسدُ لا يكونُ إلَّا من قِبلِ النَّفسِ"[3]، وهو نوعٌ من التوكيدِ الأسلوبيّ، بأن يؤكّدَ مضمونَ ما قبلَه.

فائدةُ دخولِ حرفِ الابتداءِ على الظَّرفِ:

أثرُ النظمِ في الكشفِ عن سرعةِ تمنّي أهلِ الكتابِ ردَّةِ المؤمنينَ

أفادَ دخولُ حرفِ ﴿مِن﴾ على الظرفَ ﴿بَعْدِ﴾ في قولِه تعالَى: ﴿مِّنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡحَقُّۖ﴾ السُّرعةَ وتقاصرَ الزمنِ في الفعلِ المرادِ المتعلّقِ لأدنَى مدَّةٍ وهو ﴿وَدَّ﴾ أو ﴿يَرُدُّونَكُم﴾، أي: بمجرَّدِ تبيُّنِ

(1) ابن جرير، جامع البيان: 2/501.
(2) الزمخشريّ، الكشّاف: 1/310.
(3) زكريا الأنصاريّ، فتح الرحمن: ص: 37.

الحقّ، ولو قالَ: "بعدَ ما تبيّنَ"؛ لـمَا أفادَ ذلكَ؛ فإنّ المعنَى أنّ فعلَهم واقعٌ بقطعِ النَّظرِ بعدَ مدّةٍ متمادّةٍ من الزمنِ قدْ تطولُ وقدْ تقصرُ، أي: أنّ فعلَهم في تمنّي ما يريدونَ، أو ردّهم المؤمنينَ إلى الشركِ قدْ يحصلُ بعدَ مدّةٍ طويلةٍ أو قصيرةٍ، أمّا قولُه: ﴿مِّنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ﴾ فإنّ تمنّيهِم وقعَ مباشرَةً بعدَ ظهورِ الحقِّ لهم؛ "فهُم يتمنّونَ الإسراعَ في تكفيرِهم، وأنْ ينقلوهُم من حالةِ الإيمانِ إلى حالةِ الكفرِ فورًا"[1]، أي: أنّهم أسرعُوا في فعلِهم ذاكَ فورَ تبيينِ الحقّ، وهذا ما تمنحُه ﴿مِن﴾ التِي تفيدُ الابتداءَ والبَعديَّةَ، بَعديَّةً زمانيَّةً؛ لأنّ ﴿بَعۡدِ﴾ صالحةٌ للزمانِ والمكانِ، والسِّياقُ يقضِي بأنْ تكونَ زمانيَّةً.

بلاغةُ التّقديمِ والتّأخيرِ:

وظيفةُ القصرِ الادّعائِي المبالغةُ في التَّشنيعِ على الحاسدينَ

قُدِّم الجارُّ والمجرورُ على المسندِ إليهِ ﴿ٱلۡحَقُّ﴾؛ للاهتمامِ والاختصاصِ، فكأنّهُ يريدُ القولَ (من بعدِ ما تبيّنَ لهم الحقّ وحدَهم)، جعلَ تبيينَ الحقِّ لهم وحدَهم دونَ سواهُم، وهو من بابِ القصرِ الادّعائِي للمبالغةِ في التَّشنيعِ على أهلِ الكتابِ الحاسدينَ للمؤمنينَ؛ لأنّ تبيينَ الحقِّ يستحيلُ أنْ يكونَ لهم وحدَهم دونَ سواهُم؛ فالمبالغةُ في القصرِ جاءتْ اهتمامًا لهذَا الأمرِ، وأنّ الحقّ قدْ بانَ لهم على أوضحِ صورةٍ وأجلاهَا، ولذلكَ جعلَ العلماءُ الكلامَ تامًّا هنَا، وأنّ الوقفَ عليهِ من قبيلِ الوقفِ الحسنِ[2].

معنى الألفِ واللامِ في كلمةِ الحقّ:

تنوُّعُ المعاني مقبولٌ بضابطِ النَّظمِ والسِّياقِ

معنى الألفِ واللامِ في كلمةِ الحقِّ في قولِه تعالَى: ﴿مِّنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡحَقُّۖ﴾، إمَّا أنْ تكونَ "للعهدِ، ويرادُ بهِ الإيمانُ، ويدلُّ عليهِ جريانهُ قبلَ هذا"[3] وهو الإيمانُ الذِي يعرفونَه، وقدْ تكونُ

(1) فاضل السامرائّي، معاني النحو: 2/198.
(2) الأنباريّ، إيضاح الوقف والابتداء: 1/528.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 1/559.

"للاستغراقِ، أيْ: منْ بعدِ ما اتّضحتْ لهمْ وجوهُ الحقِّ وأَنواعهُ"[1]، والمعنيانِ مرادانِ ومقصودانِ وغيرُ ناشزينِ عن سياقِ الآيةِ ونظمِها.

بلاغةُ الفاءِ الفصيحةِ:

تسليطُ الضَّوْءِ على منهجِ التَّعاملِ مع الآخرِ

الفاءُ في قولِه تعالَى: ﴿فَٱعۡفُواْ وَٱصۡفَحُواْ﴾ هيَ الفصيحةُ، وهي التِي تُفصحُ عن محذوفٍ يقدِّرُه المخاطَبُ من السِّياقِ، وجمهورُ البيانيينَ يشترطونَ تضمينَ المقدَّرِ شرطًا، وهو ليسَ بلازمٍ، أيْ: إنْ جهلتُم ما يجبُ أنْ تقومُوا بهِ تجاهَ أولئكَ؛ فاعفُوا واصفحُوا "أيْ: أعرضُوا عمّا يكونُ منهم من الجهلِ والعداوةِ فلا تجازوهُم"[2]، ويظهرُ أثرُ بلاغةِ الفاءِ الفصيحةِ في تسليطِ الضَّوْءِ على الواجبِ فعلُه مع الحاسدينَ من أهلِ الكتابِ، وهو العفوُ والصَّفحُ؛ لأنَّهُ المقصودُ الحقيقيّ في السِّياقِ.

سرُّ التَّعبيرِ بالعفوِ والصَّفحِ:

توريثُ القوَّةِ النَّفسيَّةِ، والمَنعةِ العقديَّةِ

عبّرتِ الآيةُ بالعفوِ والصفحِ، ولمْ تأتِ على ذكرِ الصَّبرِ، أو التَّصدّي، أو غيرِهما من المعاني؛ لأنَّ المقصودَ هو إماتةُ حسدِهم، وقتلُ كراهيتِهم، وحبسُ غيظِهم في أنفسِهم، ولا يؤدِّي هذهِ المعانيَ إلّا العفوُ والصَّفحُ، وما يولِّدُه منهجُ العفوِ والصَّفحِ من قوَّةٍ فكريَّةٍ، وثباتٍ عَقَديّ، وهو ما يورِّثُ في النَّفسِ المسلمةِ من القوَّةِ والمُكنةِ، ما لا يورِّثُه النِّزاعُ والجدالُ.

بلاغةُ عطفِ الأفعالِ المتقاربةِ الدّلالة بعضِها على بعضٍ:

الجمعُ بينَ العفوِ المادِّي، والصَّفحِ المعنويّ؛ لتحقيقِ التوازنِ بينَ الدّلالتينِ

عُطفَ فعلُ ﴿وَٱصۡفَحُواْ﴾ على فعلِ ﴿فَٱعۡفُواْ﴾ في قولِه: ﴿فَٱعۡفُواْ وَٱصۡفَحُواْ﴾؛ لتحقيقِ فائدةٍ بيانيّةٍ بديعةٍ، وهي أنَّ العفوَ درجةٌ من التَّسامحِ عاليةٌ، وهي تدلُّ على تركِ عقابِ المذنبِ، أمَّا الصَّفحُ فهو تركُ عقابِ المذنبِ جملةً، أي: أعرضُوا عن المذنبِ بصفحةِ الوجهِ

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 1/559.
(2) القاسميّ، محاسن التأويل: 2/223.

في "عدمِ لومهِ وتثريبهِ عليهِ، وهو أبلغُ منَ العفوِ"[1] والمعنَى يكونُ شاملاً لتركِ العقابِ واللومِ جميعًا[2]، فجاءَ بفعلينِ متقاربينِ في الدِّلالةِ؛ ليحقّقَ الشموليَّةَ في بناءِ أخلاقِ المسلمينَ في الجانبينِ الماديّ والمعنويّ؛ الماديّ في تركِ العقوبةِ، والمعنويّ النفسيّ في تركِ اللّومِ والتَّثريبِ عليهم، ثمّ إنّه أسندَ ذلكَ لواوِ الجماعةِ؛ إشارةً إلى أنّهُ يجبُ أنْ يتحلّى بهذَا الخلقِ المسلمونَ جميعًا كأنّهم جسدٌ واحدٌ، وأنّكم كثيرٌ فـ"لا يغرّنّكمْ أيّها المؤمنونَ كثرةُ أهلِ الكتابِ معَ باطلِهمْ، فإنّكمْ على قلّتِكمْ أقوَى منهمْ بما أنتمْ عليهِ منَ الحقِّ"[3].

بلاغةُ تقديمِ العفوِ على الصَّفحِ:

العفوُ مقدّمةُ الصَّفحِ ولا يُتصوَّرُ بدونِه، فهو من قبيلِ تقديمِ الأسبابِ على نتائجِها

قُدِّمَ العفوُ على الصَّفحِ؛ لأنّ العفوَ أهمّ من الصفحِ؛ فللعفوِ أثرٌ جسديٌّ ماديٌّ؛ لأنّهُ يتعلّقُ بالمظهرِ، بينَما نجدُ الصفحَ ذا أثرٍ نفسيّ، فالعفوُ سلامةٌ، والصَّفحُ غنيمةٌ، وطلبُ السلامةِ مقدّمٌ على طلبِ الغنيمةِ، ثمّ قدّمَه لسببٍ ثانٍ، وهو أنّ حصولَ العفوِ من المسلمينَ هو مقدِّمةٌ لحصولِ الصفحِ، فهو من قبيلِ تقديمِ السَّببِ على النَّتيجةِ؛ فتركُ العقوبةِ قدْ يكونُ سببًا لتركِ اللّومِ والمؤاخذةِ؛ "لذلكَ عطفَ الأمرَ بهِ على الأمرِ بالعفوِ؛ لأنَّ الأمرَ بالعفوِ لا يستلزمهُ، ولمْ يستغنَ بـ(اصفحُوا) لقصدِ التّدريجِ في أمرهمْ"[4].

فائدةُ إضافةِ الأمرِ إلى ضميرِ اسمِ الجلالةِ:

التعريفُ في بيانِ المصدرِ والإبهامِ في بيانِ المتحقّقِ

اشتملَ لفظُ الأمرِ على نوعِ إبهامٍ مع إضافتِه إلى الضميرِ العائدِ على لفظِ الجلالةِ فهو "غايةٌ مبهمةٌ للعفوِ والصّفحِ؛ تطمينًا لخواطرِ المأمورينَ، حتَّى لا ييأسوا منْ ذهابِ أذى المجرمينَ لهمْ"[5]، وأنّ هذا

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/671.
(2) محمد رشيد رضا، تفسير المنار: 1/347.
(3) المرجع السابق: 1/347.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/671.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/671.

الأمرَ آتٍ من اللهِ تعالَى؛ فتطمئنّ قلوبُهم بهِ، فاللفظُ لا يعيِّنُ حدثًا بعينِه، بلْ يحتملُ الإجلاءَ، ويحتملُ القتلَ، ويحتملُ العذابَ، ويحتملُ القصاصَ، ويحتملُ نزعَ "الحسدِ والحقدِ من قلوبِهم وهدايتِهم، وإمّا بالغلبِ عليهم، وأنْ يكونُوا في ظلِّ المسلمينَ، ويعلنُوا إسلامَهم، وقلوبُهم ليستْ مؤمنةً"[1] ويحتملُ غيرَ ذلكَ من المعاني المرسلةِ.

نكتةُ وضعِ الظَّاهرِ موضعَ المضمرِ:

جريانُ الجملةِ مجرى المَثَلِ السَّائرِ

عدلَ النَّظمُ الكريمُ عن إضمارِ لفظِ الجلالةِ إلى إظهارِه؛ لمَا في الجملةِ من استقلالٍ دلاليّ، فهي جملةٌ قائمةٌ بذاتِها، وهي -وإنْ كانتْ فاصلةَ آيةٍ- إلّا أنَّ لها استيلاءً على النَّفسِ والفطرةِ لا تتناهَى قوتُها، وقدْ جرتْ هذه الجملةُ في غالبِ القرآنِ على هذا المنوالِ فكانتْ كالمثلِ السَّائرِ، تعليمًا للعبادِ أنْ يقولُوا في كلِّ نائبةٍ وجائحةٍ، وكلِّ نصرٍ وظفرٍ: إنَّ اللهَ على كلِّ شيءٍ قديرٌ.

اقترانُ حرفِ الاستعلاءِ بلفظِ ﴿كُلِّ شَيْءٍ﴾:

الاستعلاءُ شاملٌ لكلِّ ما جاءَ به النَّقلُ، أو تصوَّرَه العقلُ

شملَ الاستعلاءُ الماديّاتِ والمعنويّاتِ، والمشاهداتِ والغيبيَّاتِ، وذلكَ باقترانِ حرفِ ﴿عَلَىٰ﴾ بلفظِ ﴿كُلِّ شَيْءٍ﴾؛ وإضافةِ لفظِ (كلّ) الذي هو من ألفاظِ العمومِ للفظِ (شيءٍ) المفيدِ للعمومِ كذلكَ؛ فأفادَ استعلاءً عامًّا عمومًا شموليًّا، واستقصاءً لكلِّ ما يتصوَّرُه الذِّهنُ، أو أخبرَ عن وجودِه الوحيُ؛ فهو عمومٌ يلفُّه عمومٌ، والجملةُ مستعليةٌ على كلِّ ادِّعاءٍ؛ لذلكَ كثُرَ ورودُها في القرآنِ الكريمِ بهذا النَّظمِ الكريمِ.

أثرُ السياقِ في اختيارِ الصِّيغِ:

مناسبةُ الصيغةِ لسياقِ الجملةِ وسياقِ الآيةِ

جاءتِ الآيةُ بصيغةِ (فَعِيل) دونَ (فاعِل) في بيانِ القدرةِ؛ ذلكَ أنّ هذه الصِّيغةَ تُفيدُ المبالغةَ[2] والكثرةَ والتَّكرارَ، بخلافِ اسمِ

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 1/362.
(2) سيبويه، الكتاب: 1/110.

الفاعلِ الدَّالِّ على مجرَّدِ صدورِ الحدثِ عن فاعلٍ؛ ذلكَ أنَّ الجملةَ تقريرٌ لقدرةِ اللّٰهِ على كلِّ شيءٍ وهو ما يناسبُه صيغةُ المبالغةِ، وحديثُ السِّياقِ عن إتيانِ اللّٰهِ بأمرِه بعدَ عفوِ المؤمنينَ وصفحِهم عن أهلِ الكتابِ، وهو عفوٌ وصفحٌ يصاحبُه الصَّبرُ؛ فأن يكونَ الوعدُ بمثلِ هذهِ الصِّيغةِ أقوى في نفوسِ المخاطبينَ، وهو الأوفقُ بالفاصلةِ كذلكَ.

نكتةُ تَقديمِ الجارِّ والمجرورِ:

تأكيدُ اختصاصِ أمرٍ معلومٍ لتوليدِ الطّمأنينةِ القلبيَّةِ

أفادَ تقديمُ الجارِّ والمجرورِ ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ﴾ على ﴿قَدِيرٌ﴾ تأكيدَ الاختصاصِ، فإنَّه لا يقدرُ على كلِّ شيءٍ إلّا اللّٰهُ تعالَى، واختصاصُ اللّٰهِ تعالَى بهذِه القدرةِ المطلقةِ أمرٌ مستقرٌّ في اعتقادِ المخاطَبينَ، فأفادَ التَّقديمُ تأكيدَ الاختصاصِ، لإدخالِ الطَّمأنينةَ على القلوبِ، وإقناعِ العقولِ.

﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنۡ خَيۡرٖ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ١١٠﴾ [البقرة: 110]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

بعدَ أنْ بيَّنَ السِّياقُ ما يجبُ على المؤمنينَ اتِّخاذُه من العفوِ والصَّفحِ عن أهلِ الكتابِ، وما يلزمُ عنهما من الصَّبرِ والأناةِ والتّحمّلِ؛ ناسبَ أنْ يأمُرَهم بإقامةِ الصَّلاةِ؛ لـمَا فيها من الرَّاحةِ النَّفسيّةِ في بناءِ قيمِ الصّبرِ والإحسانِ، وبإيتاءِ الزّكاةِ؛ لما فيها من الزّهدِ وإيثارِ الآخرةِ على الدّنيَا، وأنْ يُذكِّرهم بأنَّ ما يقدمونَه من خيرٍ؛ فهو عائدٌ على أنفسِهم، وكذلكَ الأمرُ فيما يقدِّمُه المؤمنونَ من العفوِ والصَّفحِ عن أهلِ الكتابِ؛ فهو خيرٌ، وسيعودُ على أنفسِهم في الدّنيَا والآخرةِ.

شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

1) ﴿وَأَقِيمُواْ﴾: فعلُ أمرٍ للفعلِ (أقامَ)، ومصدرُه الإقامةُ، وهي: الدَّوامُ[1]، يقالُ: أقامَ الصلاةَ: إذا داومَ عليهَا، أمّا إذا قيلَ أقامَ للصلاةِ فمعناهُ نادَى عليها[2] بألفاظِ الإقامةِ.

وجوّزَ بعضُ أهلِ العلمِ أنْ يكونَ ذلكَ من التقويمِ، وهو التعديلُ من قولكَ: قوّمتُ العودَ إذا عدّلتَه، ويكونُ معنَى إقامة الصلاةِ على المعنَى: الإتيان بها على وجهِ المحافظةِ على أركانِها وشروطِها ومكملاتِها[3] ويحتملُ في إقامةِ الصلاةِ بمعنَى إظهارِها أخذًا من قولِهم أقيمتِ السوقُ[4]، ولا مانعَ من الجمعِ بينَ تلكَ المعاني؛ فيكونُ معنَى أقامَ الصلاةَ: داومَ عليهَا، وأظهرَها وأتَى بها محافظًا على أركانِها وشروطِها ومكملاتِها.

2) ﴿ٱلصَّلَوٰةَ﴾: اسمٌ جذرهُ اللغويّ (صلو)، والفعلُ منها (صلّى) بالتشديدِ، صلّى

(1) الهروي، الغريبين: (قوم).
(2) الفيومي، المصباح المنير: (قوم).
(3) النبراوي، حاشية على الأربعين النووية، ص: 37.
(4) ابن عطية، المحرر الوجيز: 1/85.

يصلِّي صلاةً، وهو اسمُ مصدرٍ، والقياسُ في مصدرِه (تصليةٌ) إلّا أنّه استُعملَ اسمُ المصدرِ في هذا المعنَى تنزيهًا لها؛ لأنّ المصدرَ (تصليةٌ) استعملَ مقترنًا بالجحيم؛ لأنّ واحدًا من أصلِ الصلاةِ في معناهُ "النارُ وما أشبهَها من الحُمّى"[1].

أمّا الأصلُ الثاني فهو ما كانَ جنسًا من العبادةِ المقرَّرةِ شرعاً، وهي في أصلِها بمعنَى الدعاءِ[2]، وقدْ وردتْ في حديثِ الرسولِ ﷺ: «مَنْ دُعِيَ فَلْيُجِبْ، فَإِنْ كَانَ مُفْطِرًا أَكَلَ، وَإِنْ كَانَ صَائِمًا، فَلْيُصَلِّ وَلْيَدْعُ لَهُمْ»[3]، وثَمّةَ وشائجُ وعلائقُ بينَ الصلاةِ بمعناهَا المعجميّ ومعناها الاصطلاحيّ؛ لأنّ الدعاءَ يشملُ حيّزًا كبيرًا من الصلاةِ.

و"الصلاةُ من اللهِ تعالَى لعبادِه تزكيةٌ لهم وبركةٌ عليهم، ومن الملائكةِ استغفارٌ، ومن الناسِ الدعاءُ"[4].

"والصَّلَاةُ التي هي العبادةُ المخصوصةُ، أصلُها: الدّعاءُ، وسمّيتْ هذه العبادةُ بها كتسميةِ الشيءِ باسمِ بعضِ ما يتضمّنُه"[5]، والمرادُ في الآيةِ العبادةُ المخصوصةُ.

3) ﴿ٱلزَّكَوٰةَ﴾: اسمٌ جذرُه من (زكو)، الفعلُ منه (زكَى يزكِي) فالمصدرُ منه تزكيةٌ، أمّا الزكاةُ فهي اسمُ مصدر، وأصلُ معنَى الزكاةِ: النماءُ[6].

وللزكاةِ معانٍ عديدةٌ؛ فمنها تطهيرُ المالِ، ومنها الصلاحُ، ومنها التقوَى، ومنها الزيادةُ والنماءُ، ولا سيّما للزروعِ[7]، والزكاةُ من الألفاظِ التي تطوّرَ مدلولُها بعدَ مجيءِ الإسلامِ، فبعدَ أنْ كانتْ تحملُ المعانيَ التي ذُكرتْ، ثمّ أصبحَ معناهَا "قدرٌ مخصوصٌ من مالٍ مخصوصٍ في زمنٍ مخصوصٍ"[8].

وثمّةَ علاقةٌ في هذا التّطورِ؛ فإنّ إخراجَ الزكاةِ ممّا ينمّي المالَ المخرَجَ منه؛ لقولِه تعالَى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضۡعَافًا كَثِيرَةً وَٱللَّهُ يَقۡبِضُ وَيَبۡصُۜطُ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ٢٤٥﴾ [البقرة: 245].

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (صلو).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (صلو).
(3) رواه أحمد، المسند، حديث رقم: (7748).
(4) السمين، عمدة الحفّاظ: (صلو).
(5) الراغب، المفردات: (صلو).
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (زكو).
(7) الخليل، العين: (زكو).
(8) السمين، عمدة الحفّاظ: (زكو).

والواردُ في الآيةِ بمعناهَا الشرعِيّ؛ أي: زكاةُ المالِ[1].

4) ﴿تُقَدِّمُواْ﴾: فعلُ أمرٍ موجّهٌ للجماعةِ، وهو فعلٌ مزيدٌ بالتضعيفِ؛ الماضِي منه (قَدّمَ) زنةُ (فَعّلَ)، الجذرُ اللغويّ منه (قدم) و"القافُ والدّالُ والميمُ أصلٌ صحيحٌ يدلُّ على سبقٍ ورَعْفٍ"[2]، والتقديمُ من: قَدَمِ الرِّجْلِ، ثمّ اعتبرَ به التقدّمُ والتأخّرُ[3].

ومن معانيهِ "سَبْقُ الشيءِ نافذًا إلى الأمامِ بقوَّةٍ أو حِدَّةٍ"[4] والمعنَى في الآيةِ من بابِ المجازِ، فليسَ المقصودُ أنْ يجعلُوا أمامَهم شيئًا، إنّما المقصودُ أنْ يبادرُوا بالأعمالِ الصالحةِ؛ كي يجدوها أمامَهم.

5) ﴿تَجِدُوهُ﴾: فعلٌ مضارعٌ من الأفعالِ الخمسةِ، الفعلُ منه (وجدَ يجدُ)، والجذرُ اللُّغويُّ لهذهِ الكلمةِ من الفعلِ (وجد)، وعندَ ابنِ فارسٍ: "الواوُ والجيمُ والدَّالُ، يدلُّ على أَصلٍ واحدٍ، وهو الشَّيُّ يُلفيه"[5]، وهو هنا بمعنَى الإصابةِ، والمعنَى في الآيةِ "إِنَّ الـمُرَادَ أَنَّهُ يَرَى ويَجِدُ جَزَاءَهُ"[6].

6) ﴿بَصِيرٌ﴾: وصفٌ على وزنِ (فَعِيل) وهو صيغةُ مبالغةٍ، ويجوزُ أنْ يكونَ (فَعِيلٌ) بمعنَى (فاعِلٌ) أيْ: (باصِرٌ)، أو (مُبْصِرٌ)، وجذرهُ (بصر)، والأصلُ فيهِ "القوةُ المودعةُ في العصبتينِ المجوَّفتينِ اللَّتينِ تتلاقيانِ، ثمّ تفترقانِ، فيتأديانِ إلى العينِ تدركُ بها الأضواءَ والألوانَ والأشكالَ"[7] وهذا هو بصرُ العينِ، إلَّا أنّ له أصلاً آخرَ وهو "العلمُ بالشيءِ، يقالُ: هو بصيرٌ به"[8].

ويجوزُ أنْ يبصرَ الإنسانُ بقلبِه وروحِه، ويقالُ لها قوّةُ الإدراكِ القلبيّةِ[9]، وعندَ ذاكَ تسمّى البصيرةَ، أو بصرَ النّفسِ[10]، وهذا اللفظُ وصفٌ للحقّ تباركَ وتعالَى؛ وهو بمعنَى

(1) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (زكو).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قدم).
(3) الراغب، المفردات: (قدم).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (قدم).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (وجد).
(6) محمد رشيد رضا، تفسير المنار: 1/348.
(7) الجرجاني، التعريفات، ص: 46.
(8) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بصر).
(9) الراغب، المفردات: (بصر).
(10) الجرجاني، التعريفات، ص: 46.

العليم الذي يجازِي المحسنَ والمسيءَ؛ "لأنّ العليمَ القديرَ إذا علمَ شيئًا فهو يرتِّبُ عليهِ ما يناسبُه، إذ لا يذهلُه جهلٌ، ولا يُعْوِزُه عجزٌ"[1].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

أمرٌ من الحقِّ تباركَ وتعالَى للجماعةِ المسلمةِ بإقامةِ الصلاة "لمَا في الصلاةِ من توثيقِ عرَى الإيمانِ، وإعلاءِ الهمّةِ، ورفعةِ النفسِ بمناجاةِ اللّهِ، وتأليفِ قلوبِ المؤمنينَ حينَ الاجتماعِ لأدائِها، وتعارفِهم في المساجدِ، وبهذا ينمُو الإيمانُ"[2] ثمّ أمرهُم بإيتاءِ الزكاةِ "لِمَا في الزكاةِ من توكيدِ الصِّلَةِ بينَ الأغنياءِ والفقراءِ، فتتحققُ وحدةُ الأمةِ، وتكونُ كالجسمِ الواحدِ"[3] فهذهِ من فرائضِ اللّهِ، فمَن يُقَدِّم زيادةً على ذلكَ من النّوافلِ والتّطوعِ والصّدقاتِ فسيجدُ ثوابه عند اللّه في الآخرة؛ إنه تعالى بصير بكل الأعمال، وسيجازي عليها.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبلاغيُّ:

معنَى الألفِ واللامِ في كلمةِ ﴿ٱلصَّلَوٰةَ﴾:

تزاحمُ الأقوالِ على بابِ القبولِ، بتأييدِ السِّباقِ واللِّحاقِ

تحتملُ الألفُ واللامُ في لفظةِ ﴿ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أنْ تكونَ للعهدِ، أي: الصلاةُ المشروعةُ، ويؤيدُه أنَّ الصَّلاةَ إذا أُطلقتْ في لسانِ الشَّرعِ فلا ينصرفُ الذِّهنُ إلّا إلى الصَّلاةِ المعروفةِ، فهي حقيقةٌ شرعيَّةٌ، لكنْ ما المرادُ بالعهد؟ المكتوبةُ، أو جميعُ الصَّلواتِ، المكتوبةُ والمسنونةُ؟ الظَّاهرُ أنَّها المكتوبةُ، لأمرينِ وهما: الأمرُ بهَا، وقرنُها بالزَّكاةِ الواجبةِ، وحملُها على استغراقِ جميعِ الصَّلواتِ؛ فيدخلُ الواجبُ والنفلُ يؤيدُه اللّحاقُ، ويكونُ المقصودُ بالأمرِ بإقامتِها تعديلَها والخشوعَ فيها، وأنْ تكونَ مقوِّمةً لصاحبِها.

والمعنيانِ متزاحمانِ على بابِ القبولِ، الأوَّل يُؤيّده السِّباقُ، والثَّاني يُؤيّدُه اللّحاقُ.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/672.
(2) المراغي، تفسير المراغي: 1/191.
(3) المراغي، تفسير المراغي: 1/192.

نكتةُ حذفِ المفعولِ الثاني:

بيانُ أهميَّةِ العنايةِ بالمالِ المُزكَّى، وإطلاقُ فعلِ الإيتاءِ للحثِّ على العجلةِ

المفعولُ الثاني للفعلِ ﴿وَءَاتُواْ﴾ في قولِه تعالَى: ﴿وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ﴾ محذوفٌ، تقديرُه: مستحقِّيها، وحذفَ المفعولُ الثَّاني للإيجازِ؛ للعلمِ بهِ، ودليلُه دليلٌ شرعيّ؛ لأنّ الزكاةَ تصرفُ لمستحقِّيها، أمّا غرضُ الحذفِ وهو النكتةُ البيانيَّةُ؛ فهو لبيانِ أهميةِ المعطَى لا المعطَى لهُ، وحثُّ المسلمينَ على العنايةِ بإيتاءِ الزَّكاةِ أكثرَ من العنايةِ بالمستحِقِّينَ؛ فهؤلاءِ المستحقّونَ فصّلتْ فيهم أدلةٌ أخرَى، وأمرٌ آخرُ، وهو إطلاقُ فعلِ الإيتاءِ بحيثُ يكونُ همُّ المزكِّي إيتاءَ الزَّكاةِ بما يُشابِه التَّخلُّصَ منها على وجهِ السُّرعةِ والعجلةِ.

نكاتُ تقديمِ الجملةِ على الجملةِ:

عُطِفتْ جملةُ ﴿وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ﴾ على جملةِ ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ بجامعِ أنّهما أهمُّ ركنينِ من أركانِ الإسلامِ، والعطفُ هنا "بالواوِ المقتضيةِ عدمَ التّرتيبِ، فإنّهم مع ذلك إنّما يبدأونَ بالأهمِّ والأولَى"[1]؛ فيُسألُ عن سرِّ تقديمِ الأمرِ بالصَّلاةِ على الأمرِ بالزَّكاةِ؟ وذلك يظهرُ من خلالِ النّكاتِ الآتيةِ:

تقديمُ الأصلِ على الفرعِ، والقاعدةِ الأهمّ على القاعدةِ المهمّةِ

ولا ريبَ أنّ الصلاةَ هي القاعدةُ الأهمُّ، والزكاةُ هي القاعدةُ المهمّةُ، وهذا بدهيٌّ في مقياسِ التفضيلِ؛ فهي عمادُ الدينِ، ومع ذلك فهما مطلوبتانِ، لكنّ الأُولَى أهمُّ من بابِ أنّها جوازُ مرورِ العبدِ لتلقّي الحسابِ؛ لقولِه ﷺ: «أَوَّلُ مَا يُحَاسَبُ بِهِ العَبْدُ صَلَاتُهُ»[2]، والأمرُ الآخرُ وهو أنَّ الصَّلاة تمثِّلُ القاعدةَ التي تُقبلُ الزَّكاةُ بناءً عليها، فهو من قبيلِ تقديمِ الأصلِ على الفرعِ.

تقديمُ ما كانَ فيه الخطابُ للأعمِّ أولى ممَّا كانَ فيه الخطابُ للأخصِّ

المأمورونَ بإقامةِ الصَّلاةِ همّ أضعافُ المأمورينَ بإيتاءِ الزكاةِ، فالصلاةُ فرضُ عينٍ على كلّ مسلمٍ، بخلافِ الزكاةِ فهي فرضٌ على

(1) ابن الزبير، ملاك التأويل: 1/37.
(2) رواه أحمد بن حنبل، المسند، حديث رقم: (16614).

كلّ من مَلكَ النصابَ، وحالَ عليه الحولُ، وعليهِ فتقديمُ ما كانَ فيه الخطابُ للأعمِّ أولى ممَّا كانَ فيه الخطابُ للأخصِّ.

تـقـديـمُ ما يستغرقُ الزَّمانَ على ما لا يأخذُ إلّا الوقتَ اليسيرَ

الصَّلاةُ عبادةٌ بدنيَّةٌ يوميَّة تُقام خمسَ مرَّاتٍ في اليومِ والليلةِ، أمّا الزكاةُ فهي عبادةٌ ماليَّةٌ سنويَّة، فالوقتُ الذي تستغرقُه الصَّلاةُ من حياةِ المسلمِ وقتُه كلُّه، بينَما الزَّكاةُ فهي لا تأخذُ إلّا وقتًا يسيرًا جدًّا؛ فلهذَا حسُنَ تقديمُ ما يستغرقُ الزَّمانَ، على ما لا يأخذُ إلاّ الوقتَ اليسيرَ.

سرُّ التعبيرِ بالإيتاءِ دونَ الإعطاءِ:

إرشـادُ الـمُـزكّي إلى أن تـكـونَ زكاتُه صادرةً عن يُسْرٍ وسهولةٍ

جاءَ التَّعبيرُ بمادَّةِ الإيتاءِ في قولِه تعالَى: ﴿وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ﴾، ولم يعبّرْ بمادَّةِ الإعطاءِ؛ لأنّ الإيتاءَ دالٌّ على المجيءِ بسهولةٍ ويُسْرٍ[1]، وقدْ خُصّ هذا الفعلُ بدفعِ الصَّدقةِ الواجبةِ حيثُما وردَ في القرآنِ الكريمِ[2]، وعليهِ فالآيةُ تُرشدُ إلى أن تكونَ الزَّكاةُ مُؤدَّاةً بيُسرٍ وسهولةٍ.

أمّا فعلُ الإعطاءِ فإنّه "اتِّصَال الشَّيْء إِلَى الآخذ لَهُ؛ أَلا ترى أَنَّك تُعْطِي زيدًا الـمَالَ ليَرُدّهُ إِلَى عَمْرو، وتعطِيه ليتّجرَ لَك بِهِ"[3]، أي: أنّ المعطَى يُعاد إلى المعطِي هذا أصلُه، وهذا ليسَ متعيّنًا في فعلِ الإيتاءِ؛ فإنّ الزكاةَ بمنزلةِ الهبةِ فلا تعادُ، وجعلَ الزمخشريّ "اشتهارَ الإيتاءِ في معنَى الإعطاءِ"[4]؛ فلا فرقَ بينَهما عندَه.

بلاغةُ عطفِ العامّ على الخاصّ:

بـيـانُ أهـمـيَّـةِ الصَّلاةِ والزَّكاةِ بـالأمـرِ المباشرِ والضِّمنيّ

الواوُ في قولِه تعالَى: ﴿وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم﴾ للعطفِ، وهي من قبيلِ عطفِ العامِّ على الخاصّ، فجملةُ ﴿وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم﴾ معطوفةٌ على جملةِ ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾؛ لأنّ إقامةَ الصلاةِ فرضُ عينٍ على الجميعِ؛ والزكاةُ مثلُها على من تنطبقُ عليهِ الشُّروطُ، أمّا تقديمُ

(1) الراغب، المفردات: (أتى).
(2) السمين، عمدة الحفّاظ: (أتي).
(3) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 167.
(4) الزمخشري، الكشّاف: 5/381.

الخيرِ للنّفسِ فإنّ في تأخيرِه مقصدًا وغايَة، وهو أنّ الخيرَ كلمةٌ جامعةٌ لصنوفٍ كثيرةٍ كالبرِّ والإحسانِ والطاعةِ والعملِ الصالحِ[1]، فيدخلُ فيه الصَّلاةُ والزَّكاةُ، فيكونُ من قبيلِ عطفُ العامّ على الخاصّ، ليُؤمرَ بالصَّلاةِ والزَّكاةِ مرَّتين، مرَّةً نصًّا مباشرًا، وأخرى ضِمنًا، ونكتةُ ذلكَ بيانُ أهميَّةِ الصَّلاةِ في حياةِ المسلمِ، والزّكاةِ في حياةِ المجتمعِ.

بلاغةُ استعمالِ ما الشَّرطيَّةِ:

إفادةُ معنى العمومِ لحضِّ المخاطَبينَ على تقديمِ الخيرِ

استُعملتْ ﴿مَا﴾ الشَّرطيَّةُ[2] بدلًا من "إنْ" التي هي أمّ أدواتِ الشرطِ الجازمةِ، في قولِه تعالى: ﴿وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ﴾؛ وذلكَ لمَا تتضمّنُهُ من معنَى العُموم والشَّرطِ، توطئةً لحضِّ المخاطَبينَ على تقديمِ الخيرِ أيًّا كانَ نوعُه وشكلُه، فرضًا أو نافلةً، بدنيًّا أو ماليًّا، كثيرًا أو قليلًا؛ فإنَّ ذلكَ كلَّه يدخلُ في المرغَّبِ فيهِ، ويُلائمُ ذلك دخولُ﴿مِّنْ﴾ على ﴿خَيْرٍ﴾.

نكتةُ المجازِ بالحذفِ:

التنبيهُ على الغايةِ لا الوسيلةِ، فإنّ النفسَ هي غايةُ العملِ

في قولِه تعالَى: ﴿لِأَنفُسِكُم﴾ مجازٌ بالحذفِ، والمعنَى: وما تقدّموا لأجلِ أنفسِكم؛ فالتركيبُ على حذفِ مضافٍ؛ لأنّ الأنفسَ والذواتِ ليستْ محلًّا للتّقدّمة، بلْ يقدّمُ الخيرُ لأجلِ صلاحِها، ونيلِها الأجرَ والغفرانَ، ونجاتِها في الآخرةِ وحياتِها[3].

سرُّ التعبيرِ بجمعِ القِلّةِ:

التَّناسبُ بينَ السِّياقِ والصِّيغِ

جاءَ التَّعبيرُ بجمعِ التَّكسيرِ في قولِه تعالَى: ﴿لِأَنفُسِكُم﴾ وصيغتُه الصرفيةُ (أفْعُل) الدَّالُّ على القلَّةِ، إشارةً إلى أنّ التركيبَ منصبغٌ بصبغةِ التقليلِ، ولمْ يقلْ: (نفوسَكم) على وزنِ (فُعُول) وهو من صيغِ التكسيرِ الدالّةِ على الكثرةِ، للتَّلاؤمِ والتَّناسبِ السِّياقيّ؛ فإنَّ

(1) محمّد علي الدرّة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 1/288.
(2) العُكْبَرِيّ، التبيان: 1/105.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 1/560.

السِّياقَ يحضُّ على تقديمِ الخيرِ مهما قلَّ؛ فناسبَ ذلكَ أنْ يأتيَ بالصيغةِ الصَّرفيَّةِ الدَّالّةِ على القلَّةِ.

بلاغةُ التَّقديمِ والتَّأخيرِ:

تقديمُ الغايةِ على الوسيلةِ، وأثرُها في الحضِّ على فعلِ الخيرِ

للفعلِ ﴿تُقَدِّمُواْ﴾ معمولانِ اثنانِ، الأولُ: ﴿لِأَنفُسِكُم﴾، والثاني: ﴿مِّنْ خَيْرٍ﴾، وتقديمُ ﴿لِأَنفُسِكُم﴾ من قبيلِ تقديمِ الغايةِ على الوسيلةِ ﴿مِّنْ خَيْرٍ﴾، وفائدةُ ذلك الحضُّ على فعلِ الخيرِ؛ فإنَّ ما يُقدِّمُه المسلمُ ابتداءً هو لنفسِه، وفيها كشفٌ لطبيعةِ النَّفسِ البشريَّةِ في حرصِها على ما ينفعُها، وهو يُفيدُ في التَّعاملِ مع المدعوِّ، في حضِّه على تقديمِ ما يُفيدُه في أُخراه؛ بتنبيهِه على أنَّ ما يُقدِّمه مآلُه له؛ كما قال سبحانَه على لسانِ الإنسانِ: ﴿يَٰلَيۡتَنِي قَدَّمۡتُ لِحَيَاتِي ٢٤﴾ [الفجر: 24].

فائدةُ التعبيرِ بالظرفِ:

الترغيبُ والتحبيبُ بتقديمِ الخيرِ للأنفسِ

التعبيرُ بالظرفِ في قولِه: ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾، وفيه ترغيبٌ وتحبيبٌ؛ لأنْ يقدّمَ الإنسانُ الخيرَ لنفسِه؛ لأنّ (عندَ) تمثلُ "أقصى نهاياتِ القُرْبِ"[1] وكيفَ لا يرغبُ فيه أحدٌ، وهو قدْ أضيفَ (عندَ) إليه تعالى بقولِه: ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾، وهو للمبالغةِ في تفخيمِ الثوابِ وتجسيمِه؛ ولأنّ الذاتَ الإلهيةَ منزّهةٌ عن الحوادثِ؛ فـ"الظرفيةُ هنا مجازٌ نحو: لك عندَ فلانٍ يدٌ"[2].

نكتةُ إظهارِ ما حقُّهُ الإضمارُ:

بناءُ قيمةِ مراقبةِ اللهِ تعالى في نفوسِ المخاطَبينَ

جاءَ قولُه تعالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ١١٠﴾ استئنافًا تعليليًّا بجملةٍ اسميّةٍ مؤكّدةٍ، وجاءَ لفظُ الجلالةِ مُظهَرًا، ومقامُه الإضمارُ؛ للتّعظيمِ وتوريثِ المهابةِ في الصدورِ؛ وتربيةِ المخاطَبينَ على التقوَى في مراقبةِ اللّهِ لهم؛ والإظهارُ في مثلِ هذا أوقعُ في النفسِ من الإضمارِ.

(1) ابن منظور، لسان العرب: (عند).
(2) السمين، الدرّ المصون: 2/69.

نكتةُ تقديمِ ﴿بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ على الصفةِ ﴿بَصِيرٞ﴾:

مراعاةُ البلاغةِ للتَّناسبِ السِّياقيّ والتَّلاؤمِ الصّوتيّ

قُدّمَ الجارُّ والمجرورُ ﴿بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ على الخبرِ ﴿بَصِيرٞ﴾؛ لثلاثةِ أسبابٍ:

الأولُ: أمرٌ بيانيّ وهو إفادةُ الاهتمامِ، وأنّ اللّهَ محيطٌ بكلِّ الأعمالِ لا تخفَى عليهِ خافيةٌ.

الثاني: أمرٌ لفظيّ صوتيّ هو مراعاةُ رؤوسِ الآي، وهو تابعٌ للمعنَى.

الثالثُ: أمرٌ سياقيّ؛ فإنَّ سياقَ الآيةِ حديثٌ عن الأعمالِ: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم﴾؛ فكانَ من المناسبِ أنْ يقدّمَ المتعلّقَ ﴿بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ على الصفةِ ﴿بَصِيرٞ﴾، بخلافِ ما جاءَ في سورةِ الحُجراتِ، حيثُ قُدِّمتِ الصِّفةُ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ [الحجرات: 18]، حيثُ كانَ سياقُ الآيةِ حديثًا عن صفاتِه تعالى؛ فجاءتِ الصِّفةُ متقدِّمةً، وهو تناسبٌ وتلاؤمٌ بديعٌ في ائتلافِ البلاغةِ بالسِّياقِ.

﴿وَقَالُواْ لَن يَدۡخُلَ ٱلۡجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىۗ تِلۡكَ أَمَانِيُّهُمۡۗ قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ١١١﴾ [البقرة: 111]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

انتقالٌ من بيانِ ما يجولُ في قلوبِ أهلِ الكتابِ من ارتدادِ المؤمنينَ عن الإيمانِ إلى بيانِ ما يتردّدُ على ألسنتِهم من حصرِ الفائزينَ في الجنّةِ فيهم.

قال الإمام البِقَاعيُّ في بيان ذلك[1]: "ولَمّا ذَكَرَ دَعْواهم في مَسِّ النّارِ وأبْطَلَها مِن وُجُوهٍ كَثِيرَةٍ أحاطَتْ بِهِمْ فِيها الخَطايا إحاطَةً اقْتَضَتْ خُلُودَهم فِيها مِن جِهَةِ ضَلالِهِمْ إلى آيَةِ النَّسْخِ مُرَقِّيًا الخِطابَ مِن سَيِّئَةٍ إلى أسْوَأ مِنها، ثُمَّ مِن جِهَةِ إضْلالِهِمْ لِغَيْرِهِمْ مِن آيَةِ النَّسْخِ، عَطَفَ عَلى تِلْكَ الدَّعْوى الإخْبارَ بِدَعْواهم في دُخُولِ الجَنَّةِ تَصْرِيحًا بِما أفْهَمَتْهُ الدَّعْوى الأُولى تَلْوِيحًا، وقَرَنَ بِذَلِكَ مِثْلَ ما خَتَمَ بِهِ ما قَبْلَها مِن أنَّ مَن فَعَلَ خَيْرًا وجَدَ عَلى وجْهٍ بَيِّنٍ فِيهِ أنَّ ذَلِكَ الخَيْرَ الإسْلامُ والإحْسانُ فَقالَ تَعالى: ﴿وَقَالُواْ لَن يَدۡخُلَ ٱلۡجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىۗ تِلۡكَ أَمَانِيُّهُمۡۗ قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾.

شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

1) ﴿يَدۡخُلَ﴾: فعلٌ مضارعٌ دالٌّ على الاستقبالِ، جذرُه (دخل)، وهو "أَصلٌ مطَّردٌ منقاسٌ؛ وهو الولوجُ"[2]، وهو واضحٌ بيّنٌ، مصدرهُ الدخولُ، وهو"نقيضُ الخروجِ، ويستعملُ ذلكَ في المكانِ، والزمانِ، والأعمالِ، يقالُ: دخلَ مكانَ كذا"[3] والدخولُ في الآيةِ على معناهُ في لسانِ العربِ، فضلاً عمّا يمكنُ أنْ يلمحَ فيه من أنّ الدخولَ بمعنَى الثوابِ على ما عملُوا في الحياةِ الدنيَا، وليسَ دخولاً متعلِّقًا بالظَّرفيةِ.

2) ﴿ٱلۡجَنَّةَ﴾: والجذرُ اللُّغويّ من مُضعّفُ الثُّلاثيّ (جَنَّ) أو (جَنَنَ)، والأصلُ اللُّغويّ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 2/110-111.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (دخل).
(3) الراغب، المفردات: (دخل).

لهذا الجذرِ التّغطيةُ والسّترُ[1]، والجنّةُ "البستانُ، وهو ذاك؛ لأَنَّ الشَّجرَ بورقِه يستُرُ"[2].

"وسمّيتِ الجنّةُ في الآخرةِ جنةً إمّا تشبيهًا بجنّةِ الأرضِ وإنْ كانَ بينَهما بونٌ، وإمّا لسترِها عنّا نعمَها"[3]، وقدْ أشيرَ إلى ذلكَ بقولِه: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة: 17].

أمّا معناها في الآيةِ، "ما يصيرُ إليهِ المُسلمُونَ في الآخرةِ، وهو ثوابٌ مستُورٌ عنْهُم اليومَ"[4].

3) ﴿هُودًا﴾: اسمٌ ثلاثيّ الجذرُ اللغويّ منه (هود)، (هُود) جمعُ هائِد، وهو التائبُ[5]. ومنه (اليَهُود)، واشْتقاقُه من هادُوا؛ أي: تابُوا[6]، وهي تسميةٌ حقيقيّةٌ لهم، فقدْ سُمُّواْ بذلكَ لكونِهم أولادَ يهودا ابنِ يَعْقُوبَ، أو لكونِهم هادُواْ، وتابُواْ عن عبادةِ العِجْلِ[7].

4) ﴿نَصَٰرَىٰ﴾: اسمٌ على وزنِ (فَعالَى) وهو من أوزانِ جمعِ التكسيرِ، وجذرُه اللغويّ (نصر)، و(النَصَارَى) وهُم قَوْمُ عِيسى عليه السلام، واشتقاقُ لفظِ (نَصَارَى) من الجذرِ (نَصَرَ) الذي "يدُلُّ على إتْيانِ خَيرٍ وإيتائه"[8].

أمّا سببُ التسميةِ فقدْ "سُمُّوا بذلكَ لقولِه: كُونُوا أَنْصارَ اللَّهِ ... وقيلَ: سُمُّوا بذلكَ انتسابًا إلى قريةٍ يقالُ لها: نَصْرَانَةُ، فيقالُ: نَصْرَانيٌّ، وجمْعُه نَصَارَى"[9] وقيلَ في تسميّتِهم (نَصَارَى)، أنَّهُم تَسَمَّوْاْ بقرْيةٍ يُقالُ لها النّاصرةُ بفلسطينَ، كانَ عيسَى ابنُ مريمَ ينزلُها[10].

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (جنن).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (جنن).
(3) السمين، عمدة الحفّاظ: (جنن).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (جنن).
(5) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (هود).
(6) ابن منظور، لسان العرب: (هود).
(7) الهرري، حدائق الرّوح والرّيحان: 8/13.
(8) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نصر).
(9) الراغب، المفردات: (نصر).
(10) ابن جرير، جامع البيان: 2/145.

5) ﴿أَمَانِيُّهُمْۗ﴾: جمعُ تكسيرٍ يفيدُ الكثرةَ، مفردُه أمنيةٌ، وزنُها (أفعولة) وقدْ أضيفَ إلى الضميرِ العائدِ على اليهودِ والنصارَى، والجذرُ اللغويّ له (مني) ومعناهُ القدرُ، وله أصلٌ واحدٌ يدلّ على "تقديرِ شيءٍ، ونفاذِ القضاءِ بهِ؛ منه قولُهم: منَى له الماني، أي: قدّرَ المقدّرُ"[1].

"والمُنَى، بِضمِّ الميم جمعُ المُنيَةِ، وهو ما يتمنَّى الرَّجلُ، والمنوةُ الأُمنيَّةُ في بعضِ اللُّغاتِ"[2] والأمنيةُ والأماني من التمنّي، وهو "تقديرُ شيءٍ في النّفسِ وتصويرهُ فيها، وذلك قدْ يكونُ عن تخمينٍ وظنٍّ، ويكونُ عن رويّةٍ وبناءٍ على أصلٍ، لكنْ لمّا كانَ أكثرُه عن تخمينٍ صارَ الكذبُ له أملكَ، فأكثرُ التّمنّي تصوّرُ ما لا حقيقةَ له"[3]؛ وهذا هو حالُ اليهودِ والنَّصارَى في أمانيّهم.

6) ﴿هَاتُواْ﴾: فعلُ أمرٍ، الأصلُ فيه "هاتيوا حذفتْ الضمةُ لثقلِها، ثمّ حُذفتْ الياءُ لالتقاءِ الساكنينِ"[4] والجذرُ اللغويّ له (هتي) "المهاتاةُ كالمعاطاةُ، يقالُ: هاتِ، أي: أعطِ، فتقولُ: ما أهاتيكَ، أي: لا أعطيكَ"[5].

و"إذا أَمرتَ رجلاً أَنْ يعطيكَ شَيْئًا قلتَ لَهُ: هاتِ يَا رجلُ، وللاثنينِ: هاتِيَا، وللجميع: هاتُوا، وللمرأة: هاتِي"[6]، والمعنَى في الآيةِ طلبُ أنْ يحضرَ المخاطَبونَ برهانَهم[7] إنْ كانُوا صادقينَ.

7) ﴿بُرْهَٰنَكُمْ﴾: اسمٌ زنةُ (فُعلان) مثلُ (الرُّجحانِ)، الفعلُ منه (برهنَ يبرهنُ)، وجذرُه (بره)، أو (برهن)، والبرهانُ "الدليلُ الذِي يوقعُ اليقينَ"[8] وهذا معناهُ في القرآنِ الكريمِ.

و"البرْهانُ الحُجَّةُ، وقد بَرْهَنَ عليه، أي: أقامَ الحُجَّةَ"[9]، واختلفُوا في نونِه بينَ الأصالةِ فيكونُ رباعيًّا، أو الزيادةِ فيكونُ ثلاثيًّا.

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (مني).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (مني).
(3) الراغب، المفردات: (مني).
(4) النحاس، إعراب القرآن: 1/74.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (هتي).
(6) الأزهري، تهذيب اللغة: (هتى).
(7) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (هتي).
(8) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (هتي).
(9) الجوهري، الصّحاح: (برهن).

والبرهانُ "هو الدليلُ القاطعُ، ...، وهو ما يقتضِي الصِّدقَ أبدًا لا محالةَ"[1]، وهو المطلوبُ من أهلِ الكتابِ؛ لإثباتِ صدقِ دعواهُم، ولنْ يستطيعُوا له طلبًا.

8) ﴿صَٰدِقِينَ﴾: جمعُ مذكرٍ سالم، مفردُه (صادقٌ) من الجذرِ اللغويّ (صدق) وهو نقيضُ الكذبِ، وأصلهُ "يدلُّ على قوَّةٍ في الشَّيءِ قولًا وغيرَه، منْ ذلك الصِّدقُ خلافُ الكذبِ، سمِّيَ لقوّتهِ في نفسهِ، ولأَنَّ الكذبَ لا قوَّةَ لهُ"[2].

و"الصِّدْقُ والكذبُ أصلُهما في القولِ؛ ماضيًا كانَ أو مستقبلاً، وعدًا كانَ أو غيرَه"[3].

والواردُ في الآيةِ: ﴿صَٰدِقِينَ﴾ "من الصِّدْق ضدّ الكذبِ"[4]، وقدْ أخبرَ "أنّهم غيرُ صادقينَ حينَ يعجزونَ عن البرهانِ؛ لأنّ كلّ اعتقادٍ لا يقيمُ معتقِدُه دليلَ اعتقادِه فهو اعتقادٌ كاذبٌ؛ لأنّه لوْ كانَ له دليلٌ لاستطاعَ التعبيرَ عنهُ"[5].

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

كشفتِ الآيةُ عن علَّةِ الحسدِ، وسببِ كراهيةِ إيمانِ المؤمنينَ، وهو ادِّعاءُ أهلِ الكتابِ أنَّهم أهلُ الجنَّةِ وحدَهم دونَ سواهُم، وهذا الادِّعاءُ عبارةٌ عن أمنيةٍ غيرِ متحقّقةِ الوقوعِ، خاليةٍ من البرهانِ، قاصرةٍ على القلوبِ الجوفاءِ، والأذهانِ الخشنةِ؛ والآيةُ ترجمةٌ لطبيعةِ الحسدِ الجاثمِ في قلوبِ أهلِ الكتابِ تجاهَ المؤمنينَ.

وما دعواهُم تلكَ إلّا أُمنيةً كبُرتْ وتعاظمتْ حتّى صارتْ بمنزلةِ الأمنياتِ الكبيرةِ المتعدّدةِ؛ ولأنّ دخولَ الجنّةِ أمنيةٌ واحدةٌ لكنْ "لشدّةِ تمنّيهم لهذهِ الأمنيةِ، ومعاودتِهم لها، وتأكّدِها في نفوسِهم جُمعتْ؛ ليفيدَ جمعُها أنّها متأكِّدةٌ في قلوبِهم، بالغةٌ منهم كلَّ مبلغٍ"[6].

(1) السمين، عمدة الحفّاظ: (برهن).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (صدق).
(3) الراغب، المفردات: (صدق).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (صدق).
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/674.
(6) القاسمي، محاسن التأويل: 2/224.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبلاغيُّ:

معنى الواوِ في قولِه تعالَى: ﴿وَقَالُواْ لَن يَدۡخُلَ ٱلۡجَنَّةَ﴾:

التَّنوُّعُ في معاني الواوِ قائمٌ على بيانِ معاني الآياتِ

الواوُ إمَّا أنْ نحملَها على الاستئنافِ؛ وهو ظاهرُ النَّظمِ، وإمَّا أنْ نحملَها على العطفِ، وذلك بجعلِ الآيةِ السَّابقةِ معترضةً[1]، انتقلَ فيها الكلامُ من الحديثِ عن اليهودِ والنصارَى بقولِه: ﴿وَدَّ كَثِيرٞ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ لَوۡ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِكُمۡ كُفَّارًا حَسَدٗا﴾ إلى المسلمينَ بقولِه: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنۡ خَيۡرٖ﴾، فعندئذٍ يجوزُ العطفُ، بأنْ يعطفَ مقالةَ اليهودِ والنَّصارَى على تمنّيهم عودةَ المسلمينَ إلى شركِهم وضلالِهم.

بلاغةُ اللّفِّ والنّشرِ:

جمعُ الفريقينِ في ضميرٍ واحدٍ لبيانِ اجتماعِهم على الباطلِ

أسلوبُ اللّفِّ والنّشرِ من أساليبِ البلاغةِ التي تدلُّ على حسنِ التأليفِ، وبراعةِ الإيجازِ؛ فاللّفُّ فيه غموضٌ يُبقِي الذِّهنَ متيقّظًا لفكِّ هذا اللّفِّ ونشرِه، وهنا جمعَ ولفَّ في الضميرِ الواوِ الدالِّ على جمعٍ من الناسِ، فإذَا قيلَ: (قالُوا) بقيَ السامعُ مُنْتبهًا متيقّظًا لمعرفةِ تفسيرِ الضّميرِ، وفائدةُ ذلك بيانُ اتّحادِ الفريقينِ في الباطلِ؛ "فقولُه: ﴿وَقَالُواْ﴾ أرادَ بهِ اليهودَ والنصارَى؛ فجمعهُما في الضميرِ ولفَّهُما بذكرِه، ثمّ إنَّه نشرهُما بعدَ ذلك بقولِه: ﴿مَن كَانَ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰۗ﴾، والتقديرُ فيهِ: وقالتِ اليهودُ لنْ يدخلَ الجنّةَ إلّا من كانَ هودًا، وقالتِ النَّصارَى لنْ يدخلَ الجنّةَ إلّا من كانَ نصرانيًّا، فجمعَه بما ذكرْنا، ثمّ فصّلَه، ولمْ يقلْ ذلك كلّ واحدةٍ من الطائفتينِ، بل أرادَ التكريرَ"[2] من خلالِ إعمالِ العقلِ في ردّ كلٍّ قولٍ إلى ما يناسبُه.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/672.

(2) العلويّ، الطراز: 2/212.

فائدةُ تعديةِ الفعلِ بنفسِه:

الغرضُ البلاغيُّ مقدَّمٌ على القياسِ النحويّ

تعدَّى الفعلُ المضارعِ ﴿يَدۡخُلَ﴾ بنفسِه، والقياسُ تعديتُه بحرفِ الظَّرفِ أي: (يدخلُ في الجنّةِ)؛ لأنّه ظرفُ مكانٍ مختص، فلا يجوزُ حذفُ الحرفِ معه، لكنّهُ (شبّه ظرفَ المكانِ المختصِّ مع دخلت بالمكانِ غيرِ المختصِّ)[1]؛ فتعدَّى إليهِ بنفسِه لغرضٍ بلاغيّ وهو التوسّعُ؛ فإنّ "في" حرفٌ يدلّ على الظَّرفيَّة، وفي قوله: ﴿لَن يَدۡخُلَ ٱلۡجَنَّةَ﴾ تعبيرٌ مجازيٌّ عن ادِّعائِهم دخولَ الجنَّة كلِّها؛ فهذا هو معنَى التوسّعِ، إذِ الدُّخولُ لنْ يكونَ إلّا لجزءٍ منهَا على التَّسليمِ بقيلِهم.

فائدةُ الترتيبِ في التقسيمِ:

السَّبقُ الزّمانيّ وشدَّةُ العداوةِ سببُ تقديمِ اليهودِ على النصارَى

قُدّمَ ذكرُ اليهودِ على النصارَى كونُهم أسبقَ في الوجودِ؛ فإنّ اليهوديةَ أسبقُ زمنًا من النَّصرانيّةِ؛ واليهودُ أشدُّ عداوةً من النَّصارَى، وآيةُ ذلك قولُه تعالَى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقۡرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰۚ﴾ [المائدة: 82]، وقدْ قُدِّمَ ذكرُ اليهودِ على النصارَى في جميعِ القرآنِ الكريمِ.

استعمالُ الإشارةِ للبعيدِ دونَ القريبِ:

الإشعارُ بضعفِ العقولِ المنتجةِ للأوهامِ والأباطيلِ

آثرَ النَّظمُ الكريمُ الإتيانَ باسمِ الإشارةِ للبعيدِ دونَ القريبِ؛ فلمْ يقلْ: هذهِ أمانيّهُم، إشعارًا ببعدِ تلك الأمانيّ عن الواقعِ، وتهكُّمًا بظنونِهم الباطلةِ، وأنّ هذه الأماني مستحيلةُ التّحقّقِ، وهو ما يبيِّن ضعفَ عقولِهم القائمةِ على مثلِ هذهِ الظّنونِ.

العدولُ عن الإفرادِ إلى الجمعِ:

الكشفُ عن مجموعةٍ من المعاني الكامنةِ في النّفوسِ

عدَلتِ الآيةُ الكريمةُ عن الإفرادِ إلى الجمعِ في قولِه تعالى: ﴿تِلۡكَ أَمَانِيُّهُمۡۗ﴾، إذ القولُ الذي قالُوه مفردٌ؛ فهو أمنيةٌ، ولمجيئِه جمعًا عدَّة توجيهاتٍ منها:

(1) أبو حيّان الأندلسي، ارتشاف الضرب: 3/1435.

1- القولُ الذي قالُوه في حقيقتِه جمعٌ متعدّدٌ من مثلِ: "أنْ لا ينزلَ على المؤمنين خيرٌ من ربّهم، وأمنيتُهم أنْ يردّوهُم كفّاراً، وأمنيتُهم أنْ لا يدخلَ الجنّةَ غيرُهم، أي: تلك الأماني الباطلةِ أمانيُّهُم"[1].

2- على تقديرِ حذفِ المضافِ، وإقامةِ المضافِ إليهِ مُقامَه؛ فإنّ أصلَ الكلامِ: (أمثالُ تلكَ الأمنيةِ أمانيهُم)، يعني: جميعُ أمانيهُم باطلةٌ، هذهِ وغيرُها[2].

3- "ليدلّ على تردّدِ الأمنيةِ في نفوسِهم، وتكرُّرِها فيها، وقيلَ: إشعارًا بأنّها بلغتْ كلَّ مبلغٍ؛ لأنّ الجمعَ يفيدُ زيادةَ الآحادِ؛ فيستعملُ لمطلقِ الزيادةِ"[3].

4- إنّ الذينَ تمنّوا هذه الأماني جمعٌ، وهم اليهودُ والنصارَى؛ فجاءتْ أمانيّهُم مطابقةً لحالِهم الجمعيّ، و"الجمعُ باعتبارِ صدورِه عن الجميعِ"[4]؛ كقولِه تعالَى: ﴿مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ [البقرة: 105]، وقولِه تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٞ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ [البقرة: 109]، وغيرِها من الآياتِ الدالّةِ على الجمعِ، وللإيحاءِ بأنّ هذا حالُ أهلِ الكتابِ جميعًا، أو غالبِهم.

بلاغةُ الجملةِ الشرطيّةِ في التعريضِ بكذبِهم

وذكرَ بعدَها الجملةَ الشرطيةَ: ﴿إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ١١١﴾، فجاءَ بإنْ الشرطيةِ أمّ بابِ أدواتِ الشرطِ الدالّةِ على الشكِّ، ثمّ وضعَ فعلَ الشرطِ ماضيًا، فنقلَ زمنَه من المضيّ إلى الحالِ بأنْ يفترضَ حالَهم وقتذاكَ "ومما يفيدُ الحالَ كثيرًا أسلوبُ الإلهابِ والتهييجِ"[5] بقولِه إنْ كنتمْ صادقينَ، وفيه تعريضٌ بكذبِهم، وأضافَ إليهِ الميمَ الدالَّ على الجمعِ؛ ليوافقَ حالتَهم الجمعيةَ، وختمَ بخبرِ كانَ، والتقديرُ: (إنْ كنتُم صادقينَ فهاتُوا برهانَكم)، فكأنّه قدّمَ جوابَ الشرطِ على فعلِه اهتمامًا بهِ؛ ولأنّ مدارَ المُحاججةِ هو في تقديمِ البرهانِ، والدليلُ على صدقِ دعواهُم بأنّهم وحدَهم سيدخلونَ الجنّةَ دونَ سواهُم.

(1) الزمخشري، الكشّاف: 1/310-311.
(2) الزمخشري، الكشّاف: 1/311.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 2/359.
(4) القاسمي، محاسن التأويل: 2/223.
(5) فاضل السامرائي، معاني النحو: 4/68.

الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

البرهان والدليل:

البرهانُ هو الشيءُ الواجبُ تقديمُه لإثباتِ الصِّدقِ، و"لا يكونُ إلَّا قولاً يشْهدُ بِصِحَّةِ الشَّيْءِ"[1] أمّا الدليلُ فكأنْ تقولَ "دلالتِي على صِحَّةِ مذهبِي كَذَا فتأتِي بقولٍ تحتجّ بِهِ على صِحَّةِ مذهبِك"[2]، ومن الفروقِ بينَهما أنّ "الدَّلِيلَ يكونُ وضعيًّا قدْ يُمكنُ أَنْ يُجْعَلَ على خلافِ ما جُعلَ عليه نَحْو دلَالَةِ الاسْمِ على المُسَمّى، وأمّا دلَالَةُ البُرْهَانِ فَلَا يُمكنَ أَنْ تُوضَعَ دلَالَةٌ على خلافِ مَا هِي دلَالَةٌ عَلَيْهِ"[3] ومن ذلكَ يتبيّنُ أنّ التعبيرَ بالبرهانِ أقوَى وأظهرُ.

(1) العسكري، الفروقات اللغوية: ص: 71.

(2) المصدر السابق: ص: 71.

(3) العسكري، الفروقات اللغوية: ص: 72.

﴿بَلَىٰۚ مَنۡ أَسۡلَمَ وَجۡهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ فَلَهُۥٓ أَجۡرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ١١٢﴾ [البقرة: 112]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

بعدَ إبطالِ ادِّعاءِ أهلِ الكتابِ بحصرِ دخولِ الجنّةِ فيهم، جيءَ بحرفِ ﴿بَلَىٰۚ﴾ المفيدِ إثباتَ دخولِ الجنَّةِ لمَنْ أسلمَ، بإخبارٍ يُبطلُ دعوَى اليهودِ والنصارَى أنّ الجنّةَ حكرٌ عليهم، وهُنَا قالَ لهم الحقُّ تباركَ وتعالَى: نَعَمْ، إنّما يدخلُ الجنّةَ مَن كانَ متّصفًا بصفاتِ الإسلامِ والإحسانِ والإتقانِ في العملِ، ويثبتُ الإثابةَ لأهلِ الإنابةِ، فالمناسبةُ بينَ الآيتينِ بحرفِ ﴿بَلَىٰۚ﴾ بديعةٌ أنيقةٌ؛ إذْ ما بعدَه أبطلَ ما قبلَه، وأنصفَ أهلَ الحقِّ بإثباتِ دخولِ الجنّةِ لهم دونَ سواهُم، بنفيِ الخوفِ والحزنِ عنهُم، وهذا غايةُ ما يرجوهُ المسلِّمُ وجهَه للّهِ ربِّ العالمينَ.

❁ شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

1) ﴿أَسۡلَمَ﴾: فعلٌ ماضٍ، جذرُه اللغويّ (سلم)، و"معظمُ بابهِ منَ الصِّحَّةِ والعافيةِ ... فالسّلامةُ أَنْ يسلمَ الإنسانُ منَ العاهةِ والأذَى"[1] ومنهُ الإسلامُ، وهو من الألفاظِ التي اكتسبتْ دلالاتٍ جديدةً بعدَ مبعثِه ﷺ.

"وأَسْلَمَ أمرَه إلى اللّهِ، أيْ: سَلَّمَ وأَسْلَمَ، أي: دخلَ في السِّلْمِ، وهو الاستسلامُ"[2] أصبحَ الذي يُسلمُ، بمعنَى دخلَ في الإسلامِ.

ومعنَى الإسلامِ الحقيقيّ أنْ يكونَ معَ الاعترافِ اعتقادٌ بالقلبِ، ووفاءٌ بالفعلِ، واستسلامٌ للّهِ في جميعِ ما قضَى وقدّرَ، كما ذُكرَ عن إبراهيمَ عليه السلام"[3] في قولِه تعالَى: ﴿إِذۡ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسۡلِمۡۖ قَالَ أَسۡلَمۡتُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [البقرة: 131].

ومعنَى إسلامِ الوجهِ في الآيةِ "هو تسليمُ الذّاتِ لأوامرِ اللّهِ تعالَى، أيْ: شدّةُ الامتثالِ؛ لأنّ أسلمَ بمعنَى ألقى السِّلاحَ وتركَ المقاومةَ"[4].

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سلم).
(2) الجوهري، الصّحاح: (سلم).
(3) الراغب، المفردات: (سلم).
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/674.

2) ﴿وَجْهَهُۥ﴾: اسمٌ ثلاثيّ مجردٌ، أصلُ حروفِه (وجه) ولهُ "أَصلٌ واحدٌ يدلُّ على مقابلةِ لشيءٍ، والوجهُ مستقبلٌ لكلِّ شيءٍ"[1].

و"أصلُ الوجهِ: الجارحةُ ... ولـمّا كانَ الوجهُ أوّلَ ما يستقبلُك، وأشرفَ ما في ظاهرِ البدنِ استُعمِلَ في مستقبلِ كلِّ شيءٍ"[2].

والمقصودُ بالوجهِ في أحايينَ كثيرةٍ ذاتُ الإنسانِ "وإنّما عبّرَ بهِ عن الذَّاتِ في لسانِ العربِ؛ لأنّه أشرفُ الأعضاءِ فيهِ"[3] فهو تعبيرٌ مجازيّ، عُبّرَ بالجزءِ وأريدَ الكلُّ، وأريدَ في هذهِ الآيةِ ذاتُ الإنسانِ فـ"عبّرَ عن الذَّاتِ بالوجهِ؛ لأنّه البعضُ الأشرفُ من الذَّاتِ"[4].

وقولُه ﴿وَجْهَهُۥ﴾ مفعولٌ بهِ، وقدْ أضيفَ للضميرِ، وقدْ يكونُ الوجهُ بمعنَى التوجّهِ؛ لأنّه مشتقٌّ منهُ، فمعنَى مَنْ أسلمَ وجهَه "منْ أخلصَ توجُّهَهُ وقصدَه، بحيثُ لا يلوِي عزيمتَه إلى شيءٍ غيرِه"[5].

3) ﴿مُحْسِنٌ﴾: اسمُ فاعلٍ من المزيدِ أحسنَ فهو محسنٌ، والجذرُ اللّغويُّ لهذهِ اللّفظةِ، (حسن) ومنهُ الحُسْنُ، وأصلُ معناهُ واضحٌ، وهو نقيضُ القُبحِ[6]، وهو "عبارةٌ عن كلّ مُبهجٍ مَرْغُوبٍ فيه ... والحَسَنَةُ يُعبّرُ عنها، عن كُلّ ما يسرُّ من نعمةٍ تنالُ الإنسانَ في نفسِه وبدنِه وأحوالِه، والسّيئةُ تضادُّها"[7].

ولا يكفِي أنْ يُسلمَ ويتواضعَ للّهِ، بلْ لا بدّ أنْ يقترنَ ذلك بأنْ يكونَ مُحسنًا، "وأنْ يكونَ تواضعُه للّهِ بفعلٍ حسنٍ، لا بفعلٍ قبيحٍ"[8].

4) ﴿أَجْرُهُۥ﴾: اسمٌ ثلاثيّ وزنُه (فَعْل)، جذرُه اللغويّ من الهمزةِ والجيمِ والراءِ، ولهُ أصلانِ في معناهُ "فالأولُ الكراءُ على العملِ، والثاني جبرُ العظمِ الكسيرِ"[9] على

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (وجه).
(2) الراغب، المفردات: (وجه).
(3) السمين، عمدة الحفّاظ: (وجه).
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/674.
(5) القاسميّ، محاسن التأويل: 2/224.
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حسن).
(7) الراغب، المفردات: (حسن).
(8) الرازي، مفاتيح الغيب: 4/4.
(9) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أجر).

أنّه يمكنُ الجمعُ بينَهما، "والمعنَى الجامعُ بينَهما أنّ أجرةَ العاملِ كأنّها شيءٌ يجبرُ بهِ حالَه فيما لحقَه من كدٍّ فيما عملَه"[1] فهو إذنْ (الجَزاءُ على العَمَل)[2].

والأجرُ ما "يعودُ من ثوابِ العملِ دنيويًّا كانَ أو أخرويًّا"[3] والمقصودُ هنَا في هذهِ الآيةِ في الآخرةِ، وقدْ يُطلقُ على الثوابِ أيضًا.

5) ﴿رَبِّهِۦ﴾: اسمٌ مُضعّفٌ ثُلاثيّ (ربّ)، الجذرُ اللغويّ منه (ربب)، ولمعناهُ ثلاثةُ أصولٍ؛ الأولُ "إصلاحُ الشيءِ، والقيامُ عليه، فالربّ: المالكُ والخالقُ والصاحبُ، والربّ: المصلحُ للشيءِ"[4].

وهناكَ أصلانِ آخرانِ هما "لزومُ الشيءِ، والإقامةُ عليهِ ... والأصلُ الثالثُ: ضمُّ الشّيءِ للشّيءِ"[5] والثاني والثالثُ مناسبانِ للأصلِ الأولِ، والتحقيقُ في الأصولِ الثلاثةِ يجعلُها بابًا واحدًا.

والربُّ "الملكُ والسيّدُ والمصلحُ والصاحبُ، وكلُّها معانٍ متقاربةٌ، ولا يقالُ مطلقًا إلّا للبارِي تعالَى"[6].

و"الرَّبُّ في الأصلِ: التّربيةُ، وهو إنشاءُ الشيءِ حالاً فحالاً إلى حدّ التمامِ، يقالُ: رَبَّهُ، وربّاه ورَبَّبَهُ"[7]، وقدْ عبّرَ بالربِّ في نوالِ الأجرِ لأنّهُ" الناظرُ في مصالحِه ومربّيه ومدبِّرُ أحوالِه؛ ليكونَ ذلكَ أطمعَ لهُ، فلذلكَ أتَى بصفةِ الربِّ"[8].

6) ﴿خَوْفٌ﴾: اسمٌ ثلاثيّ من الفعْلِ خافَ يخافُ، أصلُه (يَخْوِفُ)، ثُمّ حصلَ فيهِ إعلالٌ، فجذرُه اللغويّ (خوف)، ولهُ "أَصلٌ واحدٌ، يدلُّ على الذُّعرِ والفزَعِ، يقالُ: خِفْتُ الشَّيءَ خوفًا وخيفةً، والياءُ مُبدلَةٌ من واوٍ، لمكانِ الكسرةِ، ويُقالُ: خاوفَني فلانٌ فخفتُهُ، أَي: كُنْتُ أَشدَّ خوفًا منهُ"[9].

---

(1) المصدر السابق: (أجر).
(2) الزبيدي، تاج العروس: (أجر).
(3) الراغب، المفردات: (أجر).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ربب).
(5) المصدر السابق: (ربب).
(6) السمين، عمدة الحفّاظ: (ربب).
(7) الراغب، المفردات: (ربب).
(8) أبو حيان، البحر المحيط: 1/564.
(9) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (خوف).

ومعنَى الخوفِ عامّةً "توقّعُ مكروهٍ عن أمارةٍ مظنونةٍ، أو معلومةٍ ... ويضادّ الخوفُ الأمنَ، ويُستعملُ ذلك في الأمورِ الدنيويةِ والأخرويةِ"[1].

والواردُ في الآيةِ بهذا المعنَى المقابلِ للأمنِ، وأكثرُ ما يردُ في القرآنِ الكريمِ من لفظِ الخوفِ هو المضادُّ لمعنَى الأمنِ[2].

7) ﴿يَحۡزَنُونَ﴾: فعلٌ مضارعٌ مسندٌ لواوِ الجماعةِ، الماضِي منهُ (حزنَ)، والجذرُ اللغويّ (حزن)، وأصلُ حروفِه يدلُّ على "خشونة الشَّيءِ، وشدّة فيهِ، فمنْ ذلك الحَزْنُ، وهو ما غلظَ منَ الأرضِ"[3].

و"الحُزْنُ والحَزَنُ: خشونةٌ في الأرضِ، وخشونةٌ في النفسِ لمَا يحصلُ فيهِ من الغمِّ، ويضادّهُ الفرحُ"[4].

والحزنُ معروفٌ فهو نقيضُ الفرحِ، وهو ما يصيبُ الإنسانَ من غمٍّ وكربٍ، وهو "عبارةٌ عمّا يحصلُ لوقوعِ مكروهٍ، أو فواتِ محبوبٍ في الماضِي"[5].

"وكلُّ ما في القرآنِ من (الحُزنِ)، ومضارعُ (حزِنَ) و(حزَنَ) فهو بمعنَى الشّعورِ بالألمِ، والخشونةِ في النّفسِ والغَمِّ، ولا يتأتَّى فيهِ قيدُ فواتِ شيءٍ إلّا بتكلّفٍ"[6].

وفي نفْي الخوفِ والحزنِ "أرادَ زوالَ الخوفِ والحزنِ عنهُم في الدنيا، ومنهُم مَن قالَ في الآخرةِ في حالِ الثوابِ"[7].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

صُدِّرتِ الآيةُ بحرفِ ﴿بَلَىٰٓ﴾ ردًّا على أهلِ الكتابِ في ادِّعائِهم أنَّ دخولَ الجنَّةِ منحصرٌ فيهم، وإثباتًا للأصلِ العظيمِ الذِي قامَ عليهِ دينُ اللّهِ تعالى، وهو أنَّ دخولَ الجنَّةِ لا يكونُ إلّا لـمَن أسلمَ وجهَه للّهِ على شرطِ الإحسانِ، وعدَلتِ الآيةُ عن التَّصريحِ بدخولِ

(1) الراغب، المفردات: (خوف).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (خوف).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حزن).
(4) الراغب، المفردات: (حزن).
(5) الجرجانّي، التعريفات، ص: 86.
(6) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (حزن).
(7) الرازي، مفاتيح الغيب: 3/113.

الجنَّةِ إلى إثباتِ الأجرِ عندَ اللّهِ تعالى، ونفْي الخوفِ من المستقبلِ، والحزنِ على الماضِي؛ فإنَّ مدارَ حياةِ الإنسانِ في الدُّنيَا عليهما، ومن نُفِي عنهُ الحزنُ والخوفُ باتَ في الجنَّةِ، ولنْ يكونَ ذلكَ إلّا لأهلِها فيهَا.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبلاغيُّ:

بلاغةُ الردِّ بالأداةِ بلَى:

الجمعُ بينَ الرَّدِّ على الباطلِ، وإثباتِ نقيضِهِ

جيءَ بـ﴿بَلَىٰٓ﴾ ردًّا على ادِّعاءِ أهلِ الكتابِ في انحصارِ دخولِ الجنَّةِ فيهم، وهي إمَّا أنْ تُحملَ على الرَّدِّ المجرَّدِ، ويكونَ ما بعدَها استئنافُ كلامٍ، وفي هذا الوجهِ تُفيدُ قوَّةَ الرَّدِّ على أهلِ الكتابِ، وإمَّا أنْ يُحملَ ما بعدَها على أنْ يكونَ فاعلًا لفعلٍ محذوفٍ تقديرُه: يدخلُها منْ أسلمَ[1]، فتُفيدُ الرَّدَّ عليهم، وإثباتَ عكسِ ادِّعائِهم؛ والوجهانِ بليغانِ في الرَّدِّ على الأباطيلِ المرجفةِ تخليةً، وإثباتِ الحقِّ لأهلِه تحليةً.

نكتةُ استعمالِ ﴿مَنْ﴾:

اجتماعُ العمومِ بدلالةِ الشَّرطِ

لاستعمالِ ﴿مَنْ﴾ في هذا السِّياقِ غرضانِ بيانيّانِ، أحدُهما: دلالتُها على العمومِ، فدخولُ الجنَّةِ ليسَ منحصرًا بأحدٍ، أو بطائفةٍ، فإنَّ دخولَ الجنَّةِ متاحٌ لكلِّ مَن أسلمَ وجهَه للّهِ وهو محسنٌ، والثَّانيةُ: إشرابُها معنَى الشّرطِ، فلا يدخلُ الجنَّةَ إلاّ منِ اكتملَ فيه شرطُ الإسلامِ الصَّحيحِ، اعتقادًا وعملًا، وفي ذلكَ إيجازٌ بديعٌ بتخصيصِ العامِّ بالشّرطِ.

نكتةُ التَّعبيرِ بصيغةِ الفعلِ الماضِي:

التَّعريضُ بأهلِ الكتابِ

جاءَ فعلُ ﴿أَسۡلَمَ﴾ بصيغةِ الماضِي دونَ المضارعِ؛ للتَّعريضِ بمَنْ لم يُسلمْ وجهَه للّهِ، ولوْ قالَ: "مَن يسلمْ" لمَا أفادَ التَّعريضَ، ذلك

(1) الزمخشري، الكشّاف: 1/178.

أنَّ الفعلَ المضارعَ يُفيدُ التَّجدُّدَ والاستقبالَ، والمقصودُ إثباتُ دخولِ الجنَّةِ لمنْ أسلمَ وجهَه للّهِ، والتَّعريضُ بالمخالفِ لهذهِ الحالةِ، فدلالةُ المُضيِّ تُستنبطُ من سياقِ الكلامِ لا من ذاتِ الصِّيغة، وهو الملائمُ للرَّدِّ بـ﴿بَلَىٰٓ﴾.

توجيهُ المخصوصِ بالذِّكرِ:

تـخـصـيـصُ الـوجـهِ بـالـذِّكـرِ لشرَفِه على بقيَّةِ الأعضاءِ

خَصَّتِ الآيةُ الوجهَ بالذِّكرِ دونَ بقيَّةِ الأعضاءِ، فلمْ يقلْ: "مَن أسلمَ نفسَه"، أوْ "منْ أسلمَ قلبَه"؛ "لأنّهُ أشرفُ الأعضاءِ، ومجمعُ المشاعرِ، وموضعُ السجودِ، ومظهرُ آثارِ الخضوعِ"[1]، ولـمّا كانَ الخضوعُ والانقيادُ والتسليمُ قدْ حصلَ بأشرفِ الأعضاءِ، فإنّ غيرَه أولَى بهذَا التواضعِ والخضوعِ، وفيهِ إشارةٌ إلى "أعظمِ العباداتِ؛ السّجدةُ، وهي إنّمَا تحصلُ بالوجهِ، فلا جرمَ خُصَّ الوجهُ بالذِّكرِ"[2]، وهي دليلٌ على خضوعِ العبدِ، وأنّ الإنسانَ يصلُ في سجودِه إلى أعلَى مراتبِ القُربِ منه تعالى، وهو إنّمَا يحصلُ بوجهِ الإنسانِ، قالَ ﷺ: «أَقْرَبُ مَا يَكُونُ العَبْدُ مِنْ رَبِّهِ وهو ساجد؛ فأكثروا الدعاء»[3].

ارتباطُ الإحسانِ بالتّسليمِ:

إتـيـانُ جـمـلـةِ الحالِ متضمِّنةً معنَى الشَّرطِ

جملةُ: ﴿وَهُوَ مُحۡسِنٞ﴾ المكوَّنةُ من واو الحالِ، والمبتدأ، والخبرِ حاليّةٌ، ومعناهَا: مَن يُسلمْ وجهَه للّهِ حالَ كونِه محسنًا، ففي جملةِ الحالِ معنَى الشَّرطِ، أيْ: على من يُسلمْ وجهَه للّهِ أنْ يكونَ مُحسنًا، فلا الإخلاصُ وحدَه بنافعٍ، ولا الحسنُ وحدَه كذلك، و"لا بُدّ وأنْ يكونَ تواضعهُ للّهِ بفعلٍ حسنٍ لا بفعلٍ قبيحٍ، فإنّ الهندَ يتواضعونَ للّهِ لكنْ بأفعالٍ قبيحةٍ"[4]، فحقيقةُ الإحسانِ هو الامتثالُ لأوامرِ الشَّرعِ؛ فلا يكفِي ادِّعاءُ الإسلامِ، بلْ لا بدَّ معَه منَ الإحسانِ.

(1) القاسمي، محاسن التأويل: 2/224.
(2) الرازي، مفاتيح الغيب: 4/4.
(3) مسلم، المسند الصحيح المختصر: (482).
(4) الرازي، مفاتيح الغيب: 4/4.

نكتةُ التّقديمِ والتّأخيرِ:

إفادةُ التّشويقِ لدى المخاطَبِ

قُدِّمَ الجارُّ والمجرورُ على قولِه: ﴿أَجْرُهُۥ﴾؛ لإفادةِ التَّشويقِ؛ فإنَّ نفسَ المُسلِّمِ وجهَه للّهِ تترقَّبُ معرفةَ ما أُعدَّ لها، وإضافةُ (أجرِ) إلى الضَّميرِ ممَّا يقوِّي عنصرَ التَّشويقِ فهو أجرُه المكتوبُ لهُ، المحفوظُ عندَ ربِّه.

إيثارُ عنوانِ الربوبيّةِ على الألوهيةِ:

الإشعارُ بالطُّمأنينةِ والسَّكينةِ لمَا يكونُ للعبدِ في الآخرةِ

ذُكرَ لفظُ الربوبيَّةِ دونَ الألوهيّةِ في قولِه تعالَى: ﴿عِندَ رَبِّهِۦ﴾؛ لأنّ الربَّ هو "النَّاظرُ في مصالحِه ومربِّيه ومدبّرُ أحوالِه؛ ليكونَ ذلكَ أطمعَ لهُ، فلذلك أتى بصفةِ الرّبِّ"[1]، وفي ذلك إشعارٌ للمحسنِ بالطُّمأنينةِ والاستقرارِ؛ فإنَّ الذي خلقَه وربَّاهُ في أحسنِ صورةٍ هو الذي سيربي لهُ أجرَه في الآخرةِ "وهو عبارةٌ عن دخولِ الجنّةِ، وتصويرُه بصورةِ الأجرِ؛ للإيذانِ بقوةِ ارتباطِه بالعملِ"[2]، وهو ما يُورِّثُ الطَمأنينةَ في النّفوسِ.

نكتةُ تخصيصِ نفْيِ الخوفِ والحزنِ بالذكرِ:

نفيُ الخوفِ والحزنِ زيادةٌ في التَّطمينِ

قولُه تعالَى: ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾، وردَ مثلُ هذا التعبيرِ في مواضعَ ليستْ قليلةً تصلُ إلى اثنَي عشرَ موضعًا، وجاءتْ كلّها في سياقاتِ المدحِ والتّطمينِ "ولمّا كانَ الخوفُ والحزنُ متلازمينِ كانتْ خصوصيَّةُ كلٍّ منهما ساريةً في الآخرِ"[3] وهذه الجملةُ هنا معطوفةٌ بالواوِ على ما سبقَ من صفاتِ الذي يُسلمُ وجهَه للّهِ وهو محسنٌ، فبعدَ أنْ بيّنَ صفاتِهم تلك زادَ عليها نفيَ الخوفِ "فأمّا الخوفُ فلا يكونُ إلَّا منَ المستقبلِ"[4]، وهنا نفَى عنهم الخوفَ والحزنَ زيادةً في تطمينِهم.

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 1/564.
(2) القاسميّ، محاسن التأويل: 2/224.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/541.
(4) الرازي، مفاتيح الغيب: 4/4.

تقديمُ نفي الخوفِ على نفي الحزنِ:

الخوفُ من مقدّماتِ الحزنِ ولا عكسَ

ثمّ عطفَ عليهِ: ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾، نفَى عنهم الحزنَ، و﴿يَحْزَنُونَ﴾ جملةٌ فعليةٌ تفيدُ الحالَ أو الاستقبالَ، في محلِّ رفعِ خبرٍ، "وأمَّا الحزنُ فقدْ يكونُ منَ الواقعِ والماضِي، كما قدْ يكونُ منَ المستقبلِ"[1]، وفي تقديمِ الضّميرِ الدالِّ على المنفيّ عنهم الحزنُ، فيهِ تخصيصُ هؤلاءِ بنفي الحزنِ عنهم زيادةً في مدحِهم، وقدْ قدّمَ نفيَ الخوفِ على نفي الحزنِ؛ لأنّ الخوفَ من مقدّماتِ الحزنِ ولا عكسَ، فالخائفُ يكونُ حزينًا، وليسَ شرطًا أنْ يكونَ الحزينُ خائفًا؛ فقدّمَ السببَ وأخّرَ النتيجةَ.

سرُّ التّغايرِ بينَ الاسمِ ﴿خَوْفٌ﴾ والفعلِ ﴿يَحْزَنُونَ﴾:

دلالةُ الاسمِ على الثباتِ، والفعلِ على التغيّرِ

في قولِه تعالَى: ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ الواردِ كثيراً في القرآنِ الكريمِ فكأنّه صارَ كالمثلِ، جاءَ بالخوفِ اسمًا، وجاءَ بـ﴿يَحْزَنُونَ﴾ فعلاً مضارعاً، فأمّا نفيُ الخوفِ فجاءَ "لإفادةِ نفي جنسِ الخوفِ نفيًا قارًّا، لدلالةِ الجملةِ الاسميةِ على الدوامِ والثباتِ"[2]، أمّا عدمُ التعبيرِ بالاسمِ كالأولِ "ليتأتَّى بذلك بناءُ المسندِ الفعليّ على ضميرِهم، فيدلّ على أنّ الحزنَ واقعٌ بغيرِهم، وهم الذينَ كفرُوا"[3]، وهو مفهومٌ من نفي الحزنِ عن الذينَ آمنُوا.

وأحسنُ منهُ ما نقلَه الفخرُ الرازيّ عن ابنِ عباسٍ بأنّه: "لا خوفَ عليهم فيمَا يستقبلُهم من أحوالِ القيامةِ، ولا همّ يحزنونَ بسببِ ما تركوهُ في الدنيَا"[4]، فالحزنُ في الدنيَا أو عليهَا، وأمرُ الدنيا متغيّرٌ ليسَ بثابتٍ، والحزنُ مقترنٌ بالآخرةِ، وهي دارُ القرارِ؛ فعبّرَ بالاسميةِ عن دارِ القرارِ، وبالفعليةِ عن دارِ الابتلاءِ؛ فجاءَ النظمُ متوافقًا مع الاثنينِ، متناسبًا ثباتًا وتغيّرًا.

(1) المصدر السابق: 4/4.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/540.
(3) المصدر السابق: 8/110.
(4) الرازي، مفاتيح الغيب: 7/104.

سرُّ التَّغايرِ بينَ الإفرادِ والجمعِ:

الألفاظُ توابعُ المعنَى، وكواشفُ الدّلالةِ

وقعَ تغايرٌ بينَ الإفرادِ والجمعِ في قولِه: ﴿بَلَىٰۚ مَنۡ أَسۡلَمَ وَجۡهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ فَلَهُۥٓ أَجۡرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾، فجاءَ الإفرادُ في صدرِ الآيةِ في: ﴿أَسۡلَمَ﴾، و﴿وَجۡهَهُۥ﴾، و﴿وَهُوَ﴾، و﴿مُحۡسِنٞ﴾، و﴿فَلَهُۥٓ﴾، و﴿أَجۡرُهُۥ﴾، و﴿رَبِّهِۦ﴾، بينَما جاءَ الجمعُ في قولِه: ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾، و﴿هُمۡ﴾، و﴿يَحۡزَنُونَ﴾، فالنَّظم "أَجْرَى الأوّلَ على لفظِ الواحدِ، والآخِرَ على المعنَى"[1]، فما جاءَ مفردًا رجعَ إلى ﴿مَنۡ﴾، فلفظُها مفردٌ، ومعناها جمعٌ، فروعِيَ الإفرادُ اللفظيّ، وأمَّا الجمعُ فلمراعاةِ معنَى ﴿مَنۡ﴾ وهنَا يُسألُ عن سرِّ تلك المراعاةِ، فهلْ جاءتْ لسببٍ معنويٍّ بلاغيّ؟ أوْ أنَّها جاءتْ تفنّنًا لفظيًّا؟

والصَّحيحُ أنَّ الأمرَ عائدٌ إلى المعنَى، فالآيةُ جمعتْ بينَ الحديثِ عن صفاتِ كلِّ مسلم وحدَه باعتبارِه الفرديّ، وبينَ الحديثِ عن مآلِ الجميعِ؛ أمّا المعنى الإفراديّ فاستقلَّ بما يجبُ على كلِّ مسلمٍ، وأمّا المعنَى الجمعيّ ففيمَا يشتركُ فيه الجميعُ؛ فإنَّ الخوفَ والحزنَ إذا وقعَا أصابَا الجميعَ، وإذَا ارتفعَا نجَا منهما الجميعُ.

(1) سيبويه، الكتاب: 1/65.

﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ لَيۡسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيۡسَتِ ٱلۡيَهُودُ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَهُمۡ يَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ مِثۡلَ قَوۡلِهِمۡۚ فَٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ١١٣﴾ [البقرة: 113]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

بعد أنْ أبطلتِ الآياتُ السَّابقةُ ادِّعاءَ اليهودِ والنَّصارى قَصْرَ دخولِ الجنَّة عليهم، وبيَّنت أنَّ دخولَ الجنةِ لن يكونَ إلّا للمسلمِ الحقِّ، شرعَتْ هذه الآيةُ ببيانِ تناقُضِهم فيما بينهم؛ لتكون دليلًا على دحضِ ادِّعائهم، وبيانِ زيفِه، فهي من قبيل التَّناسُب في بيانِ بطلانِ حُجَّةِ الخصمِ من كلامِه، وهذه طريقةُ القرآنِ الحِجاجيَّة، من أيسَرِ الطُّرُقِ وأقواها منهجًا، "ثمّ شبّه بهم في نحو هذا القول الجهلةَ ... وفي ذلك غايةُ العيبِ لهم؛ لتسوية حالهم مع علمهم بحال الجهلة"[1].

شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

1) ﴿ٱلۡيَهُودُ﴾: اسمُ عَلَم على بني إسرائيل، "وهم قومُ موسى عليه السلام، ويُطلقُ عليهمُ العبرانيّون"[2]، واشتقاقُ الاسم من هادُوا أي: تابُوا[3].

وهي تسميةٌ حقيقيّةٌ لهم؛ فقد سُمُّوا بذلك لكونهم أولاد يَهُودَا بنِ يَعقُوبَ، أو لكونهم هادُوا وتابُوا عن عبادة العِجْل[4] وكان في الأصل اسمَ مدح، ثمّ صار بعد أن نُسخَتْ شريعتهم لازمًا لهم، وإنْ كان لا يعطي معنى المدح[5].

2) ﴿يَتۡلُونَ﴾: فعل مُضارع من الأفعال الخمسة مُسندٌ إلى الجماعة، جذره من التّاء واللّام والواو، ومعناه "الاتِّباعُ، يقالُ: تَلَوتهُ إذا تَبِعتُهُ، ومنهُ تلاوةُ القرآنِ؛ لأنَّهُ يُتْبِعُ

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 2/115.
(2) أحمد مختار عمر، معجم اللّغة العربيّة المعاصرة: (هود).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (هود).
(4) الهرريّ، تفسير حدائق الرّوح والرّيحان: 8/13.
(5) الراغب، المفردات: (هود).

آيةً بعدَ آيةٍ"[1]، أو الكلمة بعد الكلمة أو الحرف بعد الحرف، وهو المعنى المراد في الآية، وهو أنّ اليهود والنّصارى يَتْلُونَ الكتاب، لكنّهم لا يعملونَ به.

3) ﴿مِثْلَ﴾: اسم ثلاثيّ مجرّد جذره اللُّغويّ (مثل) ومعناه "شِبهُ الشّيءِ في المِثال والقَدر ونحوِه حتّى في المعنى، ويُقال ما لهذا مَثيلٌ"[2].

والوارد في الآية بمعنى المشابهة بقوله: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ مِثۡلَ قَوۡلِهِمۡۚ﴾ أي: قول هؤلاء الجهلة يشبهُ قولَ اليهودِ والنّصارى فهو صادرٌ أيضًا عن الجهل.

4) ﴿يَحۡكُمُ﴾: فعلٌ مُضارع، الجذر اللُّغويّ منه (حكم)، ومن معانيه المشهورة ذات العلاقة بالآية ههنا: القضاء، فيحكم بمعنى: يقضي[3].

5) ﴿ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾: اسم من أسماء الآخرة، الفعل منه (قام يقوم)، "ويُقال هذا قوام الأمر وملاكُه"[4]، وهو اليومُ الّذي يقومُ فيه النَّاس لربِّ العالمين فهو "يومُ البعث، يوم يقوم فيه الخَلْقُ بين يَدَي الحيِّ القيوم"[5].

6) ﴿يَخۡتَلِفُونَ﴾: فعل مضارع مُسندٌ إلى واو الجماعة، الماضي منه (اختلفَ)؛ وزنه (افتعلَ)، وجذره اللُّغويّ (خلف) و "الخاءُ واللَّامُ والفاءُ أُصولٌ ثلاثةٌ أَحدُها أَنْ يجيءَ شيءٌ بعدَ شيءٍ يقومُ مقامَهُ، والثَّاني خِلافُ قُدَّام، والثَّالثُ التَّغيُّرُ"[6].

وأمّا الوارد في الآية "فمنَ البابِ الأوّلِ؛ لأنَّ كلَّ واحدٍ منهم يُنحِّي قولَ صاحبِهِ، ويُقيمُ نفسَهُ مُقامَ الَّذي نحَّاهُ"[7] وهذا المعنى ينطبقُ انطباقًا تامًا على اليهود والنّصارى مثلما ورد في الآية؛ فاللهُ يحكُمُ يومَ القيامة في اختلاف اليهودِ والنّصارى.

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

صوَّرتِ الآيةُ الخلافَ بين اليهودِ والنَّصارى، فقد ادّعت اليهود أنّ النّصارى ليست على شيءٍ لإثباتِ الحقِّ لها، وهو ادّعاء النَّصارى نفسُه، وهذه الآية "نزلَت في يهودِ أَهلِ

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (تلو).
(2) الخليل، العين: (مثل).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (حكم).
(4) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (قام).
(5) الأزهري، تهذيب اللّغة: (قام).
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (خلف).
(7) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (خلف).

المدينةِ ونصارَى أَهلِ نجرانَ ... لـمَّا قدِمُوا على رسولِ اللّهِ ﷺ أتاهمْ أَحبارُ اليهودِ فتناظروا حتَّى ارتفعَتْ أَصواتهم"[1]، واتّهمت كلُّ فرقة الأخرى أنّها ليست على شيءٍ من الدِّين الحقِّ الّذي يُعتدُّ به؛ فأنزلَ اللّهُ هذه الآية.

ثمّ عرّضت بهم الآيةُ بأنْ صرَّحت بتلاوتِهم للكتاب، أي: التّوراة والإنجيل، والكتابان مكمّلٌ أحدُهما للآخر، ومع ذلك فكلُّ طائفة كفّرت الأخرى، ثمَّ شبَّهتِ الآيةُ صنيعَهم هذا بصنيع الجهلةِ، بيانًا لحالِهم، وكشفًا لحقيقةِ أمرِهم، وخلا ذلك فاللّه تعالى هو الحَكَمُ الفَصلُ يوم القيامة.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبلاغيُّ:

بلاغةُ عطفِ القول على القولِ:

عُطِف قولُه تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ لَيۡسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَيۡءٖ﴾ على قولِه تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَن يَدۡخُلَ ٱلۡجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰۗ﴾؛ "لزيادة بيانِ أَنَّ الـمُجَازَفَةَ دَأْبُهُم، وَأَنَّ رَميَ الـمُخالِفِ لهم بأَنَّهُ ضَالٌّ شِنشِنَةٌ قديمةٌ فيهم، فهُم يَرمُونَ الـمُخالِفينَ بالضَّلالِ لـمُجَرَّدِ الـمُخالَفَةِ، فقديمًا رمَتِ اليهودُ النَّصارى بالضَّلالِ ورمَتِ النَّصارى اليهودَ بمثلِه؛ فلا تَعجبُوا مِنْ حُكمِ كُلِّ فريقٍ منهُم بأَنَّ الـمُسلمينَ لا يدخُلُونَ الجَنَّةَ، وفي ذلك إِنْحاءٌ على أَهلِ الكتابِ وتَطمِينٌ لخواطرِ الـمُسلمينَ ودَفعِ الشُّبهَةِ عَنِ الـمُشركينَ بأَنَّهُم يَتَّخذونَ مِنْ طَعنِ أهلِ الكتابِ في الإسلامِ حُجَّةً لأنفُسِهم على مُناوأتِه وثَباتًا على شِركِهم"[2].

بيانُ واقعِ الأقوالِ المتناقضةِ الصَّادرةِ عن مُتكلِّمٍ واحد

فائدةُ تأنيثِ الفعلِ المُسندِ إلى الفاعل:

صدّرتِ الآيةُ الفعل ﴿وَقَالَتِ﴾ بتاء التأنيث، وأسندَتهُ إلى ﴿ٱلۡيَهُودُ﴾؛ لأنّه على تقدير جماعةٍ أو فرقةٍ أو طائفةِ اليهود[3]؛ لبيانِ أنَّ الصَّادرَ

بيانُ أثرِ اللَّمسَةِ البيانيَّةِ في الكشفِ عن قيمةِ العدلِ في نظمِ القرآن

(1) النّيسَابوري، أسباب نزول القرآن، ص: 36.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/675.
(3) السّيرافي، شرح كتاب سيبويه: 4/23.

عنهم صادرٌ باعتبارِهم جماعةً، وأنَّ هذا القولَ لا يصدُرُ عن جميعِهم بل عن مجموعِهم، وهذا من لمسات القرآنِ البيانيَّةِ، التي تُنبئ عن العدلِ في التَّعاملِ مع المخالفِ، ومن النَّاحية الصرفيَّة؛ فاليهود اسمُ جنسٍ جمعيٍّ، وهو "من الجموعِ التي بينها وبين واحدِها ياءُ النِّسبة"[1]؛ فالمفردُ من اليهود يهوديّ بإضافة ياء النسبة[2]، وقد جاءَ إسنادُ الفعلِ الملحَق به تاء التَّأنيثِ أربع مرَّاتٍ في القرآنِ الكريمِ[3].

صُدُورُ القولِ عن فرقةٍ، لا ينفي صُدُورَها عن المجموعِ:

معنى الألف واللّام في كلمةِ اليهود والنَّصارى

تحتملُ الألفُ واللَّام في كلمةِ اليهود والنَّصارى أن تكونَ للجنسِ؛ ويكون "المراد عامَّة اليهودِ، وعامَّة النّصارَى؛ فهذا منَ الإخبارِ عنِ الأممِ السّالفةِ"[4]، وتحتمل أن تكونَ للعهد الحضوريّ، ويكون "المرادُ يهودَ المدينةِ ونصارَى نجرانَ، حيثُ تماروْا عندَ الرَّسولِ وتسابُّوا"[5]؛ كما هو واردٌ في سبب النُّزول، ولا تعارضَ بين الاحتمالين؛ فإنَّ ما صدرَ عن يهود المدينةِ ونصارى نجران، هو الصَّادرُ عن مجموعِ اليهودِ والنَّصارى؛ فهو غير خاصٍّ بهما.

سِرُّ التَّعبيرِ بـ﴿لَيۡسَتِ﴾:

بيانُ شدَّة العداوة بين الفريقين، وكشفٌ عمَّا يتمنَّاه كلُّ فريقٍ للآخر

التَّعبير بـ(ليس) في قولِه تعالى: ﴿لَيۡسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَيۡءٖ﴾ - وهو فعلٌ يُستعملُ لنفيِ الحالِ والاستقبالِ -؛ لبيانِ شدّةِ العِداء والمناكفة بين اليهود والنّصارى؛ فهم يحكمون على النَّصارى وقت نزولِ الآيةِ بأنَّهم ليسوا على شيءٍ، ويتمنَّون ألّا يكونوا في المستقبلِ أفضلَ حالًا، وهذا حالُ كلِّ فريقٍ، وموقفه من الآخر.

(1) السّيرافي، شرح كتاب سيبويه: 4/23.
(2) ياء مشدّدة مكسور ما قبلها تُزاد على الاسم، ولها هذه الفائدة، وهي تمييز المفرد من اسم الجنس الجمعيّ؛ إمّا بالياء مثل: مصر مصريّ ويهود يهوديّ، وإمّا بالتّاء مثل: تمر تمرة وكلم كلمة، يُنظر: الحملاوي، شذا العرف، ص: 98-97.
(3) وذلك في: سورة البقرة: 113، وسورة المائدة: 18، و67، وسورة التّوبة: 30.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 1/564.
(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 1/564.

بلاغةُ استعمالِ الحرفِ القرآنيّ:

دلَّ حرفُ الاستعلاءِ في قولِه تعالى: ﴿عَلَىٰ شَيۡءٖ﴾ في كلام الفرقتين، على نفي تمكُّنِ الفريقِ المُخالفِ من أيِّ شيءٍ، وبلاغةُ الاستعمالِ تكمنُ في أنَّ المخالفَ لا يثبُتُ على شيءٍ مهما قلَّ أو دقَّ ممَّا يَصحُّ وصفُه بأنَّه شيءٌ من الحقِّ، وهذا يدُلُّ على مدى التَّطرُّفِ في التَّعاملِ مع المخالفِ لدى الفرقتين، ومنه يُؤخَذُ منهجُ الحذرِ في التَّعاملِ معهما ومن أحكامهما في الآخرين؛ لأنَّها قائمةٌ على التَّطرُّفِ الفكريِّ، وإلغاءِ الطَّرفِ الآخر، بخلافِ منهج القرآنِ القائم على قاعدة العدالةِ: ﴿لَيۡسُواْ سَوَآءٗۗ﴾ [آل عمران: 113].

الحذرُ في التَّعاملِ مع المتطرِّفين في أحكامِهم على المخالفين

بلاغةُ التَّعبيرِ بـ(شَيءٍ):

التَّعبيرُ بلفظة (شيء) يُوحي بالتقليل والتحقير؛ تنبيهًا على أنّ النّصارى ليستْ على شيءٍ من الحقِّ، ولو كان نَزْرًا يسيرًا، وهذا هو الخبرُ الّذي أرادت اليهودُ بيانَه، أي: ليستِ النّصارى "على شيءٍ يصحُّ، ويُعتدُّ به، وهذه مبالغةٌ عظيمةٌ، وهو كقولهم: أقَلُّ منْ لا شيء"[1]، وكلاهما صادقٌ في اتّهامِه للآخرِ[2]، مع مراعاة أنّ نفيَه الحقّ عن الآخرِ لا يُثبت الحقَّ لنفسِه من مفهوم المُخالفة، بل كلاهما على باطلٍ، يؤيدُه قولُه تعالى: ﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَسۡتُمۡ عَلَىٰ شَيۡءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ﴾ [المائدة: 68].

صِدقُ أهلِ الباطلِ في دعواهم لا يعني صدْقَ منهجِهم في الوصولِ إليها

إعطاءُ المتلقِّي سَعَةً في الاستنباط منَ السِّياق، ما لا يُعطيه التَّعيينُ:

حُذِفتْ صفةُ (شيءٍ) في قوله تعالَى: ﴿عَلَىٰ شَيۡءٖ﴾ من بابِ الحذْفِ على تقدير: "على شيءٍ يُعتدُّ به في الدّينِ، فيكون منْ باب حذف الصّفة"[3]؛ لأنّ تعبيرَهم بـ(شيء) من باب التَّقليل والتَّحقير،

بلاغةُ حذفِ الصِّفةِ

(1) الفخر الرازيّ، مفاتيح الغيب: 8/4.
(2) الشّعراوي، تفسير الشّعراوي: 1/471.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 1/565.

وهو كقولهم: "سِير عليه ليل، وهم يريدون: ليل طويل، وكأنَّ هذا إنّما حذفت فيه الصِّفة ... أنّك تحسّ في كلام القائل لذلك من التَّطويح والتَّطريح والتَّفخيم والتَّعظيم ما يقوم مقام قوله: طويل"[1]، وهو كقوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ﴾ [هود: 46] أي: (الناجين) بحذف الصِّفة؛ لأنّه بغير ذلك يخالفُ الحقيقةَ، ويقدحُ في نوح عليه السلام؛ ولأنّه ابنه حقيقةً لا مجازًا، وكقول العَبَّاسِ بنِ مِرداسٍ:

وَقَد كُنْتُ فِي الحَربِ ذَا تُدْرَأٍ *** فَلَم أُعطَ شَيئًا ولم أُمْنَعْ

" أَيْ: لمْ أُعطَ شيئًا نافعًا مغنيًا؛ بدليل قولِه: ولم أُمنعْ"[2].

دلالةُ مقابلَةِ القولِ للقولِ بالألفاظِ نفسِها:

الإفصاحُ عن تبادُلِ الاتِّهامِ بعيدًا عن الإنصافِ والعدالةِ

قابلتِ[3] الآيةُ القولَ بالقولِ في قولِه تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيۡسَتِ ٱلۡيَهُودُ عَلَىٰ شَيۡءٖ﴾؛ فنجد أنَّ الآيةَ أعادتِ الجملةَ بألفاظِها مفصِحةً عن تبادل الاتّهام بين الفريقين، والقولُّ الرَّادُّ يُثبتُ تساوي الفريقين في مجانبة الحقِّ مع مراعاة المتقدِّم، ويُثبتُ أنَّ الرَّدَّ خالٍ من الإنصافِ لإتيانِ الرَّادِّ بألفاظِ المردود عليه نفسِها.

الكشفُ عن طبائعِ أهلِ الأديانِ، وبيانُ ترتيبِ أقوالِ المختصِمين:

سِرُّ تقديمِ اليهودِ على النَّصارَى

قُدِّمَ ذكرُ اليهودِ على النَّصارى؛ لأنّهم أقدمُ زمنًا منَ النّصارى؛ "فشريعةُ اليهودِ أقدمُ من شريعةِ النَّصارى"[4]؛ لأنَّ التوراةَ أصلٌ للإنجيلِ[5]، واليهودُ أشدُّ الخَصمَين عداوةً ولجاجةً وحجاجًا، وبناءً على ذلك وما يقتضيه ظاهرُ النَّظم، أنّ اليهودَ هم من بدأَ الاتِّهامَ، والنَّصارى ردُّوا عليهم ادِّعاءهم، فيكون التَّرتيبُ كاشفًا لخصومةٍ تاريخيَّةٍ.

(1) ابن جنّي، الخصائص: 2/373.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/676.

(3) معنى المقابلة عند البلاغيين: "أن يُؤتى بمعنيين متوافقين أو معانٍ متوافقة، ثمّ يُؤتى بما يقابل ذلك على الترتيب"، كقوله تعالى: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ﴾ [الأعراف: 157]، ينظر: أحمد الهاشمي، جواهر البلاغة، ص: 304.

(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/201.

(5) محمّد رشيد رضا، تفسير المنار: 1/353.

سِرُّ إيثارِ أن تكون الحالُ جملةً لا مفردًا:

قوَّةُ الجملةِ الحاليَّةِ في التَّنبيه على عجيبِ هيئةِ المتَّصِفِ بها

اختارَ النَّظمُ القرآنيُّ أن تكون الحالُ جملةً، وهي قولُه تعالى: ﴿وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ لا مفردًا؛ "لأنَّ دلالتهَا على الهيئةِ أَقوى من دلالةِ الحالِ المفردَةِ"[1]، إذ الحالُ المفردةُ تؤدِّي وظيفةَ الصِّفةِ حينما تكون هيئةً غيرَ ثابتةٍ، بينما الجملةُ الحاليَّةُ تُعطي قوَّةً في الهيئةِ، تكمُنُ في التَّنبيه على تلك الصِّفة، ولو قال: (تالين) لم يُفِد إلَّا الإخبارَ عن الهيئةِ، وهي في هذه الآيةِ تُعطي معنى التَّعجُّبِ من حال تلاوة اليهود للتَّوراةِ والنَّصارى للإنجيل، دون أدنى تأثُّرٍ وانتباهٍ لـمَا يقعون فيه من التَّناقُضِ والتَّعارُض؛ وكتبُهم ليس فيها هذا الاختلاف[2].

معنى الألفِ واللَّام في كلمة الكتاب:

براعةُ السِّياقِ القرآني في احتمالِ العمومِ على أبلغِ وجهٍ بيانيٍّ

اختلفَ المُفسِّرون في معنى التَّعريف، فقيل: هي للجنس، وهذا مذهب الزَّمخشَريّ، ومعناها عندَه: "أيْ: قالوا ذلكَ، وحالهم أنّهم من أهل العلم والتّلاوةِ للكتبِ"[3]، ومَوضعُ التَّعجُّبِ أنَّه لا يصحُّ لمتعلِّمٍ يدَّعي المعرفةَ والعلمَ عمومًا، فضلًا عن عموم كتب الدِّيانةِ أن يجهلَ حقيقةَ الآخرين.

وقيل: هي للعهد، وهذا مذهبُ ابن عطيَّة، "ووَجهُ التَّعجُّبِ على هذا الوَجهِ أَنَّ التَّوراةَ هي أصلٌ للنَّصرانيَّةِ، والإنجيل ناطقٌ بحَقِّيَّتِهَا؛ فكيف يَسُوغُ للنَّصارَى ادِّعاءُ أنَّها ليسَتْ بشيءٍ كما فعلَتْ نَصارَى نَجرانَ؟! وأنَّ التَّوراةَ ناطقةٌ بمجِيءِ رُسُلٍ بعد مُوسى فكيف ساغَ لليهودِ تَكذِيبُ رسولِ النَّصارى؟"[4].

والصَّحيح أنَّ الوجهين حريَّانِ بالقبولِ، فأهلُ الكتاب من اليهود

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/676.
(2) البَغويّ، معالم التّنزيل: 1/138.
(3) الزَمخشريّ، الكشّاف: 1/312.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/677.

والنَّصارى ولاسيَّما أهل العلم فيهم يقرأون التَّوراةَ والإنجيلَ وغيرَهما من الكتبِ، والسِّياقُ يحتملُ الوجهين، وقد جاء في الآيةِ قولُه تعالَى: ﴿كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ مِثۡلَ قَوۡلِهِمۡۚ﴾.

سِرُّ اختيارِ التِّلاوةِ دونَ العلم:

التَّهكُّمُ بمَنْ يَتلو الكتابَ بغير فائدَةٍ

لسائلٍ أن يسألَ عن سرِّ اختيارِ التّلاوة دونَ العلمِ في قولِه تعالَى: ﴿وَهُمۡ يَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۗ﴾؛ فلماذا لم يقُلْ: وهم يعلمون الكتابَ؟؛ والجوابُ أنّ ذلك من بابِ التَّهكُّمِ بهم؛ فإنَّ من شأن التَّالي أن يعلمَ، ومن شأن العالم أن يعملَ؛ فلمَّا خالفوا مقتضى العلمِ كانت تلاوتُهم بدون فائدةٍ؛ فكأنَّهم لا يتلونَ الكتابَ، أي: انظر إلى حالهم الّتي هُم عليها مع تلاوتِهم! وهذا المعنى لا يتَّضِحُ إلَّا بقرنِ الجملةِ الحاليَّةِ بما قبلها، وفي هذه الجملة هدايةٌ إشاريَّةٌ إلى مَنْ يتلو القرآنَ دون استفادَةٍ وعمل.

فَائدَةُ التَّشبيهِ بَيْن أَهْلِ الكتابِ والمُشْرِكين:

تقبيحُ صورةِ المُشبَّه بِه بتشبيه قولِ الضَّالين بقوله، وأنَّهما صادِران عن منهجٍ واحد

التَّشبيهُ المُستفادُ مِنَ الكاف في ﴿كَذَٰلِكَ﴾ تَشبيهٌ في الادِّعاءِ على أَنَّهُم ليسُوا على شيءٍ، والتَّقديرُ: مِثل ذلك القولِ الّذي قالتهُ اليهودُ والنَّصارى قال الَّذين لا يعلمُونَ، ولهذا يكونُ لفظُ ﴿مِثۡلَ قَوۡلِهِمۡۚ﴾ تأكيدًا لما أفادَته كافُ التَّشبيهِ، وهو تأكيدٌ يُشيرُ إلى أَنَّ المُشابهةَ بينَ قولِ الَّذينَ لا يعلمونَ وقَولِ اليهود والنَّصارى مُشابهةٌ تامَّةٌ، والمعنى: أنَّ المُشركينَ كَذَّبُوا الأَديانَ كُلَّهَا اليهوديَّةَ والنَّصرانيَّةَ والإِسلامَ؛ والمقصودُ مِنَ التَّشبيهِ تشويهُ المُشبَّهِ به بأَنَّه مُشابهٌ لقولِ أهلِ الضَّلالِ البَحْتِ[1]، ويُؤيِّد ذلك قولُه تعالى: ﴿وَهُمۡ يَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۗ﴾، فإنَّ الجملةَ الحاليَّة أفادَت عدم انتفاعِهم بالكتابِ حين تلاوتِه، فهم والمُشركون الضَّالُّون سواء.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/677.

سرُّ إيثارِ النَّفيِ على الإثباتِ:

جاءتِ الآيةُ بنفيِ العلمِ عن المُشركين بقولِه: ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾، لا بإثبات الجهلِ، وهو الأقبحُ ذكرًا، وسِرُّ ذلك يكمُنُ في أمرين:

الأوَّل: التَّعريضُ بأهل الكتاب؛ ذلك أنّهم يتطاولون على المُشركين بالعلم؛ فأتى بما يُنبِّههم على ذلك، أي: إذا كُنتُم تعلمون، فما بالُكُم تُشابِهون من لا يَعلَم؟!

الآخر: بناءُ قيمةٍ هدائيَّةٍ للمشركين بالتَّلطُّفِ معهم بنفي العلم عنهم، لا بإثبات الجهل لهم، فهو تحقيق هدفين إشاريّين، الأوَّل تعريضيٌّ بأهل الكتابِ، والآخر هدائيٌّ تلطُّفيٌّ بالمشركين.

تحقيق هدفين إشاريّين، الأوَّل تعريضيٌّ بأهل الكتابِ، والآخر هدائيٌّ تلطُّفيٌّ بالمشركين

فائدةُ حذفِ المفعولِ:

حُذِفَ مفعولُ عَلِمَ في قولِه تعالى: ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾، إيمَاءً إلى أنّ الأهمّ هو خُلُوُّهم ممَّا يُعلم، أيًا كان ذلك المعلومُ كتابًا أو دينًا أو إلهًا أو نحوه، وهو ممَّا يتوافقُ مع نظرةِ أهل الكتاب المُستَعليَةِ على المشركين، فأهلُ الكتاب يَرَون أنفُسَهم أفضَلَ من المشركين باعتبار العلم، فالعلمُ عندَهم طبقيَّةٌ وِجاهيَّةٌ لا مقصَدٌ دينيٌّ.

الإيماءُ إلى خُلوِّ المشركين من العلمِ بقطعِ النَّظرِ عن تعلُّقِه

نكتةُ تقديمِ الجارِّ والمجرورِ:

قُدِّم حرفُ الجرِّ ومجروره ﴿كَذَٰلِكَ﴾ على متعلّقِه وهو الفعل ﴿قَالَ﴾؛ لنُكتَتَين؛ الأولى: تشويقُ السَّامعِ لمَا بعد التَّشبيه؛ فإنَّ ﴿كَذَٰلِكَ﴾ فيها تمهيدٌ لما سيُقال، وربطُ سابِقِها بلاحِقِها، الأخرى: الإيجازُ اللَّفظيُّ في الاستغناء عن حرف العطف؛ فلم يقُلْ: وكذلك؛ "لأنّ مفادَ حرفِ العطفِ التّشريكُ، ومفادَ كافِ التّشبيهِ التّشريك؛ إذِ التّشبيهُ تشريكٌ في الصّفةِ"[1].

اجتماعُ نُكتَتَين؛ التَّشويقُ، والإيجازُ اللَّفظيُّ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/678.

معنى الفاءِ:

الفاءُ قائِمةٌ على الرَّبطِ السِّياقيِّ تفريعًا وتقديرًا

تحتملُ الفاءُ في قولِه تعالى: ﴿فَٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ﴾ أن تكونَ استئنافيةً، وأن تكون فصيحةً، بتقدير: إذا كانوا مصرِّين على كُفرِهم فاللّه يحكُمُ بينهم، وأن تكونَ تفريعيَّةً، جيءَ بها؛ "لأنّ التّوعّدَ بالحكمِ بينهم يومَ القيامةِ، وإظهار ما أكنَّتهُ ضمائرهم منَ الهوى والحسدِ متفرِّعٌ عن هذهِ المقالاتِ، ومُسبَّبٌ عنها، وهو خبرٌ مرادٌ به التَّوبيخُ والوعيدُ"[1]، والقولُ بأنَّها فصيحةٌ وتفريعيَّةٌ قويٌّ في هذا السِّياقِ، إذ هما متقاربان، ومرتبطان بما قبل، والمعنى في كليهما قائِمٌ على الرَّبطِ السِّياقيِّ تفريعًا وتقديرًا.

لفتةٌ في الإعجازِ الغيبيِّ:

الإشـــارةُ إلى الإعجازِ الغيبيِّ بالإخبارِ عمَّا سيصدُر عنهم في الدُّنيا

نصَّتِ الآيةُ على أنَّ اللّه سيحكُمُ بينهم يوم القيامة، فإنَّ ﴿يَحۡكُمُ﴾ فعلٌ مضارعٌ يدُلُّ على الاستقبال، وتؤيدُه القرينةُ اللّفظيَّة، وهي ﴿يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾؛ أي: أنّ الحكم يكون في ذلك اليوم، وفيه لفتةٌ إعجازيَّةٌ في الإخبار عن غيب المُستقبَل البعيد، "فكون الحكم سيكون بينهم يوم القيامة، فذلك يُشعر أنّه لا أملَ في تزحزحهم عن مواقفهم"[2]، وهذا بحمل عدمِ الإيمان والإصرارِ على الكُفرِ على من بقي متَّصِفًا بذلك، أي: على مجموعِهم لا على جميعِهم.

علَّةُ تقديمِ الظُّروفِ بعضها على بعضٍ:

الإشـــارةُ إلى أهميةِ الحكمِ بين المختلفين، وهـو العنصرُ الأبرزُ في السِّياق

قُدِّم الظَّرفُ ﴿بَيۡنَهُمۡ﴾ على الظَّرف الزَّمانيِّ ﴿يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ ولم يقُلْ: (يحكمُ يومَ القيامةِ بينهم) إشارَةً إلى أهميَّتِه، فلمَّا كان سِياقُ الآياتِ في بيان الحقِّ من الباطلِ في اختلاف الأمم والأقوام، قُدِّم ﴿بَيۡنَهُمۡ﴾ لأنَّه العنصرُ الأبرزُ في السِّياق على زمن الحكم، وهو

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/678.
(2) سعيد محمد، الأساس في التّفسير: 1/222.

يوم القيامة، والحكم هنا "أنّهُ يحقُّ الحقَّ، ويجعلُ أهلهُ في النَّعيمِ، ويبطلُ الباطلَ، ويلقي بأَهله في الجحيمِ"[1].

فائدةُ التَّعبيرِ بالمضارِع:

استحضارُ صورةِ الاختلافِ الصَّادرِ عن الكافرين؛ زيادةً في النَّقمةِ والحسرةِ

عبَّرتِ الآيةُ بالفعل المُضارعِ ﴿يَخْتَلِفُونَ﴾ الدَّالِّ على الحال والاستقبال، مع أنَّ الحديثَ عمَّا كان بين القومِ في الماضي؛ لاستحضارِ صورةِ الاختلافِ الّذي كان بينهم في الدّنيا، ونكتةُ ذلك زيادةُ مقتِهم لأنفسِهم، والحسرَةُ عمَّا صدر عنهم؛ فإذا استحضرَ المجرِمُ جريمتَه زادَه ذلك نقمةً على أفعالِه.

بلاغةُ تقديم الجارِّ والمجرورِ على الفعل:

بيانُ الاختصاصِ والقَصرِ الادّعائيِّ للمُبالغةِ

قُدِّمَ الجارُّ والمجرورُ على الفعل تقديمًا جائزًا؛ لجواز قوله: (يختلفون فيه)؛ لأنّه أرادَ الاختصاصَ والقَصرَ، وهو قصرٌ ادّعَائيٌّ للمبالغةِ؛ فكأنَّ حكمَ اللّه تعالى سيكونُ فيما اختلفوا فيه فحسب، وكأنّه لم يكن لهم من ذنب سوى ذلك الاختلاف؛ ففيه تشنيعٌ لاختلافِهم، وتقبيحٌ لموقفِهم من الإسلامِ، ما لا مزيدَ عليه.

(1) محمّد رشيد رضا، تفسير المنار: 1/353.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١٤﴾﴾ [البقرة: 114]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

انتقلتِ الآياتُ من الحديث عن الظُّلم الاعتقاديِّ القوليِّ، إلى الحديث عن الظّلم العمليِّ الفعليِّ، فإذا كان اليهود والنَّصارى والمشركون يمنعون النَّاس من الإيمانِ بأقوالِهم؛ فإنَّ الأظلمَ من ذلك الّذي يزيدُ عليها فعلًا وعملًا، وهو منعُ ذكرِ اللّه في المساجدِ، والسّعيُ في خرابِها؛ فإنَّه الظُّلمُ العظيمُ الّذي لا يُضاهيه ظلمٌ؛ لأنَّ صاحبَه جمعَ ثلاثةَ أنواع من الظّلم هي: الظُّلمُ العقديُّ، والقوليُّ، والفعليُّ، وفي هذا التَّناسُبِ من التَّنبيهِ على خطرِ التَّعرُّضِ لمساجد اللّه بمنع ذكرِه فيها بأيِّ نوعٍ من المنع كان، ومن يفعلْ ذلك؛ يُصِبْهُ خزيُ الدُّنيا، ويلحقه عذابُ الآخرةِ، إذ يُلحَقُ باليهود والنَّصارى، ولموقع العطفِ على السَّابقِ أخذَ من اتَّصفَ بالمنع حكمَ السَّابقين في معاداةِ دين الإسلام.

وللآية وجهُ اتِّصالٍ آخر "بما قبلهَا منْ حيثُ إنَّ النَّصارى ادّعوا أنّهم منْ أهل الجنّةِ فقط، فقيلَ لهم: كيفَ تكونون كذلك مع أنَّ معاملتكم في تخريب المساجد، والسّعي في خرابهَا هكذا"[1]، وهذه الآية معطوفة "على ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾، باعتبار ما سبقَ ذلك منَ الآياتِ الدَّالَّةِ على أفانينِ أهل الكتاب في الجراءةِ، وسوءِ المقالةِ"[2] وهذا ظلمٌ كبيرٌ يداني ظلمَ منعِ مساجدِ اللّه من الذّكر فيها.

شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

1) ﴿أَظْلَمُ﴾: أفعل تفضيل وزنه (أَفعَل)، مادته اللُّغويّة (ظلم)، ومعناه (وضعُ الشَّيءِ غيرَ مَوضعهِ تعدّيًا)[3] فهو خلاف الحقّ؛ فمن تعدّى من الحقّ إلى الباطل فقد

(1) الرازي، مفاتيح الغيب: 4/11.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/678.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ظلم).

وضع الشّيءَ في غير مَوضعِه، وبذلك يُسمّى ظالمًا، والمعنى هنا أشدّ الظّلم؛ لأنّه عبّر عنه باسم التّفضيل (أظلم) بمعنى أشدّ ظُلمًا.

2) ﴿مَّنَعَ﴾: فعل ماضٍ مادته اللّغويّة (منع)، و"المنعُ أَن تَحولَ بين الرَّجُلِ والشَّيء الَّذي يُريدهُ، يُقَال: مَنعتُهُ فامتنعَ، ورَجل منيعٌ لا يخلصُ إليهِ، وفلان في عزٍّ ومَنعةٍ"[1] والمعنى هنا أن يحولَ الإنسانُ بين الآخر والمساجد؛ فيمنعه من أداء الفرائض فيها، من صلاة وذكر؛ فيكون بمنعه هذا ظالمًا.

3) ﴿مَسَٰجِدَ﴾: جمع تكسير يسمّى أيضًا مُنتهى الجموع، يفيد الكثرة، زنة (مَفاعِل)، مفرده (مَسجِد)، أصل لفظه من السّين والجيم والدّال "وسجدَ الرجلُ سجودًا، وأصلُ السُّجودِ إدامةُ النّظرِ في إطراقٍ إلى الأرضِ، وكذلك أَسجد إذا أدام النّظر"[2] والمساجد لها معنيان؛ الأوّل: الأماكن الّتي يصلي فيها النّاس جماعات، وكلُّ مَوضِع يُعبدُ فيه اللّه[3] وهو المرادُ هنا، والآخر: "الآرابُ الَّتي يسجدُ عليهَا، والآرابُ السَّبعةُ مساجدُ"[4]؛وهي الجبهةُ والأنفُ واليدين وغيرُهما، وهو غيرُ مراد هنا بدلالة سياق الآية.

4) ﴿يُذۡكَرَ﴾: فعل مضارع مَبني للمفعول أو المجهول، وأصل أحرفه (ذكر) و(الذّكر بالكسر له معنيان، أَحدهما التَّلفُّظ بالشَّيء، والثَّاني إِحضاره في الذّهن بحيث لا يغيب عنه)[5] وهو نقيضُ النّسيان، ومن غايات الإنسان الموصوف بالظّلم أن يصدّ المؤمن عن ذكر اللّه في المساجد، وقد وردَت كلمةُ (الذّكر) كثيرًا في القرآن الكريم، ولها معانٍ متعدِّدة بحسب السّياق الواردة فيه، فقد يكون ذكر القلب، وقد يكون ذكر اللّسان، وقد يكون بمعنى الصّلاة، أو البيان أو الحديث أو الشّرف أو اللّوح المحفوظ أو غيره[6] والمراد في الآية يحتملُ الصّلاة، ويحتملُ ذكرَ القلب واللّسان؛ لتعلُّق الأمر بالمساجد.

(1) الأزهري، تهذيب اللّغة: (منع).
(2) الجوهري، الصّحاح: (سجد).
(3) ابن جرير، جامع البيان: 2/519.
(4) ابن منظور، لسان العرب: (سجد).
(5) الكفويّ، الكليّات، ص: 456.
(6) الكفويّ، الكليات، ص: 457.

5) ﴿ٱسۡمُهُۥ﴾: (اسم) هو اسم ثلاثيّ مُجرّد، وزنه (فَعْل)، وأصل أحرفه (سمو) لأنّه مُشتقٌّ من السُّمُو[1] على أرجح الأقوال، والاسم هنا أُضيف إلى الضمير العائد عليه سبحانه؛ فيراد به عند إضافته له تعالى ما يدُلُّ على الذّات الإلهيّة، مع صفة الكمال القائمة به[2].

6) ﴿وَسَعَىٰ﴾: فعل ماضٍ معتلّ الآخر (سَعى يَسْعى سَعْيًا) فتكون أحرفه الأصليّة (سعي) و "السَّعْيُ المَشيُ السَّرِيعُ، وهو دُونَ العَدْوِ، ويُستَعملُ لِلجِدّ في الأمرِ، خَيرًا كانَ أو شَرًّا، قال تعالى: ﴿وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَآ﴾"[3] فهو هنا الجِدّ في الأمر، وهو مُستعار له من المشي.

7) ﴿خَرَابِهَآ﴾: مصدرٌ للفعل (خَرِبَ)، ومادَّته اللّغويّة (خرب)، وقد أُضيف هنا إلى الضّمير العائد على المساجد، أي: خراب المساجد بمعنى إفسادها؛ لقولهم "وما رأينا من فلانٍ خُرْبًا وخُرْبةً، أي: فسادًا في دِينه أو شَيْئًا"[4] والخرابُ ضدُّ العمارة "خرِب المكانُ خلا من الأحياء، عكسه عَمَر"[5] وخرابُ المساجد يحتمل هدمها وإزالتها؛ لأنّ عكسها البناء والعمارة، ويحتمل خلوّها من مرتاديها المصلين، وهو الأنسب؛ لقوله ﷺ من حديث طويل: «وجُعِلَتْ لِي الأَرضُ مَسجِدًا وطَهُورًا»[6] فليستِ العِبرة بالبناء.

8) ﴿يَدۡخُلُوهَآ﴾: فعل مُضارع دالّ على الاستقبال من (دخل)، وهو (أَصلٌ مطَّردٌ منقاسٌ وهو الوُلوج)[7] وهو واضحٌ بيّنٌ مصدره الدّخول، لكن قد يختلف معناه الدّقيق بحسب السّياق الّذي ينتظمُه، والدّخول هنا بمعنى الصّلاة؛ لأنّ الغايةَ الّتي أُنشئَت من أجلها المساجدُ هي الصّلاة، والمعنى الدّخول لأجل الصّلاة.

9) ﴿ٱلدُّنۡيَا﴾: اسم تفضيل للمؤنث من (دَنا يَدنو) فأصله (أَدْنَى دُنْوَى) زنة (أَفْعَل

(1) الزَّبيدي، تاجُ العروس: (سمو).
(2) الرّاغب، المفردات: (سما).
(3) الرّاغب، المفردات: (سعى).
(4) الخليل، العين: (خرب).
(5) أحمد مختار عمر، معجم اللّغة العربيّة المعاصرة: (خرب).
(6) صحيح البُخاري، حديث رقم: (427).
(7) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (دخل).

فُعْلَى) مثل (أصغر صُغرى) ثمّ حصل فيه إعلال فصار (دُنْيا)، ومعنى الدُّنو "المقاربةُ؛ ومنْ ذلك الدَّنيُّ، وهو القريبُ، منْ دنَا يدنُو، وسمِّيتِ الدُّنيا لدنوّهَا"[1] ثمّ أصبحت لكثرة الاستعمال علمًا على الحياة الدُّنيا دار الابتلاء، المقابلة للآخرة دار البقاء.

10) ﴿خِزْيٌ﴾: اسم ثلاثيّ مجرّد، أصل حروفه (خزو) ومعناه "الفضيحةُ، وقد خزيَ يخزى خزيًا إذا افتضحَ[2]، ومن معانيه الأخرى القريبة الذّلّ والهوان والمهانة[3] وكلُّ هذه المعاني محتملة في هذه الآية؛ فإنّ هؤلاء المذمومين في الآية لهم في الدّنيا الفضيحة والمهانة والذّلّ والهوان وأمثال ذلك.

11) ﴿ٱلْآخِرَةِ﴾: اسم على وزن (أفعَل) أصله (أأخِر) بهمزتين فأصبح حرف مدّ، وجذره اللّغويّ (أخر) "آخِر يُقابَلُ به الأوّلُ، وآخَرُ يُقابَلُ به الواحِدُ، ويُعَبّرُ بالدَّار الآخرةِ عنِ النَّشأَةِ الثانيةِ"[4] وأصبحت صفةً غالبةً لدار البقاء[5] وهو المعنى المقصود في الآية.

12) ﴿عَذَابٌ﴾: (عذاب) جذره (عذب)، وهو في الأصل (حَملُ الإنسانِ أن يُعذَّب، أي: يَجُوعَ ويَسهرَ، وقيلَ أصلُهُ من العَذْبِ؛ فَعَذَّبْتُهُ: أي أَزَلتُ عَذْبَ حياته على بناءِ مَرَّضتُهُ وقَذّيتُهُ، وقيل: أصلُ التَّعذيبِ إكثارُ الضَّربِ بِعَذَبَةِ السَّوطِ، أي طَرَفِهَا، وقد قال بعضُ أهل اللُّغَةِ: التَّعذيبُ هو الضّربُ)[6] وأكثرُ الواردِ في القرآن الكريم مقصودٌ منه العذاب الأخروي، وهو المقصود في هذه الآية بقوله تعالى ﴿وَلَهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ١١٤﴾.

13) ﴿عَظِيمٌ﴾: صيغة مبالغة زنة (فَعِيل) للجذر اللُّغويّ (عظم)، وهو من "عَظُم الشيءُ عِظمًا: كَبُرَ، فهو عظيمٌ، والعُظامُ بالضَّم مثله، وعُظْمُ الشيءُ: أكثرُه

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (دني).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (خزا).
(3) السَّمين، عُمدة الحفّاظ: 1/501.
(4) الرّاغب، المفردات: (آخر).
(5) الزَّبيدي، تاج العَروس: (أخر).
(6) الرّاغب، المفردات: (عذب).

ومُعظَمُهُ"[1] ولا يخرج معناه في هذه الآية عن ذلك؛ فإنّ هؤلاء لهم في الآخرة عذاب كبير وشديد.

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

صرَّحتِ الآيةُ ببيانِ حكمِ أظلمِ النَّاس، وهم المانعون مساجدَ اللّه أن يُذكرَ فيها اسمُه بأنواع الذِّكرِ، من صلاةٍ، وتأديبٍ، وتربيةٍ، وتعليم، السَّاعون في خرابِها، بإدخالِ الأصنامِ إليها، وإدخالِ أنواعٍ من العبثِ بمقاصِدِها الّتي لأجلِها بُنيَت وقامَت، وقد رُوي أنّها "نزلَت في مشركِي أهلِ مكَّةَ، ومنعهمُ المسلمينَ منْ ذكرِ اللّهِ تعالى في المسجد الحرام"[2]؛ فإنَّ كلَّ من يعبثُ بالمساجدِ بتغييرِ وظيفتِها، وإدخالِ ما ليس منها، بقصدِ الصَّدِّ عن ذكرِ اللّه تعالى؛ فإنَّه ساعٍ في خرابِها، وأولئك لهم الخوفُ عند دخولِها، والخِزيُ في الدُّنيا، والعذابُ العظيمُ في الآخرةِ.

❁ الإِيضاحُ اللُّغويُّ والبلاغيُّ:

نكتةُ التَّعبيرِ بالاستفهامِ عن النَّفيِّ:

نفيُ الأظلَميَّةِ وإثباتُها للفاعلِ بطريقِ الاستفهامِ؛ لإعلامِ بالجَوابِ الفَصلِ

التَّعبيرُ القرآنيُّ البليغُ: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾ جاءَ في خمسَ عشْرةَ آية في القرآن الكريمِ، جميعُها في سياقِ العقيدةِ في الكذبِ والافتراءِ ومحاربةِ الإسلامِ، وهذا هو المَوضعُ الأوَّلُ فيها، فـ﴿وَمَنْ﴾ اسمُ استفهامٍ يُفيد العموم، خبره ﴿أَظْلَمُ﴾ معناه: أشدُّ النَّاسِ ظلمًا، ومعنى الاستفهامِ النَّفيُ، "والمعنَى: لا أَحدَ أَظلمُ"[3]؛ فأفاد نفيَ الأظلميَّةِ عن كلِّ أحدٍ ونسبَه للمتحدَّثِ عنه، ونكتَتُه نفيُ الأظلميَّة وإثباتُها للفاعل بطريق الاستفهام المثير للتَّفكُّر الذِّهنيِّ؛ للوصول إلى الجواب الفَصل.

تعدد مُتعلّقاتِ ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾ في القرآن الكريم:

أثرُ الصِّلةِ في دفعِ موهمِ التَّعارُضِ وبيانِ بلاغةِ الاستعمال

الآياتُ المذكُورُ فيها تركيب ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾ تُوحي بوقوع شيءٍ من

(1) الجَوهري، الصّحاح: (عظم).
(2) النَّيسَابوري، أسباب نزول القرآن، ص: 36، وابن كَثير، تفسير القرآن العظيم: 1/388.
(3) العُكْبَرِيُّ، التِّبيان: 1/107.

التّعارضِ بينها! فقد يسألُ سائلٌ عن سرِّ تكرُّرِ هذه الجملةِ في معانٍ مختلفةٍ، وهل إثباتُ الأظلميَّةِ يكون باعتبارٍ واحدٍ أو باعتباراتٍ مختلفةٍ؟! وجوابُ ذلك: هو تخصيصُ كلِّ مَوضعٍ بِصلتِه، أو بفعلِه الّذي استحقَّ من أجله أن يكونَ ظالمًا، "وإنّما هذا نفيٌ للأظلميَّةِ، ونفيُ الأظلميَّةِ لا يستدعِي نفيَ الظَّالميّةِ"[1]؛ فيتساوون في الأظلميَّة، ولكن كلّ بحسب فعله، فيكون المعنى في تلكم الآيات، "أي: لا أحد من المانعين أظلم، ممَن منع مساجدَ الله، ولا أحد من المفترين أظلم ممَّن افترى على الله، وكذا باقيها، وإذا تخصص بالصِّلات زال التّناقض"[2]، وتظهرُ بلاغة الاستعمالِ القرآنيِّ في بيانِ اتِّفاقِ من اتَّصفَ بالأظلميَّة بالذَّمِ البالغِ، مع اختلافِ الأفعالِ.

سِرُّ استعمالِ (مَنْ) دون (الّذي):

إلحاقُ الأظلميَّةِ بعمومِ من يصدُرُ عنه الفعلُ القبيحُ

آثر النَّظمُ استعمالَ (مَنْ) دون الّذي فلم يقُلْ: (ومَن أظلمُ مِنَ الّذي يمنع)؛ لإفادة العُموم؛ من جهتين؛ الأولى: احتمالُ مجيئِه موصولًا وشرطًا واستفهامًا، والأخرى: أنَّ "مَنْ" تأتي للمفرد والمثنى والجمع، المذكّر والمؤنث باعتبار المعنى، بخلاف الاسم الموصول "الّذي"؛ فإنَّه يقتصِرُ على المفرد المذكَّر؛ فإيثارُ استعمال (مَن) للإشارة إلى أنّ هذا الحكمَ (مَن أظلم) عامٌّ في جميع من يرتكب هذا العملَ الشائِنَ؛ فهو ليس مخصوصًا بشخص أو جماعة أو دين، بل هو عامٌّ في جميع من يصدُرُ عنه الفعلُ القبيحُ، بقطع النَّظر عن وصفِه، ولو كانَ مُظهرًا للإسلام.

وقوع فعل المَنعِ على المساجد:

تقبيحُ الجريمة، وتهويلُ أمرها، وتفظيعُ مرتكبها

جاءَ فعلُ المنعِ واقعًا على المساجد، لا على المصلِّين فيها، فلم يقُل: منعَ مصلِّي المساجدِ، أو روَّادَ المساجدِ، وذلك لتقبيح الجريمة،

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 1/572.
(2) السُّيوطيّ، مُعترك الأقران في إعجاز القرآن: 1/80.

وتهويلها وتفظيع مرتكبيها، حتّى كأنّ هؤلاء يمنعون إقامةَ المساجد أصلاً، فضلاً عن تخريب العامر منها، ولو قيل: منعَ مصلِّي المساجد من ذكرِ اللّه؛ لاقتصر المنعُ على ذلك، ولما أعطى تلك الصُّورة الجسيمة الّتي يؤولُ إليها حالُ كلِّ منعٍ للمساجد.

توجيهُ المخصوصِ بالذِّكرِ في التَّسميةِ:

السُّجودُ أَعظمُ الهيئاتِ الدَّالَّةِ على الخضوعِ والطَّواعيةِ التّامّة

لفظُ مساجد في قولِه تعالى: ﴿مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ﴾، هو "جمعُ مسجِد، وهو كلُّ مَوضِع عُبِدَ اللّهُ فيه"[1]؛ وخصّ المسجد بهذه التَّسميَةِ الدَّالّةِ على فعل واحد من أفعال الصَّلاة وهو السجود، مع أنّ فيه قيامًا وركوعًا وجلوسًا، وكلّه من أفعال العبادة، فلم "يقُلْ مقامٌ ولا مركعٌ ولا مقعدٌ ولا معكفٌ؛ لأَنَّ السّجودَ أَعظمُ الهيئاتِ الدَّالَّةِ على الخضوع والخشوع والطَّواعية التّامّة"[2] وآية ذلك قولُه ﷺ: «أَقرَبُ مَا يَكُونُ الْعَبدُ مِنْ رَبِّهِ وهو سَاجِدٌ، فَأَكثِرُوا الدُّعَاءَ»[3].

دلالةُ صيغةِ مُنتهى الجموعِ في لفظِ المساجِدِ:

بيانُ أنَّ مَنْ مَنعَ ذِكرَ اللهِ في مسجدٍ فقد منعَ ذكرَه في جميعِ المساجِدِ

التَّعبيرُ بصيغة منتهى الجموع (مَفاعِل) الدَّالّة على الكثرةِ، مع أنَّه قد "وقع المَنعُ والتَّخريبُ على مسجدٍ واحدٍ وهو بيتُ المقدس أو المسجدُ الحرام؟ قلت: لا بأس أن يجيء الحكم عامًّا وإن كان السبب خاصًّا"[4]؛ فتشمَل جميع المساجد، بل تشمُل الأرض جميعًا؛ فهي كلّها تصحّ أن تكونَ مسجدًا؛ لقوله ﷺ: «وجُعِلَتْ لي الأَرضُ مَسجِدًا وطَهُورًا»[5]، وقد يكون الجمعُ للتّعظيم[6]، والصَّحيحُ أنَّ نكتةَ ذلك بالإضافةِ إلى ما ذُكِرَ هو بيانُ أنَّ من منَعَ ذِكرَ اللّه في مسجِدٍ واحدٍ؛ فقد منعَ على الحقيقةِ ذكرَ اللّه تعالى في جميع المساجد،

(1) ابن جرير، جَامع البَيان: 2/519.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 1/573.
(3) الإمام أحمد، المُسند: 9461.
(4) الزَّمخشري، الكشّاف: 1/313.
(5) صحيح البُخاري، الحديث رقم: 427.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/680.

وهو ما يَأْتلِفُ مع إثباتِ الأظلميَّةِ للمانع، وهذا من آثار فهم بلاغة القرآن على ضَوءِ رواياتِ أسبابِ النُّزولِ.

فائدةُ إضافةِ ﴿مَسَٰجِدَ﴾ إلى لفظِ الجلالة:

بيانُ الاختصاصِ، وما يُورِّثُه من الهَيْبةِ والتَّشريفِ والتَّعظيم

أفادَ إضافةُ لفظِ المساجِدِ للفظِ الجلالةِ الاختصاصَ؛ فهي مساجِدُ للّه؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن: 18]، وأضفى الاختصاصُ مزيدَ تشريفٍ وتعظيمٍ وهَيْبةٍ لها.

دلالة التّعبير بمنع ذكر اسمه:

التَّنبيه على الأعظمِ بالأيسرِ

التَّعبيرُ باسمِه في قولِه: ﴿أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾، دون التَّعبيرِ بمنعِ دعوتِه، أو بمنعِ التَّعلُّمِ أو الجهادِ في سبيلِه؛ لأنَّ "ذكرَ تعلُّقِ المنعِ بذكرِ اسمِ اللّهِ، تنبيهًا علَى أنَّهم مُنعوا من أيسرِ الأشياءِ، وهوَ التَّلفُّظُ باسمِ اللّهِ، فمنعهم لمَا سواهُ أَولَى"[1]، وهو ما يُثبِتُ عمقَ كراهيةِ المانعِ للإسلامِ، وهو ما يأتلِفُ مع التَّعبيرِ بالأظلميَّةِ.

نكتةُ التّعبير بالفعل المبني للمفعول:

إيثارُ الإيجازِ؛ لبيانِ بشاعةِ منعِ ذكرِ الله، في تحقيقِ عداوة المانعين لله على الحقيقةِ

حُذِفَ الفاعلُ في قولِه تعالَى: ﴿أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾، فلم يُذكرْ لعدّةِ نكاتٍ، الأولى: الإيجازُ والاختصارُ؛ فأوصافُ الذَّاكرين اللّه كثيرَةٌ، وبعدم النَّصِّ على أحدِها يشمُلُ الجميعَ، فالذَّاكرون كثيرون لا يُحصون[2]، الثَّانية: الإشارةُ إلى بشاعةِ عمل أولئك في منعِ الصّلاة والتّسبيح، وسائر الأعمال الّتي فيها ذكر اسم اللّه، أي: الإشارة إلى أهمية ذكرِ اللّه، الثَّالثة: بيانُ عداوةِ المانعين لذكر اللّه تعالى؛ فلو ذَكرَ الفاعلَ لذهب الظنُّ بأنَّ العداوةَ في الحقيقة للفاعِلين، وهي على التَّحقيقِ لذكر اللّه تعالى.

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 1/573.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 1/573.

نكتةُ تقديمِ ﴿فِيهَا﴾ على ﴿ٱسۡمُهُۥ﴾:

الإشارةُ إلى أهميَّة المساجِدِ، بقصرِ الذِّكرِ عليها من بابِ المبالَغةِ

قُدِّمَ الجارُّ والمجرورُ على نائب الفاعل اهتمامًا به، فهو قصرٌ قُصِدَ به المبالغةُ على تقدير: "أن يُذكرَ فيها لا في غيرها اسمُه"، ولا رَيْبَ أنّ ذكرَ اللّه من صلاةٍ وتسبيحٍ واستغفارٍ ليس مقتصرًا على المساجد، بل فيها وفي غيرِها، لكن لـمّا قُصِدَتْ المبالغةُ في بيانِ قُبْحِ منعِ ذكرِ اللّه فيها، قُدِّمَ الجارُّ والمجرورُ.

سرُّ التَّعبيرِ بالفعل المضارع:

ذِكرُ الله عبادةٌ مُتجدِّدةٌ في الحياةِ كلِّها

التَّعبيرُ بصيغة الفعل المضارع في قولِه تعالى: ﴿يُذۡكَرَ﴾؛ ليُفيدَ الحركةَ المُتجدِّدَةَ، وبيانُ ذلك: أنَّ الّذي يذكُرُ اللّه تعالى في المساجد، هو ذاكرٌ للّه في كلِّ أحوالِه، فالمساجِدُ هي أصلُ الذِّكرِ، وما يكونُ فيها من ذكرٍ فلا يقتصِرُ عليها، بل يتعدَّاها إلى الحياة كلِّها، لكن لـمَّا كانت هي الأصل، نُسبَ ذكرُ اللّه في غيرِها إليها، فهو ذكرٌ متجدِّدٌ، وكان من منَعَ مساجدَ اللّه أن يُذكرَ فيها اسمُه، مانعًا في الحقيقةِ أن يُذكرَ في غيرِها اسمُه كذلك، وهذا يُقوِّي سرّ استعمالِ الأظلميَّةِ في هذا النَّظم.

سِرُّ استعمالِ مفردةِ السعي:

بيانُ القصدِ في الخرابِ، وأنَّه صدَرَ عن إرادةٍ مسبقة

"والسّعيُ أَصلهُ المشيُ، ثمَّ صارَ مجازًا مشهورًا في التَّسبّب المقصود؛ كالحقيقةِ العرفيَّةِ نحو: ﴿ثُمَّ أَدۡبَرَ يَسۡعَىٰ ٢٢﴾ [النازعات: 22]"[1]، أي: سعى عن قصدٍ في خرابِها، كما يسعى العقلاءُ في تحصيلِ منافعِهم عن تدبيرٍ وحنكةٍ؛ ففيه مزيدُ ذمٍّ لهذا المانعِ.

بلاغةُ استعمالِ حرفِ الظَّرفيَّةِ:

تصويرُ وقوعِ المانعِ في الخرابِ بالاستعارةِ التَّبعيَّةِ

دلَّ حرفُ الجرِّ (في) على السببيَّةِ والتَّعليلِ، كقولِهم: (سَعيتُ في حاجتِك)[2]، أي: كنتُ سببًا في إنجازِ حاجتك، والمعنى في

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/680.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/680.

الآية، أنّهم سببٌ في خراب المساجد، وهذا المعنى الّذي أفادَه حرفُ الظَّرفيَّةِ مستفادٌ من السِّياقِ، ودقيقُ الاستعمالِ يقضي بأنْ يكونَ معنى الظَّرفيَّةِ هو الحاضرُ، وبيانُ ذلك أنَّ سعيَ المانِعِ هو في الخرابِ، فكأنَّ الخرابَ ظرفٌ دخلَه المانع فأصبح فيه، ففيه استعارةٌ تبعيَّةٌ في الحرف، أفادَت تصويرَ حالِ المانع في الخرابِ، وأنَّه مُلطَّخٌ وجهُه بآثار الخراب، وهو ما يُرشِّحُه ذكرُ الخزي في الدُّنيا.

بلاغةُ الاستئنافِ البيانيِّ:

إرواءُ غليلِ السَّائلِ عن مآلِ المانعِ، تجاوبًا بديعًا مع السِّياقِ

جاء قولُه تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمۡ أَن يَدۡخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَۚ﴾، مفصولًا عمَّا سبق؛ فهو استئنافٌ بيانيٌّ، وهو "سؤالٌ ناشئٌ عن قوله: ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ﴾، أَوْ عن قوله: ﴿وَسَعَىٰ﴾؛ لأَنَّ السَّامعَ إذَا علم أَنَّ فاعلَ هذا أَظلمُ النَّاسِ، أو سمع هذه الجرأَةَ، وهي السَّعيُ في الخراب؛ تطلّبَ بيانُ جزاءِ منِ اتَّصفَ بذلك، أو فعلَ هذا"[1]، فكانتْ هذه الجملة مفصِحةً عن مآل المانعين لذكر اللّه في المساجدِ؛ فكما منعوا النَّاسَ من ذكر اللّه بالخوفِ، تلبَّسهم الخوفُ، جزاءً وفاقًا.

فائدةُ الفصلِ باسم الإشارةِ:

استحضارُ الأوصافِ الّتي بسببِها استحقُّوا العقوبةَ الدُّنيويَّةَ والأخرويَّةَ

الإشارة بـ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ للتَّنبيهِ على أنَّهُمُ استُحضِرُوا بتلك الأوصافِ لِيُخبَرَ عنهم بعد تلك الإشارةِ بخبَرِهِم جَدِيرُونَ بمضمونِهِ، وهذا يدُلُّ على أَنَّ المقصودَ مِنْ هذه الجُمَلِ ليسَ هو بيان جزاءِ فِعلِهِم أو التَّحذِير منهُ، بَلِ المقصودُ بيانُ هاتِهِ الحالةِ العجيبةِ مِنْ أحوالِ المشركِينَ وأهلِ الكتابِ، ثُمَّ يُرَتِّبُ العقابَ على ذلك حتَّى تُعلَمَ جَدَارَتُهُم به، وقد ذَكَرَ لهم عقوبَتَينِ؛ دُنيَوِيَّةً وهي الخَوفُ والخِزيُ، وأُخرَوِيَّةً وهي العذابُ العظيمُ[2].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/680.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/681.

معنى حرفِ الجرِّ:

أفادَ حرفُ اللَّامِ في قولِه تعالَى: ﴿مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ﴾ الاختصاصَ أو الاستحقاقَ[1]؛ فوقعَ النَّفيُ على عموم الدُّخول إلَّا في حالة الخوف؛ فحصَلَ بذلك إثباتُ الخوفِ لهم حالَ دخولِهم المساجد، أي: هم مُستحقُّون الخوف، ومخصُوصون به، وسببُ استحقاقِهم الخوفَ منعُهم ذكرَ اللّه، وسعيُهم بخرابِ المساجدِ.

استحقاقُ الخوفِ بسببِ منعِ ذكرِ الله والسّعي في خرابِ المساجدِ

دلالة ﴿مَا كَانَ﴾ إذا اقترنَتْ بالمضارع:

قولُه تعالى: ﴿مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ﴾ جملة مركبة من النَّفي وفعل الكون وأنْ والفعل المضارع، وإذا "وقعَ أنْ والمضارعُ في خبرِهَا تدُلُّ على نفي المستقبل"[2]؛ ولذلك فُسِّرتْ هذه الجملةُ من الآية بالحالة المستقبليَّة، بأنَّها "بشارةٌ من اللّه للمسلمين بأنّه سيُظهرُهم على المسجد الحرام، ويُذِلُّ لهم المشركين، حتّى لا يدخل المسجدَ الحرامَ واحدٌ منهم إلّا خائفًا"[3].

بشارةٌ للمسلمين؛ بإظهارِهم وإذلالِ المشركين

بلاغةُ الفَصل بين الجملِ:

حسُنَ الفصلُ في قوله تعالى: ﴿لَهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١٤﴾﴾؛ "ليكون مقصودًا بالاستئناف، اهتمامًا به؛ لأَنَّ المعطوفَ لكونه تابعًا لا يهتمُّ بهِ السّامعونَ كمالَ الاهتمام، ولأنَّهُ يجري مِنَ الاستِئنَافِ الَّذي قَبلَهُ مَجرَى البيانِ مِنَ المُبينِ فإنَّ الخِزيَ خوفٌ، والخِزيُ: الذُّلُّ والهوانُ"[4].

إبرازُ الجملةِ المقصودةِ بالكلامِ؛ لتقعَ مَوقِعَ المبيِّن من المُبيَّنِ

فائدةُ تقديمِ الجارِّ والمجرورِ:

تقديمُ الجارِّ والمجرورِ في قولِه تعالى: ﴿لَهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا خِزْيٌ﴾، وفي قولِه تعالى: ﴿وَلَهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١٤﴾﴾ وإفادَةُ حرفِ

القصرُ الادِّعائي، بإثباتِ الخِزي والعذابِ العظيمِ لمَنْ حارَبَ دينَ الله

(1) الآلوسي، رُوح المَعاني: 2/364.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/681.
(3) القَاسمي، مَحاسن التّأويل: 1/229.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/682.

اللَّامِ لمعنى الاستحقاق[1]، كلاهما يُعطي الكلامَ معنى الاختصاصِ والقصر للمبالغة؛ فكأنَّ الخزيَ والعذابَ العظيمَ خُصِّصَ لهم لا لغيرِهم، مع ما لهذا التَّقديمِ من تشويقٍ لمعرفةِ الخبر.

سِرُّ اختيارِ الألفاظِ:

العِقابُ من جنسِ العملِ

اختارَ النَّظمُ الكريمُ لفظَ الخزيِ لهذا المقامِ، دون لفظِ الذُّلِ وما يُرادفُه؛ لأنَّ "الخزيَ ذلٌّ مَعَ افتضاح، والخزاية الاستحياء؛ لأنَّه انقماع عَن الشَّيء لما فيه من العَيب"[2]، وهو مقام مناسب لفعلتهم، فمنعُ ذكرِ اللهِ قابَلَهُ ذلٌّ مع الفضيحة؛ لأنّ المنعَ سترٌ وتغطية، والخزي ذلّ وانكشاف، فكان الجزاءُ من جنس العمل، أو مقابلًا له.

نكتةُ تنكيرِ لفظِ ﴿خِزْيٌ﴾:

إفادةُ العمومِ والإبهامِ؛ لتحقيقِ الرَّدعِ والزَّجر

نُكِّر لفظُ ﴿خِزْيٌ﴾ لإفادةِ العُمومِ والإبهامِ؛ فيدخلُ كلُّ ما مِن شأنه أنْ يَصدُقَ عليه اسمُ الخِزيِ، وفيه من التَّرهيب والتّهديد وتوقُّع أنواع الذُّل ممّا لا تعهدُه نفسُ المُخاطَبِ؛ "فإنَّ الخزيَ لا يكونُ إلَّا ما يجري مَجرَى العقوبةِ منَ الهوان والإذلال؛ فكلُّ ما هذه صفتهُ يدخلُ تحتهُ، وذلك ردعٌ منَ اللَّهِ تعالى"[3].

بلاغةُ الوَصلِ بين الجملِ المُتتامَّةِ:

عطفُ الثَّانيةِ على الأُولى؛ لتأخذَ حكمَها التَّتميميَّ في البيانِ والإيضاحِ

عُطِفُ قولُه تعالَى: ﴿وَلَهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ١١٤﴾ على الجملةِ السَّابقةِ؛ لأنَّها "تتميمٌ لهَا، إذِ المقصودُ منْ مجموعهمَا أَنَّ لهم عذابينِ؛ عذابًا في الدّنيَا، وعذابًا في الآخرةِ"[4]؛ فالجملتان تُؤدِّيان معنًى واحدًا، وهو إثباتُ العذابِ للمانع السّاعي في خرابها

(1) السُّيُوطي، مُعتَرَك الأقرَان: 2/283.
(2) العَسكري، الفروق اللّغويّة، ص: 250.
(3) الرّازي، مفاتيح الغيب: 4/12.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/682.

في الدَّارَينِ، وقد أُقيمتا مقامَ الجملةِ الواحدةِ، بعطف الشِّقِّ على شِقِّه الآخر، وعليه فالثَّانيةُ وإن كانت معطوفةً على الأولى، إلَّا أنَّ لها حكمَ فصلِ الأولى عن سابقتها.

الإشعارُ بقوَّة العذابَين واستقلالِهما

نكتةُ إعادةِ ذكرِ الجارّ والمجرور:

أُعيدَ ذكرُ الجارِّ والمجرورِ ﴿وَلَهُمْ﴾ للإشعارِ "بكمال قوة الجزاءين"[1]، وفيه تأكيدٌ لاستحقاقِهم العذابَين، وأنَّ كلَّ عذابٍ مُستقِلٌّ بنوعِه؛ فلا يُخفِّف وقوعُ الأوَّلِ من إنزالِ الآخرِ بالمجرمين.

مناسبةُ الوصفِ في فاصلةِ الآية لمطلعِها؛ فالأظلميَّةُ تُناسبُها الأعظميَّةُ

بلاغةُ الوَصفِ:

وُصفَ العذابُ بأنَّه عظيمٌ، وجيءَ للوصفِ بصيغةِ المبالغةِ؛ لبيانِ شدّة العذابِ وهولِه؛ "فَقَد وصفَهُ اللَّهُ تعالى بما جَرى مَجْرى النِّهايةِ في المُبالغةِ؛ لأنَّ الَّذين قَدَّمَ ذِكرَهُم وصفَهُم بأعظمِ الظُّلمِ، فَبَيَّنَ أنَّهُم يَستَحِقُّونَ العقابَ العظيم"[2]، وهذا في غاية التَّناسُب؛ فمَن أعظَمَ في ظُلمِه، استحقَّ أشدَّ العذاب.

(1) البَدوي، من بلاغةِ القرآن، ص: 96.
(2) الرّازي، مفاتيح الغيب: 4/12.

﴿وَلِلَّهِ ٱلۡمَشۡرِقُ وَٱلۡمَغۡرِبُۚ فَأَيۡنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجۡهُ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ ١١٥﴾ [البقرة: 115]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

بعد بيانِ اجتهاد الكافرين والملحدين لمنع ذكرِ اللّه في المساجد، ناسَبَ بيانُ موقفِ المسلمِ من ذكر اللّه، "فإنْ سَعَى ساعٍ في المَنعِ مِنْ ذكرِهِ تعالى، وفي خرابِ بيوتِه، فليس ذلك مانعاً من أداء العبادة في غيرها؛ لأنَّ المشرقَ والمغربَ، وما بينهما له تعالى"[1].

من ناحية أخرى أنّه "لَمَّا جاء بوعيدِهم ووعد المؤمنِينَ، عَطَفَ على ذلك تسليةَ المؤمنِينَ على خروجِهم مِنْ مكَّةَ وَنِكَايَةَ المشركِينَ بفَسخِ ابتهاجِهم بخروجِ المؤمنِينَ منها، وانفرادِهم هُم بمزيَّةِ جِوارِ الكعبَةِ؛ فَبَيَّنَ أَنَّ الأرضَ كُلَّهَا لِلَّهِ تعالى، وأنَّها ما تَفاضلَتْ جِهاتُها إلَّا بكونِها مَظنَّةً للتَّقَرُّبِ إليه تعالى، وتَذَكّرِ نعمِه وآياتِه العظيمَةِ، فإذا كانَتْ وِجهَةُ الإنسانِ نحو مَرضاةِ اللّهِ تعالى، فأينما تَوَلَّى فقد صادفَ رِضَى اللّهِ تعالى، وإذا كانَتْ وِجهَتُهُ الكفرَ والغرورَ والظُّلمَ فما يُغني عنه العِيَاذُ بالمَواضِعِ المُقدَّسةِ، بَل هو فيها دَخِيلٌ لا يَلبَثُ أنْ يُقلَعَ منها"[2].

شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

1) ﴿ٱلۡمَشۡرِقُ﴾: جذر الكلمة اللُّغويّ (شرق) "وشرقتِ الشمسُ تشرُقُ شروقاً وشَرقًا أيضًا، أي: طلعتْ وأَشْرقتْ، أي: أضاءَتْ"[3] أمّا الأصل اللُّغويّ لمادة (شرق) فله "أَصلٌ واحدٌ يدُلُّ على إضاءةٍ وفتحٍ"[4].

و﴿ٱلۡمَشۡرِقُ﴾ هو مَوضِعُ شروق الشَّمس، فهو اسم مَكان على وزن (مَفْعِل) "و﴿ٱلۡمَشۡرِقُ﴾، و﴿ٱلۡمَغۡرِبُۚ﴾ إذا قِيلا بالإفرَادِ فإشَارةٌ إلى ناحِيَتي الشَّرقِ والغَرب"[5] والمرادُ هنا النّاحية، أو الجهة، أو المكان.

(1) السّمين الحلبي، الدُّرُّ المَصُون: 2/80.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/682.
(3) الجَوهَرِي، الصِّحاح: (شرق).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (شرق).
(5) الرّاغب، المفردات: (شرق).

2) ﴿وَٱلۡمَغۡرِبُۚ﴾: اسم فيه معنى الظّرفيّة على وزن (مَفْعِل)، الجذر اللّغويّ له (غرب) "والغَربُ المَغرِبُ، والغُروب غَيبُوبَةُ الشّمس"[1] ومعنى الغرب "الذَّهاب والتَّنحِّي، يُقَال: غربَ عَنَّا يغرُبُ غرْبًا، وقد أَغربتُه وغَرّبتُه إذا نَحَّيتهُ"[2] وقد ورد في الحديث عن زيدِ بنِ خالدٍ الجهنيِّ قالَ: «سمعتُ النّبيَّ ﷺ يأمرُ فيمنْ زنَى ولم يُحصنْ جلدَ مائةٍ، وتغريبَ عامٍ»[3] أي: نفيه وتنحّيته عن البلاد" والمَغرِبُ في الأَصل مَوضعُ الغُروبِ، ثُمَّ استعمِل في المصدرِ والزَّمانِ"[4]والمرادُ في الآية ناحيةُ الغَرب.

3) ﴿تُوَلُّواْ﴾: فعلٌ من الأفعال الخمسة، أصلُه (تتولوا)، وجذرُه اللّغويّ من (ولي)، وهو من الفعل (تَوَلّى)، فعلٌ مزيدٌ، زنة (تَفَعّلَ)، والمصدر (التَّولية) وفي معنى (تولّى) معانٍ عدّة متقاربة؛ كالإدبار والذّهاب والإعراض[5].

"ومعنَى التّوليةِ الاستقبالُ بالوجوهِ، وقيلَ: معناهَا الاستدبارُ منْ قولك: ولَيتُ عنْ فلانٍ إذا استدبرتهُ؛ فيكونُ التَّقديرُ فأَيُّ جهةٍ ولَيتم عنهَا، واستقبلتُم غيرهَا فثمَّ وجهُ اللّهِ"[6] وبذلك يتحقق المعنى اللُّغويّ في الآية.

4) ﴿وَجۡهُ﴾: اسم ثلاثيّ مجرّد، زنة (فَعْل)، الجذر اللّغويّ للكلمة (وجه) و "الوَجهُ مُستَقبَلُ كلّ شيءٍ، والجِهَةُ: النَّحوُ، يُقال أخذتُ جهةَ كذا، أي: نَحوَهُ ... والوِجهَةُ: القِبلة وشبهُها في كلّ شيءٍ استقبلتَه، وأَخذتَ فيه"[7] "ولـمّا كانَ الوَجهُ أوّلَ ما يستقبِلُكَ، وأشرَفَ ما في ظاهِرِ البدنِ استُعمِلَ في مُستَقبلِ كلّ شيءٍ، وفي أشرَفِهِ ومَبدَئِهِ"[8].

5) ﴿وَٰسِعٌ﴾: اسمٌ على وزن فاعل، جذره اللّغويّ من (وسع)، ومنه "الوُسعُ جِدةُ الرَّجلِ، وقدرة ذات يده، تقول: أَنفِقْ على قَدْرِ وُسْعِك، أي: طاقتك"[9] والأصل

(1) الخليل، العين: (غرب).
(2) الأزهري، تهذيب اللّغة: (غرب).
(3) صحيح البُخَارِي: 6831.
(4) ابن منظور، لسان العرب: (غرب).
(5) الزَّبيدي، تاج العروس: (ولى).
(6) أبو حيّان، البحر المحيط،: 1/577.
(7) الخليل، العين: (وجه).
(8) الرّاغب، المفردات: (وجه).
(9) الخليل، العين: (وسع).

اللّغويّ لهذا الجذر أنّها "كلمةٌ تدُلُّ علَى خلافِ الضّيقِ والعسرِ، يقالُ: وَسُع الشَّيءُ واتّسعَ، والوُسعُ الغنَى"[1]، والواسع من صفات اللّه تعالى "أي واسع علمه وقدرته ورحمته"[2] واستعملها في الآية مناسبة لذكر الجهات والتّوجّه.

6) ﴿عَلِيمٌ﴾: الجذر اللُّغويّ للكلمة (علم)، أمّا الأصل اللّغويّ لهذا الجذر فدلالته "على أَثرٍ بالشّيءِ يتميّزُ بهِ عنْ غيرهِ، منْ ذلك العلامةُ"[3] والعلم ضدُّ الجهل، وعَلِيمٌ صيغة مبالغة، زنة (فَعِيْل) وهو من صفاته تعالى، مُشتقّ من العلم "وأصلُ العلم إدراكُ الشّيء على حقيقته، وهو معرفة الشّيء على ما هو عليه"[4] وما ورد في الآية هو على معنى المبالغة في العلم.

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

يخبر الحقّ تبارك وتعالى بأنّ المَشرِق والمَغرِب وما بينهما وجميع الجهات هي له تعالى، وأنّه المالكُ والمُتصرفُ فيهما، فأيُّ إنسانٍ أدركَتهُ الصّلاة، ولم يعرف اتّجاه قبلته فليتوجّه إلى أيّ اتّجاه، وسيجد اللّه عنده، وقد نزلَتِ الآية "في قوم من الصَّحابة سافروا فأصابهم الضَّباب، فتحرَّوا القِبلة، وصلّوا إلى أنحاءٍ مختلفةٍ، فلمَّا ذهب الضَّبابُ استبان أنَّهم لم يصيبوا"[5] ولمّا عادُوا من سفرِهم سألُوا الرّسولَ ﷺ فسكت، عندها نزل قولُه تعالى ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ﴾[6] لأنّه تعالى أوسع وأكبر من أن تحيطَه الأماكن، وما هذه القِبلة إلّا رمز؛ لأنّ توجّه المؤمن يكون بقلبِه لا بجسدِه، واللّه عليمٌ بذلك مُطّلعٌ على قلوب العباد.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبلاغيُّ:

نكتةُ تقديمِ الخبرِ:

إفادَةُ الاختصاصِ والقصرِ والتَّشويقِ

حرفُ اللّامِ في لفظ الجلالة أفادَ الاختصاص، والملك حقيقيّ؛ فإنَّ جميعَ الجِهاتِ مِلكُها وتدبيرُها للّه، كما يقال لفلان هذه الدار،

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (وسع).
(2) السَّمين، عُمدة الحفّاظ: 4/310.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (علم).
(4) السَّمين، عُمدة الحفّاظ: 3/111.
(5) الوَاحدي، الوَجيزُ، ص: 126.
(6) النّيسَابُوري، أسباب نزول القرآن، ص: 37.

يعني بها أنّها له مِلكًا[1]، وتقديمُ الجارِّ والمجرورِ للحصر والتَّشويقِ؛ فإنّ السَّامعَ ينتظرُ أن يعلمَ ما للّه بعد معرفةِ جزاءِ الظَّالمين.

بلاغةُ الإيجازِ بالحذفِ:

عطفُ المتقابِلَين أفاد الشُّمولَ المُترتِّبَ عليه تقديرُ المحذوفِ

عَطفُ ﴿ٱلْمَغْرِبُ﴾ على ﴿ٱلْمَشْرِقُ﴾ من قبيل عطفِ المقابلِ على مقابلِه فهو للتَّقابلِ الحقيقيِّ، ويُفيدُ الإحاطةَ والشُّمول، أي: ما بَيْنهما، وعليه فهناك محذوفٌ مُقدَّرٌ أي: (ولله المشرق والمغرب وما بينهما) فيكون على حذفِ معطوف[2].

توجيه المتشابِه اللفظيِّ:

الاتِّساقُ الدّلاليُّ وأثرُه في اختيارِ الصيغةِ الأنسبِ

يأتي لفظُ ﴿ٱلْمَشْرِقُ﴾ و﴿ٱلْمَغْرِبُ﴾ في القرآن الكريم مُفردًا وتثنيةً وجمعًا، أمَّا الإفراد فكهذه الآيةُ، ونكتةُ ذلك الشُّمولُ والعموم، وأمَّا التَّثنية فكقولِه تعالى: ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ۝١٧﴾ [الرحمن: 17]، إشارةً إلى مَشرِق الصَّيفِ والشِّتاءِ ومَغربِهما، وهو ما يتناسب مع سياق سورة الرَّحمن، إذ كثُر فيها التَّثنيةُ، وأمَّا الجمعُ فيكون "اعتباراً باختلاف المَغارب والمَطالع كلّ يوم"[3] كقوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ۝٤٠﴾ [المعارج: 40]، وهو ما يتناسبُ مع سياق القدرة، فأتَتْ كلُّ صيغةٍ بما يُناسبُها من حيث السِّياق.

دلالة تقديم المَشرِق على المَغرِب:

البدايةُ الزَّمانيَّةُ الكونيَّةُ والشَّرعيَّةُ ملحوظٌ فيها تقديمُ الشُّروقِ

قُدِّمَ ذكرُ ﴿ٱلْمَشْرِقُ﴾ على ﴿ٱلْمَغْرِب﴾ باعتبارِ البدايةِ الزَّمانيَّة؛ فالشُّروقُ هو المبدأُ، والغروبُ هو النِّهايةُ، ومواقيتُ الصَّلاةِ تبدأُ مع حركة ما قبل الشُّروقِ، والشُّروقُ بدايةُ الحركةِ والنَّشاطِ لعموم المخلوقات، والغروبُ بدايةُ الظُّلمةِ والعَتَمة؛ فلذلك كلِّه بدأتِ الآيةُ كسائر آيات القرآن بالشُّروقِ قبلَ الغُرُوبِ.

(1) ابن جرير، جَامع البيان: 2/526.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 1/577.
(3) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 1/298.

سِرُّ استعمالِ ﴿فَأَيْنَمَا﴾ الظَّرفيَّة اسم شرطٍ:

التَّناسُبُ السِّياقي بين الأداةِ النَّحويَّةِ والألفاظِ المختارةِ

لاستعمال ﴿فَأَيْنَمَا﴾ الدّالّة على الظّرفيّة هنا بمعنى الشّرط دلالته البيانيَّة؛ فالسّياق من أوّله إلى آخره يقتضي الظَّرفيَّة؛ كذكر المَشرِق والمَغرِب، والتَّولية، وثمّ، ووجه الله، فهذه كلُّها دالّة على الظَّرفيّة؛ فناسبَ التَّعبيرُ بـ(أين) الدَّالّة على معنى (إنْ) الشَّرطيَّة، وذكر (ما) للإبهام والعُموم، وهو المناسبُ للسِّياقِ.

سرُّ التَّعبير بالوجه:

بيانُ تحقيق الغايةِ الّتي لأجلِها يتوجَّه المُصلُّون إلى القِبلةِ

معنى ﴿فَثَمَّ﴾ في قولِه: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِۚ﴾ الظَّرفُ البعيدُ؛ فهي "في مَوضعِ نصبٍ على الظَّرفِ"[1]، أي: فهناك وجهُ اللّهِ، والفاء واقعةٌ في جوابِ الشَّرط، والمعنى "فثمَّ وجههُ الَّذي وجّهكم إليه؛ لأنّ المَشرِقَ والمَغرِبَ له بوجهيهمَا"[2]، فالمرادُ بوجه الله تعالى: قِبلة الله[3]، وسِرُّ التَّعبيرِ بالوَجْه دون القِبلةِ لبيانِ أنَّ من يُصلِّي لله إنَّما يريدُ وجهَه ورضاه، كما قال تعالى: ﴿وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِۚ﴾ [البقرة: 272]، فالعِبرةُ بالنيَّةِ والإرادةِ، وتحقيقِ الغاياتِ، وهي مُتحقّقَةٌ في التَّوجُّه للمَشرِقِ والمَغربِ؛ فمَنْ توجَّه للمَشرِقِ والمَغربِ مُمتثلًا أمرَ الله فقد حقَّقَ المطلوب.

فائدةُ كثرة المُؤكِّدات:

توالي المؤكِّدات في جملة واحدة للتَّنبيه على أهمِّيَّتِها

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ جملةٌ فريدةٌ من نوعها على هذا التركيب، ولا سيّما في اقتران صفتي الواسع والعليم، وهي جملة مؤكّدة بإنّ، وبإيقاع الظّاهر موقع المُضمَر؛ فإنّه ذَكرَ اسم الجلالة ﴿ٱللَّهِ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِۚ﴾ والقياسُ إعادةُ ذكره مُضمَرًا.

---

(1) القُرطُبي، الجامع لأحكام القرآن: 2/325.

(2) الرّازي، مفاتيحُ الغيب: 4/23.

(3) ابن جرير، جَامع البَيان: 2/528.

نكتةُ إظهارِ ما حقُّه الإضمارِ:

جريانُ الجملةِ مَجرَى الأمثالِ السَّائِرة تفخيمًا وتعظيمًا

أُظهر لفظُ الجلالةِ وحقُّه الإضمارِ، لمزيد تفخيمٍ وتعظيم؛ فإنَّ الإخبارَ عن الاسم الظَّاهر ليس كالإخبار عن ضميرِه، ولتجريَ هذه الجملةُ مَجرَى الأمثالِ السَّائرَةِ؛ فإنَّ قولَه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ يجري على اللِّسانِ كما يجري الدِّهان مثلًا سائرًا.

بلاغةُ الفصلِ:

تعليلُ الجملةِ للسَّابقِ بصفاتِ الله تعالى

فُصِلَ قولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ١١٥﴾ عمَّا سبقَ للتَّعليلِ؛ فإنَّ من يتوجَّه إلى الله تعالى بالصَّلاةِ والعبادةِ والذِّكرِ في أيِّ اتّجاهٍ؛ فإنَّ الله وسِعَ كلَّ شيءٍ علمًا.

بلاغةُ ترتيب الصِّفات في الفاصِلَةِ:

تنزيل الصِّفةِ من الصِّفةِ منزلةَ العلَّةِ من المعلولِ

أَخَذتْ صفةُ الله تعالى ﴿عَلِيمٌ﴾ من صفته ﴿وَٰسِعٌ﴾ موقعَ التَّعليلِ، فقد وسِعَ كلَّ شيءٍ؛ لأنَّه عليمٌ بكلِّ شَيءٍ، "فقولُه: ﴿وَٰسِعٌ﴾ تذييلٌ لمدلولِ ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ﴾، والمرادُ سَعةُ ملكِه، أَو سَعةُ تيسيرِه، والمقصودُ عظمةُ اللَّهِ"[1]؛ فالسَّعة قرينةُ الجهات، وليسَت العبادةُ محدودةً بمكان دون آخر "لأنّ الله واسعٌ موجودٌ في كلِّ مكانٍ في هذا الكونِ، وفي كلِّ مكانٍ خارج هذا الكون"[2]، وأمّا قولُه ﴿عَلِيمٌ﴾ وهي صيغة مبالغة؛ فمعناه أنّه "عليمٌ بمنْ يتوجّهُ لقصدِ مرضاتِه"[3] فإنّ التَّوجّه نحو ناحية ما ليس مقصودًا لذاته إذا لم يستحضرِ المُصلّي عظمةَ الله، وهو يعلمُ بما في المَشرِق والمَغرِب، وهو عَليمٌ "بالمتوجّهِ إليه أينمَا كان، أَيْ: فاعبدِ الله حيثما كنتَ، وتوجّهْ إليه أينما حللتَ"[4].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/683.
(2) الشّعراوي، تفسير الشّعراوي: 1/542.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/683.
(4) محمّد رشيد رضا، تفسير المَنار: 1/385.

﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا سُبۡحَٰنَهُۥۖ بَل لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ كُلّٞ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ١١٦﴾ [البقرة: 116]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

بعد بيانِ اتِّهام أهل الكتابِ بعضِهم لبعضٍ، ناسبَ ذكرُ بعضِ أقوالِهم وأقوالِ المشركين الذين قاسموهم العداءَ لدين الإسلام، في الافتراء على الله تعالى في أخصِّ صفاتِه، وهي عدمُ اتِّخاذِه الولد، فنسبوا الولدَ إليه، وبعد بيان أنَّ المَشرِقَ والمَغرِبَ لله تعالى، ناسبَ أن يذكرَ مُلكَه للسَّماواتِ والأرضِ وعدمَ احتياجِه لأحد من العالمين، فكما كان ذكرُ المَشرِقِ والمَغرِبِ دليلًا على قبولِ توجُّه المُتوجِّهين، كان ذكرُ ملكِ السَّماوات والأرض دليلًا على افتراء المُفترين في نسبةِ الولدِ إليه سبحانه عمَّا يقولون.

شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

1) ﴿ٱتَّخَذَ﴾: فعل ماضٍ مزيد على وزن (افْتَعَلَ)، وجذره اللّغويّ (أخذ)، يُقال: "تَخِذْتُ مَالاً أي كَسبتُه، أُلزمتِ التاءُ الحرفَ كأنّها أصليَّةٌ"[1] وقيل غير ذلك، وهو أنّ هذا الفعلَ ﴿ٱتَّخَذَ﴾ أصله من الأخذ، ثمّ، أُبدلتِ الهمزة تاء[2]، ومصدره الاتّخاذ "افتعَالٌ من الأخذِ، إلّا أنّه أُدغم بعد تَليينِ الهمزةِ وإبدالِ التاءِ، ثمَّ لـمَّا كَثُر الاستعمالُ على لفظِ الافتعالِ تَوَهَّمُوا أَنَّ التاءَ أصليَّةٌ؛ فبَنَوْا منهُ فَعِلَ يَفْعَلُ، قالوا (تَخِذَ) يَتخَذُ"[3] وهو فعل ينصبُ مفعولين، من أفعال التّحويل والتّصيير.

2) ﴿وَلَدًا﴾: اسم ثلاثيّ، زنة (فَعَل)، جذره اللّغويّ (ولد)، وأصل معنى هذا الجذر هو "دليلُ النَّجلِ والنّسلِ، ثمَّ يُقاسُ عليهِ غيرهُ منْ ذلكَ الولدِ، وهو للواحدِ والجميعِ، ويُقالُ للواحدِ ولدٌ أيضًا"[4] ومن معانيه "الابنُ والابنَة، والوُلْدُ: هُمُ الأهلُ، والوَلَدُ"[5] أي: أنّ لفظَ الولد صالحٌ للذّكر والأنثى؛ ليدخل فيه مقالاتهم جميعًا.

(1) الأزهري، تهذيب اللّغة: (أخذ).
(2) السَّمين، عُمدة الحفّاظ: 1/258.
(3) الزَّبيدي، تَاج العَروس: (أخذ).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ولد).
(5) الرّاغب، المفردات: (ولد).

و"الوليد الصّبيّ حين يُولَد، والوَلَد ما وُلد أيًا كان"[1] والمعنى في الآية هو ما زُعم من اتّخاذ اللّه الولد، بمعنى الابن، تنزّه اللّه عن ذلك، وإنّما هو قولُ اليهود والنّصارى وأضرابهم.

3) ﴿سُبۡحَٰنَهُۥۖ﴾: مصدر (سَبّح يسبِّح) مضاف إلى الضمير العائد عليه تعالى، وجذره اللّغويّ من (سبح)، "وسبّح الرّجل تسبيحًا إذا عظّم اللّه ومجّده، ولسُبحان في اللُّغة مَواضِع؛ سُبحَانَ: تَنْزِيه وتبرئة"[2] وهو هنا كذلك؛ ففي قوله سبحانه بعد اتّهامهم الباري ﷻ باتّخاذه الولد -وهذه فِريَةٌ عظيمةٌ- فسُبحان "أُطلق في التعبير عنِ التّنزيه العام تمجيدًا للّه ﷻ بالصّلاة والذّكر"[3].

4) ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾: جمع بالألف والتّاء، مفرده سماء، وأصله (سمو) لأنّه من الفعل (سما يسمو) فألفه منقلبة عن واو، و"(السَّماء): هِيَ سقفُ كلِّ شيءٍ، وكلّ بَيت، ورواق البيت، والسّحاب، والمَطر، ويطلقُ على السَّبع سماوات"[4] وهي ما يقابل الأرضَ، وهي أعلى كلّ شيءٍ، وتكون مؤلفة من طبقات؛ لذلك ذكرَت مجموعة في كثير من آي القرآن الكريم.

5) ﴿وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾: اسم ثلاثيّ مُجرَّد، أصله الهمزة والرّاء والضّاد، ومعناها "الجِرْمُ المُقَابِلُ للسَّماءِ، وجَمعُهُ أرَضُونَ، ولا تَجيءُ مجموعةً في القُرآن، ويُعَبّرُ بها عن أسفَلِ الشَّيءِ كما يُعبَّرُ بالسَّماء عن أَعلاهُ"[5] والمقصودة هنا الأرض المعروفة الّتي يعيش عليها البشر.

6) ﴿قَٰنِتُونَ﴾: جمع مذكر سالم لاسم الفاعل (قانت)، جذره اللّغويّ (قنت) قَنَتَ يَقْنِتُ قُنُوْتًا و"الأصل فيه الطّاعة، يُقال: قنت يقنت قنوتًا؛ ثمّ سمّي كلّ استقامة في طريق الدِّين قنوتًا"[6]، ومعنى ﴿قَٰنِتُونَ﴾ في الآية: مَن يكون منهم "الخشوع والإقرار بالعبوديّة، والقيام بالطّاعة التي ليس معها معصية"[7].

(1) جَبَل، المُعجم الاشتقاقي المؤصَّل: (سبح).
(2) ابن دُريد، جَمهرة اللّغة: (بحس).
(3) جَبَل، المُعجم الاشتقاقي المُؤصَّل: (سبح).
(4) الكفويّ، الكليّات، ص: 507.
(5) الرّاغب، المفردات: (أرض).
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (قنت).
(7) جَبَل، المُعجم الاشتقاقي المُؤصَّل: (قنت).

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

تذكر الآيةُ قولَ مَن قال: إنّه تعالى اتّخذ ولدًا، وهي نازلة فيهم، وهم "اليهود حيث قالُوا عُزَير ابن الله، وفي نصارى نَجران حيث قالُوا المسيح ابن الله، وفي مشركي العربِ حيث قالُوا الملائكة بنات الله"[1]، ولعِظَم مُرْتَكَبِهم في هذا القول جاءت ما بعدها من جملٍ مُنَزِّهَةً اللهَ تعالى بقوله: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ﴾؛ وهي عبارةُ تعجُّبٍ وتنزيهٍ لله عن كلّ النّقائص والعيوب، ثمّ جاء بالحرف العاطف ﴿بَل﴾؛ فهو يُفيد الإضراب الانتقالي إلى تنزيهٍ ثانٍ، ويحتملُ الإضرابُ الإبطالي لإبطال ما يقولُه أهلُ الكتاب والمشركون.

ثمّ أخبر الحقّ ردّه على هذه الفِريَة العظيمة بأنّ السماواتِ والأرضَ له سبحانه، وهو المَالكُ يتصرّفُ فيهما كيفما يشاء، ومن جملة ما فيهما العُزير وعيسى والملائكة؛ ليُسقط ما ادّعوه من اتّخاذه الولد، تعالى الله عمّا يقولون علوًّا كبيرًا.

الإِيضاحُ اللُّغويُّ والبلاغيُّ:

توجيه المُتشابِه اللَّفظيِّ:

ذكـرُ الـواوِ وعـدمُـه عـائدٌ إلى المعنى الّذي يُقرِّرُه السِّياقُ

ابتدَأتِ الآيةُ بذكرِ الواوِ: ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا سُبْحَٰنَهُۥ﴾، بخلافِ آية يونس ففُصلَت: ﴿قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا﴾ [يونس: 68]، والفرق أنَّ آيةَ البقرةِ معطوفةٌ على القولِ السَّابقِ الشَّاملِ لأقوال اليهودِ والنَّصارَى والمشركين؛ "اليهودِ في قولهم: ﴿عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: 30] والنّصارى في قولهم: ﴿ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: 30]، والمشركين في قولهم: الملائكة بنات الله"[2]، أمّا آيةُ (يونس) فهي في كفّار قريش؛ فلا تشمُل قول اليهودِ والنّصارى[3]، وهي بيانٌ للآيات السَّابقة، ومن هنا يتبيَّن سببُ العطفِ وعدمِه، وأمَّا آيةُ الكهفِ: ﴿وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۝٤﴾ [الكهف: 4] فهي صلةُ الموصولِ؛ فلا يصحُّ أن تتوسَّطَ الواوُ بين الاسمِ الموصولِ وصلتِه.

(1) النّيسَابوري، أسباب نزول القرآن، ص: 39.
(2) الوَاحدي، الوجيز، ص: 128.
(3) الدّرّة، تفسيرُ القرآن الكريم إعرابُه وبيانُه: 4/345.

توجيه القراءات القرآنيَّة:

بلاغةُ التَّكامُلِ الدّلالي بين القراءات، وأثرُه في الخطابِ التَّواصليِّ مع المتلقِّين

قرأ الجمهورُ بالواو، بينما قرأَ ابنُ عامرٍ الشَّاميُّ بحذفِها[1]، وتوجيه قراءةِ الجمهور سبق بيانه في كونها عطفت القولَ على أقوالِ السَّابقين من أهل الكتابِ والمشركين، أمَّا قراءةُ الشَّاميِّ فهي مفصولةٌ على شبه كمالِ الاتِّصالِ، فهي جوابٌ ناشئٌ عن سؤالٍ مُقدَّرٌ، "فكأنَّ السَّامعَ بعد أن سَمِعَ ما مَرَّ مِن عجائِبِ هؤلاءِ الفرقِ الثَّلاثِ -جَمعًا وتَفريقًا- تَسنَّى له أَن يقولَ: لقد أسمَعتَنَا مِن مُساوِيهِم عجبًا؛ فهلِ انتَهَتْ مُساوِيهِم أَم لهم مَسَاوٍ أخرى؟"[2]، والقراءتان في غاية البلاغة والفصاحة، وقد نُزِّلَتْ كُلُّ قراءةٍ منزلةَ الآيةِ التَّامَّة، فقراءةُ الجمهورِ عطفَتْ قولًا على قولٍ، وقراءةُ الشَّاميّ أجابَتْ عن سؤالٍ مقدَّرٍ يتصوَّرُ وقوعَه السَّائِلُ من أولئك الظَّالِمين؛ فقراءةٌ أتَتْ بالإخبارِ المحضِ لمن لا يتصوّرُ ذلك، وقراءةٌ أتَتْ بالجوابِ عن سؤالٍ مُقدَّرٍ، فأدَّتْ كلُّ قراءَةٍ وظيفتَها في خطابِ النَّاس على قدْرِ معارِفِهم وعلومِهم.

﴿سُبۡحَٰنَهُۥ﴾ مصدرٌ منصوبٌ للتّوكيد:

التعبير بـ(سبحانه) تنزيهٌ بأقوى صورة لِمَا فيه من أنواع التّوكيد

قولُه تعالى ﴿سُبۡحَٰنَهُۥ﴾ مفعول مطلق للفعل (أسبّح سبحان اللّه)، وهو "تنزيهٌ له عن ذلك وتبعيدٌ"[3] عن قولهم وافترائهم ذاك، وهو افتراءٌ عظيمٌ بمنزلة الشّرك، بل هو شركٌ، ولا أعظم من الإشراك باللّه؛ ولذلك جاء بهذه العبارة، ومعناه "تقدّس وتنزّه عمّا زعموا تنزّهًا بليغًا"[4] بأقوى صورة؛ فإنّ أصل "التّسبيح للّه عند العرب التّنزيهُ له من إضافة ما ليس من صفاتِه إليه، والتبرئة له من ذلك"[5] وإنّ المفعول المطلق، أو المصدر المنصوب -كما في مصطلحات الأقدمين - الغاية

(1) ابن مُجاهد، السَّبعة، ص: 169.
(2) ابن مُجاهد، السَّبعة، ص: 169.
(3) الزّمخشري، الكشّاف: 1/180.
(4) القَاسمي، مَحاسن التّأويل: 1/232.
(5) ابن جرير، جَامع البَيان: 1/474.

منه التوكيد[1]، ثمّ إنّ فعله "أسبّحه تسبيحًا عن أن يكونَ له ولد"[2] أو يسبّح أو نحوه يدُلُّ على المبالغة والتّكثير، وذكر أنّه "عَلَمٌ للتّسبيح كعُثمانَ للرّجل"[3] وهذا ممّا يزيدُه توكيدًا.

معنى حرف الإضراب:

دلالةُ (بل) بين الإبطالِ والانتقال

تحتمل ﴿بَل﴾ الانتقال والإبطال، فإنْ رجعَ الكلام إلى: ﴿سُبۡحَٰنَهُۥۖ﴾ فهو إضراب انتقالي؛ انتقالٌ من تنزيهٍ إلى تنزيهٍ آخر، وإنْ رجعَ الكلامُ إلى: ﴿ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗاۗ﴾ فهو إضرابٌ إبطالي[4]، و﴿بَل﴾ هي العاطفة الّتي تَعطِفُ الحكم فقط، لكنّها تنفي ما قبلها، وتثبت ما بعدها، تنفي افتراءهم اتّخاذ الولد له سُبحانه، وتثبت "كون ما في السموات والأرض مُلْكاً له، وهذا ينافي أن يكونَ فيهما ولدٌ له"[5].

معنى اللّامِ الجارَّةِ:

قوله تعالى: ﴿بَل لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾ "أي: له كلّ ما سواه على سبيل الملكِ والخلقِ والإيجادِ والإبداعِ"[6]، واللّامُ في ﴿لَهُۥ﴾ حرفُ جرٍّ يُفيدُ الملك والاختصاص.

فائدةُ تقديم المُتعلّق ﴿لَّهُۥ﴾ على المبتدأ:

اختصاصُ ملك ما في الكون به وحده سبحانه

في قوله: ﴿لَّهُۥ مَا﴾ تقديم الخبر على المبتدأ، وغايته الاختصاص والحصر، أي: يملك وحده لا غيره "ما هو موجود؛ فإنّ السماواتِ والأرضَ هي مجموع العوالم العلويّة والسّفليّة"[7] فكلّ ما في الكون له وحده تعالى، فالتّقديم أفاد قصر الملك عليه سُبحانه.

---

(1) ابن الحاجب، الكافية، ص: 18.
(2) الشّوكاني، فتح القدير: 1/624.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 1/244.
(4) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/162.
(5) ابن القيّم، بدائع الفوائد: 14/573.
(6) الرّازي، مفاتيحُ الغيب: 4/23.
(7) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/685.

سرُّ استعمالِ ﴿مَا﴾ مع ﴿قَٰنِتُونَ﴾ في سياقٍ واحد:

تغليبُ غيرِ العقلاءِ في مقام الملك والخلقِ، والعقلاء في مقام العبادة والقنوت

جاءَ التَّعبيرُ بـ: ﴿مَا﴾ الّتي يغلبُ عليها الاستعمال في غير العقلاء في قولِه تعالَى: ﴿بَل لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ كُلّٞ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ١١٦﴾، بينما استعملَ جمعَ السلامةِ في ﴿قَٰنِتُونَ﴾، وذلك أنَّه لما أثبتَ اختصاصه بملكيةِ ما في السَّماوات والأرضِ ناسب تغليبَ غير العاقلِ؛ إذِ المقامُ مقامُ ملك، بخلاف جمع السلامة في ﴿قَٰنِتُونَ﴾، فالمقامُ مقامُ عبادةٍ وخضوعٍ، وهي ما يستدعي استعمالَ ما يدُلُّ على العلمِ:

نكتةُ تقديمِ ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ على ﴿وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾:

تقديمُ الأشرف والأكبر والأعظمِ، إذ هو الحاوي للمعطوف

قدِّمَ ذكر ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ على ﴿وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾؛ باعتبارِها الأشرفَ؛ لما تحويه من المخلوقات العظيمة كالعرش، والأكبر والأعظم؛ فالأرضُ بالنسبة إلى السَّماوات كالخرزةِ في العِقد، وهو ما جرى في غالب آيات القرآن الكريم.

بلاغةُ الفصلِ بين الجمل:

استقلالُ الجملةِ بالاستدلال

فُصِلت جملةُ ﴿كُلّٞ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ﴾؛ "لقصدِ استقلالها بالاستدلال حتّى لا يظنّ السَّامعُ أنّها مكمّلةٌ للدّليل المسوق له"[1]، وهو توكيد في المعنى لِمَا سبق من قوله ﴿لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾؛ وهو إثباتٌ بعد إثبات، وأنّه تعالى مُنزّه عمّا يقولون، فهو مُنزّه عن اتّخاذ الولد؛ لأنّه يملك ما في السموات والأرض؛ ولأنّ الجميع له عابدون طائعون قانتون فكيف يتّخذ ولدًا سبحانه!.

نكتةُ الجمعِ في ﴿قَٰنِتُونَ﴾:

مجيءُ الجَمعِ بعد الجمعِ يُعطي دلالةَ الاستغراقِ

أتى الخبرُ ﴿قَٰنِتُونَ﴾ جمعًا حملًا على المعنى، ولو حملَه على اللَّفظِ لقال: قانت، ونكتة ذلك إفادةُ العمومِ بعد العمومِ، فـ: ﴿كُلّٞ﴾

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/685.

من ألفاظِ العموم، و﴿قَٰنِتُونَ﴾ جمعٌ وهو يُفيد العمومَ كذلك، ومجيء الجمعِ بعد الجمعِ يعطي دلالةَ الاستغراقِ، فلا أحدَ إلَّا وهو قانتٌ للّه سُبحانه وتعالى، "فالمخلوقات كلّها تقنت للّه، أي تخضع وتُطيع"[1].

تقديمُ الجارِّ والمجرور على الخبر:

إفـادة الحصر والاختصاصِ

قُدِّم المتعلِّق ﴿لَّهُۥ﴾ على الخبر؛ لإفادة الحصر؛ فالكلُّ ﴿قَٰنِتُونَ﴾ له دون سواه سُبحانه، وهو الأنسبُ كذلك برؤوس الآيات.

(1) القُرطبي، الجَامع لأحكام القرآن: 2/334.

﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ١١٧﴾ [البقرة: 117]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

بعد أن نزَّهَتِ الآيةُ السَّابقةُ اللّه عن اتِّخاذِ الولد، وأثبتَتْ عدمَ احتياجِه لأحدٍ؛ إذ هو المالكُ الخالق الّذي يخضعُ له جميعُ الخلائقِ، ناسبَ زيادة ذلك بالبيانِ والإفصاحِ عن صفاته العظيمةِ جملةً، وأنَّه إذا قضى أمرًا فإنَّه يكون بعد أمرِه.

❁ شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

1) ﴿بَدِيعُ﴾: من الجذر اللّغويّ (بدع)، ولهذا الجذر أصلٌ هو "ابتداء الشّيء وصنعه لا عن مثال"[1]، وهو اسم على وزن (فَعِيْل) بمعنى (فاعِل) "فَبَدِيعٌ فَعِيلٌ بمعنى فاعِلٍ، مِثلُ قَدِيرٍ بمعنى قادِرٍ، وهو صفةٌ من صفاتِهِ تعالى؛ لأنَّهُ بدأ الخَلقَ على ما أرادَ على غيرِ مِثالٍ تَقَدَّمَهُ"[2]، ويحتمل أن يكون بمعنى (مُفْعِل) اسم فاعل مُبْدِع أي: مُنشِئ "بدعت الشَّيء إذا أنشأته، واللّه ﷻ بديع السَّمَوَات والأَرض أَي: منشئها"[3]، والإنشاءُ هوَ الخلقُ، إلّا أنّه خلق على غير مثال؛ فهوَ "بديعُ السَّماواتِ والأَرضِ، منشئهما على غير حِذَاء ولا مثال، وكلُّ مَن أنشأ ما لم يُسبَقْ إليهِ قِيل له: أَبدَعْتَ"[4] ويحتمل أن يكون من أبنية المبالغة على وزن (فَعِيْل)[5].

2) ﴿قَضَىٰٓ﴾: فعل ماضٍ معتلّ الآخر جذره (قضي)؛ لأنّ مضارعَه (يقضي)، وأصل جذره "يدُلُّ على إحكام أمرٍ، وإتقانِه وإنفاذِه لجهته"[6] لقولِه تعالى ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَاتٖ فِي يَوۡمَيۡنِ﴾ [فُصِّلت: 12] وهو من الألفاظ المشتركة الدلالة، ويتعين معناه بحسب

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (بدع).
(2) الزَّبيدي، تَاج العَروس: (بدع).
(3) ابن دريد، جمهرة اللّغة: (بدع).
(4) الأزهري، تهذيب اللّغة: (بدع).
(5) القُرطبي، الجَامع لأحكام القرآن: 2/335.
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (قضي).

السِّياق الوارد فيه، ومنه "الفراغ من الشّيء بإتمامه حسب المراد أداءً أو تحصيلًا أو إتمامَ عمل"[1] وعموم لفظ القضاء وما اشتقّ منه يأتي بمعنى الحكم[2]، وهو الوارد في الآية، أي: إحكامُ الأمر وإمضاؤه.

3) ﴿كُن﴾: فعل الأمر من (كان)، وهو (كُوْنْ) التقى ساكنان فحُذف حرف العلّة، وأصله (كون) لأنّ مضارعه (يكون)، وقد يكون ناقصًا، وقد يكون تامًا، والوارد في الآية من الباب الأول، وهو الأشهر والأشيع، وهو "يدُلُّ على الإخبارِ عنْ حدوثِ شيءٍ، إمَّا في زمانٍ ماضٍ، أو زمانٍ راهنٍ؛ يقولون: كان الشَّيءُ يكونُ كونًا، إذا وقعَ وحضرَ"[3].

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

اشتملتِ الآيةُ على صفتين من صفات اللّه سبحانه وتعالى، الأولى: إبداعُ السَّماواتِ والأرضِ من غير مثالٍ سابق، الأخرى: قضاؤه في أمرٍ يتحقَّق بأوانه، ومنِ اتَّصفَ بهذه الصِّفاتِ فكيف يحتاج إلى اتِّخاذِ الولدِ! وإنفاذُ أمرِه سبحانه هو "تمثيلٌ وتشبيهٌ لتعلّق إرادته بإيجاد الشّيء فيعقبه وجوده ... والإيجاد والتّكوين من أسرار الألوهيّة، عبّر عنهما بما يقرِّبهما من الفهم، وهو أن يقولَ للشّيء: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾"[4].

الإِيضاحُ اللُّغويُّ والبلاغيُّ:

براعةُ حذفِ المسندِ إليه:

مباغتةُ المخاطَبين بحجَّةٍ قاهرةٍ لا يُماري فيها إلَّا معانِدٌ مكابر

حُذِفَ المسنَدُ إليه في قولِه تعالى: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، وسببُ الحذفِ هو معرفةُ المخَاطَبِ للمحذوف؛ فإنَّ الخبرَ لا يصْلُحُ إلّا له حقيقةً[5]، "وحَذفُ المُسنَدِ إليهِ في هذا المَقامِ استِعمَالٌ شائِعٌ عند العَربِ إذا ذَكَرُوا مَوصوفًا بأوصافٍ أو أخبارٍ جعلُوهُ كأنَّهُ

(1) جَبَل، المعجم الاشتقاقي المُؤصِّل: (قضى).
(2) الزّبيدي، تَاج العَروس: (قضى).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (كن).
(4) المَرَاغي، تفسير المَرَاغِي: 1/200.
(5) السَّكَّاكي، مفتاح العُلوم، ص: 17.

قد عُرِفَ للسَّامع"[1]، وهو قريبٌ من أسلوب قطع النُّعوت؛ لذلك لم يُعطف على السَّابق، فهو بيانٌ وتوضيحٌ لـمَا سَبَق، وهذا في غايةِ البراعةِ؛ لأنَّه كالحجَّةِ المباغتةِ للمفترين على الله، فكيف بمن يُبدِع السَّماوات والأرض أن يتَّخذَ ولدًا، وهو أمرٌ معلومٌ للمُخاطَبين، لا يجادِلُ فيه إلَّا مُكابِر.

معنى إضافةِ (بديع):

"﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ من بابِ الصفةِ المُشبهة؛ أُضيفَتْ إلى منصوبِها الّذي كانَ فاعلاً في الأصلِ، والأصل: بديعٌ سماواتُه، أي: بَدُعَتْ؛ لمجيئِها على شكلٍ فائقٍ حسنٍ غريب، ثمَّ شُبِّهَتْ هذه الصفةُ باسم الفاعل؛ فَنَصَبَتْ ما كان فاعلاً، ثم أُضِيفَتْ إليه تخفيفاً ... والبديع: الشّيء الغريبُ الفائقُ غيرَه حُسْناً"[2].

إضافة الصِّفةِ إلى ما كان فاعلًا في الأصلِ؛ لإفادة معنى الغرابةِ الفائقةِ غيرَها حسنًا

معنى ﴿وَإِذَا﴾ في سياقِها:

﴿وَإِذَا﴾ في الأصلِ هي ظرفٌ لما يُستقبلُ من الزَّمان، متضمِّنٌ لمعنى الشرط، لكنَّها في الآية لا يُراد بها الزَّمنُ المُستقبلُ، "إذ كان ذلك إشارة إلى ما قبل وجود الزَّمان"[3]؛ فهي ليست على حقيقتها في الاستعمالِ اللّغويِّ، وفائدةُ استعمالِها في هذا السِّياقِ: الإشارةُ إلى أنَّ ما يُريدُه سبحانه يُنفّذُه بلا مُهلة في الماضي نصًّا أو في المستقبلِ إشارةً، فقضاؤه وحكمُه نافذٌ في مُطلَقِ الزَّمانِ.

الإشارةُ إلى أنَّ قضاءَ الله وحُكمَه نافذٌ في الزَّمانِ كلِّه

سِرُّ التَّعبيرِ بـ﴿قَضَىٰٓ﴾ دون (حَكَمَ):

أتَتِ الآيةُ بلفظِ ﴿قَضَىٰٓ﴾ دون مرادِفاتِها؛ لإفادةِ تحقُّقِ الشَّيءِ؛ فإنَّ مرْجعَ ﴿قَضَىٰٓ﴾ إلى انقطاعِ الشَّيءِ وتمامِه[4]، وهو اللَّفظُ الأنسبُ في هذا السِّياقِ، إذ صُدُورُ الأمرِ يقضي بتحقُّقِه بتمامِه بلا

الإفادةُ بتحقُّقِ الأمرِ بتمامه دون مُهلةٍ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/313
(2) السَّمين، الدُّرّ المَصون: 2/85-86.
(3) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 1/302.
(4) الأزهري، تهذيب اللّغة: (قضي).

مهلةٍ، و "أنّ ما قضاه من الأمور وأرادَ كونه، فإنّما يتكوّن ويدخل تحت الوجود من غير امتناعٍ ولا توقُّف"[1]، وهذا المعنى لا يتحقَّقُ في لفظِ (حَكَمَ)، فإنَّ الأخيرَ قائمٌ على صدورِ الحُكمِ بقطع النَّظرِ عن تحقُّقِه؛ وهذا في غالب الاستعمال.

توجيه القراءات:

القياسُ الإشاريُّ في حمل قراءةِ ابن عامرٍ على قراءةِ الجمهورِ

قرأ جمهورُ القرَّاء قولَه تعالى ﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾﴾ برفعِ النّون في ﴿فَيَكُونُ﴾، وحجَّتُهم أنَّها معطوفةٌ على يقول، أو استئناف[2]، "و﴿كُن﴾ هي من (كان) التَّامة بمعنى أحدث فيحدث، وليس المرادُ به حقيقةَ أمر وامتثال، بل تمثيل حصول ما تعلّقت به إرادته بلا مهلةٍ بطاعةِ المأمور المطيع بلا توقُّف"[3]، فعلى قراءةِ الجمهورِ يكونُ المعنى: كنْ فكان، فهي إخبارٌ وإن جاءَتْ على صورةِ الأمرِ[4]، أي: قضاؤه الكونُ المتحقِّقُ وجودُه.

وقرأَ "ابنُ عَامر وَحده: ﴿كُن فَيَكُونَ﴾ بِنصب النُّون"[5]، أي: "نصب المضارع بـ(أن) مضمرة وجوبًا بعد فاء السببيَّة"[6]، على جعل ﴿كُن﴾ فعلَ أمرٍ على صورتِه المعهودةِ، وقراءتُه على معنى أنَّه إذا أمر بأمرٍ في المستقبلِ؛ فإنَّه يكونُ كما كان قضاؤه الحتميُّ في السَّابقِ؛ فقراءته محمولةٌ على القياس الإشاريِّ، أي: أنَّ أمرَه نافذٌ في المستقبلِ؛ لأنَّه نافذٌ في الماضي.

معنى القضَاءِ وتحقُّقِه:

تمثيلٌ لسرعةِ الوجُودِ بعد صُدُورِ الأمر

الظَّاهرُ أَنَّ القولَ والمَقُولَ والمُسَبَّبَ تمثيلٌ لسُرعة وُجُودِ الكائِناتِ عندَ تَعَلُّقِ الإرادةِ والقُدرَةِ بهمَا، بأَنْ شَبَّهَ فِعلَ اللَّهِ تعالى

(1) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 1/315.
(2) ابن زنجلة، حُجّة القراءات، ص: 111.
(3) البَيضاويّ، أنوار التّنزيل وأسرار التّأويل: 1/301.
(4) الفارسّي، الحجّة للقراء السَّبعة: 2/205.
(5) ابن مُجاهد، السَّبعة، ص: 169.
(6) الفارضّي، شرح الإمام الفارضّي على ألفية ابن مالك: 3/549.

بتكوينِ شَيءٍ وحُصُولِ المُكَوَّنِ عَقِبَ ذلك بدُونِ مُهلَةٍ بتَوَجُّهِ الآمرِ للمأْمُورِ بكلِمةِ الأَمرِ، وحُصُولِ امتثالِهِ عَقِبَ ذلك؛ لأَنَّ تلك أقرَبُ الحالاتِ المُتَعارَفَةِ الَّتي يُمكِنُ التَّقريبُ بها في الأمورِ الَّتي لا تَتَّسِعُ اللُّغةُ للتَّعبيرِ عنها ... والَّذي يُعَيِّنُ كونَ هذا تَمثيلًا أَنَّهُ لا يُتَصَوَّرُ خطابُ مَنْ ليسَ بموجُودٍ بأَنْ يكونَ مَوجُودًا[1]، فيكون قولُه: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ مرادًا به "سُرعةُ نفاذِ قدرة اللّه في تكوين الأشياء"[2]، وفيه إثباتُ قدرته تعالى بتحقيق ما يريد بأوجز كلام.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/687-688.

(2) الرّازي، مَفاتيح الغيب: 4/26.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ لَوۡلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوۡ تَأۡتِينَآ ءَايَةٗۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّثۡلَ قَوۡلِهِمۡۘ تَشَٰبَهَتۡ قُلُوبُهُمۡۗ قَدۡ بَيَّنَّا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يُوقِنُونَ ١١٨﴾ [البقرة: 118]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

بعدما "تقرّر بما أنبأ من بديع آياتِه في مُنبثّ مصنوعاته أنّ عظمتَه تقصرُ عنها الأوهام، وتنكصُ خاسئةً دونها نوافذ الأفهام"[1]، ناسب أن يعطفَ قولًا للمشركين على قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗاۗ سُبۡحَٰنَهُۥ﴾ "لمناسبة اشتراك المشركين واليهود والنّصارى في الأقوال والعقائد الضّالة"[2]؛ ليُبيِّن فيه حالتهم العجيبةَ وهي طلبُهم أن يكلّمَهم الله، أو أن يأتيَهم بآية من اقتراحهم، وتركهم الاعتراف بالقرآن الكريم آية، وهم مع ذلك مَنبَعُ الجهالة، وأهلُ الضّلالة؛ فقد وصفهم بأنّهم لا يعلمون، وأنّ حالهم ليس بدعًا مِن أحوال مَن سبقوهم من الغابرين؛ فقد قالُوا مثلَ مقالتهم.

شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

1) ﴿يَعۡلَمُونَ﴾: فعل مضارع من الأفعال الخمسة مُسند إلى واو الجماعة، وأصل حروفه (علم) والاسم منه العلم، وله معانٍ عديدة منها أنّه "ضدّ الجَهل؛ رجل عَالم من قوم عُلَماء وعالمين، وأعلام القَوم ساداتهم، ومَعالم الدِّين: دلائله"[3] وفعل العلم يقتضي معلومين؛ الأوّل أصله مبتدأ، والآخر أصله خبر، على أن يكونا مفعولين، وهنا حَذَفَ المفعولَين.

2) ﴿يُكَلِّمُنَا﴾: فعل مضارع جذره اللّغويّ من (كلم)، وأصلُ الكاف واللّام والميم "يدُلُّ على نطق مفهم ... تقول كلّمته أكلّمه تكليمًا؛ وهو كليمي إذا كلّمك، أو كلّمته، ثمّ يتّسعون فيسمّون اللّفظةّ الواحدةّ المفهمة كلمة، والقصّة كلمة، والقصيدة بطولها كلمة"[4].

(1) البِقاعي، نظم الدّرر: 2/136.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/688.
(3) ابن دريد، جمهرة اللّغة: (علم).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (كلم).

والكلام "يَقعُ على الأَلفاظِ المنظُومةِ، وعلَى المعاني الّتي تحتَها مجموعةً، وعندَ النَّحويين يقَعُ على الجزءِ منهُ؛ اسمًا كان، أو فِعلاً، أو أداة، وعند كثيرٍ من المُتَكَلِّمين لا يقَعُ إلّا على الجملةِ المُرَكَّبَةِ المفيدةِ"[1] والمعنى المراد في الآية لا يخرج عن معنى الكلام الوارد آنفًا؛ فإنّهم طلبوا أن يُكلِّمَهم الله، وهو نابعٌ من المبالغة في الجهل[2].

3) ﴿تَأۡتِينَآ﴾: فعل مضارع، الماضي منه (أتى)، وجذره اللّغويّ (أتو) وأصل معناه "يدُلُّ على مجيء الشّيء وإصحابه وطاعته، الأَتْو الاستقامة في السّير"[3].

ومصدره الإتيان، ومعناه "مجيءٌ بسهُولَةٍ ... والإتيان يُقال لِلمجيءِ بالذّات، وبالأمرِ وبالتَّدبيرِ، ويقالُ في الخير، وفي الشَّرِّ وفي الأعيانِ والأعراضِ"[4]، والمعنى في الآية أنْ تنزلَ عليهم آية ليؤمنوا، وهو طلبٌ نابعٌ من جهلهم.

4) ﴿ءَايَةٗ﴾: اسم مؤنث، ومعناها أنّها "طائفةٌ من القرآن، يتّصلُ بعضُها ببعضٍ إلى انقطاعِها، طويلةً كانت أوْ قصيرة"[5] ولها معنًى آخرُ جامعٌ وهو العلامة[6].

5) ﴿قَبۡلِهِم﴾: اسمٌ من الأسماء الملازمة للإضافة، وهو صالحٌ للظّرفيّة الزّمانيّة والمكانيّة، "القافُ والباءُ واللَّامُ أصلٌ واحدٌ صحيحٌ تدُلُّ كَلِمُهُ كلُّها على مواجهةِ الشَّيءِ للشَّيءِ"[7]، وله معانٍ كثيرة جدًّا تنتمي إلى هذا الأصل، أمّا (قبل) المذكور في الآية فقد فُسّر بأنّه خلاف (بعد)، ولا يكون من هذا الأصل إلّا بالتّأويل على تقدير هو مقبل على الزّمان[8] و "يُستعمل في التَّقَدُّم المُتَّصِلِ والمُنفَصِلِ، ويُضَادُّهُ بَعْدُ"[9] ومعنى (قَبْلهم) في الآية يفيد الزّمان.

6) ﴿مِّثۡلَ﴾: اسمٌ جذره اللّغويّ (مثل)، وأصلّه اللّغويّ "يدُلُّ على مناظَرة الشَّيء للشَّيء، وهذا مِثْل هذا، أي نَظيره، والمِثل والمِثال في معنًى واحدٍ"[10].

---

(1) الرّاغب، المفردات: (كلم).
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/689.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (أتو).
(4) الرّاغب، المفردات: (أتى).
(5) الكفويّ، الكليّات، ص: 41.
(6) ابن منظور، لسان العرب: (أيا).
(7) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (قبل).
(8) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (قبل).
(9) الرّاغب، المفردات: (قبل).
(10) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (مثل).

ومعناه المِثْلُ "شِبهُ الشّيءِ في المِثال والقَدر ونحوِه حتّى في المعنى، ويُقال: ما لهذا مَثيلٌ، والمِثالُ: ما جُعِلَ مِقداراً لغيره، وجمعُه مُثُل"[1].

و"المثل عبارةٌ عن قولٍ في شيءٍ يشبه قولًا في شيءٍ آخر بينهما مشابهةً لتبيين أحدهما للآخر وتصوّره"[2] وهو المعنى المراد في الآية، وهو أنّ قولَ السَّابقين مثلُ قولِ اللّاحقين، فهو طباقه في الجهل والباطل.

7) ﴿تَشَٰبَهَتۡ﴾: فعل ماضٍ مزيد على وزن (تَفاعَلَ)، وهو من أوزان الفعل الثلاثيّ المزيد، وغالبُ معانيه المفاعلة والمشاركة، والجذر اللّغويّ له (شبه)، أمّا الأصل اللّغويّ له فإنّه "يدُلُّ على تشابه الشّيءِ، وتشاكلِه لونًا ووَصفًا، يقال: شِبْه وشَبَه وشبيه، والشّبه من الجواهر الّذي يشبهُ الذَّهب، والمشبهات من الأمور المشكلات، واشتبه الأمران إذا أشكلا"[3] أمّا المعنى العام للشّبه فهو "الشِّبْهُ والشَّبَهُ والشَّبِيهُ حقِيقتُها في المُماثلَةِ من جِهةِ الكَيفِيَّةِ، كاللّونِ والطَّعمِ، وكالعَدالةِ والظُّلمِ"[4]، ومعنى ﴿تَشَٰبَهَتۡ قُلُوبُهُمۡۗ﴾ أي في الغيّ والضّلالة وسوء النّظر[5]؛ فقال كلٌّ منهم مقالةَ سوء في طلب أن يكلِّمَهُمُ اللّه، وأن يأتيَهم بآية.

8) ﴿قُلُوبُهُمۡۗ﴾: جمع تكسير يفيد الكثرة، مفرده (قلب)، جذره اللّغويّ (قلب)، وله أصلان صحيحان "أحدهما يدُلُّ على خالص شيء وشريفه، والآخر على ردّ شيء من جهة إلى جهة"[6]، والمعنى المحوري لهذه اللَّفظةِ: "باطنُ الشَّيء ولُبُّه كالقلوب المذكورة، وقَلْبُ الأرض إخراجُ لباطنها، ومن ذلك القَلْب المضغة المعروفة؛ لأنّها أهمُّ ما في الباطن وأقواه"[7] وهو المرادُ في الآية.

"وقلب الشّيءِ: تصريفُه وصرفُه عن وجهٍ، كقلبِ الثّوب وقلبِ الإنسان، قِيل سُمّي به لكثرةِ تقلّبه، ويُعبّر بالقلب عن المعاني الَّتي تختصُّ به منَ الرّوح والعلم والشّجاعة"[8]

(1) الخليل، العين: (مثل).
(2) السَّمين، عُمدة الحفّاظ: 4/68.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (شبه).
(4) الرّاغب، المفردات: (شبه).
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/689
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (قلب).
(7) جَبَل، المُعجم الاشتقاقي المؤصّل: (قلب).
(8) السَّمين، عُمدة الحفَّاظ: 3/330.

ولا يخرج المعنى السّياقيّ للفظة ﴿قُلُوبُهُمْ﴾ في الآية عن عامّة المعاني الواردة آنفًا، وقد فسَّرَها بعض المفسِّرين بمعنى العقول، وهو صواب.

9) ﴿لِقَوْمٍ﴾: اسم ثلاثيّ مجرّد زنة (فَعْل)، وهوَ منَ القافِ والواو والميم، أصل يدُلُّ على الجماعة منَ النَّاس، ويُقال إنّه جمعُ امرىء[1]، والصّواب أنّه اسمُ جمع[2] أي: ما له واحدٌ من معناه كرجل أو امرأة، وليس له واحدٌ من لفظه.

10) ﴿يُوقِنُونَ﴾: فعلٌ مُضارع من الأفعال الخمسة، مسند إلى واو الجماعة، أصله (يؤقنون) لأنّ ماضيه (أيقنَ) فحُذفت الهمزة تخفيفًا، وجذره اللّغويّ (يقن) ومصدره اليقين، ومعناه "العلم وزوالُ الشك، يُقال منه يَقِنْتُ الأمر يَقْناً، وأيْقَنْتُ، واسْتَيْقَنْتُ، وتَيَقَّنْتُ، كلُّه، بمعنًى، وأنا على يَقين منه"[3].

و"اليَقِينُ من صِفَةِ العِلمِ فَوقَ المعرِفَةِ والدِّرايَةِ وأخَواتِها، يقالُ: عِلمٌ يَقِينٍ، ولا يقال: مَعرِفَةُ يَقِينٍ، وهو سُكونُ الفَهمِ مع ثَباتِ الحُكمِ"[4] ومعنى ﴿يُوقِنُونَ﴾ في الآية: همُ القوم الّذين "يُظهرون اليقين ويعترفون بالحقّ"[5].

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

تُخبِر الآيةُ عن قول المشركين، بطلبِهم أن يكلِّمَهم اللّه، أو أن يأتيَهم بآية، مع وجود الآيات البيّنات، القرآنيّة والعقليّة والكونيّة بما أعجزَ الفصحاء والبلغاء، لكنّهم أعرضوا، وهذا دأبُ الكافرين، وهم في مقولاتهم تلك يُشابهون مقولات الّذين سبقوهم؛ لأنّه لمّا كانت قلوبُهم مُتشابهة كان كلامُهم مُتشابهًا؛ لذلك ذكرَّهم الحقّ تباركَ وتعالى بأنّه قد بيّنّ الآيات للّذين يُوقِنون "أي يطلبون اليقين، أو يُوقنون الحقائق لا يعتريهم شبهة، ولا عناد، وفيه إشارةٌ إلى أنّهم ما قالوا ذلك لخفاءٍ في الآيات، أو لطلبِ مزيد اليقين، وإنّما قالُوه عُتُوّاً وعِنادًا"[6].

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (قوم).

(2) مُصطلح صرفيّ يُعنى به ما لا واحد له من لفظه، لكن من معناه مثل قوم ورَهط؛ فإنّ مفرده امرؤ، بخلاف ركب فإنّ مفرده راكب، يُنظر: شذا العرف في فنّ الصّرف، أحمد الحملاوي، ص: 98.

(3) الجَوهري، الصّحاح: (يقن).

(4) الرّاغب، المفردات: (يقين).

(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/691.

(6) البَيضاوي، أنوار التّنزيل وأسرار التّأويل: 1/103.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبلاغيُّ:

بلاغةُ إسنادِ القولِ إلى قائله:

أُسند القول إلى ﴿ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ في قولِه تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ لَوۡلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ﴾، ولهذا الإسنادِ معنًى دقيقٌ، فالأصلُ في الأقوالِ أن تصدُرَ عن علمٍ، فما بالُها هنا صدرَتْ عنِ الّذين لا يعلمون ما يقولون! وما أعظمَ قول مَنْ لا يعلم! وبقطعِ النَّظرِ عنِ المقصودِ بالموصولِ؛ فإنَّ كلَّ من تكلَّم بالمقولِ المذكورِ فهو داخلٌ في حيِّزِ الصلةِ، وهذا من بليغِ الكلامِ، المومِئ إلى سخافةِ القائلِ وقباحةِ قولِه، ففي الإسنادِ تشنيعٌ بليغٌ، وتقبيحٌ لديغٌ، يُناسِبُ مَنْ يتكلَّمُ بغيرِ علم.

في الإسنادِ تشنيعٌ بليغٌ، وتقبيحٌ لديغٌ، يُناسِبُ المُتجرِّئ على الله بغيرِ علمٍ

نكتةُ التَّعبيرِ بصيغةِ المضارعِ:

عبَّرتِ الآيةُ بصيغةِ الفعلِ المضارعِ المنفي: ﴿لَا يَعۡلَمُونَ﴾ ليدُلَّ على تجدُّدِ جهلِهم، ونفي العلمِ عنهم على الحقيقة، وعلى فرَضِ علمِهم فإنَّ عدمَ الانتفاعِ به يُؤدِّي إلى الاتِّصافِ بالجهل، وتسميتهم بذلك؛ لـمّا لم ينتفعوا بعلمهم[1]؛ فيكون مَثَلُهم ﴿كَمَثَلِ ٱلۡحِمَارِ يَحۡمِلُ أَسۡفَارَۢاۚ﴾ [الجمعة: 5].

نفيُ العلمِ لا تعلُّق له بالمعرفةِ، بل بما تُفيدُه المعرفةُ في الاعتقاد والقول والعملِ

دلالةُ حذفِ المفعولِ:

حُذِفَ مفعولُ العلمِ في قوله: ﴿لَا يَعۡلَمُونَ﴾ اقتصارًا؛ "لأنَّ المَقصودَ إنَّما هو نَفيُ نِسبَةِ العِلمِ إليهم، لا نَفيُ عِلمِهم بشَيءٍ مَخصوصٍ، فكأنَّهُ قِيلَ: وقال الَّذين ليسُوا مِمَّنْ له سَجِيَّةٌ في العِلمِ لفَرطِ غَباوتِه، فهي مَقالَةٌ صدرَتْ مِمَّنْ لا يَتَّصِفُ بتَمييزٍ ولا إدرَاكٍ"[2].

وصفُ القائلِ بعدمِ الإدراكِ والتَّمييزِ؛ لفرطِ غباوته

(1) المَاتُريدي، تأويلات أهل السُّنَّة: 1/549

(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 1/587.

دلالة ﴿لَوْلَا﴾ على التحضيض:

كشفُ النَّوايا الباطنيَّة، والنُّفوسِ المُتكبِّرَةِ في طلبها المساواة بالأنبياء!

﴿لَوْلَا﴾ هنا ليست للشَّرط، بل هي حرفٌ يفيدُ التّحضيضَ؛ لوقوعِ الفعل المضارع بعدها، وهي بمعنى (هلّا) "قصد منه التّعجيز والاعتذار عن عدم الإصغاء للرّسول استكبارًا بأنْ عدّوا أنفسَهم أحرياء بالرسالة"[1]، فهم على قلّةِ مَداركهم، وعدمِ الانتفاعِ بالعلم الّذي يأتيهم يتأمَّلونَ منهُ تعالى أنْ يكلّمَهم، "كما يكلّمُ الملائكةَ وكلّمَ موسى؛ استكبارًا منهم وعُتُوًّا"[2]، وفي ذلك مكابرةٌ منهم في طلبِ مساواتهم بنبيِ اللّهِ موسى عليه السلام!

دلالةُ المقابلةِ:

تحديدُ المرادِ بالآية بناءً على دلالةِ المُقابِل

المقابلةُ بين مطلوبَي ﴿ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ وهما: الكلامُ، والآيةُ، يدُلُّ على أنَّ المقصودَ بالآية الماديَّةُ؛ لمقابلتِها بالمعنويَّةِ، وإلَّا فالآيةُ شاملةٌ للاثنين، وتنكيرُ ﴿ءَايَةٌ﴾ للنَّوعيَّة؛ لأنّهم أرادوا مُطلق الآيات؛ فلا يريدون آيةً بخصوصها، بقدرِ ما يُريدون آيةً مُتَّصفةً بخرق العادة.

غرضُ التَّشبيه:

التَّهديدُ والتَّرهيبُ لمن تابعَ المُكذِّبين في أقوالِهم واعتقاداتِهم

غرضُ التَّشبيه في قولِه تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّثۡلَ قَوۡلِهِمۡۘ تَشَٰبَهَتۡ قُلُوبُهُمۡۗ﴾ إثباتُ سنَّةِ اللّه تعالى في المُكذِّبين، فاللّاحقون على نَهجِ السَّابقين، في معاداةِ الحقِّ واتِّباعِ الهوى، وطلبِ المُنكرات؛ فأقوالُهم ما هي إلَّا بُهتانٌ وزُورٌ ومُنكر، كما كانتْ أقوالُ المُتقدِّمين؛ وفيه تهديدٌ وترهيبٌ ضمنيٌّ بإنزالِ ما نزَلَ بأسلافِهم من الأممِ السَّابقة.

دلالةُ حرفِ ابتداءِ الغايةِ:

استغراقُ الأقوامِ السَّابقين وخاصَّة القريبين زمانيًّا

جاءَ استعمالُ حرفِ الجرِّ في قولِه تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم﴾، ولم يقُلْ: الّذين قبلَهم؛ ذلك أنَّ دخولَ حرف الابتداءِ يُعطي

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/689.
(2) الزّمخشري، الكشّاف: 1/316.

دلالةً استغراقيَّةً للأقوامِ السَّابقين الّذين صدرَت عنهم مثلُ هذه المَقالة، ويُعطي إشارةً إلى أنَّ هذا القولَ صَدَرَ عن الأقوامِ القريبين زمانيًّا، فهو استغراقٌ يخصُّ القريبين منهم زمانيًّا.

الجمع بين تشبيهِ الأقوال وتشابهِ القُلُوب:

تشابه القلوب نشأ عنه تشبيه الأقوالِ بالأقوال، فالتَّشابه بمنزلةِ الأصلِ للفرعِ

في قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّثۡلَ قَوۡلِهِمۡۘ تَشَٰبَهَتۡ قُلُوبُهُمۡۗ﴾ تشبيهُ القولِ بالقول في ﴿مِثۡلَ قَوۡلِهِمۡ﴾ "﴿كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّثۡلَ قَوۡلِهِمۡ تَشَٰبَهَتۡ قُلُوبُهُمۡۗ﴾؛ فإنّ تشابهَ القُلُوب يلزمُ منه تشابهَ الأقوالِ النَّابعةِ لِمَا في القلب، فقد جمع بين التّشبيه والتّشابه"[1]؛ فالتّشبيه للأقوال، والتّشابه للقلوب، فتشابه القُلُوب في الكُفر والطّغيان وعدم قبول الحقِّ كالتَّقرير لتشابهِ الأقوال، "أي: كانت عقولُهم متشابهةً في الأفن وسوء النّظر؛ فلذا اتّحدوا في المقالة"[2].

تماثُلُ الفروعِ لا يعني تشابهَ أصولِها:

التَّنبيه على تشابهِ الأصولِ تحذيرٌ ضِمنيٌّ، والتَّنبيه على تماثلِ الفروعِ دليلٌ صريحٌ

تشابهُ القلوبِ لا يعني تماثُلَها من كلِّ الوجوه، بينما الأقوالُ فقد تماثلَتْ، ذلك أنَّ التَّماثُلَ بين الأقوالِ حاصلٌ، فهي فروعُ الأُصولِ، بخلافِ الأصولِ فقد تختلف من جهاتٍ وتتَّفق من جهاتٍ أُخرى، لذلك قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّثۡلَ قَوۡلِهِمۡۘ تَشَٰبَهَتۡ قُلُوبُهُمۡۗ﴾، فوَصَفَ القلوبَ "بالتَّشابه لا بالتَّماثل، فإنّ القلوبَ وإن اشتركَت في هذا القول، فهي مُختلفةٌ لا مُتماثلة"[3]؛ فلا يمكن لقلب أن يماثلَ قلبًا آخر في التّفكير والإحساس وسواه، وهو استعمالٌ دلاليٌّ دقيقٌ، وفائدةُ ذلك التَّنبيه على مشابهةِ الأصولِ، حذرًا من الوقوع في تماثلِ الفروعِ في الأقوالِ والأفعال والسُّلوكيَّات.

(1) السَّبكي، عَرُوسُ الأفراح: 2/88.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/690.
(3) الهاشمي، تخجيل مَن حرَّف التّوراة والإنجيل: 1/415.

سرُّ التَّعبيرِ بالتَّبيين لا بالإتيانِ:

التَّفريقُ بين الآياتِ الكونيَّةِ والآياتِ القرآنيَّةِ

قال تعالى: ﴿بَيَّنَّا ٱلْأَيَٰتِ﴾ ولم يَقُلْ: آتيناكَ أو أَعطَينَاكَ الآياتِ؛ كما قال على لسان القَوم: ﴿أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌ﴾؛ للتَّفرِقَةِ والفصلِ بينَ آياتِ القُرآنِ الَّتي هي مِن عِلمِ اللّهِ وكلامِهِ، يَظهَرُ بها الحَقُّ بطريقٍ مَعقُولٍ بَيِّنٍ لا يَشتَبِهُ فيه الفَهمُ، ولا يَحارُ فيه الذِّهنُ، وبَيْنَ الآياتِ الكونيَّةِ الَّتي هي مِنْ صُنعِهِ يَستَخذِي لها العَقلُ ويَخضَعُ لها؛ لشعورِهِ بأَنَّها مِنْ قُوَّةٍ فوق قُوَّتِه[1].

سِرُّ العدولِ عن طلبِ السَّائلين:

بلاغةُ الرَّدِّ في الإفصاحِ عن الزِّيادةِ عمَّا طلبوا، توبيخًا وتقبيحًا

لـمَّا طلب المشركون: ﴿أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌ﴾ عَدَل عمَّا طلبوا إلى الزِّيادة فجمعَ الآيات، بدلًا من إفرادِها، وعدلَ عن لفظِ الإتيانِ إلى لفظ التَّبيّينِ، توبيخًا لطلبِهم، وتقبيحًا لسؤالِهم، وتفظيعًا لحالِهم، فقال تعالى: ﴿قَدْ بَيَّنَّا ٱلْأَيَٰتِ﴾، فجاءهم الردُّ في "تعريف الآيات وجمعِها، وإيراد التّبيّين المفصح عن كمال التّوضيح"[2]، توبيخًا لهم، فهم طلبوا إتيانَ آيةٍ؛ فبُيِّنَتْ لهم آيات، وهذا من بديع الرَّدِّ على الجاحدين، ولك أن تحملَ الكلامَ على الإعراضِ عن إجابتِهم، تنزيلًا لهم منزلةَ مَن لا يستحقُّ الجواب؛ "لأنّهم ليسوا بقوم يُوقنون، بل ديدنهم المكابرة"[3]، والوجهان متآيلان، فالتَّقبيحُ فيه نكهةُ الإعراضِ، كما أنَّ الإعراضَ هو نوعٌ من التَّقبيح الأليم.

توجيه المخصوصِ بالذِّكرِ:

اليقينُ هو مُنتهى الوثوقِ بأدلةِ الإيمانِ

خصَّتِ الآيةَ بوصفِ المؤمنين بصفةِ اليقين، دون غيرِها من الصِّفاتِ في قولِه تعالى: ﴿قَدْ بَيَّنَّا ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾، فالقرآنُ "آياتٌ قاهرةٌ، ومعجزاتٌ باهرةٌ لمن كان طالبًا لليقين"[4]، والتَّعبيرُ

(1) محمّد رشيد رضا، تفسير المَنار: 1/363.
(2) القَاسمي، محاسن التَّأويل: 1/240.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/690.
(4) الرّازي، مَفاتيح الغَيب: 4/32.

باليقينِ يمثِّلُ مُنتهى الوثوقِ، "أي: من شأنهم أن يُوقِنوا عند وجود الدَّليلِ، لا يتردَّدون وليس من شأنهم التَّردُّد، وينتهي تردُّدهم بالجحود"[1]، واليقين قضيّة تستقرُّ في القلب، وهو يُشبه الإيمانَ في إمكانِ تجدُّدِه وفقًا للحوادثِ والدَّلائل.

فائدةُ التَّعبير بالفعل المضارع:

جاءَ التَّعبيرُ بصيغةِ الفعل المضارعِ في قولِه تعالى: ﴿قَدۡ بَيَّنَّا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يُوقِنُونَ﴾؛ لبيانِ أنَّ اليقينَ أمرٌ مُتجدِّدٌ، يقوى ويَضعف بحسبِ صاحبِه، والمرادُ بتجدُّدِه في هذا السِّياقِ المدحُ والثَّناءُ، لا مجرَّد الوصفِ، أي هم يُوقنون على الدَّوام زيادةً وقوَّةً، وفيه تعريضٌ بغيرهم، إذ "من شأنهم أن يُوقنوا عند وجود الدَّليل، لا يتردَّدون وليس من شأنهم التَّردّد، وينتهي تردّدهم بالجحود"[2]، واليقين قضيّة تستقرُّ في القلبِ، وهو يشبهُ الإيمانَ في إمكان تجدُّده وفقًا للحوادث والدّلائل.

المدحُ والثَّناءُ للمُؤمنين؛ بزيادةِ يقينِهم عند ظُهورِ الدَّلائلِ، والتَّعريضُ بغيرِهم

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(جاءَ) و(أتَى):

(أتى): فعل، ومصدره الإتيان، ومعناه "مَجيءٌ بسهُولَةٍ ... والإتيانُ يقالُ للمجيءِ بالذاتِ، وبالأمرِ وبالتَّدبيرِ، ويقالُ في الخيرِ، وفي الشَّرِّ، وفي الأعيانِ والأعراضِ"[3].

وهناك فرق بين (جاء) و(أتى)؛ لأنّ "قَوْلك: (جاءَ)، كلامٌ تامٌّ لا يحتاج إلى صلَة ... ولهذا يُقال: جاءَ فلان نَفسه"[4] أمّا الفعل (أتى) فإنّه "يَقتَضِي مجيئه بشَيء ... وَلَا يُقال أَتَى فلَان نَفسه"[5]، فثبت أنّ كلَّ لفظ يحسن مَوقعه بحسب دلالته، ولا يقع لفظٌ مَوقِع الآخر في الكتاب الكريم، أمّا في اللّغة فعلى سبيل التّجوز، أو لأنّه "كثر ذلك حتَّى استُعمِل أحد اللَّفظَينِ في مَوضِع الآخر"[6].

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 1/385.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 1/385.
(3) الرّاغب، المفردات: (أتى).
(4) العَسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 309.
(5) العَسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 309.
(6) العَسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 309.

﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗاۖ وَلَا تُسۡـَٔلُ عَنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡجَحِيمِ ١١٩﴾ [البقرة: 119]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لـمّا كفر المعاندون من اليهودِ والنّصارى ومشركي العرب وازدادوا إعراضًا عن رسالته ﷺ، وطلبوا أن يكلِّمَهم اللّه، أو أن تأتيَهم آية كي يؤمنوا؛ خاطب اللّه جلّ شأنه نبيَّه ﷺ مبيّنًا له وللعالمين بأنّه أرسله بشيرًا ونذيرًا، والآيةُ، "جملةٌ معترِضَةٌ بين حكاياتِ أحوالِ المشركين وأهل الكتابِ، القصدُ منها تأنيسُ الرَّسول عليه الصَّلاةُ والسَّلام من أَسَفِه على ما لَقِيَه من أهلِ الكتابِ، ممَّا يُماثِلُ ما لَقِيَه من المشركين"[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

1) ﴿أَرۡسَلۡنَٰكَ﴾: فعل ماضٍ، المجرّد منه (أرسلَ)، والجذر اللّغويّ له (رسل)، وأصل المعنى "يدُلُّ على الانبعاث والامتداد، فالرّسل السّير السّهل"[2] و "أصلُ الرُّسل الانبعاثُ على التُّؤَدَة، ويُقال ناقَةٌ رِسْلَةٌ سهلَةُ السَّير، وإبلٌ مَرَاسِيلُ، مُنبَعِثَةٌ انبِعَاثًا سَهلًا، و﴿أَرۡسَلۡنَٰكَ﴾: بمعنى جعلناك رسُولاً من عندنا للنَّاس، أي: أنت الرَّسُولُ المُنبَعِثُ"[3]؛ فالرّسولُ هو المبعوثُ من اللّه تعالى إلى خلقِه.

2) ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾: اسم ثلاثيّ جذره اللّغويّ من (حقق) "وهُو يدُلُّ على إحكام الشَّيء وصحَّته، فالحقُّ نقيضُ الباطل، ثُمَّ يرجعُ كلُّ فرع إليه بجَودة الاستخراج، وحُسن التّلفيق، ويُقال حَقَّ الشَّيء وَجَبَ"[4].

والحقُّ هنا الدِّينُ، وما أنزلَ اللّهُ لعباده عن طريق أنبيائه ورُسُلِه.

﴿بَشِيرٗا﴾: اسم فاعل بمعنى (مُبشّر) أو صيغة مبالغة على وزن (فَعِيل)، وجذره اللّغويّ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/691.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (رسل).
(3) الرّاغب، المفردات: (رسل).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حق).

(بشر) ومعنى الجذر في الأصل "ظهور الشّيء مع حسن وجمال، فالبشرةُ ظاهرُ جلد الإنسان ... وسمّيّ البشرُ بشرًا لظهورهم، والبشير الحسن الوجه، والبشارة، الجمال ... ويقال بشّرت فلانًا أبشّره تبشيرًا، وذلك يكون بالخير"[1].

"واستبشرَ إذا وجد ما يُبشِّرُهُ من الفرح ... والبشيرُ المُبَشِّرُ"[2] وعموم معنى البشارة هو نقلُ الخبرِ المُفرحِ، ويكون أكثره في الخير "والبشرى اسمٌ للبشارة، وهي الإخبار بما فيه مَسرَّة للمخبَر"[3] وهو كذلك في الآية، وهو وصف له ﷺ.

3) ﴿وَنَذِيرًا﴾: اسم فاعل بمعنى (مُنْذِر) أو صيغة مبالغة على وزن (فَعِيل)، وجذره اللّغويّ (نذر) ومعنى الجذر في الأصل دلالته "على تخويفٍ أو تخوّف... ولا يكاد يكون إلاّ في التّخويف"[4]، والمعنى العام له "إخبارٌ فيه تخويفٌ، كما أنّ التّبشِيرَ إخبارٌ فيه سُرُورٌ"[5].

ونقل السَّمين الحَلبيّ عن ابن عرفة "(الإنذار): الإعلام بالشّيء الّذي يحذر منه، وكلّ منذرٍ مُعْلِمٌ، وليس كلُّ مُعْلِمٍ مُنذرًا"[6]، ومعنى النّذير في الآية هو المُنذر، وهو وصفٌ له ﷺ.

4) ﴿تُسْـَٔلُ﴾: فعل مضارع مبني للمفعول أو المجهول[7]، الماضي المُجرّد منه (سألَ)، جذره اللّغويّ من (سأل) ومعنى السّؤال "طلب الكشف عنِ الشّيء، أو عن حاله في النَّفس، أي عن عملها به، أو ما صُنِع به"[8] وله غير نوع في المُتعدِّي، وههنا مُتعدٍّ بحرف الجرّ.

ومعنى السّؤال أنّها تستدعي علمًا أو معرفة وما يؤدّي إليهما، ويكون جوابها باللّسان[9]، "والسّؤال هنا مُستعمل في الاهتمام، والتّطلّع إلى معرفة الحال"[10].

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (بشر).
(2) الرّاغب، المفردات: (بشر).
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/242.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نذر).
(5) الرّاغب، المفردات: (نذر).
(6) السّمين، عُمدة الحفّاظ: 4/160.
(7) على إحدى القراءتين الواردتين فيه.
(8) جَبَل، المعجم الاشتقاقي المؤصَّل: (سأل).
(9) السَّمين، عُمدة الحفّاظ: 2/160.
(10) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/692.

5) ﴿أَصۡحَٰبِ﴾: جمع مُكسّر، مفرده صاحب، وجذره اللّغويّ (صحب) وأصله "يدُلُّ على مُقارنة شيءٍ ومُقاربته ... وكلُّ شيءٍ لاءم شيئًا فقد استصحبه"[1] أمّا المعنى العام للّفظة فهو "الصَّاحِبُ المُلازِمُ إنسانًا كان أو حيوانًا، أو مَكانًا، أو زَمانًا، ولا فَرقَ بينَ أنْ تكونَ مُصاحَبَتُهُ بالبدنِ وهو الأصلُ والأكثَرُ، أو بالعنايَةِ والهِمَّةِ"[2] ولمّا كان معنى الصّحبة اللّزوم والدّوام كان معنى أصحاب الجحيم "أنّهم الباقون في الجحيم أبدًا"[3].

6) ﴿ٱلۡجَحِيمِ﴾: اسمٌ من أسماء النّار، الجذر اللّغويّ منه (جحم)، والأصل فيها " الحرارةُ وشدّتُها، فالجاحم المكان الشديدُ الحرّ"[4] و"الجحيم كلّ نار عظيمة في مهواة"[5].

ولم يبعدِ السَّمينُ الحَلبيّ في تفسيرها عمّا ورد ثمّ، فعنده "الجحيم شدّة توقّدِ النّار وإضرامها، وجحمت النّار أضرمتها، وزدت في توقّدها، ومنه الجحيم، أعاذنا اللّه منها"[6] وجملته الأخيرة تلخّص معنى اللّفظة الواردة في الآية.

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

افتتح الحقُّ تباركَ وتعالى الآية بالتّأكيد المتّصل بـ(نا) الدّالّة عليه سُبحانه، المتّصف بصفة العظمة، ثمّ أخبر بأنّه تعالى أرسل رسوله محمدًا ﷺ بالحقّ، والدِّين القويم ليبلغه النّاس؛ فمن آمن كان الرّسول له بشيرًا "أَي: مُبشِّرًا لأوليائي وأهلِ طاعتِي بالثَّوابِ الكريمِ"[7] ومن لم يؤمنْ كان له الرّسول نذيرًا "أَي: مُنذرًا مخوِّفًا لأعدائِي وأهلِ معصيتي بالعذابِ الأليم"[8]، ولمّا كانت مهمة الرّسول التّبليغ فحسب، فلا يُسألُ عن أصحابِ الجحيم، والآيةُ "تأنيسٌ وتسكين"[9].

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (صحب).
(2) الرّاغب، المفردات: (صحب).
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 6/137.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (جحم).
(5) جَبَل، المعجم الاشتقاقي المؤصَّل: (جحم).
(6) السّمين، عُمدة الحفّاظ: 1/308.
(7) البَغويّ، معالم التّنزيل: 1/143.
(8) البَغويّ، معالم التّنزيل: 1/143.
(9) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/692.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبلاغيُّ:

بلاغةُ المَطلَعِ وعظمتُه:

قصرُ الإرسالِ على الله تعالى العظيمِ في هيبته وجلالِه

قولُه تعالى: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗاۖ﴾ خطابٌ للرَّسول ﷺ توكيديٌّ ممزوجٌ بعظمةِ الباري وهيبتِه وجلالِه، "وجيء بالمُسند إليه ضمير الجلالة تشريفًا للنّبي ﷺ بعزّ الحضورِ لمقام التّكلم مع الخالق تعالى، وتقدّس كأنّ اللّه يشافهه بهذا الكلام بدون واسطة؛ فلذا لم يقلْ له إنّ اللّه أرسلك"[1]، وفيه تأنيسٌ له ﷺ فيمن لا يؤمن برسالته، ويتّهمه بأنّه كاهنٌ أو شاعرٌ أو مجنون.

نكتةُ انتقاءِ لفظِ الحقِّ:

التَّعريضُ بأدعياءِ الحقِّ بقصرِ الحقِّ على الإسلامِ

انتقتِ الآيةُ لفظَ الحقِّ في قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗاۖ﴾ دون لفظِ الهدى، أو الإسلام أو القرآنِ؛ تعريضًا بأهلِ الكتابِ والمشركين الّذين خالفُوا الحقَّ في أفعالِهم وأقوالِهم ومُعتقداتِهم، فكان إيرادُ هذه الآيةِ في هذا السِّياقِ بغرضِ بيانِ أنَّ ما أُرسِلَ به ﷺ هو الحقُّ دون سِواه، وما عليه أدعياءُ الحقِّ هو الباطلُ لا سِواه.

نكتة التعبير بالحقِّ دون الصِّدق:

الحقُّ أوسعُ مدلولًا وأشملُ مضمونًا من الصِّدق

بينَ الحقّ والصّدق وشائجُ وعلائقُ، إلّا "أنّ الحقَّ أعمُّ؛ لأنَّه وقوعُ الشَّيء في موقعه الَّذي هو أولى به، والصّدقُ الإخبار عن الشَّيء، على ما هو به، والحقُّ يكون إخبارًا وغير إخبار"[2]، لذا لا يحسُنُ في هذا المَوضِع إلّا كلمةُ الحقّ؛ فهي المُناسبةُ لفظًا ومعنًى؛ لِمَا للحقّ مِن سعةٍ وعُموم، قُبالة التّقييد المُنْبِئِ عنِ الصّدق.

علَّةُ تقديمِ البشيرِ على النَّذيرِ:

جاء تقديمُ حالِ التبشيرِ على الإنذارِ في قوله تعالى: ﴿إِنَّآ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/692.

(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 48.

دفعُ توهمِ أنَّ الإرسالَ كان للمعاقبةِ، بقلبِ الوهمِ بتقديمِ ما يُظنُّ تأخيرُه

﴿أَرۡسَلۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗاۖ﴾؛ لدفعِ توهمِ أنَّ الإرسالَ كان لمعاقبةِ المُخالِفين، وإدانتهم بما ارتكبوه من معاصٍ وأباطيلَ، بل هو لترغيبِ العبادِ المخالفين قبل الموافقين، بأنَّ الإرسالَ هو بشارةٌ قبل أن يكون نِذَارَةً؛ لأنّه أراد ترغيبَ العباد إلى طاعته، والدّخولَ في دينه، والإيماءَ ابتداءً إلى أنّه ﷺ ما أُرسِل إلّا رحمةً للعالمين، فإنْ لم يؤمنوا حذَّرَهم ورهَّبهم بأنّه نذيرٌ لهم من عذابه، فالتَّرغيبُ مقدَّمٌ على التَّرهيب في هذا السِّياقِ وما يُشبِهه.

فائدةُ تعدّد المؤكّدات:

مزيدُ عنايةٍ بالخبرِ والتَّنويه بشأنِه ﷺ

قولُه تعالى: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗاۖ﴾ مشحونٌ بالمؤكِّدات؛ للدّلالة على أهمّيّة مضمونها، والاهتمام به "وجيء بالتّأكيد، وإن كان النّبي ﷺ لا يتردّد في ذلك، لمزيد الاهتمام بهذا الخبر، وبيان أنّه ينوّه به؛ لِمَا تضمَّنه من تنويه بشأن الرسول"[1] وتسلية له ﷺ بعد أن أرجف المُرجفون، وشكَّكوا برسالته، وطلبوا الآيات على ذلك، مع أنّ القرآنَ أعظمُ آية بين أيديهم؛ فجاءت هذه التّوكيدات لإزالةِ ما قد يُتصَّورُ أنْ يَعْلَقَ من شكٍّ؛ فكانت هذه التَّوكيدات، وهي الجملة الاسميَّة الدّالّة على الثّبوت، ثمّ جاء الاسم المُسند إليه وهو (نا) الدّالّ على العظمة، ثمّ أُعيد هذا الضمير فاعلاً في الخبر ﴿أَرۡسَلۡنَٰكَ﴾، وفي ذلك تأكيد يتبعه تأكيد، ثمّ قدّم المُتعلّق ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾، ثمّ قوّى الجملة بالصِّفة المُشبَّهةِ ﴿بَشِيرٗا﴾ الدّالّة على المبالغة، وكلُّ ذلك ممّا يقوِّي الجملة ويحقّقها.

توجيه القراءات:

النَّهي والنَّفيُ يُفيدانِ أنَّ حالَ أصحابِ الجحيمِ في أمرٍ مَهولٍ

وردَتْ قراءتان في قولِه تعالى: ﴿وَلَا تُسۡـَٔلُ عَنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡجَحِيمِ﴾؛ "فقرأَ نافعٌ ويَعقُوبُ بفَتحِ التَّاءِ، وجَزمِ اللَّامِ على النَّهيِ، وقرأَ الباقُونَ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/691.

بضمِّ التَّاءِ، والرَّفعِ على الخبر"[1]؛ فعلى قراءة الجمهور تكون ﴿وَلَا﴾ نافية، و الفعل مبنيًّا للمفعول، أي: لا أحد يسألك عن مصير من لم يؤمنْ ويصدّق، وإن كان مآله الجحيم، أمّا قراءة نافعٍ ويَعقُوب فتكون ﴿وَلَا﴾ ناهية، والفعل بعدها يكون مبنيًّا للفاعل، وهو نهيٌ له ﷺ عن أنْ يسألَ عن مصير من لم يؤمن؛ لأنّ مآله الجحيم، ويُلمَحُ في القراءتين معنًى خفيٌّ؛ فإنّ في عدم السّؤال "تفخيمًا مما أعدَّ اللّه لهم من العقاب"[2]، كما يُصيِّر المرء إلى حال سيئة، فإذا سألت عنه قيل لك: لا تسأل عن فلان، كناية عن سوء منقلبه.

فائدةُ التَّعبير بـ: ﴿أَصۡحَٰبِ ٱلۡجَحِيمِ﴾:

تصويرُ قُبحِ الكافرين بدلالةِ الحال، وترهيبُ مصيرِهم بدلالة المآل

عبَّرتِ الآيةُ بالصُّحبةِ في قولِه تعالى: ﴿وَلَا تُسۡـَٔلُ عَنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡجَحِيمِ﴾؛ لأنّ الصُّحبةَ أمرٌ إذا حصل فإنّه يستمرُّ ويستقرُّ، والصَّاحبُ مَن لازَمَ أبدًا، وخلا ذلك لا يُسمّى صاحبًا، "والمعنى: لَا تسأل عن الّذين يلازمون النّار ملازمة الصَّاحب؛ فهم أصحابُها والمختصّون بها"[3]، وفي ذلك من التَّرهيبِ لمن أصرَّ على كفرِه وغيِّه ما لا يخفى؛ فإنَّ الصُّحبةَ في هذا السِّياقِ لها دلالتان، الأولى دلالةُ المآلِ، والثَّانية دلالة الحال؛ فإنَّ إطلاقَ الصُّحبةِ للجحيمِ على الكافرين المُصرِّين يُصوِّرُهم على أقبحِ صورةٍ في الدُّنيا، ممَّا يجعل الآخرينَ ينفِرون منهم، ويُخبِرُ بمآلِهم في الآخرةِ.

(1) ابن الجزري، النّشر: 2/221.
(2) الأزهري، معاني القراءات: 1/171.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 1/387.

﴿وَلَن تَرۡضَىٰ عَنكَ ٱلۡيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمۡۗ قُلۡ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلۡهُدَىٰۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعۡتَ أَهۡوَآءَهُم بَعۡدَ ٱلَّذِي جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ ١٢٠﴾ [البقرة: 120]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لمّا بيّن القرآن الكريم في الآيات السّابقة إصرار اليهود والنّصارى وتصميمهم على الكفر والتّكذيب مع ظهور الآيات الدّالّة على حقيقة الإسلام والحجج السّاطعة على صدق نبوَّة محمد ﷺ؛ ذكر في هذه الآية استمساكهم بالكفر والعناد وشدّة تكذيبهم لرسول الله ﷺ إلى درجة أنّهم يطلبون منه أن يتَّبع ملَّتهم حتّى يرضوا عنه.

شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

1) ﴿تَرۡضَىٰ﴾: فعل مضارع، الجذر اللغوي منه (رضي)، حصل إعلال في الياء، فقلبت ألفًا، وقسم يرى أنَّ آخره واو، فيكون جذره (رضو)، والأصل فيه أن "يدل على خلاف السُّخط، تقول: رضي يرضى رضًى، وهو راضٍ"[1].

"ورِضَا العبد عن الله: أن لا يكره ما يجري به قضاؤه، ورِضَا الله عن العبد: هو أن يراه مؤتمرًا لأمره، ومنتهيًا عن نهيه"[2].

والمعنى المحوري للرضا: هو "تشبُّع النفس وامتلاؤها بَلالًا ورقّة نحو شيءٍ"[3] وعلاقته بالمعنى: ارتياح النفس واغتباطها.

والمعنى في الآية: أنَّ اليهود والنصارى لن يرضوا عنك حتّى تكون يهوديًّا أو نصرانيًّا كلٌّ بحسب أمنيته.

2) ﴿تَتَّبِعَ﴾: فعل مضارع مزيد، وزنه (تَفَّعل)، وجذره اللغوي (تبع)، وله "أصل

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (رضي).
(2) الراغب، المفردات: (رضي).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (رضي).

واحد لا يشِذُّ عنه من الباب شيء، وهو التلوُّ والقفوُّ، يقال: تبعت فلانًا؛ إذا تلوته، واتَّبعته، وأتبعته: إذا لحقته"[1].

وليس لزومًا أن يكون الاتِّباع بالجسم والمادة، فإنَّه قد يكون "بالارتسام والائتمار"[2]، كاتِّباع القرآن، فإنَّه قُفُوٌّ معنويٌّ، فمن اتَّبع القرآن "ائتمَّ به، وعمل بما فيه، كأنَّ القرآن أمَامه، وهو يَتْبعه، ويَتَهيّأ بهيئته التي يرسمها"[3].

والاتِّباع في الآية أن تقفوَ ديانتهم "فِي فَهْمِهَا وَصُوَرِ الْعَمَلِ بِهَا، حَتَّى لَا يَبْقَى لَهُمْ أَدْنَى اسْتِقْلَالٍ فِي دِينِهِمْ وَلَا فِي أَنْفُسِهِمْ"[4] أي: أن يكون المتَّبع يهوديًّا أو نصرانيًّا حتّى ينال رضاهم.

3) ﴿مِلَّتَهُمْ﴾: اسم جذره اللغوي (ملل)، ويجوز من (ملو)، وأصله "يدلُّ على امتدادٍ في شيءٍ: زمانٍ أو غيره"[5].

ومنه أيضًا إملاء الكتاب، "ويُقال: أمَلَّ عَلَيْهِ شَيْئًا يَكْتُبُهُ، وأَمَلى عَلَيْهِ، وَنزل القُرآن باللُّغتين"[6]، ومنه قوله تعالى ﴿فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُۥ﴾ [البقرة: 282].

والمِلَّة "لا تكاد توجد مضافة إلى الله، ولا إلى آحاد أمَّة النّبيِّ ﷺ، ولا تستعمل إلّا في جملة الشّرائع دون آحادها"[7].

ومعناها: "الشريعة والدِّين: شريعة تمُدُّ، ويزَوَّدُ بها لإصلاح حال الخلق ومآلهم"[8]، "وهي مجموع عقائد وأعمال يلتزمها طائفة من الناس يتفقون عليها، وتكون جامعة لهم كطريقة يتبعونها"[9]، وقد أضافها في الآية إلى الضمير العائد على اليهود والنصارى.

4) ﴿قُلْ﴾: فِعْل أَمْر، أصل حروفه (قول)، حصل فيه إعلال؛ إذ قلبت الواو ألفًا،

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (تبع).
(2) الراغب، المفردات: (تبع).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (تبع).
(4) محمد رشيد رضا، تفسير المنار: 1/95.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ملل).
(6) الأزهري، تهذيب اللغة: (ملل).
(7) الراغب، المفردات: (ملل).
(8) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (ملل).
(9) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/693.

والأصل في معنى حروفه: "القولُ منَ النّطقِ، يقالُ قالَ يقولُ قولًا، والمقولُ اللِّسانُ، ورجلٌ قُوَلَةٌ وقوَّالٌ: كثيرُ القولِ"[1]، ويطلق القول على الكلام أيضًا[2]، ومن أظهر استعمالات القول: "أن يكون للمركّب من الحروف المبرز بالنّطق، مفردًا كان أو جملة"[3]، وهناك استعمالات أخرى للقول، كالتَّصور النفسي والاعتقاد، والدلالة على شيء، والعناية الصادقة بالشيء، وكذلك الحدّ والإلهام[4].

وقد ورد الأمر ﴿قُلْ﴾ ثلاثمائة واثنين وثلاثين (332) مرة في القرآن الكريم؛ "لإسناد كلِّ ما في القرآن إلى الله ﷻ دعمًا للرسول ﷺ، وحسمًا لطمع الكفار في الهوادة"[5]، وهذا الموضع من تلك المواضع الكثيرة بهذا المعنى.

5) ﴿هُدَى﴾: مصدر للفعل الثلاثي هدى يهدي، وجذره اللغوي من (هـدي)، ومعناه: يقوم على أصلين: أحدهما "التقدُّم للإرشاد، والآخر بَعثة لَطَف"[6]، وهما متقاربان في معناهما؛ لذلك فقد ذكر الراغب في معنى الهدى "الهداية دلالةٌ بلطف"[7].

و﴿هُدَى ٱللَّهِ﴾ المذكور في الآية هو بمعناه الاصطلاحي، وهو هدايةُ الله تعالى للإنسان، وقد جعله الراغب على عدَّة أقسام: "الهدايةُ التي عمَّ بجنسها كلّ مكلّف ... والهدايةُ التي جعل للناس بدعائه إيّاهم على ألسنة الأنبياء ... والتّوفيقُ الذي يختصُّ به من اهتدى...، والهدايةُ في الآخرة إلى الجنّة"[8].

ومعنى ﴿هُدَى ٱللَّهِ﴾ في الآية، "يعني: أنَّ هدى اللَّه الذي هو الإسلام، هو الهدى بالحق، والذي يصحُّ أن يسمَّى هدى، وهو الهدى كلّه ليس وراءه هدى"[9].

6) ﴿أَهْوَآءَهُم﴾: جمعُ تكسير مفرده هَوَى، والجذر اللغوي له: (هوي)، ولمعناه: "أصلٌ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قول).
(2) الأزهري، تهذيب اللغة: (قول).
(3) الراغب، المفردات: (قول).
(4) الراغب، المفردات: (قول).
(5) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (قول).
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (هدي).
(7) الراغب، المفردات: (هدي).
(8) المرجع السابق: (هدي).
(9) الزمخشري، الكشاف: 1/316.

صحيح يدلُّ على خلوٍّ وسقوط، أصله الهواء بين الأرض والسماء، سمِّي لخلوه، قالوا: وكلُّ خالٍ هواء"[1].

"وأمَّا الهوى: هوى النفس، فمن المعنيين جميعًا؛ لأنّه خالٍ من كلِّ خير، ويهوي بصاحبه فيما لا ينبغي"[2].

والهوى بمعناه العام الوارد في القرآن الكريم: "ميل النفس إلى الشهوة، ويقال ذلك: للنّفس المائلة إلى الشّهوة، وقيل: سمّي بذلك؛ لأنّه يَهْوِي بصاحبه في الدّنيا إلى كلّ داهية، وفي الآخرة إلى الهَاوِيَةِ"[3].

7) ﴿جَآءَكَ﴾: فعل ماضٍ، مضارعه يجيء، الجذر اللغوي منه (جيء)، والأصل فيه "انحدار إلى حيِّز أو تجوُّف سُفلي مُهَيّأ جامع: كالماء في الهبطة"[4].

"ومن هذا المعنى المجيء: الإتيان، إذ هو حضور الجائي من حيث كان إلى مكان (حيّز) للقاء أو لأمر"[5].

ومجيء العلم في الآية، "أي: المعلوم، وهو الوحي أو الدِّين؛ لأنَّه الذي يتصف بالمجيء دون العلم نفسه، ولك أن تفسِّر المجيء بالحصول، فيجري العلم على ظاهره"[6].

8) ﴿ٱلۡعِلۡمِ﴾: اسم ثلاثي، وهو مصدر عَلِم يَعْلَم، وأصل حروفه (علم)، وله "أصل صحيح واحد، يدلُّ على أثر بالشيء، يتميَّز به من غيره، من ذلك العلامة"[7]، ومن معانيه أنّه "ضدُّ الْجَهْل، رجل عَالم من قوم عُلَماء وعالمين، وأعلام الْقَوْم ساداتهم، ومَعالم الدّين: دلائله"[8].

و(العلم) بمعناه الاصطلاحي: "إدراكُ الشيء بحقيقته، وذلك ضربان: أحدهما:

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (هوي).
(2) المصدر السابق: (هوي).
(3) الراغب، المفردات: (هوى).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (جيء).
(5) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (جيء).
(6) الآلوسي، روح المعاني: 1/372.
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (علم).
(8) ابن دريد، جمهرة اللغة: (علم).

إدراك ذات الشيء، والثاني: الحُكْم على الشيء بوجود شيء، هو موجود له، أو نفي شيء، هو منفيّ عنه"[1].

والعلم يدلُّ أيضًا على "الْيَقِينِ، يُقَالُ: عَلِمَ يَعْلَمُ؛ إذَا تَيَقَّنَ، وَجَاءَ بِمَعْنَى: الْمَعْرِفَةِ أَيْضًا، كَمَا جَاءَتْ بِمَعْنَاهُ: ضُمِّنَ كُلُّ وَاحِدٍ مَعْنَى الْآخَرِ لِاشْتِرَاكِهِمَا فِي كَوْنِ كُلِّ وَاحِدٍ مَسْبُوقًا بِالْجَهْلِ"[2].

ومعنى قوله: ﴿بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ﴾ "أي: مِن الدِّين المعلوم صحَّتُه بالدَّلائل القاطعة"[3].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

استهلالُ الآية بعدم رضا اليهودِ ولا النصارى: قولٌ فَصْلٌ مشوبٌ بلهجة تيئيس له ﷺ من طمعه في إسلامهم، فعلَّق رضاهم على اتِّباعه ﷺ ملَّتهم، فكلٌّ من اليهود والنصارى يريدُ أن يتَّبعَ الرسولُ ﷺ ملَّتَهم، وهو أمرٌ مستحيلٌ إمكانه، وكأنَّ ملَّتَهم هي الهدى!!، فردَّ عليهم الحقُّ سبحانه وتعالى بأنَّ الهدى الحقَّ الذي يجب أن يُتَّبع: هو هُداه تعالى الذي أنزله على رسله، وليس الهوى والتشهِّي، وأنَّك إن اتَّبعتَهُم - وقد جاءك العلم - "فاللّه لا ينصرك، ولا يساعدك على ذلك؛ إذ إنَّ اتِّباع الهوى لا يكون طريقًا موصلاً إلى الهدى، وإذا لم ينصرك اللّه، ويتولَّ شؤونك؛ فمن ذا الذي ينصرك من بعده؟"[4]، وهذا الخطاب وإن كان خاصًّا بالنبي ﷺ، فهو موجَّه إلى الأمة عامَّة.

❁ الإِيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

نفي الرِّضا بأداةِ (لن) بيانٌ للحاضرِ واستشرافٌ للمستقبلِ

سِرُّ التعبير عن نفي رضا اليهودِ والنَّصارى بأداةِ ﴿وَلَن﴾:

التَّعبيرُ بأداة لن في قوله تعالى: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ﴾، له دلالة، وهي أنّ رضاهم غير حاصل عنه ﷺ لا في الحاضرِ ولا في المستقبلِ؛ لأنّ ﴿وَلَن﴾ تخلص الفعل للاستقبال، ففي الآية استشرافٌ لمستقبل اليهود والنصارى،

(1) الراغب، المفردات: (علم).
(2) الفيومي، المصباح المنير: (علم).
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 4/34.
(4) المراغي، تفسير المراغي: 1/204.

وموقفهم من هذه الأمّة ونبيّها إلى أن تقوم الساعة؛ فليس الأمر مقصوراً على زمنه ﷺ، ولا على العصر الأول؛ بل ذلك ممتدٌّ إلى قيام الساعة، فلا يُرضيهم إلَّا "ترك ما أنت عليه من الإسلام واتباعهم"[1].

سِرُّ تعديةِ الفعلِ ﴿تَرۡضَىٰ﴾ بحرفِ (عن):

الرِّضا مرهونٌ باتِّباعِ الملَّةِ، وإلَّا فسخطٌ دائمٌ، وشرٌّ حائمٌ

يتعدَّى الفعلُ (رَضِي) بنفسِه؛ كقوله تعالى: ﴿لَيُدۡخِلَنَّهُم مُّدۡخَلٗا يَرۡضَوۡنَهُۥ﴾ [الحج: 59]؛ فإنّه يشير إلى عموم الرضا، ومعناه قبول النَّفس للشيء قبولاً تامًّا، ويتعدَّى بالحرف مثل: (عن) و(الباء) و(اللام)؛ من مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمۡ رَضِيتُم بِٱلۡقُعُودِ﴾ [التوبة: 83]، وله معنًى خاصٌّ في كلّ حالة؛ فإن تعدّى بحرف (الباء)؛ فإنّه يُستخدم في الأعمِّ الأغلب في الرِّضا عن الأمور التي تكون في حكم الوسائل لا الغايات، وأيضاً يشير إلى أنّ الرضا متعلِّق بشيءٍ خاصّ محدَّد، نحو قوله تعالى: ﴿وَرَضُواْ بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ [يونس: 7]، وإن تعدّى بحرف (اللَّام)؛ دلّ على الاختصاص والتعليل؛ كما في قوله: ﴿وَإِن تَشۡكُرُواْ يَرۡضَهُ لَكُمۡۗ﴾ [الزمر: 7].

أمّا إذا تعدّى بحرف (عن)؛ فإنّه يُشير إلى أسباب صدرت من المَرضِي أدَّت إلى شعور الرضا، كما في قوله تعالى: ﴿لَّقَدۡ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الفتح: 18]، حيث جاء تعليله بعد ذلك مباشرة في قوله: ﴿إِذۡ يُبَايِعُونَكَ تَحۡتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ [الفتح: 18]، وعلى ذلك جاء تعدِّي الفعل هنا بـ(عن): ﴿وَلَن تَرۡضَىٰ عَنكَ﴾؛ للدلالة على وجود أسباب تؤدي إلى الرضا إن فُعلت، وهي: ﴿حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمۡۗ﴾، وأنّى لهم ذلك من رسولِ الله ﷺ، ومن أمَّته الصَّادقةِ في متابعتِه في الأمرِ كلِّه.

خطابُ النَّبيِّ ﷺ في قوله: ﴿وَلَن تَرۡضَىٰ عَنكَ﴾ خطابٌ لأمّته:

بناءُ قيمةِ الاقتداءِ لدى الأمةِ في نظمِ الخطابِ

قوله تعالى: ﴿وَلَن تَرۡضَىٰ عَنكَ﴾ "آيَةٌ لِلنَّبِيِّ ﷺ كَاشِفَةٌ عَنۡ حَالِ أَهۡلِ الۡمِلَّتَيۡنِ فِي عَصۡرِهِ، وَلَا تَزَالُ مُطَّرِدَةً فِي أُمَّتِهِ مِنۡ بَعۡدِهِ"[2]،

(1) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 2/345.
(2) محمد رشيد رضا، تفسير المنار: 1/95.

فالخطاب في ظاهره مُوجَّه للرّسول ﷺ بدلالة ﴿عَنكَ﴾، إلّا أنّه موجّه للأمة جميعًا بطريق الإشارة والإيماء، أي: أنّكم مهما فعلتم؛ فلن تجدوا رضًا ولا قبولاً لديهم.

نكتةُ تقديم اليهودِ على النَصارى:

بيانُ شدَّةِ عداوةِ اليهود، وتقدّمهم الزَّمنيّ

قُدّم ذكرُ اليهود على النصارى في قوله تعالى: ﴿وَلَن تَرۡضَىٰ عَنكَ ٱلۡيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ﴾ في بيانِ عدمِ رضاهم عنه ﷺ وعن أمّته؛ إشعارًا بـ"أنَّ تصلُّبَ اليهودِ في أمثال هذه العظائم أشدُّ من النصارى"[1]، وحالهم هذا غالب في القرآن الكريم، وأيضًا لتقدّمهم الزمني، فهم أسبق زمانًا ورسالةً.

نكتةُ إيراد ﴿وَلَا﴾ النّافية قبل ﴿ٱلنَّصَٰرَىٰ﴾:

بيانُ اشتراكِ الفريقينِ في أصلِ العداوةِ لا ينفي استقلالَ كلِّ فريقٍ بعداوةٍ خاصَّة

قوله تعالى: ﴿وَلَن تَرۡضَىٰ عَنكَ ٱلۡيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ﴾ نُفي فعل الرِّضى بـ(لن) النافية، وجاء فاعلُها اليهود، ثمّ عطف عليه النصارى، ولم يكرِّر أداةَ (لن) مع فعل ﴿تَرۡضَىٰ﴾؛ فيكون التقدير: (ولن ترضى عنك النصارى)؛ لأنّ "العطف على نيَّة تكرار العامل"[2]، وجاء بـ: (لا) النافية المؤكِّدة للنّفي الأول بلن؛ تلميحًا "بأنّ رضى كلٍّ منهما مباينٌ لرضى الأخرى، أي: لن ترضى عنك اليهودُ، ولو خلَّيتَهم وشأنَهم حتّى تتَّبعَ ملّتهم، ولا النصارى، ولو تركتهم ودينَهم حتّى تتبع مِلَّتَهم"[3]؛ فأفاد إيراد (لا) التباين بين رضى اليهود ورضى النصارى، وأنّ كلّ فئة مستقلَّةٌ عن الأخرى في عداوتِها، وفيه تيئيس أيضًا؛ لأنّك "لو صادفت رضا اليهود؛ فلن ترضى عنك النصارى، وإن صادفت رضا النصارى؛ فلن ترضى عنك اليهود"[4].

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/247.
(2) ابن عقيل، شرح ابن عقيل: 2/208.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/247.
(4) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 1/561.

نكتةُ تفصيلِ ذكرِ أهل الكتاب باليهودِ والنَّصارى:

تنبيهُ القرآنِ على نوعِ العداوةِ، يُهيبُ بالمؤمنين الحذرَ بحسبِ الخطر

جاء التَّعبيرُ عن أهلِ الكتابِ باليهودِ والنَّصارى تفصيلًا، فلم يقل: أهل الكتاب؛ ذلك أنَّ عداوةَ اليهود أشدّ من النَّصارى؛ فلو عبَّر بأهل الكتاب؛ لأفاد عمومَ الحكمِ، وهو غيرُ مرادٍ في هذا السِّياقِ، إذِ المرادُ تنبيهُ المؤمنين على وجود فوارق في عداوتِهم، وبين الفريقين قواسم مشتركة، منها: أنّهم أهل كتاب، وأنّهم من بني إسرائيل، واشتراكهم في بعض المعتقدات الباطلة؛ كادِّعاء البنوَّة لله، ودعواهم نفي دخول غيرهم الجنةَ، واشتراكهم في بعض الصِّفات المذمومة؛ ككتمانهم نبوَّته ﷺ، وكفرهم بها.

سرُّ اختيار ﴿حَتَّىٰ﴾ دون (إلى) مع اشتراكهما في الغاية:

رضا أهلِ الكتابِ غيرُ متحقِّقٍ؛ لأنَّ اتِّباعَ ملَّتهم مُحالٌ

اختارَ النَّظمُ الكريم استعمالَ ﴿حَتَّىٰ﴾ دون (إلى)؛ ذلك أنّ ما بعد ﴿حَتَّىٰ﴾ يدخل فيما قبلها، بخلاف (إلى) فلا يلزم ذلك، مثل قولِه ﷺ: "كُلُّ شَيْءٍ بِقَدَرٍ، حَتَّى العَجْزُ وَالكَيْسُ"[1]، وهما داخلان، ولذلك آثر القرآن استعمال ﴿حَتَّىٰ﴾ لدخول ما بعدها، وهو اتِّباع ملَّتهم طلبًا للرّضا، وعليه فقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمۡۗ﴾ فيه كبيرُ تيئيس وتبعيدٍ "من اتِّباع اليهود والنصارى لشريعة الإسلام يومئذ؛ لأنّهم إذا كانوا لا يرضون إلَّا باتّباعه ملّتهم؛ فهم لا يتّبعون ملّته"[2]، فاتّباع النَّبي لملّتهم مستحيل، وهو على طريقة: ﴿حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلۡجَمَلُ فِي سَمِّ ٱلۡخِيَاطِۚ﴾ [الأعراف: 40].

فائدةُ اختيارِ الفعل ﴿تَتَّبِعَ﴾ دون غيرِه من الأفعالِ:

مطلوبُ اليهودِ والنّصارى خدمةُ مصالِحهم لا التَّشارك الثَّقافيّ

آثرَ القرآن الكريم استعمالَ فعل ﴿تَتَّبِعَ﴾ دون غيره من الأفعالِ؛ لدلالته على كمال الانقياد والاستسلام والمداومة والاستمرار، فهم يريدون اتِّباعَه لهم في أقوالهم وأفعالهم وشرائعهم خُطوةً بخطوة،

(1) صحيح مسلم: 4/2045.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/693.

ويريدون ذلك من أمَّته عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، فهم يريدون تحقيقَ مصالِحهم، ولا ينظرون لشيءٍ دون ذلك مطلقًا وإن زعموا وادّعوا، ولا يغترُّ بهم إلّا من حادَ عن الحقِّ وجارَ على أهلِه.

نكتةُ إفرادِ الملَّة وإضافتِها لليهودِ والنَّصارى:

ملَّةُ الكفرِ واحدةٌ

أُفردتِ الملَّةُ مع أنَّ اليهودَ والنَّصارى فريقان؛ لأنّهما يجمعهما الكفرُ باعتبارِه قاسمًا مشتركًا، وهو ملَّةٌ واحدة، ولأنّهم لـمَّا اشتركوا في التحريف والكتمان صاروا بمنزلةٍ واحدةٍ، وأضافها إليهم لإفادة التحريف والفساد، وأنّهم شَرَعوا ببغيهم ما لم يأذن به اللّٰه، وفي هذا دلالة على أنّها من صُنعهم وباطلهم.

سرّ التعبير بالقصر في قوله: ﴿قُلۡ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلۡهُدَىٰۗ﴾:

إسنادُ الهدى إلى اللّٰه على الحقيقة، وأنَّه بتوفيقِه ورضاه

أفاد هذا الأسلوب كثيراً من المعاني في الردّ على اليهود والنصارى في عدم رضاهم عن النبي ﷺ وعن شريعته وأمَّته، ومن هذه المعاني:

أنّ هدى اللّٰه هو ما يقدِّره للشخص من التوفيق، أي: قل لهم: لا أملك لكم هدًى إلّا أن يهديكم اللّٰه، فالقصر هنا قصر حقيقي.

وأنّ المراد بهدى اللّٰه الذي أنزله هو القرآن، وفى هذا إبطالٌ لعلوِّهم وغرورهم بأنّ ما هم عليه هو الهُدى، وأنّ ما خالفه ضلال، فالقصْرُ للقلبِ.

والدلالة على أنّ القرآن هو الهدى الكامل في الهداية بخلاف هدى غيره من الكتب فهي غير كاملة.

دلالةُ إضافةِ لفظ ﴿هُدَى﴾ إلى لفظ الجلالة ﴿ٱللَّهِ﴾:

إضافة ﴿هُدَى﴾ إلى لفظ الجلالةِ أفاد التشريفَ، والتحقير لمن هو على خلافِه، وتدلّ على أنّ الهدى من غير وحي السماء ضلالٌ لا قيمة له، وأيضًا تدلّ على أنّ اتِّباع اليهود والنصارى ليس بهدى؛ بل هو الضلال المبين.

فائدةُ تعدُّد المؤكّدات في قولِه تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلۡهُدَىٰ﴾:

توالي المؤكّدات إشارةٌ إلى أنّ هدى الله هو الحقيقُ بالاتِّباعِ

في قوله تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلۡهُدَىٰ﴾ توالت فيه المؤكِّدات، وهو سياقٌ في تعريف الهدى الذي يجب أن يكون خليقًا بالإنسان المؤمن، وقد ابتدأ الجملة بفعل الأمر ﴿قُلۡ﴾؛ لينبِّه على أهميَّة ما سياتي من كلام، ثمّ جاء بالحرف المؤكِّد ﴿إِنَّ﴾؛ "لتحقيق الخبر وتحقيق نسبته وإبطال تردُّد المتردِّد"[1]، ثمّ جاء بالجملة الاسميَّة الدالّة على الثبوت، وجاء الاسم معرفة بإضافته إلى اسم الجلالة ﴿ٱللَّهِ﴾؛ لأنّه الاسم العلم الجامع لسائر الصِّفات، ولإدخال المهابة في نفوس السامعين.

وفي قوله: ﴿هُوَ ٱلۡهُدَىٰ﴾، ﴿هُوَ﴾: يجوز أن يكون ضمير فصل[2]، وغالب حاله لإفادة الاختصاص والتّوكيد، ثم عرَّف الخبر ﴿ٱلۡهُدَىٰ﴾ بالألف واللام، وهذا يقتضي كمال المعنى من جهة تعريف جزأي الجملة فضلاً عن توكيدِها بضمير الفصل.

توجيه المُتشابه اللَّفظيّ:

قال تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلۡهُدَىٰ﴾، وقال في آل عمران: ﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: 73] بتقديم ﴿هُدَى ٱللَّهِ﴾ في الأول، وتأخيره في الثاني، وسرُّ ذلك أنّ الذي في البقرة هو ردٌّ على اليهود والنَّصارى في زَعمِهم أنَّهم على الحقِّ والهدى، فردَّ عليهم بأن جعل هدى الله هو الهدى الحقّ، فهو قصرُ قلبٍ لاعتقادِهم، وردٌّ عليهم، بخلاف ما جاءت عليه آية آل عمران التي تأخَّر فيها اللفظُ بقوله: ﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ﴾ "فلأنَّ القوم هنا لم يبدُ منهم إنكار، أو دعوى استئثارهم بالهدى، فتعريفُ الهدى بالألفِ واللام، وجعله موضوعاً للحديثِ، والحكم عليه بأنّه ﴿هُدَى ٱللَّهِ﴾ هو التعبير الأنسب للمقام لما في (ال) من معنى الاستغراق"[3]، ففي هذا الأسلوب قصر إفراد.

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/694.

(2) العكبري، التبيان: 2/93.

(3) العكبري، التبيان: 2/154.

بلاغة مجيء الشرط ماضيًا مع (إنْ):

التعريض بمتَّبعي أهواءَ أهل الكتابِ

قوله تعالى: ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعۡتَ أَهۡوَآءَهُم﴾ هنا جاء الشرط بـ(إنْ) مع كون فعل الشرط ماضياً، والقياس فيه أن يكون مضارعًا؛ لأنَّ حصوله يكون في الاستقبال، فيمتنع مضيّه وثبوته، والغرض من الماضي التعريض بمن يتَّبع الهوى، وهو مستحيل في حقِّه ﷺ، وهذا الأسلوب أبلغ من التصريح، فإذا كان محمد ﷺ - وهو الحبيبُ المقرَّبُ - يتَّبع أهواءهم؛ فكيف بغيره؟ فهو أسلوب أكثر فعلاً في النفوس وأعطف لها، "ويُعين على قبوله؛ لكونه أدخل في أمحاض النُّصح لهم، حيث لا يريد لهم إلَّا ما يريد لنفسه"[1]، وهذا سرُّ استعمالِ (إن) دون (إذا)، فـ(إنْ) لا يقتضي تحقُّقَ الوقوع، فهو يدلُّ على أنَّ اتِّباع أهوائهم غير متوقَّعٌ منه؛ لأنّ من سنن الله تأييد متَّبع الهدى السماوي الصحيح بالنصر والغلبة.

نكتةُ التَّعبيرِ بالأهواءِ وجمعِها:

أهواءُ الأنفس هي أصلُ الباطل، وجمعُها دليلُ شتاتِها

عبَّر عن دينهم ومِلّتهم بالأهواءِ للدّلالة على أنّ ما ينتسبون إليه ويدعون له هوًى، وليس شرعاً؛ لأنّ ما شرعه الله على لسان أنبيائه موسى وعيسى عليهما السلام، قد غيَّروا فيه، وبدَّلوا حسب أهوائهم، وفيه ردٌّ عليهم في أنّ ملَّتهم ليست جامعةً للهدى بل هي محرَّفةٌ وناشئةٌ عن شهوة الرئاسة، وليس عن دليل.

وعبَّر بالجمع، "ولم يقل: هواهم؛ لأنَّ جميع الفرق ممن خالف النبي ﷺ لم يكن ليرضيهم منه إلَّا اتِّباع هواهم"[2]، لبيانِ أنَّ أهواءَهم متفرِّقةٌ غيرُ مجتمعة، وهذا حال الباطلِ، ولأنّ الهوى "رأي ناشئ عن شهوة لا عن دليل ... فشملت أهواؤهم التكذيب بالنّبيّ ﷺ وبالقرآن، واعتقادهم أنَّ ملَّتهم لا ينقضها شرع آخر"[3].

(1) القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة: 2/124.
(2) الزجاج، معاني القرآن وإعرابه: 1/202.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/694.

فائدةُ التَّعبيرِ بالعلمِ دون غيرِه من الألفاظِ:

التَّعريضُ بأصحابِ الأهواءِ بأنَّهم على جهلٍ

في قوله تعالى: ﴿جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ﴾، ﴿ٱلۡعِلۡمِ﴾: مصدر، وهو الأصل، والتعبير به من إطلاق المصدر ﴿ٱلۡعِلۡمِ﴾ وإرادة المفعول (المعلوم)، وهو من باب المجاز المرسل، وغايته تفخيم الأمر، فكأنّه قد جاءه العلم كلّ العلم؛ لأنّ المصدر يمثِّل الحدث المجرَّد، لاتساع دلالته لتشمل كل ما هو معلوم بالأدلة والبراهين الساطعة، ولبيانِ أنَّ ما جاءَه هو العلم المقابل للجهلِ، ففيه تعريضٌ بهم، وبما يدعون إليه من الباطلِ.

سرُّ حذف جواب الشرط:

استبعادُ اتِّباعِ أهلِ الكتابِ من قِبلِ المؤمنين، وتهويلٌ لمن زلَّ في ذلك

حُذِف جوابُ الشَّرطِ في قولِه تعالى: ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعۡتَ أَهۡوَآءَهُم﴾؛ لاستبعادِ وقوع ذلك، فله حكم المعدوم، وحذفه من اللِّسان دليلٌ على حذفه من الفؤاد، ولمزيد تهويلٍ ووعيدٍ شديدٍ لمن تُسوّل له نفسه إرضاء اليهود والنصارى؛ لأنّ رضاهم دليل على خروجه من الملة.

توجيه المُتشَابه اللفظيِّ:

جاء في هذه الآيةِ قولُه: ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعۡتَ أَهۡوَآءَهُم بَعۡدَ ٱلَّذِي جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ﴾، وجاء في السورةِ نفسِها: ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعۡتَ أَهۡوَآءَهُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ﴾ [البقرة: 145].

فيُسألُ عن سِرِّ اختيار ﴿ٱلَّذِي﴾ في الموضع الأول، و﴿مَا﴾ في الموضِع الثاني؟ ويُسألُ عن سِرِّ خُلُوِّ الموضع الأول من ﴿مِنَ﴾، ودخولها في الموضع الثاني؟

أمَّا الجوابُ عن السُّؤال الأوّل:

فقوله تعالى: ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعۡتَ أَهۡوَآءَهُم بَعۡدَ ٱلَّذِي جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ﴾ جاء بالاسم الموصول ﴿ٱلَّذِي﴾ فيما جاء في موضع آخر بـ﴿مَا﴾، كقوله تعالى: ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعۡتَ أَهۡوَآءَهُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ﴾ [البقرة: 145]، وقد أجاب الغرناطي بقوله: " بأنّ ﴿ٱلَّذِي﴾ لا تفارق الموصولية، فهي

كأنّها أعرق في التعريف من ﴿مَا﴾؛ لخروج ﴿مَا﴾ عن الموصولية، حيث إنّها تكون حال اسميتها شرطاً واستفهاماً، ولا يفارقها العموم والإطلاق في هذين الموضعين"[1].

و"لِأَنَّ العلم فِي الْآيَة الأولى علم بالكمال، وَلَيْسَ وَرَاءه علم؛ لأَنَّ مَعْنَاهُ بعد الَّذِي جَاءَك من العلم بِاللَّه وَصِفَاته ... فَكَانَ لفظ ﴿ٱلَّذِى﴾ أليق بِهِ من لفظ ﴿مَا﴾؛ لِأَنَّهُ فِي التَّعْرِيف أبلغ، وَفِي الْوَصْف أقعد"[2].

ومن أسرار هذا التعبير: أَنَّ الآية الأولى الوارد فيها ﴿ٱلَّذِى﴾ مناسب للإطناب الوارد قبله، فقد ذكر في البقرة "عدة آيات في بسط أحوالهم وقبيح مرتكباتهم"[3] من لدن قوله تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم﴾ [البقرة: 109] حتّى هذه الآية ذكر فيها كثيراً من مرتكباتهم وأحوالهم القبيحة في نحو عشر آيات أو أقلّ قليلاً.

أمّا الآية الثانية؛ فهي متعلِّقة بإبطال قبلة اليهود والنصارى؛ لأنّها مسبوقة ببيان ذلك من خلال قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا﴾ [البقرة: 142] والآية في أمر القِبلة، وهو تشريعٌ فرعي؛ لذلك جاء التحذير في قوله تعالى: ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ﴾ في أمر اتّباع قبلتهم، أمّا في الآية الأولى؛ فالتحذير جاء من اتِّباع ملّتهم بأسرها، فالمقام مختلف؛ لأنّ الآية الأولى في بُطلان أصول ملّتهم، أمّا الآية الثانية؛ فهي في أمر القبلة؛ لذلك جيء فيها التعبير بـ﴿مَا﴾، وهي مُلحقةٌ بالمعارف؛ لأنّها في الأصل نكرة موصوفة نُقلت إلى الموصولية.

وأمَّا الجوابُ عن السُّؤال الثَّاني:

فلأنّ الآية التي دخلت فيها ﴿مِّنْ﴾ جاءت بعد الآية الأولى في هذه السورة، وليس بينهما فصلٌ طويل؛ فكأنّ العلم الذي جاء فيها من قوله تعالى: ﴿مَّا تَبِعُوا۟ قِبْلَتَكَ﴾، هو جُزئيٌّ من عموم العلم الذي جاء في إبطال جميع ملّتهم، فكان جديراً بأن يُشار إلى كونه جُزئيًّا بإيراد ﴿مِّنْ﴾ الابتدائية[4].

(1) الغرناطي، ملاك التأويل: 2/762.
(2) الكرماني، أسرار التكرار، ص: 77.
(3) الغرناطي، ملاك التأويل: 1/48.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/39.

لكلّ ذلك جاءت الألفاظ متناسبة، فذُكر ﴿ٱلَّذِى﴾ في الموضع الأول للإطناب الوارد فيها، ولأنّه أبلغ وأليق؛ لأنّها خالصة في التعريف، بخلاف ﴿مَا﴾ في الموضع الثاني ففيها إيجاز.

نفي الوليّ والنّصير قطعُ الطمع عن اتّباع الهوى

قوله تعالى: ﴿مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ معناه: نفي أن يكون لك حليف أو معين يدفعهم عنك، وفي هذا التعبير "قطعٌ لأطماعهم أن تُتَّبع أهواؤهم؛ لأنّ من علم أنّه لا ولي له، ولا نصير ينفعه، إذا ارتكب شيئًا؛ كان أبعد في أن لا يرتكبه، وذلك إياس لهم في أن يتبع أهواءهم أحد"[1].

سرّ التعبيرِ بحرفِ الجرّ ﴿مِن﴾ في قوله ﴿مِن وَلِيٍّ﴾:

عبَّر بذلك لتأكيد النفي، ولقطع أمل المنافقين والمُداهنين لليهود والنصارى.

نكتةُ تقديم ﴿وَلِيٍّ﴾ على ﴿نَصِيرٍ﴾:

الاحتراسُ فنٌّ بديعيٌّ، وضابطٌ علميٌّ

قوله تعالى: ﴿مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ جواب القسم، فقد علّق اتباع الهوى بنفي الولي والنصير، وأكّد النفي بمن في قوله: ﴿مِن وَلِيٍّ﴾؛ لتأكيد النفي، وقدّم الولي على النَّصير احتراسًا[2]؛ لحصول التَّكامل بين ولاية الولي، ونصرة النصير؛ "لأنّ نفي الولي لا يقتضي نفي كلّ نصير؛ إذ لا يكون لأحد ولي؛ لكونه دخيلاً في قبيلة، ويكون أنصاره من جيرته"[3]، و(لا) هنا نافية لتوكيد النفي، والتقدير: ما لكم من دون الله من وليٍّ ونصير.

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

المِلَّة والدِّين والشريعة:

يقول الرَّاغب[4]: الملّة كالدِّين، وهو اسمٌ لما شرع الله تعالى لعباده

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 1/591.
(2) الاحتراس: أن يأتي المتكلم بمعنًى فيه دخل وطعن، فيُفطَن له؛ فيأتي بما يزيل ذلك الوهم ويخلِّصه منه، ينظر القزويني، الإيضاح، ص: 192.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/695.
(4) الراغب، المفردات: (ملل).

على لسان الأنبياء؛ ليتوصَّلوا به إلى جوار الله؛ والفرق بينها وبين الدِّين أنَّ الملّة لا تضاف إلَّا إلى النبي الذي تُسند إليه، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الحج: 78]، وقوله: ﴿وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [يوسف: 38] الآية، ولا تُضاف إلى الله تعالى، ولا إلى آحاد أمّة النَّبي، ولا تُستعمل إلّا في جملة الشَّرائع دون آحادها؛ فلا يقال: ملّة الله، ولا يقال: مِلَّتي، وملّة زيد ... أمَّا الدين إذا أطلق؛ فهو الطاعة العامة الَّتي يجازى عليها بالثواب، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران: 19]، أمَّا إذا قُيِّد؛ فتختلف دلالته حسب السِّياق الذى ورد فيه، مثل: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [الفاتحة: 4]، فهو بمعنى الجزاء والحساب.

المجيء والإتيان:

"والمجيء كالإتيان، لكنَّ المجيء أعمُّ؛ لأنَّ الإتيان مجيء بسهولة، والإتيان قد يقال: باعتبار القصد، وإن لم يكن منه الحصول، والمجيء يقال: اعتبارًا بالحصول"[1].

الوليّ والنَّصير:

الفرق بين الولي والنَّصير العموم والخصوص من وجه؛ لأنَّ الولي يُطلق على القريب والحليف، أمَّا النصير؛ فيطلق على كلِّ من يُعين أحداً وعلى من يريد به ضُرًّا، وهذا قد لا يتأتَّى من الولي، حيث يضعُفُ عن النُّصْرة؛ بخلاف النصير فقد يكون من أقربائه أو من غيرهم.

وجاء التعبير بهما لقطع أطماعهم أن تُتَّبع أهواؤهم؛ لأنَّ من عَلِم أنّه لا ولي له، ولا نصير ينفعه؛ إذا ارتكب شيئاً، كان أبعد عن ارتكاب المعصية في اتِّباع أهوائهم، وفيه إشارة؛ لتيئيس اليهود والنصارى أن يتَّبع أهواءَهم أحدٌ.

(1) الراغب، المفردات: (جاء).

﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَتۡلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۗ وَمَن يَكۡفُرۡ بِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ١٢١﴾ [البقرة: 121]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

سبق الحديث في قوله تعالى: ﴿وَلَن تَرۡضَىٰ عَنكَ ٱلۡيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ﴾ [البقرة: 120] الآية عن قطع أمل الرّسول ﷺ والمؤمنين من إيمان أهل الكتاب؛ لأنّ الآية قَدْ سَلَّتْ مَا كَانَ يُخَالِجُ النُّفُوسَ مِنَ الرَّجَاءِ بِإِيمَانِ أَهْلِ الْكِتَابِ كُلِّهِمْ، ثم جاءت هَذِهِ الْآيَةُ تَنْطِقُ بِأَنَّ مِنْهُمْ مَنْ يُرْجَى إِيمَانُهُ، وَهُمُ الَّذِينَ وَصَفَهُمْ بِمَا هُوَ عِلَّةُ الرَّجَاءِ وَمَنَاطُ الْأَمَلِ، وَهُوَ تِلَاوَةُ كِتَابِهِمْ حَقَّ تِلَاوَتِهِ[1]؛ فجاءت هذه الآية استدراكًا على ما مضى من مضمون الآية السابقة، فإنّ الذين يتلون الكتاب حقّ تلاوته، ويؤمنون به، مُسْتَثْنَوْنَ من أولئك المذكورين في الآية السابقة.

شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

1) ﴿ءَاتَيۡنَٰهُمُ﴾: فعل ماضٍ مع الفاعل والمفعول بمعنى: أعطيناهم، أصله (آتى)، والجذر منه (أتي)، ومنه أتى يأتي، "والإيتاء الإعطاء، تقول: آتى يؤتي إيتاء، وتقول: هاتِ بمعنى: آتِ، أي: فاعل"[2].

وفي الآية بمعنى: الإنزال، أي: أنزلنا عليهم الكتاب.

2) ﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾: يأتي (الكتاب) في القرآن الكريم على أحد عشر وجهاً[3]، والمراد به هنا التوراة والإنجيل.

3) ﴿يَتۡلُونَهُۥ﴾: فعل مضارع من الأفعال الخمسة مسند للجماعة، جذره من التاء واللام والواو، ومعناه: "الاتِّباعُ يقالُ: تَلوتهُ إذا تبعتهُ، ومنهُ تلاوةُ القرآنِ؛ لأَنَّهُ يُتبعُ آيةً بعدَ آيةٍ"[4].

(1) محمد رشيد رضا، تفسير المنار: 1/367.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أتي).
(3) ابن الجوزي، نزهة الأعين النواظر، ص: 527-526.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (تلو).

و"تَلَاهُ: تبعه متابعة، ليس بينهم ما ليس منها، وذلك يكون تارةً بالجسم وتارةً بالاقتداء في الحكم، ومصدره: تُلُوٌّ وتُلْوٌ، وتارةً بالقراءة وتدبُّر المعنى"[1].

"والتلاوة تختصُّ باتِّباع كتب الله المنزلة، تارةً بالقراءة، وتارةً بالارتسام لما فيها من أمر ونهي، وترغيب وترهيب"[2].

والمعنى المراد في الآية: تلاوة الكتاب: اتِّباعه والأخذ به عملاً[3]، ويُحْتَمَلُ أنْ يَكُونَ مِنَ التِّلاوَةِ، أيْ يَقْرَؤونَهُ حَقَّ قِراءَتِهِ لا يُحَرِّفُونَهُ ولا يُبَدِّلُونَهُ.

4) ﴿يُؤْمِنُونَ﴾: فعل مضارع مسند لواو الجماعة، وجذره الهمزة والميم والنون، وهو يدلُّ على سكون القلب وتصديقه[4]، وأصلُ الأمن طمأنينة النفس وزوال الخوف[5]، وفعله: أمِنَ، أمَّا آمن؛ فله وجهان[6].

أحدهما: أن يكون متعدِّيًا، تقول: آمنته إذا جعلت له الأمن والأمان، ومنه في وجه[7] اسم الله المؤمن.

والآخر: أن يكون لازماً، ومعنى (آمن) على هذا: صار ذا أمن.

والفعل يؤمنون في الآية: "يدلُّ على أنَّ الإيمان مقصورٌ عليهم، ولو كان المراد أهل الكتاب لما كان كذلك"[8].

5) ﴿ٱلْخَٰسِرُونَ﴾: اسم فاعل، مجموع جمع سلامة، مفرده: خاسر، وجذره اللغوي (خسر)، ولمعناه: "أصلٌ واحد يدلُّ على النقص، فمن ذلك الخسر والخسران، ويقال: خسرت الميزان وأخسرته؛ إذا نقصته"[9].

ومعناه أيضًا: "الخُسْرُ والخُسْرَان: انتقاص رأس المال، وينسب ذلك إلى الإنسان، فيقال: خَسِرَ فلان، وإلى الفعل، فيقال: خَسِرَتْ تجارته"[10].

---

(1) الراغب، المفردات: (تلو).
(2) السمين، عمدة الحفاظ: (تلو).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (تلو - تلي).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أمن).
(5) الرّاغب، المفردات: (أمن).
(6) الرّاغب، المفردات: (أمن).
(7) الزجاج، تفسير أسماء الله الحسنى، ص: 32-31.
(8) الرازي، مفاتيح الغيب: 4/35، في المطبوع: "مقصودٌ"، وهو تصحيف.
(9) ابن فارس، مقاييس اللغة: (خسر).
(10) الراغب، المفردات: (خسر).

ويستعمل في غير الأمور المادية: "كالصّحّة والسّلامة، والعقل والإيمان، والثّواب، وهو الذي جعله الله تعالى الخسران المبين"[1].

وأكثر ما في القرآن منه "من جهة أنهم اشتروا الكفر بالإيمان، وقيل: بتجارتهم التي كانوا يعملونها بأخذ الرشا على التحريف"[2].

ومعنى ﴿ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ في هذه الآية: الذين "باعوا العظيم الباقي بالحقير الفاني، وفي التعريف بالإشارة والحصر للخسران فيهم"[3].

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

سيقت هذه الآية تخصيصاً لما قبلها من أنَّ عموم أهل الكتاب لن يؤمنوا حتى تكون تابعًا لهم في ديانتهم، فقد "أرشد إلى أنَّ فريقًا منهم يرجى إيمانهم، وهم الذين يتدبرون كتابهم، ويميزون بين الحق والباطل، ويفهمون أسرار الدين، ويعلمون أن ما جئت به هو الحق الذي يتفق مع مصالح البشر، فهو الذي يهذب نفوسهم، ويصفِّي أرواحهم، وينظِّم معايشهم، وبه سعادتهم في الدنيا والآخرة"[4]، ولا يحرِّفون ولا يبدِّلون ما جاء فيه؛ هؤلاء هم الذين يؤمنون بالنبي محمد ﷺ وبما أنزل عليه، وأمَّا الذين بدَّلوا بعض الكتاب وكتموا بعضَه، فهؤلاء كفارٌ بنبي الله محمد ﷺ وبما أنزل عليه، ومن يكفر به فأولئك هم أشدُّ الناس خسرانًا عند الله.

الإيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

دلالةُ فَصْلِ الجُملةِ عن السَّابقةِ:

إنصافُ القرآنِ لأهل الكتابِ

جاءت الآيةُ مفصولةً عمَّا سبقها لأنَّها مُعترضةٌ في بيان حال مؤمني أهل الكتاب بعد ذكر أحوال كَفَرَتِهم، وتنبيهًا على كمال التَّباين بين الفريقين[5]، وهذا يدلُّ على إنصاف القرآنِ لأهلِ الكتابِ، وأنَّه يُعطي كلَّ ذي حقٍّ حقَّه من المواصفاتِ التي يتَّصف بها.

(1) المرجع السابق: (خسر).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (خسر).
(3) الآلوسي، روح المعاني: 1/373.
(4) المراغي، تفسير المراغي: 1/205، ونخبة من العلماء، التفسير الميسَّر: ص19.
(5) الآلوسي، روح المعاني: 1/372.

فائدةُ التَّعبيرِ بالاسم الموصولِ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ﴾:

تعيينُ أهلِ الكتابِ المُستحقِّين هذا الوَصْفَ

بدأت الآيةُ باسمِ الموصولِ ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَتۡلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾، وهو يُعبَّر به عن الجمع لتوسيعِ الدّلالة ليشملَ من آمن بالرسول ﷺ من علماء أهل الكتابِ، ومن عوامِّهم، ويدلُ الاسمُ الموصولُ على مزيدِ مَدْحٍ وتعيين، فهو يُعيِّن أهلَ الكتابِ المُفضَّلين الذين يستحقُّون أن يوصفوا بهذا الوَصْفِ، فكأنَّه قال: أهلُ الكتابِ هم الذين يَتلُونه حقَّ تلاوتِه لا غيرُهم، وهو ما يُترجمُه الفعلُ المضارِعُ واسمُ الإشارةِ.

دلالةُ نونِ العظمةِ في الفعلِ: ﴿ءَاتَيۡنَٰهُمُ﴾:

أفادت شرف المُؤتى، وهو الكتاب، الذي هو بمنزلة النور لتبديد ظلام الشُّبهات عند اليهود والنصارى، وفيه حياة القلوب والأرواح، وبيانُ شرف مَنْ أُوتوهُ لشرف إضافتهم ودخولهم في الكلمة؛ فبصدقِهم وتصديقهم لما أنزله الله في كُتبهم من الإيمان بالنَّبي محمَّد ﷺ ودعوته؛ نالوا هذا الشرف.

معنى التَّعريف في الكتابِ وسرُّ الاختيارِ:

تحريكُ عقولِ وقلوبِ أهلِ الكتابِ منزعٌ قرآنيٌّ راسخٌ

معنى التَّعريفِ في: ﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾ يَحتمِل العهدَ أي: التَّوراة[1]، ويحتمل أن يكونَ الكتابُ "اسمَ الجنس، ويَتْلُونَهُ معناه: يتّبعونه حقّ اتّباعه بامتثال الأمر والنهي"[2]، وعُبِّر بالكتابِ لأنّ التوراة كتاب، والإنجيل كتاب، والقرآن كتابٌ؛ فأتى بالوصف المُشترك للجميع؛ فجهة التسمية واحدة، وجهة الإنزال واحدة، وفيه حضٌّ وحثٌّ على الإيمانِ بالقرآنِ الكريمِ، وهذا من بناءِ القيم القائمةِ على تحريكِ عقولِ وقلوبِ أهل الكتابِ.

(1) ابن جرير، جامع البيان: 2/565.
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 1/204.

بلاغةُ التَّعبيرِ بـ﴿يَتۡلُونَهُۥ﴾ دلالةً وصيغةً:

التِّلاوةُ قراءةٌ راسخةٌ واتِّباعٌ دائمٌ

معنى التِّلاوةِ في قوله تعالى: ﴿يَتۡلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾ اجتمع فيه معنيان: الاتِّباع، والآخر: القراءة، فهو "يقعُ عليهما جميعًا، ويصحّ فيهما جميعًا المبالغةُ؛ لأنّ التابع لغيره قد يستوفي حقّ الاتباع، فلا يخلُّ بشيء منه، وكذلك التَّالي يستوفي حقَّ قراءته، فلا يخلُّ بما يلزم فيه"[1] وفيه إيجاز بديع في الجمع بين المعنيين بلفظٍ واحدٍ، وعبَّر بالفعل المُضَارِعِ للدّلالة على أنّ هؤلاء يتَّبِعون هدي السماء، فلا يفتُرون عنه، فهو دَيدَنُهُم صُدورًا ووُرودًا.

التجويدُ والإتقانُ سمةُ أهلِ الإيمانِ:

دلَّ لفظُ ﴿حَقَّ﴾ على الإتقانِ والإحكامِ، أي: تلاوةً مستوفيةً، يُراعى فيها ضبط اللفظ، وفهم المعنى، ولزوم العمل بما فيه؛ فإنَّ للتِّلاوةِ حقَّها الواجب لها.

فائدةُ استعمالِ اسمِ الإشارةِ للبعيدِ:

الإيمانُ وصفٌ عالٍ لا يستحقُّه إلَّا من عمِلَ به حقَّ العملِ

قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۗ﴾ عبّر عن الذين يتلونه حقّ تلاوته بأولئك؛ "إشارة إلى الموصوفين بإيتاء الكتاب وتلاوته، كما هو حقّه، ﴿يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۗ﴾ محطّ الفائدة ما يلزم الإيمان به من الربح"[2] ولـمّا كان اسم الإشارة أولئك موضوعًا للبعيد؛ ففيه إيماء إلى علوِّ منزلة هؤلاء الذين يتلون كتابه حقّ تلاوته، والتَّنبيه على أنَّ الأوصافَ المتقدِّمة هي الموجبةُ لجدارتِهم بالحكمِ المسند لاسم الإشارة، والحصر، وزيادة التَّأكيد لإثبات إيمانهم، وفيه تعريضٌ بأولئك المعاندين المحرِّفين الذين لم يؤمنوا بالكتاب.

معنى عطفِ الجملةِ على الجملةِ في قولِه تعالى: ﴿وَمَن يَكۡفُرۡ بِهِۦ﴾:

كمالُ استيفاءِ موقفِ أهلِ الكتابِ من الحقِّ

عُطفت جملةُ: ﴿وَمَن يَكۡفُرۡ بِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ على

(1) الرازي، مفاتيح الغيب: 4/35.
(2) القاسميّ، محاسن التأويل: 2/243.

ما قبلَها؛ لإرادة الجمعِ والتَّناسُب بين حالَتَي الإيمانِ والكُفر، حيث جاءت هذه الجملةُ لكمالِ الاستيفاءِ، فالجملةُ السَّابقة لبيانِ كمال المُؤمنين بالكتابِ حقًّا وصدقًا، وهذه الجملةُ لبيانِ الكافرين عنادًا وإصرارًا، فهو بيانٌ وتفصيلٌ لموقفِ أهلِ الكتابِ من الإيمانِ بالرَّسول ﷺ، حتّى لا يبقى لـمُعتذرٍ عذر.

التَّقابُلُ بين الإيمانِ والكفر معنًى وصيغةً:

طباقُ المعنى واتِّفاقُ الحالِ من بديع نظمِ القرآنِ

عبَّرتِ الآيةُ عن إيمان أهلِ الكتابِ بالفعلِ المضارعِ ﴿يُؤْمِنُونَ﴾، وفي المقابلِ عبرت عن كفرِهم بالمضارع: ﴿يَكْفُرْ﴾، وهذا التَّقابلُ أبان عن اختلافِ الحالين في المعنى؛ فهو طباقٌ بديعٌ، وصوَّرَ حالَ كلٍّ فريق، فأولئك مستمرُّون في إيمانِهم يعملون به على الدَّوام، والمقابلون مستمرُّون في عنادِهم وكُفرِهم بكتاب اللّٰه الذي يدعوهم إلى الصِّراط المستقيم.

اختلافُ الصِّيغةِ بين الشَّرطِ وجوابِه:

عدالةُ القرآنِ وحرصُه على إيمانِ النَّاسِ

اختلف التَّعبيرُ بين الشَّرطِ وجوابِه، فالشَّرطُ ﴿يَكْفُرْ﴾ جاءَ فعلاً مُضارِعًا؛ لإفادة التجدّد، وفيه بيانُ عدالةِ القرآنِ، وهَمْزُهُ الآخرين كي يُؤمنوا، فلم يحكم عليهم حكمًا دائمًا، بَيْنَما جاء الجواب جملةً اسميَّةً؛ لإفادة الثُّبوت؛ فإنّ من يكفرْ ويتجدَّدْ كفرُه آنًا بعد آنٍ ويُدركْهُ الموتُ على ذلك؛ فمصيرُه القارُّ هو الخسرانُ، وفائدةُ "ذلك تنفيرٌ عن تعاطي السبب؛ لما يترتَّب عليه من المسبَّب الذي هو الخسران ونقص الحظ"[1].

فائدةُ ضميرِ الفصلِ:

قولُه تعالى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ جملة اسميَّةٌ، وجاءَ ضميرُ الفَصْلِ لتوكيدِ القَصْرِ، فالخبرُ مقصورٌ على المبتدأ؛ لأنَّه معرَّفٌ باللَّام، وخلا المبتدأُ من لام الجنسِ[2]، ففيه دلالة على أنّهم هم الخاسرون دون غيرهم، فقد قصر صفة الخسران عليهم.

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 1/593.
(2) الرضي، الكافية بشرح الرضي: 2/25.

﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٢٢﴾ [البقرة: 122]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لمّا ذكر الله تعالى في الآيات السّابقة بعض نعمه على اليهود والنصارى، وكانوا يقابلونها بالكفر والعناد، ويأتون منكراتٍ في الأقوال والأعمال، أعاد التذكير بجملةٍ من نعمه التي أنعم بها على بني إسرائيل مرةً ثانية؛ ليحذروا المخالفة فيما أُمروا به من شكر النِّعم والوفاء بالعهود.

شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

1) ﴿إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾: اسم أعجمي، وما كان كذلك، فلا تنطبق عليه حدود الصَّرْف العربي، إلَّا أنَّ ابن منظور من بين المعجميِّين جعل له جذرًا: هو (سرأل) فقال: "إِسْرَائِيلُ وإِسْرائينُ: زَعَمَ يعقوب أَنّه بدل اسم مَلَكٍ"[1].

وقيل: إنَّ كلمة اسرائيل هي لقب ليعقوب أبي يوسف عليهما السلام، "مَعْنَاهُ: عبد الله؛ لِأَنَّ (إيل) اسْم من أَسمَاء الله بالسُّرْيَانيَّة؛ وَقيل: صفوة الله، وَقيل: سرُّ الله"[2]، فيما جعله السهيليُّ اسمًا ليعقوب، وليس لقبًا[3].

وذكر الزَّبيدي في شأنه: "وإِسْرَالُ: يأْتي في حَرْفِ اللّام، وَلم يَذْكُرْهُ هُنَاكَ سَهْواً مِنْهُ، وَهُوَ مخفَّفٌ عَن إِسرائيلَ، وَمَعْنَاهُ صَفْوَةُ الله، وَقيل: عبدُ اللَّهِ"[4].

وقوله: يا بني إسرائيل هنا، وفي جميع القرآن "خطاب لذرية يعقوب، وفي ذرِّيَّته انحصر سائر الأمَّة اليهودية، وقد خاطبهم بهذا الوصف دون أن يقول: يا أيُّها اليهود؛ لكونه هو اسم القبيلة، أمَّا اليهود؛ فهو اسم النِّحْلة والديانة"[5].

(1) ابن منظور، لسان العرب: (سرأل).
(2) الكفوي، الكليات، ص: 216.
(3) السهيلي، الروض الأنف: 1/87.
(4) الزبيدي، تاج العروس: (سرأل).
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/449.

2) ﴿ٱذۡكُرُواْ﴾: فعل أمر مسند لواو الجماعة، وأصل أحرفه: (ذكر)، و"الذِّكر بالكسر له معنيان: أَحدهما: التَّلَفُّظ بالشَّيء، والثَّاني: إِحضاره في الذِّهن بحيث لا يغيب عنه"[1]، وهو نقيض النِّسيان، وقد وردت كلمة (الذِّكر) كثيرًا في القرآن الكريم، وكان لها معانٍ متعددة بحسب السياق الواردة فيه، فقد يكون ذكر القلب، وقد يكون ذكر اللسان، وقد يكون بمعنى: الصلاة، أو البيان أو الحديث أو الشرف أو اللوح المحفوظ أو غيره[2].

والمراد بذكر النعمة في الآية: "أن لا يُخِلّوا بشكرها، ويعتدُّوا بها، ويستعظموها، ويطيعوا مانحها، وأراد بها ما أنعم به على آبائهم مما عدّد عليهم"[3].

3) ﴿نِعۡمَتِيَ﴾: نعمة، مضاف لياء المتكلم سبحانه وتعالى، وهو اسم، وجذره اللغوي (نعم)، وفروعه كثيرة في لغة العرب، وهي "راجعةٌ إلى أَصلٍ واحدٍ يدلُّ على ترفُّهٍ وطيبِ عيشٍ وصلاحٍ، منهُ النِّعمةُ ما ينعمُ اللّه تعالى على عبدهِ بهِ منْ مالٍ وعيشٍ، يقالُ: للّهِ تعالى عليهِ نعمةٌ، والنّعْمةُ المنَّةُ، وكذا النَّعماءُ، والنَّعمةُ التَّنَعُّمُ وطيب العيشِ"[4].

والمعنى المحوري للنعمة: "رِقَّة الشيء، أو ليونته وخلوُّه من الغِلَظ والخشونة: كباطن القدم بالنسبة لغِلَظ ظاهره"[5].

و"النِّعْمَةُ: الحالةُ الحسنةُ، وبِنَاء النِّعْمَة بِناء الحالةِ التي يكون عليها الإنسان، كالجِلْسَة والرِّكْبَة، والنَّعْمَةُ: التَّنَعُّمُ ... والنِّعْمَةُ للجِنْسِ: تقال للقليلِ والكثيرِ"[6]، "والنعمة هنا: اسم جنس، فهي مفردة بمعنى: الجمع"[7].

ومعنى ذكر النِّعم في الآية: "اذكروا أياديَّ لديكم، وصنائعي عندكم، واستنقاذي إياكم من أيدي عدوِّكم فرعون وقومه، وإنزالي عليكم المنَّ والسلوى في تيهكم، وتمكيني لكم في البلاد"[8].

4) ﴿فَضَّلۡتُكُمۡ﴾: فعل ماضٍ مزيد بالتضعيف، زنة (فعّل)، الجذر اللغوي له (فضل)،

(1) الكفويّ، الكليات، ص: 456.
(2) الكفويّ، الكليات، ص: 457.
(3) الزمخشري، الكشاف: 1/258.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نعم).
(5) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (نعم).
(6) الراغب، المفردات: (نعم).
(7) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 2/7.
(8) ابن جرير، جامع البيان: 2/573.

وله "أصل صحيح يدلُّ على زيادةٍ في شيء، من ذلك الفضل: الزيادة والخير، والإفضال: الإحسان"[1].

ومعنى الفضل: "الزّيادة عن الاقتصاد، وذلك ضربان: محمود: كفضل العِلْم والحِلْم، ومذموم: كفضل الغضب على ما يجب أن يكون عليه، والفَضْلُ في المحمود أكثر استعمالاً"[2]، والفضل بمعنى: الزيادة قد يكون حسّيًّا، وقد يكون معنويًّا، فقوله في الآية: ﴿وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، "أي: عالمي زمانهم، أو بما جعل فيهم من الأنبياء، أقول: فهو تفضيل نِسْبِيٌّ أو في أمر خاصٍّ"[3].

وذكر في الآية: "تَفْضِيلَهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ بِمَحْضِ كَرَمِهِ وَفَضْلِهِ، فَإِنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَغَيْرِهِمْ مِنَ الْبَشَرِ، وَالتَّفْضِيلُ هُوَ مَنَاطُ الْأَخْذِ بِالْفَضَائِلِ وَتَرْكِ الرَّذَائِلِ"[4].

5) ﴿ٱلْعَٰلَمِينَ﴾: اسم، مفرده (عالَم)، الجذر اللغوي للكلمة (علم)، أمّا الأصل اللغوي لهذا الجذر؛ فدلالته "علَى أَثرٍ بالشّيءِ يتميّزُ بهِ من غيرهِ، منْ ذلكَ العلامةُ"[5] والعلم ضدُّ الجهل، وعالم هو من صفاته تعالى، مشتقٌّ من العلم "وأصل العلم إدراك الشيء على حقيقته، وهو معرفة الشيء على ما هو عليه"[6].

ومن هذا الجذر أو الباب "العالَمون، وذلك أنَّ كلَّ جنس من الخلق، فهو في نفسه مَعْلَمٌ وعَلَم، وقال قوم: العالم سمّي لاجتماعه"[7].

"العالَم: الخَلْق كلّه، أي: أن معناه هو جميع المخلوقات، قالوا: ولا واحد للعالم من لفظه؛ لأنَّ (عالمًا) جمعُ أشياء مختلفة"[8].

ومعنى العالَمين في الآية: "أراد عالمي زمانهم، وقيل: أراد فضلاء زمانهم الذين يجري كلُّ واحد منهم مجرى كلّ عالم؛ لما أعطاهم ومكّنهم منه"[9].

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (فضل).
(2) الراغب، المفردات: (فضل).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (فضل).
(4) محمد رشيد رضا، تفسير المنار: 1/252.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (علم).
(6) السمين، عمدة الحفاظ: (علم).
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (علم).
(8) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (علم).
(9) الراغب، المفردات: (علم).

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

نداءٌ لبني إسرائيل يتوفر على موعظة بليغة بتنبيههم أنه تعالى قد أنعم نِعَمًا كثيرةً "على آبائهم بإنقاذهم من أيدي عدوِّهم، وإنزاله المنَّ والسَّلْوى عليهم، وتمكينِه لهم في البلاد بعد أن كانوا أذلَّاء مقهورين، وإرسالِه الرُّسلَ منهم، وتفضيلهم على غيرهم ممَّن كانوا بين ظهرانَيْهم"[1].

الإِيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

سرُّ خِطابِ اليهودِ ببني إسرائيلَ دونَ بني يعقوبَ:

اختيارُ الألقابِ في القرآنِ قائمٌ على بناءِ القِيَمِ الهدائيَّةِ

جاءَ خطابُ اليهودِ في القرآنِ كلِّه ببني إسرائيل وهو خطابٌ لليهودِ "الذين كانوا بالمدينة من ولد يعقوب عليه السلام في أيَّام محمَّدٍ ﷺ"[2]، ولسائلٍ أن يسألَ عن سرِّ ذلكم النِّداء، دون أن يكونَ ببني يعقوب ولو لمرَّةٍ واحدة؟ ونكتةُ ذلك؛ "أنَّهم خُوطبوا بعبادةِ اللهِ، وذُكّروا بدين أسلافهم موعظةً لهم، وتنبيهًا من غفلتهم، فسُمّوا بالاسم الذي فيه تذكرة باللهِ"[3]، إذْ إنَّ إسرائيلَ هو لقبُ يعقوبَ عليه السلام، "ومعناه في لسانهم: صفوة اللَّه، وقيل: عبد اللَّه"[4]، ففيه إلهابٌ وتهييجٌ "بِذِكْرِ أبيهم إسرائيل، كأنّه قيل: يا بني العبد الصالح المطيع للّه، كونوا مثلَ أبيكم، كما تقول: يا ابْن الكريم، افعل كذا، ويا ابْن العالم، اطلب العلم"[5]، وفيه إشعارٌ بأصلهم التَّاريخيِّ.

سببُ خطابِ اليهودِ المعاصرين بإنزال النِّعَمِ عليهم:

الأبناءُ امتدادٌ للآباءِ

امتنَّ اللّه على اليهود المعاصرين بالنِّعَم التي أنزلَها عليهم، مع أنَّها نزلتْ على آبائهم، وعلى رأسِها التَّوراةُ؛ لانتهاءِ النِّعَمِ إليهم

(1) المراغي، تفسير المراغي: 1/207.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 3/21.
(3) السيوطي، معترك الأقران: 2/6.
(4) الزمخشري، الكشاف: 1/256-257.
(5) القاسمي، محاسن التأويل: 1/114.

فلولا هذه النِّعم على آبائِهم؛ لما كانوا موجودين، وبذلك تكون النِّعمُ على الآباء نِعَمًا على الأبناء، وفي ذلك ترغيبٌ للأبناءِ في اتِّباع الآباء في أفعال الخير، وفي هذا دعوةٌ لهم للإيمان بالنَّبيِّ ﷺ.

فائِدةُ تعدّي الفعلِ (أنْعَمَ) بحرفِ الاستعلاء:

تعدَّى فعلُ (أنْعَمَ) بحرف الجرّ (على) للدّلالة على عُلوِّ مصدرِ النِّعمةِ، وكثرة النِّعم وعدم انقطاعها؛ لأنّ الإنسانَ مجبولٌ على حبِّ النِّعمة ودوامها؛ فإذا ما علم أنّ مصدرَها اللّه سبحانه وتعالى؛ أمِنَ قلبُه، واطمأنَّت نفسه.

بلاغةُ التَّجريدِ في عطفِ الخاصِّ على العامِّ:

قولُه تعالَى: ﴿وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ المقصودُ به التَّفضيل على عالمي زمانِهم[1]، وهو مَعْطُوفٌ على ﴿ٱذْكُرُواْ نِعْمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ من بابِ "عطْفِ الخاصِّ على العامِّ، وهو ممَّا انفردت به الواو ... ويسمّى هذا النَّحو من العطفِ بالتَّجريد؛ كأنّه جرَّد المعطوف من الجملة، وأُفرد بالذِّكر اعتناءً به"[2].

(1) الإسكافي، درَّة التنزيل: 1/461.

(2) الآلوسي، روح المعاني: 1/252.

﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٞ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ١٢٣﴾ [البقرة: 123]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لـمَّا ذكَّر اللّه تعالى بني إسرائيل في الآية السابقة بنعمه عليهم، وخاصَّةً تفضيلهم على العالمين في زمانهم، وكان ذلك مظنّةً للغرور والعُجب بأنفسهم، فتوهَّموا أنّ التَّقصير في العمل الصالح لا يضرُّهم، جاءت هذه الآية تُحذّرُهم من التقصير، وترشدهم إلى وسائل التّقوى التي تجعل بينهم وبين العذاب وقاية.

❁ شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

1) ﴿وَٱتَّقُواْ﴾: أمرٌ منه بالتَّقوى، وجِذره اللغوي (وقي)، والأصل في معناه: "كلمة واحدة تدلُّ على دفْع شيء عن شيء بغيره ... والوقاية: ما يقي الشيء، واتَّق اللّه: تَوَقَّه، أي: اجعل بينك وبينه كالوقاية"[1].

ومعناه المحوري: "حفظٌ من الأذى أو الضرر باتِّخاذ حاجزٍ دونه، كالوقاية: الحاجز؛ ثَوْبًا أو حَشِيّة أو وَرَقًا"[2].

و"الوِقَايَةُ: حفظُ الشيءِ ممّا يؤذيه، ويضرّه، والتَّقْوَى: جعل النّفس في وِقَايَةٍ مما يُخاف، هذا تحقيقه، ثمَّ يسمَّى الخوف: تارة تَقْوًى، والتَّقْوَى خوفاً ... وصارتِ التَّقْوَى في تعارف الشّرع: حفظ النّفس عمّا يؤثم، وذلك بترك المحظور"[3]، و"الاتّقاء: هو افتعالٌ من الوقاية، وهي فرطُ الصّيانة، وشدَّةُ الاحتراس من المكْرُوه"[4].

ومعناه "اتَّقوه على نحو ما أمركم، ونهاكم، وليس فيه تكليف بما لا يطاق"[5]، والمراد

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (وقي).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (وقي).
(3) الراغب، المفردات: (وقي).
(4) الكفوي، الكليّات، ص: 38.
(5) السمين، عمدة الحفاظ: (وقي).

من قوله: (اتقوا) في الآية "معناها المتعارف في اللغة لا المعنى الشرعي ... والمراد باتقائه اتقاؤه من حيث ما يحدث فيه من الأهوال والعذاب"[1].

2) ﴿يَوْمًا﴾: اسمٌ دالٌّ على الزمان، وحروفه تمثِّل "كلمةً واحدةً، هيَ اليومُ الواحدُ منَ الأيَّامِ، ثمَّ يستعيرونَهُ في الأمرِ العظيمِ، ويقولونَ: نِعْمَ فلانٌ في اليومِ؛ إذَا نزلَ"[2].

وقد يكون ظرفًا؛ إذا تضمَّن معنى (في)، وقد لا يكون كذلك، وهو هنا ظرف، وقد أضيف إلى لفظة (القيامة)، فالله يحكم بينهم يوم القيامة، أي: في ذلك اليوم؛ فذلك اليوم ظرف لحكم الله.

3) ﴿تَجْزِى﴾: فعل مضارع للاستقبال، الماضي منه جزى، وجذره اللغوي (جزي)، والأصل في معناه: "قيام الشيء مقام غيره ومكافأته إياه، يقال: جزيت فلانًا أجزيه جزاء، وجازيته مجازاة"[3] ومعناه المحوري: "تحصيل شيء مقصود من تناول شيء أو معالجته، كالشَّحم والغذاء من اللَّحم؛ فهما مقابل أكله المقصود منه"[4].

و"الجَزَاء: الغناء والكفاية ... والجَزَاء: ما فيه الكفاية من المقابلة؛ إنْ خيرًا فخير، وإنْ شرًّا فشَرّ"[5]، ومعنى ﴿تَجْزِى﴾ في الآية، "أي: لا تغني، ولا تقضي، ولا تنوب"[6] "وتجزي: مضارع جزى، بمعنى: قضى حقًّا عن غيره"[7].

4) ﴿نَفْسٌ﴾: اسم ثلاثي، جذره اللغوي (نفس)، وأصله "يدلُّ على خروج النَّسيم كيفَ كانَ، منْ ريحٍ أَوْ غيرهَا ... والنَّفسُ الدَّمُ، وهوَ صحيحٌ، وذلكَ أَنَّهُ إذا فُقِدَ الدَّمُ منْ بدنِ الإنسانِ؛ فقدَ نفسَهُ"[8].

وهو شيء "لطيف يسري في فُتُوق أثناء الشيء، فيصلحه، ويتيح له التَّصرُّف، كالنَّفَس في أثناء بدن الحيِّ؛ فهو علامة حياته التي تتيح له التصرف"[9].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/484.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (يوم).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (جزي).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (جزى).
(5) الراغب، المفردات: (جزا).
(6) السمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (جزي).
(7) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/484.
(8) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نفس).
(9) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (نفس).

ومعنى ذلك أنّ النَّفس يعبَّر بها عن الإنسان، وهو تعبير مجازي، وهو هنا كذلك في هذه الآية، فالأنفس هم المخاطبون بهذه الآية، وهو صحيح، فكلُّه يُستدلُّ به على الإنسان.

5) ﴿شَيْـًٔا﴾: اسم ثلاثي جذره اللغوي (شيء)، و"الشَّيْءُ قيل: هو الذي يصحّ أن يعلم، ويخبر عنه، وعند كثير من المتكلّمين: هو اسم مشترك المعنى؛ إذ استعمل في اللّه وفي غيره، ويقع على الموجود والمعدوم"[1].

وجعل الزمخشري أنَّ معنى الشيء: هو القليل، قال: "وتأخَّرت عنه شيئاً، أي: تأخُّرًا قليلاً"[2].

و"الشيءُ عند العلماء هو الذي يصحُّ أن يُعْلَم، ويُخبر عنه، وعند كثير من المتكلِّمين هو اسم مشترك المعنى؛ إذا استعمل في اللّه وفي غيره"[3].

ومعنى الشيء في الآية: "لَا تَقْضِي فِيهِ نَفْسٌ، مَهْمَا يَكُنْ قَدْرُهَا عَظِيمًا، عَنْ نَفْسٍ، مَهْمَا يَكُنْ ذَنْبُهَا صَغِيرًا شَيْئًا مَا"[4].

6) ﴿يُقْبَلُ﴾: فعل مضارع مستقبل للمجهول، الجذر اللغوي له (قبل)، وله "أصلٌ واحدٌ صحيحٌ تدلُّ كَلِمُهُ كلُّها على مواجهة الشيء للشيء، ويتفرع بعد ذلك"[5] و"المعنى المحوري: مُقدَّم الشيء الذي يُتَّجَه إليه منه لملاقاته أو النفاذ فيه"[6].

"وقبل اللّه توبة عبده وعذره وتقبَّله، بمعنى: أنه اعتدله بما أتى به وبما اعتذر به، والتقبُّل: قبول الشيء على وجهٍ يقتضي ثوابًا كالهدية"[7].

ومعنى يقبل في الآية: من "قبول الشيء: التوجُّه إليه، والفعل قبل يقبل، والقبل: ما واجهك"[8].

7) ﴿عَدْلٌ﴾: اسم ثلاثي، جذره اللغوي (عدل)، وله "أصلان صحيحان، لكنهما

(1) الراغب، المفردات: (شيء).
(2) الزمخشري، أساس البلاغة: (شيأ).
(3) السمين، عمدة الحفاظ: (شيأ).
(4) محمد رشيد رضا، تفسير المنار: 1/253.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قبل).
(6) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (قبل).
(7) السمين، عمدة الحفاظ: (قبل).
(8) أبو حيان، البحر المحيط: 1/303.

متقابلان كالمتضادِّين: أحدهما يدلُّ على استواء، والآخر يدلُّ على اعوجاج"[1] و"المعنى المحوري: موازنة ثِقْلٍ في جانبٍ بثِقْلٍ في جانبٍ آخر حتى يتّزِنا، ومنه أخذ معنى الاستواء أو التسوية، وكذلك الموازنة وما بمعناها"[2].

ومعنى العَدْل في الآية: "ولا يقبل من نَفْسٍ في ما لَزِمَها فدية، كأنّ الفِدْية تُثَاقل وتُوَازن المفتدَى في القيمة"[3].

والعدل في الآية: "قيمة الشيء وفداؤه ... أي: فدية، وكلُّ ذلك من المعادلة، وهي المساواة"[4].

ومن العدل: "العَدَالَةُ والمُعَادَلَةُ: لفظٌ يقتضي معنى: المساواة، ويستعمل باعتبار المضايفة"[5]، وهو أيضًا: "المساواة في المكافأة إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشرّ، والإحسان أن يقابل الخير بأكثر منه، والشرّ بأقلّ منه"[6].

وذكر ابن عاشور في معنى العَدْل: أنَّه "العِوَض والفداء، سمِّي بالمصدر؛ لأن الفادي يعدل المَفديَّ بمثله في القيمة أو العين ويسوِّيه به، يقال: عدل كذا بكذا، أي سوَّاه به"[7].

8) ﴿تَنفَعُهَا﴾: فعل مضارع للمستقبل، جذره اللغوي (نفع)، والنفع في أصله: لفظ دالٌّ على خلاف الضُّرِّ[8]، وهو "ما يُسْتَعَانُ به في الوُصُولِ إلى الخَيْرَاتِ؛ وما يُتَوَصَّلُ به إلى الخَيْرِ فهو خَيْرٌ، فَالنَّفْعُ خَيْرٌ، وضِدُّهُ الضُّرُّ"[9].

والنَّفع "فائدة تُنَال من الشيء أو جدوى تعود منه"[10]، ومعنى نفي النفع: أنَّه لا "شفاعة شفيع يجدونه، فتقبل شفاعته؛ لأن دفع الفداء متعذر، وتوسط الشفيع لمثلهم ممنوع؛ إذ لا يشفع الشفيع إلّا لمن أذن الله له"[11].

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عدل).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (عدل).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (عدل).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عدل).
(5) الراغب، المفردات: (عدل).
(6) الراغب، المفردات: (عدل).
(7) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/486.
(8) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نفع).
(9) الراغب، المفردات: (نفع).
(10) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (نفع).
(11) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/698.

9) ﴿شَفَٰعَةٞ﴾: مصدر للفعل شفع يشفع، جذره اللغوي (شفع)، وله "أصلٌ صحيحٌ يدلُّ على مقارنة الشيئين، من ذلك الشفع خلاف الوتر، تقول: كان فردًا، فشفعته ... وشفع فلان لفلان؛ إذا جاء ثانيه ملتمسًا مطلبه ومعينًا له"[1].

و"المعنى المحوري: ازدواجٌ بِرِقّة، أي: انضمام مثل الشيء إليه مع رقة، كولد الناقة والشاة مع أمِّه"[2].

ومن معانيه: "ضمُّ الشيء إلى مثله، ويقال لِلْمَشْفُوعِ: شَفْعٌ ... والشَّفَاعَةُ: الانضمام إلى آخر ناصرًا له وسائلاً عنه، وأكثر ما يستعمل في انضمام من هو أعلى حُرمةً ومرتبةً إلى من هو أدنى"[3].

ومعنى الشَّفاعة في الآية: "السَّعي والوساطة في حصول نفع أو دفع ضُرٍّ، سواء كانت الوساطة بطلبٍ من المنتفع بها أم كانت بمجرَّد سعي المتوسط"[4].

10) ﴿يُنصَرُونَ﴾: فعل مضارع للمستقبل على صيغة المبني للمجهول، مسند لواو الجماعة، الماضي منه نصر، جذره اللغوي (نصر).

و"النَّصر والنُّصرة: الإعانة والمنعة، يقال: نصرته، أي: أعنته على عدوِّه ومنعته منه"[5].

و﴿يُنصَرُونَ﴾ في الآية بمعنى: المُعانون، ومعنى نفي النُّصرة: هو نفي العذاب عنهم[6].

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

تحذير من الحقِّ تبارك وتعالى لبني إسرائيل بأن يَخافوا أهوالَ "عذاب يوم، لا تقضي فيه نَفْسٌ عن نَفْسٍ شيئًا من الحقوق التي لزمتها، فلا تؤخذ نفس بذنب أخرى، ولا تدفع عنها شيئًا"[7] ولا تستطيع فكاكًا إلَّا بالأعمال الصالحة، ولا تجد شافعاً يشفع لها، ولا تُلفي ناصرًا ولا معينًا؛ وإن كثرت جموعهم[8].

(1) الراغب، المفردات: (شفع).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (شفع).
(3) الراغب، المفردات: (شفع).
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/486.
(5) السمين، عمدة الحفاظ: (نصر).
(6) البغوي، معالم التنزيل: 5/320.
(7) المراغي، تفسير المراغي: 1/208.
(8) البقاعي، نظم الدرر: 2/146.

الإيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

سرُّ عطفِ هذهِ الآيةِ على ما قبلَها:

تحذيرٌ بعد تذكير

الآية مصدّرة بحرف العطف، فهي متّصلة بما قبلها من تذكيرهم بنعمته، "فإنّكم إذا ذكرتم النِّعمة، شكرتموها؛ فقيَّدتموها، واستوجبتم من الله الزيادة في الدنيا، والرِّضا في العقبى"[1]، وهنا "عطف التحذير على التذكير، فإنّه لـمّا ذكّرهم بالنِّعمة، ولاسيّما تفضيلهم على العالمين في زمانهم، وكان ذلك منشأ غرورهم، بأنّه تفضيل ذاتي فتوهَّموا أنّ التقصير في العمل الصالح لا يضرّهم فعقّب بالتحذير من ذلك"[2]، وقد ذُكرت هذه الآيةُ مرَّةً ثانية للإشارة إلى تعدُّد وقوع المعصية من بني إسرائيل، فكلّ آيةٍ منهما صادفت مَعْصِيَة تَقْتَضِي تَنْبِيهًا ووعظًا؛ لِأَنّ كلّ وَاحِدَة وَقعت في غير وَقت الْأُخْرَى"[3]، فالمعصية في الموضع الأول في قوله تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾ [البقرة: 44]، والمعصية هنا في قوله تعالى: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ [البقرة: 120].

إعرابُ ﴿يَوْمًا﴾ على المفعوليَّةِ لا الظَّرفيَّة:

أخْذُ الحذرِ قبلَ فواتِ الأوانِ

إعراب (يوم) في قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوْمًا﴾ مفعول به، وهو ليس ظرفَ زمان؛ لأنّ شرط الظَّرفية أن يُضمَّن معنى (في)، فإذا أردنا تضمينه معنى الظَّرفيَّة اختلَّ المعنى؛ لأنَّه يصحُّ: (واتقوا الأهوال أو العذاب في ذلك اليوم)؛ "لِأَنَّ الْأَمْرَ بِالتَّقْوَى لَا يَقَعُ فِي يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَالتَّقْدِيرُ: وَاتَّقُوا عَذَابَ يَوْمٍ أَوْ نَحْوَ ذَلِكَ"[4]، فالتقوى تكون لأهوال ذلك اليوم، وليس لليوم نفسه، فتكون التقوى محصورة في ذلك اليوم، وهو هنا يوم القيامة، أمّا ما كان من عمل في الدنيا؛ فلا قيمة

(1) البقاعي، نظم الدرر: 2/146.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/484.
(3) الكرماني، أسرار التكرار، ص: 78.
(4) العكبري، التبيان: 1/60.

له، وهو بعيد، بل التقوى محلُّها الدنيا، فثبت أنّ المراد "اتِّقاء لما يحصل في ذلك اليوم من العقاب والشدائد؛ لأنّ نفس اليوم لا يتَّقى"[1].

تنكيرُ ﴿يَوْمًا﴾ وأثرُه في النَّفسِ:

التنكير يُفيد الإبهامَ، وهو في حدِّ ذاته يُوجد في القلب رهبة، ويُشعر النفس بالتَّهويل، فتذهب في تصوير هول ذلك اليوم مذاهب شتَّى، فعذابه لا يحُدّه وصف، وهوله لا يكفيه لفظ.

حذْفُ متعلّق الفعلِ ﴿تَجْزِى﴾:

جاءت جملة ﴿لَّا تَجْزِى﴾ صفةً لـ ﴿يَوْمًا﴾، والضمير العائد منها إلى الموصوف محذوف، تقديره: لا تجزي فيه، فحُذِفَ للعلم به، وفيه إشارةٌ إلى أنّ حذفه من اللَّفظ يُوحي بحذفه وطرحه من أفئدة المُخاطَبين، فكأنّ إسقاطه من اللفظ إسقاطٌ له من الفؤاد والعقل.

سرُّ التعبيرِ بالنفسِ:

اشتمالُ النَّفسِ على معنى الرُّوحِ والبدنِ معًا

آثر التعبير بالنفس؛ لأنّها لفظٌ مُشترك يطلق على الروح والذات معاً، وهو مجرَّد عن المادة والصورة، وتطلق على النفس الناطقة العاقلة، وهي إمّا أن تكون مطمئنَّة، تدعو إلى الخير والمعروف، وإمّا لوَّامة، تُعاتب على فوات إدراك الخير، وإمّا أمَّارةً بالسوء، تدعو إلى الشرور والوقوع في المحظور.

وأمّا الرَّوح؛ فهي جوهرٌ مجرَّدٌ أصله من عالم الأمر، وهي سبب الحياة، وقد تُطلق على النفس أيضاً، كأن تقول: فلان هذا روحُه طيِّبة، أي: نَفْسُه، فبينهما عموم وخصوص وجهيّ.

ومن هنا يُعلَم سرُّ اختيار إيثار القرآن للفظ (نفس) في كل موطنٍ للحساب، فالنفس يقع عليها البعث والجزاء؛ لأنّها صاحبة الكسب في الطاعة والمعصية، والهُدى والضلال، وعليها تقع الصفات الحميدة أو الذميمة، بخلاف الروح فهي مُبَرَّأةٌ من ذلك كلّه.

(1) الرازي، مفاتيح الغيب: 3/57.

توجيهُ المُتشابِه اللَّفظيِّ:

بـيـان الـنَّـفس الجازيةِ والنَّفس المجزيّ عنها

تقدَّمَ قولُه تعالى: ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾ [البقرة: 48]، فقُدِّم نفيُ قبولِ الشَّفاعةِ وأُخِّرَ أخذُ العَدل، وفي هذه الآية قال جلَّ شأنه: ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٌ﴾، قُدِّم نفيُ قبولِ العَدلِ على نفعِ الشّفاعةِ.

وتوجيه ذلك أنَّ الآيتين تتحدَّثانِ عن نفسين مختلفتين: نفسٍ جازيةٍ، ونفسٍ مجزيّ عنها، أمَّا الآيةُ الأولى فتتحدَّث عن النَّفس الجازية، التي لا تُقبلُ شفاعتُها، ولا تؤخذُ منها الفدية، أمَّا الآية الثَّانية فتتحدَّث عن النَّفسِ المجزيّ عنها، التي لا تُقبل منها الفديةُ، ولا تنفعُها شفاعةُ الآخرين.

تفصيلُ ذلك أنّ اللّه تبارك وتعالى ذكرَ في الآية الأولى أنَّ النّفسَ الجازية التي ترغبُ في الشّفاعة، تُقدِّمُ الشّفاعة أوّلا أملا منها أن تُقبَلَ شفاعتُها، وحين تُرفَضُ شفاعتُها تقترح الفدية، كأنّها تقدّمُ الملاينة والجاه أوّلا وحين لا تنفع تلجأ إلى دفع الفداء.

بينما الآية الثّانية، فإنّها تتحدّثُ عن النّفس المذنبة الآثمة، والمذنبُ الآثِمُ يكون حريصا على النّجاة بأيّ ثمن كان، فيُقدّمُ الفداء أوّلا، وحين لا يُقبَلُ منه العدل، يتوسّلُ بالشّفاعة أملا في قبولها، وجاء كلُّ كلام مناسبا للمقام الذي قيل فيه.

إشارةُ القرآنِ إلى صنفينِ؛ محبٍّ للمالِ، ومحبٍّ لعلوِّ النفسِ

وفي هذا التَّقديمِ إشارةٌ إلى صنفين من الناس: الأول يميل "إلى حبّ المال أشدّ من ميله إلى علوِّ النفس؛ فإنّه يقدّم التمسُّك بالشافعين على إعطاء الفدية"[1]، ويمثِّله الوارد في الآية الأولى، والثاني مَن "كان بالعكس يقدّم الفدية على الشفاعة"[2]، ويمثِّله الوارد في الآية الثانية.

(1) الرازي، مفاتيح الغيب: 3/58.
(2) الرازي، مفاتيح الغيب: 3/58.

الشفاعةُ بين قبولِها من الشَّافعِ ونفعِها للمشفوعِ

في قوله تعالى: ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾ [البقرة: 48] اقترنت الشفاعة بفعل القبول، أمّا في قوله تعالى: ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَعَةٌ﴾؛ فقد اقترنت الشفاعة بفعل النفع، وسرّ ذلك أنّ الشفاعة في الآية الأولى هي للشَّافع، فيما هي للمشفوع له في الآية الثَّانية، فاختلف الاقتران؛ "لِأَنَّ الشَّفَاعَةَ إِنَّمَا تُقْبَلُ مِنَ الشَّافِعِ، وَإِنَّمَا تَنْفَعُ الْمَشْفُوعَ لَهُ"[1].

بلاغةُ الاحتراسِ في نفي نفعِ الشَّفاعةِ:

في قوله تعالى: ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَعَةٌ﴾ عطفُ نفي نفع الشَّفاعة ﴿وَلَا تَنفَعُهَا شَفَعَةٌ﴾ على نفي قبول الفداء ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾ للاحتراس؛ "لأنّه أسند إليه المقبوليَّة، ونفي قبول الفداء لا يقتضي نفي نفع الشفاعة"[2].

بلاغةُ ترتيبِ المنفيَّاتِ الأربعةِ:

خطابُ القرآنِ للنَّفسِ البشريَّةِ بما هو مستقرٌّ في الدُّنيا لا بما هو مشاهدٌ في القيامةِ

في قوله تعالى: ﴿لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ رتّب الحقّ تبارك وتعالى هذه المنفيَّات الأربع الممتنعة الوقوع في الآخرة ترتيبًا بديعًا غاية في البلاغة والفصاحة؛ "لأنّ المأخوذ بحقّ، إمّا أن يؤدَّى عنه الحقّ؛ فيخلص، أو لا يقضى عنه؛ فيُشفع فيه، أو لا يُشفع فيه؛ فيُفدى، أو لا يُفدى؛ فيتعاون بالإخوان على تخليصه"[3]، وهي مراتب يأتي بعضها غِبّ بعض، ومرتَّبة على حسب ما يكون من أمر المرء في الدنيا؛ فإنَّ عادةَ القرآنِ أن يُخاطِب النَّفس البشريَّة بما هو مستقرٌّ في وجدانها؛ لأنَّه واقعٌ مشاهد، لا بما سيكون عليه الأمر في الآخرةِ، فهو غيبٌ محض، "وحصرت هذه الآية المعاني التي اعتادها بنو آدم

(1) السيوطي، الإتقان: 3/392.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/698.
(3) أبو حيان، البحر المحيط: 1/310.

في الدّنيا، فإنّ الواقع في شدّة مع آدميٍّ لا يتخلَّص إلّا بأن يُشفع له، أو يُنصر، أو يُفتدى"[1].

بلاغةُ الفاصلةِ:

تـيـئـيـسٌ مـع تـحـقـيرٍ لـمَـن توهَّمهم الكفرةُ شفعاءَ لهم

في قوله تعالى: ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ جملة ذيّل بها المنفيَّات السابقة، وجاء بها بأسلوب فيه مزيد تيئيس من حصول شيء من الخلوص من العذاب؛ فكرّر (لا) توكيدًا، و"قدّم المسند إليه لزيادة التأكيد المفيد أنّ انتفاء نصرهم محقّق"[2]، ثمّ التعبير بالفعل المبني للمفعول زيادة في تغييب النَّاصر والمعين، فهذه جملة تعبيرات لمزيد تيئيسهم من أن يجدوا نصرًا في ذلك اليوم؛ جزاءً وفاقًا على مرتكباتهم، "وهذا التيئيس يستتبع تحقير من توهمهم الكفرة شفعاء وإبطال ما زعموه مغنيًا عنهم من غضب الله"[3].

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 1/139.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/486.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/486.

﴿وَإِذِ ٱبۡتَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٖ فَأَتَمَّهُنَّۖ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامٗاۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِيۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهۡدِي ٱلظَّٰلِمِينَ ١٢٤﴾

[البقرة: 124]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

وَجْهُ اتِّصَالِ هذه الآية بما قَبْلَهَا أَنَّ الآيات السّابقة تضمّنت الاحْتِجَاجَ عَلَى أَهْلِ الْكِتَابِ بِسَلَفِهِم الصَّالِحِ، وَهَذه الآية تضمّنت الاحْتِجَاجَ عَلَى مُشْرِكِي قُرَيْشٍ وَأَمْثَالِهِمْ بِسَلَفِهِم الصَّالِحِ، فَإِنَّهُمْ يَنْتَسِبُونَ إِلَى إِسْمَاعِيلَ وَإِبْرَاهِيمَ عليهما السلام، وَيَفْتَخِرُونَ بِأَنَّهُمَا بَنَيَا لَهُمُ الْكَعْبَةَ مَعْبَدَهُمُ الْأَكْبَرَ، وَكَانُوا فِي عَهْدِ التَّنْزِيلِ قَدِ اخْتَلَطُوا بِالْأُمَمِ الْمُجَاوِرَةِ الَّتِي تَعْرِفُ لَهُمْ هَذَا النَّسَبَ[1] وأنّهم وإن كانوا من نَسْل إبراهيم إلّا أنّ ذلك لا يشفع لهم ما داموا ظالمين، كما تدعوهم هذه الآية إلى الاقتداء بأبيهم إبراهيم عليه السلام الذي ابتلاه الله تعالى بكلمات فأتمّها ونجح في الامتحان، وهم مَدْعُوُّون أن يُفيقوا من سُباتهم ويهتدوا بهدي أبيهم.

شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

1) ﴿ٱبۡتَلَىٰٓ﴾: فعل ماضٍ، وزنه افتعل، المجرَّد منه الفعلُ (بلى يَبْلي) مِنَ الابتلاء، وجذره اللغوي من (بلي)، وأصل معناه: من "بلي الإنسان وابتلي، وهذا من الامتحان، وهو الاختبار"[2].

ويُقالُ: "أبلاهُ السّفرُ، وبَلَوْتُهُ اختبرتُهُ، كأنّي أخلقتُهُ من كثرة اختباري له ... وسُمّي الغمُّ بلاءً، من حيثُ إنّهُ يبلي الجسْم"[3]، وهُو الاختبارُ والامتحانُ والتّمحيصُ، و"البلاء يكون حسنًا، ويكون سيِّئًا، وأصله المحنة، والله تعالى يبتلي عبده بالصُّنع الجميل؛ ليمتحن شكره، ويبلوه بالبلوى التي يكرهها؛ ليمتحن صبره"[4].

(1) محمد رشيد رضا، تفسير المنار: 1/372.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بلوي).
(3) الراغب، المفردات، مادة (بلو).
(4) السمين، عمدة الحفاظ: (بلو).

و"ابتلاه اللّه: اختبره، كأنما اختبر صبره وتحمُّلَه ... ويقال أيضًا: بَلَوْته: امتحنته، ومن هذا البلاء: الاختبار والمحنة والغمّ"[1]، "والابتلاء افتعال من البلاء، وصيغة الافتعال هنا للمبالغة؛ والبلاء: الاختبار"[2].

2) ﴿إِبْرَٰهِـۧمَ﴾: اسم عَلَم أعجميٍّ لخليل الرحمن عليه السلام، و"هو الجدُّ الحادي والثلاثون لنبينا رسول اللّه ﷺ"[3]، "وَهُوَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ تَارِخَ بْنِ نَاخُورَ، وَكَانَ مَوْلِدُهُ بِالسُّوسِ مِنْ أَرْضِ الْأَهْوَازِ، وَقِيلَ: بَابِلَ ... وَقِيلَ: حَرَّانَ، وَكَانَ أَبُوهُ نَقَلَهُ إِلَى أَرْضِ بَابِلَ أَرْضِ نُمْرُودَ"[4].

وهو ممنوع من الصَّرْف، وفيه عدَّة لغات، منها: إبراهيم وإبراهام، ومعناه في لغة الكلدانيِّين: (أب رحيم) أو (أب راحم)، وقيل: إنَّ معناه: أبو أمم كثيرة[5].

3) ﴿بِكَلِمَٰتٍ﴾: اسم مجموع، جمع مؤنَّث، مفرده: (كلمة)، وجذره اللغوي (كلم)، وأصل الكاف واللام والميم: "يدلُّ على نطق مفهم ... تقول: كلّمته أكلّمه تكليمًا، وهو كليمي إذا كلَّمكَ، أو كلَّمتَه، ثمّ يتّسعون، فيسمّون اللّفظة الواحدة المفهمة كلمة، والقصة كلمة، والقصيدة بطولها كلمة"[6].

والكلام "يقع على الألفاظ المنظومة، وعلى المعاني التي تحتها مجموعة، وعند النحويين يقع على الجزء منه؛ اسمًا كان، أو فعلاً، أو أداة، وعند كثير من المتكلّمين لا يقع إلّا على الجملة المركّبة المفيدة"[7].

والمعنى المراد في الآية: أنَّ "الكلمات: جمع كلمة، ويرجع تحقيقها إلى كلام الباري تعالى، لكنَّه عبر عنها عن الوظائف التي كلَّفها إبراهيم عليه السلام"[8].

4) ﴿فَأَتَمَّهُنَّ﴾: فعلٌ ماضٍ من (أتمّ يتمّ)، جذره اللغوي (تمم) وأصل معناه: هو "دليل

(1) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (بلو بلى).
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/701.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/599.
(4) البغوي، معالم التنزيل: 1/144.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/701.
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (كلم).
(7) الراغب، المفردات: (كلم).
(8) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 2/350.

الكمال، يقال: تمَّ الشيء، إذا كمل، وأتممته أنا"[1].

و"تَمَام الشيء: انتهاؤه إلى حدٍّ لا يحتاج إلى شيء خارج عنه، والناقص: ما يحتاج إلى شيء خارج عنه"[2].

ومعنى أتمَّهن في الآية: "فأدَّاهن، عَمِل بهنَّ فأتمَّهن، فتَمَام الكلمات في هذه الآيات، يعني: كمالَها بتصديقها، أي: تحقيق معناها حيث استوفت مضمونها كاملًا بنفاذها، والعامَّة تَعُدُّ ما لم ينفَّذ من الكلام فارغًا"[3].

5) ﴿قَالَ﴾: فعل ماضٍ، أصل حروفه (قول)، حصل فيه إعلال؛ إذ قلبت الواو ألفًا، والأصل في معنى حروفه: "القولُ منَ النّطقِ، يقالُ: قالَ يقولُ قولًا، والمقولُ اللِّسانُ، ورجلٌ قُوَلَةٌ وقوَّالٌ: كثيرُ القولِ"[4]، ويطلق القول على الكلام أيضًا[5]، ومِن أظهَرِ استعمالات القول "أن يكون للمركّب من الحروف المبرَزِ بالنّطق، مفردًا كان أو جملة"[6]، وهناك استعمالات أخرى للقول كالتصوّر النّفسي والاعتقاد والدلالة على شيء، والعناية الصادقة بالشيء، وكذلك الحدُّ والإلهام[7].

ومعنى القول في الآية معروف إلَّا أنَّ تَكراره يأتي "على طريقة المقاولة؛ لأنّ هذا القول مجاوبة لما دلّ عليه قوله: ابتلى"[8].

6) ﴿جَاعِلُكَ﴾: اسم فاعل للفعل جعل، وجذره اللغوي (جعل): وهو يأتي على عدة أنحاء، منه اللازم، ومنه المتعدِّي لواحد واثنين، وجعل في الآية من أفعال التحويل والتصيير يتعدَّى لاثنين، ولجعل كلمات "غير منقاسة، لا يشبه بعضها بعضًا.

و"وجعلت الشيء صنعته، قال الخليل: إلَّا أنَّ جعل أعمّ، تقول: جعل يقول، ولا تقول: صنع يقول"[9].

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (تمّ).
(2) الراغب، المفردات: (تمّ).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (تمم).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قول).
(5) الأزهري، تهذيب اللغة: (قول).
(6) الراغب، المفردات: (قول).
(7) الراغب، المفردات: (قول).
(8) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/703.
(9) ابن فارس، مقاييس اللغة: (جعل).

وهو "لفظٌ عامّ في الأفعال كلّها، وهو أعمّ من فعل وصنع وسائر أخواتها، ويتصرّف على خمسة أوجه ... والرابع: في تصيير الشيء على حالة دون حالة"[1] وهو المراد في الآية، وهو التصيير بالقول، "ومعنى (جعل) وما تَصَرَّفَ منها في القرآن يكون للتحويل والتهيئة على وضع، أو للخلق؛ وهو تحويل للهيئة بإنشاء هيئة جديدة"[2].

ومعنى جاعلك في الآية: "إنّي مصيّرك تؤمُّ من بعدك من أهل الإيمان بي وبرسلي، تتقدَّمهم أنت، ويتّبعون هديك، ويستنّون بسنّتك"[3].

7) ﴿لِلنَّاسِ﴾: اسم ثلاثي مجرَّد، جذره اللغويُّ (نَوَسَ)، وله "أصل يدلّ على اضطراب وتذبذب، وناسَ الشيء: تذبذب"[4]، وذُكر له أصلان آخران هما: " أناس، واشتقاقه من الإنس للإيناس ... الثالث أنّ أصله نسي من النسيان"[5].

"ولفظُ النّاس قد يُذكّر، ويُراد به الفُضلاء، دون مَن يتناولُه اسمُ النّاس تجوُّزًا، وذلك إذا عدَّ معنى الإنسانيّة، وهو وُجودُ العقل والذّكر، وسائِرِ الأخْلاقِ الحميدة"[6].

والمعنى في الآية: "فالمراد من الناس حينئذ: أمَّته الذين اتَّبعوه"[7].

8) ﴿إِمَامًا﴾: اسم على وزن فِعَال، جذره اللغويُّ (أمم)، والأصل في معناه: "فأصلٌ واحدٌ، يتفرع منه أربعة أبواب، وهي: الأصل، والمرجع، والجماعة، والدِّين، وهذه الأربعة متقاربة ... والإمام: كلُّ من اقتدي به، وقُدِّم في الأمور، والنبي ﷺ إمام الأئمة"[8].

"ويقال لكلِّ ما كان أصلاً لوجود شيء أو تربيته أو إصلاحه أو مبدئه: أمّ، قال الخليل: كلّ شيء ضمّ إليه سائر ما يليه يسمّى: أمًّا"[9] ومنه يشتق لفظ الإمام، ومعناه

(1) الراغب، المفردات: (جعل).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (جعل).
(3) ابن جرير، جامع البيان: 2/18.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نوس).
(5) السمين، عمدة الحفاظ: (نوس).
(6) الراغب، المفردات: (نوس).
(7) الآلوسي، روح المعاني: 1/374.
(8) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أمّ).
(9) الراغب، المفردات: (أمَّ).

"المؤتمّ به؛ إنسانًا كان؛ يقتدى بقوله أو فعله، أو كتابًا، أو غير ذلك؛ محقًّا كان أو مبطلاً، وجمعه: أئمَّة"[1].

"والإمام: المتَّبع في أقواله وأفعاله وأحواله، ومنه قوله: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾، ولذلك ادّعاه كلّ أحدٍ، ولم يصدُق في ذلك إلَّا المسلمون"[2].

ومعنى الإمام في الآية: "يأتمّون بك في هذه الخصال، ويقتدي بك الصالحون"[3].

9) ﴿ذُرِّيَّتِي﴾: اسم مؤنث، جذره اللغوي (ذرر)، ولـ"الذّال والرّاء المشدّدة أصل واحد، يدلّ على لطافةٍ وانتشار، ومن ذلك الذّرّ: صغار النمل، الواحدة ذرة"[4]، ومن جعلها من هذا الباب أعني "من الذّرّ؛ لأنّ اللّه استخرج الذرية من ظهر آدم كالذرّ حين أشهدهم على أنفسهم"[5].

"والذُّرِّيَّة أصلها: الصّغار من الأولاد، وإن كان قد يقع على الصّغار والكبار معًا في التّعارف، ويستعمل للواحد والجمع، وأصله الجمع"[6].

وفي المعجم الاشتقاقيّ: "الذُّرِّيَّة، فقد جَرَيتُ على أنَّها من (ذرأ)، وإن كانت تتأتى من هذا التركيب، ويقال: "ذرّ اللّه الخلق في الأرض: نَشَرهم انتشار مسترسل مع دقة، وذرّيَّة الرجل: وَلَدُه"[7].

ومعناها في الآية: "نسل الرجل وما توالد منه ومن أبنائه وبناته، وهي مشتقّة: إمَّا من الذرِّ اسمًا، وهو صغار النمل، وإمَّا من الذرّ مصدرًا بمعنى التفريق، وإمَّا من الذّري والذّرو (بالياء والواو)، وهو مصدر ذرت الريح؛ إذا: سفت، وإمّا من الذرء بالهمز وهو الخلق"[8].

10) ﴿يَنَالُ﴾: فعل مضارع، الماضي منه نال، وجذره اللغوي (نيل) و(نول)، وله أصل

(1) الراغب، المفردات: (أمَّ).
(2) السمين، عمدة الحفاظ: (أمم).
(3) أبو حيان، البحر المحيط: 1/601.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ذرّ).
(5) السمين، عمدة الحفاظ: (ذرا).
(6) الراغب، المفردات: (ذرو).
(7) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (ذرو- ذرى).
(8) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/705.

"يدلُّ على إعطاء، ونوَّلته: أعطيته، والنَّوال: العطاء، ونلته نولًا مثل أنلته، وقولك: ما نولك أن تفعل كذا، فمنه أيضًا، أي: ليس ينبغي أن يكون ما تعطيناه من نوالك هذا"[1].

"وحقيقة النَّوال: ما يناله الإنسان من الصِّلة، وتحقيقه ليس ذلك مما تنال منه مرادًا"[2].

ومعنى لا ينال: "أي: لا يصيب عهدي من كان ظالمًا"[3] ولا يشمله.

11) ﴿عَهۡدِي﴾: اسم ثلاثي، والجذر اللغوي له (عهد)، وأصل معناه: "الاحتفاظ بالشيء وإحداث العهد به، والذي ذكره من الاحتفاظ هو المعنى الذي يرجع إليه فروع الباب"[4].

وهو "حفظ الشيء ومراعاته حالاً بعد حال، وسُمِّي الموثق الذي يلزم مراعاته عَهْداً"[5]، و"المراد بالعهد التولية والتمكين من عَهِدَ فلانٌ إلى فلانٍ الخلافة، والمعنى: لا أولي ولاية شرعية من كان ظالمًا"[6].

والعهد في الآية بمعنى: الإمامة[7]، قال في المنار: "وَلَكِنَّ عَهْدِي بِالْإِمَامَةِ لَا يَنَالُ الظَّالِمِينَ؛ لِأَنَّهُمْ لَيْسُوا بِأَهْلٍ؛ لِأَنْ يُقْتَدَى بِهِمْ"[8].

12) ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾: جمع مذكّر سالم لاسم الفاعل، جذره اللغويُّ (ظلم)، ومعناه "وضْعُ الشَّيءِ غيرَ موضعهِ تعدّيًا"[9] فهو خلاف الحقِّ، فمن تعدَّى من الحقِّ إلى الباطل؛ فقد وضع الشيءَ في غير موضعه؛ وبذلك يسمَّى ظالماً.

"وَالظُّلْمُ عند أهل اللُّغة وكثير من العلماء: وضع الشيء في غير موضعه المختصِّ به،

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نول).
(2) الراغب، المفردات: (نيل).
(3) السمين، عمدة الحفاظ: (عهد).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عهد).
(5) الراغب، المفردات: (عهد).
(6) السمين، عمدة الحفاظ: (عهد).
(7) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (عهد).
(8) محمد رشيد رضا، تفسير المنار: 1/375.
(9) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ظلم).

إمَّا بنقصان أو بزيادة، وإمَّا بعدول عن وقته أو مكانه، ومن هذا يقال: ظَلَمْتُ السِّقَاءَ؛ إذا تناولته في غير وقته"[1].

وفي معناه المحوري: "حجبُ ما ينبغي، أو ما يُسْتَحقُّ، أي: منعه أو انتقاصه، كمَنْع الضوء في حالة الظُّلمة، وكمنع المطر عن الأرض المظلومة"[2].

"والمرادُ بالظالمين ابتداءً المشركون، أي: الذين ظَلَموا أنفسهم؛ إذ أشركوا بالله، والظُّلمُ يشمل أيضًا عَمَلَ المعاصي والكبائر"[3].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

واذكر أيها النبيُّ ﷺ حين اختبر الله إبراهيم عليه السلام بما شرعَ له من تكاليفَ من الأوامر والنواهي، فجاء بها على أحسن صورة وأكمل أداء، قال الله له: إني جاعلك قدوة للناس، فسأل إبراهيمُ الخيرَ لذريَّته بقوله: ربِّ اجعل بعضَ نَسْلي أئمَّةً فضلًا منك، فأجابه الله سبحانه - بطريق الإيجاز والإشارة - بأنَّه لا تحصل للظالمين الإمامةُ في الدِّين؛ فمن كان موصوفاً بالظُّلم فليس مستحقًّا لهذا التكليف، لأنَّ الظُّلم مانع من الإمامة.

في الآيـة تنفير من الظُّلم؛ كي يتحاماه الناس، ولا يقعوا فيه

وذكر الله هنا الأساسَ الذي بُنِيَ عليه الإسلام والنَّسب الذي يمتُّ به، ويحترمه أهل الكتاب ومشركو العرب، وهو ملَّةُ إبراهيم ونسبُه، فلا فضل إذًا لليهود على العرب بأنّهم يمتُّون بالنسب إلى إبراهيم ودين إبراهيم، إذ النَّسب واحد والملَّة واحدة[4].

❁ الإِيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

عـطـفُ الآيـةِ عـلى الآيـة مع تباعدِهما يورث ترابطًا بين آي القرآنِ

بلاغةُ عطفِ الجمل المتباعِدة:

ذهب ابن عاشور إلى أنَّ قوله تعالى: ﴿وَإِذِ ٱبۡتَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ﴾ معطوفٌ على ﴿وَإِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ خَلِيفَةٗۖ﴾ [البقرة: 30] للاشتراك بينهما في بعض الأمور[5]:

(1) الراغب، المفردات: (ظلم).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (ظلم).
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/706.
(4) المراغي، تفسير المراغي: 1/208، ونخبة من العلماء، التفسير الميسر: ص19.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/700.

- فآدم أبو البشر، وإبراهيم أبو الأنبياء.
- اتّفاق الأسلوب القرآني في بدء قصّة كلّ منهما، ففي قصة آدم: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ﴾ [البقرة: 30] ومع إبراهيم: ﴿۞وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ﴾، فالمُفتتح فيهما متقارب.
- استخدام فعل الجعل في كلّ منهما، فقال في حقّ آدم: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: 30]، وقال في حقّ إبراهيم: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾.
- التعبير بالكلمات في كلّ منهما، فمع آدم قال ربّنا: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ﴾ [البقرة: 37]، ومع إبراهيم: ﴿۞وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ﴾.
- الاشتراك في الأُبوَّة والبُنُوَّة، فآدم أبو البشريَّة، وإبراهيم ابن آدم؛ فجعل الخلافة مع أبي البشريَّة، والإمامة مع ابنه، والخلافة أعمّ، والإمامة أخصّ.
- اشتراكهما في تمهيد القرآن قبل الحديث عن كلّ منهما، فقبل الحديث عن آدم تكلَّم على خلق الكون وما فيه من أقوات في السماء والأرض في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ۝٢١ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ﴾ [البقرة: 21-22]، وقبل الحديث عن إبراهيم تحدّث عن نسخ تحويل القبلة في قوله تعالى: ﴿۞مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ﴾ [البقرة: 106] الآية.

التمهيدُ للحجِّ بذكرِ إبراهيم:

هذه الآية ﴿۞وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ﴾ جاءت بمنزلة التَّمهيد والتَّقديم للحجّ، وموضعُه ومكانه البيتُ الحرام، بما له من معالم وشعائر؛ لذا بدأ القرآن حديثه عن الشخص الذي رفع قواعد البيت، وطهَّره، وطبَّق مناسكه.

سرُّ التعبيرِ بفعلِ (الابتلاء):

قوله تعالى: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ﴾ خطاب للرسول ﷺ ولأمته على تقدير: "أيْ: واذكُر لهم وقت ابتلاء إبراهيم عليه السلام؛ ليتذكروا بما وقع فيه من الأمور الدَّاعيةِ إلى التوحيد"[1]، فإنّ "إِذْ فِي مَوْضِعِ نَصْبٍ عَلَى الْمَفْعُولِ بِهِ، أَيِ: اذْكُرْ"[2]، والتّعبير بالابتلاء، وهو بمعنى:

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/249-250.
(2) العكبري، التبيان: 1/111.

غـايـةُ الابـتـلاءِ رفعُ الدَّرجاتِ

الاختبار الواقع على إبراهيم [1] عليه السلام، فيه إشارة إلى أنّه امتحان في الخير والشرِّ، "يُقال: أبلاه، وبلاه في الخير والشرّ ... وقيل: الأكثر في الخير: أبليته، وفي الشرّ: بلوته"[2]، وقد كان هذا الابتلاء في "تسليم بدنه للنَّيران، وولده للقربان، وطعامه للضِّيفان[3]، فهذه ابتلاءات في الخير والشرّ؛ لعظم منزلة خليل الرحمن.

معنى الابتلاءِ في حقِّه تعالى

قوله تعالى: ﴿وَإِذِ ٱبۡتَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ﴾ عبّر الحقّ سبحانه وتعالى بفعل الابتلاء، وهو "افتعال من البلاء، وصيغة الافتعال هنا: للمبالغة، والبلاء: الاختبار"[4]، وهو تكليفٌ من باب التَّوسُّع والمجاز؛ لأنّ الابتلاءَ "يكون تكليفُه متضمَّنًا انتظار فعله أو تركه؛ فيلزمه الاختبار، فهو مجاز على مجاز"[5]، وليس على الحقيقة؛ لأنّ الابتلاء، لا يجوز في حقّه تعالى؛ "لأنّه تعالى عالم بجميع المعلومات التي لا نهاية لها على سبيل التفصيل من الأزل إلى الأبد"[6].

وجه تخصيصِ ذكرِ إبراهيمَ بمقامِ الابتلاءِ:

اجـتـمـاعُ الـنَّـاسِ على إبراهيم، تمهيدٌ لإجماعِهم على محمَّدٍ صلَّى الله عليهما وسلم

خَصّ التعبير القرآني إبراهيم بالذِّكر؛ لأنّ الله عز وجل لـمَّا فصَّل في الآيات السابقة نعمه على بني إسرائيل والمشركين، وبيَّن أنّهم قابلوها بالكفران والعناد، شرع هنا في ذكر قصة إبراهيم عليه السلام؛ لأنّهم معترفون بفضله، وأنّهم من أولاده، ومن سُكَّان حرمه ومن خُدَّام بيته.

وفي قصته أمور توجب الاعتراف بنبوَّة سيدنا محمّد صلى الله عليه وسلم، والانقياد لشرعه، منها:

(1) الأخفش، معاني القرآن: 1/154.
(2) الدرة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 1/306.
(3) الأنجري، البحر المديد: 1/162.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/701.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/701.
(6) الرازي، مفاتيح الغيب: 4/37.

- أنّه أُمر ببعض التكاليف، فوفَّى بها، فنال منصب الاقتداء به؛ فعُلم من هذا أنّ الخير لا يحصل إلّا بالانقياد لحكم الله والتزام تكاليفه، وترك التمرُّد والعناد.
- أنّه طلب الإمامة لذرِّيَّته، فقيل له: ﴿لَا يَنَالُ عَهۡدِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، فعُلم من ذلك أنّ الظلم مانعٌ لحصول الإمامة.
- أنّ القِبلة لـمَّا حُوِّلت إلى الكعبة شقّ ذلك على اليهود، فأُريد إزالة غيظهم بأن هذا البيت قبلة إبراهيم الذي اعترفتم بتعظيمه والاقتداء به.
- أنّه دعا بإرسال نبيٍّ من ذرِّيَّته، وهو محمَّد ﷺ؛ كما في قوله: ﴿رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ﴾ [البقرة: 129]، فيجب على من يعترف بإبراهيم أن يعترف بنبوَّة محمَّد ﷺ.

سرُّ إيثارِ عنوان الرُّبوبيَّةِ على الألوهيَّة:

ذُكر عنوان الرُّبوبيَّة في قوله تعالى: ﴿وَإِذِ ٱبۡتَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ﴾ دون الألوهيَّة، لأنَّ لفظ الربّ أنسبُ بالمقام؛ لأنّه "الناظر في مصالحه ومربيه ومدبر أحواله؛ ليكون ذلك أطمع له، فلذلك أتى بصفة الربّ"[1]، ولأنَّ معناه "المربِّي الذي يأخذ من يربِّيه بأساليب تؤهِّله إلى الكمال المطلوب منه"[2]، وليُعلم النَّاس قدرته على الإمامةِ فيخضعون له، ويُقرُّون بها.

التَّربيةُ الرَّبانيَّةُ مقدِّمةُ السَّعادةِ السَّرمديَّة

تقديمُ المفعولِ على الفاعلِ للاهتمامِ:

المفعولُ في قولِه تعالَى: ﴿وَإِذِ ٱبۡتَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ﴾، "مقدَّمٌ على الفاعلِ، ووجب تقديمُه هاهنا؛ لأنّ تأخيرَه يوجبُ إضمارًا قبل الذِّكر"[3]، فلفظ ﴿إِبۡرَٰهِـۧمَ﴾ عليه السلام مفعولٌ، وقد قُدِّم على الفاعل، وتقديمه – وإن كان لسبب متعلِّق بالصَّنعة النحويَّة – فيه معنى الاهتمام، "إذ كون الربّ مبتليًا معلوم، فإنّما يهتم السامع بمن ابْتُلِيَ"[4]، فإنّ تعريفَ السَّامع بالـمُبتلى فيه تنبيهٌ على أهميَّة الحدثِ الذي سيُذكر، والعرب تقدّم ما هم ببيانه أعنَى.

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 1/564.
(2) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 1/570.
(3) الباقولي، إعراب القرآن: 2/676.
(4) ابن عطية، المحرر الوجيز: 1/205.

دلالةُ إضافةِ الهاءِ إلى الربِّ:

تشريفُ إبراهيمَ وتكريمُه بإضافتِه إلى ربِّه

في قوله تعالى: ﴿وَإِذِ ٱبۡتَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ﴾ هنا أضاف الضمير الهاء العائد على إبراهيم إلى لفظة (الربّ)؛ قصدًا إلى "تشريف إبراهيم بإضافة اسم ربّ إلى اسمه"[1]، ولو قال: (وإذ ابتلى الله إبراهيم)؛ لفات مقصودان: الأول: تشريف إبراهيم، والثاني: تقديمه، فإنّه قدّم إبراهيم كي لا يعود الضمير على متأخِّر لفظًا ورتبةً فضلاً عن الاهتمام به؛ كونه المبتلى كما تبيَّن في الفقرة السابقة.

توجيهُ قراءةِ ابنِ عامرٍ ﴿إِبۡرَٰهَـٰمَ﴾:

إبراهيم: اسم علم غير منصرف؛ للعجمة والعلمية، فهو "اسم علم أعجميّ، قيل: ومعناه بالسريانية قبل النقل إلى العلميَّة: أب رحيم"[2]، وقرأ الجمهور ﴿إِبۡرَٰهِـۧمَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَإِذِ ٱبۡتَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ﴾، فيما قرأ ابن عامر وحده: ﴿إِبۡرَٰهَـٰمَ﴾[3]، وفسّر على أنّه (أب راحم)، والفرق بينهما في العربيَّة، كالفرق بين اسم الفاعل (راحم) ومبالغته (رحيم)، "قال السهيليّ: وكثيرًا ما يقع الاتّفاق بين السُّرياني والعربي"[4]؛ فتكون قراءة ابن عامر دالّة على هذا المعنى، وهذا من مُلَحِ العلم لا من أُسِّه وأساسه.

تطرُّقُ احتمالِ دلالةِ ﴿بِكَلِمَٰتٖ﴾ أن تكون على ظاهرِها أو مآلها:

الألفاظُ لا تُرادُ لذاتِها، بل لأثرِها وتأثيرِها

في قوله تعالى: ﴿وَإِذِ ٱبۡتَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٖ فَأَتَمَّهُنَّۖ﴾ بيّن الحقّ تبارك وتعالى طريقة الابتلاء، وهي الكلمات؛ "إذ الكلمة لفظ يدلّ على معنى، والمراد بها هنا الجمل، كما في قوله تعالى: ﴿كَلَّآۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَاۖ﴾ [المؤمنون: 100]"[5]، فهي تحتمل هذا المعنى على ظاهرها،

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/702.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 1/596.
(3) ابن زنجلة، حجة القراءات، ص: 113.
(4) الشوكاني، فتح القدير: 1/160.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/703.

ويجوز أن تكون الكلمات "ليست هي ألفاظها وكلماتها وحروفها، إنّما المراد بالكلمات المدلولات والمطلوبات التي تتضمَّنها من أوامر ونواهٍ، ووقائع"[1]، وآية ذلك أنّه تعالى قال: ﴿فَأَتَمَّهُنَّ﴾ أي: "فأدَّاهن كملاً، وقام بهنّ حقّ القيام"[2].

والأمران محتملان، وإذا كانت الكلمات هي الحروف والعبارات والجمل مما اعتيد عليها؛ فإنّ الرأي الثاني على اعتبارها أفعالاً، فهو واقع أيضًا فيما يسمَّى اليوم بنظريَّة الأفعال الكلامية التي يرى أصحابها أنّ الكلام يطلق لإنجاز الأفعال، وقد عبّروا في بعض مصطلحاتها بـ (كيف تفعل الأشياء بالكلمات)[3]، والراجح هو الاحتمال الثاني، ويؤيِّد ذلك ما ذكره الفخر الرازيّ في تفسير الكلمات، أي: "بكلمات كلّفه الله بهنَّ، وهي أوامره ونواهيه، فكأنّه تعالى قال: وإذ ابتلى إبراهيم ربّه بكلمات مما شاء كلّفه بالأمر بها، والوجه الثاني: بكلمات تكون من إبراهيم يكلّم بها قومه، أي: يبلِّغهم إيَّاها"[4].

سرُّ التعبيرِ بجمعِ القلّةِ في ﴿بِكَلِمَٰتٍ﴾:

الإشارةُ إلى يُسرِ التَّكاليف لطفٌ ربانيٌّ، ومِهادٌ تشريعيٌّ

شرْعُ الله قائم على التيسير في تكليف عباده، فلم يشقّ عليهم، وجعل التكليف في طاقتهم، يؤكد ذلك أنّه في ابتلائه إبراهيم عليه السلام، اختار التعبير بكلمات، وهي جمع قلّة، دون أن يقول: بكلام، مع أنّ الكلمة تُجمع على كلمات وكلام، فالكلام كثرة، فلو عبَّر بها مع إبراهيم لكان الأمر صعباً وشاقًّا على نفسه؛ لكن اختيار الكلمات يوحي بلطف الله بعباده في التكاليف، ومما يؤكّد ذلك أنّ آدم عليه السلام، لمَّا أكل من الشجرة هو وزوجه، ووقعا في المعصية؛ تاب الله عليهما بكلمات، وهي تشير إلى اليسر في التنفيذ؛ قال تعالى: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيۡهِۚ﴾ [البقرة: 37].

سرّ دخولِ حرفِ (الفاء) على ﴿فَأَتَمَّهُنَّ﴾:

سرعةُ الامتثالِ من أسبابِ الإمامةِ

دلَّتِ الفاءُ في قوله تعالى: ﴿فَأَتَمَّهُنَّ﴾ "على الفور في الامتثال،

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 1/393.
(2) البيضاوي، أنوار التنزيل: 1/104.
(3) اوستين، نظرية أفعال الكلام، ص: 115.
(4) الرازي، مفاتيح الغيب: 4/41.

وذلك من شدّة العزم"[1]، وهو كقولنا: دعوت فلانًا، فجاء، أي: على الفور، وهذا ما يجب أن يكون عليه المرء في عبادته، وفي السنّة أدلّة وافرة على أن يبادر المسلم إلى ما أمره الله تعالى مسرعًا، ولا يبطئ ما أمكنه ذلك، ومن أهمِّ هذه الأمور التعبديَّة الصلاة، كما ورد في الحديث: سَأَلْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ: أَيُّ الْعَمَلِ أَحَبُّ إِلَى اللهِ؟ قَالَ: «الصَّلَاةُ عَلَى وَقْتِهَا»[2].

سرّ التعبيرِ بالتمامِ دونَ الكمالِ:

تمامُ مدحِ إبراهيم في استمرارِه في إتمامِ الكلمات دون فتورٍ أو انقطاع

الفرقُ بين التَّمامِ والكمالِ في الاستعمالِ القرآنيِّ هو في كونِ التَّمامِ يبقى متَّصلًا دون انقطاعٍ، بخلاف الكمال؛ فقد يتطرَّقُ إليه الانقطاع، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَتِمُّواْ ٱلصِّيَامَ﴾ [البقرة: 187]؛ فالصِّيام إلى اللَّيل لا يصحُّ بانقطاعٍ، بخلافِ قولِه تعالى: ﴿وَلِتُكْمِلُواْ ٱلْعِدَّةَ﴾ [البقرة: 185]؛ فإنَّ إكمال عدَّةِ الصِّيام تكون بصوم يوم والانقطاع ثم المعاودة إلى حدِّ الاكتمال، وقوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: 3]، يُفيدُ أنَّ إكمالَ شرائعِ الدِّين جاءت على فتراتٍ متقطِّعة، أمَّا النِّعمة فهي متَّصلة دون انقطاع، وفي الآيةِ عبَّر القرآنُ بالإتمامِ، وسرُّ ذلك بيانُ أنَّ إبراهيمَ عليه السلام لم ينقطع ولم يفتر عن أداء الكلماتِ، بل استمرَّ نشِطًا متواصلًا، وهنا مكمن المَدْحِ، ومربطُ الحمد.

توكيدُ الجملةِ يقوِّي مضمونَها:

التَّكليفُ بأمرٍ مستقبليٍّ عظيمٍ يحسُنُ معه التَّوكيد

معنى قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ أي: "إنّي مصيِّرك للناس إمامًا، يؤتمُّ به، ويقتدى به"[3] ولتقوية هذا المضمون صدّر الجملة بعد فعل القول بإنّ، وأضاف الخبر للضمير مما

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/703.
(2) متفق عليه، البخاري، حديث رقم: (527)، ومسلم، حديث رقم: (264).
(3) ابن جرير، جامع البيان: 2/18.

يقوِّي تعريفه؛ فإنّ اللفظ إذا أضيف للضمير نزّل منزلة العلم في التعريف، ثمّ قدّم المتعلّق ﴿لِلنَّاسِ﴾ على المفعول الثاني ﴿إِمَامًا﴾ لإفادة التخصيص، وفيه مزيد توكيد؛ فقوَّى التوكيدُ مضمونَ الجملة فضلاً عن كونها جملة مستأنفة مستقلة، وحسُن التَّوكيدُ لأنَّه تعلَّق بأمرٍ مستقبليٍّ عظيم وهو إمامة النَّاسِ.

فلمّا كان هذا صنيعه فيما أمره اللّه؛ جوزي بعظيم الجزاء، وصيّره اللّه إمامًا يأتمُّ به الناس؛ "بسبب أنّه كان عاملاً بتلك الشريعة كان هذا تنبيهًا على أنّ من عمل بهذا الشرع؛ لا بدّ وأن يفوز بأعظم المناصب في الدين، وذلك يفيد الترغيب العظيم في هذا الدين"[1]، وفي ذلك عبرة بأنّ العمل بشريعته سبحانه وأداءَها على وجهها الأكمل، فيه بشارة للفوز في الدنيا، والترقِّي فيها.

فائدةُ الفَصْل بين الجملِ:

إمـامـةُ الـنَّـاس فضلٌ إلهيٌّ جاءَ عَـقِـبَ ابـتـلاءٍ ربَّانيٍّ

ترك التعبيرُ القرآنيُّ عطفَ قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ على ما قبله، فلم يربطها بالفاء عطفًا بأن يقول (فقال)، وسرّ ذلك "لِلْإِشْعَارِ بِأَنَّ هَذِهِ الْإِمَامَةَ بِمَحْضِ فَضْلِ اللّهِ تَعَالَى وَاصْطِفَائِهِ، لَا بِسَبَبِ إِتْمَامِ الْكَلِمَاتِ؛ فَإِنَّ الْإِمَامَةَ هُنَا عِبَارَةٌ عَنِ الرِّسَالَةِ، وَهِيَ لَا تُنَالُ بِكَسْبِ الْكَاسِبِ"[2]، وهذا الفضلُ الإلهيُّ جاءَ بعد الابتلاءِ، فهو يُشعرُ بنوعِ أجرٍ وإثابةٍ، وكلُّ ذلك لا يكون إلَّا بالتَّوفيقِ والإفضالِ.

سِرُّ العدولِ عن الإخبارِ بالفعل الدَّالِّ على المستقبلِ إلى الاسمِ:

الإعـلامُ بتحقُّقِ الـجـعـلِ وكـادةً ثابتةً، من الثَّناءِ العطِرِ

الخطابُ في قوله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ يتناول حالةً مستقبليَّة لم تحصل بعد، وقد استخدم النَّظم الصِّيغة الاسميَّة التي تدلّ على أمر ثابت متقرّر، وكان الأولى في قياسات التعبير البلاغي

(1) الرازي، مفاتيح الغيب: 11/230.
(2) محمد رشيد رضا، تفسير المنار: 1/374.

للقرآن الكريم أن يستخدم الصيغة الفعلية المضارعيَّة المقترنة بالسين للقريب من الاستقبال، أو (سوف) للبعيد منه، ومع ذلك عدل عنه إلى الصيغة الاسميَّة (جاعل)، وسرّ ذلك هو الدّلالة على أنّ الجعل إنّما هو بمنزلة الأمر المحقّق الحاصل الذي لا يشوبه شكٌّ أو ريب، "واسم الفاعل بمعنى: المضارع، وأوكد منه لدلالته على أنّه جاعل له البتَّةَ منْ غيرِ صارفٍ يلويهِ، ولا عاطفٍ يَثنيهِ"[1].

فائدةُ تقديمِ الجارّ والمجرورِ:

قدّم الجارّ والمجرور في قوله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ على المفعول الثاني ﴿إِمَامًا﴾، وفائدته: القصر؛ لأنّه لمّا كانت سجايا إبراهيم عليه السلام، وما كلّفه اللّه تعالى على الغاية من الكمال؛ فقد وصفه تعالى بقوله: ﴿فَأَتَمَّهُنَّ﴾، فصار مستحقًّا للإمامة على الناس جميعِ النَّاس، وهو كذلك، فقد جعل "إمامته للناس كافّة على التأبيد، فإنّه لم يُبعث بعده نبيّ إلَّا من ذرِّيَّته"[2]؛ فلذلك أجمع أهل الأديان والملل جميعًا أنّ نبيَّها إبراهيم [3].

جميعُ من بُعث بعد إبراهيم عليه السلام هو من ذريّته

نكتةُ اختيارِ لفظِ ﴿إِمَامًا﴾ دونَ (رسول):

جاء التَّعبير القرآني بلفظ ﴿إِمَامًا﴾ دون (رسول) للدلالة على أنّ رسالته تنفع الأمة المُرسل إليها بطريق التبليغ، وتنفع غيرهم بطريق الاقتداء، وهذا واضح في تعدُّد رحلاته عليه السلام في أمصار كثيرة، حيث ذهب إلى العراق والشام والحجاز ومصر، وهو في كلّ رحلاته محلّ تبجيل وتكريم، ولا شك أنّ ذلك يبعث على الاقتداء، وإمامتُه أعمُّ من الرِّسالةِ، فليس كلُّ رسولٍ إمامًا للنَّاس.

إمامةُ إبراهيمَ عليه السلام أعمُّ من رسالةِ غَيْرِه

لطفُ العدولِ عن الطلبِ المباشرِ إلى الاستفهامِ:

قوله تعالى: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾ جملة خبريَّة من فعل القول في معنى

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/252.
(2) الراغب، تفسير الراغب: 1/310.
(3) ابن عطية، المحرر الوجيز: 1/206.

الطلب على تقدير: واجعل من ذرِّيَّتي، وهذا العدول من صيغة الأمر إلى الخبر مراعاةٌ للأدب مع الله تعالى؛ وفيه تلميحٌ لطيفٌ وحرصٌ رفيعٌ في أن يكون في ذُريَّته النُّبوّة؛ فسأل "على جهة الاستفهام عنهم، أي: ومن ذرِّيَّتي يا ربّ ماذا يكون؟"[1] وهو استفهام مشوب بالدّعاء والرّغبة في أن يحقِّق الله له ما يريد من جعل الإمامة في ذرِّيَّته عليهم السلام، وقد حقَّق الله تعالى رغبته ودعاءه في المؤمنين من ذرّيّته، وأُجيبَ ملتمَسُه، وجعل منهم الأئمة من لدن إسماعيل، وكذلك موسى وعيسى وغيرهما حتّى نبينا محمّد صلى الله عليه وآله أفضل الأنبياء والأئمة عليهم السلام جميعًا[2].

الأدبُ في الطلبِ، والحرصُ على الذُّريَّةِ من شِيَمِ العِظامِ

سرّ استعمالِ حرفِ الجرّ (مِن) في ﴿قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾:

قوله تعالى: ﴿قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾ مقول القول شبه جملة من حرف الجرّ من والمجرور ذرِّيَّتي، ومجيء حرف الجرّ (من) للتبعيض كثيرٌ[3]، وهو الوارد في هذه الآية، ولوروده هنا غرض بيانيٌّ، فلم يقل: (وذريتي)؛ لأنّ في عدم وجوده في كلام إبراهيم طلبًا للمستحيل، لكنّه أراد "واجعل من ذرِّيَّتي أئمَّة يقتدى بهم في الخير"[4]؛ فجاء بمن الدالَّة على البعضيَّة.

فقه الدُّعاءِ قائمٌ على الإيمانِ السّليمِ، والعدلِ القويمِ

لأنّ "حكمة الله من هذا العالم لم تَجْرِ بأن يكون جميعُ نسلِ أحدٍ ممن يصلحون لأن يقتدى بهم"[5]، فقوله المفترض: (وذرِّيَّتي) سؤال على نيَّة الحصر، وهو ليس من آداب الدعاء، وإنّما سأل الإمامة لذرِّيَّته لمن كان صالحًا لها بدلالة التبعيض لقوله تعالى: ﴿فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾ [التغابن: 2].

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 1/206.
(2) الرازي، مفاتيح الغيب: 4/45.
(3) المرادي، الجنى الداني: ص: 309.
(4) الشنقيطي، أضواء البيان: 4/741.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/705.

نكتةُ إيثار لفظِ الظُّلمِ على غيرِه من الألفاظِ والعدولِ في أسلوب الجوابِ:

الظّلمُ مانعٌ من موانعِ الإمامةِ

قوله تعالى: ﴿قَالَ لَا يَنَالُ عَهۡدِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ جواب للسؤال المفترَض من إبراهيم عليه السلام بجعل الأئمة من ذرّيّته؛ فهذا القول "جواب لما يتوهَّم في مسألته إيّاه أن يجعل من ذرّيّته أئمَّةً مثله، فأخبر أنّه فاعل ذلك، إلَّا بمن كان من أهل الظلم منهم، فإنّه غير مُصَيِّره كذلك"[1] فظاهر الجملة النفي إلَّا أنّ المعنى هو الاختيار، اختيار من هو أهل للإمامة والاقتداء من ذرِّيَّته عليه السلام؛ لأنّ "في ذريته من هو ظالم، فلا ينال الظالم عهده"[2].

وفي العبارة من البلاغة والإيجاز ما يناسب المقام، فإنّه لم يجبه إجابة مباشرة كما يقتضي السؤال، وإنّما أجاب "بِذِكْرِ الْمَانِعِ مِنْ مَنْصِبِ الْإِمَامَةِ مُطْلَقًا، وَهُوَ الظُّلْمُ؛ لِتَنْفِيرِ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ مِنَ الظُّلْمِ وَتَبْغِيضِهِ إِلَيْهِمْ؛ لِيَتَحَامَوْهُ، وَيُنَشِّئُوا أَوْلَادَهُمْ عَلَى كَرَاهَتِهِ"[3]، فإن فعلوا ذلك كانوا جديرين بالإمامة التي وعدها الله إياهم، وجاء بطريقة إثبات أحد الضدّين؛ "لأنّ حكم أحد الضدين يثبت نقيضه للآخر على طريقة الإيجاز"[4].

اختيارُ لفظةِ ﴿عَهۡدِي﴾ في نفي الإمامةِ:

التعريضُ باليهودِ النَّاكثين للعهودِ

قوله تعالى: ﴿قَالَ لَا يَنَالُ عَهۡدِي ٱلظَّٰلِمِينَ ١٢٤﴾ عهدي هنا فاعل، والمعنى: "أي: لا يصيب عهدي الظالمين، أي: لا يشملهم ... وسمّي وعد الله عهدًا؛ لأنّ الله لا يخلف وعده"[5] وفي التعبير بلفظة العهد اختيارٌ دقيق؛ ففيه تعريض باليهود، وهم المقصودون له؛ لأنّهم "الذين باعوا قيمهم الإيمانية بالمادة، وهو استقراء

(1) ابن جرير، جامع البيان: 2/20.
(2) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 1/555.
(3) محمد رشيد رضا، تفسير المنار: 1/375.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/706.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/706.

للغيب أنّه سيأتي من ذرية إبراهيم من سيفسق ويظلم"[1]، فضلاً عن أنّ الكلام لتوبيخِ المشركين الظالمين، فعدل القرآن عن ذكر الصِّنف الذي تتحقق فيه دعوة إبراهيم عليه السلام وهي الإمامة؛ لأنّ القصد ذكر الصنف الآخر تعريضاً؛ لأنّ الذين يزعمون يومئذٍ أنّهم أولى الناس بإبراهيم، وهم أهل الكتاب ومشركو العرب، هم الذين يُحرمون من دعوته.

الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الابتلاء والاختبار:

ذهب بعضهم إلى أنَّ الابتلاء بمعنى: الاختبار، مع أنّ النَّاظر في اللفظين يجدُ بينهما فرقاً دقيقاً، وإن اشتركا في المعنى العام؛ فلكلّ لفظٍ منهما ما يُميزه، فالابتلاء: التكليف في الأمر الشاقّ، ويكون في الخير والشرّ معاً، أمّا الاختبار؛ فمعناه: أيّ محكٍّ أو عمليةٍ يمكن استخدامها بهدف تحقيق حقائق مُعيَّنة، أو تحديد معايير الصواب، أو الدّقّة أو الصحّة سواء كان ذلك في قضية معروضة للدراسة أو المناقشة أو لغرضٍ مُعلَّق لم يتمّ التثبُّت منه، وعلى هذا؛ فالابتلاء يقتضي استخراج ما عند المبتلى من الطاعة والمعصية، والاختبار: وقوع المُخبَر بحاله في ذلك، وهو أصل من أصول الابتلاء[2].

وعلى ذلك فالاختبار جزء من الابتلاء، ومن هنا آثر القرآن الكريم لفظ الابتلاء مع إبراهيم لتعدد أنواع الابتلاءات؛ فابتلاؤه في أبيه يسمَّى اختباراً، وفي ذبح ولده اختباراً، إلى غير ذلك من أنواع الاختبارات التي يُطلق على مجموعها الابتلاء.

الذّريّة والأبناء:

الأبناء جمع ابن، وهو كلّ ما وُلد ذكراً، ويطلق على كلّ ما ترتَّب على غيره بالسببيَّة أو التبعيَّة أو الملازمة أو المُشابهة، والابن في الاختصاص، ومداومة الصحبة، ولهذا يقال: (ابن الفلاة) لمن يداوم سلوكها، وقولنا: هو ابن فلان، يقتضي أنّه منسوبٌ إليه، ولهذا يقال: الناس بنو آدم؛ لأنّهم منسوبون إليه، وكذلك بنو إسرائيل.

أمَّا الذُّرِّيَّة فهي نسل الرجل، وما توالد منه ومن أبنائه وبناته، وهي مشتقّة إمَّا من

(1) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 1/573.
(2) الزهراني، التفسير الموضوعي: 1/139.

الذَّرِّ، وهو صغار النمل، أو من الذَّرِّ مصدراً بمعنى: التفريق، وإمّا من الذري أو الذرو، وهو مصدر ذرتُ الريح؛ إذا اقتربت من وجه الأرض، أو من الذرء، وهو الخلق[1].

ومن خلال النظر في هذه الاشتقاقات تجد أنّ لفظ الذرِّيَّة أعمّ من لفظ الأبناء، حيث يطلق لفظ الذرِّيَّة على الأولاد والذكور والإناث؛ بخلاف الأبناء، فمنظور فيهم إلى الاختصاص بالنسب، ومداومة الصحبة، والإطلاق على الذَّكر فقط.

لذلك كان اختيار التعبير بقوله: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾؛ لإفادة العموم في كلٍّ من ينتسب إليه من طريق الذكور أو الإناث، قريبة كانت أو بعيدة، وأيضاً لتشير إلى نبوَّته ﷺ، فهو من ذرِّيَّته.

(1) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 282-281.

﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّىۖ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ١٢٥﴾ [البقرة: 125]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

وجهُ مناسبة هذه الآية لما قبلها أنّه لـمّا كان من إمامة إبراهيم اتّباع الناس له في حجّ البيت الذي شرّفه اللّه ببنائه؛ قال إثر ذلك ناعيًا على أهل الكتاب مُخالفتَه وتَرْكَ دينه، وموطِّئاً لأمر القبلة[1]، فأنزل هذه الآية: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ﴾، وهذه الآية معطوفة على ما سبق بيانه من ابتلاء اللّه إبراهيم، ثمّ "بَيَّنَ كَيْفِيَّةَ حَالِ إِبْرَاهِيمَ عليه السلام حِينَ كَلَّفَهُ بِالْإِمَامَةِ، وَهَذَا شَرْحُ التَّكْلِيفِ الثَّانِي، وَهُوَ التَّكْلِيفُ بِتَطْهِيرِ الْبَيْتِ"[2] بأنْ أَمَرَهُ الحقّ سبحانه بأن يطهّر البيت بعد أن هيَّأه اللّه؛ ليكون مرجعًا للنّاس وأمنًا.

شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

1) ﴿جَعَلْنَا﴾: فعل ماضٍ، وجذره اللغويُّ (جعل)، وسبق شرحه في الآية السابقة، ومعنى جعلنا في الآية: أي: صيّرنا البيت "بِأَنْ خَلَقْنَا بِمَا لَنَا مِنَ الْقُدْرَةِ فِي قُلُوبِ النَّاسِ مِنَ الْمَيْلِ إِلَى حَجِّهِ وَالرِّحْلَةِ إِلَيْهِ الْمَرَّةَ بَعْدَ الْمَرَّةِ مِنْ كُلِّ فَجٍّ وَصَوْبٍ"[3].

2) ﴿ٱلْبَيْتَ﴾: اسم ثلاثي مجرَّد، جذره اللغويُّ من (بيت)، وقيل: إنّه مصدر من الفعل بات يبيت، والأصل في معنى البيت: "الْمَأْوَى وَالْمَآبُ وَمَجْمَعُ الشَّمْلِ، يُقَالُ: بَيْتٌ وَبُيُوتٌ وَأَبْيَاتٌ"[4]، و"بَيْتُ الرجل: دارُه، وقَصْرُه، والبَيْت من الشَّعَر: ما كان أكبر من الخِبَاء أي: ما زاد على شُقَّة واحدة، ثمّ هو مِظَلّة إذا كَبِر عن البيت، وهي تسمَّى بيتًا أيضًا إذا كان ضَخْمًا مُرَوّقًا"[5].

(1) البقاعي، نظم الدرر: 2/152.
(2) الرازي، مفاتيح الغيب: 4/50.
(3) محمد رشيد رضا، تفسير المنار: 1/378.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بيت).
(5) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (بيت).

و"أصل البيت مأوى الإنسان بالليل؛ لأنّه يقال: بَاتَ: أقام بالليل، كما يقال: ظلَّ بالنهار، ثمَّ قد يقال للمسكن: بيت من غير اعتبار الليل فيه"[1].

وهو هنا معرَّف بأل، والمراد هو بيت الله العتيق، وهو مكة وهو المقصود في الآية الكريمة.

3) ﴿مَثَابَةً﴾: اسم مكان أو مصدر، جذره اللغوي (ثوب)، والهاء فيه للمبالغة أو للتأنيث، وأصل معناه: "العود والرجوع، يقال: ثاب يثوب؛ إذا رجع، والمثابة: المكان يثوب إليه الناس"[2] وهي المكان الذي يستقي من البئر؛ لأنّه يعود إليه كلّ مرَّة ليستقي منه[3].

والأصل في الثّوب "رجوع الشيء إلى حالته الأولى التي كان عليها، أو إلى الحالة المقدّرة المقصودة بالفكرة ... فمن الرجوع إلى الحالة الأولى قولهم: ثَابَ فلان إلى داره، وثَابَتْ إِلَيَّ نفسي"[4].

وهو أيضًا "رجوع الشيء المتفرِّق الذَّاهب، وتجمُّعه في نفس مكانه ثانية - كمثاب البئر يتجمَّع فيه الماء بعد ذهابه"[5].

وجعلوا المثوبة "مكانًا يثوبون إليه كلّ وقت على ممرِّ الأيام وتكرُّر الأعوام، لا يملّون منه، وقيل: مكانًا يكسبون فيه الثواب، ولا شكَّ أنّه موجودٌ فيه الأمران"[6].

والمثابة في الآية: أن تكون "مَرْجِعًا لَهُمْ، قَالَ مُجَاهِدٌ وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: يَأْتُونَ إِلَيْهِ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ وَيَحُجُّونَ، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما: مَعَاذًا وَمَلْجَأً، وَقَالَ قَتَادَةُ وَعِكْرِمَةُ: مَجْمَعًا"[7].

4) ﴿لِلنَّاسِ﴾: اسم ثلاثي مجرَّد، جذره اللغويُّ (نَوَسَ)، وسبق شرحه في الآية السابقة، والمراد من الناس -هنا- حينئذ أمَّته الذين اتبعوه[8].

(1) الراغب، المفردات: (بيت).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بيت).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ثوب).
(4) الراغب، المفردات: (ثوب).
(5) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (ثوب).
(6) السمين، عمدة الحفاظ: (ثوب).
(7) البغوي، معالم التنزيل: 1/146.
(8) الآلوسي، روح المعاني: 1/374.

5) ﴿وَأَمۡنٗا﴾: "وإنّما سمّاه اللّه "أمنا"؛ لأنّه كان في الجاهلية معاذًا لمن استعاذ به، وكان الرجل منهم لو لقي به قاتل أبيه أو أخيه؛ لم يُهِجّه، ولم يَعْرِض له حتّى يخرج منه"[1].

6) ﴿وَٱتَّخِذُواْ﴾: فعل أمر مزيد على وزن (اِفْتَعَلَ) مسند لواو الجماعة، وجذره اللغوي (أخذ)، يقال: "وتَخِذْتُ مَالاً، أَي: كَسبتُه، أُلزمتِ التاءُ الحرفَ، كأَنّها أصليَّةٌ"[2] وقيل غير ذلك، وهو أنّ هذا الفعل (اتّخذ) أصله: من الأخذ، ثمّ أبدلت الهمزة تاء[3] ومصدره: الاتّخاذ "افتعَالٌ من الأَخْذِ، إِلَّا أَنّه أُدْغِم بعد تَلْيِينِ الهمزَةِ وإِبْدَالِ التاءِ، ثمَّ لـمَّا كَثُر الاستعمالُ على لفظِ الافتعالِ؛ تَوَهَّمُوا أَنَّ التاءَ أَصْلِيَّةٌ؛ فبَنَوْا مِنْهُ فَعِلَ يَفْعَلُ، قَالُوا: (تَخِذَ) يَتْخَذُ"[4].

وهو فعل ينصب مفعولين من أفعال التحويل والتصيير.

ومعناه في الآية: أن يصلوا هناك في مقامه الموسوم[5].

7) ﴿مَّقَامِ﴾: اسم مكان، أصله (مَقْوَم)، الجذر اللغويُّ له (قوم)، ومنه "قَامَ قِيَامًا، وَالقَوْمَةُ المَرَّةُ الوَاحِدَةُ، إِذَا انْتَصَبَ، وَيَكُونُ قَامَ بِمَعْنَى: الْعَزِيمَةِ، كَمَا يُقَالُ: قَامَ بِهَذَا الأَمْرِ؛ إِذَا اعْتَنَقَهُ، وَهُمْ يَقُولُونَ فِي الْأَوَّلِ: قِيَامُ حَتْمٍ، وَفِي الآخِرِ: قِيَامُ عَزْمٍ"[6]، و"يُقال هذا قُوام الأَمر وملاكُه"[7]، "ويقال: قَامَ كذا، وثبت، وركز ... وقَامَ فلان مَقَامَ فلان؛ إذا ناب عنه"[8].

ومعنى مقام إبراهيم في الآية: الحَجَر الَّذِي قَامَ عَلَيْهِ إِبْرَاهِيمُ عند بناء الكعبة[9].

8) ﴿إِبۡرَٰهِـۧمَ﴾: اسم عَلَمٍ أعجميٍّ لخليل الرحمن عليه السلام، وسبق شرحه في الآية السابقة[10].

(1) ابن جرير، جامع البيان: 2/29.
(2) الأزهري، تهذيب اللغة: (أخذ).
(3) السمين، عمدة الحفاظ: (أخذ).
(4) الزبيدي، تاج العروس: (أخذ).
(5) البيضاوي، أنوار التنزيل: 1/105.
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قوم).
(7) الأزهري، تهذيب اللغة: (قوم).
(8) الراغب، المفردات: (قوم).
(9) البغوي، معالم التنزيل: 2/71.
(10) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/701.

9) ﴿مُصَلًّى﴾: اسم مكان من الفعل صلّى، اسم جذره اللغويُّ (صلو)، والفعل منها (صلّى) بالتشديد، صلّى يصلّي صلاة.

والمصلَّى: المكان الذي تقام فيه، "والصَّلَاةُ التي هي العبادة المخصوصة، أصلها: الدّعاء، وسمّيت هذه العبادة بها كتسمية الشيء باسم بعض ما يتضمّنه"[1].

والمراد في الآية: "هُوَ الصَّلاةُ عِنْدَ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ؛ أُمِرُوا بِالصَّلاةِ عِنْدَهُ، وَلَمْ يُؤْمَرُوا بِمَسْحِهِ وَلا تَقْبِيلِهِ"[2].

10) ﴿وَعَهِدْنَآ﴾: أي: وأَمَرْنا وأَوْحَيْنا[3].

11) ﴿وَإِسْمَٰعِيلَ﴾: اسم عَلَم على نبي الله ابن خليل الرحمن إبراهيم عليهما السلام، وهو اسم أعجميٌّ، "وَمَعْنَى إِسْمَاعِيلَ بِالْعِبْرِيَّةِ: سَمِعَ اللَّهُ، أَيْ: إِجَابَةُ اللَّهِ؛ لِأَنَّ اللَّهَ اسْتَجَابَ دُعَاءَ أُمِّهِ هَاجَرَ"[4]، وقد جعل الزَّبيدي جذره اللغوي من السين والميم والعين واللام، وقال: إنّه لم يذكره أحد من المعجميين، "ويُقالُ فِيهِ: إِسْماعِينُ، بالنُّونِ، وزَعَمَ ابنُ السِّكِّيتِ: أَنَّ نُونَهُ بَدَلٌ مِنَ اللَّامِ"[5].

و"قِيلَ: سُمِّيَ إِسْمَاعِيلُ؛ لِأَنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ يَدْعُو اللَّهَ أَنْ يَرْزُقَهُ وَلَدًا، وَيَقُولَ: اسْمَعْ يَا إِيلُ، وَإِيلُ هُوَ اللَّهُ، فَلَمَّا رُزِقَ؛ سَمَّاهُ اللَّهُ بِهِ"[6].

وقد نشأ "إِسْمَاعِيل بن إِبْرَاهِيم صلّى الله عَلَيْهِمَا مَعَهم، فَتكلَّم بلسانهم، فَهُوَ وَأَوْلَاده العَرَب المستعربة"[7]، والمَعْنِيُّ بلسانهم: العرب العاربة.

وإسماعيل هو الذَّبيح المذكور قصته في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَسۡلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ﴾ [الصافات: 103]، وقد أسكن إبراهيمُ عليه السلام "ابْنَهُ إِسْمَاعِيلَ وَأُمَّهُ هَاجَرَ بِوَادِي مَكَّةَ، ثُمَّ لَمَّا شَبَّ إِسْمَاعِيلُ بَنَى إِبْرَاهِيمُ الْبَيْتَ الْحَرَامَ هُنَالِكَ"[8].

(1) الراغب، المفردات: (صلا).
(2) الواحدي، التفسير الوسيط: 1/205.
(3) البغوي، معالم التنزيل: 1/184.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/719.
(5) الزبيدي، تاج العروس: (سمعل).
(6) البغوي، معالم التنزيل: 1/184.
(7) الأزهري، تهذيب اللغة: (عرب).
(8) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/702.

12) ﴿طَهِّرَا﴾: فعل أمر مسند لألف الاثنين، الماضي منه: (طهّرَ)، الجذر اللغوي (طهر)، وأصل معناه: "يَدُلُّ عَلَى نَقَاءٍ وَزَوَالِ دَنَسٍ، وَمِنْ ذَلِكَ الطُّهْرُ، خِلَافُ الدَّنَسِ، وَالتَّطَهُّرُ: التَّنَزُّهُ عَنِ الذَّمِّ وَكُلِّ قَبِيحٍ، وَفُلَانٌ طَاهِرُ الثِّيَابِ، إِذَا لَمْ يُدَنَّسْ"[1]، "والطَّهَارَةُ ضربان: طَهَارَةُ جسمٍ، وطَهَارَةُ نفسٍ، وحمل عليهما عامّة الآيات"[2].

"وكلّ ما في القرآن من التركيب فهو من الطهارة، بمعنى: النقاء من الأدران المادية أو المعنوية، ومن المعنوية قبائح النفس والقلب"[3].

والمراد من تطهير البيت: الجانبان: المادي من طهارته من الأوساخ والقاذورات، والجانب المعنوي كخلوّه من الأصنام، وأن يطوف بالبيت عريان، وعدم مباشرة الأعمال المنافية للحقّ كالاعتداء ونحوه[4].

13) ﴿لِلطَّآئِفِينَ﴾: جمع مذكر سالم، مفرده طائف، وجذره اللغوي (طوف)، وأصل معناه "دَوَرَانُ الشَّيْءِ عَلَى الشَّيْءِ، وَأَنْ يُحَفَّ بِهِ، ثُمَّ يُحْمَلَ عَلَيْهِ، يُقَالُ: طَافَ بِهِ، وَبِالْبَيْتِ يَطُوفُ طَوْفًا وَطَوَافًا"[5].

والطّواف: "المشيُ حولَ الشيءِ، ومنه: الطَّائِفُ لمن يدور حول البيوت حافظًا، يقال: طَافَ به يَطُوفُ"[6].

ومعناه المحوري: "غِشْيان الشيء بغلظ أو قوّة غِشْيانًا يَعُمّ حدُودَه: جوانبه أو أعلاه ... والطّوَافُ غِشْيانٌ لجوانبِ ما يطاف به، وهذه الصيغة تعبّر عن التكلّف والحرص على الاتصاف، ويؤخذ منه التعبير عن المبالغة، أي: الاجتهاد في الطّواف إكثارًا وإخلاصًا، ومن الطّواف بالبيت هذا لِلطَّائِفِينَ"[7].

ومعنى الطّواف في الآية: "المشي حول الكعبة، وهو عبادةٌ قديمةٌ من زمن إبراهيم قرّرها الإسلام، وقد كان أهل الجاهليّة يطوفون حول أصنامهم كما يطوفون بالكعبة"[8].

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (طهر).
(2) الراغب، المفردات: (طهر).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (طهر).
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/712.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (طوف).
(6) الراغب، المفردات: (طوف).
(7) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (طوف - طيف).
(8) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/241.

14) ﴿وَٱلۡعَٰكِفِينَ﴾: جمع مذكر سالم، مفرده عاكف، جذره اللغويُّ (عكف)، وأصل معناه "يَدُلُّ عَلَى مُقَابَلَةٍ وَحَبْسٍ، يُقَالُ: عَكَفَ يَعْكُفُ وَيَعْكِفُ عُكُوفًا، وَذَلِكَ إِقْبَالُكَ عَلَى الشَّيْءِ لَا تَنْصَرِفُ عَنْهُ"[1].

والعكوف "الإقبال على الشيء، وملازمته على سبيل التّعظيم له.

والاعْتِكَافُ في الشّرع: هو الاحتباس في المسجد بشرائط على سبيل القربة"[2].

ومعنى العاكفين: "المقيمين به، والعاكف على الشيء هو المقيم عليه ... وإنّما قيل للمعتكف: معتكف من أجل مقامه في الموضع الذي حبس فيه نفسه لله تعالى"[3].

15) ﴿وَٱلرُّكَّعِ﴾: جمع تكسير، مفرده راكع، والجذر اللغويُّ له (ركع)، وأصل معناه "يَدُلُّ عَلَى انْحِنَاءٍ فِي الْإِنْسَانِ وَغَيْرِهِ، يُقَالُ: رَكَعَ الرَّجُلُ، إِذَا انْحَنَى، وَكُلُّ مُنْحَنٍ رَاكِعٌ"[4].

ومعنى الركوع: "الانحناء، فتارة يستعمل في الهيئة المخصوصة في الصلاة كما هي، وتارة في التّواضع والتّذلُّل، إمَّا في العبادة، وإمَّا في غيرها"[5].

ورَكَعَ بمعنى: "انحنَى، وكُلُّ شيء يَنْكبُّ لوجهه، فتمسُّ ركبته الأرض، أو لا تمسُّها بعد أن يخفض رأسه فهو راكع، ورَكَع ... وركوع الصلاة معروف"[6]، والمعنى في الآية: "المصلُّون جمع راكع وساجد، وخصّ الركوع والسجود بالذكر من جميع أحوال المصلي؛ لأنّهما أقرب أحواله إليه تعالى"[7].

16) ﴿ٱلسُّجُودِ﴾: مصدر للفعل سجد يسجد سجوداً، وجذره اللغويُّ (سجد)، وأصل معناه: " تَطَامُنٌ وَذُلٌّ يُقَالُ: سَجَدَ؛ إِذَا تَطَامَنَ، وَكُلُّ مَا ذَلَّ، فَقَدْ سَجَدَ"[8].

"وسجدَ الرجلُ سجودًا، وأصلُ السُّجودِ إدامةُ النّظرِ في إطراقٍ إلى الأَرضِ، وكذلكَ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عكف).
(2) الراغب، المفردات، السمين، عمدة الحفاظ: (عكف).
(3) ابن جرير، جامع البيان: 42-2/41.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ركع).
(5) الراغب، المفردات: (ركع).
(6) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (ركع).
(7) الآلوسي، روح المعاني: 1/379.
(8) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سجد).

أَسجد؛ إذا أدام النّظر"[1]، و"السُّجُودُ أصله: التّطامن والتّذلّل، وجُعل ذلك عبارة عن التّذلّل لله وعبادته، وهو عامّ في الإنسان ... وليس ذلك إلّا للإنسان، وبه يستحقُّ الثواب"[2].

والمراد بالسجود في الآية المصلُّون[3] باقترانه مع الركَّع.

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

واذكر -أيها النبيُّ ﷺ- حين جعلنا الكعبة مرجعًا للناس، يأتونه، ثم يرجعون إلى أهليهم، ثم يعودون إليه، ومَجْمعًا لهم في الحج والعمرة، والطواف، والصلاة، وأمنًا لهم، لا يُغِيرُ عليهم عدوٌّ فيه، وقلنا: اتخِذوا من مقام إبراهيم مكانًا للصلاة فيه، وهو الحَجَر الذي وقف عليه إبراهيم عند بنائه الكعبة، وأوحينا إلى إبراهيمَ وابنِه إسماعيل: أن طهِّرا بيتي من كلِّ رجس ودَنَس؛ للمتعبِّدين فيه بالطواف حول الكعبة، أو الاعتكاف في المسجد، والصلاة فيه؛ فإنَّ من لوازم العبادةِ في البيت الحرام أن يكون طاهرًا، من الرِّجس المعنوي كالأصنامِ وغيرها، ومن الرِّجس المادي كالأوساخِ والقاذورات ونحوها[4].

وفي الآية تذكير للعرب بنعم أسبغها الله عليهم، ومنن قلَّدها جِيْدَهم، وهي جعلُ البيت الحرام مرجعًا للناس يقصدونه، ثمّ يثوبون إليه، وجعلُه مأمنًا لهم في هذه البلادِ بلادِ المخاوف التي يُتخطّف الناس فيها من كلّ جانب.

الإِيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

دلالةُ إعادةِ الظرفِ (إذ):

التَّنبيهُ على استقلالِ جعلِ البيتِ عن قصَّةِ الابتلاءِ

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾ أي: واذكر وقتَ أنْ صيَّرَ الله تعالى البيتَ الحرامَ مثابةً للنَّاس وأمنًا، وأعاد ذكر الظرف الدالّ على المضيِّ (إذ)؛ "لِلتَّنْبِيهِ عَلَى اسْتِقْلَالِ الْقِصَّةِ، وَأَنَّهَا جَدِيرَةٌ بِأَنْ تُعَدَّ بِنِيَّةٍ أُخْرَى"[5]، ثمّ إنّها ليست مترتِّبة

(1) الجوهري، صحاح اللغة: (سجد).
(2) الراغب، المفردات: (سجد).
(3) السمين، الدرّ المصون: (سجد).
(4) المراغي، تفسير المراغي: 1/210، ونخبة من العلماء، التفسير الميسر، ص: 19.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/707.

على قصة ابتلاء إبراهيم عليه السلام قبلها؛ فهي وإن عُطفت بالواو فالواو لمطلقِ الجَمْع، وليست للتَّرتيب[1].

فائدةُ إضافةِ (جعل) إلى نون العظمة:

أُضيف الفعل (جعل) إلى (نا) لقصد التَّعظيم والتَّشريف والإجلال لبيت الله الحرام، وتعليمِ النَّاسِ مكانةَ البَيْتِ عند الله تعالى.

سرُّ استعمالِ لفظِ ﴿ٱلۡبَيۡتَ﴾ دون وَصْفٍ:

البيتُ علَمٌ على المكانِ الذي ارتضاه الله لعبادتِه الحقَّةِ

آثرتِ الآيةُ ذكرَ لفظ ﴿ٱلۡبَيۡتَ﴾ دونِ تقييدِه بوَصْفٍ خاصٍّ، كما ورد في بقيَّة الآيات، من مثل: العتيق، أو المحرَّم، أو الحرام، وتعَدُّد الصِّفات يدلُّ على شرفِ الموصوفِ، فتسميته بالبيت؛ لأنّه مأخوذ من البيتوتة، وهو المأوى الذى تأوي إليه النَّفس، وتسكن فيه، وتستريح؛ ولذلك سمِّيت الكعبة بيتاً؛ لأنّها المكان الذي يستريح إليه الخلق، وفيه إشارة إلى كمال البيت إذا أُطلق على البيت الحرام؛ لأنّه أول بيت للعبادة، ولأنّه موضع الأمن من الخوف، وإطلاقُه دون وَصْفٍ للتَّنبيه على أنَّ البَيت بدأتِ العبادةُ فيه مذ جعله الله مثابةً للنَّاسِ وأمنًا، وليكون عَلَمًا على ذلك البناءِ المُتَّخذِ للعبادةِ والسَّكينةِ.

سِرُّ اختيارِ مفردةِ ﴿مَثَابَةً﴾ دونَ الرجوعِ:

المَثَابَةُ جَمَعَتْ بَيْنَ معنَيَي الرُّجوعِ ونَيْلِ الثَّوابِ

لكلمةِ مثابة إيحاءاتٌ لغويَّة تُميِّزُها عن معنى الرُّجوع، ذلك أنّ مادة (ثوب) تشير إلى الثواب، وهو اكتساب الحسنات، فالعبَّادُ يثوبون لينالوا الثَّوابَ، وهذا ما يميّزها من معنى الرجوع، فالذين يزورون البيت الحرام يلوذون به؛ لاكتساب الحسنات بصورة لا تتحقق في سواه، فالصلاة فيه بمئة ألف، والحج والعمرة مغفرة للذنوب، ويُكتب للحاجّ ولادةٌ جديدةٌ مصداقاً لحديث النبي صلى الله عليه وسلم: «مَنْ أَتَى هَذَا الْبَيْتَ، فَلَمْ يَرْفُثْ، وَلَمْ يَفْسُقْ، رَجَعَ كَمَا وَلَدَتْهُ أُمُّهُ»[2].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/707.

(2) صحيح مسلم: 4/107.

دلالةُ الهاءِ في كلمةِ ﴿مَثَابَةً﴾:

الإخبارُ عمَّا سيقعُ في نفوسِ العبادِ وأعمالِهم غَيْبٌ مستقبليٌّ

معنى مثابة في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾: "مباءة ومرجعاً للحجّاج والعمّار، يتفرقون عنه، ثمّ يثوبون إليه، أي: يثوب إليه أعيان الذين يزورونه أو أمثالهم"[1]، و"الهَاءُ إِنَّمَا دَخَلَتْ فِي مَثَابَةٍ مُبَالَغَةً، كَمَا فِي قولهم: نسّابة وعلَّامة"[2]، فالتكثيرُ في المثابة من جهتين: الأولى أنّ الناس من حجّاج وعمّار ومصلّين ومعتكفين وأضرابهم يعودون إليه بعد أن ينصرفوا منه، والثَّانية "أَنَّهُ لَا يَنْصَرِفُ عَنْهُ أَحَدٌ إِلَّا وَهُوَ يَتَمَنَّى العَوْدَ إِلَيْهِ"[3]، وفي ذلك إخبارٌ عن أمرٍ غَيبيٍّ سيقع في النُّفوسِ والأعمال.

سرُّ اختيارِ لفظِ (الناس) دونَ المسلمينَ:

عالميَّةُ الدعوةِ الإسلاميَّة تبدأُ من عهدِ إبراهيم عليه السلام

لفظ ﴿لِّلنَّاسِ﴾ لفظٌ عامّ، يصدُق على كلّ البشر، وفي هذا دلالة على عالميَّة الدعوة، فالكلّ مدعوٌّ لحجِّ بيت الله الحرام، ولا يحجّ إلّا بعد إسلامه والتزامِه بشريعةِ محمَّدٍ ﷺ؛ بخلاف ما لو قال للمسلمين؛ لفُهم من ذلك القصر، لكنّ القرآن أعلن للناس جميعاً أنّ المثابة والأمن من البيت الحرام لهم؛ إذا أسلموا، ويؤكّد هذه العالميَّة قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: 96]؛ ففيه دعوةٌ للبشريَّةِ كلِّها للحجِّ إلى ذلك البيتِ، ولا يكون ذلك إلّا بالإسلامِ.

نكتةُ التَّعبيرِ بالمصدرِ ﴿وَأَمْنًا﴾:

البَيْتُ أمنٌ سابغٌ لـزائـرِه، وأمـنٌ سائغٌ لساكِنِه

عبّر النَّظمُ بالمصدرِ دون اسم الفاعلِ في كلمة ﴿وَأَمْنًا﴾؛ للمبالغة في وصفِ البيت الحرام، بأنَّه صار هو الأمن نفسه، فكأنّ كلّ جزء من أركانه ينطق بالأمن، أو على تقدير: ذا أمن، أو على الإسناد

(1) الزمخشري، الكشاف: 1/318.
(2) الرازي، مفاتيح الغيب: 4/50.
(3) الرازي، مفاتيح الغيب: 4/50.

المجازي، أي: من حجَّه؛ كتب الله له الأمن من عذاب الآخرة، أو من دخله؛ كان آمناً لا يتعرض له أحد بالعقوبة حتّى يخرج.

بلاغةُ تقديمِ المثابةِ على الأمنِ:

تقديمُ الغايةِ على الوسيلةِ، من بابِ الأخذِ بالأسبابِ

في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾ قُدِّمتِ المثابةُ، وهي المرجع والمعاد على الأمن، وهو من باب تقديم الغايةِ على الوسيلةِ، والأصل على فرعه؛ لأنّ الأصل في البيت الحرام أن يكون مرجعًا للمسلمين يثوبون إليه في الحجّ والعمرة والصلاة؛ "ليمحو الله سبحانه ما في صدورهم من ضيق وهموم مشكلات الحياة"[1].

أمّا كونه أمنًا فهو وسيلةٌ فرعيَّةٌ خادمةٌ للعبادةِ التي هي المثابة، فلولا الأمنُ الذي وعد الله به؛ لما استقرَّتِ العبادةُ، وما استطاعَ النَّاسُ المجيءَ إليه؛ ففيه تعليمٌ أنَّ الأخذَ بالأسبابِ مُعينٌ على العبادةِ والاستمرار فيها.

إعرابُ المثابةِ بينَ الحاليّةِ والمفعوليّةِ:

اجتماعُ معنى المفعوليَّةِ الدّالةِ على الثُّبوتِ، والحاليّةِ الدّالةِ على التجدُّدِ

الفعل جعل في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾ يحتمل "أن يكونَ بمعنى: خَلَقَ، ووَضَعَ، فيتعدَّى لواحدٍ، وهو البَيْت، ويكون مَثَابةً نصباً على الحالِ"[2].

ويجوز أن يكون "بمعنى: صَيَّر، فيتعدَّى لاثنين، فيكون مثابةً هو المفعولُ الثاني"[3]، والدلالة متباينةٌ في الحالين وضعًا وصناعةً، متقاربةٌ حقيقة، فعلى جعل المثابة حالاً، والحال تفيد التحوّل والانتقال، قبالة المفعولية التي تفيد الثبوت والاستقرار، فإنّه تعالى صيّر البيت مثابة، وتمّ الأمر واستقر، أمّا كون المثابة حالاً؛ فالحال هنا يفيد التجدُّد والاستمرار، وهو قريب من الثبوت والاستقرار؛

(1) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 1/576.
(2) السمين، الدر المصون: 2/104.
(3) السمين، الدر المصون: 2/104.

فلكثرة العائدين إلى البيت واستمرار مثوبتهم إليه حجًّا وعمرةً وصلاةً واعتكافًا، فكأنّهم ثابتون في مثوبتهم، والحال هنا: "دالّة على غير معنًى منتقل"[1]؛ كقوله تعالى: ﴿وَخُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ ضَعِيفٗا﴾ [النساء: 28]، أي: أنّ ضعفه متجدِّد طورًا بعد طور، وكذا مع المثابة، فإنّها؛ وإن كانت حالاً، لكنّها متجددة؛ لكثرة ما يثوب إليها الناس؛ فتدلّ على معنًى غير منتقل.

سرُّ الفصلِ بين المثابةِ والأمنِ بـ(النَّاس):

المثابةُ متعلّقةٌ بالعقلاءِ، والأمنُ يعمُّ العقلاءَ وغيرَهم

في قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ جَعَلۡنَا ٱلۡبَيۡتَ مَثَابَةٗ لِّلنَّاسِ وَأَمۡنٗا﴾ اقترن لفظُ الناس بالمثابة للبيت الحرام، فقال: ﴿مَثَابَةٗ لِّلنَّاسِ﴾، ثمّ عطف عليه (الأمن)، ولم يقل: مثابةً وأمنًا للنَّاس، وذلك لتوجيه النَاس إلى العبادةِ أصالةً، وليكون الأمنُ تابعًا للعبادةِ، ففيه طمأنةٌ للنَّاسِ، وتوجيهٌ بأنْ لا يجعلوا الأخذَ بالأسباب مساويًا للأخذ بالغايات، وأمرٌ آخر وهو أنَّ المثابة أمرٌ تعبديٌّ مختصّ بالعقلاء، بخلافِ الأمنِ فهو للعقلاءِ وغيرهم.

توجيهُ القراءاتِ القرآنيَّةِ:

اتِّخاذُ المقامِ خبرٌ ماضٍ، ومستقبلٌ ماضٍ

اختلف القُرَّاءُ في قراءةِ قوله تعالى: ﴿وَٱتَّخِذُواْ﴾؛ فقرأ الجمهورُ: ﴿وَٱتَّخِذُواْ﴾ على أنّ الفعل فعلُ أمرٍ، وقرأ "نَافِع وَابْنُ عَامر: ﴿وَٱتَّخَذُواْ﴾ مَفْتُوحَة الْخَاء على الْخَبَر"[2]، ومعنى قراءةِ الجمهور: "أَنَّ هَذَا أَمْرٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى لِأُمَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ أَنْ يَتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى"[3]، ومعنى قراءة نافع وابن عامر: أنّ اتخاذ مقام إبراهيم مصلًّى "كَانَ مِنْ عَهْدِ إِبْرَاهِيمَ عليه السلام، وَلَمْ يَكُنِ الْحَجَرُ الَّذِي اعْتَلَى عَلَيْهِ إِبْرَاهِيمُ فِي الْبِنَاءِ مَخْصُوصًا بِصَلَاةٍ عِنْدَهُ"[4].

(1) ابن مالك، شرح التسهيل: 2/322.
(2) ابن مجاهد، السبعة في القراءات، ص: 170.
(3) الرازي: مفاتيح الغيب: 4/53.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/711.

نكتةُ التَّعبيرِ بمقامِ دونَ مكانٍ:

مَدْحُ إبراهيمَ بالإشارةِ إلى الجُهدِ المبذولِ في رفعِ البَيْتِ

كلمةُ المقام تُشير إلى معنًى شرعيٍّ وتاريخيٍّ، أمَّا الشَّرعيُّ فهو القيام للصَّلاة، وأمَّا التَّاريخيُّ فهو إشارةٌ إلى الجهدِ الذي بذله إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام في رفع قواعد البيت؛ لأنّ القيام يعني الانتصاب وبذل الجهد، ففيه مدحُ سيدِنا إبراهيم بأنّه صاحب المقام، وفي ذلك رفعة له، ولا يؤدِّي تلك النكتةُ لفظُ مكان، إذ هي لا تعدو أن تكون دلالتها إلى وجود مكانٍ وُجِدَ فيه إبراهيم عليه الصَّلاةُ والسَّلام، والآيةُ تريد ما سبقتِ الإشارةُ إليه.

دلالةُ تعديةِ الفعلِ (عهِد) بحرفِ (إلى):

علوُّ قدرِ إبراهيمَ وإسماعيلَ عليهما السلام

أصلُ معنى العهد: الوعدُ المؤكّد وقوعُه؛ فإذا عُدِّي بـ (إلى) كان بمعنى: الوصيَّة المؤكّدة على المُوصَى العمل بها، فالمعنى: وأوصينا إلى إبراهيم وإسماعيل، وفي هذا دلالة على شدّة حرصهما على تنفيذ ما عهد به إليهما.

بلاغةُ اختيارِ الصِّيغِ وأثرُها في المعنى:

شمولُ الأمرِ بالتَّطهيرِ المعنويَّات والحسيَّات على حدٍّ سواء

جاءت صيغةُ الأمر بالتَّطهيرِ في قوله تعالى: ﴿أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ﴾ بالفعل المضعّف، ومن أبرزِ معاني هذه الصِّيغةِ المبالغةُ والتكثيرُ[1]، ووظيفةُ هذا الفعل بيانُ هذا المعنى، وهو تطهير البيتِ حسِّيًّا ومعنويًّا، إذ "يُرَادُ بِهِ التَّطْهِيرُ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ لَا يَلِيقُ بِالْبَيْتِ، فَإِذَا كَانَ مَوْضِعُ الْبَيْتِ وَحَوَالَيْهِ مُصَلًّى؛ وَجَبَ تَطْهِيرُهُ مِنَ الْأَنْجَاسِ وَالْأَقْذَارِ، وَإِذَا كَانَ مَوْضِعَ الْعِبَادَةِ وَالْإِخْلَاصِ لِلَّهِ تَعَالَى؛ وَجَبَ تَطْهِيرُهُ مِنَ الشِّرْكِ وَعِبَادَةِ غَيْرِ اللَّهِ"[2]، فطهارته واقعةٌ على الجانبين الحسِّيِّ والمعنويِّ، فناسب التَّعبيرُ بالفعل الدَّالِّ على الكثرة والمبالغة.

(1) سيبويه، الكتاب: 4/64.
(2) الرازي، مفاتيح الغيب: 4/56.

دلالةُ إضافةِ البيتِ إلى (ياء) المتكلّم في قوله: ﴿بَيۡتِيَ﴾:

أُضيف البيتُ إلى ياء المتكلم في قولِه تعالى: ﴿أَن طَهِّرَا بَيۡتِيَ﴾ لتشريف البيتِ وتكريمه وتعظيمه؛ فهو بيت اللّه المخصَّصُ لعبادته وحده، وفي الإضافة دعوةٌ إلى الاعتناءِ الخاصِّ بتطهيره لكونه بيت اللّه، وهذه الإضافة هي السبب الجاذب للقلوب إليه[1].

نكتةُ ترتيب أصناف العابدين:

تقديمُ الأقلِّ على الأكثرِ في العددِ، والأخصِّ على الأعمِّ بعبادةِ البيت

رتَّب النَّظمُ الكريم أصنافَ العابدين في قوله تعالى: ﴿طَهِّرَا بَيۡتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلۡعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾؛ فبدأ بالطائفين فالعاكفين فالرُّكَّع السُّجود، وهو "تدرَّجٌ من القلّة إلى الكثرة، فالطَّائفون أقلُّ من العاكفين؛ لأنّ الطواف لا يكون إلَّا حول الكعبة، والعكوف يكون في المساجد عمومًا"[2]، والعاكفون أقلُّ من الركّع؛ لأنّ الاعتكاف لا يكون إلّا في المساجد، وله شروطه وزمنه، فالاعتكاف محدَّد بالمسجد، وأمّا الرُّكَّع السُّجود فهم الأكثرُ عدداً، وقُدِّمت صفة الرُّكوع على السُّجود، إذ لكلّ ركعة سجدتان، فالسّجود أكثر عددًا ونوعاً كذلك، فهناك سجود التلاوة وسجود السهو وسجود الشكر وغيرها، فصفة السجود لها وجودٌ أكثر من صفة الرُّكوع، ولهذا التَّقديم نكتةٌ أخرى، وهي أنَّ الطَّائفين هم المخصوصون بعبادةِ البيت الحرام، فهو الأخصُّ في هذا السِّياق؛ فقدّم "الطَّائفين لقرب الطواف من البيت واختصاصه به والعكوف في سائر البلد"[3].

سرُّ اختيارِ جمعِ السلامةِ وجمع التّكسيرِ في كلّ صنفٍ:

اختيارُ صيغ الجموعِ بلاغةٌ قرآنيَّةٌ ودلالةٌ واقعيَّةٌ

استعمل النَّظمُ جمع السلامة مع الطائفين والعاكفين في قوله تعالى: ﴿طَهِّرَا بَيۡتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلۡعَٰكِفِينَ﴾؛ "لِأَنَّهُ أَقْرَبُ إِلَى لَفْظِ

(1) صديق خان، فتح البيان: 1/278.
(2) فاضل السامرائي، التعبير القرآني، ص: 57.
(3) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/416.

الْفِعْلِ؛ بِمَنْزِلَةِ: يَطُوفُونَ، أَيْ: يُجَدِّدُونَ الطَّوَافَ؛ لِلْإِشْعَارِ بِعِلَّةِ تَطْهِيرِ الْبَيْتِ، وَهُوَ قُرْبُ هَذَيْنِ مِنَ الْبَيْتِ بِخِلَافِ الرُّكُوعِ وَالسُّجُودِ، فَإِنَّهُ لَا يَلْزَمُ أَنْ يَكُونَا فِي الْبَيْتِ وَلَا عِنْدَهُ"[1]، بينما استعمل جمع الكثرة في قوله تعالى: ﴿وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾، واستعمل المصدر في جمع السَّاجدين للتَّعبير عن الكثرة الكاثرة؛ لأنّ المصدر لا حدّ له؛ إذا أردته للكثرة، فلم يقل: (الساجدين)، ولم يقل: (السُّجَّد)، بل قال: ﴿ٱلسُّجُودِ﴾؛ ليعطي معنى الأكثرية، ويعطي معنى النوعية؛ لكي لا يظن السامع أنّ (الساجدين) أو (السجّد) مختصّ بالصلاة فقط، بل إرادة كلّ سجود؛ ليحقِّق الكثرة في الكميّة والنّوعيّة.

ظهورُ بلاغةِ الاحتراسِ في تركِ العطفِ:

قوله تعالى: ﴿طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ عطف الحقّ تبارك وتعالى المجموعات المتعبِّدة الواحدة على الأخرى، وهنَّ الطائفون والعاكفون والركّع؛ إلّا أنّه لم يعطفِ السجود على الرُّكَّع؛ "لِأَنَّ الوصفين مُتَلَازِمَانِ، وَلَوْ عَطَفَ؛ لَتُوُهِّمَ أَنَّهُمَا وصفان مفترقان"[2]؛ فعدم العطف احتراس من توهُّم افتراق الوصفين، بل هما متلازمان يتصلان بأداء الصلاة؛ "لِأَنَّ الرَّاكِعَ إِنْ لَمْ يَسْجُدْ، فَلَيْسَ بِرَاكِعٍ شَرْعًا، وَلَوْ عُطِفَ بِالْوَاوِ؛ لَأَوْهَمَ أَنَّهُ مُسْتَقِلٌّ كَالَّذِي قَبْلَهُ"[3].

الرُّكوعُ والسُّجودُ وصفانِ متلازِمان عبادةً وخشوعًا

توجيهُ المتشابهِ اللفظيّ:

جاء في قوله تعالى: ﴿طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ ذكر العاكفين، وفي سورة الحج: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ [الحج: 26] ذكر القائمين؛ فيسأل عن سبب ذلك؟

افتراقُ أوصافِ العابدين في الآياتِ اجتماعٌ لها في الدّلالات

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/712.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/713.
(3) الزركشي، البرهان في علوم القرآن: 3/250.

والجواب "أنَّ المراد بالقائمين هنا ذوو الإقامة والملازمة على صفة مخصوصة، وإذا أريد بالقائمين هذا، فهو والعكوف مما يصحّ أن يعبّر بأحدهما عن الآخر"[1]، ثمّ إنّه عدل عن ذكر العاكفين في سورة الحجّ دفعًا للتكرار؛ لتقدّم ذكره في قوله تعالى: ﴿وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِى جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ﴾ [الحج: 25]، "فلمّا تقدّم ذكر العكوف متَّصلاً بالآية وقع الاكتفاء بذلك، وعدل عن التكرار"[2].

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الأمن والطّمأنينة والسَّكينة:

تدور مادة الأمن حول سكون القلب والنفس، والطمأنينة تدور حول السكون، وخصَّه الراغب بالسكون بعد إزعاج، والسكينة: تعني: الثبوت والاستقرار.

هذه المعاني السابقة في جانب اللغة، أمَّا في الاستعمال القرآني؛ فله إيحاءات أخرى، فلفظ الأمن يشمل الأمن المادي والمعنوي، ولا يتحقق الأمن المعنوي إلَّا بعد الأمن المادي، فحفظ الناس من الأضرار هو قمّة الأمن؛ لأنّه يشمل حراسة البلاد، وتمهيد الطرق وإنارتها، والضرب على يد قُطَّاع الطرق مما يرسِّخ قيمة الأمن المادي، الذي هو شرط من شروط الحجّ في الاستطاعة، ويؤكّد ذلك أنّ الخوف ضدُّ الأمن، قال تعالى: ﴿فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ۝٣ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ﴾ [قريش: 3-4].

والأمنُ النَّفسي، وهو يشمل الطمأنينة والسكينة؛ لأنّ الطمأنينة فيها زيادة سكون القلب، والسكينة أرفع درجات السكون والطمأنينة، وكلُّ ذلك من آثار الأمن المادي، لذلك آثر القرآن لفظ الأمن على غيره؛ ليشمل هذه المعاني المادية والمعنوية.

(1) ابن الزبير، ملاك التأويل: 1/49.
(2) ابن الزبير، ملاك التأويل: 1/49.

﴿وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجۡعَلۡ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنٗا وَٱرۡزُقۡ أَهۡلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنۡ ءَامَنَ مِنۡهُم بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلٗا ثُمَّ أَضۡطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ١٢٦﴾

[البقرة: 126]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

التناسب بين هذه الآية والتي قبلها واضح بيِّن، فهما في سياق رفع إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام قواعد البيت الحرام وتهيئته لعباد الله وتطهيره، فإنّه لـمّا "ذكر أمر البيت الشّريف فيما تكفَّل به سبحانه، وفيما أمر به الخليل وولده عليهما السلام من تطهيره؛ ذكَّر باهتمامه بأهله ودعائه لهم مُبكِّتاً لمن عقّه من ذرِّيَّته بالتّصريح بكفرهم بيوم الجزاء، الآمر بكلّ خير الزّاجر عن كلّ ضير"[1].

وجاءت هذه الآية؛ "لإِفَادَة مَنْقَبَةٍ ثَالِثَةٍ لإِبْرَاهِيمَ عليه السلام في اسْتِجَابَةِ دَعْوَتِهِ بِفَضْلِ مَكَّةَ وَالنِّعْمَةِ عَلَى سَاكِنِيهَا؛ إِذَا شَكَرُوا، وَتَنْبِيهٍ ثَالِثٍ لِمُشْرِكِي مَكَّةَ يَوْمَئِذٍ؛ لِيَتَذَكَّرُوا دَعْوَةَ أَبِيهِمْ إِبْرَاهِيمَ الْمُشْعِرَةَ بِحِرْصِهِ عَلَى إِيمَانِهِمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ حَتَّى خَصَّ مِنْ ذُرِّيَّتِهِ بِدَعْوَتِهِ الْمُؤْمِنِينَ"[2].

ومما يُذكر في المناسبة أنّ الآيات التي سبق ذكرها في الحديث عن البيت الحرام، وخصائصه من كونه مثابة للنّاس وأمناً، وفيه مقام إبراهيم، كل ذلك يجعل القارئ يسأل كيف كان حال هذه البقعة الطّاهرة من ناحية الأمن والرزق والعبادة؟، فجاءت هذه الآية بمنزلة الجواب عن هذا السّؤال من خلال دعاء سيدنا إبراهيم عليه السلام.

شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

1) ﴿قَالَ﴾: فعل ماضٍ، أصل حروفه (قول)، وسبق شرحه في الآية السابقة.

2) ﴿إِبۡرَٰهِـۧمُ﴾: اسم عَلَمٍ أعجميٍّ لخليل الرحمن عليه السلام، وسبق شرحه قريباً في الآية (124).

(1) البقاعي، نظم الدرر: 2/155.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/713.

3) ﴿رَبِّ﴾: اسم مُضعّفٌ ثُلاثيّ (ربّ)، الجذر اللغويُّ منه (ربب)، وسبق شرحه في الآية السابقة.

4) ﴿ٱجۡعَلۡ﴾: فعل أمر، وجذره اللغويُّ (جعل)، والمراد في الآية: تصيير الشيء بالقول، وسبق شرحه في الآية السابقة.

5) ﴿بَلَدًا﴾: اسم ثلاثي، جذره اللغوي (بلد)، والأصل في معناه "يَتَقَارَبُ فُرُوعُهُ عِنْدَ النَّظَرِ فِي قِيَاسِهِ، وَالْأَصْلُ الصَّدْرُ ... وَالْبَلَدُ صَدْرُ الْقُرَى"[1].

وهو "كلُّ موضع متحيِّز من الأرض عامر أو غامر تحيّزه، كأنّ عليه حاجزًا يحبس، وأصل البلد المسكون مساحة خالية متميِّزة تُتَّخذ للإقامة، والإقامة احتباس"[2].

والبلد "المكان المحيط المحدود المتأثر باجتماع قطّانه وإقامتهم فيه، وجمعه: بِلَاد وبُلْدَان"[3] "وسمّي البلد بلدًا لتأثُّره بسكَّانه واجتماع قطَّانه وإقامتهم فيه، والبلد هو المكان المحدود، وغالبًا يكون مسوَّرًا، وقد لا يكون"[4].

والبلد المعنيُّ في الآية: هو مكة المكرمة، وفيه "إِشَارَةٌ إِلَى الْوَادِي الَّذِي دَعَا لِأَهْلِهِ حِينَ أَسْكَنَهُمْ فِيهِ، وَهُوَ قَوْلُهُ: بِوادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ"[5].

6) ﴿ءَامِنًا﴾: اسم فاعل من أمِنَ يأمنُ، وجذرُه من الهمزةِ والميمِ والنونِ، وهي تدلُّ على سكونِ القلبِ وتصديقِه[6].

وأصلُ الأمنِ طمأنينةُ النفسِ وزوالُ الخوفِ[7] وفعلُه: أمنَ.

ووصفت مكة بالأمن؛ لأنّها كانت في الجاهلية معاذًا لمن استعاذ بها، وكان الرجل منهم لو لقي بها قاتل أبيه أو أخيه؛ لم يهجه، ولم يعرض له حتّى يخرج منها[8].

7) ﴿وَٱرۡزُقۡ﴾: فعل أمر، الماضي منه (رزقَ)، وجذره اللغوي (رزق)، والأصل في معناه

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بلد).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (بلد).
(3) الراغب، المفردات: (بلد).
(4) السمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (بلد).
(5) أبو حيان، البحر المحيط: 1/612.
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أمن).
(7) الرّاغب، المفردات: (أمن).
(8) ابن جرير، جامع البيان: 2/29.

"عَطَاءٌ لِوَقْتٍ، ثُمَّ يُحْمَلُ عَلَيْهِ غَيْرُ الْمَوْقُوتِ، فَالرِّزْقُ: عَطَاءُ اللَّهِ جَلَّ ثَنَاؤُهُ، وَيُقَالُ: رَزَقَهُ اللَّهُ رِزْقًا"[1].

"الرِّزْقُ: يقال: للعطاء الجاري تارة، دنيويًّا كان أم أخرويًّا، وللنّصيب تارة، ولما يصل إلى الجوف ويتغذّى به تارة"[2].

و"يجوز أن يراد به ما يتغذَّى به كالحب ونحوه، وأن يراد ما ينتفع به من مأكولٍ وملبوسٍ ونحوهما"[3]، وهو أيضًا "ما يدخل الجوف من طعام ونحوه باسترسال، أي: دائمًا كالرزق، وهو دائم"[4].

ومعنى رزق "أَهْلِ هَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ مِنَ الثَّمَرَاتِ ظَاهِرٌ مَعْرُوفٌ بِالْمُشَاهَدَةِ وَالِاخْتِبَارِ الْمُصَدِّقَيْنِ ... فَالثَّمَرَاتُ تُجْبَى، وَتُجْمَعُ مِنْ حَيْثُ تَكُونُ، وَتُسَاقُ إِلَى مَكَّةَ"[5].

8) ﴿أَهْلَهُۥ﴾: اسم ثلاثي مجرَّد، جذره اللغوي (أهل)، وهو اسم جمع، لا واحد له من لفظه، بل من معناه، كرجل وامرأة، وله أصلان: أحدهما "أهل الرجل أخصّ الناس به، وأهل البيت: سكانه، وأهل الإسلام: من يدين به"[6].

وأهل الرجل: "من يجمعه وإياهم نَسَبٌ أو دِينٌ، أو ما يجري مجراهما من صناعة وبيت وبلد"[7]؛ وذلك بحسب ما تضاف إليها وبحسب العلاقة.

9) ﴿ٱلثَّمَرَٰتِ﴾: جمع مؤنَّث بالألف والتاء، جذره اللغوي (ثمر)، وأصل معناه: "شَيْءٌ يَتَوَلَّدُ عَنْ شَيْءٍ مُتَجَمِّعًا، ثُمَّ يُحْمَلُ عَلَيْهِ غَيْرُهُ اسْتِعَارَةً"[8]، والثمر: "حَمْل الشجر، ويقع على كلِّ الثمار، وغلب على ثمر النخل ...، وما ينعقد على أطراف الشجر من حَمْله إذا بلغ يَنْعه: كالبلح واللوبياء وغيرها من ثَمَر الشجر"[9].

ومعنى الثمرات في الآية: "جمع ثمرة، وهو حمل الشجرة من أيّ نوع كان"[10].

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (رزق).
(2) الراغب، المفردات: (رزق).
(3) السمين، عمدة الحفاظ: (رزق).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (رزق).
(5) محمد رشيد رضا، تفسير المنار: 1/381.
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أهل).
(7) الراغب، المفردات: (أهل).
(8) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ثمر)
(9) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (ثمر)
(10) الواحدي، التفسير البسيط: 3/312.

10) ﴿ٱلۡأٓخِرِۚ﴾: اسم على زنة فاعل (أاخر) ثمّ صارت الهمزتان مدة، وهو للتفضيل، جذره اللغوي (أخر)، والأصل في معناه "خِلَافُ التَّقَدُّمِ، وَهَذَا قِيَاسُ أَخَذْنَاهُ عَنِ الْخَلِيلِ، فَإِنَّهُ قَالَ: الْآخِرُ نَقِيضُ الْمُتَقَدِّمِ، وَالْأُخُرُ نَقِيضُ الْقُدُمِ، تَقُولُ: مَضَى قُدُمًا وَتَأَخَّرَ أُخُرًا"[1]، "والآخِرُ: بعدَ الأوَّل، وهو صفةٌ، تقول: جاء آخِراً، أي: أخيرًا، وتقديره: فاعل"[2].

ومعناه "يقابل به الأوّل، وآخَر يقابل به الواحد، ويعبّر بالدار الآخرة عن النشأة الثانية، كما يعبّر بالدار الدنيا عن النشأة الأولى"[3].

والآخر صفة تغلب على يوم القيامة أو الدار الآخرة[4]، وهذا اليوم "هو يوم الجزاء؛ إمّا إلى الجنة، وإمّا إلى النار"[5].

11) ﴿فَأُمَتِّعُهُۥ﴾: فعل مضارع، الماضي منه (مَتّعَ)، مزيد بالتضعيف، جذره اللغوي (متع)، والأصل في معناه "مَنْفَعَةٌ وَامْتِدَادُ مُدَّةٍ فِي خَيْرٍ، مِنْهُ اسْتَمْتَعْتُ بِالشَّيْءِ، وَالْمُتْعَةُ وَالْمَتَاعُ: الْمَنْفَعَةُ"[6].

"وهذا الفعل المضعَّف ومضارعه هما في القرآن بهذا المعنى: البقاء زمنًا ممتدًّا، أي: حسب المعاد في حياة البشر"[7].

"والْمَتَاعُ: انتفاعٌ ممتدُّ الوقت، يقال: مَتَّعَهُ اللّهُ بكذا، وأَمْتَعَهُ، وتَمَتَّعَ به ... وكلّ موضع ذكر فيه تمتّعوا في الدّنيا؛ فعلى طريق التّهديد، وذلك لما فيه من معنى التّوسّع"[8].

ومعنى الفعل في الآية: أمتِّعه جميع نعم الدنيا، "ولكلّ نعمة متعة؛ فالطعام له متعة، والشراب له متعة، والجنس له متعة، ... إذًا التمتُّع في الدنيا بأشياء متعددة"[9].

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أخر).
(2) الجوهري، الصّحاح: (أخر).
(3) الراغب، المفردات: (أخر).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (أخر).
(5) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 6/579.
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (متع).
(7) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (متع).
(8) الراغب، المفردات: (متع).
(9) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 1/583.

12) ﴿قَلِيلًا﴾: اسم على وزن (فَعِيل)، الجذر اللغوي له (قلل)، وله أصلان في معناه؛ أولاهما: "يَدُلُّ أَحَدُهُمَا عَلَى نَزَارَةِ الشَّيْءِ، وَالْآخَرُ عَلَى خِلَافِ الِاسْتِقْرَارِ"[1]؛ والمقصود هنا الأول.

و"القِلَّةُ والكثرة يستعملان في الأعداد، كما أنّ العظم والصّغر يستعملان في الأجسام، ثمّ يستعار كلّ واحد من الكثرة والعظم، ومن القلّة والصّغر للآخر"[2]، ومعنى القليل في (أمتِّعه): فهو يكون نظرًا إلى نعيم الآخرة وزمانها ودوامها؛ فهو قليل[3].

13) ﴿أَضْطَرُّهُۥٓ﴾: فعل مضارع، ماضيه اضطرَّ، وهو مزيدٌ وزنه (افتعل)، والجذر اللغوي له (ضرر)، وله "ثَلَاثَةُ أُصُولٍ: الْأَوَّلُ: خِلَافُ النَّفْعِ، وَالثَّانِي: اجْتِمَاعُ الشَّيْءِ، وَالثَّالِثُ: الْقُوَّةُ"[4].

و"الضُّرُّ: سوءُ الحال، إمَّا في نفسه؛ لقلّة العلم والفضل والعفّة، وإمَّا في بدنه؛ لعدم جارحة ونقص"[5].

واضطرَّ: "أي: ألجئ، افتعالٌ من الضرّ، فقُلبت التاءُ طاءً لوقوعها بعد حرف الإطباق وقيل: هو حمل الإنسان على ما يضرُّه، وقيل هو – في العُرْفِ –: الحَمْلُ على ما يُكْرَهُ"[6].

ومعنى الاضطرار في الآية: "الالْتِجَاءُ، وَهُوَ بِوَزْنِ افْتَعَلَ، مُطَاوِعُ أَضَرَّهُ إِذَا: صَيَّرَهُ ذَا ضَرُورَةٍ، أَيْ: حَاجَةٍ ... يُقَالُ: اضْطَرَّهُ إِلَى كَذَا أَيْ: أَلْجَأَهُ إِلَيْهِ"[7].

14) ﴿عَذَابِ﴾: اسم ثلاثي، جذره اللغويُّ (عذب)، وهو في الأصل من التعذيب، وهو الضرب[8].

وهو أيضاً "حمل الإنسان أن يُعذَّب، أي: يجوع ويسهر، وقيل: أصله من العَذْبِ، فَعَذَّبْتُه،

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قلل).
(2) الراغب، المفردات: (قلل).
(3) الراغب، تفسير الراغب: 1/313.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ضرر).
(5) الراغب، المفردات: (ضرر).
(6) السمين، عمدة الحفاظ: (ضرر).
(7) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/717.
(8) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عذب).

أي: أزلت عَذْبَ حياته على بناء مرّضته، وقذّيته"[1]، "والعَذَابُ: هو الإيجاع الشّديد، وقد عَذَّبَهُ تَعْذِيباً: أكثر حبسه في العَذَابِ"[2].

وهو "الإيجاع الشديد، وأصله من المنع، وسمِّيت العقوبة والإيلام عذابًا باعتبار منعها من معاودة ما عوقب عليه، ومنه الماء العذب؛ لأنّه يُعْذِب العطش"[3].

وأكثر الوارد في القرآن الكريم مقصود منه العذاب الأخروي، وهو كذلك في هذه الآية.

15) ﴿ٱلنَّارِ﴾: اسم ثلاثي، الجذر اللغوي (نور)، فألفُها منقلبة عن واو؛ ولذا تصغَّر على نويرة[4].

والأصل في معناه " إِضَاءَةٌ وَاضْطِرَابٌ وَقِلَّةُ ثَبَاتٍ، مِنْهُ النُّورُ وَالنَّارُ، سُمِّيَا بِذَلِكَ مِنْ طَرِيقَةِ الْإِضَاءَةِ، وَلِأَنَّ ذَلِكَ يَكُونُ مُضْطَرِبًا سَرِيعَ الْحَرَكَةِ"[5].

"والنَّارُ تقال: للَّهيب الذي يبدو للحاسّة ... وللحرارة المجرّدة، ولنار جهنّم"[6] والمقصود من النار في الآية: جهنَّم التي ذكرت كثيراً في القرآن الكريم.

16) ﴿وَبِئْسَ﴾: فعل ماضٍ جامد، جذره اللغوي (بأس)، و"البأس والبؤس والبأساء كلها الشدة والمكروه"[7]، "وبِئْسَ كلمة تستعمل في جميع المذامِّ"[8].

وكلمة بئس "ضِدُّ نِعْمَ، فهي تدلُّ على الشقاء والفراغ من الخير، كما أنَّ نعم ضد ذلك"[9].

والمعنى في الآية ذمُّ الصَّيرورة التي سيصير إليها؛ لأنّها جهنم[10].

17) ﴿ٱلْمَصِيرُ﴾: اسم مكان زنة مَفْعِل، جذره اللغوي (صير)، والأصل في معناه "المَآلُ

(1) الراغب، المفردات: (عذب).
(2) الراغب، المفردات: (عذب).
(3) السمين، عمدة الحفاظ: (عذب).
(4) السمين، عمدة الحفاظ: (نور).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نور).
(6) الراغب، المفردات: (نور).
(7) السمين، عمدة الحفاظ: (بأس).
(8) الراغب، المفردات: (بؤس).
(9) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (بأس).
(10) السمين، الدرّ المصون: 3/469.

وَالْمَرْجِعُ مِنْ ذَلِكَ صَارَ يَصِيرُ صَيْرًا وَصَيْرُورَةً، وَيُقَالُ: أَنَا عَلَى صِيرِ أَمْرٍ، أَيْ: إِشْرَافٍ مِنْ قَضَائِهِ، وَذَلِكَ هُوَ الَّذِي يُصَارُ إِلَيْهِ"[1].

وصار والتصيير الانتقال من حال إلى حال[2].

"وصار إلى كذا: انتهى إليه، وقوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ۝٣﴾ [غافر: 3]؛ كقوله: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ۝٤٢﴾ [النجم: 42]"[3].

"وكلّ ما في القرآن من التركيب ... هو كلمة (مصير) بمعنى: مآل ومنتهى"[4]، ومعنى المصير في الآية: "فإنّه "مَفعِل" من قول القائل: صرت مصيرًا صالحًا، وهو الموضع الذي يصير إليه الكافر بالله من عذاب النار"[5].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

واذكر أيها النبيُّ ﷺ حين قال إبراهيم داعيًا: ربِّ اجعل مكّة بلدًا آمنًا من الخوف، يأمن فيه كلُّ من يأوي إليه، وارزقْ أهلَه من أنواع الثمرات كالحبوب وسائر الفواكه، وخُصَّ بهذا الرِّزق مَن آمن منهم بالله واليوم الآخر، قال الله: ومن كفر منهم فأرزقه - أيضاً - في الدُّنيا وأُمتِّعه متاعًا وزمناً قليلًا، ثم أُلجئُه مرغَمًا إلى عذاب النار، وبئس المرجع والمقام هذا المصير[6].

❁ الإِيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

نكتةُ الدُّعاءِ بعنوانِ الرُّبوبيَّة:

لُطفُ الدُّعاءِ دليلُ فقهِ الدّاعي، وحسنِ توكُّلِه

جاء الدُّعاءُ بعنوانِ الرُّبوبيَّة في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا﴾؛ لأنَّ في ذلكَ اعترافاً صريحاً بأنَّ المطلوبَ لا يقومُ به إلَّا من اتّصف بهذه الصِّفةِ، و(ربِّ) على تقدير: (يا ربّي)، فهو "منادى مضاف منصوب بفتحة مقدرة على ما قبل ياء المتكلم

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (صير).
(2) الراغب، المفردات: (صير).
(3) السمين، عمدة الحفاظ: (صير).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (صير).
(5) ابن جرير، جامع البيان: 2/56.
(6) ابن عجيبة، البحر المديد: 1/164، ونخبة من العلماء، التفسير الميسر، ص: 19.

المحذوفة تخفيفًا"[1]، "وَنَادَاهُ بِلَفْظِ الرَّبِّ مُضَافًا إِلَيْهِ، لِمَا فِي ذَلِكَ مِنْ تَلَطُّفِ السُّؤَالِ وَالنِّدَاءِ بِالْوَصْفِ الدَّالِّ عَلَى قَبُولِ السَّائِلِ وَإِجَابَةِ ضَرَاعَتِهِ"[2].

توجيهُ المُتشابِه اللَّفظيِّ:

سِرُّ التَّعريفِ والتَّنكيرِ في لفظِ البلدِ:

الدُّعاءُ يشملُ إنشاءَ البلدِ الآمنِ، والاستمرار الآمن

جاء لفظُ البلد في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا﴾ مُنكَّرًا، وهو مفعولٌ ثانٍ لفعلِ النِّداء: ﴿ٱجْعَلْ﴾، بينما جاء في قولِه تعالى: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا﴾ [إبراهيم: 35] معرَّفًا، ليكون تابعًا كما هي العادة عند النحويين في أنّ المعرف بـ(أل) بعد اسم الإشارة يقع تابعاً عطف بيان على رأي الخليل أو نعتاً على رأي سيبويه[3]، والفرق بين التّنكير والتَّعريف، أنَّ التَّنكير يُشير إلى أنَّ البيت الحرام لم يكن بلدًا بعد عند الدُّعاء، فدعا إبراهيم عليه السلام أن يكون البيتُ الحرامُ بلدًا؛ فاستُجيبَ له، وآية إبراهيم تُشيرُ إلى أنَّ الدُّعاء قد تحقَّق وأصبح البيتُ الحرامُ بلدًا، والفرق بين الدُّعاءين، أنَّ الدُّعاءَ بصيغة التَّنكير لإنشاءِ البلدِ، وأمَّا الدُّعاء بصيغةِ التَّعريف فهو دعاءٌ بأن يبقى البلدُ آمنًا[4].

سِرُّ انتقاءِ مفردةِ الأمنِ:

الأمنُ صفةٌ راسخةٌ في قيامِ الحضاراتِ واستمرارِها

وبناءً على ما وردَ في النُّكتةِ السَّابقة؛ فقوله تعالى: ﴿ءَامِنًا﴾ في آية البقرة صفة، فهو لم يدعُ بإنشاء البلدِ فحسب، بل بإنشاء بلدٍ آمن، وفي آية إبراهيم مفعولٌ ثانٍ، وهو ما يدلُّ على الاستمراريَّة، وفي هذا الدُّعاء دليلٌ على رحمةِ إبراهيم بالعالمين، وأنَّ الدُّعاء كان بما يُصلِحُ النَّاسَ في أمور دينِهم، بالتَّوجُّه للبيتِ، والمحافظة عليه،

(1) مجموعة من الأساتذة، إعراب القرآن الكريم: 1/102.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 1/612.
(3) سيبويه، الكتاب: 2/86.
(4) الإسكافي، درة التنزيل: 1/282-283.

وأمور دُنياهم، بالأمنِ والأمان؛ "فَإِنَّ أَمْنَ الْبِلَادِ وَالسُّبُلِ، يَسْتَتْبِعُ جَمِيعَ خِصَالِ سَعَادَةِ الْحَيَاةِ، وَيَقْتَضِي الْعَدْلَ وَالْعِزَّةَ وَالرَّخَاءَ؛ إِذْ لَا أَمْنَ بِدُونِهَا، وَهُوَ يَسْتَتْبِعُ التَّعْمِيرَ وَالْإِقْبَالَ عَلَى مَا يَنْفَعُ"[1] فاختلال الأمن اختلال لمقوِّمات العيش فيه.

التَّأويلُ المجازيُّ في قوله: ﴿بَلَدًا ءَامِنًا﴾:

وصفُ البلدِ بالأمنِ يجعله مُتمكِّنًا فيه، ومحيطًا به

الأمنُ في قوله تعالى: ﴿بَلَدًا ءَامِنًا﴾ وصفٌ للبلد، ووزنه (فاعل)، والبلد لا يكون فاعلاً، بل هو مفعول، ففيه عدول من اسم الفاعل إلى اسم المفعول، أي: بلد مأمون[2] على نهج قوله تعالى: ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾ [الحاقة: 21]، وكونه بلدًا مأمونًا من دواعي العيش فيها[3]، والبلد مكوَّنٌ من الأشجار والأحجار وسواهما، فهو تعبيرٌ مجازيٌّ على "أَنْ يَكُونَ المراد أهل البلد، كقوله: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ [يوسف: 82] أَيْ: أَهْلَهَا، وَهُوَ مَجَاز؛ لِأَنَّ الْأَمْنَ وَالْخَوْفَ، لَا يَلْحَقَانِ الْبَلَدَ"[4]، "وَإِمَّا عَلَى إِرَادَةِ آمِنًا أَهْلُهُ عَلَى طَرِيقَةِ الْمَجَازِ الْعَقْلِيِّ لِمُلَابَسَةِ الْمَكَانِ"[5].

سِرُّ تقديمِ الأمنِ وتأخيرِه:

تقديمُ الأمنِ وتأخيرُه بناءً على أصلِه بلاغةٌ تكشف تاريخَ مكَّة

تقدَّم ذكرُ الأمنِ على ذكرِ الرِّزقِ؛ فقولُه تعالى: ﴿وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ عطفٌ على قوله: ﴿ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا﴾، بَيْنَما في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ﴾ [قريش: 4] قُدِّم ذكرُ الإطعامِ على ذكرِ الأمن.

وجواب ذلك أنّ آية البقرة كان الدُّعاء فيها قبل إنشاءِ البلد، فإيجاد البلد سابقٌ لوجود النَّاس فيه، فالتَّرتيب على أصلِه، وآية قريش إخبارٌ عمَّا تحقَّق، والنَّاسُ تقع عليهم منَّةُ الإطعام قبل منَّة

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/715.
(2) الرازي، مفاتيح الغيب: 4/59.
(3) الرازي، مفاتيح الغيب: 4/59.
(4) الرازي، مفاتيح الغيب: 4/59.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/715.

الأمان، فالطَّعام أشدُّ ضرورةً من الأمنِ، فالتَّقديم على أصلِه، وكلُّ آيةٍ جاء فيها التَّقديم بحسب المقامِ، وهو ما يُناسبُ بلاغةَ القرآن.

دلالةُ الألفِ واللامِ في الثَّمراتِ:

الواقعُ يوافقُ الدُّعاء في الاستغراق الحقيقيّ

الألف واللام في الثمرات في قوله تعالى: ﴿وَٱرۡزُقۡ أَهۡلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ للاستغراق، "وَهُوَ اسْتِغْرَاقٌ عُرْفِيٌّ، أَيْ: مِنْ جَمِيعِ الثَّمَرَاتِ الْمَعْرُوفَةِ لِلنَّاسِ، وَدَلِيلُ كَوْنِهِ تَعْرِيفَ الِاسْتِغْرَاقِ مَجِيءُ (مِنْ) الَّتِي لِلتَّبْعِيضِ، وَفِي هَذَا دُعَاءٌ لَهُمْ بِالرَّفَاهِيَةِ حَتَّى لَا تَطْمَحَ نُفُوسُهُمْ لِلِارْتِحَالِ عَنْهُ"[1]، وهو من مقوِّمات الحياة والبقاء[2]، فوجودُ الرِّزق والثَّمرات مؤذنٌ بوجود الحياة واستمرارها، وفي هذا الزَّمنِ وجدنا أنَّ الثَّمرات بالاستغراقِ الحقيقيّ وُجِدت في البلد الحرام، وهو يدلُّ على أنَّ الدُّعاءَ كان حقيقةً في جميع الثَّمراتِ المعروفةِ والمجهولة.

فنُّ الاحتراسِ:

رزقُ الكافرِ في الدُّنيا يغرُّه، والتَّرهيب من شأنه أن يردَعَه

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَضۡطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ بعد أن ذكر الحقّ تبارك وتعالى أنّه سيرزق "الْكَافِرَ أَيْضًا قَلِيلًا إِلَى مُنْتَهَى أَجَلِهِ، وَذَلِكَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى وَعَدَ الرِّزْقَ لِلْخَلْقِ كَافَّةً مُؤْمِنِهِمْ وَكَافِرِهِمْ"[3] بيّن أنّه سيدفعه إلى جهنم، وبئس المصير، "وَقَوْلُهُ: ﴿ثُمَّ أَضۡطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِۖ﴾ احْتِرَاسٌ مِنْ أَنْ يَغْتَرَّ الْكَافِرُ، بِأَنَّ تَخْوِيلَهُ النِّعَمَ فِي الدُّنْيَا، يُؤْذِنُ بِرِضَى اللَّهِ؛ فَلِذَلِكَ ذَكَرَ الْعَذَابَ"[4]، فلا يغترّ بمتاع الدنيا، فإنّ مصيره النار.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/715.
(2) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 1/582.
(3) البغوي، معالم التنزيل: 1/149.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/717.

﴿وَإِذۡ يَرۡفَعُ إِبۡرَٰهِـۧمُ ٱلۡقَوَاعِدَ مِنَ ٱلۡبَيۡتِ وَإِسۡمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلۡ مِنَّآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ١٢٧﴾ [البقرة: 127]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

ذكَّرَ الحقُّ تبارك وتعالى العربَ بنعمهِ، منها أنّه جعل البيتَ مثابَةً للنّاسِ وأمنًا، ورزقهم من الثّمراتِ، وهذه نعمٌ مادّيّةٌ، ثمّ انتقل إلى النّعم المعنويّةِ؛ بأنْ أوحى إلى إبراهيمَ وإسماعيلَ بتطهيرِ البيتِ الحرامِ؛ لأجلِ الطّوافِ والاعتكافِ والصّلاةِ، "ثمَّ ذَكَّرَهُم بعد هذا بأَنَّ إبراهيمَ هو الّذي بنى هذا البيتَ بمُساعدةِ ابنِهِ إسماعيلَ، وذَكَرَ لهم مِنْ دُعائِهِما هُنالكَ ما يُرشِدُهُم إلى العبادَةِ الصَّحيحَةِ والدِّينِ الحَقِّ، ويَجذِبُهُم إلى الاقتِداءِ بذلِكَ السَّلَفِ الصَّالِحِ الّذي يَنتَمونَ إليه ويُفاخِرونَ به"[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

1) ﴿يَرۡفَعُ﴾: فعلٌ مضارعٌ دالٌّ على الاستقبال، جذرُه اللّغويُّ (رفع)، والأصلُ في معناهُ "يَدُلُّ على خِلافِ الوَضعِ، تقولُ: رَفَعْتُ الشَّيءَ رَفْعًا؛ وهو خلافُ الخَفْضِ، ومَرفوعُ النَّاقَةِ في سَيرِهَا: خِلافُ المَوضوعِ"[2].

و"المعنى المحوريّ جذبُ الشّيءِ، أو دفعُه مسافةً إلى أعلى (بقوةٍ)"[3].

و"الرَّفعُ يُقالُ تارةً في الأجسام الموضوعة إذا أعلَيتَها عن مَقرِّها، نحو: ﴿وَرَفَعۡنَا فَوۡقَكُمُ ٱلطُّورَ﴾ [البقرة: 63] ... وتارةً في البناءِ إذا طوّلتَهُ، نحو قولِه: ﴿وَإِذۡ يَرۡفَعُ إِبۡرَٰهِـۧمُ ٱلۡقَوَاعِدَ مِنَ ٱلۡبَيۡتِ﴾"[4].

ومعنى الرّفع الوارد في الآية: "البناء عليها لأنّها إذا بنى عليها نُقلتْ عن هيئةِ الانخفاضِ إلى هيئةِ الارتفاعِ، وتطاولت بعد التّقاصر"[5]، ومعنى رفعِ القواعدِ من البيتِ:

(1) محمّد رشيد رضا، تفسير المنار: 1/383.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (رفع).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقي المُؤصَّل: (رفع).
(4) الرّاغب، المفردات: (رفع).
(5) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/321.

"ما قعدَ من البيتِ- أي استوطَأ- يعني جعلَ هيئتَه القاعدةَ المستوطئةَ مرتفعةً عاليةً بالبناءِ، ورُوِيَ أنّهُ كانَ مُؤسَّسًا قبلَ إبراهيمَ؛ فبنى على الأساس"[1].

2) ﴿إِبْرَٰهِـۧمُ﴾: اسمُ علمٍ أعجميٍّ لخليل الرَّحمن عليه السلام، وسبق شرحه قريباً في الآية (124).

3) ﴿ٱلْقَوَاعِدَ﴾: جمعُ تكسيرٍ، مفردُه قاعدةٌ، وجذرُه اللّغويُّ (قعد)، "والقواعدُ: أساسُ البناءِ، الواحدةُ قاعدةٌ"[2].

وقواعدُ البيت الواردة في الآية: "هي الأسسُ الثّابتةُ الّتي ينتصبُ عليهَا بناءُ البيتِ"[3].

4) ﴿ٱلْبَيْتِ﴾: اسمٌ ثلاثيٌّ مُجرّدٌ، جذرُه اللّغويُّ من (بيت)، وقيلَ: إنّهُ مصدرٌ من الفعلِ باتَ يبيتُ، والأصلُ في معنى البيتِ "المَأوى والمَآبُ ومَجمَعُ الشَّملِ، يُقالُ بَيْتٌ وبُيُوتٌ وأَبيَاتٌ"[4].

و"بَيتُ الرّجل: دارُه، وقَصْرُه، والبَيت من الشَّعَرِ: ما كان أكبر من الخِبَاءِ؛ أي: ما زادَ على شُقَّةٍ واحدةٍ، ثمّ هو مِظَلّةٌ إذا كَبِرَ عن البيتِ وهي تُسمَّى بيتًا أيضًا إذا كانَ ضَخمًا مُرَوّقًا"[5].

و"أصلُ البيتِ مأوَى الإنسانِ باللّيلِ، لأنّهُ يقالُ بَاتَ أقامَ باللّيلِ، كما يُقالُ ظلّ بالنّهارِ، ثمّ قد يُقالُ للمسكنِ: بيتٌ من غيرِ اعتبارِ اللّيلِ فيه" وهو هنا معرّفٌ بأل، والمرادُ في الآية الكريمة هو بيتُ اللّهِ العتيقِ[6].

5) ﴿وَإِسْمَٰعِيلُ﴾: اسمٌ علمٌ على نبيِّ اللّهِ، ابنُ خليلِ الرَّحمنِ إبراهيمَ عليهما السلام، وسبق شرحه قريباً في الآية (125).

6) ﴿رَبَّنَا﴾: اسمٌ مُضعّفٌ ثُلاثيّ (ربّ)، وجذرُه اللّغويُّ (ربب)، ولمعناهُ ثلاثةُ أصولٍ؛ الأصل الأوّل: "إصلاحُ الشَّيءِ والقيامُ عليهِ، فالرّبّ: المالكُ، والخالقُ، والصّاحبُ، والرّبّ: المُصلحُ للشّيءِ"[7].

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/321.
(2) السّمين، عمدة الحفّاظ: (قعد).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقي المُؤصَّل: (قعد).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (بيت)
(5) جبل، المعجم الاشتقاقي المُؤصَّل: (بيت)
(6) الرّاغب، المفردات: (بيت).
(7) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ربّ).

والأصل الثاني: "لزومُ الشَّيءِ والإقامةُ عليهِ ... والأصلُ الثالثُ: ضمُّ الشَّيءِ للشَّيءِ"[1]، والثّاني والثّالثُ مناسبان للأصل الأوّل، والتّحقيقُ في الأصول الثّلاثة يجعلُهم بابًا واحدًا.

والرّبُّ "الملكُ والسيّدُ والمصلحُ والصّاحبُ، وكلّها معانٍ متقاربةٌ، ولا يُقالُ مُطلقًا إلاّ للباري تعالى"[2].

و"الرَّبُّ في الأصلِ التّربيةُ، وهو إنشاءُ الشَّيءِ حالاً فحالاً إلى حدّ التَّمامِ، يُقالُ رَبَّهُ وربّاه ورَبَّبَهُ"[3]، وقد عبّرَ بالرَّبِّ في نوال الأجر؛ لأنّهُ" النَّاظرُ في مصالحهِ ومربيهِ ومدبّرُ أحوالهِ؛ ليكونَ ذلكَ أطمعَ لهُ، فلذلك أتى بصفة الرّبّ"[4].

7) ﴿تَقَبَّلْ﴾: فعْلُ أَمْرٍ مُضعّفٌ، وزنهُ (تَفَعّلْ)، جذرُه اللّغويّ (قبل)، وهو "أصلٌ واحدٌ صحيحٌ تدُلُّ كَلِمُهُ كلُّها على مواجهةِ الشّيءِ للشّيءِ، ويتفرّعُ بعد ذلك"[5] و"المعنى المحوريُّ: مُقدَّمُ الشّيءِ الّذي يُتَّجَهُ إليه منه (لملاقاته أو النّفاذ فيه)"[6].

"وقبِلَ اللّهُ توبةَ عبدِه وعذرَه وتقبّلَه، بمعنى أنّهُ اعتدلهُ بما أتى به، وبما اعتذرَ به، والتقبّلُ: قبولُ الشَّيءِ على وجهٍ يقتضي ثوابًا كالهديّةِ"[7].

ومعنى ﴿تَقَبَّلْ﴾ في الآية: "اقبَلْ، فتفعَّلْ هنا بمعنى المُجرَّد"[8].

8) ﴿ٱلسَّمِيعُ﴾: صيغةُ مبالغةٍ زنةُ (فَعِيل)، وجذرُه اللّغويُّ (سمع)، وأصلُ معناه "إيناسُ الشَّيءِ بالأُذُنِ مِن النَّاسِ، وكُلِّ ذِي أُذُنٍ، تَقولُ: سَمِعْتُ الشَّيءَ سَمْعًا، والسّمْعُ: الذِّكرُ الجميلُ"[9].

ومعنى السّمع "قوّةٌ في الأذنِ به يُدرِكُ الأصواتَ، وفعلُه يُقالُ لهُ السَّمْعُ أيضًا، وقدْ سمعَ سَمْعًا ... وإذا وصفتَ اللّه تعالى بِالسَّمْعِ فالمرادُ بهِ عِلمُه بالمَسمُوعاتِ، وتحرّيهِ بالمجازاةِ بها"[10].

---

(1) المصدر السّابق: (ربّ).
(2) السّمين، عمدة الحفّاظ: (ربّ).
(3) الرّاغب، المفردات: (رب).
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 1/564.
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (قبل).
(6) جبل، المعجم الاشتقاقي المُؤصَّل: (قبل).
(7) السّمين، عمدة الحفّاظ: (قبل).
(8) السّمين، الدّرّ المصون: (قبل).
(9) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سمع).
(10) الرّاغب الأصفهانّي، المفردات: (سمع).

والسّميعَ في الآيةِ: بمعنى السّميعِ لدعائِنا، الّذي لا يعلمهُ سواك[1].

9) ﴿ٱلۡعَلِيمُ﴾: صيغةُ مبالغةٍ زنةُ (فَعِيل)، وجذرُه اللّغويُّ (علم)، ولهُ "أصلٌ صحيحٌ واحدٌ، يدُلُّ على أثرٍ بالشَّيءِ يتميّزُ بهِ عن غيرِه، من ذلكَ العَلامةُ"[2]، من معانيهِ أنّهُ "ضدّ الجَهل، رجلٌ عَالمٌ من قومٍ عُلَماءَ وعالمينَ، وأعلامُ القَومِ ساداتُهم، ومَعالمُ الدّينِ دلائلُه"[3]، والعلمُ بمعناهُ الاصطلاحيّ "إدراكُ الشّيءِ بحقيقتِه؛ وذلكَ ضَربانِ: أحدُهُما: إدراكُ ذاتِ الشَّيءِ، والثَّاني: الحُكمُ على الشَّيءِ بوجودِ شيءٍ هو مَوجودٌ لهُ، أو نَفيُ شيءٍ هو مَنفيٌّ عنه"[4].

والعلمُ يدُلُّ أيضًا على "اليقين، يُقالُ: عَلِمَ يَعلَمُ إذا تَيَقَّنَ، وجاء بمعنى المعرفةِ أَيضًا، كما جاءَتْ بمعناهُ، ضُمِّنَ كُلُّ واحِدٍ معنى الآخَر؛ لاشتِراكِهما في كَونِ كُلِّ واحِدٍ مَسبوقًا بالجهل"[5].

ومعنى ﴿ٱلۡعَلِيمُ﴾ في الآية: أنّهُ العليمُ "بكلِّ المعلوماتِ الّتي من زمرتِها نيّاتُنا في جميعِ أعمالِنا"[6].

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

خطابٌ للرَّسولِ ﷺ، ولأمّتِهِ أنْ يذكرُوا منقبةً أخرى من مناقبِ إبراهيمَ عليه السلام، وما فعلَه وابنهُ إسماعيلُ عليهما السلام من رفع أُسسِ الكعبة لبناءِ بيت الله لعبادِه، وهما يتضرّعانِ إلى الله تعالى مع كلّ حجرٍ يضعانهِ: ربّنا تقبّلْ منَّا صالحَ أعمالنا ودعاءَنا؛ إنّكَ أنت السميع لأقوال عبادك، العليمُ بأحوالهم.

وفي الآية دليلٌ: أنَّ الإنسان إذا عمل خيراً ينبغي أن يدعو الله بالقَبول، وأن يكون خوفُ الإنسان على قبول العمل بعد الفراغ أشدَّ من شغله بالعمل[7].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/719.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (علم).
(3) ابن دريد، جمهرة اللّغة: (علم).
(4) الرّاغب الأصفهانّي، المفردات: (علم).
(5) الفيوميّ، المصباح المنير: (علم).
(6) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 1/259.
(7) السمرقندي، تفسير السمرقندي: 1/93، ونخبة من العلماء، التفسير الميسر، ص: 20.

الإيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

سِرُّ إيثارِ صيغةِ المضارعِ بدلًا من الماضِي:

تصويرُ حكايةِ الماضي للمخاطَبِ كأنّهُ محسوسٌ مُشاهدٌ

معنى قوله تعالى ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ﴾؛ واذكرْ يا محمّدُ أنتَ وأمّتُك ذلكَ الوقتَ الّذي يرفعُ فيه إبراهيمُ القواعدَ، فالفعلُ مضتْ عليه أزمانٌ متطاولةٌ بدلالة ﴿وَإِذْ﴾ الدّالّة على المضيّ، لكنّهُ عبّرَ عنهُ هنا بالفعل المضارع الدّالّ على الحال، فإنّ "﴿يَرْفَعُ﴾ حكاية حالٍ ماضيةٍ"[1].

وسرُّ التّعبير بالفعلِ الدّالِّ على الحال هو استحضار الحالة الإبراهيميّة "فإنَّهُم لحُبِّهم إبراهِيمَ وإجلالِهم إيَّاهُ لا يزالونَ يَذكُرونَ مَناقِبَهُ، وأَعظَمُها بِناءُ الكعبةِ ... حتَّى كأَنَّهُ حاضِرٌ بينهُم وكأَنَّ أَحوالَهُ حاضِرَةٌ مُشاهَدَةٌ"[2].

علَّةُ اختيارِ مادّةِ الرَّفعِ دون غيرِها:

تشريفُ البيتِ المرفوعِ، وإيماءٌ إلى وجود البيتِ قبل رفعِه

اختار النَّظم مادّةَ الرفعِ في قوله تعالى ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ﴾، ودلالةُ رفعِ القواعدِ هو إعلاؤُها لتصيرَ جداراً، وهكذا حتَّى يكونَ البناءُ مُكتمِلًا مُرتفِعًا، وهي في أصلِها إطالةٌ للأساس، إلاّ أنّه اختارَ فعلَ ﴿يَرْفَعُ﴾ من الجذرِ اللّغويّ (رفع)، ومن "مادَّةِ الرَّفعِ دُونَ مادَّة الإطالَة ونَحوها معنى التَّشريف، وفي إثباتِ ذلك للقَواعِدِ كِنايةٌ[3] عن ثُبُوتِهِ للبيت"[4] وفي إيثارِه فعلَ الرَّفعِ دونَ فعلِ البناءِ تشريفٌ آخر، وهو الإيماءُ بأنّ البيتَ موجودٌ قبل الرَّفع، واللّه تعالى هو مَن وضعَ البيتَ، وهذا مزيدُ تشريف.

وفي إسنادِ رفعِ قواعدِهِ لإبراهيمَ عليه السلام تشريفٌ أيضًا؛ فإنّهُ

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/321.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/718.
(3) الكناية "لفظ أُريد به لازم معناه مع جواز إرادة معناه الأصلي مع لازمه؛ كلفظ طويل النِّجاد، والمراد به طول القامة مع جواز أن يراد حقيقة طول النِّجاد أيضًا"، التّفتازاني، مختصر المعاني: 1/257.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/718.

وإنْ كانَ سببًا في رفعهِ بالحجارةِ ونحوِها بعدَ أنْ طُمسَتْ معالمُه بالطّوفانِ، فقد كان حريصًا على رفع مكانة البيت، وإظهارِ شرفِه.

التّعبيرُ بأل دون التّركيبِ الإضافيّ:

الإيضاحُ بعدَ الإبهامِ يفيدُ تفخيمَ الشّأنِ والتّشويقَ

لم يُستعمل في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ﴾ التَّركيب الإضافيّ (قواعد البيت)، واستعملَ لفظَ ﴿ٱلْقَوَاعِدَ﴾، وأل هي عوضٌ عنِ المضافِ إليه المحذوفِ؛ "فلم يَقلْ: يَرْفَعُ قواعدَ البيتِ؛ لأَنَّ في إبْهام القواعد، وتَبيينِها بعد الإبْهام مِن تَفخيمِ الشَّأن ما ليس في العبارة الأُخرى"[1].

وفي بيان هذه النكتة قال صاحب المنار: "أَنَّ ذِكرَ القواعدِ أَوَّلًا يُنَبِّهُ الذِّهنَ ويُحَرِّكُهُ إلى طلب مَعرفة القواعد ... فإذا جاءَ البيانُ بعد ذلك كان أَحْسَنَ وَقْعًا في النَّفس، وأَشَدَّ تَمَكُّنًا في الذِّهن"[2] ففي هذا الأسلوب منَ البيان بعد الغموض تشويقٌ للسَّامع، وانتظارٌ لمعرفة هذه القواعد.

نكتةُ تقديمِ ﴿إِبْرَٰهِـۧمُ﴾ على ﴿وَإِسْمَٰعِيلُ﴾ والفصلِ بَيْنَهما:

تقديمُ الأصلِ على الفرعِ، والرَّافعِ على المعاونِ، والمقصودِ أصالةً على التَّابعِ

في قوله تعالى ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ﴾ قدّمَ ﴿إِبْرَٰهِـۧمُ﴾ عليه السلام على ﴿وَإِسْمَٰعِيلُ﴾ عليه السلام لأسبابٍ متعددةٍ يعودُ مجملُها إلى باب تقديم الأصل على الفرع، وفيه إلماعٌ إلى "كَونِ المأمورِ مِنَ اللّهِ ببناء البيت هو إبراهيمُ"[3] منذُ أنْ أسكنَ ذريتَهُ بوادٍ غيرِ ذي زرعٍ، وكان إسماعيل طفلاً رضيعًا، فكان ذلك من إرهاصات بناء البيت، فإبراهيمُ هو الأصلُ وإسماعيلُ هو الفرعُ، "عن ابنِ عبّاسٍ قال: جعلَ إبراهيمُ يبنيه، وإسماعيلُ يناولهُ الحجارةَ"[4] فالأصلُ في البناءِ لإبراهيمَ، وإسماعيلُ معينٌ له، وفُصِلَ بينهما؛ "للإشارة إلى

(1) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 4/63.
(2) محمّد رشيد رضا، تفسير المنار: 1/386.
(3) محمّد رشيد رضا، تفسير المنار: 1/386.
(4) ابن جرير، جامع البيان: 2/35.

التَّفاوت بين عَمَلِ إبراهيمَ وعملِ إسماعيلَ أُوقِعَ العطفُ على الفاعل بعد ذِكرِ المفعول والـمُتَعَلِّقات"[1].

دلالةُ التّعبير بصيغةِ الفعلِ ﴿تَقَبَّلْ﴾ دون (اقبلْ):

فقهُ الدُّعاءِ قائمٌ على استحضارِ العبدِ تقصيرَه مع مولاه

عبّرَ في قوله تعالى ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ﴾ بالفعلِ ﴿تَقَبَّلْ﴾، بوزنِ (تفعّلْ) الدّالّ على التّكلّفِ[2]، دون أن يُعبّر بصيغةِ (اقبلْ)؛ وذلك لوجودِ فرقٍ بينَ القبولِ والتّقبّلِ؛ "فالتَّقَبُّلُ عبارةٌ عَن أَن يَتَكَلَّفَ الإنسانُ في قبوله، وذلك إنَّما يكونُ حيثُ يكونُ العملُ ناقصًا لا يَستحِقُّ أَن يُقبَلَ؛ فهذا اعترافٌ منهما بالتَّقصير في العمل"[3]؛ فأيُّ عملٍ صادرٍ منَ الإنسانِ يتغيّا رضاهُ تعالى مُتلفّعٌ بالتّقصير والعجز، وهذا ما كان منهما؛ فعبّرا بالفعل الدّالّ على التّكلّف والمشقّةِ، وفيه اعترافُ العبدِ العالـمِ بالتقصيرِ، وتعليمُ الأتباعِ فقهَ الدُّعاءِ.

دلالةُ حذفِ مفعولِ ﴿تَقَبَّلْ﴾:

العبرةُ بقبولِ الأعمالِ لا بأماكنِها ولا أزمانِها ولا أشخاصِها

دعا إبراهيمُ وإسماعيل عليهما السلام أثناءَ رَفْعِ القواعدِ: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ﴾[4]، والفعلُ ﴿تَقَبَّلْ﴾ يطلبُ مفعولاً، وقد حُذِف للدّلالةِ على طمعِ العبدِ بعمومِ القبولِ؛ ليدخلَ تحته القولُ والعملُ، وكلّ ما يدخلُ تحت عمل الخير؛ لأنّ إظهارَ المفعول قد يُوحي بحصرِه فيه، وهو غيرُ مرادٍ، فهما يرفعانِ البيتَ ويدعوانِ بقبولِ جميعِ الأعمال، وفي الدّعاء إشارةٌ إلى أنَّ العِبرةَ ليست بمقدار العمل، ولا في زمانِه أو مكانِه - ولو كان في بيتِه الحرامِ -، وإنّما في قبوله، وهو دليلٌ معتبرٌ على أنَّ الاعتدادَ بأماكن الأعمالِ وأزمانِها دون النَّظرِ إلى طهارةِ القلبِ وسلامتِه من قلَّةِ التَّوفيقِ، وغيابِ الفقهِ.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/718.
(2) الزّمخشريّ، المفصل، ص: 371.
(3) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 4/36.
(4) الفرّاء، معاني القرآن: 1/78.

فصل جملة ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾، ودلالة ضمير الفصل فيها:

الدُّعاءُ المبنيُّ على الاعتقادِ الصَّحيحِ شرطٌ في القبولِ

ورد قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ كالتّعليل لقولِه: ﴿تَقَبَّلۡ مِنَّآۖ﴾، أي: إنَّك تسمعُ دعاءَنا، وتعلمُ نيّاتنَا، والضّميرُ ﴿أَنتَ﴾ ضميرُ فَصْلٍ لا محلّ لهُ من الإعراب، وورد هنا توكيدًا للكاف الضّمير المتّصل، وهو "يَردُ في الكلام؛ لتقرير المعنى المقصود، وإثباتِه في النّفس"[1]، وإفادة الحصرِ؛ فيكونُ المعنَى حَصْرَ السّمعِ والعلمِ به تبارك وتعالى، على معنى أنَّه "سبحانَه لكمالِه في هذه الصّفة، كأنّهُ هو المختصّ بها دونَ غيرِه"[2]، وفائدتُه بيانُ أنَّه لا يستجيبُ الدُّعاءَ إلَّا هو سبحانه، ففيه مناجاةٌ مشوبةٌ بالتَّصريحِ بالتَّوحيدِ الحقِّ، فكأنَّهما قالا: لا يسمعُ دعاءَنا فيستجيب لنا إلَّا أنت، وهذا من دمجِ الدُّعاءِ بالاعتقادِ الحقِّ، طلبًا لأنفسِهم وتعليمًا لغيرِهم.

براعةُ الفاصلةِ في اختيارِ الأسماءِ وترتيبِها:

(السميع) إشارةٌ إلى معرفةِ الدُّعاءِ، و(العليم) إشارةٌ إلى قبول النِّيَّةِ

خُتِمَ قولُه تعالى: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ بصفتين من صفاتِه تعالى وهما ﴿ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾، "وهاتانِ الصِّفتانِ مُناسبتانِ هنا غايةَ التَّناسُبِ، إذ صَدَرَ منهما عملٌ وتَضَرُّعُ سؤالٍ، فهو السَّميعُ لضراعتهما، وتسآلِهما التَّقَبُّلَ، وهو العليمُ بنيَّاتِهما في إخلاصِ عملِهما"[3].

وقُدِّمَت في قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ صفةُ السّميعِ، "وتأَخَّرَتْ صفةُ العليمِ لكونِها فاصلةً ولعمومها، إذ يَشمَلُ علمَ المَسمُوعات وغير المَسمُوعات"[4]؛ فالسّمعُ من مقدّماتِ العلمِ، والعلمُ أشملُ من السّمعِ وأوعبُ، فلا يكونُ عليمًا مَن لمْ يكنْ سميعًا.

(1) ابن الأثير، الجامع الكبير في صناعة المنظوم من الكلام والمنثور، ص: 104.
(2) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 4/64.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 1/620.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 1/620.

دقَّةُ توالي المؤكّدات المفيدةِ للقصرِ:

القصرُ حقيقيٌّ إذ لا يستجيبُ الـدُّعـاءَ إلَّا هو سبحانه

في قوله تعالى ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ طائفةٌ من المؤكّدات، منها (إنّ) "وتعريفُ جُزْءَي هذه الجملة، والإتيانُ بضميرِ الفَصلِ، يُفيدُ قَصرَينِ للمُبالغةِ في كمالِ الوصفَينِ له تعالى بتنزيلِ سَمْعِ غيره، وعلمِ غيره مَنزلةَ العدم"[1].

وهذا القَصْر أفادَ مبالغةً، وهو قصرٌ حقيقيٌّ "باعتبارِ مُتَعَلِّقٍ خاصٍّ، أي: ﴿ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ لدُعائِنا لا يَعلَمُهُ غيرُك، وهذا قَصرٌ حقيقيٌّ مُقَيَّدٌ"[2] قيّدهُ أنّه تعالى يسمعُ دعاءَنا وحدَه، ولا يعلم نيّاتنَا أحدٌ سواهُ، فيكونُ من باب الحقيقة؛ لأنّهُ مقيّدٌ وليس مُطلقاً، ويُعزِّز ذلك أنّ المقصودَ بهاتين الصِّفتين الاستجابة، وهذه لا تكون إلَّا منه وحدَه.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/719.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/719.

﴿رَبَّنَا وَٱجۡعَلۡنَا مُسۡلِمَيۡنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةٗ مُّسۡلِمَةٗ لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبۡ عَلَيۡنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ١٢٨﴾ [البقرة: 128]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لـمّا سأل إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام اللّهَ تعالى أنْ يَتَقَبّلَ منهما العملَ الصالحَ، سألا ههنا "الزّيادةَ عليه ... بإسلام الوجه، والمسألة له ولابنهِ ولمنْ رُزقَ الإيمانَ من ذريّتهِ وذريّةِ ابنهِ، فإنّ الإسلامَ لـمّا كانَ ظاهرَ الدّينِ كانَ سريعَ الانثلامِ؛ لأجل مضايقة أمر الدّنيا"[1].

وهذهِ الآيةُ تُمثّلُ امتدادًا للدّعواتِ الإبراهيميّةِ الّتي شكّلتِ الحجرَ الأساسَ للدّينِ الحنيفِ، ومنهَا المناسكُ المذكورةُ في هذهِ الآيةِ، والمرتبطةُ بالبيتِ الحرامِ في الآيةِ الأُولى؛ فحصلَ التّناسبُ على أفضل ما يكونُ.

شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

1) ﴿وَٱجۡعَلۡنَا﴾: فعلُ أمرٍ من (جعلَ يجعلُ)، وجذرُه اللّغويُّ (جعل)، وهو يأتي على عدّةِ أنحاءَ، منهُ اللازمُ، ومنهُ المتعدّي لواحدٍ واثنينِ، و(جعلَ) في الآية من أفعال التّحويل والتّصيير، يتعدَّى لاثنينِ.

وهو "لفظٌ عامّ في الأفعال كلِّها، وهو أعمُّ من فعلَ وصنعَ وسائرِ أخواتِها، ويتصرّفُ على خمسةِ أوجُهٍ ... والرّابعُ: في تصييرِ الشّيءِ على حالةٍ دونَ حالةٍ"[2] وهو المرادُ في الآية، وهو التّصييرُ بالقول، "ومعنى جعلَ وما تصرّفَ منها في القرآنِ يكونُ للتّحويلِ والتّهيئةِ على وضعٍ، أو للخلقِ، وهو تحويلٌ للهيئةِ بإنشاءِ هيئةٍ جديدةٍ، فهو إيجادٌ يتأتّى منهُ النَّصبُ"[3].

2) ﴿مُسۡلِمَيۡنِ﴾: اسمٌ مثنًّى، مفردهُ مسلمٌ، جذرهُ اللّغويّ (سلم)، و "معظمُ بابهِ منَ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 2/160.
(2) الرّاغب الأصفهانّي، المفردات: (جعل).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقي المُؤصَّل: (جعل).

الصِّحَّةِ والعافيةِ؛ ... فالسّلامةُ أَنْ يسلمَ الإنسانُ منَ العاهةِ والأذى"[1] ومنهُ الإسلامُ، وهو من الألفاظ الّتي اكتسبتْ دلالاتٍ جديدةً بعدَ مبعثهِ ﷺ.

"وأَسْلَمَ أمرَه للّه سبحانه وتعالى، أيْ: سَلَّمَ، وأَسْلَمَ، أي: دخلَ في السِّلْمِ، وهو الاستسلامُ"[2] أصبحَ الّذي يُسلمُ؛ بمعنَى دخلَ في الإسلام.

ومعنى الإسلام الحقيقيّ أنْ يكونَ "فوقَ الإيمانِ، وهو أنْ يكونَ معَ الاعترافِ اعتقادٌ بالقلبِ ووفاءٌ بالفعلِ واستسلامٌ للّهِ في جميعِ ما قضى وقدّرَ، كما ذُكرَ عن إبراهيمَ عليه السلام في قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [البقرة: 131]"[3].

"ومعنى طَلَبِ أَنْ يَجعَلَهُما مُسلمَينِ: هو طَلَبُ الزِّيادَةِ في ما هُما عليه مِنَ الإسلامِ وطَلَبُ الدَّوامِ عليه"[4].

3) ﴿ذُرِّيَّتِنَآ﴾: اسمٌ مؤنثٌ، جذرهُ اللّغويّ (ذرر)، و "الذّالُ والرّاءُ المشدّدةُ أصلٌ واحدٌ يدُلُّ على لطافةٍ وانتشارٍ، ومن ذلكَ الذَّرُّ: صغارُ النّملِ، الواحدةُ ذَرّةٌ"[5]، ومَن جعلهَا من هذا الباب، أعني "منَ الذرِّ؛ لأنّ اللّه استخرجَ الذّريّةَ من ظهرِ آدمَ كالذّرِّ، حينَ أشهدهُم على أنفسِهم"[6].

"والذُّرِّيَّةُ أصلُها: الصّغارُ من الأولادِ، وإنْ كان قد يقعُ على الصّغارِ والكبارِ معًا في التّعارفِ، ويُستعملُ للواحدِ والجمعِ، وأصلُه الجمعُ"[7].

وثمّة من قال: "ذرّ اللّهُ الخلقَ في الأرضِ: نَشَرهُم (نشر مسترسل مع دقّةٍ)، وذرّيةُ الرّجلِ: وَلَدُه"[8]، ومعناها في الآية: نَسْلُ الرَّجُلِ.

4) ﴿أُمَّةً﴾: اسمٌ مؤنثٌ، جذرهُ اللُّغويُّ (أمم)، والأصلُ في معناهُ "الأَصلُ، والمَرجِعُ، والجَماعَةُ، والدِّينُ، وهذه الأَربَعَةُ مُتَقارِبَةٌ، وبعد ذلك أُصولٌ ثلاثةٌ، وهي القامَةُ،

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سلم).
(2) الجوهريّ، الصّحاح: (سلم).
(3) الرّاغب، المفردات: (سلم).
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/720.
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ذرّ).
(6) السّمين، عمدة الحفّاظ: (ذرا).
(7) الرّاغب، المفردات: (ذرو).
(8) جبل، المعجم الاشتقاقي المُؤصَّل: (ذرو- ذرى).

والحينُ، والقَصدُ ... وكُلُّ قَومٍ نُسِبوا إلى شيءٍ وأُضيفوا إليه فَهُم أُمَّةٌ، وكُلُّ جيلٍ مِنَ النَّاس أُمَّةٌ على حِدة"[1].

وجملة القول: الأُمَّة: كلُّ جماعةٍ يجمعهُم أمرٌ ما، إمّا دينٌ واحدٌ أو زمانٌ واحدٌ أو مكانٌ واحدٌ، سواءٌ كان ذلك الأمرُ الجامعُ تسخِيرًا أو اختيارًا"[2].

5) ﴿وَأَرِنَا﴾: فعلُ أمرٍ، الماضي منهُ (أرى) المزيدُ بالهمزةِ، وجذرهُ اللّغويّ (رأي)، والأصلُ في معناهُ النَّظرُ والإبصارُ بِعَينٍ أَو بَصيرَةٍ، فالرَّأيُ: ما يَراهُ الإنسانُ في الأَمر، وجَمعُهُ الآراءُ، رأَى فُلانٌ الشَّيءَ وراءهُ، وهو مقلوبٌ[3].

ورؤيةُ الإنسانِ للمرئيّ هو الإدراكُ لهُ، ويكونُ بعدّةِ طرقٍ بحَسب قُوى النّفس كالحاسّةِ والوهمِ والتّخيّلِ والعقل[4].

ومعنى ﴿وَأَرِنَا﴾ في الآيةِ: أبرِزها لنا، وبيّنهَا وعلِّمنا إيّاها[5].

6) ﴿مَنَاسِكَنَا﴾: جمعُ تكسيرٍ، زنةُ (مفَاعِل)، مفردها (منسَك)، وجذرهُ اللّغويُّ (نسك)، والأصلُ في معناهُ "عِبادةٌ وتَقَرُّبٌ إلى اللّهِ تعالى، ورَجُلٌ ناسِكٌ، والذَّبيحَةُ الّتي تَتَقَرَّبُ بها إلى اللّهِ نَسيكَةٌ، والمَنسَكُ: المَوضِعُ يذبَح فيه النَّسائِكُ"[6].

والمَنْسِكُ و المَنْسَكُ: المَوضِع الّذي تُذْبَحُ فيه النَّسائِكُ"[7].

والنّسكُ أيضًا "العبادةُ، والنَّاسِكُ: العابدُ، واختُصَّ لفظ (النّسك) بأَعمالِ الحجِّ، والمَناسكُ: مواقفُ النُّسُك وأعمالُها"[8].

ومعنى ﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا﴾: بيّن لنا أعمالَ حَجِّنا، ومواقفَ عباداتنا[9].

7) ﴿وَتُبْ﴾: فعلُ أمرٍ من (تابَ يتوبُ)، وجذرهُ اللّغويُّ (توب)، والأصلُ في معناهُ:

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (أمّ).
(2) الرّاغب، المفردات: (أمّ).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (رأي).
(4) الرّاغب، المفردات: (رأى).
(5) السّمين، عمدة الحفّاظ: (رأى).
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نسك).
(7) الجوهريّ، الصّحاح: (نسك).
(8) الرّاغب، المفردات: (نسك).
(9) السّمين، عمدة الحفّاظ: (نسك).

الدّلالة على الرُّجُوع والعودة والإنابة إلى الله تعالى مع النّدم والعزم على ترك الذنب[1].

قال الراغب: "والتَّوبَةُ في الشّرعِ: تركُ الذّنبِ لقبحِه، والنّدمُ على ما فَرَطَ منهُ، والعزيمةُ على تركِ المُعاودةِ، وتدارُكِ مَا أمكنهُ أنْ يُتداركَ من الأعمالِ بالأعمال بالإعادةِ، فمتى اجتمعتْ هذهِ الأربعُ فقد كملتْ شرائطُ التّوبةِ"[2]، ومعنَى تُبْ علينَا في الآيةِ أيْ: اغفرْ لنا، وتجاوزْ عنّا[3].

8) ﴿ٱلتَّوَّابُ﴾: صيغةُ مبالغةٍ من (تابَ يتوبُ)، وواحدٌ من أسمائِه تعالى.

ومعنى التوّاب على عبدهِ في الآية: هو "التّاركُ مجازاتهِ بإنابتِه إلى طاعتهِ بعدَ معصيتهِ بما سلفَ من ذنبه"[4].

9) ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾: صيغةُ مبالغةٍ من (رحمَ يرحمُ)، وهي صفةٌ مُشتقّةٌ من الرّحمةِ، ويمكنُ أن يُطلقَ على غيرِه تعالى، والجذرُ اللّغويُّ (رحم)، والأصلُ في معناهُ "الرِّقَّةُ والعَطفُ والرَّأفَةُ، يُقالُ من ذلك رَحِمَهُ يَرحَمُهُ، إذا رَقَّ له وتَعَطَّفَ عليه، والرُّحْمُ والمَرحَمَةُ والرَّحمَةُ بمعنًى، والرَّحِمُ: علاقَةُ القَرابَة"[5].

والرَّحمة إذا وُصِفَ بها الباري فليسَ يُرادُ بها إلّا الإحسانُ المُجرّدُ دونَ الرّقّةِ، وعلى هذا رُوِيَ أنّ الرَّحمَةَ من اللهِ إنعامٌ وإفضالٌ، ومن الآدميّينَ رقّةٌ وتعطّفٌ"[6]، وهو الرّحيمُ "بعِبادِهِ مهما يُسِئْ أَحَدُهُم بما هو سَبَبٌ لِغَضَبِهِ - تعالى - ويَرجِعْ إليه؛ فإنَّهُ يَحُفُّهُ برَحمتِه"[7].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

يبيّن الله سبحانه دعاء إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام حين قالا: ربّنا اجعلنا مسلمين لك

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (توب).
(2) الرّاغب، المفردات: (توب).
(3) البغويّ، معالم التّنزيل: 1/151.
(4) ابن جرير، جامع البيان: 1/547.
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (رحم).
(6) الرّاغب، المفردات: (رحم).
(7) محمد رشيد رضا، تفسير المنار: 1/232.

مُنقادين خاضعين لك، وألحق بنا ذريتنا في طريق الانقياد والطاعة لشرعك، وعرّفنا مواقف عباداتنا، وتُبْ علينا وتقبّل منا، إنك أنت قابلُ التَّوب الرحيم بعباده.

❁ الإيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

بلاغةُ تَكرار النّداءِ:

إظهارُ الضَّراعةِ وبيانُ لذَّة الدُّعاء بالرُّبوبيَّة

قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا﴾ نداءٌ حُذِفت منه أداة النّداء على تقدير (يا ربّنا)، وقد كُرّر النّداء هنا، فقد ذكر في الآيتين السّابقتين، وفائدة تَكرار النّداء "إظهارُ الضَّرَاعَةِ إلى اللّهِ تعالى، وإظهارُ أَنَّ كُلَّ دعوةٍ مِنْ هاتِهِ الدَّعَواتِ مَقصودَةٌ بالذَّاتِ"[1]، وبيانُ لذةِ الدُّعاءِ بلفظِ الربِّ المُضافِ إلى ضمير المتكلِّم، فإنَّ العبدَ يُكرِّر النِّداءَ لتلذُّذه بذلك، ولإظهار ضراعتِه والتجائه، ولمعرفتِه بحبِّ اللّه تعالى لذلك الدُّعاء.

تخصيصُ الاستسلامِ والخضوعِ للهِ:

الاستسلامُ شرفُ المؤمنِ، إذا أحاطَ بحياتِه كلِّها

ورد في قوله تعالى: ﴿وَٱجۡعَلۡنَا مُسۡلِمَيۡنِ لَكَ﴾ لفظُ ﴿مُسۡلِمَيۡنِ﴾ و"تفسير المسلم في اللّغة الّذي قد استسلمَ لأمرِ اللّهِ كلّه، "وخضع له، فالمسلم الحقُّ هو الّذي أظهرَ القبولَ لأمرِ اللّهِ كلّه"[2] وفي الآيةِ دعوةٌ من إبراهيمَ وإسماعيلَ عليهما السلام أن يصيّرهما مُسلمَينِ له على سبيل القصر، فالخضوعُ والاستسلامُ له سبحانَه؛ بدلالة تقديم الاسم ﴿مُسۡلِمَيۡنِ﴾ على المُتعلّق ﴿لَكَ﴾، فكأنّه لا شيءَ لهما في حياتِهما إلاّ الاستسلامُ والخضوعُ مصداقًا لقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ﴾ [الذّاريات: 56]، ولأنّه يصحّ لغةً أن يقولا: (واجعلْنا لك مسلمَينِ) وعندئذٍ لا يُؤدِّي الكلامُ المقصودَ بدقَّةٍ.

ولسبب ثانٍ يؤيّد الاختصاصَ والقصرَ في الاستسلام والخضوع، وأنّ أمرَ الإنسان كلّه خضوعٌ للّه، فقد ذكر أنّ "هذه الآيةَ مَتروكَةٌ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/719.
(2) الزّجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 1/208.

الظَّاهِرِ؛ لأَنَّها تَقتضي أَنَّهُما وَقتَ السُّؤالِ غَيرُ مُسلِمَينِ"[1]، والصّواب أنّهما كانا مُسلمَين، وهو ممّا يؤيّد أنّ دعاءَهما بجعلِهما مُسلمَينِ يرادُ منه الاختصاصُ، أي: أنْ يكونَ أمرهُما كلّه في خضوعٍ وانقيادٍ، "وطَلَبُ تَحصيلِهِ في الزَّمانِ المُستَقبَلِ لا يُنافي حُصولَهُ في الحال"[2].

هذا الدّعاء يعكس حِرْصَ إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام على الازدياد في الخضوع والاستسلام لله تعالى

دلالةُ حرفِ ﴿مِن﴾ في قولِه: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ﴾:

أفادَ حرفُ الجرِّ في قولِه تعالى: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾ التّبعيضَ، وليس الشّمول والتّعميم[3] أي: اجعل بعضًا من ذريّتنا مُسلمين، "وإنَّما سألَا ذلك لبَعضِ الذُّرِّيَّةِ؛ جَمعًا بينَ الحِرصِ على حُصولِ الفَضيلَةِ للذُّرِّيَّةِ، وبينَ الأَدبِ في الدُّعاءِ"[4]؛ لقوله تعالى: ﴿وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ ۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ﴾ [الصّافات: 113]، ولعلمِهما أنَّ الذُّرِّيَّةَ لن تكونَ كلُّها على قلبٍ واحدٍ ومستوًى واحدٍ في الاستسلام والخضوع لله.

التّأدُّبُ مع الله في الدُّعاء

سرُّ التَّعبير بالرُّؤيةِ دون غيرِها من الألفاظِ:

الفعل (أرِ) في قوله تعالى: ﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا﴾ فعلُ أمرٍ، ماضيه (رأى)، وجيءَ به دون أبصرنا، أو عَلِّمْنا، ليحتملَ دلالتَين؛ فيكون بمعنى بصرته عيانًا، أو أعلمته يقينًا[5]؛ فيكون التّركيب "وأَرِنا مَناسِكنا سؤالًا لإرشادِهِم لكَيفيّةِ الحَجِّ الّذي أُمِرَا به مِن قَبلُ أَمرًا مُجمَلًا"[6]، والمناسك منها ما يُشاهد عيانًا، ومنها ما يُدرك علمًا، والفعل ﴿وَأَرِنَا﴾ يشتمل على الدّلالتَين، وهو من باب الإيجاز، بأن يعبّر بفعلٍ حاملٍ معنيين مطلوبين في الآية.

التّعبير بفعل الرّؤيةِ فيه دلالةٌ بصريّةٌ وعلميّةٌ

(1) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 4/64.
(2) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 4/65.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 1/620.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/720.
(5) ابن يعيش، شرح المفصل: 4/324.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/721.

تقديمُ المناسكِ على التّوبةِ من باب تقديم السّبب على النّتيجة:

قُدِّمَتْ رؤيةُ المناسك على طلب التّوبة في قوله تعالى: ﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ﴾؛ فقدّم السّبب على النّتيجة؛ فإنّ المناسك مقصود بها مناسك الحجّ[1]، وقد جاءَ أنّ «مَن أَمَّ هذا البيتَ، فلم يَرفُثْ ولم يَفسُقْ، رَجَعَ كيَومِ ولدَتْهُ أُمُّهُ»[2]، فقضاء المناسك سبب لحصول التّوبة؛ لذلك جرى تقديمها.

بلاغةُ الفاصلةِ في اختيارِ صفتِي ﴿ٱلتَّوَّابُ﴾، و﴿ٱلرَّحِيمُ ١٢٨﴾ وترتيبهما:

تناسُبُ الصفاتِ بتقديم النتيجةِ على سببِها

قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ جملةٌ مُشتملةٌ على صِفتين من صفات الحقّ تبارك وتعالى ﴿ٱلتَّوَّابُ﴾، و﴿ٱلرَّحِيمُ ١٢٨﴾، وهما متناسبتان مع السّياق القرآنيّ القبليّ "لِمُجاورةِ الدُّعاءِ الأَخيرِ في قولِهِ: وتُبْ علينا"[3]، فجاءت صفة التوّاب متناسبة أشدّ المناسبة ثمّ جاءت صفة الرّحيم؛ لتناسب الفاصلة القرآنيّة قبلها ﴿ٱلْعَلِيمُ ١٢٧﴾ وبعدها ﴿ٱلْحَكِيمُ ١٢٩﴾؛ هذا من الناحية اللّفظية.

أما من حيث المعنى فقد "تأَخَّرَتْ صفةُ الرَّحمةِ لِعُمومِها، لأَنَّ مِنَ الرَّحمَةِ التَّوبَةَ"[4]؛ فإنّ قبولَ توبة التّائب رحمةٌ من اللّه، والرَّحمةُ سببُ التَّوبةِ؛ فهو توّابٌ لأنَّه رحيمٌ بعبادِه.

توالِي المؤكِّداتِ في الجملةِ يفيدُ التّوكيدَ والقصرَ:

جاءَتْ جملةٌ من المؤكّداتِ في قولِه تعالى: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ منها (إنّ)، وتعريفُ جُزْأَي الجملة، وتوسيط الضّمير المنفصل بين المُسند إليه والمُسند؛ وهو ضميرٌ يحتمل[5] الابتداء والتّوكيد والفصل، والمسحة التّوكيديّة بيّنة فيها، فضلاً عن التّعبير بصفتي المبالغة، والمبالغة قرينة التّوكيد، والغرض من ذلك تحقيق القصر، فالمعنى الإقرار منهما بأنّه تعالى هو التوّاب الرّحيم لا غيره، وهو من القصْرِ الحقيقيِّ؛ لأنَّ التَّوبةَ لا تكون إلّا منه سبحانه وتعالى، ومثلُها الرَّحمةُ التي تنشئُ التَّوبةَ.

---

(1) ابن جرير، جامع البيان: 3/76.
(2) رواه الإمام أحمد، حديث رقم: (7381).
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 1/625.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 1/625.
(5) عضيمة، دراسات لأسلوب القرآن الكريم: 142/8.

﴿ رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُزَكِّيهِمۡۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ١٢٩ ﴾

[البقرة: 129]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لـمّا دعا إبراهيمُ عليه السلام اللّه تعالى أن يجعل مكّة بلدًا آمنًا، وأن يرزق أهله من الثّمرات، وأن يجعل من ذريّته أمّة مسلمة، وأن يُرِيَه المناسك، ويعلّمه إيّاها، ختمها بأن "طلب لذّريّته مثل ذلك بواسطة من جرتِ العادة به لأمثالهم، فقال: ﴿رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ﴾ أي: الأمّة المسلمة الّتي من ذريّتي، وذريّة ابني إسماعيل عليهما السلام ﴿رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ﴾؛ ليكون أرفق بهم، وأشفق عليهم، ويكونوا هم أجدرَ باتّباعه، والتّرامي في نصره، وذلك الرّسول هو محمّد ﷺ"[1].

شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

1) ﴿وَٱبۡعَثۡ﴾: الأصل في البعث: الإرسالُ والإثارة، ومنه "بَعَثت البَعير فانبعث إذا حللت عِقَاله وأرسلته لو كانَ باركاً فأثرته ... والبَعْث يكون نَعْتاً للقَوم يُبعثون إلى وجه من الوُجوه؛ مثل السّفَر والرّكب"[2].

ويختلف البعث بحسب اختلاف ما عُلِّق به، فَبَعْث الرسلِ إرسالُهم سفراءَ بين اللّه وخلقه؛ لتبليغ ما كُلِّفوا به.

2) ﴿رَسُولٗا﴾: اسمٌ على وزن (فَعُول)، من الجذرِ اللّغويِّ (رسل) فعلٌ ماضٍ، المُجرّدُ منه (رسلَ)، وأصلُ المعنى "يدُلُّ على الانبعاثِ والامتدادِ، فالرّسلُ: السَّيرُ السّهلُ"[3].

"ويُقالُ ناقةٌ رِسْلَةٌ سهلةُ السّير، وإبلٌ مَراسِيلُ مُنبعثةٌ انبعاثًا سَهلًا، وأرسلناكَ بمعنى جعلناكَ رسولاً من عندِنا للنّاسِ، أي: أنتَ الرَّسولُ المُنبَعِثُ"[4].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 2/161.
(2) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (بعث).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (رسل).
(4) الرّاغب، المفردات: (رسل).

"والرّسول ينطلق من طرف من أرسله برسالة متميّزة عنه، أي: ليس هو منشئها"[1] فالرّسولُ هو المبعوثُ من اللّهِ تعالى إلى خلقِه.

3) ﴿يَتۡلُواْ﴾: فعلٌ مضارعٌ مرفوع بالضمة المقدَّرة على الواو للثقل، جذره من التّاء واللّام والواو، و"تَلَا فلانٌ القرآن يتلُو تِلاوةً، وتَلا الشّيءَ: تَبِعَه تُلُوّاً ... وكلُّ شيءٍ تَلا يتلُو شيئاً فهو تِلْوُه"[2].

وهو "الاتِّباعُ، يقالُ: تَلوتُهُ إذا تَبِعتَهُ، ومنهُ تلاوةُ القرآنِ؛ لأَنَّهُ يُتبِعُ آيةً بعدَ آيةٍ"[3]، والمُراد من التّلاوة في الآية: "ذِكرُها المَرَّةَ بعدَ المَرَّة؛ لِتَرسَخَ في النَّفسِ، وتُؤَثِّرَ في القَلبِ"[4].

4) ﴿ءَايَٰتِكَ﴾: جمعٌ بالألف والتّاء، مفرده (آية)، أصلُها (أاية) ثمّ صارتَا مدّةً، وذُكِرَ "أنّها مُشتقّةٌ منَ التَّأَيِّي الّذي هو التّثبّتُ، والإقامةُ على الشّيءِ"[5]، والآيةُ تأتي بمعنى العلامةِ والشّخصِ والجماعةِ[6]، والآية: طائفةٌ منَ القرآن، يتّصلُ بعضُها ببعض إلى انقطاعِها، طويلةً كانتْ أم قصيرةً"[7].

"ولكلِّ جملةٍ منَ القرآنِ دالّةٌ على حُكم آيةٍ ... وقد يُقالُ لكلِّ كلام منهُ مُنفصلٍ بفصلٍ لَفظيٍ آيةٌ، وعلى هذا اعتبارُ آياتِ السّورِ الّتي تُعَدُّ بها السُّورةُ"[8] و"الآية من القرآن الكريم جماعة من حروف القرآن، أي: كلماته"[9].

5) ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ﴾: الجذر (علم)، له " أصلٌ صحيحٌ واحدٌ، يدُلُّ على أثرٍ بالشَّيءِ يتميّزُ بهِ عن غيرِه، من ذلكَ العَلامةُ"[10].

من معانيه أنّه "ضدُّ الجَهل، رجلٌ عَالمٌ من قومٍ عُلَماءَ وعالمينَ، وأعلامُ القَومِ ساداتُهم، ومَعالمُ الدّينِ دلائلُه"[11].

(1) جبل، المعجم الاشتقاقي المُؤصَّل: (رسل).
(2) الخليل، العين: (تلو).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (تلو).
(4) محمّد رشيد رضا، تفسير المنار: 1/388.
(5) الرّاغب، المفردات: (أيّ).
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (أيي).
(7) الكفويّ، الكليّات، ص: 41.
(8) الرّاغب، المفردات: (أيّ).
(9) جبل، المعجم الاشتقاقي المُؤصَّل: (أيي، إي).
(10) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (علم).
(11) ابن دريد، جمهرة اللّغة: (علم).

والعلم بمعناه الاصطلاحيّ: " إدراكُ الشّيءِ بحقيقتِه؛ وذلكَ ضَربانِ: أحدُهُما: إدراكُ ذاتِ الشَّيءِ، والثَّاني: الحُكمُ على الشَّيءِ بوجودِ شيءٍ هو مَوجودٌ لهُ، أو نَفيُ شيءٍ هو مَنفيٌّ عنه"[1].

والعلم يدُلُّ أيضًا على "اليَقين، يُقالُ عَلِمَ يَعلَمُ إذا تَيَقَّنَ، وجاءَ بمعنى المَعرِفَةِ أَيضًا، كما جاءَتْ بمعناهُ: ضُمِّنَ كُلُّ واحِدٍ معنى الآخَرِ؛ لاشتِراكِهما في كَونِ كُلِّ واحِدٍ مَسبوقًا بالجَهلِ"[2].

6) ﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾: اسمٌ على وزن (فِعال) أحدُ أوزانِ المصادرِ، جذره الكاف والتّاء والباء، والأصل في ذلك ضمُّ الشّيءِ إلى الشّيءِ[3].

ويُطلق الكتاب على الخطّ والكتابة، كما قال الله تعالى عن عيسى عليه السلام ﴿وَإِذۡ عَلَّمۡتُكَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ﴾ [المائدة: 110] وقد يُقال الكتاب، ويُراد به المكتوب من إطلاق المصدر وإرادة اسم المفعول، مثل الفِراش ويرادُ به المفروش، والغِراس ويراد به المغروس، فالكتاب هو الصّحيفة الّتي كُتِبَ فيها[4].

ويأتي (الكتاب) في القرآن الكريم على أحد عشَر وجهاً[5]، والمراد به في الآية هنا القرآن.

7) ﴿وَٱلۡحِكۡمَةَ﴾: مصدرٌ للفعل: (حكمَ يحكمُ)، والأصل في معناه: المَنعُ، وأَوَّلُ ذلك الحُكمُ، وهو المَنعُ مِنَ الظُّلم، وسُمِّيَتْ حَكَمَةُ الدَّابَّةِ حكمةً؛ لأَنَّها تَمنَعُها، يُقالُ حَكَمْتُ الدَّابَّةَ وأَحكَمتُها ... والحِكمَةُ هذا قياسُها؛ لأَنَّها تَمنَعُ مِنَ الجَهلِ[6].

والحَكَم: الله تبارك وتعالى، وهو أحكم الحاكِمين، وهو الحَكيم لَهُ الحُكْم، ويأتي لفظ الحُكم بمعنى: العِلم والفِقْه والقضاء بالعَدلِ[7].

(1) الرّاغب، المفردات: (علم).
(2) الفيوميّ، المصباح المنير: (علم).
(3) ابن دريد، جمهرة اللّغة: (كتب).
(4) نصر الهورينيّ، المَطَالِعُ النَّصرية، ص: 41.
(5) ابن الجوزيّ، نزهة الأعين النّواظر، ص: 526-527.
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حكم).
(7) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (حكم).

ومعنى الحكمة في الآية: الإصابة في القول والعمل جميعًا، فلا يُسمّى حكيمًا إلّا إذا اجتمع فيه الأمران؛ فيضع كلّ شيء موضعه[1].

8) ﴿وَيُزَكِّيهِمۡۚ﴾: فعلٌ مضارعٌ مُضعّفٌ من (زكّى يزكّي)، والمصدر منه تزكية، جذره من (زكو) أو (زكي)، وللتّزكية معانٍ عديدة؛ فمنها تطهير المال، ومنها الصّلاح، ومنها التّقوى، ومنها الزّيادة والنّماء، ولا سيّما للزّروع[2].

ومعنى تزكية الله عباده هي أنْ جعلهم مسلمين مطهَّرين من أدناس المشركين[3] وتزكية الرسول من أُرسل إليهم هي تطهيرهم من دنس الشّرك[4].

9) ﴿ٱلۡعَزِيزُ﴾: صيغة مُبالَغة على وزن (فَعِيل) من الفعل (عزّ يعزّ)، والأصل في معناه "يدُلُّ على شِدَّةٍ وقُوَّةٍ وما ضاهاهُما، مِنْ غَلَبَةٍ وقَهْر"[5] و"العِزَّةُ: حالةٌ مانِعة للإنسان من أن يُغلَب، من قولهم أرضٌ عَزَازٌ؛ أي: صُلْبَةٌ"[6].

و"العِزّ خلاف الذّلّ، كما أنّ الذُّلَّ لين ورخاوة، ومنه العِزَّة: الشّدّة والقوّة والامتناع، والعَزِيز: القويّ الشّديد الغالب الّذي لا يُغْلَب"[7].

ومعنى العزيز في الآية: "ذو العزّة وهي القوّة، والشدّة، والغلبة، والرّفعة"[8].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

هذه الآية تتمة لدعاء إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، حيث دَعَوا الله تعالى أن يجعل في ذريّتهما رسولًا هاديًا منهم، يعرفون صدقه وعِفَّتَه وأمانته، وتكون وظيفته أن يتلو عليهم آيات الوحي المنزَّل عليه، ويُعلِّمهم الكتاب والسُّنّة المطهّرة، ويُطهّرهم من رجس الشِّرك وأدران المعاصي، ثمّ تضرّعا بالاسمين الجليلين: إنك يا ربّنا أنت العزيز الذي يفعل ما يشاء ولا يُغلب، الحكيم الذي يضع كلَّ أمر في موضعه الصّحيح النّافع.

(1) النّيسابوريّ، غرائب القرآن: 1/404.
(2) الخليل، العين: (زكو).
(3) السّمين، عمدة الحفّاظ: (زكو).
(4) الآلوسّي، روح المعاني: 1/390.
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عزّ).
(6) الرّاغب، المفردات: (عزّ).
(7) جبل، المعجم الاشتقاقي المُؤصَّل: (عزز).
(8) القاسمي، محاسن التأويل: 1/260.

الإيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

دلالات الفعل ﴿وَٱبۡعَثۡ﴾:

إيثارُ فعل البعث لتضمُّنه معنى الإرسال والاستنهاض والقيام بمهمّة الرّسالة

مادّة البعث تحمل معاني الإرسال والاستنهاض؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ لَهُمۡ نَبِيُّهُمۡ إِنَّ ٱللَّهَ قَدۡ بَعَثَ لَكُمۡ طَالُوتَ مَلِكٗاۚ﴾ [البقرة: 247]؛ أي: أرسله واستنهضه فيكم، وتأتي بمعنى الإثارة مثل: "إنّ للفتنة بعثات"[1]، وبمعنى الإحياء بعد الموت ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبۡعَثُ مَن فِي ٱلۡقُبُورِ ۝٧﴾ [الحج: 7].

والاستقراء القرآنيُّ يشير إلى أنّ الفعل (بعث) يُستعمَل في السّياق الذي يُسند اللّه تعالى للرَّسول فيه عملًا -مثل ههنا-؛ حيث تحدّث عن وظيفة الرّسول وهي تلاوة الآيات وتعليم الكتاب والحكمة وتزكية المرسَل إليهم.

بينما ذكر سبحانه فعل (الإرسال) في آية الصّف وما شابهها ولم يُسند لرسوله ﷺ عملًا يقوم به، ولم يَصِفْهُ بفعل يقوم به، مثل قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ ۝٣٣﴾ [التوبة: 33].

إيثارُ التّعبير بـ﴿فِيهِمۡ﴾ لا بـ(إليهم):

عالميَّةُ الرِّسالةِ طُموحُ إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام

آثر النَّظم التّعبير بحرف الجرّ (في) بقوله ﴿فِيهِمۡ﴾، ولم يقُل (إليهم) في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ﴾؛ ليكونَ الرَّسولُ منهم، ولو كان إليهم لاحتملَ أن يكون الرَّسولُ آتيًا من غيرِهم إليهم، ففيه كشفٌ عن الرَّغبةِ في أن يكون من الذُّريَّةِ، و"لِتكونَ الدَّعوةُ بمجيءِ رسولٍ برِسالةٍ عامَّةٍ، فلا يكونُ ذلك الرَّسولُ رسولًا إليهم فقط"[2] يؤيّده ما جاء في الكتاب والحديث من أنّه ﷺ لم يُبعث إلى أمّته خاصّة، بل إلى العالمين جميعاً ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: 107].

(1) الحاكم، المستدرك، الحديث رقم: (8656).
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/722.

أغراضُ التّعبير بالمتعلّق ﴿مِّنۡهُمۡ﴾:

شرفُ الرّسول وصدقُهُ وأمانتُهُ مَبْعَثٌ لتصديقه في نُبُوَّته ورسالته

جاء المُتعلّق ﴿مِّنۡهُمۡ﴾ مُقترنًا بلفظ ﴿رَسُولًا﴾ في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولًا مِّنۡهُمۡ﴾؛ ولذلك ثلاثةُ أغراض: أَحدُها: ليكونَ مَحَلُّهُم ورُتبَتُهُم في العِزِّ والدِّينِ أَعظَمَ والثّاني: أنّهم يَعرِفونَ مَولِدَهُ ومَنشأَهُ؛ فَيَقرُبُ الأَمرُ عليهم في مَعرِفةِ صِدقِهِ وأَمانَتِهِ، والثّالث: أنّه يكون أَحرَصَ النّاسِ على خَيرِهِم، وأَشفَقَ عليهم[1].

أثرُ الصّيغةِ في بيان المعاني:

الإشارةُ إلى ضرورةِ التَّدرجِ في التَّعليم

جاءَ في قوله تعالى ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ﴾ الفعل (يُعلّم)، وصيغة التّضعيف تدلُّ على المبالغة والتدرّج في القيام بالفعل، بخلاف ما لو قال: (يُعلِمُكُم) بالصّيغة المخفّفة؛ فإنّها من الإعلام لا التّعليم، ولا يحصل العلم بمجرد الإعلام، بل لا بدّ من توافر أسبابه، وهنا في الآية التّلاوة والقراءة "لأنّ أَوَّل ما يَقرَعُ السَّمعَ هو التِّلاوةُ والتَّلَفُّظُ بالقرآن، ثُمَّ بعد ذلك تُتَعَلَّمُ معانيهِ ويُتَدَبَّرُ مدلولُهُ"[2].

دلالاتُ التّعبير بالفعل المضارع:

التِّلاوةُ والتَّعليمُ والتَّزكيةُ أركانٌ ثلاثةٌ لا تقومُ الأمم إلَّا باجتماعِها والاستمرار في فعلها

المُتأمّل في قوله تعالى: ﴿يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُزَكِّيهِمۡ﴾، يلحظ أنّ التّعبير جاء بصيغة الفعلِ المضارع في الأفعالِ كلِّها: ﴿يَتۡلُواْ﴾ و﴿وَيُعَلِّمُهُمُ﴾ و﴿وَيُزَكِّيهِمۡ﴾، والفعل المضارع دالٌّ على التّجدّد؛ ممّا يومئ إلى أنّ هذه المعاني ينبغي أن تكون متجدّدة في حياة المسلم، وأن يمارسَها المؤمنُ على سبيل التّجدّد والاستمرار، فلا ينقطع عن تلاوة القرآن؛ لأنّها حياة القلوبِ؛ فـ "جيءَ بالمُضارع في قوله: ﴿يَتۡلُواْ﴾ للإشارة إلى أَنَّ هذا الكتابَ

(1) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 4/72.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 1/626.

تَتَكَرَّرُ تلاوتُهُ"[1]، ولا يتوقَّف عن التّعليم؛ فبه تُعمّر البلاد، ولا يفترُ عن تزكية النّفوس لتظلّ متّصلة باللّه تعالى فلا يشغلها شاغلٌ.

التّرتيبُ بين التّلاوة والتّعليم والتَّزكيةِ:

ملاحظةُ الوجودِ في ذهنِ إبراهيم عليه السلام عند الدُّعاء

تقدّم ذكرُ تلاوة القرآن على تعليمه في قوله تعالى: ﴿يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ في دعاءِ إبراهيم عليه السلام؛ فيُسألُ عن وجه هذا التّرتيب؟ والجواب عن ذلك: أنّ أوّل منزلة النّبيّ ﷺ بعد التَّصريح بنُبُوَّته الإتيان بالآيات الدّالّة عليها، ثمّ بعده تعليمهم الكتاب، أي: تعريفهم حقائقه لا ألفاظه فقط، ثمّ بتعليمهم الكتاب يُوصلهم إليه"[2]، فدعاء إبراهيم عليه السلام بدأ بالتّلاوةِ لأنَّها أصلُ التَّعليم، والأصلُ مقدَّمٌ على الفرعِ، ثم ذكرَ التَّزكيةَ باعتبارِها مصوِّبةً لأخطاءِ المُتعلِّمين، فالتَّرتيبُ وجوديٌّ، وهو الأصلُ ابتداءً.

توجيهُ المتشابهِ اللّفظيّ:

اختلافُ الواقِعِ عند الاستجابة عن المفترض في أصلِ الدُّعاءِ دليلُ الرَّحمةِ وتحقُّقِ الدَّعوةِ

جاءَ التَّرتيبُ في قولِه تعالى: ﴿يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ﴾، التِّلاوةُ فالتَّعليمُ فالتَّزكيةُ، بينما جاء في آية آل عمران: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ [آل عمران: 164] وفي آية الجمعة: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الجمعة: 2] التِّلاوةُ فالتَّزكيةُ فالتَّعليم، فيُسألُ عن سرِّ ذلك؟

والجواب: هو في اختلاف المقصدين؛ فإنّه "لمّا كانت دعوة إبراهيم عليه السلام قبل وجود الضّلال في الذّريّة المدعُوِّ لها، وإنّما تحصل لهم من تزكيتهم، ورفع ضلالهم المُتوقّع وقوعه بما يمنحونه من

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/723.
(2) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 1/316.

التّعليم، وما يتلى عليهم من الآيات"[1] فحاجتهم في بدء الدّعوة إلى التّلاوة والتّعليم أقوى من حاجتهم إلى التّزكية، وهو ظاهر.

أمّا الآيتان الأخريان فقد قدّم التّزكية على تعليم الكتابة والحكمة؛ لأنّهما قائمتان على "ذكر الامتنان عليهم بهدايتهم بعد الضّلال الّذي كان قد وجد منهم ... ليكون تلوه ذكر الضّلال الّذي أنقذهم الله منه بما علّمهم وأعطاهم، وامتنّ عليهم"[2]؛ فالمقام هنا مقام تمجيد وامتنان، ويناسبه التّزكية، فاختلف المقصدان.

تقديمُ صفةِ ﴿ٱلۡعَزِيزُ﴾ على ﴿ٱلۡحَكِيمُ ١٢٩﴾:

تقديمُ الأسبابِ على مسبّباتها

قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ تذييلٌ لـمَا سبق، وقد قدّم فيها صفة العزيز على صفة الحكيم؛ لأنّ العزيزَ "مِن صفات الذَّات، والحكيم مِن صفات الأَفعال"[3]، وهو من باب تقديم السّبب على الـمُسبِّب؛ "لأَنَّه عَزَّ فَحَكَمَ"[4].

توالِي المؤكّداتِ في الجملة:

في قوله تعالى ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ طائفةٌ من المؤكّدات، منها (إنّ) وتعريف جزأي الجملة، والإتيان بضمير منفصل توسّط بين الـمُسند إليه والـمُسند، وهو ضمير يحتمل[5] الابتداء والتّوكيد والفصل، والمسحة التّوكيديّة بيّنة فيها، فضلاً عن التّعبير بصفتين للمبالغة، والمبالغة قرينة التّوكيد، والغرض من ذلك تحقيق القصر؛ فالمعنى الإقرار منهما بأنّه تعالى هو العزيز الحكيم لا غيره على جهة القصر والحصر.

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

ابعثْ وأرسلْ:

في قوله تعالى ﴿رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولٗا﴾ جاء بالفعل الدّالِّ على الدّعاء ﴿وَٱبۡعَثۡ﴾،

(1) ابن الزّبير، مِلاك التّأويل: 1/51.
(2) ابن الزّبير، مِلاك التّأويل: 1/51.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 1/627.
(4) السُّيوطيّ، الإتقان: 3/45.
(5) عضيمة، دراسات لأسلوب القرآن الكريم: 8/142.

والبعث فيه إثارة نحو عمل ما[1]، والإثارة لا تكون إلَّا عن وهن وجمود؛ ففي البعث تحفيزٌ وتنشيطٌ، أمَّا الإرسال فيدُلُّ على السّهولة واليسر، ويدُلُّ أيضًا على الانبعاث، إلَّا أنَّ هذا الانبعاث يقترن بالامتداد[2].

وفي البعث إخراج و"إنهاض بعد موت مؤقت أو نوم أو نحوه"[3]، أمَّا الإرسال ففيه رسالة يبلّغها الرّسول؛ لذلك يكون البعثُ سابقًا على الإرسال، وهو ما كان في الآية ﴿وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولٗا﴾ أن يكون الإخراج مع الإثارة والقوّة أوّلاً، ثمّ الإرسال مع السّهولة واليسر؛ ليمتدَّ لأنَّ فيه امتدادًا.

يتلو ويقرأُ:

في قوله تعالى﴿يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِكَ﴾ جاء بالفعل (يتلو)، ولم يعبّر بالفعل (يقرأ)؛ لأنّ ثمّة فرقًا "بين التِّلاوة والقراءة؛ وذلك أَنّ التِّلاوةَ لا تكون في الكلمة الواحدة، والقراءة تكون فيها، تقول: قَرَأَ فلان اسمَه، ولا تقول تلا اسمه"[4] لأنّ التّلاوة تفيد التّتابع، تقول "تلا فلانٌ القرآن يتلُو تِلاوةً، وتَلا الشّيءَ: تَبِعَه تُلُوّاً ... وكلُّ شيءٍ تَلا يتلُو شيئاً فهو تِلْوُه"[5] والتّلاوة فيها معنى الثّبات أكثر من القراءة "وحِكمةُ التِّلاوةِ: بقاءُ لَفظِها على الأَلسنةِ، فيبقى مَصُونًا عَنِ التَّحريف والتَّصحيف"[6].

(1) جبل، المعجم الاشتقاقي المُؤصَّل: (بعث).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (رسل).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقي المُؤصَّل: (بعث).
(4) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 27.
(5) الخليل، العين: (تلو).
(6) أبو حيّان، البحر المحيط: 1/627.

﴿وَمَن يَرۡغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبۡرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفۡسَهُۥۚ وَلَقَدِ ٱصۡطَفَيۡنَٰهُ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ١٣٠﴾

[البقرة: 130]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

بعد أن بيَّنَ اللّهُ ﷻ فضائلَ إبراهيم عليه السلام وعدّد جملةً من أدعيته؛ أوضح في هذه الآية أنّه لا يُخالف دعوةَ إبراهيم عليه السلام ولا يزيغُ عنها إلّا سفيهُ العقل مأفون الرّأي، وبَيّنَ سبحانه أنَّ عبده إبراهيم عليه السلام من المُصْطَفَيْنَ الأخيارِ في الدّنيا، وهو في الآخرة من الصّالحين المُنَعَّمينَ في جنّات النّعيم.

شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

1) ﴿يَرۡغَبُ﴾: فعل مضارع، جذره اللّغويُّ (رغب)، وأصل الرّغبة: الإرادة، فإذا تعدّى الفعل (رغب) بحرف المجاوزة (عن) أفاد ترك الشّيء والإعراض عنه بشكل متعمّد، وهو المعنى المراد في الآية الكريمة، أمّا (رغب في)؛ فمعناه: أراد الشّيء وأحبّه ومال إليه.

2) ﴿مِّلَّةِ﴾: اسمٌ جذره اللّغويّ (ملل)، أو (ملو)، وأصله "يدُلُّ على امتدادٍ في شيءٍ زمانٍ أو غيره"[1].

والمِلّة معناها "الشّريعة والدّين (شريعةٌ تُمدّ، ويُزَوّدُ بها لإصلاح حال الخلق ومآلهم)"[2].

قال الإمام البغويّ: "والمِلّة بكسر الميم الدّين والشّريعة، وهي مجموع عقائد وأعمال يلتزمها طائفة من النّاس يتّفقون عليها، وتكون جامعة لهم كطريقة يتّبعونها"[3] وقد أضافها في الآية إلى إبراهيم عليه السلام، أي: دين إبراهيم وشريعته[4].

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ملل).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقي المُؤصَّل: (ملل).
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/693.
(4) البغويّ، معالم التّنزيل: 1/152.

3) ﴿سَفِهَ﴾: تعود معاني مادة (سفه) إلى الخفّة والسّخافة والطّيش والجهل ونقصان العقل[1].

قال الرّاغب: والسّفهُ "خِفّةٌ في البَدن، ومنه قيل: زِمامٌ سَفيهٌ كثيرُ الاضطراب، وثوبٌ سَفيهٌ رديءُ النّسج، واستُعمل في خفّة النّفس لنُقصان العقل، وفي الأمور الدُّنيويّة والأُخرَويّة، فقيل: سَفِهَ نَفسَهُ"[2].

ومعنى ﴿سَفِهَ نَفۡسَهُۥٓ﴾ في الآية ورد على عِدَّة أقوال؛ "قال ابنُ عبَّاسٍ: مَنْ خَسِرَ نَفسَهُ، وقال الكَلبيُّ: ضَلَّ مِنْ قِبَلِ نَفسِهِ، وقال أَبو عُبَيدَةَ: أَهلَكَ نَفسَهُ، وقال ابنُ كَيسانَ والزَّجَّاجُ: معناهُ جَهَّلَ نَفسَهُ، والسَّفاهَةُ: الجَهلُ وضَعْفُ الرَّأيِ"[3].

4) ﴿نَفۡسَهُۥٓ﴾: اسمٌ ثلاثيٌّ جذره اللّغويّ (نفس)، وأصله "يدُلُّ على خروج النَّسيم كيفَ كان، مِنْ ريحٍ أَو غيرها" وجاء في المقاييس: "والنّفسُ: الدَّمُ، وهو صحيحٌ، وذلك أَنَّهُ إذا فُقِدَ الدَّمُ مِنْ بَدَنِ الإنسانِ فَقَدَ نَفسَهُ"[4].

وهو شيءٌ "لطيف يسري في فُتُوقٍ أثناء الشّيء فيصلحه، ويتيح له التّصرّف، كالنّفَس في أثناء بدن الحيّ، فهو علامة حياته الّتي تتيح له التّصرّف"[5].

والنّفس يُعبَّر بها عن الإنسان، وهو تعبير مجازيّ.

5) ﴿ٱصۡطَفَيۡنَٰهُ﴾: فعلٌ ماضٍ مزيد وزنه افْتَعَل (اصتفى) حصل فيه إبدال؛ فقُلِبت التّاء طاء للمجانسة الصّوتية، والجذر اللّغويّ (صفو) "الصَّفْو: ضدّ الكَدَر، صفا الماءُ يصفو صَفْواً، والاسم الصَّفاء، وفُلان صَفْوتي، أَي خِيرتي وخُلْصاني"[6].

والأصل في معناه أنّه "ضِدُّ الكَدَرِ؛ يُقالُ: صَفَا يَصْفُو، إذا خَلَصَ، يُقالُ لك صَفْوُ هذا الأَمرِ وصِفوَتُهُ، ومُحَمَّدٌ صَفْوَةُ اللّهِ تعالى وخِيرَتُهُ مِنْ خَلقِهِ، ومُصطَفاهُ صلَّى اللّهُ عليه وآله وسلَّم"[7].

(1) جبل، المعجم الاشتقاقي المُؤصَّل: (سفه).
(2) الرّاغب، المفردات: (سفه).
(3) البغويّ، معالم التّنزيل: 1/152.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نفس).
(5) جبل، المعجم الاشتقاقي المُؤصَّل: (نفس).
(6) ابن دريد، جمهرة اللّغة: (صفو).
(7) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (صفو).

"والاصطِفاءُ: تناولُ صَفْوِ الشّيءِ، كما أنّ الاختيارَ تناولُ خيره، والاجتباءَ تناولُ جبايته، واصطِفاءُ اللّهِ بعضَ عباده قد يكون بإيجاده تعالى إيّاه صافياً عن الشّوب الموجود في غيره وقد يكون باختياره وبحُكمه"[1].

"واستصفى الشّيء واصطفاه: اختاره كأنّه أخذه؛ لأنّه أصفَى جِنْسه أو أجوده، والمصطفى ﷺ صفوة اللّه من خلقه"[2].

ومعنى (اصطفيناه) في الآية: أي: اختار اللّه إبراهيم بالنّبوّة والحكمة من بين سائر الخلق[3].

6) ﴿ٱلدُّنۡيَا﴾: اسم تفضيل للمؤنث من (دَنا يَدْنو)، فأصله (أَدْنَى دُنْوَى) زنة (أَفْعَل فُعْلَى)، مثل (أصْغر صُغرى)، ثمّ حصل فيه إعلال فصار (دُنْيا)، وجذره اللّغويّ (دنو)، والأصل في معناه "المقاربةُ، ومنْ ذلكَ الدَّنيُّ، وهو القريبُ، منْ دنَا يدنُو، وسُمِّيتِ الدُّنيا لدنوّهَا"[4].

ثمّ أصبحت لكثرة الاستعمال علمًا على الحياة الدّنيا دار الابتلاء، المقابلة للآخرة دار البقاء "وسُمِّيَت الدُّنيا؛ لأنَّها دَنَتْ وتأخَّرَتِ الآخِرةُ"[5].

7) ﴿ٱلۡأٓخِرَةِ﴾: اسم مؤنث على زنة فاعل (أاخر) ثمّ صارتِ الهمزتان مَدّة، وهو للتّفضيل، جذره اللّغويّ (أخر)، والأصل في معناه "خلافُ التَّقَدُّم، وهذا قياسٌ أَخذناهُ عَنِ الخليلِ فإنَّه قال: الآخِرُ نَقيضُ المُتَقَدِّمِ، والأُخُرُ نقيضُ القُدُمِ، تقولُ مَضى قُدُمًا، وتَأَخَّرَ أُخُرًا"[6].

"والآخِرُ: بعدَ الأوّل، وهو صفةٌ، تقول: جاء آخِراً، أي: أخِيرًا، وتقديره فاعِل"[7].

ومعناه "يقابَلُ به الأوّل، وآخَرُ يقابَلُ به الواحد، ويُعبّر بالدّار الآخِرة عنِ النّشأة الثّانية، كما يُعبّر بالدّار الدّنيا عنِ النّشأة الأولى"[8].

(1) الرّاغب، المفردات: (صفو).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقي المُؤصَّل: (صفو).
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/262.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (دنو).
(5) الفراهيديّ، العين: (دنو).
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (أخر).
(7) الجوهريّ، الصّحاح: (أخر).
(8) الرّاغب، المفردات: (آخِر).

8) ﴿ٱلصَّٰلِحِينَ﴾: جمع مذكر سالم مفرده صالح، والجذر اللّغويُّ منه (صلح)، والأصل في معناه دلالته على خلاف الفساد[1]، وأصلَحَ الشّيء: أقامه بعد فساد.

والصَّلاحُ والفساد مُختَصّان في أكثر الاستِعمال بالأفعال، وقُوبِل الصّلاح في القرآن تارةً بالفساد، وتارةً بالسّيّئة.

ومعنى ﴿لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ في الآية: "أي: المشهود لهم بالثّبات على الاستقامة والخير والصّلاح"[2].

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

ومن يرغب عن دين إبراهيم عليه السلام ويُعرضُ عن ملّته السّمحة المستقيمة؛ فإنّه قد أهلك نفسه وخانها، وزاغ عن الصراط السّويّ وجهل في اختياره.

وملّة إبراهيم عليه السلام هي الطّريقة المستقيمة المُوَصِّلة إلى ربّ العالمين، ويدلّ على ذلك أنّنا اصطفيناه واخترناه لحمل رسالة التّوحيد في الدّنيا، وهو في الآخرة من الصّالحين المنعَّمين في الجنّات.

الإِيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

سِرُّ العدولِ من العطفِ بالفاء إلى الواوِ:

التَّنويهُ بشأنِ ملَّةِ إبراهيمَ في استقلالِها وخصوصيّتها

اتِّصالُ قولِه تعالى: ﴿وَمَن يَرۡغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبۡرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفۡسَهُۥ﴾ شديدٌ بين هذه الآية وما سبقها من آياتٍ، وهو اتّصالُ نتيجة بسبب، وحقّ الاتّصال بين هذين الجزأين أن يكون بالفاء، لكنّه "عَدَلَ مِنَ الفاء إلى الواو؛ ليكونَ مَدلولُ هذه الجُملةِ مُستَقِلّاً بنفسِهِ في تَكميلِ التَّنويهِ بشأنِ إبراهيمَ، وفي أَنَّ هذا الحُكمَ حَقيقٌ بملَّةِ إبراهيمَ مِنْ كُلِّ جهةٍ لا مِنْ خُصوصِ ما حكى عنهُ في الآيات السَّالفة"[3]؛ فتضمُّنُ الجملةِ المعانيَ السّابقةَ يُوقِعُها مَوقعَ النّتيجةِ؛

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (صلح).
(2) الآلوسّي، روح المعاني: 1/388.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/724.

فيُستغنى ربطها بالفاء؛ ليكون حكماً مُستقلّاً من كلّ جهة على إبراهيم وملّته، وليس مُقيّدًا بما مضى من معانٍ إذا اقترنت بالفاء.

وثمّة معنى آخر، وهو وجود جملة معطوفة على ما سبق بالفاء، وهي المقابلة في المعنى لما هو مذكور، والتّقدير: (ربّنا وابعث فيهم رسولًا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلِّمُهم الكتاب والحكمة ويُزكّيهم؛ فمن استجاب لهذا الرَّسول وآمن بدعوته فقد أفلح ونجا، ومن يرغب عن ملّة إبراهيم عليه السلام التي هي قوام رسالة محمد ﷺ وأساسُها فقد سفِه نفسه وخاب وخسر).

براعةُ النَّفي بأداةِ الاستفهامِ:

توبيخُ وتقريعُ كلِّ راغبٍ عن ملَّةِ إبراهيم

ابتدأ الحقّ تبارك قولَه: ﴿وَمَن يَرۡغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبۡرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفۡسَهُۥ﴾ بـ(مَنْ) الاستفهاميَّة، وهي "استفهامٌ بمعنى الإنكارِ؛ ولذلك جاءَتْ إلَّا بعدها؛ لأَنَّ المُنكَرَ مَنْفيّ"[1] والمعنى: لا يحيد عن الإسلام إلّا من خسر نفسَه، أو أهلكها، وفي هذا التّعبير تقريع وتشنيع، "والاستفهامُ للإنكارِ والاستبعادِ، واستعمالُهُ في الإنكارِ قد يكونُ مع جوازِ إرادَةِ قَصدِ الاستفهامِ؛ فيكونُ كنايةً ... فإنَّ الإعراضَ عَن مِلَّةِ إبراهيمَ مع العلمِ بفضلِها ووضوحِها أَمرٌ مُنكَرٌ مُستَبعَدٌ"[2]، وعبَّر بمَنْ الاستفهاميَّةِ عن معنى النَّفي؛ لإفادةِ التَّوبيخ والتّقريع، وليشملَ كلَّ من يرغبُ عن ملَّةِ إبراهيم، وهذا من بديع الاستعمالِ القرآنيِّ لأدوات الاستفهامِ في معنى النَّفي.

أثرُ الإعرابِ في الكشفِ عن جمالِ المجازِ:

تمكُّنُ السَّفاهةِ من صَاحِبِها لتُصيِّرَه غارقًا في ظُلُماتِ القُبحِ

جاز في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَرۡغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبۡرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفۡسَهُۥ﴾ أن تكون ﴿نَفۡسَهُۥ﴾ منصوبةً على التّمييز "المُحَوَّل عَنِ الفاعِلِ، وأَصلُهُ سَفِهَتْ نَفسُهُ أي: خَفَّتْ وطاشَتْ، فَحُوِّلَ الإسنادُ إلى

(1) العُكبَرِيّ، التّبيان: 1/116.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/724.

صاحِبِ النَّفسِ على طريقةِ المجازِ العقليِّ؛ للمُلابسةِ قَصْدًا للمبالغةِ"[1] وكأنّ السّفاهة تمكّنت من صاحبها فامتزجت بالنّفس؛ لأنّ السّفهَ صفةٌ لصاحب النّفس وليس لها، ثمّ أصبح الفاعل منصوبًا على التّمييز، ولـمّا "أَضافَ الفِعلَ إلى صاحِبِها خرجَتِ النَّفسُ المُفَسِّرَةُ؛ ليَعلمَ مَوضِعَ السَّفَهِ، كما يُقالُ: ضِقْتُ به ذَرْعًا، أي: ضاقَ ذَرْعي به"[2].

سرُّ توالي المؤكّداتِ في شأنِ إبراهيمَ:

تنزيلُ المُخاطَبِ غيرِ المتَّبعِ لملَّةِ إبراهيم منزلةَ المُنكِر

توالتِ المُؤكِّداتُ في قولِه تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ وهي: التّوكيدُ بـ(إنّ)، وتعريفُ المُسندِ إليه، ودخولُ اللّام على حرفِ الجرِّ، وتوالي التَّوكيداتِ يدلُّ على تنزيلِ المُخاطبِ منزلةَ المُنْكِرِ؛ إذ من عَلِمَ اصطفاءَ اللّه له، ولم يتبعْه فكأنَّما أنكرَ أنَّه في الآخرةِ من الصَّالحين، إذ مقتضى العلمِ العملُ، ومن لم يعمل بعلمِه يُنزَّلُ منزلةَ المُنْكِرِ.

يُضاف إلى ذلك أنّ قوله: ﴿لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ١٣٠﴾ أبلغُ في الدّلالة على صلاحه واندراجه في زُمرة الصّالحين من التّعبير: (إنّه في الآخرة صالح)، وأين هذا التّعبير من سُمُوِّ لغة التنزيل؟!!!

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

اصطفَى واختارَ:

في قوله تعالى: ﴿ٱصْطَفَيْنَٰهُ﴾ الفعل (اصطفى) من الجذر اللّغويّ (صفو)، و"أصل الصَّفَاءِ: خلوصُ الشّيءِ من الشّوب، ومنه: الصَّفَا، للحجارة الصَّافيةِ"[3] أمّا الاختيار فمن (خير)، فالاختيار أن تختار من غير مُتشابهات، كأن تختار كتابًا من بين الكتب والأقلام والكرّاسات، أمَّا الاصطفاء فيكون بين أشياء مُتناظرة متشابهة كالآية وكقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ﴾ [آل عمران: 33] فالاصطفاء هنا من بين البشر، وهم مُتناظرون.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/725.
(2) البغويّ، معالم التّنزيل: 1/153.
(3) الرّاغب، المفردات: (صفو).

﴿ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ ﴾ [البقرة: 131]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

بين هذه الآية وما سبقها علاقة وثيقة وفيها تقديم وتأخير، فحقّ هذه الآية التّقديم على فعل الاصطفاء؛ لأنّ معنى ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ﴾، كأنّه قال: "اصطفيناهُ في الوقتِ الّذي قال له رَبُّهُ أَسلِمْ، فكأنَّه تعالى ذَكَرَ الاصطفاءَ، ثُمَّ عَقَّبَهُ بذكرِ سَبَبِ الاصطفاء، فكأَنَّهُ لـمَّا أَسلمَ نفسَهُ لعبادةِ اللّهِ تعالى وخَضَعَ لها وانقادَ، عَلِمَ تعالى مِنْ حالِهِ أَنَّهُ لا يَتَغَيَّرُ على الأَوقاتِ"[1] فلإسلامه وحُسْن جوابه وسرعته جازاه الله تعالى بأن جعله صفيّه من خلقه في الدّنيا، وفي الآخرة من الصّالحين.

شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

1) ﴿أَسْلِمْ﴾: فعلٌ ماضٍ، جذرُه اللّغويّ (سلم)، و"معظمُ بابهِ منَ الصِّحَّةِ والعافيةِ؛.، فالسّلامةُ: أَنْ يسلمَ الإنسانُ منَ العاهةِ والأذَى"[2] ومنهُ الإسلامُ، وهو من الألفاظِ الّتي اكتسبتْ دلالاتٍ جديدةً بعدَ مبعثِه ﷺ.

"وأَسلَمَ أمرَه إلى اللّهِ، أي: سَلَّمَ، وأَسلَمَ، أي: دخلَ في السَّلْمِ، وهو الاستسلام"[3].

والإسلام أن يكونَ معَ الاعترافِ اعتقادٌ بالقلبِ ووفاءٌ بالفعلِ واستسلامٌ للّهِ في جميعِ ما قَضَى وقدّرَ، كما ذُكرَ عن إبراهيمَ عليه السلام"[4] في هذه الآية.

2) ﴿ٱلْعَٰلَمِينَ﴾: مفرده (عالَم)، والمراد جميع الأجناس والخلائق، وذلك أنّ كلَّ جنس من الخَلْق هو في نفسه مَعْلَم وعَلَم، وقال قوم: العالَم سُمِّي لاجتماعه[5].

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

من أسباب اصطفاء الله لإبراهيم عليه السلام مسارعته إلى الإسلام دون تردُّد، حين قال له

(1) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 4/78.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سلم).
(3) الجوهريّ، الصّحاح: (سلم).
(4) الرّاغب، المفردات: (سلم).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (علم).

ربه: أخلص نفسك للّه منقادًا له، فدانَ بالإسلام، وأقَرَّ بالدَّينونة للّه تعالى، وتبرَّأ مِن حَوْله وقوّته قائلًا: (أسلمت أمري كلّه للّه ربّ العالمين وخالقهم وكالئهم ومُصلحهم).

الإيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

بلاغةُ تأخير الظَّرف عن عامِله:

الاصطفاءُ فضلٌ ربانيٌّ وعطاءٌ رحمانيٌّ

قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ﴾ ظرفٌ لاصطفيناه[1]؛ فالظّرفُ (إذ) مُتأخّرٌ لفظًا مُتقدّمٌ معنى؛ فبإسلامه ومبادرته إلى الإذعان والانقياد اختاره اللّه واصطفاه، وقد "قُصِدَ مِنْ هذه الظَّرفيةِ التَّخلُّصُ إلى مَنقَبةٍ أُخرى؛ لأَنَّ ذلك الوَقتَ هو دليلُ اصطِفائِهِ"[2]، وفيه الإشارة إلى منزلة إبراهيم عليه السلام وتنويهٌ بهذا الاصطفاء الّذي قدّمه، وبلاغةُ تأخيرِ الظَّرفِ تنبيهُ العبادِ إلى أنَّ الاصطفاءَ ما كان إلَّا بالخضوعِ والانقيادِ للّه تعالى.

دلالةُ حذفِ مفعولِ ﴿أَسْلَمْتُ﴾:

الإيجازُ اللَّفظيُّ، وبيانُ سُرعةِ الاستجابةِ

في قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ﴾ نجد أنّ "مَفْعُولَ ﴿أَسْلِمْ﴾ ومُتَعلّقَهُ مَحذُوفانِ يُعْلَمانِ مِنَ المَقامِ، أَي: أَسلِمْ نَفسك لي ... وشاعَ الاستِغناءُ عَنْ مَفعولِ أَسلِمْ"[3]، والغرضُ من الحذف في ﴿أَسْلَمْتُ﴾ مناسبةُ الحذفِ في ﴿أَسْلِمْ﴾، وإيجازُ لفظ، وبيانُ سرعةِ القَبولِ والإذعانِ، إذ إنَّ قوله: ﴿أَسْلَمْتُ﴾ "مُشعِرٌ بأَنَّه بادرَ بالفورِ دونَ تريُّثٍ كما اقتضاهُ وقوعُهُ جوابًا"[4]، وحُذف مفعول ﴿أَسْلَمْتُ﴾ تنزيلاً للفعل المتعدّي منزلة الفعل اللّازم؛ لإثبات إسلام إبراهيم عليه السلام على جهة الإطلاق من غير نظرٍ للمفعول، وأراد أن يخلع عليه صفة التّسليم والانقياد، كأنّها صفة ذاتيّة مُمتزجة به.

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 1/262.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/726.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/726.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/727.

فائدةُ التّعبيرِ بربّ العالَمينَ:

المقابلةُ اللّفظيّةُ وإظهارُ كمالِ الإسلامِ وتمامِ الخضوعِ

عبّر في قولِه تعالى: ﴿أَسۡلَمۡتُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ عن المعبودِ باختيارِ لفظِ الرَّبِّ، لمناسبتِه السِّياق، فلمَّا جاء في النَّظمِ: ﴿إِذۡ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ﴾ كان المناسبُ أن يأتي بعنوانِ الرُّبوبيّة، وأضافَ إليها ﴿ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾؛ "للإيذان بكمال قوةِ إسلامِه حيث أيقنَ حين النّظر بشمولِ ربوبيّتِه للعالَمين قاطبةً لا لنفسِه وحده"[1]، ففيه اعترافٌ بأنَّ الإسلامَ كان لربِّ العالمين جميعًا؛ ففيه إذعانٌ وخضوعٌ، فكأنَّه قال: كيف لا أُسلم لربِّ العالمين؟، والتّعبير بعنوان الرّبوبيّة لإظهارِ مزيدِ اللُّطفِ والعناية، وعناية بالقرب منه[2]، وهو من شأن الرّبّ مع مربوبه.

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 1/163.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 1/163.

﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبۡرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعۡقُوبُ يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ١٣٢﴾ [البقرة: 132]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الآية متناسبة مع ما قبلها أشدّ التّناسب، متّصلة بها أوثق الاتّصال، فإنّ قوله ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ﴾ أي: بالكلمة، والضّمير الغائب يعود على الآية السّابقة، وفيه قولان؛ أحدهما يعود على قوله تعالى ﴿أَسۡلَمۡتُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، وصوّبه القرطبيّ كونه يعود على أقرب مذكور[1].

والقول الآخر أنّ الضّمير يعود على الملّة المذكورة سابقًا بإضافتها إلى إبراهيم، أي: ملّة إبراهيم، أي: "وصَّى بهذه المِلَّة، وهي الإِسلامُ لِلَّهِ؛ لحرصهم عليها، ومحبتهم لها"[2].

شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

1) ﴿وَوَصَّىٰ﴾: فعلٌ ماضٍ مزيدٌ بالتّضعيف، جذره اللّغويُّ من (وصي)، والأصل في معناه "يدُلُّ على وَصْلِ شَيءٍ بشيءٍ، ووصَيْتُ الشَّيءَ: وصَلْتُهُ ... والوَصِيَّةُ مِن هذا القياسِ، كأَنَّهُ كلامٌ يُوصَى، أَي: يُوصَلُ"[3].

والمعنى المحوريّ للكلمة "التزام الأشياء بعضها بعضًا ... ومن هذا الالتزام جاء معنى الإيجاب في الوصيّة؛ فهي عهد وتكليف وإلزام"[4].

وعرّفها الرَّاغب بقوله: "الوَصِيَّةُ: التّقدّمُ إلى الغَير بما يعملُ به مُقترنًا بوَعظٍ من قولهم: أرض وَاصِيَةٌ متّصلةُ النّبات، ويُقال: أَوْصَاهُ ووَصَّاهُ، قال تعالى: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبۡرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعۡقُوبُ﴾"[5].

(1) القُرطُبي، الجامع لأحكام القرآن: 2/408.
(2) أحمد شاكر، عمدة التّفسير عن الحافظ ابن كثير: 1/187.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (وصى).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقي المُؤصَّل: (وصي).
(5) الرّاغب، المفردات: (وصى).

2) ﴿إِبْرَٰهِـۧمُ﴾: اسم علم أعجميّ لخليل الرّحمن عليه السلام و"هو الجدّ الحادي والثلاثون لنبيّنا رسول الله ﷺ"[1]، وهو إبراهيمُ بنُ تارِخَ بن ناخورَ، وكان مَوْلِدُهُ بالسُّوس مِنْ أَرضِ الأَهوازِ، وقيلَ بابلَ ... وقيلَ حرَّانَ، وكانَ أَبوهُ نقلَهُ إِلى أَرضِ بابِلَ أَرضِ نُمرُود"[2].

ويُلفظُ إبراهيمُ وإبراهامُ ومعناه في لغة الكلدانيين (أبٌ رحيمٌ) أو (أبٌ راحمٌ)، وقيل: إنّ معناه أبو أمم كثيرة[3].

3) ﴿بَنِيهِ﴾: اسمٌ مُلحق بجمع المذكر السّالم، الأصل فيه: (بنون بنين)، مفرده (ابن)، جذره اللّغويّ (بنو)، الأصل في معناه "الشَّيءُ يَتَولَّدُ عَنِ الشَّيءِ، كابنِ الإنسانِ وغيرِهِ، وأَصلُ بنائِهِ بَنَوَ، والنِّسبَةُ إِليهِ بَنَوِيٌّ، وكذلك النِّسبَةُ إِلى بِنْتٍ وإِلى بُنَيَّاتِ الطَّريق"[4].

والابن امتداد لأبيه ناشئ منه يمدّ ذريّته ويقيمها[5].

وسُمِّي الابن "بذلك لكونه بناءً للأب، فإنّ الأبَ هو الّذي بناه وجعله الله بنَّاءً في إيجاده، ويُقال لكلّ ما يحصُلُ من جهة شيء أو من تربيته أو بتَفَقُّده أو كثرَة خدمَته له أو قيامِه بأمرِه هو ابنُه"[6].

4) ﴿وَيَعْقُوبُ﴾: اسم نبيّ الله عليه السلام، وهو والد يوسف النّبيّ عليه السلام، جذره اللّغويّ (عقب)، وله أصلان "أَحدُهما يدُلُّ على تأخيرِ شيءٍ وإِتيانِهِ بعد غيرِهِ، والأَصلُ الآخَرُ يدُلُّ على ارتفاعٍ وشدَّةٍ وصُعوبةٍ"[7].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/599.
(2) البغويّ، معالم التّنزيل: 1/144.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/701.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (بنو).
(5) جبل، المعجم الاشتقاقي المُؤصَّل: (بنو/بنى).
(6) الرّاغب، المفردات: (بني).
(7) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عقب).

واسم يعقوب النّبيّ اسمٌ أعجميّ[1]، وهو الّذي جمع نسب بني إسرائيل بعد إبراهيم[2] عليه السلام.

وفي تسميته سببٌ "لأنَّه والعِيصَ كانا تَوأَمَين، فَتَقَدَّمَ عِيصُ في الخُروجِ مِنْ بَطنِ أُمِّهِ، وخَرَجَ يَعقُوبُ على أَثرِهِ آخذًا بعقِبِهِ، قالهُ ابنُ عبَّاسٍ"[3].

5) ﴿ٱللَّهَ﴾: لفظُ الجلالةِ علمٌ على المعبودِ بحقّ، وهو مُشتقٌّ على الصّحيحِ وليسَ جامدًا؛ فإنّ أسماءَ اللّهِ تعالى أعلامٌ وأوصافٌ باتّفاقِ أهلِ السّنّةِ والجماعةِ[4]، ولازمُ ذلكَ أنّها مشتقّةٌ[5]، إذِ الجامدُ لا وصفَ له.

وقيلَ إنّ "أصلَهُ الإلاهُ؛ فحُذفتِ الهمزةُ، وأُدغمتِ اللّامُ في اللّامِ، فصارَ اللّه"[6] لكثرةِ دورانِه على الألسنةِ[7]، وأُدغمتِ اللّامُ في مثلِها، وفُخّمتْ تعظيمًا للّهِ تعالى[8] والتّرقيقُ بعدَ الكسرِ؛ لأجلِ التّخفيفِ لا لسلبِ التّعظيم.

ومهما قِيلَ في حقّهِ، فهو قطرةٌ من بحرٍ، أو ثانيةٌ من دهرٍ، لأنّ عظمتَه لا حُدودَ لكمالِها، ومعنى اسم (اللّه) علمًا - كما قال ابنُ عباسٍ رضي الله عنهما - ذو الألوهيّةِ والعبوديّةِ على خلقِه أجمعين[9].

6) ﴿ٱصۡطَفَىٰ﴾: فعل ماضٍ مزيد، وزنه افْتَعَلَ (اصتفى) حصل فيه إبدال، فقُلِبت التّاء طاء للمجانسة الصّوتيّة، والجذر اللّغويُّ (صفو).

والأصل في معناه أنّه "ضِدُّ الكَدَرِ، يُقالُ: صَفا يَصْفو، إذا خَلَصَ، يُقالُ لك صَفْوُ هذا الأَمرِ وصِفْوَتُهُ، ومُحَمَّدٌ صِفْوَةُ اللّه تعالى وخيرَتُهُ مِنْ خَلْقِهِ، ومُصطَفاهُ صلَّى اللّهُ عليه وآله وسلَّم"[10].

"والاصطِفاءُ تناولُ صَفْوِ الشّيءِ، كما أنّ الاختيار تناولُ خيره، والاجتباءَ تناولُ جبايته،

(1) القُرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 2/410.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/728.
(3) البغويّ، معالم التّنزيل: 1/153.
(4) ابن القيّم، بدائع الفوائد: 1/285.
(5) ابن القيّم، الكافية الشّافية، ص: 216.
(6) الإستراباذي، شرح شافية ابن الحاجب: 2/981.
(7) الجوهريّ، الصّحاح تاج اللّغة: (أله).
(8) الفيوميّ، المصباح المنير: (أله).
(9) ابن جرير، جامع البيان: 1/123.
(10) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (صفو).

واصْطِفَاءُ اللّهِ بعضَ عباده قد يكونُ بإيجاده تعالى إيّاه صَافياً عن الشّوبِ المَوجود في غيره، وقد يكونُ باختياره وبحكمه"[1].

"واستصفى الشّيء واصطفاه: اختاره كأنّه أخذه؛ لأنّه أصفَى جِنْسه أو أجوده، والمصطفى ﷺ صفوة اللّه من خلقه"[2].

ومعنى اصطفى في الآية: "اختارَ لكُمُ الدِّينَ، أَي: الدِّينُ الكامِلُ، وفيه إِشارَةٌ إِلى أَنَّه اختارَهُ لهم مِن بين الأَديان، وأَنَّه فَضَّلَهُم به؛ لأَنَّ (اصطَفى لك) يدُلُّ على أَنَّهُ ادَّخَرَهُ لأَجلِهِ، وأَرادَ به دينَ الحنيفيّةِ المُسمَّى بالإِسلام"[3].

7) ﴿ٱلدِّينَ﴾: اسم ثلاثيٌّ، جذره اللّغويّ (دين)، والأصل في معناه "جِنْسٌ مِنَ الانقيادِ والذُّلِّ، فالدِّينُ: الطَّاعةُ، يُقالُ دَانَ له يَدِينُ دِينًا، إذا أَصْحَبَ وانقادَ وطاعَ، وقَوْمٌ دِينٌ، أَي: مُطيعونَ مُنقادون"[4].

"والدِّينُ يُقال للطّاعة والجَزاء، واستُعير للشّريعة، والدِّينُ كالملّة لكنّه يُقال اعتبارًا بالطّاعة والانقياد للشّريعة"[5].

والدّين في الآية: "دين الإسلام الّذي هو صفوةُ الأديان، ولا دينَ غيرُه عنده تعالى"[6].

8) ﴿تَمُوتُنَّ﴾: فعل دالٌّ على الاستقبال، الماضي منه (مات)، فيكون جذره (موت)، وهو "أَصلٌ صحيحٌ يدُلُّ على ذهابِ القوَّةِ منَ الشَّيء، منهُ المَوتُ: خلافُ الحياةِ"[7]، والمعنى المعروف أنّه ضدُّ الحياة، وأنّه مفارقةُ الرّوح للجسد، و "ما هو بإزاء القوَّة النّاميّة الموجودة في الإنسان والحيوانات والنّبات"[8].

"ولم يأتِ في القرآن من التّركيب إلّا موتُ الأحياء من النّاس، ومن البلاد والأرضين، وهي واضحة في سياقاتها"[9]، وهو المعنى في هذه الآية، أي: انتهاءُ أجلِ الإنسان.

(1) الرّاغب، المفردات: (صفو).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقي المُؤصَّل: (صفو).
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/729.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (دين).
(5) الرّاغب، المفردات: (دين).
(6) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 1/264.
(7) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (موت).
(8) الرّاغب، المفردات: (موت).
(9) جبل، المعجم الاشتقاقي المُؤصَّل: (موت).

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

بعد ما أعلن إبراهيم عليه السلام إسلامه لربّ العالمين، وصّى أبناءه جميعًا بكلمة التّوحيد والاستمساك بدين الإسلام الحنيف، وفَعَلَ يعقوبُ الفِعْلَ نَفْسَه، حيث وصّى أبناءه من بعده أن يلتزموا بشرعة التَّوحيد، وأنْ لا يدركهم الموت إلّا وَهُم مسلمون مُوَحّدون، وبيّن لهم أنّ اللّه جلّ شأنه اصطفى دين الإسلام لهم، فلا ينبغي التّفريط فيه.

❁ الإِيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

دلالةُ الاستئنافِ الجديدِ:

قوله تعالى: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبۡرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعۡقُوبُ﴾ استئنافٌ جديدٌ عن قوله: ﴿إِذۡ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسۡلِمۡۖ قَالَ أَسۡلَمۡتُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [البقرة: 131] بدلالة العدول من الإضمار إلى الإظهار، فقد جاء بالاسم مُظهرًا وهو إبراهيم عليه السلام وحقّه الإضمار؛ لذكره في الآيات السَّابقةِ، فقد "ترك المضمر إلى المظهر، وعطف يَعْقُوب عليه، فإنّ ذلك يدُلُّ على أنّه شروعٌ في كلام آخر؛ لبيان تواصي الأنبياء باستمساك الدّين الحقّ"[1].

الشُّروعُ في كلامٍ جديدٍ، شروعٌ في بيانِ معنًى له أهميَّةٌ

توجيهُ القراءاتِ القرآنيَّة:

قرأ جمهورُ القرَّاء قوله تعالى: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبۡرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعۡقُوبُ﴾ بالفعل المضعّف (وصّى)، زنة (فَعّلَ)، فيما قرأ نافع وأبو جعفر وابن عامر: ﴿وَأَوۡصَىٰ﴾ بالهمز[2].

والصّيغتان متّفقتان في التّعدية مختلفتان في الكثرة والمبالغة، فتضعيف الفعل يفيد الكثرة في غالب أحواله[3]، "فأوصى جائِز أَن يكون مرّة، ووصّى لا يكون إِلَّا مرَّات كثيرَة"[4]، فهو أوصى مرَّةً بالجملةِ وصيَّةً عامَّةً، ومرَّات بالتَّفصيل.

(1) الآلوسّي، روح المعاني: 1/389.
(2) ابن الجزريّ، شرح طيبة النّشر، ص: 186.
(3) الرّضّي، شرح الشّافية: 1/92.
(4) أبو زرعة، حجّة القراءات، ص: 115.

التَّعبيرُ بلفظِ الوصيّةِ دون غيرِها من الألفاظِ:

براعةُ المفردةِ في جمعِ معنى الوصيَّةِ والإرشادِ والحِرصِ

في قوله تعالى ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبۡرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعۡقُوبُ﴾ إرشادٌ من إبراهيم ويعقوب عليهما السلام إلى أبنائِهما، في التزامِ طريقِ الحقِّ والدِّينِ والموتِ عليه، وهو أمرٌ غايةٌ في الأهميّةِ، ولذلك جاءَ الفعلُ بصيغةِ الوصيّة لا بصيغة الأمرِ أو النّهي؛ لأنّه أبلغ وأصلح وأخير للمُوصى إليه، ولكي يقع منه مَوقعًا حسنًا لطيفًا؛ لأنّ التّوصية "التّقدمُ إلى الغير بما فيه خيرٌ وصلاحٌ للمسلمين من فعلٍ أو قولٍ"[1]، والمُوصي لا يَبْتغي من وصيّته إلّا الخير في الدّنيا والآخرة.

تقديمُ المُتعلّقِ ﴿بِهَا﴾ العائدِ على الكلمة:

العنايةُ بأصلِ الأصولِ والاهتمامُ بكلمةِ الإخلاصِ سببُ تقديمِ الجارِ والمجرور (بها)

الجارُّ والمجرورُ في قوله تعالى: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبۡرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعۡقُوبُ﴾ يعود على كلمة التّوحيد (لا إله إلاّ اللّه)، وقدّمه على الفاعل والمفعول، للاهتمامِ به والعنايةِ بمضمون الكلمة المُوصى بها، فإنّه ما كان يشغل إبراهيم عليه السلام شاغلٌ قدرَ انشغالِه بكلمةِ التّوحيدِ والإخلاصِ؛ فقدّم ما هو به مُنشغل على غيره، وهو "المَشهودُ له بالفَضلِ، وحُسنِ الطَّريقةِ، وكمالِ السِّيرةِ، ثُمَّ عُرِفَ أنَّه كان في نهاية الاهتمام بهذا الأمر"[2].

توجيهُ المخصوصِ بالذِّكرِ:

توبيخُ بني إسرائيلَ مُستَحَقٌّ؛ لمخالفتهم ملّة إبراهيم، وتنكُّبهم عن سيرة يعقوب عليهما السلام

أُسندت الوصية في قوله تعالى: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبۡرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعۡقُوبُ﴾ إلى إبراهيم عليه السلام، وعطف عليه يعقوبَ ذاكرًا إيّاه في شأن الوصيّة؛ لأنّ إبراهيم "عَمَّمَ بهذه الوَصيَّةِ جميعَ بنيهِ، ولم يَخُصَّ أَحدًا منهم بهذه الوصيَّة"[3]، لكنَّ الآيةَ ميَّزت يعقوب بالذّكر لما فيه توبيخ لبني إسرائيل، وتعريض[4] بهم "فكما عَرَّضَ بالمُشركينَ في إعراضهم

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 1/263.
(2) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 4/80.
(3) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 4/80.
(4) معنى التّعريض: هو "الدّلالة بالمفهوم بقصد المتكلم" السّبكي، عروس الأفراح: 2/316، وهو مُشتقٌّ من العرض؛ أي: أن لا يُصرّح بالشّيء المراد فهو يفهم من عرض الكلام وجوانبه.

عَن دِينٍ أَوصَى به أَبوهُم، عَرَّضَ باليهود كذلك؛ لأَنَّهُم لَمَّا انتسبُوا إلى إسرائيلَ وهو يَعْقوبُ الّذي هو جامِعُ نَسَبِهِم بعد إبراهيمَ؛ لتُقامَ الحُجَّةُ عليهم بحقِّ اتِّباعِهِمُ الإسلام"[1]؛ لإعراضِهم عن الإسلام ملّة إبراهيم ويعقوب جدّهم؛ وأعظم أنبيائهم الّذي ينسبون إليه.

ذِكْرُ المفعولِ قبلَ تمامِ العطفِ احتراسٌ:

دفعُ توهمِ صدورِ الوصيةِ عن الأبِ وابنِه في وقتٍ واحدٍ

ذُكِرَ المفعولُ ﴿بَنِيهِ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبۡرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعۡقُوبُ﴾ قبل تمام العطفِ؛ لأنّ يعقوبَ "مَعطوفٌ على ﴿إِبۡرَٰهِـۧمُ﴾، ومَفعولُهُ مَحذوفٌ تقديرُهُ: وأَوصى ﴿يَعۡقُوبُ﴾ بَنيهِ؛ لأَنَّ يَعْقوبَ أَوصى بَنيهِ أَيضًا"[2]، والغاية منه الاحتراس[3]، فلم "يقُلْ: ووصَّى بها إبراهيمُ ويَعقوبُ بنيهما، لئلَّا يُتَوَهَّمَ أَنَّ الوَصيَّةَ كانَتْ منهما في وقتٍ واحدٍ، أَو أَنَّها خاصَّةٌ بأَبنائِهِما معًا، وهُم أَولادُ يَعقوب"[4].

الألفُ واللّامُ في الدّينِ للكمال:

الألف واللّام في كلمة ﴿ٱلدِّينَ﴾ في قوله تعالى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ﴾ ليست جنسيّةً تدُلُّ على العموم، ولا عهديّة؛ لأنّ الدّينَ معلومٌ لديهم، لكنّها تدُلُّ على الكمال، أي: الدّين الكامل الّذي ليس وراءه دين آخر.

غرضُ النّهيِ في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَمُوتُنَّ﴾:

الثّباتُ على الإسلامِ في جميعِ الأحوالِ أمرُ ضرورة بأفعالٍ مقدورة

ظاهرُ اللّفظِ في قولِه تعالى: ﴿فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ١٣٢﴾ نهيٌ عن الموتِ، إلّا أنّ فيه خروجًا عن حقيقته إلى معنى النَّهي عن مفارقة الدّنيا إلّا والمرءُ مُسلم موحّد لله تعالى، والتَّعبير كناية عن

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/728.

(2) العُكبَرِيّ، التّبيان: 1/118.

(3) الاحتراس: تكميل الكلام في حقيقته؛ وهو أن يُؤتى في كلام يوهم خلاف المقصود بما يدفعه، ومنه قوله تعالى: ﴿فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة: 54] فإنّه لو اقتصر على وصفهم بالذّلّة على المؤمنين لتُوُهم أنّ ذلّتهم لضعفهم فلمّا قيل: ﴿أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ علم أنّها منهم تواضع لهم، ينظر: الصّعيدي، بغية الإيضاح: 2/355.

(4) محمّد رشيد رضا، تفسير المنار: 392-391.

ضرورة ملازمة دِين الإسلام وشرائعه، بحيث حين يحضر الموتُ أحدَهم؛ لا يموتُ إلّا وهو مسلم.

دلالةُ الجملةِ الاسميّةِ على الثّبوت:

الحالُ اللّازمةُ لقبولِ المسلمِ هي ثباتُه على الإسلامِ

جملة (أنتم مسلمون) في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾ حاليّة وهي "مبتدأٌ وخبرٌ في محلِّ نصبٍ على الحالِ"[1]؛ "كأنّه قال تعالى: لا تَموتُنَّ على كلِّ حالٍ، إلاّ على هذه الحالِ"[2]، وهي اسميّة في ذاتها، دالّة على الثّبوت، ومعناها: "فلا يكن موتُكُم إلّا على حال كونكم ثابتين على الإسلام"[3]؛ فدلالتها على الثّبوت واضحة بيّنة باسميّة جزءيها وتعريفهما، وهو ما يُعزِّزُ معنى النَّهي وغرضَه.

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

وَصّى وأَمَرَ:

في قوله تعالى ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ﴾ لم يقل الحقّ تبارك وتعالى (وأمر بها إبراهيم) أو نحوه من فعل دالّ على الأمر، بل جاء بفعل مُشتقّ من الوصيّة؛ لِما في هذا الفعل من قوّة توكيد أكبر من فعل الأمر "لأَنَّ الوَصِيَّةَ عندَ الخَوفِ مِنَ الموتِ، وفي ذلك الوَقتِ يكونُ احتياطُ الإنسانِ لِدينِهِ أَشَدَّ وأَتَمَّ، فإذا عَرَفَ أَنَّهُ عليه السلام في ذلك الوَقتِ كان مُهتَمًّا بهذا الأَمرِ مُتَشَدِّدًا فيه"[4] فإذا علم ذلك كان قبول الوصيّة من بنيه وذريّته أقرب وأدنى.

(1) السّمين، الدّرّ المصون: 2/127.
(2) السّمين، الدّرّ المصون: 2/127.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/329.
(4) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 4/80.

﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى ۖ قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: 133]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لمّا ذَكَرَ سبحانه وتعالى عن إبراهيم عليه السلام أنّه وصّى بنيه بالاستمساك بالإسلام، وبالَغَ في حثّهم على الالتزام بشرائعه؛ ذَكَرَ ههنا وصيّة يعقوب عليه السلام لبنيه أيضًا تأكيدًا للحُجّة على اليهود والنّصارى، وحضًّا لهم على الالتزام بالتَّوحيد الذي هو حبل النّجاة في الدّنيا والآخرة.

شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

1) ﴿شُهَدَآءَ﴾: جمع تكسير مفرده شهيد، وأصل مادة (شهد) "يدُلُّ على حضور وعلم وإعلام ... يُقالُ: شَهِدَ فُلانٌ عند القاضي، إذا بَيَّنَ وأَعلمَ لمَنِ الحَقُّ وعلى مَنْ هو"[1]، فالأصل في شهد بمعنى "حَضَرَ، ثمّ صُرّفت الكلمة في أداء ما تقرّر علمه في النّفس بأيّ وجه تَقَرَّر من حضور أو غيره"[2].

والمعنى في الآية: أم كنتم حضورًا.

2) ﴿حَضَرَ﴾: فعلٌ ماضٍ، أصله اللّغويّ من (حضر)، والأصل في معناه "إِيرَادُ الشَّيءِ وَوُرُودُهُ ومُشاهَدَتُهُ"[3].

فالحضور هنا بمعنى الوجود والشّهود، أي: كان غائبًا، فقُدّم من غيبته، لأنّ الحضورَ ضدّ الغيبة[4]، وأكثر ما يستخدم (حضر) في الأمور المتعلّقة بالأحكام الشّرعيّة.

"والمُرادُ بحُضورِ المَوتِ: حُضورُ مُقدّماته"[5].

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (شهد).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقي المُؤصَّل: (شهد).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حضر).
(4) السّمين، عمدة الحفّاظ: (حضر).
(5) الشّوكانّي، فتح القدير: 1/169.

3) ﴿ٱلْمَوْتُ﴾: (موت) "أَصلٌ صحيحٌ يدلُّ على ذهابِ القوَّةِ منَ الشَّيءِ، منهُ الموتُ: خلافُ الحياةِ"[1] والمعنى المعروف أنّه ضدّ الحياة، وأنّه مفارقة الرّوح للجسد، أي مفارقة القوّة النّامية الموجودة جسم الحيّ حتى يصبح جُثّة هامدة.

ويُعَبِّر القرآن عن الموت بمجيء الأجل، أو حضور الموت، أو عبارة (قضى نحبه)، وحاصل هذه التّعابير: انتهاء أجل الإنسان وانتقاله من دار الدّنيا إلى دار الآخرة.

4) ﴿لِبَنِيهِ﴾: البنون: اسم ملحق بجمع المذكر السّالم، جذره اللّغويّ (بنو)، الأصل في معناه "الشَّيءُ يَتَوَلَّدُ عَنِ الشَّيءِ، كابن الإنسان وغيرِهِ، وأَصلُ بنائِهِ بَنَوَ، والنِّسبَةُ إليهِ بَنَوِيٌّ، وكذلك النِّسبَة إلى بِنْتٍ وإلى بُنَيَّاتِ الطَّريق"[2].

والابن امتداد لأبيه ناشئ منه، يمدّ ذريّته ويقيمها[3].

وسُمّي الابن "بذلك لكونه بناءً للأبِ، فإنّ الأبَ هو الّذي بناه، وجعلَهُ اللّه بنَّاءً في إيجاده، ويُقال لكلّ ما يَحصُلُ من جهة شيءٍ أو من تربيتِه أو بتفقُّده أو كثرَة خِدمَته له أو قيامه بأمره هو ابنُهُ"[4].

والمقصودُ من أبنائه في الآية: أولادُه؛ فقد جَمَعهم "وهم اثنا عشَر رجلاً، وهم الأسباط وجميع أولادهم"[5].

5) ﴿تَعْبُدُونَ﴾: جذره اللّغويّ (عبد)، "والعَبد: ضدّ الحرّ، وأصل العبد من قَولهم طَرِيق معبّد، أَي: مذلّل"[6].

والأصل في أحد معنييه دلالته على اللّين والذّلّ، ومنه العبد المملوك[7].

و"العُبوديَّةُ إظهار التّذلّل، والعبادَةُ أبلغُ منها لأنّها غاية التّذلُّل، ولا يستحِقُّها إلاّ من له غاية الإفضَال، وهو اللّه تعالى"[8]، وهو المعنيّ في الآية.

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (موت).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (بنو).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقي المُؤصَّل: (بنو/بنى).
(4) الرّاغب، المفردات: (بني).
(5) الواحديّ، الوسيط: 1/217.
(6) الخليل، العين: (عبد).
(7) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عبد).
(8) الرّاغب، المفردات: (عبد).

6) ﴿إِلَٰهَكَ﴾: اسمٌ ثلاثيٌّ جذره اللّغويّ من (ألهـ)، وأصله إلاه على فِعال، بمعنى مَفعولٍ لأنّه مألوه، أي: معبود، كقولنا: إمام (فِعال) بمعنى مفْعول لأنّه مؤتمّ به، فلمّا أُدخلت عليه الألف واللّام حُذفت الهمزة تخفيفًا؛ لكثرته في الكلام"[1].

والمراد في الآية: نعبد إلهك وهو اللّه ربُّ العالمين، الذي يتَّفِقُ العالَمون على وجوده وإلهيّته وربوبيّته للخلق جميعًا، وهو المعبودُ بحقٍّ.

7) ﴿ءَابَآئِكَ﴾: جمع تكسير مفرده (أب)، جذره اللّغويّ (أبو)، يَحْذِفُ العَرَبُ لَامَهُ، والأصل في معناه "يدُلُّ على التَّربيةِ والغَذْوِ، أَبَوْتُ الشَّيءَ آبُوهُ أَبْوًا: إذا غَذَوتُهُ، وبذلك سُمِّيَ الأَبُ أَبًا، ويُقالُ في النِّسبَةِ إلى أَبٍ أَبَوِيٌّ"[2].

و"الأب: الوالد، ويُسمّى كلُّ من كان سببًا في إيجاد شيءٍ، أو إصلاحه أو ظهوره أبًا؛ ولذلك يُسمَّى النّبيّ ﷺ أبا المؤمِنين"[3].

والآباء في الآية على الحقيقة، إلاّ إسماعيل فقد كان "عمّاً لهم، والعرب تسمّي العمّ أبًا، كما تسمّي الخالة أمًا"[4]؛ ولقوله ﷺ لعمر رضي الله عنه (أَما شَعَرتَ أَنَّ عَمَّ الرَّجُلِ صِنْوُ أَبيه)[5].

8) ﴿وَإِسْحَٰقَ﴾: اسمٌ علمٌ على ابن إبراهيم عليهما السلام "وهو ولده من سارة، عاش مئة وثمانين سنة"[6].

وهو أبو يعقوب عليه السلام.

9) ﴿وَٰحِدًا﴾: اسم عدد يبتدأ به على زنة (فَاعِل)، جذره اللّغويّ (وحد)، و "الوَحَدُ: المُنفَرِدُ، رجلٌ وَحَدٌ، وثورٌ وَحَدٌ، وتفسير الرّجلِ الوَحَد: الّذي لا يُعْرَفُ له أَصْلٌ"[7] والأصل في معناه الانفرادُ[8].

(1) الجوهريّ، الصّحاح: (أله).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (أبو).
(3) الرّاغب، المفردات: (أبا).
(4) العليميّ، فتح الرّحمن: 1/204.
(5) صحيح مسلم: (983).
(6) الآلوسّي، روح المعاني: 1/211.
(7) الخليل، العين: (وحد).
(8) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (أحد).

و"الوحدة: الانفراد، والواحد في الحقيقة هو الشّيء الّذي لا جزء له البتّة، ثمّ يُطلق على كلّ موجود حتّى إنّه ما من عدد إلّا ويصحّ أن يُوصفَ به"[1].

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

هذه الآية خِطابٌ لليهود المعاصرين للنّبي ﷺ لتذكيرهم أنّ كلَّ الأنبياء والرسل جاؤوا بالتّوحيد ونبذ الشّرك وجميع مظاهره وصوره، والمعنى: أكنتم حاضرين، - أيّها اليهود - حين حضر الموتُ يعقوبَ عليه السلام وسأل أبناءه؛ ليَسْتَوْثِقَ من رسوخ عقيدة التّوحيد في عقولهم وقلوبهم: ما أنتم عابدون من بعدي؟ فأجابوه إجابة رَجل واحد: نعبد إلهك وإله آبائك من قبل إبراهيم وإسماعيل وإسحاق، ونحن مسلمون منقادون لشرعه اليوم وغدًا، وهذا السّؤال منه تقرير لتوحيد اللّه ﷻ وغرس جذوره في الذّرية.

الإِيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

التّعبير بـ﴿أَمْ﴾ المنقطعةِ الدّالّةِ على الإضراب:

توبيخُ كلِّ من افترى على الأنبياءِ بأنَّهم لم يكونوا على دين الإسلامِ

(أم) في قوله تعالى: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ﴾، "هي المُنقطعةُ، أَي: بَل أَكُنتُمْ شُهداءَ؟"[2]، وفي ذلك دلالةٌ على إنكار حضورِهم، "يعني: أَكُنتُمْ شُهداءَ؟ يريدُ: ما كُنْتُمْ شُهداءَ حُضورًا"[3].

فالآيةُ خطابٌ لأهل الكتاب "الّذينَ انتحلُوا الأنبياءَ صلوات اللّه عليهم ونسبوهُم إلى اليهوديّةِ والنّصرانيّةِ، فردّ اللّهُ تعالى عليهم وكذّبهُم، وأعلمهُم أنّهم كانوا على الحنيفيّة والإسلام، وقال لهم على جهةِ التّقريعِ والتّوبيخِ: أشهدتُم يعقوبَ، وعَلمتُم بما أوصَى فتدّعون عن علم؟ أي: لم تشهدُوا، بل أنتم تفترونَ"[4] على رسلي، وتنسبونَ إليهم الأباطيلَ.

(1) الرّاغب، المفردات: (وحد).
(2) العُكبرَي، التّبيان: 1/118.
(3) البغويّ، معالم التّنزيل: 1/154.
(4) ابن عطية، المحرر الوجيز: 1/213.

سرُّ التَّعبيرِ بـ﴿شُهَدَآءَ﴾ دونَ (حضورًا):

الإيماءُ بأنَّ المطلوبَ الشَّهادةُ وإن لم يكن حضورٌ عيانيٌّ

جاءَ التَّعبيرُ بلفظِ ﴿شُهَدَآءَ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَمۡ كُنتُمۡ شُهَدَآءَ إِذۡ حَضَرَ يَعۡقُوبَ ٱلۡمَوۡتُ﴾، ولم يعبِّر بلفظِ (حضورًا)؛ ليكون مغايرًا للفعل ﴿حَضَرَ﴾، فإنّه لو قال: (أم كنتم حضورًا إذ حضرَ) لكان في الكلام تَكرارٌ مَمْجُوجٌ غَيْرُ مُسْتَسَاغٍ، و"لأنّ لفظ الشّهادة يُفيد الضّبط والإحاطة بعلم الشّيء"[1]، ممّا يجعل بينها وبين الحضور تباينًا واختلافًا، وفيه إيماءٌ للمخاطبين بأنَّكم وإن لم تحضروا عيانًا لكنَّكم تشهدون على ذلك الحضورِ اعتقادًا؛ فالتَّعبيرُ بالشهادةِ أقوى دلالةً، وألطفُ عبارةً.

بلاغة تقديمِ المفعول على الفاعل:

رفعُ شأنِ يعقوبَ، والتَّعريضُ بمن خالفَ سيرتَه

قُدِّم المفعول ﴿يَعۡقُوبَ﴾ على الفاعل ﴿ٱلۡمَوۡتُ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَمۡ كُنتُمۡ شُهَدَآءَ إِذۡ حَضَرَ يَعۡقُوبَ ٱلۡمَوۡتُ﴾؛ للاعتناءِ والاهتمام، حيث إنّ الفقرة كلّها مبنيّةٌ على شخصية يعقوب ووصيته لأبنائه.

وتأخير لفظ ﴿ٱلۡمَوۡتُ﴾ يُشير إلى أنّ رغبة البشر كلهم تأخير الموت، وهو ملحظٌ نفسي.

وسبب الاعتناءِ هو عدم مفاجأة يعقوب؛ فجعل الموت مُتأخّرًا تخفيفًا عنه، واعتناءً به، ورفعًا لشأنِه، فإنَّه لا يخشى الموتَ؛ لحُسنِ عملِه، وسلامةِ سريرته، ففيه تعريضٌ بمن يخشى الموتَ، ويحرص على أيِّ حياةٍ.

تنوُّعُ المجازِ والاستعارةِ المكنيّةِ في ﴿إِذۡ حَضَرَ يَعۡقُوبَ ٱلۡمَوۡتُ﴾:

تشخيصُ الموتِ في ذهنِ السَّامعِ ليقوى الأثرُ في السُّلوكِ

في قولِه تعالى: ﴿إِذۡ حَضَرَ يَعۡقُوبَ ٱلۡمَوۡتُ﴾ استعارةٌ مكنيّة[2]، إذ شبَّه الموتَ بإنسانٍ حاضرٍ؛ فحُذِف المشبّه به ورُمز له بشيء من

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/171.

(2) الاستعارة المكنيّة "أن يُذكر لفظ المشبّه مرادًا به حقيقته، ويدُلُّ على أنّ القصد تشبيهه بغيره بذكر شيء من لوازم ذلك الغير"، السّبكيّ، عروس الأفراح: 2/197، كقول الشّاعر أبي ذؤيب الهذلي: (وإذا المنيّة أنشبَت أظفارَها).

لوازمِه وهو الحضور، وفي هذا تجسيمٌ للموت وتشخيصٌ "في صورة حسيّة، فيصوّر كأنّه غائب، ينتظر قدومه في أيّ لحظة، فهو يحضر إلى يعقوب بعد غياب عنه"[1]، وتصوير الموت في صورة محسوسة؛ يقرّبه إلى ذهن السّامع، ويمكّنه منه؛ ليتأثر به، والمقصودُ بذلك أدعياءُ الاتباعِ من ذريَّته بالدّرجةِ الأولى؛ وذلك لطغيانِ الجانبِ المادّيِّ في حياتِهم، وهذا من هدايات القرآنِ في الحرص على العبادِ.

ونستطيع أن نحمل قولَه تعالى: ﴿إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ﴾ على المجازِ بالحذفِ، "وَمَعْنَى ﴿حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ﴾ أَيْ: مُقَدِّمَاتُهُ وَأَسْبَابُهُ، وَإِلَّا فَلَوْ حَضَرَ الْمَوْتُ لَمَا أَمْكَنَ أَنْ يَقُولَ شَيْئًا"[2].

قولُه ﴿مَا تَعْبُدُونَ﴾ التّعبير بـ﴿مَا﴾ دون ﴿مَن﴾:

آثرَ النَّظمُ التّعبيرَ بـ﴿مَا﴾ دون التّعبير بـ﴿مَن﴾ في قوله تعالى: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى﴾؛ لأنّ ﴿مَن﴾ تقع للعاقل[3]، أمّا "﴿مَا﴾ فعامّ في كلّ شيء"[4]؛ "لِأَنَّهُ أَرَادَ أَنْ يَخْتَبِرَهُمْ، وَلَوْ قَالَ: "مَنْ"؛ لَكَانَ مَقْصُودُهُ أَنْ يَنْظُرَ مَنْ لَهُمُ الِاهْتِدَاءُ مِنْهُمْ، وَإِنَّمَا أَرَادَ تَجْرِبَتَهُمْ فَقَالَ" ﴿مَا﴾"[5]، واختباره عليه السلام لأبنائه دليلُ توقُّعٍ وتخمين لواقعهم، وتحذيرٌ أن يقعوا في المحذورِ.

اختبارُ الأبناءِ حرصٌ ناشئٌ عن توقُّعٍ وتحذير

فائدةُ إدخالِ ﴿مِن﴾ على (بعدِ) في قولِه ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى﴾:

(بعد) في الأصل ظرف للمكان والزّمان، ويجوز دخول حرف الجرّ (من) عليه؛ فيكون مجرورًا به، ويجوز لغةً أن يقول (ما تعبدون بعدي) إلاّ أنّ المجيء بـ﴿مِن﴾ في قوله تعالى: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى﴾ فيه دلالةٌ على السُّرعةِ وتقاصرِ الزّمنِ، أي: ماذا تعبدون

حرصُ الأبِ على إرشادِ الأبناءِ يبدأ في أقرب الأزمانِ

(1) عبد السّلام الرّاغب، وظيفة الصّورة الفنية في القرآن، ص: 125.
(2) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 2/137.
(3) ابن السّراج، الأصول في النّحو: 2/159.
(4) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/331.
(5) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 2/137.

بعد موتي مباشرة، أي: أنّه أراد لهم الخير في عبادتهم اللّه تعالى بعد موته مباشرة من دون أيّة مهلةٍ للتّفكير أو التّغيير؛ لذلك اقترن "ظَرفُ بَعْدِي بحرفِ ﴿مِنْ﴾ لقَصدِ التَّوكيدِ، فإنَّ ﴿مِنْ﴾ هذه في الأَصلِ ابتدائية فقولك: جئت مِن بَعدِ الزَّوَالِ يُفيدُ أَنَّك جِئتَ في أَوَّلِ الأَزمِنَةِ بَعدَ الزَّوالِ، ثُمَّ عُومِلَتْ مُعاملةَ حَرفِ تأكيدٍ"[1] وهذا ما تمنحُه ﴿مِن﴾ الّتي تفيدُ الابتداءَ والبعديةَ، بعديّةً زمانيَّةً.

دلالةُ التّعريفِ بالإضافةِ في ﴿إِلَٰهَكَ﴾:

قوله تعالى: ﴿قَالُواْ نَعۡبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ﴾ جوابٌ لسؤال ﴿مَا تَعۡبُدُونَ مِنۢ بَعۡدِيۖ﴾، وعبّروا عن المعبود بـ(إله) مُضافًا إلى الضّمير فصار مُعرّفًا بالإضافة، ولم يعبّروا عن ذلك بالاسم العلم (اللّه)؛ "إيماءً إلى أَنَّهُم مُقتَدُون بسَلَفِهِم"[2]، و"لأَنَّ إضافَةَ إلهٍ إلى ضميرِ يَعْقُوبَ وإلى آبائِهِ تُفيدُ جميع الصِّفاتِ الّتي كان يَعقُوبُ وآباؤُهُ يَصِفونَ اللّه بها فيما لقّنه لأبنائه مُنذُ نَشأَتِهِم"[3].

سرُّ تقديمِ إسماعيلَ على إسحاق عليهما السلام:

حرصُ يعقوبَ على تعليم أبنائه احترامَ الآباء، وتنزيلهم منازِلهم

قُدِّم إسماعيلُ على إسحاقَ في قوله تعالى: ﴿إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ﴾ والخطابُ لبني إسرائيل؛ "لأَنَّ إسماعيلَ كان أَسَنَّ مِن إسحاقَ"[4]، وهو يدلُّ على توقير الآباء بتنزيلِهم منازِلهم عند مخاطبةِ يعقوب عليه السلام، وفيه أنَّ هذه تربيته وتعليمه لهم، بتوقير إسماعيل وتقديمه بالذِّكر، وهي إشارةٌ قرآنيَّةٌ لبني إسرائيل للاعتراف بمحمَّدٍ ﷺ.

بلاغةُ إعادةِ لفظِ ﴿إِلَٰهَا﴾ ووصفُه بـ﴿وَٰحِدًا﴾:

تكرير لفظ (إله)؛ للتوكيد والتّمهيد للكلام اللاحق

في قوله تعالى: ﴿نَعۡبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/723.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/733.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/733.
(4) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 4/84.

﴿وَإِسۡحَٰقَ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗا﴾ أعاد ذكر الإله بقوله: ﴿إِلَٰهٗا وَٰحِدٗا﴾، فهو "بَدَلٌ مِن ﴿إِلَٰهَكَ﴾ الأُولى، ويجوزُ أَن يكونَ حالًا"[1] فإعادته "أُسلوبٌ مِنَ الفصاحَةِ، إذ يُعادُ اللَّفظُ لِيُبْنَى عليه وَصفٌ، أَو مُتَعَلِّقٌ، ويَحصُلَ مع ذلك تَوكيدُ اللَّفظِ السَّابقِ تَبَعًا، وليس المقصودُ مِن ذلك مُجَرَّدَ التَّوكيد"[2].

دلالةُ التّعبير بالجملةِ الاسميّة:

قوله تعالى: ﴿وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾ جملةٌ في مَوضِع الحال من فاعل ﴿نَعۡبُدُ﴾ أو أنّها معطوفة على نعبد[3]، وقد "جِيءَ بها اسميَّة لإفادَةِ ثباتِ الوَصفِ لهم ودوامِهِ بعدَ أَن أُفيدَ بالجُملةِ الفعليَّةِ المَعطوفِ عليها معنى التّجدّد والاستمرار"[4].

تصريح أبناء يعقوب عليهم السلام بخضوعهم لله، وثباتهم على الإسلام

تقديمُ المُتعلّقِ على الخبرِ يفيدُ القصر:

جاء في قوله تعالى: ﴿وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾ المُتعلّق ﴿لَهُۥ﴾ مُقدّمًا على الخبر ﴿مُسۡلِمُونَ﴾، وفائدة التّقديم قصر الإسلام والإذعان عليه سبحانه، فنحن له مسلمون لا إلى غيره، أي: "والحالُ أَنَّنا نحن مُنقادونَ مُذعِنونَ مُستسلِمونَ له وَحدَهُ دون غَيرِهِ كما يدُلُّ عليه تَقديمُ الظَّرفِ ﴿لَهُۥ﴾"[5]؛ لأنّه لو أخّره فسيكون التّقدير: (نحن مسلمون له)، ويحتمل حينئذ الإسلام لغيره أيضًا.

(1) العُكبَري، التّبيان: 1/119.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/734.
(3) السّمين، الدّرّ المصون: 2/132.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/734.
(5) محمّد رشيد رضا، تفسير المنار: 1/392.

﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾ ﴾ [البقرة: 134]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

هذه الآية تعقيبٌ لما مضى من آيات من لدن قوله تعالى ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ﴾ [البقرة: 124] إلى قوله تعالى: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ﴾، ففي هذه الآيات المُتقدّمة ثناءٌ على إبراهيم عليه السلام وبنيه، وتنويهٌ بشأنهم، وسُمُوّ منزلتهم، وتقبيحُ فِعْلِ من لم يلتزم طريقهم، "وكأَنَّ ذلك قد يَنتَحِلُ منهُ المَغرورونَ عُذْرًا لأَنفُسِهم؛ فيقولونَ: نحنُ وإنْ قَصَّرْنا فإنَّ لنا مِنْ فَضلِ آبائِنا مَسلَكًا لِنجاتِنا، فذُكِرَتْ هذه الآيَةُ لإفادَةِ أَنَّ الجزاءَ بالأَعمالِ لا بالاتِّكالِ"[1]، فلا يكن منكم ذلك، فإنّ لكلّ أمّة عملها؛ فلا ينتفع قوم بصالح أعمال أسلافهم، بل إنّ كُلَّ ٱمْرِيٍٕ رهينٌ بِمَا كَسَبَ مُحاسَبٌ يوم الحشر على ما فعل.

❁ شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

1) ﴿خَلَتْ﴾: فعلٌ ماضٍ جذره اللّغويّ من (خلو)، والأصل في معناه: دلالته "على تَعَرِّي الشَّيء مِنَ الشَّيءِ، يُقالُ هو خِلْوٌ مِن كذا، إذا كان عِرْوًا منه، وخَلَتِ الدَّارُ وغَيرُها تَخْلو، والخَلِيُّ: الخالي مِنَ الغَمِّ، وامرأَةٌ خَلِيَّةٌ: كنايةٌ عَنِ الطَّلاقِ، لأَنَّها إذا طُلِّقَتْ فقد خَلَتْ عَنْ بَعلِها"[2].

وخلا الشّيءُ: مَضَى وذَهَبَ فخلا منه المكانُ والزّمانُ الّذي كان يشغله"[3].

"والخُلُوّ يُستعملُ في الزّمان والمكان لكن لـمّا تُصُوِّرَ في الزّمان المُضيُّ فسَّر أهلُ اللّغة: خلا الزّمان، بقولهم: مضى الزّمان وذهب"[4].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/735.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (خلو).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقي المُؤصَّل: (خلو-خلى).
(4) الرّاغب، المفردات: (خلا).

ومعنى ﴿خَلَتۡ﴾ في الآية: تلك أُمَّةٌ قد مضت وانقضى عهدُها.

2) ﴿كَسَبَتۡ﴾: فعلٌ ماضٍ جذره اللّغويّ (كسب)، والأصل في معناه: دلالته "على ابتغاءٍ وطَلَبٍ وإصابةٍ، فالكَسبُ مِن ذلك"[1].

و"الكَسْبُ: طَلَبُ الرزق، وأصله الجمعُ، تقول منه: كَسَبْتُ شيئاً واكتسبْتُهُ بمعنًى، وفلان طيِّبُ الكَسْب ... وكسبْتُ أهلي خَيْرًا، وكَسَبْتُ الرّجلَ مالاً فكَسَبَه"[2].

ومن معانيه أيضًا "ما يتحرّاه الإنسانُ ممّا فيه اجتلابُ نفعٍ وتحصيلُ حظّ ككَسبِ المال، وقد يُستعملُ فيما يَظُنُّ الإنسانُ أنّه يَجلِب مَنفعةً ثمّ استُجلِب به مَضَرّةٌ، والكَسْبُ يُقال فيما أخذَهُ لنفسِه ولغيرِه"[3].

والمعنى في الآية: "أيْ: تلك الأُمَّةُ مُختَصَّةٌ بجزاءِ ما كَسَبَتْ، كما أَنَّكُم كذلك مُختَصُّونَ بجزاءِ ما كَسَبتُم مِنْ خيرٍ وشرٍّ، فلا يَنفعُ أَحدًا كَسبُ غيره"[4].

3) ﴿تُسۡـَٔلُونَ﴾: فعلٌ مضارعٌ من الأفعالِ الخمسةِ مبنيّ للمفعول (المجهول)، الماضي المُجرّدُ منه (سألَ)، وهو جذرُه اللّغويّ، والأصلُ في معناهُ "استخراجُ ما في حوزةٍ أخرَى؛ أي: طَلَبُ تحصيلِه بدفْعٍ أو حثٍّ: كما تخرجُ الصّدقةُ والدّرهمُ من المسؤولِ"[5].

والسؤالُ "استدعاءُ معرفةٍ أو ما يُؤدّي إلى المعرفةِ واستدعاءُ مالٍ، أو ما يُؤدّي إلى المالِ، فاستدعاءُ المعرفةِ جوابُه على اللّسانِ ... واستدعاءُ المالِ جوابُه على اليدِ"[6].

وله غيرُ نوعٍ في المُتعدّي، "والسُّؤَالُ إذا كانَ للتّعريفِ تعدّى إلى المفعولِ الثّاني تارةً بنفسِه، وتارةً بالجارّ، تقولُ: سألتُه كذا، وسألتُه عن كذا، وبكذا، وبِعَن أكثرَ"[7].

والفعلُ ههنا مُتعدٍّ بحرفِ الجرِّ (عن)، والمرادُ هنا الاستخبارُ؛ أي طلبُ معرفة الخبر في أمر ما.

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (كسب).
(2) الجوهريّ، الصّحاح: (كسب).
(3) الرّاغب، المفردات: (كسب).
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 1/644.
(5) جبل، المعجم الاشتقاقي المُؤصَّل: (سأل).
(6) الرّاغب، المفردات: (سأل).
(7) الرّاغب، المفردات: (سأل).

4) ﴿يَعۡمَلُونَ﴾: فعلٌ مضارعٌ دالٌّ على الاستقبال، مُسند إلى واو الجماعة، الجذر اللّغويّ منه (عمل)، والأصل في معناه الفعل عامّة[1] و "العَمَلُ كلُّ فعلٍ يكونُ من الحيوان بقصدٍ فهو أخصُّ من الفعل؛ لأنّ الفعلَ قد يُنسب إلى الحيوانات الّتي يقعُ منها فعلٌ بغير قَصد، وقد يُنسب إلى الجمادات، والعَمَلُ قلّما يُنسب إلى ذلك"[2].

والعملُ "أعمّ لأنّه من أعمال الجوارح والقلب، وتدخل فيه الأقوال؛ لأنّها عمل اللّسان، وهو من جملة الجوارح، وقد وقع في التّقابل الفرق بين الأقوال والأفعال فيقولون: سديد الأقوال والأفعال"[3].

والمعنى في الآية: أنّكم لا تُسألون عمّا كانوا يعملون "سُؤالَ حسابٍ وجَزاءٍ، ولا يُسألون عمَّا تَعملونَ كذلك، بل كُلٌّ يُسأَلُ عَن عملِهِ، ويُجازى به دُونَ عملِ غيرِهِ"[4].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

تلك جماعة من النّاس من أسلافكم الَّتي سبق ذِكْرُها وذِكْرُ أنبيائها، من إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب وأبنائهم عليهم السلام جميعًا، فهؤلاء مَضَوْا لسبيلهم، "والخِطابُ مُوَجَّهٌ إلى اليهودِ، أَي: لا ينفعُكُم صلاحُ آبائِكُم إذا كُنتُم غَيرَ مُتَّبِعِينَ طريقتَهُم"[5].

فَلِتِلْكَ الأُمَّة ما كسبت من الإيمان والأعمال الصّالحة، ولكم ما كسبتم من الإيمان والأعمال الصالحة أو الذنوب، فكلٌّ يستحقُّ الجزاء على أعماله، خيرًا كانت أم خلاف ذلك، لا يُؤاخَذُ أحدٌ بذنب أحد، ولا ينفع أحدًا إلا إيمانُه وتقواه.

❁ الإِيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

دلالةُ التّعبير بلفظ الإشارة ﴿تِلۡكَ﴾ الدّالّ على البعد:

علوُّ مكانةِ الأمَّةِ يجعلُها نبراسًا مُنيرًا ومَعْلَمًا مَرْقومًا في ذاكرةِ الأتقياءِ

ابتدأ الحقّ تبارك وتعالى قوله: ﴿تِلۡكَ أُمَّةٞ قَدۡ خَلَتۡۖ﴾ بالإشارة إلى تلك الأمّة المذكورة في الآية السّابقة، "الّتي هي إبراهيم

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عمل).
(2) الرّاغب، المفردات: (عمل).
(3) السّمين، عمدة الحفّاظ: (عمل).
(4) محمّد رشيد رضا، تفسير المنار: 1/393.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/735.

ويعقوب وبنوهما المُوحّدون"[1]، وقد عبّر بـ﴿تِلْكَ﴾ وهو اسم إشارة موضوعٌ للبعيد[2]، وسرُّ هذا التّعبير أنّهم "﴿أُمَّةٌ﴾ أي: بمنزلتها في الشّرف والبهاء"[3]، فضلاً عن كونها أمّةً مَضَتْ، ففيه إيماءٌ إلى علوّ مكانتها، وسموّ منزلتها أن اتّبعتِ الدّين القويم، وسارت على نهج الملّة الإبراهيميّة الصّحيحة، وآثرت الأعمال على الاتّكال.

بلاغةُ المجازِ العقليّ:

معنى الخلوّ في قوله تعالى: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ﴾ الفراغ، أي: خلا منها المكان، وانقضى زمانها بعد أن كانت تشغله، وأُسْنِدَ "الخُلُوُّ إلى أَصحاب المكان على طريقة المَجاز العَقليِّ؛ لِنُكتَة المُبالغة"[4]، ولبيان أنّه مهما وُجدت من أمّة فإنّ مصيرَها إلى زوال، وذِكْرُها إلى اضمحلال، وسيكون جزاؤها عند الله ما قدَّمته؛ إنْ خيرًا فخير، وإنْ شرًّا فشرّ.

مهما تطاولت أزمانُ الأمم فمصيرُها الاندثار

فائدةُ تقديمِ المسند على المسند إليه:

قُدِّم المسندُ على المسند إليه في الجملتين في قوله تعالى: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ﴾؛ لأنّ الأصل: ما كسبت لها، وكذلك الأخرى لكنّه قدّمهما؛ "لِقَصرِ المُسندِ إليه على المُسند، أَي: ما كَسَبَتِ الأُمَّةُ لا يَتَجاوَزُها إلى غيرِها، وما كسبتم لا يتجاوزكم، وهو قَصرٌ إضافي لِقَلب اعتِقاد المُخاطَبِينَ"[5]، وتخييب ظنونهم، وقطع أطماعهم من الانتفاع بحسنات من مضى من أسلافهم.

لا ينتفعُ الحاضرون بما عمل السّابقون، ولا يُغني أحدٌ عن أحد

فائدةُ نفي السّؤالِ عن عملِهم التّوكيدُ:

قوله تعالى: ﴿وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ "جُملةٌ تَوكيديَّةٌ لِما قبلها، لأَنَّهُ قد أَخبَرَ بأَنَّ كُلَّ أَحَدٍ مُختَصٌّ بكَسبِهِ مِن خَيرٍ،

كلُّ نفسٍ بما كسبتْ رهينة

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/333.
(2) الأزهريّ، شرح التّصريح على التّوضيح: 1/146.
(3) الآلوسّي، روح المعاني: 1/392.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/375.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/735.

وإذا كانَ كذلك، فلا يُسأَلُ أَحدٌ عَنْ عَمَلِ أَحدٍ"[1]؛ لأنّه مثلما لا تنتفعون بحسنات غيركم، كذلك لا تُسألون عن سيّئاتهم، وأنتم مبرؤون ممّا عملوا وممّا فعلوا، ولا تزِرُ وازرةٌ وِزْرَ أُخرى.

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 1/645.

﴿وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰ تَهۡتَدُواْۗ قُلۡ بَلۡ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِـۧمَ
حَنِيفٗاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ١٣٥ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ
إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ
وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ
لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ١٣٦ فَإِنۡ ءَامَنُواْ
بِمِثۡلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهۡتَدَواْۖ وَّإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا هُمۡ فِي شِقَاقٖۖ
فَسَيَكۡفِيكَهُمُ ٱللَّهُۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ١٣٧ صِبۡغَةَ ٱللَّهِ وَمَنۡ
أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبۡغَةٗۖ وَنَحۡنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ١٣٨﴾ [البقرة: 135- 138]

مُنَاسَبَةُ الآيَاتِ لِمَا قَبْلَهَا:

إبطال دعوى اليهود والنَّصارى أنَّهم على الحقِّ

بَيْنَ هذه الآياتِ وما قبلَها مناسبةٌ دقيقةٌ، وارتباطٌ وثيقٌ؛ فإنَّه تعالى بعدَ أن بيَّنَ بالدَّلائل الّتي تَقدَّمَتْ، أنَّ مِلَّةَ إبراهيمَ هي مِلَّةُ الحنيفيَّةِ السَّمْحةِ، وذمَّ اليهودَ والنَّصارى لِعُدولهم عن تَلَقِّي هذا الدِّينِ القويمِ، الّذي شَمَلَ خِصَالَ الحَنيفيَّةِ السَّمْحةِ، لجَهالتِهم وسَفَهِهم، في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَرۡغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبۡرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفۡسَهُۥۚ﴾ [البقرة: 130].

جاءت الآياتُ بعدَها معطوفةً على ما سبَقَها، فقال اللّٰه تعالى: ﴿وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰ تَهۡتَدُواْۗ﴾؛ لتُبَيِّنَ كيفيَّةَ إعراضِهم، ومِقدارَ غُرُورِهم وتكبُّرِهم، وتَحكيَ شُبهةً من شُبههم الباطلةِ، ودعاويهم الكاذبةِ، وهي: أنَّهم حَصَروا الهُدى في اليَهُوديَّة والنَّصرانيَّة[1].

كما جاءت الآياتُ الكريماتُ لِتَرُدَّ هذه الشُّبهةَ بعدَها، وتُبيِّنَ زَيفَها، وبُطلانَ مذهبِهم، بإعراضهم عن الإسلام، وتقليدِهم الأعمى وإصرارِهم عليه، بذكرِ جَوَابٍ إِلْزَامِيٍّ لهم في قوله تعالى: ﴿قُلۡ بَلۡ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِـۧمَ حَنِيفٗاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ١٣٥ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/736، وباختصار.

﴿إِلَيْنَا﴾، ولَمَّا أبطلَ هذه الشُّبْهةَ بالجَوابِ الجَدَليِّ، ذَكَرَ بعدَه جوابًا بُرهانيًّا، وبيّنَ أنَّ الطَّريقَ إلى معرفةِ نُبُوَّةِ الأنبياءِ عليهم السلام هي ظُهورُ المُعجِزِ على أيديهم، وَلَمَّا ظهرَ المُعجِزُ على يد سيِّدنا مُحمَّدٍ، صلى الله عليه وسلم، وجبَ الاعترافُ بنُبُوَّتِه، والإيمانُ برسالتِه، فهذا هو المُرادُ من هذه الآياتِ، وتعقيبها على ما سَبَقَها، وهو بَعْضُ الغرضِ مِنْ ذِكرِها[1].

وبهذا جاءت هذه الآياتُ رَدًّا على دعاوى اليهود والنَّصارى الباطلةِ، وبيَّنَتْ غُرورَهم، وكيفيَّةَ إعراضِهم عن منهج الأنبياءِ عليهم السلام، وفيها أيضًا: بيانُ أنَّ الدِّينَ الحقَّ هو في التَّمسُّكِ بالإسلام، دِينِ جميعِ الأنبياءِ والمرسلين عليهم السلام، سالكةً بذلك كلِّه أسلوبَ الحِجاجِ العقليِّ.

شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

1) ﴿هُودًا﴾: الهَوْدُ: التَّوْبَةُ، هادَ يَهُودُ هَوْدًا وتَهَوَّدَ: تابَ وَرَجَعَ إلى الحَقِّ، فَهُوَ هائدٌ، وقومٌ هُوْدٌ: مِثْلُ حائِكٍ وحُوْكٍ، وبازِلٍ وبُزْلٍ، والمُتَهَوِّدُ: المُتَقَرِّبُ، وهادَ: إذا رجَعَ مِنْ خَيْرٍ إلى شَرٍّ، أو مِنْ شَرٍّ إلى خَيْرٍ، وكلا الرُّجوعَينِ وَقَعَ فيه اليهودُ، وهذا المعنى يُشيرُ بدقَّةٍ إلى علَّة تسميتِهم باليَهودِ؛ لأنَّ رجوعَهم كان أوّلًا مِنْ شَرٍّ إلى خَيْرٍ، وثانيًا كانَ من خَيْرٍ إلى شَرٍّ، بتحريفِهم لشريعتهم[2].

قال ابنُ فارسٍ: "فَأَمَّا اليَهُودُ: فَمِنْ هَادَ يَهُودُ، وَسُمُّوا بِهِ؛ لِأَنَّهُمْ تَابُوا عَنْ عِبَادَةِ العِجْلِ"[3]، أو من الهَوْد: هادُوا يَهودُون هَوْدًا، فيكونُ اسمُ اليهودِ مُشْتقًّا مِن هادُوا، أي: تابوا، ويُقالُ: نُسِبوا إلى يَهُوذا، وهو أكبرُ ولدِ يعقوبَ، وحُوِّلَتِ الذّالُ إلى الدّال حين عُرِّبت[4].

2) ﴿نَصَٰرَىٰ﴾: مِنْ: (نَصَرَ)، والتَّنَصُّرُ: الدُّخولُ في النَّصْرانِيّة، ونَصَرى ونَصْرَى وناصِرَة ونَصُورِيّة ونَصْران: كلُّها اسمُ قرية بالشَّام، يُنْسَبُ إليها النَّصارى[5].

والنَّصارى: هم أتْباع عيسى عليه السلام، والنَّصارى في الأصل: جمعُ نَصْرانَ ونَصْرانَةٍ، ولكنَّه لا يُستعمَلُ في الكلام إلَّا بياءِ النَّسبِ المُشدَّدةِ: (نَصْرانيٌّ)، و(نَصْرانيّةٌ)[6].

(1) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 4/70-72.
(2) ابن منظور، لسان العرب: (هود).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (هود).
(4) الخليل، العين: (هود).
(5) ابن منظور، لسان العرب: (نَصَرَ)، وهي حالياً مدينة كبيرة في فلسطين.
(6) سيبويه، الكتاب: 3/255.

3) ﴿تَهۡتَدُواْۚ﴾: مِنْ (هَدَى)، والهُدَى يُطلق على معانٍ منها: نَقيضُ الضَّلَالَة، والبَيانُ، وإِخْرَاج شَيْء إِلَى شَيْء، والطَّاعَةُ والوَرَعُ، والطَّريقُ، وهَداه يَهْدِيه هِدَايةً، إذا دَلَّهُ على الطَّرِيق، وهداه يَهْدِيه في الدِّين هُدًى[1].

وجملة القول فإنّ لفظ الهُدى يَقعُ على الإيمان والشَّرائع كُلِّها، إذِ الاهتداءُ إنَّما يَقعُ بها كلِّها.

أمّا (تَهۡتَدُواْ) في قوله تَعَالى: ﴿وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰ تَهۡتَدُواْۚ﴾، فجاءَ من الاهْتداءِ، الّذي يَختَصُّ بما يَتحرّاه الإنسانُ على طريق الاختيارِ، إمّا في الأمُور الدُّنيويّة، أوِ الأُخْرَويّةِ[2].

4) ﴿مِلَّةَ﴾: مِنْ: (مَلَلَ)، والـمَلَّةُ: الرَّمادُ والجَمْرُ، والدِّيَةُ، والـمَلَلُ والـمَلالُ: أن تَمَلَّ شيئًا، وتُعْرِضَ عنه[3].

ومن الـمَجَازِ الـمِلَّةُ: الدِّيْنُ والطَّريقةُ الـمَسْلوكةُ، ومنها: مِلَّةُ إبراهِيمَ خيرُ الـمِلَلِ، وامْتَلَّ فلانٌ مِلَّةَ الإسْلام[4].

ومعنى: ﴿بَلۡ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِـۧمَ﴾: بل الهدايةُ أن نتَّبعَ دينَ إبراهيمَ.

5) ﴿حَنِيفٗاۖ﴾: مِنْ (حَنَفَ)، والحاءُ والنُّونُ والفاءُ أَصْلٌ مُسْتَقيمٌ، وهو الـمَيَلُ، ويَدورُ معنى الجذْرِ اللُّغويِّ حولَ: التفات الشّيءِ أو اعوجاجه عن مُعتادِ الحالِ، يُقالُ لِلّذي يَمْشِي على ظُهُورِ قَدَمَيْه: أَحْنَفُ، وقالَ قَوْمٌ -وَأَرَاهُ الأَصَحَّ- إنَّ الحَنَفَ اعْوِجَاجٌ في الرِّجْلِ إِلَى دَاخِلٍ، وَرَجُلٌ أَحْنَفُ، أَيْ: مَائِلُ الرِّجْلَيْنِ[5]، أي: إقْبالُ القَدَمَينِ كُلُّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا عَلَى الأخرى، وحَنَفَ عَنِ الشَّيْءِ وتَحَنَّفَ: مَالَ[6].

والحَنيفُ: المائلُ عن الدِّينِ الباطلِ إلى الدِّينِ الحقِّ، أي: الـمُسلمُ المستقيمُ الّذي

(1) ابن منظور، لسان العرب: (هدي).
(2) الكَفويُّ، الكُليّات، ص: 954-953.
(3) الخليل، العَين: (مَلل)، والأَزْهريُّ، تهذيب اللُّغة: (مَلل).
(4) الزَّمخشريُّ، أساس البلاغة: (ملل).
(5) ابنُ فارس، مقاييس اللُّغة: (حَنَفَ)، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصَّل: (حنف).
(6) ابن منظور، لسان العرب: (حَنَفَ).

يستَقبِلُ قِبْلَةَ البَيتِ الحَرام على مِلّةِ إبراهيمَ حَنيفًا مُسْلِمًا، وأحَبُّ الأديانِ إلى اللّهِ الحَنيفيَّةُ السَّمْحةُ، وهي مِلّةُ النَّبيِّ ﷺ، لا ضيقٌ فيها، ولا حرجٌ[1].

6) ﴿ٱلْمُشْرِكِينَ﴾: مِنْ (شَرَكَ) الشِّينُ وَالرَّاءُ وَالكافُ أَصْلَانِ، أَحَدُهُما: يَدُلُّ عَلَى مُقَارَنَةٍ وَخِلَافِ انْفِرَادٍ، وَالْآخَرُ: يَدُلُّ على امْتِدَادٍ وَاسْتِقَامَةٍ، ولَفظةُ ﴿ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ أصْلُهَا مِن المَعْنَى الأَوَّلِ، فالشِّرْكَةُ: أَنْ يَكُونَ الشَّيْءُ بَيْنَ اثْنَيْنِ، لَا يَنْفَرِدُ بِهِ أَحَدُهُما[2].

والشَّريكُ: يُجمَعُ على شُرَكاءَ وأشْراك، "وأَشْرَكَ باللّه: كَفَرَ، فَهُوَ مُشْرِكٌ ومُشْرِكيٌّ، وَالاسْم: (الشِّرْك)"[3]، جاء في لسان العرب: "الشِّرْكُ: أَن يجعلَ لِلّهِ شَريكًا في رُبوبيَّته، تعالى اللّهُ عنِ الشُّرَكاء والأَنداد، وقولُه تَعَالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ١٠٠﴾ [النحل: 100]، والمُشركونَ: هم الّذينَ صَاروا مُشْرِكينَ بِطَاعَتِهِمْ لِلشَّيْطَانِ[4].

والّذي جاء في القرآنِ من مُفردات التَّركيبِ، جُلُّهُ بمعنى اتِّخاذِ الكفّارِ شَريكًا، أو شُركاءَ للّه، تعالى اللّهُ عمّا يَصفونَ.

7) ﴿ءَامَنَّا﴾: مِنْ (أَمَنَ)، و"الهَمْزَةُ وَالمِيمُ والنُّونُ أَصْلَانِ مُتَقَارِبَانِ: أَحَدُهُما الأَمَانَةُ، الّتِي هِيَ ضِدُّ الخِيَانَةِ، وَمَعْنَاها: سُكُونُ القَلْبِ، وَالآخَرُ: التَّصْدِيقُ"[5].

والمعنى المحوَريُّ: وَثاقَةٌ في الباطنِ، مِنْ قولِهم: ناقَةٌ أَمُونٌ: أَمينةٌ وَثيقةُ الخَلْقِ، ومِنْ ذلك الأَمْنُ: ضِدُّ الخَوفِ، كأنَّ الآمِنَ تَمَكَّنَ في حِصْنٍ، أو امْتَلأَ قلبُه امتلاءً شديدًا بما يُطَمْئِنُهُ، ومِنْ ذلك: آمَنَ بالشّيءِ: صَدَّقَ، قَبِلَ الكلامَ، ووَثِقَ به؛ فتَمَكَّنَ مِنْ قَلبِه[6].

والإيمانُ: الثِّقَةُ، وإظْهارُ الخُضوعِ، وقَبولُ الشَّريعَةِ[7].

والإيمانُ يُرادُ بِهِ: إذْعانُ النَّفْسِ لِلحَقِّ على سَبيلِ التَّصْديق، وَذَلِكَ باجْتِمَاعِ ثَلَاثةِ

(1) الخليل، العَين: (حنف).
(2) ابنُ فارس، مقاييس اللُّغة: (شَرَكَ).
(3) الكَفويُّ، الكُلّيّات، ص: 533.
(4) ابن مَنظور، لسانُ العَرب: (شرك)، بتصرّف.
(5) ابن فارس، مَقاييس اللُّغة: (أَمَنَ).
(6) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصَّل: (أمن).
(7) ابن سِيده، المُحكم والمُحيط الأعْظم: (أَمن).

أَشْيَاءَ: تَحْقِيقٌ بِالقَلْبِ، وإِقْرارٌ باللِّسانِ، وَعَمَلٌ بِحَسَبِ ذَلِكَ بِالجَوَارِحِ، ويُقَالُ لِكُلِّ واحِدٍ مِن الاعْتِقاد وَالقَوْلِ الصِّدْقِ وَالعَمَل الصَّالِح: إيمَانٌ[1].

8) ﴿أُنزِلَ﴾: مِنْ (نَزَلَ)، والنُّزُول: الحُلولُ، ونَزَلَ فلانٌ عن الدّابّة، أو مِنْ عُلْوٍ إلى سُفْلٍ، وقد نَزَلَهم، ونَزَلَ عَلَيهم، وبهِم، يَنْزِلُ نُزُولًا[2].

وأَنْزَلَ اللّهُ الغيثَ، وأَنْزَلَ الكتابَ ونَزَّلَهُ، وتَنَزَّلَتِ المَلائكةُ، فيها دَلالةُ النُّزولِ من عُلُوٍّ[3].

ومعنى الآية: ما أوحاه اللّه.

9) ﴿وَٱلْأَسْبَاطِ﴾: مِنْ (سَبَطَ)، أَصْلٌ يَدُلُّ على امتدادِ شيءٍ، "السَّبَطُ: نَباتٌ كالثِّيل، يَنْبُتُ في الرِّمال، له طُولٌ، الواحدةُ: سَبَطةٌ"[4]، وهو ضَرْبٌ من الشّجر تَرعاه الإبلُ، يُقالُ: الشَّجرةُ لها قبائلُ، وكذلكَ الأسْباطُ من السَّبَط، كأَنّه جَعَلَ إِسْحَاقَ بِمَنْزِلَةِ شَجَرَةٍ، وجَعَلَ إِسْمَاعِيلَ بِمَنْزِلَة شجرةٍ أُخْرى[5].

وَرَجُلٌ سَبِطُ الجسمِ وسَبْطُه: طَويلُ الأَلواحِ، مُسْتَوِيها، بَيِّنُ السَّباطةِ، مِثْلُ: فَخِذٍ وفَخْذٍ، مِنْ قَوْمٍ سِباطٍ، إذا كانَ حَسَنَ القَدِّ والاسْتِواءِ[6].

والأَسْبَاطُ: هم الأنبياءُ من ولَدِ يعقوبَ في قبائلِ بني إسرائيلَ الاثنتي عَشْرَةَ، سُمُّوا بالأَسْباط؛ لأنَّه كان مِنْ كلِّ واحدٍ منهم سِبْطٌ، والسِّبْطُ في بني إسرائيلَ بمنزلةِ القبيلةِ، والسِّبْطُ في اللُّغة: الجماعةُ يَرجِعون إلى أبٍ واحدٍ[7].

10) ﴿ٱلنَّبِيُّونَ﴾: من (نَبَأَ)، والنّبأُ، لفظٌ مهموزٌ، وهو الخَبَرُ، وإنّ لفُلانٍ نبأً، أي: خَبَرًا، والفِعلُ: نبّأْتُه وأنْبأْتُه واسْتَنْبَأته، والجميعُ: الأنْباءُ، والنَبيُّ ﷺ يُنبئُ الأَنْباءَ عن اللّه ﷻ، والنّبيُّ، يُقالُ: الطّريقُ الواضحُ، يأخُذُكَ إلى حيثُ تُريدُ[8].

---

(1) الراغب، المفردات: (أمن).
(2) الفَراهيديُّ، العَين: (نزل)، وابن سِيدَه، المُحكم والمُحيط الأعْظَم: (نزل).
(3) الزَّمخشريُّ، أساس البَلاغة: (نزل).
(4) الخليل، العَين: (سبط).
(5) الأزْهريُّ، تهذيب اللُّغة: (سبط).
(6) ابن منظور، لسان العَرب: (سبط).
(7) السّجستانّي، غريب القرآن، ص: 49.
(8) الخليل، العَين: (نبأ).

وقد صرَّحَ سِيبَوَيْهِ بِأَنَّ تَخْفيفَ النَّبِيِّ والبريَّةِ، تَخفيفٌ بَدَلِيٌّ؛ بِدَلَالَةِ ضُروبُ تَصريفِها[1].

والنَّبَأُ: خَبَرٌ ذو فائدةٍ عظيمةٍ، يَحصُلُ به علمٌ، أو غَلَبَةُ ظَنٍّ، ولا يُقالُ للخبر في الأصل نَبَأٌ، حتّى يَتضمّنَ هذه الأشياءَ الثّلاثةَ، والنُّبُوَّةُ: سِفَارَةٌ بين اللّه وبين ذَوي العُقولِ من عِباده، لإزاحةِ عِلَلِهم، في أمر مَعادِهم ومَعاشِهم، والنَّبِيُّ لكونه مُنَبِّئًا بما تَسكُنُ إليه العقولُ الذَّكيَّةُ[2].

11) ﴿لَا نُفَرِّقُ﴾: مِنْ (فَرَقَ)، والفَرْقُ: موضِعُ المَفْرِقِ من الرّأسِ في الشَّعْرِ، والفَرْقُ: تَفريقٌ بين شيئَين فرقًا، حتّى يَفترِقا ويَتَفَرَّقا، وتَفَارقَ القومُ وافترَقوا، أي: فارقَ بعضُهم بعضًا.

والتَّفْرِيقُ: أصلُه للتّكثير، ويُقالُ ذلك في تَشتيتِ الشَّمْلِ والكَلِمة، ومِنه قَولُه تَعَالى: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ﴾.

12) ﴿مُسْلِمُونَ﴾: جمعُ مُسْلِمٍ، مِنْ (سَلِمَ)، "والسَّلامُ والسَّلامةُ: البَراءةُ، وتَسلَّمَ منه: تَبرَّأَ"[3].

والمعنى المِحْوريُّ: صِحَّةُ جِرْمِ الشَّيءِ، والْتِئامُ ظاهره في ذاته، أيْ: عَدَمُ تَصدُّعِهِ، أو تَفَرُّعِ غيرِه منه.

والإِسْلامُ والاسْتِسْلامُ: الانْقِيادُ، والإِسْلامُ مِنَ الشَّرِيعَةِ: إظهارُ الْخُضُوعِ، وإظهارُ الشَّرِيعَةِ، والْتِزَامُ مَا أَتى بِهِ النَّبِيُّ، ﷺ، ويُقالُ: فلانٌ مُسْلِمٌ، وَفِيه قَولَانِ: أحدُهما: هُوَ المُستَسْلِمُ لأمرِ اللّهِ، وَالثّاني: هُوَ المُخلِصُ للّه العبادةَ، والمُسلِمُ: التّامُّ الإِسْلَامِ، مُظْهِرُ الطَّاعَةِ، مُؤمِنٌ بهَا، وبهذا المَعْنَى جَاءَ قَولُه تَعالى: ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾[4].

13) ﴿تَوَلَّوْا۟﴾: مِنْ (وَلِيَ)، و"الوَاوُ وَاللَّامُ وَاليَاءُ: أَصْلٌ صَحِيحٌ، يَدُلُّ عَلَى قُرْبٍ، والوَلْيُ: الْقُرْبُ، يُقَالُ: تَبَاعَدَ بَعْدَ وَلْيٍ، أيْ: قُرْبٍ، وَجَلَسَ مِمَّا يَلِينِي، أيْ: يُقَارِبُنِي"[5].

(1) ابنُ سِيدَه، المخصّص: 5/226.
(2) الراغب، المُفردات: (نبأ).
(3) ابن سيده، المحكم: (سلم).
(4) الأَزْهريُّ، تهذيبُ اللُّغة، وابن منظور، لسانُ العَرب: (سلم).
(5) ابن فَارس، مَقاييس اللُّغة: (وَلَيَ).

والتَّوَلِّي يكون بِمَعْنى: الاتّباع، وَيكون بِمَعْنى: الإِعْرَاض.

والمراد من الآية: ﴿تَوَلَّوْاْ﴾: أعْرَضُوا.

14) ﴿شِقَاقٍۖ﴾: مِنْ (شَقَّ)، والشِّينُ وَالقافُ أَصْلٌ وَاحِدٌ صَحِيحٌ، يَدُلُّ عَلَى انْصِدَاعٍ في الشَّيْءِ، ثُمَّ يُحْمَلُ عَلَيْهِ، وَيُشْتَقُّ مِنْهُ عَلَى مَعْنَى الاسْتِعَارَةِ، تَقُولُ: شَقَقْتُ الشَّيْءَ، أَشُقُّهُ شَقًّا، إِذَا صَدَعْتَهُ، والشَّقُّ: مصدرُ قَوْلِك شَقَقْتُ.

والمعنى المِحوَريُّ: صَدَعَ الشّيءَ الشّديدَ صَدْعًا نافِذًا إلى عُمُقه: كصَدع العود والحائط والزُّجاجة، وكما يصدعُ النَّبتُ والنّابُ ما يُغطِّيهما ﴿ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ۝٢٦﴾ [عبس: 26]، المُرادُ: أنَّ البِذرةَ تَنْبُتُ منها خامةٌ ضعيفةٌ، لكنّها تَخترقُ الأرضَ الصُّلْبَةَ، وتَبرُزُ بإذن اللّه تعالى.

والشِّقاقُ: الخلافُ؛ كأنَّ كُلًّا يَنْشَقُّ عن الآخر إلى ناحيةٍ أو شِقٍّ، ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ﴾ [الأنفال: 13]، والصِّيغةُ هنا للمُبالغة؛ لأنَّ الخلافَ من جانبِهم هم، مع مُعاودةٍ وتَكرارٍ، وكذلك كلُّ ما كان سياقُه مُشاقَّةً للّه ورسولِه، وهو كُلُّ (شاقّ) و (يُشاقّ)، وما كان بصيغة المصدر (شِقاق)، أمّا قولُه ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا﴾ [النساء: 35]، فهو خلافٌ ومُباعدةٌ من الطّرفَين، وسائرُه الرّاجحُ أو الصَّحيحُ أنّه مُشاقّةُ اللّه ورسولِه، و شِقّ الرَّجُل -بالكسر- وشَقيقُه: أخوه، كأنّهما شِقّانِ لشيء، أو مِنْ شيءٍ واحدٍ[1].

وبهذا المَعْنى جَاءَ لَفْظُ (شِقَاق) في الآية: ﴿فِي شِقَاقٍۖ﴾، أي: في شقَاق الحقِّ، وَهُوَ المُنافاة والمُخالَفَة، وكونُكَ في شِقٍّ غَيْر شِقِّ صاحِبِكَ[2].

15) ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ﴾: مِنْ (كفي)، كَفَى يَكْفِي كِفايةً، إذَا قَامَ بالأمْر، واسْتَكْفَيْتُه أمْرًا فَكَفَانيه، ورأيت رجالًا كافِيكَ من رجالٍ، أي: كَفاكَ بهم رجالًا[3].

والمعنى الإجماليُّ يدورُ حول: "ما فيه سَدُّ الخَلَّةِ، وبلوغُ المراد في الأمر"[4]، ومِنْ هذا الأصلِ: "كَفاك الشَّيءُ يَكفيك: استغنيتَ به عن غيره، وقَنِعْتَ به، سَدَّ حاجتَك بقَدْر ما تحتاج.

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (شقق).
(2) الراغب، المفردات: (شقق).
(3) الخليل، العَين: (كفي).
(4) الراغب، المفردات: (كفى).

ومعنى ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ﴾ لن يَصلوا إليكَ بشيءٍ تُمليه عداوتُهم، بسبب تولّيهم وشقاقِهم، فإنَّ اللّه يَكفيك شرَّهم، وهذا ضمانٌ منه سبحانه كفايتَه إيّاهم، ويَتضمَّنُ ذلك إظهارَه ﷺ على أعدائه[1].

16) ﴿ٱلسَّمِيعُ﴾: مِنْ (سَمِعَ)، والسِّينُ وَالمِيمُ وَالعَيْنُ أَصْلٌ وَاحِدٌ، وَهُوَ إِينَاسُ الشَّيْءِ بِالأُذُنِ، مِنَ النَّاسِ وَكُلِّ ذِي أُذُنٍ، تَقُولُ: سَمِعْتُ الشَّيْءَ سَمْعًا، والسَّمْعُ: ما وَقَرَ فيها من شيء يَسمعُه[2]، و"يُقَالُ لِسَمْع الأُذُن: المِسْمَعُ، وَهُوَ الخَرْقُ الّذِي يُسمَع بِهِ، وَقد يُقَالُ: لجَمِيع خُرُوق الإِنْسان، عَيْنَيْهِ ومَنْخِريه مَسَامع، لَا يُفرَدُ وَاحِدُها"[3].

وكلُّ ما في القرآن من التّركيب -عدا ما في هذه الفقرة- هو من سماع الأُذُن، إلَّا في وصف المولى ﷻ، فهو عِلمُ ما يُقال بكَيفيّةٍ يَعلمُها ﷻ[4].

17) ﴿صِبْغَةَ﴾: مِنْ (صَبَغَ)، والصِّبْغُ والصِّباغُ: مَا يُصْطَبَغُ بِهِ مِنَ الإِدام، وصَبَغَ اللُّقمةَ، يَصْبُغُها صَبْغًا: دَهَنها وغَمَسَها، وكلُّ مَا غُمِسَ، فَقَدْ صُبِغَ، وَالجَمْعُ صِباغٌ، وَيُقَالُ: صَبَغَتِ النّاقةُ مَشافِرَها في المَاءِ، إِذَا غَمَسَتْها، وصَبَغَ يَدَه في الماءِ[5].

والصَّبْغُ في كَلَام الْعَرَب: التَّغييرُ، وَمِنْه: صُبغَ الثّوبُ، إذا غُيِّرَ لَونُه، وأُزيلَ عنْ حَاله إِلَى حَال سوادٍ أَو حُمْرَةٍ أَو صُفْرةٍ، وصِبَغَةُ اللّه: دِينُه، وأصلُه أَنَّ بعضَ النَّصَارى كانوا إذا وُلدَ المولودُ، جَعَلُوهُ في ماءٍ لَهُم، كالتَّطهير، فَقَالَ اللّهُ تعالى: ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ﴾، فَسَمَّتِ النَّصَارَى غَمْسَهم أولادَهم في مَاء فِيهِ صِبغٌ: صَبغًا؛ لغمْسِهم إيّاهمْ فِيهِ[6].

وجملة القول: الصِّبْغَةُ: إشارةٌ إلى ما أوجدَه اللّهُ تعالى في النّاس، وما جُبِلوا عليه من العَقْل، المُتميِّزِ به عن البَهائم كالفِطْرَة، إذ يُقالُ للصِّبْغَةِ: فِطْرَةُ اللّهِ[7].

ومعنى الآية: الزَمُوا دِينَ اللّهِ وفِطْرَتَهُ.

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (كفى).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سمع).
(3) الأَزْهريُّ، تهذيبُ اللُّغة: (سمع).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (سمع).
(5) ابن مَنْظور، لسانُ العَرب: (صبغ).
(6) الأَزْهريُّ، تهذيبُ اللُّغة: (صبغ)، والجَوْهَرِيُّ، الصّحاح: (صبغ)
(7) ابن دُرَيد، جَمْهَرة اللُّغة، والراغب، المفردات: (صبغ).

18) ﴿عَٰبِدُونَ﴾: مِنْ (عَبَدَ)، العَبْدُ: الإِنْسَانُ حُرًّا كَانَ أَو رقيقًا، يُذْهَبُ بذلك إِلَى أَنَّه مَرْبوبٌ لِباريه جَلَّ وعزّ، والعَبْد: المَمْلوكُ[1].

وبَعِيرٌ مُعَبَّدٌ، أَي: مُذَلَّلٌ، وطَرِيقٌ مُعَبَّدٌ، أَي مَسْلُوكٌ مُذَلَّلٌ، والعابِد: المُوحِّد[2]، وعَبَدَ اللَّه عِبَادَةً: فهو من هذا الأَصْل، أَيْ: جَعَلَ نَفْسَه مَمْلوكًا، وعَبْدًا للَّه بهذا التَّأَلُّه، وبِعِبَارةٍ أخرى فالعِبادَة: الشَّعائِرُ، والامتثالُ في التَّصرُّف، فهي تَعبيرٌ عن المَملوكيَّةِ للَّه، بالإذعانِ والامتثالِ لكلِّ ما أمر ونهى، في أمر دنيا أو دِينٍ[3].

"وعبادَةُ اللّه تَعَالَى: الذِّلُّ لَهُ بالانقياد لمَا أَمَرَ، والانتهاءِ عَمَّا نهى، وحَدَّ بَعضُهم العِبادَةَ فَقالَ: هِيَ الأَفْعالُ الوَاقِعَةُ على نِهايَة مَا يُمْكِنُ من التَّذلُّلِ والخُضوع، والمُجاوزَةِ لتذلُّلِ بعض العِباد لبَعضٍ"[4]، وإلى ذلك يُشيرُ معنى ﴿عَٰبِدُونَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ﴾.

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

جاءت هذه الآياتُ الكريمات في الرَّدِّ على اليهود والنَّصارى، وبطلانِ مذهبهم، وإثباتِ أنَّ الإسلامَ هو دينُ اللّه الحقِّ في الأرض.

الرَّدُّ على اليهود والنَّصارى، وبيانُ دينِ اللهِ الحقِّ

فبدأت بذكر شُبهة هذَين الفريقَين، بنِسبة الحقِّ لكلِّ فريقٍ منهما فقط، لا لغيرهما[5]، فكلُّ فريقٍ منهم قال لأهل الإيمان على وجه الانفرادِ: إنَّ النّجاةَ والهدايةَ باتّباع مِلَّته، فقالتِ اليهودُ: كونوا يهودًا تَهتدوا للحقِّ، وقالتِ النَّصارى: كونوا نصارى تَهتدوا للحقِّ، ليأتيَ الرَّدُّ على هذه الشُّبهة، مع بيان كَذِبهم، وزَيفِ ادِّعائهم، إذ أمرَ اللّهُ تعالى نبيَّه محمَّدًا، ﷺ، بأنْ يجيبَهم: بأنَّ الدِّينَ الحقَّ ليس

(1) ابن منظور، لسان العرب: (عبد).

(2) الزَّبيديُّ، تاج العروس: (عبد).

(3) جبل، المُعجم الاشتقاقيّ المؤصَّل: (عبد).

(4) ابن الجَوزيِّ، نزهة الأعين النّواظر، ص: 431.

(5) قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: نَزَلَتْ فِي رُؤُوسِ يَهُودِ الْمَدِينَةِ: كَعْبِ بْنِ الْأَشْرَفِ، وَمَالِكِ بْنِ الصَّيْفِ، وهْبِ بْنِ يَهُوذَا، وَأَبِي يَاسِرِ ابن أَخْطَبَ؛ وَفِي نَصَارَى أَهْلِ نَجْرَانَ؛ وَذَلِكَ أَنَّهُمْ خَاصَمُوا الْمُسْلِمِينَ فِي الدِّينِ، كُلُّ فِرْقَةٍ تَزْعُمُ أَنَّهَا أَحَقُّ بِدِينِ اللَّهِ تَعَالَى مِنْ غَيْرِهَا، فَقَالَتِ الْيَهُودُ: نَبِيُّنَا مُوسَى أَفْضَلُ الْأَنْبِيَاءِ، وَكِتَابُنَا التَّوْرَاةُ أَفْضَلُ الْكُتُبِ، وَدِينُنَا أَفْضَلُ الْأَدْيَانِ، وَكَفَرَتْ بِعِيسَى وَالْإِنْجِيلِ وَمُحَمَّدٍ وَالْقُرْآنِ، وَقَالَتِ النَّصَارَى: نَبِيُّنَا عِيسَى أَفْضَلُ الْأَنْبِيَاءِ، وَكِتَابُنَا الْإِنْجِيلُ أَفْضَلُ الْكُتُبِ، وَدِينُنَا أَفْضَلُ الْأَدْيَانِ، وَكَفَرَتْ بِمُحَمَّدٍ ﷺ وَالْقُرْآنِ، وَقَالَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ لِلْمُؤْمِنِينَ: كُونُوا عَلَى دِينِنَا، فَلَا دِينَ إِلَّا ذَلِك، وَدَعَوْهُمْ إِلَى دِينِهِمْ، يُنظر: الواحديُّ، أسباب النُّزول، ص: 41.

في دِياناتِهِمُ المُحرَّفةِ، بل إنَّ الهدايةَ الحقيقيَّةَ تَتَمثَّلُ في اتِّباعِ دِينِ سيِّدِنا إبراهيمَ، عليه السلام، المائلِ عن الأديان الباطلةِ إلى الدِّين الحقِّ، دينِ الحَنِيفيَّةِ السَّمْحةِ، الّذي هو استقامةٌ على طريق التَّوحيد، ومَيَلانٌ عن طريق الشِّركِ والضَّلالِ، فإبراهيمُ عليه السلام، لم يكُن من عُبَّاد الأصنام، ولم يكُن يهوديًّا ولا نصرانيًّا[1].

ثُمَّ أمرَ اللّهُ المُؤمنينَ وأرشدَهم إلى الإيمانِ بما أُنزِلَ إلَيهم، بوَاسطة رسولِه مُحَمَّدٍ ﷺ مُفَصَّلًا، وبما أُنزِلَ على الأَنبياءِ المُتَقَدِّمينَ مُجمَلًا - مِنْ قَبْلِ التَّبديل والتَّحريف -، وَنَصَّ على أَعيانٍ من الرُّسُلِ، وَأَجمَلَ ذِكرَ بَقيَّةِ الأَنبياء، وأَنْ لا يُفرِّقُوا بينَ أَحَدٍ مِنهُم، بل يُؤمنُوا بهم كُلِّهم[2].

وقد روى البُخَارِيُّ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قال: كَانَ أَهْلُ الكِتَابِ يَقْرَأونَ التَّوْرَاةَ بِالعِبْرَانِيَّةِ، وَيُفَسِّرُونَهَا بِالعَرَبِيَّةِ لِأَهْلِ الإِسْلَامِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لا تُصَدِّقُوا أَهْلَ الكِتَابِ، وَلا تُكَذِّبُوهُمْ، وَقُولُوا: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا﴾ [البقرة: 136]»[3].

ثمَّ تأتي الآيتانِ الأخيرتانِ لتُبيِّنَ السَّبيلَينِ لليهود والنَّصارى، هدايةً وضلالًا، فإنْ آمَن اليهودُ والنَّصارى وغيرُهم من الكفَّار، إيمانًا مِثْلَ إيمانِكم أيُّها المسلمون؛ فقد رَشَدُوا واهتدَوا إلى الطَّريقِ المُستقيم، الّذي ارْتضاه اللّه تعالى، وإنْ تَوَلَّوْا وأعرضُوا عن الإيمان الحقِّ، وكَذَّبوا بالأنبياءِ، فإنَّما هم في شِقَاقٍ وعِداءٍ، واللّهُ تعالى سيَكفيكَ يا مُحمَّدُ أمْرَهم، ويَدفعُ أذاهم عنكَ، وينصُرُك عليهم، فهو تعالى السَّميعُ لِمَا يقولون، العالمُ بما يفعلون، فاتَّبِعوا دِينَ اللّه تعالى، الّذي فَطَرَكم عليه ظاهرًا وباطنًا، والْزَموه، فلا دينَ أحسنُ من دين اللّه تعالى، فقُوموا به خيرَ قِيامٍ، وكونوا له خاضِعين مُتَذلِّلين[4].

الإيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

غرضُ الالتفات:

مِنْ بلاغة التَّراكيب في الآية الكريمة مَجِيئُها على سبيل الالتفات، فبدلَ أن يخاطِبَهم

(1) الطّبريُّ، جامع البيان: 1/101-105.
(2) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 1/448.
(3) البُخارِيُّ، صحيح البُخارِيِّ، كتاب تفسير القرآن، بابُ ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا﴾، الحديث رقم (4485): 6/20.
(4) ابن جرير، جامع البيان: 3/113-115، والسَّعديُّ، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 44-45.

مخاطبةً مباشرةً أعرض عن ذلك وأخبرَ عنهم، وفائدةُ هذا الالتفات الإعلامُ باستيجاب حالِهم إبعادهم من مَقام المخاطبةِ إعراضًا عنهم، وتَعديد جِناياتِهم عند غيرِهم[1].

إهمالُ أهل الكتابِ بالإعراض عن خطابِهم

بلاغةُ الاحتباكِ:

جاء قولُه تعالى: ﴿وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰ تَهۡتَدُواْۗ﴾، على طريقة الحذفِ التَّقابُليِّ؛ فقد حَذَفَ من الأوَّل مع اليهود الفعلَ: ﴿تَهۡتَدُواْۗ﴾؛ لدَلالة الفعلِ ﴿تَهۡتَدُواْۗ﴾ المُقترِنِ مع النَّصارى عليه ثانيًا، وحذَفَ من الثّاني الفعلَ: ﴿كُونُواْ﴾؛ لدَلالة الفعلِ ﴿كُونُواْ﴾، المُقترِنِ مع اليهودِ عليه أوّلًا، وبهذا انطوَت الآيةُ على الاحْتباك، بحذفٍ في كُلٍّ منهما، ما دلَّ عليه المذكورُ في الآخَرِ.

مِلَّةُ الكفر واحدة في مواجهة الإسلام

وهذا الحذف من الإيجاز، وتقديرُ الآيةِ الكريمة: قالت اليهود: كونوا هودًا ﴿تَهۡتَدُواْۗ﴾، وقالت النَّصَارَى: ﴿كُونُواْ﴾ نصارى تهتدوا[2].

وفائدة الاحْتباك[3] بيانُ أنَّ الكفرَ كُلَّه مِلَّةٌ واحدةٌ؛ فقد اجتمعت كلمةُ اليهودِ والنّصارى على كلمةٍ واحدةٍ.

وممَّا يَعضُدُ هذا التَّقديرَ: أنَّ (الواوَ) في: ﴿وَقَالُواْ﴾ عائدةٌ على اليهود أوّلًا، وعلى النَّصارى ثانيًا، وتَوَزَّعَ القولُ عليهما، قال أبو السُّعودِ: "ليس هذا القولُ مَقولًا لكلِّهم، أو لأيِّ طائفةٍ كانت من الطَّائفتَين، بل هو مُوزَّعٌ عليهما، على وجهٍ خاصٍّ يَقتضيه حالُهما، اقتضاءً مُغنيًا عن التَّصريح به، أي: قالتِ اليهودُ كونوا هودًا، والنَّصارى كونوا نصارى"[4].

الاحتباك يحثُّ المُتلقِّي على البحث عن المحذوف

وفي هذا الاحتباكِ أيضًا: تَنْبيهُ المُتلقِّي إلى البحث عن المحذوف، فيَجعلُه يَتجاوبُ مع ما يَقرَأ، فتَرسُخُ المعلومةُ في نفسه،

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 1/165.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 3/101.
(3) الاحتباك: "أن يُحذف من الأوَّل ما أُثبتَ نظيرُه في الثَّاني، ومن الثَّاني ما أُثبت نظيره في الأوّل"، السُّيوطيُّ، الإتقان: 3/204.
(4) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 1/165.

ويَقِلُّ نِسيانُه، وهذا مَطلبٌ من مطالب الحَذْفِ في القرآن الكريم، وهي غايةُ البلاغةِ، المُتمثِّلةِ في استثمارِ أقلِّ ما يُمكِنُ من الألفاظ، في أكثرِ ما يُمْكِنُ من المعاني.

دلالةُ استعمالِ حرفِ العطفِ (أو):

استقلالُ كلٍّ من اليهود والنَّصارى في الدَّعوةِ إلى دينِه

استُعمل حرفُ العطف ﴿أَوْ﴾ دونَ غيرِه في قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُواْ﴾ لِما يَحملُه من معانٍ ودَلالاتٍ، لا يُؤدِّيها غيره من حروف العطفِ؛ فجاء حرفُ ﴿أَوْ﴾ للإيضاح وتَفصيلِ الإجمالِ في الفعل: ﴿وَقَالُواْ﴾[1]، ويُطلَقُ عليه أيضًا: اللَّفُّ والنَّشْرُ المُجْمَلُ، فضميرُ الجماعةِ الفاعلِ (الواو) في: ﴿وَقَالُواْ﴾، يَشمَلُ فريقَين مِنْ أهل الكتاب، فهو عائدٌ على اليهود أوّلًا، وعلى النَّصارى ثانيًا، ويُوزِّعُ القولَ عليهم؛ لأنَّ كلَّ فريقٍ، يَعُدُّ دينَ الآخَرِ باطلًا، ذلك أنَّ اليهودَ قالت على وجه الإفراد، والنَّصارى قالت على وجه الإفرادِ أيضًا، ولم يَقُلْ كلُّ فريقٍ منهُم: كونوا هودًا أو نصارى تهتدوا، فلمَّا أَجْمَلَ في قوله: ﴿وَقَالُواْ﴾؛ جَاءَ بِـ﴿أَوْ﴾ لِلتَّفصيلِ؛ إذ كانت موضُوعَةً لأَحد الشَّيئَينِ[2].

أثرُ حرفِ الإضرابِ في تقرير المعاني:

إبطالُ عقائدِ أهلِ الكتابِ بما ينتسبون إليه

لـمَّا جاء قولُه تعالى: ﴿وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُواْ﴾، في بيانِ دَعوةِ اليهود والنَّصارى المؤمنين لاتِّباع مِلَّتِهم، وبيانِ عقيدةِ الفريقَين في تَفرُّقِهما وضلالِهما، ناسَبَ المقامَ التَّعبيرُ بحرفِ الإضراب ﴿بَلْ﴾، في الآية الكريمة: ﴿قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًاۖ﴾؛ لإبطال عقيدتِهم ومزاعمِهم، ولفْتِ نظر النَّبيِّ ﷺ، إلى البرهان الأقوى في إقامة الحُجَّة عليهم، بمِلَّة سيِّدِنا إبراهيمَ عليه السلام.

(1) المرتضى، أمالي المرتضى: 2/55، والعكبريّ، التّبيان في إعراب القرآن: 1/120، والمراديّ، الجنى الدّاني، ص: 229، والزّركشّي، البرهان في علوم القرآن: 4/210.

(2) العكبريّ، التّبيان في إعراب القرآن: 1/105.

فحرفُ الإضرابِ ﴿بَلْ﴾، ردَّ عليهم بإثبات أنَّ سيِّدَنا إبراهيمَ عليه السلام ليس يهوديًّا ولا نصرانيًّا[1]، وهو دليلٌ على أنّ مِلّتَه عليه السلام، مُخالفةٌ لليهوديَّة والنَّصرانيَّة[2]، وأنَّ اليهودَ والنَّصارى لا يكونون متَّبعين لملَّةِ إبراهيم إلَّا أن يكونوا على دينِ محمَّدٍ ﷺ.

فيكون المعنى: "بَلْ نَتَّبِعُ، أَو اتَّبِعوا مِلَّةَ إبراهيمَ، الّذي لا نِزاعَ في هُداهُ ولا في هَدْيِه، فهي المِلَّةُ الحَنِيفِيَّةُ القائمةُ على الجادَّةِ، بلا انحِرافٍ ولا زَيْغٍ، العريقةُ في التَّوحيدِ والإخلاصِ، بلا وثنيَّةٍ ولا شِرْكٍ"[3].

بلاغة الفاصلة القرآنيَّة في تقرير المعاني السِّياقيّة:

جاءت الفاصلةُ ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ على غاية البلاغةِ، ومنتهى البراعةِ، فقد حقَّقت مجموعةً من المعاني البيانيَّة:

إبطالُ عَقيدةِ المُشْرِكين، إثر إبطالِ عقائد أهل الكتابِ

أفادَت الفاصلةُ احتراسًا من توهُّم قد يقعُ في ذهنِ المُشركين، فلمَّا قال تعالى قبلَها: ﴿بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا﴾، فأبطلَ عقيدةَ اليهودِ والنَّصارى، وأثبتَ عقيدةَ إبراهيمَ عليه السلام، جاء هذا الاحتراسُ، لِيدفعَ توهُّمَ أنْ تكونَ الحنيفيَّةُ قائمةً على الشِّرْكِ، قال ابنُ عاشورٍ: "وهو احتراسٌ؛ لِئلَّا يَغْتَرَّ المُشركونَ بقوله: ﴿بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا﴾، أي: لا نكونُ هُودًا ولا نصارى، فيَتَوَهَّمُ المُشركونَ أنَّهُ لم يَبْقَ من الأَديانِ إلَّا ما هُم عليه، لأنَّهُم يَزعُمونَ أنَّهُم على مِلَّةِ إبراهيمَ، وإلَّا فليس ذلك من المَدْحِ له، بعد ما تقدَّمَ مِن فضائلِه"[4].

التَّعريضُ باليهود والنَّصارى وإبطال عقيدتهم

وأفادت تعريضًا باليهود والنَّصارى، وبطلانَ دَعواهم، في اتِّباع إبراهيمَ عليه السلام، لشِرْكِهم باللّه تعالى، وكفرِهم به؛ وذلك بقولهم: عزيرٌ ابنُ اللّه، والمسيحُ ابنُ اللّه[5]، فضلًا عمَّا فيه من

(1) السّيوطيّ، قطف الأزهار: 1/330.
(2) أبو حيَّان، البحر المحيط: 1/647.
(3) محمّد رشيد رضا، تفسير القرآن الحكيم: 1/395.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/736.
(5) الزَّمخشريّ، الكشَّاف: 1/194.

تكذيبهم، وردِّ مزاعمِهم بأنَّهم على الحقِّ، فالفاصلة عرَّضت بأنَّ اليهوديَّة والنصرانيَّة المُحرَّفتَين نوعٌ من الشِّرك؛ لأنَّ مجيءَ قولِه تعالى: ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ في مُقابِلِ دَعوتِهم إلى اليهوديَّة والنَّصرانيَّة، يَدُلُّ على أنَّهما نوعٌ من الشِّرْك[1].

التّأكيدُ المعنويُّ لمعنى الحنيفيَّة

ومِنْ بلاغة الفاصلة: أنَّ قولَه تعالى: ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾، جاء تأكيدًا لقوله تعالى: ﴿بل مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا﴾؛ لأنَّ (الحنيفَ): المائلُ عمَّا سوى التَّوحيد، فسيِّدُنا إبراهيمُ عليه السلام، ما كان أبدًا من المُشركين؛ لأنَّ (كان): تَدُلُّ على اتّصافِ اسمِها بخَبرِها، فقولُه تعالى: ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾، يعني أنَّ هذا الوصفَ مُنْتَفٍ عنه؛ وقولُه تعالى: ﴿مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ يَعُمُّ انتفاءَ الشِّركِ الأصغرِ والأكبرِ عنه، فهذه هي المِلَّةُ الّتي يتَّبعُها النَّبيُّ محمَّدٌ، ﷺ، ويتَّبعُها المسلمون، وهي المِلَّةُ الحَنيفيَّةُ الحقيقيَّةُ الّتي تُوصِلُ العبدَ إلى ربِّه[2].

بلاغةُ الطِّباقِ الخفيِّ:

الجمع بين المتضادّات يُبرزُ الحقَّ ويُوضِّحُه

من بديعِ نسيجِ الآيةِ الكريمةِ: الطِّباقُ الخفيُّ[3] بينَ قولِه تعالى: ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾، وقولِه تعالى: ﴿كُونُواْ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ﴾، فلمَّا ثَبَتَ بالإضراب بـ (بل)، ومفهومِ المُخالفة وغيرِها من الأدلة العقليّة والنَّقليّة، أنَّ اليهوديَّةَ والنَّصرانيَّةَ شِرْكٌ، كان في مجيءِ الفاصلةِ القرآنيَّة ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ طباقٌ خفيٌّ؛ لأنَّه جَمَعَ بين الشَّيءِ وما يَتعلَّقُ بضدِّه، فقد جمع بين التَّوحيد المُتمثِّل بالحنيفيَّةِ وعدمِ الشِّرك في قوله: ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾، وما يتعلَّقُ بضدِّه، وهم اليهود والنَّصارى، وما هم عليه قبلَها في قوله: ﴿كُونُواْ هُودًا

(1) الرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 4/71.

(2) ابن عثيمين، تفسير القرآن الكريم- سورة البقرة: 2/84.

(3) هو ما تكونُ فيه المطابَقةُ خفيَّةً؛ لتَعلُّقِ أحدِ الرُّكنَين، بما يقابِلُ الآخرَ تَعلّقَ السَّببيّةِ، نحو قوله تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: 29]؛ فالرَّحمةُ ليستْ مُقابِلةً للشِّدَّة؛ لكنّها مُسبَّبَةٌ عن اللِّين، الّذي هو ضِدُّ الشِّدّة، ينظر: محمّد قاسم، ومحيي الدّين ديب، علوم البلاغة البديع والبيان والمعاني، ص: 68.

أَوۡ نَصَٰرَىٰ﴾، فهم أهل الشِّرك والضَّلال، وبهذا قابلت الآيةُ بين أهل الشِّرك وأهلِ التَّوحيد، وبين الباطلِ والحقِّ.

دلالةُ إفرادِ فعل القول وجمعه:

بناءُ إيمانِ الأمَّةِ على إيمانِ نبيِّها؛ لتُرفع قواعدُ المتابعةِ على بصيرةٍ

لسائلٍ أن يسألَ عن سرِّ إفرادِ فعلِ القول في خطابِ النَّبيِّ ﷺ في الآية السّابقة في قوله: ﴿قُلۡ بَلۡ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِـۧمَ حَنِيفٗاۖ﴾، في حينَ جاء به بصيغة الجمعِ في قولِه: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾؟

والجواب: أنَّ إفرادَ الضَّميرِ في الكلام المُوجَّه إلى النَّبيِّ ﷺ؛ مزيدُ اختصاصٍ بمُباشَرة الرَّدِّ على اليهود والنَّصارى؛ لأنَّه مبعوثٌ لإرشادِهم وزجرِهم، وجَمَعَ الضَّميرَ في الكلام الّذي للأمَّة؛ لمزيدِ الاختصاص بمَضمونِ المأمورِ به، في سِياق التَّعليم في قوله: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾، فضلًا عن أنَّ صيغةَ الجَمعِ في الفعل (قُولُوٓاْ) تَشمَلُ النَّبيَّ ﷺ والمسلمين؛ لأنَّه ﷺ قَدْ عَلِمَ ذلك مِنْ قبلُ، فيما تضمَّنَتْهُ علومُ الرِّسالة، ولذلك لَم يَخْلُ واحدٌ مِنْ هاتِهِ الكَلمات، عن الإيذانِ بشُمولِ الأُمَّةِ مع النَّبيِّ[1].

ولبناءِ الخطابِ الثَّاني (الجمع) على الأوَّلِ (الإفراد)، فإنَّ الإيمانَ بملَّة إبراهيم عليه السلام واتِّباعَها، هو أصلُ الإيمان بما أُنزل من عند الله جميعِه.

دَلالة فعل الأمر ﴿قُولُوٓاْ﴾ خطابًا للمُؤمنين:

تتميمُ البيانِ في أمرِ الإيمانِ بملَّة إبراهيم عليه السلام

مِنْ بلاغةِ الآيةِ الكريمة: الإنشاءُ الطَّلبيُّ بفعل الأمر ﴿قُولُوٓاْ﴾ في قوله تعالى: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا﴾، والأمرُ بالقول أمرٌ بما يَتَضَمَّنُه، إذ لا اعْتدادَ بالقول إلّا لأنَّه يُطابقُ الاعتقادَ، والمقصودُ من فعل الأمر ﴿قُولُوٓاْ﴾ الإعلانُ به، والدَّعوةُ إليه، لِمَا يَشتَمِلُ عليه من الفضيلة الظّاهرةِ، بحُصول فضيلةِ سائرِ الأديان لأهلِ الإسلام،

(1) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 4/72، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/738.

ولِمَا فيه من الإنصافِ وسلامةِ الطَّويَّةِ؛ لِيَرْغَبَ في ذلك الرَّاغبونَ، ويَكْمَدَ عند سماعه المُعانِدُونَ، وليكونَ فعلُ القولِ هذا احتراسًا بَعْدَ قَوْلِه: ﴿قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا﴾ أي: نحن لا نَطعَنُ في شريعةِ موسى وشريعةِ عيسى، وما أُوتيَ النَّبيّونَ، ولا نُكَذِّبُهم، ولكنَّا مُسلمونَ للَّهِ تعالى، بدينِ الإسلامِ الّذي بقيَ على أَساسِ مِلَّةِ إبراهيمَ عليه السلام، وكانَ تَفصيلًا لها، وكمالًا لِمُرادِ اللَّهِ تعالى منها، حينَ أَرادَ اللَّهُ تعالى إكمالَها، فكانت الشَّرائعُ الّتي جاءت بعدَ إبراهيمَ عليه السلام كَمُنْعَرِجَاتِ الطَّريقِ، سُلِكَ بالأُممِ فيها، لمصالحَ ناسبت أَحوالَهم وعُصُورَهُمْ، بعد إبراهيمَ[1] عليه السلام.

ترتيبُ الأنبياءِ زَمانيًّا ودلاليًّا على طريقة التَّدلّي:

ترتيبُ الأنبياءِ في الذِّكرِ مقصودٌ لذاتِه غيرُ مُتوقِّفٍ على التَّاريخِ

مِنْ بلاغةِ التَّرتيبِ في قوله تعالى: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ﴾: تقديمُ الأنبياءِ بعضِهم على بعضٍ على طريقة التَّدَلِّي[2]؛ بذكر الأقدمِ، ثمّ الّذي يَليه زمنيًّا، فقد ذكر أوّلًا: ما أُنزلَ على سيِّدِنا إبراهيم، لفَضْلِهِ وأُبُوَّتِه؛ للاهتمامِ وبيانِ شِدَّةِ العنايةِ به، على سَنَنِ العرب، في تقديم الأهمِّ حَسَبَ المَوقفِ؛ فهو أبو الأنبياء كلِّهم، وهو أصلُهم ورُكنهم، فضلًا عن دخول شرائعِ الأنبياءِ كلِّهم تحتَ شريعته[3] عليه السلام.

ثمَّ تقديم ابنِه إسماعيل، الابنِ البِكْرِ الأكبرِ على أخيه إسحاق، وقدَّمَ إسحاقَ على ابنه يعقوب، وقدَّمَ يعقوبَ على الأسباط، ثمَّ ذَكَرَ مَنْ جاء بعدَهم: موسى ثمَّ عِيسَى عليهما السلام جميعًا، وهذا التَّرتيبُ مَقصودٌ في هذا السِّياق بالإضافةِ إلى لِحاظِه الزَّمنيِّ، إذ جاء بتَرتيبِ الأنبياءِ حَسَبَ التَّرتيبِ الزَّمنيِّ، فضلًا أنَّ فيه دَلالةً على دُخول الأنبياءِ بعد سيِّدِنا إبراهيمَ، إذ هم داخلون في شَريعتِه.

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/738.
(2) التَّدليّ: هو أن يُذكرَ الأعلى، ثمّ الأدنى لنُكتةٍ، يُنظر: السّيوطيّ، الإتقان: 3/46.
(3) أبو حيَّان، البحر المحيط: 1/650، وباختصار.

سِرُّ التَّعبير بـ ﴿أُنزِلَ﴾ و﴿أُوتِيَ﴾:

الإشارةُ إلى مزيدِ عنايةٍ بهذه الكتبِ، للحذرِ عند الحديث عنها

مِنْ دقائق التَّعبيرِ القرآنيِّ في الآية الكريمة: التَّعبيرُ بالفعل: ﴿أُنزِلَ﴾، وبالفعل: ﴿أُوتِيَ﴾، فقد استُعمل: ﴿أُنزِلَ﴾ مع الأنبياء أوّلًا في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ﴾، ثمّ استُعملَ: ﴿أُوتِيَ﴾ مع موسى وعيسى عليهما السلام في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ﴾[1].

ومِنْ عِلَلِ التعَّبير بفعل الإيتاءِ مع موسى وعيسى، دون فعلِ الإنزال، الاهتمامُ بهما، فالفعل: ﴿أُوتِيَ﴾ أبلغُ وأَدَلُّ؛ لكونه المقصودَ منه، ولأنَّه أعمُّ وأوسعُ، فهو يُستعمَلُ للكتب وغيرها، مثل المعجزات، وفيه من الدَّلالة على الإعطاء الحِسِّيِّ الّذي فيه شِبْهُ التَّمليكِ والتَّفويضِ[2]، ولهذا المعنى الحِسِّيِّ عَبّرَ بالإيتاء؛ لأنَّ ظهورَ المعجزاتِ الفعليَّةِ على يد موسى وعيسى عليهما السلام أكثرُ وأشهرُ من ظهورها على يد إبراهيمَ ويعقوبَ وإسحاقَ، فموسى ضَرَبَ البحرَ، فانْفَلَقَ، وألقى العصا، فانقلبت ثُعبانًا، وأخرج يدَه، فصارت بيضاءَ من غير سُوءٍ، وغيرِها من الآيات، وعيسى كان يُبرئُ الأَكْمَهَ والأبرصَ، ويُحيي الموتى بإذن الله، فناسبَ لفظُ الإنْزالِ سَيِّدَنا إبراهيمَ عليه السلام وأولادَه؛ فإنَّ اشتهارَهم بإنزال الوحيِ أكثرُ من اشتهارهم بالمعجزات، فغيّرَ الأسلوبَ؛ تفضيلًا لِمَا لهما من الكتابَين والمعجزاتِ، وغيرِ ذلك[3].

وللإشارةِ إلى أنَّ أكثرَ الأتباعِ هم من أتباعِ موسى وعيسى عليهما السلام، فهي من باب تنبيه الأتباعِ على كتب المتبوعين، وأنَّ عليهم مزيدَ مسؤوليَّة في الإيمانِ برسولِ الله ﷺ، وهي إشارةٌ كذلك إلى هذه الأمَّة بأنَّ التَّوراةَ والإنجيلَ يجبُ الإيمانُ بهما على وجهٍ أخصّ؛ لما قد يصدر عن بعض المؤمنين من مشاحنةٍ مع اليهود والنَّصارى قد تمتدُّ إلى كتبِ القومِ فيقعُ المحذورُ، وأُجري ما بعده بذكر الإيتاءِ لا الإنزال على عموم النَّبيّين باعتبارِ أنَّ معظمهم من أنبياءِ بني إسرائيل.

(1) ابن مالك، شرح التَّسهيل: 3/362.
(2) الآلوسّي، روح المعاني: 1/392.
(3) ابن عرفة، تفسير الإمام ابن عرفة: 1/175.

دلالةُ تقديمِ القُرآنِ على سائرِ الكُتُبِ السَّماويَّة:

تقديمُ الأصلِ المُهيمِنِ الذي لا يُقبلُ الإيمانُ بِسواه ما لم يُؤمَنْ بِه

مِنْ بلاغة الآية الكريمة: تقديمُ الإيمانِ بالقرآن على باقي الكتب السّماويَّة، المُنزَّلةِ على الأنبياء عليهم السلام في قوله تعالى: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ﴾، فقدَّمَ القرآنَ، مع أنَّ إنزالَه مُتأخِّرٌ عن باقي الكتب السَّماويَّةِ، فهي أسبقُ منه، اهتمامًا بهذا الكتابِ العظيم، وتشريفًا له، ولاختصاصِه بالمسلمين، ولبيانِ أنَّه سببُ الإيمان بغيره من الكتب السّماويَّة؛ لكونه مُصدِّقًا لها، فيكون بذلك أولى بالذِّكر؛ ولأنَّ النَّاسَ بعدَ بعثة النَّبيِّ ﷺ مأمورون بالإيمان به جُملةً وتَفصيلًا[1].

ولبيانِ أنَّ الإيمانَ ببقيَّة الكتبِ قائمٌ على الإيمانِ بالقرآنِ الكريم، فكيف لمسلم أن يُؤمنَ بالكتبِ السَّابقةِ ما لم يُؤمنْ بالقرآن؟! ولأنَّ هذا الكتابَ هو النَّاسخُ للشَّرائع السَّابقة والمهيمنُ عليها، فتقديم الإيمان به من باب تقديم الأصلِ المهيمن على غيره.

الإجمالُ بعد التَّفصيل:

بيانُ وسطيَّة هذه الأمَّة وتطرّفِ غيرِها

في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ﴾ تفصيلٌ في ذكرِ الأنبياءِ، وفي قولِه: ﴿وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ﴾ إجمالٌ؛ فقد ذكرَ أوَّلًا على وجه الخصوص، أسماءَ عددٍ من الأنبياء، ثمّ ذكرَ لفظًا عامًّا مجملًا، يَشمَلُ كلَّ هؤلاءِ الأنبياء[2].

وفيه فوائدُ عِدَّةٌ، منها: العناية بذكر أسماءِ الأنبياء وتعيينِهم ﴿إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ﴾، إظهارًا لمَكانتهم الرَّفيعةِ عليهم السلام، واهتمامًا بهم، فقد ذُكروا مرَّتين، مرّةً على وجه الخصوص، ومرَّةً ثانيةً على وجه العموم في دخولِهم تحت اللَّفظِ العامِّ: ﴿ٱلنَّبِيُّونَ﴾.

(1) الآلوسي، روح المعاني: 1/392.

(2) أبو حيَّان، البحر المحيط: 1/649، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 1/166.

وفيه بيانُ فضيلة هذه الأمَّة بين الأمم في موقفِها من جميعِ الأنبياءِ؛ فاليهودُ آمنوا بالأنبياء، وكفروا بمحمَّدٍ وعيسى عليهما السلام، والنَّصارى آمنوا بالأنبياء، وكفروا بمحمَّد ﷺ[1]، وهذه الأمَّة آمنت بجميعِ الأنبياءِ ولم تكفر بأحدٍ، وهذا هو معنى وسطيَّتِها وتطرُّف غيرِها.

بلاغةُ جملةِ: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ﴾:

التَّعريضُ بمن يُفرِّق بين أنبياء الله تعالى

في قولِه تعالى: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ﴾، إيماءٌ وإشعارٌ بذمِّ من يُفرِّق بين أنبياء الله، وأنَّه واقعٌ في الإثم العريضِ، بخلافِ هذه الأمَّة، ومجيءُ لفظ ﴿أَحَدٍ﴾ أفاد التَّنكيرُ العمومَ والشُّمولَ، وقد نُزِّل المُفردُ مَنزلةَ الجمْعِ، في تناوله الآحادَ مُطابقةً؛ لأنَّ لفظ: ﴿أَحَدٍ﴾ في معنى الجَماعة؛ ولذلك صحَّ دخول: ﴿بَيْنَ﴾ عليه[2].

ولأنَّ النَّكرةَ الواقعةَ في سِياق النَّفي تُفيدُ العمومَ لفظًا، ولأنَّ: ﴿أَحَدٍ﴾ اسمٌ موضوعٌ لمَنْ يَصلُحُ أن يُخاطَب، ويستوي فيه المفردُ والمثنّى والمجموعُ والمذكَّرُ والمؤنَّث، إذا كانت همزتُه أصليَّةً، وعلى أنَّها مُبدَلةٌ من الواو، فهو بمعنى (واحد)، وعمومُه؛ لوقوعه في حيِّزِ النَّفي[3].

تشابه الأطراف في الفاصلة ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾:

التّأكيد على معنى الإيمان والاستسلام المطلق لله

جاءت الفاصلةُ: ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾، لِتُؤكِّدَ معنى الآيةِ، الّذي تضمَّن الدَّعوةَ إلى الإيمان بالله، والتَّسليم بكلِّ كتبِه ورسلِه، فقولُه تعالى: ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾، مندَرجٌ تحتَ قولِه تعالى أوّلَ الآية: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا﴾، على طريقة تَشابُه الأطراف، فلمَّا ذكرَ ما يتعلَّق بالقلب أوّلًا، وهو الإيمانُ، أي: التَّصديقُ، ناسَبَ أنْ

(1) ابن جرير، جامع البيان: 3/110.
(2) الزَّمخشريّ، الكشَّاف: 1/195، والآلوسّي، روح المعاني: 1/393.
(3) ابن المُنَيِّر، الانتصاف: 1/195.

يَختِمَ الآيةَ بذكر الإسلام، وهو الانقيادُ النَّاشئُ عن الإيمانِ الظَّاهر على الجوارح، فجَمَعَ بين الإيمانِ والإسلام، ليَجتمعَ الأَصلُ، والنَّاشِئُ عن الأَصل[1].

فالفاصلةُ بيَّنَتْ: أنَّ المُسلمَ لا بدَّ أن يكونَ مُستسلِمًا للّه بقلبه ولسانه وجوارحه، فيَستسلِمُ قلبُ المرءِ للّه تعالى محبَّةً وتعظيمًا وإجلالًا، ويَستسلِمُ لسانُه لِما أَمَرَه اللّهُ تعالى أنْ يقولَ، وتَستسلِمُ جوارحُه لِمَا أَمَرَه اللّهُ تعالى أنْ يفعلَ[2].

وجاءَت الفاصلةُ أسلوبًا خَبَريًّا مُؤكَّدًا باسميّة الجملة الدَّالّةِ على ثباتِ الوصفِ لهم ودوامِه: ﴿وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾، وتقديم ما حقُّه التَّأخيرُ، فقد قدَّم شِبهَ الجُملةِ ﴿لَهُۥ﴾ على عامله ﴿مُسۡلِمُونَ﴾، والأصلُ: ونحن مسلمون له، وهذا التَّقديمُ أفادَ: القصرَ بتخصيص الاستسلام المُطلَق للّه تعالى وحدَه، فضلًا على أنَّ فيه تحسينًا لفظيًّا للفاصلةِ والاهتمامَ بالمُقدَّم[3].

توجيه المُتشابه اللَّفظيّ:

الخطاب في الموضعين بين العموم والخصوص

تشابهت بدايةُ هذه الآية الكريمة: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ١٣٣﴾ مع آيةِ سورةِ آلِ عمرانَ، في قوله تعالى: ﴿قُلۡ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾ [آل عمران: 84].

فبين الآيتين تشابهٌ لفظيٌّ في ثلاثةِ مواضعَ[4]:

الأوّل: أنَّه جاء بفعل القول بصيغة الجمع، في سورة البقرة: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾، في حينَ جاء مُفردًا في سورة آل عمرانَ: ﴿قُلۡ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾، وسِرُّ ذلك: أنَّ آيةَ البقرةِ جاءت عامّةً، والفعلُ ﴿قُولُوٓاْ﴾ أمرٌ لجميع المُخاطَبين المقصودين بهذا الخطاب، أمَّا آيةُ آلِ

(1) أبو حيَّان، البحر المحيط: 652-1/651.
(2) ابن عثيمين، تفسير القرآن الكريم: 2/91.
(3) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 2/322.
(4) الإسكافيّ، درَّة التَّنزيل، ص: 298، والكرمانيّ، أسرار التّكرار، ص: 71، والغرناطيّ، ملاك التّأويل: 53-1/52، والبقاعيّ، نظم الدُّرر: 2/188، وبتصرُّف.

عمرانَ، فأفردَ الفعلَ ﴿قُلْ﴾؛ لأنَّه أمرٌ للنَّبيِّ ﷺ، فلَحِقَ ضميرُ الجَمعِ أوّلًا لخطابهم، ولم يَلحَقْ في الثّاني؛ لإفراد الخطابِ، وضميرُ الواحد لا يبرزُ.

الثّاني: أنَّه عُدِّيَ الفعل أنزل بـ (إلى) في البقرة ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ﴾، في حينَ عُدِّيَ الفعل بـ (على) في آل عمرانَ ﴿وَمَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ﴾، وبيانُه: أنَّ آيةَ البقرة عُدِّيَ الفعلُ ﴿أُنزِلَ﴾ بـ (إلى)، لَمّا قيلَ قبلَه: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾، وهو أمرٌ للنَّبيِّ ﷺ ومَنِ اتَّبَعَهُ على التَّشريك، وإذا كان الأمرُ للجميع، وجرى على حقيقته، فإنّما أُنزِلَ إليهم، لأنّ المُنزَلَ عليه حقيقةً هو الرَّسولُ، لا المؤمنونَ، ولمّا قال في آل عمران: ﴿قُلْ﴾، وكان الخطاب للنّبيِّ، ناسَبَهُ تَعْدِيَةُ الفعلِ بعلى (عَلَيْنَا)؛ لأنَّه أنزِلَ عليه، فجاء كلٌّ على ما يَجِبُ.

الثّالثُ: أنَّه كرَّرَ الفعلَ: ﴿أُوتِيَ﴾ في البقرة ﴿وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ﴾، في حينِ لم يَذكرْه واكتفى بالعطف في آل عمرانَ ﴿وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ﴾ [آل عمران: 84]، وعلَّةُ ذلك: أنَّه كرَّرَ الفعلَ ﴿أُوتِيَ﴾ في البقرة؛ لأنَّ الأمرَ في البقرة، لـمَّا كان للرُّسل وللمؤمنين، ناسبَه تأكيدُ ذِكرِ الإنزالِ على النَّبيِّين؛ لأنَّ المؤمنين لا يُفرِّقونَ بينَ أحدٍ منهم، وقد فرَّق غيرُهم، فناسَبَ حالَهم، وسَجَّلَ إيمانَهم بالجميع، تأكيدُ مقالِهم وتَثبيتُ اعتقادِهم، فقالوا: ﴿وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ﴾، أمَّا في آل عمرانَ: فلمَّا توجَّه الأمرُ ببادئ الخطابِ من قوله: ﴿قُلْ﴾ خاصًّا به، وبعدَ ذلك وقعَ التَّعميمُ، ناسَبَه عدمُ التّأكيد؛ لتَنزُّه النَّبيِّ ﷺ حالًا ومَقامًا، عن التَّفريق بين أحدٍ من الرُّسلِ.

دَلالةُ اقترانِ الشّرط بالفاء، في قوله: ﴿فَإِنۡ ءَامَنُواْ بِمِثۡلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ﴾:

في التَّعبير بأسلوبِ الشَّرطِ المُقترِنِ بالفاء ﴿فَإِنۡ ءَامَنُواْ﴾: تَبْكيتٌ لأهل الكتاب من اليهود والنَّصارى، بإلجائهم إلى الاعترافِ بالحقِّ، بإرخاءِ العَنانِ وسَدِّ طُرُقِ المَجادلةِ عليهم؛ لأنَّ دينَ الحَقِّ واحدٌ، لا مِثْلَ لهُ، وهُوَ دينُ الإسلامِ، ﴿وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ﴾ [آل عمران: 85][1].

إقامةُ الحجَّةِ على أهلِ الكتاب، بإبطالِ مذهبهم

وفيه: تقريعٌ لهم بإبطالِ دينِهم، القائمِ على الشِّرك والضَّلال،

(1) الزَّمخشريّ، الكشَّاف: 1/195.

وإثبات أنَّ الدِّينَ الحقَّ واحدٌ، وهو الإسلامُ، وما سواه باطلٌ وضلالٌ؛ لأنَّ الفاءَ في أوَّل الآية هي لتَرتيب ما بعدَها على ما قبلَها، وبوجودِها في أوّل الآية، أقيمَتِ الحجَّةُ عليهم، لإعراضهم عن الإسلام، وقد دلَّ مفهومُ الشَّرط المُقترن بها، على أنَّهم غيرُ مؤمنين، ولا على الهَدي المستقيم، ما داموا على غير مِلَّة الإسلام[1].

سرُّ التَّعبيرِ بأداةِ (إنْ) دون (إذا):

الإشارةُ إلى غيبِ المستقبلِ

استعملَ النَّظمُ القرآنيُّ (فَإِنْ) دون (إذا) في قوله تعالى: ﴿فَإِنْ ءَامَنُواْ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَواْ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ الدَّالّة على الشَّكِّ في تحقُّقِ الوقوع، وفائدةُ ذلك بيانُ أنَّ إيمانَهم غيرُ مَرجُوٍّ، ومَشكوكٌ في حُصوله ووُقوعِه منهم[2]، ففيه إشعارٌ بموقفهم المستقبليِّ، وأنَّهم ما بين مؤمنٍ ومتولٍ.

سِرُّ تقديمِ شرطِ الإيمانِ على شرطِ التَّولِّي:

القيمةُ الهدائيَّةُ نـبراسُ النَّظـمِ وأصلُ الكلامِ

قدَّم في قوله تعالى: ﴿فَإِنْ ءَامَنُواْ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَواْ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ شرطَ الإيمان ﴿فَإِنْ ءَامَنُواْ﴾ على شرطِ التَّولِّي ﴿وَّإِن تَوَلَّوْاْ﴾ لنكتةٍ بيانيَّةٍ قائمةٍ على قيمةٍ هدائيَّةٍ، وهي أنَّه وإن كان أولئك لا يُتوقَّعُ منهم الإيمانُ إلَّا القليل، فإنَّ من شأنِ هذا القليل أن يُحرَصَ عليه؛ فالآيةُ تُعلِّمُ المؤمنين الاستبشارَ بإيمانِ الآخرين، مَهما عادَوْا ومَهْما عاندوا، فإنَّ الإيمانَ متوقَّعٌ وإن كان المقابلُ معاندًا؛ فالآيةُ تحثُّ المؤمنين على الحرصِ على هدايةِ الآخرين والاجتهاد في ذلك، ورجاء الخير لهم.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/740.
(2) الزَّمخشريّ، الكشَّاف: 1/195، وبتصرُّف.

سِرُّ القصرِ بإنَّما في قولِه: ﴿فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ﴾:

الإشارةُ إلى الشِّقاقِ الواقعِ، والإخبارُ عن شقاقٍ أشدّ

جاء أسلوبُ القَصْرِ الإضافيِّ بـ (إنَّمَا)، الواقعِ في جوابِ الشَّرطِ المُقترنِ بالفاء، في قوله تعالى: ﴿وَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ﴾، إذ قَصَرَتْ هذه الجملةُ أهلَ الكتابِ على الشِّقاقِ والخِلافِ والعَداوةِ في غيرِ الحقِّ - إنْ هم تولوا -، مُبالِغةً في وصفهم بالشِّقاقِ، وبيانِ شدَّة مخالفتِهم وعداوتهم للمسلمينَ، فالقصرُ بإنَّما يُؤتى به عند معرفةِ المخاطَبِ بمضمونِ الخطاب، وهذا يزيد من معنى التَّأكيد فيها، ففيه بيانُ أنَّهم في شقاقٍ قبل التَّولية، وأنَّهم بعد التَّوليةِ في شقاقٍ أشدّ.

وأكَّدَ الجُملةَ الواقعةَ شَرطًا بإنَّ، وتأكَّدَ معنى الخبرِ ﴿فِي شِقَاقٍ﴾ الذي أفادَ قوَّةَ التَّمكّنِ والإحاطةِ؛ إذ جَعَلَهَ مُستوليًا عليهم، استيلاءَ الظَّرفِ على ما يُوضَعُ فيه، بحيث صار ظَرفًا لهم وهم مَظْروفونَ له؛ كأنَّ الشِّقاقَ مُستَولٍ عليهم من جميعِ جوانبِهم، ومحيطٌ بهم، إحاطةَ البيت بمَن فيه، بأسلوبٍ بليغٍ[1].

بلاغة الفاءِ في قوله: ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ﴾ ودلالاتها البيانيَّة:

حاجةُ المؤمنِ للإعانةِ الإلهيَّة من تمامِ التَّوكُّلِ

من بديعِ نسيجِ الآية الكريمة: التَّفريعُ بقوله تعالى: ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ﴾؛ إذ فرَّعَ هذه الجُملةَ على ما سبقَها وهي: ﴿وَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ﴾، لتَسلية النَّبيِّ ﷺ وتَثبيته، وتَفريح المؤمنين بوعد النُّصرةِ والغَلَبَةِ، وضمانِ التّأييد لهم[2]؛ لأَنَّ إعلامَهُ بأَنَّ هؤلاءِ في شقاقٍ، مع ما هو معروفٌ مِنْ كَثرتِهم، وقُوَّةِ أَنصارِهم، ممَّا قد يَتَحرَّجُ له السَّامعُ، فوعدَه اللّه بأَنَّه يَكفيهِ شَرَّهم الحاصلَ من تَولِّيهم[3]، فأفادتِ الفاءُ سرعةَ وقوعِ الكفايةِ، وأفادت وقوعَ الشِّقاقِ، وأنَّه ليس

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 1/653.
(2) الآلوسّي، روح المعاني: 1/394.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/741.

بأمرٍ متوقّعٍ، بل هو أمرٌ واقعٌ، ونستطيع حملَ الفاءِ على أن تكون فصيحة، بمعنى: إن وقع منهم شقاقٌ فسيكفيكهم اللّه، وعلى الاحتمالين فإنَّ الكفايةَ متحقِّقةٌ، والطَّمأنينةَ ثابتةٌ، وفيها بيانُ حاجةِ قلبِ المؤمنِ إلى التَّسلية والتَّثبيت بالإعانةِ الإلهيَّة، وأنَّ ذلك لا يقدحُ في التَّوكُّلِ على اللّه؛ لأنَّه إذا كان وحدَه تعالى هو الكافي والحافظُ، فيَجِبُ أنْ يكونَ التوكّلُ والاعتمادُ عليه وحدَه[1].

إيثارُ التَّعبير بـ (السِّين) دون (سوف) في ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ﴾:

اقترانُ الفاءِ التَّعقيبيَّةِ بالسِّين يدلُّ على قربِ الكفايةِ وسرعتِها

وممَّا أكَّد معنى التّسليةِ والتَّثبيتِ إيثارُ التَّعبيرِ بـ (السِّين)، دون (سوف) بعد فاء التَّفريع فقال: ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ﴾، وهذا مُشعِرٌ بتعقُّب الكفاية عقيبَ شقاقِهم مباشرةً دون مُهلةٍ، والمجيءُ بالسِّين يَدُلُّ على قُرب وقوع الكفايةِ لا مَحالةَ؛ وتحقيقِ وعد اللّه تعالى، بأنَّه يَكفي النَّبيَّ ﷺ ومَنْ معه سُوءَ شِقاقِهم وشرَّه؛ لأنَّها أقربُ في التَّنفيس مِنْ (سوف)[2].

بلاغةُ الفاصلةِ القرآنيَّة: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾:

الجمعُ بين وعيدِ الكافرين، ووعدِ النَّبيِّ ﷺ بالنُّصرةِ

جاءت الفاصلةُ القرآنيّةُ: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ تَذييلًا مُقرِّرًا لِمَا سَبَقَ من الوعد في قوله تعالى: ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ﴾ ومُؤكِّدًا له، فاللّه تعالى لـمَّا وَعَدَ نبيَّه بالنُّصرةِ والمعُونةِ، أَتْبَعَهُ بما يَدُلُّ على أَنَّ ما يُسِرُّونَ وما يُعلنونَ من هذا الأَمرِ، لا يخفى عليهِ تعالى فقال: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾[3]؛ فالتَّذييلُ يَتَضمَّنُ أمرَين:

الأوّل: أنَّه وعيدٌ للكفَّار، بأنَّه سبحانه سميعٌ بما يَنطِقون به من الأذى والـمَكائد والغِلِّ، عليمٌ بما يُضمِرونه في قلوبهم، ممَّا لا خيرَ فيه، وهو معاقبُهم عليه، فلا يَقَعُ منهم أَمرٌ؛ إلَّا وهو تعالى قادرٌ على كِفايتِه.

(1) ابن عثيمين، تفسير القرآن الكريم: 2/95.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 1/654.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 1/168، والآلوسّي، روح المعاني: 1/395.

والآخر: أنَّه وعدٌ للنّبيِّ ﷺ، والمعنى: أنَّه تعالى السَّميعُ لما تَدعو به، العَليمُ بما في نِيَّتِك من إظهارِ الإسلام، فيَستجيبُ لكَ، ويُوصلُكَ إلى مُرادكَ، وبهذا اشْتمَلَتِ الفاصلةُ على الوعدِ والوعيدِ[1].

اشتمالُ الاسمين جميعَ الأقوال والأفعال الظَّاهرة والباطنة

لمّا كان كيدُهم وغِلُّهم وشقاقُهم لا يخلو من الأقوالِ والأفعالِ، ناسَبَ أنْ يأتيَ في التَّذْييل باسمَين كريمَين من أسمائه تعالى وهما: ﴿ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾، فهما يَقتضيان سَمْعَ الأقوالِ، وعِلْمَ الأفعالِ.

بلاغةُ القصرِ في بيانِ كمالِ الوصفين لله تعالى

مِنْ بلاغةِ التَّراكيبِ في فاصلة الآيةِ الكريمة: أسلوبُ القصرِ، المُستفادُ مِن ضميرِ الفصلِ: (هو)، وتعريفُ جُزْأَيِ الجملةِ: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾: وهو قصرٌ إضافيٌّ، يُفيدُ المُبالغةَ في كمال الوَصفَين له تعالى، بتَنزيل سَمعِ غيرِه وعلمِه منزلةَ العدم، فهو تعالى المُختَصُّ بالعِلْم الكاملِ، والسَّمع الكاملِ، فجاء بالصِّفتَين مُعرَّفتَين؛ للدَّلالةِ على الكمالِ في الوصفِ، وجاءَ بضميرِ الفَصلِ للدَّلالة على قَصْرِ هاتَين الصِّفتَين عليه سبحانَه، وبيانِ أنَّ ما عداه لا يَعلمُ ولا يَسمعُ إذا ما قِيسَ بعِلمِه وسَمعِه سبحانه، ولو جاءَ بهما نَكِرَتَينِ لم يُفيدا هذا المعنى؛ إذْ كلُّ مَنْ عندَه سَمْعٌ وعِلْمٌ يَصِحُّ أنْ يُوصَفَ بأنّه سَميعٌ عليمٌ[2].

ويُمكِنُ حَمْلُهُ على القَصْرِ الحقيقيِّ، باعتبار مُتَعلِّقٍ خاصٍّ، أي: السَّميعُ لأذاهم بالقَولِ، العَليمُ بضمائرِهم، فاطْمَئِنَّ بأنَّ اللّٰه تعالى كافيكَ ما تَتَوجَّسُ مِنْ شَرِّهم وأذاهم، بكَثْرتهم ومَكْرِهم وغيرِ ذلك، وبهذا يكونُ القصرُ حقيقيًّا مُقيَّدًا مُغايرًا للقصرِ الإضافيِّ[3].

تقديمُ السَّميع على العليم باعتبارِه أوقع في النَّفسِ المُذنبة

وقدَّمَ صفةَ: ﴿ٱلسَّمِيعُ﴾ على صفة: ﴿ٱلۡعَلِيمُ﴾، فقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾، وجاءَ هذا التَّقديمُ مُناسبًا لمَضمونِ الآيةِ الكريمةِ،

(1) الزَّمخشريّ، الكشَّاف: 1/196، والرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 4/74.
(2) السَّامرائّي، التَّعبير القرآنّي، ص: 194.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/742.

وسياقِها العامِّ؛ فلمَّا كانتِ الفاصلةُ وعيدًا يَتضمَّنُ التَّخويفَ والتَّهديدَ، بدأ بالسَّمعِ؛ لِأنَّه أوقعُ في بابِ التَّخويفِ مِنْ ذِكرِ العَليم؛ فهو أولى بالتَّقديمِ، ويُمكنُ أنْ يُقالَ: بأنَّه قدَّمَ السَّمْعَ؛ لأنَّه مِنْ وسائلِ العِلْمِ فهوَ يَسْبِقُهُ، فإذا كان اللّهُ تعالى سَميعًا لأقوالِهم، عَليمًا بأخبارِهم، فَسَيكفي نَبيَّهُ شرَّهم ومَكائدَهم[1]، وهؤلاء لـمَّا كانوا مذنبين كان إخبارُهم بسمعِ اللّه لأقوالِهم أوقعَ في نفوسِهم من مجرَّدِ إخبارِهم بالعلمِ.

علَّةُ اختيارِ لفظِ: ﴿صِبْغَةَ﴾ دون غيرِه من الألفاظِ:

التَّعريضُ بالنَّصارى فيما يفخرون به على المسلمين

جاء قولُه تعالى: ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ﴾ رَدًّا على دَعوةٍ باطلةٍ لأهلِ الكتابِ؛ بأنَّ المسلمينَ ليس لديهم صِبْغَةٌ تُطَهِّرُهم، وهي عندَهم الاغتسالُ بماءٍ خاصٍّ يُطهِّرُهم من الذُّنوب والمعاصي، وهو المُسمَّى عندَهم بالمَعْموديَّةِ، وكانوا يَغمِسون فيه أطفالَهم في اليومِ السَّابعِ مِنْ ميلادِهم، ويقُولونَ: هذا طَهُورٌ مكانَ الخِتانِ، فإذا فَعلوا ذلك قالوا: الآن صارَ نَصْرانيًّا حَقًّا، ويَغتسِلُ به الكبيرُ عندَهم أيضًا إذا كان عاصيًا، فأَنْزَلَ اللّهُ تعالى هذه الآيةَ رَدًّا عليهم، وأَصْلُ الصِّبغةِ ما يُلَوَّنُ بِهِ الثِّيابُ وما شابَه، والصِّبْغَةُ في الآيةِ: دِينُ اللّهِ وفِطرتُه، والمعنى: صَبَغَنا اللّهُ بفطرتِه الّتي فطر النَّاسَ عليها[2].

وسُمِّيَ دينُ اللّهِ وفطرتُه بالصِّبْغَةِ: على طريقةِ المُشاكلة التَّقديريَّة، بتَسْمية الشَّيءِ باسم غيرِه؛ لوقوع ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ﴾ في الآية رَدًّا على أهلِ الكتابِ، الّذين كانوا يَدَّعونَ أنَّ لديهم فقط صبغةً تُطهِّرُهم، فجاءت هذه المُشاكلةُ لِتَرُدَّ عليهم، وتُبيِّنَ أنَّ الصِّبْغةَ الحقيقيَّةَ هي بتَطهيرِه تعالى للمسلمينَ بالإيمانِ الحقِّ، لا ما هم عليه من الباطل الصُّوريِّ[3].

(1) ابن القيِّم الجَوزيّة، بدائع الفوائد: 1/64.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 3/117-118، والواحديّ، أسباب النُّزول، ص: 41.
(3) الزَّمخشريّ، الكشَّاف: 1/196.

الاستعارة التَّصريحيَّة في قوله تعالى: (صِبۡغَةَ ٱللَّهِ):

بيانُ نزعةِ التَّميُّزِ على الآخرين، وأثرُه في التَّطرُّفِ الدِّينيِّ

في التَّعبيرِ بالصِّبغةِ في الآيةِ الكريمةِ: ﴿صِبۡغَةَ ٱللَّهِ وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبۡغَةٗۖ﴾: استعارةٌ تَصريحيَّةٌ، علاقتُها المُشابهةُ، وهي مشابهةٌ خفيَّةٌ حَسَّنَها قصدُ المُشاكلةِ، بإطلاقِ الصِّبغةِ على ماء المَعموديَّةِ، أَو على الاغْتسالِ به، وهي اسْتعارةٌ مَبنيَّةٌ على تَشبيهٍ، وَجْهُهُ تَخْييليٌّ، إذ تَخيَّلوا أَنَّ التَّعْميدَ يُكسِبُ المُعَمَّدَ به صفةَ النَّصرانيَّةِ، ويُلوِّنُهُ بلَونها كما يُلوِّنُ الصِّبغُ ثَوبًا مَصبوغًا، وقريبٌ منهُ إطلاقُ الصِّبغِ على عادةِ القَومِ وَخُلُقِهم[1]، وهذه نزعةٌ عند النَّصارى تدلُّ على الغرور الدِّينيِّ بطلب التَّميُّز على الآخرين، وهو ما يُؤدِّي إلى التَّطرُّفِ في التَّعامل مع المخالفِ، ومعصيةِ اللّه في إرادتِه في جعلِ النَّاس جميعًا سواسيةً.

غرضُ الاستفهامِ في قوله: ﴿وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبۡغَةٗ﴾:

بيان أفضليّة الإسلام والإنكار على أهل الكتاب

جاءَ الاستفهامُ في الآية الكريمة: ﴿وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبۡغَةٗ﴾ إنكاريًّا مُتَضَمِّنًا معنى النَّفي، فهو إنكارٌ على أهل الكتابِ الزَّاعمين بأنَّ صِبْغتَهم أحسنُ صِبْغَةً، والنَّفيُ بالنَّظرِ إلى الواقعِ بأنّه لا أحد أحسن من اللّه تعالى صِبْغَةً، وهذا ما قرَّرَه حذفُ جوابِ الاستفهامِ: (لا أحدٌ)، أمَّا التَّوبيخُ فهو على ما ذَهبوا إليه مِن اعتقادِهم الباطلِ الزَّائفِ، القائمِ على العبادةِ الصُّوريَّةِ الشَّكْليَّة[2].

وبهذا الاستفهامِ كان التَّعبيرُ أقوى دلالةً مِنَ النَّفي المُجرَّد؛ "لأنَّ النَّفيَ بالاستفهامِ فيه معنى: أنَّ المُخاطَبَ سُبِقَ إلى النَّفي، فكأنَّ النَّفيَ من القائلِ، والإقرارَ به من جهة المخاطَب"[3]، وقد حقَّقَتْ بلاغتُه في هذه الآيةِ نفيَ أنْ تكونَ ثمَّةَ صِبْغَةٌ أحسنَ مِنْ صِبْغَةِ اللّه

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/743.
(2) البيضاويّ، أنوار التَّنزيل: 1/109، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 1/168.
(3) أبو زهرة، المعجزة الكبرى، ص: 212.

تعالى، وأنْ يكونَ دينٌ أفضلَ من دينِ اللّهِ تعالى، أو يُفْهَمَ منه بمَعونة مَقامِ المَدحِ نفيُ مُساواةِ دينٍ لدين اللّه تعالى في الحُسن، وأفضليَّةُ دِينِ اللّه واضحةٌ في هذا المَقام، مِنْ إضافةِ اسمِ الصِّبغةِ إلى اللّه، إضافةَ تَشريفٍ وتعظيم، لإدخالِ الرَّوعةِ والمَهابة على مَنْ يَتَنَكَّرُ لأمرِ هذا الدِّينِ، أو يُعرِضُ عنهُ[1].

بلاغة صيغة التَّفضيل ﴿أَحْسَنُ﴾:

دعوةُ المؤمنِ إلى الامتثالِ للحُسْنِ المطلوب في صبغةِ الله

صيغةُ (أفعل) الورادةُ في الاستفهام لا يُرادُ بها حقيقةُ التَّفضيلِ؛ إذ صِبغةُ غيرِ اللّه تعالى مُنْتَفٍ عنها الحُسْنُ، أو يُرادُ بها التَّفْضيلُ، باعتبارِ مَن يَظُنُّ أنَّ في صِبغةِ غيرِ اللّه حُسنًا، وأنَّ التَّفضيلَ إنَّما يَجري بين الصِّبْغتَينِ، لا بين الصَّابِغِينَ[2].

وصيغةُ (أفعل) فيها فائدتان: أولاهما: التَّفتيشُ النَّفسيُّ عن أَثَرِ الصِّبْغَةِ الحقيقيَّةِ أو الصُّوريّةِ، وما تُخفيهِ صدورُهم، بحيث يكونُ الشَّخصُ دائمَ التَّفتيشِ عن أَثَرِ دينِه فيه؛ لأنَّ اللّه تعالى يُريدُ أنْ يُقِرَّ الإنسانُ بهذا على نفسِه، و(أَفْعَلُ) التَّفضيلِ في قولِه تعالى: "أَحْسَنُ" على بابِه، فصِبغَةُ اللّه أَحْسَنُ مِنْ أيِّ صِبْغَةٍ، أو نقولُ: إنَّه للحُسْنِ المُطلَقِ الّذي لا يَقْتَرِبُ مِنْ مكانتِه حُسْنٌ مهما يكنْ، فَضلًا عن أنْ يساويَه؛ فيكونُ أَفْعَلُ التَّفْضيلِ على غيرِ بابِه، والفائدةُ الثّانيةُ: بيانُ خطأِ مَنْ يَظُنُّ أنَّ في صِبْغَةِ غيرِ اللّهِ حُسنًا.

دلالة الفاصلة: ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ﴾ على القَصر:

بيانُ أنَّ الصِّبغةَ الحقَّةَ لعبادِ اللّه الموحِّدين، والتَّعريض بغيرِهم

أفادتِ الفاصِلةُ: ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ﴾ الرَّدَّ على أهل الكتاب بالقَصْرِ، بطريقَين:

الأوّل: تقديمُ ما حقُّه التَّأخيرُ، فقد قَدَّمَ شِبْهَ الجُملة من الجَارِّ والمجرور: ﴿لَهُۥ﴾، على عامله: ﴿عَٰبِدُونَ﴾، والأصلُ: (ونحن عابدون

(1) أبو السُّعود، ارشاد العقل السّليم: 1/168.

(2) أبو حيَّان، البحر المحيط: 1/656.

له)، فأفادَ تَخصيصَ العبادةِ للّه تعالى وحدَه، وقَصْرَها عليه دونَ غيرِه، وتحسينَ الفاصلةِ، والاهتمامَ بالمُقدَّم[1].

الآخر: اسميَّةُ الجُملةِ، فقد أفادَتِ القصرَ أيضًا؛ لدَلالة الجُملةِ الاسميَّةِ على ثَباتِ الوَصْفِ ودوامِه لهم، والمُتَمثِّلُ بالعبادةِ الخالصةِ للّه تعالى، وفي هذا: تعريضٌ بأهلِ الكتابِ الّذين اصْطَبغوا بالمَعْمودِيَّةِ، وأشركوا باللّه تعالى، ورَدٌّ عليهم بأنَّهم بعيدونَ عن العبادةِ الصَّحيحةِ، الّتي تَتَطلَّبُ منهم توحيدَ اللّه تعالى وحدَه[2].

الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الدِّين وَالمِلَّة:

الدِّين ما يَذهَبُ إليه الإنْسَانُ، وَيعتقِدُ أنَّه يُقَرِّبُه إلى الله تعالى، وهو أعمُّ، والمِلَّة خاصَّةٌ، وهي السُّنَّةُ والطَّرِيقَةُ

المِلَّةُ: السُّنَّةُ والطَّرِيقَةُ، وأصبَحَتْ اسمًا لِمَا شَرَعَ اللّهُ تعالى لعبادِهِ، على لسان الأنبياء، مِنْ حيثُ إنَّ الأنبياءَ يَعلمُونها ويَسْلُكُونها، ويوجّهون أتباعهم إلى سلوكها[3]، وَبِهَذَا الاِعْتِبَار لَا تُضَاف إِلَّا إِلَى النَّبِيِّ الّذي تَسْتَنِدُ إليه، من ذلك: مِلَّةُ إبراهيمَ، وَلَا تكَادُ تُوجدُ مُضَافَةً إِلَى اللّه تَعَالَى، وَلَا إِلَى آحَادِ أُمَّةِ النَّبِيِّ، وَلَا تُسْتَعْمَلُ إِلَّا في جُملَة الشَّرَائِع دونَ آحادِها، فلا يُقَالُ: مِلَّةُ اللّه، ولا مِلَّتي، وَلَا مِلَّةُ زيد، كَمَا يُقَال: دِينُ اللّه، وديني، وَدينُ زيد[4]؛ لأنَّها تُقالُ اعتبارًا بمَنْ يُؤَدِّي الشَّرعَ عن اللّه تعالى، في حينِ تجدُ الدِّينَ يُقالُ اعتبارًا بمَنْ يُقيمُه ويَعمَلُ به[5]؛ لأنَّه مأخوذٌ من الجَزاءِ، يُقالُ: كما تَدينُ تُدانُ[6].

أمَّا الدِّين، بِالكَسْرِ، في اللُّغَة: فَهوَ العَادةُ مُطلقًا، وَهُوَ أوْسَعُ مَجالًا، يُطْلَقُ على الحَقِّ وَالبَاطِل أيضًا، والدِّينُ: ما يَذهَبُ إليه الإنْسَانُ وَيعتقِدُ أنَّه يُقَرِّبُه إلى اللّه، وإنْ لَمْ يكُنْ

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 2/195.
(2) الألوسّي، روح المعاني: 1/395.
(3) ابن منظور، لسان العرب: (ملل).
(4) الكَفَويُّ، الكُلّيّات، ص: 524.
(5) الراغب، المفردات: (ملل).
(6) الزَّجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 1/47.

فِيهِ شَرَائِعُ، مِثل دِينِ أَهْل الشِّرْك، وكلُّ مِلَّةٍ دِينٌ، وَلَيس كُلُّ دِينٍ مِلَّةً، واليَهُودِيّةُ مِلَّةٌ؛ لأَنَّ فِيهَا شَرَائِعَ، وَلَيْس الشِّرْكُ مِلَّةً، وإذَا أُطْلِقَ الدِّينُ فَهوَ الطَّاعَة العَامَّة الّتي يُجَازَى عَليهَا بالثَّوَاب[1].

والـمِلَّةُ: اسمٌ لِجُمْلةِ الشَّريعَة، فقد تُطلَقُ على أصول الشَّريعةِ، وهو ما يَعتقدُه المرءُ من الإيمانِ باللّه وملائكتِه ورُسلِه[2]، وقد تَسْري الـمِلَّةُ إلى الضِّدِّ، فتُقالُ في العقيدةِ الفاسدةِ على سبيل الـمُقابلَةِ، ومِنْ ذلك قولُه تعالى: ﴿أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ [الأعراف: 88].

والدِّينُ: اسْمٌ لِمَا علَيْه كُلُّ وَاحِدٍ مِن أَهْلِها، ألا تَرَى أنَّه يُقَالُ: فُلانٌ حَسَنُ الدِّينِ، وَلا يُقَالُ: حَسَنُ الـمِلَّةِ، وإنَّمَا يُقَالُ: هُوَ مِن أَهْلِ الـمِلَّةِ، وَيُقَالُ لِخِلافِ الذِّمّيّ: الـمِلِّيُّ؛ نُسِبَ إلى جُمْلَة الشَّريعَة، فَلا يُقَالُ لَه: دِينيٌّ، والدِّينُ إذا أطلِقَ فهو الطّاعةُ العامّةُ الّتي يُجازى عليها بالثّوابِ[3].

أمّا إذا قُيِّد: فتَختلِفُ دَلالتُه، لكنَّها تَبقى تَمُتُّ الى الجَزاءِ بصِلَةٍ، قَالَ الشَّريفُ الجُرْجَانيُّ: "الدِّين والـمِلَّة: مُتَّحِداتٌ بالذَّات، وَمُخْتَلفَانِ بِالاعْتِبَار؛ فإنَّ الشَّريعَة مِن حَيْث إنَّهَا تُطَاعُ تُسَمَّى: دِينًا، وَمِن حَيْثُ إنَّها تُجمَعُ تُسَمَّى: مِلَّةً، ومِن حَيْثُ إنَّها يُرجَعُ إليها تُسَمَّى: مَذْهبًا، وَقِيلَ: الفَرقُ بين الدِّينِ والـمِلَّةِ والـمَذْهبِ: إنَّ الدِّينَ مَنْسوبٌ إلى اللّه تَعَالى، وَالـمِلَّةَ مَنْسوبةٌ إلى الرَّسولِ، والـمَذْهَبَ مَنْسوبٌ إلى الـمُجْتَهِدِ"[4].

ويَشمَلُ الدِّينُ أُصُولَ الشَّرَائِع وفروعَها؛ لأَنَّهُ عِبَارَة عَن وَضْعٍ إلهِيٍّ سَائِقٍ لِذَوي العُقُول، بِاخْتِيَارِهِم الـمَحْمُودِ إِلَى الخَيْرِ بِالذَّاتِ، قَلْبِيًّا كَانَ أَو قالَبيًّا، كالاعْتِقاد وَالعِلم وَالصَّلَاة، وَقَد يُتَجَوَّزُ فِيهِ، فَيُطْلَقُ عَلى الأُصُولِ خَاصَّةً، فَيكونُ بِمَعْنى الـمِلَّةِ، وَعَلَيهِ قَوْله تَعَالَى: ﴿دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ﴾ [الأنعام: 161] [5].

وممّا سَبَقَ يَتبيَّنُ: أنّ إيثارَ لفظِ (مِلَّة)؛ دَلَّ على الطَّريقةِ والسُّنَّةِ الّتي يَتَّبعُها مَنْ أُضيفَتْ إليه، وهو أبو الأنبياءِ إبراهيمُ، عليه السلام، وفي ذلكَ: دَعوةٌ إلى التَّأمُّلِ والتَّفكُّرِ والتَّعلّمِ لسِيرته

(1) العَسْكَريُّ، الفُرُوق اللُّغَويّة: 177.
(2) القَنَّوجيّ، أبجد العلوم: 2/338 - 339.
(3) العَسْكَريُّ، الفُرُوق اللُّغَويّة، ص: 509.
(4) الشَّريفُ الجُرْجَانيُّ، التَّعريفات، ص: 105-106.
(5) الكَفَويُّ، الكُلّيّات ص: 524، وبتصرُّف.

وطَريقته، وما كان عليه مِنْ شريعة الإسلام، ولفظ (المِلَّة) أقربُ إلى هَدف إيرادها، وهو: الدَّلالةُ على أصول الشَّرائع الصَّحيحة؛ حيثُ إنّها تَجْمَعُ أعمدةَ الرَّسائلِ السَّماويَّةِ، الّتي يُرْجعُ إليها، ولا سيَّما عند الاختلافِ والادِّعاء، كما زعمَ اليهودُ والنَّصارى.

أَنزَل ونَزَّل:

الإنـزالُ أعـمُّ من التَّنْزيل

ثمة فرق بين نَزَّلَ وأَنْزَلَ مفاده أن نَزَّلَ يفيد التكثير [1]، وخُصَّ لفظُ ﴿أُنزِلَ﴾ بالاستعمال دونَ ﴿نَزَّلَ﴾ في قوله تعالى: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا﴾؛ لِمَا رُوِيَ: أنّ القرآنَ نَزَلَ دَفْعةً واحدةً إلى سماءِ الدُّنيا، ثمّ نَزَلَ نَجْمًا فَنَجْمًا، فَضلًا عن أنَّ لفظَ الإنْزالِ أعمُّ من التَّنْزيل[2].

(الله) و(الإله):

اللّه: لا يُطلَقُ إلّا عليه سبحانه، والإله: قد يُطلَقُ على غيره، ويُؤكِّدُ ذلك ابنُ مالكٍ بقوله: "اللّه خاصٌّ له تعالى، جاهليّةً وإسلامًا، و(الإله) ليس كذلك؛ لأنَّه اسمٌ لكلِّ مَعبودٍ"[3].

و(إله): اسمُ جنسٍ، يُطلَقُ على اللّه، كما يُطلَقُ على غيره، ولذا أَطلَقَهُ المشركونَ على أصنامِهم.

و(اللّه): لم يُستعمَلْ قطُّ مُنكَّرًا، و(إله): يُستعمَلُ مُنَكَّرًا مَقطوعًا عن الإضافةِ حينًا، ومُضافًا حينًا آخرَ.

و(اللّه): يُطلَقُ حقيقةً عليه تعالى، و(إله): يُطلَقُ على غيرِه، حكايةً أو مجازًا أو حقيقةً[4].

الـرَّسـول مَـن أرسله الله تعالى بـرسـالـةٍ وشـرعٍ جـديـد، والـنَّـبـيُّ المُنَبِّئُ عـن الله تـعـالى بـوحـي، ليدعوَ إلى عبادة الـلـه عـلى أحـد شرائع الرُّسل

النَّبيّ والرَّسول:

الرَّسُول: أَصْلُه مِن الرِّسْل، وَهُوَ الانْبِعَاث عَلى التُّؤَدَةِ، وإبلٌ مَرَاسِيلُ: مُنْبَعِثَةٌ انبعَاثًا سَهْلًا، وَمِنْه: الرَّسُولُ المُنْبَعِثُ، وسُمِّيَ الرَّسولُ رَسُولًا؛ لأَنَّه ذُو رَسُولٍ، أَي: ذُو رِسالةٍ، والرَّسولُ: اسْمٌ مِنْ

(1) الخليل، العَين، وابن سِيدَه، المُحكم: (نزل).
(2) الراغب، المُفردات: (نزل).
(3) ابن مالك، شرح الكافية: 1/145.
(4) نصر سعيد، الدّلالة في اسم الجلالة، من خلال سورة المجادلة: 13.

أَرْسَلْتُ، وَكَذَلِكَ الرِّسَالة[1]، والرَّسُولُ: الّذي يُتابِعُ أَخبارَ الّذي بَعَثَهُ، أَخْذًا مِنْ قَوْلِهِمْ: جَاءَتِ الإبلُ رَسَلًا، أَي: مُتَتَابِعَةً، والإِرْسَالُ: التَّوْجِيهُ، يُسلَكُ فيه التَّوقُّرُ والتَّفَهُّمُ وَالتَّرَفُّقُ، مِنْ غَيْرِ أَن يَرْفَعَ صَوْتَهُ شَدِيدًا[2].

وإذا أُطلِقَ لفظُ الرَّسُولِ أُريدَ به: "إِنْسانٌ بَعَثَهُ اللّهُ إلى الخَلْقِ، لِتَبْلِيغِ الأَحْكَامِ"[3]، في حين أنَّ النَّبيَّ هُوَ: "مَنْ أوحِي إليه بِمَلَكٍ، أو أُلهِمَ في قَلْبِه، أوْ نُبِّهَ بالرُّؤيا الصَّالِحَةِ، فَالرَّسُولُ أفْضَلُ بالوَحي الخَاصِّ، الّذي فَوقَ وَحيِ النُّبُوَّةِ؛ لأنَّ الرَّسولَ هُو مَن أَوحى إليه جِبْرَائيلُ خَاصّةً، بِتَنْزِيلِ الكِتابِ مِن اللّه"[4]، والرِّسالةُ: تُضافُ إلى اللّه؛ لأنَّه المُرْسِلُ بِهَا، ولهذا قال تعالى: ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي﴾ [الأعراف: 144]، ولَمْ يَقُلْ: بِنُبُوَّتي.

الرَّسولُ أعمُّ من النَّبيِّ، فكلُّ رسولٍ نبيٌّ، وليس كلُّ نبيٍّ رسولًا

أمَّا النَّبيُّ: فَهوَ المُخْبِر عَنِ اللّهِ ﷻ، فَتُرِكَ هَمزُه، وَقِيلَ: النَّبيُّ مُشْتَقٌّ مِنَ النَّبَاوةِ، وَهِيَ الشَّيءُ المُرْتَفِعُ: أَي: إِنَّهُ أَشْرَفُ عَلَى سَائِرِ الخَلْقِ، فَأَصلُه غَيْرُ الهَمْزِ[5].

والإِنْبَاءُ عَن الشَّيءِ قَدْ يَكُونُ مِنْ غَيْرِ تَحْمِيلِ النَّبأ، والإِرْسالُ لَا يَكُونُ بِتَحْمِيلٍ، والنُّبُوَّةُ: يَغْلِبُ عليها الإِضَافَةُ إلى النَّبيِّ، فَيُقَالُ: نُبُوَّةُ النَّبيِّ؛ لأنَّه يَستحِقُّ منها الصِّفةَ الّتي هي على طريقةِ الفاعِلِ[6]، والنُّبُوَّةُ: سِفَارَةٌ بينَ اللّهِ وبينَ ذَوي العُقولِ من عبادِه، لإزاحةِ عِلَلِهم في أمر مَعادِهم ومَعاشِهم، والنَّبِيُّ: لكَونِه مُنبِّئًا بما تَسكُنُ إليه العقولُ الذَّكيَّةُ، وهو يَصِحُّ أنْ يكونَ فَعِيلًا، بمعنى فاعِل، لقوله تعالى: ﴿نَبِّئۡ عِبَادِيٓ﴾ [الحجر: 49][7].

(1) الراغب، المفردات: (رسل).
(2) الأَزْهريُّ، تهذيبُ اللُّغة، وابن مَنْظور، لسانُ العَرب: (رسل).
(3) الجُرْجَانيُّ، التَّعريفات، ص: 110.
(4) الجُرْجَانيُّ، التَّعريفات، ص: 239.
(5) ابن مَنْظور، لسانُ العَرب: (نبأ).
(6) العَسْكَريُّ، الفُرُوق اللُّغَويّة: 1/162.
(7) الراغب، المفردات: (نبأ).

﴿ قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِي ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ ﴿١٣٩﴾ أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ ۗ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٠﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤١﴾ ﴾ [البقرة: 139-141]

❁ مُنَاسَبَةُ الآيَاتِ لِمَا قَبْلَهَا:

محاججة أهل الكتاب، وإبطال مزاعمهم وبيان كذبهم بالدَّليل

جَاءَت الآياتُ الكريماتُ مناسِبةً لِمَا سَبَقَها؛ فهي تَسيرُ في الموضوعِ نفسِه، وهو: محاججةُ أهلِ الكتابِ من اليهود والنَّصارى، وإبطالُ مذهبِهم؛ حيث جاءتِ الآياتُ اسْتِئنافًا عمَّا سَبَقَها، لإبطالِ مَزاعم أهلِ الكتابِ من اليهودِ والنَّصارى، وبيانِ كَذِبهم وتوبيخِهم عليه، قال البِقاعيُّ: "لـمّا أَمَرَ تعالى بقوله: ﴿قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا ۖ﴾ [البقرة: 135]، وما بعدَه، بإعلامِ الخَصْمِ بالـمُخالفة، وأنْ لا مُوافقةَ إلّا بتَرْكِ الهَوى، واتِّباعِ الهُدى؛ أَمَرَ هنا: بمُجادلتِهم بما يُوْهِي أقوالَهم، ويزيحُ شُبهَهم، فقال مُعرِضًا بالخطابِ عن الجَمْعِ، مُوجِّهًا له إلى رسوله، ﷺ، رَفْعًا لـمَقامِه، وتَعريفًا بعَلِيِّ مَنْصِبِه، إعلامًا بأنَّه لا يَنهَضُ بذلك غيرُه، لِمَا لهم من العلم معَ ما عندَهم من الجَدَلِ واللَّدَدِ: ﴿قُلْ﴾ مُنْكِرًا لـمُحاجَّتِهم، ومُوبِّخًا لهم عليها: ﴿أَتُحَآجُّونَنَا﴾، ولما كان الأنسبُ في الـمُقارعةِ إعلامَ الخَصم بالـمُخالفة؛ لأنَّه أقطعُ لطَمَعِه، وأَمْكَنُ لغَيظِه، مع أنَّه هنا أقربُ إلى رِضى الخالقِ، قُدِّمَ على الـمُجادَلةِ"[1].

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 2/194-195.

شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

1) ﴿أَتُحَآجُّونَنَا﴾: من (حَجَجَ)، حَجَّ علينا: قَدِمَ، وحَجَّهُ يَحُجُّهُ حَجًّا: قَصَدَه، والحَجُّ: كثرةُ القَصْدِ إلى مَن يُعَظَّمُ، و"الحُجَّةُ: الوَجْهُ الّذي يَكُونُ بِهِ الظَّفَرُ عِنْدَ الخُصُومَةِ، وَهُوَ رَجُلٌ مِحْجاجٌ، أَي: جَدِلٌ، والتَّحَاجُّ: التَّخاصُمُ، وَجَمْعُ الحُجَّةِ: حُجَجٌ وحِجاجٌ، وحاجَّه مُحاجَّةً وحِجاجًا: نَازَعَهُ الحُجَّةَ، وحَجَّه يَحُجُّه حَجًّا: غَلَبَهُ عَلَى حُجَّتِه"[1].

أمَّا المُحاجَّةُ فهي: أنْ يَطلُبَ كلُّ واحدٍ من المُحاجَّينِ رَدَّ صاحِبه عَن حُجَّتِه، أوْ مَحَجَّتِه[2]، ومعنى: ﴿أَتُحَآجُّونَنَا﴾: أتجادِلُوننا وتخاصِمُوننا؟

2) ﴿أَظْلَمُ﴾: مِنْ (ظَلَمَ)، والظُّلْمُ: وَضْعُ الشَّيْءِ في غير مَوْضِعِه تَعَدِّيًا[3]، ومِنَ المجاز: "ظَلَمَ الأرضَ: حَفَرَها في غيرِ مَوْضِعِ حَفْرِها، والبَعيرَ: نَحَرَهُ من غيرِ داءٍ، والوَادِيَ: بَلَغَ المَاءُ مَوْضِعًا لم يَكُنْ بَلَغَهُ قَبْلَهُ، والوَطْبَ: سَقَى منه اللَّبَنَ قَبْلَ أن يَرُوبَ"[4].

والظُّلمُ: وضعُ الشَّيْءِ في غيرِ مَوْضِعِه؛ وَالتَّصَرُّفُ في حَقِّ الآخَرِ؛ ومُجاوزَةُ حَدِّ الشَّارِعِ، والمصدَرُ الحَقِيقِيُّ لـ (ظَلَمَ) هُوَ: الظَّلْم (بِالفَتْح)، وَيُفهَمُ مِنْهُ أَنَّ الظُّلْمَ -بِالضَّمِّ- في الأَصْل: اسْمٌ مِنْهُ وَإِنْ شاعَ اسْتِعْمَالُه في مَوضِع المصدرِ[5].

والمعنى الّذي وردَ به لَفظُ ﴿أَظْلَمُ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ﴾ هو: مَنْ وَضَعَ الشَّيْءَ في غير مَوْضِعِه، وجاوزَ حَدَّ الشَّارِعِ.

3) ﴿كَتَمَ﴾: الكَافُ وَالتَّاءُ وَالمِيمُ أَصْلٌ صَحِيحٌ، يَدُلُّ عَلَى إِخْفاءٍ وَسَتْرٍ، مِنْ ذَلِكَ: كَتَمْتُ الحَدِيثَ، كَتْمًا وَكِتْمَانًا، كَتَمْتُه السِّرَّ كَتْمًا وكُتْمَانًا، وكَتَّمَه: بالغَ في كَتْمِه، وسِرٌّ وحَدِيثٌ مُكَتَّمٌ، واسْتَكْتَمْتُه أمري، وهو كَتَّامٌ وكَتَّامَةٌ للأسْرَار، وكَاتَمْتُه العَدَاوَةَ: سَاتَرْتُه، وفُلَانٌ لا يَكْتَتِمُ أيْ: لا يَكْتِم أمْرَه وسِرَّه[6]، والكِتْمانُ: نَقيضُ الإعلانِ.

ودَلالةُ ﴿كَتَمَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ﴾ تُشيرَ إلى

(1) ابن مَنْظور، لسانُ العَرب: (حجج).
(2) السَّمين، عمدة الحفّاظ: (حجج).
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (ظَلَمَ).
(4) الفَيْروزابادِيّ، القَاموس المُحيط: (الظُّلْمُ).
(5) الكَفَوِيُّ، الكُلِّيّات، ص: 595.
(6) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (كَتَمَ).

إخْفاءٍ وَسَتْرٍ، "وكلُّ ما في القُرْآنِ مِن التَّركيب، فَهُوَ بِمَعْنَى: حَبْس الكَلَامِ عَمَّا في القَلْب، مِن شَهَادَةٍ أَوْ عِلْمٍ أَوْ فِكْرٍ أو تَدْبيرٍ أَوْ عَقِيدَةٍ"[1].

4) ﴿شَهَٰدَةً﴾: من (شَهِدَ)، والشَّهَادَة: خبَرٌ قَاطِعٌ، تَقُولُ مِنْه: شَهِد الرَّجُل على كذا، وقولُهم: اشْهَدْ بِكَذَا، أي احْلِف، والمُشَاهَدَةُ: المُعاينةُ، وشَهِدَهُ شُهودًا، أي: حَضَرَه، فهو شاهِدٌ، وقومٌ شُهودٌ، أي: حُضورٌ[2].

وشَهِدَ له بكذا شَهادةً، أي: أدَّى مَا عِنْدَه مِن الشَّهَادَةِ، فَهُوَ شَاهِدٌ، وَالجَمْعُ شَهْدٌ، مِثْلُ: صاحِب وصَحْب، وَجَمْعُ الشَّهْدِ: شُهودٌ وأَشْهادٌ، والشَّهِيدُ: الشَّاهِدُ: الحَاضِر، وَالجَمْعُ الشُّهَداء[3]، وشَهِدَ الشَّاهِدُ عِنْدَ الحَاكِم، أَيْ: بَيَّنَ مَا يَعْلَمُهُ وأَظْهَرَه[4].

والشَّهَادَةُ: قولٌ صادرٌ عن علمٍ، حَصَلَ بمُشاهَدَةِ بَصيرةٍ أو بَصَرٍ، وقولُه تعالى: ﴿أَشَهِدُواْ خَلْقَهُمۡۚ سَتُكۡتَبُ شَهَٰدَتُهُمۡ﴾ [الزخرف: 19]، تَنْبيهًا أنّ الشّهادةَ تكونُ عن شُهُودٍ[5].

ومعنى الشَّهَادَةِ في قوله تعالى: ﴿كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ﴾ كتمانُهم شهادةً عندهم من الله بأن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوبَ والأسباطَ كانوا مسلمين، فكتموا ذلك، ونحلُوهم اليهوديةَ والنصرانية.

5) ﴿بِغَٰفِلٍ﴾: "الغَيْنُ وَالفاءُ وَاللَّامُ أَصْلٌ صَحِيحٌ، يَدُلُّ عَلَى تَرْكِ الشَّيْءِ سَهْوًا، وَرُبَّمَا كَانَ عَنْ عَمْدٍ"[6].

والتَّغافُلُ: التَّعَمُّدُ، والتَّغَفُّلُ: خَتْلٌ عَن غَفْلَةٍ[7]، و"الغَفْلَةُ: سَهْوٌ يَعْتَري الإنسانَ مِنْ قِلَّةِ التَّحفُّظِ والتَّيقّظِ، يُقالُ: غَفَلَ فهو غَافِلٌ"[8].

والمعنى في قوله تعالى: ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾، جاء لينفيَ كلَّ معاني الغَفْلَةِ،

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (كتم).
(2) الجَوْهَرِيُّ، الصّحاح: (الشَّهادة).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (شهد).
(4) الأزهري، تهذيب اللّغة: (شهد).
(5) الراغب، المفردات: (شهد).
(6) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (غَفَلَ).
(7) الأَزْهريُّ، تهذيبُ اللُّغة: (غَفَلَ).
(8) الراغب، المفردات: (غَفَلَ).

من السَّهْوِ وقِلَّةِ التَّحفّظِ والتَّيقّظِ عنه تعالى شأنُه، وليُثْبِتَ في الوَقْتِ نَفْسِه أنَّه سُبْحَانَه عَالِمٌ ... خَبيرٌ بما يَعْمَلُ الظَّالمونَ[1].

6) ﴿أُمَّةٌ﴾: من (أَمَمَ)، وأُمُّ الشَّيءِ: أصلُهُ، ومَكَّةُ: أُمُّ القُرى، والأُمَّةُ: الجماعةُ، هو في اللَّفظِ واحدٌ، وفي المعنى جمعٌ، وكلُّ جنس من الحيوان أُمَّةٌ[2].

قال الرَّاغبُ الأصْفهانيُّ "والأُمّةُ: كلُّ جماعةٍ يَجمعُهم أَمرٌ ما، إمّا دِينٌ واحدٌ، أو زمانٌ واحدٌ، أو مكانٌ واحدٌ، سواءٌ كان ذلكَ الأمرُ الجامِعُ تسخيرًا أو اختيارًا، وجمعُها: أُمَمٌ"[3]، وبهذه الدَّلالَةِ وَرَدَ لفظُ ﴿أُمَّةٌ﴾ في قَوْله تعالى: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ﴾.

7) ﴿خَلَتْ﴾: من (خَلا)، يُقالُ: خَلَا يَخْلُو خَلاءً، فهو خالٍ، والخَلاءُ من الأرض: قرارٌ خالٍ، لا شيءَ فيه، وخَلَّى مكانَه، أي: ماتَ، وخَلَّيْتُ عنه، أي: أرسَلْتُه، وخَلَا قَرْنٌ، أي: مضى، فهو خالٍ، والخَلِيَّةُ: النّاقَةُ خَلَتْ مِنْ وَلَدِها، ورَعَتْ وَلَدَ غيرِها، ويقالُ: هي الّتي ليس معها وَلَدٌ، والخِلاءُ في الإبل كالحِرَانِ في الدّابَّةِ، خَلَأَتِ النّاقَةُ خِلَاءً، أي: لم تَبْرَحْ مكانَها، تَعَسُّرًا منها[4].

وخَلَوْتُ إليه: إذا اجتمعْتَ معه في خَلْوَةٍ، وَأنا منكَ خَلَاءٌ، أي: بَراءٌ[5].

ويأتي (خَلَا) بمعنى: مضى، ومنه قوله تعالى: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ﴾، والقُرُونُ الخَالِيَةُ: هم المَوَاضِي، وخَلا شَبابُكَ: مضى، وهو من القرونِ الخالِيَةِ، وتقولُ: كان ذلك في القرون الأَوَالي، والأمَمِ الخَوَالي[6].

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

مُحاجَجة أهل الكتاب بالدَّليل العقليّ والنَّقلي

تأتي هذه الآياتُ الكريماتُ في سِياق مُحاججةِ أهلِ الكتابِ، ويَعتمِدُ أسلوبُ الخطابِ فيها على الحِجَاج بالدَّليل العقليِّ والنَّقليِّ والبرهانِ القاطعِ، فهي تُجادُلهم وتُسَفِّهُ أحلامَهم، وتُكذِّبُهم من خلال حِجاجِهم، وبيانِ بطلانِ عقائدِهم وفسادِها.

(1) الكَفَويُّ، الكُلّيّات، ص: 546.
(2) الجَوْهَرِيُّ، الصّحاح: (أمم).
(3) الراغب، المفردات: (أمم).
(4) الخليل، العَين: (خلو).
(5) الجَوهَريُّ، الصّحاح: (خلا).
(6) الأزهريُّ، تهذيب اللُّغة: (خلا).

فَقَدِ افْتُتِحَتْ بأمرٍ من الله تعالى لنبيِّه محمَّدٍ ﷺ أنْ يقولَ لأهلِ الكتابِ من اليهود والنَّصارى، الّذين يُجادِلون سَفَهًا بغيرِ حقٍّ، مُنكِرًا عليهم: أتُجادِلُونَنا يا أهلَ الكتابِ في أنَّكم أولى بالله ودِينِه مِنّا؛ لأنَّ دينَكم أقدمُ، وكتابَكم أَسْبَقُ، ومَنْ أين لكم هذه الدّعاوى الباطلةُ، بادّعاءِ الهدايةِ والقُربِ من الله دُونَنا؟ والله رَبُّنا جميعًا، لا ربُّكم فقط، ولكلٍّ منَّا أعمالُه الّتي سيُجازَى عليها، لنا أعمالُنا الّتي لا تُسألون عنها، ولكم أعمالُكم الّتي لا نُسألُ عنها، وكلٌّ سيُجْزى بعَمَلِه، فأنتم لستُم بأفضلَ منَّا، بلْ نحنُ أَوْلى بالله منكم؛ لأنَّنا مُخلِصونَ له في العبادة والطّاعةِ، ولا نُشرِكُ به شيئًا، وأنتم تُشرِكونَ.

بيان كذب أهل الكتاب وافترائهم على الأنبياء، وتوبيخهم عليه

ثم تأتي الآيةُ الّتي بعدَها؛ لتُبيِّنَ كَذِبَ أقوالِ أهلِ الكتاب بافترائِهم على الأنبياء، وَوَبَّخَتْهم عليه: أمْ تقولونَ يا أهل الكتاب: إنَّ إبراهيمَ والأنبياءَ المَذكورِينَ، كانوا على دِينِ اليهوديَّةِ، أو النَّصرانيَّة، مع أنَّ هاتَين الدِّيانتَينِ قد شُرِعَتا بعدَ المَذكورِين من الأنبياءِ، ثمَّ أَمَرَ اللهُ تعالى نبيَّه أَنْ يسألَهم: أَهُمْ أعلمُ بما كان عليه هؤلاءِ الأنبياءُ، أم اللهُ؟ وعُلِمَ بذلك: أنَّ ما يَقولُونَه كَذِبٌ على الله تعالى ورُسُلِه، وأنَّهم كَتَمُوا الحقَّ الّذي نَزَلَ عليهم، ولا أحدَ أشدُّ ظُلمًا مِنَ الّذي كَتَمَ شهادةً ثابتةً عندَه عَلِمَها من الله تعالى، كَفِعلِ أهلِ الكتابِ، وليس الله بغافلٍ عن أعمالِكم، وسيُجازيكم عليها.

بيان أنّه لا أحدٌ يُؤخذ بذنب أحدٍ، ولا ينتفع بعمل غيره

وأخيرًا يُسْدَلُ السِّتارُ عن هذا المُحاجَجَةِ ببيانِ أنَّ هؤلاء الأنبياءَ الّذين يُجادَلون أمَّةٌ قد مَضَتْ مِنْ قبلكم، وأَفْضَتْ إلى ما قَدَّمَتْ مِنْ عَمَلٍ، ولنْ ينفعَكم الانتسابُ إليهم، ولن يعودَ إليكم من صلاحِهم وعملِهم الصّالحِ شيءٌ، فلها ما كَسَبَتْ من الأعمالِ، ولكم ما كَسَبْتم، ولا تُسألون عن أعمالهم، ولا يُسألون عن أعمالكم، فلا يُؤخَذُ أحدٌ بذَنْبِ أحدٍ، ولا يَنتفِعُ بعَمَلِ غيرِه، بلْ كلٌّ سيُجازى على ما قَدَّمَ[1].

(1) ابن جرير، جامع البيان: 3/123-128، والرَّازيُّ، مفاتيح الغيب: 2/76-78، وابنُ كثير، تفسير القرآن العظيم: 1/452-453، والمختصر في التَّفسير، ص: 21.

الإيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

غرضُ الاستفهام في قوله: ﴿أَتُحَآجُّونَنَا فِي ٱللَّهِ﴾:

الإنكار على أهل الكتاب محاجَّتهم فيما يعلمون

لـمَّا كانت هذه الآياتُ في حِجاج أهلِ الكتابِ وإبطالِ مَذْهبِهم، ناسَبَها أن تُفتَتَحَ بالاستفهامِ في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِي ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾ [البقرة: 139]، والاستفهامُ إنكاريٌّ مَشُوبٌ بتَعجُّبٍ، إنكار الـمُحاجَجَةِ الصَّادرةِ من أهل الكتابِ للمسلمين في الله تعالى، واصطفائِه نبيَّ آخرِ الزَّمانِ محمَّدٍ، ﷺ من العرب[1]، والتَّعجيبُ من تلك الـمُحاججةِ مع عِلْمِهم بأنَّه الحَقُّ.

سِرُّ إيثارِ استعمالِ صيغةِ الفعل المضارع: ﴿أَتُحَآجُّونَنَا﴾:

واجبُ المسلِم الاستعدادُ الحجاجيُّ والفكريُّ في كلِّ عصرٍ

جاء التَّعبيرُ بالفعل المضارع: ﴿أَتُحَآجُّونَنَا﴾ في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِي ٱللَّهِ﴾؛ للدّلالةِ على استمرارِ مُحاجَجَةِ أهلِ الكتاب للمسلمينَ في نبيِّنا محمَّدٍ ﷺ ورسالتِه، وتَجدُّدِها كلَّ مَرَّةٍ مِنْ غيرِ انقطاعٍ منهم، مع بطلانها، ممَّا يزيدُ من تقبيح فعلِهم وتَشنيعِه.

فالفعلُ المضارعُ: ﴿أَتُحَآجُّونَنَا﴾ يَقتضي الـمُحاجَجَةَ، المرَّةَ بعدَ المرَّةِ؛ لأنَّ الفعلَ المضارعَ يَدُلُّ على التَّجدُّدِ والاستمرارِ، فهو فِعْلٌ دائِمٌ، وهذا ما يدعو إلى الاستنكارِ والتَّعجُّبِ من فعلِهم المستمرِّ بالجِدالِ بالباطلِ؛ فالآيةُ إخبارٌ عمَّا سيصدرُ عن أهل الكتابِ، ومقتضى الإخبارِ معرفةُ ما سيقعُ منهم، والاستعداد لذلك على المستوى العلمي والثقافي والفكري والحجاجيّ، بما يلزم في كلِّ عصرٍ بحسب أدواته، فالآية تزرع في عقل المسلم الوعيَ والفهمَ والاستعدادَ، وأنَّ ما يصدُر عن الآخرِ لا يصحُّ التَّهاونُ في شأنِه.

نكتةُ الإيجازِ بالحذفِ في قولِه: ﴿فِي ٱللَّهِ﴾:

حُذِف الـمُضافُ في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِي ٱللَّهِ﴾؛ وأُقيمَ

(1) الزَّمخشريّ، الكشَّاف: 1/197.

تصويرُ شَنَاعَةِ وقُبحِ ما وقعوا فيه من المُحَاجَجَةِ

المُضافُ إليه - وهو الاسم الكريم: (اللّه) - مَقامَه، أيْ: أتحاجُّونَنا في دِين اللّهِ، أو شريعةِ اللّه، أو شأن اللّه، ونكتةُ الحذفِ بيانُ شِدَّةِ جَهْلِ أهلِ الكتاب، فهم يُحاجُّون في ذات اللّه تعالى، لجَهلِهم وسَخافَةِ عقولِهم، وهو مكمنُ الإنكارِ عليهم، بقَصدِ المُبالغةَ[1]، وفائدتُه تظهرُ في تصوير شناعةِ وقُبحِ المحاججة التي وقعوا فيها!

ترشيحُ الإنكارِ بالأسلوبِ الخبريِّ: ﴿وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَآ أَعْمَٰلُنَا﴾:

إتباعُ الإنكارِ خبرًا حجاجيًّا يُثبِّتُ المعنى المُراد

لـمَّا كان جدالُ أهلِ الكتابِ للمسلمينَ ومُحاججتُهم مَحَطَّ إنكارٍ وتَعجيبٍ، جاء بعدَه الأسلوبُ الخَبريُّ في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ﴾؛ لتَأكيدِ معنى الإنكارِ وتصويرِ بشاعةِ المستنكرِ عليهم من أمرَين:

الأوّل: أنَّ اللّه تعالى أعلمُ بتَدبيرِ خَلْقِه، وبمَنْ يَصلُحُ للرِّسالة وبمَنْ لا يَصلُحُ لها، فلا تَعترضوا على حكمِ اللّه وأمرِه؛ فليسَ للعبد أَنْ يعترضَ ويحاجج فيما ليس له به علم، بلْ يجبُ عليه تفويضُ الأَمرِ بالكُلِّيَّة إليه تعالى.

الآخر: أَنَّهُ لا نِسبةَ لكم إلى اللّه تعالى إلَّا بالعُبوديَّة، وهذه النِّسبةُ مُشتَرَكةٌ بينَنا وبينَكم، فَلِمَ تُرَجِّحونَ أَنفسَكم علينا، بلِ التَّرجيحُ مِنْ جانبنا؛ لأَنَّا مُخلصون له في العُبوديَّةِ[2].

التَّرقّي في المُحاججة في قولِه: ﴿وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ﴾:

التأسيسُ بالانتسابِ، يجب معه الإثباتُ بالأعمال

مِنَ البلاغةِ في الآيةِ الكريمة: التَّرقّي من الأدنى إلى الأعلى في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ﴾؛ فقد جاءت جُملةُ ﴿وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾ حاليَّةً، أي: كيف تُحاجُّونَنا في هاتِهِ الحالةِ المَعروفةِ الّتي لا تَقبَلُ الشَّكَّ، وبهذه الجُملةِ حَصَلَ بيانُ

(1) السَّمين، الدُّرُّ المصون: 1/145.
(2) الرّازيُّ، مفاتيح الغيب: 4/76.

لموضُوعِ المُحاجَّةِ، ثمَّ ارْتقى في الإنكار عليهم، فقال: ﴿وَلَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡ﴾، فهذه الجملةُ عطفٌ على الحالِ، ارتقاءً في إبطال مُجادلتِهم، بعد بيان أَنَّ المَربُوبيَّةَ تُؤهِّلُ لإنعامِه كما أَهَّلَتْهُم، ارْتقى فجَعَلَ مَرْجُوّ رِضَى اللَّه تعالى على عباده أَعمالهم، فإذا كان قد أَكرمَكم لأَجل الأَعمالِ الصَّالحة فلعلَّه أَكرمَنا لأَجلِ صالحاتِ أَعمالِنا أيضًا، فتعالَوا فانظروا أَعمالَكم، وانظروا أَعمالَنا، تجدوا حالَنا أَقربَ إلى الصَّلاحِ منكم، وهذا التَّرقِّي أَضْفى على جدالهم قُبْحًا فوقَ قُبْحٍ[1].

قال البيضاويُّ: "كأَنَّه أَلْزمَهم على كلِّ مَذهبٍ يَنْتَحُونَه إفحامًا وتَبْكيتًا، فإنَّ كرامةَ النُّبُوءةِ إمَّا تَفَضُّلٌ من اللَّه على مَنْ يشاءُ، فالكُلُّ فيه سواءٌ، وإمَّا إفاضَةُ حَقٍّ على المُسْتَعِدِّينَ لها، بالمُواظبة على الطَّاعةِ، فكما أَنَّ لكم أَعمالًا، رُبَّما يعتبرُها اللَّه في إعطائِها، فلنا أَيضًا أعمالٌ"[2].

التَّقديم للقصر في قوله: ﴿وَلَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡ﴾:

مِنْ بلاغةِ قوله تعالى: ﴿وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمۡ وَلَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡ﴾: تقديمُ شِبْهِ الجُملةِ: ﴿وَلَنَآ﴾على المبتدأ: ﴿أَعۡمَٰلُنَا﴾، وتقديمُ شِبْهِ الجُملةِ: ﴿وَلَكُمۡ﴾ على المبتدأ: ﴿أَعۡمَٰلُكُمۡ﴾، وأفادَ هذا التَّقديمُ القصرَ، قصرَ أعمالِ كلِّ فريقٍ من الفريقَين عليه وتخصيصَها به، وفيه دَلالةٌ على "أنَّ العملَ هو أساسُ الأمرِ، وبه العِبرةُ، وكما أنَّ لكم أعمالًا، يَعتبرُها اللَّه في إعطاءِ الكرامةِ ومنعِها، فنحنُ كذلكَ"[3]، وفيه وجوبُ البَراءَةِ من أعمالِ الكفَّارِ وشِرْكِهم، إذ فصلتِ الآيةُ بين أعمالِ كلِّ فريقٍ، وأعطته حكمًا خاصًّا به.

الأعمالُ ثمارُ الاعتقادِ ودليلُ القبولِ، وَكُلُّ مُكَلَّفٍ مَقْرُونٌ بِعَمَلِهِ

دلالةُ عطفِ قوله: ﴿وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡ﴾:

جاءَ قولُه تعالى: ﴿وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡ﴾ معطوفًا على قولِه: ﴿وَلَنَآ أَعۡمَٰلُنَا﴾، احتراسًا يَدفَعُ تَوهُّمَ أنْ يكونَ المسلمونَ مُشاركينَ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/746.
(2) البيضاويّ، أنوار التَّنزيل: 1/109.
(3) الزَّمخشريّ، الكشَّاف: 1/197.

للمُخَاطَبين من أهل الكتابِ في أعمالهم، وهو نَظيرُ عَطْفِ قولِه تعالى: ﴿وَلِيَ دِينِ ۝٦﴾ عَلَى قَوْلِهِ: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ﴾ [الكافرون: 6][1].

دفع توهّم الاشتراكِ بين المسلمين وأهل الكتاب في الأعمال الصَّالحات

فدلَّ الاحتراسُ على أنَّ لكلِّ فريقٍ من المسلمينَ وأهلِ الكتابِ أعمالَه الخاصَّةَ بِه، فللمُسلمينَ أعمالُهم الصّالحةُ، ومنها: التَّوحيدُ، الّتي لا تَنْفعُكم ما دُمتُم على كُفركم، ولأهلِ الكتابِ أعمالُهم القبيحةُ، ومنها: الشِّرْكُ باللّه، التي لا تَضُرُّ المسلمينَ، بل وَبالُها على أصحابِها من المُشركينَ[2].

ومن فوائدِ العطفِ بيانُ المفاصلةِ بين الفريقين، فأعمالُ المؤمنين لا تتقاطع مع أعمالِ أهل الكتابِ في أيِّ شكلٍ، ما دام الاعتقادُ مختلفًا.

بلاغةُ الفاصلةِ: ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ﴾:

فائدةُ القصرِ بيانُ العبادةِ الحقَّةِ والتَّعريضُ بأهل الكتاب

جاءتِ الفاصلةُ القرآنيَّةُ: ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ﴾ للرَّدِّ على أهلِ الكتابِ والتَّعريض بهم بأسلوبِ القَصْرِ، بطريقَين:

الأوّل: تقديمُ ما حقُّه التّأخيرُ، فقد قَدَّمَ شِبه الجُملةِ من الجَارِّ والمجرور: ﴿لَهُۥ﴾ على عامله: ﴿مُخْلِصُونَ﴾، والأصلُ: ونحنُ مُخلصونَ له مُوَحِّدونَ، نَخُصُّه بالإيمانِ والطَّاعةِ دونَكم، فأفادَ تَخصيصَ الإخلاصِ للّه تعالى وحدَه، وقصرَه عليه دونَ غيرِه، وفي التَّقديمِ أيضًا: مُراعاةٌ للفَواصل، والاهتمامُ بالمُقَدَّم[3].

الآخر: اسميَّةُ الجُملةِ، فقد أفادَت القَصْرَ أيضًا، لدَلالةِ الجُملةِ الاسميَّةِ على ثَباتِ الوَصْفِ ودوامِه لهم، والمُتَمثِّلُ بالإخلاصِ للّه تعالى في العباداتِ والمُعاملاتِ، وفي هذا: تَعريضٌ بأهلِ الكتابِ الّذين أشركوا باللّه تعالى، وَرَدٌّ عليهم بأنَّهم بعيدونَ عن العبادةِ الصَّحيحةِ، الّتي تَتَطلَّبُ منهم توحيدَ اللّه تعالى وحدَه، وإخلاصَ النِّيَّةِ لَهُ.

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/746.
(2) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 4/74.
(3) البيضاويّ، أنوار التَّنزيل: 1/109.

جمالُ الاتِّساقِ في فواصِلِ الآياتِ:

الفاصِلةُ مظهرٌ من مظاهر إعجازِ القرآنِ، وقوّةِ اتِّساقِه

مِنْ مقاصدِ الخطابِ القرآنيِّ وجَماليّاتِه: أنْ تُخْتَمَ الآيةُ بفاصلةٍ تُناسِبُ معناها، لتَقريرِ هذا المعنى وتأكيدِه في أذهان السَّامعينَ، عن طريقِ التَّعبيرِ بالتَّذْييلِ، وهو نوعٌ مِن أنواعِ الإطنابِ البلاغيِّ، وهوَ ما كان في فواصِلِ عَدَدٍ مِن الآياتِ السّابقاتِ، الّتي تَشابَهَتْ في التَّركيبِ، مع اختلافِ بعضِ ألفاظِها.

فقد جاءتْ الفواصلُ: ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾، و﴿وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ﴾، و﴿وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ﴾، مناسِبَةً لسِياقها الّذي وَرَدَتْ فيه.

فقولُه تعالى: ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ مناسِبٌ لـ(آمنا)، أيْ: نؤمِنُ باللّه، وبما أُنزِلَ على الأنبياء، عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ، ونَسْتَسْلِمُ له، ونَنْقادُ لأوامره ونواهيه، وقولُه تعالى: ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ﴾ مُلائمٌ لقوله تعالى: ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ﴾؛ لأنّها بمعنى: دِينِ اللّه، فالمَصدرُ كالفَذْلَكَةِ لما سَبَقَ، وقولُه تعالى: ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ﴾ مُوافِقٌ لِمَا قبلَها[1].

وإنَّ تَكرارَ هذا النَّمَطِ مِنَ الفواصِلِ، مُتشابِهَةِ التَّركيبِ، مُتنوِّعةِ الألفاظِ، في مُواجهةِ أهلِ الكتابِ وجدالِهم، القائمِ على الباطلِ وتزييفِ الحقائقِ: جاء "لإفحامِهم، وإغلاقِ البابِ في وجوهِهم مِنْ هذه النّاحيةِ؛ إذ تَبيّنَ أنّ أصولَ هذه المِلَّةِ أَمْنَعُ مِنْ أنْ تَقْبَلَ الجِدالَ في شيءٍ منها"[2]؛ لأنّ في هذه التّراكيبِ المُتشابهةِ، دَلالةً على اعتناءِ السُّورةِ بما تَتَضَمَّنُه هذه الفواصلُ المُؤكِّدةُ لمَضمونِ الآياتِ، ولسِياقِها العامِّ.

الإسلام والعبادة والإخلاص أصول القبولِ وعليها مدارُ الأمرِ

وفي هذه الفواصلِ تَكْثيفٌ لحقيقةٍ عُظمى، عالَجَها القرآنُ الكريمُ في أغلبِ سُوَرِه، وتأكيد على ركيزةٍ مُهمَّةٍ في بناءِ المُجتمعِ

(1) الألوسّي، روح المعاني: 1/396.
(2) درّاز، النّبأ العظيم، ص: 229.

الإسلاميِّ، فهيَ - وإنِ اختَلَفَتْ ألفاظُها: ﴿مُسْلِمُونَ﴾، ﴿عَٰبِدُونَ﴾، ﴿مُخْلِصُونَ﴾، إلّا أنَّ مَضمونَها واحدٌ، وتُقرِّرُ حقيقةً واحدةً ثابتةً، وهي: وَحْدَةُ دِينِ اللّهِ تعالى، واطِّرادُه على أيدي رُسِلِهِ جميعًا، ونَفْيُ فِكرةِ احتكارِه في أيدي أمَّةٍ أو جِنْسٍ، وبيانُ أنَّ العقيدةَ تُراثُ القلبِ المؤمنِ، لا تراثُ العَصَبيَّةِ العَمياءِ، وأنَّ وِراثةَ هذا التُّراثِ لا تَقومُ على قَرابةِ الدَّمِ والجِنْسِ، ولكنْ على قَرابةِ الإيمانِ، فمَنْ آمنَ بهذه العقيدةِ، ورَعاها في أيِّ جيلٍ، ومِنْ أيِّ قَبيلٍ؛ فهوَ أحقُّ بها مِنْ أبناءِ الصُّلْبِ، وأَقرباءِ العَصَبِ.

توجيهُ القراءاتِ القرآنيَّة:

الإنكارُ على مدَّعي يهوديَّة إبراهيم بالخطاب المباشرِ وبالوساطةِ

قرأَ ابنُ عامرٍ وحمزةُ والكِسَائيُّ وحفصٌ عن عاصمٍ ورويس عن يعقوب وخلف العاشر بالتَّاءِ: ﴿أَمْ تَقُولُونَ﴾، بصِيغةِ المُخاطَبِ، وقَرَأَ الباقونَ؛ بالياءِ: ﴿أَمْ يَقُولُونَ﴾ بصيغةِ الغائبِ[1].

فعلى قراءةِ الخطابِ: ﴿أَمْ تَقُولُونَ﴾ تكونُ متَّسِقَةً مع ما قبلها: ﴿أَتُحَآجُّونَنَا﴾، وما بعدَها: ﴿قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ﴾، فأتى بالفعلِ على الخطابِ، عَطفًا باللَّفظِ على معنى الخطابِ في سِياقِ الآياتِ ﴿أَتُحَآجُّونَنَا﴾، ﴿أَمْ تَقُولُونَ﴾، ﴿قُلْ ءَأَنتُمْ﴾[2].

وعلى هذه القراءةِ: تكونُ ﴿أَمْ﴾ مُتَّصلَةً، مُعادِلةً للهمزةِ في قوله: ﴿أَتُحَآجُّونَنَا﴾، أي: أَتُحَاجُّونَنا في اللّه، أم تقولون: إنّ هؤلاءِ الأنبياءَ على دينِكم، فالاستفهامُ عن وقوعِ أحدِ هذَين الأمرَين: المُحاجَّةِ في اللّه تعالى، والادِّعاءِ على إبراهيمَ عليه السلام، ومَنْ ذُكِرَ معه، أنَّهم كانوا يهودًا أو نصارى؛ أيْ: أيُّ الأمرَين وقع منكم؟![3].

وعلى قراءةِ الغائبِ: ﴿أَمْ يَقُولُونَ﴾، يكونُ الكلامُ الْتفاتًا مِنَ الخطابِ إلى الغيبة، والضَّميرُ لناسٍ مَخصوصِين، وعلى هذه القراءةِ: تكونُ ﴿أَمْ﴾ مُنقطعةً، تُقَدَّرُ بـ (بل) و(الهمزة) الدَّالَّةِ على الإنكار والتَّوبيخِ، أيْ: بل أيقولون إنّ هؤلاءِ الأنبياءَ على دينِكم،

(1) ابن الجزري، النشر، 2، 223.
(2) ابن خالويه، الحجّة في القراءات السّبع، ص: 89.
(3) الزَّمخشريّ، الكشَّاف: 1/197.

وكأنَّه أَنْكَرَ عليهم مُحاجَّتَهم في اللّه تعالى، ونِسْبةَ أنبيائِه لليهوديَّة والنَّصرانيَّة، وقد وَقَعَ منهم ما أَنْكَرَ عليهم[1]، "فَوَبَّخَهم اللّه تعالى على الكلام في مَعرِضِ الاستفهام، على سبيلِ الإنكارِ، والغَرَضُ منه: الزَّجْرُ والتَّوبيخُ، وأَنْ يُقَرِّرَ اللّه في نفوسهم أَنَّهم يَعلمونَ أَنَّهم كانوا كاذِبينَ فيما يَقولون"[2].

والقراءتان مرادتان، فالآية تُنكرُ على أهلِ الكتابِ المحاجَّة وادِّعاءَ يهوديَّة إبراهيم عليه السلام ونصرانيَّته على القراءتين، إحداهما جاءتْ خطابًا للقومِ مباشرةً، والثَّانية جاءتْ غيبةً، تعليمًا للمؤمنين الردَّ عليهم، ونكتةُ القراءتين، أنَّ إحداهما جاءت خطابًا للسَّامعين مباشرةً، والأخرى لمن وصلته الآيةُ بالوساطةِ.

إيثارُ اسْتِعمالِ الفِعلِ المُضَارِعِ: ﴿تَقُولُونَ﴾:

محاولةُ الانتماءِ إلى أهلِ الحقِّ ادِّعاءً دون متابعةٍ نهجٌ فاسدٌ ومسلكٌ باطل

آثر النَّظم القرآنيُّ استعمالَ الفعلِ المضارعِ ﴿تَقُولُونَ﴾، دون (قالوا) في قولِه تعالى: ﴿أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ﴾؛ للدّلالةِ على اسْتمرارِ تَقَوُّلِهم على الأنبياءِ وافترائهم عليهم، وتَجَدُّدِه كلَّ مرَّةٍ مِنْ غيرِ انقطاعٍ منهم، ممَّا يَزيدُ مِنْ تَقبيحِ فعلِهم وتَشنيعِه؛ لأنَّ الفعلَ المضارعَ يَدُلُّ على التَّجدُّدِ والاستمرارِ، فهو فعلٌ دائمٌ، وهذا ما يدعو إلى الاسْتنكارِ والتَّعجُّبِ من فعلِهم المُستمرِّ بالجِدالِ بالباطلِ، وهو يدلُّ على عنادِهم في كفرِهم، وعتوّهم في كذبِهم، وهو يكشفُ عن موقفِهم الثَّابتِ وزعمهم الآثم في ادّعاء يهوديّة إبراهيم ونصرانيّته، وهم بذلك يكشفون خسارتَهم، وأنَّهم ينتسبون لإبراهيم عليه السلام لتقويةِ موقفِهم، ولردفِ مسيرتهم، وهذا شأنُ كلِّ مبطلٍ، أن يتمسَّك بأهل الحقِّ السَّابقين، نعوذ باللّه من الخذلان المبين، وفي التَّعبير بالفعل المضارع إشعارٌ باستمرار منهجهم الباطلِ، وأنَّ كلَّ من يدّعي الانتسابَ إلى إبراهيم دون الالتزامِ بمنهج محمَّدٍ ﷺ فقد تابع اليهود والنَّصارى في ضلالِهم، وافترى على إبراهيم عليه السلام الإثم المبين.

(1) أبو حيَّان، البحر المحيط: 1/660.
(2) الرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 4/77.

ترتيبُ ذكر الأنبياء على طريقة التَّدلّي:

مراعاةُ ترتيبِ الزَّمانِ هي الأصلُ ما لم ترِد نكتةٌ خلافَ ذلك

راعى النَّظمُ التّرتيب الزَّمانيّ في قولِه تعالى: ﴿أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ﴾ على طريقة التَّدَلِّي؛ بذِكْرِ الأقدمِ ثُمَّ الّذي يَليهِ، فقد ذَكَرَ أوّلًا: ما أُنزِلَ على سيِّدنا إبراهيم، لفَضْلِهِ وأُبُوَّتِه، ثمَّ ذَكَرَ ابْنَهُ إسماعيل، الابنَ البِكْرَ الأكبرَ على أخيه إسحاق، وقَدَّمَ إسحاقَ على ابنِه يعقوب، وقَدَّمَ يعقوبَ على ولَدِه ﴿وَٱلْأَسْبَاطَ﴾ - وقد مَرَّ بيانُه -، وهذا التَّرتيبُ مَقصودٌ في هذا السِّياقِ، إذ جاءَ بترتيبِ الأنبياءِ حَسَبَ التَّرتيبِ الزَّمنيِّ لهم، فَضلًا أنَّ فيه دَلالةً على دُخول الأنبياءِ بعدَ سيِّدِنا إبراهيمَ، إذ هم داخلونَ في شَريعتِه.

والأمرُ نفسُه في تقديم اليَهوديَّةِ على النَّصرانيَّةِ، في قوله تعالى: ﴿كَانُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ﴾، فاليهوديَّة أقدم زمنًا من النّصرانية، وهذا هو الأصلُ في التَّرتيبِ، ما لم تكن ثمّة نكتةٌ تقتضي التَّرتيب الموضوعيَّ، فتُلاحظُ من السِّياقِ.

تقديمُ (إبراهيم) على الأنبياء باعتبارِه الأصلَ المُفترى عليه

ونُكتَةُ تقديمِ نبيِّ اللّه إبراهيم عليه السلام على الأنبياء كلِّهم؛ الاهتمامُ به، فهو مِحورُ الجدالِ، لأنَّه عليه السلام كان قبل نزولِ التَّوراةِ والإنجيل، أي: قبل تحريف دين موسى - وهو الإسلام - إلى اليهوديَّة، ومثله دين عيسى إلى النَّصرانيَّة، فكانَ البَدْءُ به تَعجيبًا مِنْ أمرِ جدالِهم فيه، وإنكارًا عليهم، وتوبيخًا لهم، وبيانَ كَذِبهم وافترائِهم، وذلك على سَنَنِ العربِ في تقديم الأهمِّ، حَسَبَ المَوقفِ، وهذا ما يُقوّيه مَجيءُ ﴿إِنَّ﴾ مُجرّدةً قبل اسمه، عليه السلام ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِـۧمَ﴾، لإنكارِ مَقولتِهم المَحكيّةِ والتَّعجيبِ منها، ليَتَسلَّطَ الإنكارُ على تَماديهم في الضّلالِ وتأكيدِهم ما يذهبون إليه من دعاوى كاذبةٍ، فقد حكى القرآنُ في مواضع عِدَّة، زَيْفَ ادِّعائِهم، وبَيَّنَ كَذِبَهم، مِنْ ذلك قولُه تعالى: ﴿يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ

إِلَّا مِنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ٦٥ هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجۡتُمۡ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ٦٦﴾ [آل عمران: 65-68].

براعةُ الاسْتِفهامِ التَّقريريِّ في قوله: ﴿ءَأَنتُمۡ أَعۡلَمُ أَمِ ٱللَّهُ﴾:

ردُّ الأمورِ إلى نصابِها بإثارةِ الفكرِ والعقلِ منهجُ القرآنِ في تقريرِ الحقائقِ

لـمَّا كانت هذه الآياتُ الكريماتُ تُواجِهُ أهلَ الكتابِ في مذهبِهم الباطلِ فيما ذهبوا إليه، كان الاستفهامُ يَتكرَّرُ مَرَّةً بعد أخرى، لبيانِ زَيفِ اعتقادِهم؛ لتكونَ العقيدةُ بذلك سَدًّا منيعًا في وجوههم، فقال تعالى مُخبِرًا عن أمرٍ غَيبيٍّ سابقٍ لزَمَنِ الخطابِ: ﴿ءَأَنتُمۡ أَعۡلَمُ أَمِ ٱللَّهُ﴾، وأَرْدَفَهُ مباشرةً باستفهامٍ ثانٍ: ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ﴾.

وقد خرج الاستفهامُ الأوَّلُ ﴿ءَأَنتُمۡ أَعۡلَمُ أَمِ ٱللَّهُ﴾: إلى معنى التَّقريرِ والتَّوبيخِ، فقرَّر أنَّ اللّٰه تعالى أعلمُ منهم ومِنْ غيرِهم، في الأمور كلِّها، حاضرِها وغائبِها، وأنَّ دَعواهم فاسدة[1].

وهذا ما يُقرِّرُه حذفُ جوابِ الاستفهامِ، أي: "اللّٰهُ أعلمُ، وخبرُهُ أَصدقُ، وقد أَخبَرَ في التَّوراة والإنجيل، وفي القرآن على لسانِ محمَّد ﷺ أَنَّهم كانُوا مُسلِمين مُبرَّئين عن اليهوديَّة والنَّصرانيَّة"[2]، وهذا كقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوۡرَىٰةُ وَٱلۡإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ [آل عمران: 65].

وقد استُفِيدَ مِنْ هذا الاستفهامِ التَّقريريِّ: أَنَّ اللّٰه تعالى قد أَعلَمَهم بأَمرٍ، جهِلَتْهُ عامَّتُهم، وكَتَمَتْهُ خاصَّتُهم، ولذلكَ قالَ بعدَها: ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِۗ﴾[3].

ولأبي السُّعودِ رأيٌ في هذا الاستفهامِ صاغه بقولِه: "إعادةُ الأمرِ ليستْ لـمُجرَّدِ تأكيدِ التَّوبيخِ وتشديدِ الإنكارِ عليهم؛ بل للإيذانِ بأنَّ ما بعدَه ليس مُتَّصلًا بما قبلَه، بلْ بينَهما

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 1/217.
(2) الرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 4/77.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/747.

كلامٌ للمُخاطَبين، مُترتِّبٌ على ما سَبَقَ، مُسْتَتْبِعٌ لما لَحِقَ، قد ضُرِبَ عنه الذِّكرُ صَفحًا لظُهوره، وهو تصريحُهم بما وُبِّخوا عليه، من الافتراء على الأنبياءِ عليهم السلام، أيْ: كذِبُهم في ذلك، وبَكّتَهُم قائلًا: إنَّ اللّه يَعلمُ وأنتم لا تعلمون، وقد نَفَى عن إبراهيمَ عليه السلام كِلا الأمرَين، حيثُ قال: ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا﴾، واحتَجَّ عليهم بقوله تعالى: ﴿وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ﴾، وهؤلاءِ المعطوفونَ عليه - عليه السلام - أتْباعُه في الدِّين وِفاقًا، فكيفَ تقولونَ ما تقولونَ، سبحانَ اللّه عمَّا تصفونَ"[1].

غرضُ الاستفهامِ في قولِه: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً﴾:

كتمانُ الشَّهادةِ من أعظمِ أنواعِ الظُّلمِ، وأقبحه سلوكًا

جاء الاستفهامُ في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ﴾، بعدَ الاستفهام الأوّلِ ﴿ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ﴾، ليُقرِّرَ معناه ويُؤكِّدَه، وغرضُه النَّفي، مُبالغةً في وصفِ إجرامِهم وكذبِهم، وزيفِ ادِّعائهم، أي: لا أحدٌ أشدَّ ظُلمًا في كِتمان الشّهادة، ممَّنْ كَتَمَ شهادة اللّه تعالى[2]، مِنْ أنَّ إبراهيمَ وإسماعيلَ وإسحاقَ ويعقوبَ والأسباطَ كانوا مُسلِمين، أو كَتَمَ ما جاء في كُتُبِهم من العِلم بصِفاتِ رسولِ اللّه ﷺ، وإثباتِ نُبوَّتِه[3].

وممَّا زادَ مِنْ بيانِ شِدَّةِ جُرْمِهم بكِتمانِ الشَّهادةِ: أنَّها جاءتْ نكرةً؛ لتَعظيمها وتفخيمها، لأنَّها ﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾، فهي شهادتُه تعالى، وهذا زادَ مِنْ تَجريمِهم بكِتمان الشَّهادةِ، وتَفظيعِ حالِهم.

الكناية والتَّعريض في الاستفهام: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً﴾:

أفادَتْ الجملةُ الاستفهاميَّةُ في قولِه تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ﴾ الكِنايةَ والتَّعريضَ، فهذا الاستفهامُ: جاء كنايةً عن عدَم اغترارِ المسلمينَ بقول أهل الكتابِ، من اليهود والنَّصارى: إنَّ إبراهيم وأبناءَه كانوا هودًا أو نصارى، وليس هذا

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 170-1/169.
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 1/217، والرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 4/77، وأبو حيَّان، البحر المحيط: 1/664.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 126-125، والواحديّ، الوجيز، ص: 134.

احْتجاجًا عليهم[1]، وفيه تعريضٌ باليهود والنَّصارى بكِتمانِهم شهادةَ اللَّه لنَبيِّه محمَّدٍ ﷺ بالنُّبوَّة والرِّسالة في كتبهم[2].

دلالةُ فَاصِلَةِ الآيةِ الكَريمَةِ: ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾:

مِنْ أوجهِ التَّناسُبِ في الآية الكريمة خَتْمُها بقوله تعالى: ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾، فهذه الفاصلةُ جاءتْ مُؤكِّدةً لِما سَبَقَها من ادِّعاءاتٍ باطلةٍ، وتحريفٍ للحقائقِ وتزويرِها، وكِتْمانٍ للشَّهادةِ.

الخبرُ المرادُ به التَّهديدُ، أشدُّ من التَّهديدِ المباشِرِ

فجاءت هذه الفاصلةُ لتَرْبيةِ المَهَابَةِ عندَ المُخاطبِين، وهي خبرٌ مُستعمَلٌ في التَّهديد والوعيدِ الشَّديدِ لأهلِ الكتابِ من اليهود والنَّصارى، الّذين يَكتُمون ما أُنْزِلَ إليهم من العِلم، بمُجازاتِهم على ذلك، فاللّٰه تعالى ليس بِسَاهٍ عنهم، بل هو مُطَّلِعٌ على أعمالِهم، وقد أحصاها صغيرَها وكبيرَها، لا تَخفَى عليه منهم خافيةٌ، ولنْ يَضيعَ أمرُهم سُدًى[3].

فائدةُ تَكرار آية: ﴿تِلۡكَ أُمَّةٞ قَدۡ خَلَتۡۖ لَهَا مَا كَسَبَتۡ﴾:

جاءَ قولُه تعالى: ﴿تِلۡكَ أُمَّةٞ قَدۡ خَلَتۡۖ لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَلَكُم مَّا كَسَبۡتُمۡۖ وَلَا تُسۡـَٔلُونَ عَمَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [البقرة: 134] [البقرة: 141]، مرَّتين في أوّل الخطاب وآخرِه؛ لاختِلافِ السِّياقِ؛ لأنَّها وَرَدَتْ هنا إثْرَ أمرٍ مُغايرٍ لِمَا وردت في المَوضِعِ الأوَّلِ، فكان التَّكرارُ حَسَنًا؛ لاختلافِ الأقوالِ والسِّياقِ، فقد ذُكِرَتْ في الأوَّلِ عَقِبَ ما ثَبَتَ من تقريرِ يعقوبَ عليه السلام لبَنِيهِ، وإقرارِهم له في قوله تعالى: ﴿أَمۡ كُنتُمۡ شُهَدَآءَ إِذۡ حَضَرَ يَعۡقُوبَ ٱلۡمَوۡتُ﴾ [البقرة: 133]، وفي المَوضِعِ الثّاني: ذُكِرَتْ بعدَ قوله تعالى: ﴿أَمۡ تَقُولُونَ إِنَّ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ﴾ [البقرة: 140]، ففي الأوَّلِ: نَفْيُ ما هو ثابتٌ مِنْ إقرارِ بني إسرائيلَ، وفي الثَّاني: إثباتُ

التَّكرار تحقيقٌ للمضمونِ، وتأكيدٌ للمعنى، بغرضِ إثباتِه لمن يُجادِل فيه

(1) الزَّمخشريُّ، الكشَّاف: 1/197.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/748.
(3) ابن عطيَّة، المحرّر الوجيز: 1/217، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 1/452.

ما هو مُنْتَفٍ، مِنْ كون إبراهيمَ وإسماعيلَ وإسحاقَ هُودًا أو نصارى، وكلُّ واحدٍ من هذَينِ يُوجِبُ من البراءةِ، ويُستَحَقُّ به غِلَظُ الوعيدِ والتَّخويفُ بالعقابِ، والتَّنبيهُ على الكبيرة الّتي تحبِطُ الحسناتِ مثلَ ما يُوجِبُه الآخَرُ، فلذلكَ أُعيدَ في الدَّعوى الثّانية الباطلةِ ما قَدّمَ في الدَّعوى الأولى الكاذبةِ[1].

قال ابنُ عَطيَّةَ: "وقوله تُعالى: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ﴾ الآية، كَرَّرَها عَنْ قُرْبٍ؛ لأنَّها تَضَمَّنَتْ معنى التَّهديدِ والتَّخويفِ، أيْ إذا كان أولئكَ الأنبياءُ على إمامتِهم وفَضلهم يُجازَون بِكَسْبِهم فأنتم أَحْرى، فَوَجَبَ التَّأكيدُ؛ فلذلكَ كَرَّرها، ولتَرْدادِ ذِكْرِهم أيضًا في معنىً غيرِ الأوّلِ"[2].

التَّكرارُ تحذيرٌ وزجرٌ لمن غلُظَ فهمُه

ويكونُ التَّكرارُ للمُبالغةِ في التَّحذيرِ والزَّجْرِ عمَّا هُم عليه، من الافتخارِ بالآباءِ، والاتِّكالِ على أعمالِهم، فكان في تَكرارها وَعْظٌ لليهود والنَّصارى، ولكلِّ مَنْ يَتَّكِلُ على فَضْلِ الآباء وشَرَفِهم؛ أنْ لا يَتَّكلوا على ذلكَ، فكلٌّ يُؤخذَ بعَملِه، ولا ينفعُه غيرُه[3].

وللتّأكيدِ و"زِيادةِ رُسوخِ مَدْلولِه في نفوسِ السَّامعِين، اهتمامًا بما تَضَمَّنَه؛ لكَونِه معنًى لم يَسبِقْ سماعُه للمُخاطَبِين، فلم يُقتنَع فيه بمرَّةٍ واحدةٍ"[4].

مناسبةُ الآيةِ الخاتِمةِ في المحاجَّةِ للسِّياقِ:

قوَّةُ الاتِّساقِ الموضوعيِّ مظهرٌ من مظاهرِ الإعجازِ

خُتِمَتْ آياتُ المُحاجَجَةِ بقولِه تعالى: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾؛ لبيانِ "أنَّ تلك أمَّةٌ قد خَلَتْ مُنفرِدةً بعَمَلِها، كما أنتم كذلكَ، وأنَّكم غيرُ مَسؤولِين عمَّا عَمِلُوه، وجاءتْ هذه الجُمَلُ من ابتداءِ ذِكْرِ إبراهيمَ إلى انتهاءِ الكلامِ فيه، على اختلافِ مَعانيه، وتَعَدُّدِ مَبانيه، كأنَّها

(1) الإسكافيّ، دُرّة التَّنزيل، ص: 297-296، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 1/452.
(2) ابن عطيَّة، المحرّر الوجيز: 1/217.
(3) البيضاويّ، أسرار التَّنزيل: 1/110.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/748.

جملةٌ واحدةٌ، في حُسْنِ مَساقِها، ونَظْمِ اتِّساقِها، مُرْتقيةً في الفصاحةِ إلى ذِرْوةِ الإحسانِ، مُفصِحَةً أنَّ بلاغتَها خارجةٌ عن طبْعِ الإنسانِ، مُذَكِّرةً بقوله تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ﴾ [الإسراء: 88]"[1].

غرضُ التَّقديمِ في قوله: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ﴾:

قُدِّمَتْ شِبهُ الجملةِ ﴿لَهَا﴾ في قولِه تعالى: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ﴾: على الاسم الموصولِ المبتدأ وصِلَتِه ﴿مَا كَسَبَتْ﴾، وقُدِّمَ شِبْهُ الجُملةِ ﴿لَكُم﴾ على الاسم الموصولِ المبتدأ وصِلَتِه ﴿مَّا كَسَبْتُمْ﴾؛ لإفادةِ القَصْرِ، أي: قصرِ أعمالِ كلِّ فريقٍ من الفريقَين عليه، وتخصيصِها به، وفيه دَلالةٌ على أنَّ عَمَلَ الإنسانِ وكَسْبَه هو أساسُ الأمرِ، وبه العِبرةُ، وأنَّ الانتسابَ للسَّابقين الفاضلين لا يُقدِّمُ ولا يُؤخِّر في القبولِ، فالأمرُ مرهونٌ بعملِ كلِّ عاملٍ.

المُكلَّفُ محاسَبٌ على أعمالِه، ولا يتأثرُ بعملِ آبائه أو تقصيرِهم

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الحِجاج والمجادلة:

وَرَدَ الحِجاجُ في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِى ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾، وواضِحٌ مِنْ أَصْلِ اشتقاقِه، وهو (الحُجّة) أنَّ الغرضَ منه: ظُهورُ الحُجَّةِ.

كما وَرَدَ الجدال في قوله تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ﴾ [النحل: 125]، و هو مُشْتَقٌّ من الجَدَالَةِ: الأرضِ، والجِدْلُ: -بالكسر والفتح: كُلُّ عَظْمٍ مُوَفَّرٍ كما هو، لا يُكْسَرُ ولا يُخْلَطُ به غيرُه، والجَديلُ: حَبْلٌ مَفْتولٌ، فالمُجادَلةُ: الْتِفافُ كُلٍّ على الآخَرِ بإصْرارٍ[2].

الغرض في الحِجاج ظهور الحجّة، وفي المجادلة الرّجوع عن المذهب

(1) أبو حيَّان، البحر المحيط: 1/664-665.

(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصَّل: (جدل).

والغرضُ من الجدالِ أو المُجادَلَةِ: بَذْلُ الجُهْدِ العقليِّ في صَرْفِ الطَّرَفِ الآخَرِ عَنْ رأيِهِ أو مَذْهبِه، كما في قِصَّةِ المُجادِلة.

وإيثارُ التعبير بالمُحاجَّة في قوله: ﴿قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِى ٱللَّهِ﴾ لأنَّه أَنْسَبُ للسِّياقِ؛ حيث إنَّه يُنكِرُ عليهم مُحاججتَه في ما ليس لهم به علمٌ، وادِّعائِهم في اللَّهِ، أَيْ: في دِينه، أنَّ دينَه الحقَّ اليهوديَّةُ والنَّصرانيَّةُ، بل وَبَنَوا على هذا الادِّعاءِ، أنَّهم وحدَهم أصحاب الجنَّةَ.

الكِتمان والإخفاء:

الكِتمان أنسب في الدَّلالة على حبس ما لا يقوى على إخفائه

وَرَدَ كِتمانُ الشّهادةِ في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

كما وَرَدَ الإخفاءُ في قوله تعالى: ﴿يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ ۖ﴾ [آل عمران: 154].

فالكِتمانُ يكونُ بالسُّكوتِ عَنْ ذِكْرِ المعنى، ويَدورُ معناه: حَولَ مَنْعِ تَسَرُّبِ ما يَمْتَلِئُ به باطنُ الشَّيءِ، بِسَدِّ مَنافِذِ خُروجِه[1]، و خَتْمُ اللَّفْظِ بصوتِ الميم يُعَبِّرُ عنه تمامًا؛ حيث انطباقُ الشَّفتَين بها، ومنه كِتمانُ الشَّهادةِ، وهو حَبْسُ النُّطْقِ بها، أو الإتيانُ بها على غيرِ وَجْهِها، وهو نوعٌ من الكِتْمانِ، والإخفاءُ أَعَمُّ منه، فيكون في المعاني وغيرِها[2].

وإيثارُ ذِكْرِ كِتمانِ الشّهادة في حَيِّزِ الاستفهام المَنْفيِّ؛ لأنّه الأنسبُ للسِّياقِ والأَلْيَقُ بالشَّهادة؛ حيثُ استعظامُ جُرْمِهم، في كِتْمانِ شهادةِ اللّه الخاصَّةِ بإسلامِ هؤلاءِ الأنبياءِ المَذكورين، أو ذِكْرِ النَّبيِّ الخاتَم ﷺ في كُتُبِهم.

فهذه الشّهادةُ تَكادُ تَنطِقُ بها ألسنتُهم؛ لو أنّهم كانوا صادقين، فمِثْلُها لا يَخفى عندَهم.

وأمّا الإخفاءُ: فلم يَقترِنْ بالشَّهادةِ إلّا تجَوُّزًا، وإنْ أُخفِيَتِ الشّهادةُ فإنَّ إخفاءَها ليُشيرَ إلى ضَعفها، و إمكانِ إغفالِ الخَصمِ، وهذا لا يُناسِبُ المَقامَ.

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصَّل: (كتم).

(2) العسكريّ، الفروق اللُّغويّة، ص: 447، و448، وباختصار.

الخُلُوّ والمُضيّ:

الـخُـلُـوُّ أوسـع مـعـنـىً مـن الـمُضيّ، وأقوى في الـدَّلالـة على الذّهاب و البَراح الواسع الممتدّ

وَرَدَ الخُلُوُّ بمعنى الـمُضيِّ في قوله تعالى: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ﴾، كما وَرَدَ الـمُضيُّ في قولِه تعالى: ﴿فَأَهْلَكْنَآ أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝٨﴾ [الزخرف: 8].

إنَّ دَلالةَ (خلا) على خُلوِّ المكانِ أو الزّمانِ معنىً مَقصودٌ؛ إذْ إنَّ قولَه ﴿خَلَتْ﴾ يَدُلُّ على كونِها مَضَتَ، وبَقِيَ المكانُ خاليًا مِن بعدِهم، وأنتم تَشهدونَ على ذلك، وقد تكونُ الأُمَّةُ الّتي خَلَتْ أمَّةً صالحةً، كالأنبياءِ الـمَذكورين، وقد تكون أمّةً فاسدةً، كقوله تعالى: ﴿قَالَ ٱدْخُلُواْ فِيٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِي ٱلنَّارِ﴾ [الأعراف: 38].

وتدبُّرُ معنى الخُلُوّ يُضاعِفُ العِظَةَ والاعتبارَ عند المخاطَبِ؛ إذْ إنَّه يُفَكِّرُ في أَحْوال مَن مَضى، كما يَرْجِعُ إلى نَفْسِه و أَحوالِه، وقد حلَّ مكانَهم بعدَ أنْ خَلا منهم المكانُ والزّمانُ، فهو الأنسَبُ للسِّياقِ؛ حيث إنَّه أَبْلَغُ في الرَّدِّ على زَعمهم أنَّ هؤلاءِ الأنبياءَ الـمَذكورين كانوا هودًا أو نصارى، فكأنّه يقولُ لهم: إنَّ هؤلاءِ أَفْضَوا إلى ما قَدَّموا، فَافْتَرَيتُم عليهم، ولم تَعتَبِروا.

في حينِ "أنَّ الـمُضيَّ خِلافُ الاستقبالِ؛ ولذا يُقال: ماضٍ ومُستقبَل"[1]، ويَدورُ معناه حولَ "نَفاذ شيءٍ ومروره بِغِلَظٍ أو قوّةٍ، في أثناء شيء أو منها، كما يَمضي السَّيفُ أي: يَنْفُذُ في جسمِ الضّريبةِ، وكما يَنْفُذُ الفَرَسُ عَدْوًا، يَجوزُ المكانَ بقُوَّةٍ، ومنه "مَضَى في الأرض مَضاءً: نَفَذَ وخلا وذَهَبَ"[2].

(1) العسكريّ، الفروق اللُّغويّة، ص: 498.
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصَّل: (مضى).

الجُزْءُ الثَّانِي

﴿ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمۡ عَن قِبۡلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُواْ عَلَيۡهَاۚ قُل لِّلَّهِ ٱلۡمَشۡرِقُ وَٱلۡمَغۡرِبُۚ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ١٤٢ ﴾ [البقرة: 142]

مُناسبة الآية لِما قبلها

الحديثُ عن إبراهيمَ وما جرَى مع اليهودِ والنّصارى تمهيدٌ لتحويل القِبلة

"مُنَاسَبَةُ هَذِهِ الآيَةِ لِمَا قَبْلَهَا: أَنَّ اليَهُودَ وَالنَّصَارَى قَالُوا: إِنَّ إِبرَاهِيمَ، وَمَنْ ذُكِرَ مَعَهُ، كَانُوا يَهُودًا وَنَصَارَى، ذَكَرُوا ذَلِكَ طَعنًا فِي الْإِسْلَامِ؛ لِأَنَّ النَّسْخَ عِنْدَ اليَهُودِ بَاطِلٌ، فَقَالُوا: الانتِقَالُ عَنْ قِبْلَتِنَا بَاطِلٌ وَسَفَهٌ، فَرَدَّ اللَّهُ تَعَالَى ذَلِكَ عَلَيْهِمْ بِقَوْلِهِ: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلۡمَشۡرِقُ وَٱلۡمَغۡرِبُۚ﴾ الآيَةَ، فَبَيَّنَ مَا كَانَ هِدَايَةً، وَمَا كَانَ سَفَهًا"[1].

ولـمّا ذَكَرَ اللّهُ تعالى إبراهيمَ -عليه السلام- ومِلّتَهُ في الآياتِ السّابقةِ، وقد بَيَّنَتْ تلك الآياتُ سفاهةَ مَنْ يرغَبُ عن مِلّة إبراهيمَ، وتحدّثتْ عن الكعبةِ وبنائها، كانت تلك الآياتُ تمهيدًا لتحويل القِبلة، وكان مِنَ الجَلِيّ أنّ أعداء الإسلامِ سيستَقبِلُون ذلك التّحَوُّلَ بالاستهزاءِ والطّعن؛ فكانت هذه الآيةُ بين الآياتِ السّابقةِ وآية تحويلِ القِبلةِ: ﴿قَدۡ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجۡهِكَ﴾ [البقرة: 144].

شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

السّفهاءُ خَفيفُو العُقول فارِغوها، البَعيدون عن التّروِّي

1) ﴿ٱلسُّفَهَآءُ﴾: أَصْلُ السَّفَهِ: الاضْطِرابُ والمُنَازَعَةُ[2]، وهو: نقيضُ الحِلْم[3]، والسّفهاء في سياق الآية: خفيفو العقول فارغوها، البعيدون عن التّروِّي ومعرفة مقاصد الأمور وأسرارها، مع النّزوع

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/9.
(2) ابن عباد، المحيط: (سفه).
(3) الخليل، العين: (سفه).

إلى الجدال والمُنازعة، والمرادُ: كلُّ أعداء النّبي ﷺ والإسلام، من يهود ومنافقين ومشركين؛ "فكلٌّ قد عابوا، وكلٌّ سفهاء"[1].

ومعنى السُّفَهاءِ في الآية: "جَمْعُ سَفِيهٍ، وهو الكَذّابُ البَهّاتُ المُعْتَمِدُ خِلافَ ما يُعْلَمُ"[2]، "الخفيف إلى ما لا يجوز له أن يخِفّ إليه"[3]، وهو "كلُّ معتقدٍ باطلاً يُسرع إلى إظهارِ معتَقَدِه، ولا يكون له ثبات"[4].

التّولّي عن الشّيء الانصِرافُ عنه والإعراضُ وتركُ الاقترابِ منه

2) ﴿وَلَّىٰهُمْ﴾: أصل الجذر (وَلِيَ) يدُلُّ على اتّجاه إلى شيءٍ أو وِجْهةٍ: ولَّى وجهَه شطْرَ كذا: وَجَّهَهُ إليه، وولّى وجهه إلى جهة: أقبلَ عليها واتّجه نحوها، وتولّى عن الشّيء: انصرَفَ وأعرضَ عنه، ووَلَّيْتُ سَمعي كذا، ووَلَّيْتُ وَجهي كذا: أقبلتُ به عليه، قال اللّه ﷻ: ﴿فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ﴾ [البقرة: 144][5].

ولفظ ﴿مَا وَلَّىٰهُمْ﴾ في سياقِ الآيةِ معناه: "ما عَدَلهم وصَرَفهم؟!"[6].

سُمِّيَتْ قِبْلَةً لإِقْبَالِ النَّاسِ عَلَيْهَا فِي صَلَاتِهِمْ

3) ﴿قِبْلَتِهِمُ﴾: أَصْل (القِبلَة) يَدُلُّ عَلَى مُوَاجَهَةِ الشّيءِ لِلشَّيءِ، ومُقدَّم الشّيء الّذي يُتَّجَه إليه لمُلاقاته، وَالقِبلَةُ سُمِّيَتْ قِبلَةً لإِقبَالِ النَّاسِ عَلَيهَا في صَلَاتِهِم، وَهِيَ مُقْبِلَةٌ عَلَيْهِمْ أَيضًا[7].

4) ﴿ٱلْمَشْرِقُ﴾: أَصْلُ مادّة (شَرَقَ) يَدُلُّ عَلَى إِضَاءَةٍ وَفَتْحٍ، مِنْ ذَلِكَ شَرَقَتِ الشّمْسُ[8]، و(المَشْرِق) المكانُ الّذي تُشرِقُ منه الشّمسُ في نظرِ العَينِ، ويُستَعْمَلُ للجِهةِ الّتي تَكْنُف ذلك المكانَ مهما امتدّت في جانِبَيه[9].

(1) الرّاغب، تفسير الراغب: (سفه).
(2) الشوكاني، فتح القدير: 1/174.
(3) الواحدي، التفسير البسيط: 3/367.
(4) الرّاغب، تفسير الراغب: 1/327.
(5) الرّاغب، المفردات: (ولي).
(6) الواحدي، التفسير البسيط: 3/368.
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قبل).
(8) ابن فارس، مقاييس اللغة: (شرق).
(9) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (شرق).

5) ﴿ وَٱلۡمَغۡرِبُۚ﴾: أصل مادّة (غَرَبَ) يدلّ على الانصبابِ والانحدارِ، كما تَنْصَبُّ الدَّلْوُ الموصوفة في بئرِ السّانيةِ بقُوّة لعِظَمها، أو كما ينصبُّ الماءُ فيها بقوّة لعِظمه أيضًا، ومنه "غروب الشّمسِ" بانصبابها من الأفقِ وغيابِها في أدناه، والمغربُ: جهة الغروب[1].

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

إخبارٌ عن حدثٍ مستقبليّ، وتعليمٌ للرّسولِ الرّدَّ عليه

يُخبِرُ اللّه تعالى أنّه "سيقولُ الجهالُ وضِعافُ العقولِ من اليَهودِ وأمثالهم، في سخريةٍ واعتراضٍ: ما الذي صرفَ هؤلاءِ المسلِمين عن قبلتِهم التي كانوا يُصَلُّون إلى جهتِها أوَّلَ الإسلام؟ وهي بيتُ المَقدِسِ، قل لهم أيّها الرّسولُ: المشرقُ والمغربُ وما بينهما ملكٌ للّهِ، فليست جهةٌ من الجهاتِ خارجةً عن ملكِهِ، يهدي مَن يشاءُ من عبادِه إلى طريقِ الهدايةِ القَويمِ.

وفي هذا إشعارٌ بأنَّ الشَّأنَ كلَّه للّهِ في امتثالِ أوامرِه، فحيثما وَجَّهَنا تَوَجَّهْنا".

وهذا الإخبار ضربٌ من الإعجازِ الغيبيّ الّذي تحدّى به القرآنُ الكريمُ المخاطَبين في عهدِ النّبوّة؛ حيثُ نطقَتِ الآيةُ بذلكَ الحدثِ قبل وُقوعِه، وقد وقعَ كما قال علّامُ الغيوبِ -جلَّ شأنُه- ولا ريبَ في كلماتِ اللّهِ تعالى[2].

سَبَبُ النّزول:

عن البراءِ بن عازبٍ رضي الله عنه، قال: كان رسولُ اللّه ﷺ صلّى نَحْوَ بيت المَقْدِس ستّةَ عشرَ أو سبعةَ عشرَ شهراً، وكان رسولُ اللّه ﷺ، يحبُّ أن يُوجَّه إلى الكعبةِ، فأنزل اللّه: ﴿قَدۡ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجۡهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِۖ﴾، فتوجّهَ نحو الكعبةِ، وقال السّفهاءُ من النّاس -وهم اليهودُ-: ﴿مَا وَلَّىٰهُمۡ عَن قِبۡلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُواْ عَلَيۡهَاۚ قُل لِّلَّهِ ٱلۡمَشۡرِقُ وَٱلۡمَغۡرِبُۚ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ

(1) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (غرب).

(2) نخبة من العلماء، التفسير الميسر: ص: 22.

مُّسۡتَقِيمٖ ﴿١٤٢﴾﴾، فصلّى مع النّبيّ ﷺ رجلٌ، ثمّ خرجَ بعدما صلّى، فمَرَّ على قومٍ من الأنصار في صلاةِ العصرِ نحو بيتِ المقدسِ، فقال: هو يشهدُ أنّه صلّى مع رسول اللّه ﷺ، وأنّه توجَّهَ نحو الكَعبةِ، فتحرّفَ القومُ حتّى توجّهُوا نحوَ الكَعبةِ[1].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبلاغيُّ:

بلاغةُ الفَصْلِ في قولِه: ﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾:

جمالُ الإعجازِ الغيبيِّ القريبِ يتجلّى في سرعةِ وقوعه وقوَّةِ وَقْعِه

الآيةُ مفصولةٌ[2] عمّا قبلها؛ حيثُ جاءت بدونِ عطفٍ؛ لأنّ غرضَها مختلفٌ عن غرضِ الآياتِ السّابقة؛ فهي استئنافٌ لبيان معانٍ جديدةٍ، وليست جوابًا عن سؤال مقدّر[3]، وقدَّمتِ الآيةُ خبرًا غيبيًّا يقعُ قريبًا؛ وهو مقولةُ السُّفهاءِ في شأنِ القِبلةِ: ﴿مَا وَلَّىٰهُمۡ عَن قِبۡلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُواْ عَلَيۡهَاۚ﴾، وهذه الآيةُ من الإعجازِ الغيبيِّ، الذي كَشَفَ غباءَ القَومِ، إذْ لم يستطِعْ أولئك السُّفهاءُ أنْ يُمسِكوا ألسِنتَهم عن قَوْلِ السَّفاهةِ.

معرفةُ القادِمِ فيه توطينُ النَّفسِ وإعدادُ الجوابِ وإظهارُ المُعجزةِ

"فإن قلتَ: أيُّ فائدةٍ في الإخبارِ بقولهم قبلَ وقوعه؟ قلت: فائدتُهُ أنّ مفاجأةَ المكروه أشدُّ، والعلمُ به قبل وقوعِه أبعدُ من الاضطرابِ إذا وقع لما يتقدّمُهُ من توطينُ النّفسِ، وأنّ الجوابَ العتيدَ قبل الحاجةِ إليه أقطعُ للخصم وأردُّ لشغبِه، وقبلَ الرَّمي يُراشُ السَّهمُ"[4]؛ فالإخبارُ بخبرٍ قبل وقوعِه أدْعى لتوطينِ النّفس، فإنّ مُفاجأةَ المكروه على النّفسِ أشقّ وأشدُّ، وفي هذا الإخبار أيضًا إعدادٌ وتلقينٌ للنّبيّ ﷺ ما يردُّ به على أولئك السّفهاءِ، مع ما فيه

(1) رواه البخاري، حديث رقم: (7252)، وينظر: خالد المزيني، المحرر في أسباب نزول القرآن: 1/217.
(2) الفصل من موضوعات علم المعاني، وهو قسم من مبحث الفصل والوصل، وتعريفه: "الوصل عطف بعض الجمل على بعض، والفصل تركه"، الإيضاح في علوم البلاغة: 3/97.
(3) محمد بن سعد الدّبل، دليل البلاغة القرآنية: 1/196.
(4) الزمخشري، الكشاف: 1/198.

من دلائلِ النّبوةِ؛ حيثُ فيه إخبارٌ عن غيب[1]، وقد أحسنَ الفخرُ الرّازي في تَعدادِ فوائد هذا الإخبار[2]:

أحدها: أنّه ﷺ إذا أَخبرَ عن ذلكَ قبل وقوعِهِ، كان هذا إخبارًا عن الغيبِ فيكونُ معجزًا.

وثانيها: أنّه تعالى إذا أخبَرَ عن ذلكَ أوّلًا ثمّ سَمِعَهُ منهم، فإنّه يكونُ تأذّيه من هذا الكلامِ أقلَّ ممّا إذا سَمِعَهُ منهم أوّلًا.

وثالثها: أنّ اللّه تعالى إذا أسمَعَه ذلك أوّلًا، ثمّ ذكر جوابَه معَه فحين يسمَعُه النّبيُّ ﷺ منهم يكونُ الجوابُ حاضرًا، فكان ذلكَ أولى ممّا إذا سَمِعَهُ ولا يكونُ الجوابُ حاضرًا.

براعةُ نَظمِ الإعجازِ الغَيْبيِّ في قولِه: ﴿سَيَقُولُ﴾:

تأكيدُ صدورِ المقالةِ مستقبلًا؛ لِيَكُونَ ذَلِكَ مُعْجِزًا للأغبياءِ ومُحرِجًا للسُّفهاءِ

صُدِّرت الآية بحرفِ التّنفيسِ (السِّين)، وفائدةُ هذا الحَرْفِ الاستقبالُ، فهو يصرفُ زمنَ الفعلِ إلى المستقبلِ، وهذا يقتضي أنّ الحدَثَ ليس واقعًا بعدُ.

وقد استشكلَ بعضُ المفسّرين هذه الآيةَ متسائلين: كيف يُخبِرُ عن قولهم ذاك ولـمَّا يقع تحوُّلُ القبلةِ بعدُ؟! فأوّلُوه بالماضِي، قال الرّازيُّ: "هذا اللّفظُ وإنْ كانَ للمُستقبلِ ظاهرًا لكنّه قد يُسْتَعمَلُ في الماضي أيضًا"[3]، وهذا يقتَضي أنّ الآيةَ قد نزلت بعد آية تحوّلِ القبلةِ، ثم صَدَرَ منهم ذلك القولُ، فنزلت هذه الآيةُ مصدّرةً بالسّين، لكنْ على معنى الماضي ليدلّ على استمرارِهِم فيه؛ والقولانِ لهما وجهٌ من القَبولِ، وكلاهما يدلُّ على الإعجازِ الغَيْبيِّ، فعلى قولِ أنَّهم لم ينطقوا بذلك بعد فهو إعجازٌ، وعلى قول أنَّهم نطقوا بتلك المقولةِ فإنَّ الإخبارَ بإعادةِ النُّطقِ بها إعجازٌ كذلك؛ ولا فرقَ بين الأمرين في كونِه إخبارًا عن حدَثٍ مستقبلٍ؛ لذا فالسّينُ باقيةٌ

(1) القاسمي، محاسن التأويل: 1/413.
(2) الرّازي، التفسير الكبير: 4/79، وابن عادل، اللباب في علوم الكتاب: 3/3.
(3) الرّازي، التفسير الكبير: 4/79.

على دِلالتِها المُستقبليّةِ وهذه دلالةُ الظَّاهرِ؛ لتفيدَ تأكيدَ صُدورِ مقالَتِهم تلك مستقبلًا، وليس بنادرٍ في القرآن أن يخبرَ عن أقوالِهم المُستقبلَةِ، مثل قوله ﷻ: ﴿فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَاۖ قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۚ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ﴾ [الإسراء: 51].

"سَيَقُولُ، ظَاهِرٌ في الاستِقبَالِ، وَأَنَّهُ إخبَارٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى لِنَبيِّهِ ﷺ، أَنَّهُ يَصدُرُ مِنْهُمْ هَذَا القَولُ في المُستَقبَلِ، وَذَلِكَ قَبلَ أَنْ يُؤمَرُوا باستِقبَالِ الكَعبَةِ، وَتَكُونُ هَذِهِ الآيَةُ مُتَقَدِّمَةً في النُّزُولِ عَلَى الآيَةِ المُتَضَمِّنَةِ الأَمْرَ باستِقبَالِ الكَعبَةِ، فَتَكُونُ مِنْ بَابِ الإخبَارِ بِالشَّيْءِ قَبلَ وُقُوعِهِ، لِيَكُونَ ذَلِكَ مُعجِزًا؛ إذ هُوَ إخبَارٌ بِالغَيْبِ، وَلِتَتَوَطَّنَ النَّفسُ عَلَى مَا يَرِدُ مِنَ الأَعدَاءِ، وَتَستَعِدَّ لَهُ، فَيَكُونُ أَقَلَّ تَأثِيرًا مِنْهُ إذَا فَاجَأَ، وَلَم يَتَقَدَّم بِهِ عِلمٌ، وَلِيَكُونَ الجَوَابُ مُستَعِدًّا لِمُنكِرِ ذَلِكَ، وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُۚ﴾"[1].

دلالةُ التّعبيرِ بالمُستقبَلِ في: ﴿سَيَقُولُ﴾:

وعُبِّر بالفعلِ المضارِعِ المَصروفِ للاستقبال دونَ الاسم، فلم يقل: (إنّهم لقائلون) وغيره من التّراكيب المُمكنةِ في هذا الموطنِ؛ للدّلالةِ على أنّ هذا الفعلَ سوفَ يقعُ ابتداءً ويستمرُّ ويتجدّدُ، وأنّ الطّعنَ في تحويلِ القبلةِ سيَبقَى موضوعًا مطروقًا على ألسنةِ السُّفهاءِ وأشباهِهم من أهلِ الشُّبَه والفِتَنِ، قال ابن عطيَّة: "وجعلُ المستقبلِ موضعَ الماضي في قوله: ﴿سَيَقُولُ﴾ دلالةٌ على استدامةِ ذلك، وأنّهم يستَمرّون على ذلك القولِ"[2].

مَنهجُ الطّعنِ في الحقِّ مُستمرٌّ بقطعِ النَّظرِ عن صُورتِه

فائِدةُ اختيار لفظِ ﴿ٱلسُّفَهَآءُ﴾:

اختلفَ المُفسِّرون في بيانِ المرادِ بالسّفهاءِ على ثلاثةِ أقوالٍ: المُشركون، والمُنافقون، واليَهود[3]، والصَّحيحُ أنّهم جميعًا

كلُّ من يَستهزئُ بالقرآنِ فهو داخِلٌ في السَّفاهةِ لا يُغادِرُها إلّا بتوبةٍ

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/9.
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 1/218.
(3) الرّازي، التفسير الكبير: 4/79.

مشمولُون بذلك، ولا فائدةَ في بيانِ الفئةِ الّتي قالت ذلك؛ فالقرآنُ وصفَهُم بالسّفاهَةِ، وهي شاملةٌ لكلِّ من استهزأَ بهذا التّحوُّل بقطعِ النّظرِ عن فِئتِهِ وعقيدتِهِ، فإنَّه "يدخلُ فيه الكلُّ؛ لأنّ لفظَ السّفهاءِ لفظُ عُموم دَخَلَ فيه الألفُ واللّامُ، وقد بينّا صلاحيَّته لكلِّ الكفّارِ بحَسبِ الدّليل العقليّ، والنّصُّ - أيضًا - يدلُّ عليه، وهو قولُه: ﴿وَمَن يَرۡغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبۡرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفۡسَهُۥۚ﴾ [البقرة: 130]"[1].

فائِدةُ تعريفِ: ﴿ٱلسُّفَهَآءُ﴾:

جاءَ لفظُ ﴿ٱلسُّفَهَآءُ﴾ معرفةً؛ للإيماءِ بأنّ هؤلاء القائلين مَعروفٌ دأبُهم معهودٌ شأنُهم، وأنّهم قد شُهروا به، حتّى باتت صفةُ السّفه كأنّها خاصّةٌ بهم، يتعرّفُون بها لا تفارِقُهم؛ فهم صِنْفٌ مُعيَّنٌ من النّاس، وفئةٌ معروفةٌ في المجتمعِ، وهم لا يقتصِرون على ملَّةٍ أو ديانةٍ أو جنسٍ بشريٍّ، إذ لفظُ السُّفهاء "يدخلُ فيه الكلُّ؛ لأنَّ لفظَ السّفهاءِ لفظ عُموم، ودَخَلَ فيه الألفُ واللّامُ"[2]، والسُّفهاءُ موجودون في كلِّ زمنٍ، وفي كلِّ مكان، يظهرون في أوقاتٍ، وينغمسون في أخرى، عنوانُهم الاعتداءُ على الشَّرعِ، والقَوْلُ في القرآنِ جهلًا وحمقًا، فالسَّفيهُ والرُّوَيْبِضَةُ سواء.

السُّفهاءُ صِنفٌ معروفٌ، عُنوانُهم الاعتداءُ على الشَّرعِ

فائدةُ قيدِ العمومِ ﴿مِنَ ٱلنَّاسِ﴾:

سبَقَ بيانُ أنَّ المقصودَ بالسُّفهاءِ كلُّ من أتى اعتداءً بقولِه على الشَّرعِ، من المنافقين واليهودِ والمشركين، ويدخلُ كذلك غيرُهم ممَّن سلك مسلَكَهم؛ لذلك أتى بقيدِ: ﴿مِنَ ٱلنَّاسِ﴾، ولم يقل: من الّذين كفَرُوا أو من أهلِ الكِتابِ؛ ليَشْمَلَ الكلامُ كلَّ من ينطبق عليه الكلامُ

الحذَرُ من كلِّ سفيهٍ مطلوبٌ، والخِطابُ يَصدُقُ على مَنْ وافقَهُم في كلِّ زمانٍ ومكانٍ

(1) الرّازي، التفسير الكبير: 4/79.
(2) ابن عادل، اللباب في علوم الكتاب: 3/4.

من النَّاسِ جميعًا، كالمنافقين مثلًا، وكلّ من وافقهم[1]، وفائدةُ ذلك أن يحذَرَ المؤمِن من كلِّ من يأتي بمثلِ كلام هؤلاء، سواءٌ في أمرِ القبلةِ أو غيرِها.

وعليه فإنّ إظهارَ وصفِهم بأنّهم من النّاس يفيدُ المبالغةَ بصفةِ السَّفَهِ، وبيانُهُ: إنّ الإنسانَ مهما اتّصفَ بالسّفاهة والعَتَهِ والطّيش، فإنّه لا يخرجُ عن كونِهِ من النّاس، فكان يمكنُ أن يقالَ في غير القرآنِ: (سيقولُ السّفهاء ما ولّاهُم عن قبلتِهم)، ولكنّه وصفَهم بما هو معلومٌ؛ للتّنبيه على بلوغِهم الحدَّ الأقصى من السّفاهةِ بحيثُ لا يوجدُ في النّاس سفهاءُ غيرُهم، فإذا قُسِّمَ النّاسُ أصنافًا، كان هؤلاءِ صنفَ السّفهاءِ، فيفهَمُ أنّه لا سَفيهَ غيرُهم، وهذا على وجهِ المبالغةِ، والمعنَى: أنّ كلَّ مَنْ صَدَرَ منه هذا القولُ هو سَفيهٌ، سواء كان القائلَ اليهودُ، أو المشركون من أهل مكّة، أو المنافقون[2].

نُكتةُ تَخصيصِ السّفهاءِ بكونِهم ﴿مِنَ ٱلنَّاسِ﴾:

التَّهكُّمُ بالسُّفهاء؛ بتنزيهِ الجماداتِ والحيواناتِ عنِ الوقوعِ في السَّفاهةِ

سبقَ في النُّكتةِ السَّابقةِ أنَّ قيدَ ﴿مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ أفادَ العُمومَ ليشملَ كلَّ من صدرَ عنه مثلُ هذا القولِ، وهنا نجد أنَّ ابن عطيَّة ذهب إلى مَلْحظٍ لُغويٍّ تَهكُميٍّ وهو: أنَّ هذا القيدَ أفادَ تخصيصًا، فقال: وخَصَّ بقوله ﴿مِنَ ٱلنَّاسِ﴾؛ لأنّ السَّفَهَ يكونُ في جماداتٍ وحيواناتٍ"[3]، فأصلُ السَّفه: "الْخِفَّةُ؛ يُوصَفُ بِهِ الْجَمَادُ، قَالُوا: ثَوْبٌ سَفِيهٌ؛ أَيْ خَفِيفُ النَّسجِ وَالهَلهَلَةِ، وَرُمحٌ سَفِيهٌ: أَيْ خَفِيفٌ سَرِيعُ النُّفُوذِ، وَيُوصَفُ بِهِ الحَيَوَانَاتُ غَيرُ النَّاسِ، فَلَو اقتَصَرَ؛ لاحتَمَلَ النَّاسَ وَغَيرَهُمْ؛ لأَنَّ القَوْلَ يُنسَبُ إِلَى النَّاسِ حَقِيقَةً، وإلى غيرهم مجازًا، فَارْتَفَعَ المَجَازُ بِقَوْلِهِ: مِنَ النَّاسِ"[4]، ونكتتُه: تنزيهُ الجماداتِ والحيواناتِ أن يقعوا فيما وقعَ فيه السُّفهاءُ من النَّاس، كما قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ ١٧٩﴾ [الأعراف: 179]، ويردُ عليه أنّ إسنادَ القولِ إليهم ﴿سَيَقُولُ﴾ كافٍ في

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 2/202.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/7.
(3) ابن عطية، المحرر الوجيز: 1/218.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/9-10.

بيان أنّهم من النّاس، "وردَّهُ ابنُ عرفةَ بأنّ القولَ المسندَ إليه في الآيةِ يُخصِّصُه بالحيوانِ"[1]، واعتراضُ ابنِ عرفةَ صحيحٌ، لكن بحملِه على التَّهكُّمِ يجعلُ له موضعًا من القَبولِ.

غرضُ الاستِفهامِ في قوله: ﴿مَا وَلَّىٰهُمْ﴾:

بيانُ منهجِ الاستهزاءِ بالدِّينِ، وأنَّه قائمٌ على تكثيرِ الأسئلةِ والاعتراضِ

غرضُ الاستفهامِ في قولِه تعالى: ﴿مَا وَلَّىٰهُمْ﴾ الاستهزاءُ والتّعجّبُ[2]، أو الاستهزاءُ فَقَطْ؛ أي: أنّهم سألوا ساخِرين مُتهكّمِين مُستهزِئين[3]؛ للتّعريضِ بالمسلمين، بالتّخطئةِ واضطرابِ العقل[4]؛ أو الإنكارُ، "أي: أيُّ شيءٍ، وأيُّ سببٍ اقتضَى انصرافَهم عن قبلتِهم التي كانُوا عليها، الّتي هي قبلةُ الأنبياءِ والمُرسلين؛ أي: لا سببَ يقتضِي ذلك، وإنّما هو من تَشَهِّيهم وتصرّفِهم برأيهم"[5].

فَالسُّفهاءُ في سؤالِهم على تنوُّعِ أغراضِه لا يُريدون جوابًا، بل مَطلبُهم الفتنةُ، وغرضُهم إثارةُ الاضطرابِ والتّشويش، وإظهارُ الخَطأ في أحكامِ الإسلامِ، والاستهزاءُ؛ أي: أنّهم أرادوا نِسبةَ المسلمين إلى السَّفهِ، فكانت النّتيجةُ أن باؤُوا بهذا الوصفِ، ووصفُ المُؤمنين بالسَّفاهة بسببِ انقيادِهم لشرعِ اللّه تعالى سلوكٌ ثابتٌ للسُّفهاءِ، وكثرةُ الأسئلةِ المراد بها الاستهزاءُ بالدِّينِ؛ تدلُّ على وقوعِ السَّائلين في مستنقعِ السَّفاهةِ.

إيثارُ الاستفهامِ بـ ﴿مَا﴾ دون (مَنْ) في ﴿مَا وَلَّىٰهُمْ﴾:

العقليّةُ الماديّةُ والاستفهامُ بـ(ما)

آثر النَّظمُ أن يَحكيَ مَقولتَهم بالاستفهامِ بـ ﴿مَا﴾ دون "مَنْ"؛ ليُبيّن أنّ هذا التّساؤلَ يدلُّ على طريقة تفكير مادّيّ يرتبطُ بالأشياءِ والإراداتِ، ويُفسّرُ كلَّ شيءٍ من خلالِ هذه الفلسفَةِ المادّيّةِ؛ فهؤلاءِ

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/449.
(2) الرّازي، التفسير الكبير: 4/80.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 1/436.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/8.
(5) الهرري، تفسير حدائق الروح والريحان: 3/10، ومحمد بن سعد الدّبل، دليل البلاغة القرآنية: 1/196.

السّفهاءُ لا يعرفُون المُسبِّبَ الحقيقيَّ للأسبابِ، ولا يُقيمون وزنًا للرّوح وعالمِ الغَيبِ؛ من هنا أوثرَ استعمالُ "ما" دون غيرها إيماءً إلى ما في عقولِهم وأذهانِهم من نظرةٍ مادّيّةٍ؛ لذلك جاء الجوابُ في الآية: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾﴾، برَجْعِ الأمرِ والملكِ لله، أي: إلى المُسبِّبِ الحقيقيّ وخالقِ الأسبابِ.

فائدةُ التَّعبيرِ بضَميرِ الغَيبَةِ ﴿مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ﴾:

الغالبُ على السُّفهاءِ إثارةُ الفتنةِ بعيدًا عن حضورِ المؤمنين

جاءتْ حكايةُ قولِ السُّفهاءِ بالغَيْبةِ لا بالخطابِ؛ فلم يقل: ما ولّاكم عن قِبلتِكم، "إشارةً إلى أنّهم قالوا ذلكَ فيما بينَهُم ولم يُباشروا به المُؤمنين بوجهٍ، وهذا مرجّحٌ لأن تكونَ المقالةُ من المنافِقين"[1]، والصَّحيح أن تكونَ صادرةً عنهم وعن غيرِهم؛ إلَّا أنَّها عنهم أكثر، وإيثارُ الغَيْبةِ على الخِطابِ باعتبارِ الكثرةِ والقلَّةِ؛ فإنَّ السُّفهاءَ يُكثرون من اللَّغطِ وفحشِ القول فيما بَيْنَهم وبين عموم النَّاس، بقصدِ الفتنةِ، بعيدًا عن حضورِ المؤمنين؛ فهم طالبو فتنةٍ لا طالبو فطنة، وهذا لا يمنعُ أن يقولوها بحضورِ المؤمنين، بل على الملإِ من النَّاسِ إذا تمكَّنوا وتجبَّروا.

تعيينُ مرجعِ الضّميرِ في قولِهِ ﴿مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ﴾:

المقامُ يُعيِّنُ مَرجِعَ الضَّميرِ كالتَّعيينِ اللَّفظيِّ

مَرجِع الضَّميرِ في قوله تعالى: ﴿مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا ۚ﴾ يعودُ إلى النّبيِّ ﷺ وأصحابِه[2]، وكان الظّاهرُ أن يقولوا: (ما ولّى المسلمين عن قبلتهم)؛ إذ لم يَجْرِ لمَرْجِع الضّمير قبل ذلك ذِكْرٌ، والذي دلَّ على مرجع الضّمير في هذه الآية هو المقامُ[3]، إذْ هُم أصحابُ القبلةِ، وهم الذين ولَّوا وجوههم عن بيتِ المقدسِ إلى البيتِ الحرامِ.

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/450.
(2) الواحدي، التفسير البسيط: 3/368، وأبو حيّان، البحر المحيط: 2/10.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/8.

للضَّمائرِ أثرٌ في بيانِ المعاني، ما لا تُؤدِّيه الألفاظُ الظَّاهِرةُ

لتعيينِ مرجعِ الضَّميرِ تعليلٌ لفظيٌّ أو مقاميٌّ، وتعليلٌ بلاغيٌّ، فسبق بيانُ الأوَّلِ، أمَّا البلاغيُّ الّذي من أجلِهِ آثرَ القرآنُ أن يقولَ: ﴿مَا وَلَّىٰهُمۡ عَن قِبۡلَتِهِمُ﴾ دون: (ما ولّى المسلمين عن قبلتهم)، أنّ الغرضَ من ذلك بيانُ شِدّةِ انشغالِ السّفهاءِ بالمسلمين؛ فالمسلمُون كانوا يمثّلون هَمًّا لهؤلاءِ، وشُغلًا أقضّ مضاجِعَهم، فهم في حديثٍ مستمرٍّ عنهم، لا ينفكّون عن ذلك، حاضرون في أذهانِهم في كلّ وقتٍ، يتطرَّقون لذكرهم كلمّا عَنَّ لهم ذلك وأمكنَ؛ فشدّةُ حضورِ المُسلمين في أذهانِ أولئك أغنتْ عن ذكرِهم لفظًا ظاهرًا قبل الإضمارِ، وللضَّمائرِ أثرٌ في بيانِ المعاني، ما لا تُؤدِّيه الألفاظُ الظَّاهِرةُ.

دلالةُ إضافةِ القبلةِ إلى الضَّمير ﴿قِبۡلَتِهِمُ﴾:

اختِصاصُ قبلةِ بيتِ المقدس بالمسلمين دون غَيْرِهم

لسَائلٍ أن يسألَ عن سرِّ إضافةِ القبلةِ إلى المسلمين مع تحوُّلِهم عنها؟ والجواب: "لِأَنَّهُمْ كَانُوا اسْتَقبَلُوهَا زَمَنًا طَوِيلًا، فَصَحَّتِ الإِضَافَةُ"[1]، ويجب تقديرُ مضافٍ محذوفٍ "في قولِه: ﴿عَلَيۡهَاۚ﴾ أي: على توجُّهِهَا أو اعتقادِها"[2]، فهو يدُلُّ على مزيدِ اختصاصِها بهم؛ إذ لم يستقبلْها غيرُهم من الأمم؛ لأنّ المشركين لم يكونُوا من المُصلّين أصلًا، وأهلَ الكتابِ لم يكونوا يستقبلُون في صلاتِهم[3]، وفيه إشعارٌ بأنَّ القبلةَ الأُولى هي للمسلمين، وإن تحوَّلوا عن التَّوجُّهِ إليها؛ فهي قِبلتُهم، فتركُ التَّوجُّه إليها لا يسلبُ عنها وصفَ اختصاصِ المسلمين بها.

دلالةُ حَرْفِ الاسْتِعْلَاءِ في قولِه: ﴿ٱلَّتِي كَانُواْ عَلَيۡهَاۚ﴾:

دلَّ حرفُ الاستعلاءِ على التّمكُّن لما فيه من معنَى الفوقيّةِ والاستعلاءِ؛ فقولُهُ: ﴿ٱلَّتِي كَانُواْ عَلَيۡهَاۚ﴾ يدلُّ على أنّهم كانوا مُلازمين لها، فـ "على" هنا للتمكّن المجازيّ، "بالاستعارةِ؛ حيثُ شبَّه

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/10.
(2) السمين، الدر المصون: 2/150.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/9.

مواظبتَهُم على المحافظةِ عليها باستعلاءٍ منْ استعَلَى على الشَّيءِ"[1]، وهو شدّةُ الملازمةِ، مثل قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ﴾ [البقرة: 5]، وفيه زيادةُ توجيهٍ للإنكارِ والاستغرابِ من قائلي هذه المقولةِ؛ أي: كيفَ عدَلوا عنها بعد أن لازَمُوها؟ ولم يكن استقبالُهم إيّاها مجرّدَ صُدفةٍ، فإنّهم استقبلوا الكعبةَ ثلاثَ عشرةَ سنةً قبلَ الهجرة[2]، وهذا التّعبيرُ سيتكرّرُ في الآية اللّاحقة: ﴿ٱلۡقِبۡلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيۡهَآ﴾.

دلَّ الاِسْتِعلَاءُ عَلَى تَمَكُّنِ الاسْتِقبَالِ، وأمرُ الله في التَّحوُّلِ أعلى وأمكنُ

براعةُ الاستئنافِ، في تعيينِ الجوابِ في قولِه: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلۡمَشۡرِقُ وَٱلۡمَغۡرِبُۚ﴾:

فُصِلَ بين جملةِ: ﴿مَا وَلَّىٰهُمۡ عَن قِبۡلَتِهِمُ﴾ وجملة: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلۡمَشۡرِقُ وَٱلۡمَغۡرِبُۚ﴾؛ لأنّ الجملةَ الثّانيةَ جوابٌ عن سؤال تُثيرُهُ الجملةُ الأولى، فكأنّ سائلًا قد سألَ: وماذا كانَ الجوابُ؟ وهنا تأتي الجملةُ الثّانية جوابًا عن هذا السّؤالِ: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلۡمَشۡرِقُ وَٱلۡمَغۡرِبُۚ﴾[3].

فائدةُ تعليمِ الجوابِ للنَّبيِّ ﷺ:

فِعْلُ الأمر هنا تلقينٌ من اللهِ ﷻ لنبيّه ﷺ لِيَرُدَّ عليهم، وهو يدلُّ على الإرشادِ والتّعليم، وأما الرّدودُ على سؤالهم وطُعونِهم فهي مفتوحةٌ غيرُ محدودةٍ، ولكلّ طَعْنٍ أجوبتُهُ، وعلى علماءِ المسلمين أن يجتهِدُوا في ذلك.

القائِدُ الشَّرعيُّ هو المُكلَّفُ في الرَّدِّ على الطَّاعنين؛ عندما تخُصُّ القضيّةُ الأمّةَ

نلحظُ أنَّ اللهَ تبارك وتعالى لقَّنَ نبيَّهُ ﷺ ليَرُدَّ عليهم، ولم يجعلِ الجوابَ مباشرًا؟ ومن حكمة ذلك -واللهُ أعلمُ بأسرار التّنزيل وحِكمه- أنّ الاعتراضَ المتهكّمَ به كان على النّبيِّ ﷺ وأصحابِهِ؛ حيثُ رَمَوهُ بالتّحيّر[4]، فلمَّا وُجِّهَ السّؤالُ والاستهزاءُ إلى النّبيّ ﷺ والمسلمين، كان إجراءُ الجوابِ على لسانِه هو الأولى؛ لأنَّه صاحبُ الشّريعة ومُبلّغُها، وهو المُكلَّفُ أن يَرُدَّ عليهم؛ فالقضيّةُ تعني الأُمّةَ كلَّها.

(1) الهرري، حدائق الروح والريحان: 3/23.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/10، والسمين، الدر المصون: 2/150، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/9.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/171.
(4) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 1/437.

فائِدةُ التّقديمِ والتّأخيرِ في قوله: ﴿لِلَّهِ ٱلۡمَشۡرِقُ وَٱلۡمَغۡرِبُۚ﴾:

أصلُ الكلام: المَشرقُ والمَغربُ لله، ولكنّه قدّمَ الخبرَ ﴿لِلَّهِ﴾، وأخّر المبتدأ ﴿ٱلۡمَشۡرِقُ وَٱلۡمَغۡرِبُۚ﴾؛ لإفادة التّخصيصِ والحَصرِ، فإنّ الجهاتِ كلّها لله ﷻ وليست لأحدٍ سِواه.

سرُّ العُدولِ عن ذكر القِبلةِ إلى ذكر المشرقِ والمغربِ في قولِه: ﴿لِّلَّهِ ٱلۡمَشۡرِقُ وَٱلۡمَغۡرِبُۚ﴾:

إقامةُ الدَّليل أقوى من ذكرِ الدّعوى، فمَن ملكَ أمَر

عدلَ الجوابُ عن إثباتِ أنَّ تحديدَ القبلةِ لله، إلى بيانِ ملك الله للسَّماواتِ والأرض؛ لبيانِ أنَّ "له أن يأمرَ بالتّوجّه إلى أي جهةٍ شاءَ"[1]، فالتَّوجُّه في الصَّلاة لا يكون لذات الجهات، وإنّما يكون إليها بإيجابِ الله تعالى[2]، "وَالمَعْنَى: أَنَّ الجِهَاتِ كُلَّهَا لِلَّهِ تَعَالَى، يُكَلِّفُ عِبَادَهُ بِمَا شَاءَ أَنْ يَستَقبِلَ مِنهَا، وَأَنْ تُجْعَلَ قِبْلَةً"[3]، فهو "لا يختَصُّ به مكانٌ دون مكانٍ بخاصيّةٍ ذاتيّة تمنعُ إقامةَ غيره مقامَه، وإنّما العبرةُ بارتسامِ أمرِهِ لا بخصوصِ المكان"[4]، فلا اعتراضَ على أمرِه؛ "فيأمر بالتّوجّه إلى حيثُ شاء، فتارةً الكعبة وطورًا إلى البيتِ المقدسِ، لا اعتراضَ عليه لأنّه المالكُ وحده"[5].

توجيهُ المخصُوصِ بالذِّكرِ في قوله ﴿ٱلۡمَشۡرِقُ وَٱلۡمَغۡرِبُۚ﴾:

ذِكرُ المشرقِ والمغربِ يشمل بقيَّةَ الجهات، بخلافِ العكسِ

اقتصرتِ الآيةُ على ذكرِ المَشْرِقِ وَالمَغْرِبِ، ذلك لأنَّ الشمس لها جهة شروق وغروب بها تأتي على الأرضِ كلِّها على مدارِ العام، ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِرَبِّ ٱلۡمَشَٰرِقِ وَٱلۡمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ٤٠﴾ [المعارج: 40]، فالمقصودُ بالمشرقِ والمغربِ كلُّ بقعةٍ تشرقُ فيها الشَّمسُ وكلُّ بقعةٍ تغربُ فيها، هذا توجيهُ.

(1) الواحدي، البسيط: 3/368.
(2) الكيا الهراسي، أحكام القرآن: 1/20.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/11.
(4) البيضاوي، أنوار التنزيل: 1/110.
(5) النسفي، مدارك التنزيل: 1/136-137.

وتوجيهٌ آخر، أنَّ جهةَ الشَّرقِ والغربِ أوضحُ في ذهنِ المخاطَبِ، فلمَّا جعلهما له وحده، ثبتَ لُزومًا له الشَّمالُ والجنوبُ، فهما الأهمُّ في استعمالِ النّاس؛ فَبِهما يُعيِّنُ النّاس الشّمالَ والجنوبَ، وهما الأسهلُ في التَّعيينِ، فهما يُعرَفانِ بشروقِ الشّمس، أو النّجوم، وغروبِهما، ويَعُمّان جميعَ نقاطِ الأرض، أمّا الشّمالُ والجنوبُ فجهاتٌ لا تتحدّدان بذاتهما، فالمرادُ جميعُ الجهاتِ؛ من بابِ الكنايةِ عن الأرضِ كلِّها[1]، أي: إنّ اللّه تعالى مالكُ الأرضِ شرقيِّها وغربيِّها وشماليِّها وجنوبيِّها، واقتُصِرَ على ذكر الشّرق والغرب؛ لأنّ منْ مَلَكَهما ملكَ الأرضَ كلّها، فلَا فرق بين قريب وبعيد، وشَرْقٍ وغَرْبٍ، وإذا كان هو المالكَ للأرض، فهو يتخيَّرُ لموضع قبلتِهِ ما يشاءُ من أرضه وهو الحكيمُ العليم[2].

فنُّ الطّباقِ في قوله: ﴿ٱلۡمَشۡرِقُ وَٱلۡمَغۡرِبُۚ﴾:

جمعتِ الآيةُ بين ضدّين متتابعين، وهما المشرق والمغرب، فهذا طباق[3]، وهو من محسّناتِ الكلام الجماليّةِ.

دلالةُ التَّعبيرِ بالاسمِ الموصول ﴿مَن﴾:

استعملَ الاسمَ الموصولَ ﴿مَن﴾ دون (الّذي، أو الّذين)؛ لأنّ (الّذي) وفروعه يطلقُ على محدّد معيّن بذاته، ولا عمومَ فيه؛ فلو قال: (يهدي الّذين يشاءُ) لكان المعنى أنّهم أشخاصٌ محدّدون مهما كثُروا، وأمّا قوله: ﴿مَن يَشَآءُ﴾ فهو عامٌّ غيرُ مُحدَّد؛ وهو أيضًا يشملُ الجنسين المذكّر والمؤنّث من غير حاجةٍ للتّغليب، فلو قال: (الّذين) لكان شمولُ الإناث بالتّغليبِ لا باللّفظِ.

(من) لفظٌ عامٌّ غيرُ مُحدَّد؛ يشملُ الجنسين من غير حاجةٍ للتّغليبِ

بلاغةُ الاستعارةِ في قوله: ﴿صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾:

المركّبُ الوصفيُّ ﴿صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ١٤٢﴾ في قوله ﷻ: ﴿يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ١٤٢﴾ استعارة تصريحيّة[4]؛ لأنّه صرّح بلفظِ

استعارةٌ تصريحيّةٌ؛ بتشبيهِ الحقِّ بالطَّريقِ الواضحِ الموصِلِ إلى الجنَّةِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/12.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 1/437.
(3) الطّباق: ويسمّى المطابقة، والتّضاد، والتّطبيق، والتّكافؤ، والتّطابق، وهو أن يجمع المتكلم في كلامه بين لفظين، يتنافى وجود معناهما معاً في شيء واحد، في وقت واحد، بحيث يجمع المتكلم في الكلام بين معنيين متقابلين، ينظر: أحمد الهاشمي، جواهر البلاغة، ص: 303.
(4) الاستعارة التّصريحية، أو المصرّحة: هي ما صُرّح فيها بلفظ المشبه به، أحمد الهاشمي، جواهر البلاغة، ص: 267.

المشبّهِ به ﴿صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ١٤٢﴾؛ حيثُ شبّه الحقَّ، أو الإسلامَ بالطّريقِ الواضحِ المستقيم، فحذفَ المشبَّهَ، وصرّحَ بالمشبَّهِ به، والاستعارةُ مبنيّةٌ على تناسي التّشبيهِ، فيكونُ المشبّهُ كأنّه هو المشبّهُ به، فتكونُ فيها مبالغةٌ، وأثرُ الاستعارةِ في النّفوس لا يخفى، ومعنى إلى صراطٍ مستقيم: "إلى دينٍ مستقيم، يريدُ: أنّي قد رضيتُ قبلةَ أولئك، ورضيتُ هذه القبلةَ لمحمّد ﷺ، "ودينُ الله" يسمّى: صراطًا مستقيمًا؛ لأنّه يؤدّي إلى الجنّة؛ كما يؤدّي الطّريقُ المستقيمُ إلى البُغيةِ"[1].

❁ الفروقُ المعجميّة لألفاظ الآية:

الصِّرَاط والطَّرِيق والسّبيل:

الصِّرَاطُ لسهولتِهِ يعبّرُ به عن الدّينِ

الصِّرَاطُ: الطَّرِيقُ السّهلُ، قَالَ الشّاعر[2]:

حشونا أَرضهم بِالخَيْلِ حَتَّى *** تركناهم أذلّ من الصِّرَاط

فلذا يوصفُ به الطّريقُ الموصِلُ للّه تعالى: ﴿ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ٦﴾ [الفاتحة: 6]؛ فلسهولتِهِ يعبّرُ به عن الدّينِ.

يستعملُ (السّبيلُ) لكلّ ما يتوصّلُ به إلى شيءٍ خيرًا كان أو شرّا، والغالبُ استعمالُهُ في الخَيرِ

والسّبِيلُ: الطّريقُ الّذي فيه سهولةٌ، وجمعه سُبُلٌ، ويستعملُ السّبيلُ لكلّ ما يتوصّلُ به إلى شيء خيرًا كان أو شرّا، قال: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ﴾ [النّحل: 125][3]؛ ولأنّ السّبيلَ يستعملُ لكلّ ما يتوصّلُ به، أطلِق على العملِ الّذي يكونُ للّه تعالى، كالقتالِ في سبيله؛ والغالبُ استعمالُهُ في الخَيرِ.

(الطّريقُ) لا يقتضي السّهولةَ، ولا يكاد يرادُ به الخَيرُ إلّا مقترنًا بوصفٍ أو إضافةٍ تخلِّصُهُ لذلك

والطّريق: لا يقتضي السّهولة، ولا يكاد يرادُ به الخَيرُ إلّا مقترنًا بوصفٍ أو إضافةٍ تخلِّصُهُ لذلك، كقوله تعالى: ﴿يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٣٠﴾ [الأحقاف: 30][4]، والسّبيلُ أوسعُ من الطّريق؛ لأنّ الطّريق لَا يَقْتَضِي السّهولة[5].

---

(1) الواحدي، التفسير البسيط: 3/369.

(2) العسكري، الفروق اللّغويّة: ص: 298.

(3) الراغب، المفردات: (سبل).

(4) الشيخ بيت الله بيات، معجم الفروق اللّغويّة، ص: 313.

(5) العسكري، الفروق اللّغويّة، ص: 298.

مُستَقيم وقِيَم:

الوصفُ بـ(قِيَمًا) فيه مُبَالَغَةٍ؛ لأنّه مصدرٌ، و(مُستَقيم) دالٌّ على الاستقامةِ بدون مبالغةٍ

جاء في الذّكرِ الحكيمِ وَصْفُ الصّراطِ بالاستقامةِ، والدّين بالقِيَم، فما الفرقُ بين المفردتين؟ الجواب: اللّفظان من مادّة (قام)، والأصلُ يدلُّ على انْتِصَابٍ، قام: إذا استوى منتصبًا، القَوَامُ الطُّولُ الحَسَنُ[1]، والقِيَم: الاسْتِقَامَة، وقَول الله ﷻ: ﴿دِينًا قِيَمًا﴾ [الأنعام: 161]: القيِّم، هُوَ الـمُسْتَقيم[2].

ومعنى قوله تعالى: ﴿مُّسْتَقِيمٍ﴾: من (الاستقامةِ) وهي في اللّغة: الاستواءُ، يقال: قام إذا استوى مُنتصبًا، وأقامه: إذا سوّاه، وقاومه إذا ساواه في القوّة، وقِيمة الشّيء ما يساويه من ثمنِهِ، ومعنى الاستقامةِ استمرارُ الشّيء في جهة واحدة[3]، في المعنى العامّ: اللّفظان (مُستَقيم) و(قِيَم) ينحدران من أصلٍ واحدٍ، والفرقُ يظهرُ من بنية كل لفظ؛ فالقِيَم: "مَصْدَرٌ بِمَعْنَى القِيَام كالصّغر، وَالكِبَرِ، وَالحِوَلِ، وَالشِّبَعِ، وَالتَّأْوِيلُ: دِينًا ذَا قِيَم، وَوَصَفَ الدِّينَ بِهَذَا الوَصْفِ عَلَى سَبِيلِ الـمُبَالَغَةِ"[4]؛ لأنّ الوصفَ بالمصدر يفيدُ المبالغةَ؛ فكأنّه هو الاستقامةُ بعينها؛ مبالغةً في وصفه بالاستقامة لما فيه من العَدلِ والخير وحفظِ الحقوق، فالوصفُ به أبلغُ من الوصفِ بـ (مُستَقيم) الدّالّ على الاستقامةِ بلا مبالغة.

والسّياقُ يظهرُ ذلك بجلاء؛ فجاء الوصفُ بالمصدر مع لفظ الدّين: ﴿دِينًا قِيَمًا﴾ الّذي جاء مع ألفاظ: صِراط، وملّة، وحَنيف، ونفي الشّرك: ﴿صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًاۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ١٦١﴾ [الأنعام: 161]؛ لأنّه في مقام بيان مزيّةِ هذا الدّين واستقامتِهِ والاهتمامِ به، وقد استُعْمِلَ وصفُ الدّين بالمبالغةِ من خلال استعمال المصدر للوصف في معرض الإخبار عن كونه قد هُديَ إلى هذا الدّين: ﴿قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا﴾ [الأنعام: 161]، أمّا في سورةِ الفاتحةِ: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ٦﴾ [الفاتحة: 6] فكان طلبًا للهدايةِ والثّباتِ عليها فجاء وصفُ الصّراط بأنّه مُستقيمٌ بدون مبالغةٍ.

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة؛ والأزهري، تهذيب اللغة: (قام).
(2) الأزهري، تهذيب اللغة: (قام).
(3) الواحدي، البسيط: 1/528.
(4) الرّازي، التفسير الكبير: 14/190-191.

التّولية والصَّرْف:

الصّرفُ تحوّلٌ عامّ، و(التولّي عن القبلةِ) انصرافٌ عن وجهةٍ خاصّةٍ

أصل مادّة (ولي) يَدُلُّ عَلَى قُرْبٍ، الوَلَاءُ والتَّوَالِي: أن يَحْصُلَ شيئان فصاعدًا حصولًا ليس بينهما ما ليس منهما، ويُستعار ذلك للقرب من حيث المكانُ، وإذا عُدّي الفعلُ (ولي) بـ (عن) لفظًا أو تقديرًا اقتضى معنَى الإعراضِ وتركِ القرب، ومن معانيه أيضًا لزومُ الشّيء شيئًا آخرَ تبعًا له، ومن هنا دلَّت على الاتّجاه إلى وِجْهٍ، ولَّى وجهَه شطْر كذا: وَجَّهَهُ إليه: ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥۗ﴾ [البقرة: 144]، فهذه بمعنى الإقبالِ والاتّجاه إلى الشّيء، وإذا عُدّي بـ (عن) فهي بمعنى الانصراف[1]، فهو انصرافٌ عن الجهةِ.

وأصل مادّة (صرف) يَدُلُّ عَلَى رَجْعِ الشَّيْءِ، وهو: ردُّ الشّيء من حالةٍ إلى حالةٍ، أو إبدالُه بغيره، يقال: صَرَفْتُهُ فَانْصَرَفَ، فقوله تعالى: ﴿ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ﴾ [آل عمران: 152]، مِنْ ذَلِكَ، صَرَفْتُ القَوْمَ صَرْفًا وَانْصَرَفُوا، إِذَا رَجَعْتَهُمْ فَرَجَعُوا، وقوله تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ﴾ [الأعراف: 146]، أي سأنحّي وأَعْدلُ بهم عنها، يقال: صرفه عن كذا: إذا عَدَلَ به عنه ونحّاه[2]، فالتّوليةُ تدلُّ على الاتّجاه والتَّوجُّه، وعند تعديةِ الفعل (ولّى) بـ (عن) فإنّه يدلُّ على الصّرفِ بخصوصيّة، وخصوصيّتُهُ في الآية الدّلالةُ على الانصرافِ عن اتّجاه معيّن: ﴿مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ﴾ بمعنى ما صرفَهُم عن هذا الاتّجاه وحوّلهم عنه، والصّرف تحوُّلٌ عامّ، بمعنى الرّدّ والإرجاع؛ جاء في سياقِ القتال، فصرفَهُم بمعنى ردّهُم وحوّلهُم، وهو ردٌّ عامٌّ لا يتعلّق بالتّوجه كما في ﴿وَلَّىٰهُمْ عَن﴾، فالصّرف تحوّل عامّ، و(التولّي عن القبلةِ) هو انصرافٌ عن وجهةٍ خاصّةٍ.

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة؛ الرّاغب، المفردات؛ جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (ولي).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة؛ الرّاغب، المفردات؛ السّمين، عمدة الحفّاظ: (صرف).

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗاۗ وَمَا جَعَلۡنَا ٱلۡقِبۡلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيۡهَآ إِلَّا لِنَعۡلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِۚ وَإِن كَانَتۡ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ١٤٣﴾ [البقرة: 143]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

ذكَر سبحانه في الآيةِ السّابقة الهداية المطلقة، وذكرَ في هذه الآيةِ السّببَ المُوجبَ لهدايةِ هذه الأمّة

الآيةُ السّابقةُ انتهت بهدايةِ المسلمين إلى ﴿صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ١٤٢﴾، وابتدأت هذه الآيةُ بوصفِ المسلمين بأنّهم (أمّة وسَط): أمّةُ العدلِ والخيريّةِ الّتي يصنعُها الصّراطُ المستقيمُ ويتسبّبُ في إخراجها للعالَمين، "ولما كان قوله: ﴿يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ١٤٢﴾، والمطلقُ يُحمَلُ على المقيّدِ، فإنّ الهدايةَ والضّلالَ لهما أسبابٌ أوجبتها حكمةُ اللّه وعدلُه، وقد أخبرَ في غير موضع من كتابه بأسبابِ الهداية، الّتي إذا أتى بها العبدُ حصلَ له الهدى كما قال تعالى: ﴿يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ﴾ [المائدة: 16]، ذكرَ في هذه الآيةِ السّببَ المُوجبَ لهدايةِ هذه الأمّةِ مطلقًا بجميع أنواع الهدايةِ، ومنة اللّه عليها فقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا﴾"[1].

شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

جَعَلْنَاكُمْ أوجدَكم على هيئةٍ ونصبَكُم وأقامَكُم

1) ﴿جَعَلۡنَٰكُمۡ﴾: يقالُ: جَعَلْتُ هذا البابَ من شَجَرة كذا: صَنَعْته، وجَعَلْت الطّينَ خزفًا، وجعلت الشّيء: صَنَعته وصوَّرته[2]، والأصل: تحويلُ الشّيءِ إلى وضعٍ أو هيئةٍ معينةٍ (بعد تحوّل كتلته أو انتقالها)، كالفسيلةِ تُحَوَّل وتصيرُ نخلةً، وجعلَ في سياقِ الآيةِ:

(1) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 70.
(2) ابن منظور، لسان العرب: (جعل).

يدلُّ على التّحويل والتّهيئة على وضع خاصّ، وهو تحويلٌ للهيئةِ بإنشاءِ هيئةٍ جديدةٍ، فهو إيجادٌ يتأتّى منه النّصْبُ (الإقامة)، ومن هذا النّصب: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ﴾ [الأنعام: 112]؛ أي انتصب لك أعداءٌ كما انتصبوا للأنبياء من قبلك[1].

معنى الأُمَّة في سياق الآية المُسلمونَ

2) ﴿أُمَّةً﴾: يُطلقُ لفظ (أمّ) على الأَصْلِ وَالمَرْجِعِ وَالجَمَاعَةِ وَالدِّينِ[2]، كلُّ شيءٍ يضمُّ إليه سائر ما يليه فإنَّ العربَ تُسمِّي ذلك الشَّيْء أُمًّا، وَمِنْ ذَلِكَ أُمُّ الرَّأْسِ وَهُوَ الدِّمَاغُ[3]، ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ [النّحل: 120]، أَيْ: إِمَامًا يُهْتَدَى بِهِ، وَهُوَ سَبَبُ الاجتِمَاعِ، والأصلُ: تضَامُّ شيءٍ أو أشياءٍ مُتجانسةٍ، كما تضمُّ تلك الجلدةُ الرّقيقة مادّةَ المخ[4].

أَعْدَلُ الشَّيْءِ أَوْسَطُهُ وَوَسَطُهُ

3) ﴿وَسَطًا﴾: الأصل يَدُلُّ عَلَى العَدْلِ وَالنَّصَفِ، وَأَعْدَلُ الشَّيْءِ: أَوْسَطُهُ وَوَسَطُهُ[5]، وهو كون الشّيء مكتنفًا من حواليه أو آخذًا منهما بالتّساوي امتدادًا أو قدرًا، "الْوَسَطُ: اسْمٌ لِمَا بَيْنَ الطَّرَفَيْنِ وُصِفَ بِهِ، فَأُطْلِقَ عَلَى الخِيَارِ مِنَ الشَّيْءِ"[6]؛ "فوسَط الشّيء هو أَصْوَنُه وأَبْعَدُه عن الابتذال، وهو أيضًا لُبّ الشّيء، وتحقّقت هذه الملاحظُ في ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ عُدولًا خيارًا، أخذًا من التّوازن بين النّاحيتين، والمعنى نفسُه هو المرادُ – لدى الجمهور –في قوله تعالى: ﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [القلم: 28]، أفضلُهم وأرجحُهم عقلًا[7]، وهو في الآية هنا بمعنى العدل والخير، أي: عدولًا خيارًا.

(1) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (جعل).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أمم).
(3) الخليل، العين: (أمم).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (أمم).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (وسط).
(6) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/6.
(7) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (وسط).

4) ﴿شُهَدَآءَ﴾: أصلُ مادّة (شهد) يدُلُّ عَلَى حُضُورٍ وَعِلْمٍ وَإِعْلَامٍ[1]، ثم صُرّفت الكلمة في أداء ما تقرّر عِلْمُه في النّفس، وشهد الشّاهد عند الحاكم: بيّن ما يعلم وأظهره، والشّهادة: إخبارُ الإنسان بما عَلِمه[2].

فالشّهداءُ في الآية: الّذين قامُوا بالمُعاينة، ويلزمهم: الحضورُ والعِلمُ والإعلامُ لاحقًا.

5) ﴿يَنقَلِبُ﴾: أَصْلُ مادّة (قَلَبَ) رَدُّ شَيْءٍ مِنْ جِهَةٍ إِلَى جِهَةٍ، ثم عبّروا به عن مجرّد التّغيير الكثير[3]، "الانقِلَابُ: الانصِرَافُ وَالارتِجَاعُ، وهُو لِلمُطَاوَعَةِ، قَلَبْتُهُ فَانْقَلَبَ"[4].

6) ﴿عَقِبَيْهِ﴾: أَصْلُ مادّة (عَقب) يَدُلُّ عَلَى تَأْخِيرِ شَيْءٍ وَإِتْيَانِه بَعْدَ غَيْرِه[5]، وانقلب على عقبيه، نحو رجع على حافرته[6]، والمعنى في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ [آل عمران: 144] أي: يرتدّ ناكصًا من حيثُ جاء، وهي كنايةٌ عن النّكوصِ عن الهُدَى[7].

7) ﴿لَكَبِيرَةً﴾: أَصْلُ مادّة (كبر) يَدُلُّ عَلَى خِلَافِ الصِّغَرِ[8]، وَالكِبْرُ بتسكين الباء: العَظَمَةُ، وَكَذَلِكَ الكِبْرِيَاءُ، ومن دلالة العظمةِ استعملت للثّقل والعِظَم والمشقّة، "وتستعملُ الكبيرةُ فيما يشقّ ويصعُب، نحو: ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [البقرة: 45][9]، أي: ثقُلَ عليهم ما تدعوهم إليه، والمعنى نفسُه هو الّذي جاء في قوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ﴾، فهي بمعنى ثقيلةٌ شاقّة؛ والثّقل لازمٌ للعِظَم[10].

8) ﴿لِيُضِيعَ﴾: أَصْلُ مادّة (ضيع) يَدُلُّ عَلَى فَوْتِ الشَّيْءِ وَذَهَابِهِ وَهَلَاكِهِ[11]، ضاع

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (شهد).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (شهد).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (قلب).
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/7.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عقب).
(6) الرّاغب، المفردات: (عقب).
(7) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (عقب).
(8) ابن فارس، مقاييس اللغة: (كبر).
(9) الرّاغب، المفردات: (كبر).
(10) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (كبر).
(11) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ضيع).

الشيء يضيع ضياعًا: إذا فُقِد ولم يعلم موضعه، واستُعملَ في الإبطالِ كالإضلالِ، فيقالُ: أضاعَ عَمَلَهُ وضيّعَه[1].

9) ﴿لَرَءُوفٌ﴾: أصلُ مادّة (رأف) يَدُلُّ عَلَى رِقَّةٍ وَرَحْمَةٍ[2]، والرَّأفَةُ: أشَدُّ الرَّحْمَةِ، أو أرَقُّها[3]، أي: رقّةٌ تنبعُ من الدّاخل، وتكون لتخفيف العذابِ، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ ٱللَّهِ﴾ [النّور: 2]، أمّا حين تُسنَدُ الرّأفةُ والرّحمةُ إلى اللّه تعالى فالمرادُ آثارُهما: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ١٤٣﴾[4]، "وَاسمُ الفَاعِلِ جَاءَ لِلمُبَالَغَةِ عَلَى فَعُولٍ، كَضَرُوبٍ، وَجَاءَ عَلَى فَعِلٍ، كَحَذِرٍ، وَجَاءَ عَلَى فَعُلٍ، كَنَدُسٍ، وَجَاءَ عَلَى فَعْلٍ، كَصَعْبٍ"[5].

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

إخبارٌ بخيريّةِ الأمّةِ، وشهادتها على الأمم، وذِكرُ نبأ تحويل القبلةِ

وكما هديناكُم - أيّها المسلمون - إلى الطَّريق الصّحيح في الدّينِ، جعلناكُم أمّةً خيارًا عدولًا؛ لتشهدُوا على الأمم في الآخرةِ أنّ رسلَهم بلَّغتهم رسالات ربّهم، وسوف يكونُ الرسولُ في الآخرة شهيدًا عليكم أنَّه بلَّغكم رسالةَ ربّه، وما جعلنا - أيّها الرسولُ - قبلةَ (بيت المقدِس) الّتي كنت عليها، ثمّ صرفناك عنها إلى الكعبةِ بـ (مكّة)، إلَّا ليظهرَ ما علِمناه في الأزلِ؛ عِلمًا يتعلّقُ به الثّوابُ والعقابُ فيظهر في الواقع مَن يتبعُك ومَن ينقلبُ مرتدًّا عن دينه لشكِّه ونفاقِه، وإنّ هذه الحالَ الّتي هي تَحَوّلُ المسلم في صلاتِه من استقبال بيتِ المقدس إلى استقبال الكعبةِ لثقيلةٌ شاقّةٌ إلّا على الّذين هداهُم اللّهُ ومَنَّ عليهم بالإيمان والتّقوى، وما كان اللّهُ ليضيعَ إيمانَكم به واتِّباعَكم لرسولِه، ويُبطلَ صلاتَكم إلى القبلةِ السّابقة؛ إنّه - سبحانه وتعالى - بالنّاس لرءوفٌ رحيمٌ[6].

(1) السمين، عمدة الحفّاظ: (ضيع).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (رأف).
(3) الفيروابادى، القاموس المحيط: (رأف).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (رأف).
(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/7.
(6) نخبة من العلماء، التفسير الميسر: 22.

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمۡۚ﴾؛ أي: صلاتكم إلى بيتِ المقدس، استُدِلَّ به على أنَّ الإيمانَ قولٌ وعملٌ[1].

سببُ النّزول:

أخرج البخاريُّ وأحمدُ ومسلمٌ والنَّسائيُّ عن البراءِ بن عازب رضي الله عنه قال: إنَّ رسولَ الله ﷺ صلّى إلى بيت المقدس ستَّةَ عشر شهرًا، أو سبعةَ عشرَ شهرًا، وكان يُعجِبه أن تكون قبلته قِبَل البيتِ، وأنّه صلّى صلاة العصر، وصلّى معه قومٌ، فخرج رجلٌ ممّن كان صلّى معه، فمرَّ على أهل المسجدِ وهم راكعون، قال: أشهدُ باللّه لقد صلّيتُ مع النّبي ﷺ قِبَلَ مكّة، فداروا كما هُمْ قِبَل البيتِ، وكان الّذي ماتَ على القبلةِ قبل أن تحوّل قِبل البيت رجالٌ قُتِلُوا، لم ندرِ ما نقول فيهم فنزل: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ١٤٣﴾[2].

دلّت الآية، وكذلك مجموع آيات تحويل القبلة، بما فيها من تهيئةٍ بأشكال متعدّدة قبل تغيير القبلة على أنّ التّغيير يُشترَطُ له التّدرج؛ فإنّ "الخروجَ عن العاداتِ وتَركَ الأمورِ المألوفاتِ، ممّا يشقُّ على النّفوسِ"[3]، فعلى من يتولّى مهامّ التّربية وقيادةِ المجتمعاتِ أن يتدرّجوا في مثل هذه الأمور، لأنّها ممّا يشقُّ على النّاس.

التّدرجُ في التّغيير، وبيانُ أنَّ الخروج عن العاداتِ ممّا يشقُّ على النّفوسِ

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبلاغيُّ:

فنُّ الإطنابِ بقصدِ التَّمهيدِ:

قولُه تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗاۗ﴾ من قبيل الإطناب[4]؛ لأنّها مُعترِضةٌ بين جملتي ﴿۞سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ﴾ و﴿وَمَا جَعَلۡنَا ٱلۡقِبۡلَةَ﴾، فأصْلُ الكلام بلا إطنابٍ: (سيقولُ السّفهاءُ من النّاس ما ولّاهم عن

الإطنابُ يُؤسِّسُ لمعنًى جديدٍ، وهو شهادةُ هذه الأمّة على الأمَمِ

(1) السيوطي، الإكليل في استنباط التنزيل، ص: 33.
(2) خالد المزيني، المحرر في أسباب نزول القرآن: 1/220-221.
(3) ابن عجيبة، البحر المديد: 1/176.
(4) الإطناب: زيادة اللفظ على المعنى لفائدة، أو هو تأدية المعنى بعبارة زائدة عن متعارف أوساط البلغاء؛ لفائدة تقويته وتوكيده، أحمد الهاشمي، جواهر البلاغة، ص: 201.

قبلتهم الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لِلَّهِ الـمَشرِقُ وَالـمَغرِبُ يَهدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ وما جعلنا القبلةَ الّتي كنتَ عليها)، فلمّا انتهت الجملة الأولى ببيانِ هدايةِ الأمّة إلى صراطِ اللّهِ المستقيم، انتقلَ - قبل أنْ يُكملَ الحديثَ عن القبلة - إلى بيان خيريّةِ هذه الأمّة وعدالتِها، ثمّ بيّنَ في هذا الإطنابِ سببَ جعل الأمّة عُدولًا خيارًا وهو الشّهادة على الأمم؛ حيثُ إنّ عدالةَ الأمّة وكونَها وسطًا لا علاقةَ له بالقبلة؛ فجيء بهذا الوصف ليُؤسَّسَ عليه معنًى جديدٌ، وهو شهادةُ هذه الأمّة على الأمم؛ لأنّ الآياتِ الواقعةِ بعدها هي في ذكر أمر القبلة، وهذه الآية لا تتعلّق بأمر القبلة"[1].

تشريفُ المؤمنين بمضمُون الخِطابِ

توجيهُ الخطابِ في قولِه: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ﴾ "إلى المؤمنين بين الخِطابين المُختصّين بالرّسولِ ﷺ لتأييد ما في مضمون الكلامِ من التَّشريفِ"[2].

بيانُ المشبّه به في قوله ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ﴾:

كثرةُ المُشبَّهات وقبولُ احتمالِها دليلُ اعتدالِ هذه الأمّةِ ووسطيّتها

قد يسأل سائلٌ: "ما المشبّهُ وما المشبّهُ به في قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾؟ والجوابُ بتلخيص أقوالِ المفسِّرين:

الأوَّل: "أَنَّهُ شَبَّهَ جَعْلَهُمْ أُمَّةً وَسَطًا بِهِدَايَتِهِ إِيَّاهُمْ إِلَى الصِّرَاطِ الـمُستَقِيم، أَي: أَنعَمْنَا عَلَيْكُم بِجَعْلِكُمْ أُمَّةً وَسَطًا، مِثْلَ مَا سَبَقَ إِنعَامُنَا عَلَيْكُم بِالهِدَايَةِ إِلَى الصِّرَاطِ الـمُستَقِيم، فَتَكُونُ الإِشَارَةُ بِذَلِكَ إِلَى الـمَصدَرِ الدَّالِّ عَلَيْهِ ﴿يَهْدِى﴾، أي: جعلناكم أمّةً خِيَارًا مِثلَ مَا هَدَيْنَاكُمْ بِاتِّبَاعِ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَمَا جَاءَ بِهِ مِنَ الحَقِّ.

"الكافُ متعلّقةٌ بالمعنى الذي في قوله: ﴿يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾؛ أي: كما هديناكُم إلى قبلةِ إبراهيمَ وشريعتِه كذلكَ جعلناكُم أمّةً وسطًا "[3].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/15.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/171-172.
(3) ابن عطية، المحرر الوجيز: 1/218-219.

الثّاني: أَنَّهُ شَبَّهَ جَعْلَهُمْ أُمَّةً وَسَطًا بِجَعْلِهِم عَلَى الصِّرَاطِ المُستَقِيم، أَيْ: جَعَلنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا مِثلَ ذَلِكَ الجَعلِ الغَرِيبِ الَّذي فِيهِ اختِصَاصُكُم بِالهِدَايَةِ؛ لِأَنَّهُ قَالَ: يَهدِي مَنْ يَشاءُ، فَلَا تَقَعُ الهِدَايَةُ إِلَّا لِمَنْ شَاءَ اللّٰه تَعَالَى؛ "وذلكَ إشارةٌ إلى مصدرِ ﴿جَعَلْنَٰكُمْ﴾ لا إلى جعلٍ آخرَ مفهومٍ ممّا سبق كما قيل"[1].

الثّالث: كَمَا جَعَلنَا قِبلَتَكُمْ أفضلَ القِبَلِ، جَعَلنَاكُمْ خَيرَ الأُمَمِ[2].

الرّابع: كَمَا جَعَلنَا قِبْلَتَكُمْ مُتَوَسِّطَةً بَينَ المَشرِقِ وَالمَغرِبِ، جَعَلنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا.

الخامس: كَمَا جَعَلنَا الكَعْبَةَ وَسَطَ الأَرْضِ، كَذَلِكَ جَعَلنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا.

وجميعُ هذه الأوجه فيها من اللُّطفِ الدّلاليّ، والرّبطِ المعنويِّ ما يجعلُها مقبولةً على حدٍّ سواء، وإن اختلفت في نسبِها، فلاختلافِ تقديرِها.

دلالةُ اسمِ الإشارةِ في قوله ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾:

استعمالُ اسمِ الإشارة الخاصّ بالبعيدِ لإفادةِ التّعظيمِ والإشادةِ بِعُلُوّ المنزلةِ

أفادت اللّامُ في "كذلك" الإشارةَ للبعيدِ، والإشارة للبُعد وظّفها القرآنُ الكريمُ لبيان عظمة المُشار إليه وعُلُوّ مكانته، كقوله ﷻ: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ﴾، وهو قريبٌ مكانيًّا، ولكنّه بعيدٌ اعتباريًّا، ويظهرُ هذا المعنى في هذه الآية الكريمةِ التي تتحدَّثُ عن قضيّة كبيرة هي تنصيبُ أمّةٍ في مقامٍ رفيع، وإشادةٌ بشأنها في عالَم الشّعوب والأُمم، وتنويهٌ بخيريّتها ووسَطِيّتها، وهذا شأنٌ عظيمٌ ناسبه استعمالُ اسمِ الإشارة الخاصّ بالبعيدِ لإفادةِ التّعظيم والإشادةِ بِعُلُوّ المنزلةِ.

سببُ الخطابِ بالمفردِ ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾:

إغناءُ اللّحاقِ عنه؛ تخفيفًا واكتفاءً بدلالةِ المَقامِ عليه

يتضمّن اسم الإشارة حرفًا دالًّا على الخطاب، والأصلُ أن يكون مُناسبًا للمخاطَب، كقول يوسف عليه السلام: ﴿ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ﴾ [يوسف: 37] مُخاطبًا صاحِبَيْه في السّجن، وقول امرأة العزيز مُخاطبةً النّسوة اللاتي كُنّ في مجلسها: ﴿فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ﴾ [يوسف: 32]، وفي هذه الآية، الخطابُ مُوَجّهٌ إلى جماعة المسلمين:

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/172.

(2) البيضاوي، أنوار التنزيل: 1/110.

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا﴾، فكان مقتضى الظّاهر أن يُقال: كذلكم، ولكنّه وحّد الخطاب[1]؛ لأنّ تعيينَ المخاطَبِ ظاهرٌ في ﴿جَعَلۡنَٰكُمۡ﴾ التّالي لاسمِ الإشارة، فيكونُ تخفيفًا؛ اكتفاءً بدلالةِ المَقامِ مع عدمِ إثقال النّصّ.

دلالةُ الانتقالِ من الحديثِ عن السُّفهاءِ إلى خطابِ المُؤمنين:

يُمثِّلُ الانْتقالُ إهمالَ السُّفهاءِ والتَّوجُّه كليًّا إلى المُؤمنين

في الآية السّابقة كان حديثُ الآيةِ عن السّفهاءِ، وكان الكلامُ عنهم بأسلوبِ الغَيْبةِ، وفي هذه الآيةِ انتقلَ إلى مخاطبةِ المُسلمين بيانًا لفضلِهم، وإظهارًا لمزيدِ تكريمِهم، فالسِّياق ضربَ صَفْحًا عن السُّفهاءِ، بهذا الوصفِ المشينِ، وتوجَّه بخطابِ المُسلمين خطابًا يلملم معانيَ الشَّرفِ والمجدِ الدَّائمِ.

إيثارُ الوصفِ بالمصدرِ المُذكَّرِ ﴿أُمَّةٗ وَسَطٗا﴾:

الوصفُ بالمصدرِ يفيدُ المبالغةَ، في بيانِ وسطيَّةِ الأمَّةِ

الأصلُ في التّعبير الوصفُ بالمُشتَقّ، ولكنّ البيانَ القرآنيَّ آثرَ لفظَ ﴿وَسَطٗا﴾ وهو مصدرٌ دون متوسِّطةً؛ تصويرًا للمبالغةِ في وصف أفراد الأمّة كلِّها بأنّهم عُدولٌ خيارٌ أهلُ فضلٍ، والوصفُ بالمصدر يدخلُ في باب المبالغةِ، كأنّهم تحوّلوا حقيقةً إلى كونِهم وَسَطًا، وجاءَ الوصْفُ مذكَّرًا "لِكَونِهِ اسمًا كَانَ لِلوَاحِدِ والجمعِ وَالمُذَكَّرِ وَالمُؤَنَّثِ بِلَفظٍ وَاحِدٍ"[2]، وفيه أنَّ هذه الأمَّةَ يحملُ بعضُها بعضًا، فهم مُتكاتفون على الخيرِ، آمرون بالمعروف، ناهون عن المنكر، وبه كانوا أمَّةً وسطًا؛ إذ وسطيَّةُ الإسلامِ تعني الالتزامَ بشرعِ اللّه تعالى، كما أنزلَه دون تحريفٍ مقصودٍ، أو تأويلٍ لموافقةِ الهوى بحجَّةِ الوسطيَّةِ، فالوسطيَّةُ هي حكمُ اللّه تعالى لا آراءُ الرِّجالِ، ولا أهواءُ ذوي المالِ.

(1) البروسوي، روح البيان: 1/247-248

(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/6.

لُطفُ الاستعارةِ في وصفِ ﴿أُمَّةً﴾ بـ ﴿وَسَطًا﴾:

الخصالُ المحمودَةُ وسطٌ بين الخصالِ الذَّميمةِ، وهذا حالُ الأمَّةِ مع غيرِها

الوسطُ "في الأصل اسمٌ لما يستوي نسبةُ الجوانبِ إليه كالمركز، ثمَّ استُعيرَ للخصالِ المحمودة البشريّةِ؛ لكونها أوساطًا للخصال الذَّميمةِ المكتنفَةِ بها في طرفي الإفراطِ والتّفريطِ كالجُودِ بين الإسرافِ والبُخلِ، والشّجاعةِ بين الجُبن والتّهور"[1]، وعلى ذلك فمعنى: "﴿أُمَّةً وَسَطًا﴾؛ أي: خيارًا عدولًا، فالوسطُ مستلزِمٌ للخيار والعُدول، فأطلقَ الملزومَ وأراد اللّازمَ، فيكونان استعارةً"[2]، والأمَّةُ وسطٌ بين الأممِ؛ كالخصالِ الحميدةِ بين الخصالِ الذَّميمةِ.

معنى حرفِ اللّام في ﴿لِّتَكُونُواْ﴾:

معيارُ الوسطيَّةِ الشَّهادةُ على النَّاسِ

اللَّامُ في قَوْلِه: ﴿لِّتَكُونُواْ﴾ هِيَ لَامُ كَيْ، فَمَجِيءُ مَا بَعْدَهَا سَبَبًا لِجَعْلِهِم خِيَارًا[3]؛ فقوله تعالى: ﴿لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ تعليلٌ لجعل المسلمين أمّةً وسطًا، وفيه إعدادٌ نفسيٌّ لهم ليأخذُوا الأمانةَ بقوّة ويشهدوا شهادةَ حقٍّ حين يُطلَبُ منهم ذلك، فإنْ قيل: "كيفَ جعلَهم وسَطًا؟ ألِخُلُقٍ أم لِخَلْقٍ خصَّهم به؟ أم لِعِلْمٍ رَكَزه فيهم؟ أم لشرع شرعَه لهم؟ قيل: قد خصّهم بكلّ ذلك، والظّاهر من ذلك هي الشّريعة الّتي إذا اعتُبرت بسائرِ الشَّرائعِ وُجِدَ لها حدُّ الاعتدالِ"[4].

دلالةُ حرفِ الاستعلاءِ في قولِهِ: ﴿شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾:

ضُمِّنَ ﴿شُهَدَآءَ﴾ معنى الرّقيبِ والمُهَيْمِن على المشهودِ له

فعلُ الشّهادة يتعدّى بحرفي الجرّ (على) و(اللّام)، والمعهودُ في كلام العرب أنّ (شهدَ لـ) تُستعمَلُ فيما فيه منفعةٌ، و(شهِدَ على) تُستعمَلُ فيما فيه مَضرّة، وقد جاء تعدّي فعلِ الشّهادةِ في هذه الآيةِ بحرفِ الاستعلاء (على)، و"إنَّمَا قَالَ: ﴿شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ وَلَمْ

(1) محمود صافي، الجدول في إعراب القرآن: 2/293.
(2) الهرري، حدائق الروح والريحان: 3/23.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/13.
(4) الرّاغب، تفسير الراغب: 1/329.

يَقُلْ: (شُهَدَاءَ لِلنَّاسِ) لأَنَّ قَولَهُمْ يَقتَضِي التَّكلِيفَ إِمَّا بِقَولٍ وَإِمَّا بِفِعلٍ، وَذَلِكَ عَلَيهِ لَا لَهُ فِي الحَالِ"[1].

وذهب الزّمخشريُّ إلى أنّ فِعْلَ الشّهادةِ في قوله تعالى: ﴿وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗاۗ﴾ ضُمّنَ معنى الرّقيبِ والمُهَيْمِن على المشهودِ له، فقال: "فإنْ قلتَ: هلّا قيلَ: لكم شهيدًا، وشهادتُهُ لهم لا عليهم! قلتُ: لمّا كان الشّهيدُ كالرّقيبِ والمُهيمن على المشهود له، جيءَ بكلمةِ الاستعلاءِ، ومنه قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ٦﴾ [المجادلة: 6]، ﴿كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيۡهِمۡۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ١١٧﴾ [المائدة: 117]"[2].

والشأنُ نفسُه يسري في شهادةِ الأمّة الإسلاميّة على جميع الأمَم، قال العلاّمةُ الطّيبيُّ: "وقلتُ: التّحقيقُ فيه ما قرَّرْناهُ أنَّ (شهدَ عليه) إنّما تُستَعْمَلُ فيما فيه مَضَرّةُ المشهودِ عليه، وأوجبَ ها هنا مقامُ المَدحِ الحُكمَ بالعَكس، وأنْ يُضَمَّنَ الشّهيدُ معنى الرّقيب والمُهيمِن ليُفيدَ معنى التَّزكية؛ لأنَّ المُزَكِّيَ لا بُدَّ أن يكونَ مُراقِبًا على أحوال المُزَكّى، فإذا شاهدَ منه ما اقتضى الصّلاحَ والرُّشدَ والهدايةَ لا يشهدُ إلّا بعدالته، ولا يَصدُرُ منه إلّا تزكيتُهُ؛ ففي الكلام تضمينٌ ثمّ كنايةٌ، واللّه أعلم"[3].

إيثارُ التّعبيرِ بالرّسولِ:

التّنبيهُ عَلَى اتِّصَافِهِ ﷺ بِالرِّسَالَةِ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِلَى أُمَّتِهِ

"وَأَتَى بِلَفْظِ الرَّسُولِ، لِمَا فِي الدَّلَالَةِ بِلَفْظِ الرَّسُولِ عَلَى اتِّصَافِهِ ﷺ بِالرِّسَالَةِ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِلَى أُمَّتِهِ"[4].

اختلافُ التّقديمِ والتّأخيرِ في قولِهِ: ﴿شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ و﴿عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗاۗ﴾:

تشريفُ هذه الأمّةِ؛ فإنّها تشهدُ على الأمَمِ ولا يشهدُ عليها إلّا رسولُها

في هذا الجزءِ من الآية نجدُ تقديمًا وتأخيرًا بين تركيبين مُتقاربين مُتعاطفين هما: ﴿شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾، و﴿عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗاۗ﴾؛ حيثُ قدّم الجارّ والمجرورَ، في قوله: ﴿عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗاۗ﴾ وأخّر في قوله: ﴿شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾.

(1) الرازي، التفسير الكبير: 4/88-89.
(2) الزمخشري، الكشاف: 1/199.
(3) الطّيبي، فتوح الغيب: 3/134.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/14.

"أُخِّرت صلةُ الشّهادةِ أوَّلًا وقُدِّمت آخرًا؛ لأنّ المرادَ في الأول إثباتُ شهادتهِم على الأمَم، وفي الآخر اختصاصُهم بكون الرّسولِ شهيدًا عليهم"[1]، فتقديمُ الجارّ والمجرور ﴿عَلَيۡكُمۡ﴾ يُفيدُ الحصر[2]؛ لبيان اختصاصِ شهادةِ النّبيِّ ﷺ بأمّتِه، ولم يقدّم الجارَّ والمجرورَ ﴿عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ في قوله: ﴿شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾؛ لأنّه لم يقصد الحَصرَ[3]، "وقدمت الصلةُ للدّلالةِ على اختصاصِهم بكون الرّسول شهيدًا عليهم"[4]، ولا يخفى أنّ في هذا التّقديم تشريفًا لأمر هذه الأمّة؛ حيثُ إنّها تشهدُ على الأمم والرّسل وهي لا يشهدُ عليها إلّا رسولُها[5].

أمّا "﴿عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗاۗ﴾ فَتَقَدَّمَهُ مِنْ بَابِ الاتِّسَاعِ فِي الكَلَامِ لِلفَصَاحَةِ، وَلِأَنَّ ﴿شَهِيدٗاۗ﴾ أَشبَهُ بِالفَواصِلِ والمَقَاطِعِ مِنْ قَولِهِ: ﴿عَلَيۡكُمۡ﴾، فَكَانَ قَولُهُ: ﴿شَهِيدٗاۗ﴾ تَمَامَ الجُملَةِ، وَمَقطَعهَا دُونَ ﴿عَلَيۡكُمۡ﴾، وَمَا ذَهَبَ إِلَيهِ الزَّمَخشَرِيُّ مِنْ أَنَّ تَقدِيمَ (عَلَى) أَوَّلًا، لِأَنَّ الغَرَضَ فِيهِ إِثبَاتُ شَهَادَتِهِمْ عَلَى الأُمَمِ وَتَأخِيرِ (عَلَى) لِاختِصَاصِهِم بِكَونِ الرَّسُولِ شَهِيدًا عَلَيهِم، فَهُوَ مَبنِيٌّ عَلَى مَذهَبِهِ: أَنَّ تَقدِيمَ المَفعُولِ وَالمَجرُورِ يَدُلُّ عَلَى الاختِصَاصِ، وَقَدْ ذَكَرنَا بُطلَانَ ذَلِكَ فِيمَا تَقَدَّمَ، وَأَنَّ ذَلِكَ دَعوَى لَا يَقُومُ عَلَيهَا بُرهَانٌ"[6].

جمالُ المقابلة بين الجُملِ:

جملةُ: ﴿لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ وجملة: ﴿وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗاۗ﴾ بُنِيَتا على نسَقٍ واحدٍ، مع اختلاف في التّقديم والتّأخير، وهذا مُحسّنٌ معنويٌّ من مُحسّنات الكلام يُسمّى: المقابلة[7].

عَوْدٌ على بَدْءٍ:

بعدما انتهَى الاستطرادُ في الجملةِ الاعتراضيّةِ ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ﴾ التي بيّنت

(1) النسفي، مدارك التنزيل: 1/138.
(2) الحصر، أو القصر: هو تخصيص شيء بشيء بطريق مخصوص، أو هو تخصيص الحكم بالمذكور في الكلام، ونفيه عن سواه، أحمد الهاشمي، جواهر البلاغة، ص: 165
(3) الزّمخشري، الكشّاف: 1/199-200، وابن جزي، التّسهيل لعلومِ التّنزيل: 1/99.
(4) البيضاوي، أنوار التنزيل: 1/111.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/22.
(6) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/13-14.
(7) المقابلة: هي أن يُؤتى بمعنيين متوافقين أو أكثر، ثمّ يؤتى بما يُقابل ذلك على الترّتيب، والُمرادُ بالتّوافق خلاف التّقابل، التفتازاني، مختصر المعاني، ص: 380.

مزيدُ تفصيلٍ في شأنِ القِبلةِ

وَسَطيَّةَ الأمّةِ وكونَها شاهدةً على الأمم، رجعَ الحديثُ إلى الإجابةِ عن اعتراضِهم الذي أثاروه حولَ موضوعِ تحويلِ القبلة: ﴿مَا وَلَّىٰهُمۡ عَن قِبۡلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُواْ عَلَيۡهَاۚ﴾، فجاءَ بمزيدٍ من التّفصيلِ في الموضوع.

تفخيمُ شأنِ القِبلةِ في قولِهِ ﴿وَمَا جَعَلۡنَا ٱلۡقِبۡلَةَ﴾:

أسنِد الجعلُ إلى ضميرِ المتكلّمين ﴿جَعَلۡنَا﴾ العائدِ إلى اللّهِ تعالى تفخيمًا لشأنِ القبلةِ وتشريفًا لها[1].

نُكتَةُ تعريفِ القِبلةِ بالألفِ واللّامِ:

الـــــرّدُّ عـلى المـشـركـين مُشاكلٌ لجنس لفظِهم

تكرّرَ قولُه تعالى: ﴿ٱلۡقِبۡلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيۡهَآ﴾؛ حيثُ وردَ في الآيةِ السّابقةِ لهذه الآية: ﴿قِبۡلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُواْ عَلَيۡهَاۚ﴾، وفي هذه الآيةِ جاءت كلمةُ القبلة معرّفةً بالألف واللّام الّتي تفيدُ العهدَ الذِّكريّ[2]، بمعنى القبلةِ الّتي مضى ذكرُها آنفًا، وعدلَ عن التّعبير عنها باسمِها فلم يقل: (وما جعلنا قبلةَ بيتِ المقدسِ)، بل عبّرَ عنها بالاسم الموصولِ؛ لتحقيقِ التّماثل مع بناءِ الجملة الّتي عبّرت عن حديثهم: ﴿قِبۡلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُواْ عَلَيۡهَاۚ﴾[3]؛ ليكون الرّدُّ عليهم مُشاكلًا ومُماثلاً لجنس لفظِهم، وكذلك فإنّ تكرارَ العباراتِ يمنحُ النّصَّ إيقاعًا جميلًا ويزيدُ في تماسُك أجزائِه، ويدعو السّامعَ إلى استذكار العباراتِ السّابقةِ والرّبط بينها.

حذفُ المضافِ في قولِهِ: ﴿وَمَا جَعَلۡنَا ٱلۡقِبۡلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيۡهَآ﴾:

حُذِفَ المضافُ في قولِه: ﴿وَمَا جَعَلۡنَا ٱلۡقِبۡلَةَ﴾ "والمعنى: وما جعلنا صرفَ القبلةِ الّتي كنتَ عليها وتحويلِها، فحذفَ المضافَ وأُقيمَ المضافُ إليه مقامَهُ"[4].

(1) محمد بن سعد الدّبل، دليل البلاغة القرآنية: 1/198.

(2) العهد الذّكري: أن يتقدم للمعرّف به ذِكْرٌ سابقٌ في اللفظ نحو (زارنا رجلٌ فأكرمتُ الرّجلَ)، والمعنى أنك أكرمت الرّجل الّذي تقدم ذكره في العبارة.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/22.

(4) ابن عطية، المحرر الوجيز: 1/220.

القصرُ في قوله ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ﴾:

النّفيُ والاستثناءُ من طُرقِ القصر[1]، فقوله: ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ﴾ "استِثنَاءٌ مُفَرَّغٌ مِنَ المَفعُولِ لَهُ، وفِيهِ حَصرُ السَّبَبِ، أَي: مَا سَبَّبَ تَحوِيلَ القِبلَةِ إِلَّا كَذَا"[2]، "﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ﴾ استثناءٌ مفرغٌ من أعمِّ العِلَلِ، أي: ما جَعَلنا ذلك لشيءٍ من الأشياءِ إلّا لنمتحنَ النّاسَ، أي: نعاملُهم معاملةَ منْ يمتحنُهم"[3].

علّةُ تحويلِ القِبلةِ امتحانُ النّاسِ في اتّباعِهم وثباتِهم

وقد جاء القصرُ في الآيةِ ليبيّن العلّةَ من تحويلِ القبلةِ، وهو الجوابُ عن سؤالِهم: ﴿مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ﴾؛ فإنَّ تحويلَ القِبلة ليس حدثًا عبثيًّا خاليًا من الغايةِ والهدفِ، بل هناك كثيرٌ من الأسبابِ الّتي يمكنُ أن تقعَ في خيالِ المتأمّل والباحثِ عن الجوابِ، فجاءت الآيةُ تنفي جميعَ تلك التّخمينات وتحصرُ العلّةَ في شيءٍ واحدٍ، فهو "استثناءٌ من عِللٍ وأحوالٍ، أي: ما جعلنا ذلك لسَبَبٍ وفي حالٍ إلّا لنُظْهِرَ مَنْ كان صادقَ الإيمان في الحالتين: حالةِ تشريع استقبال بيت المقدس، وحالةِ تحويلِ الاستقبال إلى الكعبة[4]؛ فإنّ اللّه – جلّ شأنُه – لا تغيبُ عنه طويَّتُهم، ولا يحتاجُ إلى ابتلاء ليَكشِفَها، ولكنّه يُظْهرها لنا من خلال بعض الأحداثِ؛ حتّى نعلمَها نحن، فالكشفُ والإعلامُ ليس للّهِ سبحانه، بل هو لنا، ونظيرُ ذلك قولُه: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [محمد: 31].

المجازُ بإسنادِ العِلْمِ الحادثِ لله تعالى في: ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ﴾:

علمُ اللّهِ تَعَالَى أزَليٌّ، وما جاءَ في الآيةِ فمحمولٌ على ما يليقُ بالله سبحانه

إنِ استشكلَ مُستشكِلٌ إسنادَ العلمِ الحادثِ للّه تعالى، فقال: "هذا الكلامُ يوجبُ أن يكون تحويلُ القبلةِ سببًا لأن يعلمَ اللّهُ من

(1) القصر: هو تخصيص شيء بشيء بطريق مخصوص، والطّريق المخصوص في الآية: (النفي والاستثناء).
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/15.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/173.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/22.

يتّبعُ الرّسولَ ممن ينقلبُ على عَقِبيه، وليس الأمرُ هكذا؛ لأنّه عالمٌ قبل الأشياءِ وقبل تحويلِ القبلة، فما وجهُ هذا الكلام؟ فالجوابُ:

قال قومٌ: معنى قولِهِ: ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ﴾؛ أي: لنرى، فعبّرَ عن الرؤيةِ بالعلم.

وقال قومٌ: إلّا لنميّز هؤلاءِ من هؤلاءِ.

وقال قومٌ: إنّ علمَ الله تعالى يشتملُ على الموجودِ والمعدوم، فالعلمُ بالموجودِ يُوجبُ الثّوابَ والعقابَ، والعلمُ بالمعدومِ لا يُوجبُ شيئاً حتّى يُوجده، فإذا أوجده علمه موجودًا، فهذا العلمُ بعد الوجودِ حينئذٍ يُوجبُ الثّوابَ والعقابَ، فهذا شيءٌ يرجعُ إلى المعلومِ لا إلى العلم، فإذا حصلَ المعلومُ تعلّق به ما يتعلّقُ بسائر الموجوداتِ، وإذا لم يحصل المعلومُ لم يتعلّق به حكمُه"[1].

وقال قومٌ: "أُوِّلَ عَلَى حَذفِ مُضَافٍ، أَي: لِيَعلَمَ رسولُنا والمؤمنون، وأسند عِلمَهُمْ إِلى ذَاتِهِ، لأَنَّهُمْ خَوَاصُّهُ وَأَهْلُ الزُّلفَى لَدَيهِ، فَيَكُونُ هَذَا مِنْ مَجَازِ الحَذفِ"[2].

"أَوْ عَلَى أَنَّهُ أَرَادَ بِالعِلمِ التَّثبِيتَ، أَي: لِنُثَبِّتَ التَّابِعَ، وَيَكُونُ مِنْ إِطلَاقِ السَّبب، ويرادُ به المُسَبَّب؛ لأَنَّ مَنْ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّهُ مُتَّبِعٌ لِلرَّسُولِ، فَهُوَ ثَابِتُ الاتِّبَاعِ.

أَو عَلَى أَنَّهُ أُرِيدَ بِالعِلمِ الجَزَاءُ، أَي: لِنُجَازِيَ الطَّائِعَ وَالعَاصِيَ، وَكَثِيرًا مَا يَقَعُ التَّهْدِيدُ فِي القُرآنِ، وَفِي كَلَامِ العَرَبِ، بِذِكْرِ العِلمِ، كَقَوْلِكَ: زِيدٌ عَصَاكَ، وَالمَعنَى: أَنَا أُجَازِيهِ عَلَى ذَلِكَ.

أَو عَلَى أَنَّهُ أُرِيدَ بِالمُستَقبَلِ هُنَا المَاضِي، التَّقدِيرُ: لَمَّا عَلِمنَا، أَوْ لِعلِمنَا مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يُخَالِفُ.

فَهَذِهِ كُلُّهَا تَأْوِيلَاتٌ فِي قَوْلِهِ: ﴿لِنَعْلَمَ﴾، فِرَارًا مِنْ حُدُوثِ العِلمِ وَتَجَدُّدِهِ، إِذ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ مُسْتَحِيلٌ، وَكُلُّ مَا وَقَعَ فِي القُرآنِ، مِمَّا يَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ، أُوِّلَ بِمَا يُنَاسِبُهُ مِن هَذِهِ التَّأْوِيلَاتِ"[3].

(1) الباقولّي، كشف المشكلات: 2/106.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/15-16.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/16.

اجتماعُ فنَّي الالتفاتِ مع إظهارِ ما حقُّه الإضمار:

الالتفاتُ إلى الغَيبةِ مع إيرادِهِ عليه السلام بعنوانِ الرِّسالةِ للإشعار بعلّةِ الاتباعِ

قال جلّ شأنه: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ﴾ ولم يقل: (يتّبِعُكَ)، حيثُ وجّهَ الخطابَ في البداية إلى النّبيّ ﷺ ﴿كُنتَ﴾، فكان الظّاهرُ أن يستعملَ الضّميرَ دون الاسم الظّاهر، فتحقّقَ هنا التفاتٌ من الخِطابِ إلى الغَيْبة، ومن الإضمارِ إلى الإظهار؛ حيثُ صرّح بلفظِ الرّسول لبيان أنّ سببَ الاتّباع هو الرّسالةُ، وأنّ هذا الحُكْمَ هو تبليغٌ من الرّسول، وليس من محمد ﷺ بوصفِه إنسانًا، فأظهَرَ لفظَ ﴿ٱلرَّسُولَ﴾ بيانًا لوَجْه التّشريع في المسألة، وتعظيمًا لأمر القبلة، وحثًّا على اتّباع النّبيّ [1]، "والالتفاتُ إلى الغيبةِ مع إيرادِهِ ﷺ بعنوان الرّسالة للإشعار بعلّة الاتباع"[2].

وظيفةُ الاستعارةِ في تصوير المرتدّ على عَقِبَيْهِ بقولِهِ ﴿يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾:

المرتَدُّ عن دينِه كالماشي المنقلِب على عَقِبيه، وهو أسوأُ حالاتِ المنقلبِ

قولُه جلّ شأنه: ﴿مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ معناه: من يكفر باللّه ورسولِه ويَرْتدّ عن دينه، وهو استعارةٌ، ووجْهُها: أنّ المُنقلِبَ على عَقِبَيْه قد تركَ ما بين يديه وأدبرَ عنه، أي: أنّهم لمّا تركُوا الإيمانَ والدّلائلَ صاروا بمنزلة المُدبِر عمّا بين يديه فوُصِفوا بذلك[3]، وهذا التّعبيرُ من الاستعارة التّمثيليّة[4] الّتي يكون فيها وجهُ الشّبَه مُنتَزَعًا من متعدّدٍ، "بجامعِ أن المنقلبَ يتركُ ما في يديه ويدبرُ عنه على أسوأ أحوالِ الرّجوع، وكذلك المرتدُّ يرجعُ عن الإسلام ويتركُ ما في يديه من الدلائلِ على أسوأ حال"[5]؛ "فلذلك شُبّه المرتدُّ في الدّين به، وظاهرُ التَّشبيه أنّه بالمُتقهقر، وهي مشيةُ الحيوانِ

(1) القنّوجي، فتح البيان في مقاصد القرآن: 1/302.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/173.
(3) الرّازي، التفسير الكبير: 4/90.
(4) الاستعارة التّمثيلية: اللفظ المُركّب المُستعمل فيما شُبِّهَ بمعناه الأصلّي تشبيهَ التّمثيلِ للمبالغة في التّشبيه، أي: تشبيهُ إحدى صورتين منتزعتين من أمرين أو أمور بالأخرى، ثمّ تدخل المشبهة في جنس المشبهِ بها، مبالغةً في التّشبيه، فتُذكر بلفظها من غير تغيير بوجه من الوجوه، الإيضاح في علوم البلاغة، ص: 284.
(5) محمود صافي، الجدول في إعراب القرآن: 2/293.

الفازع من شيءٍ قد قَرُبَ منه"[1]، أي: أنّه سبحانه وصفَ المرتَدَّ عن دينِه كالماشي المنقلِب على عَقِبيه الرّاجعِ القَهقَرى، وهو أسوأُ حالاتِ الرّاجع في مَشْيِه عن وجهِه.

قال الشّيخُ رشيدُ رضا: "ومعنَى الانقلابِ على العَقِبين هو الانصرافُ عن الشّيء بالرُّجوع إلى الوراءِ، وهو طريقُ العَقِبين، فالمُنقلِبون قد خرجُوا من عِداد المُؤمنين، وعادوا إلى ما كانوا عليه من الكفر"[2].

نُكتةُ المجازِ في ﴿عَلَىٰ عَقِبَيۡهِۚ﴾:

"المجازُ المرسلُ في قوله: ﴿عَلَىٰ عَقِبَيۡهِۚ﴾، والعلاقةُ هي المصيرُ والمآل، فليس ثمّةَ أسمجُ ولا أقبحُ من رؤية الإنسانِ معكوسَ الخِلقةِ، مخالفًا للمألوفِ المعتادِ"[3].

فنُّ الطِّباقِ في قولِه: ﴿يَتَّبِعُ﴾ وقولِه: ﴿يَنقَلِبُ﴾:

في قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلۡنَا ٱلۡقِبۡلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيۡهَآ إِلَّا لِنَعۡلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِۚ﴾ طِباقٌ؛ حيث جمعَ بين فعلين متقابلين في المعنى؛ ﴿يَتَّبِعُ﴾ ﴿يَنقَلِبُ﴾، وهو من المحسّناتِ المعنويّة[4].

فائدةُ التّوكيدِ في قوله ﴿وَإِن كَانَتۡ لَكَبِيرَةً﴾:

تحويلُ القبلة المُفاجئ شاقٌّ على النّفوس، فاقتَضَى المقامُ مزيدًا من التّوكيدِ

(إنْ) في قوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَتۡ لَكَبِيرَةً﴾ هي المُخفّفَة من (إنَّ) المؤكّدة، والدّليلُ على أنّها (إنْ) المخفّفَة؛ دخولُ اللّام المؤكّدة -و"هي الفارقةُ بينها وبين النّافية"-[5] على الخبر ﴿لَكَبِيرَةً﴾، والغرضُ من تخفيفها إيلاؤُها ما لم يَجُزْ أنْ يليَها من الفعل، ومُسوّغُ التّوكيد في هذا السّياق هو أنّ أمْرَ تحويل القبلة المُفاجئ من بيت المَقْدس إلى الكعبة المشرّفة في مكّة المكرّمة لم يَكُنْ سهلًا ميسورًا، وإنّما هو ممّا يَشُقُّ على النّفوس ويُبَلبِلُ بعضَها، فاقتضى المقامُ مزيدًا من التّوكيد في عرض الخبر فجيء بـ (إن) المخفّفَة.

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 1/220.
(2) رشيد رضا، المنار: 2/9، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/23-24.
(3) محيي الدين درويش، إعراب القرآن وبيانه: 1/203.
(4) محمد الدبل، دليل البلاغة القرآنية: 1/200.
(5) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/173.

مرجعُ الضّمير في قوله: ﴿وَإِن كَانَتۡ لَكَبِيرَةً﴾:

الضّميرُ في قوله: ﴿كَانَتۡ﴾ فيه وجهان[1]:

الأوّل: يعودُ إلى القبلة؛ لأنّه لا بدَّ له من مذكورٍ سابقٍ، وما ذاك إلّا القبلةُ إلى بيتِ المقدس[2] في قوله: ﴿وَمَا جَعَلۡنَا ٱلۡقِبۡلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيۡهَآ﴾ [البقرة: 143].

الضّمير (كانت) راجعٌ إلى القبلةِ، أو إلى التّحوُّل إلى الكَعبةِ

الثّاني: أنّه عائدٌ إلى ما دلَّ عليه الكلامُ السّابقُ وهو مُفارقةُ القبلة، والتّأنيثُ للتّولية؛ لأنّه قال: ﴿مَا وَلَّىٰهُمۡ عَن قِبۡلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُواْ عَلَيۡهَاۚ﴾، ثمّ قال عطفًا على هذا: ﴿وَإِن كَانَتۡ لَكَبِيرَةً﴾، أي: وإن كانت التّولية إلى الكعبةِ[3].

حذفُ الضّمير للإيجاز في قولِه: ﴿ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۗ﴾:

في قولِه تعالى: ﴿إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۗ﴾ إيجازٌ بالحذفِ، "أي: هداهُم اللّه؛ فحذَفَ العائدَ من الفعلِ إلى ﴿ٱلَّذِينَ﴾، وهو كثيرٌ في التّنزيل، كقوله تعالى: ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِي بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ٤١﴾ [الفرقان: 41]؛ أي: بعثَه اللّه، فحذف الهاءَ، ولم يثبتها كما أثبتها في قوله: ﴿إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِي يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مِنَ ٱلۡمَسِّۚ﴾ [البقرة: 375] وقوله: ﴿كَٱلَّذِي ٱسۡتَهۡوَتۡهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [الأنعام: 71] وقوله: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ﴾ [الأعراف: 175]"[4].

الإظهارُ في موضع الإضمارِ في: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمۡۚ﴾:

غرضُ الإظهارِ التّعظيمُ وتربيةُ المَهابةِ

جاء التّعبيرُ في الآياتِ السّابقةِ بضمير المُتكلّمينَ، أو (نا) الفاعلين الّتي تعودُ على اللّه تعالى: ﴿جَعَلۡنَٰكُمۡ﴾، ﴿وَمَا جَعَلۡنَا﴾، ﴿لِنَعۡلَمَ﴾، أمّا في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمۡۚ﴾ فأظهر

(1) الزّمخشري، الكشّاف: 1/200، والرّازي، التفسير الكبير: 4/91.
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 1/220.
(3) ابن عطية، المحرر الوجيز: 1/220.
(4) الباقولّي، كشف المشكلات: 2/109.

لفظَ الجلالة، ولم يقُلْ: (وما كنّا)، وهذا عدولٌ إلى الإظهار بدلَ الإضْمَارِ، والغرضُ منه التّعظيمُ وتربيةُ المَهابة، قال ابنُ عاشور: "وذِكْرُ اسمِ الجلالةِ من الإظهار في مَقام الإضمارِ للتّعظيم"[1].

نُكتةُ نفي الكَينونَةِ دون نفي الفِعلِ في قوله: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمۡۚ﴾:

تنزيهُ الله تعالى من أن يُضيع جزاءَ أحدٍ من عبادِه

نفى اللّه كينونةَ إضاعةِ الإيمان في قولِه: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمۡۚ﴾، ولم ينفِ إضاعةَ الإيمانِ، فلم يقل: وما أضاع اللّه إيمانكم، ونحوه، "أي: ما كان اللّهُ مريداً أو متصدياً لأن يُضيعَ الإيمانَ، ففي توجيه النّفي إلى إرادة الفعل تأكيدٌ ومبالغةٌ ليس في توجهه إلى نفسه"[2]؛ حيثُ أوقعَ النّفيَ على ﴿كَانَ﴾، فنفى كينونةَ وُجود الفعلِ، ولم يقل: (وما يريد اللّه أن يضيع إيمانكم)؛ ونُكتةُ ذلك أنَّ نَفْيَ الكينونة أبلغُ من نَفي الفعل نفسِه، وفي هذا تنزيهٌ للّه تعالى من أن يُضيع جزاءَ أحدٍ من عباده[3].

بلاغةُ النّفي مع لامِ الجُحودِ في قولِه: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمۡۚ﴾:

النّفيُ بلام الجحودِ فيه مبالغةٌ في النّفي

"أَتى بـ﴿كَانَ﴾ المَنفيَّةِ بـ﴿وَمَا﴾ الجَائِي بَعدَهَا لَامُ الجَحُود، لأَنَّ ذَلِكَ أَبلَغُ مِنْ أَنْ لَا يَأْتِيَ بِلَامِ الجُحُودِ، فَقَولُكَ: مَا كَانَ زَيْدٌ لِيَقُومَ، أَبْلَغَ مِن: ما كَانَ زَيْدٌ يَقُومُ، لأَنَّ في المِثَالِ الأَوَّلِ: هُوَ نَفيٌ لِلتَّهيئَةِ والإِرَادَةِ لِلقِيَام، وفي الثَّاني: هُوَ نَفيٌ لِلقِيَام، وَنَفيُ التَّهيئَةِ وَالإِرَادَةِ لِلفعلِ أَبلَغُ مِنْ نَفي الفعلِ، لأَنَّ نَفيَ الفعلِ لَا يَسْتَلزِمُ نَفيَ إِرَادَتِه، وَنَفيُ التَّهْيِئَةِ وَالصَّلَاحِ وَالإِرَادَةِ لِلفعلِ تَستَلزِمُ نَفيَ الفعلِ، فَلِذَلِكَ كَانَ النَّفيُ مَعَ لَامِ الجُحُودِ أَبْلَغَ"[4].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/24.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/174.
(3) محمد الدّبل، دليل البلاغة القرآنية: 1/198.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/20.

نُكتةُ مُخالفةِ مقتضى الظَّاهر بذكر ضميرِ المخاطَب بدل الغائبِ في ﴿إِيمَٰنَكُمۡۚ﴾:

إيثارُ لفظِ الخطاب ليتناولَ الماضين والباقين تغليباً لحكمِ المخاطَبِ

بعد تحويلِ القِبلة، أثارَ بعضُ المُسلمين تَساؤلًا عن إخوانِهم المسلمين الّذين قد ماتُوا ولم يُدركوا القبلةَ الجديدةَ، هل فقدوا أجْرَهم؟ فجاءت هذه الآيةُ بيانًا لذلك؛ فعلى هذا كان مُقتضى الكلامِ أن يكون الضّميرُ في قولِه: ﴿إِيمَٰنَكُمۡۚ﴾ للغائبين (إيمانَهم)، ولكنّه جاء بخطابِ الأحياء، وفي نُكتة ذلك يقولُ الفرّاءُ: "أُسنِدَ الإيمانُ إلى الأحياء من المؤمنين، والمعنى فيمن ماتَ من المسلمين قبل أنْ تُحَوَّلَ القِبلةُ؛ فقالوا للنّبيّ ﷺ: كيف بصلاةِ إخوانِنا الّذين ماتُوا على القِبلة الأولى؟ فأنزل الله تبارك وتعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمۡۚ﴾ يُريد إيمانَهم؛ لأنّهم داخلون معهم في الملّة، وهو كقولك للقوم: قد قتلناكم وهَزَمْناكم، تريد: قَتلنا منكُم، فتواجهُهم بالقتلِ وهم أحياء"[1].

ورأى الرَّاغبُ أنَّها جاءتْ كذلك "تغليباً لِحُكم المخاطَبِ على الغائبِ في اللّفظ"[2]، ومثلُه ابنُ عطيَّة[3]؛ فمن شَأْنِ العربِ إذا أُخبروا عن حاضرٍ وغائبٍ أن يُغلِّبوا الخطابَ فيقولوا: كنتَ أنتَ وفلانٌ الغائبُ فعلتُما[4].

المجازُ بالحذفِ في قولِه: ﴿لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمۡۚ﴾:

ذكرُ الإيمانِ بدل الثَّوابِ لبيانِ قيمته في النَّجاة عند الله تعالى

في قولِه تعالى: ﴿لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمۡۚ﴾ إيجازٌ، بحذفِ المضافِ إليه، وتقديرُه: "لا يُضيعُ ثوابَ إيمانكم؛ لأنّ الإيمانَ قد انقضى وفَنِيَ، وما كان كذلك استحالَ حِفظُه وإضاعتُه، إلّا أنّ استحقاقَ الثّوابِ قائمٌ بعد انقضائه؛ فصحّ حِفظُهُ وإضاعته"[5]، فالمضافُ إليه المحذوف

(1) الفرّاء، معاني القرآن: 1/83-84.
(2) الرّاغب، تفسير الراغب: 1/334.
(3) ابن عطية، المحرر الوجيز: 1/220-221.
(4) الرّازي، التفسير الكبير: 4/93.
(5) الرّازي، التفسير الكبير: 4/93.

هو لفظ "ثواب"، وهذا من الإيجاز بالحَذف، وَحَذْفُ المُضَافِ مَجَازٌ[1]؛ لأنّ حذفَ لفظٍ وإقامة لفظ آخر مقامَه لنوع من الارتباط بينهما لا يُمثّلُ الحقيقةَ على التّمام؛ والعلاقةُ بينهما السّببيّة، فحذفَ المسبَّب وهو الثّواب، وأقام المُسبِّب مقامه، ونكتةُ إبقاءِ المضافِ مكانَ المضافِ إليه، بيانُ قيمة الإيمانِ في النَّجاةِ، فإذا وُجِدَ الإيمانُ نجا المسلمُ، وإنْ ضاع الإيمانُ هلك المسلمُ بعده.

هدايةُ التعبيرِ عن الصّلاة بلفظِ الإيمان في ﴿لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمۡۚ﴾:

"فإنْ قيل: ولِمَ قال: ﴿لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمۡۚ﴾ ولم يقل: (صلواتكم)؟ قيل: عدلَ إلى لفظِ الإيمانِ الذي هو عامٌّ في الصّلاة وغيرها؛ ليُفيدهم أنّه لم يَضِع لهم شيءٌ مما عملوا به ثم نسخ عنهم"[2].

الأصلُ هو الإيمانُ، وما يترتَّبُ عليه من أعمالٍ فمردُّها إليه

"وسمّى الصّلاةَ إيمانًا لمّا كانت صادرةً عن الإيمان والتّصديق في وقتِ بيتِ المقدس وفي وقت التّحويل، ولمّا كان الإيمانُ قطبًا عليه تدورُ الأعمالُ، وكان ثابتًا في حالِ التّوجّهِ هنا، وهنا ذكره؛ إذ هو الأصلُ الّذي به يرجعُ في الصّلاةِ وغيرها إلى الأمر والنّهي، ولئلا تتدرجَ في اسم الصّلاة صلاةُ المنافقين إلى بيتِ المقدس، فذكر المعنى الذي هو ملاكُ الأمر، وأيضًا فسمّيت إيمانًا إذ هي من شُعَبِ الإيمان"[3]؛ و"لأنّ وجوبَها على أهل الإيمان وقبولَها من أهل الإيمان وأداءَها في الجمعة دليلُ الإيمان"[4]، و"لأنّها أعظمُ أركان الإسلامِ بعد الشّهادتين"[5].

بلاغةُ الفاصلةِ القرآنيَّةِ في قولِه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ١٤٣﴾:

جاءت جملةُ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ١٤٣﴾ مفصولةً عن سابقاتِها؛ لأنّها جاءت تُجيبُ عن سؤال ينقدِحُ في الذّهن بعد سماعِ

تعليلُ عَدَمِ الإضاعةِ بِذِكْرِ الأسماءِ الحسنى يُورِثُ سَكِينةً في القلبِ

(1) الزركشي، البرهان في علوم القرآن: 3/146.
(2) الرّاغب، تفسير الراغب: 1/333-334.
(3) ابن عطية، المحرر الوجيز: 1/221.
(4) النسفي، مدارك التنزيل: 1/139.
(5) الصّاوي، حاشية الصّاوي: 1/61.

الكلام السّابق، فكأنّه قيل: ما دليلُ عدم إضاعة إيمانهم؟ أو: لماذا لا يُضيعُ اللّهُ إيمانَهم؟ فأجيبَ بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ١٤٣﴾؛ فهذه الجملةُ تعليليّةٌ، وهي من قبيل التّذييلِ الّذي جيء به بيانًا لسببِ عدم الإضاعةِ[1]، فهي "جَارِيَةٌ مَجرَى التَّعليلِ لِمَا قَبلَهَا، لِلُطفِ رَأفَتِهِ وَسَعَةِ رَحمَتِهِ، نَقَلَكُم مِنْ شَرعٍ إِلَى شَرعٍ أَصْلَحَ لَكُم وَأَنْفَعَ فِي الدِّينِ"[2]، ومثل هذا التَّعليلِ من شأنِه إيرادُ الطّمأنينةِ في قلبِ العبدِ، والرَّاحةِ والسَّكينةِ في نفسِه.

"وَلَمَّا كَانَ نَفيُ الجُملَةِ السَّابِقَةِ مُبالَغًا فِيهَا مِن حَيثُ لَامُ الجحُودِ، نَاسَبَ إِثبَاتُ الجُملَةِ الخَاتِمَةِ مُبَالِغًا فِيهَا، فَبُولِغَ فِيهَا بِإِنَّ وَبِاللَّامِ وَبِالوَزنِ عَلَى فَعُولٍ وَفَعِيلٍ، كُلُّ ذَلِكَ إِشَارَةٌ إِلَى سَعَةِ الرَّحمَةِ وَكَثرةِ الرَّأفَةِ"[3].

دلالةُ الألفِ واللّام في قولِه: ﴿بِٱلنَّاسِ﴾:

"الأَلِفُ وَاللَّامُ فِي: ﴿بِٱلنَّاسِ﴾ يَحتَمِلُ الجِنسَ، كَما قَالَ: ﴿ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ﴾ [الشورى: 19]، ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: 156]، ﴿وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [غافر: 7]، وَيَحتَمِلُ العَهدَ، فَيَكُونُ المُرادُ بِالنَّاسِ المُؤمِنِينَ"[4].

نكتةُ تقديمِ الجارِّ والمَجرورِ:

قُدِّمَ الجارُّ والمجرور ﴿بِٱلنَّاسِ﴾ في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ على متعلّقه وهو ﴿لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾، وأصلُ الكلام: (لرؤوفٌ رحيمٌ بالنّاس)؛ للتّنبيهِ على عنايته بهم تحفيزًا لهم ليشكُرُوه، و"اعْتِنَاءً بِالمَرءُوفِ بِهِم"[5]، مع إظهارِ حسنِ الفاصلة[6].

التّنبيهُ على عنايةِ اللهِ بعبادِه ليشكُرُوه

لُطفُ الجَمْعِ بين صِفَتي (الرّأفةِ والرّحمةِ):

في تذييل الآيةِ، جمعَ سبحانه بين صِفتين مُتقاربتين في المعنى ﴿لَرَءُوفٌ﴾ و﴿رَّحِيمٌ﴾، وفائدةُ هذا الجمعِ هو تأكيدُ المعنى المُراد، ومن المعلوم أنَّ الصّفاتِ وإن اتّفقت في المعنى العامّ؛ فإنّها تحتفظُ

رأفتُهُ سبحانه خاصّةٌ بعباده الصّالحين، ورحمتُهُ واسعةٌ للخلق أجمعين

(1) محمد بن سعد الدّبل، دليل البلاغة القرآنية: 1/199.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/20.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/21، والهرري، حدائق الروح والريحان: 3/23-24.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/20.
(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/21.
(6) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/21.

بدلالةٍ خاصّةٍ لا يمكنُ التّعبير عنها بلفظٍ آخرَ، فالرّأفةُ هي شدّةُ الرّحمةِ، وهذا معنًى أخصُّ، والرّحمةُ أوسَعُ من الرّأفة وأعمُّ، وعلاوةً على التّأكيد المُستفاد من الجمع بين الصّفتين المتقاربتين في المعنى، وثمّة فائدة لطيفة ودقيقة، مُفادُها أنّ اللّه تبارك وتعالى يصِفُ نفسَهُ بأنّه رؤوفٌ شديدُ الرّحمة كثيرُها يتغشّى بها من يشاءُ من عبادِه الصّالحين المُنيبين ممّن علِمَ أزلًا أنّهم يستحقّون رأفتَه، فإن كان ثمّةَ عبادٌ هم أقلُّ منهم في العملِ والاجتهاد، فإنّ رحمتَه الواسعةَ العامّة تشملُهم، وفي هذا تحبيبٌ للتّوبة والإنابةِ إلى قلوبِ العباد.

سببُ تقديم ﴿لَرَءُوفٌ﴾ على ﴿رَّحِيمٌ﴾:

الرّأفةُ شدّةُ الرّحمةِ وهي أقوى في الكيفيَّةِ، والرَّحمةُ أكثرُ في الكميَّة

قدّم صفةَ الرّأفة على الرّحمة؛ وذلك لسببين: الأوّل دلاليّ يتعلّق بتقديم ﴿لَرَءُوفٌ﴾، والثّاني صوتيٌّ يتعلّق بتأخير ﴿رَّحِيمٌ﴾.

أمّا الدّلاليّ؛ فإنَّ الرّأفة تعني شدّةَ الرّحمةِ، وهي أبلغُ في هذا الوصف من الرّحمة؛ فلذا قدّمها، ليبدأ بالصّفة الأبلغِ في الدّلالة، "وقيل: الرّحمةُ أكثرُ من الرّأفة في الكمّيّة، والرّأفةُ أقوى منها في الكيفيّة؛ لأنّها عبارةٌ عن إيصال النّعم الصّافية عن الآلام، والرّحمةُ إيصالُ النّعمةِ مطلقًا"[1].

وأمّا الصّوتيّ؛ فإنّ تقديمَ ﴿لَرَءُوفٌ﴾ على ﴿رَّحِيمٌ﴾ سيوقعُ صفةَ ﴿رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾﴾ في رأس الفاصلة[2]، وهذا يجعلُها تتوافقُ مع الفواصل السّابقة، "وَتَأَخَّرَ الوَصفُ بِالرَّحمَةِ لِكَونِهِ فَاصِلَةً"[3]، وقضيّة التّوافق الصّوتي في رؤوس الآي له أثرٌ جماليّ في النّسج اللّفظيّ القرآنيّ، وأثرٌ جميلٌ في نفس المتلقّي، ولا يخفى أنّ النّصّ القرآنيّ مُتكاملٌ دلاليًّا وجماليًّا، وهو يُوظّفُ كلّ العناصر للتّأثير في نفس المتلقّي.

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/174.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/26.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/21.

الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(الأُمّة)، و(الشّعب)، و(الجَمَاعَة)، و(الفَرِيق):

استُعمِلَ في الآية ﴿أُمَّةَ﴾، وجاء في مواضع أخرَ من الذّكر الحكيم استعمالُ ألفاظٍ مقاربة مثل: شعبٍ، وجماعةٍ، وفريقٍ، فما الفرقُ؟

الأمّةُ: كلُّ جماعة يجمعُهُم أمرٌ ما، إمّا دينٌ واحدٌ، أو زمانٌ واحدٌ، أو مكانٌ واحدٌ، ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾ [الأنعام: 38]، وقوله - ﷻ -: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ [البقرة: 213] أي: صنفًا واحدًا، وعلى طريقةٍ واحدة في الضّلال والكفر، وقوله ﷻ: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ﴾ [الزّخرف: 22] أي: على دينٍ مجتمعٍ[1].

الأمّةُ كلُّ جماعةٍ يجمعُهُم أمرٌ ما

الشّعْبُ: القبيلةُ المُتشعّبةُ من حيٍّ واحدٍ، وجمعه: شُعُوبٌ، والشّعوبُ أكبرُ من القبائل، وهو ما تشعَّبَ من قبائل العرب[2]، في الأمّةِ معنى الانفصال والتّمايز بأمر ما، وفي الآية ناسبَ أن يستعملَ لفظَ (الأمّة) من هذا المعنى، خاصّة أنّه يمهّدُ لتحويل القبلة، أمّا (الشّعبُ) فهو يرتبطُ بالنّسَب وتشعّبِ القبائل، وهذا ليس مرادًا في الآية.

القبيلةُ المُتشعّبةُ من حيٍّ واحدٍ، والشّعوبُ أكبرُ من القبائل

الجَمَاعَة: مجموعةٌ من النّاسِ، من جَمَعَ.

الجماعةُ مجموعةٌ من النّاسِ

الفريق: الجَمَاعَةُ من جمَاعَةٍ أَكثر مِنهَا، تَقول: جَاءَني فريق من القَوم، وفريقُ الخيل: مَا يُفَارقُ جمهورها في الحلبة فَيخرج مِنْهَا[3].

الفَريقُ الجَمَاعَةُ من جمَاعَةٍ أَكثر مِنهَا

العلم والمعرفة:

المعرفَةُ أخصُّ من العلم؛ لأنّها علم بِعَين الشّيْء مفصّلًا عَمَّا سواهُ، والعلمُ يكون مُجملًا ومفصَّلًا، وكلُّ معرفَة عِلمٌ، وَلَيسَ كلُّ عِلمٍ معرفَةً؛ وَذَلِكَ أَنّ لفظَ المعرفَة يُفِيد تَمييز المَعلُوم من

(1) الرّاغب، المفردات: (أمّ).
(2) الرّاغب، المفردات؛ والسّمين، عمدة الحفّاظ: (شعب).
(3) العسكري، الفروق اللّغويّة، ص: 277- 280.

المعرفَةُ أخصُّ من العلمِ؛ لأنّها علمٌ بِعَينِ الشّيْءِ مفصّلًا عَمَّا سواهُ، والعلمُ يكونُ مُجملًا ومفصَّلًا

غَيره، وَلَفظ العلم لَا يُفِيد ذَلِك إِلَّا بِضَربٍ آخرَ من التّخصِيص فِي ذكر المَعلُوم[1]، فَإِذا قلت: علمتُ زيدًا؛ فَذَكرتَه باسمه الَّذِي يعرفهُ بِهِ المُخَاطَب لم يُفِد، فَإِذا قلتَ: قائمًا، أفدتَ؛ لِأَنَّك دللت بذلك على أَنَّك علمت زيدًا على صفةٍ ما، وَإِذا قلت: عرفت زيدًا أفدت؛ لأنّه بِمَنْزِلَة قَوْلك: عَلمتُه متميّزًا من غَيره، وقد يتّفقان في الاستعمال، والفرق بين العِلم والمعرفة إِنَّمَا يتَبَيَّن فِي الموضع الَّذِي يكون فِيهِ جملَة غير مُبهمَة، أَلا ترى أَن قولك: تعلّمتُ أَنّ لزيد ولدًا، وقولك: عرفتُ أَنّ لزيد ولدًا يجريان مجْرًى وَاحِدًا، قال أبو حيّان: "المعرفةُ: العلمُ المتعلّق بالمفرداتِ، ويسبقه الجهلُ، بخلاف أصل العلم فإنّه يتعلّق بالنِّسَب، وقد لا يسبقه الجهلُ؛ ولذلك لم يُوصَف اللّه تعالى بالمعرفة، ووُصِف بالعلم"[2]، فناسب الآيةَ التّعبيرُ بالعلم؛ لأنّه يتعلّقُ بحالة معيّنة يتخصّص بها، وهي هنا تمييز مَنْ يتّبعُ الرّسول ممّن ينقلبُ على عقبيْه ويرتدّ، ولأنّه لا يسبقُه جهلٌ أسند إلى اللّه تعالى ﴿لِنَعْلَمَ﴾، ولا يجوزُ استعمالُ المعرفة في حقّه سبحانه وتعالى.

الرّحمة والرّأفة:

الرّأفة أبلغُ من الرَّحمَة[3]؛ لأنّها أشدُّ الرّحمة[4]، وهي أَرَقُّ مِنَ الرَّحمَةِ وَلَا تَكاد تَقَعُ فِي الكَرَاهَةِ، والرّحمةُ قَدْ تَقَعُ فِي الكَرَاهَةِ للمَصلحةِ[5]؛ فذكر اللّه تعالى الرّأفة أوّلًا، بمعنى أنّه لا يضيعُ أعمالَهم، ويُخفِّفُ المِحنَ عنهم، ثمَّ ذكرَ الرّحمةَ لتكونَ أعمَّ وأشملَ[6].

الرّأفة أبلغُ من الرَّحمَة؛ لأنّها أشدُّ الرّحمةِ وأَرَقُّ مِنها

(1) العسكري، الفروق اللّغويّة، ص: 80.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 1/478، والزبيدي، تاج العروس: (عرف).
(3) العسكري، الفروق اللّغويّة، ص: 196.
(4) أبو عبيدة، مجاز القرآن: 1/59، وأبو حيّان، البحر المحيط: 2/7.
(5) ابن منظور، لسان العرب: (رأف).
(6) الرّازي، التفسير الكبير: 4/93- 94.

الانقلاب والنّكوص:

الانقلابُ ارتدادٌ عن الدّين ورجوعٌ إلى الحالةِ السّابقة له، والنّكوصُ رجوعٌ مُنْبَنٍ على خوفٍ وجُبنٍ وإحجامٍ

قال ﷻ: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ [البقرة: 143].

وقال ﷻ: ﴿فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ ۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤٨﴾﴾ [الأنفال: 48].

أَصْلُ مادّة (قَلَبَ) رَدُّ شَيْءٍ مِنْ جِهَةٍ إِلَى جِهَةٍ، فقَلبُ الشّيء: تصريفُه وصَرفُه عن وجه إلى وجه، كقلبِ الثّوب، وقلبُ الإنسان، أي: صرفُهُ عن طريقته، والانقِلابُ: الانصراف، قال: ﴿ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ [آل عمران: 144]، وعبّروا بالتّركيب عن الرّجوع إذ هو عكس الذّهاب: ﴿وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ﴾ [المطففين: 31]: رجعوا، ﴿وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ [آل عمران: 144]، فالانقلابُ على العقب كنايةٌ عن الرّجوع، وهو في سياق الآية بهذا المعنى؛ أي: الارتدادُ عن الدّين والرّجوع إلى الحالةِ السّابقة للدِّين[1].

وأصْلُ مادّة (نَكَصَ): الإحجام عَنِ الشّيءِ خَوْفًا وَجُبنًا، فنَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ: رَجَعَ عَمَّا كَانَ عَلَيهِ مِنْ خَيرٍ، لا يُقَالُ ذَلِكَ إِلَّا في الرُّجُوعِ عَنِ الخَيرِ، وقوله تعالى: ﴿نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ [الأنفال: 48]: أي رجعَ إلى ورائه، ومثلُه قولُه تعالى: ﴿فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ تَنكِصُونَ ﴿٦٦﴾﴾ [المؤمنون: 66]، والنّكوصُ: الإحجامُ عن الشّيءِ وعدمُ الإقبال عليه[2].

فالانقلابُ هو ارتدادٌ؛ لأنّه ردٌّ من جهةٍ إلى أخرى وحسب بلا قيدٍ، والانقلابُ على العقبِ كنايةٌ عن الارتدادِ عن الدّين والرّجوع إلى الحالة السّابقةِ له، وأمّا النّكوصُ فهو رجوعٌ مُنْبَنٍ على خوفٍ وجُبنٍ وإحجام، وقد جاء هذا التّعبير ﴿نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ في سياق الحديثِ عن الشّيطان الّذي أصيبَ بالخوفِ والهلع يوم بدرٍ فصاح: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ ۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤٨﴾﴾ [الأنفال: 48].

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة؛ الرّاغب، المفردات؛ جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (قَلَبَ).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة؛ الرّاغب، المفردات؛ السّمين، عمدة الحفّاظ: (نَكَصَ).

﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾﴾ [البقرة: 144]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

بعد بيان وسطيّة الأمّة، جاء الأمرُ بالتّوجُّه إلى المسجدِ الحرامِ في الصّلاة

لمّا ذكر في الآيتين السّابقتين مُمَهِّدات تحويل القبلة، سواء ببيان كيفيّة استقبال المُشركين وأهل الكتاب لهذا الأمر، أو بيان جَعلِ أمّةِ المسلمين أمّةً وسطًا، ليكونوا شُهداءَ على النّاس، وبيان علّةِ تحويل القبلةِ، أمرَ سُبحانه نبيَّهُ وجميعَ المسلمين في هذه الآيةِ بالتّوجّه إلى المسجدِ الحرام في صَلَواتِهم.

وذكرَ الإمامُ البقاعيُّ وَجْهًا آخر لمناسبةِ الآية لِما قبلها؛ مُفادُهُ أنَّ تحويلَ القبلة إلى الكعبةِ المُشَرَّفة من الرّأفةِ برسولِ الله ﷺ الذي كان مُتَشَوِّفًا إلى استقبالها، قال رحمهُ الله تعالى: "ولمّا أشعرَ الكلامُ السّابقُ أهلَ البلاغة بإحداث أمْرٍ في القِبلة فتَوَقّعوا الخبرَ عن ذلك، وبيّنَ رأفتَهُ ورَحمتَهُ بالنّاس عُمومًا، بيّنَ ذلك برسوله خُصوصًا بأنَّ تحويلَهُ إلى الكعبة رأفةٌ منه به، ورحمةٌ له مع ما تقدَّمَ من فوائده"[1].

شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

1) ﴿تَقَلُّبَ﴾: الأَصْلُ في التّقليب: رَدُّ شَيْءٍ وتحويلُهُ مِنْ جِهَةٍ إِلَى جِهَةٍ[2]، والتّقلُّبُ مُطاوِعُ التّقليب، وتقلّبُ الوجه - في سياق الآية - يعني: ترديدُ البصر في السّماء مرّةً بعد مرّة، والمعنى: إنّنا نرى تردّد وجهك وتصرُّفَ نظرك في جهة السّماء[3].

(1) البقاعي، نظم الدرر: 2/216.
(2) محمد حسن جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (قلب).
(3) الزّمخشري، الكشّاف: 1/202.

2) ﴿وَجۡهِكَ﴾: أَصْلُ مادّة (الوجهِ) يَدُلُّ عَلَى مُقَابَلَةٍ لِشَيءٍ، وَالوَجهُ مُستَقبِلٌ لِكُلِّ شَيءٍ[1]، وفي سياق الآية: المرادُ الوجهُ لدى الإنسانِ، وكذا في الآياتِ اللّاحقة [البقرة: 149- 150].

3) ﴿فَلَنُوَلِّيَنَّكَ﴾: فوَلِّ: التّوليةُ هنا بمعنى التّوجّهِ إلى الكعبة، وليس معناها الانصرافَ، كما سبق في قوله تعالى: ﴿مَا وَلَّىٰهُمۡ﴾، ﴿فَوَلِّ وَجۡهَكَ﴾ أي: أقبل بوجهكَ نحو المسجدِ الحرام[2].

4) ﴿تَرۡضَىٰهَاۚ﴾: أَصْلُ الجذر (رضي) وَاحِدٌ يَدُلُّ عَلَى خِلَافِ السُّخطِ[3]، ورِضَا العبدِ عن اللّه: أن لا يكرهَ ما يجري به قضاؤه، ورِضَا اللّهِ عن العبد هو أنْ يراهُ مُؤتمرًا بأمره، ومنتهيًا عن نهيه[4]، ومعنى ﴿تَرۡضَىٰهَاۚ﴾ في سياق الآية: تُحبُّها وتهواها؛ لأنّ النّبيَّ ﷺ كان راضيًا بالقِبلة الأولى، مُطيعًا للّه تعالى في حال صلاتِه إليها، ولكنّه أحبّ أنْ تكون قبلتُه الكعبةَ[5].

5) ﴿شَطۡرَ﴾: شَطْرُ الشّيء: نصفُهُ ووسطُه[6]، وكلُّ ما نُصِّفَ فقد شُطِّر، وشَطرُ الشّيء: جهتُهُ وناحيتُه ونَحوه وقصدُه[7]، وهو المعنى المرادُ في هذه الآية والمواطن الّتي بعدها: [البقرة: 144، 149، 150]، ﴿شَطۡرَهُۥۗ﴾، أي: نحوُه، قَصْدَهُ، جهتَه[8].

6) ﴿ٱلۡحَرَامِۚ﴾: أَصْلُ مادّة (حرم) المَنعُ وَالتَّشدِيدُ، فَالحَرَامُ: ضِدُّ الحَلَالِ[9]، المسجدُ الحَرامُ، أي: المُحَرَّم من المَنع، وسُمِّيت تلك البقعةُ حرامًا لما مُنع فيها من أشياءَ لم تُمْنَعْ في غيرها[10].

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (وجه).
(2) الواحدي، التفسير البسيط: 3/389.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (رضي).
(4) الرّاغب، المفردات: (رضي).
(5) الواحدي، البسيط: 3/389.
(6) الرّاغب، المفردات: (شطر).
(7) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (شطر).
(8) ابن فارس، مقاييس اللغة؛ الرّاغب، المفردات: (شطر)، والواحدي، البسيط: 3/389.
(9) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حرم).
(10) الواحدي، البسيط: 3/390.

7) ﴿أُوتُواْ﴾: من الجذر (أتي)، الإيتاءُ: الإعْطاءُ، فأَتَيْنا: جِئنا، وآتَيْنا: أَعْطَينا[1]، قال الرّاغبُ: "الإتيانُ مَجيءٌ بسهولة"[2]، ومعنى اللّفظ في سياق الآية: أُعْطُوا.

8) ﴿بِغَٰفِلٍ﴾: الغفلةُ: فَقْدُ الشُّعور بما حقُّهُ أن يُشعَرَ به، والذّهولُ عن الشّيء[3]، وعرّف الرّاغبُ الغفلةَ بقوله: "سهوٌ يعتري مِن قلّة التّحفّظ والتّيقُّظ"[4]، يقال: غفلَ الرّجلُ: صار غافلًا، وغفل عنه، واللّه - سبحانه وتعالى - لا تعتريه غفلةٌ ولا يأخذُهُ سهوٌ، ومعنى نفي الغفلة عن أعمال العباد أنّ اللّه جلّ شأنه مُطّلعٌ عليها، ومُحْصيها، وعالمٌ بجليلها ودقيقها، ويتفرّعُ عن ذلك أنّه - سبحانه - مُجازٍ عبادَه على أعمالِهم كلّها.

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

تحويلُ القبلةِ إلى الكعبة المُشَرَّفة من الرّأفة برسولِ الله ﷺ الّذي كان مُتَشَوِّفًا إلى استقبالِها

قد نرى تَرْديدَ نظرك وتقليبَ وجهك -أيها الرّسولُ ﷺ- إلى جهة السّماء، مرّةً بعد مرّة؛ ترقُّبًا لنزول الوحي إليك في شأن القبلة، فَلَنَصْرِفنَّك عن "بيت المقدس" إلى قبلة تُحِبُّها وترضاها، وهي وجهة المسجدِ الحرام بـ "مكّة"، فولِّ وجهك إليها، وفي أيّ مكانٍ كنتُم - أيّها المسلمون - وأردتم الصّلاة فتوجّهوا نحو المَسجدِ الحرام، وإنّ اليهودَ والنّصارى لَيعلمُون أنّ تحويلَكم إلى الكعبة هو الحقُّ الثّابتُ في كتبهم، وما اللّهُ بغافلٍ عمّا يعملُ هؤلاء المعترضون المُشكِّكون، وسيُجازيهم على ذلك.

الآيةُ دليلٌ على حُجّيّة السّنّةِ

وفي الآية إشارةٌ إلى أنَّ تركَ التّصريح من كمال الأدب[5].

إيضاحُهُ: لو حوَّلَ النبيّ ﷺ القبلةَ من غير أن ينزل قرآنٌ لاتَّبَعَتْهُ الأمّةُ مِن خلفه عملًا بسُنَّتِه العمليّة، ولكنَّ أدَبَهُ في هذا الشّأن العظيم منَعَهُ عن السّؤالِ والطّلب، واكتفى بالتّوجُّه ناظرًا في

(1) ابن منظور، لسان العرب: (أتي).
(2) الرّاغب، المفردات: (أتي).
(3) الزبيدي، تاج العروس: (غفل).
(4) الرّاغب، المفردات: (غفل).
(5) ابن عجيبة، البحر المديد: 1/177، ونخبة من العلماء، التفسير الميسر، ص: 22.

السّماء مُنتظرًا وراجيًا من الخالق أن يهديَهُ إلى الصّواب والهُدى في المسألة، والشّاهدُ أنّه لو فعله لكان لِزامًا على أمّتِه، ولكن منعَهُ الأدبُ بدليل تقليبِ وجهه في السّماءِ دون الطّلب والسّؤالِ المباشر.

سبَبُ النّزول:

أخرج البُخاريُّ وأحمدُ والتّرمذيُّ والنَّسَائِيُّ عن البَراء بنِ عازبٍ رضي الله عنه قال: لـمّا قَدِمَ رسولُ اللّه ﷺ المدينةَ، صلّى نحوَ بيتِ المَقدِس ستّةَ عشرَ، أو سبعةَ عشرَ شهرًا، وكان يُحبُّ أن يُوجَّهَ إلى الكعبة، فأنزل اللّه تعالى: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ﴾ فَوُجِّهَ نحو الكعبة، وصلّى معه رجلٌ العصرَ، ثمّ خرج فمرَّ على قومٍ من الأنصار، فقال: هو يشهدُ أنّه صلّى مع النّبيّ ﷺ، وأنّه قد وُجِّه إلى الكعبةِ، فانحرفوا وهم ركوعٌ في صلاةِ العَصرِ[1].

الإيضاحُ اللُّغويّ والبلاغيّ:

غرضُ الاستئنافِ في قولِه: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ ۖ﴾:

تهيئةُ السّامعِ لتلقّي تشريعِ استقبال القبلة

الآيةُ مستأنفةٌ مفصولة عمّا قبلها، وهي تتضمّن ابتداءَ تشريعِ استقبال القبلة، ونسْخَ التّوجّهِ إلى بيت المقدس، ومجيءُ الحكمِ مستأنفًا استئنافًا ابتدائيًّا بلا أداة؛ تهيئةً للسّامع لتلقي الخبر، فيكون حال المتلقّي أنسبَ لسماع الحكم الجديد، لاسيّما وأنّه حكمٌ كبيرٌ.

الدّلالةُ على التّكثير في ﴿قَدْ نَرَىٰ﴾:

التّكثيرُ بالنّظر لفعلِ النّبيِّ لا لرؤيةِ الله، وهو خطابُ تودّدٍ

أفادَ حرفُ ﴿قَدْ﴾ "كثرة الرؤية"[2]، فهي "للتَّكثير بقرينة ذكرِ التَّقلُّبِ، والتّكثيرُ بالنسبة الى النّبيّ مُتعلّقٌ به ﷺ، وإلّا فهو محالٌ على اللّه تعالى"[3]، فهو "بالنّظر لفعلِ النّبيِّ لا لرؤيةِ اللّه، وهو خطابُ تودّدٍ"[4].

(1) خالد المزيني، المحرّر في أسباب نزول القرآن: 1/224.
(2) الزمخشري، الكشاف: 1/201.
(3) محيي الدين درويش، إعراب القرآن وبيانه: 1/206.
(4) الصّاوي، حاشية الصّاوي: 1/61.

وتفسيرُهم ﴿قَدْ﴾ بـ (ربّما) "يحتملُ أن يكونَ إشارةً إلى أنّ ﴿قَدْ﴾ في بابه للتّقليل، وإلى أنّه مستعارٌ للتّكثير بجامع التّضاد؛ لأنّ (رُبّ) استعمالُه شائعٌ في التّكثير وإن كان وضعه للتّقليل؛ ولعدم العلم بأحد الاحتمالين فسّروه بـ(رُبّ) لذلك؛ لأنّ من رفع بصره إلى السّماء مرّةً واحدة يصدقُ عليه أنّه قلبَ بصرَه إلى السّماء، وإلّا فيصدق أنّه لم يقلبه، وهو خلافُ الواقع على أنّه لا يلزمُ من حمله على التّقليل كونُ رفع بصره مرّةً واحدة، لجواز أن يكونَ مراراً غير واصل إلى حدِّ الكثرة، واستعمالُ ﴿قَدْ﴾ للتّكثير ممّا ذكره سيبويهِ وصاحبُ المغني والزّمخشريُّ.

ولا يخفى أنّ التقلّبَ لا يقتضي الكثرةَ - كما عرفتَ من أنّه يصدقُ في مرّة واحدة - ألا ترى أنّهم صرّحُوا في مسألة الاستسقاءِ بأنّ الإمامَ قلب رداءَه، مع أنّه مرّة واحدة، وفي بيان شرط الرؤية تقلّب الحدقةِ وهو في مرّة واحدة، مع أنّه من باب التّفعيل، والتقلّب من باب التّفعّلِ، وهذا وهمٌ مَحْضٌ وإن ذهبَ إليه كثيرون، فالصَّوابُ أنّ مرادَ الشّيخين بإيراد (ربّما) ما ذكرنا من الإشارة إلى الاحتمالين التّقليل والتّكثير"[1].

المضارعُ بمعنى الماضي في ﴿قَدْ نَرَىٰ﴾:

فعلُ "﴿نَرَىٰ﴾ هُنَا مُضَارِعٌ بِمَعنَى المَاضِي، وَقَد ذَكَرَ بَعضُ النَّحوِيِّينَ أَنَّ مِمَّا يَصرِفُ المُضَارِعَ إِلَى المَاضِي (قَدْ) فِي بَعْضِ المَوَاضِعِ، وَمِنْهُ: ﴿قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ﴾ [النور: 64]، ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ﴾ [الحجر: 97]، ﴿۞قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ﴾ [الأحزاب: 18]"[2].

دلالةُ الكنايةِ في قولِه: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ﴾:

جاء حرفُ التّحقيق ﴿قَدْ﴾، كنايةً عن دفع الاستبطاء، وتطمينًا للنّبيّ ﷺ؛ لأنّه كان حريصًا على تحقّقه، فكان تحقيقُ الكلام كنايةً عن حصولِ الوَعدِ ودَفعِ الاستبطاءِ، ومن جهة أخرى، فإنّ هذه الكنايةُ تُترجمُ عن شدّة تشوّق النّبي ﷺ لتغيير القبلة، مع الإشهار

تحقيقُ الكلام كنايةٌ عن حصولِ الوَعدِ ودَفعِ الاستبطاءِ

(1) القونوي، حاشية القونوي على البيضاوي: 4/324.

(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/21، والسمين، الدر المصون: 2/159.

بأدبِهِ وحسن سلوكه مع الخالق تعالى؛ حيثُ إنّه لم يسأل ولم يطلُب، بل انتظر الوحيَ أدبًا مع اللّه تعالى[1].

سرُّ إطلاقِ الوجهِ وإرادةُ الأعينِ في قوله: ﴿تَقَلُّبَ وَجْهِكَ﴾:

المقصودُ بقوله تعالى: ﴿تَقَلُّبَ وَجْهِكَ﴾ "تَقَلُّب عينيك، فذكرهما بلفظ الوجهِ، كما ذكر الأعينَ بلفظ الوجوه في قوله: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ۝٢٣﴾ [القيامة: 22-23]، وذلك أنّ ما تقعُ به المواجهةُ يسمّى وجهًا، كاللِّحية؛ قد يطلقُ عليها اسمُ الوجه، ويجوزُ أن يريدَ نفسَ الوجه؛ لأنّه كما يقلّب عينيه في السّماء يقلّب وجهه"[2]، "وتقلّبُ الوجهِ أبلغُ من تقلّب العينِ"[3]، "ومعنى: ﴿تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ﴾: أي تطلّعك الوحيَ المنزلَ"[4]، "وذكر الوجهَ لأنّه أعمُّ وأشرف، وهو المستعملُ في طلب الرغائب"[5].

الوجهُ أعمُّ وأشرفُ، وهو المُستعمَلُ في طلبِ الحاجاتِ

فائدةُ استعمالِ حرفِ الظَّرفيَّةِ في قوله: ﴿فِي ٱلسَّمَآءِ﴾:

لم تكنِ ﴿ٱلسَّمَآءِ﴾ ظرفًا للتّقليب، لأنَّ التَّقليبَ كان نحو السّماء وقِبَلَها[6]، ومع ذلك فقد استعملَ حرفَ الظَّرفيَّةِ دون غيرِه من الأحرفِ؛ ليبيّنَ شدّة التّقليب، وصرف النّظر إلى السّماء، حتّى صار مستقرًّا في السّماء؛ ولهذا السّبب اختار ﴿فِي﴾ دون (إلى) فلم يقل: (إلى السّماء)؛ إذ لو قال ذلك لدلّ على أنّه ينظر باتّجاه السّماء وحسب، من غير تحمّل دلالةٍ أخرى؛ كالاستغراقِ في النّظر، وشدّة التّطلّع.

بيانُ شدّة التّقليب، والنّظر إلى السّماء، حتّى صار مستقرًّا فيها

توجيهُ المخصوصِ بالذِّكرِ ﴿فِي ٱلسَّمَآءِ﴾:

"ومعنى التقلّب نحو السّماءِ أنّ السّماءَ جهةٌ قد تعوّدَ العَالَمُ منها الرّحمةَ؛ كالمطر والأنوار والوحي، فهم يجعلون رغبتهم حيثُ

السَّماءُ جِهَةُ الرَّحمَةِ والوحيِ، وَهي قِبلَةُ الدُّعَاءِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/26-27.
(2) الواحدي، البسيط: 3/387.
(3) الرّاغب، تفسير الراغب: 1/334.
(4) الرّاغب، تفسير الراغب: 1/335.
(5) ابن عطية، المحرر الوجيز: 1/221.
(6) ابن جرير، جامع البيان: 3/172.

توالت النّعم"[1]، فوجهُ تخصيصِ السَّماءِ بالذِّكرِ: أنَّها "جِهَةٌ تَعُودُ مِنهَا الرَّحْمَةُ، كَالمَطَرِ وَالْأَنوَارِ وَالوَحيِ، فَهُم يَجعَلُونَ رَغبَتَهُمْ حَيثُ تَوَالَتِ النِّعَمُ، وَلأَنَّ السَّمَاءَ قِبلَةُ الدُّعَاءِ، وَلِأَنَّهُ ﷺ كَانَ يَنتَظِرُ جِبرِيلَ، وَكَانَ يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ"[2].

الحالُ المحذوفة في قوله: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ﴾:

﴿فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا﴾: هَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ في الجُملَةِ السَّابِقَةِ حَالًا مَحذُوفَةً، التَّقدِيرُ: قَد نَرَى تَقَلُّبَ وَجهِكَ فِي السَّمَاءِ طَالِبًا قِبلَةً غَيرَ الَّتِي أنتَ مُستَقبِلُهَا[3].

دلالةُ (الفاءِ) و(اللّام) في ﴿فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا﴾:

"﴿فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً﴾: الفاءُ للدلالةِ على سَببيّة ما قبلَها لما بعدَها"[4]، "وَجَاءَ هَذَا الوَعدُ عَلَى إِضمَارِ قَسَمٍ مُبَالِغَةً فِي وُقُوعِهِ، لأَنَّ القَسَمَ يُؤَكِّدُ مَضمُونَ الجُملَةِ المُقسَمِ عَلَيهَا"[5]، فالفاء: "داخلةٌ على قسم محذوف يدلّ عليه (اللّام)؛ أي فواللهِ لنولِّينَّك، أي: لنُعطِينَّكها ولنُمَكِّنَنَّك من استقبالها"[6].

دلالةُ تنكيرِ لفظِ: ﴿قِبْلَةً﴾:

تشويقُ السَّامعِ وتعظيمُ القِبلةِ

جاءَ لفظُ ﴿قِبْلَةً﴾ نَكِرَةً: "لأَنَّهُ لَمْ يَجرِ قَبْلَهَا مَا يَقتَضِي أَنْ تَكُونَ مَعهُودَةً، فَتُعَرَّف بِالأَلِفِ واللَّام، ولَيْسَ في اللَّفْظِ مَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ كَانَ يَطلُبُ بِاللَّفْظِ قِبْلَةً مُعَيَّنَةً"[7]، ونكَّر القبلةَ هنا للتّشويق والتّعظيم، فعندما يتلقّى السّامعُ خبرَ تحويل القبلة دون تعيين اسمها، فإنّه سيتشوّق لسماع اسمها وإن كان يعرفها مسبقًا، فلبيانِ غرضِ التّنكير هنا وهو التّعظيمُ؛ حجبَ التّعريفَ بالألف واللّام.

الجناس في قوله ﴿تَقَلُّبَ﴾ ﴿قِبْلَةً﴾:

التماثلُ اللّفظيُّ في حروف ﴿تَقَلُّبَ﴾ ﴿قِبْلَةً﴾ دون التّرتيب،

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 1/221.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/23.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/23.
(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/174.
(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/23.
(6) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/174.
(7) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/23.

جناسٌ ناقصٌ[1]، فهما من بِنيتين مُختلفتين (قلب، قبل)، تماثلتا في الحروف دون ترتيبها.

التّعبيرُ بالفعل المضارعِ دون الاسم في ﴿تَرۡضَىٰهَاۚ﴾:

تشريفُ النَّبيِّ ﷺ وبيانُ استمرارِ الرِّضا

عبّر عن الرِّضَا بجملة فعليّة ﴿تَرۡضَىٰهَاۚ﴾ ولم يصفْها بالمفرد، للنّص على أن الرّاضي هو النّبي ﷺ؛ لكونه مخاطبًا بالفعل، والمفردُ (مرضية) لا يظهرُ فيه الخطاب، ففيه تشريفٌ وعنايةٌ بشأنِ النَّبيِّ ﷺ ما لا مزيدَ عليه.

وعبّرَ بالفعل المضارع إرادةً لزمنه الحاضر على الحقيقةِ، ويحملُ ذلك أيضًا الرّضا بها على الدّوام والاستمرار في المستقبل؛ لأنّ المضارع يدلُّ على الزّمنين: الحاضر والمستقبل، والسّياق هو الّذي يُحدّد إذا كان الزّمانان مقصودَيْن[2].

إيثار التّعبيرُ بفعل الرّضا، في قوله: ﴿تَرۡضَىٰهَاۚ﴾:

التّعبير بالرّضا يُشعر بالمحبّة عن معرفةٍ وعقلٍ

"قوله تعالى: ﴿تَرۡضَىٰهَاۚ﴾ أي: تحبّها وتهواها؛ لأن النبي ﷺ كان راضيًا بالقبلة الأولى، مطيعًا للّه في حال صلاته إليها، ولكنه أحبّ أن تكون قبلته الكعبة"[3]، وهذا الحبُّ جاءَ "لمقاصدَ دينيةٍ وافقتْ مشيئتَه تعالى وحِكْمتَه"[4]، واختار التّعبيرَ بالرّضا، دون المحبّة أو الهوى أو الرّغبة؛ لأنّ الرّضا يُشعرُ بالمحبّة عن معرفة وعقل، فالنّبيّ ﷺ أبعدُ من أن يتعلّق بالأماكن، أو يفضِّل مكانًا منها على آخر من غير غاية ساميةٍ، وأهدافٍ نبيلة[5]، والرّضا يكون بعد الحدث، وهو نقيضُ السّخط، فبذلك سينفي السّخط عنه ﷺ تزكيَةً له، وحبُّه لها "بحسب الطّبع وإلّا فهو يحبُّ أوامر اللّه مطلقًا، ولكن إذا كانت

(1) الجناس الناقص، أو الجناس غير التّام: هو ما اختلف فيه اللّفظان في نوع الحروف، أو حركتها، أو ترتيبها، أو عددها، مع اختلافٍ في المعنى بينهما، يُنظر: أحمد الهاشمي، جواهر البلاغة، ص: 326.

(2) القونوي، حاشية القونوي على البيضاوي: 4/326.

(3) الواحدي، البسيط: 3/389.

(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/174.

(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/28.

موافقة للطّبع كانت أحبّ"[1]، فهو لا يحبُّ الكعبةَ "عن هوًى، ولكنّها قبلةُ العرب، فيتوفّرُ بها دواعيهم إلى الإيمان"[2].

نكتةُ تقديمِ الوعدِ على الأمر:

الوعدُ أحبُّ إلى الإنسان من الأمرِ فَرُوعِيَ ذلك

قُدِّم الوعدُ: ﴿فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا﴾، على الأمرِ: ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ لبيانِ أنَّ النَّبيَّ ﷺ في هذا الأمرِ كسائرِ البشرِ، يحبُّ سماعَ الوعدِ قبل الأمرِ بمضمونِه، فجاءَ "الوَعدُ قَبلَ الأَمرِ لِفَرَحِ النَّفسِ بِالإِجَابَةِ، ثُمَّ بِإِنجَازِ الوَعدِ، فَيَتَوَالَى السُّرُورُ مَرَّتَينِ، وَلأَنَّ بُلُوغَ المَطْلُوبِ بَعدَ الوَعدِ بِهِ آنَسُ فِي التَّوَصُّلِ مِن مُفَاجَأَةِ وُقُوعِ المَطلُوبِ"[3]، وهذا أحدُ أدلَّةِ أنَّ القرآنَ كلامُ اللّه تعالى، لا علاقةَ للنَّبيِّ ﷺ به إلَّا بالتَّبليغِ والبيانِ.

دلالةُ (الفاء) في ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾:

"﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ﴾: الفاءُ لتفريعِ الأمرِ بالتّولية على الوعدِ الكريمِ"[4].

توجيه المخصوصِ بالذِّكرِ في قوله: ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ﴾:

الوَجهُ أَشرَفُ الأَعضَاءِ وهو معيارُ التَّوجُّه

التّوجّهُ للقبلة لا يقعُ بالوجه فقط، بل بالذّات والبدن وتوجُّهه بالكلّيّة، فقوله تعالى: ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ﴾ من باب إطلاق الجزء وإرادة الكلّ، وهذا مجازٌ مرسل[5]؛ فأطلق الوجهَ وأراد به "جُملَةَ البَدَنِ؛ لأَنَّ الوَاجِبَ استِقبَالُهَا بِجُملَةِ البَدَنِ، وَكَنَّى بِالوَجهِ عَنِ الجُملَةِ، لأَنَّهُ

(1) الصّاوي، حاشية الصّاوي: 1/62.
(2) النيسابوري، إيجاز البيان عن معاني القرآن: 1/127.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/23، والقونوي، حاشية القونوي على البيضاوي: 4/326.
(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/174.
(5) المجاز المرسل: المجاز الّذي تكون العلاقة فيه بين المعنى الحقيقيّ والمعنى المجازي الّذي استعمل اللفظ للدّلالة به عليه أمراً غير المشابهة، أو قائماً على التّوسع في اللّغة دون ضابطٍ معيّن، وسُمِّيَ "مجازاً مُرسلاً" لكونه مرسلاً عن التّقييد بعلاقة المشابهة، يُنظر: عبد الرّحمن حَبَنَّكَة، البلاغة العربية: 2/271.

أَشْرَفُ الأَعضَاءِ، وَبِهِ يَتَمَيَّزُ بَعضُ النَّاسِ عَنْ بَعضٍ"[1]، "وتخصيصُ التّوليةِ بالوجه لما أنّه مدارُ التّوجّه ومعيارُه"[2].

فائِدةُ اختلاف توجيه الأمر: ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ﴾، ﴿فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ﴾:

تعظيم النَّبيِّ ﷺ وتشريفُ المؤمنين بخطابِهم بعد خطابِه

جاء الأمرُ بتولية الوجوه مرّةً للنَّبيِّ: ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ﴾ على وجه الخصوصِ "تعظيماً له وإيجاباً لرغبته، ثم عُمّم تصريحًا بعموم الحكم وتأكيدًا لأمر القبلة وتحضيضًا للأمّة على المتابعة"[3] فقال: ﴿فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ﴾، ولا يخفى أنّ النّبيّ ﷺ يدخل في الخطاب الموجّه إلى المؤمنين في قوله تعالى: ﴿فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ﴾، ولكنّه أفرد النّبيّ ﷺ بتوجيه الأمر إليه إرضاءً لرغبته كونه كان يتطلّع له[4]، ثمّ وجّه الأمرَ إلى المؤمنين تشريفًا لهم بالخطاب بعد خطاب رسوله ﷺ؛ لتشتدّ عزيمتُهم وتطمئنّ قلوبُهم، ويتلقّوا تلك الفتنةَ الّتي أثارها المنافقون وأهل الكتاب واليهود بعزيمةٍ صادقةٍ وثباتٍ على اتّباع الرّسول[5].

ومن فوائِد خطابِ الأمَّةِ؛ "فلأنّه، كان يجوزُ أن يُعتقد أنّ هذا أمر قد خُصَّ عليه السلام به كما خُصَّ بقوله: ﴿قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ۝٢﴾ [المزمّل: 2]؛ ولأنّه لما كان تحويل القبلة أمراً له خطرٌ خصَّهم بخطابٍ مفردٍ ليكون ذلك أبلغَ، فمعلوم من السلطان إذا خاطب والياً من قبله بأمر ذي بال يعمّه، ورغبته أن يخصّه بخطاب مفردٍ ليكون ذلك أوقعَ عندهم وأدعى لهم إلى قبولهم، وليكون لهم في ذلك تشريفٌ، ولأنّ في الخطاب العامّ تعليقُ حكمٍ آخرَ به، وهو أنّه لا فرق بين القريب والبعيد في وجوب التّوجّه إلى الكعبة"[6].

فائدة ذكرِ ﴿ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۚ﴾ دون الكعبةِ:

قولُه تعالى: ﴿ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۚ﴾ "مجازٌ مرسلٌ من إطلاق اسم الكلِّ على الجزء إن

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/23.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/174.
(3) البيضاوي، أنوار التنزيل: 1/112.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/28.
(5) المراغي، تفسير المراغي: 2/10.
(6) الرّاغب، تفسير الراغب: 1/335-336.

مراعاةُ التَّوجُّه إلى المسجدِ الحرامِ أيسرُ من الكعبةِ

قلنا: المرادُ منه الكعبةُ كما علّله الأكثرون"[1]، وفي ذكر المسجدِ الحرامِ دون الكعبة وجوبُ مراعاةِ الجهةِ دون العَين؛ لأنّ في إصابةَ عين الكعبة من البعيدِ حرجاً عظيماً على النّاس[2].

توجيه وصف المسجدِ بالحرام:

"قوله تعالى: ﴿ٱلۡحَرَامِۚ﴾ بمعنى المحرّم، وأصله: من المنع، سمِّيت تلك البقعة حرامًا لما منع فيها من أشياءَ لم تُمنع في غيرها"[3].

فائدةُ الاستئنافِ في ﴿وَحَيۡثُ مَا كُنتُمۡ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ شَطۡرَهُۥۗ﴾:

تعميمُ حكم استقبال القبلة على جميع المؤمنين

الواو في قولِه تعالى: ﴿وَحَيۡثُ مَا﴾ استئنافية، فقد توجَّه الخطابُ "للمؤمنين مع التعرُّض لاختلاف أماكنِهم تأكيداً للحُكم، وتصريحاً بعُمومه لكافة العباد من كل حاضر بادٍ، وحثاً للأمَّة على المتابعة"[4]؛ فالاستئناف جاء لبيانِ "أَنَّ حُكمَهُ وَحُكْمَ أُمَّتِهِ في ذَلِكَ وَاحِدٌ، مَعَ مَزِيدِ عُمُومٍ في الأَمَاكِنِ، لِئَلَّا يُتَوَهَّمَ أَنَّ هَذِهِ القِبلَةَ مُختَصَّةٌ بِأَهْلِ المَدِينَةِ، فَبَيَّنَ أنهم في أيما حَصَلُوا مِنْ بِقَاعِ الأَرْضِ، وَجَبَ أَنْ يَسْتَقبِلُوا شَطْرَ المَسجِدِ"[5].

سببُ إفرادِ النّبيِّ وأمرِه قبل أمرِ الأمّةِ:

"وَلَمَّا كَانَ ﷺ هُوَ المتشوّف لِأَمْرِ التَّحويلِ، بَدَأَ بِأَمْرِهِ أَوَّلًا ثُمَّ أَتْبَعَ أَمْرَ أُمَّتِهِ ثَانِيًا؛ لأَنَّهُمْ تَبَعٌ لَهُ فِي ذَلِكَ، وَلِئَلَّا يُتَوَهَّمَ أَنَّ ذَلِكَ مِمَّا اخْتُصَّ بِهِ ﷺ"[6].

الفاء الفصيحةُ في: ﴿فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ شَطۡرَهُۥۗ﴾:

أثرُ الرِّوايةِ في توجيه البلاغةِ، وتقديرِ المحذوفاتِ

أفصحت الفاءُ عن مقدَّرٍ محذوفٍ في قولِه: ﴿فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ شَطۡرَهُۥۗ﴾، وتقديره: وحيثما كنتم وأردتم الصّلاة، فولّوا وجوهكم

(1) الهرري، حدائق الروح والريحان: 3/24.
(2) الزمخشري، الكشاف: 1/203، وأبو حيّان، البحر المحيط: 2/24، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/174.
(3) الواحدي، التفسير البسيط: 3/390.
(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/175.
(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/25.
(6) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/25.

شطره"[1]، "قَالُوا: وَإِنَّمَا لَمْ يَذْكُرْ (فِي الصَّلَاةِ)؛ لِأَنَّ الآيَةَ نَزَلَتْ وَهُوَ فِي الصَّلَاةِ، فَأَغْنَى التَّلَبُّسُ بِالصَّلَاةِ عَنْ ذِكْرِهَا، وَمَنْ قَالَ نَزَلَتْ فِي غَيْرِ الصَّلَاةِ، فَأَغْنَى عَنْ ذِكْرِ الصَّلَاةِ أَنَّ المَطْلُوبَ لَمْ يَكُنْ إِلَّا ذَلِكَ، أَعْنِي: التَّوَجُّهَ فِي الصَّلَاةِ، وَأَقُولُ: فِي قَوْلِهِ: ﴿فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا﴾ مَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ المَقْصُودَ هُوَ فِي الصَّلَاةِ؛ لِأَنَّ القِبْلَةَ هِيَ الَّتِي يُتَوَجَّهُ إِلَيْهَا فِي الصَّلَاةِ"[2].

سِرُّ التّعبيرِ بالاسم الموصول في ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ دون (أهل الكتاب):

الموصول دالٌّ على قوم معيَّنين؛ و(أهل الكتاب) مُشعرٌ بالعموم

جاءَ التَّعبيرُ بالاسم الموصولِ في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ لَيَعۡلَمُونَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّهِمۡۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعۡمَلُونَ ١٤٤﴾ دون أهل الكتابِ؛ "لعلمهم بأنّ عادتَه سبحانه وتعالى جاريةٌ على تخصيص كلِّ شريعةٍ بقِبلة، ومعاينتِهم لما هو مسطورٌ في كتبهم من أنه عليه الصّلاةُ والسّلام يصلِّي إلى القِبلتين، كما يُشعر بذلك التعبيرُ عنهم بالاسم الموصول بإيتاء الكتاب"[3].

فالاسم الموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾ يدلُّ على قوم بعينهم؛ فالأحرى أن يكون المرادُ بـ ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ الأحبار منهم، أمّا (أهل الكتاب) فيشعرُ بعموم اليهودِ والنّصارى، ويدلُّ عليه قوله اللّاحق ﴿لَيَعۡلَمُونَ﴾، والعلمُ صفةٌ خاصّةٌ، وليست ممّا يكون عامًا لأمّة كاملة، والمقصود بهم الأحبار، قال الفخر الرّازيّ في تفسير قوله جلّ شأنه: ﴿نَبَذَ فَرِيقٞ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمۡ كَأَنَّهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ١٠١﴾ [البقرة: 101]، "﴿ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ فَفِيهِ قَوْلَانِ، أَحَدُهُمَا: أَنَّ المُرَادَ مِمَّنْ أُوتِيَ عِلْمَ الكِتَابِ مَنْ يَدْرُسُهُ وَيَحْفَظُهُ، الثَّانِي: المُرَادُ مَنْ يَدَّعِي التَّمَسُّكَ بِالكِتَابِ سَوَاءٌ عَلِمَهُ أَوْ لَمْ يَعْلَمْهُ، وَهَذَا كَوَصْفِ المُسْلِمِينَ بِأَنَّهُمْ مِنْ أَهْلِ القُرْآنِ لَا يُرَادُ بِذَلِكَ مَنْ يَخْتَصُّ بِمَعْرِفَةِ عُلُومِهِ، بَلِ المُرَادُ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَيَتَمَسَّكُ بِمُوجَبِهِ"[4]، وقال في موضع آخر: "المُرَادُ أَحْبَارُ اليَهُودِ وَعُلَمَاءُ النَّصَارَى؛ وَهُوَ الصَّحِيحُ لِعُمُومِ اللَّفْظِ، وَلَا بُدَّ أَنْ يَكُونُوا عَدَدًا قَلِيلًا؛ لِأَنَّ الكَثِيرَ لَا يَجُوزُ عَلَيْهِمُ التَّوَاطُؤُ عَلَى الكِتْمَانِ"[5].

(1) الواحدي، التفسير البسيط: 3/390.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/23.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/175.
(4) الرازي، التفسير الكبير: 3/616.
(5) الرازي، التفسير الكبير: 4/106.

الاختلافُ في مرجعِ الضّميرِ في: ﴿أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ﴾:

مـآلُ الاختـلافِ واحدٌ، فالمسجدُ الحرامُ والتَّوليةُ إليه شيءٌ واحد

اختُلف في مرجع الضَّمير في قوله تعالى: ﴿لَيَعۡلَمُونَ أَنَّهُ﴾ فقيل: "يجوز أن ترجعَ إلى المسجد الحرام، أي: إنّهم عالمون أنّ المسجد الحرام قِبْلَة إبراهيم وأنّه حقٌّ، ويجوز أن تعود الكنايةُ إلى التّولية؛ لأنّ قوله: ﴿فَلَنُوَلِّيَنَّكَ﴾ دلَّ على المصدر، والتّولية، وإن كانت في لفظ المؤنث، فهو مصدر، كما أنّ قوله: ﴿وَلَا يَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ﴾ [آل عمران: 180] دلَّ على البخل، فكنّى عنه بقوله: ﴿هُوَ خَيۡرًا لَّهُمۡۖ﴾ [آل عمران: 180][1]، "والقولان في التّحقيق واحد"[2]؛ لأنَّ التَّولية هي للمسجدِ الحرام، والمقصود بالمسجد الحرامِ ما كان توليةً إليه.

القصرُ بالتّعريف في ﴿أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ﴾:

يدلُّ قولُه: ﴿ٱلۡحَقُّ﴾ على أنّه لا حقَّ غيره في موضوع القبلة، وما دونه مجرّدُ أهواءٍ، فقوله: ﴿أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ﴾؛ أي: يعلمون أن استقبالَ الكعبة هو الحقّ دون غيره، "والمعنى أنّ اليهودَ والنّصارى يعلمون أنّ الكعبةَ هي قبلةُ إبراهيم إمام الأمم، وأنّ استقبالها هو الحقُّ الواجبُ على الجميع اتِّباعًا لمحمّدٍ ﷺ الّذي يجدونه في كتبهم"[3].

دلالةُ الجارّ والمجرور ﴿مِن رَّبِّهِمۡۗ﴾:

نفيُ الاجتهادِ، وبيان أنّ الأمرَ من الله تعالى

قولُه تعالى: "﴿مِن رَّبِّهِمۡۗ﴾: جَارٌّ وَمَجرُورٌ في مَوضِعِ الحَالِ؛ أَيْ: ثَابِتًا مِنْ رَبِّهِمْ، وَفِي ذَلِكَ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ التَّحَوُّلَ مِنْ بَيْتِ المَقدِسِ إِلَى الكَعْبَةِ لَمْ يَكُنْ بِاجتِهَادٍ، إِنَّمَا هُوَ بِأَمرٍ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى"[4]، فهو أمرٌ خالصٌ من الله تعالى.

"وَفِي إِضَافَةِ الرَّبِّ إِلَيْهِمْ تَنبِيهٌ عَلَى أَنَّهُ يَجِبُ اتِّبَاعُ الحَقِّ الَّذِي

(1) الواحدي، البسيط: 3/391-392.
(2) الرّاغب، تفسير الراغب: 1/336.
(3) ابن عطية، المحرر الوجيز: 1/222.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/25.

هُوَ مُستَقِرٌّ مِمَّنْ هُوَ مُعتَنٍ بِإِصلَاحِكَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾"[1]، وليلحظ فيه معنى الرّعاية الّتي حظوا بها من اللّه تعالى، وكذلك لأنّ الرّبّ يُصْلِحُ أحوالَ خلقه، وأنّ هذا التّحوّل من باب الإصلاح والرّعاية.

فائدةُ نفي الغفلةِ عن الفعل لا عن الذّواتِ في ﴿بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾:

"قال ابنُ عباس: يريدُ أنّكم يا معشرَ المؤمنين تطلبون مرضاتي، وما أنا بغافل عن ثوابكم وجزائكم، وإنّ اليهودَ يطلبون سخطي، وما أنا بغافل عن خِزْيهم في الدّنيا والآخرة"[2]، و"في خِطَابِهِمْ بِأَنَّ اللّه لَا يَغفَلُ عَنْ أَعمَالِهِمْ، تَحْرِيكًا لَهُم بِأَنْ يَعمَلُوا بِمَا عَلِمُوا مِنَ الحَقِّ، لأَنَّ المُوَاجَهَةَ بِالشَّيْءِ تَقْتَضِي شِدَّةَ الإِنكَارِ وَعِظَمَ الشَّيْءِ الَّذِي يُنْكَرُ ... فَهُوَ إِعْلَامٌ بِأَنَّ اللّه تَعَالَى لَا يُهْمِلُ أَعْمَالَ العِبَادِ، وَلَا يَغْفَلُ عَنْهَا، وَهُوَ مُتَضَمِّنٌ الوَعِيدَ"[3].

اللّه تعالى لا يُهمِلُ أعمالَ العِبادِ، ولا يَغفَلُ عنها، وكفى بهذا وعيدا

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الإِرَادَة والرِّضَا:

الإِرَادَةُ تكون قبل الفعل، وأمّا الرِّضَا فيكون بعد الفعل، فَلَيْسَ الرِّضَا من الإِرَادَة فِي شَيْء، وَالرِّضَا أَيْضا نقيضُ السّخط، وليس كذلك الإرادة، وفي الآية استعمل ﴿تَرْضَىٰهَا﴾ ليدلَّ على أنّ ذلك سيكون بعد أن تتحوّل القبلة، لينفي السّخط عنه عليه السلام.

الإِرَادَةُ تكون قبلَ الفعل، والرِّضَا يكون بعدَ الفعل

الرّضا والمحبّة:

الرّضا: الأَصْلُ يَدُلُّ عَلَى خِلَافِ السُّخْطِ، رضيتُ الشّيء ورَضِيتُ بِهِ رِضًا، اخترته، ورِضَا العبدِ عن اللّه: أن لا يكره ما يجري به قضاؤه، ورِضَا اللّهِ عن العبد هو أنْ يراه مؤتمرًا لأمره، ومنتهيًا عن نهيه[4].

المحبّة ضدُّها البُغضُ، والرّضا ضدّه السّخط، والرّضا مشعرٌ بالقبول، والحبّ مشْعر بالميل

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/25.
(2) الواحدي، التفسير البسيط: 3/392.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/25-26.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة؛ الرّاغب، المفردات؛ الفيومي، المصباح المنير: (رضي).

والمحبَّة: الأصل: اللُّزُومُ وَالثَّبَاتُ، فَالحُبُّ وَالمَحَبَّةُ: أَحَبَّهُ إِذَا لَزِمَهُ، والحبّ ودادٌ شديدٌ في مقابل البغض، والمحبّة إرادة ما تراه أو تظنّه خيرًا؛ فإنّ المحبّة أبلغُ من الإرادة[1]، ويظهر الفرقُ بضدّيهما، فالمحبّة ضدُّها البغضُ، والرّضا: ضدّه السّخطُ، وهو يرجع إلى الإرادة[2].

والرّضا مشعرٌ بالقبول، والحبّ مشْعر بالميل، فاختارت الآيةُ لفظَ الرّضا؛ لبيان أنّ الرّسولَ ﷺ لم يكن يميل إلى الكعبة من باب الميل النّفسيّ العاطفيّ، ولكنّه من باب الإرادة والاختيار لما فيها من مصالح، وتعبّر أيضًا عن رضاه عنْ ربّه وقَبول أوامره، فلو قال: (تحبّها)؛ لكان التّحويل معبِّرًا استجابةً لرغبةٍ في قلب النّبيّ ﷺ فقط، بلا معنى القبول والرّضا عن اللّه وإطاعته، وعليه سيكون ترتيبُ الأفعال من حيثُ رتبتُها في القوّة والوجود: الإرادة ثمّ الرّضا ثمّ الحبّ.

الجعل والعَمَل:

العَمَلُ هُوَ إيجاد الأثرِ في الشَّيْء على مَا ذكرنَا، والجعل تَغْيِير بإيجاد الأَثر فِيهِ بِغَيْر ذَلِك، أَلا ترى أَنَّك تَقول: جعل الطّين خزفًا وَجعل السَّاكِن متحرّكًا، وَتقول: عمل الطّين خزفًا، وَلَا تَقول عمل السَّاكِن متحرّكًا؛ لأنّ الحَرَكَة لَيست بأثر يُؤثر بِهِ فِي الشَّيْء[3].

العَمَل إيجادُ الأثرِ في الشَّيْء، والجعلُ تَغْيِيرٌ بإيجاد الأَثر فِيهِ

وفي الآية استعمل (جعل) مع الأمّة، ومع تغيير القبلة؛ لأنه تغيير بإيجاد أثر، وقال في آخر الآية ﴿يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾﴾ لأنّه إحداثٌ وإيجادُ أثرٍ بلا دلالةِ تغيير.

تعملون، وتكسبون، وتفعلون، وتصنعون:

الكسبُ: الفِعْل العَائِد على فَاعله بنفع أَو ضرّ، وما وَقع بمراس وعلاج، وَقَالَ آخَرُونَ: الكسْب ما فُعل بجارحة؛ ولذا لَا يُوصف اللّه بِأَنَّهُ مكتسب، اكْتسب الرّجلُ مَالًا وعقلًا وثَوابًا وعقابًا، وَيكون بِمَعْنى

الكسْب الفِعْل العَائِد على فَاعله بنفع أَو ضرّ، وما وَقع بمراسٍ وعلاجٍ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة؛ الرّاغب، المفردات: (حبب).
(2) الشيخ بيت الله بيات، معجم الفروق اللّغويّة: ص: 257.
(3) العسكري، الفروق اللّغويّة، ص: 136.

الفعل في قَوْلك: اكْتسب طَاعَة، فالمكتسِب: هُوَ الجَاعِل للشَّيْء مكتسَبًا لَهُ بحادث، فمكتسِب الطَّاعَة هُوَ الجَاعِل لَهَا مكتسَبة بإحداثها[1].

العَمَل: إِيجَاد الأَثر فِي الشَّيْء يُقَال: فلَان يعْمل الطّين خزفًا، وَلَا يُقَال: يفعل ذَلِك، قَالَ اللّه تَعَالَى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ وَمَا تَعۡمَلُونَ ٩٦﴾ [الصافات: 96]، أَي خَلقكُم وَخلق مَا تؤثّرون فِيهِ بنحتكم إِيَّاه، وَلَا يُقَال للفِعل الوَاحِد عمل[2].

العَمَل إِيجَاد الأَثر فِي الشَّيْء يُقَال فلَان يعْمل الطّين خزفًا، وَلَا يُقَال يفعل ذَلِك

الفِعلُ: يقالُ لما كان بإجادةٍ وبدونها، ولما كان بعلمٍ أو غير علمٍ، وقصدٍ أو غير قصدٍ، ولما كان من الإنسانِ والحيوان والجماد[3].

الفعلُ لفظٌ عامٌّ يقالُ لما كان بإجادةٍ وبدونها، ولما كان بعلمٍ أو غير علمٍ

الصّنعُ: هو من الإنسانِ دون سائر الحيوانات، ولا يقالُ إلا لما كان بإجادة؛ ولهذا يقال للحاذقِ: المُجيد وللحاذقةِ المجيدة: صَنَعٌ، فالصُّنْعُ أخصّ المعاني الثّلاثة، والفِعل أعمُّها، والعملُ أوسطها، فكلُّ صنعٍ عملٌ، وليس كلُّ عملٍ صنعًا، وكلُّ عملٍ فعلٌ، وليس كلُّ فعلٍ عملًا[4].

الصُّنعُ يكون من الإنسانِ دون سائر الحيواناتِ، ولا يقالُ إلّا لما كان بإجادة

شَطْر وتِلقَاء:

قال ﷻ: ﴿فَوَلِّ وَجۡهَكَ شَطۡرَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۚ﴾ ولم يقل: تلقاءَ كما في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلۡقَآءَ مَدۡيَنَ﴾ [القصص: 22].

شَطْرَ: شَطْرُ الشّيء: نصفه ووسطه[5]، وكلّ ما نُصِّفَ فقد شُطِّر، والشَّطر: الجهةُ، وشَطْر الشّيء ناحيته، وشَطر كلِّ شيء: نحوُه وقصدُه[6]، ومِنْ هَذَا البَابِ الشَّطْرُ الَّذي يُقَالُ في قَصْدِ الشَّيْءِ وَجهَتِه، قَالَ اللّه تَعَالَى في شَأْنِ القِبْلَة: ﴿فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ شَطۡرَهُۥۗ﴾ أَيْ قَصْدَهُ.

الشَّطرُ شَطْر الشّيء ناحيتُه وجهته

(1) العسكري، الفروق اللّغويّة، ص: 137.
(2) العسكري، الفروق اللّغويّة، ص: 134- 135.
(3) الشيخ بيت الله بيات، معجم الفروق اللّغويّة، ص: 322.
(4) الشيخ بيت الله بيات، معجم الفروق اللّغويّة، ص: 323.
(5) الرّاغب، المفردات: (شطر).
(6) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (شطر).

اللِّقَاءُ مقابلةُ الشّيء ومصادفته معًا

تلقاء: الأصل (لقي)، اللِّقَاءُ: مقابلة الشّيء ومصادفته معًا، جهَة اللَّقاءِ والمُقابَلَة، جَلَسْتُ تِلْقاءَهُ أي حِذَاءَهُ[1]، ومعنى ﴿تِلْقَآءَ مَدْيَنَ﴾ [القصص: 22]، أي سَلك في الطّريق الّتي تلقاء مَدْيَنَ فيها[2]، وقال الفخر الرّازيّ: ﴿تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ﴾ [القصص: 22]: خَرَجَ وَمَا قَصَدَ مَدينَ، وَلَكِنَّهُ سَلَّمَ نَفسَهُ إِلَى اللَّه تَعَالَى وَأَخَذَ يَمشِي مِنْ غَيْرِ مَعْرِفَةٍ، فَأَوْصَلَهُ اللَّه تَعَالَى إِلَى مَدْيَنَ، وَهَذَا قَوْلُ ابْنُ عَبَّاسٍ، ولَمَّا خَرَجَ قَصَدَ مَدْيَنَ لَمْ يَكُنْ لَهُ عِلْمٌ بِالطَّرِيقِ بَلِ اعْتَمَدَ عَلَى فَضْلِ اللَّه تَعَالَى[3].

ويظهر أنّ الفرقَ من خلال ما قدّمنا في شيئين: الأوّل: أنّ التوجّه المعبّر عنه بـ ﴿تِلْقَآءَ﴾ يدلُّ على الذهاب إلى المتوجَّه إليه، ولقائه، ففيه معنى البلوغ والوصول واللّقاء، وهو اتّجاه للذّهاب، وليس اتّجاهًا للتّوجّه فقط، فقوله تعالى: ﴿تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ﴾ [القصص: 22] يعني يذهب إليها حتّى يبلغها، وأمّا: ﴿شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ﴾ فيعني التوجُّه إليه للمواجهة فقط بلا ذهاب وبلوغ، والثّاني: أنَّ التّوجُّه في ﴿تِلْقَآءَ﴾ [القصص: 22] من غير معرفة الطّريق المؤدّية إلى المَقصَد، فهو يعرف الاتّجاه العامّ له فقط، أمّا الشّطْر فمأخوذ من شَطر الشّيء ومناصفته، ففيه تحديدٌ ووضوح أكثر؛ فلذا استعمل مع المسجد الحرام؛ لأنّهم يعرفونه، فجاء في سياق القبلة الّتي تقتضي الوضوح والدّقّة، أمّا (مَدْيَنَ) [القصص: 22] فلم يكن لموسى فيها معرفةٌ دقيقةٌ؛ فذهابه إليها تلقائيّ بلا خطّة ومعرفة، وكذلك الفعل (ألقى) هو إلقاء بلا هدف.

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة؛ الرّاغب، المفردات: (لقي).
(2) الزجاج، معاني القرآن وإعرابه: 4/138.
(3) الرّازي، التفسير الكبير: 24/588.

﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُواْ قِبْلَتَكَۚ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْۚ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٤٥﴾

[البقرة: 145]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

بيانُ إعراض أهل الكتاب عن الحقّ لفرط عنادهم، وفي هذا تثبيت لقلب النّبيّ

لمّا ذكر في الآية السّابقة أنّهم يَعلَمُون ولا يَعملون مُكابرةً منهم، بنَى على ذلك أنّهم لا مَطْمَعَ في اتّباعهم القبلة؛ لدَفعِ توهّم أنْ يطمع السّامع باتّباعهم؛ لأنّهم يعلمون أحقيّتها، فَعَدَمُ اتّباعهم ليس عن علم بل عن هوى.

قال الهرري: "لمّا ذكر لنبيه ﷺ ما يقوله السّفهاءُ من اليهودِ عند تحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة المشرّفة، وأمر رسولَه ﷺ بأن يتوجّهَ في صلاته نحو الكعبة، وأعلمه أنّهم يَعلَمُون أنّه الحقُّ وهم يكتمونه، ولا يرتِّبون على العلم به مقتضاه، سلَّاه ﷺ عن قبولهم الحقَّ بأنهم قد انتهوا في العناد وإظهار المعاداة إلى رتبةٍ لو جئتهم فيها بجميع المعجزات الّتي كلُّ معجزة منها تقتضي قبولَ الحقِّ ... ما تبعُوك، ولا سلكوا طريقك، وإذا كانوا لا يتبعونك مع مجيئك لهم بجميع المعجزات ... فأحرى أن لا يتّبعوك إذا جئتهم بمعجزةٍ واحدة، والمعنى بكل آيةٍ يدلُّ على أن توجّهك إلى الكعبة هو الحقُّ"[1].

شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

1) ﴿أَهْوَآءَهُم﴾: من الجذر (هَوِيَ) أَصْلُ مادّة (هوِيَ) يَدُلُّ عَلَى خُلُوٍّ وَسُقُوطٍ، أَصْلُهُ الهَوَاءُ بَيْنَ الأَرْضِ وَالسَّمَاءِ، سُمِّيَ لِخُلُوِّهِ، قَالُوا: وَكُلُّ خَالٍ هَوَاءٌ، وَهَوَى الشَّيْءُ يَهْوِي:

(1) الهرري، حدائق الروح والريحان: 3/25.

سَقَطَ[1]، وَأَمَّا الهَوَى فَمِنَ المَعنَيَيْنِ جَمِيعًا، لأَنَّهُ خَالٍ مِنْ كُلِّ خَيْرٍ، وَيَهْوِي بِصَاحِبِهِ فِيمَا لَا يَنْبَغِي[2]، وهو: محبةُ الإنسانِ الشّيءَ وغلبتُه على قلبه، ومتى أُطلق لم يكن إلّا مذمومًا ﴿وَنَهَى ٱلنَّفۡسَ عَنِ ٱلۡهَوَىٰ ۝٤٠﴾ [النّازعات: 40]، وبهذا المعنى كل (الهَوَى)، وجمعه (أهواء)[3].

2) ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾: من الجذر (ظَلَمَ)، يدلُّ أَصْلُ مادّة (ظلم) على خِلَافِ الضِّيَاءِ وَالنُّورِ، ووَضعِ الشَّيْءِ غَيْرَ مَوضِعِهِ تَعَدِّيًا[4]، ويدلُّ على حجبِ ما ينبغي أو ما يُسْتَحقّ، أي منعه أو انتقاصه، كمَنْع الضّوء في حالة الظّلمة، فالظّلام يحجبُ الرّؤية[5]، والظُّلْم: المَيلُ عَنِ القَصد[6].

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

يُبيّنُ اللّه ﷻ لنبيّه ﷺ في هذه الآية الكريمة، بأنّ الّذين أوتوا الكتاب من يهود ونصارى لن يتّبعوا قبلتك الّتي حوّلك اللّه تعالى إليها مهما بسطتَ بين أيديهم من آياتٍ قاطعةٍ وبراهينَ ساطعةٍ؛ لأنّ تركهم اتّباعك ليس مَبْنيًّا على شبهة تزيلُها بإيراد الحُجّة، وإنّما هم قومٌ مُعانِدون يَنْطلقون في مَواقِفهم من مُكابرَةٍ وتصلُّبٍ وعِناد مع علمهم بما في كتبهم من نعتك بأنّك على الحقّ المبين، ثمّ حسم أطماعهم مُوضِحًا أنّ نبيّه ﷺ لا يتوجَّهُ إلى قبلتهم على وجه التّأبيد؛ إذ صوّرت الآية تَصَلُّبَ كُلِّ فريقٍ وثباتَهُ على موقفه: فريق أهل الإيمان وفي مقدّمتهم محمّد ﷺ لا يتخلّون ولا يتزحزحون عن الحقّ الّذي هم عليه، وفريق الّذي أوتوا الكتاب بأنّهم لا يُفارقون الباطل الّذي يُصرّون على الاستمساك به، وفي هذا البيان إراحةٌ لقلب النبيّ ﷺ ليَكُفّ عن التّطلّع إلى هدى بعضهم، ثمّ أخبر

تَـــرْكُ أهـل الكتاب محجّة الإسـلام ليس لشُبهة، وإنّما لفرط عنادهم وتكبُّرهم، وفي الآية تحذيرٌ من اتّباعِ الهوى، وتهييجٌ للثّبات على الحقّ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (هوي).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (هوي).
(3) محمد حسن جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (هوي).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ظلم).
(5) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (ظلم).
(6) ابن منظور، لسان العرب: (ظلم).

جلّ شأنه بأنّ اليهودَ والنّصارى على - اتّفاقهم وتظاهرهم على معاداتكم ومخالفتكم في شأن القبلة - فإنّهم مُختلفون فيما بينهم لاعتداد كل فريق بقبلته وتعصّبه لها، ثمّ وجّه سبحانه نبيّه ﷺ بأنّك لئن اتّبعت أهواءهم -على وجه الفرض والتّقدير- من بعد العلم الّذي جاءك به الوحيُ، فإنّك تكون من الظّالمين.

وفي الآية: خطاب لجميع الأمة، وهو تهديد ووعيد لمن يتبع أهواء المخالفين لشريعة الإسلام، وتعليمٌ للأمّة جميعها بأن يبتعدوا كلّ البعد عن اتّباع قبلة الآخرين، واقتفاء آثارهم في أعمالهم وتشريعاتهم، ومحاولة استرضائهم بالتّقرّب من حِمَى ما يدينون به، قال الزّمخشريّ: "وفي ذلك لُطفٌ للسّامعين، وزيادةُ تحذيرٍ واستفظاع لحال من يتركُ الدّليلَ بعد إنارته، ويتّبعُ الهوى، وتهييجٌ وإلهابٌ للثّبات على الحقّ"[1].

حقيقةُ الإنسان الجدليّة وما يجبُ إزاءها من الثّباتِ

تتكلّم الآيةُ عن حقيقةٍ إنسانيّةٍ مفادُها أنّ أصحابَ الأهواء لا يتّبعون الحقّ مهما جئت لهم بأدلّة وحجج، وعلى أصحاب الحقّ أمام هذا العناد أن لا ينحرفوا عمّا هم عليه، وإذا حدث فإنّ ذلك ظلمٌ للحقّ ومنعٌ للصّوابِ؛ لأنّه سيحجبُ المعرفةَ الحقّةَ أمام النّاس، وهذا ظلمٌ للنّاس وللحقّ، ولا ينبغي تجاوز الخلاف بين الملل المختلفة وتحقيق التّقارب من خلال اتّباع أهوائهم والاعتراف بخطئهم وإعطائه صفة الحقّ.

❁ الإيضاحُ اللّغويُّ والبلاغيُّ:

موضعُ قوله ﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ﴾ من الآيات السّابقة:

معرفةُ اليأسِ من الغافلِ، تُورِّثُ راحةَ العاملِ

قال ابن عرفة في قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ﴾: "في هذا تهدئة روعته ﷺ وتطمينٌ له حتّى لا يتهالك

(1) الزمخشري، الكشاف: 1/203.

على عدم إيمانهم وهو عامٌّ في جميع المعجزات"[1]، وهو "تَسْلِيَةٌ لِلرَّسُولِ عَنْ مُتَابَعَةِ أَهلِ الكِتَابِ لَهُ؛ أَعْلَمَهُ أَنَّهُمْ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ الحَقُّ، وَهُمْ يَكتُمُونَهُ، وَلَا يُرَتِّبُونَ عَلَى العِلمِ بِهِ مُقتَضَاهُ، ثُمَّ سَلَّاهُ عَنْ قَبُولِهِمُ الحَقَّ، بِأَنَّهُمْ قَدِ انتَهَوْا فِي العِنَادِ وَإِظْهَارِ المُعَادَاةِ إِلَى رُتبَةٍ، لَوْ جِئْتَهُمْ فِيهَا بِجَمِيعِ المُعْجِزَاتِ الَّتِي كُلُّ مُعجِزَةٍ مِنْهَا تَقْتَضِي قَبُولَ الحَقِّ، مَا تَبِعُوكَ وَلَا سَلَكُوا طَرِيقَكَ، وَإِذَا كَانُوا لَا يَتَّبِعُونَكَ، مَعَ مَجِيئِكَ لَهُمْ بِجَمِيعِ المُعجِزَاتِ، فَأَحْرَى أَنْ لَا يُتبِعُوكَ إِذَا جِئْتَهُمْ بِمُعْجِزَةٍ وَاحِدَةٍ، وَالمَعْنَى: بِكُلِّ آيَةٍ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ تَوَجُّهَكَ إِلَى الكَعْبَةِ هُوَ الحَقُّ"[2].

اجتماعُ القسمِ والشَّرطِ في قوله: ﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ﴾:

اختزالُ الألفاظِ بتقدير الجوابِ، وأداءُ المعاني على وجه الصَّواب

اجتمع في قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُواْ قِبْلَتَكَۚ﴾ قسمٌ وشرطٌ، أمَّا القسمُ فدلَّت عليه اللامُ؛ فهي "تُؤْذِنُ بِقَسَمٍ مَحْذُوفٍ مُتَقَدِّمٍ؛ فَقَدِ اجْتَمَعَ القَسَمُ المُتَقَدِّمُ المَحْذُوفُ، وَالشَّرْطُ مُتَأَخِّرٌ عَنْهُ، فَالجَوَابُ لِلقَسَمِ وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿مَّا تَبِعُواْ﴾، وَلِذَلِكَ لَمْ تَدْخُلْهُ الفَاءُ"[3]، والتقدير: "وعزَّتي وجلالتي لَئِن جئتَ يا محمدُ اليهودَ والنصارى الذين أعطوا التّوراة والإنجيل ﴿بِكُلِّ ءَايَةٍ﴾؛ أي: بكل حجّةٍ قطعيّةٍ دالّةٍ على صدقك في أنَّ تحوّلك بأمرٍ من الله، وذلك بأنّهم قالوا: ائتنا بآيةٍ على ما تقول، فأنزل الله هذه الآية: ﴿مَّا تَبِعُواْ قِبْلَتَكَۚ﴾ الكعبة، وما دخلوا في دينك، والجملة جواب القسم المحذوف"[4].

وإذا اجتمع الجزاءُ والقسمُ؛ فأيّهما سبق الآخرَ وتَصدّر، كان الجوابُ له، ومثالُ تصدُّرِ القسم قولك: "واللهِ لَئِنْ أتيتَني لأتيتُك"[5]، وجواب القسم المحذوف سدَّ مسدِّ جواب الشّرط[6]، فتقدير القسم:

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/456.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/26.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/26.
(4) الهرري، حدائق الروح والريحان: 3/25-26.
(5) ابن يعيش، شرح المفصل: 5/141.
(6) النسفي، مدارك التنزيل: 1/140.

والله لَئِنْ أَتَيْتَهم بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ، وتقدير الشّرط: إنْ أَتَيْتَهم بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ، "وما دخلوا في دينك، والجملة جواب القسم المحذوف"[1].

إظهارُ ما حقُّه الإضمارُ في قولِه: ﴿أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ﴾:

الإيذانُ بكمالِ سوءِ حالِهم من العناد مع علمهم بالكتاب

سبق التَّصريحُ بذكر ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ﴾ في الآية السّابقة، فالظَّاهر أن يقول: (ولئن أتيتهم بكلّ آية) بالإضمار، ففي قوله: ﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ﴾ "وضع الموصولُ موضِعَ المضمرِ؛ للإيذان بكمالِ سوءِ حالِهم من العناد، مع تحقّق ما يُرْغِمُهم منه من الكتاب النّاطق بحقِّية ما كابروا في قبوله"[2]، أي: "أنّهم قد انتهوا في العناد، وإظهار المعاداة إلى رتبةٍ لو جئتهم فيها بجميع المعجزات ... ما تبعوك، ولا سلكُوا طريقك"[3]، فالآيةُ جاءت بالظّاهر؛ والقاعدة العامّة في استعمال الإظهار موضع الإضمار أن يكون المقصودُ منه زيادةَ العنايةِ والتّمكّن في الذّهن، ومزيدُ العناية هنا تفسَّر بالإعلان بمذمَّتهم؛ حتّى تكون هذه الجملة صريحة في تناولهم؛ فهو بيان بكمال سوء حالهم[4].

المجازُ المرسلُ في قولِه: ﴿بِكُلِّ ءَايَةٍ﴾:

إطلاقُ لفظِ (كلٍّ) وإرادةُ الكثرة شائعٌ في كلام العرب

(كلّ) من ألفاظ العموم والشّمول، وفي هذا الموضع لا يرادُ به التّعميم، بل التّكثير؛ حيث أطلق لفظ الكلّ وأراد الكثرة؛ فهو مجاز لجعل الكثير من أفراد شيء مشابهًا لمجموع عموم أفراده؛ تشبيهَ العدد الكثير من أفراد الجنس بعمومِ جميعِ أفراده، فالمراد بـ ﴿بِكُلِّ ءَايَةٍ﴾: آيات كثيرة على أنّ استقبال الكعبة هو قبلة الحنيفيّة، وإطلاق لفظ (كلّ) على الكثرة شائع في كلام العرب[5]،

(1) الهرري، حدائق الروح والريحان: 3/25-26.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/175.
(3) الهرري، حدائق الروح والريحان: 3/42.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/35.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/35.

ومعنى ﴿بِكُلِّ ءَايَةٍ﴾: "بكلّ برهان قاطع أن التّوجّه إلى الكعبة هو الحقُّ، فليس المرادُ جميعَ الآيات، بل الآياتُ الّتي لها علاقة "في أمر القبلة؛ أي: في أنّ تحوّلك بأمر من اللّه"[1].

فائدةُ التّخصيص في قوله: ﴿قِبْلَتَكَ﴾:

"أَضَافَ تَعَالَى القِبْلَةَ إِلَيْهِ؛ لِأَنَّهُ المُتَعَبَّدُ بِهَا وَالمُقْتَدَى بِهِ فِي التَّوَجُّهِ إِلَيْهَا"[2]، ولأنَّ الخطاب في سياقِ الآيات له: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ﴾، و﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾، فلذلك كان المناسبُ إفرادَه بالخطابِ في قولِه: ﴿قِبْلَتَكَ﴾.

الغرضُ المجازي للخبر في ﴿وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ۚ﴾:

الأمـرُ والنّـهـيُ بصيغةِ الخبر يدلُّ على المبالغةِ في طلبهما

قولُه تعالَى: ﴿وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ۚ﴾ جملةٌ خبريةٌ اختُلف في معناها؛ فقيل هي محمولةٌ على الإنشاء، وقيل: محمولة على الخبرِ المحض، فمَن حملها على الإنشاءِ ذهب إلى وجهين، الأوَّل: "النّهي، وطلب الدوام على قبلته؛ أي: لا تتبع قبلتهم، ودُمْ على قبلتك التي حوَّلناك إليها – وهي الكعبة – وإلّا فهو معصومٌ عن اتِّباع قبلتهم بعدَ ورود الأمر بالتحوّل"[3]، والثّاني: الأمر، فهي إخبارٌ لفظًا، ولكنّها تتضمّن الأمر، أي: اثبتْ ولا تتبع قبلتهم، والأمر بالخبر يدلُّ على المبالغة في قوّة الأمر، فتحويل الكلام من الإنشاء الّذي لا حقيقة له قابلة للصّدق والكذب، إلى كلام له حقيقة في الوجود قابلة للتّصديق والتّكذيب يعطي قوّة معنويّة له، ثمّ إنّ الخبر جاء منفيًّا على وجه المبالغة في النّفي، مما يزيدُ المبالغةَ في الأمر المراد من الخبر، والنّفي البليغ يتحصّل من الباء في خبر ما[4].

(1) الجمل، الفتوحات الإلهية: 1/178.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/28.
(3) الهرري، حدائق الروح والريحان: 3/26.
(4) الطيبي، فتوح الغيب: 3/147.

ومن ذهب إلى أنَّها خبريَّة، قال: "هذه القبلةُ باقيةٌ غيرَ منسوخةٍ"[1]، والغرضُ من ذلك التأييس "﴿وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبۡلَتَهُمۡۚ﴾ حسمٌ لأطماعهم إذ كانوا ماجوا في ذلك وقالوا: لو ثبت على قبلتنا لكنّا نرجو أن يكون صاحبَنا الّذي ننتظره، وطمعوا في رجوعه إلى قبلتهم"[2].

المقارنةُ بين النَّفي بالجملة الاسميّة والفعليّة:

جملةُ: ﴿وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبۡلَتَهُمۡۚ﴾ أَشدُّ في النَّفْيِ مِنْ قولِه: ﴿مَّا تَبِعُواْ قِبۡلَتَكَۚ﴾ "مِنْ حَيْثُ كَانَتِ اسْمِيَّةً تَكَرَّرَ فِيهَا الاسْمُ مَرَّتَيْنِ، وَمِنْ حَيْثُ أَكَّدَ النَّفْيَ بِالبَاءِ فِي قَوْلِهِ: ﴿بِتَابِعٍ﴾"[3]، ولم يقل: وما أنت تتّبع قبلتهم، مع أنّ النّفي بالفعل أعمّ؛ لأنّه مطلقٌ، ونفي الأعمّ يستلزم نفي الأخصّ، وذلك "أنّ الأوّل جاء على الأصل في أنّهم مصمّمون على عدم اتباعه، وأمّا نفيه هو بالاسم فلأنّ أفعاله ﷺ ثابتةٌ لازمةٌ؛ فهو إذا اتّبع أمرًا ثبتَ عليه ولا ينتقل عنه؛ فنُفي على حسب ما هو عليه"[4].

سرُّ إفرادِ القِبلة في قوله: ﴿قِبۡلَتَهُمۡۚ﴾:

بُطلان القبلتين يجعل لهما حكمًا واحدًا

"أَفْرَدَ القِبْلَةَ فِي قَوْلِهِ: ﴿قِبۡلَتَهُمۡۚ﴾، وَإِنْ كَانَتْ مُثَنَّاةً، إِذْ لِليَهُودِ قِبْلَةٌ، وَلِلنَّصَارَى قِبْلَةٌ مُغَايِرَةٌ لِتِلْكَ القِبْلَةِ، لأَنَّهُمَا اشْتَرَكَتَا فِي كَوْنِهِمَا بَاطِلَتَيْنِ، فَصَارَ الاثْنَانِ وَاحِدًا مِنْ جِهَةِ البُطْلَانِ، وَحَسَّنَ ذَلِكَ المقابلَةُ فِي اللَّفْظِ، لأَنَّ قَبْلَهُ ﴿مَّا تَبِعُواْ قِبۡلَتَكَۚ﴾"[5]، وكذلك فإنَّ إفرادَ القبلة في قوله: ﴿وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبۡلَتَهُمۡۚ﴾ مع كونهما قبلتين؛ لأنّه إذا اتّبع قبلة إحدى الطّائفتين كان غير متّبع قبلة الطّائفة الأخرى[6].

التّيئيس والتّأنيس في قوله ﴿وَمَا بَعۡضُهُم بِتَابِعٍ قِبۡلَةَ بَعۡضٖۚ﴾:

في قوله: ﴿وَمَا بَعۡضُهُم بِتَابِعٍ قِبۡلَةَ بَعۡضٖۚ﴾ تأنيسٌ للنّبيّ ﷺ بأنّ هذا دأب أهل الكتابِ، وشِنْشِنتُهم من الخلاف، فقديمًا خالفَ

(1) الهرري، حدائق الروح والريحان: 3/26.
(2) الزمخشري، الكشاف: 1/203.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/28.
(4) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/45.
(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/28، والزمخشري، الكشاف: 1/203-204.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/36.

بعضُهم بعضًا في قبلتهم، فخالفتِ النّصارى قبلةَ اليهودِ، وشريعةُ اليهودِ هي أصلُ النّصرانيّة[1]، وقد يكون المعنى: هم لم يتّبعوا قبلة بعضهم، فكيف يجوز لك أنْ تتّبع قبلتهم؟!، فلو كانوا متّفقين لكان من الممكن أنْ يكونَ اتّباعُ قبلتهم ممّا لا يمتنعُ عقلًا أنْ يتطلّع له، ولكنّهم قد اختلفوا في قبلتهم، فأنّى لك أن تتّبع فريقًا منهم!

مرجعُ الضّمير ودلالته في ﴿وَمَا بَعۡضُهُم بِتَابِعٖ قِبۡلَةَ بَعۡضٖۚ﴾:

الإشَـارَةُ إِلَى أَنَّ اليَهُودَ والنَّصارى لَا يلتقيانِ في قبلةٍ واحدة

عادَ الضَّميرُ في قوله تعالى: ﴿وَمَا بَعۡضُهُم بِتَابِعٖ قِبۡلَةَ بَعۡضٖۚ﴾ "عَلَى أَهْلِ الكِتَابِ، وَالمَعْنَى: أَنَّ اليَهُودَ لَا يَتَّبِعُونَ قِبْلَةَ النَّصَارَى، وَلَا النَّصَارَى تَتَّبِعُ قِبْلَةَ اليَهُودِ؛ وَذَلِكَ إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ اليَهُودَ لَا تَتَنَصَّرُ، وَإِلَى أَنَّ النَّصَارَى لَا تَتَهَوَّدُ، وَذَلِكَ لِمَا بَيْنَهُمَا مِنْ إِفْرَاطِ العَدَاوَةِ وَالتَّبَاغُضِ"[2].

دلالةُ الفرضِ والتّقديرِ في قوله: ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعۡتَ أَهۡوَآءَهُم﴾:

بيانُ غضبِ الله تعالى لمن يتركُ قبلته، ويتبع أهلَ الكتابِ

بعد أن أفصح قولُه تعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٖ قِبۡلَتَهُمۡۚ﴾ وجه الحقيقةِ السَّافرةِ، قال: ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعۡتَ أَهۡوَآءَهُم﴾ وهو "كلامٌ واردٌ على سبيل الفرض والتقدير، بمعنى: ولئن اتَّبعتهم مثلًا بعد وضوح البرهان والإحاطة بحقيقة الأمر ﴿إِنَّكَ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٤٥﴾ المرتكبين الظلم الفاحش، وفي ذلك لطفٌ للسامعين وزيادة تحذير، واستفظاعٌ لحال من يتركُ الدّليلَ بعد إنارته ويتّبع الهوى، وتهييجٌ وإلهابٌ للثّبات على الحقِّ"[3]، وفيه بيانُ شديد غضبِ اللّه تعالى لمَن يتَّبع اليهودَ والنَّصارى، ويُفرِّط في أمر الدِّين، فإذا كان الخطابُ مع رسولِ اللّه ﷺ الذي كان منه ما كان في أمرِ القبلةِ، فكيف بمن دونه من المؤمنين؟! وهي على حدِّ قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أُوحِيَ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ لَئِنۡ أَشۡرَكۡتَ لَيَحۡبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٦٥﴾ [الزمر: 65].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/37.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/29.
(3) الزمخشري، الكشاف: 1/203.

دلالةُ (اللّام) على القسمِ المحذوف في ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعۡتَ أَهۡوَآءَهُم﴾:

"﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعۡتَ أَهۡوَآءَهُم﴾، اللَّامُ أَيْضًا مُؤْذِنَةٌ بِقَسَمٍ مَحْذُوفٍ، وَلِذَلِكَ جَاءَ الجَوَابُ بِقَوْلِهِ: إِنَّكَ"[1].

إيثارُ الجمع على الإفراد في ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعۡتَ أَهۡوَآءَهُم﴾:

جُمِع الهوى في قولِه تعالى: ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعۡتَ أَهۡوَآءَهُم﴾؛ "لاختِلَافِ أَغرَاضِهِمْ وَمُتَعَلِّقَاتِها وَتَبَايُنِهَا"[2]، والأهواءُ هي: "الأمورُ الّتي يهوَوْنها ويحبّونها منك، ومنها رجوعك إلى قبلتهم"[3].

إيثارُ التّعبير عن القبلة بالأهواء ﴿ٱتَّبَعۡتَ أَهۡوَآءَهُم﴾:

اتِّباعُ القبلةِ عند أهلِ الكتابِ هوًى؛ لا دينٌ ولا التزام

الاتّباعُ يكون للقبلة، ولم يقل: (ولئنِ اتبعتَ قبلتهم)، ولكنّه وضع بدلها (الأهواء)؛ ليدلّ على أنّ اتّباعهم القبلة ليس عن علم، بل كان من آثار الخلاف بينهم، ولذلك أعقبه بـ ﴿ٱلۡعِلۡمِ﴾، فهم إنّما يتّبعون الهوى، وليس هوًى واحدًا، بل لكلٍّ هواه ورغبته، وإنّما عبر عن اتّباعهم القبلة باتّباع الهوى؛ لأنّه نابعٌ من غلبة حبّ الشّيء على القلب، فهو من المحبّة للشّيء أو للأشخاص وليس للعلم المجرّد الصّحيح، ولذا فإنّ الهوى يَهْوِي بِصَاحِبِهِ فِيمَا لَا يَنْبَغِي، ممّا يخالف العقل والعلم والحقّ.

دلالة ﴿مِّنۢ﴾ في ﴿مِّنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ﴾:

"وَأَمَّا دُخُولُ ﴿مِّنۢ﴾ فَفَائِدَتُهُ ظَاهِرَةٌ، وَهِيَ بَيَانُ أَوَّلِ الوَقْتِ الَّذِي وَجَبَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ أَنْ يُخَالِفَ أَهْلَ الكِتَابِ فِي أَمْرِ القِبْلَةِ، أَيْ: ذَلِكَ الوَقْتُ الَّذِي أَمَرَكَ اللَّهُ فِيهِ بِالتَّوَجُّهِ فِيهِ إِلَى نَحْوِ القِبْلَةِ، إِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ، كُنْتَ ظَالِمًا وَاضِعًا البَاطِلَ فِي مَوْضِعِ الحَقِّ"[4].

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/29.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/30.
(3) الجمل، الفتوحات الإلهية: 1/179.
(4) الجمل، الفتوحات الإلهية: 2/31.

بين اتّباع العلم واتّباع الأهواءِ:

الإسلامُ قائمٌ على العلم، بخلافِ الدِّينِ القائمِ على الهوى

أطلق لفظَ العلم على الوحي؛ فالعلمُ بشأن القبلة تحقَّقَ عن طريق الوحي، ووَضَعَ مقابلَه الهوى؛ ليبيّن أنّ مخالفةَ الوحي في الشّؤون الّتي لا يُتَوصَّل لها إلّا من خلال الوحي لن تكون إلّا خلافًا للعلم واتّباعًا للهوى، كما يلفت عناية هذه الأمّة إلى مكانة العلم، ويُحَذِّرُهُم من الزّيغ عنه، واتّباع الهوى؛ فإنّ الهوى أضلّ أصحاب الأديان السّابقة.

المجازُ في قولِه: ﴿مِّنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ﴾:

أَطْلَقَ اسْمَ الأَثَرِ عَلَى المُؤَثِّرِ، وسَمَّى تِلْكَ الدَّلَائِلَ عِلْمًا، مُبَالِغَةً وَتَعْظِيمًا

معنى قوله: ﴿مِّنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ﴾: "أَيْ مِنَ الدَّلَائِلِ وَالآيَاتِ الَّتِي تُفِيدُ لَكَ العِلْمَ وَتُحَصِّلُهُ، فَأَطْلَقَ اسمَ الأَثَرِ عَلَى المُؤَثِّرِ، سَمَّى تِلْكَ الدَّلَائِلَ عِلْمًا، مُبَالِغَةً وَتَعْظِيمًا وَتَنْبِيهًا عَلَى أَنَّ العِلْمَ مِنْ أَعْظَمِ المَخْلُوقَاتِ شَرَفًا وَمَرْتَبَةً"[1]، والعلمُ الّذي جاءه "من أمر القبلةِ بأنَّك لا تعود إلى قبلتهم، وأنَّ القبلةَ هي الكعبةُ، وأنَّ دينَ اللّهِ هو الإِسلامُ، وقيل معناه: من بعد ما وصل إليك من العلم بأنَّ اليهود والنّصارى مقيمون على باطلٍ وعنادٍ للحقِ"[2].

فائِدةُ المبالغةِ في الصّفة في ﴿إِنَّكَ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٤٥﴾:

شرعُ اللهِ لا مهادنةَ فيه، فمن يتّبع قبلةَ أهلِ الكتابِ يَنَلْهُ التَّهديدُ البليغ

قال سبحانه مخاطبًا نبيَّه ﷺ: ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعۡتَ أَهۡوَآءَهُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ إِنَّكَ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٤٥﴾، ولم يقل: (إنكَ إذًا لظالمٌ)؛ لأنّ قوله: ﴿لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٤٥﴾ أبلغُ في الدّلالة على صفة الظّلم، قال الزّمخشريُّ في تفسير قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلۡقَالِينَ ١٦٨﴾ [الشّعراء: 168]: "﴿مِّنَ ٱلۡقَالِينَ ١٦٨﴾ أبلغُ من أنْ يقول: إنّي لعملِكم قالٍ، كما تقول: فلانٌ من العلماء، فيكون أبلغَ من قولك: فلانٌ عالمٌ؛ لأنّك تشهدُ له بكونه معدودًا في زمرتهم، ومعروفةٌ مساهمتُه

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/30.
(2) الهرري، حدائق الروح والريحان: 3/27.

لهم في العلم"[1]، فيكون المعنى: ستكون من المشهورين بالظّلم، داخلًا في زمرتهم، وسببُ ذلك أنَّ ما يصدر عنه ﷺ ليس كما يصدر عن غيرِه، ففيه أنَّ أمرَ الشَّرعِ لا مهادنةَ فيه، وأنَّ على الجميع أن يلتزمَه، ولو كان رسول الله ﷺ، فأكَّد "تهديدَه وبالغ فيه تعظيمًا للحقِّ المعلوم، وتحريضًا على اقتفائه، وتحذيرًا من متابعةِ الهوى، واستفظاعًا لصدورِ الذنبِ عن الأنبياء"[2].

كثرةُ المؤكّدات في الآية:

مقصودُ كثرةِ المؤكّدات المبالغةُ في مضمونها

في قولِه تعالى: ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٥﴾﴾ "أكّدَ تهديدَه وبالغَ فيه من سبعةِ أوجه: أحدها: الإتيان باللّام الموطّئة للقسم، ثانيها: القسم المضمر، ثالثها: حرف التّحقيق وهو(إنَّ)، رابعها: تركيبه من جملة فعلية وجملة اسمية، وخامسها: الإتيان باللّام في الخبر، وسادسها: جعله من الظَّالِمينَ، ولم يقل (إنّك ظالم)؛ لأنّ في الاندراج معهم إيهاماً بحصول أنواع الظلم، وسابعها: التّقييد بمجيء العلم تعظيماً للحقّ المعلوم، وتحريصًا على اقتفائه وتحذيراً عن متابعة الهوى، واستفظاعاً لصدور الذّنب عن الأنبياء"[3].

توجيه المتشابه اللّفظي:

في سورة البقرة: قد سبقت آيةٌ تُشابِهُ هذه الآية لفظيًّا، وهي قوله:

﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾﴾ [البقرة: 120].

﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٥﴾﴾ [البقرة: 145].

فعبّر هنالك باسم الموصول ﴿ٱلَّذِى﴾، وهنا باسم الموصول ﴿مَا﴾، وهنالك ﴿بَعْدَ﴾ وهنا ﴿مِنۢ بَعْدِ﴾، وجعل جزاء الشّرط هنالك انتفاء الوليّ والنّصير، وجعل الجزاءَ هنا أن يكون من الظّالمين؛ فللسَّائل أن يسأل عن سرِّ ذلك؟

(1) الزّمخشري، الكشّاف: 3/331.
(2) الهرري، حدائق الروح والريحان: 3/28.
(3) البيضاوي، أنوار التنزيل: 1/112.

والجواب: أنَّ السّياق الّذي جاءت فيه الآية [البقرة: 120] كان مسبوقًا بالحديثِ عن أصل ملّة الإسلام، وبطلان غيره من الملل بالنّسخ، وإثبات عناد الفريقين، وإثبات صحّة رسالةِ الإسلام، فكلّ هذه الموضوعات هي أصرحُ بالعلم؛ فكان من المناسب أن يكون الحديث عنها بالاسم الموصول الصَّريح في الموصوليّة وهو ﴿ٱلَّذِى﴾، أمّا الآية الثّانية [البقرة: 145] فهي حديثٌ عن القبلة فقط، وهو تشريع فرعيّ يمثّل جزءًا يسيرًا من العلم، فجاء التّعبيرُ عنه بالاسم الموصول الفرعّي ﴿مَا﴾.

وإنّما قال ﴿مِّنۢ بَعۡدِ﴾ في الآية الثّانية [البقرة: 145]؛ لأنّ هذه الآية وقعت بعد الآية الأولى [البقرة: 120] في سورة واحدة وليس بينهما بعيدُ فصل، فكان العلم الّذي جاءه في أمر القبلة هو جزئيّ من عموم العلم الّذي جاء في الآية [البقرة: 120] الّذي أبطل جميع ملّتهم، فكان جديرًا بأنْ يشار إلى الموضع الّذي يتناول القبلة بأنّه جزئيّ وذلك بإيراد ﴿مِن﴾ الابتدائيّة[1].

قال في البحر المحيط: "وَجَاءَ فِي هَذَا المَكَانِ: ﴿مِّنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَكَ﴾، وَقَالَ قَبلَ هَذَا: ﴿بَعۡدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ﴾، وَجَاءَ فِي الرَّعْدِ: ﴿بَعۡدَ مَا جَآءَكَ﴾ [الرعد: 37]، فَاخْتَصَّ مَوضِعًا بِـ﴿ٱلَّذِى﴾، وَمَوضِعَيْنِ بِـ﴿مَا﴾، وَهَذَا المَوْضِع بِـ﴿مِنْ﴾، وَالَّذِي نَقُولُهُ فِي هَذَا: أَنَّهُ مِنَ اتِّسَاعِ العِبَارَةِ وَذِكْرِ المُتَرَادِفِ، لِأَنَّ (مَا) (وَالَّذِي) مَوْصُولَانِ، فَأَيًّا مِنْهُمَا ذَكَرْتَ، كَانَ فَصِيحًا حَسَنًا، وَأَمَّا المَجِيءُ بِـ﴿مِنْ﴾ فَهُوَ دَلَالَةٌ عَلَى ابتِدَاءِ بَعْدِيَّةِ المَجِيءِ"[2].

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

المجيء والإتيان:

الإتيان مجيء بسهولة وإزالة موانع ومعوّقاتٍ، والمجيءُ فيه شدّة وصعوبةٌ

الإتيان يدلُّ على مجيء بسهولة وإزالة موانع ومعيقات، وأمّا المجيءُ ففيه شدّة وصعوبةٌ، والإتيان يعني المجيء بسهولة، فهو مجيء مخصوص[3]، وقد ظهر ذلك في استعمال القرآن الكريم؛ حيث استعمل الفعلين الدّالّين على مفهوم المجيء والإتيان، في الآية نفسها، والإتيانُ يعني المجيء بسهولة، فهو مجيء مخصوص، وعبّر

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 39-2/38.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/30.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (جاء) (جيأ) (أتى).

به عن تحصيل الآيات وتقديمها لهم، فالفعل يدلُّ على أنّه لو تيسّر لك أن تأتي بكلّ آية تدلّ على صحّة قبلتك، فإنّهم لن يتّبعوها، فهنا استعمل الإتيان، وعندما تحوّل الخطاب إلى التّحذير والتّخويف من اتّباعهم والزّجر والوعيد كان المناسب لهذا السّياق أنْ يستعملَ فعلَ المجيء؛ ليتناسب مع شدّة التّحذير الّذي فيها؛ لأنّ المجيءَ فيه شدّةٌ وصعوبةٌ، فناسب كلُّ فعلٍ موضعَه.

﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمۡۖ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنۡهُمۡ لَيَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ١٤٦﴾ [البقرة: 146]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الـمُكابِرونَ يَرْفُضُونَ الحَقَّ ويَتَّبِعونَ الهَوى

لمّا بَيَّنَ في الآيَةِ السّابِقَةِ أَنَّ عمومَ أهل الكتاب لَنْ يَتَّبِعوا قِبْلَةَ الإِسْلام، ولا هُمْ يَتَّبِعونَ قِبْلَةَ بَعْضٍ، ونَهى النَّبِيَّ ﷺ أَنْ يَتَّبِعَ أَهْواءَهُم، لأَنَّها سَوْفَ تَعْصِفُ بدَعْوَتِه، ودينُ اللّهِ يَقومُ عَلى مُرادِ اللّهِ، لا عَلى أَهْواءِ البَشَرِ، أَرادَ أَنْ يُبَيِّنَ أَنَّهُمْ لَمْ يَتَّبِعوا قِبْلَةَ الإِسْلام، لَيْسَ من بابِ الجَهْلِ، بَلْ هُمْ يَعْلَمونَ ذَلِكَ الحَقَّ، ولَكِنَّهُمْ يُكابِرونَ ويُعانِدونَ، وأَشارَ إلى ذَلِكَ في قَوْلِه: ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعۡتَ أَهۡوَآءَهُم مِّنۡ بَعۡدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ إِنَّكَ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٤٥﴾ [البقرة: 145]، وفي هَذِهِ الآيَةِ أعطى مثالًا بيِّنًا، هو العلَّةُ الحقيقيَّةُ في عدمِ اتِّباعِ الحقِّ؛ لتكونَ الآيةُ كالمثلِ السَّائرِ في أنَّ المعرفةَ المحضةَ وحدَها غيرُ كافيةٍ في القَبولِ، بل لا بدَّ معها من متابعةٍ واتِّباعٍ، فبَيَّنَ أَنَّهُمْ يَعْلَمونَ الحَقَّ، ولَكِنَّهُمْ يَتَّبِعونَ الهَوى.

شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

مَنْ أوتِيَ النُّورَ المُبينَ، ضَمِنَ المَصيرَ المَكينَ

1) ﴿ءَاتَيۡنَٰهُمُ﴾: (أُوتُوا): مِنَ الجذْرِ (أتي)، وهُوَ مِنْ: أَتَّيْتُ الماءَ: سَهَّلْتُ سَبيلَهُ ليَخْرُجَ إلى مَوْضِعٍ[1]، وأَصْلُ المعنى: وُصولٌ إلى مَكانٍ بتَهْيِئَةٍ أَوْ قُوَّةٍ تُزيلُ ما يَعوقُ[2] والإيتاءُ: الإِعْطاءُ، فأَتَيْنا: جِئْنا، وآتَيْنا: أَعْطَيْنا[3]، (أَتَيْتَ بـ) من أَتى، بمَعْنى: جِئْتَ بـ، و(أُوتوا) من آتى، بمعنى: أُعْطُوا.

(1) ابن منظور، لسان العرب: (أتي).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (أتي).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (أتي).

الكِتابُ المُبِينُ هُدًى وعِصْمَةٌ

2) ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾: مِنَ الجذْرِ (كتب)، وهو أَصْلٌ يَدُلُّ عَلَى جَمْعِ شَيْءٍ إِلَى شَيْءٍ، من ذَلِكَ: الكِتابُ والكِتابَةُ[1]، وهيَ إلصاقُ بدِقَّةٍ وقُوَّةٍ: كإلْصاقِ جانِبَيْ شَقِّ القِرْبَةِ وفَتْحَةِ المنخرِ بالخَرْزِ والخَزْمِ[2]، ومن ذَلِكَ: الكِتابَةُ المَعْروفَةُ فهِيَ إلصاقُ الكَلامِ بتَثْبيتِ رُموزِهِ في وجْهِ مادَّةٍ قَوِيَّةٍ: حَجَرٍ أَوْ جِلْدٍ، ومِنْهُ قَوْلُهُ تَعالى: ﴿وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌۢ بِٱلْعَدْلِ﴾ [البقرة: 282] مِنَ الكِتابَةِ بالمَعْنى المَشْهورِ، ومن ذَلِكَ الإلْصاقُ جاءَتْ بمَعْنى الإلْزامِ والفَرْضِ، قالَ تَعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾ [البقرة: 183]، أَيْ أُلصِقَ بكُمْ وأُلْزِمْتُم، وسائِرُ ما في القُرْآنِ مِنَ التَّرْكيبِ فهُوَ - عَدا كُتُبِ اللهِ المُنَزَّلَةِ - بمَعْنى الفَرْضِ أَوِ القَضاءِ بأَمْرٍ، والتَّسْجيلِ كِتابَةً أَوْ في كِتابٍ.

والمعنى في: ﴿ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾: الكُتُبُ المُنَزَّلَةُ في بَني إسْرائيلَ.

مَنْ عَرَفَ الحَقَّ، التَزَمَ بنَهْجِهِ

3) ﴿يَعْرِفُونَهُۥ﴾: مِنَ الجذْرِ (عرف)، وهو أَصْلٌ يَدُلُّ على تَمَيُّزِ أَعْلى الشَّيْءِ أَوْ ظاهِرِهِ، بمَلْمَحٍ يَدُلُّ عَلَيْهِ أَوْ عَلى أَمْرٍ فيهِ، كعُرْفِ الدِّيكِ والفَرَسِ، ومِنْهُ عُرْفُ الرَّمْلِ والجَبَلِ: أَعاليهِ، والعُرْفُ: النَّخْلَةُ أَوَّلَ ما تُطْعِمُ، كأَنَّهُمْ نَظَروا إلى ظُهورِ البُسْرِ الأَحْمَرِ في أَعْلاها لأَوَّلِ مَرَّةٍ، وعَرَفاتُ: المُرْتَفِعاتُ الكَثيرَةُ المُنْتَشِرَةُ، قال تَعالى: ﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌۚ وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّۢا بِسِيمَٰهُمْۚ﴾ [الأعراف: 46]، وحِجابٌ أَيْ سورٌ، أَيْ عَلى أَعْرافِ السُّورِ، ومِنَ العُلُوِّ: عَريفُ القَوْمِ: سَيِّدُهُم، ومِنْهُ العَرْفُ: الرِّيحُ الطَّيِّبَةُ، تَسْطَعُ فوْقَ الشَّيْءِ وتَدُلُّ عَلَيْهِ[3].

البَشَرُ فَريقانِ مُخْتَلِفانِ، وكُلُّ إناءٍ بالَّذي فيهِ يَنْضَحُ

4) ﴿فَرِيقًا﴾: مِنَ الجذْرِ (فرق)، وهو أَصْلٌ يَدُلُّ عَلى تَمْييزٍ وتَزْييلٍ بَيْنَ شَيْئَيْنِ[4]، وفَصْلِ بَعْضِ شَيْءٍ أَوْ أَشْياءَ من بَعْضِها

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (كتب).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (كتب).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (عرف).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (فرق).

الآخَرِ، فصْلًا واصِلًا إلَى العُمْقِ: كالفَرْقِ بَيْنَ النَّخْلَتَيْنِ، والعُرْفَيْنِ، والشَّعَرِ، وهُوَ واصِلٌ إلى المَنْبَتِ[1].

والفُرْقانُ: كِتابُ اللَّهِ -تَعالى- فرَقَ بِهِ بَيْنَ الحَقِّ والباطِلِ، والفُرْقانُ: الصُّبْحُ، سُمِّيَ بذَلِكَ لِأَنَّهُ يَفْرِقُ بَيْنَ اللَّيْلِ والنَّهارِ، ويُقالُ لِأَنَّ الظُّلْمَةَ تَتَفَرَّقُ عَنْهُ[2]، فهُوَ يَدُلُّ عَلى انْقِسامٍ، ومِنْهُ انْقِسامٌ وانْفِصالٌ عَنِ المَجْموعِ.

والمَعْنى في الآيَةِ: جَماعَةٌ مِنَ اليهود، والفَريقُ: الجَماعَةُ المُنْفَرِدَةُ عَنْ آخَرينَ.

مَنْ كَتَمَ عِلْمًا أَلْجَمَهُ اللهُ بِلِجامٍ مِنْ نارٍ

5) ﴿لَيَكْتُمُونَ﴾: مِنَ الجذْرِ (كتم)، وكَتَمَ السِّقاءُ: أَمْسَكَ ما فيهِ مِنَ اللَّبَنِ والشَّرابِ، وسَحابٌ مُكْتَتِمٌ: لا رَعْدَ فيهِ، وخَرْزٌ كَتيمٌ: لا يَنْضَحُ الماءَ، وقَوْسٌ كَتومٌ: لا تُرِنُّ[3]، وأَصْلُ المادة يَدُلُّ عَلى إخْفاءٍ وسَتْرٍ[4]؛ من ذَلِكَ: كَتَمْتُ الحَديثَ كَتْمًا وكِتْمانًا، قالَ اللَّهُ تَعالى: ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا ۝٤٢﴾ [النّساء: 42] والنّاقَةُ الكَتومُ، والجَمَلُ الكَتيمُ، لا يَصْدُرُ عَنْهُما الرُّغاءُ المُعْتادُ من غَيْرِهما، فكَأَنَّ مَنْفَذَ الرُّغاءِ مَسْدودٌ[5]، ومن ذَلِكَ (كَتَمَ السِّرّ) سَتَرَهُ وأَخْفاهُ، كَتَمَ العِلْمَ والشَّهادَةَ، وكُلُّ ما في القُرْآنِ مِنَ الجذْرِ، فهُوَ بمَعْنى حَبْسِ الكَلامِ عَمّا في القَلْبِ؛ من شَهادَةٍ أَوْ عِلْمٍ أَوْ فِكْرٍ[6].

العِلْمُ الاعْتِقادُ الجازِمُ المُطابِقُ للواقِعِ

والمعنى في الآيَةِ: مَنْعُ العِلْمِ والشَّهادَةِ وإخْفاؤهما.

6) ﴿يَعْلَمُونَ﴾: مِنَ الجذْرِ (علم)، العَلامَةُ والعَلَمُ: شيءٌ يُنْصَبُ

(1) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (فرق).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (فرق)، محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (فرق).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (كتم).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (كتم).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (كتم).
(6) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (كتم).

في الفَلَواتِ تَهْتَدي بهِ الضّالَّةُ[1]، وهُوَ أَصْلٌ يَدُلُّ عَلى: أَثَرٍ بالشَّيْءِ يَتَمَيَّزُ بهِ عَنْ غَيْرِهِ[2]، واسْتُعْمِلَ اللَّفْظُ في كُلِّ ما يَدُلُّ عَلى شَيْءٍ ما، والعِلْم: "الاعْتِقادُ الجازِمُ الثّابِتُ المُطابِقُ للواقِعِ، أَو هُوَ صِفَةٌ توجِبُ تَمْييزًا لا يَحْتَمِلُ النَّقيضَ"[3].

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

الجُحودُ عَمًى في البَصائِرِ لا في الأَبْصارِ

يُخْبِرُ اللّهُ تَعالى بكَلامٍ مُسْتَأْنَفٍ، عَنْ طائِفَةٍ من أَهْلِ الكِتابِ، وهُمُ الأَحْبارُ وأَهْلُ العِلْمِ مِنْهُمْ، أَنَّهُمْ قَدْ ظَهَرَتْ لَهُمُ العَلاماتُ البارِزَةُ، الَّتي تُبَيِّنُ لَهُمْ صِدْقَ النَّبِيِّ محمد ﷺ؛ وهَذِهِ العَلاماتُ مَعْروفَةٌ لَهُم، ثابِتَةٌ في كُتُبِهِم، فعَرَفوهُ ومَيَّزوهُ مِثْلَ تَمْييزِهِمْ أَبْناءَهُم، لا يَخْتَلِطونَ عَلَيْهِمْ مَعَ غَيْرِهِم، ولا يَشْتَبِهونَ فيهم، وإِنَّ هَؤُلاءِ الأَحْبارَ فريقانِ: فريقٌ مِنْهُمْ قَدْ آثَروا مَنْعَ الحَقِّ وكَتْمَهُ، فلا يَنْشُرونَهُ ولا يَشْهَدونَ بما عِنْدَهُمْ من عِلْمٍ، وقَدْ قاموا بذَلِكَ، وهُمْ يَعْلَمونَ أَنَّهُمْ يُخالِفونَ ما أُمِروا بِهِ، ويَعْلَمونَ أَنَّهُمْ يَمْنَعونَ الحَقَّ، ويُضِلُّونَ النّاسَ، لِمُكابَرَةِ أَهْلِ الكِتابِ: فهُمْ يَعْرِفونَ في قَرارَةِ أَنْفُسِهِمْ صِحَّةَ نُبُوَّةِ النَّبِيِّ ﷺ، وكَوْنَ ما فعَلَهُ حَقًّا كما يَعْرِفونَ أَبْناءَهُم، والفريق الآخر يَكْتُمونَ الحَقَّ، وهُمْ يَعْلَمونَهُ حَقَّ العِلْمِ، وإِنَّ الحَقَّ هُوَ ما أَوْحى اللّهُ بِهِ، فلا مَحَلَّ للارْتِيابِ والتَّرَدُّدِ في اتِّباعِهِ[4].

الإِيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

حُسنُ الاسْتِئْنافِ الابْتِدائِيِّ:

سُطُوعُ نورِ معرفةِ رسولِ الله ﷺ يحسُنُ مَعَه الاستئنافُ

قَوْلُهُ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمۡۖ﴾: الآيَةُ اسْتِئْنافٌ ابْتِدائِيٌّ، وفَصْلٌ عَنْ سابِقِها، فأَرادَ أَنْ يُبَيِّنَ أَنَّ

(1) ابن منظور، لسان العرب: (علم).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (علم).
(3) الزبيدي، تاج العروس: (علم).
(4) محمد دروزة، التّفسير الحديث: 6/252.

المَعْنى المُضَمَّنَ في الآيَةِ، هُوَ حَقيقَةٌ مُسْتَقِلَّةٌ، لا يُؤَثِّرُ عَلى صِفَتِها تِلْكَ وُجودُها وكَيْنونَتُها، في سِياقٍ ما، فمَعْرِفَتُهُمُ النَّبِيَّ ﷺ بصِفاتِهِ جاءَتْ بكَلامٍ مُسْتَأْنَفٍ للتَّأْكيدِ عَلَيْهِ، والفَصْلِ بَيْنَ هَذا الكَلامِ وما قَبْلَهُ؛ لأنَّ "الآياتِ السّالِفَةَ وَرَدَتْ في شَأْنِ القِبْلَةِ، وهَذِهِ في شَأْنِ نَفْسِهِ صَلَواتُ اللّهِ عَلَيْهِ، فلَيْسَ بَيْنَهُما مُناسَبَةٌ[1]، ومن ثَمَّ ابْتَدَأَ بقَوْلِهِ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ﴾ من غَيْرِ عاطِفٍ"[2]، فلَوْ رَجَعَ الضَّميرُ إلى المَذْكورِ السّابِقِ لأَوْهَمَ نَوْعَ اتِّصالٍ ولَمْ يَحْسُنْ ذَلِكَ الحُسْنَ[3].

أُسْلوبُ اعْتِراضِ الاِسْتِطْرادِ:

معرفةُ القبلةِ كمعرفةِ رسولِ اللهِ ﷺ، والموقفُ منهما إنكارٌ نابعٌ من استكبار

هَذِهِ الآيَةُ ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمۡۖ﴾ مُعْتَرِضَةٌ بَيْنَ قَوْلِهِ: ﴿وَلَئِنۡ أَتَيۡتَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٖ مَّا تَبِعُواْ قِبۡلَتَكَۚ﴾، وقَوْلِهِ تَعالى: ﴿وَلِكُلّٖ وِجۡهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَاۖ﴾، ذَلِكَ أَنَّها ظاهِرَةُ الاِتِّصالِ، وما بَيْنَهُما اسْتِطْرادٌ وإطْنابٌ، والدَّليلُ عَلى أَنَّ الآيَةَ تَحْوي اسْتِطْرادًا، وُرُودُ قَوْلِهِ تَعالى بَعْدَ ذَلِكَ: ﴿وَلِكُلّٖ وِجۡهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَاۖ﴾ [البقرة: 148]، فقَدْ عادَ السِّياقُ إلى الكَلامِ عَنِ اسْتِقْبالِ القِبْلَةِ، ومَسْأَلَةِ الجِدالِ الَّذي اسْتَشْرى، مُتَزامِنًا مَعَ قَضِيَّةِ تَحْويلِ القِبْلَةِ[4]، وفائِدَةُ هَذا الاعْتِراضِ بالاسْتِطْرادِ، تَأْكيدُ أَنَّهُمْ يَتَّبِعونَ الأَهْواءَ، كما ذُكِرَ في الآيَةِ السّابِقَةِ، ﴿وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنۡهُمۡ لَيَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ١٤٦﴾، حَيْثُ بَيَّنَ في هَذا الاعْتِراضِ، أَنَّهُمْ يَعْرِفونَ النَّبِيَّ ﷺ، مَعْرِفَةً قاطِعَةً لا يَشوبُها شَكٌّ، ومَعَ ذَلِكَ، فإِنَّهُمْ يُكابِرونَ ويُعانِدونَ، فهم كذلك في شأنِ القبلةِ سواءً بسواء.

أثرُ معنى الكلامِ في تعيينِ مرجعِ الضَّمير في قَوْلِهِ: ﴿يَعۡرِفُونَهُۥ﴾:

حصولُ الشُّهرةِ يُغني عن الإفْصاحِ عن صَاحِبِ الضَّميرِ بحسبِ السِّياقِ

المعرفةُ المُرادَةُ في الآيَةِ هي معرفةُ رسولِ ﷺ، فالضَّميرُ عائِدٌ

(1) الطّيبي، فتوح الغيب: 3/150.

(2) ليس المراد بالمناسبة هنا علل التَّرتيبِ في علم المناسبات، وإنَّما المناسبة الموضوعيّة، أي أنَّ كلَّ مقطع في موضوعٍ، وهذا لا ينفي المناسبة التي تُعنى بالتَّرتيب بين الآيات والمقاطع.

(3) الطّيبي، فتوح الغيب: 3/150.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/39، الطّيبي، فتوح الغيب: 3/151.

لَهُ، "وجازَ الإِضْمارُ، وإِنْ لَمْ يَسْبِقْ لَهُ ذِكْرٌ، لأَنّ الكَلامَ يَدُلُّ عَلَيْهِ، ولا يَلْتَبِسُ عَلى السّامِعِ، ومِثْلُ هَذا الإِضْمارِ، فيهِ تَفْخيمٌ وإِشْعارٌ بأَنَّهُ لشُهْرَتِهِ وكَوْنِهِ عَلَمًا، مَعْلومٌ بغَيْرِ إِعْلام"[1]؛ فالحُضورُ الاعْتِباريُّ[2] هُوَ المُعْتَبَرُ في مَرْجِعِ الضَّميرِ في الآيَةِ؛ لأَنَّها لا تَتَضَمَّنُ لَفْظًا صَريحًا، صالِحًا لِأَنْ يَكونَ مَرْجِعًا للضَّميرِ.

ومَعْنى ذَلِكَ أَنَّ النَّبِيّ ﷺ، لشِدَّةِ حُضورِهِ في أَذْهانِ السّامِعينَ، ولِشُهْرَةِ ذِكْرِهِ بَيْنَ النّاسِ، وكَوْنِهِ يَجْري في حَديثِهِمْ - وما زالَ - فهُوَ مُتَعَلِّقٌ في العُقولِ والنُّفوسِ دائِمًا، فإِنَّ ذَلِكَ الحُضورَ الذِّهْنِيَّ يُغْني عَنْ ذِكْرِهِ بلَفْظِهِ، فأُضْمِرَ بذَلِكَ الاعْتِبارِ، وهَذا فيهِ مُبالَغَةٌ وتَأْكيدٌ عَلى عُلُوِّ مَكانَةِ النَّبِيِّ ﷺ.

ولا يَجوزُ أَنْ يَعودَ الضَّميرُ عَلى القِبْلَةِ؛ فالضَّميرُ المَنْصوبُ في ﴿يَعْرِفُونَهُۥ﴾، لا يَعودُ إِلى تَحْويلِ القِبْلَةِ؛ لأَنَّهُ لَوْ كانَ كذَلِكَ، لصارَتِ الجُمْلَةُ تَكْريرًا لمَضْمونِ قَوْلِهِ: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ [البقرة: 144].

ولا يَجوزُ أَنْ يَكونَ المُرادُ القُرْآنَ؛ لأَنَّ الحَديثَ في السِّياقِ لا يُشيرِ إِلَيْهِ، ولَوْ كانَ الضَّميرُ عائِدًا عَلى القُرْآنِ، لَوَجَبَ أَنْ يُقالَ: (يَعْرِفُونَهُ كَما يَعْرِفُونَ التَّوْراةَ)؛ رِعايَةً للْمُناسَبَةِ، فلَمّا قيلَ: ﴿كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ﴾، عُرِفَ أَنَّ الضَّميرَ للرَّسولِ[3] ﷺ.

وقَدْ يَرِدُ أَنَّ الآياتِ السّابِقَةَ قَدْ ورَدَ فيها ذِكْرٌ للنَّبِيِّ ﷺ، فكَيْفَ يُقالُ: لَمْ يَجْرِ لَهُ ذِكْرٌ سابِقٌ؟ ومن ذَلِكَ: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيْهَآ﴾، وقَوْلُهُ: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ﴾، وقَوْلُهُ: ﴿فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا﴾، وقَوْلُهُ: ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾، وقَوْلُهُ: ﴿مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ﴾.

والجَوابُ عَنْهُ: أَنَّهُ قَدْ تَقَرَّرَ أَنَّ الآيَةَ، اسْتِئْنافٌ وابْتِداءٌ في كَلامٍ جَديدٍ، فهُوَ فَصْلٌ عَنِ الحَديثِ السّابِقِ، فالمُرادُ "عَدَمُ سَبْقِ ذِكْرِهِ، في الكَلامِ المُبْتَدَإِ المُنْقَطِعِ عَمّا قَبْلَهُ، ومَعَ ذَلِكَ رَجَعَ الضَّميرُ إِلَيْهِ، لأَنَّهُ لِعُلُوِّ شَأْنِهِ وجَلالَةِ قَدْرِهِ، لا يَغيبُ عَنِ الأَذْهانِ، ولا

(1) الزمخشري، الكشاف: 1/204.

(2) الحضور الاعتباريّ: أريدُ به أن يعتبر حضور الشّخص في الذّهن، فيغني عن ذكره لفظًا، لصحّة الإضمار، لشهرته أو مكانته ورتبته، فيجوز الإضمار عنه، باعتبار حضوره ذهنًا، كما في قوله: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ۝١﴾ [القدر: 01]، وقوله: ﴿يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ﴾ [الأنعام: 20].

(3) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 3/150.

يَلْتَبِسُ المُرادُ عَلى السّامِعينَ، ومِثْلُ هَذا الإِضْمارِ، فيهِ تَفْخيمٌ لشَأْنِ المُرْجَعِ إِلَيْهِ، وإِشْعارٌ بِأَنَّهُ لشُهْرَتِهِ مَعْلومٌ بغَيْرِ سَبْقِ ذِكْرِهِ"[1].

بَلاغَةُ أُسْلوبِ الإِلْتِفاتِ:

تَأْكيدُ ذِكْرِ النُّبُوَّةِ المُصْطَفاةِ في التَّوْراةِ بالأَوْصافِ المعهودةِ

ورَدَ ذِكْرُ النَّبِيِّ ﷺ، بصيغَةِ الخِطابِ في الآياتِ السّابِقَةِ: ﴿ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيْهَآ﴾، ﴿تَقَلُّبَ وَجْهِكَ﴾، ﴿فَلَنُوَلِّيَنَّكَ﴾، ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ﴾، فالإِتْيانُ بالضَّميرِ الغائِبِ في قَوْلِهِ: ﴿يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ﴾، هُوَ مِنَ الإِلْتِفاتِ، وَهُوَ عَلَى تَقْديرِ مُضافٍ أَيْ: يَعْرِفُونَ صِدْقَهُ[2].

وفائِدَةُ الإِلْتِفاتِ عَنِ الخِطابِ إلى الغَيْبَةِ، في هَذا المَوْضِعِ؛ الإيذانُ بأَنَّ المُرادَ لَيْسَ مَعْرِفَتَهُمْ لَهُ ﷺ، من حَيْثُ ذاتُهُ ونَسَبُهُ، بَلْ من حَيْثُ كَوْنُهُ مَذْكورًا في الكِتابِ، مَنْعوتًا بالنُّعوتِ الَّتي من جُمْلَتِها: أَنَّهُ يُصَلِّي إلى القِبْلَتَيْنِ، كأَنَّهُ قيلَ: (الَّذينَ آتَيْناهُمُ الكِتابَ يَعْرِفُونَ مَنْ وصَفْناهُ فيهِ)[3].

بلاغةُ تشبيهِ المَعْرِفَةِ النَّظَرِيَّةِ البُرْهانِيَّةِ بالمعرفةِ الحسيَّةِ المشَاهدة:

القطعُ بمعرفةِ اليهودِ للنَّبيِّ وأنَّه الرَّسولُ الخاتَم

جيءَ بحرفِ (الكاف) المُفيدِ للتَّشْبيهِ، ورُكْنا التَّشْبيهِ مَعْرِفَتُهُمُ النَّبِيَّ المُرْسَلَ ﷺ، ومَعْرِفَتُهُمْ أَبْناءَهُم، فالمَعْنى أَنَّهُمْ يَعْرِفونَ النَّبِيَّ ﷺ، مَعْرِفَةً واضِحَةً، كمَعْرِفَةِ أَبْنائِهِمُ الَّذينَ من أَصْلابِهِم؛ فهُوَ تَشْبيهٌ مُرْسَلٌ[4].

وقد قارَنَ الشِّهابُ بين المعرفتين؛ إحداهما مشبَّهٌ بها والأخرى مشبّهةٌ، فقال: "المَعْرِفَةُ المُشَبَّهَةُ نَظَرِيَّةٌ، والمَعْرِفَةُ المُشَبَّهُ بها قَطْعِيَّةٌ ضَرورِيَّةٌ، مُسْتَنِدَةٌ إلى المُشاهَدَةِ والإِحْساسِ، والمَعْرِفَةُ

(1) زاده، حاشية على البيضاوي: 2/373.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/39.

(3) محمد صديق خان، فتح البيان في مقاصد القرآن: 1/310.

(4) التّشبيهُ المرسل والتّشبيه المؤكّد: ينقسم التّشبيه باعتبار أداته إلى: أولًا: التّشبيه المرسل: وهو ما ذكرت فيه أداة من أدوات التّشبيه، كقوله: "إنّما الدّنيا كبيتٍ نسجُه من عنكبوت"، ثانياً: التّشبيه المؤكّد: وهو ما حُذفت منه أداته، كقوله: "أنت نجمٌ في رفعة وضياءٍ"، ينظر: السيد الهاشمي: جواهر البلاغة، ص: 238، وينظر أيضا حبنّكة الميدانيّ، البلاغة العربيّة: 2/173.

الضَّروريَّةُ أَقْوى مِنَ المَعْرِفَةِ النَّظَرِيَّةِ البُرْهانِيَّةِ، وإِنْ كانَتْ كُلُّ واحِدَةٍ مِنْها قَطْعِيَّةً، فلِذَلِكَ جُعِلَتِ الأولى مُشَبَّهًا بِها للثّانِيَّةِ"[1].

فأهلُ الكتابِ يَعْرِفونَ النَّبيَّ ﷺ بأَوْصافِهِ، من كَوْنِهِ نَبِيًّا، وكَوْنِهِ هُوَ المَوْعودَ ببَعْثَتِهِ في كُتُبِهِم، وكَوْنِهِ مِنَ الصّادِقينَ في تبليغِهِ عنِ اللّهِ، فإِنَّهُمْ كانوا يَعْرِفونَهُ بهَذِهِ الأَوْصافِ؛ لأَنَّهُمْ شاهَدوا بأُمِّ أَعْيُنِهِمْ ما خَلَقَ اللّهُ في يَدِهِ مِنَ المُعْجِزاتِ، مَعْرِفَةً لا يَشوبُها اشْتِباهٌ، ولا يَعْرِضُ لَها التِباسٌ، وهُمْ في مَعْرِفَتِهِمْ تِلْكَ يَعْرِفونَهُ كما يَعْرِفونَ أَبْناءَهُمْ بذَواتِهِم وأَشْخاصِهِم، مُمَيَّزينَ عَنْ سائِرِ الغِلْمانِ، إذا رَأَوْهُمْ مُخْتَلِطينَ مَعَهُم، وفائدةُ هذا التَّشبيه القطعُ بمعرفةِ اليهودِ للنَّبيِّ ﷺ، وأنَّه الرَّسولُ الخاتم، وأنَّ العبرةَ ليست في المعرفةِ بل بالعملِ بمقتضاها، ولـمَّا لم تُفِدْهم معرفتُهم أُلحِقَ بهم الذَّمُّ.

إيثارُ التَّشْبيهِ عَلى أسلوبِ الإِخْبارِ في التَّعْبيرِ:

إبـرازُ جماليَّةِ التَّشْبيهِ والمُبالَغَةُ في وَصْفِ المَعْرِفَةِ

سَبَقَ أَنْ استُعمِلَ أُسلوبُ الخبرِ في قولِه تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ [البقرة: 144]، وهَذا خَبَرٌ مُؤَكَّدٌ، فلسائلٍ أن يسألَ عن إيثارِ التَّشبيه على الخبرِ في هذه الآيةِ؟

والجوابُ: أنَّ للتَّشْبيهِ جَماليَّةً في التَّعْبيرِ، مَعَ المُبالَغَةِ والتَّأْكيدِ، والجَمالُ في التَّشْبيهِ يَأْتي من إِعْمالِ الفِكْرِ في الرَّبْطِ بَيْنَ المُشَبَّهِ والمُشَبَّهِ بِهِ، والنَّظَرِ في الصِّفَةِ المُشْتَرَكَةِ بَيْنَهُما، وهَذا اسْتِدْعاءٌ للذِّهْنِ أَنْ يَتَأَمَّلَ النَّصَّ ويَتَفاعَلَ مَعَهُ، فلذا كانَ في الإِنْشاءِ فنٌّ وجَمالٌ، فهُوَ لا يَسْلُكُ مَسْلَكَ الخَبَرِ في إِثْباتِ المَعْلومَةِ، بطَريقِ المُباشَرَةِ الخالي مِنَ التَّفاعُلِ بَيْنَ النَّصِّ والسّامِعِ، فلذا كان التَّشْبيهُ هُنا مُفيدًا تَأْكيدَ مَعْرِفَتِهِم، "والغَرَضُ من هَذا التَّشْبيهِ المُبالَغَةُ في وصْفِ المَعْرِفَةِ[2]، فهُوَ تَشْبيهٌ يُفيدُ اليَقينَ في المَعْرِفَةِ؛ فإِنَّ الإِنْسانَ لا يُمْكِنُ أَنْ يَجْهَلَ ولَدَهُ الَّذي يَعْرِفُ نَسَبَهُ ساعَةً من زَمانٍ ما دامَ عاقِلًا مُدْرِكًا، وقَدْ يَجْهَلُ نَفْسَهُ، في الوَقْتِ الَّذي لَمْ يَكُنْ قَدْ بَلَغَ

(1) زاده، حاشية على البيضاويّ: 2/374.

(2) ابن جزي، التّسهيل لعلوم التّنزيل: 1/100.

فيهِ سِنَّ التَّمْييزِ، فكَما أَنَّ الَّذينَ أوتوا الكِتابَ، لا يُمْكِنُ أَنْ يَجْهَلوا أَبْناءَهُمُ الّذينَ من أَصْلابِهِمْ؛ فكَذَلِكَ لا يَجْهَلونَ الرَّسولَ الأَمينَ[1]، ليَدُلَّ عَلى جَلاءِ مَعْرِفَتِهِمْ وتَحَقُّقِها"[2].

ولَوْ أَخْبَرَ لاحْتَمَلَ الخَبَرُ الصِّدْقَ والكَذِبَ، ولدَفْعِ هَذا الاحْتِمالِ، يُؤْتَى بالمُؤَكِّداتِ لِيَكُونَ النَّصُّ بنحو: (وإِنَّ الَّذينَ أوتوا الكِتابَ لَيَعْرِفونَ أَنَّهُ صادِقٌ)، وبذَلِكَ يَكونُ الكَلامُ مُباشِرًا مُقَرِّرًا، خالِيًا من جَمالِيَّةِ التَّشْبيهِ، الَّتي تَتَضَمَّنُ التَّأْكيدَ والمُبالَغَةَ الَّتي يَقْتَضيها المَقامُ.

توجيهُ المخصُوصِ بالذِّكر:

وُرودُ التَّشْبيهِ بالأَوْلادِ، لأَنَّهُمْ حُشاشَةُ الأَكْبادِ

اخْتارَ في الآيةِ، أَنْ يَكونَ المُشَبَّهُ بِهِ، هُوَ مَعْرِفَةَ الأَبْناءِ، وخَصَّصَ الأَبْناءَ بالذِّكرِ فلَمْ يَقُلْ مَثَلًا: (بَناتِهِم، أَوْ أَوْلادَهُم، أَوْ أَنْفُسَهُمْ)؟ والجَوابُ عَلى ذَلِكَ: راجِعٌ لكَوْنِ الذُّكورِ أَشْهَرَ وأَعْرَفَ عِنْدَهُمْ مِن البنات، وهُمْ بصُحْبَةِ الآباءِ أَلْزَمُ، وبقُلوبِهِمْ أَلْصَقُ؛ فإِنْ قيلَ: لِمَ لَمْ يَقُلْ: (كَما يَعْرِفونَ أَنْفُسَهُمْ)؟ مَعَ أَنَّ مَعْرِفَةَ الشَّخْصِ نَفْسَهُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ من مَعْرِفَةِ سائِرِ الأَشْياءِ؟ فالجَوابُ: لأَنَّ الإِنْسانَ لا يَعْرِفُ نَفْسَهُ إِلّا بَعْدَ انْقِضاءِ بُرْهَةٍ من دَهْرِهِ، ويَعْرِفُ وَلَدَهُ من حينِ وُجودِهِ[3]، وخَصَّ الأَبْناءَ لشِدَّةِ تَعَلُّقِ الآباءِ بِهِمْ؛ فيَكونُ التَّمَلِّي من رُؤْيَتِهِمْ كَثيرًا، فتَتَمَكَّنُ مَعْرِفَتُهُمْ[4].

وكذلك مُلاحَظَةُ الجِنْسِ المُناسِبِ، وهُوَ الذُّكورَةُ؛ وذَلِكَ لتَحْقيقِ المُناسَبَةِ، وهَذِهِ عِلَّةٌ لَفْظِيَّةٌ ولَيْسَ دَلالِيَّةً، ومُراعاةُ الجانِبِ اللَّفْظِيِّ في بُنْيَةِ النُّصوصِ غايَةٌ ساميَةٌ، خاصَّةً في الكَلامِ المُعْجِزِ.

المَعْرِفَةُ تَتَحَقَّقُ في الجُزْئِيّاتِ الظّاهِرَةِ، والمَلامِحِيّاتِ البارِزَةِ

دلالَةُ اسْتِعْمالِ لَفْظِ ﴿يَعْرِفُونَهُۥ﴾ دون غيرِه من الألفاظِ:

آثَرَ النَّصُّ اسْتِعْمالَ لَفْظِ ﴿يَعْرِفُونَهُۥ﴾ دون ألفاظٍ أخرى، في بَيانِ أَنَّ أَحْبارَ أَهْلِ الكِتابِ، قَدْ عَلِموا صِدْقَهُ، وأَنَّهُ هُوَ المُبَشَّرُ بِهِ؛ وذلك أَنَّ المَعْرِفَةَ تَتَحَقَّقُ في الجُزْئِيّاتِ، والمَلامِحِ الظّاهِرَةِ،

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 1/453.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/40.
(3) أبو حيان، البحر المحيط في التّفسير: 2/34، والراغب، تفسير الراغب: 1/338.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/40.

والمُفْرَداتِ البارِزَةِ، الَّتي يَسْبِقُها الجَهْلُ، فاسْتِعْمالُ لَفْظِ ﴿يَعْرِفُونَهُۥ﴾ يُبَيِّنُ أَنَّ صِفاتِهِ كانَتْ بارِزَةً مَعْروفَةً، ومن خِلالِ هَذِهِ الصِّفاتِ زالَ جَهْلُهُمْ بِهِ، وتَحَقَّقَتِ المَعْرِفَةُ، فهُمْ كانوا يَجْهَلونَ شَخْصَ النَّبِيِّ ﷺ قَبْلَ بَعْثَتِهِ، فلَمّا بُعِثَ ورَأَوا صِفاتِهِ عَرَفوهُ، ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦۚ﴾ [البقرة: 89]، أَيْ أَنَّهُ النَّبِيُّ ﷺ الَّذي ذُكِرَ لَهُمْ نَعْتُهُ من قَبْلُ في التَّوْراةِ، فثَبَتَتْ سِماتُهُ في أَذْهانِهِم، فلَمّا ذُكِرَتْ تِلْكَ السِّماتُ في القُرْآنِ، عَرَفوا أَنَّهُ المَوْصوفُ في التَّوْراةِ؛ فهُمْ يَعْرِفونَ رِسالَتَهُ، وما جاء بِهِ من حَلالٍ وحَرامٍ، والأَرْضَ الَّتي يُبْعَثُ مِنْها، وقَوْمَهُ الأُمِّيِّينَ[1].

والعَلاماتُ البارِزَةُ الَّتي من خِلالِها تَحَقَّقَتْ مَعْرِفَتُهُمُ النَّبِيَّ المُرْسَلَ ﷺ كانَتْ مَعْروفَةً عِنْدَهُم، قال تَعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْۚ﴾ [الأعراف: 157].

فائدةُ تقييدِ الكاتمينَ وعدمُ إطلاقِ الحكمِ:

بيانُ عدالةِ القرآنِ في الحكمِ على المخالفِ

ذكرتِ الآيةُ أنَّ الكتمانَ صادرٌ عن فريقٍ لا عن جميعِ أهلِ الكتابِ: ﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾﴾، وهَذا من كَمالِ العَدالَةِ والدِّقَّةِ والتَّحَرِّي، فالقُرْآنُ لا يُطْلِقُ أَحْكامًا تَهْضِمُ حُقوقَ النّاسِ، ولا يُسَوِّي في الحُكْمِ بَيْنَ المُخْتَلِفينَ، فهُوَ يَلْحَظُ الفَوارِقَ بدِقَّةٍ، وهَذا من لَوازِمِ الحَقِّ والسَّدادِ في تَقْسيمِ النّاسِ، حَيْثُ لَمْ يَقُلْ: (وإِنَّهُمْ)، بَلْ قالَ: ﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ﴾.

ففي الآيةِ تَخْصيصٌ لبَعْضِ الَّذينَ أوتوا الكِتابَ، بالعِنادِ في أَمْرِ القِبْلَةِ، وفي غَيْرِهِ ممّا جاءَ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ، وهُوَ أَيْضًا ذَمٌّ لَهُم، بأَنَّهُمْ يَكْتُمونَ الحَقَّ وهُمْ يَعْلَمونَهُ، وهَؤُلاءِ مُعْظَمُ الَّذينَ أوتوا الكِتابَ، فبَقِيَ فريقٌ آخَرُ يَعْلَمونَ الحَقَّ، ويُعْلِنونَ بِهِ، وهُمُ الَّذينَ آمَنوا بالنَّبِيِّ ﷺ مِنَ اليَهودِ، قَبْلَ عَبْدِ اللهِ بْنِ سَلامٍ، ومِنَ النَّصارى مِثْلَ تَميمٍ الدّارِيِّ وصُهَيْبٍ[2]، وممّا يُؤَكِّدُ ذَلِكَ، أَنَّ عُمَرَ بْنَ الخَطّابِ سَأَلَ عَبْدَ اللهِ بْنَ سَلامٍ، فقالَ لَهُ: كَيْفَ هَذِهِ المَعْرِفَةُ

(1) محمّد أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 1/454.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/40.

المَذْكورَةُ في هَذِهِ الآيَةِ؟ فقالَ عَبْدُ اللّهِ: يا عُمَرُ، لَقَدْ عَرَفْتُهُ حينَ رَأَيْتُهُ، كما أَعْرِفُ ابْني، ومَعْرِفَتي بمُحَمَّدٍ أَشَدُّ من مَعْرِفَتي بابْني، فقالَ عُمَرُ: فكَيْفَ ذَلِكَ؟ فقالَ: أَشْهَدُ أَنَّهُ رَسولُ اللّهِ حَقًّا، وقَدْ نَعَتَهُ اللّهُ في كِتابِنا، ولا نَدْري ما تَصْنَعُ النِّساءُ؟ فقَبَّلَ عُمَرُ رَأْسَهُ، وقالَ: وفَّقَكَ اللّهُ يا أبا سَلامٍ، فقَدْ صَدَقْتَ"[1].

والفريقُ المذكورُ خاصٌّ بمَنْ عانَدَ من عُلَماءِ أَهْلِ الكِتابِ فكتمُوا الحقَّ، ويُخْرِجُ الَّذينَ آمَنوا مِنْهُمْ، قالَ الزَّمَخْشَرِيُّ[2]: "اسْتِثْناءٌ لِمَنْ آمَنَ مِنْهُم، أَوْ لِجُهّالِهِم، الَّذينَ قالَ فيهِمْ: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾﴾ [البقرة: 78]، والاسْتِثْناءُ هُنا مَعْنَوِيٌّ لا اصْطِلاحِيٌّ، وهُوَ بمَعْنى الإِخْراجِ، إِخْراجُ لِمَنْ آمَنَ مِنْهُم، أَوْ لِجُهّالِهِمْ"[3]؛ فذكرُ الكاتِمين يُخرجُ المؤمنين، والأميين من أهلِ الكتابِ.

نكتةُ إِظْهارِ مَا حقُّه الإِضْمارُ:

النَّصُّ عَلى أَنَّ المَكْتومَ هُوَ الحَقُّ

أُظْهِرَ الاسْمُ في قولِه: ﴿لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ﴾، فلَم يَقُلْ: (لَيَكْتُمونَهُ) بالإِضْمارِ؟ وذَلِكَ أَنَّهُ أَرادَ التَّنْصيصَ عَلى أَنَّ المَكْتومَ هُوَ الحَقُّ؛ لِيُبَيِّنَ سوءَ فِعْلِهِم، وفَسادَ طَوِيَّتِهِم، فلَوْ أَضْمَرَ لما أَفادَ الإِضْمارُ التَّنْبيهَ عَلى حَقِّيَّةِ ما يَكْتُمونَهُ.

نُكتةُ حذفِ مفعولِ العلمِ:

فواصِلُ الآياتِ مُرْتَكِزٌ مُهِمٌّ، للإِعْجازِ الصَّوْتِيِّ

يتعلَّق العلمُ بالمعلوم لفظًا أو تقديرًا، وفي الآيَةِ أُطْلِقَ العِلْمَ، ولَمْ يُخَصِّصْهُ بشَيْءٍ، للتَّوَسُّعِ في تَقْديرِ المَحْذوفِ، فقَدْ يَكونُ تَقْديرُ المَحْذوفِ: (وهُمْ يَعلَمونَ أَنَّهُمْ آثِمونَ)، أَوْ: (أَنَّهُمْ ظالِمونَ) أو غَيْرَ ذلك مِمّا يَصْلُحُ أَنْ يَكونَ مَعْلومًا لَهُمْ في هَذا المَقامِ، ولَوْ كانَ المُرادُ: (وهُمْ يَعْلَمونَ أَنَّهُ الحَقُّ)، لكَوْنِهِ ذُكِرَ في سِياقِ الآيَةِ؛ فيَكونُ

(1) الهرري، تفسير حدائق الرّوح والرّيحان: 3/29.
(2) الزّمخشري، الكشاف: 1/204.
(3) الطّيّبيّ، فتوح الغيب: 3/151.

حَذْفُهُ لدَلالَةِ المَقام عَلَيْه، من بابِ الإيجاز، حَتَّى لا يَقَعَ في تَكْرارِ لَفْظٍ ذُكِرَ قَريبًا، وكَذَلِكَ لِلْمُحافَظَةِ عَلى فاصِلَةِ الآيَةِ المُتَناسِقَةِ مَعَ الآياتِ الأُخَرِ، والتَّناسُقُ الصَّوْتِيُّ في النُّصوصِ لَهُ أَثَرُهُ الجَمالِيُّ، ويَؤُولُ إلى تَنْبيهِ السّامِعِ عَلى مَضْمونِ النَّصِّ.

دَلالَةُ الجُمْلَةِ الحالِيَّةِ الاِسْمِيَّةِ عَلى التَّوْكيدِ:

قبحُ العنادِ المقترنِ بالعلمِ وبشاعةُ مقترفِه

قَوْلُهُ: ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ جُمْلَةٌ اسْمِيَّةٌ حالِيَّةٌ، جيءَ بها لتِبْيانِ الحالَةِ الَّتي كَتَموا فيها ما كَتَموا، وهِيَ أَنَّهُمْ كَتَموهُ في حالَةِ العِلْمِ؛ حَتَّى لا يَقَعَ شَكٌّ في أَنَّهُمْ رُبَّما فعَلوا ذَلِكَ في حالَةِ جَهْلِهِمْ أَنَّهُ حَقٌّ، أَوْ كَوْنِهِمْ آثِمينَ، فنَصَّ عَلى أَنَّهُمْ فعَلوا ذَلِكَ قَصْدًا وهُمْ عالِمونَ، فهَذِهِ الحالُ مُؤَكِّدَةٌ؛ لأَنَّ الكِتْمانَ إِنَّما يَكونُ بَعْدَ العِلْمِ، وجيءَ بِهِ تَوْبيخًا لَهُمْ عَلى تَرْكِ العَمَلِ بِمُقْتَضى العِلْمِ، وزِيادَةً في ذَمِّهِم، فإِنَّ ارْتِكابَ الذَّنْبِ عَنْ عِلْمٍ أَقْبَحُ وأَفْظَعُ بالنِّسْبَةِ لارْتِكابِهِ عَنْ جَهْلٍ[1]، قالَ الشِّهاب في حاشِيَتِهِ عَلى البَيْضاوِيِّ عِنْدَ قَوْلِهِ تَعالى: ﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾﴾: "تَخْصيصٌ لِمَنْ عانَدَ، واسْتِثْناءٌ لِمَنْ آمَنَ"[2]؛ فعنادُهم صادرٌ عن علمٍ.

تَناسُقُ الأَلْفاظِ في الآيَةِ:

دَلالَةُ الشُّحْنَةِ الدَّلالِيَّةِ لأَلْفاظِ الآيَةِ، وارْتِباطُها بالحَياةِ والمَصيرِ

هناك تَناسُقٌ بَيْنَ ألفاظِ الآيةِ، فالأَلفاظُ الوارِدَةُ بَيْنَها تَناسُبٌ في الدَّلالَةِ العامَّةِ، فالآيَةُ تَحْوي ألفاظَ: (الكِتاب، والمَعْرِفَة، والحَقّ، والعِلْم) مَعَ مُلاحَظَةِ تَكْرارِ لَفْظِ ﴿يَعْرِفُونَ﴾، وورودِ لفظَي (العِلم والمَعْرِفَة) في آيَةٍ واحِدَةٍ، وهَذا يَدُلُّ عَلى قَصْدِ التَّنْبيهِ عَلى هَذِهِ الأَلْفاظِ، لِما تَزْخَرُ بِهِ من شحْنَةٍ دَلالِيَّةٍ ذاتِ أَهَمِّيَّةٍ في الحَياةِ والمَصيرِ، فهُمْ لَدَيْهِمْ كِتابٌ، ولَدَيْهِمْ مَعْرِفَةٌ وعِلْمٌ بالحَقِّ، ولَكِنَّهُمْ يَكْتُمونَ هَذا الحَقِّ، والحَقُّ هُنا هُوَ المَعْلومَةُ الصَّحيحَةُ الثّابِتَةُ،

(1) زاده، حاشية على البيضاوي: 2/375.
(2) الخفاجي، عناية القاضي: 2/255.

فجَميعُ ألفاظِ الآيَةِ تَتَمَحْوَرُ حَوْلَ العِلْمِ ومَغَبَّةِ كِتْمانِهِ، وفي الآيَةِ تَكَرَّرَتْ صيغَةُ الأَفْعالِ الخَمْسَةِ (يَعْرِفونَهُ، يَعْرِفونَ، لَيَكْتُمونَ، يَعْلَمونَ)، وهَذا مِمّا يُعْطِي زِيادَةً للتَّناسُقِ اللَّفْظِيِّ، وهَذا التَّناسُبُ والتَّماثُلُ في مَوْضوعِ الألفاظِ، وصِيَغِها الصَّرْفِيَّةِ يَخْلَعُ عَلى النَّصِّ قُوَّةَ البِناءِ ويَزيدُ في التَّماسُكِ بَيْنَ مُفْرَداتِهِ.

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

المَعْرِفَة والعِلْم:

الفَرْقُ بَيْنَ المَعْرِفَةِ والعِلْمِ، أَنَّ أَصْلَ المَعْرِفَةِ تَمْييزٌ يَقومُ عَلى مَلامِحَ ظاهِرَةٍ للأَشْياءِ، أَخْذًا مِنِ اسْتِعْمالِ التَّرْكيبِ في المَلامِحِ الظّاهِرَةِ الَّتي تُمَيِّزُ الشَّيْءَ عَنْ غَيْرِهِ، وهَذا أَساسُ أَنَّ "المَعْرِفَةَ: العِلْمُ المُتَعَلِّقُ بالمُفْرَداتِ، ويَسْبِقُهُ الجَهْلُ، ولذا لَمْ يوصَفِ اللَّهُ تَعالى بالمَعْرِفَةِ، أَمّا العِلْمُ فأَحْكامٌ تَتَكَوَّنُ في القَلْبِ، من رَوافِدَ وأَسْبابٍ مُحَدَّدَةٍ، ومِنْهُ قَوْلُهُ تَعالى: ﴿فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ ٱلْقَوْلِۚ﴾ [محمّد ﷺ: 30]، وقَوْلُهُ: ﴿فَدَخَلُواْ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ۝٥٨﴾ [يوسف: 58]، وفي هَذا السِّياقِ يُلْحَظُ أَنَّها مَعْرِفَةٌ بالسّيما والمَلامِحِ، ولَحْنُ القَوْلِ يُؤْخَذُ مِنَ الأَلْفاظِ المَسْموعَةِ.

العِلْمُ أَحْكامٌ تَتَكَوَّنُ في القَلْبِ، بأَسْبابٍ ورَوافِدَ، والمَعْرِفَةِ تَمْييزٌ يَقومُ عَلى مَلامِحَ ظاهِرَةٍ للأَشْياءِ

وقَدْ عَدَلَ عَنْ أَنْ يُقالَ: (يَعْلَمونَهُ) إلى ﴿يَعْرِفُونَهُۥ﴾، لأَنَّ المَعْرِفَةَ تَتَعَلَّقُ غالِبًا بالذّواتِ والأُمورِ المَحْسوسَةِ[1]، ويَسْبِقُها الجَهْلُ، أَمّا العِلْمُ فحُكْمٌ يَتَكَوَّنُ من خِلالِ رَوافِدَ وأَسْبابٍ حَتّى يَكونَ كالشَّيْءِ المُشاهَدِ الثّابِتِ؛ فلذا اسْتَعْمَلَ المَعْرِفَةَ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ: لأَنَّهُمْ عَرَفوهُ من خِلالِ مَلامِحَ وعَلاماتٍ، واسْتَعْمَلَ العِلْمَ مَعَ الحَقِّ، لأَنَّهُ حُكْمٌ ثابِتٌ لَدَيْهِمْ عَلِموهُ من خِلالِ النَّظَرِ في كُتُبِهِم، وهَذا من بَلاغَةِ الاسْتِعْمالِ الدَّقيقِ للأَلْفاظِ في كِتابِ اللَّهِ المُحْكَمِ البَليغِ.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/40.

﴿ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ ١٤٧﴾ [البقرة: 147]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الرَّبْطُ بَيْنَ التَّحْذيرِ مِنَ الأَهْواءِ، وبَيْنَ صِدْقِ المُرْسَلِ والرِّسالَةِ

بَعْدَ أَنْ أَشارَ سُبْحانَهُ وتَعالى إلى أَنَّهُ لا يَجوزُ لِمَنْ جاءَهُ الحَقُّ هُوَ ومَنْ مَعَهُ، أَنْ يَتَّبِعوا أَهْواءَ الَّذينَ أوتوا الكِتابَ، وأَنَّ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ يَكونُ مِنَ الظّالِمينَ ظُلْمًا مُؤَكَّدًا لا مِرْيَةَ فيهِ، بَعْدَ هَذا بَيَّنَ أَنَّ ما عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ والمُؤْمِنينَ، هُوَ الدِّينُ، وأَنَّهُ الحَقُّ[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

الحَقُّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ

1) ﴿ٱلۡحَقُّ﴾: مِنَ الجذْرِ (حقق)، والحَقُّ: خِلافُ الباطِلِ، والحَقُّ: واحِدُ الحُقوقِ، والحَقَّةُ أَخَصُّ مِنْهُ، يُقالُ: هَذِهِ حَقَّتي، أَيْ حَقّي، والحَقَّةُ أَيْضًا: حَقيقَةُ الأَمْرِ، يُقالُ: لَمَّا عَرَفَ الحَقَّةَ مِنّي هَرَبَ، وقَوْلُهُمْ: (لَحَقٌّ لا آتيكَ)، هُوَ يَمينٌ للعَرَبِ يَرْفَعونَها بِغَيْرِ تَنْوينٍ، إذا جاءَتْ بَعْدَ اللّامِ، وإذا أزالوا عَنْها اللّامَ قالوا: حَقًّا لا آتيكَ"[2]، وهُوَ من أَصْلٍ يَدُلُّ عَلى إِحْكامِ الشَّيْءِ وصِحَّتِهِ، وتَمَكُّنِ الشَّيْءِ في عُمْقِ مَقَرِّهِ، والشَّيْءِ الثّابِتِ الرّاسِخِ المُتَمَكِّنِ، بِشَريعَةٍ صَحيحَةٍ، أَوْ عُرْفٍ عامٍّ مُسَلَّمٍ، وحَقَّ الشَّيْءُ: ثَبَتَ، ووَجَبَ[3].

إِنَّ رَبَّكَ لبالمِرْصادِ

2) ﴿رَّبِّكَ﴾: مِنَ الجذْرِ (ربّ)، وهُوَ لَفْظٌ يَدُلُّ عَلى إِصْلاحِ الشَّيْءِ والقِيامِ عَلَيْهِ[4]، وفيهِ مَعْنى الرِّعايَةِ والإِنْماءِ والتَّرْبِيَةِ، رَبَّ الرَّجُلُ وَلَدَهُ، والسَّحابُ يَرُبُّ المَطَرَ: يَجْمَعُهُ ويُنَمِّيهِ[5]،

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 1/455.
(2) الجوهريّ، الصّحاح: (حقق).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (حقق).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ربَّ).
(5) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (ربب).

واللَّهُ جَلَّ ثَناؤُهُ الرَّبُّ؛ لأَنَّهُ مُصْلِحُ أَحْوالِ خَلْقِهِ[1]، فالرَّبُّ: المالِكُ، والخالِقُ، والصّاحِبُ، والمُصْلِحُ للشَّيْءِ[2].

وفي سِياقِ الآيَةِ يَعْني: اللَّه جَلَّ ثَناؤُهُ.

لا يُهْلِكُ الأُمَمَ غَيْرُ المُمْتَرِينَ في الدُّنْيا والدِّينِ

3) ﴿ٱلْمُمْتَرِينَ﴾: مِنَ الجذْرِ (مرى، مري)، والمُمْتَرونَ جمعُ مُمْتَرٍ، وهو اسْمُ فاعِلٍ من مارَيْتُهُ أُماريهِ مُماراةً ومِراءً، بمَعْنى جادَلْتُهُ، وامْتَرى في أَمْرِهِ، بمَعْنى شَكَّ فيهِ، ومن مَعاني مارَيْتُهُ: طَعَنْتُ في قَوْلِهِ، تَزييفًا للقَوْلِ، وتَصْغيرًا للقائِلِ، ولا يَكونُ المِراءُ إلّا اعْتِراضًا؛ا بخِلافِ الجِدالِ[3].

ومِنْهُ: المِرْيَةُ: الشَّكُّ، وأصلهُ مِن احْتِواءِ الباطِنِ عَلى رِقَّةٍ ورَخاوَةٍ، وهُوَ ضَعْفٌ وعَدَمُ تَمَيُّزِ حُدودٍ، وامْتَرى فيهِ: شَكّ، وكَذلِكَ تَمارى، ومِنْهُ قَوْلُهُ تَعالى: ﴿بَلْ جِئْنَٰكَ بِمَا كَانُواْ فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [الحجر: 63]، ومِنْه: المِراءُ: المُجادَلَةُ؛ فهِيَ بسَبَبِ الشَّكِّ وعَدَمِ اليَقينِ في ما يَقولُ الآخَرُ، ولا يَخْرُجُ مَعْنى أَيٍّ من مُفْرَداتِ (مرى) الّتي وَرَدَتْ في القُرْآنِ عَمّا ذَكَرْناهُ؛ الامْتِراءُ والمِرْيَةُ: الشَّكُّ، والمُماراةُ والمِراءُ: الجِدالُ، وهُوَ بسَبَبِ الشَّكِّ[4].

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

تَوْجيهُ الرَّسولِ ﷺ والمُؤْمنينَ إلى الاعْتِصامِ بالحَقِّ ونَبْذِ الشُّكوكِ

يُخْبِرُ اللَّهُ تَعالى النَّبِيّ ﷺ أَنَّ الَّذي أُنْزِلَ إِلَيْكَ في أَمْرِ القِبْلَةِ، هي القبلةُ الحقُّ التي كان عليها إبراهيم خليلُ الرحمن ومَنْ بعده من أنبياء اللَّه ﷻ.

يقول تعالى ذكره له: فاعمل بالحقِّ الذي أتاك من ربِّك فهُوَ الحَقُّ الذي لا يخالطه خلل، فلا يَنْبَغي أَنْ تَكونَ مِنَ الشّاكِّينَ فيهِ.

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ربب).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ربب).
(3) الشّيخلّي، بلاغة القرآن في الإعجاز: 1/334.
(4) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (مرى).

والخِطابُ وإنْ جاءَ للنَّبيِّ ﷺ، لكِنَّهُ مُوَجَّهٌ للمُؤْمِنينَ؛ لأَنَّ النَّبيَّ ﷺ لا يَشُكُّ في ذَلِكَ، ولا يُتَوَقَّعُ مِنْهُ.

الإيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

دَلالَةُ الاِسْتِئْنافِ والتَّذْييلِ في الآيَةِ:

قَوْلُهُ: ﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ١٤٧﴾، جاءَ الكَلامُ بلا عاطِفٍ، وهُوَ اسْتِئْنافٌ وفَصْلٌ؛ ليُقَرِّرَ حَقيقَةً مُسْتَقِلَّةً بنَفْسِها؛ فلَمّا بَيَّنَ في الآيَةِ السّابِقَةِ أَنَّهُمْ يَعْرِفونَهُ، وأَنَّهُمْ يَكْتُمونَ الحَقَّ، انْتَقَلَ إلى خِطابِ النَّبيِّ ﷺ، ليُؤَكِّدَ أَنَّ هَذا الحَقَّ ثابِتٌ في وَسْطِ جُحودِهِمْ ونُكْرانِهِم، ويُحَذِّرَهُ أَنْ يَكونَ شاكًّا في هَذا الحَقِّ، ولَوْ عَطَفَ لفاتَ هَذا المَعْنى المُسْتَقِلُّ، وقَدْ وَرَدَ لَفْظُ ﴿ٱلْحَقِّ﴾ في الآيَةِ السّابِقَةِ: ﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ١٤٦﴾، فقَوْلُهُ: ﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ تَذْييلٌ للجُمْلَةِ في الآيَةِ السّابِقَةِ، عَلى أَنَّ ﴿ٱلْحَقُّ﴾ خَبَرُ مُبْتَدَأٍ مَحْذوفٍ، تَقْديرُهُ (هَذا الحَقُّ)، وحَذْفُ المُسْنَدِ إِلَيْهِ في مِثْلِ هَذا، مِمّا جَرى عَلى مُتابَعَةِ الاِسْتِعْمالِ في حَذْفِ المُسْنَدِ إِلَيْهِ، بَعْدَ جَرَيانِ ما يَدُلُّ عَلَيْهِ، مِثْلَ قَوْلِهِمْ بَعْدَ ذِكْرِ شَخْصٍ تَمْدَحُهُ، ثُمَّ تَقولُ: فتًى، ونَحْوَ ذَلِكَ[1]، ومِمّا يُسْتَشْهَدُ بِهِ عَلى ذَلِكَ:

هَلْ تَعْرِفُ اليَوْمَ رَسْمَ الدّارِ والطَّلَلا *** كما عَرَفْتَ بجَفْنِ الصَّيْقَلِ الخِلَلا؟
دارٌ لِمَرْوَةَ إِذْ أَهْلي وأَهْلُهُمُ *** بالكانِسِيَّةِ نَرْعى اللَّهْوَ والغَزَلا

أَيْ: هِيَ دارٌ لِمَرْوَةَ، فحَذَفَ المُسْنَدَ إِلَيْهِ، وهُوَ المُبْتَدَأُ هُنا، كعادَةِ العَرَبِ من حَذْفِ المُسْنَدِ إِلَيْهِ في هَذا المَقامِ[2].

قوَّةُ ارتباطِ الآيةِ بالسَّابقةِ بحَذْفِ المُسْنَدِ إِلَيْهِ وأَثَرُهُ في المَعْنى

احتمالُ العهدِ والجِنْسِ في كلمةِ ﴿ٱلْحَقُّ﴾:

اللّامُ في كلمةِ ﴿ٱلْحَقُّ﴾ تحتملُ أن تكونَ "للعَهْدِ، والإشارَةُ إلى ما عَلَيْهِ الرَّسولُ ﷺ أَوِ الحَقِّ الَّذي يَكْتُمونَهُ، أَوْ للجِنْسِ"[3]، وهو الأَنْسَبُ

الحملُ على الاستئنافِ هو الأنسبُ لاتِّساقِهِ مع الاستئنافِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/41.
(2) حبنّكة الميداني، البلاغة العربيّة: 1/341.
(3) البيضاوي، أنوار التنزيل: 1/112-113.

لمَعْنى الاسْتِئْنافِ، إذ جاءَتِ الآيَةُ لتُقَرِّرَ أَنَّ وُجودَ الحَقِّ المُطْلَقِ، إنَّما هُوَ مِنَ اللهِ، والمَعْنى أَنَّ الحَقَّ ما ثَبَتَ أَنَّهُ مِنَ اللهِ تَعالى كالَّذي أَنْتَ عَلَيْهِ، لا ما لَمْ يَثْبُتْ كالَّذي عَلَيْهِ أَهْلُ الكِتابِ، بَلْ يَتَعَيَّنُ كَوْنُها للجِنْسِ، "عَلى تَقْديرِ أَنْ يَكونَ لَفْظُ ﴿ٱلْحَقُّ﴾ خَبَرَ مُبْتَدَأٍ مَحْذوفٍ، يَتَعَيَّنُ أَنْ تَكونَ اللّامُ فيهِ للجِنْسِ، ولا وَجْهَ لأَنْ تَكونَ للعَهْدِ؛ إذْ لا مَعْنى أَنْ يُقالَ: "الحَقُّ هُوَ الحَقُّ"[1]، كما تُفيدُ (ال) التَّعْريفِ في ﴿ٱلْحَقُّ﴾ القَصْرَ، أَيْ: الحَقُّ الجَديرُ بالاتِّباعِ الَّذي لا رَيْبَ فيهِ، هُوَ الَّذي يَنْزِلُ عَلَيْكَ من رَبِّكَ، وغَيْرُهُ باطِلٌ لا يُتَّبَعُ[2].

إفادَةُ التَّأْكيدِ في شِبْهِ الجُمْلَةِ ﴿مِن رَّبِّكَ﴾:

الحالُ المُؤَكِّدَةُ المُقَرِّرَةُ لِمَضْمونِ الجُمْلَةِ الاسْمِيَّةِ

فائِدَةُ الجارِّ والمَجْرورِ، بَيانُ لَهَيْئَةِ الحَقِّ، فَهُوَ الحَقُّ الجَديرُ والمُطْلَقُ، في حالَةِ كَوْنِهِ من رَبِّكَ، فلَمّا كانَ التَّعْريفُ يُفيدُ الحَصْرَ، فإنَّ بَيانَ حالِ هَذا الحَقِّ، بأَنَّهُ مِنَ اللهِ، أَعْطاهُ زِيادَةَ تَأْكيدٍ، فهُوَ "حالٌ مُؤَكِّدَةٌ مُقَرِّرَةٌ لمَضْمونِ الجُمْلَةِ الاسْمِيَّةِ، لأَنَّ مَضْمونَها لازِمٌ لمَضْمونِ ما قَبْلَها، كما في قَوْلِكَ: هُوَ الحَقُّ بَيْنَنا"[3].

دَلالَةُ اسْتِعْمالِ لَفْظِ الرَّبِّ، عِوَضًا عَنِ اسْمِ الجَلالَةِ:

الإشارَةُ إلى الرِّعايَةِ التي دلَّ عليها السِّياق

آثَرَ النَّظْمُ التَّعْبيرَ بالرَّبِّ، دونَ لَفْظِ الجَلالَةِ (اللهُ) في قَوْلِهِ: ﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ١٤٧﴾، إشارَةً لمَعْنى الرِّعايَةِ، فالسِّياقُ يَتَضَمَّنُ مَعانيَ الرِّعايَةِ، وهَذا يُناسِبُ لَفْظَ (الرَّبِّ)، وقَدْ أَضافَ الرَّبَّ إلى ضَميرِ الخِطابِ للنَّبِيِّ ﷺ لاسْتِدْعاءِ تِلْكَ المَعاني، ولتَذْكيرِهِ بقُرْبِهِ مِنْهُ، وأَنَّ الحَقَّ هُوَ مِنْحَةٌ من رَبِّكَ الَّذي سَبَقَ خَيْرُهُ مِنَّتَهُ، فلا يُزْعِجَنَّكَ ما رافَقَ تَحْويلَ القِبْلَةِ، من جَدَلٍ وأَقاويلَ تَقَوَّلَها السُّفَهاءُ؛ فلَفْظُ الرَّبِّ يَجْعَلُ الأَمْرَ أَهْوَنَ عَلى النَّفْسِ لما فيهِ من دَلالَةِ

(1) زاده، حاشيّة على البيضاويّ: 2/377.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 1/455.
(3) زاده، حاشيّة على البيضاويّ: 2/377.

الاهْتِمام والرِّعايَةِ، ولَوْ قالَ (مِنَ اللّهِ)، ثُمَّ أَعْقَبَهُ الأَمْرَ، لكانَ أَشَدَّ عَلى النَّفْسِ، والسِّياقُ لا يَقْتَضي ذَلِكَ، بَلْ يَقْتَضي خِلافَهُ، لأَنَّ مَوْقِفَ أَهْلِ الكِتابِ وتَكْذيبَهُمْ وعِنادَهُم، واسْتِهْزاءَ المُشْرِكينَ وغَيْرِهِم، كانَ شَديدًا عَلى النَّبِيِّ ﷺ والمُسْلِمينَ، فراعى السِّياقُ ذَلِكَ.

دلالَةُ الفاءِ في قَوْلِهِ: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ﴾:

قُوَّةُ الأُمَّةِ في اليَقينِيَّاتِ الرَّاسِخَةِ، لا في الشُّكوكِ العاصِفَةِ

تُبَيِّنُ الفاءُ في قولِه تعالى: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ﴾، أَنَّ ما قَبْلَها سَبَبٌ لما بَعْدَها، فلَمّا كانَ الحَقُّ الجَديرُ بالاتِّباعِ الَّذي لا رَيْبَ فيهِ، هُوَ الَّذي من رَبِّكَ، وغَيْرُهُ باطِلٌ، فإِنَّ ذَلِكَ يوجِبُ عَلى أُمَّتِكَ، أَن لا يَكونوا مِنَ الشّاكِّينَ[1] تبعًا لك؛ لأَنَّ دواعيَ اليقينِ متوافرةٌ، فما بعد الفاءِ وهو النَّهي عن الامتراءِ، مبنيٌّ على ما قبلها وهو إثباتُ أَنَّ الحقَّ من اللّه تعالى.

غرضُ النَّهْيِ عنِ الامتِراءِ:

نَهْيُ الأُمَّةِ عَنِ الامْتِراءِ ضَمانٌ لِمُسْتَقْبَلِها الحَضارِيِّ

جاءَ في قولِه تعالى: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ١٤٧﴾ النَّهيُ عن الامْتِراءِ وهُوَ الشَّكُّ، وهَو مِمّا لا يُتَوَقَّعُ ولا يُظَنُّ في النَّبِيِّ ﷺ، فكَيْفَ يَتَوَجَّهُ النَّهْيُ عَنْ شَيْءٍ لا وُجودَ لَهُ؟ والجَوابُ عَنْهُ، أَنَّهُ لَيْسَ نَهْيًا عَلى الحَقيقَةِ: "فإِذا أُوردَتْ صورَةُ النَّهْيِ في مِثْلِ هَذِهِ المَواضِعِ، لا يُرادُ بها حَقيقَةُ النَّهْيِ، بَلْ يُقْصَدُ بها شَيْءٌ آخَرُ، فقَوْلُهُ: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ١٤٧﴾، من قَبيلِ الخِطابِ العامِّ الوارِدِ عَلى صورَةِ النَّهْيِ، والمَقْصودُ مِنْهُ إِخْبارُ كافَّةِ النّاسِ، بأَنَّ المَقامَ لَيْسَ بمَظِنَّةٍ لأَنْ يَرْتابَ فيهِ أَحَدٌ مِنَ الأَنامِ"[2]، ومَعْنى نَهْيِ الأُمَّةِ عَنِ الامْتِراءِ، أَمْرُهُمْ بضِدِّهِ الَّذي هُوَ اليَقينُ وطُمَأْنينَةُ القَلْبِ[3]، وهَذا لَيْسَ أَمْرًا اخْتِيارِيًّا صالِحًا لأَنْ يُكَلَّفَ بِهِ الإِنْسانُ، إِلّا أَنَّ الأَسْبابَ المُؤَدِّيَةَ إِلى

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 1/455.
(2) زاده، حاشيّة على البيضاويّ: 2/378.
(3) البروسوي، روح البيان: 1/252.

حُصولِه اخْتِياريَّةٌ، فيَكونُ الأَمْرُ راجِعًا إلى الأَمْرِ باكْتِسابِ أَسْبابِه، وما يَتَوَقَّفُ حُصولُهُ عَلَيْه[1].

دلالَةُ خطابِ الخاصِّ المُرادِ بِهِ العامُّ:

واجِبُ الأُمَّةِ أَنْ تَحْتاطَ لدينِها بالحَقِّ لا بالاِمْتِراءِ

من أُسْلوبِ القُرْآنِ، أَنْ يُخاطِبَ النَّبِيَّ ﷺ، والمُرادُ خِطابُ الأُمَّةِ، وهَذِهِ عادَةُ القُرْآنِ في كُلِّ تَحْذيرٍ مُهِمٍّ، ليَكونَ خِطابُ النَّبِيِّ ﷺ، بمِثْلِ ذَلِكَ - وهُوَ أَقْرَبُ الخَلْقِ إلى اللّهِ تَعالى - دَليلًا عَلى أَنَّ مَنْ وقَعَ في مِثْلِ ذَلِكَ مِنَ الأُمَّةِ قَدْ حَقَّتْ عَلَيْهِ كَلِمَةُ العَذابِ[2]، فهُوَ مِنَ الخاصِّ ويُرادُ بِهِ العامُّ، فالخِطابُ للنَّبِيِّ ﷺ والمُرادُ غَيْرُهُ[3]؛ لأَنَّ الشَّكَّ غَيْرُ مُتَصَوَّرٍ مِنْهُ، ولا أَنْ يَدْخُلَ صُفوفَ المُرْتابينَ، إنَّما هُوَ أَمْرٌ لأُمَّتِه، بأَنْ يَحْتاطوا لدينِهِمُ الحَقِّ، فيُزَوِّدوا أَنْفُسَهُمْ بالعِلْمِ الَّذي يَحْفَظُ إيمانَهُمْ إزاءَ الطُّعونِ[4]، والأُسْلوبُ افْتِراضٌ، لأَنَّهُ نَهْيٌ مُحالٍ في حَقِّهِ الاِمْتِراءُ أَوِ الشَّكُّ، فهَلْ يُعْقَلُ أَنْ يَمْتَري وهُوَ المَعْصومُ الَّذي صَنَعَتْهُ رِعايَةُ اللّهِ، وحَفِظَتْهُ من كُلِّ طارِئٍ أَوْ زَيْغٍ؟، والجَوابُ: أَنَّ مُتَعَلَّقَ الاِمْتِراءِ، هُوَ عِلْمُ أَهْلِ الكِتابِ بحَقيقَةِ القُرْآنِ، وهُوَ أَحَدُ الأَجْوِبَةِ في الكَشّافِ، والثّاني أَنَّهُ من بابِ التَّهْييجِ والتَّحْريضِ عَلى الأَمْرِ[5].

أَثَرُ الكِنايَةِ في تجليةِ مَعْنى الآيَةِ:

خِطابُ النَّبِيِّ ﷺ أوقَعُ أثَرًا في نهيِ الأُمَّةِ عنِ الامتراءِ

إنَّما نَهى أَنْ يَكونَ مِنَ المُمْتَرينَ، دونَ أَنْ يَكونَ الخِطابُ بالفِعْلِ المُباشِرِ، فلَمْ يَقُلْ: (لا تُمارِ)؛ لأَنَّهُ أَبْلَغُ؛ كما مَضى في قَوْلِهِ تَعالى: ﴿إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٤٥﴾، فكَوْنُهُ من فِئَةٍ مُعَيَّنَةٍ، أَبْلَغُ مِنِ اتِّصافِهِ بها مُفْرَدًا، فالنَّهْيُ عَنْ أَنْ يَكونَ مِنْهُم، أَبْلَغُ مِنَ النَّهْيِ عَنْ نَفْسِ الفِعْلِ.

(1) زاده، حاشيّة على البيضاويّ: 2/278-279.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/41.
(3) النيسابوري، التّفسير البسيط: 3/398.
(4) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 1/455-456.
(5) الدّرة، تفسير القرآن وإعرابه وبيانه: 1/346.

وإذا كانَ المُرادُ بخِطابِ النَّبيِّ ﷺ خطابَ أمَّته؛ فلماذا لَمْ يُوَجِّه الخطابَ إليهم فيَقولُ مَثَلًا: (فَلا تَكونوا مِنَ المُمْتَرينَ)؟ والجَوابُ: أنَّهُ أرادَ تَحْذيرَ الأُمَّة، بأُسْلوبٍ بَليغٍ مَعَ التَّأْكيدِ، فجاءَ بهَذا الأُسْلوبِ الكِنائيِّ غَيْرِ الصَّريحِ، وهُوَ تَعْريضٌ بهم، فكَنَّى بخِطابِ النَّبيِّ ﷺ عَنْ خِطابِ الأُمَّةِ، أيْ: لا يَكُنْ أَحَدٌ من أُمَّتِهِ مِنَ المُمْتَرينَ؛ والكِنايَةُ أَبْلَغُ مِنَ التَّصْريحِ[1]، فإذا كان النَّبيُّ ﷺ منهيًّا عن مثل هذا فكيف بأمَّته؟!

دلالةُ تَكْرارِ التَّرْكيبِ في سِياقاتٍ مُخْتَلِفَةٍ:

النَّهْيُ عَنِ الامْتِراءِ حِكْمَةٌ بالِغَةٌ في التَّخْصيصِ من الانطواءِ تحت لواءِ الآخرِ

تَكَرَّرَ هَذا التَّرْكيبُ: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ١٤٧﴾ في القُرْآنِ أربع مَرّاتٍ في سِياقاتٍ مُخْتَلِفَةٍ، في سِياقِ الحَديثِ عَنْ أَنَّ القُرْآنَ مُنَزَّلٌ مِنَ اللهِ بالحَقِّ، ثُمَّ يُوَجَّهُ النَّهْيُ عَنِ الامْتِراءِ، كما في سورَةِ البَقَرَةِ، قالَ تَعالى: ﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ١٤٧﴾ [البقرة: 147]، وفي قولِه تعالى: ﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ٦٠﴾ [آل عمران: 60]، وفي قَوْلِهِ تَعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ١١٤﴾ [الأنعام: 114]، وفي قَوْلِهِ تَعالى: ﴿فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ ۚ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ٩٤﴾ [يونس: 94]، فالأولى في إبْرازِ مَعْرِفَةِ الَّذينَ أوتوا الكِتابَ الحَقّ كما يَعْرِفونَ أَبْناءَهُم، والثّانِيَةُ في رَفْضِ أَنْ يُتَّخَذَ حُكْمًا غَيْرُ اللهِ، وهُمْ يَعْلَمونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنَ اللهِ بالحَقِّ، والثّالِثَةُ في مَعْرِضِ الامْتِنانِ عَلى ما بَوَّأَ بَني إسْرائيلَ، وتَأْكيدِ النَّهْيِ عَنِ الامْتِراءِ في المَواقِعِ الثَّلاثَةِ، وفي الآياتِ الثَّلاث جاءَ لفظُ الحقِّ قبل النَّهي، وكونه من الرَّبِّ سبحانه وتعالى، المضاف إلى ضميرِ المخاطَب، ففي ذلك كلِّه براعةٌ في التَّأكيدِ والمبالغةِ في النَّهي أن يكون مسلمٌ من المترين بعد ذلك كلِّه، وفيه تقويةٌ لهذه الأمَّة أن تقوى وتعتزَّ بدينها وبقرآنِها، وأن لا تُماري بغيةَ التَّقرُّب أو الاقتراب من الآخر.

(1) القنوجي، فتح البيان: 1/311، والسيوطيّ، نواهد الأبكار: 2/344.

توجيهُ المُتشابِهِ اللَّفظيِّ:

أثـرُ المعـاني في توكيدِ الخطابِ القرآنيِّ

حَيْثُ اسْتَعْمَلَ تَرْكيبَ النَّهْيِ بطَريقَتَيْنِ؛ قَوْلُهُ: ﴿فَلَا تَكُن﴾، و﴿فَلَا تَكُونَنَّ﴾، فالأولى ورَدَتْ في قَوْلِهِ تَعالى: ﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ۝٦٠﴾ [آل عمران: 60]، والثّانِيَةُ في بقية الآيات [البقرة: 147] و[الأنعام: 114] و[يونس: 94]، فلماذا قالَ في مَوْضِعٍ: ﴿فَلَا تَكُن﴾ وقالَ في البقيَّة: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ﴾؟

والجَوابُ عَنْهُ أَنَّ السِّياقَ في سورَةِ البَقَرَةِ، قَدْ بُنِيَ عَلى التَّوْكيدِ، وقَدْ ورَدَتْ صيغَةُ تَأْكيدِ الفِعْلِ بنونِ التَّوْكيدِ، في الآياتِ السّابِقَةِ: ﴿فَلَنُوَلِّيَنَّكَ﴾ ومثلها سورة الأنعام ويونس.

وأَمّا آيَةُ آلِ عمرانَ، فإنَّها في سِياقٍ لَمْ يُبْنَ عَلى التَّوْكيدِ، فجاءَتْ عَلى الأَصْلِ: ﴿فَلَا تَكُن﴾، وفي البَقَرَةِ ﴿فَلَا تَكُونَنَّ﴾، لأَنَّ ما في آل عمران جاءَ عَلى الأَصْلِ ولَمْ يَكُنْ فيها ما أَوْجَبَ إِدْخالَ نونِ التَّوْكيدِ في الكَلِمَةِ، بخِلافِ سورَةِ البَقَرَةِ فإنَّ فيها في أَوّلِ القِصَّةِ: ﴿فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا﴾، بنونِ التَّوْكيدِ، فأَوْجَبَ الازْدِواجُ إِدْخالَ النُّونِ في الكَلِمَةِ، فيَصيرُ التَّقْدير: (فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضاها فلا تَكُونَنَّ مِنَ المُمْتَرِينَ)"[1]، فهُناكَ تَناسُبٌ بَيْنَ الصِّيَغِ الواردَةِ في النَّصِّ، وهِيَ من مُقْتَضَياتِ تَماسُكِ النَّصِّ وسَبْكِهِ، وتَكْرارُ الصِّيَغِ يُفيدُ تَقْوِيَةَ البِناءِ، وجَماليَّةَ شَكْلِهِ اللُّغَويِّ الّذي يُبْنى عَلى التَّناسُبِ في البُنْيَةِ اللُّغَويَّةِ، بَلْ إِنَّ هَذا التَّناسُبَ وتَكْرارَ الصِّيَغِ المُتَماثِلَةِ، من مُسْتَلْزَماتِ تَكْوينِ النَّصِّ، فإِنَّ الصِّيَغَ تَتَآلَفُ في الآياتِ بتَكْرارِها.

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

كُلُّ شَكٍّ جَهْلٌ، ولَيْسَ كُلُّ جَهْلٍ شَكًّا

الشَّكّ والاِمْتِراء:

إنَّ الاِمْتِراءَ هُوَ اسْتِخْراجُ الشُّبَهِ المُشْكِلَةِ، ثُمَّ كَثُرَ حَتَّى سُمِّيَ

(1) الكرماني، البرهان في توجيه متشابه القرآن، ص: 91-92، وزكريا الأنصاري، فتح الرّحمن بكشف ما يلتبس في القرآن: 1/45، وابن جماعة، كشف المعاني في المتشابه من المثاني، ص: 131.

الشَّكُّ مِرْيَةً وامْتِراءً[1]، والشَّكُّ: اعْتِدالُ النَّقيضَيْنِ عِنْدَ الإنْسانِ وتَساويهِما، وذَلِكَ قَدْ يَكونُ لوُجودِ أَمارَتَيْنِ مُتَساوِيَتَيْنِ عِنْدَ النَّقيضَيْنِ، أَوْ لعَدَمِ الأَمارَةِ فيهما، والشَّكُّ رُبَّما كانَ في الشَّيْءِ هَلْ هُوَ مَوْجودٌ أَوْ غَيْرُ مَوْجودٍ؟ ورُبَّما كانَ في جِنْسِهِ، من أَيِّ جِنْسٍ هُوَ؟ ورُبَّما كانَ في بَعْضِ صِفاتِهِ، ورُبَّما كانَ في الغَرَضِ الَّذي لأَجْلِهِ أوجِدَ، وهُوَ ضَرْبٌ مِنَ الجَهْلِ، وهُوَ أَخَصُّ مِنْهُ، لأَنَّ الجَهْلَ قَدْ يَكونُ عَدَمَ العِلْمِ بالنَّقيضَيْنِ، فكُلُّ شَكٍّ جَهْلٌ، ولَيْسَ كُلُّ جَهْلٍ شَكًّا[2]، أمّا المِرْيَةُ: فهِيَ التَّرَدُّدُ في الأَمْرِ، وهُوَ أَخَصُّ مِنَ الشَّكِّ، قالَ تَعالى: ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ﴾ [الحجّ: 55]، وقال أَيْضًا: ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ [هود: 109]، والامْتِراءُ والمُماراةُ: المُحاجَّةُ فيما فيهِ مِرْيَةٌ، قالَ تَعالى: ﴿قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ۝٣٤﴾ [مريم: 34]، وقال: ﴿بِمَا كَانُواْ فِيهِ يَمْتَرُونَ ۝٦٣﴾ [الحجر: 63]، وقال: ﴿فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا﴾ [الكهف: 22] وأَصْلُهُ مِنْ: مَرَيْتُ النّاقَةَ: إذا مَسَحْتُ ضَرْعَها للحَلْبِ[3]، فالامْتِراءُ أَخَصُّ مِنَ الشَّكِّ؛ لأَنَّهُ جُهْدٌ لاسْتِخْراجِ شُبَهٍ وتَرْكِها بلا حَلٍّ، فهُوَ إثارَةُ المُشْكِلَةِ، أَمّا الشَّكُّ فهُوَ جَهْلٌ وتَرَدُّدٌ، يَمْنَعُ من تَبَنِّي الأَمْرِ، ويَعوقُ الحَسْمَ فيهِ، فلذا ناسَبَ الآيَةَ الامْتِراءُ، ولذا لَمْ يَأْتِ النَّهْيُ عَنِ الشَّكِّ، وجاءَ عَنِ الامْتِراءِ، فالشَّكُّ لَيْسَ في الوُسْعِ، أَمّا الامْتِراءُ ففيهِ جُهْدٌ، يَصْحَبُهُ عِلْمٌ ومَعْرِفَةٌ، ولَكِنْ مَعَهُ تَرَدُّدٌ، وفي هَذا السياقِ يَقولُ تَعالى، في آيَةٍ تَجْمَعُ بَيْنَ لَفْظَي الشَّكِّ والامْتِراءِ: ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ ۚ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ۝٩٤﴾ [يونس: 94].

(1) العسكري، الفروق اللّغوية، ص: 99- 100.

(2) الراغب، المفردات: (شكك).

(3) المصدر السّابق: (مرى).

﴿وَلِكُلٍّ وِجۡهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَاۖ فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ أَيۡنَ مَا تَكُونُواْ يَأۡتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ١٤٨﴾ [البقرة: 148]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الأَجْدَرُ بالمُؤْمِنينَ الاِشْتِغالُ بِفِعْلِ الخَيْراتِ

لمّا بَيَّنَت الآياتُ السّابِقَةُ أَنَّ الفِرَق المُخْتَلِفَةَ لا يَتَّبِعُ بَعْضُها قِبْلَةَ الآخَرِ، وأَنَّ عَدَمَ اتِّباعِهِم لشرعة الإسلام إِنَّما هُوَ مِنَ العِنادِ والمُكابَرَةِ، فهُمْ يَعْرِفونَ الحَقَّ، ولَكِنَّهُمْ لا يَتَّبِعونَهُ، جاءَ الخِطابُ في هَذِهِ الآيَةِ، لِيُبَيِّنَ أَنَّ كُلَّ قَوْمٍ يَتَّبِعونَ قِبْلَتَهُم، لِيُنَبِّهَنا إلى أَنَّنا يَجِبُ أَنْ نَتَّجِهَ إلى قِبْلَتِنا وشَرْعِنا، ولَيْسَ عَلَيْنا أَنْ نُغَيِّرَ ما عِنْدَ غَيْرِنا، إِنِ اتَّبَعوا أَهْواءَهُمْ بَعْدَ أَنْ عَرَفوا الحَقَّ، بَلْ نَنْصَرِفُ إلى فِعْلِ الخَيْراتِ والطّاعاتِ.

شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

الإِحاطَةُ والشُّمولُ، مَنوطَةٌ بما يَدُلُّ عَلَيْهِ السِّياقُ

1) ﴿وَلِكُلٍّ﴾: (كلّ) اسْمٌ دالّ عَلى الإِحاطَةِ والشُّمولِ، وهُوَ مُبْهَمٌ يَتَعَيَّنُ بالمُضافِ إِلَيْهِ، فإذا حُذِفَ المُضافُ إِلَيْهِ، عُوِّضَ عَنْهُ بالتَّنْوينِ المُسَمَّى تَنْوينَ العِوَضِ؛ لأَنَّهُ يَدُلُّ عَلى المُضافِ إِلَيْهِ، فهُوَ عِوَضٌ عَنْهُ، ولا يُتَصَوَّرُ أَنَّ الإِحاطَةَ والشُّمولَ مُطْلَقَةٌ، بَلْ هِيَ مُقَيَّدَةٌ بالمُضافِ إِلَيْهِ، وبما يَدُلُّ عَلَيْهِ السِّياقُ.

الوِجْهَةُ القِبْلَةُ والمَقْصِدُ، وكِلاهُما لَهُ دَوْرٌ في وَحْدَةِ الأُمَّةِ

2) ﴿وِجۡهَةٌ﴾: مِنَ الجذْرِ (وجه)، وهو أَصْلٌ يَدُلُّ عَلى مُقابَلَةٍ لشَيْءٍ[1]، وهو أيضًا مُقْتَبَلُ الشَّيْءِ ومُقَدَّمُهُ المَكْشوفُ الَّذي يُعْرَفُ بِهِ، وتُعْرَفُ حَقيقَتُهُ، كوَجْهِ البَيْتِ والكَعْبَةِ والإِنْسانِ والحَيَوانِ[2]، والوِجْهَةُ: القِبْلَةُ، والمَقْصِدُ، وهِيَ حَيْثُما نَتَوَجَّهُ للشَّيْءِ.

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (وجه).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (وجه).

والمعنى في قوله تعالى: ﴿وَلِكُلٍّ وِجۡهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَاۖ﴾ [البقرة: 148]، إشارَةٌ إلى الشَّريعَةِ، كقَوْلِهِ: ﴿لِكُلٍّ جَعَلۡنَا مِنكُمۡ شِرۡعَةٗ وَمِنۡهَاجٗاۚ﴾ [المائدة: 48][1].

التَّوَجُّهُ إلى القِبْلَةِ الْتِفاتٌ وانْصِرافٌ إِلَيْها بالكُلِّيَّةِ

3) ﴿مُوَلِّيهَاۖ﴾: مِنَ الجذْرِ (ولي)، والأَصْلُ فيهِ: الوَلِيَّةُ: وهِيَ البَرْذَعَةُ، ما يوضَعُ على ظَهْرِ البَعيرِ، كالسَّرْجِ للفَرَسِ، والوَلِيُّ: المَطَرُ، يَأْتي بَعْدَ الوَسْمِيّ، والوَسْمِيُّ هُوَ مَطَرُ الرَّبيعِ الأَوَّلُ، فيهِ مَعْنى المُتابَعَةِ، ومِنْهُ أُخِذَ التَّوَجُّهُ والانْصِرافُ، ومِنَ الأَصْلِ دَلَّ عَلى الاتِّجاهِ، والتَّوَجُّهُ إلى الشَّيْءِ التِفاتٌ وانْصِرافٌ إِلَيْهِ، ووَلَّيْتُ وجْهِيَ كذا: أَقْبَلْتُ بِهِ عَلَيْهِ، وهُوَ في سِياقِ الآيَةِ بمَعْنى التَّوَجُّهِ والإِقْبالِ، كُلٌّ مُوَلٍّ وجْهَهُ إِلَيْها[2].

يُسْتَعارُ السَّبْقُ لإِحْرازِ الفَضْلِ والتَّبْريزِ

4) ﴿فَٱسۡتَبِقُواْ﴾: مِنَ الجذْرِ (سبق)، والسَّبْقُ: القُدْمَةُ في الجَرْيِ، وفي كُلِّ شَيْءٍ؛ تَقولُ: لَهُ في كُلِّ أَمْرٍ سُبْقَةٌ وسابِقَةٌ، والجَمْعُ السَّوابِقُ، وقَدْ سَبَقَهُ يَسْبُقُهُ ويَسْبِقُهُ سَبْقاً: تَقَدَّمَهُ[3]، وهو أَصْلٌ يَدُلُّ على التَّقْديمِ، وتَقَدُّمِ الشَّيْءِ من بَيْنِ ما حَوْلَهُ في قُوَّةٍ وجِدٍّ[4]، والتَّقَدُّمِ إلى الأَشْياءِ، أَعْيانًا كانَتْ أَوْ مَعانيَ[5]، واسْتُعْمِلَ بمَعْنى الإِفْلاتِ، وبمَعْنى المُضِيِّ، فمِنَ الإِفْلاتِ وإِعْجازِ المُلاحِقِ، قَوْلُهُ: ﴿أَمۡ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسۡبِقُونَاۚ﴾ [العنكبوت: 4]، وقَوْلُهُ: ﴿وَمَا نَحۡنُ بِمَسۡبُوقِينَ ٦٠﴾ [الواقعة: 60، المعارج: 41]، لَنْ يُعْجِزونا أَنْ نَفْعَلَ بِهِمْ ما نَشاءُ، ويُسْتَعارُ السَّبْقُ لإِحْرازِ الفَضْلِ والتَّبْريزِ، وعَلى ذَلِكَ وَرَدَ قَوْلُهُ تَعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ١٠﴾ [الواقعة: 10][6].

(1) الراغب، المفردات: (وجه).
(2) الواحدي، التّفسير البسيط: 3/400.
(3) ابن منظور، لسان العرب: (سبق).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة، جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (سبق).
(5) السمين، عمدة الحفّاظ: (سبق).
(6) الراغب، المفردات: (سبق).

والمعنى في الآيَةِ: التَّقَدُّمُ والاِسْتِباقُ والمُبادَرَةُ والمُناضَلَةُ في فِعْلِ الفَضائِلِ.

الخَيْرُ خِلافُ الشَّرِّ، والمُسارَعَةُ إِلَيْهِ جَوْهَرُ الدِّينِ الحَقِّ

5) ﴿ٱلْخَيْرَٰتِ﴾، جَمْعُ خَيْر: مِنَ الجذْرِ (خور، خير)، والخَيْرُ: خِلافُ الشَّرِّ؛ لأَنَّ كُلَّ أَحَدٍ يَميلُ إِلَيْه ويَعْطِفُ على صاحِبِه، وهُوَ مِنَ الرَّخاوَةِ والطَّراءَةِ، كما أَنَّ الشَّرَّ مِنَ الجَفافِ والحِدَّةِ، والاِسْتِخارَةُ: اسْتَخارَ الرَّجُلَ: اسْتَعْطَفَهُ، (رَجا أَنْ يَلينَ قَلْبُهُ وباطِنُهُ ويَسْهُلَ، واللَّيِّنُ السَّهْلُ الباطِنُ يَنْعَطِفُ ويَنْثَني)، ويُجْمَعُ الخَيْرُ على خَيْراتٍ، ويُطْلَقُ الخَيْرُ على المالِ، لأَنَّهُ لُيونَةٌ في الحَياةِ، وطَراءَةٌ وسُهولَةٌ[1]، ولا يُقالُ للمالِ خَيْرٌ، حَتَّى يَكونَ كَثيرًا[2]، وسائِرُ ما في القُرْآنِ من لَفْظِ (خير)، هُوَ إِمّا مِنَ الخَيْرِ الَّذي هُوَ ضِدُّ الشَّرِّ، وإِمّا بمَعْنى أَفْضَلَ (أَيْ أَخْيَرَ).

أَصْلُ (أتى) وُصولٌ إِلى مَكانٍ بِقُوَّةٍ تُزيلُ ما يَعوقُ

6) ﴿يَأْتِ بِكُمُ﴾: مِنَ الجذْرِ (أتى): وهُوَ مِنْ: أَتَّيْتُ الماءَ: سَهَّلْتُ سَبيلَهُ، ليَخْرُجَ إِلى مَوْضِعٍ[3]، والأَتِيُّ: النَّهَرُ يَسوقُهُ الرَّجُلُ إِلى أَرْضِه، وكُلُّ مَسيلٍ سَهَّلْتَهُ لماءٍ أَتِيٌّ[4]، والأَصْلُ فيه: وُصولٌ إِلى مَكانٍ بتَهْيِئَةٍ أَوْ قُوَّةٍ تُزيلُ ما يَعوقُ[5]، والإِيتاءُ: الإِعْطاءُ، آتى يُؤاتي إِيتاءً، وآتاهُ إِيتاءً: أَيْ أَعْطاهُ، فأَتَيْنا جِئْنا، وآتَيْنا أَعْطَيْنا[6]، (أَتَيْتَ بِهِ) من أَتى، بمَعْنى: جِئْتَ بِهِ، و(أُوتوا) من آتى، بمَعْنى: أَعْطى.

والمعنى في الآية: سيجمعكم اللّهُ من أيِّ مكان كنتم فيه يومَ القيامة.

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (خير).
(2) الراغب، المفردات: (خير).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (أتى).
(4) ابن منظور، لسان العرب: (أتى).
(5) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (أتى).
(6) ابن منظور، لسان العرب: (أتى).

7) ﴿قَدِيرٌ﴾: مِنَ الجذْرِ (قدر)، وهُوَ من إمْساكِ الشّيْءِ وضَبْطِهِ كي لا يَتَسَيَّبَ، يقال: قَدَرَ عَلى الشّيْءِ، واقْتَدَرَ عَلَيْهِ: أي: قَوِيَ عَلَيْهِ[1]، والقُدْرَةُ إذا وُصِفَ بها الإنْسانُ، فاسْمٌ لهَيْئَةٍ لَهُ بها يَتَمَكَّنُ من فِعْلِ شَيْءٍ ما، وإذا وُصِفَ بها الباري تَعالى، فهِيَ نَفْيُ العَجْزِ عَنْهُ[2]، قالَ تَعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾﴾ [الكهف: 45].

القَديرُ الفاعِلُ لما يَشاءُ، عَلى قَدْرِ ما تَقْتَضي الحِكْمَةُ

والقَديرُ: هُوَ الفاعِلُ لما يَشاءُ، عَلى قَدْرِ ما تَقْتَضي الحِكْمَةُ، لا زائِدًا عَلَيْهِ، ولا ناقِصًا عَنْهُ، ولذَلِكَ لا يَصِحُّ أَنْ يوصَفَ بِهِ إلّا اللّهُ تَعالى[3]؛ وذَلِكَ لما فيهِ مِنَ المُبالَغَةِ[4].

المَعْنَى الإجْمَاليُّ:

الواجِبُ التَّسْليمُ لأمْرِ الوَحْيِ، بلا تَأَخُّرٍ ولا تَهاوُنٍ

تَمْضي الآياتُ في تَأْييدِ مَوْقِفِ النَّبِيِّ ﷺ، في توجُّهِه إلى المَسْجِدِ الحَرامِ، وإبْطالِ دَعاوى المُنْكِرينَ، فذَكَرَ اللّهُ تَعالى، أَنَّ لِكُلِّ أُمَّةٍ قِبْلَةً خاصَّةً بها، فلَيْسَ لِكُلِّ الأُمَمِ قِبْلَةٌ واحِدَةٌ: فلِلْيَهودِ قِبْلَةٌ، وللنَّصارى قِبْلَةٌ، وللمُسْلِمينَ قِبْلَةٌ، والواجِبُ التَّسْليمُ لأمْرِ الوَحْيِ، واللّهُ يُجازي كُلَّ عامِلٍ بما عَمِلَ، والأَمْكِنَةُ في ميزانِ اللّهِ واحِدَةٌ، فلا تُجادِلوا في تَحْويلِ القِبْلَةِ، ولا تَعْتَرِضُوا عَلَيْهِ، وقِبْلَةُ المُسْلِمينَ واحِدَةٌ، في مُخْتَلِفِ أَنْحاءِ الأَرْضِ، في البَرِّ والبَحْرِ والجَوِّ، ولا فائِدَةَ من مُحاجَّةِ المُشْرِكينَ في القِبْلَةِ، بَلِ اخْشَوُا اللّهَ ولا تَعْصوا لَهُ أَمْرًا، فأَيْنَما تَكونوا يَأْتِ بِكُمُ اللّهُ جَميعًا يَوْمَ القِيامَةِ، فيُحاسِبُكُمْ عَلى أَعْمالِكُم، واللّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَديرٌ[5].

(1) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (قدر).
(2) الراغب، المفردات: (قدر).
(3) الراغب، المفردات: (قدر).
(4) السمين، عمدة الحفاظ: (قدر).
(5) وهبة الزحيلي، التّفسير المنير: 2/31.

الإيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

بلاغةُ وَصْلِ الجملِ بَعْدَ الاِسْتِئْنافِ:

توجيهُ المؤمنين إلى الاهْتِمامِ بالمَقاصِدِ، وتركِ الجدالِ بغيرِ طائِلٍ

بَعْدَ أَنْ تَمّ الاعْتِراضُ والاسْتِطْرادُ في الآيَتَيْنِ السّابِقَتَيْنِ، رَجَعَ الكَلامُ إلى موضوعِ اسْتِقْبالِ القِبْلَةِ، فالجُمْلَةُ ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ﴾ مَعْطوفَةٌ، عَلى قوله: ﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُواْ قِبْلَتَكَۚ﴾، فالآيَةُ متَّصلَةٌ بتِلْكَ الآياتِ، وفائِدَةُ الوَصْلِ أَنْ تَكونَ هَذِهِ الجُمْلَةُ تَذْييلًا لما سَبَقَ، من تَلْقينِ الرَّسولِ ﷺ الجَوابَ عَنْ قَوْلِهِمْ: ﴿مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ﴾، وتَبْيينِ فضيلَةِ قِبْلَةِ المُسْلِمينَ، وأَنَّهُمْ عَلى الحَقِّ، وتَأْييسِهِمْ من تَرَقُّبِ اعْترافِ اليَهودِ، بصِحَّةِ اسْتِقْبالِ الكَعْبَةِ، ذُيِّلَ ذَلِكَ بهَذِهِ الآيَةِ الجامِعَةِ لمَعانٍ ساميَةٍ، للتَّحَوُّلِ عَنْ أَمْرِ المُجادَلَةِ مَعَهُم، والمَعْنى أَنَّ لكُلٍّ فريقٍ اتِّجاهًا في طَلَبِ الحَقِّ، وهَذا الكَلامُ مُوَجَّهٌ إلى المُسْلِمينَ، أَيْ: اتْرُكوا مُجادَلَةَ أَهْلِ الكِتابِ في أَمْرِ القِبْلَةِ، ولا تَنْشَغِلوا بخِلافِهِم، وفيهِ توجيهٌ للمُسْلِمينَ إلى الاهْتِمامِ بالمَقاصِدِ، والاعْتِناءِ بإِصْلاحِ مُجْتَمَعِهِم؛ ولذلك أَعْقَبَهُ بقَوْلِهِ: ﴿فَٱسْتَبِقُواْ ٱلْخَيْرَٰتِۚ﴾، كما في قَوْلِهِ: ﴿۞لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ [البقرة: 177][1].

حَذْفُ المُضافِ إِلَيْهِ لدَلالَةِ المَقامِ عَلَيْهِ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿وَلِكُلٍّ﴾:

حَذَفَ ما أُضيفَ إِلَيْهِ (كلّ) لدَلالَةِ المَقامِ عَلَيْهِ، سَواءٌ ذُكِرَ سابقًا أَمْ لَمْ يُذْكَرْ، والتَّقْديرُ: ولكُلِّ أَهْلِ دينٍ وِجْهَةٌ، أَوْ ولكُلٍّ مِنَ المُسْلِمينَ، واليَهودِ، والنَّصارى، وِجْهَةٌ، وحديثُ السِّياقِ عَنْ القِبْلَةِ، فيَكونُ المُضافُ إِلَيْهِ المَحْذوفُ بمَعْنى الأُمَّةِ أَوِ المِلَّةِ وغَيْرِهِ، والأَوْلى تَقْديرُ المُضافِ إِلَيْهِ بلَفْظِ المُفْرَدِ المُذَكَّرِ نَحْوَ (دينٍ، أَوْ إِنْسانٍ)؛ لاقْتِضاءِ صيغَةِ ﴿مُوَلِّيهَا﴾ اللَّفظيَّةِ، وللضَّميرِ (هُوَ) في قَوْلِهِ: ﴿هُوَ مُوَلِّيهَا﴾.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/41.

صلاحُ استعمالِ لَفْظِ ﴿وِجْهَةٌ﴾ للمَعْنَيَيْنِ الحَقيقِيِّ والمَجازِيِّ:

تُسْتَعارُ الوِجْهَةُ لما يَهْتَمُّ بِهِ المَرْءُ مِنَ الأمورِ، تَشْبيها بالمَكانِ المُوَجَّهِ إِلَيْهِ، وهو من تَشْبيهِ المَعْقولِ بالمَحْسوسِ، ولَفْظُ ﴿وِجْهَةٌ﴾ في الآيَةِ، صالِحٌ للمَعْنَيَيْنِ الحَقيقِيِّ والمَجازِيِّ، فالتَّعْبيرُ بِهِ كَلامٌ مُوَجَّهٌ، وهُوَ مِنَ المَحاسِنِ، وقَريبٌ مِنْهُ، قَوْلُهُ: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: 48][1].

مَرْجِعُ الضَّميرِ ودَلالَتُهُ في قَوْلِهِ: ﴿هُوَ مُوَلِّيهَا﴾:

في مَرْجِعِ الضَّميرِ في قَوْلِهِ: ﴿هُوَ مُوَلِّيهَا﴾ احْتِمالانِ:

الأوَّلُ: أَنْ يَكونَ المَرْجِعُ للفظِ (كُلٍّ)، وعليه أَكْثَرُ أَهْلِ اللُّغَةِ، والمَعْنى: "هُوَ مُوَلِّيها وجْهَهُ"، أَيْ: "وكُلُّ أَهْلِ وِجْهةٍ هُمُ الّذينَ ولَّوْا وُجوهَهُمْ إلى تِلْكَ الجِهَةِ"[2]، قال الفَرّاءُ: "وقَوْلُهُ: ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ﴾ يَعْني: قِبْلَةً، ومُوَلِّيها: مُسْتَقْبِلُها، الفِعْلُ لكُلّ، يُريدُ: مُوَلٍّ وجْهَهُ إِلَيْها"[3]، فيَكونُ الضَّميرُ عائِدًا إلى المُضافِ إِلَيْهِ المَحْذُوفِ في (كُلّ)، وتَقْديرُهُ: لكُلِّ إِنْسانٍ وِجْهَةٌ مُوَلِّيها وجْهَهُ[4].

الآخَرُ: المُرادُ بِهِ (اللّهُ)؛ "قال قَوْمٌ: أَيْ: اللّهُ - عَلى ما يَزْعُمونَ - يُوَلِّي أَهْلَ كُلِّ مِلَّةٍ القِبْلَةَ الَّتي يُريدُ"[5].

اخْتِيارُ العَبْدِ يَجِبُ أَنْ يَتَّجِهَ إلى اخْتِيارِ اللهِ، ليَكونَ مُتَّبِعًا لَهُ بالكُلِّيَّةِ

والصَّحيحُ أَنَّ الضميرَ عائدٌ للفظِ كلٍّ فهو ما يقتضيه الظَّاهرُ، ويدلُّ عليه السِّياقُ، ولا يَصِحُّ أَنْ يَكونَ الضَّميرُ مُرادًا بِهِ اللّهُ، لأَنَّهُ تَكَلَّمَ عَنِ القِبْلَةِ الحَقِّ، ولَوْ اعْتَبَرْنا أَنَّ الضَّميرَ مُرادٌ بِهِ (اللّهُ)، لكانَ حُجَّةً وذَريعَةً للَّذينَ لَمْ يَتَّبِعوا النَّبِيَّ ﷺ في قِبْلَتِهِ، فيَكونُ الضَّميرُ للمُضافِ إِلَيْهِ المَحْذوفِ، الّذي قَدَّرْناهُ بالإِنْسانِ المُفْرَدِ.

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/42.

(2) الزجاج، معاني القرآن وإعرابه: 1/225.

(3) الفراء، معاني القرآن: 1/85.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/43.

(5) الزجاج، معاني القرآن وإعرابه: 1/225، والنيسابوري، التّفسير البسيط: 3/400.

إيجازٌ بحَذْفِ المَفْعُولِ بِهِ في قَوْلِهِ: ﴿مُوَلِّيهَا﴾:

المَفعولُ الأَوَّلُ لمُوَلِّيها مَحْذوفٌ، والتَّقْديرُ: (هُوَ مُوَلِّيها نَفْسَهُ أَوْ وجْهَهُ)، والمَعْنى هُوَ مُقْبِلٌ عَلَيْها ومُلازِمٌ لها[1].

براعةُ المَجازِ في قَوْلِهِ: ﴿فَٱسْتَبِقُواْ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾:

المرادُ بالاِسْتِباقِ، الاِهْتِمامُ والحِرْصُ والمُبادَرَةُ، فكما يَكونُ المُتَسابِقُ حَريصًا عَلى التَّقَدُّمِ وفي الرُّتْبَةِ الأولى، فكَذَلِكَ يَجِبُ أَنْ يكونَ المتسابقُونَ في فِعْلِ الخَيْراتِ، مُبادِرينَ لا تَذْهَبُ أَوْقاتُهمْ بالتَّسويفِ، ويجودونَ بالمَذْخورِ من وُسْعِهم، في فِعْلِ العَمَلِ الصّالِحِ[2]، والأَمْرُ بالاِسْتِباقِ إلى الخَيْراتِ، قَدْرٌ زائِدٌ عَلى الأَمْرِ بفِعْلِ الخَيْراتِ، فإِنَّ الاِسْتِباقَ إليها، يَتَضَمَّنُ فِعْلَها، وتَكْميلَها، وإيقاعَها عَلى أَكْمَلِ الأَحْوالِ، والمُبادَرَةَ إليها.

الاِسْتِباقُ إلى فِعْلِ الخَيْراتِ، ميدانُ الصَّالِحينَ، ومضمارُ الكُمَّلِ الفالحين

نَقَلَ مُحْيي الدِّين زادَه عَنِ الرّاغِبِ قَوْلَهُ: "في الآية قَوْلٌ آخَرُ، وهُوَ أَنَّ اللهَ ﷻ قَيَّضَ النّاسَ في أُمورِ دُنْياهُمْ وأُخْراهُم، لأَحْوالٍ مُتَفاوِتَةٍ، وجَعَلَ بَعْضَهُمْ أَعْوانَ بَعْضٍ، فواحِدٌ يَزْرَعُ، وواحِدٌ يَطْحَنُ، وواحِدٌ يَخْبِزُ، وكذَلِكَ في أَمْرِ الدِّينِ؛ واحِدٌ يَجْمَعُ الحَديثَ، وآخَرُ يَطْلُبُ الفِقْهَ، وواحِدٌ يَطْلُبُ الأُصولَ، وهُمْ في الظّاهِرِ مُخْتارونَ، وفي الباطِنِ مُسَخَّرونَ، وإِلَيْهِ أَشارَ النَّبِيُّ ﷺ بقَوْلِهِ: (كُلٌّ مُيَسَّرٌ لما خُلِقَ لَهُ)، وجَعَلَ لِلكُلِّ سَبيلًا للوُصولِ إِلَيْهِ تَعالى، إذا راعى ما هُوَ بصَدَدِهِ، وأَدَّى الأَمانَةَ"[3].

دلالةُ لفظِ ﴿ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ بين الخصوصِ السِّياقيِّ والعمومِ اللَّفظيّ:

المُرادُ من قَوْلِهِ: ﴿ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ اسْتِقْبالُ القِبْلَةِ، وهَذا معنًى سياقيٌّ خاصٌّ، ولتحلِّيه بالأَلِفِ واللّامِ ﴿ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ دلَّ عَلى الشُّمولِ[4]؛ فلَفْظُ

التَّوجُّه إلى القبلةِ لأنَّها من الخيراتِ، لا لمناكدةِ الآخر

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/43.
(2) ابن جزّيّ، التّسهيل لعلوم التّنزيل: 1/100.
(3) زاده، حاشية على البيضاويّ: 2/380.
(4) القنوجي، فتح البيان في مقاصد القرآن: 1/312.

الخَيْراتِ عامٌّ، يَتَناوَلُ كُلَّ عَمَلٍ صالِحٍ بُيِّنٍ في الشَّرْعِ حُسْنُهُ وفَضْلُهُ، فاللَّفْظُ يَدُلُّ عَلى العُمومِ، والسِّياقُ يَدُلُّ عَلى الخُصوصِ، ولا تعارُضَ بين ما دلَّ عليه السِّياقُ، وما دلَّ عليه عمومُ اللَّفظِ، فالمُرادُ الجَميعُ؛ لأَنَّها جاءَتْ تَعْقيبًا عَلى قَوْلِهِ: ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا﴾، فهُو يقُولُ: إذا ثَبَتَ أَنَّ لِكلِّ دينٍ قِبْلَةً يُصلُّونَ إِلَيْها، ولا يَنْصَرِفُونَ عَنْها إلى القِبْلَةِ الحَقِّ، وإِنْ أَتَيْتَهُمْ بكُلِّ آيَةٍ، تَدُلُّ عَلى أَنَّ القِبْلَةَ هِيَ الكَعْبَةُ، فإذا كان الأَمْرُ كذَلِكَ، فاسْتَبِقوا أَنْتُمْ وبادِروا إلى أَفْعالِ الخَيْراتِ، وهِيَ ما ثَبَتَ أَنَّها مِنه تَعالى، ولا تَقْتَفوا أَمْرَ المُكابِرينَ، الذينَ يَتَّبِعونَ أَهْواءَهُمْ[1]، فانْصَرِفوا عَنِ الجَدَلِ في أَمْرِ القِبْلَةِ، وبادِروا بالأَعْمالِ الصّالِحَةِ، واتْرُكوا الجَدَلَ، واسْتَثْمِروا بالعَمَلِ.

عِلَّةُ الفَصْلِ في قَوْلِهِ: ﴿أَيْنَ مَا تَكُونُواْ يَأْتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا﴾:

والجُمْلَةُ في قَوْلِهِ: ﴿أَيْنَ مَا تَكُونُواْ يَأْتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا﴾ فصْلٌ؛ لأَنَّها جاءَتْ عِلَّةً للجُمْلَةِ السّابِقَةِ، فهِيَ تُبَيِّنُ سَبَبَ الأَمْرِ بالاسْتِباقِ، وفُصِلَتْ لأَنَّ العِلَّةَ لا تُعْطَفُ؛ إِذْ هِيَ بمَنْزِلَةِ المَفْعولِ لأَجْلِهِ، والمَعْنى: فاسْتَبِقوا إلى الخَيْرِ، لتَكونوا مَعَ الَّذينَ يَأْتي بِهِمُ اللّهُ للرَّفيقِ الحَسَنِ، لأَنَّ اللّه يَأْتي بالنّاسِ جَميعًا خَيْرِهِمْ وشَرِّهِمْ[2].

التَّنبيهُ على القِيامَةِ سبيلُ القرآنِ في التَّرغيبِ والتَّرهيبِ

فائِدَةُ اسْتِعْمالِ الاسْتِفْهامِ في الشَّرْطِ:

قالَ الفَرّاءُ: "إذا رَأَيْتَ حُروفَ الاسْتِفْهامِ قَدْ وُصِلَتْ بِـ (ما)، مِثْلَ قَوْلِهِ: أَيْنَما، ومَتَى ما، وأَيُّ ما، وحَيْثُ ما، وكَيْفَ ما، و﴿أَيًّا مَّا تَدْعُواْ﴾ [الإسراء: 110]، كانَتْ جَزاءً ولَمْ تَكُنِ اسْتِفْهامًا"[3]، فأَيْنَما اسْمُ شَرْطٍ دالٌّ عَلى المَكانِ، وجَوابُهُ: ﴿يَأْتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا﴾، والمَعْنى أَنَّهُ في أَيِّ مَكانٍ كُنْتُم، لا بُدَّ أَنْ يَأْتِيَ اللّهُ تَعالى بكُم، وتَجْتَمِعوا للجَزاءِ

بيانُ قدرةِ اللهِ تعالى المحيطةِ بكلِّ أحدٍ، فلا يفلتُ منه قريبٌ أو بعيدٌ

(1) زاده، حاشيّة على البيضاويّ: 2/379.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/42-43.
(3) الفراء، معاني القرآن: 1/85.

يَوْمَ القِيامَةِ، فهُوَ وعْدٌ لأَهْلِ الطّاعَةِ بالثَّوابِ، ووَعيدٌ لأَهْلِ المَعْصِيةِ بالعِقابِ، ففي هَذِهِ العِبارَةِ، تَبْشيرٌ وإنْذارٌ؛ تَبْشيرٌ لمَنِ اسْتَبَقوا الخَيْراتِ، وإنْذارٌ لمَنْ كابَروا ولَجُّوا وعانَدوا في اتِّباعِ الحَقِّ[1]، وفائدةُ استعمالِ أداةِ الاستفهامِ في أسلوبِ الشَّرطِ بيانُ قدرةِ اللّه تعالى المحيطةِ على الإتيانِ بكلِّ أحدٍ مهما نأتْ به ديارُه، وتباعدتْ جهاتُه.

دلالَةُ المَجازِ في قَوْلِهِ تَعالى: ﴿يَأْتِ بِكُمُ ٱللَّهُ﴾:

الإتْيانُ بالشَّيْءِ جَلْبُهُ، وهُوَ بمَعْنى البَعْثِ مَجازٌ، أَيْ: يَبْعَثْكُمْ من قُبورِكُم، فذَكَرَ الإتْيانَ بالنَّاسِ يَوْمَ القِيامَةِ، وأَرادَ البَعْثَ مِنَ القُبورِ والإحْياءَ للحِسابِ والجَزاءِ[2]، وأفاد هذا التَّعبيرُ الكشفَ عمَّا يجولُ في نفوسِ بعضِ النَّاسِ من الحرصِ على المهربِ من ذلك اليومِ الجَلَلِ.

البَعْثُ مِنَ القُبورِ، أَمْرٌ حَتْمِيٌّ للعَوْدَةِ والنُّشورِ

والتَّعبيرُ بلفظِ الجلالةِ يوحي بالمهابةِ والعظمةِ، ممَّا يزيدُ من الشُّعورِ بأنَّ الفاعلَ هو اللّه تعالى، وهذا يزيدُ التَّأكيدَ الحتميَّ الذي لا مفرَّ من اعتقادِه والعملِ له.

بلاغةُ الفاصلةِ في قَوْلِهِ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾:

بيَّن سبحانه وتَعالى قُدْرَتَهُ بهَذِهِ الجُمْلَةِ المُؤَكَّدَةِ بـ (إنَّ)، وبكَوْنِها جُمْلَةً اسْمِيَّةً، ثُمَّ تَصْديرُها بلَفْظِ الجَلالَةِ الدّالِّ عَلى القُدْرَةِ الَّتي لَيْسَتْ فوْقَها قُدْرَةٌ، مَعَ دَلالَةِ حَرْفِ الاسْتِعْلاءِ (عَلى)، الدّالِّ عَلى التَّمَكُّنِ، وصيغَةِ العُمومِ والشُّمولِ في لَفْظِ (كُلّ) المُضافِ إلى نَكِرَةٍ، وكُلُّ هَذِهِ رَوافِدُ تُضْفي تَأْكيدًا وقُوَّةً للمَعْنى المُضَمَّنِ، وفائِدَةُ هَذا الخَبَرِ المُؤَكَّدِ التَّعْقيبُ بحَسَبِ ما يَقْتَضيهِ الحالُ؛ فهُوَ يُناسِبُ المَعانيَ السّابِقَةَ، فجاء تَذْييلًا لها.

البَعْثُ والجَزاءُ في المَصيرِ، دَلائِلُ عَلى قُدْرَةِ القَديرِ

ولَمّا سَبَقَ الأَمْرُ باسْتِباقِ الخَيْراتِ، والعُزُوفِ عَنِ الجِدالِ،

(1) القنوجي، فتح البيان: 1/312، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 1/457.

(2) ابن جزّيّ، التّسهيل لعلوم التّنزيل: 1/101.

والتَّفَرُّغِ للعَمَلِ، ثُمَّ قالَ: ﴿أَيْنَ مَا تَكُونُواْ يَأْتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا﴾، وفيهِ مَعْنى الإعادَةِ بَعْدَ المَوْتِ، وما يَتْبَعُهُ مِنَ الجَزاءِ والحِسابِ، ناسَبَ أَنْ يُذَيِّلَهُ بتَعْقيبٍ عَلى تِلْكَ المَعاني تَأْكيدًا عَلَيْها[1]، في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

السِّمةُ التَّعبيريّةُ والتّناسُبُ اللَّفْظِيُّ في السِّياقِ:

بِناءُ الآيَةِ عَلى ألفاظِ الإحاطةِ والشُّمولِ يَزيدُ مَعانِيَها قُوَّةً وتَأْكيدًا

طُبِعَتْ هَذِهِ الآيَةُ بطابَعِ القُوَّةِ والتَّأْكيدِ، فمِنَ التَّناسُبِ اللَّفْظِيِّ: غَلَبَةُ الأَلْفاظِ الدّالَّةِ عَلى العُمومِ والشُّمولِ: ﴿وَلِكُلٍّ﴾، ﴿أَيْنَمَا تَكُونُواْ﴾، ﴿جَمِيعًا﴾، ﴿عَلَىٰ كُلِّ﴾، ﴿شَيْءٍ﴾ (نَكِرَةٌ)، ﴿ٱلْخَيْرَٰتِ﴾، شامِلَةً لِكُلِّ عَمَلٍ صالِحٍ؛ فكُلُّ هَذِهِ الأَلْفاظِ دالَّةٌ عَلى الشُّمولِ والسَّعَةِ، وهَذا الشُّمولُ يُناسِبُ المَعانيَ المُؤَكَّدَةَ الَّتي جاءَتِ الآيَةُ لبَيانِها، ومِنَ التَّناسُبِ اسْتِعْمالُ الأَلْفاظِ الَّتي تَتَوافَقُ في الدَّلالَةِ العامَّةِ، فالأَلْفاظُ: (وِجْهَةٌ، مُوَلِّيها، اسْتَبِقوا)، كُلُّها تَتَضَمَّنُ الاتِّجاهَ في المَكانِ، والسَّيْرَ ضِمْنَ حَيِّزٍ، وكذَلِكَ ناسَبَهُ اسْتِعْمالُ اسْمِ الشَّرْطِ الدّالِّ عَلى المَكانِ ﴿أَيْنَمَا تَكُونُواْ﴾، ومِنَ الألفاظِ المُكَرَّرَةِ (وَلِكُلٍّ، عَلَىٰ كُلِّ)، وهَذا التَّكْرارُ يَتَناسَبُ مَعَ سِياقِ الآيَةِ وغَرَضِها في الدَّلالَةِ عَلى الشُّمولِ والإطْلاقِ، ويَظْهَرُ هَذا التّناسُبُ أَكْثَرَ عِنْدَ مُلاحَظَةِ أَنَّهُ اسْتَعْمَلَ ﴿جَمِيعًا﴾ أَيْضًا.

وهَذِهِ الآيَةُ فيها ثَلاثَةُ أَفْعالٍ فقَطْ، فقَدْ بُنِيَتْ عَلى الأَسْماءِ؛ وهَذا يَزيدُ مَعانِيَها قُوَّةً وتَأْكيدًا، فابْتَدَأَتْ بجُمْلَةٍ اسْمِيَّةٍ تَدُلُّ عَلى العُمُومِ، وانْتَهَتْ بجُمْلَةٍ اسْمِيَّةٍ مُؤَكَّدَةٍ تَدُلّ عَلى القُدْرَةِ المُطْلَقَةِ.

(1) القنوجي، فتح البيان: 1/312، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/44.

﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٩﴾﴾ [البقرة: 149]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

عَوْدٌ إلى موضوع تَحْويلِ القِبْلَةِ، لِنَسْخِ ما مَضى وتَرْسيخِ ما يَأْتي

مضى في الآياتِ السّابقةِ الاهتمامُ بشأنِ القِبلةِ، وتَعظيمِها، وبَيّنَ تَمَسُّكَ كلِّ قَومٍ بِقِبْلَتِهم، وأَمَرَ سبحانه المُسلمينَ بالمُبادَرَةِ إلى فِعْلِ الخَيراتِ والانصِرافِ عنِ الجِدالِ، ثُمَّ رَجَعَ إلى موضوعِ القِبْلَةِ، لِيُبَيِّنَ اتِّجاهَ المُسلمينَ في صَلاتِهم، وتَمَيُّزَهم عَنِ الأقْوامِ الآخَرينَ، فجاءَ الأمْرُ للنّبيِّ ﷺ بِنَسْخِ القِبْلَةِ السّابِقَةِ وتَوجيهِهِ شطرَ المَسْجِدِ الحرامِ.

شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

الإخْراجُ مِنَ الدِّيارِ مِنْ أكْبَرِ البَلادِ في كُلِّ العُصورِ

1) ﴿خَرَجْتَ﴾: مِنَ الجذْرِ (خرج)، والخَرْجُ والخُرُوجُ: النَّفاذُ عَنِ الشَّيْءِ، النّفاذُ مِنَ الحَيِّزِ أو الأثْناءِ، بِتَجَمّعٍ: كالوَرَمِ مِنَ الجِسْمِ والسَّحابِ من جَوْفِ الأُفُقِ[1]، ومن ذلِكَ الخُروجُ بِمَعْناهُ المَشْهورِ: ﴿خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِمْ﴾ [البقرة: 243]، بَرَزَ مِنْ مَقَرِّهِ ودارِهِ، وسَواءٌ كانَ مَقَرُّهُ دارًا، أو بَلَدًا، أوْ ثَوْبًا[2]، وَفُلَانٌ خِرِّيجُ فُلَانٍ، إذَا كَانَ يَتَعَلَّمُ مِنْهُ، كَأَنَّهُ هُوَ الَّذِي أَخْرَجَهُ مِنْ حَدِّ الْجَهْلِ، وَالْخَرُوجُ: النَّاقَةُ تَخْرُجُ مِنَ الْإِبِلِ، تَبْرُكُ نَاحِيَةً[3].

فعل الأمر (وَلِّ) أمرٌ بالتوجّه إلى القبلة

2) ﴿فَوَلِّ﴾: مِنَ الجذْرِ (ولي)، والأصْلُ فيه: الوَلِيَّةُ: وهي البَرْذَعَةُ؛ التي تُوضَعُ على ظَهْرِ البَعيرِ، كالسَّرْجِ للفَرَسِ، وفيهِ مَعْنى المُتابَعَةِ، ومِنْهُ أُخِذَ التَّوَجُّهُ والانْصِرافُ، ومِن الأصْلِ دَلَّ على الاتّجاهِ، والتّوجُّهُ إلى الشّيْءِ: التِفاتٌ وانْصِرافٌ إلَيْهِ، ووَلَّيْتُ وجْهي كَذا: أقْبَلْتُ بِهِ عَلَيْهِ.

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (خرج).
(2) الراغب، المفردات: (خرج).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (خرج).

والمعنى في الآيةِ: التَّوَجُّه والإقبالِ والانْصِراف.

3) ﴿وَجْهَكَ﴾: مِنَ الجذْرِ (وجه)، ووجْهُ البَيْتِ: الخَدُّ الَّذي يَكُونُ فيه بَابُهُ، ووَجْه الإنْسانِ وغَيْرِه: مَعْروفٌ[1]، وأَصْلُ المَعْنى ما يَدُلُّ عَلَى مُقَابَلَةٍ لِشَيْءٍ، والْوَجْهُ مُسْتَقْبِلٌ لِكُلِّ شَيْءٍ[2]، ومُقْتَبَلُ مَلامِحِ الشَّيْءِ ومُقَدَّمُهُ المَكْشوفُ الّذي يُعْرَفُ بِهِ، وتُعْرَفُ حَقيقَتُهُ[3].

مَنْ حَسُنَ وَجْهُهُ، وسَمَا خُلُقُهُ، أَلِفَ وأُلِفَ

وفي الآيَةِ: المُرادُ الوَجْهُ المَعْروفُ، وكَذا في الآيَةِ اللّاحِقَةِ: [البقرة: 150].

4) ﴿شَطْرَ﴾: مِنَ الجذْرِ (شطر)، وشَطْرُ الشَّيْءِ: نِصْفُهُ ووَسَطُهُ[4]، وأَصْلُ المادّةِ يَدُلُّ عَلَى نِصْفِ الشَّيْءِ[5]، وانْقِسامِ الشَّيْءِ إلى نِصْفَيْنِ بِحَسَبِ الجِهَةِ، أي الأَمامِ والخَلْفِ، والأَعْلى والأَسْفَلِ، ومِنِ اعْتِبارِ أنّ الانْقِسامَ إلى جِهاتٍ أُخِذَ: الشَّطْرُ: الجِهَةُ، ناحِيَةُ الشَّيْءِ.

لا صَلاةَ إلّا بِالتَّوَجُّهِ شَطْرَ المَسْجِدِ الحَرامِ

والمعنى في الآية: نَحْوُ البيتِ الحرامِ وقَصْدُهُ وجِهَتُهُ[6].

5) ﴿ٱلْمَسْجِدِ﴾: مِنَ الجذْرِ (سجد)، نَخْلَةٌ ساجِدَةٌ: أمالَها حَمْلُها[7]، وأَصْلُ المادّةِ يَدُلُّ عَلَى تَطامُنٍ وذُلٍّ[8]، وعلى انْخِفاضِ أَعْلى الشَّيْءِ القائِمِ أي المُنْتَصِبِ مُنْثَنِيًا إلى أَسْفَلَ، كالنَّخْلَةِ يَحْنيها ثِقَلُ حَمْلِها[9]، والمَسْجِدُ: المُصَلّى، وكلّ مَوْضِعٍ يُتَعَبَّدُ فيهِ، ومَكانُ أداءِ الصّلاةِ الّتي أَكْثَرُها سُجودٌ، قال تعالى:

المَسْجِدُ الحَرامُ آمِنٌ إلى يَوْمِ القِيامَةِ

(1) ابن منظور، لسان العرب: (وجه).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (وجه).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (وجه).
(4) الراغب، المفردات: (شطر).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (شطر).
(6) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (شطر).
(7) ابن منظور، لسان العرب: (سجد).
(8) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سجد).
(9) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (سجد).

﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ [البقرة: 144][1]، وفي الآية: المَسْجِدُ الحَرامُ في مكّةَ المشرّفةِ قِبْلَةِ المُسلِمينَ.

المسجد الحرام أوّل بيت وضع للنّاس

6) ﴿ٱلْحَرَامِ﴾: مِنَ الجذْرِ (حرم)، وهُوَ حَيِّزٌ مَمْنوعٌ تابِعٌ لِشَيْءٍ، تُمْنَعُ فيهِ أُمورٌ وتَصَرُّفاتٌ مُعَيَّنَةٌ، كَما يُمْنَعُ الصَّيْدُ وقَطْعُ الشَّجَرِ في حَرَمِ مكّةَ المكرّمَةِ والمَدينَةِ المُنَوَّرَةِ[2]، وفي سِياقِ الآيَةِ: بِمَعنى المُحَرَّمِ، وأَصْلُه مِنَ المَنْعِ، وسُمِّيَتْ تِلكَ البُقْعَةُ حَرامًا لِما مُنِعَ فيها من أَشْياءَ لَم تُمْنَعْ في غَيْرِها[3].

الْحَقُّ الصّدُوق، نَقِيضُ الْبَاطِلِ الزّهُوق

7) ﴿لَلْحَقُّ﴾: مِنَ الجذْرِ (حقق)، والحُقُّ مِنَ الوَرِكِ: مَغْرِزُ رأْسِ الفَخِذِ وما أَشْبَهَها[4]، وهو أَصْلٌ يَدُلُّ عَلَى إِحْكامِ الشَّيْءِ وصِحَّتِهِ، فالحَقُّ نَقيضُ الباطِلِ[5]، وهو تَمَكُّنُ الشّيءِ في عُمْقِ مَقَرِّهِ، أو وسَطِهِ، كَما يَتَمَكَّنُ رَأْسُ الوَرِكِ في حُقِّهِ[6]، ومن ذَلِكَ: الحَقّ: نَقيضُ الباطِلِ، والشّيءُ الثّابِتُ الرّاسِخُ المُتَمَكِّنُ بِشَريعَةٍ صَحيحَةٍ، أَوْ عُرْفٍ عامٍّ مُسَلَّمٍ، وحَقَّ الشّيْءُ: ثَبَتَ، ووَجَبَ[7].

الغافِلُ عَنْ حَقائِقِ الأُمــورِ، تُصيبُهُ مَغَبَّةُ غَفْلَتِه ولَو بَعْدَ حينٍ

8) ﴿بِغَٰفِلٍ﴾: مِنَ الجذْرِ (غفل)، والغُفْلُ: أرضٌ سَبْسَبٌ مَيْتَةٌ لا عَلامَةَ فيها، والأَغْفالُ: المَواتُ[8]، وهو أَصْلٌ يَدُلُّ على الخُلُوِّ ممّا يَلْفِتُ ويُنَبِّهُ، كالأَرْضِ السَبْسَبِ، ومِنْهُ: غَفَلَ عَنِ الشّيْءِ، وأَغْفَلَهُ: تَرَكَهُ وسَها عَنْهُ، لَمْ يَلْتَفِتْ أَوْ يَتَنَبَّهْ إِلَيْهِ[9].

(1) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (سجد).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (حرم).
(3) الواحدي، التّفسير البسيط: 3/390.
(4) ابن منظور، لسان العرب: (حقق).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حقق).
(6) محمد حسن جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (حقق).
(7) المرجع السّابق: (حقق).
(8) ابن منظور، لسان العرب: (غفل).
(9) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (غفل).

والمعنى في سياق الآية: نَفْيُ هَذِهِ الصِّفَةِ عَنِ اللّه جَلّ وعلا؛ لِأَنّه العَليمُ الخَبيرُ بِكُلِّ شَيْءٍ، لا يَغْفُلُ ولا يَسْهو.

9) ﴿تَعْمَلُونَ﴾: مِنَ الجذْرِ (عمل)، وهو أَصْلٌ عامٌّ في كُلِّ فِعْلٍ يُفْعَلُ[1]، وكلِّ جُهْدٍ مادّيّ، يؤدّي إلى إحْداثِ شَيْءٍ[2]، وهُوَ صالِحٌ لِلتّعْبيرِ بِهِ عَنْ أيّ نَشاطٍ يَسْتَوْفي ما ذَكَرْناهُ[3].

العَمَلُ جُهْدٌ مادّيٌّ، يُؤَدّي إلى إحْداثِ أَثَرٍ في الواقِعِ

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

يُخاطِبُ اللّه تَعالى النّبيَّ ﷺ فارِضًا عَليهِ التَّوجُّهَ إلى المَسْجِدِ الحَرام، قائِلًا لَهُ: من أيِّ مَكانٍ خَرَجْتَ من بَلَدِكَ لِلسَّفَرِ، وأَرَدْتَ الصَّلاةَ، فعَلَيْكَ أنْ تَتَوَجّهَ إلى جِهَةِ المَسْجِدِ الحَرام، وإنّ هَذا الفَرْضَ، هُوَ الحَقُّ الثّابِتُ، المُوحَى به إليك من ربِّك، والّذي فَرَضَ هَذا هُوَ رَبُّكَ الّذي يُنْعِمُ عَلَيْكُمْ بِتَعاليمِ الدّينِ وسائِرِ النِّعَمِ، ولا تَتَهاوَنوا في أَمْرِ القِبْلَةِ، فإنَّ اللّه لا يَغْفُلُ عَمّا تَعْمَلونَ، فلا تَكونوا كَما فعَلَ أَهْلُ الكِتابِ، فإنّي سَأَبْعَثُكُمْ لِلحِسابِ والجَزاءِ، وقَدْ جَعَلَ اللّهُ تَعالى المَسْجِدَ الحَرامَ قِبْلَةً لِلمُوَحِّدينَ؛ لِيوَجِّهَ النُّفوسَ إلَيْهِ، فيَكونَ ذَلِكَ مُقَدِّمَةً لِتَطْهيرِهِ وإتْمامِ النِّعْمَةِ بِفتحه والاسْتِيلاءِ عَلَيْهِ، والسَّيْرِ فيهِ عَلَى مِلَّةِ إبْراهيمَ، مِنَ التَّوْحيدِ والعِبادَةِ الصَّحيحَةِ لِلّه تَعالَى وحْدَهُ، ويُؤَيِّدُ ذلك قَوْلُهُ تَعالَى بَعْدَ ذِكْرِ فتْحِ مَكَّةَ في سُورَةِ الفَتْحِ: ﴿وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ۝٢﴾ [الفتح: 2] فكانَ في الآيَةِ بِشارَةٌ بِفَتْحِ مَكَّةَ[4].

تَوْجيهُ النُّفوسِ لِعِمارَةِ المَسْجِدِ الحَرامِ، والحِفاظِ عَلى قُدْسِيَّتِهِ

الإِيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

فائِدَةُ عطفِ الحكمِ على نفسِه:

عُطِفَ قَوْلُهُ: ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾، عَلى قَوْلِهِ: ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ [البقرة: 144]؛

شمولُ حكمِ استقبالِ القبلةِ لكلِّ الأحوالِ ومن جميعِ الجهاتِ

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عمل).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (عمل).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (عمل).
(4) محمد رشيد رضا، تفسير القرآن الحكيم: 2/21-22.

حَيْثُ كَرّر ذكرَ الحُكْم، فعَطَفَ حكمَ استقبالِ القبلةِ على نفسِه؛ للإعْلامِ بِأَنَّ اسْتِقْبالَ الكَعْبَةِ في الصّلاةِ المَفْروضَةِ، لا تَهاوُنَ في القِيامِ بِهِ، ولَوْ في حالَةِ العُذْرِ كالسَّفَرِ؛ لِأَنّ السَّفَرَ مَظِنَّةُ المَشَقّةِ، في الاهْتِداءِ لِجِهَةِ الكَعْبَةِ، فرُبّما يَتَوَهَّمُ مُتَوَهِّمٌ سُقوطَ الاسْتِقبالِ عَنْهُ[1]، أوِ التَّهاون فيه.

القِبْلَةُ واحِدَةٌ في الحَضَرِ والسَّفَرِ

ودلَّ الحذفُ في قَوْلِه تعالَى: ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ﴾ على شُمولِ حكمِ استقبالِ القِبلةِ من كلِّ جهةٍ ومكان، أيْ: ومن أيِّ بلدٍ خَرَجْتَ للسَّفَرِ، فحَذَفَ السَّفَرَ، والدّليلُ عَليه الخُروجُ[2].

فائِدةُ التّأكيدِ بمؤكِّداتٍ عدَّة:

دفعُ أوهامِ النَّسخِ عن حكمِ القبلةِ

أُكِّدَ الخبرُ في قولِه تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ بإنَّ واللّام، والجُمْلةِ الاسْمِيّةِ؛ لِبَيانِ الاهتمامِ بِأَمْرِ القِبْلَةِ، فهُوَ تَكْرارٌ وتَأكيدٌ لِقولِه في الآيَةِ السّابِقةِ: ﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ [البقرة: 147][3]، وجاء الخبرُ هنا مُؤَكَّدًا لدفعِ أوهامِ النَّسخِ، فحكمُ استقبالِ القبلةِ محكمٌ غيرُ قابلٍ للنَّسخِ[4]، ولبيانِ أنَّ هذا الحكمَ مثارُ تحريكِ الأوهامِ، أرادتِ الآيةُ بيانَ ثباتِ الحكمِ، وتأكيدِ أمرِه لدفعِ كلِّ وهمٍ.

مَرْجِعُ الضَّميرِ في قولِهِ: ﴿وَإِنَّهُۥ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾:

عودةُ الضَّميرِ على مضمونِ الكلامِ ومعناه

يعودُ الضَّميرُ في قولِه: ﴿وَإِنَّهُۥ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ إلى مَضْمُونِ الجُمْلَةِ، الّتي تَناوَلَتْ تَحْويلَ القِبْلَةِ، فهُوَ راجِعٌ إلى ما يُؤخذ من المَقامِ، وهُوَ التَّوَجُّهُ المَدْلولُ عَلَيْهِ بِقَوْلِه: ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ﴾، فالضَّميرُ هُنا كالضَّميرِ في قَوْلِه: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ﴾ [البقرة: 146][5]، ويَجوزُ أن يَعودَ على شَطْرِ المَسجِدِ[6].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/44-45.
(2) النّسفي، مدارك التنزيل: 1/142.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/45، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 1/459.
(4) الماوردي، النكت والعيون: 1/207.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/46، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 1/459.
(6) النيسابوري، التّفسير البسيط: 3/406.

التَّعبيرُ بِلَفْظِ الرُّبوبيَّةِ للإيماءِ بأنَّ هذا الحقَّ اقتضته تربيةُ الحقِّ:

جاءَ التَّعبيرُ بلفظِ الرُّبوبيّةِ، في قولِه: ﴿مِن رَّبِّكَ﴾، ولَم يَقُلْ (مِنَ اللّهِ)، لِلإشارَةِ إلى أنَّ هذا الحَقّ اقْتَضَتْه تَرْبِيَتُه لكَ، وقِيامُهُ على شُؤونِكَ، وأنَّه سارٍ عَلى حِكْمَتِهِ، ولأنَّه رأى تَقَلُّبَ وجْهِكَ في السّماءِ[1].

فائِدَةُ النَّفْيِ في قَوْلِهِ: ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ﴾:

لا يَقَعُ فِعْلٌ في الوُجودِ عَلى غَيْرِ عِلْمٍ مِنَ اللهِ سُبْحانَهُ

النّفْيُ المُؤَكَّدُ فائِدَتُهُ الإثباتُ المُؤَكَّدُ، فنَفْيُ الغَفْلَةِ بِطَريقِ التّأكيدِ، يُثْبِتُ نَقيضَها، وهُوَ العِلْمُ والمَعْرِفَةُ، والتَّأكيدُ في النَّفْيِ يَنْعَكِسُ عَلى نَقيضِهِ، وهُوَ الإثْباتُ، فنَفَى الغفْلَةَ عن نَفْسِهِ؛ ليُثبتَ العِلْمَ الكامِلَ، بِتَأكيدِ نَفْيِ أنْ يَقَعَ فِعْلٌ في الوُجودِ على غَيْرِ عِلْمٍ منهُ، باسْتِغراقِ النّفْيِ، وبِذِكْرِ لَفْظِ الجَلالَةِ الّذي يَتَّصِفُ بِكلّ كَمالٍ، ويَسْتَحيلُ عَلَيْهِ أيُّ نَقْصٍ، وبِالباءِ الدّالّةِ عَلى اسْتِغراقِ النَّفْيِ[2].

الفَرْقُ بَيْنَ التَّعبيرِ عَنِ المَعْنى بِالنَّفْيِ، والتَّعْبيرِ عَنْهُ بالإثْباتِ:

دفْعُ الأوهامِ يُناسبه النَّفْيُ

آثرَ النَّظمُ التَّعبيرَ عن إثباتِ العلمِ بقوله تعالى: ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ١٤٩﴾، دون التَّعبير المباشر كَقولِهِ: ﴿وَٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ٢٣١﴾ [البقرة: 282]، فما الفَرْقُ بينَ التَّعبيرين؟

والجوابُ: إنَّ التّعْبيرَ عَنِ المَعْنى، يَكونُ بِطَريقَتين: الإثباتِ الإيجابيِّ، والإثباتِ السَّلْبيّ، فالأوّلُ وهُوَ التَّعبيرُ بِطَريقَةِ الإثباتِ، هُوَ إثْباتٌ إيجابيٌّ، وقَد ورَدتْ هَذِهِ الصّيغَةُ ﴿بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾، ستَّ عَشْرَةَ مَرَّةً، كُلُّها في سِياقِ إثْباتِ العِلْمِ، لِأنّ المَقامَ يَحْتاجُ إلى إثباتِ العِلْمِ، لا نَفْيِ الجَهْلِ والغَفْلَةِ.

أمّا الثّاني وهُوَ التَّعْبيرُ عَنِ المَعْنى بِطَريقَةِ النَّفْيِ فهُوَ الإثْباتُ السَّلْبيُّ، وقَدْ ورَدَتْ عِبارَةُ: ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ ستَّ مَرّاتٍ، وكُلُّها في سِياقِ التَنبيهِ والوَعيد؛ فتَأتي هَذِهِ العِبارَةُ في مَقامِ

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 1/459.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 1/459.

الوَعيدِ والتَّنبيهِ والجِدالِ، وهَذهِ المَواضِعُ تَحتاجُ إلى زَجْرٍ، فالنَّفْيُ في مَقامِ التَّخْويفِ أبْلَغُ، وبَيانُهُ: أنّ منْ يقومُ بالفعلِ المنهيِّ عنْهُ، قد يظُنُّ أنّ فِعلَهُ هذا قد يَغيبُ ويَخفى عَنِ الملاحَظةِ، فتَأتي هَذهِ العِبارَةُ لِتَدفع ذلِكَ الظَّنِّ، وهذا التَعبيرُ يُناسبُ مَقامَ الفعلِ الآثِمِ أوِ السّيِّءِ، وهو أنْسَبُ بالأسْلوبِ الدّالِّ عَلى الرَّدعِ والزَّجْرِ؛ لِذلِكَ اسْتُعمِلَ هُنا لَفْظُ الجَلالةِ دونَ لَفْظِ (رَبّ)، ليُناسِبَ مَقامَ الرَّدْعِ والتّنبيهِ.

بلاغَةُ التَّنبيهِ في تَعْميمِ الخِطابِ للمُؤْمِنينَ:

صَراحَةُ الخِطابِ دُونَ كِنايَةٍ عَنهُ، أوقعُ في التَّنبيهِ

والخِطابُ مُوَجَّهٌ إلى المُؤمنينَ عامَّةً، ولَيس مُوَجّهًا إلى النّبيّ ﷺ، بدَليلِ أنّ الخِطابَ كانَ باللّفظ الدّالّ على الجَمْعِ: ﴿عَمَّا تَعْمَلُونَ ١٤٩﴾[1]، فجاءَ خِطابًا لِلأُمّةِ صَراحَةً، ولَيْسَ عن طَريقِ الكِنايَةِ، كما مَضى في قوله: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ١٤٧﴾، لِيَكُون أبلغَ في التَّنبيهِ، كما أنّ التّنبيهَ اكتَسَبَ بَلاغةً، لأنّهُ جاء بِطَريقَةِ الإثباتِ السّلْبِيّ، كما بَيّنّا آنِفًا.

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 1/459.

﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِى وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِى عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٠﴾﴾ [البقرة: 150]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمّا تَقرَّر في الآيَةِ السّابِقَةِ أنَّ تَحْويلَ القِبْلَةِ فرْضٌ في حقِّ النّبيّ ﷺ، وبَيّن أنَّهُ حَقٌّ ثابِتٌ، جاءَ الخِطابُ في هَذهِ الآيَةِ مُتَضَمّنًا تَكرارَ الأمْرِ للنّبيّ ﷺ، عاطِفًا عليْهِ الأمْرَ لأمَّتِهِ، لِيَعُمَّ الحُكْمُ الجَميعَ، عَنْ طَريقِ النَّصّ.

عَطْفُ أَمْرِ الأُمَّةِ عَلى أَمْرِ النّبيّ ﷺ تَعميمٌ لِلحُكْمِ

شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

1) ﴿حُجَّةٌ﴾: مِنَ الجذْرِ (حجج)، والحُجّةُ البُرْهانُ، وهي في الأصْلِ كأنّها ظَرفٌ قويٌّ صُلبٌ للرّأي، يَحْفَظُه ويَدْعَمُهُ، والمُحاجَّةُ: المجادَلَةُ، مِن هَذا، فكلٌّ يَأتي بِحُجّتِهِ، قال تَعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ﴾ [البقرة: 258]، ومِنْهُ الفِعلُ (حاجّ) ومُضارِعُهُ، و(يَتَحاجُّونَ)، و(حُجّة) بالضَّمِّ[1]، وقد جَعَل ابنُ فارِسٍ والرّاغِبُ الأصلَ مِنَ القَصْدِ: أنَّ كُلَّ قَصْدٍ حَجٌّ، ويُمْكِنُ أنْ تكونَ الحُجَّةُ مُشْتَقَّةً من هَذا؛ لأنَّها تُقْصَدُ، أوْ بِها يُقْصَدُ الحَقُّ المَطْلُوبُ[2]، "والحُجَّةُ: الدّلالَةُ المُبَيّنَةُ للمَحَجّةِ، أي: المَقْصَدِ المستَقيمِ الّذي يَقْتَضي صِحّةَ أحَدِ النَّقيضَيْنِ، قال تعالى: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾، فجَعَلَ ما يَحْتَجّ بِهِ الّذين ظلموا، مُسْتَثْنًى مِنَ الحُجَّةِ وإنْ لَمْ يَكُنْ حُجَّةً[3].

الحُجّةُ الدَّلالَةُ المُبَيِّنَةُ للمَحَجّةِ

(1) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (حجج).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حجج).
(3) الراغب، المفردات: (حجج).

أمر الله المؤمنين ألّا يَظلِمَ بَعضُهُم بَعضًا

2) ﴿ظَلَمُواْ﴾: مِنَ الجذرِ (ظلم)، وهو أَصْلٌ يَدُلُّ عَلى خِلافِ الضِّياءِ والنُّورِ، ووَضْعِ الشَّيْءِ غَيْرَ مَوْضِعِهِ تَعَدِّيًا[1]، وحَجْبِ ما ينبغي أو ما يُسْتَحقُّ، أي مَنْعِهِ، كمَنْعِ الضّوءِ في حالةِ الظُّلمَةِ، وكَمَنْعِ المَطَرِ عَنِ الأرْضِ "المَظْلومَةِ، والظّلامُ يَحْجُبُ الرُّؤْيَةَ[2]، والظُّلْمُ: المَيْلُ عَنِ القَصْدِ، والعَرَبُ تَقُولُ: الزَمْ هَذا الصَّوْبَ، ولا تَظْلِمْ عَنْهُ، أَيْ لا تَجُرْ عَنْهُ، والظَّلَمةُ: المانِعونَ أهْلَ الحُقوقِ حُقُوقَهُمْ[3].

من خشي الله استشعر عظمته

3) ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ﴾: مِنَ الجذرِ (خشي)، وهو يَدُلُّ عَلَى خَوْفٍ وذُعْرٍ، فالخَشْيَةُ الخَوْفُ، والخَشْيَةُ فيها اسْتِشعارُ النَّفْسِ حِدّةً تَقَعُ لا مَهرَبَ مِنْها، إذا اسْتُوجِبَتْ، وفيها -مع ذلك- اسْتِيحاشٌ وجَفْوَةٌ وخُشُونَةٌ، قد يُعَبِّرُ عنها التوتُّرُ الحادُّ، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ﴾ [الأحزاب: 39]، فالخَشْيَةُ فيها اسْتِشعارُ شَيءٍ مع الخَوْفِ، أساسُهُ تِلكَ الخُشونَةُ والجَفافُ[4]، ولهذا فالخَشْيَةُ أخَصُّ مِنَ الخَوْفِ، قال الرّاغِبُ: "الخَشْيَةُ: خَوْفٌ يَشوبُهُ تَعْظيمٌ، وأكثَرُ ما يَكونُ ذلِك عَنْ عِلْمٍ بِما يُخْشى مِنْه"[5].

كُلُّ ما في القُرآنِ مِنْ مُشْتَقّاتِ التّمامِ، هُوَ بِمَعْنَى اسْتيفاءِ الشّيْءِ كَمالَهُ

4) ﴿وَلِأُتِمَّ﴾: مِنَ الجذرِ (تمم)، وهو أَصْلٌ يدلُّ على الكَمالِ[6]، يُقالُ تَمَّ الشَّيْءُ، إذا كَمَلَ، وأَتْمَمْتُهُ أَنا، وذلِكَ باسْتيفاءِ جِرْمِ الشّيءِ حَجْمَهُ، مُتَمَيِّزًا عَنْ غَيْرِهِ، كالقَمَرِ لَيْلَةَ البَدْرِ، وكالتّامِّ الخَلْقِ مِنَ النّاسِ، والخَيْلِ، والنَّبْتِ، ولَيلُ التَّمامِ: أطْولُ ما يَكونُ من ليالي الشِّتاءِ، قال تَعالى: ﴿وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ [الأعراف: 142]، أي بلَغها كامِلَةً، وقال أيضًا: ﴿ثُمَّ أَتِمُّواْ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ﴾ [البقرة: 187].

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ظلم).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (ظلم).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (ظلم).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (خشي).
(5) الراغب، المفردات: (خشي).
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة، جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (تمم).

وكلُّ ما في القُرآنِ مِن هذا التّركيب، هُو بِمَعْنى اسْتيفاءِ الشّيْءِ حَجْمه أوْ كَمالَهُ[1].

مَـــنْ لَـبِـسَ النِّعْمَةَ بِلا شُكْرٍ لِلخالِقِ، نَزَعَها اللهُ عَنْهُ أمامَ الخَلائِقِ

5) ﴿نِعْمَتِي﴾: مِنَ الجِذْرِ (نعم)، وهو أَصْلٌ[2] يَدُلُّ عَلَى تَرَفُّهٍ وطِيبِ عَيْشٍ وصَلاحٍ، وعلى رِقَّةِ الشّيءِ أوْ لُيونَتِهِ وخُلُوِّهِ مِنَ الغِلَظِ والخُشونَةِ، ومِنْهُ النِّعْمَةُ، والنَّعْماءُ والنّعيمُ، والنُّعْمى: الخَفْضُ والدَّعَةُ وغَضارَةُ العَيْشِ، والمالُ (لينٌ ويُسْر)، وكلُّ ما يُنْعِمُ اللّهُ تَعالَى عَلَى عَبْدِهِ بِهِ من مالٍ وعَيْشٍ، يُقالُ: لِلّهِ تَعالَى عَلَيْهِ نِعْمَةٌ، والنِّعْمَةُ: المِنَّةُ، وكَذا النَّعْماءُ، والنَّعْمَةُ: التَّنَعُّمُ وطِيبُ العَيْشِ، قالَ اللّهُ تَعالَى: ﴿وَنَعْمَةٍ كَانُواْ فِيهَا فَٰكِهِينَ ۝٢٧﴾ [الدّخان: 27].

الهُدى الرَّشادُ والدَّلالَةُ، بَعيدًا عَنِ الضَّلالَةِ

6) ﴿تَهْتَدُونَ﴾: مِنَ الجِذْرِ (هدى)، وهُو أَصْلٌ يدلّ على تَبَيُّنِ الوِجْهَةِ، أو تَبْيينِها بِالتَّقَدُّمِ أو الكَشْفِ، وعلى التَّقَدُّمِ لِلإِرْشادِ؛ هَدَيْتُهُ الطَّرِيقَ هِدايَةً، أَيْ تَقَدَّمْتُهُ لِأُرْشِدَهُ[3]، كما تَتَبَيَّنُ الوِجْهَةُ مِن اتّجاهِ أوائِلِ الخَيْلِ والإبِلِ[4]، والهُدى: الرَّشادُ والدَّلالَةُ، ضِدُّ الضَّلالِ.

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

تَحويلُ القِبْلَةِ مِنْ تَمامِ نِعْمَةِ اللهِ على الأُمَّةِ

يَتَكَرَّرُ الأَمْرُ في هَذِهِ الآيَةِ بِفَرْضِ الاتِّجاهِ إلى المَسْجِدِ الحَرامِ، ويَشْمَلُ هَذِهِ المَرّةَ الأُمَّةَ جَميعًا، فيَكونُ الأَمْرُ شامِلًا لَهُم بِالنَّصِّ، فمن أيِّ مكانٍ خَرَجْتَ -أيُّها النَّبيّ- فتَوَجَّهْ إلى المَسْجِدِ الحرام، وحيثُما كُنْتم -أيُّها المُسلمون-، بأيِّ قُطْرٍ من أَقْطارِ الأَرْضِ، فوَلُّوا وُجُوهَكُم نَحْوَ المَسْجِدِ الحرام؛ وإنَّما أَمَرْتُكُم بالتَّوَجُّه إلى الكَعْبَةِ دونَ صخْرَةِ بيت المَقْدس، لِتَدْفَعُوا حُجَجَ النّاسِ؛ فإنَّ اليَهودَ رُبّما قالوا: المَنْعوتُ في التَّوْراةِ قِبْلَتُه الكَعبةُ، وهَذا يَستَقبِلُ الصَّخْرَةَ، أو إنَّ محمّدًا يُخالِفُ

(1) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (تمم).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (نعم).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (هدى).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (هدى).

دينَنا، ويَسْتَقْبِلُ قِبلَتَنا! والمُشرِكونَ رُبّما قالوا: يَدّعي مِلَّةَ إبراهِيمَ، ويُخالفُ قِبلَتَهُ، فأمَرْتُكُم باسْتِقبالِ القِبلةِ، دَفْعًا لحُجَجِ النّاس، إلّا المعانِدينَ مِنْهُم، فلا يَنْقَطِعُ شَغَبُهُم، فإنّهُم يقُولُونَ: ما تَحَوَّلَ إلى الكعبَةِ إلّا مَيْلًا إلى دِينِ قَوْمِهِ، وحُبًّا لبلَدِهِ، أو بَدا لَهُ فرَجَعَ إلى قِبْلَةِ آبائِهِ، ويُوشِكُ أن يَرْجِعَ إلى دينِهِم، فلا تَخافوهُمْ وخافوني بامْتِثالِ الأوامِرِ، واجْتِنابِ النَّواهي؛ وليَكونَ ذَلِكَ التّحويلُ مِن تَمامِ نِعْمَتي عليكُم، باخْتِيارِ أَكْمَلِ الشّرائِعِ لَكُم، ولَعَلّكم تَهْتَدون إلى الحَقِّ والصَّوابِ[1].

الإيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

تكرارُ الأمرِ بتولية الوجهِ إلى القبلةِ:

تَكْرارُ لَفْظِ القِبْلَةِ لِـزِيـادَةِ البَيانِ والتّأكيدِ

في قَولِهِ تعالى: ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِۚ﴾، إطنابٌ؛ حيثُ كَرّر الأَمْرَ بتوَليةِ الوجهِ إلى شَطْرِ المَسجِدِ الحَرامِ، وفائِدَةُ هذا الإطنابِ التَّأكيدُ عَلى أَهَمّيّةِ القِبلةِ، وتَعظيمُ التّوَلّي إليها، وقَدْ تَكَرّرتْ بلَفْظِها؛ لِزِيادَةِ البَيانِ والتّأكيدِ، ولإفادةِ أن لا حجةَ عليهم فيه؛ لقوله: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ﴾[2].

بلاغةُ عَطْفِ خطابِ الأمَّةِ على خطابِ النَّبيِّ ﷺ:

أمـرُ القبلةِ ذو شـأنٍ عظيمٍ، وهو يعمُّ الأمَّةَ ونبيَّها

عُطِفَ قَوْلُهُ: ﴿وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ﴾ عَلى صَدْرِ الآيَةِ: ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ﴾، والمَقْصَدُ التَّعْميمُ في هذا الحُكْمِ في السَّفَرِ لِلمُسْلِمينَ، لِئَلّا يُتَوَهَّمَ تَخْصيصُه بالنَّبيِّ ﷺ، وحَصَل من تَكْريرِ مُعْظَمِ الكَلِماتِ تَأكيدٌ لِلْحُكْمِ لِيَتَرَتَّبَ عَلَيْه قَوْلُهُ: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ﴾[3]، ولكي يكونَ موقفُ المؤمنين من أمرِ القبلةِ تابعًا لموقفِ نبيِّهم سواءً بسواء، وأنَّ الأمرَ لا يخصُّ النَّبيَّ ﷺ وحدَه، بل يخصُّ الأمَّةَ بأكملها.

(1) ابن عجيبة، البحر المديد: 1/181.
(2) الماوردي، النكت والعيون: 1/207.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/45.

أثرُ التّكْرارِ في تَجْلِيَةِ المَعْنى وتَأْكِيدِهِ:

التّكْرارُ في الكَلام البَليغِ لا يَأْتي حَشْوًا ولا تَزَيُّدًا، بل لَهُ غايَةٌ دَلالِيّةٌ، وفي الآيَة هُنا أفادَ التّكرارُ التّأكيدَ، وذلِكَ أنَّه إنّما كَرَّرَ لأنّ هذا مِن مواضِعِ التّوْكيدِ؛ لأجْلِ النّسخِ الّذي نُقلوا فيه من جِهَةٍ إلى جِهَةٍ للتَّقْريرِ[1]، فالتّكْرارُ يُؤَكِّدُ النَّسْخَ، ويُقَرِّرُ الاتّجاهَ الجَديدَ؛ والنّسْخُ من مَظانِّ الفِتْنَةِ والشُّبْهَةِ، فكان حَرِيًّا أن يُؤَكَّدَ أمرُها، ويُعادَ ذِكرُها مَرّةً بعدَ أخْرى[2]؛ لأنّ مَوْضوعَ القِبْلَةِ له شَأْنٌ عَظيمٌ، فلذا اقْتَضى مَزيدًا مِنَ التّأكيدِ والاهتِمامِ، والتّكْرارُ من مُفيداتِ التّأكيدِ وبَيانِ الاهتِمامِ.

التّكرار يكونُ لبناءِ معانٍ عدّة، وتأكيدها بألفاظٍ متطابقة

وثَمّةَ سَببٌ بيانيٌّ آخَرُ، فهو أرادَ بيانَ عِلّةِ التَّغييرِ، فبَعْدَ أن أنْجَزَ النَّسْخَ، والتَّكليفَ بالقِبْلَةِ الجَديدةِ، كَرّرَ النّصَّ ليُبيِّنَ العِلّةَ من ذلكَ كُلِّه، وأُعيدَ لَفظُ الجُملَةِ السّالِفةِ، ليُبْنى عليهِ التَّعليلُ، بقولِه: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ﴾[3].

تَكَرَّرَ الأمْرُ باسْتقبالِ النّبيّ ﷺ الكَعبةَ ثَلاثَ مرّاتٍ، وتَكَرّرَ الأمْرُ باسْتِقبالِ المُسلمينَ الكَعبةَ مَرّتينِ، وتَكرّرَ أنّه الحَقّ ثَلاثَ مَرّاتٍ، وتَكرّرَ تَعميمُ الجِهاتِ ثلاثَ مَرّاتٍ، والقَصدُ من ذلكَ كُلِّه الاهتِمامُ باستِقبالِ الكَعْبةِ، والتَّحذيرُ منَ التَّساهُلِ في ذلكَ؛ تَقْريرًا للحَقِّ في نُفوسِ المُسلمينَ، وزِيادَةً في الرَّدِّ على المنكرينَ، وفيهِ إظهارُ أحَقّيّةِ الكَعبةِ بذلِكَ، لأنّ الّذي يَكونُ على الحَقّ، لا يَزيدُه إنكارُ المنكرينَ إلّا تَصْميمًا، والتَّصْميمُ يَسْتَدعي إعادَةَ الكَلامِ الدّالِّ على ما صَمَّم عليه؛ لأنَّ الإعادةَ تَدُلُّ على التّحقُّقِ في معنى الكَلامِ[4].

الرَّدُّ على المنكرينَ، بحُجّةٍ دامِغةٍ وإفْصاحٍ مُبينٍ

اتَّبعَتْ الآياتُ طَريقَةَ تَنويعِ الجُمَلِ والعِباراتِ، لِتخفيفِ كَثافَةِ

ذكرُ فوائدِ تَحويلِ القِبلةِ للتَّعليلِ والإقناعِ

(1) الواحدي، التّفسير البسيط: 3/406.
(2) ابن عجيبة، البحر المديد: 1/181.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/45.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/45.

التَّكرارِ، وهذِهِ الجُمَلُ تَحْمِل مَعانيَ يَحْتاجُها النَّصُّ، فأفادَتْ زِيادَةَ البَيانِ، كما أفادَتْ دَفْعَ المَلَلِ.

وقَد ذُكِرَ في خلالِ ذَلِكَ من بَيان فوائِدِ هذا التّحويلِ، وما حَفّ بِهِ، ما يَدْفَعُ قَليلَ السّآمَةِ العارِضَةِ، لسَماعِ التّكْرارِ، فذُكِرَ قَوْلُه: ﴿وَإِنَّهُۥ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۖ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ١٤٩﴾، وذُكِرَ قَوْلُه: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ﴾[1].

التَّعليلُ في قوله: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ﴾:

ارتباطُ الأحكامِ الشَّرعيَّة بالواقعِ الاتِّصاليِّ مع الآخر

يَتَكوّنُ تركيبُ ﴿لِئَلَّا﴾ مِن ثَلاث أدَواتٍ مُتَجاوِرَةٍ: لامُ كَيْ، وأنْ المَصدَريّةُ، ولا النّافِيَةُ، والمعنى الذي تُفيدُه التّعليل، فقولُه: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ﴾، علَّةٌ لقوله: ﴿فَوَلُّوا۟﴾، أيْ: شَرَعتُ لكم ذلِكَ حَتّى لا يكون لَدى النّاسِ حُجَّةٌ عليكُم[2]، وفائدةُ التَّعليل تظهرُ في أنَّ اللّه سبحانه أرادَ بيانَ ارتباطِ الأحكامِ الشَّرعيّة بالواقعِ الاتّصاليِّ مع النَّاس في إقامةِ الحججِ، ونصبِ البيِّنات.

الاسْتِغراقُ لِشُمولِ جَميعِ الحُججِ والشُّبَهِ

التّعريفُ في قولِهِ: ﴿لِلنَّاسِ﴾ لِلاسْتِغراقِ، ويَشْمَلُ مُشْرِكي مكَّةَ وأهلَ الكِتابِ وغيرَهُم، ومِن ثَمَّ يَشمَلُ جميعَ الحُجَج والشُّبَهِ.

سِرُّ إطلاقِ لفظِ الحجَّةِ على الشبهةِ:

التَّهكُّمُ بمن يتقوَّى بالأباطيلِ والأراجيفِ

الحُجّة لا تُطْلَق حَقيقَةً، إلّا على البُرهانِ والدّليلِ النّاهِضِ المُبَكّتِ للمُخالِفِ، وأمّا إطلاقُها عَلى الشُّبْهة فمَجازٌ، ومِنْهُ قَوْلُه تعالى: ﴿حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [الشّورى: 16][3]، وتَسْمِيَةُ هَذِهِ الكَلِمَةِ الشّنْعاءِ حُجّةً، مَعَ أنّها أفحَشُ الأباطيلِ، لأنّ أهلَ الكتاب ومن تابعهم كانوا يَسوقُونها مَساقَ الحججِ، ويُورِدونَها مَوقِعَها، فسُمِّيَتْ حُجَّةً مَجازًا؛ تَهكُّمًا بِهم[4].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/45.
(2) أبو القاسم النيسابوري، إيجاز البيان عن معاني القرآن: 1/128.
(3) النّسفي، مدارك التنزيل: 1/142، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/46-47.
(4) البروسوي، روح البيان: 1/254-255.

تردُّدُ الاستِثناءِ بينَ الاتِّصالِ والانْقِطاعِ:

الاسْتِثناءُ في قوله تعالى: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ﴾ يحتملُ أن يكون متَّصلًا، وأن يكون منقطعًا[1].

الجمعُ بين المعنى التَّهكُميِّ في المتَّصلِ، وتأكيدِ محاججةِ الظَّالمين في المنقطعِ

فمعناه على الاتِّصال: أنّ الّذين ظَلَموا لَهُمْ حُجَّةٌ، ولَكِنّ الحُجَّةَ هُنا لَيْسَت عَلى الحَقيقَةِ، فأطْلَقَ عَليها حُجَّةً، لِأَنّهُم يَسوقونَها مَساقَ البُرهانِ، أيْ: فاسْتِثناءُ الّذينَ ظَلموا يَقْتَضي أنّهُمْ يَأتونَ بِحُجَّةٍ، أيْ بِما يُشْبِهُ الحُجَّةَ، فحَرْفُ ﴿إِلَّا﴾ يَقْتَضي تَقْديرَ لَفْظِ حُجَّةٍ مُسْتَعمَلًا في مَعْناه المَجازِيِّ[2].

وأمّا معناه على الانقطاع: فإنَّ (إلاّ) في الاسْتِثناءِ المُنْقَطِع لَها مَعْنَيانِ: أحَدُهُما: أنْ يَكونَ الّذي بَعْدَها مُسْتَأْنَفًا، فـ (إلّا) بِمَنْزِلَةِ (لَكِنْ)، والذي بَعْدَ (لَكِنْ) مُسْتَأْنَفٌ؛ كَقَوْلِه ﷻ: ﴿وَأَن تَجْمَعُواْ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ [النّساء: 23]، مَعْناهُ: لَكِنْ ما قَدْ سَلَفَ فأنْتُم غَيرُ مُؤاخَذينَ بِهِ.

والآخر: أنْ يَكُونَ مُؤكّدًا لما قَبْلَهُ، وذلِكَ أنّ الرّجُل إذا قال: ارْتَحَلَ النّاسُ إلّا الأثْقالَ، أكّدَ ارْتِحالَ النّاسِ بِقَوْلِه: (إلّا الأثْقالَ)، فإنَّهُ إذا لَمْ يَبْقَ إلّا الأثْقالُ، كانَ القَومُ كلُّهُم مُرْتَحلينَ، وكان تَأويلُهُ: ارْتَحَلَ النّاسُ كلُّهُم، فهذان المَعْنَيانِ تَحْتَمِلُهما الآية؛ لأنّ الظّالمين، وإن لَمْ يَكُنْ لَهُم حُجَّةٌ، فهُمْ يُمَوّهُون ويَحْتَجُّون بالباطِلِ، وأيضًا: فإنَّهُ إذا لم يَكُنْ لِأَحَدٍ عَلَيْهِمْ حُجَّةٌ إلّا مَنْ كانَ ظالِمًا، كان في هذا تَأكيدٌ لنَفْيِ الحُجّةِ[3]، فيَكونُ مَعناهُ: ولَكِنّ الّذينَ ظَلموا يُحاجّونَكُمْ بِالباطِلِ والشُّبْهَةِ، كَقَول النّابِغَةِ:

وَلا عَيْبَ فِيهِمْ غَيْرَ أَنَّ سُيُوفَهُمْ *** بِهِنَّ فُلُولٌ من قِراعِ الكَتائِبِ

أيْ: إنْ كان فيهم عَيبٌ فهذا، ولَيْس هذا بِعَيْبٍ، فإذًا لا عَيْبَ فيهِم، وإن كانَ على المُؤمِنينَ حُجَّةٌ فلِلظّالِمِ، ولا حجّة لَهُ، فلَيْس إذًا عَليهِمْ حُجّةٌ[4].

(1) ابن جزَيّ، التّسهيل لعلوم التّنزيل: 1/101.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/47.
(3) الواحدي، التّفسير البسيط: 3/410-411.
(4) أبو القاسم النيسابوري، إيجاز البيان عن معاني القرآن: 1/128، وكذلك حاشية الشّهاب على البيضاويّ: 2/257.

وقد ذَكَرَ الأَخْفَشُ والفَرّاءُ وأبو عُبَيْدَةَ مَعمَرُ بنُ المثَنَّى، أنّ (إلّا) تَأتي عاطِفَةً، بِمَنْزِلَةِ الواوِ في التَّشْريكِ بين اللّفْظِ والمعْنى، وعَليهِ اعْتَبروا ﴿إِلَّا﴾ في هَذِهِ الآيَةِ، وفي قوله تعالى: ﴿يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفۡ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلۡمُرۡسَلُونَ ۝١٠ إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسۡنَۢا بَعۡدَ سُوٓءٖ فَإِنِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ ۝١١﴾ [النمل: 10-11]، وتَأوَّلَها الجُمهورُ عَلى الاسْتِثناءِ المُنْقَطِعِ، واسْتَشهَدوا بقَوْلِ الفَرَزْدَقِ:

ما بِالمَدِينَةِ دارٌ غَيْرُ واحِدَةٍ *** دارُ الخَليفَةِ إلّا دارُ مَرْوانا[1]

بلاغةُ التَّوسُّطِ بين الكمالين في قَولِهِ: ﴿فَلَا تَخۡشَوۡهُمۡ وَٱخۡشَوۡنِي﴾:

قولُه تعالى: ﴿فَلَا تَخۡشَوۡهُمۡ وَٱخۡشَوۡنِي﴾ عطفٌ بين إنشاءٍ طلبيٍّ صورتُه النَّهي، وإنشاءٍ طلبيٍّ صورته الأمر، وهذا من التَّوسُّطِ بين الكمالين، أي: كمال الاتِّصالِ وكمالِ الانقطاعِ، فقَوْلُه: ﴿فَلَا تَخۡشَوۡهُمۡ﴾، أي: فلا تَخافوا مَطاعِنَهُمْ في قِبْلَتِكُمْ؛ فإنَّهُمْ لا يَضُرُّونَكُمْ ﴿وَٱخۡشَوۡنِي﴾، فلا تُخالِفُوا أمْري[2].

التَّخليةُ مقدَّمةٌ على التَّحليةِ، فمن أراد خشيةَ الله، فعليه بنبذِ ما سواه

جمع النَّظمُ بين النَّهي ﴿فَلَا تَخۡشَوۡهُمۡ﴾ والأمرِ ﴿وَٱخۡشَوۡنِي﴾ وقدَّمَ النَّهيَ على الأمر؛ لمقام التَّخلية قبل التّحلية، فلا تكتمل الخشيةُ من اللّه ما لم يتخلَّصِ القلبُ من خشيةِ غيرِه.

بلاغةُ قولِه تَعالى: ﴿وَلِأُتِمَّ نِعۡمَتِي﴾:

قولُه تعالى: ﴿وَلِأُتِمَّ نِعۡمَتِي﴾ معطوفٌ على قَولِه: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيۡكُمۡ حُجَّةٌ﴾، وهو تَعْليلٌ ثانٍ لِقَولِه: ﴿وَحَيۡثُ مَا كُنتُمۡ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ شَطۡرَهُۥ﴾، فالمَعنى: أمَرْتُكُم بذَلِكَ لِأُتمّ نِعْمتي عَليْكُمْ باسْتِيفاءِ أسْبابِ ذلِك الإتْمامِ، ومِنْها أنْ تَكونَ قِبْلَتُكُم إلى أفْضَلِ بَيْتٍ بُنِيَ للّه تعالى[3].

وجهُ النِّعْمَةِ في تَحْويلِ القِبْلَةِ

ووَجهُ النِّعمَةِ في ذَلك التّحويلِ؛ أنّهُ تَضَمّنَ إجابةَ النّبيِّ ﷺ، إذْ

(1) الدّرّة، تفسير القرآن الكريم: 1/350.
(2) النّسفي، مدارك التنزيل: 1/143.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/47.

كانَ يُقلِّب وجهَهُ في السّماء، ولِما فيه من تشْريفِ البيتِ الحَرام، وإحْياءِ مِلّة إبْراهيمَ عليه السلام، وتَأليفِ العَرب، ولأنَّ ذلك إيذانٌ بفتح مكّة، وإزالَةِ الأوثانِ، وإقامَةِ دعائمِ الإسلامِ، وتِلكَ كُبْرى النِّعَم[1].

معنى الوَصْلِ في قَولِهِ تَعالى: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾:

الاهتداءُ مطلبٌ عزيزٌ وقائمٌ بنفسِه في تحويلِ القبلةِ

العَطفُ هنا يُفيدُ أنّ رجاءَ الهدايةِ لَكُم، هُوَ من غاياتِ تَحْويلِ القِبْلَةِ، فهِيَ عَطفٌ على قَوْلِه: ﴿وَلِأُتِمَّ﴾، أيْ: أمَرْتُكُم بِذلِكَ رَجاءَ امْتِثالِكُم، فيَحصُلُ الاهتِداءُ مِنْكُم إلى الحَقِّ[2]، فالاهتداءُ مطلبٌ مستقلٌ قائمٌ بذاته من مطالب تحويل القبلةِ؛ فإنَّ التَّحوّلَ يحتاجُ إلى ثباتِ المؤمنين على ما هم عليه من الإيمانِ والاستجابةِ لكلِّ ما أمر به الشَّرعُ.

معنى الرَّجاءِ في قَولِهِ تعالَى: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾:

لا يُوصَف الله تعالى إلّا بما يَليق بِجَلالِهِ وكَمالِهِ

لا يَصِحُّ إجْراءُ مَعْنى بَعْضِ الألفاظِ على اللّه تَعالى، ومِنْها الألفاظُ الّتي تَدُلّ على التَّوَقُّعِ والرَّجاءِ والطَّمَعِ، فـ(لَعلّ) في قوله: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾، مَجازٌ في لازِمِ مَعْنى الرَّجاءِ، وهُوَ قُرْبُ ذلك وتَوَقُّعُه، ومَعْنى جَعْلِ ذَلِك القُرْبِ عِلّةً، أنَّ اسْتِقبالَهُمُ الكعْبةَ مُؤذِنٌ بأنّهُم يَكُونُون مُهْتَدين في سائِرِ أمُورِهِم[3]، فالرّجاءُ مِنَ النّاسِ لا مِنَ اللّه، فتَعالى اللّهُ عَنْ ذَلِكَ عُلُوًّا كَبيرًا[4]، أوْ أنْ يُقال: إنَّ (لَعَلّ، وعَسى) مِنَ اللّهِ واجِبَةٌ[5].

الإيجازُ البَليغُ لِعِلَلِ تَحْويلِ القِبْلَةِ:

الإيجازُ والبَيانُ، لِقَضِيَّةِ تَحْويلِ القِبلةِ ذاتِ الأهَمّيَّةِ الكُبرى

لقد أوْجَزَ القُرآنُ في آيَةٍ واحِدَةٍ، عِلَلَ تَحْويلِ القِبلَةِ، بِثلاثة اعْتِباراتٍ؛ ما يَتَعَلّق بعَلائِقِنا بالنّاسِ، وما يَخُصّ إنْعامَ اللّهِ وعَطاءَهُ المُغْدِقَ، وما يَرْتَبِطُ بالأمَّةِ مِنَ المؤمنينَ على اخْتِلافِ أنْواعِهِم، فكان تَحْويلُ القِبلَةِ، يَتَعلّقُ بِهذِهِ الاعْتِباراتِ، وذَكَرَتِ الآيَةُ عِلّةً لِكُلّ

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 1/461.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/47.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/47- 48.
(4) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 1/461.
(5) القنوجي، فتح البيان: 1/314.

اعْتِبارٍ، وبالمُجْمَل تُبَيِّنُ الآيَةُ أنّ هناكَ ثَلاثَ غاياتٍ، وكُلّ واحِدَةٍ تَتَعلّقُ بِجِهَةٍ: فقوله: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ﴾ تَتَعَلّقُ بالنّاسِ، وقَوْلُهُ: ﴿وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ﴾ تَتَعلّق باللّه، وقَوْلُه: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ تَتَعلق بالمُؤمِنينَ، وهذا غايَةُ الإيجازِ والبَيانِ، حَيْثُ أَوجَزَ في ثلاثِ عِباراتٍ الغاياتِ المُرادَةَ من قَضِيَّةٍ كَبيرَةٍ وخَطيرةٍ، وهي تحويلُ القِبْلَةِ.

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الخَوف والخَشْيَة:

الخَشْيَةُ خَوْفٌ مَخْصُوصٌ، يَقْتَرِنُ دائمًا مع التَّعْظيمِ

الخَوْفُ يَتَعَلَّق بالمَكرُوهِ وبتْركِ المَكْرُوهِ؛ تَقولُ: خِفْتُ زَيْدًا، كَما قالَ تَعالى: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾ [النحل: 50]، وتَقولُ: خِفْتُ المَرَضَ، كَما قالَ سُبْحانَهُ: ﴿وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ۝٢١﴾ [الرعد: 21].

والخَشْيَةُ تَتَعَلَّق بِمَنْزِلة المَخوفِ مِنْهُ، ولا يُسَمَّى الخَوْفُ من نَفْسِ المَكْرُوهِ خَشيَةً، ولِهَذا قالَ: ﴿وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ۝٢١﴾ [الرعد: 21]، فإنْ قيل: أَلَيْسَ قد قالَ: ﴿إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ۝٩٤﴾ [طه: 94]، قُلْنا: إنَّه خَشِيَ القَوْلَ المُؤَدِّيَ إلَى الفُرْقَةِ، والمُؤدّي إلَى الشَّيْءِ بِمَنْزِلَةِ من يَفْعَلُهُ[1].

الخَوْفُ: تَوقُّعُ مَكرُوهٍ عَن أمارَةٍ مَظنُونَةٍ، أو مَعلُومَةٍ، كما أنَّ الرَّجاءَ والطّمعَ تَوَقُّعُ مَحْبُوبٍ عنْ أمارَةٍ مَظنُونَةٍ، أو مَعْلُومَةٍ، ويُضادُّ الخوفَ الأمْنُ، ويُسْتَعْمَلُ ذلِكَ في الأمُورِ الدُّنْيَوِيَّةِ والأخْرَوِيَّةِ[2].

والخَشْيَة: خوفٌ يشُوبُه تَعْظيمٌ، وأكثرُ ما يَكونُ ذَلكَ عَنْ عِلْمٍ بما يُخْشى مِنْهُ، ولذَلِكَ خُصّ العُلماءُ بها، في قوله: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: 28][3]، فهِيَ خَوْفٌ مَخْصُوصٌ، يَلْزَمُهُ التّعْظيمُ، فلِذا جاءَ في الآية مَنْهِيًّا عَنْهُ معَ المُعاندينَ، ومَأمُورًا به معَ اللّه تعالى، فهُو الحَقيقُ بأنْ يُخْشى، ففي الآيَةِ تَعَلَّقَتِ الخَشْيَةُ بالمَنْزِلَةِ، فجاءَتْ عَلى الأَصْلِ.

(1) العسكري، الفروق اللّغوية، ص: 241.
(2) الراغب، المفردات: (خوف).
(3) الراغب، المفردات: (خشي).

﴿كَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِيكُمۡ رَسُولٗا مِّنكُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمۡ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمۡ تَكُونُواْ تَعۡلَمُونَ ١٥١﴾ [البقرة: 151]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

فَضْلُ اللهِ في نِعْمَتَي القِبلةِ والقُدْوَةِ

لمّا مَيّزَ اللّهُ المُسْلِمينَ في الآياتِ السّابِقَةِ، بِتَوْجيهِهِمْ إلى القِبْلَةِ الّتي كانَ يَتَطَلَّعُ إليها النّبيُّ ﷺ، وجَعَلَهُمْ عَلى الحَقِّ، وبَيَّنَ أنّ ذَلِكَ من تَمامِ النِّعْمَةِ عَلَيْهِم، جاءَتْ هَذِهِ الآيَةُ لتَذْكيرِهِمْ بِنِعْمَةٍ أُخْرى، وهِيَ نِعْمَةُ إرْسالِ رَسولٍ مِنْهُم بِصِفاتٍ تَزيدُ النِّعْمَةَ امْتِنانًا، فهُوَ مِنْهُم ويَتَكلّمُ بِلسانِهِم[1].

شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

الرّسولُ مَبْعوثُ العِنايَةِ للهِدايَةِ

1) ﴿أَرۡسَلۡنَا﴾: مِنَ الجذْرِ (رسل)، وأَرْسَلْتُ الطّائِرَ من يَدي: أطْلَقْتُهُ[2]، وأَصْلُ المادّة يَدُلُّ عَلَى الانْبِعاثِ والامْتِدادِ[3]، وأَرْسَلْتُ رَسُولًا: بَعَثْتُهُ بِرِسالةٍ يُؤدّيها، فهُوَ فعُول بِمَعْنى مَفْعولٍ[4]، فالرّسولُ يَنْطَلِقُ من طَرَفِ منْ أرسَلَه بِرِسالَةٍ مُتَمَيّزةٍ عنْهُ، أي ليسَ هُوَ مُنشِئَها، قال تعالى: ﴿مُّحَمَّدٞ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ﴾ [الفتح: 29][5].

تِلاوَةُ القُرْآنِ إغمارٌ لِلوِجْدانِ

2) ﴿يَتۡلُواْ﴾: مِنَ الجذْرِ (تلو)، وهو أَصْلٌ[6] يَدُلُّ على الاتِّباع؛ يُقالُ: تَلَوْتُهُ: إذا تَبِعْتَهُ، ومِنْهُ تِلاوَةُ القُرْآنِ؛ لِأَنَّ التالي يُتْبِعُ آيَةً بَعْدَ آيَةٍ، وهو: اتِّباعُ الشّيْءِ ما يَسْبِقُهُ لُحوقًا به من خَلْفِهِ:

(1) البروسوي، روح البيان: 1/255، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 1/462.
(2) الفيومي، المصباح المنير: (رسل).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (رسل).
(4) الفيّومي، المصباح المنير: (رسل).
(5) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (رسل).
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة، جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (تلو).

كالأعْجازِ، وكَوَلَدِ الحِمارِ والنّاقَةِ يَتْبَعان أُمّيْهِما، ومِنهُ: فُلانٌ يَتْلو فُلانًا: يَحْكيهِ ويَتْبَعُ فِعْلَهُ: ﴿وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ۝٢﴾ [الشّمس: 2]: تَبِعَها، وتَتَلَّى الشَّيْءَ: تَتَبَّعَهُ، ومِنْهُ أُخِذَ الاتِّباعُ العَمَلِيّ، أي التَّنْفيذُ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾ [البقرة: 102] يَتْبَعونَه حَقّ اتِّباعِهِ ويَأْخُذونَ بِهِ عَمَلًا.

والمعنى في الآية: يقرأُ عليكم.

الآيَةُ هِيَ الحُجَّةُ والبُرهانُ، عَلى صِدْقِ القُرآنِ

3) ﴿ءَايَٰتِنَا﴾: جمع آيَةٍ: مِنَ الجذْرِ (أيي)، وإيجازُهُ: تَأَيّا الشّيْءَ: تَعَمَّد آيَتَهُ، أَيْ شَخْصَهُ، وآيَةُ الرَّجُلِ: شَخْصُهُ[1]، وأصلُه: بَقاءُ الشّيْءِ في مَكانِهِ شاخِصًا، عَلامَةً لِشَيْءٍ[2]، ومِنها: الآيَةُ مِنَ القُرآنِ الكَريمِ: الجَماعَةُ من كَلِماتِ القُرآنِ.﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا﴾ [البقرة: 106]، ومِنْها بِمَعْنى عَلامَةٍ إعْجازِيَّةٍ، أو عَلامَةٍ دالَّةٍ على وُجودِ الخالِقِ وصُنْعِهِ، وبِمَعْنَى العِبْرَةِ، وهيَ في سِياقِ الآيةِ بِمَعْنى: الحُجّةِ والدّليلِ والبُرْهانِ.

التّزْكِيَةُ تَطْهيرٌ وبَرَكَةٌ ونَماءٌ

4) ﴿وَيُزَكِّيكُمْ﴾: مِنَ الجذْرِ (زكو)، وهو أَصْلٌ[3] يَدُلُّ عَلَى نَماءٍ وزِيادَةٍ، أي زِيادَةِ الشّيءِ في ذاتِهِ مَعَ جَوْدَةِ نَوْعِهِ، كالأَرْضِ الزَّكِيَّةِ تُنَمّي الزَّرْعَ مَع كَوْنِهِ جَيِّدًا بَينَ جِنسِهِ، وكذلِكَ زَكاءُ الزَّرْعِ نُمُوُّهُ مَع رَيْعِهِ، فرَيْعُهُ أن يَفوقَ مِثْلَهُ، أو يَكونَ عَلى خَيْرِ حالِ مِثْلِهِ، وكلُّ لَفظِ (زَكاة) في القُرآنِ، فبمعنى زكاةِ المالِ: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [البقرة: 43]، والتّزكية: التَّطهيرُ والبَرَكَةُ والتّنْمِيَةُ في وُجوهِ الخَيْرِ والبِرِّ، ومِنْهُ تَطْهيرُ النَّفْسِ، قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩﴾ [الشّمس: 9].

والمعنى في الآية: ويطهركم بما يأمركم به من الفضائل والمعروف، وما ينهاكم عنه من الرذائل والمنكر.

(1) ابن منظور، لسان العرب: (أيي).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (أيي).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (زكى)، جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (زكو).

5) ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ﴾: مِنَ الجذْرِ (علم)، وهو أَصْلٌ يَدُلُّ عَلى: أَثَرٍ بالشَّيْءِ، يَتَمَيَّزُ بِهِ عَنْ غَيْرِهِ[1]، والدَّلالَةُ: الهِدايَةُ بمُرْتَفَعٍ كالعَلَمِ في الصَّحْراءِ[2]، وعَمَّموا اللَّفْظَ في كُلِّ ما يَدُلّ عَلى شَيْءٍ، ومن دَلالَةِ الأَصْلِ: أُخِذَ مَعْنى العِلْمِ[3]، وهُوَ: "الاعْتِقادُ الجازِمُ الثّابِتُ المُطابِقُ للواقِعِ، أَوْ هُوَ صِفَةٌ توجِبُ تَمْييزًا لا يَحْتَمِلُ النَّقيضَ"[4].

العِلْمُ صِفَةٌ توجِبُ تَمْييزًا لا يَحْتَمِلُ النَّقيضَ

6) ﴿وَٱلْحِكْمَةَ﴾: مِنَ الجذْرِ (حكم)، وهو أَصْل[5] يَدلُّ على المَنْعِ، وهو ضَبْطٌ يَمْنَعُ التَّسَيُّبَ، ويُمَكِّنُ من جَعْلِ الشَّيْءِ عَلى ما يَنْبَغي ويُرادُ، والحُكْمُ هُوَ المَنْعُ مِنَ الظُّلْمِ، وتَقولُ: حَكَّمْتُ فُلانًا تَحْكيمًا: مَنَعْتُهُ عَمّا يُريدُ، والعَرَبُ تَقولُ: حَكَمْتُ، بمَعْنى مَنَعْتُ ورَدَدْتُ، ومن هَذا قيلَ للحاكِمِ بَيْنَ النّاسِ حاكِمٌ، لأَنَّهُ يَمْنَعُ الظّالِمَ مِنَ الظُّلْمِ[6]، والحِكْمَةُ هَذا قِياسُها؛ لأَنَّها تَمْنَعُ مِنَ الجَهْلِ.

الحِكْمَةُ ضالَّةُ المُؤْمِنِ، أَنّى وَجَدَها فهُوَ أَحَقُّ بها

والحِكْمَةُ: هِيَ السَّنَنُ والفقهُ في الدِّين، ومَعْرِفَةُ أَفْضَلِ الأَشْياءِ بأَفْضَلِ العُلومِ، مَعْرِفَةً جامِعَةً مُتْقَنَةً[7].

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

تُبَيِّنُ هَذِهِ الآيَةُ نِعْمَةَ اللهِ عَلى عِبادِهِ بإِرْسالِ رَسولٍ مِنْهُمْ: وهُوَ مُحَمَّدٌ ﷺ، فكما أنعمنا عليكم باستقبال الكعبة أرسلنا فيكم رسولًا منكم، يَتْلو عَلَيْكُمْ الآياتِ الَّتي تُرْشِدُ إِلى الحَقِّ، وتَهْدي إِلى سَبيلِ

رِسالَةُ الإِسْلامِ سُمُوٌّ بالنُّورِ، وتَطْهيرٌ مِنْ رِجْسِ الجاهِلِيَّةِ

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (علم).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (علم).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (علم).
(4) الزبيدي، تاج العروس من جواهر القاموس: (علم).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة، جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (حكم).
(6) ابن منظور، لسان العرب: (حكم).
(7) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (حكم).

الرّشادِ، ويُطَهّرُكُمْ من رِجْسِ الوَثَنِيَّةِ، ويُعَلِّمُكُمْ ما تَسْمو بِهِ نُفوسُكُمْ وتَزْكو، ويُطَهِّرُكُمْ من عاداتِ الجاهِلِيَّةِ القَبيحَةِ، مِثْلِ وأْدِ البَناتِ، وقَتْلِ الأَوْلادِ تَخَلُّصًا من النَّفَقَةِ، وسَفْكِ الدِّماءِ لأَوْهَنِ الأَسْبابِ، ويُعَلِّمُكُمُ القُرْآنَ الكَريمَ، ويُبَيِّنُ لكُمُ الأَحْكامَ الشَّرْعِيَّةَ، والأَسْرارَ التَّشْريعِيَّةَ الَّتي من أَجْلِها كانَ القُرْآنُ هُدًى ونُورًا، ويُعَلِّمُكُمُ الحِكْمَةَ، وأَسْرارَ الأَحْكامِ وغاياتِها، ويُعَلِّمُكُمْ ما لَمْ تَكونوا تَعْلَمونَ من أَخْبارِ المُغَيَّباتِ، وسِيَرِ الأَنْبِياءِ، وقِصَصِ الأَقْوامِ الغابِرَةِ، وأَحْوالِ الأُمَمِ البائِدَةِ، أَوِ الَّتي كانَتْ مَجْهولَةً عِنْدَ العَرَبِ[1].

الإيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

بلاغةُ التَّشْبيهِ في قولِه: ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَا﴾:

نعْمَةُ التَّوجُّهِ إلى القِبْلَةِ؛ كنعْمَةِ إرسالِ الرَّسولِ

تعلَّقتِ الكافُ في قَوْلِهِ: ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ﴾ بقَوْلِهِ تَعالى: ﴿وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي﴾، فيَكونُ المَعْنى: ولأُتِمَّ نِعْمَتي عَلَيْكُم، كإرْسالي إلَيْكُمْ رَسولًا، أَيْ: أُتِمُّ هَذِهِ كما أَتْمَمْتُ تِلْكَ[2]؛ فشَبَّهَ نِعْمَةَ تَوْجيهِ القِبْلَةِ إلى المَسْجِدِ الحَرامِ بنِعْمَةِ إرْسالِ النَّبِيِّ ﷺ، أَوْ: شَبَّهَ عِلَّةَ تَمامِ النِّعْمَةِ بعِلَّةِ الهِدايَةِ؛ فعِلَّةُ تَحْويلِ القِبْلَةِ إتْمامُ النِّعْمَةِ، وعِلَّةُ إرْسالِ الرَّسولِ ﷺ رَجاءُ الهِدايَةِ، فالمُشَبَّهُ هُوَ نِعْمَةُ تَحْويلِ القِبْلَةِ، والمُشَبَّهُ بِهِ هُوَ الإرْسالُ رَجاءً لِلْهِدايَةِ، ووَجْهُ الشَّبَهِ الامْتِنانُ بالنِّعْمَةِ، أَيْ ذَلِكَ من نِعْمَتي عَلَيْكُمْ كنِعْمَةِ إرْسالِ مُحَمَّدٍ ﷺ، وجَعَلَ الإرْسالَ مُشَبَّهًا بِهِ، لأَنَّهُ أَسْبَقُ وأَظْهَرُ، تَحْقيقًا لِلْمُشَبَّهِ[3]، وفائِدَةُ هَذا التَّشْبيهِ الدَّلالَةُ عَلى أَنَّ النِّعْمَةَ في القِبْلَةِ، كالنِّعْمَةِ في الرِّسالَةِ، وهُوَ تَشْبيهٌ يَدُلُّ عَلى عِظَمِ شَأْنِ تَحْويلِ القِبْلَةِ إلى الكَعْبَةِ[4].

سرُّ استعمالِ صيغةِ الإفرادِ والجمعِ في التَّعبيرِ عن المتكلِّمِ:

اختيارُ الصيغةِ بناءً على المعنى المتحدَّثِ عنه

جاءَ التَّعبيرُ عن المتكلِّمِ في قولِه تعالى: ﴿وَٱخْشَوْنِي﴾، وقولِه: ﴿وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي﴾ بصيغةِ المُفْرَدِ، ثُمَّ جاءَ في هَذِهِ الآيَةِ ﴿أَرْسَلْنَا﴾ بصيغةِ

(1) وهبة الزحيلي، التّفسير المنير: 2/34.
(2) الواحدي، البسيط: 3/416-417.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/48.
(4) وهبة الزحيلي، التّفسير المنير: 2/36.

التَّعْظيم، والتَّعْبيرُ بصيغَةِ التَّكَلُّم الدّالَّة عَلى العَظَمَة، بَعْدَ التَّعْبيرِ بصيغَةِ المفردِ يَسْتَدْعي العَظَمَةَ والوَقارَ؛ وهُوَ يُناسِبُ المَقامَ، حَيْثُ إنَّ إرْسالَ الرِّسالَةِ شَأْنٌ عَظيمٌ، يَسْتَدْعي أَنْ يَكونَ التَّكَلُّمُ مُتَضَمِّنًا أَساليبَ التَّعْظيم، ومِنْها التَّكَلُّمُ بصيغَةِ الجَمْعِ، بخلافِ الأمرِ بالخشيةِ، فإنَّ الخطابَ فيها بصيغة المفردِ يدلُّ على التَّعظيم؛ لدلالةِ الأمر بالخشيةِ على ذلك.

إيثارُ التَّعْبيرِ بلَفْظِ ﴿فِيكُمْ﴾ دونَ لَفْظِ (إِلَيْكُمْ):

التَّنبيه إلى إنَّ دعـوةَ الـرَّسـولِ مستمرَّةٌ إلى يومِ الدِّينِ

قال تعالى: ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ﴾ ولم يقل: (إليكم) مع أنَّه مقتضى الظَّاهر؛ وذلك لأَنَّ الرّسولَ مِنْهُم، ومن بَلَدِهِم، وليُؤَكِّدَ ما نَصَّ عَلَيْهِ بَعْدَ ذَلِكَ أَنَّهُ مِنْهُم، لمَزيدِ الامْتِنانِ، ولَوْ قالَ: (إِلَيْكُمْ)، لأَشْعَرَ بالبُعْدِ، والتَّعْبيرُ بـ (إلى) يُناسِبُ مَنْ أُرْسِلَ مِنَ الخارِجِ، فهُوَ يَدُلُّ عَلى أَنَّ الرِّسالَةَ بُلِّغَتْ للنَّبِيِّ ﷺ وهُوَ بَيْنَهُم، ولَوْ كانَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ من غَيْرِ بِلادِهِم، أو من بلادِهم وهو ليس فيهم؛ لاسْتَعْمَلَ (إلى)؛ فالتَّعْبيرُ بـ (في) يُناسِبُ مَقامَ الامْتِنانِ.

فالخِطابُ في قَوْلِهِ: ﴿فِيكُمْ﴾ وما بَعْدَهُ للمُؤْمِنينَ مِنَ المُهاجِرينَ والأَنْصارِ، تَذْكيرًا لَهُمْ بنِعْمَةِ اللهِ عَلَيْهِم، بأَنْ بَعَثَ إِلَيْهِمْ رَسولًا بَيْنَ ظَهْرانيهِم، ومن قَوْمِهِم، لأَنَّ ذَلِكَ أَقْوى تَيْسيرًا لهِدايَتِهِم، وهَذا عَلى نَحْوِ دَعْوَةِ إِبْراهيمَ، حَيْثُ يَقولُ: ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ [البقرة: 129] وقَدْ امْتَنَّ اللهُ عَلى عُمومِ المُؤْمِنينَ مِنَ العَرَبِ وغَيْرِهِم، بقَوْلِهِ: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [آل عمران: 164]، أَيْ: جِنْسِهِمُ الإِنْسانيِّ؛ لأَنَّ ذَلِكَ آنَسُ لَهُم، مِمّا لَوْ كانَ رَسولُهُمْ مِنَ المَلائِكَةِ[1].

وفيه تنبيهٌ على أنَّ هذا الرَّسولَ فيهم، وسيبقى فيهم، في دعوته وهدايته ورسالته وقيمه وأخلاقه، ففي استعمال حرفِ الظَّرفيّة إيماءٌ للغيبِ، وأنَّ إرسالَه سيستمر إلى يوم الدِّين، وقَدْ يُسْتَعْمَلُ (إلى) في سِياق غَيْرِ سِياقِ الامْتِنانِ، جَرْيًا عَلى الحَقيقَةِ، أَوْ في سِياقِ الاحْتِجاجِ؛ ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾﴾ [المزمّل: 15].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/48.

إيثارُ التَّنْكيرِ في التَّعْبيرِ عَنْ صاحِبِ الرِّسالَةِ في قَوْلِهِ: ﴿رَسُولًا﴾:

التَّعْبيرُ بالفِعْلِ يُؤَهِّلُ الصِّفاتِ لِكَيْ تَمْتازَ بالاِسْتِمْرارِيَّةِ

اسْتَعْمَلَ النَّكِرَةَ في التَّعْبيرِ عَنِ الرَّسولِ، فلَمْ يَقُل (الرّسولَ)؛ للتَّعْظيم، وهُوَ يَتَناسَبُ مَعَ المَقام، ولذا اسْتَعْمَلَ مَعَهُ التَّكَلُّمَ بصيغَةِ الجَمْعِ، فقالَ: ﴿أَرْسَلْنَا﴾ كما بَيَّنّا، والسِّياقُ يَتَكَلَّمُ عَنِ الامْتِنانِ بالنِّعَمِ العَظيمَةِ، فكان المُناسِبُ أَنْ يَأْتِيَ ذَلِكَ بأُسْلوبِ التَّعْظيم، والتَّكَلُّمُ بصيغةِ الجَمْعِ والتَّنْكيرُ من مُؤَدِّياتِ التَّعْظيم حَسَبَ السِّياقِ.

وهُناكَ فائِدَةٌ تَعْبيريَّةٌ أُخْرى، وهِيَ أَنَّهُ أَرادَ أَنْ يَصِفَهُ بصِفاتٍ، وهَذِهِ الصِّفاتُ تَمْتازُ بالاِسْتِمْرارِيَّة؛ فلذا عَبّرَ عَنْها بالفِعْلِ، والوَصْفُ بالفِعْلِ يَقْتَضي أَنْ يَكونَ المَوْصوفُ نَكِرَةً، فآثَرَ تَنْكيرَهُ لتَجْرِيَ عَلَيْهِ الصِّفاتُ الَّتي كُلُّ واحِدَةٍ مِنْها نِعْمَةٌ خاصَّةٌ[1].

أَثَرُ جِناسِ الاِشْتِقاقِ في التَّوافُقِ الصَّوْتِيِّ في الآيَة:

إِرْسالٌ مُنْتَقًى للرَّسولِ، يُؤَكِّدُ قيمَةَ ما نَقَلَهُ مِنْ نُقولٍ

ومن جَماليّاتِ الأَلْفاظِ أَنْ يَسْتَعْمِلَ في الجُمْلَةِ الواحِدَةِ أَلْفاظًا تَتَشابَهُ في حُروفِها، وهَذا التَّكْرارُ يُعْطي الشَّكْلَ اللُّغَوِيَّ للنَّصِّ تَوافُقًا صَوْتِيًّا، يُثيرُ الأُذُنَ للإِصْغاءِ، ويَسْتَجْلِبُ الاِنْتِباهَ، لما فيهِ من جَمالٍ، فالجِناسُ هُنا بَيْنَ كَلِمَتَيْ ﴿أَرْسَلْنَا﴾ و﴿وَرَسُولًا﴾، فكِلاهُما مِنَ الجِذْرِ (رسل)، وهَذا جِناسُ الاِشْتِقاقِ، وهُوَ مِنَ المُحَسِّناتِ البَديعِيَّةِ.

التَّعْبيرُ بأَفْعالِ المُضارِعِ ودَلالَةُ كُلٍّ مِنْها:

الرِّسالَةُ مُزاوَلَةٌ ومُعالَجَةٌ واسْتِمْرارِيَّةٌ

عَبَّرَ بصيغَةِ الفِعْلِ المُضارِعِ ﴿يَتْلُواْ﴾؛ لأَنَّهُ يَدُلُّ عَلى الاِسْتِمْرارِيَّةِ والدَّوام، وهَذا تَعْبيرٌ عَنِ الواقِعِ، فإِنَّ نُزولَ القُرْآنِ مُسْتَمِرٌّ، وقِراءَةُ النَّبِيِّ ﷺ لهُ مُتَوالِيَةٌ، وفي كُلِّ قِراءَةٍ يَحْصُلُ عِلْمٌ بالمُعْجِزَةِ للسّامِعين[2]، وعَبَّرَ بصيغَةِ الفِعْلِ المُضارِعِ: ﴿وَيُزَكِّيكُمْ﴾، والتَّزْكِيَةُ تَطْهيرُ النَّفْسِ، مُشْتَقَّةٌ من الزَّكاةِ، وهِيَ النَّماءُ، وذَلِكَ لأَنَّ في أَصْلِ خِلْقَةِ النُّفوسِ كَمالاتٌ وطَهاراتٌ، تَعْتَرِضُها أَرْجاسٌ ناشِئَةٌ عَنْ ضَلالٍ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/48.
(2) المصدر السّابق: 2/49.

أَوْ تَضْليلٍ، فتَهْذيبُ النُّفوسِ وتَقْويمُها، يَزيدُها من ذَلِكَ الخَيْرِ المُودَعِ فيها[1]، وهَذا لا يَقَعُ في مَرَّةٍ واحِدَةٍ، بَلْ فيهِ مُزاوَلَةٌ ومُعالَجَةٌ واسْتِمْرارِيَّةٌ، ويَتَطَلَّبُ زَمانًا؛ لذَلِكَ عَبَّرَ عَنْهُ بالفِعْلِ المُضارِعِ، وعَبَّرَ بصيغَةِ الفِعْلِ المُضارِعِ ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ﴾؛ لأَنَّ تَعْليمَ الكِتابِ لا يَنْقَضي، فهُوَ مُسْتَمِرٌّ بالنُّزولِ، فلِذا كانَ تَعْليمُهُ مُسْتَمِرًّا، وهَذا يَقْتَضي التَّعْبيرَ بالفِعْلِ المُضارِعِ.

العَلاقَةُ الدَّلاليَّةُ بَيْنَ الكِتابِ والحِكْمَةِ في الآيَةِ:

الحِكْمَةُ مَعْرِفَةٌ، يَتَمَكَّنُ بها الفَرْدُ، مِنْ وَضْعِ كُلِّ حُكْمٍ مَوْضِعَهُ

قَوْلُهُ: ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾، فالكِتابُ عِنْدَ إِطْلاقِهِ، يَنْصَرِفُ إلى القُرْآنِ الكَريمِ، ومَعْنى الحِكْمَةِ: وضْعُ الشَّيْءِ في مَوْضِعِهِ، والكِتابُ فيهِ أَحْكامٌ بَيْنَ الأَمْرِ والنَّهْيِ، وكُلُّها تَدورُ مَعَ المَصْلَحَةِ، تَبْتَغي الخَيْرَ، وتَحْفَظُ النّاسَ مِنَ الشَّرِّ[2]، والحِكْمَةُ هِيَ أَنْ تَكونَ أَفْعالُكَ عَلى ضَوْءِ ذَلِكَ، فتَطْبيقُ آياتِ القُرْآنِ بَعْدَ التَّعْليمِ، يَقْتَضي مَعْرِفَةً يَتَمَكَّنُ الفَرْدُ بمُقْتَضاها من وضْعِ كُلِّ حُكْمٍ مَوْضِعَهُ، وهَذا عَيْنُ الحِكْمَةِ.

وتَفْسيرُ الحِكْمَةِ بالسُّنَّةِ، لَيْسَ من بابِ الدَّلالَةِ اللُّغَويَّةِ، بَلْ هُوَ تَفْسيرُ اللَّفْظَةِ بمُؤَدّاها ونَتيجَتِها وتَطْبيقِها، فالسُّنَّةُ بَيَّنَتِ المَعاني وفَصَّلَتْها، فوَضَعَتْ كُلَّ شَيْءٍ في مَوْضِعِهِ، وهَذا هُوَ الحِكْمَةُ، لذَلِكَ جاءا في جُمْلَةٍ واحِدَةٍ، واشْتَرَكا بعامِلٍ واحِدٍ، وهُوَ الفِعْلُ: ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ﴾، فهَذا الفِعْلُ تَسَلَّطَ عَلى الكِتابِ والسُّنَّةِ في عِبارَةٍ واحِدَةٍ، ولَمْ يُفْصَلْ بَيْنَهُما، كما قالَ: ﴿وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ١٥١﴾، فجَعَلَهُما مَعًا في جُمْلَةٍ واحِدَةٍ؛ ليَدُلَّ عَلى العَلاقَةِ بَيْنَهُما، فالحِكْمَةُ مُتَعَلِّقَةٌ بالقُرْآنِ، وهِيَ وضْعُ ما يُعَلِّمُهُمْ مِنَ الكِتابِ مَوْضِعَهُ، بتَبْيينِهِ وتَفْصيلِهِ.

الفَهْمُ السَّديدُ لا يَتَأَتّى إِلّا للحَكيمِ الرَّشيدِ

جاءَتِ الحِكْمَةُ مُضَمَّنَةً في القُرْآنِ، في قَوْلِهِ تَعالى: ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾، فذِكْرُها من بابِ ذِكْرِ الخاصِّ بَعْدَ ذِكْرِ العامِّ،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/49.
(2) تفسير الشّعراوي: 1/645.

فخَصَّ تَعْليمَ الحِكْمَةِ من عُموم تَعْليم الكِتاب، لأَنَّ الحِكْمَةَ مَنالُ الأَمْرِ الَّذي فيهِ عُسْرٌ[1]، والعُسْرُ هُنا يَأْتي من كَثْرَةِ الأَحْكام، وتَعَدُّدِ رُتَبِها ومَنازِلِها، واخْتِلافِها في أَوْلَوِيّاتِها، وفي فضائِلِها، ومَعْرِفَةُ ذَلِكَ لا تَتَيَسَّرُ إِلّا لِمَنْ أوتِيَ الحِكْمَةَ، بَعْدَ تَعْليمِ الكِتابِ.

بلاغةُ ذِكْرِ العامِّ بَعْدَ الخاصِّ:

العِلْمُ في الإِسْلامِ يَسْتَوْعِبُ كُلَّ فُروعِ المَعْرِفَةِ ومَقاصِدِها

قَوْلُهُ تَعالى: ﴿وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ١٥١﴾، من بابِ ذِكْرِ العامِّ بَعْدَ الخاصِّ، لإِفادَةِ الشُّمولِ بما يُسَمَّى الإِطْنابَ، وتَقْديرُ ذَلِكَ: (يُعَلِّمُكُمْ أُمورًا تَعْلَمونَها بعُقولِكُم، ولا تَصِلُ إِلَيْها أَفْهامُكُمْ)، وذَلِكَ بما ذُكِرَ مُفَصَّلاً ومُجْمَلاً في القُرْآنِ، نَحْوَ قِصَصِ الأُمَمِ السّابِقَةِ، وقِصَصِ الأَنْبِياءِ وأَقْوامِهِم، وأَخْبارِ الحَوادِثِ الَّتي وقَعَتْ، والَّتي سَوْفَ تَقَعُ مُسْتَقْبَلًا، ناهيكَ عَنِ الأُمورِ المُتَعَلِّقَةِ بالتَّشْريعِ الَّتي لَمْ تَكُنْ مَوْجودَةً في الدِّيّاناتِ، ولا عِلْمَ لَهُمْ بها[2].

دَلالَةُ الأَلِفِ واللّامِ في لَفْظَيِ ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ و﴿وَٱلْحِكْمَةَ﴾:

القُرْآنُ كِتابُ الخِتامِ الَّذي لا رَيْبَ فيهِ

مِنَ المَعْلوم أَنَّ هُناكَ كُتُبًا غَيْرَ القُرْآنِ، ولَكِنَّ الكِتابَ عِنْدَ إِطْلاقِهِ، يَنْصَرِفُ إِلى القُرْآنِ الكَريمِ، وتَعْريفُهُ بالأَلِفِ واللّامِ، هُوَ والحِكْمَة، فيه إِشارَةٌ إِلى أَنَّهُما يَجْمَعانِ كُلَّ كِتابٍ وحِكْمَةٍ مِمّا يَعْلَمُهُ الأَوَّلونَ والآخِرونَ.

تَكْرارُ الفِعْلِ ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ﴾، ودَلالَةُ التَّناظُرِ بَيْنَ الجُمْلَتَيْنِ الفِعْلِيَّتَيْنِ:

البُنْيَةُ التَّناظُرِيَّةُ بَيْنَ الجُمَلِ، أَبْلَغُ مِنْ تَتَبُّعِ العَطْفِ بالمُفْرَداتِ

فائِدَةُ تَكْرارِ الفِعْلِ ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ﴾، هي تَأْكيدُ النِّعْمَةِ بالتَّعْليمِ، وللتَّنْبيهِ عَلى الامْتِنانِ بِهِ، هَذا باعْتِبارِهِ مَعْنَوِيًّا، وأَمّا باعْتِبارِهِ لَفْظِيًّا، فالتَّكْرارُ هُنا يُحَقِّقُ التَّناظُرَ من خِلالِ جُمْلَتَيْنِ فِعْلِيَّتَيْنِ: ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾، ﴿وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ١٥١﴾، وهَذا أَفْضَلُ من جُمْلَةٍ واحِدَةٍ طَويلَةٍ بالعَطْفِ المُفْرَدِ، فهَذِهِ

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 2/242.
(2) الدّرة، تفسير القرآن الكريم: 1/150-151.

البُنْيَةُ التَّناظُرِيَّةُ بَيْنَ الجُمَلِ، أَخَفُّ من تَتَبُّعِ العَطْفِ بالمُفْرَداتِ، مَعَ ما فيها من جَماليَّةٍ من خِلالِ التّناظُرِ.

الفَرْقُ بَيْنَ تِلاوَةِ الآياتِ، وتَعْليمِ الكِتابِ:

قالَ تعالَى: ﴿يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا﴾، وقالَ: ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾، والآياتُ هِيَ الكِتابُ، فلماذا عَبَّرَ بالتِّلاوَةِ مَعَ الآياتِ، وبالتَّعْليم مَعَ الكِتابِ؟ وهَلّا وحَّدَ؟ والجَوابُ: أَنَّهُ أَجْراهُ عَلى الحَقيقَةِ؛ فهُوَ لَمْ يَكُنْ يَتْلُو الكِتابَ كُلَّهُ، بَلْ كانَ يَتْلُو آياتٍ، ومَهْما كَثُرَتْ فإنَّها لَنْ تَكونَ الكِتابَ كُلَّهُ عَلى وجْهِ الحَقيقَةِ في آنٍ واحدٍ متَّصلٍ، أَمّا الكِتابُ فتعليمُه متحقِّقٌ مع تطاولِ الأوقاتِ، فيكون تعليمًا على الحقيقيةِ، إذ لا يُطلبُ العلمُ دفعةً واحدةً.

تلاوةُ الآياتِ باعتبارِها معجزةً، وتعليمُ الكتابِ باعتبارِه شريعةً

والمُغايَرَةُ وإنْ كانَتْ قَدْ جَرَتْ عَلى التَّعْبيرِ بالحَقيقَةِ، فإنَّها لا تَخْلُو من تَفَنُّنٍ؛ فلَوْ كُرِّرَ اللَّفْظُ مَرَّتَيْنِ، لكانَ في ذلك مجانَبَة للبَلاغَةِ والفَصاحَةِ، فنَوَّعَ وغَيَّرَ اللَّفْظَ لتَجَنُّبِ الوَهَنِ في التَّعْبيرِ، مَعَ كَوْنِهِ أَنْسَبَ للحَقيقَةِ كما بَيَّنّا.

وهو من بابِ الإعْجازِ والشَّريعَةِ، فالتِّلاوَةُ تَتَعَلَّقُ بالآياتِ، لأَنَّها بمَعْنى الحُجَّةِ والبُرْهانِ، فهِيَ تُتْلى لإظْهارِ الإعْجازِ، أَمّا تَعْليمُ الكِتابِ، فهُوَ باعْتِبارِ أَنَّهُ شَريعَةٌ تَحْتاجُ إلى تَعْليمٍ، قالَ ابْنُ عاشور: "﴿يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا﴾ أَيْ: يَقْرَأُ عَلَيْكُمُ القُرْآنَ، وسَمّاهُ أَوَّلًا آياتٍ، باعْتِبارِ كَوْنِ كُلِّ كَلامٍ مِنْهُ مُعْجِزَةً، وسَمّاهُ ثانِيًا كِتابًا، باعْتِبارِ كَوْنِهِ كِتابَ شَريعَةٍ"[1].

دَلالَةُ الإطْنابِ بذِكْرِ العامِّ بَعْدَ الخاصِّ:

القُرْآنُ عَلَّمَ العَرَبَ الدِّينَ باعتبارِه غايةً، والدُّنيا باعتبارِها وسيلةً

قَوْلُه: ﴿وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ١٥١﴾، معطوفٌ على ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾، من بابِ ذِكْرِ العامِّ بَعْدَ الخاصِّ، وهَذا إطْنابٌ، وذَلِكَ للتَّنْصيصِ عَلى إفادَةِ الشُّمولِ[2]، وذِكْرِ الخاصِّ:

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/49.

(2) وهبة الزحيلي، التّفسير المنير: 2/30.

﴿ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ﴾، مَعَ أَنَّهُ داخِلٌ ضِمْنَ العامِّ: ﴿مَّا لَمۡ تَكُونُواْ تَعۡلَمُونَ ١٥١﴾؛ لأَنَّهُ الأَصْلُ في الرِّسالَةِ والغايَةُ مِنْها، وهُوَ بَيانُ الشَّريعَةِ وفَضائِلِ الأُمورِ، ثُمَّ ذَكَرَ العامَّ، وهُوَ تَعْليمُهُمْ ما لَمْ يَكونوا يَعْلَمونَ، لإِفادَةِ الشُّمولِ، وقَوْلُهُ: ﴿وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمۡ تَكُونُواْ تَعۡلَمُونَ ١٥١﴾، تَعْميمٌ لكُلِّ ما كانَ غَيْرَ شَريعَةٍ ولا حِكْمَةٍ، من مَعْرِفَةِ أَحْوالِ الأُمَمِ وأَحْوالِ سِياسَةِ الدُّوَلِ، وأَحْوالِ الآخِرَةِ، وغَيْرِ ذَلِكَ[1].

توجيهُ المُتَشابِهِ اللَّفْظِيِّ بَيْنَ هَذِهِ الآيَةِ وما في سورَةِ المُزَّمِّلِ:

سياق الامتنان يأتي بحرف الظَّرفيّة، وسياق الاحتجاج بحرفِ الغاية

هُناكَ تَشابُهٌ لَفْظِيٌّ بَيْنَ قَوْلِهِ تَعالى: ﴿كَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِيكُمۡ رَسُولٗا مِّنكُمۡ﴾ [البقرة: 151]، وقَوْلِهِ تَعالى: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ رَسُولٗا شَٰهِدًا عَلَيۡكُمۡ كَمَآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ رَسُولٗا ١٥﴾ [المزمّل: 15]، حَيْثُ عَلَّقَ الفِعْلَ أَرْسَلْنا مَرَّةً بحَرْفِ الجَرِّ (في)، ومَرَّةً بالحَرْفِ (إلى)، حَيْثُ عَلَّقَ الفِعْلَ أَرْسَلْنا بحَرْفِ الجَرِّ (في) في هَذا المَوْضِعِ، لأَنَّ هَذا مَقامُ امْتِنانٍ وبَيانٍ للنِّعْمَةِ، وأَمّا في سورَةِ المُزَّمِّلِ فهُوَ مَقامُ احْتِجاجٍ، ولا يَحْتاجُ إلى بَيانِ ظَرْفِيَّةِ الرِّسالَةِ الَّتي تُبَيِّنُ النِّعْمَةَ، فناسَبَ أَنْ يَذْكُرَ ما بِهِ تَمامُ المِنَّةِ، وهِيَ أَنْ جَعَلَ رَسولَهُمْ فيهِمْ ومِنْهُم، أَيْ هُوَ مَوْجودٌ في قَوْمِهِمْ وهُوَ عَرَبِيٌّ مِثْلُهُم، والمُسلِمونَ يَوْمَئِذٍ هُمُ العَرَبُ، أَيِ الَّذينَ يَتَكَلَّمونَ باللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ، فالأُمَّةُ العَرَبِيَّةُ يَوْمَئِذٍ تَتَكَلَّمُ بلِسانٍ واحِدٍ، إِذْ نِعْمَةُ الرِّسالَةِ في الإِبْلاغِ والإِفْهامِ، فالرَّسولُ يُكَلِّمُهُمْ بلِسانِهِم، فيَفْهَمونَ جَميعَ مَقاصِدِهِ، ويُدْرِكونَ إِعْجازَ القُرْآنِ، ويَفوزونَ بمَزِيَّةِ نَقْلِ هَذا الدِّينِ إلى الأُمَمِ، وهَذِهِ المَزِيَّةُ يَنالُها كُلُّ مَنْ تَعَلَّمَ اللِّسانَ العَرَبِيَّ[2].

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

القِراءَة والتِّلاوَة:

كُلُّ تِلاوَةٍ قِراءَةٌ، ولَيْسَتْ كُلُّ قِراءَةٍ تِلاوَةً

المَعْروفُ أَنَّ التِّلاوَةَ لا تَكونُ إِلّا لكَلِمَتَيْنِ فصاعِدًا، والقِراءَةُ تَكونُ للكَلِمَةِ الواحِدَةِ، يُقالُ: قَرَأَ فُلانٌ اسْمَهُ، ولا يُقالُ: تَلا اسْمَهُ؛ وذَلِكَ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/49-50.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/48-49.

أَنَّ أَصْلَ التِّلاوَةِ اتِّباعُ الشَّيْءِ الشَّيْءَ، يُقالُ: تَلاهُ إذا تَبِعَهُ، فتَكونُ التِّلاوَةُ في الكَلِماتِ يَتْبَعُ بَعْضُها بَعْضًا، ولا تَكونُ في الكَلِمَةِ الواحِدَةِ؛ إذْ لا يَصِحُّ فيها التُّلُوُّ[1]، فإذا لَمْ تَكُنِ الكَلِمَةُ تَتْبَعُ أُخْتَها، لَمْ تُسْتَعْمَلْ فيها التِّلاوَةُ، وتُسْتَعْمَلُ فيها القِراءَةُ؛ لأَنَّ القِراءَةَ اسْمُ الجِنْسِ لهَذا الفِعْلِ[2].

والتِّلاوَةُ تَخْتَصُّ باتِّباعِ كُتُبِ اللهِ المُنَزَّلَةِ، تارَةً بالقِراءَةِ، وتارَةً بالارْتِسامِ لما فيها من أَمْرٍ ونَهْيٍ، وتَرْغيبٍ وتَرْهيبٍ، أَوْ ما يُتَوَهَّمُ فيه ذَلِكَ، وهُوَ أَخَصُّ مِنَ القِراءَةِ، فكُلُّ تِلاوَةٍ قِراءَةٌ، ولَيْسَت كُلُّ قِراءَةٍ تِلاوَةً، لا يُقالُ: تَلَوْتُ رُقْعَتَكَ، وإنَّما يُقالُ في القُرْآنِ في شَيْءٍ، إذا قَرَأْتَهُ وجَبَ عَلَيْكَ اتِّباعُهُ[3]، وفي آية سورة يونس أُريدَ مَعْنى التَّتابُعِ، وكَوْنَهُ ﷺ كان يَفْعَلُ ذَلِكَ باسْتِمْرارٍ، فناسَبَ المقامَ فِعْلُ التِّلاوةِ لا القِراءَةِ، وذَلِكَ في قَوْلِه تَعالى: ﴿قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾﴾ [يونس: 16].

(1) العسكري، الفروق اللّغويّة، ص: 64-63.
(2) العسكري، الفروق اللّغويّة، ص: 27.
(3) الراغب، المفردات: (تلو).

﴿فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِي وَلَا تَكۡفُرُونِ ١٥٢﴾ [البقرة: 152]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

حَثٌّ للمُسْلِمينَ عَلى ذِكْرِ اللهِ وشُكْرِهِ

لمّا بَيَّنَ نِعْمَةَ القِبْلَةِ، ثُمَّ أَعْقَبَهُ ببَيانِ نِعْمَتِهِ عَلَيْهِم ببِعْثَةِ النَّبِيِّ ﷺ فيهم، كان ذَلِكَ مِمّا يَقْتَضي الشُّكْرَ، فجاءَتْ هَذِهِ الآيَةُ تَحُثُّ المُسْلِمينَ عَلى ذِكْرِ اللهِ وشُكْرِهِ[1].

شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

الذِّكْرُ تَعْبيرٌ عَنْ حُضورِ اللهِ في قَلْبِ العَبْدِ

1) ﴿فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ﴾: كلاهُما مِنَ الجذْرِ (ذكر)، وذِكْرُ الشَّيْءِ بالصَّوْتِ وُجودٌ قَوِيٌّ لَهُ، يَتْبَعُهُ وُجودُهُ في الأَسْماعِ والقُلوبِ، قالَ تَعالى: ﴿سَمِعۡنَا فَتٗى يَذۡكُرُهُمۡ﴾ [الأنبياء: 60]، وجُمْهورُ ما في القُرْآنِ مِنَ الذِّكْرِ اللِّسانيِّ، ومِنْهُ ذِكْرُ اللهِ، وذِكْرُ اسْمِ اللهِ، وفِعْلُ الأَمْرِ مِنْهُ يَصْلُحُ لِذِكْرِ اللِّسانِ، وضِدِّ النِّسيانِ، ومِنْهُ الذِّكْرُ باللِّسانِ، وأَنَّهُ قُوَّةُ وُجودٍ وإِعْلانُ اسْمٍ يَتَأَتَّى، و"الذِّكْرُ: الشَّرَفُ"[2]، قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكۡرٞ لَّكَ وَلِقَوۡمِكَۖ﴾ [الزّخرف: 44]، ومِنْهُ الذِّكْرُ: الحِفْظُ للشَّيْءِ، ضِدُّ النِّسيانِ؛ لأَنَّ ذِكْرَ الشَّيْءِ يَعْني بَقاءَهُ قَوِيًّا واضِحًا في الذِّهْنِ.

وحَصيلَةُ ذَلِكَ كُلِّهِ، أَنَّ (ذكر الله)، يُعَبِّرُ عَنْ حُضورِ اللهِ في قَلْبِ العَبْدِ، فإذا كانَ العَبْدُ خالِيًا، فإِنَّهُ يَذْكُرُ رَبَّهُ في قَلْبِهِ ولِسانِهِ، وإذا كانَ يَشْهَدُ حَدَثًا، أَوْ يَفْعَلُ شَيْئًا، فإِنَّهُ يَذْكُرُ اللهَ، لَيْسَ لأَنَّهُ نَسِيَ، بَلْ لِشِدَّةِ حُضورِهِ في قَلْبِهِ، فإِنَّهُ يَذْكُرُهُ في كُلِّ فِعْلٍ، وعَلى هَذا تُساعِدُ عِبارَةُ الرّاغِبِ: "الذِّكْرُ ذِكْرانِ: ذِكْرٌ بالقَلْبِ، وذِكْرٌ باللِّسانِ، وكُلُّ واحِدٍ مِنْهُما ضَرْبانِ: ذِكْرٌ عَنْ نِسْيانٍ، وذِكْرٌ لا عَنْ نِسْيانٍ، بَلْ عَنْ إِدامَةِ الحِفْظِ"[3].

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 1/463.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ذكر).
(3) الراغب، المفردات: (ذكر).

وفي الآيَةِ – فيما يتعلَّق بالعبد – يَحْتَمِلُ كُلَّ ذَلِكَ، الذِّكْرَ، والتَّذَكُّرَ لا عَنْ نِسْيانٍ، بَلْ إِظْهارُ المَحْفوظِ في القَلْبِ (شِدَّةُ حُضورِ اللهِ في قَلْبِ المُؤْمِنِ)، وفيما يتعلَّق باللّه تعالى، فالمراد هو ثناؤه سبحانه في الملأ الأعلى على مَن ذكره.

الشُّكْرُ عِرْفانُ الإِحْسانِ لصاحِبِهِ ونَشْرُهُ وإِظْهارُهُ

2) ﴿وَٱشۡكُرُواْ لِي﴾: مِنَ الجذْرِ (شكر)، والشُّكْرُ: عِرْفانُ الإِحْسانِ لصاحِبِهِ ونَشْرُهُ، وإِظْهارُهُ؛ إِذْ هُوَ تَعْبيرٌ عَنِ امْتِلاءِ النَّفْسِ ورِضاها، بما قُدِّمَ لها من خَيْرٍ، ونُجوعِ هَذا الخَيْرِ فيها، فهُوَ إِخْبارٌ عَنِ الشِّبَعِ بنِعْمَةِ اللّهِ، قالَ تَعالى: ﴿لَئِن شَكَرۡتُمۡ لَأَزِيدَنَّكُمۡۖ﴾ [إبراهيم: 7]، وهُوَ الثَّناءُ عَلى المُحْسِنِ بما أَوْلاهُ مِنَ المَعْروفِ، يُقالُ: شَكَرْتُهُ وشَكَرْتُ لهُ، وباللّام أَفْصَحُ، ولمّا كانَ الشُّكْرُ يَعْني تَصَوُّرَ النِّعْمَةِ وإِظْهارَها، فيَكونُ ضِدَّهُ الكُفْرُ، وهُوَ: نِسْيانُ النِّعْمَةِ وسَتْرُها، ودابَّةٌ شَكورٌ: مُظْهِرةٌ بسِمَنِها إِسْداءَ صاحِبِها إِلَيْها[1]، وكُلُّ ما في القُرْآنِ مِنَ التَّرْكيبِ هُوَ من شُكْرِ النِّعْمَةِ هَذا[2].

الكافِرُ باللّهِ غَطَّى في نَفْسِهِ شَواهِدَ وُجودِ اللهِ وعَظَمَتِهِ

3) ﴿وَلَا تَكۡفُرُونِ﴾: مِنَ الجِذْرِ (كفر)، وهو أَصْلٌ[3] يَدُلُّ عَلى مَعْنًى واحِدٍ، وهُوَ السَّتْرُ والتَّغْطِيَةُ تَغْطِيَةً تامَّةً كَثيفَةً لا يَظْهَرُ مَعَها شَيْءٌ مِنَ المُغَطّى، ويُقالُ للزّارِعِ كافِرٌ، لأَنَّهُ يُغَطِّي الحَبَّ بتُرابِ الأَرْضِ، والكُفْرُ: ضِدُّ الإيمانِ، سُمِّيَ لأَنَّهُ تَغْطِيَةُ الحَقِّ، فالكافِرُ باللّهِ، غَطَّى في نَفْسِهِ شَواهِدَ وُجودِ اللّهِ وعَظَمَتِهِ الظّاهِرَةِ والباطِنَةِ، أَوْ تَغَطَّى عَنْها، ومن ذَلِكَ كُفْرُ النِّعْمَةِ، كَفَرَ نِعْمَةَ اللّهِ: جَحَدَها، أَنْكَرَها وغَطّاها، أَوْ تَغَطَّى عَنْها، كأَنَّها غَيْرُ مَوْجودَةٍ، قالَ تَعالى: ﴿وَبِنِعۡمَتِ ٱللَّهِ

(1) الراغب، المفردات: (شكر).
(2) ابن منظور، لسان العرب، جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (شكر).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة، جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (كفر).

هُمْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٢﴾﴾ [النّحل: 72]، وهَذا ضِدُّ ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾﴾ [الضّحى: 11]، وفي الآيَةِ المُرادُ بالكفر كُفْرُ النِّعْمَةِ وهُوَ نقيضُ الشُّكْرِ.

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

ذِكْرُ اللهِ بالامْتِثالِ والشُّكْرانِ، يُقابِلُهُ اللهُ بالثَّوابِ والإِحْسانِ

يَأْمُرُ اللهُ تَعالى المُؤْمِنينَ بذِكْرِهِ، فيَقولُ لَهُمْ: اذْكُروني بقلوبكم وجوارحكم بالطّاعَةِ والامْتِثالِ والعَمَلِ الصّالِحِ، مِثْلُ الحَمْدِ والتَّسْبيحِ والشُّكْرِ، وقِراءَةِ القُرْآنِ، وتَدَبُّرِ آياتِهِ، أَذْكُرْكُمْ عِنْدي بالثناء عليكم في الملأ الأعلى والحفظ لكم، وإفاضَةِ الخَيْرِ، ودَوامِ السَّعادَةِ والعِزَّةِ؛ فالجزاء من جنس العمل، واشْكُروا نِعْمَتِيَ الَّتي أَنْعَمْتُها عَلَيْكُمْ بالقَلْبِ واللِّسانِ، واسْتِعْمالِ كُلِّ عُضْوٍ فيما خُلِقَ لهُ مِنَ الخَيْرِ والنَّفْعِ، ولا تَكْفُروا هَذِهِ النِّعَمَ، بصَرْفِها في غَيْرِ ما يُبيحُهُ الشَّرْعُ، فإِنِّي مُجازيكُمْ عَلى ما قَدَّمْتُم، إِنْ خَيْرًا فخَيْرٌ، وإِنْ شَرًّا فشَرٌّ[1].

الإِيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

دَلالَةُ العَطْفِ بالفاء في قَوْلِه تَعالى: ﴿فَٱذْكُرُونِيٓ﴾:

يأتي الذِّكْرُ بمَعْنى الشُّكْرِ إذا اقترنَ بما يُؤيِّده

أفادتِ الفاءُ معنى السَّبَبِيَّةِ، فما قَبْلَها سَبَبٌ لما بَعْدَها، وهِيَ للتَّفريعِ، إذ عَطَفَتْ جُمْلَةَ الأَمْرِ بذِكْرِ اللهِ وشُكْرِهِ، عَلى جُمَلِ النِّعَمِ المُتَقَدِّمَةِ، أَيْ: إذْ قَدْ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ بتِلْكَ النِّعَمِ، فأَنا آمُرُكُمْ بذِكْري[2]، وفُسِّرَ الذِّكْرُ بأَنَّهُ يَشْمَلُ جَميعَ الطّاعاتِ، وبهَذا المَعْنى يَكونُ الذِّكْرُ بمَعْنى الشُّكْرِ، لاسِيَّما وقَدْ ذُكِرَ بَعْدَ الفاءِ السَّبَبِيَّةِ، المُفيدَةِ لكَوْنِ مَدْخولِها جزاءً لما تَقَدَّمَ، وكَوْنِ مَضْمونِ الكَلامِ السّابِقِ شَرْطًا لهُ، فهُوَ فِعْلُ أَمْرٍ وجَوابُهُ، وفيهِ مَعْنى الشَّرْطِ[3]، فكَأَنَّهُ قيلَ: (إذا أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ بهَذِهِ النِّعَمِ الجَليلَةِ، فاذْكُروني بالطّاعَةِ)، والطّاعَةُ الواقِعَةُ بإِزاءِ النِّعْمَةِ المُسَبَّبَةِ عَنْها، هِيَ الشُّكْرُ بلا شُبْهَةٍ[4].

(1) وهبة الزحيلي، التّفسير المنير: 2/35، والمختصر في تفسير القرآن الكريم، ص: 23.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/50.
(3) القنوجي، فتح البيان: 1/315.
(4) زاده، حاشيّة على البيضاويّ: 2/389.

دَلالَةُ مَعْنى الشَّرْطِ في قَوْلِهِ: ﴿فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ﴾:

في الآيَةِ مَعْنى الشَّرْطِ، بتَقْديرِ: (إنْ تَذْكُروني أَذْكُرْكُمْ)، وحُذِفَتْ صِلَتا الفِعْلَيْنِ اخْتِصارًا، والمعنى: (اذْكُروني بالطّاعَةِ، أَذْكُرْكُمْ بالمَغْفِرَةِ)[1].

المَجازُ والمُشاكَلَةُ في قَوْلِهِ ﴿أَذْكُرْكُمْ﴾:

المُرادُ بقوله: ﴿أَذْكُرْكُمْ﴾ ما يَفْعَلُ بهِمْ مِنَ اللُّطْفِ والإحْسانِ، وما يُغْدِقُهُ عَلَيْهِمْ من فُيوضاتِ الخَيْراتِ، وفَتْحِ أَبْوابِ السَّعاداتِ، وقَدْ أَطْلَقَ عَلَى هذا المرادِ لَفْظَ (الذِّكْرِ)، بطَريقِ المَجازِ والمُشاكَلَةِ، لوُقوعِهِ في صُحْبَةِ ذِكْرِ العَبْدِ[2]، فالذِّكْرُ بمَعْنَيَيْهِ: اللِّسانيِّ، أَوِ الذِّكْرِ بَعْدَ النِّسْيانِ، لا يَجوزُ في حَقِّ اللهِ تَعالى، فلذا كانَ مَجازًا، أَيْ: أُعامِلُكُمْ مُعامَلَةَ مَنْ لَيْسَ مَغْفولًا عَنْهُ، بزِيادَةِ النِّعَمِ والنَّصْرِ والعِنايَةِ في الدُّنْيا، وبالثَّوابِ ورَفْعِ الدَّرَجاتِ في الآخِرَةِ، أَوْ أَخْلُقُ ما يَفْهَمُ مِنْهُ النّاسُ في المَلَأِ الأَعْلى وفي الأَرْضِ، فضْلَكُمْ والرِّضا عَنْكُم، وحُسْنَ مَصيرِكُمْ في الآخِرَةِ، والمَفْعولُ بهِ في ﴿أَذْكُرْكُمْ﴾ مَجازٌ أَيْضًا، فهُوَ لا يَذْكُرُهُمْ بذَواتِهِم، إذْ لَيْسَ المُرادُ تَذَكُّرَ الذَّواتِ ولا ذِكْرَ أَسْمائِها، بَلِ المُرادُ تَذَكُّرُ ما يَنْفَعُهُم - إذا وصَلَ إلَيْهِم -، وذِكْرُ فضائِلِهِمْ[3].

مكانةُ الذّاكرين تعظُمُ بقدرِ ذِكرِهم لله تعالى في قلوبِهم وألسنتِهم وجوارِحهم

الفَرْقُ بَيْنَ قَوْلِهِ: ﴿ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ﴾ [البقرة: 40] وقَوْلِهِ: ﴿فَٱذۡكُرُونِيٓ﴾:

لَقَدْ كانَ الخِطابُ مُوَجَّهًا إلى بني إسْرائيلَ بقَوْلِهِ تَعالى في سورَةِ البَقَرَةِ: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ﴾ [البقرة: 40]، وقالَ لأُمَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ: ﴿فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ﴾، ليَكونَ نَظَرُ الأُمَمِ مِنَ النِّعْمَةِ إلى المُنْعِمِ، ونَظَرُ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ مِنَ المُنْعِمِ إلى النِّعْمَةِ، وشَتّانَ بَيْنَ هَذا وذاكَ[4].

أُمَّةُ الإسلامِ خَيْرُ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ للنّاسِ

(1) بهجت الشّيخلي، بلاغة القرآن الكريم في الإعجاز: 1/345.
(2) زاده، حاشيّة على البيضاويّ: 2/388.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/50-51.
(4) الدّرّة، تفسير القرآن وإعرابه وبيانه: 1/354.

الفَرْقُ الدَّلالِيُّ بَيْنَ قَوْلِهِ: (شَكَرَهُ) و(شَكَرَ لَهُ):

الشُّكْرُ لله هُوَ أَنْ تَعْتَبِرَ إِحْسانَهُ الصَّادِرَ عَنْهُ وشكرُه أن تعتبرَ ذاته

إذا اعتبرتَ إحسانَ المشكورِ الصَّادرَ عنه فتقول: شَكَرْت لهُ: فتُثْني عَلَيْه بذَلِكَ، وإذا لَمْ تَلْتَفِتْ إلى فِعْلِه، بَلْ تَجاوَزْتَ إلى ذِكْرِ ذاتِه دونَ اعْتِبارِ أَحْوالِه وأَفْعالِه؛ فتقول: شكرته، وقال هنا: ﴿وَٱشْكُرُواْ لِي﴾، ولَمْ يَقُلْ: (واشْكُرُوني) عِلْمًا بقُصورِهِمْ عَنْ إِدْراكِه، بَلْ عَنْ إِدْراكِ آلائِه، كما قالَ تَعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [إبراهيم: 34]، فأَمَرَهُمْ أَنْ يَعْتَبِروا بَعْضَ أَفْعالِه في الشُّكْرِ[1]، ومَعَ الفَرْقِ الدَّلالِيِّ بَيْنَ (اشْكُروني) و﴿وَٱشْكُرُواْ لِي﴾، فإنّ الوَجْهَ الأَفْصَحَ في اللُّغَةِ تَعْدِيَتُهُ باللّام، وتُسَمَّى لامَ التَّبْليغِ، ولامَ التَّبْيينِ، كما قالوا: نَصَحَ لهُ، ونَصَحَهُ، كقَوْلِه تَعالى: ﴿فَتَعْسًا لَّهُمْ﴾ [محمّد: 8][2].

قَوْلُهُ: ﴿وَٱشْكُرُواْ لِي﴾، يَتَعَدَّى في الأَكْثَرِ باللّام، وشَكَرْتُ للّه: اعْتَرَفْتُ بنِعْمَتِه، وفَعَلْتُ ما يَجِبُ من فِعْلِ الطّاعَةِ، وتَرْكِ المَعْصِيَّةِ، ولهَذا يَكونُ الشُّكْرُ بالقَوْلِ والعَمَلِ، ورُبَّما تَعَدَّى بنَفْسِه، فيُقالُ: شَكَرْتُهُ، وأَشارَ أبو حَيّانَ إلى أَنَّهُ يَتَعَدَّى بحَرْفِ الجَرِّ، ويَتَعَدَّى بنَفْسِه، وأَنْشَدَ قَوْلَ القائِلِ:

ولَوْ كانَ يَسْتَغْني عَنِ الشُّكْرِ مُنْعِمٌ*** لرِفْعَةِ شَأْنٍ أَوْ عُلُوِّ مَكانِ
لما أَمَرَ اللّهُ العِبادَ بشُكْرِه *** فقالَ اشْكُروا لي أَيُّها الثَّقَلانِ[3]

بلاغةُ أُسْلوبِ الاحتراسِ في قَوْلِهِ تَعالى: ﴿وَلَا تَكْفُرُونِ﴾:

النَّهْيُ في الآيَةِ، هُوَ مَحْضُ التَّنْبيهِ، عَلى أَنَّ تَرْكَ الشُّكْرِ كُفْرانٌ

لسائلٍ أن يسألَ عن قَوْلِه: ﴿وَٱشْكُرُواْ لِي﴾، إذ إنَّه يَقْتَضي النَّهْيَ عَنِ الكُفْرِ، فبفِعْلِ الشُّكْرِ يَنْتَفي الكُفْرُ، فما فائِدَةُ قَوْلِه: ﴿وَلَا تَكْفُرُونِ﴾، إذا كانَ الأَمْرُ بالشُّكْرِ يَقْتَضيه؟

والجَوابُ: لا يُسَلَّمُ أَنَّهُ يَقْتَضيه؛ لأَنَّ المُرادَ بالكُفْرِ سَتْرُ النِّعْمَةِ،

(1) البروسوي، روح البيان: 1/256.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/51.
(3) السّيوطيّ، نواهد الأبكار: 2/344.

والشُّكْرُ لا يَقْتَضي عَدَمَهُ[1]، قيلَ لابْنِ عَرَفَةَ: إِنَّهُ دَليلٌ عَلى أَنَّ الأَمْرَ بالشَّيْءِ لَيْسَ نَهْيًا عَنْ ضِدِّهِ، إِذْ لَوْ كانَ نَهْيًا عَنِ الضِّدِّ، لما كانَ لقَوْلِهِ: ﴿وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ فائِدَةٌ؟ فقالَ: الأَمْرُ بالشُّكْرِ مُطْلَقٌ فيَصْدُقُ بشُكْرِهِ يَوْمًا واحِدًا، ثُمَّ يَكْفُرُ دائمًا، فلَمّا قالَ: ﴿وَلَا تَكْفُرُونِ﴾، أفادَ النَّهْيَ عَنِ الكُفْرِ دائمًا[2]، والكُفْرُ هُنا لَيْسَ كُفْرًا باللّٰهِ، بَلْ هُوَ كُفْرانُ النِّعْمَةِ وجَحْدُها، فلَوْ أَرادَ الكُفْرَ الَّذي هُوَ ضِدُّ الإيمانِ، لقالَ: (ولا تَكْفُرُوا)، فقَوْلُهُ: ﴿وَلَا تَكْفُرُونِ﴾، هَذِهِ نونُ المُتَكَلِّمِ، وحُذِفَتْ نونُ الجَماعَةِ للجَزْمِ، وحُذِفَتِ الياءُ الَّتي بَعْدَها تَخْفيفًا؛ لأَنَّها رَأْسُ آيَةٍ، ولَوْ كانَ نَهْيًا عَنِ الكُفْرِ ضِدِّ الإيمانِ، لكانَ: ولا تَكْفُروا، بغَيْرِ النُّونِ[3]، فالجَمْعُ بَيْنَ الأَمْرِ بالشُّكْرِ والنَّهْيِ عَنِ الكُفْرِ ضَرورَةٌ؛ فلَوِ اقْتَصَرَ على قَوْلِهِ: ﴿وَٱشْكُرُواْ لِي﴾، لكانَ يَجوزُ أَنْ يُتَوَهَّمَ أَنَّ مَنْ شَكَرَهُ مَرَّةً، أَوْ عَلى نِعْمَةٍ ما، فقَدِ امْتَثَلَ، ولَوِ اقْتَصَرَ عَلى قَوْلِهِ: ﴿وَلَا تَكْفُرُونِ﴾، لكانَ أَنْ يُتَوَهَّمَ أَنَّ ذَلِكَ نَهْيٌ عَنْ تَعاطي فِعْلٍ قَبيحٍ دونَ حَثٍّ عَلى الفِعْلِ الجَميلِ، فجَمَعَ بَيْنَهُما لإِزالَةِ هَذا التَّوَهُّمِ؛ ولأَنَّ في قَوْلِهِ: ﴿وَلَا تَكْفُرُونِ﴾، تَنْبيهًا عَلى أَنَّ تَرْكَ الشُّكْرِ كُفْرانٌ[4].

بلاغةُ الإيجازِ بالحَذْفِ في قَوْلِهِ: ﴿وَٱشْكُرُواْ لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾:

شمولُ جميعِ النِّعمِ التي يُدرِكُها المؤمنُ بقلبه وعقله

المطلوبُ بالشُّكرِ هو شكر النِّعْمَةِ، وهي مَحْذوفَةٌ مِنَ الآيَةِ لفظًا؛ لأَنَّ مَعْنى الكَلامِ: (واشْكُروا لي نِعْمَتي)؛ لأَنَّ حَقيقَةَ الشُّكْرِ إِنَّما هُو إِظْهارُ النِّعْمَةِ، لا إِظْهارُ المُنْعِمِ، وكذَلِكَ ﴿وَلَا تَكْفُرُونِ ١٥٢﴾، أَيْ: لا تَكْفُروا نِعْمَتي[5]، وقد حُذِفت لظُهورِ معناها في سياقِ الكلامِ، وهي تعمُّ كلَّ نعمةٍ، ولو ذكرت لظُنَّ أنَّ المقصودَ نعمةٌ مخصوصة.

دَلالَةُ التَّناسُبِ اللَّفْظِيِّ والتَّناسُقِ الصَّوْتِيِّ في أَلْفاظِ الآيَةِ:

تَجَلِّياتُ مَتانَةِ النَّصِّ، وحُسْنِ سَبْكِهِ، ورَوْعَةِ تَماسُكِهِ

وَرَدَ في الآيَةِ أَلْفاظٌ فيها تَناسُبٌ لَفْظِيٌّ وتَناسُقٌ في الصَّوْتِ: (ذكر، شكر، كفر)، فهِيَ مُتَوافِقَةٌ باحْتِوائِها عَلى صَوْتَيِ (الكافِ،

(1) زكريا الأنصاري، فتح الرّحمن بكشف ما يلتبس في القرآن: 1/47.
(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/468.
(3) ابن عطيّة، المحرر الوجيز: 1/227.
(4) البروسوي، روح البيان: 1/256.
(5) الواحدي، التّفسير البسيط: 3/420.

والرّاءِ)، واحْتَوَتْ عَلى الأَضْدادِ (الشُّكْرِ والكُفْرِ)، وتَكْرارِ الأَلْفاظِ ﴿فَٱذْكُرُونِيٓ أَذْكُرْكُمْ﴾، وهُوَ أَمْرٌ ووَعْدٌ، وتَكَرَّرَتْ فيها حُروفُ العَطْفِ ثَلاثَ مَرّاتٍ، والآيَةُ احْتَوَتْ عَلى فِعْلَيْ أَمْرٍ: ﴿فَٱذْكُرُونِيٓ﴾، ﴿وَٱشْكُرُواْ لِي﴾، واحْتَوَتْ عَلى وعْدٍ: ﴿أَذْكُرْكُمْ﴾، ونَهْيٍ: ﴿وَلَا تَكْفُرُونِ﴾، وفِعْلُ الأَمْرِ الأَوَّلُ وقَعَ بَعْدَهُ طَلَبٌ، فهُوَ كالشَّرْطِ، ﴿فَٱذْكُرُونِيٓ أَذْكُرْكُمْ﴾، وفِعْلُ الأَمْرُ الثّاني وقَعَ بَعْدَهُ نَهْيٌ، ليُتَمِّمَ المَعْنى: ﴿وَٱشْكُرُواْ لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ١٥٢﴾، والأَمْرُ هُنا والنَّهْيُ مُتَقابِلانِ مِنَ الأَضْدادِ، فنَرى الآيَةَ مُتَوافِقَةً ومُتَكَرِّرَةً في صِيَغِها وجُذورِها وحُروفِها، وهَذا يُبَيِّنُ مَتانَةَ النَّصِّ، وحُسْنَ سَبْكِهِ ورَوْعَةَ تَماسُكِهِ.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ١٥٣﴾ [البقرة: 153]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الإنسانُ إمَّا في نِعْمَةٍ فيَشْكُرُ، وإمَّا في نِقْمَةٍ فيَصْبِرُ

لما سُبِقَت الآيةُ بذِكْرِ الأذى مِنَ المُسْتَهْزِئينَ والسُّفَهاءِ، في شَأْنِ تَحْويلِ القِبْلَةِ، وتَخَلَّلَها الأَمْرُ باسْتِقْبالِ المَسْجِدِ الحَرامِ، وخَشْيَةِ اللهِ، واسْتِباقِ الخَيْراتِ، وذِكْرِ اللهِ، وشُكْرِهِ، نَاسَبَ أَنْ يَعْقُبَهَا بالأَمْرِ بالاسْتِعانَةِ بالصَّبْرِ والصَّلاةِ، فإنَّ تِلْكَ الفَرائِضَ، ومَواقِفَ المُعانِدينَ، تَتَطَلَّبُ التَّزَوُّدَ بالقُوَّةِ، فدَلَّهُمْ عَلى أَنَّ مِدادَ ذَلِكَ يَكْمُنُ في الصَّبْرِ والصَّلاةِ، فلَمْ يَأْمُرْهُمْ بالصَّلاةِ والصَّبْرِ، بَلْ طَلَبَ مِنْهُمُ الاسْتِعانَةَ بهما إزاءَ تِلْكَ الفَرائِضِ، وإزاءَ اللَّجاجِ الَّذي أَثارَهُ أَهْلُ الفِتْنَةِ[1]، فلَمّا سَبَقَ الأَمْرُ بالشُّكْرِ، ناسَبَ أَنْ يُتْبِعَهُ بالصَّبْرِ، فجاءَ التَّوْجيهُ إلى الاسْتِعانَةِ بالصَّبْرِ والصَّلاةِ؛ فإنَّ الإنْسانَ إمّا أَنْ يَكونَ في نِعْمَةٍ فيَشْكُرَ اللهَ تعالى عَلَيْها، وإمّا في نِقْمَةٍ فيَصْبِرَ عَلَيْها.

شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

الإيمانُ ثِقَةٌ وخُضوعٌ، والْتِزامٌ بالشَّرْعِ

1) ﴿ءَامَنُواْ﴾: مِنَ الجذْرِ (أمن)، وأَصْلُه: وثاقَةٌ في الباطِنِ، وسُكونُ القَلْبِ، والتَّصْديقُ، كالنّاقَةِ الوَثيقَةِ الخَلْقِ، وآمَنُ المالِ وآمَنُ الدّواءِ: خالِصُهُ: لُبُّهُ المُتَمَكِّنُ في باطِنِه، ومِنْهُ: آمَنَ بالشَّيْءِ: صَدَّقَ، (قَبِلَ الكَلامَ ووَثِقَ به فتَمَكَّنَ من قَلْبِه)، والإيمانُ: الثِّقَةُ، وإظْهارُ الخُضوعِ، وقَبولُ الشَّريعَةِ[2]، أي الإيمانُ بدينٍ أَوْ عَقيدَةٍ، قَبولُ تَعاليمِ الدِّينِ وتَصَوُّراتِه، وتَمَكُّنُها في القَلْبِ وامْتِلاؤُهُ بها.

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 2/245-246.
(2) الفيروزابادي، القاموس المحيط: (أمن).

مَدْلولُ (اسْتَعِينوا) اطْلُبوا العَوْنَ والمَدَدَ والقُوَّةَ

2) ﴿ٱسۡتَعِينُواْ﴾: مِنَ الجذْرِ (عون)، وهو أَصْلٌ يَدُلُّ عَلى مَدَدٍ زائِدٍ، أَوِ امْتِدادٍ من قُوَّةٍ، ومِنَ الأَصْلِ أُخِذَ العَوْنُ: الظَّهيرُ، فهُوَ يُقَوِّي أَيْ يُمِدُّ بالقُوَّةِ، ومِنْهُ الإِعانَةُ، وبهَذا المَعْنى سائِرُ ما جاء في القُرْآنِ مِنَ التَّرْكيبِ، قال تَعالى: ﴿فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ﴾ [الكهف: 95]، أَيْ (أَمِدُّوني)، ومَعْنى قَوْلِهِ: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ۝٥﴾ [الفاتحة: 5]، نَطْلُبُ العَوْنَ، وقَدْ جاءَ من هَذِهِ الصِّيغَةِ الأَخيرَةِ، صيغَةُ الطَّلَبِ، وصيغَةُ المَطْلوبِ مِنْهُ العَوْنُ: (المُسْتَعانُ)[1]، وقَوْلُهُ: ﴿ٱسۡتَعِينُواْ﴾ تَعْني: اطْلُبوا العَوْنَ والمَدَدَ والقُوَّةَ.

الصَّبْرُ الدَّعْوَةُ لِتَوْطينِ النَّفْسِ عَلى احْتِمالِ المَكارِهِ

3) ﴿بِٱلصَّبۡرِ﴾، ﴿ٱلصَّٰبِرِينَ﴾: مِنَ الجذْرِ (صبر)، ومِنْهُ أُخِذَ (الصَّبْرُ): نَقيضُ الجَزَعِ، "وحَقيقَتُهُ الثَّباتُ للمُصيبَةِ أَوِ المَشَقَّةِ، والتَّماسُكُ والاسْتِمْرارُ، وعَدَمُ الانْقِطاعِ أَوِ الزَّوالِ عَنْهُ، قالَ تَعالى: ﴿ٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ﴾، أَيْ بالثَّباتِ عَلى ما أَنْتُمْ عَلَيْهِ مِنَ الإيمانِ، وكُلُّ ما في القُرْآنِ من هَذا التَّرْكيبِ، فهُوَ بمَعْنى الثَّباتِ عِنْدَ الشِّدَّةِ أَوِ المُجاهَدَةِ[2]، والأَمْرُ بالصَّبْرِ، أَوِ الدَّعْوَةُ لَهُ، هُوَ الدَّعْوَةُ لتَوْطينِ النَّفْسِ عَلى احْتِمالِ المَكارِهِ، وتَحَمُّلِ المَشاقِّ.

4) ﴿وَٱلصَّلَوٰةِۚ﴾: مِنَ الجذْرِ (صلي)، وجَعَلوا الدُّعاءَ هُوَ الأَصْلَ في تَسْمِيَةِ الصَّلاةِ المَفْروضَةِ، فلمَعْنى الضَّراعَةِ اسْتُعْمِلَتْ في أَهَمِّ صُوَرِ التَّضَرُّعِ للّه (ﷻ)، وهِيَ الصَّلاةُ ذاتُ الرُّكوعِ والسُّجودِ، قالَ تَعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتۡ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ كِتَٰبٗا مَّوۡقُوتٗا ۝١٠٣﴾ [النّساء: 103]، والاجْتِهاداتُ في المَأْخَذِ الاشْتِقاقِيِّ للصَّلاةِ كَثيرَةٌ، وفيها تَكَلُّفٌ، والرّاجِحُ ما ذَهَبَ إِلَيْهِ ابْنُ فارِس، إذ قالَ: "فأَمَّا الصَّلاةُ فيُقالُ: إِنَّها من صَلَّيْتُ العُودَ، إذا لَيَّنْتُهُ، لأَنَّ المُصَلِّي يَلينُ ويَخْشَعُ"[3]،

(1) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (عون).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (صبر).
(3) ابن فارس، مجمل اللّغة: (صلي).

والَّذي جاءَ في القُرْآنِ مِنَ التَّرْكيبِ: الدُّعاءُ، والعِبادَةُ المَعْروفَةُ، وصُلِيُّ النّارِ وتَصْلِيَتُها، وسِياقُ كُلٍّ مِنْهُما مُتَمَيِّزٌ[1].

والمعنى في الآية: عبادةُ الصَّلاةِ ذاتُ الرَّكوعِ والسُّجودِ.

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

الصَّلاةُ تَزيدُ مِنْ قُوَّةِ الإيمانِ، وتُعينُ عَلى الثَّباتِ في الحَياةِ

يُخاطِبُ اللّهُ تَعالى المُؤْمِنينَ ويُوَجِّهُهُمْ إلى الاسْتِعانَةِ بالصَّبْرِ والصَّلاةِ، فيُوَطِّنوا أَنْفُسَهُمْ عَلى الثَّباتِ والتَّمَسُّكِ، وتَحَمُّلِ المَشاقِّ، وحَبْسِ النَّفْسِ وكَفِّها عَمّا تَكْرَهُ فإنَّ تَحَمُّلَ التَّكاليفِ والمَسْؤولِيَّةِ، وكَوْنَهُمْ أُمَّةً وسَطًا، يَحْمِلونَ الحَقَّ، كُلِّفوا بالثَّباتِ عَلَيْهِ، ومُواجَهَةِ المُعانِدينَ والمُكَذِّبينَ، وفي ذَلِكَ لا بُدَّ مِنَ التَّزَوُّدِ بعِبادَةِ اللّهِ بالصَّلاةِ لَهُ تَعالى ومُناجاتِهِ، وبالفزع منكم - معشَرَ المؤمنين - فيما يَنوبكم من مُفظِعات الأمور إلى الصلاة لي، فإنكم بالصبر على المَكاره تُدركون مرضاتي، وبالصلاة لي تستنجحون طلباتكم قبَلي، وتدركون حاجاتكم عندي؛ ليَزيدَكُمْ ربُّكم من قُوَّةِ الإيمانِ والثَّباتِ، لأَنَّ اللّهَ تَعالى مَعَ الصّابِرينَ، الَّذينَ يَثْبُتونَ عَلى تَعاليمِ رَبِّهِم، فهُوَ مَعَهُمْ حِفْظًا وتَأْييدًا ولُطْفًا، فأَمَرَ عِبادَهُ المُؤْمِنينَ، بالاسْتِعانَةِ في جَميعِ أُمورِهِمْ الدِّينِيَّةِ والدُّنْيَوِيَّةِ بالصَّبْرِ، وأَنْ يَسْتَعينوا بالصَّلاةِ، مُخْبِرًا سُبْحانَهُ، أَنَّهُ مَعَ الصّابِرينَ مَعِيَّةً خاصَّةً، تَقْتَضي القُرْبَ مِنْهُم، ومَحَبَّتَهُم، ونَصْرَهُمْ وإعانَتَهُم[2].

الإيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

دَلالَةُ أُسْلوبِ النِّداءِ في قَوْلِهِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾:

تنبيهُ المؤمنين إلى عظيمِ شأنِ الأخبارِ المطلوبِ تحقيقُها

افْتُتِحَ الكَلامُ بالنِّداءِ، بقَوْلِهِ تَعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، وهو اعْتِراضٌ مُطْنِبٌ ابْتُدِئَ بِهِ إعْدادُ المُسْلِمينَ لِمَا هُمْ أَهْلُهُ مِنْ نَصْرِ دِينِ اللّهِ شُكْرًا لَهُ عَلَى ما خَوَّلَهُمْ مِنَ النِّعَمِ المَعْدُودَةِ في الآيَاتِ

(1) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (صلي).

(2) ابن جرير، جامع البيان: 2/698.

السَّالِفَة، وَافْتُتِحَ الْكَلَامُ بِالنِّدَاءِ لِأَنَّ فِيهِ إِشْعَارًا بِخَبَرٍ مُهِمٍّ عَظِيمٍ، فإِنَّ شَأْنَ الأَخْبارِ العَظيمَةِ الَّتي تُهُولُ المُخاطَبَ، أَنْ يُقَدَّمَ قَبْلَها ما يُهَيِّئُ النَّفْسَ لقَبولِها؛ لتَسْتَأْنِسَ بها، قَبْلَ أَنْ تَفْجَأَها[1]، فالنِّداءُ يُفيدُ التَّنْبيهَ عَلى ما سَيَأْتي بَعْدُ.

سرُّ التَّعبيرِ بالاسمِ الموصولِ دون الاسمِ الظَّاهر:

تنبيهُ المؤمنينَ إلى أنَّ المطلوبَ هو الفعلُ بعد الاعتقادِ

جاءَ نداءُ المؤمنين بالاسْم المَوْصول، وصِلَتِه الجُمْلَة الفِعْلِيّة، فقالَ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، ولَمْ يُنادِهِمْ بالاسم الظَّاهر؛ فلَمْ يَقُلْ: (يا أَيُّها المُؤْمِنُونَ)، كما قالَ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ ۝١﴾ [الكافرون: 1]؛ إشارَةً للحَدَث، وفِعْلِ التَّصْديقِ الَّذي قاموا بِهِ إزاءَ تَحْويلِ القِبْلَة، ولَوْ قالَ: (المُؤمنونَ) لكانَ خِطابًا لَهُم بصِفَةِ الإيمانِ الثّابِتَةِ فيهم، من غَيْرِ مُلاحَظَةِ الفِعْلِ الَّذي قاموا به، فالآيةُ تناديهم بأوصافِهم، وأفعالِهم، تنبيهًا أنَّ المطلوبَ فيما بعد النِّداءِ هو تطبيقُ ما يعرفونه ويعلمونه.

توجيهُ المخصوصِ بالذِّكرِ في قَوْلِهِ تَعالى: ﴿ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾:

الصَّلاةُ أصلُ العملِ، والصَّبرُ أصلُ الاستمرارِ فيه

خَصَّ النَّظمُ الصَّبْرَ والصَّلاةَ بالذِّكْرِ في حَيِّزِ الاسْتِعانَة، دونَ غَيْرِهما مِنَ العِباداتِ والأَعْمالِ؛ لأَنَّ الصَّبْرَ أَشَدُّ الأَعْمالِ القَلْبِيَّةِ عَلى النَّفْسِ، وخُصَّتِ الصَّلاةُ، لأَنَّها أَشَدُّ عَمَلٍ ظاهِرِيٍّ عَلى الإِنْسانِ، إِذْ فيها انْقِطاعٌ عَنِ الدُّنْيا واتِّجاهٌ إِلى اللهِ[2]، وهذان الفعلان، هما أصلُ كلِّ نجاحٍ، فالصَلاة هي أصل العملِ، والصَّبر هو أصل الاستمرارِ.

لماذا كانَ الأَمْرُ بالاِسْتِعانَةِ دونَ فِعْلِ (اصبروا)؟

قالَ تَعالى: ﴿ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ﴾، ولَمْ يَقُلِ (اصْبِرُواْ)؛ لأَنَّ الصَّبْرَ لَيْسَ هُوَ الغايَةَ المطلوبة من العبدِ وحدَه، بل المطلوبُ الصَّبرُ المُستعانُ به من اللّه تعالى، ففي الأمر بيانٌ أنَّ الاستعانةَ هي ركنٌ أصيلٌ في القبولِ، .

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/51-52.

(2) وهبة الزحيلي، التّفسير المنير: 2/39-40.

بلاغةُ الفاصلةِ القرآنيَّة:

التَّذْييلُ لبيانِ مَعْنى التَّعْليلِ

لـمّا حَثَّهُمْ عَلى الاِسْتِعانَةِ بالصَّبْرِ، في مُفْتَتَحِ الآيَةِ، بَيّنَ لَهُمْ عِلَّةَ ذَلِكَ في خِتامِها: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾، فكان الأُسْلوبُ تَذْييلًا في مَعْنى التَّعْليلِ، أَيْ: اصْبِروا ليَكونَ اللّهُ مَعَكُم؛ لأَنَّهُ مَعَ الصّابِرينَ[1]، وجاءَتْ هَذِهِ المَعِيَّةُ بطَريقَةِ الخَبَرِ المُؤَكَّدِ، فأَكَّدَ الجُمْلَةَ بـ (إنّ)، لتَقْوِيَةِ المَعْنى، ولَيْسَ لأَنَّ المُؤْمِنينَ لَدَيْهِمْ شَكٌّ، أَوْ ما يَسْتَوْجِبُ التَّأْكيدَ لتَصْديقِهِم، بَلْ إِنَّ المَعْنى يَحْتاجُ إِلى تَأْكيدٍ.

مَعِيَّةُ اللهِ بالمَدَدِ والعَوْنِ، لا تُنالُ إِلَّا بالمُصابَرَةِ

أفادَ التَّعْبيرُ ﴿مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ أَنَّ الصَّبْرَ يكون بالاجتماعِ والتَّواصي والتآزرِ والتَّعاونِ، وهَذا يُشْعِرُ بأَنَّ للمَعِيَّةِ شَرْطًا، وهُوَ دَوامُ الصَّبْرِ في الشَّخْصِ، فمَعِيَّةُ اللّهِ بالمَدَدِ والعَوْنِ والنُّصْرَةِ، إِنَّما يَجِدُها مَنْ كان ذَلِكَ وصْفَهُ.

الصَّبْرُ وسيلةٌ للاستعانةِ به على الغايةِ العظمى وهي الصَّلاةُ

لسائلٍ أن يسألَ: لماذا أَمَرَ بالاِسْتِعانَةِ بالصَّبْرِ والصَّلاةِ، وعَلَّلَ الاِسْتِعانَةَ بالصَّبْرِ دونَ الصَّلاةِ؟ والجوابُ: أَنَّ الاِسْتِعانَةَ بالصَّبْرِ تكونُ عَلى المَشاقِّ كُلِّها، ولَمّا كانَ الصَّبْرُ مُسْتَلْزِمًا لتَحْصيلِ جَميعِ العِباداتِ، ومِنْها الصَّلاةُ اسْتَغْنى بِهِ عَنْها[2]، فالصَّلاةُ تَقْتَضي الصَّبْرَ، لأَنَّها طاعَةٌ مِنَ الطّاعاتِ الَّتي تَحْتاجُ إِلى صَبْرٍ.

وقَدْ قيلَ في تَعْليلِ ذَلِكَ: "لـمّا كانَ فِعْلُ الصَّلاةِ أَشْرَفَ وأَعْلى مِنَ الصَّبْرِ، إِذْ قَدْ يَنْفَكُّ الصَّبْرُ عَنِ الصَّلاةِ، ولا تَنْفَكُّ الصَّلاةُ عَنِ الصَّبْرِ، ذَكَرَ هُنا الصّابِرينَ، فعُلِمَ أَنَّهُ تَعالى إِذا كان مَعَ الصّابِرينَ، فهُوَ لا مَحالَةَ يَكونُ مَعَ المُصَلِّينَ بطَريقِ الأَوْلى، وقالَ هُناكَ: ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [البقرة: 45]، فذَكَرَ الصَّلاةَ دونَ الصَّبْرِ، تَنْبيهًا عَلى أَنَّها أَشْرَفُ مَنْزِلَةً مِنَ الصَّبْرِ"[3].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/53.
(2) تفسير ابن عرفة: 1/187.
(3) زاده، حاشية على البيضاوي: 2/391.

جمالُ فنِّ التَّصديرِ:

في الآيَةِ مِنَ المُحَسِّناتِ اللَّفْظِيَّةِ فنُّ التَّصديرِ، وهو اتِّفاقُ آخرِ الآيةِ مع أوّلِها، فقالَ في صَدْرِ الآيَةِ: ﴿ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ﴾، ثُمَّ قالَ في آخرِها: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾، فردَّ ﴿ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ على ﴿بِٱلصَّبْرِ﴾.

توجيهُ المُتَشابِهِ اللَّفْظِيِّ:

هناك تشابُهٌ لفظيٌّ بين قَوْلِهِ تَعالى: ﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [البقرة: 45]، وقَوْلِهِ تَعالى: ﴿ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٣﴾﴾ [البقرة: 153]، وقد اختلفت الآيتان في التَّعْقيبِ والتّذْييلِ، فلماذا اخْتَلَفَ التَّذْييلُ بَيْنَ الآيَتَيْنِ؟

الجَوابُ عَنْ ذَلِكَ: أَنَّ قَوْلَهُ تَعالى: ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [البقرة: 45]، ورَدَ في سِياقِ الحَديثِ عَنْ بَني إِسْرائيلَ، مُشيرًا إلى التَّثاقُلِ عَنْها، والتّكاسُلِ الجارِيَيْنِ في الغالِبِ والأَكْثَرِ، مَعَ ضعْفِ اليَقينِ، وذَلِكَ مُناسِبٌ لحالِهِم، فلَمّا كان قَوْلُهُ تَعالى في الآيَةِ الأولى: ﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ﴾ [البقرة: 45]، مُكْتَنَفًا بأَمْرِ بَني إِسْرائيلَ ونَهْيِهِم، ناسَبَ أَنْ يَكونَ تَذْييلُهُ قَوْلَهُ تَعالى: ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [البقرة: 45]، ولمّا كانَتِ الآيَةُ الثّانِيَةُ، مُعَقَّبًا بها أَمْرُ المُؤْمِنينَ في قَوْلِهِ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٣﴾﴾، وحالُ مَنْ وُسِمَ بالإيمانِ حالُ رِضىً واسْتِقامَةٍ، ناسَبَ التَّذْييلُ بمَعِيَّةِ اللهِ مَعَ الصّابِرينَ، فجاءَ كُلٌّ عَلى ما يُناسِبُ، ولَمْ يَكُنْ ليُلائِمَ واحِدًا مِنَ المَوْضِعَيْنِ غَيْرُ ما أَعْقَبَ بهِ[1]، إنَّ اللّه تَعالى قالَ في سِياقِ الحَديثِ مَعَ بَني إِسْرائيلَ: ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ﴾، عِلْمًا مِنْهُ بضعْفِ عَزائِمِهِمْ عَنْ عَظائِمِ الأَعْمالِ، فقال في ذَلِكَ السِّياقِ: ﴿إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [البقرة: 45]، ولَمْ يَذْكُرْ مِثْلَ هَذا هُنا، إِشارَةً إلى أَنَّ المُسْلِمينَ قَدْ يُسِّرَ لَهُمْ ما يَصْعُبُ عَلى غَيْرِهِم،

المُسْتَعينُ بالصَّبْرِ والصَّلاةِ يَحْظى بالخُشوعِ، ويَفوزُ بمَعِيَّةِ اللهِ

(1) ابن الزبير الغرناطي، ملاك التّأويل: 1/32.

وأَنَّهُمْ الخاشِعونَ الَّذينَ اسْتَثْناهُمُ اللّهُ هُنالِكَ، وزادَ هُنا فقالَ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٥٣﴾، فبَشَّرَهُمْ بأَنَّهُمْ مِمَّنْ يَمْتَثِلُ هَذا الأَمْرَ، ويُعَدُّ لذَلِكَ في زُمْرَةِ الصّابِرينَ[1].

التَّناسُقُ اللَّفْظِيُّ في ألفاظِ الآيَةِ:

النَّصُّ يَتَضَمَّنُ أُصولَ الدِّينِ، وأَرْقى الأَعْمالِ في الإِسْلامِ المَتينِ

وَرَدَ في الآيَةِ الأَلْفاظُ: (الإيمانُ، والصَّبْرُ، والصَّلاةُ، والاسْتِعانَةُ)، وهَذِهِ أَلْفاظٌ تَحْمِلُ مَعانيَ أَساسِيَّةً في الدِّين، فهِيَ تُمَثِّلُ أَصْلَ الدِّينِ كما في قَوْلِهِ: ﴿وَٱلْعَصْرِ ١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ٣﴾ [العصر: 1-3]، وهِيَ خِطابٌ للمُؤْمِنينَ فقَطْ، وجاءَ الإيمانُ والاسْتِعانَةُ بصيغَةِ الفِعْلِ، والصَّبْرُ والصَّلاةُ بصيغَةِ الاسْمِ؛ لأَنَّ الإيمانَ والاسْتِعانَةَ، لوحِظَ فيهما الإِحْداثُ، فكما أَنَّكُمْ قَدْ صَدَّقْتُم، فلَكُمْ أَنْ تَسْتَعينوا بأَعْمالٍ تُعينُكُمْ عَلى الثَّباتِ عَلى طَريقِ التَّصْديقِ، ولاسِيَّما أَنَّ أَلفاظَ هَذِهِ الآيَةِ، سُبِقَتْ بأَلْفاظ (الذِّكْرِ، والشُّكْرِ، والكُفْرِ) في صيغَةِ النَّهْيِ، فالآيَتانِ تَتَضَمَّنانِ أُصولَ الدِّينِ، والأَعْمالَ العَظيمَةَ في الإِسْلامِ، بإيجازٍ بَليغٍ.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/53.

﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَن يُقۡتَلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمۡوَٰتُۢۚ بَلۡ أَحۡيَآءٞ وَلَٰكِن لَّا تَشۡعُرُونَ ١٥٤﴾ [البقرة: 154]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الآيَةُ تهيئةٌ لِلْمُسْلِمِينَ، لِاسْتِقْبالِ الشَّدائِدِ والصَّبرِ عَلَيْها

لمَّا جاءَ الأَمْرُ في الآيَةِ السَّابِقَةِ بِالاسْتِعَانَةِ بِالصَّبْرِ والصَّلَاةِ، وبَيَانُ أَنَّ اللهَ تَعَالَى مَعَ الصَّابِرِينَ؛ شَرَعَ في الحَدِيثِ عَن مَوَاضِعَ يَلْزَمُ فِيهَا الصَّبْرُ؛ وهِيَ الابْتِلَاءَاتُ والجِهَادُ في سَبِيلِ اللهِ تَعَالَى، ومَا يَصْحَبُهُ مِن القَتْلِ، فَهَذِهِ الآيَةُ تَهْيِئَةٌ لِلْمُسْلِمِينَ لِلصَّبْرِ عَلَى شَدَائِدِ الحَرْبِ، والابْتِلَاءِ الَّذِي لَا تَنْفَكُّ الحَيَاةُ عَنْهُ، وتأكيدٌ عَلى أَنَّ الشَّهادَةَ في سَبِيلِ اللهِ هِيَ انْتِقالٌ إلى حَياةٍ أَرْقى وأَبْقَى.

شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

قتل النّفس بغير حقّ ، اعتداءٌ على صنعة الله

1) ﴿يُقۡتَلُ﴾: مِنَ الجَذْرِ (قتل)، وهو في الأَصْلِ يَدُلُّ عَلَى إِذْلَالٍ وإِمَاتَةٍ، ومَقَاتِلُ الإِنْسَانِ: المَوَاضِعُ التي إِذَا أُصِيبَتْ قَتَلَهُ ذَلِكَ[1]، وأَصْلُ القَتْلِ: إزالةُ الرّوحِ عَن الجَسَدِ، كالموتِ، لكِنْ إذا اعْتُبِرَ بِفِعْلِ المتَوَلّي لذلك يُقال: قَتْلٌ، وإِذَا اعْتُبِر بفَوْتِ الحَياةِ، يُقالُ: مَوْتٌ، قالَ تَعَالى: ﴿أَفَإِيْن مَّاتَ أَوۡ قُتِلَ﴾ [آل عمران: 144][2]، وقَتَلْتُهُ قَتْلًا: أَزْهَقْتُ رُوحَهُ[3].

سبيل الله غاية كلّ مُؤمن مُخلص صادق

2) ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾: السّبيلُ مِنَ الجَذْرِ (سبل)، وهو في الأَصْلِ يَدُلُّ عَلَى إِرْسَالِ شَيْءٍ مِن عُلُوٍّ إِلَى سُفْلٍ، وعَلَى امْتِدَادِ شَيْءٍ، والمُمْتَدُّ طُولًا: السّبيلُ، وهُوَ الطَّرِيقُ، سُمِّيَ بِذَلِكَ لِامْتِدَادِهِ[4]، والسّبيلُ: الطّريقُ الّذي فيه سُهُولَةٌ، وجَمْعُه سُبُلٌ، ويُسْتَعْمَلُ السّبيلُ لكلِّ ما

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (قتل).
(2) الرَّاغب، المفردات: (قتل).
(3) الفيّوميّ، المصباح المنير: (قتل).
(4) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (سبل).

يُتَوَصَّل به إلى شَيْءٍ؛ خيرًا كان أوْ شَرًّا، قال تعالى: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ﴾ [النّحل: 125][1].

المـــوت زوال القُوّة الحيوانيّة وإبانة الرّوح عن الجسد

3) ﴿أَمۡوَٰتُۢ﴾: أَصْلُ مادّة (موت) يَدُلُّ عَلَى ذَهَابِ القُوَّةِ مِنَ الشَّيْءِ[2]، وأَنْوَاعُ المَوْتِ بِحَسَبِ أَنْوَاعِ الحَيَاةِ: فالأوّلُ -وهُو المَعْنيُّ في الآيةِ-: مَا هُوَ بِإِزَاءِ القُوَّةِ النَّامِيَةِ المَوْجُودَةِ في الإِنْسَانِ والحَيَوَانَاتِ والنَّبَاتِ، كما في قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمۡوَٰتَۢاۚ بَلۡ أَحۡيَآءٌ﴾ [آل عمران: 169]، ونَفَى المَوْتَ عَن أَرْوَاحِهِم تَنْبِيهًا عَلَى تَنَعُّمِهِمْ، وأمّا قَوْلُهُ ﷻ: ﴿كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۗ﴾ [آل عمران: 185] فالمعنى: زَوَالِ القُوَّةِ الحَيَوَانِيَّةِ وإِبَانَةِ الرُّوحِ عَن الجَسَدِ[3].

الحـيـاة وجـود القـوّة النّاميّة والـحـركـة في جسد الإنسان

4) ﴿أَحۡيَآءٌ﴾: مِنَ الجَذْرِ (حيي)، وأَصْلُ المادّة يدل على خِلَافِ المَوْتِ[4]، والحَيَا: المطرُ؛ لأنّه يُحيي الأَرْضَ بعْدَ مَوْتِها، وإلى هذا أَشَارَ تَعَالى بقوله: ﴿وَجَعَلۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ كُلَّ شَيۡءٍ حَيٍّۚ﴾ [الأنبياء: 30]، والحياةُ تُسْتَعمَلُ على أَوْجهٍ؛ الأوّلُ: لِلقُوّةِ النّامِيَةِ الموجُودَةِ في النّباتِ والحَيَوانِ، ومِنْهُ قيلَ: نَبَاتٌ حَيٌّ، قال ﷻ: ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ﴾ [الحديد: 17]، ومنها: عِبَارَةٌ عن ارتفاع الغَمّ، وعلى هذا قَوْلُه ﷻ: ﴿وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمۡوَٰتَۢاۚ بَلۡ أَحۡيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمۡ﴾ [آل عمران: 169]، أي: هُمْ مُتَلَذّذونَ[5].

الـشّـعـور هو العلم بالشّيء، والـفـطـنـة لـه، والإحساس به

5) ﴿تَشۡعُرُونَ﴾، مِنَ الجَذْرِ (شعر)، وهو في الأَصْلِ يَدُلُّ عَلَى عِلْمٍ وعملٍ، وقَوْلُهُم: شَعَرتُ بِالشَّيْءِ، إذَا عَلِمْتَهُ وفَطِنْتَ لَهُ[6]، وشَعَرْتُ: أصبت الشَّعْرَ، ومنه استُعيرَ: شَعَرْتُ كذا، أيْ: عَلِمْتُ عِلْمًا في الدّقّةِ كإِصَابَةِ الشَّعْرِ، وسُمّيَ الشَّاعِرُ شاعِرًا لِفِطْنَتِه ودِقّةِ مَعْرِفتِه،

(1) الرَّاغب، المفردات: (سبل).
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (موت).
(3) الرَّاغب، المفردات: (موت).
(4) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (حي).
(5) الرَّاغب، المفردات: (حيى).
(6) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (شعر).

فَالشِّعْرُ في الأَصْلِ اسْمٌ لِلعِلْمِ الدَّقِيقِ، وقَولُهم: لَيْتَ شِعْرِي، أي: لَيْتَني عَلِمْتُ[1]، والمَشَاعِرُ: الحواسُّ، وقَوْلُه ﷻ: ﴿وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ۝٢﴾ [الحجرات: 2]، ونحْوُ ذلِكَ، مَعْناه: لا تُدْرِكُونه بالحواسِّ[2].

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

هَذِهِ الآيَةُ تَوْجيهٌ للمُؤمنينَ، يُؤكّد لهُم أَنْ لا يقُولُوا لِلَّذِينَ يُقْتَلُونَ مُجَاهِدِينَ في سَبِيلِ اللّهِ: (هُم أَمْوَاتٌ)، بَل هُم أَحْيَاءٌ حَيَاةً خَاصَّةً بِهِم في قُبُورِهِمْ، لَا يَعْلَمُ كَيْفِيَّتَهَا إِلَّا اللّهُ تَعَالَى، ولَكِنَّكُم لَا تُحِسُّونَ بِهَا[3]، ويُؤَيِّدُ ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ۝١٦٩﴾ [آل عمران: 169][4]، ولَقَد صَوَّرَ النَّبِيُّ الموحى إليهِ ﷺ حَيَاتَهُمْ، إذ قالَ: "إنَّ أَرْواحَ الشُّهداءِ في حَواصِلِ طَيرٍ خُضْرٍ، تسْرحُ في الجَنّةِ حَيثُ شاءَتْ، ثُمَّ تأْوِي إلى قَنَاديلَ مُعلَّقَةٍ تَحتَ العَرْشِ"[5].

الشّهادَةُ وِسامٌ يُعَلّقُهُ الشَّهيدُ عَلى جَبينِ أُمَّتِهِ

الإِيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

سِرُّ الْوَصْلِ بَيْنَ جملَةِ الأمرِ وجُملَةِ النَّهي:

عُطِفَ النَّهيُ في قَوْلِهِ ﷻ: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟﴾ على الأَمْرِ في الْجُمْلَةِ السَّابِقَةِ: ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ﴾؛ فهو من بابِ عَطْفِ الإنشاءِ على الإنشاءِ، وهو "مَسُوقٌ لِبَيَانِ أَنْ لَا غَائِلَةَ لِلْمَأْمُورِ بِهِ، وَأَنَّ الشَّهَادَةَ

الصَّبْرُ مبدأٌ تمامُه حياةٌ غَيْبيَّةٌ

(1) الجوهريّ، الصّحاح: (شعر).

(2) الرّاغب، المفردات: (شعر).

(3) نخبة من العلماء، التّفسير الميسّر، ص: 24.

(4) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 1/469.

(5) الحديث رواه مسلم، عَن مَسْرُوق قَالَ: سألْنا عَبْدَ اللّه أي ابن مسعود عَن هَذه الآيَة: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ۝١٦٩﴾ [آل عمران: 169]، قَالَ: أَمَا إِنَّا قَد سألنا عَن ذَلِكَ، فَقَالَ: «أَرْوَاحُهُم في جَوْفِ طَيْرٍ خُضْرٍ، لَهَا قَنَادِيلُ مُعَلَّقَةٌ بِالْعَرْشِ، تَسْرَحُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ شَاءَتْ، ثُمَّ تَأْوِي إِلَى تِلْكَ الْقَنَادِيلِ، فَاطَّلَعَ إِلَيهِم رَبُّهُمُ اطِّلَاعَةً، فَقَالَ: "هَل تَشْتَهُونَ شَيْئًا؟ قَالُوا: أَيّ شَيْءٍ نَشْتَهِي ونَحْنُ نَسْرَحُ مِنَ الْجَنَّةِ، حَيْثُ شِئْنَا؟! فَفَعَلَ ذَلِكَ بِهِم ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، فَلَمَّا رَأَوْا أَنَّهُم لَن يُتْرَكُوا مِن أَن يُسْأَلُوا، قَالُوا: يَا رَبِّ، نُرِيدُ أَن تَرُدَّ أَرْوَاحَنَا في أَجْسَادِنَا حَتَّى نُقْتَلَ في سَبِيلِكَ مَرَّةً أُخْرَى، فَلَمَّا رَأَى أَن لَيْسَ لَهُم حَاجَةٌ تُرِكُوا»، صحيح مسلم، حديث رقم: (1887).

الَّتِي رُبَّمَا يُؤَدِّي إِلَيْهَا الصَّبْرُ حَيَاةٌ أَبَدِيَّةٌ"[1]، فجمْلَةُ النَّهي تتميمٌ لمَا بدأَتْه جملةُ الأمرِ، إذ هي تمامُ الصَّبرِ.

تعيينُ مُرادِ النّهْيِ مبنيٌّ على مقصدِ السِّياق في قولِه: ﴿وَلَا تَقُولُواْ﴾:

الاعتقادُ أصْلُ الأعمالِ والأقوالُ ثمرتُه

النَّهْيُ عَنِ الْقَوْلِ فِي قَوْلِهِ ﷻ: ﴿وَلَا تَقُولُواْ﴾، لَيْسَ الْمُرَادُ مِنْهُ النَّهْيَ عَنِ التَّلَفُّظِ، بَلْ عن الاعْتِقَادِ الفاسد، والْقَوْلُ دَلِيلُ الاعْتِقَادِ، وَقَدْ صَرَّحَ بِالنَّهْيِ عَنِ الاعْتِقَادِ فِي آيَةٍ أُخْرَى، فِي مَعْنَى هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ، وَفِي مَوْضُوعِهَا فَقَالَ: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتَۢاۚ بَلۡ أَحۡيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمۡ يُرۡزَقُونَ ١٦٩﴾ [آل عمران: 169][2].

إيثارُ التّعبير بالمُضارِعِ في قوله: ﴿لِمَن يُقۡتَلُ﴾:

التَّنبيهُ على المُستقبلِ للاستعدادِ له

وَقَعَ التَّعْبِيرُ بِالْمُضَارِعِ فِي قَوْلِهِ ﷻ: ﴿لِمَن يُقۡتَلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، الْمُشْعِرِ بِأَنَّهُ أَمْرٌ سوف يقع في المستقبل، إِذْ وقَعَتْ غزوَةُ بَدْرٍ بُعَيدَ نُزُولِ هَذِهِ الْآيَةِ؛ فَغَزْوَةُ بَدْرٍ وَقَعَتْ بَعْدَ تَحْوِيلِ الْقِبْلَةِ بِنَحْوِ شَهْرَيْنِ[3]، فهي تنبيهٌ على أمرٍ سيقعُ قريبًا، وعلى المُؤمنين الاستعدَادُ له.

فائدةُ قَيْدِ: ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾:

الأعمالُ بمقاصِدِها

قَوْلُهُ ﷻ: ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، تَقْيِيدٌ وَتَخْصِيصٌ، فَلَيْسَ كُلُّ مَنْ يُقْتَلُ سَيَكُونُ ضِمْنَ من وَصَفَتهم الْآيَةُ، فلو قَالَ: (وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ أَمْوَاتٌ بل أحياءٌ)، لمَا كَانَ هُنَاكَ فَائِدَةٌ وَخُصُوصِيَّةٌ، وَهَذَا الْقَيْدُ يُبَيِّنُ أَهَمِّيَّةَ الْإِخْلَاصِ وَالنِّيَّةِ، وَأَنَّ الْأَعْمَالَ بِمَقَاصِدِهَا[4].

فنُّ الطِّباقِ في قَوْلِهِ: ﴿أَمۡوَٰتُۢۚ بَلۡ أَحۡيَآءٌ﴾:

بضدّها تتميّز الأشياء

قَابَلَتِ الآيةُ بَيْنَ الكَلِمةِ وضِدِّها؛ فقوله ﴿أَمۡوَٰتُۢۚ﴾ نقيضُ قوله: ﴿أَحۡيَآءٌ﴾، أي: لا تعتقدوا موتَهم بل اعلموا أنَّهم على عكسِ ذلك

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 1/179.
(2) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 1/468.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/52-53.
(4) الدّبل، من غريب بلاغة القرآن الكريم، ص: 477.

وهو الحياةُ، وهُو من المُحَسِّنات المَعْنَويَّة؛ فتقابُلُ المَعْنَيَين، ممّا يزيدُ الكلامَ حُسْنًا وطَرَافةً ووضوحًا واستجلاءً.

دَلَالَةُ حَذْفِ المفعُولِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ﴾:

أيْ: ولكِنْ لا تَحسُّونهم بِمرْأَى العَينِ، وَذَلكَ لَا يَقْتَضِي أنّهُمْ ماتُوا، بَلْ هُمْ عِنْدَ رَبِّهم يُرْزَقون[1]، وهو تَنْبيهٌ على أنَّ حَياتَهم لَيْسَتْ بِالجَسَدِ، ولا مِن جِنْسِ ما يُحسُّ بِهِ مِن الحَيَواناتِ، وإنّما هي أَمْرٌ لا يُدْرَكُ بالعَقْلِ، بلْ بِالوَحْيِ[2]، لأَنّ حياتَهُم لا نَشْعرُ بِها؛ فهي لَيْسَتْ مادِّيَّةً، بحَيْثُ تُدْرِكُها حَواسُّنا، ولَيْسَتْ بِمَعْنى القُوّةِ الّتي تكون مَبْدأً لِلْحِسِّ والحَرَكةِ الإرادِيّةِ، بِدَلالةِ أنّا لا نَحُسُّ مِنهُم ما يَترتَّبُ علَيْها، فَالمُرادُ بِحياةِ الشُّهداءِ أَمْرٌ لا يُدْرَكُ بالحِسِّ والعَقْلِ، بلْ بالوَحْيِ[3]، و"حَذَفَ مَفْعُولَ ﴿تَشْعُرُونَ﴾ لِدَلَالَةِ فَحْوَى الْكَلَامِ عَلَيْهِ"[4]، وَلِرِعَايَةِ الْفَاصِلَةِ[5].

الغَيْبُ لا يُحسُّ في الدُّنيا بل يُعتَقَدُ

توجيهُ المُتَشابه اللّفظيّ:

قال تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتُۢۚ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ١٥٤﴾ [البقرة: 154]، وقال في آية آل عمران: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتَۢاۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ١٦٩﴾ [آل عمران: 169]؛ فيُسألُ عن سرِّ اختلافِ النَّظم بين الآيتين؟

والجواب: أنَّ النّهيَ في الأُوْلى مُتَسلِّطٌ على القَولِ: ﴿وَلَا تَقُولُواْ﴾، أمّا في الثّانيَةِ؛ فالنّهيُ عنِ الظَّنِّ ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ﴾، وفي الأُوْلى الخِطابُ عامٌّ لكلِّ من يُقْتَلُ لقوله ﴿لِمَن يُقْتَلُ﴾، وفي الثّانيةِ الخِطابُ خَاصٌّ لمعهودِينَ ﴿ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ﴾، فالخطاب العامّ يُناسِبُ الآية الأولى؛ لإنّهُ يُقرِّرُ ويُمهِّدُ ما سَيَقعُ، وما يجِبُ الاسْتعدادُ لهُ، فأخبرهم أنّهُ سيكُونُ

المُؤمنون مأمورون باعتقادِ حياةِ الشُّهداءِ قبلَ موتِهم استعدادًا وبعدَ موتِهم استبشارًا

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 1/469.
(2) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 1/114.
(3) زاده، حاشية على البيضاويّ: 2/391-392.
(4) زاده، حاشية على البيضاويّ: 2/391.
(5) القُونَويّ، حاشيةٌ على البيضاويّ: 4/369.

قتالٌ، وسيقَعُ قَتْلى، ونهاهم عن وصْفِهم بالموت، وهُو مُناسِبٌ للقول بأنّها نَزَلتْ قَبْلَ مَعركةِ بَدرٍ، وأمّا الخِطابُ بالاسْمِ الموصول ﴿ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ﴾ الدّالّ على قَوم بِعَينِهم، فَجَاء في سُورةِ آلِ عِمْران، في سِياقِ مَعْركةِ أُحُدٍ، فالحَديثُ هنا عن قوم قُتِلوا ونالوا الشّهادة، فقتْلُهم مُنجزٌ وواقعٌ، فالحَدَثُ واقِعٌ، ولَيْسَ في مَعْرَضِ التّهيئةِ لَهُ، والفائِدَة التّطبيقيَّةُ أنَّ كلَّ آيةٍ تُذكَرُ بما يُناسِبُها في الواقعِ، فيُخاطَبُ بمن يستعدُّ للجهادِ بآية البقرةِ، وتُتلى آيةُ آل عمران على منِ استُشهِدَ، وهذا من فِقهِ تنزيلِ الآياتِ على الواقِعِ.

﴿وَلَنَبۡلُوَنَّكُم بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلۡخَوۡفِ وَٱلۡجُوعِ وَنَقۡصٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٥٥﴾ [البقرة: 155]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

نُقْلَة متوالِيَةٌ مِنَ الوَعظ إلى وصْفِ الابتِلاءاتِ المُسْتَوجِبَةِ لِلصّبرِ

الآيَةُ مِنْ تَمَامِ الحَدِيثِ عَنِ المَوْضُوعَاتِ المُتَرَتِّبَةِ عَلَى الأَمْرِ بِالاسْتِعَانَةِ بِالصَّبْرِ والصَّلَاةِ، فَلَمَّا سَبَقَ في الآيَةِ الحَدِيثُ عَنِ النَّهْيِ عَنْ وصْفِ مَن قُتِلَ في سَبِيلِ اللّه بأَنَّهُ مَيِّتٌ، انْتَقَلَ إلى بَيَانِ أَنْوَاعِ الابْتِلَاءَاتِ الَّتِي تَسْتَوْجِبُ الصَّبْرَ.

شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

الابتلاء اختبار بتسليط شدّة تهزّ الوجدان

1) ﴿وَلَنَبۡلُوَنَّكُم﴾: مِنَ الجَذْرِ (بَلَوَ، بَلَي)، وأَصْلُ المادّةِ يدل على إِخْلَاقِ الشَّيْءِ، وأيضًا على نَوْعٍ مِنَ الاخْتِبَارِ[1]، وهو حَوْزُ الشَّيءِ بشِدّةٍ، لِمدًى طويل، ويَلْزَمُهُ بَيَانُ حَالِ الشَّيْءِ الّذي حِيزَ في شدَّة، وابْتلاهُ اللّه: اخْتَبَرَهُ، كأنّما اخْتَبرَ صَبْرَه وتحمُّلَهُ بالاحْتِباسِ والبَقَاءِ على وضْعٍ شَديدٍ[2]، والمراد في الآية: الاخْتِبارُ بتَسليطِ شدَّةٍ.

الخوف حالة نفسيّة مزلزلة لكيان الانسان

2) ﴿ٱلۡخَوۡفِ﴾: مِنَ الجَذْرِ (خَوَفَ)، وهو في الأَصْلِ يَدُلُّ عَلَى الذُّعْرِ والفَزَعِ[3]، والخَوْفُ: تَوَقُّعُ مَكْروهٍ عن أَمَارةٍ مَظْنونةٍ، أو مَعْلومَةٍ، كما أنّ الرَّجاءَ والطَّمعَ توقُّعُ مَحبوبٍ عَن أَمَارةٍ مَظْنونةٍ، أو مَعْلومَةٍ، ويضادُّ الخوفَ الأَمْنُ، ويُسْتعملُ ذلك في الأُمُورِ الدُّنْيَويّةِ والأُخْرَويّةِ[4].

الجوع ألم وحرمان ومعاناة

3) ﴿وَٱلۡجُوعِ﴾: مِنَ الجَذْرِ (جَوَعَ)، والجُوعُ ضِدُّ الشِّبَعِ، ويُقَالُ: عَامُ مَجَاعَةٍ ومَجُوعَةٍ[5]، والجُوعُ: الأَلَمُ الّذي يَنالُ الحيوانَ مِنْ خُلُوِّ

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (بلو- بلي).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (بلو).
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (خوف).
(4) الرَّاغب، المفردات: (خوف).
(5) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (جوع).

المَعِدَةِ من الطَّعام، والمَجَاعةُ: عِبارةٌ عن زَمانِ الجَدْبِ، ويُقالُ: رَجُلٌ جائِعٌ وجَوعانُ: إذا كَثُرَ جُوعُهُ[1].

النّقص أخذٌ من الشّيء حتّى يتقلّص ويضمحلّ

4) ﴿وَنَقْصٍ﴾: مِنَ الجَذْرِ (نقص)، والنَّقْصُ: خِلَافُ الزِّيَادَةِ[2]، وكذلك الخُسْرَانُ في الحَظِّ[3]، وانتَقَص الشّيءَ، وتَنَقَّصَه: أَخذَ منه قَليلًا قليلًا، فيقِلُّ جِرْمُه، أو يَخِفُّ بعد ذهابه، وسائِرُ ما في القرآن من التَّركيبِ هوَ منَ النّقص بهذا المعْنَى[4].

حبّ المال مغروسٌ في قلوب الرّجال

5) ﴿ٱلْأَمْوَٰلِ﴾: مِنَ الجَذْرِ (مَوَلَ)، والمالُ: ما مَلَكْتَه من جَميع الأشياءِ[5]، فهُوَ: مادَّةُ الأثْمانِ والنَّفَقةِ الّتي تُتِيحُ الشِّراءَ، وتَتَحصَّلُ من البَيعِ أو الإرْثِ، أو أجْرِ العَمَلِ؛ كالإبلِ وسائرِ المالِ المَمْلوكِ، وكلُّ ما في القرآن من التّركيبِ هو المالُ المَمْلوكُ[6].

أهمّ مقاصد الدّين الحفاظ على الأنفس

6) ﴿وَٱلْأَنفُسِ﴾: مِنَ الجَذْرِ (نفس)، وأَصْل المادّة يَدُلُّ عَلَى خُرُوجِ النّسيم، مِن رِيحٍ أَو غَيْرِهَا، ويُقَالُ: لِلْمَاءِ نَفَسٌ؛ لِأَنَّ قِوَامَ النَّفْسِ بِهِ، والنَّفْسُ قِوَامُهَا بِالنَّفَسِ[7]، وهي: الرُّوحُ في قوله تعالى: ﴿أَخْرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُۖ﴾ [الأنعام: 93][8].

الثّمرات كلّ قطاف يطعمه البشر

7) ﴿وَٱلثَّمَرَٰتِۗ﴾: مِنَ الجَذْرِ (ثمر)، والثَّمَر هُوَ شَيْءٌ يَتَوَلَّدُ عَن شَيْءٍ مُتَجَمِّعًا[9]، وهو اسْمٌ لكُلِّ ما يُتَطعَّم من أَحْمالِ الشَّجَرِ، كقَوْلِه تعالى: ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْۖ﴾ [البقرة: 22][10]، فالثَّمراتُ: ما يُجْنَى من شجر الفاكِهَةِ ونَحْوِه[11].

---

(1) الرَّاغب، المفردات: (جوع).
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (نقص).
(3) الرَّاغب، المفردات: (نقص).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (نقص).
(5) ابن منظور، لسان العرب: (مول).
(6) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (مول).
(7) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (نفس).
(8) الرَّاغب، المفردات: (نفس).
(9) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (ثمر).
(10) الرَّاغب، المفردات: (ثمر).
(11) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (ثمر).

البشارة تبهج النّفس وتفتح الأمل

8) ﴿وَبَشِّرِ﴾: مِنَ الجَذْرِ (بشر)، وهو في الأَصْلِ ظُهُورُ الشَّيْءِ مَعَ حُسْنٍ وجَمَالٍ، فَالبَشَرَةُ: ظَاهِرُ جِلْدِ الإِنْسَانِ، ويُقَالُ: بَشَّرْتُ فُلَانًا بِالخَيْرِ، وبالشَّرِّ، فَأَمَّا إِذَا أُطْلِقَ الكَلَامُ إِطْلَاقًا فَالبِشَارَةُ بِالخَيْرِ والنِّذَارَةُ بِغَيْرِهِ[1]، وتعني: الإِخْبارَ بِخَبرٍ سارٍّ يَبْسُطُ بَشَرَةَ الوَجْهِ[2].

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

البَلاءُ بِالمَصائِبِ يُظْهِرُ الطِّباعَ، ويُسْفِرُ عَنْ أَخْلاقِ الرِّجالِ

ولَنَخْتَبِرَنَّكُمْ بِشَيْءٍ يَسِيرٍ مِنَ الخَوْفِ، ومِن الجُوعِ، وبِنَقْصٍ مِن الأَمْوَالِ، بِتَعَسُّرِ الحُصُولِ عَلَيْهَا، أَو ذَهَابِهَا، ومِن الأَنْفُسِ: بِالمَوْتِ، أَوِ الشَّهَادَةِ في سَبِيلِ اللهِ، وبِنَقْصٍ مِن الثَّمَرَاتِ بِقِلَّةِ نَاتِجِهَا، أَو فَسَادِهَا، وبَشِّرْ أَيُّهَا النَّبِيُّ الصَّابِرِينَ عَلَى هَذَا وأَمْثَالِهِ بِمَا يُفْرِحُهُم ويَسُرُّهُم مِن حُسْنِ العَاقِبَةِ في الدُّنْيَا والآخِرَةِ[3].

فأَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّهُ لَا بُدَّ أَن يَبْتَلِيَ عِبَادَهُ بِالمِحَنِ، لِيَتَبَيَّنَ الصَّادِقُ مِن الكَاذِبِ، والجَازِعُ مِن الصَّابِرِ، وهذِهِ سُنَّتُهُ تَعَالى في عِبادِهِ[4]، كما في قولِهِ ﷻ: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ ۝٣﴾ [العنكبوت: 2- 3].

الإِيضاحُ اللُّغويُّ والبلاغيُّ:

فائِدَةُ العَطْفِ في قوله: ﴿وَلَنَبۡلُوَنَّكُمۡ﴾:

عطفُ المقصدِ على المقدِّمة

الجُمْلَةُ مَعْطوفَةٌ على قولِهِ ﷻ: ﴿ٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ﴾ [البقرة: 153]، عَطْفَ المقصدِ على المقدِّمة[5]، فوقُوعُ الابْتِلاءِ كان لا بُدَّ لَه مِنْ تَمهيدٍ بالأَمْرِ بالصَّبرِ مقدِّمةً لَهُ.

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (بشر).
(2) الرَّاغب، المفردات: (بشر).
(3) نخبة من العلماء، التّفسير الميسّر، ص: 24.
(4) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 76.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/54.

فائِدَةُ القَسَمِ في قوله: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم﴾ التَّأكيدُ على وقوعِ الابتلاءِ:

النَّفسُ تنأى عن توقُّعِ الابتلاءِ والاستعدادِ لمَا بعدَه

اللَّامُ في قولِه تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم﴾[1]، "جَوَابُ قَسَم مَحْذُوفٍ، أَي: واللهِ لَنُعَامِلَنَّكُم مُعَامَلَةَ المُبْتَلَى؛ هَل تَصْبِرُونَ عَلَى البَلَاءِ وتَسْتَسْلِمُونَ لِلْقَضَاءِ"[2] وفائدةُ القَسَمِ التّأكيدُ على أهميّة ما جاءَ القَسمُ لأجْلِه، والإشعارُ بِعَظَمَتِه، وهو الابْتِلاءُ في الحياةِ، والتَّأكيدُ على وقوعِهِ لا محالةَ[3]، ويُؤكِّد ذلك مجيءُ القسَمِ بِصيغَةِ تَعْظيم المُتَكَلِّم؛ لِلإشْعارِ بِأهَمِّيَّةِ المَعْنَى المُضَمَّنِ في الكَلامِ، وهُوَ الابْتِلاءُ؛ فإنَّ النَّفسَ تنأى عن توقُّعِه والاستعدادِ لمَا بعدَه، ولذلك فالخِطَابُ لَا يُرَادُ بِهِ مُعَيَّنٌ، بَل هُوَ عَامٌّ، لَا يَتَقَيَّدُ بِزَمَانٍ ولَا بِمُخَاطَبٍ خَاصٍّ، فَكَأَنَّهُ قِيلَ: ولَنُصِيبَنَّ بِكَذَا، فَيَكُونُ في ذَلِكَ تَحْذِيرٌ، وأَنَّهُ لِلصَّحَابَةِ وغَيْرِهِمْ[4].

دلالةُ المُضارِعِ ونونِ الجَمْعِ والجملةِ الخبريَّةِ في قوله: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم﴾:

توطئةٌ تربويَّةٌ لتَوطينِ النَّفْسِ على التَّحَمُّلِ عندَ وقوعِ الابْتِلاءِ

آثَرَتِ الآيةُ التَّعبير بالفعلِ المُضارِعِ في قوله: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم﴾؛ إيذانًا بِتَحْقيقِ الابتلاءِ في الواقِعِ؛ توطئةً تربويَّةً لتَوطينِ النَّفْسِ على التَّحَمُّلِ، والصَّبْرِ على أقْدارِ اللهِ تعالى[5]، ويُؤكِّد ذلك مجيءُ الخطابِ في قوله: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم﴾ بصيغة المتكلّمين، أي (لنبلُونّكُمْ نَحْنُ) بتعظيم المتكلّم؛ للإشعار بأهميّة المعْنَى المُضَمّن في الكلام، وهو الابتلاء، و"الإتيانُ بالجملة الخبريّة مُقْسَمًا عليها، من باب التّأكيد لوقوع الابتلاء، وإسناد الفعل إليه صريحٌ في إضافته أسباب البلايا إليه، وأنّ هذه المحن من الله تعالى"[6].

---

(1) الواحديّ، البسيط: 3/424.
(2) إسماعيل حقّي، روح البيان: 1/260.
(3) الرّوينيّ، من غريب بلاغة القرآن الكريم، ص: 478.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/54.
(5) الدّبل، دليل البلاغة: 1/214.
(6) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 3/56.

فَائِدَةُ تَقْيِيدِ الابْتلاءِ بِلفْظِ: ﴿بِشَيْءٍ﴾:

التَّهوينُ من المَصائبِ فمَهْمَا كبُرَتْ في نفسِ المُبتلى فقليلةٌ في الواقعِ

الآيَة قَيَّدَتِ الابْتِلَاءَ بِالجَارِّ والمَجْرُورِ ﴿بِشَيْءٍ﴾، وأفادَ لفظُ التَّنْكِيرِ التَّقْلِيلَ، أَيْ: بِشَيْءٍ قَلِيلٍ؛ فَجِيءَ بِهَذِهِ الكَلِمَةِ تَهْوِينًا لِلْخَبَرِ المُفْجِعِ[1]، "وَالتَّقْلِيلُ المُسْتَفَادُ مِن تَنْكِيرِ شَيْءٍ، فيهِ إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ مَا يَدْخُلُ تَحْتَ قُدْرَةِ اللهِ تَعَالَى، مِن وُجُوهِ المُصِيبَةِ كَثِيرٌ مُتَفَاوِتٌ، بَعْضُهُ أشدُّ هَوْلًا مِن بَعْضٍ؛ فَإِنَّ مَا يَتَعَلَّقُ مِنْهَا بِالدِّينِ، أَشْنَعُ وأَفْظَعُ مِن مَصَائِبِ الدُّنْيَا، الَّتِي هِيَ مُتَفَاوِتَةٌ أَيْضًا، وهَذِهِ الإِشَارَةُ ذَرِيعَةٌ إِلَى تَسْلِيَةِ المُصَابِ بِتَخْفِيفِ مَا أَصَابَهُ بِالنِّسْبَةِ إِلَى مَا وقَاهُ في الدُّنْيَا"[2].

نكتةُ إيثارِ إفرادِ شَيْءٍ عَلى الجَمْعِ:

المُؤْمِنُ عَلى يَقينٍ بِأَنّ ما وقاهُ اللهُ في دُنْياهُ، أَكْثَرُ مِمّا أَصابَهُ

آثَرَ النَّظمُ الكريمُ إفرادَ شَيْءٍ على جمعِها، إرادةً للتّقليلِ مِن شَأْنِ الابْتِلاءِ، أي: "بِقَلِيلٍ مِن كُلٍّ واحِدٍ مِن هَذِهِ البَلَايَا، وطَرَفٍ مِنْهُ"[3]، "وَلَم يَقُلْ: (بِأَشْيَاءَ)؛ لأنَّه جَاءَ عَلَى الاخْتِصَارِ، والمَعْنَى يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ: وشَيْءٍ مِن الخَوْفِ، وشَيْءٍ مِن الجُوعِ، وشَيْءٍ مِن نَقْصِ الأَمْوَالِ والأَنْفُسِ"[4]، قال أبو حَيّانَ: "أَفْرَدَهُ لِيَدُلَّ عَلَى التَّقْلِيلِ، إذ لَو جَمَعَهُ فَقَالَ: بِأَشْيَاءَ، لَاحْتَمَلَ أَن تَكُونَ ضُرُوبًا مِن كُلٍّ واحِدٍ مِمَّا بَعْدَهُ"[5]، وفي التّفسيرِ البَسيطِ أَلْمَحَ إلى أنّ لَفْظَةَ (مِنْ) أَغْنَتْ عَن ذَلِك: "وَلَم يَقُلْ: بِأَشْيَاء، وقَد ذَكَرَ بَعْدَهُ مَا هُوَ أَشْيَاءُ؛ لِمَكَانِ (مِنْ)، والمَعْنَى: بِشَيْءٍ مِن الخَوْفِ وشَيْءٍ مِن الجُوعِ، وهُوَ كَقَوْلِ القَائِلِ: أَعْطِنِي شَيْئًا مِن الدَّرَاهِمِ، ومِن الطَّعَامِ، فَيَصِيرُ (شَيْء) كَالمُكَرَّرِ في المَعْنَى، ولَو كَانَ (بِأَشْيَاء) كَانَ صَوَابًا"[6]، والمُرادُ من ذلكَ التَّقليلُ: أَي

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/54.
(2) زاده، حاشية على البيضاويّ: 2/293-294.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/207.
(4) الزّجّاج، معاني القرآن: 1/230.
(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/54.
(6) الواحديّ، البسيط: 3/425.

بِقَلِيلٍ مِن ذَلِكَ، فَإِنَّ مَا وقَاهُم منْهُ أَكْثَرُ بِالنِّسْبَةِ إِلَى مَا أَصَابَهُمْ بِأَلْف مَرَّةٍ، وكَذَا مَا يُصِيبُ بِهِ مُعَانِدِيهِمْ"[1].

نكتةُ ذكرِ شَيْءٍ دونَ حذْفِها:

النَّصُّ على إرادةِ التَّقليلِ لتسليةِ المُؤمنين وحثِّهم على الصَّبرِ

من المَعلومِ أنّ التّنكيرَ يفيدُ التَّعْظيمَ، والتّنويعَ، والتّقليلَ، وفي سِيَاقِ الآية، لو قالَ: (ولنَبْلُوَنَّكُمْ بِخَوْفٍ وجوعٍ)، لاحْتَمَلَ التَّنْكيرُ التّعظيمَ للخَوفِ والجُوعِ، ولكنّهُ تَعالى أَرادَ التّخفيفَ، فقالَ: ﴿بِشَيْءٍ﴾ بصيغةِ التّنكيرِ؛ لِأَنَّ كلِمَةَ (شَيْءٍ) من الأجناسِ العاليةِ[2]، فإذا أضيفت إلى اسْمِ جنْسٍ، فإنّها تُفيدُ التّقليلَ؛ لأنَّ الاقْتصارَ على اسمِ الجنْسِ الّذي ذكرَهُ المتكلِّمُ بَعْدَها، لو شاء المتكلِّمُ لأَغْنى عنها، فما ذَكَرَ كَلمةَ شَيءٍ، إلّا والقَصْدُ أن يدُلَّ على أنّ تَنكيرَ اسمِ الجنْسِ، لَيْسَ لِلتَّعظيمِ، ولا لِلتّنويعِ، فبقيت له الدّلالةُ على التّحْقيرِ[3]؛ فعُلِمَ أنَّ هذه الدّلالةَ مرادَةٌ لذاتِها، وهو ما يزيدُ من تسليةِ المُؤمنين عندَ وقوعِ الابتلاءِ، وَطُمَأْنينَتِهم بمرورِه وذهابِ أثرِه.

التَّنكيرُ في قوله: ﴿وَنَقْصٍ﴾؛ لبيانِ لُطْفِ الله بعبادِه:

قولُهُ تَعالى: ﴿وَنَقْصٍ﴾ مَعْطوفٌ على قوله: ﴿بِشَيْءٍ﴾، أو على: ﴿ٱلْخَوْفِ﴾، بمعنى: وشَيْءٍ مِن نَقصِ الأَمْوالِ[4]، عَطْفَ نكرةٍ على نكرةٍ، والغايةُ التّقليلُ والتَّهوينُ مِن ذلِكَ النَّقْصِ، فهُو تهوينٌ لِلابْتلاءِ؛ فلَيْسَ المُرادُ أن يُهلِكَهُم[5]، بلِ المُرادُ تقريبُهم بالأجرِ والثَّوابِ النَّاشئِ عن الصَّبرِ والرِّضا.

عَطفُ الخاصِّ عَلى العامِّ لِلاهْتِمامِ:

عطْفُ الثمراتِ في قَولِه تعالى: ﴿وَٱلثَّمَرَٰتِۗ﴾، من عطْفِ الخاصِّ على العامِّ؛ فإنَّ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 1/180.

(2) كلمة (شَيْءٍ) اسْمٌ عَامٌّ مِنَ الأجناس العالية، وهي المقولات العشرة، ذَاتِ الْعُمُومِ الْكَثِيرِ، قِيلَ: هُوَ الْمَوْجُودُ، وَقِيلَ: هُوَ مَا يُعْلَمُ وَيَصِحُّ وُجُودُهُ، وَالْأَظْهَرُ فِي تَعْرِيفِهِ أَنَّهُ الْأَمْرُ الَّذِي يُعْلَمُ، وَيَجْرِي عَلَيْهِ الْإِخْبَارُ سَوَاءٌ كَانَ مَوْجُودًا أَوْ صِفَةَ مَوْجُودٍ أَوْ مَعْنًى يُتَعَقَّلُ وَيُتَحَاوَرَ فِيهِ، ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/166.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/54-55.

(4) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/207.

(5) الدّبل، دليل البلاغة: 1/215.

نَقْصَ الثَّمَراتِ كان مَفهومًا مِنْ قوله: ﴿ٱلْجُوعِ﴾، وجاءَ ذلك العطفُ "لِشُمُولِ الأَمْوَالِ لِلثَّمَرَاتِ وغَيْرِهَا"[1]، فَذكرَهُ لأهميّةِ ذلِكَ الخاصِّ في حَياتِهِمْ؛ فإنَّ النَّصَّ على ما يكون بَيْنَ الأيدي أدعى للاستعدادِ والتَّوطئةِ ممَّا لو لم يكن كذلك.

السِّرُّ في تَرْتيبِ المذكوراتِ فيما يُبْتَلى فيه العِبادُ:

تَهذيبُ النُّفوسِ، وَتَرويضُ العقولِ على الرِّضا والقبولِ

جاء ترتيبُ المذكوراتِ في الآيةِ للتَّرَقّي مِنَ الأدْنى إلى الأَعْلى؛ "لِأَنَّ الجُوعَ أَشَدُّ مِن الخَوْفِ، فَإِن قُلْتَ: إِنَّهُ أَيْضًا أَشَدُّ مِن النَّقْصِ مِن الأَمْوَالِ، قُلْتُ: الجَوَابُ أَنَّ النَّقْصَ مِن الأَمْوَالِ أَكْثَرُ وُجُودًا في النَّاسِ مِن الجُوعِ؛ فَهُوَ أَشَدُّ مَفْسَدَةً، والنَّقْصُ مِن الأَنْفُسِ بِالمَرَضِ، أَو بِالمَوْتِ أَشَدُّ مِن الجَمِيعِ"[2]، وفائدَتُه تهيئةُ نفوسِ المُخاطَبين تدريجيًّا؛ فهو خطابٌ تربويٌّ يُهذِّبُ النُّفوسَ، ويُروِّضُ العقولَ على الرِّضا والقبولِ.

فائِدَةُ العَطْفِ في قولِه: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾:

إكسابُ المُخاطَبِ لونًا مِن البُشرى، بعد البلوى

قَوْلُهُ ﷻ: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ مَعْطُوفٌ عَلَى ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم﴾، والخِطَابُ لِلرَّسُولِ ﷺ بِمُنَاسَبَةِ أَنَّهُ مِمَّن شَمِلَهُ قولُه: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم﴾، وهُوَ عَطْفُ إِنْشَاءٍ عَلَى خَبَرٍ، ولَا ضَيْرَ فِيهِ عِنْدَ من تحقَّقَ أَسَالِيبَ العَرَبِ، ورَأَى في كَلَامِهِم كَثْرَةَ عَطْفِ الخَبَرِ عَلَى الإِنْشَاءِ وعَكْسِهِ[3]، وفائدتُه إكسابُ المُخاطَبِ لونًا من البُشرى بعد البلوى.

دلالةُ اسمِ الإشارةِ على المحذوفِ في قولِه: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾:

الإيذانُ بعُلوِّ رُتبةِ الصَّابرين، والإشارةُ إلى ثوابِهم العالي

حُذِفَ المُبشَّرُ به في قولِه تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾؛ و"دَلَّ عَلَيْهِ قولُه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ﴾، أَيْ: وبَشِّرِ الصَّابِرِينَ بِأَنَّ عَلَيْهِم صَلَوَاتٍ مِن رَبِّهِم ورَحْمَةً، فَحُذِفَ لِلِاخْتِصَارِ؛ لِدَلَالَةِ قولِه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ

(1) القِنَّوجيُّ، فتح البيان: 1/319.
(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/469-470.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/56.

عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ﴾ [البَقَرَة: 157] عَلَيْه؛ وإنَّمَا اخْتِيرَ هَذَا الأُسْلُوبُ؛ لأَنَّ التَّعْبِيرَ بِأُولَئِكَ مُؤْذِنٌ بِعُلُوِّ رُتْبَتِهِمْ، ومُشْعِرٌ بِأَنَّ اسْتِحْقَاقَهُم مَا ذُكِرَ؛ لِكَوْنِ اتِّصَافِهِم بِمَا ذُكِرَ مِن النُّعُوتِ أَوْفَى بِالمَرَامِ وأَحْرَى بِالمَقَامِ"[1].

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الخَوف والخَشْية:

المؤمِنُ لا يَنفَكُّ عَنِ الخَوفِ مِنَ اللهِ، ولا يَستَغني عَنْ خَشْيَتِهِ

الخَوْفُ يتَعَلَّقُ بالمكرُوهِ، وبِتَرك المَكْرُوهِ؛ تَقول: خِفْتُ زَيْدًا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾ [النحل: 50]، وتقول: خفتُ المَرَض، كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ۝٢١﴾ [الرعد: 21].

والخشيةُ تتعَلَّق بمُنْزِلِ المَكْرُوه، ولَا يُسمَّى الخَوْف مِن نَفسِ المَكْرُوه خشْيَةً، ولِهَذَا قَالَ: ﴿وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ۝٢١﴾ [الرعد: 21]، فَإن قيل: أَلَيْسَ قد قَالَ: ﴿إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [طه: 94]، قُلْنَا: إنَّه خشِيَ القَوْل المُؤَدِّي إِلَى الفُرْقَة، والمُؤدّي إِلَى الشَّيْء بِمَنْزِلَة من يَفْعَله[2].

والخَوْفُ: تَوقُّعُ مكرُوهٍ عن أمارَةٍ مَظنُونةٍ، أو مَعلُومةٍ، كما أنّ الرّجاءَ والطَّمعَ توقُّعُ محبوبٍ عن أمارةٍ مظنُونةٍ، أو معلُومةٍ، ويُضادُّ الخوفُ الأمْنَ، ويُستَعْمَلُ ذلكَ في الأُمُورِ الدُّنيويّة والأُخرويّة[3]، والخَشْيَة: خَوفٌ يَشُوبُه تَعْظيمٌ، وأكْثرُ ما يكونُ ذلكَ عَن عِلْمٍ بما يُخْشى مِنْه، ولِذلِكَ خُصَّ العُلماءُ بها في قَوْلِه ﷻ: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: 28][4]، فهي خَوفٌ مخْصوصٌ، يَلْزَمُه التَّعْظيمُ؛ فلذا جاءَ في الآيةِ مَنْهيًّا عَنهُ مَعَ المُعانِدين، ومَأْمورًا بِهِ مَعَ اللّه تَعَالى، فَهو الحَقيقُ بأن يُخْشى، ففي الآيةِ تَعَلَّقَ الخَوفُ بالمَكروهاتِ المتَوَقّعةِ الَّتي سَتأْتي بَعْدَ تِلْكَ الأحداثِ، مِن تَغْييرِ القِبْلَةِ، واستقلالِ الأُمّةِ، واسْتِشْرافِ مَرْحلةِ الصِّراعِ والحَرْبِ.

(1) القُونَوِيّ، حاشيةٌ على البيضاويّ: 4/377.
(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 241.
(3) الرَّاغب، المفردات: (خوف).
(4) الرَّاغب، المفردات: (خشي).

﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ١٥٦﴾

[البقرة: 156]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

اسْتِرسالٌ في بَيانِ صِفاتِ الصّابِرينَ:

لَمّا ذَكَرَ في الآيَةِ السَّابِقَةِ أَنْواعَ المَصائِبِ والابْتِلاءاتِ الَّتي تُصيبُ المُؤْمِنينَ، وخَتَمَها بِالأَمْرِ بِتَبْشيرِ الصّابِرين؛ بيَّنَ في هذه الآية سُلُوكَ أُولَئِكَ الصّابِرينَ، وكَيْفَ يَسْتَقْبِلُونَ تِلْكَ الابْتِلاءاتِ والمَصائِبَ، فَهُوَ اسْتِرْسالٌ في بَيانِ صِفَتِهِمْ.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

لفظ (مُصيبة) استُعمل في القُرآن في التّعبير عن الشّرّ الطّارئ

1) ﴿أَصَٰبَتۡهُم﴾: مِنَ الجَذْرِ (صوب)، والإصابة: النُّزولُ بالشّيء واللَّحاقُ بِهِ، خَيرًا كان النّازلُ أو شَرًّا[1]، وأَصابَ السّهمُ: إذا وصلَ إلى المرْمَى، والمُصيبَةُ أصلُها في الرَّمْيَة، ثُمّ اخْتَصّتْ بالنّائِبَة، نَحوَ: ﴿فَكَيۡفَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةُۢ﴾ [النّساء: 62][2]، والمُصيبَةُ: ما أصابَ بِهِ الدَّهرُ: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ﴾ [البقرة: 156]، و﴿مُّصِيبَةٞ﴾ لم تُسْتَعملْ في القرآن إلّا في التَّعبيرِ عمّا يَعُدُّهُ الإنسانُ شَرًّا[3].

من له الرّجوع فإليه المصير

2) ﴿رَٰجِعُونَ﴾: مِنَ الجَذْرِ (رجع)، وهو في الأَصْلِ يَدُلُّ عَلَى رَدٍّ وتَكْرَارٍ، تَقُولُ: رَجَعَ يَرْجِعُ رُجُوعًا، إذَا عَادَ[4]، والرُّجُوعُ: العَوْدُ إلى ما كان مِنهُ البَدءُ، مَكانًا كان أو فِعْلًا، أو قَولًا، والرَّجْعَةُ في الطَّلاقِ، وفي العَودِ إلى الدّنيا بَعْدَ المَمَاتِ، ويُقال: فلانٌ يؤمن بِالرَّجْعَةِ[5].

(1) ابن منظور، لسان العرب: (صوب)
(2) الرّاغب، المفردات: (صوب).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (صوب-صيب).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (رجع).
(5) الرّاغب، المفردات: (رجع).

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

تخصيص المؤمنين بالبشارة، رغم ما يمتحنُهُمْ به منَ الشَّدَائد

يقول اللّهُ تَعَالَى ذِكْرُهُ لِنَبِيِّهِ ﷺ: يَا مُحَمَّدُ بَشِّرِ الصَّابِرِينَ عَلَى امْتِحَانِي بِمَا أَمْتَحِنُهُم بِهِ، والحَافِظِينَ أَنْفُسَهُم عَنِ الإقدام على نَهْيِي عَمَّا أَنْهَاهُم عَنْهُ، والآخِذِينَ أَنْفُسَهُم بِأَدَاءِ مَا أُكَلِّفُهُم مِن فَرَائِضِي مَعَ ابْتِلَائِي إِيَّاهُمْ، بِمَا ابْتَلَيْتُهُم بِهِ، القَائِلِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُصِيبَةٌ: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾، فَأَمَرَهُ اللّهُ تَعَالَى ذِكْرُهُ بِأَن يَخُصَّ بِالبِشَارَةِ عَلَى مَا يَمْتَحِنُهُم بِهِ مِنَ الشَّدَائِدِ، أَهْلَ الصَّبْرِ الَّذِينَ وصَفَ اللّهُ صِفَتَهُمْ[1].

تذكير النّفس بأنّ كُلّ شيْء سينتهي ، وأنّ إلى الله الرُّجعى

وهَذِهِ العِبَارَةُ تَحْمِلُ مِن قُوَّةِ المَعْنَى مَا يَجْعَلُهَا فِي غَايَةِ الإِيجَازِ؛ لأنّها أَوْجَزَت كُلَّ مَا يُعِينُ عَلَى الصَّبْرِ، فَكَوْنُ العَبْدِ مَمْلُوكًا لِلّهِ تعالى، يتبيّنُ أَنَّ المُلكَ الحَقِيقِيَّ لِلّهِ تعالى، فَنَحْنُ أَنْفُسُنَا مَمْلُوكُونَ لَهُ، فَعَلَى أَيِّ شَيْءٍ الأَسَى بَعْدَ ذَلِكَ.

ثُمَّ تَأْتِي العِبَارَةُ الثَّانِيَةُ: ﴿وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ١٥٦﴾ بِصِيغَةِ التَّأْكِيدِ؛ لِتَذْكِيرِ النَّفْسِ بِأَنَّ كُلَّ شَيْءٍ سَيَنْتَهِي، ثُمَّ نَرْجِعُ إِلَى اللّهِ تعالى، وهَذِهِ العِبَارَةُ مِن أَبْلَغِ مَا يُعِينُ النَّفْسَ بَعْدَ الابْتِلَاءِ.

الإِيضَاحُ اللُّغَوِيُّ والبلاغيُّ:

بلاغةُ استفتاحِ الآيةِ بوصْفِ الصَّابِرين:

الأوجهُ الإعرابيَّةُ تُعرِبُ عنِ الثَّناءِ والمَدْحِ

ابتدأتِ الآيةُ ببيانِ صفةِ الصَّابرين بالاسم الموصولِ؛ فالنَّفسُ تتطلَّعُ إلى معرفةِ صفاتِهم وأحوالِهم، فجاءَ البيانُ في صلةِ الموصولِ تفصيلًا، بما يُزيلُ الغموضَ والإبهامَ عنهم، وفيه من المَدْحِ والثَّناءِ عليهم بالدَّليل وهو قولُهم، والأوفقُ أنْ يكونَ الاسمُ الموصولُ نعتًا، ويصحُّ أن يكون منصوبًا على المدْحِ، وأن يكونَ خبرًا لمبتدأٍ محذوفٍ فيكون على القطع أوِ الاستئنافِ، وكلاهما فيه معنى الثَّناءِ عليهم،

(1) ابن جرير، جامع البيان: 3/221.

وخلاصةُ الأمرِ أنَّ هذه الأوجه تصُبُّ في مَيْدانِ القبولِ الدَّائرِ حولَ المَدْحِ والثَّناءِ[1].

فائدةُ الشَّرْطِ بـ (إِذَا) دون (إِنْ):

في قولِهِ ﷻ: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ﴾ آثَرَ ﴿إِذَآ﴾؛ لأنّها تُفيدُ القَطْعَ واليَقينَ، وأمَّا (إِنْ) فَإِنَّهَا تُفيدُ الشَّكَّ وعَدَمَ اليَقينِ، وسرُّ ذلك أنَّ قولَ الصَّابرين المُبشَّرين: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ﴾ مقطوعٌ بِهِ عند وقوعِ المُصيبةِ؛ لذلك هم مُبشَّرون؛ لِذَا كَانَ لَا بُدَّ أَن يَكُونَ التَّعْبِيرُ بِمَا يُفِيدُ ذَلِكَ القَطْعَ واليَقِينَ المُنَاسِبَ لِلْوَصْفِ، وهُوَ مَا تُؤَدِّيه إِذَا.

سرُّ التَّعبيرِ بلَفْظِ ﴿مُّصِيبَةٞ﴾ دون لَفْظِ (ابْتِلاء):

لَمَّا صُدِّرَتِ الآيَةُ السَّابِقَةُ بِالتَّأْكِيدِ عَلَى وُقُوعِ الابْتِلَاءِ، بقولِهِ ﷻ: ﴿وَلَنَبۡلُوَنَّكُمۡ﴾، كَانَ الظَّاهِرُ أَن يَقُولَ: (الَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُم بَلَاءٌ)؛ ولكِنَّهُ عَدَلَ عَن ذَلِكَ إِلَى قَوْلِهِ ﷻ: ﴿إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ﴾؛ لأَنَّهُ أَرَادَ تَخْصِيصَ نَوْعِ الابْتِلَاءِ، وهُوَ الابْتِلَاءُ بِالشَّرِّ، وبِمَا يَسُوءُ الإِنْسَانَ، وهَذَا تَتَنَاوَلُهُ لَفْظَةُ ﴿مُّصِيبَةٞ﴾، والمُصِيبَةُ: النَّكْبَةُ يُنْكَبُهَا الإِنْسَانُ وإِن صَغُرَتْ، وتُسْتَعْمَلُ في الشَّرِّ[2]، ولَم تُسْتَعْمَلْ في القُرْآنِ إِلَّا في التَّعْبِيرِ عَمَّا يَعُدُّهُ الإِنْسَانُ شرًّا[3]، أَمَّا (الابْتِلَاءُ) فَهُوَ يَشْمَلُ الابْتِلَاءَ بِالْخَيْرِ والشَّرِّ، مِصْدَاقًا لِقَوْلِهِ ﷻ: ﴿كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۗ وَنَبۡلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلۡخَيۡرِ فِتۡنَةٗۖ وَإِلَيۡنَا تُرۡجَعُونَ ٣٥﴾ [الأنبياء: 35]، فالآية تُبيّنُ أنّ هؤلاءِ الصَّابرين المُسْتَحِقّين لِلبشارةِ، هُمُ الّذينَ يَقولُون: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ١٥٦﴾ عِنْدَ وُقُوعِ المُصِيبَةِ ومَا يَسُوؤُهُم مِمَّا يَكْرَهُونَ، وهَذَا أَثْقَلُ عَلَى النَّفْسِ.

الـبَـلاءُ بـالـشّـرّ والـخَـيْرِ فِـتْـنَـةٌ لـلـمُـؤمِـن، والـمُـصـيـبـةُ خاصَّةٌ في الشَّرِّ

الجمالُ الصَّوْتِيُّ في قولِه: ﴿أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ﴾:

إِنَّ اسْتِعْمَالَ الأَلْفَاظِ مِنَ الجَذْرِ (صوب)، لِلتَّعْبِيرِ عَن وُقُوعِ

بَـيـانُ فَـضِـيـلَـةِ الصّابِرينَ بِأَلْفَاظٍ مُوحِيَةٍ بِالْقُوَّةِ، وبصوتٍ مُفْصِحٍ

(1) السّمين، الدّرّ المصون: 2/186

(2) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 2/175.

(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (صوب-صيب).

الابْتِلَاءِ، يُلَاحَظُ فِيهِ قُوَّةُ الصَّوْتِ؛ حَيْثُ إِنَّ صَوْتَ الصَّادِ مِن أَصْوَاتِ الصَّفِيرِ والاسْتِعْلَاءِ، وهُمَا مِن صِفَاتِ القُوَّةِ، واسْتِعْمَالِ اللَّفْظِ مُكَرَّرًا بِصِيغَةِ الفِعْلِ مَرَّةً، والاسْمِ مَرَّةً، مِمَّا يَزِيدُ أَثَرَ هَذَا الصَّوْتِ، فَكَانَ مُمْكِنًا أَن يَقُولَ: (الَّذِينَ إِذَا ابْتَلَيْنَاهُم بِشَيْءٍ) أَو غيرَها؛ ولَكِنَّهُ أَرَادَ أَن يُبَيِّنَ فَضِيلَةَ الصّابِرِينَ بِأَلْفَاظٍ مُوحِيَةٍ بِالْقُوَّةِ؛ لِيَتَّصِفَ مَا يَحِيقُ بِهِم بِالشِّدَّةِ، فَيَظْهَرُ فَضْلُهُمْ، وهَذِهِ القُوَّةُ في الصَّوْتِ، من أسبابِ تَخْصِيصِ المُصِيبَةِ بِالتَّعْبِيرِ عَن الشَّرِّ، وما أجمَلَ ائتلاف الدّلالة بالصَّوتِ، وفيه مَا يُسَمَّى بِالْجِنَاسِ الاشْتِقَاقِيِّ.

دلالةُ التَّنْكِيرِ في لفظِ: ﴿مُّصِيبَةٌ﴾:

آثرَ النَّظمُ التَّنْكِيرَ؛ لِأَنَّهُ يُفِيدُ العمومَ والشُّمُولَ، فَهُم يَقُولُونَ: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ١٥٦﴾، مَعَ كُلِّ أَنْوَاعِ المَصَائِبِ، وفي كلِّ أوقاتِها، كَمَا يُفِيدُ التَّنكيرُ تعْظِيمَ المُصيبةِ في النَّفسِ، إذِ التَّنكيرُ بريدُ الإبهامِ، فيصدُقُ على كلِّ مصيبةٍ يستعظِمُها الإنسَانُ.

فائِدَةُ العَطْفِ والتَّقديمِ في قوله: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾:

في قوله تعالى: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ١٥٦﴾ جُمْلتان مَعْطوفَتان: ﴿إِنَّا لِلَّهِ﴾ و﴿وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ١٥٦﴾؛ لاتِّحَادِهِمَا في الخَبَرِيَّةِ، فَهُما جُمْلَتَانِ خَبَرِيَّتَانِ مُؤَكَّدَتَانِ، كلٌّ منهما تُؤدّي معنًى مُستقلًّا مُرادًا، فَلَو لَم يَعْطِف، وقَالَ: (إِنَّا لِلَّهِ إِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ)، لَكَانَت الثَّانِيَةُ بَيَانًا لِلْأُولَى، بَدَلًا عَنْهَا، وتَفْسِيرًا لَهَا، فَهِيَ لا تُؤدّي معنًى ثانيًا مُسْتَقِلًّا، وهذا لَيْسَ المُرادَ، إذِ المرادُ بَيَانُ الاخْتِصَاصِ والتَّأْكِيدِ؛ فَالرُّجُوعُ لَن يَكُونَ إِلَّا لِلَّهِ تَعَالَى، مَعَ إِفَادَةِ تَقْوِيَةِ الْعَوْدَةِ، وبَيَانِ أَنَّهُم مُوقِنُونَ بِذَلِكَ[1]، "وَأَنَّهُ رَاجِعٌ إِلَى رَبِّهِ، لَا إِلَى غَيْرِهِ، إِشَارَةً إِلَى الحَصْرِ المُسْتَفَادِ مِن تَقْدِيمِ الجَارِّ"[2]؛ فهذا من باب تقديم الدَّعوى على الدَّليلِ، معَ ما فيه مِنْ حُسْنِ الفاصِلَةِ.

إثباتُ المِلكِ مقدَّمٌ على إثباتِ الرُّجوعِ، كتقديمِ الدَّعوى على دليلِها

(1) الرّوينيّ، من غريب بلاغة القرآن الكريم، ص: 480.
(2) القُونَوِيّ، حاشيةٌ على البيضاويّ: 4/377.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ ١٥٧﴾ [البقرة: 157]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

مَنْ صَبَرَ عَلى البَلاء، نالَ الأجْرَ والجَزاء

لَمّا ذَكَرَ أَنْواعَ الابْتِلاءِ، وذَكَرَ سُلُوكَ الصّابِرِينَ إزاءَهُ بِحِكايَةِ قَوْلِهِمْ: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ١٥٦﴾، بَيَّنَ في هَذِهِ الآيَةِ جَزاءَ صَبْرِهِمْ، ومَا يَنالُهُم مِنَ اللّهِ تَعالى من الصّلوات والرّحمة، وبَيَّنَ صِفَتَهُم وهِيَ أَنَّهُم هُم المُهْتَدُونَ حَقًّا.

شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

الأصلُ اللُّغويُّ للصّلاة أنّها دعاءٌ و رحمةٌ

1) ﴿صَلَوَٰتٞ﴾: مِنَ الجَذْرِ (صلي)، وصَلّيْتُ العَصَا تَصلِيَةً: إذا أدَرْتَها على النّارِ؛ لِتُقوِّمَها[1]، وإذا اعْوَجّتْ أَلْزَمَها مُقَوِّمُها حَرَّ النّارِ حَتَّى تَلينَ لَهُ وتُجِيبَ التّثقيف.

فالصّلاة مِنْ صلَّيْتُ العُوْدَ، إذا ليَّنْتَه؛ لأنّ المصلّي يَلِينُ ويخْشَعُ[2]، فَأَمَّا الصّلَاةُ مِنَ اللّهِ تَعَالَى فَالرَّحْمَةُ[3] بإنْزالِ الرّحْمَةِ والبرَكَاتِ[4].

ربوبيّة الله للعباد عطاءٌ ولطفٌ وإمدادٌ

2) ﴿رَّبِّهِمۡ﴾: مِنَ الجَذْرِ (ربب)، وهوفي الأَصلِ يدلّ على إِصْلَاحِ الشَّيْءِ والْقِيَامِ عَلَيْهِ[5]، ويَعْني الرّعايَةَ والإنْماءَ والتَّربِيَةَ، والسَّحابُ يَرُبُّ المَطَرَ: يَجْمَعُهُ وينمّيه[6]، ويُقَالُ: رَبَّ فُلَانٌ ضَيْعَتَهُ، إذا قَامَ عَلَى إِصْلَاحِهَا، والرَّبُّ: المُصْلِحُ لِلشَّيْءِ، واللّهُ (جَلَّ ثَنَاؤُهُ) الرَّبُّ؛ لأنّه

(1) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة: (صلى).
(2) ابن فارس، مجمل اللُّغة، ص: 538.
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (صلي).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (صلو-صلى).
(5) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (رب).
(6) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (ربب-ربرب).

مُصْلِحُ أَحْوَالِ خَلْقِهِ[1]، فَالرَّبُّ هو: المَالِكُ، والْخَالِقُ، والصّاحِبُ، والمُصْلِحُ لِلشَّيْءِ[2].

رحمة الله نعمةٌ وسعت كلّ شيء

3) ﴿وَرَحْمَةٌ﴾: مِنَ الجَذْرِ (رحم)، وهو في الأَصْلِ يَدُلُّ عَلَى الرِّقَّةِ والْعَطْفِ والرَّأْفَةِ[3]، والرّحمةُ: رِقَّةُ القَلبِ، والعَطْفُ مِن الشّخْصِ على مَن يَضُمّ، يُقَالُ مِن ذَلِكَ: رَحِمَهُ: رَقَّ لَهُ وتَعَطَّفَ عَلَيْهِ، ورحمةُ اللّه للعباد جودٌ وفضل، وتتضمَّن أيضاً لازِمَ الرّحْمَةِ، كالمغْفِرَةِ، والنِّعْمَةِ، والبَرَكَةِ، وغَيرِها[4].

الهداية سبيل العبد للنّجاة في العاجلة والآجلة

4) ﴿ٱلْمُهْتَدُونَ﴾: مِنَ الجَذْرِ (هدي)، وهو في الأصل: تَبَيُّنُ الوُجْهَةِ بالتَّقَدُّمِ، هَدَيْتُهُ الطَّرِيقَ هِدَايَةً، أَي: تَقَدَّمْتُهُ؛ لِأُرْشِدَهُ، وكُلُّ مُتَقَدِّمٍ لِذَلِكَ هَادٍ[5]، والهُدَى: الرّشَادُ والدّلالةُ، ضِدُّ الضّلالِ.

والْمُهْتَدُونَ في الآيَةِ: هُم الَّذِينَ رَشَدُواْ، وعَرَفُوا طَرِيقَ الحَقِّ، والصِّرَاطَ القَوِيمَ، المُهْتَدُونَ لِطَرِيقِ الصَّوَابِ[6].

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

كِفاءُ الصَّبْرِ على المُصيبَةِ صَلَواتٌ ورَحَماتٌ، والصَّابِرون بِصِدْقٍ هُمُ المُهْتَدون

يُخْبِرُ اللّهُ تَعَالَى عَن جَزَاءِ أُولَئِكَ الصَّابِرِينَ، بِأَنَّ اللّه تَعَالَى سَيُعْقِبُهُم رَحْمَةً وبَرَكَةً مِنْهُ تَعَالَى، وأَنَّ الصَّبْرَ إِزَاءَ المَصَائِبِ يُنْبِئُ عَن الهِدَايَةِ، فَوَصَفَ الصَّابِرِينَ في خِتَامِ الآيَةِ بِكَوْنِهِمْ: ﴿هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ﴾، وهَذَا بَيَانٌ لِفَضِيلَةِ صِفَتِهِمْ؛ فَلَم تُزْعِجْهُمُ المَصَائِبُ، ولَم تَكُن لَهُم حَاجِبًا عَن التَّحَقُّقِ في مَقَامِ الصَّبْرِ؛ لِعِلْمِهِم أَنَّ الحَيَاةَ لَا تَخْلُو مِن الأَكْدَارِ، ورَحْمَةُ اللّه وجوده وفضله وصلَاتُهُ يَلِيقُ بِهَا الشَّخْصُ المُتَّصِفُ بِصِفَةِ تَحَمُّلِ الأَذَى، والتَّرَيُّثِ والتَّلَبُّثِ، إِزَاءَ

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (رب).
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (رب).
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (رحم).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (رحم).
(5) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (هدي).
(6) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/208، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 1/115.

المصَائِبِ؛ فَلِذَا جَاءَ العَطَاءُ الإِلَهِيُّ بِالرَّحْمَةِ والتَّزْكِيَةِ والْمَغْفِرَةِ الَّتِي تَحْتَمِلُهَا لَفْظَةُ ﴿صَلَوَٰتٌ﴾.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبلاغيُّ:

بَيانُ جَزاءِ الصَّابِرينَ عِنْدَ اللهِ رَبِّ العالَمين:

عَطاءُ اللهِ لِلصّابِرينَ بِلا حِسابٍ

الآيَة فَصْلٌ عَن سَابِقَتِهَا؛ لِوُقُوعِها مَوْقِعَ الجَوَابِ عَن سُؤَالٍ نَشَأَ عَن السَّابِقَةِ، فَكَأَنَّهُ قِيلَ: فَما جَزَاءُ أُولَئِكَ الصَّابِرِينَ المبشَّرِ بهِ؟ فَجَاءَ الجَوَابُ في هَذِهِ الآيَةِ بِقَوْلِهِ ﷻ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ﴾، فالفَصْلُ قامَ مقامَ البيانِ والإيضاحِ، على طريقِ السُّؤالِ المُفتَرَضِ.

دَلالَةُ اسمِ الإشارَةِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾:

الحُكمُ الوارِدُ بَعْدَ اسْمِ الإشارَةِ، مُبْرِزٌ جَميلَ جَزاءِ الصّابِرينَ

جاء الإِتْيَانُ باسْمِ الإِشَارَةِ -في قَوْلِهِ ﷻ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ﴾- "إِشَارَةً إِلَى الصَّابِرِينَ بِاعْتِبَارِ اتِّصَافِهِم بِمَا ذَكَرَ مِن النُّعُوتِ"[1]، وتَنْبِيهًا عَلَى أَنَّ المُشَارَ إِلَيْهِ، هُوَ ذَلِكَ المَوْصُوفُ بِجَمِيعِ الصِّفَاتِ السَّابِقَةِ، وأَنَّ الحُكْمَ الَّذِي يَرِدُ بَعْدَ اسْمِ الإِشَارَةِ، مُتَرَتِّبٌ عَلَى تِلْكَ الأَوْصَافِ، مِثْلُ قَوْلِهِ ﷻ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ﴾ [البقرة: 5]، وهَذَا بَيَانٌ لِجَزَاءِ صَبْرِهِمْ[2]، وَجَاءَ اسْمُ الإِشَارَةِ بِصِيغَةِ البُعْدِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ "وَمَعْنَى البُعْدِ فِيهِ لِلْإِيذَانِ بِعُلُوِّ رُتْبَتِهِمْ"[3].

دَلالَةُ الحَرْفِ (عَلَى) في قَوْلِهِ تَعالى: ﴿عَلَيْهِمْ﴾:

الإشعارُ بنُزولِ الرَّحمةِ والمغفرةِ من الله تعالَى، وهذا غايةُ الرَّجاءِ

آثَرَ النَّظمُ اسْتِعْمَالَ حَرْفِ الجَرِّ (عَلَى)، في قَوْلِهِ ﷻ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾، ولَم يَقُل (لَهُمْ)؛ لِبيانِ تمكُّنِ تِلْكَ الصَّلَوَاتِ مِنْهُمْ، وتَأْكِيدِ أَثَرِهَا فيهم، وللإشعارِ بمعنى النُّزولِ؛ فإنَّ مَنْ أُصيبَ بمصيبةٍ وصَبَرَ فإنَّ اللهَ يُنْزِلُ عليه رحمتَه ومغفِرَته، ففيها إشارَةٌ

(1) القاسميّ، محاسن التّأويل: 443-1/442.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/57.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 1/180.

إلى عظيم رِعايةِ اللّه لعبادِه الصَّابرين، وأنَّ جزاءَهم عظيمٌ في نزول الرَّحمات والمغفرةِ، والصَّلَواتُ هنا التَّزْكِيَاتُ، والمَغْفِرَاتُ؛ لِذَلِكَ عُطِفَت عَلَيْهَا الرَّحْمَةُ الَّتِي هِيَ مِن مَعَانِي الصَّلَاةِ لغةً، كالصّلاةِ في قَوْلِه تَعَالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ﴾ [الأحزاب: 56][1].

دَلالَةُ التَّنْكيرِ والجَمْعِ في قولِهِ: ﴿صَلَوَٰتٌ﴾:

فخامةُ وتعظيمُ ما كانَ مِنَ اللهِ، وبيانُ أثرِها في النَّفسِ

أفادَ التّنكيرُ في ﴿صَلَوَٰتٌ﴾ التَّفْخيمَ والتَّعْظيمَ، فهِيَ صَلواتٌ لَيْسَتْ مَعْهودَةً ولا مَعْروفَةً، وهذا يُناسِبُ وصْفَها بِكَونِها: ﴿مِّن رَّبِّهِمْ﴾؛ إذِ المُرادُ بَيانُ أنَّ جَزاءَ أولئك الصّابرينَ إزاءَ المَصائِبِ العَظيمَةِ، هُوَ عَطاءاتٌ منَ اللّه عَظيمَةٌ، ودَلّ الجَمْعُ على التَّنويعِ، وهذا يُدلُّ على عَظيمِ جَزاءِ الصّابرينَ، فلَيْسَ الجزاءُ صَلاةً واحِدَةً، إذْ قَد تَنْصَرِفُ لِمَعْنًى واحِدٍ، بل هيَ صَلواتٌ؛ لِتشْمَلَ كُلَّ ما يَنْدَرِجُ تَحت مَعنى الصّلاةِ مِنَ الرّحمَةِ، والتّزْكِيَةِ، والبَرَكَةِ، وغيرِها من عطاءاتِ اللّه وفضلِه.

إيثارُ لَفْظِ الرُّبوبِيّةِ في قوله: ﴿مِّن رَّبِّهِمْ﴾:

الإشارةُ إلى وعدِ اللهِ في الرِّعايةِ للصّابرين بعد وقوعِ المُصيبةِ

آثَرَ النَّظمُ التَّعْبيرَ بِلَفْظِ الرُّبُوبِيَّةِ مَعَ الإِضَافَةِ إِلَى الضَّميرِ العَائِدِ عَلَيْهِمْ، في قَوْلِهِ ﷻ: ﴿رَّبِّهِمْ﴾؛ لِإِظْهَارِ مَزِيدِ العِنَايَةِ بِهِمْ، وزادَ ذلكَ ظُهُورًا ﴿مِّن﴾ الابتِدائيّةُ، فهي "في مَحَلِّ الرَّفْعِ، أَيْ: صَلَوَاتٌ كَائِنَةٌ مِن رَبِّهِمْ"[2]، فالتَّعبيرُ بعنوانِ الرُّبوبيَّةِ فيه إبرازُ التَّربيَّةِ لهم بعد وقوعِ المُصيبةِ؛ ففي الآيةِ إشارَةٌ إلى وعدِ اللّه برعايةِ الصَّابرين على صبرِهم، إذِ الرِّعاية والعنايةُ من آثارِ الرُّبوبيَّة.

دَلالَةُ المقابلةِ بَيْنَ جَمْعِ ﴿صَلَوَٰتٌ﴾ وإِفْرَادِ ﴿وَرَحْمَةٌ﴾:

جُمِعَتْ الصَّلواتُ في الآيةِ مَعَ أَنَّهَا في الأَصْلِ مَصْدَرٌ؛ "لِلتَّنْبيهِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/57.
(2) زاده، حاشية على البيضاويّ: 2/294.

عَلَى كَثْرَتِهَا وتَنَوُّعِهَا"[1]، والنُّكْتَةُ مَبْنِيَّةٌ عَلَى الإِرَادَةِ، ولِعَدَمِ إِرَادَةِ التَّنْبِيهِ عَلَى كَثْرَةِ الرَّحْمَةِ نَوْعًا لَم تُجْمَعْ، والْمُرَادُ بِالرَّحْمَةِ اللُّطْفُ والْإِحْسَانُ، وحَاصِلُهُ الإِنْعَامُ، فَيَكُونُ مُغَايِرًا لِلصَّلَاةِ، ولَو أُرِيدَ بِهَا إِرَادَةُ الخَيْرِ؛ لَكَانَ مُغَايِرًا لَهَا أيضًا[2].

فَخامَةُ التَّرْكيبِ تُناسِبُ فَخامَةَ الجَزاء:

تَعْظيمُ جَزاءِ الصَّبْرِ دَليلٌ على مَكانَتِهِ عِنْدَ الله

جَاءَ التَّعْبِيرُ عَن جَزَاءِ الصَّابِرِينَ في هَذِهِ العِبَارَةِ بِجُمْلَتَيْنِ: كُبْرَى وصُغْرَى، فَبَدَأَت العِبَارَةُ بِالْمُبْتَدَأ، وهو اسْمُ الإِشَارَةِ المُشِيرُ إِلَى الصَّابِرِينَ؛ لِاسْتِحْضَارِهِم مَعَ صِفَاتِهِمْ، ثُمَّ يَشْرَعُ في بَيَانِ الحُكْمِ الَّذِي سَيُسْنَدُ إِلَيْهِم بِجُمْلَةٍ ثَانِيَةٍ: ﴿عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾، فقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾: مُبْتَدَأٌ، و﴿صَلَوَٰتٌ﴾ مُبْتَدَأٌ ثانٍ، و﴿عَلَيْهِمْ﴾ خَبَرُهُ مُقَدَّمٌ عَليه، والجُمْلَة ﴿عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ﴾ خَبَرُ قَوْلِه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾[3]، وكِلتا الجُمْلَتَيْنِ اسْمِيَّةٌ، وهَذَا مِمَّا يُفِيدُ التَّأْكِيدَ وتَقْوِيَةَ الحُكْمِ وثُبُوتَهُ، وجَاءَ التَّرْكِيبُ بِالْمُبْتَدأ النَّكِرَةِ ﴿صَلَوَٰتٌ﴾ لِلتَّعْظِيمِ، وتَقْدِيمُ الخَبَرِ ﴿عَلَيْهِمْ﴾ لِإِفَادَةِ التَّأْكِيدِ وتَقْوِيَةِ الحُكْمِ.

سِرُّ تَأْكيدِ لَفْظِ (الصَّلاة) بِمعنى الرَّحمةِ:

تنبيهٌ بديعٌ على احتياجِ المُصابِ إلى الرَّحمةِ على وجْهِ الخُصوصِ

في قولِهِ ﷻ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ﴾، ذَكَرَ الصَّلاةَ والرَّحْمَةَ، وفُسِّرَتِ الصَّلاةُ بالرَّحْمَةِ، فكانَ مِن بابِ التَّكْرارِ والتَّوسُّعِ، وفيه قال الواحِديُّ: "إِنَّمَا ذَكَرَ الرَّحْمَةَ، ومَعْنَى الصَّلَوَاتِ هَاهُنَا الرَّحْمَةُ؛ لِإِشْبَاعِ المَعْنَى، والاتِّسَاعِ في اللَّفْظِ، ومِثْلُهُ قوله: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم﴾ [الزخرف: 80]"[4]، فهُوَ كما جَمعَ بينَ الرَّأفَةِ والرَّحْمَةِ، كما في "قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿رَأْفَةً وَرَحْمَةً﴾ [الحديد: 27]، وقولِه: ﴿لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ١٤٣﴾ [البقرة: 143]، والمَعْنَى: عَلَيْهِم رَأْفَةٌ

(1) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 1/115.
(2) القُونَوِيّ، حاشيةٌ على البيضاويّ: 4/378.
(3) السّمين، الدّرّ المصون: 2/186.
(4) الواحديّ، البسيط: 3/433-434.

بَعْد رَأْفَةٍ"[1]، فقد جَمَعَ بين الصَّلواتِ والرَّحمةِ، "وَكَرَّرَ الرَّحْمَةَ، وهِيَ مِن أَعْظَمِ أَجْزَاءِ الصَّلَاةِ، لمّا اخْتَلَفَ اللَّفْظُ؛ تَأْكِيدًا مِنْهُ تَعَالَى"[2]، فهي من قبيلِ عطفِ الخاصِّ على العامِّ لنُكتةٍ في الخاصِّ، وهي هنا: احتياجُ المُصابِ إلى خصوصِ الرَّحمةِ، ففيه تنبيهٌ بديعٌ على ضرورةِ تراحمِ المُؤمنين مع المُصابِ.

فائِدَةُ الوَصْلِ بين الجملِ:

ترتيبُ الأجرِ بعد الأجرِ، فالجزاءُ العظيمُ الثَّباتُ على الهدايةِ

الجُمْلَة في قَولِه ﷻ: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ﴾، مَعْطُوفَةٌ عَلَى قَوْلِه ﷻ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ﴾، ووَصَلَ بَيْنَهُمَا لاتِّحَادِهِمَا في الْخَبَرِيَّةِ، فَكُلُّ جُمْلَةٍ تَحْمِلُ مَعْنًى مُسْتَقِلًّا، فَهُمَا خَبَرَانِ مختلفانِ معنًى[3] عَنِ الصَّابِرِينَ؛ لِبَيَانِ فَضْلِهِم وجَزَائِهِم[4]، وجُملةُ: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ﴾: "اعْتِرَاضٌ مُقَرِّرٌ لِمَضْمُونِ مَا قَبْلَهُ، كَأَنَّهُ قِيلَ: وأُولَئِكَ هُمُ الْمُخْتَصُّونَ بِالاهْتِدَاءِ لِكُلِّ حَقٍّ وصَوَابٍ؛ ولِذَلِكَ اسْتَرْجَعُوا واسْتَسْلَمُوا لِقَضَاءِ اللَّهِ تَعَالَى"[5]، وفائدةُ الوَصْلِ التَّنبيه على كلِّ معنًى باستقلالِه عنِ الآخرِ، فهم مُجازون بصلواتِ اللّه ورحمتِه، وهم بعد ذلك مُهتدون، أي: ثابتون على الخَيْر.

فائِدَةُ تَكْرارِ اسْمِ الإِشارَةِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾:

مَـنِ اسْتَنَدَ إلى اللهِ عَظُمَ شَأْنُهُ عِنْدَ اللهِ والنّاس

تَكَرَّرَ اسْمُ الإِشَارَةِ في الآيَةِ مَرَّتَيْنِ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ﴾ إِشَارَةً لِلصَّابِرِينَ، في مَعْرِضِ بَيَانِ جَزَائِهِم وفَضْلِهِمْ؛ لِلتَّأْكِيدِ عَلَى عُلُوِّ شَأْنِهِمْ، وبَيَانِ الاهْتِمَامِ والْعِنَايَةِ بِهِمْ، فقد "كَرَّرَ أُولَئِكَ لِشِدَّةِ الاعْتِنَاءِ بِهِم وتَمْيِيزِهِمْ"[6]،

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/208.
(2) الثّعالبيّ، الجواهر الحِسَان: 1/341.
(3) القُونَوِيّ، حاشيةٌ على البيضاويّ: 4/379.
(4) الدّبل، دليل البلاغة: 1/219.
(5) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 1/181.
(6) الخفاجيّ، عناية القاضي: 2/258.

و"تَنْبِيهًا عَلَى أَنَّ اتِّصَافَهُم بِتِلْكَ الصِّفَاتِ، يَقْتَضِي كُلَّ واحِدَةٍ مِن الْأَثَرَتَينِ، وأَنَّ كُلًّا مِنْهُمَا كَافٍ في تَمْيِيزِهِم من غَيْرِهِمْ"[1].

دَلالَةُ القَصْرِ في قَوْلِهِ ﴿هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ﴾:

في قوله: ﴿هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ﴾ قَصْرٌ وتَأكيدٌ، والْحَصْرُ لِتأْكِيدِ الصِّفَةِ على وجْهِ الكَمَالِ، فهو "إِشَارَةٌ إِلَى قَصْرِ الْهِدَايَةِ عَلَيْهِمْ، وأَنَّهُم الْمُهْتَدُونَ حَقًّا، وذَلِكَ بِتَعْرِيف الْمُسْنَدِ والْمُسْنَدِ إِلَيْهِ، وبِالضَّمِيرِ ﴿هُمُ﴾، وذَلِكَ أَشْرَفُ بَيَانٍ، أَنَّهُم الْمُخْتَصُّونَ وحْدَهُم بِالْهِدَايَةِالْكَامِلَةِ"[2]، فالقصْرُ ادِّعائيٌّ؛ فكأنَّ غيرَهم ليس مُهتديًا بالنسبةِ إليهم، لزيادةِ مكانتِهم، والإشارةِ إلى عُلوِّ شأنِهم.

(1) القُونَوِيّ، حاشيةٌ على البيضاويّ: 4/379.

(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 1/475.

﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلۡمَرۡوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِۖ فَمَنۡ حَجَّ ٱلۡبَيۡتَ أَوِ ٱعۡتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَاۚ وَمَن تَطَوَّعَ خَيۡرٗا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ١٥٨﴾ [البقرة: 158]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

عَلاقَةُ السَّعْيِ بَيْنَ الصَّفا والمَرْوَةِ بتَحويلِ القِبْلَةِ مِنْ حَيْثُ التَّرَدُّدُ والاِسْتِشْكالُ

المُنَاسَبَةُ بَيْن هذه الآية وبَيْنَ مَا قَبْلَهَا: أَنَّ الْعُدُولَ عَن السَّعْيِ بَيْنَ الصَّفَا والمَرْوَة، يُشْبِهُ فِعْلَ مَن عَبَّرَ عَنْهُم بِالسُّفَهَاءِ، في شَأْنِ تَحْوِيلِ الْقِبْلَةِ، وإِنْكَارِهِمُ الْعُدُولَ عَن اسْتِقْبَالِ بَيْتِ الْمَقْدِسِ[1]، فَلَمَّا جَاءَ الْحَدِيثُ في الْآيَاتِ السَّابِقَةِ عَنِ الْقِبْلَةِ واسْتِقْلَالِ الْأُمَّةِ بِالتَّوَجُّهِ إِلَى الْكَعْبَةِ - ثُمَّ أَعْقَبَ ذَلِكَ تَوجيهَ الْأَمْرِ بِالاسْتِعَانَةِ بِالصَّبْرِ؛ إِشْعَارًا بِأَنَّ الْأُمَّةَ سَتُوَاجِهُ مَا تُوَاجِهُهُ الْأُمَمُ مِن الْحُرُوبِ والْقِتَالِ، ومَا يَتْبَعُهُ مِن ضِيقِ الْعَيْشِ - جَاءَ الْحَدِيثُ في هَذِهِ الْآيَةِ عَن بَعْضِ أَعْمَالِ الْحَجِّ الَّتِي تَقَعُ في الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ، وهُوَ السَّعْيُ بَيْنَ الصَّفَا والمَرْوَةِ، فَقَد وقَعَ فِيهِمَا تَرَدُّدٌ واسْتِشْكَالٌ، فَنَاسَبَ وُرُودُهُ هُنَا بَعْدَ الْحَدِيثِ عَن الْقِبْلَةِ، والتَّوَجُّهِ إِلَى الْمَسْجِدِ الحَرامِ، حَيْثُ تُقَامُ أَعْمَالُ الْحَجِّ.

شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

1) ﴿ٱلصَّفَا وَٱلۡمَرۡوَةَ﴾: الصفا والمروةُ اسم لجبلين في مكة صغيرين متقابلين، فأمَّا الصفا فرأس نهاية جبل أبي قُبَيْس، وأمَّا المروة فرأس منتهى جبل قُعَيقِعَانَ.

فالصَّفا: مِنَ الجَذْرِ (صفو)، والأَصْلُ فيه أنه يَدُلُّ عَلَى الخُلُوصِ مِن كُلِّ شَوْبٍ، والصّفاءُ ضِدُّ الْكَدَرِ، والصّفا، الْحَجَرُ الْأَمْلَسُ، وهُوَ الصّفْوَانُ، الْوَاحِدَةُ: صَفْوَانَةٌ، تَصْفُو مِنَ الطِّينِ والرَّمْلِ[2].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/58-59.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (صفو).

والصَّفا اسْمٌ لِمَوْضِعٍ مَخْصوصٍ[1]، وهو أحد جبلي المَسْعى، ومنه يبدأ السَّعْي، ويقع في الجهة الجنوبية مائلًا إلى الشرق من الكعبة.

والْمَرْوَة: مِنَ الجَذْرِ (مرو)، وهو في الأصلِ يَدُلُّ عَلَى صَلَابَةٍ في شَيْءٍ، والْمَرْوَةُ، حِجَارَةٌ تَبْرُقُ[2]، ومَرْوَةُ المَسْعَى الّتي تُذكَرُ مَعَ الصَّفا، وهِيَ أَحَدُ رأْسَيْه اللّذَيْنِ ينتهِي السّعْيُ إليهما[3].

الصّفا والمروة تجديد لتّاريخ إبراهيم وإسماعيل وهاجر

والصَّفا والمَرْوَةُ في هَذَا الْمَوْضِعِ: الجَبَلَانِ المُسَمَّيَانِ بِهَذَيْنِ الاسْمَيْنِ في الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ، دُونَ سَائِرِ الصَّفَا والْمَرْوَة[4].

2) ﴿شَعَآئِرِ﴾ مِنَ الجَذْرِ (شعر)، ومَشَاعِرُ الحَجِّ: مَوَاضِعُ المَنَاسِك، سُمِّيَتْ بِذَلِكَ لأنّها المَعَالِمُ الظّاهِرَةُ للحَواسِّ، والشَّعِيرَةُ: واحِدَةُ الشَّعَائِرِ، وهِيَ أَعْلَامُ الْحَجِّ وأَعْمَالُهُ، قَالَ اللّهُ ﷻ: ﴿۞إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِۖ﴾ [البقرة: 158][5]، وشَعَائِرُ اللّه: مُتَعَبَّدَاتُهُ الَّتِي أَشْعَرَهَا، أَيْ: جَعَلَهَا أَعْلَامًا لَنَا، وهِيَ كُلُّ مَا كَانَ مِن مَشْعَرٍ، أَو مَوْقِفٍ، أَو مَسْعًى، أَو مَنْحَرٍ[6].

الشّعائر، هي أعلامُ الحجِّ وأَعْمالُهُ

3) ﴿حَجَّ ٱلْبَيْتَ﴾: أمّا (حَجَّ) فهو مِنَ الجَذْرِ (حجج)، وأصلُ الحَجِّ: القَصْدُ لِلزّيارَةِ، وكُلُّ قَصْدٍ حَجٌّ، ثُمَّ خُصَّ في تَعاريفِ الشَّرْعِ بِقَصدِ بَيتِ اللّه تَعالى، إقامةً لِلنُّسُكِ، فقيلَ: الحَجُّ والحِجُّ، فالحَجُّ مَصْدَرٌ، والحِجُّ اسْمٌ، ويَوْم الحجّ الأكبر يومُ عرفة[7]، وأمّا البيت: فهُوَ الْمَأْوَى والْمَآبُ، ومَجْمَعُ الشَّمْلِ[8]، بَاتَ: أقام باللّيل، كما يُقالُ: ظَلَّ بالنّهارِ، ثمَّ يقالُ للمَسْكَنِ بَيْتٌ، مِن غيرِ اعْتِبارِ اللّيلِ فيه، ﴿فَتِلْكَ

حجّ البيت تلبيّة لنداء الله للنّاس بأداء المناسك

(1) الرَّاغب، المفردات: (صفو).
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (مري).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (مرا)؛ الفيّوميّ، المصباح المنير: 2/570.
(4) ابن جرير، جامع البيان: 3/226.
(5) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (شعر)؛ الرَّاغب، المفردات: (شعر).
(6) الواحديّ، البسيط: 3/435.
(7) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (حجج)؛ الرَّاغب، المفردات: (حج).
(8) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (بيت).

بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓاْۚ﴾ [النّمل: 52]، وبيتُ اللّهِ، والبَيتُ العَتِيقُ: الكعبة، قَالَ ﷻ: ﴿وَلْيَطَّوَّفُواْ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ۝٢٩﴾ [الحجّ: 29]، يعني: بيتَ اللّهِ[1]، وبَيْتُ اللّهِ: الْمُرَادُ بِهِ الْمَسْجِدُ الْحَرَامُ.

والمعنى في الآية: فمن قصد المسجد الحرام لأداء نُسُك الحج.

العمرة سنّة الإسلام للوصل بالبيت الحرام على مدار العام

4) ﴿ٱعْتَمَرَ﴾: مِنَ الجَذْرِ (عمر)، والاعْتِمَارُ والْعُمْرَةُ: الزِّيَارَةُ الَّتِي فِيهَا عِمَارَةُ الْوُدِّ، وجُعِلَت في الشَّرِيعَةِ لِلْقَصْدِ الْمَخْصُوصِ[2]، فَهي زِيارَةٌ لِلْمُكْثِ زَمانًا ﴿وَأَتِمُّواْ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِۚ﴾ [البقرة: 196].

والمُرادُ في الْآيَةِ: زِيَارَةُ الْبَيْتِ الْحَرَامِ في غَيْرِ وقْتِ الْحَجِّ، أَو في وقْتِهِ بِدُونِ حُضُورِ عَرَفَة.

لا جناح عليكم بمعنى لابأس ولا إثم عليكم

5) ﴿فَلَا جُنَاحَ﴾: مِنَ الجَذْرِ (جنح)، وهو في الأَصْلِ يَدُلُّ عَلَى الْمَيْلِ والْعُدْوَانِ، يُقَالُ: جَنَحَ إِلَى كَذَا، أَي: مَالَ إِلَيْهِ[3]، والْجُنَاحُ: الْإِثْمُ، سُمِّيَ بِذَلِكَ لِمَيْلِهِ عَن طَرِيقِ الْحَقِّ.﴿۞وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا﴾ [الأنفال: 61]، أي: مالوا، من قولهم: جَنَحَتِ السّفينةُ، أي: مالتْ إلى أَحَدِ جانِبَيها، وسُمِّيَ الإثْم المائلُ بالإنسان عن الحقِّ جُناحًا، ثمَّ سمّي كلُّ إثمٍ جُنَاحًا[4].

والمعنى في الآية: فلا إثم عليه.

الطّواف معراج الرّوح إلى عوالم الصّفاء المفتوح

6) ﴿يَطَّوَّفَ﴾: مِنَ الجَذْرِ (طوف)، وهو في الأَصْلِ يَدُلُّ عَلَى دَوَرَانِ الشَّيْءِ عَلَى الشَّيْءِ، وأَن يُحَفَّ بِهِ، يُقَالُ: طَافَ بِالْبَيْتِ يَطُوفُ طَوْفًا وطَوَافًا[5]، الطَّوْفُ: المشْيُ حولَ الشَّيْءِ، قال تعالى: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ﴾ [الواقعة: 17]، وقَالَ: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَاۚ﴾ [البقرة: 158][6].

والمعنى في الآية: يسعى بين الجبلين المعروفين بالصفا والمروة قرب الكعبة.

---

(1) الرَّاغب، المفردات: (بيت).
(2) الرَّاغب، المفردات: (عمر).
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (جنح).
(4) الرَّاغب، المفردات: (جنح).
(5) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (طوف).
(6) الرَّاغب، المفردات: (طوف).

التّطوّع فتح لمجال العبادة بالاختيار

7) ﴿تَطَوَّعَ﴾: مِنَ الجَذْرِ (طوع)، وهو في الأَصْلِ يَدُلُّ عَلَى الْإِصْحَابِ والانْقِيَادِ، طَاعَهُ: إِذَا انْقَادَ مَعَهُ، ومَضَى لِأَمْرِهِ، تَطَوَّعَ بِهِ: انْقَادَ مَعَ خَيْرٍ أَحَبَّ أَن يَفْعَلَهُ، ولَا يُقَالُ هَذَا إِلَّا في بَابِ الخَيْرِ والبِرِّ[1]، ضِدُّ الْكُرْهِ، قال ﷻ: ﴿ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ [فصّلت: 11]، والتّطَوُّعُ: تكلُّفُ الطَّاعَةِ، وهو التّبرّع بما لا يَلْزَم كالتَّنَفُّلِ[2].

والمعنى: فعل الطاعات طَواعيةً من نفسه.

المسارعة للخير تجديدٌ للوصل بالله

8) ﴿خَيْرًا﴾: مِنَ الجَذْرِ (خير)، والأَصْلُ في الخير: الْعَطْفُ والْمَيْلُ، خِلَافُ الشَّرِّ؛ لأنّ كُلَّ أَحَدٍ يَمِيلُ إِلَيْهِ، ويَعْطِفُ عَلَى صَاحِبِهِ، ومَا يَرْغَبُ فِيهِ الْكُلُّ، كَالْعَقْلِ مَثَلاً، والْعَدْلِ، والْفَضْلِ، والشَّيْءِ النَّافِعِ[3]، ويُجْمَعُ على خَيْراتٍ ﴿فَٱسْتَبِقُواْ ٱلْخَيْرَٰتِۚ﴾ [البقرة: 148]، ويُطْلَقُ الخَيْرُ على المَالِ[4]، عِندَما يكون كثيرًا[5].

الشّكر ضدّ الكفر

9) ﴿شَاكِرٌ﴾: مِنَ الجَذْرِ (شكر)، وهو في الأَصْلِ الرِّضَا بِالْيَسِيرِ[6]، وهو عِرفانُ الإحسانِ لصاحبه ونَشْرُه، وإظهارُهُ؛ والثّناءُ عَلَى المُحْسِنِ بِمَا أَوْلاكَهُ مِنَ الْمَعْرُوفِ[7]، ويضادّهُ الكُفْرُ، وهو: نِسيانُ النِّعْمَة وسَتْرُها، وإذا وُصف اللّه بالشّكر، كما في قوله ﷻ: ﴿وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٧﴾﴾ [التّغابن: 17]، فَإِنَّمَا يُعْنَى بِهِ إِنْعَامُهُ عَلَى عِبَادِهِ، وجَزَاؤُهُ بِمَا أَقَامُوهُ مِن الْعِبَادَةِ[8]، فالشَّاكِرُ في وصْفِهِ مَعْنَاهُ: مُجَازٍ عَلَى الْقَلِيلِ كَثِيرًا[9].

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (طوع).
(2) الرَّاغب، المفردات: (طوع).
(3) الرَّاغب، المفردات: (خير).
(4) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (خير).
(5) الرَّاغب، المفردات: (خير).
(6) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (شكر)؛ جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (شكر).
(7) ابن منظور، لسان العرب: (شكر)؛ جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (شكر).
(8) الرَّاغب، المفردات: (شكر).
(9) النَّسفيّ، مدارك التّنزيل: 1/146.

10) ﴿عَلِيمٌ﴾: مِنَ الجَذْرِ (علم)، والأَصْلُ فيه أن يَدُلَّ عَلَى: أَثَرٍ بالشَّيْءِ، يَتَمَيَّزُ بِهِ عَن غَيْرِهِ[1]، واستُعمِل اللّفظُ في كلّ ما يَدُلّ على شيءٍ ما، والعِلْم: الاعْتِقادُ الجازِمُ الثَّابِتُ المُطابِقُ للواقِع، أَو هُوَ صِفَةٌ توجِبُ تَمْييزًا لَا يحتَمِلُ النّقيضَ[2]، والْعَالِمُ في وصْفِ اللّه: هُوَ الَّذِي لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ، وذَلِكَ لَا يَصِحُّ إِلَّا في وصْفِهِ تَعَالَى[3].

الله عليمٌ بالظّواهر والبواطن

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

"كَانَ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ يَطُوفُونَ، أي: يسْعَوْنَ بَيْنَ الصَّفَا والمَرْوَةِ، ويمسَحُونَهمَا، فَلَمَّا جَاءَ الْإِسْلَامُ وكُسِرَت الْأَصْنَامُ، كَرِهَ الْمُسْلِمُونَ الطَّوَافَ بَيْنَهُمَا؛ لِأَجْلِ الصَّنَمَيْنِ؛ فَأَنْزَلَ اللّهُ ﷻ هَذِهِ الْآيَةَ، مُنَبِّهًا لَهُم عَلَى أَنَّ الطَّوَافَ بِالصَّفَا والمَرْوَةِ لَا تَبِعَةَ فِيهِ عَلَيْهِمْ، وأَنَّهُ طَاعَةٌ لِلّهِ تَعَالَى"[4]، وقد أَعْلَمَ اللّهُ تَعَالَى ذِكْرُهُ عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ أَنَّ السَّعْيَ بَيْنَهُمَا مِن مَشَاعِرِ الْحَجِّ الَّتِي سَنَّهَا لَهُمْ، فَالصَّفَا والمَرْوَةُ مِن مَعَالِمِ دِينِ اللّهِ الظَّاهِرَةِ، حيث تَعَبَّدَ اللّهُ عِبَادَهُ بِالسَّعْيِ بَيْنَهُمَا، فَمَن قَصَدَ الْكَعْبَةَ حَاجًّا، أَو مُعْتَمِرًا، فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ ولَا حَرَجَ في أَن يَسْعَى بَيْنَهُمَا، بَل يَجِبُ عَلَيْهِ ذَلِكَ، ومَن فَعَلَ الطَّاعَاتِ طَوَاعِيَةً مِن نَفْسِهِ، مُخْلِصًا بِهَا لِلّهِ تَعَالَى، فَإِنَّ اللّهَ تَعَالَى شَاكِرٌ يُثِيبُ عَلَى الْقَلِيلِ بِالْكَثِيرِ، عَلِيمٌ بِأَعْمَالِ عِبَادِهِ، فَلَا يَبْخَسُ أَحَدًا مِثْقَالَ ذَرَّةٍ[5].

إنّ الصّفا والمَرْوَةَ مِن شَعائِرِ اللهِ المُعَظَّمَةِ الَّتِي سَنَّهَا اللهُ لِعِبادِهِ في الحَجِّ لَا إِثْمَ عَلَى الحاجِّ والمُعْتَمِرِ أن يَسْعَى بَيْنَهُمَا، بَل يَجِبُ عَلَيْهِ ذَلِك

الإِيضاحُ اللُّغويُّ والبلاغيُّ:

دَلالَةُ الاِسْتِئْنافِ وتَأْكِيدِ الخَبَرِ في الآيَة:

جَاءَت الآيَةُ مِن قَولِهِ: ﴿۞إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِۖ﴾، مُسْتَأْنَفَةً مَفْصُولَةً عَن سَابِقَتِهَا، وجَاءَ الْخَبَرُ مُؤَكَّدًا بِإِنَّ وبِالْجُمْلَةِ

مُعالَجَةُ التَّرَدُّدِ بِيَقينِ الحُكْمِ الفاصِل

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (علم).
(2) الزَّبيديُّ، تاج العروس: (علم).
(3) الرَّاغب، المفردات: (علم).
(4) الواحديّ، البسيط: 3/439-440.
(5) ابن جرير، جامع البيان: 3/227-228، ونخبة من العلماء، التّفسير الميسّر، ص: 24.

الاسْمِيَّةِ في هذه الآية؛ لِمَا وقَعَ فِيهِمَا مِن التَّرَدُّدِ؛ فَأَكَّدَ الْجُمْلَةَ بـ (إِنَّ)؛ لِأَنَّ الْمُخَاطَبِينَ مُتَرَدِّدُونَ في كَوْنِهِمَا مِن شَعَائِرِ اللَّهِ تَعَالى؛ لِأَنَّهُم رَأَوْا أَنَّهُمَا مِن أَعْمَالِ الْجَاهِلِيَّةِ، فَجَاءَ التَّأْكِيدُ لِإِزَالَةِ ذَلِكَ الظَّنِّ[1].

توجِيهُ المَخْصُوصِ بالذِّكرِ:

الصَّفا والمَرْوَةُ ارتباطٌ بالابتلاءِ الذي عرَضَ لإسماعيلَ عليه السلام

خصَّتِ الآيةُ الصَّفَا والمَرْوَةَ بالذِّكرِ، دون بقيَّةِ الشَّعائرِ؛ ذلكَ أنَّ الصَّفا والمروةَ تُمَثِّلانِ وتُذكِّرانِ بحَدَثٍ تاريخيٍّ إسلاميٍّ، وهو ما حَصَلَ لهاجر مع إسماعيلَ عليهما السلام، فقد تعرَّضت هي وابنُها للخوْفِ والجوعِ وفَقْدِ الماءِ والاقترابِ من دائرةِ الخَطرِ وهي الموتُ في تلك الأرضِ التي لا زَرْعَ فيها، فكان ذكرُ هاتين الشَّعيرَتَيْن من دواعي تذكُّرِ تلك الحادثةِ، لاسيَّما بعد آياتِ الابتلاءِ والحثِّ على الصَّبْرِ، فهي إرشادٌ للصَّبرِ على الابتلاءِ، والقيامِ بالعبادةِ على وجهِها المطلوبِ شرعًا، "فَقَدْ كَانَ السَّعْيُ بَيْنَ الصَّفَا وَالْمَرْوَةِ مِنْ أَعْمَالِ الْحَجِّ مِنْ زَمَنِ إِبْرَاهِيمَ عليه السلام تَذْكِيرًا بِنِعْمَةِ اللَّهِ عَلَى هَاجَرَ وَابْنِهَا إِسْمَاعِيلَ إِذْ أَنْقَذَهُ اللَّهُ مِنَ الْعَطَشِ"[2].

سِرُّ تقديمِ الصَّفا على المروةِ:

الإشارَةُ إلى الإعجازِ التَّاريخيِّ

قُدِّمتِ الصَّفا على المروةِ للإشارةِ إلى أنَّ بدايةَ سَعْيِ هاجر عليها السَّلامُ من الصَّفا، ففيه إعجازٌ تاريخيٌّ، فقد جاء في البخاريِّ: «جَعَلَتْ أُمُّ إِسْمَاعِيلَ تُرْضِعُ إِسْمَاعِيلَ وَتَشْرَبُ مِنْ ذَلِكَ الْمَاءِ، حَتَّى إِذَا نَفِدَ مَا فِي السِّقَاءِ عَطِشَتْ وَعَطِشَ ابْنُهَا، وَجَعَلَتْ تَنْظُرُ إِلَيْهِ يَتَلَوَّى، - أَوْ قَالَ يَتَلَبَّطُ -، فَانْطَلَقَتْ كَرَاهِيَةَ أَنْ تَنْظُرَ إِلَيْهِ، فَوَجَدَتِ الصَّفَا أَقْرَبَ جَبَلٍ فِي الأَرْضِ يَلِيهَا، فَقَامَتْ عَلَيْهِ، ثُمَّ اسْتَقْبَلَتِ الوَادِيَ تَنْظُرُ هَلْ تَرَى أَحَدًا فَلَمْ تَرَ أَحَدًا، فَهَبَطَتْ مِنَ الصَّفَا حَتَّى إِذَا بَلَغَتِ الوَادِيَ رَفَعَتْ طَرَفَ دِرْعِهَا، ثُمَّ سَعَتْ سَعْيَ

(1) الرّوينيّ، من غريب بلاغة القرآن الكريم، ص: 483.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/59.

الإِنْسَانِ المَجْهُودِ حَتَّى جَاوَزَتِ الوَادِيَ، ثُمَّ أَتَتِ المَرْوَةَ فَقَامَتْ عَلَيْهَا وَنَظَرَتْ هَلْ تَرَى أَحَدًا فَلَمْ تَرَ أَحَدًا» ... الحديث"[1].

تشريفُ الشّعائِرِ بإضافتِها للفظِ الجلالةِ:

إِضَافَةُ الشَّعَائِرِ - الَّتِي يُقْصَدُ بِهَا الْحَجُّ والْعُمْرَةُ - إِلَى لفْظِ الجلالَةِ؛ في قوله: ﴿مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِۖ﴾، لِأَنَّهُمَا مِن الْعَلَامَاتِ الدَّالَّةِ عَلَى عِبَادَتِهِ، أَو لِأَنَّهُ جَعَلَهُمَا كَذَلِكَ، وهَذَا تَشْرِيفٌ لِهَذِهِ الشَّعَائِرِ والْأَعْمَالِ، ولَم يَقُلْ: (مِن الشَّعَائِرِ)؛ لِأَنَّ التَّشْرِيفَ لَن يَكُونَ ظاهرًا في صِيغَةِ التَّعْرِيفِ بِالْأَلِفِ واللَّامِ[2] كما هو في النَّظمِ الكريمِ.

الإيجازُ بالحَذْفِ في قَوْلِهِ: ﴿مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِۖ﴾:

في الآيَةِ إِيجَازٌ بالحَذْفِ؛ فَحَذَفَ المُضَافَ، وأَقَامَ المضاف إِلَيْهِ مقَامَهُ؛ لِأَنَّ الدِّينَ مُتَعَلِّقٌ بِاللَّهِ تَعَالَى، فَمَا كَانَ لِلدِّينِ فَهُوَ لَهُ، "وَلَيْسَ الْجَبَلَانِ لِذَاتِهِمَا مِن شَعَائِرِ اللَّهِ، بَل ذَلِكَ عَلَى حَذْفِ مُضَافٍ، أَي: إِنَّ طَوَافَ الصَّفَا والْمَرْوَةِ"[3]، أو يكونُ التقدير: (مِن شَعَائِرِ دِينِ اللَّهِ الَّذِي شَرَعَهُ لِعِبَادِهِ)، حُذِفَ مِن الْآيَةِ لَفْظُ الدِّينِ[4].

مُناسَبَةُ ذِكْرِ الحَجِّ والعُمْرَةِ بعدَ ذكرِ الصَّفَا والْمَرْوَةِ:

"وَلَمَّا كَانَ الطَّوَافُ بَيْنَهُمَا لَيْسَ عِبَادَةً مُسْتَقِلَّةً، إِنَّمَا يَكُونُ عِبَادَةً، إِذَا كَانَ بَعْضَ حَجٍّ أَو عُمْرَةٍ، بَيَّنَ تَعَالَى ذَلِكَ بِقوله: فَمَن حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ"[5].

دَلالَةُ الفاءِ التّفْريعِيَّةِ في قوله: ﴿فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ﴾:

التَّفْريعُ تَوْليدُ مَعانٍ جَديدَةٍ، اعْتِمادًا على مَعانٍ سابِقَةٍ

الْفَاءُ تَفْرِيعِيَّةٌ، وهِيَ: فَاءُ الاسْتِئْنَافِ؛ وإِنَّمَا يُقَال لَهَا تَفْرِيعِيَّةً؛ لِمَا فِيهَا مِن فَائِدَةِ التَّفْصِيلِ، فَهِيَ تَفْصِيلُ مَا قَبْلَهَا مِن كَلَامٍ مُجْمَلٍ، أَو أَنَّ مَا قَبْلَهَا مُسَبِّبٌ لِمَا بَعْدَهَا مَعْنَوِيًّا؛ لِأَنَّ التَّفْرِيعَ يَعْنِي: تَوْلِيدَ مَعَانٍ جَدِيدَةٍ اعْتِمَادًا عَلَى مَعَانٍ سَابِقَةٍ، والرَّابط بَيْنَ المَعْنَيَيْنِ، هو الفَاءُ

(1) البخاريّ، صحيح البخاريّ، حديث رقم: (3364).
(2) الدّبل، دليل البلاغة: 1/220.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/65.
(4) محمد علي جميل، الإبداع البيانّي في القرآن، ص: 34.
(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/65.

التّفريعيَّةُ[1]، فقولُهُ ﷻ: ﴿فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ﴾، تفريعٌ على كونِهما من شَعَائِرِ اللّٰه، وأنَّ السَّعْيَ بَيْنَهما في الحجِّ والعُمْرَةِ من المناسِكِ[2].

إشرابُ الاسمِ الموصولِ معنى الشَّرطِ:

عَبّرَتِ الآيةُ بلفظ (مَنْ) دون الاسم الموصولِ الظَّاهرِ، لإشرابه معنى الشَّرطِ، وهو نفي الجناحِ عمَّن يريدُ الحجَّ والعمرةَ، أي: فمن نوى الحجَّ فعليه الطَّوافُ.

الفَرْقُ بَيْنَ لَفْظِ (الحج)، وقَوْلِهِ: ﴿حَجَّ ٱلْبَيْتَ﴾:

الْحَجُّ عِنْدَ الْإِطْلَاقِ يَدُلُّ عَلَى قَصْدِ الْبَيْتِ الْحَرَامِ الَّذِي بِمَكَّةَ؛ لِعِبَادَةِ اللّٰهِ تَعَالَى فِيهِ، بِالطَّوَافِ وَالْوُقُوفِ بِعَرَفَةَ وَالْإِحْرَامِ، فَهُوَ جِنْسٌ بِالْغَلَبَةِ كَالْعَلَمِ بِالْغَلَبَةِ؛ فَلَا يَحْتَاجُ إِضَافَتَهُ إِلَى الْبَيْتِ؛ وَلِذَلِكَ وَرَدَ فِي الْقُرْآنِ مَقْطُوعًا عَنِ الْإِضَافَةِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ﴾ [البقرة: 197]، وَلَكِنْ يُضَافُ إِلَى الْبَيْتِ فِي مَقَامِ الِاعْتِنَاءِ وَالِاهْتِمَامِ، كَقَوْلِهِ ﷻ: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ﴾ [آل عمران: 97]؛ لِأَنَّهُ مَقَامُ ابْتِدَاءِ تَشْرِيعٍ، فَهُوَ مَقَامُ بَيَانٍ وَإِطْنَابٍ، أَمَّا الْفِعْلُ (حَجَّ) بِمَعْنَى قَصَدَ، فقد بَقِيَ عَلَى إِطْلَاقِهِ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ؛ فَلِذَلِكَ كَانَ ذِكْرُ الْمَفْعُولِ لِزِيَادَةِ الْبَيَانِ[3].

مَقامُ البَيانِ والإطْنابِ، يَقْتَضي زِيادَةَ المَبْنى لِزِيادَةِ المَعْنى

دَلالَةُ حَذْفِ المَفْعولِ بِهِ في: ﴿ٱعْتَمَرَ﴾:

تَقْدِيرُ الْكَلَامِ (اعْتَمَرَ الْبَيْتَ)، فَحُذِفَ الْبَيْتُ اكتفاءً؛ لِأَنَّ دَلَالَةَ ﴿ٱعْتَمَرَ﴾، تَدُلُّ بِالْغَلَبَةِ عَلَى زِيَارَةِ الْبَيْتِ، فَتَكْفِي فِي الدَّلَالَةِ عَلَى الْبَيْتِ عِنْدَ إِطْلَاقِهِ.

الفرقُ بينَ نَفْيِ الجِنْسِ ونَفْيِ الوحدةِ:

النَّفْيُ بلفظ (لَا) النَّافِيَةِ لِلْجِنْسِ يُفِيدُ التَّنْصِيصَ عَلَى اسْتِغْرَاقِ نَفْيِ الْجِنْسِ، لَا عَلَى سَبِيلِ الِاحْتِمَالِ - فـ "لَمَّا قُصِدَ بِهَا التَّنْصِيصُ

نَفْيُ الجِنسِ نَصٌّ في الاستِغراقِ، وهو أبلغُ في رَفْعِ الحَرَجِ

(1) التّفريع: جعل شيءٍ عَقيب شيءٍ؛ لاحتياج اللاّحق إلى السّابق، الجرجانّي، التّعريفات، ص: 63، وقد يكون تَفْرِيع السَّبَب على المُسَبّب، وتفريع اللّازم على المَلْزُوم أَيْضًا، ينظر: الكَفويّ، الكلّيّات، ص: 676.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/61.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/61-62.

عَلَى الْعُمُومِ، اخْتَصَّتْ بِالِاسْمِ -لِأَنَّ قَصْدَ الِاسْتِغْرَاقِ عَلَى سَبِيلِ التَّنْصِيصِ يَسْتَلْزِمُ وُجُودَ (مِنْ)، لَفْظًا أَو مَعْنًى، ولَا يَلِيقُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْأَسْمَاءِ النَّكِرَاتِ، فَوَجَبَ لـ (لَا) -عِنْدَ ذَلِكَ الْقَصْدِ - عَمَلٌ فِيمَا يَلِيهَا، فَإِن قُلْتَ: فَلِمَ عَمِلَت عَمَلَ إِنَّ؟ قُلْتُ: لِمُشَابَهَتِهَا لَهَا في التَّوْكِيدِ؛ فَإِنَّ (لَا) لِتَوْكِيدِ النَّفْيِ، و(إِنَّ) لِتَوْكِيدِ الْإِثْبَاتِ"[1]، والنَّفْيُ الْمُؤَكَّدُ مِمَّا يُنَاسِبُ التَّرَدُّدَ الَّذِي حَصَلَ في أَمْرِ الصَّفَا والْمَرْوَة.

وَنَفْيُ الْجِنْسِ يَسْتَلْزِمُ نَفْيَهُ عَن جَمِيعِ أَفْرَادِهِ، فَقَوْلُهُ ﷻ: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ﴾، نَصٌّ عَلَى انْتِفَاءِ جِنْسِ الْإِثْمِ، ولَا يَتَطَرَّقُ إِلَيْهِ الِاحْتِمَالُ، كَاحْتِمَالِ أَن يُرَادَ بِهِ الْإِثْمُ الْكَبِيرُ دُونَ الصَّغِيرِ، فَنَفْيُ الِاحْتِمَالِ يَشْمَلُ جَمِيعَ صُوَرِ الْإِثْمِ، ولَو قَالَ: (فَلَا جُنَاحٌ عَلَيْهِ)؛ فَإِنَّهُ يَحْتَمِلُ أَن يُرِيدُ شُمُولَ الْإِثْمِ كُلِّهِ، أَو أن يريدَ الْإِثْمَ الْوَاحِدَ، فَلَن يَكُونَ نَصًّا في نَفْيِ الْجِنْسِ.

تَعْيِينُ غَرَضِ النَّفْيِ يُعْلَمُ بالسِّياقِ.

قَوْلُهُ ﷻ: ﴿فَلَا جُنَاحَ﴾ "لَيْسَ الْمَقْصِدُ مِنْهُ إِبَاحَةَ الطَّوَافِ لِمَن شَاءَ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ بَعْدَ الْأَمْرِ لَا يَسْتَقِيمُ، وإِنَّمَا الْمَقْصِدُ مِنْهُ رَفْعُ مَا وقَعَ في نُفُوسِ قَوْمٍ مِن الْعَرَبِ، مِن أَنَّ الطَّوَافَ بَيْنَهُمَا فِيهِ حَرَجٌ، وإِعْلَامُهُم أَنَّ مَا وقَعَ في نُفُوسِهِم غَيْرُ صَوَابٍ"[2].

تَصْحِيحُ الْمَفَاهِيمِ ضَرورَةٌ لتَرْسِيَةِ التَّشْرِيعِ الفِقْهِيّ

فَإِن قُلْتَ: كَيْفَ قِيلَ: إِنَّهُمَا مِن شَعَائِرِ اللَّهِ، ثُمَّ قِيلَ: لَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا؟ فالجَوابُ: أَنَّ ذلك لِمَا وقَعَ فِيهِمَا مِن حَرَجٍ؛ لِكَوْنِهِمَا صَنَمَيْنِ مِن أَصْنَامِ الْجَاهِلِيَّةِ، فَرَفَعَ الْحَرَجَ والْجُنَاحَ[3].

تَثْقِيلُ اللَّفْظِ لبَيانِ ثِقَلِ العَمَلِ لا ثِقَلِ المُعتَقَدِ:

قَالَ سُبْحَانَه: ﴿يَطَّوَّفَ﴾ ولم يَقُل: (يَطُوفَ)؛ لِإِظْهَارِ الشِّدَّةِ في هَذَا الطَّوَافِ، فَالطَّوَّافُ أَو السَّعْيُ بَيْنَ الصَّفَا والمَرْوَةِ، لَيْسَ يَسِيرًا،

عَلى قَدْرِ المَشَقَّةِ يَكونُ الأَجْرُ

(1) المراديّ، الجنى الدّاني، ص: 292-291.
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 1/229.
(3) الطِّيبيّ، فتُوح الغَيب: 3/170.

بَل هُوَ مِمَّا يَتَطَلَّبُ جُهْدًا، فَإِيثَارُ الْفِعْلِ ﴿يَطَّوَّفَ﴾ عَلَى (يَطُوفَ)؛ لِإِظْهَارِ هَذَا الْجُهْدِ، و﴿يَطَّوَّفَ﴾ أَصْلُهُ (يَتَطَوَّفُ)، فَأُدْغِمَ التَّاءُ في الطَّاءِ[1]، وهَذَا الْإِدْغَامُ أَعْطَى ثِقَلاً لِلَّفْظِ، وهَذَا الثِّقَلُ يُنَاسِبُ شِدَّةَ الْفِعْلِ وصُعُوبَتَهُ، وكذلك فِيه إِشَارَةٌ إِلى أَنَّ الثِّقَلَ يجِبُ أَنْ يكونَ في العملِ البَدَنيِّ لا في النَّفسِ.

دَلالَةُ قِراءَةِ ﴿وَمَن تَطَوَّعَ﴾ وقِراءَةِ ﴿يَطَّوَّعْ﴾:

تَوْجيهُ القِراءَةِ القُرْآنِيَّةِ للمَعْنى، تَجْلِيَةٌ لِلإِعْجازِ اللُّغَوِيِّ والبَيانِيِّ

قَرَأَ حَمْزَة والْكِسَائِي ويَعْقُوب: ﴿يَطَّوَّعْ﴾، وأَصْلُهُ (يَتَطَوَّع) فَأُدْغِمَ، مِثْل يَطَّوَّف[2]، جاء في تفسير الطّبريّ: "اختَلفَ القرّاءُ في قراءةِ ذلك، فقرأَتْهُ عامّةُ قُرّاءِ أهلِ المَدينَةِ والبصْرةِ: ﴿وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا﴾، على لَفظ المُضِيّ؛ بالتّاءِ وفتحِ العينِ، وقرَأَتْه عامّةُ قُرّاءِ الكوفِيّين: ﴿وَمَن يَطَّوَّعْ خَيْرًا﴾؛ بالياءِ وجَزمِ العَيْنِ وتشديدِ الطّاء، بمعْنَى: (ومَنْ يَتَطَوّعْ)، وذُكر أنّها في قراءة عبد اللّه: (ومَن يَتَطَوَّعْ)، فقرأ ذلك قُرّاء أهل الكوفةِ على ما وصَفْنا، اعتبارًا بالّذي ذَكَرْنا مِن قِراءَةِ عبد اللّهِ -سوى عَاصِم، فإنّه وافق المدنيّين- فشدّدُوا الطّاءَ، طلبًا لإدغام التّاء في الطّاء، وكلتا القراءَتَيْنِ مَعْروفَةٌ صَحيحَةٌ، مُتَّفِقٌ مَعنَياهُما غيرُ مُخْتَلفَين؛ لأنّ الماضيَ منَ الفعلِ، مع حُروف الجزاءِ، بمعنى المستَقْبَلِ، فبأَيّ القراءَتَين قَرأ ذلكَ قارِئٌ، فمُصيبٌ"[3].

وَهَذِهِ الْقِرَاءَةُ تُظْهِرُ تَوَافُقًا في البِنْيَةِ الصَّوْتِيَّةِ بَيْنَ الفِعْلَيْنِ، ولَا سِيَّمَا أَنَّهُمَا مُتَّفِقَانِ في الصَّوْتَيْنِ الْأَوَّلِ والثَّاني: (طَافَ، طَاعَ)، وهِيَ تُنَاسِبُ الشِّدَّةَ والتَّكَلُّفَ في التَّطَوُّعِ، فَالتَّثْقِيلُ يُنَاسِبُ الْأَفْعَالَ الَّتِي فِيهَا صُعُوبَةٌ، وثِقَلٌ عَلَى النَّفْسِ والْبَدَنِ، والمَطْلوبُ هنا البَدَنُ دونَ النَّفْسِ.

دَلالَةُ (الفاءِ) عَلى يَقينِ تَحَقُّقِ الجَزاءِ عَلى التَّطَوُّعِ:

"هَذِهِ الْفَاءُ إِذَا دَخَلَت في خَبَرِ الْمَوْصُولِ أَو النَّكِرَةِ الْمَوْصُوفَةِ، أَفَادَتْ أَنَّ الثَّانيَ إِنَّمَا وجَبَ

(1) النَّسفيّ، مدارك التّنزيل: 1/145.
(2) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 1/115.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 3/247.

لِوُجُوبِ الْأَوَّلِ"[1]، وهَذَا يَعْنِي أَنَّ تَطَوُّعَ الْعِبَادِ يُقَابِلُهُ اللَّهُ تَعَالَى بِالْجَزَاءِ الْمُحَقَّقِ عَلَى وَجْهِ الْيَقِينِ، وهو معنًى مستفادٌ من سِياقِ الكَلامِ.

تعليلُ الشَّرطِ بأَسْمَاءِ الله الحُسْنَى:

شُكْرُ اللهِ لِعِبادِه لُطْفٌ ومِنَّةٌ

شُكْرُ اللَّه للعَبدِ إمّا بالثّوابِ، وإمّا بالثّناءِ عَليهِ، قال أبو السُّعود: "﴿شَاكِرٌ﴾: مُجازٍ على الطّاعَة، عبّر على ذلكَ بِالشُّكْرِ، مُبالَغةً في الإحسانِ إلى العِبادِ، و﴿عَلِيمٌ﴾: مُبالِغٌ في العِلم بالأشْياءِ، فيَعْلَمُ مَقاديرَ أَعْمالِهِمْ وكَيْفيّاتِها، فلا يَنْقُصُ منْ أجُورِهِمْ شَيْئًا، وهو عِلَّةٌ لِجَوابِ الشَّرْطِ، قائِمٌ مَقامَهُ، كَأَنَّه قيلَ: (ومَنْ تَطوَّعَ خَيرًا جازاهُ اللَّهُ وأثابَهُ، فإنَّ اللَّه شاكِرٌ عَليمٌ)"[2]، وهذا من بليغِ الوَعْدِ على المُجازاةِ.

تَوْجِيهُ المُتشابِهِ اللَّفظيِّ في آياتِ الأحكامِ:

أثـرُ الـنَّـظـمِ في إظْـهـارِ العُـمـومِ والـخُـصُـوصِ التَّشريعيِّ

صُدِّرَتِ الْآيَةُ بِلَفْظٍ مِن أَلْفَاظِ الْعُمُومِ، وهُوَ (مَنْ)، وجَاءَ فِيهَا لَفْظُ الخَيْرِ بِصِيغَةِ التَّنْكِيرِ المُفِيدَةِ لِلعُمُومِ والشُّمُولِ؛ فَالْجُمْلَةُ تحُثُّ عَلى فِعْلِ الْخَيْرِ عَامَّةً، ولَيْسَ الْمَقْصُودُ خُصوصَ عِبادَةِ السَّعْيِ بَيْنَ الصَّفَا والمَرْوَة؛ فَقَالَ ﷻ: ﴿وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ١٥٨﴾، ولَو قَالَ: (فَمَن تَطَوَّعَ الخَيْرَ)، لَكَانَ الْمُرَادُ خُصُوصَ هَذَا الْفِعْلِ؛ لِأَنَّ الْفَاءَ تَعْنِي السَّبَبِيَّةَ، وإن كَانَت تُؤَدِّي الاسْتِئْنَافَ والتَّفْرِيعَ، فَيَكُونُ الْمَعْنَى: فمَنْ تطَوَّعَ في السَّعْيِ، والمُرادُ التَّطوُّعُ الأعمُّ من ذلِك؛ فَاسْتُعْمِلَت الْوَاوَ بَدَلَ الْفَاءِ لِذَلِكَ.

ولو نَظرْنا في استِعمالِ الْفَاءِ مَعَ الْفِعْلِ ﴿تَطَوَّعَ﴾ في آيةِ الصِّيَامَ: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ ۖ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ ۚ وَأَن تَصُومُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ١٨٤﴾ [البقرة: 184]؛ لَعَلِمنا أَنَّهُ أَرَادَ بَيَانَ أَنَّ الصَّوْمَ مَعَ وُجُودِ الرُّخْصَةِ في الْفِطْرِ، أَفْضَلُ مِن

(1) الرّازيّ، التّفسير الكبير: 4/138

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 1/181.

تَرْكِهِ، أَو أَنَّ الزِّيَادَةَ عَلَى إِطْعَامِ مِسْكِينٍ أَفْضَلُ مِن الاقْتِصَارِ عَلَيْهِ[1]، فَهِيَ تَتَكَلَّمُ عَن خُصُوصِيَّةٍ في عِبادَةِ الصَّوْمِ، فافترقَ المعنى عمومًا وخُصوصًا بافتراقِ الحرفِ المُسْتعملِ.

إِيثَارُ اسْتِعمالِ الْفِعْلِ ﴿تَطَوَّعَ﴾:

مَنْ تَطَوَّعَ، تَلْبِيَةً لأَمْرِ اللهِ فيما شَرَعَ، نال الأَجْرَ الأَوْفى

اسْتعملتِ الآيةُ فعلَ التَّطوعِ دونَ بقيَّةِ الأفعالِ، من مثل: عَمِلَ، أو فَعَلَ، أو غيرِها، فإنَّ لفْظَ (عَمِلَ) مثلًا لا يَدُلُّ عَلَى التَّزَيُّدِ مِن الْفِعْلِ، فلَو قَالَ: (وَمن عَمِلَ خَيْرًا)، لَكَانَ شَامِلاً لِكُلِّ عَمَلٍ يَتَّصِفُ بِالْخَيْرِ واجبًا أو نافِلةً، كثيرًا أو قليلًا، والآيةُ تريدُ الحَثَّ على الفِعْلِ الزَّائدِ على المَطلوبِ شرْعًا، وهو الذي يَأتي بِه العبْدُ من تِلقاءِ نفسِه، ويدخُلُ في ذلك السَّعيُ بين الصَّفا والمروةِ دُخولًا أوليًّا، والأنسبُ في ذلك اسْتِعمالُ فعلِ التَّطوُّعِ.

دَلَالَةُ التَّنْكِيرِ في قولِه: ﴿خَيْرًا﴾ العُمُومُ:

أَفَادَ التَّنْكِيرُ في قولِه: ﴿خَيْرًا﴾ الشُّمُولَ والعُمومَ؛ لِيَكُونَ التَّطَوُّعُ بِالْكَثِيرِ والْقَلِيلِ، دَاخِلًا ضِمْنَ حُكْمِ الْآيَةِ، فَمَهْمَا كَانَ الْمُتَطَوَّعُ بِهِ قَلِيلًا، فَإِنَّ جَزَاءَهُ الشُّكْرُ مِنَ اللَّهِ تَعالى.

أَوْجُهُ التَّأْوِيلِ الإِعْرابِيِّ ثَراءٌ للمَعْنى السياقي:

نصبُ ﴿خَيْرًا﴾: إمّا على أَنَّهُ صِفَةُ مَصْدَرٍ مَحْذُوفٍ، والتَّقْدِيرُ: مَن تَطَوَّعَ تَطَوُّعًا خَيْرًا، أو أنّهُ نُصِبَ: بِحَذْفِ الْجَارِّ وإِيصَالِ الْفِعْلِ إِلَيْهِ، أَو بِتَعْدِيَةِ الْفِعْلِ لِتَضَمُّنِه مَعْنَى (أَتَى) أَو (فَعَل)[2]، وآثرَ النَّظمُ ما جَاءَ عَلَيْه لبيانِ أنَّ التَّطوُّع يجبُ أن يبدأَ خيرًا وينتهي خيرًا، ولذلك تسلَّطَ الفعلُ عليْه.

فائِدَةُ تَأْكِيدِ الخَبَرِ في قوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾:

دَفْعُ وَهْمِ عَدَمِ شُكْرِ الأَعْمَالِ التَّطوّعيَّةِ

بَدَأَت الْجُمْلَةُ بِتَأْكِيدِ الْخَبَرِ؛ لتأكيدِ الشُّكْرِ على التَّطوُّعِ، فإنَّ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/64.

(2) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 1/155.

الأعمالَ التَّطوعيَّةَ لا يُرجى من ورائِها الأجرُ في الدُّنيا، فكانَ تأكِيدُ الأجرِ الأُخرويِّ لدَفْعِ مَظنَّةِ أنْ لا أجرَ على التَّطوّعِ، وهذا من بديعِ الخطابِ في تلبيةِ احتياجاتِ النَّفسِ للطمأنينةِ.

بلاغةُ إظْهارِ الاسْمِ الأحْسَنِ في قولِه: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾:

لـمَّا سَبَقَ ذِكْرُ لَفْظِ الْجَلالَةِ في قَوْلِهِ ﷻ: ﴿۞إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِۖ﴾، فقد يظنُّ ظانٌّ أنَّ الْمُنَاسِبَ الْإِضْمَارُ؛ فَيَقُولَ: (فَإِنَّهُ شَاكِرٌ عَلِيمٌ)، وما جَاءَ عليه النَّظمُ الكريمُ هو المُناسِبُ واللَّائقُ بالبلاغةِ؛ ذلك أنَّه جاءَ مُظهِرًا لتَعْظِيمِ الصِّفَاتِ الَّتِي سِيقَت بَعْدَهُ المبنيَّةِ عليه، وفيه تعظيمُ الأجرِ الجزيلِ.

بلاغةُ إيرَادِ الأسمَاءِ الحُسنى اختيارًا وترتيبًا:

"وقَعَتِ الصِّفَتَانِ هُنَا الْمَوْقِعَ الْحَسَنَ، لِأَنَّ التَّطَوُّعَ بِالْخَيْرِ، يَتَضَمَّنُ الْفِعْلَ والْقَصْدَ، فَنَاسَبَ ذِكْرَ الشُّكْرِ بِاعْتِبَارِ الْفِعْلِ، وذِكْرَ الْعِلْمِ بِاعْتِبَارِ الْقَصْدِ"[1]، وقُدِّمَتْ صِفَةُ الشُّكْرِ عَلَى صِفةِ الْعِلْمِ، من بابِ تقديمِ النَّتيجةِ على العِلَّةِ، فَهُوَ يَشْكُرُ أَعْمَالَهُمْ؛ لِأَنَّهُ يَعْلَمُ مَا يَفْعَلُونَ.

التَّنبيهُ على القَصْدِ والفِعْلِ، وتقديمُ النتائجِ على العِلَلِ

دَلالَةُ كَسْرِ النَّسَقِ في الفاصِلَةِ:

الْآيَاتُ السَّابِقَةُ كَانَت تُخْتَمُ بِالْوَاوِ والنُّونِ، وهَذِهِ الْآيَةُ خَرَجَت عَن هَذا النّسق، فَكَسَرَتْه؛ ويُكْسَرُ النَّسَقُ في الْفَاصِلَةِ لِلتَّنْوِيعِ، مِمَّا يُعْطِي جَمَالِيَّةً لِلصَّوْتِ الَّذِي تُخْتَتَمُ بِهِ الْآيَاتُ، فَكُلُّ آيَةٍ لَهَا خَاتِمَةٌ صَوْتِيَّةٌ، فَعِنْدَمَا تَتَوَالَى الْخَوَاتِيمُ مُتَوَافِقَةً، فَإِنَّ هَذَا نَسَقٌ مُتَلَائِمٌ يُعْطِي انْسِيَابِيَّةً في الصَّوْتِ، وفي أُذُنِ الْمُتَلَقِّي، مَعَ مَا فِيهِ مِن جَمَالِيَّةٍ، ثُمَّ تَأْتِي آيَةٌ خِلَالَ ذَلِكَ النَّسَقِ مُبَايِنَةٌ، فَتَكْسِرُ هَذَا النَّسَقَ، وعليه فَإِنَّ ذَلِكَ يُثِيرُ انْتِبَاهَ الْأُذُنِ، وهَذَا تَنْوِيعٌ في الْخَاتِمَةِ الصَّوْتِيَّةِ، يَدْفَعُ الْمَلَلَ والسَّآمَةَ، مِن الرَّتَابَةِ الصَّوْتِيَّةِ الْمُتَكَرِّرَةِ بِنَسَقٍ واحِدٍ.

الإعْجازُ الصَّوْتِيُّ في القُرْآنِ، تَواؤُمٌ في الإيقاعِ، ومُتْعَةٌ في الاسْتِماعِ

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/68.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلۡهُدَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِي ٱلۡكِتَٰبِ أُوْلَٰٓئِكَ يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلۡعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ١٥٩﴾ [البقرة: 159]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

العَلاقَةُ بَيْنَ اسْتِنْكارِ تَحْوِيلِ القِبْلَةِ، وكَتْمِ العُلَماءِ العِلْمَ تَغْلِيظُ العُقُوبَةِ عَلى كِتْمانِ العِلْمِ؛ لِأَنَّهُ مِنْ أَبْشَعِ الأَفْعالِ، وأَسْوَأِ الخِلالِ

لَمّا سَبَقَ الْحَدِيثُ عَنْ تَحْوِيلِ القِبْلَةِ، وذَكَرَ أَنَّ بعضًا مِن الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَكْتُمُونَ الْعِلْمَ في قَوْلِهِ ﷻ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمۡۖ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنۡهُمۡ لَيَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ١٤٦﴾ [البقرة: 146]، ثُمَّ تَكَلَّمَ عَنْ شَرْعِيَّةِ السَّعْيِ بَيْنَ الصَّفا والمَرْوَةِ، وكَانَ السَّعْيُ بَيْنَهُمَا مِن أَعْمالِ الْعَرَبِ الْمُشْرِكِينَ، فَتَحَرَّجَ بَعْضُ الْمُسْلِمِينَ مِن السَّعْيِ بَيْنَهُمَا، فَكَانَ تَبْيِينُ الْحَقِّ في ذَلِكَ مِن الْوَاجِبِ، فَإِنَّ حَقِيقَةَ الشَّيْءِ مَهْما لَحِقَهَا مِن سُوءٍ بِسَبَبِ فِعْلٍ خَارِجِيٍّ، فَإِنَّهُ لَا يَقْدَحُ في قِيمَتِهَا، فَكَانَ بَيَانُ تِلْكَ الْقِيمَةِ والْمَكَانَةِ والْمَشْرُوعِيَّةِ، مِمَّا يَجِبُ أَلَّا يُكْتَمَ، فذَلِكَ يُنَاسِبُ الْحَدِيثَ عَنْ كَتْمِ الْعَلَمِ والْحَقِّ والْبَيِّنَاتِ، ووَجْهُ الْمُنَاسَبَةِ هُنَا أَنَّهُ لَمّا تَقَدَّمَ الْإِخْبَارُ بِحُكْمٍ شَرْعِيٍّ عَقَّبَهُ بِبَيَانِ عُقُوبَةِ الْعَالِمِ إِذَا كَتَمَ عِلْمَهُ[1]، وهَذِهِ الْآيَةُ وإِن كَانَت خَاصَّةً لِبَعْضِ النَّاسِ، فَإِنَّهَا عَامَّةٌ لِكُلِّ مَن سُئِلَ عَن عِلْمٍ يَعْلَمُهُ فَكَتَمَهُ[2].

شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

كتم العلم حبسه في الصّدر، والضنّ به على مستحقّه

1) ﴿يَكۡتُمُونَ﴾: مِنَ الجَذْرِ (كتم)، وهو في الأَصْلِ يَدُلُّ عَلَى إِخْفَاءٍ وسَتْرٍ؛ مِن ذَلِكَ: كَتَمْتُ الْحَدِيثَ كَتْمًا وكِتْمَانًا، وقَالَ اللّٰهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَكۡتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثٗا ٤٢﴾ [النساء: 42][3]، كَتَمَ السِّرَّ: سَتَرَهُ

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/475.
(2) مكّيّ القيسّي، الهداية إلى بلوغ النّهاية: 1/527.
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (كتم).

وأَخْفاهُ، وكذا: كَتَمَ العِلْمَ، والشَّهَادةَ، وكُلُّ ما في القُرآنِ فهُوَ بِمَعْنَى حَبْسِ الْكَلَامِ عَمَّا في الْقَلْبِ مِن شَهَادَةٍ أَو عِلْمٍ أَو فِكْرٍ[1].

ما أنزله الحقّ، فهو مطلوبُهُ بحقّ

2) ﴿أَنزَلْنَا﴾: مِنَ الجَذْرِ (نزل)، وهو في الأصلِ يدُلُّ عَلَى هُبُوطِ شَيْءٍ ووُقُوعِهِ، وهو انحِطَاطٌ من عُلوٍّ، قال تعالى: ﴿أَنزِلْنِي مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ۝٢٩﴾ [المؤمنون: 29]، ويَتَعَدَّى بِالْحَرْفِ والْهَمْزَةِ والتَّضْعِيفِ، فَيُقَالُ: نَزَلْتُ بِهِ، وأَنْزَلْتُهُ، ونَزَّلْتُهُ[2]، وإِنْزَالُ اللّٰه تعالى نِعَمَهُ ونِقَمَهُ على الخَلْقِ: إعطاؤُهُم إيّاها، قَالَ تَعَالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ﴾ [الكهف: 1][3].

البيِّنة الدّلالة الواضحةُ، مجرّدة كانت أو محسُوسة

3) ﴿ٱلْبَيِّنَٰتِ﴾: مِنَ الجَذْرِ (بين)، وهو في الأصل يدل على بُعْدِ الشَّيْءِ وانْكِشَافِهِ، وبَانَ الشَّيْءُ: اتَّضَحَ وانْكَشَفَ، وفُلَانٌ أَبْيَنُ مِن فُلَانٍ؛ أَي: أَوْضَحُ كَلَامًا مِنْهُ[4]، بَانَ: انْفَصلَ، وظَهَرَ ما كان مُسْتَتِرًا مِنْهُ، بانَ الصّبحُ: ظَهَرَ، ويقال: آيَةٌ مُبَيَّنَةٌ؛ اعتبارًا بمَن بيَّنها، وآيةٌ مُبَيِّنَة اعتبارًا بنفْسِها، وآياتٌ مبيَّناتٌ ومبيِّناتٌ، والبَيِّنَةُ: الدَّلالةُ الوَاضِحَةُ، عَقْلِيَّةً كانَت أَو مَحْسُوسةً[5].

والْبَيِّنَات والْهُدَى: أَمْرُ النبيّ مُحَمَّد ﷺ ثُمَّ يَعُمُّ بَعْدُ كُلَّ مَا يُكْتَمُ مِن خَيْرٍ[6].

من لعنه الله هلك في الدّنيا وخاب في الآخرة

4) ﴿يَلْعَنُهُمُ﴾: مِنَ الجَذْرِ (لعن)، واللَّعْنُ: الطَّرْدُ والإِبْعادُ على سَبِيلِ السُّخْطِ[7]، وكلُّ مَن لَعَنَهُ اللّٰه فَقَد أَبْعَدَهُ عَن رَحْمَتِه، واسْتَحَقَّ العذابَ فَصَارَ هَالِكًا[8]، فاللَّعْنُ مِن اللّٰهِ تَعالى في الآخِرَةِ عُقُوبةٌ،

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (كتم).
(2) الفيّوميّ، المصباح المنير: 2/600.
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (نزل)؛ الرَّاغب، المفردات: (نزل).
(4) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (بين).
(5) الرَّاغب، المفردات: (بين).
(6) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 1/231.
(7) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (لعن)؛ الرَّاغب، المفردات: (لعن).
(8) ابن منظور، لسان العرب: (لعن).

وفي الدُّنْيا انْقِطَاعٌ من قَبُولِ رَحْمَتِه وتَوْفِيقِه، ومن الإنْسانِ دُعاءٌ على غَيْرِه، قَالَ تَعَالى: ﴿أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ١٨﴾ [هود: 18][1].

المَعْنَى الإجْمَالِيُّ:

التَّشْنيعُ عَلى عُلَماءِ اليَهودِ والنَّصارى، في كَتْمِ دَلائِلِ صِدْقِ مُحَمَّدٍ ﷺ ورِسالَتِه

نَزَلَت في عُلَمَاء الْيَهُودِ في كَتْمِهم دَلَائِلَ صِدْقِ النَّبِيِّ ﷺ، وصِفَاتِه وصِفَاتِ دِينِه المَوْجودةَ في التَّوْرَاةِ، وفي كَتْمِهم آيَةَ الرَّجْم، وغَيْرَهَا مِن الْأَحْكَامِ الَّتِي كَانَت في التَّوْرَاةِ[2]، وسَبَبُ النُّزُولِ لَا يَمْنَعُ عُمُومَ الْآيَةِ؛ فَهِيَ شَامِلَةٌ كلَّ مَن كَتَمَ شَيْئًا من أَمْرِ الدِّينِ؛ لِأَنَّ اللَّفْظَ عَامٌّ، والْعِبْرَةَ بِعُمُومِ اللَّفْظِ لَا بِخُصُوصِ السَّبَبِ[3].

والمعنى العام: إنَّ الَّذِينَ يُخْفُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِن الْآيَاتِ الْوَاضِحَاتِ الدَّالَّةِ عَلَى نُبُوَّةِ مُحَمَّدٍ المصطفى ﷺ ومَا جَاءَ بِهِ، وهُم أَحْبَارُ الْيَهُودِ وعُلَمَاءُ النَّصَارَى وغَيْرُهم، مِمَّن يَكْتُمُ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِن بَعْدِ ما أَظْهَرْنَاهُ لِلنَّاسِ في التَّوْرَاةِ والْإِنْجِيلِ، أُولَئِكَ يَطْرُدُهُم اللَّهُ مِن رَحْمَتِه، ويَدْعُو عَلَيْهِم بِاللَّعْنَةِ جَمِيعُ الْخَلِيقَةِ[4].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبلاغيُّ:

غَرَضُ الاسْتِئْنافِ وَتَأْكِيدُه في الآيَةِ:

فَظاعَةُ كَتْمِ العِلْمِ مِنْ أشْنَعِ ما نَدَّدَ بِهِ النَّصُّ القُرْآنيّ

الْجُمْلَةُ في قَوْلِه ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلۡهُدَىٰ﴾ اسْتِئْنَافٌ؛ لِلاهْتِمَامِ بِمَضْمُونِ الْجُمْلَةِ، والْغَرَضُ بيانُ فَظَاعَةِ مَا قَامَ به أهلُ الكِتابِ مِن الْكَتْمِ، ولذلكَ جاءَ الكَلامُ مُؤَكَّدًا؛ فلمَّا كان أَهْلُ الكِتَابِ يتسَاهلُونَ في كِتمانِهم، ويظنّونَ أنَّهم ناجُون، كانَ لهذا التَّوكِيدِ مَحلُّه في التَّأثيرِ، وموقعُه في الأَثَرِ؛ لِدفْعِ هذه الأوهامِ، ومَحْقِ هذه الخُزعبَلاتِ.

(1) الرَّاغب، المفردات: (لعن).
(2) الواحديّ، أسباب النّزول، ص: 29، والخازن، لباب التّأويل: 1/97.
(3) الخازن، لباب التّأويل: 1/97.
(4) نخبة من العلماء، التّفسير الميسّر، ص: 24.

دَلالَةُ اسْتِعمالِ الْفِعْلِ الْمُضَارِعِ: ﴿يَكْتُمُونَ﴾:

الوَعيدُ المَشوبُ بالرَّجاءِ تَرْغيبًا، والإخبارُ بالوَاقِعِ تَرْهِيبًا

أفادَ التَّعْبيرُ بِالْفِعْلِ الْمُضَارِعِ فائِدَتينِ: الأُولى: أَنَّ الْوَعيدَ في هَذِهِ الْآيَةِ مَشُوبٌ بِالرَّجَاءِ، فلَم يَقُل: (كَتَمُوا) بِالْمَاضِي، تَنْبيهًا عَلَى أَنَّ مَا وقَعَ مِنْهُم قَبْلَ ذَلِكَ مَعْفُوٌّ عَنْهُ، لَا يَتَنَاوَلُهُ هَذَا الْوَعيدُ، ثُمَّ أَكَّدَ هَذَا الرَّجَاءَ بِرَجَاءٍ آخَرَ، وهُوَ أَنَّ الْكَتْمَ الصَّادِرَ مِنْهُم في الْمُسْتَقْبَلِ، إِنَّمَا يُعَاقَبُونَ عَلَيْهِ مَعَ الْإِصْرَارِ عَلَيْهِ والْمُدَاوَمَةِ؛ لِقَوْلِهِ ﷻ: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ﴾[1]، والثَّانية: الإخبارُ باستمرارِهم في الكِتمانِ، بدليلِ الاستثناءِ؛ فهم في الجُملَةِ مُسْتمرُّون بالكِتمانِ، وبه يستحقُّون الكِتمانَ في اللَّعنِ إلى يومِ القيامةِ.

إِيثَارُ الْعُمُومِ عَلَى الْخُصُوصِ في قوله: ﴿مَآ أَنزَلْنَا﴾:

كَتْمُ الجُزْءِ له حُكْمُ كَتْمِ الكُلِّ، لأنَّه اعْتِراضٌ عَلى حُكْمِ اللهِ

آثرتِ الآيَةُ التَّعبيرَ بالاسْمِ الْمَوْصُولِ الْحَرْفِيِّ الدَّالِ عَلَى الْعُمُومِ في قولِه: ﴿مَآ أَنزَلْنَا﴾؛ فلمْ تُعيِّنْه أو تُخَصِّصْه، وهُم وإن لَم يَكْتُمُوا جَميعَ مَا أُنْزِلَ إلَّا أنَّهم عُوملوا معامَلَةَ من كَتَمَ جَميعَ مَا أُنْزِلَ؛ لأَنَّ مَنْ كَتَمَ شَيْئًا من كِتَابِ اللَّهِ وتَعَاليمِه؛ فكَأَنَّهُ كَتَمَ كُلَّ التَّعَاليمِ والْبَيِّنَاتِ؛ لِأَنَّ الْكَتْمَ اعْتِرَاضٌ ضِمنيٌّ عَلَى حُكْمِ اللَّهِ، والاعْتِرَاضُ عَلَى اللَّهِ لَا فَرْقَ بَيْنَ كَثيرِه وقَليلِه.

دَلَالَةُ إِسْنَادِ الإِنْزَالِ لِلَّهِ تَعَالَى: ﴿أَنزَلْنَا﴾:

كِتْمانُ بيِّناتِ اللهِ أَفْظَعُ وأَشْنَعُ من كِتمانِ كلامِ غيرِه

عَبَّرَ عَمَّا يَكْتُمُونَهُ، بِأَنَّهُ أُنزِلَ مِن اللَّهِ تَعَالَى، ولَم يَقُلْ: (إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ الْبَيِّنَاتِ والْهُدَى)؛ لِتَعْظِيمِ الْمُنْزِلِ الَّذِي كَتَمُوهُ، فَإِنَّ شَرَفَ التَّعَالِيمِ مُكْتَسَبٌ مِن مَصْدَرِهَا، فَلَمَّا كَانَت التَّعَالِيمُ والْبَيِّنَاتُ مِن وحْيِ اللَّهِ تَعَالَى، كَانَ كِتْمَانُهَا أَشَدَّ فَظَاعَةً وشَنَاعَةً.

الجمعُ بين دلالةِ تعظيمِ المُنزِلِ وتقبيحِ الكاتِمِ في قولِه: ﴿أَنزَلْنَا﴾:

عُبِّرَ بِصِيغَةِ الْفِعْلِ الْمُسْنَدِ إِلَى ضَمِيرِ الْمُتَكَلِّمِينَ، لِلتَّعْبِيرِ عَن

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/476-477.

خِطَابِ اللَّهِ تَعَالَى الْوَاحِد، يُرَادُ مِنْهُ التَّعْظِيمُ، وفي هذا تشْرِيفٌ وتعظيمٌ لِلمُنْزَلِ، وتشديدٌ وتقبيحٌ لكاتِمِه.

دلَالَةُ حَرْفِ (مِنْ) وسِرُّ الجمْعِ بَيْنَ: ﴿ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ﴾:

(مِنْ) هُنَا بَيَانِيَّةٌ، تُبَيِّنُ المكتوم مِن أَيِّ شَيْءٍ، وبِهَذَا فَإِنَّ كَتْمَ مَا لَيْسَ مِن الْبَيِّنَاتِ لَيْسَ مَذْمُومًا؛ فَقَوْلُهُ ﷻ: ﴿مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ﴾، دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُ يَجُوزُ كَتْمُ غَيْرِ ذَلِكَ، ممَّا لا يتَّصِفُ بأنَّه من البيِّنات والهُدى، أي: ممَّا لا يَنبني عَلَيْه بيانٌ أو هِدايةٌ، وهذا سرُّ الجمعِ بينَ هاتين الكَلِمتَيْنِ.

تقييدُ الكتمِ بالبيِّناتِ والهدى توسِعةٌ على العبادِ ورَحْمَةٌ

سِّرُّ إفْرادِ الهُدى وتَأْخِيرِهِ عن البيِّنات في قَوْلِهِ: ﴿ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ﴾:

جاءَ التَّعبيرُ بإفرادِ الهُدى وَلَم يُجْمَع "مِثْلَ الْبَيِّنَاتِ؛ لِكَوْنِهِ مَصْدَرًا"[1]، فيُؤدِّي معنى الجَمْعِ، وأُخِّرَ عَن الْبَيِّنَاتِ؛ لأنَّ البيِّنات هي لما سبَقَ الكَلامُ عليه من بعثةِ النَّبيِّ ﷺ، فهُم يَكتُمونَ ما يجبُ بيانُه ممَّا هو مُتوقِّفٌ على البيانِ، وأمَّا الهُدَى فأُخِّر لأنَّ الهدايةَ تكونُ لـمَا يُستَقبَلُ من الأعمالِ، "إِذِ الْهِدَايَةُ بَعْدَ الْوُضُوحِ"[2].

البيِّناتُ توضيحٌ للغَوامِضِ، والهُدَى لما يُسْتَقبلُ منها

مَدْلولُ (مِنْ) الابْتِدائيَّةِ في قولِهِ: ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا بَيَّنَّٰهُ﴾:

(مِنْ) في قَولِهِ: ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا بَيَّنَّٰهُ﴾ ابْتِدَائِيَّةٌ، يَعْنِي: بَدَأَ كِتْمَانُهُم بَعْدَ الْبَيَانِ، فَذَكَرَ ذَلِكَ لِزِيَادَةِ التَّفْظِيعِ لِحَالِ الْكِتْمَانِ، وذَلِكَ أَنَّهُم كَتَمُوا الْبَيِّنَاتِ والْهُدَى، مَعَ انْتِفَاءِ الْعُذْرِ في ذَلِكَ؛ لِأَنَّهُم لَو كَتَمُوا مَا لَم يُبَيَّنْ لَهُمْ، لَكَانَ لَهُم بَعْضُ الْعُذْرِ أَن يَقُولُوا: كَتَمْنَاهُ لِعَدَمِ اتِّضَاحِ مَعْنَاهُ، فَكَيْفَ وهُوَ قَد بُيِّنَ ووُضِّحَ في التَّوْرَاةِ[3]!

كِتْمانُ البَيِّناتِ مَعَ انْتِفاءِ العُذْرِ مِنْ أَكْبَرِ الخَطيئاتِ

دَلالَةُ حرْفِ اللَّامِ في قَولِهِ ﴿بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ﴾:

اللَّامُ في قَوْلِهِ ﷻ: ﴿لِلنَّاسِ﴾ للتَّعْلِيلِ، أَي: بَيَّنَّاهُ في الْكِتَابِ لِأَجْلِ

(1) القُونَوِيّ، حاشيةٌ على البيضاوِيّ: 4/385.
(2) القُونَوِيّ، حاشيةٌ على البيضاوِيّ: 4/385.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/67.

النَّاسِ، أَي: أَرَدْنَا إِعْلَانَهُ وإِشَاعَتَهُ، أَي: جَعَلْنَاهُ بَيِّنًا، وفي هَذَا زِيَادَةُ تَشْنِيعٍ عَلَيْهِمْ، فِيمَا أَتَوْهُ مِن الْكِتْمَانِ، وهُوَ -أَنَّهُ مَعَ كَوْنِهِ كِتْمَانًا لِلْحَقِّ، وحِرْمَانًا مِنْهُ- اعْتِدَاءٌ عَلَى مُسْتَحِقِّهِ الَّذِي جُعِلَ لِأَجْلِهِ؛ فَفِعْلُهُم هَذَا تَضْلِيلٌ وظُلْمٌ[1].

الاعْتِداءُ بِحِرْمانِ الـمُسْتَحِقِّ ما قُـرِّرَ لَـهُ ظُـلْـمٌ وتَسَلُّطٌ

دَلالَةُ الظَّرْفِيَةِ في قَولِهِ: ﴿فِي ٱلْكِتَٰبِ﴾:

تشير شبه الجملة إلى مَكَانِ التَّبْيِينِ، وهَذَا تَخْصِيصٌ، فَيَكُونُ التَّبْيِينُ مَعْرُوفًا لَا غِشَاوَةَ عَلَيْهِ، مَعْرُوفًا لَدَيْهِمْ، يَتْلُونَهُ في الْكِتَابِ، وهَذَا يُفِيدُ زِيَادَةَ الذَّمِّ؛ فَهُم يَعْلَمُونَ أَنَّهُم يَكْتُمُونَ عَن إِصْرَارٍ وعِنَادٍ، "وَمَعْنَى كِتْمَانِهم في الْكِتَابِ: أَنَّهُ وقَعَ في الْكِتَابِ، فَإِنَّ الْمُرَادَ بِالْكِتْمَانِ، إِمَّا سَتْرُهُ وإِخْفَاؤُهُ، أَو إِزَالَتُهُ ووَضْعُ شَيْءٍ آخرَ مَوْضِعَهُ؛ فَإِنَّهُم مَحَوْا نُعُوتَهُ ﷺ، وكَتَبُوا مَكَانَها مَا يُخَالِفُها، وهُوَ الْمُعَبَّرُ عنه بِالتَّحْرِيفِ، وهَذَا هُوَ الْمُرَادُ هُنَا"[2].

تَحْرِيفُ الكُتُبِ الـسَّـمـاوِيَّـةِ، نَتيجَةٌ لِسَيْطَرَةِ الأَهْواءِ البَشَرِيَّةِ

دَلَالَةُ التَّعْرِيفِ في لَفْظِ ﴿ٱلْكِتَٰبِ﴾:

الظَّاهِرُ أَنَّهُ يَعْنِي بِهِ الْكِتَابَ الَّذِي ذُكِرَ فِيهِ النَّبِيُّ ﷺ، وهُوَ التَّوْرَاةُ، وقَد يَكُونُ الْمُرَادُ بِالْكِتَابِ اسْمَ الْجِنْسِ، وتَعْرِيفُهُ بِالْأَلِفِ واللَّامِ، يُفِيد شُمُولَهُ لِجَمِيعِ الْكُتُبِ السَّمَاوِيَّةِ[3]، والْأَوَّلُ أَرْجَحُ؛ لِأَنَّهُ يَتَكَلَّمُ عَن مَعْهُودٍ، "وَاللَّامُ فِيهِ لِلْعَهْدِ؛ بِقَرِينَةِ أَنَّ الْكَتْمَ وقَعَ مِن الْيَهُودِ، وكِتَابُهُم التَّوْرَاةُ"[4]، وهذا وإِنْ كانَ هو الرَّاجحَ؛ فيدخلُ فيه كلُّ كتابٍ سماويٍّ بدلالةِ الفحوى.

سِرُّ اسْتِعْمَالِ اسمِ الْإِشَارَةِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾:

جاءَ الْمُسْنَدُ إِلَيْهِ اسْمَ إِشَارَةٍ؛ لِتَمْيِيزِهِ بِمَا يَخُصُّهُ، فَهُوَ إِشَارَةٌ إِلَى الَّذِينَ يَكْتُمُونَ العِلْمَ، والْإِشَارَةُ إِلَى مَوْصُوفٍ بِوَصْفٍ، تدلُّ على

كِـتْـمانُ العِـلْـمِ وإِخْـفـاءُ الحَـقِّ مُـبْـعِـدٌ صاحِبَهُ مِنْ رَحْمَةِ اللهِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/67.
(2) القُونَوِيّ، حاشيةٌ على البيضاوِيّ: 4/386.
(3) القِنَّوجيّ، فتح البيان: 1/323-324.
(4) القُونَوِيّ، حاشيةٌ على البيضاوِيّ: 4/386.

أَنَّ الْوَصْفَ عِلَّةٌ لِلْحُكْمِ، فَكِتْمَانُ العِلْمِ عِلَّةٌ لِلإِبْعَادِ عَن رَحْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى[1]، والتَّعْبِيرُ بِاسْمِ الْإِشَارَةِ بَعْدَ تَعْقِيبِ الْمُشَارِ إِلَيْهِ بِأَوْصَافٍ، يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْمُشَارَ إِلَيْهِ جَدِيرٌ بِمَا يَرِدُ بَعْدَه[2]، وهو بعيدٌ عن منزلةِ القَبولِ والرَّحمةِ، ففي الإشارةِ إلى معنى الإبعادِ في اسمِ الإشارةِ، توطِئَةٌ إلى الإبعاد في اللَّعنِ.

دلالةُ خُلُوِّ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ من حرفِ الفَاءِ:

التَّنبيهُ على كثرةِ أسبابِ لعنِ الكاتِمين

وَرَدَ كَثِيرًا في الْقُرْآنِ اقْتِرَانُ الْفَاءِ بِاسْمِ الْإِشَارَةِ الْوَاقِعِ خَبَرًا، كَقَوْلِهِ ﷻ: ﴿مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتۡ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٨١﴾ [البقرة: 81]، وقوله ﷻ: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَٱعۡتَصَمُواْ بِٱللَّهِ وَأَخۡلَصُواْ دِينَهُمۡ لِلَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ وَسَوۡفَ يُؤۡتِ ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَجۡرًا عَظِيمٗا ١٤٦﴾ [النّساء: 146]، فَاسْمُ الْإِشَارَةِ هُنَا خَبَرٌ عَن اسْمِ ﴿إِنَّ﴾، ولَكِنَّهُ لَم يَقْتَرِن بِالْفَاءِ؛ لِلتَّنْبِيهِ عَلَى أَنَّ سببَ لَعْنِهِم هو أَذَاهُم للرَّسُولِ الأكرم ﷺ، وعِبَادَتُهُمُ الْعِجْلَ، وطَلَبُ رُؤْيَةِ اللَّهِ تَعَالَى عِيَانًا، وغيرُها، لَا بخصُوصِ سببِ الْكِتْمَانِ، فَالْكِتْمَانُ لَيْسَ سَبَبًا وَحيدًا لِذَلِكَ اللَّعْنِ، بَل هُوَ سَبَبٌ مَعَ أَسْبَابٍ أُخْرَى[3].

دَلَالَةُ التَّجَدُّدِ فِي قولِه: ﴿يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّهُ﴾:

تَجَدُّدِ اللَّعنِ ناشِئٌ عن تجَدُّدِ الكِتمانِ

اخْتَارَت الآيةُ الْفِعْلَ الْمُضَارِعَ في التَّعْبِيرِ عَن لَعْنِهِمْ؛ لِلدَّلَالَةِ عَلَى التَّجَدُّدِ؛ لِأَنَّهُم مَا زَالُوا يَكْتُمُونَ الْحَقَّ، فناسَبَ التَّعبيرُ عن تجدُّدِ كتمانِهم بتجدُّدِ لعنِهم، وهذا من عدالةِ النَّظمِ، النَّاشئةِ عن عدالةِ الجزاءِ.

بَلاغَةُ الاِلْتِفاتِ من التَّكلُّمِ إلى الغَيْبةِ

لَم يَقُلْ: (نَلْعَنُهُمْ)، أَوْ (لَعَنَّاهُمْ)؛ جَرْيًا عَلَى قولِهِ: ﴿أَنزَلۡنَا﴾،

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 1/480.
(2) القُونَوِيّ، حاشيةٌ على البيضاوِيّ: 4/386.
(3) القُونَوِيّ، حاشيةٌ على البيضاوِيّ: 4/386.

﴿بَيَّنَّاهُ﴾ بِصِيغَةِ الْمُتَكَلِّمِ، ولَكِنَّهُ اسْتَعْمَلَ صِيغَةَ الْغَائِبِ بِاسْتِعْمَالِ الاسْمِ الظَّاهِرِ؛ لِلدَّلَالَةِ عَلَى إِظْهَارِ السُّخْطِ عَلَيْهِمْ، ولِلْإِشْعَارِ بِغِلَظِ اللَّعْنِ، ويُكون الْكَلَامُ أَكْثَرَ وقْعًا في لَعْنِهِمْ، وطَرْدِهم مِن رَحْمَةِ اللَّهِ تعالى.

دَلَالَةُ تَكْرَارِ الْفِعْلِ ﴿يَلْعَنُهُمُ﴾:

كرَّرَتِ الآيةُ اللَّعنَ تَمْيِيزًا بَيْنَ مَعْنى اللَّعْنتَين؛ فَإِنَّ اللَّعْنَ مِن اللَّهِ تعالَى الْإِبْعَادُ عَن الرَّحْمَةِ، واللَّعْنَ مِن الْبَشَرِ الدُّعَاءُ عَلَيْهِمْ[1]، وفَائِدَةُ التَّكْرَارِ هُنَا الْمُبَالَغَةُ في تَأْكِيدِ الذَّمِّ، وتَشْنِيعِ فِعْلِهِمْ، فَدَلَّ النَّصُّ عَلَى التَّمَايُزِ بَيْنَ اللَّعْنَتَيْنِ، وهَذَا فِيهِ مُبَالَغَةٌ في لَعْنِهِمْ؛ حَيْثُ إِنَّهُم اسْتَحَقُّوا لَعْنَةً مِن اللَّهِ؛ لِأَنَّهُم كَتَمُوا تَعَالِيمَهُ، واسْتَحَقُّوا اللَّعْنَةَ مِن النَّاسِ، لِأَنَّهُم كَتَمُوا تَعَالِيمَ اللَّهِ عَنْهُمْ، ولعنةُ الله تعالى هي الأصلُ التَّشريعيُّ في الأمرِ بلعنِهم، إذِ الإخبارُ عن فعلِ الله في النَّاس، هو أمرٌ بالمتابعةِ اعتقادًا أو قولًا أو فعلًا؛ فمن لعنَه اللهُ أو حكَمَ بكفرِه، فهو ملعونٌ كافرٌ، ومن قالَ بخلافِ ما حكَمَ اللهُ به فقد ناوأ الله تعالى في حُكمِه، وأتَى عظيمةً من عظائمِ العقائدِ.

لَعْنَةُ اللَّهِ أصلٌ تشريعيٌّ للعبادِ، يُعمَلُ بمقتضاه التَّشريعيّ

دَلَالَةُ التَّعْرِيفِ في قَوْلِهِ تَعالى: ﴿ٱللَّٰعِنُونَ﴾:

(الْ) في قَوْلِهِ ﷻ: ﴿ٱللَّٰعِنُونَ﴾ لِلاسْتِغْرَاقِ، أَي: يَلْعَنُهُم كُلُّ لَاعِنٍ، وفي هَذَا مُبَالَغَةٌ في اللَّعْنِ، وبَيَانٌ لِشَنِيعِ مَا صَنَعُوا، و﴿ٱللَّٰعِنُونَ﴾: "أَي الَّذِينَ يَتَأَتَّى مِنْهُمُ اللَّعْنُ عَلَيْهِم؛ مِن الْمَلَائِكَةِ والثَّقَلَيْنِ"[2]، وكيفيَّةُ لَعْنِهم: أنْ "يَسْأَلَ رَبَّهُم اللَّاعِنُونَ أَن يَلْعَنَهُمْ؛ لِأَنَّ كُلَّ لَاعِنٍ إِنَّمَا يَقُولُ: اللَّهُمَّ الْعَنْ هَذَا"[3].

مَنْ لَعَنَهُ اللهُ، غَضِبَ عَلَيْهِ، وأَغْضَبَ عَلَيْهِ خَلْقَهُ

قُوَّةُ جِنَاسِ الاِشْتِقَاقِ في قوله: ﴿وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ﴾:

قَوْلُهُ ﷻ: ﴿وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ﴾ فِيهِ جِنَاسُ الاِشْتِقَاقِ، فَكِلَا

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/68.
(2) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 1/116.
(3) مكّيّ القيسّي، الهداية إلى بلوغ النّهاية: 1/528.

اللَّفْظَيْنِ مَأْخُوذٌ مِن (لَعَنَ)، وهُوَ مِن الْمُحسِّنَات الْبَدِيعِيَّة، فَتَكْرَارُ الْجِذْرِ بِاشتِقاقَيْنِ مُتَبَايِنَيْنِ لَهُ قوَّةٌ صَوْتِيَّةٌ في الْأُذُنِ، ويزدَادُ جَمَالُه الصَّوتيُّ بِمجِيئِه في فَاصِلَةِ الْآيَةِ.

دَلالَةُ المُتَشابِهِ اللَّفْظيّ بين الآيَةِ وغَيْرِها مِنَ السُّوَرِ:

عَلى قَدْرِ الجُرْمِ تَكونُ العُقوبَةُ

وَرَدَت في الْقُرْآنِ آيَاتٌ تَتَشابَهُ مَعَ هذه الْآيَةِ ففي سورةِ البَقرَةِ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَشۡتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ مَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ١٧٤﴾ [البقرة: 174]، وفي آل عمران قولُه ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشۡتَرُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ وَأَيۡمَٰنِهِمۡ ثَمَنٗا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيۡهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ٧٧﴾ [آل عمران: 77].

فَلِلسَّائِلِ أن يَسْأَلَ عَن تَخْصِيصِ آيَتَي الْبَقَرَةِ بِذِكْرِ الْكَتْمِ بقَوْلِهِ ﷻ في الْآيَتَيْنِ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ﴾؟ والْجَوَابُ عَن الْآيَتَيْنِ الْأُولَيَيْنِ أَنَّهُ لَمَّا تَقَدَّمَ قَبْلَهُمَا في السُّورَةِ نَفْسِهَا قَوْلُهُ ﷻ: ﴿وَلَا تَلۡبِسُواْ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ وَتَكۡتُمُواْ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٤٢﴾ [البقرة: 42]، فَنَهَاهُم اللَّهُ سُبْحَانَهُ عَن الْكَتْمِ، ولَم يَجْرِ مَعَ هَذَا النَّهْيِ ذِكْرُ جَزَاءٍ في هَذِهِ الْآيَةِ، فَلَمَّا خَالَفُوا وكَتَمُوا بَعْدَ أَن حُذِّرُوا عَن الْكَتْمِ، ورَدَتِ الْآيَةُ بَعْدُ مُعَرِّفَةً بِجَزَاءِ مَن كَتَمَ بَعْدَ أَن حُذِّرَ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلۡهُدَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِي ٱلۡكِتَٰبِ أُوْلَٰٓئِكَ يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلۡعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ١٥٩﴾، فَذَكَرَ حَالَ الْكَاتِمِينَ، وجَزَاءَهُم الْمُتَرَتِّبَ عَلَى فِعْلِهِمْ، مِن اسْتِحْقَاقِ اللَّعْنِ مِنَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ، ومِمَّن ذَكَرَ مِن عِبَادِهِ، ثُمَّ إِنَّهُ سُبْحَانَهُ تَدَارَكَ مَن تَابَ مِنْهُمْ، وأَصْلَحَ، وبَيَّنَ، بَعْدَ أَن كَانَ كَتَمَ، فَلَمَّا بَيَّنَ في هَذِهِ الْآيَةِ أَمْرَ هَؤُلَاءِ، أَعْقَبَ في الْأُخْرَى بَعْدَ ذِكْرِ حَالِ الْمُتَمَادِينَ عَلَى مُرْتَكَبِهِم مِن الْكَتْمِ، ومَا زَادُوا إِلَى ذَلِكَ مِن الْآثَامِ، فَجَاءَ الْجَزَاءُ بِزِيَادَةٍ مِن الْعِقَابِ، مُوَازِنَةً لِزِيَادَةِ الْمُرْتَكَبِ، فَقَالَ ﷻ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ مَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ١٧٤﴾ [البقرة: 174].

وَلَم يُذْكَر لِهَؤُلَاءِ حَالُ تَوْبَةٍ؛ إِن تَابُوا لِسُوءِ الْمُرْتَكَبِ، ولَيْسَ الْمُرَادُ أَنَّهُم لَا تَوْبَةَ لَهُمْ، ولَكِنَّ عَدَمَ ذِكْرِهَا أَوْقَعُ في الْإِغْلَاظِ؛ لِمَا ذَكَرَ مِن سُوءِ مُرْتَكَبِهِمْ؛ لِيَجْرِيَ مَعَ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا

يُزَكِّيهِمْ﴾ [البقرة: 174]؛ فَإِنَّ التَّزْكِيَةَ تَطْهِيرٌ مِن الْإِثْمِ، فَلَمْ يَكُنْ لِيُلَائِمَ هُنَا ذِكْرَ التَّوْبَةِ، والْآيَةُ في سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ ورَدَتْ في إِثْمٍ مَخْصُوصٍ غَيْرِ الْكَتْمِ، وقَد يَكُونُ مِن غَيْرِ الْكَاتِمِينَ، فَهُوَ يَقَعُ مِنْهُم ومِنْ غَيْرِهِمْ، فَانْفَرَدَ هَذَا الْإِثْمُ الشَّنِيعُ بِمَا تُوُعِّدُوا عَلَيْهِ مِن الْوَعِيدِ الشَّدِيدِ[1].

(1) الغرناطيّ، ملاك التّأويل: 1/59-61.

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَبَيَّنُواْ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيۡهِمۡ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ١٦٠﴾ [البقرة: 160]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

رَبْطُ عِقابِ الكاتِمينَ لِما أَنْزَلَ اللهُ، بِبَقاءِ بابِ التَّوْبَةِ مَفْتوحًا لَهُمْ

لَمّا بَيَّنَ تعالى عَظِيمَ الْوَعِيدِ في الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ، كَانَ يَجُوزُ أَن يُتَوَهَّمَ أَنَّ الْوَعِيدَ يَلْحَقُهُم عَلَى كُلِّ حَالٍ، فَبَيَّنَ تَعَالَى أَنَّهُم إِذَا تَابُوا تَغَيَّرَ حُكْمُهُمْ، واسْتَحَقُّوا أَن يَتُوبَ اللَّهُ تعالى عَلَيْهِمْ[1].

شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

كُلّما تكرّرت التّوْبة، تكرّر القبول

1) ﴿تَابُواْ﴾، ﴿أَتُوبُ﴾، ﴿ٱلتَّوَّابُ﴾: مِنَ الجَذْرِ (توب)، وهو في الأصلَ يَدُلُّ عَلَى الرُّجُوعِ، يُقَالُ: تَابَ مِن ذَنْبِهِ، أَيْ: رَجَعَ عَنْهُ[2]، والتَّوْبُ: تَرْكُ الذَّنْبِ عَلَى أَجْمَلِ الْوُجُوهِ، وتَابَ اللَّهُ عَلَيْهِ، أَيْ: قَبِلَ تَوْبَتَهُ، ومِنْهُ: ﴿فَتَابَ عَلَيۡكُمۡ وَعَفَا عَنكُمۡۖ﴾ [البقرة: 187]، والتَّوَّابُ: الْعَبْدُ الْكَثِيرُ التَّوْبَةِ، وقَد يُقَالُ ذَلِكَ لِلَّهِ تَعَالَى، لِكَثْرَةِ قَبُولِهِ تَوْبَةَ الْعِبَادِ، حالًا بَعْدَ حالٍ[3]، فالتَّوَّابُ هُوَ الَّذِي يَتُوبُ عَلَى عِبَادِهِ، فَيَقْبَلُ تَوْبَتَهُمْ، كُلَّمَا تَكَرَّرَتِ التَّوْبَةُ تَكَرَّرَ الْقَبُولُ[4].

الصّلاح ضدّه الفسادُ

2) ﴿وَأَصۡلَحُواْ﴾: مِنَ الجَذْرِ (صلح)، وهو في الأَصْلِ يَدُلُّ عَلَى خِلَافِ الْفَسَادِ[5]، والصَّلَاحُ قُوبِلَ في القرآن تارةً بِالفَسَادِ، وتَارَةً بِالسَّيِّئَةِ؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿خَلَطُواْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا﴾ [التّوبة: 102]، ﴿وَلَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَا﴾ [الأعراف: 56][6]، وأَصْلَحَ الشَّيْءَ:

(1) الرّازيّ، التّفسير الكبير: 4/142.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (توب).
(3) الرَّاغب، المفردات: (توب).
(4) البيهقيّ، الأسماء والصِّفات: 1/195.
(5) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (صلح).
(6) الرَّاغب، المفردات: (صلح).

أَقَامَهُ بَعْدَ فَسَادٍ، قال تعالى: ﴿فَمَن تَابَ مِنۢ بَعۡدِ ظُلۡمِهِۦ وَأَصۡلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيۡهِۚ﴾ [المائدة: 39]، أَتَى بالصَّلاحِ، وهُوَ الخَيْرُ والصَّوابُ[1].

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

يُخْبِرُ اللَّهُ تَعَالَى بَعْدَ ذِكْرِ اللَّعْنَةِ لِلْكَاتِمِينَ أَنَّهُ يَسْتَثْنِي الَّذِينَ رَجَعُوا مُسْتَغْفِرِينَ اللَّهَ مِن خَطَايَاهُمْ، وأَصْلَحُوا مَا أَفْسَدُوهُ، وبَيَّنُوا مَا كَتَمُوهُ، فَأُولَئِكَ يَقْبَلُ تَوْبَتَهُم ويجَازِيهم بِالْمَغْفِرَةِ، وهو التَّوَّابُ عَلَى مَن تَابَ مِن عبادِه، الرَّحِيمُ بِهِمْ؛ إِذْ وفَّقَهُم لِلتَّوْبَةِ وقَبِلها مِنْهُمْ[2].

تُقْبَلُ التَّوْبَةُ مِنَ الخَطيئاتِ، إذا صَفَتِ النِّيّاتُ

الإِيضاحُ اللُّغَوِيُّ والبَلاغِيُّ:

دلالَةُ الاِسْتِثْناءِ في قوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَبَيَّنُواْ﴾:

قَوْلُهُ ﷻ: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ﴾: اسْتِثْنَاءٌ من ﴿ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ﴾، أَي فَهُمْ لَا تَلْحَقُهُم اللَّعْنَةُ، وهُوَ اسْتِثْنَاءٌ حَقِيقِيٌّ مَنْصُوبٌ عَلَى تَمَامِ الْكَلَامِ من ﴿ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ﴾[3].

اسْتِثْناءُ التّائِبينَ مِنَ اللَّعْنَةِ، دَليلُ الرَّحْمَةِ

براعةُ اللَّفِّ والنَّشْرِ المُرتَّبِ:

في الْآيَةِ بديعُ اللَّفِّ والنَّشْرِ، وهُوَ مُتَعَلِّقٌ بِالْكَلَامِ الْوَارِدِ في الْآيَةِ السَّابِقَةِ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلۡعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ١٥٩ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَبَيَّنُواْ﴾، فَالتَّوْبَةُ والْإِصْلَاحُ رَاجِعَانِ لِقَوْلِهِ ﷻ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّهُ﴾؛ لِأَنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وأَخْفَى، وقوله: ﴿وَبَيَّنُواْ﴾، رَاجِعٌ إلى قوله: ﴿وَيَلۡعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ١٥٩﴾؛ لِأَنَّ النَّاسَ لَا يَعْلَمُونَ تَوْبَتَهُمْ، إِلَّا إِذَا بَيَّنُوا، وظَهَرَ عَلَى حَالِهِم ذَلِكَ[4].

أَثَرُ المُغَايَرَةِ في اِسْتِعمَالِ صِيَغِ الأَفْعَالِ:

غايرتِ الآيةُ في التَّعبيرِ عن صِيَغِ الأفعالِ؛ فعَبَّرَ عَن التَّوْبَةِ

دِقَّةُ التَّعْبيرِ في تَعْيينِ المُرادِ، وَنَفْيِ مَا سِواه

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (صلح).
(2) نخبة من العلماء، التّفسير الميسّر: 1/24.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/71.
(4) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/478.

والْإِصْلَاحِ والْبَيَانِ بِالْفِعْلِ الْمَاضِي، بَعْدَ أَن عَبَّرَ عَن الْكِتْمَانِ بِالْفِعْلِ الْمُضَارِعِ؛ لِأَنَّهُ أَرَادَ إِنجازَ تِلْكَ الْأَفْعَالِ؛ لِأَنَّهُ أَعْقَبَهَا بِالْجَزَاءِ، وهُوَ قَبُولُ التَّوْبَةِ عَنْهُمْ، ولَو عَبَّرَ عَن تِلْكَ الْأَفْعَالِ بِالْفِعْلِ الْمُضَارِعِ، الدَّالِّ عَلَى كَوْنِ الْحَدَثِ في طَوْرِ الْمُعَالَجَةِ والتَّجَدُّدِ، لَكَانَ الْجَزَاءُ مُسْتَحَقًّا، لِأَفْعَالٍ لَم تُنْجَزْ بَعْدُ.

الْإِيجَازُ بِالْحَذْفِ في قَوْلِهِ ﷻ: ﴿وَبَيَّنُواْ﴾:

مَـنْ بَـيَّنَ بَـعْـدَ كِـتْـمانٍ، وآمَـنَ بَـعْـدَ كُـفْـرانٍ، بَرِئَتْ ذِمَّتُهُ

مُقْتَضَى التَّوْبَةِ أَن يُبَيِّنَ الكاتِمُونَ مَا كَتَمُوا، فَلَم يُذْكَر في الْآيَةِ أَيُّ شَيْءٍ بَيَّنُوا، فَيَكُونُ الْمُرَادُ الْعُمُومَ، فَيَكُونُ مَعْنَاهُ: بَيَّنُوا تَوْبَتَهُمْ، ومَا كَتَمُوه من أَمْرِ النَّبِيِّ ﷺ، وهَذَا يَعْنِي أَنَّ مَن تَابَ وبَيَّنَ ذَلِكَ، يَقْتَضِي في الْغَالِبِ أَنَّهُ قَد أَسْلَمَ، فَتَجِيءُ الْآيَةُ فِيمَن أَسْلَمَ بعدَ كَتْمٍ مِن الْيَهُودِ والنَّصَارَى[1].

دَلالَةُ الفاءِ عَلَى السَّبَبِيَّةِ في الآيَة:

الإِيجازُ البَديعُ في الآيَـــةِ، أَكْسَبَها رَوْنَقًا وجَماليَّةً

دَخَلَتِ الْفَاءُ عَلَى اسْمِ الْإِشَارَةِ ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾؛ لِلتَّنْبِيهِ عَلَى سَبَبِيَّةِ مَا قَبْلَه لِمَا بَعْدَه؛ لِأَنَّ التَّعْبِيرَ بِاسْمِ الْإِشَارَةِ لَا يُغْنِي عَن الْفَاءِ في كُلِّ مَوْضِعٍ؛ فَالْفَاءُ تُؤَكِّد مَا فُهِمَ مِن الْإِشْعَارِ بِالسَّبَبِيَّةِ الْمَفْهُومَةِ مِن اسْمِ الْإِشَارَةِ[2]، وفي الْفَاءِ مَعْنَى التَّعْقِيبِ؛ لِلدَّلَالَةِ عَلَى شَيْءٍ زَائِدٍ عَلَى مفادِ الاسْتِثْنَاءِ، وهُوَ أَنَّ تَوْبَتَهُم يَعْقُبُهَا رِضى اللَّهِ تَعَالَى عَنْهُمْ، فَجَاءَ في الْآيَةِ نَظْمٌ بَدِيعٌ تَقْدِيرُهُ: (إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا انْقَطَعَتْ عَنْهُمُ اللَّعْنَةُ فَأَتُوبُ عَلَيْهِمْ)، أَي: أَرْضَى، وزَادَ توسّطُ اسْمِ الْإِشَارَةِ الدّلَالَةَ عَلَى التَّعْلِيلِ، وهُوَ إِيجَازٌ بَدِيعٌ[3]، فَهُم لَيْسُوا خَارِجِينَ مِن اللَّعْنِ بَعْدَ تَوْبَتِهِم، وحَسْبُ، بَل إِنَّ اللَّهَ سَيَقْبَلُهُم ويَرْحَمُهُمْ، ورَحْمَتُهُ هُنَا رِضًى عَنْهُمْ.

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 1/231.

(2) القُونَوِيّ، حاشيةٌ على البيضاوِيّ: 4/387، ويقول النّحاة في اقتران الخبر بالفاء: إذا قصد الدّلالة على تضمين المبتدأ معنى الشّرط في اللّفظ، فيجب دخول الفاء فيه، وإذا لم يقصد فلا يجب دخولُه فيه، بل يجب عدمُه، فالفاء تأتي لبيان قصد السّببيّة، الرّضيّ، شرح كافية ابن الحاجب: 1/267.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/72.

إِيثَارُ اسْمِ الْإِشَارَةِ الدَّالِّ عَلَى الْبُعْدِ فِي قَوْلِهِ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾:

اسْتِحقاقُ المنزلةِ الرَّفيعةِ بالتوبةِ الرَّفيعة

آثَرَ اسْتِعْمَالَ اسْمِ الْإِشَارَةِ الدَّالِّ عَلَى الْبُعْدِ، فَقَالَ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾، ولَم يَقُلْ: (هَؤُلَاءِ)؛ لِلْإِشْعَارِ بِبُعْدِ مَنْزِلَتِهِم في الصَّلَاحِ[1]، وهَذَا إِشْعَارٌ بِفَضِيلَةِ التَّوْبَةِ والرُّجُوعِ إِلَى الْحَقِّ، وإِصْلَاحِ الْفَسَادِ، فبعدَ أن كانوا في أبعدِ منازِلِ الطَّردِ، استحقُّوا أن يكونوا في أرفعِ منازلِ الرَّحمةِ، وهذا من العدْلِ في النَّظمِ النَّاشئِ عن عدالةِ المعنى.

الالْتِفاتُ في قوله: ﴿أَنزَلْنَا﴾، ﴿بَيَّنَّٰهُ﴾، ﴿يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ﴾، ﴿أَتُوبُ﴾:

التَّفَنُّنُ في الأَسالِيبِ والألْفاظِ يُغْني الدّلالَةَ، ويَرْقى بِالأُسْلوبِ

الِالْتِفَاتُ مِن نُونِ الْعَظَمَةِ في قَوْلِهِ ﷻ: ﴿أَنزَلْنَا﴾، و﴿بَيَّنَّٰهُ﴾ إِلَى الْغَيْبَةِ بِاسْتِعْمَالِ الاسْمِ الظَّاهِرِ في قَوْلِهِ ﷻ: ﴿يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ﴾، ثُمَّ الِالْتِفَاتُ مِن الْغَيْبَةِ إِلَى صِيغَةِ الْمُتَكَلِّمِ وحْدَهُ في قوله: ﴿أَتُوبُ﴾؛ لبيانِ حالِهم بعد قبولِ تَوْبَتِهم، وتشريفِ منْزِلَتِهم؛ فناسَبَ أن يكونَ الكلامُ صادرًا عنِ المُتكلِّمِ سبحانه، زيادَةً في إكرامِهم وتوقيرِهم.

بلاغةُ الفَاصِلَةِ في قولِه: ﴿وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾:

قيامُ الفَاصِلةِ بمنزلةِ الدّليلِ على الدَّعوى

جَاءَ قولُه تعالى: ﴿ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ مُعَرَّفًا بِالْأَلِفِ واللَّامِ؛ لِإِفَادَةِ الْحَصْرِ، فَالتَّوْبَةُ والرَّحْمَةُ عَلَى وجْهِ الْحَقِيقَةِ، إِنَّمَا هِيَ مِن اللَّهِ تَعَالَى، وهَذَا يُفِيدُ تَأْكِيدَ الْمَعْنَى، مَعَ مَا في صِيغَةِ الْمُبَالَغَةِ مِن التَّكْثِيرِ، وهو اعْتِرَاضٌ تَذْيِيلِيٌّ مُقَرِّرٌ لِمَا قَبْلَهُ، والْمَعْنَى: وإِنَّ عَادَتِي قَبُولُ تَوْبَةِ التَّائِبِينَ، وإِفَاضَةُ الرَّحْمَةِ مَعَ الْمَغْفِرَةِ؛ ولِهَذَا أَتُوبُ عَلَى التَّائِبِينَ عَنِ الْكِتْمَانِ، وسَائِرِ الطُّغْيَانِ، وهُوَ مُنَاسِبٌ في سِيَاقِ الْحَدِيثِ عَن تَوْبَةِ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى عِبَادِهِ ورَحْمَتِهِ بِهِمْ، فَهَذِهِ الْجُمْلَةُ بِمَنْزِلَةِ الدَّلِيلِ عَلَى مَا قَبْلَهَا[2].

دَلَالَةُ صِيَغِ الْمُبَالَغَةِ فِي حَقِّ اللَّهِ تَعَالَى:

صِفاتُ اللهِ لا يجُوزُ فِيها زِيادَةُ الفِعْلِ، بَل تَعَدُّدُ المَفْعُولاتِ، وكَثْرَةُ المُتَعَلَّقاتِ

صِيغَةُ الْمُبَالَغَةِ، إِذَا جَاءَت تَعْبِيرًا عَن صِفَاتِ اللَّهِ تَعَالَى؛ فَإِنَّ الْمُبَالَغَةَ فِيهَا لا يُرَادُ مِنْهَا تَكْثِيرُ هَذَا الْوَصْفِ، وإِثْبَاتُ الزِّيَادَةِ فِيهِ؛

(1) القُونَوِيّ، حاشيةٌ على البيضاوِيّ: 4/388.
(2) القُونَوِيّ، حاشيةٌ على البيضاوِيّ: 4/388.

فَالْمُبَالَغَةُ في حَقِّ اللهِ تَعَالَى، لَا تَعْنِي زِيَادَةَ الْفِعْلِ، بل تَعَدُّدَ الْمَفْعُولَاتِ، وكَثْرَةَ الْمُتَعَلَّقَاتِ، فَاللَّهُ تَوَّابٌ لِكَثْرَةِ مَن يَتُوبُ إِلَيْهِ، مِن عِبَادِهِ، ولِكَثْرَةِ قَبُولِهِ تَوْبَتَهُمْ، واللَّهُ قَدِيرٌ بِاعْتِبَارِ تَكْثِيرِ الْمُتَعَلَّقِ، ولَيْسَ تَكْثِيرَ الْوَصْفِ، واللَّهُ عَلِيمٌ بِاعْتِبَارِ عُمُومِ الْعِلْمِ لِكُلِّ الْأَفْرَادِ، لَا بِاعْتِبَارِ الْمُبَالَغَةِ في الْوَصْفِ، إِذِ الْعِلْمُ لَا تَفَاوُتَ فِيهِ، ولَا يَصِحُّ ذَلِكَ مَعَهُ[1].

(1) الزّركشّي، البرهان: 2/507-508، أحمد مختار عمر، أسماء اللّه الحسنى دراسة في البنية والدّلالة، ص: 95-94.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٌ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ لَعۡنَةُ ٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ ١٦١﴾ [البقرة: 161]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الرّبطُ بَيْنَ جَزاءِ التَّوْبَةِ، وسُوءِ مَصيرِ مَن ماتَ دُونَها

يَجُوزُ في الْآيَةِ أَن تَكُونَ مِن تَمَامِ الْمَوْضُوعِ قَبْلَهَا، فَتَكُونُ الْمُنَاسَبَةُ: أَنَّه لمّا تَكَلَّمَ في الْآيَةِ السَّابِقَةِ عَنِ اللَّعْنَةِ - الَّتِي تُصِيبُ مِن يُكَابِرُ ويُعَانِدُ، ويَكْفُرُ بِآيَاتِ اللَّهِ، ويَكْتُمُ الْبَيِّنَاتِ والْهُدَى، ثُمَّ اسْتَثْنَى مَنْ يَتُوبُ مِنْهُمْ، ويُصْلِحُ، ويُبَيِّنُ، فَإِنَّ اللَّه تعالى سَيَتُوبُ عَلَيْهِ - بَيَّنَ في هَذِهِ الْآيَةِ أَنَّ مَن لَم يَتُب، ومَاتَ عَلَى كُفْرِهِ، فَإِنَّهُ لَا يُسْتَثْنَى مِن اللَّعْنَةِ ولَا تَلْحَقُهُ تَوْبَةٌ.

وَيَجُوزُ أَن تَكُونَ مُسْتَأْنَفَةً بِكَلَامٍ جَدِيدٍ، فَتَكُونُ الْمُنَاسَبَةُ: بَعْدَ أَن انْتَهَتْ مَوْضُوعَاتُ أَهْلِ الْكِتَابِ في هَذَا الْمَوْضِعِ مِن الْقُرْآنِ، وقَد كَانَ فِيهِم كُفْرَانُ النِّعَمِ، والنِّفَاقُ وكَثْرَةُ الْعُدْوَانِ والْفَسَادِ في الْأَرْضِ، والعَبَثُ بِالْأَحْكَامِ، والِاسْتِهْزَاءُ بِآيَاتِ اللَّهِ تَعَالَى، بَعْدَ ذَلِكَ أَخَذَ بِبيانِ أَقْوَالِ الْوَثَنِيِّينَ، وإِثْبَاتِ وحْدَانِيَّةِ اللَّهِ تَعَالَى، وابْتَدَأَ الْقَوْلَ في بَيَانِ حَالِ الْكُفَّارِ مِن الْمُشْرِكِينَ وأَهْلِ الْكِتَابِ الَّذِينَ مَاتُوا عَلَى الْكُفْرِ[1].

شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

الكفر جحود بالمنعم، وإنكار للنّعمة

1) ﴿كَفَرُواْ﴾: مِنَ الجَذْرِ (كفر)، والأَصْلُ فيه السّتْرُ والتّغْطِيَةُ[2]، تغطيةً تامّةً كثيفةً لا يظهر معها شيْءٌ، ويُقَالُ لِلزَّارِعِ: كَافِرٌ؛ لأنّه يُغَطِّي الْحَبَّ بِتُرَابِ الْأَرْضِ، والْكُفْرُ: ضِدُّ الْإِيمَانِ، سُمِّيَ لأنّه تَغْطِيَةُ الْحَقِّ، فالكافر باللّه غطَّى في نفسه شواهدَ وجودِ اللّه، وعظَمَتِهِ الظّاهرةِ والباطنَةِ، أو تغطَّى عنْها، ومن ذلكَ كُفْرُ النِّعْمَةِ،

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 1/483.

(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (كفر)؛ جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (كفر).

كَفَرَ نعمةَ اللّهِ: جَحَدَها، أنكَرَها وغَطَّاها، أو تَغَطَّى عنْها كأنّها غيرُ مَوجودَةٍ، ﴿وَبِنِعۡمَتِ ٱللَّهِ هُمۡ يَكۡفُرُونَ ٧٢﴾ [النّحل: 72].

المـوتُ بـابٌ وكـلُّ النّاس داخلُهُ

2) ﴿وَمَاتُواْ﴾: مِنَ الجَذْرِ (موت)، والأصلُ في الموت ذَهَابُ الْقُوَّةِ مِنَ الشَّيْءِ[1]، فالموت عبارةٌ عن زَوالِ القوَّة النّاميَةِ الموجودَةِ في الإنسانِ والحيواناتِ والنّباتِ، نحوُ قوله تَعالى: ﴿يُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَآۚ﴾ [الروم: 50]، وقوله ﷻ: ﴿وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمۡوَٰتَۢاۚ بَلۡ أَحۡيَآءٌ﴾ [آل عمران: 169]، فَنَفيُ المَوْتِ عَن أَرْوَاحِهِمْ؛ تنبيهٌ عَلَى تَنَعُّمِهِمْ، وقَوْلُهُ ﷻ: ﴿كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۗ﴾ [آل عمران: 185] فَعِبَارَةٌ عَن زَوَالِ الْقُوَّةِ الْحَيَوَانِيَّةِ، وإبَانَةِ الرُّوحِ عَن الْجَسَدِ[2].

الملائكة أجسامٌ نورانيّة يعبدون الله، ويفعلون ما يؤمرون

3) ﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ﴾: مِنَ الجَذْرِ (ألك)، والأَلوكُ: الرِّسَالَةُ وهِيَ المَأْلُكَةُ، سُمِّيَتْ أَلوكًا؛ لأنّه يُؤْلَكُ في الْفَمِ، مُشْتَقٌّ مِن قَوْلِ الْعَرَبِ: الْفَرَسُ يَأْلُكُ اللّجُمَ[3]، ومَلَكٌ أَصْلُهُ: مَأْلَكٌ، والمَأْلَكُ: الرِّسالَةُ، والْمَلَائِكَةُ تَقَعُ عَلَى الْوَاحِدِ والْجَمْعِ: ﴿ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا﴾ [الحجّ: 75][4].

المَعْنَى الإجْمَاليُّ:

مَـنْ مـاتَ عَلى كُـفْرانِـهِ، خَسِرَ الدُّنْيا والآخِرَةَ

يُخْبِرُ اللّهُ تَعَالَى أَنَّ الَّذِينَ جَحَدُوا الْإِيمَانَ وكَتَمُوا الْحَقَّ، واسْتَمَرُّوا عَلَى ذَلِكَ حَتَّى مَاتُوا، أُولَئِكَ عَلَيْهِم لَعْنَةُ اللّهِ، بِالطَّرْدِ مِن رَحْمَتِهِ، وعليهم دعاءُ الملائكةِ والناسِ كلِّهم بالطرد من رحمة اللّه والإبعاد منها، ولَا يَشْمَلُهُم الاسْتِثْنَاءُ الْوَارِدُ في الْآيَةِ السَّابِقَةِ[5].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبلاغيُّ:

دَلالَةُ الاسْتِئْنافِ على التَّهْديدِ:

قَوْلُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٌ﴾، اسْتِئْنافٌ؛

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (موت).
(2) الرَّاغب، المفردات: (موت).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (ألك).
(4) الرَّاغب، المفردات: (ألك).
(5) نخبة من العلماء، التّفسير الميسّر: 1/24.

الاستئنافُ لا يُلغي التَّعلُّقَ بالسَّابقِ بل يرتبطُ فيه بنوعِ ارتباطٍ

لِتَحْقِيقِ بَقَاءِ اللَّعْنِ، عَلَى مَن لَم يُحَقِّقْ شُرُوطَ الاسْتِثْنَاءِ الْوَارِدِ في الْآيَةِ السَّابِقَةِ؛ لِتَأْكِيدِ دَوَامِ اللَّعْنِ واسْتِمْرَارِهِ، كَمَا أَنَّ فِيهِ تَهْدِيدًا ووَعِيدًا لِلْكَافِرِينَ الَّذِينَ مَا زَالُوا عَلَى كُفْرِهِم وعِنَادِهِمْ، وفِيهِ حَثٌّ عَلَى التَّوْبَةِ والرُّجُوعِ لِلَّهِ تَعَالَى، قَالَ الْفَخْرُ الرَّازِيّ في مفاتيح الغيب: "إِنَّ ظَاهِرَ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٌ﴾، عَامٌّ في حَقِّ كُلِّ مَن كَانَ كَذَلِكَ، فَلَا وجْهَ لِتَخْصِيصِهِ بِبَعْضِ مَن كَانَ كَذَلِكَ، وقِيلَ: يَجِبُ حَمْلُهُ عَلَى الَّذِينَ تَقَدَّمَ ذِكْرُهُمْ، وهُمُ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ الْآيَاتِ، والْجَوَابُ عَنْهُ: أَنَّ هَذَا إِنَّمَا يَصِحُّ مَتَى كَانَ الَّذِينَ يَمُوتُونَ مِن غَيْرِ تَوْبَةٍ، لَا يَكُونُونَ دَاخِلِينَ تَحْتَ الْآيَةِ الْأُولَى، فَأَمَّا إِذَا دَخَلُوا تَحْتَ الآية الْأُولَى، اسْتَغْنَى عَن ذِكْرِهِمْ، فَيَجِبُ حَمْلُ الْكَلَامِ عَلَى أَمْرٍ مُسْتَأْنَفٍ"[1]، وهذا لا يُلغي الارتباطَ بالسَّابقِ، بل ينشئُ حكمًا مستأنفًا يجمعُ بين تأكيدِ حالِ السَّابقين الذين لم يتوبوا، وتهديدِ غَيْرِهم من الكافرين الذين تَنْطَبِقُ عليهم الآيةُ.

دلَالَةُ الِاسْمِ الْمَوْصُولِ على العُمومِ:

الكُفْرُ مِلَّةٌ واحِدَةٌ

التَّعْرِيفُ بِالِاسْمِ الْمَوْصُولِ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ يُرَادُ بِهِ تَعْرِيفُ الْجِنْسِ، فَهُوَ يَشْمَلُ كُلَّ مَن اتَّصَفَ بِذَلِكَ الْفِعْلِ[2]، فهوَ عامٌّ في حَقِّ كُلِّ مَن كانَ كَذَلِكَ، فَلا وجْهَ لِتَخْصِيصِهِ بِبَعْضِ مَن كانَ كَذَلِكَ[3]، فهو عامٌّ فيهم وفي غَيْرِهم ممَّن كَفرَ، ودليلُ ذلك الإخبارُ عنهم بموتِهم على الكُفرِ، وهذا يعمُّ ولا يخصُّ.

أثرُ الفَصْلِ في بيانِ المعاني في قولِه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ لَعۡنَةُ ٱللَّهِ﴾:

الْجُمْلَةُ مُسْتَأْنَفَةٌ، وفِيهَا فَصْلٌ عَن سَابِقَتِهَا؛ لِوُقُوعِهَا مَوْقِعَ سُؤَالٍ نَشَأَ عَمَّا قَبْلَهُ، فلَمَّا قال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٌ﴾، قِيلَ:

(1) الرّازيّ، التّفسير الكبير: 143-4/142.
(2) القُونَوِيّ، حاشيةٌ على البيضاوِيّ: 4/388.
(3) الرّازيّ، التّفسير الكبير: 143-4/142.

مَا جَزَاؤُهُمْ؟ فَجَاءَ الْجَوَابُ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ١٦١﴾.

تغايرُ الصِّيَغِ في التَّعْبِيرِ عنِ اللَّعنِ:

تجدُّدُ اللَّعنِ بتجدُّدِ الكُفرِ، واستقرارِه بموْتِ الكافِرِ

عَبَّرَ النَّظمُ عَن اللَّعْنَةِ في الْآيَةِ السَّابِقَةِ بِالْجُمْلَةِ الْفِعْلِيَّةِ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ١٥٩﴾ [البقرة: 159]؛ لِأَنَّ الْمُرَادَ حُدُوثُهُ وتَجَدُّدُهُ؛ لِتَحَقُّقِ عِلَّتِهِ واسْتِمْرَارِهَا وهِيَ كَتْمُ الْحَقِّ، بَيْنَما عَبَّرَ عنْها هُنَا بِالْجُمْلَةِ الاسْمِيَّةِ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ﴾؛ لِلتَّنْبِيهِ عَلَى اسْتِقْرَارِ اللَّعْنِ عَلَيْهِم بَعْدَ مَوْتِهم على الكُفْرِ؛ فأتى في كلِّ آيةٍ بما يُناسِبُها من الصِّيغةِ.

أثرُ التَّقْدِيمِ والتَّأْخِيرِ في إبرازِ العنايةِ بالمعاني:

قَدَّمَ الْخَبَرَ، وهُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿عَلَيْهِمْ﴾، وأَخَّرَ الْمُبْتَدَأَ، وهُوَ قَوْلُهُ ﷻ: ﴿لَعْنَةُ ٱللَّهِ﴾؛ للاهتمام ببيانِ كبيرِ أثرِ اللَّعْنَةِ عَلَيْهِم؛ فَإِنَّ اللَّعْنَةَ لَا تَخْتَصُّ بِهِمْ، فَهِيَ تَشْمَلُ غَيْرَ الْكَاتِمِينَ والْكَافِرِينَ.

ذِكْرُ الْعَامِّ واحتِمالُ إرادَتِه أو إرَادَةِ الْخَاصِّ:

مَنِ اسْتَحَقَّ اللَّعْنَةَ بظُلْمِه، تَجَرَّدَ النَّاسُ جَمِيعًا لِلَعْنِهِ

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَٱلنَّاسِ﴾، تَدُلُّ عَلَى النَّاسِ جَمِيعًا، وتَأْكِيدُهَا بـ ﴿أَجْمَعِينَ ١٦١﴾ يَزِيد ذَلِكَ الْمَعْنَى قُوَّةً، ولَكِن مِن الْمَعْلُومِ بِالضَّرُورَةِ، أَنَّ الْكَافِرِينَ لَا يَلْعَنُونَ مَن مَاتَ مِنْهُمْ، وهُم دَاخِلُونَ في عُمُومِ النَّاسِ، فَلِمَاذَا اسْتَعْمَلَ ذَلِكَ؟ الْجَوَابُ عَنْهُ أَنَّ الْمُرَادَ بِالنَّاسِ الْمُؤْمِنِينَ خَاصَّةً؛ لِأَنَّهُ إِمَّا لَم يَعْتَدَّ بِسِوَاهُمْ، أَو مُبَالَغَةً في الْحُكْمِ، أَو أَن يُحْمَلَ وُقُوعُ اللَّعْنِ عَلَى اسْتِحْقَاقِ اللَّعْنِ، وحِينَئِذٍ يَعُمُّ ذَلِكَ[1]، قال الزّمخشريّ: "فَإِن قُلْتَ: مَا مَعْنَى قوله: ﴿وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾، وفي النَّاسِ الْمُسْلِمُ والْكَافِرُ؟ قُلْتُ: أَرَادَ بِالنَّاسِ مَن يُعْتَدُّ بِلَعْنِهِ، وهُم الْمُؤْمِنُونَ"[2]، وللمفسِّرينَ فيها تَوْجيهاتٌ، قال الواحِديُّ "إِنْ قِيلَ: كَيْفَ يَلْعَنُهُ النَّاسُ أَجْمَعُونَ،

(1) الرّازيّ، التّفسير الكبير: 4/143.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/210.

وأَهْلُ دِينِهِ لَا يَلْعَنُونَهُ؟ قِيلَ: يَلْعَنُونَهُ في الْآخِرَةِ؛ لِقوله: ﴿ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ [العنكبوت: 25][1]، ومنها: "إِنَّمَا جَاءَ لَفْظُ ﴿وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ بِلَفْظ الْعُمُوم، وقَد عُلِمَ أَنَّ أَهْلَ دِينِهِم لَا يَلْعَنُونَهُمْ؛ لِأَنَّهُم - وإِن كَانُوا لَا يَقْصِدُونَ بِاللَّعْنَةِ أَهْلَ دِينِهِمْ - لَا بُدَّ لَهُم أَن يَقُولُوا: "لَعَنَ اللَّهُ الظَّالِمَ" أَو "الظَّالِمِينَ"، فَيَدْخُلُ في ذَلِكَ كُلُّ كَافِرٍ كَائِنًا مَن كَانَ[2].

(1) الواحديّ، البسيط: 3/447-448.

(2) مكّيّ القيسّي، الهداية إلى بلوغ النّهاية: 1/533.

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ ١٦٢﴾

[البقرة: 162]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الرَّبْطُ بَيْنَ اسْتِحْقاقِ اللَّعْنَةِ بالكُفْرانِ، وبَيْنَ الخُلودِ أَبَدًا في النّيرانِ

لَمّا أَخْبَرَ سُبحانَهُ وتعالى في الْآيَةِ السَّابِقَةِ أَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا، ومَاتُوا عَلَى كُفْرِهِم، ولَم يَتُوبُوا، وأَشْرَكُوا حَتَّى مَمَاتِهِمْ، وبَيَّنَ اسْتِحْقَاقَهُمُ اللَّعْنَةَ مِن اللَّهِ والْمَلَائِكَةِ والنَّاسِ؛ أَخْبَرَ في هَذِهِ الْآيَةِ عَن مُدَّةِ بَقائهم في تِلْكَ اللَّعْنَةِ، أَو لَازِمِهَا، وهِيَ النَّارُ، فَنَاسَبَ أَن يُبَيِّنَ خُلُودَهم فيها بَعْدَ أَن اسْتَحقُّوها.

شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

الأَصْلُ في (الخلود) الملازمة على حالة ثابتة، مِنْ غير طروء التّغيير

1) ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾: مِنَ الجَذْرِ (خلد)، وهو في الأَصْلِ يَدُلُّ عَلَى الثَّبَاتِ والْمُلَازَمَةِ، رَجُلٌ مُخْلَدٌ ومُخْلِدٌ، إِذَا أَبْطَأَ عَنْهُ الْمَشِيبُ[1]، ﴿۞وَيَطُوفُ عَلَيۡهِمۡ وِلۡدَٰنٞ مُّخَلَّدُونَ﴾ [الإنسان: 19]، مِنَ الْخُلْدِ، وهُوَ الْبَقَاءُ، أَي: لَا يَمُوتُونَ[2]، والخُلُودُ في الجنّة: بَقَاءُ الْأَشْيَاءِ عَلَى الْحَالَةِ الَّتِي هي عَلَيْهَا مِن غَيْرِ اعْتِرَاضِ الْفَسَادِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٨٢﴾ [البقرة: 82]، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٣٩﴾ [البقرة: 39][3].

ومعنى الآية ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾: دائمِين في اللَّعْنَةِ والنارِ.

عذابُ النّار ألمٌ لا يُخفّف، وبلاءٌ لا ينقطع

2) ﴿لَا يُخَفَّفُ﴾: مِنَ الجَذْرِ (خفف)، وهو في الأَصْلِ شَيْءٌ يُخَالِفُ الثِّقَلَ والرَّزَانَةَ[4]، خَفَّ القومُ: قَلُّوا، وأَخَفَّ الرّجلُ: إِذَا كَانَ

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (خلد)؛ الرَّاغب، المفردات: (خلد).
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (خلد).
(3) الرَّاغب، المفردات: (خلد).
(4) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (خف).

قَلِيلَ الثِّقَلِ في سفَره أَو حَضَره، والتَّخْفِيفُ: ضدُّ التَّثْقِيلِ[1]، قال ﷻ: ﴿ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ﴾ [الأنفال: 66]، وكلُّ ما في القرآن من الخفَّةِ فهو ضِدّ الثِّقَلِ[2].

وفي الآية يَعْني لا يَنْقُصُ عَذَابُهُمْ.

3) ﴿ٱلْعَذَابُ﴾: مِنَ الجَذْرِ (عذب)، وأصلُه من الضَّرْبِ بِعَذَبَةِ السَّوْطِ، وعَذَبَةُ السّوطِ واللّسانِ والشّجَرِ: أَطْرافُها، والعَذَابُ: هو الإيجاعُ الشّديدُ، وقد عَذَّبَهُ تَعْذِيباً: أَكْثَرَ حبْسَه في العَذَابِ[3]، وهُوَ النَّكَالُ والْعُقُوبَةُ، فَمَعْنَاهُ إِهْلَاكٌ وإِفْنَاءٌ لِلْقُوَّةِ والْغِلَظِ، والْحَيَوِيَّةِ الْمُنْبَثَّةِ في الْبَدَنِ، أَي: تَجْرِيدٌ مِنْهَا بِإِيقَاعِ الْآلَامِ الْمُؤَدِّيَةِ إِلَى ذَلِكَ، كَالضَّرْبِ، والجَلْدِ، والكيِّ بالنَّارِ، ونَحْوِها[4].

العذابُ نكالٌ وعقوبةٌ، يعجزُ البطلُ الجلدُ عن تحمُّلها

4) ﴿يُنظَرُونَ﴾: مِنَ الجَذْرِ (نظر)، وهو في الأَصْلَ تَأَمُّلُ الشَّيْءِ ومُعَايَنَتُهُ، نَظَرْتُ إِلَى الشَّيْءِ أَنْظُرُ إِلَيْهِ، إِذَا عَايَنْتُهُ، ونَظَرْتُهُ: انْتَظَرْتُهُ، كَأَنَّهُ يَنْظُرُ إِلَى الْوَقْتِ الَّذِي يَأْتِي فِيهِ[5]، والنَّظَرُ: الانْتِظَارُ، يقال: نَظَرْتُهُ وأَنْظَرْتُهُ، أي: أَخَّرْتُهُ، قال تعالى: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ ۝٢٩﴾ [الدّخان: 29]، فنَفَى الإِنْظارَ عَنْهم إشارةً إلى ما نبَّهَ عليه بقَوْلِه ﷻ: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ۝٣٤﴾ [الأعراف: 34][6].

من بوغت باخترام الأجل، لم يكن في إنظاره ساعةٌ من أمل

ومعنى الآية ﴿لا يُنظَرُونَ﴾: لا يُمْهَلُون لكي يَعْتَذِرُوا.

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

إِنَّ الَّذِينَ جَحَدُوا نُبُوَّةَ مُحَمَّدٍ ﷺ وَكَذَّبُوه ومَاتُوا عَلَى جُحُودِهِم

من ماتَ مِن عُتاةِ الكَفَرَةِ، لَمْ تَنْفَعْهُ يَوْمَ يُبْعَثُ مَعْذِرَة

(1) ابن منظور، لسان العرب: (خفف).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (خفف).
(3) الرَّاغب، المفردات: (عذب).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (عذب).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نظر)؛ الرَّاغب، المفردات: (نظر).
(6) الرَّاغب، المفردات: (نظر).

وتَكْذِيبِهِم له، سيبقَوْنَ دَائِمِينَ في اللَّعْنَةِ والنَّارِ، لَا يُخَفَّفُ عَنْهُم الْعَذَابُ، ومصيرُهم دَوَامُ العذاب عليهم أبدًا من غير توقيت، ولَا هُم يُمْهَلُونَ بِمَعْذِرَةٍ يَعْتَذِرُونَ بِهَا[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبلاغيُّ:

وجْهُ النَّصْبِ في قولِهِ ﴿خَٰلِدِينَ﴾:

مَنِ اسْتَحَقَّ اللَّعْنَةَ العامَّةَ بِكُفْرانِه، كان خُلودُهُ في النّارِ غِبَّ أوانِه

قوله: ﴿خَٰلِدِينَ﴾: مَنْصُوبٌ عَلَى أَنَّهُ حَالٌ مِن الضَّمِيرِ في ﴿عَلَيْهِمْ﴾ في قَوْلِهِ ﷻ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٦١﴾﴾، وانْتَصَبَ بِمَعْنَى الاسْتِقْرَارِ الْمُقَدَّرِ في ﴿عَلَيْهِمْ﴾، "وَالْعَامِلُ في الْخَالِدِينَ: الظَّرْفُ مِن قَوْلِهِ ﴿عَلَيْهِمْ﴾؛ لِأَنَّ فِيهِ مَعْنَى الاسْتِقْرَارِ، وهُوَ حَالٌ مِن الْهَاءِ والْمِيم في ﴿عَلَيْهِمْ﴾"[2].

تنوُّعُ الاحتمالِ في مَرْجِعِ الضَّميرِ:

اخْتِلافُ مَرْجِعِ الضَّميرِ لا يلزم عنه تبايُنُ المعاني

يُحتمَلُ رجوعُ الضَّمِيرِ في قَوْلِهِ ﷻ: ﴿فِيهَا﴾ عَلَى قَوْلِهِ في الْآيَةِ السَّابِقَةِ: ﴿لَعْنَةُ ٱللَّهِ﴾، فَيَكُونُ الْمَعْنَى: خَالِدِينَ في اللَّعْنَةِ، "وقِيلَ: عَلَى النَّارِ، وإن كَانَ لَم يَجْرِ لَهَا ذِكْرٌ، لِثُبُوتِهَا في الْمَعْنَى"[3]، و"تَفْخِيمًا لِشَأْنِهَا وتَهْوِيلًا"[4]، "أَو اكْتِفَاءً بِدَلَالَةِ اللَّعْنِ عَلَيْهَا"[5]، وعلى ترجيح عَوْدَةِ الضَّمِيرِ على اللعنة يجبُ تقديرُ النَّارِ، لدلالة اللّحاقِ عَلَيْهَا، وسَوَاءٌ كَانَ الْمَرْجِعُ النَّارَ أَم اللَّعْنَةَ، فَالْمَعْنَى الْمُتَحَصِّلُ واحِدٌ فـ "خُلُودُهُم فِيهَا خُلُودٌ في الْعَذَابِ"[6].

بلاغةُ دُخُولِ لا النَّافيةِ على الفِعْلِ المُضَارِعِ:

نَفْيُ تَجَدُّدِ التَّخْفِيفِ إثباتٌ لاستمرارِ العذابِ

جاءَ النَّفْيُ بِلَا، دُونَ لَنْ؛ لِأَنَّهُ أَرَادَ الْحَالَ، فَالنَّفْيُ بِـ (لن) يَصْرِفُ الزَّمَانَ لِلْمُسْتَقْبَلِ؛ لِأَنَّهَا نَصٌّ في نَفْيِ الْمُسْتَقْبَلِ، وفي النَّفْيِ بِـ (لَا) مع

(1) ابن جرير، جامع البيان: 3/261، ونخبة من العلماء، التّفسير الميسّر: 1/24.
(2) الواحديّ، البسيط: 3/448.
(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 1/232.
(4) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/210.
(5) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 1/116.
(6) الزّجّاج، معاني القرآن: 1/236.

الفعْلِ المضارعِ إشْعَارٌ بِأَنَّ الانْتِفاءَ مُتجدِّدٌ، ولـمَّا كان عَدَمُ التَّخفيفِ مُتجدِّدًا، أفادَ بالضَّرورةِ تجدُّدَ العذابِ، فنفيُ تَجَدُّدِ التَّخفيفِ إثباتٌ لاستِمرَارِ العذابِ، وهذا في غايةِ البراعَةِ في التَّرهيبِ، إذ إنَّ التَّخفيفَ مَطْمَعُهم، وبنفيه فلا يبقى في الوجدانِ أمَلٌ في الاستراحةِ، ومثلُه قَوْلُه ﷻ: ﴿وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾، فهو نصٌّ في نفيِ تجدُّدِ الإمْهالِ، ومجموعُ الجُملَتَيْن يُصَوِّرُ حالَ القَوْمِ في عذابِ النَّارِ.

تَرَابُطُ جُمَلِ الْوَصْلِ فِي بيانِ مَقْصُودِ المعنى:

جَاءَ الْوَصْلُ بَيْنَ الْجُمْلَتَيْنِ بِحَرْفِ الْعَطْفِ؛ لِاتِّحَادِهِمَا فِي الْخَبَرِيَّةِ، فَأَرَادَ الْإِخْبَارَ بِانْتِفَاءِ مَعْنَيَيْنِ عَنِ الْخُلُودِ، وهُمَا التَّخْفِيفُ والتَّأْخِيرُ، فَالْخُلُودُ واسْتِقْرَارُهُم في النَّارِ، رُبَّمَا يُظَنُّ مِنْهُ أَنَّهُم بِطُولِ مُكْثِهِمْ، سَيُخَفَّفُ عَنْهُم الْعَذَابُ، أَو رُبَّمَا سَيُمْهَلُونَ، ويُؤَخَّرُونَ عَنْهَا، فَجَاءَ النَّفْيُ لِتِلْكَ الظُّنُونِ بِخَبَرَيْنِ مَنْفِيَّيْنِ، لِتَثْبِيتِ الْحُكْمِ، ونَقْضِ ذَلِكَ الْوَهْمِ والاحْتِمَالِ، "ثُمَّ أَعْلَمَ تَعَالَى بِرَفْعِ وُجُوهِ الرِّفْقِ عَنْهُمْ؛ لِأَنَّ الْعَذَابَ إِذَا لَم يُخَفَّفْ، ولَم يُؤَخَّر فَهُوَ النِّهَايَةُ"[1].

ما بَعْدَ ذَلِكَ التَّشْنِيعِ المُخيف، غَيْرُ الهَلاكِ المُزَلْزِلِ العَنيفِ

إِيثَارُ الْفِعْلِ الْمَبْنِيِّ لِلْمَفْعُولِ لتحقيقِ المهانةِ المعنويَّةِ:

الْفِعْلُ في كِلتا الْعِبارَتَيْنِ مَبْنِيٌّ لِلْمَفْعُولِ، فَلَم يُذْكَر الْفَاعِلُ لِلْفِعْلَيْنِ، وَهُوَ اللَّهُ جَلَّ شَأْنُهُ؛ لِتَحْقِيقِ الْمَهَانَةِ، وعَدَمِ الالْتِفَاتِ إِلَيْهِمْ، كَمَا في قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالَ ٱخْسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ١٠٨﴾ [المؤمنون: 108]، فَيَكُونُ آخِرُ عَهْدِهِم بِكَلَامِ اللَّهِ تَعَالَى إِهْمَالًا لَهُم وتَرْكَ الالْتِفَاتِ إِلَيْهِمْ، وفيه إهانَةٌ مَعْنَوِيَّةٌ، في مضامينِ الإخبارِ بعذابِهم المادّيِّ.

إِيثَارُ التَّعْبِيرِ بِالِاسْمِيَّةِ في قوله: ﴿وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾:

الْجُمْلَةُ الِاسْمِيَّةُ الَّتِي خَبَرُهَا جُمْلَةٌ فِعْلِيَّةٌ، مِثْلُ الْجُمْلَةِ الْفِعْلِيَّةِ في عَدَمِ إِفَادَةِ الدَّوَامِ والثُّبُوتِ، فَإِيثَارُ الِاسْمِيَّةِ يُفِيدُ تَقْوِيَةَ الْحُكْمِ[2]،

الحُكْمُ بالتّأبيدِ عَلى أَهْلِ النِّيران، لا يُؤثِّرُ فيه طولُ الزَّمان

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 1/232.
(2) القُونَوِيّ، حاشيةٌ على البيضاوِيّ: 4/392.

والْجُمْلَةُ الاسْمِيَّةُ الَّتِي يَكُونُ الْمُسْنَدُ فِيهَا فِعْلًا، تَكْتَسِبُ صِفَتَيْنِ: الْقُوَّةَ فِي الْحُكْمِ، والاسْتِمْرَارَ والتَّجَدُّدَ، فَيَكُونُ نَفْيُ الْإِنْظَارِ مِثْلَ نَفْيِ التَّخْفِيفِ، لَكِن مَعَ قُوَّةٍ اكْتَسَبَهَا مِن خِلَالِ الْجُمْلَةِ الاسْمِيَّةِ، فَالْمُرَادُ هُوَ نَفْيُ التَّأَثُّرِ بِالزَّمَنِ، فَالْحُكْمُ عَلَيْهِم لَا يَتَغَيَّرُ، ولَا يَتَأَثَّرُ بِعَامِلِ الزَّمَنِ؛ لِأَنَّهُ حُكْمٌ ثَابِتٌ مُسْتَقِرٌّ، لَا يَتَبَدَّلُ مَهْما مَرَّ عَلَيْهِ الزَّمَانُ.

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الإِنْظار والتَّأْخير:

(يَجوزُ أَنْ تُنْظَرَ اللّيالي *** والخُلْدُ في الدّهر لا يجُوزُ)

جاء قوله: ﴿لَا يَسْتَأْخِرُونَ﴾ في القرآن مع الأجَل المُحدَّد: قال ﷻ: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [الأعراف: 34]، ومثله في: [يونس: 49]، و[النّحل: 61]، و[المؤمنون: 43].

وجاءَ الإنْظارُ مَعَ ما فيه مِنْ سُوءِ المُنْقَلَبِ، كالعَذابِ، واللَّعْنَةِ، والفَتحِ، والفتحُ سُوءُ مُنقَلَب في حقِّ المنْهَزِم، وكذا يَوْمُ القيامَةِ في حَقِّ مُنْكِرِها، في قوله ﷻ: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ [البقرة: 162]، و[آل عمران: 87، 88]، ومثله في: [النّحل: 85]، و[الأنبياء: 40]، و[السّجدة: 29].

فالتّأخيرُ هُو تَغييرُ التَّوقيتِ المَوْضوعِ مُسبقًا، فهُو عامٌّ في الوَقْتِ، أمّا الإنْظارُ ففيهِ تَأخيرٌ معَ عُذْرٍ، ولا عَلاقَةَ له بِوَقْتٍ موضوعٍ مُحَدَّدٍ، كقوله ﷻ: ﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ ۚ﴾ [البقرة: 280]، فلا تَوقيتَ مُحَدَّدًا لِبُلوغِ المَيْسَرَةِ، فاللّعْنَةُ والعذابُ وغَيرُهما، هيَ أحْداثٌ لَيْسَت مُؤَقَّتَةً، كتَوْقيت الأجَلِ، فالإنظارُ تَأْخيرٌ مَخْصوصٌ، وهكذا اسْتَعْمَلَهُ القُرآنُ.

﴿وَإِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ١٦٣﴾

[البقرة: 163]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا حَذَّر تَعَالَى مِن كِتْمَانِ الْحَقِّ، بَيَّنَ أَنَّ أَوَّلَ مَا يَجِبُ إِظْهَارُهُ، ولَا يَجُوزُ كِتْمَانُهُ، أَمْرُ التَّوْحِيدِ[1]؛ فَمَجِيءُ الْإِخْبَارِ بِالتَّوْحِيدِ بَعْدَ الْحَدِيثِ عَن كَتْمِ الْبَيِّنَاتِ والْهُدَى؛ إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ التَّوْحِيدَ هُوَ أَوَّلُ مَا يَجِبُ بَيَانُهُ ويَحْرُمُ كِتْمَانُهُ[2].

الرَّبْطُ بَيْنَ التَّحْذِيرِ مِنَ الكِتْمَانِ، والإِقْرارِ بِالتَّوْحِيدِ، مُرْتَكَزٌ لِلإِيمانِ

شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

1) ﴿وَٰحِدٞۖ﴾: مِنَ الجَذْرِ (وحد)، وهو في الأَصْلِ يَدُلُّ عَلَى الانْفِرَادِ، مِن ذَلِكَ الْوَحْدَة، وهُوَ واحِدُ قَبِيلَتِه، إِذَا لَم يَكُن فِيهِم مِثْلُهُ، ونَسِيجُ وحْدِهِ، أَي لَا يُنْسَجُ غَيْرُهُ لِنَفَاسَتِه، والْوَاحِدُ: الْمُنْفَرِدُ[3]، وهو الشَّيء الَّذي لا جُزْءَ له البَتَّةَ، وإِذَا وُصِفَ اللَّهُ تَعَالَى بِالْوَاحِدِ، فَمَعْنَاهُ: هُوَ الَّذِي لَا يَصِحُّ عَلَيْهِ التَّجزُّؤُ، ولا التَّكثُّرُ[4]، إِلَهٌ واحِدٌ، ورَبٌّ واحِدٌ، لَيْسَ لَهُ في إِلَاهِيَّتِه ورُبُوبِيَّتِه شَرِيكٌ؛ لِأَنَّ الْمُشْرِكِينَ أَشْرَكُوا مَعَهُ آلِهَةً فَكَذَّبَهُم اللَّهُ ﷻ، فَقَالَ: ﴿وَإِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ﴾[5].

واحِدِيَّةُ اللهِ الصَّمَدِ عَقِيدَةٌ ثابِتَةٌ لا تَتَحَوَّلُ ولا تَتَبَدَّلُ

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

رُوِيَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: قَالَت كُفَّارُ قُرَيْش: يَا مُحَمَّدُ، صِفْ لَنَا رَبَّكَ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى هَذِهِ الْآيَةَ، وسُورَةَ الْإِخْلَاصِ، وكَانَ لِلْمُشْرِكِينَ ثَلَاثُمِائَةٍ وسِتُّونَ صَنَمًا يَعْبُدُونَهَا مِن دُونِ اللَّهِ، فَبَيَّنَ اللَّهُ تَعَالَى أَنَّهُ إِلَهٌ

إِخْبارُ النَّاسِ كافَّةً، بِأَنَّ اللهَ مُتَفَرِّدٌ بِأُلُوهِيَتِهِ، وأَنَّهُ رَحْمَنٌ رَحِيمٌ

(1) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 2/190.
(2) الشّوكانّي، فتح القدير: 1/187.
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (وحد).
(4) الرَّاغب، المفردات: (وحد).
(5) الواحديّ، البسيط: 3/449-450.

واحِدٌ، فَأَنْزَلَ هَذِهِ الْآيَةَ[1]، وفي هَذه الآيَةِ يُخْبِر اللَّهُ ﷻ جَميعَ النَّاس، أَنَّهُ سُبْحَانَهُ وتَعَالَى واحِدٌ في ذَاتِه، لَا قَسِيمَ لَهُ، وواحِدٌ في صِفَاتِه لَا شَبِيهَ لَهُ، وواحِدٌ في أَفْعَالِه لَا شَرِيكَ لَهُ، يُخْبِرُهُم عَنْ تَفَرُّدِهِ بِالْإِلَهِيَّة، وأَنَّهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ولَا عَدِيلَ، لا معبود بحق إلا هو، الرحمنُ المتصفُ بالرحمة في ذاته وأفعاله لجميع الخلق، الرحيمُ بالمؤمنين[2].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبلاغيُّ:

دلَالةُ حَرْفِ الوَاوِ بَيْنَ الْعَطْفِ والاسْتِئْنَافِ:

قـوَّةُ الاستئنافِ في كـونِ الـوَاوِ قَـفلَـةً لما سَبَقَ وتوطِئةً لما لَحِق

الواوُ في قوله: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ إمَّا أنْ نحملَها على أن تكونَ عاطِفةً، عطَفَتِ الآيةَ عَلَى الْجُمْلَةِ الْوَارِدَةِ في الْآيَةِ السَّابِقَةِ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾[3]؛ لبيان اتِّصالِ الكلامِ بعضِه ببَعْضٍ، وإمَّا أن نحملَها على الاستئنافِ؛ لتقريرِ معنى التَّوحيدِ، وأنَّ مَدَارَ الأمرِ عَلَيْه، وعليه فيكونُ قَفلةً لما مضى، وتوطِئةً لما سيأتي.

نُكْتَةُ تَوَسُّطِ لَفْظِ الإِلَه بَيْنَ الْمُبْتَدَأِ والخَبَرِ في قوله: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾:

التَّحْوِيلُ مِن الْخَبَرِ إِلَى الْوَصْفِ، تَقْرِيرٌ لِصِفَةِ الْأُلُوهِيَّةِ الواحِدَةِ

إِنَّمَا ذَكَرَ ﴿إِلَٰهٌ﴾ في قَوْلِهِ ﷻ ﴿إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾؛ تَنْبِيهًا عَلَى أَنَّ ذِكْرَهُ في نَظْمِ الْكَلَامِ لِتَوْصِيفِهِ بِالْوَاحِدِ؛ فَالْخَبَرُ بِالْحَقِيقَةِ واحِدٌ[4]، فـ"وَاحِدٌ" صِفَةٌ، وهُوَ الْخَبَرُ في الْحَقِيقَةِ؛ لِأَنَّهُ مَحَطُّ الْفَائِدَةِ، أَلَا تَرَى أَنَّهُ لَو اقْتَصَرَ عَلَى مَا قَبْلَه[5] لَم يُفِدْ، وهَذَا يُشْبِهُ الْحَالَ الْمُؤَطِّئَةَ، نَحْو: (مَرَرْت بِزَيْدٍ رَجُلًا صَالِحًا)، فَرَجُلًا حَالٌ، ولَيْسَت مَقْصُودَةً، إِنَّمَا الْمَقْصُودُ وصْفُهَا[6]، فَقَوْلُهُ: ﴿وَاحِدٌ﴾ في الْأَصْلِ، هُوَ الْخَبَرُ عَنِ الْمُبْتَدَأِ ﴿وَإِلَٰهُكُمْ﴾، ولَكِنَّهُ لَمَّا كَرَّرَ لَفْظَ ﴿إِلَٰهٌ﴾ صَارَ قولُهُ ﴿وَاحِدٌ﴾ صِفَةً، وفَائِدَةُ التَّحْوِيلِ مِن الْخَبَرِ

(1) العسقلانّي، العجاب في بيان الأسباب: 1/413.
(2) الرّازيّ، التّفسير الكبير: 4/148، والقاسميّ، محاسن التّأويل: 1/457، ونخبة من العلماء، التّفسير الميسّر، ص: 24.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/74.
(4) القُونَوِيّ، حاشيةٌ على البيضاوِيّ: 4/393.
(5) أي لو قال: (وإلهُكم إلهٌ)، فهذا القول لا يفيد؛ لأنّ الخبر في الحقيقة هو واحد.
(6) السّمين، الدّرّ المصون: 2/197.

إِلَى الْوَصْفِ، تَقْرِيرُ صِفَةِ الْوَحْدَةِ فِي الْأُلُوهِيَّةِ عَلَى وَجْهِ الثَّبَاتِ؛ لأَنَّ أَصْلَ الصِّفَةِ أَن تَكُونَ وَصْفًا ثَابِتًا، وأَصْلَ الْخَبَرِ أَن يَكُونَ وَصْفًا حَادِثًا، وهَذَا اسْتِعْمَالٌ مُتَّبَعٌ فِي فَصِيحِ الْكَلَامِ[1]، وفِي قَوْلِنَا: "سَيِّدُكُم سَيِّدٌ واحِدٌ"، مِن تَقْرِيرِ السِّيَادَةِ مَا لَيْسَ فِي: "سَيِّدُكُم واحِدٌ"؛ فَلِذَا كَرَّرَ لَفْظَ ﴿إِلَٰهٌ﴾، ولَم يَقُلْ: (وَإِلَٰهُكُمْ وَاحِدٌ)[2].

بَلَاغَةُ التَّنْكِيرِ ودَلَالَةُ الْوَحْدَةِ، فِي قولِه: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾:

التَّنْكِير فِي قَوْلِهِ ﷻ: ﴿إِلَٰهٌ﴾ لِلنَّوْعِيَّةِ؛ لأَنَّ الْمَقْصُودَ مِنْهُ تَقْرِيرُ مَعْنَى الْأُلُوهِيَّةِ، ولَيْسَ لِلْإِفْرَادِ؛ لأَنَّ الْإِفْرَادَ اسْتُفِيدَ مِن قَوْلِهِ واحِدٌ[3]، وقَوْلُهُ ﷻ: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾، يَعْنِي: أَنَّهُ واحِدٌ فِي الْإِلَهِيَّةِ؛ لأَنَّ وُرُودَ لَفْظِ الْوَاحِدِ بَعْدَ لَفْظِ الْإِلَهِ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ تِلْكَ الْوَحْدَةَ مُعْتَبَرَةٌ فِي الْإِلَهِيَّةِ، لَا فِي غَيْرِهَا، فَهُوَ بِمَنْزِلَةِ وَصْفِ الرَّجُلِ بِأَنَّهُ سَيِّدٌ واحِدٌ[4].

انْتِظَامُ الكَوْنِ ودِقَّةُ حَرَكَةِ الفُلْكِ، قائِمَةٌ بِأَمْرِ اللهِ الواحِدِ الأَحَدِ

دَلَالَةُ خُلُوِّ الْإِخْبَارِ من التَّأْكِيدِ فِي قولِه: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾:

إِنَّ تَحْقِيقَ الْوَحْدَانِيَّةِ، هو الْغَايَةُ الْأُولَى مِن إِرْسَالِ الرُّسُلِ، وجَاءَ الْخَبَرُ عَن ذَلِكَ خَالِيًا مِن التَّأْكِيدِ؛ لأَنَّ مَضْمُونَ الْخَبَرِ مِن شِدَّةِ ظُهُورِهِ، أُخْبِرَ عَنْهُ بِطَرِيقَةِ الْخُلُوِّ مِن الْمُنْكِرِينَ؛ لأَنَّ وَحْدَانِيَّةَ اللَّهِ تَعَالَى، مِمَّا لَا يُنْكَرُ ولَا يُجْهَلُ، فَأَجْرَاهُ مَجْرَى الْمُقَرَّرَاتِ لِسُطُوعِ حَقِيقَتِهَا، وخُلُوُّ الخبرِ مِنَ التَّأكيدِ، هُو تَنْزِيلٌ لِلْمُنْكِرِ مَنْزِلَةَ غيرِ الْمُنْكِرِ، وذلك أنّهم لو نَظَروا فِي البَراهِينِ السّاطِعَةِ، والحُجَجِ القاطِعَةِ، لوجدوا فيها غايَةَ الإقْناعِ.

سُطُوعُ أُلوهِيَّةِ اللهِ الواحِدِ، باعتبارِهِ مُعْتَمَدَ الكَوْنِ، وغايَةَ الإرْسالِ

قَصْرُ الْأُلُوهِيَّةِ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى، فِي قولِه: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾:

القَصْر بِأُسْلُوبِ النَّفْيِ والإِثْبَاتِ، فَنَفَى أَوَّلاً جِنْسَ الإِلَهِ، ثُمَّ اسْتَثْنَى مِن ذَلِكَ الجِنْسِ الْمَنْفِيِّ الإِلَهَ الحَقَّ، والمَعْنَى: أَنَّ الْأُلُوهِيَّةَ مُنْتَفِيَةٌ عَن كُلِّ إِلَهٍ إِلَّا هَذَا الإِلَهَ الحَقَّ.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/74-75.
(2) القُونَوِيّ، حاشيةٌ على البيضاوِيّ: 4/393.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/75.
(4) الرّازيّ، التّفسير الكبير: 4/149.

الفَرْقُ في الإخْبَارِ عَن التَّوْحِيدِ بين قوله: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾، وقوله: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾؟

لا إلَـهَ بِحَـقٍّ لا رَيْبَ فيهِ إلّا اللهُ الواحِدُ الأَحَدُ

لَمّا قَالَ ﷻ: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾، أَمْكَنَ أَن يَخْطُرَ بِبَالِ أَحَدٍ، أَنَّ هَذَا يَخُصُّ إِلَهنَا، فَلَعَلَّ إِلَهَ غَيْرِنَا مُغَايِرٌ لِإِلَهِنَا، فَأَزَالَ هَذَا الوَهْمَ بِبَيَانِ التَّوْحِيدِ المُطْلَقِ، فَقَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ[1]، فَالغَرَضُ دَفْعُ التَّوَهُّمِ، ومَنْشَأُ التَّوَهُّمِ هُنَا تَقْيِيدُ وحْدَةِ الإِلَهِ بِالإِضَافَةِ إِلَى المُخَاطَبِينَ، فَهَذِهِ الوَحْدَةُ لَا تَقْتَضِي وحْدَةَ الإِلَهِ مُطْلَقًا[2].

هَذَا التَّسَاؤُلُ يُمْكِنُ صِيَاغَتُهُ بِوَجْهٍ آخَر، فَيُقَال: هَل المَعْنَى هُوَ ذَاتُهُ في الآيَتَيْنِ؟ فَيَكُونُ مِن التَّكْرَارِ الَّذِي لَا حَاجَةَ لَهُ، أَو مَا فَائِدَةُ الجَمْعِ بَيْنَ: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾، وبَيْنَ ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾؟ والجَوَابُ أَنَّهُ لَمّا بَيَّنَ بِقَوْلِهِ ﷻ: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾، أَنَّهُ المَقْصُودُ بِالعِبَادَةِ أَو المُسْتَحِقُّ لَهَا - وكَانَ يَجُوزُ أَن يُتَوَهَّمَ أَن يُوجَدَ إِلَهٌ غَيْرُهُ، ولَكِن لَا يُعْبَدُ ولَا يَسْتَحِقُّ العِبَادَةَ- أَكَّدَهُ بِقَوْلِهِ ﷻ: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾، وحُقَّ لِهَذَا المَعْنَى أَن يَكُونَ مُؤَكَّدًا، وتُكَرَّرَ عَلَيْهِ الأَلْفَاظُ؛ إِذ هُوَ مَبْدَأُ مَقْصُودِ العِبَادَةِ ومُنْتَهَاهُ[3].

بَلَاغَةُ التَّعْبِيرِ عَن اللَّهِ ﷻ بِضَمِيرِ الغَائِبِ ﴿هُوَ﴾:

اللـهُ واحِـدٌ في ألوهِيَتِهِ، ولا إِلَهَ غَيْرُهُ يَسْتَحِقُّ أَنْ يُعْبَدَ مِنْ دونِه

إِنَّمَا عَبَّرَ عَن اللَّهِ ﷻ بِالضَّمِيرِ الغَائِبِ ﴿هُوَ﴾؛ لِأَنَّهُ سَبَقَ ذِكْرُ الإِلَهِ اسْمًا ظَاهِرًا، وهَذَا يَقْتَضِي الغَيْبَةَ، فَكَانَ المُنَاسِبُ أَن يَسْتَعْمِلَ الضَّمِيرَ الغَائِبَ؛ لِأَنَّهُ يُرِيدُ أَن يُثْبِتَ صِفَةً أُخْرَى لِذَلِكَ الإِلَهِ الوَاحِدِ، وهِيَ نَفْيُ صِفَةِ الإِلَهِيَّةِ عَن غَيْرِهِ.

لِمَاذَا قَالَ: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾، ولَم يَقُلْ: (لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ)؟

لَم يَسْتَعْمِلِ الاسْمَ الظَّاهِرَ الدَّالَّ عَلَى الذَّاتِ العَلِيَّةِ (ﷻ)، وهُوَ

(1) الرّازيّ، التّفسير الكبير: 4/149.
(2) القُونَويّ، حاشيةٌ على البيضاويّ: 4/394.
(3) القاسميّ، محاسن التّأويل: 1/457.

الإِلَهُ الحَقُّ المَقْصُودُ بِالقَصْرِ، في قوله: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾؛ لِأَنَّهُ أَرَادَ الإِشَارَةَ إِلَى الإِلَهِ الوَاحِدِ الَّذِي سَبَقَ ذِكْرُهُ في بِدَايَةِ الآيَةِ: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ فلو قَالَ: (لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ)؛ لَانْقَطَعَ هَذَا الوَصْلُ بَيْنَ الجُمْلَتَيْنِ، وانْقَطَعَ المَعْنَى المُرَادُ مِن كِلَيْهِمَا، وهُوَ إِثْبَاتُ صِفَةِ الوَحْدَانِيَّةِ، ونَفْيُ صِفَةِ الإِلَهِيَّةِ عَن غَيْرِهِ، وإِثْبَاتُهَا لَهُ حَصْرًا.

إثْباتُ الألوهِيَّةِ للهِ، ونَفْيُها عَمَّن سِواهُ، هُما جَوْهَرا التَّوْحيدِ الحَقِّ

إِيثَارُ اسْتِعْمَالِ الِاسْمَيْنِ: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾:

إِنَّمَا خَصَّ هَذَا المَوْضِعَ بِذِكْرِ هَاتَيْنِ الصِّفَتَيْنِ؛ لِأَنَّ ذِكْرَ الإِلَهِيَّةِ الفَرْدَانِيَّةِ، يُفِيدُ القَهْرَ والعُلُوَّ، فَعَقَّبَهُمَا بِذِكْرِ هَذِهِ المُبَالَغَةِ في الرَّحْمَةِ؛ تَرْوِيحًا لِلْقُلُوبِ عَن هَيْبَةِ الإِلَهِيَّةِ، وعِزَّةِ الفَرْدَانِيَّةِ، وإِشْعَارًا بِأَنَّ رَحْمَتَهُ سَبَقَت غَضَبَهُ، وأَنَّهُ مَا خَلَقَ الخَلْقَ إِلَّا لِلرَّحْمَةِ والإِحْسَانِ[1]، وسبب تعلُّق الصّفتين بالوَحْدانيّة؛ لأنّ "﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾، كَالحُجَّةِ عَلَيْهَا، فَإِنَّهُ لَمَّا كَانَ مُوْلِي النِّعَمِ كُلِّهَا -أُصُولِهَا وفُرُوعِهَا، ومَا سِوَاهُ إِمَّا نِعْمَةٌ أَو مُنْعَمٌ عَلَيْهِ- لَم يَسْتَحِقَّ العِبَادَةَ أَحَدٌ غَيْرُهُ"[2].

مَظاهِرُ الجَلالِ والجَمالِ، مَسْلَكٌ لِمَعْرِفَةِ اللهِ بِصِفاتِ الكَمالِ

قَصْرُ صِفَةِ الرَّحْمَةِ عَلَى اللَّهِ في قوله: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾:

المُشْرِكُونَ مِن العَرَبِ كَانُوا يَعْرِفُونَ اللَّه تَعَالَى، وفِي الشَّدَائِدِ يَلْجَؤُونَ إِلَيهِ وحْدَهُ، مُسْتَعِينِينَ طَالِبِينَ الرَّحْمَةَ مِن عِنْدِهِ، ولَا يَرْجُونَ الرَّحْمَةَ مِن غَيْرِهِ؛ ولِذَا كَانَ وصْفُهُ بِالرَّحْمَةِ تَذْكِيرًا بِوَحْدَانِيَّتِهِ تَعَالَى؛ لِأَنَّهُم يَلْجَؤُونَ إِلَيْهِ وحْدَهُ، عِنْدَ رَجَاءِ الرَّحْمَةِ، فَلَا يَرْجُونَهَا مِن غَيْرِهِ، وكَأَنَّ المَعْنَى: الوَاحِدُ الأَحَدُ، هُوَ الَّذِي يَرْحَمُكُم عِنْدَمَا تَتَضَرَّعُونَ إِلَيْهِ، فَكَانَ المَنْطِقُ يُوجِبُ عَلَيْكُم أَلَّا تَعْبُدُوا غَيْرَهُ، فَفِيهِ إِثْبَاتُ الوَحْدَانِيَّةِ، مِن خِلَالِ قَصْرِ صِفَةِ الرَّحْمَةِ، عَلَى الإِلَهِ الوَاحِدِ[3].

(1) الرّازيّ، التّفسير الكبير: 4/152.
(2) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 1/116، والنّسفيّ، مدارك التّنزيل: 1/147.
(3) القُونَوِيّ، حاشيةٌ على البيضاوِيّ: 4/396، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 1/486-487، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/75-76.

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَأٓيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ١٦٤﴾ [البقرة: 164]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الرَّبْطُ بَيْنَ دَلائِلِ العَظَمَةِ في الكَوْنِ، وبَيْنَ التَّأْكِيدِ عَلى صِدْقِ التَّوْحِيدِ

لَمّا ذَكَرَ في الآيَةِ السّابِقَةِ التَّوْحيدَ، ناسَبَ أَنْ يُقَدِّمَ في هذه الآيَةِ الدَّليلَ عَلى أَنَّ الإلَهَ واحِدٌ؛ فالآيَةُ دَالَّةٌ عَلى التَّوْحِيدِ المَذْكُورِ في الآيَةِ الأُولى[1]؛ فلَمَّا حَكَمَ سُبْحَانَهُ وتَعَالى لِنَفْسِهِ بالفَرْدانِيَّةِ والوَحْدَانِيَّةِ، ذَكَرَ ثَمانِيَةَ أَنْواعٍ مِنَ الدَّلائِلِ الَّتي يُمْكِنُ أَنْ يُسْتَدَلَّ بِهَا عَلى وُجُودِهِ سُبْحانَهُ أَوَّلاً، وعَلى تَوْحِيدِهِ وبَراءَتِهِ عَنِ الأَضْدادِ والأَنْدادِ ثانِيًا[2]، فهِيَ الاسْتِدْلالُ عَلى التَّوْحِيدِ المَذْكورِ قَبْلَهَا في قَوْلِهِ ﷻ: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾[3].

وَقَدْ يَكُونُ مِنَ المُنَاسَبَةِ، أَنَّهُ عَقَّبَ بِهَذِهِ الآيَةِ بَعْدَ ذِكْرِ الكِتْمَانِ المُنْهِيِّ عَنْهُ في الآيَاتِ السَّابِقَةِ؛ فلَمَّا حَذَّرَ تعالى مِنْ كِتْمَانِ الحَقِّ، بَيَّنَ أَنَّ أَوَّلَ مَا يَجِبُ إِظْهَارُهُ ولَا يَجُوزُ كِتْمَانُهُ، أَمْرُ التَّوْحِيدِ، ووَصَلَ ذَلِكَ بِذِكْرِ البُرْهَانِ، والفِكْرِ في عَجَائِبِ الصُّنْعِ[4].

شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

لا يوصف بالخالق البديع إلّا الله الّذي أوجد من عدمٍ بقدرته

1) ﴿خَلْقِ﴾ من جذر (خلق)، وأَصْلُ المادّةِ يدلّ على تَقْدِيرِ الشَّيْءِ[5]، ويُسْتَعْمَلَ في إِبْدَاعِ الشَّيْءِ مِنْ غَيْرِ أَصْلٍ ولا احْتِذاءٍ، قال

(1) مكّيّ بن أبي طالب، الهداية إلى بلوغ النّهاية: 1/533-534.
(2) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 4/152.
(3) ابن جزيّ، التسهيل لعلوم التنزيل: 1/105.
(4) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 2/190-191.
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (خلق).

تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾ [الأنعام: 01]، أَيْ: أَبْدَعَهُمَا، ولَيْسَ الخَلْقُ الَّذِي هُوَ الإِبْدَاعُ إِلَّا لِلّٰهِ تعالى؛ ولِهَذَا قالَ: ﴿أَفَمَن يَخۡلُقُ كَمَن لَّا يَخۡلُقُۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ١٧﴾ [النّحل: 17][1].

الأرض مسخّرة بحكمة الله ورحمته للبشر

2) ﴿وَٱلۡأَرۡضِ﴾ أَصْلُ مَادَّةِ (أرض)، كُلُّ شَيْءٍ يَسْفُلُ ويُقَابِلُ السَّمَاءَ، والأَرْضُ: الَّتِي نَحْنُ عَلَيْهَا[2]، والَّذِي ورَدَ في القُرْآنِ الكَرِيمِ (الْأَرْضُ) هَذِهِ الَّتِي نَعِيشُ عَلَيْهَا، أَوْ بُقْعَةٌ خَاصَّةٌ مِنْهَا يُعَيِّنُهَا السِّيَاقُ[3].

والمعنى في الآية: الْأَرْضُ هَذِهِ الَّتِي نَعِيشُ عَلَيْهَا.

الاختلاف قانونٌ كونيٌّ مطّردٌ

3) ﴿وَٱخۡتِلَٰفِ﴾؛ أَصْلُ مَادَّةِ (خلف): أَنْ يَجِيءَ شَيْءٌ بَعْدَ شَيْءٍ يَقُومُ مَقَامَهُ[4]، فخَلْفُ: ضِدُّ قُدَّام، وقَوْلُهُ تعالى: ﴿إِنَّ فِي ٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ [يونس: 6]، أَيْ: في مَجِيءِ كُلِّ واحِدٍ مِنْهُمَا خَلْفَ الآخَرِ وتَعَاقُبِهِمَا[5]، بِمَعْنَى: أَنَّ كُلَّ واحِدٍ مِنْهُمَا يَخْلُفُ مَكَانَ صَاحِبِهِ؛ إِذَا ذَهَبَ اللَّيْلُ جَاءَ النَّهَارُ بَعْدَهُ، وإِذَا ذَهَبَ النَّهَارُ جَاءَ اللَّيْلُ خَلْفَهُ[6].

عمر الإنسان يُبليه الجديدان اللّيلُ والنّهارُ

4) ﴿ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ﴾: ﴿ٱلَّيۡلِ﴾ مِنَ الجِذْرِ (ليل)، وأَصْلُ مَادَّةِ (ليل) خِلَافُ النَّهَارِ[7]، وطَبِيعَةُ الظَّلَامِ مَعَ عُمُومِهِ، هُوَ المَلْحَظُ في تَسْمِيَةِ اللَّيْلِ؛ بِدَلِيلِ مُقَابَلَتِهِ بِالضِّيَاءِ في قَوْلِهِ تعالى: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمُ ٱلَّيۡلَ سَرۡمَدًا إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَنۡ إِلَٰهٌ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَأۡتِيكُم بِضِيَآءٍۚ﴾ [القصص: 71][8].

و﴿وَٱلنَّهَارِ﴾: مِنَ الجِذْرِ (نهر)، وأَصْلُ مادّة (نهر) يَدُلُّ عَلَى

(1) الراغب، المفردات: (خلق).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (أرض).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (أرض).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (خلف).
(5) الراغب، المفردات: (خلف).
(6) ابن جرير، جامع البيان: 3/272.
(7) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ليل).
(8) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (ليل).

تَفَتُّحِ شَيْءٍ، أَوْ فَتْحِهِ، ومِنْهُ النَّهَارُ: انْفِتَاحُ الظُّلْمَةِ عَنِ الضِّيَاءِ، مَا بَيْنَ طُلُوعِ الفَجْرِ إِلَى غُرُوبِ الشَّمْسِ[1]، الوَقْتُ الَّذِي يَنْتَشِرُ فِيهِ الضَّوْءُ، مَا بَيْنَ طُلُوعِ الشَّمْسِ إِلَى غُرُوبِهَا[2].

جريانُ الفُلْك في الماء، آيةٌ على قدرته

5) ﴿وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي﴾، الفُلْكُ مِنَ الجذْرِ (فلك)، وأَصْلُ المادّةِ يَدُلُّ عَلَى اسْتِدَارَةٍ في شَيْءٍ، وأَمَّا السَّفِينَةُ فتُسَمَّى فُلْكًا؛ لِأَنَّهَا تُدَارُ في المَاءِ[3]، فهِيَ تَدُورُ بِالمَاءِ أَسْهَلَ دَوْرٍ[4]، ويُسْتَعْمَلُ لِلوَاحِدِ والجَمْعِ، ﴿وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ﴾، ﴿وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ﴾، [فاطر: 12][5].

وأمّا ﴿تَجْرِي﴾ فهي مِنَ الجِذْرِ (جري)، وأَصْلُ هذه المادّةِ: انْسِيَاحُ الشَّيْءِ[6]، والجَرْيُ: المرُّ السَّرِيعُ، كَمَرِّ المَاءِ[7]، والانْتِقَالُ بِحَرَكَةٍ خَفِيفَةٍ، يقال: جَرَتِ الشَّمْسُ وسَائِرُ النُّجُومِ، والسَّفِينَةُ والرِّيَاحُ، وكُلّها فِيهِ خِفَّةُ الحَرَكَةِ[8]، قال ﷻ: ﴿وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِي مِن تَحْتِيٓ﴾ [الزّخرف: 51]، وقال: ﴿وَلِتَجْرِيَ ٱلْفُلْكُ﴾ [الرّوم: 46][9].

اتّساع البحار، دليل على سعة ملك الله القهّار

6) ﴿ٱلْبَحْرِ﴾ مِنَ الجِذْرِ (بحر)، وأَصْلُ هذه المَادَّةِ: كُلُّ مَكَانٍ واسِعٍ جَامِعٍ لِلماءِ الكَثِيرِ[10]، سُمِّيَ بَحْرًا لِاسْتِبْحَارِهِ، أي انْبِسَاطِهِ وسَعَتِهِ[11]، وهُوَ خِلَافُ البَرِّ[12]، وكُلُّ نَهْرٍ لَا يَنْقَطِعُ مَاؤُهُ مِن الأَنْهَارِ العَذْبَةِ، مِثْلُ دِجْلَةَ والنِّيلِ: فهِيَ بِحارٌ، والبَحْرُ الكَبِيرُ وهُوَ مَغِيضُ هَذِهِ

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نهر).
(2) الراغب، المفردات: (نهر).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (فلك).
(4) الواحدي، التّفسير البسيط: 3/455.
(5) الراغب، المفردات: (فلك).
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (جري).
(7) الراغب، المفردات: (جري).
(8) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (جري).
(9) الراغب، المفردات: (جري).
(10) الراغب، المفردات: (بحر).
(11) الخليل، العين: (حرب).
(12) الجوهري، الصّحاح: (بحر).

الأَنْهَار، فمَاؤُهُ مِلْحٌ أُجَاجٌ، وسُمِّيَتْ هَذِهِ الأَنْهَارُ بِحَارًا لِأَنَّهَا مَشْقُوقَةٌ في الأَرْضِ شَقًّا[1].

لا نفع إلّا بقضاء، ولا ضرّ إلّا بقدر

7) ﴿يَنفَعُ﴾: مِنَ الجِذْرِ (نفع)، وأَصْلُ هذه المادّةِ يَدُلُّ عَلَى خِلَافِ الضَّرِّ[2]، النَّفْعُ: ما يُسْتَعَانُ بِهِ في الوُصُولِ إلى الخَيْرَاتِ، وما يُتَوَصَّلُ به إلى الخَيْرِ، فهُوَ خَيْرٌ، فالنَّفْعُ خَيْرٌ، وضِدُّهُ الضُّرُّ، قال تعالى: ﴿وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ [الفرقان: 3]، وقال: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾ [الأعراف: 188][3].

أنزل الله الشّرائع، لهداية النّاس إلى صراط مستقيم

8) ﴿أَنزَلَ﴾: مِنَ الجِذْرِ (نزل)، وأَصْلُ هذه المادّةِ يَدُلُّ عَلَى هُبُوطِ شَيْءٍ ووُقُوعِهِ[4]، والنُّزُولُ في الأَصْلِ هُوَ انْحِطَاطٌ مِنْ عُلُوٍّ، وإِنْزَالُ اللّٰهِ تعالى نِعَمَهُ ونِقَمَهُ عَلَى الخَلْقِ، وإِعْطَاؤُهُمْ إِيَّاهَا، كَإِنْزَالِ القُرْآنِ، والحَدِيدِ، واللِّبَاسِ، ونَحْوِ ذَلِكَ، قال تعالى: ﴿أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ﴾ [الكهف: 1][5].

البثُّ إيجاد وانتشار وإظهار

9) ﴿وَبَثَّ﴾: مِنَ الجِذْرِ (بثث)، وأَصْلُ المادّة: تَفْرِيقُ الشَّيْءِ وإِظْهَارُهُ، يُقَالُ: بَثَّ الصَّيَّادُ كِلَابَهُ عَلَى الصَّيْدِ[6]، واللّٰه تعالى خَلَقَ الخَلْقَ وبَثَّهُمْ في الأَرْضِ لِمَعَاشِهِمْ، وبَثَثْتُ الحَدِيثَ، أَيْ: نَشَرْتُهُ، وقَوْلُهُ ﷻ: ﴿وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ﴾ [البقرة: 164]، إِشَارَةٌ إِلَى إِيجَادِهِ تعالى مَا لَمْ يَكُنْ مَوْجُودًا وإِظْهَارِهِ إِيَّاهُ[7].

ما مِنْ دابَّةٍ إلّا وضَمِنَ اللهُ رِزْقَها، مُدَّةَ وُجودِها في الحَياةِ

10) ﴿دَآبَّةٍ﴾: مِنَ الجِذْرِ (دبب)، وأَصْلُ المادّة يدلّ على حَرَكَةٍ عَلَى الأَرْضِ أَخَفَّ مِنَ المَشْيِ، تَقُولُ: دَبَّ دَبِيبًا، وكُلُّ مَا مَشَى عَلَى الأَرْضِ فهُوَ دَابَّةٌ[8]، ومِنْهُ قَوْلُهُ ﷻ: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ ۖ فَمِنْهُم

(1) الأزهري، تهذيب اللّغة: (حرب).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نفع).
(3) الراغب، المفردات: (نفع).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نزل).
(5) الراغب، المفردات: (نزل).
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (بثّ).
(7) الراغب، المفردات: (بثّ).
(8) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (دبّ).

مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰٓ أَرْبَعٍۚ﴾ [النّور: 45]، فتَكُونُ الدَّابَّةُ جَمْعًا لِكُلِّ شَيْءٍ يَدِبُّ: ﴿۞إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ﴾ [الأنفال: 22][1]، ومعنى الآيةِ: كلُّ مَا دَبَّ عَلَى الأَرْضِ مِن النَّاسِ وغَيْرِهِمْ[2].

حِكْمَةُ الله في تَصْرِيفِ الرِّيَاحِ، يُوقِنُ بها كُلُّ فَلَّاحٍ

11) ﴿وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ﴾: التصريفُ مِنَ الجِذْرِ (صرف)، وأَصْلُ هذه المادّة يَدُلُّ عَلَى رَجْعِ الشَّيْءِ[3]، والصَّرْفُ: رَدُّ الشَّيْءِ مِنْ حَالَةٍ إِلَى حَالَةٍ، أَوْ إِبْدَالُهُ بِغَيْرِهِ، وتَصْرِيفُ الرِّيَاحِ: صَرْفُهَا مِنْ حَالٍ إِلَى حَالٍ: ﴿وَصَرَّفْنَا ٱلْءَايَٰتِ﴾ [الأحقاف: 27]، ﴿وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ﴾ [طه: 113][4].

ومعنى قوله: ﴿وَتَصْرِيفِ﴾: أي تَقْلِيبِ الرياح قَبُولًا ودَبُورًا، وشَمالًا وجَنوبًا، بِالرَّحْمَةِ وبِالعَذَابِ، وحارَّةً وبارِدَةً، ولَيِّنَةً، وعَاصِفَةً[5].

و﴿ٱلرِّيَٰحِ﴾: مِنَ الجِذْرِ (روح)، وأَصْلُ هذه المادّة يَدُلُّ عَلَى سَعَةٍ وفُسْحَةٍ واطِّرَادٍ، وأَصْلُ اليَاءِ في الرِّيحِ وَاوٌ، فالرُّوحُ رُوحُ الإِنْسَانِ، وإِنَّمَا هُوَ مُشْتَقٌّ مِنَ الرِّيحِ[6]، والرِّيحُ: الهَوَاءُ المُتَحَرِّكُ[7]، وسُمِّيَتِ الرِّيحُ رِيحًا؛ لِأَنَّ الغَالِبَ في هُبُوبِهَا المَجِيءُ بِالرُّوحِ والرَّاحَةِ، وانْقِطَاعُ هُبُوبِهَا يُكْسِبُ الكَرْبَ والغَمَّ[8].

سَخَّرَ الله السَّحابَ لإِحْيَاءِ الأَرْضِ بَعْدَ مَوْتِها

12) ﴿وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ﴾: السَّحَابُ مِنَ الجِذْرِ (سحب)، وأَصْلُ هذه المادّةِ يَدُلُّ عَلَى جَرِّ شَيْءٍ مَبْسُوطٍ ومَدِّهِ، وسُمِّي السَّحَابُ سَحَابًا، تَشْبِيهًا لَهُ بِذَلِكَ، كَأَنَّهُ يَنْسَحِبُ في الهَوَاءِ انْسِحَابًا[9]، ومِنْهُ

(1) الراغب، المفردات: (دبّ).
(2) الواحدي، التّفسير البسيط: 3/458.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (صرف).
(4) الراغب، المفردات: (صرف).
(5) ابن جرير، جامع البيان: 3/275، والنيسابوري، التّفسير البسيط: 3/465.
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (روح).
(7) الراغب، المفردات: (روح).
(8) الواحدي، التّفسير البسيط: 3/459
(9) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سحب).

سَحْبُ الإِنْسَانِ عَلَى الوَجْهِ، قال تعالى: ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ﴾ [القمر: 48][1].

ولفظ ﴿ٱلْمُسَخَّرِ﴾: مِنَ الجِذْرِ (سخر)، وأَصْلُ هذه المادّة يَدُلُّ عَلَى احْتِقَارٍ واسْتِذْلَالٍ، سَخَّرَ اللَّهُ ﷻ الشَّيْءَ، إِذَا ذَلَّلَهُ لَهُ لِأَمْرِهِ وإِرَادَتِهِ[2]، والتَّسْخِيرُ: سِيَاقَةٌ إِلَى الغَرَضِ المُخْتَصِّ قَهْرًا، قال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [الجاثية: 13]، فالمُسَخَّرُ هو المُقيَّضُ للفعْل[3].

13) ﴿لِّقَوْمٍ﴾: مِنَ الجِذْرِ (قوم)، وأَصْلُ هذه المادّة يَدُلُّ عَلَى جَمَاعَةٍ من النَّاسِ، والقَوْمُ: جَمْعُ امْرِئٍ، ولَا يَكُونُ ذَلِكَ إِلَّا لِلرِّجَالِ غالباً، قال اللَّهُ تعالى: ﴿لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ﴾ [الحُجُرَاتِ: 11]، ثُمَّ قَالَ: ﴿وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ﴾[4]، والقوم هُم الرِّجَالُ الَّذين يقُوم بَعضُهم مَعَ بعضٍ في الأُمُور، ولَا يَقَعُ عَلَى النِّسَاءِ إِلَّا عَلَى وجْهِ التَّبَعِ، والشَّاهِدُ قَوْلُ زُهَيْر:

وَمَا أَدْرِي وسَوْفَ إِخالُ أَدْرِي *** أَقومٌ آلُ حِصنٍ أَمْ نِسَاءُ

فأَخْرَجَ النِّسَاء من القَوْم[5]، وفي القُرْآنِ أُرِيدَ بِهِ الرِّجَالُ والنِّسَاءُ جَمِيعًا، وحَقِيقَتُهُ لِلرِّجَالِ[6].

بَعَثَ اللهُ لِكُلِّ قَوْمٍ رَسولًا مِنْهُمْ، لِيَهْدِيَهُمْ سَواءَ السَّبِيلِ

14) ﴿يَعْقِلُونَ﴾ مِنَ الجِذْرِ (عقل)، وأَصْلُ هذه المادّة يَدُلُّ عَلَى حُبْسَةٍ في الشَّيْءِ، فالعَقْلُ حابِسٌ عَنْ ذَمِيمِ القَوْلِ والفِعْلِ[7]، وعَقَلْتُ البَعِيرَ عَقْلًا: أَنْ تَثْنِيَ وظِيفَهُ مَعَ ذِرَاعِهِ، فتَشُدَّهُمَا جَمِيعًا، وذَلِكَ هُوَ العِقَالُ، وعَقَلْتُ الشَّيْءَ عَقْلًا: تَدَبَّرْتُهُ، ثُمَّ أُطْلِقَ العَقْلُ الَّذِي هُوَ

مَنْ شاوَرَ النّاسَ، فقَدْ شارَكَهُمْ في عُقولِهِمْ

(1) الراغب، المفردات: (سحب).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سخر).
(3) الراغب، المفردات: (سخر).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (قوم).
(5) أبو هلال العسكري، معجم الفروق اللّغويّة: ص: 280.
(6) الراغب، المفردات: (قوم).
(7) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عقل).

مَصْدَرٌ عَلَى الحِجَا واللُّبِّ، وهو غَرِيزَةٌ يَتَهَيَّأُ بِهَا الإِنْسَانُ إِلَى فهْمِ الخِطَابِ[1]، وهُوَ: نَقِيضُ الجَهْلِ[2]، والقُوَّةُ المُتَهَيِّئَةُ لِقَبُولِ العِلْمِ[3].

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

بَدائِعُ المَخْلوقاتِ، دَلائِلُ عَلى إعجازِ قُدْرَةِ خالِقِ المَوْجوداتِ

هَذِهِ دَعْوَةٌ للنَّاسِ أَنْ يَتَأَمَّلُوا بَدِيعَ مَا خَلَقَ اللَّهُ، وأَنْ يُبْصِرُوا الآيَاتِ المَبْثُوثَةَ في كُلِّ أَرْكَانِ الوُجُودِ، ومَا أَوْدَعَ فِيهَا مِنْ حِكْمَةٍ ورَحْمَةٍ، شَاهِدَةٍ عَلَى الخَالِقِ الوَاحِدِ، نَاطِقَةٍ بِعَظَمَتِهِ وجَلَالِهِ وتَوْحِيدِهِ:

وفِي كُلِّ شَيْءٍ لَهُ آيَةٌ *** تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ الوَاحِدُ

التَّأَمُّلُ في المَخْلوقاتِ طَريقٌ إلى مَعْرِفَةِ اللهِ، وإدْراكِ إعْجازِ الخَلْقِ في الكَوْنِ

إِنَّ النَّظَرَ في مَخْلُوقَاتِ اللهِ طَرِيقٌ إِلَى مَعْرِفَتِهِ، ومعرفة مَا وَرَاءَ هَذِهِ المَخْلُوقَاتِ؛ فالآيَاتُ الدَّالَّةُ عَلَى الخَالِقِ العَظِيمِ شَاخِصَةٌ بَيِّنَةٌ، في خَلْقِ السَّمَاوَاتِ بارتفاعها واتساعها، والأَرْضِ بجبالها وسهولها وبحارها، وفي تَعَاقُبِ اللَّيْلِ والنَّهَارِمن الطُّول والقِصَر، والظلمة والنور، وفي السُّفُنِ الَّتِي تَجْرِي عَلَى المَاءِ الَّذِي يَحْمِلُهَا، وبِالهَوَاءِ الَّذِي يَدْفَعُهَا، حَامِلَةً مَا يَنْفَعُ النَّاسَ مِمَّا يَحْتَاجُونَ إِلَيْهِ، وفي الغَيْثِ الَّذِي يُعِيدُ الحَيَاةَ لِلأَرْضِ بَعْدَ مَوْتِهَا، فتَصِيرُ مُخْضَرَّةً، ذَاتَ بَهْجَةٍ، بَعْدَ أَنْ كَانَتْ يَابِسَةً، لَا نَبَاتَ فِيهَا، وفي الكَائِنَاتِ المَبْثُوثَةِ في أَنْحَاءِ الأَرْضِ، وفي الرِّيَاحِ وتَنَوُّعِهَا، وحَرَكَتِهَا مِنْ جِهَةٍ لِجِهَةٍ، وفي السَّحَابِ المُذَلَّلِ بَيْنَ السَّمَاءِ والأَرْضِ، كُلُّ هَذِهِ الآيَاتِ، ومَا فِيهَا مِنْ أَسْرَارٍ، دَلَائِلُ بَيِّنَةٌ عَلَى خَالِقِ الكَوْنِ الوَاحِدِ سُبْحَانَهُ، لِمَنْ لَدَيْهِ بَصِيرَةٌ في فهْمِ الأَدِلَّةِ والبَرَاهِينِ[4]، فهَذِهِ الأَشْيَاءُ وحُدُوثُهَا وإِحْكَامُ صَنْعَتِهَا عَلَامَاتٌ بَيِّنَةٌ، ودَلَالَةٌ واضِحَةٌ، عَلَى تَوْحِيدِ خَالِقِهَا، وتَمْحِيضِ العِبَادَةِ لَهُ دُونَ غَيْرِهِ[5].

(1) الفيّومي، المصباح المنير: (عقل).
(2) الخليل، العين: (عقل).
(3) الراغب، المفردات: (عقل).
(4) عبد الكريم الخطيب، التّفسير القرآنّي للقرآن: 1/184، وجماعة من العلماء، المختصر في تفسير القرآن الكريم: ص: 25.
(5) مكّيّ بن أبي طالب، الهداية إلى بلوغ النّهاية: 1/534.

قال الشّهابُ الخفاجي: "واعْلَمْ أنّ دَلالةَ هذِهِ الآياتِ على وُجودِ الإلهِ ووَحْدَتِهِ، مِنْ وُجوهٍ كَثيرَةٍ، يَطولُ شَرْحُها مُفَصَّلًا، والكَلامُ المُجْمَلُ: أنَّها أمورٌ مُمْكِنَةٌ، وُجِّهَ كُلٌّ مِنْها بِوَجْهٍ مَخْصوصٍ، مِنْ وُجوهٍ مُحْتَمِلَةٍ، وأنْحاءٍ مُختلِفةٍ، إذْ كان مِنَ الجائِزِ مَثَلًا أنْ لا تَتَحرّكَ السّماواتُ أو بعضُها كالأرضِ، وأن تَتَحَرّكَ بعكسِ حَركاتِها، وبحيثُ تَصيرُ المِنطَقةُ دائِرةً مارّةً بِالقُطْبَينِ، وأن لا يَكونَ لَها أَوْجٌ وحَضيضٌ أصْلًا، أو عَلى هذا الوَجهِ، لِبَساطَتِها وتَساوي أجْزائِها، فلا بُدَّ لها مِنْ مُوجِدٍ قادِرٍ حَكيمٍ، يُوجِدُها عَلى ما تَسْتَدْعيهِ حِكْمَتُهُ، وتَقْتَضيهِ مَشيئَتُهُ، مُتَعاليًا عَنْ مُعارَضَةِ غَيْرِهِ"[1].

الإيضاحُ اللُّغَوِيُّ والبَلاغِيُّ:

فائِدَةُ تَأْكِيدِ الخَبَرِ في قَوْلِهِ ﷻ: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾:

إنْزالُ المُخاطَبينَ مَنْزِلَةَ المُنْكِرينَ، لِتَأْكيدِ أَدِلَّةِ وُجودِ اللهِ

أَكَّدَتِ الآيةُ الخَبَرَ بـ﴿إِنَّ﴾ والجُمْلَةِ الاسْميَّةِ؛ لِلاهْتِمامِ بمضمونِ الخَبَرِ، ولِأَنَّ الإنسانَ يغفلُ عن الاستدلالِ بخلقِ السَّماواتِ والأرضِ على بديعِ الصُّنْعِ، واستحقاقِ الخالقِ توحيدَه وإفرادَه بالعبادةِ الحقَّةِ؛ فنُزِّلَ المُخاطَبُ منزلةَ المُنكرِ أن يكونَ هذا الخَلْقُ آيةً لأولي الألبابِ.

بلاغةُ جَمْعِ السّماواتِ وإفرادِ الأرْضِ:

عَطْفُ الأرضِ عَلى السّماواتِ، ودَلالتُهُ في الآيَةِ

جُمِعَتِ السَّمَاوَاتُ؛ لِأَنَّهَا أَجْنَاسٌ مُخْتَلِفَةٌ، كُلُّ سَمَاءٍ مِنْ جِنْسٍ غَيْرِ الأُخْرَى، ووَحَّدَ الأَرْضَ؛ لِأَنَّهَا كُلَّهَا تُرَابٌ[2]، ولِأَنَّ الأَرْضَ عَالَمٌ واحِدٌ، والمَعْنَى: أَنَّ في خَلْقِ مَجْمُوعِ السَّمَاوَاتِ مَعَ الأَرْضِ آيَاتٍ؛ فلِذَلِكَ أُفْرِدَ الخَلْقُ وجُعِلَت الأَرْضُ مَعْطُوفًا عَلَى السَّماوَاتِ؛ لِيَتَسَلَّطَ المُضَافُ عَلَيْهِمَا[3].

(1) الخفاجي، عِنَايةُ القَاضي: 2/263.
(2) الواحدي، التّفسير البسيط: 3/453، والبغويّ، معالم التنزيل: 1/195.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/77.

فائِدَةُ إضافَةِ الاخْتِلافِ لِلّيلِ والنّهار في الآيَةِ:

أُضِيفَ الاخْتِلَافُ لِكُلٍّ مِن اللَّيْلِ والنَّهَارِ؛ لِأَنَّ كُلَّ واحِدٍ مِنْهُمَا يخْلُفُ الآخَرَ؛ فتَحْصُل مِنْهُ فوَائِدُ الآخَرِ، بِحَيْثُ لَوْ دَامَ أَحَدُهُمَا لَانْقَلَبَ النَّفْعُ ضَرَرًا[1]، وعَلَى هَذَا قَوْلُهُ ﷻ: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ ۖ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾﴾ [القصص: 71- 72].

في اخْتِلافِ اللّيْلِ والنّهارِ، تَكامُلٌ بَيْنَ مُهِمَّةِ كُلٍّ مِنْهُما، لِسَيْرورَةِ الحَياةِ

تقْدِيمُ اللّيلِ على النّهارِ، في قوله: ﴿وَٱخْتِلَـٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾:

قَدَّمَ النَّظمُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ في الذِّكْرِ؛ لِأَنَّهُ مُقَدَّمٌ عَلَيهِ، باعْتِبارِهِ مُنسَلِخًا مِنْهُ، قال اللّه ﷻ: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ﴾ [يس: 37][2]؛ ففيها إشارةٌ إلى القائلين بأنَّ اللَّيلَ هو بدايةُ اليوم.

دلالَةُ الفُلْكِ عَلى الجَمْعِ، في قوله: ﴿وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ﴾:

يَعنِي بالفُلكِ السُّفُنَ، واحِدُهُ وجَمْعُهُ سَوَاءٌ، فإذَا أُرِيدَ بِهِ الجَمْعُ يُؤَنَّثُ، وإذا أُرِيدَ بِهِ الوَاحِدُ يُذَكَّرُ، قَالَ ﷻ، في الإفْرادِ والتَّذْكِيرِ: ﴿إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾﴾ [الصَّافَّات: 140]، وقَالَ في الجَمْعِ والتَّأْنِيثِ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾ [يُونُس: 22][3]، وفي الآيَةِ أَرَادَ بِهِ الجَمْعَ؛ لِأَنَّهُ أَظْهَرُ لِلامْتِنَانِ.

فائِدَةُ التَّعْبِيرِ بالمُضَارِعِ ﴿تَجْرِى﴾، وَوصْفِ الفُلْكِ بالجَرْي:

عَبَّرَ بالفِعْلِ المُضَارِعِ ﴿تَجْرِى﴾ عن جَرْيِ السُّفُنِ؛ لِلدَّلَالَةِ عَلَى التَّجَدُّدِ والحُدُوثِ، وهَذَا أَظْهَرُ لِلامْتِنَانِ والاعْتِبَارِ؛ لِأَنَّهُمْ يَرَوْنَهَا تَجْرِي، ووَصَفَ السُّفُنَ بِقَوْلِهِ ﷻ: ﴿ٱلَّتِى تَجْرِى﴾، أَيْ بالمَوْصُولِ وصِلَتِهِ؛ لِتَعْلِيلِ العَطْفِ، أَيْ أَنَّ عَطْفَهَا عَلَى ﴿خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، في كَوْنِهَا آيَةً، مِنْ حَيْثُ إِنَّهَا تَجْرِي في البَحْرِ، وفي كَوْنِهَا نِعْمَةً، مِنْ حَيْثُ إِنَّهَا

المُشابَهَةُ بَيْنَ الفُلْكِ الجارِيَةِ في البَحْرِ، وفُلْكِ الكَوْنِ الضَّخْمَةِ العَجيبَةِ الصُّنْعِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/79.
(2) البغويّ، معالم التنزيل: 1/195.
(3) البغويّ، معالم التنزيل: 1/195.

تَجْرِي بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ[1]، وقَوْلُهُ ﷻ: ﴿فِي ٱلْبَحْرِ﴾ تَوْكِيدٌ؛ إِذْ مَعْلُوم أَنَّهَا لَا تَجْرِي في غَيْرِهِ، فهُوَ كَقَوْلِهِ تعالى: ﴿يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾ [الأنعام: 38][2].

المَجَازُ العَقْلِيُّ في قَوْلِهِ ﴿وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي﴾:

أَسْنَدَ الجَرَيَانَ إِلَى السُّفُنِ عَلَى سَبِيلِ التَّوَسُّعِ؛ حَيْثُ جَعَلَ لَهَا قُدْرَةً عَلَى الجَرْيِ مِنْ ذَاتِهَا، وهَذَا مِن المَجَازِ العَقْلِيِّ، إِذِ الجَرْيُ لا يكونُ إِلَّا بأمرِ اللّه تعالى، وهو ما يُؤَكِّدُه السِّياقُ؛ فهي أدلةٌ مسوقةٌ لإثباتِ قدرةِ اللّه في السَّماءِ والأرضِ والبحر.

دَلَالَةُ (مَا) في قَوْلِهِ: ﴿بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ﴾:

قَوْلُهُ ﷻ: ﴿بِمَا يَنفَعُ﴾ في (مَا) قَوْلَانِ: أَحَدُهُمَا: أَنَّهَا مَوْصُولَةٌ اسْمِيَّةٌ، وعَلَى هَذَا فالبَاءُ لِلحَالِ أَيْ: تَجْرِي مَصْحُوبَةً بالأَعْيَانِ الَّتِي تَنْفَعُ النَّاسَ، والثَّاني: أَنَّهَا حَرْفِيَّةٌ مَصْدَرِيَّةٌ، وعَلَى هَذَا تَكُونُ البَاءُ لِلسَّبَبِ، أَيْ: تَجْرِي بِسَبَبِ نَفْعِ النَّاسِ في التِّجَارَةِ وغَيْرِهَا[3].

الأدواتُ تُجلِّي المَعاني وتكشفُ عن بلاغةِ المباني

دَلَالَةُ التَّعْبِيرِ عَنِ المَطَرِ بالمَوْصُولِ، في قَوْلِهِ: ﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾:

قَوْلُهُ ﷻ: ﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ﴾، مَعْطُوفٌ عَلَى الأَسْمَاءِ الَّتِي قَبْلَهُ، جِيءَ بِهِ اسْمَ مَوْصُولٍ؛ لِيَأْتِيَ عَطْفَ صِلَةٍ عَلَى صِلَةٍ؛ فتَبْقَى الجُمْلَةُ بِمَقْصِدِ العِبْرَةِ والنِّعْمَةِ، فالصِّلَةُ ﴿أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ﴾، تَذْكِيرٌ بالعِبْرَةِ؛ لأَنَّ في الصِّلَةِ مِن اسْتِحْضَارِ الحَالَةِ مَا لَيْسَ في نَحْوِ كَلِمَةِ المَطَرِ والغَيْثِ[4]، وفَائِدَةُ ذَلِكَ إِظْهَارُ المُنْزِلِ وهُوَ اللّه تعالى، ولَوْ عَبَّرَ عَنِ المذكُورِ بالمَطَرِ؛ لَانْتَفَتِ الحَاجَةُ لِلصِّلَةِ الَّتِي أَمْكَنَ مِنْ خِلَالِهَا التَّعْبِيرُ عَنِ المُنْزِلِ وهُوَ اللّه ﷻ، وهو خلافُ مقصودِ السِّياقِ من تثبيت الامتنانِ في ثنايا

إيثارُ الإطنابِ على الإيجازِ اللَّفظيِّ مُرتهنٌ بالبلاغةِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/80.
(2) السمين، الدّر المصون: 2/201.
(3) السمين، الدّر المصون: 2/202.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/82.

الاستدلال، وذكرِ لفظِ الجلالةِ، وبيانِ أنَّ النزولَ بدأَ من السَّماءِ، بما يُثري معاني الجلال والجمالِ.

معنى حرفِ ﴿مِن﴾ في قَوْلِهِ ﷻ: ﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ﴾:

حرفُ ﴿مِن﴾ الأُولَى مَعْنَاهَا ابْتِدَاءُ الغَايَةِ، أَي: أَنْزَلَ مِنْ جِهَةِ السَّمَاءِ، وأَمَّا الثَّانِيَةُ فتَحْتَمِلُ ثَلَاثَةَ أَوْجُهٍ، أَحَدُهَا: أَنْ تَكُونَ لِبَيَانِ الجِنْسِ؛ فإِنَّ المُنَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءٌ وغَيْرُهُ، والثَّاني: أَنْ تَكُونَ لِلتَّبْعِيضِ؛ فإِنَّ الماءَ المُنَزَّلَ مِنْهُ بَعْضُ النَّازِلِ لَا كُلُّه، والثَّالِثُ: أَنْ تَكُونَ هِيَ ومَا بَعْدَهَا، بَدَلًا مِنْ قَوْلِهِ: ﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾، بَدَلَ اشْتِمَالٍ بِتَكْرِيرِ العَامِلِ[1].

المـاءُ المُنزَّلُ مُعْجِزٌ، والتَّعْبيرُ المُنْزَلُ مُعْجِزٌ

بلاغةُ قَوْلِهِ ﷻ: ﴿فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ﴾:

عَطَفَتِ الآيةُ ﴿فَأَحْيَا﴾ عَلَى ﴿أَنزَلَ﴾ في قَوْلِه: ﴿فَأَحْيَا بِهِ﴾ بِفَاءِ التَّعْقِيبِ؛ دَلَالَةً عَلَى سُرْعَةِ الإِنْبَاتِ[2]، فلَمْ يَكُنْ بَيْنَهُمَا مُهْلَةٌ، والبَاءُ يَجُوزُ أَنْ تَكُونَ لِلسَّبَبِ، وأَنْ تَكُونَ بَاءَ الآلَةِ[3]، وهو تَعْدَادٌ للنِّعَمِ وبيانُ كَمالِ القُدْرَةِ، حَيْثُ أَحْيا الأرضَ بِما أَنْزَلَ مِنَ السَّحابِ المُثْقَلِ بالغَيْثِ العَميمِ، فوافى الأَرْضَ مُتَهَيِّئَةً للعَطاءِ، بِما يَتَفَتَّقُ مِن زَهَرٍ، وما يَكْتَمِلُ مِن ثَمَرٍ[4].

دقَّةُ ألفاظِ سياقِ الامتنانِ

بلاغةُ المجازِ العقليِّ:

أَرَادَ بِمَوْتِ الأَرْضِ: جُدُوبَتَهَا ويُبُوسَتَهَا، فسَمَّاهَا مَوْتًا مَجَازًا؛ لِأَنَّ الأَرْضَ إِذَا لَمْ يُصِبْهَا مَطَرٌ لَمْ تَنْبُتْ، ولَمْ تُنْمِ نَبَاتًا، وكَانَتْ مِنْ هَذَا الوَجْهِ كَالمَيِّتِ[5]؛ لِأَنَّ الحَيَاةَ لَا تَصِحُّ إِلَّا عَلَى مَنْ يُدْرِكُ ويَصِحُّ أَنْ يَعْلَمَ، وكَذَلِكَ المَوْتُ، إِلَّا أَنَّ الجِسْمَ إِذَا صَارَ حَيًّا حَصَلَ فِيهِ أَنْوَاعٌ مِن

إيجازٌ بَليغٌ في الدّلالةِ على المعاني الكثيرةِ

(1) السمين، الدّر المصون: 2/202.
(2) السمين، الدّر المصون: 2/202.
(3) السمين، الدّر المصون: 2/202.
(4) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 10/122.
(5) النيسابوري، التّفسير البسيط: 3/457.

الحُسْنِ والنُّضْرَةِ والبَهَاءِ، والنُّشُورِ والنَّمَاءِ، فأَطْلَقَ لَفْظَ الحَيَاةِ عَلَى حُصُولِ هَذِهِ الأَشْيَاءِ، وهَذَا مِنْ فصيحِ الكَلَامِ الَّذِي - عَلَى اخْتِصَارِهِ - يَجْمَعُ المَعَانِيَ الكَثِيرَةَ[1]، فإِطْلَاقُ المَوْتِ والحَيَاةِ عَلَى الأَرْضِ مجَازٌ عَقْلِيٌّ؛ لِأَنَّ المَوْتَ والحَيَاةَ لَا يُطْلَقَانِ إِلَّا عَلَى مَنْ يُحِسُّ ويُدْرِكُ.

فنُّ الطِّبَاقِ في قَوْلِهِ: ﴿فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾:

في مقابلةِ الإحياءِ للموتِ في قوله: ﴿فَأَحْيَا﴾ و﴿مَوْتِهَا﴾ فنُّ الطِّبَاقِ، وهُوَ من المُحَسِّنَاتِ المَعْنَوِيَّةِ، والتَّقابُلُ بَيْنَهما هو تقابُلٌ ضديٌّ غايتُه زيادةُ الامتنانِ على العبادِ، فإنَّ دَرْكَ قيمةِ حياةِ الأرضِ لا يكونُ تامًّا إلَّا بعد دَرْكِ مَوْتِها.

تنبيهُ الأذهانِ على تمامِ النِّعمةِ وكمالِ المِنَّةِ

تعدُّدُ احْتِمالِ تعيينِ المعطوفِ عَلَيْه:

قَوْلُهُ: ﴿وَبَثَّ فِيهَا﴾، قال الزَّمَخْشَرِي: "فَإِن قُلْتَ: قَوْلُهُ: ﴿وَبَثَّ فِيهَا﴾ عَطْفٌ عَلَى ﴿أَنزَلَ﴾ أَمْ ﴿أَحْيَا﴾؟ قُلْتُ: الظَّاهِرُ أَنَّهُ عَطْفٌ عَلَى ﴿أَنزَلَ﴾، دَاخِلٌ تَحْتَ حُكْمِ الصِّلَةِ؛ لِأَنَّ قَوْلَهُ: ﴿فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ﴾ عَطْفٌ عَلَى ﴿أَنزَلَ﴾، فاتَّصَلَ بِهِ وصَارَا جَمِيعًا كَالشَّيْءِ الوَاحِدِ، فكَأَنَّهُ قِيلَ: (وَمَا أَنْزَلَ في الأَرْضِ مِنْ مَاءٍ وبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ)، ويَجُوزُ عَطْفُهُ عَلَى ﴿أَحْيَا﴾، عَلَى مَعْنَى: (فَأَحْيَا بالمَطَرِ الأَرْضَ، وبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ)؛ لِأَنَّهُمْ يَنْمُونَ بالخِصْبِ ويَعِيشُونَ بالحَيَا"[2].

بَثُّ الدَّوابِّ في الأرضِ، مُتَّصِلَةٌ بالإنْزالِ والإحْياءِ، دَلالَةً عَلى تَكامُلِ الأفْعالِ

تَنْكِيرُ ﴿دَآبَّةٍ﴾ للتَّنويعِ:

التَّنْكِيرُ في ﴿دَآبَّةٍ﴾ في قَوْلِهِ ﷻ: ﴿وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ﴾؛ لِلتَّنْوِيعِ، أَيْ أَكْثَرَ اللَّهُ تعالى مِنْ كُلِّ الأَنْوَاعِ، لَا يَخْتَصُّ ذَلِكَ بِنَوْعٍ دُونَ آخَرَ[3].

---

(1) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 4/170.

(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/210، والحَيَا: المطرُ.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/84.

تصريفُ اللّهِ الرِّيَاحَ، مِنَ المُعجِزاتِ الظّاهِرَةِ في الكَوْنِ

أوْجُهُ الإيجَازِ بالحَذْفِ في قَوْلِهِ: ﴿وَتَصۡرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ﴾:

قَوْلُهُ تعالى: ﴿وَتَصۡرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ﴾، يُحتملُ أن يكون المعنى: وتَصْرِيفِ اللّهِ الرِّيَاحَ، فأَضَافَ المَصْدَرَ إِلَى المَفْعُولِ، والفَاعِلُ مَحْذُوفٌ، وهُوَ كَثِيرٌ، وفِيهِ وجْهٌ آخَرُ، وهُوَ أَنْ يَكُونَ ﴿وَتَصۡرِيفِ﴾ مَصْدَرًا مُضَافًا لِلْفَاعِلِ، أَي: والمَفْعُولُ مَحْذُوفٌ، تَقْدِيرُهُ: وتَصْرِيفُ الرِّيَاحِ السَّحَابَ، فإِنَّهَا تَسُوقُ السَّحَابَ[1].

تَنوُّعُ عَطْفِ لَفْظِ السَّحَاب، في قَوْلِهِ: ﴿وَٱلسَّحَابِ ٱلۡمُسَخَّرِ﴾:

قَوْلُهُ ﷻ: ﴿وَٱلسَّحَابِ ٱلۡمُسَخَّرِ﴾ عَطْفٌ عَلَى قَوْلِهِ: ﴿وَتَصۡرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ﴾، أَوْ عَلَى ﴿ٱلرِّيَٰحِ﴾، ويَكُون التَّقْدِيرُ: وتَصْرِيفِ السَّحَابِ المُسَخَّرِ، أَيْ: نَقْلِه مِنْ مَوْضِعٍ إِلَى مَوْضِعٍ[2].

الآيةُ مُتَّصِلَةُ الأواخِي، في التَّعبيرِ عَنِ الإعْجازِ الكَوْنِيّ، بِبَلاغَةٍ ودِقَّةٍ

فائِدَةُ الفَصْلِ بَيْنَ الجُمَلِ مِنْ أَوَّلِ الآيَةِ إِلَى آخِرِهَا:

هنالك عَطْفٌ بَيْنَ الجُمَلِ مِنْ بِدَايَةِ الآيَةِ حَتَّى نِهَايَتِهَا؛ لِاتِّحَادِ هَذِهِ الجُمَلِ بالخَبَرِيَّةِ، فكُلُّ جُمْلَةٍ تَحْمِلُ دَلِيلًا جَدِيدًا مُخْتَلِفًا عَنْ سَابِقِهِ؛ لِذَلِكَ اسْتَعْمَلَ حَرْفَ الوَاوِ لِلعَطْفِ بَيْنَهَا[3].

تَأكيدُ الآياتِ، لِلَفْتِ نَظَرِ العُقَلاءِ إلى بَديعِ صُنْعِ اللهِ

فائِدَةُ اللَّامِ في قَوْلِهِ: ﴿لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾:

اللَّامُ لِلتَّوْكِيدِ، وهِيَ واقِعَةٌ في اسْمِ ﴿إِنَّ﴾ المُؤَخَّرِ، فقَوْلُهُ ﷻ: ﴿لَأٓيَٰتٖ﴾ اسْمُ ﴿إِنَّ﴾، والجَارُّ والمَجْرُورُ ﴿فِي خَلۡقِ﴾ خَبَرٌ مُقَدَّمٌ، ودَخَلَت اللَّامُ عَلَى الاسْمِ؛ لِتَأَخُّرِهِ عَنِ الخَبَرِ، ولَوْ كَانَ مَوْضِعَهُ لما جَازَ ذَلِكَ فِيهِ[4].

دَلالَةُ الآياتِ الكُلِّيَّةُ أوِ الجُزْئِيَّةُ المُبْرِزَةُ لِعَظَمَةِ الكَوْنِ المُسَخَّرِ

دَلالَةُ الجَمْعِ في قَوْلِهِ: ﴿لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾:

قَوْلُهُ ﷻ: ﴿لَأٓيَٰتٖ﴾ جَمْعٌ، فيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ رَاجِعًا إِلَى

(1) النيسابوري، التّفسير البسيط: 3/458، والسمين، الدّر المصون: 2/206.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/87.
(3) محمد بن سعد الدبل، دليل البلاغة القرآنيّة: 1/226.
(4) السمين، الدّر المصون: 2/208.

الكُلِّ، أَيْ مَجْمُوعُ هَذِهِ الأَشْيَاءِ آيَاتٌ، ويُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ راجعًا إلى كلِّ واحدةٍ من المذكُوراتِ، أي: أَنَّ في كُلِّ واحِد مِمَّا ذُكِرَ آيَاتٍ كثيراتٍ وأَدِلَّةً مُتعدِّدةً[1].

دَلَالَةُ التَّنْكِيرِ فِي قَوْلِهِ: ﴿لَآيَٰتٍ﴾:

التَّنْكِيرُ أَدَلُّ عَلى العَظَمَةِ، وأَقْرَبُ لِروحِ السِّيَاقِ في الآيَةِ

آثَرَ السِّياقُ التَّنْكِيرَ في قَوْلِهِ ﷻ: ﴿لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ١٦٤﴾، ولَمْ يَقُلْ: (إِنَّ تِلْكَ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) بِالتَّعْرِيفِ؛ لِتَفْخِيمِ الآيَاتِ، أَيْ: إِنَّ في تِلْكَ الدَّلَائِلِ آيَاتٍ عَظِيمَةً دَالَّةً عَلَى قُدْرَةٍ قَاهِرَةٍ وحِكْمَةٍ بَاهِرَةٍ.

وجْهُ تَخْصِيصِ الآيَاتِ بقوْلِهِ: ﴿لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾، ودَلالَةُ اللّامِ فيها:

خِطابُ العَقْلِ والعُقَلاءِ، مَنْهَجٌ أصيلٌ في الخِطابِ القُرْآنِيِّ

إِنَّمَا خَصَّ الآيَاتِ بِهِمْ؛ لِأَنَّهُم الذِينَ يَتَمَكَّنُونَ مِن النَّظَرِ فِيهِ، والاسْتِدْلَالِ بِهِ عَلَى مَا يَلْزَمُهُمْ مِنْ تَوْحِيدِ رَبِّهِمْ، وعَدْلِهِ، لِيَقُومُوا بِشُكْرِهِ، ومَا يَلْزَمُ عِبَادَتَهُ وطَاعَتَهُ[2]، مع الإشارةِ إلى أنّ اللَّامَ في قَوْلِهِ ﷻ: ﴿لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ١٦٤﴾، تُفِيدُ الاخْتِصَاصَ؛ فهَذِهِ المَذْكوراتُ هِيَ لَهُمْ آياتٌ بالانتفاعِ بها دُونَ سِوَاهُمْ؛ فغيرُهُمْ لا يُلاحِظونَ كونَها آيَةً؛ وإِنَّمَا خَصَّتْهُمْ لِكَوْنِهِمْ يَعْقِلُونَ الآيَاتِ، ويَفْهَمُونَ أَنَّ وراءَهَا مُبْدِعًا عَظِيمًا.

دَلالَةُ التّعبيرِ بِلَفْظِ (قَوْمٍ):

لا يَنْتَفِعُ بِالنَّظَرِ في الآيَاتِ، إلّا أُولُو النُّهى والحصَافَةِ

قَالَ ﷻ: ﴿لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ١٦٤﴾، دُونَ أَنْ يُقَالَ (لِلَّذِينَ يَعْقِلُونَ)، أَوْ (لِلعَاقِلِينَ)؛ لِأَنَّ إِجْرَاءَ الوَصْفِ عَلَى لَفْظِ (قَوْمٍ)، يُومِئُ إِلَى أَنَّ ذَلِكَ الوَصْفَ سَجِيَّةٌ فِيهِمْ، ومِنْ مُكَمِّلَاتِ قَوْمِيَّتِهِمْ؛ فإِنَّ لِلقَبَائِلِ والأُمَمِ خَصَائِصَ تُمَيِّزُهَا، وتُشْتَهَرُ بِهَا، كَمَا قال تعالى: ﴿وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ٥٦﴾ [التّوبة: 56]، وقَدْ تَكَرَّرَ هَذَا في مَوَاضِعَ كَثِيرَةٍ مِن القُرْآنِ، ومِنْ كَلَامِ العَرَبِ، فالمَعْنَى أَنَّ في ذَلِكَ آيَاتٍ لِلَّذِينَ

(1) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 4/173.
(2) المصدر السّابق: 4/174.

سَجِيَّتُهُم العَقْلُ، وهُوَ تَعْرِيضٌ بِأَنَّ الَّذِينَ لَمْ يَنْتَفِعُوا بِآيَاتِ ذَلِكَ لَيْسَتْ عُقُولُهُمْ بِرَاسِخَةٍ[1]، وفيها كذلك أنَّ العقلَ ممَّا يقومُ به الإنسانُ ويعيشُ به.

دَلَالَةُ التَّعْبِيرِ بالفِعْلِ المُضَارِعِ، في قَوْلِهِ: ﴿لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾:

تجدُّدِ عقلِ الآياتِ منهم فكُلَّما نَظَروا عَقَلُوا

قَوْلُهُ: ﴿يَعْقِلُونَ﴾: الجُمْلَةُ في مَحَلِّ جَرٍّ؛ لِأَنَّهَا صِفَةٌ لِقَوْمٍ[2]، وآثَرَ أَنْ يَكُونَ الوَصْفُ بالجُمْلَةِ الفِعْلِيَّةِ الَّتِي فِعْلُهَا مُضَارِعٌ؛ لِلدَّلَالَةِ عَلَى تَجَدُّدِ فِعْلِ العَقْلِ إِزَاءَ تِلْكَ الآيَاتِ، ولَوْ وصَفَهُ بِالاسْمِ، فقَالَ: (لِقَوْمٍ عَاقِلِينَ)، لَمَا دَلَّ عَلَى تجَدُّدِ عقلِ الآياتِ منهم كما في التَّعبيرِ بالفعليَّةِ، فإنَّهم كلَّما نظروا عقلوا.

توجيهُ المخصُوصاتِ بِالذِّكْرِ:

جَمَعتْ بَيْنَ كَوْنِهَا دَلَائِلَ، وكَوْنِهَا نِعَمًا؛ فهي أَنْجَعُ في القُلُوبِ، وأَشَدُّ تَأْثِيرًا في الخَوَاطِرِ

قَالَ الفَخْرُ الرَّازِي: إِنَّ "سَائِرَ الأَجْسَامِ والأَعْرَاضِ، وإِنْ كَانَتْ تَدُلُّ عَلَى الصَّانِعِ، فهُوَ تعالى خَصَّ هَذِهِ الثَّمَانِيَةَ بِالذِّكْرِ؛ لِأَنَّهَا جَامِعَةٌ بَيْنَ كَوْنِهَا دَلَائِلَ، وبَيْنَ كَوْنِهَا نِعَمًا عَلَى المُكَلَّفِينَ عَلَى أَوْفَرِ حَظٍّ ونَصِيبٍ، ومَتَى كَانَتِ الدَّلَائِلُ كَذَلِكَ، كَانَتْ أَنْجَعَ في القُلُوبِ، وأَشَدَّ تَأْثِيرًا في الخَوَاطِرِ"[3].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/89.
(2) السمين، الدّر المصون: 2/208.
(3) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 4/174.

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ١٦٥﴾ [البقرة: 165]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

تقريرُ دَلائِلِ التَّوحيدِ، والنَّصُّ على تَقْبيحِ ما يُضادُّهُ

لَمَّا ذَكَرَ اللَّهُ تعالى الأَدِلَّة عَلَى وحْدَانِيَّتِه في الآيَةِ السَّابِقَة، أَخْبَرَ أَنَّ قَوْمًا بَعْدَ ذَلِكَ البَيَانِ يَتَّخِذُونَ الأَنْدَادَ، مَعَ عِلْمِهِمْ أَنَّهُمْ لَا يَأْتُونَ بِشَيْءٍ مِمَّا ذُكِرَ[1]، فلمّا قَرَّرَ سُبْحَانَهُ وتَعَالَى التَّوْحِيدَ بِالدَّلَائِلِ، أَرْدَفَ ذَلِكَ بِتَقْبِيحِ مَا يُضَادُّ التَّوْحِيدَ؛ لِأَنَّ تَقْبِيحَ ضِدِّ الشَّيْءِ، مِمَّا يُؤَكِّدُ حُسْنَ الشَّيْءِ، وبِضِدِّهَا تتميّزُ الأَشْيَاءُ؛ فلِهَذَا السَّبَبِ أَرْدَفَ اللَّهُ تعالى الآيَةَ الدَّالَّةَ عَلَى التَّوْحِيدِ بِهَذِهِ الآيَةِ[2].

شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

اتّخاذُ غَيْرِ اللهِ إلهًا ضلالٌ في السَّعْيِ، وانْحِرافٌ في القَصْدِ

1) ﴿يَتَّخِذُ﴾: مِنَ الجذْرِ (أَخَذَ)، وأَصْلُ هذه المادّة: حَوْزُ الشَّيْءِ وجَبْيُهُ وجَمْعُهُ، وهُوَ التَّنَاوُلُ، خِلَافُ العَطَاءِ[3]، والاتِّخَاذُ افْتِعَالٌ مِنْهُ، ويُعَدَّى إِلَى مَفْعُولَيْنِ، ويَجْرِي مَجْرَى الجَعْلِ، نَحْوَ قَوْلِهِ تعالى: ﴿لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ﴾ [المائدة: 51]، ﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾ [الشّورى: 9][4].

لا نِدَّ لِلّهِ في ذاتِهِ، ولا شَريكَ لَهُ في مُلْكِهِ

2) ﴿أَندَادًا﴾: مِنَ الجذْرِ (ندد)، ونَدِيدُ الشَّيْءِ: مُشَارِكُهُ في جَوْهَرِهِ، مِنَ المُمَاثَلَةِ، وكُلُّ نِدٍّ مِثْلٌ، ولَيْسَ كُلُّ مِثْلٍ نِدًّا، قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا﴾ [البقرة: 165][5]، ولَا يَكُونُ

(1) الواحدي، التّفسير البسيط: 3/466.
(2) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 4/174.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (أخذ).
(4) الراغب، المفردات: (أخذ).
(5) الراغب، المفردات: (ندد).

النِّدُّ إلَّا مُخَالِفًا[1]، وفُلَانٌ نِدُّ فُلَانٍ، أَي: مِثْلُهُ وشِبْهُهُ[2]، والمُرَادُ بِهِمُ الأَصْنَامُ، أَوْ مَنْ يُطِيعُونَهُمْ مِن الرِّجَالِ، مِنْ دُونِ اللَّهِ ﷻ، فالأَصْنَامُ أَنْدَادٌ، بَعْضُهَا لِبَعْضٍ، أَيْ: أَمْثَالٌ، لَيْسَتْ أَنَّهَا أَنْدَاد لِلَّهِ تعالى[3].

حُبُّ اللهِ طاعَةٌ وامْتِثالٌ

3) ﴿يُحِبُّونَهُمْ﴾: مِنَ الجذْرِ (حبب)، وأَصْلُ هذه المادّة: اللُّزُومُ والثَّبَاتُ، مِنْ: أَحَبَّهُ إِذَا لَزِمَهُ[4]، وحَبَّةُ القَلْبِ تَشْبِيهًا بالحَبَّةِ في الهَيْئَةِ، وحَبَبْتُ فلانًا: أَصَبْتُ حَبّةَ قَلْبِهِ، وجَعَلْتُ قَلْبِي مُعَرَّضًا لحُبِّهِ، والمَحَبَّةُ: إِرَادَةُ مَا تَرَاهُ أَوْ تَظُنُّهُ خَيْرًا[5]، ومَحَبَّةُ العَبْدِ لِلَّهِ تعالى إِرَادَةُ طَاعَتِهِ، والاعْتِنَاءُ بِتَحْصِيلِ مَرَاضِيهِ[6].

أَشَدُّ النّاسِ حُبًّا لِلهِ، المُتَّبِعونَ لِرَسولِهِ ﷺ

4) ﴿أَشَدُّ﴾: مِنَ الجذْرِ (شدّ)، وأَصْل هذه المادّة يَدُلُّ عَلَى قُوَّةٍ في الشَّيْءِ[7]، والشَّدُّ: العَقْدُ القَوِيّ، يقالُ: شَدَدْتُ الشَّيْءَ: قَوّيتُ عَقْدَهُ، قال اللَّهُ تعالى: ﴿وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ﴾ [الإنسان: 28][8]، و قَوْلُهُ: ﴿شَدِيدُ﴾: من مادّة (شدّ) أيضًا، شَدَّ الشَّيْءُ يَشِدُّ: قَوِيَ، فهُوَ شَدِيدٌ.

مَنْ فُتِحَتْ بَصيرَتُهُ، رَأَى بِعَيْنِهِ الحَقائِقَ، وذاقَ بِقَلْبِهِ الرَّقائِقَ

5) ﴿يَرَى﴾: مِنَ الجذْرِ (رأي)، والأَصْلُ فيه الدلالة عَلَى نَظَرٍ وإِبْصَارٍ بِعَيْنٍ أَوْ بَصِيرَةٍ[9]، والرُّؤْيَةُ: إدراكُ المَرْئِيِّ[10]، والمُرَادُ بِالرُّؤْيَةِ هَاهُنَا: رُؤْيَةُ العَيْنِ المُتَعَدِّيَةُ إِلَى مَفْعُولٍ واحِدٍ[11].

6) ﴿ظَلَمُوٓاْ﴾: مِنَ الجذْرِ (ظَلَمَ)، وأَصْلُ هذه المادّة يَدُلُّ على خِلَافِ الضِّيَاءِ والنُّورِ، ووَضْعِ الشَّيْءِ غَيْرَ مَوْضِعِهِ تَعَدِّيًا[12]، ويَدُلُّ على

(1) الفيّومي، المصباح المنير: (ندد).
(2) الواحدي، التّفسير البسيط: 2/228.
(3) المصدر السّابق: 466/3-467.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حبب).
(5) الراغب، المفردات: (حبب).
(6) البيضاويّ، أنوار التنزيل: 1/117.
(7) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (شدّ).
(8) الراغب، المفردات: (شدّ).
(9) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (رأى).
(10) الراغب، المفردات: (رأى).
(11) الواحدي، التّفسير البسيط: 3/472.
(12) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ظلم).

حَجْبِ مَا يَنْبَغِي أَوْ مَا يُسْتَحقّ، أي منْعِه أو انْتِقاصِه، كَمَنْعِ الضَّوْءِ في حَالَةِ الظُّلْمَةِ، فالظَّلَامُ يَحْجُبُ الرُّؤْيَةَ[1]، والظُّلْمُ: المَيْلُ عَنِ القَصْدِ[2].

الظُّلْمُ مَرْتَعُهُ وخيمٌ

7) ﴿ٱلْعَذَابَ﴾: مِنَ الجذْرِ (عذب)، وأصله مِن الضّرب بِعَذَبَةِ السّوطِ، وعَذَبَةُ السّوطِ واللّسانِ والشّجرِ: أطرافُها، والعَذَابُ: هو الإيجاعُ الشَّديدُ، وقدْ عَذَّبَهُ تَعْذِيبًا: أكْثَرَ حَبْسَهُ في العَذَابِ[3].

العَذابُ دَلالَةٌ عَلى عَدْلِ اللهِ مَعَ عِبادِهِ

8) ﴿ٱلْقُوَّةَ﴾: مِنَ الجذْرِ (قوي)، وأَصْلُ هذه المادّة يَدُلُّ عَلَى شِدَّةٍ وخِلَافِ ضَعْفٍ، والقَوِيُّ: خِلَافُ الضَّعِيفِ، ورَجُلٌ شَدِيدُ القُوَى، أَيْ شَدِيدُ أَسْرِ الخَلْقِ[4]، والقُوَّةُ تُسْتَعْمَلُ في مَعْنَى القُدْرَةِ، نَحْوُ قَوْلِهِ: ﴿خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ﴾ [البقرة: 63]، وفي القُدْرَةِ الإِلَهِيَّةِ، نَحْوُ قَوْلِهِ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ۝٢١﴾ [المجادلة: 21][5].

مَنْ قَوِيَ بِالتَّوَكُّلِ عَلى اللهِ، لَمْ يَرْهَبْ أحدًا سِواهُ

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

وبعدَ كُلِّ الأدِلّةِ والآياتِ النّاطِقَةِ بِتَوحيدِ اللّه تَعالى، هُناكَ فِئَةٌ مِنَ النّاسِ - مَعَ أنَّهُمْ يُقِرّونَ بِهَذِهِ الآياتِ، وأَنّ اللّه هُوَ الخَالِقُ الوحيدُ، والإلهُ العَظيمُ - يُسَوُّون بينَ هذا الخالِقِ العظيمِ، والرّبِّ الرَّحيمِ، وبَينَ كُبَرائِهِمْ، والأصنامِ الّتي يَعْبُدُونَها؛ لِتُقَرِّبَهم إلى اللّهِ كما يَدَّعونَ، فهم أضاعُوا الطّريقَ المُستقيمَ إلى اللّه؛ فاللّه تعالى عِنْدَهُمْ ربٌّ مَعَ أربابٍ، وإلهٌ بينَ آلِهَةٍ، فوَلاؤُهُمْ وحُبُّهُمْ قِسْمَةٌ بَينَ الآلِهَةِ والأربابِ في السَّرّاءِ، أمّا في الضّرّاءِ فلا يَدْعونَ إلّا اللّه، ولَيسَ هذا مِنَ الحُبِّ الّذي يرتضيهِ الإلَهُ، ولَيْسَ كذلكَ حُبُّ الّذينَ آمَنوا، وأخْلَصوا إيمانَهُم لِلّهِ، فحُبُّهُمْ كلُّه للّهِ تعالى وحْدَهُ؛ لِأنّهُم لا يُشْرِكُون معَ اللّه أحدًا، ويُحِبُّونَهُ في السّرّاءِ والضّرّاءِ.

الاعْتِصامُ بِالإيمانِ بِاللهِ مَنَعَةٌ، واللّجوءُ إلى غَيْرِهِ هَلَكَةٌ

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (ظلم).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (ظلم).
(3) الراغب، المفردات: ، ص: 455-554.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (قوي).
(5) الراغب، المفردات: (قوي).

الوَحْدانِيّةُ والقُوّةُ للهِ وَحْدَهُ، والهَلاكُ لِمَنْ أَشْرَكَ بِهِ سِواهُ

ولو يَرى المُشرِكونَ حَالَهُم في الآخِرَةِ، حِينَ يُشاهِدونَ العَذابَ؛ لعَلِموا أنَّ المُتَفَرِّدَ بالقُوّةِ جَميعًا هُو اللّه، وأنَّهُ شَديدُ العَذابِ لِمَنْ عَصاهُ، فلَوْ رَأَوْا ذلِكَ لَما أَشْرَكوا مَعَهُ أَحَدًا، فهُوَ انتقالٌ لما سيكون يَوْمَ القِيامَةِ، يقرِّرُ نَهايَةَ حُبِّ الأندادِ مِن دُونِ اللّهِ تعالى؛ لأنَّهُ حُبٌّ أُعْطِيَ لآخَرينَ، بِصِفَةٍ لَيْسَتْ لَهُم، فأَعْطَوْهُم ما لا يَسْتَحِقُّون، وهذا ظلمٌ كبيرٌ، ومَيْلٌ عنِ الحَقّ، وفي ذلك اليَومِ سَيَرَوْنَ أنَّ المُلك للّهِ وحْدَهُ، وأنَّ القوّةَ كلَّها بيَدِهِ، ولَنْ يَدْفَعَ عَنْهُمْ أَحَدٌ العَذابَ الشّديدَ الّذي وُعِدوا بِهِ.

الإيضاح اللُّغَوِيُّ والبَلاغِيُّ:

الاسْتِئْنافُ لِبَيانِ حالِ المُشْرِكينَ:

مَنْ لَمْ يَتَعَقّلْ دَلائِلَ التَّوْحيدِ، أَضاعَ عُمْرَهُ في الكُفْرانِ والجُحودِ

الآيَةُ من قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا﴾، اسْتِئْنافٌ لِبَيانِ حالِ المُشْرِكينَ، بَعْدَ أَنْ قَدَّمَ أَدِلَّةَ التَّوْحيدِ، اسْتَأْنَفَ الكَلامَ؛ لِيُبَيِّنَ أَنَّ مِن النَّاسِ فِئَةً لَمْ يَعْقِلُوا تِلْكَ الآيَاتِ الدَّالَّةَ عَلَى التَّوْحِيدِ[1].

دَلالَةُ (مِنْ) في قَوْلِهِ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾:

مَنْ رَفَضَ الدَّليلَ، هَوى في مَتاهاتِ التَّخْييلِ

يَدُلُّ حَرْفُ الجَرِّ (مِنْ) عَلَى التَّبْعِيضِ؛ فالَّذينَ يَتَّخِذُونَ أَنْدادًا مِنْ دُونِ اللّهِ تعالى، هُم بَعْضُ النَّاسِ، حيثُ إنّ "(مِنْ) لِلبَعْضِيَّة، أَيْ: بَعْض النَّاس، وفي ذَلِكَ تَصْغِيرٌ لِشَأْنِهِمْ، وتَهْوِينٌ لِأَمْرِهِمْ، سَوَاءً أَكَانُوا عَدَدًا قَلِيلًا، أَمْ كَانُوا عَدَدًا كَثِيرًا، فهم مَهِينُونَ في تَفْكِيرِهِمْ، إِذْ هُم رَفَضُوا الدَّلِيلَ المُشْتَقَّ مِنْ وُجُودِهِمْ، ومَا يُحِيطُ بِهِمْ، فضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا"[2].

دَلالَةُ الاسْمِ المَوْصولِ (مَنْ):

القُرْآنُ يُعْنَى بالمُعتقداتِ، ولا يَلْتَفِتُ غالِبًا إلى الأَشْخاصِ

التَّعْبِيرُ بِالاسْمِ المَوْصُولِ (مَنْ)؛ لِأَنَّهُ لَا يَعْنِي أَشْخَاصًا بِأَعْيَانِهِمْ؛ ذلك أَنَّهُ يُرِيدُ التَّعْمِيمَ؛ حَيْثُ يَقْصِدُ الانْحِرَافَ عَنْ عِبَادَةِ

(1) محمد بن سعد الدبل، دليل البلاغة القرآنيّة: 1/229.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 1/492-493.

اللَّه، ولَيْسَ الأَشْخَاصَ المُتَّخِذِينَ الأَنْدادَ، وهَذَا مِنْ دِقَّةِ التَّعْبِيرِ القُرْآنيِّ؛ لِأَنَّهُ يريدُ بيانَ العَقَائِدِ لا الأَشْخَاصِ.

دَلَالَةُ فعل (الِاتِّخَاذِ) في الآية:

التَّشديدُ بِأَصْحابِ المَقاصِدِ والفَهْمِ أشدُّ؛ لِأَنَّهُمْ ضَلّوا عَلى عِلْمٍ

التَّعْبِير بالفِعْلِ ﴿يَتَّخِذُ﴾ في قَوْلِهِ ﷻ: ﴿يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا﴾؛ إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ وُجُودَ الأَنْدَادِ مُصْطَنَعٌ، فلَيْسَ لَهَا وُجُودٌ ذَاتِيٌّ[1]، وفِيهِ دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّ هَؤُلَاءِ القَوْمِ لَيْسُوا مُقَلِّدِينَ آبَاءَهُمْ وحَسب، بَلْ لَدَيْهِمْ إِصْرَارٌ وقَصْدٌ؛ لِذَا عَبَّرَ بَعْدَ ذَلِكَ عَنْ حُبِّهِمْ لَهُمْ، فكَأَنَّ الآيَةَ لَا تَعْنِي جَمِيعَ المُشْرِكِينَ، بَلْ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَخْتَارُونَ الأَنْدَادَ عَنْ قَصْدٍ وحُبٍّ، مُعْرِضِينَ عَنْ تِلْكَ الآيَاتِ الَّتِي تُظْهِرُ لَهُمْ وحْدَانِيَّةَ الخَالِقِ لِهَذَا الكَوْنِ، والتَّعْقِيبُ عَلَى تِلْكَ الآيَاتِ بِهَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَخْتَارُونَ الأَنْدَادَ، ويُحِبُّونَهُمْ ويُعْرِضُونَ عَنِ الخَالِقِ الوَاحِدِ، مُنَاسِبٌ لِلآيَةِ السَّابِقَةِ؛ فهُمْ يَخْتَارُونَ الإِعْرَاضَ مَعَ تَوَفُّرِ الآيَاتِ.

نكتةُ إفْرادِ فِعْلِ ﴿يَتَّخِذُ﴾، وجَمْعِ فِعْلِ ﴿يُحِبُّونَهُمْ﴾:

اتِّحادُ دَرَجَةِ المُتَّخِذِين، وتفاوُتُ درجاتِ المُحبِّين

الفعْلُ ﴿يَتَّخِذُ﴾ جاء مُفْرَدًا على لَفْظِ (مَنْ)، والفعلُ ﴿يُحِبُّونَهُمْ﴾ جاء جَمْعًا، على مَعْنى (مَنْ)، لأنّ (مَنْ) مُفْرَدةٌ لفظًا، مَجْموعَةٌ مَعنًى[2]، فكانَ الاتِّخاذُ ﴿يَتَّخِذُ﴾، فِعْلًا فَرْدِيًّا مَعْزولًا، يُبادِرُ بِهِ النّخْبَةُ عادَةً، أمّا فِعْلُ مَحَبَّةِ الأصنامِ كحُبّ اللّه ﴿يُحِبُّونَهُمْ﴾، فهُو جَمْعٌ لأنّهُ مِنْ فعلِ العامَّةِ بَعْدَ الخاصَّةِ، وهُوَ شائعٌ مُنتَشِرٌ في البيئَةِ الجاهِليّةِ عادةً، والاتِّخاذُ فِعلٌ يُلاحظُ فيه الاتحادُ في الفِعلِ، بخلافِ الحبِّ فهو متفاوِتٌ في درجاتِه.

فائِدَةُ التَّعْبِيرِ بِقَوْلِهِ: ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾:

الإعْراضُ عَنِ اللهِ خُسْرانٌ، وعِبادَةُ غَيْرِهِ هَوانٌ

أفادَ قَوْلُهُ ﷻ: ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ معنى الإعراضِ عن اللّه تعالى، والانهماكِ في عبادَةِ ما سِواه؛ لِأَنَّ كَلِمَةَ (دُونَ) تُؤْذِن بالحَيْلُولَةِ، فلو

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 1/493.
(2) الشّيخلّي، بلاغة القرآن في الإعجاز: 1/363.

قيل: (اتَّخَذَهُ دُون اللَّهِ)، فالمَعْنَى: أَفْرَدَهُ وأَعْرَضَ عَن اللَّهِ، بينما معنى: (اتَّخَذَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ): جَعَلَهُ حَائِلًا عَنِ اللَّهِ، أَيْ أَشْرَكَهُ مَعَ اللَّهِ؛ لِأَنَّ الإِشْرَاكَ يَسْتَلْزِمُ الإِعْرَاضَ عَنِ اللَّهِ، في أَوْقَاتِ الشُّغْلِ بِعِبَادَةِ ذَلِكَ الشَّرِيكِ[1].

فائِدَةُ التَّنْكِيرِ في قَوْلِهِ: ﴿أَندَادًا﴾:

تنوُّعُ الأندادِ وكثرتُهم في كلِّ عصرٍ وأوانٍ

في قَوْلِهِ عَزَّ جَلَّ: ﴿يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا﴾، عَبَّرَ عَن الأَنْدَادِ بِالتَّنْكِيرِ؛ لِلتَّنْوِيعِ والتَّكْثِيرِ والإبهامِ، فالأَنْدَادُ كَثِيرُونَ؛ إِذْ يَدْخُلُ ضِمْنَهُم الأَصْنَامُ والآلِهَةُ، والسَّادَةُ والكُبَرَاءُ، ومن كانَ معلومًا عند نُزولِ الآيةِ ومن لم يكن معلومًا؛ كَقَوْلِهِ ﷻ: ﴿وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾﴾ [الأحزاب: 67]، فإنَّ الأندادَ كثيرون، وفي كلِّ عصرٍ جديدٍ اختراعُ أندادٍ.

التَّعْبِيرُ عَنِ الأَصْنَامِ بِالضَّمِيرِ الخَاصِّ بِالعَاقِلِ:

التَّنبيهُ على خطورةِ الأندادِ العقلاءِ، وأنَّهم شرٌّ من غيرِهم

عَبّر بِالضَّمِيرِ (هُمْ) الخَاصِّ بالعُقَلَاءِ عَن الأَصْنَامِ، "وهِيَ لَا تَعْقِلُ؛ لِأَنَّهَا كَانَتْ عِنْدَهُمْ مِمَّنْ يَعْقِلُ ويَفْهَمُ، فخُوطِبُوا عَلَى مَا كَانَ في ظَنِّهِمْ، فأُجْرِيَتْ مُجْرَى مِنْ يَعْقِلُ"[2]، وهَذَا يَجْرِي عَلَى قَوْلِ مَنْ فسَّرَ الأَنْدَادَ بالأَصْنَامِ، وأمّا مَنْ فسَّرَهَا بِأَنَّها سَادَتُهُمْ مِن الرِّجَالِ، الَّذِينَ كَانُوا يُطِيعُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ تعالى، فالضَّمِيرُ يَجْرِي عَلَى حَقِيقَتِهِ، وهُوَ مَا رَجَّحَهُ الفَخْرُ الرَّازِيُّ، فالمُرَادُ بالأَنْدَادِ قَوْمٌ عُقَلَاءُ؛ ومِن الأَدِلَّةِ عَلَى ذَلِكَ أَنَّ اللَّهَ تعالى ذَكَرَ بَعْدَ هَذِهِ الآيَةِ: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ﴾ [البَقَرَة: 166]، وذَلِكَ لَا يَلِيقُ إِلَّا بِمَنِ اتَّخَذَ الرِّجَالَ أَنْدَادًا وأَمْثَالًا لِلَّهِ تعالى، يَلْتَزِمُونَ مِنْ تَعْظِيمِهِمْ والانْقِيَادِ لَهُمْ، مَا يَلْتَزِمُهُ المُؤْمِنُونَ مِن الانْقِيَادِ لِلَّهِ تعالى[3].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/89.
(2) مكّيّ بن أبي طالب، الهداية إلى بلوغ النّهاية: 1/535.
(3) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 4/175.

مَعْنَى التَّشْبِيهِ فِي قَوْلِهِ: ﴿كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾:

قَوْلُهُ ﷻ: ﴿كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾ تَشْبِيه مُرْسَلٌ مُجْمَلٌ[1]؛ حَيْثُ ذُكِرَت الأَدَاةُ، وحُذِفَ وجْهُ الشّبَه، فشُبِّهَ حُبُّ الكُفَّارِ لِلأَصْنَام بِحُبِّ المُؤْمِنِينَ لِلَّه تعالى[2]، وذَكَرَ الزَّمَخْشَرِيُّ تَأْوِيلًا آخَر لِلتَّشْبِيه، فشَبَّهَ حُبَّ المُشْرِكِينَ لِلأَنْدَاد، بِحُبِّ المُشْرِكِينَ لِلَّه تعالى: "كَحُبِّهِمُ اللَّه، أَيْ: يُسَوُّونَ بَيْنَهُ وبَيْنَهُمْ في مَحَبَّتِهِمْ؛ لِأَنَّهُمْ كَانُوا يُقِرُّونَ بِاللَّه، ويَتَقَرَّبُونَ إِلَيْه، فإِذَا رَكِبُوا في الفُلْك دَعَوُا اللَّه مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ"[3]، وهَذَا التَّأْوِيلُ "أَشْهَرُ؛ لِأَنَّهُمْ يَلْتَجِئُونَ إِلَيْه تعالى في الشَّدَائِد، ويَدْعُونَهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ، قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [لقمان: 25]"[4]، ورجّح أَبُو السُّعُود أنّه: "مَصْدَرٌ تَشْبِيهِيٌّ، أَيْ نَعْتٌ لِمَصْدَرٍ مُؤَكِّدٍ لِلفِعْلِ السَّابِق، ومِنْ قَضِيَّةِ كَوْنِهِ مَبْنِيًّا لِلفَاعِل، كَوْنُهُ أَيْضًا كَذَلِكَ، والظَّاهِرُ اتِّحَادُ فاعِلِهِمَا؛ فإِنَّهُمْ كَانُوا يُقِرُّونَ بِهِ تَعالى أَيْضًا، ويَتَقَرَّبُونَ إِلَيْه، فالمَعْنَى: يُحِبُّونَهُمْ حُبًّا كَائِنًا كَحُبِّهِمْ لِلَّه تعالى، أَيْ يُسَوُّونَ بَيْنَهُ تعالى وبَيْنَهُمْ في الطَّاعَةِ والتَّعْظِيم"[5].

مِن اسْتَوى عِنْدَهُ حُبُّ اللهِ وحُبُّ سِواهُ، فهُوَ سادِرٌ في غَيِّهِ وضَلالِهِ

إِيثَارُ الإِظْهَارِ عَلَى الإِضْمَارِ فِي قَوْلِهِ: ﴿يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾:

آثَرَ النَّظْمُ إظهارَ اسْم الجَلَالَةِ عَلَى إِضْمَارِه، مَعَ أَنَّهُ سَبَقَ ذِكْرُهُ في الآيَةِ، في قَوْلِه ﷻ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾، فلم يَقُلْ: (كَحُبِّه)؛ "وَإِظْهَارُ الاسْم الجَلِيلِ في مَقَامِ الإِضْمَار؛ لِتَرْبِيَةِ المَهَابَة، وتَفْخِيمِ المُضَافِ، وإِبَانَةِ كَمَالِ قُبْحِ مَا ارْتَكَبُوهُ"[6].

المؤمنون أشدُّ حُبًّا للهِ، والمُشرِكون يَخلِطون حُبَّهُ بِسِواهُ

(1) محمد علي جميل، صفوة التّفاسير: 1/99.
(2) النيسابوري، التّفسير البسيط: 3/469.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/211.
(4) حاشية القونوي على تفسير البيضاوي: 4/410.
(5) أبو السّعود، إرشاد العقل السليم: 1/185.
(6) المصدر السّابق: 1/186.

دَلالَةُ الإيجَازِ بِالحَذْفِ فِي هَذِهِ الآيَةِ:

لا يَنْفَعُ الحُبُّ لِلهِ، إلّا إذا صُفِّيَ تَمامًا مِنْ كَدَرِ الإشْراكِ

في قَوْلِهِ ﷻ: ﴿كَحُبِّ ٱللَّهِۖ﴾، أُضِيفَ المَصْدَرُ (حُبّ) إلَى المَفْعُولِ، وحُذِفَ الفَاعِلُ، وفي تَقْدِيرِ الفَاعِلِ طَرِيقَتَانِ: إحداهما: أَنَّ المَعْنَى: كَحُبِّ المُؤْمِنِينَ اللّه، أَيْ: يُحِبُّونَ الأَصْنَامَ كَمَا يُحِبُّ المُؤْمِنُونَ رَبَّهُمْ، الثَّانِية: أَنَّ المَعْنَى: يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللّه، أَيْ: يُسَوُّونَ بَيْنَ هَذِهِ الأَصْنَامِ وبَيْنَ اللّه ﷻ في الحُبِّ، فيَكُونُ تَقْدِيرُ الآيَةِ: يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّهِم اللّه، فالمُشْرِكُونَ هُمُ المُحِبُّونَ، وبِهَذَا فقَدْ أَثْبَتَ لِلمُشْرِكِينَ حُبًّا لِلّه، فشَبَّهَ حُبَّهُمُ الأَصْنَامَ بِحُبِّهِمُ اللّه تَعالى[1]، ويَصِحُّ أَنْ يُقَدَّرَ: يُحِبُّونَهُمْ كَمَا يَجِبُ أَنْ يُحَبَّ اللّهُ تعالى[2].

دَلالَةُ التَّعْبِيرِ عَنِ الحُبِّ بـ﴿أَشَدُّ﴾ دُونَ (أَحَبُّ) فِي الآيَةِ:

مَحَبَّةُ المُؤْمِنِينَ للهِ خالِيَةٌ مِنَ الشَّوائِبِ، خالِصَةٌ لَهُ مِنْ دُونِ النّاسِ

قَوْلُهُ ﷻ: ﴿أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِۗ﴾، فِيهِ تَصْرِيحٌ بِشِدَّةِ الحُبِّ، مَعَ مَا فِيهِ مِن المُقَارَنَةِ والمُفَاضَلَةِ، وبِهَذَا فهُوَ أَبْلَغُ مِنْ أَنْ يَقُولَ: (أَحَبُّ لِلَّهِ)، قال البَيْضَاوِيُّ في قَوْلِهِ ﷻ: ﴿فَهِيَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةًۚ﴾ [البَقَرَة: 74]: "وإنَّمَا لَمْ يَقُلْ: (أَقْسَى)؛ لِمَا في ﴿أَشَدُّ﴾ مِن المُبَالَغَةِ، والدَّلالَةِ عَلَى اشْتِدَادِ القَسْوَتَيْنِ، واشْتِمَالِ المُفَضَّلِ عَلَى زِيَادَةٍ"[3]، وقَوْلُهُ ﷻ: ﴿أَشَدُّ حُبًّا﴾ مِثْلُهُ؛ "لِأَنَّ فِيهِ إشَارَةً إلَى أَنَّ المَحَبَّتَيْنِ مُشْتَدَّتَانِ، والمُفَضَّلَ - أَعْنِي مَحَبَّةَ المُؤْمِنِينَ رَبَّهُمْ - مُشْتَمِلٌ عَلَى زِيَادَةِ الاشْتِدَادِ مِن المُفَضَّلِ عَلَيْهِ - وهُوَ مَحَبَّةُ المُشْرِكِينَ الأَنْدَادَ ... فلَوْ قِيلَ: (أَحَبُّ لِلَّهِ)؛ لَفَاتَتْ هَذِهِ المُبَالَغَةُ؛ ولَفُهِمَ أَنَّهُمْ والمُشْرِكِينَ مُتشارِكَانِ في نَفْسِ المَحَبَّةِ، واشْتِمَالُ المُفَضَّلِ عَلَى زِيَادَةِ المَحَبَّةِ، لَا اشْتِدَادِهَا، ولَا رَيْبَ في أَنَّ زِيَادَةَ اشْتِدَادِ المَحَبَّةِ، أَبْلَغُ وأَقْوَى مِنْ زِيَادَةِ نَفْسِ المَحَبَّةِ"[4].

(1) النيسابوري، التّفسير البسيط: 3/468-469.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/91.
(3) البيضاويّ، أنوار التنزيل: 1/88.
(4) حاشية القونوي على تفسير البيضاوي: 4/412.

وجْهُ وصْفِ حُبِّ المُؤْمِنِينَ بِالشِّدَّةِ في قَوْلِهِ: ﴿أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾:

حُبُّ المؤمنين لله حُبٌّ خالِصٌ، لا يضعُفُ بأدنى الأسْبابِ

عَبَّرَ بِاسْمِ التَّفْضِيلِ ﴿أَشَدُّ﴾؛ لِأَنَّهُ فضَّلَ مَحَبَّةَ المُؤْمِنِينَ بِقَوْلِهِ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ مِنْ حُبِّ الكَفَرَةِ لِأَنْدَادِهِمْ[1]، وقَدْ بَيَّنَ الزَّمَخْشَرِيُّ سَبَبَ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ: "لِأَنَّهُمْ لَا يَعْدِلُونَ عَنْهُ إِلَى غَيْرِهِ، بِخِلَافِ المُشْرِكِينَ؛ فَإِنَّهُمْ يَعْدِلُونَ عَنْ أَنْدَادِهِمْ إِلَى اللَّهِ عِنْدَ الشَّدَائِدِ، فَيَفْزَعُونَ إِلَيْهِ، وَيَخْضَعُونَ لَهُ، وَيَجْعَلُونَهُمْ وَسَائِطَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَهُ، فَيَقُولُونَ: هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ، وَيَعْبُدُونَ الصَّنَمَ زَمَانًا ثُمَّ يَرْفُضُونَهُ إِلَى غَيْرِهِ[2]، وفي ذَلِكَ أَضَافَ الشَّيْخُ ابنُ عَاشُور: أَيْ أَشَدُّ مِنْ مَحَبَّةِ أَصْحَابِ الأَنْدَادِ أَنْدَادَهُمْ، وَمِنْ مَحَبَّةِ بَعْضِهِمْ لِلَّهِ، مِمَّنْ يَعْتَرِفُ بِاللَّهِ مَعَ الأَنْدَادِ، لِأَنَّ مَحَبَّةَ جَمِيعِ هَؤُلَاءِ المُحِبِّينَ، لَا تَبْلُغُ مَبْلَغَ مَحَبَّةِ المُؤْمِنِينَ لِلَّهِ تعالى؛ لِأَنَّ إِيمَانَهُمْ بِهِمْ لِأَغْرَاضٍ عَاجِلَةٍ، كَقَضَاءِ الحَاجَاتِ، وَدَفْعِ المُلِمَّاتِ، بِخِلَافِ حُبِّ المُؤْمِنِينَ لِلَّهِ؛ فَإِنَّهُ حُبٌّ لِذَاتِهِ، وَأَغْرَاضُهُمْ أَعْظَمُهَا آجِلَةٌ، يَبْتَغُونَ رَفْعَ الدَّرَجَاتِ، وَتَزْكِيَةَ النَّفْسِ[3].

إِيثَارُ الإِظْهَارِ عَلَى الإِضْمَارِ:

تَفخيمُ حُبِّ اللهِ وتَشريفُه، إشعارًا بأنّه سببُ العملِ

آثَرَ أَنْ يُظْهِرَ اسْمَ الجَلَالَةِ عَلَى الإِضْمَارِ، فقَالَ ﷻ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾، ولَمْ يَقُلْ: (أشدُّ حُبًّا لَهُ)؛ وغايتُهُ تَفْخِيمُ وتَشْرِيفُ حُبِّ اللَّهِ تعالى، مِمَّا عَبَّرَ عَنْهُ أبو السُّعودِ بِقَولِهِ: "وَإِيثَارُ الإِظْهَارِ في مَوْضِعِ الإِضْمَارِ لِتَفْخِيمِ الحُبِّ والإِشْعَارِ بِعِلَّتِهِ"[4].

دَلَالَةُ حَذْفِ المُفَضَّلِ عَلَيْهِ في قَوْلِهِ: ﴿أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾:

حُبُّ المؤمنين لا يَنْقَطِعُ ولا ينقلبُ بُغْضًا، كحُبِّ المُشْرِكين لِلأنْدادِ

"المُفَضَّلُ عَلَيْهِ مَحْذُوفٌ، أَيْ: المُؤْمِنُونَ أَشَدُّ حُبًّا لَهُ تعالى مِنْهُمْ لِأَنْدَادِهِمْ، ومَآلُهُ أَنَّ حُبَّ أُولَئِكَ لَهُ تعالى أَشَدُّ مِنْ حُبِّ هَؤُلَاءِ لِأَنْدَادِهِمْ، فِيهِ مِنَ الدَّلَالَةِ عَلَى كَوْنِ الحُبِّ مَصْدَرًا مِنَ المَبْنِيِّ

(1) إسماعيل حقي، روح البيان: 1/270.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/211.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/92.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السليم: 1/186.

لِلفَاعِلِ مَا لا يَخْفَى؛ وإِنَّمَا لَمْ يجْعَلِ المُفَضَّلُ عَلَيْهِ حُبَّهُمْ لِلَّهِ تعالى؛ لِمَا أَنَّ المَقْصُودَ بَيَانُ انْقِطَاعِهِ وانْقِلَابِهِ بُغْضًا، وذَلِكَ إِنَّمَا يُتَصَوَّرُ في حُبِّهِمْ لِأَنْدَادِهِمْ؛ لِكَوْنِهِ مَنُوطًا بِمبَانٍ فاسِدَةٍ، ومَبَادٍ مَوْهُومَةٍ، يَزُولَ بِزَوَالِهَا، قِيلَ: ولِذَلِكَ كَانُوا يَعْدِلُونَ عَنْهَا عِنْدَ الشَّدَائِدِ إِلى اللَّهِ سُبْحَانَهُ"[1].

فائِدَةُ الوَصْلِ بين الجُمَلِ:

انتقالٌ من بيانِ الأسـبـاب إلى بيانِ المُسبَّبات

قَوْلُهُ ﷻ: ﴿وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ﴾، مَعْطُوفٌ عَلَى قَوْلِهِ ﷻ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ﴾؛ لِأَنَّ قَوْلَهُ ذَلِكَ لَمَّا كَانَ شَرْحًا لِحَالِ ضَلَالِهِم الفَظِيعِ في الدُّنْيَا، مِنِ اتِّخَاذِ الأَنْدَادِ لِلَّهِ، مَعَ ظُهُورِ أَدِلَّةِ وَحْدَانِيَّتِهِ، وهو مُؤْذِنٌ بالتَّعْجِيبِ مِنْ حَالِهِمْ، وزِيدَ في شَنَاعَتِهِ أَنَّهُمْ أَحَبُّوهَا كَحُبِّهِ، نَاسَبَ أَنْ يَنْتَقِلَ إِلَى ذَلِكَ[2] المشهدِ الغَيْبِيِّ، الذي بَيَّنَ حالَهم في الآخرةِ بعد بيانِها في الدُّنيا، فهو انتقالٌ من بيانِ الأسباب إلى بيانِ المُسبَّبات.

فائِدةُ حَذْفِ جَوابِ (لوْ):

مَـنْ عَـرَفَ الله؛ ما أحبَّ سِواه

في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ﴾: حُذِف جوابُ ﴿وَلَوْ﴾ لغايَةِ الاخْتِصارِ، وتَقْديرُهُ: لَعَلِمُوا أو لَنَدِمُوا عَلى الشِّرْكِ به سبحانه، أو لَما أحبُّوا تلك الأندادَ، ولَأَقرُّوا أنّ القوّة لله جميعًا، والمصدرُ المؤوَّلُ ﴿أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ﴾، في محلِّ نَصبِ مفعولِ (أقَرُّوا)، كما حُذف مفعُولُ ﴿يَرَى﴾ اختصارًا أيضًا، والتّقديرُ: (وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ حَالَهُمْ)[3].

نكتةُ إِظْهَارِ ما حقُّه الإِضْمَارُ:

بيانُ عِلَّةِ الظُّلم بالنَّصِّ عليه

في قَوْلِهِ ﷻ: ﴿وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ﴾، لَم يَقُلْ: (وَلَوْ يَرَوْنَ)؛ فـ"وَضَعَ الظَّاهِرَ مَوْضِعَ المُضْمَرِ، واخْتِيرَ المَوْصُولُ؛ لِلتَّسْجِيلِ عَلَى

(1) المصدر السّابق: 1/186.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/93.
(3) بلاغة القرآن الكريم في الإعجاز: 1/363.

ظُلْمِهِمْ بِالاتِّخَاذِ المَذْكُورِ؛ ولِلإِشْعَارِ عَلَى عِلِّيَّةِ الحُكْمِ"[1]، فهُوَ لِبَيَانِ سَبَبِ العَذَابِ، وهُوَ الظُّلْمُ المَعْبَّرُ عَنْهُ بالمَوْصُولِ وصِلَتِهِ.

تنوُّعُ تقديرِ حَذْفِ مفعولِ ﴿يَرَى﴾:

في قَوْلِهِ ﷻ: ﴿وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ﴾، "حُذِفَ مَفْعُولُ ﴿يَرَى﴾؛ لِدَلَالَةِ المَقَامِ، تَقْدِيرُهُ: لَوْ يَرَوْنَ عَذَابَهُمْ، أَوْ لَوْ يَرَوْنَ أَنْفُسَهُمْ، أَوْ يَكُونُ ﴿إِذْ﴾ اسْمًا غَيْرَ ظَرْفٍ، أَيْ لَوْ يَنْظُرُونَ الآنَ ذَلِكَ الوَقْتَ، فيَكُونُ بَدَلَ اشْتِمَالٍ مِن الذينَ ظَلَمُوا"[2].

حَذْفُ المَفْعُولِ بِهِ لِلتَّعْمِيمِ في قَوْلِهِ: ﴿ظَلَمُوٓاْ﴾:

حُذِفَ المَفْعُولُ بِهِ الَّذِي يَقْتَضِيه الفِعْلُ ﴿ظَلَمُوٓاْ﴾؛ لِأَنَّهُ أَرَادَ التَّعْمِيمَ؛ إِذْ إِنَّ التَّعْبِيرَ عَنِ اتِّخَاذِهِمُ الأَنْدَادَ بِالظُّلْمِ؛ لِمَا فِيهِ مِنْ تَعَدٍّ عَلَى عِدَّةِ حُقُوقٍ؛ فقَدِ اعْتَدَوْا عَلَى حَقِّ اللَّهِ تعالى، مِنْ وُجُوبِ تَوْحِيدِهِ، واعْتَدَوْا عَلَى مَنْ جَعَلُوهُمْ أَنْدَادًا لِلَّهِ تعالى، العُقَلَاءِ مِنْهُمْ وغَيْرِ العُقَلَاءِ، ظَلَمُوهُمْ إِذْ كَانُوا سَبَبًا لِهَوْلٍ يَحْصُلُ لَهُمْ مِن السُّؤَالِ يَوْمَ القِيَامَةِ، كَمَا قال اللَّهُ تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [المَائِدَة: 116]، وظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ في ذَلِكَ بِتَعْرِيضِهَا لِلسُّخْرِيَةِ في الدُّنْيَا، ولِلعَذَابِ في الآخِرَةِ، وظَلَمُوا أَعْقَابَهُمْ، وقَوْمَهُمُ الذينَ يَتْبَعُونَهُمْ في هَذَا الضَّلَالِ، فتَمْضِي عَلَيْهِ العُصُورُ والأَجْيَالُ[3].

الظُّلْمُ يَسْرِي ويَسْتَشْرِي في النَّفْسِ والمُحِيطِ، حَتَّى يُهْلِكَ الحَرْثَ والنَّسْلَ

بلاغةُ اجْتِماعِ ﴿إِذْ﴾ الدّالَّةِ على الماضي، و(لَوْ) الدّالَّةِ على المُسْتَقْبَل:

جُمِعَ في قَوْلِهِ ﷻ: ﴿إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ﴾ بَيْنَ ﴿إِذْ﴾ الدَّالَّةِ عَلَى المَاضِي، و﴿لَوْ﴾ في قَوْلِهِ: ﴿وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ﴾ الدَّالَّةِ عَلَى المُسْتَقْبَلِ، وفي بَيَانِ ذَلِكَ قال الوَاحِدِيُّ: "فإِنْ قِيلَ: كَيْفَ جَاءَتْ

الظُّلْمُ شَنِيعٌ مَهما كان زَمانُهُ، ماضِيًا أَوْ حاضِرًا أو مُسْتَقْبَلًا

(1) حاشية القونوي على تفسير البيضاوي: 4/413.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/93.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/94.

﴿إِذْ﴾ في قَوْلِهِ: ﴿إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ﴾ مَعَ قَوْلِهِ: ﴿وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ﴾ وهَذَا أَمْرٌ مُسْتَقْبَلٌ، و﴿إِذْ﴾ لِمَا مَضَى؟ قِيلَ: إِنَّمَا جَاءَ عَلَى لَفْظِ المُضِيِّ؛ لِإِرَادَةِ التَّقْرِيبِ في ذَلِكَ، كَمَا جَاءَ: ﴿وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾ [النَّحل: 77]، ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٧﴾﴾ [الشُّورَى: 17]، فلَمَّا أُرِيدَ فِيها التَّحْقِيقُ والتَّقْرِيبُ؛ جَاءَ عَلَى لَفْظِ المُضِيِّ، وعَلَى هَذَا جَاءَ في مَا هُوَ مِنْ أَمْرِ الآخِرَةِ أَمْثِلَةُ المَاضِي، كَقَوْلِهِ: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ﴾ [الأَعْرَاف: 44]، ومِمَّا جَاءَ عَلَى لَفْظِ المُضِيِّ لِلتَّقْرِيبِ مِن الحَالِ: قَوْلُ المُقِيمِ: (قَدْ قَامَتِ الصَّلَاةُ)، يَقُولُ ذَلِكَ قَبْلَ إِيقَاعِهِ التَّحْرِيمَ بِالصَّلَاةِ؛ لِقُرْبِ ذَلِكَ مِنْ قَوْلِهِ، وقَدْ جَاءَ كَثِيرٌ مِمَّا في التَّنْزِيلِ مِنْ هَذَا الضَّرْبِ، كَقَوْلِهِ: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ﴾ [الأَنْعَام: 27]، ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [الأَنْعَام: 93]، ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُواْ﴾ [سَبَأ: 51]، ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى﴾ [الأَنْفَال: 50]، فكَمَا جَاءَتْ هَذِهِ الآيَةُ الَّتِي يُرَادُ بِهَا الاسْتِقْبَالُ، بـ﴿إِذْ﴾، كَذَلِكَ جَاءَ: ﴿وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِذْ يَرَوْنَ﴾[1].

مَقْصَدُ حَذْفِ جَوَابِ (لَوْ):

أَحْسَنُ الرُّؤى، ما ذَهَبَ القَلْبُ فيه كلَّ مَذْهَبٍ

قَوْلُهُ ﷻ: ﴿وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ﴾، لَم يرِدْ فِيهِ جَوَابُ (لَوْ)، فهُوَ مَحْذُوفٌ، ومِثْلُ هَذَا كَثِيرٌ في القُرْآنِ الكَرِيمِ، كَقَوْلِهِ ﷻ: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا﴾ [الرَّعْد: 31]، وقَوْلِهِ: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ [الأَنْعَام: 27]، وقَوْلِهِ: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ﴾ [الأَنْعَام: 93]، والحكمةُ مِنْ ذَلِكَ أَنَّ حَذْفَ جَوَابِ (لَوْ) في مِثْلِ هَذه الآي، يَكُونُ أَفْخَمَ وأَبْلَغَ؛ لِذَهَابِ المُخَاطَبِ المُتَوَعَّدِ إِلَى كُلِّ ضَرْبٍ مِن الوَعِيدِ، ولَوْ ذُكِرَ لَهُ ضَرْبٌ مِن الوَعِيدِ لَمْ يَكُنْ مَثْلَ أَنْ يُبْهَمَ عَلَيْهِ؛ لِأَنَّهُ يُوَطِّنُ نَفْسَهُ عَلَى ذَلِكَ المَذْكُورِ، ومَنْ وطَّنَ نَفْسَهُ عَلَى شَيْءٍ لَمْ يَصْعُبْ عَلَيْهِ صُعُوبَتُهُ عَلَى مَنْ لَمْ يُوَطِّنْ نَفْسَهُ عَلَيْهِ، وقَدْ أَحْسَنَ أَبُو القَاسِمِ النَّيْسَابُورِيُّ في صِيَاغَةِ قَاعِدَةٍ بَيَانِيَّةٍ مِنْ ذَلِكَ، فقَالَ: "(لَوْ): إِذَا جَاءَ فِيمَا يُشَوَّقُ إِلَيْهِ، أَوْ يُخَوَّفُ مِنْهُ، قَلَّما يُوَصَلُ بِجَوَابِهِ؛ لِيَذْهَبَ القَلْبُ فِيهِ كُلَّ مَذْهَبٍ"[2].

(1) النيسابوري، التّفسير البسيط: 3/476-477.

(2) إيجاز البيان عن معاني القرآن: 1/130.

فائِدَةُ تأكيدِ القوَّة بـ﴿جَمِيعًا﴾ في قَوْلِهِ: ﴿أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾:

قوّةُ غيرِ اللهِ بالنّسبَةِ لِقُوَّةِ اللهِ كالعَدَمِ

الخَبَرُ المُؤَكَّدُ في قَوْلِهِ ﷻ: ﴿أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ﴾، أَفَادَ كَوْنَ القُوَّةِ لِلّهِ تعالى، وهَذَا التَّأْكِيدُ لَا يَنْفِي أَنْ يَكُونَ لِأَحَدٍ مَا قُوَّةٌ، فجَاءَ بـ ﴿جَمِيعًا﴾؛ لِيُبَيِّنَ أَنَّ قُوَّةَ غَيْرِهِ كَالعَدَمِ، وانْتَصَبَ ﴿جَمِيعًا﴾ عَلَى التَّوْكِيدِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿ٱلْقُوَّةَ﴾، أَيْ: جَمِيعُ جِنْسِ القُوَّةِ ثَابِتٌ لِلَّهِ، وهُوَ مُبَالَغَةٌ لِعَدَمِ الاعْتِدَادِ بِقُوَّةِ غَيْرِهِ، فمُفَادُ ﴿جَمِيعًا﴾ هُنَا، مُفَادُ لَامِ الاسْتِغْرَاقِ في قَوْلِهِ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ [الفَاتِحَة: 02][1]، وكذلك يصحُّ أن يُعربَ حالًا من الجارِّ والمجرورِ، وهو يُفيدُ التَّوْكِيدَ بمعنى كل[2]، فعلى الوَجْهين التَّوْكِيدُ حاضرٌ.

فائدةُ الوَصْلِ في قَوْلِهِ: ﴿أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ﴾:

تهويلُ الخَطْبِ بعطفِ شِدَّةِ العذابِ على كونِ القوَّةِ لله جميعًا

عَطَفَ بَيْنَ الجُمْلَتَيْنِ بالوَاوِ؛ لِاتِّحَادِهِمَا في الخَبَرِيَّةِ؛ فكُلُّ جُمْلَةٍ تَحْمِلُ خَبَرًا مُبَايِنًا لِخَبَرِ الأُخْرَى، "وفَائِدَتُهُ: المُبَالَغَةُ في تَهْوِيلِ الخَطْبِ، وتَفْظِيعِ الأَمْرِ؛ فإِنَّ اخْتِصَاصَ القُوَّةِ بِهِ تعالى، لَا يُوجِبُ شِدَّةَ العَذَابِ؛ لِجَوَازِ تَرْكِهِ عَفْوًا مَعَ القُدْرَةِ عَلَيْهِ"[3].

إيثَارُ الإِظْهَارِ عَلَى الإِضْمَارِ في قَوْلِهِ: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ﴾:

شِدَّةُ العَذابِ مُهابَةٌ كَمَنْ صَدَرَتْ عنه

آثَرَ أَنْ يُعَبِّرَ بِلَفْظِ الجَلَالَةِ دُونَ الضَّمِيرِ، في قَوْلِهِ ﷻ: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ﴾، فلَمْ يَقُلْ: (وَأَنَّهُ شَدِيدُ العَذَابِ)؛ لِتَرْبِيَةِ المَهَابَةِ، وتَفْخِيمِ العَذَابِ، والمُبَالَغَةِ في شِدَّتِهِ، وإِظْهَارِ سُوءِ صَنِيعِهِمْ.

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

العَذَاب والعِقاب:

في عِقابِ الآخِرَةِ حِفْظٌ لِلحُقوقِ، وإِنْصافٌ لِلضُّعَفاءِ والمَظْلومينَ

العِقَابُ يُنبِئُ عَن اسْتِحْقَاقٍ، وسُمِّيَ بِذلك؛ لِأَنَّ الفَاعِلَ يسْتَحِقُّهُ عَقِيبَ فعلِهِ، ويجوزُ أَن يَكونَ العَذَابُ مُسْتَحَقًّا وغيرَ مُسْتَحَقٍّ،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/95.
(2) السمين، الدر المصون: 2/216.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السليم: 1/186، وإسماعيل حقي، روح البيان: 1/270.

وأصل العقَابِ التُّلُوُّ، وهُوَ تأديَةُ الأوّل إِلَى الثَّانِي، يُقَال: عَقِبَ الثَّانِي الأوّلَ: تَلاهُ، وعِقَبَ اللَّيْلُ النَّهَارَ[1].

والعقابُ يقتضي بِظاهِرِه الجزاءَ على فِعْلِه؛ لأنّهُ مِنَ التّعقيبِ والـمُعاقَبَةِ، والعَذابُ ليسَ كذلِكَ؛ إذ يُقالُ للظّالـمِ الـمُبتدئِ بالظّلم إنّه مُعذِّبٌ، وإنْ قيلَ معاقِبٌ فهوَ على سبيل المجازِ لا الحَقيقَةِ، فبَينَهما عُمومٌ وخُصوصٌ[2].

القُوَّة والشِّدَّة:

اللـــــهُ ذُو الـقُـوّة المتـينُ، وبِـيَـدِهِ مَقاليدُ الـسّـمـاواتِ والأرضِ

الشِّدَّةُ في الأَصْل هِيَ مُبَالغَةٌ في وَصْفِ الشَّيْءِ في صلابَةٍ، ولَيْسَت هي من قَبيلِ القُدْرَةِ؛ ولِهَذَا لَا يُقَال للّه: شَدِيدٌ، والقُوَّة من قبيل القُدْرَةِ، وتَأْويل قَوْله تعالى: ﴿أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ [الروم: 9]، أَيْ أَقْوى مِنْهُم، وفي القُرْآن: ﴿ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ۝٥٨﴾ [الذاريات: 58]، أَيِ العَظِيمُ الشَّأْن في القُوَّة، وهُوَ اتِّساعٌ[3].

(1) الفروق اللّغويّة، ص: 239.
(2) الفروق اللّغويّة، ص: 365.
(3) الفروق اللّغويّة، ص: 107.

﴿إِذۡ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ وَتَقَطَّعَتۡ بِهِمُ ٱلۡأَسۡبَابُ ١٦٦﴾ [البقرة: 166]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الرّبطُ بيْنَ عذابِ الظّالمين، وتبرُّؤِ بعضِهِمْ مِنْ بعْضٍ يوْمَ الدِّينِ

لَمّا بَيَّنَ حَالَ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا، بِقَوْلِهِ: ﴿وَلَوۡ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِذۡ يَرَوۡنَ ٱلۡعَذَابَ﴾ عَلَى طَرِيقِ التَّهْدِيدِ، زَادَ فِي هَذَا الوَعِيدِ بِقَوْلِهِ تعالى: ﴿إِذۡ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ وَتَقَطَّعَتۡ بِهِمُ ٱلۡأَسۡبَابُ ١٦٦﴾؛ فبَيَّنَ أَنَّ الَّذِينَ أَفْنَوْا عُمْرَهُمْ عَلَى عِبَادَتِهِمْ، واعْتَقَدُوا أَنَّهُمْ أَوكَدُ أَسْبَابِ نَجَاتِهِمْ، فإِنَّهُمْ يَتَبَرَّؤُونَ مِنْهُمْ عِنْدَ احْتِيَاجِهِمْ إِلَيْهِمْ[1].

شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

تبرُّؤُ المتْبُوعِ مِنَ التّابِعِ، لَيسَ إلّا فِرارًا مِنَ التَّبِعاتِ

1) ﴿تَبَرَّأَ﴾: من الجذر (برأ)، وأَصْلُ هذه المادّة: التَّبَاعُدُ مِنَ الشَّيْءِ ومُزَايَلَتُهُ[2]، والبَرَاءُ: الانفصالُ مِمّا يُكْرَهُ مجاوَرَتُه؛ ولذلك قيل: بَرَأْتُ من المَرَضِ، قال ﷻ: ﴿بَرَآءَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ﴾ [التّوبة: 1]، ﴿أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ وَرَسُولُهُۥ﴾ [التّوبة: 3][3].

كلُّ سَبَبٍ مَوْصُولٍ بِغيرِ الله فهُوَ مُنْقَطِعٌ

2) ﴿وَتَقَطَّعَتۡ﴾: من الجذر (قطع)، وأَصْلُ هذه المادّة يَدُلُّ عَلَى صَرْمٍ وإِبَانَةِ شَيْءٍ مِنْ شَيْءٍ[4]، والقَطْعُ: فَصْلُ الأشياءِ المحْسوسَةِ، كالأجْسامِ، أوِ الأشياءِ المعْقُولَةِ، قال تعالى: ﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَرۡجُلَكُم مِّنۡ خِلَٰفٖ﴾ [الأعراف: 124]، وقَطْعُ الرّحِمِ يكون بالهجْرانِ، قال تعالى: ﴿وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرۡحَامَكُمۡ ٢٢﴾ [محمّد ﷺ: 22][5].

(1) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 1/179-180.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (برأ).
(3) الراغب، المفردات، السمين، عمدة الحفاظ: (برأ).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (قطع).
(5) الراغب، المفردات: (قطع).

أبْقى أسْبابِ العَلائِقِ وأقْواها، ما كانَ للهِ دونَ سِواهِ

3) ﴿ٱلْأَسْبَابُ﴾: منَ الجذر (سبب)، وأَصْلُ هذه المادّةِ يَدُلُّ عَلَى طُولٍ وامْتِدَادٍ، ومِنْ ذَلِكَ السَّبَبُ[1]، وهو: الحَبْل الّذي يُصْعَدُ به النّخْلُ، وجمعُهُ أَسْبَابٌ، قال تعالى: ﴿فَلْيَرْتَقُواْ فِي ٱلْأَسْبَٰبِ ۝١٠﴾ [ص: 10]، وسمّيَ كلُّ ما يُتَوصّل به إلى شَيْءٍ سَبَبًا، قال تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ۝٨٤ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ۝٨٥﴾ [الكهف: 84- 85][2].

وفي الآية يعني بها: وُصَلَهُمُ الّتي كانت تَجْمَعُهُمْ، أسبابُ المودّة والوُصَلات الّتي كانت بينهم في الدّنيا، تقطّعتْ وصارتْ مُخالَّتُهُمْ عَداوَةً[3]، يَعْني القَرابات الّتي كانتْ بَيْنَهم في الدّنيا والصّداقات، فلم يَنتَفِعوا بها[4].

❁ المَعْنَى الإجْمَاليُّ:

عِنْدَ مُعايَنَةِ عَذَابِ الآخِرَةِ، يَتَبَرَّأُ الرُّؤَسَاءُ المَتْبُوعُونَ مِمَّنِ اتَّبَعَهُمْ عَلَى الشِّرْكِ، وتَنْقَطِعَ بَيْنَهُمْ كُلُّ الصِّلَاتِ الَّتِي ارْتَبَطُوا بِهَا في الدُّنْيَا: مِنَ القَرَابَةِ، والاتِّبَاعِ، والدِّينِ، وغَيْرِ ذَلِكَ[5]، فيُسْقَطُ في أَيْدِيهِمْ، ولَا يَجِدُونَ مَلْجَأً مِنَ اللهِ إلَّا إلَيْهِ، ولَكِنْ هَيْهَاتَ وقَدْ رَأَوا العَذَابَ وتَقَطَّعَتْ بِهِم الأَسْبَابُ! فيَنْدَمُونَ ولَاتَ حِينَ مَنْدَمٍ.

❁ الإيضاح اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

تقديرُ مُتَعَلَّقُ الظَّرْفِ في قَوْلِهِ: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ﴾:

في مَوْقِفِ الآخِرَةِ لا تُغْني نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا

ظَرْفُ الزَّمَانِ ﴿إِذْ﴾ في قَوْلِهِ ﷻ: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ﴾، جَعَلَهُ بَعْضُ المُفَسِّرِينَ ظَرْفًا لِشِدَّةِ العَذَابِ، "والمَعْنَى: وإنَّ اللَّهَ شَدِيدُ العَذَابِ حِينَ ﴿تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ﴾ - وهُمْ سَادَاتُ الكُفَّارِ،

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سبب).
(2) الراغب، المفردات: (سبب).
(3) الواحدي، التّفسير البسيط: 3/480.
(4) مكّيّ بن أبي طالب، الهداية إلى بلوغ النّهاية: 1/538.
(5) نخبة من العلماء، التّفسير الميسّر: ص25.

وأَهْلُ الرَّأْيِ مِنْهُمْ، والجَبَابِرَةُ - ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ﴾، وهُمْ أَتْبَاعُ السَّادَات"[1]، "عَامِلُ الإِعْرَابِ في (إِذْ) مَعْنَى شَدِيد، كَأَنَّهُ قَالَ: هُوَ شَدِيدُ العَذَابِ ﴿إِذْ تَبَرَّأَ﴾، يَعْنِي في وقْتِ التَّبَرُّؤِ"[2]، فشِدَّةُ العَذَابِ تَكُونُ وقْتَ التَّبَرُّؤِ.

واخْتَارَ الزَّمَخْشَرِي أَنَّ: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ﴾ بَدَلٌ مِنْ: ﴿إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ﴾[3]؛ فهُمْ تَبَرَّؤُوا مِنْهُمْ في وقْتِ رُؤْيَةِ العَذَابِ، والإعرابَانِ صَحِيحَا المَعْنَى، وإن كان الثَّاني أَقْرَبَ.

إِيثَارُ التَّعْبِيرِ بالفِعْلِ المَاضِي في قَوْلِهِ: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ﴾:

في قَوْلِهِ ﷻ: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ﴾، "جِيءَ بالفِعْلِ بَعْدَ (إِذْ) هُنَا مَاضِيًا، مَعَ أَنَّهُ مُسْتَقْبَلٌ في المَعْنَى؛ لِأَنَّهُ إِنَّمَا يَحْصُلُ في الآخِرَةِ؛ تَنْبِيهًا عَلَى تَحَقُّقِ وُقُوعِهِ"[4]، فهو حديثٌ عن حالٍ مستقبلَةِ الوقوع، بأسلوبِ الإخبارِ عمَّا حصَلَ، تحقيقًا لوقوعِه.

ما أخبَرَ اللهُ بِوُقوعِهِ، فهُو واقِعٌ لا مَحالَةَ

مَا فائِدَةُ ذِكْرِ ﴿تَبَرَّأَ﴾ إِذَا كَانَ مَصِيرُهُم العَذَابَ جَمِيعًا؟

إِذَا كَانَ العَذَابُ مَصِيرَ الأَتْبَاعِ والمَتْبُوعِينَ جَمِيعًا، فما فائِدَةُ قَوْلِهِ ﷻ: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ﴾؟ وقَدْ أَجَابَ الرَّازِي عَنْهُ بِقَوْلِهِ: "مَعْنَى الآيَةِ أَنَّ المَتْبُوعِينَ يَتَبَرَّؤُونَ مِن الأَتْبَاعِ ذَلِكَ اليَوْمِ، فبَيَّنَ تعالى مَا لِأَجْلِهِ يَتَبَرَّؤُونَ مِنْهُمْ، وهُوَ عَجْزُهُمْ عَنْ تَخْلِيصِهِمْ مِن العَذَابِ الَّذِي رَأَوْهُ؛ لِأَنَّ قَوْلَهُ: ﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ١٦٦﴾ يَدْخُلُ في مَعْنَاهُ أَنَّهُمْ لَمْ يَجِدُوا إِلَى تَخْلِيصِ أَنْفُسِهِمْ وأَتْبَاعِهِمْ سَبَبًا، والآيِسُ مِنْ كُلِّ وجْهٍ يَرْجُو بِهِ الخَلَاصَ، مِمَّا نَزَلَ بِهِ وبِأَوْلِيَائِهِ مِن البَلَاءِ، يُوصَفُ بِأَنَّهُ تَقَطَّعَتْ بِهِ الأَسْبَابُ"[5].

الهالِكُ في مَوْقِفِ القِيامَةِ، لا يَنْفَعُ نَفْسَهُ ولا غَيْرَهُ

(1) مكّيّ بن أبي طالب، الهداية إلى بلوغ النّهاية: 1/538.
(2) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 4/180.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/212.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/96.
(5) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 4/180.

فنُّ التَّرْصِيعِ في قَوْلِهِ: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ﴾:

المحسِّناتُ البَديعِيَّةُ لَها أَثَرٌ في النَّفسِ والإيقاعِ

في الآيَةِ ورَدَ تَعْبيرَانِ مُتَوَافِقَانِ، قَوْلُهُ: ﴿ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ﴾، ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ﴾، ويُسَمَّى هَذَا بِالتَّرْصِيعِ[1]، وهُوَ أنْ يَكُونَ الكَلامُ ذا وَقْعٍ صوتيٍّ مُنسابٍ؛ كَقَوْلِهِ تَعالى: ﴿وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُواْ فِيهِۚ﴾ [البقرة: 267]، "وهو مُحَسِّنٌ الحَذْفَ لِضَميرِ المَوْصُولِ في قَوْلِهِ: ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ﴾، إذْ لَوْ جاءَ (اتَّبَعُوهم)؛ لَفاتَ هَذا النَّوْعُ مِنَ البَدِيعِ"[2].

إعرابُ جملةِ ﴿وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ﴾:

ذهَبَ أسَاطينُ البلاغةِ إلى أنَّ معنى الحالِ هو الأوفقُ بالمقامِ

الوَاوُ في قَوْلِهِ ﷻ: ﴿وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ﴾ لِلحَالِ، والجُمْلَةُ بَعْدَهَا حَالِيَّةٌ، والعَامِلُ في هَذِهِ الحَالِ: ﴿تَبَرَّأَ﴾[3]، وهُوَ اخْتِيَارُ الزَّمَخْشَرِي: "أي: تَبَرَّؤُواْ في حَالِ رُؤْيَتِهِمُ العَذَابَ"[4]، ورجّحَهُ الرّازيّ بحجَّةِ أنَّه "أَوْلَى مِنْ سَائِرِ الأَقْوَالِ؛ لِأَنَّ في تِلْكَ الحَالَةِ يَزْدَادُ الهَوْلُ والخَوْفُ"[5]، وجَعَلَهُ أَبُو السُّعُود "لِلتَّنْبِيهِ عَلَى عِلَّةِ التَّبَرُّؤِ"[6]، وزَادَ ابن عَاشُور ذَلِكَ بَيَانًا فقال: "مَوْقِعُ الحَالِ هُنَا حَسَنٌ جِدًّا، وهِيَ مُغْنِيَةٌ عَنِ الاسْتِئْنَافِ الَّذِي يَقْتَضِيهِ المَقَامُ؛ لِأَنَّ السَّامِعَ يَتَسَاءَلُ عَنْ مُوجِبِ هَذَا التَّبَرُّؤِ؛ فإِنَّهُ غَرِيبٌ، فيُقَال: رَأَوُا العَذَابَ، فلَمَّا أُرِيدَ تَصْوِيرُ الحَالِ وتَهْوِيلُ الاستِفظاعِ، عَدَلَ عَنِ الاسْتِئْنَافِ إِلَى الحَالِ؛ قَضَاءً لحقِّ التَّهْوِيلِ، واكْتِفَاءً بالحَالِ عَنِ الاسْتِئْنَافِ؛ لِأَنَّ مَوْقِعَهُمَا مُتَقَارِبٌ"[7].

---

(1) التّرصيع: ويقال فيه: السَّجْعُ المرصَّعُ، وهو أن تكون الألفاظ المتقابلة في السَّجْعَتَيْنِ متّفقةً في أوزانِها وفي أعْجَازِها، أي: في الحرف الأخير من كلّ متقابلين فيها، مثل قول الله ﷻ: ﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ۝ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ۝﴾ [الغاشية: 25 - 26]، فالتّقابُلُ في كَلِمَاتِ الفقرتين يُلاحَظُ فيه الاتفاقُ في الأوزان وفي الحرف الأخير: (إنّ - إِلَيْنَا - إِيَابَهُمْ - ثم إنَّ - عَلَيْنَا - حِسَابَهُمْ)، أمّا كلمة (ثُمَّ)، فهي بمثابة المشترك بين الفقرتين، حبنّكة الميداني، البلاغة العربيّة: 2/505.

(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/92.

(3) السمين، الدّر المصون: 2/217.

(4) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/212.

(5) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 4/180.

(6) أبو السّعود، إرشاد العقل السليم: 1/187.

(7) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/97.

أثرُ الوَصْلِ في تشديدِ العذابِ على الظَّالمين:

التّبرُّؤُ وانْقِطاعُ الأسبابِ، عذابٌ معنويٌّ من ورائِه عذابٌ ماديٌّ

الوَاو في قَوْلِه ﷻ: ﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ﴾، عَطْفٌ عَلَى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ﴾[1]، فيَكُونُ المَعْنَى: عِنْدَ رُؤْيَةِ العَذَابِ حَدَثَ شَيْئَانِ (تَبَرَّؤُواْ مِنْهُمْ)، و(تَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ)، في حَالَةِ رُؤْيَةِ العَذَابِ، وهذا من أشدِّ ما يقعُ على الظَّالمين، إذ يجتمعُ عليهم أمران: تبرُّؤُ المتبوعِين منهم، وانقطاعُ أسبابِ الرَّجاءِ.

مَرْجِعُ الضَّمِيرِ في قَوْلِهِ: ﴿وَرَأَوُاْ﴾، و﴿بِهِمُ﴾:

تَصْويرُ أَزْمَةِ العَلائِقِ بَيْنَ التّابِعِ والمَتْبوعِ، وأنَّهُ لا نَجاةَ لِلطَّرَفينِ

في قَوْلِه ﷻ: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾﴾، ورَدَ اسْمَانِ ظَاهِرَانِ، وهُمَا قَوْلُهُ: ﴿ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ﴾، و﴿مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ﴾، أي المتبوع والتّابعُ كلاهُما، ثُمَّ أَتْبَعَهُمَا إِضْمَارًا، في قَوْلِه: ﴿وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ﴾، و﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ﴾، فضَمِير "﴿رَأَوُاْ﴾ ضَمِيرٌ مُبْهَمٌ، عَائِدٌ إِلَى فريقَي الَّذِينَ اتُّبِعوا والّذين اتَّبَعُوا ... والضَّمِيرُ المَجْرُورُ ﴿بِهِمُ﴾ عَائِدٌ إِلَى كِلَا الفَرِيقَيْنِ"[2]، وهذا يَقُودُ العاقِلَ إلى عَدَمِ مُتَابَعَةِ الظَّالمين في أعمالِهم وأقوالِهم، فلنْ يعْدُو أن يكونَ حِينَئِذٍ إلَّا من أولئك المتقطِّعةِ بهم الأسباب.

مَعْنَى البَاءِ في قَوْلِهِ: ﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ﴾:

يَوْمَ القِيامَةِ لا سَبَبَ ولا نَسَبَ إلّا ما كان باللهِ وللهِ

جَعَلَ الوَاحِدِيُّ البَاءَ في قَوْلِه ﷻ: ﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ﴾ "بِمَعْنَى (عَنْ)، كَقَوْلِه: ﴿فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٩﴾﴾ [الفرقان: 59]، أَيْ: عَنْهُ"[3]، والرَّاجِحُ أَنْ لَا يَخْرُجَ الحَرْفُ إِلَى مَعْنَى حَرْفٍ آخَرَ عَلَى وجْهِ التَّمَام، وهَذَا مَا عَلَيْهِ المُحَقِّقُونَ من النُّحَاةِ وأَهْلِ العَرَبِيَّةِ، وهُوَ مَذْهَبُ البَصْرِيِّينَ؛ فهُمْ لَا يُخْرِجُونَ مَعْنَى حَرْفٍ جَرٍّ إِلَى مَعْنَى حَرْفٍ آخَرَ، وهَذَا أَحَقُّ مَعَ كِتَابِ اللهِ تعالى، وفي البَاءِ هُنَا مِن الدَّلَالَةِ مَا لَيْسَ في (عَنْ)؛ فـ﴿وَتَقَطَّعَتْ

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/212، والرّازيّ، مفاتيح الغيب: 4/180.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/97.
(3) النيسابوري، التّفسير البسيط: 3/478.

بِهِمُ﴾، يُبَيِّنُ أَنَّ وقْتَ زَوَالِ الأَسْبَابِ كَانَ وقْتَ الحَاجَةِ إِلَيْهَا؛ لِمَا في البَاءِ مِنْ مَعْنَى الإِلْصَاقِ، فكَأَنَّ الأَسْبَابَ زَالَتْ عَنْهُمْ وقْتَ حَاجَتِهِمْ إِلَيْهَا، وهُمْ يَظُنُّونَ قُرْبَهَا وفَائِدَتَهَا، فزَالَتْ عَنْهُمْ فجْأَةً، وهَذَا أَظْهَر لِلحَسْرَةِ والفَاجِعَةِ المُرَادِ التَّعْبِيرُ عَنْهَا، وصَرَّحَ بِهَا في الآيَةِ اللَّاحِقَةِ، وهَذَا المَعْنَى لَا يَتَوَفَّرُ عَلَيْهِ الحرفُ (عَنْ)، وإِلَى هَذَا المَعْنَى أَلْمَحَ الفَخْر الرَّازِي بِقَوْلِهِ: "فبَيَّنَ أَنَّ الَّذِينَ أَفْنَوْا عُمْرَهُمْ عَلَى عِبَادَتِهِمْ، واعْتَقَدُوا أَنَّهُمْ أَوكَدُ أَسْبَابِ نَجَاتِهِمْ، فإِنَّهُمْ يَتَبَرَّؤُونَ مِنْهُمْ عِنْدَ احْتِيَاجِهِمْ إِلَيْهِمْ"[1].

ومِنَ الوُجُوهِ الَّتِي ذَكَرُوهَا في البَاءِ هُنَا، أَنَّهَا "لِلسَّبَبِيَّةِ؛ أَيْ تَقَطَّعَتْ بِسَبَبِ كُفْرِهِم الأَسْبَابُ الَّتِي كَانُوا يَرْجُونَ بِهَا النَّجَاةَ، أَوْ لِلتَّعْدِيَةِ، أَيْ قَطَّعَتْهُم الأَسْبَابُ، كَمَا تَقُولُ: فرَّقَتْ بِهِم الطَّرِيقُ، أَيْ فرَّقَتْهُمْ"[2]، وأَحْسَنَ ابنُ عَاشُور إِذْ قَالَ: "البَاءُ في ﴿بِهِمُ﴾ لِلمُلَابَسَةِ، أَيْ: تَقَطَّعَت الأَسْبَابُ مُلْتَبِسَةً بِهِمْ، أَيْ فسَقَطُوا، وهَذَا المَعْنَى هُوَ مَحَلُّ التَّشْبِيهِ؛ لِأَنَّ الحَبْلَ لَوْ تَقَطَّعَ غَيْرَ مُلَابِسٍ لِلمُرْتَقِي عَلَيْهِ، لَمَا كَانَ في ذَلِكَ ضُرٌّ؛ إِذْ يُمْسِكُ بِالنَّخْلَةِ ويَتَطَلَّبُ سَبَبًا آخَر يَنْزِلُ فِيهِ؛ ولِذَلِكَ لَمْ يَقُلْ: (وَتَقَطَّعَتْ أَسْبَابُهُمْ)، أَوْ نَحْوَهُ، فمَنْ قال إِنَّ البَاءَ بِمَعْنَى (عَنْ)، أَوْ لِلسَّبَبِيَّةِ، أَو التَّعْدِيَةِ، فقَدْ بَعُدَ عَن البَلَاغَةِ"[3].

دَلالَةُ التَّعْرِيف في لَفْظِ ﴿ٱلْأَسْبَابُ﴾:

تَنَوُّعُ مَفْهومِ الأسبابِ إلى سَبْعَةِ أقْوالٍ، دَليلُ ثَراءِ اللُّغَةِ القُرْآنِيَّةِ واتِّساعِها

آثَرَ النَّظمُ أَنْ يُعَبِّرَ عَن الأَسْبَابِ بِالتَّعْرِيفِ في قَوْلِهِ ﷻ: ﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ١٦٦﴾؛ لِأَنَّهُ أَرَادَ بِهَا أَسْبَابًا مَعْهُودَةً بَيْنَهُمْ من جهةٍ، ومن جهةٍ أخرى أرادَ أن يجمعَها في كلمةٍ واحدةٍ؛ لتحُلَّ في أذهانِهم جميعًا، وقَدْ أَحْسَنَ الفَخْر الرَّازِيّ، إِذْ جَمَعَ مَا قِيلَ في بَيَانِ هَذِهِ الأَسْبَابِ فقال: "ذَكَرُوا في تَفْسِيرِ الأَسْبَابِ سَبْعَةَ أَقْوَالٍ، الأَوَّلُ: أَنَّهَا المُوَاصَلَاتُ الَّتِي كَانُوا يتواصَلُونَ عَلَيْهَا، الثَّانِي: الأَرْحَامُ الَّتِي كَانُوا يَتَعَاطَفُونَ بِهَا، الثَّالِث: الأَعْمَالُ الَّتِي كَانُوا يُلْزَمُونَهَا، والرَّابِعُ: العُهُودُ والحِلْفُ الَّتِي كَانَتْ بَيْنَهُمْ، يَتَوَادُّونَ عَلَيْهَا، الخَامِس: مَا

(1) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 4/179-180.
(2) إسماعيل حقي، روح البيان: 1/270.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/98.

كَانُوا يَتَوَاصَلُونَ بِهِ مِن الكُفْرِ، وكَانَ بِهَا انْقِطاعُهُمْ، السَّادِسُ: المَنَازِلُ الَّتِي كَانَتْ لَهُمْ في الدُّنْيَا، السَّابِع: أَسْبَابُ النَّجَاةِ تَقَطَّعَتْ عَنْهُمْ، والأَظْهرُ دُخُولُ الكُلِّ فِيهِ، لِأَنَّ ذَلِكَ كَالنَّفْيِ، فيَعُمُّ الكُلَّ، فكَأَنَّهُ قَالَ: وزَالَ عَنْهُمْ كُلُّ سَبَبٍ يُمْكِنُ أَنْ يُتَعَلَّقَ بِهِ، وأَنَّهُمْ لَا يَنْتَفِعُونَ بالأَسْبَابِ عَلَى اخْتِلَافِهَا، مِنْ مَنْزِلَةٍ، وسَبَبٍ، ونَسَبٍ، وحِلْفٍ، وعَقْدٍ، وعَهْدٍ، وذَلِكَ نِهَايَةُ مَا يَكُونُ مِن اليَأْسِ، فحَصَلَ فِيهِ التَّوْكِيدُ العَظِيمُ في الزَّجْرِ"[1].

الِاسْتِعَارَةُ التَّمْثِيلِيَّةُ في تَقَطُّعِ الأَسْبابِ:

بَلاغَةُ هَذِهِ الآيَةِ مِنْ بَدِيعِ ما يُحَيِّرُ العَقْلَ المُتَأَمِّلَ، في رَوْعَةِ القُرآنِ ودِقَّتِهِ

في قَوْلِهِ ﷻ: ﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ١٦٦﴾ اسْتِعَارَةٌ تَمْثِيلِيَّةٌ؛ فتَقَطُّعُ الصِّلَاتِ بَيْنَ الأَتْبَاعِ والمُتَّبَعِينَ، شُبِّهَ بِتَقَطُّعِ الحِبَالِ بِالَّذِي يَصْعَدُ النَّخْلَةَ، عَلَى سَبِيلِ الِاسْتِعَارَةِ التَّمْثِيلِيَّةِ، وهُوَ تَمَاثُلٌ بَيْنَ صُورَتَيْنِ مُرَكَّبَتَيْنِ، وقَدْ فصَّلَ الشَّيْخُ ابْنُ عَاشُور هَذِهِ الاسْتِعَارَةَ، فقال: "شُبِّهَتْ هَيْئَتُهُمْ عِنْدَ خَيْبَةِ أَمَلِهِمْ، حِينَ لَمْ يَجِدُوا النَّعِيمَ الَّذِي تَعِبُوا لِأَجْلِهِ مُدَّةَ حَيَاتِهِمْ، وقَدْ جَاءَ إِبَّانُهُ في ظَنِّهِمْ، فوَجَدُوا عِوَضَهُ العَذَابَ، بِحَالِ المُرْتَقِي إِلَى النَّخْلَةِ لِيَجْتَنِيَ الثَّمَرَ الَّذِي كَدَّ لِأَجْلِهِ طُولَ السَّنَةِ، فتَقَطَّعَ بِهِ السَّبَبُ عِنْدَ ارْتِقَائِهِ فسَقَطَ هَالِكًا، فكَذَلِكَ هَؤُلَاءِ، قَدْ عَلِمَ كُلُّهُمْ حِينَئِذٍ أَنْ لَا نَجَاةَ لَهُمْ، فحَالُهُمْ كَحَالِ السَّاقِطِ مِنْ عُلُوٍّ، لَا تُرْجَى لَهُ سَلَامَةٌ، وهِيَ تَمْثِيلِيَّةٌ بَدِيعَةٌ؛ لِأَنَّ الهَيْئَةَ المُشَبَّهَةَ تَشْتَمِلُ عَلَى سَبْعَةِ أَشْيَاءَ، كُلُّ واحِدٍ مِنْهَا يَصْلُحُ لِأَنْ يَكُونَ مُشَبَّهًا بِوَاحِدٍ مِن الأَشْيَاءِ الَّتِي تَشْتَمِلُ عَلَيْهَا الهَيْئَةُ المُشَبَّهُ بِهَا، وهِيَ: تَشْبِيهُ المُشْرِكِ في عِبَادَتِهِ الأَصْنَامَ، واتِّبَاعِ دِينِهَا، بالمُرْتَقِي، بِجَامِعِ السَّعْيِ، وتَشْبِيهُ العِبَادَةِ، وقَبُولِ الآلِهَةِ مِنْهُ، بالحَبْلِ المُوصِلِ، وتَشْبِيهُ النَّعِيمِ والثَّوَابِ، بِالثَّمَرَةِ في أَعْلَى النَّخْلَةِ؛ لِأَنَّهَا لَا يَصِلُ لَهَا المَرْءُ إِلَّا بَعْدَ طُولٍ، وهُوَ مُدَّةُ العُمُرِ، وتَشْبِيهُ العُمُرِ بِالنَّخْلَةِ في الطُّولِ، وتَشْبِيهُ الحِرْمَانِ مِن المَوْصُولِ لِلنَّعِيمِ بِتَقَطُّعِ الحَبْلِ، وتَشْبِيهُ الخَيْبَةِ بِالبُعْدِ عَن الثَّمَرَةِ، وتَشْبِيهُ الوُقُوعِ في العَذَابِ بِالسُّقُوطِ المُهْلِكِ"[2].

(1) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 4/180-181.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/97-98.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ لَوۡ أَنَّ لَنَا كَرَّةٗ فَنَتَبَرَّأَ مِنۡهُمۡ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّاۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعۡمَٰلَهُمۡ حَسَرَٰتٍ عَلَيۡهِمۡۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ١٦٧﴾ [البقرة: 167]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

أمْنِيّاتٌ بِالرُّجوعِ إلى الدُّنْيا، لِيَتَبَرَّأَ التّابِعُ مِنَ المَتْبوعِ كَما تَبَرَّأَ مِنْهُ:

تَهافُتُ الشِّرْكِ وهَوانُه في الدُّنْيا والآخِرَةِ

لَمَّا بَيَّنَ في الآيَاتِ السَّابِقَةِ حَالَ الأَتْبَاعِ والمُتَّبَعِينَ، وإعْلَانَ بَرَاءَةِ الكُبَرَاءِ والسَّادَةِ مِنْ أَتْبَاعِهِمْ حِينَ يَرَوْنَ العَذَابَ، بَيَّنَ في هَذِهِ الآيَةِ أَنَّ أُولَئِكَ الأَتْبَاعَ يَتَمَنَّوْنَ الرُّجُوعَ إِلَى الدُّنْيَا لِيَتبرّؤوا مِنَ المتبوعين، فالآيَةُ تُكْمِلُ مَا جَاءَ في الآيَتَيْنِ السَّابِقَتَيْنِ، مِنْ بَيَانِ الحَسْرَةِ والنَّدَمِ، وتَقَطُّعِ الصِّلَاتِ بَيْنَ الأَنْدَادِ وأَتْبَاعِهِمْ، لِإِظْهَارِ تَهَافُتِ الشِّرْكِ وهَوَانِهِ في الدُّنْيَا والآخِرَةِ.

شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

1) ﴿كَرَّةٗ﴾: مِنَ الجذْرِ (كرر)، وأَصْلُ هذه المادّةِ يَدُلُّ عَلَى جَمْعٍ وتَرْدِيدٍ، ومِنْ ذَلِكَ: كَرَرْتُ، وذَلِكَ رُجُوعُكَ إِلَيْهِ بَعْدَ المَرَّةِ الأُولَى[1]، الكَرُّ: العطف على الشَّيْءِ بالذّات أو بالفِعْلِ، قال تعالى: ﴿ثُمَّ رَدَدۡنَا لَكُمُ ٱلۡكَرَّةَ عَلَيۡهِمۡ﴾ [الإسراء: 06]، ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ لَوۡ أَنَّ لَنَا كَرَّةٗ﴾ [البقرة: 167][2]، أي: رَجْعَةً إلى الدّنيا[3].

2) ﴿فَنَتَبَرَّأَ﴾: مِنَ الجذْرِ (برأ)، وأَصْلُ هذه المادّة: التَّبَاعُدُ مِنَ الشَّيْءِ ومُزَايَلَتُهُ[4]، والبُرْءُ، والبَرَاءُ: الانفصال ممّا يُكْرَهُ مجاوَرَتُهُ؛ ولِذلك قيل: بَرَأْتُ مِنَ المرَضِ، قال ﷻ: ﴿بَرَآءَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ﴾ [التّوبة: 01]، ﴿أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ وَرَسُولُهُۥۚ﴾ [التّوبة: 03][5].

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (كرّ).
(2) الراغب، المفردات: (كرّ).
(3) الواحدي، التّفسير البسيط: 4/488.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (برأ).
(5) الراغب، المفردات، السمين، عمدة الحفاظ: (برأ).

3) ﴿حَسَرَٰتٍ﴾: مِنَ الجذْرِ (حسر)، وأَصْلُ هذه المادّةِ يدلُّ على كَشْفِ الشَّيْءِ، والحَسْرَةُ: التَّلَهُّفُ عَلَى الشَّيْءِ الفَائِتِ، وذَلِكَ انْكِشَافُ أَمْرِهِ في جَزَعِهِ وقِلَّةِ صَبْرِهِ[1]، وهي: الغَمّ على ما فاتَهُ، والنَّدَمُ عَلَيهِ، كَأَنَّهُ انْحَسَرَ عَنهُ الجَهلُ الّذي حمَلَه على ما ارْتَكَبَهُ، قال تعالى: ﴿لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: 156]، وقال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ﴾ [البقرة: 167][2]، والحسرةُ أعلى دَرجاتِ النَّدامَةِ، والهَمِّ بِما فاتَ[3].

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

يُخبِرُ اللّه تعالى أنّ الأتْباعَ والضُّعَفاء، سَيَتَمَنّوْن الرُّجوع إلى الدُّنيا، ليَتَبرّؤُوا منَ الرؤساءِ الّذين غرّرُوا بِهِم، وهُو ما عَبَّر عَنهُ بما مفادُهُ: أنّ الضُّعَفَاء والأَتْبَاعَ قالُوا: لَيْتَ لَنَا رَجْعَةً إِلَى الدُّنْيَا، فنَتَبَرَّأَ مِنْ رُؤَسَائِنَا، كَمَا تَبَرَّؤُوا مِنَّا! وكَمَا أَرَاهُم اللّهُ العَذَابَ الشَّدِيدَ في الآخِرَةِ، يُرِيهِمْ عَاقِبَةَ مُتَابَعَتِهِمْ لِرُؤَسَائِهِمْ عَلَى البَاطِلِ، حَسراتٍ وأَحْزَانًا، ولَيْسُوا بِخَارِجِينَ أَبَدًا مِن النَّارِ[4].

لا تُغْنِي عنِ الضّالّينَ أمانيهِمْ ولا تَبَرُّؤُهُمْ، وما هم بِخارِجينَ مِنَ النّارِ

الإِيضاح اللُّغَوِيُّ والبَلاغِيُّ:

دَلَالَة التَّمَنِّي بـ﴿لَوْ﴾، في قَوْلِهِ: ﴿لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ﴾:

أداةُ ﴿لَوْ﴾ في قَوْلِه ﷻ: ﴿لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ﴾ أفادَتْ مَعْنَى التَّمَنِّي؛ ولِذَلِكَ أُجِيبَ بالفَاءِ الَّذي يُجَابُ بِهِ التَّمَنِّي، كَأَنَّهُ قِيلَ: لَيْتَ لَنَا كَرَّةً فنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ[5]، وهو ما يُثِيرُ الحسْرَةَ تلوَ الحسْرَة في نُفوسِهم، ولو أنَّ الأتباعَ في الدُّنيا اسْتَجَابُوا لمَا تَحسَّرُوا.

كلُّ الأماني خُلّبٌ يَومَ القِيامَةِ

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حسر).
(2) الراغب، المفردات: (حسر).
(3) ابن عطيّة، المحرَّر الوجيز: 1/236.
(4) جماعة من العلماء، المختصر في تفسير القرآن الكريم: ص: 25.
(5) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/212.

الإيجاز بالحَذْفِ في قَوْلِهِ: ﴿لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً﴾:

بيانُ استحالةِ أن يَكُونَ هُناكَ كَرّةٌ إلى الدُّنْيا بَعدَ فِراقِها

في قَوْلِهِ ﷻ: ﴿لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ﴾، حُذِفَ المُتَعَلِّقُ بالكَرَّةِ، وتَقْدِيرُهُ: (لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً إِلَى الدُّنْيَا)، والكَرّةُ الرَّجْعَةُ إِلَى مَحَلٍّ كَانَ فِيهِ الرَّاجِعُ؛ ولِذَلِكَ تُطْلَقُ في القُرْآنِ عَلَى الرُّجُوعِ إِلَى الدُّنْيَا، فالكَرّةُ: رَجْعَةٌ إِلَى الدُّنْيَا[1]؛ لِأَنَّهُ رُجُوعٌ لِمَكَانٍ سَابِقٍ، وحُذِفَ مُتَعَلِّقُ (الكَرّة) هُنَا لِظُهُورِهِ[2]، وأجرَى الكلامَ على لِسانِهم؛ لبيانِ عِلمِهم وتسليمِهم باستحالةِ الرُّجوعِ، وهذا من أبلغِ التَّحسُّرِ النَّفسيِّ.

مَا فائِدَةُ ذِكْرِ التَّبَرُّؤِ إِذَا كَانَ مَصِيرُهُمْ واحِدًا؟

التَّخفيفُ عن الأنفسِ يمثِّلُ حالةَ الإفلاسِ

التَّبَرُّؤُ لَا يَنْفَعُهُمْ شَيْئًا في ذَلِكَ اليَوْمِ، في قَوْلِهِ ﷻ: ﴿لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ﴾، ولَكِنَّهُمْ "تَمَنَّوْا ذَلِكَ؛ لِأَنَّ التَّبَرُّؤَ يَوْمَ القِيَامَةِ لَا يَضُرُّهُمْ؛ لِأَنَّهُمْ في دَهْشَةٍ عَظِيمَةٍ، والتَّعَارُفُ والأُلْفَةُ بَيْنَهُمْ مُنْقَطِعَةٌ، فمُرَادُهُمْ بِالتَّبَرُّؤِ، الإِذْلَالُ والتَّحْقِيرُ"[3]، فالآيةُ تُبيِّنُ حالَهم المُفلسة، فلا يستطيعونَ شَيْئًا سوى التَّمنِّي، طلبًا للتَّخفيفِ عن أنفسِهم.

دَلَالَةُ الكَافِ في قَوْلِهِ: ﴿فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّاۗ﴾:

التَّبرُّؤُ دَليلُ القُنُوطِ وخَيْبَةِ الأَمَلِ

الكَاف في قَوْلِهِ ﷻ: ﴿كَمَا تَبَرَّءُواْ﴾، "لِلتَّشْبِيهِ، اسْتُعْمِلَتْ في المُجَازَاةِ؛ لِأَنَّ شَأْنَ الجَزَاءِ، أَنْ يُمَاثِلَ الفِعْلَ المُجَازَى، قال تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ﴾ [الشّورى: 40]"[4].

بَيَانُ التَّشْبِيهِ في قَوْلِهِ: ﴿كَذَٰلِكَ﴾:

مَنْ قَطَعَ وَصْلَهُ بِاللهِ في الدُّنْيا، انْقَطَعَ رَجاؤُهُ فيه في الآخِرَةِ

في قَوْلِهِ ﷻ: ﴿كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعۡمَٰلَهُمۡ حَسَرَٰتٍ عَلَيۡهِمۡۖ﴾ تَشْبِيهٌ، وقَدْ أَوْجَزَ الرَّازِي بَيَانَهُ، فقال عند قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ﴾: "وجْهَانِ، الأَوَّل: كَتَبَرُّؤِ بَعْضِهِمْ مِنْ بَعْضٍ، يُرِيهِمُ اللهُ أَعْمَالَهُمْ

(1) النيسابوري، التّفسير البسيط: 4/480.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/99.
(3) حاشية القونوي على تفسير البيضاوي: 4/418.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/99.

حَسَرَاتٍ؛ وذَلِكَ لانْقِطَاعِ الرَّجَاءِ مِنْ كُلِّ أَحَدٍ، الثَّانِي: كَمَا أَرَاهُمُ العَذَابَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ؛ لِأَنَّهُمْ أَيْقَنُوا بِالهَلَاكِ"[1].

دلالةُ اسْمِ الإِشَارَةِ فِي قَوْلِهِ: ﴿كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ﴾:

الإِشَارَةُ فِي قَوْلِهِ ﷻ: ﴿كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾، "إِشَارَةٌ إِلَى إِرَاءٍ آخَرَ، يَقْصِدُ تَشْبِيهَ هَذَا الإِرَاءِ بِهِ، أَيْ: يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ مِثْلَ ذَلِكَ الإِرَاءِ، ويَجُوزُ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ إِشَارَةً إِلَى إِرَائِهِمُ الأَهْوَالَ المَذْكُورَةَ سَابِقًا، مِنْ شِدَّةِ عَذَابِ اللَّهِ تعالى، بِحَيْثُ تَيَقَّنُوا بِهَا أَنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ، وتَقَطَّعَ مَا بَيْنَهُمْ مِن الأَسْبَابِ، أَيْ مِثْلَ إِرَاءَتِهِمْ مَا ذُكِرَ مِن الأَهْوَالِ، يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ"[2]، أَوْ "لِلإِرَاءَةِ المَأْخُوذَةِ مِنْ ﴿يُرِيهِمُ﴾، عَلَى أُسْلُوبِ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا﴾ [البَقَرَة: 143]، والمَعْنَى: أَنَّ اللَّهَ يُرِيهِمْ عَوَاقِبَ أَعْمَالِهِمْ، إِرَاءً مِثْلَ هَذَا الإِرَاءِ؛ إِذْ لَا يَكُونُ إِرَاءٌ لِأَعْمَالِهِمْ أَوْقَعَ مِنْهُ، فَهُوَ تَشْبِيهُ الشَّيْءِ بِنَفْسِهِ، بِاخْتِلَافِ الاعْتِبَارِ، كَأَنَّهُ يُرَامُ أَنْ يُرِيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فِي كَيْفِيَّةٍ شَنِيعَةٍ، فَلَمْ يُوجَدْ أَشْنَعُ مِنْ هَذِهِ الحَالَةِ، وهَذَا مِثْلُ الإِخْبَارِ عَنِ المُبْتَدَأِ بِلَفْظِهِ، فِي نَحْوِ: شِعْرِي شِعْرِي، أَوْ بِمُرَادِفِهِ، نَحْوُ: والسَّفَاهَةُ كَاسْمِهَا"[3].

مَنْ أُرِيَ أعمالَهُ حَسَراتٍ عليهِ فهُوَ مِنَ الهالِكِينَ

مَعْنَى الرُّؤْيَةِ فِي قَوْلِهِ: ﴿يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعۡمَٰلَهُمۡ حَسَرَٰتٍ عَلَيۡهِمۡۖ﴾:

دَلَالَةُ الرُّؤْيَةِ فِي قَوْلِهِ ﷻ: ﴿كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعۡمَٰلَهُمۡ حَسَرَٰتٍ عَلَيۡهِمۡۖ﴾، تَحْتَمِلُ أَنْ تَكُونَ مِن الرُّؤْيَةِ القَلْبِيَّةِ أو البَصَرِيَّةِ؛ فـ"إِنْ كَانَتِ البَصَرِيَّةَ فقولُهُ: ﴿حَسَرَٰتٍ﴾ مُنْتَصِبٌ عَلَى الحَالِ، وإِنْ كَانَتِ القَلْبِيَّةَ فهُوَ المَفْعُولُ الثَّالِثُ، والمَعْنَى: أَنَّ أَعْمَالَهُم الفَاسِدَةَ يُرِيهِمُ اللَّهُ إِيَّاهَا، فتَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ، أَوْ: يُرِيهِم الأَعْمَالَ الصَّالِحَةَ الَّتِي أَوْجَبَهَا عَلَيْهِمْ، فتَرَكُوهَا، فيَكُونُ ذَلِكَ حَسْرَةً عَلَيْهِمْ"[4].

مهما يَكُنْ ما يَرَوْنَ في ذلك المَوْقِفِ، فإنَّ حَسراتِ الفُؤادِ، تُفَتِّتُ الأكبادَ

(1) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 4/181.
(2) زاده، حاشية على البيضاوي: 2/412.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/99-100.
(4) الشّوكاني، فتح القدير: 1/192.

دَلَالَةُ النَّفْيِ المُؤَكَّدِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾:

الخُلودُ في النّارِ لَعْنَةٌ لا تَنْتَهي، وأَلَمٌ لا يَنقَطِعُ

جَاءَ النَّفْيُ مُؤَكَّدًا بالبَاءِ، في قَوْلِهِ ﷻ: ﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾؛ لِيَدُلَّ "عَلَى قُوَّةِ أَمْرِهِمْ فِيمَا أُسْنِدَ إِلَيْهِمْ، لَا عَلَى الاخْتِصَاصِ"[1]، فَبَقَاؤُهُمْ في النَّارِ لَا يُنْقَضُ.

إِيثَارُ التَّعْبِيرِ بالجُمْلَةِ الاسْمِيَّةِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾:

غايَةُ الكافِرِ أن يُزَحْزَحَ عَنِ النّارِ، ولكِنْ (مَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ)

آثَرَ النَّظمُ أَنْ يُعَبِّرَ عَنْ ذَلِكَ بالجُمْلَةِ الاسْمِيَّةِ، ولَمْ يَقُلْ: (وَمَا يَخْرُجُونَ مِن النَّارِ)؛ لِإِفَادَةِ الخُلُودِ والثَّبَاتِ، قال البَيْضَاوِيُّ: "﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ١٦٧﴾ أَصْلُهُ: (وَمَا يَخْرُجُونَ)، فعَدَلَ بِهِ إِلَى هَذِهِ العِبَارَةِ؛ لِلمُبَالَغَةِ في الخُلُودِ، والإِقْنَاطِ عَنِ الخَلَاصِ، والرُّجُوعِ إِلَى الدُّنْيَا"[2]، وقَالَ أَبُو السُّعُودِ: "والأَصْلُ (ومَا يَخْرُجُونَ)، والعُدُولُ إِلَى الاسْمِيَّةِ لِإِفَادَةِ دَوَامِ نَفْيِ الخُرُوجِ، والضَّمِيرُ لِلدَّلَالَةِ عَلَى قُوَّةِ أَمْرِهِمْ، فِيمَا أُسْنِدَ إِلَيْهِمْ"[3].

الاقتصادُ في الكَلَامِ بِذِكْرِ بَعْضِهِ الدّالِ على بعضِهِ الآخر:

لا حَسْرَةَ أَكْبَرُ مِنْ دخولِ النّارِ، بِلا أَمَلٍ في الخُروجِ مِنْها

ذَكَرَتِ الآيَةُ انْتِفَاءَ الخُرُوجِ، ولَمْ تَذْكُرِ الدُّخُولَ فِيهَا قَبْلَهُ، قال أَبُو حَيَّان في بَيَانِهِ: "هَذَا يَدُلُّ عَلَى دُخُولِ النَّارِ، إِذْ لَا يُقَالُ: مَا زَيدٌ بِخَارِجٍ مِنْ كَذَا، إِلَّا بَعْدَ الدُّخُولِ، ولَمْ يَتَقَدَّمْ في الآيَةِ نَصٌّ عَلَى دُخُولِهِمْ، إِنَّمَا تَقَدَّمَ رُؤْيَتُهُم العَذَابَ، ومُفَاوَضَةُ بِسَبَبِ تَبَرُّؤِ المَتْبُوعِينَ مِن الأَتْبَاعِ"[4].

الاعْتِرَاضُ والتَّذْيِيلُ في الآيَةِ:

لا يُغْني حِجاجٌ، ولا يَنْفَعُ احْتِجاجٌ، بَعْدَ الفَصلِ في تقريرِ المَصير

قَوْلُهُ ﷻ: ﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ١٦٧﴾، عَقِبَ ذِكْرِ الحَسَرَاتِ؛ لِيَزِيدَ أَلَمَ الحَسْرَةِ والنَّدَمِ؛ ولِيَكُونَ كَالخَاتِمَةِ لِمَا حَصَلَ بَيْنَهُمْ مِن المُدَافعَةِ والاحْتِجَاجِ والتَّبَرُّؤِ وتَمَنِّي العَوْدَةِ؛ فالنَّارُ هِيَ المُسْتَقَرُّ الأَخِيرُ، ولَمْ تَنْفَعْهُمْ كُلُّ تِلْكَ المُنَاوَشَاتِ الَّتِي حَصَلَتْ قَبْلَ دُخُولِهِمْ

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/212.
(2) البيضاويّ، أنوار التنزيل: 1/118.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السليم: 1/187.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/94.

النَّارَ، وهُوَ "اعْتِرَاضٌ في آخِرِ الكَلَامِ؛ لِقَصْدِ التَّذْيِيلِ لِمَضْمُونِ ﴿كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعۡمَٰلَهُمۡ حَسَرَٰتٍ عَلَيۡهِمۡۖ﴾؛ لِأَنَّهُمْ إِذَا كَانُوا لَا يَخْرُجُونَ مِنَ النَّارِ، تَعَيَّنَ أَنَّ تَمَنِّيَهُمُ الرُّجُوعَ إِلَى الدُّنْيَا، وحُدُوثَ الخَيْبَةِ لَهُمْ مِنْ صُنْعِ رُؤَسَائِهِمْ، لَا فائِدَةَ فِيهِ إِلَّا إِدْخَالُ أَلَمِ الحَسَرَاتِ عَلَيْهِمْ، وإِلَّا فهُمْ بَاقُونَ في النَّارِ عَلَى كُلِّ حَالٍ"[1].

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الحَسْرَة والغَمّ والأَسَف:

الحَسْرَةُ: غَمٌّ يَتَجَدَّدُ لفَوْتِ فائِدَةٍ، فلَيْسَ كلُّ غمّ حَسرَةً، والأَسَفُ: حَسْرَةٌ مَعهَا غَضَبٌ أَو غَيْظٌ، والآسِفُ الغَضبانُ المتَلَهِّفُ على الشَّيْءِ، ثمَّ كَثُرَ ذَلِك حَتَّى جَاءَ في معنى الغَضَب وَحْدَهُ في قَوْله تعالى ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ فَأَغۡرَقۡنَٰهُمۡ أَجۡمَعِينَ ۝٥٥﴾ [الزّخرف: 55]، أَي أغضَبونا، والغَضَبُ من صِفَات اللّه تعالى، وحَقِيقَتُهُ إِيجَابُ العقَاب للمغضُوب عَلَيْه[2].

مَنْ أضاعَ سَعْيَهُ في الكُفْرانِ والنُّكْرانِ، تَجَرَّعَ الحَسْرَةَ وذاقَ الهَوانَ

فالحَسْرَةُ تَخْتَصُّ بِفَوْتِ الفَائِدَةِ، فتَكُونُ أَكْثَرَ مُنَاسَبَةً في الآيَةِ؛ لِأَنَّهَا تَعْبِيرٌ عَنْ تِلْكَ الأَعْمَالِ الَّتِي اكتسَبُوا مِنْهَا العَنَاءَ، فضَاعَتْ آثَارُهَا يَوْمَ القِيَامَةِ، حَيْثُ كَانُوا يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا، فإِذَا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ، والغَمُّ لَا تَجَدُّدَ فِيهِ، والأَسَفُ فِيهِ مَعْنَى الغَضَبِ؛ فهُما لَا يُنَاسِبَانِ التَّعْبِيرَ في الآيَةِ.

الكَرَّة والرُّجُوع:

أَصْلُ مادّة (كرّ) يَدُلُّ عَلَى جَمْعٍ وتَرْدِيدٍ، مِنْ ذَلِكَ كَرَرْتُ، وذَلِكَ رُجُوعُكَ إِلَيْهِ بَعْدَ المَرَّةِ الأُولَى[3]، والكَرُّ: العطف على الشَّيْءِ بالذّات أو بالفِعْلِ، قال تعالى: ﴿ثُمَّ رَدَدۡنَا لَكُمُ ٱلۡكَرَّةَ عَلَيۡهِمۡ﴾ [الإسراء: 06]،

في الفَرْقِ اللَّفْظِيِّ تَتَجَلّى المَعاني، ويُدْرَكُ مَلْمَحُ الاخْتِيَارِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/100.
(2) العسكري، الفروق اللّغويّة، ص: 267.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (كرر).

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ لَوۡ أَنَّ لَنَا كَرَّةً﴾ [البقرة: 167][1]؛ أيْ: رجعَةً إلى الدّنْيا[2]، والرُّجُوعُ: العَوْدُ إلَى مَا كَانَ مِنْهُ البَدْءُ، مَكَانًا كَانَ أَوْ فِعْلًا، أَوْ قَوْلًا، وبِذَاتِهِ كَانَ رُجُوعُهُ، أَوْ بِجُزْءٍ مِنْ أَجْزَائِهِ، أَوْ بِفِعْلٍ مِنْ أَفْعَالِهِ، والرَّجْعُ: الإِعَادَةُ، والرَّجْعَةُ العَودُ إِلَى الدُّنْيَا بَعْدَ المَمَاتِ، ويُقَالُ: فُلَانٌ يُؤْمِنُ بِالرَّجْعَةِ[3].

وجاءَ التَّعْبيرُ في الآيَةِ، عَلى غايَةِ البَلاغَةِ والبَراعَةِ، فالرُّجُوعُ يَدُلُّ على العَوْدَةِ إلى مَكانِ البَدْءِ، أمّا الكَرّةُ فعَوْدَةٌ معَ إرادَةِ التَّكْرارِ؛ فهُم لَمْ يَطْلُبُوا الرُّجوعَ إلى الدُّنيا وحَسْبُ، بل أرادُواْ تَكْرارَ أمرِ التّبرُّؤ، فَهُم لَمْ يَتَمَنَّوُا العَوْدَةَ إلى الدُّنْيَا في هَذَا المَوْضِعِ لِلنَّجَاةِ مِن العَذَابِ بِأَنْ يُؤْمِنُوا، بَلْ لِلانْتِقَامِ والتَّشَفِّي مِنْ سَادَتِهِمْ، بِالتَّبَرُّؤِ مِنْهُمْ.

(1) الراغب، المفردات: (كرر).

(2) الواحدي، التّفسير البسيط: 3/480.

(3) العسكري، معجم الفروق اللّغويّة: ص: 249.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَـٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾﴾ [البقرة: 168]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمّا بَيَّنَ التَّوْحِيدَ ودَلائِلَهُ، ومَا لِلمُوَحِّدِينَ مِن الثَّوابِ، وأَتْبَعَهُ بِذِكْرِ الشِّرْكِ، ومَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللّٰهِ أَنْدَادًا، أَتْبَعَ ذَلِكَ بِذِكْرِ إِنْعَامِهِ عَلَى الفَرِيقَيْنِ، وإِحْسَانِهِ إِلَيْهِمْ، وبيان أَنَّ مَعْصِيَةَ مَنْ عَصَاهُ، وكُفْرَ مَنْ كَفَرَ بِهِ، لَمْ تُؤَثِّرْ في قَطْعِ إِحْسَانِهِ ونِعَمِهِ عَنْهُمْ، فقَالَ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ﴾؛ لِأَنَّهُ تعالى رَبُّ العَالَمِينَ، فإِحْسَانُهُ عَامٌّ لِجَمِيعِ الأَنَامِ، دُونَ تَمْيِيزٍ بَيْنَ مُؤْمِنٍ وكَافِرٍ، وبَرٍّ وفَاجِرٍ[1].

العَلاقَةُ بَيْنَ إِنْعامِ اللهِ، والحَثِّ عَلى أَكْلِ الطَّيِّباتِ، واجْتِنابِ المَنْهِيَّاتِ

شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

1) ﴿كُلُواْ﴾: من الجذْرِ (أكل)، والأَكْلُ: تناوُلُ المَطْعَم، والأُكُلُ: لِما يُؤْكَلُ، قال تعالى: ﴿أُكُلُهَا دَآئِمٌ﴾ [الرّعد: 35]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا﴾ [النّساء: 10]، تنبيهًا على أنّ تناوُلَهُمْ لأموال اليتامى ظلماً يُؤَدّي بهِمْ إلى النّارِ[2].

أكل الطيّبات من نعم الله على عباده الصّالحين

2) ﴿حَلَـٰلًا﴾: مِنَ الجذْرِ (حلّ)، وأَصْلُ المادّة: فَتْحُ الشَّيْءِ، يُقَالُ حَلَلْتُ العُقْدَةَ أَحُلُّهَا، والحَلَالُ: ضِدُّ الحَرَامِ، مِنْ حَلَلْتُ الشَّيْءَ، إِذَا أَبَحْتَهُ وأَوْسَعْتَهُ لِأَمْرٍ فيه[3]، حَلَّ الشَّيْءِ حلالًا، قال الله تعالى: ﴿وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَـٰلًا طَيِّبًا﴾ [المائدة: 88]، وقال تعالى: ﴿هَـٰذَا حَلَـٰلٌ وَهَـٰذَا حَرَامٌ﴾ [النّحل: 116][4]، ومعنى الحَلالِ: المباحُ الّذي انْحَلّتْ عُقْدَةُ الحَظْرِ عنه[5].

أكلُ الطّيّب الحلال، مأمُورُ الله ذي الجلال

(1) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 5/185، وزاده، حاشية على البيضاوي: 2/413.
(2) الراغب، المفردات: (أكل)
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حلّ).
(4) الراغب، المفردات: (حلل).
(5) الواحدي، التّفسير البسيط: 4/483.

لا يكون الحلال إلّا طيّبًا

3) ﴿طَيِّبًا﴾، أصلُ مادّة (طيب) يَدُلُّ عَلَى خِلَافِ الخَبِيثِ، مِنْ ذَلِكَ الطَّيِّبُ: ضِدُّ الخَبِيثِ، والأَطْيَبَانِ: الأَكْلُ والنِّكَاحُ[1]، وأصل الطَّيِّبِ: ما تَسْتَلِذُّهُ الحَواسُّ، وما تَسْتَلِذُّهُ النَّفسُ، وعلى ذلك قوله تعالى: ﴿كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ﴾ [البقرة: 172]، ﴿فَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلٗا طَيِّبٗا﴾ [النّحل: 114][2]، وهو ما يُسْتَلَذُّ ويُستطابُ، ووُصفَ به الحلالُ على جِهَةِ التَّشْبيهِ؛ لأنّ النَّجِسَ تكرهُهُ النّفسُ، فلا يُسْتَلَذُّ، والحرامُ غيرُ مُسْتلَذّ؛ لأنّ الشّرع يَزْجُرُ عَنْهُ[3].

من احتذى خطوات الشّيطان، لم يكن من شرّه في أمان

4) ﴿خُطُوَٰتِ﴾: مِنَ الجذْرِ (خطو)، وأصلُ هذه المادّة يَدُلُّ عَلَى تَعَدِّي الشَّيْءِ، والذَّهَابِ عَنْهُ، والخُطْوَةُ: مَا بَيْنَ الرِّجْلَيْنِ[4]، قال تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ﴾ [البقرة: 168]، أي: لا تتَّبعُوهُ[5]، المعْنَى: لا تتَّبعوا سَبيلَه، ولا تَسْلُكوا طريقَهُ، ولا تَأْتَمّوا به، ولا تَقْفُوا أَثَرَهُ[6].

الشّيطان عدوٌّ الإنسان في كلّ أوان

5) ﴿عَدُوّٞ﴾: مِنَ الجذْرِ (عدو)، وأصلُ هذه المادّة يَدُلُّ عَلَى تَجَاوُزٍ في الشَّيْءِ وتَقَدُّمٍ لِمَا يَنْبَغِي أَنْ يُقْتَصَرَ عَلَيْهِ[7]، والعَدْوُ: التّجاوُزُ ومُنافاةُ الالْتِئام، فمن المعاداة يقال: رجل عدوٌّ، وقوم عدوٌّ، قال تعالى: ﴿بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ﴾ [طه: 123][8].

الأمْرُ بِتَوَخّي الطَّيِّباتِ، ومُجافاةِ الشَّيْطانِ وسُبُلِهِ الخادِعاتِ

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

يخاطِبُ اللّه تَعالى النّاسَ مُبيِّنًا لهمُ المباحَ مِنَ الطّيِّباتِ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ الَّذِي أَبَاحَهُ لَكُمْ في الأَرْضِ، وهُوَ الطَّاهِرُ غَيْرِ النَّجِسِ، النَّافِعُ غَيْرِ الضَّارِّ، فكُلّ ما في الأرض هُوَ حَلالٌ طيِّبٌ،

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (طيب).
(2) الراغب، المفردات: (طيب).
(3) الواحدي، التّفسير البسيط: 4/483.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (خطو).
(5) الراغب، المفردات: (خَطو).
(6) الواحدي، التّفسير البسيط: 3/484.
(7) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عدو).
(8) الراغب، المفردات: (عدو).

إلّا بَعضَ ما حُرّم عَليهِمْ، ولَا تَتَّبِعُوا طُرُقَ الشَّيْطَانِ في التَّحْلِيلِ والتَّحْرِيمِ، والمَعَاصِي، إنَّهُ عَدُوٌّ لَكُمْ ظَاهِرُ العَدَاوَةِ[1].

إنَّ في الحَلالِ مَندوحَةً عَنِ الحَرامِ

وهذه الآيَةُ نَزَلَتْ في ثَقِيفٍ وخُزَاعَةَ وعَامِرِ بْنِ صَعْصَعَةَ، حَرَّمُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ مِن الحَرْثِ والأَنْعَامِ، وحَرَّمُوا البَحِيرَةَ والسَّائِبَةَ والوَصِيلَةَ والحَامِي[2]، وقَالَ ابْنُ عَبَّاس، في رِوَايَةِ أَبِي صَالِح: نَزَلَتْ في الَّذِينَ حَرَّمُوا عَلَى أَنْفُسِهِم السَّوَائِبَ والوصَائِلَ والبَحَائِرَ، وقَالَ في رِوَايَةِ عَطَاءٍ: يَعْنِي: المُؤْمِنِينَ خَاصَّةً[3].

الإيضاح اللُّغَوِيُّ والبَلاغِيُّ:

فائِدَةُ الاسْتِئْنَاف في قَوْله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾:

أكلُ الطّيّباتِ مِنْ نِعَمِ اللهِ على عِبادِهِ الصّالِحينَ

قَوْلُهُ ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ حَلَٰلٗا طَيِّبٗا وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٌ ١٦٨﴾، اسْتِئْنَافٌ ابْتِدَائِيٌّ، وهُوَ تَمْهِيدٌ، وتَلْخِيص لِمَا يَعْقِبُهُ مِنْ ذِكْرِ شَرَائِعِ الإِسْلَامِ، في الأَطْعِمَةِ وغَيْرِهَا، الَّتِي سَتَأْتِي مِنْ قَوْلِهِ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ﴾ [البَقَرَة: 172]"[4].

دَلَالَة فِعْلِ الأَمْرِ في قَوْلِهِ: ﴿كُلُواْ﴾:

(كلوا ممّا في الأرضِ) يَدُلُّ عَلَى الإِبَاحَةِ

فِعْلُ الأَمْرِ في قَوْلِهِ ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ يَدُلُّ عَلَى الإِبَاحَةِ[5]، إذ من المُستحيلِ أن يُؤمرَ النَّاسُ بأكلِ كلِّ ما في الأرضِ جميعًا، إذ هو خارجٌ عن نِطاقِ الاستطاعَةِ، داخلٌ في دائرةِ الاستحالَةِ، ففُهم أنَّ الأمرَ للتَّخيير، وهو الإباحةُ، وهو ما يدُلُّ عليه التَّبعيضُ، هذا في أصلِ الأمرِ، والتَّفْصِيلُ أَنَّ "الأَمْرَ مُسْتَعْمَلٌ في كُلٍّ

(1) التفسير الميسر، ص: 25.
(2) أسباب النّزول، الواحديّ، ص: 48، والعجاب في بيان الأسباب: 1/416.
(3) الواحدي، التّفسير البسيط: 3/482.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/101.
(5) النّسفيّ، مدارك التنزيل وحقائق التأويل: 1/149.

مِن الوُجُوبِ والنَّدْبِ والإِبَاحَةِ، الأَوَّل إِذَا كَانَ لِقِيَامِ البِنْيَةِ، والثَّانِي كَالأَكْلِ مَعَ الضَّيْفِ، والثَّالِثُ كَغَيْرِ مَا ذُكِر"[1]، وهو الأكثرُ.

الأَكْلُ مِنْ كُلّ ما في الأَرْض، عَامٌّ مُخَصَّصٌ بِكَوْنِهِ حلالًا طيّبًا

حِكْمَةُ التَّبْعِيضِ في قَوْلِهِ: ﴿مِمَّا فِي ٱلْأَرْضِ﴾:

(مِنْ) في قَوْلِهِ ﷻ: ﴿مِمَّا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ لِلتَّبْعِيضِ؛ لِأَنَّ كُلَّ مَا في الأَرْضِ لَيْسَ بِمَأْكُولٍ[2]؛ وذَلِكَ "لِلقَطْعِ بِأَنَّ في الأَرْضِ مَا هُوَ حَرَامٌ، كَالحِجَارَةِ، لَا يُؤْكَلُ أَصْلًا، ولَيْسَ كُلُّ مَا يُؤْكَلُ يَجُوزُ أَكْلُهُ؛ فلِذَلِكَ قَالَ: ﴿حَلَٰلًا﴾ وفَائِدَةُ التَّبْعِيضِ هُنَا بَيَانُ التَّنْوِيعِ"، فالتَّبْعِيضُ رَاجِعٌ إِلَى كَوْنِ المَأْكُولِ بَعْضًا مِنْ كُلِّ نَوْعٍ، ولَيْسَ رَاجِعًا إِلَى كَوْنِ المَأْكُولِ أَنْوَاعًا دُونَ أَنْوَاعٍ؛ لِأَنَّهُ يُفَوِّتُ غَرَضَ الآيَةِ، فـ﴿مِمَّا فِي ٱلْأَرْضِ﴾، عَامٌّ خَصَّصَهُ الوَصْفُ بِقَوْلِهِ: ﴿حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾، فخَرَجَتِ المُحَرَّمَاتُ الثَّابِتُ تَحْرِيمُهَا بالكِتَابِ، أَوِ السُّنَّةِ"[3].

الأَصْلُ حِلُّ ما في الأَرْضِ، حَتَّى يَرِدَ دَلِيلٌ يَقْتَضِي تَحْرِيمَهُ

دَلَالَةُ العُمُومِ في قَوْلِهِ: ﴿مِمَّا فِي ٱلْأَرْضِ﴾:

الاسْمُ المَوْصُولُ (مَا) في قَوْلِهِ ﷻ: ﴿كُلُواْ مِمَّا فِي ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾، يَدُلُّ عَلَى العُمُومِ، وهَذَا يَدُلُّ "عَلَى أَنَّ كُلَّ مَا لَمْ يَرِدْ فِيهِ نَصٌّ، أَوْ ظَاهِرٌ مِن الأَعْيَانِ المَوْجُودَةِ في الأَرْضِ، فأَصْلُهُ الحِلُّ، حَتَّى يَرِدَ دَلِيلٌ يَقْتَضِي تَحْرِيمَهُ، وأَوْضَحُ دَلَالَةً عَلَى ذَلِكَ مِنْ هَذِهِ الآيَةِ قَوْلُهُ تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: 29]"[4].

بَيَانُ الحُكْمِ الشَّرْعِيّ مع عِلَّتِه

وظِيفَةُ قَوْلِهِ: ﴿حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾ الإعرابيَّة في الجُمْلَةِ:

قَوْلُهُ ﷻ: ﴿كُلُواْ مِمَّا فِي ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾، اخْتَلَفَ المُفَسِّرُونَ في بَيَانِ وظِيفَةِ: ﴿حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾ قال الرَّازِي: "إِنْ شِئْتَ نَصَبْتَهُ عَلَى الحَالِ مِمَّا في الأَرْضِ، وإِنْ شِئْتَ نَصَبْتَهُ عَلَى أَنَّهُ مَفْعُولٌ"[5]،

(1) القِنّوجي، فتح البيان: 1/334.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/213، والنّسفيّ، مدارك التنزيل: 1/149.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/102.
(4) القِنّوجي، فتح البيان: 1/334.
(5) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 5/185.

و﴿حَلَٰلًا﴾ مَفْعُولُ ﴿كُلُواْ﴾، أَوْ صِفَةُ مَصْدَرٍ مَحْذُوفٍ، أَوْ حَالٌ من ﴿مِمَّا فِي ٱلْأَرْضِ﴾"[1]، وقَالَ ابْنُ عَطِيَّة: "مَقْصِدُ الكَلَامِ لَا يُعْطِي أَنْ يَكُونَ ﴿حَلَٰلًا﴾ مَفْعُولاً بـ ﴿كُلُواْ﴾"[2]، وقَدْ أَحْسَنَ الشَّيْخُ ابْنُ عَاشُور في بَيَانِ ذَلِكَ: "وَقَوْلُهُ: ﴿حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾ حَالَانِ مِنْ (مَا) المَوْصُولَة، أَوَّلُهُمَا لِبَيَانِ الحُكْمِ الشَّرْعِيِّ، والثَّانِي لِبَيَانِ عِلَّتِه؛ لِأَنَّ الطَّيِّبَ مِنْ شَأْنِه أَنْ تَقْصِدَهُ النُّفُوسُ لِلِانْتِفَاعِ بِهِ، فَإِذَا ثَبَتَ الطِّيبُ ثَبَتَتِ الحِلِّيَّةُ؛ لِأَنَّ اللَّه رَفِيقٌ بِعِبَادِهِ، لَمْ يَمْنَعْهُمْ مِمَّا فِيهِ نَفْعُهُم الخَالِصُ أَو الرَّاجِحُ"[3].

دَلالَةُ الجَمْعِ بَينَ الصِّفَتَيْنِ: الحَلالِ والطَّيِّبِ:

كُلُّ ما جَمَعَ الصِّفَتَيْنِ، جازَ الانْتِفاعُ بِهِ بِكُلِّ وَجْهٍ أَحَلَّهُ الشَّرْعُ

في قَوْلِه ﷻ: ﴿كُلُواْ مِمَّا فِي ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾، جَمَعَ بَيْنَ صِفَتَيْنِ: الحَلَالِ والطَّيِّب؛ لِأَنَّهُ "أَرَادَ كُلَّ مَا يُغْتَذَى بِهِ مِن المَطَاعِم؛ ولِهَذَا جَمَعَ بَيْنَ الوَصْفَيْنِ لِاخْتِلَافِ الفَائِدَتَيْنِ؛ إِذْ وَصْفُهُ بِأَنَّهُ حَلَالٌ، يُفِيدُ أَنَّهُ طَلْقٌ، ووَصْفُهُ بِأَنَّهُ طَيِّبٌ أَنَّهُ يُغْتَذَى بِهِ، وهُوَ مُستَلَذٌّ في العَاجِلِ والآجِلِ، فعَلَى هَذَا: التُّرَابُ والخَشَبُ طَاهِرانِ، ولَا يَحِلُّ أَكْلُهُمَا؛ لِأَنَّهُمَا لَيْسَا مِن الطَّيبِ الَّذِي يُغْتَذَى بِهِ"[4]، وقَالَ الزَّجَّاجُ: "هَذَا عَلَى ضَرْبَيْنِ: أَحَدُهُمَا الإِبَاحَةُ، لِأَكْلِ جَمِيعِ الأَشْيَاءِ إِلَّا مَا قَدْ حَظَرَ اللَّه ﷻ مِن المَيْتَة، ومَا ذَكَرَ مَعَهَا، فيَكُونُ ﴿طَيِّبًا﴾ نَعْتًا لِلحَلَالِ، ويَكُون لفظُ ﴿طَيِّبًا﴾ نَعْتًا لِمَا يسْتَطَابُ، والأَجْوَد أَنْ يَكُونَ ﴿طَيِّبًا﴾: مِنْ حَيْثُ يَطِيبُ لَكُمْ، أَيْ لَا تَأْكُلُوا وتُنْفِقُوا مِمَّا يَحْرُمُ عَلَيْكُمْ"[5]، فالآيَةُ تَخُصُّ المَأْكُولَ، فما يُؤْكَلُ يَجِبُ أَنْ يَجْمَعَ الصِّفَتَيْنِ، وإِلَى هَذَا أَشَارَ أَبُو حَيَّان: "وَظَاهِرُ الآيَةِ أَنَّ مَا جَمَعَ الوَصْفَيْنِ: الحِلَّ والطَّيِّبَ مِمَّا في الأَرْضِ، فهُوَ مَأْذُونٌ في أَكْلِه، أَمَّا تملُّكُهُ والتَّصَدُّقُ بِهِ، أَوِ ادِّخَارُهُ، أَوْ سَائِرُ الِانْتِفَاعَاتِ بِهِ غَيْرَ الأَكْلِ، فلَا تَدُلُّ عَلَيْهِ الآيَةُ"[6].

(1) البيضاويّ، أنوار التنزيل: 1/118.
(2) ابن عطيّة، المحرَّر الوجيز: 1/237، وأبو حيّان، البحر المحيط: 2/99.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/102، وإسماعيل حقي، روح البيان: 1/271.
(4) النيسابوري، التّفسير البسيط: 3/483.
(5) الزّجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 1/241.
(6) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/101.

دَلَالَةُ النَّهْيِ عَن اتِّبَاعِ الخُطوَاتِ في قَوْلِهِ: ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ﴾:

إباحَةُ الأكْلِ مِنَ الحَلالِ الطَّيِّبِ، يُفْهَمُ مِنها ضِمْنًا النَّهيُ عَنِ الحَرامِ الخَبيثِ

الخُطُوَات في قَوْلِهِ: ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ﴾، تَعْنِي كُلَّ المَعَاصِي، فلَا تَخْتَصُّ بِمَعْصِيَةٍ دُونَ غَيْرِهَا، فالمُرَادُ "النَّهْيُ عَنْ مَعْصِيَةِ اللَّهِ، وكَأَنَّهُ تعالى لَمَّا أَبَاحَ لَهُمُ الأَكْلَ من الحَلَالِ الطَّيِّبِ، نَهَاهُمْ عَنْ مَعَاصِي اللَّهِ، وعَن التَّخَطِّي إِلَى أَكْلِ الحَرَامِ؛ لِأَنَّ الشَّيْطَانَ يُلْقِي إِلَى المَرْءِ، مَا يَجْرِي مَجْرَى الشُّبْهَةِ، فيُزَيِّنُ بِذَلِكَ مَا لَا يَحِلُّ، فزَجَرَ اللَّه عَنْ ذَلِكَ ... والنَّهْيُ هُنَا عَنِ اتِّبَاعِ كُلِّ فَرْدٍ مِن المَعَاصِي، لَا أَنَّ ذَلِكَ يُفِيدُ الجَمْعَ، فلَا يَكُونُ نَهْيًا عَن المُفْرَدِ"[1].

براعةُ الاسْتِعارَةِ في جَرَيانِها مجرى المَثَل:

الشَّيْطانُ عدُوُّ الإنْسانِ عَلى الدَّوامِ، واتِّباعُ خُطُواتِهِ ضَلالٌ وهَلاكٌ

النَّهْي في قَوْلِهِ ﷻ: ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ﴾ يَعْنِي تَرْكَ اتِّبَاعِهِ، وجَعَلَهُ الشَّرِيفُ الرَّضِيّ اسْتِعَارَةً عَن الاقْتِدَاءِ بِهِ، واتِّبَاعِ آثَارِهِ، قال في تَلْخِيصِ البَيَانِ: "وقَوْلُهُ تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ﴾، أَيْ لَا تَنْجَذِبُوا في قِيَادِهِ، لِأَنَّ المُنْجَذِبَ في قِيَادِ غَيْرِهِ، تَابِعٌ لِخُطُوَاتِهِ، وهَذِهِ مِنْ شَرَائِفِ الاسْتِعَارَةِ؛ فهِيَ أَبْلَغُ عِبَارَةٍ عَن التَّحْذِيرِ مِنْ طَاعَةِ الشَّيْطَانِ، فِيمَا يَأْمُرُ بِهِ، وقَبُولِ قَوْلِهِ فِيمَا يَدْعُو إِلَى فِعْلِهِ"[2].

ووضَّح كلامَه ابْنُ عَاشُور فقال: "واتِّبَاعُ الخُطُوَاتِ تَمْثِيلِيَّةٌ، أَصْلُهَا أَنَّ السَّائِرَ إِذَا رَأَى آثَارَ خُطُوَاتِ السَّائِرِينَ، تَبِعَ ذَلِكَ المَسْلَكَ؛ عِلْمًا مِنْهُ بِأَنَّهُ مَا سَارَ فِيهِ السَّائِرُ قَبْلَهُ إِلَّا لِأَنَّهُ مُوَصِّلٌ لِلمَطْلُوبِ، فشَبَّهَ المُقْتَدِيَ الَّذِي لَا دَلِيلَ لَهُ سِوى المُقْتَدَى بِهِ، وهُوَ يَظُنُّ مَسْلَكَهُ مُوَصِّلًا، بِالَّذِي يَتَّبِعُ خُطُوَاتِ السَّائِرِينَ، وشَاعَتْ هَاتِهِ التَّمْثِيلِيَّةُ حَتَّى صَارُوا يَقُولُونَ: هُوَ يَتَّبِعُ خُطا فُلَان، بِمَعْنى يَقْتَدِي بِهِ ويَمْتَثِلُ لَهُ"[3].

(1) المصدر السّابق: 2/101.

(2) الشريف الرضي، تلخيص البيان في مجازات القرآن: 2/118.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/103.

وجَعَلُها أَبُو حَيَّانَ مِن الكِنَايَةِ، قَالَ: "والنَّهْيُ عَنِ اتِّبَاعِ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ، كِنَايَةٌ عَنْ تَرْكِ الاقْتِدَاءِ بِهِ، وعَن اتِّبَاعِ مَا سَنّ مِن المَعَاصِي"[1]، ومَعْنَى (خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ) طُرُقُهُ، أَيْ لَا تَسْلُكُوا الطَّرِيقَ الَّذِي يَدْعُوكُمْ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ"[2]، ومآلَها في المعنى إلى التَّمثيليَّة.

دلالة الألف واللّامِ في ﴿ٱلشَّيۡطَٰنِۚ﴾ بين الجنسِ والعَهْدِ:

الألف واللَّام في قَوْلِهِ ﷻ: ﴿ٱلشَّيۡطَٰنِۚ﴾، يَجُوزُ فِيهَا أَنْ تَكُونَ لِلجِنْسِ، أو لِلعَهْدِ، قال أَبُو حَيَّان: "وَالشَّيْطَانُ هُنَا إِبْلِيسُ"[3]، وهِيَ بِهَذَا التَّفْسِيرِ تَدُلُّ عَلَى العَهْدِ، وأَشَارَ الشَّيْخُ ابْنُ عَاشُور إِلَى أَنَّ لَهَا مَعْنَيَين؛ فقال: "واللَّامُ في ﴿ٱلشَّيۡطَٰنِۚ﴾ لِلجِنْسِ، ويَجُوزَ أَنْ تَكُونَ لِلعَهْدِ، ويَكُونُ المُرَادُ إِبْلِيسَ، وهُوَ أَصْلُ الشَّيَاطِينِ وآمِرُهُمْ؛ فكُلُّ مَا يَنْشَأُ مِنْ وسْوَسَةِ الشَّيَاطِينِ، فهُوَ رَاجِعٌ إِلَيْهِ؛ لِأَنَّهُ الَّذِي خَطَا الخُطُوَاتِ الأُولَى"[4].

العَهديَّةُ تدلُّ على الأصلِ والجنسيَّةُ تدلُّ على الفَرْعِ، واتِّباعُ أحدِهما اتِّباعٌ للآخرِ

دَلالَةُ قَوْلِهِ تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٌ﴾:

جَاءَ قَوْلُهُ ﷻ: ﴿إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٌ﴾، بَعْدَ النَّهْيِ عَنْ اتِّبَاعِ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ، في قَوْلِهِ جَلَّ شَأْنُهُ: ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ﴾، لِيَكُونَ جَوَابًا عَنْ سُؤَالٍ عَن العِلَّةِ الَّتِي مِنْ أَجْلِهَا مَنَعَ اتِّبَاعَ خُطُوَاتِهِ، فالجُمْلَةُ "تَعْلِيلٌ لِسَبَبِ هَذَا التَّحْذِيرِ مِنَ اتِّبَاعِ الشَّيْطَانِ، لِأَنَّ مَنْ ظَهَرَتْ عَدَاوَتُهُ واسْتَبَانَتْ، فهُوَ جَدِيرٌ بِأَنْ لَا يُتَّبَعَ في شَيْءٍ، وأَنْ يُفَرَّ مِنْهُ، فإِنَّهُ لَيْسَ لَهُ فِكْرٌ إِلَّا في إِرْدَاءِ عَدُوِّهِ"[5]، فهو "تَعليلٌ لِلنَّهي عَنِ الاتِّباعِ"[6]، ويُؤَكِّدُ ذلك مَجيءُ (إنّ)؛ لِأنّها تُفيد مَعنى التَّعليلِ والرَّبْطِ، بَعْدَ الأمر والنّهي.

تعليلُ التّحذيرِ مِنِ اتِّباعِ الشَّيطانِ، حَصانَةٌ لِلإنْسانِ

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/101.
(2) الزجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 1/241.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/101.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/103.
(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/101.
(6) القِنّوجي، فتح البيان: 1/335.

دَلالَةُ تَأْكِيدِ الخَبَرِ:

عَداوَةُ الشَّيْطانِ للنَّاسِ مُتَقَرِّرَةٌ في العُقولِ مُغَيَّبَةٌ في الأعمالِ

جاء الخبرُ مُؤكّدًا بـ (إنّ) في قوله ﷻ: ﴿إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٌ ١٦٨﴾، للاهْتِمامِ بالخَبر؛ "لأنّ العداوةَ بين الشّيطان والنّاسِ، معلومةٌ متقرّرة، عند المؤمنين والمشركين، وقد كانُوا في الحجّ يرمون الجِمار، ويَعْتَقِدُون أنّهُم يرجُمُون الشّيطانَ، أو تجعل (إنّ) للتّأكيد، بتنزيلِ غيرِ المتردِّدِ في الحكمِ مَنزلةَ المُتَردِّدِ أو المُنْكِرِ؛ لأنّهُمْ لِاتّباعِهِمُ الإشاراتِ الشّيطانِيَّةَ، بِمَنزلةِ مَنْ يُنْكِرُ عَداوتَهُ"[1]، وهذا الاهتمامُ يبلُغُ مبلغَ خطابِ المُنكرين؛ لأنَّ اتِّباعَ الشَّيطانِ هو حالُ الجُمهورِ الأعظمِ من النَّاس، فباتَتْ أعمالُهم دليلَ أفكارِهم، بل أصبح هناك من يعبدُ الشَّيطانَ من دون اللّه، اتِّباعًا للشُّهرَةِ، وانقيادًا للتَّفاهةِ.

نكتةُ التَّقْدِيمِ والتَّأْخِيرِ في قَوْلِهِ: ﴿إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٌ﴾:

القُرآنُ مُوَجَّهٌ لكلِّ إنسانٍ، وعلى المُخاطَبينَ إيصالُهُ إلى كلِّ إنسانٍ

قدّمَ الجارَّ والمجرورَ ﴿لَكُمۡ﴾ في قولِهِ ﷻ: ﴿إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٌ ١٦٨﴾، على مُتَعَلَّقِهِ وهو قولُهُ: ﴿عَدُوّٞ مُّبِينٌ ١٦٨﴾؛ لِبَيَانِ أَنَّ عَدَاوَتَهُ لِلمُخَاطَبِينَ دُونَ سِوَاهُمْ، وذلك باعتبارِ أنَّ هذه الآيةَ يجبُ أنْ تصلَ إلى كلِّ إنسانٍ تبليغًا واحتجاجًا فتكون خطابًا له، ففيها دعوةٌ إلى تبليغ القُرآنِ للأنامِ، وأنَّ التَّقصيرَ في ذلك عمدًا هو من اتِّباعِ خُطُواتِ الشَّيطانِ.

التّعبيرُ عَن عَداوةِ الشّيطانِ بِالإبانَةِ بِقوْلِهِ: ﴿مُّبِينٌ﴾:

الشّيْطانُ عَصِيٌّ عليهِ الأتْقِيَاءُ، ولا يَسْتَدرِجُ إلّا مَطْمُوسي البَصائِرِ

عبّرَ قولُه ﷻ: ﴿إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٌ ١٦٨﴾، بالإبَانَةِ عَنِ انْكِشَافِ عَدَاوَةِ الشَّيْطَانِ لِلنَّاسِ، فهي ظاهرةٌ لا خَفاءَ بها، فالشيطان "ظَاهِرُ العَدَاوَةِ لَا خَفَاءَ بِهِ، ظَاهِرِ العَدَاوَةِ عِنْدَ ذَوِي البَصِيرَةِ وإِنْ كَانَ يُظْهِرُ المُوَالَاةَ لِمَنْ يُغْوِيه، ولِذَلِكَ سَمَّاهُ وليًّا، في قولِهِ تعالى: ﴿أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ﴾ [البقرة: 257]"[2]، وهذه الآية لا يناقضُها قولُه ﷻ: ﴿وَٱلَّذِينَ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/104.
(2) البيضاويّ، أنوار التنزيل: 1/118.

﴿كَفَرُوٓاْ أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ﴾ [البقرة: 257]، على أنّ المرادَ بالطّاغوت الشّيطانُ، فالتَّعبيرُ بِأنّهُ وليٌّ لهم، لا يناقِضُ عَداوَتَهُ؛ " لأنّه عَدُوٌّ للنّاسِ حقيقَةً، ووليُّهم ظاهرًا؛ فإنّه يُريهم في الظّاهرِ الموالاةَ، ويزيّن لهم أعمالَهُمْ، ويُريد بذلِكَ هَلاكَهُم في الباطِنِ"[1].

(1) النّسفيّ، مدارك التنزيل: 1/149.

﴿إِنَّمَا يَأۡمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلۡفَحۡشَآءِ وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ١٦٩﴾ [البقرة: 169]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

رَبْطٌ بَينَ عَداوةِ الشَّيطانِ وما يَتَمَخّضُ عَنْها مِنْ سُوءٍ وفَحْشاءَ وافْتراءٍ عَلى اللهِ

بَعْد أَنْ ذَكَرَ ﷻ في الآيَةِ السَّابِقَةِ أَنَّ الشَّيْطَانَ عَدُوٌّ مُبِينٌ لِلإِنْسَانِ، بَيّنَ في هَذِهِ الآيَةِ مَاذَا يَفْعَلُ مع الإنسان، أي: شرع في ذكر ثَمَرَةَ العَدَاوَةِ، ومَا نَشَأَ عَنْهَا، وهُوَ أَمْرُهُ بِمَا ذَكَرَهُ في الآيَةِ[1]، فالآيَةُ كَالتَّفْصِيلِ لِجُمْلَةِ عَدَاوَتِهِ، وهي تَفْسِيرٌ لِقَوْلِهِ تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ﴾[2]، الّتي ورَدَتْ في سُورَةِ البَقَرةِ بَعْدَ ذلِكَ، في الآيتين 168 و208.

شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

لفظ (السُّوء) اسمٌ جامعٌ لكلّ آفة وقُبح

1) ﴿بِٱلسُّوٓءِ﴾: مِنَ الجذْرِ (سوء)، وأصلُ هذه المادّةِ يدُلُّ على القُبْحِ، وسُمِّيَتِ النَّارُ سُوأَى، لِقُبْحِ مَنْظَرِهَا[3]، وساء الشَّيْء: قَبُحَ، والسّوءُ نَعْتٌ لكلِّ شيء رَديءٍ، وهو اسمٌ جامعٌ للآفاتِ والدّاءِ[4]، وهوَ: كلُّ ما يَغُمُّ الإنسانَ، والسَّيِّئَةُ: الفِعْلَةُ القبيحةُ[5].

كُلُّ شيْءٍ جاوز قَدْرَهُ المشروع، من أحكام الدّين، فهُو فاحشٌ

2) ﴿وَٱلۡفَحۡشَآءِ﴾: مِنَ الجذْرِ (فحش)، وأصلُ هذه المادّة يَدُلُّ عَلَى قُبْحٍ في شَيْءٍ وشَنَاعَةٍ، وكُلُّ شَيْءٍ جَاوَزَ قَدْرَهُ فهُوَ فاحِشٌ، ولَا يَكُونُ ذَلِكَ إِلَّا فِيمَا يُتَكَرَّهُ[6]، والفُحْشُ والفَحْشَاءُ والفَاحِشَةُ: ما عَظُمَ قُبْحُه من الأفعال والأقوال، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ﴾ [الأعراف: 28][7].

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/102، والواحدي، التّفسير البسيط: 3/487.
(2) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 5/186.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سوء).
(4) الخليل، العين: 7/327.
(5) الراغب، المفردات: (سوء).
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (فحش).
(7) الراغب، المفردات: (فحش).

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

يُبَيِّن اللَّهُ تعالى لِلنَّاسِ عَدَاوَةَ الشَّيْطَانِ؛ فهُوَ لَا يَأْمُرُكُمْ إِلَّا بالأَفْعَالِ القَبِيحَةِ، فيُزَيِّنُ لَكُمْ مَعَاصِي اللَّهِ تعالى، مِمَّا لَا يَرْضَاهُ لَكُمْ، ويُوَسْوِس لَكُمْ بالشَّهَوَاتِ والآثَامِ، إِنَّمَا يَأْمُرُكُم الشَّيْطَانُ بِكُلِّ ذَنْبٍ قَبِيحٍ، وبِكُلِّ مَعْصِيَةٍ بَالِغَةِ القُبْحِ، وبِأَنْ تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الكَذِبَ مِنْ تَحْرِيمِ الحَلَالِ وغَيْرِهِ بِدُونِ عِلْمٍ[1].

مَنْ تَبِعَ الشَّيْطَانَ، ولَغَ في السّوءِ والفَحْشاءِ، وافْترى عَلى اللهِ بِغيرِ عِلمٍ

الإيضاحُ اللُّغَوِيُّ والبَلاغِيُّ:

الاسْتِئْنافُ البَيانِيُّ، ومَظاهِرُ الإغْواءِ الشَّيْطانِيّ:

قوله ﷻ: ﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ١٦٩﴾، اسْتِئْنافٌ، وقَد حَسُنَ هنا لِحاجَةِ الكَلامِ السّابِقِ إلى تَبْيِينٍ وتَفسيرٍ، فالآيةُ "بَيانٌ لوُجوبِ الانتهاءِ عَنِ اتِّباعِهِ، وظُهورِ عَداوَتِهِ، أيْ لا يأمُرُكُم بِخَيرٍ قَطُّ"[2]، فهو "اسْتِئْنافٌ لبَيانِ كَيفِيّةِ عَداوتِه، وتفصيلٌ لفُنونِ شَرِّه وإفسادِه، وانْحِصارِ مُعامَلَتِه مَعَهُم في ذلك"[3]، وفائدته أنّه يُبيِّن علّةَ كون الشّيطان عدوًّا ظاهرَ العداءِ، المعبَّرِ عنه في قوله ﷻ: ﴿إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ١٦٨﴾ في الآية السّابقة، وقد كان قوله تعالى هذا، علّةً للنّهي عَنِ اتّباعِ خطُواتِه، فيَكونُ قَولُه ﷻ: ﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ﴾، علّةً للعلّة، وهذا ما أشار إليه الشّيخ ابن عاشور؛ فقال: "اسْتِئْنافٌ بيانيٌّ لقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ١٦٨﴾، فيؤُولُ إلى كونه علَّةً للعلَّة؛ إذ يَسألُ السّامعُ عن ثُبوتِ العَداوَةِ مَع عَدَمِ سَبْقِ المعرفةِ، ومع بُعْدِ ما بَيْنَنَا وبينَه، فقيل: ﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُم﴾، أي: لأنّه لا يأمركم إلّا بالسّوء ... إلخ، أيْ يُحَسِّنُ لكم ما فيه مَضَرَّتُكم؛ لأنّ عَداوَتَهُ أمْرٌ خَفِيٌّ، عَرَفناهُ مِن آثارِ أفعالِه"[4].

التَّنْبيهُ عَلى أنّ أَمْرَ الشَّيْطانِ النّاسَ بالسُّوءِ والفَحْشاءِ، يُعَدُّ عِلّةَ العِلَلِ

(1) نخبة من العلماء، التّفسير الميسّر، ص: 25.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/213.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السليم: 1/188.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/104.

التّفْصيلُ والتَّبيينُ في الآيَةِ لِما أُجْمِلَ سابقًا:

الشَّيْطانُ يَدْعُو لِكُلِّ مَفْسَدةٍ مِنَ السّوءِ والفحشاءِ والكذِبِ على اللهِ

في قوله: ﴿إِنَّمَا يَأۡمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلۡفَحۡشَآءِ وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ١٦٩﴾، تَفصيلٌ لما أُجْمِلَ في قوله: ﴿إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٌ ١٦٨﴾، وبَيّنَ الفخْرُ الرّازيّ ذلكَ التَّفصيلَ بقوله: "﴿إِنَّمَا يَأۡمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلۡفَحۡشَآءِ وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ١٦٩﴾، فهذا كالتَّفصيلِ لِجُمْلَةِ عَداوتِهِ، وهو مشتَمِلٌ على أمورٍ ثلاثةٍ، أوَّلُها: ﴿بِٱلسُّوٓءِ﴾، وهو مُتَناوِلٌ جميعَ المعاصي، سواء كانت تلك المعاصي من أفعالِ الجوارحِ، أو أفعالِ القلوبِ، وثانيها: ﴿وَٱلۡفَحۡشَآءِ﴾، وهي نوعٌ من السّوء، لأنّها أقبحُ أنواعِهِ، وهو الّذي يُسْتعظَمُ ويُسْتفحَشُ من المعاصي، وثالثها: ﴿وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ١٦٩﴾، وكأنّه أقبحُ أنواعِ الفحشاء؛ لأنّ وصفَ اللّه تعالى بما لا ينبغي، من أعْظم أنواعِ الكبائِرِ، فصارَتْ هَذهِ الجُمْلَةُ كالتَّفسيرِ لِقوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ﴾، فيَدْخُلُ في الآية أنّ الشّيطانَ يدعُو إلى الصّغائرِ والكبائرِ والكُفرِ والجهْلِ باللّه"[1].

تأكيدُ عَداوَةِ الشَّيْطانِ بِالحَصْرِ بـ ﴿إِنَّمَا﴾:

وَساوِسُ إبْليسَ تُعْمِي البَصَر، وتُخْفي عَلى النّاسِ نُورَ الفكَرِ

دلّ الحصْرُ في قوله ﷻ: ﴿إِنَّمَا يَأۡمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلۡفَحۡشَآءِ﴾، على أنّ الشّيطان لا يأمر إلّا بالقبائِحِ؛ لأنّه ذَكَرَهُ بكَلِمَةِ ﴿إِنَّمَا﴾ وهي للحَصْرِ[2]، وفائِدَةُ هذا الحصرِ تَأكيدُ عداوَتِهِ للنّاسِ، فهو لا يَأمُرُ بِخَيْرٍ.

اسْتِعارَةُ الفِعْلِ ﴿يَأۡمُرُكُم﴾، لِإبْرازِ دَورِ الشّيطانِ في الإضْلالِ:

مَكْرُ الشّيْطانِ لا حَدَّ لَهُ، ولَكِنَّهُ لا سُلْطانَ لَهُ عَلى المُؤْمنينَ

وقدِ اسْتُعيرَ الفعلُ ﴿يَأۡمُرُكُم﴾ لتَزيينِ الشَّيْطانِ الأمْرَ، وحَثِّه لَهم على الشّرّ، تسفيهًا لرَأْيِهم، وتَحقيرًا لِشأْنِهم، وممّا يدلّ على أنّ الأمر هنا يُراد به التّزيينُ أنّه ﷻ نَفى أن يكُون للشّيطانِ سُلطانٌ، قال تعالى: ﴿وَٱسۡتَفۡزِزۡ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتَ مِنۡهُم بِصَوۡتِكَ وَأَجۡلِبۡ عَلَيۡهِم

(1) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 5/186.
(2) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 5/187.

بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾﴾ [الإسراء: 64- 65]، وأشار إليه الزَّمَخْشَريّ بقوله: "فإنْ قلتَ: كيفَ كان الشّيطان آمِرًا، مَع قوله: ﴿لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾ [الحجر: 42]؟ قلتُ: شبَّه تزيينَهُ، وبعثَهُ على الشّرِّ بأمرِ الآمِرِ، كما تقولُ: أَمَرَتْني نَفْسي بكذا، وتحتَه رَمْزٌ إلى أنّكم منه بمَنْزِلَةِ المأمورينَ لِطاعَتِكُمْ لَه، وقبولِكُمْ وساوِسَهُ؛ ولذلك قال: ﴿وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ۚ﴾ [النساء: 119]، وقال اللّه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾ [يوسف: 53]؛ لما كان الإنسان يطيعُها فيُعْطيها ما اشْتَهَتْ"[1].

وقولُه: "﴿يَأْمُرُكُم﴾ مِن قَبيل الاستعارَةِ التّبعيَّةِ، حيثُ شَبَّهَ بَعثه على الشّرِّ بأمرِ الآمر به، في أنّ كلًّا منهما سببٌ لوقوع الشّرّ، فأطلق اسم المشبّه به على المشبّه، ثمّ اشتقّ من الأمر - بمعنى البعث - لفظ ﴿يَأْمُرُكُم﴾، فيكون استعارة تبعيّة"[2].

دَلالَةُ عَطْفِ الفحشاءِ على السّوءِ في قوله: ﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ﴾:

السّوءُ والفحشاءُ: ما أَنْكَرَهُ العَقلُ، واسْتَقْبَحَهُ الشّرعُ، والعَطْفُ لاختلاف الوَصفَين، فإنَّهُ سُوءٌ لاغتمام العَقل به، وفحشاءُ باستقباحِه إيّاه، وقيل: السُّوءُ يَعُمّ القَبائحَ والفحشاءَ بِرُمّتها، ويجاوزُ الحَدّ في القُبْح من الكبائِر، وقيل: الأوّل ما حُدّ له، والثّاني ما شُرِع فيه الحَدُّ[3]، وهُوَ مِنْ عَطْفِ الخاصِّ على العامِّ؛ لأنّ السُّوءَ يَشْمَلُ جميعَ المعاصي، والفَحْشاءُ داخِلَةٌ ضِمْنَها، فقَوْلُهُ: ﴿وَٱلْفَحْشَآءِ﴾: "أيْ: أَقْبح أنْواع المعاصي وأعظَمِها مَساءَةً، فالزِّنى فاحِشَةٌ، والبُخْلُ فاحِشَةٌ، وكُلُّ فِعْلةٍ قبيحةٍ فاحشَةٌ"[4]، واسْتُسيغَ هذا العَطْفُ؛ "لاختلافِ الوَصْفَين؛ فإنّه سُوءٌ لاغتمامِ العاقِلِ به، وفَحْشاءُ باسْتِقباحِه إيّاهُ"[5].

المُؤمِنُ لا يَرْتَكِبُ سُوءًا، ولا يَقْتَرِفُ فحشاءَ، وقوفًا عند حدود الله

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/213.
(2) زاده، حاشية على البيضاوي: 2/415.
(3) الخفاجي، عِنَايةُ القَاضي: 2/266 (بتصرّف).
(4) إسماعيل حقي، روح البيان: 1/272.
(5) البيضاويّ، أنوار التنزيل: 1/118.

المُبالَغَةُ بِالوَصْفِ بِالمَصْدَرِ:

"المُغايَرَةُ بَينَ السُّوءِ والفَحشاءِ، بِحَسَبِ المَفْهومِ دونَ الذّاتِ، فإنَّهُ سُمِّيَتِ المعصيةُ سُوءًا لاغتِمامِ العاقِلِ بها، وفَحْشاءَ باستِقباحِهِ إيّاها، فإطْلاقُ السُّوءِ والفَحشاءِ على المَعْصِيَّةِ، مِنْ قَبيلِ التَّوْصيفِ بالمَصْدَرِ للمُبالَغَةِ، مِثْلَ: رَجُلٌ عَدْلٌ"[1].

المُؤْمِنُ يَغْتَمُّ مِنَ السُّوءِ، ويَسْتَقْبِحُ الفاحِشَةَ

توجيهُ المخصوصِ بالذِّكْرِ، في قوله: ﴿وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾:

إنّ قولَه ﷻ: ﴿وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ١٦٩﴾، داخلٌ ضمن قوله: ﴿إِنَّمَا يَأۡمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ﴾ "وخَصَّهُ بالعَطْفِ، مَعَ أَنَّهُ بَعْضُ السُّوءِ والفَحْشاءِ؛ لاشْتِمالِه عَلى أَكْبَرِ الكَبائِرِ، وهُوَ الشِّرْكُ، والتَّقَوُّلُ على اللّه"[2]، والقَوْلُ على اللّهِ بغيرِ علمٍ هو بدايةُ طريقِ الضَّلالِ، وهو أكثرُ ما يُستهانُ به، ولذلك كانَ مدْخَلَ الشَّيطانِ، فتخصيصُه بالذِّكرِ باعتبارِ الغفلَةِ عن أثرِه القبيحِ في الضَّلالِ، وباعتبارِ التَّحذيرِ منه في جميعِ الأحوالِ.

أكثرُ ما يقعُ النَّاسُ بسببِه في الضَّلالِ القولُ على اللهِ بغيرِ عِلمٍ

فائدةُ حَذْفِ المَفْعولِ بِهِ في قَوْلِهِ: ﴿مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾:

حُذِفَ المفعولُ به في قوله ﷻ: ﴿مَا لَا تَعۡلَمُونَ ١٦٩﴾، وتقديرُه: مَا لَا تَعْلَمُونَ أنَّهُ مِنْ عِندِ اللّه، بقَرينَةِ قولِهِ: ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾، أيْ لا تَعلمُون أنّهُ يُرضيهِ ويَأْمُرُ بِه، وطَريقُ معرفةِ رضا اللّه وأمرِه، هُو الرُّجوع إلى الوحي"[3]، وفائِدتُه التَّنبيهُ على خطورةِ الجهلِ، والقولِ على اللّه بغيرِ علم، وأنَّ العوْدَةَ إلى الوحي هي أوفقُ معاييرِ الحقِّ.

طَريقُ مَعْرِفَةِ رِضا اللهِ وأمْرِهِ، هُوَ الرُّجوعُ إلى الوَحْيِ

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

السُّوء والفَحْشاء:

السّوءُ: يدلُّ على القُبْحِ[4]، والسَّيِّئَةُ: الفِعْلَةُ القَبيحَةُ[5]، وَالفَحْشَاءُ:

(1) إسماعيل حقي، روح البيان: 1/272.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/105.
(3) المصدر السّابق: 2/105.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سوء).
(5) الراغب، المفردات: (سوء).

تَدُلُّ عَلَى قُبْحٍ في شَيْءٍ وشَنَاعَةٍ، وكُلُّ شَيْءٍ جَاوَزَ قَدْرَهُ فهُوَ فاحِشٌ[1]، والفُحْشُ والفَحْشَاءُ والفَاحِشَةُ: ما عَظُمَ قُبحُهُ مِنَ الأفْعالِ والأقْوالِ، وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ﴾ [الأعراف: 28][2].

فالسُّوءُ: كُلُّ فِعْلٍ قَبيحٍ، والفاحِشَةُ: ما عَظُمَ من تلك الأفعال القبيحَةِ، فكُلُّ فاحِشَةٍ سُوءٌ، وليس كُلُّ سُوءٍ فاحشةً.

كـل مـا عَـظُـمَ قُبْحُه مِنَ الأفْعالِ والأقْـــوالِ، مِـنْ سُوءٍ أو فاحِشَةٍ، فهُوَ مَنْهِيٌّ عَنْهُ

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (فحش).
(2) الراغب، المفردات: (فحش).

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلۡ نَتَّبِعُ مَآ أَلۡفَيۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوۡ كَانَ ءَابَآؤُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَهۡتَدُونَ ١٧٠﴾

[البقرة: 170]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الاتّباعُ بِلا عَقْلٍ ولا هُدًى، ضلالٌ وهلاكٌ وضياعٌ

لَمّا تَقَدَّمَ الزَّجْرُ عنِ اتِّباعِ خُطواتِ الشَّيْطانِ في الآيةِ السّابقة، ذَكَرَ هنا تَمَسُّكَ الكافرين باتِّباعِ أسلافِهِمْ، ورَفْضِ دَعوةِ اللّه تعالى؛ تَنْبيهًا على أَنَّه لا فَرْقَ بَيْنَ مُتابعَةِ وساوِسِ الشَّيْطانِ، وبيْنَ مُتابَعَةِ التَّقْليدِ[1].

شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

(ألْفَى) فعلٌ مُتعدٍّ بمعنى وجد ولقي

1) ﴿مَآ أَلۡفَيۡنَا﴾: من الجذر (لفي)، وأَصْلُ المادّة يَدُلُّ على انْكِشافِ شَيْءٍ وكَشْفِهِ، وألفَيْتُهُ: لَقيتُهُ ووَجَدْتُهُ، إلْفاءً، وتَلافَيْتُهُ: تَدارَكْتُهُ[2]، قال اللّه تعالى: ﴿قَالُواْ بَلۡ نَتَّبِعُ مَآ أَلۡفَيۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ﴾[3]، "وَلَيْسَتْ هُنَا مُتَعَدِّيَةً إلى اثْنَيْنِ، لِأَنَّهَا بِمَعْنَى وجَدَ، الَّتي بِمَعْنَى أَصَابَ"[4]، ألفَيْتُهُ يُصَلّي: وجَدْتُهُ على تِلْكَ الحَالَةِ[5]، قال ابنُ سِيدَه: "أَلْفَى الشَّيءَ: وجَدَهُ، وتَلافَاهُ: افْتَقَدَهُ، وقَوْلُهُ -أَنْشَدَهُ ابن الأَعرابيّ-:

يُخَبِّرُني أَنِّي بِهِ ذُو قَرَابَةٍ *** وأَنْبَأْتُهُ أَنِّي به مُتَلافِي

فَسَّرَهُ فَقَالَ: مَعْنَاهُ أَنِّي بِهِ أُدْرِكُ ثَأْرِي، واللَّفَى: الشَّيءُ المطْرُوحُ، كَأَنَّهُ مِنْ أَلْفَيْتُ، أَو تَلافَيْتُ، والجمعُ أَلفاءٌ، وإنَّما قَضَيْنَا عَلَيْهِ باليَاءِ لأَنَّها لامٌ"[6].

(1) القاسميّ، محاسن التّأويل: 1/470، والقِنَّوجي، فتح البيان: 1/338.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (لفا).
(3) الرّاغب، المفردات: (لفي).
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/103.
(5) الفيوميّ، المصباح المنير: (لفي).
(6) المحكم والمحيط الأعظم: 10/418.

العَقْلُ غَريزَةٌ في الإِنْسَانِ، لفَهْمِ الخِطَابِ، وإدراك المجرّدات

2) ﴿يَعْقِلُونَ﴾: أَصْلُ مادّة (عقل) يَدُلُّ على حُبْسَةٍ في الشَّيْءِ، والعَقْلُ حابِسٌ عَنْ ذَميمِ القَوْلِ والفِعْلِ[1]، وهوَ نَقيضُ الجَهْلِ[2]، وأُطْلِقَ العَقْلُ - الّذي هو مَصْدَرٌ - على الحِجَا واللُّبِّ، وهو غَريزَةٌ يَتَهَيَّأُ بها الإِنْسَانُ إلى فَهْمِ الخِطَابِ[3]، وقُوَّةٌ مُتَهَيِّئَةٌ لِقَبولِ العِلْمِ[4]، وفي قوله تعالى: ﴿وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [المائدة: 103]، يَعني: لَيْس لهم عَقْلٌ يعقِلونَ بِهِ أنّ اللّه هو المُحَلّل والمحرِّم، ولَيس لغيره أَنْ يُحِلّ ويُحرِّمَ"[5]، وفي قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [الأنفال: 22]، قال الماوَرْدِيّ: "يَحتَمِل وجْهَين: أحدهما: لا يعقلون عن اللّه تعالى أمرَهُ ونَهْيَهُ، والثّاني: لا يَعْتَبِرُون اعتِبارَ العُقلاءِ"[6].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

الآيَةُ تُوجِّهُ المُؤْمِنَ لاسْتِعْمالِ العَقْلِ، والنّأيِ عَنِ التّقليدِ الأَصَمّ

يُخْبِرُ اللّهُ تعالى أَنَّ أَهْلَ الضَّلَالِ إذا قيلَ لَهُمْ: اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللّهُ مِنَ القُرْآنِ والهُدَى، أَصَرّوا على تَقْليدِ أَسْلَافِهِمُ المشْرِكينَ قَائِلينَ: لا نَتَّبِعُ دينَكُمْ، بَلْ نَتَّبِعُ مَا وجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا، أَيَتَّبِعون آبَاءَهُمْ، ولَوْ كَانوا لا يَعْقِلونَ عَنِ اللّهِ شَيْئًا، ولَا يُدْرِكونَ رُشْدًا؟![7].

"وَالآيَةُ تَضَمَّنَتِ النَّهْيَ عَنِ التَّقْليدِ؛ لِأَنَّ اللّهَ تعالى أَنْكَرَ عَلَيْهِمْ مُتَابَعَةَ آبَائِهِمْ، وأَمَرَ بِمُتَابَعَةِ العَقْلِ والهُدَى"[8]، "وفي ذلك دليل على قُبْحِ التّقليدِ"[9].

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عقل).
(2) الخليل، العين، باب (عقل).
(3) الفيوميّ، المصباح المنير: (عقل).
(4) الرّاغب، المفردات: (عقل).
(5) السّمرقنديّ، بحر العلوم: 1/423.
(6) الماوردي، النّكت والعيون: 2/306.
(7) نخبة من العلماء، التّفسير الميسّر: 1/26.
(8) الواحدي، التَّفْسِير البَسِيط: 3/490.
(9) الشوكاني، فتح القدير: 1/193.

الإيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

معنى الواوِ بين الاستِئْنافِ والعَطفِ في قوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾:

اشتراكُ معنى الاستئنافِ والعطفِ في التَّشنيعِ على مخالفي اتِّباعِ الحقِّ

اختلفَ المفسِّرون في معنى الواوِ في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ﴾ على قولين:

الأوّل: الواو استئنافيّة، وذلك على أن تكون نزلت في شأنِ اليَهود، "وَذَلِكَ حينَ دَعَاهُمْ رَسولُ اللَّهِ ﷺ إلى الإِسْلَام، فَقَالوا: نَتَّبِعُ مَا وجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا، فَهُمْ كَانوا خَيْرًا وأَعْلَمَ مِنَّا؛ فَعلى هَذا، الآيَةُ مُسْتَأْنَفَةٌ"(1).

الآخر: الواو عاطِفة، قال ابن عاشور: "الأَحْسَنُ عِنْدي أَنْ يَكونَ عَطْفًا على قَوْلِهِ: ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِۚ﴾ [البَقَرَة: 168]، فَإِنَّ المقْصُودَ بالخِطَابِ في ذَلِكَ هُمُ المشْرِكُونَ، فَإِنَّهُمُ الّذينَ ائْتَمَرُوا لِأَمْرِهِ بِالسُّوءِ والفَحْشَاءِ"(2).

فائدة العطف زيادَةُ تَفْظيعٍ لِحَالِ أَهْلِ الشِّرْكِ

العطفُ هُنا فيه "زيادَةُ تَفْظيعٍ لِحَالِ أَهْلِ الشِّرْك، فَبَعْدَ أَنْ أَثْبَتَ لَهُمُ اتِّبَاعَهُمْ خُطْوَاتِ الشَّيْطَانِ فيمَا حَرَّمُوا على أَنْفُسِهِمْ مِنَ الطَّيِّبَات، أَعْقَبَ ذَلِكَ بِذِكْرِ إِعْرَاضِهِمْ عَمَّنْ يَدْعُوهُمْ إلى اتِّبَاعِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ، وتَشَبَّثُوا بِعَدَمِ مُخَالَفَتِهِمْ مَا أَلفَوْا عَلَيْهِ آبَاءَهُمْ، وأَعْرَضُوا عَنِ الدَّعْوَةِ إلى غَيْرِ ذَلِكَ دُونَ تَأَمُّلٍ ولَا تَدَبُّرٍ"(3).

دلالةُ أداةِ (إذا) في قوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ﴾:

تَكرارُ جوابِ الكافرين دليلٌ على الإغراقِ في الضَّلالةِ

"المُرَادُ بِقَوْلِهِ: ﴿وَإِذَا﴾ التَّكْرَارُ"(4)، فَهَذا القَوْلُ لَمْ يَكُنْ مَرَّةً واحِدَةً، وجَوَابُهُمْ إِزَاءَهُ يَتَكَرَّرُ كَمَا هُوَ، وفيهِ إيحَاءٌ بثَبَاتِ المُؤمنينَ على دَعْوتِهِمُ الرّبانيّةِ، والكافِرينَ عَلى ما أَلْفَوْا عليه

(1) الواحدي، التَّفْسِير البَسِيط: 3/489.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/106.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/106.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/103.

آباءَهُمُ السّابقينَ، مِنْ ضَلالِهِمُ العاتي المَهينِ، وفي هذا التَّكرارِ بيانُ منهجِ الكافرين في الثَّباتِ على الضَّلالِ والتَّشبُّثِ في أذيالِ الكفرِ والخسارةِ.

إيثارُ اسْتِعْمَالِ صيغةِ الفِعْلِ المبْنِيِّ لِلْمَفعولِ: ﴿قِيلَ﴾:

"وَبَنَى ﴿قِيلَ﴾ لِمَا لَمْ يُسَمَّ فَاعِلُهُ، لِأَنَّهُ أَخْصَرُ، ولَوْ ذُكِرَ الآمِرُونَ لَطَالَ الكَلَامُ، لِأَنَّ الآمِرَ بِذَلِكَ هُوَ الرَّسُولُ ﷺ ومَنْ يَتْبَعُهُ مِنَ المُؤْمِنِينَ"[1]، وتَرْكُ الفَاعِلِ في مِثْلِ هَذا المَوْضِعِ يُوحي بِالكَثْرَةِ؛ لِأَنَّ هذا القَوْلَ مِمَّا يُكَرَّرُ، فَيَكْثُرُ القائلون تَبَعًا لَهُ، وفيه دعوةٌ لهذه الأمَّة أن تنتهجَ نهجَ نبيِّها ﷺ في مخاطبةِ الضَّالين وتحذيرِهم من متابعةِ الأباطيل، فليس المقصودُ تعيينَ القائلِ، بل تعيين وجودِه.

ليس مقصودُ النَّظمِ تعيينَ القائلِ، بل تعيينَ وجودِه

تعيينُ مَرْجِعِ الضّميرِ في قولِه: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ﴾:

اختَلَفَ المُفسِّرون في بَيَانِ مَرْجِعِ ضميرِ: ﴿لَهُمُ﴾؛ فَقيلَ: يرجِعُ إلى اليهودِ، وقيل: يرجِعُ إلى المشركين، فَإذا كَانَت في اليَهُودِ؛ "فعلى هَذا الآيَةُ مُسْتَأْنَفَةٌ، والكِنَايَةُ في ﴿لَهُمُ﴾ تَعُودُ إلى غَيْرِ مَذْكُورٍ، إلّا أَنَّ الضَّميرَ قَدْ يَعُودُ على المعْلُومِ، كَمَا يَعُودُ على المذْكُورِ"[2].

قد يُرَاد بِالضَّمير النَّاسُ، على وجْه الالتِفاتِ، أوِ اليهودُ، أوْ مُشرِكو العَرَبِ

وَإذا كَانَتْ في كُفَّارِ قُرَيْشٍ، فَالكِنَايَةُ تَعُود إلى ﴿مَن﴾ في قَوْلِه: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ﴾ [البقرة: 165]، وإذا كَانَتْ في الّذينَ حَرَّمُوا على أَنْفُسِهِمْ شَيْئًا مِنَ الحَرْثِ والأَنْعَامِ، فَالكِنَايَةُ تَرْجِع إلى ﴿ٱلنَّاس﴾ في قَوْلِه: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [البقرة: 168]، عَدَلَ عَنِ المُخَاطَبَةِ إلى الغَيْبَةِ[3]، ورَجَّحَ هَذا الطَّبَرِيُّ فقال: "وَأَشْبَهُ عِنْدي وأَوْلَى بِالآيَةِ، أَنْ تَكُونَ الهَاءُ والميمُ في قَوْلِهِ ﴿لَهُمُ﴾ مِنْ ذِكْرِ ﴿ٱلنَّاس﴾، وأَنْ يكون ذَلِكَ رُجُوعًا مِنَ الخِطَابِ إلى الخَبَرِ عَنِ الغَائِبِ، لِأَنَّ ذَلِكَ

(1) أبو حيّان، المصدر السّابق: 2/103.
(2) الرّازي، مفاتيح الغيب: 5/188.
(3) الواحديّ، التَّفْسِير البَسِيط: 3/489-489.

عَقِيبَ قَوْلِهِ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [البقرة: 168]، فَلَأَنْ يكون خَبَرًا عَنْهُمْ، أَوْلَى مِنْ أَنْ يكون خَبَرًا عَنِ الّذينَ أُخْبِرَ أَنَّ مِنْهُمْ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا، مَعَ مَا بَيْنَهُمَا مِنَ الآيَاتِ، وانْقِطَاعِ قَصَصِهِمْ بِقِصَّةٍ مُسْتَأْنَفَةٍ غَيْرِهَا"[1]، وهَذا اخْتِيارُ الزَّمَخْشَرِيّ[2].

وقال ابْنُ عَطِيَّةَ: "وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ﴾ يَعْنِي كُفَّارَ العَرَبِ"[3]، وكَذا عِنْدَ أبي حيّان: "الضَّميرُ في ﴿لَهُمُ﴾ عَائِدٌ على كُفَّارِ العَرَبِ، لِأَنَّ هَذا كان وصْفَهُمْ، وهُوَ الاقْتِدَاءُ بِآبَائِهِمْ"[4].

وَيَبْعُدُ أَنْ يكون المرَادُ أَهْلَ الكِتَابِ مِنَ اليَهُودِ والنَّصَارَى، لِأَنَّهُمْ يتَّبعون الكِتَابَ، والمَشْهُورُ باتِّبَاعِ الآبَاءِ هُمْ مُشْرِكُو العَرَبِ، فَيَتَرَجَّحُ قَوْلُ ابن عطيَّة؛ فَيكونُ الضَّميرُ رَاجِعًا على غَيْرِ مَذْكُورٍ؛ وذَلِكَ لِشُهْرَةِ الخِلَافِ مَعَهُمْ.

براعةُ الالتِفَاتِ في قَوْلِهِ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ﴾:

إبرازُهُم في صُورَةِ مَنْ دُعِيَ إلى اتِّباعِ شَريعةِ اللَّه، فأجابَ باتِّباعِ شَريعَةِ أبيهِ

إذا كان مَرْجِعُ الضَّميرِ في قولِه تعالى: ﴿لَهُمُ﴾ عائدًا إلى ﴿ٱلنَّاسِ﴾؛ فَيكون في الآيَةِ الْتِفَاتٌ؛ "وَقال آخَرُونَ: نَزَلَتْ في الذينَ حَرَّمُوا على أَنْفُسِهِمْ شيئا مِنَ الحَرْثِ والأَنْعَامِ، والكِنَايَةُ تَرْجِعُ إلى ﴿ٱلنَّاسِ﴾، في قَوْلِهِ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [البقرة: 168]، عَدَلَ عَنِ المُخَاطَبَةِ إلى الغَيْبَةِ"[5]، وإنّما عَدَلَ "بالخِطَابِ عَنْهُمْ على طَرِيقَةِ الالتِفَاتِ؛ لِلنِّدَاءِ على ضَلَالِهِمْ، لِأَنَّهُ لا ضَالَّ أَضَلُّ مِنَ المُقَلِّدِ، كَأَنَّهُ يَقُولُ لِلْعُقَلَاءِ: انْظُرُوا إلى هَؤُلَاءِ الحَمْقَى مَاذا يَقُولُونَ"[6]! أو "مُبَالَغَةً في بَيَانِ ضَلَالِهِم"[7]، أوْ "تَسْجِيلًا بِكَمَالِ ضَلَالِهِم، وإيذانًا بِإِيجَابِ تَعْدَادِ مَا ذُكِرَ مِنْ جِنَايَاتِهِمْ؛ لِصَرْفِ الخِطَابِ عَنْهُمْ، وتَوْجِيهِهِ إلى العُقَلَاءِ، وتَفْصِيلِ مَسَاوِئِ أَحْوَالِهِمْ"[8].

(1) ابن جرير، جامع البيان: 3/305.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/213.
(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 1/238.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/102.
(5) الواحديّ، التَّفْسِير البَسِيط: 3/489.
(6) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/213.
(7) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 5/188.
(8) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 1/188.

وَقال أَبُو حَيَّان: "وَحِكْمَتُهُ أَنَّهُمْ أُبْرِزُوا في صُورَةِ الغَائِبِ الّذي يُتَعَجَّبُ مِنْ فِعْلِهِ، حَيْثُ دُعِيَ إلى اتِّبَاعِ شَرِيعَةِ اللَّهِ الَّتِي هِيَ الهُدَى والنُّورُ، فَأَجَابَ بِاتِّبَاعِ شَرِيعَةِ أَبِيهِ، وكَأَنَّهُ يُقَالُ: هَلْ رَأَيْتُمْ أَسْخَفَ رَأْيًا وأَعْمَى بَصِيرَةً، مِمَّنْ دُعِيَ إلى اتِّبَاعِ القُرْآنِ المُنَزَّلِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، فَرَدَّ ذَلِكَ وأَضْرَبَ عَنْهُ؟ وأَثْبَتَ أَنَّهُ يَتَّبِعُ مَا وجَدَ عَلَيْهِ أَبَاهُ"[1]؟! "كَأَنَّهُ الْتَفَتَ إلى العُقَلَاءِ، وقال لَهُمْ: انْظُرُوا إلى هَؤُلَاءِ الحَمْقَى مَاذا يُجِيبُونَ"[2]!

غرضُ الأمْرِ في قوله: ﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾:

الأَمْرُ في قَولِه ﷻ: ﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ لِلدّعوة والنَّصيحة والإرْشاد؛ "وَإذا قِيلَ لِلْمُشْرِكِينَ مِنَ النَّاسِ على وجْهِ النَّصِيحَةِ والإرْشَادِ: ﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾، كِتَابَ اللَّهِ الّذي أَنْزَلَهُ، فَاعْمَلُوا بِتَحْلِيلِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ، وتَحْرِيمِ مَا حَرَّمَ اللَّهُ في القُرْآنِ، ولَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ"[3]، تَلَطُّفًا بهم، وخوفًا على مَصيرِهِم، ورَغبةً في هِدايَتِهِم، ولكنّهم لا يَسْتَجيبونَ.

شرعُ الله رحمةٌ ويُسْرٌ وحكمةٌ مع النَّاسِ أجمعين

فَائِدَةُ إِسْنَادِ الفِعْلِ لِله تعالى في قوله: ﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾:

فَائِدَةُ إِسْنَادِ الفِعْلِ ﴿أَنزَلَ﴾ إلى اللّه تعالى في قَوْلِه ﷻ: ﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾، فلم يقُل: (اتَّبعوا ما أُنزِل) هي "إِعْلَامٌ بِتَعْظِيمِ مَا أَمَرُوهُمْ بِاتِّبَاعِهِ، أَنْ نُسِبَ إِنْزَالُهُ إلى اللَّهِ الّذي هُوَ المشَرِّعُ لِلشَّرَائِعِ، فَكان يَنْبَغِي أَنْ يُتَلَقَّى بِالقَبُولِ، ولَا يعارَضَ باتّباعِ آبائِهِمْ رُؤُوسِ الضَّلَالَةِ"[4].

شتَّان بين الحقِّ النَّازِلِ وأعْرافِ الهَوى

أثرُ حرفِ الإضْرابِ في تقدير الجُمْلةِ المحذوفةِ:

حرفُ الإضرابِ ﴿بَلْ﴾ في قوله ﷻ: ﴿بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ﴾،

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/102.
(2) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 1/119.
(3) البروسويّ، روح البيان: 1/274.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/103.

عطفَ جملةً مذكورةً وهي ﴿نَتَّبِعُ مَآ أَلۡفَيۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآ﴾ على أُخرى محذوفةٍ تقديرُها: "(لَا نَتَّبِعُ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ، بَلْ نَتَّبِعُ مَا ألفَيْنا عَلَيْهِ آباءَنا)، ولَا يَجُوزُ أَنْ يُعْطَفَ على قَوْلِهِ: اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ"[1]، ذلك أنَّ حرفَ "بَلْ: إِضْرَابُ إِبْطَالٍ، أَيْ: أَضْرَبُوا عَنْ قَوْلِ الرَّسُولِ: ﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾، إِضْرَابَ إِعْرَاضٍ بِدُونِ حُجَّةٍ، إلّا بِأَنَّهُ مُخَالِفٌ لِمَا أَلْفَوْا عَلَيْهِ آبَاءَهُمْ"[2].

تَوَجِيهُ المُتشابِهِ اللَّفظيِّ بَينَ: ﴿مَآ أَلۡفَيۡنَا﴾، و﴿مَا وجَدْنَا﴾:

اختصاصُ (ألفيتُ) بنوعِ دلالةٍ عن (وجدتُ)

لسائلٍ أن يسألَ عنِ الفرقِ بين قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلۡ نَتَّبِعُ مَآ أَلۡفَيۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوۡ كَانَ ءَابَآؤُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَهۡتَدُونَ ١٧٠﴾ [البقرة: 170]، وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلۡ نَتَّبِعُ مَا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ﴾ [لقمان: 21]، وقوله في سورة المائدة: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُواْ حَسۡبُنَا مَا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ﴾ [المائدة: 104]، فقال هنا في سورة البقرة: ﴿مَآ أَلۡفَيۡنَا﴾، وقال في سورة المائدة: وسورة لقمان: ﴿مَا وَجَدۡنَا﴾.

وَقَدْ أَجَابَ الخَطِيبُ الإِسْكَافِي عَنْ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ: "أَنَّ ﴿أَلْفَيْنَا﴾ يَقْصِدُ بها بَعْضَ الوُجُوهِ التِي يُسْتَعْمَلُ عَلَيْهَا ﴿وَجَدْنَا﴾؛ لِأَنَّهُ يُقَالُ: وجَدْتُ الشَّيْءَ، فَلَا يَحْتَاجُ إلى مَفْعُولٍ ثَانٍ إذا وجَدْتَهُ عَنْ عَدَمٍ، ولِوِجْدَانِ الضَّالَّةِ تَقُولُ: وجَدْتُ الضَّالَّةَ، وتَقُولُ: وجَدْتُ زَيْدًا عَاقِلًا، فَيكون الوُجُودُ مُتَعَلِّقًا بِالخَبَرِ الّذي هُوَ المفْعُولُ الثَّاني، فَلَا بُدَّ لَهُ في هَذا الوَجْهِ مِنْهُ، ولَا يَكْتَفي بِالمَفْعُولِ الأَوَّلِ، وأَمَّا قَوْلُهُمْ: ألفَيْتُ، فَإِنَّهَا مَخْصُوصَةٌ بِهَذا الوَجْهِ مِنْ وُجُوهِ (وَجَدْتُ)، لا يُقَالُ: ألفَيْتُ دِرْهَمًا، بِمَعْنَى: وجَدْتُ دِرْهَمًا، ولَا ألفَيْتُ الضَّالَّةَ بِمَعْنَى وجَدْتُها، وإِنَّمَا يُقَال: ألفَيْتُ زَيْدًا عَاقِلًا، وألفَيْتُهُ على الهُدَى وعلى الضَّلَالَةِ، فَكان في المَوْضِعِ الأَوَّلِ اسْتِعْمَالُ اللَّفْظِ الأَخَصِّ أَوْلَى، وتَأْخِيرُ اللَّفْظِ المشْتَرَكِ إلى المكَانِ الثَّاني أَوْلَى"[3].

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/103، وابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/501.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/106.
(3) الخطيب الإسكافّي، درّة التّنزيل وغُرَّة التّأويل: 1/310-312.

تَحْرِيرُ الاسْتِفْهَامِ فِي قَوْلِهِ: ﴿أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾:

صحَّةُ اجتماعِ معنى الإنكارِ والتَّعجُّبِ والتَّوبيخِ في هَمْزَةِ الاستفهامِ

اختلف المفسِّرون في معنى الهمزة في قوله تعالَى: ﴿أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ﴾ على ثلاثةِ أقوالٍ:

القول الأوَّل: الهمزةُ بمعنى الرَّدِّ والتَّعجُّبِ؛ والمعنى: "أَيَتَّبِعُونَهُمْ ولَوْ كانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئًا مِنَ الدِّينِ ولَا يَهْتَدُونَ لِلصَّوَابِ"[1]! فإنّهم لَمَّا قالوا: ﴿بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ﴾، عَقَّبَ على هذا الاتِّباعِ بهذه الجملة، فلذلكَ تَتَسلّطُ همزةُ الاستفهام على فعل الاتّباعِ؛ فالتّقديرُ عند الزَّمخشريّ: (أَيَتَّبِعونَهُمْ)؟! "دَخَلَتْ هَمْزَةُ التَّعَجُّبِ على الجُمْلَةِ الحَالِيَّةِ لِلرَّدِّ عَلَيْهِمْ"[2].

القولُ الثَّاني: الهمزةُ للتَّوبيخِ، "وإنّمَا جُعِلَ ألفُ الاسْتِفْهَام لِلتَّوْبِيخِ؛ لِأَنَّهُ يَقْتَضِي مَا الإِقْرَارُ بِهِ فَضِيحَةٌ، كَمَا يَقْتَضِي الاسْتِفْهَامُ الإِخْبَارَ عَنِ المُسْتَفْهَمِ عَنْهُ، وفي هَذا حُجَّةٌ عَلَيْهِمْ، كَأَنَّهُ قِيلَ: إذا جَازَ لَكُمْ أَنْ تَتَّبِعُوا آبَاءَكُمْ فِيمَا لا تَدْرُونَ أَعَلَى حَقٍّ هُمْ فِيهِ أَمْ بَاطِلٍ، فَأَنْتُمْ كَمَنْ قال: نَتَّبِعُهُمْ وإنْ كَانُوا على بَاطِلٍ! وهَذا غَايَةُ الفَضِيحَةِ"[3].

"وإنّمَا جُعِلَتْ هَمْزَةُ الاسْتِفْهَام لِلتَّوْبِيخِ؛ لِأَنَّهَا تَقْتَضِي الإِقْرَارَ بِشَيْءٍ يَكونُ الإِقْرَارُ بِهِ فَضِيحَةً، كَمَا يَقْتَضِي الاسْتِفْهَامُ الإِخْبَارَ عَنِ المسْتَفْهَمِ عَنْهُ"[4].

القول الثَّالث: الهمزةُ للإنكارِ، وهي تدلُّ على عدم عقلِهم، فإنَّ "هَمْزَةَ الإِنْكَارِ عَلَيْهِمْ في حَالِ عَدَمِ العَقْلِ، تَدُلُّ على أَنَّهُمْ قَصَدُوا اتِّبَاعَهُمْ مُطْلَقًا، في حَالَةِ العَقْلِ وعَدَمِهِ، أيْ: أَيَتّبعون إِيَّاهُمْ ولَوْ كَانُوا لا يَعْقِلُونَ شَيْئًا ولاَ يَهْتَدُونَ؟!"[5]، وفيه بيان حماقةِ القومِ في اتِّباعِ آبائهم فيما يُعقل وما لا يُعقل؛ فالآيةُ "اسْتِئْنَافٌ مَسُوقٌ مِنْ جِهتِه تعالى، ردًّا لمقالَتِهِمُ الحَمْقاءِ، وإظهارًا لبُطْلان آرائِهِمْ"[6].

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/213.
(2) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 3/192-193.
(3) الواحديّ، التَّفْسِير البَسِيط: 3/490.
(4) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 5/188.
(5) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/503.
(6) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 1/188.

والصَّحيحُ أنَّ هذه المعاني جميعُها وجيهةٌ في الاستفهام، فإنَّ التَّعجُّبَ من حال المشركين يقتضي الإنكارَ عليهم، ولا يكون الأمرُ منكرًا إلَّا وصاحبُه قد لحِقَه التَّوبيخُ، ولذلك قال أبو حيان: "الهَمْزَةُ لِلاسْتِفْهَامِ المصْحُوبِ بِالتَّوْبِيخِ والإِنْكَارِ والتَّعَجُّبِ مِنْ حَالِهِمْ"[1]، وهي: "لِإنكارِ الواقعِ واسْتِقباحِهِ والتَّعْجيبِ مِنْهُ"[2].

الهمزةُ مُستعمَلةٌ في الإنكارِ كِنايَةً، وفي التَّعجيبِ إيماءً

وقال ابن عاشور: "وَقَوْلُهُ: ﴿أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾﴾، كَلَامٌ مِنْ جَانِبٍ آخَرَ، لِلرَّدِّ على قَوْلِهِمْ نَتَّبِعُ مَا ألفَيْنا عَلَيْهِ آباءَنا، فَإِنَّ المُتَكَلِّمَ لَمَّا حَكَاهُ عَنْهُمْ، رَدَّ قَوْلَهُمْ هَذا بِاسْتِفْهَامٍ يُقْصَدُ مِنْهُ الرَّدُّ، ثُمَّ التَّعْجِيبُ، فَالهَمْزَةُ مُسْتَعْمَلَةٌ في الإِنْكَارِ كِنَايَةً، وفي التَّعْجِيبِ إِيمَاءً، والمُرَادُ بِالإِنْكَارِ الرَّدُّ والتَّخْطِئَةُ، لا الإِنْكَارُ بِمَعْنَى النَّفْيِ"[3].

أقوالُ المفسرين في مَعْنَى الوَاوِ في قَوْلِهِ: ﴿أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ﴾:

اختلفَ المفسِّرون في معنى الواوِ في قولِه تعالى: ﴿أَوَلَوْ﴾ على قولين:

القولُ الأوَّل: الواوُ للعطف، قال الواحديُّ: "وَالوَاوُ في ﴿أَوَلَوْ﴾ واوُ العَطْفِ، دَخَلَتْ عَلَيْهَا أَلِفُ الاسْتِفْهَامِ"[4]، "الوَاو لِلْعَطْفِ قِيلَ على الجُمْلَةِ المتَقَدِّمَةِ، وإِلَيْهِ ذَهَبَ البَيْضَاوِيُّ[5]، ولَا أَعْلَمُ لَهُ سَلَفًا فِيهِ، وهُوَ وجِيهٌ جِدًّا، أَيْ: قالوا: بَلْ نَتَّبِعُ ولَوْ كان آبَاؤُهُمْ"[6].

القول الثَّاني: الواوُ للحالِ، قال الزَّمَخْشَرِيُّ: "﴿أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ﴾: الواوُ لِلحالِ"[7]، والوَاوُ حَالِيَّةٌ، والجُمْلَةُ حَالِيَّةٌ مَسُوقَةٌ لِاسْتِنْكَارِ اتِّبَاعِ آبَائِهِمْ في كُلِّ حَالَةٍ، حَتَّى في الحَالَةِ التي لا مَسَاغَ لِلْعَاقِلِ أَنْ يَتَّبِعَهَا، ويَجْنَحَ إِلَيْهَا، وهِيَ تَلَبُّسهمْ بِعَدَمِ العُقُولِ وانْتِفَاءِ الهِدَايَةِ[8].

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/103.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 1/188.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/106.
(4) الواحديّ، التَّفْسِير البَسِيط: 3/490.
(5) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 1/119.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/108.
(7) الزّمخشري، الكشّاف: 1/213.
(8) الدّرويش، إعراب القرآن وبيانه: 1/238.

وَقَدْ فَصَّلَ أَبُو حَيَّانَ في ذَلِكَ فقال: "وَأَمَّا الوَاوُ بَعْدَ الهَمْزَةِ، فَقال الزَّمَخْشَرِيُّ: الوَاوُ لِلْحَالِ، ومَعْنَاهُ: أَيَتَّبِعُونَهُمْ، ولَوْ كان آبَاؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئًا مِنَ الدِّينِ ولَا يَهْتَدُونَ لِلصَّوَابِ؟! وقال ابْنُ عَطِيَّةَ: الوَاوُ لِعَطْفِ جُمْلَةِ كَلَامٍ على جُمْلَةٍ، لِأَنَّ غَايَةَ الفَسَادِ في الالتِزَامِ أَنْ يَقُولُوا: نَتَّبِعُ آبَاءَنَا ولَوْ كَانُوا لا يَعْقِلُونَ، فَقُرِّرُوا على التِزَامِ هَذا، أَيْ هَذِهِ حَالُ آبَائِهِمْ، انْتَهَى كَلَامُهُ.

الواو إمَّا أن تُحمَلَ على العطفِ أو الحالِ، ولكلٍّ معنًى تفسيرٌ

وَظَاهِرُ قَوْلِ الزَّمَخْشَرِيِّ أَنَّ الوَاوَ لِلْحَالِ، مُخَالِفٌ لِقَوْلِ ابْنِ عَطِيَّةَ أَنَّهَا لِلْعَطْفِ، لِأَنَّ واوَ الحَالِ لَيْسَتْ لِلْعَطْفِ، والجَمْعُ بَيْنَهُمَا أَنَّ هَذِهِ الجُمْلَةَ المصْحُوبَةَ بِـ(لَوْ) في مِثْلِ هَذا السِّيَاقِ، هِيَ جُمْلَةٌ شَرْطِيَّةٌ؛ فَإِذا قال: (اضْرِبْ زَيْدًا ولَوْ أَحْسَنَ إِلَيْكَ)، المعْنَى: وإِنْ أَحْسَنَ، وكَذَلِكَ: (أَعْطُوا السَّائِلَ ولَوْ جَاءَ على فَرَسٍ، رُدُّوا السَّائِلَ ولَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ)، المعْنَى فِيهَا: (وَإِنْ)، وتَجِيءُ (لَوْ) هُنَا تَنْبِيهًا على أَنَّ مَا بَعْدَهَا لَمْ يَكُنْ يُنَاسِبُ مَا قَبْلَهَا، لَكِنَّهَا جَاءَتْ لِاسْتِقْصَاءِ الأَحْوَالِ الَّتِي يَقَعُ فِيهَا الفِعْلُ، ولِتَدُلَّ على أَنَّ المُرَادَ بِذَلِكَ وُجُودُ الفِعْلِ في كُلِّ حَالٍ، حَتَّى في هَذِهِ الحَالِ الَّتِي لا تُنَاسِبُ الفِعْلَ، ولِذَلِكَ لا يَجُوزُ: (اضْرِبْ زَيْدًا ولَوْ أَسَاءَ إِلَيْكَ)، ولَا (أَعْطُوا السَّائِلَ ولَوْ كان مُحْتَاجًا)، ولَا (رُدُّوا السَّائِلَ ولَوْ بِمِئَةِ دِينَارٍ)"[1].

حَذْفُ جَوَابِ (لَوْ) لدلالةِ السِّياقِ عليه في قَوْلِهِ: ﴿أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ﴾:

براعةُ التَّرْكِيبِ القرآنيِّ ووجازةُ لفظِه

حُذِفَ جوابُ (لو) في قولِه تعالى: ﴿أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ﴾ وقد دلَّ عليه السِّباقُ، والمعنى: "أَيتّبِعُونَ آبَاءَهُمْ وإِنْ كَانُوا جُهَّالًا؟!؛ فَتَرَكَ جَوَابَ (لَوْ) لِأَنَّهُ مَعْرُوفٌ، والتَّقْدِيرُ: أَوَلَوْ كان آبَاؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئًا ولَا يَهْتَدُونَ؛ يَتّبِعُونَهُمْ؟!"[2]، أو "لَاتَّبَعُوهُمْ، والمُسْتَفْهَمُ عَنْهُ هُوَ الارْتِبَاطُ الذي بَيْنَ الشَّرْطِ وجَوَابِهِ، وإِنَّمَا صَارَتِ الهَمْزَةُ لِلرَّدِّ لِأَجْلِ

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/103-104.

(2) الواحديّ، التَّفْسِير البَسِيط: 3/489، والبيضاوي، أنوار التّنزيل: 1/119.

العِلْم بِأَنَّ المُسْتَفْهَمَ عَنْهُ يُجَابُ عَنْهُ بِالإِثْبَاتِ بِقَرَائِنِ حَالِ المُخْبَرِ عَنْهُ والمُسْتَفْهِم، ومِثْلُ هَذا التَّرْكِيبِ مِنْ بَدِيعِ التَّرَاكِيبِ العَرَبِيَّةِ، وأَعْلَاهَا إِيجَازًا، و(لَوْ) في مِثْلِهِ تُسَمَّى وصْلِيَّةً"[1].

إطلاقُ العُمُومِ وإِرَادَةُ الخُصُوصِ في قولِه: ﴿لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا﴾:

نفيُ العامِّ جارٍ على طَريقَةِ البُلَغاءِ، بِجَعْلِ الغالِبِ أَمْرًا كُلِّيًّا عامًّا

نفتِ الآيةُ عن متَّبعي الآباءِ العقلَ في قولِه تعالى: ﴿لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا﴾، وهو نفيٌ عامٌّ، لكنَّ "مَعْنَاهُ الخُصُوصُ؛ لِأَنَّهُمْ كَانُوا يَعْقِلُونَ أَمْرَ الدُّنْيَا، ومَعْنَاهُ: لا يَعْقِلُونَ شَيْئًا مِنْ أَمْرِ الدِّينِ، قال ابْنُ عَبَّاسٍ: لا يَعْقِلُونَ عَظَمَةَ اللَّهِ، ولَا يَهْتَدُونَ إلى دِينِهِ"[2]، و"هَذا يَدُلُّ على جَوَازِ ذِكْرِ العَامِّ مَعَ أَنَّ المُرَادَ بِهِ الخَاصُّ"[3].

فالنَّفْيُ هُنا "جارٍ على طَرِيقَةِ البُلَغاءِ في المبالَغَةِ، بِجَعْلِ الغالِبِ أَمْرًا كُلِّيًّا عامًّا، يَقُولُونَ في الضَّالِّ في عامَّةِ شُؤُونِهِ: إِنَّهُ لا يَعْقِلُ شَيْئًا ولا يَهْتَدِي إلى الصَّوابِ، ويَقُولُونَ في البَلِيدِ إِنَّهُ لا يَفْهَمُ شَيْئًا، وهَذا لا يُنافي أَنْ يَعْقِلَ الأَوَّلُ بَعْضَ الأَشْياءِ، ويَفْهَمَ الثَّانِي بَعْضَ المسائِلِ"[4].

إعرابُ ﴿شَيْـًٔا﴾ مبنيٌّ على معنى العُمُومِ:

وقال أبو حَيّانَ: "وَانْتِصَابُ ﴿شَيْـًٔا﴾ على وجْهَيْنِ: أَحَدُهُمَا: على المفْعُولِ بِهِ، فَعَمَّ جَمِيعَ المعْقُولَاتِ، لِأَنَّهَا نَكِرَةٌ في سِيَاقِ النَّفْيِ فتَعُمُّ، ولَا يُمْكِنُ أَنْ يكون المرَادُ نَفْيَ الوحْدَةِ فَيكون المعْنَى لا يَعْقِلُونَ شَيْئًا بَلْ أَشْيَاءَ، والثَّانِي: أَنْ يكون مَنْصُوبًا على المصْدَرِ، أَيْ: شَيْئًا مِنَ العَقْلِ، وإِذا انْتَفَى، انْتَفَى سَائِرُ العُقُولِ"[5].

ولـمَّا دخلت هَمْزَةُ الإِنْكَارِ عَلَيْهِمْ في حَالِ عَدَمِ العَقْلِ، دلَّتْ على أَنَّهُمْ قَصَدُوا اتِّبَاعَهُمْ مُطْلَقًا، في حَالَةِ العَقْلِ وعَدَمِهِ، أَيْ: أَيَتَّبِعونَهم ولَوْ كَانُوا ﴿لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾؟! وهَذا نَفْيٌ أَخَصُّ، فَالتَّأْكِيدُ بِالمصْدَرِ دَخَلَ على المنْفِيِّ فَأَكَّدَهُ؛ لِأَنَّهُ سَابِقٌ على النَّفْيِ، وإِنْ جَعَلْتَ ﴿شَيْـًٔا﴾ مَفْعُولًا، لَمْ يَحْتَجْ إلى هَذا[6].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير، /106.
(2) الواحدي، التَّفْسِير البَسِيط: 3/490.
(3) الرّازي، مفاتيح الغيب: 5/189.
(4) محمّد رشيد رضا، تفسير القرآن الحكيم: 2/75.
(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/104.
(6) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/503.

توَجِيهُ المُتشابِهِ اللَّفظيِّ:

وجه التّشابُهِ بينَ ما في البَقَرَةِ: ﴿لَا يَعۡقِلُونَ﴾، وما في المائدة: ﴿لَا يَعۡلَمُونَ﴾:

لسائلٍ أن يسألَ عنِ الفرقِ بين قولِه تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلۡ نَتَّبِعُ مَآ أَلۡفَيۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوۡ كَانَ ءَابَآؤُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَهۡتَدُونَ ١٧٠﴾ [البقرة: 170]، وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُواْ حَسۡبُنَا مَا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوۡ كَانَ ءَابَآؤُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَهۡتَدُونَ ١٠٤﴾ [المائدة: 104]، فقال في البقرة: ﴿لَا يَعۡقِلُونَ﴾، وقال في المائدة: ﴿لَا يَعۡلَمُونَ﴾.

وَقَدۡ أَجَابَ الخَطِيبُ الإِسۡكَافي عَنۡ ذَلِكَ بِقَوۡلِهِ: "إِنَّ لِقَوۡلِهِ: ﴿يَعۡلَمُونَ﴾ رُتۡبَةً لَيۡسَتۡ لِقَوۡلِهِ: ﴿يَعۡقِلُونَ﴾، وإذا وقَفۡتَ على مَا بَيۡنَهَا سَهُلَتۡ عَلَيۡكَ مَعۡرِفَةُ مَا أَوۡجَبَ تَخۡصِيصَ كُلِّ مَكَانٍ بِاللَّفۡظِ المُخۡتَصِّ بِهِ؛ فَقَوۡلُ القَائِلِ: (يَعۡلَم)، مَعۡنَاهُ: يُدۡرِكُ الشَّيۡءَ على مَا هُوَ بِهِ مَعَ سُكُونٍ إِلَيۡهِ، وقَوۡلُهُ: (يَعۡقِلُ)، مَعۡنَاهُ يَحۡصُرُهُ بِإِدۡرَاكٍ لَهُ عَمَّا لا يُدۡرِكُهُ، ولِذَلِكَ جَازَ أَنۡ تَقُولَ: يَعۡلَمُ اللَّهُ كَذا، ولَا يَجُوزُ أَنۡ تَقُولَ: يَعۡقِلُ اللَّهُ كَذا؛ لِأَنَّ العَقۡلَ: الشَّدُّ، والعَاقِلُ: الّذي يَحۡبِسُ نَفۡسَهُ عَمَّا تَدۡعُو إِلَيۡهِ الشَّهَوَاتُ، ولَا شَهۡوَةَ لِلَّهِ تعالى فَيَحۡبِسَ عَنۡهَا، فَلِذَلِكَ لا يُقَالُ: اللَّهُ عَاقِلٌ، ويُقال: عَقَلَ فُلَانٌ الشَّيۡءَ، وهُوَ يَعۡقِلُهُ بِمَعۡنَى حَصَرَهُ، بِإِدۡرَاكِهِ لَهُ عَمَّا لا يُدۡرِكُهُ، وشَدَّهُ بِتَمۡيِيزِهِ لَهُ عَنۡ غَيۡرِهِ مِمَّا لا يُدۡرِكُهُ، وهَذا لا يَصِحُّ في حَقِّ اللَّهِ تعالى، فَإِذا كَانَتۡ رُتۡبَةُ ﴿يَعۡلَمُونَ﴾ زَائِدَةً على رُتۡبَةِ ﴿يَعۡقِلُونَ﴾، فَأَخۡبَرَ اللَّهُ تعالى عَنِ الكُفَّارِ في سُورَةِ المائِدَةِ فَقال: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُواْ حَسۡبُنَا مَا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوۡ كَانَ ءَابَآؤُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَهۡتَدُونَ ١٠٤﴾ [المائدة: 104] فَبَيَّنَ أَنَّهُمُ ادَّعَوۡا رُتۡبَةَ العِلۡمِ بِصِحَّةِ مَا كان آبَاؤُهُمۡ عَلَيۡهِ؛ لِأَنَّهُمۡ قَالُوا: ﴿حَسۡبُنَا مَا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ﴾، ولفظة ﴿حَسۡبُنَا﴾ تُسۡتَعۡمَلُ فِيمَا يَكۡفي في بَابِهِ، ويُغۡني عَنۡ غَيۡرِهِ، فَالمُدۡرِكُ لِلشَّيۡءِ إِذا أَدۡرَكَهُ على مَا هُوَ بِهِ، وسَكَنَتۡ نَفۡسُهُ إِلَيۡهِ، فَذاكَ حَسۡبُهُ، فَاسۡتَعۡمَلَ لَفۡظَةَ ﴿يَعۡلَمُونَ﴾، ونَفَى عَنۡهُمُ الهِدايَةَ، لِأَنَّهُمُ ادَّعَوۡهَا بِقَوۡلِهِمۡ: ﴿حَسۡبُنَا﴾، فَكَأَنَّهُمۡ قَالُوا: مَعَنَا عِلۡمٌ سَكَنَتۡ نُفُوسُنَا إِلَيۡهِ، مِمَّا وجَدۡنَا عَلَيۡهِ آبَاءَنَا مِنَ الدِّينِ، فَنَفَى مَا ادَّعَوۡهُ بِعَيۡنِهِ، وهُوَ العِلۡمُ"[1].

(1) الخطيب الإسكافي، درّة التّنزيل وغُرّة التّأويل: 1/310-315.

فائدةُ الحذفِ في قولِهِ تَعالى: ﴿وَلَا يَهْتَدُونَ﴾:

عدمُ اعتبارِ أيِّ هدايةٍ لا توصلُ إلى النَّجاةِ عند اللهِ بمعيارِ القرآنِ

حُذِفَ مُتَعَلَّقُ ﴿وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ والمعنى: ولا يهتدون إلى شَيْءٍ، "وَهَذِهِ الحالَةُ مُمْتَنِعَةٌ في نَفْسِ الأَمْرِ؛ لِأَنَّ لِآبائِهِمْ عُقُولًا تُدْرِكُ الأَشْياءَ، وفِيهِمْ بَعْضُ الاهْتِداءِ، مِثْلُ اهْتِدائِهِمْ إلى إثْباتِ وُجُودِ اللَّهِ تعالى، وإلى بَعْضِ ما عَلَيْهِ أُمُورُهُمْ مِنَ الخَيْرِ؛ كَإغاثَةِ المَلْهُوفِ، وقِرَى الضَّيْفِ، وحِفْظِ العَهْدِ، ونَحْوِ ذَلِكَ"[1]، فأطلقَ نفيَ الاهتداءِ وأرادَ به خصوصَ الهدايةِ الموصلةِ إلى النَّجاةِ؛ فإنَّ معرفةَ وجودِ اللهِ تعالى، والاعترافَ له بأنَّه الخالق، أو الاعترافَ ببعضِ الرُّسلِ وإنكارَ رسالةِ محمَّدٍ ﷺ لا يُؤدِّي إلى النَّجاةِ أبدًا، فلا بدَّ من الاعترافِ والإقرارِ بالهدايةِ القرآنيَّةِ بكاملِ شروطِها وأركانِها، وفائدةُ الإطلاقِ مع أنَّ المرادَ الهدايةَ الموصلةَ إلى النَّجاةِ، عدمُ اعتبارِ أيِّ هدايةٍ إلَّا الهداية المنجية.

سِرُّ تَقْدِيمِ نَفْيِ العَقْلِ على نَفْيِ الهِدايَةِ:

الأصلُ مُقدَّمٌ على الفرعِ

قُدِّمَ نَفْيُ العقلِ في قولِه تعالَى: ﴿أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾﴾؛ "لِأَنَّهُ الَّذي تَصْدُرُ عَنْهُ جَمِيعُ التَّصَرُّفاتِ، وأُخِّرَ نَفْيُ الهِدايَةِ لِأَنَّ ذَلِكَ مُتَرَتِّبٌ على نَفْيِ العَقْلِ؛ لِأَنَّ الهِدايَةَ لِلصَّوابِ هِيَ ناشِئَةٌ عَنِ العَقْلِ، وعَدَمُ العَقْلِ عَدَمٌ لَها"[2]، والعقلُ أصلُ الهدايةِ؛ فلا يهتدي من كان فاقدًا للعقلِ، وبه يظهرُ أثرُ هذه الجوهرةِ في الوصولِ إلى الحقِّ، وأنَّ المشركين لـمَّا فقدوها، فقدوا الخيرَ كلَّه.

نَفْيُ العَقْلِ يَتَضَمَّنُ نَفْيَ الهِدايَةِ، فَما أَبْيَنَهَا في قوله: ﴿لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾:

موضوعُ العقلِ التَّدَبُّرُ، وموضوعُ الاهتداءِ الاتِّباعُ

لسائلٍ أن يسألَ عن ذكرِ الهدايةِ بعد العقلِ، ومعلومٌ أنَّ نفيَ العقلِ يتضمَّنُ نفيَ الهدايةِ؟! "فَالجَوابُ: أَنَّ المُرادَ ﴿لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا﴾ مِنْ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/110.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط،: 2/104.

ذاتِ أَنْفُسِهِمْ، ولَوْ نَبَّهَهُمْ غَيْرُهُمْ لَمَا اهْتَدَوا"[1]، كما أنَّ موضوعَ العقلِ يختلفُ عن موضوعِ الهدايةِ؛ "فَمَوْضُوعُ العَقْلِ تَفَكُّرٌ، وتَدَبُّرٌ، وطَرِيقُهُ المنْطِقُ والبُرْهَانُ، ومَوْضُوعُ الاهْتِدَاءِ اتِّبَاعٌ لِهَادٍ مُرْشِدٍ، كَنَبِيٍّ مُرْسَلٍ، فَمَا كان لَهُمْ عَقْلٌ مُفَكِّرٌ ولَا هَادٍ يَهْتَدُونَ بِهَدْيِهِ"[2]، فقَوْلُهُ: ﴿لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا﴾، يُرادُ منه عدمُ علمهم شَيْئًا مِنَ الدِّينِ، وقَوْلُهُ تعالى: ﴿وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ يُراد منه عدم هدايتِهم إلى كَيْفِيَّةِ اكْتِسَابِهِ[3].

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(وَجَدَ) و(ألفَى):

لفظ (ألفى) وُجودٌ بهَيْئَةٍ خَاصَّةٍ، ولَفْظ (وَجَدَ) وُجُودٌ عَامٌّ

جَعَلَهُمَا الرَّازِي بِمَعْنًى واحِدٍ: "ألفَيْنا بِمَعْنَى وجَدْنَا، بِدَلِيلِ قَوْلِهِ تعالى في آيَةٍ أُخْرَى: ﴿بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ﴾ [لُقْمَان: 21]"[4]، وفرّق غيرُهُ، فقال ابن عرفة: "كان بَعْضُهُمْ يَقُولُ: إنّما لم يَقُولُوا: ﴿مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ﴾ ولَوْ كان المعْنَى واحِدًا؛ لِأَنَّ الوِجْدَانَ يكون اتِّفَاقِيًّا على غَفْلَةٍ مِنْ غَيْرِ قَصْدٍ، ومِنْهُ وِجْدَانُ الضَّالَّةِ، و﴿أَلْفَيْنَا﴾ يَقْتَضِي وِجْدَانَ مَا كان ثَابِتًا دَائِمًا مُسْتَقِرًّا"[5].

ألفَيْتُهُ يُصَلِّي: وجَدْتُهُ على تِلْكَ الحَالَةِ[6]، فَفِيهِ مَعْنَى الوُجُودِ على هَيْئَةٍ خَاصَّةٍ، وأمّا الوُجُودُ مَدْلُولُ (وَجَدَ) فهو وُجُودٌ عَامٌّ، وفي الآيَةِ يَدلُّ على الاتِّبَاعِ بِلَا تَدَبُّرٍ، بَلْ بتَقْلِيدٍ أَعْمى، وهُوَ مَوْضُوعُ الآيَةِ فَنَاسَبَهُ؛ كقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ أَلْفَوْاْ ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ ۝٦٩﴾ [الصّافات: 69]، "أَيْ وجَدُوا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ، فَاتَّبَعُوهُمْ على ضَلَالَتِهِمْ، مُسْرِعِينَ في ذَلِكَ لا يُثَبِّطُهُمْ شَيْءٌ"[7]، "أَيْ دُونَ تَدَبُّرٍ فيمَا دَعَاهُمْ إِلَيْهِ الرُّسُلُ"[8].

---

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/503.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 1/503.
(3) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 5/189.
(4) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 5/188.
(5) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/501.
(6) الفيوميّ، المصباح المنير: (لفي).
(7) أبو حيّان، البحر المحيط: 9/107.
(8) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (لفو).

﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ۚ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾﴾ [البقرة: 171]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

تَشْبِيهُ المُعْرِضِينَ عَنِ الهُدى، والمُتَّبِعِينَ لِسابِقِيهِمْ عَنْ عَمايَةٍ، بِأبْشَعِ تَشْبِيهٍ

"لَمَّا ذَكَرَ تعالى أَنَّ هَؤُلَاءِ الكُفَّارَ إذا أُمِرُوا بِاتِّبَاعِ مَا أَنْزَلَ اللّه، أَعْرَضُوا عَنْ ذَلِكَ ورَجَعُوا إلى مَا أَلِفُوهُ مِن اتّباع الباطِلِ الّذي نَشَؤوا عَلَيْهِ ووَجَدُوا عَلَيْهِ آبَاءَهُمْ، ولَمْ يَتَدَبَّرُوا مَا يُقَالُ لَهُمْ، وصَمُّوا عَنْ سَمَاعِ الحَقِّ، وخَرِسُوا عَنِ النُّطْقِ بِهِ، وعَمُوا عَنْ إِبْصَارِ النُّورِ السَّاطِعِ النَّبَوِيِّ، ذَكَرَ هَذا التَّشْبِيهَ العَجِيبَ في هَذِهِ الآيَةِ، مُنَبِّهًا على حَالَةِ الكَافِرِ في تَقْلِيدِهِ أَبَاهُ، ومُحَقِّرًا نَفْسَهُ، إذْ صَارَ هُوَ في رُتْبَةِ البَهِيمَةِ، أَوْ في رُتْبَةِ دَاعِيهَا"[1]، "عُقِّبَ ذَلِكَ كُلُّهُ بِتَمْثِيلٍ فَظِيعِ حَالِهِمْ، إِبْلَاغًا في البَيَانِ، واسْتِحْضَارًا لَهُمْ بِالمِثَالِ"[2].

المُعْرِضونَ عمّا أنزَلَ اللهُ (صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ)، بِلا عَقْلٍ ولا بَصيرَةٍ

من ناحية أخرى، أنه سبحانه "لَمَّا حَكَى عَنِ الكُفَّارِ أَنَّهُمْ عِنْدَ الدُّعَاءِ إلى اتِّبَاعِ مَا أَنْزَلَ اللّه، تَرَكُوا النَّظَرَ والتَّدَبُّرَ، وأَخْلَدُوا إلى التَّقْلِيدِ، وقَالُوا: ﴿بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ﴾ [البقرة: 170]، ضَرَبَ لَهُمْ هَذا المثَلَ، تَنْبِيهًا لِلسَّامِعِينَ لَهُمْ، أَنَّهُمْ إنّما وقَعُوا فِيمَا وقَعُوا فِيهِ بِسَبَبِ تَرْكِ الإِصْغَاءِ، وقِلَّةِ الاهْتِمَامِ بِالدِّينِ، فَصَيَّرَهُمْ مِنْ هذا الوَجْهِ بِمَنْزِلَةِ الأَنْعَامِ"[3].

الصّوت موهبةُ اللهِ، فطائرٌ يشدُو، وآخرُ ينعقُ

شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

1) ﴿يَنْعِقُ﴾: مِنَ الجذر (نعق)، وهُوَ في الأصلِ يدُلُّ على صَوْتٍ، ونَعَقَ الرَّاعِي بِالغَنَمِ يَنْعَقُ ويَنْعِقِ، إذا صَاحَ بِها زَجْرًا، نَعِيقًا[4]،

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/104.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/111.
(3) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 5/189.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نعق).

"النَّعِيقُ: دُعَاءُ الرَّاعِي وتَصْوِيتُهُ بِالغَنَمِ"[1]، فالنَّعيقُ صَوْتُ الرّاعي حِينَ يَصيحُ بِغَنَمِهِ زَجْرًا لها.

قَالَ الأخطل:

فَانْعِقْ بِضَأْنِكَ يَا جَرِيرُ فَإِنَّمَا *** مَنَّتْكَ نَفْسُكَ فِي الْخَلَاءِ ضَلَالَا[2]

وقوله: "﴿كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ﴾، وجْهُ الكلام: كَمثل المَنْعوقِ به، فجاءَ النّاعِقُ في مَوضِعِ المَنعوقِ به، لأنَّهُ جَعَل الكُفّارَ بمَنْزِلَة الغَنَم المَنْعوقِ بها"[3]، "وحَكى ابنُ كيْسانَ: نعَقَ الغُرابُ بالعَيْن غير مُعْجَمة، قَالَ الزّمخْشَريُّ: والغيْنُ أَعلَى، أَي: صاحَ، وقَالَ الأزهريّ: نعيقُ الغُراب، ونُعاقُه، ونَغيقُه، ونُغاقُه، مثلُ نَهيقِ الحِمارِ ونُهاقِه، ولكنّ الثِّقات من الأئمّة يَقُولُونَ: كلامُ العرَبِ: نَغَقَ الغُرابُ، بالغيْنِ المعْجَمَة، ونَعَقَ الرّاعي بالشّاءِ، بِالْعينِ المهْملة، ولَا يُقال في الغُراب نَعَق، ويجوز نعَبَ"[4].

2) ﴿دُعَآءً﴾: أصلُ مادّة (دعو)، هُوَ أَنْ تُمِيلَ الشَّيْءَ إِلَيْكَ بِصَوْتٍ وكَلَامٍ[5]، "والدُّعاءُ: واحد الأدْعِيَةِ، وأصْلُهُ: دُعاوٌ، لأنّه من دَعوتُ، إلّا أنّ الواوَ لَمَّا جاءت بعد الألف هُمِزَتْ، وتَقولُ للمرأة: أَنْتِ تَدْعِينَ، وفيه لُغَة ثانِيةٌ: أَنْتِ تَدْعُوِينَ، وفيه لُغةٌ ثالثةٌ: أَنْتِ تَدْعُينَ بإشمام العين الضَّمَّةَ، وللجماعةِ: أَنْتُنَّ تَدْعُونَ، مثلَ الرّجالِ سَواءً"[6]، و"الدُّعَاءُ كالنِّداءِ، إلّا أنّ النِّدَاءَ قَدْ يُقَالُ بِـ(يَا، أَوْ أَيَا)، ونَحْوِ ذَلِكَ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يُضَمَّ إِلَيْهِ الاسْمُ، والدُّعَاءُ لا يَكَادُ يُقَالُ إلّا إذا كان مَعَهُ الاسْمُ، نَحْو: يَا فُلَانُ، وقَدْ يُسْتَعْمَلُ كُلُّ واحِدٍ مِنْهُمَا مَوْضِعَ الآخَرِ، قال تعالى: ﴿كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً﴾ [البقرة: 171]"[7].

لا يكونُ الدّعاءُ إلّا معه الاسم، بخلاف النّداء

3) ﴿وَنِدَآءً﴾: مِن الجذْرِ (ندا/ ندي)، و"النِّدَاءُ: رفْعُ الصَّوتِ

النّداءُ رفعُ الصّوت المُجرّد، والجهرُ به وإظهاره

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/98.
(2) ديوان جرير، ص: 50، وتح: صالحاني، ص: 116، وتح: قباوة.
(3) ابن دريد، جمهرة اللّغة: 2/943، وكذلك الزّمخشريّ، أساس البلاغة: 2/286.
(4) الزَّبيدي، تاج العروس: 26/428.
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (دعو).
(6) الجوهريّ، الصّحاح: (دعا).
(7) الرّاغب، المفردات: (دعو).

وظُهُورُهُ، وقد يُقال ذلك لِلصَّوْتِ المُجرَّدِ، وإيّاه قَصَدَ بقولِه: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً﴾، أيْ: لا يَعْرِفُ إلّا الصَّوْتَ المجَرَّدَ دُونَ المعْنَى الذي يَقْتَضِيه تَرْكِيبُ الكَلَامِ"[1]، ونَقل الزَّبيديُّ عن الرَّاغب قولَهُ: "النِّداءُ: رَفْعُ الصَّوتِ المجرَّدِ، وإيَّاه قَصَدَ بقولِه تعالى: ﴿إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً﴾"، "قالَ: واسْتِعارَةُ النِّداءِ للصَّوْت، مِن حيثُ إنَّ مَنْ تَكْثُرُ رُطُوبَة فَمِه حَسُن كَلامُه، ولِهَذَا يُوصَفُ الفَصِيحُ بكَثْرةِ الرِّيقِ"[2]، ونَدَى الصَّوْتِ: بُعْدُ مَذْهَبِه، وهُوَ أَنْدَى صَوْتًا مِنْهُ: أيْ أَبْعَدُ، قال:

فَقُلْتُ ادْعِي وأَدْعُ فَإِنَّ أَنْدَى *** لِصَوْتٍ أَنْ يُنَادِيَ دَاعِيَانِ[3]

4) ﴿صُمٌّ﴾: مِنَ الجَذْر (صمم)، وهُوَ "أَصْلٌ يَدُلُّ عَلَى تَضَامٍّ الشَّيْءِ، وزَوَالِ الْخَرْقِ، والسَّمِّ، مِنْ ذَلِكَ: الصَّمَمُ في الْأُذُنِ، يُقَالُ: صَمِمْتَ، وأَنْتَ تَصَمُّ صَمَمًا، ورُبَّمَا قَالُوا: صُمَّ، بِمَعْنَى صَمَّ، ويُقَالُ: أَصْمَمْتُ الرَّجُلَ، إِذَا وجَدْتَهُ أَصَمَّ، قَالَ ابْنُ أَحْمَرَ:

أَصَمَّ دُعَاءُ عَاذِلَتِي تَحَجَّى *** بِآخِرِنَا وتَنْسَى أَوَّلِينَا[4]

والصَّمَمُ: فُقْدانُ حَاسَّةِ السَّمْعِ، وبِهِ يُوصَف مَنْ لا يُصْغِي إلى الحَقِّ ولَا يَقْبَلُهُ، قال تعالى: ﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ﴾[5]، "وأَصْلُ الصَّمَمِ السَّدُّ، ومِنْهُ صَمَمْتُ القَارُورَةَ: إذا شَدَدْتَ رَأْسَهَا"[6].

والمعنى في الآية: هؤلاء الكفار صُمٌّ سَدُّوا أسماعهم عن الحق.

5) ﴿بُكْمٌ﴾: مِنَ الجذْرِ (بكم)، وأَصْلُ المادّة يَدُلّ على الخَرَسِ[7]،

الصّمم فُقْدانُ حاسّة السّمْع، وبه يُوصفُ منْ لا يُصْغي إلى الحقّ

كُلُّ أبْكم أخْرس، وليس كُلُّ أخْرس أبْكم

(1) الرّاغب، المفردات: (ندا).
(2) الزّبيديّ، تاج العروس: 40/58.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ندي).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (صمم).
(5) الرّاغب، المفردات: (صمم)
(6) السّمين، عمدة الحفّاظ: (صمم)
(7) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (بَكَمَ)

قال ﷻ: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ﴾، جَمْعُ أَبْكَمَ، وهُوَ الّذي يُولَدُ أَخْرَسَ، فَكُلُّ أَبْكَمَ أَخْرَسُ، ولَيْسَ كُلُّ أَخْرَسَ أَبْكَمَ[1]، ويقال: "رَجُلٌ أبكَمُ، مِن قَومٍ بُكْمٍ، والأُنْثَى بَكماءُ، وقَالَ قومٌ: لَا يُسَمّى أبكَمَ حَتَّى يجْتَمع فِيهِ الخَرَس والبَلَهُ، وقد قَالُواْ: بَكيمٌ في معنى أَبْكَمَ، وجَمَعُوهُ: أَبْكَامًا، وهُوَ أَحَدُ مَا جَاءَ على فَعِيلٍ فَجُمِعَ على أَفعَالٍ، وهِي قَليلَة"[2].

وقال ابن الأنباري: فيه قولانِ: أحَدُهما: أن يَكونَ الأَبْكَمُ: المَسْلوبَ الفُؤادِ، الّذي لا يَعي شيئًا ولا يَفْهَمُهُ، والقولُ الآخَرُ: أن يَكونَ الأَبْكَمُ: الأخْرسَ، يُقالُ: قد بَكِمَ الرَّجُلُ يَبْكَمُ بَكَماً ...، قال اللّهُ ﷻ: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ﴾، فَسَّرَ المُفسِّرونَ البُكْمَ بِالخُرْسِ، ويقال أيضًا: البُكْمُ: المَسْلوبُو الأَفْئِدَةِ[3]، وفي قَوْلِ الرّسولِ ﷺ: «إِذَا رَأَيْتَ العُراةَ الحُفَاةَ الصُّمَّ البُكْمَ مُلُوكَ الأَرْضِ»[4]؛ المُرَادُ بِالبُكْمِ هُنَا: رَعاعُ النَّاسِ وجَهَلَتُهُمْ، قَالَ اللّه تَعَالَى: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ﴾، أَيْ لَمّا لَم يَنْتَفِعوا بِجَوارِحِهم هَذِه فِيمَا خلقهَا اللّهُ لَهُ، كَأَنَّهُمْ عَدِموها، وقَالَ الطَّحّاوِيّ: صُمٌّ بُكْمٌ عَنِ الْخَيْرِ، وقيلَ صُمٌّ بُكْمٌ لِشُغْلِهِم بِلَذّاتِهِم، ومَا تقدّمَ أَوْلى؛ لِأَنّ الحَدِيث لَا يدلّ أَنَّهَا صِفَتُهُمْ بَعد مُلْكهم، بلْ صِفَتُهُمُ اللَّازِمَةُ لَهُم[5].

الأبكمُ من لا يعي شيئًا ولا يفهمُهُ، وهُو من لا يستطيعُ كلامًا

والمعنى في الآية: هؤلاء الكفار بُكْم أخرسوا ألسنتهم عن النُّطق بالحقِّ.

6) ﴿عُمْيٌ﴾: من الجذرِ (عمى، عمي)، وأَصْلُ المادّةِ يَدُلُّ على سَتْرٍ وتَغْطِيَةٍ، والعَمَى: ذَهَابُ البَصَرِ مِنَ العَيْنَيْنِ كِلْتَيْهِمَا[6]، ويُقالُ

العمى حقيقيٌّ ومجازيٌّ، والحقيقيّ أهونُ من المجازيّ

(1) الرّاغب، المفردات: (بَكَمَ)
(2) ابن دريد، جمهرة اللّغة: (بَكَمَ).
(3) الأنباري، الزّاهر في معاني كلمات الناس: 1/277.
(4) ابن منده، الإيمان، حديث رقم: (154).
(5) عِيَاض اليحصبيّ، مشارق الأنوار على صحاح الآثار: 1/88.
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عمى).

في افْتِقادِ البَصَرِ والبَصيرَةِ، وجَمْع أَعْمَى: عُمْيٌ وعُمْيانٌ، قال تعالى: ﴿بُكۡمٌ عُمۡيٞ﴾ [البقرة: 171][1]، والْفِعْلُ مِنْهُ: عَمِيَ يَعْمَى عَمًى، ورُبَّمَا قَالُوا: اعْمَايَّ يَعْمَايُّ اعْمِيّاءً، مِثْلَ ادْهَامَّ، أَخْرَجُوهُ عَلَى لَفْظِ الصَّحِيحِ.

وَرَجُلٌ عَم: إِذَا كَانَ أَعْمَى الْقَلْبِ، وقَوْمٌ عَمُونَ، ويَقُولُونَ في هَذَا المعْنَى: مَا أَعْمَاهُ! ولَا يَقُولُونَ في عَمَى الْبَصَرِ: مَا أَعْمَاهُ! لأَنَّ ذَلِكَ نَعْتٌ ظَاهِرٌ يُدْرِكُهُ الْبَصَرُ، ويَقُولُونَ فِيمَا خَفِيَ مِنَ النُّعُوتِ: مَا أَفْعَلَهُ! قَالَ الْخَلِيلُ: لأَنَّهُ قَبِيحٌ أَنْ تَقُولَ لِلْمُشَارِ إِلَيْهِ: مَا أَعْمَاهُ! والْمُخَاطَبُ قَدْ شَارَكَكَ في مَعْرِفَةِ عَمَاهُ[2]، والعَمَى: ضِدُّ البَصَرِ، والعَمى نَوعانِ: حَقيقِيٌّ ومَجازِيٌّ، وهو ما عَبَّرَ عنهُ تَعالى بِقَوله: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعۡمَى ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ٤٦﴾ [الرعد: 46]، وعَمَى الأَبْصارِ أَهْوَنُ مِنْ عَمى البَصائِرِ[3]، قال حَسّانُ بن ثابتٍ الأنصاريُّ لِبَني قُرَيْظَةَ:

هُمُ أُوتُوا الْكِتَابَ فَضَيَّعُوهُ *** فَهُمْ عُمْيٌ عَنِ التَّوْرَاةِ بُورُ[4]

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

مَثَلُ تَقْلِيدِ الكَافِرِينَ آبَاءَهُم، كَالبَهائِمِ الّتِي يَنعِق عَلَيْهَا الرَّاعي، وهِي لا تَعقِل شيئًا

يُخْبِرُ اللَّهُ تعالى أَنَّ صِفَةَ الّذينَ كَفَرُوا ومَنْ يَدْعُوهُمْ إلى الهُدَى والإِيمَانِ، كَصِفَةِ الرَّاعِي الّذي يَصِيحُ مُنَادِيًا على بَهَائِمِه، فَتَسْمَعُ صَوْتَهُ، ولَا تَفْهَمُ قَوْلَهُ؛ فَهُمْ صُمٌّ عَنْ سَمَاعِ الحَقِّ سَمَاعًا يَنْتَفِعُونَ بِهِ، بُكْمٌ قَدْ خَرِسَتْ أَلسِنَتُهُمْ عَنِ النُّطْقِ بِالحَقِّ، عُمْيٌ عَنْ إِبْصَارِهِ، ولِهَذا لا يَعْقِلُونَ الهُدَى الّذي تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ، ولَا يَرَوْنَ بَرَاهِينَهُ البَاهِرَة، فَهُمْ لا يُعْمِلُونَ عُقُولَهُمْ فِيمَا يَنْفَعُهُمْ[5].

التَّقْلِيدُ بِغَيْرِ عَقْلٍ شَأْنُ الكَافِرِينَ، والتَّدَبُّرُ بِوَعْيٍ دَيدَنُ المُؤْمِنِينَ

وَالآيَةُ صَرِيحَةٌ في أَنَّ التَّقْلِيدَ بِغَيْرِ عَقْلٍ ولَا هِدَايَةٍ، هُوَ شَأْنُ الكَافِرِينَ، وأَنَّ المرْءَ لا يكون مُؤْمِنًا إلّا إذا عَقَلَ دِينَهُ وعَرَفَهُ بِنَفْسِهِ حَتَّى اقْتَنَعَ بِهِ، فَمَنْ رُبِّيَ على التَّسْلِيمِ بِغَيْرِ عَقْلٍ، والعَمَلِ -وَلَوْ

(1) الرّاغب، المفردات: (عمى).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عمي).
(3) الزّمخشري، أساس البلاغة: (عمي).
(4) ديوان حسّان بن ثابت، ص: 253، ومعاني القرآن: 3/66.
(5) جماعة من العلماء، المختصر في تفسير القرآن الكريم، ص: 26، ونخبة من العلماء، التّفسير الميسّر، ص: 26.

صَالِحًا- بِغَيْرِ فِقْهٍ، فَهُوَ غَيْرُ مُؤْمِنٍ، لِأَنَّهُ لَيْسَ القَصْدُ مِنَ الإِيمَانِ أَنْ يُذَلَّلَ الإِنْسَانُ لِلْخَيْرِ كَمَا يُذَلَّلُ الحَيَوَانُ، بَلِ القَصْدُ مِنْهُ أَنْ يَرْتَقِيَ عَقْلُهُ، وتَتَزَكَّى نَفْسُهُ، بِالعِلْمِ بِاللّٰهِ والعِرْفَانِ في دِينِهِ[1].

❁ الإِيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

دَلَالَةُ العَطْفِ فِي قَوْلِهِ تعالى: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ﴾:

إقامةُ الصِّفةِ باستقلالٍ دلاليٍّ

الجُمْلَةُ في قَوْلِهِ ﷻ: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾، "ابْتِدَائِيَّةٌ وارِدَةٌ لِتَقْرِيرِ مَا قَبْلَهَا بِطَرِيقِ التَّصْوِيرِ"[2]، وقد جاءت هنا معطوفةً بالواوِ ولم تُفصل "كَمَا فَصَلَ قَوْلَهُ: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا﴾ [البقرة: 17]؛ لِأَنَّهُ أُرِيدَ هُنَا جَعْلُ هَذِهِ صِفَةً مُسْتَقِلَّةً لَهُمْ، في تَلَقِّي دَعْوَةِ الإِسْلَامِ، ولَوْ لَمْ يَعْطِفْهُ لَمَا صَحَّ ذَلِكَ"[3].

تَمْثِيلُ فَظَاعَةِ حَالِ (ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ)، إِمْعانًا في البَيانِ، واسْتِحْضارًا لَهُمْ بِالمِثالِ

آثَرَ النَّظْمُ أُسْلُوبَ التَّمْثِيلِ؛ لِبَيَانِ ضَلَالِ مَنْ يَتَّبِعُ آبَاءَهُ السَّابِقِينَ، ويُعْرِضُ عَنِ الدِّينِ القَوِيمِ؛ لِمَا فِيهِ مِنْ تَصْوِيرٍ لِفِعْلِهِمُ المذْمُومِ، وهُوَ إِنْ "عُطِفَ عَلَى قَوْلِهِ: ﴿لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾﴾، عَلى سَبِيلِ البَيانِ، فيَكونُ المُرادُ بِالّذينَ كَفَرُواْ إيّاهُمْ، وضْعًا للمُظْهَرِ مَوضِعَ المضْمَرِ، للإِشْعارِ بِغَلَبَةِ عَدمِ الاهْتِداءِ، وسَلْبِ العُقولِ، نَعْيًا عَلى المُخاطَبِ، وتَسْجيلًا عَلى ضَلالِهِمْ، وفي عَطفِ الجُملَةِ الاسْميّةِ على الفِعْليّةِ، إيذانٌ بِأَنّ المضارعَ في قوله: ﴿لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾﴾، المُرادُ بِهِ الاسْتِمْرارُ[4].

وضعُ الظَّاهر - الاسْمِ المَوْصولِ - موضع الضّمير:

إيرادُ المُشابَهَةِ؛ لِلإِشْعارِ بِغَلَبَةِ عَدَمِ الاهْتِدَاءِ، وسَلْبِ العُقُولِ

أفادَ التَّعبيرُ بِالاسْمِ المَوْصُولِ في قَوْلِهِ ﷻ: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾، إِظْهَارَ الفِعْلِ المذْمُومِ وهو الكفرُ، المعبّرِ عَنْهُ في صِلَةِ

(1) محمّد رشيد رضا، تفسير القرآن الحكيم: 2/77.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 1/190.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/111.
(4) السّيوطيّ، نواهد الأبكار: 2/361

المَوْصُولِ؛ لِذَلِكَ آثَرَهُ على التَّعبير بِالضَّمِيرِ، فَلَمْ يَقُلْ: (وَمَثَلُهُمْ)؛ "وَضْعًا لِلْمُظْهَرِ مَوْضِعَ المضْمَرِ، لِلْإِشْعَارِ بِغَلَبَةِ عَدَمِ الاهْتِدَاءِ، وسَلْبِ العُقُولِ، نَعْيًا على المخَاطَبِ وتَسْجِيلًا على ضَلَالِهِمْ"[1]، "وَوَضَعَ المَوْصُولَ مَوْضِعَ الضَّمِيرِ الرَّاجِعِ إلى مَا تَرْجِعُ إِلَيْهِ الضَّمَائِرُ السَّابِقَةُ؛ لِذَمِّهِمْ بِمَا في حَيِّزِ الصِّلَةِ؛ ولِلْإِشْعَارِ بِعِلَّةِ مَا أَثْبَتَ لَهُمْ مِنَ الحُكْمِ، والتَّقْدِيرُ: مَثَلُ ذَلِكَ القَائِلِ"[2].

حَذْفُ المضَافِ لِلتَّلَطُّفِ بِخِطَابِ النَّبِيِّ ﷺ:

الإِيجَازُ بِالحَذْفِ يَتَمَاشَى مَعَ أَدَبِ الخِطَابِ المُهَذَّبِ

في قوله ﷻ: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾، يجبُ تقديرِ مُضافٍ مَحذوفٍ، "تقديرُهُ: (ومَثَلُ دَاعِي الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ)"[3]، وهذا المَحذوفُ مِنَ الإيجَازِ بِالحَذْفِ؛ ولَمْ يُصَرِّحْ بِالدَّاعِي - وهُوَ الرَّسُولُ - للعلم به، وتَمَشِّيًا مَعَ الأَدَبِ الرَّفِيعِ في حُسْنِ التَّلَطُّفِ بِالخِطَابِ، والتَّهْذِيبِ الّذي يَجِبُ أَنْ يَتَّسِمَ بِهِ الشُّعَرَاءُ والكُتَّابُ[4].

دَلالَةُ التَّشْبِيهِ في قولِهِ: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ﴾:

التَّمْثِيلُ لِإِهَانَةِ المُعْرِضِينَ عَنْ دِينِ اللَّهِ تعالى واحْتِقَارِهِمْ

فَائِدَةُ التَّمْثِيلِ في قَوْلِهِ ﷻ: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً﴾، إِهَانَةُ المُعْرِضِينَ عَنْ دِينِ اللَّهِ تَعالى واحْتِقَارُهُمْ؛ لِأَنَّهُ مَثَّلَهُمْ بِالأَنْعَامِ في انْتِفَاءِ قُدْرَتِهَا على فَهْمِ المنْطُوقِ، ومَآلُهُ بَيَانُ قِلَّةِ العَقْلِ والفَهْمِ، وذكرُوا أنَّهُ تَشْبِيهٌ مُرْسَلٌ ومُجْمَلٌ؛ مُرْسَلٌ لِذِكْرِ الأداةِ، ومُجْمَلٌ لِحَذْفِ وجْهِ الشَّبَهِ، "لَكَ أَنْ تَجْعَلَ هَذا التَّشْبِيهَ مِنَ المُرَكَّبِ، وأَنْ تَجْعَلَهُ مِنَ التَّشْبِيهِ المُفَرَّقِ، فإِنْ جَعَلْتَهُ مِنَ المُرَكَّبِ، كانَ تَشْبِيهًا لِلْكُفَّارِ في عَدَمِ فِقْهِهِمْ وانتِفاعِهِمْ بِالغَنَمِ الّتِي يَنْعِقُ بِها الرّاعِي، فلا تَفْقَهُ مِنْ قَوْلِهِ شَيْئًا، غَيرَ الصَّوتِ المُجَرَّدِ الّذي هُوَ الدُّعاءُ والنِّداءُ، وإن جَعَلْتَهُ مِنَ التَّشْبِيهِ المُفَرَّقِ،

(1) السّيوطيّ، نواهد الأبكار: 2/361.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 1/190.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/214.
(4) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 1/240.

فالّذين كَفروا بِمَنْزِلَةِ البَهائِم، ودُعاءُ داعِيهِمْ إلى الطَّرِيقِ والهُدى، بِمَنْزِلَةِ الّذي يَنْعِقُ بها، ودُعاؤُهُمْ إلى الهُدى بِمَنْزِلَةِ النَّعْقِ، وإدراكُهُمْ مُجَرّدَ الدّعاءِ والنِّداءِ، كإدْراكِ البَهائِمِ مُجَرّدَ صَوْتِ النّاعِقِ"[1].

الأَوْجُهُ الأَرْبَعَةُ لِاخْتِلافِ المُفَسِّرِينَ في قَوْلِهِ: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ﴾:

وتَفصيلُ ما سَلَفَ، أَنَّهُمْ اخْتَلَفوا في هَذِهِ الآيَةِ اخْتِلافًا كَثِيرًا، واضْطَرَبُوا فيها اضْطِرَابًا شَدِيدًا، ولَا سَبِيلَ إلى مَعْرِفَةِ الإِعْرَابِ، إلّا بَعْدَ مَعْرِفَةِ المعْنَى، وقَدِ اخْتَلَفُوا في ذَلِكَ، فَمِنْهُمْ مَنْ قال: مَعْنَاهَا أَنَّ المثَلَ مَضْرُوبٌ بِتَشْبِيهِ الكَافِرِ بِالنَّاعِقِ، ومِنْهُمْ مَنْ قال: هُوَ مَضْرُوبٌ بِتَشْبِيهِ الكَافِرِ بِالمَنْعُوقِ بِهِ، ومِنْهُمْ مَنْ قال: هُوَ مَضْرُوبٌ بِتَشْبِيهِ الدَّاعِي والكَافِرِ بِالنَّاعِقِ والمَنْعُوقِ بِهِ[2]، وخُلَاصَةُ ذَلِكَ أَنَّهُمْ ذَكَرُوا في بَيَانِ مَعْنَى التَّشْبِيهِ أَرْبَعَةَ وُجُوهٍ:

الوَجْهُ الأَوَّلُ: تَشْبِيهُ الكَافِرِ بِالمَنْعُوقِ بِهِ:

قال الفرّاءُ: "أَضَافَ المثَلَ إلى الّذينَ كَفَرُوا، ثُمَّ شَبَّهَهُمْ بِالرَّاعِي، ولَمْ يَقُلْ: كَالغَنَمِ، والمعْنَى - واللَّهُ أَعْلَمُ -: مَثَلُ الّذينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ البَهَائِمِ التي لا تَفْقَهُ مَا يَقُولُ الرَّاعِي أَكْثَرَ مِنَ الصَّوْتِ، فَلَو قال لَهَا: ارْعَيْ أَوِ اشْرَبِي، لَمْ تَدْرِ مَا يَقُولُ لَهَا، فَكَذَلِكَ مَثَلُ الّذينَ كَفَرُوا فِيمَا يَأْتِيهِمْ مِنَ القُرْآنِ، وإِنْذارِ الرَّسُولِ، فَأُضِيفَ التَّشْبِيهُ إلى الرَّاعِي، والمعْنَى -واللَّهُ أَعْلَمُ- في المرْعِيِّ، وهُوَ ظَاهِرٌ في كَلَامِ العَرَبِ أَنْ يَقُولُوا: فُلَانٌ يَخَافُكَ كَخَوْفِ الأَسَدِ، والمعْنَى: كَخَوْفِهِ الأَسَدَ؛ لِأَنَّ الأَسَدَ هُوَ المَعْرُوفُ بِأَنَّهُ المَخُوفُ"[3].

انْهِمَاكُ الكَفَرَةِ في التَّقْلِيدِ جَعَلَهُمْ كَالبَهَائِمِ؛ تَسْمَعُ الصَّوْتَ ولَا تَفْهَمُ مَعْنَاهُ

فَهُوَ تَشْبِيهٌ مُرْسَلٌ ومُجْمَلٌ[4]؛ "شَبَّهَ الكُفَّارَ بِالبَهَائِمِ الّتي تَسْمَعُ صَوْتَ المُنَادِي دُونَ أَنْ تَفْقَهَ كَلَامَهُ وتَعْرِفَ مُرَادَهُ"[5]، وقال الوَاحِدِيُّ: "مَعْنَى الآيَةِ: ومَثَلُ الّذينَ كَفَرُوا في قِلَّةِ عَقْلِهِمْ وفَهْمِهِمْ عَنِ اللَّهِ ﷻ،

(1) محمّد علي الدّرة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 1/390 391-.

(2) السّمين، الدُّرُّ المَصونُ: 2/229.

(3) الفرّاء، معاني القرآن: 1/99- 100.

(4) التَّشْبِيهُ المرْسَلُ: هُوَ التَّشْبِيهُ الذي ذُكِرَتْ فِيهِ أَدَاةٌ مِنْ أَدَوَاتِ التَّشْبِيهِ، والتَّشْبِيهُ المُجْمَلُ: هُوَ التَّشْبِيهُ الذي لَمْ يُذْكَرْ فِيهِ وجْهُ الشَّبَهِ، ينظر: عبد الرحمن حسن، البلاغة العربيّة: 2/173.

(5) محمد علي جميل، صفوة التّفاسير: 1/103.

وعَنْ رَسُولِهِ، كَمَثَلِ المنْعُوقِ بِهِ مِنَ البَهَائِمِ الّتي لا تَفْقَهُ مِنَ الأَمْرِ والنَّهْيِ غَيْرَ الصَّوْتِ، فَيكونُ المَعْنَى لِلْمَنْعُوقِ بِهِ، والكَلَامُ خَارِجٌ على النَّاعِقِ، وهُوَ جَائِزٌ عِنْدَ العَرَبِ، يَقْلِبُونَ الكَلَامَ لاتِّضَاحِ المعْنَى عِنْدَهُمْ، فَيَقُولُونَ: اعْرِضِ الحَوْضَ على النَّاقَةِ، وإنّمَا هُوَ: اعْرِضِ النَّاقَةَ على الحَوْضِ، وعلى هَذا حُمِلَ قَوْلُهُ تَعالى: ﴿مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ﴾ [القصص: 76]، المَعْنى: أنَّ العُصْبَةَ تَنُوءُ بِالمَفَاتِحِ"[1].

اعتراضُ ابنِ قتيبة على قولِ الفرّاء

وَاعْتَرَضَ ابْنُ قُتَيْبَةَ على هَذا القَوْلِ بِأَنْ قال: "وكان بَعْضُ أَصْحَابِ اللُّغَةِ يَذْهَبُ في قَوْلِ اللّٰهِ تعالى: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً﴾ إلى مِثْلِ هَذا في القَلْبِ، ويَقُولُ: وقَعَ التَّشْبِيهُ بِالرَّاعِي في ظَاهِرِ الكَلَامِ، والمعْنَى لِلْمَنْعُوقِ بِهِ وهُوَ الغَنَمُ، وكَذَلِكَ قَوْلُهُ سُبْحَانَهُ: ﴿مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُوْلِى ٱلْقُوَّةِ﴾ [القصص: 76] أَيْ: تَنْهَضُ بها وهِيَ مُثْقَلَةٌ"[2]، ثُمَّ قال: "وَهَذا مَا لا يَجُوزُ لِأَحَدٍ أَنْ يَحْكُمَ بِهِ على كِتَابِ اللّٰهِ ﷻ لَوْ لَمْ يَجِدْ لَهُ مَذْهَبًا؛ لِأَنَّ الشُّعَرَاءَ تَقْلِبُ اللَّفْظَ، وتُزِيلُ الكَلَامَ على الغَلَطِ، أَوْ على طَرِيقِ الضَّرُورَةِ لِلْقَافِيَةِ، أَوْ لِاسْتِقَامَةِ وزْنِ البَيْتِ"[3]، "وَاللّٰهُ تعالى لا يَغْلَطُ ولَا يُضْطَرُّ، وإنّمَا أَرَادَ: ومَثَلُ الّذينَ كَفَرُوا ومَثَلُنَا في وعْظِهِمْ، كَمَثَلِ النَّاعِقِ بِمَا لا يَسْمَعُ، فَاقْتَصَرَ على قَوْلِهِ: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾، وحَذَفَ (ومَثَلُنا)؛ لِأَنَّ الكَلَامَ يَدُلُّ عَلَيْهِ، ومِثْلُ هَذا كَثِيرٌ في الاخْتِصَارِ"[4].

انتصارُ الواحديِّ لقولِ الفرّاء

وَصَحَّحَ الوَاحِدِيُّ قَوْلَ الفَرّاءِ، ورَدّ على إِنْكَارِ ابْنِ قُتَيْبَةَ قائِلًا: "وَقَوْلُ الفَرّاءِ صَحِيحٌ وإِنْ أَنْكَرَهُ ابْنُ قُتَيْبَةَ، مُوَافِقٌ لِمَذاهِبِ العَرَبِ في فُنُونِ مُخَاطَبَاتِهَا؛ فَإِنَّهُمْ يَفْعَلُونَ الشَّيْءَ لِلضَّرُورَةِ، ثُمَّ يَصِيرُ وجْهًا

(1) الواحدي، التَّفْسِير البَسِيط: 3/491-492.
(2) ابن قتيبة، تأويل مشكل القرآن، ص: 126.
(3) ابن قتيبة، تأويل مشكل القرآن، ص: 126.
(4) ابن قتيبة، تأويل مشكل القرآن: 3/129.

ومَذْهَبًا لَهُمْ في الكَلَام، حَتَّى يُجيزُوهُ وإنْ لَمْ تَدْعُ إِلَيْهِ ضَرُورَةٌ، وعلى هَذا الطَّرِيقِ أَرَادَ ﴿بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً﴾: البَهَائِمَ الّتِي لا تَعْقِلُ ولَا تَفْهَمُ مَا يَقُولُ الرَّاعِي، إنّما تَسْمَعُ صَوْتًا ولَا تَدْرِي مَا تَحْتَهُ، لَوْ قال لَهَا: كُلِي واشْرَبِي لَم تَقِفْ على مَعْنَى قَوْلِهِ، فَالّذينَ كَفَرُوا يَسْمَعُونَ كَلَامَ النَّبِيِّ ﷺ، وهُمْ كَالغَنَم؛ إِذْ كَانُوا لا يَسْتَعْمِلُونَ مَا يَأْمُرُهُمْ بِهِ، ولَا يَنْتَهُونَ عَمَّا نَهَاهُمْ عَنْهُ"[1]، "وَالمَعْنَى أَنَّ الكَفَرَةَ لانْهِمَاكِهِمْ في التَّقْلِيدِ لا يُلْقُونَ أَذْهَانَهُمْ إلى مَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ، ولَا يَتَأَمَّلُونَ فِيمَا يُقَرَّرُ مَعَهُمْ، فَهُم في ذَلِكَ كَالبَهَائِمِ التِي يُنْعَقُ عَلَيْهَا فَتَسْمَعُ الصَّوْتَ، ولَا تَعْرِفُ مَغْزَاهُ، وتُحِسُّ بِالنِّدَاءِ ولَا تَفْهَمُ مَعْنَاهُ"[2].

الوَجْهُ الثَّاني: تَشْبِيهُ دَاعِي الكَفَرَةِ بِرَاعِي الغَنَمِ:

قال الفَرّاءُ: "وَفِيهَا مَعْنًى آخَرُ: تُضِيفُ المثَلَ إلى ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾، وإِضَافَتُهُ في المعْنَى إلى الوَعْظِ، كَقَوْلِكَ: مَثَلُ وعْظِ الّذينَ كَفَرُوا ووَاعِظِهِمْ كَمَثَلِ النَّاعِقِ"[3]، فَيَكونُ مِنْ قَبِيلِ التَّشْبِيهِ المَفْرُوقِ[4]، حَيثُ "شَبَّهَ دَاعِيَ الكَافِرِ بِالنَّاعِقِ، ونَفْسَ الكَفَرَةِ بِالبَهَائِمِ المنْعُوقِ بها، ودُعَاءَ دَاعِي الكَفَرَةِ بِنَعِيقِ النَّاعِقِ بِالبَهَائِمِ، والمعْنَى: مَثَلُكَ يَا مُحَمَّدُ، ومَثَلُ الّذينَ كَفَرُوا، في وعْظِهِمْ ودُعَائِهِمْ إلى اللّهِ وعَدَمِ اهْتِدَائِهِمْ، كَمَثَلِ الرَّاعِي الّذي يَصِيحُ بِالغَنَمِ ويُكَلِّمُهَا ويَقُولُ: كُلِي واشْرَبِي وارْعَيْ، وهِيَ لا تَفْهَمُ"[5].

الدَّاعِي كَالرَّاعِي يَدْعُو البَهَائِمَ، ولَا تَفْقَهُ مِنْ صَوْتِهِ إلّا الصَّوْتَ

وقال السَّمينُ الحلبيُّ مُرَجِّحًا هذا الوَجْهَ: "فَمَعْنَى الآيَةِ: أَنَّ مَثَلَ دَاعِي الكَفَرَةِ، كَمَثَلِ الرَّاعِي النَّاعِقِ بِالغَنَمِ، والغَنَمِ المنْعُوقِ بها، في

فنُّ الاحتباكِ في التَّشبيهِ التَّمثيليِّ

(1) الواحدي، التَّفْسِير البَسِيط: 33/493.

(2) البيضاوي، أنوار التّنزيل: 31/119.

(3) الفرّاء، معاني القرآن: 31/100.

(4) التَّشْبِيهُ المفْرُوقُ: مَا يَتَعَدَّدُ طَرَفَاهُ، ويُجْمَعُ كُلُّ طَرَفٍ مَعَ صَاحِبِهِ، بِأَنْ يُجْمَعَ كُلُّ مُشَبَّهٍ مَعَ مُشَبَّهٍ بِهِ، ينظر: حسن إسماعيل، البلاغَة الصَّافِيَة في المعاني والبيان والبديع، ص: 295، وهُوَ مِنْ أَقْسَامِ التَّشْبِيهِ بِاعْتِبَارِ تَعَدُّدِ الطَّرَفَيْنِ أَوْ أَحَدِهِمَا، وهُوَ: مَا أُتِيَ فِيهِ بِمُشَبَّهٍ ومُشَبَّهٍ بِهِ ثُمَّ بِمُشَبَّهٍ ومُشَبَّهٍ بِهِ، وهَكَذَا، يُنْظَر: عصام الدّين الحنفيّ، الأَطول شَرْح تَلخيصِ مِفْتاحِ العُلومِ: 31/80.

(5) البروسويّ، روح البيان: 1/274.

أَنَّهُ لَمْ يَحْصُلْ لِلْكَفَرَةِ مِنَ الدُّعَاءِ الهَدْيُ الأَمْثَلُ مَا يَحْصُلُ لِلْغَنَمِ مِنْ صَوْتِ النَّاعِقِ بها، وهُوَ سَمَاعُ الصَّوْتِ مِنْ غَيْرِ فَهْمٍ لِمَعْنَاهُ؛ ولِذَلِكَ قال: ﴿إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً﴾ [البقرة: 171]، فَذَكَرَ في أَوَّلِ الآيَةِ المَدْعُوَّ، وحَذَفَ الدَّاعِيَ، وفي آخِرِهَا ذَكَرَ الدَّاعِيَ وحَذَفَ المدْعُوَّ، فَحَذَفَ مِنَ الأَوَّلِ لِدَلَالَةِ الثَّاني عَلَيْه، ومِنَ الثَّاني لِدَلَالَةِ الأَوَّلِ عَلَيْه، وفي الآيَةِ أَقْوَالٌ هَذا أَبْيَنُهَا"(1).

وَقال الوَاحِدِيُّ مُبَيِّنًا قَوْلَ الفرَّاءِ: "تَقْدِيرُ الآيَةِ: ومَثَلُكَ يَا مُحَمَّدُ، ومَثَلُ الّذينَ كَفَرُوا في وعْظِهِمْ ودُعَائِهِمْ إلى اللَّهِ ﷻ؛ فَحَذَفَ أَحَدَ المثَلَيْنِ اكْتِفَاءً بِالثَّاني، كَقَوْلِهِ: ﴿سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾ [النّحل: 81]، وعلى هَذا التَّقْدِيرِ: شَبَّهَ الكُفَّارَ بِالبَهَائِمِ، وشَبَّهَ دَاعِيَهُمْ بِالّذي يَصِيح بها وهِيَ لا تَعْقِلُ شَيْئًا"(2).

الوَجْهُ الثَّالِثُ: إِجْرَاؤُهُ على ظَاهِرِهِ:

الجاحِدونَ لا يَفْقَهونَ، مِثْلَ البَهائِمِ التّي لا تَفهَمُ

ومن المفسِّرين من يَجْعَلُ الآيَةَ بِلَا إِضْمَارٍ، قال الوَاحِدِيُّ: "مَعْنَاهَا: ومَثَلُ الكُفَّارِ في قِلَّةِ فَهْمِهِمْ وعَقْلِهِمْ، كَمَثَلِ الرُّعَاةِ يُكَلِّمُونَ البُهْمَ، والبُهْمُ لا تَعْقِلُ عَنْهُمْ، وعلى هَذا التَّفْسِيرِ لا تَحْتَاجُ الآيَةُ إلى إِضْمَارٍ"(3)، وقد فصّل فيه الرّازيّ فقالَ: "إِجْرَاؤُهَا على ظَاهِرِهَا مِنْ غَيْرِ إِضْمَارٍ، وفِيهِ وجْهَانِ؛ أَحَدُهُمَا: أَنْ يَقُولَ: مَثَلُ الّذينَ كَفَرُوا في قِلَّةِ عَقْلِهِمْ في عِبَادَتِهِمْ لِهَذِهِ الأَوْثَانِ، كَمَثَلِ الرَّاعِي إذا تَكَلَّمَ مَعَ البَهَائِمِ، فَكَمَا أَنَّهُ يُقْضَى على ذَلِكَ الرَّاعِي بِقِلَّةِ العقْلِ، فكَذا هاهُنا، الثَّاني: مَثَلُ الّذينَ كَفَرُوا في اتِّبَاعِهِمْ آبَاءَهُمْ وتَقْلِيدِهِمْ لَهُمْ، كَمَثَلِ الرَّاعِي إذا تَكَلَّمَ مَعَ البَهَائِمِ، فَكَمَا أَنَّ الكَلَامَ مَعَ البَهَائِمِ عَبَثٌ عَدِيمُ الفَائِدَةِ، فَكَذا التَّقْلِيدُ عَبَثٌ عَدِيمُ الفَائِدَةِ"(4).

وَمِنْهُ أَنْ يُجْعَلَ تَشْبِيهًا بِعِبَادَةِ الأَصْنَامِ: "فَتَضَمَّنَ هَذا المثَلُ نَاعِقًا، أَيْ مُصَوِّتًا بِالغَنَمِ وغَيْرِهَا، ومَنْعُوقًا بِهِ، وهُوَ الدَّوَابُّ، فَقِيلَ:

(1) السّمين، عمدة الحفاظ: 4/196، والدُّرُّ المصون: 2/229.
(2) الواحدي، البسيط: 3/491- 492.
(3) الواحديّ، البسيط: 3/493.
(4) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 5/190.

النَّاعِقُ: العَابِدُ، وهُوَ الدَّاعِي لِلصَّنَم، والصَّنَمُ هُوَ المنْعُوقُ بِهِ المدْعُوُّ، وإنَّ حَالَ الكَافِرِ في دُعَائِهِ كَحَالِ مَنْ يَنْعِقُ بِمَا لا يَسْمَعُهُ"[1].

وَضَعَّفَ البَيْضَاوِيُّ هَذا الوَجْهَ؛ لِأَنَّهُ أَثْبَتَ لَهُمْ سَمَاعًا بِالاسْتِثْنَاءِ، ﴿إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً﴾؛ "لأنَّ الأصْنامَ لا تَسْمَعُ، إلّا أَنْ يُجعَلَ ذلكَ مِنْ باب التَّمثيلِ المُركَّبِ"[2]، "وَقِيلَ: تَمْثِيلُهُمْ في دُعَائِهِمُ الأَصْنَامَ بِالنَّاعِقِ في نَعْقِهِ، وهُوَ تَصْوِيتُهُ على البَهَائِم، وهَذا غَنِيٌّ عَنْ الإِضْمَارِ، لَكِنْ لا يُسَاعِدُهُ قَوْلُهُ: ﴿إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً﴾؛ فَإِنَّ الأَصْنَامَ بِمَعْزِلٍ مِنْ ذَلِكَ"[3].

الوَجْهُ الرَّابِعُ: أَنَّهُ تَشْبِيهٌ مُرَكَّبٌ:

الكُفَّارُ في عَدَمِ الِانْتِفَاعِ، كَالغَنَمِ الَّتِي لَا تَفْقَهُ غَيْرَ الصَّوْتِ المُجَرَّدِ

فَإِنْ جَعَلْتَ التَّمثيلَ مِنَ المُرَكَّبِ كان تَشْبِيهًا لِلْكُفَّارِ في عَدَمِ فِقْهِهِمْ وانْتِفَاعِهِمْ، بِالغَنَمِ التي يَنْعِقُ بها الرَّاعِي فَلَا تَفْقَهُ مِنْ قَوْلِهِ شَيْئًا غَيْرَ الصَّوْتِ المُجَرَّدِ الَّذي هُوَ الدُّعَاءُ والنِّدَاءُ"[4]، "وَمَثَلُهُمْ في دُعَائِهِمُ الأَصْنَامَ فِيمَا لا جَدْوَى فِيهِ، كَمَثَلِ النَّاعِقِ بِمَا لا يَسْمَعُ، إلّا دُعَاءً ونِدَاءً"[5].

بيانُ حَذْفِ المُضافِ في: ﴿كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ﴾:

مَثَلُ الكافِرِينَ كَالبَهَائِمِ الَّتي يُنْعَقُ بِها، فلا تَسْمَعُ إلّا جَرْسًا ودَوِيًّا

إذا كانَ المشَبَّهُ بِهِ هُوَ البَهَائِمَ، فَالتَّقْدِيرُ: كَمَثَلِ بَهَائِمِ الَّذي يَنْعِقُ بها، و"إنّما حُذِفَ المضَافُ مِنَ الموْصُولِ الثَّاني لِدَلَالَةِ كَلِمَةِ (مَا) عَلَيْهِ؛ فَإِنَّهَا عِبَارَةٌ عَنْهُ، مُشْعِرَةٌ -مَعَ مَا في حَيِّزِ الصِّلَةِ- بِمَا هُوَ مَدَارُ التَّمْثِيلِ، أَيْ مَثَلُ الَّذينَ كَفَرُوا فِيمَا ذُكِرَ مِنَ انْهِمَاكِهِمْ فِيمَا هُمْ فِيهِ، وعَدَمِ التَّدَبُّرِ فِيمَا أُلقِيَ إِلَيْهِمْ مِنَ الآيَاتِ، كَمَثَلِ بَهَائِمِ الَّذي يَنْعِقُ بها، وهِيَ لا تَسْمَعُ مِنْهُ إلّا جَرْسَ النَّغْمَةِ، ودَوِيَّ الصَّوْتِ"[6]، فلا بُدَّ مِنْ مُضافٍ مَحْذوفٍ، تَقديرُهُ: (ومَثَلُ الَّذينَ كَفَرُوا كبَهَائِمِ الَّذي يَنْعِقُ)"[7].

(1) ابن القيّم، أمثال القرآن: 2/45.
(2) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 1/119.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 1/190.
(4) ابن القيّم، أمثال القرآن: 2/46.
(5) السّيوطيّ، نواهد الأبكار: 2/361.
(6) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 1/190.
(7) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/214.

تَوَهُّمُ زِيَادَةِ (إِلَّا)، بِاعْتِبارِ الخلطِ بين المنفيَّات:

فَرْقٌ بينَ نَفْيِ السَّماعِ، ونَفْيِ فَهْمِ المَسْموعِ

الاستثناءُ في قَوْلِه ﷻ: ﴿كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً﴾، "مُفَرَّغٌ؛ لِأَنَّ قَبْلَهُ فِعْلٌ مَبْنِيٌّ مُتَعَدٍّ لَمْ يَأْخُذْ مَفْعُولَهُ، وذَهَبَ بَعْضُهُمْ إلى أَنَّهُ لَيْسَ اسْتِثْنَاءً مُفَرَّغًا، وأنّ ﴿إِلَّا﴾ زَائِدَةٌ، والدُّعَاءُ والنِّدَاءُ مَنْفِيٌّ سَمَاعُهُمَا، والتَّقْدِيرُ: بِمَا لا يَسْمَعُ دُعَاءً ولَا نِدَاءً، وهَذا ضَعِيفٌ؛ لِأَنَّ القَوْلَ بِزِيَادَةِ (إِلَّا) قَوْلٌ بِلَا دَلِيلٍ"[1].

وجعل ابْنُ عَرَفَةَ سببَ القولِ بزيادةِ ﴿إِلَّا﴾ تَوَهُّمَ التَّنَاقُضِ؛ لِأَنَّ قولَه: ﴿لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً﴾، يَلْزَمُ عنه أَنْ يكونَ الدُّعَاءُ والنِّدَاءُ مَسْمُوعَيْنِ لَهُ، وقَوْلُهُ: ﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ﴾ يَدُلُّ على أَنَّهُ لا يَسْمَعُ شَيْئًا بِوَجْهٍ من الوجوه[2]، فَادِّعَاء الزِّيَادَةِ سببُهُ الوَهْمُ في فَهْمِ الآيَةِ؛ فَالآيَةُ لا تَتناولُ نَفْيَ السَّمْعِ، ولَكِنْ نَفْيَ فَهْمِ المسْمُوعِ.

حالُ مَنْ لا يَنْتَفِعُ بِحَاسَّتِهِ، كَحَالِ فَاقِدِهَا:

في السِّيَاقِ إيجَازٌ مُفادُهُ عَدَمُ إِدْراكِ المَعاني والأَغْرَاضِ

"فَإِنْ قِيلَ: قَوْلُهُ ﴿لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً﴾، لَيْسَ المسْمُوعُ إلّا الدُّعَاءَ والنِّدَاءَ، فَكَيْفَ ذَمَّهُمْ بِأَنَّهُمْ لا يَسْمَعُونَ إلّا الدُّعَاءَ؟ وكَأَنَّهُ قِيلَ: لا يَسْمَعُونَ إلّا المَسْمُوعَ، وهَذا لا يَجُوزُ؛ فَالجَوَابُ: أَنَّ في الكلام إيجازًا، وإنّمَا المعْنَى: لا يَفْهَمُونَ مَعَانِيَ مَا يُقَالُ لَهُمْ، كَمَا لا تُمَيِّزُ البَهَائِمُ بَيْنَ مَعَانِي الألفَاظِ الَّتِي لا تُصَوِّتُ بها، وإنّمَا تَفْهَمُ شَيْئًا يَسِيرًا، وقَدْ أَدْرَكَتْهُ بِطُولِ المِمَارَسَةِ وكَثْرَةِ المعَاوَدَةِ، فَكَأَنَّهُ قِيلَ: لَيْسَ لَهُمْ إلّا سَمَاعُ النِّدَاءِ دُونَ إِدْرَاكِ المعَانِي والأَغْرَاضِ"[3].

قال الرّازيّ: "قَوْلُهُ تعالى: ﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ﴾، فَاعْلَمْ أَنَّهُ تعالى لَمَّا شَبَّهَهُمْ بِالبَهَائِمِ، زَادَ في تَبْكِيتِهِمْ، فَقال: ﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ﴾؛ لِأَنَّهُمْ صَارُوا بِمَنْزِلَةِ الصُّمِّ في أَنَّ الذي سَمِعُوهُ كَأَنَّهُمْ لَمْ يَسْمَعُوهُ"[4].

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/108.
(2) تفسير ابن عرفة: 2/504-505.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/108.
(4) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 5/190.

سِرُّ الجَمْعِ بَيْنَ الدُّعَاءِ والنِّدَاءِ في قوله: ﴿إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً﴾:

تَقْرِيرُ عَدَمِ انْتِفَاعِ الكَافِرِ بِشَيْءٍ مِن وُجُوهِ الخِطَابِ والدَّعْوَةِ

جُمِعَ بَيْنَ الدُّعَاءِ والنِّدَاءِ، في قوله ﷻ: ﴿إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً﴾؛ "لِأَنَّ الدُّعَاءَ طَلَبُ الفِعْلِ، والنِّدَاءَ إِجَابَةُ الصَّوْتِ"[1]، قال ابْنُ عَرَفَة: "وَعَادَتُهُمْ يُفَرِّقُونَ بَيْنَ الدُّعَاءِ والنِّدَاءِ، بِأَنَّ الدُّعَاءَ يكونُ بِلَفْظِ الطَّلَبِ، وسَوَاءٌ كانَ مَعَهُ نِدَاءٌ أَوْ لَمْ يُكِنْ، والدُّعَاءُ أَخَفُّ مِنَ النِّدَاءِ؛ لِأَنَّ البَهَائِمَ تُنَادِيهَا فَلَا تُجِيبُ، فَإِذا دَعَوْتَهَا وزَجَرْتَهَا أَتَتْ، فَالنِّدَاءُ لِلْخَوَاصِّ، والدُّعَاءُ لِلْعَوامِّ، فَمَنْ لَمْ يَسْتَجِبْ لِلنِّدَاءِ قَدْ يَسْتَجِيبُ لِلدُّعَاءِ، ومَنْ لَمْ يَنْفَعْ فِيهِ الدُّعَاءُ فَهُوَ في غَايَةِ الجَهْلِ والغَبَاوَةِ"[2]، ومَآلُهُ التَّمْثِيلُ على عَدَمِ انْتِفَاعِ الكَافِرِ بشيء من وُجُوهِ الخِطَابِ والدَّعْوَةِ.

مَجْمُوعُ المُتَرادِفَيْنِ، يَحْصُلُ به مَعْنًى لَا يُوجَدُ عِنْدَ انْفِرادِهِما

جاء في (الكُلِّيّات)، أنّ التّرادُفَ هُو: "الاتِّحَادُ في المَفْهُوم، لَا الاتِّحَادُ في الذَّاتِ، كالإِنْسانِ والبَشَرِ، وحقُّ المُترادِفَيْن صِحّةُ حُلُولِ كُلٍّ مِنْهُمَا مَحلَّ الآخَرِ؛ هَذَا مُخْتَارُ ابْنِ الحَاجِبِ في (أُصُولِهِ)، وهُوَ أَنّهُ يَجِبُ ذَلِك مُطلقًا، ومختارُ الْبَيْضَاوِيّ: إِن كَانَا من لُغَةٍ واحِدَةٍ، ومُخْتارُ الإِمَامِ: أَنّه غَيرُ واجِبٍ.

والمتَرادِفانِ يُفيدانِ فَائِدَةً واحِدَةً مِنْ غَيرِ تَفاوُتٍ، والتَّابِعُ لَا يُفيدُ وحدَهُ شَيْئًا، بَل بِشَرْطِ كَونِه مُقَيَّدًا بِتَقدُّمِ الأَوّلِ عَلَيْهِ، قَالَه فَخرُ الدّين.

والمترادفانِ مِثلُ: ﴿بَثِّي وَحُزْنِيٓ﴾ [يوسف: 86]، ﴿سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ﴾ [التوبة: 78]، ﴿شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: 48]، ﴿لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ ۝٢٨﴾ [المدثر: 28]، ﴿إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً﴾ [البقرة: 171]، ﴿أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا﴾ [الأحزاب: 67]، ﴿صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ﴾ [البقرة: 157]، ﴿عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ۝٦﴾ [المرسلات: 6].

والمَخْلَصُ في هَذَا أَنْ يَعْتَقِدَ أَنَّ مَجْمُوعَ المُتَرادِفَيْنِ يُحَصِّلُ

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/108.

(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/504.

مَعنًى لَا يُوجَدُ عِنْد انفرادِهما؛ فَإِنّ التَّرْكِيبَ يُحدِثُ مَعنًى زَائِدًا، وإذا كَانَتْ كَثْرَةُ الْحُرُوفِ تُفيدُ زِيَادَةَ الـمَعْنى فَكَذَلِك كَثْرَةُ الْأَلْفَاظِ"[1].

دَلالَةُ الاحْتِباكِ في قَولِهِ: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ﴾:

حَـذْفُ ما يُثْبَتُ نَظيرُهُ في الكَلامِ، مِـن بَـديعِ كَـلامِ العَرَبِ

والأرجَحُ في الآيَةِ أنّها مِنَ الاحْتِباكِ[2]، وهُوَ حَذْفُ جُزْءٍ مِن كُلٍّ طَرَفٍ أُثْبِتَ نَظيرُه في الآخَرِ، والتَّقْديرُ: (ومَثَلُ الّذينَ كَفَروا مَعَكَ يا مُحَمَّدُ، كَمَثَلِ النّاعِقِ مع الغَنَم)، وهَذا هُو الّذي اخْتارَهُ الكِرْمانيُّ شَيْخُ الزَّمخشَريّ، وقال: إنَّهُ أَبْلَغُ ما يَكونُ مِنَ الكَلام، وقَدْ نَصّ عَليه سِيبوَيْه، وقَرَّرَهُ ابنُ طاهِرٍ والشَّلَوْبينُ، وابنُ خَروفٍ، وقالوا: إنَّهُ مِن بَديعِ كَلامِ العَرَبِ[3].

وقال الرُّعينيُّ الغرناطيُّ في شرحِ البديعيّة في عِلم البلاغَة والـمَعاني: "ومِن أَنْواعِ البَديعِ الاحْتِباكُ، وهُوَ نَوْعٌ عَزيزٌ، وهُوَ أَنْ يُحْذَف مِنَ الأَوّلِ ما أُثْبِتَ نَظيرُه في الثّاني، ومن الثّاني ما أُثْبِتَ نَظيرُهُ في الأوّل، كَقَوله تعالى: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ﴾، والتّقْديرُ: (ومَثَلُ الأنبياءِ والكُفّارِ، كَمَثَلِ الّذي يَنْعِقُ، والّذي يُنْعَقُ بِه)، فحُذِفَ منَ الأوّل (الأنْبياءُ) لِدلالَةِ ﴿ٱلَّذِى يَنْعِقُ﴾ عليه، ومِن الثّاني (الّذي يُنْعَقُ به)؛ لدلالة ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ عليه"[4].

دَلالَةُ الاسْتِئْنافِ في قَوْلِه: ﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾:

الأَلْـفاظُ الثّلاثةُ (صمّ بكم عمي) أَخْـبارٌ لِمُبْتَـدآتٍ مَحْذوفَةٍ مُقَدَّرَةٍ

قَوْلُهُ ﷻ: ﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾، "رَفْعٌ؛ وهُوَ وجْهُ الكَلام؛ لِأَنَّهُ مُسْتَأْنَفٌ خَبَرٌ، يَدُلُّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ: ﴿فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾، كَمَا تَقُولُ في الكَلام: هُوَ أَصَمُّ فَلَا يَسْمَعُ، وهُوَ أَخْرَسُ فَلَا يَتَكَلَّمُ"[5]، قال الطَّبَريُّ: "وَأَمَّا الرَّفْعُ في قَوْلِهِ: ﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ﴾ فَإِنَّهُ أَتَاهُ مِنْ قِبَلِ

(1) الكَفَويّ، الكليّات، ص: 315.
(2) السّيوطيّ: نواهد الأبكار: 2/360.
(3) السّيوطيّ: نواهد الأبكار: 2/360.
(4) التّهانوي، موسوعة كشّاف اصطلاحات الفنون والعلوم: 1/107.
(5) الفرّاء، معاني القرآن: 1/100.

الابْتِدَاءِ والاسْتِئْنَافِ، يَدُلُّ على ذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾، كَمَا يُقَالُ في الكَلَامِ: هُوَ أَصَمُّ لا يَسْمَعُ، وهُوَ أَبْكَمُ لا يَتَكَلَّمُ، فتَقْديرُ (هُمْ) يَدُلّ عَليه الضَّميرُ (هُمْ)، في قوله: ﴿فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾"[1].

﴿صُمٌّ﴾ ومَا عُطِفَ عَلَيْهِ: خَبَرٌ لِمُبْتَدَأٍ مَحْذُوفٍ، فهُمْ ﴿صُمٌّ﴾ لا يَسْمَعُونَ المَوَاعِظَ، ولَا يَنْزَجِرُونَ بها، وهُمْ ﴿بُكْمٌ﴾ لا يَنْطِقُونَ بِالحَقِّ، وهُمْ ﴿عُمْيٌ﴾ لا يَنْظُرُونَ الهُدَى، ولَا يَتَّبِعُونَهُ، وإِنْ كَانَتْ صُورَةُ الحَوَاسِّ مَوْجُودَةً[2].

الاسْتِعارَةُ التَّصْريحِيَّةُ والتَّشْبيهُ البَليغُ في قوله: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ﴾:

يحتملُ قولُه تعالى: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ﴾ إمَّا على التَّشبيه البليغ، أو الاستعارة التَّصريحيّة، فمَعْنَى التَّشْبيهِ في قَوْلِهِ ﷻ: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ﴾ أَيْ: "حَالُهُمْ حَالُ الأَصَمِّ الأَبْكَمِ الأَعْمَى؛ إِذْ لا يَنْتَفِعُونَ بِذَلِكَ فِيمَا يُدْعَونَ إِلَيْهِ"[3].

فقدُ البصائرِ أشدُّ وقعًا من فقدِ الحواسِّ

وقد حُذِفَتْ أداةُ الشَّبَهِ ووَجْهُ الشَّبَهِ في قولِه تعالى: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ﴾: "فهُوَ تَشْبيهٌ بَليغٌ[4]، أيْ: هُمْ كالصُّمِّ في عَدَمِ سَمَاعِ الحَقِّ، وكالعُمْيِ وكالبُكْمِ، في عَدَمِ الانْتفاعِ بِنُورِ القُرآنِ"[5]، "أَيْ: أَنَّهُمْ في عَدَمِ سَمَاعِهِمْ لِلْحَقِّ الّذي دُعُوا إِلَيْهِ، كَالصُّمِّ الّذينَ لا يَسْمَعُونَ، وهُوَ تَشْبِيهُ حَالِهِمُ المَعْنَوِيَّةِ في عَدَمِ سَمَاعِهِمْ لِدَعْوَةِ الحَقِّ إذا نَادَى المنَادِي بِهِ، بِحَالِ الأَصَمِّ الّذي لا يَسْمَعُ شَيْئًا، وفي عَدَمِ نُطْقِهِمْ بِالحَقِّ واسْتِجَابَتِهِمْ لَهُ، بِحَالِ الأَبْكَمِ الّذي لا يَتَكَلَّمُ، شَبَّهَ عَدَمَ إِدْرَاكِهِمُ الحَقَّ الّذي بَدَتْ مَعَالِمُهُ وظَهَرَ نُورُهُ، بِحَالِ الأَعْمَى الّذي لا يُبْصِرُ، ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾ [الحج: 46]"[6]، وقَدْ شَبَّهَ مَن لا يُصْغِي إلى الحَقّ بِذَلِكَ التَّوْصيفِ الشَّنيعِ، والقَوْمُ

(1) ابن جرير، جامع البيان: 3/316.
(2) حاشية الصّاوي على تفسير الجلالين، ص: 72.
(3) مكيّ بن أبي طالب، الهداية إلى بلوغ النّهاية: 1/546.
(4) التَّشْبِيهُ البَلِيغُ: هُوَ التَّشْبِيهُ الذي لَمْ تُذْكَرْ فِيهِ أَدَاةُ التَّشْبِيهِ، ولَمْ يُذْكَرْ فِيهِ أَيْضًا وجْهُ الشَّبَهِ، ينظر: عبد الرحمن حسن، البلاغة العربيّة: 2/173.
(5) محمد علي جميل، صفوة التّفاسير: 1/103.
(6) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 1/505.

كانوا يَسْمَعون ويَنْطِقون ويُبْصِرونَ، لَكِنَّهُم لمّا عَزَفوا عَن القُرْآنِ، فلَمْ يَسْمَعوهُ ولم يَقْرَؤوهُ، ولم يَنْظُروا في دَلالاتِهِ، جُعِلوا كَذلِكَ، ولَيْتَهُمْ كانوا فاقِدينَ لِهَذِهِ الحَواسِّ خاصَّةً، إنّما المُصيبَةُ في فُقْدانِ البصائِرِ[1].

وظيفةُ الاستعارةِ المبالغةُ في بيانِ المعنى تحذيرًا وتنبيهًا

وَيجُوز أن يَكونَ اسْتِعارةً تَصْريحيَّةً: "في تَشْبِيهِ الكَافِرِينَ بِالصُّمِّ والبُكْمِ والعُمْيِ، وحَذْفِ المُشَبَّهِ وإبْقَاءِ المشَبَّهِ بِهِ"[2]؛ فَجَعَلَهُمْ صُمًّا على وجْهِ الاسْتِعَارَةِ؛ مُبَالَغَةً في بَيَانِ ﴿صُمٌّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ﴾؛ "لأَنَّهُ أَشَدُّ بَلَاءً مِمَّا بَعْدَهُ؛ لأَنَّهُ يَذْهَبُ بِهِ السَّمْعُ والعَقْلُ، أَلا تَرَى إلى قَوْلِهِ تعالى: ﴿أَفَأَنتَ تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوۡ كَانُواْ لَا يَعۡقِلُونَ ٤٢﴾ [يونس: 42] فَذَكَرَ ذَهَابَ السَّمْعِ مَعَ الصُّمِّ، وذَكَرَ بَعْدَهُ ذَهَابَ البَصَرِ مَعَ العُمْيِ لا غَيْرُ"[3].

دَلالَةُ الفاء في قَوْلِه: ﴿فَهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ﴾:

فقدُ الأدواتِ والوسائلِ يقطعُ الإنسانَ عن بلوغِ الغاياتِ

لَمّا شَبّه الحقُّ الكافرين "بِفَاقِدِي هَذِهِ القُوَى الثَّلَاثِ التِّي يُتَوَسَّلُ بها إلى تَمْيِيزِ الحَقِّ مِنَ البَاطِلِ، واخْتِيَارِ الحَقِّ، فَرَّعَ على هَذا التَّشْبِيهِ قَوْلَهُ: ﴿فَهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ﴾، أَيْ لا يَكْتَسِبُونَ الحَقَّ بِمَا جُبِلُوا عَلَيْهِ مِنَ العَقْلِ الغَرِيزِيِّ؛ لأَنّ اكْتِسَابَهُ إنّما يَكونُ بِالنَّظَرِ والاسْتِدْلَالِ، ومَنْ كان كَالأَصَمِّ والأَعْمَى في عَدَمِ اسْتِمَاعِ الدَّلَائِلِ ومُشَاهَدَتِهَا، كَيْفَ يَسْتَدِلُّ على الحَقِّ ويَعْقِلُهُ! ولِهَذا قِيلَ: مَنْ فَقَدَ حِسًّا فَقَدْ فَقَدَ عِلْمًا"[4]؛ فَنَفْيُ هَذِهِ الحَوَاسِّ سَبَبٌ في انْتِفَاءِ العَقْلِ؛ فلذا عقَّبَ عَلَيْهَا بِالفَاءِ في قَوْلِهِ: ﴿فَهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ﴾؛ لأَنَّ طَرِيقَ التَّعَقُّلِ هُوَ التَّدَبُّرُ في مَبَادِئِ الأُمُورِ المعْقُولَةِ، والتَّأَمُّلُ في تَرْتِيبِها، وذَلِكَ إنّما يَحْصُلُ بِاسْتِمَاعِ آيَاتِ اللّهِ، ومُشَاهَدَةِ حُجَجِهِ الوَاضِحَةِ، والمُفَاوَضَةِ مَعَ مَنْ يُؤْخَذُ مِنْهُ العُلُومُ، فَإِذا كَانُوا صُمًّا بُكْمًا عُمْيًا، فَقَدِ انْسَدَّ عَلَيْهِمْ أَبْوَابُ التَّعَقُّلِ، وطُرُقُ الفَهْمِ بِالكُلِّيَّةِ"[5].

(1) السّمين، عمدة الحفاظ: 2/354.
(2) محمود عبد الرّحيم صافي، الجدول في إعراب القرآن: 2/341.
(3) مكيّ بن أبي طالب، الهداية إلى بلوغ النّهاية: 1/546.
(4) البروسويّ، روح البيان: 1/274.
(5) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 1/190.

دلالةُ نفي العقل في قَولِه: ﴿فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾:

نفيُ العقلِ في قَوْلِه ﷻ: ﴿فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾﴾، فِيهِ نَفْيُ الانتفاعِ بالعَقْلِ عَنْهُمْ، "وَلَيْسَ المرَادُ نَفْيَ أَصْلِ العَقْلِ؛ لِأَنَّ نَفْيَهُ رَأْسًا لا يَصْلُحُ طَرِيقًا لِلذَّمِّ"[1]، فالمنفيُّ "العقلُ التَّكْليفيّ النَّافِع"[2]، أو "العَقْلُ الاكْتِسَابِيُّ؛ لِأَنَّ العَقْلَ المطْبُوعَ كان حَاصِلًا لَهُمْ، والعَقْلُ عَقْلَانِ: مَطْبُوعٌ، ومَكْسُوبٌ، ولَمَّا كان الطَّرِيقُ لِاكْتِسَابِ العَقْلِ المكْتَسَبِ هُوَ الاسْتِعَانَةَ بِهَذِهِ القُوَى الثَّلَاثِ، كان إِعْرَاضُهُمْ عَنْهَا فَقْدًا لِلْعَقْلِ المكْتَسَبِ، ولِهَذا قِيلَ: مَنْ فَقَدَ حِسًّا فَقَدْ فَقَدَ عَقْلًا"[3].

المرادُ نَفْيُ الانتِفاعِ بالعَقْلِ، ولَيْسَ نَفْيَ أَصْلِ العَقْلِ

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الدُّعاء والنِّداء:

بَيَّنَ السَّمِينُ الحَلَبِيُّ الفَرْقَ بَيْنَهُمَا في التَّرْكِيبِ النَّحْوِيِّ بقوله: "وَالدُّعَاءُ كَالنِّدَاءِ إلّا أَنَّ النِّدَاءَ قَدْ يُقَالُ إذا قِيلَ: (يَا، وأَيا)، وإنْ لَمْ يُضَمَّ مَعَهُ اسْمٌ، والدُّعَاءُ لا يَكَادُ يُقَالُ إلّا ومَعَهُ اسْمُ المدْعُوِّ، نَحْوُ: يَا فُلَانُ، وقَدْ يَقَعُ كُلٌّ مِنْهُمَا مَوْقِعَ الآخَرِ"[4].

وقال ابْنُ عَرَفَةَ: "وَعَادَتُهُمْ يُفَرِّقُونَ بَيْنَ الدُّعَاءِ والنِّدَاءِ، بِأَنَّ الدُّعَاءَ يَكونُ بِلَفْظِ الطَّلَبِ، وسَوَاءٌ كان مَعَهُ نِدَاءٌ أَوْ لَمْ يَكُنْ، والدُّعَاءُ أَخَفُّ مِنَ النِّدَاءِ؛ لِأَنَّ البَهَائِمَ تُنَادِيهَا فَلَا تُجِيبُ، فَإِذا دَعَوْتَهَا وزَجَرْتَهَا أَتَتْ، فَالنِّدَاءُ لِلْخَوَاصِّ، والدُّعَاءُ لِلْعَوَامِّ، فَمَنْ لَم يَسْتَجِبْ لِلنِّدَاءِ قَدْ يَسْتَجِيبُ لِلدُّعَاءِ، ومَنْ لَمْ يَنْفَعْ فِيهِ الدُّعَاءُ، فَهُوَ في غَايَةِ الجَهْلِ والغَبَاوَةِ"[5]، "وَالنِّدَاءُ مَا يُسْمَعُ، والدُّعَاءُ قَدْ يُسْمَعُ، وقَدْ لا يُسْمَعُ"[6]، ونَقَلَ أَبُو حَيَّانَ بَعْضَ تَخْصِيصَاتِ النِّدَاءِ، فَهُوَ "مُخْتَصٌّ

تَعاقُبُ الدُّعاءِ والنِّداءِ؛ لِلتَّمْثِيلِ على عَدَمِ انْتِفَاعِ الكَافِرِ مِنْ وُجُوهِ الخِطَابِ

(1) البروسويّ، روح البيان: 1/274.
(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/505.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/108، والرّازيّ، مفاتيح الغيب: 5/190.
(4) السّمين، عمدة الحفّاظ: (دعو).
(5) تفسير ابن عرفة: 2/504.
(6) النّسفيّ، مدارك التّنزيل: 1/151.

بالجَهْرِ، وقِيلَ: بالبُعْدِ، وقِيلَ: بِغَيْرِ المعَيَّنِ"[1]، و"إنّما ثَنَّى ﴿إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً﴾؛ لِأَنَّ الدُّعَاءَ طَلَبُ الفِعْلِ، والنِّدَاءَ إِجَابَةُ الصَّوْتِ"[2].

والخُلاصَةُ: أنّ الدُّعَاءَ فِيهِ طَلَبٌ وتَخْصِيصٌ بِاسْمٍ أَوْ شَيْءٍ، أَمَّا النِّدَاءُ فَرَفْعُ الصَّوْتِ لِلتَّنْبِيهِ والإِجَابَةِ، وأَمَّا التَّفْرِيقُ في الاسْتِعْمَالِ، فَإِنَّهُمَا قَدْ جَاءَا مُتَعَاقِبَيْنِ مَعًا في آيَةٍ واحِدَةٍ؛ لِيَشْمَلَ جَمِيعَ وُجُوهِ الخِطَابِ الّتِي يُوَجِّهُهَا الرَّاعِي إلى غَنَمِهِ، ومَآلُهُ التَّمْثِيلُ على عَدَمِ انْتِفَاعِ الكَافِرِ بأيّ وجه من وُجُوهِ الخِطَابِ والدَّعْوَةِ.

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/98.

(2) المصدر السّابق: 2/108.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا رَزَقْنَـٰكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾﴾ [البقرة: 172]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الـمُـزاوَجَـةُ بَينَ ذَمِّ الـمُشْرِكينَ وتَأكيدِ الإنْعامِ عَلى المُؤمِنينَ

ذَكَرَ المفسِّرُونَ أقوالا مُخْتَلِفَةً في وجه المُنَاسَبَةِ، قال ابْنُ عَرَفَةَ: "تَقْرِيرُ مُنَاسَبَتِهَا لِمَا قَبْلَهَا أَنَّهُ لَمَّا تَضَمَّنَ الكَلَامُ السَّابِقُ ذَمَّ المشْرِكِينَ، لِكَوْنِهِمْ لَيْسُوا أَهْلًا لِأَنْ يُخَاطَبُوا بِشَيْءٍ مِنَ الأَخْبَارِ، ولَا بِشَيْءٍ مِنَ الأَوَامِرِ والنَّوَاهِي، عَقَّبَ ذَلِكَ بِخِطَابِ المؤْمِنِينَ بِهَذا الأَمْرِ المُسْتَلْزِمِ لِكَوْنِهِمْ أَهْلًا لِلْمُخَاطَبَةِ.

وَقَرَّرَ الفَخْرُ وجْهَ مُنَاسَبَتِهَا بِوَجْهٍ لا يَنْهَضُ[1]، وقَوْلُ الرَّازِيِّ الّذي لَمْ يَرْتَضِهِ ابْنُ عَرَفَة: هُو "أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وتعالى تَكَلَّمَ مِنْ أَوَّلِ السُّورَةِ إلى هاهنا، في دَلَائِلِ التَّوْحِيدِ والنُّبُوَّةِ، واسْتَقْصَى في الرَّدِّ على اليَهُودِ والنَّصَارَى، ومِنْ هُنَا شَرَعَ في بَيَانِ الأَحْكَامِ"[2].

الـتَّـحَـوُّلُ إلى التَّخْصيصِ في الـخِطابِ بَعْدَ التَّعْميمِ

وَأَلْمَحَ البَيْضَاوِيُّ إلى أَنَّ المنَاسَبَةَ فِيهَا التَّحَوُّلُ إلى التَّخْصِيصِ في الخِطَابِ بَعْدَ التَّعْمِيمِ: "لَمَّا وسَّعَ الأَمْرَ على النَّاسِ كَافَّةً، وأَبَاحَ لَهُمْ مَا في الأَرْضِ سِوَى مَا حَرَّمَ عَلَيْهِمْ، أَمَرَ المؤْمِنِينَ مِنْهُمْ أَنْ يَتَحَرَّوْا طَيِّبَاتِ مَا رُزِقُوا ويَقُومُوا بِحُقُوقِهَا فقال: ﴿وَٱشْكُرُواْ لِلَّهِ﴾ على مَا رَزَقَكُمْ وأَحَلَّ لكُمْ"[3].

شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

الأكـل تناول ما يقيم الصّلب، ويحفظ الحياة

1) ﴿كُلُواْ﴾: مِنَ الجَذرِ (أكل)، والأَكْلُ: تَنَاوُلُ المَطْعَمِ، قال تعالى: ﴿أُكُلُهَا دَآئِمٌ﴾ [الرّعد: 35][4]، أَكَلَ الطَّعَامَ يأْكُلُه أَكْلًا[5]، الأَكْلُ:

(1) تفسير ابن عرفة: 2/505.
(2) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 5/190.
(3) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 1/119.
(4) الرّاغب، المفردات: (أكل).
(5) ابن منظور، لسان العرب: (أكل).

المَصدرُ[1]، والأُكُلُ: ما أُكِلَ[2]، والمُرَادُ بالأَكْلِ الانْتِفَاعُ مِنْ جَمِيعِ الوُجُوهِ، وقِيلَ: هُوَ الأَكْلُ المعْتَادُ[3]، و"يُقال في الأمْرِ: كُلْ، بِحَذفِ الهَمْزَةِ، قال اللّه تعالى: ﴿كُلُوا واشْرَبُوا﴾، وبعضُ العرب يقول: اُؤْكُلْ، بهمزة.

ويقال: إنّ حقيقة الأَكْل التَّنَقُّصُ، ويقال: أَكَلَت النّارُ الحطبَ"[4]، والأصل: اُؤكُلوا، فالهمزة الأولى هَمزةُ وصْل، والثّانيّة فاء الكلمة، إلّا أنّهم حذَفوا الفاءَ، فاسْتَغْنَوْا عَنْ همزةِ الوَصلِ، لتَحَرُّك ما بعدَها، والحذفُ هنا شاذٌّ ليس بقِيَاسٍ، ولم يأتِ إلّا في (كُلْ، وخُذْ، ومُرْ)، قال ابن مالك في (لاميّة الأفعال):

وَشَذَّ بالْحَذْفِ: مُرْ وخُذْ وكُلْ، وفَشَا***وأْمُرْ، ومُسْتَنْدَرٌ: تَتْمِيمُ خُذْ وكُلَا[5]

الطّيّبُ ما تَسْتَمْرِئُه الحَوَاسُّ، وتستلذُّهُ النّفْسُ

2) ﴿طَيِّبَٰتِ﴾: من الجَذر (طيب)، وأَصْلُ المَادَّةِ يَدُلُّ على خِلَافِ الخَبِيثِ[6]، والطَّيِّبُ: مَا تَسْتَلِذُّهُ الحَوَاسُّ، ومَا تَسْتَلِذُّهُ النَّفْسُ، قال تعالى: ﴿كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾[7]، وهُوَ مَا يُسْتَلَذُّ ويُسْتَطَابُ[8]، ومثله في قوله تعالى: ﴿أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ﴾، أَيْ مِنْ جِيَادِ مَكْسُوبَاتِكُمْ أَوْ مِنْ حَلَالِهَا[9]، والطِّيبُ -بِكَسْرِ الطّاءِ المَمدودَةِ- مِنْ (طابَ)، جَمْعُه: أطيابٌ وطُيوبٌ: كُلُّ ذي رائِحَةٍ عَطِرَةٍ، يُتَطَيَّبُ به، والطَّيِّبُ -بفتْحٍ فَكَسْرٍ- جَمْعُه: طيِّباتٌ: ما تَسْتَلِذُّه الحَواسّ والنَّفسُ، والطّاهرُ النّظيفُ، وقد قال تعالى: ﴿فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا﴾ [النساء: 43][10].

الرّزق يُطلقُ على العطاء الإلهيّ، دُنْيويًّا كان أمْ أُخْرويًّا

3) ﴿رَزَقْنَٰكُمْ﴾: مِنَ الجَذْرِ (رزق)، وأَصْلُ المَادَّةِ يَدُلُّ على عَطَاءٍ

(1) السّمين، عمدة الحفّاظ: (أكل).
(2) الجوهريّ، الصّحاح: (أكل).
(3) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 2/215.
(4) نشوان الحميريّ، شمس العلوم: 1/298.
(5) الصّعيديّ، فتح المتعال على لاميّة الأفعال، ص: 268، وتفسير الرّوح والرّيحان: 3/116.
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (طَيَبَ).
(7) الرّاغب، المفردات: (طَيَبَ).
(8) الواحدي، التَّفْسِير البَسِيط: 3/483.
(9) الخوارزمي، المغرب في ترتيب المعرب، ص: 296.
(10) قلعجيّ وقنيبيّ، معجم لغة الفقهاء، ص: 294.

لِوَقْتٍ، ثُمَّ يُحْمَلُ عَلَيْهِ غَيْرُ المَوْقُوتِ، فَالرِّزْقُ: عَطَاءُ اللَّهِ جَلَّ ثَنَاؤُهُ[1]، ويُقَالُ لِلْعَطَاءِ الجَارِي تَارَةً، دُنْيَوِيًّا كان أَمْ أُخْرَوِيًّا[2]، ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ﴾ [البقرة: 3]، أَيْ أَعْطَيْنَاهُمْ، وأَنْعَمْنَا عَلَيْهِمْ بِهِ[3]، "والرَّزْق المَصدَرُ، بِفَتْحِ الرَّاء، وكلُّ مَن أَجْرَيْتَ عَلَيْهِ جِرايَةً فقد رَزَقْتَه رَزْقًا، واللّه ﷻ الرَّازِق والرَّزَّاقُ، وجَمْعُ الرِّزق أَرْزاقٌ، والرِّزق: الشُّكْر، لُغَةٌ سَرَوِيَّةٌ[4].

4) ﴿وَٱشْكُرُواْ﴾: من الجَذر (شكر)، وأَصْلُ المَادَّةِ يَدُلّ على الثَّنَاءِ على الإِنْسَانِ بِمَعْرُوفٍ يُولِيكَهُ، والشُّكْرُ: الرِّضَا بِاليَسِيرِ[5]، وهو: عِرفانُ الإِحْسَانِ لِصَاحِبِهِ، ونَشْرُه، ضِدُّ الكُفْرِ، وهُوَ: نِسْيَانُ النِّعْمَةِ وسَتْرُهَا[6].

ما في القُرْآن من (الشُّكر)، هو شُكْر النِّعْمة، والثَّناء على المنعم

وَكُلُّ مَا في القُرْآنِ مِنَ التَّرْكِيبِ، هُوَ مِنْ شُكْرِ النِّعْمَةِ[7]، و"الشَّكورُ من أسماءِ اللّه جلّ وعزّ، مَعْنَاهُ أَنّه يزكو عِنْده القليلُ من أَعمال العِبادِ، فيُضَاعفُ لَهُم بِهِ الجَزَاءَ، قَالَ ذَلِك أَبُو إِسحاقَ الزَّجّاجُ، وأمّا الشّكورُ من عباد اللّه، فهُوَ الَّذِي يَجتهدُ في شُكرِ رَبِّه، بِطَاعَتِه وأدائِه مَا وُظِّفَ عَلَيْهِ من عِبَادَته، قَالَ اللّه جلّ وعزّ: ﴿ٱعْمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًاۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ١٣﴾ [سبأ: 13]، نُصِبَ قَوْلُهُ: (شكرًا) لِأَنَّهُ مفعولٌ لَهُ، كَأَنَّهُ قَالَ: اعْمَلُوا للّهِ شكرًا، وإِن شِئْت كَانَ مَنْصُوبًا على أَنّه مصدرٌ مؤكِّدٌ"[8].

5) ﴿تَعْبُدُونَ﴾: مِنَ الجَذْرِ (عبد)، وأَصْلُ المَادَّةِ يَدُلُّ على لِينٍ وذُلٍّ[9]، والعُبُودِيَّةُ: إِظْهَارُ التَّذَلُّلِ، والعِبَادَةُ أَبْلَغُ مِنْهَا؛ لِأَنَّهَا غَايَةُ

العبادةُ غايةُ التّذلُّل، ولا تكون إلّا لله الّذي لهُ غايةُ الإفْضال

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (رَزَقَ).
(2) الرّاغب، المفردات: (رَزَقَ).
(3) السّمين، عمدة الحفّاظ: (رزق).
(4) ابن دريد، جمهرة اللّغة: (رزق).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (شكر).
(6) الرّاغب، المفردات: (شكر).
(7) ابن منظور، لسان العرب، جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (شكر).
(8) ابن منظور، لسان العرب، جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (شكر).
(9) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عبد).

التَّذَلُّلِ، ولَا يَسْتَحِقُّهَا إلّا مَنْ لَهُ غَايَةُ الإفْضَالِ، وهُوَ اللَّهُ تعالى؛ ولِهَذا قال: ﴿أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: 23][1].

المَعْنَى الإجْمَالِيُّ:

الشُّكرُ قَيْدُ النِّعمَةِ المُسْداةِ من ربّ الأرضِ والسّماواتِ

يَا أَيُّهَا الّذينَ صَدّقُوا اللَّهَ ورَسُولَهُ، وأَقَرُّوا لِلَّهِ بِالعُبُودِيَّةِ، وأَذْعَنُوا لَهُ بِالطَّاعَةِ، كلوا مِنْ حَلَالِ الرِّزْقِ الذي أَحْلَلْنَاهُ لَكُمْ، فَطَابَ لَكُمْ بِتَحْلِيلِي إِيَّاهُ لَكُمْ - مِمَّا كُنْتُمْ تُحَرِّمُونَ أَنْتُمْ ولَمْ أَكُنْ حَرَّمْتُهُ عَلَيْكُمْ - مِنَ المطَاعِمِ والمَشَارِبِ، وأَثْنُوا على اللَّهِ بِمَا هُوَ أَهْلُهُ مِنْكُمْ، بقلوبكم وألسنتكم وجوارحكم على النِّعَمِ الَّتِي رَزَقَكُم، وطَيَّبَهَا لَكُمْ، إِنْ كُنْتُمْ مُنْقَادِينَ لِأَمْرِهِ سَامِعِينَ مُطِيعِينَ، تعبدونه وحده لا شريك له[2].

الإيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

نُكتةُ تأكيدِ الأَمْرِ بالأكلِ في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ﴾:

المأكلُ والمشربُ من القضايا التي يجبُ اتّباعُ الشَّريعةِ فيها

قَوْلُهُ ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ﴾: "مُؤَكِّدٌ لِقَوْلِهِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [البقرة: 168]"[3]، وكان النِّدَاءُ إلى النَّاسِ الّذينَ كان مِنْهُمْ مَنِ اتَّبَعَ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ[4] في الآيةِ الأولى، ثمَّ توجَّه إلى خصوصِ المؤمنين؛ فَتَكْرَارُ الأَمْرِ "تَأْكِيدٌ لِلْأَمْرِ الأَوَّلِ"[5]؛ فَإِنَّ مَأْكَلَ النَّاسِ مِنْ حَيْثُ بَيَانُ حَلَالِهِ وحَرَامِهِ، مِنَ القَضَايَا الكَبِيرَةِ التِي تستلزمُ التَّأكيدَ؛ لِمَا وقَعَ فِيهِ مِنْ زَيْغٍ وافْتِرَاءٍ.

سِرُّ الانتقالِ من نداءِ عمومِ النَّاسِ إلى نداءِ خصوصِ المؤمنين:

تَشْرِيفُ المُؤْمِنِينَ بِالخِطَابِ؛ لأنَّهُمُ المَعْنِيُّون بِالحَلالِ والحَرامِ

"لَمَّا كان لَفْظُ ﴿ٱلنَّاسُ﴾ يَعُمُّ المؤمِنَ والكَافِرَ، مَيَّزَ اللَّهُ المؤمِنِينَ بِهَذا النِّدَاءِ، تَشْرِيفًا لَهُمْ وتَنْبِيهًا على خُصُوصِيَّتِهِمْ"[6]، فعَدَلَ عَنْ

(1) الرّاغب، المفردات: (عبد).
(2) ابن جرير، جامع البيان: 3/316-317.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/108-109.
(4) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 1/506.
(5) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 2/215.
(6) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/109.

خِطابِ النّاسِ العامِّ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ إلى خِطابِ المُؤمِنينَ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، وخَصَّ المؤْمِنِينَ هُنَا بِالذِّكْرِ تَفْضِيلًا[1].

وقد خَصَّ المؤْمِنِينَ بِالخِطَابِ لِأَنَّهُمْ "لا يَتَّبِعُونَ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ، إنّما يَتَّبِعُونَ شَرْعَ الرَّحْمَن"[2]، وهُمُ الّذينَ يَنْتَفِعُونَ بِالتَّشْرِيعِ دُونَ سِوَاهُمْ، فَإنّما جَاءَ الأَمْرُ لِلْمُؤْمِنِينَ خَاصَّةً، بَعْدَ الأَمْرِ العَامِّ؛ "وَذَلِكَ أَنَّهُمْ هُمُ المنْتَفِعُونَ على الحَقِيقَةِ بِالأَوَامِرِ والنَّوَاهِي، بِسَبَبِ إيمَانِهِمْ، فَأَمَرَهُمْ بِأَكْلِ الطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ، والشُّكْرِ لِلّٰهِ على إنْعَامِهِ، بِاسْتِعْمَالِهَا بِطَاعَتِهِ، والتَّقَوِّي بها على مَا يُوصِلُ إِلَيْهِ، فَأَمَرَهُمْ بِمَا أَمَرَ بِهِ المرْسَلِينَ في قَوْلِهِ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ وَٱعْمَلُواْ صَـٰلِحًا﴾ [المؤمنون: 51]"[3].

غرضُ الأَمْرِ في قولِه تعالى: ﴿كُلُواْ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا رَزَقْنَـٰكُمْ﴾:

الأَمْرُ على إطلاقِه في الآيةِ الكريمةِ هو "أَمْرُ إباحَةٍ؛ لا نَدْبٍ ولا إيجابٍ"[4]، فالأَكْلُ "قَدْ يكون واجبًا، وذَلِكَ عِنْدَ دَفْعِ الضَّرَرِ عَنِ النَّفْسِ، وقَدْ يكون مَنْدُوبًا، وذَلِكَ أَنَّ الضَّيْفَ قَدْ يَمْتَنِعُ مِنَ الأَكْلِ إذا انْفَرَدَ ويَنْبَسِطُ في ذَلِكَ إذا سُوعِدَ، فَهَذا الأَكْلُ مَنْدُوبٌ، وقَدْ يكون مُبَاحًا إذا خَلَا عَنْ هَذِهِ العَوَارِضِ، والأَصْلُ في الشَّيْءِ أَنْ يَكونَ خَالِيًا عَنِ العَوَارِضِ، فَلَا جَرَمَ كان مُسَمَّى الأَكْلِ مُبَاحًا، وإذا كان الأَمْرُ كَذَلِكَ كان قَوْلُهُ: (كُلُوا) في هَذا المَوْضِعِ لا يُفِيدُ الإيجَابَ والنَّدْبَ، بَلِ الإِبَاحَةَ"[5].

الأَمْـرُ في الآيَـةِ يَدُلُّ عَلى مطلقِ الإِبَاحَةِ

المرَادُ بِإِبَاحَةِ الأَكْلِ عمومُ الانْتِفَاعِ:

اخْتُلِفَ في المرادِ بالأمرِ بالأكلِ في الآيةِ الكريمةِ، فقيل: الأكلُ المعهود، وقيل: "الانْتِفَاعُ بِهِ، ونَبَّهَ بِالأَكْلِ على وُجُوهِ الانْتِفَاعِ، إذْ كان

خُـصَّ الأكـلُ بِـالـذِّكْـرِ لِأَنَّـهُ أَعْظَمُ المنَافِعِ

(1) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 2/215.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 1/506.
(3) السّعدي، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 81.
(4) الواحديّ، التّفسير البسيط: 3/495.
(5) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 5/190.

الأَكْلُ أَعْظَمَهَا، إِذْ به تَقومُ البِنْيَةُ، قِيلَ: وهَذا أَقْرَبُ إلى المعْنَى، لأَنَّهُ تعالى مَا خَصَّ الحِلَّ والحُرْمَةَ بِالمَأْكُولَاتِ، بَلْ بِسَائِرِ مَا يُنْتَفَعُ بِهِ مِنْ أَكْلٍ وشُرْبٍ ولُبْسٍ وغَيْرِ ذَلِكَ"[1]، وعليه يكون "الأَمْرُ هُنَا لِلْعُمُومِ إلّا مَا سَوْفَ يَسْتَثْنِيهِ تَعالى"[2].

توجيهُ تَخْصِيصِ الطّيِّبات بِالذِّكْرِ:

دفعُ توهُّمِ منعِ التَّوسّعِ في الطِّيِّباتِ، وتَوسيعِ دائِرَةِ الحلالِ

قال ﷻ قَبْلَ هَذِهِ الآيَةِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ حَلَٰلٗا طَيِّبٗا﴾ [البقرة: 168]، فجعلَ الطَّيِّبَ وصفًا للحلالِ، وبه يكونُ قد جَمَعَ بينَ لفظي الحَلَالِ والطَّيِّبِ، وفي قَوْلِهِ ﷻ: ﴿كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ﴾ اقْتَصَرَ على لفظِ الطَّيِّبَاتِ، وسرُّ ذلك دفعُ ما قد يظُنُّه أقوامٌ "أَنَّ التَّوَسُّعَ في المَطَاعِمِ، والاسْتِكْثَارَ مِنْ طَيِّبَاتِهَا، مَمْنُوعٌ مِنْهُ؛ فَأَبَاحَ اللّٰهُ تعالى ذَلِكَ بِقَوْلِهِ: كُلُوا مِنْ لَذائِذِ مَا أَحْلَلْنَاهُ لَكُمْ، فَكان تَخْصِيصُهُ بِالذِّكْرِ لِهَذا المعْنَى"[3]، أو "لِأَنَّ المؤْمِنَ أَبَاحَ اللّٰهُ لَهُ الطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ، خَالِصَةً مِنَ التَّبِعَةِ، ولِأَنَّ إِيمَانَهُ يَحْجِزُهُ عَنْ تَنَاوُلِ مَا لَيْسَ لَهُ"[4].

دَلالَةُ حرفِ (مِنْ) في قَوْلِهِ ﷻ: ﴿كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ﴾:

بَعْضُ الرِّزْقِ لَيْسَ حَلَالًا، والمأذونُ فيه الحلالُ الطَّيِّب

"مفعولُ ﴿كُلُواْ﴾ محذوفٌ، أي: كُلوا رزقَكم، وفي ﴿مِن﴾ حينئذٍ وجهان، أحدُهما: أَنْ تكونَ لابتداءِ الغايةِ فتتعلَّقَ بـ﴿كُلُواْ﴾، والثَّاني: أَنْ تكونَ تبعيضيَّة فتتعلَّق بمحذوفٍ؛ إذ هي حالٌ من ذلك المفعولِ المقدَّرِ، أي: كُلوا رزقَكم حالَ كونِهِ بعضَ طيباتِ ما رزقناكم"[5].

وعلى القولِ بأنَّ ﴿مِن﴾ في قَوْلِهِ ﷻ: ﴿كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ﴾ تَبْعِيضِيَّةٌ؛ فالطَّيِّبُ هُنَا يَجْمَعُ الحَلَالَ المُسْتَلَذَّ، والآيَةُ

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/109.
(2) إبراهيم الأبياري، الموسوعة القرآنيّة: 9/134.
(3) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 5/190.
(4) السّعدي، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 81.
(5) السمين، الدر المصون: 2/234.

تُشيرُ بتَبْعِيضِ ﴿مِن﴾ إلى أَنَّ الحَرَامَ رِزْقٌ[1]، ووَجْهُ دَلَالَتِهَا على ذَلِكَ مِنَ المفْهُوم؛ لِأَنَّ مَفْهُومَهُ أَنَّ البَعْضَ الآخَرَ -وَهُوَ الذي لَيْسَ بِحَلَالٍ ولَا مُسْتَلَذٍّ- غَيْرُ مَأْذُونٍ فِيهِ[2].

سِرُّ اختيارِ لفظِ الطَّيِّباتِ في قوله: ﴿مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾:

اشتمالُ اللَّفظِ على التَّحليلِ والتَّعليلِ

الطَّيِّباتُ مِن رَزقِ اللَّه تَعالَى، فَهُنَا نِعْمتَانِ أَنعَم اللَّه تَعالَى بِهمَا، وهما: نِعْمَةُ الرِّزْق والْعطاء، ونِعمَةُ الإباحة لِلطَّيِّبات، وكَان الشُّكْرُ على النِّعْمتيْنِ واجِبًا[3]، واختير لفظُ الطَّيِّبات لبيانِ أنَّ هذه المأكولات هي طيِّبات، فاشتملَ اللَّفظُ على التَّحليلِ، وعلى التَّعليلِ، فهو تعليلٌ لأكلِ الطِّيباتِ والانتفاعِ بها.

توجيهُ المتشابه اللّفظيّ:

خطابُ الرُّسلِ يختصُّ بنوعِ دلالةٍ عن سائرِ المُؤمنين

لسائلٍ أن يسأل عن الفرقِ في النَّظم بين ما جاء هنا في قولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾، وبين قولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُواْ صَٰلِحًا﴾ [المؤمنون: 51]، "مَعَ أنَّ تِلْك خِطَابٌ لِلرُّسُلِ؛ فَهُوَ قَد كان أَولَى بِهَذا اللَّفْظِ؟ وعادتُهم يُجيبون بِوَجْهَين:

الأوَّل: أَمَّا إذا قُلنَا: إنَّ الرِّزْق لا يُطْلَقُ إلَّا على الحلَالِ، فَنقُول: لَمَّا كان الأَنْبياءُ معْصومين، أُمِرُوا أمْرًا مُطْلقًا مِن غَيْر تَعيين الحلَالِ، وغيرُهم لَيْس بِمعْصوم، فقيِّدَ الإذْن في الأَكْلِ لَه بِالحلال فقط، فَيكون الطِّيِّبُ على هذا المرادُ به المُسْتَلَذُّ.

الجَوابُ الثَّاني: الرُّسُل في مَقَام كَمَالِ التَّوْحيد، ونِسبَةِ كُلِّ الأَشْياءِ إلى اللّه ﷻ، وأمَّا غيْرُهم فليْس كَذلك، فقد يَذْهَلُ حِينَ اقْتِطافِ الثَّمَرَةِ، ويَظُنُّ أَنَّهَا مِنَ الشَّجَرةِ، ويَغْفَلُ عَن كَوْنِ اللَّه تعالى

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 1/239.
(2) تفسير ابن عرفة: 2/505.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 1/507.

هُو الّذي أخرجَهَا منهَا، وأنبتهَا، فقيل لَهُم: ﴿كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ﴾ حَتَّى يَعْتَقِدوا حِين التَّناولِ أنَّ ذَلِك الرِّزْقَ كُلَّه من عِنْد اللّه، وليْسَ لِلْمتَسَبِّبِ فِيه صُنْعٌ بِوَجْهٍ[1].

بَيَانُ دَلَالَةِ ﴿مَا﴾ في قَوْلِهِ: ﴿مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ﴾:

تَنَوُّعُ الاحتمالاتِ دَليلٌ عَلى ثَراءِ اللُّغَةِ وسعةِ السِّياقِ

تحتملُ ﴿مَا﴾ في قَوْلِهِ ﷻ: ﴿مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ﴾ أكثرَ من تَوْجيهٍ؛ فيَصِحُّ أَنْ تَكُونَ: مَصْدَرِيَّةً، أَيْ: مِنْ طَيِّبَاتِ رِزْقِنَا إِيَّاكُمْ، أوِ اسْمَ مَوْصُولٍ والجُمْلَةُ صِلَةٌ، أَيْ: مِنْ طَيِّبَاتِ الشَّيْءِ الّذي رَزَقْنَاكُمُوهُ، أَوْ نَكِرَةً مَوْصُوفَةً والجُمْلَةُ صِفَةٌ، أَيْ: شَيْءٍ رَزَقْنَاكُمُوهُ[2].

التَّعْظِيمُ في الخِطَابِ بِضَميرِ الجَمْعِ لِبَيَانِ الامْتِنَانِ:

أُسنِد الرِّزقُ في قَوْلِهِ ﷻ: ﴿مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ﴾: "إلى ضَميرِ المتَكَلِّمِ بنُونِ العَظَمَةِ؛ لِمَا في الرِّزْقِ مِنَ الامْتِنَانِ والإحْسَانِ"[3].

دَلالَةُ الأمرِ في قولِه تعالى: ﴿وَٱشۡكُرُواْ لِلَّهِ﴾:

وُجوبُ الاعْتِقادِ بِعَظَمةِ اللهِ بِالقَلبِ واللِّسانِ والجَوارِحِ

جَاءَ الأَمْرُ بِالشُّكْرِ في قَوْلِهِ ﷻ: ﴿وَٱشۡكُرُواْ لِلَّهِ﴾ والمرادُ به: إظْهَارُ تَعْظِيمِ اللّه تَعالى، وفي بَيَانِ ذَلِكَ قال الرَّازي: "قَوْلُهُ: ﴿وَٱشۡكُرُواْ لِلَّهِ﴾ أَمْرٌ ولَيْسَ بِإِبَاحَةٍ، فَإِنْ قِيلَ: الشُّكْرُ إِمَّا أَنْ يكون بِالقَلْبِ أَوْ بِاللِّسَانِ أَوْ بِالجَوَارِحِ؛ أَمَّا بِالقَلْبِ فَهُوَ إِمَّا العِلْمُ بِصُدُورِ النِّعْمَةِ عَنْ ذَلِكَ المنْعِم، أَوِ العَزْمُ على تَعْظِيمِه بِاللِّسَانِ وبِالجَوَارِحِ، أَمَّا ذَلِكَ العِلْمُ فَهُوَ مِنْ لَوَازِمِ كَمَالِ العَقْلِ، فَإِنَّ العَاقِلَ لا يَنْسَى ذَلِكَ، فَإِذا كان ذَلِكَ العِلْمُ ضَرُورِيًّا فَكَيْفَ يُمْكِنُ إِيجَابُهُ؟ وأَمَّا العَزْمُ على تَعْظِيمِه بِاللِّسَانِ والجَوَارِحِ، فَذَلِكَ العَزْمُ القَلْبِيُّ مَعَ الإِقْرَارِ بِاللِّسَانِ والعَمَلِ بِالجَوَارِحِ، فَإِذا بَيَّنَّا أَنَّهُمَا لا يَجِبَانِ كان العَزْمُ بِأَنْ لا يَجِبَ أَوْلَى، وأَمَّا الشُّكْرُ بِاللِّسَانِ فَهُوَ إِمَّا أَنْ يُقِرَّ بِالاعْتِرَافِ لَهُ بِكَوْنِهِ مُنْعِمًا أَوْ

(1) تفسير ابن عرفة: 2/505-506.

(2) حاشيّة الصّاوي على تفسير الجلالين، ص: 72.

(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/109.

بِالثَّنَاءِ عَلَيْهِ، فَهَذا غَيْرُ واجِبٍ بِالاتِّفَاقِ، بَلْ هُوَ مِنْ بَابِ المَنْدُوبَاتِ، وأَمَّا الشُّكْرُ بِالجَوَارِحِ والأَعْضَاءِ، فَهُوَ أَنْ يَأْتِيَ بِأَفْعَالٍ دَالَّةٍ على تَعْظِيمِهِ، وذَلِكَ أَيْضًا غَيْرُ واجِبٍ، وإذا ثَبَتَ هَذا فَنَقُولُ: ظَهَرَ أَنَّهُ لا يُمْكِنُ القَوْلُ بِوُجُوبِ الشُّكْرِ، قُلْنَا الَّذي تَلَخَّصَ في هَذا البَابِ، أَنَّهُ يَجِبُ عَلَيْهِ اعْتِقَادُ كَوْنِهِ مُسْتَحِقًّا لِلتَّعْظِيمِ، وإِظْهَارُ ذَلِكَ بِاللِّسَانِ أَوْ بِسَائِرِ الأَفْعَالِ، إِنْ وُجِدَتْ هُنَاكَ تُهْمَةٌ"[1].

دلالةُ إرداف الأَمْرِ بِالشُّكْرِ بعد الأمرِ بالأكلِ:

شُكْرُ الله تعالى سلوكُ الأوفياء، ومنهجُ الأتقياء

في قَوْلِهِ ﷻ: ﴿كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِلَّهِ﴾؛ "أَرْدَفَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وتعالى الأَمْرَ بِالأَكْلِ مِنَ الطَّيِّبَاتِ بِالأَمْرِ بِالشُّكْرِ؛ لِأَنَّ هَذِهِ الإِبَاحَةَ لِلطَّيِّبَاتِ نِعْمَةٌ، والنِّعْمَةُ تُوجِبُ الشُّكْرَ مِنَ المنْعِمِ الذي أباحَ ومكَّن، والشكرُ يكونُ بتركِ المعاصي ولزومِ الطَّاعات والتّقوى، والتَّقرُّب إليه سبحانه وتعالى، وطلب رضوانه"[2].

براعةُ الالتفاتِ من التَّكلُّمِ إلى الغَيْبَةِ:

الأوامر الشَّرعيّةُ مقترنةٌ بالقيمِ التَّربويّة

في قَوْلِهِ ﷻ: ﴿وَٱشْكُرُواْ لِلَّهِ﴾ "التِفَاتٌ مِنْ ضَمِيرِ المُتَكَلِّمِ إلى الغَيْبَةِ؛ إِذْ لَوْ جَرَى على الأُسْلُوبِ الأَوَّلِ لَقال: (وَاشْكُرُونَا)"[3]، "وَحِكْمَةُ ذَلِكَ ظَاهِرَةٌ؛ لِأَنَّ هَذا الاسْمَ الظَّاهِرَ مُتَضَمِّنٌ لِجَمِيعِ الأَوْصَافِ الَّتِي مِنْهَا وصْفُ الإِنْعَامِ والرِّزْقِ والشُّكْرِ، لَيْسَ على هَذا الإِذْنِ الخَاصِّ، بَلْ يُشْكَرُ على سَائِرِ الإِنْعَامَاتِ والامْتِنَانَاتِ الَّتِي مِنْهَا هَذا الامْتِنَانُ الخَاصُّ"[4]، و"لِتَرْبِيَةِ المهَابَةِ"[5]، و"لِعَظَمِ الاهْتِمَامِ بِهِ سُبْحَانَهُ"[6].

---

(1) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 5/191.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 1/507.
(3) القِنَّوجي، فتح البيان: 1/341.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/109.
(5) محمود عبد الرّحيم صافي، الجدول في إعراب القرآن: 2/342.
(6) الدّرويش، إعراب القرآن وبيانه: 1/243.

سرُّ تعديةِ فعلِ (شَكَرَ) باللّامِ لا بنفسِه:

التَّخفيفُ عن العبادِ في التَّكاليفِ أوفقُ بأحوالِهم، وأرفقُ بقدراتهم

قال ﷻ: ﴿وَٱشۡكُرُواْ لِلَّهِ﴾ ولَمْ يَقُل: (اشْكُرُوني) لِمَا بَيْنَهُمَا مِنْ فَرقٍ، فـ(شَكَرْتَ لَهُ): أَنْ تَعْتَبِرَ إِحْسَانَهُ الصَّادِرَ عَنْهُ، فَتُثْنِي عَلَيْهِ بِذَلِكَ، و(شَكَرْتَهُ): إذا لَمْ تَلْتَفِتْ إلى فِعْلِهِ، بَلْ تَجَاوَزْتَ إلى ذِكْرِ ذاتِهِ دُونَ اعْتِبَارِ أَحْوَالِهِ وأَفْعَالِهِ، وإنّمَا قال: ﴿وَٱشۡكُرُواْ لِلَّهِ﴾، ولم يَقُلْ: (واشكُروني)؛ عِلْمًا بِقُصُورِهِمْ عَنْ إِدْرَاكِهِ، بَلْ عَنْ إِدْرَاكِ آلَائِهِ، كَمَا قال تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ﴾ [النحل: 18]، فَأَمَرَهُمْ أَنْ يَعْتَبِرُوا بَعْضَ أَفْعَالِهِ في الشُّكْرِ[1]، وفي ذلك تخفيفٌ عن العبادِ، بحسبِ ما يستطيعونَه من الشُّكرِ، ويتفاوتون فيه من مراتبِ التَّوجُّهِ إليه.

دِلالةُ الشَّرطِ في قوله: ﴿وَٱشۡكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ﴾:

الشَّرْطُ غايَتُهُ التَّثبُّتُ وهَزُّ النُّفوسِ، رَبْطًا لِلعِبادَةِ بِالشُّكْرِ

عَلَّقَ النَّظمُ الأمرَ بالشُّكْرِ بالعِبَادَةِ؛ فجعَلَ شرطَ الشُّكرِ العبادةَ، على معنى: "إنْ صَحَّ أَنَّكُمْ تَخُصُّونَهُ بالعِبَادَةِ"[2]، ذلك أنَّه إنْ كَانَتِ العِبَادَةُ لِلَّهِ واجِبَةً عَلَى العبادِ، لأنَّه إلهُهم؛ فَالشُّكْرُ لَهُ واجِبٌ بِأَنَّهُ مُحْسِنٌ إِلَيْهِمْ، فَمَعْنَى الشَّرْطِ هَاهُنَا: المظَاهَرَةُ في الحِجاجِ[3]؛ فلا "يُرَادُ بالشَّرْطِ هُنَا إلّا التَّثَبُّتُ والهَزُّ لِلنُّفُوسِ، وكأَنَّ المعْنَى: العِبَادَةُ لَهُ واجِبَةٌ، فَالشُّكْرُ لَهُ واجِبٌ، وذَلِكَ كَمَا تَقُولُ لِمَنْ هُوَ مُتَحَقِّقُ العُبُودِيَّةِ: إنْ كُنْتَ عَبْدِي فَأَطِعْنِي، لا تُرِيدُ بِذَلِكَ التَّعْلِيقَ المحْضَ، بَلْ تُبْرِزُهُ في صُورَةِ التَّعْلِيقِ، لِيكون أَدْعَى لِلطَّاعَةِ وأَهَزَّ لَهَا"[4]، فالأمرُ بالشُّكرِ من قبيلِ إطلاقِ اسْمِ الأَثَرِ على المُؤَثِّرِ[5].

دلالةُ تقديمِ ﴿إِيَّاهُ﴾، وتأخيرِ (الفِعْلِ):

الدّلالةُ على العبادةِ الكاملةِ الخاصَّةِ به سبحانه وتعالى

قُدِّم ﴿إِيَّاهُ﴾ وهو مَفْعُولُ ﴿تَعۡبُدُونَ﴾ في قَوْلِهِ ﷻ: ﴿إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ﴾: "لِكَوْنِ العامِلِ فِيهِ وقَعَ رَأْسَ آيَةٍ، ولِلاهْتِمامِ بِهِ والتَّعْظِيمِ

(1) البروسويّ، روح البيان: 1/256.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/214.
(3) الواحديّ، التّفسير البسيط: 3/495.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/110.
(5) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 5/191.

لِشَأْنِه، لِأَنَّهُ عائِدٌ على اللَّهِ تعالى، كَما في: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ [الفاتحة: 5]، وهَذا مِنَ المواضع الَّتِي يَجِبُ فِيها انْفِصالُ الضَّمِيرِ، وهُوَ إِذا تَقَدَّمَ على العامِلِ أَوْ تَأَخَّرَ، لَمْ يَنْفَصِلْ إِلّا في ضَرُورَةٍ"[1]؛ والمعنى: "تَخُصُّونَهُ بِالعِبادَةِ، وتُقِرُّونَ بِأَنَّه إِلَهُكُمْ لا غَيْرُهُ"[2]، فقدّمَ ﴿إِيَّاهُ﴾ لِإِفادَةِ الاخْتِصاصِ؛ "أَيْ: واشْكُرُوا لَهُ، لِأَنَّكُمْ تَخُصُّونَهُ بِالعِبادَةِ؛ وتَخْصِيصُكُمْ إِيّاهُ بِالعِبادَةِ، يَدُلُّ على أَنَّكُمْ تُرِيدُونَ عِبادَةً كامِلَةً تَلِيقُ بِكِبْرِيائِهِ"[3].

أثرُ السِّياقِ في تقديرِ جَوابِ الشَّرْطِ المحْذُوفِ

جَوابُ الشَّرْطِ في قَوْلِهِ ﷻ: ﴿إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ۝١٧٢﴾ مَحْذُوفٌ، وقد دَلَّ عَلَيْهِ ما قَبْلَهُ، وهو الأَمْرُ، أَيْ: فَكُلُوا مِنْ طَيِّباتِ ما رَزَقْناكُمْ واشْكُرُوا لِلَّهِ[4]، ﴿إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ۝١٧٢﴾ فاشْكُرُوا لِلَّه.

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/110.
(2) القِنَّوجي، فتح البيان: 1/341.
(3) محمود عبد الرّحيم صافي، الجدول في إعراب القرآن: 2/343.
(4) الصاوي، حاشية الصّاوي على تفسير الجلالين، ص: 72.

﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٧٣﴾﴾ [البقرة: 173]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

إيرادُ أَلْوانٍ مِنَ المُحَرَّماتِ، بَعْدَ ذِكْرِ ما أَحَلَّ لِعِبادِهِ في الآيَةِ السّابِقَةِ.

إيراد ألوان من المُحرّمات، بعد ذكر ما أحلّ لعباده في الآية السّابقة

"اعْلَمْ أَنَّهُ سُبْحَانَهُ وتعالى لَمَّا أَمَرَنَا في الآيَةِ السَّالِفَةِ بِتَنَاوُلِ الحَلَالِ، فَصَّلَ في هَذِهِ الآيَةِ أَنْوَاعَ الحَرَامِ"[1]، "ثُمَّ بَيَّنَ المحَرَّمَ مَا هُوَ، فَقال عَزَّ مِنْ قَائِلٍ: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ﴾"[2].

شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

المَيتةُ غَيْرُ المُذَكَّى من الحيوان، والدَّمُ هو السَّائِل أو المسفوح

1) ﴿ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ﴾: فالمَيْتَةُ مِنَ الجَذْرِ (موت)، وأَصْلُهَا المَيِّتَةُ، فَحُذِفَتِ اليَاءُ الثَّانِيَةُ اسْتِخْفَافًا[3]، ونَقَلَ ابْنُ عَطِيَّة أَنَّهُمَا لُغَتانِ[4]، ﴿ٱلْمَيْتَةَ﴾: هُوَ الذي خَرَجَ مِنْ أَنْ يكون حَيًّا مِنْ دُونِ نَقْضٍ بِنْيَةٍ، وفي الشَّرْعِ هُوَ غَيْرُ المُذَكَّى؛ إِمَّا لِأَنَّهُ لَمْ يُذْبَحْ، أَوْ ذُبِحَ ولَكِنْ لَمْ يَكُنْ ذَبْحُهُ ذَكاةً[5].

وأَصْلُ ﴿ٱلْمَيْتَةَ﴾ بِتَشديدِ الياءِ؛ لأَنَّ بِناءَهُ (فَيْعَلَةٌ)، والأصل (ميْوَتَة)، وقد قلبت واوه ياء، وأدغمت الياء في الياء، والمَيْتة والمَيْتُ بالسّكون، هو من فارقت روحُه جسده، وأمّا المشدّدُ فهو الحيّ الّذي سيموت، قال بعضهم في هذا المعنى:

(1) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 5/191، والقِنَّوجي، فتح البيان: 1/341.
(2) الواحديّ، التّفسير البسيط: 3/495.
(3) الزّجاج، معاني القرآن وإعرابه: 1/243.
(4) ابن عطية، المحرّر الوجيز: 1/239.
(5) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 5/195.

أَيَا سَائِلِي تَفْسِيرَ مَيْتٍ ومَيِّتٍ***فَدُونَكَ قَدْ فَسَّرْتُ مَا عَنْهُ تَسْأَلُ
فَمَنْ كَانَ ذَا رُوحٍ فَذَلِكَ مَيِّتٌ***ومَا الـمَيْتُ إِلَّا مَنْ إِلَى الْقَبْرِ يُحْمَلُ[1]

والدَّمُ "يَعْنِي السَّائِلَ؛ لِقَوْلِهِ في مَوْضِعٍ آخَرَ: ﴿أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا﴾ [الأنعام: 145]"[2].

الإهلالُ رفعُ الصَّوْت بما ذُكر عليْه غيْرُ اسْم اللَّه، قربانًا للأصْنام

2) ﴿أُهِلَّ﴾: مِنَ الجَذْرِ (هلّ)، و"أصلُ المادَّةِ يَدُلُّ على رَفْعِ صَوْتٍ"[3]، فالإهلَالُ: رَفْعُ الصَّوْتِ عِنْدَ رُؤْيَةِ الهِلَالِ، ثُمَّ اسْتُعْمِلَ لِكُلِّ صَوْتٍ، ومنه ما رُفِعَ بِهِ الصَّوْتُ لِلصَّنَمِ؛ وذَلِكَ قَوْلُ أَهْلِ الجَاهِلِيَّةِ: بِاسْمِ اللَّاتِ والعُزَّى[4].

وَمعنى قَوْلِهِ: ﴿وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِۖ﴾ [البقرة: 173] أَيْ: مَا ذُكِرَ عَلَيْهِ غَيْرُ اسْمِ اللَّهِ، وهُوَ مَا كان يُذْبَحُ لِأَجْلِ الأَصْنَامِ[5].

الاضطرار سبيلٌ للرّخصة والتّيسير

3) ﴿ٱضْطُرَّ﴾: مِنَ الجَذْرِ (ضرر)، وأصلُ المادَّةِ يَدُلُّ على خِلَافِ النَّفْعِ، واضْطُرَّ فُلَانٌ إلى كَذا، مِنَ الضَّرُورَةِ[6]، و"اضْطَرَّهُ إلى كَذا: مِنَ الضَّرورَةِ، يُقالُ: الاضْطِرارُ يُذْهِبُ الاخْتِيارَ، ورَجُلٌ ذُو ضارُورةٍ وضَرُورةٍ: أَي ذُو حاجَةٍ، وقَدِ اضْطُرَّ إلى الشَّيءِ: أَي أُلْجِئَ إليه؛ قَالَ الشَّاعِرُ:
أَثِيبِي أَخا ضارُورةٍ أَصْفَقَ العِدَى***عَلَيْهِ، وقَلَّتْ في الصَّدِيقِ أَوَاصِرُهْ[7]

والمعنى: فمن أُحْوِجَ وأُلْجِئَ، وهُوَ افْتُعِلَ مِنَ الضَّرُورَةِ، مَعْنَاهُ: ضُيِّقَ عَلَيْهِ الأَمْرُ بِالجُوعِ، وأَصْلُهُ مِنَ الضَّرَرِ وهُوَ الضِّيقُ[8].

البَاغِي المتعدّي مَا حُدَّ لَهُ، والمتجاوزُ لما رُسم لهُ

4) ﴿بَاغٍ﴾: مِنَ الجَذْرِ (بغي)، و"البَغْيُ: طَلَبُ تَجَاوُزِ الاقْتِصَادِ فِيمَا يَتَحَرَّى"[9]، و"بَغَى الرَّجُلُ عَلَى صَاحِبِهِ يَبْغِي بَغْيًا، وذَلِكَ أَنْ

(1) الدّرّة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 1/394.
(2) النّسفي، مدارك التّنزيل: 1/151.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (هلّ).
(4) النّسفي، مدارك التّنزيل: 1/151، وأبو حيّان، البحر المحيط: 2/98.
(5) الرّاغب، المفردات: (هلل).
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ضرّ).
(7) ابن منظور، لسان العرب: 1/483.
(8) الواحدي، التَّفْسِير البَسِيط: 3/500.
(9) الرّاغب، المفردات: (بغي).

يَحْمِلَهُ عَلَى مَا يَكْرَهُ مُقْتَدِرًا، و(باغٍ) اسْمُ فَاعِلٍ، وزْنُهُ فَاعٍ، وفِيهِ إِعْلَال بِالحَذْفِ، حَيْثُ حُذِفَت اليَاءَ لِمُنَاسَبَة التَّنْوِينِ لِأَنَّهُ مَنْقُوصٌ، وأَصْلُهُ البَاغِي[1]، "وَالمُرَادُ بِالبَاغِي مَنْ يَأْكُلُ فَوْقَ حَاجَتِهِ"[2].

ومعنى ﴿غَيْرَ بَاغٍ﴾: أَيْ غَيْرَ مُتَعَدٍّ مَا حُدَّ لَهُ، أَوْ غَيْرَ طَالِبٍ مَا لَيْسَ لَهُ طَلَبُهُ، ولا مُتَجَاوِزٍ لِمَا رُسِمَ لَهُ[3].

لفظ (عادٍ) تعني منْ يأْكُلُ المحرَّمات دون اضطرار

5) ﴿عَادٍ﴾: مِنَ الجَذْرِ (عدو)، وأَصْلُ المادّةِ يَدُلُّ على تَجَاوُزٍ في الشَّيْءِ وتَقَدُّمٍ لِمَا يَنْبَغِي أَنْ يُقْتَصَرَ عَلَيْهِ[4]، ﴿وَلَا عَادٍ﴾، أَيْ ولا مُتَجَاوِزٍ مَا حُدَّ لَهُ[5]، و﴿عَادٍ﴾: اسْمُ فَاعِلٍ، أَصْلُهُ مِنَ العُدْوَانِ، وهُوَ الظُّلْمُ ومُجَاوَزَةُ الحَدِّ.

والمُرَادُ بِهِ مَنْ يَأْكُلُ هَذِهِ المحَرَّمَاتِ وهُوَ يَجِدُ عَنْهَا مَنْدُوحَةً وبُلْغَةً[6].

الله غفورٌ للعاصي، فلا يمسُّهُ العذاب، إذا ندم وتاب

6) ﴿غَفُورٌ﴾: من الجَذر (غفر)، وأصلُ المادَّة يَدُلّ عَلى السَّتْرِ[7]، وغَفُورٌ: صِفَةٌ مُشْتَقَّةٌ، وزْنُهَا فَعُولٌ، وهِيَ مُبَالَغَةُ اسْم الفَاعِلِ[8]، والغُفْرَانُ والمَغْفِرَةُ مِنَ اللهِ: هُوَ أَنْ يَصُونَ العَبْدَ مِنْ أَنْ يَمَسَّهُ العَذابُ[9].

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

أبطَلَ اللهُ ما حَرَّمَتِ الجاهِلِيَّةُ، وأبانَ ما رَخَّصَ من الضَّرورَةِ

إنّما حَرَّم اللّه عليكم - أَيُّهَا المؤْمِنُونَ بِاللّهِ وبِرَسُولِهِ - ما يضرُّكم؛ كالميتة التي لم تُذْبح بطريقة شرعية، والدَّم المسفوح، ولحمِ الخنزير، والذَّبائح التي ذُبِحت لغير اللّه، ومِن فَضْلِ اللّه

(1) محمود عبد الرّحيم صافي، الجدول في إعراب القرآن: 2/345.
(2) القِنَّوجي، فتح البيان: 1/344.
(3) السّمين، عمدة الحفّاظ: (بغي).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عَدَوَ).
(5) السّمين، عمدة الحفّاظ: (عدو).
(6) القِنَّوجي، فتح البيان: 1/344.
(7) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (غفر).
(8) محمود عبد الرّحيم صافي، الجدول في إعراب القرآن: 2/345.
(9) الرّاغب، المفردات: (غفر).

عليكم وتيسيره أنه أباح لكم أكل هذه المُحرَّمات عند الضرورة، فمن ألجأته الضرورةُ إلى أكل شيء منها، غيرَ ظالم في أكله فوقَ حاجته، ولا متجاوزٍ حدودَ الله فيما أُبيحَ له، فلا ذنب عليه في ذلك؛ إن الله غفور لعباده، رحيم بهم[1].

"وَفي هَذِهِ الآيَةِ دَليلٌ على القَاعِدَةِ المشْهُورَةِ: (الضَّرُورَاتُ تُبيحُ المحْظُورَاتُ)، فكلّ محظورٍ اضْطُرَّ إليه الإنسان، فقد أَباحَه له المَلِكُ الرَّحْمَنُ"[2].

❁ الإيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

براعةُ الاسْتِئْنَافِ البيانيِّ في إظهارِ الأضدادِ:

كـثرةُ الطَّيِّباتِ المُباحاتِ، وقلَّةُ الـمُـحـرَّمـاتِ؛ دلـيـلُ حكـمـةِ التَّشريعِ

جاءَ قولُه تعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ﴾ اسْتِئْنَافًا بَيَانِيًّا؛ "ذَلِكَ أَنَّ الإِذْنَ بِأَكْلِ الطَّيِّبَاتِ، يُثِيرُ سُؤَالَ مَنْ يَسْأَلُ: مَا الطَّيِّبَاتُ؟ فَجَاءَ هَذا الاسْتِئْنَافُ مُبَيِّنًا المحَرَّمَاتِ، وهِيَ أَضْدَادُ الطَّيِّبَاتِ، لِتُعْرَفَ الطَّيِّبَاتُ بطريقِ المُضادَّةِ المُسْتَفادَةِ مِنْ صِيغَةِ الحَصْرِ، وإنّمَا سَلَكَ طَرِيقَ بَيَانِ ضِدّ الطَّيِّبَاتِ لِلاخْتِصَارِ فَإِنَّ المحَرَّمَاتِ قَلِيلَةٌ، ولِأَنَّ في هَذا الحَصْرِ تَعْرِيضًا بِالمُشْرِكِينَ الّذينَ حَرَّمُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ كَثِيرًا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وأَحَلُّوا المَيْتَةَ والدَّمَ"[3]، وهذا يدلُّ على حكمةِ التَّشريعِ القرآنيِّ؛ فإنَّه قائمٌ على تقليلِ مساحةِ المُحرَّمات، رِفقًا بالعبادِ، ومراعاةً للواقعِ.

فَائِدَةُ الحَصْرِ بـ﴿إِنَّمَا﴾ دون غيرِها في قوله: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ﴾:

المُحَرَّماتُ كانَتْ مَعْلومَةَ الخَطَرِ والضَّرَرِ، وذُكرت للتَّنبيه

أفادتْ ﴿إِنَّمَا﴾ في قَوْلِهِ ﷻ: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ﴾، الحَصْرَ، والمَعْنَى: "مَا حَرّمَ عَلَيْكُمْ إلّا المَيْتَةَ، والدَّمَ، ولَحْمَ الخِنْزِيرِ؛ لِأَنَّ (إِنَّمَا) تَأْتِي إِثْبَاتًا لِمَا يُذْكَرُ

(1) ابن جرير، جامع البيان: 3/317، ونخبة من العلماء، التفسير الميسر: ص26.
(2) السّعدي، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 82.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/115.

بَعْدَهَا ونَفْيًا لِمَا سِوَاهُ"[1]، و"الغَايَةُ مِنَ القَصْرِ: تَمْكِينُ الكَلَامِ وتَقْرِيرُهُ في الذِّهْنِ"[2]، وهَذا يَعْنِي أَنَّهَا تَأْتِي لِتَقْرِيرِ مَا سَبَقَ العِلْمُ بِهِ، فالأَصْلُ في (إِنَّمَا) "أَنْ تَجِيءَ لِأَمْرٍ مِنْ شَأْنِهِ أَلَّا يَجْهَلَهُ المخَاطَبُ، ولا يُنْكِرَهُ، وإِنَّمَا يُرَادُ تَنْبِيهُهُ فَقَطْ، أَوْ لِمَا هو مُنَزَّلٌ هَذِهِ المنْزِلَةَ"[3].

وَالمُحَرَّمَاتُ المذْكورَةُ في الآيَةِ مَعْلومٌ تَحْرِيمُها لَدَيْهِم؛ "فَإِنَّهُ تعالى قال في آيَةٍ أُخْرَى: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ﴾ [الأنعام: 145]، فَصَارَتِ الآيَتَانِ واحِدَةً؛ فَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ﴾ في هَذِهِ الآيَةِ مُفَسِّرٌ لِقَوْلِهِ: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا﴾ إِلّا كَذا، في تِلْكَ الآيَةِ"[4]، وآيَةُ الأَنْعَامِ مُتَقَدِّمَةٌ على آيَةِ البَقَرَةِ، وهَذا يَدُلُّ على أَنَّ هَذِهِ المحَرَّمَاتِ لَيْسَتْ مَجْهولَةً عِنْدَهُمْ، ولذلك حَسُنَ مجيءُ أداة (إِنَّما) دون غيرِها.

توجيهُ القَصْرِ في قولِه تعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ﴾:

القَصْرُ إضافيٌّ، وهو رَدٌّ على مَنْ حَرَّمَ ما لم يُحَرِّمِ اللهُ

لا يَخْفَى أَنَّ هُنَاكَ مُحَرَّمَاتٍ لَمْ تُذْكَرْ في الآيَةِ، فما وجْهُ قَصْرِ المُحَرَّمِ على مَا ذُكِرَ؟ والمفسِّرون "اتَّفَقوا على أَنَّ ظَاهِرَ الآيَةِ يَقْتَضِي أَنْ لا يُحَرَّمَ سِوَى هَذِهِ الأَشْيَاءِ، لَكِنَّا نَعْلَمُ أَنَّ في الشَّرْعِ أَشْيَاءَ أُخَرَ سِوَاهَا مِنَ المحَرَّمَاتِ"[5].

والجوابُ أن يُقالُ: إِنَّ "المرَادَ قَصْرُ الحُرْمَةِ على مَا ذُكِرَ ممَّا اسْتَحَلَّهُ الكُفَّارُ، لا مُطْلَقًا، وقَصْرُ مَا ذُكِرَ على حَالِ الاخْتِيَارِ، كَأَنَّهُ قِيلَ: إِنَّما حَرَّمَ عَلَيْكُمْ هَذِهِ الأَشْيَاءَ، مَا لَمْ تُضْطَرُّوا إِلَيْهَا"[6].

وَالوَجْهُ أَنَّ قَوْلَهُ تعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ﴾ مِنَ القَصْرِ الإِضَافِيِّ[7]؛ فـ"المَقْصُودُ مِنْ هَذا الحَصْرِ الرَّدُّ على مَنْ

(1) الزجاج، معاني القرآن وإعرابه: 1/243.

(2) أحمد الهاشميّ، جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع، ص: 170.

(3) أحمد الهاشميّ، جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع، ص: 170.

(4) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 5/191-192.

(5) المصدر السّابق: 5/201.

(6) الشّربيني، السّراج المنير: 1/113.

(7) يُقَسَّمُ القَصْرُ بِاعْتِبَارِ الحَقِيقَةِ والْوَاقِعِ إِلَى قِسْمَيْنِ: قَصْر حَقِيقِيّ: وهُوَ أَنْ يَخْتَصَّ المقْصُورُ بِالْمَقْصُورِ عَلَيْهِ بِحَسَبِ الحَقِيقَةِ والْوَاقِعِ، بِأَلَّا يَتَعَدَّاهُ إِلَى غَيْرِهِ أَصْلًا، نَحْو: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ. وقَصْر إِضَافِيّ: وهُوَ أَنْ يَخْتَصَّ المقْصُورُ بِالْمَقْصُورِ عَلَيْهِ بِحَسَبِ الإِضَافَةِ والنِّسْبَةِ إِلَى شَيْءٍ آخَرَ مُعَيَّنٍ، لَا لِجَمِيعِ مَا عَدَاهُ، نَحْو: مَا خَلِيلٌ إِلَّا مُسَافِرٌ، فَإِنَّكَ تَقْصِدُ قَصْرَ السَّفَرِ عَلَيْهِ بِالنِّسْبَةِ لِشَخْصٍ غَيْرِهِ، كَمَحْمُودٍ مَثَلًا، ولَيْسَ قَصْدُكَ أَنَّهُ لَا يُوجَدُ مُسَافِرٌ سِوَاهُ، إِذِ الوَاقِعُ يَشْهَدُ بِبُطْلَانِهِ، ينظر: أحمد الهاشميّ، جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع، ص: 170.

حَرّمَ البَحِيرَةَ والسَّائِبَةِ والوصِيلَةِ والحَامي، وعلى مَنْ أَحَلَّ بَعْضَ المحَرَّمَاتِ؛ فَالحَصْرُ إِضَافِيٌّ"[1].

ويُذكَرُ أنّ هذِهِ الآيةَ الكريمةَ، قَدْ حَصَرَتِ المُحَرَّمَ، لا سِيَّما وقَد جاءَتْ عَقِبَ المُحَلَّلِ في الآيَةِ السّابِقَةِ، الّتي أدَّتْ مَعْنى الإباحَةِ عَلى الإطلاقِ، ثُمّ أعْقَبَتْها أَداةُ الحَصْرِ (إنّما)، فاقْتَضى ذلِكَ الإيعابَ لِلقِسْمَيْنِ، وعَليهِ فلا مُحَرَّمَ يَخْرُجُ عَنْ هذِهِ الآيَةِ[2].

نُكتةُ الإيجَازِ بِحَذْفِ المضَافِ في: ﴿حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ﴾:

تنفيرُ المخاطَبِ من المُحرَّماتِ

أُسْنِدَ التَّحْرِيمُ إلى المَيْتَةِ في قَوْلِهِ ﷻ: ﴿حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ﴾ فالظَّاهِرُ "أَنَّ المحْذُوفَ هُوَ الأَكْلُ؛ لِأَنَّ التَّحْرِيمَ لا يَتَعَلَّقُ بِالعَيْنِ، ولِأَنَّ السَّابِقَ المُبَاحَ هُوَ الأَكْلُ في قَوْلِهِ: ﴿كُلُواْ مِمَّا فِي ٱلْأَرْضِ﴾، ﴿كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾، فَالمَمْنُوعُ هُنَا هُوَ الأَكْلُ، وهَكَذا حَذْفُ المضَافِ يُقَدَّرُ بِمَا يُنَاسِبُ"[3] السِّياقَ، ومقتضى السِّياقِ هنا أن يكون تقديرُ المحذوفِ الأكلَ، ونكتةُ ذلك تنفيرُ المخاطَبِ من الميتةِ؛ بإيقاعِ التَّحريمِ عليها كلِّها.

وَجْهُ ذكرِ لَفْظِ (اللَّحْم) مَعَ الخِنْزِيرِ دُونَ المَيْتَةِ:

لحمُ الخنزيرِ هو المقصودُ بالتّحريم أصالة، وغيرُه تابعٌ له

ذُكر اللَّحمُ مضافًا إلى الخنزير دون الميتةِ، مع تقدُّمِها عليه، في قَوْلِهِ ﷻ: ﴿حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ﴾؛ وذلك "أَنَّ الخِنْزِيرَ غَيْرُ مَقْدُورٍ عَلَيْهِ إلّا بِالاصْطِيَادِ، والاصْطِيَادُ فِيهِ في غَالِبِ أَمْرِهِ إنّما يكون لِلَحْمِهِ، فَعُلِّقَ بِمَا هُوَ المقْصُودُ فِيهِ غَالِبًا، بِخِلَافِ المَيْتَةِ؛ فَإِنَّ النُّفُوسَ تَفِرُّ مِنْهَا وتَكْرَهُ لَحْمَهَا، فَالمُحَرَّمَ جَمِيعُهَا"[4].

وأراد بالخنزيرِ "جَمِيعَ أَجْزَائِهِ، لَكِنَّهُ خَصَّ اللَّحْمَ؛ لِأَنَّهُ المقْصُودُ

(1) حاشية الصّاوي على تفسير الجلالين، ص: 72.
(2) ابن عقيلة، الزّيادة والإحسان في علوم القرآن: 4/333.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/111.
(4) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/506-507.

بالأَكْلِ"[1]، وقَدْ "أَجْمَعَتِ الأُمَّةُ على أَنَّ الخِنْزِيرَ بِجَمِيعِ أَجْزَائِهِ مُحَرَّمٌ، وإنَّمَا ذَكَرَ اللَّهُ تعالى لَحْمَهُ، لِأَنَّ مُعْظَمَ الانْتِفَاعِ مُتَعَلِّقٌ بِهِ، وهو كَقَوْلِهِ: ﴿إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَ﴾ [الجمعة: 9] فَخُصَّ البَيْعُ بِالنَّهْيِ لَمَّا كان هُوَ أَعْظَمَ المهِمَّاتِ عِنْدَهُمْ"[2]، وقال ابْنُ عَطِيَّة: "خُصَّ ذِكْرُ اللَّحْمِ مِنَ الخِنْزِيرِ؛ لِيَدُلَّ على تَحْرِيمِ عَيْنِهِ، ذُكِّيَ أَوْ لَمْ يُذَكَّ، ولِيَعُمَّ الشَّحْمَ ومَا هُنَالِكَ مِنَ الغَضَارِيفِ وغَيْرِهَا"[3]، أو "لِأَنَّهُ مُعْظَمُ مَا يُؤْكَلُ مِنَ الحَيَوَانِ، وسَائِرُ أَجْزَائِهِ كَالتَّابِعِ لَهُ"[4]، واكْتَفَى بِاللَّحْمِ دُونَ الشَّحْمِ؛ "لِأَنَّ الشَّحْمَ دَاخِلٌ في ذِكْرِ اللَّحْمِ؛ لِكَوْنِهِ تَابِعًا لَهُ، وصِفَةً فِيهِ، بِدَلِيلِ قَوْلِهِمْ: لَحْمٌ سَمِينٌ، يُرِيدُونَ أَنَّهُ شَحِيمٌ"[5].

بَيانُ المَفْعولِ الّذي لَم يُسَمَّ فاعِلُهُ، في قوله: ﴿وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ﴾:

المقصودُ هُوَ فِعْلُ الإهْلالِ، لا فاعِلُهُ

قولُه تعالى: "﴿أُهِلَّ﴾: مَبْنِيٌّ لِلْمَفْعُولِ الّذي لَمْ يُسَمَّ فَاعِلُهُ، والمَفْعُولُ الّذي لَمْ يُسَمَّ فَاعِلُهُ هو الجارُّ والمَجْرُورُ في قَوْلِهِ: ﴿بِهِۦ﴾، والضَّمِيرُ في ﴿بِهِۦ﴾، عَائِدٌ على ﴿مَا﴾"[6]، وهُوَ مَا ذُبِحَ، ثمّ إنّ البِناءَ للفاعِلِ غَيْرِ المَعْلومِ، يُفيدُ أَنَّ ما ذُكِرَ وما لَمْ يُذْكَرْ مِنَ الأَنْعامِ الصّالِحَةِ لِلذَّكَاةِ، إذا أُهِلَّ بها لِغَيْرِ اللّهِ، لَم تُصْبِحْ حَلالًا، ولم يُحَدَّدْ في السِّيَاقِ مَنْ فَعَلَ ذَلِكَ؛ لِأَنّ الفاعِلَ لَمْ يُسَمَّ، فالمقصودُ هُوَ الفِعْلُ والنِّيَّةُ والقَوْلُ، ولَيْسَ الفاعِلَ، ولِذلِكَ جاءَ غَيْرَ مَعْلومٍ ولا مُسَمًّى، وهُوَ مِنْ بلاغَةِ الأُسْلوبِ القُرآنيِّ البَديعِ.

يَنْدَرِجُ في لَفْظِ (غَيْرِ اللَّهِ) الصَّنَمُ، وكلّ ما كان لِلتَّفَاخُرِ والتَّبَاهِي

في قَوْلِهِ ﷻ: ﴿وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِۖ﴾، حَدَّدَ بَعْضُ المفَسِّرِينَ المرَادَ بِغَيْرِ اللّهِ تعالى، فَذَكَرُوا أَنَّهُ مَا أُهِلَّ بِهِ لِلْأَصْنَامِ، أَوِ الافْتِخَارِ،

(1) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 5/192.
(2) المصدر السّابق: 5/200.
(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 1/240.
(4) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 1/119.
(5) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/215.
(6) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/115-116.

"﴿وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيۡرِ ٱللَّهِۖ﴾؛ أَيْ مَا ذُبِحَ لِلْأَصْنَامِ والطَّوَاغِيتِ؛ قالهُ ابْنُ عَبَّاسٍ ومُجَاهِدٌ وقَتَادَةُ والضَّحَّاكُ، أَوْ مَا ذُكِرَ عَلَيْهِ اسْمُ غَيْرِ اللَّهِ؛ قالهُ الرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ وغَيْرُهُ، أَوْ مَا ذُكِرَ اسْمُ المسيحِ عَلَيْهِ؛ قالهُ الزُّهْرِيُّ"[1]، "اسْتَدَلَّ بِهِ مَنْ حَرَّمَ مَا ذَبَحَهُ أَهْلُ الكِتَابِ لِأَعْيَادِهِمْ وكَنَائِسِهِمْ وعلى اسْمِ المسيحِ"[2].

وَقال الرَّازِي: "فَمَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيۡرِ ٱللَّهِۖ﴾، يَعْنِي مَا ذُبِحَ لِلْأَصْنَامِ، وهُوَ قَوْلُ مُجَاهِدٍ، والضَّحَّاكِ، وقَتَادَةَ، وقال الرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ وابْنُ زَيْدٍ: يَعْنِي مَا ذُكِرَ عَلَيْهِ غَيْرُ اسْمِ اللَّهِ، وهَذا القَوْلُ أَوْلَى، لِأَنَّهُ أَشَدُّ مُطَابَقَةً لِلَّفْظِ"[3].

وَالوَجْهُ جَعْلُهُ عَامًّا يَدْخُلُ فِيهِ كُلُّ مَا ذَكَرَ ظَاهِرُ قَوْلِهِ: ﴿لِغَيۡرِ ٱللَّهِۖ﴾، "لِأَنَّ الإِهْلَالَ لِغَيْرِ اللَّهِ هُوَ إِظْهَارُ غَيْرِ اسْمِ اللَّهِ، ولَمْ يُفَرِّقْ بَيْنَ اسْمِ المسيحِ واسْمِ غَيْرِهِ، فَيَنْدَرِجُ في لَفْظِ (غَيْرِ اللَّهِ) الصَّنَمُ والمَسِيحُ والفَخْرُ واللَّعِبُ ومَا قُصِدَ بِهِ غَيْرُ وجْهِ اللَّهِ تعالى لِلتَّفَاخُرِ والتَّبَاهِي"[4].

وَمِمَّا يُرَجِّحُ كَوْنَ المرَادِ الأَصْنَامَ قَوْلُهُ تعالى: ﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ﴾ [المائدة: 3]، تَنْبِيهًا على أَنَّ المقْصُودَ بِالخِطَابِ هُمُ المشْرِكُونَ؛ لِأَنَّهُمْ كَانُوا يَسْتَحِلُّونَ هَذِهِ الأُمُورَ، ولَيْسَ المرَادُ تَخْصِيصَ (مَا كان لغَيْرِ اللَّهِ تعالى) بِهِ[5]، فَالمُرَادُ غَيْرُ اللَّهِ مُطْلَقًا، سَوَاءٌ كان صَنَمًا أَوْ غَيْرَهُ، ولَيْسَ الغَرَضُ تَخْصِيصَ ذَلِكَ بِالصَّنَمِ، وإِنْ كان أَكْثَرُ وُقُوعِهِ مِنَ المشْرِكِينَ[6].

وَإِنْ كان قَدْ حَرَّمَ في هَذِهِ الآيَةِ مَا ذُكِرَ عَلَيْهِ غَيْرُ اسْمِ اللَّهِ، فَإِنَّهُ قَدْ حَرَّمَ في آيَةٍ أُخْرَى مَا لَمْ يُذْكَرْ عَلَيْهِ اسْمُ اللَّهِ: ﴿وَلَا تَأۡكُلُواْ مِمَّا لَمۡ يُذۡكَرِ ٱسۡمُ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسۡقٞۗ﴾ [الأنعام: 121]، قال الطَّبَرِيّ: "لَا تَأْكُلُوا، أَيُّهَا المؤْمِنُونَ، مِمَّا مَاتَ فَلَمْ تَذْبَحُوهُ أَنْتُمْ، أَوْ يَذْبَحُهُ مُوَحِّدٌ يَدِينُ لِلَّهِ بِشَرَائِعَ شَرَعَهَا لَهُ في كِتَابٍ مُنَزَّلٍ، فَإِنَّهُ حَرَامٌ عَلَيْكُمْ، ولا ﴿مَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيۡرِ ٱللَّهِۖ﴾ مِمَّا ذَبَحَهُ المشْرِكُونَ لِأَوْثَانِهِمْ، فَإِنَّ أَكْلَ ذَلِكَ فِسْقٌ"[7].

---

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/115.

(2) السّيوطي، الإكليل في استنباط التّنزيل، ص: 36.

(3) الرّازي، مفاتيح الغيب: 5/192.

(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/115.

(5) محمّد عبد الحقّ، الإكليل على مدارك التّنزيل: 2/6.

(6) عصام الدّين الحنفيّ، حاشية القونويّ على تفسير البيضاويّ: 4/443.

(7) ابن جرير، جامع البيان: 12/76.

بَيَانُ مَعْنَى البَاءِ فِي: ﴿وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ﴾:

الإِهْلالُ عِنْدَ الذَّبْحِ، وعَلاقَتُهُ بِالظَّرْفِيَّةِ الزَّمانِيَّةِ

اختُلف في معنى الباءِ في قَوْلِهِ ﷻ: ﴿وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ﴾، فقيل: عِنْدَ ذَبْحِهِ بَيَانًا لِلتَّلَبُّسِ، وقيل: بمعنى السَّبَبِيَّةِ، أيْ: بِسَبَبِ ذَبْحِهِ[1]، وقيل: بمعنى الظَّرفيَّةِ، وحينها "لَا بُدَّ مِنْ حَذْفِ مُضَافٍ، أَيْ (في ذَبْحِهِ)؛ لِأَنَّ المعْنَى: ومَا صِيحَ في ذَبْحِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ"[2]، فَيكون بِمَعْنَى الظَّرْفِيَّةِ الزَّمَانِيَّةِ، أَيْ: في وقْتِ ذَبْحِهِ ذُكِرَ اسْمُ غَيْرِ اللَّهِ؛ "أَيْ: رُفِعَ الصَّوْتُ لِغَيْرِ اللهِ عِنْدَ ذَبْحِهِ"[3].

توجيه المتشابه اللَّفظيّ:

تقديمُ (بِهِ) وتأخيرُه مدارُه على مقصودِ الكلامِ

قُدِّم الجارُّ والمجرورُ في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِۖ﴾ [البقرة: 173]، بينما أُخِّر ذكرُه في بقيَّة الآيات: ﴿وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾ [المائدة: 3]، [الأنعام: 145]، [النحل: 115]؛ وذَلِكَ لأَنّ الباءَ لِلتَّعْدِيَةِ، كالهَمْزَةِ والتَّشْديدِ، فهيَ كَالجُزْءِ مِنَ الفِعْلِ، فكانَ المَوْضِعُ الأَوَّلُ أَوْلى بها وبِمَدْخُولِها، وأُخِّرَ في بَقِيّةِ المَواضِعِ، نَظَرًا لِلمَقْصودِ فيها، مِنْ ذِكْرِ المُسْتَنْكَرِ، وهُوَ الذَّبْحُ لِغَيرِ اللهِ[4].

"وإِنّمَا قُدِّمَ ﴿بِهِۦ﴾ هُنَا؛ لِأَنَّهُ أَمَسُّ بِالفِعْلِ، وأُخِّرَ في مَوَاضِعَ أُخَرَ نَظَرًا لِلْمَقْصُودِ فِيهَا مِنْ ذِكْرِ المُسْتَنْكَرِ، وهُوَ الذَّبْحُ لِغَيْرِ اللَّهِ عَزَّ شَأْنُهُ"[5]، و"قَدَّمَ ﴿بِهِۦ﴾ في هَذِهِ السُّورة وأَخَّرها في [المَائِدَة: 3]، و[الأنعام: 145]، و [النّحل: 115]؛ لِأَنَّ تَقْدِيمَ البَاءِ هو الأَصْلُ؛ فَإِنَّهَا تجْرِي مَجْرى الهَمْزَةِ والتَّشْدِيدِ في التَّعَدِّي، فَكَانَت كحرفٍ من الفِعْلِ، فَكان الموضِعُ الأَوَّلُ أولى بِمَا هُوَ الأَصْلُ؛ لِيُعلمَ مَا يَقْتَضِيهِ اللَّفْظ، ثمَّ قَدَّمَ فِيمَا سواهَا مَا هُوَ المستَنْكَر، وهُوَ الذّبْحُ لِغيرِ اللّه، وتَقْدِيم مَا هُوَ الغَرَضُ أَوْلى"[6].

(1) محمّد عبد الحقّ، الإكليل على مدارك التّنزيل: 2/5 12.
(2) الجمل، الفتوحات الإلهيّة: 1/208.
(3) محمّد عبد الحقّ، الإكليل على مدارك التّنزيل: 2/16.
(4) الهرريّ، تفسير حدائق الرّوح والرّيحان: 3/103.
(5) الآلوسي، روح المعاني: 1/440.
(6) الكرماني، أسرار التّكرار في القرآن، ص: 81، والفيروزآبادي، بصائر ذوي التّمييز: 1/150-151.

دلالة (الفاء) في قوله: ﴿فَمَنِ ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ﴾:

"الفَاءُ فِيهِ لِتَفْرِيعِ الإِخْبَارِ لا لِتَفْرِيعِ المعْنَى، فَإِنَّ مَعْنَى رَفْعِ الحَرَجِ عَنِ المضْطَرِّ لا يَنْشَأُ عَنِ التَّحْرِيمِ"[1].

تَعَلُّقُ الحُكْمِ بِالأَشْخَاصِ، يُرَجِّحُ كَوْنَ (مَنْ) مَوْصُولَةً:

في قَوْلِهِ ﷻ: ﴿فَمَنِ ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ﴾ الأَوْلَى أَنْ تَكُونَ (مَنْ) مَوْصُولَةً؛ لِأَنَّ القَضِيَّةَ الشَّرْطِيَّةَ لا تَدُلُّ على وُقُوعِ الشَّيْءِ، ولَا على إِمْكَانِ وُقُوعِهِ[2]، وتَعَلُّقُ الحُكْمِ بِالأَشْخَاصِ يُرَجِّحُ كَوْنَ (مَنْ) مَوْصُولَةً.

الإِيجَازُ بِالحَذْفِ لمقدّر: ﴿فَمَنِ ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ﴾:

الاضْطِرَارُ لِلْأَكْلِ مِنَ المُحَرَّمِ يَرْفَعُ الإِثْمَ؛ رُخْصَةً لِلْمُضْطَرِّ

في قَوْلِهِ ﷻ: ﴿فَمَنِ ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ﴾ "إِضْمَارٌ، مَعْنَاهُ: فَمَنِ اضْطُرَّ إلى شَيْءٍ مِمَّا ذَكَرْنَا أَنَّهُ مُحَرَّمٌ"[3]؛ إِذِ الاضْطِرَارُ "لَيْسَ مِنْ أَفْعَالِ المُكَلَّفِ، حَتَّى يُقَالَ: إِنَّهُ لا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ؛ فَإِذَنْ لا بُدَّ هَاهُنَا مِنْ إِضْمَارٍ، وهُوَ الأَكْلُ، والتَّقْدِيرُ: فَمَنِ اضْطُرَّ فَأَكَلَ فَلَا إِثْم عَلَيْهِ، والحَذْفُ هَاهُنَا كَالحَذْفِ في قَوْلِهِ: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَۚ﴾ [البَقَرَة: 184] أَيْ: فَأَفْطَرَ، فَحَذَفَ (فَأَفْطَرَ)، وقَوْلِهِ: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوۡ بِهِۦٓ أَذٗى مِّن رَّأۡسِهِۦ فَفِدۡيَةٞ مِّن صِيَامٍ أَوۡ صَدَقَةٍ﴾ [البَقَرَة: 196] ومَعْنَاهُ: (فَحَلَقَ فَفِدْيَةٌ)، وإِنَّمَا جَازَ الحَذْفُ لِعِلْمِ المخَاطَبِينَ بِالحَذْفِ، ولِدَلَالَةِ الخِطَابِ عَلَيْهِ"[4]، "وَالمحْذُوفُ الَّذي قَدَّرْنَاهُ مِنْ قَوْلِنَا: فَأَكَلَ، لا بُدَّ مِنْهُ، لِأَنَّهُ لا يَنْفِي الإِثْمَ عَمَّنْ لَمْ يُوجَدْ مِنْهُ الاضْطِرَارُ، ولَا يَتَرَتَّبُ ذَلِكَ على الاضْطِرَارِ وحْدَهُ، بَلْ على الأَكْلِ المتَرَتِّبِ على الاضْطِرَارِ"[5].

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/120.

(2) تفسير ابن عرفة: 2/507.

(3) الواحديّ، التَّفْسِير البَسِيط: 3/500.

(4) الرّازي، مفاتيح الغيب: 5/193.

(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/118.

دلالةُ مجيءِ (غَيْر) دون (لا) في الآية:

قوله (غَيْرَ باغٍ)، تُعالجُ شَأْنَ المضْطَرِّ، مع الإشارة إِلَى عِلَّةِ الرُّخْصَةِ

في قَوْلِهِ ﷻ: ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ﴾، جاءَت كلمةُ ﴿غَيْرَ﴾ حالًا "لِلْمُضْطَرِّ، كَأَنَّكَ قُلْتَ: فَمَنِ اضْطُرَّ لا بَاغِيًا ولَا عَادِيًا، فَهُوَ لَهُ حَلَالٌ، والنَّصْبُ هَاهُنَا بِمَنْزِلَةِ قَوْلِهِ: ﴿أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّى ٱلصَّيْدِ﴾ [المائدة: 1]، ومِثْلُهُ: ﴿إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ﴾ [الأحزاب: 53]، و﴿غَيْرَ﴾ هَاهُنَا لا تَصْلُحُ (لَا) في مَوْضِعِهَا؛ لِأَنَّ (لَا) تَصْلُحُ في مَوْضِعِ (غَيْر)، وإذا رَأَيْتَ (غَيْر) يَصْلُح (لَا) في مَوْضِعِهَا فَهِيَ مُخَالِفَةٌ (لِغَيْر) التي لا تَصْلُحُ (لَا) في مَوْضِعِهَا"[1]؛ فقَوْلُهُ تعالى: ﴿غَيْرَ بَاغٍ﴾ "يَصْلُحُ أَنْ يكون (غَيْرَ) حَالًا لِلْمُضْطَرِّ، ولَا يَصْلُحُ أَنْ يكون اسْتِثْنَاءً؛ لِأَنَّ (غَيْرَ) هَاهُنَا بِمَعْنَى: النَّفْيِ؛ ولِذَلِكَ عَطَفَ عَلَيْهَا بِـ (لَا)؛ لِأَنَّهَا في مَعْنَى (لَا)"[2].

"وَمَجِيءُ هَذِهِ الحَالِ هُنَا لِلتَّنْوِيهِ بِشَأْنِ المضْطَرِّ في حَالِ إِبَاحَةِ هَاتِهِ المحَرَّمَاتِ لَهُ، بِأَنَّهُ بِأَكْلِهَا يكون غَيْرَ بَاغٍ ولَا عَادٍ، لِأَنَّ الضَّرُورَةَ تُلْجِئُ إِلَى البَغْيِ والاعْتِدَاءِ، فَالآيَةُ إِيمَاءٌ إِلَى عِلَّةِ الرُّخْصَةِ؛ وهِيَ رَفْعُ البَغْيِ"[3].

سِرُّ ذِكْرِ المغْفِرة بَعْدَ نَفْيِ الإِثْمِ:

إذهابُ ما في النَّفسِ من الشُّعورِ بالحرَجِ بعدَ أكلِ المحرَّماتِ حالَ الضَّرورةِ

في قَوْلِهِ ﷻ: ﴿فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، ذَكَرَ أَنَّهُ غَفُورٌ بَعْدَ أَنْ نَفَى الإِثْمَ؛ لأنّ تَقْدِيرَ الحَاجة في الأَكْلِ مِنَ المحْظُورِ قَدْ يَصْحَبُهُ تَجَاوُزٌ، وهوَ مِمَّا يَعْسُرُ تَقْدِيرُ قَدْرِهِ، فَعَقَّبَ عَلَيْهِ تعالى بِالمَغْفِرة والرَّحْمَةِ، فَمَنْ أَبَاحَ أَوَّلًا غَفَرَ آخِرًا.

قال الرَّازِي: "فِيهِ إِشْكَالٌ؛ وهُوَ أَنَّهُ لَمَّا قال: ﴿فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ﴾، فَكَيْفَ يَلِيقُ أَنْ يَقُولَ بَعْدَهُ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾؛ فَإِنَّ الغُفْرَانَ إِنَّما يكون عِنْدَ حُصُولِ الإِثْمِ؟! والجَوَابُ: مِنْ وُجُوهٍ، أَحَدُهَا: أَنَّ المقْتَضِيَ

(1) الفرّاء، معاني القرآن: 1/102-103.
(2) الواحدي، التَّفْسِير البَسِيط: 3/501.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/120.

لِلْحُرْمة قَائِمٌ في الميْتة والدَّم، إلّا أَنَّهُ زَالَت الحُرْمة لِقِيَام المعَارِض، فَلَمَّا كان تَناوُلُهُ تَناوُلًا لما حَصَلَ فِيهِ المقْتَضِي لِلْحُرْمة، عَبَّرَ عَنْهُ بِالمَغْفِرَةِ، ثُمَّ ذَكَرَ بَعْدَهُ أَنَّهُ رَحِيمٌ، يَعْنِي: لِأَجْلِ الرَّحْمة عَلَيْكُمْ، أَبَحْتُ لَكُمْ ذَلِكَ، وثانِيها: لَعَلَّ المضْطَرَّ يَزِيدُ على تَناوُلِ الحاجَةِ، فَهُوَ سُبْحانَهُ غَفُورٌ، بِأَنْ يَغْفِرَ ذَنْبَهُ في تَناوُلِ الزِّيادَةِ، رَحِيمٌ حَيْثُ أَباحَ تَناوُلَ قَدْرِ الحاجَةِ، وثالِثُها: أَنَّهُ تعالى لَمّا بَيَّنَ هَذِهِ الأَحْكامَ عَقَّبَها بِكَوْنِهِ غَفُورًا رَحِيمًا؛ لِأَنَّهُ غَفُورٌ لِلْعُصاةِ إِذا تابُوا، رَحِيمٌ بِالمُطِيعِينَ المسْتَمِرِّينَ على نَهْجِ حُكْمِهِ سُبْحانَهُ وتعالى"[1].

و"لَمّا ذَكَرَ أَشْياءَ مُحَرَّمةً اقْتَضَى المنْعَ مِنْها، ثُمَّ ذَكَرَ إِباحَتَها لِلْمُضْطَرِّ في تِلْكَ الحالِ المقَيِّدَةِ لَهُ، أَتْبَعَ ذَلِكَ بِالإِخْبارِ عَنْ نَفْسِهِ، بِأَنَّهُ تعالى غَفُورٌ رَحِيمٌ، لِأَنَّ المخاطَبَ بِصَدَدِ أَنْ يُخالِفَ، فَيَقَعَ في شَيْءٍ مِنْ أَكْلِ هَذِهِ المحَرَّماتِ، فَأَخْبَرَ بِأَنَّهُ غَفُورٌ لِلْعُصاةِ إِذا تابُوا، رَحِيمٌ بِهِمْ، أَوْ لِأَنَّ المخاطَبَ إِذا اضْطُرَّ فَأَكَلَ ما يَزِيدُ على قَدْرِ الحاجَةِ، فَهُوَ تعالى غَفُورٌ لَهُ ذَلِكَ، رَحِيمٌ بِأَنْ أَباحَ لَهُ قَدْرَ الحاجَةِ، أَوْ لِأَنَّ مُقْتَضَى الحُرْمة قائِمٌ في هَذِهِ المحَرَّماتِ، ثُمَّ رَخَّصَ في تَناوُلِها مَعَ قِيامِ المانِعِ، فَعَبَّرَ عَنْ هَذا التَّرْخِيصِ والإِباحة بِالمَغْفِرَةِ، ثُمَّ ذَكَرَ بَعْدَ الغُفْرانِ صِفَةَ الرَّحْمَةِ، أَيْ: لِأَجْلِ رَحْمَتِي بِكُمْ أَبَحْتُ لَكُمْ ذَلِكَ"[2]، أَوْ قَدْ يكون أَنَّهُ أَخْطَأَ بِتَقْدِيرِ أَنَّهُ مُضْطَرٌّ، وهُوَ لَيْسَ كَذَلِكَ، فـ "وَجْهُ مُناسَبَةِ المَغْفِرَةِ، أَنَّهُ قَدْ يَظُنُّ أَنَّهُ مُضْطَرٌّ فَيَأْكُلُ المَيْتَةَ، ولا يَكونُ مُضْطَرًّا إِلَيْها"[3].

دَلالَةُ التَّذْيِيلِ في قَوْلِهِ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾:

قَوْلُهُ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ "تَذْيِيلٌ قُصِدَ بِهِ الامْتِنانُ، أَيْ: إِنَّ اللَّهَ مَوْصُوفٌ بِهَذَيْنِ الوَصْفَيْنِ، فَلا جَرَمَ أَنْ يَغْفِرَ لِلْمُضْطَرِّ أَكْلَ المَيْتة؛ لِأَنَّهُ رَحِيمٌ بِالنّاسِ، فالمَغْفِرة هُنا بِمَعْنَى التَّجاوُزِ عَمّا تُمْكِنُ المؤاخَذَةُ عَلَيْهِ، لا بِمَعْنَى تَجاوُزِ الذَّنْبِ ونَحْوِهِ"[4].

رفْعُ الإِثْمِ عَنِ المُضْطَرِّينَ امتنانٌ مؤيَّدٌ بالمغفرةِ والرَّحمةِ

"وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ﴾ أَيْ: لِلْمَعاصِي، وفِيهِ إِشارة إلى أَنَّهُ إِذا كان يَغْفِرُ المعْصِية فَإِنَّهُ لا يَأْخُذُ بِما جَعَلَ فِيهِ الرُّخْصَةَ، ﴿رَحِيمٌ﴾

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 5/194.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/119.
(3) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/509.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/121-122.

حيث رَخَّصَ لِلْمُضْطَرِّ في أَكْلِ المَيْتَةِ"[1]، "وَمَعْنَى الآيَةِ: أَنَّ رَفْعَ الإِثْمِ عَنِ المُضْطَرِّ حُكْمٌ يُناسِبُ مَنِ اتَّصَفَ بالمغفرة والرَّحْمَة"[2].

بلاغةُ الجمعِ بَيْنَ لفظ ﴿بَاغٍ﴾ ولفظِ ﴿عَادٍ﴾:

الـبَـاغـي آخِـذٌ دُونَ اسْتِحْقاقٍ، والعادِي مُتَجاوِزٌ دُون اسْتِئْذانٍ

(الباغي): مِنَ البَغْيِ، وهُو: "شدَّة الطَّلَبِ لما لَيْسَ بِحَقٍّ"[3]، و(العادِي) مِن العَدْوِ، وهُوَ التَّعَدِّي في الأُمُورِ، وتَجاوُزُ ما يَنْبَغِي أَنْ يُقْتَصَرَ عَلَيْهِ"[4]، واستِعْمالهُما في الآيَةِ عَلى غايَةِ البَلاغَةِ؛ (فالباغِي) هُوَ الّذي يَطْلُبُ ذَلِكَ المُباحَ بِشِدَّةٍ، مَعَ الفَسادِ الّذي يُرافِقُ فِعْلَهُ في النِّيَّةِ، فَهُوَ يَطْلُبُ ما لَيْسَ يَسْتَحِقُّهُ، أَمّا (العادِي) فَهُوَ الّذي يَتَجاوَزُ ما يَنْبَغِي أَنْ يَقْتَصِرَ عَلَيْهِ، فَيَمِيلُ عَنِ الحَدِّ المُباحِ ويَبْعُدُ عَنْهُ، (فالباغِي) هُوَ الآخِذُ بِالرُّخْصة مِنْ غَيْرِ اسْتِحْقاقٍ، (والعادِي) هُوَ مَنْ يَفْعَلُ أَكْثَرَ مِنْ حَدِّ الرُّخْصَةِ، وذكرُهما للتَّنبيهِ على عدمِ جوازِ التَّجاوزِ، فإن حصلَ واستمرَّ الباغي في بغيِه فهو عادٍ.

توجيهُ المُتشابِه اللَّفظيّ:

مُراعاةُ مُقْتَضى حَالِ المُضْطَرِّ، وتَوْجيهُ الخِطابِ لَهُ وفْقَ ذَلِكَ

وَرَدَ في القُرآنِ الكَريم مَوْضِعانِ مُشَابهان لِقوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: 173]، وهما: ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأنعام: 145] و﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النّحل: 115].

فهل لِهَذه التَّعْقيباتِ خُصوصِيّة بِموْضِعِهَا؟

جاء في (دُرّة التَّنزيل): "قَصَدَ اللّٰهُ تعالى في المواضع الثَّلاثة، أن يُبيِّن لِلْمضْطرِّ مَا لَه أن يتناوله مِن المحرّم الذِّي يُمْسِك بِه

(1) الواحدي، التَّفْسِير البَسِيط: 3/504.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/122.
(3) أبو هلال العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 232.
(4) الرّازي، مفاتيح الغيب: 5/193.

رَمقَهُ، فَذكَر في المَوْضِعَيْنِ الأخيرَيْنِ: ﴿فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ١٤٥﴾ [الأنعام: 145]، و﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ١١٥﴾ [النحل: 115]، فَكَان تعْريضًا بِمغْفرتِه لِمَن اضْطُرَّ إلى تَناوُل المُحَرَّم في حَالَتِه، والمَوْضِعُ الأوَّل بدَأَ فِيه بِصريحِ اللَّفْظ في إِسقَاط الإثْم فقال: ﴿فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۚ﴾ [البقرة: 173] ثُمَّ عقَّبَه بِمَا اتَّصف بِه مِن المغْفرة والرَّحْمة"[1]، ومثلها قولُه تعالى: ﴿فَمَنِ ٱضۡطُرَّ فِي مَخۡمَصَةٍ غَيۡرَ مُتَجَانِفٖ لِّإِثۡمٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٣﴾ [المائدة: 3].

لماذا قالَ في مَوْضِعٍ: ﴿فَإِنَّ رَبَّكَ﴾ وفي الآخَرِ: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ﴾؟

لِكُلِّ مَوضعٍ مَعْنًى يُوجِبُ اخْتِصاصَ اللَّفْظِ الّذي ذُكِرَ فِيهِ

جاء في (فتح الرّحمن بِكَشْفِ ما يَلْتَبِسُ في القُرآنِ): "قولُهُ تَعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾، قالَهُ هُنا، وقال في الأنْعام: ﴿فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ١٤٥﴾ [الأنعام: 145]؛ لأنَّ لفْظَ الرَّبِّ تكرَّر ثَمَّ مرَّاتٍ، مع ذِكر ما يحتاج إلى التَّربية، من الثَّمار، والحبوب، والحيوان، مِن الضَّأن والمَعَزِ والإبل والبَقَر في قوله: ﴿۞وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٖ﴾ [الأنعام: 141] إلخ، فكان ذِكرُ الرَّبِّ ثَمَّ أنْسَبَ"[2].

جاء في (دُرّة التَّنزيل): "لِكلِّ مَوضِعٍ مَعْنًى يُوجِبُ اختِصاصَ اللَّفْظ الّذي ذُكِرَ فِيه، فَأمَّا الأوَّل فلأنَّه لَمَّا قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ ١٧٢ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيۡكُمُ﴾، كان بِمَا قَدَّمَه مُثْبتًا عَليهم إلهيَّتَهُ، لِأنَّ الإلهَ هُوَ الّذي تَحقُّ لَه العِبادَةُ بِمَا لَه مِن النِّعْمَة، فَلمَّا قَدَّم ذِكْرَ مَا رَزَقَهم مِنهَا، وطالبَهُم بِشُكْرِهَا، أَتْبَعَهُ بقوْلِه: ﴿إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ ١٧٢﴾، وخَتَم الآيةَ بأنْ قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾، أي: إنَّ مَنْ أَنعَمَ عليْكم غَايَةَ النِّعْمة، واسْتَحقَّ بها غَاية التَّعَبُّد والتَّذلُّل، هُو الّذي يَغْفِرُ لَكُم عِنْد الضَّرورة تَناوُلَ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ في حالِ الاخْتيار، رَحيمٌ بِكُمْ، وكَذلِكَ الآيةُ الثَّالثَةُ، مَبْنِيَّةٌ على مِثْل هذا؛ لأنَّ أَوَّلَها: ﴿فَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلٗا طَيِّبٗا وَٱشۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ ١١٤﴾ [النحل: 114] فكان مشْبِهًا لما قدَّمْنا

(1) الإسكافيّ، درّة التّنزيل: 1/320، و321.

(2) زكريا الأنصاريّ، فتح الرّحمن بكشف ما يلتبس في القرآن: 1/50-51.

ذِكْره، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، وأمَّا الثَّانية فلأنَّه قَدَّم ذِكْر أَصنَاف مَا خَلقَه اللَّه تعالى لِترْبِية الأجْسام، فَقَال: ﴿۞وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ﴾ [الأنعام: 141] فَذكَر الثِّمَار، والحبَّ، وأَتْبعَه بِذكْر الحيوان؛ مِن الإبِل، والبَقر، والغَنم، خَصَّ هذا الموْضِع بِذكْر (الرَّب)؛ لِأنَّ الرَّب هُو القائم بِمصالح المرْبوب فَكَان هذا أليقَ بِهَذا المكَان"[1].

(1) الإسكافّي، درّة التّنزيل وغُرَّة التّأويل: 1/320-323.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَشۡتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ مَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ١٧٤﴾ [البقرة: 174]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

ذِكْرُ ما أَنْزَلَ اللهُ في الكِتابِ، والتَّحذيرُ مِنْ كِتْمانِهِ وتَحْريفِهِ.

العُقوبَةُ الشَّنيعَةُ لِلمُحَرِّفينَ لِأَحْكامِ اللهِ، في الدُّنْيا والآخِرَةِ

"وَنَاسَبَ ذِكْرُ هَذِهِ الآيَةِ ما قَبْلَها، لِأَنَّهُ تعالى ذَكَرَ في الآية قَبْلَها إباحَةَ الطَّيِّباتِ، ثُمَّ فَصَّلَ أَشْياءَ مِنَ المُحَرَّماتِ، فَناسَبَ أَنْ يَذْكُرَ جَزاءَ مَنْ كَتَمَ شَيْئًا مِنْ دِينِ اللَّهِ، ومِمّا أَنْزَلَهُ على أَنْبِيائِهِ، فَكانَ ذَلِكَ تَحْذِيرًا أَنْ يَقَعَ المؤْمِنُونَ فِيما وقَعَ فِيهِ أَهْلُ الكِتابِ، مِن كَتْمِ ما أنزل اللَّهُ عَلَيْهِمْ واشْتِرائِهِمْ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا"[1].

شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

البطْنُ خلافُ الظَّهْرِ، ويُعبّرُ به عنْ داخلِ الشَّيْءِ

1) ﴿بُطُونِهِمۡ﴾: مِنَ الجَذْرِ (بطن)، وأصلُ المادّةِ: إِنْسِيُّ الشَّيْءِ، والمُقْبِلُ مِنْهُ، فَالبَطْنُ خِلافُ الظَّهْرِ[2]، ويُعَبَّرُ بِهِ عَنْ دَاخِلِ الشَّيْءِ، كَمَا يُعَبَّرُ بِالظَّاهِرِ عَنْ خَارِجِهِ، ويُعَبَّرُ بِهِ عَنِ الجِهَةِ السُّفْلَى، كَمَا يُعَبَّرُ بِهِ عَنِ العُلْيَا"[3]، و"(بُطُونٌ): جَمْعُ بَطْنٍ، وهُوَ اسْمٌ جَامِدٌ لِجَوْفِ كُلِّ شَيْءٍ، وزْنُهُ: فَعْلٌ"[4]، وقيل: "البَطْنُ في كلّ شَيْءٍ: خِلافُ الظَّهْرِ، كَبَطْنِ الأَرْضِ وظَهْرِها، وكالباطِنِ والظّاهِرِ، وكالبِطانَةِ والظِّهارَةِ، يَعْني: باطِنَ الثَّوبِ وظاهِرَهُ، قال الله ﷻ: ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشِۭ بَطَآئِنُهَا مِنۡ إِسۡتَبۡرَقٖۚ﴾ [الرحمن: 54]"[5].

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/123.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (بطن).
(3) السّمين، عمدة الحفّاظ: (بطن).
(4) محمود عبد الرّحيم صافي، الجدول في إعراب القرآن: 2/347.
(5) الخليل، العين: 7/440.

2) ﴿أَلِيمٌ﴾: مِنَ الجذْرِ (ألم)، وأصل المادّة يدلُّ على الوَجَع[1]، والأليمُ: المُوجِعُ[2]، "و(أَلِيمٌ): اسمُ فاعِلٍ بِمَعنى مُؤْلِم"[3]، قال ابنُ فارِس: "وَالْفِعْلُ مِنَ الْأَلَمِ: أَلِمَ، وهُوَ أَلِمٌ، والْمُجَاوِزُ: أليمٌ، فَهُوَ عَلَى هَذَا الْقِيَاسِ فَعِيلٌ بِمَعْنَى مُفْعِلٍ، وكَذَلِكَ وجِيعٌ بِمَعْنَى مُوجِعٍ، قَالَ أَبُو عُبَيْدٍ: يُقَالُ: أَلِمْتَ نَفْسَكَ، كَمَا تَقُولُ سَفِهْتَ نَفْسَكَ، والْعَرَبُ تَقُولُ: "الْحُرُّ يُعْطِي والْعَبْدُ يَأْلَمُ قَلْبُهُ"[4].

ومعنى قَولِهِ تَعالى: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝١٧٥﴾: ولهم عَذابٌ مُؤْلِمٌ؛ فصُرِفَ عَنْ: مُؤْلِمٍ، إلى: أَليمٍ، قال عمرُو بن معْدي كَرِبَ:

أَمِنْ رَيْحَانَةَ الدَّاعِي السَّمِيعُ *** يُؤَرِّقُنِي، وأَصْحَابِي هُجُوعُ

معناه: الدّاعي المُسْمِعُ، فصرف عن: مُفعِل، إلى: فَعِيل، وقال ذو الرّمّة:

وَنَرْفَعُ مِنْ صُدُورِ شَمَرْدَلاتٍ *** يَصُكُّ وُجُوهَهَا وهَجٌ أَلِيمُ

معناه: وهجٌ مُؤْلِمٌ؛ فصُرِف عن: مُفعِل، إلى: فَعيل[5].

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

إِيجازٌ بَديعٌ في تَوْصيفِ التَّحريفِ، لِلوَحْيِ المُنيفِ

إنَّ الذينَ يُخْفُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ في كُتُبِهِ مِنْ صِفة النَّبِيِّ ﷺ، وغَيْر ذَلِكَ مِنَ الحَقِّ، ويَحْرِصُونَ على أَخْذِ القَلِيلِ مِنْ عَرَضِ الحَيَاةِ الدُّنْيَا مُقَابِلَ هَذا الإِخْفَاءِ، كَرِئَاسَةٍ أَوْ جَاهٍ أَوْ مَالٍ، هَؤُلَاءِ مَا يَأْكُلُونَ إلّا مَا يكون سَبَبًا لِتَعْذِيبِهِمْ بِالنَّارِ، ولَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ القِيَامة لِغَضَبِهِ وسُخْطِهِ عَلَيْهِمْ، ولَا يُطَهِّرُهُمْ مِنْ دَنَسِ ذُنُوبِهِمْ وكُفْرِهِمْ، ولَهُمْ عَذابٌ مُوجِعٌ[6]، "قال ابْنُ عَبَّاس: نَزَلَتْ هَذِهِ الآية في رُؤَسَاءِ اليَهُودِ؛ كَعْبِ بْنِ الأَشْرَفِ، وكَعْبِ بْنِ أَسَدٍ، ومَالِكِ بْنِ الصَّيْفِ، وحُيَيِّ بْنِ أَخْطَبَ، وأَبِي يَاسِرِ بْنِ أَخْطَبَ، كَانُوا يَأْخُذُونَ مِنْ أَتْبَاعِهِمُ الهَدَايَا،

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ألم).
(2) الجوهريّ، الصّحاح: (ألم).
(3) ابن عطية، المحرّر الوجيز: 1/241.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ألم).
(5) الأنباري، الزّاهر في معاني كلمات النّاس: 1/80.
(6) نخبة من العلماء، التّفسير الميسّر، ص: 26، وجماعة من العلماء، المختصر في تفسير القرآن الكريم، ص: 26.

فَلَمَّا بُعِثَ مُحَمَّدٌ ﷺ، خَافُوا انْقِطَاعَ تِلْكَ المَنَافِعِ، فَكَتَمُوا أَمْرَ مُحَمَّدٍ ﷺ، وأَمْرَ شَرَائِعِهِ، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ"[1]، و"العِبْرَةُ بِعُمُومِ اللَّفْظِ لا بِخُصُوصِ السَّبَبِ، فَالآيَةُ وإِنْ نَزَلَتْ في اليَهُودِ، لَكِنَّهَا عَامَّةٌ في حَقِّ كُلِّ مَنْ كَتَمَ شَيْئًا مِنْ بَابِ الدِّينِ يَجِبُ إِظْهَارُهُ"[2].

الإيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

تأكيدُ الخبرِ في قولِه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾:

جاء الخبر مؤكّدًا ب(إنَّ) والجملة الاسميّة؛ لِمُجرّد تَقويَةِ الخَبَرِ في نَفسِهِ، فَهُمُ اسْتَسْهلوا كِتْمَانَ الحَقِّ، فاتَّخَذوهُ مَبيعًا يُبَاع ويُسْتَبْدل بِثَمنٍ، فَجَاءَ التَّأْكيدُ في الخَبَرِ لِلتَّنْبيهِ عَلى شَنَاعَةِ مَا فَعلُوهُ.

تَأْكِيدُ شَنَاعَةِ فِعْلِهِم مِنَ الكَتْمِ، واسْتِبْدال الحَقّ بِثَمنٍ قليلٍ

سِرُّ التَّعبيرِ بالِاسْمِ المَوْصولِ، في قولِه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ﴾:

عبَّرَ النَّظمُ عن الكاتمين وهم "عُلَمَاءُ اليَهُودِ؛ لِأَنَّهُمْ كَتَمُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ في التَّوْرَاةِ مِنْ صِفَةِ مُحَمَّد ﷺ ونَعْتِهِ، ووَقْتِ نَبُوَّتِهِ"[3] بالاسم الموصولِ لا بالاسمِ الظَّاهرِ؛ "لِما في الصِّلَةِ مِنَ الإيماءِ إِلَى سَبَبِ الخَبَرِ وعِلَّتِهِ"[4].

نكتةُ التَّعبيرِ بالاسمِ الموصولِ في قَوْلِهِ: ﴿يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾:

اخْتَلَفَ المفسِّرون في أَيِّ شَيْءٍ كان الكِتمان؟ "فَقِيلَ: كانُوا يَكْتُمُونَ صِفَةَ مُحَمَّدٍ ﷺ ونَعْتَهُ والبِشارَةَ بِهِ، وهُوَ قَوْلُ ابْنِ عَبّاسٍ، وقَتادَةَ، والسُّدِّيِّ، والأَصَمِّ، وأَبِي مُسْلِمٍ، وقال الحَسَنُ: كَتَمُوا الأَحْكامَ"[5]، أو يَكْتُمُونَ مَعانِيَ ما أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الكِتابِ؛ فيَذْكُرُونَ لَها تَأْوِيلاتٍ باطِلَةً، ويَصْرِفُونَها عَنْ مَحامِلِها الصَّحِيحَةِ الدّالَّةِ على نُبُوَّةِ مُحَمَّدٍ[6] ﷺ،

لِمَا تَعَدَّدَ المكْتُومُ؛ أُبْهِمَ ذِكْرُهُ لِيَشْمَلَ كُلَّ ما كُتِمَ

(1) الرّازي، مفاتيح الغيب: 5/204.
(2) الرّازي، مفاتيح الغيب: 5/206.
(3) القِنَّوجي، فتح البيان: 1/345.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/122.
(5) الرّازي، مفاتيح الغيب: 5/204.
(6) المصدر السّابق: 5/204.

والتَّعْبيرُ عَنْ ذَلِكَ بِالاسْمِ الموْصُولِ المبْهَمِ (ما)، يَدُلُّ على شُمُولِ كُلِّ ما كَتَمُوهُ مِنْ صِفاتِ النَّبِيِّ ﷺ، والأَحْكامِ وغَيْرِها.

التَّعْبيرُ بِالفِعْلِ المُضارِعِ في قَوْلِهِ: ﴿يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾:

اسْتَعْمَلَ الفِعْلَ المضارِعَ لِلتَّعْبِيرِ عَنِ الكَتْمِ والشِّراءِ في قَوْلِهِ: ﴿يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾؛ لِأَنَّ الفِعْلَ المضارِعَ يُناسِبُ الأَحْداثَ الّتِي فِيها اسْتِمْرارِيَّةٌ وتَجَدُّدٌ، وكَتْمُ الحَقِّ لا يَحْدُثُ مَرَّةً ويَنْقَطِعُ؛ لِأَنَّ الكاتِمَ لا يَتَحَقَّقُ كَتْمُهُ، ما لَمْ يَكُنْ مُسْتَمِرًّا بِهَذا الكَتْمِ، فَهُوَ دائِمٌ بِكَتْمِهِ، وبِالانْتِفاعِ بِهَذا الكَتْمِ المُعَبَّرِ عَنْهُ بِالشِّراءِ.

الكُتُبُ المُنَزَّلَةُ أَمانَةٌ، لا يَجوزُ أَنْ تلعبَ بها أَهْواءُ البَشَرِ

فائِدَةُ التَّعْبيرِ بِـ(مِنْ) البَيانِيَّةِ، وموقِعُها الإعرابيّ:

حرفُ ﴿مِنَ﴾ في قولِه: ﴿مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ لِلبَيانِ[1]، بِمعْنَى أَنَّ المكْتُومَ هُوَ الّذي أَنْزَلَهُ اللّهُ مِنْ تِلْكَ الكُتُبِ، وهَذا فِيهِ تشنيعٌ عَليهِم؛ فَهُمْ يَكتُمون الكتابَ الّذِي هُو الوحْيُ المنْزَلُ مِن اللّه تَعالَى، وممَّا يزيدُ من التَّشنيعِ عليهم أنَّ المطلوبَ منهم هو الإظهارُ لا الكِتمانُ، وهم يصنعون عكسَ المطلوبِ، إذِ المكْتومُ هو مِن جِنْسِ قَوْلِ اللّه تَعالَى، وليْس أيَّ كلام!

تَبْشيعُ التزامِ كِتْمانِ ما أَنْزَلَه الرَّحْمَنُ

فقولُه: ﴿مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ "حالٌ مِنَ العائِدِ المَحْذُوفِ، أَيْ: أَنْزَلَهُ اللّهُ حالَ كَوْنِهِ مِنَ الكِتابِ، وهُوَ التَّوْراةُ المشْتَمِلُ على نَعْتِ مُحَمَّدٍ عليه السلام"[2]، وفائِدةُ ذَلِك أَنَّه أَراد تَبْيينَ أنَّ المُنْزَلَ هُوَ مِن الوحْيِ الّذِي يُدوَّنُ في الكتابِ؛ وليْس مِنْ وحْيٍ آخرَ غَيْرِ مَكْتُوبٍ؛ لِلدَّلالَةِ عَلى عَظيمِ جُرْمِهِمْ؛ حَيْث كَتمُوا ما هُو ثابتٌ لَديهِمْ في الكِتابِ.

سِرُّ الوَصْلِ بَيْنَ الجُمْلَتَيْنِ بالواوِ دونَ الفاءِ:

عطفتِ الآيةُ قولَه تعالى: ﴿وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ على قولِه: ﴿يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ بالواوِ لا بالفاءِ؛ وذلك "لأَنَّ المُرادَ الذَّمُّ على كُلِّ وصْفٍ مِنْهُما لا على واحِدٍ فَقَطْ"[3].

(1) الجمل، الفتوحات الإلهيّة: 1/209.
(2) البروسويّ، روح البيان: 1/279.
(3) تفسير ابن عرفة: 2/509.

بَلاغَةُ الاستعارةِ التَّصريحيَّة في قَولِه: ﴿وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾:

أُطْلِقَ الاشْتِراءُ على الاسْتِبدالِ مُشابَهَةً لِلْعِوَضِ المادِّيِّ، مُقابِلَ الكِتْمانِ

المرادُ بالاشْتراءِ هُنا الاسْتِبْدالُ[1]؛ فإنَّهُمْ "لَمّا تَعَوَّضُوا عَنِ الكَتْمِ شَيْئًا مِنْ سُحْتِ الدُّنْيا، أَشْبَهَ ذَلِكَ البَيْعَ والشِّراءَ، لِانْطِوائِهِما على عِوَضٍ ومُعَوَّضٍ عَنْهُ، فَأُطْلِقَ عَلَيْهِ اشْتِراءٌ"[2]، فـ"كان غَرَضُهُمْ مِنْ ذَلِكَ الكِتْمانِ أَخْذَ الأَمْوالِ بِسَبَبِ ذَلِكَ، فَهَذا هُوَ المرادُ مِن اشْتِرائِهِمْ بِذَلِكَ ثَمَنًا قَلِيلًا"[3]؛ "وَذلك أَنَّهُم لَو أَظْهروه لَوَجَدَهُ سِفْلَتُهُم مُطابِقًا لِصِفاتِهِ المشاهَدَةِ خارِجًا، فَيُؤْمِنُون بِه، فَيَفُوتُ على الرُّؤَساءِ ما يأْتِيهِم مِنْه"[4]، وهذا استعارةٌ تصريحيَّةٌ، صرَّح بالاشتراءِ وهو المُشبَّهُ بِهِ، والمرادُ الاستبدال؛ لطلبِهم العِوض، ونكتةُ الاستعارةِ بيانُ حرصِ الكاتمين على المالِ المكتسبِ، والجاهِ المجتَلَب.

بيانُ مرجعِ الضَّميرِ في قوله: ﴿وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ﴾:

يحتملُ عَوْدُ الضَّمِير في قوله: ﴿وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ﴾ "على (ما) الموصولةِ، وأَنْ يعودَ على الكَتْمِ المفهومِ من قولِه: (يَكْتُمُونَ)، وأَنْ يعودَ على الكتابِ، أَظْهرُها أَوَّلُها، ويكونُ ذلك على حَذْفِ مضافٍ، أي: يشترون بكَتْمِ ما أَنْزل"[5].

وَجْهُ وصفِ الثَّمنِ بالقليلِ في قوله: ﴿ثَمَنًا قَلِيلًا﴾:

اعتبارُ القلَّةِ والكثرةِ شرعيٌّ ومآليٌّ

وصفَ اللّه تعالى الثَّمنَ بالقليلِ في قولِه تعالى: ﴿ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ "إمّا لِأَنَّهُ في نَفْسِهِ قَلِيلٌ، وإمّا لِأَنَّهُ بالإِضافَةِ إلى ما فِيهِ مِنَ الضَّرَرِ العَظِيمِ قَلِيلٌ"[6]، أو "سَمّاهُ قَلِيلًا لانْقِطاعِ مُدَّتِهِ وسُوءِ عاقِبَتِهِ"[7]، وهذه الأوجه الثَّلاثةُ صحيحةٌ متَّجِهةٌ، فالثَّمنُ قليلٌ في ذاتِه مهما

(1) القِنَّوجي، فتح البيان: 1/345.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/120.
(3) الرّازي، مفاتيح الغيب: 5/205.
(4) الجمل، الفتوحات الإلهيّة: 1/209.
(5) السّمين، الدُّرُّ المصون: 2/241، وأبو حيّان، البحر المحيط: 2/120.
(6) الرّازي، مفاتيح الغيب: 5/205.
(7) إبراهيم الأبياريّ، الموسوعة القرآنيّة: 9/136.

بلغ في مقابلِ الوحي، وهو قليلٌ باعتبار الضَّرر اللَّاحق، وهو قليلٌ لأنَّ زمانَه قليلٌ.

دلالة العطْفُ بَيْن الأخْبارِ في السِّيَاقِ الواحدِ:

تَعدُّدُ الأخبارِ عن مبتدأٍ واحدٍ دليلُ عظيمِ الفعلِ

أخبرَ الحقُّ عن اسم (إنَّ) في قولِه عزَّوجلَّ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ بأربعةِ أخبارٍ؛ وهِيَ الجُمَلُ الأرْبعةُ: قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ مَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ إِلَّا ٱلنَّارَ﴾، وقوله: ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾، وقوله: ﴿وَلَا يُزَكِّيهِمۡ﴾، وقوله: ﴿وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، "وَتَرَتَّبَ على الكِتْمانِ واشْتِراءِ الثَّمَنِ القليل هذه الأخبار الأَرْبَعَةُ، وانْعَطَفَتْ بالواوِ الجامِعَةِ لَها، وعَطَفَ الأَخْبارَ بالواوِ، ولا خِلافَ في جَوازِهِ"[1]، وقد جمعت هذه الأخبارُ عذابَ الدُّنيا والآخرةِ، والعذابَ المعنويَّ والماديَّ.

نكتةُ الإخْبارِ باسم الإشارةِ في قولِه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ مَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ إِلَّا ٱلنَّارَ﴾:

لاستحضارِ الصُّورةِ البَشِعةِ التي كان عليها الكاتمون وتمييزهم عمَّن سِواهُم

عُبِّر باسم الإشارةِ في قولِه تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ مَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ إِلَّا ٱلنَّارَ﴾ لبيانِ أنَّ "سبَبَ الحُكم هُو هَذِه الصّفَة"[2]، فاسمُ الإشارةِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ هو "إشارَةٌ إلى الموْصولِ باعْتبارِ اتِّصافِه بما في حَيِّزِ الصِّلَة مِن الوصْفيْنِ الشَّنيعَيْنِ المُمَيِّزَيْنِ لَهُم عَمَّن عداهُمْ أَكْمَل تَمييزٍ، الجاعِلَين إيّاهم بحَيثُ كأنَّهم حُضّارٌ مُشاهَدُون على ما هُم عليْه، وما فِيه مِن مَعْنَى البُعْدِ؛ لِلْإيذان بغايَةِ بُعْدِ منْزِلتِهِمْ في الشَّرِّ والفَسادِ"[3]، وقد "جِيءَ باسْم الإشارَةِ لإشْهارِهِمْ، لِئَلّا يَخْفَى أَمْرُهُمْ عَلَى النّاسِ، ولِلتَّنْبيهِ عَلَى أَنَّ ما يُخْبَرُ بِهِ عَنِ اسْمِ الإشارَةِ، اسْتَحَقُّوهُ بِسَبَبِ ما ذُكِرَ قَبْلَ اسْمِ الإشارَةِ"[4].

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/122-123.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 1/513.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 1/191.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/123.

بلاغةُ التَّعْبيرِ بالأكْلِ في قولِه: ﴿مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ﴾:

الأكلُ يُغيِّبُ الطَّعامَ كحالِ الرِّشوةِ لا تظهرُ للعيانِ

عبَّرتِ الآيةُ بالأكلِ في قولِه تعالى: ﴿مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ﴾ والمرادُ الانتفاعُ؛ "لِأَنَّهُ أَعْظَمُ مَنافِعِ ما تُصْرَفُ فِيهِ الأَمْوالُ"[1]، وهو "مُسْتَعارٌ لِلِانْتِفاعِ مَعَ الإِخْفاءِ، لِأَنَّ الأَكْلَ انْتِفاعٌ بِالطَّعامِ وتَغْيِيبٌ لَهُ، فَهُوَ خَفِيٌّ لا يَظْهَرُ كَحالِ الرِّشْوَةِ، ولَمّا لَمْ يَكُنْ لِآكِلِ الرِّشْوَةِ عَلى كِتْمانِ الأَحْكامِ أَكْلُ نارٍ، تَعَيَّنَ أَنَّ في الكَلامِ مَجازًا، فَقِيلَ: هُوَ مَجازٌ عَقْلِيٌّ، في تَعَلُّقِ الأَكْلِ بِالنّارِ، ولَيْسَتْ هِيَ لَهُ وإنّما لَهُ سَبَبُها؛ أَعْنِي الرِّشْوَةَ"[2].

فائدةُ ذكرِ قولِه: ﴿فِي بُطُونِهِمْ﴾ بعد ذكرِ الأكلِ:

اتِّساعُ أقوالِ المفسِّرينَ دليلُ اتِّساعِ النَّظمِ وبراعةِ احتمالاتِه

من المعلومِ أنَّ الأَكْلَ لا يكونُ إلّا في البَطْنِ، لكنَّ الحقَّ سبحانه ذَكَرَ ﴿فِي بُطُونِهِمْ﴾، على سَبيلِ التَّوْكِيدِ، فَصارَ نَظِيرَ: ﴿وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾ [الأنعام: 38][3]، و"تَنْبِيهًا على شَرهِهِم، وتَقْبِيحًا لِتَضْيِيعِ أَعْظَمِ النِّعَمِ لِأَجْلِ المَطْعُومِ الّذي هُوَ أحسَنُ مُتَناوَلٍ"[4]، "ودَلالَةً على حَقِيقَةِ الأَكْلِ"[5]، يَعني حَقِيقَتَهُ في الآخِرَةِ، فقولُه: "﴿فِي بُطُونِهِمْ﴾: مُتَعَلِّقٌ بـ﴿يَأْكُلُونَ﴾، وفائدتُه تَأْكِيدُ الأكلِ وتَقْرِيرُهُ بِبَيانِ مَقَرِّ المَأكولِ"[6]، "وزِيادَةُ تَشْنِيعٍ عَلَيهِمْ، وتَصْوِيرِهِم بِمَنْ يَتَناوَلُ رَضْفَ جَهَنَّمَ، وذَلِكَ أَفْظَعُ سَماعًا، وأَشَدُّ إيجاعًا"[7].

"أَوْ كِنايَةٌ عَنْ مَلْءِ البَطْنِ، لِأَنَّهُ يُقالُ: فُلانٌ أَكَلَ في بَطْنِه، وفُلانٌ أَكَلَ في بَعْضِ بَطْنِه، أَوْ لِرَفْعِ تَوَهُّمِ المَجازِ، إذْ يُقالُ: أَكَلَ فُلانٌ مالَهُ، إذا بَذَّرَهُ وإنْ لَمْ يَأْكُلْهُ"[8]، وقيلَ إنّهُ يُعاقِبُهُمْ عَلى كِتْمانِهِمْ، بِأَكْلِ

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/121.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 2، و/123.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/121.
(4) أبو حيّان، المصدر السّابق: 2/121.
(5) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 1/241.
(6) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 1/191.
(7) محمد علي جميل، الإبداع البيانّي في القرآن العظيم، ص: 34، وصفوة التّفاسير: 1/103.
(8) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/121.

النّارِ حَقيقَةً، كأَنّما أَخْبَرَ عَن المآلِ بالحالِ، كما قال تَعالى في سُورة النّساء: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلۡيَتَٰمَىٰ ظُلۡمًا إِنَّمَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ نَارٗاۖ وَسَيَصۡلَوۡنَ سَعِيرٗا ١٠﴾، أَيْ: إنَّ عاقبَتَهُ تَؤُولُ إلى ذَلِكَ، ومِنْهُ قَوْلُ سابِقٍ البَرْبَرِيِّ:

فَلِلْمَوْتِ تَغْذُو الْوَالِدَاتُ سِخَالَهَا *** كَمَا لِخَرَابِ الدُّورِ تُبْنَى المسَاكِنُ

وكذلكَ قَولُ عبدِاللّه بنِ الزِّبَعْرَى، في مِثْلِ ذَلِكَ:

فَإِنْ يَكُنِ المَوْتُ أَفْنَاهُمُ *** فَلِلْمَوْتِ مَا تَلِدُ الْوَالِدَةْ[1]

"قال بَعْضُهُمْ: ذِكْرُ البَطْنِ هاهُنا زِيادَةُ بَيانٍ؛ لِأَنَّهُ يُقالُ: أَكَلَ فُلانٌ المالَ، إذا بَذَّرَهُ وأَفْسَدَهُ، وقال آخَرُونَ: بَلْ فِيهِ فائِدَةٌ؛ فَقَوْلُهُ: ﴿فِي بُطُونِهِمْ﴾ أَيْ: مِلْءَ بُطُونِهِمْ، يُقالُ: أَكَلَ فُلانٌ في بَطْنِهِ، وأَكَلَ في بَعْضِ بَطْنِهِ"[2]، "والأَكْلُ: المَضْغُ، فهُوَ في الفَمِ لا في البَطْنِ، لَكِنْ روعِيَ السَّبَبُ"[3]، "وَفي ذِكْرِ البَطْنِ تَنْبِيهٌ على مَذْهَبِهِمْ، بِأَنَّهُمْ باعُوا آخِرَتَهُمْ بِحَظِّهِمْ مِنَ المَطْعَمِ الّذي لا خَطَرَ لَهُ، وعلى هُجْنَتِهِمْ بِطاعَةِ بُطُونِهِمْ"[4].

نكتةُ ذكرِ النّار في قولِه: ﴿مَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ إِلَّا ٱلنَّارَ﴾:

المَجازُ المُرسَلُ في أَكْلِ النّارِ، عَلاقَتُهُ السَّبَبِيّةُ، بِجَعْلِ ما هُوَ سَبَبٌ لِلنّارِ نارًا

وَجَعَلَ المَأْكُولَ النّارَ في قولِه: ﴿مَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ إِلَّا ٱلنَّارَ﴾، "تَسْمِيَةً لَهُ بِما يَؤُولُ إِلَيْهِ، لِأَنَّهُ سَبَبُ النّارِ، وذَلِكَ كَما يَقُولُونَ: أَكَلَ فُلانٌ الدَّمَ، يُرِيدُونَ الدِّيَةَ، لِأَنَّها بَدَلٌ مِنَ الدَّمِ، قال الشّاعِرُ:

أَكَلْتُ دَماً إِنْ لَمْ أَرُعْكِ بِضَرَّةٍ *** بَعِيدَةِ مَهْوَى الْقُرْطِ طَيِّبَةِ النَّشْرِ

وَمَعْنَى التَّلَبُّسِ مَوْجُودٌ في جَمِيعِ ذَلِكَ، وتَسْمِيَةُ الشَّيْءِ بِما يَؤُولُ إِلَيْهِ كَثِيرٌ"[5]، فهُوَ مِن المَجازِ المُرسَلِ في أَكْلِ النّارِ، "والعَلاقَةُ هِيَ

(1) الدّرّة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 1/399.
(2) الرّازي، مفاتيح الغيب: 5/205.
(3) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/510.
(4) ابن عطية، المحرّر الوجيز: 1/241.
(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/121.

السَّبَبِيَّةُ، فقد جَعَلَ ما هُوَ سَبَبٌ لِلنّارِ نارًا"[1]، فـ "سُمِّيَ مَأكُولُهُمْ نارًا؛ لِأَنَّهُ يَؤولُ بِهِمْ إلى النّارِ"[2]، وهُوَ مِنْ بَديعِ المَجازِ"[3].

فقولُه: "﴿مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ﴾، أمّا في الآخِرَةِ فظاهِرٌ، لأنَّهُم لا يَأْكُلونَ يَومَ القِيامَةِ إلّا عَيْنَ النّارِ، عُقوبَةً لَهُم عَلى أَكْلِهِمُ الرِّشْوَةَ في الدّنيا، وأمّا في الدّنيا فبِأَكْلِ سَبَبِها، فإنَّ أَكْلَهُمْ ما أَخَذوهُ مِنْ أَتْباعِهِمْ، سَبَبٌ مُؤَدٍّ إلى أَنْ يُعاقَبوا بِالنّارِ، فإطْلاقُ النّارِ عَليهِ مِن قَبيلِ إطْلاقِ اسمِ المُسَبَّبِ على السَّبَبِ"[4]، "لأنّها - أي النّارُ - مآلُهُ، أيْ مَآلُ ما يَأْخُذونَهُ، أيْ عاقِبَتُهُ وغايَتُهُ"[5].

"قِيلَ: إنَّ أَكْلَهُمْ في الدُّنْيا - وَإِنْ كان طَيِّبًا في الحال - فَعاقِبَتُهُ النّارُ، فَوُصِفَ بِذَلِكَ، كَقَوْلِهِ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا﴾ [النِّساءِ: 10]؛ وذَلِكَ لِأَنَّهُ لَمّا أَكَلَ ما يُوجِبُ النّارَ، فَكَأَنَّهُ أَكَلَ النّارَ، وقَوْلُهُ: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعْصِرُ خَمْرًا﴾ [يُوسُفَ: 36] أيْ عِنَبًا، فسَمّاهُ بِاسمِ ما يَؤولُ إلَيْهِ، وقِيلَ: إنَّهُمْ في الآخِرَةِ يَأْكُلُونَ النّارَ، لِأَكْلِهِمْ في الدُّنيا الحَرامَ"[6].

الِاسْتِعارَةُ التَّمْثِيلِيَّةُ في قولِه: ﴿مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ﴾:

﴿أُوْلَٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ﴾؛ لأنّهُمْ أَكَلوا ما يَتَلَبّسُ بِالنّارِ، وهُو الرُّشى؛ لِكَوْنِها عُقوبَةً لها، فتَكونُ في الآيَةِ اسْتِعارَةٌ تَمْثيلِيَّةٌ، بِأَنْ شَبَّهَ الهَيْئَةَ الحاصِلَةَ مِنْ أَكْلِهِمْ ما يَتَلَبَّسُ بِالنّارِ بِالهَيْئَةِ المُنْتَزَعَةِ مِنْ أَكْلِهِمُ النّارَ، مِنْ حَيْثُ ما يَتَرَتَّبُ على أَكْلِ كُلٍّ مِنْهما مِنْ تَقَطُّعِ الأَمْعاءِ، والأَلَمِ، وما يَتَرَتَّبُ عَلى الآخَرِ، فاسْتُعْمِلَ لَفْظُ المُشَبَّهِ بِهِ في المُشَبَّهِ"[7].

توجيه مَن حَمَلَ قولَه: ﴿مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ﴾ على الحقيقةِ:

ومن المفسِّرين من حملَ قولَه: ﴿مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ﴾ "على ظاهِرِه، وقالَ: إنَّ ذَلِكَ يكون في الدُّنْيا، وإنّ الرُّشَى الَّتِي هُمْ يَأْكُلُونَها تَصِيرُ في أَجْوافِهِمْ نارًا، فَلا

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 1/247.
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 1/241.
(3) محمد علي جميل، الإبداع البياني في القرآن العظيم، ص: 34.
(4) البروسويّ، روح البيان: 1/279.
(5) الجمل، الفتوحات الإلهيّة: 1/209.
(6) الرّازي، مفاتيح الغيب: 5/205.
(7) محمود عبد الرّحيم صافي، الجدول في إعراب القرآن: 2/347.

يُحِسُّونَ بِها إلّا بَعْدَ المَوْتِ، ومَنَعَ تعالى أَنْ يُدْرِكُوا أَنَّها نارٌ، اسْتِدْراجًا وإمْلاءً لَهُمْ، ويكون في هَذا المعْنَى بَعْضُ تَجَوُّزٍ، لِأَنَّهُ حالَةَ الأَكْلِ لَمْ يَكُنْ نارًا، إنَّما بَعْدُ صارَتْ في بُطُونِهِمْ نارًا، وقِيلَ: إنَّ ذَلِكَ يكون في الآخِرَةِ، فَهُوَ حَقِيقَةٌ أَيْضًا، واخْتَلَفُوا فَقِيلَ: جَمِيعُ ما أَكَلُوهُ مِنَ السُّحْتِ والرُّشَى في الدُّنْيا، يُجْعَلُ نارًا في الآخِرَةِ، ثُمَّ يُطْعِمُهُمُ اللَّهُ إيّاهُ في النّارِ، وقِيلَ: يَأْمُرُ الزَّبانِيَةَ أَنْ تُطْعِمَهُمُ النّارَ لِيكون عُقُوبَةُ الأَكْلِ مِنْ جِنْسِهِ، وأَكْثَرُ العُلَماءِ على تَأْوِيلِ قَوْلِهِ: ﴿مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ﴾ على مَعْنَى: أَنَّهُمْ يُجازَوْنَ على ما اقْتَرَفُوهُ مِنْ كَتْمِ ما أَنْزَلَ اللَّهُ، والِاشْتِراءِ بِهِ الثَّمَنَ القَلِيلَ، بِالنّارِ، وأَنَّ ما اكْتَسَبُوهُ بِهَذِهِ الأَوْصافِ الذَّمِيمَةِ مَآلُهُ إلى النّارِ"[1].

المقصودُ بنفي تكليمِ الكاتمين يومَ القيامةِ في قوله: ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾:

نفي التَّكليمِ دليلُ الغضبِ والحرمانِ وانحطاطِ المنزلةِ

ظاهرُ قوله تعالى: ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ "نَفْيُ الكَلامِ مُطْلَقًا، أَعْنِي مُباشَرَتَهُمْ بِالكَلامِ، فَيكون مَا جَاءَ في القُرْآنِ، أَوْ في السُّنَّةِ، مِمَّا ظَاهِرُهُ أَنَّهُ تعالى يُحَاوِرُهُمْ بِالكَلامِ، مُؤَوَّلًا بِأَنَّهُ يَأْمُرُ مَنْ يَقُولُ لَهُمْ ذَلِكَ، نَحْوُ قَوْلِهِ تعالى: ﴿قَالَ ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾﴾ [المؤمنون: 108]، ويكون في نَفْيِ كَلامِهِ تعالى إيَّاهُمْ دَلالَةٌ على الغَضَبِ عَلَيْهِمْ؛ أَلَا تَرَى أَنَّ مَنْ غَضِبَ على شَخْصٍ، صَرَمَهُ وقَطَعَ كَلامَهُ؛ لِأَنَّ في التَّكَلُّمِ، ولَوْ كان بِشَرٍّ، تَأْنِيسًا مَا والتِفَاتًا إلى المكَلَّمِ"[2]، فقولُه تعالى: ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ "عِبارَةٌ عَنْ غَضَبِهِ عَلَيْهِمْ، وتَعْرِيضٌ بِحِرْمانِهِمْ حالَ مُقابِلِيهِمْ في الكَرامَةِ والزُّلْفى مِنَ اللَّهِ"[3]، وهو تَعْبِيرٌ عَنِ انْحِطاطِ المَنْزِلَةِ: "بِمَنْزِلَةِ قَوْلِكَ: فُلانٌ لا يُكَلِّمُهُ السُّلْطانُ ولا يَلْتَفِتُ إلَيْهِ، وأنتَ إنّما تُعَبِّرُ عَنِ انْحِطاطِ مَنْزِلَتِهِ لَدَيْهِ"[4].

وقد أَحْسَنَ الرّازي في تَبْيِينِ الوُجوهِ المَذْكورَةِ في الإجابَةِ عَنْ

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/121.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/122، والقِنَّوجي، فتح البيان: 1/345.
(3) البيضاوي، أنوار التّنزيل: 1/120، وأبو السعود، إرشاد العقل السّليم: 1/192، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/124.
(4) ابن عطية، المحرَّر الوجيز: 1/241.

ذَلِكَ: "﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ﴾ فَظَاهِرُهُ: أَنَّهُ لا يُكَلِّمُهُمْ أَصْلًا، لَكِنَّهُ لَمَّا أَوْرَدَهُ مَوْرِدَ الوَعيدِ، فُهِمَ مِنْهُ مَا يَجْري مَجْرَى العُقُوبَةِ لَهُمْ، وذَكَرُوا فيهِ ثَلَاثَةَ أَوْجُهٍ:

الأَوَّلُ: أَنَّهُ قَدْ دَلَّتِ الدَّلَائِلُ على أَنَّهُ سُبْحَانَهُ وتعالى يُكَلِّمُهُمْ، وذلِكَ قَوْلُه: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٩٢ عَمَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [الحجر: 92- 93] وقَوْلُه: ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٦﴾ [الأعراف: 6] فَعَرَفْنَا أَنَّهُ يَسْأَلُ كُلَّ واحِدٍ مِنَ المكَلَّفينَ، والسُّؤَالُ لا يكون إلّا بِكَلَام، فَقَالُوا: وجَبَ أَنْ يكون المُرَادُ مِنَ الآيَةِ، أَنَّهُ تعالى لا يُكَلِّمُهُمْ بِتَحيّةٍ وسَلَام، وإنّمَا يُكَلِّمُهُمْ بِمَا يَعْظُمُ عِنْدَهُ الغَمُّ والحَسْرَةُ؛ مِنَ المُنَاقَشَةِ والمُسَاءَلَةِ، وبِقَولِهِ: ﴿قَالَ ٱخْسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ۝١٠٨﴾ [المؤمنون: 108].

الثَّاني: أَنَّهُ تعالى لا يُكَلِّمُهُم، وأمّا قَولُهُ تَعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٩٢﴾ [الحِجْر: 92] فَالسُّؤَالُ إنّما يكون مِنَ المَلَائِكَةِ بِأَمْرِهِ تعالى، وإنّمَا كان عَدَمُ تَكْليمِهِمْ يَوْمَ القيامَةِ مَذْكُورًا في مَعْرِضِ التَّهْديدِ، لِأَنَّ يَوْمَ القيامَةِ هُوَ اليَوْمُ الّذي يُكَلِّمُ اللّهُ تعالى فيهِ كُلَّ الخَلَائِقِ بِلَا واسِطَةٍ، فَيَظْهَرُ عِنْدَ كَلَامِهِ السُّرُورُ في أَوْليائِهِ، وضِدُّهُ في أَعْدَائِهِ، ويَتَمَيَّزُ أَهْلُ الجَنَّةِ بِذَلِكَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ، فَلَا جَرَمَ كان ذَلِكَ مِنْ أَعْظَمِ الوَعيدِ.

الثَّالِثُ: أَنَّ قَوْلَهُ: ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ﴾ اسْتِعَارَةٌ عَنِ الغَضَبِ، لِأَنَّ عَادَةَ المُلُوكِ أَنَّهُمْ عِنْدَ الغَضَبِ يُعْرِضُونَ عَنِ المَغْضُوبِ عَلَيْهِ، ولَا يُكَلِّمُونَهُ، كَمَا أَنَّهُمْ عِنْدَ الرِّضَا يُقْبِلُونَ عَلَيْهِ بِالوَجْهِ والحَديثِ"(1).

نفيُ التَّكليمِ كِنايَةٌ؛ لأنَّه لازِمٌ مِنْ لَوازِمِ الغَضَبِ عُرْفًا

وخلاصةُ الأمرِ أنَّ نفي التَّكليمِ هو كنايةُ الغضبِ، فهو "يَكونُ عَلَيْهِمْ غَضْبانَ، كَما يُقالُ: فُلانٌ لا يُكَلِّمُ فُلانًا، إذا كانَ عليهِ غَضبانَ، لِما ثَبَتَ بِالنُّصوصِ أَنَّهُ تَعالى يَسْأَلُهم، والسُّؤالُ كَلامٌ، فحُمِلَ نَفْيُ الكَلامِ على الغَضَبِ؛ فهُوَ كِنايَةٌ"(2)، أو: "لا يُكَلِّمُهُمُ اللّه بِطَريقِ الرَّحْمَةِ، غَضَبًا عَلَيْهِمْ، فلَيْسَ المُرادُ بِهِ نَفْيَ الكَلامِ حَقيقَةً، لِئَلّا يَتَعارضَ بِقَوْلِهِ تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٩٢﴾ [الحجر: 92]،

(1) الرّازي، مفاتيح الغيب: 5/205.
(2) الشّربيني، السّراج المنير: 1/114.

ونَحْوِهِ، بَلْ هُو كِنايَةٌ عَنِ الغَضَبِ، لِأَنَّ نَفْيَ الكَلامِ لازِمٌ لِلغَضَبِ عُرْفًا"[1].

التَّعْريضُ بنفي التّزكية في: ﴿وَلَا يُزَكِّيهِمْ﴾، ضَربٌ مِنَ الكِنايَةِ:

تَنَوُّعُ وُجوهِ الدَّلالَةِ، في تَأْويلِ قَولِهِ (ولا يزكيهم)

"التَّعْريضُ: في عَدَمِ تَكليمِ اللّهِ إيّاهُمْ، بِحِرْمانِهِم حالَ أَهْلِ الجنّة، وتزكيَتَهُم بكَلامِه تعالى، والتَّعْريضُ ضربٌ مِنَ الكناية، لأنَّ الكنايةَ إذا كانتْ عَرَضيّةً مَسُوقَةً لِأجْلِ مَوْصوفٍ غَيْرِ مَذْكورٍ، كان المُناسِبُ أَنْ يُطْلَقَ عَليها اسْمُ التَّعْريضِ"[2].

"قَوْلُهُ: ﴿وَلَا يُزَكِّيهِمْ﴾ وفيهِ وُجُوهٌ؛ الأَوَّلُ: لا يَنْسُبُهُمْ إلى التَّزْكيةِ ولَا يُثْني عَلَيْهِمْ، الثّاني: لا يَقْبَلُ أَعْمالَهُمْ كَمَا يَقْبَلُ أَعْمالَ الأَزْكياءِ، الثّالِثُ: لا يُنْزِلُهُمْ مَنازِلَ الأَزْكِيَاءِ"[3]، وقيل: "لا يُثْني عَلَيْهِم ولا يُطَهِّرُهُم مِن دَنَسِ الذُّنوبِ، يَوْمَ يُطَهِّرُ المُؤمنينَ مِن ذُنوبِهِم بِالمَغْفِرَةِ"[4].

وقيل: "لا يُصْلِحُ أَعْمالَهُمُ الخَبيثَةَ، فيُطَهِّرَهُمْ، أَوْ لا يُنْزِلُهُم منازِلَ الأَزْكِياءِ.

وقيلَ: لا يُطَهِّرُهُم مِنْ دَنَسِ الذّنوبِ"[5]، " أَيْ لا يُثْني عَلَيْهِمْ في ذَلِكَ المجْمَعِ؛ وذَلِكَ إِشْعَارٌ لَهُمْ بِأَنَّهُمْ صَائِرُونَ إِلَى العَذابِ، لِأَنَّهُ إذا نُفِيَتِ التَّزْكيةُ، أَعْقَبَهَا الذَّمُّ والتَّوْبيخُ، فَهُوَ كِنَايَةٌ عَنْ ذَمِّهِمْ في ذَلِكَ الجَمْعِ، إِذْ لَيْسَ يَوْمئِذٍ سكُوتٌ"[6].

السِّرُّ في تَرتيبِ هذِهِ الأخبارِ الأَرْبَعَةِ:

التَّرْتيبُ للمَعْنَى واللَّفْظِ معًا، أَوِ التَّرْتيبُ لِلمَعْنَى فَقَطْ

"وَنَاسَبَ ذِكْرُ هَذِهِ الأَخْبَارِ مَا قَبْلَهَا، ومُنَاسِبٌ عَطْفُ بَعْضِهَا على بَعْضٍ، لِمَا نَذْكُرُهُ فَنَقُولُ: مَتَى ذُكِرَ وصْفٌ ورُتِّبَ عَلَيْهِ أَمْرٌ، فَلِلْعَرَبِ فيهِ طَريقَانِ: أَحَدُهُمَا: أَنْ تَكُونَ تِلْكَ الأُمُورُ المترَتِّبَةُ على الأَوْصَافِ

(1) البروسويّ، روح البيان: 1/279.
(2) الدّرويش، إعراب القرآن وبيانه: 1/247-248.
(3) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 5/205-206.
(4) البروسويّ، روح البيان: 1/279.
(5) القِنَّوجي، فتح البيان: 1/346.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/124.

مُقَابَلَةً لَهَا؛ الأَوَّلُ مِنْهَا لِأَوَّلِ تِلْكَ الأَوْصَافِ، والثَّاني لِلثَّاني، فَتَحْصُلُ المقَابَلَةُ مِنْ حَيْثُ المعْنَى ومِنْ حَيْثُ التَّرْتيبُ اللَّفْظيّ؛ حَيْثُ قُوبِلَ الأَوَّلُ بِالأَوَّلِ، والثَّاني بِالثَّاني، وتَارَةً يكون الأَوَّلُ مِنْ تِلْكَ الأُمُورِ مُجَاوِرًا لِمَا يَليهِ مِنْ تِلْكَ الأَوْصَافِ، فَتَحْصُلُ المقَابَلَةُ مِنْ حَيْثُ المعْنَى، لا مِنْ حَيْثُ التَّرْتيبُ اللَّفْظِيُّ، وهَذِهِ الآيَةُ جَاءَتْ مِنْ هَذا القَبيلِ.

لَمَّا ذَكَرَ تعالى اشْتِرَاءَهُمُ الثَّمَنَ القَليلَ، وكان ذَلِكَ كِنَايَةً عَنْ مَطَاعِمِهِمُ الخَسيسَةِ الفَانِيَةِ، بَدَأَ أَوَّلًا في الخَبَرِ، بِقَوْلِهِ: ﴿مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ﴾، ثُمَّ قَابَلَ تعالى كِتْمَانَهُمُ الدّينَ، والكِتْمَانُ هُوَ أَنْ لا يَتَكَلَّمُوا بِهِ بَلْ يُخْفُوهُ، بِقَوْلِهِ تعالى: ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ﴾، فَجُوزُوا على مَنْعِ التَّكَلُّمِ بِالدّينِ أَنْ مُنِعُوا تَكْليمَ اللَّهِ إِيَّاهُمْ، وابْتَنَى على كِتْمَانِهِمُ الدّينَ، واشْتِرَائِهِمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ ثَمَنًا قَليلًا، أَنَّهُمْ شُهُودُ زُورٍ وأَحْبَارُ سُوءٍ، حَيْثُ غَيَّرُوا نَعْتَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وادَّعَوْا أَنَّ النَّبِيَّ المبْتَعَثَ هُوَ غَيْرُ هَذا، فَقُوبِلَ ذَلِكَ كُلُّهُ بِقَوْلِهِ: ﴿وَلَا يُزَكِّيهِمْ﴾، ثُمَّ ذَكَرَ أَخيرًا مَا أُعِدَّ لَهُمْ مِنَ العَذابِ الأَليمِ"[1]، فقال: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ١٧٤﴾.

توجيهُ المُتَشابِهِ اللَّفْظِيّ:

لسائلٍ أن يسألَ عَن سرِّ الاختلافِ بين قولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ١٧٤﴾ [البقرة: 174]، وقولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمْ فِي ٱلْءَاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ٧٧﴾ [آل عمران: 77].

"الجواب أن يقال: الوعيد في كلِّ مكان من المكانين حسب ما ذكر من عظيم الذنب وكبير الجرم، فقال في سورة البقرة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ فوصفهم بأنهم خالفوا الله في أمره ونقضوا ما قدم إليهم من عهده، حيث قال: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾ [آل عمران: 187] فهؤلاء لم يبيِّنوا وكتموا فخالفوا بارتكاب ما نهى الله عن ارتكابه وترك ما أمر الله بإتيانه ثم قال: ﴿وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ أي: نصيبًا يسيرًا من الدنيا، فجاء على هذا أغلظ الوعيد، وهو قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ﴾ أي: هذا الحظ اليسير الذي نالوه

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/123.

من الدنيا من مطعم ومشربٍ إنّما هو نار في أجوافهم، ثم قال: ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ أي: ليسوا ممن ترجى نجاتهم فيجيئهم مِن قِبَلِ الله كلامٌ أو سلامٌ كما قال في أوليائه: ﴿تَحِيَّتُهُمۡ يَوۡمَ يَلۡقَوۡنَهُۥ سَلَٰمٞۚ﴾ [الأحزاب: 44] ثم قال: ﴿وَلَا يُزَكِّيهِمۡ﴾ أي: لا يطهِّرهم من ذنب الكفر بالعفو عنهم، ﴿وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ١٧٤﴾، ثم قال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ﴾ [البقرة: 175]، فكرَّر ذِكْرَ سوء اشترائهم ووعيدهم، وأنهم باعوا الإسلام بالكفر، واشتروا عذاب الله بالغفران، واقتحموا عذاب النار؛ فِعْلَ من يعجب من صبره عليها، فهذه أنواع كثيرة من التّوعُّد اقترنت بما حصل من الذَّنب العظيم في كتمانه، والإعراض عن تبيين ما وجب بيانه.

الآية التي في سورة آل عمران لم يذكر في أوَّلها مِن الذُّنوب التي ارتكبوها مثل ما ذكر في أول هذه الآية قال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشۡتَرُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ وَأَيۡمَٰنِهِمۡ ثَمَنٗا قَلِيلًا﴾ [آل عمران: 77]، فكان هاهنا ذِكر بعض ما ذُكر في الآية الأولى وهو: ﴿وَيَشۡتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلًا﴾ فقرن به من الوعيد أقلَّ ممَّا قرنه بالآية الأولى، وهو أن قال: ﴿لَا خَلَٰقَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ [آل عمران: 77] أي: لا نصيب لهم من الخير، ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ﴾ كما يكلِّم أولياءه ﴿وَلَا يَنظُرُ إِلَيۡهِمۡ﴾ نظرة رحمة ﴿وَلَا يُزَكِّيهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ١٧٤﴾"[1].

(1) الإسكافي، درّة التّنزيل: 1/324-327.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡعَذَابَ بِٱلۡمَغۡفِرَةِۚ فَمَآ أَصۡبَرَهُمۡ عَلَى ٱلنَّارِ ١٧٥﴾ [البقرة: 175]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

على قَدْرِ فَظاعَةِ الجُرْمِ، تَكُونُ شِدَّةُ العَذابِ

"لَمَّا وصَفَ عُلَمَاءَ اليَهُودِ بِكِتْمَانِ الحَقِّ، وعَظَّمَ في الوَعِيدِ عَلَيْهِ؛ وصَفَ ذَلِكَ الجُرْمَ لِيُعْلِمَ أَنَّ ذَلِكَ العِقَابَ إنّما عَظُمَ لِهَذا الجُرْمِ العَظِيمِ"[1]؛ فقال: "أُولئكَ الّذينَ تَقَدّمَ الحديثُ عنْهمْ -وهُمُ الكاتِمونَ لما أَنْزَلَ اللهُ- قَدْ بَلَغَ بِهِمُ الغَباءُ وانْطِماسُ البَصيرَةِ، أَنّهمْ باعوا الهُدى والإيمانَ، لِيأخُذُوا في مقابِلِهما الكُفرَ والضَّلالَ، وباعوا ما يُوصِلُهم إلى مَغْفِرةِ اللهِ ورحمَتِهِ، لِيأخُذوا في مُقابِلِ ذَلكَ عَذابَهُ ونِقْمَتَهُ، فما أَخْسَرَها مِن صَفْقَةٍ، وما أَغْبى هؤُلاءِ الكاتِمينَ الّذينَ فَعلوا ذَلِكَ نَظيرَ عَرَضٍ مِنْ أَعْراضِ الدُّنْيا الفانِيَةِ، فخَسِروا بِما فَعلوهُ دُنْياهُمْ وآخِرَتَهُمْ"[2].

شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

الاشتراء الشّراء والبيع، وهو من الأضداد

1) ﴿ٱشۡتَرَوُاْ﴾: مِنَ الجَذْرِ (شرى)، وقولُهُ تَعالى: (اشْتَرَوُا)، أَصْلُهُ: اشْتَرَيُوا، فاسْتُثْقِلَتِ الضَّمَّةُ عَلى الياءِ فحُذِفَتْ، فالْتَقى ساكِنانِ؛ الياءُ والواوُ، فحُذِفَتِ الياءُ، وحُرِّكَتِ الواوُ بِحَرَكَتِها، لَمّا اسْتَقْبَلَها ساكِنٌ، ويُجْمَعُ الشِّرا على أَشْرِيَةٍ، وهوَ شاذٌّ، لأنّ فِعَلًا لا يُجْمَعُ على أَفْعِلَةٍ[3]، قَالَ الْفَرّاءُ: "وللعَرَبِ في (شَرَوْا) و(اشْتَرَوْا) مَذْهَبانِ: فالأَكْثَرُ مِنْهُمَا: أَنَّ (شَرَوْا): بَاعُوا، و(اشْتَرَوْا): ابْتاعُوا؛ ورُبمَا جَعَلوهُما بِمَعْنى: بَاعوا"[4]، و(اشْتَرَوْا) بمعنى: اسْتَبْدَلوا، وأصْل هَذا أَنَّ مَنِ

(1) الرّازي، مفاتيح الغيب: 5/206.
(2) طنطاويّ، التّفسير الوسيط للقرآن الكريم: 1/357.
(3) الجوهريّ، الصّحاح: (شرى).
(4) الأزهري، تهذيب اللّغة: (شرى).

اشْتَرَى شيْئًا بشَيءٍ، فَقَدِ اسْتَبْدَل مِنْهُ، واشْتقاقُ الاشْتِراءِ مِنَ الشَّرْوَى وهُوَ المِثْلُ؛ لأنَّ المُشْتَرِيَ يُعْطِي شَيْئًا ويَأْخُذُ شَيْئًا.

2) ﴿فَمَآ أَصۡبَرَهُمۡ﴾: مِنَ الجَذْرِ (صبر)، أيُّ شَيْءٍ صَبَّرَهُمْ عليْهَا ودَعاهُمْ إليْهَا؟! ويقال: مَا أَصْبَرَهُمْ على النَّار: مَا أجْرَأهم عليْهَا! أَصْبَرَهُمْ وصَبَّرهُم بمعْنًى[1]، وفي (تاج العروس): "الصَّبْر: الجَراءَةُ، ومِنْه قَوْله تَعالَى: (فمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النّار)، أَيْ: مَا أَجْرَأَهُمْ على أَعمالِ أَهلِ النّارِ! أَو مَا أَعْمَلَهُم بعَمَلِ أَهلِهَا!"[2].

من الجرأة المتهوّرة، الاستهانة بعذاب الآخرة

المَعْنَى الإجْمَاليُّ:

يُخْبِر اللّه تعالى أنَّ أُولئك المتَّصفين بِكتْمَان العِلْم الّذي يَحْتاجُ إلَيه النَّاسُ، هُم الّذين اسْتبْدلوا الضَّلالةَ بالهدى؛ لَمَّا كَتمُوا العِلمَ الحَقَّ، واسْتبْدلُوا عَذابَ اللّه بمغْفرَتِه، فما أَصْبرَهُمْ على فِعْلِ مَا يُسبِّبُ لَهُم دُخُولَ النَّارِ! كأنَّهُم لا يُبالون بِمَا فِيهَا مِن عَذابٍ، لِصَبْرِهِم عليْهَا، فمَا أشدَّ جراءَتَهُم على النَّارِ! بِعَمَلِهِمْ أَعمَال أَهْلِ النَّار، يَعْجَبُ اللّه من إقدامهم على موجباتِ النَّارِ، مِن غَيرِ مُبالَاة منهم، فاعجَبوا - أيها الناس- من جراءتهم، ومن صبرهم على النار ومكثهم فيها.

وهذا على وجه الاستهانة، بهم والاستخفافِ بأمرهم[3].

الاسْتِخفافُ بالعِصيانِ، وتَحْريفُ هُدى الرَّحمَنِ، جُرْأَةٌ وهَلاكٌ، هُنا وهُناك

الإيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

بيانُ الإشارةِ بِاسْمِ الإشارَةِ، في قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ﴾:

قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾: "اسْمُ إشَارَةٍ إلى الكَاتِمِينَ الّذينَ سَبَقَ ذِكْرُهُمْ وذِكْرُ مَا أُوعِدُوا بِهِ"[4]، "وإنّ أُولئك الّذين كَتمُوا الحَقَّ الّذي أَنزَله تعالى، لِغَرضٍ أو لِمَالٍ أو لِجَاهٍ، أو لِرشْوةٍ وسُحْتٍ، أو لِمَنْصبٍ يُريدونه

المُشْتَرُونَ الضَّلالَةَ بِالهُدى، هُمُ المُتَّصِفُون بِكتْمَانِ الحَقِّ وقْتَ الحاجةِ إلى بَيانِهِ

(1) ابن الهائم، التبيان في تفسير غريب القرآن، ص: 101.
(2) الزّبيديّ، تاج العروس: 12/282.
(3) جماعة من علماء التّفسير، المختصر في تفسير القرآن الكريم، ص: 26، ونخبة من العلماء، التّفسير الميسّر، ص: 26، والبيضاوي، أنوار التّنزيل: 1/120.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/123.

أو يَرجُونه، هؤلاء تَركُوا الهدايةَ وطلبوا الضَّلالةَ؛ ولذا قال تعالى مُشيرًا إليهم: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡعَذَابَ بِٱلۡمَغۡفِرَةِۚ﴾، الإشارةُ في الأُولى إشارَةٌ للّذينَ اتَّصَفوا بكتْمَانِ الحَقِّ وقْتَ الحاجةِ إلى بَيانه، وأنَّ ذَلك الوصْف هُو سببُ الحُكم الذِّي تَقرَّر عَليهم، وهُو أنَّهُمُ اشْترَوُا الضَّلالةَ بالهُدى، أيْ تركُوا الحقَّ، وهو المبيعُ الثَّمين؛ لأنَّه هُدى اللّهِ تعالى"[1].

نكتةُ تَكرارِ اسمِ الإشارَةِ في قولِه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّهُ﴾ و﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ﴾:

نُكتةُ تَكرارِ الإشارةِ "التَّنْبيه عَلَى أَنَّ المُشَارَ إِلَيْه جَديرٌ بأَحْكَام أُخْرَى غَيْرِ الحُكْم السَّابِق، وأَنَّ تِلْكَ الأَحْكَامَ لأَهَمِّيَّتِهَا يَنْبَغِي أَلَّا تُجْعَلَ مَعْطُوفَةً تَابِعَةً لِلْحُكْم الأَوَّلِ، بَلْ تُفْرَدُ بِالحُكْمِيَّة"[2]، أو "لِتَفْظِيعِ حَالِهِمْ لأَنَّهُ يُشِيرُ لَهُمْ بِوَصْفِهِمُ السَّابِقِ؛ وهُوَ كِتْمَانُ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الكِتَابِ"[3].

استقلالُ كلِّ حكمٍ تفظيعًا لحالِ الكاتمين

التَّعْبيرُ بالمَوْصولِ في قولِه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ﴾:

عبَّر بالاسم الموصولِ في قولِه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ﴾ ولم يقل: "(أولئك اشْتَرَوُا الضَّلالةَ بالهُدَى)، كما قيلَ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلۡعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ١٥٩﴾ [البقرة: 159]، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٖ مِّنۡهُۖ﴾ [المجادلة: 22]، فهل هُوَ لِلحصْر؟ فَأَجابَ ابْنُ عَرفَة: بِأَنَّه "لَيْس لِلحصْرِ، بل لِلتَّحْقيق، أيْ: فَهُم جديرون وحقيقُون بِأنْ يُقَال فِيهم هَذِه المقالةُ، وهِي أحقُّ مِن غَيرهِم"[4].

غايَةُ الخُسْرانِ المُبينِ؛ استِبدالُ الزَّهيدِ بالثَّمِينِ

فائِدةُ التَّعْبيرِ بالاِشْتِراءِ في قولِه: ﴿ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ﴾:

في لَفْظِ ﴿ٱشۡتَرَوُاْ﴾ "إِشْعَارٌ بِإِيثَارِهِمُ الضَّلَالَةَ والعَذابَ، لِأَنَّ الإِنْسَانَ لا يَشْتَرِي إلّا مَا كان لَهُ فِيهِ رَغْبَةٌ ومَوَدَّةٌ، واخْتِيَارٌ، وذَلِكَ

إيثارُ الضَّلالَةِ على الهُدَى، مُنْتَهى الخَسارَةِ وقِصَرِ النَّظَرِ

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 1/515، والقِنَّوجي، فتح البيان: 1/346.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/124- 125.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/125.
(4) تفسير ابن عرفة: 2/510- 511.

يَدُلُّ على نِهَايَةِ الخَسَارَةِ، وعَدَمِ النَّظَرِ في العَوَاقِبِ"[1]، "لَمَّا تركُوا الهُدى وأعْرضوا عَنْه، ولازموا الضَّلالة وتكسّبوهَا، مع أنَّ الهُدى مُمْكِنٌ لَهُم مُيسَّرٌ، كان ذَلِك كبيْعٍ وشِراء"[2]، "وإنّمَا حَكَمَ تعالى عَلَيْهِمْ بِأَنَّهُمُ اشْتَرَوُا العَذابَ بِالمَغْفِرَةِ؛ لِأَنَّهُمْ لَمَّا كَانُوا عَالِمِينَ بِمَا هُوَ الحَقُّ، وكَانُوا عَالِمِينَ بِأَنَّ في إِظْهَارِهِ وإِزَالَةِ الشُّبْهَةِ عَنْهُ أَعْظَمَ الثّوابِ، وفي إخفائِهِ وإلقائِهِ الشُّبْهَةَ فِيهِ أَعْظَمَ العِقَابِ، فَلَمَّا أَقْدَمُوا على إِخْفَاءِ ذَلِكَ الحَقِّ، كَانُوا بَائِعِينَ لِلْمَغْفِرَةِ بِالعَذابِ لا مَحَالَةَ"[3].

براعةُ الاسْتِعارَةِ التَّصْرِيحِيَّةِ في قوله: ﴿ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ﴾:

جَمالُ التَّصْرِيحِيَّةِ في تَقْرِيبِ المَعْنى وإيضاحِ الصُّورَةِ

معنى قوله: ﴿ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ﴾، "أيْ: اسْتَبدَلُوا الكُفْرَ بالإيمانِ"[4]، و"في الآية اسْتِعارَةٌ تَصْرِيحِيَّةٌ بَدِيعَةٌ؛ فقَدِ اسْتَعارَ الشِّراءَ لِلاسْتِبدالِ، أيْ: اسْتَبدَلوا الضَّلالَةَ بالهُدى، وأخَذوا الكُفْرَ بَدَلَ الإيمانِ، والعَذابَ بَدَلَ المَغْفِرَةِ، وهذا النَّوْعُ مِن ألْطَفِ أنْواعِ الاسْتِعارةِ وأبْدَعِهَا؛ لِأنَّ البيْعَ والشِّراءَ يَكونُ في التِّجارَةِ، فكَأنَّهُمْ بِمنْزِلة مَن يَشْتَرِي سِلْعَةً فَاسِدةً بِمبْلَغٍ كبيرٍ مِنَ المالِ، ثُمَّ تَظْهَرُ خَسَارَتُهُ الفادِحَةُ"[5].

"﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ﴾ بالنِّسْبَةِ إلى الدُّنْيَا، ﴿ٱلضَّلَٰلَةَ﴾ الّتي لَيسَتْ مِمَّا يُمْكِن أن يُشتَرَى قطْعًا ﴿بِٱلۡهُدَىٰ﴾ الذي لَيْس مِن قَبيل مَا يُبذَل بِمقابلةِ شَيْءٍ وإنْ جَلَّ، و﴿وَٱلۡعَذَابَ﴾، أي اشْترَوْا -بِالنَّظَرِ إلى الآخِرةِ- العذابَ الّذي لا يُتَوهَّم كَونُه مِمَّا يُشتَرَى ﴿بِٱلۡمَغۡفِرَةِۚ﴾ الّتي يَتَنافَس فِيهَا المتنافِسونَ، وهذا مِن قَبيل الاسْتعارةِ التَّصْرِيحيَّة"[6]، قال أبو إسحاقَ: ليس هنا شِرَاءٌ وبَيْعٌ، ولكن رَغْبَتهُم فيه بتَمَسُّكِهِم بِهِ، كَرَغْبَةِ المُشْتَري بمالِهِ ما يَرْغَبُ فيه، والعربُ تقول لكُلِّ من تَرَكَ

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/124.
(2) ابن عطية، المحرّر الوجيز: 1/242.
(3) الرّازي، مفاتيح الغيب: 5/206.
(4) العليميّ، فتح الرّحمن في تفسير القرآن: 1/244.
(5) محمد علي جميل، الإبداع البيانّي في القرآن العظيم، ص: 34-35، وصفوة التّفاسير: 1/103.
(6) محمود عبد الرّحيم صافي، الجدول في إعراب القرآن: 2/349.

شيئًا وتَمَسَّكَ بِغَيرِه: فقدِ اشْتراهُ وشاراهُ مُشاراةً وشِرَاءً، بايَعَه وقيلَ: شاراهُ: مِنَ الشِّراءِ والبَيْعِ جَميعًا[1].

سِرُّ التَّعبير بِالعذابِ في قوله: ﴿وَٱلۡعَذَابَ بِٱلۡمَغۡفِرَةِۚ﴾:

بيانُ أهميّةِ الأسبابِ الموصلةِ إلى مُسبِّباتها

جاءَ التَّعبيرُ في قولِه: ﴿وَٱلۡعَذَابَ بِٱلۡمَغۡفِرَةِۚ﴾ "والظَّاهرُ أَنَّه أَرَاد سَبَبَه، والطَّريقَ المُوصِلَ إِليه، إشارةً إلى أَنَّه مُوصِلٌ إِليه لا مَحالَة"[2]، "والمغْفرةُ هِي الثَّوَابُ والنَّعيمُ المُقيمُ، الّذي أَعدَّه اللَّه تعالى لِلْمهْتدين، وعبَّر عن الثَّوَاب بِالمغْفرة، لِأَنَّ المغْفرةَ دليلُ الرِّضَا أَوَّلًا، وللْإشارة إِلى أَنَّ مَنْ يَعمَلُ صالحًا يَغفرُ اللَّه لَهُ مَا عَسَاهُ يكونُ مِنْ سَيِّئاتٍ؛ لِأَنَّ الحسناتِ يُذْهبْنَ السَّيِّئاتِ ثانيًا، ولأَنَّ مَنْ يَنَالُ غُفْرانَ اللَّه تعالى مِنَ المقرَّبينَ"[3].

دلالةُ المُقابَلَةِ في قَوْلِهِ: ﴿ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡعَذَابَ بِٱلۡمَغۡفِرَةِۚ﴾:

بيانُ ضياعِ الهدى بالضَّلالةِ، ووقوعِ العذابِ بدلَ المغفرة

قابلتِ الآيَةُ بَيْنَ الضَّلالَةِ والهُدى، وبَيْنَ العَذابِ والمَغْفِرَةِ؛ لِإيضاحِ مَلْمَحِ الاخْتِيارِ بَينَ البَدائِلِ المُتَناقِضَةِ، وتَرْسِيَةِ الاخْتِيارِ عَلى ما يَتَلاءَمُ مَعَ طَبيعَةِ المُخْتارِ، مِنْ كَوْنِهِ يَخْتارُ الضَّلالَةَ والعَذابَ، أَوْ يُؤْثِرُ الهُدى والمَغْفِرَةَ، قال ابْنُ عاشور: "ومَعْنَى اشْتِراءِ الضَّلالَةِ بِالهُدَى في كِتْمانِ الكِتابِ: أَنّ كُلَّ آيَةٍ أَخْفَوْها أَوْ أَفْسَدوها بِالتّأْويل، فقَدِ ارْتَفَعَ مَدْلولُها المَقصُودُ مِنْها، وإذا ارْتَفَعَ مَدْلولُها نُسِيَ العَمَلُ بَها، فأَقْدَمَ النّاسُ عَلى ما حَذّرَتْهُمْ مِنْهُ، ففي كِتْمانِهِمْ حقٌّ رُفِعَ، وباطِلٌ وُضِعَ، ومَعْنى اشْتِراءِ العَذابِ بِالمَغْفِرَةِ: أَنّهُمْ فَعلوا ذَلِكَ الكِتْمانَ عَنْ عَمْدٍ، وعِلْمٍ بِسوءِ عاقِبَتِهِ، فهُمْ قَدْ رَضُوا بِالعَذابِ، وإضاعَةِ المَغْفِرَةِ، فكَأَنَّهُمُ اسْتَبْدَلوا بِالمَغْفِرَةِ العَذابَ"[4].

(1) ابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم: 8/100.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 1/515.
(3) المصدر السّابق: 1/515.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/125.

دَلالَةُ الباء مع فِعْلِ التَّبْديلِ والاشْتِراءِ، وأنّ مَا دَخلَتْ عَليْهِ الباءُ هُوَ المتْروكُ:

قال ابن عطيَّة: "ولَمَّا كان العَذابُ تابعًا للضَّلالَةِ الّتي اشْتَرَوْها، وكانَتِ المَغْفِرَةُ تابعةً لِلهُدى الّذي اطَّرَحوهُ، أُدْخِلا في تجوُّزِ الشِّراء"[1]، وقد استدرك عليه ابنُ عرفةَ فقال: "إنّ قَوْلَه ﴿ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ﴾، راجِعٌ لِتَصَوُّرِ حالَتِهِمْ في الدُّنيا، قَولُهُ تعالى: ﴿وَٱلْعَذَابَ بِٱلْمَغْفِرَةِۚ﴾، راجِعٌ لِتَصُوُّرِ حالِهِم في الآخِرَةِ، وهذا أَوْلى مِمَّا قال ابنُ عَطِيّةَ"[2]، عِلمًا بأنّ "الباءَ دَاخِلَةٌ على المَتْروكِ، أيْ: فَقَد تَركُوا الهُدى وأَخَذوا الضَّلالَة بَدَلَهُ"[3]، "والمتْرُوكُ مَا دَخلَتْ عَليْه الباءُ"[4].

وُجوهُ (مَا) ودَلالَتُها في تَنَوُّعِ المَعْنى وبَلاغَتِهِ في قولِه: ﴿فَمَآ أَصْبَرَهُمْ عَلَى ٱلنَّارِ﴾:

ذكرَ السّمينُ الحلبيُّ نحوًا من خمسةِ وُجُوهٍ لـ (ما)، أحَدُها: أنَّها نَكِرةٌ تامّةٌ للتَّعَجُّبِ، فإذا قُلتَ: ما أحسنَ زيدًا! فمعْناهُ: شَيْءٌ صَيَّر زيدًا حسنًا، والثّاني: استِفهاميّةٌ صَحِبَها مَعْنى التَّعَجُّبِ، نَحو: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ﴾ [البقرة: 28]، والثَّالِثُ: مَوْصولَةٌ، والرابعُ: نَكِرَةٌ مَوْصُوفَةٌ، وهيَ على الأقوالِ الأربعةِ في محلِّ رفعٍ بالابتِداءِ، والخامسُ: أنَّها نافِيَةٌ، أي: (فما أصبرَهم اللّهُ على النّار)[5].

معنى التَّوبيخِ:

قال الرّازيّ: "(مَا) في هَذِهِ الآيَةِ اسْتِفْهَامُ التَّوْبِيخِ، مَعْنَاهُ: مَا الذي أَصْبَرَهُمْ وأَيُّ شَيْءٍ صَبَّرَهُمْ على النَّارِ، حَتَّى تَرَكُوا الحَقَّ واتَّبَعُوا البَاطِلَ؟! وهَذا قَوْلُ عَطَاءٍ وابْنِ زَيْدٍ، وقال ابْنُ الأَنْبَارِيِّ: وقَدْ يكون أَصْبَرَ بِمَعْنَى صَبَّرَ، وكَثِيرًا مَا يكون أَفْعَل بِمَعْنَى فَعَّلَ، نَحْوُ أَكْرَمَ وكَرَّمَ، وأَخْبَرَ وخَبَّرَ".

فتقديرُ معنى التَّوبيخِ في قَوْلِه: ﴿فَمَآ أَصْبَرَهُمْ عَلَى ٱلنَّارِ﴾، "أَيُّ شَيْءٍ أَصْبَرَهُمْ على النَّارِ! أَيْ: دعاهُمْ إِلَيْهَا واضْطَرَّهم إِلَيْهَا"[6]، أو "تَقريرٌ واسْتِفْهامٌ، مِنْ قَولِكَ: مَصْبُورٌ، أيْ مَحبُوسٌ، أيْ: مَا أشدَّ حَبْسَهُمْ في النَّارِ! أو مَا أَحبَسَهُم في النَّارِ! قال ابْن عَرفَة: وهذا

(1) ابن عطية، المحرّر الوجيز: 1/242.
(2) تفسير ابن عرفة: 2/511.
(3) حاشية الصّاوي على تفسير الجلالين، ص: 74.
(4) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 1/246- 247.
(5) السّمين، الدُّرُّ المصون: 2/243 - 244.
(6) المبّرد، المقتضب: 4/183.

أَصوَبُ؛ لِأَنَّ الأَوَّلَ يَقتَضِي أَنَّ لَهُمُ اخْتِيارًا وجَلادَةً على الصَّبْر عَلى النَّار، وهذا مَدْحٌ لَهُم بِالقُوَّة والجَلادَةِ"[1].

معنى التَّعجُّبِ:

تقريرُ مَعْنَى التَّعَجُّبِ: "أَنَّ الرَّاضِيَ بِمُوجِبِ الشَّيْءِ، لا بُدَّ وأَنْ يكون رَاضِيًا بِمَعْلُولِهِ ولَازِمِهِ، إذا عَلِمَ ذَلِكَ اللُّزُومَ، فَلَمَّا أَقْدَمُوا على مَا يُوجِبُ النَّارَ، ويَقْتَضِي عَذابَ اللَّهِ، مَعَ عِلْمِهِمْ بِذَلِكَ، صَارُوا كَالرَّاضِينَ بِعَذابِ اللَّهِ تعالى، والصَّابِرِينَ عَلَيْهِ، فَلِهَذا قال تعالى: ﴿فَمَآ أَصۡبَرَهُمۡ عَلَى ٱلنَّارِ﴾، وهُوَ كَمَا تَقُولُ لِمَنْ يَتَعَرَّضُ لِمَا يُوجِبُ غَضَبَ السُّلْطَانِ: مَا أَصْبَرَكَ على القَيْدِ والسِّجْنِ! إذا عَرَفْتَ هَذا، ظَهَرَ أَنَّهُ يَجِبُ حَمْلُ قَوْلِهِ: ﴿فَمَآ أَصۡبَرَهُمۡ عَلَى ٱلنَّارِ﴾، على حَالِهِمْ في الدُّنْيَا، لِأَنَّ ذَلِكَ وصْفٌ لَهُمْ في حَالِ التَّكْلِيفِ، وفي حَالِ اشْتِرَائِهِمُ الضَّلَالَةَ بِالهُدَى"[2].

وهذا مذهبُ جُمْهُورِ المفسِّرين أنَّ: (مَا) تَعجُّبٌ، "وَهُو في حَيِّز المُخاطَبينَ، أيْ: هُم أَهْلٌ أنْ تَعْجَبوا مِنْهُم، وممَّا يَطُولُ مُكْثُهُمْ في النَّار، أَظهَر التَّعَجُّبَ مِنْ صَبْرِهِم على النَّارِ، لَمّا عَمِلُوا عَمَلَ مَنْ وطَّنَ نَفسَهُ عليْهَا، وتقْديرُهُ: مَا أَجْرأَهُمْ على النَّار؛ إذ يعْملون عَملًا يُؤَدّي إليْهَا"[3]!

معنى التَّهكُّمِ:

هُناكَ مَنْ أَوَّلَ (مَا) عَلى أنّها في سِيَاقِ الاسْتِهزاءِ والتّهَكُّم، قال مُحمّد أبو زُهْرَة: "وَهُو من قَبِيلِ التَّهَكُّم، كمَا يَقُولُ القائلونَ لِمن يَرتَكِبُ أَسبَابَ العُقوبةِ، مِن حَدٍّ أو تَعزِيرٍ: مَا أَصْبرك على السِّيَاطِ تَكوِي ظَهْرَكَ كَيًّا!"[4] ومُؤَدَّى هذا المعنى قريبٌ من معنى التَّعجُّبِ.

(1) تفسير ابن عرفة: 2/513.
(2) الرّازي، مفاتيح الغيب: 5/206.
(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 1/242.
(4) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 1/515.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ١٧٦﴾ [البقرة: 176]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

اسْتِحْقاقُ مُشاقِّي الرَّسولِ ﷺ ما يَحْصُلُ لَهُمْ، بِسَبَبِ اخْتِلافِهِمْ وشِقاقِهِمْ

لَمَّا حَكَمَ على الّذينَ يَكْتُمُونَ البَيِّنَاتِ بِالوَعِيدِ الشَّدِيدِ، بَيَّنَ في هذِهِ الآيةِ سَبَبَ إيجابِهِ لَهُمْ؛ إنّما كان لِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الكِتَابَ بِالحَقِّ في صِفَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ، وأَنَّ هَؤُلَاءِ اليَهُودَ والنَّصَارَى لِأَجْلِ مُشَاقَّةِ الرَّسُولِ ﷺ، يُخْفُونَهُ ويُوقِعُونَ الشُّبْهَةَ فِيهِ، فَلَا جَرَمَ اسْتَحَقُّوا ذَلِكَ الوَعِيدَ الشَّدِيدَ[1].

شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

لا يَكُونُ في شِقاقٍ إلّا مَن نأى عن الحقّ، وركب الهوى

1) ﴿شِقَاقٍ﴾: من الجَذر (شقّ)، وأَصْلُ المادّة يَدُلُّ على انْصِدَاعٍ في الشَّيْءِ، ومن الباب: الشِّقَاقُ، وهُوَ الخِلَافُ، وذَلِكَ إذا انْصَدَعَتِ الجَمَاعَةُ وتَفَرَّقَتْ[2]، "وكَونُك في شِقٍّ غير شِقِّ صاحِبِك"[3]، وأَصْلُ الشِّقَاقِ البُعْدُ، مِنْ قَولِهِم: (قَد أَخَذَ فُلان في شِقٍّ، وفُلانٌ في شِقٍّ آخَرَ)، إذا تَباعَدوا، وكَذلِكَ قيلَ لِلخارِجِ عَنِ الجَماعَةِ: (قدْ شَقَّ عَصا المُسْلِمينَ)؛ لِبُعْدِهِ عَنْهُمْ[4].

وقَوْلُهُ: ﴿لَفِى شِقَاقٍ﴾ يعني: في مُشَاقَّةٍ وعَداوَةٍ، "أيْ في مُناوَأَةٍ ومُعانَدَةٍ لا غَيْرُ، ولَيْسوا مِنْ طَلَبِ الحَقِّ في شَيْءٍ"[5].

لا حدّ للبُعْد، ولكنّه يُعتبرُ فيه ما بين المكانين، حقيقيًّا أو مُتصوّرًا

2) ﴿بَعِيدٍ﴾: من الجَذْرِ (بعد)، وأَصلُ المادَّةِ يَدُلُّ على خِلَافِ القُرْبِ[6]، وليسَ لهُما حَدٌّ مَحْدودٌ، وإنَّما ذلكَ بِحَسبِ اعْتِبارِ المَكانِ

(1) الرّازي، مفاتيح الغيب: 5/209-210، وعبد القادر بن ملاّ حويش، بيان المعاني: 5/119.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (شقّ).
(3) الرّاغب، المفردات: (شقّ).
(4) الماورديّ، النّكت والعيون: 1/195.
(5) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/196.
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (بعد).

بِغَيْرِهِ، يُقالُ ذَلكَ في المَحْسوسِ، وهُوَ الأكْثَرُ، وفي المَعْقولِ نَحْوِ قَوْلِهِ تَعالى: ﴿ضَلُّواْ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا﴾ [النّساء: 167][1].

وقَوْلُهُ: ﴿لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ۝١٧٦﴾: فيهِ وجهانِ: أحَدُهُما: لَفي ضَلالٍ طَويلٍ، قالَه السّدّيّ، الثّاني: لَفي فِراقٍ لِلحَقِّ بَعيدٍ إلى يَوْمِ القِيامَةِ، قاله يحيى بن سلّام[2].

المَعْنَى الإجْمَاليُّ:

إظِهارُ ما يُناسِبُ الأهْواءَ، وإخْفاءُ ما لا يُناسِبُها نَأْيٌ عَنِ الصَّوابِ

ذَلك العَذابُ الأليمُ الّذي حَلَّ بأولئِكَ الأشْقياءِ واسْتَحَقُّوه بِسَبَبِ أنَّ اللّهَ تَعالى نَزَّل كُتُبَهُ عَلى رُسُلِه، مُشْتَمِلَةً عَلى الحَقِّ المُبينِ، فكتموا ما أَنْزَلَهُ اللّهُ في كُتبِهِ وكَفروا بِهِ.

وإنَّ الَّذين اخْتَلَفوا في شَأْنِ ما أَنْزَلَهُ اللّهُ في كُتُبِهِ، فأَظْهَروا مِنْها ما يُناسِبُ أهْواءَهُمْ، وأَخْفَوْا ما لا يُناسِبُها، وآمَنوا بِبَعْضِها وكَفروا بِبَعْضِها، لَفي مُنازَعَةٍ ومُفارَقَةٍ بَعيدَةٍ عَنِ الحَقِّ والرُّشْدِ والصَّوابِ[3].

الإيضَاحُ اللُّغَويُّ وَالبَلَاغِيُّ:

فائِدَةُ التَّعْبيرِ بِاسْمِ الإشارَةِ في قوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ﴾:

دلالَةُ بَيانِ المُشارِ إلَيْهِ في الآيَةِ السّابِقَةِ

"جِيءَ بِاسْمِ الإشارَةِ لِرَبْطِ الكَلامِ اللّاحِقِ بِالسّابِقِ، عَلَى طَريقَةِ العَرَبِ في أَمْثالِها، إذا طَالَ الفَصْلُ بَيْنَ الشَّيْءِ ومَا ارْتَبَطَ بِهِ مِنْ حُكْمٍ، أَوْ عِلَّةٍ أَوْ نَحْوِهِم"[4].

وذَكَرَ المُفَسِّرونَ وُجوهًا لِبيانِ ذَلِكَ، وقَدْ أَوْجَزَها أبو حيّان بِقَوْلِهِ: "﴿ذَٰلِكَ﴾: إشارَةٌ إلى مَا تقدّمَ مِنَ الوَعيدِ، قالَهُ الزَّجّاجُ، أَوْ إلى الحُكْمِ عَلَيْهِمْ، بِأَنَّهُمْ مِنْ أَهْلِ الخُلُودِ في النّارِ، قالَهُ الحَسَنُ،

(1) الرّاغب، المفردات: (بعد).
(2) الماوردي، النّكت والعيون: 4/36.
(3) طنطاويّ، التّفسير الوسيط للقرآن الكريم: 1/359، وجماعة من العلماء، المختصر في تفسير القرآن الكريم، ص: 26، ونخبة من العلماء، التّفسير الميسّر، ص: 26.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/126.

أَوِ العَذابِ، قالهُ الزَّمَخْشَرِيُّ، أَوِ الاشْتِرَاءِ، قالهُ ابْنُ عَطِيَّةَ"[1]، "وَقال الأَخْفَشُ: الخَبَرُ مَحْذُوفٌ تَقْدِيرُهُ: ذَلِكَ مَعْلُومٌ بِأَنَّ اللَّهَ؛ فَيَتَعَلَّقُ البَاءُ بِهَذا الخَبَرِ المقدَّرِ[2].

قال الرّازيّ: "اخْتَلَفُوا في أَنَّ قَوْلَهُ: ﴿ذَٰلِكَ﴾ إِشَارَةٌ إلى مَاذا؟ فَذَكَرُوا وجْهَيْنِ: الأَوَّلُ: أَنَّهُ إِشَارَةٌ إلى مَا تَقَدَّمَ مِنَ الوَعِيدِ، لِأَنَّهُ تعالى لَمَّا حَكَمَ على الّذينَ يَكْتُمُونَ البَيِّنَاتِ بِالوَعِيدِ الشَّدِيدِ، بَيَّنَ أَنَّ ذَلِكَ الوَعِيدَ على ذَلِكَ الكِتْمَانِ، إنّما كان لِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الكِتَابَ بِالحَقِّ، في صِفَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ، وأَنَّ هَؤُلَاءِ اليَهُودَ والنَّصَارَى، لِأَجْلِ مُشَاقَّةِ الرَّسُولِ ﷺ، يُخْفُونَهُ ويُوقِعُونَ الشُّبْهَةَ فِيهِ، فَلَا جَرَمَ اسْتَحَقُّوا ذَلِكَ الوَعِيدَ الشَّدِيدَ.

وَلَقَدْ تَقَدَّمَ في وعِيدِهِمْ أُمُورٌ: أَحَدُهَا: أَنَّهُمُ اشْتَرَوُا العَذابَ بِالمَغْفِرَةِ، وثَانِيهَا: اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالهُدَى، وثَالِثُهَا: أَنَّ لَهُمْ عَذابًا أَلِيمًا، ورَابِعُهَا: أَنَّ اللَّهَ لا يُزَكِّيهِمْ، وخَامِسُهَا: أَنَّ اللَّهَ لا يُكَلِّمُهُمْ، فَقَوْلُهُ: ﴿ذَٰلِكَ﴾ يَصْلُحُ أَنْ يكون إِشَارَةً إلى كُلِّ واحِدٍ مِنْ هَذِهِ الأَشْيَاءِ، وأَنْ يكون إِشَارَةً إلى مَجْموعِها.

الثَّاني: أَنَّ ذلِكَ إِشَارَةٌ إلى مَا يَفْعَلُونَهُ مِنْ جَرَاءَتِهِمْ على اللَّهِ في مُخَالَفَتِهِمْ أَمْرَ اللَّهِ، وكِتْمَانِهِمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ تعالى، فَبَيَّنَ تعالى أَنَّ ذَلِكَ إنّما هُوَ مِنْ أَجْلِ أَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الكِتَابَ بِالحَقِّ، وقَدْ نَزَلَ فِيهِ أَنَّ هَؤُلَاءِ الرُّؤَسَاءَ مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ لا يُؤْمِنُونَ ولَا يَنْقَادُونَ، ولَا يكون مِنْهُمْ إلّا الإِصْرَارُ على الكُفْرِ"[3].

مَعْنى الباءِ في: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ﴾:

إقامَةُ السَّبَبِ مَقامَ المُسَبَّبِ عَنْهُ

تَدُلُّ الباءُ عَلى السَّبَبِ، فالمَعْنى: "ذَلِكَ العَذابُ بِسَبَبِ أَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الكِتَابَ وكَفَرُوا بِهِ"[4]، "أَيْ: ذَلِك العذابُ بِسَبَبِ أَنَّ اللَّهَ نزَّلَ الكتَابَ بِالحقِّ، فرَفَضوهُ بِالتَّكْذيبِ، أوِ الكِتْمانِ"[5].

جاء في حَاشِيةِ الجَمل على الجلالَين: "ذَلِك رَاجِعٌ إلى الّذي ذُكرَ مِن أَكلِهِمُ النَّارَ، لِكتْمانِهِمْ مَا أَنزَل اللَّهُ، وشِرائِهِمْ بِه ثَمنًا قَليلًا،

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/125.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/126.
(3) الرّازي، مفاتيح الغيب: 5/209-210.
(4) الرّازي، مفاتيح الغيب: 5/210، والعليمي، فتح الرّحمن في تفسير القرآن: 1/244.
(5) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 1/120.

وعَذابُهُم على ذَلِك، بِسَبب أنَّ اللَّه نَزَّل الكتَابَ بِالحقِّ، فَأَقام السَّبَبَ -وَهُو تَنزِيل الكتَاب بِالحقِّ- مَقَام المُسَبَّب عَنْه، وهُو الكِتْمانُ والاشْتِراءُ، كَأنَّه قِيل: مُسْتَقِرٌّ وثابِتٌ، بِسَبب الكتْمانِ والاشْتراءِ"[1].

المُرادُ بالكتابِ في قوله: ﴿نَزَّلَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ﴾:

تعدُّدُ احتمالِ معنى الكتابِ يزيدُ في تقبيح المختلفين فيه

ومعنى الكتابِ في الآيةِ "يَحْتَمِلُ أَنْ يكون هُوَ التَّوْرَاةَ والإنْجِيلَ المشْتَمِلَيْنِ على بَعْثِ مُحَمَّدٍ ﷺ، ويَحْتَمِلُ أَنْ يكون هُوَ القُرْآنَ، فَإِنْ كان الأَوَّلَ كان المَعْنَى: وإنّ الذينَ اخْتَلَفُوا في تَأْوِيلِهِ وتَحْرِيفِهِ لَفي شِقَاقٍ بَعِيدٍ، وإنْ كان الثَّانِيَ كان المَعْنَى: وإنّ الّذينَ اخْتَلَفُوا في كَوْنِهِ حَقًّا مُنَزَّلًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لَفي شِقَاقٍ بَعِيدٍ"[2]، وقد يُرَاد به جِنْس الكتَابِ، بِمعْنى الوحْيِ والشَّريعةِ والدِّين، الّتِي أَنْزلَهَا اللَّه على أَنْبِيائِه.

دلالَةُ لَفْظِ الحَقِّ في تَقديرِ مَحْذوفٍ في: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّۗ﴾:

السَّبَبُ اخْتِلافُهُمْ، لا التَّنْزيلُ بِالحَقِّ فَقطْ

معنى قولِه تعالى: ﴿بِٱلۡحَقِّۗ﴾: أي: "بالواجب، ويُحْتَمل أَنْ يُرَادَ: بالأَخْبارِ الحَقِّ: أي الصَّادِقَةِ"[3]، "أَيْ: بِالصِّدْقِ، وقِيلَ بِبَيَانِ الحَقِّ""[4]، وفي الآيةِ: ﴿ذَٰلِكَ﴾ الّذي ذُكِرَ مِنْ أَكْلِهِمُ النَّارَ ومَا بَعْدَهُ، ﴿بِأَنَّ﴾ بِسَبَبِ أَنَّ ﴿ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّۗ﴾ مُتَعَلِّقٌ بِـ ﴿نَزَّلَ﴾، (فَاخْتَلَفُوا فِيهِ)؛ حَيْثُ آمَنُوا بِبَعْضِهِ، وكَفَرُوا بِبَعْضِهِ بِكَتْمِهِ"[5].

جاء في حَاشِيةِ الجَمل تعقيبًا على تقدير: (فَاخْتَلَفُوا فِيهِ): "إشارةٌ إلى أنَّ في الآيَة حذْفًا؛ لِيظْهر كوْنهَا سببًا لِمَا قبْلَهَا، فالسَّبَبُ في الحَقيقَة: اخْتلافُهُمْ، لا التَّنْزيلُ بِالحَقِّ"[6]، فقَوْلُه في التّفسير: (فَاخْتَلَفُوا فِيهِ): "قَدَّرَهُ المفَسِّرُ لِتَمامِ الفائِدَةِ، وإلَّا فالسَّبَبُ لَيْسَ نُزولَ الكِتابِ بالحقِّ فَقَطْ"[7].

(1) الجمل، الفتوحات الإلهيّة: 1/210.
(2) الرّازي، مفاتيح الغيب: 5/210، وأبو حيّان، البحر المحيط: 2/126.
(3) ابن عطية، المحرّر الوجيز: 1/242.
(4) الرّازي، مفاتيح الغيب: 5/210.
(5) المحلّي والسّيوطي، تفسير الجلالين، ص: 35.
(6) الجمل، الفتوحات الإلهيّة: 1/210.
(7) حاشية الصّاوي على تفسير الجلالين، ص: 74.

عَطْفُ التَّذييلِ بالواوِ في: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخۡتَلَفُواْ﴾:

قولُه تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخۡتَلَفُواْ﴾ "تَذْيِيلٌ، ولَكِنَّهُ عُطِفَ بِالوَاوِ؛ لِأَنَّهُ يَتَضَمَّنُ تَكْمِلَةَ وصْفِ الّذينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالهُدَى ووَعِيدَهُمْ"[1].

بَيان المُرادِ بالّذينَ في: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخۡتَلَفُواْ فِي ٱلۡكِتَٰبِ لَفِي شِقَاقِۭ بَعِيدٖ﴾:

لفظ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ يشْملُ كُلَّ الكافِرينَ؛ فهُمْ لم يُؤمِنوا، واخْتَلَفُوا في الوَحْيِ، إذ "هُمُ الكُفَّارُ أَجْمَعُ"[2].

فائِدَةُ الإخْبارِ عَنِ اخْتلافِهِمْ: ﴿ٱخۡتَلَفُواْ فِي ٱلۡكِتَٰبِ﴾:

بيانُ عَدَمِ اتِّباعِهِمُ الحَقَّ، وإظهارُ تَنافُرِهِمْ وتَباغُضِهِمْ

"وَالظَّاهِرُ الإِخْبَارُ عَمَّنْ صَدَرَ مِنْهُمُ الاخْتِلَافُ، فِيمَا أَنْزَلَ اللّٰهُ مِنَ الكِتَابِ، بِأَنَّهُمْ في مُعَادَاةٍ وتَنَافُرٍ، لِأَنَّ الاخْتِلَافَ مَظِنَّةُ التَّبَاغُضِ والتَّبَايُنِ، كَمَا أَنَّ الائْتِلَافَ مَظِنَّةُ التَّحَابِّ والاجْتِمَاعِ"[3]، وفائِدَةُ هذا الإخبارِ بَيانُ أنَّهُمْ لا يتَّبِعونَ الحَقَّ.

دلالَةُ (الْ) في قَوْلِهِ: ﴿ٱخۡتَلَفُواْ فِي ٱلۡكِتَٰبِ﴾، لِلجِنْسِ أوْ لِلعَهْدِ:

المُرادُ بِالّذينَ اخْتَلَفُوا في الكِتابِ اليهُودُ والنَّصارَى

اختُلف في معنى اللَّامِ في لفظِ ﴿ٱلۡكِتَٰبِ﴾ في قولِه تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخۡتَلَفُواْ فِي ٱلۡكِتَٰبِ﴾ إمَّا لِلْجنْسِ؛ والمعنى: "اخْتِلافُهُمْ: إيمانُهُمْ ببَعضِ كُتُبِ اللّٰه تَعالَى، وكفْرُهُمْ ببَعضٍ، أَوْ لِلعهْدِ؛ والإشارَةُ إمّا إلى التَّوراةِ، واخْتَلَفوا: بمعنى تَخَلَّفُوا عنِ المَنْهَجِ المُسْتَقيمِ في تَأويلِها، أو خَلفوا خلالَ ما أنْزلَ اللّٰه تعالى مكانَهُ، أيْ حَرَّفوا ما فيها، وإمّا إلى القرآنِ، واختلافُهُمْ فيهِ: قَوْلُهُمْ: سِحْرٌ، وتَقوُّلٌ، وكلامٌ علَّمه بَشَرٌ، وأساطيرُ الأوَّلين"[4].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/126.
(2) الرّازي، مفاتيح الغيب: 5/210.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/126.
(4) البيضاوي، أنوار التّنزيل: 1/120.

الإِظْهَارُ فِي مَقَامِ الإِضْمَارِ فِي: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُواْ فِي ٱلْكِتَٰبِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾:

ما يقتضيه ظاهرُ النَّظم أن يكون: (وإنَّ الذين اختلفوا فيه) لكنَّه أظهر ما حقُّه الإضمار لفائدةٍ وهي: "أَنْ يَكونَ التَّذْيِيلُ مُسْتَقِلًّا بِنَفْسِهِ لِجَرَيَانِهِ مَجْرَى المَثَلِ"[1].

السِّرُّ فِي التَّعْبِيرِ عَنِ العَدَاوَةِ بِالشِّقَاقِ فِي قَوْلِهِ: ﴿لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾:

"هُمْ كُلُّهُم في شقٍّ واحِد بعيدٍ عن شقِّ الحَقِّ، ولَا يُؤخَذ مِنْه أنَّ المُصيبَ واحِدٌ؛ لِأنَّ المُرادَ المُخْتَلفونَ في الكُتُبِ، مِن أَهْلِ البِدعِ؛ وكلُّهمْ على الباطِلِ"[2]، "يَجْعَلُهُ عِضِينَ مُفَرَّقًا، يفْهَمُهُ غَيْرَ مُسْتَقِيمٍ في فَهمِهِ، بَل يفْهَمُهُ مُتناقِضًا عَلى حَسَبِ هَوَاهُ، لا عَلى مُقْتَضَى نَسَقِهِ الحَكِيمِ، مَنْ يَفعَلُ ذَلِك فشَأْنُهُ في شِقَاقٍ، بِحَيْثُ يَتَّخِذُ كُلُّ واحِدٍ شِقَّهُ مِنَ القَوْلِ، ويكونُ كُلُّ شقٍّ بعيدًا عَنِ الآخَرِ، لا يَتَلاقَوْنَ أبَدًا، فَهُم في خِلَافٍ، وكُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ"[3]، "وكَنَّى بِالشِّقَاقِ عَنِ العَدَاوَةِ"[4].

مَنْ هُمْ في شِقاقٍ وخلاف، هُمْ في عَداوَةٍ مُطَّرِدَةٍ

فَائِدَةُ الوصْفِ بِالبُعْدِ فِي قوله: ﴿لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾:

معنى ﴿بَعِيدٍ﴾ في الآية: "بعيدٌ مِنَ الحقِّ والاسْتِقامة"[5]، بَعِيدٌ عَنِ الحَقِّ، وعَنِ الهُدى[6]، "وَوَصَفَ الشِّقَاقَ بِالبُعْدِ، إِمَّا لِكَوْنِهِ بَعِيدًا عَنِ الحَقِّ، أَوْ لِكَوْنِهِ بَعِيدًا عَنِ الأُلْفَةِ، أَوْ كَنَّى بِهِ عَنِ الطُّولِ، أَيْ في مُعَادَاةٍ طَوِيلَةٍ لا تَنْقَطِعُ"[7].

دلالَةُ وصْفِ الشِّقاقِ بِالبَعيدِ، عَلى المَجازِ العَقْلِيِّ

"وَوَصْفُ الشِّقَاقِ بِالبَعِيدِ مَجَازٌ عَقْلِيٌّ، أَيْ: بَعِيدٌ صَاحِبُهُ عَنِ الوِفَاقِ"[8].

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/127.
(2) تفسير ابن عرفة: 2/514.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 1/516.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/127.
(5) ابن عطية، المحرَّر الوجيز: 1/242.
(6) النّسفي، مدارك التّنزيل: 1/153، والعليمي، فتح الرّحمن في تفسير القرآن: 1/244.
(7) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/127.
(8) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/127.

الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

نزّلَ وأنْزَلَ:

دَلالَةُ التَّخْصِيصِ والتَّعْمِيمِ، في الفَرقِ بَينَ الاشْتِقاقَيْنِ مِنْ مادَّةِ (نزل)

"والفَرْقُ بَيْنَ الإنْزَالِ والتَّنْزِيلِ في وصْفِ القُرآنِ والملائِكَةِ: أنّ التَّنْزِيلَ يَخْتَصُّ بِالمَوضِعِ الّذي يُشِيرُ إليه إنزالُهُ مُفرَّقًا، ومَرَّةً بَعْدَ أُخْرَى، والإنزالُ عَامٌّ"[1]، وفي الآيَةِ جاءَ ﴿نَزَّلَ﴾ مَعَ الكتَابِ، والكتابُ إنَّما يَتَنزَّل بِالوَحْي، وهُو مِمَّا يُوصَف بِالنُّزول مُفَرَّقًا، فناسبَ أن يُسْتعْمَلَ مَعَهُ الفِعْل ﴿نَزَّلَ﴾.

شِقَاق وخِلَاف:

كُلُّ ضِدَّيْنِ مُخْتَلِفانِ، ولَيْسَ كُلُّ مُخْتَلِفَيْنِ ضِدَّيْنِ

فسّرَ بَعضُ المفسّرينَ الشِّقاقَ، بأنّهُ الخِلافُ: ﴿لَفِي شِقَاقٍ﴾ أيْ خِلافٍ[2]، ولكنْ بَينَهما فرقٌ؛ فـ"أَصْلُ الشِّقَاقِ: العَداوَةُ والمُخاصَمَةُ، لِأنَّ كُلَّ واحِدٍ يَكونُ شِقًّا، أيْ نَاحِيةً غَيْرَ شقِّ الآخرِ"[3].

"والاخْتِلافُ والمُخالَفَةُ: أن يَأْخُذ كُلُّ واحِدٍ طريقًا غَيْرَ طريقِ الآخَرِ في حَالِهِ أوْ قَولِه، والخِلَافُ أعمُّ مِنَ الضّدّ، لأنَّ كُلَّ ضِدّيْنِ مختلفانِ، وليسَ كلُّ مختلفَينِ ضدَّيْنِ، ولـمّا كان الاخْتِلافُ بينَ النّاسِ في القَوْلِ قدْ يَقْتَضي التَّنازُعَ، اسْتُعيرَ ذَلكَ لِلمنازَعَةِ والمجادَلَةِ"[4].

فالشِّقاقُ أدلُّ على المعاداةِ والتَّباغُضِ والتَّنافُرِ مِنَ الاخْتلافِ؛ فليْسَ الاخْتلافُ قَطْعيًّا في المُعاداةِ.

وفي الآية اسْتِعْمالُ الشِّقَاقِ في مَعْرِضِ الحَديثِ عنِ الاخْتلاف في الكتَابِ، يُشْعِرُ بِالتَّنافُرِ والتَّباغُضِ، وهذا لَيْس من مَدلُول لَفْظ الاخْتلاف المُشْعِر بالاخْتلافِ المُجرَّدِ؛ فَأَراد أنْ يُبيِّنَ أنَّ الاخْتلافَ في الوَحْيِ يُسَبِّبُ التَّباغُضَ والتَّنافُرَ، فكَأَنَّهُمُ انْقَسَمُوا إلى شِقَّيْنِ مُتَباعِدَيْنِ، وهذا هُو مَدلُولُ الشِّقَاقِ دُون الاخْتلافِ.

(1) الرّاغب، المفردات: (نزل).
(2) العليميّ، فتح الرّحمن في تفسير القرآن: 1/244.
(3) السّمين، عمدة الحفّاظ: (شقق).
(4) الرّاغب، المفردات: (خلف).

﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ
ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ
وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ
ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ
وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ
وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾

[البقرة: 177]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الرّبط بين اختلاف أهل الكتاب في الكتب، واختلافهم في القبلة

"لـمَّا اخْتلفَ النّاس في أمر القِبلةِ واهْتمُّوا بشأْنها، بأنْ حصروا البرَّ والخيرَ كلَّه فيها، أشارَ سبحانه إلى تخْطئتِهم، ونبَّهَ على البرِّ الحقيقيّ، والخيرِ الذّاتيّ بقوله: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ﴾، أي: ليست الخصالُ السّنيّة والأخلاقُ المرضيَّةُ، مجرَّدَ ﴿أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ﴾ مثلًا، بلا اتِّصافٍ بالعزائم والحِكَم المترتِّبة على تشريع القِبلة"[1]، ولكن البرَّ الحقيقيّ هو مجموعُ قضايا الاعتقاد الصّحيح والخُلُق القويم والعبادات التي لا يُسمّى المسلمُ مسلما إلاّ بها.

شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

الأبرار هم الّذين يطيعون الله تعالى، ويخشونه

1) ﴿ٱلْبِرَّ﴾: أصل مادّة (بَرر): الصّدْقُ، وَبَرَّتْ يَمِينُهُ: صَدَقَتْ، وَتَقُولُ: حجَّةٌ مَبْرُورَةٌ، أَيْ: قُبِلَتْ قَبُولَ العَمَلِ الصّادِقِ، وَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ: يَبَرُّ رَبَّهُ، أَيْ: يُطِيعُهُ، وَهُوَ مِنَ الصّدْقِ، وَمِنْهُ قَوْلُ اللّٰهِ تَعالَى: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ﴾ [البقرة: 177][2].

(1) نخجوانّي، الفواتح الإلهيّة والمفاتح الغيبيّة: 1/63، والبقاعي، نظم الدّرر: 3/1، ومحمد علي جميل، صفوة التّفاسير: 1/104.

(2) مقاييس اللّغة: (برر).

والبِرُّ: اسْمٌ جامِعٌ لِلطّاعاتِ، وللخير ولكلِّ فعل مرضيٍّ، وهو ضِدُّ الفُجُورِ والإِثْم، فَدَلَّ على أَنَّهُ اسْمٌ عامٌّ لِجَمِيعِ ما يُؤْجَرُ عَلَيْهِ الإِنْسانُ، وَأَصْلُهُ: مِنَ الاتِّساعِ، وَمِنْهُ البَرُّ الَّذِي هُوَ خِلافُ البَحْرِ لِاتِّساعِهِ[1].

التّوجُّه المكاني ليس دليلًا على البِرّ، وليس هو الأصل في العبادة

2) ﴿قِبَلَ﴾: ظَرْفُ مَكانٍ، تَقُولُ: زَيدٌ قِبَلَكَ، أي: هو في المَكانِ الَّذِي هُوَ مُقابِلُكَ فِيهِ، وقد يُتّسع فيه، فيكون بمعنى: العنديّة المعنويّة، تقول: لي قِبَلَ زَيْدٍ دَيْنٌ[2]، قال السّمين الحلبيّ: "وقوله: ﴿قِبَلَ﴾ منصوبٌ على الظّرفِ المكانيّ بقوله: ﴿تُوَلُّوا۟﴾، وحقيقةُ قولك: (زيدٌ قِبَلك)، أي: في المكانِ الّذي قبلك فيه"[3]، ويأتي بمعنى: الجهة، وعند، والطّاقة والقدرة، وهو في الآية على المعنى الأوّل[4].

الإحسان إلى اليتامى من شرائط البرّ

3) ﴿وَٱلْيَتَٰمَىٰ﴾: "واليتم في الآدميين: من قِبَل الأب قبل البلوغ"[5]، "وهم من اجتمع فيهم شرطان: الصّغر، وفَقْدُ الأب"[6]، و"الْيَتَامَى: جمع يتيم، على غير قياس، والفعل منه يتِم - بالكسر - يُتْماً ويَتْماً، وحكى الفرّاء: يتُم - بالضّمّ، والغريب: أنّه جمع يُتْمان، ويُتمان: كنُدمان ونديم"[7]، قال الأصمعي: " اليتم في النّاس، من قبل الأب، وفي غير النّاس: من قبل الأمّ، وقال ابن الأنباريّ: قال ثعلب: اليتم معناه في كلام العرب: الانفراد، فمعنى صبيّ يتيم: منفردٌ عن أبيه"[8].

المسكين المعدم، هو الّذي لا يملك قوت يومه

4) ﴿وَٱلْمَسَٰكِينَ﴾: أصل مادّة (سَكَنَ): يَدُلُّ على خِلافِ الاضْطِرابِ والحَرَكَةِ[9]، والمِسْكِينُ، قيل: هو الّذي لا شيءَ له،

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/217، والرّازي، مفاتيح الغيب: 5/213.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/128.
(3) السّمين، الدّرّ المصون: 2 /128.
(4) محمود عبد الرّحيم صافي، الجدول في إعراب القرآن: 2/354.
(5) ابن عطيّة، المحرَّر الوجيز: 1/243.
(6) الماورديّ، النّكت والعيون: 1/227.
(7) الكرمانّي، غرائب التّفسير وعجائب التّأويل: 1/213.
(8) ابن الجوزي، زاد المسير: 1/84.
(9) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سَكَنَ).

وهو أبلغُ من الفقير، وقوله تعالى: ﴿أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتۡ لِمَسَٰكِينَ﴾ [الكهف: 79]، فإنّه جعلهم مساكين بعْد ذهابِ السّفينة[1]، قال الزّمخشريّ: "المسكين: الدّائم السّكون إلى النّاس؛ لأنَّه لا شيء له"[2]، وأصله دائم السّكون[3]، وفي هذا المضمار، قال أهل اللّغة: المسْكينُ: الّذي لا شيء له، والفقيرُ: الّذي له شيءٌ يكفيه، وقال يونس: قلت لأعرابيّ: أفقيرٌ أنت؟ قال: لا، بل مسكينٌ، فكلُّ مسكين فقيرٌ، وليس كلُّ فقير مسكينًا[4]، "والمساكين المحاويج الّذين أقعدهم العجز عن طلب ما يكفيهم، وهو جمعُ مسكين، سُمّي بذلك؛ لأنّه دائمُ السُّكون إلى النّاس؛ ولأنّهُ لا شيْء لهُ "[5].

من مصارف الزّكاة ابن السّبيل، ولو كان غنيًّا في بلده

5) ﴿وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ﴾: "﴿وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ﴾ المسافر المنقطع، وجُعل ابنًا للسّبيل لملازمته له، كما يقال للصّ القاطع: ابن الطّريق، وقيل: هو الضّيف؛ لأنّ السّبيل يرعف به"[6]، قال ابن جرير: "وإنّما قيل للمسافر: ابن السّبيل؛ لملازمته الطّريق -والطّريق هو السّبيل- فقيل لملازمته إيّاه في سفره: ابنه، كما يقال لطير الماء: ابن الماء، لملازمته إيّاه، وللرّجل الّذي أتت عليه الدّهور: ابن الأيّام واللّيالي والأزمنة"[7]، وقيل: ابن السّبيل"المسافر يجتاز بك مارًّا؛ قاله مجاهد، وقال الضّحاك: هو الضّعيف، والسّبيل: الطّريق، وابنه صاحبه الماشي فيه، فله حقٌّ على من يمرّ به، إذا كان مستقرّه في غير معصية، وأضيف إلى الطّريق؛ لأنّه إليها يأوي، وفيها يبيت"[8]، وجُعل المسافر ابنًا للسّبيل؛ لأنّه يلزم الطّريق، ولا ينفكّ عنه.

السّائل مَنْ ألجأته الحاجة إلى السّؤال والتّكفّف

6) ﴿وَٱلسَّآئِلِينَ﴾: السّؤالُ: استدعاء معرفة، أو ما يؤدّي إلى

(1) الرّاغب، المفردات: (سَكَنَ).
(2) الزّمخشري، الكشّاف: 1/219، ومعنى: (يرعف به): أي يتقدَّم به ويُبرزه للمقيمين.
(3) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 1/121.
(4) مكيّ بن أبي طالب: الهداية إلى بلوغ النّهاية: 4/3039.
(5) الهرريّ: تفسير حدائق الرّوح والرّيحان: 3/125 - 126.
(6) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/219.
(7) ابن جرير، جامع البيان: 3/346.
(8) مكيّ بن أبي طالب، الهداية إلى بلوغ النّهاية: 2/1323.

المعرفة، واستدعاء مال، أو ما يؤدّي إلى المال، ويعبّر عن الفقير إذا كان مستدعيًا لشيء بالسّائل، نحو: ﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنۡهَرۡ﴾ [الضحى: 10][1]، "أي: الّذين تعرض لهم حاجة من الحوائج، توجب السّؤال"[2]. فالمراد بالسّائلين: "الّذين ألجأتهم الحاجة إلى السُّؤال"[3].

من وجوه البرّ إنفاق المال في العتق وفكّ الرّقاب

7) ﴿وَفِي ٱلرِّقَابِ﴾: "الرِّقاب: جَمْعُ الرَّقَبَةِ، وَهِيَ مُؤَخَّرُ أَصْلِ العُنُقِ، واشْتِقاقُها مِنَ المُراقَبَةِ، وَذَلِكَ أَنَّ مَكانَها مِنَ البَدَنِ مَكانُ الرَّقِيبِ المُشْرِفِ على القَوْمِ، وَلِهَذا المَعْنَى يُقالُ: أَعْتَقَ اللّٰهُ رَقَبَتَهُ، وَلا يُقالُ: أَعْتَقَ اللّٰهُ عُنُقَهُ؛ لأَنَّهُ لَمّا سُمِّيَتْ رَقَبَةً؛ كَأَنَّها تُراقِبُ العَذابَ"[4].

وَمعنى ﴿وَفِي ٱلرِّقَابِ﴾: "وفي معاونة المكاتبين حتى يفكُّوا رقابهم"[5]، "في ابتياع الرّقاب وإعتاقها"[6]، "يَعْنِي: فَكَّ الرِّقابِ"[7]، يراد به: "العتق وفكُّ الأسرى"[8].

8) ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ﴾: من الصّبر، و" الصّبر: هو كفّ النّفس وحبسها، عن التّعاطي في جميع المحرّمات المحظورات، وعلى ذلك يُخرَّج قول أهل التّأويل: الصّابرين على أمر اللّٰه وطاعاته، وعلى الأذى والمصائب، يكفّون عن جميع ما لا يحلّ فيه، ويرون ذلك من تقديره"[9]، وأصل الصّبر: الحبس للنّفس عن الشّيء، قولاً، أو فعلاً، أو مرغوبًا من المتع و الممتلكات، أيًّا كان نوعها أو نفاستها، والمعنى: والحابسين أنفسهم عن كلّ ما يكرهه اللّٰه ﷻ، والصّبر نصف الإيمان، وجوهر التّعامل مع الحياة الدّنيا، وتقلّباتها، وامتحاناتها، وقد وُصف به المؤمنون في هذه الآية وغيرها، وجُعل أجْرُ الصّبر، موكولًا إلى اللّٰه وحده؛ لِعظَم الجزاء به، والتّكريم لمن يلتزمه ويتحرّاه، وقد قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجۡرَهُم بِغَيۡرِ حِسَابٖ ١٠﴾ [الزّمر: 10].

(1) الرّاغب، المفردات: (سأل).
(2) السّعدي، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 83.
(3) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 1/121.
(4) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 5/218.
(5) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/219.
(6) الزّمخشريّ، الكشاف: 1/220.
(7) الشّوكانّي، فتح القدير: 1/200.
(8) ابن عطيّة، المحرَّر الوجيز: 1/243، والشّوكانّي، فتح القدير: 1/199.
(9) الماتريدي، تفسير الماتريديّ (تأويلات أهل السُّنة): 8/385.

حياة البشر قُلَّبٌ بين السّراء والضّرّاء

9) ﴿ٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾: لفظان متلازمان غالبًا، والبأساء: هي "الفقر والشّدّة"[1]، وقالوا: "البأساء: (فَعْلاء) من البؤس، وهو سوء الحال والفاقة"[2]، "وَهُوَ اسْمٌ مِنَ البُؤْسِ"[3]، ولفظ "الضّرّاء، بِالفَتْحِ: ضِدُّ النَّفْعِ، والضُّرُّ، بالضّم: الزّمانة"[4]، وهي المرض ومصائب البدن"[5]، والمشهور أنّ معناهما الفقر والمرض، وأنّهما اسمان مشتقّان من البؤس والضّرّ، وألفهما للتّأنيث، فهما اسمان على (فَعْلاء)، وليس لهما (أفعل)؛ لأنّهما ليسا بنعتين، والبأساء في أصل اللّغة، نقيض النّعماء"[6]، "وأمّا أهل العربيّة؛ فإنّهم اختلفوا في ذلك، فقال بعضهم: البأساءُ والضّرَّاءُ مصدر، جاء على (فعلاء)، ليس له (أفعل)؛ لأنّه اسم، كما قد جاء (أفعل) في الأسماء، ليس له (فعلاء)، نحو أحمد، وقد قالوا في الصّفة: (أفعل)، ولم يجئ له (فعلاء)، فقالوا: أنت من ذلك أوجل، ولم يقولوا: وجلاء، وقال بعضهم: هو اسم للفعل، فإنّ البأساء: البؤس، والضّراء: الضّر، وهو اسم يقع: إن شئت لمؤنّث، وإن شئت لمذكّر، كما قال زهير:

فَتُنْتِجْ لَكُمْ غِلْمَانَ أَشْأَمَ كُلُّهُمْ ***كَأَحْمَرِ عَادٍ ثُمَّ تُرْضِعْ فَتَفْطِمِ

يعني: فتنتج لكم غلمان شُؤْم"[7].

لا يثبت حين البأس إلّا الأبطال الصّناديد

10) ﴿وَحِينَ ٱلۡبَأۡسِۗ﴾: "﴿وَحِينَ ٱلۡبَأۡسِۗ﴾ وقت شدّة القتال، أي: "لا يفرُّ من الأعداء"[8]، "وَمَعْنَى البَأْسِ في اللُّغَةِ: الشِّدَّةُ، يُقالُ: لا بَأْسَ عَلَيْكَ في هَذا، أَيْ: لا شِدَّةَ، ثُمَّ تُسَمَّى الحَرْبُ بَأْسًا لِما فِيها مِنَ

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/220، وابن عطيّة، المحرَّر الوجيز: 1/244.
(2) البقاعي، نظم الدّرر: 3/9.
(3) الرّازي، مفاتيح الغيب: 5/220.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/129.
(5) ابن عطيّة، المحرَّر الوجيز: 1/244.
(6) زاده: حاشية على البيضاويّ: 2/433.
(7) ابن جرير، جامع البيان: 3/87.
(8) الصّاويّ، حاشية الصّاوي: 1/75.

الشّدَّة، والعَذابُ يُسَمَّى: بَأْسًا لِشِدَّتِه"[1]، "وأمّا البأسُ؛ فشدّةُ القتالِ خاصّةً"[2]، وقال علي رضي الله عنه: كنّا إذا احمرّ البأس؛ اتقينا برسول الله ﷺ فكان أقربنا إلى العدوّ؛ إذا اشتدّت الحرب[3]، والبأس شدّة القتال خاصّة، وهو في الأصل مطلق الشّدة، يقال: لا بأس عليكم في هذا، أيْ: لا شدّة، وعذابٌ بئيسٌ، أي: شديد، وتسمّى الحرب: بأسًا؛ لما فيها من الشّدّة، والعذاب - أيضًا -: بأسًا؛ للشدّة، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا﴾ [غافر: 84]، ﴿فَمَن يَنصُرُنَا مِنْ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا﴾ [غافر: 29][4].

الصّدقُ يهدي إلى البرّ، والبرُّ يهدي إلى الجنّة

11) ﴿صَدَقُواْ﴾: "﴿صَدَقُواْ﴾ كانُوا صادقين جادّين في الدّين"[5]، "وتحتمل اللّفظة أيضًا صِدْقَ الأخبار"[6]، "أَيْ: أَهْلُ هَذِهِ الأَوْصافِ، هُمُ الَّذِينَ صَدَقُوا في إيمانِهِمْ"[7]، "وَصَفَهُمْ بِالصِّدْقِ والتَّقْوَى في أُمُورِهِمْ، والوَفاءِ بِها، وَأَنَّهُمْ كانُوا جادِّينَ"[8]، كان الرّبيع بن أنس يقول: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ﴾، قال: فتكلّموا بكلام الإيمان، فكانت حقيقتُه العمل، صَدقوا الله، قال: وكان الحسن يقول: هذا كلام الإيمان، وحقيقتُه العمل، فإن لم يكن مع القول عملٌ فلا شيء"[9].

المَعْنى الإجْماليُّ:

البرّ ليس بالتّوجُّه للقبلة فقط، ولكنَّ الخير في شموليّته وعمومه

ليس الخير مقتصِرًا على الاتّجاه إلى جهة المشرق أو المغرب، ولكنّه في جملةٍ من الأعمال، فمِنَ البِرّ مَن آمن بالله إلهًا واحدًا، وآمن بيوم القيامة، وبجميع الملائكة، والكتب المنزلة، والأنبياء، وبذلَ المال على حبّه لذوي قرابته، واليتامى وذوي الحاجة، والغريب

(1) الرّازي، مفاتيح الغيب: 5/220، والخازن، لباب التّأويل: 1/106.
(2) السّمين، الدّرّ المصون: 2/251.
(3) الثّعلبيّ: الكشف والبيان: 2/63.
(4) زاده، حاشيّة على البيضاويّ: 2/63.
(5) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/220.
(6) ابن عطيّة، المحرَّر الوجيز: 1/244.
(7) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 5/220.
(8) الشّوكانّي، فتح القدير: 1/200.
(9) ابن جرير، جامع البيان: 3/356.

الَّذي انقطع في السّفر عن أهله ووطنه، والّذين ألجأهم الفقر لِسؤال النّاس، وصرف المال في تحرير الرّقاب من الرّق والأسر، وإقامة الصّلاة، ودفع الزّكاة الواجبة، والّذين يوفون بعهدهم، ويصبرون على الفقر والمرض، وعلى شدّة القتال، فلا يفرّون من الزّحف، أولئك المتّصفون بهذه الصّفات، هم الّذين صدقوا اللّه في إيمانهم وأعمالهم، وأولئك هم المتّقون الّذين امتثلوا ما أمرهم اللّه به، واجتنبوا ما نهاهم اللّه عنه[1].

البرّ عقيدةٌ بالصّدق، وعبادةٌ للحقّ، ومعاملةٌ للخلق

والآيةُ جامعة للكمالات الإنسانيّة بأسرها، وهي منحصرة في ثلاثة أشياء: صحّة الاعتقاد، وحسن المعاشرة، وتهذيب النّفس[2]، وفيها من شُعَب الإيمان باللّه ولواحقه، وصلة الأرحام والمحتاجين، وأداء العبادات، والاتّصاف بمجمل الأخلاق المأمور بها[3]، وهي آية عظيمة تضمّنت سِتَّ عَشْرَةَ قاعِدَةً مِنْ أُمَّهاتِ الأَحْكام[4]، وقال أبو زهرة: "وقد ذكر اللّه تعالى صنوف البِرّ كلّها في هذه الآية الكريمة، وكانت بحقّ آية البِرِّ؛ لأنَّها جمعت أطرافه، ونواحيه كلَّها، وهي من أجمع الآيات للتّكليفات الدّينيّة "[5].

الإيْضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

وجه العدول إلى الفصل في الآية:

وجه الفصل ابتداء نصف السورة الثاني المتعلّق بتبيين أحكام الدِّين

في قوله: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ﴾ ابتداء نصف السورة الثاني وهو متعلِّق بتبيين غالب أحكام الدِّين، وأمّا النّصف الأوَّل فمتعلِّق بأصول الدِّين وقبائح اليهود[6]. فهو تعالى يضع في آية واحدة قواعدَ التّصور الإيماني الصحيح، وقواعد السلوك الإيماني

(1) المختصر في تفسير القرآن الكريم: 27، والتّفسير الميسّر: 27.
(2) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 1/121.
(3) السّيوطي، الإكليل في استنباط التّنزيل، ص: 37.
(4) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 2/241.
(5) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 1/518.
(6) حاشية الصاوي على تفسير الجلالين: 132.

الصحيح، ويحدد صفة الصادقين المتقين، وتقرير الحقيقة الكبرى حول هذه القضية وحول سائر القضايا الجدلية التي يثيرها اليهود حول شكليات الشعائر والعبادات.

دلالة لام الجنس في لفظ ﴿ٱلۡبِرَّ﴾:

جعل الخطاب عامًّا لكلّ النّاس؛ لنفي اقتصار البِرّ على عملٍ ما

اخْتلفَ المفسِّرون في بيانِ المرادِ بالخطابِ: فمنهم مَنْ جعله لأهل الكتاب؛ لأنّ اليهود تُصلّي قِبلَ المغرب إلى بيت المقدس، والنّصارى قِبَل المشرق؛ وذلك أنهم أكثروا الخوضَ في أمر القبلة حين حوّل رسول اللّه ﷺ إلى الكعبة"[1]، ومنهم مَنْ جعله خطابًا للكلِّ، ومنهم من جعله للمؤمنين، والمعنى ليس البِرَّ الصّلاةُ وحدها[2]؛ لاغتباط المؤمنين في هَذِهِ القِبْلَةِ عند تحويلها، وتشَدّدهم فيها، حَتَّى ظَنُّوا أَنَّهُ الغَرَضُ الأَكْبَرُ في الدّينِ، فذُكّروا بأنّ البِرَّ المَطْلُوبَ لَيْسَ هو أَمْرَ القِبْلَةِ، بَلِ الخِصالُ المذْكورة التي عدَّها[3]، فالظّنُّ بأنّ الدّين مقتصرٌ على جهة القبلة، تقزيمٌ لمقاصديّته الواسعة.

نفي المقصور بالتّعريف بلام الجنس:

المنفيُّ (جنسُ البِرّ) منحصرٌ في توليَة الوجوه، مع انحصار البِرّ الكامل فيها

إن جُعِلَ المعرّف بلام الجنس مبتدأ؛ فهو مقصور على الخبر تحقيقًا، أو مبالغة، نحو: (الأمير زيدٌ)، وإن جعل خبرًا؛ فهو مقصور على المبتدأ تحقيقًا، أو مبالغة، نحو: (زيدٌ الأمير)، فقوله: ﴿لَّيۡسَ ٱلۡبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ﴾، يحتمل أن يكون المنفيُّ جنس البِرّ منحصرًا في توليَة الوجوه، وأن يكون المنفيّ انحصار البِرّ الكامل فيها[4].

فـ"القصر مُستفادٌ من تعريف البِرّ بلام الجنس، فيفيد قصر المسند إليه على المسند، والنّفي متوجّه إلى القصر، أي: ما أنتم

(1) الزّمخشري، الكشّاف: 1/ 217، وابن عطيّة، المحرَّر الوجيز: 1/243.
(2) ابن عطية، المحرَّر الوجيز: 1/243.
(3) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 5/211.
(4) زاده، حاشية على البيضاويّ: 2/428.

عليه أيها المسلمون من أمر القبلة من البرّ، لكنّ البِرّ ليس بمقصور عليه، فلا تكثروا الخوض في شأنه"[1].

توجيه قراءة (البِرّ) على الرفع والنصب:

وجه الرفع على الابتداء في حالة النفي دعوة للإصغاء إلى الخبر

وقرأ الجمهور ﴿لَّيۡسَ ٱلۡبِرُّ﴾ برفع ﴿ٱلۡبِرُّ﴾ على أنه اسم ليس والخبر هو ﴿أَن تُوَلُّواْ﴾ وقرأه حمزة وحفص عن عاصم بنصب ﴿ٱلۡبِرَّ﴾[2]. على أن قوله: ﴿أَن تُوَلُّواْ﴾ اسم ليس مؤخر، ووجه قراءة رفع ﴿ٱلۡبِرُّ﴾ أنه أمر مشهور معروف لأهل الأديان مرغوب للجميع، فإذا جعل مبتدأ في حالة النفي أصغت الأسماع إلى الخبر.

وجه النصب تشوّق إلى المبتدأ، سعيًا إلى تقرُّرِ عمله

وأما توجيه قراءة النَّصب فلأنَّ أمر استقبال القبلة هو الشغل الشاغل لهم فإذا ذكر خبره قبله ترقّب السامعُ المبتدأ فإذا سمعه تقرر في علمه[3].

علّة تقديم خبر ليس على اسمها:

العلم بالمجهول محطّ العناية والغاية، والتقديم لأجلهما أولى

إنّ تولّي الوجوه في قوله: ﴿لَّيۡسَ ٱلۡبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ﴾ أمرٌ معلومٌ، والحكم على هذا التّولي بالبرّ نفيًا أو إثباتًا هو المجهولُ، فلا جرم أنَّ ما ليس بمعلوم يكون خبرًا لما هو مَعْلومٌ، والأعرفُ أحقُّ بالاسميّة، "قال ابن عرفة: و﴿أَن تُوَلُّواْ﴾ اسم ليس، إمّا لكون (أَنْ) وما بعدها أعرفَ المعارف، أو لأنّ التّولية معلومةٌ، والبرّ مجهولٌ، أي: ليست التّولية برًّا"[4]، فقدّم المجهول لعِلم المخاطب بالمؤخّر وجهلِه بالمقدّم؛ وبذا يكون العلم بالمجهول محطّ العناية، والغاية، والتقديم لأجلهما أولى.

تأخير الأعرف لكونه أحقّ بالاسميّة، وأنّ فيه طولا

وقُدِّم خبرُ ليس، وأُخّر اسمها (المصدر المؤوّل)؛ لأنّه أعرف من المحلّى باللّام ﴿ٱلۡبِرَّ﴾؛ ولكونه يُشبهُ الضمير من حيثُ إنَّه لا يوصف

(1) القونويّ، حاشية القونويّ: 4/456.
(2) ابن الجزري، النشر في القراءات العشر: 2/226.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 129-2/128.
(4) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/516.

ولا يوصف به، والأعرفُ أحقُّ بالاسمية؛ ولأن في الاسم طولاً قُدِّم الخبر عليه، فلو روعيَ الترتيبُ المعهود لَفاتَ تجاوبُ أطرافِ النظم الكريم[1].

سرّ تقديم المشرق على المغرب:

تقديم المشرق رعيٌ لأوّليّة الترتيب، أو لعقيدة اليهود في التوجُّه غربًا إلى بيت المقدس

قدّم المشرق على المغرب في قوله: ﴿قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ﴾ مراعاة للترتيب المتفرِّع على ترتيب الشروق والغروب، أو لأنَّ توجّه اليهودِ إلى المغرب ليس لكونه مَغرِباً بل لكون بيتِ المقدس يقع في جهة الغرب من المدينة المنورة، فقيل لهم ليس البر ما ذكرتم من التوجُّه إلى تينك الجهتين[2].

توجيه الحقيقة والمجاز بذِكْرِ المشرق والمغرب:

وجه الحقيقة أنَّها قبلة اليهود وقبلة النصارى؛ لإبْطال تَهْوِيلِهما على المُسْلِمِينَ حِينَ اسْتَقْبَلُوا الكَعْبَةَ

المراد بالمشرق الحقيقة، إشارَةً إلى قِبْلَةِ النَّصارَى؛ لأنّهم يستقبلون مشرق الشّمس، والمراد بالمغرب الأفق؛ لأنّ اليهود إنمّا يستقبلون بيت المقدس، وهو في جهة المغرب[3]، والغرض " إبْطال تَهْوِيلِ الفَرِيقَيْنِ على المُسْلِمِينَ حِينَ اسْتَقْبَلُوا الكَعْبَةَ، أو هو لكلّ من يسمع الخطاب"[4].

وجه المجاز التّعميم، لا التعيين بطريق ذكر الخاصّ وإرادة العامّ

أو أنّ اختصاص المشرق والمغرب؛ للتّعميم، لا لتعيين السّمْتَين[5] بطريق ذكر الخاصّ وإرادة العامّ مجازًا، وهذا خلاف الظّاهر[6]، وهو "اقْتِصارٌ على أَشْهَرِ الجِهاتِ"[7]، فوجه المجاز المقصدُ، أي: التّوجّه لا الوجهات، وفيه اقتصارٌ على أشهر الجهات.

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/193.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/193.
(3) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/514.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/128.
(5) الطيّبي، فتوح الغيب: 3/205.
(6) القونوي، حاشيّة القونوي على تفسير البيضاويّ: 4/456.
(7) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/128.

بيان الدّلالة الإيحائية في ذكر الجهتين:

في الآية دلالةٌ على أنّ المراد من القبلة الجهة، لا ذات الكعبة

وفي الآية إيماءٌ لصحَّة القول: بأنّ المطلوب في القبلة الجهة لا العين[1]، وهو المعبّر عنه في قوله تعالى: ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ﴾ [البقرة: 144]، وشطر المسجد الحرام، نحوه وقصده وتلقاؤه، كما قال الهذليّ:

إِنَّ العَسِيرَ بِهَا دَاءٌ مُخَامِرُهَا *** فَشَطْرُهَا نَظَرَ العَيْنَيْنِ مَحْسُورُ[2]

توجيه الإخبار عن المصدر بِاسْمِ الذّاتِ:

الإِخْبَارُ عَنِ المَصْدَرِ بِاسْمِ الذّاتِ لِلْمُبالَغَةِ

جاء في التّفسير البسيط بخصوص قوله: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ﴾: "﴿ٱلْبِرَّ﴾ مصدر، ولا يخبر عن المصادر بالأسماء، و﴿مَنْ﴾ اسم"[3]، ولكون المصدر معنى مجرّدًا، فإنّه لا يتأّتى أن يُسند إليه اسم، إلّا على جهة المبالغة، أو تقدير محذوف،[4]. "وَقَوْلُهُ: وَلَكِنَّ البِرَّ مَنْ آمَنَ إِخْبارٌ عَنِ المَصْدَرِ بِاسْمِ الذّاتِ لِلْمُبالَغَةِ"[5]، وعلى هذا يكون كُنْهُ معناه " تحقيقٌ للحقّ بعد بيان بطلان الباطلِ، وتفصيلٌ لخِصال البِرّ، ممّا لا يختلف باختلاف الشّرائعِ، وما يختلف باختلافها، أي: ولكن البِرّ المعهود - الّذي يحِقّ أن يُهتَمَّ بشأنه، ويُجَدَّ في تحصيله- بِرُّ مَنْ آمن بالله وحده إيماناً بريئاً من شائبة الإشراكِ"[6].

وجه الإخبار إفادة أنّ البرّ اتّحاد الإيمان بأعماله، وتلبّس المؤمن بهما

بيَّن محمد رشيد رضا نكتة اختيار الإخبار باسم الذات على قول: (ولكن البِرّ هو الإيمان بالله) بقوله: " وهذه النكتة مفهومة من العبارة؛ فإنها تمثِّل لك المعنى في نفس الموصوف به فتفيدك أنّ البرَّ هو الإيمان وما يتبعه من الأعمال باعتبار اتّحادهما، وتلبُّس المؤمن البارِّ بهما معًا، من حيث إنَّ الإيمان باعثٌ على الأعمال، وهي

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/514.
(2) تفسير الطّبريّ: 2/659، شرح أشعار الهذليين، ص: 207.
(3) الواحدي، التّفسير البسيط: 3/515.
(4) في وجوه الخلاف في إعراب لفظ (البر)، ينظر: السّمين، الدّرّ المصون: 2/245- 246.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/129.
(6) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 1/193.

منبعثةٌ عنه وأثرٌ له تُستمدُّ منه وتمدّه وتغذيه، أي: أنها تمثّل لك المعنى في الشّخص، أو الشّخص عاملًا بالبِرّ، وهذا أبلغ في النفس هنا من إسناد المعنى إلى المعنى، ومن إسناد الذات إلى الذات كما هو مَذوقٌ ومفهوم"[1].

فنُّ الإيجاز بحذف مضاف:

وجه الاستغناء بالمذكور إظهار أنّ كلّية البرّ ممثلّة ببرّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ

في الآية فنّ من فنون البلاغة صورته الإيجاز بحذف المضاف، وهو من إيجاز الحذف البليغ، الذي يعلو بالكلام إلى أعلى درجات البيان[2]، والتقدير: وَلَكِنَّ البِرَّ بِرُّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ"على تأويل حذف المضاف، أي: برّ من آمن[3]، وَوَجْهُ هَذا التّقْدِيرِ: الفِرارُ عَنِ الإِخْبارِ بِاسْمِ العَيْنِ، أوالجثّة (من آمن) عَنِ اسْمِ المَعْنَى (البرّ)[4]، و"مَعْناهُ: وَلَكِنَّ البِرَّ الَّذِي هُوَ كُلُّ البِرِّ الَّذِي يُؤَدِّي إلى الثّوابِ العَظِيمِ بِرُّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ"[5].

بلاغة تقديم الإيمان على اليوم الآخِر وإيتاء المال، وأفعال الجوارح:

قُدِّم الإيمانُ بالله على اليوم الآخر لأنَّ الإيمانَ باليوم الآخر متفرّعٌ منه، ومتحصّلٌ عنه

"لما كان الإيمان باليوم الآخر، متفرّعًا على الإيمان بالله؛ لأنّا ما لم نعلم باستحقاق الألوهيّة، وقدرته على جميع الممكنات، لا يمكننا أن نعلم صحّة الحشر والنّشر، ولَمَّا كان الإيمان به محرِّكًا وداعيًا إلى الانقياد لله في جميع ما أمر به، ونهى عنه، خوفًا وطمعًا؛ ذكر الإيمان به عقيب الإيمان بالله"[6]. فهو تصديق لما أمر الله به، وسلوان للمحسن العابد، وإنذار للمشرك المكذّب، والمعاند المستكبر الجاحد، وقد تبيّن له الحق[7].

(1) محمد رشيد رضا، تفسير المنار: 2/90.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 1/518.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/218، والرّازيّ، مفاتيح الغيب: 5/214.
(4) الشّوكانّي، فتح القدير: 1/199.
(5) الرّازي، مفاتيح الغيب: 5/214، والواحديّ، التّفسير البسيط: 3/515 وما بعدها.
(6) زاده، حاشية على البيضاويّ: 2/429.
(7) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 1/519.

"وإنما قَدَّم الإيمانَ؛ لأنَّه رأسُ الأعمالِ الدّينيةِ، وثَنَّى بإيتاء المالِ؛ لأنَّه أَجَلُّ شيء عند العرب، وبه يَتَمَدَّحُون، ويفتخرون بفكِّ العاني، وقِرى الضِّيفان، ويَنْطِقُ بذلك نظمُهم ونثرُهم"[1]، فـ"أول البِرّ وسنامه وأصله: الإيمان، وهو التّصديق والإذعان، وأوّل من يجب الإيمان به: اللّه، فالإيمان به هو لبّ الإيمان كلّه"[2]. و"أساس كلّ برّ ومبدأ كل خير"[3].

قَدَّم الإيمانَ على إيتاء المال تقديمَ الأصل على الفرع، والسّبب على المسبّب

وقُدِّمَ الإيمانُ على أَفْعالِ الجَوارِحِ، وَهُوَ إيتاءُ المالِ، والصّلاةُ، والزّكاةُ؛ لِلتَّنْبِيهِ على أَنَّ أَعْمالَ القُلُوبِ أَشْرَفُ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ أَعْمالِ الجَوارِحِ[4]، و" لأنَّ أعمال الجوارح النافعة عند اللّه تعالى إنّما تنشأ عن الإيمان"[5].

تقديم الإيمانِ على أَفْعالِ الجَوارِحِ؛ لكونها أشرفَ منها

تقديم الإيمان بالله واليوم الآخر على الملائكة والكتب والرّسل:

وقدّم الإيمان باللّه واليوم الآخر على الإيمان بالملائكة والكتب والرسل؛ لأنّه المقصود من البعثات، فكان أحرى بالتّقديم[6]. وحال المؤمنين أنّ الإيمان باللّه، ورجاءَ النّجاة في الآخرة أصلُ سَعْيِهم وعنوانُ فلاحِهم.

المقصود بالبعثات أحرى بالتّقديم

توجيه متشابه اللفظ:

قُدِّمَ هنا ذكر (اليوم الآخر) وأُخِّرَ في قوله: ﴿وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾ [النساء: 136]؛ لأجل أنّ الكافر لا يعرف الآخرة ولا يعتني بها، وهي أبعد الأشياء عن الحقائق عنده، فلذلك أخَّره في آية النساء، ولمّا ذكر هنا حال المؤمنين، والمؤمنُ

البرُّ مراعاة الله، ومراعاة الآخرة، ثم مراعاة غيرهما

(1) السّمين، الدّر المصون: 2/249.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 1/519.
(3) محمد رشيد رضا، تفسير المنار: 2/90.
(4) الرّازي، مفاتيح الغيب: 5/215.
(5) ابو حيان، البحر المحيط: 2/5.
(6) البسيلّي، التّقييد الكبير، ص: 283.

أقربُ الأشياء إليه أمرُ الآخرة، وكلّ ما يفعله ويتحرَّاه فإنه يقصد به وجه الله تعالى، ثم أمرُ الآخرة؛ فقدَّمَ ذكره هنا تنبيهًا على أنّ البرَّ مراعاة الله، ومراعاة الآخرة، ثم مراعاة غيرهما[1].

سرّ تقديم الملائكة والكتب على الرّسل:

الـمُـراعَـى في هـذه الـعـبـارة تَرْتيبُ الوُجُود الـخـارجـيّ، لا تَرْتيبُ الاعْتبار الذّهْنيّ

قدّم لفظ الملائكة والكتب على الرّسل ﴿وَٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ مع أنَّهُ لا طَرِيقَ لَنا إلى العِلْم بِوُجُودِ المَلائِكَةِ، وَلا إلى العِلْم بِصِدْقِ الكُتُبِ، إلّا بِواسِطَةِ صِدْقِ الرُّسُلِ؛ لأنّه قد روعيَ في التّرتيب في هذه العبارة من الآيَةِ الوُجُودُ الخارِجيُّ، فقُدِّم الأسبقُ في الوجود؛ لأنّ المَلَكَ يُوجَدُ أَوَّلًا، ثُمَّ يَحْصُلُ بِواسِطَةِ تَبْلِيغِهِ نُزُولُ الكُتُبِ، ثُمَّ يَصِلُ ذَلِكَ الكِتابُ إلى الرَّسُولِ؛ فالْمُراعَى في هَذِهِ الآيَةِ: تَرْتِيبُ الوُجُودِ الخارِجِيِّ، لا تَرْتِيبُ الاعْتِبارِ الذِّهْنِيِّ[2].

دلالة تَعْرِيفِ ﴿وَٱلْكِتَٰبِ﴾:

مـعـنـى أل في الكتاب لتعريف الجِنْسِ المُفِيدِ لِلاسْتِغْراقِ؛ والمرادُ كلُّ الكتب المنزّلة

المقصود بـ﴿ٱلْكِتَٰبِ﴾جنس كتب الله المنزّلة، أو أنّ المراد: القرآن[3]، فتَعْرِيفُ الكِتابِ تَعْرِيفَ الجِنْسِ يفيد الاسْتِغْراقِ، أَيْ: آمَنَ بِكُتُبِ اللهِ مِثْلِ التَّوْراةِ والإنْجِيلِ والقُرْآنِ[4]؛ "لأنّ جميع الكتب السّماوية واجبٌ الإيمان بها"[5].

وجه إفراد لفظ الكتاب:

إيـثـار إفـراد الـكـتـاب طلبًا للخفّة

وآثر التّعبير بالمفرد الدّالِّ على الجِنْسِ المُفِيدِ لِلاسْتِغْراقِ طلبًا للخفّة؛ لأنّ لفظة النّبيين تبيِّن أنَّ المراد جنس الكتاب لا العهد، فامتنع اللّبس. قال ابن عاشور: "وَوَجْهُ التَّعْبِيرِ بِصِيغَةِ المُفْرَدِ أَنَّها أَخَفُّ مَعَ عَدَمِ التِباسِ التَّعْرِيفِ، بِأَنْ يَكُونَ لِلْعَهْدِ؛ لأنّ عَطْفَ

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 2/6.
(2) الرّازي، مفاتيح الغيب: 5/214-215، وزاده، حاشية على البيضاويّ: 2/429.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/218.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/129.
(5) القونويّ، حاشيّة القونويّ: 4/458.

﴿وَٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ على ﴿وَٱلۡكِتَٰبِ﴾ قَرِينَةٌ على أَنَّ اللّامَ في ﴿وَٱلۡكِتَٰبِ﴾ لِلاسْتِغْراقِ، فَأُوثِرَتْ صِيغَةُ المُفْرَدِ طَلَبًا لِخِفَّةِ اللَّفْظِ"[1].

دلالة إيثار التّعبير بلفظ (النّبيّ) دون لفظ (الرّسول):

النّبيّ أعمُّ، فكلُّ رسولٍ نبيٌّ، وليس كلُّ نبيٍّ رسولًا

(النّبيُّ) أعمّ من الرّسول، وثبوت الأعمّ، لا يستلزم ثبوتَ الأخصّ، فما يلزم من الإيمان بالنّبي الإيمان بالرّسول، ولذلك عدلَ عن التعبير بلفظ المرسلين، وذلك باعتبار الوصف؛ لأنّ وصف النّبوة أعمُّ من وصف الرّسالة، وترتّبَ الحكم هنا عليهم من حيث ذواتهم لا من حيث أوصافهم[2].

وجه تعريف ﴿وَٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾:

بيان التّعريف شمول الأخصّ وهم الرّسل

وعرّف ﴿وَٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ بالألف واللّام الدّالَّة على العموم، ليدخل في ضمنه الأخصّ؛ وهم الرّسل[3].

علّة تخصيص الإيمانِ بِهَذِهِ الأُمُورِ الخَمْسَةِ:

وجه التّخصيص أنّه لم يبق شيءٌ ممّا يجبُ الإيمانُ به إلّا دخلَ تحتَ هذه الخمسة

خصَّص تعالى الإيمان بأمور خمسَة أجملَها في قوله تعالى: ﴿مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلۡكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾؛ لأنّ هذه الخمسة "يدخل تحت كلّ واحد منها أشياء كثيرة، ممّا يلزم المؤمن أن يصدّق بها"[4]؛ فيدخل تحت الإيمانِ بِاللّٰهِ: مَعْرِفَتُهُ بِتَوْحِيدِهِ وَعَدْلِهِ وَحِكْمَتِهِ، وتحت اليَوْمِ الآخِرِ: المَعْرِفَةُ بِما يَلْزَمُ مِنْ أَحْكامِ الثَّوابِ والعِقابِ والمَعادِ، إلى سائِرِ ما يَتَّصِلُ بِذَلِكَ، وتحت المَلائِكَةِ ما يَتَّصِلُ بِأَدائِهِمُ الرِّسالَةَ إلى النَّبِيِّ ﷺ، وغيره مِمّا يَجِبُ أَنْ يُعْلَمَ مِنْ أَحْوالِ المَلائِكَةِ، وتحت الكِتابِ القُرْآنُ، وَجَمِيعُ ما أَنْزَلَ اللّٰهُ على

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/129.
(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/515.
(3) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/515.
(4) القنّوجيّ، فتح البيان: 1/348.

أَنْبِيائِهِ، وتحت النَّبِيِّينَ الإيمانُ بِنُبُوَّتِهِمْ، وَصِحَّةِ شَرائِعِهِمْ، فَثَبَتَ أَنَّهُ لَمْ يَبْقَ شَيْءٌ مِمّا يَجِبُ الإيمانُ بِهِ إلّا دَخَلَ تَحْتَ هَذِهِ[1].

معنى الحرف (على) في قوله: ﴿عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾:

الحرف ﴿عَلَىٰ﴾، فيه اسْتِعْلاءٌ مَجازِيٌّ، أُرِيدَ بِهِ التَّمَكُّنُ مِنْ حُبِّ المالِ، وذلك بتحقيقِ ثُبُوتِ حبِّ المال لهم، وهي تُفِيدُ مُفادَ كَلِمَةِ (مَعَ)؛ ليظهر فضلهم في إيتاء المال عَلى حُبِّهِ والشّحّ به[2]، "وَهِيَ في مِثْلِ هَذا المَقامِ لِلتَّنْبِيهِ على أَبْعَدِ الأَحْوالِ مِنْ مَظِنَّةِ الوَصْفِ، فَلِذَلِكَ تُفِيدُ مُفادَ كَلِمَةِ (مَعَ)"[3]، "وَلَيْسَ هَذا مَعْنًى مُسْتَقِلًّا مِنْ مَعانِي (عَلَى)، بَلْ هُوَ اسْتِعْلاءٌ مَجازِيٌّ، أُرِيدَ بِهِ تَحَقُّقُ ثُبُوتِ مَدْلُولِ مَدْخُولِها لِمَعْمُولِ مُتَعَلِّقِها؛ لأَنَّه لِبُعْدِ وُقُوعِهِ يَحْتاجُ إلى التَّحْقِيقِ"[4]، وهذا التّعبير يظهر فضلهم في إيتاء المال، فإيتاؤهم المال ليس مسبّبًا لانتفاء حاجتهم، وحبِّهم له، بل هم يحبّونه، ويعرفون قيمته كسائر النّاس، ورغم ذلك يسلِّطونه على هلَكَته في الحقّ، ولا يقعون أسارى حبِّه.

لفظ (عَلَى) اسْتِعْلاءٌ مَجازِيٌّ، أُرِيدَ بِهِ تحقُّقُ ثُبُوت مدْلُول مدْخُولها لمعْمُول مُتعلِّقها

بيان مرجع الضّمير ودلالته في قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾:

في مرجع الضّمير وجوه، "أظهرُها: أنّه يعودُ على المالِ؛ لأنَّه أبلغُ من غيرِه"[5]، والمُرادُ أَنَّهُ يُعْطِي المالَ مَعَ حُبِّهِ لِلْمالِ والشّحّ به، وَعَدَمِ زَهادَتِهِ فِيهِ، فَيَدُلُّ على أَنَّهُ إنَّما يُعْطِيهِ مَرْضاةً لِلَّهِ تَعالَى، وَلِذَلِكَ كانَ فِعْلُهُ هَذا بِرًّا"[6]، لكونك تُؤتيهُ، وأنْتَ صحيحٌ شحيحٌ، تأملُ العيش، وتخشى الفقر، ولا تمهل حتّى إذا بلغت الحلقُوم، قُلت: لفلان كذا، ولفلان كذا"[7]، ويحتمل عوده على: حبّ اللّه،، أي: من تصدّق محبّة

عود الضمير إمّا على المال مع حُبِّهم له، أو على حبّ الله وطاعته، وحُبِّ الإيتاء

(1) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 5/215.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/218.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/130.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/130.
(5) السّمين، الدّر المصون: 2/247.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/130.
(7) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/218-219، وابن عطيّة، المحرَّر الوجيز: 1/243.

في اللّه تعالى وطاعاته، أو على حبّ الإيتاء، يريد أنّه يعطيه، وهو طيّب النّفس بإعطائه"[1]، والإيتاء، أي: في وقت حاجةٍ من النّاس وفاقةٍ، فإيتاء المال حبيب إليهم.[2].

بلاغة الاعتراض بالتّتميم في قوله: ﴿عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾:

وجه التّتميم المبالغةُ في بيان حرصهم على إيتاء المال على الرّغم من حبِّهِمْ له

توجيه عود الضّمير في ﴿حُبِّهِۦ﴾ إذا كان عائدًا على المال، أو الإيتاءِ؛ فالمصدر مضاف إلى المفعول، وَيَجِيءُ قَوْلُهُ: ﴿عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾؛ اعْتِراضًا بَلِيغًا أَثْناءَ القَوْلِ[3]، وأفاد هذا الاعتراض البليغ التتميمَ[4]، وحصولَ المبالغة في بيان حرصهم على إيتاء المال على الرّغم من حبِّهِمْ له، وتعلّقهم به[5].

سرّ ترتيب ورود من يستحقّ المال:

تقديم المستحقّ بحسب مراعاة الحال؛ فضلًا، وأحقّيّةً، وقدرةً على الإعالة

نجد أنّ السّياق قدّم ذوي القربى؛ لأنّهم أحقّ[6]، وإيتاؤهم أفضل[7]، قال رسول اللّه ﷺ: «صَدَقَتُكَ على المسْكينِ صَدَقَةٌ، وهي على ذي الرَّحِمِ ثِنْتَانِ: صَدَقَةٌ، وَصِلَةٌ»[8]، وقدّم اليتامى الّذين هم غير الأقارب؛ لأهمّية إيتائهم؛ إذ ليس لديهم من يقوم بمؤنتهم[9]، والمراد بذوي القربى: مَنْ يَقْرُبُونَ مِنْهُ بِوِلادَةِ الأَبَوَيْنِ، أَوْ بِوِلادَةِ الجَدَّيْنِ[10].

---

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/218-219.

(2) ابن عطيّة، المحرَّر الوجيز: 1/243.

(3) ابن عطية، المحرَّر الوجيز: 1/243.

(4) التَّتْمِيمُ، ويسمى أيضًا الاحتراس، والاحتياط، وهو: الإتيان بفضلة مفيدة في كلام لا يوهم خلاف المراد، كقوله تعالى يصف الأبرار: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ۝ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ۝﴾ [الإنسان: 8-9]. قالوا: عبارة: ﴿عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾ جاءَت تتميماً مفيداً، حصلت به المبالغة في أنّهم حريصون جدًّا على إطعام الطّعام على الرّغم من حبِّهِمْ له، وتعلُّقِ شَهْوَتِهم به، فالإطعام في هذه الحالة أبلغ في الدّلالة على ابتغاء مرضاة الله، وهو بسبب ذلك أعظم أجراً عند الله، فإنّ عبارة ﴿عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾، قيد لازم لإدخال المطعم للطّعام في مرتبة الأبرار، وهي فوق مرتبة المتّقين الّذين يكفيهم أن يطعموا الطّعام الواجب عليهم أن يُطْعِموه، ولو كان هذا الطّعام غير محبوب لهم، ينظر: عبد الرّحمن حبنّكة، البلاغة العربيّة: 2/88.

(5) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 3/206.

(6) الزّمخشري، الكشّاف: 1/219.

(7) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 1/121.

(8) أخرجه الإمام أحمد في مسنده من حديث سلمان بن عامر، الحديث رقم: (16234).

(9) القونويّ، حاشيّة القونويّ: 4/462.

(10) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 5/217.

إطلاق العامّ من ذوي القربى، وإرادة الخاصّ من فقرائهم ومساكينهم

وقد أشار الزّمخشريّ إلى أنّ المراد ليس كلّ ذوي القربى، ولا كلّ الأيتام، بل الفقراء منهم، فأطلق العامّ وأراد الخاصّ، ولا وَجْهَ لِقَصْرِ ذَلِكَ على ذَوِي الرَّحِمِ المُحَرَّمِ، قال: "وأطلق ذَوِي القُرْبى واليَتامى، والمراد الفقراء منهم، لعدم الإلباس"[1].

وجه إضافة ﴿وَٱبْنَ﴾ إلى ﴿ٱلسَّبِيلِ﴾:

جُعِلَ المُسافِرُ ابنًا للسّبيل؛ لِلُزُومِهِ إيّاهُ

المراد بابن السبيل المُسافِرُ، أو الضّيْفُ؛ لأنَّه إنَّما وَصَلَ إِلَيْكَ مِنَ السّبِيلِ، والسّبيل لِلطَّرِيقِ، وَجُعِلَ المُسافِرُ ابْنًا لَهُ؛ لِلُزُومِهِ إيّاهُ، كَما يُقالُ لِطَيْرِ الماءِ: ابْنُ الماءِ، وَيُقالُ لِلرَّجُلِ الَّذِي أَتَتْ عَلَيْهِ السّنُونَ: ابْنُ الأَيّامِ، وَ لِلشُّجْعانِ: بَنُو الحَرْبِ. وَلِلنّاسِ: بَنُو الزّمانِ[2].

السّرّ في إفراد ﴿وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ﴾، وجمع الصّفات المذكورة:

سِرُّ إفراد (ابن السّبيل)؛ لِقلّتهم باعتبار الوجود الخارجيّ

في قوله تعالى: ﴿وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ﴾ جمع كلّ المذكورين: (ذَوِي القُرْبَى واليَتامَى والمَساكِينَ والسّائِلِينَ)، ولكنّه أفرد (ابن السّبيل)، وذلك لِكثرتهم باعتبار الوجود الخارجيّ، وقلّة ابن السّبيل[3].

سِرُّ إفراد السّائلين بالذّكر وتأخير ذكرهم:

إفراد السّائلين بالذّكر وتأخيرهم؛ لأنّهم أخصُّ وأقلُّ

المراد بالسّائلين "الّذين ألْجَأَتْهم الحاجة إلى السّؤال"[4]، وإلجاؤُهُم "مُستفادٌ من المقام؛ لأنّ المذكورين السّابقين لم يسألوا بقرينة المقابلة، وهؤلاء سألوا؛ لأنّ الفقر ألجَأهم، فأفردهم بالذّكر وأخّرهم؛ لأنّهم أخصُّ وأقلُّ[5].

ويجوز أنّ ذكرهم أُخِّر؛ لظهورهم بسؤالهم، وخفاء السّابقين

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/219.
(2) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 5/217.
(3) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/515-516.
(4) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 1/121.
(5) القونويّ، حاشية القونويّ على البيضاويّ: 4/462.

لسكوتهم، والتّعفُّفُ محمُودٌ في شأن الحاجة والفقر، فقدّم الأفضل، أو أخّرهم لقلّتهم، فالفقراء بالوصف العامِّ أكثر من الفقراء الّذين يسألون.

وجه تأخير ذكر السّائلين لإعلانهم السّؤال

المجاز المرسل بذكر الجزء وإرادة الكلّ في قوله: ﴿وَفِي ٱلرِّقَابِ﴾:

الرّقاب جمع رقبة، وهو العبد المملوك، وعبّر عنه بالرّقبة، من قبيل التّعبير بالجزء وإرادة الجميع، وكانت الرّقبة هي الجزء الدّالّ على الكلّ؛ لأنَّها مظهر الخضوع في الحسِّ؛ إذ يُطأطئ العبد رقبته، خشوعًا وخضوعًا، وهو كقوله تعالى: ﴿فَلَا ٱقۡتَحَمَ ٱلۡعَقَبَةَ ۝١١ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡعَقَبَةُ ۝١٢ فَكُّ رَقَبَةٍ ۝١٣﴾"[1].

الرّقبة في الإنسان هي مظهرُ الشّموخ أو الخضوع

قال محمد علي جميل في شرح ﴿ٱلرِّقَابِ﴾: "جمع رقبة، وهي في الأصل العُنقُ، وتطلق على البدن كلّه، كما تطلق العين على الجاسوس، والمراد في الآية الأسرى والأرقّاء"[2]، وقال غيره: "والرّقبة مجازٌ عن الشّخص، فهُو من قبيل المجاز المرسل"[3].

وجه استعمال ﴿فِي﴾ مع الرّقاب دون الباقين:

وجيء بالحرف (في) مع لفظ ﴿ٱلرِّقَابِ﴾؛ للدّلالة على أنّ الاستحقاق للجهة، لا للرّقاب، وأنّ إيتاء المال بأن يعطيه ما يستعين به على ما تعهّد به لفكّ رقبته"[4]، فـ "أتى بـ ﴿فِي﴾ دون ما قبله؛ لأنّ ﴿ٱلرِّقَابِ﴾ لا يعطاهم ذلك لأنفسهم، بل يُؤدَّى عنهم؛ ليُعتقُوا بخلاف غيرهم، فإنّه يأخذ ذلك، ويتصرّفُ فيه"[5]، فاستعمال ﴿فِي﴾ "للدّلالة على أنّ الاستحقاق للجهة، لا للرّقاب، أو للإيذان بأنّهم أحقّ بها وأقوى استحقاقًا؛ لأنّ ﴿فِي﴾ للظّرفيّة، أي: هم

استعمال (في) للدّلالة على أنّ الاستحقاق للجهة، لا للرّقاب، أو للإيذان بأنّهم أحقّ بها وأقوى استحقاقًا

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 1/524-525.
(2) محمد علي جميل، صفوة التّفاسير: 1/104.
(3) محمود عبد الرّحيم صافي، الجدول في إعراب القرآن: 2/356.
(4) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 1/525.
(5) البسيلّي، التّقييد الكبير: ص: 283.

مواضعها الّتي يوضع فيها؛ لما فيها من الفكّ والإنقاذ من الرّقّ وإحداث الحرية"[1].

دفع التناقض في نفي أن يكون التّوجّه إلى القبلة أو الجهات من البرّ:

نَفْيُ البِرّ نَفْيٌ لِكَمالِ البِرّ، وَلَيْسَ نَفْيًا لِأَصْلِهِ

إنَّه اللّه تعالَى نَفَى أَنْ يَكُونَ التَّوَجُّهُ إلى القِبْلَةِ بِرًّا، ثُمَّ حَكَمَ بِأَنَّ البِرَّ مَجْمُوعُ أُمُورٍ أَحَدُها الصّلاةُ، والاسْتِقْبالُ أصلٌ فيها، فَيَلْزَمُ التَّناقُضُ، ودفعه أَنَّ قَوْلَهُ: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ﴾ نَفْيٌ لِكَمالِ البِرِّ، وَلَيْسَ نَفْيًا لِأَصْلِهِ، كَأَنَّهُ قال: لَيْسَ البِرَّ كُلَّهُ هُوَ هَذا، فالبِرُّ: اسْمٌ لِمَجْمُوعِ الخِصالِ الحَمِيدَةِ، واسْتِقْبالُ القِبْلَةِ واحِدٌ مِنْها، فَلا يَكُونُ ذَلِكَ تَمامَ البِرِّ[2].

نفي البرّ عن استقبال الجهات من الوسائل لا المقاصد فلا يكونن الاشتغال به غاية

وَنَفْيُ البِرِّ عَنِ اسْتِقْبالِ الجِهاتِ، مَعَ أَنَّ مِنْها ما هُوَ مَشْرُوعٌ، كاسْتِقْبالِ الكَعْبَةِ؛ لأنَّه مِنَ الوَسائِلِ لا مِنَ المَقاصِدِ، فَلا يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ الاشْتِغالُ بِهِ قُصارَى هِمَّةِ المُؤْمِنِينَ، وَلِذَلِكَ أَسْقَطَهُ اللّهُ عَنِ النّاسِ، في حالِ العَجْزِ والنِّسْيانِ، وَصَلَواتِ النَّوافِلِ على الدّابَّةِ في السَّفَرِ، وَلِذَلِكَ قالَ: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ﴾، فَإِنَّ ما تلا ﴿ءَامَنَ﴾ كُلَّهُ مِنْ أَهَمِّ مَقاصِدِ الشَّرِيعَةِ، وَفِيهِ جِماعُ صَلاحِ النَّفْسِ والجَماعَةِ، وَنَظِيرُه قَوْلُهُ تَعالَى: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ﴾ [التَّوْبَة: 19] ولا شكّ أن السقاية وعمارة المسجد الحرام عَمَلَا برّ، فَيَكُونُ النَّفْيُ على مَعْنَى نَفْيِ الكَمالِ[3].

تقديم مصارف الزكاة للعناية بها، وتأخير إيتائها للحثّ على إخراجها

علّة تقديم مصارف الزّكاة على ذكر الزّكاة:

وذكر الزّكاة مُجملًا بقوله ﴿وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ﴾ بعدما ذكرها مفصّلًا في قوله ﴿وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ وذلك لأنّ مفهوميهما متقاربَين إجمالًا وتفصيلًا، وإنّما قدّم بيان المصرف على ذِكر

(1) القونويّ، حاشية القونويّ: 4/463.
(2) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 5/ 213.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/128.

الزّكاة؛ لأنَّه هو المهتَمُّ بِشأنه[1]، فإنّ " الغرض من الأوّل: بيان مصارفها، ومن الثّاني: أداؤها، والحثّ عليها"[2].

السّرُّ في ذكر إيتاء الزّكاة، بعد ذِكر إيتاء المال:

عطْفُ الزّكاة على إيتاء المال، يفيد التّغاير في معنى كلّ منهما

وذكرُ إيتاء المال في هذه الوجوه، ثمّ تقفيته بإيتاء الزّكاة دليلٌ جليٌّ على أنّ إيتاء المال، ليس هو الزّكاة وحدها؛ بل هو جملة حقوق، تتضافر، وتتكامل، وهو ما يوسّع دائرة الإحسان والعطاء، وهو دليلٌ على أنّ في المال حقًّا سوى الزّكاة، أو أنْ يكون ذلك بيانٌ لمصارف الزّكاة، أو يكون حثًّا على نوافل الصّدقات والمبارّ[3]، فـ"ذكر الزّكاة هنا، دليل على أن ما تقدّم ليس بالزّكاة المفروضة"[4]، والمراد من إيتاء المال ليس الزّكاة؛ لِأَنَّهُ تَعالَى عَطَفَ الزّكاةَ عَلَيْهِ بِقَوْلِهِ: ﴿وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ﴾، وَمِنْ المعلوم تغاير المَعْطُوفِ والمَعْطُوفِ عَلَيْهِ؛ فَثَبَتَ أَنَّ المُرادَ به غير الزّكاة[5].

نكتةُ توسيط الصّلاة بين المفصّل والمجمل:

توسيط الصلاة إيذانٌ بأنّ التعظيم لأمر الله يحسُنُ باكتنافه بالشّفقة

أوقع الصّلاة واسِطةً للعقدِ بينَ المفصّل من أعمال البرّ، والمجمل منها في قوله ﴿وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾؛ ليؤذِنَ بأنّ التّعظيم لأمر الله، إنّما يحسُنُ كلَّ الحسنِ إذا كان مكتَنفًا بالشّفقة على خَلْقِ الله[6].

بيان وجه الرّفع في قوله: ﴿وَٱلْمُوفُونَ﴾:

وجه الرّفع مدحٌ لهم، أو وصفهم بكونهم أصحابَ بِرٍّ

في رفع ﴿ٱلْمُوفُونَ﴾ قولان: الأجود أنْ يكون مرفوعًا على المدح؛ لأنّ النّعت إذا طال، وكَثُرَ، رُفِعَ بعضُه، ونُصِب على المدح، والمعنى:

(1) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 3/208، وزاده، حاشية على البيضاويّ: 2/431.
(2) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 1/121.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/220.
(4) ابن عطيّة، المحرَّر الوجيز: 1/243-244.
(5) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 5/216.
(6) الطّيبيّ، فتوج الغيب: 3/208، وزاده، حاشيّة على البيضاويّ: 2/431.

(هم الموفون بعهدهم)، وجائزٌ أنْ يكون معطوفاً على مَنْ، والمعنى: ولكن البرّ، وذو البِرّ: المؤمنون والموفون بعهدهم[1].

علّة إيثار التّعبير عنِ الوفاء بالعهد، والصّبر بالوصف دون الفعل:

الصّلاة والزّكاة أفعال تتجدّد، أمّا الوفاء والصّبر؛ فصفتان ثابتتان

إنّ الجمل السّابقة متعاطفة، فقوله: ﴿وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾ عُطف عليها: ﴿وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ﴾، لكن عند الكلام على الوفاء والصّبر، غَيَّرَ أُسْلُوبَ الكلام معبّرًا بالوصف دون الفعل ولَمْ يَقُلْ: (وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ) أو (وصبر) كما قال: ﴿وَأَقَامَ﴾، بل قال: ﴿وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ﴾، و﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ﴾؛ لأنّ إعطاء المال، وإقامة الصّلاة، وإيتاء الزّكاة، أفعال مطلوبة في ذاتها، وهي تتجدد آنًا بعد آنٍ، وإن كانت واجبة على الدّوام، أمّا الوفاء؛ فالفضيلة فيه أنْ يكون صفة دائمة، لا أنْ يكون فعلاً، ثمّ ينقطع، بل يكون حلية يتحلّى بها المكلّف، وكذلك الصّبر، فالمطلوب فيه أنْ يكون صفة مستمرّة، تظهر في كلّ أعماله، من عبادات ومعاملات وأعمال، يصبر في كلّ أمر يقتضي الصّبر على النّعماء، فيرضى، ويشكر، ويصبر على الشّدة، فلا يفزع، ويصبر على الضّراء، فلا يئنّ[2].

الدّلالة بالاسم تقتضي الثّبوت، ممّا يتطابق مع الوفاء بالعهد

وقصد التعبير بالاسميّة لأمرين، أحدُهما: لفظيٌّ، وهو أنَّ الصّلةَ متى طالت كان الأحسنُ أنْ تُعْطَفَ على الموصولِ دون الصّلة؛ لئلّا تطولَ، وَتَقْبُحَ، والثّاني: أنّه ذكر في الأولِ ما هو داخلٌ في حَيِّز الشّريعةِ وغيرُ مستفادٍ إلّا منها، والحكمةُ العقليَّةُ تقتضي العدالةَ دون الجَوْر، ولمّا ذكرَ وفاءَ العهدِ، وهو مِمّا تقضي به العُقولُ المجرّدةُ صار عطفُهُ على الأولِ أحسنَ[3]. وفيه دلالَةٌ على المُغايَرَةِ بين الإسميّة والفعليّة بِأَنَّ الأَوَّلَ: مِنْ عَلائِقِ حَقِّ اللّهِ تَعالَى وَأُصُولِ الدّينِ، والثّاني: مِنْ حُقُوقِ العِبادِ[4].

(1) الزّجاّج، معاني القرآن وإعرابه: 1/247، والزّمخشريّ، الكشّاف: 1/220، وابن عطيّة، المحرَّر الوجيز: 1/244، والرّازي، مفاتيح الغيب: 5/218.

(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 1/528.

(3) السّمين، الدّر المصون: 2/251.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/131.

سرّ إيثار إفراد العهد على الجمع:

وعدل إلى إفراد العهد بقوله: ﴿بِعَهۡدِهِمۡ﴾، ولم يقل: (بعهودهم)؛ لأنّه أبلغ من الوفاء، فالعهد الواحد لا يستلزم الوفاء (بالعهود)، بخلاف العكس فإنّه يستلزم من ناحية أنّ المكلّف؛ إذا عاهد هو وغيره، ووفَّى غيره بالعهود وبِهِ؛ فإنّه قد حصل الوفاء بالعهد على الإطلاق، بخلاف ما إذا عاهد وحده ولم يوفِ، فإنّه لم يقع في الوجود وفاء بالعهد، فتعظم العقوبة والذّم[1].

العهد الواحد مظنّة الإيفاء؛ لأنّه لا يستلزم الوفاء (بالعهود)

فائدة التّعبير بـ ﴿إِذَا عَٰهَدُواْۖ﴾:

أفاد قوله ﴿إِذَا عَٰهَدُواْۖ﴾، سرعة الوفاء بالعهد[2]، وذلك لتقييده بِالظّرْفِ، وَهُوَ ﴿إِذَا عَٰهَدُواْۖ﴾، أَيْ: وَقْتَ حُصُولِ العَهْدِ، فَلا يَتَأَخَّرُ وَفاؤُهُمْ طَرْفَةَ عَيْنٍ.

أفاد التعبير سرعة الوفاء بالعهد فلا يتأخّر طرفة عين

وَفِي التعبير تَنْبِيهٌ على وُجُوبِ الاحْتِياطِ، عِنْدَ بَذْلِ العَهْدِ، بِحَيْثُ لا يُعاهِدُ حَتَّى يَتَحَقَّقَ، أَنَّهُ يَسْتَطِيعُ الوَفاءَ، كَأَنَّهُ يَقُولُ: فَإِنْ عَلِمُوا أَلّا يَفُوا؛ فَلا يُعاهِدُوا[3].

أفاد التعبيرُ التنبيهَ على لزوم الحذر عند المعاهدة

سرّ العدول الى نصب ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ﴾:

نُصِبَ لفظ ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ﴾ على الاختصاص والمدح؛ تنبيهًا على خصيصة الصابرين، وإظهارًا لمزيد شرف الصّبر في الشّدائد؛ وذلك لكون الصّبرِ من وجهٍ مبدَأَ الفضائِلِ، ومن وجهٍ جامعاً للفضائلِ؛ إذ لا فضيلَةَ إلّا وللصّبرِ فيها أثرٌ بليغٌ؛ ولذلك غَيَّر إعرابَهُ على هذا المَقْصِد[4]، لأنّه إذا ذكرت صفات للمدح أو الذّمّ، وخولف الإعراب في بعضها، فذلك تفنّن، ويسمّى: قطعًا؛

النصب على الاختصاص والمدح إظهارٌ لمزيد شرف الصّبر والصابرين

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/516.
(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/516.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/131.
(4) الراغب، تفسير الرّاغب: 1/378، والسّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 2/251، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/133.

لأنّ تغيير المألوف يدلّ على زيادة ترغيب في استماع المذكور، ومزيد اهتمامٍ بشأنه[1].

كسر تراتب الإعراب تنبيه على أنّ الصبر هو مطيّة كلّ ما تقدّم من أفعال

كسر الإعراب هنا غرضُه تنبيهُ الآذان إلى أن شيئاً جديداً استحقّ أن يُخالف عنده الإعراب؛ لأن الصّبر هو مطية كلّ هذه الأفعال، فالذي يقدر في الصبر على نفسه بإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة. وإيتاء المال على حبّه هو الذي فاز وظفر، إذن كلّ ذلك امتحان للصبر. ومن هنا خصّ الله ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ﴾ بإعراب مخالف حتى نفهم أنه منصوب على المدح، أو على الاختصاص، وخصَّ الله الصبر بهذه الميزة؛ لأنّ التكليفات كلّها تعطي مشقّات على النفس، ولا يستطيع تحمّل هذه المشقات إلّا من يقدر على الصّبر، ومادام قد قدر على الصبر فكلّ ذلك يهون[2].

العدول إلى نصب (والصابرين) وجهٌ من وجوه الإطناب

إذا ذكرت الصفات الكثيرة في معرض المدح أو الذمّ فالأحسن أن يُخالف إعرابها ولا تُجعل كلُّها جاريةً على موصوفها؛ لأنّ هذا من مواضع الإطناب وبه يكون المقصود أكمل؛ لأنّ الكلام عند اختلاف الإعراب يصير كأنّه أنواع من الكلام وضروب من البيان[3].

التّرقّي في الصّبر من الأدنى إلى الأعلى:

التّرقّي لونٌ بليغٌ من الأسلوب، ينشّطُ الذّهن، ويستوعبُ الدّلالة

جاء التَّرتيبُ في قوله: ﴿فِي ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ﴾؛ لتحقيق (التّرقّي من الأدنى إلى الأعلى)[4]، فـ"البَأْساءُ هو الفقر، والضّرّاءُ هو المرض، وحين البأس، أي: حين القتال، وهذا تَرَقّ؛ لأنّ

(1) الهرريّ، تفسير حدائق الرّوح والرّيحان: 3/146.

(2) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 2/741.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/133.

(4) من دواعي التّقديم والتّأخير: إرادة الترقّي من الأدنى إلى الأعلى، أو العكس، أو إرادة البدء بالظّاهر، فما يتّصل به من الأسباب، وهكذا تسَلْسُلاً إلى الأسباب الباطنة الخفيّة، حتّى السّبب الأوّل، أو البدء بما هو بمنزلة الأساس فما يتّصل به، وهكذا تدرّجًا إلى الأعلى فالأعلى، حتّى القمّة، ومن أمثلة التّدرّج من الأدنى إلى الأعلى، قول الله ﷻ، مبيّنًا مراتب ودرجات المؤمنين: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾ [فاطر: 32]. ينظر: عبد الرّحمن حبنّكة، البلاغة العربيّة: 1/391.

وقوع الفقر والحاجة في النّاس، أكثر من وقوع القتال، فالصّبر على القتال أشدّ لغرابته، وقلّة وقوعه، ودونه الصّبر على المرض، ودونه الصّبر على الفقر، ولهذا تجد الفقراء الأصحّاء، أكثر عددًا من المرضى، والمرضى أكثر عددًا من الفرسان المقاتلين"[1]، فمن المعلوم أنّ الفقر إذا اشتدّت وطأته؛ يضيق له الذّرع، ويكاد يفضي إلى الكفر، والضّرُّ إذا برح بالبدن، يضعف الأخلاق، حتّى لا يكاد المرء يحتمل ما كان يُسَرُّ به في حال الصّحّة، وأمّا حالة اشتداد الحرب؛ فهي على ما فيها من الشّدّة والتّعرُّض للهلكة، بخوض غمرات المنيّة يُطلب فيها من الصّبر، ما لا يُطلب في غيرها؛ لأنّ الظّفر مقرونٌ بالصّبر، وبالظّفر حِفْظُ الحقّ الّذي يناضل المجاهد في سبيل اللّه دونه، ويدافع عنه، ويحاول إظهاره، ويبتغي انتشاره[2].

السّر في التّعبير بـ ﴿فِي﴾ مع البأساء، و﴿وَحِينَ﴾ مع البأس:

استعمال (في) مع البأساء، و(حين) مع البأس ليفيد كمال الصّبر من أوّل القتال إلى آخره

وجه إيثار تعدية (البأساء) في قوله: ﴿فِي ٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلۡبَأۡسِۗ﴾، بالحرف ﴿فِي﴾، وعدم تعدية (البأس) به، ولمَ يعكس فيقول: (والصّابرين حين البأساء وفي البأس)؛ لأنّه لَمَّا كان وقوع القتال أقلّها وجودًا بالنّسبة إلى غيره؛ كان الصّبر عليه أغرب وأعجب، فالمراد بالصّابرين من حصل منهم الوصف الكامل من الصّبر، ولو عدّي بالحرف (في)؛ لتناول الصّابر في أوّل جزء من أجزاء القتال؛ لأنَّه حينئذ يصدق بأوّل جزء، فعُدِلَ إلى القول: ﴿وَحِينَ ٱلۡبَأۡسِۗ﴾؛ ليفيد كمال الصّبر من أوّل القتال إلى آخره، وأمّا الفقر والمرض، فكلاهما أكثريّ الوقوع، فلا غرابة فيهما، فلم يحتج إلى التّنبيه على كمال الصّبر فيه[3].

وجه استعمال الحين مع (البأس) الإشعار بوقوع الحرب أحيانًا

زيادة الحين مع ﴿ٱلۡبَأۡسِۗ﴾ في قوله: ﴿وَحِينَ ٱلۡبَأۡسِۗ﴾؛ للإشعار بوقوعه أحيانًا وسرعة انقضائه[4]، أي: "أنَّ الحرب تجيء وقتًا بعد

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/517، والهرريّ، تفسير حدائق الرّوح والرّيحان: 3/128.
(2) محمد رشيد رضا، تفسير المنار: 2/98.
(3) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/517.
(4) البروسويّ، روح البيان: 1/283.

وقت، وليست مستمرّة، وإن استمرّت أمدًا طويلًا، تبدّل الرّجال بعد الرّجال، ولا يحارب الجيش كلّه"[1].

وجه الاستئناف في جملة التذييل:

الصّدق والتّقوى ثمرتان ضروريّتان لأفعال البرّ في هذه الآية

استأنف في قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ﴾؛ ليبيِّنَ أنّه لا يستحقّ اسم البِرّ، إلّا من اجتمعت فيه هذه الصّفات، وأنّ من قام بتلك الأفعال، صدق في إيمانه، قال البقاعي: "ولـمّا كانت هذه الخلال أشرفَ خلال، أشار إلى شرفها بشرف أهلها، فقال مستأنفًا بيانًا؛ لأنَّه لا يستحقُّ اسم البِرّ إلّا من اجتمعت فيه هذه الخلال، وقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾، أي: خاصّة الّذين علَتْ هِمَمُهم، وعظُمت أخلاقهم وشيمهم، فوصفهم بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ صَدَقُواْۖ﴾، أي: فيما ادّعوه من الإيمان، ففيه إشعارٌ، بأنّ من لم يفعل أفعالهم؛ لم يصدق في دعواه"[2].

الفرق الدّلالي بين خبرَي جملة التذييل:

التعبير بالفعل الماضي؛ لتحقُّقِ اتِّصافهم بالصّدق، والتعبير باسم الفاعل للدلالة على ثبوت التقوى سجيّة لهم

بين عبارتي جملة التذييل المتعاطفَتين: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْۖ﴾، و﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ﴾، فرقٌ دلاليٌّ تحريره أنّ خبر ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الأولى: موصولٌ، وصلته فعلٌ ماضٍ ﴿صَدَقُواْۖ﴾؛ لتحقُّقِ اتِّصافهم به، وأنَّ ذلك قد وَقَع منهم، واستقرَّ، وخبرُ ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ الثّانية: اسمُ فاعل ﴿ٱلۡمُتَّقُونَ ١٧٧﴾، يدلُّ على الثّبوت؛ لبيان أنّ ذلك صار كالسَجِيَّةِ لهم، فضلا عن أنّه لو أتى به فعلاً ماضيًا، لَما حَسُنَ وقوعُه فاصلةً[3].

فائدة تكرار اسم الإشارة:

فائدة اسم الإشارة التّنويه إلى أنّ الأوصاف المذكورة هي علّة الحكم

"كرّر لفظ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ في قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ﴾؛ "تنبيهًا على أنّ كلّ وصف من هذا كافٍ في حصول المدح

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 1/529.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 3/10.
(3) السّمين، الدّرّ المصون: 2/ 251، والجمل، الفتوحات الإلهيّة: 1/213.

والثّناء، لا المجموع"[1]، و" لزيادة تنويه شأنهم"[2]، فاسم الإشارة الأولى والثّانية قُصِدَ بها الّذين اتّصفوا بالبرّ، حتّى كأنّهم هم البِرّ في أعمالهم المؤلّفة للقلوب، والمقرّبة للنّفوس، وصفاتهم المثبتة لقوّة الإيمان، وحسن العمل، والإشارة إلى الأوصاف فيها إيذان بأنّ هذه الأوصاف، هي علّة الحكم[3].

دلالة الحصر باستعمال الضّمير ﴿هُمُ﴾:

انحصار النّعت بالتّقوى في المتّقين؛ لاشتمالها على جميع أعمال البرّ

توسيط الضّمير في قوله تعالى﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ﴾ للإشارة إلى انحصار التّقوى فيهم واقتصارها عليهم[4].

وجه النعت بالمتقين:

النعت بالمتّقين إشعارٌ بأنّهم تكلّفوا هذه الأفعال؛ لعظيم خوفهم من الله تعالى

في نعتهم بالمتّقين في قوله تعالى﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ﴾ إشعارٌ بأنّهُم تكلّفُوا هذه الأفعال؛ لعظيم خوفهم من اللّه تعالى، قال تعالى: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ﴾[5]، ويلاحظ الحذف في الآية، فتقوى اللّه تتحقّق باتّقاء ما نهى اللّه تعالى عنه، وهي (محارمه)، وحذفها للعلم بها، فقوله: "﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ﴾: محارم اللّه"[6].

❁ الفُرُوقُ المُعْجميّةُ:

الفقير، والمسكين، والسّائل:

دلالة لفظي المساكين والسّائلين في بيان الدّلالة في الآية

"والمِسْكِينُ الفَقِيرُ الَّذِي أَذَلَّهُ الفَقْرُ، وَقَدِ اتَّفَقَ أَئِمَّةُ اللُّغَةِ: أَنَّ المِسْكِينَ غَيْرُ الفَقِيرِ، هُوَ أَقَلُّ فَقْرًا مِنَ الفَقِيرِ، وَقِيلَ: هُوَ أَشَدُّ فَقْرًا، وَهَذا قَوْلُ الجُمْهُورِ، وَقَدْ يُطْلَقُ أَحَدُهُما في مَوْضِعِ الآخَرِ؛ إذا لَمْ يَجْتَمِعا"[7]، و"إِنَّ المَسَاكِينَ أَهْلُ الحاجَةِ، ثُمَّ هُمْ ضَرْبانِ: مِنْهُمْ

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/518.
(2) القنّوجيّ، فتح البيان: 1/351.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 1/529.
(4) القنّوجيّ، فتح البيان: 1/351.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 3/10.
(6) البغويّ، معالم التّنزيل: 1/207.
(7) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/131.

مَنْ يَكُفُّ عَنِ السُّؤال، وهو المراد هاهنا، وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْأَلُ، وَيَنْبَسِطُ، وَهُوَ الـمُرادُ بِقَوْلِهِ: والسّائِلِينَ، وَإِنَّما فَرَّقَ تَعالَى بَيْنَهُما، مِنْ حَيْثُ يَظْهَرُ على الـمِسْكِينِ الـمَسْكَنَةُ، مِمّا يَظْهَرُ مِنْ حالِهِ، وَلَيْسَ كَذَلِكَ السّائِلُ؛ لأَنَّه بِمَسْأَلَتِهِ يَعْرِفُ فَقْرَهُ وَحاجَتَهُ"[1]، "وَذَكَرَ السّائِلِينَ، وَهُمُ الفُقَراءُ، كَنَّى عَنْهُمْ بِالسّائِلِينَ؛ لأَنّ شَأْنَ الـمَرْءِ أَنْ تمنعه نَفْسُهُ مِنْ أَنْ يَسْأَلَ النّاسَ لِغَيْرِ حاجَةٍ غالِبًا، فالسّؤالُ عَلامَةُ الحاجَةِ غالِبًا"[2]، والسَّائلون يمتازون من غيرهم، من الأصناف المذكورة: أنَّ الفقر ألجَأَهم إلى السُّؤال.

(1) الرّازي، مفاتيح الغيب: 5/217.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/131.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَىۖ ٱلۡحُرُّ بِٱلۡحُرِّ وَٱلۡعَبۡدُ بِٱلۡعَبۡدِ وَٱلۡأُنثَىٰ بِٱلۡأُنثَىٰۚ فَمَنۡ عُفِيَ لَهُۥ مِنۡ أَخِيهِ شَيۡءٞ فَٱتِّبَاعُۢ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيۡهِ بِإِحۡسَٰنٖۗ ذَٰلِكَ تَخۡفِيفٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَرَحۡمَةٞۗ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٞ ١٧٨﴾ [البقرة: 178]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

إقامة العدل في القصاص، ونبذ الثّارات والجهالات

جاءت هذه الآية بعد آية البرّ؛ لأنّ الآيتين تتوجّهان إلى بناء المجتمع المسلم، ونفي ما يهدّد بنيانه، وتُسهمان في صلاحه واستتباب أمنه ونظامه؛ فقد كان العرب في الجاهليّة لا يقتصّون من القاتل، وإنّما يثأرون من القبيلة، والدّماء فيهم لا تتكافأ، وكان قانون العصبيّة والغلبة، هو السّائد لا قانون القصاص العادل، وكان ذلك ناشئًا من العصبيّة، وفرض التّفاوت والثّأر، فنزلتِ الآية الكريمة؛ لتمحوَ هذا القانون الظّالم، ولتثبت أنّ القصاص العادل، هو الّذي يجب أنْ يحكم[1]، وأنّ المسلمين متساوون في نظر الشّرع في الحقوق والواجبات، وهو عين ما دعا إليه النّبيّ -ﷺ- في قوله: "الْمُؤْمِنُونَ تَتَكَافَأُ دِمَاؤُهُمْ، وَيَسْعَى بِذِمَّتِهِمْ أَدْنَاهُمْ، وَهُمْ يَدٌ عَلَى مَنْ سِوَاهُمْ، أَلا لَا يُقْتَلُ مُؤْمِنٌ بِكَافِرٍ، وَلا ذُو عَهْدٍ فِي عَهْدِهِ"[2].

شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

كلُّ ما كتبه الله على العباد هو عينُ النّفع والرّشاد

1) ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمُ﴾: "أي: فُرض عليكم"[3]، "وَأَصْلُ الكِتابَةِ: نَقْشُ الحُرُوفِ في حَجَرٍ أَوْ رَقٍّ أَوْ ثَوْبٍ، وَلَمّا كانَ ذَلِكَ النَّقْشُ يُرادُ

(1) الرّويني، من غريب بلاغة القرآن، ص: 512.

(2) حديث صحيح لغيره، حَسّن سنده الحافظ ابن حجر في فتح الباري: 04/85، والقسطلانّي في إرشاد السّاري: 08/19، وأخرجه مختصرًا أبو داود، حديث رقم: 2035، والنّسائي: 8/24، وروي في مسند الإمام أحمد بن حنبل: 2/268.

(3) الماوردي، النّكت والعيون: 1/228.

بِهِ التَّوَثُّق بِما نُقِشَ بِهِ دوام تَذَكُّرِهِ؛ أَطْلَقَ (كتب) على معنى: حَقَّ، وَثَبَتَ، أَيْ: حَقَّ لِأَهْلِ القَتِيلِ"[1]، و"كُتِبَ، معناه: فُرِض، وأُثبت، والكَتْب مستعمل في الأمور المخلّدات الدّائمة كثيرًا"[2]، قال الزَّجّاج في معنى ﴿كُتِبَ﴾: "أي: فُرِض عليكم، وإِنَّمَا جَازَ أن يَقَعَ ﴿كُتِبَ﴾ في معنى: فُرِضَ؛ لأنّ ما يكتب يقع في النفوس أنَّه ثَبَتَ، ومعنَى هذا الفرض الذي يبلغ أجله أيام عدة المطلّقة والمتوفَّى عنها زوجها"[3]، ومنه قول الشّاعر عمر بن أبي ربيعة، أو عبد الله بن الزّبير الأسديّ:

كُتِبَ القَتْلُ وَالقِتَالُ عَلَيْنَا *** وَعَلَى الـمُحْصَنَاتِ جَرُّ الذُّيُولِ[4]

"وقيل: إنّ ﴿كُتِبَ﴾ في مثل هذا، إخبارٌ عمّا كُتب في اللّوح المحفوظ، وسبق به القضاء، وصورة فرض القصاص، هو أنّ القاتل فرض عليه- إذا أراد الوليّ القتل -الاستسلام لأمر الله، والانقياد لقصاصه المشروع... وليس القصاص بلزام إنّما اللّزام ألّا يتجاوز القصاص إلى اعتداء، فأمّا إذا وقع الرّضى بدون القصاص، من ديَة أو عفو؛ فذاك مباحٌ، فالآيةُ مُعْلمةٌ أنَّ القصاص هو الغاية عند التَّشاحِّ "[5].

العين بالعين والسّنُّ بالسّنِّ، ضمانٌ للقصاص العادل

2) ﴿فِي ٱلْقِصَاصُ﴾: "مأخوذ من قصّ الأثر، فكأنّ القاتل سلك طريقًا من القتل، فقصّ أثره فيها، ومشى على سبيله في ذلك"[6]، و"القِصاصُ: مُقابَلَةُ الشّيْءِ بِمِثْلِه، وَمِنْهُ: قَتْلُ مَنْ قَتَلَ بِالـمَقْتُولِ، وَأَصْلُهُ: مِنْ قَصَصْتُ الأَثَرَ، أَيِ: اتَّبَعْتُهُ؛ لأنَّه اتِّباعٌ بِدَمِ الـمَقْتُولِ"[7]، وقال النّيسابوريّ: " والقصاص أن تفعل بالإنسان مثل ما فعل من قولك: اقتصّ فلانٌ أثر فلان؛ إذا فعل مثل فعله، ومنه القصّة؛ لأنّ الحكاية تساوي المحكيّ، والمقصّ؛ لتعادل جانبيه"[8]، وَمِنْهُ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/135.
(2) ابن عطية، المحرَّر الوجيز: 1/244، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 2/258.
(3) الزّجاج، معاني القرآن وإعرابه: 1/318.
(4) ابن جرير، جامع البيان: 3/366.
(5) ابن عطيّة المحرر الوجيز: 1/244.
(6) ابن عطية، المحرَّر الوجيز: 1/244.
(7) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/129.
(8) النّيسابوريّ، غرائب القرآن: 1/480.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ٦٤﴾ [الكهف: 64]، وَقِيلَ: إِنَّ الْقِصَاصَ مَأْخُوذٌ مِنَ الْقَصِّ، وَهُوَ الْقَطْعُ، يُقَالُ: قَصَصْتُ مَا بَيْنَهُمَا: أَيْ: قَطَعْتُهُ[1]، فالقِصاصُ: مُقابَلَةُ الشّيْءِ بِمِثْلِهِ؛ أَخْذًا لحقّ المقتول من القاتل.

أداء الأمانة على وجهها الأكمل تجسيدٌ للمروءة والخشية

3) ﴿وَأَدَآءٌ﴾: "الأداء: دفع الحق دفعةً وتوفيته، كأداء الخراج والجزية وأداء الأمانة، قال الله تعالى: ﴿فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ﴾ [البقرة: 283]، وقال: ﴿وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ﴾، وأصل ذلك من الأداة، تقول: أدوت بفعل كذا، أي: احتلت، وأصله: تناولت الأداة الّتي بها يتوصّل إليه"[2]، قال السّمرقنديّ: "وَأَداءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسانٍ لا يبخسه، ولا يمطله، معناه: ولا يدفعه... والقاتل يؤدّي إليه نصيبه بإحسان"[3]، وقيل: المعنى: فمن عفي له من الواجب له على أخيه من قصاص وَليِّه شيء، فاتباع من الوليّ بمعروف وأداء من القاتل إلى الوليّ بإحسان، وهو قول مالك[4]، فالأداء دفع الحقّ لمستحقّ، تنفيذًا لأمر الحقّ.

المَعْنى الإجْماليُّ:

الحثُّ على عفو أولياء الدّم؛ وقايةً من الثّأر المفضي إلى النّار

نداءٌ من الله سبحانه لعباده المؤمنين، بأنّه شرع لهم ما هو الخير لهم؛ ففرض الله عليكم - أيها المؤمنون - أنْ تقتصّوا من القاتل عمدًا بقتله، بشرط المساواة والمماثلة، فمَن سامحه وليُّ المقتول بالعفو عن الاقتصاص منه والاكتفاء بأخذ الدّية، فليلتزم الطّرفان بحسن الخُلُق، فيطالب الوليُّ بالدّية من غير عنف، ويدفع القاتل إليه حقَّه بإحسان، مِن غير تأخير ولا نقص، ذلك العفوُ مع أخذ

(1) الشّوكانّي، فتح القدير: 1/201.
(2) الرّاغب، المفردات: (أدى).
(3) السّمرقنديّ، بحر العلوم: 1/118.
(4) مكيّ بن أبي طالب، الهداية إلى بلوغ النّهاية: 1/572.

الدّية تخفيف من ربكم ورحمة بكم؛ لما فيه من التّسهيل والانتفاع، فمَن قَتل القاتل بعد العفو عنه وأَخْذِ الدّية؛ فله عذاب أليم؛ بقتله قصاصًا في الدّنيا، أو بالنّار في الآخرة[1].

"وَمَقْصِدُ الآيَةِ التّرْغِيبُ في الرِّضا بِأَخْذِ العِوَضِ عَنْ دَمِ القَتِيلِ؛ بَدَلًا مِنَ القِصاصِ، لِتَغْيِيرِ ما كانَ أَهْلُ الجاهِلِيَّةِ يَتَعَيَّرُونَ بِهِ، مِنْ أَخْذِ الصّلْحِ في قَتْلِ العَمْدِ، وَيُعِدُّونَهُ بَيْعًا لِدَمِ مَوْلاهُمْ"[2].

مناسبة النّزول وسببه:

اختلاف أهل التّأويل في الآية على أربعة أقاويل، دليلٌ على أهميّتها وبلاغتها:

أهميّة تصحيح الإسلام لأعراف الجاهليّة في الدِّيَةِ والقصاص

اختلف أهل التّأويل في ذلك على أربعة أقاويل:

أحدها: أنّها نزلت في قوم من العرب، كانوا أعّزة أقوياء، لا يقتلون بالعبد منهم إلّا سيّدًا، وبالمرأة منهم إلّا رجلاً، استطالة بالقوّة وإدلالاً بالعزّة، فنزلت هذه الآية فيهم.

والثّاني: أنّها نزلت في فريقين: كان بينهما على عهد رسول الله ﷺ قتال، فقُتل من الفريقين جماعةٌ من رجال ونساء وعبيد، فنزلت هذه الآية فيهم، فجعل رسول الله الأكرم ﷺ دية الرّجل قصاصًا بديَةِ الرّجل، وديَة المرأة قصاصًا بديَة المرأة، وديَة العبد قصاصًا بدية العبد، ثمّ أصلح بينهم.

والثّالث: أنّ ذلك أمر من الله ﷻ بمقاصّة ديَة القاتل المُقْتَصِّ منه، بديَة المقتول المقتصّ له، واستيفاء الفاضل بعد المقاصة.

والرّابع: أنّ الله ﷻ فرض بهذه الآية في أوّل الإسلام، أنْ يُقْتَلَ الرّجل بالرّجل، والمرأة بالمرأة والعبد بالعبد، ثم نَسَخَ ذلك قولُه في سورة المائدة ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ﴾ [المائدة: 45][3].

(1) القنّوجي، فتح البيان: 1/352، والتّفسير الميسّر: ص27.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/142.
(3) الماورديّ، النّكت والعيون: 1/228-229.

الإيْضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

بيان وجه مناداة المؤمنين في الآية:

نداء المؤمنين إشعارٌ بأنّ الخطاب الذي يتلوه معنيٌّ به جدًّا

(يا) حرفٌ وُضِعَ في أصله لنداء البعيد، فإذا نودي به القريب المُفاطن فذلك للتأكيد المؤذنِ بأنّ الخطاب الذي يتلوه معنيٌّ به جدًّا[1].

وجه التعبير بهذا التّركيب النداءُ بالآكد الأبلغ

نادى اللّه تعالى عباده بهذا التّركيب ههنا وفي غيره من مواضع القرآن للدّلالة على أنّ ما يتلوه من خطاب خاصٌّ بالأمور العظام من الأوامر والنواهي، التي عليهم أن يتيقّظوا لها؛ فاقتضت الحال أن ينادَوا بالآكد الأبلغ[2].

توجيه الخطاب إلى المؤمنين للتّنبيه على أهميّة التّشريع المذكور في الآية

"أُعيد الخطاب بـ ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾؛ لأنّ هَذا صِنْفٌ مِنَ التّشْرِيعِ لِأَحْكامٍ ذاتِ بالٍ في صَلاحِ المُجْتَمَعِ الإِسْلامِيِّ واسْتِتْبابِ نِظامِهِ وَأَمْنِهِ، حِينَ صارَ المُسْلِمُونَ بَعْدَ الهِجْرَةِ جَماعَةً ذاتَ اسْتِقْلالٍ بِنَفْسِها وَمَدِينَتِها"[3].

وجه إفادة ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ﴾ الوُجُوبَ:

دلالة (كتب) على الفرض، ومعنى الاستعلاء في (عليكم)، يقتضيان الوجوب

معنى ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ﴾: فُرِضَ عَلَيْكُمْ، ووجه اقتضاء هذه العبارة الوُجُوبَ: أَنَّ قَوْلَهُ تَعالَى: ﴿كُتِبَ﴾ يُفِيدُ الوُجُوبَ في عُرْفِ الشَّرْعِ، قال تَعالَى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾، وَقَدْ كانَتِ الوَصِيَّةُ واجِبَةً، وَمِنْهُ الصَّلَواتُ المَكْتُوباتُ[4]، فـ﴿كُتِبَ﴾ في عرف الشّرع يفيد الفرضيّة[5]، ولَفْظَةُ ﴿عَلَيْكُمْ﴾ بدلالتها على الاستعلاء مُشْعِرَةٌ بِالوُجُوبِ، كَما في قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ﴾ [آل عمران: 97][6].

---

(1) الزمخشري، الكشاف: 1/89.
(2) الزمخشري، المصدر نفسه: 1/90.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/134.
(4) الرّازي، مفاتيح الغيب: 5/221.
(5) شيخ زاده، حاشية على البيضاويّ: 2/433.
(6) الرّازي، مفاتيح الغيب: 5/221.

بيان المراد بالضّمير، في قوله تعالى: ﴿عَلَيْكُمُ﴾:

المراد بالضّمير مجموع الأمّة، لا كُلّ فردٍ واحدٍ منهم

عودُ الضَميرُ في قوله: ﴿عَلَيْكُمُ﴾ على مَجْمُوعِ الأُمَّةِ على الجُمْلَةِ ممَّنْ تَوَجَّهَ لَهُ حَقُّ القِصاصِ، وَلَيْسَ المُرادُ على كُلِّ فَرْدٍ القِصاص[1]، والقصاص لا يُقِيمُه إلّا أولو الأمر، فلو تُرك لوليّ القتيل، تقع الفوضى في المجتمع، ويختلّ النّظام الاجتماعيّ[2].

الدّلالات المحتملة في قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى﴾:

استيعاب الدّلالة في هذه الآية لأحكام القصاص، هو عنوان بلاغتها

"قَوْلُهُ تَعالَى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى﴾ يَتَحَمَّلُ مَعْنَى الجَزاءِ على القَتْلِ بِالقَتْلِ لِلْقاتِلِ، وَتَتَحَمَّلُ مَعْنَى التّعادُلِ والتّماثُلِ في ذَلِكَ الجَزاءِ، بِما هُوَ كالعِوَضِ لَهُ والمِثْلِ، وَتَتَحَمَّلُ مَعْنَى أَنَّهُ لا يُقْتَلُ غَيْرُ القاتِلِ، مِمَّنْ لا شَرِكَةَ لَهُ في قَتْلِ القَتِيلِ"[3].

معنى المماثلة في الوصف والفعل:

القصاص التّسوية والمماثلة في الأنفس والأطراف والجراحات، وأداة القتل

يشترط في القصاص التّماثل في الوصف، بأنْ يكون مماثلًا له في وصفه من حرّيةٍ وإسلام، فمدار القِصاص، على كون القاتل مثلَ المقتولِ أو أدنى، فإنْ كان أعلى منه، إمّا بالدّين أو الحرّية فلا قود[4]، ووجه المماثلة في الفعل: أنّه لو قُتل بسيف، فإنّه يقتل به، وإنْ قُتل بغيره فبغيره[5]، فـ"القصاص أنْ يُفعَل بالإنسان مثلُ ما فَعَلَ، وهو عبارة عن التّسوية والمماثلة في الأنفس والأطراف والجراحات"[6].

معنى (في) في قوله تعالى: ﴿فِى ٱلْقَتْلَى﴾:

معنى (في) السببية، أو لِلظَّرْفِيَّةِ المَجازِيَّةِ

وقوله: "في القَتْلى، أَيْ: بِسَبَبِ قَتْلِ القَتْلَى؛ لأنّ كَلِمَةَ (في)، قَدْ تُسْتَعْمَلُ لِلسَّبَبِيَّةِ"[7]، أو هي لِلظَّرْفِيَّةِ المَجازِيَّةِ.

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/135.
(2) محمّد علي طه الدّرّة، تفسير القرآن وإعرابه وبيانه: 1/408.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/136.
(4) الصّاوي، حاشية الصّاوي على الجلالين: 1/75.
(5) الصّاوي، حاشية الصّاوي على الجلالين: 1/75.
(6) زاده، حاشية على البيضاويّ: 2/433.
(7) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 5/222، والقنّوجي، فتح البيان: 1/352.

بلاغة الحذف في قوله تعالى: ﴿فِي ٱلۡقَتۡلَىۖ﴾:

وجه الحذف الإيجاز والتعميم

ولأنّ القِصاصَ لا يَكُونُ في ذَواتِ القَتْلَى، فَتَعَيَّنَ تَقْدِيرُ مُضافٍ وَحَذْفُهُ في قوله تعالى: ﴿فِي ٱلۡقَتۡلَىۖ﴾؛ لِيَشْمَلَ القصاص سائِر شؤون القَتْلَى، وَسائِرَ مَعاني القِصاصِ، فَهُوَ إِيجازٌ وَتَعْمِيمٌ[1].

قصديّة التعبير بلفظ ﴿ٱلۡقَتۡلَىۖ﴾:

جاء به على هذا البناء لكونه ممّا يدخل على النّاس المساءة

قوله تعالى: ﴿فِي ٱلۡقَتۡلَىۖ﴾، جمع قتيل، لفظه مؤنّث تأنيث الجماعة، وهو ممّا يدخل على النّاس المساءة؛ فلذلك جاء على هذا البناء، كجرحى، وزمنى، وحمقى، وصرعى، وغرقى، وما شابهها[2].

علّة إيثار جمع ﴿ٱلۡقَتۡلَىۖ﴾ على المفرد:

إيثار الجمع على اعتبار أنَّ الخطاب موجّه للأمّة جميعًا

آثَرَ الجمع في قوله تعالى: ﴿فِي ٱلۡقَتۡلَىۖ﴾، باعتبار أنَّ الخطاب موجّه للأمّة جميعًا، قال ابن عاشور: "وَجَمْعُ القَتْلَى بِاعْتِبارِ جَمْعِ المُخاطَبِينَ، أَيْ: في قَتْلاكُمْ"[3]، كما نلاحظ: أنّ الألف واللّام لجنس القتلى، فهو شاملٌ عامّ، لكلّ قتيل بعد هذه الآية، وعزَّزه أنَّ: "التَّعْرِيف في القَتْلَى تَعْرِيفُ الجِنْسِ"[4].

فائدة القيد بوصف الحريّة والعبديّة:

مَفْهُومُ القَيْدِ يَقْتَضِي أَنَّ الحُرَّ يُقْتَلُ بِالحُرِّ لا بِغَيْرِهِ، لكنّه غَيْرُ مَعْمُولٍ بِهِ

أفاد قوله تعالى: ﴿ٱلۡحُرُّ بِٱلۡحُرِّ وَٱلۡعَبۡدُ بِٱلۡعَبۡدِ﴾ بمنطوقه، أنَّ الحرَّ يُقتل بالحرّ، والعبدَ يُقتل بالعبدِ، وليس فيه ما يدلُّ على أنَّ الحرَّ لا يُقتل بالعبد[5]، فـ"مَفْهُومُ القَيْدِ مَعَ ما في الحُرِّ والعَبْدِ والأُنْثَى، مِنْ مَعْنَى الوَصْفِيَّةِ، يَقْتَضِي أَنَّ الحُرَّ يُقْتَلُ بِالحُرِّ لا بِغَيْرِهِ، والعَبْدَ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/137.
(2) الدّرّة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 1/408.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/137.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/137.
(5) القنّوجيّ، فتح البيان: 1/353.

يُقْتَلُ بِالعَبْدِ لا بِغَيْرِهِ، والأُنْثَى تُقْتَلُ بِالأُنْثَى لا بِغَيْرِها، وَقَدِ اتَّفَقَ عُلَماءُ الإِسْلامِ، على أَنَّ هَذا المَفْهُومَ غَيْرُ مَعْمُولٍ بِهِ بِاطِّرادٍ"[1].

فائدة القيد هنا نفي دلالة الحصر، وإبطال ما كان أهل الجاهليّة عليه

قَوْلُهُ تَعالَى: ﴿ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ﴾ لا يُفِيدُ الحَصْرَ البَتَّةَ، بَلْ يُفِيدُ شَرْعَ القِصاصِ بَيْنَ المَذْكُورِينَ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَكُونَ فِيهِ دَلالَةٌ على سائِرِ الأَقْسامِ؛ لأَنَّ قَوْلَهُ: ﴿وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ﴾، يَقْتَضِي قِصاصَ المَرْأَةِ الحُرَّةِ بِالمَرْأَةِ الرَّقِيقَةِ، فَلَوْ كانَ قَوْلُهُ: الحُرُّ بِالحُرِّ، والعَبْدُ بِالعَبْدِ مانِعًا مِنْ ذَلِكَ؛ لَوَقَعَ التَّناقُضُ"[2]، "وتقريرُ الجواب: أنّ الآية، إنّما تدلّ على مشروعيّة القصاص، عند تحقُّقِ الموافقة بين القاتل والمقتول ذكورة وحرِّيّة، ولا تدلّ بمفهومها على انتفاء القصاص عند اختلافهما، بحسب الذُّكورة أو الحرِّيّة؛ لأنّ القول بالمفهوم إنّما هو على تقدير ألَّا يظهر للتَّقييد فائدة سوى الدّلالة على انتفاء الحكم عنه، عند انتفاء القيد، وهو له فائدة هنا، وهي إبطال ما كان أهل الجاهليّة عليه[3].

وجه إفراد الأنثى بالذكر:

وجه إفراد الأنثى بالذّكر التأكيدُ والتهمُّمُ بإذهاب أمر الجاهليّة

وجه إفراد الأنثى بالذّكر، وهي مشمولة في قوله: ﴿ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ﴾، في قوله ﷻ: ﴿ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ﴾؛ أنّه يراد بالحرّ الجنس، فيشمل الذّكر والأنثى، وأُعيد ذِكر الأُنْثَى تأكيدًا، وتهمُّمًا بإذهاب أمر الجاهليّة[4].

تخصيص الأُنْثَى بِالذِّكْرِ لدفع توهّم إرادة خصوص الذكور، وتأكيدًا على عصمة دمها

وَخُصَّتِ الأُنْثَى بِالذِّكْرِ مَعَ أَنَّها مَشْمُولَةٌ لِعُمُومِ الحُرِّ بِالحُرِّ والعَبْدِ؛ لِئَلّا يُتَوَهَّمَ أَنَّ صِيغَةَ التَّذْكِيرِ في قَوْلِهِ: ﴿ٱلْحُرُّ﴾، وَقَوْلِهِ: ﴿ٱلْعَبْدُ﴾ مُرادٌ بِها خُصُوصُ الذُّكُورِ[5]. فـ"خَصَّصَ الأُنْثَى بِالأُنْثَى؛ لِلدَّلالَةِ على أَنّ دمها مَعْصُومٌ"[6].

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/137.
(2) الرّازي، مفاتيح الغيب: 5/224.
(3) زاده، حاشية على البيضاويّ: 2/435.
(4) ابن عطيّة، المحرَّر الوجيز: 1/245.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/137.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/139.

دلالة الفاء في ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُۥ﴾

معنى الفاء في قوله تعالى: ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ﴾ [البقرة: 178]؛ لِتَفْرِيعِ الإخبار، أَيْ: لِمُجَرَّدِ التَّرْتِيبِ اللَّفْظِيِّ، لا لِتَفْرِيعِ حُصُولِ ما تَضَمَّنَتْهُ الجُمْلَةُ المَعْطُوفَةُ بِها، على حُصُولِ ما تَضَمَّنَتْهُ ما قَبْلَها، والمَقْصُودُ بَيانُ أَنَّ أَخْذَ الوَلِيِّ بِالقِصاصِ المُسْتَفادِ مِنْ صُوَرِ ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى﴾ لَيْسَ واجِبًا عَلَيْهِ، وَلَكِنَّهُ حَقٌّ لَهُ فَقَطْ؛ لِئَلّا يُتَوَهَّمَ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ﴾، أَنَّ الأَخْذَ بِهِ واجِبٌ على وَلِيِّ القَتِيلِ، والتَّصَدِّي لِتَفْرِيعِ ذِكْرِ هَذا بَعْدَ ذِكْرِ حَقِّ القِصاصِ، لِلْإِيماءِ إلى أَنَّ الأَوْلَى بِالنّاسِ قَبُولُ الصُّلْحِ؛ اسْتِبْقاءً لِأَواصِرِ أُخُوَّةِ الإِسْلامِ"[1].

معنى التفريع في الفاء الإشارة إلى أنّ الأولى قبُولُ الصّلْح؛ اسْتِبْقاءً لأواصر الأُخُوَّةِ الإسْلاميّة

إيثار الفعل ﴿عُفِيَ﴾ دون غيره:

إيثارُ الفِعْلِ (عفا) في قوله: ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ﴾؛ لأَنَّه يُؤْذِنُ بِمُراعاةِ التَّيْسِيرِ والسّماحَةِ، وَهِيَ مِنْ خُلُقِ الإِسْلامِ، فَهَذا تَأْكِيدٌ لِلتَّرْغِيبِ الَّذِي دَلَّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ: ﴿مِنْ أَخِيهِ﴾"[2]، وإذا اجتمع الذّنب والجاني، يقال: عفوت له عن ذنبه.

إيثار الفعل (عفا) لأنّه يُؤْذِنُ بِمُراعاةِ التَّيْسِيرِ والسّماحَةِ

وجه تعدية (عفا) باللّام دون عن:

المشهور في ﴿عُفِيَ﴾ أنّه يَتَعَدَّى بِـ(عَنْ) لا بِاللّام، لكنّه تعدّى في قَوْلِهِ: (فَمَنْ عُفِيَ لَهُ)، باللام، وتوجيه ذلك: أنّه "يتعدَّى ب(عنْ) إلى الجاني وإلى الذّنب، فيقال: عفوتُ عن فلان وعن ذنْبه، قال اللّه تعالى: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ﴾، وقال: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَا﴾، فإذا تعدّى إلى الذّنب والجاني معًا، قيل: عفوتُ لفلان عمّا جنى، كما تقول: غفرتُ له ذنبه، وتجاوزتُ له عنه، وعلى هذا ما في الآية، كأنَّه قيل: فمن عُفي لهُ عند جنايته، فاستغنى عن ذكر الجناية"[3].

وجه التَّعدية باللَّام أنّه تعدّى إلى الذّنب والجاني معًا

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/140.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/141.

(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/221، 222، والبيضاوي، أنوار التّنزيل: 1/122، والرّازيّ، مفاتيح الغيب: 5/226-227.

وجه استعمال الأخوّة ودلالتها:

ذكر لفظ الأُخوّة للتّذكير بأنّ التّوافُقَ في الدِّين آصِرَةٌ نَفْسانِيَّةٌ قويّة

المقصود من لفظ الأخ في الآية الكريمة: ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ﴾ وليُّ المقتول، وقيل: له أخوه؛ لأنَّه لابَسَهُ، من قبل أنّه وليُّ الدّم ومطالبُه به، أو ذكره بلفظ الأخوّة، ليعطف أحدهما على صاحبه، بذكر ما هو ثابت بينهما من الجنسيّة والإسلام"[1]؛ "ليرقَّ له، ويعطفَ عليه"[2]، وَإِطْلاقُ وَصْفِ الأَخِ على المُماثِلِ في دِينِ الإِسْلامِ، تَأْسِيسُ أَصْلٍ جاءَ بِهِ القُرْآنُ، بجَعْلِ التّوافُقِ في العَقِيدَةِ، كالتّوافُقِ في نَسَبِ الأُخُوَّةِ، بوصف التّوافُقِ في الدِّينِ آصِرَةً نَفْسانِيَّةً، والتّوافُقِ في النَّسَبِ آصِرَةً جَسَدِيَّةً، والرُّوحُ أَشْرَفُ مِنَ الجَسَدِ[3].

بيانُ وجه تنكير ﴿شَيْءٌ﴾:

تنكير (شيء) للتقليل، وفيه بيانُ أَنَّ العَفْوَ عَنْ الجُزْء، كالعَفْوِ عَنْ الكُلّ

تنكير ﴿شَيْءٌ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ﴾؛ للتَّقليل، فيتناولُ العفوَ من الشّيء اليسير من الدّية، والعفوَ الصّادر عن فرد من أفراد الورثة[4]، وفيه فائدَة عَظِيمَة؛ لأنَّه يَجُوزُ أَنْ يُتَوَهَّمَ أَنَّ العَفْوَ لا يُؤَثِّرُ في سُقُوطِ القَوَدِ، إلّا أَنْ يَكُونَ عَفْوًا عَنْ جَمِيعِهِ، فَبَيَّنَ تَعالَى أَنَّ العَفْوَ عَنْ جُزْئِهِ، كالعَفْوِ عَنْ كُلِّهِ، في سُقُوطِ القَوَدِ، وَعَفْوُ بَعْضِ الأَوْلِياءِ عَنْ حَقِّهِ، كَعَفْوِ جَمِيعِهِمْ عَنْ حقّهِمْ، فَلَوْ عَرَّفَ (الشَّيْءَ)؛ كانَ لا يُفْهَمُ مِنْهُ ذَلِكَ، فَلَمّا نَكَّرَهُ صارَ هَذا المَعْنَى مَفْهُومًا مِنْهُ[5].

فائدة تنكير (شيء) الإشعار بأنّ بعض العفو، كالعفو التّامّ في إسقاط القصاص

ووجه هذا الإشعار، بأنّه إذا عفي له طرفٌ من العفو وبعض منه، بأن يعفى عن بعض الدّم، أو عفا عنه بعض الورثة، تمّ العفو، وسقط القصاص، ولم تجب إلّا الدّية"[6]، فإنَّ "بعض العفو، كالعفو التّامّ،

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/221.
(2) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 1/122.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/142.
(4) القنّوجي، فتح البيان: 1/354.
(5) الرّازي، مفاتيح الغيب: 5/227.
(6) الزّمخشري، الكشّاف: 1/222.

في إسقاط القصاص"[1]، "والبَعْضيَّةُ إنّما تُتصوَّرُ بأحدِ شيئين: بأن يعفوَ الورثة كلُّهم بعضَ الدّمِ، أو أن يعفوَ بعضُ الورثةِ حقَّه بتمامه"[2].

عبّر عن العوضِ بالشّيء؛ ليشمل كلَّ ما يجوز أن يكون عوضًا

عبّر عَنْ عِوَضِ الدّم بـ﴿شَيْءٌ﴾؛ لاختلاف العِوَضِ، وتنوّعه، فَقَدْ يُعْرَضُ على وَلِيِّ الدّم مالٌ، مِنْ ذَهَبٍ أَوْ فِضَّةٍ، وَقَدْ يُعْرَضُ عَلَيْهِ إبِلٌ أَوْ عَرُوضٌ، أَوْ مُقاصَّةُ دِماءٍ بَيْنَ الحَيَّيْنِ؛ إذْ لَيْسَ العِوَضُ في قَتْلِ العَمْدِ مُعَيَّنًا، كَما هُوَ في دِيَةِ قَتْلِ الخَطَأ[3].

معنى (مَنْ) في قوله تعالى: ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ﴾:

العفو عن الدّم بلسمٌ يشفي جراح القلوب، ويزيل الضّغائن

يصحُّ أنْ تكون (مَنْ) موصولة، وشرطيّة، ومعنى الموصولة: فالشّخص الّذي ترك له شيء من دم أخيه، فاتّباع بالدّية بالمعروف، وقُرِنَ بالفاء لما في المبتدأ من معنى الشّرط، ومعنى الشّرطية: فأيّ شخص تُرك له شيءٌ من دم أخيه؛ فقد بطل القتل، فلا مطالبة به[4]، ووجب الاتّباعُ بالمعروف، والأداء بإحسان.

بيان الحذف في الجملة في قوله: ﴿فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾:

الاتّباعُ بالمعروف، أمر الله لإصلاح ذات البين وجبر الخواطر

"قَوْلُهُ: ﴿فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ رَفْعٌ؛ لأنَّه خَبَرُ مُبْتَدَأٍ مَحْذُوفٍ، وَتَقْدِيرُهُ: فَحُكْمُهُ اتِّباعٌ، أَوْ هُوَ مُبْتَدَأٌ خَبَرُهُ مَحْذُوفٌ، تَقْدِيرُهُ: فَعَلَيْهِ اتِّباعٌ بِالمَعْرُوفِ"[5]، "﴿فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾، فليكن اتّباعٌ، أو فالأمر اتّباعٌ"[6].

وجه العدول عن المفعول المطلق إلى الإخبار:

العدول إلى الإخبار بالجملة الاسميّة يفيد الثّبات والتّحقق

لقد عدل إلى الرّفع في قوله: ﴿فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾؛ لتقدير جملة اسميّة؛ لإفادة الثّبات والتّحقيق، قال ابن عاشور: "﴿فَٱتِّبَاعٌۢ﴾ وَ﴿وَأَدَآءٌ﴾: مَصْدَرانِ وَقَعا عِوَضًا عَنْ فِعْلَيْنِ، والتّقْدِيرُ: فَلْيَتَّبِعِ اتِّباعًا،

(1) البيضاوي، أنوار التّنزيل: 1/122.
(2) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 3/214.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/141.
(4) الصّاويّ، حاشية الصّاوي على الجلالين: 2/75.
(5) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 5/228.
(6) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/222.

وَلْيُؤَدِّ أَداءً، فَعَدَلَ عَنْ أَنْ يَنْصِبَ على المفْعُولِيَّةِ المُطْلَقَةِ إلى الرَّفْعِ؛ لِإفادَةِ مَعْنَى الثّباتِ، والتّحْقِيق الحاصِل بِالجُمْلَةِ الاسْمِيَّةِ"[1].

عود الضمير وصيّةٌ للعافي بطلب الدّية برفق، وللجاني بتأديتها بصدق، وفي ذلكم حفظٌ للعلائق بين الطّرفين

توجيه عود الضّمير على العافي:

الهاء في قَوْلِهِ: ﴿وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ﴾، ضَمِيرٌ عائِدٌ إلى مَذْكُورٍ سابِقٍ، هُوَ العافِي، فَوَجَبَ أَداءُ هَذا المالِ إليه[2]، وهي توصية للمعفوِّ عنه والعافي جميعًا، العافي: بأن يطلب الدّية بالمعروف، فلا يعنّف، والمعفوّ عنه: بأنْ يؤدّيها بالإحسان، وهو ألّا يمطل، ولا يبخس"[3]، وفي ذلكم حفظٌ للعلائق بين الاثنين، ونشرٌ للسّلام في المجتمع.

معنى انتهاء الغاية وجوب إيصال مالِ الصّلْح إلى وليّ المَقْتُولِ، بِأَنْ يَذْهَبَ بِهِ إِلَيْهِ وعدم تكليفه الحضور

فائدة استعمال حرف الجرّ (إلى) في قَوْلِهِ: ﴿وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ﴾:

الأَداءُ: الدَّفْعُ وَإِبْلاغُ الحَقِّ، والمُرادُ بِهِ إِعْطاءُ مالِ الصّلْحِ، وَذَكَرَ مُتَعَلِّقَهُ، وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿إِلَيْهِ﴾ المتضمّن معنى (انتهاء الغاية) المُؤْذِنُ بِالوُصُولِ إِلَيْهِ، والانْتِهاءِ إِلَيْهِ، لِلْإِشارَةِ إلى إِبْلاغِ مالِ الصّلْحِ وإيصاله إلى وليّ المَقْتُولِ، بِأَنْ يَذْهَبَ بِهِ إِلَيْهِ، وَلا يُكَلِّفَهُ الحُضُورَ بِنَفْسِهِ لِقَبْضِهِ، أَوْ إِرْسالَ مَنْ يَقْبِضُهُ، وَفِيهِ إِشارَةٌ إلى أَنَّهُ لا يَمْطُلُهُ، وَزادَ ذَلِكَ تَقْرِيرًا، بِقَوْلِهِ: ﴿بِإِحْسَٰنٍ﴾، أَيْ: دُونَ غَضَبٍ، وَلا كَلامٍ مؤذٍ، أَوْ جَفاءِ مُعامَلَةٍ[4].

وجه التّخفيف بالاختيار بين القصاص والدّية والعفو

بيان التعبير باسم الإشارة ﴿ذَٰلِكَ﴾:

وجه الابتداء بالمشار إليه (ذلك) في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ﴾ تعظيمٌ للمنّة، وفي بيانه قولان: أَحَدُها: أَنَّ المُرادَ بِقَوْلِهِ: ﴿ذَٰلِكَ﴾ أَيِ: الحُكْمُ بِشَرْعِ القِصاصِ والدِّيَةِ تَخْفِيفٌ في حَقِّكُمْ، وَثانِيها: أَنَّ قَوْلَهُ: ذلِكَ راجِعٌ إلى قَوْلِهِ: فاتِّباعٌ بِالمَعْرُوفِ وَأَداءٌ إِلَيْهِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/141.
(2) الرّازي، مفاتيح الغيب: 5/226.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/222، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 1/122.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/143.

بِإِحْسانٍ[1]، أي: لمّا وسَّع الله سبحانه وتعالى حكم القصاص بالقتلى نبّه على علّته تعظيماً للمنّة فقال: ﴿ذَٰلِكَ﴾، أي: الأمر العظيم، الرّفق، وهو التخيير بين القصاص والعفو مجّانًا، وعلى الدّية[2].

وجه الجمع بين القصاص والرّحمة:

إنجاز القصاص عَدْلٌ، والعفوُ عن الجاني رحمة؛ تمنع الثّأر منه بعد ذلك

في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ﴾ "تَخْفِيفٌ مِنَ اللّهِ على النّاسِ، فَهُوَ رَحْمَةٌ مِنْهُ، أَيْ: أَثَرُ رَحْمَتِهِ؛ إِذِ التّخْفِيفُ في الحُكْمِ أَثَرُ الرَّحْمَةِ، فالأَخْذُ بِالقِصاصِ عَدْلٌ، والأَخْذُ بِالعَفْوِ رَحْمَةٌ"[3]، فهو جمع بين العدل والرّحمة.

نكّتة تقديم العدل على الرّحمة:

العَدْلُ في حفظ الدّماء، ونيل الجزاء مُقَدَّمٌ، والرَّحْمَةُ تَأْتِي بَعْدَهُ

قال ابن عاشور في نكتة تقديم العدل على الرّحمة: " وَلَمّا كانَتْ مَشْرُوعِيَّةُ القِصاص كافِيَةً في تَحْقِيقِ مَقْصَدِ الشّرِيعَةِ في شَرْعِ القِصاصِ، مِنِ ازْدِجارِ النّاسِ عَنْ قَتْلِ النُّفُوسِ، وَتَحْقِيقِ حِفْظِ حَقِّ المَقْتُولِ، بِكَوْنِ الخِيرَةِ لِلْوَلِيِّ، كانَ الإِذْنُ في العَفْوِ؛ إِنْ تَراضَيا عَلَيْهِ، رَحْمَةً مِنَ اللّهِ بِالجانِبَيْنِ، فالعَدْلُ مُقَدَّمٌ، والرَّحْمَةُ تَأْتِي بَعْدَهُ"[4].

قصديّة التعبير باسم الإشارة في قوله ﴿بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾:

التعبير باسم الإشارة للنأي عن الاعتداء

ولاسم الإشارة دلالة على النّأي عن الاعتداء في قوله: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾؛ حماية للقاتل بعد العفو عنه، وحماية لأولياء الدّم، حتّى لا تأخذهم العزّة بالإثم، فيقوموا بعملٍ طائشٍ، يفسد العفو، ويقوّض الصّلح، ويؤجّج الفتنة تارة أخرى؛ لأنّ أَهْلَ الجاهِلِيَّةِ كانوا يأمِّنونَ القاتلَ بالعفْوِ، وَأَخَذِ الدّيَةَ، فإذا ظَفِرُوا به بَعْدَ ذَلِكَ قَتَلُوهُ، فَنَهَى اللّهُ عَنْ ذَلِكَ[5].

---

(1) الرّازي، مفاتيح الغيب: 5/228.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 3/28.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/143.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/143.
(5) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/222، والرّازيّ، مفاتيح الغيب: 5/228.

وجه إطلاق العذاب الأليم وعدم تخصيصه:

عـدم تخصيص العـذاب الأليم بإحدى الدّارين إعـلامٌ بشياعه في كليهما

اختلف في المراد من العذاب الأليم: أهو عذاب الآخرة؟ أم هو القَتْلُ قصاصًا، وعدم قبول الدّية؟[1]، وذهب البقاعي إلى أنّ "في تسمية جزائه بالعذاب وعدم تخصيصه بإحدى الدارين إعلامٌ بشياعه في كليهما تغليظاً عليه"[2]، وفي ذِكْرِ اللّهِ تعالى لهَذا الحُكْمِ بَعْدَ ذِكْرِ الرَّحْمَةِ دَلِيلٌ على أَنَّ هَذا الجانِيَ غَيْرُ جَدِيرٍ هذه المَرَّةِ بِمَزِيدِ الرَّحْمَةِ[3].

(1) الرّازي، مفاتيح الغيب: 5/228، والقنّوجيّ، فتح البيان: 1/356.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 3/29.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/144.

﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ١٧٩﴾ [البقرة: 179]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

حياة الأمّة في تطبيق القصاص بعدلٍ وحَزْمٍ

"اعْلَمْ أَنَّهُ سُبْحانَهُ وَتَعالَى، لَمّا أَوْجَبَ في الآيَةِ المُتَقَدِّمَةِ القِصاص، وَكانَ القِصاصُ مِنْ بابِ الإِيلام؛ تَوَجَّهَ فِيهِ سُؤالٌ، وَهُوَ أَنْ يُقالَ: كَيْفَ يَلِيقُ بِكَمالِ رَحْمَتِهِ، إِيلامُ العَبْدِ الضَّعِيفِ؟ فَلِأَجْلِ دَفْعِ هَذا السّؤالِ، ذَكَرَ عَقِيبَهُ حِكْمَةَ شَرْعِ القِصاصِ، فَقالَ: ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ "[1].

شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

1) ﴿ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾: "﴿ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾ جمع لبٍّ، وهو العقل، وقيّده بعضهم بكونه خاليًا من الشّوائب، ولبّ كلّ شيءٍ خالصُهُ، سمّي بذلك؛ لكونه خالصَ ما في الإنسان من قوّةٍ، كاللّباب من الشّيء، وقيل: هو ما زكا من العقل؛ فهو أخصّ منه، وكلّ لبٍّ عقل، وليس كلّ عقلٍ لبًّا"[2]، واللُّبُّ: العقل، والجمع الألباب، وقد جمع على ألبّ، كما جمع بؤس على أبؤس، ونعم على أنعم... واللّبيب: العاقل، والجمع أَلِبَّاءُ، وقد لَبِبْتَ يا رجل -بالكسر- تَلَبُّ لَبابَةً، أي: صرت ذا لُبٍّ، وحكى يونس بن حبيب: لَبُبْتُ بالضّم، وهو نادر، لا نظير له في المضاعف، ولبُّ النّخل: قلبها. وخالص كلّ شيء لبُّهُ، ولُبُّ الجَوْزِ واللّوز ونحوِهما: ما في جوفه، والجمعُ اللُّبوب[3]، ومن المجاز: هو ذو لبّ، وهو من أولي الألباب، وهو لبيب من الألبّاء، وقد لبّ يلبُّ لبابةً، وأخذ لبابه: خالصه، وهو من لباب الإبل، ورجل لباب من قوم لباب، وحسب لباب، قال:

أَلَيْسَ بِذِي المَكَارِمِ فِي قُرَيْشٍ *** إِذَا عُدَّتْ وَذِي الحَسَبِ اللُّبَابِ[4]

(1) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 5/228-229.
(2) السّمين، عمدة الحفّاظ: (لبب).
(3) الجوهريّ، الصّحاح: (لبب).
(4) الزّمخشريّ، أساس البلاغة: (لبب).

2) ﴿تَتَّقُونَ﴾: من الجذر (وَقَيَ): "وقد توَقَّيْتُ، واتَّقَيْتُ الشَّيْءَ، وتَقَيْتُه، أَتَّقيه، وأَتْقيه تُقًى، وتَقِيَّةً، وتِقاء: حَذِرْتُه، الأَخيرة عَنِ اللِّحْيَانِيِّ، وَالاسْمُ التَّقْوى، التَّاءُ بَدَلٌ مِنَ الْوَاوِ، وَالْوَاوُ بَدَلٌ مِنَ الْيَاءِ، وَفِي التَّنْزِيلِ الْعَزِيزِ: ﴿وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾﴾ [محمد: 17]، أَي: جَزَاءُ تَقْواهم، وَقِيلَ: مَعْنَاهُ أَلهَمَهُم تَقْواهم، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ ﴿٥٦﴾﴾ [المدثر: 56]، أَي: هُوَ أَهلٌ أَن يُتَّقَى عِقابه، وأَهلٌ أَن يُعمَلَ بِمَا يُؤَدِّي إِلى مَغْفِرته، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ [الأحزاب: 1]، مَعْنَاهُ: اثْبُت عَلَى تَقْوى اللّه، ودُمْ عَلَيْه، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ مِنْهُمْ تُقَىٰةً﴾ [آل عمران: 28]، يَجُوزُ أَن يَكُونَ مَصْدَرًا، وأَن يَكُونَ جَمْعًا، وَالْمَصْدَرُ أَجود "[1]، والتَّقْوَى: "وَهِي الَّتِي يحصل بهَا الوِقَايَة من النَّار، والفوز بدار الْقَرار، وَغَايَة التّقى الْبَرَاءَة من كلّ شَيْء سوى اللّه، ومبدؤه اتّقاء الشّرك، وأوسطه اتّقاء الْحَرَام، وَالتَّقوى مُنْتَهى الطَّاعَات، والرّهبة من مبادئ التَّقْوَى، وَقد تُسمّى التَّقْوَى: خوفًا وخشية، وَيُسمّى الْخَوْف: تقوى"[2].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

تشريع القصاص فيه حياةٌ للمؤمنين، وفيه اعتدالٌ لميزان الحياة

ولكم - يا أيُّها الّذين آمنوا - فيما شرعه اللّه من القصاص حياةٌ عظيمةٌ، إذ أوجب القصاص بسبب القتلى، بأن تقتلوا القاتل عقوبة له على جريمته مع مراعاة المساواة الّتي قرّرها الشّارع الحكيم، بأن يُفرض عند القتل الواقع على وجه التّعمُّد والتّعدّي، وعند مطالبة أولياء القتيل بالقَوَدِ، أي: القصاص من القاتل، وفي هذا: حقن دمائكم، ودفع الاعتداء بينكم، وفشوّ السّلام والأمان، يدرك ذلك أهل العقول الرّاجحة الخالية من الشّوائب؛ رجاء تقوى اللّه، وخشيته بالانقياد لشرعه، والعمل بأمره[3].

وهذا الّذي ذكره علماء الاجتماع والإناسة وعلم النّفس والقانون، من مختلف الملل والنّحل، وأقرّ به منطق التّاريخ، وتداعيَات الواقع المعيش في العالم.

(1) ابن منظور، لسان العرب: 15/402.
(2) الكفويّ، الكليّات، ص: 299.
(3) طنطاويّ، التّفسير الوسيط للقرآن الكريم: 1/368، والتّفسير الميسّر: ص 27، والمختصر في تفسير القرآن الكريم: ص27.

الإيْضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغة الإيجاز بالقصر:

إنّ في ارتفاع القتل بالقصاص حياةً للناس

في قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ﴾ إيجازٌ بالقصر وهو ما ليس بحذفٍ؛ لأن المرادَ به أنَّ الإنسانَ إذا عَلِمَ أنّه متى قَتَلَ قُتِلَ كان ذلك باعثًا له قويًّا إلى أنْ لا يُقدمَ على القتال، فارتفعَ بالقتل الذي هو قصاصٌ كثيرٌ مِن قَتْلِ النّاسِ بعضِهم لبعض، فكان ارتفاعُ القتل حياةً لهم[1].

ويجوز أن يكون إيجازًا بالحذف على تقدير شرع القصاص

فـ" لَيْسَ المُرادُ مِنْ هَذِهِ الآيَةِ، أَنَّ نَفْسَ القِصاصِ حَياةٌ؛ لأنّ القِصاصَ إزالَةٌ لِلْحَياةِ، وَإزالَةُ الشّيْءِ يَمْتَنِعُ أَنْ تَكُونَ نَفْسَ ذَلِكَ الشّيْءِ، بَلِ المُرادُ أَنَّ شَرْعَ القِصاصِ، يُفْضِي إلى الحَياةِ في حَقِّ مَنْ يُرِيدُ أَنْ يَكُونَ قاتِلًا، وَفِي حَقِّ مَنْ يُرادُ جَعْلُهُ مَقْتُولًا، وَفِي حَقِّ غَيْرِهِما أَيْضًا"[2].

بلاغة جعل الشيء محلّ ضدّه:

جعل الضّدّ حاميًا لضدّه يستلزم أن يكون تحقّقُ أحدهما رافعًا للآخر

"وهذا نوع من البلاغة بليغ، وجنس من الفصاحة رفيع، فإنَّه جعل القصاص الّذي هو موتٌ حياةً، باعتبار ما يؤول إليه، من ارتداع النّاس عن قتل بعضهم بعضًا؛ إبقاء على أنفسهم، واستدامة لحياتهم، وقيل: إنَّ الحياة سلامة من القصاص في الآخرة، فإنَّه إذا اقتصَّ في الدّنيا لم يقتصّ عنه في الآخرة، والأوَّل أولى"[3]، وهو كلام فصيح لما فيه من الغرابة، وهو أنّ القصاص قتلٌ، وتفويتٌ للحياة، وقد جُعل مكانًا وظرفًا للحياة، حيث جعل الشّيءَ محلَّ ضدِّه[4]، وإنّ ضدّيّة شيْء لآخر، تستلزم أن يكون تحقّقُ أحدهما رافعًا للآخر، والقصاص لاستلزامه ارتفاع الحياة ضدٌّ لها، وقد جُعل ظرفًا لها

(1) القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة: 3/181.
(2) التّفسير الميسّر: 1/27، والمختصر في تفسير القرآن الكريم: 1/27.
(3) القنّوجي، فتح البيان: 1/357.
(4) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/222، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 1/122، والقنّوجي، فتح البيان: 1/356.

تشبيهًا له بالمظروف الحقيقيّ، من حيث إنّ المظروف، إذا حواهُ الظّرفُ؛ لا يصيبُه ما يُخلُّ به، ويفسدُهُ، ولا هو يتفرّق، ويتلاشى بنفسه، كذلك القصاص يحمي الحياة من الآفات، فكان هذا الوجه بمنزلة الظّرف، ولا شكّ أنّ في جعل الضّدّ حاميًا لضدّه اعتبارًا في غاية الحُسن والغرابة الّتي هي من نكات البلاغة وطرقها[1].

بلاغة المجاز المرسل في جملة القصاص:

ارتفاعُ سببِ الموت ديمومة للحياة، والقصاص ضمانٌ للأمان

وجه المجاز المرسل في قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ﴾ جَعْلُ ما هو تفويتٌ للحياة، وذهابٌ بها، ظرفًا لها؛ إذ القصاص مزجرة قويَّة، عن إقدام النّاس على القتل، فارتفع بسببه القتل عن النّاس، وارتفاعُ سببِ الموت ديمومة للحياة السّابقة[2].

فنّ الإرداف في جملة القصاص:

حياة الناس ردفٌ للقصاص الذي يتكافُّون عن القتال من أجله

في قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ﴾ فنُّ الإرداف[3]؛ إذ إنّ الناس يتكافُّون عن الحرب من أجل القصاص فيحيَون، فكأنَّ حياتهم ردفٌ للقصاص الذي يتكافُّون عن القتال من أجله[4]. فتُرك اللفظ الدّال على المعنى، واستُعمل غيره للدلالة على الغرض.

فائدة تعريف لفظ ﴿ٱلْقِصَاصِ﴾، وتنكير لفظ ﴿حَيَوٰةٌ﴾:

بالقصاص يرتدع القاتل، فتُصانُ حياة الأبرياء، ويزدجر البغاة

ذكر الزمخشريُّ أنَّ من إصابة محزّ البلاغة تعريف القصاص، وتنكير الحياة؛ لأنّ المعنى: ولكم في هذا الجنس من الحكم الّذي هو القصاص، حياة عظيمة لا يبلغها الوصف، وذلك أنّهم كانوا يقتلون بالواحد الجماعة، وكان يقتل بالمقتول غير قاتله، فتثور الفتنة، ويقع بينهم التّناحر، فلمّا جاء الإسلام بشرع القصاص؛ كانت فيه حياة،

(1) زاده، حاشية على البيضاويّ: 2/438.

(2) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 1/254.

(3) الإرداف هو ما "يُتْرَكُ فيه اللّفظُ الذي يُدَلُّ به عادة على المعنى، ويُسْتَخْدَمُ تعبيرٌ غيره لتحقيق أغراضٍ فكريَّة ومعاني لا تُؤَدَّى بالتعبير المتروك". ينظر: الميداني، البلاغة العربية: 2/480.

(4) محمد عفيف رملي الإندونيسي، الشامل في بلاغة القرآن: 1/89.

وهي الحياة الحاصلة بالارتداع عن القتل، لوقوع العلم بالاقتصاص من القاتل؛ لأنَّه إذا همّ بالقتل، فعَلِمَ أنّه يُقتصّ فارتدع منه، سَلِمَ صاحبُه من القتل، وسَلِمَ هو من القَوَدِ، فكان القصاص سببَ حياة نَفْسَيْن[1].

بلاغة التعبير بـ ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ﴾ دون غيرها من عبارات العرب:

العبارة القرآنيّة، أكثر إيجازًا، وبيانًا، وجمعًا للفوائد

اتَّفَقَ عُلَماءُ البَيانِ على أَنَّ هَذِهِ الآيَةَ في الإيجازِ مَعَ جَمْعِ المَعاني، بالِغَةٌ إلى أَعْلَى الدَّرَجاتِ؛ لأنّ العرب عبّروا عن هذا المعنى بألفاظ كثيرة، أَجْوَدُها قَوْلُهُمْ: (القَتْلُ أَنْفَى لِلْقَتْلِ)، ولَفْظُ القُرْآنِ أَفْصَحُ مِنْ هَذا، وَبَيانُ التَّفاوُتِ مِنْ وُجُوهٍ[2]: أَحَدُها: أَنَّ الآية أَخْصَرُ، وأوجز، وأرشق تعبيرًا؛ لأنَّها أربع كلمات، وهي: (في، أل، قصاص، حياة)، وقول العرب ستٌّ، وهي: (أل، قتل، أنفى، وضميره؛ لأنَّه اسم مشتقٌّ، اللّام، قتل)؛ ولأنّ حروفها الملفوظة الثّابتة وقفًا ووصلاً، أحد عشر حرفًا، وحروف قول العرب أربعة عشر حرفًا؛ لأنّ قَوْلَهُ: (وَلَكُمْ)، لا يَدْخُلُ في هَذا البابِ؛ إذْ لا بُدَّ للتعبيرين مِنْ تَقْديرِ ذَلِكَ. وَثانِيها: أَنَّ قَوْلَهُمْ: (القَتْلُ أَنْفَى لِلْقَتْلِ)، ظاهِرُهُ يَقْتَضِي كَوْنَ الشَّيْءِ سَبَبًا لِانْتِفاءِ نَفْسِهِ، وَهُوَ مُحالٌ، وَقَوْلَهُ: ﴿فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ﴾ لَيْسَ كَذَلِكَ؛ لأنّ المذْكُورَ، هُوَ نَوْعٌ مِنَ القَتْلِ، وَهُوَ القِصاصُ، ثُمَّ ما جَعَلَهُ سَبَبًا لِمُطْلَقِ الحَياةِ؛ لأنَّه ذَكَرَ الحَياةَ مُنَكَّرَةً، بَلْ جَعَلَهُ سَبَبًا لِنَوْعٍ مِنْ أَنْواعِ الحَياةِ. وَثالِثُها: أَنَّ قَوْلَهُمْ القَتْلُ أَنْفَى لِلْقَتْلِ، فِيهِ تَكْرارٌ لِلَفْظِ القَتْلِ، وَلَيْسَ قَوْلُهُ: في القِصاصِ حَياةٌ كَذَلِكَ. وَرابِعُها: أَنَّ قَوْلَ القائِلِ: (القَتْلُ أَنْفَى لِلْقَتْلِ)، لا يُفِيدُ إلّا الرَّدْعَ عَنِ القَتْلِ، وَقَوْلَهُ: ﴿فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ﴾، يُفِيدُ الرَّدْعَ عَنِ القَتْلِ، وَعَنِ الجَرْحِ وَغَيْرِهِما، فَهُوَ أَجْمَعُ لِلْفَوائِدِ، وَخامِسُها: أَنَّ نَفْيَ القَتْلِ مَطْلُوبٌ، تَبَعًا مِنْ حَيْثُ إِنَّهُ يَتَضَمَّنُ حُصُولَ الحَياةِ، وَأَمّا الآيَةُ؛ فَإِنَّها دالَّةٌ على حُصُولِ الحَياةِ،

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/222-223، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 1/122، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/144.

(2) الرّازي، مفاتيح الغيب: 5/229-230، و القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة: 3/181، والدّرويش، إعراب القرآن وبيانه: 1/254.

وَهُوَ مَقْصُودٌ أَصْلِيٌّ، فَكانَ هَذا أَوْلَى، وَسادِسُها: أَنَّ القَتْلَ ظُلْمًا قَتْلٌ، مَعَ أَنَّهُ لا يَكُونُ نافِيًا لِلْقَتْلِ، بَلْ هُوَ سَبَبٌ لِزِيادَةِ القَتْلِ، إِنَّما النّافِي لِوُقُوعِ القَتْلِ، هُوَ القَتْلُ المَخْصُوصُ، وَهُوَ القِصاصُ، فَظاهِرُ قَوْلِهِمْ باطِلٌ، أَمّا الآيَةُ؛ فَهِيَ صَحِيحَةٌ ظاهِرًا وَتَقْدِيرًا، فَظَهَرَ التَّفاوُتُ بَيْنَ الآيَةِ وَبَيْنَ كَلامِ العَرَبِ.

السّرّ بتخصيص ندائهم بقوله: ﴿يَـٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾:

سرُّ ندائهم أنّ حكمة القصاص لا تظهر إلّا بتأمّل العقلاء

قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ هم "الّذين يعرفون المصالح من المفاسد، وخُصّ أربابُ العقول بالنّداء، للدّلالة على أنّ الّذي يفهم قيمة الحياة، ويحافظ عليها، هم العقلاء، كما أنّهم هم الّذين يفقهون سرّ هذا الحكم، وما اشتمل عليه من المصلحة والحكمة، فعليكم أن تستعملوا عقولكم في فهم دقائق الأحكام "[1]، فـ"ناداهم للتّأمّل في حكمة القصاص، من استبقاء الأرواح، وحفظ النّفوس"[2]؛ "لأنّهم هم الّذين ينظرون في العواقب، ويتحامَون ما فيه الضّرر الآجل، وأمّا من كان مصابًا بالحمق والطّيش والخفّة؛ فإنّه لا ينظر عند سَوْرَة غضبه وغليان مراجل طيشه إلى عاقبة، ولا يفكِّر في أمر مستقبل"[3].

نكتة تعليل الحكم في جملة التذييل:

من أعمال التّقوى المحافظة على القصاص لحفظ الحياة

علَّل سبحانه هذا الحكم الّذي شرعه لعباده في ذيل الآية بقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ١٧٩﴾، أي: تعملون عمل أهل التّقوى في المحافظة على القصاص والحكم به، والإذعان له، أو عن القصاص، فتكفُّوا عن القتل[4].

(1) الهرريّ، تفسير حدائق الرّوح والرّيحان: 3/133.
(2) البيضاوي، أنوار التّنزيل: 1/122.
(3) القنّوجيّ، فتح البيان: 1/357.
(4) البيضاوي، أنوار التّنزيل: 1/122.

بيان تخصيص لفظ التّقوى:

لَيْسَ في الآيَةِ تَخْصِيصٌ لِلتَّقْوَى؛ فَحَمْلُهُ على الكُلِّ أَوْلَى

المُرادَ بقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ نَفْسُ القَتْلِ بِخَوْفِ القِصاصِ، أو: أَنَّ المُرادَ هُوَ التّقْوَى مِنْ كُلِّ الوُجُوهِ، وَلَيْسَ في الآيَةِ تَخْصِيصٌ لِلتَّقْوَى، فَحَمْلُهُ على الكُلِّ أَوْلَى، وَمَعْلُومٌ أَنَّ اللّهَ تَعالَى، إِنَّما كَتَبَ على العِبادِ الأُمُورَ الشّاقَّةَ مِنَ القِصاصِ وَغَيْرِهِ؛ لِأَجْلِ أَنْ يَتَّقُوا النّارَ، بِاجْتِنابِ المَعاصِي، وَيَكُفُّوا عَنْها، فَإِذا كانَ هَذا هُوَ المقصود الأصليّ، وجب حمل الكلام عليه[1].

❁ الفُرُوقُ المُعْجميّةُ:

اللُّبّ والعَقْل:

(أولوا الألباب) هم أصحابُ العقول المجرّدة الّتي تنظر إلى حكمة الأشياء

علّق اللّه تعالى الأحكام الّتي لا تدركها إلّا العقول الذّكيّة، بأولي الألباب، فخاطبهم بها دون من عداهم، ولذلك أورد قوله تعالى: ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾، بعد قوله: ﴿فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًاۗ﴾ [البقرة: 269]"[2]، ولبُّ النّخل: قلبها، وخالصُ كُلِّ شيْءٍ: لبُّهُ[3]، فآثر استعمال لفظ اللُّبِّ؛ لأنَّه أراد خالص العقول المجرّدة الّتي تنظر إلى حكمة الأشياء، "يا أُولِي الألبابِ ذوي العقول الكاملة، ناداهم للتّأمُّل في حكمة القصاص، من استبقاء الأرواح، وحفظ النّفوس"[4]، لأنّهم هم الّذين ينظرون في العواقب، ويتحامون ما فيه الضّرر الآجل"[5].

(1) الرّازي، مفاتيح الغيب: 5/230.
(2) السّمين، عمدة الحفّاظ: (لبب).
(3) الجوهريّ، الصّحاح: (لبب).
(4) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 1/122.
(5) القنّوجي، فتح البيان: 1/357.

﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمۡ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ إِن تَرَكَ خَيۡرًا ٱلۡوَصِيَّةُ لِلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَ بِٱلۡمَعۡرُوفِۖ حَقًّا عَلَى ٱلۡمُتَّقِينَ ١٨٠﴾ [البقرة: 180]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الوصيّة عند الموت راحةٌ للضّمير وحفظٌ لحقوق الأقربين

ذِكرُ حُكْم القصاص يوحي بالموت أو هو من مقدّمات وقوع الموت؛ لأنّ القصاص هو إعطاء الوليّ الحقَّ في أن يقتصَّ أو يعفُوَ، فيكون هذا الّذي يُقتصُّ منه، قد حضرته الوفاة، فكان له أن يوصي بما يوصيه؛ فناسب الحديث عن الوصيّة لمن حضرته الوفاة بعد الحديث عن القصاص.

شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

1) ﴿حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ﴾ " إذا دنا منه، وظهرت أماراته"[1]، وبذلك قال أهل التفسير، كالثّعلبيّ: " إذا حَضَرَ: جاء أَحَدَكُمُ المَوْتُ، يعني: أسباب الموت، وآثاره ومقدّماته، من العلل والأمراض، ولم يرد المعاينة"[2]، والفخر الرّازي: "المراد بحضور الموت مشارفته، وظهور أمارات وقوعه"[3]، والقرطبيّ: " معناه: إذا قارب الحضور، وإلّا فإذا حضر الموت لم يشهَد ميت، وهذا كقوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأۡتَ ٱلۡقُرۡءَانَ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِ﴾ [النحل: 98]، وكقوله: ﴿إِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ﴾ [الطلاق: 1]، ومثله كثير"[4].

الخير الطّيّب الحلال، هو ما يحوزه الإنسان من المال

2) ﴿خَيۡرًا﴾: "الخير هو المال"[5]، و "لا خِلافَ أَنَّهُ المالُ هاهنا، والخَيْرُ يُرادُ بِهِ المالُ في كَثِيرٍ مِنَ القُرْآنِ"[6]، و"هو (فَعْل) لا

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/223.
(2) الثّعلبيّ، الكشف والبيان: 1/223.
(3) الرّازيّ، التّفسير الكبير: 12/ 223.
(4) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 6/348.
(5) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/224.
(6) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 5/231.

(أفعل)، فلا يؤخذ منه أفضليّة الغنى"[1]، ولفظ " الخير في القرآن على وجوه: أحدها: المال؛ كقوله تعالى: ﴿إِن تَرَكَ خَيْرًا﴾، وقوله: ﴿مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ﴾ [البقرة: 215]، ﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ﴾ [البقرة: 272] أي: المال، والثّاني: الإيمان، كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا﴾ [الأنفال: 23] أي: إيمانًا، وكقوله تعالى: ﴿وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِىٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا﴾ [هود: 31]، والثّالث الخير: الفضل، كقوله تعالى: ﴿وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١١٨﴾﴾ [المؤمنون: 118]، والرّابع: العافية، كقوله: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ﴾ [الأنعام: 17]، ﴿وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ﴾ [يونس: 107]، والخامس: الأجر، كقوله: ﴿لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ﴾ [الحجّ: 36]، أي: أجرٌ[2].

المَعْنى الإجْماليُّ:

وجوب الوصيّة عند حضور المنيّة

فُرِضَ عليكم - إذا حضر أحدَكم علاماتُ الموت وأسبابُه ومقدّماته - إن ترك مالًا كثيرًا، أن يوصي للوالدين ولذوي القرابة، مع مراعاة العدل؛ فلا يدع الفقير، ويوصي للغني، ولا يتجاوز الثّلث، ويعمل بما حَدَّه الشّرع، وهو ألا يزيد على ثلث المال، وفِعْلُ هذا حقٌّ مؤكّد على المتّقين الّذين يخافون اللّه[3].

يرى جمهورُ المفسرين أنّ هذه الآية منسوخة بآية المواريث، وبعضهم يرى أنها في الوالدين والأقربين غير الوارثين، مع أنه لم يدلَّ على التخصيص بذلك دليل، والأحسن في هذا أن يقال: إنّ هذه الوصية للوالدين والأقربين مجملة، ردّها اللّه تعالى إلى العرف الجاري. ثم إنّ اللّه تعالى قدّر للوالدين الوارثين وغيرهما من الأقارب الوارثين هذا المعروف في آيات المواريث، بعد أن كان مجملا، وبقي الحكم فيمن لم يرثوا من الوالدين الممنوعين من الإرث وغيرهما ممّن حُجب بشخص أو وصف، فإنّ الإنسان مأمورٌ بالوصية لهؤلاء وهم أحقُّ النّاس ببِرّه، وهذا القول تتفق عليه الأمة،

(1) البسيلّي، التّقييد الكبير، ص: 284.
(2) السّمرقنديّ، بحر العلوم: 1/119.
(3) التّفسير الميسّر: ص27، والمختصر في تفسير القرآن الكريم: ص 27.

ويحصل به الجمع بين القولين المتقدِّمين، لأنَّ كلًّا من القائلين بهما كلّ منهم لحظ ملحظًا، واختلف المورد. فبهذا الجمع، يحصل الاتفاق، والجمع بين الآيات، لأنّه مهما أمكن الجمع كان أحسن من ادّعاء النسخ، الذي لم يدلَّ عليه دليل صحيح[1].

دلالـة النّسخ في هـذه الآيـة، وتـأكـيـد أنّـه لا وصيّة لوارث

وهذه الآية ممّا قيل: إنّها من المنسوخ، وأنَّها نُسخت بآية المواريث، ونحن لا نقول بالنّسخ، ولا نراه في تلك الآية الكريمة، فهي برّ خاصٌّ بالوالدين اللّذين قد لا يقوم الميراث بحاجتهما، وخاصَّة إذا كانا قد تقدَّمت بهما السّنّ، وخلا ظهرُهما من الابن الّذي كانا يأملانه، لكفالة شيخوختهما، وإذا كان ما فرضه الله سبحانه وتعالى لهما من ميراث، فيما ترك ابنهما، هو القدر الّذي قضت به الشّريعة، كنصيب مفروض لهما، فإنَّ ذلك لا يقضي بحرمانهما من برٍّ خاصٍّ، يجيء من قِبَل الابن، أو الابنة، وهما في حال الحياة"[2]، قال الزّجاج: " ومعنى ﴿حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ﴾: ليس هو إنَّه كتب عليه، أن يوصي إذا حضره الموت؛ لأنّه إذا عاين الموت (يكون) في شغل عن الوصيّة وغيرها، ولكنّ المعنى: (كتب عليكم أن توصُّوا، وأنتم قادرون على الوَصيةِ)، فيقول الرّجل: (إذا حضرني الموت، أي: إذا أنا مِتُّ، فلفلان كذا)، على قدر - ما أمِرَ به - والّذي أمِرَ به أن يجتهد في العدل، في وقت الإمْهَال، فيوصي بالمعروف - كما قال الله ﷻ - لوالديه ولأقربيه، ومعنى بالمعروف: بالشّيءِ الّذي يعلم ذو التّمييز، أنّه لا جَنَفَ فيه ولا جَوْر، وقد قال قوم: إنّ المنسوخ من هذا، ما نسخته المواريث، وأمر الوصيّة في الثّلث باقٍ، وهذا القول ليس بشيْءٍ؛ لأنّ إجماع المسلمين، أنّ ثلث الرّجل له، إن شاءَ أن يوصي بشيْءٍ فله، وإن ترك؛ فجائز"[3].

(1) السّعديّ، تيسير الكريم الرحمن: ص85.
(2) عبد الكريم الخطيب، التّفسير القرآنّي للقرآن: 1/196.
(3) الزّجاج، معاني القرآن وإعرابه: 1/250.

الإيْضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالة وجه تذكير الفعل المسند للوصيّة المؤنّثة:

طول الكلام بين الفعل ومسنده المؤنث سوّغ تذكير الفعل

ذُكّر الفعل في قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ﴾؛ لأنَّه أراد المصدر: الإيصاء، أو أنْ يُوصَى، والوصيّةُ نائب فاعلٍ لـ﴿كُتِبَ﴾، وذُكِّر فعلُها للفاصل بَيْنَ الفِعْلِ والوَصِيَّةِ؛ لأنّ الكَلامَ لَمّا طالَ، كانَ الفاصِلُ بَيْنَ المُؤَنَّثِ والفِعْلِ، كالعِوَضِ مِنْ تاءِ التَّأْنِيثِ ولذلك ذكَّر الرّاجع في قوله: ﴿فَمَنْ بَدَّلَهُۥ بَعْدَ مَا سَمِعَهُۥ﴾[1].

سرّ تأخير نائب الفاعل:

تأخير نائب الفاعل للتشويق، والترقّب

سبب تأخير نائب الفاعل المتحدَّث عنه في قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ﴾ وذكره بعد طول كلام، يكون عادة للتّشويق، ولترقّب النّفس إلى معرفة ما فرضَهُ اللّه تعالى، عند دنوِّ الموت[2].

علّة حَذْفِ فاعلِ الفعل المبنيّ للمفعول:

أستُغني بالمذكور عن ذكر الفاعل للعلم به، ولشدّة حضوره

حُذف الفاعل للعلم به؛ واستُغنى عن ذكره؛ لشدّة الحضور، قال الجمل في الفتوحات الإلهيّة: "قوله: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ﴾، كُتِبَ: مبنيٌّ للمفعول، وحذف الفاعل للعلم، وهو اللّه تعالى"[3].

دلالة (إذا) بين الشّرطيّة، والظّرفيّة:

بيان (إذا) وجوب الوصيّة عند ظهور علامات الوفاة

(إذا): إنْ كانت ظرفيَّة محضة، فغير مضمّنة معنى الشّرط، أي: (كُتِبَ عَلَيْكُمْ أَنْ يُوصِيَ أَحَدُكُمْ وَقْتَ حُضُورِ المَوْتِ لهُ)، أو هي شرطيَّة ظرفيَّة مُتضمِّنة معنى الشّرط، فيكون قد اجتمع شرطان، وجواب كُلٍّ محذوفٌ، دلَّ عليه لفظُ الوصيَّة، وتقديرُ المحذوف فيهما: مضارعٌ مقرونٌ بلام الأمر، أي: (فَلْيُوصِ)[4].

---

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/224، والرّازي، مفاتيح الغيب: 5/232.

(2) الرّوينيّ، من غريب بلاغة القرآن الكريم: ص: 516.

(3) الجمل، الفتوحات الإلهيّة: 1/216.

(4) الجمل، الفتوحات الإلهيّة: 1/217.

بلاغة المجاز في حضور الموت:

المراد بحضور الموت شهود أَمَاراتِه، وعلاماته وهو من استعمال السّبب كناية عن المسبّب

لَيْسَ المرادُ من قوله تعالى: ﴿حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ﴾ مُعايَنَةَ المَوْتِ؛ لأنّ في ذَلِكَ الوَقْتِ يَكُونُ عاجِزًا عَنِ الإيصاءِ، بل المُرادَ -بحسب الأكثرين- حُضُورُ أَمارَةِ المَوْتِ، وَهُوَ المَرَضُ المخُوفُ، وَذَلِكَ ظاهِرٌ في اللُّغَةِ، يُقالُ فِيمَنْ يُخافُ عَلَيْهِ المَوْتُ: (إِنَّهُ قَدْ حَضَرَهُ المَوْتُ)، كَما يُقالُ لِمَنْ قارَبَ البَلَدَ: إِنَّهُ قَدْ وَصَلَ[1]، فالّذي يحضر ليس الموت، بل علاماته كالأمراضِ والجراحات، الّتي يُظنُّ منها الموتُ عادةً[2]، ولعجزه في هذا الوقت عن الإيصاء، فُسّر بحضُور أسبابه، وظُهُور أماراته، من نحو العلل المخُوفة، والهرم البالغ، وقد شاع عند العرب استعمالُ السّبب كناية عن المسبّب[3].

وهو استعارة مكنيّة بتشبيه الموت بمن يأتي من الحضور بجامع الحركة

وفي قوله تعالى: ﴿إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ﴾ استعارة مكنيّة حيث شَبّه الموتَ بمَن يأتي من الحضور بجامع الحركة في كلٍّ، ثم حذف المشبّه به، ورمز إليه بشيءٍ من لوازمه وهو الحضور[4].

وجه تسمية المال ﴿خَيْرًا﴾:

المعتبر في الوصيّة المال المُتحَصَّل من وجوه الحلال

قوله تعالى: ﴿إِن تَرَكَ خَيْرًا﴾، بمعنى: ترك مالًا على الإطلاق، أو ترك مالًا كثيرًا، يمكن الوصيّة منه للأقربين من أولي الأرحام، ويبقى للورثة أنصبتهم الّتي شرعها الله لهم فرضًا أو تعصيبًا، وإنّما سمّي المال هنا خيرًا، تنبيهًا على معنًى لطيفٍ، وهو أنّ الّذي تحسُنُ الوصيَّةُ به، ما كان مجموعًا من المال من وجهٍ محمود[5]، أي: "ينبغي أنْ يكونَ حلالًا طيِّبًا"[6]؛ لأنّ الله تعالى لا يفرض وصيّة على مالٍ حرامٍ؛ لأنَّه سيكون إقرارًا بحلِّه.

(1) الرّازي، مفاتيح الغيب: 5/231.
(2) الصّاوي، حاشية الصّاويّ: 2/76.
(3) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 1/374.
(4) الإندونيسي، الشامل في بلاغة القرآن: 1/90.
(5) الطّيبي، فتوح الغيب: 3/220.
(6) الصّاوي، حاشية الصّاوي: 2/76.

دلالة عطف العامّ على الخاصّ:

في قوله تعالى: ﴿لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ﴾ عطفُ عامٍّ على الخاصِّ[1]؛ فالوالدان داخلان ضمن الأقربين، والمراد الاهتمام بالوالدين، وتمييز حقِّهما، ولذلك قدّمهما.

وجه العطف العناية بالوالدين وتمييز حقِّهما

دلالة التعبير بلفظ الأقربين:

اخْتَلَفُوا في قَوْلِه: ﴿وَٱلْأَقْرَبِينَ﴾ مَنْ هُمْ؟ فَقالَ قائِلُونَ: هُمُ الأَوْلادُ، فَعَلَى هَذا أَمَرَ اللّهُ تَعالَى بِالوَصِيَّةِ لِلْوالِدَيْنِ والأَوْلادِ، والقَوْلُ الثّانِي: أَنَّ المُرادَ مِنَ الأَقْرَبِينَ مَنْ عَدا الوالِدَيْنِ، والقَوْلُ الثّالِثُ: أَنَّهُمْ جَمِيعُ القَرابات؛ مَنْ يَرِثُ مِنْهُمْ وَمَنْ لا يَرِثُ، والقَوْلُ الرّابِعُ: هُمْ مَنْ لا يَرِثُونَ مِنَ الرَّجُلِ مِنْ أَقارِبِهِ[2].

الأقربون ما سوى الوالدين من الأقارب

قصديّة التعبير بلفظ (المعروف):

يحتمل قَوْلُهُ تعالى: ﴿بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ أنْ يكُون المُرادُ قدْر ما يُوصي به، وَيَحْتَمِلُ تَمْيِيزَ مَنْ يُوصَى لَهُ مِنَ الأَقْرَبِينَ، مِمَّنْ لا يُوصَى؛ لأنّ كِلا الوَجْهَيْنِ يَدْخُلُ في المَعْرُوفِ، والغاية أَنْ يَسْلُكَ الطّرِيقَ الجَمِيلَةَ في الوصيّة الخالِيَة عَنْ شَوائِبِ الإيحاشِ؛ وبذا يكون لفظ (المعروف) ضبطًا للمعيار الّذي تقوم عليه الوصيّة، فلا يتحكّم فيها هوى، فتميل بجانب، وتخفّ بجانب، أو أن يراد بها الكيد لا البرّ[3].

ذكرُ (المعروف) ضبطٌ للمعيار الّذي تقوم عليه الوصيّة بعيدًا عن الهوى والمُضارّة

نكتة التّأكيد بالمصدر ﴿حَقًّا﴾:

"قَوْلُهُ تَعالَى: ﴿حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ﴾ زِيادَةٌ في تَوْكِيدِ وُجُوبِهِ، فَقَوْلُهُ: حَقًّا: مَصْدَرٌ مُؤَكِّدٌ، أَيْ: حَقَّ ذَلِكَ حَقًّا"[4]، فهو مؤكّد لمضمون الجملة، وهي (كُتِبَ عَلَيْكُمْ الوَصِيَّةُ)، فالكَتْبُ، أي: الفَرْضُ: لا

التّأكيد بالمصدر (حقًّا) زيادة في وجوب توكيد مضمون الجملة

(1) الصّاوي، حاشية الصّاوي: 2/76.
(2) الرّازي، مفاتيح الغيب: 5/232-233.
(3) عبد الكريم الخطيب، التّفسير القرآنّي للقرآن: 1/196.
(4) الرّازي، مفاتيح الغيب: 5/233.

يكون إلّا حقًّا، فالجملة مشتملة على معنى هذا المصدر، فكان مؤكِّدًا لمضمونها[1].

دلالة تّخصيص الواجب بالمتّقين:

وجه التخصيص بالمتقين تشريفٌ لهم، وإغراءٌ للنّاس؛ ليَحْذوا حَذْوَهم

ومع أنّ الواجبَ في قوله: ﴿حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ﴾ لا يختصُّ بالمتّقين دون غيرهم، إلا أنّه تعالى خصّهم بالذّكر؛ تشريفًا للرّتبة، ليتسابق النّاس إليها، وللإشارة إلى أنّهم يُسارعون في تنفيذ أوامر اللّه تعالى، وينقادون انقيادًا مطلقًا له سبحانه، بإيثارهم التَّقْوَى، وَتَحَرّيها، وَجَعْلِها طَرِيقَةً وَمَذْهَبًا؛ فهذا إغراءٌ للنّاس؛ ليحذوا حذوهم[2].

(1) الجمل، الفتوحات الإلهيّة: 1/217.

(2) الرّويني، من غريب بلاغة القرآن الكريم، ص: 517.

المحتويات

الجزء الأول 7

سورة البقرة 9

- [البقرة: 98] 10
- [البقرة: 99] 14
- [البقرة: 100] 21
- [البقرة: 101] 27
- [البقرة: 102] 32
- [البقرة: 103] 51
- [البقرة: 104] 56
- [البقرة: 105] 61
- [البقرة: 106] 69
- [البقرة: 107] 81
- [البقرة: 108] 88
- [البقرة: 109] 99
- [البقرة: 110] 115
- [البقرة: 111] 124
- [البقرة: 112] 132
- [البقرة: 113] 141
- [البقرة: 114] 152
- [البقرة: 115] 165
- [البقرة: 116] 171
- [البقرة: 117] 178
- [البقرة: 118] 183
- [البقرة: 119] 192
- [البقرة: 120] 198
- [البقرة: 121] 213
- [البقرة: 122] 219
- [البقرة: 123] 224
- [البقرة: 124] 234
- [البقرة: 125] 253
- [البقرة: 126] 268
- [البقرة: 127] 278
- [البقرة: 128] 287
- [البقرة: 129] 294
- [البقرة: 130] 303
- [البقرة: 131] 309
- [البقرة: 132] 312
- [البقرة: 133] 320
- [البقرة: 134] 328
- [البقرة: 135- 138] 333
- [البقرة: 139- 141] 365

الجزء الثاني **385**

- [البقرة: 142] 386
- [البقرة: 143] 403
- [البقرة: 144] 428
- [البقرة: 145] 445
- [البقرة: 146] 458
- [البقرة: 147] 471
- [البقرة: 148] 480
- [البقرة: 149] 490
- [البقرة: 150] 497
- [البقرة: 151] 507
- [البقرة: 152] 518
- [البقرة: 153] 525
- [البقرة: 154] 532
- [البقرة: 155] 538
- [البقرة: 156] 546
- [البقرة: 157] 550
- [البقرة: 158] 557
- [البقرة: 159] 570
- [البقرة: 160] 580
- [البقرة: 161] 585
- [البقرة: 162] 590
- [البقرة: 163] 595

- [البقرة: 164] 600
- [البقرة: 165] 615
- [البقرة: 166] 629
- [البقرة: 167] 636
- [البقرة: 168] 643
- [البقرة: 169] 652
- [البقرة: 170] 658
- [البقرة: 171] 672
- [البقرة: 172] 691
- [البقرة: 173] 702
- [البقرة: 174] 717
- [البقرة: 175] 731
- [البقرة: 176] 738
- [البقرة: 177] 745
- [البقرة: 178] 773
- [البقرة: 179] 787
- [البقرة: 180] 794

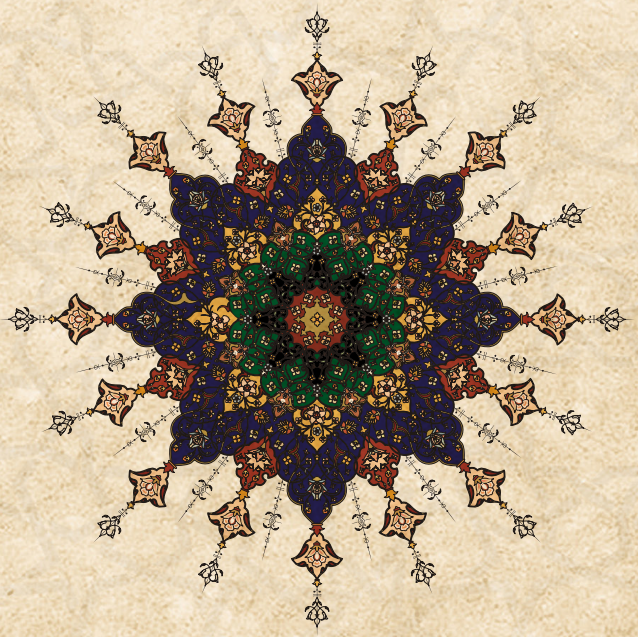

مجمع القرآن الكريم بالشارقة

موسوعة التفسير البلاغي

المجلد الثالث

سورة البقرة من الآية 181 إلى الآية 247

موسوعة التفسير البلاغي

Government of Sharjah حكومة الشارقة
مجمع القرآن الكريم بالشارقة
HOLY QURAN ACADEMY IN SHARJAH

موسوعة التفسير البلاغي

المجلد الثالث

سورة البقرة من الآية 181 إلى الآية 247

نخبة من علماء مجمع القرآن الكريم بالشارقة

منشورات القاسمي
AL QASIMI PUBLICATIONS
2023

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثالث، سورة البقرة من الآية 181 إلى الآية 247
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1444هـ - 2023م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2023م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: سورة البقرة من الآية 181 إلى الآية 247 [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2023.
مج. 3 ، 800 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-798-54-5
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 3 : سورة البقرة من الآية 181 إلى الآية 247.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث ج- المستغانمي، امحمد صافي

الترقيم الدولي : 978-9948-798-54-5
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-1789539 بتاريخ 2023/03/10م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الجُزْءُ الثَّانِي

سُورَةُ البَقَرَةِ

﴿فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ بَعۡدَ مَا سَمِعَهُۥ فَإِنَّمَآ إِثۡمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ١٨١﴾ [البقرة: 181]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لمّا فرض الله الوصيّة؛ نبّه على حفظها، وبيّن إثم تغييرها:

"اعْلَمْ أَنَّهُ تَعالَى لَمّا ذَكَرَ أَمْرَ الوَصِيَّةِ وَوُجُوبَها، وَعِظَمَ أَمْرِها؛ أَتْبَعَهُ بِما يَجْرِي مَجْرَى الوَعِيدِ في تَغْيِيرِها"[1]، فقد "أوجب الله تلك الوصيّة، حقًّا مقرّرًا، على من اتّقى الله، وآمن بكتابه، فمَن غيّر الإيصاء، مِن شاهد ووصيّ بعد سماعه؛ فإنّما ذنْبُ هذا التّغيير عليه، وبرئت منه ذمّة المُوصي، وثبت له الأجر عند ربّه، والتّغيير إمّا بإنكار الوصيّة أو بالنّقص فيها، بعد أن علمها، والله سميع لقول المبدّلين والموصين، عليمٌ بنيّاتهم وبكلّ فعل، وهذا وعيد شديد لهم"[2].

شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

1) ﴿بَدَّلَهُ﴾: من التّبديل، وهو التّغيير والتّحريف، قال الطّبريّ: " يعني تَعَالَى ذِكْرُهُ بِذَلِكَ: فَمَنْ غَيَّرَ مَا أَوْصَى بِهِ الْمُوصِي مِنْ وَصِيَّتِهِ بِالْمَعْرُوفِ لِوَالِدَيْهِ أَوِ أَقْرَبِيهِ الَّذِينَ لَا يَرِثُونَهُ بَعْدَ مَا سَمِعَ الْوَصِيَّةَ؛ فَإِنَّمَا إِثْمُ التَّبْدِيلِ عَلَى مَنْ بَدَّلَ وَصِيَّتَهُ"[3]، ومن معنى التّبديل ما ورد في قوله تعالى: ﴿ٱئۡتِ بِقُرۡءَانٍ غَيۡرِ هَٰذَآ أَوۡ بَدِّلۡهُ﴾ [يونس: 15]، وقوله تعالى: ﴿فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ بَعۡدَ مَا سَمِعَهُۥ﴾، أَيْ: بدَّل الإيصاء، وغيَّره من وصيٍّ ووليٍّ وشاهدٍ بعد ما سمعه عن الميت"[4].

2) ﴿إِثۡمُهُۥ﴾: أَصْلُ مادّة (أَثَمَ): تَدُلُّ على البُطْءِ والتَّأَخُّرِ، يُقالُ: ناقَةٌ آثِمَةٌ، أَيْ: مُتَأَخِّرَةٌ، والإِثْمُ مُشْتَقٌّ مِنْ ذَلِكَ؛ لأَنّ ذا الإِثْمِ بَطِيءٌ عَنِ الخَيْرِ، مُتَأَخِّرٌ عَنْهُ[5]، والإِثْمُ:

(1) الرّازي، مفاتيح الغيب: 5/235.
(2) وهبة الزّحيلّي، التّفسير المنير: 2/120.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 3/139.
(4) الواحديّ، الوجيز، ص: 149.
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (أَثَمَ).

الذَّنبُ، وقيلَ: الإثمُ والآثامُ: اسمٌ للأفعالِ البطيئةِ عنِ الخيراتِ، لتضمُّنهِ معنى البُطءِ[1]، والإثم المعصيَةُ، وما يخالف أمر اللّه.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

الوصيّة أمانة لا يجوز تبديلها، ولا تحريف مضمونها

فمَن غيّر في الوصيّة بزيادة أو نقص أو منع بعد علمه بالوصيّة؛ فإنّما يكون إثم ذلك التّبديل على المغيّرين، لا على الموصي، ولا على المستفيدين من التّبديل بغير علمهم، إنّ اللّه سميعٌ لأقوال عبيده، عليم بأفعالهم، لا يفوته شيء من أحوالهم، وسيجازيهم على ذلك[2].

❁ الإيْضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالة (مَنْ) في صدر الآية:

المقصودُ بـ(مَنْ) الوصيُّ المبدِّل، والشاهدُ المغيِّر

يجوز أنْ تكون (مَنْ) في قوله تعالى: ﴿فَمَنْ بَدَّلَهُۥ بَعْدَ مَا سَمِعَهُۥ﴾: شرطيَّة وموصولة، والفاء واجبة؛ إنْ كانت شرطيَّة، وجائزة؛ إنْ كانت موصولة"[3]، والمراد بالـمُبَدِّلِ في الآية على الـمَشْهُورِ: الوَصِيُّ، بتغيير الوصيّة، أَوِ الشّاهِدُ، بتغيير الشَهادَةً، أَوْ كتمانها لمنع وصول المالِ إلى مُسْتَحِقِّهِ[4]. أو الموصي له، أو الحاكم، وكلّ من له مدخل في ذلك، إذا غيّر شيئًا بعدما سَمِعَهُ، أي: عَلِمَهُ، فإنّ إثم ما يجري في ذلك راجعٌ إليه[5]، وفي الآية زَجْرٌ، بِقَوْلِهِ: ﴿فَمَنْ بَدَّلَهُۥ بَعْدَ مَا سَمِعَهُۥ﴾ مَنْ أَعْرَضَ عَنْ هَذا التَّكْلِيفِ[6].

وجه تقيد السّمع في حقِّ الموصِي:

كلّ وصيّة بما لم يأمر به الله، فهي باطلة غير ملزمة

ليس المقصود في قوله تعالى: ﴿فَمَنْ بَدَّلَهُۥ بَعْدَ مَا سَمِعَهُۥ﴾ الـمُوصِي؛ بدلالة قوله: ﴿بَعْدَ مَا سَمِعَهُۥ﴾، أي: القول الدّال على

(1) السّمين، عمدة الحفّاظ: (أَثَمَ).
(2) نخبة من العلماء، التّفسير الميسّر: ص: 27، جماعة من العلماء، المختصر في تفسير القرآن الكريم: ص 27.
(3) الجمل، الفتوحات الإلهيّة: 1/217.
(4) الرّازي، مفاتيح الغيب: 5/235.
(5) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 1/383.
(6) الرّازي، مفاتيح الغيب: 5/235.

الوصية، والموصي لم يسمع القول، بل قاله، كما أنّ من حقّ الموصي، أن يغيّر، ويبدّل ما دام حيًّا، ولا يأثم في ذلك، إلّا إذا جار وقصد الشّرّ، ولا تنفّذ وصيّته إلّا بعد موته؛ لذا فالضّمير لا يعود إلى الموصي، ويصحُّ كونه المُوصِي باعتبار أنّه يضع الوصية في غير موضعها، فيوصي لغير الوالدين والأقربين، فيكون المقصود بالمسموع حكمَ الآية، لا الوصيّة، وهذا هو مقصد المفسّرين، رحمهم الله، وشرط اعتبار إثم تبديل الوصيّة العلم بها، وبانتفاء العلم ينتفي الإثم[1].

وجه تذكير الضّمير في قوله تعالى: ﴿فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ﴾:

في قوّة التّذكير إشارةٌ إلى وجوب الالتزام بتنفيذ الوصيّة بقوّة دون تغيير ما لم تتضمَّن مَيلًا

مرجعُ الضّمير (الهاء) في قوله: ﴿فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ﴾ على الوصيّة وإنْ كان لفظها مؤنّثًا؛ لأنَّها في معنى المذكّر، وهو الإيصاء[2]، " أو تعود على نفس الإيصاء المدلول عليه بالوصية إلّا أنّ اعتبار المذكر في المؤنث قليل، وإن كان مجازيًّا"[3]، أو أنّه أراد قول المُوصِي، وقولُهُ مُذَكَّرٌ"[4]. وعلّة تذكير الضمير العائد إلى الوصيّة ما يؤدّيه التّذكير بقوّته من إشارة إلى وجوب الالتزام بتنفيذ الوصيّة بقوّة دون تغيير، إلّا بشرط الظّلم أو الميل والزّيغ.

فائدةُ الحصْرِ بـ﴿فَإِنَّمَآ﴾:

أفاد الحصر بإنَّما أنّ الإثم يعودُ على المبدّلين للوصيّة، لا على المستفيدين منها

كلمة (إنَّما) في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَآ إِثۡمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓ﴾؛ لِلْحَصْرِ[5]، والمعْنى: أَنَّ إِثْمَ ذَلِكَ التَّبْدِيلِ لا يَعُودُ إِلّا إلى المُبَدِّلِ[6]، فالظّلم وقع ممّن تقصّد تغيير الوصيّة، والإثم لا يتعدّاهم إلى

(1) الرّويني، من غريب بلاغة القرآن الكريم، ص: 517.
(2) الزّمخشري، الكشّاف: 1/224.
(3) الجمل، الفتوحات الإلهيّة: 1/217.
(4) الماورديّ، النّكت والعيون: 1/233.
(5) الرّازي، مفاتيح الغيب: 5/235.
(6) الرّازي، مفاتيح الغيب: 5/235- 236.

المستفيدين من التّغيير، إن كانوا من غير المبدّلين، وللميّت أجر قصده، وثواب وصيّته، وإن غُيّرت بعده[1].

علّة إقامة الظّاهر مقام المضمر:

"الضّميرُ في قَوْلِهِ: ﴿إِثْمُهُۥ﴾ عائِدٌ إلى التَّبْدِيلِ"[2]، أي: الإيصاء للمبدَّل[3]، و"إقامة الظّاهر مقام المضمر في قوله ﴿فَإِنَّمَآ إِثْمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓ﴾؛ لزيادة الاهتمام بشأنه، ولو جرى على نسق الكلام السّابق؛ لقال: فإنّما إثمه عليه وعلى مَن يبدّله، وذلك للتّشهير والمناداة بفضائح المبدّلين[4].

وجه الإظهار لزيادة العناية به، والتّشهير بالمبدّلين، والمناداة بفضائحهم

سرّ العدول عن المفرد إلى الجمع، في: ﴿يُبَدِّلُونَهُۥٓ﴾:

استعمل صيغة الجمع، "للإشعار بشمول الإثم، لكلِّ من شارك في تغيير الوصيَّة، سواء أكان مباشرًا لتبديلها -عن غير إرادة الموصي- بنفسه، أم كان مرتضيًا بهذا التّبديل، وموافقًا عليه، والله أعلم"[5].

شمول الإثم لكلّ من شارك في تغيير الوصيّة

نكتة وضع الاسم الموصول موضع الضمير:

وضع الموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَآ إِثْمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓ﴾ في موضع الضمير لتأكيد الإيذان بعلّيّة ما في حيّز الصِّلة الأُولى[6].

وضع الموصول موضعَ الضمير؛ لتأكيد الإيذان بعلّيّة ما في حيّز الصِّلة الأُولى

بلاغة التّذييل بقول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾:

معنى قَوْلِهِ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾: أَنَّهُ تَعالَى سَمِيعٌ لِلْوَصِيَّةِ على حَدِّها، وَيَعْلَمُها على صِفَتِها، فَلا يَخْفَى عَلَيْهِ خافِيَةٌ مِنَ التَّغْيِيرِ الواقِعِ فِيها[7]، وناسبَ هذا المعنى دلالةُ صيغتَي المبالغة (فعيل) على الثّبات، والدّوام.

الله سميعٌ عليمٌ؛ لأنّ علمه لا يعزب عنه شيءٌ في الأرض ولا في السّماء

---

(1) الماورديّ، النّكت والعيون: 1/233.
(2) الرّازي، مفاتيح الغيب: 5/235-236.
(3) الجمل، الفتوحات الإلهيّة: 1/217.
(4) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 1/259.
(5) الرّويني، من غريب بلاغة القرآن الكريم، ص: 518.
(6) الإندونيسي، الشامل في بلاغة القرآن: 1/90.
(7) الرّازي، مفاتيح الغيب: 5/236.

الفُرُوقُ المُعْجميّةُ:

الإثم والذّنب:

الإثمُ التّأخُّر عنْ فعْل الطّاعة، والـذّنـبُ ما تُسْتَوْخَمُ عُقْبَاهُ

أَصْلُ مادّة (أَثِمَ): تَدُلُّ على البُطْءِ والتَّأَخُّرِ، يُقالُ: ناقَةٌ آثِمَةٌ، أَيْ: مُتَأَخِّرَةٌ، والإِثْمُ مُشْتَقٌّ مِنْ ذَلِكَ؛ لأَنّ ذا الإِثْمِ بَطِيءٌ عَنِ الخَيْرِ مُتَأَخِّرٌ عَنْهُ[1]، والإِثْمُ: الذَّنبُ، وقيلَ: الإِثمُ والآثامُ: اسمٌ للأفعالِ البطيئةِ عنِ الخيراتِ؛ لتضمُّنه معنى البطءِ[2]، أمّا الذّنب، فمِنْ ذَنَبِ الدّابة، ويُعبّر به عن المتأخّر والرّذل، والذَّنْبُ في الأصل: الأخذ بذنب الشّيء، يقال: ذَنَبْتُهُ: أصبت ذنبه، ويستعمل في كلّ فعل يستوخم عقباه اعتبارًا بذنب الشّيء، ولهذا يسمّى الذَّنْبُ: تبعة، اعتبارًا لما يحصل من عاقبته، وجمع الذّنب ذُنُوب[3]، فهو يلاحظ فيه التّبعة، وما يحصل في عاقبته من جزاء وعقاب، أمّا الإثم؛ فهو مجرّد التّأخر عن فعل الطّاعة، وهذا هو المناسب لسياق الحديث عن تبديل الوصيّة، فهو تأخّر عن الفعل الصّحيح الّذي هو أداء الوصيّة بلا تبديل، ولم يجرِ في الحديث المؤاخذة على هذا الإثم ولا العقوبة، بل ذيّل بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (أَثَمَ).
(2) السّمين، عمدة الحفّاظ: (أَثَمَ).
(3) الرّاغب، المفردات: (ذنب).

﴿فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ١٨٢﴾ [البقرة: 182]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

المقارنة بين التّبديل بالباطل للتّحريف، والتّبديل بالحقّ للإصلاح:

من التّبديل ما يوجب الإثم، ومنه ما يستوجب المثوبة

"اعْلَمْ أَنَّهُ تَعَالَى لَمَّا تَوَعَّدَ مَنْ يُبَدِّلُ الْوَصِيَّةَ؛ بَيَّنَ أَنَّ الْمُرَادَ بِذَلِكَ التَّبْدِيلِ أَنْ يُبَدِّلَهُ عَنِ الْحَقِّ إِلَى الْبَاطِلِ، أَمَّا إِذَا غَيَّرَهُ عَنْ بَاطِلٍ إِلَى حَقٍّ عَلَى طَرِيقِ الْإِصْلَاحِ؛ فَقَدْ أَحْسَنَ، وَهُوَ الْمُرَادُ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ﴾؛ لِأَنَّ الْإِصْلَاحَ يَقْتَضِي ضَرْبًا مِنَ التَّبْدِيلِ وَالتَّغْيِيرِ، فَذَكَرَ تَعَالَى الْفَرْقَ بَيْنَ هَذَا التَّبْدِيلِ وَبَيْنَ ذَلِكَ التَّبْدِيلِ الْأَوَّلِ، بِأَنْ أَوْجَبَ الْإِثْمَ فِي الْأَوَّلِ، وَأَزَالَهُ عَنِ الثَّانِي، بَعْدَ اشْتِرَاكِهِمَا فِي كَوْنِهِمَا تَبْدِيلَيْنِ وَتَغْيِيرَيْنِ؛ لِئَلَّا يُقَدَّرَ أَنَّ حُكْمَهُمَا وَاحِدٌ فِي هَذَا الباب"[1]، وقد "استثنى من إثم التّبديل حالة ما إذا كان للإصلاح، وإزالة التّنازع"[2]. ولهذا "ذكر من يبدّل بالباطل، ثمّ من يبدّل بالحقّ"[3]، أي: ليس كلّ تبديلٍ إثمًا.

شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

لا يخاف من أحاطت به من الله الألطاف

1) ﴿خَافَ﴾: "الْخَوْفُ: الْفَزَعُ، وَكَذَلِكَ: التَّخْوِيفُ، وَطَرِيقٌ مَخُوفٌ: يَخَافُهُ النَّاسُ، وَمُخِيفٌ: يُخِيفُ النَّاسَ، أَخْبَرَنِي أَبُو نَصْرٍ عَنِ الْأَصْمَعِيِّ: الْخِيفُ: جَمَاعَةُ خِيفَةٍ مِنَ الْخَوْفِ، قَالَ الْهُذَلِيُّ:

فَلَا تَقْعُدَنَّ عَلَى زَخَّةٍ *** فَتُضْمِرَ فِي الْقَلْبِ وَجْدًا وَخِيفَا

وَوَجَعٌ مُخِيفٌ، أَيْ: يُخِيفُ مَنْ رَآهُ، وَحَائِطٌ مَخُوفٌ وَثَغْرٌ مَخُوفٌ

(1) الرّازيّ، التّفسير الكبير: 5/236، والواحديّ، التّفسير البسيط: 3/551.
(2) الهرري، حدائق الرّوح والرّيحان: 3/135.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/224.

وَطَرِيقٌ مَخُوفٌ، أَيْ: يُفْرَقُ مِنْهُ، وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ﴾ [النّحل: 47]"[1]، "وَالْخَوْفُ وَالْخَشْيَةُ يُسْتَعْمَلَانِ بِمَعْنَى: الْعِلْمِ؛ وَذَلِكَ لِأَنَّ الْخَوْفَ عِبَارَةٌ عَنْ حَالَةٍ مَخْصُوصَةٍ مُتَوَلِّدَةٍ مِنْ ظَنٍّ مَخْصُوصٍ، وَبَيْنَ الْعِلْمِ وَبَيْنَ الظَّنِّ مُشَابَهَةٌ فِي أُمُورٍ كَثِيرَةٍ؛ فَلِهَذَا صَحَّ إِطْلَاقُ اسْمِ كُلٍّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا عَلَى الْآخَرِ"[2].

ومعنى قوله تعالى: "﴿فَمَنْ خَافَ﴾، أي: فمَن تَوَقَّعَ وعَلِمَ، وهذا في كلامهم شائع؛ يقولون: أخافُ أنْ تُرسلَ السَّماء، يريدون التوقّع والظّنّ الغالب الجاري مجرى العلم"[3]، "أي: علم من الرّجل في وصيته ميلاً عن الحقّ"[4].

2) ﴿جَنَفًا﴾: من: جَنِفَ يَجْنَفُ جَنَفًا: إذا مال"[5]. "الجَنَفُ: الْمَيْلُ فِي الْأُمُورِ، وَأَصْلُهُ الْعُدُولُ عَنِ الاسْتِوَاءِ"[6]، "قَالَ اللَّيْث: الجَنَفُ الْمِيل فِي الْكَلَام، وَفِي الأُمور كلِّها، تَقول: جَنَفَ فلانٌ علينا، وأَجْنَفَ فِي حُكمه، وَهُوَ شَبيهٌ بالحَيْف، إلّا أنَّ الحَيف من الحَاكِم خاصّة، والجَنَفُ عَامٌّ، وَمِنْه قَولُ اللّه جلَّ وعزَّ: ﴿غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ﴾ [المَائِدَة: 03]، أَي: مُتَمَايل مُتَعَمِّد، ورجلٌ أَجْنَف: فِي أَحَدِ شِقَّيْه مَيَلٌ على الآخر، قلت: أمَّا قَوْله الحَيْفُ من الحَاكِم خاصَّة، فَهُوَ خطأٌ، والحَيْفُ يكون مِن كلّ مَنْ حاف، أَي: جارَ."[7].

وقوله تعالى: " ﴿جَنَفًا﴾ أي: ميلًا، "أي: مَيْلاً، أو إثماً، أو قَصداً لإثم"[8].

3) ﴿أَوْ إِثْمًا﴾: أَثِمَ فلانٌ يأثم إثمًا، أي: وقعَ في الإثم، كقولك: حَرِجَ؛ إذا وقع في الحرج. وتأثَّم، أي: تحرَّج من الإثم، وكفَّ عنه. والآثام في جملة التفسير: عقوبة الإثم. والأثيم والآثام والأثيمة: في كثرة ركوب الإثم، والآثم: الفاعل[9]، وَأَثَمَهُ اللّه على إثمه، أَي: جازاه اللّه عَلَيْهِ، يَأْثِمُه أثامًا، وَقَالَ اللّه جلّ وعزّ: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾﴾ [الفُرقان: 68]،

(1) أبو إسحاق الحربيّ، غريب الحديث: 2/834.
(2) الرّازيّ، التّفسير الكبير: 5/237، والواحديّ، التّفسير البسيط: 3/551-552.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/224.
(4) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 68، والبغويّ، معالم التنزيل: 1/213.
(5) الواحديّ، التّفسير البسيط: 3/552.
(6) الرازيّ، التّفسير الكبير: 5/236.
(7) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة: 11/76.
(8) الزّجاج، معاني القرآن وإعرابه: 1/251.
(9) الخليل، العين: 8/250.

أَي: جَزَاءً لإثمه، وَقَول الله جلّ ذكره: ﴿وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِۚ﴾ [المَائدة: 2]، يَقُول: لَا تعاونواْ على الْمَعْصِيَة وَالظُّلم[1].

ومعنى الآية: "أي: قصدًا للميل"[2]. "والجنف والإثم: التوصية في غير القرابة، أو التفاوت بينهم هوًى وميلاً أو إعطاء البعض دون البعض"[3].

4) ﴿فَأَصۡلَحَ﴾: "وَالْإِصْلَاحُ جَعْلُ الشَّيْءِ صَالِحًا، يُقَالُ: أَصْلَحَهُ، أَيْ: جَعَلَهُ صَالِحًا، وَلِذَلِكَ يُطْلَقُ عَلَى الدُّخُولِ بَيْنَ الْخَصْمَيْنِ بِالْمُرَاضَاةِ؛ لِأَنَّهُ يَجْعَلُهُمْ صَالِحَيْنِ بَعْدَ أَنْ فَسَدُوا، وَيُقَالُ: أصلح بَينهم؛ لتضمينه مَعْنَى دَخَلَ"[4]، وَمن كَلَام سُليمان: مَن أَصْلح جُوَّانيّه؛ أصلح الله بَرَّانيّه، الْمَعْنَى: من أصلح سَرِيرته؛ أَصلح الله عَلَانِيَته[5]، وقولُهم: اللَّهُمَّ أَصْلِحْ ذاتَ البَيْنِ، أَي: أَصْلِحْ الحالَ الَّتِي بها يَجْتَمِعُ المسْلمونَ[6]، و"من المجَاز: أَصْلَحَ إليه؛ أَحْسَن، يُقَال: أَصْلَحَ الدّابَّةَ: إِذَا أَحْسَنَ إِليها، فصَلَحتْ، وتَقول: أَصْلَحْتُ إِلى الدَّابّةِ، إِذا أَحْسنْت إِليها، وَعبارَة الأَساس: وأَصْلَحَ إِلى دابَّته: أَحْسَنَ إِليها، وتَعَهَّدَها"[7].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

الصّدعُ بالرّجوع إلى الصّواب، وتَرْكُ الحَيْفِ من واجبات النُّصح بالحقّ

ترشدُ الآيةُ الكريمة إلى أنَّ الصُّلح مطلوبٌ بين المتنازعين في الوصيّة، فمَن عَلِمَ أو خاف ممَّن حضر الوصيّةَ - من أهل العلم والفهم - مِن موصٍ ميلًا عن الحقِّ في وصيَّته على سبيل الخطأ أو العمد، فتفضي الوصيّةُ إلى نزاع مَقيت، وشِجار مُفسد، وغَمْط للحقوق، ممَّا يأباه الشّرع، وتنأى عنه مقاصد الدِّين، فنصح الموصِيَ وقت الوصيّة - الّتي شُرعت للنّفع لا للضّرر - بما هو الأعدل، فإن لم يحصل له ذلك فأصلح بين الأطراف بتغيير الوصيّة؛ لتُوافقَ

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: 8/250.
(2) الواحدي، التّفسير البسيط: 3/552.
(3) النّيسابوريّ، إيجاز البيان: 1/134.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/154.
(5) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة: 15/136.
(6) ابن سيده، المحكم: 10/92.
(7) الزّبيديّ، تاج العروس: 6/548.

الشريعةَ، فلا ذنْبَ عليه في هذا الإصلاح، بل هو مأجورٌ على إصلاحه. إنَّ اللّه غفور لعباده، رحيم بهم[1].

❁ الإيْضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

معنى الفاء في قولِهِ: ﴿فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ﴾، ودلَالَة المجَازِ المرسَل:

لَا يَخَافُ الْإِنْسَانُ شَيْئًا فِي الْعَادَةِ إِلَّا إِذَا انْعَقَدَ سَبَبُ الْخَوْفِ

الملحظ الأوّل في قوله تعالى: ﴿فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا﴾، أنّ "(الفاء): فاء الفصيحة؛ لأنّها أفصحت عن جواب شرط مقدّر، تقديره: إذا عرفتم أنّ من بدّله آثمٌ، وأردتم بيان حُكم مَن خاف مِن مُوص جنفًا."[2].

والملحظ الثّانيّ يتعلّق بدلالة المجاز المرسل في هذه العبارة البليغة من الآية الكريمة، حيث إنَّ المعنى المذكور في هذا السّياق هو: فأقول لكم: ﴿مَنْ خَافَ﴾، "أي: عَلِمَ؛ وهو مجازٌ مرسلٌ، والعلاقة السّببيّة[3]، وهو أنّ الإنسان لا يخاف شيئًا حتّى يعلم أنّه ممّا يُخاف منه، فهو من باب التّعبير عنِ السّبب بالمسبّب"[4]، ومن مجيء الخوف بمعنى العلم قولُه تعالى: ﴿إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ﴾[5]، قال ابن عاشور: "أَطْلَقَ الْخَوْفَ عَلَى لَازِمِهِ، وَهُوَ الظَّنُّ وَالتَّوَقُّعُ؛ إِشَارَةً إِلَى أَنَّ مَا تَوَقَّعَهُ الْمُتَوَقِّعُ مِنْ قَبِيلِ الْمَكْرُوهِ، وَالْقَرِينَةُ هِيَ أَنَّ الْجَنَفَ وَالْإِثْمَ، لَا يُخِيفَانِ أَحَدًا، وَلَا سِيَّمَا مَنْ لَيْسَ مِنْ أَهْلِ الْوَصِيَّةِ، وَهُوَ الْمُصْلِحُ بَيْنَ أَهْلِهَا"[6].

وفِي التَّعبيرِ عَنِ العِلْمِ بالخوفِ مجازًا: إشعارٌ بالمبادرَةِ إلى الإصلاحِ عندَ ظُهُور بوادِرِ الفسادِ في الوصيَّةِ قبلَ اسْتِحْكَامِهِ.

(1) ابن جرير، جامع البيان: 3/399، والرّازي، التّفسير الكبير: 5/238.
(2) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 3/143.
(3) الأوفق أن تُسمَّى العلاقةُ: المسبَّبيَّةَ.
(4) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 3/147.
(5) الدّرّة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 1/417.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/153، وزاده، حاشيّة على البيضاوي: 2/444.

عِلّةُ الجمع بين الجنَف والإثم دُونَ الاكتفاءِ بأحَدِهِما:

في قوله تعالى: ﴿فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا﴾، بمعنى: أنّ خوف وقوع المجانفة والإثم، هي المدعاة إلى المبادرة إلى الإصلاح، برأب الصّدع، وإعادة الأمور إلى نصابها، وردّ الحقوق إلى أهلها، كما شرع الله في الكتاب، وأبان في سنّة نبيّه الأكرم ﷺ، "وخوفه هو أن يبدوَ له أمارة تقتضي حصول ذلك، ولا فرق بين أن يخاف منه ذلك قبل موت المُوصي، فيرشده، أو بعد موته، فيصلحه"[1].

اسْتِيعَابُ قِسْمَي الْخَطَأِ الصَّادِرِ مِنَ الْمُوصِي فِي وَصِيَّتِهِ بِالْبَيَانِ

قال ابن عطيّة: "من خشي أن يحيف الموصي، ويقطع ميراث طائفة، ويتعمّد الإذاية، أو يأتيها دون تعمّد، وذلك هو الجنف دون إثم، وإذا تعمّد فهو الجنف في إثم.

فالمعنى: من وعظه في ذلك، وردّه عنه فأصلح بذلك ما بينه وبين ورثته، وما بين الورثة في ذاتهم، فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ، إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ عن الموصي، إذا عملت فيه الموعظة، ورجع عمّا أراد مِنَ الإذاية، رَحِيمٌ به"[2].

و"إن قيل: كيف قال: ﴿جَنَفًا أَوْ إِثْمًا﴾، والجنف هو الإثم؟ قيل: قد قال الرّبيع: الجنف في الخطأ، والإثم في العمد، وقيل: الإثم: ما يكبر معصيَتُهُ، والجنف ما دون ذلك"[3]، "وَالْفَرْقُ بَيْنَ الْجَنَفِ وَالْإِثْمِ: أَنَّ الْجَنَفَ هُوَ الْخَطَأُ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُ بِهِ، وَالْإِثْمُ هُوَ الْعَمْدُ"[4]، ففي الجَمْعِ بينَ الجنَفِ والإثمِ استيعابٌ لقِسْمَي الخطأِ الحاصِلِ مِن المُوصي في وصيَّتِه.

بيانُ مرجع الضّمير في قوله تعالى: ﴿فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ﴾:

"وإنما ذكر المُوصِي وحده، فإنّه إنّما قال: ﴿بَيْنَهُمْ﴾ يريد أهل المواريث وأهل الوصايا، فلذلك قال: ﴿بَيْنَهُمْ﴾، ولم يذكرهم؛ لأنّ

الْإِصْلَاحُ بَيْنَ أَهْلِ الْوَصَايَا، وَبَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْوَرَثَةِ

(1) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 1/384.
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 1/249.
(3) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 1/384.
(4) الرّازيّ، التّفسير الكبير: 5/237.

المعنى يدلّ على أنّ الصّلح، إنّما يكون في الورثة و الموصى لهم"[1]، و"لِقَائِلٍ أَنْ يَقُولَ: الضَّمِيرُ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ﴾، لَا بُدَّ وَأَنْ يَكُونَ عَائِدًا إِلَى مَذْكُورٍ سَابِقٍ، فَمَا ذَلِكَ الْمَذْكُورُ السَّابِقُ؟ وَجَوَابُهُ: أَنْ لَا شُبْهَةَ أَنَّ الْمُرَادَ: بَيْنَ أَهْلِ الْوَصَايَا؛ لِأَنَّ قَوْلَهُ: ﴿مِن مُّوصٍ﴾ دَلَّ عَلَى مَنْ لَهُ الْوَصِيَّةُ، فَصَارَ كَأَنَّهُمْ ذُكِرُوا، فَصَلَحَ أَنْ يَقُولَ تَعَالَى: ﴿فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ﴾، كَأَنَّهُ قَالَ: فَأَصْلَحَ بَيْنَ أَهْلِ الْوَصِيَّةِ، وَقَالَ الْقَائِلُونَ: الْمُرَادُ: فَأَصْلَحَ بَيْنَ أَهْلِ الْوَصِيَّةِ وَالْمِيرَاثِ، وَذَلِكَ هُوَ أَنْ يَزِيدَ الْمُوصِي فِي الْوَصِيَّةِ عَلَى قَدْرِ الثُّلُثِ، فَالْمُصْلِحُ يُصْلِحُ بَيْنَ أَهْلِ الْوَصَايَا وَالْوَرَثَةِ فِي ذَلِكَ، وَهَذَا الْقَوْلُ ضَعِيفٌ مِنْ وُجُوهٍ، أَحَدُهَا: أَنَّ لَفْظَ الْمُوصِي إِنَّمَا يَدُلُّ عَلَى أَهْلِ الْوَصِيَّةِ لَا عَلَى الْوَرَثَةِ، وَثَانِيهَا: أَنَّ الْجَنَفَ وَالْإِثْمَ لَا يَدْخُلُ فِي أَنْ يُوصِيَ بِأَكْثَرَ مِنَ الثُّلُثِ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ لَمَّا لَمْ يَجُزْ إِلَّا بِالرِّضَا، صَارَ ذِكْرُهُ كَلَا ذِكْرٍ، وَلَا يَحْتَاجُ فِي إِبْطَالِهِ إِلَى إِصْلَاحٍ؛ لِأَنَّهُ ظَاهِرُ الْبُطْلَانِ"[2]، "وسياق الآية وذكر الوصيّة، يدلّ عليهم، فكنّى عنهم"[3]، "وجاز إضمارُهم؛ لدلالة الكلام على ذكرهم"[4]، ولا مانعَ من إرادةِ الإصلاح بين أهل الوصايا كما يدلُّ عليه ظاهرُ السِّياقِ، والإصلاحُ بينهم وبين الورثَةِ بطريقِ اللُّزومِ؛ لأنَّ الزِّيادَةَ في الوصيَّةِ على القدرِ المشروعِ إضرارٌ بالورثَةِ، فآلَ الإصلاحُ بين أهل الوصايا إلى الإصلاح بينهم وبين الورثة كذلك.

دلالة التَّعبير باسم الشَّرط (مَنْ) في قوله: ﴿فَمَنْ خَافَ﴾:

كلّ من يَقدر على الإصلاح منوطٌ به أن يُسهِم في إرجاع الوصيّة إلى المشرُوعِ فيها

"هَذَا الْمُصْلِحُ مَنْ هُوَ؟ الظَّاهِرُ أَنَّهُ هُوَ الْوَصِيُّ الَّذِي لَا بُدَّ مِنْهُ فِي الْوَصِيَّةِ، وَقَدْ يَدْخُلُ تَحْتَهُ الشَّاهِدُ، وَقَدْ يَكُونُ الْمُرَادُ مِنْهُ مَنْ يَتَوَلَّى ذَلِكَ بَعْدَ مَوْتِهِ، مِنْ وَالٍ أَوْ وَلِيٍّ أَوْ وَصِيٍّ، أَوْ مَنْ يَأْمُرُ بِالْمَعْرُوفِ، فَكُلُّ هَؤُلَاءِ يَدْخُلُونَ تَحْتَ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ﴾، إِذَا ظَهَرَتْ لَهُمْ أَمَارَاتُ الْجَنَفِ وَالْإِثْمِ فِي الْوَصِيَّةِ، أَوْ عَلِمُوا ذَلِكَ، فَلَا وَجْهَ لِلتَّخْصِيصِ فِي هَذَا الْبَابِ، بَلِ الْوَصِيُّ وَالشَّاهِدُ أَوْلَى بِالدُّخُولِ، تَحْتَ هَذَا التَّكْلِيفِ، وَذَلِكَ؛ لِأَنَّ بِهِمْ تَثْبُتُ

(1) الفرّاء، معاني القرآن: 1/111.
(2) الرّازي، التّفسير الكبير: 5/238.
(3) الواحديّ، التّفسير البسيط: 3/553.
(4) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 1/384.

الْوَصِيَّةُ، فَكَانَ تَعَلُّقُهُمْ بِهَا أَشَدَّ"[1]، فالتَّعبير باسم الشَّرْطِ (مَنْ) دالٌّ على استعيابِ كلِّ مَن يتأتَّى منه الإصلاحُ؛ لما في اسم الشَّرطِ منَ الإبهامِ الصَّالحِ لإفادةِ العمومِ.

دِلالةُ العُدُولِ عَنْ إثْبَاتِ الأجر لِلْمُصْلِح إلى نَفْيِ الإثمِ عَنْهُ:

مِن المتقرِّر عند أهل الإسلامِ قاطبةً مدحُ الإصلاحِ والثَّناءُ علَى أَهْلِهِ

"إن قيل: هذا المصلح أتى بطاعة عظيمة في إصلاح وصيَّة المال، فالمناسب لهذا المقام، أن يُعِدّ اللّٰه تعالى له المثوبة المناسبة لطاعته، فكيف يليق به أن يُقال: ﴿فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۚ﴾؟ أجيب بأنّه تعالى لما ذكر إثم المبدّل، في أوّل الآية، وكان هذا الإصلاح لا يخلو عن التّبديل، وكان مظنّة لاستحقاق الإثم بذلك؛ بيّن اللّٰه تعالى أنّ تبديل المصلح، لا إثم عليه؛ لكونه تبديلَ الباطل إلى الحقّ"[2]، فقوله سبحانه: ﴿فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۚ﴾ واردٌ لدفعِ إيهامِ ما لا يُرادُ، فهو ضربٌ مِنَ الاحتراسِ.

ويحتمِلُ أن يكون من بابِ الاكتفاءِ، والمعنى: فلا إثمَ عليه، وله الأجرُ، وإنَّما اقتصَرَ على نفي الإثْمِ لما في هذا الإصلاحِ مِنَ التَّبديلِ، مِمَّا يُتوهَّم معَهُ وقوعُ الإثْمِ على فاعِلِهِ، ولم يُنَصَّ على ثبوت الأجر؛ استغناءً بما تقرَّر عند أهل الإسلامِ قاطبةً من مدحِ الإصلاحِ والثَّناءِ على أهلِهِ.

كَثْرَةُ القَوْلِ مظنَّةُ الزَّلَلِ فيهِ

وفي التَّعبير بنفي الإثم دون ثبوتِ الأجرِ أيضًا: إشعارٌ بأنَّه ليس بمُبدِّلٍ التَّبديلَ المذمومَ؛ إذْ إنَّه ذكرَ قبلُ إثمَ التَّبديلِ[3].

و"لِقَائِلٍ أَنْ يَقُولَ: هَذَا الْمُصْلِحُ قَدْ أَتَى بِطَاعَةٍ عَظِيمَةٍ فِي هَذَا الْإِصْلَاحِ، وَهُوَ يَسْتَحِقُّ الثَّوَابَ عَلَيْهِ، فَكَيْفَ يَلِيقُ بِهِ أَنْ يُقَالَ: ﴿فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۚ﴾؟ وَجَوَابُهُ مِنْ وُجُوهٍ: الْأَوَّلُ: أَنَّهُ تَعَالَى لَمَّا ذَكَرَ إِثْمَ الْمُبَدِّلِ فِي أَوَّلِ الْآيَةِ، وَهَذَا أَيْضًا مِنَ التَّبْدِيلِ؛ بَيَّنَ مُخَالَفَتَهُ لِلْأَوَّلِ، وَأَنَّهُ لَا إِثْمَ عَلَيْهِ؛

(1) الرّازيّ، التّفسير الكبير: 5/237-238.والهرري، حدائق الرّوح والرّيحان: 3/135.
(2) زاده، حاشيّة على البيضاوي: 2/444.
(3) الواحدي، التفسير البسيط: 3/554.

لِأَنَّهُ رَدَّ الْوَصِيَّةَ إِلَى الْعَدْلِ، وَالثَّانِي: لَمَّا كَانَ الْمُصْلِحُ يَنْقُصُ الْوَصَايَا، وَذَلِكَ يَصْعُبُ عَلَى الْمُوصَى لَهُ، وَيُوهِمُ فِيهِ إِثْمًا، أَزَالَ الشُّبْهَةَ، وَقَالَ: فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ، وَالثَّالِثُ: بَيَّنَ أَنَّ بِالْوَصِيَّةِ وَالْإِشْهَادِ، لَا يَتَحَتَّمُ ذَلِكَ، وَأَنَّهُ مَتَى غَيَّرَ إِلَى الْحَقِّ، وَإِنْ كَانَ خَالَفَ الْوَصِيَّةَ، فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ، وَإِنْ حَصَلَ فِيهِ مُخَالَفَةٌ لِوَصِيَّةِ الْمُوصِي، وَصَرْفٌ لِمَالِهِ عَمَّنْ أَحَبَّ، إِلَى مَنْ كَرِهَ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ يُوهِمُ الْقُبْحَ، فَبَيَّنَ اللَّهُ ﷻ أَنَّ ذَلِكَ حَسَنٌ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِ﴾، وَالرَّابِعُ: أَنَّ الْإِصْلَاحَ بَيْنَ الْجَمَاعَةِ، يُحْتَاجُ فِيهِ إِلَى الْإِكْثَارِ مِنَ الْقَوْلِ، وَيُخَافُ فِيهِ أَنْ يَتَخَلَّلَهُ بَعْضُ مَا لَا يَنْبَغِي مِنَ الْقَوْلِ وَالْفِعْلِ، فَبَيَّنَ تَعَالَى أَنَّهُ لَا إِثْمَ عَلَى الْمُصْلِحِ، فِي هَذَا الْجِنْسِ إِذَا كَانَ قَصْدُهُ فِي الْإِصْلَاحِ جَمِيلًا"[1].

سَبَبُ فَصْلِ قولِ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ عمَّا قبلُ:

نَفْيُ الْإِثْمِ مِنْ مُقْتَضَيَاتِ اسْمَيِ اللهِ تَعَالَى الْغَفُورِ والرَّحِيم

فُصِل قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾؛ لوقوعِه استئنافًا بيانيًّا؛ إذ إنَّ نفيَ الإثم في قول الله تعالى: ﴿فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۚ﴾ يورثُ في نفس المتلقِّي سؤالًا؛ وهو: ما الباعثُ على نفي الإثم؟ فجاء الجوابُ بأنَّ ذلك من مقتضياتِ اسمَي الله تعالى الغفور والرَّحيم، فقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾، وفي ذِكْرِ المغفرةِ بعد نفي الإثم مناسبَةٌ ظاهرةٌ؛ وذلك لأنّ المغفرةَ تتعلّق بالإثم، فهو وإن كان منفيًّا هنا، لكن لرعاية لفظه، حَسُنَ ذِكْرُ المغفرة على أنّ فيه تنبيهًا على أنَّ الإصابة في التّبديل على نهج الشّرع القويم صعبٌ للغايةِ، قلّما يخلو عن التّجاوز عن الحدّ المستقيم، فوعد الله تعالى المغفرة والرّحمة إن تجاوز الحدَّ[2]. "وذكرُ المغفرة لمطابقة ذكرِ الإثم، وكونِ الفعل من جنس ما يؤثم"[3].

يَتَجَاوزُ اللهُ تَعَالَى عَنِ الْمُصْلِحِين ما لا يتجَاوَزُه عَنْ غَيْرِهم

بَلَاغَةُ التَّذْيِيلِ بِقَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾:

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ١٨٢﴾ تذييلٌ جارٍ مجرى المثلِ؛ لاستقلالِهِ بالإفادةِ وعدم افتقارِهِ إلى ما قبلَهُ لفهم المرادِ منْهُ؛ فقوله

(1) الرّازي، التّفسير الكبير: 5/238.
(2) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاويّ: 4/497.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 1/198.

سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي: أنّه يتجاوز عمّا عسى أن يسقط من المصلح ما لم يجده[1]، فإثبات المغفرةِ مقرِّرٌ ومؤكِّدٌ لنفي الإثم المذكور قبلُ.

وفي قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ إشكالٌ، حاصلُه: أنَّ هذا الكلام إنّما يَحْسُنُ بمن فعلَ ما لا يجوزُ له فِعْلُهُ، والمذكور في الآية إنَّما هو إصلاحٌ، وهو مِنْ جُمْلَةِ الطَّاعَاتِ، فما وجه تذييلِ الآيةِ بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾؟ "وَجَوَابُهُ مِنْ وُجُوهٍ، أَحَدُهَا: أَنَّ هَذَا مِنْ بَابِ تَنْبِيهِ الْأَدْنَى عَلَى الْأَعْلَى، كَأَنَّهُ قَالَ: أَنَا الَّذِي أَغْفِرُ الذُّنُوبَ، ثُمَّ أَرْحَمُ الْمُذْنِبَ، فَبِأَنْ أُوصِلَ رَحْمَتِي وَثَوَابِي إِلَيْكَ، مَعَ أَنَّكَ تَحَمَّلْتَ الْمِحَنَ الْكَثِيرَةَ، فِي إِصْلَاحِ هَذَا الْمُهِمِّ كَانَ أَوْلَى، وَثَانِيهَا: يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ، أَنَّ ذَلِكَ الْمُوصِيَ الَّذِي أَقْدَمَ عَلَى الْجَنَفِ وَالْإِثْمِ، مَتَى أَصْلَحَتْ وَصِيَّتَهُ؛ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ، يَغْفِرُ لَهُ وَيَرْحَمُهُ بِفَضْلِهِ، وَثَالِثُهَا: أَنَّ الْمُصْلِحَ رُبَّمَا احْتَاجَ فِي إِيتَاءِ الْإِصْلَاحِ إِلَى أَقْوَالٍ وَأَفْعَالٍ كَانَ الْأَوْلَى تَرْكَهَا، فَإِذَا عَلِمَ تَعَالَى مِنْهُ أَنَّ غَرَضَهُ لَيْسَ إِلَّا الْإِصْلَاحَ، فَإِنَّهُ لَا يُؤَاخِذُهُ بِهَا؛ لأنّه غفورٌ رحيمٌ"[2].

دَلَالَةُ التّذييلِ على التَّعْلِيلِ والتّوكِيد:

التّوكيد مزيدُ يقينٍ بحكمة اللـه ولُطْفِهِ وغُفْرانِهِ

لَمّا كان التّبديل من جنس المحظُورات، وقد يظنّ ظانٌّ أنّ المصلِحَ قد تناول إثمًا، فينكر عليه، والواقع أنَّ فعله صائب، ولكنّه جاء في ثوبٍ ظاهره إثمٌ؛ جاءَ التّذييل بالمغفرة تأكيدًا للردِّ على ذلك الإنكار، وجاءت جملة التَّذييل خبريَّةً مؤكّدةً بإنّ، واسميّة الجملة؛ بيانًا لِلعلّة؛ وذلك أنَّ ﴿إِنَّ﴾: حرف نصب وتوكيد... وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفةٌ، مسوقةٌ لتعليل ما قبلها[3].

وفي التَّعبير باسمَي الغفور والرَّحيم ضربٌ آخرُ من التَّوكيدِ، يتحصّل من كونِهِمَا صيغتي مبالغة[4].

رِعايَةُ صَنْعَةِ الطِّباقِ الْخَفِيّ:

أطلقتِ المغفرةُ على الوعد بالإثابة "رعايةً لصنعة الطّباق، وتسمّى المطابقة والتّضاد

(1) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 1/385.
(2) الرّازي، التّفسير الكبير: 5/239.
(3) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 3/143.
(4) محمد سعد الدّبل، دليل البلاغة القرآنيّة: 1/252.

أيضًا، وهي الجمع بين معنيين متقابلَين في الجملة، وهو من المحسّنات المعنويّة البديعيّة، ولوقوعها في مقابلة فعل المصلح، الّذي هو من جنس ما يؤثم به، وهو التّبديل، مع أنّ المصلح قلّما يخلو عن أقوال وأفعال، كان الأولى تركها، فنبّه اللّه تعالى بذِكْرِ غفرانه، على أنّه تعالى، إذا علم أنّ غرضه ليس إلّا الإصلاح، فإنّه لا يؤاخذه بها، فإنّه غفورٌ رحيمٌ"[1].

على قدر النّية ومَستور الطّويّة تكون العقوبةُ مِنَ اللّه أو العطيّة

سِرّ خَتْمِ الآيةِ الكريمةِ بِاسْمِ اللهِ الْغَفُورِ:

في ختم الآية الكريمة باسم اللّه الغفور: إشادةٌ بالحفاظ على إنْفاذِ وصايا المُوصينَ، حتّى إنَّه قد جعل تبديلَ جَورِهم إلى الحقِّ والعدلِ مفتقرًا إلى الإذن من اللّه تعالى وَالتَّنْصِيصِ عَلَى أَنَّهُ مَغْفُورٌ[2]، فهو تنبيهٌ على "أنَّ تبديل الوصيّة في غاية من القُبح والشّناعة، حتّى إنّ التّبديل على الصّواب، يُحتاجُ إلى عفوِ الكريم الوهّاب"[3].

وُجُوبُ إِنْفَاذِ الوَصَايَا، وردُّ الجائِرِ مِنْهَا إلى العَدْلِ والصَّواب

❁ الفُرُوقُ المُعْجميّةُ:

الجنف والإثم:

"وَالْفَرْقُ بَيْنَ الجَنَفِ وَالْإِثْمِ، أَنَّ الْجَنَفَ هُوَ الْخَطَأُ، مِنْ حَيْثُ لَا يُعْلَمُ بِهِ، وَالْإِثْمُ هُوَ الْعَمْدُ"[4]، وقال الكَفَوي: "الجنف: الْخَطَأ، وَالْإِثْم الْعمد"[5]، والجنَف: الميل في الْكَلَام، والأمور كلّها، جنِفَ علينا، وأجنَف، وَهُوَ شَبيه بالحيْف إِلَّا أَن الحيْف من الْحَاكِم خاصّة والجنَف عَام[6]، وفي الآية جمع بينهما ليشمل كلّ وجوه الخطأ الّذي يُتَوَقَّع أن تقع في التَّوصيَة، العمد وغير العمد، فكلّه يشرع أن يغيّره مَن خاف وقوعَه.

استعمال الألفاظ مع الفروق الدّلاليّة من بلاغة الاستعمالات القرآنيّة

(1) زاده، حاشية على البيضاويّ: 2/444.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/154.
(3) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاويّ: 4/497.
(4) الرّازيّ، التّفسير الكبير: 5/237.
(5) الكفويّ، الكليّات، ص: 356.
(6) ابن سيده، المخصّص: 3/406.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ١٨٣﴾ [البقرة: 183]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

العلاقة بين وجوب القصاص والوصيّة، وبين وجوب الصّيام:

الصّيام حرمانٌ مشروعٌ وتأديبٌ بالجوع

ذكر اللّه تعالى في الآيات السّابقة حكم القصاص، ثمّ عقّبه بحكم الوصيّة للوالدين والأقربين، ثمّ بأحكام الصّيام على وجه التّفصيل؛ لأنّ هذا الجزء من السّورة الكريمة، يتناول جانب الأحكام التّشريعيّة ولما كان الصّوم من أهمّ الأركان؛ ذكره اللّه تعالى هنا، ليهيّئ عباده إلى منازل القدس، ومعارج المتّقين الأبرار"[1]، وقد أجاد الهرريّ في بيان مناسبة هذه الآيات لما قبلها، حيث ذكر: "أنّه تعالى أخبر أوّلًا بكَتْب القصاص، وهو إتلاف النّفوس، وهو من أشقّ التّكاليف، فيجب على القاتل إسلامُ نَفْسِه للقتل، ثمّ أخبر ثانيًا بكتْب الوصيّة، وهو إخراج المال الّذي هو عديل الرّوح، ثمّ انتقل ثالثًا إلى كتْب الصّيام، وهو مُنْهِكٌ للبدن، مُضْعِفٌ له، مانعٌ وقاطعٌ ما أَلِفَهُ الإنسان من الغذاء بالنّهار، فابتدأ بالأشقّ ثمّ بالأشقّ بعده، ثمّ بالشّاق، فهذا انتقالٌ فيما كتبه اللّه على عباده في هذه الآية، وكان فيما قبل ذلك، قد ذكر أركان الإسلام الثلاثة، الإيمان والصّلاة والزّكاة، فأتى بهذا الرّكن الرّابع، وهو الصّوم"[2].

وقد أوجز القرطبي بيان المناسبة فقال: "لَمَّا ذَكَرَ مَا كُتِبَ عَلَى الْمُكَلَّفِينَ مِنَ الْقِصَاصِ وَالْوَصِيَّةِ؛ ذَكَرَ أَيْضًا أَنَّهُ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الصِّيَامُ، وَأَلْزَمَهُمْ إِيَّاهُ، وَأَوْجَبَهُ عَلَيْهِمْ"[3].

(1) محمد علي جميل، صفوة التّفاسير: 1/107.
(2) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 3/148.
(3) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 2/272، وينظر كذلك: أبو حيّان، البحر المحيط: 2/177.

شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

شاء الله تعالى أن يجعل الصّيام فريضة لازمة

1) ﴿كُتِبَ﴾: "فُرِضَ"[1]، يُقَالُ: كَتَبْتُ الْكِتَابَ أَكْتُبُهُ كَتْبًا ... ومِنَ الْبَابِ الْكِتَابُ، وَهُوَ الْفَرْضُ، وَيُقَالُ لِلْحُكْمِ: الْكِتَابُ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَما لَأَقْضِيَنَّ بَيْنَكُمَا بِكِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى»[2]، أَرَادَ بِحُكْمِهِ. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَتْلُواْ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ۝٢ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ۝٣﴾ [البيّنة: 2- 3]، أَيْ: أَحْكَامٌ مُسْتَقِيمَةٌ. وَيُقَالُ لِلْقَدَرِ: الْكِتَابُ. قَالَ الْجَعْدِيُّ:

يَا بْنَةَ عَمِّي كِتَابُ اللَّهِ أَخْرَجَنِي *** عَنْكُمْ وَهَلْ أَمْنَعَنَّ اللَّهَ مَا فَعَلَا[3]

وقوله تعالى: ﴿سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ﴾ [آل عمران: 181]، أي: نحفظ، بمنزلة المكتوب... والكتابُ: الفَرْضُ والحُكمُ[4].

2) ﴿ٱلصِّيَامُ﴾: "مصدر صام -كالقِيَام-، وأصله في اللّغة: الإمساكُ عن الشّيء والتّركُ له، ومنه: قيل للصّمت: صومٌ؛ لأنّه إمساك عن الكلام، قال الله تعالى: ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا﴾ [مريم: 26]"[5]، وَيُقَال: صَامَ النَّهَار، إذا قَامَ قَائِم الظّهيرة؛ لأَنّ الشَّمْس إذا صَارَت فِي كبد السَّمَاء وَقت الزَّوَال، وَكَأَنَّهَا تقف عَن السّير، فَيُقَال عِنْد ذَلِك: صَامَ النَّهَار"[6]، ومنه: صَامتِ الخيلُ؛ إذا كفّت عن السّير، ومنه قول نابغة بني ذبيان:

خَيْلٌ صِيَامٌ، وخَيْلٌ غَيْرُ صَائِمَةٍ *** تَحْتَ العَجَاجِ، وأُخْرَى تَعْلُكُ اللُّجُمَا[7]

"وَالصَّوْمُ فِي الشَّرْعِ: الْإِمْسَاكُ عَنِ الْمُفْطِرَاتِ مَعَ اقْتِرَانِ النِّيَّةِ بِهِ، مِنْ طُلُوعِ الْفَجْرِ إِلَى غُرُوبِ الشَّمْسِ، وَتَمَامُهُ وَكَمَالُهُ بِاجْتِنَابِ الْمَحْظُورَاتِ، وَعَدَمِ الْوُقُوعِ فِي الْمُحَرَّمَاتِ"[8].

(1) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 68.
(2) البخاري، حديث رقم: (6633)، ومسلم، حديث رقم: (1697).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: 5: 158.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: 5: 158.
(5) الواحديّ، التّفسير البسيط: 3/554، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 2/272.
(6) ابن قتيبة: غريب الحديث، : 1/217.
(7) ابن جرير، جامع البيان: 3/409.
(8) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 2/273.

المَعْنى الإجْماليُّ:

خطاب المؤمنين بفريضة الصّيام، على سبيل الإلزام والالتزام، فهي فريضة مأمُورٌ بها في كُلّ الشّرائع السّماويّة

يخاطب اللّه تعالى المؤمنين بأنّه فُرِضَ عليهم الصّيام كما فُرِضَ على الأمم من قبلهم، فليس الصّيام مختصًّا بالمسلمين، وغاية فريضته أن تتّقوا اللّه، بأن تجعلوا بينكم وبين عذابه وقاية بالأعمال الصّالحة، ومن أعظمها الصّيام[1]، " ومن هذا يعلم أنّ الصّيام يبعث على الإيمان الصّادق، ويرقّق القلب، ويصفّي النّفس، ويعين على خشية اللّه تعالى؛ ولذا استعان به الأنبياءُ في تحقيق مآربهم، والأولياءُ في تهذيب نفوسهم، والخاصّةُ في شفاء قلوبهم، والعامّةُ في شفاء جسومهم"[2].

الإيْضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

سَبَبُ فَصْلِ قولِ اللهِ تعالَى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ﴾ عمَّا قبلُ:

الشّروعُ في بَيَانِ حُكْمٍ جَدِيدٍ؛ هُوَ الصّيامُ

فُصِلَ قول اللّه تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ﴾ عمَّا قبلَهُ؛ لما بينَهما من كمالِ الانقطاعِ؛ حيث إنَّ هذه الآيةَ جاءت لتقرير حُكْمٍ جديد[3].

دَلَالَةُ أُسْلوبِ النّداءِ في قولِهِ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾:

النّداءُ أمارةٌ على الاعتناءِ، وتنبيهٌ على مضمُونِ الخِطَاب

في قولِه تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾ نداءٌ للمؤمنين بفرض الصّيام، على شاكلة ندائه لهم بفرض القصاص وفرض القتال دفعًا للاعتداء، والنّداء هنا بالنَّظَرِ إلى ما ذُكِرَ ممَّا فُرض قبلَ ذلك وبعده، وهو "بيانٌ لحكم آخر من الأحكام الشّرعيّة، وتكريرُ النّداء لإظهارِ مزيدِ الاعتناء"[4]، والتّنبيه إلى ما سيلقى من أحكام[5]، " وَلَمْ يَحْتَجْ إِلَى نِدَاءٍ فِي الْمَكْتُوبِ الثَّانِي لِانْسِلَاكِهِ مَعَ الْأَوَّلِ فِي نِظَامٍ وَاحِدٍ، وَهُوَ: حُضُورُ الْمَوْتِ بِقِصَاصٍ أَوْ غَيْرِهِ، وَتَبَايَنَ هَذَا

(1) المختصر في تفسير القرآن الكريم: 1/28.
(2) محمد بن الخطيب، أوضح التّفاسير، ص: 33.
(3) محمد سعد الدّبل، دليل البلاغة القرآنيّة: 1/253.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 1/198.
(5) محمّد سعد الدّبل، دليل البلاغة القرآنيّة: 1/253.

التَّكْلِيفُ الثَّالِثُ مِنْهَا"[1]، وقد كان الخطاب من الله موجّهًا إلى عباده المؤمنين، بقوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ في آيات شتّى، بلغت ثمانيَة وثمانين موضعًا من القرآن الكريم، "ونداء المخاطبين باسم المؤمنين، يذكّرهم بأنّ الإيمان يقتضي من صاحبه، أن يتلقّى أوامر الله ونواهيه بحسن الطّاعة والامتثال، وإنّما خصّهم بالنّداء؛ لأنّهم هم المستجيبون لأمره، والمنتهون عمّا نهى الله عنه؛ إذ الغالبُ أن يُتْبَعَ هذا النّداء بأمرٍ أو نهيٍ"[2].

نُكْتَةُ العُدُولِ عَنْ (صُومُوا) إِلَى قَوْلِهِ: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾:

الفعلُ (كُتِبَ) في الآية، بمعنى: فُرِضَ، فقول الله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾، أي: فُرض، ويأتي (الكَتْبُ) مرادًا به الجَعل، كما في قوله: ﴿فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّـٰهِدِينَ ۝٥٣﴾ [آل عمران: 53]، ويأتي (الكَتْبُ) بمعنى: الأَمْرِ، كما قال: ﴿ٱدْخُلُواْ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ [المائدة: 21]، يعني: أمركم الله تعالى أن تدخلوها[3].

المعاني المُخْتَلِفَةُ لِلَفْظِ (كتب) تتناسَبُ دلالةً وتأويلًا معَ السّياقات المتنوّعةِ

وعُدِل عن التَّعبير بـ (صُوموا) إلى التَّعبير بـ ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾ مع أنَّ الأوَّلَ أخصَرُ؛ لما في الثَّاني من توكيدِ الحكم، والتَّرغيبِ في الفعل، وتطييبِ النّفس[4].

وقد أكّد الله تعالى فرضيَّةَ الصِّيام بقوله: ﴿عَلَيْكُمُ﴾، ورشَّحهُ وقوَّاهُ ببيانِ أنّه شريعة النّبيّين السَّابقينَ؛ ولذا قال سبحانه: ﴿كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾[5].

دلالة بناء الفعلِ لِلْمَفْعُولِ في قوله: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾:

تَعْظِيمُ اللهِ تعَالَى بِنِسْبَةِ الكَمَالَاتِ لَهُ، وتَعْظِيمُ قَدْرِ الصِّيام

وَرَدَ الفعل ﴿كُتِبَ﴾ في قول الله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾ مبنيًّا للمفعول، أي: مبنيًّا لِما لم يُسمّ فاعله، وهذا البناءُ يكون عادةً في الأحكامِ التي قد تصعُبُ على العبادِ، كما قال أبوحيّان: "وَبِنَاءُ

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/177.
(2) الدرّة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 1/419.
(3) السّمرقنديّ، بحر العلوم: 1/381.
(4) الجمل، الفتوحات الإلهيّة: 1/219.
(5) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 1/550.

كُتِبَ لِلْمَفْعُولِ فِي هَذِهِ الْمَكْتُوبَاتِ الثَّلَاثَةِ، وَحَذْفُ الفَاعِلِ لِلْعِلْمِ بِهِ؛ إذ هُوَ اللَّهُ تَعَالَى؛ لِأَنَّهَا مَشَاقٌّ صَعْبَةٌ عَلَى الْمُكَلَّفِ، فَنَاسَبَ أَنْ لَا تُنْسَبَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، وَإِنْ كَانَ اللَّهُ تَعَالَى هُوَ الَّذِي كَتَبَهَا، وَحِينَ يَكُونُ الْمَكْتُوبُ لِلْمُكَلَّفِ فِيهِ رَاحَةٌ وَاسْتِبْشَارٌ، يُبْنَى الْفِعْلُ لِلْفَاعِلِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: 54]، ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓ﴾ [المجادلة: 21]، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ﴾ [المجادلة: 22] وَهَذَا مِنْ لَطِيفِ عِلْمِ الْبَيَانِ"[1]، ففي بناءِ الفعلِ للمفعولِ جريٌ على طريقةِ التَّعظيم لله تعالى، وفيه أيضًا: إيماءٌ إلى تفخيم هذا الرّكن وتشريفه[2]، بخلاف بناءِ فعل (الكَتْب) لِلْفَاعِلِ في نحو قول الله تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ﴾ [المائدة: 45]؛ فإنَّه مناسبٌ لاستعصاءِ اليهودِ وشدَّةِ مخالفتِهم لأنبيائهم، بخلاف أمّة الإسلام، ولذا وقعَ التَّفريقُ بين الخطابَيْن؛ لافتراقِ المخاطَبِينَ[3].

دلالَةُ تَقْدِيمِ الجارّ والمَجْرُورِ فِي قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾:

الاهْتِمَام بِشَأْنِ العِبَادِ وإِبْرَازُ مَنْزِلَةِ الصِّيام

قُدِّمَ الجَارُّ وَالمَجْرُورُ عَلَى الْمَفْعُولِ بِهِ، وَإِنْ كَانَ الغالبُ عَكْسَ ذَلِكَ؛ "لِأَنَّ مَا احْتِيجَ فِي تَعَدِّي الْفِعْلِ إِلَيْهِ إِلَى وَاسِطَةٍ، دُونَ مَا تَعَدَّى إِلَيْهِ بِغَيْرِ وَاسِطَةٍ؛ لِأَنَّ الْبَدَاءَةَ بِذِكْرِ الْمَكْتُوبِ عَلَيْهِ أَكْثَرُ من ذِكْرِ المكتوب؛ لتعلّق الكَتْب لمن نُودِيَ، فَتَعْلَمُ نَفْسُهُ أَوَّلًا أَنَّ الْمُنَادَى هُوَ الْمُكَلَّفُ، فَيَرْتَقِبُ بَعْدَ ذَلِكَ لِمَا كُلِّفَ بِهِ"[4]، فيكون تقديمُ الجارِّ والمجرورِ للاهتمام بشأنِ المُنادَى وهو العبدُ المكلَّفُ، ليَتنبَّهَ إلى ما يُلْقَى إليه؛ تعظيمًا لشأنِ المأمورِ به، وليس المرادُ بالتَّقديم ههنا القصرَ؛ لأنَّ دلالة التَّقديم على القصرِ دلالةٌ بالفَحْوَى، وهي معارضَةٌ ههنا بالتَّنصيص على عدمِ اختصاصِ وجوب الصِّيام بالمسلمين؛ إذ قال سبحانه: ﴿كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾.

دَلَالَةُ اللَّامِ فِي (ٱلصِّيَام) من قَوْلِ اللهِ تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾:

الصّيامُ معهودةٌ حقيقتُهُ عند أهل الإسلام

اللَّامُ في ﴿ٱلصِّيَامُ﴾ هي لامُ العهدِ العلميِّ، الذي يُسمِّيه النُّحاةُ:

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/177.
(2) محمد سعد الدّبل، دليل البلاغة القرآنيّة: 1/253.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/177.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/177- 178.

العهدَ الذِّهنيَّ، والمعنى: كُتِبَ عليكم جنسُ الصِّيام المعروف[1]، وهذا المعنى للَّام يصلُحُ إن كانت قد سبقت تعبّداتهم به، ويحتمل أن تكون اللَّامُ للجنس إن كانت لم تسبق.

وبناءُ ﴿ٱلصِّيَامُ﴾ على (فِعَالٍ)، وهو أحد البناءَيْنِ الكثيرين في مصدر هذا النّوع من الفعل، وهو فعل الواويّ العين، الصّحيح الآخر، والبناءان هما: (فُعُول) و(فِعَالٌ)، وعُدِلَ عنِ الفعُول – وإن كان الأصلَ – ؛ لاستثقال الواوين.

ويَحتمل أن تكون اللَّامُ عوضًا عن المضافِ إليه، فقوله سبحانه: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾ أي: كُتِبَ عليكم صيامُ رمضانَ، فحُذف المضاف إليه وهو (رمضان)، وعُوِّضَ عنه اللَّامُ، قال النّسفيّ: " والمراد صيام شهر رمضان ﴿كَمَا كُتِبَ﴾، أي: كتابة مثل ما كتب، فهو صفة مصدر محذوف ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ على الأنبياء والأمم من لدن آدم عليه السلام إلى عهدكم، فهو عبادة قديمة، والتّشبيه باعتبار أنّ كلّ أحد له صوم أيّام، أي: أنتم متعبّدون بالصّيام في أيّام، كما تعبّد من كان قبلكم"[2].

وهذه المعاني صحيحةٌ في ذاتِهَا، وأظهرهَا الأوَّلُ؛ لأنَّ لفظ ﴿ٱلصِّيَامُ﴾ صار حقيقةً شرعيَّةً، متى أُطلقت في لسانِ الشَّرع انصرفَ الذِّهْن إلى تلك الحقيقةِ.

نِكَاتُ التّشبِيهِ فِي قوله: ﴿كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾:

التَّسَلِّي بِالتَّأَسِّي بَاعِثٌ عَلَى الْعَمَلِ

التّشبيه في قول الله تعالى: ﴿كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ تشبيهٌ مرسَلٌ مجملٌ[3]؛ فهو مرسلٌ لذكر الأداة فيه، مجمَلٌ لحذف وجهِ الشَّبَهِ منه، ونكتةُ إيرادِ التَّشبيه ههنا: تأكيدُ الأمر، وتسليةُ المسلِمين بمن قبلهم؛ لأنّ في الصّوم نوعَ صعوبة[4]، "يَعْنِي: هَذِهِ الْعِبَادَةُ كَانَتْ مَكْتُوبَةً وَاجِبَةً عَلَى الْأَنْبِيَاءِ وَالْأُمَمِ مِنْ لَدُنْ آدَمَ إِلَى عَهْدِكُمْ، مَا أَخْلَى اللهُ أُمَّةً مِنْ إِيجَابِهَا عَلَيْهِمْ، لَا يَفْرِضُهَا عَلَيْكُمْ وَحْدَكُمْ، وَفَائِدَةُ هَذَا الْكَلَامِ: أَنَّ الصَّوْمَ عِبَادَةٌ شَاقَّةٌ، وَالشَّيْءُ الشَّاقُّ إِذَا عَمَّ؛ سَهُلَ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/155.
(2) النّسفيّ، مدارك التّنزيل: 1/158.
(3) 9 الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 3/175.
(4) الصّاوي، حاشية الصّاوي على الجلالين: 1/77.

تحمُّله"[1]، وهذا التَّسلِّي بمن كان قبل المسلمين قائمٌ على التّأسّي، والمعنى: لا ينبغي أن تشُقّ شرْعيّة الصّوم عليكم؛ لأنّكم لستم مَخْصُوصِين بِهَا؛ إذ إنَّها سنّة الأنبياء السّالفة والأمم الماضية[2]، وذلك لأنَّه إِذَا ذُكِرَ كونُ الصَّوْمِ مَفْرُوضًا عَلَى مَنْ تَقَدَّمَ مِنَ الْأُمَمِ؛ سَهُلَتْ هَذِهِ الْعِبَادَةُ"[3]، وفي مثل هذا المعنى قالت الخنساء:

فَلَوْلَا كَثْرَةُ البَاكِينَ حَوْلِي *** عَلَى إِخْوَانِهِمْ لَقَتَلْتُ نَفْسِي

وَمَا يَبْكُونَ مِثْلَ أَخِي وَلَكِنْ *** أُعَزِّي النَّفْسَ عَنْهُ بِالتَّأَسّي[4]

وقد استقصى ابن عاشورٍ أغراضَ هذا التّشبيه، فذكر أنَّه متضمِّنٌ لثلاثة أغراضٍ؛ هي:

اطِّرَادُ صَلاحِ الصِّيامِ ووَفْرَةُ ثَوَابِه

الأوّل: الاهْتِمَامُ بِهَذِهِ الْعِبَادَةِ، وَالتَّنْوِيهُ بِهَا؛ لِأَنَّهَا شَرَعَهَا اللَّهُ قَبْلَ الْإِسْلَامِ، لِمَنْ كَانُوا قَبْلَ الْمُسْلِمِينَ، وَشَرَعَهَا لِلْمُسْلِمِينَ، وَذَلِكَ يَقْتَضِي اطِّرَادَ صَلَاحِهَا، وَوَفْرَةَ ثَوَابِهَا، وَإِنْهَاضَ هِمَمِ الْمُسْلِمِينَ لِتَلَقِّي هَذِهِ الْعِبَادَةِ، كي لَا يَتَمَيَّزَ بِهَا مَنْ كَانَ قَبْلَهُمْ.

الاقْتِدَاءُ بِالآخَرِينَ أُسْوَةٌ فِي الصِّعَابِ

الثَّاني: أَنَّ فِي التَّشْبِيهِ بِالسَّابِقِينَ تَهْوِينًا عَلَى الْمُكَلَّفِينَ بِهَذِهِ الْعِبَادَةِ أن يَسْتَثْقِلُوا هَذَا الصَّوْمَ، فَإِنَّ فِي الِاقْتِدَاءِ بِالآخَرِينَ أُسْوَةً فِي الْمَصَاعِبِ، فَهَذِهِ فَائِدَةٌ لِمَنْ قَدْ يَسْتَعْظِمُ الصَّوْمَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ، فَيَمْنَعُهُ ذلك مِنَ الْإِيمَانِ، وَلِمَنْ يَسْتَثْقِلُهُ مِنْ قَرِيبِي الْعَهْدِ بِالْإِسْلَامِ، وَقَدْ أَكَّدَ هَذَا الْمَعْنَى الضِّمْنِيَّ قَوْلُهُ بَعْدَهُ: ﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ﴾.

إِثَارَةُ العزائِمِ واسْتِنْهَاضُهَا لِلْمُسَارَعَةِ في الخَيْرَاتِ والمُسَابَقَةِ فِيهَا

الثَّالِثُ: إِثَارَةُ الْعَزَائِمِ لِلْقِيَامِ بِهَذِهِ الْفَرِيضَةِ، حَتَّى لَا يَكُونُوا مُقَصِّرِينَ فِي قَبُولِ هَذَا الْفَرْضِ؛ بَلْ لِيَأْخُذُوهُ بِقُوَّةٍ تَفُوقُ مَا أَدَّى بِهِ الْأُمَمُ السَّابِقَةُ[5].

(1) الفخر الرّازيّ، التّفسير الكبير: 5/23.

(2) الطيبي، فتوح الغيب: 3/227.

(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/179.

(4) ديوان الخنساء، ص: 72، والمبرّد، الكامل في اللّغة والأدب: 1/16.

(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/156-157.

كمالُ فرضيّةِ الصّومِ وعظيمُ شرفِهِ، ولهذا شرعهُ اللهُ تعالى لكلِّ الأُمَمِ

تَعْيِيْن وَجْهِ الشَّبهِ في قولهِ: ﴿كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾:

التَّشبيه في قوله: ﴿كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ مرسَلٌ مجمَلٌ كما تقدَّمَ، وكونُهُ مجملًا يقتضي طَيَّ وجه الشَّبَهِ، وحقيقتُهُ: التّشبيه في الفرضيّة، لا الكيفيّة[1]، فالتَّشبيهُ وَاقِعٌ عَلَى أصلِ مشروعيَّةِ الصَّومِ لَا عَلَى صفتِهِ وَلَا عَلَى عِدَّتِه، فقد يختَلِفُ الصِّيَامَانِ بِالزِّيَادَةِ والنَّقْصِ[2]، فقد تعبَّدنا اللّه تعالى بالصّيام كما تعبّد الذين مِنْ قبلنا من الأمم وأهل الكتابين[3]، إلَّا أنَّ "في صِيَامِ الْإِسْلَامِ مَا يُخَالِفُ صِيَامَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى، في قُيُودِ مَاهِيَّةِ الصِّيَامِ وَكَيْفِيَّتِهَا، وَلَمْ يَكُنْ صِيَامُنَا مُمَاثِلًا لِصِيَامِهِمْ تَمَامَ الْمُمَاثَلَةِ ... وَالتَّشْبِيهُ يُكْتَفَى فِيهِ بِبَعْضِ وُجُوهِ الْمُشَابَهَةِ، وَهُوَ وَجْهُ الشَّبَهِ الْمُرَادُ في الْقَصْدِ"[4]، وفيهِ إثباتُ أنّ الصّومَ شريعةٌ في الشّرائع السّماوية كلّها، وهذا يدلّ على كمال فرضيّته، وعظيم شرَفِهِ، وأنَّه غيرُ مختصٍّ بأهل الإسلامِ وحدهم، بل يعمّ الشَّرائعَ كلّها[5].

بيانُ وَجْهِ شَبَهٍ آخَرَ فِي قولِهِ تعَالَى: ﴿كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾:

ويَحتَمِلُ أن يكون التَّشبيهُ واقعًا على الوقتِ؛ فإنَّ (مَا) اسم موصولٌ في مَوْضِعِ جَرٍّ، وَصِلَتُهَا: ﴿كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾، والضَّميرُ في ﴿كُتِبَ﴾ راجعٌ إلَى (مَا)[6]، وقوله: ﴿مِن قَبْلِكُمْ﴾، يُراد به: الأنبياء وأمَمُهم من لدن آدم عليه السلام، وفيه توكيدٌ لِحُكْمِ الصَّوْمِ وترغيبٌ في الفعل وتطييب لِلنَّفس -كما تقدَّمَ-[7]، ولـمَّا كانت (مَا) اسمًا موصولًا، وفيه ضَرْبٌ من الإبهامِ، احتيجَ إلى تفسيرِهِ وبيانِهِ، ومن جُملة ما فُسِّر بهِ أنَّه الوقتُ، كما قال مكّي بن أبي طالب: "واختار الطّبريّ قول من قال: إنّه فرض على من كان قبلنا من أهل

(1) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 3/175.
(2) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 2/275.
(3) الواحديّ، التّفسير البسيط: 3/557.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/156.
(5) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 1/551.
(6) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 2/274.
(7) البيضاوي، أنوار التّنزيل: 1/123.

الكتاب، صوم شهر رمضان، ففرضه علينا، وقال: ﴿كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾، واستدلّ على ذلك أنّ مَنْ بعدَ إبراهيم عليه السلام مِنَ الأنبياء، كانوا مأمورين بالاتّباع له؛ وذلك أنَّ اللّه تعالى جعله لِلنَّاسِ إِمَامًا، وأخبرنا أنّ دينه كان الحنيفيَّة المسلمة، وأَمَرَ نبيَّنا ﷺ باتّباعه، فدلّ على أنّ إبراهيم ﷺ ومن كان بعده مِنَ الأنبياء صلواتُ اللّه عليهم، فُرِض عليهم صومُ شهرِ رمضان، كما فرضه اللّه تعالى علينا الآن، فوقع التّشبيه على الوقت[1].

وسواءٌ أكان وجهُ الشَّبه هو الفرضيَّةَ أم الوقتَ؛ فإنَّ التَّسلِّي بالتَّأسِّي قائمٌ على كلا الاحتمالَيْنِ، وهو المرادُ من سياقِ الآيةِ بصرفِ النَّظرِ عن تعيينِ الوَجْه.

نُكْتَةُ تكرَارِ الْفِعْلِ ﴿كُتِبَ﴾ فِي قولِهِ: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾:

الْإِيـذَانُ بِشَـرَفِ الصّيامِ وعَظِيمِ مَنْزِلَتِهِ

تكرّرُ الفعلِ ﴿كُتِبَ﴾ للإِشْعَارِ بِشَرَفِ الصّيام[2]؛ ولأنّ تشريعَ الصِّيامِ بإنزال الوحي حاصلٌ على الأنبياءِ السّابقين وعلى النّبيّ الخاتم ﷺ، فكان الأوّل في غابره، وكان الثّاني في آخره، فلا غرو أن يتكرّر الفعل؛ لتِبْيَان أهميّة الفرضِ لِما كان، ولما هو كائن، وهو لطيفٌ في بابه.

دِلَالَةُ حَرْفِ الرَّجَاءِ (لَعَلَّ) فِي قَوْلِهِ: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾:

الـصَّـوْمُ عِـبَـادةٌ عَظِيمَةٌ يَنْدَرِجُ بِهَا أَصْحَابُها في زُمْرَةِ الْمُتَّقِين

(لعلّ) في قوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ دالَّةٌ على ترجّي العباد، والمعنى: أنّه ينبغي لكم بسبَبِ الصّوم أن يقوى رَجاؤكم في التّقوى؛ لتُحصِّلُوهَا[3]، فهو "بَيَانٌ لِحِكْمَةِ الصِّيَام، وَمَا لِأَجْلِهِ شُرِعَ، فَهُوَ في قُوَّةِ الْمَفْعُول لأَجله لـ ﴿كُتِبَ﴾"[4]، فـ (لَعَلَّ) من قوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ

(1) مكيّ بن أبي طالب، الهداية إلى بلوغ النّهاية: 1/586.
(2) محمّد سعد الدّبل، دليل البلاغة القرآنيّة: 1/253.
(3) الزجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 1/252، والواحدي، التّفسير البسيط: 3/559.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/158.

تَتَّقُونَ﴾ تَرَجٍّ في حَقِّ العبَادِ[1]، ووجهُ هذا التَّرجِّي: مَا في الصَّوم من الوُصْلَةِ إلى التَّقوى؛ لِما فيه من قهر النَّفسِ، وكسر الشَّهوات، التي بسببهَا يندرِجُ العبادُ في زمرة المتّقين؛ إذْ كَان الصّوم شعارَهم[2].

بَيَانُ الِاسْتِعَارَةِ فِي قَوْلِهِ: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾:

بِالصّيام يترقّى الـمُسْلِمُ مِن الدّركات الهَاوِيةِ إلَى الـمَقَامَاتِ العَالِيَةِ

المعاصي قسمَان: قسم ينجعُ في تركه التّفكرُ، وتفيد في الإقلاع عنه الموعظة، وقسم يصعب تركه بمجرّد التّفكّر، فكان الصّيام خيرَ دواء لاتّقائه، قال ابن عاشور: "و(لعلّ) إمّا مستعارة لمعنى (كَي) استعارة تبعيّة، وإمّا تمثيليّة بتشبيهِ شأن اللّه في إرادته من تشريع الصّوم التّقوى؛ بحال المترجّي من غيره فعلًا ما، والتّقوى الشّرعيّة هي اتّقاء المعاصي... فجَعَلَ الصّيامَ وسيلةً لاتّقائها؛ لأنّه يُعَدِّل القوى الطبيعيّةَ الّتي هي داعية تلك المعاصي، ليرتقي المسلمُ به عن حضيض الانغماس في المادّة إلى أوج العالم الرّوحانيّ، فهو وسيلة للارتياض بالصّفات الملكيّة والانتفاض من غبار الكدرات الحيوانيّة"[3]، والأوّلُ أقوَى؛ لما في الثّاني من دَعوى تشبيه الكامل بالنّاقِص، والأدَبُ يقتضِي تجنُّبَهُ، ولا سيّما في حقِّ اللّه تعالَى.

سَبَبُ فَصْلِ جُمْلَةِ ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ عَمَّا قَبْلَهَا:

تَحْصِيلُ التَّقْوَى أَبْـــرَزُ حِـكَـمِ الصِّيَامِ

قول اللّه تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ جملةٌ مسوقةٌ مساقَ التَّعليلِ؛ لِما دلَّت عليه (لعلَّ) من معنَى (كَيْ) - كما تقدَّم -، ولفَصْلِ الجملةِ عمَّا قبلَهَا؛ لوُقوعِهَا استئنافًا بيانيًّا، فلمَّا بيَّن اللّه سبحانه وجوب الصّيام في قوله: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾، كأنَّ ذلك أثارَ لدَى المتلقِّي لهذا الخطابِ سؤالًا؛ وحاصلُه: ما الحكمة من هذا التَّشريعِ؟، فجاء الجواب: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾.

(1) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 2/275.
(2) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 5/241، وكذلك ابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 3/254.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/158.

نِكَاتُ حَذْفِ مَفْعُولِ ﴿تَتَّقُونَ﴾:

تَنَوُّعُ دِلَالَاتِ الْحَذْفِ وَتَكَامُلُهَا

مفعولُ ﴿تَتَّقُونَ﴾ محذوف، والتّقدير: تتّقون المعاصيَ، والأفعالَ المحرّمة في الصّيام؛ فإنّ الصّوم يكسر الشّهوة الّتي هي مبدؤها[1]، أو تتّقون ما حرّم عليكم في الصّيام، مِن أَكْلِ الطّعام، وشُرْب الشّراب، ووَطْء النّساء[2]، وفي هذا الوجهِ تعليقُ الفعلِ بمفعولٍ به خاصٍّ.

ويحتمِلُ أن لا يُقدَّر له مفعولٌ به خاصٌّ، والمرادُ من ذلك العمومُ والشُّمول، والمعنى: لعلَّكم تتَّقونَ جميع ما أنتُم مأمورون شرعًا باتِّقائِه، وهذا الوجهُ أعمُّ من الأوَّلِ؛ لاندراجِ الأوَّلِ فيه كما هو ظاهرٌ.

وثَمَّ وجه ثالثٌ، وهو أن لا يُقدَّر مفعولٌ به أصلًا؛ تنزيلًا للفعل المتعدِّي منزلةَ الفعلِ اللَّازمِ، فمعنى ﴿تَتَّقُونَ﴾: تحصُل لكم التَّقوَى.

ولا تعارُضَ بين هذه المعاني؛ لاندراجِ الأوَّل في الثَّاني، ولأنَّ التَّقوَى إذا تحقَّق بها العبدُ - كما يدلُّ عليه الوجه الثَّالثُ - حملَهُ ذلك على اتِّقاءِ جميعِ ما أُمرَ باتِّقائه شرعًا.

دِلَالَةُ المَجَازِ المُرْسَلِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿تَتَّقُونَ﴾:

بِالصَّوم تتربّى النّفْس البشريّة، وتصفو مِنَ الأكدَارِ

في قول اللّه تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ مجاز مرسلٌ، باعتبار ما يؤول إليه، أي: كُتِبَ عليكم الصّيامُ، لأجلِ أن تصيروا متّقين، ببركة المحافظة عليه وتعظيمه؛ إذ إنّ تعظيم شعائر اللّه تعالى له من التَّأثير في النّفوسِ الشَّيءُ العظيمُ، كما قال اللّه تعالى: ﴿وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾ [الحجّ: 32][3]، فَالصّومُ سببٌ يؤُولُ بصاحبه إلى تقوى اللّه تعالى؛ لما فيه من قهرِ النّفس، وكسر الشّهوة، وإذهاب الأشر[4].

(1) البيضاويّ، أنوار التَّنزيل: 1/123.
(2) الماورديّ، النّكت والعيون: 1/236.
(3) الطّيبي، فتوح الغيب: 3/226.
(4) الماورديّ، النّكت والعيون: 1/237.

دِلَالَةُ الكِنَايَةِ الإيمَائيّة في قوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾:

مَنْ تَشَبَّهَ بِقَوْمٍ فَهُوَ مِنْهُمْ؛ مَدْحًا أَوْ ذَمًّا

في قول الله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ كناية إيمائيّة[1]، وتقريرها: أنّ الصّوم لـمَّا كان عبادة قديمة، ودرج عليها الأنبياء وأُمَمُهم من آدم عليه السلام إلى عهدكم؛ أفادَ أنَّه مِن شعار المتَّقين، ومن اقتفى أثرهم، ويوشك أن لا يُعدم المقتدِي من بركتهم، فيُعدَّ منهم، وينتظم في زمرتهم، وإنّما كانت كِنَايَةً إيمائيَّة؛ لأنّ الله تعالى سمّاهم متّقين؛ لكونِهم اكتسبوا لباسَ أهل التَّقوَى، وتزيَّوا بزيِّهم، ومن تزيَّا بزيِّ قومٍ؛ فهو منهم[2].

❁ الفُرُوقُ المُعْجميّةُ:

الصّيام والصّوم:

الفرق بين الصّيام والصّوم مذكور عند اللّغويين، ذلك بأنّ الصّيام هو الكفّ عن المفطرات مع النّيّة، والصّوم: هو الكفّ عن المفطرات والكلام، كما كان في الشّرائع السّابقة[3].

(1) الكناية الإيمائيّة: "إيضاحها ما أشار إليه في الانتصاف بقوله: إنّ العرب تعبرّ عن المعنى، بما يؤدّي عكس مقصوده كثيًرا، كقوله تعالى: ﴿وَقَد تَّعۡلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡۖ﴾ [الصف: 5]، وقد اختلف توجيه علماء البيان لذلك: فمنهم من وجهّه بما ذكره الزّمخشريّ، من التّنبيه بالأدنى على الأعلى، ومنهم من وجّهه، بأنّ المقصود في ذلك الإيذان بأنّ المعنى قد بلغ الغاية، حتّى كاد أن يرجع إلى الضّدّ، وذلك شأن كلّ ما بلغ نهايته، أن يعود إلى عكسه" ينظر: حاشيةُ الشّهاب على تفسير البيضاوي: 5/281.

(2) الطّيبي، فتوح الغيب: 3/227.

(3) أبو هلال العسكريّ، معجم الفروق اللّغويّة: 1/325.

﴿ أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ ۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۚ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ ۖ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ ۚ وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٤﴾ ﴾ [البقرة: 184]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

بعد فرض الصّيام شرع السّياق في بيان أحكامه و التّرغيب فيه:

الصّوم حكمة ناضرة وأحكام باهرة

بعد أن أوجب الصّيام في الآية السّابقة، شرع في بيان حدوده وأحكامه، والتّرغيب فيه، ومعلوم أنّ "الصّوم يكسر الشّهوة الّتي هي مبدأ المعصيَة، ويورث التّقوى، ويقمع الهوى، ويردع عن الأشر والبطر والفواحش، ويهوّن لذّات الدّنيا"[1]، وفي الآية إشارة إلى ما في الصّيام من فوائد جمّة لا تدركها العقول، فإنّه فضلاً عن كونه مرضاة للرّبّ، ومطهرة للنّفس؛ فقد ثبت أنّه علاجٌ ناجعٌ لكثير من الأمراض المستعصية، فكان حريًّا بالآيات أن تزاوج بين الحِكْمَةِ والحُكْمِ، وأنْ تُرغّب في الصّيام فريضة وتطوُّعًا؛ لتحقيق غاياته النّبيلة، وحِكَمِهِ الجليلة.

شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

1) ﴿عَلَىٰ سَفَرٍ﴾: "أصل السَّفَر من الكشف؛ وذلك أنّه يكشف من أحوالِ الرّجالِ وأخلاقهم"[2]، "وسمّي المُسَافِر مُسَافِرًا، لكشفه قِناعَ الكِنِّ عَن وَجهه، وبرُوزِه إِلَى الأَرْض الفضاء، وسُمِّيَ السَّفَر سفرًا؛ لِأَنَّهُ يُسْفِر عَن وُجُوه المُسَافِرين وأخلاقِهِمْ، فيُظْهِر مَا كَانَ خافيًا مِنْهَا"[3].

(1) وهبة الزّحيلّي، التّفسير المنير: 2/129.
(2) الواحدي، التفسير البسيط: 3/563.
(3) الأزهري، تهذيب اللّغة: (سفر).

2) ﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍۚ﴾: "مؤقّتات بعدد معلوم، أو قلائل، فإنَّ القليلَ من المال يُعدُّ عدًّا، والكثيرَ يهالُ هيلاً... والمراد بها رمضان، أو ما وجب صومه قبل وجوبه، ونسخ به، وهو عاشوراء أو ثلاثة أيام من كلّ شهر"[1]، وقال ابن خروف: "جَمْعَا السَّلَامَةِ مُشْتَرِكَانِ بَيْنَ الْقَلِيلِ وَالْكَثِيرِ، وَيُؤَيِّدُ هَذَا الْقَوْلَ قَوْله تَعَالَى: ﴿وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ فِيٓ أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍۚ﴾ [البقرة: 203] الْمُرَادُ أَيَّامُ التَّشْرِيقِ، وَهِيَ قَلِيلٌ، وَقَالَ: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ١٨٣ أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍۚ﴾، وَهَذِهِ كَثِيرَةٌ"[2].

3) ﴿فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَۚ﴾: "العِدَّةُ: فِعْلَة من العَدِّ، وهي بمعنى: المعدودة، كالطِّحْن، بمعنى: المطحون، ومنه يُقَالُ للجماعة المعدودة من النّاس: عِدَّة، وعِدّة المرأة من هذا"[3]، "أي: فعليه صوم عدد أيام المرض، أو السَّفرِ من أيّامٍ أُخَرَ؛ إن أفطر"[4].

من منعه من الصّيام المرض أو السّفر، قضى العدّة من أيّامٍ أُخَرَ

و﴿أُخَرَ﴾: جمع أُخرى، تأنيث آخر[5]، وهي في العربيّة اسم تفضيل لا ينصرف؛ لعلّتين: هما الوصفيّة والعدل، وفسّروا العدل: بأنّه عدلٌ عن الألف واللّام، وذلك أنّ لاسم التّفضيل ثلاث حالات: أن يكون (مقترنًا بأل، أو مقترنًا بمن الجارّة، أو مضافًا)، ولمّا كانت ﴿أُخَرَ﴾، لم تقترن بشيء، وليست مضافة؛ قدّر عدلها، وهناك لفظ ﴿أُخَرَ﴾ جمع أخرى[6].

4) ﴿يُطِيقُونَهُۥ﴾: أَصْلُ مادّة (طَوَقَ) كُلُّ مَا اسْتَدَارَ بِشَيْءٍ، فَهُوَ طَوْقٌ، وَسُمِّيَ الْبِنَاءُ طَاقًا لِاسْتِدَارَتِهِ؛ إِذَا عُقِدَ، أَطَاقَ هَذَا الْأَمْرَ، وَهُوَ

لا تكليف لنا إلّا بتيسير، ولا حرج عمّا نطيقه من الشّاقّ العسير

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 1/124.
(2) الفيّوميّ، المصباح المنير: 2/ 695.
(3) الواحدي، التفسير البسيط: 3/564.
(4) البيضاوي، أنوار التنزيل: 1/124.
(5) الواحدي، التّفسير البسيط: 3/564.
(6) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 1/264.

في طَوْقِهِ، وَطَوَّقْتُكَ الشَّيْءَ، إِذَا كَلَّفْتُكَهُ، مِنَ الْبَابِ وَقِيَاسِهِ؛ لِأَنَّهُ إِذَا أَطَاقَهُ؛ فَكَأَنَّهُ قَدْ أَحَاطَ بِهِ، وَدَارَ بِهِ مِنْ جَوَانِبِهِ[1]، "الطَّاقَةُ، وَالطَّوْقُ: الْقُدْرَةُ وَالِاسْتِطَاعَةُ"[2]، وهي: "اسمٌ لمقدار ما يمكن للإنسان أن يفعله بمشقّة، وذلك تشبيه بالطَّوْقِ المحيطِ بالشّيء، فقوله: ﴿وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ﴾ [البقرة: 286]، أي: ما يصعب علينا مزاولته، وليس معناه: لا تحمّلنا ما لا قدرة لنا به"[3]، قال النّسفيّ: "وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ﴾، أَيْ: لَا يُطِيقُونَهُ، وَ(لَا) مُضْمَرَةٌ، وَنَظِيرُهُ فِي الْقُرْآنِ ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا۟﴾ [النّساء: 176]، مَعْنَاهُ: لِئَلَّا تَضِلُّوا، وَفِي قِرَاءَةِ بَعْضِهِمْ: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ﴾، بِتَشْدِيدِ الْوَاوِ وَفَتْحِهَا، أَيْ: يُكَلَّفُونَهُ، فَلَا يُطِيقُونَهُ"[4].

5) ﴿فِدْيَةٌ﴾: "الفِدْيَة: الجزاء والبَدَل، من قولك: فديته بكذا، أي: أعطيته بدلًا منه"[5]. "ما يقي به الإنسان نفسه من مال يبذله في عبادة قصّر فيها، يقال له: فِدْيَةٌ، ككفّارة اليمين، وكفّارة الصّوم"[6]، قال ابن سيدهْ: " فَدَيْتُه فِدًى، وفِداءً، وافْتديْتُه، قال الشّاعرُ:

فلَوْ كانَ مَيْتٌ يُفْتَدَى لفَدَيْتُه *** بما لَمْ تَكُنْ عَنْه النُّفُوسُ تَطِيبُ

وإنَّه لحَسَنُ الفِدْيَةِ"[7].

الفدية ما يُبذل من مال، لاستدراك تقصير في عبادة معيّنة

6) ﴿تَطَوَّعَ﴾: (طَوَعَ) أَصْلٌ يَدُلُّ عَلَى الْإِصْحَابِ وَالِانْقِيَادِ، يُقَالُ: طَاعَهُ يَطُوعُهُ، إِذَا انْقَادَ مَعَهُ وَمَضَى لِأَمْرِهِ. تَطَوَّعَ، أَيْ: تَكَلَّفَ اسْتِطَاعَتَهُ، وَأَمَّا قَوْلُهُمْ فِي التَّبَرُّعِ بِالشَّيْءِ: قَدْ تَطَوَّعَ بِهِ؛ فَهُوَ مِنَ الْبَابِ، لَكِنَّهُ لَمْ يَلْزَمْهُ، لَكِنَّهُ انْقَادَ مَعَ خَيْرٍ أَحَبَّ أَنْ يَفْعَلَهُ[8]. "التّطوّع هنا ليس النّافلة كما قال الفقهاء؛ فإنّ ذلك اصطلاح فقهيّ، لا

كلّ تطوّع من مؤمن بخير، فمآله لا محالة إلى خير

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (طَوَقَ).
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/172.
(3) الرّاغب، المفردات: (طَوَقَ).
(4) النّسفيّ، طلبة الطّلبة، ص: 25.
(5) الواحديّ، التّفسير البسيط: 3/565.
(6) الرّاغب، المفردات: (فدى).
(7) ابن سيده، المحكم: 9/404.
(8) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (طوع).

تخضع له عبارات القرآن في دلالاتها، بل تخضع للّغة، والآثار النّبويّة فقط، والتّطوّع هنا هو المبالغة في الطّاعة قاصدًا أو طالبًا خيرًا"[1].

المَعْنى الإجْماليُّ:

تدرّج التّشريع في الصّيام من التّطوّع إلى الفرض؛ ترويضٌ على إلْفِ التّكليف:

إنّ الله يحبّ أن تُـؤتى رُخـصُـهُ، كـما يُـحـبُّ أن تُؤتى عزائمُه

يخاطب اللّه المؤمنين، مؤكّدًا على وجوبِ صّيامِ أيامٍ معلومة العدد، وهي أيام شهر رمضان من كلِّ عام، وهو "الصّيام المفروض عليكم، أن تصوموا أيّامًا قليلة من السَّنَةِ، فمن كان منكم مريضًا، مرضًا يشقُّ معه الصّوم، أو مسافرًا؛ فله أن يفطر، ثمّ عليه أن يقضي بقدر ما أفطر من الأيّام، وعلى الّذين لا يستطيعون الصّيام، ويشقُّ عليهم مشقّة غير محتمَلة، كالشيخ الكبير، والمريض الذي لا يُرْجى شفاؤه، فِدْيَة إذا أفطروا، وهي إطعام مسكينٍ عن كُلّ يوم يفطرون فيه، وصومكم خيرٌ لكم من الإفطار وإعطاء الفدية، إن كنتم تعلمون ما في الصّوم من الفضل. وكان هذا الحكم أوّل ما شَرع اللّه الصّيام، فكان من شاء؛ صام، ومن شاء؛ أفطر، وأطعم، ثمّ أوجب اللّه الصّيام بعد ذلك، وفرضه على كلّ بالغ قادر"[2].

الإيْضاحُ اللُّغَويّ والبَلاغِيّ:

دِلَالَةُ حَذْفِ العامِلِ في قوله تعالى: ﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍۚ﴾:

التَّرفُّقُ بِالْعِبَادِ فِي خِطَابِهِم بالتَّشْرِيعِ

نصبُ ﴿أَيَّامًا﴾ ليس بالصّيام؛ لوجودِ فاصلٍ بينَهما، وإنَّما نصبُهُ بفعلٍ مضمرٍ، تقديره: (صُومُواْ) دلَّ عليه (الصّيام) المتقدِّمُ، والتَّقديرُ: (صُومُوا أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ)[3]، وأجاز بعض أهل العلم نصبَه بالصّيام، والفصلُ الحاصِلُ معفوٌّ عنه؛ إذِ الفصلُ بما ليس أجنبيًّا بين العامل والمعمول جائز على جهة الاتِّساعِ في الكلامِ،

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 1/554-555.
(2) المختصر في تفسير القرآن الكريم: ص28.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/181، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 1/124.

قال ابن عاشور: "وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍۚ﴾ ظَرْفٌ لِلصِّيَامِ، مِثْلَ قَوْلِكَ: الْخُرُوجُ يَوْمَ الْجُمُعَةِ، وَلَا يَضُرُّ وُقُوعُ الْفَصْلِ بَيْنَ الصِّيامِ وَبَيْنَ ﴿أَيَّامًا﴾، وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ١٨٣﴾؛ لِأَنَّ الْفَصْلَ لَمْ يَكُنْ بِأَجْنَبِيٍّ عِنْدَ التَّحْقِيقِ؛ إِذِ الْحَالُ وَالْمَفْعُولُ لِأَجْلِهِ الْمُسْتَفَادُ مِنْ (لَعَلَّ) كُلُّ ذَلِكَ مِنْ تَمَامِ عَامِلِ الْمَفْعُولِ فِيهِ، وَهُوَ قَوْلُهُ: صِيَامٌ"[1]، وطيُّ الفعلِ العامِلِ ههنا مناسِبٌ لبناء الفعل ﴿كُتِبَ﴾ للمفعولِ؛ إذْ ذلك أدعَى للتَّرفُّقِ بالعبادِ من التَّصريحِ بالإلزامِ بما قد يصعُبُ عليهم امتثالُهُ.

نُكْتَةُ وَصْفِ الْأَيَّامِ فِي قَوْلِهِ تعالَى: ﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍۚ﴾:

تَنْشِيطُ الْهِمَمِ لِامْتِثَالِ الْمَأْمُورَاتِ

المرادُ بالأيَّام في قوله تعالى: ﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍۚ﴾ شهرُ رمضانَ، كما عليه أكثر المحقِّقينَ؛ لأنَّ قوله سبحانه: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾ مُحتَمِلٌ لإرادة اليوم واليومين وأكثر من ذلك، فجاء بيانُه بقوله تعالى بعدُ: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ﴾، فتعيَّنَ أن يكون المرادُ بالأيَّام شهرَ رمضانَ، ولا وجهَ لحملهِ على غيرِهِ من المعاني[2].

ووقع وصفُ الأيّام بالمعدودات في قوله ﷻ: ﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍۚ﴾، بقصد التَّسهيلِ على العبادِ، وتنشيطِ هِمَمِهم على الامتثالِ، ووجه ذلك أنَّ المعدودَ قليلٌ عادةً؛ إذ الكثيرُ يفوتُهُ العدُّ، وترشَّح هذا المعنى بمجيءِ صيغةِ المادَّةِ جمعَ مؤنَّثٍ سالمًا؛ وهو من جموع القلَّة؛ للإيماءِ إلى أنَّها أيَّامٌ قَلَائِلُ، بمنزلة الأيام الثلاثة ونحوِهَا وإن زادت في واقع الأمر فبلغَتْ شهرًا[3].

ففي وصف الأيام بالمعدودات - مع تنشيط الهمم - التَّسهيلُ على المكلّفين[4]، وبيان أنّها أيّام قلائل، وأنّ اللّه سبحانه لم يفرض علينا صيَام الدّهر، ولا صيَام شهورٍ؛ تخفيفًا منه سبحانه ورحمةً وتسهيلًا[5]، فهي أيام قليلة ليس مرهقةً، ولكنّها في مؤدّاها جليلة[6].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/158.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/181.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/180.
(4) الجمل، الفتوحات الإلهيّة: 1/219.
(5) زاده، حاشية على البيضاوي: 2/445.
(6) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 1/552.

دِقَّةُ اخْتِيَارِ الْكَلِمَةِ الْقُرْآنِيَّةِ فِي مَوْضِعِهَا الْمُنَاسِبِ لَهَا إِفْرَادًا وَجَمْعًا

تَوْجِيهُ الْمُتَشَابِهِ اللَّفْظِيِّ بَيْنَ قَوْلِهِ: ﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ﴾ وَقَوْلِهِ ﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾:

جاء التَّعبير في قوله سبحانه: ﴿وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾ [البقرة: 80] بإفراد ﴿مَّعْدُودَةً﴾، وفي آية الصِّيام: ﴿مَّعْدُودَاتٍ﴾ بالجمع؛ وذلك أنّ جمع التّكسير مؤنّثٌ، كقولك: "الرّجالُ قامتْ، والقصورُ شيِّدتْ، وقصورٌ مشيدةٌ، هذا هو الأصل، وإنّما يُجمع بالألف والتّاء، ما كان جمعاً لمؤنّث، كقولك: نساء مسلمات؛ لأنّ واحده مسلمة، ثمّ يشبَّه الجمع الّذي ليس للعقلاء الّذي واحده مذكَّر، بجمع المؤنّث، فيقال: كُوزٌ مكسورٌ للواحد، وكِيزانٌ مكسوراتٌ، تشبيهًا بـ (مسلمات)، والأصل: كيزانٌ مكسورة؛ لأنّ التّأنيث للجماعة، لا لأنّ واحده مؤنّث، فكذلك الأصل: (إلّا أيامًا معدودة)؛ لأنَّ واحده (يوم) مذكّر، وحيث قال: ﴿مَّعْدُودَاتٍ﴾، فللتّشبيه بـ (مسلمات)"[1].

التَّفْرِيقُ بَيْنَ العَارِضِ القَهْرِيِّ والعَارِضِ الاِخْتِيَارِيِّ

نُكْتَةُ العُدُولِ عَنِ التَّعْبِيرِ بِاسْمِ الفاعِلِ (مُسَافِرًا) إِلَى التَّعْبِيرِ بِشِبْهِ الْجُمْلَةِ ﴿عَلَىٰ سَفَرٍ﴾:

عُدِلَ عن التَّعبير باسم الفاعل: (فمن كان منكم مريضًا أو مُسَافِرًا) إلى التَّعبير بالجارِّ والمجرور ﴿عَلَىٰ سَفَرٍ﴾؛ للإيذانِ بالاستعلاءِ على السَّفَرِ والتمكُّنِ مِنْهُ، فكأنَّه مركوبٌ للإنسانِ يستعلِي عليه ويتصرَّف فيه كما شاء، فهو كائنٌ باختيارِ المُسافِرِ، ولذا يقال: فلانٌ على طريقٍ، وراكبُ طريقًا، للإشعارِ بالاختيارِ، بخلاف المرضِ؛ فإنَّه يَعْرِضُ للعبدِ من غيرِ اختيارٍ مِنْهُ؛ فهو سببٌ قهريٌّ[2].

وفي حرف الجرِّ (علَى) استعارةٌ تبعيّةٌ، فقد شُبِّهَ تلبّسُ العبدِ بالسّفر باستعلاء الرّاكب على المركوب، بجامع مطلق التَّصرُّفِ والاختيارِ في كُلٍّ[3].

(1) الباقولّي، كشف المشكلات: 2/140.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/184، والسّمين، الدّرُّ المصون: 2/270.
(3) زاده، حاشية على البيضاوي: 2/447، ومحمّد بن عبد الحقّ الهنديّ، الإكليل على مدارك التّنزيل: 2/49.

حَذْفُ مُتَعَلَّقِ الْمَرَضِ وَالسّفرِ في قوله: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ﴾:

لَا يَجُوزُ الفِطْرُ بِمُطْلَقِ المَرَضِ، بل بِمَرَضٍ محقَّق ثابتٍ

قوله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ﴾ أي: مريضًا، لا يقدر مع مرضه على الصّيام، ﴿أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ﴾ يشقّ عليه في سفره الصّيام[1]، وهذا الحذفُ غيرُ لازم تقديرُهُ؛ إذ يغني عن الأوَّلِ قوله: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا﴾؛ فإنَّ ظاهره يقتضي أنَّه لا يجوزُ الفِطْرُ بمطلق المرضِ، بل بِمَرَضٍ محقَّق ثابت يصدُقُ أن يقالَ في صاحبه: كان مريضا؛ لأن (كَانَ) تدلُّ على الاستمرارِ، وأمَّا استغناءُ الثَّاني -وهو السَّفر- عن القيد المذكورِ؛ فلأنَّ الإفطارَ في السَّفَرِ ليس منوطًا بالمشقَّةِ، فعلَّةُ الفطرِ: السَّفَرُ، لا المشقَّةُ فيهِ.

طَرِيقَةُ الْعَرَبِ فِي كَلَامِهَا الْحَذْفُ؛ إِذَا كَانَ فِيمَا أُبقِيَ دليلٌ عَلَى مَا أُلقِيَ

وفي قوله تعالى: ﴿فَعِدَّةٌ﴾ حذفٌ، أي: فعليه عدّة، والتّقدير: فَعَليه صَومُ عِدّةٍ، ويكون هذا من باب حذف المضاف[2]، وهو كثيرٌ في كلام العرَبِ، والمرادُ، فعليه صوم عددِ أيَّام المرض أو السّفر من أيّام أخر؛ إن أفطر، فمجموعُ ما حُذِفَ في هذا التَّركيب: الشّرط، والمضاف، والمضاف إليه؛ كلُّ ذلك حُذِفَ وطُوِيَ لِلْعِلْم بهِ[3]، قال الماورديّ: "﴿فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ فيه قولان: أحدهما: أنّه مع وجود السّفر، يلزمه القضاء، سواء صام في سفره أو أفطر، وهذا قول داود الظّاهري. والثّاني: أنّ في الكلام محذوفًا وتقديره: فأفطر فعدّة من أيّام أخر، ولو صام في مرضه وسفره؛ لم يُعِدْ، لكون الفطر بهما رُخْصَة لا حتمًا"[4]، وبناءً على كلام داودَ؛ فليس في الكلامِ حذفٌ للشَّرطِ؛ إذ هو يوجِب القضاءَ مطلقًا للمسافرِ ولو صامَ، وهو خلافُ قول الجماهيرِ.

(1) الماورديّ، النّكت والعيون: 1/238.
(2) الواحديّ، التّفسير البسيط: 3/563.
(3) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 1/124.
(4) الماورديّ، النّكت والعيون: 1/238.

دِلَالَةُ تَنْكِيرِ (عِدّة) مِنْ قولِهِ تعالى: ﴿فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾:

القَضَاءُ يَحْكِي الأَدَاءَ، فلَا يَجِبُ علَى العبدِ عِدَّةٌ غَيْرُ مَا أَفْطَرَ فِيهِ مِمَّا صَامَهُ

جاءت كلمة (عِدَّةٌ) من قول الله تعالى: ﴿فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ منكَّرةً، ولم يقل: فعدّتها، أي: فعدّة الأيام المعدودات؛ وذلك لأنَّه لمّا قيل: فعدّةٌ، والعدّة، بمعنى: المعدود، فأمر بأنْ يصوم أيامًا معدودة مكانها؛ علم أنّه لا يؤثّر عدد على عددها، فأغنى ذلك عن تعريفِهَا بالإضافة[1]، فجاء التَّنكيرُ دون التَّعريف اتِّكالًا على المعنى[2]، قال أبو حيّان: "ونكّر (فَعِدَّةٌ)، وَلَمْ يَقُلْ: فَعِدَّتُهَا، أَيْ: فعدّة الْأَيَّام الَّتِي أُفْطِرَت اجْتِزَاءً؛ إِذِ الْمَعْلُومُ أَنَّهُ لَا يَجِبُ عَلَيْهِ عِدَّةٌ غَيْرُ مَا أَفْطَرَ فِيهِ مِمَّا صَامَهُ، وَالْعِدَّةُ هِيَ الْمَعْدُودُ، فكان التّنكير أخصر"[3].

عِلَّةُ الْعُدُولِ فِي وَصْفِ الْأَيّامِ عَنِ الْمُفْرَدِ (أُخْرَى) إِلَى الْجَمْعِ ﴿أُخَرَ﴾:

لَمْ تَصِفِ الْعَرَبُ بِـ(آخَر) و(أُخْرَى) وَجَمْعِهِمَا إلّا ما يُجَانِسُ المَذْكُورَ قَبْلَهَا

وردَ لفظُ ﴿أُخَرَ﴾ جمعًا دونَ لفظ (أخرى) إفرادًا؛ لأنَّ الأيَّام جمعٌ لما لا يعقلُ، وهذا الضَّربُ من الجموعِ يجوزُ أن يعامَلَ معاملةَ الواحدةِ المؤنَّثةِ، أو معاملة جمعِ الإناث؛ فَمِن الأوّلِ قولُ الله تعالى: ﴿وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ١٨﴾ [طه: 18]، ومِنَ الثّاني: هذه الآيةُ ونظائرها.

وأُوثِرَ معاملة الجمعِ ههنا معاملَةَ الجَمْعِ المؤنَّث، لأنّه لو جِيءَ بالوصفِ مُفْرَدا، فقيل: (عِدَّةٌ من أيّام أخرى)؛ لأَوْهَمَ خلافَ المرادِ، وأنّه وصفٌ لـ(عِدَّة)، فيفوتُ المقصودُ ويضيعُ المعنَى[4]، فعُدِلَ عن (الأخرى) إفرادًا مع كونِهِ في نفسهِ صحيحًا؛ لئلَّا يكون المعنى مشكلًا مخالفًا لمقصود الكلام البليغ من الإبانَةِ[5]، "فَلَا يُدْرَى: أَهُوَ وَصْفٌ لِعِدَّةٍ، أَمْ لِأَيَّامٍ؟ وَذَلِكَ لِخَفَاءِ الْإِعْرَابِ؛ لِكَوْنِهِ

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/226.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/184-185.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/184-185.
(4) السّمين، الدّرُّ المصون: 2/271-272، والجمل، الفتوحات الإلهيّة: 1/219.
(5) الصّاوي، حاشية على الجلالين: 1/77.

مَقْصُورًا، بِخِلَافِ: ﴿أُخَرَ﴾؛ فَإِنَّهُ نَصٌّ فِي أَنَّهُ صِفَةٌ لِأَيَّامٍ؛ لِاخْتِلَافِ إِعْرَابِهِ مَعَ إِعْرَابِ ﴿فَعِدَّةٌ﴾"[1].

ولذا يقع الإيهام في نحو قولهم: ابْتَعْتُ عَبْدًا وجاريةً أُخْرَى؛ إذ "العربُ لم تصف بلفظتَي (آخَر) و(أُخرى) وجَمْعِها إلّا بما يجانس المذكور قبله، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ۝١٩ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ۝٢٠﴾ [النجم: 19-20]، وكما قال تعالى: ﴿وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾، فوصف ﴿وَمَنَوٰةَ﴾ بـ ﴿ٱلْأُخْرَىٰ﴾ لمّا جانَسَتِ العُزّى واللّاتَ، ووصف ﴿أَيَّامٍ﴾ بـ ﴿أُخَرَ﴾؛ لكونها من جنس الشّهر، والأَمَةُ ليست من جنس العَبْد؛ لأنّها مؤنّثة وهو مذكّر، كما لا يقال: جاءت هندٌ ورجلٌ آخرُ"[2].

الإِيجَازُ بِالْحَذْفِ فِي قولِ اللهِ تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ﴾:

مَا اسْتَقَرَّ مِنْ أَحْكَامِ الشَّرْعِ بِأَدِلَّةٍ مُتَظَافِرَةٍ دالٌّ عَلَى الْحَذْفِ وَمُعَيِّنٌ لِلْمَحْذُوفِ

في قول الله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ﴾ محذوفٌ واجبُ التَّقدير، وهو: الإفطار؛ إذ الفدية للإفطار لا للإطَاقة، ومعنى الآية على هذا: (وعلى الّذين يطيقون الصّيامَ فأفطروا؛ فدية طعام)؛ فالفديةُ واجبةٌ بالإفطار لا بالإطَاقة[3].

وفي الآية محذوفٌ آخرُ؛ وهو (لا) النافية؛ ويطَّرد حذفها في جواب قسم إذا كان المنفيُّ فعلًا مضارعًا، كقول الله تعالى: ﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُاْ تَذْكُرُ يُوسُفَ﴾ [يوسف: 85]، أي: لا تفتأ، وحذفها مع الفعلِ الماضي قليلٌ، ويسهّله تقدّمُ (لا) على القسم، كما في قول الشّاعر:

فَلَا وَاللّٰهِ نَادَى الْحَيُّ قَوْمِي *** هُدُوًّا بِالْمَسَاءَةِ وَالعِلَاطِ[4]

"وسُمع بدون القسم، وقد قيل به في قوله تعالى: ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّواْ﴾، أي: لئلّا تضلّوا، وقيل: المضاف محذوف، أي: كراهة أن تضلّوا، ومنه: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ﴾، أي: لا يطيقونه"[5]، فيكون

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/185.
(2) الصّفدي، تصحيح التّصحيف، وتحرير التّحريف، ص: 69 . 70.
(3) الواحديّ، التّفسير البسيط: 3/565- 566.
(4) البيت للمُتنخِّل الهُذَلي، يُنظر: ديوان الهذليين: 2/21.
(5) التّهانويّ، موسوعة كشّاف اصطلاحات الفنون والعلوم: 1/635، والكفويّ، الكليّات، ص: 1026.

مجموعُ الحذفَيْنِ دالاّ على أنَّ المعنى: (وعلى الذين لا يُطيقونه، فأفطروا؛ فديةٌ)، فحُذف حرفٌ وجملةٌ، دلَّ عليهما ما بَقِيَ من الكلامِ، ومَا استقرَّ معرفتُهُ في الشَّرعِ من كون الفديةِ واجبةً بالإفطارِ.

تَوْجِيهُ اخْتِلَافِ الْقُرَّاءِ ﴿فِدْيَةٌ طَعَامُ مَسَٰكِينَۖ﴾ بينَ التَّنْوِينِ وَالْإِضَافَةِ، وَبَيْنَ الْجَمْعِ وَالْإِفْرَادِ:

الْعِبَارَاتُ تَخْتَلِفُ بِاخْتِلَافِ الاعْتِبَارَاتِ

قرأ جمهور العشرةِ ﴿فِدْيَةٌ﴾ بالتَّنوين، و﴿طَعَامُ﴾ بالرَّفع تفسيرًا للفديةِ، و﴿مِسْكِينٍۖ﴾ على الإفرادِ؛ "لأنّ المعنى: على كلّ واحدٍ لكلّ يوم إطعامُ مسكين"[1]، و﴿فِدْيَةٌ﴾ مرفُوعٌ بِالابْتِدَاء، و﴿طَعَامُ مِسْكِينٍۖ﴾ بدلٌ مِنْهُ، ووجه إِفْرَاد المسكينِ: أنَّ كُلَّ يوم يُطالَبُ مُفْطِرُهُ بإطعامِ مسكينٍ[2].

وقرأ نافع وأبو جعفر وابن ذكوان بإضافة الفِدْيَةِ إلى الطَّعَام، وجمعِ المساكين[3]، فقرأوا: ﴿فِدْيَةُ طَعَامِ مَسَٰكِينَۖ﴾، ووافقهم على الأخير هشامٌ[4]، فقرأ: ﴿فِدْيَةُ طَعَامُ مَسَٰكِينَۖ﴾، ووجه الإضافة: أنّ الفدية غير الطّعام، وأنّ الطّعام إنّما هو الْمُفْدى به الصّوم، لا الفدية، فإذا كان كذلك؛ كان وجهُ القراءة: إضافةَ الفديةِ إلى الطّعام، ووجهُ جمع مساكينَ: قولُ اللّهِ تعالى قبلها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ﴾، ثمّ قال: ﴿أَيَّامٗا مَّعۡدُودَٰتٖۚ﴾، وإنّما عرّفَ اللّهُ تعالى عبادَهُ حُكمَ من أفطر الأيّام الّتي كَتَب عليهم صومَهَا، بقوله: ﴿أَيَّامٗا مَّعۡدُودَٰتٖۚ﴾، فإذا كان ذلك كذلك، فالوجهُ: أن تكون القراءة في (المساكين) على الجمع لا الإفرادِ، ويكون تأويل الآية: (وعلى الّذين يُطيقونهُ فديةُ أيّام يفطر

(1) الواحديّ، التّفسير البسيط: 3/566.
(2) السّمعانّي، تفسير القرآن: 1/181، وأبو حيّان، البحر المحيط: 2/192.
(3) الواحديّ، التّفسير البسيط: 3/565.
(4) ابن الجزريّ، النّشر: 2/226.

فيها إطعام مساكين)، ثمّ حُذِفَتْ (أيّام)، وأقيمَ (طعام) مقامَهَا[1]، وقال الواحديُّ: "وجمعوا المساكين؛ لأنَّ الذين يطيقونه جماعة، وكل واحد منهم يلزمُهُ طَعامُ مِسْكِين"[2]. "وَمن قَرَأَ: ﴿مَسَٰكِينَ﴾؛ لِأن جملَة طَعَام أَيَّام الصَّوْم تكون لمساكين"[3]، فالقراءتان متكاملَتانِ بالنَّظرِ إلى اعتبارَين مختلفَين، وقد تقرر عند العلماء أنَّ العباراتِ تختلف باختلاف الاعتباراتِ.

وجه إضافةِ الفديةِ إلى الطّعام؛ وهي طعامٌ:

مِـن أَنْـوَاعِ الْإِضَافَةِ الْإِضَافَةُ عَلَى تَقْدِيرِ (مِنْ)

أُضيفَت الفدية إلى الطَّعام -في قراءة من قرأ ﴿فِدْيَةُ طَعَامِ﴾ بالإضافةِ- وهي طعامٌ؛ لأنّ الفدية اسمٌ للقدر الواجب، وبخلاف الطّعام؛ فهو اسم يعمّ الفديةَ وغيرها، فتكون هذه الإضافة من "الإضافة الّتي تكون بمعنى (مِن)، وهو أن تضيف الاسمَ إلى اسمٍ يقع على الاسم الأوّل، كقولك: ثوبُ خَزٍّ، وقميصُ كتَّانٍ، وخاتم حديد، والمعنى: ثوبٌ من خَزٍّ، وقميصٌ من كتان، وخاتمٌ من حديد، ألا ترى أنّك تطلق على الثّوبِ اسم الخزّ، وعلى القميص اسم الكتّان، وعلى الخاتم اسم الحديد"[4]، كذلك الذي ههنا؛ فإن تقديره: (فديةٌ من طعام)، فالإضَافة على تقدير (من).

دلَالَةُ الْفَاءِ فِي قَوْلِهِ تعالى: ﴿فَمَن تَطَوَّعَ﴾:

الاحْـتِـمَـالُ فِي النَّصِّ الْقُرْآنِيِّ بِمَا هُوَ حَقٌّ فِي نَفْسِهِ يُوسِّعُ دَائِرَةَ الْمَعَانِي وَيُكَثِّرُهَا

الفاء: فصيحةٌ؛ إذ قد أفصحت عن شرط مقدَّرٍ، والتَّقدير: إذا كان قد كتَبَ اللّه عليكم الصّومَ، ويسّر عليكم "بالرُّخَص الّتي رخَّص بها، ﴿فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ﴾، أي: فمن قصد الطّاعة، وتكلّفها قاصدًا الخير؛ فهو خير يدّخره له يوم القيامة"[5].

(1) الثّعالبي، الجواهر الحسان: 1/376 (التّعليق في الهامش).
(2) الواحدي، التّفسير البسيط: 3/566.
(3) السّمعاني، تفسير القرآن: 1/181.
(4) الواحديّ، التّفسير البسيط: 3/566.
(5) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 1/554.

و(خيرًا) من قول الله تعالى: ﴿فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا﴾ منصوبٌ بنزعِ الخافضِ، أي: من تطَّوع بخيرٍ، ويحتمل أن يكون منصوبًا لكونِهِ صفةَ مصدرٍ محذوفٍ، والمعنى: من تطوَّعَ تطوُّعًا خيرًا[1]، "وَدَلَّ وَصْفُ الْمَصْدَرِ بِالْخَيْرِيَّةِ عَلَى خَيْرِيَّةِ الْمُتَطَوَّعِ بِهِ"[2]،

وقول الله تعالى: ﴿فَمَن تَطَوَّعَ﴾ أي: صام، ولم يأخذ بالفطر والكفّارة، وذلك على القول بالنّسخ، وقيل: تطوّع بالزّيادة في مقدار الإطعام، وذلك على القول بعدم النّسخ[3]، وفتح باب الاحتمالِ في النَّصِّ القرآنيِّ بما هو حقٌّ في نفسِهِ يُوسِّعُ دائرةَ المعاني ويُكثِّرُهَا.

الْفَرْقُ بَيْنَ لَفْظِ (خير) فِي مَوْضِعَيْ قَوْلِهِ: ﴿فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ﴾:

سَعَةُ فَضْلِ اللهِ تَعَالَى بإثابته العَامِلَ بِأَحْسَنَ مِنْ عَمَلِهِ وَأَعْظَمَ

﴿خَيْرٌ﴾ من قول الله تعالى: ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ﴾ اسم تفضيل، وأصلُهُ: أَخْيَرُ، إلَّا أنَّه غلبَ حذفُ همزتِهَا تخفيفًا؛ لكثرة دورانِهَا في الكلام، فمعنى ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ﴾، أي: أزيد خيرًا، وبهذا صحَّ أن يقال: الخير خيرٌ له[4]، فليس فيه تطابقٌ بين المبتدأ والخبرِ، ومعنى الجملة بتمامها: "فمن تطوّع خيرًا -بأنْ زاد على القدْر المفْرُوض في الفدية، أو أطعم أكثر من مسكين، أو جمع بين الإطعام والصّوم-، فتطوُّعُه سيكُونُ خيرًا عند الله سبحانه، لا يضيع أجر من أحسن عملًا"[5]، فجزاءُ الله تعالى على الأعمال أحسنُ من عمل العاملِ وأعظمُ.

وفي معنَى التَّطوُّعِ ههنا أقوالٌ، سبقتِ الإشارةُ إلى بعضِهَا قريبًا[6].

و(مَنْ) في قوله سبحانه: ﴿فَمَن تَطَوَّعَ﴾ يحتمل أن تكون شرطيّة، ولا إشكالَ على هذا الوجه، ويحتمل أن تكون (مَنْ) موصولة، وذلك مشكلٌ؛ لأنّ ذلك كقولك: (إنّ الذّاهبةَ جاريةُ مالكِها)، وقد نصَّ

(1) زاده، حاشية على البيضاوي: 2/449.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/192.
(3) ابن جزي، التّسهيل لعلوم التّنزيل: 1/110.
(4) محمد بن عبد الحق الهنديّ، الإكليل على مدارك التّنزيل: 2/50.
(5) طنطاويّ، التّفسير الوسيط للقرآن الكريم: 1/386.
(6) الماوردي، النّكت والعيون: 1/239.

على عدمِ جوازِهِ جماعةٌ، منهم الفارسيُّ[1]، ويُدفَعُ الإشكالُ بأن يقال: إنّ الخيرَ الأوّل في قوله: ﴿فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا﴾ هو المال، والثّاني الذي في قوله: ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ﴾ فعلُ ما هو أفضل من غيره، أو أنَّ الخير الأوّلَ فَضْلٌ، والثّاني أفضلُ فعلٍ[2].

بَيَانُ مَرْجِعِ الضَّمِيرِ (هُوَ)، وَدِلَالَةُ تَنْكِيرِ ﴿خَيْرًا﴾ مِنْ قَوْلِ اللهِ تَعَالَى ﴿فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ﴾:

الضَّمير (هُوَ) في قول الله تعالى: ﴿فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ﴾ يعودُ على المصدر المستكِنِّ في ﴿تَطَوَّعَ﴾؛ إذ دلالةُ الفعل مركَّبةٌ من مصدرٍ وزمنٍ، فكان الضَّمير (هو) راجعًا إلى أحدِ مدلولَي الفعلِ، وهو المصدرُ؛ والمعنى: فمن تطوَّع خيرًا؛ فالتَّطوُّعُ خيرٌ له، فهو نظيرُ قَوْلِ الله تعالى: ﴿ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: 8]، أي: الْعَدْلُ.

مُعَامَلَةُ اللهِ تَعَالَى بِالتَّفَضُّلِ لَا بِالتَّقَلُّلِ مُفْضِيَةٌ إِلَى تَدَفُّقِ إِحْسَانِهِ عَلَى الْمُتَطَوِّعِ

وَ﴿خَيْرٌ﴾: خَبَرٌ لِـ (هُوَ)، وَهُوَ هُنَا أَفْعَلُ تَفْضِيلٍ، وَالْمَعْنَى: أَنَّ الزِّيَادَةَ عَلَى الْوَاجِبِ -إِذَا كَانَ قابلًا للزِّيَادَةِ- خَيْرٌ مِنَ الاقْتِصَارِ عَلَيْهِ.

وَظَاهِرُ هَذِهِ الْآيَةِ الْعُمُومُ فِي كُلِّ تَطَوُّعٍ بِخَيْرٍ[3]، ولا سيَّما إذا حملنا (مَن) على معنى الشَّرطيَّةِ؛ لأنَّ ﴿خَيْرًا﴾ من قوله تعالى: ﴿فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا﴾ يكون نكرةً في سياقِ الشَّرطِ، فيَعُمُّ، وهو إحدَى نِكَاتِ تنكيرِهِ ههنا.

دِلَالَةُ الْخَيْرِيَّةِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَأَن تَصُومُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾:

الخيريَّةُ في قوله تعالى: ﴿وَأَن تَصُومُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ راجعةٌ -كما هو الظاهر- إلى قوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ﴾ "فَإِنْ كَانَ قَوْلُهُ ذَلِكَ نَازِلًا فِي إِبَاحَةِ الْفِطْرِ لِلْقَادِرِ، فَقَوْلُهُ: ﴿وَأَن تَصُومُواْ﴾ تَرْغِيبٌ فِي الصَّوْمِ، وَتَأْنِيسٌ بِهِ، وَإِنْ كَانَ نَازِلًا فِي إِبَاحَتِهِ لِصَاحِبِ

كُلُّ تَخْيِيرٍ مِنَ اللهِ فِيهِ نَفْعٌ مَلْحُوظٌ، وَأَجْرٌ مَحْفُوظٌ

(1) الدرويش، إعراب القرآن وبيانه: 8/195.
(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/537.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/192.

الْمَشَقَّةِ، كَالْهَرِمِ فَكَذَلِكَ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَرْجِعَ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا﴾ وَمَا بَعْدَهُ، فَيَكُونُ تَفْضِيلًا لِلصَّوْمِ عَلَى الْفِطْرِ، إِلَّا أَنَّ هَذَا فِي السَّفَرِ مُخْتَلَفٌ فِيهِ بَيْنَ الْأَئِمَّةِ"[1].

تَعْيِينُ الْمُخَاطَبِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَن تَصُومُواْ﴾:

كلّ ما رغّب فِيهِ الشّرعُ؛ فَهُوَ خَيْرٌ مُسْتَفِيضٌ

والمخاطب في قوله تعالى: ﴿وَأَن تَصُومُواْ﴾ هم المطيقون، أو هُمُ المرَخَّصُ لهم في الفطر؛ وذلك ليندرج تحتهم المرضى والمسافرون[2].

وقوله تعالى: ﴿وَأَن تَصُومُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾، يحتمل معنيين:

أحدهما: أنّ الصّوم في السّفر خير من الفطر فيه والقضاء بعده.

والآخرُ: أنّ الصّوم لمطيقهِ خيرٌ وأفضل ثوابًا من التّكفير لمن أفطر بالعجز[3].

وقال السّمعانيّ: " إِن قُلْنَا بقول النّسخ، مَعْنَاهُ: وَأَن تَصُومُوا خيرٌ لكم من الْفِدْيَة، وَإِن قُلْنَا: الْآيَة غير مَنْسُوخَة؛ فَمَعْنَاه: وَأَن تَصُومُوا فِي حَال الشَّبَاب خيرٌ لكم من الْفِدْيَة فِي حَال الْكبر وَالْعجز، وَقيل: هَذَا فِي حقّ الشَّيْخ الْهَرم، أَن يتَكَلَّف الصَّوْم خيرٌ لَهُ من أَن يفْدي، وَالصَّحِيح: أحد الْقَوْلَيْنِ الْأَوَّلين"[4]، والقولانِ في ذاتهما لا تعارُضَ بينهما؛ فالصَّوم في السفر خيرٌ من الفطر فيه والقضاء بعده، لمن لا يشقُّ عليه الصَّوم في السَّفر؛ لأنَّ فيه مبادرةً إلى الطَّاعة وإبراءً للذّمَةِ، وكذلك الصَّوم للمُطيقِ أفضلُ من التَّكفيرِ للعاجزِ عَنْهُ؛ فاللفظُ يحتمِلُ المعنيينِ من غير أن يكون ثَمَّ تعارُضٌ بينَهُمَا، فيُحمَلُ اللّفظُ عليهما معًا، ويكون في هذا تكثيرًا للمعاني القرآنيَّةِ وتوسِيعًا لها.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/168.
(2) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 1/124.
(3) الماورديّ، النّكت والعيون: 1/239.
(4) السّمعاني، تفسير القرآن: 1/181.

دلَالَةُ الْإِخْبَارِ عَنِ الصِّيَامِ بِالْخَيْرِيَّةِ، وَتَنْكِيرِ الْخَبَرِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَأَن تَصُومُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾.

عَظَمَةُ قَدْرِ الصِّيَامِ وَجَلِيلُ خَيْرِيَّتِهِ

في الإخبار عن الصِّيام بالخيريَّة حثٌّ وتحريضٌ على القيام بهذا الواجب المفروض الذي كَتَبَهُ الله تعالى على أهل الإسلام وعلى من قبلهم، ولا ريبَ أنَّ أداءَ الواجبِ وامتثالَهُ خيرٌ عظيمٌ[1]، ولا سيَّمَا امتثالُ العبادَاتِ الجليلةِ التي سَمَا قدرُهَا فاندرجَت في سلك أركان الإسلام، ولذا وقع الخبرُ عن الصِّيام بالتَّنكيرِ ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ للإشعارِ بعظمَتِهِ وفخامَتِهِ وعلوِّ منزلَتِهِ.

ويجوز أن يكون المعنى: (الخيرُ في صيامكم)؛ إشعارًا بثوابه العظيم؛ إذ إنَّ القصد من العبادات: إخلاصُ العبد وصدقُ نيَّتِه، وأفعال الجوارح كثيرًا ما يدخلُها الرِّياءُ، إلَّا الصَّومَ؛ "فإنّه لا يوقف عليه، ما لم يخبر الإنسان عنه بلسانه، ولا عبادة يدخل فيها الإنسان بالنِّيَّة المجرّدة إلّا الصّوم"[2]، ولذا جاء في الحديث أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال فيما يرويه عن ربِّه تبارك وتعالى: «كُلُّ عَمَلِ ابْنِ آدَمَ لَهُ، إِلَّا الصِّيَامَ، فَإِنَّهُ لِي وَأَنَا أَجْزِي بِهِ»[3]، قال الحَرَالِّيّ: "فكان في الصّوم تنقّص ذات الصّائم، فلذلك قال تعالى: «فإنّه لي» حين لم يكن من جنس عمل الآدميّ، قال سبحانه وتعالى: «وأنا أجزي به»، ففي إشارته أنَّ جزاءه من غيب الله، ممّا لا عينٌ رأت، ولا أذنٌ سمعت، ولا خطرَ على قلب بشَر، كلّ ذلك في مضمون قوله: ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ١٨٤﴾"[4]، ففي إبهام الجزاءِ في قوله: «فَإِنَّهُ لِي وَأَنَا أَجْزِي بِهِ» تفخيمٌ لشأنِه.

نُكْتَةُ الِالْتِفَاتِ فِي قوله: ﴿فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ وَأَن تَصُومُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾:

حَثُّ الْمُتَلَقِّي وَتَنْشِيطُهُ عَلَى امْتِثَالِ مَا أُمِرَ بِهِ

في قول الله تعالى: ﴿فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ وَأَن تَصُومُواْ

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 1/555.
(2) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 1/390.
(3) البخاري، الحديث رقم: (1904)، ومسلم الحديث رقم: (1151).
(4) الحَرَالِّيُّ، تراث أبي الحسن الْحَرَالِّيّ المرّاكشي في التّفسير، ص: 339.

﴿خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ١٨٤﴾ التفاتٌ من الغَيبةِ إلى الخطابِ؛ فإنَّ قوله سبحانه: ﴿فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ﴾ أسلوبُ غَيْبَةٍ، وقولَه تعالى: ﴿وَأَن تَصُومُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ أسلوبُ خطابٍ؛ ونُكتة الالتفاتِ من الغَيبة إلى الخطاب: هزُّ متلقِّي الخطابِ وحثُّهُ وتنشيطُهُ على الامتثالِ[1]؛ حيث بيّن أنّهم هُم المقصودون بمَضْمُونِ الكلَامِ، وفي توجيهِ الخطابِ مزيدُ عنايةٍ بالمخاطَبِ، وفيه تكريمٌ له وتشريفٌ إذْ كان الخطابُ صادرًا من اللّه تعالى.

بَلَاغَةُ التّذْيِيلِ فِي قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾:

قوله سبحانه: ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ تذييلٌ غيرُ جارٍ مجرَى المثَلِ؛ لعدم استقلالِهِ، ولافتقارِهِ إلى ما قبلَهُ في إدراكِ تمام المرادِ منه، ومعنى ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾: "أي: تَعْلَمُونَ فَوَائِدَ الصَّوْمِ، عَلَى رُجُوعِهِ لِقَوْلِهِ: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ﴾ إِنْ كَانَ الْمُرَادُ بِهِمُ الْقَادِرِينَ، أَيْ: إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ فَوَائِدَ الصَّوْمِ دُنْيَا وَثَوَابَهُ أُخْرَى، أَوْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ثَوَابَهُ عَلَى الاحْتِمَالَاتِ الْأُخَرِ"[2]، قال الطّبريّ" وأما قوله: ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾؛ فإنّه يعني: إنْ كنتم تعلمون خيرَ الأمرين لكم -أيّها الّذين آمنوا- مِنَ الإفطار والفدية أو الصّوم على ما أمركم اللّه به"[3].

من ثمار الصّوم، عاجلٌ في الدّنيا، وآجلٌ في الآخرة

وفي تذييل الآية بقوله: ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ حضٌّ وتحريضٌ على العِلْمِ بما للصَّوْمِ من جزاءٍ وحِكَمٍ وأسرارٍ، وحثٌّ وتحريضٌ للمخاطَبين على الامتثالِ بمضمون ذلك العِلْمِ.

لَوْ عَلِمَ النّاسُ حِكَمَ الصّيَامِ العَظِيمَةَ؛ لَسَارَعُوا إِلَيْهَا رُخْصَةً وَعَزِيمَةً

دِلَالَةُ الْحَذْفِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾:

الفعل ﴿تَعْلَمُونَ﴾ فعلٌ متعدٍّ، لم يُذكَر مفعولُهُ، وقد عُلِّقَ بحرفِ الشَّرط (إِنْ) من غير تصريحٍ بجوابِ الشَّرطِ، فتحصَّل لَنا في

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 1/199.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/168.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 3/ 444.

جملة التَّذييلِ حذفَانِ، والتَّقدير: إن كنتم تعلمون ما في الصَّوم من الفضل وعظيم الثَّواب وإبراء ذمَّة العَبْدِ؛ لاخترتُمُوهُ.

ويحتمِلُ أن يكون الفعل المتعدِّي ﴿تَعْلَمُونَ﴾ منزَّلًا منزلةَ اللَّازِمِ، والمعنى: إن كنتم مِن أهل العلم والتّدبّر؛ لعَلِمْتُم أنّ الصّوم خيرٌ لكم من ذلك[1].

قال الماورديّ: "﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ يحتمل وجهين: أحدهما: إن كنتم تعلمون ما شَرَّعْتُه فيكم، وَبَيَّنْتُه من دينكم، والثّاني: إن كنتم تعلمون فضل أعمالكم وثواب أفعالكم"[2]، وقال الرّاغب الأصفهانيّ: "﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾، أي: إن عرفتم ما فيه من المنفعة، وتحقّقتم ما يثمره لكم، لم تتهاونوا في تحمّله"[3]، وقال أبو السّعود: "﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾، أي: ما في صومِكم -مع تحقّق المبيحِ للإفطار- من الفضيلة، والجوابُ محذوفٌ ثقة بظهورِه، أي: اخترتموه، أو سارعتم إليه، وقيل: معناه: إنْ كنتُم من أهلِ العلم والتّدبير؛ علمتم أنّ الصّومَ خيرٌ من ذلك"[4].

وحاصلُ هذه الأقوال الّتي تصبُّ في مصبّ واحد: أنّ السّياق القرآنيّ يلفت النّظر إلى ما في الصّيام من فضائل ومنافعَ ومزايا، وما في الرّخصة مِن يُسر ولُطف وترفّق، لو علمها النّاس؛ لسارعوا إلى هذه العبادة النّفيسة، عزيمةً ورخصةً، ولَعَلِمُوا أنّ الصّوم خيرٌ لهم في كلّ الأحوال.

دِلَالَةُ إِنْ الشّرطيّةِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾:

مَا يَخْفَى عَلَى الْعِبَادِ مِنْ حِكَمِ الصِّيَامِ وَأَسْرَارِهِ أَكْثَرُ مِمَّا يَعْرِفُونَهُ

جاءت جملة التَّذييل مصدَّرة بحرف الشَّرط (إنْ) للإيماء إلى عدم تحقُّقِ العِلْم؛ إذ إنَّ (إنْ) موضوعةٌ في الأصلِ للدّلالة على الشَّكِّ في وقوع مدخولِهَا، فأفاد قوله تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ للإيذانِ بأنّ عِلْمَهُم من شأنِهِ ألّا يكون محقَّقًا[5]؛ لخفاءِ كثيرٍ من حِكَمِ الصِّيامِ وأسرارِهِ على العبادِ.

(1) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 1/124.
(2) الماورديّ، النّكت والعيون: 1/239.
(3) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 1/390.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 1/199.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/168.

ونلمحُ فيهَا ترجيحَ المتعدّي على اللّازم، بما عبّر عنه شيخ زاده بقوله: "ورجح احتمال أن يكون مفعول ﴿تَعۡلَمُونَ﴾، مقدّرًا محذوفًا للاختصار، على احتمال كونه منزَّلًا منزلة اللّازم؛ لإفَادَتِه ما لا يفيده"[1].

تَوْجِيهُ المُتَشَابِهِ اللَّفْظِيِّ في ﴿خَيۡرٞ لَّكُمۡ﴾:

تَنَاسُبُ الْفَوَاصِلِ الْـقُـرْآنِـيَّـةِ مَـعَ مَضْمُونِ آيَاتِهَا

قال الله تعالى ههنا: ﴿خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾، وجاء في سورة النِّساء: ﴿خَيۡرٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [النساء: 25]، وفي سورة هودٍ: ﴿خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَۚ﴾ [هود: 86]، وسرُّ التَّغايُرِ بين هذه الآيِ: أنَّ آية البقرة تقدَّمها قول الله تعالى: ﴿وَأَن تَصُومُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡ﴾، فلمَّا اختصَّ الله تعالى بعلم هذه الخيريَّةِ، ولا سبيلَ للخَلْقِ إلى الإحاطة بِها إلَّا إذا علَّمهم الله تعالى إيَّاها، وكان المرادُ حثَّ العبادِ على عِلْمِ ذلك؛ ناسبَهُ أن يقول عَقِبَهُ: ﴿إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾.

وأمَّا آية سورة النِّساءِ، فقد تقدَّمها قوله سبحانه: ﴿وَأَن تَصۡبِرُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡۗ﴾ [النساء: 25] – في سياق الكلام عن نكاحِ الإماءِ –، فلمَّا كان الصَّبر على عدم زواج الإماءِ قد يقترِنُ به شيءٌ من التَّقصيرِ؛ ناسبَهُ تعقيبُهُ ببيان تجاوز الله تعالى عن ذلك التَّقصير، فقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾[النساء: 25].

وأمَّا آية سورة هودٍ، فقد تقدَّمها قوله تعالى: ﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لَّكُمۡ﴾ [هود: 86]، فلمَّا كانت خيريَّةُ ما يُبقيه الله تعالى من ثمرة العدل في الدُّنيا والآخرة تُرغِّبُ العبادَ في الإيمان بوعدِ الله تعالى، وكان المرادُ حثَّهم وتحريضَهم عليه؛ ناسبه قوله تعالى: ﴿إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَۚ﴾ [هود: 86][2].

(1) زاده، حاشية على البيضاوي: 2/450.

(2) سعد عبد العظيم محمّد، استدراك ما فات من بلاغة الآيات المتشابهات، ص: 209.

﴿شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡفُرۡقَانِۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهۡرَ فَلۡيَصُمۡهُۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلۡعُسۡرَ وَلِتُكۡمِلُواْ ٱلۡعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمۡ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ١٨٥﴾ [البقرة: 185]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

ربطُ فَرْضِ الصّيام الفاضل بزمانه المفضّل:

التّناسب بين تشريع الصّيام لتربيَة القيم، وزمان نزول القرآن بالقيم

"بعد أن بيَّن سبحانه وتعالى فرضية الصّوم أيّامًا معدودات، ذكر اللّه تعالى تلك الأيّام وعيّنها بشهر رمضان"[1]، "ولـمَّا أَبْهَمَ الأمرَ أوّلاً في الأيّام وجعله واجباً مُخَيَّراً على المطيق، عيّنَ هنا، وبتّ الأمر فيه، بقوله تعالى: ﴿شَهۡرُ رَمَضَانَ﴾؛ لأنّ ذلك أضخم وآكد من تعيينه من أوّل الأمر"[2]، "وكأنّ الحقّ سبحانه وتعالى، حينما هيّأ للعقول البشريّة الواضعة للألفاظ، أن يضعوا لهذا الشّهر ذلك الاسم، دلّ على المشقّة الّتي تعتري الصّائم في شهر رمضان، وبعد ذلك يعطي له سبحانه منزلة تؤكّد لماذا سُمّي؛ إنّه الشّهر الّذي أُنزل فيه القرآن؛ والقرآن إنّما جاء منهج هداية للقيم، والصّوم امتناع عن الاقتيات، فمنزلة الشّهر الكريم، أنّه يربّي البدن، ويربّي النّفس، فناسبَ أن يوجد التّشريع في تربية البدن، وتربيَة القيم، مع الزّمن الّذي جاء فيه القرآن بالقيم"[3].

شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

رَمَضَانُ عَلَم جنس عَلَى شَهْرِ الصَّوْمِ الأبرك

1) ﴿رَمَضَانَ﴾: أصل مادّة (رَمَض) يَدُلُّ عَلَى حِدَّةٍ فِي شَيْءٍ مِنْ

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 1/555.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 3/56.
(3) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ (الخواطر): 2/773.

حَرٍّ وَغَيْرِهِ. فَالرَّمَضُ: حَرُّ الْحِجَارَةِ مِنْ شِدَّةِ حَرِّ الشَّمْسِ[1]، ورَمَضَانُ: عَلَمٌ عَلَى شَهْرِ الصَّوْمِ، وَهُوَ عَلَمُ جِنْسٍ، وَيُجْمَعُ عَلَى: رَمَضَانَاتٍ وَأَرْمِضَةٍ، وَيُقَالُ: رَمَضَ الصَّائِمُ يَرْمَضُ: احْتَرَقَ جَوْفُهُ مِنْ شِدَّةِ الْعَطَشِ، وَيُقَالُ: أَرْمَضَتْهُ الرَّمْضَاءُ: أَحْرَقَتْهُ. وَقِيلَ: سُمِّيَ رَمَضَانُ؛ لِأَنَّهُ يَرْمَضُ الذُّنُوبَ، أَيْ: يُحْرِقُهَا بِالْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ[2]، وهو "في الأصل مصدر رمض، إذا احترق من الرّمضاء، فأضيف إليه، وجُعل علمًا، ومُنع من الصّرف للعلميّة وزيادة الألف والنّون، والمناسبة بين معناه وعبادة الصّائم واضحة، والعرب يضيفون لفظ شهر إلى كلّ من أسماء الشّهر المبتدئة براء، كربيع ورمضان، ولم يستثنِ من ذلك سوى رجب، فلا يضيفون إليه لفظ شهر، وقد نظم بعضهم ذلك فقال:

وَلَا تُضِفْ شَهْرًا إِلَى اسْمِ شَهْرِ***إِلَّا لِمَا أَوَّلُهُ الرَّا فَادْرِ

وَاسْتَثْنِ مِنْهُ رَجَبًا فَيَمْتَنِعْ***لِأَنَّهُ فِيمَا رَوَوْهُ قَدْ سُمِعْ[3]

القـرآن فرقان اللـه المنـزل لهداية الإنسان

2) ﴿وَٱلْفُرْقَانِۚ﴾: أصل مادة (فَرَقَ) يَدُلُّ عَلَى تَمْيِيزٍ وَتَنْزِيلٍ بَيْنَ شَيْئَيْنِ[4]. "والفُرْقَانُ: كلام اللّه تعالى، لفرقه بين الحقّ والباطل في الاعتقاد، والصِّدق والكذب في المقال، والصّالح والطّالح في الأعمال"[5]، وهو هنا بمعنى: الفَصْل بينَ الحقِّ والباطلِ.

وللفُرقان في التَّنْزيل مَوَاضِعُ، تفسَّر بحسب سياقها.

3) ﴿شَهِدَ﴾: (شَهِدَ) أَصْلٌ يَدُلُّ عَلَى حُضُورٍ وَعِلْمٍ وَإِعْلَامٍ[6]، أي: حضر. ومعنى الشهود: الحضور"[7]، قال المُطَرِّزِيُّ في قَوْله تَعَالَى: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُۖ﴾: "عَلَى مَعْنَى: فَمَنْ كَانَ حَاضِرًا مُقِيمًا، غَيْرَ مُسَافِرٍ فِي الشَّهْرِ، فَلْيَصُمْهُ، أَيْ: فَلْيَصُمْ فِيهِ، (وَالشَّهَادَةُ) الْإِخْبَارُ بِصِحَّةِ الشَّيْءِ، مُشَاهَدَةً وَعِيَانًا، يُقَالُ: شَهِدَ

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (رمض).
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/173.
(3) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 1/260.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (فرق)
(5) الرّاغب، المفردات: (فرق)
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (شهد).
(7) الواحدي، التّفسير البسيط: 3/582.

عِنْدَ الْحَاكِمِ لِفُلَانٍ عَلَى فُلَانٍ بِكَذَا شَهَادَةً، فَهُوَ شَاهِدٌ، وَهُمْ شُهُودٌ وَأَشْهَادٌ، وَهُوَ شَهِيدٌ، وَهُمْ شُهَدَاءُ"[1]، وصلِّينا صَلَاةَ الشَّاهِدِ، أَيْ: صَلَاةَ الْمَغْرِبِ؛ لِأَنَّ الْغَائِبَ لَا يَقْصُرُهَا، بَلْ يُصَلِّيهَا كَالشَّاهِدِ، وَالشَّاهِدُ يَرَى مَا لَا يَرَى الْغَائِبُ، أَيْ: الْحَاضِرُ يَعْلَمُ مَا لَا يَعْلَمُهُ الْغَائِبُ[2].

4) ﴿ٱلْيُسْرَ﴾، ﴿ٱلْعُسْرَ﴾: اليُسْرُ: ضدّ العسر[3]، وهما غالبًا ما يتلازمان في سياقات الاستعمال في القرآن وغيره، و"اليُسْر في اللّغة: معناه: السّهولة، ومنه يقال للغِنَى والسَّعَة: اليَسَار؛ لأنّه يتسهّل به الأمور، واليد اليُسْرى، قيل: على التّفاؤل باليسر، وقيل: لأنّه يتسهّل الأمر بمعاونتها اليمنى"[4].

وأمّا العُسْرُ؛ فمن (عَسَرَ)، أَصْلٌ يَدُلُّ عَلَى صُعُوبَةٍ وَشِدَّةٍ. فَالْعُسْرُ: نَقِيضُ الْيُسْرِ[5]، وهو الضّيق والشّدة والصّعوبة[6]، وَقَوله تَعَالَى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ إِرَادَة أَمر وتشريع، تتَعَلَّق هِيَ بالطّاعات لَا بالمعصية[7].

المَعْنى الإجْماليُّ:

دعوةٌ للصّوم في شهر القرآن، وبيانٌ لأحكام الصّيام

"شهر رمضان الّذي ابتدأ اللّه فيه إنزال القرآن في ليلة القدر؛ هداية للنّاس إلى الحقّ، بإعجازه المختصِّ به، فيه أوضح الدّلائل على هدى اللّه، وعلى الفارق بين الحقّ والباطل، فمن حضر منكم الشّهر وكان صحيحًا مقيمًا؛ فليصم نهاره، ويُرخَّص للمريض والمسافر في الفطر، ثمّ يقضيان عدد تلك الأيام. يريد اللّه تعالى بكم اليسر والسّهولة في شرائعه، ولا يريد بكم العسر والمشقَّة، ولتكملوا عدَّة الصّيام شهرًا، ولتختموا الصيام بتكبير اللّه في عيد الفطر، ولتعظّموه على هدايته لكم، ولكي تشكروا له على ما أنعم به عليكم من الهداية والتّوفيق والتّيسير"[8].

(1) المطّرزيّ، المغرب في ترتيب المعرب، ص: 259.
(2) الفيّوميّ، المصباح المنير: 1/324.
(3) الرّاغب، المفردات: (يسر).
(4) الواحدي، التّفسير البسيط: 3/586، وأبو حيّان، البحر المحيط: 2/174.
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة، مادّة (عسر).
(6) جبل، المعجم الاشتقاقيّ، مادّة (عسر).
(7) الكفويّ، الكليّات، ص: 76.
(8) نخبة من العلماء، التّفسير الميسّر: ص: 28، والآلوسّي، روح المعاني: 1/458.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

سَبَبُ فَصْلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ﴾ عمَّا قَبْلَهُ:

إِثَارَةُ السَّامِعِ وَبَعْثُ السُّؤَالاتِ فِي نَفْسِهِ يَشُدُّهُ إِلَى مُتَابَعَةِ الْخِطَابِ

الجملة في قول الله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ﴾ مستأنفةٌ استئنافًا بيانيًّا؛ إذْ إنَّ قوله سبحانه: ﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍۚ﴾ [البقرة: 184]، يبعث في نفس السَّامع سؤالًا عن تعيين هذه الأيَّام، فجاء قوله: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ﴾ جوابًا عن ذلك السُّؤال، ويُقوِّي هذا الوجهَ قراءةُ مجاهدِ بن جبرٍ (شَهْرَ) بالنَّصْبِ، على أنَّه بدلٌ من (أيامًا) بدلَ تفصيل[1].

عِلَّةُ حَذْفِ الْمُسْنَدِ إِلَيْهِ فِي قَوْلِهِ: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ﴾:

جَرَيَانُ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ عَلَى طَرِيقَةِ الْعَرَبِ فِي الِاسْتِعْمَالِ

في قَوْل الله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ﴾ حذفٌ؛ إذْ إنَّ (شَهْرُ) خَبَرُ مُبْتَدَأٍ مَحْذُوفٍ، تَقْدِيرُهُ: (هِيَ)، أَي: الْأَيَّامُ الْمَعْدُودَاتُ شَهْرُ رَمَضَانَ، وَحَذْفُ الْمُسْنَدِ إِلَيْهِ جَارٍ عَلَى طَرِيقَةِ الْعَرَبِ فِي اسْتِعْمَالِ الْمُسْنَدِ إِلَيْهِ إِذَا تَقَدَّمَ مِنَ الْكَلَامِ مَا فِيهِ تَفْصِيلٌ وَتَبْيِينٌ لِأَحْوَالِ الْمُسْنَدِ إِلَيْهِ، فَهُمْ يَحْذِفُونَ ضَمِيرَهُ[2]، وهذا التّقدير؛ إذا جُعلت الآية غيرَ ناسخة لصدر الآية الّتي قبلها، "وَإِذَا جَوَّزْتَ أَنْ يَكُونَ هَذَا الْكَلَامُ نَسْخًا لِصَدْرِ الْآيَةِ؛ لَمْ يَصِحَّ أَنْ يَكُونَ التَّقْدِيرُ (هِيَ شَهْرُ رَمَضَانَ)، فَيَتَعَيَّنُ أَنْ يَكُونَ (شَهْرُ رَمَضَانَ) مُبْتَدأ؛ خبره قَوْلُهُ: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُۖ﴾، وَاقْتِرَانُ الْخَبَرِ بِالْفَاءِ حِينَئِذٍ مُرَاعَاةٌ لِوَصْفِ الْمُبْتَدَأِ بِالْمَوْصُولِ الَّذِي هُوَ شَبِيهٌ بِالشَّرْطِ، وَمِثْلُهُ كَثِيرٌ فِي الْقُرْآنِ وَفِي كَلَامِ الْعَرَبِ، أَوْ عَلَى زِيَادَةِ الْفَاءِ فِي الْخَبَرِ"[3].

فتحصَّل من هذا أنَّ قوله: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ﴾ مرفوعٌ على أنَّه خبرٌ لمبتدأٍ محذوفٍ، والتَّقدير: هي شهر رمضان؛ فكان قوله: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ﴾ تفسيرًا للأيَّام المعدُودات، وتبيينًا لها[4].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/168-169.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/168-169 .
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/169.
(4) الواحديّ، التّفسير البسيط: 3/570.

نُكْتَةُ الْعُدُولِ عَنِ التَّعْبِيرِ بِـ (رَمَضَان) إِلَى التَّعبيرِ بِـ ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ﴾:

الْبَيَانُ وَالتَّفْصِيل أَنْسَبُ لِمَقَامِ التَّشريعِ؛ لِئَلَّا تَلْتَبِسَ الْأَحْكَامُ عَلَى الْعِبَادِ

عُدِلَ عن التَّعبير بـ: (رمضانُ) إلى ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ﴾ مع أنَّ الأوَّلَ أوجزُ وأخصرُ، والإيجازُ - وهو من مطلوباتِ العربِ في كلامهَا - يقتضيه؛ لكونِهِ الأشهرَ في فصيحِ كلامِهم وعَاليه، وللدِّلالة على استيعابِ جميع أيَّام الشَّهر بالصِّيامِ؛ إذْ لو قال: (رمضان)؛ لكان ظاهرَ الدِّلالة على استيعابِ صومِهِ، وليس نصًّا فيه، ولا سيَّما مع تقدُّم قوله: ﴿أَيَّامًا﴾، فقد يتوهَّم السَّامعُ أنَّ الواجب صومُ أيام من رمضان، لا استيعابُهُ بالصِّيام، "فَالْمَعْنَى: أَنَّ الْجُزْءَ الْمَعْرُوفَ بِشَهْرِ رَمَضَانَ مِنَ السَّنَةِ الْعَرَبِيَّةِ الْقَمَرِيَّةِ، هُوَ الَّذِي جُعِلَ ظَرْفًا لِأَدَاءِ فَرِيضَةِ الصِّيَامِ الْمَكْتُوبَةِ فِي الدِّينِ، فَكُلَّمَا حَلَّ الْوَقْتُ الْمُعَيَّنُ مِنَ السَّنَةِ، الْمُسَمَّى بِشَهْرِ رَمَضَانَ، فَقَدْ وَجَبَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ أَدَاءُ فَرِيضَةِ الصَّوْمِ فِيهِ"[1]، فكان العدولُ إلى التَّعبير بـ ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ﴾ أنسبَ لمقامِ البيانِ والتَّشريعِ؛ لئلَّا تلتبِسَ الأحكامُ على العبادِ.

نُكْتَةُ الْوَصْفِ بِالاسْمِ الْمَوْصُولِ وَصِلَتِهِ:

نُزُولُ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ حَدَثٌ دِينِيٌّ عَظِيمٌ، مِنْ شَأْنِهِ أَنْ لَا يُخْفَى

اختصاص شهر رمضانَ بتشريع وجوبِ الصَّوم فيه؛ لأنَّه نزل فيه القرآن الكريم، ففيه تذكير ببدءِ الوحي، واهتمامٌ بأكبرِ خيرٍ حلَّ بأهل الأرض، وهو بعثة النَّبيِّ ﷺ الذي أرسله اللّه تعالى لإخراج النَّاس من الظُّلمات إلى النُّور، وجعله رحمةً للعالمين، كما قال اللّه تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: 107][2].

ومجيءُ الوصفِ اسمًا موصولًا في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ﴾ يُشعِرُ بظاهرِهِ أنَّ المخاطبين عالمُون بأنَّ نزولَ القرآنِ الكريم وقعَ في شهر رمضانَ؛ إذ الغالب في الصِّلَةِ أن يكون السَّامعُ عالمًا باختصاصِهَا بمن أُجْرِيَ عليه الموصولُ، ولأنَّ نزول القرآن

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/171.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 1/556.

الكريم حدثٌ دينيٌّ عظيمٌ، من شأنِه أن لا يخفَى عليهم، فيكون الوصفُ بالموصولِ وصلتِه تذكيرًا لهم بهذه المِنَّةِ الجليلةِ، " وَيَجُوزُ أَيْضًا أَنْ يَكُونَ إِعْلَامًا بِهَذَا الْفَضْلِ، وَأُجْرِيَ الْكَلَامُ عَلَى طَرِيقَةِ الْوَصْفِ بِالْمَوْصُولِ، لِلتَّنْبِيهِ عَلَى أَنَّ الْمَوْصُوفَ، مُخْتَصٌّ بِمَضْمُونِ هَذِهِ الصِّلَةِ، بِحَيْثُ تُجْعَلُ طَرِيقًا لِمَعْرِفَتِهِ"[1].

وقد صار رمضانُ شهرَ نزولِ القرآن، وشهرَ الصّيام معًا، "وَمَعْنَى ﴿ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ﴾، أُنزل في مثله؛ لِأَنَّ الشَّهْرَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ، قَدِ انْقَضَى قَبْلَ نُزُولِ آيَةِ الصَّوْمِ بِعِدَّةِ سِنِينَ، فَإِنَّ صِيَامَ رَمَضَانَ فرض من السَّنَةِ الثَّانِيَةِ لِلْهِجْرَةِ، فَبَيْنَ فَرْضِ الصِّيَامِ وَالشَّهْرِ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ حَقِيقَةً عِدَّةُ سِنِينَ، فَيَتَعَيَّنُ بِالْقَرِينَةِ أَنَّ الْمُرَادَ أُنْزِلَ فِي مِثْلِهِ، أَيْ: فِي نَظِيرِهِ مِنْ عَامٍ آخَرَ"[2].

نُكْتَةُ الْمَجَازِ الْمُرْسَلِ فِي قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾:

لِلْقُرْآنِ الْكَرِيمِ نُزُولَانِ نُزُولٌ إِلَى سَمَاءِ الدُّنْيَا جُمْلَةً وَاحِدَةً، وَنُزُولٌ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ مُنَجَّمًا بِحَسَبِ الْوَقَائِعِ وَالْأَحْدَاثِ

المرادُ بإنزالِ القُرآن في قوله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾ ابتداءُ نزولِه على النَّبيّ ﷺ؛ إذ كان ابتداءُ إنزاله عليه في رمضانَ، فوقع التَّعبيرُ ههنا عن إنزالِ أوَّلِه باسم جميعِه، على طريقة المجازِ المرسَلِ بعلاقة الكلّيّة، "لِأَنَّ ذَلِكَ الْقَدْرَ الْمُنَزَّلَ مُقَدَّرٌ إِلْحَاقُ تَكْمِلَتِهِ بِهِ كَمَا جَاءَ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْآيَاتِ مِثْلَ قَوْلِهِ: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ﴾ [الأنعام: 92] وَذَلِكَ قَبْلَ إِكْمَالِ نُزُولِهِ، فَيَشْمَلُ كُلَّ مَا يَلْحَقُ بِهِ مِنْ بَعْدُ"[3].

ويحتملُ أن لا يكون من قبيل المجاز المرسَل، بل من باب الحقيقة؛ ويكون المرادُ إنزالُ القرآن كلّه إلى سماءِ الدُّنيَا؛ إذْ إنَّ للقرآن الكريم نزولَيْن؛ أحدهما: إنزاله من اللَّوح المحفوظ إلى سماء الدُّنيا جملةً واحدةً، والآخر: إنزاله على النّبيّ ﷺ منجَّمًا بحسب الوقائع والأحداث[4].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/171.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/172.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/172.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/195.

ولا مانعَ من إرادةِ المعنَيَيْنِ معًا؛ حملًا للَّفْظِ على حقيقتِهِ ومجازِهِ لعدمِ التَّعارُضِ بينَهُمَا؛ ويكون المرادُ بالقرآنِ الكريم كُلِّهِ بحمل الإنزالِ على الإنزال الأوَّلِ إلى سماء الدُّنيا، ويكون المرادُ بهِ مبدأَهُ، بحَمْلِ الإنزال على الإنزال الثَّاني على النَّبيّ ﷺ مفرَّقًا بحسب الوقائع والأحداث، وأُطْلِقَ على بعضِهِ النَّازِلِ أنَّه القرآنُ؛ تعيظمًا لشأنِ المُنْزَلِ، ولأنَّه مقدَّر إلحاقُ تكملتِهِ به.

دَلَالَةُ الْوَصْفِ بِالْمَصْدَرِ فِي قَوْلِهِ: ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ﴾:

عَظَمَةُ هُدَى الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ

لشهرِ رمضانَ خصوصيَّاتٌ، هذه الخصوصيّات تتجلّى في قولِهِ تعالى: ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِۚ﴾، فهما: " حَالَانِ مِنَ ﴿ٱلْقُرْءَانُ﴾؛ إِشَارَةً بِهِمَا إِلَى وَجْهِ تَفْضِيلِ الشَّهْرِ بِسَبَبِ مَا نَزَلَ فِيهِ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ"[1].

وانتصابُ ﴿هُدًى﴾ من قوله تعالَى: ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ﴾ عَلَى أنَّهُ حالٌ، وَهُوَ بصيغَةِ المَصْدَرِ، وُضِعَ مَوْضِعَ اسْمِ الْفَاعِلِ، أَيْ: هَادِيًا لِلنَّاسِ، إلَّا أنَّ الوصفَ بالمصدَرِ أبلغُ من الوصفِ باسم الفاعلِ -والحالُ وصفٌ لصاحبِهَا في المَعْنَى-، وفيه إشعارٌ بعظمَةِ هدى القرآن الكريم، ورشَّحَ هذه الدِّلالةَ تنكير ﴿هُدًى﴾؛ فإنَّ تنكيرَهَا -وإن كان هو الأصلَ؛ لكونها وقعت حالًا- دالٌّ على التَّعظيم والتَّفخيم.

دَلَالَةُ اللَّامِ فِي ﴿لِّلنَّاسِ﴾:

الضَّالُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ تَعَالَى انْحَطَّتْ دَرَكَاتُهُمْ فَلَا يَسْتَحِقُّونَ انْدِرَاجَهُمْ فِي سِلْكِ النَّاسِ

قول الله تعالى: ﴿لِلنَّاسِ﴾ متعلِّقٌ بـ ﴿هُدًى﴾؛ لوقوعِهِ موقع اسم الفاعل (هَادٍ)، واللَّام في ﴿لِلنَّاسِ﴾ لاستغراقِ أفرادِ الجنسِ؛ فهو هادٍ لجميعِ النَّاسِ، وضلالُ مَنْ ضلَّ بسببِ خَلَلٍ في القصد والإرادةِ عندهم لا بسببِ القرآن الكريم، وفيه إيماءٌ إلى أنَّ مَن ضلَّ لا يستحقُّ أن يُصنَّفَ معَ النَّاسِ.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/173.

وقوله سبحانه: ﴿وَبَيِّنَٰتٍ﴾ معطوفٌ على ﴿هُدًى﴾، وهما حالَان لازمَتَانِ؛ إذ كونُ القرآن آياتٍ بيِّنَاتٍ جليَّاتٍ، وكونُهُ هدًى: ثابتًا لَهُ غير منفكٍّ عَنْهُ[1].

نُكْتَةُ الْإِطْنَابِ بِعَطْفِ الْخَاصِّ عَلَى العَامّ فِي قَوْلِهِ: ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِۚ﴾:

الآيَاتُ الْبَيِّنَاتُ أَشْرَفُ أَنْوَاعِ الْهُدَى

قول الله تعالى: ﴿وَبَيِّنَٰتٍ﴾ من قوله تعالى: ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِۚ﴾ معطوفٌ على قوله: ﴿هُدًى﴾، و﴿وَبَيِّنَٰتٍ﴾ في المعنى: حالٌ؛ لكونِه معطوفًا على حالٍ وهو ﴿هُدًى﴾، والمعنى: أنزل الله القرآنَ بيانًا للنَّاسِ.

و﴿هُدًى﴾ و﴿وَبَيِّنَٰتٍ﴾ حالان لازمتَانِ؛ "لِأَنَّ كَوْنَ الْقُرْآنِ آيَاتٍ جَلِيَّاتٍ وَاضِحَاتٍ وَصْفٌ ثَابِتٌ لَهُ"[2]، وعطفُ ﴿وَبَيِّنَٰتٍ﴾ على ﴿هُدًى﴾ من عطف الخاصِّ على العامِّ؛ إذ الهدَى منه ما هو ظاهرٌ، ومنه ما هو خفيٌّ؛ لأنَّ القرآن الكريم مشتمِلٌ على المحكم والمتشابهِ، ونكتة العطفِ ههنا: الإيماءُ إلى أنَّ البيِّناتِ أشرفُ أنواع الهدَى؛ إذ به يتبيَّنُ الحلال والحرامُ والموعظةُ وسائرُ الأحكام، ووجه شرفِهَا: أنَّها مذكورة مرَّتين؛ إحداهما مندرجةً تحت الجنس العامِّ وهو الهُدَى، والأخرى: مذكورة على سبيل الانفراد والاستقلالِ، وفي هذا مزيدُ عنايةٍ بهذا الفردِ الخاصِّ.

دِلَالَةُ ﴿ٱلْهُدَىٰ﴾ فِي مَوْضِعَيْ قَوْلِهِ تعالَى: ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ﴾:

تَنَوُّعُ ضُرُوبِ الْهِدَايَةِ لِلْقُرْآنِ الْكَرِيمِ

تكرَّر ذِكرُ الهُدى في قول الله تعالى: ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِۚ﴾، والمرادُ بالهدَى في الموضع الأوَّلِ: ما في القرآن الكريم من الدِّلالةِ على المصالح العامَّة والخاصَّةِ، والمرادُ بالبيِّنات

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/196.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/196.

مِنَ الهُدَى: ما فيه من الاستدلالِ على ما خَفِيَ من الهُدَى الذي يُنْكِرُهُ كثيرٌ من الخَلْقِ، فالهدُى في الموضع الأوَّلِ نوعٌ من الهُدَى غير الذي أُريد بالهُدَى في الموضع الثَّاني، فالتَّكرارُ حاصلٌ في اللَّفْظِ، وإلَّا فإنَّ لكلِّ موضعٍ معناهُ المغايرَ للآخَرِ.

وما قاله بعض العلماء من أنَّ الهدى والفرقانَ في قوله: ﴿وَبَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡفُرۡقَانِۚ﴾ يُراد به: القرآن الكريم؛ فغيرُ ظاهرٍ؛ لأنَّ الشَّيءَ لا يكون بعضًا لنفسِهِ[1].

دِلَالَةُ الْفَاءِ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهۡرَ فَلۡيَصُمۡهُۖ﴾:

الفاء في قوله تعالى: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهۡرَ فَلۡيَصُمۡهُۖ﴾، تفريعٌ على قوله سبحانه قبلُ: ﴿شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ﴾ الَّذي هُوَ بَيَانٌ لِقَوْلِهِ: ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾، فَهُوَ رُجُوعٌ إِلَى بيانِ حكم صيامِهِ المنصوص عليه في قبلُ في قوله: ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾ وما في هذا مِنِ اسْتِينَاسٍ وَتَنْوِيهٍ بِفَضْلِ الصَّوْمِ، "وَمَا يُرْجَى مِنْ عَوْدِهِ عَلَى نُفُوسِ الصَّائِمِينَ بِالتَّقْوَى وَمَا حَفَّ اللَّهُ بِهِ فَرْضَهُ عَلَى الْأُمَّةِ مِنْ تَيْسِيرٍ عِنْدَ حُصُولِ مَشَقَّةٍ مِنَ الصِّيَامِ"[2].

الرُّجُوعُ إِلَى بَيَانِ الْأَحْكَامِ تَأْكِيدًا وَتَنْوِيهًا بِشَأْنِ الصَّوْمِ

وينضمُّ إلى دلالةِ الفاء على التَّفريعِ دلالَتُها على التَّعقيبِ، كما هو الكثيرُ فيها - وفيها أوجه أخرى -، قال أبو السّعود: "والفاءُ للتّفريعِ والتّرتيب، أو لتضمُّن المبتدأ معنى الشَّرطِ، أو زائدةٌ على تقدير كونِ شهر رمضانَ مبتدأً، والموصولُ صفة له، وهذه الجملةُ خبرٌ له"[3].

نُكْتَةُ الْإِظْهَارِ فِي مَقَامِ الْإِضْمَارِ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهۡرَ فَلۡيَصُمۡهُۖ﴾:

في قول الله تعالى: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهۡرَ فَلۡيَصُمۡهُۖ﴾ وضعُ

التَّنْوِيهُ بِشَأْنِ شَهْرِ رَمَضَانَ وَتَعْظِيمُ قَدْرِهِ

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/196.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/173.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 1/200.

المظهرِ مَوْضِعَ المُضْمَرِ؛ إذ سبقَ ذكرُ الشَّهْرِ في صدر الآيةِ في قوله: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ﴾، فكان مقتضى الظَّاهرِ ههنا أن يقال: (فَمَنْ شَهِدَهُ)، والنُّكتة في الإظهارِ: التَّنويه بشأن الشَّهْرِ وتعظيمُهُ[1]؛ إذ الاسم الظَّاهر أدخَلُ في التَّعظيم من الضَّميرِ.

إِثَارَةُ الْفِكْرِ وَتَنْبِيهُ الذِّهْنِ مِنْ طَرَائِقِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ فِي تَرْسِيخِ الْمَعَانِي الْعَظِيمَةِ فِي نُفُوسِ الْمُتَلَقِّينَ لِلْخِطَابِ

بَلَاغَةُ أُسْلُوبِ الاسْتِخْدَامِ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾:

(شَهِدَ) في قول الله تعالى: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ تحتملُ وجهين[2]:

أحدهما: أن يكون من الشُّهودِ بمعنَى الحضورِ، وهو خلافُ السَّفَرِ، والمرادُ بـ ﴿ٱلشَّهْرَ﴾ أيَّامُهُ، والضَّمير في قوله: ﴿فَلْيَصُمْهُ﴾ راجعٌ على ﴿ٱلشَّهْرَ﴾ بالمعنَى الذي دلَّ عليه الاسمُ الظَّاهرِ.

والآخرُ: أن يكون بمعنى الرُّؤيةِ، ويكون ﴿ٱلشَّهْرَ﴾ مستعملًا في الهلالِ؛ مجازًا مرسلًا بعلاقة المسبَّبيَّةِ؛ إذِ الهلالُ سببٌ في الحكم بدخولِ الشَّهْرِ، والضَّميرُ في قوله: ﴿فَلْيَصُمْهُ﴾ راجعٌ على ﴿ٱلشَّهْرَ﴾ بغير المعنى الذي دلَّ عليه الاسم الظَّاهر؛ فإنَّ دِلالةَ ﴿ٱلشَّهْرَ﴾ على هذا الوجهِ يُرادُ بها الهلالُ مجازًا، والمراد بالضَّمير الرَّاجع إليه الأيَّامُ؛ إذْ هي محلُّ الصَّوْمِ؛ فيكون في الآية -على هذا الوجه- استخدامٌ، ونكتة الاستخدام: ما فيه من الإيجازِ، وهو من أعلَى مطلوباتِ البلغاءِ في كلامِهم، وَوَجْهُ الإيجازِ: أنَّ قوله تعالى: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ أخصرُ من لو قيل: (فمن شهد منكم الشَّهر، فليصُمْ أيَّامَ الشَّهْرِ الذي كان الهلالُ سببًا فيه)، وفي الاستخدام فائدةٌ أخرى: وهو ما يُحقِّقُهُ من تنبيهِ المخاطَبِ وإيقاظِهِ وإثارةِ فكرِهِ؛ لأنَّ أوَّل ما يتبادَرُ إلى ذهنه من الضَّمير في ﴿فَلْيَصُمْهُ﴾ هو المعنى الذي استُخْدِمَ فيه اللَّفظُ المذكور ﴿ٱلشَّهْرَ﴾، إلَّا أنَّه يُفاجأُ بأنَّ الضَّمير قد استُخْدِمَ في معنًى آخرَ، وفي هذا إثَارة للفكر وتنبيه للذِّهن، فيكون أوقعَ في النَّفسِ وأبلغَ في الأثرِ وأقوَى[3].

(1) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 3/175.
(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/222.
(3) بسيوني فيّود، علم البديع، ص: 185-184.

تَعْيِينُ مَفْعُولِ (شَهِدَ) مِنْ قَوْلِهِ: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ﴾:

وُجُوبُ الصَّوْمِ عَلَى الْحَاضِرِ فِي الْبَلَدِ

مفعولُ ﴿شَهِدَ﴾ -بمعنى: حضر- في قوله تعالى: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ﴾ محذوفٌ، ولا يصحُّ أن يكون ﴿ٱلشَّهْرَ﴾ مفعولًا له؛ لفسادِ المعنى؛ إذْ ما من أحدٍ غابَ أو حضر إلَّا وهو شاهدٌ الشَّهْرَ، ولكنَّ المعنى: من شهد منكم بيتَهُ أو بلدَهُ في الشَّهْرِ؛ فليصمْهُ[1] وجوبًا إذا لم يَقُمْ به مَانِعٌ، وحُذِفَ لظهورِ المعنَى، فاستُغْنِيَ بظهورِهِ عن التَّنصيص عليه.

وقوله: ﴿ٱلشَّهْرَ﴾ منصوب على الظَّرفيَّة الزَّمانيَّةِ، ولم يُنصب بإيقاع ﴿شَهِدَ﴾ عليه[2].

سِرُّ تَكْرَارِ قَوْلِهِ: ﴿وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ﴾ مَعَ قَوْلِهِ قَبْلُ: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ﴾:

مِنْ تَمَامِ الْبَيَانِ دَفْعُ إِيهَامِ غَيْرِ الْمُرَادِ

قول اللّٰه تعالى: ﴿وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ تكرَّر مضمونُهُ مع قوله قبلُ: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾، وَوَجْهُ تكرارِهِ: أنَّه لمّا كان صوم رمضانَ واجبًا على سبيل التَّخيير بينَهُ وبين الفديةِ بالإطعامِ كما دلَّت عليه الآيةُ الأولى، وبيَّن فيها عدمَ وجوبِ الصَّوْم على المريض والمسافِرِ، وأنَّهما يقضيانِ ما أفطرا فيه في أيَّام أخرى؛ جاء قول اللّٰه تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ﴾، وصار صوم رمضانَ واجبًا على التَّعيين، لا تخييرَ بينه وبين الفديةِ في حقِّ القادر، فقد يُتوهَّمُ أنَّ هذا الوجوبَ عامٌّ لجميع الأفرادِ المذكورين، ومن جملتهم: المرضى والمسافرون، فاحتيجَ إلى تكرارِ عذرِهم، فقال تعالى: ﴿وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ﴾، "فَأُعِيدَ ذَلِكَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ النَّاسِخَةِ؛ تَصْرِيحًا بِبَقَاءِ تِلْكَ الرُّخْصَةِ،

(1) الواحديّ، التّفسير البسيط: 3/583.
(2) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 68.

وَنُسِخَتْ رُخْصَةُ الإِطْعَامِ مَعَ الْقُدْرَةِ وَالْحَضَرِ وَالصِّحَّةِ لَا غَيْرَ، وَهُوَ بِنَاءً عَلَى كَوْنِ هَاتِهِ الْآيَةِ نَاسِخَةً لِلَّتِي قَبْلَهَا"[1].

مِنْ مَظَاهِرِ رَحْمَةِ اللهِ تَعَالَى بِالْعِبَادِ تَعْجِيلُ إِعْلَامِهِمْ بِالرُّخَصِ؛ رِفْقًا بِهِمْ

وأمّا توجيه التّكرار مع اعتبار عدم النّسخ بقَوْلِهِ: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ﴾؛ فيوضّحه ما أكّده الشّيخ ابن عاشور بقوله: "فَإِنْ دَرَجْنَا عَلَى أَنَّهُمَا نَزَلَتَا فِي وَقْتٍ وَاحِدٍ؛ كَانَ الْوَجْهُ فِي إِعَادَةِ هَذَا الْحُكْمِ، هُوَ هَذَا الْمَوْضِعُ الْجَدِيرُ بِقَوْلِهِ: وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا؛ لِأَنَّهُ جَاءَ بَعْدَ تَعْيِينِ أَيَّامِ الصَّوْمِ، وَأَمَّا مَا تَقَدَّمَ فِي الْآيَةِ الْأُولَى، فَهُوَ تَعْجِيلٌ بِالْإِعْلَامِ بِالرُّخْصَةِ رِفْقًا بِالسَّامِعِينَ، أَوْ أَنَّ إِعَادَتَهُ لِدَفْعِ تَوَهُّمِ أَنَّ الْأَوَّلَ مَنْسُوخٌ بِقَوْلِهِ: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾، إِذَا كَانَ شَهِدَ، بِمَعْنَى: تَحَقَّقَ، وَعَلِمَ، مَعَ زِيَادَةٍ فِي تَأْكِيدِ حُكْمِ الرُّخْصَةِ، وَلِزِيَادَةِ بَيَانِ مَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾"[2].

سَبَبُ فَصْلِ قَوْلِهِ: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ عَمَّا قَبْلُ:

التَّيْسِيرُ مِنَ الْمَعَالِمِ الْكُبْرَى لِلتَّشْرِيعِ الْإِسْلَامِيِّ

قول الله تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ مستأنفٌ استئنافًا بيانيًّا، واقعٌ موقعَ التَّعليل للرُّخصة، "وفيه إشارة إلى الوصف العامّ لشرع الله تعالى"[3]، فقول الله تعالى: ﴿وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ يبعث في نفس المتلقّي سؤالًا عن حكمة التَّرخيص لهذين الصِّنفين؛ فجاء الجواب: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾، "أَيْ: شَرَعَ لَكُمُ الْقَضَاءَ؛ لِأَنَّهُ يُرِيدُ بِكُمُ الْيُسْرَ عِنْدَ الْمَشَقَّةِ"[4]، قال السّمعانيّ: "وَقَوله تَعَالَى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾، يَعْنِي: فِي إِبَاحَة الْفطر بِالمرضِ وَالسّفر، وَتَأْخِير الصَّوْم إِلَى أَيَّام أخر، وَحكى عَن

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/174.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/174-175.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 1/560.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/175.

الشّعبيّ أنّه قالَ: مَا خُيِّر رجلٌ بَين أَمرَيْن، فَاخْتَارَ أيسرَهما؛ إلَّا كَانَ ذَلِك أحبّهما إلَى الله"[1].

دِلَالَةُ الْمُقَابَلَةِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾:

في قول الله تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ مقابلةٌ معنيين بمعنيين؛ فإنَّ الإرادة المثبتةَ في قوله: ﴿يُرِيدُ﴾ تقابلُها الإرادةُ المنفيَّةُ في قوله: ﴿وَلَا يُرِيدُ﴾، واليُسْرُ يقابلُهُ العسرُ، وحقيقةُ المقابلةِ: أن يؤتى بمعنيين متوافقين أو أكثر، ثمّ يؤتى بما يقابل ذلك على التّرتيب، قال النّيسابوريّ: "﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ﴾، وهُو مقامُ الوصول، وَ﴿وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾، وهو ما في الطّريق من الرّياضة والمجاهدة، كالطّبيب يسقي دواء مرًّا، فمُرادُه حصولُ الصّحة لا إذاقة مرارة الدواء، وأيضًا: «كلٌّ ميسّرٌ لما خُلق لهُ»[2]، لو لم يرد بنا اليسر، لم يجعلنا طالبين لليسر"[3]، واستشهد بقول الشّاعر:

لَوْلَمْ تُرِدْ نَيْلَ مَا أَرْجُو وَأَطْلُبُهُ *** مِنْ فَيْضِ جُودِكَ مَا عَلَّمْتَنِي الطَّلَبَا[4]

وقوله: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ﴾ يُستفادُ منه بطريقِ الفَحْوَى أنَّ الله تعالى لا يُريد بالعبادِ العُسْرَ، ومع ذلك فقد صُرِّحَ بهذا المفهوم في قوله: ﴿وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ زيادةً في البيانِ، ومزيدًا لإظهارِ سعةِ رحمةِ الله تعالى بالعبادِ؛ فإنَّ دلالةَ المنطوقِ أقوى من دلالة المفهوم.

إِظْهَارُ سَعَةِ رَحْمَةِ اللهِ تَعَالَى بِالْعِبَادِ

نُكْتَةُ الْعُدُولِ عَنْ جُمْلَةِ الْقَصْرِ إِلَى جُمْلَتَيْنِ: مُثْبَتَةٍ وَمَنْفِيَّةٍ:

قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾: يتركّب من جملتين متقابلتين، إحداهما تتضمَّن إثباتَ إرادةِ اللهِ

مِنْ كَمَالِ الرَّأْفَةِ الإِلَهِيَّةِ نَفْيُ الحَرَجِ ضِمْنًا، ثُمّ نَفْيُه نَصًّا

(1) السّمعانّي، تفسير القرآن: 1/184.

(2) هذا جزءٌ من حديثٍ، رواه البخاري في صحيحه (4949)، ومسلم في صحيحه (2647).

(3) النّيسابوريّ، غرائب القرآن: 1/522.

(4) البيتان للشّاعر العبّاسّي أبي الفتح البستيّ (ت: 400هـ)، وله بيت آخر مذكور معه، وهو قوله:
#يَا مَنْ غَدَا سَبَبًا حَتَّى عُرِفْتُ بِهِ *** حَسْبِي عُلَاكَ إِلَى نَيْلِ الْمُنَى سَبَبَا.
ينظر: ديوان أبي الفتح البستيّ، مطبوعات مجمع دمشق، ط1، ص: 37 38.

تعالى اليسرَ بالعبادِ، والأخرى: تتضمَّنُ نفيَ إرادته تعالى العسرَ بهم، "وَقَدْ كَانَ يَقُومُ مَقَامَ هَاتَيْنِ الْجُمْلَتَيْنِ جُمْلَةُ قَصْرٍ، نَحْوَ أَنْ يَقُولَ: مَا يُرِيدُ بِكُمْ إِلَّا الْيُسْرَ، لَكِنَّهُ عَدَلَ عَنْ جُمْلَةِ الْقَصْرِ إِلَى جُمْلَتَيْ إِثْبَاتٍ وَنَفْيٍ؛ لِأَنَّ الْمَقْصُودَ ابْتِدَاءً: هُوَ جُمْلَةُ الإِثْبَاتِ؛ لِتَكُونَ تَعْلِيلًا لِلرُّخْصَةِ، وَجَاءَتْ بَعْدَهَا جُمْلَةُ النَّفْيِ تَأْكِيدًا لَهَا"[1]، قال النّيسابوريّ: "ومن كمال رأفته تعالى، أنّه نفى الحرج أوّلا ضمنًا، بقوله: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ﴾، ثمّ نفاه صريحًا بقوله: ﴿وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾، والظّاهر أنّ الألف واللّام في ﴿ٱلْيُسْرَ﴾ و﴿ٱلْعُسْرَ﴾ يفيدان العموم، فيمكن أنْ يُستدلّ بهما على عدم وقُوع التّكليف بما لا يُطاق"[2].

الْعَطْفُ عَلَى الْمَعْنَى لَا عَلَى ظَاهِرِ اللَّفْظِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَلِتُكْمِلُواْ ٱلْعِدَّةَ﴾:

مِنْ مَقَاصِدِ الْحَذْفِ اسْتِدْعَاءُ ذِهْنِ الْمُتَلَقِّي إِلَى التَّأَمُّلِ وَإِعْمَالِ الفِكْرِ

الواو في قول اللّه تعالى: ﴿وَلِتُكْمِلُواْ﴾ عاطفةٌ على المعنَى لا على ظاهر اللَّفْظِ، ووجه ذلك: أنَّ اللّه تعالى أباحَ الفطر للمريض والمسافر تسهيلًا عليهما وتيسيرًا، ورفعًا للمشقَّةِ عنهما، والمعنى: "فَعَلَ اللّه ذلك ليسهّل عليكم، ولتكملوا العدّة إذا أقَمْتُم وبَرَأْتُم، والعرب ربّما تحمل الكلامَ على المعاني، وتترك اللّفظ"[3].

فقوله: ﴿وَلِتُكْمِلُواْ ٱلْعِدَّةَ﴾ معطوفٌ على مُضمرٍ مقدَّر، أي: يريدُ اللّه بكُم اليُسر، ولا يُريدُ بكُم العُسر، ليسهّل عليكُم، ولتُكملوا العدّة، فحُذِفَ الفعلُ (ليسهّل عليكم)[4]، وجيءَ بالفعل بعدها معطوفًا؛ لينتقِلَ الذِّهْنُ إلى الكشفِ عن المعطوفِ بالتَّأمُّلِ وإعمال الفِكْرِ.

وفي تحليل السّياق الإعرابيّ لهذه الآية ناقشَ النّحاة دلالة (الواو)، قال الطّبريّ: "اختلف أهل العربيّة في ذلك، فقال بعضهم: هي عاطفة على ما قبلها، كأنّه قيل: ويُريد لتكملوا العدة ولتكبروا اللّه، وقال بعض نحويي الكوفة: وهذه(اللّام) الّتي في قوله: ﴿وَلِتُكْمِلُواْ﴾ لام (كي)، لو ألقيتَ كان صوابًا، قال: والعرب تُدخلها

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/175.
(2) النّيسابوريّ، غرائب القرآن: 1/504.
(3) الواحدي، التّفسير البسيط: 3/587.
(4) الباقولّي، كشف المشكلات: 2/141.

في كلامها على إضمار فعل بعدها، ولا تكون شرطًا للفعل الّذي قبلها، وفيها (الواو)، ألا ترى أنّك تقول: (جئتُك؛ لتحسن إليّ)، ولا تقول: (جئتك ولتُحسن إليّ)، فإذا قلته فأنت تريد: ولتُحسنَ جئتُك. قال: وهذا في القرآن كثيرٌ، منه قوله: ﴿وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ [الأنعام: 113]"[1].

دِلَالَةُ اللّامِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلِتُكْمِلُواْ ٱلْعِدَّةَ﴾:

فِي تَشْرِيعِ الْأَحْكَامِ حِكَمٌ وَأَسْرَارٌ قَدْ تَظْهَرُ لِلْخَلْقِ وَقَدْ تَخْفَى عَنْهُمْ

اللَّامُ في قوله تعالى: ﴿وَلِتُكْمِلُواْ ٱلْعِدَّةَ﴾ لام كَيْ، وهي لام التَّعليل، وليست لامَ الأمرِ، "ولو كانت لامَ الأمرِ؛ لجاز تسكينُها مع الواو؛ لأنّه إذا دخل على لام الأمر الواو أو الفاء أو ثمّ، جاز تسكينها وتحريكها، كقوله: ﴿ثُمَّ لْيَقْضُواْ تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُواْ نُذُورَهُمْ﴾"[2]، وفي إيرادِ الفعل مقرونًا بلام التَّعليلِ إشعارٌ بأنَّ الأحكام التي يشرعها اللّه تعالى لعبادِهِ مقرونَةٌ بحِكَم جليلةٍ، قد يُنصُّ على بعضِهَا ويُطْوَى الآخرُ؛ حثًّا للنَّاسِ على استنباطِهَا واستخراجِها؛ للوقوفِ على بعض آثارِ حكمةِ اللّه تعالى في شرعِهِ.

واللَّامُ ههنا جائزٌ أن تتعلَّق بفعلٍ مضمرٍ، والمعنى: أمرَ اللّه تعالى بما أمر به لتُكْمِلوا العدّةَ، "ويجوز أن يكون معطوفًا على قوله: ﴿ٱلْيُسْرَ﴾، كأنّه قيل: (يريدُ بكُم اليُسر وتكميل العدّة)، فأدخل فيه اللّام، كما أدخل في قوله: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ﴾ [النساء: 26]"[3].

دِلَالَةُ التَّعْلِيلَاتِ فِي ﴿وَلِتُكْمِلُواْ ٱلْعِدَّةَ﴾، ﴿وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ﴾، ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾:

غَايَةُ الْعَزِيمَةِ الْمَفْرُوضَةِ وَالرُّخْصَةِ الْمَعْرُوضَةِ رَفْعُ الْعَنَتِ وَالْحَرَجِ

تكرَّرت اللَّامُ الدالَّةُ على التَّعليلِ في هذه الآية الكريمة، ﴿وَلِتُكْمِلُواْ ٱلْعِدَّةَ﴾، ﴿وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ﴾، ونظيرُ ذلك في التَّعليل قوله:

(1) ابن جرير، جامع البيان: 3/477.
(2) الواحديّ، التَّفسير البسيط: 3/590.
(3) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 1/395.

﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾، "فقوله: ﴿وَلِتُكْمِلُواْ﴾ علّةُ الأمر بمراعاة العدّة، ﴿وَلِتُكَبِّرُواْ﴾ علّةُ ما علم من كيفيّة القضاء والخروج عن عهدة الفطر، ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ علّةُ التّرخيص والتّيسير، وهذا نوع من اللّفّ لطيف المسلك، لا يكاد يهتدي إلى تبيّنه إلّا النّقّاب المحدث من علماء البيان"[1].

وجُعِلَ آخر التَّعليلَاتِ قوله: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾، وهو أعمُّ من مضمون قوله: ﴿وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ﴾، "فَإِنَّ التَّكْبِيرَ تَعْظِيمٌ يَتَضَمَّنُ شُكْرًا، وَالشُّكْرُ أَعَمُّ؛ لِأَنَّهُ يَكُونُ بِالْأَقْوَالِ الَّتِي فِيهَا تَعْظِيمٌ لِلَّهِ تَعَالَى، وَيَكُونُ بِفِعْلِ الْقُرَبِ مِنَ الصَّدَقَاتِ فِي أَيَّامِ الصِّيَامِ وَأَيَّامِ الْفِطْرِ"[2].

دِلَالَةُ الكِنَايَةِ فِي إِثْبَاتِ الأَكْبَرِيَّةِ للهِ بِكلمَة (اللهُ أَكْبَرُ):

إِفْرَادُ اللهِ تَعَالَى بِالرُّبُوبِيَّةِ يَسْتَلْزِمُ إِفْرَادَهُ سُبْحَانَهُ بِالْأُلُوهِيَّةِ

قول الله تعالى: ﴿وَلِتُكَبِّرُواْ﴾ فعلٌ مصدرُهُ: التَّكبير، وهو بِزِنَة التَّفعيل، وهذا الوزنُ يأتي مرادًا به الجعلُ، ويأتي ويُراد به النِّسبةُ والوصفُ - كما في هذا الموضع -، والمعنى: انسبوا اللّه تعالى إلى الكبر، وهي نسبة بالقولِ والقلب، والمرادُ بالتَّكبير: "الْعَظَمَةُ وَالْجَلَالُ وَالتَّنْزِيهُ عَنِ النَّقَائِصِ كُلِّهَا، أَيْ: لِتَصِفُوا اللّه بِالْعَظَمَةِ، وَذَلِكَ بِأَنْ تَقُولُوا: اللّه أَكْبَرُ"[3].

وفي إثبات الأعظميَّة والأكبريّةِ للّه تعالى في قول القائل: (اللّه أكبرُ) كناية عن وحدانيَّته سبحانه في ألوهيَّته، ووجه ذلك: "أَنَّ التَّفْضِيلَ يَسْتَلْزِمُ نُقْصَانَ مَنْ عَدَاهُ، وَالنَّاقِصُ غَيْرُ مُسْتَحِقٍّ لِلْإِلَهِيَّةِ؛ لِأَنَّ حَقِيقَتَهَا لَا تُلَاقِي شَيْئًا مِنَ النَّقْصِ، وَلِذَلِكَ شُرِعَ التَّكْبِيرُ فِي الصَّلَاةِ، لإبطال السُّجُود لغير اللّه، وَشرع التَّكْبِير عِنْد نحر الْبُدْن فِي الْحَجّ، لإبطال مَا كَانُوا يَتَقَرَّبُون بِهِ إِلَى أصنامهم، وَكَذَلِكَ شرع

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/228.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/177.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/176.

التَّكْبِيرُ عِنْدَ انْتِهَاءِ الصِّيَامِ بِهَذِهِ الْآيَةِ"[1]، فهو من جملة ما استُدِلَّ فيه بربوبيَّة اللّه تعالى على ألوهيَّته.

دِلَالَةُ حَرْفِ الْجَرِّ ﴿عَلَىٰ﴾ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ﴾:

عُدِّيَ فعلُ التَّكبير بحرف الجرِّ (على) في قوله تعالى: ﴿وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ﴾ وهو دالٌّ على الاستعلاء؛ "لكونه مضمّنًا معنى الحمد، كأنّه قيل: ولتكبّروا اللّه حامدين على ما هداكم"[2].

تَكْبِيرُ اللهِ تَعَالَى يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ بِالْقَلْبِ وَاللِّسَانِ مَعًا لَا بِاللِّسَانِ وَحْدَهُ

ويجوز أن يُرادَ بالتّعظيم ههنا الأمرُ بالشّكر؛ وذلك لِمَا أنعَمَ اللّه تعالى به على العبادِ مِنْ صنوفِ النّعم؛ من التّوحيد والإسلام وغيره[3]، قال الرّاغب الأصفهانيّ: ﴿وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ﴾، ولم يرد به التّفوّه بلفظ التّكبير فقط، بل أراد معرفة كبريائه وعظمته، وإن كان فيه دلالة أنّ التّكبير مستحبٌّ"[4].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/176.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/228.
(3) الماتريديّ، تفسير الماتريدي: 2/47.
(4) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 1/943.

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾﴾ [البقرة: 186]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الرّبط بين الصّيام والدّعاء المنيب، وبين الوصل بالربّ القريب المجيب

لَمَّا ذكر الله ﷻ فريضة الصّيام، وذكر معها الذّكر والتّكبير والشّكر، أعقب ذلك بِذِكْرِ قُرْبِهِ تعالى من عباده، واستجابته لدعائهم؛ ليكون كالجزاء لاجتهادهم في الطّاعات، ولنا أن نتساءل: "كيف فصل بين الآية الأولى، وبين الّتي بعد هذه، وهما في حكم رمضان بهذه الآي، وهي قد اختلفت عنهما؟ قيل: بل هي من تمام الآية الأولى؛ لأنّه لما حثّ على تكبيره وشكره على ما قيّضه لهم من إتمام الصّوم؛ بيّن أنّ الّذي تذكرونه، وتشكرونه، قريبٌ منكم، ومجيبٌ لكم، إذا دعوتموه، ثمّ تمّم ما بقي من أحكام الصّوم"[1]، "ولَمَّا أمرهم الله تعالى بصوم الشّهر، ومراعاة العِدّةِ، وحثَّهم على القيَام بوظائف التّكبير، عقّبه بهذه الآيةِ الكريمةِ، الدّالة على أنّه تعالى خبيرٌ بأحوالهم، سميعٌ لأقوالهم، مجيبٌ لدعائهم، مجازيهم على أعمالهم، تأكيدًا له وحثًّا عليه"[2]، "وَخلاصةُ مُنَاسَبَةِ هَذِهِ الْآيَةِ لِمَا قَبْلَهَا: أَنَّهُ تَعَالَى لَمَّا تَضَمَّنَ قَوْلُهُ: ﴿وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ طَلَبَ تَكْبِيرِه وَشُكْرِه؛ بَيَّنَ أَنَّهُ مُطَّلِعٌ عَلَى ذِكْرِ مَنْ ذَكَرَهُ، وَشُكْرِ مَنْ شَكَرَهُ، يَسْمَعُ نِدَاءَهُ، وَيُجِيبُ دُعَاءَهُ، ويلبّي له رغبته، تَنْبِيهًا عَلَى أَنْ يَكُونَ مَسْبُوقًا بِالثَّنَاءِ الْجَمِيلِ"[3].

(1) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 1/395.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 1/201.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/205.

شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

1) ﴿فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِي﴾: أي: فليجيبوني بالطّاعة وتصديق الرّسل، وأجاب واستجاب، بمعنى[1]: الإجابة من العبد لله تعالى: الطّاعة، وإجابة كلِّ شيء على وفق السّؤال، والله تعالى تَعَبَّدَنا بالطّاعة، فالإجابة منّا له أن نطيعه، يقال: سأل فلان فلانًا شيئًا، فلم يكن له عنده إجابة، أي: إعطاء؛ لأنّ سؤاله كان استعطاءً، ويقال: أجابت السّماء بالمطر، إذا أرسلت المطر، وأجابت الأرضُ بالنّبات إذا أنبتت[2]. وقوله ﷻ: ﴿فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِي﴾، أي: فليُجِيبُوني، قال الشّاعر:

وَدَاعٍ دَعَا يَا مَنْ يُجِيبُ إِلَى النَّدى *** فَلَمْ يَسْتَجِبْهُ عِنْدَ ذَاكَ مُجِيبُ

فَقُلْتُ ادْعُ أُخْرَى وَارْفَعِ الصَّوْتَ عَالِيًا *** لَعَلَّ أَبِي الْمِغْوَارِ مِنْكَ قَرِيبُ[3]

وتحقيق اللّفظ عند أهل العلم: فليستدعوا الإجابة، كما يقال: (اسْتَنْصَرَ)، إذا استدْعى النّصر، وعن أبي رجاء الخراسانيّ أنّه قال: "﴿فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِي﴾ فليدْعوني. وقيل: هو التّلبية.

2) ﴿يَرْشُدُونَ﴾: (رَشَدَ) أَصْلٌ يَدُلُّ عَلَى اسْتِقَامَةِ الطَّرِيقِ، وَالرُّشْدُ وَالرَّشَدُ: خِلَافُ الْغَيِّ[4]، والرشد: الهداية، والغَيُّ: الضّلال، قوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾، أي: يهتدون، وبيَّن الرّشد في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: 51][5]، والمعنى: أنّهم إذا استجابوا لله وآمنوا به، كانوا على رجاء من حصول الرّشد لهم، وهو الاهتداء لمصالح دينهم ودنياهم[6].

المَعْنى الإجْماليُّ:

"وإذا سألك -أيّها النّبيُّ ﷺ- عبادي عنّي، فقل لهم: إنّي قريب منهم، أُجيب دعوة

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/174.

(2) الواحديّ، التّفسير البسيط: 3/594-595.

(3) البيتان لكعب بن سعد الغنويّ من قصيدة يرثي بها أخاه أبا المغوار، وهي مذكورة في الأصمعيّات، ص: 96، وذكر البيت الأوّل الزّجّاج في معاني القرآن وإعرابه: 1/255، وكذلك محمّد شرّاب، شرح الشّواهد الشّعريّة في أمّات الكتب النّحويّة: 1/127.

(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (رشد)

(5) السّمين، عمدة الحفّاظ: (رشد)

(6) أبو حيّان، البحر المحيط في التّفسير: 2/210.

الدّاعي؛ إذا دعاني، فليطيعوني فيما أمرتهم به، ونهيتهم عنه، وليؤمنوا بي، لعلهم يهتدون إلى مصالح دينهم ودنياهم، وفي هذه الآية إخبار منه سبحانه، عن قربه من عباده، القرب اللّائق بجلاله"[1].

"وَفِي هَذِهِ الآيَةِ إِيمَاءٌ إِلَى أَنَّ الصَّائِمَ مَرْجُوُّ الْإِجَابَةِ، وَإِلَى أَنَّ شَهْرَ رَمَضَانَ مَرْجُوَّةٌ دَعَوَاتُهُ، وَإِلَى مَشْرُوعِيَّةِ الدُّعَاء، كما أنّ "الرّشد والرّشاد، ضدّ الغيّ والفساد، فعلّمنا أنّ الأعمال، إذا لم تكن صادرة بروح الإيمان، لا يرجى أن يكون صاحبُها راشدًا مهديًا، فمن يصوم اتّباعًا للعادة، وموافقةً للمعاشَرين؛ فإنَّ الصِّيام لا يعدّه للتّقوى ولا للرّشاد، وربّما زاده فسادًا في الأخلاق وضراوة بالشّهوات؛ لذلك يذكّرنا تعالى في أثناء سرد الأحكام، بأنّ الإيمان هو المقصود الأوّل في إصلاح النّفوس، وإنّما نفعُ الأعمال في صدورها عنه، وتمكينها إيّاه"[2]، وحينها يكون الدّعاء مجابًا، وينعكس الصّيام على قوّة الوصل بالله المفضية إلى القبول والقرب من الله الكريم المجيب.

الإيْضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

دِلَالَةُ تَعْلِيقِ الْفِعْلِ بِأَدَاةِ الشَّرْطِ ﴿وَإِذَا﴾:

سُمُوُّ هِمَمِ الْعِبَادِ إِلَى التَّعَرُّفِ عَلَى رَبِّهِمْ ﷻ

في قول الله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى﴾ نظمٌ عجيبٌ دالٌّ على كلّيّة الحكم؛ وذلك بإخراجِ الكلام في صورة الحكم الكلّيِّ؛ فإنَّه قد جاء بحكم عامٍّ مسوقٍ في سياق الشَّرط؛ فقال: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى﴾، وقال: ﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ﴾، وَلَوْ جاء نظمُ الآية: (وَلْيَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُمْ)؛ لكان مختصًّا بهم، فكان من جملة الأحكام الجزئيَّة[3]، قال الحرالِّيُّ: "﴿وَإِذَا﴾ عطفًا على أمور متجاورة، كأنّه يقول: إذا خرجت من معتكفك فصلّيت، وظهرت زينة الله الّتي باهى بها ملائكته، ليست زينة الدّنيا الّتي يتمقّتها أهل حضرته من ملائكته، فإذا سألك مَن حاله كذا؛ فأنبئه بكذا،

(1) نخبة من العلماء، التّفسير الميسّر: ص: 28.
(2) محمّد رشيد رضا، تفسير المنار: 2/139.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/178- 179.

وإذا سألك مَن حاله كذا؛ فأنبئه بكذا، وإذا سألك مَن حاله كذا؛ فأنبئه بكذا، ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى﴾، أي: هل أنا على حال المتكبّرين من ملوك الدّنيا، في البُعد عمّن دونهم، فأخبرهم أنّي لست كذلك؟ ﴿فَإِنِّى قَرِيبٌ﴾"[1].

فأفادَ تعليق الفعل بالشَّرط ﴿إِذَا﴾ فائدتين:

إحداهما: تعميم الحكمِ - كما سبق -؛ فإنَّ أدواتِ الشَّرطِ من جملة الطَّرائق التي يُستفادُ منها عموم الخطاب.

والأخرى: الدّلالةُ على تحقُّقِ السُّؤالِ، فإنَّ (إذَا) دالَّةٌ في أصل وضعها على الجزم بوقوعِ مدخولهَا، فالسُّؤالِ عن اللّه تعالى واقع من العبادِ لا محالة؛ لأنَّ الخلق مجبولونَ على معرفة خالقهم ﷻ بطريق الإجمالِ، فتسمو نفوسهم إلى التَّعرُّفِ على تفاصيلِ صفاتِهِ وأسمائه وأفعالِهِ؛ فإنَّه سبحانه أعَزُّ مطلوبٍ وأشرفُ معلومٍ.

تَعْيِينُ مَرْجِعِ الضّمِيرِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ﴾:

رَفْعُ مَنْزِلَةِ النَّبِيِّ ﷺ وَتَشْرِيفُهُ

الخِطَابُ في قوله: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ﴾ لِلنَّبِيِّ ﷺ)، وَإِن لَمْ يتقدَّمْ لَهُ ذِكْرٌ صريحٌ؛ فإنَّ له ذِكْرًا بطريقِ الكنايةِ قبلُ، وذلك في قَوْلِهِ تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾؛ فإنَّ الذي أُنْزِل عليه القرآن هو رَسُولُ اللّهِ ﷺ، "فَكَأَنَّهُ قِيلَ: أُنْزِلَ عَلَيْكَ فِيهِ الْقُرْآنُ، فَجَاءَ هَذَا الْخِطَابُ مُنَاسِبًا لِهَذَا الْمَحْذُوفِ"[2].

وفي تخصيص الخطابِ به تشريفٌ ورفعٌ لمنزلَتِه[3]، "حيث خوطب المسلمون جميعًا في الآيتين السّابقتين، فيما يتعلّق بأحكام الصّوم، كقوله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾. وقوله تعالى: ﴿وَأَن تَصُومُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٤﴾﴾، وفي الآية التي بعدها يقول تعالى: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ إلى قوله

(1) تراث أبي الحسن الْحَرَاليّ المراكشّي في التّفسير، ص: 348.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/205.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 1/200.

تعالى: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ١٨٥﴾ بعد هذا الخطاب للمسلمين يأتي خطاب خاصٌّ لمحمّد ﷺ، فيقول الله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي﴾، وهذا التّلوين في الخطاب فيه تشريف وتكريم لمحمّد رسول الله ونبيّه ﷺ، وللأمّة الإسلاميّة"[1]، فأمَّا تشريفُه ﷺ فظاهرٌ، وأمَّا تشريفُ الأمَّةِ؛ فتبَعٌ لتشريفِهِ ﷺ؛ إذْ هو قائدُ الأمَّةِ وإمامُهَا.

نُكْتَةُ الْإِضَافَةِ وَالْحَذْفِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي﴾:

شَرَفُ الْإِنْسَانِ بِعُبُودِيَّتِهِ للهِ تَعَالَى

في إضافة العبادِ إلى الضَّمير الراجع إلى الله تعالى في قوله: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي﴾ تشريف وتكريم[2]، والتَّشريفُ عائدٌ إلى المضافِ لا إلى المضافِ إليه؛ إذِ العبادُ يتشرَّفُون بكونِهم عبادًا لله تعالى.

وفي قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي﴾ محذوفٌ، تقديره: إذا سألك عبادي عن قُربي وبُعدي، بدليلِ الجوابِ، ففيه إيجازٌ بالحذف[3]؛ إذْ حُذِفَ المضاف وأقيم المضاف إليه مقامَهُ؛ لأنَّ السُّؤالَ عن صفةٍ من صفاتِ الله تعالى أو فعلٍ من أفعالِهِ هو سؤالٌ عنه سبحانه.

نُكْتَةِ الْمَجَازِ الْمُرْسَلِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿عِبَادِي﴾:

الْغَالِبُ فِي الاسْتِعْمَالِ الْقُرْآنِيِّ اخْتِصَاصُ لَفْظِ (الْعِبَادِ) الْمُضَافِ إِلَى ضَمِيرِ الْجَلَالَةِ بِأَهْلِ الْإِيمَانِ

إضافة العبادِ إلى الضَّمير الرَّاجع إلى الله تعالى – مع دِلالتِهِ على التَّشريفِ – يدلُّ بظاهره على العموم؛ إلَّا أنَّ المقصودَ به الخصوصُ؛ إمَّا على إرادةِ اليهودِ، أو المؤمنينَ، على الخلافِ الحاصلِ في سببِ نزول الآيةِ، فهو مجازٌ مرسَلٌ، بعلاقةِ العموميَّةِ؛ إذْ أُطْلِقَ العامُّ وأُرِيدَ به الخاصُّ.

والمختارُ أنَّ المراد بالعبادِ في الآية هم المؤمنون، كما قال ابن عاشور: "وَالْعِبَادُ الَّذِينَ أُضِيفُوا إِلى ضَمِيرِ الْجَلَالَةِ، هُمُ الْمُؤْمِنُونَ؛

(1) محمّد سعد الدّبل، دليل البلاغة القرآنيّة: 1/258.
(2) محمد سعد الدّبل، دليل البلاغة القرآنيّة: 1/259.
(3) الهرري، حدائق الرّوح والرّيحان: 3/176.

لِأَنَّ الْآيَاتِ كُلَّهَا، فِي بَيَانِ أَحْكَامِ الصَّوْمِ وَلَوَازِمِهِ وَجَزَائِهِ، وَهُوَ مِنْ شِعَارِ الْمُسْلِمِينَ، وَكَذَلِكَ اصْطِلَاحُ الْقُرْآنِ غَالِبًا، فِي ذِكْرِ الْعِبَادِ مُضَافًا لِضَمِيرِ الجَلَالَةِ، وَأَمَّا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ﴾ [الفرقان: 17]، بِمَعْنَى: الْمُشْرِكِينَ، فَاقْتَضَاهُ أَنَّهُ فِي مَقَامِ تَنْدِيمِهِمْ عَلَى اسْتِعْبَادِهِمْ لِلْأَصْنَامِ"[1].

وفي إطلاق العامِّ مرادًا به الخاصُّ في قوله: ﴿عِبَادِى﴾ إشعارٌ بأنَّ أهلَ الإيمان هم الحقيقونَ بشرف العبوديَّةِ لله تعالى، وذلك أنَّ "العبوديّة مقامٌ عظيمٌ، ولو كان للنّبيّ ﷺ اسمٌ أشرف منه وأعظم؛ لسمّاه به، حينما أسرى به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، فقال جلّ ذكره: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾ [الإسراء: 1]، وفي معناه أنشدوا:

يَا قَوْمِ قَلْبِي عِنْدَ زَهْرَاءِ *** يَعْرِفُهُ السَّامِعُ وَالرَّائِي

لَا تَدْعُنِي إِلَّا بِيَا عَبْدَهَا *** فَإِنَّهُ أَشْرَفُ أَسْمَائِي[2]

بَلَاغَةُ الِالْتِفَاتِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿عِبَادِى عَنِّى﴾:

تَوَلِّي اللهِ تَعَالَى الْجَوَابَ عَنْ جَلِيلِ السُّؤَالَاتِ

في قول الله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى﴾ التفاتٌ من الغَيْبَةِ إلى التَّكلُّم؛ لأنَّه تقدَّم قوله: ﴿وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ﴾، والاسمُ الظَّاهرِ بمنزلةِ الغائبِ كما هو مقرَّر في علم البلاغة، فجاءَ قوله: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى﴾ خُرُوجًا مِنْ غَائِبٍ إِلَى مُتَكَلِّمٍ[3]، وهو أظهرُ في الجوابِ عن السّؤالِ؛ إذ وقع السُّؤالِ عن الله تعالى، فلو جرى الكلام على مقتضى الظاهر بأن يقال: (وإذا سألك العبادُ عن الله فإنَّه قريبٌ)؛ لربّما توهَّم متوهِّمٌ أنَّ متولِّي الإجابةِ غيرُ الله تعالى، لكن جاء نظمُ الآيةِ بالانتقال إلى ضمير التَّكلُّم ليكون صريحًا في أنَّ الله تعالى هو المتولِّي جوابَ السُّؤالِ، فيكون أوقعَ في القلبِ؛ إذ هو سبحانه أعلم بنفسهِ.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/179.

(2) الدُّرّة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 1/430.

(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/205.

كَمَالُ عِلْمِ اللهِ بِأَفْعَالِ الْعِبَادِ وَأَقْوَالِهِمْ، وَاطِّلَاعُهُ عَلَى جَمِيعِ أَحْوَالِهِمْ

بَلَاغَةُ التَّمْثِيلِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾:

في قوله تعالى: ﴿فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾ إيجازٌ بالحذفِ[1]، "وَثَمَّ قَوْلٌ مَحْذُوفٌ، تَقْدِيرُهُ: (فَقُلْ لَهُمْ إِنِّي قَرِيبٌ)؛ لِأَنَّهُ لَا يَتَرَتَّبُ عَلَى الشَّرْطِ الْقُرْبُ، إِنَّمَا يَتَرَتَّبُ الْإِخْبَارُ عَنِ الْقُرْبِ"[2]، "وهو تمثيلٌ لكمال علمه، بأفعال العبادِ وأقوالِهم، واطّلاعِه على أحوالهم، بحال مَن قَرُبَ مكانُه"[3]، وفيه إيماءٌ إلى سهولة إجابتهِ لمن دعاه، وتحقيق رجاءِ مَن رجاهُ[4]، وهو "توكيد وتقرير لقرب الله من عباده، واطّلاعه على أعمالهم، وعلمه بدعائهم، وتحقيق الوعد بالإجابة لهم"[5].

وأُكِّدَ الخبرُ بـ (إنَّ)؛ لما في الخبر من الغرابةِ؛ وَوَجْهُ الغرابةِ: أن يكون سبحانه قريبًا مع كونهم لا يرونَهُ[6]، ويحتَمِلُ أن يكون التَّأكيدُ للاهتمامِ بمضمونِ الخبَرِ؛ ليكون ذلك حاملًا للعبادِ على دعائهِ ورجائهِ.

تَأَدُّبُ الصَّحَابَةِ رضي الله عنهم مَعَ اللهِ تَعَالَى

نُكْتَةُ حَذْفِ (قُلْ) فِي الْجَوَابِ:

لـمَّا ذكر الله تعالى الأمرَ بإكمال العدَّة، وتكبيره، وشكره في قوله: ﴿وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٨٥﴾﴾؛ فإنَّ هذا يبعث في نفوس المتلقِّينَ سؤالًا؛ وهو: هل لنا جزاءٌ على امتثالِ هذه الأوامرِ؟ إلَّا أنَّهم ربَّما أحجَمُوا عن سؤال النَّبيِّ ﷺ عن ذلك تأدُّبًا مع الله تعالى، "فَلِذَلِكَ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ﴾ الصَّرِيحُ بِأَنَّ هَذَا سَيَقَعُ فِي الْمُسْتَقْبَلِ، وَاسْتِعْمَالُ مِثْلِ هَذَا الشَّرْطِ مَعَ مَادَّةِ السُّؤَالِ لِقَصْدِ الِاهْتِمَامِ -بِمَا سَيُذْكَرُ بَعْدَهُ- اسْتِعْمَالٌ مَعْرُوفٌ عِنْدَ الْبُلَغَاءِ"[7]، قال ابن عاشور: "وَيُؤَيِّدُ هَذَا تَجْرِيدُ الْجَوَابِ مِنْ كَلِمَةِ

(1) محمد سعد الدّبل، دليل البلاغة القرآنيّة: 1/259.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/205.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 1/200.
(4) الخازن، لباب التّأويل: 1/115.
(5) محمد سعد الدّبل، دليل البلاغة القرآنيّة: 1/258.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/179.
(7) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/178.

(قل) الَّتِي ذُكِرَتْ فِي مَوَاقِعِ السُّؤَالِ مِنَ الْقُرْآنِ، نَحْوِ: ﴿۞يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِۖ قُلْ هِيَ مَوَٰقِيتُ﴾ [البقرة: 189]، ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰۖ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌۖ﴾ [البقرة: 220]"[1].

وفي حذف (قُل) في هذه الآية نكاتٌ:

لَا وَاسِطَةَ بَيْنَ اللهِ تَعَالَى وَعِبَادِهِ فِي الدُّعَاءِ

أوَّلها: أنَّ العبد محتاجٌ إلى الواسطة في غير أوقات الدُّعاء، أمَّا في مقام الدُّعاءِ فلا واسطةَ بين العبادِ وبين ربِّهم تعالَى.

ثانيها: أنَّ فيها دلالةً على أنَّ العبدَ يرجو ربَّه ويستعينُ به، وأنَّ الرَّبَّ سبحانه قريبٌ من عبده مستجيبٌ دعاءَهُ.[2].

ثالثها: أنّ السُّؤال لـمَّا كان مَفْرُوضًا غَيْرَ وَاقِعٍ مِنْهُمْ بِالْفِعْلِ؛ لَمْ يحسُن أنْ يظهَر فعلُ القول في الجواب، قال ابن عاشور: "وَإِنَّمَا قَالَ تَعَالَى: فَإِنِّي قَرِيبٌ، وَلَمْ يَقُلْ: فَقُلْ لَهُمْ: إِنِّي قَرِيبٌ؛ إِيجَازًا لِظُهُورِهِ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى﴾، وَتَنْبِيهًا عَلَى أَنَّ السُّؤَالَ مَفْرُوضٌ غَيْرُ وَاقِعٍ مِنْهُمْ بِالْفِعْلِ"[3].

تَكْرِيمُ اللهِ عِبَادَهُ بِإِجَابَتِهِمْ عَنْ سُؤَالِهِمْ

رابعها: أنَّ في حذف (قل) تكريمًا لهم من اللّه تعالى؛ إذ هو الذي تَوَلَّى جَوَابَهُمْ عَنْ سُؤَالِهِمْ بِنَفْسِهِ بلا واسطة.

شِدَّةُ قُرْبِ الْعِبَادِ مِنْ رَبِّهِمْ فِي مَقَامِ الدُّعَاءِ

خامسها: التَّنْبِيهُ عَلَى شِدَّةِ قُرْبِ الْعَبْدِ مِنْ رَبِّهِ فِي مَقَامِ الدُّعَاءِ؛ إِذْ حُذِفَ فِي اللَّفْظِ مَا يَدُلُّ عَلَى وَسَاطَةِ النَّبِيِّ[4] ﷺ.

دِلَالَةُ اللَّامِ فِي (الدَّاعِ) مِنْ: ﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ﴾:

شِدَّةُ عِنَايَةِ اللهِ تَعَالَى بِعِبَادِهِ

معنى الإجابة في قوله تعالى: ﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ﴾ القبولُ، أي: أَتَقَبَّل عبادةَ مَن عَبَدَني، وَوَحَّدني، ويصحُّ حملُ الإجابة على القبول، إذا حُمِلَ الدّعاء على معنى العبادة، فإنَّه تعالى لَمَّا سمّى

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/178- 179.
(2) الرّازي، مفاتيح الغيب: 5/264.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/179.
(4) ابن عاشور، المرجع السّابق: 2/179.

العبادة دعاءً؛ سمّى القبول إجابةً؛ ليتجانس اللّفظ، وهو كثيرٌ في كلام العرب[1].

واللَّام في ﴿ٱلدَّاعِ﴾ لا يُرادُ بها العهدُ، بل هي للعموم والشمول[2]، فهي في المعنى جمعٌ، أي: أُجيب دعوةَ الدَّاعين، إلَّا أنَّه عُدِلَ عن التَّعبير بالجمعِ إلى المفرد؛ للإيماء إلى الاهتمامِ بدعاءِ كلِّ واحدٍ على سبيل الانفرادِ والاستقلالِ.

سَبَبُ فَصْلِ قَوْلِهِ: ﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ﴾ عَمَّا قَبْلَهُ:

قُرْبُ اللهِ تَعَالَى يَقْتَضِي إِجَابَةَ دُعَاءِ الدَّاعِينَ

قول الله تعالى: ﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ﴾ في موضعِ نصبٍ على الحالِ، والمعنى: فإنِّي قريبٌ مجيبًا دعوةَ الدَّاعي[3].

ويجوز أن تكون جملة ﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ﴾ مستأنفةً استئنافًا بيانيًّا، وذلك أنَّ قوله تعالى قبلُ: ﴿فَإِنِّي قَرِيبٌۖ﴾ يبعث في نفس السَّامع سؤالًا عن لازِم ذلك؟ فجاء الجواب: ﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ﴾، فكان قربُ الله تعالى مقتضيًا إجابةَ دعاءِ الدَّاعينَ.

دِلَالَةُ الْفَاءِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَلْيَسْتَجِيبُواْ﴾:

مَنِ اسْتَجَابَ؛ أُجِيبَ، وَمَنِ الْتَجَأَ إِلَى اللهِ؛ فَلَنْ يَخِيبَ

الفاءُ في قوله: ﴿فَلْيَسْتَجِيبُواْ﴾ للتَّرفيعِ على قوله قبلُ: (أُجِيبُ)، أي: "إذا كنتُ لهم بهذه المنزلة، فحريٌّ أن يستجيبوا لي إذا دعوتهمْ وأن يؤمنوا بي راجين رشدهم"[4].

دِلَالَةُ صِيغَةِ (اسْتَفْعل) فِي قَوْلِهِ ﴿فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِي﴾:

إِجَابَةُ اللهِ تَعَالَى لِلدَّاعِينَ تَقْتَضِي شُكْرَهُمْ لَهُ بِإِجَابَتِهِمْ لَهُ إِلَى الطَّاعَةِ وَالْإِيمَانِ

قول الله تعالى: ﴿فَلْيَسْتَجِيبُواْ﴾ معناه: فَلْيَطْلُبوا إجابتي لهم إذا دعوني، وبناءً عليه فيكون (اسْتَفْعل) بمعنى الطَّلَب، على ما هو الغالبُ فيها، كقولهم: استغفرْ، واستَعِنْ، ونحوهما.

(1) الواحدي، التفسير البسيط: 3/593.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/206.
(3) الواحدي، التّفسير البسيط: 3/594.
(4) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 1/396.

ويحتمِلُ أن يكون قوله: ﴿فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ﴾ أي: فليُجيبُوا لي إذا دعوتهم إلى الطَّاعة والإيمانِ، كما أنِّي أجيبهم إذا دعوني لقضاء حوائجهم، وبناءً عليه فيكون (استفعِلْ) بمعنى: (أَفْعِلْ)، وهذا الاستعمال كثيرٌ في القرآن الكريم إذا عُدِّيَ باللَّامِ، كما في قوله تعالى: ﴿فَٱسۡتَجَابَ لَهُمۡ رَبُّهُمۡ أَنِّي لَآ أُضِيعُ﴾ [آل عمران: 195]، وقوله سبحانه: ﴿فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَوَهَبۡنَا لَهُۥ يَحۡيَىٰ﴾ [الأنبياء: 90]، وجاء بهذا المعنى معدًّى بنفسِهِ في كلام العرب، كما قال الشّاعر:

وَدَاعٍ دَعَا يَا مَنْ يُجِيبُ إِلَى النَّدى *** فَلَمْ يَسْتَجِبْهُ عِنْدَ ذَاكَ مُجِيبُ[1]

نُكْتَةُ الْعُدُولِ عَنِ الْفِعْلِ (فَلْيُجِيبُواْ) إِلَى قَوْلِهِ: ﴿فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لِي﴾:

عَظِيمُ فَضْلِ اللهِ تَعَالَى حَيْثُ أَمَرَ الْعِبَادَ بِالْقَلِيلِ، وَيُجَازِيهِمْ عَلَيْهِ بِالْجَلِيلِ

وجاء النَّظم القرآنيُّ ﴿فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لِي﴾، دون: (فَلْيُجِيبُواْ)، وذلك أنّ حقيقة الاستجابة: طلب الإجابة، وإن كان قد يستعمل بمعنى الإجابة، فبيّن اللّه تعالى أنّ العبادَ مَتَى مَا تحرّوا إجابته بقدر وُسعهم؛ فإنّه يَرْضَى عَنْهُم[2]، ففيه إيماءٌ إلى عظيم فضل اللّه تعالى على العبادِ؛ حيث لم يُكلِّفهم إلّا القليلَ، ولكنَّه يثيبهم على ذلك الجليل الجزيلَ.

سِرُّ عَطْفِ الْخَاصِّ عَلَى الْعَامِّ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لِي وَلۡيُؤۡمِنُواْ بِي﴾:

شَـرَفُ الْإِيـمَـانِ بِاللهِ تَعَالَى

عَطفُ الإيمان على الاستجابةِ في قوله تعالى: ﴿فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لِي وَلۡيُؤۡمِنُواْ بِي﴾ من عطف الخاصِّ على العامِّ؛ لأنَّ الاستجابةَ تكون بامتثال أمر اللّه تعالى، ومن أعظم المأمورات: الإيمانُ به تعالى، فيكون عطفُ الأمرِ بالإيمانِ على الأمر بالاستجابةِ من عطف الخاصِّ على العامِّ؛ اهتمامًا بالفردِ الخاصِّ وبيانًا لشريفِ منزلَتِهِ وعَظَمَتِهَا[3].

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/209، والبيت لكعب الغنويّ، يُنظر: السّيرافي، كتاب شرح أبيات سيبويه: 2/241.
(2) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 1/396.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/180.

دِلَالَةُ الْأَمْرِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَلْيُؤْمِنُواْ بِي﴾:

المُتَّصِفُ بِأَصْلِ الإِيمَانِ لَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ اسْتَكْمَلَ مَعَالِمَهُ وَتَحَقَّقَ بِهَا

والأمر بالإيمانِ في قوله تعالى: ﴿وَلْيُؤْمِنُواْ بِي﴾ لا يُرادُ به إنشاءُ الإيمانِ؛ لأنَّ آيات الصِّيام مصدَّرة بما يقتضي إيمانَهم، وذلك في قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾، وإنَّما الأمرُ خرجَ عن أصلِهِ إلى إرادةِ الدَّوامِ والاستمرارِ[1].

ويحتمِلُ أن يكون المرادُ الأمرَ بالازْدِيَادِ مِنَ الإيمانِ؛ وذلك أنَّ أفرادَ الإيمان كثيرةٌ، فالمتَّصِفُ بأصلِ الإيمان لا يدلُّ على أنَّه استكملَ أفرادَهُ وتحقَّقَ بها.

وقول الله تعالى: ﴿لَعَلَّهُمۡ يَرۡشُدُونَ﴾ بعد الأمر بالإيمان؛ لأنَّهُ لَمَّا شُبِّهَ الْإِيمَانُ بِالطَّرِيقِ الْمَسْلُوكِ فِي الْقُرْآنِ؛ "نَاسَبَ ذِكْرُ الرَّشَادِ، وَهُوَ: الْهِدَايَةُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: 6]، وقال: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [الشورى: 52]، وقال: ﴿وَهَدَيۡنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ [الصافات: 118]"[2].

حُسْنُ الخِتَامِ فِي قَوْلِهِ: ﴿لَعَلَّهُمۡ يَرۡشُدُونَ﴾:

الْمُسْتَجِيبُونَ للهِ تَعَالَى الْمُؤْمِنُونَ بِهِ هُمْ عَلَى رَجَاءٍ مِنْ حُصُولِ الرُّشْدِ لَهُمْ

قَوْلُه تعالى: ﴿لَعَلَّهُمۡ يَرۡشُدُونَ﴾ أي: ليكونُوا على رجاء من إصابة الرّشد[3]، فهو مِن التّرجي المتضمّن معنى الدّعاء للعباد بالرّشد[4]، "وَالْمَعْنَى: أَنَّهُمْ إِذَا اسْتَجَابُواْ للهِ وَآمَنُوا بِهِ، كَانُوا عَلَى رَجَاءٍ مِنْ حُصُولِ الرُّشْدِ لَهُمْ"[5].

وفيه إشارة إلى كونهم راجين إصابةَ الرُّشْد، أي: الحقّ، ولَمَّا أمرهم الله تعالى بصوم الشّهر وإكمال عدَّتِهِ، وحثَّهم على التّكبير؛ "عقّب بهذه الآيةِ العطرة؛ لتدلّ في بلاغة وبيان على علم الله

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/209.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/210.
(3) الواحديّ، التّفسير البسيط: 3/595.
(4) محمد سعد الدّبل، دليل البلاغة القرآنيّة: 1/259.
(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/209- 210.

بأحوالهم، وسماعه لأقوالهم، وإجابته لدعائهم، ومجازاته على أعمالهم، ممّا يؤكّد أهميّة الرّشد، ودلالة الحثّ عليه"[1].

وختم الآية برجاء الرُّشْدِ من بدائع الخَتْم؛ وذلك أنَّ الله تعالى لـمَّا أمر العبادَ بالاستجابةِ لَه والإيمان به؛ نبَّههم على أنَّ هذا الأمر لا يُرادُ به إلَّا نفعُ العبادِ أنفسِهم؛ وذلك بوصولهم إلى الرَّشادِ، فلا تنفعه سبحانه طاعة الطَّائعين، كما لا تضرُّهُ معصية العاصين[2].

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 1/201.

(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/210.

﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْۚ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّۗ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْۖ فَٱلْـَٔـٰنَ بَـٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُوا۟ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْۚ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِۖ ثُمَّ أَتِمُّوا۟ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِۚ وَلَا تُبَـٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَـٰكِفُونَ فِى ٱلْمَسَـٰجِدِۗ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَـٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٨٧﴾﴾ [البقرة: 187]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

المـوازنـة بين متطلّبات الرُّوح والجسد

لَمّا أمر الله تعالى المؤمنين في الآيات السابقة بصوم رمضان وإكمال عِدَّته وعقّب ذلك بأنّه تعالى يريد اليسر لعباده وأنه خبيرٌ بأحوالهم مجيبٌ لدعائهم، تمَّم سبحانه ذلك بذكر أمر يتعلق بالأحوال العارضة للصائم، وهو إباحة الأكل والشرب والجماع في ليلة الصيام؛ وذلك لأنه كان محرَّمًا عليهم في أول الأمر، فأحلَّه الله تعالى في هذه الآية[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

الـرّفـث كناية عن الجماع وما يتعلّق به من قول أو فعل

1) ﴿ٱلرَّفَثُ﴾: مصدر رفِثَ ورفَثَ، والأصل فيه أنه كُلُّ كَلَامٍ يُسْتَحْيَى مِنْ إِظْهَارِهِ[2]. والرَّفَث بالمرأة - ومعها - هو الجماع وغيره مما يكون بين المرأة والرجل كالتقبيل والمغازلة، وعُبِّر به في الآية دون الجماع للتنبيه على جواز دعاء النساء إليه ومكالمتهن فيه في ليلة الصيام، والأصل فيه أن يتعدى بالباء وبـ: (مع) فيقال: رفثَ بالمرأة ومعها، وعُدِّي في الآية بـ: ﴿إِلَىٰ﴾ لتضمنه معنى الإفضاء[3].

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/210.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (رفث).
(3) الراغب، المفردات: (رفث)، وابن منظور، لسان العرب: (رفث).

2) ﴿لِبَاسٌ﴾: أصلُه يدل على المخالطة والمُداخَلة، ومنه اللَّبسُ بمعنى اختلاط الأمر، وقولُهم: لابست الرجل حتى عرفتُ باطنه، أي: خالطته، ومنه اللباس في الآية؛ لانضمام جسد الرجل إلى جسد المرأة واشتمال كل منهما على الآخر حين يعتنقان، والعرب تسمِّي المرأة لباسًا وإزارًا[1].

المرأة للرجل كاللباس، وهو لها كذلك؛ امتزاجًا وصيانةً

وقيل: أصله يدل على السَّتر، ولباس المرء هو ما يستره عن كل قبيح، ويقال للزوج والزوجة لباسٌ لأن كلًّا منهما يمنع صاحبه ويصدُّه عن إتيان القبيح[2].

الخيانة في الدِّين هي الانتقاص منه، والاختيان هو تحديث النفس بذلك

3) ﴿تَخْتَانُونَ﴾: أصلها اللغوي يدل على التَّنَقُّص، والخيانة: نُقْصَانُ الْوَفَاءِ[3]، وقيل للعاصي: خائنٌ؛ لانتقاصه ما اؤتمَن عليه من دينه، والاختيان: تحديث النفس بالخيانة وتحرُّك الشَّهوة إليها[4].

سُمِّي الجماع مباشرةً؛ لأنّ بشرةَ كلٍّ من الرجل والمرأة تلتقيان فيه

4) ﴿بَٰشِرُوهُنَّ﴾: البشَرة ظاهر الجلد، والأصل في مباشرة الرَّجُلِ الْمَرْأَةَ هو إِفْضَاؤُهُ بِبَشَرَتِهِ إِلَى بَشَرَتِهَا؛ ويُكْنَى بها عن الجماع، وكلُّ ما في القرآن من المباشرة فهو كناية عنه[5].

الاعتكافُ هو الإقامةُ في المَسجد على عبادة اللّه تعالى

5) ﴿عَٰكِفُونَ﴾: جمع عاكف، وهو المقيم في المسجد الّذي أوجب العكوف فيه على نفسه، وأَصْل العكوف يَدُلُّ عَلَى الإقبال والحَبْس. وَالِاعْتِكَافُ شرعًا: هُوَ الْإِقَامَةُ فِي الْمَسْجِدِ عَلَى عِبَادَةِ اللَّهِ تعالى، وَهُوَ سُنَّةٌ[6].

حدود الله تعالى أوامره ونواهيه الّتي منع المؤمنين من مخالفتها

6) ﴿حُدُودُ ٱللَّهِ﴾: جمع حدٍّ، وهو الحاجز المانع من اختلاط

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، (لبس)، والزّمخشريّ، الكشّاف: 1/230، وابن سيده، المحكم: 8/511.
(2) الراغب، المفردات: (لبس)، والزبيدي، تاج العروس، (لبس).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (خَوُنَ).
(4) الراغب، المفردات: (خون)، والخازن، لباب التّأويل: 1/116.
(5) ابن جرير، جامع البيان: 3/243، والرّاغب، المفردات: (بشر).
(6) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 69، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (عكف)، والبغويّ، معالم التّنزيل: 1/231-232.

شيءٍ بآخر، ومنه حَدُّ الدَّار، وهُوَ مَا يمنع غيرها أن تدخل فيها، وكلُّ مَن منع شيئًا فهو حَدَّاد، ومنه قولهم: أَحَدَّتِ المرأة على زوجها، أي: امتنعت من الزّينَة، وسُمِّيَ الحديد كذلك لأنّه يُمتَنَع به من الأعداءِ. وحدود اللّه: هي أوامره ونواهيه التي مَنَع من مخالفتها[1].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

الإسلام يوازن في حكمة وعقلانيّة بين الغريزة السّويّة والعبادة الرّوحيّة

يخاطب اللّه تعالى المسلمين: بأنّه أباح لهم في ليالي شهر رمضان جماعَ نسائهم، فهنَّ ستر وحفظ لكم، وأنتم ستر وحفظ لهنّ، علم اللّه أنّكم كنتم تحدثون أنفسكم بمخالفة ما حرَّمه اللّه عليكم من مجامعة النّساء بعد العشاء في ليالي الصّيام، فرحمكم ووسَّع لكم في الأمر، فالآن جامعوهنّ، واطلبوا ما قدَّره اللّه لكم من الذرية، وكلوا واشربوا في الليل كله حتّى يتبَيَّن ضياء الصّباح من سواد اللّيل، بظهور الفجر الصّادق، ثمّ أكملوا الصّيام بالإمساك عن المُفَطِّرات، إلى دخول اللّيل بغروب الشّمس، ولا تجامعوا نساءكم، أو تتعاطَوْا ما يُفضي إلى جماعهنّ، إذا كنتم معتكفين في المساجد؛ لأنّ هذا يفسد الاعتكاف. تلك الأحكام الّتي شرّعها اللّه لكم هي حدوده الفاصلة بيْن الحلال والحرام، فلا تقربوها حتّى لا تقعوا في الحرام. وبمثل هذا البيان الواضح يبيّن اللّه آياته وأحكامَه للنّاس؛ كي يتّقوه بفعل ما أَمَر به وترك ما نَهى عنه[2].

❁ الإيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

بناءُ الآيةِ على الامتنان، والتّذكيرُ بما كان عليه الأمرُ قبلَ الحِلِّ

سرُّ إيثارِ لفظِ ﴿أُحِلَّ﴾ على غيرِه من الألفاظ:

استُعملَ لفظُ ﴿أُحِلَّ﴾ في قولِه تعالَى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ﴾ دون غيرِه من الألفاظِ، وذلك للامتنانِ على المُخاطَبين، بتذكيرِهم بما كان محرَّمًا عليهم؛ فإنَّ لفظَ التحليلِ يقتضي حُرمةَ ما يتعلق به قبل

(1) الزّجاج، معاني القرآن وإعرابه: 1/257، والسّمين، عمدة الحفّاظ: (حدد).
(2) ابن جرير، جامع البيان: 3/496، ونخبة من العلماء، التّفسير الميسّر، ص: 29.

نزول هذه الآية، وقد كان كلٌّ من الأكل والشرب والجماع في ليلة الصيام محرَّمًا في أول الأمر على من نام بعد فِطره أو صلى العشاء، ثم حلَّ ذلك في ليلة الصيام مُطلقًا بنزول هذه الآية، فلما كانت هذه الأشياء محرَّمةً قبلُ كان استعمال لفظ التحليل في هذا الموضع أبلغ من غيره من الألفاظ الدالة على الجواز كالإباحة والإذن ونحوهما[1].

توجيهُ القراءةِ الشَّاذةِ:

إضمارُ الفاعلِ للعلمِ به

القراءةُ في قولِه تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ﴾ جاء الفعلُ فيه مَبْنِيًّا لِلْمَفْعُولِ، وَحُذِفَ الْفَاعِلُ لِلْعِلْمِ به، فالذي يُحرِّم ويُحلُّ هو اللّه تعالى، وقرئ شاذًّا: (أَحَلَّ) بالبناء للفاعل ونصب: (الرَّفَثَ)، مِنْ بَابِ الْإِضْمَارِ لِدَلَالَةِ الْمَعْنَى عَلَى الفاعلِ؛ إِذِ مَعْلُومٌ لِلْمُؤْمِنِينَ أَنَّ الَّذِي يُحِلُّ وَيُحَرِّمُ هُوَ اللّه[2].

فائِدَةُ الالتفاتِ مِنْ التَّكَلُّمِ إِلَى الْغَيْبَةِ:

الاهتمامُ والتّشريفُ والتّخصيصُ من خصائصِ الامتنانِ

في الانتقالِ من الغيبةِ في قولِه تعالى في الآية السابقة: ﴿فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِي وَلْيُؤْمِنُواْ بِي﴾ إلى الخطاب في ﴿أُحِلَّ لَكُمْ﴾ التفاتٌ، وفائدتُه: بيانُ خصوصيّةِ التّحليل، فهو أحلّه لهم تشريفًا واهتمامًا بهم[3]، وهو يُؤيِّد معنى الامتنانِ؛ فهو امتنانٌ في التَّحليلِ وامتنانٌ في الخطابِ.

نكتةُ إضافةِ المفرَدِ إلى الجَمْعِ في قولِه: ﴿لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ﴾:

شهرُ رمضانَ كأنَّه ليلةٌ واحدةٌ، فالعاقلُ يقضيه بالطَّاعةِ

قوله تعالى: ﴿لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ﴾ عُبِّر فيه بالمفرد ﴿لَيْلَةَ﴾ وأُريدَ الجمع، أي: ليالي الصيام، وحسُن ذلك لأن ﴿لَيْلَةَ﴾ اسم جنس أضيف إلى ﴿ٱلصِّيَامِ﴾ فهي بمعنى الجمع وإن جاءت مفردة[4]، وفيه

(1) الزّجاج، معاني القرآن وإعرابه: 1/255-256.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/211.
(3) السّمين، الدّرُّ المصون: 2/293.
(4) الرّازيّ، التّفسير الكبير: 5/269.

إشارةٌ لطيفةٌ وهي أنَّ ليلَ رمضان كأنَّه ليلةٌ واحدةٌ، وفي ذلك تخفيفٌ وإعانةٌ؛ ليعتني الصَّائمُ بقيامِ الليلِ بدلَ الانشغال بالرَّفثِ، فالجماعُ حلالٌ من حيث الظَّاهر، لكنَّه خلاف الأولى من حيث الإشارةُ.

أُضيفتِ اللَّيلةُ إلى الصِّيامِ لوقوعِ النِّيَّةِ فيها

وجهُ إضافةِ اللَّيلةِ إلى الصِّيامِ في قولِه تعالى: ﴿لَيۡلَةَ ٱلصِّيَامِ﴾ مع عدمِ وجودِ الحدَثِ وهو الصيام في الظرف المضاف إليه وهو الليل، لوجودِ ملابسةٍ وهي عدمُ تحقُّقِ صحة الصِّيام إلا بتبييت النِّية في اللَّيل، وهو ما يقتضي صيامَ جُزءٍ منه، فساغت الإضافة لهذا الاعتبار[1].

علّةُ إيثارِ لفظِ ﴿ٱلرَّفَثُ﴾ في الكنايةِ عن الجماعِ:

الصّائمُ مطالبٌ بأداءِ حقوقِ الله، والنَّفسِ، والأهل

ذكرتِ الآيةُ الكريمةُ لفظَ الرَّفثِ كناية عن الجماعِ، وذلك أنَّ القرآنَ يختارُ الألفاظَ الدّالةَ على المعنى المتعلِّقِ بالجماعِ دون التصريحِ به؛ كما قال ابْنُ عباسٍ رضي الله عنهما: "إنّ اللّه حييٌّ كريمٌ يكنّي، كلّما ذُكِرَ فِي الْقُرْآنِ مِنَ الْمُبَاشَرَةِ وَالْمُلَامَسَةِ وَالْإِفْضَاءِ وَالدُّخُولِ وَالرَّفَثِ: فَإِنَّمَا عَنَى بِهِ الْجِمَاعَ"[2]، وعُدِل بهذه اللَّفظةِ عمَّا هو أقل منها صراحة في التعبير عن الجماع كالإفضاء نحو: ﴿وَقَدۡ أَفۡضَىٰ بَعۡضُكُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ﴾ [النساء: 21]، والملامسة نحو: ﴿أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ [النساء: 43] وغيرهما استهجانًا لما وقع من بعض الصحابة قبل الإباحة من إتيان النساء في الوقت الذي كان ذلك فيه محرَّمًا، ولأنَّ الجماع لا يكاد يخلو من رفث[3].

وجه تعدية الرّفث بـ(إلى)، في قوله تعالى: ﴿ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمۡ﴾:

تضمّن الرّفث معنى الإفضاء، ونَزَلَ مَنْزِلَتَهُ فِي التَّعْدِيَةِ

عُدِّيَ الرَّفَثُ بـ: (إلى) في قوله تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمۡ لَيۡلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمۡ﴾ مع أنَّه يتعدَّى في الأصل بالباء أو مع، فيُقال:

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/211.
(2) البغويّ، معالم التّنزيل: 1/228.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/230، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 1/126.

رفث فلان بامرأته، أو مع امرأته، لكن لما تضمَّن الرفث هنا معنى الإفضاء الذي يراد به الملابَسة عُدِّي بـ: (إلى) كما في قوله تعالى: ﴿وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾ [النساء: 21][1]، والمقصودُ أنَّ الرَّفث ينتهي مفضًى به إلى النِّساءِ، وفي هذا العدولِ إبعادٌ لتصويرِ حالةِ الجماعِ بين الزَّوجين التي يوحي بها حرفُ (الباءِ) أو (مع)، فلو قال: بنسائكم، أو مع نسائكم؛ لوقع شيءٌ من تصوير تلك الحالةِ، وهو غيرُ مرادٍ، بل المرادُ عكسُه.

بلاغةُ الاستئنافِ البيانيِّ في قولِه تعالى: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ﴾:

العلاقةُ الخاصَّةُ بين الأزواجِ هي علَّةُ ترغيبٍ وإرشادٍ

قوله تعالى: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ﴾ فُصلت هذه الجملة عمَّا قبلها مع ما بينهما من الاتصال لوقوع هذه الجملة موقعَ البيانِ لسببِ الإحلالِ؛ فكأنَّه إجابةٌ لسؤالٍ: لمَ حلَّ الرفثُ إلى النِّساء في ليلةِ الصِّيام؟ فقيل: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾، وهذا من المواضع التي يستحسن فيها الفصل عند البلاغيين[2]، وسببٌ آخر وهو أنَّه لو وُصِلَ لَأَوْهَمَ ذلك أنَّ الجملةَ حاليَّةٌ، وأنَّها قيدٌ للإحلالِ، وليس الأمرُ كذلك.

نكاتُ التَّشبيه البليغِ في قولِه: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾:

اللّباس رمزٌ للسّتر، والقربِ، والدّفْء، والوقاية

وقعَ تشبيهٌ بليغٌ في قوله تعالى: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾؛ فقد حُذفت أداةُ التَّشبيه ووجهُ الشَّبه، وهو وإن كان محذوفًا في اللفظ فإنه جليٌّ قريبٌ في هذا الموضع، ولهذا التشبيه البليغ نكات بيانيَّة:

الأولى: أنَّ كلَّ واحدٍ من الزوجين يصير كاللباس لصاحبه عند الاعتناق والجماع، فيكون مشتملًا على الآخر، "فالتّشبيه من حيث الاعتناق، فكما أنّ اللّباس يسلك في العنقِ، كذلك المرأة تسلك في عنق الرّجلِ، والرّجلُ يسلك في عنقها"[3].

(1) البغويّ، معالم التّنزيل: 1/228.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/230.
(3) الصّاوي، حاشيّة الصّاوي: 1/80.

الثَّانية: أنَّه لمَّا كان كِلا الزوجين لصاحبه سكنًا - كما كان اللَّيلُ لباسًا وسكنًا للنَّاس كما في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا﴾ [الفرقان: 47] -، حسُن تشبيه الزَّوجين باللِّباس، و"يُقَالُ لِلْمَرْأَةِ: هِيَ لِبَاسُكَ وَفِرَاشُكَ وَإِزَارُكَ، وَقِيلَ: اللِّبَاسُ اسْمٌ لِمَا يُوَارِي الشَّيْءَ، فَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا سِتْرًا لِصَاحِبِهِ عَمَّا لَا يَحِلُّ"[1].

الثَّالثة: أنَّ الزَّوجين كلّ واحدٍ منهما كاللِّباس لصاحبه من حيث كونُه ساترًا له حائلًا دون ظهور سوءته[2]، فالتّشبيه "من حيث السّتر، فالمرأة تستر الرّجلَ، والرّجلُ يسترها"[3].

علّةُ إفرادِ اللّباس مع ضميرِ الجمعِ في: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ﴾:

أَفْرَدَ النَّظمُ لفظَ اللِّباس في قولِه تعالى: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾؛ "لأنّه يجري مجرى المصدرِ، و(فِعَال) من مصادر فاعل، وتأويله: هنّ ملابسات لكم"[4]، وأنتم ملابسون لهنَّ، "تَقُولُ: لَابَسْتُ مُلَابَسَةً وَلِبَاسًا"[5].

نكتةُ تقديمِ النّساء على الرّجال في: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾:

إباحةُ النِّساءِ من نِعَمِ الله التي يمتنُّ بها على الرِّجال

قُدِّم ذكرُ النِّساءِ في قوله تعالى: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾، وذلك لنُكَتٍ لطيفةٍ، منها: التَّنبيه على ظهور احتياجِ الرَّجل إلى المرأة، وكونُه أقلَّ صبرًا عنها، منها عنه، وكذا كونُه هو البادئ بطلب المُلابَسة غالبًا؛ لغلَبَةِ الحياءِ على النِّساء[6]، وكذلك المرأةُ مقصودُ الرَّجل في الغالبِ الأعمِّ، والسِّياقُ هو سياقُ امتنانٍ على الرِّجال بإباحةِ النِّساءِ لهم، فكان تقديمُهنّ هو الأولى والأنسبُ بهذا الخصوص.

فائدَةُ المجيءِ بصيغةِ (عَلِمَ) في: ﴿عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ﴾:

الشَّرعُ يُراعي مصالحَ العبادِ ولا يكلِّفُهم ما لا يستطيعون

آثرَ النَّظمُ الكريمُ الإتيانَ بمادَّة العلمِ، وبصيغةِ الماضي في قولِه:

(1) البغويّ، معالم التّنزيل: 1/228.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 3/489-491، والرّاغب، تفسير الرّاغب: 1/398.
(3) الصّاوي، حاشيّة الصّاوي: 1/80.
(4) الواحديّ، البسيط: 3/602.
(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/212.
(6) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/212.

﴿عَلِمَ ٱللَّهُ﴾ "أَيْ: عَلِمَ وُقُوعَ هَذَا مِنْكُمْ مُشَاهَدَةً"[1]، وذلك للدّلالةِ على واسعِ حلمِه، وكبيرِ رحمتِه بعبادِه، فهو مُطَّلِعٌ على صنيعِ عبادِه، ومع ذلك فلم يُعاقبهم، بل أحلَّ لهم ما لم يستطيعوا الصَّبرَ عليه، وهذا دليلٌ على أنَّ الشَّرعَ يُراعي مصالحَ العبادِ، ولا يُكلِّفهم بما لا يستطيعونه.

سرُّ التّعبيرِ بالجميع وإرادة بعضهم في قولِه: ﴿أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ﴾:

ستْرُ الله مراعى في الأحكـام، وعلى المجتمع أن يُراعي الستْرَ في العبادِ

خاطبتِ الآيةُ المُخاطَبين في قولِه: ﴿أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ﴾، ولم تقصرِ الخِطابَ على بعضِهم دون بعضِهم الآخر، وفي توجيه ذلك إمَّا أن نحملَ الكلامَ على المجاز، أو الحقيقة، فمعنى الآية على حملِها على المجاز: "عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تُسِرُّونَ بِالْمَعْصِيَةِ فِي الْجِمَاعِ بَعْدَ الْعَتَمَةِ، وَالْأَكْلِ بَعْدَ النَّوْمِ، وَتَرْكَبُونَ الْمُحَرَّمَ مِنْ ذَلِكَ، وَكُلُّ مَنْ عَصَى اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﷺ، فَقَدْ خَانَ نَفْسَهُ، وَقَدْ خَانَ اللَّهَ؛ لِأَنَّهُ جَلَبَ إِلَيْهَا الْعِقَابَ، وَعَلَى هَذَا الْقَوْلِ، يَجِبُ أَنْ يُقْطَعَ عَلَى أَنَّهُ وَقَعَ ذَلِكَ مِنْ بَعْضِهِمْ؛ لِأَنَّهُ لَا يُمْكِنُ حَمْلُهُ عَلَى وُقُوعِهِ مِنْ جَمِيعِهِمْ؛ لِأَنَّ قَوْلَهُ: ﴿عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ﴾، إِنْ حُمِلَ عَلَى ظَاهِرِهِ، وَجَبَ فِي جَمِيعِهِمْ أَنْ يَكُونُوا مُخْتَانِينَ لِأَنْفُسِهِمْ، لَكِنَّا قَدْ عَلِمْنَا أَنَّ الْمُرَادَ بِهِ التَّبْعِيضُ لِلْعَادَةِ وَالْإِخْبَارُ، وَإِذَا صَحَّ ذَلِكَ فَيَجِبُ أَنْ يُقْطَعَ عَلَى وُقُوعِ هَذَا الْجِمَاعِ الْمَحْظُورِ مِنْ بَعْضِهِمْ"[2].

وفائدةُ إيقاعُ الخطابِ على الجميعِ والمرادُ بعضُهم: هو تحذيرُ جميعِهم؛ ليقع الحذرُ منهم في مثل هذا الحكم، ولكي لا يقعَ لومٌ من الغالبِ على بعض من وقع منه هذا الفعلِ، فيُعلم أنَّ المطلوبَ السِّترَ، وهذا في حملِ اللَّفظِ على المجازِ.

أمَّا إذا حملناه على الحقيقةِ؛ فتوجيهه: بأنَّ المرادَ بالاختيان هو تحديثُ النَّفس بالخيانة، وناسب التَّعبيرَ به مجيءُ الكلامِ بصيغةِ الجَمْعِ، ومعلومٌ أنَّه لم تقع الخيانةُ

(1) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 2/317.
(2) الرّازي، التّفسير الكبير: 5/270.

من الجميعِ، وإنَّما وقع الاختيان - وهو تحرُّك النَّفس إلى المعصية - من جُلِّهم أو كلِّهم[1]، وعلى هذا يكونُ الجميعُ قد وقع في الاحتياجِ إلى الجماعِ فحدَّث نفسَه بذلك، فأخبرَهم سبحانه بما يجولُ في صدورِهم، وأحلَّ لهم ذلك، وهو وجهٌ قويٌّ، ويتَّسقُ مع دلالةِ سياقِ الامتنانِ.

نكتةُ التّعبيرِ بـ: ﴿تَخْتَانُونَ﴾ دون (تخونون):

الاختيانُ ضررُه ذاتيٌّ، بخلافِ الخيانةِ فتعمّ المجتمع

جاء التعبير بالاختيانِ دون الخيانة في قولِه تعالى: ﴿تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ﴾، وهو أبلغُ في التَّعبير وأشدُّ في الاستهجانِ؛ لكونِ زيادةِ اللفظِ فيه مفيدةً لزيادةِ المعنى؛ كالاكتسابِ والكسب[2].

وفيه ملمحٌ آخر وهو أنَّ الاختيان - مع أبلغيّته - خاصٌّ فيما كان ذاتيًّا، أي أنَّ الاختيانَ هو خيانةُ الإنسانِ لنفسِه لا لغيرِه، ولذلك قال: ﴿تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ﴾، فالاختيانُ لا يلحقُ أذاه غيرَ المُختان، وهو مأخوذٌ من الافتعالِ، مثل: الاغتسال، والاحتلام، والاستهجان، فهذه أفعالٌ ذاتيّةٌ، وأحداثٌ تقومُ بصاحبِها، بخلافِ الخيانةِ، فضررُها يعمّ المجتمع، وما كان اللّه ليُحلَّ خيانةَ الأمَّة!

توجيهُ إطلاقِ الاختيانِ في قولِه: ﴿تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ﴾:

الاختيان مُطلقٌ لفظًا ومقيَّد معنًى بدلالة السِّياق

أطلقَ النَّظمُ فعلَ ﴿تَخْتَانُونَ﴾ ولم يُقيِّده بأيِّ شيءٍ كان الاختيانُ؛ لأجل الاختصار والإيجازِ، ولأنَّ السِّياقَ يدلُّ على المقصودِ بهذه الخيانةِ، وهي: الجماعُ والأكلُ والشربُ؛ فكأنَّه قيل: تختانون أنفسَكم في الجماعِ والأكلِ والشُّربِ؛ فحُذِفت هذه الثّلاثة اختصارًا لدلالة السِّياق عليها[3].

(1) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 1/398-399.
(2) الزمخشري، الكشاف: 1/230.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 3/493، والرّازي، التّفسير الكبير: 5/270.

توجيهُ إيقاعِ الاختيانِ على النّفس في قولِه: ﴿تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ﴾:

سَعَةُ النَّظمِ لجميعِ التَّوجيهاتِ دليلُ إعجازٍ، وأمارةُ إيجازٍ

وقعَ فعلُ الاختيانِ في قولِه: ﴿تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ﴾ على الأنفسِ، ولذلك توجيهاتٌ عدَّة:

الأوّل: إشارةٌ إلى أنَّ ضررَ هذا الاختيانِ ووبالَه عائدٌ على المختان نفسِه، فهو في الحقيقة يخون نفسه، كقوله تعالى: ﴿أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ۝٥٧﴾ [البقرة: 57][1].

الثَّاني: اختيانُ النَّفس هو تحديثُ بعضِ الصَّحابة بعضًا بمواقعة المحظور من الأكل والشرب والجماع في ليلة الصِّيام، فيكون كقوله تعالى: ﴿تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ﴾ [البقرة: 85][2].

الثَّالث: في الكلامِ قلبٌ، وأصله: تختانكم أنفسُكم، أيْ: تُحدِّثُكم بالخيانة، وذلك كقولهم: كسر الزُّجاجُ الحجرَ؛ لأنَّ النَّفس هي التي تأمر صاحبَها بالسُّوء، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾ [يوسف: 53][3].

وهذه التَّوجيهات صحيحةٌ، فإنَّ ضررَ الاختيانِ يعودُ على صاحبِه، ولا مانعَ أن يكون هناك تحديثٌ بين الصَّحابةِ فيما يحتاجونه من الجماعِ والأكلِ والشُّربِ، ولمكانتِهم ورفعةِ شأنِهم سمَّى اللّه ذلك اختيانًا وإنْ لم يقعْ، والأنفسُ هي التي تُحدِّثُ صاحبَها بالاختيانِ ابتداءً، فجميعُ هذه المعاني صحيحٌ في ذاتِه ومآلِه، لا تجدُ فيها ما يُدفع، بل تدلُّ بمجموعِها على إحاطةِ النَّظمِ بما كان في الواقعِ.

معنى الفاءِ في قوله تعالى: ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾:

الفاءُ الفصيحةُ تقدِّر شرطَ التَّوبةِ للتَّوبةِ

في قولِه تعالى: ﴿عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ ذُكر فيه المعصية باختيان النفس وتوبة اللّه على فاعل هذه المعصية، واستُغنيَ عن ذكرِ توبةِ فاعلِ هذه المعصية

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/213.
(2) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 2/317.
(3) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/551.

اختصارًا؛ للعلم به من السِّياقِ، والتَّقدير: كنتم تختانون أنفسَكم؛ فإنْ تُبتم تابَ اللّه عليكم[1]، وهذه الفاءُ هي الفصيحةُ، إذ يُقدَّرُ المحذوفُ من السِّياقِ.

نكتةُ حذفِ المُضافِ وإقامةِ المضافِ إليه مكانَه في قوله تعالى: ﴿وَعَفَا عَنكُمۡۖ﴾:

المبالغةُ في العفوِ والصَّفح؛ امتنانًا على المخاطَبين وتوسعةً على الأمَّة

أوقعتِ الآيةُ العفوَ على المخاطبين، والعفوُ يكون عن ذنوبهم، ففيه حذفُ المضافِ وإقامةُ المضافِ إليه مكانَه، والتَّقدير: عَفَا عَنْ ذُنُوبِكُمْ، وما فعلتم قبل الرّخص[2]، وعفوه تعالى "يَحْتَمِلُ الْعَفْوَ مِنَ الذَّنْبِ، وَيَحْتَمِلُ التَّوْسِعَةَ وَالتَّسْهِيلَ"[3]، ونكتةُ حذفِ المضافِ هو الامتنانُ عليهم، بأنْ جعلَ العفوَ عنهم، ففيه مبالغةٌ في محوِ الذَّنبِ، والتَّجاوزُ في كلِّ ما حصل، وفيه معنى التَّسهيلِ والتَّوسعةِ على سائرِ الأمَّةِ.

توجيهُ مجيءِ ﴿فَٱلۡـَٔـٰنَ﴾ ظرفًا لفعلِ الأمرِ: ﴿بَٰشِرُوهُنَّ﴾:

إدخالُ السُّرورِ والبَهْجةِ في نفوسِ المخاطَبين

جاءَ ﴿فَٱلۡـَٔـٰنَ﴾ في قولِه تعالى: ﴿فَٱلۡـَٔـٰنَ بَٰشِرُوهُنَّ﴾ ظرفًا للأمر في ﴿بَٰشِرُوهُنَّ﴾، وهو ظرفٌ للزَّمن الحاضرِ، وفعل الأمر ﴿بَٰشِرُوهُنَّ﴾ للمستقبلِ، ونحن إمَّا أن نحملَه على المجازِ، أو الحقيقة، فمعناه في حملِه على المجاز: أنَّه لمَّا كان الأمرُ للمستقبَلِ القريبِ نُزِّلَ منزلةَ الحاضرِ في وقوعِ (الآن) ظرفًا له[4]، وفائدةُ ذلك: إدخالُ السُّرورِ والبهجة على نفوسِ المخاطَبين؛ فإنَّ المسارعةَ في تنفيذِ البشارةِ، سرورٌ من ورائِه سرورٌ.

وإنْ حملناه على الحقيقة: فيكون الظَّرفُ في الآية الكريمةِ لفعل الإباحةِ المحذوفِ الذي دلَّ عليه لفظُ الأمرِ في ﴿بَٰشِرُوهُنَّ﴾، والتقدير: فالآن قد أبحنا لكم مباشرَتَهنَّ فباشروهنَّ؛ فيكون

(1) الرّازي، التّفسير الكبير: 5/271.
(2) الرّازيّ، التّفسير الكبير: 5/271.
(3) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 2/317.
(4) السّمين، الدّرُّ المصُون: 2/295.

﴿فَٱلْـَٔـٰنَ﴾ على حقيقته[1]، وهذا على تقديرِ المحذوفِ، فيكون الظَّرفُ حقيقةً، والمجازُ بالحذفِ.

علّةُ تقديمِ إباحةِ المباشَرَةِ على الأكلِ والشُّربِ:

الأصلُ مقدَّمٌ على الفرعِ؛ فلا يُتصوَّرُ حلُّ الجماعِ بدون الأكلِ والشُّربِ

قُدِّمتْ إباحةُ المباشرةِ في قولِه تعالى: ﴿فَٱلْـَٔـٰنَ بَـٰشِرُوهُنَّ﴾ على إباحةِ الأَكْلِ والشُّربِ في قولِه تعالى: ﴿وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ﴾؛ باعتبارِه الأصلَ الذي يترتَّبُ عليه الفرعُ وهو الأكلُ والشُّربُ، فلا يُتصوَّرُ إباحةُ الجماعِ وحدَه دون الأكلِ والشَّرب، والعكس صحيحٌ كما هو في مناسك الحجِّ، وسببُ نزول الآية يوضِّح ذلك، فما وقع من جماع بعضِ الصَّحابة لزوجاتهم في ليل رمضان هو الأظهرُ في العتابِ، وما تلاه من إباحةِ الأكلِ والشُّربِ في ليلِ رمضان كان تبعًا له، زيادةً في التَّوسعةِ والتَّخفيف[2].

فائدةُ تعقيب الأمر بالمباشرة بقوله تعالى: ﴿وَٱبْتَغُواْ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾:

المؤمن يجعلُ قضاءَ شهوتِه سبيلًا في إنجابِ النَّسل الصَّالح

وقوله تعالى: ﴿وَٱبْتَغُواْ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ عقَّب به اللّٰه تعالى إباحة استفراغ الشهوة في ليل رمضان في قوله تعالى: ﴿فَٱلْـَٔـٰنَ بَـٰشِرُوهُنَّ﴾، وفي هذا التعقيب إشارة لطيفة إلى أن المؤمن عليه أن يقصد باستفراغ شهوته طلبَ ما أحلَّ اللّٰه تعالى من الولد الصالح وتحصينَ النفس من الوقوع في الحرام، فإذا قصد المؤمن ذلك فقد ابتغى ما كتبه اللّٰه، وكان أعلى منزلةً ممن لا قصد له في النكاح إلا قضاءُ الوطَر فحسب[3]، وفائدةُ ذلك توجيه مقاصدِ الجماعِ، وأنَّ المقصودَ الأوَّل منه هو ابتغاءُ الولدِ، وفيه إشارةٌ لطيفةٌ إلى أنَّ من قصدَ في جماعِه إنجابَ الأولاد في شهر رمضان؛ فإنَّه داخلٌ ضمن أمرِ اللّٰه تعالى في ابتغاءِ ما كتب من الولد، ففيه حضٌّ وحثٌّ، ولا يكونُ الحضُّ إلَّا لما فيه الخيرُ والصَّلاح.

(1) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 1/126.
(2) ابن العربيّ، أحكام القرآن: 1/129.
(3) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 1/399.

معنى (حتّى) في قولِه: ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ﴾:

المنتهى المشار إليه بلفظ ﴿حَتَّىٰ﴾، هو غاية التّبيّن، حيث ينبجس الفجر، وبعدها يبدأ الصّبح في الإسفار، ويؤدّي ذلك إلى طلوع النّهار، فهي غايةٌ لقولِه: ﴿وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ﴾ لأجل تحقُّقِ التبيُّن، ولا يصحُّ أن يقع التبيُّنُ لأحدٍ، ويحرم عليه الأكل، إلّا وقدْ مَضَى لطُلُوع الفجْرِ قدْرٌ[1].

بلاغة التشبيه البليغِ في: ﴿ٱلۡخَيۡطُ ٱلۡأَبۡيَضُ مِنَ ٱلۡخَيۡطِ ٱلۡأَسۡوَدِ مِنَ ٱلۡفَجۡرِ﴾:

تشبيهُ اللّيلِ والنّهارِ عند التقائِهما بالخَيْطَيْنِ لامتدادِهما

شُبِّه بياضُ النَّهار بالخيط الأبيض، وسوادُ اللّيل بالخيطِ الأسود في قولِه تعالى: ﴿ٱلۡخَيۡطُ ٱلۡأَبۡيَضُ مِنَ ٱلۡخَيۡطِ ٱلۡأَسۡوَدِ مِنَ ٱلۡفَجۡرِ﴾؛ وشُبِّها بالخيط لامتدادِهما في الأفقِ، وهو تشبيه بليغ؛ إذ حُذفت فيه أداة التَّشبيه ووجه الشبه.

وهو تشبيهٌ لا استعارةٌ، ودليلُ ذلك قولُه تعالى: ﴿مِنَ ٱلۡفَجۡرِ﴾، إذ قد "أخرجه من باب الاستعارة، كما أنّ قولك: رأيت أسدًا، مجاز، فإذا زدت (من فلان) رجع تشبيهًا، فإن قلت: فَلِمَ زِيدَ ﴿مِنَ ٱلۡفَجۡرِ﴾، حتّى كان تشبيهًا؟ وهلّا اقتصر به على الاستعارة الّتي هي أَبْلَغُ مِنَ التّشبيه، وأَدْخَلُ في الفصاحة؟ قلت: لأنّ من شرط المستعار أن يدلّ عليه الحال أو الكلام، ولو لم يذكر ﴿مِنَ ٱلۡفَجۡرِ﴾، لم يعلم أنّ الخيطين مستعاران، فزيد ﴿مِنَ ٱلۡفَجۡرِ﴾، فكان تشبيهًا بليغًا، وخرج من أن يكون استعارة"[2].

فائدة التّقييدِ بقولِه تعالى: ﴿مِنَ ٱلۡفَجۡرِ﴾:

تبيين المراد بالخَيْطَيْنِ الأسود والأبيض

قيَّدَ قولُه تعالى: ﴿مِنَ ٱلۡفَجۡرِ﴾ قولَه تعالى: ﴿ٱلۡخَيۡطُ ٱلۡأَبۡيَضُ﴾ ومعناه: حتّى يتبيّن لكم الخيطُ الأبيضُ الّذي هو من الفجر من الخيط الأسود الذي هو من الليل، ولذا جُعل الفجرُ فجرَيْن: صادق

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 1/258، وينظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 2/318.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/231.

كاذب، وفائدة التقييد هو بيان المراد بالخيطين، وأنهما ليسا على حقيقتهما، بل المراد بهما هو التشبيه[1].

ولم يُقيَّد ﴿ٱلۡخَيۡطِ ٱلۡأَسۡوَدِ﴾ فيقالُ: الخيطِ الأسودِ من الليل، كما قيل: ﴿مِنَ ٱلۡفَجۡرِۖ﴾، وذلك اكتفاءً ببيانِ نظيره، أي: ﴿ٱلۡخَيۡطُ ٱلۡأَبۡيَضُ﴾ الذي هو المنوطُ بِه الأحكامُ المذكورةُ في الآيةِ من الأكلِ والشُّربِ والجماع، فقولُه تعالى: ﴿مِنَ ٱلۡفَجۡرِۖ﴾، يُفهَم منه تقييد ﴿ٱلۡخَيۡطِ ٱلۡأَسۡوَدِ﴾ بـ: (من الليل)[2].

معنى التَّراخي في قوله: ﴿ثُمَّ أَتِمُّواْ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيۡلِ﴾:

الصّيام محطّة زمنيّة فارقة بين اللّيل والنّهار

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَتِمُّواْ﴾ عُطِف فيه إتمام الصيام على إباحة الأكل والشرب بـ(ثم)، ولما كانت تفيد الترتيب والتراخيَ كان في العطف بها إشارة إلى بُعْدِ ما بين طرفي الزمن الذي يُحل فيه المفطر، وكانت أولى استعمالًا في مقام التوسعة والإباحة[3].

سِرُّ التَّعبيرِ بالإتمامِ في قوله: ﴿ثُمَّ أَتِمُّواْ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيۡلِ﴾:

الإتمامُ وصفٌ لمن بدأ يومَه بصيامٍ وأتمَّه دون انقطاع

عبَّر النَّظم بلفظِ الإتمام في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَتِمُّواْ﴾ دون الإكمال، وذلك إشارة إلى أنَّ الصَّوم لا يجبُ إلَّا على من أصبح صائمًا، فلو أصبح مُفطرًا - لعذر أو لغيره - لم يجب عليه الإمساك إلى المغرب؛ لأنَّه لم يسبق له صوم فيتمَّه[4]، والإتمامُ يدلُّ على الاتِّصالِ دون انقطاع.

معنى انتهاءِ الغايةِ في قولِه: ﴿ثُمَّ أَتِمُّواْ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيۡلِ﴾:

امتنعَ دخولُ اللّيل في الصّيام؛ لأنّه ليس من جنس النّهار

دلَّ حرفُ (إلى) التي هي لانتهاءِ الغايةِ على عدمِ دخولِ اللَّيلِ في الصِّيامِ؛ لأنَّه "إذا كان ما بعدها من جنس ما قبلها، فهو داخل في حكمه، كقولك: اشتريت الفدَّان إلى حاشيته، وإذا كان من غير

(1) الزّجاج، معاني القرآن وإعرابه: 1/257، والسّمين، الدّرُّ المصون: 2/297.
(2) السّمين، الدّرُّ المصون: 2/297.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 3/88.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/219.

جنسه، كما تقول: اشتريت الفدَّان إلى الدّار، لم يدخل في المحدود ما بعد (إلى)"[1]، وعليه فلم "يدْخل اللّيل في الصّوم، كما دخل المِرْفَق في الغَسْلِ، في قوله: ﴿وَأَيۡدِيَكُمۡ إِلَى ٱلۡمَرَافِقِ﴾ [المائدة: 6]؛ لأنَّ اللّيل ليس من جنس النّهار، والمرفق من جنس اليد. قال أحمد بن يحيى: سبيل الغاية الدّخول والخروج، وكِلا الأمرين فيهما ممكن، كما تقول: أكلتُ السّمكةَ إلى رأسها، جائز أن يكون الرّأس داخلًا في الأكل وخارجًا منه، وخرج اللّيلُ من الصّوم؛ لأنّه لا يشكّ ذو عقل أنّ اللّيل لا يُصام، ودخلت المرافق في الغسل أخذًا بالأوثق، ثم انضمّ إلى هذا تبيين السُّنة"[2].

أثرُ حُروفِ المعاني في استنباطِ الأحكامِ:

صَوْمُ الوِصَال منهيٌّ عنه بدلالةِ حرفِ الغايةِ

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَتِمُّواْ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيۡلِۚ﴾ جُعلت غاية الصِّيام فيه إلى الليل، ويُفهم من ذلك النهي عن صوم الوصال؛ ووجهه أن الله تعالى جعل الليل غاية للصوم، أي: منقَطَعه ومنتهاه، وما بعد الغاية يخالف ما قبله[3].

تخصيصُ دلالة المباشرة بالجماع في قولِه: ﴿وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ﴾:

لفظُ المباشرةِ عامٌّ، وتخصيصُه بالجماعِ من دلالة المقامِ

أُرِيدَ بالنَّهي عن المباشرة في قولِه: ﴿وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ﴾ الْجِمَاعُ؛ لِأَنَّ وقوعَه منهم كان هو السَّبَبَ في هَذِهِ الرُّخْصَةِ، "وكما نهى عن المباشرة في حال الصّوم نهى عنها في حال الاعتكاف"[4]، ومن المفسِّرين "مَنْ حَمَلَهُ عَلَى كُلِّ الْمُبَاشَرَاتِ، وَلَمْ يَقْصُرْهُ عَلَى الْجِمَاعِ، وَالْأَقْرَبُ أَنَّ لَفْظَ الْمُبَاشَرَةِ؛ لَمَّا كَانَ مُشْتَقًّا مِنْ تَلَاصُقِ الْبَشَرَتَيْنِ؛ لَمْ يَكُنْ مُخْتَصًّا بِالْجِمَاعِ، بَلْ يَدْخُلُ فِيهِ الْجِمَاعُ فِيمَا دُونَ الْفَرْجِ، وَكَذَا الْمُعَانَقَةُ وَالْمُلَامَسَةُ، إِلَّا أَنَّهُمْ إِنَّمَا اتَّفَقُوا فِي هَذِهِ الْآيَةِ عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ

(1) ابن عطية، المحرّر الوجيز: 1/259.
(2) الواحدي، البسيط: 3/608.
(3) البيضاويّ، أنوار التّأويل: 1/126.
(4) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 1/399.

بِهِ هُوَ الْجِمَاعُ؛ لِأَنَّ السَّبَبَ فِي هَذِهِ الرُّخْصَةِ، كَانَ وُقُوعَ الْجِمَاعِ مِنَ الْقَوْمِ، وَلِأَنَّ الرَّفَثَ الْمُتَقَدِّمَ ذِكْرُهُ، لَا يُرَادُ بِهِ إِلَّا الْجِمَاعُ، إِلَّا أَنَّهُ لَمَّا كَانَ إِبَاحَةُ الْجِمَاعِ تَتَضَمَّنُ إِبَاحَةَ مَا دُونَهُ، صَارَتْ إِبَاحَتُهُ دَالَّةً عَلَى إِبَاحَةِ مَا عداه، فصحّ هاهنا حَمْلُ الْكَلَامِ عَلَى الْجِمَاعِ فَقَطْ"[1].

فائدةُ مجيءِ الجملةِ الحاليَّةِ ﴿وَأَنتُمْ عَٰكِفُونَ فِي ٱلْمَسَٰجِدِ﴾ بعد قولِه: ﴿وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ﴾:

المساجدُ هي أغلبُ أماكن الاعتكافِ لا أنَّها شرطٌ للاعتكافِ

ليس من شرطِ الاعتكافِ أن يكون في المساجدِ، ومجيءُ الجملةِ الحاليَّة ﴿وَأَنتُمْ عَٰكِفُونَ فِي ٱلْمَسَٰجِدِ﴾؛ "لِأَنَّ النَّهْيَ عَنِ الشَّيءِ مقيّدٌ بِحَالٍ، لَهَا مُتَعَلَّقٌ لَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ تِلْكَ الْحَالَ، إِذَا وَقَعَتْ مِنَ الْمَنْهِيِّينَ يَكُونُ ذَلِكَ الْمُتَعَلَّقُ شَرْطًا فِي وُقُوعِهَا، وَنَظِيرُ ذَلِكَ: (لَا تَضْرِبْ زَيْدًا، وَأَنْتَ رَاكِبٌ فَرَسًا)، وَلَا يَلْزَمُ مِنْ هَذَا أَنَّكَ مَتَى رَكِبْتَ، فَلَا يَكُونُ رُكُوبُكَ إِلَّا فَرَسًا، فَتَبَيَّنَ مِنْ هَذَا أَنَّ الِاسْتِدْلَالَ بِهَذِهِ الْآيَةِ عَلَى اشْتِرَاطِ الْمَسْجِدِ فِي الِاعْتِكَافِ ضَعِيفٌ، فَذِكْرُ الْمَسَاجِدِ، إِنَّمَا هُوَ؛ لِأَنَّ الِاعْتِكَافَ غَالِبًا لَا يَكُونُ إِلَّا فِيهَا، لَا أَنَّ ذَلِكَ شَرْطٌ فِي الِاعْتِكَافِ"[2]، فالمعنى: "لا تباشروهُنَّ، وقد نَوَيْتُم الاعتكافَ في المسجد، وليس المرادُ النهيَ عن مباشرتِهِنَّ في المسجدِ بقيدِ الاعتكافِ؛ لأنَّ ذلك ممنوعٌ منه في غير الاعتكاف أيضاً"[3].

خِطابُ الرِّجالِ في قولِه: ﴿وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَٰكِفُونَ﴾:

خطابُ النّهي عن مباشرةِ النِّساءِ خطابٌ للرِّجال، و"ظَاهِرُ الْآيَةِ يَدُلُّ عَلَى جَوَازِ الِاعْتِكَافِ لِلرِّجَالِ، وَأَمَّا النِّسَاءُ؛ فَمَسْكُوتٌ عَنْهُنَّ"[4]؛ وذلك أنَّ أغلبَ المعتكفين في المساجدِ هم الرِّجال دون النِّساءِ، فالخطابُ أغلبيٌّ لا حاصر.

(1) الرّازيّ، التّفسير الكبير: 5/271.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/221.
(3) السّمين، الدّرُّ المصون: 2/298.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/221.

دلالةُ الإشارةِ إلى الجمعِ في قوله تعالى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ﴾:

التَّعبيرُ عن أحكامِ الصِّيامِ بالحدود تحذيرٌ لمخالفتها

اسمُ الإشارةِ في قوله تعالى: ﴿تِلْكَ﴾: مُبْتَدَأٌ مُخْبَرٌ عَنْهُ بِجَمْعٍ ﴿حُدُودُ ٱللَّهِ﴾؛ فَلَا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ إِشَارَةً إِلَى مَا نُهِيَ عَنْهُ فِي الِاعْتِكَافِ؛ لِأَنَّهُ شَيْءٌ وَاحِدٌ، بَلْ هُوَ إِشَارَةٌ إِلَى مَا تَضَمَّنَتْهُ آيَةُ الصِّيَامِ مِنْ أَوَّلِهَا إِلَى هُنَا، وَكَانَتْ آيَةُ الصِّيَامِ قَدْ تَضَمَّنَتْ عِدَّةَ أَوَامِرَ، وَالْأَمْرُ بِالشَّيْءِ نَهْيٌ عَنْ ضِدِّهِ، فَبِهَذَا الِاعْتِبَارِ كَانَتْ عِدَّةَ مناهي، ثُمَّ جَاءَ آخِرَهَا النَّهْيُ عَنِ الْمُبَاشَرَةِ، فِي حَالَةِ الِاعْتِكَافِ، فَأُطْلِقَ عَلَى الْكُلِّ: حُدُودٌ؛ تَغْلِيبًا لِلْمَنْطُوقِ بِهِ، وَاعْتِبَارًا بِتِلْكَ الْمَنَاهِي الَّتِي تَضَمَّنَتْهَا الْأَوَامِرُ"[1].

وإضافةُ ﴿حُدُودُ﴾ للفظِ الجلالةِ تعظيمٌ لشأن الحدود في نفس السَّامع لا يفي به تنكيرُها أو تعريفُها بالألف واللَّام[2].

إضافةُ حدود إلى الاسم الأحسنِ تأكيدٌ للتَّعظيم

وفي إضافة الحدود إلى الاسم العظيم دون غيره من الأسماء الحسنى - كالرب والخالق - تأكيد للتعظيم المستفاد من الإضافة، فكأنه قيل: إن الذي وضع هذه الحدود هو اللّه الذي له جميع صفات الجلال والقدرة، الذي يقتضي كمالُ ألوهيته ألَّا يجترئ أحد على تجاوز حدوده[3].

دلالة النهي في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَقْرَبُوهَا﴾:

قوله تعالى: ﴿فَلَا تَقْرَبُوهَا﴾ نهى سبحانه وتعالى عن الاقتراب من حدوده، وهو أبلغ من النهي عن تجاوز هذه الحدود؛ إذ تقتضي الاستجابةُ لهذا النهي أن يجعل المخاطَب بينه وبين الحد حاجزًا حصينًا، والنهي بهذه الصورة هو الأليق بمقام الصيام؛ لِمَا يلزم الصائمَ من الورَع والاحترازِ من الوقوع في الاشتباه[4].

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/221-222، ويُنظر: السّمين، الدّر المصون: 2/298-299.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/222.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 3/92.
(4) البغويّ، معالم التّنزيل: 1/233، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 3/92.

الغالبُ في ذكرِ الأحكامِ التّحريم، فنَاسبَها النّهيُ عن الاقتراب

وقوله تعالى: ﴿فَلَا تَقۡرَبُوهَاۗ﴾ نهى سبحانه وتعالى عن الاقتراب مما تقدَّم في الآية من الحدود التي حدَّها بين الحلال والحرام، وقد تقدَّم في الآية مأمورات كإتمام الصيام ومباحات كالأكل والشرب والجماع في ليلة الصيام، فعبَّر عن الجميع بصيغة النهي، والسبب في ذلك هو أن الغالب في الآية هو جانب التحريم، أي: تحريم الأكل والشرب والجماع الذي يتضمنه الأمر بإتمام الصوم، وتحريم المباشرة في أثناء الاعتكاف، ولما كان هذان الحكمان هما الأقربَ إلى الخطاب جاء بصيغة النهي المقتضية للتحريم تغليبًا[1].

الفرق في التَّعبيرِ بين قولِه: ﴿فَلَا تَقۡرَبُوهَاۗ﴾ و﴿فَلَا تَعۡتَدُوهَاۚ﴾:

التَّعبيرُ بالاقترابِ أنسبُ بالمعاصي، والتَّعبيرُ بالاعتداءِ أليق بالمقادير الشرعيَّة

جاءَ التَّعبيرُ في هذه الآيةِ بقوله تعالى: ﴿فَلَا تَقۡرَبُوهَاۗ﴾، بَيْنَما جاء في آياتٍ أخرى: ﴿فَلَا تَعۡتَدُوهَاۚ﴾ و: ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ﴾، [البقرة: 229] وسببُ الاختلافِ في التَّعبيرِ هو رعايةُ مقامِ كلِّ موضع، فحيث تضمَّنت الآية نهيًا عن المعصية وزجرًا عنها قال تعالى: ﴿فَلَا تَقۡرَبُوهَاۗ﴾، وحيث تضمنَّت الآية تقسيمًا للإرث وبيانًا لعِدد الطلاق والإيلاء ونحو ذلك من الأحكام المتعلقة بمقادير معيَّنة؛ جاء النَّهي عن الاعتداء الذي هو مجاوزة الحد فيما قدَّره الله تعالى وشرَعه من الأحكام، كقوله تعالى: ﴿فَلَا تَعۡتَدُوهَاۚ﴾، فجاء كلٌّ من النَّهي عن الاقتراب والتعدِّي في مكانه المناسب[2].

دلالة التشبيه في: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ﴾:

شأن الذِّكر الحكيم إبانةُ الأحكام بأيسر لفظ وأوضحه

شُبِّه تبيينُ آيات الله وأحكامه للناس في قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ﴾ بما تقدَّم في الآية من تفصيل الأحكام المتعلِّقة بالصوم والاعتكاف، أي: مثل هذا البيان الذي ذُكِر يبين الله تعالى آياته للناس، وفي هذا التشبيه دلالة على أنَّ شأْنَ القرآنِ

(1) الخازن، لباب التّأويل: 1/119.
(2) السّمين، الدّرُّ المصون: 2/300-299.

العظيمِ هو بيانُ الأحكامِ وتجليتُها لجميع الناس بأبلغ عبارة وأيسر لفظ بحيث تكون واضحة للمخاطَبين تقوم بها الحُجَّة لديهم[1].

المراد بالناس في قوله: ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ﴾:

لفظُ النَّاس في قوله تعالى: ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ﴾ عامٌّ لفظًا ومعنًى، ولا يلزم من قوله تعالى: ﴿لَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ﴾ أن يكون عامًّا مرادًا به خصوص المؤمنين؛ إذ إنّ تبيينَ الآياتِ وتجليتَها لجميع الناس لا يلزَم منه تبيُّن جميعهم لها، بل منهم من يتبينها ويعمل بمقتضاها، ومنهم من يُعرِض عنها فلا يعمل بمقتضاها[2].

بيان الآيات عامٌّ لجميع النّاس، إذ لا يلزم من بيانها هدايتُهم

دلالة التقوى في: ﴿لَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ﴾:

قوله تعالى: ﴿لَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ﴾ ختم الله تعالى به هذه الآية الكريمة المتضمِّنة عدَّةَ مناهي تتعلَّق بما يشتهيه الإنسان من الأكل والشرب والجماع، فمنعت إتيان هذه المشتهيات في بعض الأوقات؛ ولِذا خُتِمت الآية بالتقوى؛ لأنَّ اجتنابَ هذه الملاذِّ الجِسمانيَّة في أوقات التحريم شاقٌّ لا يقدر عليه إلا من أكرمه الله بالتقوى وجعله من أهل خشيته[3].

لا يحجز المؤمن عن تعاطي الملاذِّ الجِسمانية المحرَّمة إلا التقوى

دلالة الرجاء في: ﴿لَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ﴾:

يدلُّ الإبهام الذي في حرف الرجاء (لَعَلَّ) في قولِه تعالى: ﴿لَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ﴾ على أنَّ من المخاطَبين من لا يتَّقي وإن سمع الخطاب ووصل إليه، وأنَّه تعالى يبين حُججَه وآياته لجميع الناس لأنه يريد هدايتهم وتحقُّقَهم بالتقوى المؤدِّية إلى نجاتهم يوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡكُمۡ﴾ [النساء: 27][4].

ليس كل سامعٍ للبيان عاملًا بمقتضاه

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/223.
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 1/260، والتحرير والتنوير: 2/186.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/223.
(4) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 3/93.

﴿وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُواْ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ١٨٨﴾ [البقرة: 188]

مُناسَبَةُ الآيةِ لما قبلها:

لمّا ذكر في الآيات السابقة من أعمال المؤمنين الصيامَ المفروضَ عليهم، والاعتكافَ المسنونَ لهم، وما يباح للمُفطر عند فطره من أكل الحلال الطيب، ذكر هنا ما يقابله من النهي عن أكل أموال الناس بالباطل، فليس من المقبول أن يُمسك المسلم في نهار رمضان عن الحلال، ثم لا ينتهي عن أكل الحرام في رمضان وغيره، قال النّيسابوريّ: "لَمَّا كان الصّوم منتهيًا إلى الإفطار، والإفطار يتضمّن الأكل، ناسب أن يردف حكم الصّيام، بحكم ما يصلح للأكل، وما لا يصلح له"[1]، و" لَمّا بيّن تعالى في الآيات السّابقة أحكام الصّيام، وأباح للمؤمنين الاستمتاع بالطّعام والشّراب والنّكاح في ليالي رمضان، عقّبه بالنّهي عن أكل الأموال بغير حقّ؛ لأنّ المسلم لا يصحّ له أن يستمتع بالمال الحرام، لا في ليالي رمضان ولا غيره"[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿بِٱلْبَٰطِلِ﴾: (بَطَلَ) أَصْله ذَهَابُ الشَّيْءِ وَقِلَّةُ مُكْثِهِ وَلُبْثِهِ[3]، أَصْلُ الْبَاطِلِ: الشَّيْءُ الزَّائِلُ الذَّاهِبُ[4]، "اسْمُ فَاعِلٍ مِنْ بَطَلَ؛ إِذَا ذَهَبَ ضَيَاعًا وَخَسْرًا، أَيْ: بِدُونِ وَجْهٍ"[5]، "البَاطِل: نقيضُ الحق، وهو ما لا ثبات له عند الفحص عنه"[6]، "قال القاضي أبو يعلى: والباطل على وجهين: أحدهما: أن يأخذه بغير طيب نفس من مالكه، كالسرقة، والغصب، والخيانة. والثاني: أن يأخذه بطيب نفسه، كالقمار، والغناء، وثمن الخمر، وقال الزّجاج: الباطل: الظلم"[7].

(1) النّيسابوري، غرائب القرآن: 1/523.
(2) محمد علي جميل، صفوة التّفاسير: 1/111.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (بطل).
(4) البغويّ، معالم التّنزيل: 1/233، والرّازي، التّفسير الكبير: 5/280.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 2/189.
(6) الرّاغب، المفردات: (بطل).
(7) ابن الجوزيّ، زاد المسير: 1/151.

2) ﴿وَتُدۡلُواْ﴾: من (دلَوَ)، ودَلَوْتُ الدَّلْوَ: إذا أرسلتها، وأدليتها، أي: أخرجتها، واستُعير للتّوصّل إلى الشّيء[1]، وأَدْلَيْتُها: أرسلتها في البئر لتمتلئ[2]، أصل الْإِدْلَاءِ: إِرْسَالُ الدَّلْوِ وإلقاؤها في البئر، أَدْلَى دَلْوَهُ: أَرْسَلَهَا لِيَمْلَأَهَا، أَدْلَى فُلَانٌ بِمَالِهِ إِلَى الْحَاكِمِ: رَفَعَهُ[3]، ثم جُعل كلُّ إلقاءِ قولٍ أو فعلٍ إدلاءً، ومنه يقال للمحتجِّ: أدلى بحُجَّتِه، كأنّه يُرسِلُها ليصل إلى مراده إدلاءَ المستقي الدلوَ ليصل إلى مطلوبه من الماء[4].

فالإدلاء بالحجّة تشبيهٌ بإرسال دلوٍ في بئر لِمَلْئها، ومعنى ﴿وَتُدۡلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلۡحُكَّامِ﴾، أي: تعملون على ما يوجبه الإدلاءُ بالحجّة، وتخونون في الأمانة"[5].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

ولا يأكل بعضُكم مالَ بعض بسبب باطل كاليمين الكاذبة، والغَصْب، والسَّرقة، والرِّشوة ونحو ذلك، ولا تلقُوا بالحُجج الباطلة إلى الحكام؛ لتأكلوا عن طريق التَّخاصم أموالَ طائفة من النَّاس بالباطل، وأنتم تعلمون تحريمَ ذلك عليكم، كما جاء عن رسول اللّه ﷺ أنّه قال: «إنّكم تختصمون إليَّ، ولعلَّ بعضَكم ألحنُ بحجَّته من بعض، فمن قضيتُ له بحقِّ أخيه المسلم، فكأنَّما قضيتُ له بقطعة من النَّار»، وهذا أقبح في ارتكاب المعاصي[6].

❁ الإيْضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

نوعُ الواوِ في قوله: ﴿وَلَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ﴾:

الواو في قولِه تعالى: ﴿وَلَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ﴾ استئنافيّةٌ، فالجملة مستأنفة، وهي مسوقة لتقرير حكم جديدٍ يتعلّق بالأموال، وطرق اكتسابها[7].

سّرّ التّعبير بالأكل عن الإنفاقِ في قولِه تعالى: ﴿وَلَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ﴾:

"والأكل عبارة عن الإنفاق؛ إذ هو أهمّ ما يصرف إليه المال، وأكل المال بالباطل،

(1) الرّاغب، المفردات: (دلو).
(2) الجوهريّ، الصّحاح: (دلو).
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/176.
(4) الواحديّ، التّفسير البسيط: 3/613، وابن جرير، جامع البيان: 3/552-552، والرّازي، التّفسير الكبير: 5/280.
(5) الزّجاج، معاني القرآن وإعرابه: 1/258.
(6) نخبة من العلماء، التّفسير الميسر، ص: 29، والماتريديّ، تأويلات أهل السّنة: 2/58، والحديث رواه البخاري، حديث رقم: (2680)، ومسلم، حديث رقم: (1713).
(7) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 1/275.

صرفه إلى ما ينافيه الحقّ، وهو التّبذير والإسراف، قليلاً كان الإنفاق أو كثيرًا"[1].

الأكلُ أَهَمُّ الْحَوَائِجِ، وَبِهِ يَقَعُ إِتْلَافُ أَكْثَرِ الْأَمْوَالِ

عبّر عن الإنفاقِ بالأكلِ؛ لأنّه المقصودُ الأهمُّ في الإنفاقِ، فالْمَفْهُومُ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓاْ﴾، هو الْأَكْلُ الْمَعْرُوفُ، لكنَّه ليسَ المراد في الآيةِ؛ "لأنَّ غيرَ الأكل من التصرّفات كالأكل في هذا الباب، لكنَّه لّما كان المقصود الأعظم من المال، إنَّما هو الأكل، وصار العُرْفُ فيمن أنفق ماله، أن يُقال: أكله، فلهذا عبَّر عنه بالأكل"[2]، والأكلُ "أَهَمُّ الْحَوَائِجِ، وَبِهِ يَقَعُ إِتْلَافُ أَكْثَرِ الْأَمْوَالِ"[3]، ومعنى النَّهي عن أن يكونَ الأكلُ بينهم: "وقوع التّداول والتّناول لأجل الأكل بينهم، وليس المراد بالأكل المنهيِّ عنه نفسَ الأكل خاصّة؛ لأنّ جميع التّصرّفات المتفرّعة على الأسباب الباطلة حرام، إلّا أنّه شاع في العرف، أن يعبّر عن إنفاق المال بأيّ وجه كان بالأكل؛ لأنّ الأكل معظم المقصود من المال"[4].

بلاغة الاستعارةِ في التّعبير بالأكل عن أخذ المال:

أكلُ المالِ هو أخذُه دون إرجاعٍ

لفظُ الأكلِ مستعارٌ لأخذِ المالِ للانتفاعِ به؛ إذْ حقيقتُه "إِدْخَالُ الطَّعَامِ إِلَى الْمَعِدَةِ مِنَ الْفَمِ، وَهُوَ هُنَا اسْتِعَارَةٌ لِلْأَخْذِ بِقَصْدِ الانْتِفَاعِ دُونَ إِرْجَاعٍ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ الْأَخْذَ يُشْبِهُ الْأَكْلَ مِنْ جَمِيعِ جِهَاتِهِ، وَلِذَلِكَ لَا يُطْلَقُ عَلَى إِحْرَاقِ مَالِ الْغَيْرِ اسْمُ الْأَكْلِ، وَلَا يُطْلَقُ عَلَى الْقَرْضِ وَالْوَدِيعَةِ اسْمُ الْأَكْلِ، وَلَيْسَ الْأَكْلُ هُنَا اسْتِعَارَةً تَمْثِيلِيَّةً؛ إِذْ لَا مُنَاسَبَةَ بَيْنَ هَيْئَةِ آخِذِ مَالِ غَيْرِهِ لِنَفْسِهِ، بِقَصْدِ عَدَمِ إِرْجَاعِهِ، وَهَيْئَةِ الْأَكْلِ كَمَا لَا يَخْفَى"[5].

نكتةُ إضافةِ الأموال إلى المُخاطَبين في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم﴾:

آكلُ مال أخيه بالباطل، كآكلِ مالِ نفسِه بالباطل

أضيفت الأموال إلى ضمير المُخاطَبين في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ﴾، والمعنى: لا تأكلوا أموال

(1) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 1/400.
(2) ابن عادل، اللّباب: 3/323، وينظر: الرّازي، التّفسير الكبير: 5/279-280.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/224.
(4) البروسويّ، روح البيان: 1/302.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/187.

بعضكم؛ "فَالضَّمِيرُ الَّذِي لِلْخِطَابِ يَصِحُّ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِمَّنْ تحتّمه أَنْ يَكُونَ مَنْهِيًّا وَمَنْهِيًّا عَنْهُ، وَآكِلًا وَمَأْكُولًا مِنْهُ، فَخَلَطَ الضَّمِيرَ لِهَذِهِ الصَّلَاحِيَّةِ، وكما يحرم أن يأكل، يحرم أن يؤكل غَيْرُهُ، فَلَيْسَتِ الْإِضَافَةُ إِذْ ذَاكَ لِلْمَالِكِينَ حَقِيقَةً، بَلْ هِيَ مِنْ بَابِ الْإِضَافَةِ بِالْمُلَابَسَةِ"[1]، ونكتةُ إضافةِ الأموالِ إليهم؛ "أنّ المؤمنين كجسد واحدٍ في توادِّهم وتعاطفِهم وتَرَاحمِهم"[2]، ونَظيرُ ذلك قولهُ تعالى: ﴿وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ [الحجرات: 11] بمعنى: لا يلمزْ بعضكم بعضًا؛ لأنّ الله تعالى ذِكْرُهُ جعل المؤمنين إخوة، فلامِزُ أخيه كلامز نفسه، وكذلك تفعل العرب تكنّي عن نفسها بأخواتها، وعن أخواتها بأنفسِها، فيكنّي المتكلّم عن نفسه بأخيه؛ لأنّ أخا الرّجل عندها كنفسه، فتأويل الكلام: (ولا يأكلْ بعضكم أموال بعضٍ، فيما بينكم بالباطل)[3].

دلالة مقابلة الجمع بالجمع في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم﴾:

حرمةُ أكلِ جميعِ الأموالِ بالباطلِ على جَمِيعِ الْمُسْلِمِينَ

في الآيةِ جَمْعَانِ: جَمْعُ الْآكِلِينَ وَجَمْعُ الْأَمْوَالِ الْمَأْكُولَةِ، وَإِذَا تَقَابَلَ جَمْعَانِ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ؛ احْتَمَلَ أَنْ يَكُونَ مِنْ مُقَابَلَةِ كُلِّ فَرْدٍ مِنْ أَفْرَادِ الْجَمْعِ، بِكُلِّ فَرْدٍ مِنْ أَفْرَادِ الْجَمْعِ الْآخَرِ، عَلَى التَّوْزِيعِ، نَحْوُ: (رَكِبَ الْقَوْمُ دَوَابَّهُمْ)، وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَخُذُواْ حِذْرَكُمْ﴾ [النّساء: 102]، وَاحْتَمَلَ أَنْ يَكُونَ كَذَلِكَ لَكِنْ عَلَى مَعْنَى: أَنَّ كُلَّ فَرْدٍ يُقَابَلُ بِفَرْدٍ غَيْرِهِ لَا بِفَرْدِ نَفْسِهِ، نَحْوُ قَوْلِهِ: ﴿وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ [الحجرات: 11]، وَاحْتَمَلَ أَنْ يَكُونَ مِنْ مُقَابَلَةِ كُلِّ فَرْدٍ بِجَمِيعِ الْأَفْرَادِ، نَحْوِ قَوْلِهِ: ﴿وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ﴾ [غافر: 9]، وَالتَّعْوِيلُ فِي ذَلِكَ عَلَى الْقَرَائِنِ[4]، والأرجحُ أنْ يكونَ هذانِ الجَمْعانِ "مِنَ النَّوْعِ الثَّانِي، أَيْ: لَا يَأْكُلُ بَعْضُهُمْ مَالَ بَعْضٍ آخَرَ بِالْبَاطِلِ، بِقَرِينَةِ قَوْلِهِ: ﴿بَيْنَكُم﴾؛ لِأَنَّ (بَيْنَ) تَقْتَضِي تَوَسُّطًا خِلَالَ طَرَفَيْنِ، فَعُلِمَ أَنَّ الطَّرَفَيْنِ آكِلٌ وَمَأْكُولٌ مِنْهُ، وَالْمَالُ بَيْنَهُمَا، فَلَزِمَ أَنْ

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/224.
(2) الواحديّ، التّفسير البسيط: 3/612.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 3/548-549.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/189.

يَكُونَ الْآكِلُ غَيْرَ الْمَأْكُولِ، وَإِلَّا لَمَا كَانَتْ فَائِدَةٌ لِقَوْلِهِ: ﴿بَيْنَكُم﴾"[1]، وهذا وجه وجيه؛ لأنّ الغاية هي النّهي عن التّعدّي عن الأموال بالأباطيل، وبالادّعاء والتّضليل، وهي انحرافات سلوكيّة واضحة، غاية القرآن علاجها، وفتح مغاليق النّفوس الطّامحة الطّامعة فيما في أيدي النّاس، وتريدُ الاستيلاءُ على ما يحوزه الآخرون، وإن كانت غنيّة، وفي حوزتها أموال كثيرة، ولها منابع للاسترزاق غزيرة، إلّا أنّها تتوق إلى ما ليس في يدها، وتمدّ عينها إلى ما متّع اللّه به الآخرين، ولا يملأ فمَ ابنِ آدم إلّا التّراب.

معنى حرفِ البَاءِ في قوله تعالى: ﴿بِالْبَاطِلِ﴾:

تـــردُّدُ الـبـاءِ بَـيْنَ السَّببيَّة، والمُصاحَبَةِ

حرفُ الباءِ في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ﴾ يحتملُ معنَيَيْن:

الأوَّل: أن تكونَ للسّببية؛ فتكون متعلّقة بـ﴿تَأْكُلُوٓاْ﴾، وحينئذٍ يكون معنى الأكلِ بالباطلِ أي: على جهةِ الظُّلم، من نحو: الغَصْب والخيانة والسّرقة.

الآخر: أن تكونَ الباءُ للمصاحبة؛ فتتعلّق بمحذوفٍ، وتكون مع مدخولِها حالًا من فاعل تأكلوا، ويكونُ أكلُ المالِ بالباطلِ على جهة اللّهو واللّعب، كالّذي يُؤْخَذُ في القمار والملاهي ونحوها، كلُّ ذلك من أكل المال الباطل[2].

علّة تخصيص الإدلاء إلى الحكّام بالذّكر، في قوله: ﴿وَتُدْلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ﴾:

شَناعة الفِعْلة، واشْتِمالها على مُحَرَّماتٍ كَثِيرَةٍ، والدَّلالة على أنَّ الرَّاشي آثِمٌ

خَصَّ هَذِهِ الصُّورَةَ بِالنَّهْيِ بَعْدَ ذِكْرِ مَا يَشْمَلُهَا، وَهُوَ أَكْلُ الْأَمْوَالِ بِالْبَاطِلِ؛ لِأَنَّ هَذِهِ الصُّورَةَ شَدِيدَةُ الشَّنَاعَةِ جَامِعَةٌ لِمُحَرَّمَاتٍ كَثِيرَةٍ، وَلِلدَّلَالَةِ عَلَى أَنَّ مُعْطِيَ الرَّشْوَةِ آثِمٌ مَعَ أَنَّهُ لَمْ يَأْكُلْ مَالًا بَلْ آكِلَ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/189-190.

(2) الواحدي، التفسير البسيط: 3/613، والشّربينيّ، السّراج المنير: 1/125.

غَيْرَهُ[1]، ومعنى قولِه: ﴿وَتُدْلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ﴾: "لا تُسرعوا بالخصومة في الأموال إلى الحكّام؛ لِيُعينُوكُم على إبطالِ حقٍّ، أو تحقيق باطل، وأمّا الإسراع بها، لتحقيق الحقّ؛ فليس مذمومًا، وفي هذه الآية دليل أنّ حكم الحاكم، لا يحلّل الحرام، ولا يحرّم الحلال، من غير فرق بين الأموال والفروج، فمن حكم له القاضي بشيء مستنداً في حكمه إلى شهادة زور، أو يمين فاجرة؛ فلا يحلّ له أكله، فإنّ ذلك من أكل أموال النّاس بالباطل"[2].

وجه الجزم أو النّصب في قوله تعالى: ﴿وَتُدْلُواْ﴾، وأثرهما في المعنى:

الجزم للنّهي عنه وعمّا قبله، والنّصب بعد واو المعية في جواب النهي

﴿وَتُدْلُواْ﴾ عطف على ﴿تَأْكُلُوٓاْ﴾، وفي قراءة أبيّ: (ولا تدلوا)[3]، وهذه القراءة تؤيّد جزم تُدْلُوا في قراءة الجماعة[4].

ويجوز أن يكون ﴿وَتُدْلُواْ﴾ مَنْصُوبًا بِأَنْ مُضْمَرَةً بَعْدَ واو المعيَّة، في جَوَابِ النَّهْيِ، فَيَكُونُ النَّهْيُ عَنْ مَجْمُوعِ الْأَمْرَيْنِ، أَيْ: لَا تَأْكُلُوهَا بَيْنَكُمْ مُدْلِينَ بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ؛ لِتَأْكُلُواْ، وَهُوَ يُفْضِي إِلَى أَنَّ الْمَنْهِيَّ عَنْهُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ، هُوَ الرَّشْوَةُ خَاصَّةً، فَيَكُونُ الْمُرَادُ الِاعْتِنَاءَ بِالنَّهْيِ عَنْ هَذَا النَّوْعِ مِنْ أَكْلِ الْأَمْوَالِ بِالْبَاطِلِ[5].

كما قال الشّاعر:

لا تَنْهَ عَنْ خُلُقٍ وَتَأْتِيَ مِثْلَهُ *** عَارٌ عَلَيْكَ إِذَا فَعَلْتَ عَظِيمُ[6]

يعني: لا تنه عن خلق، وأنتَ تأتي مثله.

وكونُه في موضع جزم، على ما ذُكر في قراءة أبيّ، أحسن منه أن يكون نَصبًا[7]؛ لأَنَّهُ دَاخِلٌ فِي حُكْمِ النَّهْيِ، وَالتَّقْدِيرُ: وَلَا تَأْكُلُواْ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/190.

(2) القِنَّوجيّ، فتحُ البيان: 1/380.

(3) وهي قراءة شاذة، نسبت إلى أبي بن كعب، كما عند الفراء، معاني القرآن: 1/115، والنحاس، إعراب القرآن: 1/241، وابن عطية، المحرر الوجيز: 2/133.

(4) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 1/260.

(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/190.

(6) البيت منسوب في وضح البرهان: 1/259 إلى المتوكّل اللّيثي، وكذلك في خزانة الأدب للبغداديّ: 8/564، وعلّق عليه عبد السّلام هارون، فقال: "نسبه سيبويه للأخطل، ويروى لسابق البربريّ، وللطّرمّاح، وللمتوكّل اللّيثيّ"، ينظر: النّيسابوريّ، إيجاز البيان: 1/209، وكذلك معجم شواهد العربيّة: 355.

(7) ابن جرير، جامع البيان: 3/552.

أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ، وَلَا تُدْلُوا إِلَى الْحُكَّامِ، أَيْ: لَا تُرْشُوهَا إِلَيْهِمْ؛ لِتَأْكُلُواْ طَائِفَةً مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ[1]، "فهو مجزوم داخل في حكم النّهي، يعني: ولا تلقوا أمرها والحكومة فيها إلى الحكّام"[2]، فهو " كما نهى عن تبذير الأموال، نهى أن يُدْلَى بها إلى الحكّام على سبيل الرّشوة، وتوصّلاً إلى اقتطاع أموال النّاس"[3].

دلالة الباء في قوله تعالى: ﴿وَتُدْلُواْ بِهَآ﴾:

الباء للإلصاق، وعليه يكون معنى الآية: لا ترشوا بها على أكل أكثر منها، وهذا القول يترجّح؛ لأنّ الحكّامَ مَظِنَّةُ الرّشا إلّا مَن عُصم، وهو الأقلّ[4]، أي: لَا تُصَانِعُوا بِأَمْوَالِكُمُ الْحُكَّامَ وَتَرْشُوهُمْ، لِيَقْضُوا لكم على أكثر منها؛ فَإِنَّ اللَّفْظَتَيْنِ مُتَنَاسِبَتَانِ؛ تُدْلُوا، مِنْ إِرْسَالِ الدَّلْوِ، وَالرِّشْوَةُ مِنَ الرِّشَاءِ، كَأَنَّهَا يُمَدُّ بِهَا لِتُقْضَى الْحَاجَةُ[5].

الباء: للإلصاق، أي لا ترشوا بها على أكثر منها، أوسببيَّة

أو تكون للسببيّة، إذا كان المعنى: "تسارعون في الأموال إلى المخاصمة إذا علمتم أنّ الحُجَّة تقوم لكم، إمّا بأن لا تكون على الجاحد بيّنة، أو يكون مال أمانة كاليتيم ونحوه، ممّا يكون القول فيه قوله، فالباء في ﴿بِهَآ﴾ باء السّبب"[6].

مرجع الضّمير في قوله تعالى: ﴿وَتُدْلُواْ بِهَآ﴾:

الهاء تعود على الأموال، أي: ترشوا بها، أو تخاصموا من أجلها، فكأنّكم قد أدليتم بها، ويجوز أن يكون الهاء تعود على الحجّة، وإن لم يتقدّم لها ذكر، كما يقال: أدلى بحجّته"[7]، "وقال الحسن: هو أن يكون على الرّجل لصاحبه حَقٌّ، فإذا طالبه به دعاه إلى

لـلأمـوال، أو الحجَّة

(1) الرّازيّ، التّفسير الكبير: 5/280.
(2) النّسفيّ، مدارك التّنزيل: 1/163.
(3) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 1/400.
(4) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 1/260.
(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/226.
(6) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 1/260.
(7) النّحاس، إعراب القرآن: 1/98.

الحاكم، فيحلف له، ويذهب بحقّه، وعلى هذا المعنى تفسير لفظ الآية ما ذكره الزّجاج، وهو أنّه قال: معنى أدلى فلان بحجّته: إذا أرسلها، وأتى بها على صحّة، قال: فمعنى قوله: ﴿وَتُدۡلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلۡحُكَّامِ﴾، أي: تعملون على ما يوجبه ظاهر الحكم والإدلاء بالحجّة، وتتركون ما قد علمتم[1].

والمختار في هذه الآية ما ذكره الفرّاء، وهو أنّ المعنى: لا تصانعوا بأموالكم الحكام، ليقتطعوا لكم حقًّا لغيركم، وأنتم تعلمون أنّه لا يحلّ لكم. قال الأزهري: وهذا عندي أصحّ القولين؛ لأنّ الهاء في قوله ﴿بِهَآ﴾ للأموال، وهي على قول الزّجاج للحجّة، ولا ذكر لها في الكلام[2]، وَالظَّاهِرُ، أَنَّ الضَّمِيرَ فِي: بِهَا، عَائِدٌ عَلَى الْأَمْوَالِ، فَنُهُوا عَنْ أَمْرَيْنِ: أَحَدُهُمَا: أَخْذُ الْمَالِ بِالْبَاطِلِ، وَالثَّانِي: صَرْفُهُ لِأَخْذِهِ بِالْبَاطِلِ[3].

وجه تشبيه الرّشوة بالإدلاء، في قوله تعالى: ﴿وَتُدۡلُواْ بِهَآ﴾:

الدّلو وسيلةٌ مُوصِلةٌ إلى الماء، والرّشوة وسيلةٌ مُفضيَةٌ إلى الباطل

وَفِي تَشْبِيهِ الرِّشْوَةِ بِالْإِدْلَاءِ وَجْهَانِ أَحَدُهُمَا: أَنَّ الرِّشْوَةَ رِشَاءُ الْحَاجَةِ، فَكَمَا أَنَّ الدَّلْوَ الْمَمْلُوءَ مِنَ الْمَاءِ يَصِلُ مِنَ الْبَعِيدِ إِلَى الْقَرِيبِ بِوَاسِطَةِ الرِّشَاءِ، فَالْمَقْصُودُ الْبَعِيدُ يَصِيرُ قَرِيبًا بِسَبَبِ الرِّشْوَةِ، وَالثَّانِي: أَنَّ الْحَاكِمَ بِسَبَبِ أَخْذِ الرِّشْوَةِ، يَمْضِي فِي ذَلِكَ الْحُكْمِ مِنْ غَيْرِ تَثَبُّتٍ، كَمُضِيِّ الدَّلْوِ فِي الْإِرْسَالِ[4]، " يُقَالُ: أَدْلَى الرَّجُلُ بِحُجَّتِهِ أَوْ بِالْأَمْرِ الَّذِي يَرْجُو النَّجَاحَ بِهِ، تَشْبِيهًا بِالَّذِي يُرْسِلُ الدَّلْوَ فِي الْبِئْرِ، يُقَالُ: أَدْلَى دَلْوَهُ: أَرْسَلَهَا، وَدَلَّاهَا: أَخْرَجَهَا"[5].

وَالْمُفَسِّرُونَ ذكروا وجوهًا كثيرة لإدلاء الأموال، أَحَدُهَا: قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَالْحَسَنُ وَقَتَادَةُ: الْمُرَادُ مِنْهُ الْوَدَائِعُ، وَمَا لَا يَقُومُ عَلَيْهِ بَيِّنَةٌ، وَثَانِيهَا: أَنَّ الْمُرَادَ هُوَ مَالُ الْيَتِيمِ فِي يَدِ الْأَوْصِيَاءِ يَدْفَعُونَ بَعْضَهُ إِلَى الْحَاكِمِ؛ لِيَبْقَى عَلَيْهِمْ بَعْضُهُ، وَثَالِثُهَا: أَنَّ الْمُرَادَ مِنَ الْحَاكِمِ شَهَادَةُ الزُّورِ، وَهُوَ

(1) الواحديّ، البسيط: 3/614.
(2) الواحديّ، البسيط: 3/615.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/225.
(4) الرّازي، التّفسير الكبير: 5/280.
(5) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 2/339.

قَوْلُ الْكَلْبِيِّ، وَرَابِعُهَا: قَالَ الْحَسَنُ: الْمُرَادُ هُوَ أَنْ يَحْلِفَ؛ لِيُذْهِبَ حَقَّهُ، وَخَامِسُهَا: هُوَ أَنْ يَدْفَعَ إِلَى الْحَاكِمِ رِشْوَةً، وَهَذَا أَقْرَبُ إِلَى الظَّاهِرِ، وَلَا يَبْعُدُ أَيْضًا حمل اللفظ على الكل؛ لأنها بأسرها أَكْلٌ بِالْبَاطِلِ[1].

دلالة التعليل في قوله: ﴿لِتَأْكُلُواْ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ﴾:

"والمعنى: نهى عن أن يحتجّ بحجّة باطلة، ليصل بها إلى أكل مال النّاس"[2]، ﴿لِتَأْكُلُواْ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ﴾، يحتمل وجهين: أحدهما: لتأكلوا بعض أموال النّاس بالإثم، فعبّر عن البعض بالفريق، والثّاني: على التّقديم والتّأخير، وتقديره: لتأكلوا أموال فريق من النّاس بالإثم[3]، "ولا يأكل بعضكم مال بعض بِالْباطِلِ، بالوجه الّذي لم يبحه اللّه ولم يشرعه، ولا تُدْلُوا بها، ولا تلقوا أمرها، والحكومة فيها، إلى الحكام، ﴿لِتَأْكُلُواْ﴾ بالتّحاكم ﴿فَرِيقًا﴾ طائفة ﴿مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ﴾، بشهادة الزّور، أو باليمين الكاذبة، أو بالصّلح، مع العلم بأنّ المقضى له ظالم"[4]. "وقال الزّجاج: تعملون بما يوجبه ظاهر الحكم، وتتركون ما علمتم أنّه الحقّ، ﴿لِتَأْكُلُواْ فَرِيقًا﴾، يعني: طائفة ﴿مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ﴾، أي: باليمين الكاذبة وشهادة الزور، ويقال: ﴿بِٱلْإِثْمِ﴾، أي: بالجور، ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أنه جور، ويقال: إنّكم تعلمون أنّكم تأخذون بالباطل"[5].

تحريم الحجج الباطلة؛ لبلوغ المكاسب المالية الزّائلة

بلاغة لفظ الأموال في قوله: ﴿لِتَأْكُلُواْ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ﴾:

قوله تعالى" ﴿لِتَأْكُلُواْ فَرِيقًا﴾، أَيْ: قِطْعَةً وَطَائِفَةً ﴿مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ﴾، قِيلَ: هِيَ أَمْوَالُ الْأَيْتَامِ، وَقِيلَ: هِيَ الْوَدَائِعُ، وَالْأَوْلَى الْعُمُومُ، وَأَنَّ ذَلِكَ عِبَارَةٌ عَنْ أَخْذِ كُلِّ مَالٍ يُتَوَصَّلُ إِلَيْهِ فِي الْحُكُومَةِ بِغَيْرِ

المراد عموم الأموال مِنْ كُلِّ مَالٍ يُتَوَصَّلُ إِلَيْهِ بِغَيْرِ حَقٍّ

(1) الرّازي، التّفسير الكبير: 5/280، وينظر: ابن عادل، اللّباب: 3/328.
(2) ابن جزيّ، التّسهيل: 1/112.
(3) الماورديّ، النّكت والعيون: 1/248.
(4) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/233.
(5) السّمرقنديّ، بحر العلوم: 1/126.

حَقٍّ"[1]، قال الرّازيّ: "واعلم أنّ الأموال، إمّا أن تكون من المعادن أو من النّبات، أو من الحيوانات، أمّا المعادن، وهي أجزاء الأرض؛ فلا يحرم شيء منه، إلّا من حيث يضرّ بالأكل، وهو ما يجري مجرى السّمّ، وأمّا النّبات؛ فلا يحرم منه إلّا ما يزيل الحياة والصّحة أو العقل، فمزيل الحياة السّموم، ومزيل الصّحة الأدوية في غير وقتها، ومزيل العقل الخمر والبنج وسائر المسكرات، وأمّا الحيوانات؛ فتنقسم إلى ما يؤكل، وإلى ما لا يؤكل، وما يحلّ، إنّما يحلّ؛ إذا ذبح ذبحًا شرعيًّا، ثمّ إذا ذبحت، فلا تحلّ بجميع أجزائها، بل يحرم منها الفرث والدّم، وكلّ ذلك مذكور في كتب الفقه"[2].

دلالة الجار والمجرور في قوله تعالى: ﴿بِٱلۡإِثۡمِ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾:

الباء للسببيَّة، والإثم مبالغة في الظُّلم والتعدِّي

ويعني بقوله: ﴿بِٱلۡإِثۡمِ﴾ بالحرام الّذي قد حرّمه اللّه عليكم"[3]، "وجعل الإثم على هذا، كأنّه السّبب في ذلك الفعل تقبيحًا له وتنفيرًا منه"[4]، "وَالْبَاءُ فِي: بِالْإِثْمِ لِلسَّبَبِ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ تَكُونَ لِلْحَالِ، أَيْ: مُتَلَبِّسِينَ بِالْإِثْمِ، وَهُوَ الذَّنْبُ"[5]، أو الإثم معناه: بالظّلم والتّعدّي، وسمّي ذلك إثمًا؛ لما كان الإثم يتعلّق بفاعله، مع علمهم بطلان ذلك وإثمه، وهذه مبالغة في الجرأة والمعصية، يستحقّون بها هذا الوصف[6].

فائدة تقييد النّهي بالعلم: ﴿وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾:

دلالة على جرأتهم بتعمدهم المعصية

قوله تعالى: ﴿وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ أي: وأنتم تتعمَّدون أكل ذلك بالإثم، على قصد منكم إلى ما حَرّم اللّه عليكم منه، ومعرفةٍ بأنّ فعلكم ذلك معصيةٌ للّه وإثم"[7]، "أي: إن أخفى علمكم على النّاس،

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/226.
(2) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 5/279.
(3) الطبري، جامع البيان: 3/550.
(4) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/555.
(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/227.
(6) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 2/340.
(7) ابن جرير، جامع البيان: 3/550.

فإنّه لا يخفى عليكم، تنبيهًا أنّ الاعتبار بما عليه الأمر في نفسه، وما علمتم منه، لا بما يظهر"[1]، " ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾، أي: إنّكم مبطلون آثمون، وهذه مبالغة في المعصية والجرأة"[2] ، فَالْمَعْنَى: وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّكُمْ مُبْطِلُونَ، وَلَا شَكَّ أَنَّ الإِقْدَامَ عَلَى الْقَبِيحِ مَعَ الْعِلْمِ بِقُبْحِهِ أَقْبَحُ، وَصَاحِبُهُ بِالتَّوْبِيخِ أَحَقُّ"[3]؛ فالجملةُ "حَالٌ مُؤَكَّدَةٌ؛ لِأَنَّ الْمُدْلِيَ بِالْأَمْوَالِ لِلْحُكَّامِ؛ لِيَأْكُلَ أَمْوَالَ النَّاسِ، عَالِمٌ لَا مَحَالَةَ بِصُنْعِهِ، فَالْمُرَادُ مِنْ هَذِهِ الحَالِ تَشْنِيعُ الْأَمْرِ وَتَفْظِيعُهُ إِعْلَانًا بِأَنَّ أَكْلَ الْمَالِ بِهَذِهِ الْكَيْفِيَّةِ، هُوَ مِنَ الَّذِينَ أَكَلُوا أَمْوَالَ النَّاسِ عَنْ عِلْمٍ وَعَمْدٍ، فَجُرْمُهُ أَشَدُّ"[4].

دلالة المفهوم في حالة جهله أصل المال من قوله تعالى: ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾:

تنبيهٌ على أنّ ذلك لا يقع من الجاهل بوجه

"وَفِي قَوْلِهِ: ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾، دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّ مَنْ لَمْ يَعْلَمْ أَنَّهُ آثِمٌ، وَحَكَمَ لَهُ الْحَاكِمُ بِأَخْذِ مَالٍ؛ فَإِنَّهُ يَجُوزُ لَهُ أَخْذُهُ، كَأَنْ يَلْقَى لِأَبِيهِ دَيْنًا، وَأَقَامَ الْبَيِّنَةَ عَلَى ذَلِكَ الدَّيْنِ، فَحَكَمَ لَهُ بِهِ الْحَاكِمُ، فَيَجُوزُ لَهُ أَخْذُهُ؛ وَإِنْ كَانَ لَا يَعْلَمُ صِحَّةَ ذَلِكَ، إِذْ مِنَ الْجَائِزِ أَنَّ أَبَاهُ وَهَبَهُ، أَوْ أَنَّ الْمَدِينَ قَضَاهُ، أَوْ أَنَّهُ مُكْرَهٌ فِي الْإِقْرَارِ، لَكِنَّهُ غَيْرُ عَالِمٍ بِهِ، بِأَنَّهُ مُبْطِلٌ فِيمَا يَأْخُذُهُ"[5]، "تنبيهًا على أنّ الجاهل لا يناله ذلك، أو أنّ ذلك لا يقع إلّا على هذه الصّفة، فلا يقع من الجاهل بوجه"[6].

(1) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 1/401.
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 1/260.
(3) الرّازيّ، التّفسير الكبير: 5/280.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/193.
(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/227.
(6) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/555.

﴿۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِيَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ۗ وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ١٨٩﴾ [البقرة: 189]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

أنَّ مَا قَبْلَهَا مِنَ الْآيَاتِ نَزَلَتْ فِي الصِّيَامِ، وَأَنَّ صِيَامَ رَمَضَانَ مَقْرُونٌ بِرُؤْيَةِ الْهِلَالِ، وَكَذَلِكَ الْإِفْطَارُ فِي شَهْرِ شَوَّالٍ ... وَكَانَ أَيْضًا قَدْ تَقَدَّمَ كَلَامٌ فِي شَيْءٍ مِنْ أَعْمَالِ الْحَجِّ، وَهُوَ: الطَّوَافُ، وَالْحَجُّ أَحَدُ الْأَرْكَانِ الَّتِي بُنِيَ الْإِسْلَامُ عَلَيْهَا، ... فَأَتَى بِالْكَلَامِ عَلَى الرُّكْنِ الْخَامِسِ، وَهُوَ: الْحَجُّ؛ لِيَكُونَ قَدْ كَمُلَتِ الْأَرْكَانُ الَّتِي بُنِيَ الْإِسْلَامُ عَلَيْهَا"[1] "فَمُنَاسَبَةُ وَضْعِهَا فِي هَذَا الْمَوْضِعِ هِيَ تَوْقِيتُ الصِّيَامِ بِحُلُولِ شَهْرِ رَمَضَانَ، فَكَانَ مِنَ الْمُنَاسَبَةِ ذِكْرُ الْمَوَاقِيتِ لِإِقَامَةِ نِظَامِ الْجَامِعَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ عَلَى أَكْمَلِ وَجْهٍ، وَمِنْ كَمَالِ النِّظَامِ ضَبْطُ الْأَوْقَاتِ"[2].

شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلْأَهِلَّةِ﴾: جمع هِلال، وهو غُرّة القمر حين يراها النّاس، يقال لها: هلال ليلتين، ثمّ يكون قمرًا بعد ذلك.

والمعنى المحوري: ذَهابُ وَسَط الشيء ومعظم أثنائه مع بَقاء سائره شاغلًا مكانه، كهلال السماء تَبقى بَعضُ حافته ولا يظهر وسطه[3]، وسمِّي الهلال هلالاً؛ لأنه حين يُرى يُهِلُّ الناس بذكر الله وبذكره "[4].

ومعنى: ﴿عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ﴾: عَنْ تَغَيُّر أحوالها بزيادةٍ أو نقصانٍ[5].

2) ﴿مَوَٰقِيتُ﴾: جمع ميقات، وهو الوقت، كالميعاد بمعنى: الوعد، والهلال: ميقات

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/234، وينظر: الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 3/177.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/193.
(3) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (هلل).
(4) الواحديّ، التّفسير البسيط: 3/616.
(5) النيّسابوريّ، إيجاز البيان: 1/138.

الشّهر[1]. "وهو مِفْعال من الوقت"[2]. فهي "معالم يوقّت بها النّاسُ مزارعهم ومتاجرهم، ومحالَّ ديونهم، وصومهم وفطرهم، وعدّة نسائهم، وأيّام حيضهنّ، ومدّة حملهنّ، وغير ذلك"[3]، من مصالح العباد، ومواقيت الحجّ أيضًا، يعرف بها وقته وأشهره"[4].

ومعنى مواقيت للنّاس: ما يتعلّق به من أمور معاملاتهم ومصالحهم، كقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ﴾ [يونس: 5]، ونبّه بذكر الحجّ على ما يتعلّق به من العبادات"[5].

المَعْنى الإجْماليُّ:

يخبر اللّه تعالى مخاطبًا النّبيَّ ﷺ: أنّهم يسألونك عن الأهلَّة وتغيُّر أحوالها، قل لهم: جعل اللّه الأهلّةَ علاماتٍ، يعرف بها النّاسُ أوقاتَ عباداتهم المحدّدة بوقت، مثل: الصّيام والحجّ، ومعاملاتهم، وليس الخير ما تعودّتم عليه في الجاهليّة وبداية الإسلام، من دخول البيوت من ظهورها، حين تُحْرِمون بالحجّ أو العمرة، ظانّين أنّ ذلك قربة إلى اللّه، ولكنّ الخير، هو المبادرة إلى تقوى اللّه، واجتناب المعاصي، ودخول البيوت من أبوابها، عند إحرامكم بالحجّ أو العمرة، وخشيةُ اللّه تعالى في كلّ أموركم، لتفوزوا بكلّ ما تحبّون من خيري الدّنيا والآخرة[6].

وقد "نزلت[7] في معاذ بن جبل وثعلبة بن عَنَمَة الأنصاريَّيْن، قالا: «يا رسول اللّه ما بال الهلال يبدو دقيقًا، ثمّ يزيد حتّى يمتلئ نورًا، ثمّ لا يزال ينقص حتّى يعود دقيقًا كما بدأ، ولا يكون على حال واحدة؟، فأنزل اللّه: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ﴾»[8].

(1) الواحديّ، التّفسير البسيط: 3/617.
(2) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 1/401.
(3) النّسفيّ، مدارك التّنزيل: 1/164.
(4) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 1/261.
(5) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 1/401.
(6) التّفسير الميسّر، ص: 29.
(7) أخرج البخاريّ ومسلم عن البراء ﷺ قال: نزلت هذه الآية فينا، كانت الأنصار، إذا حجّوا؛ فجاؤُوا، لم يدخلوا من قِبَل أبواب بيوتهم، ولكن من ظهورها، فجاء رجل من الأنصار فدخل من قِبَل بابه، فكأنه عُيّرَ بذلك، فنزلت: ﴿وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَـٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا﴾، وفي رواية للبخاري والنَّسائي عن البراء ﷺ قال: كانوا إذا أحرموا في الجاهلية أتوا البيت من ظهره، فأنزل اللّه: ﴿وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَـٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا﴾، ينظر: خالد المزيني، المحرّر في أسباب نزول القرآن: 1/244، وكذلك الخازن، لباب التّأويل: 1/120، وكذلك: الواحدي، التّفسير البسيط: 3/615.
(8) الخازن، لباب التّأويل: 1/120، وينظر: الواحديّ، التّفسير البسيط: 3/615.

الإيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

الاستئناف في قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ﴾:

لتقدّم ما يثير العزم إلى السّؤال عنها صريحًا:

كثيرٌ من الأحكام تدور على الهلال، وقد حرّك العزم للسّؤال عنه، فبيَّن ذلك بقوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ﴾، وجعل ذلك على طريق الاستئناف جوابًا لمن كأنّه قال: هل سألوا عن الأهلة؟ فقيل: نعم، وذلك لتقدّم ما يثير العزم إلى السّؤال عنها صريحًا، فكان سببًا للسّؤال عن السّؤال عنها[1]، قال قتادة: سألوا نبيَّ الله ﷺ عن ذلك: لِمَ جُعلت هذه الأهلّة؟ فأنزل الله فيها ما تَسمعون: ﴿هِيَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ﴾، فجعلها لصوم المسلمين ولإفطارهم، ولمناسكهم وحجّهم، ولعدّة نسائهم وَمحلّ دَينهم في أشياء، والله أعلم بما يُصلح خلقه[2]".

الاتّساع والمجاز في واو الجماعة في: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ﴾:

النّسبة إلى جمعٍ_ وإن لم يصدر الفعل إلّا من واحدٍ منهم_كثيرٌ في كلامهم

"وَالضَّمِيرُ فِي ﴿يَسْـَٔلُونَكَ﴾ ضَمِيرُ جَمْعٍ عَلَى أَنَّ السَّائِلِينَ جَمَاعَةٌ، وَإِنْ كَانَ مَنْ سَأَلَ اثْنَيْنِ، كَمَا رُوِيَ، فَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ مِنْ نِسْبَةِ الشَّيْءِ إِلَى جَمْعٍ، وَإِنْ كَانَ مَا صَدَرَ إِلَّا مِنْ وَاحِدٍ مِنْهُمْ أَوِ اثْنَيْنِ، وَهَذَا كَثِيرٌ فِي كَلَامِهِمْ، قِيلَ: أَوْ لِكَوْنِ الِاثْنَيْنِ جَمْعًا عَلَى سَبِيلِ الِاتِّسَاعِ والمجاز"[3]. "والضّميرُ في ﴿يَسْـَٔلُونَكَ﴾ ضميرُ جماعةٍ، وفي القصّةِ أنّ السّائل اثنان، فَيَحْتَمِلُ ذلك وجهين، أحدُهما: أنَّ ذلك لكونِ الاثنين جمعًا. والثّاني: من نسبةِ الشّيء إلى جمْعٍ، وإنْ لم يَصْدُرْ إلّا من واحدٍ منهم أو اثنين، وهو كثيرٌ في كلامِهم"[4]؛ نَظَرًا لِأَنَّ الْمَسْؤولَ عَنْهُ يَهُمُّ جَمِيعَ السَّامِعِينَ أَثْنَاءَ تَشْرِيعِ الْأَحْكَامِ، وَلِأَنَّ مِنْ تَمَامِ ضَبْطِ النِّظَامِ، أَنْ يَكُونَ الْمَسْؤولُ عَنْهُ قَدْ شَاعَ بَيْنَ النَّاسِ،

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 3/97-98.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 3/553.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/234.
(4) السّمين، الدُّر المصون: 2/302.

وَاسْتَشْرَفَ كَثِيرٌ مِنْهُمْ لِمَعْرِفَتِهِ، سَوَاءٌ فِي ذَلِكَ مَنْ سَأَلَ بِالْقَوْلِ، وَمَنْ سَأَلَ فِي نَفْسِهِ[1].

السرّ في جمع الهلال وهو واحد: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ﴾:

تنزيلاً لاختلاف الأوقات منزلة اختلاف الذّوات

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ﴾، "الْأَهِلَّةُ: جَمْعُ الْهِلَالِ، وَجُمِعَ، وَهُوَ وَاحِدٌ فِي الْحَقِيقَةِ مِنْ حَيْثُ كَوْنُهُ هِلَالًا وَاحِدًا فِي شَهْرٍ، غَيْرَ كَوْنِهِ هِلَالًا فِي آخَرَ، فَإِنَّمَا جُمِعَ أَحْوَالُهُ مِنَ الْأَهِلَّةِ، وَيُرِيدُ بِالْأَهِلَّةِ شُهُورَهَا، وَقَدْ يُعَبَّرُ بِالْهِلَالِ عَنِ الشَّهْرِ لِحُلُولٍ فِيهِ، كَمَا قَالَ:

أَخَوَانِ مِنْ نَجْدٍ عَلَى ثِقَةٍ *** وَالشَّهْرُ مِثْلُ قُلَامَةِ الظُّفْرِ"[2]

"وجمعها باعتبار هلال كلّ شهر أو كل ليلة؛ تنزيلاً لاختلاف الأوقات منزلة اختلاف الذّوات"[3].

سرُّ العدول عن (فقل) إلى (قل) في قوله: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَٰقِيتُ﴾:

إجابات الأمور الدنيويَّة بـ(قل)؛ لأنها ثابتة واقعة

"وجواب السّؤال في القرآن كلّه بغير (فاء)، مثل: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى﴾، قال ابن عرفة: وعادتهم يجيبون بأنّ الكلّ أمور دنيويّة، فالسّؤال عنها ثابت واقع في الوجود، وقوله: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ﴾ [طه: 105] فأمرٌ أخرويٌّ، والكفّار منكرون للبعث، فالسّؤال غير واقع لكنّه مقدّر الوقوع في المستقبل، أي: (إِنْ يَسْأَلُوكَ عَنِ الجِبَالِ)، فهو جواب لشرط مقدّر، فحسنت فيه الفاء"[4]، وفي هذا السّؤال عن الأهلّة.

بلاغة الإيجاز في قوله تعالى: ﴿مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ﴾:

أي: مواقيت لمقاصد الناس، فحذف إشارة إلى تعدُّدِها

"لَيْسَ الْمَعْنَى مَوَاقِيتَ لِذَوَاتِ النَّاسِ، وَإِنَّمَا الْمَعْنَى: مَوَاقِيتُ لِمَقَاصِدِ النَّاسِ الْمُحْتَاجِ فِيهَا لِلتَّأَقِّيتِ دِينًا وَدُنْيَا"[5]. "وَلَمَّا كَانَتْ تِلْكَ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/194.
(2) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 2/341، وينظر: ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 1/261.
(3) القنّوجي، فتح البيان: 1/382.
(4) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/556.
(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/236.

الْمَقَاصِدُ يُفْضِي تَعْدَادُهَا إِلَى الْإِطْنَابِ، اقْتَصَرَ عَلَى قَوْلِهِ: ﴿مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ﴾"[1].

السرّ في الإعراض عن ذكر الأعمال المؤقّتة:

للدلالة على الشُّمول

"وَلَمْ تُذْكَرِ الْأَعْمَالُ الْمُوَقَّتَةُ بِالْأَهِلَّةِ؛ لِيَشْمَلَ الْكَلَامُ: كُلَّ عَمَلٍ مُحْتَاجٍ إِلَى التَّوْقِيتِ"[2]، أي: "مواقيت لهم في صيامهم وحجّهم من العبادات، وفي نحو عدّة النّساء، وآجال العقود من المعاملات؛ فإنّ التّوقيت بها يسهل على العالم بالحساب، والجاهل به، وعلى أهل البدو والحضر، فهي مواقيت لجميع النّاس، وأمّا السّنة الشّمسيّة؛ فإنّ شهورها تعرف بالحساب، فهي لا تصلح إلّا للحاسبين، ولم يقدروا على ضبطها إلّا بعد ارتقاء العلوم الرّياضيّة بزمن طويل"[3].

عطف الخاصّ على العامّ في: ﴿مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ﴾:

بيان عِظَم منزلة الحّج، واحتياج مناسكه إلى دقّة التوقيت

﴿وَٱلْحَجِّ﴾: مَعْطُوفٌ في الظاهر عَلَى قَوْلِهِ: ﴿لِلنَّاسِ﴾، والتَّقْدِيرُ: وَمَوَاقِيتُ لِلْحَجِّ، فَحُذِفَ الثَّانِي؛ اكْتِفَاءً بِالْأَوَّلِ، وَالْمَعْنَى: لِتَعْرِفُوا بِهَا أَشْهُرَ الْحَجِّ وَمَوَاقِيتَهُ[4].

والحقيقة أنَّه ليس معطوفًا على النّاس، بل على المضاف المحذوف الّذي ناب (النّاس) منابَه في الإعراب[5]، "تقديرُه: ومواقيتُ الحَجِّ، فحذف الثّاني اكتفاءً بالأوّل"[6]، "وَعَطَفَ الْحَجَّ عَلَى النَّاسِ مَعَ اعْتِبَارِ الْمُضَافِ الْمَحْذُوفِ مِنْ عَطْفِ الْخَاصِّ عَلَى الْعَامِّ لِلِاهْتِمَامِ بِهِ"[7]، و"ذكر الحج اهتمامًا بذكره، وإن كان قد دخل في المواقيت

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/236.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/196.
(3) محمد رشيد رضا، تفسير المنار: 2/163.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/236.
(5) السّمين، الدّر المصون: 2/304، وينظر: أبو حيّان، البحر المحيط: 2/236.
(6) السّمين، الدّر المصون: 2/304.
(7) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/196.

للنّاس"[1]. "ولمّا كان الحجُّ من أعظم ما تُطْلَبُ مواقيته وأشهره بالأهلَّة؛ أُفْرِدَ بالذِّكْرِ"[2]، وَكَأَنَّهُ تَخْصِيصٌ بَعْدَ تَعْمِيمٍ؛ إِذْ قَوْلُهُ: مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ، لَيْسَ الْمَعْنَى مَوَاقِيتَ لِذَوَاتِ النَّاسِ، وَإِنَّمَا الْمَعْنَى: مَوَاقِيتُ لِمَقَاصِدِ النَّاسِ الْمُحْتَاجِ فِيهَا لِلتَّأْقِيتِ دِينًا وَدُنْيَا[3].

السرّ في إفراد الحجّ بالذّكر: ﴿قُلْ هِيَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ﴾:

إِفْرَادُ الْحَجِّ بِالذِّكْرِ لِبَيَانِ أَنَّ الْحَجَّ مَقْصُورٌ عَلَى الْأَشْهُرِ الَّتِي عَيَّنَهَا اللَّهُ تَعَالَى لِفَرْضِهِ، وَأَنَّهُ لَا يَجُوزُ نَقْلُ الْحَجِّ مِنْ تِلْكَ الْأَشْهُرِ إِلَى أَشْهُرٍ أُخَرَ، كَمَا كَانَتِ الْعَرَبُ تَفْعَلُ ذَلِكَ فِي النَّسِيءِ[4]، "توقُّف الصّوم على الهلال قد علم من قوله: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾ [البقرة: 184]، والزكّاة تتعلّق بالحول، والأصل في تقدير السّنين لعودة الشّمس من نقطة، كأوّل الحمل مثلًا إلى مثلها، بحركتها الخاصّة، والأيمان والجهاد، لا يتعلّقان بوقت معيّن، والصّلاة تتعلّق باليوم بليلته، فلم يبقَ من الأركان المتعلّقة بالشّهر سوى الحجّ، فتعيّن ذكره في هذه الآية"[5].

الحجُّ مقصُورٌ على الأشْهُر الّتي عيَّنها الله تعالى لأدائه فيها

الاقتصار على الحجّ دون العمرة، وحذف اللّام في قوله تعالى: ﴿لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ﴾:

الِاقْتِصَارُ عَلَى الْحَجِّ دُونَ الْعُمْرَةِ؛ لِأَنَّ الْعُمْرَةَ لَا وَقْتَ لَهَا، فَلَا تَكُونُ لِلْأَهِلَّةِ فَائِدَةٌ فِي فِعْلِهَا"[6]، "أَمَّا قَوْلُهُ تَعَالَى: وَالْحَجِّ؛ فَفِيهِ إِضْمَارٌ، تَقْدِيرُهُ: وَلِلْحَجِّ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ﴾ [البَقَرَة: 233]، أَيْ: لِأَوْلَادِكُمْ"[7].

لم يذكر العمرة؛ لِأَنَّها لا وَقْتَ لَهَا، فَلَا تَكُونُ لِلْأَهِلَّةِ فَائِدَةٌ فِي فِعْلِهَا

(1) ابن جزي، التّسهيل: 1/112.
(2) ابن عادل، اللّباب: 3/334.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/236.
(4) الرّازي، التّفسير الكبير: 5/285.
(5) النّيسابوريّ، المصدر السّابق: 1/526.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/196.
(7) الفخر الرّازيّ، التّفسير الكبير: 5/285، وينظر: ابن عادل، اللّباب: 3/334.

الحساب بالأشهر القمريّة جزء من عراقة الهوية في موروثنا الحضاريّ

السرّ في تخصيص المواقيت والشّعائر بالهلال دون الشّمس:

فإن قيل: لِمَ خصَّ المواقيت بالأهلَّة وأشهرها، دون الشّمس وأشهرها؟ فالجواب: أنَّ الأهلَّة جُعلت مواقيت للنَّاس دون الشّمس؛ لأنَّ الأشهر الهلاليَّة، يعرفها كُلُّ أحدٍ، برؤية الهلال ومحاقه؛ ولذلك عُلِّقت الأحكام الشَّرعيَّة بالشُّهور العربيَّة، كصوم رمضان، وأشهر الحجِّ، والكفَّارات، وحول الزَّكاة وأشهر الإجارات والمداينات، وأشهر الإيلاء، وأشهر العدد، ومدَّة الرَّضاع، وغير ذلك؛ بخلاف الشَّمس، وأشهرها، فإنَّ الشَّمس لا يتغيَّر شكلها بزيادةٍ، ولا نقصٍ، ولا يعرف أوَّله وآخره، ولا تختلِفُ رؤيتها، وكذلك أشهرها لا يعرف أوَّلها وآخرها، إلاَّ الخواصُّ من الحُسَّاب، وليس لها مواقيت غير الفصول الأربعة، وهي: الصَّيف، والشِّتاء، والرَّبيع، والخريف؛ ولذلك لا يتعلَّق به حكم شرعيٌّ، فجعلت الأهلَّة وأشهرها مواقيت للنَّاس، دون الشَّمس[1].

أسلوب الحكيم[2] في قوله: ﴿قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾:

تنبيه السائل على أنه كان الأحرى به أن يسأل عن فائدة الأهلة لا عن ذاتها:

لأنّهم سألوا عن تَغَيُّرِ الهلال ونقصه وزيادته في أيّام الشّهور، فأجيبوا بالسّبب عن ذلك ونتيجته، وأنّ فائدة ذلك معرفة أوقات النّاس، وأوقات الحجّ، أي: ذلك سؤال عمّا لا يعني، فلا حاجة لكم بالجواب عنه، وإنّما حقّكم أن تسألوا عن نتيجته وهو كذا"[3]، فقد سألوا الرّسول ﷺ عن الهلال لِمَ يبدو صغيراً، ثمّ يزداد حتّى يتكامل نوره؟ فصرفهم إلى بيان الحكمة من الأهلّة، وكأنه يقول: كان الأولى بكم أن تسألوا عن حكمة خلق الأهلة، لا عن سبب تزايدها في أوّل الشّهر وتناقصها في آخره "[4]، وصاحب المنار بعد أن ذكر

(1) ابن عادل، اللّباب: 3/333-334.

(2) أسلوب الحكيم: هو حمل لفظ وقع في كلام الغير على خلاف مراده مما يحتمله بذكر متعلقه، ينظر: عبد العزيز عتيق، علم البديع: ص: 186، أو هو تلقي السائل بغير ما يتطلب بتنزيل سؤاله منزلة غيره تنبيها على أنّه الأولى بحاله أو المهم له، ينظر: أحمد مطلوب، أساليب بلاغيّة: 265.

(3) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/557.

(4) محمد علي جميل، صفوة التّفاسير: 1/113.

الرّوايتين المذكورتين عند ابن أبي حاتم، ورواية ابن عبّاس «أنّ معاذ بن جبل وثعلبة بن عَنَمَة قالا: يا رسول الله ما بال الهلال يبدو دقيقًا مثل الخيط، ثمّ يزيد حتّى يعظم ويستوي ويستدير، ثمّ لا يزال ينقص ويدقّ، حتّى يعود كما كان، لا يكون على حال واحد؟ فنزلت»[1].

"وَلَا يُرَادُ بِذَلِكَ السُّؤَالُ عَنْ ذَاتِ الْأَهِلَّةِ، بَلْ عَنْ حِكْمَةِ اخْتِلَافِ أَحْوَالِهَا، وَفَائِدَةِ ذَلِكَ، وَلِذَلِكَ أَجَابَ بِقَوْلِهِ: ﴿قُلْ هِيَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ﴾، فَلَوْ كَانَتْ عَلَى حَالَةٍ وَاحِدَةٍ مَا حَصَلَ التَّوْقِيتُ بِهَا"[2]، و"قَدَّر بعضُهم مضافاً قبلَ ﴿ٱلْأَهِلَّةِ﴾ أي: عَنْ حكم اختلافِ الأهِلَّة؛ لأنّ السّؤال عن ذاتها غيرُ مفيدٍ، ولذلك أُجيبوا بقولِه: ﴿قُلْ هِيَ مَوَٰقِيتُ﴾، وقيل: إنهم لَمَّا سألوا عن شيء قليلِ الجَدْوى أُجيبوا بما فيه فائدةٌ، وعَدَلَ عن سؤالِهم؛ إذ لا فائدة فيه، وعلى هذا فلا يُحْتاجُ إلى تقديرِ مضافٍ"[3]، "وَالسُّؤَالُ عَنِ الْأَهِلَّةِ لَا يَتَعَلَّقُ بِذَوَاتِهَا، إِذِ الذَّوَاتُ لَا يُسْأَلُ إِلَّا عَنْ أَحْوَالِهَا، فَيُعْلَمُ هُنَا تَقْدِيرٌ وَحَذْفٌ، أَيْ: عَنْ أَحْوَالِ الْأَهِلَّةِ، فَعَلَى تَقْدِيرِ كَوْنِ السُّؤَالِ وَاقِعًا بِهَا غَيْرَ مَفْرُوضٍ، فَهُوَ يَحْتَمِلُ السُّؤَالَ عَنِ الْحِكْمَةِ، وَيَحْتَمِلُ السُّؤَالَ عَنِ السَّبَبِ، فَإِنْ كَانَ عَنِ الْحِكْمَةِ؛ فَالْجَوَابُ بِقَوْلِهِ: ﴿قُلْ هِيَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ﴾ جَارٍ عَلَى وَفْقِ السُّؤَالِ، وَإِلَى هَذَا ذَهَبَ صَاحِبُ الْكَشَّافِ، وَلَعَلَّ الْمَقْصُودَ مِنَ السُّؤَالِ حِينَئِذٍ اسْتِثْبَاتُ كَوْنِ الْمُرَادِ الشَّرْعِيِّ مِنْهَا مُوَافِقًا لِمَا اصْطَلَحُوا عَلَيْهِ؛ لِأَنَّ كَوْنَهَا مَوَاقِيتَ لَيْسَ مِمَّا يَخْفَى حَتَّى يُسْأَلَ عَنْهُ، فَإِنَّهُ مُتَعَارَفٌ لَهُمْ، فَيَتَعَيَّنُ كَوْنُ الْمُرَادِ مِنْ سُؤَالِهِمْ، إِنْ كَانَ وَاقِعًا هُوَ تَحَقُّقُ الْمُوَافَقَةِ لِلْمَقْصِدِ الشَّرْعِيِّ، وَإِنْ كَانَ السُّؤَالُ عَنِ السَّبَبِ، فَالْجَوَابُ بِقَوْلِهِ: ﴿قُلْ هِيَ مَوَٰقِيتُ﴾ غَيْرُ مُطَابِقٍ لِلسُّؤَالِ، فَيَكُونُ إِخْرَاجًا لِلْكَلَامِ عَلَى خِلَافِ مُقْتَضَى الظَّاهِرِ، بِصَرْفِ السَّائِلِ إِلَى غَيْرِ مَا يَتَطَلَّبُ؛ تَنْبِيهًا عَلَى أَنَّ مَا صُرِفَ إِلَيْهِ، هُوَ الْمُهِمُّ لَهُ"[4].

نكتة التعريض بأنّ سؤالهم في غير محلّه:

قال صاحب المنار: "وزعموا أنّ مراد السّائلين بيان السّبب الطّبيعي لهذا الاختلاف، وأنّ الجواب إنمّا جاء ببيان الحكمة دون العلّة؛ لأنّه موضوع الدّين، جريًا على ما يسمّى

(1) السيوطي، الدر المنثور: 2/305، ومحمد رشيد رضا، تفسير المنار: 2/163.

(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/235.

(3) السّمين، الدُّرّ المصون: 2/304، وابن عادل، اللبّاب: 3/333.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/194- 195.

تدبُّر السبب الطَّبيعيّ لاختلاف الأهلَّة مشروع إذا ناسب مقامه

في البلاغة أسلوب الحكيم أو الأسلوب الحكيم، قال الأستاذ الإمام: كأنّه قال: كان عليكم أن تسألوا عن الحكمة والفائدة في اختلاف الأهلّة إن لم تكونوا تعرفونها، وإلّا فعليكم الاكتفاء بها، وعدم مطالبة الشّارع بما ليس من الشّرع، ففي الكلام تعريضٌ بأنّ سؤالهم في غير محلّه، ولو توجه هذا السّؤال، ممّن يتعلّم علم الفلك، إلى أستاذه فيه، لما عدّ قبيحًا، ولا قيل: إنّه في غير محلّه، ولكنّه موجّه من أمّي إلى نبيّ، لا إلى فلكيّ، فهو قبيح من هذا الوجه لا لذاته، وإلّا لكان النّظر في السّماوات والأرض، لأجل الوقوف على أسرار الخليقة، وأسباب ما فيها من الآيات والعبر مذمومًا، وكيف يذمّ؟ وقد أرشدنا اللّه تعالى إليه، وحثّنا في كتابه عليه ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ۝٦﴾ [ق: 6]، والآيات في هذا المعنى كثيرة"[1].

المناسبة والاتصال بين: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ﴾ و﴿وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُواْ ٱلْبُيُوتَ﴾:

الاستطراد بِذِكْرِ فِعْلٍ مِن أفعالهم في الحجِّ يظنّونه من البرّ، وهو ليس كذلك

" قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُواْ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا﴾، اتَّصَلَ هَذَا بِذِكْرِ مَوَاقِيتِ الْحَجِّ لِاتِّفَاقِ وُقُوعِ الْقَضِيَّتَيْنِ فِي وَقْتِ السُّؤَالِ عَنِ الْأَهِلَّةِ، وَعَنْ دُخُولِ الْبُيُوتِ مِنْ ظُهُورِهَا، فَنَزَلَتِ الْآيَةُ فِيهِمَا جَمِيعًا"[2]، فذكره للاستطراد، أو أنّهم سألوا عن الأمرين، أو أنّهم لما سألوا عمّا لا يعنيهم، ولا يتعلّق بعلم النّبوة، وتركوا السّؤال عمّا يعنيهم ويختصّ بعلم النّبوة، عقّب بذكره جواب ما سألوه تنبيهًا على أنّ اللّائق بهم أن يسألوا أمثال ذلك ويهتمّوا بالعلم بها[3].

(1) محمد رشيد رضا، (تفسير المنار)، 2/163.
(2) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 2/344.
(3) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 1/127.

دلالة المجيء من ظهور البيوت، في قوله: ﴿وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا﴾:

كان من عادتهم عند رجوعهم من الحجّ أن يدخلوا بيوتهم من خلفها ينقبون الحائط، أو من سقفها، قال الأكثر من أهل التّفسير: إنّهم الحُمْسُ، وهم قوم من قريش، وبنُو عامر بن صعصعة وثَقيف وخزاعة ... وإنّما سُمُّوا الحُمْسَ؛ لأنهم تَحمَّسوا في دينهم أي: تشدّدوا، وقال أهل اللّغة: الحماسة الشّدة في الغضب، والشّدة في القتال، والحماسة على الحقيقة الشّدّة في كلّ شيءٍ، ... فأعلمهم اللّه ﷻ، أنّ تشدّدهم في هذا الإحرامِ ليس ببرّ[1].

كلّ متشدّد في الفهم أو الممارسة يخرج عن مقاصد الدّين وسماحته

الغرض من حذف المعمول في قوله: ﴿مَنِ ٱتَّقَىٰ﴾ في الآية الكريمة:

لمّا نصَّ على معمول الفعل في الثاني، وهو قوله: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ دلّ على أنَّه محذوف من قوله: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ﴾ أي: اتَّقى اللّه، ولكنّنا نلْحظ أنَّ الأشهر في اللغة أن يُحذف الثاني لدلالة الأول عليه، ومنه الإيجاز بالحذف في قوله: ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٧٥﴾﴾ [الحج: 75]، أي: (ومن النَّاس رسلًا)؛ حيث حذف من الثاني لدلالة الأوَّل عليه.

الدلالة على أنَّ المرجوّ من المؤمن أن يتحلَّى بالتقوى في كلِّ حال

فالحذف ههنا له غرضٌ آخر، وهو إتيان الفعل المتعدِّي في صورة اللازم؛ للدلالة على شدَّة التلبُّس بصفة التقوى، وكأنها صارت لصاحبها سجيَّة، تلازمه في كل حين.

وهذا مناسب لنفي البرّ من فعلهم المتكلَّف في إتيان البيوت من ظهورها، وإثبات ذات المتّقي المتمثِّل في (مَن)، وكأنَّه يقول لهم: لا أريد ظواهر مُتَكَلَّفةً مُدَّعاة، ولكن أريد رجالًا يتَّقون اللّه.

(1) الزّجاج، معاني القرآن وإعرابه: 1/262 - 263.

الإخبار عن المعنى بالذّات في قوله: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰۗ﴾:

جعل القرآن الإنسانَ المتّقي ذاتَه، هو البرّ، للإقبال على التّقوى

"﴿مَنِ ٱتَّقَىٰۗ﴾ فجعل المتقي نفس البرّ؛ إلهابًا له إلى الإقبال على التّقوى"[1]، و" المراد به التّنبيه على تعكيسهم في السّؤال، بتمثيل حالهم بحال من ترك باب البيت، ودخل من ورائه، والمعنى: وليس البرّ بأن تعكسوا مسائلكم، ولكنّ البرّ برّ من اتّقى ذلك، ولم يجسر على مثله، وَأۡتُوا ٱلۡبُيُوتَ مِنۡ أَبۡوَابِهَا؛ إذ ليس في العدول برٌّ، فباشروا الأمور من وجوهها، وَاتَّقُوا اللَّهَ في تغيير أحكامه، والاعتراض على أفعاله، لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ، لكي تظفروا بالهدى والبرّ"[2].

عطف الإنشاء على الخبر في قوله تعالى: ﴿وَأۡتُواْ ٱلۡبُيُوتَ مِنۡ أَبۡوَٰبِهَاۚ﴾:

لما كان الخبر بمعنى النّهي عطف عليه الأمر

"وَقَوۡلُهُ: ﴿وَأۡتُواْ ٱلۡبُيُوتَ مِنۡ أَبۡوَٰبِهَاۚ﴾ مَعۡطُوفٌ عَلَى جُمۡلَةِ ﴿وَلَيۡسَ ٱلۡبِرُّ﴾، عَطۡفَ الإِنۡشَاءِ عَلَى الۡخَبَرِ الَّذِي هُوَ فِي مَعۡنَى الإِنۡشَاءِ؛ لِأَنَّ قَوۡلَهُ: ﴿وَلَيۡسَ ٱلۡبِرُّ﴾ فِي مَعۡنَى: النَّهۡيِ عَنۡ ذَلِكَ، فَكَانَ كَعَطۡفِ أَمۡرٍ عَلَى نَهۡيٍ"[3].

ومن بلاغة هذا العطف استمالة المخاطب، وإقناعه بالفكر؛ وذلك ببيان حالةٍ منهيٍّ عنها في صورة الخبر، وتصحيحها، ثم إلزامه بالأمر مصحوبًا بالحالة المرغوبة.

المعنى البيانيّ للاستعارة في قوله: ﴿وَأۡتُواْ ٱلۡبُيُوتَ مِنۡ أَبۡوَٰبِهَاۚ﴾:

إتيان البرّ من وجهه المشروع في الأحكام مكرمة وأدب والتزام

"اطلبوا البرّ من أهله ووجهه، ولا تطلبوه عند الجهلة المشركين"[4]، "هَذَا كَمَا تَقُولُ: أَتَيۡتُ هَذَا الۡأَمۡرَ مِنۡ بَابِهِ، وَقَالَ الۡحَسَنُ: كَانُوا يَتَطَيَّرُونَ، فَمَنۡ سَافَرَ، وَلَمۡ تَحۡصُلۡ حَاجَتُهُ؛ كَانَ يَأۡتِي بَيۡتَهُ مِنۡ وَرَاءِ ظَهۡرِهِ تَطَيُّرًا مِنَ الۡخَيۡبَةِ، فَقِيلَ لَهُمۡ: لَيۡسَ فِي التَّطَيُّرِ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 3/102.
(2) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 1/127.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/198.
(4) أبو عبيدة، مجاز القرآن: 1/68.

بِرٌّ، بَلِ الْبِرُّ أَنْ تَتَّقُوا اللَّهَ، وَتَتَوَكَّلُوا عَلَيْهِ"[1]، فباشروا الأمور من وجوهها الّتي يجب أن تباشر عليها، ولا تعكسوا. أو المراد وجوب الاعتقاد بأنّ جميع أفعاله تعالى حكمة وصواب من غير اختلاج شبهة، ولا اعتراض شكّ في ذلك، حتّى لا يسأل عنه لما في السّؤال من الاتّهام بمقارفة الشّكّ "[2]، وقد "خَرَجَتْ مَخْرَجَ التَّنْبِيهِ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى، عَلَى أَنْ يَأْتُوا الْبِرَّ مِنْ وَجْهِهِ، وَهُوَ الْوَجْهُ الَّذِي أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ، فَذَكَرَ إِتْيَانَ الْبُيُوتِ مِنْ أَبْوَابِهَا مَثَلًا؛ لِيُشِيرَ بِهِ إِلَى أَنْ نَأْتِيَ الْأُمُورَ مِنْ مَأْتَاهَا الَّذِي نَدَبَنَا اللَّهُ تَعَالَى إِلَيْهِ[3]".

وجوه المجاز في قوله تعالى: ﴿وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا﴾:

إِتْيَانَ الْبُيُوتِ مِنْ ظُهُورِهَا كِنَايَةٌ عَنِ الْعُدُولِ عَنِ الطَّرِيقِ الصَّحِيحِ، وإتيانها من أبوابها كِنَايَةٌ عَنِ التَّمَسُّكِ بِالطَّرِيقِ الصَّحِيحِ

وحملُ إتيانِ البُيوت على المجاز فيه قولان آخران غير ما سبق:

أحدها: أَنَّ ذَلِكَ ضَرْبُ مَثَلٍ، والْمَعْنَى: (لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تَسْأَلُوا الْجُهَّالَ، وَلَكِنِ اتَّقُوا، وَاسْأَلُوا الْعُلَمَاءَ)، فَهَذَا كَمَا يُقَالُ: (أَتَيْتُ الْأَمْرَ مِنْ بَابِهِ)، قَالَهُ أَبُو عُبَيْدَةَ.

أي: ليس البرّ أن تسألوا عن الأهلّة وغيرها ممّا لا فائدة لكم فيه، فتأتون الأمور على غير ما يجب، فعلى هذا؛ البيوت وأبوابها وظهورها استعارة: يراد بالبيوت المسائل، وبظهورها السّؤال عمّا لا يفيد، وأبوابها السّؤال عمّا يحتاج إليه[4].

الثَّاني: أَنَّهُ ذَكَرَ إِتْيَانَ الْبُيُوتِ مِنْ أَبْوَابِهَا مَثَلًا لِمُخَالَفَةِ الْوَاجِبِ فِي الْحَجِّ، وَذَلِكَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَهُ فِي النَّسِيءِ، فَإِنَّهُمْ كَانُوا يُخْرِجُونَ الْحَجَّ عَنْ وَقْتِهِ الَّذِي عَيَّنَهُ اللَّهُ تَعَالَى، فَيُحَرِّمُونَ الْحَلَالَ، وَيَحِلُّونَ الْحَرَامَ، فَضُرِبَ مَثَلًا لِلْمُخَالَفَةِ، وَقِيلَ: وَاتَّقُوا اللَّهَ، تَحْتَ إِتْيَانِ كُلِّ وَاجِبٍ فِي اجْتِنَابِ كُلِّ مُحَرَّمٍ، قَالَهُ أَبُو مُسْلِمٍ.

وَفِيهِ بُعْدٌ - كما ذكر ابن عاشور - حَقِيقَةً وَمَجَازًا وَمَعْنًى؛ لِأَنَّ

(1) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 2/346.
(2) النّسفيّ، مدارك التّنزيل: 1/165.
(3) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 2/346.
(4) ابن جزيّ، التّسهيل: 1/112.

الْآيَاتِ خِطَابٌ لِلْمُسْلِمِينَ، وَهُمُ الَّذِينَ سَأَلُوا عَنِ الْأَهِلَّةِ، وَالنَّسِيءُ مِنْ أَحْوَالِ أَهْلِ الْجَاهِلِيَّةِ، وَلِأَنَّهُ يؤول إِلَى اسْتِعَارَةٍ غَيْرِ رَشِيقَةٍ، وَقِيلَ: مَثَلٌ ضُرِبَ لِسُؤَالِهِمْ عَنِ الْأَهِلَّةِ مَنْ لَا يَعْلَمُ، وَأَمَرَهُمْ بِتَفْوِيضِ الْعِلْمِ إِلَى اللَّهِ، وَهُوَ بَعِيدٌ جِدًّا، لِحُصُولِ الْجَوَابِ مِنْ قَبْلُ، وَقِيلَ: كَانُوا يَنْذِرُونَ؛ إِذَا تَعَسَّرَ عَلَيْهِمْ مَطْلُوبُهُمْ أَلَّا يَدْخُلُوا بُيُوتَهُمْ مِنْ أَبْوَابِهَا، فَنُهُوا عَنْ ذَلِكَ، وَهَذَا بَعِيدٌ: مَعْنًى؛ لِأَنَّ الْكَلَامَ مَعَ الْمُسْلِمِينَ، وَهُمْ لَا يَفْعَلُونَ ذَلِكَ، وَسَنَدًا؛ إِذْ لَمْ يَرْوِ أَحَدٌ أَنَّ هَذَا سَبَبُ النُّزُولِ[1].

أسباب النّزول تدلّ على إرادة الحقيقة لا المجاز:

الْحَمْلُ عَلَى الْحَقِيقَةِ أَوْلَى مِنِ ادِّعَاءِ الْمَجَازِ، عند انصراف القرينة إليها

ذكر للآية أكثر من سبب نزول، "وَمُلَخَّصُ هَذِهِ الْأَسْبَابِ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَنْزَلَ هَذِهِ الْآيَةَ؛ رَادًّا عَلَى مَنْ جَعَلَ إِتْيَانَ الْبُيُوتِ مِنْ ظُهُورِهَا بِرًّا، آمِرًا بِإِتْيَانِ الْبُيُوتِ مِنْ أَبْوَابِهَا، وهذه أسباب تضافرت عَلَى أَنَّ الْبُيُوتَ أُرِيدَ بِهَا الْحَقِيقَةُ، وَأَنَّ الْإِتْيَانَ هُوَ الْمَجِيءُ إِلَيْهَا، وَالْحَمْلُ عَلَى الْحَقِيقَةِ أَوْلَى مِنِ ادِّعَاءِ الْمَجَازِ، مَعَ مُخَالَفَةِ ما تضافرت مِنْ هَذِهِ الْأَسْبَابِ"[2].

قال القرطبيّ: "قُلْتُ: الْقَوْلُ الْأَوَّلُ أَصَحُّ هَذِهِ الْأَقْوَالِ، لِمَا رَوَاهُ الْبَرَاءُ، قَالَ: كَانَ الْأَنْصَارُ إِذَا حَجُّوا؛ فَرَجَعُوا لَمْ يَدْخُلُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا، قَالَ: فَجَاءَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ، فَدَخَلَ مِنْ بَابِهِ، فَقِيلَ لَهُ فِي ذَلِكَ، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُواْ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا﴾"، وَهَذَا نَصٌّ فِي الْبُيُوتِ حَقِيقَةً، خَرَّجَهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ[3]، وَأَمَّا تِلْكَ الْأَقْوَالُ؛ فَتُؤْخَذُ مِنْ مَوْضِعٍ آخَرَ لَا مِنَ الْآيَةِ، فَتَأَمَّلْهُ"[4].

يعود على (البيوت) وهو جمع كثرة لغير العاقل، وَالْأَفْصَحُ فِيهِ أَنْ يُفْرَدَ

مرجع الضّمير في لفظ ﴿أَبْوَٰبِهَا﴾، من قوله: ﴿وَأْتُواْ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا﴾:

أفرد السّياق الضّمير المؤنّث؛ لأنّه عائد على جمع كثرة، قال أبو حيّان: "وَالضَّمِيرُ فِي: أَبْوَابِهَا، عَائِدٌ عَلَى الْبُيُوتِ، وَعَادَ كَضَمِيرِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/199.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/237.
(3) صحيح البخاري، حديث رقم: (1803)، وصحيح مسلم، حديث رقم: (3026).
(4) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 2/346.

الْمُؤَنَّثِ الْوَاحِدَةِ؛ لِأَنَّ الْبُيُوتَ جَمْعُ كَثْرَةٍ، وَجَمْعُ الْمُؤَنَّثِ الَّذِي لَا يَعْقِلُ فُرِّقَ فِيهِ بَيْنَ قَلِيلِهِ وَكَثِيرِهِ، فَالْأَفْصَحُ فِي قَلِيلِهِ أَنْ يُجْمَعَ الضَّمِيرُ، وَالْأَفْصَحُ فِي كَثِيرِهِ أَنْ يُفْرَدَ"[1]، "والضّميرُ في (ظهورها وأبوابها) للبيوتِ، وجِيء به كضميرِ المؤنّثةِ الواحدِ؛ لأنّه يجوزُ فيه ذلك"[2].

سِر تكرار التّقوى في قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰۗ وَأۡتُواْ ٱلۡبُيُوتَ مِنۡ أَبۡوَٰبِهَا وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾:

اهتمامًا بشأن التّقوى، أخبر بها عن البِرّ، ثم أمر بها في كلّ حال

أمرَ بذلك صريحاً بعد بيان أن البرَّ برُّ من اتّقى؛ إظهارًا لزيادة الاعتناءِ بشأن التّقوى[3]، وفي التَّكرار إشارةٌ إلى مدارج المتقين ومنازلهم، فلا يزالون يرتقُون في مراتب العبودية، حتى يصلوا إلى رتبة الإحسان المتمثِّلة في قوله ﷺ لرجلٍ: «اعْبُدِ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ»[4]، فَأَمْرُهُ بِحَالَتَيْنِ إِحْدَاهُمَا أَقْوَى مِنَ الْأُخْرَى؛ لِأَنِّي كَأَنِّي أَرَى الشَّيْءَ بِقُوَّةِ الْعِلْمِ بِهِ، وَحَقِيقَةُ التَّصْدِيقِ لَهُ أَقْوَى مِنْ أَنْ أَكُونَ أَعْلَمَ أَنَّ ذَلِكَ يَرَانِي، والإيماء إلى الحالتين في الآية الكريمة يظهر في سرّ إظهار اسم الجلالة في الأمر، وحذفه في الخبر.

نكتة الجمع والتقسيم في الآية الكريمة:

جمعت الآية الكريمة جملتين خبريَّتين، وهما قوله: ﴿وَلَيۡسَ ٱلۡبِرُّ بِأَن تَأۡتُواْ ٱلۡبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰۗ﴾، وعُطف عليهما جملتان أَمْرِيَّتَانِ: الْأُولَى رَاجِعَةٌ لِلْأُولَى، وَالثَّانِيَةُ رَاجِعَةٌ لِلثَّانِيَةِ، فعطف ﴿وَأۡتُواْ ٱلۡبُيُوتَ مِنۡ أَبۡوَٰبِهَا﴾ على ﴿وَلَيۡسَ ٱلۡبِرُّ بِأَن تَأۡتُواْ ٱلۡبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا﴾، وعطف ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ على ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰۗ﴾ وهو من الإيجاز من جهة، ومن بديع الكلام من جهة أخرى.

دلالة تعلق الفلاح بالتّقوى في قوله: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾:

قوله "﴿لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾: ظَاهِرُهُ التَّعَلُّقُ بِالْجُمْلَةِ الْأَخِيرَةِ،

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/239.

(2) السّمين، الدّر المصون: 2/305.

(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 1/203.

(4) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء، وطبقات الأصفياء: 10/265، وهو في الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه بلفظ: «أن تعبد الله كأنك تراه» صحيح البخاري: باب سؤال جبريل النبي ﷺ، حديث رقم: (50)، 1/19، وأخرجه مسلم في الإيمان باب: بيان الإيمان والإسلام والإحسان، حديث رقم: (9 و10).

جعل التّقوى علّة للفلاح، لتضمّنها كلّ صفات البرّ

وَهِيَ قَوْلُهُ: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾؛ لِأَنَّ تَقْوَى اللَّهِ هُوَ إِجْمَاعُ الْخَيْرِ مِنِ امْتِثَالِ الْأَوَامِرِ، وَاجْتِنَابِ النَّوَاهِي، فَعَلَّقَ التَّقْوَى بِرَجَاءِ الْفَلَاحِ، وَهُوَ الظَّفَرُ بِالْبُغْيَةِ"[1]، و"جميع أفعاله تعالى حكمة وصواب، من غير اختلاج شبهة، ولا اعتراض شكّ، في ذلك؛ حتّى لا يسأل عنه لما في السّؤال من الإيهام بمقارفة الشّكّ، ثم علّله بقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾، أي: لتكون حالكم حال من يرجى دوام التّجدّد لفلاحه، وهو ظفره بجميع مطالبه من البرّ وغيره، فقد دلّ سياق الآية على كراهة هذا السّؤال"[2].

دلالة "لعل" في قوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾:

الرجاء والطمع للمخلوق والقبول من الخالق

وقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ ترجٍّ في حق البشر[3]، فهي للترجي والإشفاق - كما ذكر الرازي - تقول: لعلّ زيدًا يكرمني، والترجي والإشفاق لا يحصلان إلا عند الجهل بالعاقبة، وذلك على اللّه تعالى محال، فلا بد فيه من التأويل وهو من وجوه:

أحدها: أنَّ معنى (لعلَّ) راجع إلى العباد، لا إلى اللّه تعالى، فقوله: ﴿لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ [طه: 44]، أي: اذهبا أنتما على رجائكما وطمعكما في إيمانه، ثمَّ اللّه تعالى عالم بما يؤول إليه أمره.

وثانيها: أنَّ من عادة الملوك والعظماء أن يقتصروا في مواعيدهم التي يوطِّنون أنفسهم على إنجازها على أن يقولوا: لعل وعسى ونحوهما من الكلمات، أو للظَّفَر منهم بالرمزة، أو الابتسامة أو النظرة الحلوة، فإذا عثر على شيء من ذلك، لم يبقَ للطالب شكٌّ في الفوز بالمطلوب، فعلى هذا الطريق ورد لفظ (لعلَّ) في كلام اللّه تعالى.

ثالثها: (لعلَّ) للإطماع، لا بمعنى (كي) قال الزمخشري:

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/240.
(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 3/103.
(3) ابن عطية، المحرر الوجيز: 1/560.

"وقد جاءت على سبيل الإطماع في مواضع من القرآن، ولكن لأنَّه إطماع من كريم رحيم، إذا أطمع فعل ما يطمع فيه لا محالة، لجرى إطماعه مجرى وعده المحتوم وفاؤه به - قال من قال: إنَّ (لعلَّ) بمعنى (كي)، و(لعلَّ) لا تكون بمعنى (كي)، ولكنَّ الحقيقة ما ألقيتُ إليك"[1].

ورابعها: أنَّه تعالى فعل بالمكلَّفين ما لو فعله غيره لاقتضى رجاء حصول المقصود، لأنَّه تعالى لما أعطاهم القدرة على الخير والشر، وخلق لهم العقول الهادية، وأزاح أعذارهم، فكلٌّ من فعل بغيره ذلك، فإنَّه يرجو منه حصول المقصود، فالمراد من لفظة (لعلَّ) فعلُ ما لو فعله غيره لكان موجِبًا للرجاء[2].

وهذا معنى قولهم: إنَّ (لعلَّ) من الله واجبة، إن لم يرد بها حقيقتها بالنسبة إلى الباري تعالى.

وعليه فإنَّ معناها هنا: واتَّقوا الله راجين الفلاح، وطامعين فيه لا قاطعين به، فإنَّ القبول لله تعالى، وهذا كقوله: ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾ [الإسراء: 57][3].

متشابه النظم بين: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ﴾ و﴿وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ﴾:

وَالْمَقْصُودُ مِنَ الْآيَتَيْنِ إِظْهَارُ الْبِرِّ الْعَظِيمِ

"وَمَعْنَى نَفْيِ الْبِرِّ عَنْ هَذَا: نَفْيُ أَنْ يَكُونَ مَشْرُوعًا أَوْ مِنَ الْحَنِيفِيَّةِ، وَإِنَّمَا لَمْ يَكُنْ مَشْرُوعًا؛ لِأَنَّهُ غُلُوٌّ فِي أَفْعَالِ الْحَجِّ، فَإِنَّ الْحَجَّ وَإِنِ اشْتَمَلَ عَلَى أَفْعَالٍ رَاجِعَةٍ إِلَى تَرْكِ التَّرَفُّهِ عَنِ الْبَدَنِ، كَتَرْكِ الْمَخِيطِ، وَتَرْكِ تَغْطِيَةِ الرَّأْسِ؛ إِلَّا أَنَّهُ لَمْ يَكُنِ الْمَقْصِدُ مِنْ تَشْرِيعِهِ إِعْنَاتَ النَّاسِ، بَلْ إِظْهَارَ التَّجَرُّدِ وَتَرْكَ التَّرَفُّهِ، وَلِهَذَا لَمْ يَكُنِ الْحُمْسُ يَفْعَلُونَ، ذَلِكَ؛ لِأَنَّهُمْ أَقْرَبُ إِلَى دِينِ إِبْرَاهِيمَ، فَالنَّفْيُ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ﴾ نَفْيُ جِنْسِ الْبِرِّ عَنْ هَذَا الْفِعْلِ، بِخِلَافِ قَوْلِهِ

(1) الزمخشري، الكشاف: 1، 92.
(2) الرازي، مفاتيح الغيب: 2/334.
(3) السمين، عمدة الحفاظ: 4/26.

الْمُتَقَدِّم: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ﴾ [البَقَرَة: 177]، وَالْقَرِينَةُ هُنَا هِيَ قَوْلُهُ: وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِها، وَلَمْ يَقُلْ هُنَالِكَ: وَاسْتَقْبِلُواْ أَيَّةَ جِهَةٍ شِئْتُمْ. وَالْمَقْصُودُ مِنَ الْآيَتَيْنِ إِظْهَارُ الْبِرِّ الْعَظِيم، وَهُوَ مَا ذُكِرَ بَعْدَ حَرْفِ الِاسْتِدْرَاكِ فِي الْآيَتَيْنِ، بِقَطْعِ النَّظَرِ عَمَّا نَفَى عَنْهُ الْبِرَّ، وَهَذَا هُوَ مَنَاطُ الشَّبَهِ وَالِافْتِرَاقِ بَيْنَ الْآيَتَيْنِ"[1].

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الوقت، والزّمان، والمدّة:

"المواقيت: جمع ميقات، وهو مفعال من الوقت، والوقت والمدّة والزّمان، تتقارب لكنّ المدّة المطلقة أوسع هذه الألفاظ، فإنّها امتداد حركة الفلك، أي: اتّصالها من مبدئها إلى غايتها، والزّمان مدّة مقسومة من المدّة المطلقة، والوقت الزّمان المفروض للعمل، ومعنى مواقيت للنّاس، أي: ما يتعلّق به من أمور معاملاتهم ومصالحهم"[2].

ولمَّا كان الحديث عن مصالح الناس، ومتطلباتهم، ومقاصدهم الدينيّة والدنيويّة؛ ناسب أن يُعَبَّر بلفظ يتَّفِق وهذه المعاني، هو (المواقيت).

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/197.

(2) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 1/401.

﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ١٩٠﴾ [البقرة: 190]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

المناسبة بين الأمر بِالتَّقْوَى، والأمر بردّ العدوّ عن الحرمات:

لَمّا أَمَرَ اللّه تعالى بِالتَّقْوَى في الآية المتقدِّمة في طَرِيقِ طَاعَةِ اللَّهِ - وَهُوَ عِبَارَةٌ عَنْ تَرْكِ الْمَحْظُورَاتِ، وَفِعْلِ الْوَاجِبَاتِ، فَالاسْتِقَامَةُ عِلْمٌ، وَالتَّقْوَى عَمَلٌ، وَلَيْسَ التَّكْلِيفُ إِلَّا فِي هَذَيْنِ - أَمَرَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ، بِأَشَدِّ أَقْسَامِ التَّقْوَى وَأَشَقِّهَا عَلَى النَّفْسِ، وَهُوَ قَتْلُ أَعْدَاءِ اللَّهِ ردًّا لعُدوانهم، فَقَالَ: ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

1) ﴿سَبِيلِ﴾: جذره من (سَبَلَ) السِّينُ وَالْبَاءُ وَاللَّامُ أَصْلٌ يَدُلُّ عَلَى امْتِدَادِ شَيْءٍ، والسَّبِيلُ: الطَّرِيقُ الْمُمْتَدُّ طُولًا؛ سُمِّيَ بِذَلِكَ لِامْتِدَادِهِ[2].

2) ﴿وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ﴾: (عَدَوَ): أَصْلٌ يَدُلُّ عَلَى تَجَاوُزٍ فِي الشَّيْءِ وَتَقَدُّمٍ لِمَا يَنْبَغِي أَنْ يُقْتَصَرَ عَلَيْهِ[3]. "العَدُوُّ: التّجاوز ومنافاة الالتئام"[4]، "أي: لا تعتدوا على من وادعكم وعاقدكم"[5]، و"المراد بالاعتداء هنا ابتداء القتال، لا حقيقة الاعتداء الذي هو تجاوز الحدّ"[6]، وفي قوله تعالى: ﴿وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ﴾ ثلاثة أقاويل: أحدها: أنّ الاعتداء قتال من لم يقاتل. والثّاني: أنّه قتل النّساء والولدان. والثّالث: أنّه القتال على غير الدّين"[7].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

يخاطب اللّه تعالى المؤمنين - وهذا كان بعد الهجرة إلى المدينة، لما قَوِي المسلمون

(1) الرّازيّ، التّفسير الكبير: 5/287.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، (سبل).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة، (عدو).
(4) الرّاغب، المفردات، (عدا).
(5) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 70.
(6) الصّاويّ، حاشية الصّاوي: 1/82.
(7) الماورديّ، النّكت والعيون: 1/251.

للقتال، بعد ما كانوا مأمورين بِكَفِّ أيديهم - بأن قاتِلوا لنصرة دين اللّه الّذين يقاتلونكم، وينهاهم عن فعل المناهي من المُثْلة، والغُلول، وقَتْلِ من لا يحلُّ قتله من النّساء والصّبيان والشّيوخ، وَمن في حكمهم، وقتلِ الحيوانات، وقطع الأشجار ونحوها، لغير مصلحة تعود للمسلمين. ومن الاعتداء مقاتلةُ من تقبل منهم الجزية إذا بذلوها؛ فإنَّ ذلك لا يجوز، والنهي عن الاعتداء يشمل أنواعَ الاعتداء كلَّها، إنّ اللّه لا يحبّ الّذين يجاوزون حدوده، فيستحلّون ما حرَّم اللّه ورسوله ﷺ[1].

❁ الإيْضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالة العطف في قوله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ﴾:

"جُمْلَةُ ﴿وَقَٰتِلُواْ﴾ مَعْطُوفَةٌ عَلَى جُمْلَةِ ﴿وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ﴾ [البَقَرَة: 189]، وَهُوَ اسْتِطْرَادٌ دَعَا إِلَيْهِ اسْتِعْدَادُ النَّبِيِّ ﷺ لِعُمْرَةِ الْقَضَاءِ سَنَةَ سِتٍّ، وَتَوَقُّعُ الْمُسْلِمِينَ غَدْرَ الْمُشْرِكِينَ بِالْعَهْدِ"[2]. قال الواحديّ: "نزلت هذه الآية في صلح الحديبيَة، وذلك أنّ رسول اللّه ﷺ لمَّا انصرف من الحديبية إلى المدينة المنوّرة، حين صدَّه المشركون عن البيت؛ صالحهم على أن يرجع عامه القابل، ويُخَلُّواْ له مكَّة ثلاثة أيَّام، فلمَّا كان العام القابل؛ تجهزَّ رسول اللّه ﷺ وأصحابه لعمرة القضاء، وخافوا ألَّا تفي لهم قريشٌ، وأن يصدُّوهم عن البيت، ويقاتلوهم، وكره أصحاب رسول اللّه ﷺ قتالهم في الشَّهر الحرام في الحرم، فأنزل اللّه تعالى: ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، أَيْ: في دين اللّه وطاعته ﴿ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ﴾ يعني: قريشًا ﴿وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ﴾: ولا تظلموا، فتبدؤوا في الحرم بالقتال"[3].

السّماح بردّ العدوان حين وقوعه، وَتَوَقُّعُ الْمُسْلِمِينَ غَدْرَ الْمُشْرِكِينَ بِالْعَهْدِ

دلالة الحذف في قوله تعالى: ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾:

هناك مضاف محذوف، تقديره: قاتلوا في نصرة دين اللّه، وَيَتَعَلَّقُ: فِي سَبِيلِ اللَّهِ، بِقَوْلِهِ: وَقَاتِلُوا، وَهُوَ ظَرْفٌ مَجَازِيٌّ؛ لِأَنَّهُ لَمَّا

أي: نصرة دين الله

(1) نخبة من العلماء، التّفسير الميسّر، ص: 29، والسعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 29.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/199- 200.
(3) الواحديّ، الوجيز، ص: 154.

وَقَعَ الْقِتَالُ بِسَبَبِ نُصْرَةِ الدِّينِ، صَارَ كَأَنَّهُ وَقَعَ فِيهِ، وَهُوَ عَلَى حَذْفِ مُضَافٍ[1]، "أي: في طاعة الله وطلب رضوانه[2].

الاستعارة التّصريحيّة، في قوله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾:

أوّلاً: هناك استعارة تصريحية في قوله تعالى: "﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، فالمراد بالسّبيل دين الله؛ لأنّ السّبيل في الأصل الطّريق، ففيه استعارة تصريحيّة أصليّة، حيث شبّه دين الله بالسّبيل بجامع الوصول إلى المقصود في كلٍّ"[3]، "وَاسْتُعِيرَ لِدِينِ اللَّهِ وَشَرَائِعِهِ، فَإِنَّ الْمُتَّبِعَ ذَلِكَ يَصِلُ بِهِ إِلَى بُغْيَتِهِ الدِّينِيَّةِ وَالدُّنْيَوِيَّةِ، فَشُبِّهَ بِالطَّرِيقِ الْمُوَصِّلِ الْإِنْسَانَ إِلَى مَا يَقْصِدُهُ، وَهَذَا مِنِ اسْتِعَارَةِ الْأَجْرَامِ لِلْمَعَانِي".

المراد بالسّبيل: دين الله

وثانيًا: في قوله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، قال الْحَرَالِّي: "من حيث إنّ الإسلام عملٌ يقيّده الوقت، والدّفع عنه أمرٌ لا يقيّده وقتٌ، بل أيّان طرق الضّرُّ لبناء الإسلام؛ دفع عنه، كما هو حكم الدّفع في الأمور الدّينيّة، فكانت الصّلاة لمواقيت اليوم واللّيلة، والصّوم والحجّ لمواقيت الأهلّة، والزّكاة لميقات الشّمس، والجهاد لمطلق الميقات، حيثما وقع من مكان وزمان، ناظراً بوجه ما، لما يقابله من عمود الإسلام الّذي هو ذكر كلمة الإخلاص، وهي: "لا إله إلا الله" على الدّوام[4].

دلالة الاسم الموصول في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ﴾:

مَنْ لَهُ أَهْلِيَّةُ الْقِتَالِ سِوَى مَنْ جَنَحَ لِلسَّلْمِ

"﴿ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ﴾ ظَاهِرُهُ: مَنْ يُنَاجِزُكُمُ الْقِتَالَ ابْتِدَاءً، أَوْ دَفْعًا عَنِ الْحَقِّ، وَقِيلَ: مَنْ لَهُ أَهْلِيَّةُ الْقِتَالِ سِوَى مَنْ جَنَحَ لِلسَّلْمِ، فَيَخْرُجُ مِنْ هَذَا: النِّسْوَانُ، وَالصِّبْيَانُ، وَالرُّهْبَانُ"[5]. "﴿وَقَٰتِلُواْ فِي

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/241.
(2) الخازن، لباب التّأويل: 1/121.
(3) الهرري، حدائق الرّوح والرّيحان: 3/196.
(4) تراث أبي الحسن الْحَرَالِّيّ المراكشّي في التّفسير، ص: 363.
(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/241.

سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ المقاتلة في سبيل الله: الجهاد لإعلاء كلمة الله وإعزاز الدّين، ﴿ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ﴾: يناجزونكم القتال دون المحاجزين، وعلى هذا يكون منسوخًا، بقوله تعالى ﴿وَقَٰتِلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ كَآفَّةً﴾، وقيل: هي أوّل آية نزلت في القتال، فكان رسول الله ﷺ يقاتل من قاتل، ويكفّ عمّن كفّ، أو الّذين يناصبونكم القتال دون من ليس من أهل المناصبة، من الشّيوخ والصّبيان والرّهبان والنّساء، أو الكفرة كلّهم؛ لأنّهم قاصدون لمقاتلة المسلمين، فهم في حكم المقاتلة"[1].

نكتة تقديم شبه الجملة على المفعول الصّريح: ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ﴾:

"وَقُدِّمَ الْمَجْرُورُ عَلَى الْمَفْعُولِ الصَّرِيحِ؛ لِأَنَّهُ الْأَهَمُّ، وَهُوَ أَنْ يَكُونَ الْقِتَالُ بِسَبَبِ إِظْهَارِ شَرِيعَةِ الْإِسْلَامِ، أَلَا تَرَى الِاقْتِصَارَ عَلَيْهِ فِي نَحْوِ قَوْلِهِ: ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: 244]"[2]. "وتقديمُ الظّرفِ على المفعولِ الصّريحِ؛ لإبراز كمالِ العنايةِ بشأن المقدَّم"[3].

لِأَنَّهُ الْأَهَمُّ، وَهُوَ أَنْ يَكُونَ الْقِتَالُ بِسَبَبِ إِظْهَارِ شَرِيعَةِ الْإِسْلَامِ

دلالة المفاعلة في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ﴾:

الْمُقَاتَلَةُ مُفَاعَلَةٌ، وَهِيَ حُصُولُ الْفِعْلِ مِنْ جَانِبَيْنِ، وَلَمَّا كَانَ فِعْلُهَا، وَهُوَ الْقَتْلُ، لَا يُمْكِنُ حُصُولُهُ مِنْ جَانِبَيْنِ؛ لِأَنَّ أَحَدَ الْجَانِبَيْنِ، إِذَا قُتِلَ لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَقْتُلَ، كَانَتِ الْمُفَاعَلَةُ فِي هَذِهِ الْمَادَّةِ بِمَعْنَى مُفَاعَلَةِ أَسْبَابِ الْقَتْلِ، أَيِ الْمُحَارَبَةِ، فَقَوْلُهُ: ﴿وَقَٰتِلُواْ﴾، بِمَعْنَى: وَحَارِبُوا، وَالْقِتَالُ الْحَرْبُ بِجَمِيعِ أَحْوَالِهَا، مِنْ هُجُومٍ وَمَنْعِ سُبُلٍ وَحِصَارٍ، وَإِغَارَةٍ وَاسْتِيلَاءٍ عَلَى بِلَادٍ أَوْ حُصُونٍ، وَإِذَا أُسْنِدَتِ الْمُفَاعَلَةُ إِلَى أَحَدِ فَاعِلَيْهَا، فَالْمَقْصُودُ أَنَّهُ هُوَ الْمُبْتَدِئُ بِالْفِعْلِ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى:

أفاد أنّهم لا يقاتلون إلّا من بدأهم

(1) النّسفيّ، مدارك التّنزيل: 1/165.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/242.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 1/203.

﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، فَجَعَلَ فَاعِلَ الْمُفَاعَلَةِ الْمُسْلِمِينَ، ثُمَّ قَالَ: ﴿ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ﴾، فَجَعَلَ فَاعِلَهُ ضَمِيرَ عَدُوِّهِمْ، فَلَزِمَ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ دَافِعُوا الَّذِينَ يَبْتَدِئُونَكُمْ[1].

النّهي العامّ أو الخاصّ في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ﴾:

نَـهْـيٌ عَـامٌّ عن مُجَاوَزَةِ ما حَدَّهُ اللَّهُ تَعَالَى، من الِاعْتِدَاءِ على غير المقاتلين

ومعنى قوله: ﴿وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ﴾ أي: لا تظلموا بمجاوزة الحدِّ الذي حدَّه الله تعالى، زمانًا أو مكانًا أو هيئةً أو أشخاصًا، أو إخلاصًا؛ فلا تبدؤوا في الحُرُم بالقتال، أو في البيت الحرام، ولا تقتلوا النّساء والصّبيان والشّيخ الكبير، وَالرُّهْبَان، وَالْأَطْفَال، وَمَنْ يَجْرِي مَجْرَاهُمْ، ولا من ألقى إليكم السَّلَم، وكفّ يده، أو قِتَالِ مَنْ بَذَلَ الْجِزْيَةَ، أو بِالْبُدَاءَةِ وَالْمُفَاجَأَةِ قَبْلَ بُلُوغِ الدَّعْوَةِ، أو بِالْمُثْلَةِ، أو فِي الْقِتَالِ لِغَيْرِ وَجْهِ اللَّهِ، كَالْحَمِيَّةِ وَكَسْبِ الذِّكْرِ؛ فإن فعلتم ذلك فقد اعتديتم[2].

حذف المتعلَّق وإطلاق النّهي عن الاعتداء: ﴿وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ﴾:

اختصارًا، وإفادة النهي عن مطلق الاعتداء

"نظم ذلك ابتداءُ القتالِ لمن لم يُبَح له ابتداؤه به إمّا بعهدٍ، أو بغير دعوة لمن لم يبلغه أمر الدّين، أو بغير ذلك من أنواع الخيانة والغدر، وقتل النّساء والصّبيان، والشّيوخ الفانين الّذين لا منعة فيهم، ولا رأي لهم، ودوامُ القتال لمن ألقى السَّلَم بعد الابتداء به، فحذف المتعلَّق اختصارًا، فأفاد زيادة المعنى، وهو من غريب أفانين البلاغة، وكأنّه أفهم بصيغة الافتعال التّقييد بالتّعمّد"[3]، "وَلا تَعْتَدُوا، أَيْ: لَا تَبْتَدِئُوا بِالْقِتَالِ"[4]، والنّهي عن قتال الشّيوخ، والنّساء وغيرهم، مستفادٌ من القيد؛ فإنّ الأمر بمقاتلة الّذين يقاتلونهم مستلزم للنّهي عن قتال الذين لم يقاتلوكم[5].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/200-201.
(2) الواحديّ، البسيط: 3/622، وأبو حيّان، البحر المحيط: 2/242.
(3) البقاعي، نظم الدّرر: 3/108.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/201.
(5) القونويّ، حاشيّة القونوي: 5/71.

دلالة التأكيد في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾:

بغض الله تعالى للمعتدين

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾ جملة مؤكدة بإنَّ، وباسميَّة الجملة، وهي كَالتَّعْلِيلِ لِمَا قَبْلَهَا، كَقَوْلِهِ: (أَكْرِمْ زَيْدًا إِنَّ عَمْرًا يُكْرِمُهُ)[1] "، أي: لا يريد بهم الخير، وهو تعليل للنّهي"[2]، وهو "تَحْذِيرٌ مِنَ الاعْتِدَاءِ، وَذَلِكَ مُسَالَمَةٌ لِلْعَدُوِّ وَاسْتِبْقَاءٌ لَهُمْ وَإِمْهَالٌ حَتَّى يَجِيؤُوا مُؤْمِنِينَ"[3]، وحيث إنّ اللّه لا يحبّ من يوصفون به، فهو يبغض الفاعل والفعل. والاعتداء المذكور في الآية، قد يكون اعتداءً على النّفس أو على النّاس، وفي كلّ الأحوال هو من الفعل المبغوض عند اللّه تعالى.

دلالة نفي المحبَّة في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾:

المحبّة والبغضُ مَجَازَانِ عَنْ إِرَادَةِ ثَـوَابِـهِ وَإِرَادَةِ عِقَابِهِ

"﴿لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾ نفيُ المحبَّة يقتضي الذّمَّ الدّالَّ على التّحريم، وهذا كقول النّحاة: (لا حبَّذا) ذمٌّ"[4]، "هذا النّفي يحتمل أن يكون على الكراهة؛ لأنّ عدم محبّة الشّيء، لا يقتضي تحريمه؛ لأنّ المحَبّ هذا، إمّا مباحٌ أو مكروهٌ، وإنّما يدلّ على التّحريم الذَّمُّ على الفعل، وعلى الوجوبِ الذَّمُّ على التّرك"[5].

"وَحَقِيقَةُ الْمَحَبَّةِ - وَهِيَ مَيْلُ النَّفْسِ إِلَى مَا تُؤْثِرُهُ - مُسْتَحِيلَةٌ فِي حَقِّ اللَّهِ تَعَالَى، وَلَا وَاسِطَةَ بَيْنَ الْمَحَبَّةِ وَالْبَغْضَاءِ بِالنِّسْبَةِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى؛ لِأَنَّهُمَا مَجَازَانِ عَنْ إِرَادَةِ ثَوَابِهِ، وَإِرَادَةِ عِقَابِهِ، أَوْ عَنْ مُتَعَلَّقِ الْإِرَادَةِ مِنَ الثَّوَابِ وَالْعِقَابِ، وَذَلِكَ بِخِلَافِ مَحَبَّةِ الْإِنْسَانِ وَبُغْضِهِ، فَإِنَّ بَيْنَهُمَا وَاسِطَةً، وَهِيَ عَدَمُهُمَا، فَلِذَلِكَ لَا يَرِدُ عَلَى نَفْيِ مَحَبَّةِ اللَّهِ تَعَالَى أَنْ يُقَالَ: لَا يَلْزَمُ مِنْ نَفْيِ الْمَحَبَّةِ وُجُودُ الْبُغْضِ، بَلْ ذَلِكَ لَازِمٌ لِمَا بَيَّنَّاهُ مِنْ عَدَمِ الْوَاسِطَةِ بَيْنَهُمَا فِي حَقِّهِ تَعَالَى"[6].

---

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/242.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 1/204، وينظر: القنّوجي، فتح البيان: 1/385.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/201.
(4) البسيلّي، التّقييد الكبير، ص: 284.
(5) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/558.
(6) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/242.

﴿وَٱقۡتُلُوهُمۡ حَيۡثُ ثَقِفۡتُمُوهُمۡ وَأَخۡرِجُوهُم مِّنۡ حَيۡثُ أَخۡرَجُوكُمۡۚ وَٱلۡفِتۡنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلۡقَتۡلِۚ وَلَا تُقَٰتِلُوهُمۡ عِندَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِيهِۖ فَإِن قَٰتَلُوكُمۡ فَٱقۡتُلُوهُمۡۗ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ ١٩١﴾

[البقرة: 191]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

بيانُ إباحةِ القتال بعد تحريم الاعتداءِ:

حُرمةُ الحرَم مُعتبرةٌ، ولكنّ ردَّ العدوان لا مَناصَ منه

"ولَمَّا حرّم الاعتداءَ، صرّح بإباحة أصلِ القتال، فقال: ﴿وَٱقۡتُلُوهُمۡ﴾، أي الّذين يُقاتلونَكم ﴿حَيۡثُ ثَقِفۡتُمُوهُمۡ﴾"[1]، "بيّنتِ الآيةُ السّابقةُ، بعضَ أحكام القتال، وفي هذه الآية بيانٌ لبعضٍ آخرَ"[2]، "والآياتُ فصلٌ جديدٌ، وسِمةُ التّشريع بارزةٌ عليها. ووضعُها في ترتيبها، إمّا بسببِ نُزولها بعد سابقتِها، أو للمُماثَلةِ التّشريعيّة، ولقد روى المفسّرون رواياتٍ عديدةً في صددِ هذه الآيات ونزولِها، وقد احتوتْ قواعدَ تشريعيّةً خطيرةً، في هذا البابِ، غدَتْ روحَ المبادئ الجهاديّةِ الإسلاميّةِ وضابطَها"[3].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ثَقِفۡتُمُوهُمۡ﴾: من الجذر (ثَقِف)، يقال: ثَقِفْتُ بِهِ إِذَا ظَفِرْتَ بِهِ، إِذَا ثَقِفَهُ فَقَدْ أَمْسَكَهُ، وَكَذَلِكَ الظَّافِرُ بِالشَّيْءِ يُمْسِكُهُ[4]. "والثّقفُ وجودٌ على وجه الأخذِ والغَلَبة. ومنه: رجلٌ ثقِفٌ، سريعُ الأَخذ لأقرانِه"[5]. "و﴿ثَقِفۡتُمُوهُمۡ﴾ معناه أحْكَمتُم غلَبَهم، ولَقيتُموهم

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 3/108.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 2/584.
(3) محمّد عزّت دروزة، التّفسير الحديث (مرتّب حسب ترتيب النّزول): 6/327.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ثقف).
(5) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/236.

قادرين عليهم، يُقال رجل ثَقِفٌ لَقِفٌ إذا كان مُحكمًا لما يتناولُه من الأمور"[1]. و﴿حَيۡثُ ثَقِفۡتُمُوهُمۡ﴾: "أي حيثُ وَجدتُمُوهم"[2]. "ومعنى الآية: لا تَمْتنِعوا من قَتْلِهم في الحَرم وغيرِه"[3]، قال السّعدي: "ثمّ استُثْني من هذا العموم قتالُهم عند المسجد الحرام، وأنّه لا يجوز إلّا أن يَبدأوا بالقتال، فإنّهم يُقاتَلون جزاءً لهم على اعتدائهم"[4].

الفِتنةُ عند العرب الابتلاءُ والاختبارُ، والتّجربةُ والامتحانُ

2) ﴿وَٱلۡفِتۡنَةُ﴾: (فَتَنَ) أَصْلٌ صَحِيحٌ يَدُلُّ عَلَى ابْتِلَاءٍ وَاخْتِبَارٍ[5]، "ويُسمَّى الصّائغُ الفتَّانَ"[6]، "وأصلُ الفتنة إدخالُ الذّهبِ النّارَ للتّصْفيةِ، يُقال: فتنْتُ الذّهبَ، أي اختبرْتُه بالنّار، ثمّ استُعير لكلِّ اختبارٍ بأمرٍ محضٍ"[7]. و"سُمِّيَ الكفرُ فتنةً؛ لأنّ الكُفرَ إظهارُ الفساد عند الاختبارِ"[8]. قال الماورديّ: "وإنّما سُمّي الكفرُ فتنةً؛ لأنّه يُؤدّي إلى الهلاك كالفِتنة"[9]، وأصل الفِتْنَة عِنْد العَرَب الابْتِلَاءُ والاختبارُ، والتّجربةُ والامتحانُ؛ وهذه الالفَاظُ مَعْنَاهَا معنى الفِتْنَة، فَإذا جَاءَت الفِتْنَة مَجِيءَ الذَّمِّ، كَانَ ذَلِك غُلُوًّا في طلب مَا لَا يصلحُ الغُلُوُّ في طلبه، يُقَال هو مفتونٌ بِكَذَا، أَي قد أَفْرطَ في طلبه واتِّباعه، قَالَ: يُقَال: ﴿أَلَا فِي ٱلۡفِتۡنَةِ سَقَطُواْۗ﴾ [التوبة: 49]، يَعْنِي في الإثم وَمُخَالفَة الأَمر الوَاجب"[10].

القتلُ بغير حَقٍّ جريمةٌ لا تُغتفرُ

3) ﴿ٱلۡقَتۡلِۚ﴾: الجذر اللّغويّ (قتل) أَصْلٌ صَحِيحٌ يَدُلُّ عَلَى إِذْلَالٍ وَإِمَاتَةٍ. يُقَالُ: قَتَلَهُ قَتْلًا. وَالْقِتْلَةُ: الْحَالُ يُقْتَلُ عَلَيْهَا. يُقَالُ قَتَلَهُ قِتْلَةَ سُوءٍ. وَالْقَتْلَةُ: الْمَرَّةُ الْوَاحِدَةُ. وَمَقَاتِلُ الْإِنْسَانِ: الْمَوَاضِعُ الَّتِي إِذَا

(1) ابن عطيّة، المحرر الوجيز: 1/262.
(2) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 71، والزّجاج، معاني القرآن وإعرابه: 1/263.
(3) الزّجاج، معاني القرآن وإعرابه: 1/263.
(4) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 87.
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (فَتَنَ).
(6) الجوهريّ، الصّحاح: (فتن).
(7) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 1/405.
(8) الواحديّ، التّفسير البسيط: 3/625.
(9) الماورديّ، النّكت والعيون: 1/251.
(10) الميورقيّ، تفسير غريب ما في الصّحيحين البخاري ومسلم، ص: 183.

أُصِيبَتْ قَتَلَهُ ذَلِكَ[1]، و"يُقالُ: قتلهُ إذا أماتهُ بضربٍ أو جرحٍ أو علّةٍ، والمنيّةُ قاتلةٌ، وأقتلتُ فُلانًا: عرّضتُهُ للقتل"[2].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

واقتُلواْ الّذين يُقاتلونَكم منَ المشركين، حيث وجدتُموهم، وأَخرجُوهم منَ المكان الّذي أخرجُوكم منه، وهو (مكّة)، وهذا أمرٌ من اللّه تعالى بقتالهم أينما وُجدُواْ في كُلّ وقت، وفي كُلّ زمانٍ، قتالَ مُدافعة، وقتالَ مُهاجمة؛ والفتنةُ؛ وهي الكفرُ والشِّركُ والصّدُّ عنِ الإسلامِ، أشدُّ من قتلِكم إيّاهم.

ولّما كان القتالُ عند المسجد الحرام، يُتوهّمُ أنّهُ مفسدةٌ في هذا البلد الحرام، أخبر تعالى أنّ المفسدةَ بالفتنة عنده بالشّرك، والصّدِّ عن دينه، أشدُّ من مفسدةِ القتل، فليس عليكم - أيّها المسلمون - حرجٌ في قتالهم، لكن لا تَبدَؤُوهم بالقتال عند المسجدِ الحرام؛ تعظيمًا لحُرُماته حتّى يَبدؤوكم بالقتال فيه، فإنْ قاتلوكم في المسجد الحرام، فاقْتلُوهم فيه؛ فإنّهم يُقاتَلون جزاءً لهم على اعتدائِهم، وهذا مستمرٌّ في كلّ وقت، حتّى يَنتهُواْ عن كفرهم فيُسلموا، وهذا من رحمته وكرمِه سبحانه بعباده. وإلّا فمِثْلُ ذلك الجزاءِ الرّادعِ يكون جزاءَ الكافرين.

وهذه الآية دليل على القاعدةِ المشهورةِ، وهي: أنّه يرتكبُ أخفُّ المفسدتين، لدفعِ أعلاهما[3].

❁ الإيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

دلالةُ عطفِ ﴿وَٱقۡتُلُوهُمۡ﴾ على ﴿وَقَٰتِلُواْ﴾:

مقاتلةُ الأعداءِ عندَ اعتدائِهم، وقتلُهم بسببِ اعتدائهم

عُطف قولُه تعالى: ﴿وَٱقۡتُلُوهُمۡ حَيۡثُ ثَقِفۡتُمُوهُمۡ﴾ على قولِه تعالى: ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ﴾ والجملةُ المعطوفةُ وَإِنۡ كَانَتۡ مُكَمِّلَةً للجملةِ المعطوفِ عليها، "بِاعْتِبَارِ أَنَّ مَا تَضَمَّنَتْهُ قَتْلٌ خَاصٌّ غَيْرُ قِتَالِ الوَغَى، فَحَصَلَتِ المُغَايِرَةُ المُقْتَضِيَةُ العَطْفَ؛ وَلِذَلِكَ قَالَ

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (قتل).
(2) الخليل، كتاب العين: (قتل).
(3) نخبة من العلماء، التّفسير الميسّر: ص: 30، والسّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 89.

هُنَا، ﴿وَٱقۡتُلُوهُمۡ﴾، وَلَمۡ يَقُلۡ: ﴿وَقَٰتِلُواْ﴾"[1]، كما قال في التي قبلها، فتلك أمرٌ بمقاتلةِ الذين يقاتلوننا، وهذه أمرٌ بقتل المعتدين.

دلالة الظَّرفِ ﴿حَيۡثُ﴾ بعد الأمرِ في قوله تعالى: ﴿وَٱقۡتُلُوهُمۡ حَيۡثُ ثَقِفۡتُمُوهُمۡ﴾:

تعميمُ إباحةِ ردِّ العُدوان في المكان والزّمان

أفادَ الظَّرفُ ﴿حَيۡثُ﴾ معنى العموم، فقولُه تعالى: ﴿وَٱقۡتُلُوهُمۡ حَيۡثُ ثَقِفۡتُمُوهُمۡ﴾ "أَمْرٌ بِقَتْلِ مَنْ يُعْثَرُ عَلَيْهِ مِنْهُمْ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِي سَاحَةِ القِتَالِ، فَإِنَّهُ بَعْدَ أَنْ أَمَرَهُمْ بِقِتَالِ مَنْ يُقَاتِلُهُمْ، عَمَّمَ المَوَاقِعَ وَالبِقَاعَ، زِيَادَةً فِي أَحْوَالِ القَتْلِ، وَتَصْرِيحًا بِتَعْمِيمِ الأَمَاكِنِ، فَإِنَّ أَهَمِّيَّةَ هذا الغَرَضِ تَبْعَثُ عَلَى عَدَمِ الاكْتِفَاءِ بِاقْتِضَاءِ عُمُومِ الأَشْخَاصِ تَعْمِيمَ الأَمْكِنَةِ، لِيَكُونَ المُسْلِمُونَ مَأْذُونِينَ بِذَلِكَ، فَكُلُّ مَكَانٍ يَحُلُّ فِيهِ العَدُوُّ، فهو مَوْضِعُ قِتَالٍ، فَالمَعْنَى: وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ إِنْ قَاتَلُوكُمْ"[2]. "أي: أين وجدتُموهم، في الحِلِّ والحَرم، وفي الأشهُرِ الحُرُم وفي غيرِ الأشهُر الحُرم؛ أي: هم الّذين هَتكوا حُرمةَ الحرم والشَّهر الحرام بالبداية، فجازُوهم بمثله"[3]، "فمعنى: ﴿وَٱقۡتُلُوهُمۡ حَيۡثُ ثَقِفۡتُمُوهُمۡ﴾، اقتلوهم في أيّ مكان تمكَّنْتُم من قَتْلهم، وأبصرتُم مقاتلَهم"[4]، "وضميرُ المفعول عائدٌ على: الّذين يُقاتلونكم، وهذا أمرٌ بقتْلهم، و: ﴿حَيۡثُ ثَقِفۡتُمُوهُمۡ﴾، عامٌّ في كلّ مكانٍ حِلٍّ أو حرمٍ، ويلزم منه عمومُ الأزمان، في شهر الحرام وفي غيره، وفي (المنتخب): أمرَ في الآية الأولى بالجهاد بشرط إقدام الكفّار على المقاتَلة، وفي هذه الآية زاد في التّكليف، فأمرَ بالجهاد معهم، سواء قاتلُواْ أم لم يُقاتِلواْ، واستثنى منه المقاتلةَ عند المسجدِ الحَرام"[5].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/201.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/201.
(3) النّسفيّ، التّيسير في التّفسير: 3/114.
(4) ابن جرير، جامع البيان: 3/564.
(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/243.

عمومُ الخِطابِ وإن كان متَّجهًا لخاصٍّ في قولِه: ﴿وَٱقۡتُلُوهُمۡ﴾:

الإسلامُ دينٌ يأمرُ بحفظِ الكيانِ والأوطانِ وكرامةِ الإنسان

خاطبتِ الآيةُ المؤمنين في قولِه تعالى: ﴿وَٱقۡتُلُوهُمۡ حَيۡثُ ثَقِفۡتُمُوهُمۡ﴾، والمقصودُ بالضَّميرِ المشركون[1]، والخِطَابُ وإن كان واقعًا عَلَى النَّبِيِّ ﷺ وَمَنۡ هَاجَرَ مَعَهُ، لكنَّ الغَرَضَ بِهِ لَازِمٌ لِكُلِّ مُؤۡمِنٍ، وَالضَّمِيرُ في قوله: اقۡتُلُوهُمۡ عَائِدٌ إِلَى الَّذِينَ أَمَرَ بِقَتۡلِهِمۡ فِي الآيَةِ الأُولَى وَهُمُ الكُفَّارُ مِنۡ أَهۡلِ مَكَّةَ[2].

إطلاقُ الكلِّ وإرادةُ البعضِ، في قوله تعالى: ﴿أَخۡرَجُوكُمۡۚ﴾:

إخراجُ أصلِ الأمَّةِ ومعاداتُه هو معاداةٌ للأمَّةِ كلِّها

المشركون لم يُخرِجوا جميع المؤمنين من مكَّة، وإنَّما أخرجوا "بعضَهم الأجلَّ قدرًا، وهمُ النّبيُّ ﷺ والمهاجرون"[3]، وهذا من إطلاقِ الكلِّ وإرادةِ البعضِ، ونكتتُه أنَّ العبرةَ كامنةٌ في كونِ المخرَجين هم أصلُ الأمَّة، فبإخراجهم يكونُ الإخراج للجميع، "فجَعَلَ إِخۡرَاجَ بَعۡضِهِمۡ - وهو أَجَلُّهُمۡ قَدۡرًا رسولُ الله ﷺ وَالمُهَاجِرُونَ -، إِخۡرَاجًا لِكُلِّهِمۡ"[4]، ومَن عادى الرَّسولَ ﷺ أو أصحابَه، أو علماءَ الأمَّة المتَّبعين له في أيِّ زمانٍ أو مكانٍ، فإنَّما يكونُ قد عادى الأمَّةَ كلَّها، ويستحقُّ العقوبةَ من الأمَّةِ كلِّها، إذِ الخطابُ في قولِه: ﴿وَأَخۡرِجُوهُم مِّنۡ حَيۡثُ أَخۡرَجُوكُمۡۚ﴾ للأمَّةِ.

فيكونُ الخطابُ في قولِه: ﴿وَأَخۡرِجُوهُم﴾ عامًّا مرادًا به العموم، وقوله: ﴿أَخۡرَجُوكُمۡۚ﴾ عامًّا مرادًا به الخُصُوص؛ وهذا من بديع دلالات العامِّ والخاصِّ في القرآنِ الكريم.

سِرُّ التَّعبيرِ بلفظِ (ثَقِف) لا بلفظِ (وَجَدَ):

الأمَّةُ القويَّةُ تتمنَّعُ عنِ المتربِّصين، وتَحمِي نفسَها منَ الغازِين المحتلِّين

استعملَ النَّظمُ (ثَقِفَ) لا (وَجَدَ) في قولِه تعالى: ﴿وَٱقۡتُلُوهُمۡ حَيۡثُ ثَقِفۡتُمُوهُمۡ﴾، ذلك أنَّ معنى ثَقِفۡتُ بِهِ، أي: ظَفِرۡتُ بِهِ، إِذَا ثَقِفَهُ

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 1/262.
(2) الفخر الرّازيّ، التّفسير الكبير: 5/289.
(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 1/262.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/243.

فَقَدْ أَمْسَكَهُ، وَكَذَلِكَ الظَّافِرُ بِالشَّيْءِ يُمْسِكُهُ[1]، والثّقفُ وجودٌ على وجه الأخذِ والغَلَبة والسُّرعة في أَخذ الأقرانِ[2]، بخلافِ (وجد) فهي تدلُّ على مطلقِ الوجدانِ، ولا تُفيدُ معنى الأخذِ والغلبةِ، ففيه دليلٌ على أنَّ المطلوبَ هو القتلُ حين التَّغلُّب والقوَّة، لا مجرّد الوجدان، وفي ذلك أمرٌ ضمنيٌّ في الاستعدادِ ليكون المؤمنون قادرين على التُّغلّب والأخذ بقوّة.

دلالةُ الأمرِ في قولِه تعالى: ﴿وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ﴾:

إيماءٌ إلى خبرٍ غيبيٍّ في الأمرِ التّشريعي

تضمَّن الأمرُ التَّشريعيُّ في قولِه تعالى: ﴿وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ﴾ إيماءً إلى خبرٍ غيبيٍّ وهوفتح مكَّة، إذِ الإخراج كان منها، "وهو أَمْرٌ بِالإِخْرَاجِ أَمْرَ تَمْكِينٍ، فَكَأَنَّهُ وَعْدٌ مِنَ اللَّهِ بِفَتْحِ مَكَّةَ، وَقَدْ أَنْجَزَ مَا وَعَدَ، وَقَدْ فَعَلَ ذَلِكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَوْمَ فَتْحِ مَكَّةَ بِمَنْ لَمْ يُسْلِمْ مَعَهُمْ"[3]، وَفِي هَذَا الأمرِ تَهْدِيدٌ لِلْمُشْرِكِينَ بفتحِ مكَّة؛ "فَيَكُونُ هذا اللِّقَاءُ لِهَذِهِ الْبُشْرَى فِي نُفُوسِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَسْعَوْا إِلَيْهِ حَتَّى يُدْرِكُوهُ وَقَدْ أَدْرَكُوهُ بَعْدَ سَنَتَيْنِ، وَفِيهِ وَعْدٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى لَهُمْ بِالنَّصْرِ"[4]، و"الإِخْرَاجَ يَحْتَمِلُ وَجْهَيْنِ أَحَدُهُمَا: أَنَّهُمْ كَلَّفُوهُمُ الْخُرُوجَ قَهْرًا، وَالثَّانِي: أَنَّهُمْ بَالَغُوا فِي تَخْوِيفِهِمْ وَتَشْدِيدِ الأَمْرِ عَلَيْهِمْ، حَتَّى صَارُوا مُضْطَرِّينَ إِلَى الْخُرُوجِ"[5].

دلالةُ عطفِ الإخراجِ على القتلِ، ودفعُ ظاهرِ التَّعارُض بينهما:

القتلُ مقدّمةُ الإخراجِ ووسيلتُه، لا نهايتُه وغايتُه

سئل ابنُ عرَفةَ فقيل له: إنَّ في ظاهر الآيةِ تنافيًا؛ لأنّ الأمرَ في قولِه: ﴿وَٱقْتُلُوهُمْ﴾ يقتضي استئصالَهم وعدمَ إحياءِ أحدٍ منهم، وقولُه: ﴿وَأَخْرِجُوهُم﴾ يقتضي إحياءَ بعضِهم حتّى يتناولَه الإخراجُ؛ فلا يبقى للإخراج محلٌّ؟! فأجاب بوجهين:

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ثقف).
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/236.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/243، وينظر: الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/236، والصّاويّ، حاشية الصّاويّ: 1/82.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/202.
(5) الفخر الرّازي، التّفسير الكبير: 5/289.

الأوّل: أنّ الاستيلاءَ عليهم تارةً يكون عامًّا، بحيث لا تَبقى لهم ممانعةٌ بوجهٍ، فهنا يُقتلون، وتارة يكونُ دونَ ذلك، بحيث يَستولي المسلمون على وطنهم، ويَمتنعون هم منهم في حِصنٍ ونحوِه، حتّى لا يكونَ لهم قوّةٌ على المسلمين، ولا للمسلمين قدرةٌ على قتْلِهم، فهنا يُصالحونهم على أن يَخرجُواْ ليَنْجوا بأنفسهم خاصّة.

الثّاني: أنّهم يُخرجون أوّلًا، ثمّ يُقتلون بعد الإخراج، والواوُ لا تفيدُ رتبةً؛ ففي الآية التّقديمُ والتّأخير[1].

والوجه الثّاني بعيدٌ، إذِ الأصلُ أن يبقى النَّظمُ على ترتيبه، والصَّحيح أنَّ الأمرَ بالقتلِ لا يُراد به قتلُ الاستئصال، بل القتلُ الذي من شأنِه إضعافهم قبلَ إخراجِهم؛ فهو مقدِّمةُ الإخراج، وعليه فالقتلُ أوَّلًا، حتَّى يحصل الضَّعفُ منهم فيُخرَجون.

المرادُ بـ﴿حَيۡثُ﴾ في قولِه تعالى: ﴿وَأَخۡرِجُوهُم مِّنۡ حَيۡثُ أَخۡرَجُوكُمۡۚ﴾:

دلالـــةُ (حيث) على مكَّة؛ لأنَّها موضعُ الإخراج

الإخراجُ كان من مكّة، فمقتضى الجزاءِ العادلِ إخراجُ المُشركين الذين أخرَجوا المؤمنين منها، وعليه فالظَّرفُ ﴿حَيۡثُ﴾ يحْتَمِلُ "وَجْهَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: أَخْرِجُوهُمْ مِنَ المَوْضِعِ الَّذِي أَخْرَجُوكُمْ؛ وَهُوَ مَكَّةُ.

وَالثَّانِي: أَخْرِجُوهُمْ مِنْ مَنَازِلِكُمْ.

إِذَا عَرَفْتَ هَذَا فَنَقُولُ: إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَمَرَ المُؤْمِنِينَ بِأَنْ يُخْرِجُواْ أُولَئِكَ الكُفَّارَ مِنْ مَكَّةَ، إِنْ أَقَامُواْ عَلَى شِرْكِهِمْ إِنْ تَمَكَّنُواْ مِنْهُ، لَكِنَّهُ كَانَ فِي المَعْلُومِ أَنَّهُمْ يَتَمَكَّنُونَ مِنْهُ فِيمَا بَعْدُ، وَلِهَذَا السَّبَبِ أَجْلَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ كُلَّ مُشْرِكٍ مِنَ الحَرَمِ"[2].

بلاغةُ التَّذييلِ في قولِه تعالى: ﴿وَٱلۡفِتۡنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلۡقَتۡلِۚ﴾:

إقامةُ الحجَّةِ، ورفعُ التَّبعةِ، ودفعُ الاعتراضِ

غرضُ التّذييل في قولِه تعالى: ﴿وَٱلۡفِتۡنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلۡقَتۡلِۚ﴾ بيانُ حُجّةِ الأمرِ بالقِتالِ في الشّهرِ الحرامِ، ورفْعُ التَّبعةِ، تَجْسيرًا للمسلمين، ورَفعًا لمعنويّاتهم[3]، وجوابٌ عن اعتراضِ معترِضٍ، أو سؤال سائلٍ

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/559.

(2) الرّازي، التّفسير الكبير: 5/289.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/202.

عن قتلِ المشركين في الحرم، وفي الأشهر الحرم؟ فالجواب: "إنْ خفتم أن تُقاتلوهم في الشّهر الحرام، وراعيتُم حرمةَ الشّهر والإحرام والحرَم، فالشّركُ الّذي حصل منهم الّذي فيه تهاونٌ بربّ الحرَم أبلغُ"[1]، و"الفتنةُ الّتي فعلواْ أشدُّ في هَتْكِ حُرمات الحقِّ، منَ القتل الّذي أُبيحَ لكم - أيّها المؤمنون - أن تُوقِعُوه بهم"[2].

سِرُّ التَّعبيرِ بالفتنةِ عنِ الكفرِ:

الكُفرُ فتنةٌ عُظمى؛ لأنّه يُؤدِّي إلى الاضطراب والظُّلم

سمَّى اللّه الكفرَ في قوله: ﴿وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ﴾ فتنةً؛ "لِأَنَّهُ فَسَادٌ في الأَرْضِ يُؤَدِّي إِلَى الظُّلْمِ وَالهَرْجِ، وفيه الفِتْنَةُ، وَإِنَّمَا جَعَلَ الكُفْرَ أَعْظَمَ مِنَ القَتْلِ؛ لِأَنَّ الكُفْرَ ذَنْبٌ يَسْتَحِقُّ صَاحِبُهُ بِهِ العِقَابَ الدَّائِمَ، وَالقَتْلُ لَيْسَ كَذَلِكَ، وَالكُفْرُ يَخْرُجُ صَاحِبُهُ بِهِ عَنِ الأُمَّةِ، والقَتْلُ لَيْسَ كَذَلِكَ فَكَانَ الكُفْرُ أَعْظَمَ مِنَ القَتْلِ، وَرُوِيَ في سَبَبِ نُزُولِ هَذِهِ الآيَةِ أَنَّ بَعْضَ الصَّحَابَةِ كَانَ قَتَلَ رَجُلًا مِنَ الكُفَّارِ في الشَّهْرِ الحَرَامِ، فالمؤمنون عابُوه على ذلك، فَأَنْزَلَ اللّهُ تَعَالَى هذه الآيَةَ، فَكَانَ المَعْنَى: لَيْسَ لَكُمْ أَنْ تَسْتَعْظِمُواْ الإِقْدَامَ عَلَى القَتْلِ في الشَّهْرِ الحَرَامِ، فَإِنَّ إِقْدَامَ الكُفّار على الكُفْرِ في الشَّهْرِ الحَرَامِ أَعْظَمُ مِنْ ذَلِكَ"[3].

سُمِّيَ الكُفرُ فِتنةً: لأنّ الكُفرَ إظهارُ الفسَاد عند الاختبارِ

أصلُ الفِتْنَةِ في اللُّغة: "عَرْضُ الذَّهَبِ عَلَى النَّارِ؛ لِاسْتِخْلَاصِهِ مِنَ الغِشِّ، ثُمَّ صَارَ اسْمًا لِكُلِّ مَا كَانَ سَبَبًا لِلِامْتِحَانِ، تَشْبِيهًا بِهَذَا الأَصْلِ، وَالمَعْنَى: أَنَّ إِقْدَامَ الكُفَّارِ على الكُفْرِ، وعلى تَخْوِيفِ المُؤْمِنِينَ، وعلى تَشْدِيدِ الأَمْرِ عَلَيْهِمْ بِحَيْثُ صَارُواْ مُلْجَئِينَ إِلَى تَرْكِ الأَهْلِ والوَطَنِ، هَرَبًا مِنْ إِضْلَالِهِمْ في الدِّينِ، وَتَخْلِيصًا لِلنَّفْسِ مِمَّا يَخَافُونَ وَيَحْذَرُونَ، فِتْنَةٌ شَدِيدَةٌ، بَلْ هي أَشَدُّ مِنَ القَتْلِ الَّذِي يَقْتَضِي

(1) الصّاويّ، حاشية الصّاويّ: 1/83.
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 1/262.
(3) الرّازي، التّفسير الكبير: 5/289.

التَّخْلِيصَ مِنْ غُمُومِ الدُّنْيَا وَآفَاتِهَا، وقَالَ بَعْضُ الحُكَمَاءِ: مَا أَشَدُّ مِنْ هَذَا القَتْلِ الَّذِي أَوْجَبَهُ عَلَيْكُمْ جَزَاءً غَيْرَ تِلْكَ الفِتْنَةِ"[1].

بلاغةُ التَّعبيرِ بالمصدرِ في ﴿وَٱلْفِتْنَةُ﴾ و﴿ٱلْقَتْلِ﴾:

تسليطُ الضَّوءِ على ماهيَّةِ الفتنةِ لا على الفاعلِ أو المفعولِ

قال أبو حيّان: "والفتنةُ والقتلُ مصدران لم يُذكر فاعلُهما، ولا مفعولُهما، وإنّما أقرّ أنّ ماهيةَ الفتنة، أشدُّ من ماهية القتل؛ فكلُّ مكانٍ تتحقّقُ فيه هذه النّسبةُ، كان داخلاً في عُمومِ هذه الأخبار، سواءً كان المصدرُ فاعلَه أم مفعولَه: المؤمنون أم الكافرون، وتعيينُ نوعٍ ما من أفراد العموم يحتاجُ إلى دليلٍ"[2].

الفِتنةُ أعمُّ من مجرَّدِ الإخراجِ:

التَّذييلُ أعمُّ من الكلامِ المذيَّلِ

إنّ الضّررَ الدّائمَ المكرّرَ، أشدُّ منَ العظيم المُنقطع، والمحنةُ الّتي يدوم ألمُها أشدُّ منَ الألم الكبيرِ لمرّةٍ واحدةٍ، بمعنى أنَّ" المحنة الّتي يُفتتن بها الإنسانُ، كالإخراج منَ الوطن، أصعبُ منَ القتل، لدوام تَعبها وتألّم النّفس بها"[3]، "وَإِنَّمَا كَانَتِ الفِتْنَةُ أَشَدَّ مِنَ القَتْلِ لِتَكَرُّرِ إِضْرَارِهَا بِخِلَافِ أَلَمِ القَتْلِ ... وَلَيْسَ المُرَادُ مِنَ الفِتْنَةِ خُصُوصَ الإِخْرَاجِ مِنَ الدِّيَارِ؛ لِأَنَّ التَّذْيِيلَ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ أَعَمَّ مِنَ الكَلَامِ المُذَيَّلِ"[4].

جريانُ الجملة القرآنيّة مجرى الأمثالِ:

المعنى الشريفُ، واللَّفظ الفريدُ، والنَّظم العزيزُ سرُّ بلاغةِ المَثَلِ

جرى قولُه تعالى: ﴿وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ﴾ مجرى الأمثالِ، ففيه "فنُّ إرسالِ المثَل، فهي جملةٌ مَسوقةٌ مساقَ المثَل؛ لأنّ الإخراجَ منَ الوطنِ هو الفتنةُ الّتي ما بعدها فتنةٌ، وقيل لبعضهم: ما أشدُّ منَ الموت؟ قال: الّذي يُتمنّى معه الموتُ، والإخراجُ منَ الوطن بمثابةِ إخراجِ الرُّوح منَ الجسْم"[5]، لما في ذلك من فَصْمِ المُبعَد عن

(1) الرّازيّ، التّفسير الكبير: 5/289-290.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/244.
(3) البيضاويّ، أنوار التنّزيل: 1/128.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتنّوير: 2/202.
(5) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 1/281.

مسْقط رأسِه، ومَدرج صباه، وذكرياتِ طُفولتِه، ولن يُعوَّضَ المُغتربُ عن وطنه، مهما كان الوطنُ بسيطًا وقليلَ الإمكانيات؛ لأنّه رسَخ في نفسه حبُّه، فلا يَبغِي به بديلاً، وفي هذا يقول القائلُ:

بِلَادٌ أَلِفْنَاهَا عَلَى كُلِّ حَالَةٍ *** وَقَدْ يُؤْلَفُ الشَّيْءُ الّذِي لَيْسَ بِالحَسَنْ
وتُسْتَعْذَبُ الأَرْضُ الّتِي لَا هَوَا بِهَا *** وَلَا مَاؤُهَا عَذْبٌ، وَلَكِنَّهَا وَطَنْ[1]

استثناءُ القتالِ في المَسْجِدِ الحَرامِ: ﴿وَلَا تُقَٰتِلُوهُمۡ عِندَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ﴾:

حرمةُ المسجدِ الحرام تقتضي أنْ لا قتالَ فيه إلّا عند بداءةِ المشركين

نهى اللّه سبحانه وتعالى عن مقاتلةِ المشركين في المسجدِ الحرام إلَّا في حالةِ ابتدائهم فقال تعالى: ﴿وَلَا تُقَٰتِلُوهُمۡ عِندَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِيهِۖ﴾ "أي: لا تُفاتحوهم بالقتال وهَتْكِ حُرمة المسجد الحرام"[2]، "﴿حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِيهِۖ﴾، أي: يَبدؤوكم بالقتال، ﴿فَإِن قَٰتَلُوكُمۡ﴾، أي: بَدؤوكم بالقتال، ﴿فَٱقۡتُلُوهُمۡۗ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾، أي هكذا جزاؤُهم القتلُ في الحرم وغيره"[3].

وفي ذلك "حِفْظُ حُرْمَةِ المَسْجِدِ الحَرَامِ الَّتِي جَعَلَهَا اللّهُ لَهُ بِقَوْلِهِ: ﴿مَّقَامُ إِبۡرَٰهِيمَۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنٗاۗ﴾ [آل عمران: 97]، فَاقْتَضَتِ الآيَةُ مَنْعَ المُسْلِمِينَ مِنْ قِتَالِ المُشْرِكِينَ عِنْدَ المَسْجِدِ الحَرَامِ، وَتَدُلُّ عَلَى مَنْعِهِمْ مِنْ أَنْ يَقْتُلُوا أَحَدًا مِنَ المُشْرِكِينَ دُونَ قِتَالٍ عِنْدَ المَسْجِدِ الحَرَامِ بِدَلَالَةِ لَحْنِ الخِطَابِ أَوْ فَحْوَى الخِطَابِ"[4]؛ فقولُه تعالى: ﴿وَلَا تُقَٰتِلُوهُمۡ عِندَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ﴾ استثناءٌ من قوله: ﴿وَٱقۡتُلُوهُمۡ حَيۡثُ ثَقِفۡتُمُوهُمۡ﴾، وهذا حُكمٌ عند أكثرِ الفقهاء فإنّه لا يُقاتَلُ في الحرم إلّا من بدأ القتالَ.

بيانُ المجازِ المُرسَل في قوله تعالى: ﴿عِندَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ﴾:

المرادُ بقولِه تعالى: ﴿عِندَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ﴾ "الحَرَمُ كلُّه، ففيه

(1) الأبشيهيّ، المستطرف من كلّ فنّ مستظرف: 2/93.
(2) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 1/128.
(3) السّمرقنديّ، بحر العلوم: 1/128.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/203.

تعظيمُ المسجدِ الحرامِ يقتضي حرمةَ الحَرم كلِّه

مجازٌ مُرسَلٌ من إطلاق اسم الجُزء على الكُلّ"[1]، والظّرفُ (عند) هنا مرتبِطٌ بدلالة الآية: ﴿وَلَا تُقَٰتِلُوهُمۡ عِندَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِيهِۖ فَإِن قَٰتَلُوكُمۡ فَٱقۡتُلُوهُمۡۗ﴾، وفي ذلك تعظيمُ المسجدِ الحرامِ، إذ ما كان الحرمُ محرَّمًا لولا المسجد الحرام، وفي هذا الحكمِ قولان: أحدُهما: أنّ ذلك منسوخٌ؛ لأنّ اللّه تعالى قد نَهى عن قتالِ أهلِ الحَرم، إلّا أن يبدؤواْ بالقتال، ثمّ نَسخَ ذلك بقوله: ﴿وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ﴾، وهذا قول قتادة. والقول الثّاني: أنّها محكمةٌ، وأنّه لا يجوزُ أن نَبدأ بقتال أهل الحَرم، إلّا أن يَبدؤُواْ بالقتال، وهذا قولُ مجاهد"[2]، والصَّحيح أنَّه محكمٌ غير منسوخٍ.

الآيـةُ تـؤكّـد أنّ الـقـتـل، هـو مُجازاةُ اعتداءٍ، لا مبادرةٌ به

"وَجُعِلَتۡ غايةُ النَّهْيِ بِقَوْلِهِ: ﴿حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِيهِۖ فَإِن قَٰتَلُوكُمۡ فَٱقۡتُلُوهُمۡ﴾، أَيْ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ عِنْدَ المَسْجِدِ فَاقْتُلُوهُمْ عِنْدَ المَسْجِدِ الحَرَامِ، لِأَنَّهُمْ خَرَقُواْ حُرْمَةَ المَسْجِدِ الحَرَامِ، فَلَوْ تُرِكَتْ مُعَامَلَتُهُمْ بِالمِثْلِ، لَكَانَ ذَلِكَ ذَرِيعَةً إِلَى هَزِيمَةِ المُسْلِمِينَ، فَإِنْ قَاتَلُواْ المُسْلِمِينَ عِنْدَ المَسْجِدِ الحَرَامِ، عَادَ أَمْرُ المُسْلِمِينَ بِمُقَاتَلَتِهِمْ إِلَى مَا كَانَ قَبْلَ هَذَا النَّهْيِ، فَوَجَبَ عَلَى المُسْلِمِينَ قِتَالُهُمْ عِنْدَ المَسْجِدِ الحَرَامِ، وَقَتْلُ مَنْ ثُقِفُوا مِنْهُمْ كَذَلِكَ"[3]، قال الواحديّ: "أعلمَ اللّه أنّ أمرَ هذه الحُرمات قصاصٌ لا يكون للمسلمين أن يَنتهكوها على سبيل الاعتداءِ، ولكنْ على سبيل القِصاص، كقوله: ﴿وَلَا تُقَٰتِلُوهُمۡ عِندَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِيهِ﴾ ويدلُّ على هذا المعنى قولُه: ﴿فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ﴾ [البقرة: 194] أي: ظلَم فقاتَل، ﴿فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ بِمِثۡلِ مَا ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡۚ﴾ [البقرة: 194] أي: جازوه باعتدائه وقاتِلوه، فسمّى الثّاني اعتداءً، لأنّه مُجازاة اعتداءٍ"[4].

(1) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 3/196.
(2) الماورديّ، النّكت والعيون: 1/252.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/203.
(4) الواحديّ، الوسيط: 1/293.

الإيجازُ بالحذف في قوله تعالى: ﴿فَإِن قَٰتَلُوكُمۡ فَٱقۡتُلُوهُمۡ﴾:

عدالةُ التَّشريعِ بقتلِ المعتدي، ومنعِ الاعتداءِ ابتداءً

في قوله تعالى: ﴿فَإِن قَٰتَلُوكُمۡ فَٱقۡتُلُوهُمۡ﴾ تَصْرِيحٌ بِمَفْهُومِ الغَايَةِ، وفيه مَحْذُوفٌ، وتقديره: "فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فِيهِ فَاقْتُلُوهُمْ فِيهِ، ودَلَّ عَلَى إِرَادَتِهِ سِيَاقُ الكَلَامِ"[1]، "فإنّ هذا أمرٌ بأن يُقاتِلوا في الحرم إذا قُوتلوا، وذاك أمرٌ بالقتل قُوتِلوا أو لم يُقاتَلوا، فإذن الثّاني زيادةٌ في الأمر بالقتال، ثم قال: ﴿فَإِن قَٰتَلُوكُمۡ﴾، أي: حاربوكم فاقْتُلوهم، وبيّن أنَّ هذا حكمُ كلِّ كافرٍ يحاربُ المؤمنين"[2].

أثرُ التَّهديدِ في كبحِ جماحِ الكافرين

الأمرُ في قوله تعالى: ﴿فَٱقۡتُلُوهُمۡۗ﴾ يُشيرُ إِلَى القَتْلِ الحقيقيِّ، "أَيْ: كَذَلِكَ القَتْلُ جَزَاؤُهُمْ ... ونُكْتَةُ الإِشَارَةِ تَهْوِيلُهُ، أَيْ: لَا يَقِلُّ جَزَاءُ المُشْرِكِينَ عَنِ القَتْلِ وَلَا مَصْلَحَة في الإِبْقَاءِ عَلَيْهِمْ وَهَذَا تَهْدِيدٌ لَهُمْ"[3]، وفائدتُه تكمن في كبحِ جماحِ الكافرين؛ فإنَّ معرفتَهم بأنَّ نهايتَهم القتل تقودُ إلى امتناعِهم عن الاعتداءِ، وفي ذلك مصلحةٌ عظيمةٌ للأمَّة، ولذلك كان الأمرُ بالقتلِ فيه لا في مكانٍ آخر، "﴿فَإِن قَٰتَلُوكُمۡ﴾، أي: فيه، فلا تَفتقِرون إلى الفرار عنِ الحَرم، فَاقْتُلُوهُمْ فيه، إذ لا حُرمةَ لهم، لهتْكِهم حُرمةَ المسجد الحرام، ﴿كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾، لا يُتركُ لهم حُرمةٌ كما لم يَتركُوا حُرمةَ اللّه في آياته"[4].

سرُّ العُدولِ عن صِيغة المُفاعلة في قوله: ﴿فَٱقۡتُلُوهُمۡ﴾:

بشارةٌ بالظَّفر والمُكنةِ والغلبةِ على المشركين

جاء التَّعبيرُ بغير صيغةِ المفاعلة في قوله تعالى: ﴿فَٱقۡتُلُوهُمۡ﴾؛ وسرُّ "العُدول عن صِيغة المفاعَلة التي بها وردَ النّهيُ والشّرطُ عِدَةً بالنّصر والغلبة"[5]، "وَفِيهِ بِشَارَةٌ عَظِيمَةٌ بِالغَلَبَةِ عَلَيْهِمْ، أَيْ: هُمْ مِنَ الخِذْلَانِ وَعَدَمِ النُّصْرَةِ بِحَيْثُ أُمِرْتُمْ بِقَتْلِهِمْ لَا بِقِتَالِهِمْ، فَأَنْتُمْ

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/245.
(2) الراغب، تفسير الرّاغب: 1/407.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/206.
(4) القاسميّ، محاسن التأويل: 2/58.
(5) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 1/204.

مُتَمَكِّنُونَ مِنْهُمْ بِحَيْثُ لَا يَحْتَاجُونَ إِلَّا إِلَى إِيقَاعِ القَتْلِ بِهِمْ، إِذَا نَاشَبُوكُمُ القِتَالَ لَا إِلَى قِتَالِهِمْ"[1]، وهي "تَنْبِيهٌ عَلَى الإِذْنِ بِقَتْلِهِمْ حِينَئِذٍ، وَلَوْ فِي غَيْرِ اشْتِبَاكٍ مَعَهُمْ بِقِتَالٍ، لِأَنَّهُمْ لَا يُؤْمَنُونَ مِنْ أَنْ يَتَّخِذُوا حُرْمَةَ المَسْجِدِ الحَرَامِ وَسِيلَةً لِهَزْمِ المُسْلِمِينَ، وَلِأَجْلِ ذَلِكَ جَاءَ التَّعْبِيرُ بِقَوْلِهِ: ﴿فَٱقْتُلُوهُمْ﴾؛ لِأَنَّهُ يَشْمَلُ القَتْلَ بِدُونِ قِتَالٍ وَالقَتْلَ بِقِتَالٍ، فَقَوْلُهُ تَعَالَى: "﴿فَإِن قَٰتَلُوكُمْ﴾، أَيْ عِنْدَ المَسْجِدِ الحَرَامِ، فَاقْتُلُوهُمْ هُنَالِكَ، أَيْ فَاقْتُلُوا مَنْ ثَقِفْتُمْ مِنْهُمْ حِينَ المُحَارَبَةِ، وَلَا يَصُدُّكُمُ المَسْجِدُ الحَرَامُ عَنْ تَقَصِّي آثَارِهِمْ، لِئَلَّا يَتَّخِذُوا المَسْجِدَ الحَرَامَ مَلْجأ يَلجؤون إِلَيْهِ إِذَا انْهَزَمُوا"[2].

توجيهُ القراءاتِ القرآنيّة:

المجازُ في قراءة الأمرِ بالقتل دون المُقاتَلة

قَرَأَ جُمْهُورُ القرَّاءِ: ﴿وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ فِيهِ ۖ فَإِن قَٰتَلُوكُمْ﴾ "ثَلَاثَتُهَا بِأَلِفٍ بَعْدَ القَافِ، وَقَرَأَ حَمْزَةُ وَالكِسَائِيُّ: ﴿وَلَا تَقْتُلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يَقْتُلُوكُمْ فِيهِ ۖ فَإِن قَتَلُوكُمْ﴾ بِدُونِ أَلِفٍ بَعْدَ القَافِ، فَقَالَ الأَعْمَشُ لِحَمْزَةَ: أَرَأَيْتَ قِرَاءَتَكَ هَذِهِ كَيْفَ يَكُونُ الرَّجُلُ قَاتِلًا بَعْدَ أَنْ صَارَ مَقْتُولًا؟ فَقَالَ حَمْزَةُ: إِنَّ العَرَبَ إِذَا قُتِلَ مِنْهُمْ رَجُلٌ قَالُوا قُتِلْنَا، يُرِيدُ أَنَّ الكَلَامَ عَلَى حَذْفِ مُضَافٍ مِنَ المَفْعُولِ ... وَالمَعْنَى: وَلَا تَقْتُلُوا أَحَدًا مِنْهُمْ حَتَّى يَقْتُلُوا بَعْضَكُمْ فَإِنْ قَتَلُوا بَعْضَكُمْ فَاقْتُلُوا مَنْ تَقْدِرُونَ عَلَيْهِ مِنْهُمْ، وَكَذَلِكَ إِسْنَادُ (قَتَلُوا) إِلَى ضَمِيرِ جَمَاعَةِ المُشْرِكِينَ، فَهُوَ بِمَعْنَى قَتَلَ بَعْضُهُمْ بَعْضَ المُسْلِمِينَ؛ لِأَنَّ العَرَبَ تُسْنِدُ فِعْلَ بَعْضِ القَبِيلَةِ أَوِ المِلَّةِ أَوِ الفِرْقَةِ لِمَا يَدُلُّ عَلَى جَمِيعِهَا مِنْ ضَمِيرٍ، كَمَا هُنَا، أَوِ اسْمٍ ظَاهِرٍ، نَحْوَ قَتَلَتْنَا بَنُو أَسَدٍ، وَهَذِهِ القِرَاءَةُ تَقْتَضِي أَنَّ المَنْهِيَّ عَنْهُ القَتْلُ، فَيَشْمَلُ القَتْلَ بِاشْتِبَاكِ حَرْبٍ وَالقَتْلَ بِدُونِ مَلْحَمَةٍ"[3].

بلاغةُ الفاصلةِ القرآنيّة: ﴿كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾:

الإشارةُ إلى عدالةِ الله في مُجازاةِ الكافرين

ورد التّذييلُ لبيان جزاءِ فِعلِ الكافرين بالمُماثلة في قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾، وهو "تذييلٌ لما قبْلَه، أي يُفعلُ بهم مثلُ

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/245.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/203.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/204.

ما فعَلوا"[1]، والكافُ في قولِه تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ "في موضع رفْعٍ؛ لأنّها خبرٌ عنِ المبتدأ الّذي هو خبرُ الكافرين، المعنى: جزاءُ الكافرين، مثلُ ذلك الجزاء، وهو القتلُ، أي: من كفَرَ باللّه تعالى، فجزاؤُه القتلُ"[2].

معنى التّشبيهِ في قوله تعالى ﴿كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾:

معنى قولِه تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ "جَزَاءُ الكَافِرِينَ مِثْلُ ذَلِكَ الجَزَاءِ، وهو القَتْلُ، أَيْ: مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ تَعَالَى فَجَزَاؤُهُ القَتْلُ"[3]، "أي: يُفعل بهم مثلُ ما فعلوا بغيرهم منَ المؤمنين"[4]، قال القاسميّ: "﴿فَإِن قَٰتَلُوكُمۡ﴾، أي: فيه، فلا تَفتقِرون إلى الفرار عنِ الحَرم، فَاقْتُلُوهُمْ فيه، إذ لا حُرمةَ لهم؛ لهتْكِهم حُرمةَ المسجد الحرام، ﴿كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾، لا يُتركُ لهم حُرمةٌ كما لم يَترُكواْ حُرمةَ اللّه في آياته"[5].

الجزاءُ من جِنسِ العمل، وكلٌّ يُجازى بما قدّمتْ يداه

قُدّم الخبرُ وهو اسمُ الإشارة للاهتمام بما أشار إليه وهو القتلُ؛ فقَوْلُهُ: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ "خَبَرٌ مُقَدَّمٌ لِلاهْتِمَامِ"[6]، "والجارّ في المشهور خبرٌ مُقدّم، وما بعده مبتدأ مُؤخَّر"[7].

تقديمُ اسمِ الإشارة اهتمامًا بمضمونِ ما أشار إليه

دَلالةُ إضافةِ الجزاءِ إلى الكافرين، وإظهارهم في قوله: ﴿جَزَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾:

إضافةُ الجزاءِ إلى الكافرين في قولِه: ﴿جَزَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ "إِشْعَارٌ بِعِلِّيَةِ القَتْلِ"[8]، "و﴿ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ إمّا من وضع المظهر موضعَ المضمر، نعيًا عليهم بالكُفر، أو المرادُ منه الجنسُ؛ ويدخل المذكورون فيه دخولًا أوليًّا"[9].

(1) الآلوسّي، روح المعاني: 1/471.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/245.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/245.
(4) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 3/185، وينظر: أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 1/204.
(5) القاسميّ، محاسن التأويل: 2/58.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/206.
(7) الآلوسّي، روح المعاني: 1/471.
(8) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/245.
(9) الآلوسي، روح المعاني: 1/471.

﴿فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ١٩٢﴾ [البقرة: 192]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

"بيّنتِ الآيةُ السّابقةُ بعضَ أحكام القتال، وفي هذه الآية بيانٌ لبعضٍ آخرَ"[1]، فلَمَّا كان الأمرُ بالقتال مُتعلِّقًا بابتدائِهم به، أعقبَه بذكر حُكم انتهائهم عنه، مبيِّنًا مغفرتَه ورحمتَه، وقيل: ﴿فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ﴾ أي: عنِ القتال ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾، أي: فكُفّوا عنهم ولا تَتعرّضُوا لهم تَخلُّقًا بصِفَتَي الحقّ تعالى المذكورتَيْن، وهما: المغفرةُ والرّحمةُ، هذا ظاهرُ المساق، وقال بعضُهم: ﴿فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ﴾ أي: عنِ الشِّرك والقِتال، ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ﴾ لما سلَف من طُغيانهم، ﴿رَّحِيمٞ﴾ بقَبول توبتِهم وإيمانِهم"[2]، وكلا المعنَيَيْن يَتناسبُ مع الآيات السّابقة، ليكملَ ما يتأتّى من نتائجِ القتال، وأيلولَتِه إلى الانتهاء مهما طال الزّمانُ، لأنّ السِّلم أصلٌ، والحربَ استثناءٌ، وهي ما تلبثُ أن تضع أوزارَها.

من كفَّ وعفَّ، تِيبَ عليه وغُفرَ له ورُحم

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱنتَهَوۡاْ﴾: (نَهَيَ) أَصْلٌ يَدُلُّ عَلَى غَايَةٍ وَبُلُوغٍ، وَمِنْهُ أَنْهَيْتُ إِلَيْهِ الخَبَرَ: بَلَّغْتُهُ إِيَّاهُ، وَمِنْهُ نَهَيْتُهُ عَنْهُ، وَذَلِكَ لِأَمْرٍ يَفْعَلُهُ، فَإِذَا نَهَيْتَهُ فَانْتَهَى عَنْكَ فَتِلْكَ غَايَةُ مَا كَانَ وَآخِرُهُ[3]، الانتهاءُ: الانزجارُ عمّا نُهي عنه؛ لأنّه مُطاوع نهيته، والنّهيُ الزّجرُ[4]. "وَمَعْنَى: انْتَهَى: كَفَّ، وهو افْتَعَلَ؛ مِنَ النَّهْيِ، ومَعْنَاهُ فِعْلُ الفَاعِلِ بِنَفْسِهِ، وهو نَحْوُ قَوْلِهِمْ: اضْطَرَبَ، وهو أَحَدُ المَعَانِي الَّتِي جَاءَتْ لَهَا: افْتَعَلَ"[5].

ما نهى الله عن مُحرّمٍ خطرٍ، إلّا وفيه ضررٌ لعُموم البشر

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 2/584.
(2) القاسميّ، محاسن التّأويل: 2/58.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نَهَيَ).
(4) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 1/407، والسّمين، عمدة الحفّاظ: (نهي).
(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/246.

ومعنى الآية: تَرَكُوا ما هم فيه من الكفرِ والقِتالِ.

من رحمةِ الله بعباده، أنّه غفورٌ رحيمٌ

2) ﴿غَفُورٌ﴾: من (غفر)، وأصلُ الغَفْر: التّغطيةُ، يقال: غفَر اللّه لك غَفْرًا وغُفرانًا ومَغفرةً، والمغفرةُ: إلباسُ اللّه تعالى العفوَ للمُذنبين، والغفور من أسماء اللّه تعالى، ومعناه: السّاترُ لذنوب عبادِه وعُيوبِهم، المتجاوزُ عن خَطاياهم وذُنوبِهم[1].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

الإسلامُ يجُبُّ ما قبله، والتّوبةُ تمحُو ما مضى:

رحمةُ اللهِ تطالُ كُلَّ تائبٍ انتهَى عنِ الغيّ والضّلال، وأخلصَ للحَيِّ المتُعالي

فإن انتهى الكافرون الذين يقاتلونكم عن قتالكم وكفرهم باللّه، وتَركوا ما هم فيه منَ الكُفر، وقتالِكم عند المسجد الحَرام، ودخلُوا في الإيمان، فإنّ اللّه غفورٌ لعباده، يَغفرُ لهم ما سبق من زلّاتهم، ويمحُو خطيئاتِهم، إذا هم تابُواْ عمّا اقْترَفواْ، وأحسنواْ واتّقواْ، رحيمٌ بهم، وكلُّ مَن تابَ مِن كُفرٍ أو معصيةٍ، فشأنُ اللّه معه أن يغفِرَ له ويرحمَه[2].

❁ الإيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

سِرُّ التّعبيرِ بأداةِ الشَّرطِ ﴿فَإِنِ﴾ دون (إذا) في قولِه: ﴿فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ﴾:

الإشعارُ بأنَّ الإيمانَ سيُصيبُ طائفةً من الكافرين

جاءَ النَّظمُ بأداة الشّرطِ الدّالّةِ على الشّكّ؛ للإشعارِ بقلّةِ مَن سيُؤمنُ منهم، قال البقاعيّ في قولِه تعالى: ﴿فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ﴾ "أي: عنِ القتال ومُقدّماتِه، وفيه إشعارٌ بأنّ طائفةً منهم تَنتهِي، فإنّ العالِمَ بكلّ شيءٍ لا يُعبّرُ بأداة الشّكّ إلّا كذلك"[3].

تقديرُ مُتعلّقِ المُنتهَى عنه: ﴿فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ﴾:

اختُلف في تعلُّق فعلِ الانتهاءِ في قولِه تعالى: ﴿فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ﴾ هل هو متعلِّقٌ بالقتالِ أوِ الكُفر، "قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: فَإِنِ انْتَهَوْا عَنِ القِتَالِ، وقَالَ الحَسَنُ: فَإِنِ انْتَهَوْا عَنِ الشِّرْكِ.

(1) ابن الأثير، النّهاية في غريب الحديث والأثر: 3/373.
(2) نخبة من العلماء، التّفسير الميسّر: ص: 30، والمراغيّ، تفسير المراغي: 2/90، وطنطاويّ، التّفسير الوسيط للقرآن الكريم: 1/411.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 3/112- 113.

المُتعلَّقُ المحذوفُ هو الكفرُ المقترنُ بالقتالِ، لا عمومُ الكفرِ

حُجَّةُ القَوْلِ الأَوَّلِ: أَنَّ المَقْصُودَ مِنَ الإِذْنِ فِي القِتَالِ مَنْعُ الكُفَّارِ عَنِ المُقَاتَلَةِ، فَكَانَ قَوْلُهُ: ﴿فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ﴾ مَحْمُولًا عَلَى تَرْكِ المُقَاتَلَةِ.

حُجَّةُ القَوْلِ الثَّانِي: أَنَّ الكَافِرَ لَا يَنَالُ غُفْرَانَ اللَّهِ وَرَحْمَتَهُ بِتَرْكِ القِتَالِ، بَلْ بِتَرْكِ الكُفْرِ"[1]؛ "وَلِذَلِكَ عَلَّقَ عَلَيْهِ الغُفْرَانَ وَالرَّحْمَةَ، وَهُمَا لَا يَكُونَانِ مَعَ الكُفْرِ، ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال: 38]، وَتَقَدَّمَ مَا يَدُلُّ عَلَيْهِ مِنَ اللَّفْظِ، وهو جَزَاءُ الكَافِرِينَ، وسِيَاقُ الكَلَامِ إِنَّمَا هو مَعَ الكُفَّارِ، وقِيلَ: فَإِنِ انْتَهَوْا عَنِ المُقَاتَلَةِ وَالشِّرْكِ، لِتَقَدُّمِهِمَا فِي الكَلَامِ، وهو حَسَنٌ، وَقِيلَ: عَنِ القِتَالِ دُونَ الكُفْرِ، وَلَيْسَ الغُفْرَانُ لَهُمْ عَلَى هَذَا القَوْلِ، بَلِ المَعْنَى: فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ لَكُمْ رَحِيمٌ بِكُمْ، حَيْثُ أَسْقَطَ عَنْكُمْ تَكْلِيفَ قِتَالِهِمْ"[2].

براعةُ النَّظمِ في جمعِ قولَيِ السَّلفِ

والصَّحيحُ الوجيهُ أنَّ المقصودَ هو الانتهاءُ عن الكفرِ؛ لكن لا بمعناه العامّ، بل بمعناه المذكورِ في الآيةِ، إذِ الآيةُ نزلتْ في قومٍ لا يكون منهم إلَّا أحدُ أمرين، الكفرُ مع القتالِ، أو الإيمان، وهذا ما تدلُّ عليه العاقبةُ؛ فإنَّ القومَ انقسموا إلى قسمين: فمنهم مَن آمن بعد كفرِه وقتالِه، ومنهم مَن قاتل وهو كافرٌ ومات كافرًا، ولا ثالث لهذين القسمين في كفَّارِ مكَّة؛ فيكون المتعلَّقُ على ذلك هو الكفرُ المقترن بالقتالِ، أي: انتهوا عن القتال فآمنوا، وعليه يكون الوارد عن السَّلفِ في ذلك صحيحٌ في جملتِه.

التّعقيبُ بمغفرةِ الله لهم: ﴿فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾:

من انتهى عن الذَّنبِ وكفَّ، يُغفرْ له ما قد سلَف

جاءَ التَّعقيبُ في فاصلةِ الآيةِ بصفتي الغفور والرَّحيم، وقد "نبّه بالآية، أنّ المُنتهي عنِ الذّنب، يُغفرُ له ما تقدّم من ذنبه، وذلك عامٌّ في أمور الدّنيا والآخرة، إلّا ما دلّتِ الدّلالةُ على الأخذ به، من حقوقِ

(1) الرّازي، التّفسير الكبير: 5/291.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/245.

الآدميين، وعلى هذا قولُه ﷻ: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغۡفَرۡ لَهُم مَّا قَدۡ سَلَفَ﴾ [الأنفال: 38]، وقولُه ﷺ: «الإسلامُ يجبُّ ما قبله»[1]"[2].

الإيجازُ بالحذف في قوله تعالى: ﴿فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ﴾:

إيمانُ المعتدين يمنعُ قتلَهم؛ بل يُغفرُ ذنبهم

"أَيْ فَإِنِ انْتَهَوْا عَنْ قِتَالِكُمْ فَلَا تَقْتُلُوهُمْ؛ لِأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ، فَيَنبغي أَنْ يَكُونَ الغُفْرَانُ سُنَّةَ المُؤْمِنِينَ، فَقَوْلُهُ: فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ جَوَابُ الشَّرْطِ، وهو إِيجَازٌ بَدِيعٌ، إِذْ كُلُّ سَامِعٍ يَعْلَمُ أَنَّ وَصْفَ اللَّهِ بِالمَغْفِرَةِ وَالرَّحْمَةِ، لَا يَتَرَتَّبُ عَلَى الِانْتِهَاءِ، فَيُعْلَمُ أَنَّهُ تَنْبِيهٌ لِوُجُوبِ المَغْفِرَةِ لَهُمْ، إِنِ انْتَهَوْا بِمَوْعِظَةٍ وَتَأْيِيدٍ لِلْمَحْذُوفِ، وَهَذَا مِنْ إِيجَازِ الحَذْفِ"[3].

(1) مسند أحمد: 29/315.

(2) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 1/407.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/206.

﴿وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِۖ فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَلَا عُدۡوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ١٩٣﴾ [البقرة: 193]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

بعدَ الأمرِ بالقتال لكفِّ الأذى، أمرَ به حتّى لا تكونَ فتنةٌ:

"ولمّا كان المرادُ بما مضى من قتالهم كفَّ أذاهم بأيّ فعلٍ كان، حقَّقه بقوله: ﴿وَقَٰتِلُوهُمۡ﴾، أي هؤلاء الّذين نَسبْناهم إلى قتالِكم وإخراجِكم وفِتنتِكم، أعمُّ من أن يكونوا كفّارًا، أو لا، ﴿حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ﴾ أي تُوجد فتنةٌ، بأن لا يَقدِروا أن يُؤذوا أحدًا من أهل الإسلام، ليردُّوه عن دينه، أو يُخرجوه من دارِه، أو يَخلعُوه من ماله، أو يَغلِبوه على حقّه؛ فقتالُ كلِّ مَن وقع منه ذلك كفرًا أو بغيًا في سبيل اللّه حتّى يَفيءَ إلى أمرِ اللّه"[1]، وقد "بيّنتِ الآيةُ السّابقةُ بعضَ أحكام القتال، وفي هذه الآية بيانٌ لبعضٍ آخرَ"[2].

التّوجيهُ للقتال، غايتُه ردُّ العُدوان، وحمايةُ الدّين أن يُهان

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿عُدۡوَٰنَ﴾: (عَدَوَ) أَصْلٌ يَدُلُّ عَلَى تَجَاوُزٍ فِي الشَّيْءِ وَتَقَدُّمٍ لِمَا يَنْبَغِي أَنْ يُقْتَصَرَ عَلَيْهِ، وَالعُدْوَانُ: الظُّلْمُ الصُّرَاحُ[3]، "وأصلُ العُدوانِ الظّلمُ. وأراد بالعُدوان الجزاءَ، يقول: لا جزاءَ ظُلم إلّا على ظالم"[4]، و"الاعتداءُ مجاوزةُ الحدّ، ومنه قيل: (عدا فلانٌ طورَه)، و(لا تَعْدُ طورَك)، ثمّ استُعير الاعتداءُ في الظُّلم، من حيث إنّه تجاوُزُ الحدِّ الّذي حدّه العقلُ أو الشّرعُ؛ والذي منعَ تجاوُزَ ذلك ابتداءً، فقد أباحَ لمن اعتدى عليه جزاءً"[5].

العُدوانُ على المُستضعَفين يُحرّمُه الدّينُ، ويأباه العُرفُ السّليم

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 3/113.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 2/584.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عدو).
(4) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 71.
(5) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 1/408.

2) ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾: "أصلُ (الظّلم) في كلام العرب، وضعُ الشّيءِ في غير موضِعه، ومنه قولُ نابغةِ بني ذُبيان:

إِلَّا أُوَارِيَّ لأْيًا مَا أُبَيِّنُهَا *** وَالنُّؤْيُ كَالحَوْضِ بِالمَظْلُومَةِ الجَلَدِ

فجعل الأرضَ مظلومةً؛ لأنّ الّذي حفرَ فيها النُّؤيَ - وهو حاجزٌ مِن ترابٍ يُعمل حول البيت والخيمة؛ لئلّا يصل إليها الماء - حَفر في غيرِ موضعِ الحفْر، فجعلَها مظلومةً، لموضع الحُفرة منها في غير موضعِها[1]، والظّلمُ، بالضّم: التّصرّفُ في مُلك الغير، ومُجاوزةُ الحدّ"[2].

المَعْنى الإجْماليُّ:

الاستمرارُ بالقتال حتّى تزولَ الفتنةُ والشّركُ

كان القِتَالُ مَمْنُوعًا قَبْلَ الهِجْرَةِ، لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ﴾ [الحجر: 85]، وقوله: ﴿وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾ [المزمّل: 10]، وَقَوْلِهِ: ﴿لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾ [الغاشية: 22]، وقوْلِه: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [المؤمنون: 96]، [فصلت: 34]، ونحوِ ذلك، ممّا نزل بمكّةَ، فلمّا هاجر النبيُّ ﷺ إلى المدينةِ أمرهُ اللّهُ سُبحانهُ بالقتال، ونزلتْ هذه الآيةُ، التي يكرّرُ اللّه تعالى فيها الأمرَ بقتال المُشركين المُعتدين، حتّى لا تكونَ فتنةٌ للمسلمين عن دينهم، ولا شركَ باللّه، ويبقى الدّينُ للّه وحده خالصًا، لا يُعْبَد معه غيرُه. فإن كفُّواْ عنِ الكُفر والقتال، فكُفُّواْ عنهم؛ فالعقوبةُ لا تكون إلّا على المُستمرّين على كُفرهم وعُدوانِهم، فليس عليهم منكم اعتداء، إلّا مَن ظَلم منهم، فإنّه يستحقّ المعاقبة، بقدر ظُلمه[3].

الإيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

إيثارُ الوَصْل دونَ الفَصلِ في قولِه تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾:

قولُه تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ معطوفٌ عَلَى قولِه: ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ﴾ [البَقَرَة: 190]، "وَكَانَ مُقْتَضَى

(1) ابن جرير، جامع البيان: 1/524، والشيباني، شرح المعلقات التسع، ص: 85.

(2) الزّبيديّ، تاج العروس: (ظلم).

(3) الشّوكانّي، فتح القدير: 1/219، والسعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 30، ونخبة من العلماء، التّفسير الميسّر: ص: 30.

الظَّاهِرِ أَلَّا تُعْطَفَ هَذِهِ الجُمْلَةُ؛ لِأَنَّهَا مُبَيِّنَةٌ لِمَا أُجْمِلَ مِنْ غَايَةِ الأَمْرِ بِقِتَالِ المُشْرِكِينَ، وَلَكِنَّهَا عُطِفَتْ لِمَا وَقَعَ مِنَ الفَصْلِ بَيْنَهَا وَبَيْنَ الجُمْلَةِ المُبَيَّنَةِ"[1]، ومعنى هذه الجملة المعطوفة ﴿وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ﴾، يُساق في إطار تبيان العلّة منَ الأمر بالقتال في الجملة المعطوف عليها والجملة المعطوفة، قال الرّبيع: حتّى لا يُفتن أحدُكم عن دينه؛ لأنّ المؤمنين كانواْ يُفتنون عن دين الله في مبْدأ الدّعوة، فافْتُتن من المسلمين بعضُهم، وأمرهم رسولُ الله ﷺ أن يخرجُواْ إلى الحبشة، وفتنةٌ ثانيةٌ وهو أنّه لما بايعتِ الأنصارُ رسولَ الله ﷺ بيعةَ العقبة تآمرَتْ قريشُ، أن يَفتنوا المؤمنين بمكّةَ عن دينهم، فأصاب المؤمنين جهدٌ شديدٌ، فأمر الله تعالى بقتالهم حتّى تزولَ هذه الفتنةُ[2].

وقوعُ الفَصلِ بين الجُملِ المترابطةِ يُوجبُ الوصلَ

دَلالةُ الأمر في قولِه تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ﴾:

قولُه تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمۡ﴾ "أَمْرٌ بِالقِتَالِ لِكُلِّ مُشْرِكٍ فِي كُلِّ مَوْضِعٍ، عَلَى مَنْ رَآهَا نَاسِخَةً، وَمَنْ رَآهَا غَيْرَ نَاسِخَةٍ قَالَ: المَعْنَى قَاتِلُوا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ قَالَ اللهُ فِيهِمْ: ﴿فَإِن قَٰتَلُوكُمۡ﴾؛ وَالأَوَّلُ أَظْهَرُ، وهو أَمْرٌ بِقِتَالٍ مُطْلَقٍ لَا بِشَرْطِ أَنْ يَبْدَأَ الكُفَّارُ"[3]، "دَلِيلُ ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِۚ﴾"[4]، فرُبط بين الأمرِ بالقتالِ وبين الغايةِ العظمى؛ وهي أن يكونَ الدِّينُ لله تعالى، وعليه يكونُ القتالُ في سبيلِ الله وسيلةً لهذه الغايةِ، يدورُ معها حيث دارتْ.

القتالُ المُطلَق مشروعٌ غيرُ متوقِّفٍ على شروعِ الكفّارِ به

فائِدةُ التّعبيرِ عنِ الكُفر بالفِتنة في قولِه تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ﴾:

المُراد بالفتنةِ في قولِه تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ﴾ الكفرُ، وسُمِّي الكفرُ فتنةً؛ "لأنّه يُؤدّي إلى الهلاك كما تُؤدّي إليه

الجامعُ بين الكُفر والفِتنةِ، هو الهلاكُ الّذي يُفضِيان إليه

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/207.
(2) الشّربينيّ، السّراج المنير: 1/570.
(3) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 2/353.
(4) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 2/583.

الفتنةُ"[1]؛ فمعنى الأمرِ بقتالِ المشركين حتَّى لا يكون كفرٌ وشركٌ، أي: "حتّى يُسْلموا، فليس يُقْبَلُ منَ المشركِ الوثنيِّ جِزْيةٌ، ولا يُرضى منه إلّا بالإسلام"[2]، "قَالَ عُلَمَاؤُنَا: لَا تُقبل من مُشْرِكي العَرَبِ الجِزْيَةُ، وَمِنْ ثَمَّ فَسَّرَ بَعْضُ المُفَسِّرِينَ الفِتْنَةَ هُنَا بِالشِّرْكِ تَفْسِيرًا بِاعْتِبَارِ المَقْصُودِ مِنَ المَعْنَى لَا بِاعْتِبَارِ مَدْلُولِ اللَّفْظِ"[3].

نُكتةُ تكرارِ الأمرِ بالقتال، في قولِه تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ﴾:

التَّنبيهُ على غايةِ القتالِ بأمرٍ مستقلٍّ

كُرِّرَ الأمرُ بالقتالِ لتوضيحِ الغايةِ، فتحقّقتِ المغايرةُ ببيان الغايةِ، حيث "أمر تعالى بالقتال؛ لدفعِ الفتنةِ بعد أن بيّن أنّها أعظمُ ضررًا منَ القتل"[4]، و"إِعَادَةُ فِعْلِ ﴿وَقَٰتِلُوهُمۡ﴾؛ لِتُبْنَى عَلَيْهِ الغَايَةُ بِقَوْلِهِ: ﴿حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ﴾، وَبِتِلْكَ الغَايَةِ حَصَلَتِ المُغَايَرَةُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، وهي الَّتِي بِاعْتِبَارِهَا سَاغَ عَطْفُهُ عَلَى مِثْلِهِ"[5].

دَلالةُ العُمومِ في قولِه تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ﴾:

الأمرُ بالقتالِ المُطلَقِ لإظهارِ قوّةِ الإسلام، وعزّةِ المسلمين

اختلفَ المفسِّرون في قولِه تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ﴾، فمن قال بأنَّها ناسخةٌ، ذهبَ إلى أنَّ الأمرَ بالقتال فيها عامٌّ، يتناولُ كُلَّ كَافِرٍ؛ مِنْ مُشْرِكٍ وَغَيْرِهِ وفي كلِّ موضعٍ.

ومن قالَ بأنَّها غيرُ ناسخةٍ قال: المعنى: قاتلوا هؤلاء الّذين قال اللّه فيهم ﴿فَإِن قَٰتَلُوكُمۡ﴾؛ والأوّلُ أظهرُ، وهو أمرٌ بقتالٍ مُطلَق، لا بشرط أن يبدأ الكفّارُ، دليلُ ذلك قولُه ﴿وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِۖ﴾[6]، و"ضَمِيرُ المَفْعُولِ عَائِدٌ عَلَى مَنْ قَاتَلَهُ وَهُمْ كُفَّارُ مَكَّةَ ... وقِيلَ: الضَّمِيرُ لِجَمِيعِ الكُفَّارِ أُمِرُوا بِقِتَالِهِمْ وَقَتْلِهِمْ فِي كُلِّ مَكَانٍ، فَالآيَةُ

(1) الكيا الهراسّي، أحكام القرآن: 1/84.
(2) الواحديّ، التّفسير البسيط: 3/626.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/208.
(4) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 1/408.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/207.
(6) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 1/263.

عَامَّةٌ تَتَنَاوَلُ كُلَّ كَافِرٍ مِنْ مُشْرِكٍ وَغَيْرِهِ، وَيُخَصُّ مِنْهُمْ بِالجِزْيَةِ مَنْ دَلَّ الدَّلِيلُ عَلَيْهِ"[1].

معنى (حتَّى) في قولِه تعالى: ﴿حَتَّىٰ لَا تَكُونَ﴾:

جمالُ الجمع بين معنَيَيْ الغايةِ والتَّعليلِ

﴿حَتَّىٰ﴾ في قَوْلِه: ﴿حَتَّىٰ لَا تَكُونَ﴾ "إِمَّا أَنْ تُجْعَلَ لِلْغَايَةِ مُرَادِفَةَ (إِلَى)، وَإِمَّا أَنْ تُجْعَلَ بِمَعْنَى (كَي) التَّعْلِيلِيَّةِ؛ وَهُمَا مُتَلَازِمَانِ؛ لِأَنَّ القِتَالَ لما غُيَّ بِذَلِكَ، تَعَيَّنَ أَنَّ الغَايَةَ هِيَ المَقْصِدُ، وَمَتَى كَانَتِ الغَايَةُ غَيْرَ حِسِّيَّةٍ، نَشَأَ عَنْ ﴿حَتَّىٰ﴾ مَعْنَى التَّعْلِيلِ، فَإِنَّ العِلَّةَ غَايَةٌ اعْتِبَارِيَّةٌ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ﴾. وأيًّا مَا كَانَ فَالمُضَارِعُ مَنْصُوبٌ بعد (حَتَّى) بـ(أَنْ) مُضْمَرَة لِلدَّلَالَةِ عَلَى تَرَتُّبِ الغَايَةِ"[2].

توجيهُ دَلالة ﴿حَتَّىٰ﴾ على الغاية في قتالِ الكُفّار:

المطلوبُ عقدُ النِّيَّةِ على زوالِ الكفرِ، بقطعِ النَّظر عن تحقُّقِ ذلك

من المعاني التي دلَّت عليها ﴿حَتَّىٰ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ الْغَايَةُ، وعلى تفسيرِ الفِتْنَةِ بِالكُفْرِ - وَمعلومٌ أَنَّ الكُفْرَ لَا يزولُ بالقتالِ -، فكيف غيَّ الأَمْرَ بِالقِتَالِ بِزَوَالِهِ؟

وَالجَوَابُ: أَنَّ ذَلِكَ عَلَى حُكْمِ الغَالِبِ، والوَاقِعِ، وذَلِكَ أَنَّ مَنْ قُتِلَ فَقَدِ انْقَطَعَ كُفْرُهُ وَزَالَ، وَمَنْ عَاشَ خَافَ مِنَ الثَّبَاتِ عَلَى كُفْرِهِ؛ فَأَسْلَمَ، أَوْ يَكُونُ المَعْنَى: وقَاتِلُوهُمْ قَصْدًا مِنْكُمْ إِلَى زَوَالِ الكُفْرِ؛ لِأَنَّ الوَاجِبَ فِي قِتَالِ الكُفَّارِ أَنْ يَكُونَ القَصْدُ زَوَالَ الكُفْرِ، وَلِذَلِكَ إِذَا ظَنَّ أَنَّهُ يُقْلِعُ عَنِ الكُفْرِ بِغَيْرِ القِتَالِ وَجَبَ عَلَيْهِ العُدُولُ عَنْهُ[3].

دلالةُ وقوعِ ﴿فِتْنَةٌ﴾ نكرةً في سِياق النّفي: ﴿حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾:

الفتنةُ - هنا - منكَّرةٌ ومعرَّفةٌ بمعنًى واحدٍ

جاءتِ الفتنةُ في قولِه تعالى: ﴿حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ نكرةً في سياقِ النَّفي؛ فعمَّت "جَمِيعَ الفِتَنِ؛ فَلِذَلِكَ سَاوَتِ المَذْكُورَةُ هُنَا

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/246.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/207، وينظر: زاده، حاشيّة على البيضاويّ: 2/468.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/246.

المَذْكُورَةَ في قَوْله تَعَالَى: ﴿وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ﴾ [البَقَرَة: 191] فَإِعَادَةُ الفِتْنَةِ مُنَكَّرَةً هُنَا، لَا يَدُلُّ عَلَى المُغَايَرَةِ، كَمَا هو الشَّائِعُ بَيْنَ المُعْرِبِينَ في أَنَّ المَعْرِفَةَ إِذَا أُعِيدَتْ نَكِرَةً، فهي غَيْرُ الأُولَى؛ لِأَنَّ وُقُوعَهَا في سِيَاقِ النَّفْيِ أَفَادَ العُمُومَ، فَشَمَلَ جَمِيعَ أَفْرَادِ الفِتْنَةِ مُسَاوِيًا لِلْفِتْنَةِ المُعَرَّفَةِ بِلَامِ الاسْتِغْرَاقِ، إِلَّا أَنَّهُ اسْتِغْرَاقٌ عُرْفِيٌّ بِقَرِينَةِ السِّيَاقِ فَتَقَيَّدَ بِثَلَاثَةِ قُيُودٍ بِالقَرِينَةِ، أَيْ: حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ مِنْهُمْ لِلْمُسْلِمِينَ في أَمْرِ الدِّينِ، وَإِلَّا فَقَدْ وَقَعَتْ فِتَنٌ بَيْنَ المُسْلِمِينَ أَنْفُسِهِمْ"[1].

بلاغةُ عطفِ المُثْبَتِ على المَنفي في قوله: ﴿حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ﴾:

تكاملُ الغاياتِ؛ فبانتفاء الكُفر والافْتِتان، يتحقّقُ دينُ الدّيّان

عُطِفَ المُثبتُ ﴿وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ﴾ على المَنْفيِّ ﴿لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ لتكاملِ الغايات؛ فإنَّ نفيَ الفتنةِ يقودُ إلى ثبوتِ الدِّين للّه تعالى وحدَه، وهذا على مبدأِ التَّخلية قبل التَّحلية، فالنَّفي أوّلًا، ثمَّ الإثبات، ويُنزَّلُ النَّفيُ منزلة المقدِّمة الموصلة إلى الغاية، لكنَّها عوملت معاملة الغاية لأهمِّيتِها، جاء في البحر المحيط: "وغُيّ هُنَا الأَمْرُ بِالقِتَالِ بِشَيْئَيْنِ: أَحَدُهُمَا: انْتِفَاءُ الفِتْنَةِ، وَالثَّانِي: ثُبُوتُ الدِّينِ لِلَّهِ، وهو عَطْفُ مُثْبَتٍ عَلَى مَنْفِيٍّ، وهُمَا في مَعْنًى وَاحِدٍ وَمُتَلَازِمَانِ؛ لِأَنَّهُ إِذَا انْتَفَى الشِّرْكُ بِاللَّهِ كانَ تَعَالَى هو المَعْبُود المُطَاع"[2].

دَلالةُ لامِ التّعريفِ ولامِ الجرّ، في قوله تعالى: ﴿ٱلدِّينُ لِلَّهِ﴾:

إذا أُطلقَ الدِّينُ المرضيُّ عند الله فهو الإسلامُ

التَّعريفُ في كلمة ﴿ٱلدِّينُ﴾ هو تعريفُ الجنسِ؛ "لِأَنَّ الدِّينَ مِنْ أَسْمَاءِ المَوَاهِي الَّتِي لَا أَفْرَادَ لَهَا في الخَارِجِ، فَلَا يَحْتَمِلُ تَعْرِيفُهُ مَعْنَى الاسْتِغْرَاقِ"[3]، والدِّينُ الذي ارتضاه اللّه تعالى لعبادِه هو

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/208.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/246.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/208.

دينُ الإسلام؛ لقولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ﴾ [آل عمران: 18]، وغيرُه من الأديان باطلٌ لا ارتضاءَ له.

تخليةُ الدِّين من أيِّ فكرٍ دخيلٍ هو المنهجُ القويم

أفادت اللَّامُ الدَّاخلةُ على لفظِ الجلالةِ في قولِه تعالى: ﴿وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِۖ﴾ معنى الاختصاصِ، "أَيْ: حَتَّى يَكُونَ جِنْسُ الدِّينِ مُخْتَصًّا بِاللَّهِ تَعَالَى ... والمَعْنَى: (وَيَكُونَ دِينُ الَّذِينَ تُقَاتِلُونَهُمْ خَالِصًا لِلَّهِ لَا حَظَّ لِلْإِشْرَاكِ فِيهِ)"[1]، وليس "للشّيطان فيه نصيب"[2]، أي: يدخلون في دينِ اللّه تعالى مسلمين لا شِركَ في دينِهم.

توجيهُ المُتشابِهِ اللّفظيّ:

التَّدرُّجُ في نشرِ الإسلامِ مرتبطٌ بالواقعِ، وبناءً على ذلك كان العمومُ

لسائلٍ أن يسأل عن الفرقِ بين قولِه تعالى: ﴿حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِۖ﴾ [البقرة: 193]، وبين قولِه تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِۚ﴾ [الأنفال: 39]، فقد جاء التّأكيدُ بقوله: ﴿كُلُّهُۥ﴾ في آية الأنفال؛ وذلك أنَّ "الأَنْفَالَ في الكُفَّارِ عُمُومًا، وهُنَا في مُشْرِكِي مَكَّةَ، فَنَاسَبَ هُنَاكَ التَّعْمِيمُ، وَلَمْ يُحْتَجْ هُنَا إِلَيْهِ"[3]، فإن سُئِلَ: فما معنى ذكرِ ذلك التَّعميم في سياقٍ دون آخر؟ و"جوابُه: أنّ آية البقرة نزلتْ في أوّل سنةٍ منَ الهجرة، في سريّة عبد اللّه بن جحش، لعمرو بن الحضرميّ، وصناديدُ مكّةَ أحياءٌ، ولم يكن للمسلمين رجاءٌ في إسلامهم تلك الحال، وآية الأنفال نزلتْ بعد وقعةِ بدر، وقَتْلِ صناديدهم، فكان المسلمون بعد ذلك أرجَى لإسلام أهلِ مكّةَ عامّةً وغيرِهم، فأكّد سبحانه وتعالى رجاءَهم ذلك، بقوله تعالى: ﴿وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِۚ﴾ أي: لا يُعبدُ سواه"[4]، و"قوله: ﴿وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِۖ﴾، أي في مكّةَ، أي لأنّ المرادَ تخليصٌ للدّين في

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/208.

(2) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 1/128.

(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/247، وينظر: زكريّا الأنصاريّ، فتح الرّحمن بكشف ما يلتبس في القرآن: 1/55، والهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 3/185.

(4) ابن جماعة، كشف المعاني في المتشابه من المثاني، ص: 113-114، وينظر: الإسكافيّ، درّة التّنزيل: 1/331-334.

مكّةَ، منَ الشِّرك فقط، لا كلِّ الجهات، وأمّا آيةُ الأنفال في قوله: ﴿وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِۚ﴾ أي في كلِّ الجهات"[1].

سِرُّ تكرارِ ذكرِ الانتهاء في قوله: ﴿فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ﴾:

الانتهاءُ عن سببِ القتالِ مؤدٍّ إلى الأمنِ والسّلام

التّكرارُ للتّأكيد على أمرِ الانتهاء، وأنّ نجاتَهم إنّما تتحقّقُ بتحقّقه، قال الرّاغب: "ثمّ أعادَ ذكرَ الانتهاء، فقال: ﴿فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَلَا عُدۡوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: لا يتجاوَزون الخطرَ إلّا مع من يتجاوَزُه بحسب فِعْله"[2]، "أَمَّا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ﴾ فَالمُرَادُ: فَإِنِ انْتَهَوْا عَنِ الأَمْرِ الَّذِي لأَجْلِهُ وَجَبَ قِتَالُهُمْ، وهو إِمَّا كُفْرُهُمْ أَوْ قِتَالُهُمْ، فَعِنْدَ ذَلِكَ لَا يَجُوزُ قِتَالُهُمْ"[3]، و"مُتَعَلَّقُ الانْتِهَاءِ مَحْذُوفٌ، التَّقْدِيرُ: عَنِ الشِّرْكِ بِالدُّخُولِ فِي الإِسْلَامِ، أَوْ عَنِ القِتَالِ، وأَذْعَنُوا إِلَى أَدَاءِ الجِزْيَةِ فِيمَنْ يُشْرَعُ ذَلِكَ فِيهِمْ، أَوْ: عَنِ الشِّرْكِ وَتَعْذِيبِ المُسْلِمِينَ وَفِتْنَتِهِمْ لِيَرْجِعُوا عَنْ دِينِهِمْ، وَذَلِكَ عَلَى الاخْتِلَافِ فِي الضَّمِيرِ، إِذْ هُوَ عَامٌّ فِي الكُفَّارِ، أَوْ خَاصٌّ بِكُفَّارِ مَكَّةَ"[4].

بَلاغةُ النَّهيِ بالخبر المنْفيِّ في قوله: ﴿فَلَا عُدۡوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾:

النَّهيُ بالإخبارِ ألزمُ للمؤمنين بالكفِّ عن قتالِ المشركين

نهى اللّه سبحانه وتعالى المؤمنين عن قتالِ الكافرين إن انتهوا بقوله: ﴿فَلَا عُدۡوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، وهو خبرٌ أُريد به النَّهيُ، وهو أبلغُ وأكثرُ إلزامًا في المنع، قال أبو حيّان: "وهذا النَّفْيُ العَامُّ يُرَادُ بِهِ النَّهْيُ، أَيْ: فَلَا تَعْتَدُواْ، وَذَلِكَ عَلَى سَبِيلِ المُبَالَغَةِ؛ إِذَا أَرَادُوا المُبَالَغَةَ فِي تَرْكِ الشَّيْءِ، عَدَلُواْ فِيهِ عَنِ النَّهْيِ إِلَى النَّفْيِ المَحْضِ العَامِّ، وَصَارَ أَلْزَمَ فِي المَنْعِ، إِذْ صَارَ مِنَ الأَشْيَاءِ الَّتِي لَا تَقَعُ أَصْلًا، وَلَا يَصِحُّ حَمْلُ ذَلِكَ عَلَى النَّفْيِ الصَّحِيحِ أَصْلًا لِوُجُودِ العُدْوَانِ عَلَى غَيْرِ الظَّالِمِ، فَكَأَنَّهُ يَكُونُ إِخْبَارًا غَيْرَ مُطَابِقٍ، وهو لَا يَجُوزُ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى"[5].

(1) الصّاويّ، حاشية الصّاويّ: 1/83.
(2) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 1/408.
(3) الرّازيّ، التّفسير الكبير: 5/292.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/247.
(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/248.

سرُّ التّعبيرِ عنِ الجزاءِ بالعُدوان، في قوله: ﴿فَلَا عُدۡوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾:

براعةُ الجمعِ بين المشاكلةِ والحقيقةِ في التَّعبير القرآنيِّ

لسائلٍ أن يسأل عن سرِّ التَّعبيرِ بالعدوانِ في قولِه تعالى: ﴿فَلَا عُدۡوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أعُدوانٌ هُوَ وقد أباحه اللّٰه للمؤمنين؟ "وكان مُقتضَى الظّاهر أن يُقال: فمن اعتدى عليكم فقابِلوه وجازُوه بمثْل ما اعتدى عليكم به"[1]؟

والجواب: أنَّ ذلك "ليس بعُدوان في المعنى، إنّما هو لفظٌ على مِثل ما سبق قبْلَه، ألا ترى أنّه قال: ﴿فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ بِمِثۡلِ مَا ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ﴾، فالعُدوان منَ المشركين في اللّفظ ظلمٌ في المعنى، والعُدوان الَّذي أباحه اللّٰه وأمرَ به المسلمين إنّما هو قِصاصٌ، فلا يكون القِصاصُ ظلمًا وإن كان لفظُه واحدًا، ومثلُه قولُ اللّٰه تبارك وتعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ﴾ [الشورى: 40]، وليست منَ اللّٰه على مثْلِ معناها منَ المسيء؛ لأنّها جزاءٌ"[2]، فقد "سمّى جزاءَ الظّالمين ظُلمًا للمشاكَلة، أو أريدَ: أنّكم إن تعرّضتُم لهم بعد الانتهاءِ كنتم ظالمين فيُسلِّط عليكم من يَعدو عليكم"[3]، والقولان مقبولان عند المفسِّرين، فالاعتداءُ على المشركين بعد الانتهاء هو عدوان على الحقيقةِ لا مشاكلةً، وردُّ اعتداءِ الظَّالمين قبل الانتهاء هو جزاءٌ لا عدوان فهو مشاكلةٌ، وبه يستقيم الجمع بين القولين.

الإيجازُ بحذفِ جوابِ الشَّرطِ في قوله: ﴿فَلَا عُدۡوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾:

جاء في قولِه تعالى: ﴿فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَلَا عُدۡوَٰنَ﴾ فاءان، "الفاءُ الأولى للتّعقيب، والثّانيةُ للجزاء"[4]، كما أنّ جوابَ الشّرط محذوفٌ في قوله: ﴿فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ﴾ تقديرُه: لا تَبْدَؤُوهُمْ بقتال، وقام قَوْلُهُ: ﴿فَلَا عُدۡوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ "مَقامَ جَوابِ الشَّرْطِ؛ لِأَنَّهُ عِلَّةُ الجَوابِ

(1) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 3/186.
(2) الفرّاء، معاني القرآن: 1/116-117.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/236، وينظر: البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 1/128.
(4) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 1/128.

المَحْذُوف، والمَعْنَى: فَإِنِ انْتَهَوْا عَنْ قِتَالِكُمْ وَلَمْ يَقْدُمُواْ عَلَيْهِ، فَلَا تَأْخُذُوهُمْ بِالظِّنَّة، وَلَا تَبْدَؤُوهُمْ بِالقِتَالِ؛ لِأَنَّهُمْ غَيْرُ ظَالِمِينَ، وَإِذْ لَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ؛ وهو مَجَازٌ بَدِيعٌ"[1].

دَلالةُ الحَصْر في قولِه تعالى: ﴿فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾:

المرادُ بالظّالمين، مَنْ بَدَأَ بِقِتَالٍ، ومَنْ بَقِيَ عَلَى كُفرٍ.

خُصّص العُدوانُ بالظّالمين؛ لإخراج المُنتهين عنه، وقد كان "إثباتُ العُدوان على الظّالمين، على سبيل الحَصْر في هذا المقام، مفيدًا لنفي العُدوان عنِ المُنتَهين ... ومعنى الحَصْرِ على هذا: فإنِ انتهَواْ فلا تقاتلوهم، وقاتِلوا غيرَهم منَ المشركين الّذين ليسوا بمُنتهين"[2]، وفي قَوْلِه تَعَالَى: ﴿فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ "وَجْهَانِ:

الأَوَّلُ: ﴿فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ فَلَا عُدْوَٰنَ﴾، أَيْ: فَلَا قَتْلَ إِلَّا عَلَى الَّذِينَ لَا يَنْتَهُونَ عَلَى الكُفْرِ، فَإِنَّهُمْ بِإِصْرَارِهِمْ عَلَى كُفْرِهِمْ ظَالِمُونَ لِأَنْفُسِهِمْ.

وَالثَّاني: إِنْ تَعَرَّضْتُمْ لَهُمْ بَعْدَ انْتِهَائِهِمْ عَنِ الشِّرْكِ وَالقِتَالِ، كُنْتُمْ أَنْتُمْ ظَالِمِينَ فَنُسَلِّطَ عَلَيْكُمْ مَن يَعتدِي عليكم"[3]، "وَفُسِّرَ (الظّالمون) هُنَا بِمَنْ بَدَأَ بِالقِتَالِ، وقِيلَ: مَنْ بَقِيَ عَلَى كُفْرٍ وَفِتْنَةٍ، قَالَ عِكْرِمَةُ، وقَتَادَةُ: الظَّالِمُ هُنَا مَنْ أَبَى أَنْ يَقُولَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللّٰهُ، وَقَالَ الأَخْفَشُ: المَعْنَى: فَإِنِ انْتَهَى بَعْضُهُمْ، فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى مَنْ لَمْ يَنْتَهِ؛ وهو الظَّالِمُ"[4].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/209.
(2) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 3/265.
(3) الرّازيّ، التّفسير الكبير: 5/292.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/248.

﴿ٱلشَّهۡرُ ٱلۡحَرَامُ بِٱلشَّهۡرِ ٱلۡحَرَامِ وَٱلۡحُرُمَٰتُ قِصَاصٞۚ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ بِمِثۡلِ مَا ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ ١٩٤﴾ [البقرة: 194]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

اسْتِدراكُ الفَوات بصُلح الحُدَيْبية، والأمرُ بردِّ الاعتداءِ معَ الالتزام بالتّقْوَى:

"اعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَمَّا أَبَاحَ القِتَالَ وكَانَ ذَلِكَ مُنْكَرًا فِيمَا بَيْنَهُمْ، ذَكَرَ في هذه الآيَةِ مَا يُزِيلُ ذَلِكَ فَقَالَ: الشَّهْرُ الحَرامُ بِالشَّهْرِ الحَرامِ"[1]، ثُمَّ إنَّه سبحانه "لَمَّا بَيَّنَ تَعْمِيمَ الأَمْكِنَةِ وَأَخْرَجَ مِنْهَا المَسْجِدَ الحَرَامَ في حَالَةٍ خَاصَّةٍ كَانَ السَّامِعُ بِحَيْثُ يَتَسَاءَلُ عَمَّا يُمَاثِلُ البِقَاعَ الحَرَامَ، وهو الأَزْمِنَةُ الحَرَامُ أَعْنِي الأَشْهُرَ الحُرُمَ الَّتِي يُتَوَقَّعُ حَظْرُ القِتَالِ فِيهَا؛ فَإِنْ كَانَ هَذَا تَشْرِيعًا نَازِلًا عَلَى غَيْرِ حَادِثَةٍ، فهو اسْتِكْمَالٌ وَاسْتِفْصَالٌ لِمَا تَدْعُو الحَاجَةُ إِلَى بَيَانِهِ في هَذَا المَقَامِ المُهِمِّ، وَإِنْ كَانَ نَازِلًا عَلَى سَبَبٍ كَمَا قِيلَ: إِنَّ المُسْلِمِينَ في عَامِ القَضِيَّةِ، لَمَّا قَصَدُواْ مَكَّةَ في ذِي القِعْدَةِ سَنَةَ سَبْعٍ مُعْتَمِرِينَ خَشَوْا أَلَّا يَفِيَ لَهُمُ المُشْرِكُونَ بِدُخُولِ مَكَّةَ أَوْ أَنْ يَغْدُرُوهُمْ وَيَتَعَرَّضُواْ لَهُمْ بِالقِتَالِ، قَبْلَ دُخُولِ مَكَّةَ، وهم في شَهْرٍ حَرَامٍ، فَإِنْ دَافَعُواْ عَنْ أَنْفُسِهِمُ انْتَهَكُواْ حُرْمَةَ الشَّهْرِ، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ"[2].

حُرمةُ الأشهُر الحُرُم لا تَمنعُ من ردِّ العُدوان، والحِفاظِ على الكِيان

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

معنى الحُرُمات: الشّهرُ الحرامُ، والبلدُ الحرامُ، وحُرمةُ الإحْرام:

1) ﴿وَٱلۡحُرُمَٰتُ﴾: (حَرَمَ) أَصْلٌ يدلُّ على المَنْعِ وَالتَّشْدِيد؛ فالحَرَامُ: ضِدُّ الحَلَالِ[3]،

(1) الرّازيّ، التّفسير الكبير: 5/292.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/210.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حرم).

والحُرُمات: جمعُ حُرْمَة، والحُرْمَةُ: ما مُنِع منَ انتهاكه، ومعنى الحُرُمات: حرمةُ الشّهر، وحُرمةُ البلد، وحُرمةُ المُحرمين، أو جمع حُرمة - والحُرمة ما يجب حفظُه، وتركُ انتهاكه - عمومًا: كالنّفسِ والمالِ والعرضِ، وغيرِ ذلك[1].

2) ﴿ٱعۡتَدَىٰ﴾: جذرها (عَدَوَ)، والْعَيْنُ وَالدَّالُ وَالْحَرْفُ الْمُعْتَلُّ أَصْلٌ يَدُلُّ عَلَى تَجَاوُزٍ فِي الشَّيْءِ وَتَقَدُّمٍ لِمَا يَنْبَغِي أَنْ يُقْتَصَرَ عَلَيْهِ[2]، والعُدوان هو تجاوزٌ لحدّ المرسوم في الاعتداء المرخَّص فيه على سبيل المجازاة، فالتّجاوُزُ للمرسوم هو العُدوان[3].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

ترخيصُ الله بالقتال في الشَّهر الحَرام، ردًّا على الهُجوم والعُدوان:

القِصاصُ والمجابَهةُ لمَنِ اعتدى، وعونُ الله بالتّمكين لمَنِ اتّقى

قتالُكم - أيّها المؤمنون - للمشركين في الشّهر الّذي حرَّم اللّه القتالَ فيه، هو جزاءٌ لقتالهم لكم في الشّهر الحَرام، والّذي يَعتدي على ما حَرَّم اللّه منَ المكان والزّمان، يُعاقَبُ بمثل فعْله، ومن جنْس عَمله، فمنِ اعتدى عليكم بالقتال أو غيره، فأَنْزِلوا به عقوبةً مماثلةً لجنايته، ولا حرجَ عليكم في ذلك؛ لأنّهم همُ البادِئون بالعُدوان، فبيَّن أنّ مراعاةَ حُرمة الشّهر واجبةٌ لمن راعى حُرمتَه، وأنّ مَن هتَكها اقْتصَّ منه، وخافُوا اللّه فلا تتجاوزُوا المماثلةَ في العقوبة، واعلموا أنّ اللّه مع الذين يتّقونَه ويُطيعونَه بأداءِ فرائضِه وتجنُّب محارمِه[4].

❁ الإيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

استكمالُ عُنْصُرَيِ التَّحريمِ ببيانِ حُرمةِ الزّمانِ بعد بيانِ حُرمةِ المكان

بلاغةُ الاستئنافِ البيانيّ في قولِه تعالى: ﴿ٱلشَّهۡرُ ٱلۡحَرَامُ بِٱلشَّهۡرِ ٱلۡحَرَامِ﴾:

قولُه تعالى: ﴿ٱلشَّهۡرُ ٱلۡحَرَامُ بِٱلشَّهۡرِ ٱلۡحَرَامِ﴾ "جُمْلَةٌ مُسْتَأْنَفَةٌ فُصِلَتْ عَنْ سَوَابِقِهَا؛ لِأَنَّهُ اسْتِئْنَافٌ بَيَانِيٌّ، فَإِنَّهُ لَمَّا بَيَّنَ تَعْمِيمَ

(1) ابن عطية، المحرّر الوجيز: 1/263-264، والثّعلبيّ، الكشف والبيان: 2/90.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عدو).
(3) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 1/251.
(4) نخبة من العلماء، التّفسير الميسّر: ص: 30، والرّاغب، تفسير الرّاغب: 1/408.

الأَمْكِنَةِ، وَأَخْرَجَ مِنْهَا المَسْجِدَ الحَرَامَ فِي حَالَةٍ خَاصَّةٍ، كَانَ السَّامِعُ بِحَيْثُ يَتَسَاءَلُ عَمَّا يُمَاثِلُ البِقَاعَ الحَرَامَ، وهو الأَزْمِنَةُ الحَرَامُ، أَعْنِي الأَشْهُرَ الحُرُمَ الَّتِي يُتَوَقَّعُ حَظْرُ القِتَالِ فِيهَا"[1]؛ فكان الاستئنافُ البيانيُّ جوابًا عن الزَّمانِ بعد ذكرِ المكانِ، وفي ذلك استكمالٌ لعنصري التَّحريمِ المكانيِّ والزَّمانيّ.

الإيجازُ بالحذْفِ في قولِه تعالى: ﴿ٱلشَّهۡرُ ٱلۡحَرَامُ بِٱلشَّهۡرِ ٱلۡحَرَامِ﴾:

ذِكـرُ الشَّـهرِ وإرادةُ انتهاكِ حُرمتِه

في قولِه تعالى: ﴿ٱلشَّهۡرُ ٱلۡحَرَامُ بِٱلشَّهۡرِ ٱلۡحَرَامِ﴾ "مجازٌ بالحذف؛ "تقديرُه: هتكُ حُرمةِ الشّهر الحَرام، له وقعٌ منكم مقابَلٌ بهتكِ حُرمة الشّهرِ الحَرام الواقعِ منهم؛ لأنّهم قاتلُواْ المسلمين في عام الحُديبية قتالًا خفيفًا بالرّمي بالسِّهام والحِجارة"[2]، إذِ الشَّهْرُ مُبْتَدَأٌ، "وَخَبَرُهُ الجَارُّ وَالمَجْرُورُ بَعْدَهُ، وَلَا يَصِحُّ مِنْ حَيْثُ اللَّفْظُ أَنْ يَكُونَ خَبَرًا، فَلَا بُدَّ مِنْ حَذْفِ التّقدير: انْتِهَاكُ حُرْمَةِ الشَّهْرِ الحَرَامِ، كَائِنٌ بِانْتِهَاكِ حُرْمَةِ الشَّهْرِ الحَرَامِ"[3].

معنى الباءِ في قوله تعالى: ﴿ٱلشَّهۡرُ ٱلۡحَرَامُ بِٱلشَّهۡرِ ٱلۡحَرَامِ﴾:

تنـوُّعُ المعـاني، والـدّلالـةُ الجامعةُ واحدةٌ

أفادتِ الباءُ معنى البدلِ والجزاءِ والتَّعويض والمقابلة في قولِه تعالى: ﴿ٱلشَّهۡرُ ٱلۡحَرَامُ بِٱلشَّهۡرِ ٱلۡحَرَامِ﴾ فمعنى الجزاء والبدلِ: "أنّ هذا جزاءُ ذاك وبدلُه"[4]، ومعنى التَّعويضِ "كَقَوْلِهِمْ: صَاعًا بِصَاعٍ وَلَيْسَ ثَمَّةَ شَهْرَانِ، بَلِ المُرَادُ انْتِهَاكُ الحُرْمَةِ مِنْهُمْ وَمِنْكُمْ؛ وَهُمَا انْتِهَاكَانِ"[5]؛ حيث قاتل المؤمنين "المُشركون عامَ الحُدَيبية في الشّهر الحَرام، وهو ذو القَعدة، فقيل لهم عند خروجهم لعُمرة القضاء، وكراهتِهم القتالَ، وذلك في ذي القعدة: ﴿ٱلشَّهۡرُ ٱلۡحَرَامُ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/210.
(2) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 3/196، وينظر: زاده، حاشية زاده على البيضاويّ: 2/469.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/249.
(4) الواحديّ، التّفسير البسيط: 3/627-628.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/210.

﴿بِٱلشَّهۡرِ ٱلۡحَرَامِ﴾، أي: هذا الشّهرُ بذلك الشَّهر، وهتكُه بهتْكِه، يعنى تَهتكون حُرمتَه عليهم، كما هَتكواْ حُرمتَه عليكم"[1].

ومعنى المقابلة: "أي: الشّهرُ الحرامُ من جانبِكم مقابَلٌ بالشّهر الحرامِ من جانبِهم؛ فإنْ تقيّدواْ بالحُرمة فيه، ولم يُثيرواْ حربًا، ولم يَعتدُواْ، التزمْتُم حُرمتَه، ولم تقاتلُوهم فيه ... وإنِ انتهكواْ حُرمةَ الشّهر الحرام، ونابذوكم فيه وقاتلُوكم فلا تَكفُّوا عن قتالِهم، ولا تَقبضُوا أيدِيَكم عنهم احترامًا له؛ لأنّه إذا كان الشّهرُ الحرامُ واجبَ الصّيانة، فنفوسُ المؤمنين ألزمُ صيانةً، وأحقُّ بها، وإذا تعارضتِ الحقوقُ والواجباتُ، قُدّم ألزمُها، وأحفظُها لدين اللّه، وإعلاءِ كلمته؛ ولا شكّ أنَّ تركَ المُشركين يكلَبون في المؤمنين، ويَشتدّون عليهم، أشدُّ ضَررًا منَ القتال في الشّهرِ الحَرامِ، الّذي انْتهكواْ حُرمتَه"[2].

معنى الألف واللّام في لفظِ (الشّهر) من قوله: ﴿ٱلشَّهۡرُ ٱلۡحَرَامُ بِٱلشَّهۡرِ ٱلۡحَرَامِ﴾:

التَّعريفُ إمَّا للجنسِ فيُفيد العمومَ، وإمَّا للعهد

يحتملُ تعريفُ الشَّهر في قوله: ﴿ٱلشَّهۡرُ ٱلۡحَرَامُ بِٱلشَّهۡرِ ٱلۡحَرَامِ﴾ معنَيَيْن؛

الأوَّل: تعريف الجنسِ، "وهو الأَظْهَرُ؛ لِأَنَّهُ يُفِيدُ حُكْمًا عَامًّا وَيَشْمَلُ كُلَّ شَهْرٍ خَاصٍّ مِنَ الأَشْهُرِ الحُرُمِ عَلَى فَرْضِ كَوْنِ المَقْصُودِ شَهْرَ عُمْرَةِ القَضِيَّةِ.

الثَّاني: للعهدِ، إنْ كَانَ المُرَادُ شَهْرَ عُمْرَةِ القَضِيَّةِ[3]، "فَالشَّهْرُ الأَوَّلُ هو ذُو القَعْدَةِ مِنْ سَنَةِ سَبْعٍ فِي عُمْرَةِ القَضَاءِ، والشَّهْرُ الثَّانِي هو مِنْ سَنَةِ سِتٍّ عَامَ الحُدَيْبِيَةَ"[4].

إيثارُ التّعبير بالمُفرد دونَ الجَمع:

لفظُ الشَّهرِ مفردٌ والمقصودُ به معنى الجمع؛ "لأنّ الشّهرَ الحرامَ ليس واحدًا، بل هي أربعةُ أشهر: ذو القَعدة، وذو الحِجّة، والمحرّم،

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/237.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 2/585.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/211.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/249.

ورجبٌ الذي بين جمادى وشعبان؛ والتّعبيرُ بالمفرد وإرادةُ الجمع فيه إشارةٌ إلى المعنى المشترَك في هذه الأشهُر الأربعةِ، وهو تحريمُ القتال ابتداءً فيها، احترامًا لها؛ لأنّ المعنى الجامعَ لها جعلَها وحدةً قائمةً بذاتها، وكأنّها معنىً واحدٌ تعدّدت صُورُه؛ فالتّعبيرُ عنِ الجمع بلفظٍ، هو في أصلِ ذاتِه للمفردِ، مُشيرًا إلى الوَحدة المُشتركة الجامعةِ بين الأفراد، مبيّنًا أنّ الحُكم قد نيط بالمعنى الجامعِ بينها، ولا يتّصلُ بالصّفاتِ الشّخصيةِ المميّزةِ لآحادِها"[1].

الجمعُ إشارةٌ للمَعنَى الجامعِ بينَها وهو الحُرْمةُ

نكتةُ عطفِ العامّ ﴿وَٱلۡحُرُمَٰتُ قِصَاصٞ﴾ على الخاصّ:

عطفُ قولِه: ﴿وَٱلۡحُرُمَٰتُ قِصَاصٞ﴾ على قولِه: ﴿ٱلشَّهۡرُ ٱلۡحَرَامُ بِٱلشَّهۡرِ ٱلۡحَرَامِ﴾ "من باب عطْفِ العامِّ على الخاصِّ، أي: كلُّ شيء يُحترَم؛ من شهرٍ حرام، أو بلدٍ حرام، أو إحرامٍ، أو ما هو أعمُّ من ذلك، جميعُ ما أمَرَ الشّرعُ باحترامه، فمن تجرّأ عليها فإنّه يُقتصّ منه، فمَن قاتلَ في الشّهرِ الحرامِ، قُوتِل، ومَن هتكَ البلدَ الحرامَ، أُخذ منه الحدُّ، ولم يكنْ له حُرمةٌ"[2]، ومعنى ﴿وَٱلۡحُرُمَٰتُ قِصَاصٞ﴾ "أي: كلُّ حُرمة، وهو ما يجبُ أن يُحافَظ عليها، يجري فيها القِصاصُ، فلما هتَكُوا حُرمةَ شهركم بالصّدّ، فافعلُواْ بهم مثلَه، وادخلُواْ عليهم عُنوةً، واقتلُوهم إن قاتلُوكم"[3].

استقصاءُ جميعِ المحرَّمات، تحقيقًا للعدلِ والأمنِ

دَلالةُ الأَلِفِ وَاللَّامِ في قوله تعالى: ﴿وَٱلۡحُرُمَٰتُ قِصَاصٞ﴾:

الأَلِفُ وَاللَّامُ في قولِه: ﴿وَٱلۡحُرُمَٰتُ﴾ إمَّا للعهدِ وإمَّا لِلْعُمُوم؛ أمَّا على معنى العهدِ، أيْ: حُرْمَةُ الشَّهْرِ وَحُرْمَةُ المُحْرِمِينَ، حِينَ صَدَدْتُمْ بِحُرْمَةِ البَلَدِ، والشّهر، والقطان، حِينَ دَخَلْتُمْ، وَهَذَا التَّفْسِيرُ عَلَى السَّبَبِ المَنْقُولِ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ وَمَنْ مَعَهُ.

كلُّ حُرْمةٍ تنتهكُ، يجْري فيها القِصاصُ لزومًا، سابقةً كانت أو لاحقةً

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 2/585.
(2) السّعديّ، تيسير الكريم الرحّمن، ص: 89.
(3) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 1/128، والطّيبي، فتوح الغيب: 3/267.

وَأَمَّا عَلَى السَّبَبِ المَنْقُولِ عَنِ الحَسَنِ، فَتَكُونُ الأَلِفُ وَاللَّامُ لِلْعُمُومِ، فِي النَّفْسِ وَالمَالِ وَالعِرْضِ، أَيْ: وَكُلُّ حُرْمَةٍ يَجْرِي فِيهَا القِصَاصُ؛ فَيَدْخُلُ فِي ذَلِكَ تِلْكَ الحُرُمَاتُ السَّابِقَةُ وَغَيْرُهَا؛ فيجري فِيهَا القِصَاصُ جميعًا[1].

والوجهان صحيحان؛ فيدخل معنى العهدِ دخولًا أوّليًّا لنزولِ الآياتِ في واقعةٍ بعينها، ويدخل معنى العموم باستغراقِ جميعِ الحرمات؛ لدلالةِ اللَّفظِ على العموم، ولعدم المخصِّصِ المخرجِ العموم عن عمومِه.

بلاغةُ جمعِ ﴿وَٱلْحُرُمَٰتُ﴾، والإخبارِ عنها بالمصدرِ ﴿قِصَاصٌ﴾:

استقصاءُ الحُرُماتِ والتَّشديد على تطبيقِها في آنٍ

جُمِعَتِ الحُرُماتُ في قولِه تعالى: ﴿وَٱلْحُرُمَٰتُ﴾؛ "لِأَنَّهُ أَرَادَ حُرْمَةَ الشَّهْرِ الحَرَامِ، وَحُرْمَةَ البَلَدِ الحَرَامِ، وَحُرْمَةَ الإِحْرَامِ"[2]، فإنَّها "في السّنة الأولى، صارتْ مَهتوكةً، بمنعِهم عن إتمام عُمرتِهم، وصارتْ مؤدّاةً مراعاةً، في هذه السَّنة قِصاصًا"[3]، وأَخبر بالمصدر الدّالِّ على معنًى مُجرّدٍ للمبالغة، قال ابنُ عاشور: "والإِخْبَارُ عَنِ الحُرُمَاتِ بِلَفْظِ ﴿قِصَاصٌ﴾، إِخْبَارٌ بِالمَصْدَرِ لِلْمُبَالَغَةِ"[4]، وفي الجمعِ والإخبارِ بالمصدرِ دليلُ استقصاءِ الحرماتِ، والتَّشديد على تطبيقها وعدمِ التَّهاونِ فيها في آن.

تخصيصٌ بعد تعميم في قوله: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾:

تفريعٌ بعد ذكرِ القاعدةِ الكُليّةِ، بذكرِ بعضِ القواعدِ الجُزئيّةِ

جرى قولُه تعالى: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ مجرى الفرعِ بعد الأصلِ؛ فهو "تخصيصٌ بعد تعميم، أو تفريعٌ بعد ذكرِ القاعدةِ الكُليّةِ، بذكرِ بعضِ القواعدِ الجُزئيّةِ بالإضافة إليها، أو الخاصّة بالنّسبة لها؛ لأنّ قولَه تعالى:

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/249.
(2) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 2/355.
(3) النّسفيّ، التّيسير في التّفسير: 3/116.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/211.

﴿وَٱلۡحُرُمَٰتُ قِصَاصٞ﴾ قضيّةٌ عامّةٌ"[1]، والابتداءُ باعتداءٍ جديدٍ محظورٌ، "أمّا ما كان على سبيل القِصاص، فهو اعتداءٌ مأذونٌ فيه، وبهذه الآيةِ استدلّ الشّافعيُّ، على وجوب قَتْلِ القاتل، بمثْلِ ما قَتل به، فيُذبحُ إذا ذَبح، ويُخنق إذا خَنق، ويُغرَقُ إذا أَغرق وهكذا، وفي الآية أيضًا إيماءٌ إلى أنّ قتالَ الأعداء كقتال المُجرمين، بلا هوادةٍ ولا تقصيرٍ، فمن يقاتِلْ بالقذائف النّاريّة، أو بالمدافع، أو بالغازات السّامة، يُقاتَلْ بمثلها، حتّى يمتنعَ عنِ الظّلم والعُدوان، والفِتنةِ والاضطهادِ، ويُوجدَ الأمانُ والاطمئنانُ بين النّاس"[2].

دلالةُ التّأكيد في قولِه تعالى: ﴿فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ﴾:

التّأكيدُ على الجزاءِ بالمِثْل، باقتصاصِ الحُرمات وإقامةِ العدل، ﴿فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ بِمِثۡلِ مَا ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡۚ﴾ "مُؤَكِّدٌ لِمَا قَبْلَهُ مِنْ قَوْلِه: ﴿وَٱلۡحُرُمَٰتُ قِصَاصٞۚ﴾"[3]، أمّا قولُه: ﴿فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ﴾، فإنّ اللّه لم يَأمرْ بالعُدوان، وإنّما يقول: (إيتواْ إليهم الّذي كانَ يُسمّى بالاعْتِداء)، أي: افعلُواْ بهم كما فعَلُواْ بكم، كما تقول: (إنْ تَعاطَيْتَ منّي ظُلْما، تعاطَيْتُهُ مِنْكَ)، والثّاني ليس بظالم، قال عمْرُو بن شأس:

جَزَيْنا ذَوِي العُدْوانِ بالأَمْسِ مِثْلَهُ *** قَصَاصًا سَوَاءً حَذْوَكَ النَّعْلَ بالنَّعْلِ[4]

مَن جازَى المُقاتِلَ المُعتدِي بالمِثْل فما ظَلَم

توجيهُ الأمر بالاعتداء في قولِه تعالى: ﴿فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ بِمِثۡلِ مَا ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡۚ﴾:

سمَّى اللّه تعالى ﴿فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ﴾ اعتداءً؛ "لأنّه مجازاةُ اعتداءٍ، فَسُمِّي بمثْل اسمِه؛ لأنّ صورةَ الفِعْلين واحدةٌ، وإن كان أحدُهما

ردُّ الاعتداءِ غايتُه المجازاةُ، فسُمّي بمثْل اسمِه المشتقِّ منَ الاعتِداء

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 2/590.
(2) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 2/92.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/250.
(4) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 2/92.

طاعةً، والآخرُ معصيّةً"[1]، فمن ظلم غيرَه واعتدى عليه؛ "فجزاؤُه جزاءُ الاعتِداء"[2]، "والعربُ تقُول ظلمني فلانٌ فظلمتُه، أي: جازَيتُه بظُلمه، وجهِل عليَّ فجهِلتُ عليه، أي جازيتُه بجهْله. قال الشّاعر:

أَلَا لَا يَجْهَلَنْ أَحَدٌ عَلَيْنَا *** فَنَجْهَلَ فَوْقَ جَهْلِ الجَاهِلِينَا"[3]

لطيفةٌ في سرِّ تسميةِ ردِّ العدوان اعتداءً:

ردُّ العدوانِ يجبُ أن يكونَ بقدرٍ، دون زيادةِ إسرافٍ، أو غلوٍّ انتقامٍ؛ وتسميةُ ردِّ العدوانِ بهذا الاسمِ دون أن يقول: فاقتصُّوا؛ لفهمِ هذا المغزى، ولتحقيق العدالةِ المقصودةِ، وقد نبَّه على ذلك أبو زهرة – رحمه الله – فقال: "وعندي أنّ تسميةَ مقاومةِ الاعتداءِ بمثْلِه اعتداءً، إذا كانت المقاومةُ حربًا ونِزالاً، فيه إشارةٌ إلى معنًى إنسانيٍّ جليلٍ، وهو أنّ القتلَ في كلّ صُوره وأَحوالِه، ولو كان ردًّا لمثْلِه، فيه اعتداءٌ على النّفسِ الإنسانيّةِ الّتي حرّم الله قتْلَها، بغير نفس، أو فسادٍ في الأرض، وأنّه عملٌ خطيرٌ، تَقشعرُّ من هولِه الأبدانُ، ولا يصحُّ الإقدامُ عليه، إلّا إذا اضطرّتِ الفضيلةُ والأخلاقُ إليه؛ وإنّ الإقدامَ عليه يكونُ كالإقدام على الضّروراتِ المحظورةِ في ذاتِها، يُقدّرُ بقَدرِها. فلا يُسرفُ القاتلُ في القتل؛ لأنّه في أصلِه محظورٌ ممنوعٌ، كأكل المَيتةِ لَا يُباح إلّا للضّرورة، ولا يَصحُّ للمُقاتِل باسم الإسلام أن يُسرفَ في القتل ما أمكنه الانتصارُ بدونه؛ ولعلّ هذا المعنى الجليلَ هو الّذي جعل عُمرَ الفاروقَ الّذي كان ينظرُ بنُور الله يكرهُ قتالَ خالدَ بنِ الوليد، ويقول: (إنّ في سيفه لَرَهقًا)، ويُعجبُ بقتال عَمرو بنِ العاص الّذي فتح مصرَ، بأقلّ ما يُتصوّرُ منَ الدّماء، ويقول: (إنّ حربَه رفيقةٌ)"[4].

ردُّ العدوانِ يكون بقدرِ الضَّرورةِ دون إسرافٍ أو انتقام

(1) الواحديّ، التّفسير البسيط: 3/629.
(2) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 71.
(3) الزّجاج، معاني القرآن وإعرابه: 1/265.
(4) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 2/591 - 592.

سِرُّ تسميةِ ردِّ العدوان اعتداءً لا ظلمًا:

أورد الرَّاغب سؤالًا فقال: "إن قيل: هل كان يجوزُ لو قيل: (مَنْ ظَلَمَكُمْ فَاظْلِمُوهُمْ)؟ قيل: لا يجوزُ ذلك؛ لأنّ الظّلمَ، إنّما هو وضعُ الشّيء في غير مَوضعِه الّذي يحقُّ أن يُوضعَ فيه، وهذا في كلّ حالٍ مذمومٌ، والاعتداءُ مجاوزةُ الحدِّ المحدودِ، وذلك لا يكونُ مذمومًا، ومَن قال منَ العرب: (مَن ظلمك فاظلمه)، فذلك منه انحرافٌ وترخُّصٌ في الظّلم على عادتِهم"[1].

الظُّلمُ منهيٌّ عنه في كلِّ الأحوالِ ولا يكونُ ردًّا للظُّلمِ

و"إن قيل: كيف رخَّصَ في الاعتداء وهو ظلمٌ، وقد منع منه آنفًا بقوله: ﴿وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ﴾؟، قيل: الاعتداءُ مجاوزةُ الحدّ، ومنه قيل: عدا فلانٌ طَورَه، ولا تعْدُ طورَك، ثمّ استعير الاعتداءُ في الظُّلم، من حيث إنّه تجاوزُ الحدِّ الّذي حدَّه العقلُ أو الشّرعُ؛ والّذي منعَ تجاوزَ ذلك ابتداءً، فقد أباح لمن اعتدَى عليه جزاءً، فإذن: الاعتداءُ ضربان: اعتداءٌ على سبيل الابتداء، وهو ظُلمٌ، وإيّاه عنى بقوله: ﴿وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ﴾، واعتداءٌ على سبيل الاعتداءِ ضربان: اعتداءٌ على سبيل القِصاص، وهو عدْلٌ؛ وإيّاه عنَى ههنا، ثمّ للمجازاة أيضًا حدٌّ لا يجوزُ أن يتجاوزَه، وإيّاه عنى بقوله: ﴿فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ﴾"[2].

معنى المماثلةِ في قولِه تعالى: ﴿بِمِثۡلِ مَا ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ﴾:

المرادُ بالمماثَلة بالاعتداءِ المماثَلةُ بالمقدار والأحوالِ، فقَوْلُهُ: ﴿بِمِثۡلِ مَا ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡۚ﴾ "يَشْمَلُ المُمَاثَلَةَ في المِقْدَارِ، وفي الأَحْوَالِ، كَكَوْنِهِ في الشَّهْرِ الحَرَامِ، أَوِ البَلَدِ الحَرَامِ"[3].

دفعُ تعارُضِ الأمرِ بردِّ الاعتداءِ والأمرِ بالعَفو:

لكلّ منَ الانْتِقَامِ العادل، والعَفْوِ الجميل، موضعٌ يحسُن فيه ويُمدحُ

لسائلٍ أن يثورَ في ذهنه السُّؤالُ الآتي: دلَّت هَذِهِ الآيَةُ عَلَى طَلَبِ الانْتِقَامِ، وَقَدْ أَذِنَ اللَّهُ فِي الانْتِقَامِ فِي آيَاتٍ كَثِيرَةٍ كَقَوْلِهِ تَعَالَى:

(1) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 1/409.
(2) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 1/408-409.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/211.

﴿وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعۡدَ ظُلۡمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيۡهِم مِّن سَبِيلٍ﴾ [الشورى: 41]، وفي المقابل قَدْ جَاءَتْ آيَاتٌ أُخَرُ تَدُلُّ عَلَى العَفْوِ وَتَرْكِ الانْتِقَامِ، كَقَوْلِهِ: ﴿فَٱصۡفَحِ ٱلصَّفۡحَ ٱلۡجَمِيلَ﴾ [الحجر: 85]، فكيف نجمع بينها، "وَالجَوَابُ عَنْ هَذَا بِأَمْرَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: أَنَّ اللَّهَ بَيَّنَ مَشْرُوعِيَّةَ الانْتِقَامِ، ثُمَّ أَرْشَدَ إِلَى أَفْضَلِيَّةِ العَفْوِ، وَيَدُلُّ لِهَذَا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِنۡ عَاقَبۡتُمۡ فَعَاقِبُواْ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبۡتُم بِهِۦۖ وَلَئِن صَبَرۡتُمۡ لَهُوَ خَيۡرٞ لِّلصَّٰبِرِينَ﴾ [النحل: 126]، وَقَوْلُهُ: ﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلۡجَهۡرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ﴾ [النساء: 148]، فَأَذِنَ فِي الانْتِقَامِ بِقَوْلِهِ: ﴿إِلَّا مَن ظُلِمَ﴾، ثُمَّ أَرْشَدَ إِلَى العَفْوِ بِقَوْلِهِ: ﴿إِن تُبۡدُواْ خَيۡرًا أَوۡ تُخۡفُوهُ أَوۡ تَعۡفُواْ عَن سُوٓءٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوّٗا قَدِيرًا﴾ [النساء: 149].

الوَجْهُ الثَّانِي: أَنَّ الانْتِقَامَ لَهُ مَوْضِعٌ يَحْسُنُ فِيهِ، وَالعَفْوُ لَهُ مَوْضِعٌ كَذَلِكَ؛ وَإِيضَاحُهُ أَنَّ مِنَ المَظَالِمِ مَا يَكُونُ فِي الصَّبْرِ عَلَيْهِ انْتِهَاكُ حُرْمَةِ اللَّهِ؛ أَلَا تَرَى أَنَّ مَنْ غُصِبَتْ مِنْهُ جَارِيَتُهُ مَثَلًا، إِذَا كَانَ الغَاصِبُ يَزْنِي بِهَا، فَسُكُوتُهُ وَعَفْوُهُ عَنْ هَذِهِ المَظْلَمَةِ قَبِيحٌ، وَضَعْفٌ وَخَوَرٌ تُنْتَهَكُ بِهِ حُرُمَاتُ اللَّهِ!!، فَالانْتِقَامُ فِي مِثْلِ هَذَا وَاجِبٌ، وَعَلَيْهِ يُحْمَلُ الأَمْرُ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَٱعۡتَدُواْ﴾، أَيْ كَمَا إِذَا بَدَأَ الكُفَّارُ بِالقِتَالِ، فَقِتَالُهُمْ وَاجِبٌ، بِخِلَافِ مَنْ أَسَاءَ إِلَيْهِ بَعْضُ إِخْوَانِهِ المُسْلِمِينَ، بِكَلَامٍ قَبِيحٍ وَنَحْوِ ذَلِكَ، فَعَفْوُهُ أَحْسَنُ وَأَفْضَلُ، وَقَدْ قَالَ أَبُو الطَّيِّبِ المُتَنَبِّي:

إِذَا قِيلَ حِلْمٌ فَلِلْحِلْمِ مَوْضِعٌ *** وَحِلْمُ الفَتَى فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ جَهْلُ[1]

أثرُ الأمرِ بالتّقوى ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ بعدَ الأمرِ بمجازاةِ الاعتداء: ﴿فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ﴾:

الاحتراسُ عن الوقوعِ في المبالغةِ في القصاصِ بتَقوى الله

ذيّل اللّه سبحانه وتعالى الآيةَ الكريمةَ، بهاتين الجُمْلتين، لكيلا يَندفعَ المقاتلون المسلمون في القتال، فيضعُوا سيوفَهم على أعناق من يستحقُّها، ومن لا يستحقُّها، فيَقتلُواْ ويتجاوزُواْ الحدَّ؛ لأنّه إذا اشْتَجرتِ السّيوفُ قد تتجاوزُ موضعَها، فتكونُ في غير العَدْل؛ وقد يُسايرون خصومَهم في أذاهم، فيَقتلون الذّراريَ أو الشّيوخَ، أو الضّعافَ، أو الرّهبانَ، والعُبّادَ في الصّوامع، كما يفعلُ خصومُهم،

(1) الشّنقيطيّ، دفع إيهام الاضطراب، ص: 32-33.

أو يَحرِقون الزّرعَ، ويَقتلون الضّرعَ، كما يَعيثُ غيرُهم في الأرض فسادًا؛ فأمر الله سبحانه بتقوى الله في الحرب، بأن يُراقبُوه وحدَه، ويخافُوه وحدَه، ويُلاحظوا التّقوى في قتالهم؛ فإنّه ينبغي أن تكونَ هي الوصف المُلازِم لهم، في حَربهم وسِلْمهم؛ فإنّ حوَّلتْهم الحربُ إلى أسودٍ كواسرَ، فلْيعلمُواْ أنّ القلوبَ الإنسانيّةَ الّتي تخشى الله يجبُ أن تكون كذلك دائمًا[1].

"والحاصل: أنه لما أباح لهم الاقتصاصَ بالمثْل، وشأنُ النّفس حبُّ المبالغةِ في الانتقام ... حذّرهم من ذلك فقال: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾"[2].

فائدةُ التَّعبير بالأمرِ: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ﴾:

التَّعبيرُ بِكَلِمَةِ اعْلَمْ، "إيذَانٌ بِالاهْتِمَامِ بِمَا سَيَقُولُهُ، فَإِنَّ قَوْلَكَ فِي الخِطَابِ: اعْلَمْ، إِنْبَاءٌ بِأَهَمِّيَّةِ مَا سَيُلْقَى لِلْمُخَاطَبِ"[3]، وما يُعلِمُ به اللهُ عبادَه، هو أحكامٌ ثابتةٌ، وحكمةٌ رائدةٌ، تضْمنُ لمن التزم بها خَيْرَيِ الدّنيا والآخرة؛ والعلم بأنّ الله مع المتّقين توفيقًا وجزاءً وتأييدًا، في أحوال العُسر واليُسر، إذا ما التزمُواْ بشرعه المبيّن في الآيات قبْلَها، والّتي ذُيّلت بقوله تعالى: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾.

التَّنبيهُ على أهميَّةِ ما سيُقال؛ فإنَّ العادةَ جرتْ بالتَّغافلِ عنه

المجازُ بالإخبار بمعيّة الله تعالى: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾:

معنى المعيَّةِ في قولِه تعالى: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ "أَيْ بِالمَعُونَةِ وَالنُّصْرَةِ وَالحِفْظِ وَالعِلْمِ، وجاء بهذا اللَّفظِ المجازيِّ الدَّالِّ على "الصُّحْبَةِ وَالمُلَازَمَةِ، حَضًّا عَلَى النَّاسِ بِالتَّقْوَى دَائِمًا، إِذْ مَنْ كَانَ اللَّهُ مَعَهُ، فَهُوَ الغَالِبُ المُنْتَصِرُ"[4]، والمعيَّةُ هي "معيّةٌ خاصّةٌ،

معيَّةُ اللهِ مع المؤمنين بِالنُّصْرَةِ وَالتَّمْكِينِ وَالتَّأْيِيدِ

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 2/592- 593.
(2) الهرري، حدائق الرّوح والرّيحان: 3/186.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/211.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/250.

فيمدّهم بالنّصرِ والعَونِ، وإلّا فهو مع كلّ نفس بعلْمه وتصرُّفه"[1]، فهي "مَجَازٌ فِي الإِعَانَةِ بِالنَّصْرِ وَالوِقَايَةِ"[2].

البناءُ الرُّوحي للأتقياءِ بالألفاظِ المُعينةِ على النَّقاءِ

معيَّة اللّه تعالى لعبادِه الأتقياء إنَّما تكون بالقربِ المعنويِّ، وهي "تدلّ على أنّه تعالى يَحرسُهم، ويُصلح شؤونَهم بالنّصر والتّمكين"[3]، "ولما كان في هذه التّقوى خروجٌ عن حظّ النّفس أعْلَمَهُم أنّه تعالى يكون عِوضًا لهم من أنفسِهم، بما اتّقَوا وداومُواْ على التّقوى، حتّى كانت وصفًا لهم؛ فأعْلَمَهم بصُحبته لهم"[4].

(1) الصّاوي، حاشية الصّاويّ: 1/83.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/212.
(3) إسماعيل حقّي، روح البيان: 1/251.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 3/118-119.

﴿وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلۡقُواْ بِأَيۡدِيكُمۡ إِلَى ٱلتَّهۡلُكَةِ وَأَحۡسِنُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٩٥﴾ [البقرة: 195]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لمّا سبقَ الأمرُ بالقتال، أعقبَه بأهمِّ ضامنٍ لإتاحتِه ودَعْمِه، وهو الإنفاقُ:

"اعْلَمْ أَنَّ تَعَلُّقَ هَذِهِ الآيَةِ بِمَا قَبْلَهَا ... أَنَّهُ تَعَالَى لَمَّا أَمَرَ بِالقِتَالِ؛ والاشْتِغَالُ بِالقِتَالِ، لَا يَتَيَسَّرُ إِلَّا بِالآلَاتِ وَأَدَوَاتٍ، يُحْتَاجُ فِيهَا إِلَى المَالِ، وَرُبَّمَا كَانَ ذُو المَالِ عَاجِزًا عَنِ القِتَالِ، وَكَانَ الشُّجَاعُ القَادِرُ عَلَى القِتَالِ فَقِيرًا عَدِيمَ المَالِ، فَلِهَذَا أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى الأَغْنِيَاءَ بِأَنْ يُنْفِقُواْ عَلَى الفُقَرَاءِ الَّذِينَ يَقْدِرُونَ عَلَى القِتَالِ"[1]، "وَلَمَّا اعْتَقَبَتْ هَذِهِ الآيَةُ لِمَا قَبْلَهَا، مِمَّا يَدُلُّ عَلَى القِتَالِ، وَالأَمْرِ بِهِ، تَبَادَرَ إِلَى الذِّهْنِ النَّفَقَةُ فِي الجِهَادِ لِلْمُنَاسَبَةِ"[2]، "لَمَّا أُمِرُواْ بِقِتَالِ عَدُوِّهِمْ، وَكَانَ العَدُوُّ أَوْفَرَ مِنْهُمْ عُدَّةَ حَرْبٍ أَيْقَظَهُمْ إِلَى الاسْتِعْدَادِ بِإِنْفَاقِ الأَمْوَالِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، فَالمُخَاطَبُونَ بِالأَمْرِ بِالإِنْفَاقِ جَمِيعُ المُسْلِمِينَ لَا خُصُوصَ المُقَاتِلِينَ"[3]، قال البقاعي: "ولما كانت النّفقةُ من أعظم دعائم الجهاد، وكان العيشُ في أوّل الإسلام ضيِّقًا والمالُ قليلًا، فكان ذلك موجبًا لكلّ أحدٍ أن يتمسّك بما في يده، ظنًّا أنّ في التّمسُّك به النّجاةَ، وفي إنفاقه الهلاكَ، أخبَرهم أنّ الأمرَ على غير ما يُسوّلُ به الشّيطانُ من ذلك"[4].

الأمرُ ببذل المال، بعدَ الأمرِ ببَذْل الأنفُسِ، هو لبُّ الإحسان

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلتَّهۡلُكَةِ﴾: (هَلَكَ) أصلٌ يَدُلُّ عَلَى كَسْرٍ وَسُقُوطٍ[5]، والتَّهْلُكَة: عَلَى وَزْنِ تَفْعُلَة،

(1) الرّازي، التّفسير الكبير: 5/293.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/251.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/212.
(4) البقاعي، نظم الدّرر: 3/119.
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (هلك).

مَصْدَرٌ لِهَلَكَ، وتفعُلَة مصدرًا قَلِيلٌ، فالتَّهْلُكَةُ: مَا أَمْكَنَ التَّحَرُّزُ مِنْهُ، وَالهَلَاكُ مَا لَا يُمْكِنُ التَّحَرُّزُ مِنْهُ، وَقِيلَ ﴿ٱلتَّهْلُكَةِ﴾: الشَّيْءُ المُهْلِكُ، وَالهَلَاكُ حُدُوثُ التَّلَفِ، وَقِيلَ: ﴿ٱلتَّهْلُكَةِ﴾ كُلُّ مَا تَصِيرُ غَايَتُهُ إِلَى الهَلَاكِ[1].

2) ﴿وَأَحْسِنُوٓاْۚ﴾: جذرها (حَسَنَ)، والإحسانُ إمَّا الإنعام على الآخرين، يقال: أَحْسَنَ إلى فلان، أو الإحسانُ في الفعل[2]، وفي معنى الآية ثلاثة أقوال: أحدُها: أنّه عنَى به الإحسانَ في أداء الفرائض؛ وهو قولُ بعض الصّحابة، والثّاني: وأحسنُواْ الظّنّ بالقَدَر؛ وهو قولُ عِكرمة، والثّالث: عودُواْ بالإحسان، على من ليس بيده شيءٌ؛ وهذا قولُ زيد بن أسلم[3].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

الدّعوةُ للإنفاق، حَصانةٌ منَ الهلاك، ومَسلكٌ للإحسان

يأمر اللّه تعالى المؤمنين أن استمِرُّواْ في إنفاق الأموال لنُصرةِ دينِ اللّه تعالى، والجهادِ في سبيله، لإعلاء كلمة اللّه، وإعزازِ دينه، ولا تُوقعُواْ أنفسَكم في المهالك، بترك الجهادِ في سبيل اللّه، وعدمِ الإنفاق فيه، وأحسنُواْ في الإنفاق والطّاعةِ، واجْعلُواْ عملَكم كلَّه خالصًا لوجه اللّه تعالى؛ فإنّ اللّه تعالى يُثيب أهلَ الإخلاص والإحسان. فالآيةُ الكريمةُ تهييجٌ للمؤمنين، وإغراءٌ لهم على قتال أعدائِهم، بدون تردُّدٍ أو تهيُّبٍ، وإرشادٌ لهم، إلى أن يجعلُواْ جهادَهم من أجل نُصرةِ الحقّ، لا من أجل المطامِع أو الشّهَوات[4].

❁ الإيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

تعيينُ المرادِ بالأمر بالإنفاقِ في قولِه: ﴿وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾:

الأمرِ بالإنفاقِ يختصُّ فيما كان (فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ)

المرادُ بالإنفاقِ في قوله تعالى: ﴿وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، "صَرْفُ المَالِ، إِلَى وُجُوهِ المَصَالِحِ، فَلِذَلِكَ لَا يُقَالُ فِي المُضَيِّعِ: إِنَّهُ مُنْفِقٌ؛ فَإِذَا قَيَّدَ الإِنْفَاقَ بِذِكْرِ سَبِيلِ اللَّهِ، فَالمُرَادُ بِهِ فِي طَرِيقِ الدِّينِ، لأَنَّ السَّبِيلَ هُوَ الطَّرِيقُ،

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/231-232، والواحديّ، التّفسير البسيط: 3/631، والرّاغب، المفردات: (هلك).
(2) الرّاغب، المفردات: (حسن).
(3) الماورديّ، النّكت والعيون: 1/254، والخازن، لباب التأويل: 1/123.
(4) نخبة من العلماء، التّفسير الميسّر: ص: 30، وطنطاويّ، التّفسير الوسيط للقرآن الكريم: 1/408.

وَسَبِيلُ اللهِ هو دِينُه، فَكُلُّ مَا أَمَرَ اللهُ بِه في دِينِه مِنَ الإِنْفَاقِ، فهو دَاخِلٌ في الآيَةِ، سَوَاءٌ كَانَ إِنْفَاقًا في حَجٍّ أَوْ عُمْرَةٍ، أَوْ كَانَ جِهَادًا بِالنَّفْسِ، أَوْ تَجْهِيزًا لِلْغَيْرِ، أَوْ كَانَ إِنْفَاقًا في صِلَةِ الرَّحِمِ، أَوْ في الصَّدَقَاتِ أَوْ عَلَى العِيَالِ، أَوْ في الزَّكَوَاتِ وَالكَفَّارَاتِ، أَوْ عِمَارَةِ السَّبِيلِ وَغَيْرِ ذَلِكَ، إِلَّا أَنَّ الأَقْرَبَ في هَذِهِ الآيَةِ - وَقَدْ تَقَدَّمَ ذِكْرُ الجِهَادِ -، أَنَّهُ يُرَادُ بِهِ الإِنْفَاقُ في الجِهَادِ"[1].

وجهُ الأمرِ في قولِه تعالى: ﴿وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾:

تنبيهُ المؤمنين على ضرورةِ حفظِ الدِّين بالإنفاقِ

أمر سبحانه وتعالى المؤمنين بالإنفاقِ في سبيل الله تعالى، وهو أمرٌ بدهيٌّ معلومٌ لدى المؤمنين، فما وجه الحاجةِ إلى هذا الأمر؟! والجواب: "تَنْبِيهُ المُسْلِمِينَ، فَإِنَّهُمْ قَدْ يُقَصِّرُونَ في الإِتْيَانِ عَلَى مُنْتَهَى الاسْتِعْدَادِ لِعَدُوٍّ قَوِيٍّ؛ لِأَنَّهُمْ قَدْ مُلِئَتْ قُلُوبُهُمْ إِيمَانًا بِاللَّهِ، وَثِقَةً بِهِ، وَمُلِئَتْ أَسْمَاعُهُمْ بِوَعْدِ اللَّهِ إِيَّاهُمُ النَّصْرَ، وَأَخِيرًا بِقَوْلِهِ: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾، نُبِّهُوا عَلَى أَنَّ تَعَهُّدَ اللَّهِ لَهُمْ بِالتَّأْيِيدِ وَالنَّصْرِ، لَا يُسْقِطُ عَنْهُمْ أَخْذَ العُدَّةِ المَعْرُوفَةِ، فَلَا يَحْسَبُوا أَنَّهُمْ غَيْرُ مَأْمُورِينَ، بِبَذْلِ الوُسْعِ لِوَسَائِلِ النَّصْرِ، الَّتِي هي أَسْبَابٌ نَاطَ اللَّهُ تَعَالَى بِهَا مُسَبَّبَاتِهَا، عَلَى حَسَبِ الحِكْمَةِ الَّتِي اقْتَضَاهَا النِّظَامُ الَّذِي سَنَّهُ اللَّهُ في الأَسْبَابِ وَمُسَبَّبَاتِهَا، فَتَطَلُّبُ المُسَبَّبَاتِ دُونَ أَسْبَابِهَا غَلَطٌ، وَسُوءُ أَدَبٍ مَعَ خَالِقِ الأَسْبَابِ وَمُسَبَّبَاتِهَا ... فَالمُسْلِمُونَ إِذَا بَذَلُوا وُسْعَهُمْ، وَلَمْ يُفَرِّطُوا في شَيْءٍ، ثُمَّ ارْتَبَكُوا في أَمْرٍ بَعْدَ ذَلِكَ، فَاللَّهُ نَاصِرُهُمْ، وَمُؤَيِّدُهُمْ فِيمَا لَا قِبَلَ لَهُمْ بِتَحْصِيلِهِ، وَلَقَدْ نَصَرَهُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وهُم أَذِلَّةٌ، إِذْ هم يومئذ جُمْلَةُ المُسْلِمِينَ، وَإِذْ لَمْ يُقَصِّرُوا في شَيْءٍ، فَأَمَّا أَقْوَامٌ يُتْلِفُونَ أَمْوَالَ المُسْلِمِينَ في شَهَوَاتِهِمْ، وَيُفِيتُونَ الفُرَصَ وَقْتَ الأَمْنِ فَلَا يَسْتَعِدُّونَ لِشَيْءٍ، ثُمَّ يَطْلُبُونَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنَ اللَّهِ النَّصْرَ وَالظَّفَرَ، فَأُولَئِكَ قَوْمٌ مَغْرُورُونَ، وَلِذَلِكَ يُسَلِّطُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ أَعْدَاءَهُمْ بِتَفْرِيطِهِمْ، وَلَعَلَّهُ يَتَدَارَكُهُمْ في خِلَالِ ذَلِكَ بِلُطْفِهِ، فِيمَا يَرْجِعُ إِلَى اسْتِبْقَاءِ الدِّينِ"[2].

(1) الرّازي، التّفسير الكبير: 5/294.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/212.

دَلالةُ (في) في قوله تعالى: ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾:

جاءَ حرفُ (في) لِلظَّرْفِيَّةِ، وهو المعنى الظَّاهرُ في الآيةِ؛ "لِأَنَّ النَّفَقَةَ تَكُونُ بِإِعْطَاءِ العَتَادِ، وَالخَيْلِ، وَالزَّادِ؛ وَكُلُّ ذَلِكَ مَظْرُوفٌ لِلْجِهَادِ عَلَى وَجْهِ المَجَازِ، وَلَيْسَتْ (فِي) هُنَا مُسْتَعْمَلَةً لِلتَّعْلِيلِ"[1].

دلالةُ الكلمةِ الشَّائعة على المقصودِ:

(سبيل الله) تركيبٌ إضافيٌّ يُرادُ بِه الجهاد.

من الكلماتِ الشَّائعة في القُرآنِ الكريم التَّركيبُ الإضافيُّ: ﴿سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، والمقصودُ بها إذا أُطلقت الجهادُ، فيكون معنى الآية: وأنفقوا "في الجهاد في سبيل اللَّه، وكلُّ ما أمر اللَّه به منَ الخير، فهو من سبيل الله، أي: منَ الطّريق إلى اللَّه ﷻ؛ لأنّ السّبيل في اللّغة الطّريقُ، وإنّما استُعمل في الجهاد أكثرَ؛ لأنّه السّبيلُ الّذي يُقاتَلُ فيه على عَقد الدّين"[2]، "وَقَدْ غَلَبَ (سَبِيلُ اللَّهِ)، فِي اصْطِلَاحِ الشَّرْعِ فِي الجِهَادِ، أَيِ القِتَالِ لِلذَّبِّ عَنْ دِينِهِ، وَإِعْلَاءِ كَلِمَتِهِ"[3].

دَلالةُ المجازِ في قوله تعالى: ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾:

"لَمَّا عُلِمَ أَنَّ اللَّهَ لَا يَصِلُ إِلَيْهِ النَّاسُ، تَعَيَّنَ أَنْ يَكُونَ المُرَادُ مِنَ الطَّرِيقِ، العَمَلَ المُوصِلَ إِلَى مَرْضَاةِ اللَّهِ وَثَوَابِهِ؛ فَهُوَ مَجَازٌ فِي اللَّفْظِ وَمَجَازٌ فِي الإِسْنَادِ"[4].

بَلاغةُ الوَصْلِ في قوله: ﴿وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾:

عُطِفَتْ الجملةُ وَلَمْ تُفْصَلْ؛ لأَنَّهَا غَرَضٌ مِنْ أَغْرَاضِ الإِرْشَادِ

العَطفُ في قَوْله تَعَالَى: ﴿وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾ هو "عَطْفُ غَرَضٍ عَلَى غَرَضٍ، عُقِّبَ الأَمْرُ بِالإِنْفَاقِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِالنَّهْيِ عَنِ الأَعْمَالِ الَّتِي لَهَا عَوَاقِبُ ضَارَّةٌ، إِبْلَاغًا لِلنَّصِيحَةِ وَالإِرْشَادِ، لِئَلَّا يَدْفَعَ بِهِمْ يَقِينُهُمْ بِتَأْيِيدِ اللَّهِ إِيَّاهُمْ، إِلَى التَّفْرِيطِ فِي وَسَائِلِ الحَذَرِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/213.
(2) الزّجاج، معاني القرآن وإعرابه: 1/265.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/213.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/213.

مِنْ غَلَبَةِ العَدُوِّ؛ فَالنَّهْيُ عَنِ الإلقَاءِ بِالنُّفُوسِ إِلَى التَّهْلُكَةِ، يَجْمَعُ مَعْنَى الأَمْرِ بِالإِنْفَاقِ وَغَيْرِهِ مِنْ تَصَارِيفِ الحَرْبِ وَحِفْظِ النُّفُوسِ، وَلِذَلِكَ فَالجُمْلَةُ فِيهَا مَعْنَى التَّذْيِيلِ، وَإِنَّمَا عُطِفَتْ وَلَمْ تُفْصَل، بِاعْتِبَارِ أَنَّهَا غَرَضٌ آخَرُ مِنْ أَغْرَاضِ الإِرْشَادِ"[1].

بيانُ المجازِ في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾:

ذكرَ (الأيدي)، وأراد الأنفُسَ والذّاتَ، من إطلاق الجُزء على الكُلّ

قوله تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾، "مجازٌ حيث أطلق الأيدِي، وأراد الأنفُسَ؛ من إطلاق الجُزء على الكُلّ"[2]؛ "لأنّ البطشَ والحركةَ يكون بها؛ فهي مجازٌ مرسلٌ علاقتُه الجُزئيّة، من إطلاق الجزء، وإرادة الكُلّ، أو السّببيةُ؛ لأنّ اليدَ سببُ الحركة"[3]؛ كقوله: ﴿بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ﴾ [الحجّ: 110]، ﴿فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشورى: 30][4]، و"يَجُوزُ أَنْ تُجْعَلَ اليَدُ مَعَ هَذَا مَجَازًا عَنِ الذَّاتِ، بِعَلَاقَةِ البَعْضِيَّةِ؛ لِأَنَّ اليَدَ أَهَمُّ شَيْءٍ فِي النَّفْسِ فِي هَذَا المَعْنَى"[5].

تعديةُ فعلِ الإلقاءِ بالباءِ في قولِه تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ﴾:

تضمين فعلِ الإلقاءِ معنى الإفضاءِ

ضُمِّنَ (ألقَى)، مَعْنَى الإفضاءِ، وهو يَتَعَدَّى بِالبَاءِ، فَعَدَّاهُ بِهَا، كَأَنَّهُ قِيلَ: وَلَا تُفْضُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ، كَقَوْلِهِ: (أَفْضَيْتُ بِجَنْبِي إِلَى الأَرْضِ)، أَيْ: طَرَحْتُ جَنْبِي عَلَى الأَرْضِ[6]، وقيل: "الباء زائدةٌ، أراد: لا تُلقوا أيدِيَكم"[7]، "ومعناه: لا تُلقوا أيدِيَكم إلى التَّهلكةِ، والأيدِي عبارةٌ عن كلِّ البدنِ"[8]، وعليه فالباءُ "مزيدةٌ في المفعول لتأكيد معنى النّهي؛ لأنّ (ألقى) يتعدّى بنفسه"[9]، وزيادتُها "لتقوية

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/213.
(2) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 3/196-197.
(3) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 1/285.
(4) الواحديّ، التّفسير البسيط: 3/632.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/213.
(6) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/253.
(7) الواحديّ، التّفسير البسيط: 3/632.
(8) النّسفي، التّيسير في التّفسير: 3/119، وينظر: البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 1/129.
(9) الآلوسي، روح المعاني: 2/78، وينظر: أبو حيّان، البحر المحيط: 2/252.

معنى الإلقاء المَنهيِّ عنه، فيَقْوَى النّهيُ ... والمعنى: لا تُلقُوا أنفسَكم إلى التّهلكة"[1]، والصَّحيح أنَّ فعلَ الإلقاءِ ضُمِّن معنى الإفضاءِ، لما فيه من زيادةِ معنًى، والقولُ بالزيادةِ يتنافرُ مع دقَّةِ النَّظمِ القرآنيِّ.

حملُ الباءِ على بابِها وتقديرُ (أنْفسكُمْ):

وإمَّا أن تكون الباءُ على بابِها غيرَ مزيدة، "والأيدي أيضًا على حقيقتِها، ويكون المفعولُ محذوفًا، أي: لا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ أنفسَكم إِلَى التَّهْلُكَةِ، وفائدةُ ذكر الأيدي حينئذٍ التّصريحُ بالنّهي عنِ الإلقاء إليها، بالقَصْد والاختيارِ"[2]؛ فالأنفسُ مضمرةٌ، والباءُ أداةٌ.

وجوهُ التَّهلُكة كثيرةٌ؛ منها ما نَجمَ عن إفراطٍ، ومنها ما نَتج عن تفريطٍ:

انفساحُ التّأويلات لمعانٍ عدّةٍ للفظ (التَّهلُكة)، يُؤكّدُ بلاغةَ اللّفظِ ودِقّةَ استعمالِه

اتَّسعت دلالةُ التَّهلكةِ في قولِه تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾، إلى ستّةُ تأويلات، وهذا دليل الثَّراء في اللَّفظِ والسِّياق القرآنيِّ:

أحدها: أن تتركواْ النّفقةَ في سبيل اللّه تعالى، فتَهلكُواْ بالإثم.

الثّاني: أي: لا تَخرجُواْ بغير زادٍ، فتَهلكُواْ بالضَّعف.

الثّالث: أي: تيأسُواْ منَ المغفرة، عند ارتكاب المعاصي، فلا تتوبُواْ.

الرّابع: أن تَتركواْ الجهادَ في سبيل اللّه، فتَهلكُواْ.

الخامس: أنّها التّقحّمُ في القتال، من غيرِ نكايةٍ في العدوّ.

السّادس: أنّه عامّ محمولٌ على جميع ذلك كلِّه[3].

دَلالةُ النّهي على العُموم: ﴿وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾:

مَجيءُ الفعل (تلقوا) في سياق النَّهي، يَقتَضِي عُمُومَ كُلِّ إلقَاءٍ

دلَّ فعلُ الإلقاء في سِيَاقِ النَّهْيِ في قولِه تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾، على "عُمُوم كُلِّ إلقَاءٍ بِاليَدِ لِلتَّهْلُكَةِ، أَيْ: كُلِّ تَسَبُّبٍ في الهَلَاكِ عَنْ عَمْدٍ، فَيَكُونُ مَنْهِيًّا عَنْهُ مُحَرَّمًا، مَا لَمْ يُوجَدْ مُقْتَضٍ لِإِزَالَةِ ذَلِكَ التَّحْرِيمِ، وهو مَا يَكُونُ حِفْظُهُ مُقَدَّمًا عَلَى

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 2/594-595.

(2) الآلوسّي، روح المعاني: 1/475.

(3) الماورديّ، النّكت والعيون: 1/253-254.

حِفْظِ النَّفْسِ، مَعَ تَحَقُّقِ حُصُولِ حِفْظِهِ، بِسَبَبِ الإِلقَاءِ بِالنَّفْسِ إِلَى الهَلَاكِ، أَوْ حِفْظِ بَعْضِهِ بِسَبَبِ ذَلِكَ؛ فَالتَّفْرِيطُ فِي الاسْتِعْدَادِ لِلْجِهَادِ حَرَامٌ لَا مَحَالَةَ؛ لِأَنَّهُ إِلقَاءٌ بِاليَدِ إِلَى التَّهْلُكَةِ، وَإِلقَاءٌ بِالأُمَّةِ وَالدِّينِ إِلَيْهَا، بِإِتْلَافِ نُفُوسِ المُسْلِمِينَ"[1].

سرُّ العُدولِ عن لفظ (الهلاك) إلى لفظ ﴿ٱلتَّهۡلُكَةِ﴾:

التّهلُكةُ هلاكٌ تدريجيٌّ، والهلاكُ إطلاقٌ عامٌّ

رأى أبو زهرة – رحمه الله تعالى – فرقًا بين الهلاك والتَّهلكة، فقال: "إنّ (التّهلُكة) إذا كانت بمعنى (الهلاك) في المال، فلا بدّ أن يكون ثمّةَ فرقٌ دقيقٌ، اقتضى العُدولَ من لفظ الهلاك إلى لفظ التّهلُكة، كما هو الشّأنُ في التّخيير منَ الألفاظ المُترادفةِ في الكلام البليغِ، ولو أنّ لنا أن نَتلمَّس فرْقًا، فهو أن نقول: إنّ التّهلكة هلاكٌ خاصّ، وهو الّذي يُباشرُ سببَه من يَنزل به الهلاكُ، وربّما لا ينزلُ دُفعةً واحدةً، بل يَسري شيئًا فشيئًا، ولكنَّ نتيجتَه تكونُ مُؤكَّدةً، أمّا لفظُ الهلاك فهو يشملُ ما ينزلُ دفعةً واحدةً، وما لا يكون للإنسان فيه إرادةٌ، وغيرَهما"[2].

وجهُ الأمرِ بالإحسان بعدَ النّهيِ عنِ التّهلكة:

إشارةٌ إلى أنّ الإحسانَ يجبُ أن يَحُفَّ الأعمالَ جميعًا

أمر سبحانه وتعالى بالإحسانِ بعد النَّهي عن إلقاءِ الأيدي في التَّهلكةِ في قوله: ﴿وَلَا تُلۡقُواْ بِأَيۡدِيكُمۡ إِلَى ٱلتَّهۡلُكَةِۛ وَأَحۡسِنُوٓاْۚ﴾ وفي ذلك "إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ كُلَّ هَاتِهِ الأَحْوَالِ يُلَابِسُهَا الإِحْسَانُ وَيَحُفُّ بِهَا، فَفِي الاعْتِدَاءِ يَكُونُ الإِحْسَانُ بِالوُقُوفِ عِنْدَ الحُدُودِ وَالاقْتِصَادِ فِي الاعْتِدَاءِ، وَالاقْتِنَاعِ بِمَا يَحْصُلُ بِهِ الصَّلَاحُ المَطْلُوبُ، وَفِي الجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَكُونُ الإِحْسَانُ بِالرِّفْقِ بِالأَسِيرِ وَالمَغْلُوبِ، وَبِحِفْظِ أَمْوَالِ المَغْلُوبِينَ وَدِيَارِهِمْ مِنَ التَّخْرِيبِ وَالتَّحْرِيقِ، وَالعَرَبُ تَقُولُ: مَلَكَتَ فَأَسْجِحْ، وَالحَذَرُ مِنَ الإِلقَاءِ بِاليَدِ إِلَى التَّهْلُكَةِ إِحْسَانٌ"[3].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/215.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 2/594.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/216.

دَلالةُ الإحسان في القرآن الكريمِ:

الإجادةُ والإتقانُ، مُرتكَزان مُهِمّان لتجسيد الإحسان

يُطلق الإحسانُ في القرآنِ الكريم، على معنَيَين اثنين وهما:

الأوّل: الإتقانُ والإجادةُ في العمل، والقيامُ بالطّاعات على وجهها.

الثّاني: التّفضّلُ على غيره بالعَطاء والزِّيادة فيه.

والمعنى الثَّاني في الجملةِ يَعودُ إلى الأوّل؛ لأنّ ذلك من قَبيل إتقان العِبادة، والإخلاصِ الكاملِ فيها، وعلى ذلك نرى أنّ الإحسانَ هنا هو الإجادةُ والإتقان، وقد أمر اللّه سبحانه المؤمنين بعدَ الأمرِ بالقتال، أن يُجيدوا كلَّ أعمالهم كلَّ الإجادة، وأن يَحتاطُوا في كلِّ ما هو متّصلٌ بحياتهم الشّخصيّةِ، وأحوالِهم الاجتماعيّةِ، وشؤونِ دولتِهم، وما يُقيم أودَها، ويُصلح أمرَها[1].

فائدةُ حذفِ مفعولِ فعل: ﴿وَأَحۡسِنُوٓاْ﴾:

تنبيهُ المخاطَبين على أنَّ الإحسانَ مطلوبٌ فِي كُلِّ حَالٍ

اختلف المفسِّرون في تعيين مفعولِ ﴿وَأَحۡسِنُوٓاْۚ﴾، وفيما يكون فيه الإحسانُ، فقيل: أَحْسِنُوا فِي فَرَائِضِ اللَّهِ، وقيل: أَحسنُوا الظّنَّ باللّه[2]، وَقيل: "وَأَحْسِنُوا فِي الإِنْفَاقِ عَلَى مَنْ تَلْزَمُكُمْ مُؤْنَتُهُ وَنَفَقَتُهُ، وَالمَقْصُودُ مِنْهُ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ الإِنْفَاقُ وَسَطًا فَلَا تُسْرِفُوا وَلَا تُقَتِّرُوا، وَهَذَا هُوَ الأَقْرَبُ لِاتِّصَالِهِ بِمَا قَبْلَهُ؛ وَيُمْكِنُ حَمْلُ الآيَةِ عَلَى جَمِيعِ الوُجُوهِ"[3].

والأَوْلَى "حَمْلُهُ عَلَى طَلَبِ الإِحْسَانِ، مِنْ غَيْرِ تَقْيِيدٍ بِمَفْعُولٍ مُعَيَّنٍ"[4]، "وفي حَذْفِ مُتَعَلِّقِ ﴿وَأَحۡسِنُوٓاْۚ﴾، تَنْبِيهٌ عَلَى أَنَّ الإِحْسَانَ مَطْلُوبٌ فِي كُلِّ حَالٍ"[5].

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 2/596-597.
(2) ابن الجوزيّ، زاد المسير: 1/158.
(3) الرّازيّ، التّفسير الكبير: 5/296.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/253.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/216.

دَلالةُ إسنادِ المحبّةِ إلى الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾:

المقصودُ بحب الله للمحسنين في قولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ إرادةُ الخيرِ بهم[1]، وصفة (المحبّة) قد وصف الله بها نفْسَه في كتابه العزيز وسنّة نبيّه الكريم ﷺ، فنُثبتها كما جاءت من غير تحريف أو تعطيل أو تشبيه، فهو سبحانه: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ [الشورى: 11].

محبّةُ الله تعالى لعبادِه، أمانٌ وضمانٌ وإحسانٌ

فائدةُ الإخبار عن محبّةِ الله للمُحسِنين:

غرضُ الإخبارِ عن محبَّة الله للمحسنين التَّحريضُ "عَلَى الإِحْسَانِ؛ لِأَنَّ فِيهِ إِعْلَامًا بِأَنَّ اللَّهَ يُحِبُّ مَنِ الإِحْسَانُ صِفَةٌ لَهُ، وَمَنْ أَحَبَّهُ اللَّهُ لِهَذَا الوَصْفِ، فَيَنْبَغِي أَنْ يَقُومَ وَصْفُ الإِحْسَانِ بِهِ دَائِمًا، بِحَيْثُ لَا يَخْلُو مِنْهُ مَحَبَّةُ اللَّهِ دَائِمًا"[2]، والتَّرْغِيبُ "فِي الإِحْسَانِ؛ لِأَنَّ مَحَبَّةَ اللَّهِ عَبْدَهُ غَايَةُ مَا يَطْلُبُهُ النَّاسُ، إِذْ مَحَبَّةُ اللَّهِ العَبْدَ سَبَبُ الصَّلَاحِ والخَيْرِ دُنْيًا وَآخِرَةً"[3]، والتَّنبيهُ على شرفِ المُحسنين[4].

محبّةُ الله تعالى نعمةٌ كبيرةٌ، تُنالُ بدَواعِي الإحسان الأثيرة

دلالةُ الألفِ واللَّام في لفظِ ﴿ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ :

الألفُ واللَّام في قوله تعالى: ﴿ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾، للاسْتِغْرَاقِ العُرْفِيِّ، وَالمُرَادُ المُحْسِنُونَ مِنَ المُؤْمِنِينَ"[5]، لا المحسنون بوجهٍ عامّ.

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 1/205.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/254.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/216.
(4) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 1/411.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/216.

﴿وَأَتِمُّواْ ٱلۡحَجَّ وَٱلۡعُمۡرَةَ لِلَّهِۚ فَإِنۡ أُحۡصِرۡتُمۡ فَمَا ٱسۡتَيۡسَرَ مِنَ ٱلۡهَدۡيِۖ
وَلَا تَحۡلِقُواْ رُءُوسَكُمۡ حَتَّىٰ يَبۡلُغَ ٱلۡهَدۡيُ مَحِلَّهُۥۚ فَمَن كَانَ مِنكُم
مَّرِيضًا أَوۡ بِهِۦٓ أَذٗى مِّن رَّأۡسِهِۦ فَفِدۡيَةٞ مِّن صِيَامٍ أَوۡ صَدَقَةٍ أَوۡ نُسُكٖۚ
فَإِذَآ أَمِنتُمۡ فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلۡعُمۡرَةِ إِلَى ٱلۡحَجِّ فَمَا ٱسۡتَيۡسَرَ مِنَ ٱلۡهَدۡيِۚ
فَمَن لَّمۡ يَجِدۡ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٖ فِي ٱلۡحَجِّ وَسَبۡعَةٍ إِذَا رَجَعۡتُمۡۗ تِلۡكَ
عَشَرَةٞ كَامِلَةٞۗ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمۡ يَكُنۡ أَهۡلُهُۥ حَاضِرِي ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۚ
وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ١٩٦﴾ [البقرة: 196]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

وجهُ ذكْرِ الحجّ بعد الصّيامِ والقتالِ في الآية:

التّناسُبُ بين الصّيام والقتال، وبين رُكن الحجِّ وأحكامِه

"لمّا ذكرَ اللّه تعالى في الآيات السّابقةِ أحكامَ الصّيام، أعْقبَ ذلك بذكرِ أحكامِ الحجِّ؛ لأنّ شهورَه تأتي مباشرةً بعد شهر الصّيام، وأمّا آياتُ القتال، فقد ذُكِرتْ عَرضاً لبيانِ حكمٍ هامٍّ وهو بيانُ الأشهُر الحَرام، والقتالِ فيها، وفيما لو تعرّض المُشركون للمؤمنين وهم في حالةِ الإحرام، هل يُباح لهم ردُّ العُدوان عن أنفسِهم، والقتالُ في الأشهُر الحُرم؟ فقد وردت الآياتُ السّابقة تُبيّن حكمةَ الأهلّة، وأنّها مواقيتُ للصّيام والحجّ، ثمّ بيَّنتِ الآياتُ بعدها موقفَ المسلمين منَ القتال في الشّهر الحَرام، وذلك حين أراد رسولُ اللّه ﷺ العُمرةَ، وصدَّه المشركون ومنعُوه من دخول مكّةَ، ووقع صُلحُ الحُدَيبية، ثمّ لَمَّا أراد القضاءَ في العام القابِل، وخشي أصحابُه غدرَ المشركين بهم، وهم في حالة الإحرام، نزلتِ الآياتُ تبيّنُ أنّه ليس لهم أن يَنتهكُواْ هذه الحرماتِ على سبيل الابتداء، بل على سبيل القِصاص، ودفعِ العُدوان، ثمّ عاد الكلامُ إلى أحكامِ الحجِّ، وحُكمِ الإحصار فيه،

فهذا هو الارتباطُ بين الآياتِ السّابقةِ واللاحقةِ"[1]، و"الحجُّ في إبّان نُزولِ القرآن، كان مُتعذِّرًا أو مُتعسِّرًا؛ لأنّ المزارَ - وهو البيتُ الحرامُ والمشعرُ الحرامُ - كان المشركون قد سيطرُواْ عليه، والأصنامُ تحيطُ به من كلّ جانب، وهم يَمنعون المسلمين منه، والعداوةُ بينهم وبين النّبيّ وصحبه مُستعرةٌ؛ فكان لا بدّ منَ القتال للوصول إليه، وأداءِ تلك الشَّعيرة الإسلاميّة؛ لذلك جاء ذكرُ القتال بين الإشارة إليه بقوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِۖ قُلْ هِيَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّۗ وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُواْ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰۗ وَأْتُواْ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَاۚ﴾، وبيّن بيانِ بعضِ أحكامِه في قوله تعالى: ﴿وَأَتِمُّواْ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِۚ﴾. ثمّ هناك ارتباطٌ خاصٌّ بين أحكامِ القتالِ وأحكامِ الحجّ؛ لأنّ القتالَ جهادٌ لحماية الدّولةِ في الخارج، والحجَّ جهادٌ لتهذيب النّفس، وحمايةِ الدّولة الإسلاميّة في الدّاخل؛ بالجمع بين أقطارها، والتّعارُفِ العامِّ بين شعوبها، ونَشْرِ المساواةِ العادلةِ بين آحادها"[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أُحْصِرْتُمْ﴾: (حَصَرَ) أَصْلٌ وهو الجَمْعُ وَالحَبْسُ وَالمَنْعُ[3]، "والحصرُ والإحصارُ: المنعُ من طريق البيتِ، فالإحصارُ يقال في المنع الظّاهر كالعدوّ، والمنعِ الباطنِ كالمرض، والحصرُ لا يقال إلّا في المنع الباطن، فقوله تعالى: ﴿فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ﴾، فمحمولٌ على الأمرين[4].

2) ﴿ٱسْتَيْسَرَ﴾: (يَسَرَ) أَصْل يَدُلُّ عَلَى انْفِتَاحِ شَيْءٍ وَخِفَّتِهِ[5]، وتَيَسَّرَ كذا واسْتَيْسَرَ أي: تسهّل، اليُسْرُ: ضدّ العُسر[6]. "أي فما تيسّرَ منَ الهَدْي وأمكن"[7] "من غير كُلفةٍ ومَشقّة؛ لا العسيرُ الصّعبُ الّذي لَا يؤدَّى إلّا بمشقّةٍ وجُهدٍ"[8].

استَيْسَر بمعنى سَهُـل وأَمـكَـن وأُتِيح

(1) محمد علي جميل، صفوة التّفاسير: 1/114، وينظر: الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 3/198-199.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 2/598.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حَصَرَ).
(4) الرّاغب، المفردات: (حَصَرَ).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (يسر).
(6) الرّاغب، المفردات: (يسر).
(7) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 71.
(8) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 2/605.

الهَديُ ذبيحةٌ تجبُ على المُتمتّع والقارِن، يَنحرُها الحاجُّ تَقرّبًا إلى الله:

3) ﴿ٱلْهَدْيِ﴾: (هدي) أَصْلٌ يدلُّ على الهَدِيَّة: مَا أَهْدَيْتَ مَنْ لَطَفٍ إِلَى ذِي مَوَدَّةٍ. والهَدْي: مَا أُهْدِيَ مِنَ النَّعَمِ إِلَى الحَرَمِ قُرْبَةً إِلَى اللَّهِ تَعَالَى[1]. "وأصله هديّ مشدّد فخُفّف"[2]، "والهَدِي جمْع هَديةٍ"[3]، "ومعنى ﴿ٱلْهَدْيِ﴾: ما يُهْدَى إلى بيت الله ﷻ تَقَرُّبًا إليه، بمنزلة الهَدِيَّةِ يُهْدِيها الإنسان إلى غيره مُتقرّبًا بها إليه"[4]، "وتفسير ﴿ٱلْهَدْيِ﴾ في هذا الموضع بدَنةٌ أو بقرةٌ أو شاة"[5].

مَحِلّ الهَدْي للمُتمتّع بالعُمْرَةِ إلَى الحَجّ بِمَكَّة إذا قدِمَها، وَطَاف بِالبَيْتِ وسَعى

4) ﴿مَحِلَّهُۥ﴾: "المحِلُّ: الموضعُ الّذي يَحلُّ به نحرُه"[6]، "والمحِلّ بالكسر، يُطلق على المكان والزّمان"[7]، "ومعنى ﴿حَتَّىٰ يَبۡلُغَ ٱلۡهَدۡيُ مَحِلَّهُۥ﴾ أي: حيث يَحِلُّ ذبحُه ونَحْرُه، يُقال: حلَّ الشّيء يَحِلُّ حَلالًا وحِلًّا، وهذا أوانُ محِلّه، أي: حينَ حَلَّ"[8]، و" مَحِلّ الهَدْي للمتمتّع بالعُمْرَةِ إِلَى الحَجّ بِمَكَّة إذا قدِمها، وَطَاف بِالبَيْتِ، وسعى بَين الصَّفَا والمروةِ، ومَحِلّ هَدْي القَارِن يومَ النَّحْر بمنًى"[9].

5) ﴿نُسُكٍۚ﴾: (نَسَكَ) أَصْلٌ يَدُلُّ عَلَى عِبَادَةٍ وَتَقَرُّبٍ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، وَالذَّبِيحَةُ الَّتِي تَتَقَرَّبُ بِهَا إِلَى اللَّهِ نَسِيكَةٌ[10]، والنُّسكُ "جمعُ نَسيكة، وهي الذّبيحةُ يَنْسُكُها لله ﷻ، أي: يَذبحُها، ويُجمع أيضًا: نسائِك، وأصل النُّسك: العبادةُ، والنّاسك: العابدُ، النُّسك سبائكُ الفضّة، كلُّ سبيكة منها نسيكةٌ، وقيل للمتعبّد: ناسك؛ لأنّه خَلَّص نفسَه من دَنَس الآثام وصفّاها، كالسّبيكة المخلَّصَة

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (هدي).
(2) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 71، وينظر: السّمين، عمدة الحفّاظ: (هدي).
(3) الزّجاج، معاني القرآن وإعرابه: 1/267.
(4) الواحديّ، التّفسير البسيط: 4/15.
(5) الفرّاء، معاني القرآن: 1/118.
(6) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 72.
(7) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 1/129.
(8) الواحديّ، التّفسير البسيط: 4/16.
(9) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: 3/280.
(10) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نسك).

منَ الخَبَث. ثمّ قيل للذّبيحة نُسك؛ لأنّها من أشرف العبادات التي يُتَقرَّب بها إلى اللّه"[1].

التّمتّعُ الاستمتاعُ بِمَحْظُورَاتِ الإِحْرَامِ ما بَيْنَ تَحَلُّلِهِ مِنَ العُمْرَةِ إِلَى إِحْرَامِهِ بِالحَجِّ:

6) ﴿تَمَتَّعَ﴾: من (مَتَعَ) الْمِيمُ وَالتَّاءُ وَالْعَيْنُ أَصْلٌ صَحِيحٌ يَدُلُّ عَلَى مَنْفَعَةٍ وَامْتِدَادِ مُدَّةٍ فِي خَيْرٍ، ومِنْهُ اسْتَمْتَعْتُ بِالشَّيْءِ[2]، و"مَعْنَى التَّمَتُّعِ التَّلَذُّذُ، يُقَالُ: تَمَتَّعَ بِالشَّيْءِ أَيْ تَلَذَّذَ بِهِ، وَالْمَتَاعُ: كُلُّ شَيْءٍ يُتَمَتَّعُ بِهِ، وَأَصْلُهُ مِنْ قَوْلِهِمْ: حَبْلٌ مَاتِعٌ أَيْ طَوِيلٌ، وَكُلُّ مَنْ طَالَتْ صُحْبَتُهُ مَعَ الشَّيْءِ فَهُوَ مُتَمَتِّعٌ بِهِ، وَالْمُتَمَتِّعُ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الحَجِّ هُوَ أَنْ يَقْدُمَ مَكَّةَ فَيَعْتَمِرَ فِي أَشْهُرِ الحَجِّ، ثُمَّ يُقِيمَ بِمَكَّةَ حَلَالًا يُنْشِئُ مِنْهَا الحَجَّ، فَيَحُجُّ مِنْ عَامِهِ ذَلِكَ، وَإِنَّمَا سُمِّيَ مُتَمَتِّعًا لِأَنَّهُ يَكُونُ مُسْتَمْتِعًا بِمَحْظُورَاتِ الإِحْرَامِ فِيمَا بَيْنَ تَحَلُّلِهِ مِنَ العُمْرَةِ إِلَى إِحْرَامِهِ بِالحَجِّ"[3].

أهلُ مكّةَ والحَرم، هم حاضِرُو المسجدِ الحرامِ:

7) ﴿حَاضِرِى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾: هم أَهْل مَكَّةَ، وما حولها من الحرم، "والحاضرون: من كانت دارُه على مسافةٍ لا يَقْصُر إليها الصّلاة، سمُّوا حاضرين؛ لأنّهم يَقرُبون من مكّةَ، والحَضْرة عند العرب: قُربُ الشّيء"[4]، فهم "أهلُ المواقيت فمَن دونَها إلى مكّةَ عند أبي حنيفة، وعند الشّافعي: أهلُ الحَرم ومن كان منَ الحرم على مسافة لا تُقْصرُ فيها الصّلاةُ"[5].

المَعْنى الإجْماليُّ:

تَبْيينُ أحكام الحجِّ والعمرةِ والإحصارِ والهَدْي

يأمر اللّه تعالى المسلمين بأن أدُّوا الحجَّ والعُمرةَ تامَّيْن، خالصَيْن لوجه اللّه تعالى، فإنْ منعَكم عن بلوغ المسجد الحرام مانعٌ، كالعدوِّ والمرضِ، فيجبُ عليكم ذَبْحُ ما تيسّر لكم منَ الإبل أو البقرِ أو الغنم، تقرُّبًا إلى اللّه تعالى؛ لكي تَخْرُجوا من إحْرامِكم، بحلْقِ شَعْر الرّأس أو تقصيرِه، ولا تَحلِقُوا رؤوسَكم إذا كنتم مُحصَرين، حتّى يَنحر

(1) الواحديّ، التفسير البسيط: 4/20، وينظر: أبو حيّان، البحر المحيط: 2/233.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (متع).
(3) الرّازي، التّفسير الكبير: 5/307.
(4) الواحديّ، التّفسير البسيط: 4/27.
(5) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/242.

المحصَرُ هديَه، في الموضع الّذي حُصِر فيه، ثمّ يَحلُّ من إحرامه، وغيرُ المحصَر لا يَنحرُ الهديَ إلّا في الحرم، الّذي هو محِلُّه، فمن كان منكم مريضًا، أو به أذًى من رأسه، يحتاجُ معه إلى الحَلْق وهو مُحْرِم حَلَق، وعليه فديةٌ: بأن يصوم ثلاثةَ أيّام، أو يتصدّقَ على ستّةِ مساكينَ، أو يذبحَ شاةً لفقراء الحَرم؛ فإذا كنتم في أمنٍ وصحَّة: فمنِ استمتع بالعُمرة إلى الحجّ، وذلك باستباحةِ ما حُرِّم عليه بسببِ الإحرام، بعد انتهاء عُمْرته، فعليه ذبْحُ ما تيسّر منَ الهدْي، فمن لم يجد هَدْيًا يذبحُه، فعليه صيامُ ثلاثة أيّام، في أشهُر الحجّ، وسبعةٍ إذا فرغتم من أعمالِ الحجّ، ورجعْتُم إلى أهليكم، تلك عشرةٌ كاملةٌ، لا بدّ من صيامِها، ذلك الهَدْيُ وما ترتّب عليه منَ الصّيام، لمن لم يكن أهلُه من ساكِني أرضِ الحرم؛ وخافُواْ اللّه تعالى، وحافِظُواْ على امتثال أوامرِه، واجتنابِ نواهيه، واعلمواْ أنّ اللّه شديدُ العقاب، لمن خالف أمرَه[1].

❁ الإيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

سرُّ الأمرِ بالإتمامِ في قوله: ﴿وَأَتِمُّواْ ٱلۡحَجَّ وَٱلۡعُمۡرَةَ لِلَّهِۚ﴾:

بدأتِ الآيةُ بأمر المؤمنين بإتمام الحجِّ والعمرةِ للّه تعالى، وغرضُ الأمرِ الوجوبُ؛ فإنَّ الحجّ والعمرةَ لا يكونان إلَّا للّه تعالى، وذكرُ: ﴿وَأَتِمُّواْ﴾ "تنبيهٌ على توفية حقِّهما، وإكمالِ شرائطِها"[2]، بإتمامِهما إذا بُدِئ بهما[3]، فمعنى ﴿وَأَتِمُّواْ﴾: "ائتوا بهما تامّيْن كامليْن بمناسكِهما، وشرائطِهما لوجهِ اللّه، مِن غيرِ توانٍ ولا نُقصانٍ يقعُ منكم فيهما"[4].

التَّنبيهُ على توفيةِ حقوقِ الحجِّ والعمرةِ إذا بدِئ بهما

الأمرُ بالإتمامِ إمَّا بتحصيلِ وصفٍ خاصٍّ بالفعل، أو تحصيلِ الفعلِ من أوّل وهلةٍ

الوجوهُ الدّلاليةُ المتعلّقةُ بالأمرِ بالإتمام:

قد أحسن في (التّحرير والتّنوير) بيانَ الوجوهِ الدّلاليّةِ في استعمال الأمرِ بالإتمام، مُرجّحًا ما يناسبُ سياقَ الآية فقال: "وَمِثْلُ هَذَا الأَمْرِ المُتَعَلِّقِ بِوَصْفِ فِعْلٍ يَقَعُ فِي كَلَامِهِمْ عَلَى وَجْهَيْنِ:

(1) نخبة من العلماء، التّفسير الميسّر: ص: 30.
(2) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 1/412.
(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 1/265.
(4) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/238.

أَحَدِهِمَا وهو الأَكْثَرُ أَنْ يَكُونَ المَطْلُوبُ تَحْصِيلَ وَصْفٍ خَاصٍّ لِلْفِعْلِ المُتَعَلِّقِ بِهِ الوَصْفُ؛ كَالإِتْمَامِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَتِمُّواْ ٱلْحَجَّ﴾، أَيْ كَمِّلُوهُ إِنْ شَرَعْتُمْ فِيهِ.

وثانِيهِمَا أَنْ يَجِيءَ الأَمْرُ بِوَصْفِ الفِعْلِ، مُرَادًا بِهِ تَحْصِيلُ الفِعْلِ مِنْ أَوَّلِ وَهْلَةٍ، عَلَى تِلْكَ الصِّفَةِ، نَظِيرَ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: 150] ... وَهَذَا ضَرْبٌ مِنْ ضُرُوبِ التَّعْبِيرِ لَيْسَ بِكِنَايَةٍ وَلَا مَجَازٍ، وَلَكِنَّهُ أَمْرٌ بِمَجْمُوعِ شَيْئَيْنِ وهو أَقَلُّ؛ لِأَنَّ الشَّأْنَ أَنْ يَكُونَ المَطْلُوبُ بِصِيغَةِ الأَمْرِ ابْتِدَاءً هو الحَدَثُ الَّذِي مِنْهُ مَادَّةُ تِلْكَ الصِّيغَةِ، وَالآيَةُ تَحْتَمِلُ الاسْتِعْمَالَيْنِ، فَإِنْ كَانَ الأَوَّلُ، فهي أَمْرٌ بِإِكْمَالِ الحَجِّ وَالعُمْرَةِ، بِمَعْنَى أَلَّا يَكُونَ حَجًّا وَعُمْرَةً، مَشُوبَيْنِ بِشَغَبٍ وَفِتْنَةٍ وَاضْطِرَابٍ، أَوْ هي أَمْرٌ بِإِكْمَالِهِمَا، وَعَدَمِ الرُّجُوعِ عَنْهُمَا بَعْدَ الإِهْلَالِ بِهِمَا، وَلَا يَصُدُّهُمْ عَنْهُمَا شَنَآنُ العَدُوِّ، وَإِنْ كَانَ الثَّانِي فهي أَمْرٌ بِالإِتْيَانِ بِهِمَا تَامَّيْنِ أَيْ مُسْتَكْمِلَيْنِ مَا شُرِعَ فِيهِمَا؛ والمَعْنَى الأَوَّلُ أَظْهَرُ وَأَنْسَبُ بِالآيَاتِ الَّتِي قَبْلَهَا"[1].

الأمـرُ بالإتمـامِ دليلٌ على وُجوبِه لا وجوبِ أصلِه

قوله تعالى: ﴿وَأَتِمُّواْ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ "بيانٌ لوجوب إتمام أفعالِهما عند التّصدّي لأدائِهما، وإرشادٍ للنّاس إلى تدارُك ما عسى يَعتريهم منَ العوارض المُخِلَّة بذلك؛ من الإحصار ونحوِه، من غيرِ تعرُّضٍ لحالها في أنفسِهما، منَ الوجوب وعدمِه"[2]، فليس "في هذه الآية الكريمة ما يُفيدُ الوجوبَ؛ فهي لَا تفيدُ وجوبَ حجٍّ ولا وجوبَ عُمرةٍ، بل تفيد وجوبَ الإتمام، إن شُرِعَ في أحدهما"[3].

دَلالةُ لام التّعريفِ في قوله تعالى: ﴿ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ﴾:

التّعريفُ في ﴿ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ﴾ للجِنس، فمُطلقُ الحجّ وزيارة البيت، إنّما هي للّه تعالى، "وَهُمَا عِبَادَتَانِ مَشْهُورَتَانِ عِنْدَ المُخَاطَبِينَ مُتَمَيِّزَتَانِ عَنْ بَقِيَّةِ الأَجْنَاسِ، فَالحَجُّ هُوَ زِيَارَةُ الكَعْبَةِ فِي مَوْسِمٍ مُعَيَّنٍ فِي وَقْتٍ وَاحِدٍ لِلْجَمَاعَةِ؛ وَفِيهِ وُقُوفُ عَرَفَةَ. وَالعُمْرَةُ زِيَارَةُ الكَعْبَةِ فِي غَيْرِ مَوْسِمٍ مُعَيَّنٍ، وَهِيَ لِكُلِّ فَرْدٍ بِخُصُوصِهِ"[4].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/217.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 1/205.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 2/602.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/217.

توجيهُ المخصُوصِ بالذِّكر:

اختلاطُ بعضِ أعمالِ الحجِّ بالشِّركِ في الجاهليّة يقتضي تخصيصَه بالله

لسائلٍ أن يسألَ عن سرِّ اختصاصِ عبادةِ المناسكِ (الحجِّ والعمرةِ) للّه تعالى؟ وعدم ذكرِ ذلك في الصَّلاة والزَّكاة والجهاد؟! والجواب: أنَّ المشركين "كانواْ يتقرَّبون ببعض أفعال الحجّ والعمرة إلى الأصنام، فخصَّهما بالذّكر للّه تعالى حثًّا على الإخلاص فيهما، ومَجانبةِ ذلك الاعتقاد المحظور"[1]، "وفائدةُ التّخصيص بقوله: ﴿لِلَّهِ﴾ هنا أنَّ العربَ كانت تقصدُ الحجَّ للاجتماع، والتّظاهُر، وحضورِ الأسواق؛ وكلُّ ذلك ليس لِلّه فيه طاعةٌ، ولا قربةٌ؛ فأمر اللّه تعالى بالقصدِ إليه لأداء فَرضِه، وقَضاء حقِّه"[2].

معنى الفاءِ في قولِه: ﴿فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ﴾:

التّفريعُ لبيانِ حكمِ ما يمنعُ من الإتمامِ

قَوْلُهُ تعالى: ﴿فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ﴾ عَطْفٌ عَلَى ﴿وَأَتِمُّواْ﴾، "وَالفَاءُ لِلتَّفْرِيعِ الذِّكْرِيِّ، فَإِنَّهُ لَمَّا أَمَرَ بِإِتْمَامِ الحَجِّ وَالعُمْرَةِ، ذَكَرَ حُكْمَ مَا يَمْنَعُ مِنْ ذَلِكَ الإِتْمَامِ"[3]؛ وهو الإحصارُ، وهذا من يُسْرِ الشَّريعةِ؛ فإنَّ أحكامَها تتَّسمُ بالواقعيَّةِ والمرونةِ.

فائدةُ الشّرط بـ(إنْ) دون غيرها: ﴿فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ﴾:

تنبيهُ الحاجِّ على أنَّ الإحصارَ متوقَّعٌ من الأعداءِ

جاءَ التَّعبيرُ بأداة الشَّرْطِ غير متحقِّقةِ الوقوع ﴿فَإِنْ﴾ دون (إذا)؛ "لِأَنَّ مَضْمُونَ الشَّرْطِ كَرِيهٌ لَهُمْ، فَأَلقَى إِلَيْهِمُ الكَلَامَ إِلقَاءَ الخَبَرِ، الَّذِي يُشَكُّ فِي وُقُوعِهِ؛ وَالمَقْصُودُ إِشْعَارُهُمْ بِأَنَّ المُشْرِكِينَ سَيَمْنَعُونَهُمْ مِنَ العُمْرَةِ"[4]؛ وفيه تنبيهٌ وتحذيرٌ وأمرٌ بالاحتياطِ عند وقوعِ الإحصارِ.

الإيجازُ بالحذف في الشَّرْط، في قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ﴾:

تقديرُ المحذوفِ في قوله: ﴿فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ﴾ "أي: عنِ البيت، ولم

---

(1) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 1/412.

(2) ابن عادل الدّمشقيّ، اللّباب في علوم الكتاب: 3/358.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/222.

(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/222.

تتمكّنُوا من دخوله، كما وقع للمصطفى ﷺ؛ وهذا رفعٌ للحرج الواقع في الأمرِ من قوله ﴿وَأَتِمُّواْ﴾"[1]، "وجاز الحذفُ لأنّ ما تقدّم يدلُّ عليه"[2]، "وظاهرُ قوله: ﴿فَإِنۡ أُحۡصِرۡتُمۡ﴾، أن لا فَرْقَ بين أن يُحصَر بمكّةَ أو بغيرِها، وبعدَ عرفة أو قبلَها؛ بخلاف ما قال أبو حنيفة: إنَّ من أُحصر بمكّةَ أو بعد الوقوف لا يكون مُحصَرًا في الحُكم"[3].

تقديرُ المحذوفِ وأثرُه في الخلافِ الفقهيِّ

معنى الفاءِ في قولِه: ﴿فَمَا ٱسۡتَيۡسَرَ مِنَ ٱلۡهَدۡيِۚ﴾:

دلّتِ الفاءُ في قولِه تعالى: ﴿فَمَا ٱسۡتَيۡسَرَ مِنَ ٱلۡهَدۡيِۚ﴾ على حذفٍ مفهوم من السِّياقِ، "والمعنى: فإن أُحصرتم دون تمام الحجّ والعُمرة، فحَلَلْتُم، فعليكم ما اسْتَيْسر منَ الهَدْي، ومثلُه: ﴿أَوۡ بِهِۦٓ أَذٗى مِّن رَّأۡسِهِۦ فَفِدۡيَةٞ﴾، تقديرُه: فحلقٌ، ففديةٌ"[4]، والفاء العاطفة هنا لها دورٌ في التّرتيب والتّعقيب، وبروزِ ما يُناط عادةً بهذا الحرف في سياقه المعهود.

تقديرُ المحذوفِ سياقيًّا

دلالةُ (مِن) و(لام التّعريف) في قولِه: ﴿مِنَ ٱلۡهَدۡيِۖ﴾:

معنى ﴿مِنَ﴾ في قولِه: ﴿مِنَ ٱلۡهَدۡيِۖ﴾ تحتملُ أن تكونَ للتَّبعيضِ إن كان ﴿ٱلۡهَدۡيَ﴾ جمعًا، وهي في مَوْضِعِ الحَالِ مِنَ الضَّميرِ المَسْتَكِنِّ في ﴿ٱسۡتَيۡسَرَ﴾، العَائِدِ عَلَى ﴿فَمَا﴾، فَيَتَعَلَّقُ بِمَحْذُوفٍ؛ التَّقْدِيرُ: كَائِنًا مِنَ الهَدْيِ، وإِنْ كَانَ ﴿ٱلۡهَدۡيُ﴾ اسْمًا فَـ﴿مِنَ﴾ بَيَانِيَّةٌ، وَ﴿ٱلۡهَدۡيُ﴾ اسْمُ الحَيَوَانِ المُتَقَرَّبِ بِهِ لِلَّهِ فِي الحَجِّ، وَالأَلِفُ وَاللَّامُ فِيه لِلْعُمُومِ[5].

مِنْ للتّبعيض أو للبيانِ، واللّامُ للعمومِ

توجيهُ المخصُوصِ بالذِّكرِ في قولِه: ﴿وَلَا تَحۡلِقُواْ رُءُوسَكُمۡ﴾:

خَصَّ النَّهْيَ عَنِ الحَلْقِ في قولِه تعالى: ﴿وَلَا تَحۡلِقُواْ رُءُوسَكُمۡ﴾ "دُونَ غَيْرِهِ مِنْ مُنَافَيَاتِ الإِحْرَامِ؛ كَالطِّيبِ تَمْهِيدًا لِقَوْلِهِ: ﴿فَمَن كَانَ

(1) الصّاوي، حاشية الصّاوي: 1/84.
(2) الواحديّ، التّفسير البسيط: 4/14.
(3) تفسير الرّاغب: 1/412.
(4) ابن الجوزيّ، زاد المسير: 1/159.
(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/258، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/224.

مِنكُم مَّرِيضًا أَوۡ بِهِۦٓ أَذٗى مِّن رَّأۡسِهِۦ﴾، وَيُعْلَمُ اسْتِمْرَارُ حُكْمِ الإِحْرَامِ فِي البَقِيَّةِ، بِدَلَالَةِ القِيَاسِ وَالسِّيَاقِ، وَهَذَا مِنْ مُسْتَتْبَعَاتِ التَّرَاكِيبِ، وَلَيْسَ بِكِنَايَةٍ عَنِ الإِحْلَالِ، لِعَدَمِ وُضُوحِ المُلَازَمَةِ، وَالمَقْصُودُ مِنْ هَذَا تَحْصِيلُ بَعْضِ مَا أَمْكَنَ مِنْ أَحْوَالِ المَنَاسِكِ؛ وهو اسْتِبْقَاءُ الشَّعَثِ المَقْصُودِ فِي المَنَاسِكِ"[1].

المَقْصُودُ فِي المَنَاسِكِ إظهارُ الشَّعَثِ، والرَّأسُ أوضحُ ما يظهرُ فيه ذلك

المجازُ في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحۡلِقُواْ رُءُوسَكُمۡ﴾:

في قولِه تعالى: ﴿وَلَا تَحۡلِقُواْ رُءُوسَكُمۡ﴾ "مجازٌ في الفاعل وفي المفعول، أمّا في الفاعل: ففي إسنادِ الحلْق إلى الجميع، وإنّما يَحلق بعضُهم رأسَ بعض، وهو مجازٌ شائعٌ كثيرٌ، تقول: حلقتُ رأسي، والمعنى: أنّ غيرَه حلَقه له، وأمّا المجازُ في المفعول: فإنّه على حذف مضاف، تقديرُه: (شعْر رؤوسكم)، والخطاب يخصّ الذّكورَ؛ لأنّ الحلْق مثلةٌ للنّساء في الحجّ وفي غيرِه، وإنّما التّقصيرُ سنّتُهنّ في الحجّ"[2].

مجازُ الكلِّ عن البعضِ، ومجازُ حذفِ المضافِ

الحذفُ والكنايةُ في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحۡلِقُواْ رُءُوسَكُمۡ حَتَّىٰ يَبۡلُغَ ٱلۡهَدۡيُ مَحِلَّهُۥۚ﴾:

في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحۡلِقُواْ رُءُوسَكُمۡ حَتَّىٰ يَبۡلُغَ ٱلۡهَدۡيُ مَحِلَّهُۥۚ﴾ مجازٌ بالحذف، وتقديره: "حَتَّى يَبْلُغَ الهَدْيُ مَحِلَّهُ وَيُنْحَرَ؛ فَإِذَا نُحِرَ فَاحْلِقُوا"[3]، فهي "كنايةٌ عن ذبحه في مكان الإحصار"[4]، ومكانُ الإحصَار هو ﴿مَحِلَّهُۥۚ﴾، والمحِلّ: الموضعُ الّذي يَحلّ به نحرُه، وهو من: حلّ يَحِلّ، وفي المحِلّ قولان: أحدهما: أنّه الحرَمُ. والثّاني: أنّه الموضع الّذي أُحصر به، فيذبحُه ويَحلّ[5]، كما ظهر من سياق الآية الآنفة

التّحَلُّلُ لا يكونُ إلّا ببلوغِ الهَدْيِ مَحِلَّهُ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/224.
(2) الهرري، حدائق الرّوح والرّيحان: 3/231.
(3) الرّازي، التّفسير الكبير: 5/305.
(4) الهرري، حدائق الرّوح والرّيحان: 3/231.
(5) ابن الجوزيّ، زاد المسير: 3/231.

الذِّكرِ، أنّه إذا بلغ الهديُ محِلّه، جاز الحلْقُ، وليس فيه دليلٌ على وجوبه، بل يجوز أن يكون استباحةَ المحظور الّذي كان[1].

المجازُ بالحذفِ في قوله: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ﴾:

الشّريعةُ تُراعِي مصالحَ العبادِ، وتُخفّفُ عنهم كلَّ رَهَقٍ

في قولِه تعالى: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ﴾ مجازٌ بالحذفِ، والتَّقدير: فمن كان منكم مريضًا مرَضًا مُحْوِجًا إلى الحَلْق فحلَق، أو به أذًى من رأسه كجراحةٍ فحلَق؛ فعليه فديةٌ[2]، فالمعنى: فحلَق لإزالة الأذى؛ وهو القُمَّلُ أو الجراحةُ، فعليه إذا احتلق فديةٌ، وهذا هو فحوى الخطاب[3]، ونكتةُ الحذفِ عدمُ تعيينِ المحذوف، بل جعله عامًّا ليصلح تكييفه على كلِّ مرضٍ أو أذًى، وهذا من مراعاة الشَّريعة لمصالحِ العبادِ.

حملُ الخطابِ على العمومِ أو الخصوصِ في قولِه: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا﴾:

تعيينُ العمومِ والخصوصِ مبنيٌّ على فهم السِّياق ومقاصد الخطابِ.

اختلف المفسِّرون في قولِه تعالى: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا﴾، هل هو خاصٌّ بالمحصَرِ أو عامٌّ؟

فذهبت طائفةٌ إلى أنَّه خاصٌّ بِالْمُحْصَرِ، وَذَلِكَ لِأَنَّ قَبْلَ بُلُوغِ الهَدْيِ مَحِلَّهُ، رُبَّمَا لَحِقَهُ مَرَضٌ أَوْ أَذًى فِي رَأْسِهِ، إِنْ صَبَرَ فَاللَّهُ أَذِنَ لَهُ فِي ذَلِكَ، بِشَرْطِ بَذْلِ الفِدْيَةِ.

وَقَالَ آخَرُونَ بأنَّ الآيةَ عامَّةٌ في كلِّ حاجٍّ ومُعتمرٍ، والمرضُ الّذي يُبيح اللُّبسَ والحلْقَ، ويقتضي الفديةَ، هو الّذي يحتاج إلى تغطية البَدَن وحلْقِ الشَّعْر، وألزمَ فديةً على التّخيير، ولم يبيّن وصفَها، وذلك بناءً على جعل الكلامِ مُسْتَأْنَفًا؛ فهي لِكُلِّ مُحْرِمٍ لَحِقَهُ المَرَضُ

(1) الكيا الهراسّي، أحكام القرآن: 1/94.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 1/206، والهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 3/231.
(3) ابن عطية، المحرّر الوجيز: 1/268، والزمخشري، الكشّاف: 1/241،

فِي بَدَنِهِ فَاحْتَاجَ إِلَى عِلَاجٍ، أَوْ لَحِقَهُ أَذًى فِي رَأْسِهِ، فَاحْتَاجَ إِلَى الحَلْقِ؛ فَبَيَّنَ اللَّهُ تَعَالَى، أَنَّ لَهُ ذَلِكَ، وَبَيَّنَ مَا يَجِبُ عَلَيْهِ مِنَ الفِدْيَةِ[1].

الكنايةُ في قوله تعالى: ﴿أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ﴾:

من أدبِ القرآنِ الكنايةُ عن المعاني التي يكره المخاطَبُ سماعَ ألفاظِها، فقولُه تعالى: ﴿أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ﴾ هو "كِنَايَةٌ عَنِ الوَسَخِ الشَّدِيدِ وَالقَمْلِ، لِكَرَاهِيَةِ التَّصْرِيحِ بِالقَمْلِ"[2]، وهذا الأدبُ القرآنيُّ منهجٌ فريدٌ في باب تعليم النَّاس اختيارَ الألفاظِ، ومجيئه في باب آيات الأحكام دليلٌ على أنَّ مراعاة النَّظم القرآنيِّ لما يستجمله المخاطَبون من ألفاظٍ؛ وأصل هذا الأمر في السُّنَّة، ما ذكره الطّبريّ قال: "عن كعبِ بنِ عُجْرَةَ، قال: «مرّ بي رسولُ اللّه ﷺ بالحديبية، ولي وفرةٌ فيها هوامّ، ما بين أصل كلِّ شعرة إلى فرعها، قُمّل وصِئْبانٌ، فقال: إنّ هذا لأذى! قلتُ: أجل يا رسول اللّه، شديدٌ! قال: أَمَعَكَ دمٌ؟ قلت: لا! قال: فإنْ شئتَ فصُمْ ثلاثةَ أيّام، وإنْ شئتَ فتصدّقْ بثلاثة آصُعٍ مِن تمرٍ، على ستّةِ مساكينَ؛ على كلِّ مسكين نصفَ صاعٍ»[3].

من أدبِ القُرآن تـركُ التّصريح بما هو مـرذولٌ منَ الألفاظ

دَلالةُ (الباء) و(مِن) في قوله تعالى: ﴿أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ﴾:

الباءُ في قولِه تعالى: ﴿أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ﴾ لِلْإِلصَاقِ، أي: أذًى ملتصقًا به، وَيَجُوزُ أَنْ تَكُونَ ظرفيّةً، أي: أذًى فيه، و﴿مِّن رَّأْسِهِۦ﴾، يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مُتَعَلِّقًا بِمَا يَتَعَلَّقُ بِهِ: (بِهِ)، وَأَنْ يَكُونَ فِي مَوْضِعِ الصِّفَةِ لـ: أَذًى، وَعَلَى التَّقْدِيرَيْنِ يَكُونُ: (مِنْ)، لِابْتِدَاءِ الغَايَةِ، أَيْ: أَذًى نَاشِئٌ عَنْ رَأْسِهِ[4].

الأذَى كـائـنٌ في الـرّأس، نـاشِئٌ منه

(1) الرّازي، التّفسير الكبير: 5/306، والراغب، تفسير الرّاغب: 1/413.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتنّوير: 2/224.

(3) رواه أحمد في المسند: 4/343، وأبو داود، حديث رقم: (1858)، كلاهما من طريق داود عن الشّعبي، وينظر أيضا ابن جرير، جامع البيان: 3/58 - 59.

(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/261، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/224.

بلاغةُ استِعمال (إذا) دون (إنْ) في قوله تعالى: ﴿فَإِذَآ أَمِنتُمۡ﴾:

التفاؤلُ بالأمنِ حاجةٌ نفسيَّةٌ، وإرشادٌ قرآنيٌّ

جيء بأداةِ (إذا) دون (إن) في قوله تعالى: ﴿فَإِذَآ أَمِنتُمۡ﴾؛ لأنّ فعلَ الشّرط وهو الأمنُ مرغوبٌ فيه[1]، فالأمنُ ممّا تتوقُه النّفوسُ وتتوقّعُه، بخلاف الإحصار فاستُعمل معه (إنْ)، قال أبو جعفر: "يعني بذلك جلّ ثناؤه: فإن أُحصِرْتم أيّها المؤمنون، فما استَيْسَر منَ الهَدْي، فإذا أَمِنْتم فزال عنكم خوفُكم من عدوّكم أو هلاكِكم من مرضكم، فتمتّعتم بعُمرتكم إلى حجّكم، فعليكم ما استَيْسَر منَ الهَدْي"[2].

سرُّ التّعبيرِ بلفظِ الأمنِ بصيغةِ الماضي في قولِه تعالى: ﴿فَإِذَآ أَمِنتُمۡ﴾:

المقصودُ بالإحصارِ الخوفُ الذي يكونُ بزوالِه الأمنُ

عبَّرتِ الآيةُ بكلمةِ ﴿أَمِنتُمۡ﴾ والمرادُ بها ثبوتُ حالِ الأمن واستقراره، سواء أكان عارضًا بعد الخوفِ أم كان حالًا مُستمرّةً؛ فإنّ الماضي يدلُّ في كثير من أحوالِه على الإخبار عنِ الحالات المُستمرّةِ[3]، و(الأمنُ) إنّما يكون بزوال الخوف، وإذ كان ذلك كذلك، فمعلومٌ أنّ الإحصارَ الّذي عنَى اللّه في هذه الآية، هو الخوفُ الّذي يكون بزواله الأمنُ، وإذ كان ذلك كذلك، لم يكن حَبسُ الحابس الّذي ليس مع حَبْسه خوفٌ على النّفس من حبْسه داخلاً في حُكم الآية بظاهرها المتْلوِّ، وإن كان قد يُلحق حُكمُه عندنا بحُكمِه من وجه القياس[4].

دَلالةُ الحذف في قوله تعالى: ﴿فَإِذَآ أَمِنتُمۡ﴾:

تعيينُ المقصودِ بنوعِ الإحصارِ مُرتبطٌ بالسّياق، وبه تتحدّدُ الدّلالةُ

قوله تعالى: ﴿فَإِذَآ أَمِنتُمۡ﴾ متعلِّقٌ بمحذوفٍ وهو الإحصار، والإحصارُ إمَّا أن يكون من المرضِ وإمَّا أن يكون من العدوِّ، على خلافٍ بين المفسِّرين، والقولان مرويّان عن السَّلف؛ فَمَنْ فَسَّرَ الإِحْصَارَ بأنَّه إحصارٌ بالمرضِ لا بالعدوِّ، وجعلَ الأَمْنَ هُنَا مِنَ المَرَضِ لَا مِنَ العَدُوِّ، فيكون تقدير المحذوف: (فَإِذَا بَرِئْتُمْ مِنْ مَرَضِكُمْ).

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/225.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 3/88.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 2/610.
(4) ابن جرير، جامع البيان: 3/26.

وَمَنْ فَسَّرَهُ بِالعَدُوِّ لَا بِالمَرَضِ، فيكون تقديرُ المحذوف: (فَإِذَا أَمِنْتُمْ مِنْ خَوْفِكُمْ مِنَ العَدُوِّ)[1].

وعلى القولِ بأنَّ الإحصارَ هو إحصارُ العدوِّ يكون معناه: الأمن من العدوِّ؛ وهو قولُ ابنِ عبّاس رضي الله عنهما، أي: إذا أَمِنْتم من خوفِكم منَ العدوّ المُحصر، وهذا أشبهُ باللّفظ، إلّا أن يُتخيّل الخوفُ منَ المرض، فيكون الأمنُ منه[2]، والخوفُ "إنّما يُطلَق على العدوّ؛ لأنّ الأمنَ نقيضُ الخوف، ويقال في نقيض المرض: الشّفاءُ"[3]، فالأَظْهَرُ "أَنَّ الأَمْنَ ضِدُّ الخَوْفِ مِنَ العَدُوِّ، مَا لَمْ يُصَرِّحْ بِمُتَعَلِّقِهِ"[4].

لطيفةٌ في تسميةِ الجمعِ بينَ الحجِّ والعُمرةِ تمتّعًا في: ﴿فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ﴾:

للجسد مُتْعَتُه الماديّةُ، وللرّوح مُتعَتُه المعنويّةُ

سُمّي الجمعُ بين العمرةِ والحجِّ تمتّعًا في قولِه: ﴿فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ﴾؛ "لأنّ المُحرم يجمعُ بين مُتعة الرّوح ومُتعةِ الجسد، فيحرمُ بالعُمرة ويَستمرُّ فيها، وتلك متعةٌ روحيّةٌ، ويجوزُ أن يتحلّل منها، ثمّ يُحرمُ بالحجّ، وتلك مُتعةٌ جسديّةٌ، ثمّ هو يَعتمرُ ويحجُّ في سَفَرٍ واحدٍ، وتلك مُتعةٌ ماديّةٌ، من أجل ذلك سُمّي هذا تمتّعًا"[5].

دلالةُ الباء في قولِه تعالى: ﴿تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ﴾:

التّمتّعُ بمحظوراتِ الإحرامِ بسببِ العُمرة

معنى الباءِ في قوله: ﴿بِٱلْعُمْرَةِ﴾ أي: بسببِ العُمرة؛ لأنّ المحرمَ يتمتّعُ بمحظوراتِ الإحرام، بسببِ العُمرة حيث أتى بها[6]؛ فالمتمتِّعُ في الحقيقةِ لَا يَتَمَتَّعُ بِالعُمْرَةِ نفسِها، وَلَكِنَّهُ يَتَمَتَّعُ بِمَحْظُورَاتِ الإِحْرَامِ بِسَبَبِ إِتْيَانِهِ بِالعُمْرَةِ؛ وهذا هو مَعْنَى التَّمَتُّعِ بِالعُمْرَةِ إِلَى الحَجِّ[7].

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/262.
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 1/268.
(3) الكيا الهراسّي، أحكام القرآن: 1/91.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/225.
(5) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 2/610.
(6) الواحديّ، التّفسير البسيط: 4/22.
(7) الرّازيّ، التّفسير الكبير: 5/308.

معنى حرف انتهاءِ الغاية في قوله تعالى: ﴿فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ﴾:

مفهومُ الإِحْلَال الّذي هو الزّمنُ الفاصلُ بَيْنَ العُمْرَةِ وَالحَجِّ

المرادُ بانتهاءِ الغايةِ في قولِه تعالى: ﴿فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ﴾ قولان:

الأوَّل: الاستمتاعُ بالعُمرة إلى وقت الحجّ، أي: الانتفاعُ بالتّقرُّب بها إلى اللّه تعالى، قبل الانتفاع بتقرُّبه بالحجّ.

الثّاني: إذا حلَّ من عُمرته انتفع باستباحةِ ما كان مُحرّمًا عليه، إلى أن يُحْرِم منَ الحجِّ[1].

وخلاصةُ المعنى أن قَوْلَهُ: ﴿إِلَى ٱلْحَجِّ﴾ مُتَعَلِّقٌ بِمَحْذُوفٍ دَلَّ عَلَيْهِ معنى (إِلَى)، والتقدير: "(مُتَرَبِّصًا إِلَى وَقْتِ الحَجِّ)، أَوْ (بَالِغًا إِلَى وَقْتِ الحَجِّ)، أَيْ: أَيَّامِهِ، وهي: عَشْرُ ذِي الحِجَّةِ، وَقَدْ فُهِمَ مِنْ كَلِمَةِ (إِلَى)، أَنَّ بَيْنَ العُمْرَةِ وَالحَجِّ زَمَنًا، لَا يَكُونُ فِيهِ المُعْتَمِرُ مُحْرِمًا؛ وهو الإِحْلَالُ الَّذِي بَيْنَ العُمْرَةِ وَالحَجِّ، فِي التَّمَتُّعِ وَالقِرَانِ"[2].

دَلالةُ الفاءاتِ في قوله: ﴿فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ﴾:

تنوّعُ غرضِ الحرفِ الواحدِ، ووظيفتُه السّياقيّةُ، دليلٌ على ثَراء العربيّةِ

تكرَّرتِ الفاءُ في قولِه تعالى: ﴿فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ﴾ ثلاثَ مرَّاتٍ؛ ولكلِّ واحدةٍ معنًى، فأمَّا الأولى في قولِه تعالى: ﴿فَإِذَآ أَمِنتُمْ﴾، فهي لِلعَطْفِ، وَأمَّا الثَّانية في قولِه تعالى: ﴿فَمَن تَمَتَّعَ﴾، فهي جَوَابُ الشَّرْطِ، وأمَّا الثَّالثة في قولِه تعالى: ﴿فَمَا﴾، فهي جَوَابٌ لِلشَّرْطِ الثَّاني[3]، "ووقتُ وُجوبه بعد ما أَحْرَمَ بِالحَجِّ؛ لِأَنَّ الفَاءَ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ﴾، يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ وَجَبَ عَقِيبَ التَّمَتُّعِ"[4].

(1) الزّمخشري، الكشّاف: 1/241.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/226.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/264.
(4) الرّازيّ، التّفسير الكبير: 5/309.

دَلالةُ حذفِ المفعول في قوله تعالى: ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ﴾:

المشقّةُ تَجلبُ التّيسيرَ

حُذِفَ المفعولُ في قولِه تعالى: ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ﴾ لأنَّ المعنى مفهومٌ من السِّياقِ، والتَّقدير: "فَمَنْ لَمْ يَجِدْ مَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الهَدْيِ"[1]، إمَّا لِعَدَمِ الهدي، أَوْ عَدَمِ ثَمَنِه، وقاسَ الفقهاءُ على ذلك من كَانَ مَالُهُ غَائِبًا، أَوْ يُبَاعُ بِثَمَنٍ غَالٍ، فَهُنَا أَيْضًا يَعْدِلُ إِلَى الصَّوْمِ[2]، وحذفُ المفعولِ للتَّيسيرِ على العبادِ، إذ لو عيَّنَ المفعولَ لضاق الأمرُ، والشَّريعةُ بُنيت على التَّيسيرِ.

تأنيثُ العَدد مع حَذف تمييزه المذكَّر، في قوله تعالى: ﴿وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ﴾:

في قولِه تعالى: ﴿وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ﴾ حُذِفَ التَّمييزُ وهو الأيَّام، وفي مثلِ هذا يجوزُ فيه التَّأنيثُ والتَّذكيرُ، والفصيحُ هو إثباتُ التَّاءِ، "إِجْرَاءً لِلْمَحْذُوفِ مجْرَى المَنْطُوقِ بِهِ، كَمَا قِيلَ: وَسَبْعَةِ أَيَّام؛ فَحُذِفَ لِدَلَالَةِ مَا قَبْلَهُ عَلَيْهِ، وَلِلْعِلْمِ بِأَنَّ الصَّوْمَ إِنَّمَا هو الأَيَّامُ"[3].

دلَّت (إذا) على الظَّرفيةِ في قوله تعالى: ﴿وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ﴾:

(إذا) في قولِه تعالى: ﴿وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ﴾ "مَحْضُ ظَرْفٍ، وَلَا شَرْطَ فِيهَا"[4]، والرّجوعُ محقّقٌ عُرفًا، فلا حاجةَ لاشتراطِه.

بَلاغةُ الالتفات في قوله تعالى: ﴿رَجَعْتُمْ﴾:

التفاتٌ من الغَيبةِ إلى الخطابِ جَريًا على أصلِ النَّظمِ

قوله: ﴿وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ﴾ التفاتٌ عن الغَيْبةِ إلى الخطابِ؛ لأنّ قبلَه: ﴿فَمَن تَمَتَّعَ﴾ و﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ﴾، فجاء بضمير الغَيبة عائدًا على ﴿فَمَن﴾، فلو نُسق قوله: ﴿وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ﴾ على نَظْم الأوّل؛ لقيل: إذا رجع، بضمير الغيبة[5]، وهذا الالتفاتُ هو رجوعٌ إلى الأصل؛ إذْ أصلُ الخطاب للمخاطَب: ﴿وَأَتِمُّواْ﴾ ﴿أُحْصِرْتُمْ﴾ ﴿أَمِنتُمْ﴾، وخرج إلى الغائب؛ لأنه أحكامٌ عارضةٌ.

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/265.
(2) الرّازي، التّفسير الكبير: 5/309.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/267.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/267.
(5) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 3/231.

لفظ (مَنْ) مفردٌ، ومعناها جمعٌ، فجرى الخطابُ على معناها فجُمِع:

روعي الحمل على المعنى في قوله تعالى: ﴿إِذَا رَجَعْتُمْ﴾؛ فهي جمعٌ رجعت إلى معنى الجمع في قوله: ﴿فَمَن﴾ لا إلى لفظِه، "ولو روعي اللّفظ لأُفْرِدَ، فقيل: إذا رجع"[1].

سِرُّ الإطنابِ بذكرِ فذلكةِ الحسابِ: ﴿تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ﴾:

دفعُ توهُّمِ التّخييرِ، والتّأكيدُ والمبالغةُ في طلبِ المحافظةِ على صيامِها

لسائلٍ أن يسألَ عن سرِّ فذلكةِ الحسابِ[2]، وهي ذكرُ قولِه تعالى: ﴿تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ﴾ بعد قوله: ﴿فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِي ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ﴾، مع وضوحِ ذلك الجمع؟! والجواب من أوجهٍ:

الأوَّل: ألا يَتَوَهّم متوهِّمٌ التّخييرَ بين ثلاثة أيّام في الحجّ وسبعةٍ إذا رجع، وأنَّ الواوَ بمعنى (أوْ)، كما في قولك" (جالسِ الحسنَ وابنَ سيرين)، أُزيل ذلك بالجُملة من قوله تعالى: ﴿تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ﴾ التي هي تأكيدٌ، وأن يُعلم العددُ جملةً، كما عُلم تفصيلاً؛ ليُحاط به من جهتين، فيتأكّدَ العلمُ، وفي أمثال العرب: (عِلمان خيرٌ من عِلم)؛ فإنَّ أكثرَ العرب لم يُحسنواْ الحساب، وأنّ المرادَ بالسّبعة، هو العددُ دون الكثرة، فإنّه يُطلق لهما[3]، وهو "استطرادُ كلامٍ، وتنبيهٌ على فضيلة عِلْم العَدد"[4].

الثّاني: زيادةُ التّأكيد والمبالغةُ في المحافظة على صيامها، وعدمِ التّهاوُنِ بها، وهو من بابِ الإجمالِ بعد التّفصيل، وهذا من

---

(1) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 3/231.

(2) "فَذْلَكَةُ الحِسَابِ أَيْ جَامِعَتُهُ، فَالحَاسِبُ إِذَا ذَكَرَ عَدَدَيْنِ فَصَاعِدًا قَالَ عِنْدَ إِرَادَةِ جَمْعِ الأَعْدَادِ فَذَلِكَ أَيِ المَعْدُودُ كَذَا فَصِيغَتْ لِهَذَا القَوْلِ صِيغَةَ نَحْتٍ، مِثْلَ بَسْمَلَ، إِذَا قَالَ: بِاسْمِ اللَّهِ، وَحَوْقَلَ إِذَا قَالَ: لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ؛ فَحُرُوفُ (فَذْلَكَةَ) مُتَجَمِّعَةٌ مِنْ حُرُوفِ فَذَلِكَ كَمَا قَالَ الأَعْشَى:

ثَلَاثٌ بِالغَدَاةِ فَهُنَّ حَسْبِي *** وَسِتٌّ حِينَ يُدْرِكُنِي العِشَاءُ

فَذَلِكَ تِسْعَةٌ فِي اليَوْمِ رَيِّي *** وَشُرْبُ المَرْءِ فَوْقَ الرَّيِّ دَاءُ

فَلَفْظُ فَذْلَكَةٍ كَلِمَةٌ مُوَلَّدَةٌ لَمْ تُسْمَعْ مِنْ كَلَامِ العَرَبِ، غَلَبَ إِطْلَاقُ اسْمِ الفَذْلَكَةِ عَلَى خُلَاصَةِ جَمْعِ الأعداد"، ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/228.

(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/241، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 1/270، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 1/130، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 1/207.

(4) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 1/414-415.

الإطناب[1]، فإنّما قال: ﴿عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ﴾، وقد ذكر سبعةً وثلاثةً، ليُخبر أنّها مُجزيةٌ، وليس ليُخبر عن عِدّتها، ألا ترى أنّ قوله ﴿كَامِلَةٌ﴾، إنّما هي (وافيةٌ)، وذلك أنّ الكلامَ يُؤكَّدُ بما يُستغنى به عنه، كما قال: ﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ۝٣٠﴾ [الحجر: 30]، وقد يُستغنى بأحدِهما، ولكنّ تكريرَ الكلامِ أوجبُ[2].

الثَّالث: المبادرةُ إلى الصِّيامِ دون تأخيرٍ، فقولُه تعالى: ﴿تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ﴾، بعد ثلاثةٍ وسبعةٍ، وهي تنوبُ منابَ ثلاثة وسبعة؛ لأنّ عشرة، هي ثلاثةٌ وسبعةٌ، وعليه فقد ذكر ثلاثةً وسبعةً مرَّتين، ثمّ قال: ﴿كَامِلَةٌ﴾، وذلك توكيدٌ ثالثٌ، والمرادُ به إيجابُ صوم الأيّامِ السّبعةِ عند الرّجوع فورًا، وبيانه: إذا صدر الأمرُ منَ الآمرِ، على المأمورِ بلفظ التّكرير مجرّدًا من قرينة تُخرجه عن وَصْفِه، ولم يكن مؤقّتا بوقتٍ معيّنٍ، كان ذلك حثًّا له على المبادرة إلى امتثال الأمر على الفَوْر؛ والتّطويلُ في الكلام عيبٌ فاحشٌ عند البُلغاء والفُصحاء، والقرآنُ مُعجزٌ ببلاغتِه وفصاحتِه، فكيف يكون فيه تطويلٌ لا حاجةَ إليه، فينبغي أن تكون تلك الزّيادةُ دالّةً على معنًى زائدٍ على ما دلّت عليه المرّةُ الواحدةُ، وإذا ثبت هذا، فتلك الزّيادةُ هي الحثُّ على المبادرة إلى امتثالِ الأمر[3].

الرَّابع: وهو من لطائفِ التَّوجيهات، "أنَّ هذا الكلامَ يُزيل الإبهامَ الذي في تصحيف الخطّ، فإنَّ سبعةً، وتسعةً متشابهان في الخطِّ، فلمَّا قال بعده: ﴿تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ﴾؛ أزال هذا الاشتباهَ"[4].

لطيفةٌ في حكمةِ كـونِ الـعـددِ عشرةً

قال ابنُ عاشور: "وَقَدْ سُئِلْتُ عَنْ حِكْمَةِ كَوْنِ الأَيَّامِ عَشَرَةً، فَأَجَبْتُ بِأَنَّهُ لَعَلَّهُ نَشَأَ مِنْ جَمْعِ سَبْعَةٍ وَثَلَاثَةٍ، لِأَنَّهُمَا عَدَدَانِ مُبَارَكَانِ، وَلَكِنْ فَائِدَةُ التَّوْزِيعِ ظَاهِرَةٌ، وَحِكْمَةُ كَوْنِ التَّوْزِيعِ كَانَ إِلَى عَدَدَيْنِ مُتَفَاوِتَيْنِ لَا مُتَسَاوِيَيْنِ ظَاهِرَةٌ؛ لِاخْتِلَافِ حَالَةِ الاشْتِغَالِ بِالحَجِّ؛ فَفِيهَا مَشَقَّةٌ، وَحَالَةُ الِاسْتِقْرَارِ بِالمَنْزِلِ، وَفَائِدَةُ جَعْلِ بَعْضِ الصَّوْمِ فِي مُدَّةِ الحَجِّ،

(1) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 3/231.
(2) الأخفش، معاني القرآن: 1/175.
(3) ابن الأثير، المثل السّائر: 3/30- 31.
(4) ابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 3/385.

جَعْلُ بَعْضِ العِبَادَةِ عِنْدَ سَبَبِهَا؛ وَفَائِدَةُ التَّوْزِيعِ إِلَى ثَلَاثَةٍ وَسَبْعَةٍ أَنَّ كِلَيْهِمَا عَدَدٌ مُبَارَكٌ، ضُبِطَتْ بِمِثْلِهِ الأَعْمَالُ، دِينِيَّةً وقضائيّة"[1].

سرُّ التَّعبيرِ بالخبرِ عن الأمرِ في قوله: ﴿تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ﴾:

مبالغةُ الشَّرعِ في الإيجابِ، والتَّأكيدُ عليه

قولُه تعالى: ﴿تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ﴾ لفظُه خبرٌ ومعناه أمرٌ، و"اللَّفْظُ وَإِنْ كَانَ خَبَرًا، لَكِنَّ المَعْنَى أَمْرٌ وَالتَّقْدِيرُ: فَلْتَكُنْ تِلْكَ الصِّيَامَاتُ صِيَامَاتٍ كَامِلَةً، لِأَنَّ الحَجَّ المَأْمُورَ بِهِ، حَجٌّ تَامٌّ عَلَى مَا قَالَ: ﴿وَأَتِمُّواْ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾، وهذه الصِّيَامَاتُ جُبْرَانَاتٌ لِلْخَلَلِ الوَاقِعِ فِي ذَلِكَ الحَجِّ، فَلْتَكُنْ هَذِهِ الصِّيَامَاتُ صِيَامَاتٍ كَامِلَةً، حَتَّى يَكُونَ جَابِرًا لِلْخَلَلِ الوَاقِعِ فِي ذَلِكَ الحَجِّ، الَّذِي يَجِبُ أَنْ يَكُونَ تَامًّا كَامِلًا، وَالمُرَادُ بِكَوْنِ هَذِهِ الصِّيَامَاتِ كَامِلَةً، مَا ذَكَرْنَا فِي بَيَانِ كَوْنِ الحَجِّ تَامًّا، وَإِنَّمَا عُدِلَ عَنْ لَفْظِ الأَمْرِ إِلَى لَفْظِ الخَبَرِ؛ لِأَنَّ التَّكْلِيفَ بِالشَّيْءِ، إِذَا كَانَ مُتَأَكِّدًا جِدًّا، فَالظَّاهِرُ دُخُولُ المُكَلَّفِ بِهِ فِي الوُجُودِ، فَلِهَذَا السَّبَبِ جَازَ أَنْ يُجْعَلَ الإِخْبَارُ عَنِ الشَّيْءِ بِالوُقُوعِ، كِنَايَةً عَنْ تَأَكُّدِ الأَمْرِ بِهِ، وَمُبَالَغَةِ الشَّرْعِ فِي إِيجَابِهِ"[2].

فائدةُ الصّفةِ ﴿كَامِلَةٌ﴾ في البيانِ:

تأكيدُ العَشَرة، والحضُّ على المجيء بها كاملةً لتحصيلِ الثَّوابِ الكاملِ

صفةُ ﴿كَامِلَةٌ﴾ "مؤكّدةٌ لـ﴿عَشَرَةٌ﴾، تُفيد المبالغةَ في المحافظة على العدد، أو مبيِّنةٌ لكمال العشرة، فإنّه أوّلُ عددٍ كاملٍ؛ إذْ بهِ ينتهي الآحادُ وتتمّ مراتبُها، أو مقيِّدةٌ تفيدُ كمالَ بَدَليّتها منَ الهدْي"[3]، وهي تُفيدُ "التَّحْرِيضَ عَلَى الإِتْيَانِ بِصِيَامِ الأَيَّامِ كُلِّهَا، لَا يَنْقُصُ مِنْهَا شَيْءٌ، مَعَ التَّنْوِيهِ بِذَلِكَ الصَّوْمِ، وَأَنَّهُ طَرِيقٌ كَمَالٍ لِصَائِمِهِ، فَالكَمَالُ مُسْتَعْمَلٌ فِي حَقِيقَتِهِ وَمَجَازِهِ"[4]، ويَحْتَمِلُ بَيَانُ الكَمَالِ مِنْ ثَلَاثَةِ أَوْجُهٍ:

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/229.
(2) الرّازيّ، التّفسير الكبير: 5/311 ويُنظر: أبو حيّان، البحر المحيط: 2/270.
(3) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 1/130، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 1/207.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/229.

أَحَدُهَا: "أَنَّهَا كَامِلَةٌ فِي البَدَلِ عَنِ الهَدْيِ، قَائِمَةٌ مَقَامَهُ.

ثَانِيهَا: أَنَّهَا كَامِلَةٌ فِي أَنَّ ثَوَابَ صَاحِبِهِ كَامِلٌ، مِثْلُ ثَوَابِ مَنْ يَأْتِي بِالهَدْيِ، مِنَ القَادِرِينَ عَلَيْهِ.

ثَالِثُهَا: أَنَّهَا كَامِلَةٌ فِي أَنَّ حَجَّ المُتَمَتِّعِ، إِذَا أَتَى بِهَذَا الصِّيَامِ يَكُونُ كَامِلًا، مِثْلَ حَجِّ مَنْ لَمْ يَأْتِ بِهَذَا التَّمَتُّعِ"[1].

معنى اللّامِ في قولِه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ لِمَن لَّمۡ يَكُنۡ أَهۡلُهُۥ﴾:

(اللّام) تأتي مع الرُّخَصِ، و(على) تأتي مع الواجباتِ

حرفُ "اللّام أبدًا إنّما تجيء مع الرُّخص، تقول لك أن تفعل كذا، وأمّا مع الشّدة، فالوجهُ أن تقول: عليك"[2]، قال أبو حيان: "الخِلَافُ فِي المَكِّيِّ هَلْ يَجُوزُ لَهُ المُتْعَةُ فِي أَشْهُرِ الحَجِّ أَمْ لَا، وَالأَظْهَرُ فِي سِيَاقِ الكَلَامِ، أَنَّ الإِشَارَةَ إِلَى جَوَازِ التَّمَتُّعِ، وَمَا يَتَرَتَّبُ عَلَيْهِ، لِأَنَّ المُنَاسِبَ فِي التَّرَخُّصِ: اللَّامُ، وَالمُنَاسِبَ فِي الوَاجِبَاتِ على، وَإِذَا جَاءَ ذلك: ﴿لِمَن﴾، ولم يجئْ: (عَلَى مَنْ)"[3].

علّةُ التّعبيرِ بحضورِ الأهل لا سكنِ الحاجِّ في قولِه: ﴿حَاضِرِي ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۚ﴾:

بناءُ قيمةٍ اجتماعيةٍ بالتّنبيه على أن يسكنَ المسلمُ حيث يسكن أهلُه

آثرَ النَّظمُ ذكرَ حضورِ أهلِ الحاجِّ المسجدِ الحرام في قوله تعالى: ﴿أَهۡلُهُۥ حَاضِرِي ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۚ﴾، ولم يقل: ذلك لمن لم يكن من سكّان مكّة، فذكرَ الأهلَ، "والمرادُ بالحُضُور المُحْرِمُ لا الأهلُ، وذلك أنّ الغالب على الرّجل أن يسكن حيث أهلُه ساكنون"[4]؛ وفي ذلك تنبيهٌ على قيمةٍ اجتماعيّةٍ؛ وهي أن يسكن المسلمُ حيث يسكنُ أهلُه، لا أن يكون مِسفارًا مبتعدًا عنهم في غالبِ أحواله.

مناسبةُ الأمر بالتّقوَى بعد النّهي والأمرِ، في قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾:

وصَّى اللّه عبادَه بالتّقوى "بَعْدَ بَيَانِ الأَحْكَامِ الَّتِي لَا تَخْلُو عَن

(1) الرّازي، التّفسير الكبير: 5/310.
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 1/270.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/270.
(4) الواحديّ، التّفسير البسيط: 4/26-27.

مَشَقَّةٍ، لِلتَّحْذِيرِ مِنَ التَّهَاوُنِ بِها"[1]، و"للإشارةِ إلى أنّ الاعتبارَ في أعمال الحجّ، لَا يكون لما تعملُه الجوارحُ، وما تقوم به من أفعال، إنّما العبرةُ في ذلك، إلى أثرها في القلوب، فإنْ أوجدتْ رحمةً بالعباد، ورهبةً منَ الخلّاق، وتقوى منَ اللّه، فقد أُدّيتْ على وجهها إذا خلُصتِ النّيّةُ، واستقامتِ الإرادةُ؛ وإن لم تُؤدِّ إلى تقوى اللّه، والرّحمةِ بعباده فقد خالطها رياءٌ، ولم تُخلَصِ النّيةُ، وحَقَّ العقابُ"[2].

التَّحذيرُ من التَّهاون في أحكامِ اللّه تعالى

جاءَ الأمر بالتَّقوى في قولِه تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ عامًّا "في المحافظةِ على حُدوده، وما أمركم به ونهاكم عنه، في الحجّ وغيره"[3]، "وَكَوْنُ الحَجِّ مِنْ جُمْلَةِ ذَلِكَ، هو مِنْ جُمْلَةِ العُمُومِ، وهو أَجْدَرُ أَفْرَادِ العُمُومِ؛ لِأَنَّ الكَلَامَ فِيهِ"[4]، "ولمّا كان امتثالُ ما ليس بمعقول المعنى، من عند قوله: ﴿وَأَتِمُّواْ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِۚ﴾، شديداً على النّفسِ، مع جِماحِها عن جميع الأوامر، ناسبَ اقترانُه بالتّهديد، فكان ختامُه بقوله: ﴿وَٱتَّقُواْ﴾، أي: فافعلواْ جميعَ ذلك، واحمِلُواْ أنفسَكم على التّحرّي فيه، والوقوفِ عند حدوده ظاهرًا وباطنًا "[5].

الأمرُ بالتَّقوى عامٌّ، وخُصَّ الحجُّ بالذّكر لأنَّ الكلامَ فيه

وجهُ اقْتِران الأمرِ بالعلمِ بعد الأمرِ بالتّقْوى:

اقترَنَ الأمرُ بالتَّقوى بالأمرِ بالعلم في قولِه تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾؛ لأنَّ العلمَ سياجُ التَّقوى، فعلى المسلم أن يعلمَ ﴿أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾، "لمنْ لم يتَّقِه؛ كي يَصدَّكم العِلمُ به عنِ العصيان"[6]، وتقوى اللّه بدونِ علمِ الخشيةِ لا تنهض أركانُها، ولا تستقيم قواعدُها.

العِلمُ سياجُ التَّقوى، وأصلُه القويم

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/230.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 2/613-614.
(3) الرّازيّ، التّفسير الكبير: 5/313.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/230.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 3/136.
(6) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 1/130.

نكتةُ تأكيدِ الخبر في قولِه تعالى: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾:

جاءَ تأكيدُ الأَمْرِ بِتَحْصِيلِ التَّقْوَى، في قَوْلِهِ: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾؛ "لِأَنَّ مَنْ عَلِمَ شِدَّةَ العِقَابِ على المُخَالَفَةِ كَانَ حَرِيصًا عَلَى تَحْصِيلِ التَّقْوَى، إِذْ بِهَا يَأْمَنُ مِنَ العِقَابِ"[1].

سرُّ الافتتاحِ بالأمر بالعلمِ دون الاستغناءِ عنه:

افْتُتِحَت الجملةُ بِقَوْلِهِ: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ﴾ دون أن يقتصر على قوله: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾؛ اهْتِمَامًا بالخَبَرِ؛ فَإِنَّهُ لَو اقْتَصَرَ عَلَيه ولم يذكر الأمر بالعلم؛ لَحَصَلَ العِلْمُ المَطْلُوبُ؛ لأَنَّ العِلْمَ يَحْصُلُ مِنَ الخَبَرِ، لَكِن لَمَّا أُرِيدَ تَحْقِيقُ الخَبَرِ افْتُتِحَ بِالأَمْرِ بِالعِلْمِ، لِأَنَّهُ في مَعْنَى تَحْقِيقِ الخَبَرِ، كَأَنَّهُ يَقُولُ: لَا تَشُكُّوا في ذَلِكَ، فَأَفَادَ مُفَادَ (إِنَّ)[2].

تحقيقُ الخبرِ بتأكيدِه بالأمرِ بالعلمِ

الإظهارُ دونَ الإضمار في قوله تعالى: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾:

أُظهرَ الاسمُ الجليلُ "في موضعِ الإضمار لتربية المهابةِ وإدخالِ الرَّوْعة"[3].

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الحَصْر والإحصار:

"اتَّفَقُوا عَلَى أَنَّ لَفْظَ الحَصْرِ مَخْصُوصٌ بِمَنْعِ العَدُوِّ، إِذَا مَنَعَهُ عَنْ مُرَادِهِ، وَضَيَّقَ عَلَيْهِ، أَمَّا لَفْظُ الإِحْصَارِ فَقَدِ اخْتَلَفُوا فِيهِ عَلَى ثَلَاثَةِ أَقْوَالٍ؛ الأَوَّلُ: وهو اخْتِيَارُ أَبِي عُبَيْدَةَ وَابْنِ السِّكِّيتِ وَالزَّجَّاجِ وَابْنِ قُتَيْبَةَ، وَأَكْثَرِ أَهْلِ اللُّغَةِ، أَنَّهُ مُخْتَصٌّ بِالمَرَضِ، قَالَ ابْنُ السِّكِّيتِ: يُقَالُ أُحْصِرَهُ المَرَضُ، إِذَا مَنَعَهُ مِنَ السَّفَرِ، وَقَالَ ثَعْلَبٌ في فَصِيحِ الكَلَامِ: أُحْصِرَ بِالمَرَضِ وَحُصِرَ بِالعَدُوِّ، وَالقَوْلُ الثَّانِي: أَنَّ لَفْظَ الإِحْصَارِ يُفِيدُ الحَبْسَ وَالمَنْعَ؛ سَوَاءٌ كَانَ بِسَبَبِ العَدُوِّ، أَوْ بِسَبَبِ المَرَضِ؛ وهو قَوْلُ الفَرَّاءِ، وَالقَوْلُ

الفقهاءُ، بَنَوا اختلافَهم على اختلاف اللُّغويّين في اللَّفظِ، لتحديد حُكْمِ التّحلُّل بالإحصار

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/271.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/230.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 1/207.

الثَّالِثُ: أَنَّهُ مُخْتَصٌّ بِالمَنْعِ الحَاصِلِ مِنْ جِهَةِ العَدُوِّ"[1]، "وَثَبَتَ بِنَقْلِ مَنْ نَقَلَ مِنْ أَهْلِ اللُّغَةِ: أَنَّ الإِحْصَارَ وَالحَصْرَ سَوَاءٌ، وَأَنَّهُمَا يُقَالَانِ فِي المَنْعِ بِالعَدُوِّ، وَبِالمَرَضِ، وَبِغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ المَوَانِعِ، فَتُحْمَلُ الآيَةُ عَلَى ذَلِكَ، وَيَكُونُ سَبَبُ النُّزُولِ وَرَدَ عَلَى أَحَدِ مُطْلَقَاتِ الإِحْصَارِ"[2]، قال أبو زهرة: "الحصرُ معناه الحبسُ، والإحصار معناه التّعرّضُ للحبس والضّيق، بالعدوّ أو المرض؛ كما يقال: حَبَسَهُ بمعنى أَدْخَلَهُ في المحبَس، وأحبَسَهُ بمعنى عرّضه للحبْس ... وعندي أنّ هذا هو الفرقُ الدّقيقُ الّذي يكون بين الحصر والإحصار، فالفرقُ بينهما في معنى الاستعمال الدّقيق؛ لا في موضعِ الاستعمال، وقد فصّلنا القولَ ذلك التّفصيلَ في هذا اللّفظ، وانتهينا إلى ما انتهينا إليه؛ لأنّ الفقهاءَ اختلفُواْ في الحُكم، وبَنَوا اختلافَهم على اختلاف اللُّغويّين في معنى اللّفظ؛ فالحنفيّة قرّرُواْ أنّ الإحصارَ بالمرض أو بالعدوّ يُسيغ التّحلّلَ بذبح الهَدْي، على أن يقضي الحجَّ والعُمرةَ من بعدُ، إن كان الإحرامُ بعُمرة؛ والمالكيّةُ والشّافعيّةُ قرّروا أنّ الإحصارَ في الآية لَا يكون إلّا منَ العدوّ؛ أمّا المريضُ فإنّه يَستمرّ على إحرامه، حتّى يَبرأ من مرضِه، ويذهبَ إلى البيت فيطوفَ به سبعًا، ويَسعى بين الصّفا والمروةِ؛ وبهذا يتحلّلُ من عُمرته أو حجِّه"[3].

كاملة وتامّة:

الكمالُ يُطلق على ما له أبعاضٌ

قَوْلنَا: كَمَالٌ؛ اسْم لِاجْتِمَاع أبعاض المَوْصُوف بِهِ، والتَّمامُ اسْم للجزء وَالبَعْضِ الَّذِي يتمّ بِهِ المَوْصُوف، بِأَنَّهُ تَامّ، وَلِهَذَا يُقَالُ: القافيةُ تَمامُ البَيْت، وَلَا يُقَال: كَمَالُ البَيْت، وَيَقُولُونَ: البَيْت بِكَمَالِهِ، أي باجتماعه، وَ: البَيْت بِتَمَامِهِ؛ أَي: بقافيَته، وَيُقَال: هَذَا تَمامُ حَقّك للْبَعْض الَّذِي يتمّ بِهِ الحقّ، وَلَا يُقَال كَمَال حَقّك[4]، و"الإتمامُ لإزالة نُقصان الأصل، والإكمالُ لإزالة نُقصان العَوارِض بعد تمام الأصل، ولهذا كان قولُه: ﴿تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ﴾، أحسنَ من (تامّة)؛ فإنّ التّمامَ منَ العدد قد عُلم، وإنّما نفى احتمالَ نَقْصٍ في صفاتها، وقيل: تمّ، يُشعر بحصول نقصٍ قبلَه، وكَمُلَ، لا يُشعر بذلك"[5].

(1) الرّازيّ، التّفسير الكبير: 5/301-302.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/25.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 2/604.
(4) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 263.
(5) السّيوطيّ، الإتقان: 2/367.

﴿ٱلۡحَجُّ أَشۡهُرٞ مَّعۡلُومَٰتٞۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلۡحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي ٱلۡحَجِّۗ وَمَا تَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ يَعۡلَمۡهُ ٱللَّهُۗ وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيۡرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ١٩٧﴾ [البقرة: 197]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا أَمَرَ اللّٰهُ تَعَالَى في الآية السابقة بإتْمَام الْحَجِّ وَالْعُمْرَة للّٰه؛ بَيَّنَ أَنَّ الْحَجَّ لَهُ وَقْتٌ مَعْلُومٌ، لِيُعلَمَ أَنَّ العُمرةَ لا وقتَ مَعلومًا لَها[1]، وَأَيضًا لَمَّا ذكرَ سبحانَهُ وَتعالى أَنَّ الحجَّ مؤَقَّتٌ بالأَهِلَّة، وَلَمْ يُعَيِّنْ لَهُ وَقتًا مِنْ شُهورِ السَّنة، وَختمَ ذلك بالتَّفرقة في بعضِ أَحكام الحَجِّ بسببِ الأَماكن؛ تَشَوَّفت النَّفسُ إلى تَعيينِ وقتِه، وَأَنَّهُ هلْ هُوَ كَالمكانِ أَوْ عامُّ الحُكْم[2]؟ فقالَ اللّٰه تعالى: ﴿ٱلۡحَجُّ أَشۡهُرٞ مَّعۡلُومَٰتٞۚ﴾.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلۡحَجُّ﴾ - بفتحِ الحَاءِ وَكَسرِهَا - في الأَصلِ بمعنَى: القَصدِ، وَأَصلُه مِنْ قولِك: حَجَجْتُ فُلانًا، أَحُجُّهُ حَجًّا، إذا عُدْتَ إليهِ مَرَّةً بعدَ أُخرى، فقيلَ: حَجُّ البيتِ؛ لِأَنَّ النَّاسَ يأْتونَهُ في كلِّ سَنَةٍ، ثُمَّ اخْتُصَّ اللفظُ بهَذَا الاسْم، بقصدِ الْبَيْتِ الْحَرَام لِلنُّسُك. ويَحتملُ أَنْ تكونَ الْحُجَّةُ مُشْتَقَّةً مِنْ هَذَا؛ لِأَنَّهَا تُقْصَدُ، أَوْ بِهَا يُقْصَدُ الْحَقُّ الْمَطْلُوبُ، والمحاجّةُ التي هي المجادلةُ مأخوذةٌ مِنْ هذا، وَسُمّيَت السَّنةُ حِجَّةً؛ لِأَنَّ الْحَجَّ في السَّنَةِ لَا يَكُونُ إِلَّا مَرَّةً وَاحِدَةً، فَكَأَنَّ الْعَامَ سُمِّيَ بِمَا فِيهِ مِنَ الْحَجِّ حِجَّةً[3].

2) ﴿أَشۡهُرٞ﴾: جَمعُ قِلَّةٍ لـ(شَهْر)، وَيدلُّ على وضوحٍ في الأمرِ وإضاءةٍ، وَلِمعنى الوضوحِ، يُقالُ: شُهِرَ فُلانٌ واشْتُهِرَ بكذا، وَسُمّيَ الشهرُ شَهْرًا؛لِأَنَّهُ مُدّةٌ مَشْهُورَةٌ بإهلالِ الهلالِ، وَفِيهِ عَلَامَةُ ابْتِدَائِهِ وَانْتِهَائِهِ، أوسمّيَ شَهْرًا لِشُهْرَتِهِ وَبَيَانِهِ ويسمَّى كل ثلاثين يومًا شهرًا، والأَشْهُرُ الْمَعْلُومَاتُ مِنَ الْحَجِّ: شَوَّالٌ وَذُو القَعْدَة وَعَشْرٌ مِنْ ذِي الحِجَّة[4].

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 2/276.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 3/138.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي (حجج).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب (شهر).

3) ﴿فَرَضَ﴾: الفَرْضُ هُوَ الحَزُّ في القِدْحِ وَفي الزَّنْدِ، وصار يدلُّ على قطعٍ في الشَّيءِ الصّلْبِ، ولذا جاءَ بمعنى قطعِ الحُكمِ في الشَّيءِ، وَسُمّيَ الفَرضُ فَرضًا لِلزومِهِ لِلْعَبدِ كَلزومِ الحَزِّ للقِدْحِ، وَذهبَ بعضُهم إلى أنَّ سَبَبَ تسميةِ الفَرضِ فرضًا مُشابهتُهُ الحَزَّ في أَنَّ لَهُ مَعَالِمَ وَحُدُودًا[1]، ومعنى الآية: ألزَمَ نفسَهُ بالحَجِّ، وعَزَمَ عليه.

4) ﴿رَفَثَ﴾: يدلُّ على الكلامِ الذي يُستحيا مِنْ إظهارِه، أَوهُوَقولُ الفُحشِ مِمَّا يُستقبحُ ذكرُهُ أو التَّلفّظِ بهِ ممّا يقعُ بينَ الرّجلِ وَالمرأَةِ، وَيصلحُ كنايةً عَنِ الجِماعِ، ومعنَى الرَّفثِ في الآيةِ: الجِماعُ ومقدِّماتُهُ[2].

5) ﴿فُسُوقَ﴾: يدلُّ الفِسْقُ على خروجِ الشَّيءِ عَنْ حَدِّه أو حَيّزه لِحِدّةٍ أو فسادٍ، وأصلُهُ مِنْ قولِهم: فَسَقَتِ الرُّطَبَةُ عَنْ قِشْرِها إذا خَرَجَتْ، وَالفِسْقُ: الخروجُ عَنْ حَدِّ الشَّرعِ، وَهوَ أَعَمُّ مِنَ الكُفْرِ، فيوصَفُ بهِ المُؤمِنُ إذا أَخَلَّ بشرعِ اللّهِ، وَيَقَعُ بالقليلِ والكثيرِ، وَلكنْ تُعورِفَ فيما كان كثيرًا[3]. ومعنى الفسوقِ في الآيةِ: الخُروج عن طاعةِ اللّهِ بإتيانِ ما نُهِيَ عنه في حال إحرامِهِ لِحَجِّهِ.

6) ﴿جِدَالَ﴾: الجَدْلُ شِدَةُ الفَتْلِ، وَمِنهُ جَدَلْتُ الحَبْلَ، أي: أَحكمتُ فتلَهُ، فكأنَّ المتجادِلَينِ يَفْتِلُ كلُّ واحدٍ الآخرَ عنْ رأيِهِ بامْتِدَادِ الْخُصُومَةِ وَمُرَاجَعَةِ الْكَلَامِ بينهما. وذهبَ بعضُ اللُّغويين إلى أَنَّ أَصلَ الجَدْلِ هو الصَّرعُ على الأرضِ الصَّلبةِ، يُقَال: جَدَلْتُهُ فانجدلَ صَريعاً، فكأنَّ المُجادِلَ يُسقِطُ صاحبَه على الأرضِ الصَّلبةِ في منازعتِهِ وَخصومَتِهِ، فالجِدالُ فيه معنَى الشّدةِ والإحكامِ ومراجَعَةِ الكلامِ والغَلَبَةِ[4]، وَلهذا نَهى اللّهُ تعالى عن الجِدالِ في الحجِّ؛ لِمَا فيهِ مِنْ معنَى شِدّةِ المنازَعةِ والغَلَبَةِ الموجِبَةِ لِلْغضبِ والكراهيَّةِ بينَ المتجادِلَينِ في جمعِ النَّاسِ.

7) ﴿وَتَزَوَّدُواْ﴾: أَصلُ الكلمةِ مِنَ الزَّوْدِ بمعنى تأسيسِ الزّادِ، وَهُوَ الطَّعَامُ الّذي يُتّخذُ للسّفرِ والحَضَرِ جَميعًا، وغالبُ ما يُطلَقُ الزَّادُ لِمَا يُتَزوَّدُ مِنْ طعامٍ وماءٍ لِحالِ البُعدِ عنهما أَمَدًا طَويلًا، وَمَنِ انْتَقَلَ مَعَهُ بِخَيْرٍ مِنْ عَمَلٍ أَوْ كَسْبٍ فَقَدْ تَزَوَّدَ، وجمعُ زادٍ أَزوادٌ،

(1) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات (فرض).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي (رفث).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي (فسق).
(4) الأزهري، تهذيب اللغة، والراغب، المفردات، والفيومي، المصباح المنير (جدل).

والْمِزْوَدُ الْوِعَاءُ يُجْعَلُ لِلزَّادِ، والتَّزوُّدُ أخذ الزَّاد[1]، والمعنى: خذوا من الأعمالِ الصالحة زادًا لكم لمعادكم[2].

8) ﴿ٱلتَّقْوَىٰ﴾: أصل الكلمة وَقِيَ، وتدلُّ على دفعِ شيءٍ عنْ شَيءٍ بغيرِه، وَالوِقايةُ هي حفظٌ مِنَ الأذى أَو الضَّررِ باتِّخاذِ حاجزٍ دونَه، وَوَقَاهُ اللّٰه: صانَهُ وحَفِظَهُ، والتّقوى في عُرفِ الشَّرعِ حِفظُ النَّفسِ عمَّا يُؤْثِمُ، وذلك بتركِ المَحظورِ، ويَتِمُّ ذلك بتركِ بعضِ مُباحاتِ النّفس في وِقَايَةٍ مما يخاف[3].

9) ﴿ٱلْأَلْبَٰبِ﴾: جمعُ لُبٍّ، ولُبُّ كُلِّ شَيءٍ خالِصُهُ، واللّبُّ هو العقلُ الخالِصُ مِنَ الشَّوائِبِ، وَسُمِّي بذلكَ لِكونِه خالصَ ما في الإنسانِ مِنْ معانيه، وما يُنتَقَى منهُ. فكُلُّ لُبٍّ عقلٌ، وليسَ كُلُّ عقلٍ لُبًّا[4]، و(أُولوا الألبابِ): أَصحابُ العقولِ الصَّحيحةِ.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

وقتُ الحجِّ أَشهُرٌ معلوماتٌ، وَهِيَ: شَوَّالٌ، وذُو القِعْدَةِ، وَعَشْرٌ مِنْ ذي الحِجَّةِ. فَمَنْ أَوجَبَ الحَجَّ على نفسِهِ فيهنَّ بالإحرامِ والتَّلبيةِ، فَيجبُ عليهِ الابتعادُ عَنِ الْجِماعِ وَمُقَدِّماتِهِ القوليَّةِ وَالفِعليَّةِ، وَيجبُ عليهِ الابتعادُ عَنِ الْمعاصي والخُروجِ عَنْ طاعةِ اللّٰهِ تعالى، ويجبُ عليهِ الابتعادُ عَنِ الجِدالِ في الحَجِّ الذي يُؤدِي إلى الغَضَبِ والكَراهيَّةِ. وَما تَفعلوا مِنْ خَيرٍ وَلو كانَ قليلًا يَعلمْهُ اللّٰه، فيجازيكُمْ بِهِ، وَيُجازي كُلًّا على عملِهِ، وَخُذُوا لِأَنفسِكُمْ ما تَحتاجُونَهُ مِنْ زادِ الطَّعامِ وَالشَّرابِ لِسَفَرِ الحَجِّ، وما تَحتاجونَهُ مِنْ زادِ الأَعمالِ الصَّالحةِ لِلدَّارِ الآخِرةِ، فإنَّ خيرَ الزَّادِ تَقوى اللّٰهِ، وَخافوني يا أَصحابَ العُقولِ السَّليمةِ الصَّحيحةِ.

❁ الإيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

دِلَالَةُ اللَّامِ فِي ﴿ٱلْحَجُّ﴾، وَنُكْتَةُ الْعُدُولِ عَنْهُ مُضَافًا:

قال اللّٰه تعالى: ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ﴾، فجيءَ بالمسند إليه (الْحَجّ) معرَّفًا باللَّام دون الإضافةِ، فلم يقل (حجُّ البيتِ أَشهرٌ مَعلوماتٌ)، كما ورد في موضعٍ آخرَ من القرآنِ؛

(1) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب (زود).
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 1/273.
(3) الأزهري، تهذيب اللغة، والراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب (وقي).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات (لبب).

لأنّه صَارَ بِالْإِطْلَاقِ حَقِيقَةً عُرْفِيَّةً على المعنى المعلوم، جِنْسًا بِالْغَلَبَةِ، كَالْعَلَمِ بِالْغَلَبَةِ، وغلبةُ إطلاقِ الاسم على قصدِ حَجِّ البيتِ أَكثرُ مِنْ غَلَبَةِ إطلاقِ الفعلِ (حَجَّ) على ذلكَ القصدِ، فَلَا يُذْكَرُ الْمُضَافُ إِلَيْهِ إِلَّا فِي مَقَامِ الِاعْتِنَاءِ بِالتَّنْصِيصِ لِلإشعار بِبَيْتِ اللهِ الْمُعظَّم، أَوْ أَنْ يكونَ لابْتِدَاءِ تَشْرِيعٍ، فَهُوَ مَقَامُ بَيَانٍ وَإِطْنَابٍ، كما فِي قَوْلِهِ تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ﴾ [آل عمران: 97][1].

الْحَجُّ مِنَ الْحَقَائِقِ الشَّرْعِيَّةِ الشَّائِعِ مَعْنَاهَا عِنْدَ عُمُومِ الْمُسْلِمِينَ

واللَّامُ في (الحَجّ) لامُ العهدِ العلميِّ؛ إذ للحجِّ حقيقةٌ شرعيَّةٌ، متَى أُطْلِقَ هذا اللَّفْظُ انصرفَ الذِّهْنُ إلى استحضار تلك الحقيقةِ.

نِكَاتُ الْإِخْبَارِ بِالْأَشْهُرِ عَنِ الحَجِّ:

لمّا كانتِ الأَشهرُ وَقتًا لِلْحَجِّ كانَ الظَّاهِرُ أَنْ يكونَ لفظُ ﴿أَشْهُرٌ﴾ ظَرْفًا لِلْحَجِّ، أَوْ أَنْ يكونَ الإخبارُ بالأَشهرِ عنْ وقتِ الحَجِّ، بتقدير: وقتُ الحَجِّ أَشهرٌ مَعلوماتٌ، كَمَا ذكرهُ جُمهورُ الْمُفَسِّرينَ[2]، وَلكنَّهُ أَخبرَ عنْ الحَجِّ بالأَشهُرِ مَعَ أَنَّ الحَجَّ أَفعالٌ وأَقوالٌ، لنِكَاتٍ بلاغيَّةٍ، مِنْهَا:

تَعْظِيمُ أَشْهُرِ الْحَجِّ وَتَشْرِيفُهَا

أَوَّلًا: أَنَّهُ جعلَ الحَجَّ: الأَشهرَ المعلوماتِ؛ فَلا إضمارَ في الكَلامِ؛ مُبالغةً في تعظيمِ أَشهُرِ الحَجِّ، واهتمامًا بهَا وتشريفًا لَها.

الْمُبَالَغَةُ فِي الِاهْتِمَامِ بِأَشْهُرِ الْحَجِّ

ثَانِيًا: أَنَّ تعظيمَ أشهرِ الحَجِّ يقتضي عدمَ الزِّيادةِ فيها أَو النَّقصِ منها؛ لِتذكيرِ العربِ بحرمةِ ما كانوا يفعلونَه من النّسيءِ.

ثَالِثًا: الإشعارُ بأَنَّ الْحَجَّ لَا يَكُونُ إِلَّا فِي هَذِهِ الْأَشْهُرِ.

لَا يُفْعَلُ الْحَجُّ أَدَاءً أَوْ قَضَاءً إِلَّا فِي زَمَنٍ مَخْصُوصٍ

رابعًا: أَفادَ الإخبارُ مفارقةَ الحَجِّ للصلاةِ؛ فإنَّ الصلاةَ الفائتةَ تُقضَى في غيرِ وقتِها، وَالحَجُّ لا يُقضَى إِلَّا في هذهِ الأَشهرِ، فَجُعِلَتْ كَأَنَّها هِيَ نفسُ الحَجِّ لِملازمتِهِ لَها[3].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/61-62.
(2) الزمخشري، الكشاف: 1/242، وابن عطية، المحرر الوجيز: 1/271.
(3) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/572.

دِلَالَةُ الْمَجَازِ الْعَقْلِيِّ فِي إِسْنَادِ الْأَشْهُرِ إِلَى الْحَجِّ:

إيقاعُ الحَجِّ في أشهرٍ مَخصوصةٍ مِنْ مُرَادَاتِ الشَّرْعِ

ذهبَ الرَّازيُّ إلى أنَّ الإسنادَ في قوله: ﴿ٱلۡحَجُّ أَشۡهُرٞ مَّعۡلُومَٰتٞۚ﴾ كَقَوْلِهِمْ: لَيْلٌ قَائِمٌ، وَنَهَارٌ صَائِمٌ، إذ جَعَلَ الْأَشْهُرَ نَفْسَ الْحَجِّ لَمَّا كَانَ الْحَجُّ حالًّا فيها[1]، فيكونُ مجازًا عقليًا مِنْ إسنادِ الأشهرِ إلى الحَجِّ، وَالعلاقةُ هِيَ الظَّرفيَّةُ الزَّمانيَّةُ، فَلَمَّا اتَّسَعَ في الظَّرفِ جُعِلَ نَفسَ الحدَثِ، وإنَّمَا كانَ مجازًا؛ لِأَنَّ الأشهرَ ظرفٌ لِلحَجِّ، وليست وصفًا قائمًا بهِ، وفائدةُ مَجيءِ المَجازِ هنا المبالغةُ في تعظيمِ شأْنِ أَشهرِ الحَجِّ، وأنَّ الحجَّ لا يُتصوَّرُ إيقاعُهُ شرعًا في غيرِ أشهرِهِ المخصوصةِ.

دِلَالَةُ جَمْعِ الْقِلَّةِ فِي كَلِمَةِ ﴿أَشۡهُرٞ﴾:

تَنْزِيلِ بَعْضِ الشَّهْرِ مَنْزِلَةَ كُلِّهِ

جاءَ الجمعُ في قوله تعالى: ﴿ٱلۡحَجُّ أَشۡهُرٞ مَّعۡلُومَٰتٞۚ﴾ بصيغةِ (أَفْعُل) الدالِّ على جمعِ القِلَّةِ، وأقلُّهُ: ثلاثةٌ؛ للدِّلالةِ على أَنَّها أَشهرٌ قليلةٌ، وَلَمَّا كانتْ أَوقاتُ الحَجِّ شهرينِ وعشرةَ أَيَّام - وهو قول الجمهور -؛ كانَ ذكرُ الأَشهرِ على مَعْنَى تنزيلِ بعضِ الشَّهرِ منزلةَ كلِّهِ، وهذا الأمرُ معروفٌ عندَ العربِ، فإنَّهم يقولونَ: أَتيتُكَ يومَ الخميسِ، وإنَّمَا أَتاهُ في ساعةٍ منهُ، ويقولُونَ: زُرتُكَ العامَ، وإنَّما زارَهُ في بعضِه[2]، وَلِهذا لَمْ يَقُلِ اللهُ تعالى: (الحَجُّ ثلاثةُ أَشهُرٍ مَعلوماتٍ)؛ لِأَنَّ دلالةَ العددِ قطعيَّةٌ على المعدودِ، فلمْ يذكرِ العَدَدَ (ثلاثة)؛ لِئَلَّا يكونَ المرادُ ثلاثةَ أَشهرٍ تامَّةٍ.

ومِن نِكَاتِ استعمالِ جمعِ القلة ههنا: تهوينُ "مُدَّة تركِ الرَّفث والفسوقِ والجدالِ؛ لصُعوبة تَرْكِ ذلكِ على النَّاس"[3].

نِكَاتُ تَقْيِيدِ الْمُسْنَدِ بِالصِّفَةِ ﴿مَّعۡلُومَٰتٞۚ﴾:

إِجْلَالُ أَشْهُرِ الْحَجِّ وَتَعْظِيمُهَا

لوصفِ المُسْنَدِ بـ﴿مَّعۡلُومَٰتٞۚ﴾ في قوله تعالى: ﴿ٱلۡحَجُّ أَشۡهُرٞ مَّعۡلُومَٰتٞۚ﴾ نِكاتٌ:

(1) الرازي، مفاتيح الغيب: 1/87.
(2) البغوي، معالم التنزيل، والزمخشري، الكشاف: 1/243.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 2/231.

أوَّلها: تخصيصُ الأشهرِ بعدَ إبهامِها بسببِ التَّنكيرِ، ولا شكَّ أنَّ في الإبهامِ ثُمَّ التَّعيينِ بالتَّخصيصِ إجلالًا وإعظامًا لِلْمُحَدَّثِ عنه[1].

شُيُوعُ تَعْيِينِ أَشْهُرِ الْحَجِّ مِنْ لَدُنِ الْعَرَبِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ

ثانيها: ورودُ الوصفِ بصيغةِ اسمِ المفعولِ، المقتضيةِ عدمَ ذكرِ فاعلٍ لها؛ لبيانِ أنَّ هذهِ الأَشهرَ واضحةٌ يعلمهُا النَّاسُ مِنْ قَبلُ[2]، فلا حاجةَ لتعيينِهَا.

ثالثها: الإيذانُ بإقْرَارِ ما كَانَ عَلَيْهِ الْعَرَبُ في الْجَاهِلِيَّةِ مِنْ أَشْهُرِ الْحَجِّ؛ لِأَنَّهُ مَنْقُولٌ بِالتَّوَاتُرِ الْعَمَلِيِّ مِنْ عَهْدِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ عَلَيْهِمَا الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وفيه إيذانٌ بِبُطْلَانِ النَّسِيءِ فِيهَا، لِأَنَّهُ جَاهِلِيٌّ مَعْرُوفٌ[3].

رابعها: أنَّ ذكرَ الصِّفةِ مُشْعِرٌ بأنَّ تعظيمَ أَشهرِ الحَجِّ معلومٌ عندَ النَّاسِ.

وحُذِفَ متعلَّقُ اسمِ المفعولِ، فلم يَقُلْ: (معلوماتٌ لِلنَّاسِ) مثلًا؛ لِإفادةِ عمومِ معلوميّتِها ولِلاختصارِ.

وجاءتِ الصِّفَةُ بصيغةِ ما جُمِعَ بألفٍ وتاءٍ مزيدتينِ الذي هو مِنْ صِيَغِ جمعِ القِلَّةِ؛ الذي إذا أُطلقَ انصرفَ إلى الأَقلِّ وهوَ الثَّلاثةُ، لتأكيدِ قِلَّةِ أَشهُرِ الحَجِّ.

دِلَالَةُ التَّقْيِيدِ بِالشَّرْطِ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ﴾:

الْخِطَابُ بِتَرْكِ الرَّفَثِ وَتَوَابِعِهِ عَامٌّ لِكُلِّ حَاجٍّ

أفادَ اسمُ الشَّرطِ (مَنْ) العُمومَ لِكُلِّ عاقلٍ يفرضُ الحَجَّ في هذهِ الأَشهُرِ؛ فإنَّ (مَنْ) مِن الألفاظِ الدَّالَّةِ على العمومِ، وحسَّنَ دِلالَتَها عليه: ما في أسماءِ الشَّرْطِ من الإبهامِ.

نُكْتَةُ تَقْدِيمِ الْجَارِّ وَالْمَجْرُورِ ﴿فِيهِنَّ﴾ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ﴾:

مَا نُهِيَ عَنْهُ مُطْلَقًا: يَتَأَكَّدُ النَّهْيُ عَنْهُ فِي أَشْهُرِ الْحَجِّ

وقُدِّمَ الجارُّ والمجرورُ ﴿فِيهِنَّ﴾ على المفعولِ ﴿ٱلْحَجَّ﴾؛ لِلاهتمامِ بشأنِ هذهِ الأشهُرِ والعنايةِ بها للتَّهَيُّؤِ لِلْحَجِّ، ولا يدلُّ التَّقديمُ هنا

(1) البقاعي، نظم الدرر: 3/138.
(2) الرازي، مفاتيح الغيب: 5/315، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 2/405.
(3) رشيد رضا، تفسير المنار: 2/182.

على الاختصاصِ؛ لِحُرمةِ ما ذُكِرَ في الجزاءِ من الفسوقِ والجدالِ في كلِّ وقتٍ، وليسَ في أَوقاتِ الحَجِّ فحَسْبُ.

وعدلَ عَنْ أَنْ يقولَ (فَمَنْ فَرضَ فيها الحَجَّ) إلى ﴿فِيهِنَّ﴾؛ لِلإشعارِ بِقِلَّةِ الأَشهرِ[1]، وتقليلُهَا في نظرِ المُخاطَبِ لِئَلّا يَستثقلَها.

نُكْتَةُ الْإِظْهَارِ فِي مَوْضِعِ الْإِضْمَارِ:

وردتْ كلمةُ ﴿ٱلْحَجَّ﴾ اسمًا ظاهرًا في قولِه: ﴿فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ﴾، وكانَ مقتضى الظَّاهرُ أَنْ يجيءَ نظم الآية: (فَمَنْ فَرَضَهُ فِيهِنَّ)؛ لتقدُّمِ ذِكْرِه، فَعُدِلَ عنِ الإضمارِ إلى الإظهارِ؛ لِأَنَّهُ جعلَ الحَجَّ المذكورَ أَوّلًا عينَ الأشهرِ مَجَازًا - كما تقدَّمَ -، ولَوْ أضمرَهُ لَعادَ إليهِ، وَلَكانَ قدْ جعلَ الحَجَّ الذي هو أَشهرٌ معلوماتٌ يُفْرَضُ في أشهُرٍ معلوماتٍ، أَي يكونُ التَّقديرُ: (فَمَنْ فَرَضَ الأَشْهُرَ في الأَشهرِ)، وفيه مِنْ عدمِ استقامةِ المَعنى وسوئِه ما لا يَخفَى، فَعَدلَ عنِ الضَّميرِ إلى الظَّاهرِ؛ لِأَنَّ المرادَ بالحَجِّ هنا: الإحرامُ بهِ والدُّخولُ في النُّسُكِ.

مِنْ مَقَاصِدِ الْعُدُولِ عَمَّا يَقْتَضِيهِ ظَاهِرُ الْكَلَامِ: دَفْعُ الْإِيهَامِ

وذهبَ ابنُ عَرَفَةَ إلى أنَّ سببَ إيقاعِ الظَّاهرِ موقِعَ المُضْمَرِ أنَّ الحجَّ المذكورَ أَوَّلًا قُصِدَ به مُطلَقُ الحجِّ الصَّادقِ بأَيِّ صورةٍ مِنْ صُوَرِ الحَجِّ، وأمَّا المذكورُ ثانيًا؛ فقدْ أَرادَ بِهِ المُقيَّدَ بِحَجٍّ كلِّ واحدٍ واحدٍ بعينِه، وَالشَّخصُ المُعَيَّنُ حَجُّهُ مُقَيَّدٌ لا مُطْلَقٌ[2]، فأرادَ بالأَوَّلِ حقيقةَ الحَجِّ، وَأَرادَ بالثّاني الفعلَ المُنْجَزَ.

وفي إظهار لفظ ﴿ٱلْحَجَّ﴾ زيادةٌ لتعظيمِه؛ إيماءً إلى عظمةِ المنهيَّاتِ المذكوراتِ فيه؛ إذِ الذَّنْبُ يعظُمُ بعِظَمِ الزَّمانِ أو المكانِ.

دِلَالَةُ الْفَاءِ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَلَا رَفَثَ﴾:

وُجُوبُ مُبَادَرَةِ الْمُتَلَبِّسِ بِالْحَجِّ إِلَى اجْتِنَابِ الْمَنْهِيَّاتِ

لمّا كانتِ الفاءُ العاطفةُ بينَ الجُمَلِ تفيدُ السَّببيَّةَ، وَقدْ جاءتْ هنا في جوابِ الشَّرطِ، فقدْ أفادَتْ أنَّ فرضَ الحَجِّ والدُّخولَ فيه

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 1/272.

(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/573.

سَبَبٌ في اجتنابِ الرَّفَثِ وَالفُسوقِ والجِدالِ في الحَجِّ، ولمَّا كانَ وقوعُ الجزاءِ في وقتِ وقوعِ الشَّرطِ؛ دلَّ على أنَّ وجوبَ اجتنابِ المحظوراتِ المذكورةِ في وقتِ وقوعِ فرضِ الحَجِّ مِنْ غيرِ مُهلَةٍ.

سَبَبُ تَكرارِ أَداةِ النَّفي (لا) في المَعطوفاتِ:

النَّهْيُ عَنْ مَحْظُورَاتِ الْحَجِّ اجْتِمَاعًا وَانْفِرَادًا

أفادَ تكرارُ أَداةِ النَّفيِ واقترانها بالرَّفَثِ والفُسوقِ والجِدالِ: أَنَّ النَّهيَ عنها على سبيلِ الاجتماعِ وعلى سبيلِ الانفرادِ؛ فإنَّ النَّظمَ القرآنيَّ لو جاءَ: (فلا رَفَثَ وفُسوقَ وجِدالَ في الحَجِّ)؛ لَربَّما تُوهِّمَ أَنَّ النَّهيَ إنَّما يكونُ عندَ اجتماعِها كلِّها، فَلَمَّا قَرَنَ (لا) التَّبرئَةَ مَعَ كلِّ لفظٍ؛ أَفادَ ذلك النَّهيَ عنها مُجتمعَةً وَمنفردةً.

كما أفادَ اقترانُ (لا) بها: عِظَمَ حرمةِ كلِّ واحدٍ منها، وَأفادَ العطفُ المغايرةَ بينَ معاني الرَّفَثِ وَالفُسوقِ والجِدالِ.

بَرَاعَةُ الْمَجَازِ الْمُرْسَلِ الْمُرَكَّبِ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي ٱلْحَجِّ﴾:

وُرُودُ الْخَبَرِ مُرَادًا بِهِ النَّهْيُ: أَبْلَغُ مِنْ صَرِيحِ النَّهْيِ

عُدِلَ عَنْ ظاهرِ اللَّفظِ في قوله تعالى: ﴿فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي ٱلْحَجِّ﴾؛ فجيءَ به خبرًا بأسلوبِ النَّفيِ بـ(لا) التَّبرئةِ، وكان مقتضى الظَّاهرِ مجيئُهُ بأسلوبِ النَّهيِ؛ لأنَّ النَّفيَ بـ(لا) التَّبرئَةِ مُتسلِّطٌ على نفيِ جِنسِ الرَّفَثِ والفُسوقِ والجِدالِ في الحَجِّ، وذلكَ مُقْتَضٍ نَفيَ وجودِ أَضرُبِها وأَفرادِها بالنَّصِّ على الاستغراقِ، وَيَتَضَمَّنُ نفيُ الجنسِ مَعْنَى النَّهْيِ عَنْهَا بِطَرِيقِ الْأَوْلَوِيَّةِ[1]، والمعنى: لا تَرْفُثُوا ولا تَفْسُقُوا ولا تجادلوا.

ولمّا كانَ النَّهيُ يتوجّه لِمَا هو حاصِلٌ أَو ما يُتوقَّعُ حصولُهُ، فكانَ مَجيءُ الكلامِ على أسلوبِ الخبرِ أَبلغَ في النَّهيِ؛ لِلمبالغةِ في الطَّلبِ، حتّى كأَنَّ المخاطَبَ سارَعَ في الامتثالِ، أَوْ لِقصدِ التَّفاؤُلِ بسرعةِ الامتثالِ والحثِّ عليها، فشُبِّهَتْ حَالَةُ الْمَأْمُورِ وَقْتَ الْأَمْرِ بِالْحَالَةِ

(1) الرازي، مفاتيح الغيب: 5/319، ورشيد رضا، تفسير المنار: 2/184.

الْحَاصِلَةِ بَعْدَ امْتِثَالِهِ، فَكَأَنَّهُ امْتَثَلَ وَفَعَلَ الْمَأْمُورَ بِهِ فَصَارَ بِحَيْثُ يُخْبِرُ عَنْهُ بِأَنَّهُ فَعَلَ[1]، فتكونُ الآيةُ مِن قَبِيل المجاز المرسَلِ المركَّب.

فأفادَ الإخبارُ أنَّ المحظوراتِ المذكورةَ حقيقٌ بأَنْ لا تكونَ، وما كانَ مُنكَرًا مُستقبَحًا في نفسِهِ، ففي الحَجِّ هو أَقبَحُ وأَشنَعُ[2].

سِرُّ وَضْعِ الْمُظْهَرِ مَوْقِعَ الْمُضْمَرِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَلَا جِدَالَ فِي ٱلْحَجِّ﴾:

زِيَارَةُ بَيْتِ اللهِ الْمُعَظَّمِ مِنْ مُوجِبَاتِ تَرْكِ الْمَنْهِيَّاتِ

أَظهرَ لفظ الحجِّ في مقام الإضمارِ، فقالَ: ﴿وَلَا جِدَالَ فِي ٱلْحَجِّ﴾، وَلمْ يَقُلْ: وَلا جدالَ فيهِ؛ لأنَّ المُرادَ بالحَجِّ هنا ما يَعُمُّ زَمَانَ أَدَائِهِ وَمَكَانَهُ، وَهُوَ أَرْضُ الْحَرَمِ وَمَا يَتْبَعُهَا كَعَرَفَاتٍ[3]، وَلإظهارِ كمالِ الاعتناءِ بشأْنِ الحَجِّ، ولِلإشعارِ بعلَّةِ الحُكمِ أَي النَّهيِ عنِ الْجِدالِ؛ فإنَّ زيارةَ البيتِ المُعَظَّمِ، والتقرُّبَ بها إلى اللهِ ﷻ، مِنْ مُوجباتِ تركِ هذهِ الأُمورِ المَذكورةِ المدنِّسة لِمَن قصدَ السُّلوكَ إلى ملكِ المُلُوكِ[4] ﷻ.

سَبَبُ إِيثَارِ حَذْفِ مُتَعَلِّقِ الْخَبَرِ مَعَ الرَّفَثِ وَالْفُسُوقِ:

ظُهُورُ بَلَاغَةِ نَظْمِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ وَقُوَّةِ سَبْكِ عِبَارَتِهِ

قوله: ﴿فِي ٱلْحَجِّ﴾ من قوله تعالى: ﴿فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي ٱلْحَجِّ﴾ متعلِّقٌ بالخبرِ المحذوفِ[5]؛ لِشُيُوعِ حَذْفِ خبرِ لا النَّافية لِلْجنسِ.

وحُذِفَ متعلَّقُ الخبرِ مع الرَّفثِ والفسوقِ، وصُرِّحَ به مع الجدالِ[6]؛ إذْ لَو صُرِّحَ به أوَّلًا مع الرَّفَثِ، لَأُعيدَ ذِكْرُهُ مع الفسوق والجدال ضميرًا، فيكون نظمُ الآية هكذا: (فلا رَفَثَ في الحَجِّ ولا فُسوقَ فيهِ ولاجِدالَ فيهِ)، فيكون الكَلامُ غَثًّا ضَعيفًا، ساقطًا وَجْهُ البَلاغَةِ عنهُ.

الْمَنَاهِي الشَّرْعِيَّةُ دَرَكَاتٌ؛ بَعْضُهَا أَقْبَحُ مِنْ بَعْضٍ

بَرَاعَةُ التَّرَقِّي فِي ذِكْرِ الْمَنْهِيَّاتِ:

قُدِّمَ الرَّفثُ على الفسوقِ، والفسوقُ على الجدالِ؛ من باب التَّرقّي

(1) ابن عاشور: 2/233.
(2) الزمخشري، الكشاف: 1/243، وابن الجوزيّ، زاد المسير: 1/165
(3) رشيد رضا، تفسير المنار: 2/183.
(4) أبو السّعود، تفسير أبي السعود: 1/207، والآلوسي، روح المعاني: 1/482.
(5) الدّرويش، إعراب القرآن وبيانه: 1/293.
(6) محمود الصّافي، الجدول في إعراب القرآن: 2/408.

في ذكر القبائحِ؛ فإنَّ الرَّفثَ أَقبحُ مِنَ الفُسوقِ، والفسوقَ اَقبحُ مِنَ الْجِدالِ، فَقُدِّمَ الذي يَشتَدُّ طلَبُ اجتنابِهِ على غيرِهِ.

الْبُعْدُ حَالَ الْإِحْرَامِ عَنْ كُلِّ مَا يُشْغِلُ النَّفْسَ وَيُكَدِّرُهَا

ولمّا كانَ تعاطي المحظوراتِ المذكورةِ محرَّمًا في كلِّ الأَوقاتِ؛ كانَ تخصيصُ اجتنابِها بالحَجِّ تنبيهًا على شَرَفِهِ وَعِظَمِ موقِعِهِ، ولِيَبتعِدَ الحاجُّ حالَ الإحرامِ عَنْ كُلِّ ما يُشَوِّشُ الذِّهْنَ، ويُشغِلُ النَّفسَ وَيُكَدِّرُها.

بَلَاغَةُ التَّقْسِيمِ فِي نَفْيِ الْأَدْنَاسِ الثَّلَاثَةِ:

نَفْيُ الشُّرُورِ بِنَفْيِ مَنْشَئِهَا

في قول اللّه تعالى: ﴿فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي ٱلْحَجِّۗ﴾ تقسيمٌ، والمرادُ به ههنا: استيعاب أقسام الشَّيءِ، ووجه ذلك أنَّ الإنسانَ فيه أربعةُ قُوًى: قوة شهوانية، وقوة غضبية، وقوة وهمية، وقوة عقلية، والمرادُ من العباداتِ قهر القوى الثلاثَةِ الأُوَلِ، فجاءَ قوله: ﴿فَلَا رَفَثَ﴾ لبيانِ قهر الشهوانيَّةِ، وقوله: ﴿وَلَا فُسُوقَ﴾ للإشارة إلى قهر الغضبيةِ الموجبةِ التَّمرُّدَ، وقوله: ﴿وَلَا جِدَالَ﴾ إيماءٌ إلى قهر الوهميَّةِ الحاملةِ على الجدالِ، الباعثةِ على منازعة النَّاسِ ومخاصمتِهم، فنفتِ الآيةُ جميع الشُّرور بنفْيِ منشَئِهَا؛ إذ منشؤُهَا منحصِرٌ في هذه الثَّلاثَةِ[1].

نُكتةُ اقْتِرَانِ مُتَعَلِّقِ الْخَبَرِ ﴿فِي ٱلْحَجِّۗ﴾ بِالْجِدَالِ:

اسْتِسْهَالُ النَّاسِ لِلْمَعْصِيَةِ مُوجِبٌ لِلْعِنَايَةِ بِالتَّحْذِيرِ مِنْهَا

لَمَّا كانَ الجدالُ مشتملًا على جَميعِ أَنْوَاعِ الْقُبْحِ[2]، وكانَ مُسْتَسْهَلًا بينَ النَّاسِ قُرِنَ بِهِ قولُهُ: ﴿فِي ٱلْحَجِّۗ﴾؛ ليكون حذرُ المُجادِلِ أكثرَ مِنْ غيرِهِ مِنَ الوقوعِ في المحظورِ؛ إذ وقعت العنايةُ به على سبيل الاستقلال؛ فَلَوْ أنَّ أحدًا قرأَ: ﴿وَلَا جِدَالَ فِي ٱلْحَجِّۗ﴾؛ لَتَمَّ المعنى واتَّضح المرادُ، ولكنَّه لَوْ قرأ: (فَلا رَفَثَ ولا فسوقَ) مقتصرًا عليها؛ فإنَّ المرادَ من الآية لا يتمُّ، إلَّا إذا قُرِئَ معها: ﴿وَلَا جِدَالَ فِي ٱلْحَجِّۗ﴾.

(1) الرّازي، التّفسير الكبير: 5/319.

(2) الرازي، التّفسير الكبير: 5/317، والنيسابوري، غرائب القرآن: 1/553.

سُلُوكُ الْقُرْآنِ مَسْلَكَ التَّوْكِيدِ فِي تَعْظِيمِ إِتْيَانِ الْمَنَاهِي

إِيثَارُ التَّعْبِيرِ بِنَفْيِ الْمَصْدَرِ دُونَ نَفْيِ الْفِعْلِ:

عُدِلَ عَنِ التَّعبيرِ بـ: (فَلَا يَرْفُثُ وَلَا يَفْسُقُ وَلَا يُجَادِلُ) خبرًا مرادًا به النَّهيُ، إلى التَّعبيرِ بالمصدرِ المَنفيِّ؛ لِقَصْدِ الدِّلَالَةِ عَلَى ثبوتِ المعنى المنفيِّ وتقريرِهِ وتَوْكيدِهِ؛ إذْ إنَّ الجملةَ الاسميَّةَ فيها معنَى التَّأْكيدِ.

فِي تَنَوُّعِ الْقِرَاءَاتِ تَكْثِيرٌ لِلْمَعَانِي

تَوْجِيهُ الْقِرَاءَاتِ بَيْنَ: ﴿فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ﴾ وَ﴿فَلَا رَفَثُ وَلَا فُسُوقُ﴾:

اختلفتِ القراءاتُ في قولِه: ﴿فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ﴾، فقرأ نافعٌ وعاصمٌ وابنُ عامرٍ وحمزةُ وَالكسائيُّ: ﴿فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ﴾ بفتحِ وغيرِ تنوينٍ، عَلَى اعْتِبَارِ (لَا) نَافِيَةً لِلْجِنْسِ نَصًّا، وقرأَ ابْنُ كثيرٍ وأَبو عمرٍو ويعقوبُ: ﴿فَلَا رَفَثُ وَلَا فُسُوقُ﴾ بالضَّمِّ والتَّنوينِ، عَلَى أَنَّ (لَا) مشبّهةٌ بـ(لَيْسَ) غَيْرُ نَصٍّ في نَفي الجنسِ، وَ﴿وَلَا جِدَالَ﴾ بِفَتْحِ اللَّامِ عَلَى اعْتِبَارِ (لَا) نَافِيَةً لِلْجِنْسِ نَصًّا[1]، ويَنْبَنِي على قراءةِ الرَّفعِ الوقوفُ على ﴿فُسُوقُ﴾، ثمّ يُبْتَدَأُ بِـ﴿وَلَا جِدَالَ﴾، وَمَنْ فتحَ في الثَّلاثةِ وقفَ على ﴿ٱلْحَجِّ﴾[2]، والفرقُ في المَعنى بين القراءَتين:

أَنَّه على قراءةِ الفتحِ في المواضعِ الثَّلاثةِ، تكونُ (لا) نافيةً للجنسِ في الجميعِ، أَو لِمعنى نَفيِ وجودِها الذي يستلزِمُ نفيَ أَفرادِها واحدًا وَاحِدًا على الاستغراقِ، أَي: نَفيَ جميعِ أَفرادِ الرَّفَثِ والفُسوقِ والجِدالِ في الحَجِّ[3]، ويكونُ قولُهُ: ﴿فِي ٱلْحَجِّ﴾ متعلِّقًا بالخبرِ المحذوفِ، وهي جملةٌ خبريَّةٌ يُرادُ بهَا النَّهيُ.

وعلى قراءةِ الرَّفعِ، تكونُ (لا) نافيةً مشبَّهةً بـ(ليسَ) وخبرُهُما محذوفٌ[4]، وليست نصًّا في نفي الجِنس، إلَّا أنَّ الْمُرَادَ ههنا الاستغراقُ؛ لِمَا احتفَّهُ مِنَ القرائِنِ[5].

(1) ابن الجزري، النّشر: 2/211.
(2) الداني، المكتفى في الوقف والابتدا، ص: 30، والأشموني، منار الهدى: 1/102.
(3) الداني، المكتفى في الوقف والابتدا، ص: 30، وابن زنجلة، حجة القراءات، ص: 129.
(4) الداني، المكتفى في الوقف والابتدا، ص: 30، والواحدي، التفسير البسيط: 4/40.
(5) ابن زنجلة، حجة القراءات، ص: 129.

وَلَمَّا كان الحَجُّ موضعَ اجتماعٍ وازدحامٍ، وقدْ يقعُ الجدالُ بينَ رُفقةِ الحَجِّ أَو مَعَ عُمومِ النّاسِ في منازعاتِهم ممَّا يستوجِبُ الغضبَ والكراهيّةَ بين المسلمينَ؛ نصَّ على نَفيِ كُلِّ أَفرادِ الجِدالِ، وصرّحَ بالخبرِ ﴿فِي ٱلۡحَجِّۗ﴾ معَهُ؛ لِيكونَ أَوثقَ وأَحرى في الامتثالِ؛ فيكونُ الكلامُ مِنْ عَطْفِ جُمْلَةٍ فيها نصٌّ على نَفيِ جميعِ أَفرادِ الجَدَلِ عَلَى جُمْلَةٍ ليستْ نَصًّا على نفيِ جميعِ أَفرادِ الرَّفَثِ وَالفُسوقِ، "وَالْكَلَامُ عَلَى الْقِرَاءَتَيْنِ خَبَرٌ مُسْتَعْمَلٌ فِي النَّهْيِ"[1].

بَلَاغَةُ الِالْتِفَاتِ فِي قَوْلِه: ﴿وَمَا تَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ يَعۡلَمۡهُ ٱللَّهُۗ﴾:

الْحَثُّ عَلَى حُسْنِ الْكَلَامِ وَالْبِرِّ وَالْخُلُقِ الْحَسَنِ فِي الْحَجِّ

لمّا نَهى اللّه تعالى عَنْ فعلِ الرَّذائلِ وارتكابِ المحظوراتِ، أَتبعَها بالحثِّ على فعلِ عُمومِ الخَيرِ؛ لِيستعملوا مكانَ القبيحِ مِنَ الكلامِ الحَسَنَ، ومكانَ الفُسوقِ البرَّ والتَّقوى، ومكانَ الجدالِ الخُلُقَ الحَسَنَ، وجاءَ به على أُسلوبِ العمومِ، وبطريقةِ الالتفاتِ مِنَ الغائبِ إلى المُخاطَبِ؛ لِمَا في الخِطابِ هنا مِنْ داعي الإقبالِ على المُخاطَبِ، ففيهِ معنى التَّودُّدِ بعدَ النَّهيِ عنِ الثَّلاثةِ؛ لِيدلَّ ذلك على أنَّ النهيَّ ليس مرادًا به التَّوبيخُ، وإنّما هو للإعلامِ وطَلَبِ الامتثالِ، وَلِيكونَ الكلامُ أَحسنَ تَطريَةً لِنشاطِ السَّامعِ، وأَكثرَ إيقاظًا للإصغاءِ إليهِ بعدَ ذكرِ جملةٍ مِنَ الأحكامِ، ولِيجدَ المُخاطَبُ مِنْ نفسِه مُحَرِّكًا للإقبالِ على فعلِ الخَيرِ[2].

إِيثَارُ التَّعْبِيرِ بِصِيغَةِ الجَمْعِ بَدَلًا مِنَ الْمُفْرَدِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَمَا تَفۡعَلُواْ﴾:

الْحَثُّ عَلَى فِعْلِ الْخَيْرِ الْجَمَاعِيِّ

جيءَ بصيغةِ الجمعِ ﴿تَفۡعَلُواْ﴾ باقترانِ الفعلِ بواوِ الجماعةِ في قوله تعالى: ﴿وَمَا تَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ يَعۡلَمۡهُ ٱللَّهُۗ﴾، بعدَ أَنْ جاء التَّعبيرُ بصيغةِ المفردِ في قوله: ﴿فَمَن فَرَضَ﴾، وفي ذلك نُكْتَتانِ:

إحداهما: الحَثُّ على فعلِ الخيرِ الجماعيِّ، فيكونَ أَقوى أَثَرًا وأَكثَرَ تأثيرًا.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/232.

(2) البهاء السبكي، عروس الأفراح: 1/276.

والأخرى: أنَّ سياقَ الآيات لمَّا كان في ذِكْرِ الحَجِّ، وفيه من اجتماعِ النَّاس ما فيه؛ ناسبَهُ التَّذكيرُ اجتماعِ النّاس فيه على الطَّاعةِ وَفعلِ الخيرِ.

دِلَالَةُ اسْمِ الشَّرْطِ (مَا) فِي قَوْلِهِ: ﴿وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ﴾:

قَدْ يُغْنِي الْإِبْهَامُ عَنْ تَطْوِيلٍ مُتَعَسِّرٍ أَوْ مُتَعَذِّرٍ

أَفادَ اسمُ الشَّرطِ (ما) في قوله تعالى: ﴿وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ﴾ العمومَ، وَلِأنّهُ لِغيرِ العاقِلِ، فالمعنى على عُمومِ أَيِّ فِعْلٍ يكونُ أَثَرُهُ خيرًا، فاستغنَى بـ(ما) عَنْ ذكرِ تفصيلِ أَنواعِ فعلِ الخَيرِ، وَلِلاحْترازِ عَنِ التَّطويلِ بتعدادِ أفرادِ الخَيْرِ، ثُمَّ إنّ التَّفصيلَ قدْ لا يَفي بِحصرِ الأَنواعِ[1].

سِرُّ إِيثَارِ ﴿تَفْعَلُواْ﴾ دُونَ (تَعْمَلُوا):

عُمُومُ الْإِثَابَةِ عَلَى فِعْلِ الْخَيْرِ فِي الْحَجِّ وَلَوْ وَقَعَ مِنْ غَيْرِ قَصْدٍ

لمّا كانَ (الفعلُ) يقعُ على ما يكونُ بقصدٍ وَبدونِ قصدٍ، وبِسَبَبٍ وبغيرِ سَبَبٍ، وكانَ (العملُ) قلّما يكونُ بغيرِ قَصْدٍ وَسَبَبٍ[2]؛ ذكرَ ﴿تَفْعَلُواْ﴾؛ لِلإشعارِ بِأنَّ أَيَّ خيرٍ تفعلونَه بقصدٍ أَو بغيرِ قصدٍ، ولو كانَ بغيرِ سبَبٍ فإنَّ اللّه يَعْلَمهُ.

والجملةُ سِيقَتْ في مقامِ التمدُّحِ والثَّناءِ، فَيكونُ فعلُ الخيرِ ولو كانَ غيرَ مقصودٍ أو لِغيرِ سَبَبٍ مَمدوحًا، وسيجزي به اللّه تعالى صاحبَهُ الجزاءَ الحسَنَ، لِاندراجِ فعلِ الخيرِ في فرضِ الحجِّ ونيّةِ فعلِ النُّسك.

نُكْتَةُ تَنْكِيرِ (خَيْرٍ) فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ﴾:

لا تَحْقِرَنَّ مِنَ الْمَعْرُوفِ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ قَلِيلًا

تنكيرُ كَلِمَةِ ﴿خَيْرٍ﴾ من قوله سبحانه: ﴿وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ﴾ يُرادُ به التَّقليلُ، وَالمعنى: أَيَّ خَيرٍ ولو كانَ قليلًا، فَلا يُستصْغَرُ الخيرُ القليلُ في أَشهُرِ الحَجِّ، وكذَا في غَيْرِهَا، كَمَا أفاد تنكيرُ ﴿خَيْرٍ﴾ تأكيدَ العمومِ المستفادِ من اسم الشَّرط (مَا).

ولمَّا كانت (ما) تفيدُ العمومُ، وكانت (مِنْ) بيانًا للإبهامِ الذي

(1) السكاكي، مفتاح العلوم، ص: 244.
(2) الراغب، المفردات: (فعل).

تضمَّنتْهُ (ما)؛ دَلَّ على تضمُّنِ (ما) معنَى الخيرِ؛ لِتفسيرِها بقولِهِ: ﴿مِنْ خَيْرٍ﴾، فكانتْ كلمةُ ﴿خَيْرٍ﴾ تأكيدًا وَتقريرًا لِمَا تضمّنتْهُ (ما) الدالَّةُ على العمومِ، فكأنَّهُ ذكرَ كلمةَ ﴿خَيْرٍ﴾ مَرَّتينِ؛ حثًّا على فعلِ الخيرِ وخَصوصيَّتِهِ في الحَجِّ.

نُكْتَةُ الِاكْتِفَاءِ بِذِكْرِ فِعْلِ الْخَيْرِ دُونَ ذِكْرِ تَرْكِ الْمَحْظُورِ:

الْحَثُّ عَلَى فِعْلِ الْـخَـيْرِ وَتَـرْكِ الْمَحْظُورِ فِي الْحَجِّ وَغَيْرِهِ

لمّا كانَ الشَّرطُ عامًّا بدلالةِ (ما) الشّرطيَّةِ، أَفادَ أَنَّ كُلَّ مَا يَفْعَلُونَهُ مِنْ خيرٍ مَعْلُومٌ عِنْدَ اللهِ لَا يَفُوتُ مِنْهُ شَيْءٌ، واقتضى أنَّ كلَّ ما يتركونَهُ مِنْ شَرٍّ يعلمُهُ اللهُ، وَلا يفوتُ منهُ شيءٌ، فإنَّ اللهَ تعالى العالمَ بِالفعلِ عالمٌ بالتَّركِ كذلكَ، فجاءَ الكلامُ على الإيجازِ، بذكرِ فعلِ الخيرِ، وحذفِ ما يقابِلُهُ، على سبيلِ الاكتفاءِ؛ بقرينةِ السِّياقِ.

ونُصَّ على فعلِ الخيرِ في قوله تعالى: ﴿وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ﴾ دونَ التَّعرُّضِ لتركِ المَحْظُورِ، وَكانَ مُقتضَى الظَّاهرِ أَنْ يجيءَ النَّظْمُ القرآنيُّ: (وَما تَتْرُكُوا مِنْ محظورٍ يَعْلَمْهُ اللهُ) أَو ما هُوَ قريبٌ مِنْ هذا المَعنَى؛ لِمجيئِهِ عَقِبَ طَلَبِ تركِ الرَّفَثِ وَالفُسوقِ والجِدالِ، فَعَدَلَ إلى ذِكرِ فعلِ الخَيرِ؛ لِيُفيدَ الكلامُ أمورًا:

أَحدُهما: الحضُّ على عدمِ الاقتصارِ على تركِ ذلكَ فقطْ، فَيَتَضَمَّنُ طلبَ تركِهِ، وطلَبَ تعويضِهِ بفعلِ الخَيرِ المُحَصِّلِ لِلثَّوابِ؛ فإنَّهُ تعالى عالمٌ بِمَنْ يتركُ المَحظوراتِ وبِمَنْ يفعلُ الخيرَ، فَنبَّهَ على التَّركِ وَالفعلِ بذكرِ الفعلِ[1].

ثانيهَا: الإشعارُ بأنَّه لا ينبغي أَنْ يقعَ أَيُّ فعلٍ في الحجِّ إلَّا فعلَ الخيرِ، فحثَّ على فعلِ الخيرِ تَصريحًا وَعلى تَركِ الشَّرِّ تلميحًا.

ثالثُهَا: أَنَّ تركَ الرّفَثِ إنْ كانَ بمعنى الجِماعِ مطلوبٌ في حالِ الإحرامِ دونَ غيرِه، وكانَ المرادُ من الكلامِ العمومَ؛ إذِ الجملةُ في مقامِ جملةِ التذييلِ.

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/575.

بَلَاغَةُ الْكِنَايَةِ عَنِ الْمُجَازَاةِ بِقَوْلِهِ: ﴿يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ﴾:

فِعْلُ الْخَيْرِ فِي الْحَجِّ أَعْظَمُ مِنْ أَنْ يُذْكَرَ جَزَاؤُهُ

جُعِلَ جزاءُ الشَّرطِ في قوله: ﴿وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ﴾ علمَ اللّهِ بِهِ، فقالَ سبحانه: ﴿يَعْلَمْهُ ٱللَّهُۗ﴾، وكانَ الظَّاهرُ أَنْ يُذكَرَ ما يترتَّبُ على فعلِ الخيرِ مِنَ الجَزاءِ الحَسَنِ، إلَّا أَنَّهُ جُعِلَ ﴿يَعْلَمْهُ ٱللَّهُۗ﴾ في موضِعِ المجازاةِ؛ إذْ أُطْلِقَ عِلْمُ اللّهِ تعالى وَأُرِيدُ لَازِمُهُ، وَهُوَ الْمُجَازَاةُ عَلَى الْمَعْلُومِ بِطَرِيقِ الْكِنَايَةِ[1]؛ لأنَّ المُجازاةَ إنَّما تَقَعُ مِنْ عالمٍ بالشَّيءِ[2].

وفِيه إشعَارٌ بأَنَّ فعلَ الخيرِ في الحَجِّ أَعظمُ مِنْ أَنْ يُذكَرَ جَزاؤُهُ، فَهُوَ في علمِ اللّهِ لِعَظمتِهِ، فَيكونُ جزاؤُهُ في الغَيبِ، وَلا يعلمُهُ إلَّا اللّهُ؛ تَكريمًا لفاعِلِ الخَيْرِ على عَمَلِهِ.

دِلَالَةُ الْأَمْرِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَتَزَوَّدُواْ﴾:

الْأَخْذُ بِالْأَسْبَابِ الْمَشْرُوعَةِ لَا يُنَافِي التَّوَكُّلَ عَلَى اللهِ تَعَالَى

لَمَّا جاءَ التَّزوُّدُ على صيغةِ التَّفَعُّلِ دَلَّ على الاتِّخاذِ المُتَكرِّرِ في مُهلَةٍ، مَعَ تَكَلُّفِ فعلِ التَّزَوُّدِ[3]، والمعنى اتَّخذُوا الزَّادَ لِلسَّفَرِ، وكرِّروا اتِّخاذَهُ، وإنْ جَهِدتُم فيه؛ لِحاجتِكُمْ إليهِ في السَّفرِ، ولا يُنافي اتّخاذُ الزادِ التَّوكُّلَ، وَقدْ جاءَ في سَبَبِ نزولِ الآيةِ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما، قَالَ: «كَانَ أَهْلُ اليَمَنِ يَحُجُّونَ وَلاَ يَتَزَوَّدُونَ، وَيَقُولُونَ: نَحْنُ المُتَوَكِّلُونَ، فَإِذَا قَدِمُوا مَكَّةَ؛ سَأَلُوا النَّاسَ، فَأَنْزَلَ اللّهُ تَعَالَى: ﴿وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾»[4].

وَالْأَمْرُ فِي قولِه: ﴿وَتَزَوَّدُواْ﴾ للنُّصْحِ والإرشادِ؛ لِما فيه من الدِّلالَةِ على المصالحِ الدّينيّة والدّنيَويّةِ، ولا يُنافي هذا أن يكون التَّزوُّدُ واجبًا مع القدرة على تحصيلِهِ وترتَّب على تركِهِ إذلالُ النَّفْسِ بالسُّؤالِ.

حَذْفُ مُتَعلَّقِ الْفِعْلِ ﴿وَتَزَوَّدُواْ﴾:

أَفادَ حذفُ متعلّق (تَزَوَّدُوا) من قول اللّه تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/235.
(2) الواحدي، التفسير البسيط، تح، : 4/42.
(3) الاستراباذي، شرح شافية ابن الحاجب: 1/259.
(4) رواه البخاري، حديث رقم: (1523).

الْحَثُّ عَلَى اتِّخاذِ عُمُومِ الزَّادِ وَالِاجْتِهَادِ فِيهِ

﴿خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ تعميمَ طلبِ تحصيلِ كلِّ ما يُطلَقُ عليه زَادٌ، الذي هو طعامُ السَّفرِ والحَضَرِ جميعًا، ولو ذُكِرَ المتعلَّق؛ لاقتصرَ على النَّوعِ المذكورِ مِنْ أَنواعِ الزَّادِ، ولَقلَّ المَعنى مع أنَّ السِّياقَ يقتضي التَّعميمَ، فكانَ الحذفُ أعمَّ فائدةً مِنَ الذّكرِ؛ إذْ أفادَ طلبَ عموم اتِّخاذ الزَّادِ حسيًّا كَان أو معنويًّا، قليلًا كانَ أو كثيرًا، في الحَضَرِ أو في السَّفرِ، لِلدُّنيا أو لِلآخرةِ.

سِرُّ إِيثَارِ صِيغَةِ التَّفَعُّلِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَتَزَوَّدُواْ﴾:

الْحَثُّ عَلَى الِاجْتِهَادِ فِي اتِّخَاذِ الزَّادِ

لَمَّا كانتْ صيغةُ (التّفعُّل) في قوله: ﴿وَتَزَوَّدُواْ﴾ دالّةً على تَكرارِ الفعلِ وتكلُّفِ الاجتهادِ فيه؛ أَفادتْ طلبَ تكرارِ اتِّخاذِ الزَّادِ، ولا سيّما زادَ التقوى، وَإِنْ جُهِدَ صاحبُه فيه؛ "لأَنَّ الآيةَ أفادتْ بيانَ الزَّادَينِ، وذلكَ أَنَّ اللَّفظةَ العامَّةَ إذا أَفادتْ فوائدَ ولَمْ تكُنْ متنافيةً، فلا بُدَّ مِن استفادتِها جميعًا، وَيكونُ الجميعُ مُرادًا باللَّفظِ عندَ أَهلِ التَّحقيقِ"[1].

دِلَالَةُ الْفَاءِ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾:

الزَّادُ الْحَقِيقِيُّ الْمُسْتَمِرُّ نَفْعُهُ لِصَاحِبِهِ هُوَ تَقْوَى اللهِ تَعَالَى

ممّا يؤيِّدُ ما تقدَّمَ من طلبِ تحصيلِ عموم الزَّادِ مجيءُ الفاءِ التَّفريعيَّةِ[2]، في قولِه: ﴿فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾؛ لِلدَّلالةِ على أنَّ الزادَّ ضُروبٌ مُتنوِّعةٌ، وَمِنْها زَادُ التَّقوى الذي هو خَيرُ الزَّادِ؛ لكونِهِ الموصلَ لأكمل لذَّة وأجلِّ نعيمٍ دائمٍ أبدًا[3].

دِلَالَةُ (إنّ) فِي قَوْلِهِ: ﴿فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾:

التَّزَوُّدُ بِأَنْوَاعِ الزَّادِ سَبَبٌ لِتَحْصِيلِ التَّقْوَى

أفادتْ (إنّ) في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ معنَيَيْنِ:

أحدهما: تأكيد مضمون الجُملةِ؛ فإنَّ (إنَّ) تُقوِّي الجملَ الاسميَّةَ وتؤكِّدُهَا، ونكتة التَّأكيدِ: الاهتمام بهذا الضَّرْبِ من الزَّادِ، والحثُّ على السّعي في تحصيلِهِ.

---

(1) الواحدي، البسيط، : 4/43.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/236.

(3) السّعدي، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 91.

والجملةُ كما هي مؤكَّدةٌ بـ(إنَّ)؛ مُؤكَّدةٌ كذلك بِمجيءِ الجملةِ اسميةً، وَبِالحَصْرِ المَدلولِ عليهِ بوقوعِ طَرَفَي الإسنادِ مَعرفتين؛ وهو طريقٌ من طرُقِ القَصْرِ والحصْرِ.

والآخر: تعليلُ طلبِ التَّزَوُّدِ وبيانِ سَبَبِهِ، والمعنى: لِأنَّ خيرَ الزَّادِ التَّقوى؛ فعليكم أَنْ تَتَزَوَّدوا لَعلّكُم تُحَصِّلونَ زادَ التَّقوى، فيكونُ التَّزَوُّد طريقًا وسببًا لِتَحصيلِ زادِ التَّقوى.

بَلَاغَةُ الِاسْتِعَارَةِ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾:

النّاسُ فِي الدُّنْيَا مُسَافِرُونَ إِلَى الْآخِرَةِ، وَالزَّادُ النَّافِعُ لَهُمْ: تَقْوَى اللهِ تَعالَى

لمّا كانَ الزَّادُ هو الشَّيءَ المُدَّخَرَ الزَّائِدَ على ما يُحتاجُ إليهِ في الوقتِ، وكانَ الزَّادُ في قوله: ﴿خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ مُسْتَعارًا لِكَثْرَةِ فعلِ الخَيْرِ اسْتِعْدَادًا لِيومِ الجزَاءِ؛ شُبِّهَ هذا المعنَى بإعدادِ المُسافِرِ الزَّادَ لِسَفَرِهِ على سبيلِ الاستعارة التَّصريحيَّة، بناءً على إطلاقِ اسمِ السَّفَرِ والرَّحيلِ على الموتِ[1]، واختيارُ (تَزَوَّدُوا) مُؤذِنٌ بأنَّ النَّاسَ في الدُّنيا في حالِ سَفَرٍ إلى مقصَدٍ ينتهونَ إليهِ.

دِلَالَةُ اللَّامِ فِي (الزَّادِ) مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾:

خَيْرُ أَنْوَاعِ الزَّادِ مُطْلَقًا هُوَ التَّقْوَى

وقع التَّعبيرُ بالزَّادِ في قول الله تعالى: ﴿فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ معرَّفًا باللَّامِ الجنسيَّة المفيدةِ الاستغراقَ؛ لاستيعاب أنواع الزَّادِ وضروبِهِ من غير أن يخرُجَ عن ذلك شيءٌ، ولو جيءَ بلفظِ الزَّاد نكرةً بأن يأتي نظمُ القرآن: (فَإنّ خير زادٍ)؛ لاحتملَ أن تكون الخيريَّةُ مقصورةً على نوع من أنواع الزَّاد، إلَّا أنَّه لمّا أُضيفَ اسمُ التَّفضيل إلى ما هو مقترنٌ باللَّام التي لِلْعُمُوم؛ أفاد تعميمَ الخيريَّة، فخيرُ أنواعِ الزَّاد مطلقًا هو التَّقوى، فلا يفوقها زادٌ، ولا يعدِلُها تزوّد.

خَتْمُ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ بِثَلَاثِ جُمَلٍ تَذْيِيلِيَّةٍ:

تَضَمَّنَ قول الله تعالى: ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ

(1) ينظر: ابن عاشور، التّحرير والتنّوير: 2/236.

ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿١٩٧﴾﴾ ثلاث جملٍ مِن جُمل التَّذييل[1]:

إحداها: قولهُ تعالى: ﴿وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ﴾.

ثانيها: قوله سبحانه: ﴿فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ﴾.

ثالثها: قولُه ﷻ: ﴿وَٱتَّقُونِ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾.

وكلُّ جملة من هذه الجُمَلِ الثَّلاثِ تذييلٌ جارٍ مجرى المثَلِ؛ لاستقلالِهِ بالإفادةِ، وعدمِ افتقارِهِ إلى ما قبلَهُ في معرفةِ أصلِ المرادِ.

وفي هذه الجُمَلِ معنى العمومِ والكلّيةِ، وكلُّ جملةٍ فيها معنى التَّأكيد لسابِقَتِهَا، تقويةً لمضامينِهَا وتقريرًا لهَا.

بَدِيعُ جِنَاسِ الِاشْتِقَاقِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ﴾:

امْتِثَالُ الْعِبَادِ أَوَامِرَ اللهِ تَعَالَى عَائِدَةٌ عَلَيْهِمْ بِالنَّفْعِ.

اشتملت الآية جناسًا بين ﴿ٱلتَّقْوَىٰ ۚ﴾ و﴿وَٱتَّقُونِ﴾ من قوله تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ﴾، وهو جناسُ الاشتقاق؛ وحقيقته: أن يجمعَ اللَّفظينِ اشتقاقٌ، بمعنى أن يرجعا إلى أصلٍ لغويٍّ واحدٍ[2].

وفي الجناسِ بين ﴿ٱلتَّقْوَىٰ ۚ﴾ و﴿وَٱتَّقُونِ﴾ إشعارٌ بأنَّ امتثالَ أوامرِ اللّهِ تعالى تعودُ على العبادِ بالمصلحةِ والنَّفْعِ؛ إذ أمر العبادِ بالتَّقْوَى في ﴿وَٱتَّقُونِ﴾ بعد أن بيَّنَ أنَّها خيرُ زادٍ، والزَّاد ممَّا يُنتفَعُ بهِ.

نُكْتَةُ التَّخْصِيصِ بَعْدَ التَّعْمِيمِ:

في قول اللّه تعالى: ﴿وَٱتَّقُونِ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾ تخصيصٌ لِلخطاب بأولي الألباب بَعْدَ حَثٍّ جَمِيعِ الْعِبَادِ عَلَى التَّقْوَى في قوله: ﴿وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ﴾؛ لِأَنَّ أَرْبَابَ الأفهامِ السّليمةِ هُمُ

مِنْ عَادَاتِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ: تَقْرِيرُ الْمَعَانِي الْجَلِيلَةِ وَتَوْكِيدُ مَضَامِينِهَا

الْمُتَّقُونَ هُمُ الْعُقَلَاءُ حَقًّا

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/236.

(2) بسيوني فيّود، علم البديع، ص: 289.

الْقَابِلُونَ لِأَوَامِرِ اللّه، النَّاهِضُونَ بِهَا[1]، لتَمْييزِهم بينَ الحقِّ والباطلِ، والصَّوابِ والخطأ، فَإِنَّ اللّه تعالَى لَمَّا أَمرَ أَولي الأَلبابِ بالتَّقوى، فَكَأَنَّهُ جعلَ علَّةَ الاتِّصافِ باللُّبِّ تحصيلَ التَّقوى، وأنَّ كونَ الإنسانِ مِنْ أُولي الأَلباب يقتضِي اتِّصافَه بالتَّقوى، فَهِي مِمَّا يَرْغَبُ فِيها أَهْلُ الْعُقُولِ، أي: "مَنْ لمْ يَتَّقِهِ مِنْ الأَلبَّاءِ، فكأَنَّهُ لا لُبَّ لَهُ"[2]، وقال ابنُ عرفة: "حَثَّهم على التَّقوى، ثمَّ أَمرَهم بأنْ يكونَ المقصودُ بذلكَ هو اللّه تعالى، فَيتبرَّؤُوا مِنْ كُلِّ شيءٍ سواهُ، وَهُوَ مُقتضَى العقلِ المُعَرَّى عَنْ شوائِبِ الهُوى، فلِذلكَ خُصَّ بهذا الخطابِ أُولو الألبابِ"[3].

وجاء فعلُ الأمرِ متصلًّا بضمير ياء المتكلِّم العائد إلى اللّه تعالى - كما في قراءة أبي عمرو وأبي جعفر ويعقوبَ[4]؛ لمناسبة النّداء الذي يدلُّ على طلب إقبال المنادى وحضوره أمامَ المنادي، فيكون ذلكَ أَدْعَى لِلامْتِثَال والمسارعة في تحصيل التَّقوى، وحذفُهَا في قراءةِ غير المذكورِينَ يُرادُ به التَّخفيفُ، وإلَّا فهي منويَّةٌ في الكلامِ.

(1) الشوكاني، فتح القدير: 1/231.

(2) الزمخشري، الكشاف: 1/244.

(3) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/208.

(4) البنَّاء الدّمياطي، إتحاف فضلاء البشر، ص: 154.

﴿لَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَن تَبۡتَغُواْ فَضۡلٗا مِّن رَّبِّكُمۡۚ فَإِذَآ أَفَضۡتُم مِّنۡ عَرَفَٰتٖ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ عِندَ ٱلۡمَشۡعَرِ ٱلۡحَرَامِۖ وَٱذۡكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمۡ وَإِن كُنتُم مِّن قَبۡلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ ١٩٨﴾ [البقرة: 198]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لمّا نَهَى عَنْ أَعمالٍ في الحَجِّ تُنافي المَقصدَ منْهُ، نَقَلَ الكلامَ إلى إباحَةِ ما كانوا يتحرَّجُونَ منْهُ في الحَجِّ، وهوَ التِّجارةُ، فإنَّها مُفضيَةٌ في الأَغلبِ إلى النِّزاعِ، وَمِنَ المُمكنِ أَنْ تُقاسَ التِّجارةُ على سائِرِ المُباحاتِ مِنَ الطِّيبِ وَالمُباشرةِ وَالاصطيادِ في كونِها محظورةً بالإحرام. فبيَّنَ أنَّها لا تُنافي المقصَدَ الشَّرعيَّ، إبطالًا لِمَا كانَ عليهِ المُشركونَ، إذْ كانوا يرَونَ التِّجارةَ لِلْمُحْرِمِ بالحَجِّ حَرامًا[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿جُنَاحٌ﴾: تدلُّ مادة جنحَ على المَيْلِ، وأصلها من جناحِ الطائر، وَيُقَالُ: جَنَحَ إِلَى كَذَا، أَيْ مَالَ إِلَيْهِ، وَسُمِّيَ الإثمُ المائِلُ بالإنسانِ عن الحقِّ جُنَاحًا، ثُمَّ سُمِّيَ كلُّ إثمٍ جُنَاحًا. و(لَا جُنَاح) بمعنى: لَا إِثْم وَلَا تضييق[2].

2) ﴿فَضْلًا﴾: أصلُ الفَضْلِ يدلُّ على الزِّيادةِ في الشَّيءِ عَنِ الحاجَةِ، حِسّيَّةً أو مَعنويَّةً، ، ويأتي الفَضلُ بمعنَى المالِ الزائِدِ وما يُكتسَبُ مِنَ التِّجارةِ وَغيرِها، وَيُرادُ بهِ هنا: ما يُكتسَبُ بهِ الرِّزقُ في التِّجارةِ وَنحوِها[3].

3) ﴿أَفَضْتُم﴾: أَصلُ الفَيضِ يدلُّ على جَرَيانِ الشَّيءِ بسهولة، وَمنهُ فاضَ الماءُ إذا سالَ مُنْصَبًّا. والإفاضةُ: الزَّحفُ والدَّفعُ في السَّيرِ بكثرةٍ، وَلا يكونُ إلّا عنْ تفرُّقٍ كثيرٍ بعدَ جمعٍ، وَأَصلُه أَفاضَ نفسَهُ أو راحلتَهُ، فحذفوا المفعولَ؛ لِوضوحِهِ. ومعنَى أَفَضْتُمْ: دَفعتُمْ منها بِكَثْرَةٍ وسهولةٍ[4].

(1) النيسابوري، غرائب القرآن، ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/237.
(2) الأزهري، تهذيب اللغة، ابن فارس، مقاييس اللغة، الراغب، المفردات: (جنح).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، جبل، المعجم الاشتقاقي (فضل)
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة، الرّاغب، المفردات، الزّبيديّ، تاج العروس (فيض).

4) ﴿عَرَفَٰتٍ﴾: أصلُ الكلمةِ (عَرَفَ)، وَيدلُّ معنى الكلمةِ على تَمَيُّزٍ أَعلى الشَّيءِ أَو ظاهرِهِ بِملمَحٍ يدلُّ عليه أَو على أَمرٍ فيه، وَعَرَفَات جمعُ عَرَفَةَ، وَلمْ يُستعمَلْ إلّا بصيغةِ الجَمْعِ، وَهوَ اسمٌ لتلكَ البُقعةِ الَّتي يَجبُ الوقوفُ عليها للحَجِّ، وسببُ التّسميةِ مختلفٌ فيه، ولعلّه لتميُّزِهِ بارتفاعِهِ وظهورِهِ، أَو لأَنَّ النَّاسَ في الحَجِّ يَتعارَفونَ فيه[1].

5) ﴿ٱلۡمَشۡعَرِ﴾: أَصلُ الكلمةِ (شعر)، والإشعارُ هو الإعلامُ، ومنه قَوْلُهم: شَعَرتُ بِهِ أي علمتُه، فَلهَذَا سُمِّيتِ الْأَعْلَامُ الَّتِي هِيَ متعبَّداتُ اللّهِ شَعَائِرَ، وَهِي كلُّ مَا كَانَ مِنْ موقفٍ أَو مسعًى أَو ذِبْحٍ، والمشاعرُ جمعُ المَشعَرِ اسمُ مكانٍ هي معالمُ الحَجِّ الظَّاهرةِ لِلحَواسِّ، فَهي مَعلَمٌ لِلعبادةِ، ولايكادون يقولونَهُ بِغيرِ (أَل)، فصارت مثلَ (أَل) التي لِلْغَلَبَةِ. والمَشْعَرُ الحرامُ: هو مُزْدَلِفَةُ[2].

6) ﴿ٱلضَّآلِّينَ﴾: أَصل الكلمةِ (ضَلَّ) بمعنى ضَاعَ، وَتدلُّ على ضياعِ الشَّيءِ وذهابِه في غيرِ حقِّه، والضَّلالُ: العدولُ عن الطَّريقِ المُستقيم، فكأَنَّ الذي يعدلُ عن الطَّريقِ المستقيمِ قدْ ضَاعَ. ويُطلَقُ الضَّلالُ على كُلِّ عُدولٍ عَنِ المنهج، عمدًا كانَ أَو سَهوًا، يَسيرًا كانَ أوكثيرًا، ولِذا صحّ أن يستعمل لفظ الضَّلَالِ ممّن يكون منه خطأ ما أَو غفلةٌ أَو نسيانٌ[3].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

لا إثمَ عليكُمْ وَلا حَرَجَ أَنْ تَتَكَسَّبُواْ وَتَطلبُوا الرِّزقَ الحَلالَ، بِالتِّجارةِ وَغيرِها، في الحَجِّ، فإذا دَفعتُمْ - بعدَ غُروبِ الشَّمسِ من عرفاتٍ، وَهيَ المكانُ الذي يَقِفُ فيهِ الحُجَّاجُ يومَ التَّاسِعِ مِنْ ذي الحِجَّةِ، مُتوجِّهينَ إلى مُزْدَلِفَةَ، ليلةَ العاشِرِ مِنْ ذي الحِجَّةِ، فَاذكروا اللّهَ بِالتَّسبيحِ وَالتَّلبيةِ وَالدُّعاءِ وَالتَّهليلِ عندَ المَشْعَرِ الحَرامِ (المزدلفة)، وَاذكروا اللّهَ شُكْرًا لَهُ سُبحانَهُ وَتعالى؛ لِهدايتِهِ لَكُمْ، وَلقدْ كُنتمْ مِنْ قبلِ ذلكَ في ضَلالٍ لا تَعرفونَ معهُ الحَقَّ، وَمِنَ الغَافلينَ عنْ شريعةِ اللّهِ.

(1) الأزهري، تهذيب اللغة، ابن منظور، لسان العرب، جبل، المعجم الاشتقاقي (عرف).
(2) الأزهري، تهذيب اللغة، ابن منظور، لسان العرب (شعر).
(3) ابن فارس: مقاييس اللّغة، الراغب، المفردات (ضلل)

الإيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

دِلَالَةُ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ﴾:

لمّا كانَ نَفيُ الإثْمِ عنْ فاعلِ شَيءٍ يُفهَمُ منهُ أَنَّ ذَلِكَ الْفِعْلَ كانَ مَظِنَّةً لِأَنْ يَكُونَ مَمْنُوعًا؛ دلَّ على أنَّ التَّصَدِّيَ لِلْإِخْبَارِ بِنَفْيِ الْإِثْمِ يفيدُ الإباحَة مع أَفْضَلِيَّة تَرْكِ التّجارةِ في أَيَّامِ الْحَجِّ[1]. ولمّا كانَ نَفيُ الإثمِ مُتَوجِّهًا إلى طَلَبِ التِّجارةِ على سبيلِ المبالغةِ في بذلِ الجُهدِ؛ أفادَ أنَّ نَفيَ الإثْمِ المُستلزمِ لأفضليَّةِ التَّركِ متوجِّهٌ إلى قيدِ المبالغةِ في الطَلَبِ، وليسَ إلى أَصلِ فعلِ التِّجارةِ؛ لِأَنَّ النَّفيَ إذا دخلَ على كلامٍ فيهِ قيدٌ تَوجَّهَ إلى القيدِ خاصَّةً، وأَفادَ ثبوتَ أَصلِ الفعلِ، على ما هوَ الأصلُ فيهِ، فَتكونُ التِّجارةُ مِنْ غيرِ مبالغةٍ في الانشغالِ عنْ ذكرِ اللّهِ مباحةً مِنْ غيرِ إثمٍ وَلاعتابٍ. وذهبَ بعضُ المفسِّرينَ إلى أَنَّهُ إذا اقترنَ بابْتِغَاءِ الرِّزْقِ مُلَاحَظَةً أَنَّهُ فَضْلٌ مِنَ اللّهِ تَعَالَى كانَ نَوْعًا مِنْ أَنْوَاعِ الْعِبَادَةِ؛ لِمَا يُشعِرُ بِهِ لَفظُ ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾[2].

التِّجَارَةُ فِي سَفَرِ الْحَجِّ مِنْ غَيْرِ مُبَالَغَةٍ فِي الِانْشِغَالِ عَنْ ذِكْرِ اللهِ مُبَاحَةٌ

نُكْتَةُ النَّفْيِ بِـ(لَيْسَ) فِي قَوْلِهِ: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ﴾:

نُفِيَ الجُناحُ بـ(ليس) في قوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُواْ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾ دونَ (ما) أو (لا)؛ لِأَنَّ (ليس) تُستعمَلُ لِمَا يُتوهَّمُ وقوعُهُ، وَالإثمُ كانَ مُتَوهَّمًا وقوعُهُ في سَفَرِ الحَجِّ وقَصْدِ التِّجارةِ مَعَهُ[3]، وَلهذا كانَ نَفْيُ الجُنَاحِ عنِ ابتغاءِ التِّجارةِ في الحَجِّ احتراسًا مِمَّا عَسَاهُ يَسْبِقُ إِلَى الْفَهْمِ مِنْ حُرمَةِ التِّجارةِ وَالكَسبِ في الحَجِّ بعدَ الأَمرِ بِالتَّزَوُّدِ مِنَ التَّقْوَى، فَأَزَالَ هَذَا الْوَهْمَ مِنَ الْفَهْمِ، وَعَلَّمَنَا أَنَّ الْكَسْبَ فِي أَيَّامِ الْحَجِّ مَعَ مُلَاحَظَةِ أَنَّهُ فَضْلٌ مِنَ اللّهِ لا إثمَ فيهِ وَلا عِتابَ[4].

الْكَسْبُ فِي أَيَّامِ الْحَجِّ فَضْلٌ مِنَ اللهِ تَعَالَى، وَفَضْلُ اللهِ لَا إِثْمَ فِيهِ

(1) القونوي، حاشية القونوي على تفسير البيضاوي: 5/119.
(2) رشيد رضا، تفسير المنار: 2/185، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/62.
(3) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/576.
(4) رشيد رضا، تفسير المنار: 2/185.

سِرُّ تَقْدِيمِ الْخَبَرِ عَلَى الْمُبْتَدَأِ:

أَحْكَامُ الشَّرِيعَةِ عَامَّةٌ لِجَمِيعِ الْمُكَلَّفِينَ

قُدِّمَ خَبَرُ ليسَ - وَهُوَ ﴿عَلَيْكُمْ﴾ - على اسمِها - وهو ﴿جُنَاحٌ﴾ -، وَأَصلُ الكلامِ: (ليسَ جُنَاحٌ عَلَيكُم)، فَقُدِّمَ ﴿عَلَيْكُمْ﴾؛ لِلاهتمامِ والعنايةِ بالحجيجِ الحاضرينَ وقتَ الخِطَابِ؛ لِأَنَّهُم كانوا يتَأَثَّمُون أَنْ يَتَّجِرُوا في موسمِ الحجِّ، فأفادَ تقديمُ الخبرِ الاهتمامَ بِهِمْ رعايةً لِسياقِ المَوقِفِ، وَليسَ المرادُ بالتَّقديمِ اختصاصَهم بهذا الحُكْمِ؛ لِمَا عُلِمَ من كلِّيَّاتِ الشَّريعةِ أَنَّ أحكامهَا تعمُّ المُخاطَبينَ وَغيرهُمْ.

إِيثَارُ التَّعْبِيرِ بِقَوْلِهِ: ﴿جُنَاحٌ﴾ دُونَ (إِثْم):

سَعَةُ رَحْمَةِ اللهِ تَعَالَى بِالْعِبَادِ

جاءَ التَّعبيرُ بـ﴿جُنَاحٌ﴾ في قوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُواْ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾ دونَ أَنْ يَرِدَ النَّظْمُ القرآنيُّ: (وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ إثمٌ) للدِّلالَةِ على عُمومِ المَعنَى؛ إذِ الجُناحُ أعمُّ مِنَ الإثمِ، فَالجُناحُ فيما يَقتضي العِقابَ وَفيما يقتضي العِتابَ وَالزَّجْرَ[1]، بخلافِ الإثمِ؛ فهو خاصٌّ بما يقتضي العقابَ، وفي هذا إشعارٌ بسعةِ رحمةِ اللهِ تعالى؛ حيثُ لَمْ يعاقِبِ التَّاجرَ مِن الحجَّاجِ ولَمْ يُعاتِبْهُ.

وَأَفادَ تَنكيرُ ﴿جُنَاحٌ﴾ في سياقِ النَّفيِ على عمومِ نَفيِ أَيِّ نَوعٍ مِنَ أَنواعِ الإثمِ أَو العِتَابِ - ولو كانَ يسيرًا - في طَلَبِ التِّجارةِ في الحَجِّ.

سَبَبُ حَذْفِ حَرْفِ الْجَرِّ فِي قَوْلِهِ: ﴿أَن تَبْتَغُواْ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾:

رَفْعُ اللهِ تَعَالَى الْحَرَجَ عَنِ ابْتِغَاءِ الْمَكَاسِبِ

أَصلُ الكلامِ: (لَيسَ عليكُمْ جُناحٌ في أَنْ تبتغوا فضلًا مِنْ ربِّكُم)، فحُذِفَ حرفُ الجرِّ (في) الدالِّ على الظَّرفيَّة[2]؛ لإفادةِ نَفيِ الحَرجِ وَالإثمِ عن ابتغاءِ الفضلِ مطلقًا، لَا عن نَوعٍ مِنْ أَنواعِ الكَسْبِ أَو فَردٍ مِنْ أَفرادِهِ.

نُكْتَةُ اخْتِيَارِ لَفْظِ ﴿تَبْتَغُواْ﴾ وَتَخْصِيصِهِ بِالْمَفْعُولِ ﴿فَضْلًا﴾:

لَمَّا كانَ الابتغاءُ هو الاجتهادَ في طَلَبِ الحاجةِ؛ لِدلالةِ صيغةِ

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 1/274.

(2) الرازي، مفاتيح الغيب: 5/322.

الافتعالِ على المبالغةِ[1]؛ أَفادَ ذلكَ نَفيَ الإثمِ عَن بذلِ الجُهدِ فِيما يحتاجُهُ المرءُ في التِّجارةِ في الحَجِّ.

رِعَايَةُ اللهِ تَعَالَى لِعِبَادِهِ وَعِنَايَتُهُ بِهِمْ

وَذكرَ المفعولَ بِهِ معَ مَتعَلَّقِهِ ﴿فَضۡلٗا مِّن رَّبِّكُمۡۚ﴾؛ لِلإشعارِ بأَنَّ المكاسبَ من التّجارةِ فَضْلٌ مِنَ اللّه تعالى؛ لئلَّا يُشْغَلُوا بِالمالِ والكسبِ عن ذِكرِاللّه الذي أنعمَ عليهم، بل الواجبُ أن يَنْظُرُوا في كسبِهِمْ إلى فضلِ ربِّهِمْ عليهم.

ويُقوِّي هذه الدّلالة قوله: ﴿مِّن رَّبِّكُمۡۚ﴾؛ إشعارًا برعايتِهِ وَعنايتِهِ سُبحانَهُ وَتعالى بهم؛ لأنَّ ذلك من مقتضياتِ اسمِه تعالى (الرّبّ).

سِرُّ إِيرَادِ الْمَصْدَرِ الْمُؤَوَّلِ بَدَلًا مِنَ الْمَصْدَرِالصَّرِيحِ:

تَجَدُّدُ نَفْيِ الْحَرَجِ كُلَّمَا تَجَدَّدَتِ التِّجَارَةُ فِي الْحَجِّ

قال اللّه تعالى: ﴿لَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَن تَبۡتَغُواْ فَضۡلٗا مِّن رَّبِّكُمۡۚ﴾ فجيءَ بالمصدر المؤوَّلِ ﴿أَن تَبۡتَغُواْ﴾، دون الصَّريح؛ إذْ لم يأتِ: (ليس عليكم جناح في ابْتغاء)؛ لِلإشارةِ إلى نَفيِ الحَرَجِ في تَكرارِابتغاءِ الفَضلِ وَالتِّجارةِ في الحَجِّ؛ لِمَا يَدلُّ عليهِ الفعلُ المُضارِعُ مِنْ تَجَدُّدِ هذا الابْتغاءِ، ونفي الحرَجِ يتجدَّدُ بتجدُّدِهِ.

دِلَالَةُ تَنْكِيرِ ﴿فَضۡلٗا﴾ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿فَضۡلٗا مِّن رَّبِّكُمۡۚ﴾:

تَعْظِيمُ فَضْلِ اللهِ تَعَالَى عَلَى الْعِبَادِ وَتَفْخِيمُهُ

ورد المفعولُ ﴿فَضۡلٗا﴾ من قوله تعالى: ﴿لَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَن تَبۡتَغُواْ فَضۡلٗا مِّن رَّبِّكُمۡۚ﴾ نكرةً؛ والغرضُ من هذا التَّنكيرِ تعظيمُ هذا الفضلِ وتفخيمُهُ؛ لِينفيَ أَيَّ حَرَجٍ في طَلَبِ التِّجارةِ في الحَجِّ، ثُمَّ زادَ مِنْ تعظيمِهِ وَمِنْ نَفيِ الحَرَجِ عَنْ طلَبِهِ، بِبَيانِ أَنَّ مبتدأَ هذا الفضلِ وَمنشأَهُ هُوَ الرَّبُّ ﷻ.

وفي هذا بيانُ فَضْلِ هذا العطاءِ الّذي مَنَّ بِهِ عَليهِمْ، كَمَا أَشعَرَ الوصفُ ﴿مِّن رَّبِّكُمۡۚ﴾ أَنَّ المرادَ هوَ الكسبُ الحلالُ؛ لِأَنَّ الآيةَ خرجتْ مَخرَجَ الامتنانِ وَالإذنِ وَرفعِ الحَرجِ[2].

(1) القونوي، حاشية القونوي على تفسير البيضاوي: 5/119.
(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/567.

نُكتَةُ تَعْلِيقِ الْفِعْلِ بِأَدَاةِ الشَّرْطِ ﴿فَإِذَآ﴾:

الْحَثُّ عَلَى الْمُبَادَرَةِ إِلَى ذِكْرِ اللهِ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ

قُيِّدَ الفعل بأداة الشَّرط (إذا) دونَ (إنْ) الشَّرطية في قوله تعالى: ﴿فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَٰتٍ﴾؛ لِلْقطعِ بوقوعِ الإفاضةِ مِنْ عرفاتٍ في المستقبلِ، وامتلائِهِ بالحَجيجِ، وَلِهذا اقترنَ بهِ الفعلُ الماضي ﴿أَفَضْتُم﴾؛ لِأَنَّ الفعلَ الماضيَ أَقربُ إلى القطعِ مِنَ المُستقبلِ، وَلَمَّا قطعَ بوقوعِ امتلاءِ عرفاتٍ بالحجيجِ في المستقبلِ، وانصبابِهم منها، أَفادَ وقوعَ الامتثالِ لِطلبِ ذكرِ اللّهِ عندَ المَشعرِ الحَرامِ، وجاءَ بهِ على أُسلوبِ الشَّرطِ؛ لِلتَّنبيهِ على استحقاقِ وقوعِ الجزاءِ، وَهوَ طلَبُ ذكرِ اللّهِ عندَ المَشعرِ الحَرامِ، كُلّما تحقّقَ الشَّرطُ، فدلَّ على استمرارِ الأمرِ في كلِّ حجٍّ.

ودلّتِ الفاءُ الواقعةُ في جَوابِ الشَّرطِ على التَّعقيبِ وَالتَّرتيبِ مِنْ غَيرِ مُهلَةٍ، وذلك مُفيدٌ سُرْعَةَ الْمُبَادَرَةِ إِلَى ذكرِ اللّهِ عندَ المَشعرِ الحَرامِ.

بَلَاغَةُ الِاسْتِعَارَةِ فِي قَوْلِهِ: ﴿أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَٰتٍ﴾:

حَثُّ الْحَجِيجِ عَلَى رِفْقِهِمْ فِي دَفْعِهِمْ عِنْدَ السَّيرِ إِلَى الْمُزْدَلِفَةِ

في قولهِ تعالَى: ﴿أَفَضْتُم﴾ استعارةٌ تَصريحيَّةٌ تَبَعيَّةٌ، ، فَشُبِّهَ امتلاءُ عرفاتٍ بالحجيجِ وَدفعُهم وَتفرُّقُهم بكثرةٍ منهُ إلى مُزدلفةَ بِصَبِّ الماءِ مِنَ الإناءِ بعدَ امتلائِهِ وَتفرُّقِهِ بكثرةٍ؛ حثًّا للحجيجِ على رِفْقِهِمْ في دفعِهم عِنْدَ السَّيرِ إلى مُزدلفَةَ، بأَنْ لا يَطَؤُوا ضَعيفًا، وَلَا يُؤْذُوا مَاشيًا، وَأَنْ يَسيرُوا برفقٍ سَيْرًا جَميلًا، كما يفيضُ الماءُ مِنَ الإناءِ بيُسرٍ وَسُهولةٍ بعدَ امتلائِهِ، فذُكِرَ اسمُ المشبَّهِ بهِ، وَأُريدَ المُشبَّهُ.

وفيهِ إيماءٌ إلى تشبيهِ الحجيجِ بالماءِ في صفائِهِ وَخِفّتِهِ وَسُهولتِهِ، ومِمَّا زادَ الاستعارةَ بلاغةً أَنّهُ جُعِلَ انصبابُ الحجيجِ مِنْ عرفاتٍ إلى المَشعَرِ الحَرامِ مِنْ عُلُوٍّ في انحدارٍ، كَمَا هو واقِعُ حالِ الماءِ الذي يفيضُ مِنَ الإناءِ، وَلَمَّا كانتْ (مِنْ) ابتدائيةً كانَ المعنى: إذا ابتدأتْ إفاضتُكُمْ مِنْ عرفاتٍ.

وأَفادَ ذِكْرُ الإفاضةِ مِنْ عرفاتٍ سَبْقَ الوقوفِ فيها؛ فإِنَّهُ لَا إِفَاضَةَ إِلَّا بَعْدَ الْحُلُولِ بِهَا.

سرُّ التَّعْبِيرِ بـ﴿أَفَضْتُم﴾ دُونَ (دَفَعْتُمْ):

التَّحْذِيرُ مِنَ التَّدَافُعِ عِنْدَ الإِفَاضَةِ

لمّا كانَ الْعَرَبُ في الجاهليةِ يُسَمُّونَ الْخُرُوجَ مِنْ عَرَفَةَ الدَّفْعَ، وَالْخُرُوجَ مِنْ مُزْدَلِفَةَ إِفَاضَةً، ذَكَر اللّٰه تعالى الإفاضةَ دونَ الدفعِ، وكِلَا الْإِطْلَاقَيْنِ مَجَازٌ؛ إذِ معنَى الدَّفْعِ إِبْعَادُ الْجِسْمِ ونقلُه من مكانٍ إلى آخرَ بِقُوَّةٍ.

وَمِنْ بَلَاغَةِ الْقُرْآنِ إِطْلَاقُ الْإِفَاضَةِ عَلَى الخروجِ من عرفَات ومِن مُزْدَلِفَة، لِمَا في لفظِ (أَفَاضَ) مِنْ قُرْبِ الْمُشَابَهَةِ مِنْ حَيْثُ مَعْنَى الْكَثْرَةِ دُونَ الشِّدَّةِ، ومن علوٍّ إلى انحدارٍ في يسرٍ وسهولةٍ، ففي ذِكْرِ الإفاضةِ دونَ الدَّفعِ تَجَنُّبٌ لِتَوَهُّمِ السَّامِعِينَ أَنَّ السَّيْرَ مُشْتَمِلٌ عَلَى دَفْعِ بَعْضِ النَّاسِ بَعْضًا؛ لِأَنَّهُمْ كَانُوا يَجْعَلُونَ في دَفْعِهِمْ ضَوْضَاءَ وَجَلَبَةً وَسُرْعَةَ سَيْرٍ في ازدحامٍ، فَنَهَاهُمُ النَّبِيُّ ﷺ عَنْ ذَلِكَ في حَجَّةِ الْوَدَاعِ[1]، حيث قال عليه الصلاة والسلام: «أَيُّهَا النَّاسُ، السَّكِينَةَ السَّكِينَةَ»[2].

الْإِيجَازُ بِحَذْفِ الْمَفْعُولِ:

ظُهُورُ الْمَعْنَى مُغْنٍ عَنِ التَّصْرِيحِ بِاللَّفْظِ الدَّالِّ عَلَيْهِ

الفعل (أَفَاضَ) من الأفعال المتعدّيَة بنفسِهَا، إذِ الهمزةُ فيه للتَّعديَة، وقد حُذِفَ مَفْعُولُ ﴿أَفَضْتُم﴾ من قولِ اللّٰه تعالى: ﴿فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَٰتٍ﴾، وَالتَّقديرُ: أَفَضتمْ أَنفسَكُمْ أَو أَفَضتمْ رِكابَكُمْ، فتُرِكَ ذكرُ المفعولِ اختصارًا، ولِظهورِ المعنَى بدلالةِ السِّياقِ عليه، ففيهِ إيجازٌ بالحذفِ.

سِرُّ إِيثَارِ لَفْظِ ﴿عَرَفَٰتٍ﴾ جَمْعًا:

التَّوْسِعَةُ عَلَى الْحُجَّاجِ فِي الْوُقُوفِ فِي أَيِّ بُقْعَةٍ مِنْ بِقَاعِ عَرَفَةَ

عَرَفات جَمْعُ عَرَفَةَ، وهو اسمٌ للبقعةِ المعروفةِ، يقال لها: عرفاتٌ، وعرفة، وَتقديرُ الجمعِ: كَأَنَّ كُلَّ قِطْعَةٍ مِنْ تِلْكَ الْأَرْضِ عَرَفَةٌ، فَسُمِّيَ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/238.
(2) رواه مسلم في صحيحه، حديث رقم: (1218).

مَجْمُوعُ تِلْكَ الْقِطَعِ عَرَفَاتٍ[1]، وأُوثِرَ الجمعُ ههنا في قوله تعالى: ﴿فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَٰتٍ﴾؛ لبيانِ التَّوسعةِ على الحجَّاجِ في الوقوفِ في أيِّ بقعةٍ من بُقَعِهَا.

دِلَالَةُ التَّعْرِيفِ بِالْعَلَمِيَّةِ فِي ﴿عَرَفَٰتٍ﴾:

تَعْظِيمُ عَرَفَاتٍ وَتَعْيِينُهُ مَحَلًّا لِلْوُقُوفِ

صُرِّحَ بِعَرَفاتٍ في قول الله تعالى: ﴿فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَٰتٍ﴾، مُوردًا لها بالاسم العَلَم؛ لِأَنَّ المقامَ مقامُ إحضارٍ لهُ في ذهنِ السَّامعِ ابتداءً؛ تعيينًا له وَتعظيمًا لِلْمَوقفِ.

وفي التَّصريحِ بهِ أيضًا: ردٌّ عَلَى قُرَيْشٍ؛ إِذْ كَانُوا فِي الْجَاهِلِيَّةِ يَقِفُونَ فِي (جَمْعٍ) وَهُوَ الْمُزْدَلِفَةُ، ويُسمُّونَ أنفُسَهُم: الحُمْسَ[2]، فَكانوا يَرَوْنَ أَنَّ الْوُقُوفَ لَا يَكُونُ خَارِجَ الْحَرَمِ، وَلَمَّا كَانَتْ مُزْدَلِفَةُ مِنَ الْحَرَمِ كَانُوا يَقِفُونَ بِهَا وَلَا يَرْضَوْنَ بِالْوُقُوفِ بِعَرَفَاتٍ؛ لِأَنَّ عَرَفَاتٍ مِنَ الْحِلِّ[3].

نُكْتَةُ تَكْرَارِ الْأَمْرِ بِذِكْرِ اللهِ تَعَالَى:

تَعْظِيمُ شَأْنِ ذِكْرِ اللهِ تَعَالَى فِي الْحَجِّ؛ لِاقْتِرَانِهِ بِعَظَمَةِ الْمَكَانِ وَالزَّمَانِ وَالْحَالِ

كرّرَ اللهُ تعالى الأمرَ بذكرِهِ سبحانه فقالَ: ﴿فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ﴾، ثُمَّ قال: ﴿وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ﴾، وَالظَّاهِرُ أَنَّ التَّكرارَ يُرادُ به التَّأسيسُ لا التَّأكيدُ؛ لذِكْرِ واوِ العطفِ بينَهما، وهي تَقْتَضِي المغايرةَ بينَ المعطوفِ والمعطوفِ عليهِ، فقدَ أمرَ اللهُ تعالى بالذِّكرِ أَوَّلًا، فقالَ: ﴿فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ﴾، فطلبَ أَنْ نذكرَهُ باللِّسانِ وَالقَلْبِ، ثمَّ قالَ: ﴿وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ﴾؛ لِبيانِ كيفيَّةِ الذِّكرِ.

وَيحتملُ أَنْ يكونَ الأَوَّلُ طلبَ ذكرِ الحَجِّ، والثَّاني: طلبَ الذِكْرِ المُطْلَقِ، فَيَكُونُ هَذَا أَمْرًا بِالذِّكْرِ عَلَى الْعُمُومِ بَعْدَ الْأَمْرِ بِذِكْرٍ خَاصٍّ،

(1) الرازي، مفاتيح الغيب: 5/324.

(2) الحُمْس: جمع أحمس؛ وهو الشديد، سميت به قريش لتشدُّدها فيما كانت عليه من عادَاتٍ دينيَّةٍ في الجاهليَّة.
يُنظر: ابن دريد، جمهرة اللُّغة: (حمس)، والحميَريّ، شمس العلوم: (حمس).

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/239.

فتكون الجملةُ الثَّانيةُ بمنزلةِ التَّذييلِ[1]، وفي هذا: تعظيمٌ لشأنِ الذِّكرِ في الحجِّ؛ حيث ذُكر مرَّتين؛ إحداهما على سبيل الانفرادِ، والأخرى على سبيل الاندراجِ في عموم الذِّكرِ، وفيه تعظيمٌ له من وجهٍ آخرَ؛ حيثُ قُدِّمَ الذِّكْرُ في الحجِّ على مطلق الذِّكرِ، وفي التَّقديم إيماءٌ إلى العناية والاهتمام.

وذهبَ بعضُ المُفسِّرينَ إلى أنَّ تَكرارَ الأمرِ بالذِّكرِ في الآيةِ عَلَى سَبِيلِ التَّوْكِيدِ وَالْمُبَالَغَةِ فِي الْأَمْرِ بِالذِّكْرِ؛ لِأَنَّ الذِّكْرَ مِنْ أَفْضَلِ الْعِبَادَاتِ[2].

سِرُّ الْعُدُولِ عَنِ التَّعْبِيرِ بِـ(فِي) إلى (عند) في ﴿عِندَ ٱلۡمَشۡعَرِ ٱلۡحَرَامِۖ﴾:

تَوْسِعَةُ اللهِ تَعَالَى عَلَى الْعِبَادِ فِي مَحَلِّ الْوُقُوفِ

جاء في قوله تعالى: ﴿عِندَ ٱلۡمَشۡعَرِ ٱلۡحَرَامِۖ﴾ ذكرُ المكانِ معرَّفًا باللَّام؛ للدّلالة على تَعَيُّنِه، ولو عُبِّر معه بحرف الجرِّ (في) الدالِّ على الظَّرفيَّةِ؛ لأفادَ ذلك وجوبَ الوقوفِ في المشعَرِ الحرامِ حصرًا، إلَّا أنَّه عُدِلَ عنه إلى التَّعبير بالظَّرف ﴿عِندَ﴾، فكان ذلك مؤذِنًا بأنَّ مزدلفةَ كلَّها موقفٌ - غيرَ بَطْنِ مُحَسِّرٍ؛ لورود السُّنَّة بذلك -، ووجهُ ذلك: أنَّ العِنديَّةَ تدلُّ على المُقاربَةِ، فمعنى ﴿عِندَ ٱلۡمَشۡعَرِ ٱلۡحَرَامِۖ﴾ أي: مِمَّا يَلي المَشعرَ الحَرامَ قريبًا مِنْهُ، وَإِنَّما خُصَّ القُربُ بِهِ؛ إظهارًا لِفَضلِهِ[3]، وَيُفهِمُ ذلك صحَّةَ الوقوفِ في المَشعَرِ الحَرامِ بِطريقِ الأَولى[4].

نُكتةُ وَصْفِ الْمَشْعَرِ بِقَوْلِهِ ﴿ٱلۡحَرَامِۖ﴾:

إِظْهَارُ شَرَفِ الْمُزْدَلِفَةِ

لمّا كانَ المَشعَرُ في مقامِ العَلَمِ؛ إذْ لا يَكَادُونَ يَقُولُونَهُ بِغَيْرِ اللَّامِ[5]، والمقامُ مقامُ إحضارٍ له في ذهنِ السَّامعِ لِتَعيينِهِ

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/577، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/241.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 2/298.
(3) الزمخشري، الكشاف: 1/246.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 3/150، والقونوي، حاشية القونوي على تفسير البيضاوي: 5/129.
(5) ابن منظور، لسان العرب (شعر).

وَلِتعظيمِهِ؛ وُصِفَ الْمَشْعَرُ بقوله: ﴿ٱلْحَرَامِ﴾، فجاءتِ الصِّفَةُ لِلتَّوضيحِ وَالبيانِ، وَللنّصِّ على حُرمتِهِ إظهارًا لِشَرَفِهِ، لا أَنَّهُ موقِفٌ فقط؛ وَلِأَنَّهُ مِنْ أَرْضِ الْحَرَمِ، بِخِلَافِ عَرَفَاتٍ فإنَّهَا في موضِعِ الحلِّ[1].

دِلَالَةُ الْكَافِ فِي قَوْلِهِ: ﴿كَمَا هَدَىٰكُمْ﴾ بَيْنَ التَّشْبِيهِ وَالتَّعْلِيلِ:

تَرَدُّدُ الْحَرْفِ بَيْنَ مَعَانٍ مُتَعَدِّدَةٍ إِثْرَاءٌ لِلنَّصِّ الْقُرْآنِيِّ وَتَكْثِيرٌ لِدِلَالَاتِهِ

يَحْتَمِلُ أن تكون الكافُ لِلتَّشبيهِ[2]؛ والمرادُ بيانُ طريقةَ الذِّكرِ بتشبيهِهِ بِالهدايةِ إلى الإسلام لا المقيَّدةِ بالهدايةِ إلى المناسِكِ، فهُوَ مِنْ تشبيهِ مضمونِ جُملةِ ﴿وَٱذْكُرُوهُ﴾ بمضمونِ جملةِ ﴿كَمَا هَدَىٰكُمْ﴾، وَالتَّقديرُ: وَاذْكروهُ كَهدايَتِهِ لَكُمْ، فتكونُ (ما) مصدريَّةً، ولَو كانتْ كافَّةً فَلا ينتفي التَّشبيهُ كذلكَ، وفي تَعْيينِ وجهِ الشَّبَهِ مَسْلَكَانِ:

أحدهما: أَنْ يكونَ وجهُ الشَّبَهِ هو فضلَ اللهِ الظَّاهرَ على عبادِهِ المُؤمنينَ، والمَعنى: كَمَا أَنَّ هدايتَهُ لَنا ليستْ في مقابلِ شَيءٍ فعلناهُ، بلْ هيَ فضلٌ ظاهرٌ منه سبحانَهُ، فكذلكَ ينبغي أَنْ يكونَ ما هوَ مسبَّبٌ عنِ الهدايةِ، وَهوَ ذكرُنا له تعالى مِنْ غيرِ نظرٍ إلى مقابلٍ، بلْ نَذكرُهُ وَنُثني عليه؛ لِأَنَّهُ يستحقُّ الذِّكرَ والثَّناءَ لِذاتِهِ[3]؛ تعظيمًا لِموضعِ المَشعرِ الحَرامِ وَبَيانًا لِخَصوصيَّتِهِ، وفيهِ معنى الاستغراقِ في ذكرِ اللهِ في هذا المكانِ الشَّريفِ، فكانَ الأَمرُ بالذِّكرِ أَوَّلًا؛ لِلإشارةِ إلى الذِّكرِ اللِّسانيِّ وَالقلبيِّ، كَما هو المعهودُ مِنْ ذكرِ اللهِ عندَ الإطلاقِ، وجاءَ الثَّاني لِبيانِ طريقةِ الذِّكرِ وَكيفيَّتِها.

ثَانيهما: أَنْ يكونَ وجهُ الشَّبَهِ الحُسنَ في الطَّرفَينِ، وَالتَّقديرُ: اذكروهُ ذِكرًا حَسَنًا، كهدايتِهِ لَكُمْ هدايةً حسنةً[4]، فطلَبَ أَنْ يكونَ الذِّكرُ عَلَى أَحْسَنِ أَحْوَالِهِ مماثلًا لِهِدَايَةِ اللهِ لكم، فإنَّ هِدَايَتَهُ إِيَّاكُمْ أَحْسَنُ مَا أَسْدَى إِلَيْكُمْ مِنَ النِّعَمِ، فَلْيَكُنِ الذِّكْرُ مِنَ الْحُضُورِ

(1) القونوي، حاشية القونوي على تفسير البيضاوي: 5/131، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/240.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 2/298/م رشيد رضا، تفسير المنار: 2/187.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 3/151.
(4) الزمخشري، الكشاف: 1/247، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 1/131.

وَالدَّيْمُومَةِ فِي الْغَايَةِ حَتَّى تُمَاثِلَ إِحْسَانَ الْهِدَايَةِ[1]، فيكونُ التَّشبيهُ على هذا الاحتمالِ لِبيانِ طريقةِ ذكرِ اللّهِ وَالثَّناءِ عليهِ كذلكَ.

وَيَحْتَمِلُ أَنْ تكونَ الكافُ في قولِهِ ﴿وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ﴾ على معنى التَّعليلِ، كما ذهبَ إليهِ بعضُ المُفسِّرينَ وَالنُّحاةِ[2]، وَالمعنى: اذكروهُ لِأَنَّهُ هداكُمْ، فيكونُ الأَمرُ بالذِّكرِ أَوَّلًا طَلَبًا للذِّكرِ اللِّسانيِّ وَالقلبيِّ، وَالثَّاني لِلحَثِّ على دوامِ الذِّكرِ والثَّناءِ عليهِ سُبحانَهُ وَتعالى، وَخَصَّ الهدايةَ دونَ غيرِها؛ لِعظَمِها وَاستمرارِها، فَهيَ لا تَنفكُّ عنِ المؤمنِ؛ إيماءً إلى طلبِ الاستمرارِ على ذكرِ اللّهِ، كَما أَنَّ الذِّكرَ سيكونُ في مقامِ شُكرِ النِّعمةِ على الهدايةِ، وَلِذا ذكَّرَهم بحالِ ضَلالِهم؛ لِيُظهِرَ قَدْرَ الْإِنْعَامِ، فَقَالَ: ﴿وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾.

وَلَا تَعارُضَ بينَ المعنَيَيْنِ المذكُورينَ للكَافِ.

دِلَالَةُ (إِنْ) فِي قَوْلِهِ: ﴿وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾:

(إِنْ) في قولِه تعالَى: ﴿وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ مخفَّفَةٌ مِنَ الثَّقيلةِ، كما قرَّرَهُ جُمهورُ المُفسِّرينَ[3]، ويدلُّ على ذلك دخولُ اللَّامِ في الخَبَرِ، وهي مفيدَةٌ تأكيدَ فضلِ اللّهِ تعالى على أهلِ الإيمانِ بهدايتِهِ لَهم إلى الإسلامِ وهدايتِه لَهمْ إلى ذكرِهِ سُبحانَهُ وتعالى، وَالحالُ أَنَّهم كانوا مِنْ قبلِهِ ضالّينَ عَنْ طريقِ الحَقِّ.

جَلَالَةُ فَضْلِ اللهِ تَعَالَى عَلَى الْمُؤْمِنِينَ بِهِدَايَتِهِ لَهُمْ

تَعْيِينُ مَرْجِعِ الضَّمِيرِ فِي قَوْلِهِ: ﴿مِّن قَبْلِهِۦ﴾:

الضَّميرُ في (قَبْلِهِ) مِن قولِ اللّهِ تعالى: ﴿وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ يَحتملُ أَنْ يعودَ على المصدرِ المفهومِ مِنْ قولِهِ: ﴿كَمَا هَدَىٰكُمْ﴾، والمَعنَى: مِنْ قبلِ الهُدَى[4].

الْقُرْآنُ هُوَ الْهِدَايَةُ، وَبِهِ تَكُونُ

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 2/298.
(2) اللباب في علومِ الكتاب: 3/425، والبقاعي، نظم الدرر: 3/151، وابن هشام، مغني اللبيب: 1/234.
(3) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 2/427.
(4) ابن عادل، اللباب: 3/425.

ويَحْتَمِلُ أَنْ يُرَادَ بِهِ الْقُرْآنُ؛ اكْتِفَاءً بِدِلَالَةِ الْمَقَامِ[1]، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ﴾ [القدر: 1]؛ فإنَّه لم يتقدَّم مرجِعُ الضَّميرِ - وهو القرآنُ -؛ استغناءً بدلالةِ المقامِ.

والاحتمالانِ المذكورَانِ متآيِلَانِ؛ إذِ القرآنُ هدايَةٌ، كما قال اللّٰه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَۛ فِيهِۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: 2].

نُكْتَةُ تَقْدِيمِ الْجَارِّ وَالْمَجْرُورِ ﴿مِّن قَبْلِهِۦ﴾ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾.

عِظَمُ شَأْنِ الْقُرْآنِ وَالْهِدَايَةِ، وَجَزِيلُ فَضْلِ اللهِ تَعَالَى بِهِمَا

قُدِّمَ قولُهُ: ﴿مِّن قَبْلِهِۦ﴾ على ﴿لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ من قول اللّٰه تعالى: ﴿وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾، والأصل: (وَإِنْ كنتُمْ لَمِنَ الضَّالّينَ مِنْ قبلِهِ)، وتقديمُ الجارِّ وَالمجرورِ يُرادُ بِهِ التَّخصيصُ، وَالعنايةُ بأَمرِ الهدايةِ وَالقرآنِ، وبيانٌ لفضلِ اللّٰهِ على المؤمنينَ بِهِما.

وفيه نكتةٌ أخرى؛ وهي توافق الفاصلةِ القرآنيَّةِ وفيه من الجمال الصَّوْتِيِّ ما لا يخفَى، ولو أُخِّرَ الجارُّ والمجرورُ لفاتَ هذا المقصد.

سَبَبُ إِيثَارِ حَذْفِ مُتَعَلَّقِ ﴿ٱلضَّآلِّينَ﴾:

حُذف متعلّق الضَّلالِ في قولهِ تعَالى: ﴿وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾؛ لإفادة العموم، لأنَّ حذف المتَعلَّق مؤذِنٌ بذلك، والمرادُ بالعمومِ: عموم الضَّلالِ؛ إذْ من ضلَّ عن الهُدَى والقرآنِ؛ ضلَّ في حياتهِ، وضلَّ في معرفةِ أداءِ المناسك، وضلَّ في عُمومِ شُؤونِهِ.

(1) رشيد رضا، تفسير المنار: 2/187.

﴿ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسْتَغْفِرُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ١٩٩﴾ [البقرة: 199]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لمّا أمرَ اللّهُ بالإفاضةِ مِنْ عَرَفاتٍ، وكانت قريشٌ يقفونَ في الجاهليَّةِ بمزدلفةَ، كما في حديث عائشةَ رضي الله عنها أنّها قالت: «كَانَتْ قُرَيْشٌ وَمَنْ دَانَ دِينَهَا يَقِفُونَ بِالْمُزْدَلِفَةِ، وَكَانُوا يُسَمَّوْنَ الحُمْسَ، وَكَانَ سَائِرُ العَرَبِ يَقِفُونَ بِعَرَفَاتٍ، فَلَمَّا جَاءَ الإِسْلاَمُ أَمَرَ اللّهُ نَبِيَّهُ ﷺ أَنْ يَأْتِيَ عَرَفَاتٍ، ثُمَّ يَقِفَ بِهَا، ثُمَّ يُفِيضَ مِنْهَا" فَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ﴾»[1]، فَجاءتْ هذهِ الآيةُ لِإبطالِ ما كانتْ عليه قريشٌ، فَأَمرَهُمْ أَنْ يَفِيضُوا مَعَ النَّاسِ مِنْ مَكَانٍ وَاحِدٍ[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَٱسْتَغْفِرُواْ﴾: أَصلُ الكلمةِ الْغَفْرُ، وهوَ السَّتْرُ والتَّغطيةُ، وَغفر اللّه ذنوبَه: أَي سَترها وَلم يَفْضَحهُ بهَا على رُؤُوس المَلأ. وكلُّ شَيْء سترتَه فقد غفرتَه، وَمِنْه سُمّيَ الذي يكون تحتَ بيْضة الْحَدِيد على الرَّأْس مِغْفَرًا؛ لأَنَّهُ يَسْتُرُ الرَّأْسَ، و﴿وَٱسْتَغْفِرُواْ ٱللَّهَۚ﴾ بمعنى اطلبوا غفرانه قولًا وفعلًا. ولم يؤمروا بأن يستغفروه بالمقال دون الأفعال كاستغفار الكذابين[3].

المَعْنى الإجْماليُّ:

ثُمَّ ادفعوا مِنْ عَرَفاتٍ لا مِنَ المزدلفةِ، كما كانَ يَصنَعُ النَّاسُ المُقتدُون بإبراهيمَ عليه السلام، مُخالفينَ بذلكَ ما يَصنَعُ مَنْ لا يَقِفُ بها مِنْ أَهلِ الجاهليَّةِ، وَيرَونَ ذلكَ ترفُّعًا على سائِرِ العربِ، فَأُمروا بِأَنْ يساووهُمْ، وَاطلبواْ المَغفرةَ مِنَ اللّهِ على تقصيرِكُمْ في أَداءِ ما شَرَعَ، إِنَّ اللّه غفورٌ لِمَنْ تابَ مِنْ عبادِهِ، رحيمٌ بِهِمْ[4].

(1) البخاري، حديث رقم: (4520).
(2) رشيد رضا، تفسير المنار: 2/187، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/242.
(3) الأزهري، تهذيب اللغة، والسمين، عمدة الحفاظ (غفر).
(4) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 1/131، و، نخبة من العلماء، التفسير الميسر: ص: 31.

الإيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

دِلَالَةُ حَرْفِ الْعَطْفِ (ثُمَّ) فِي قَوْلِهِ: ﴿ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ﴾:

لَا يُعْبَدُ اللهُ تَعَالَى إِلَّا بِمَا شَرَعَهُ

جاءَ حرفُ العطفِ (ثُمَّ)، لِترتيبِ الأَخبارِ على سبيلِ التَّراخي وَللتَّرقي في الخبرِ، فَيكونُ ما بعدَها لهُ أهميَّةٌ وعنايةٌ لمزيدِ معنًى ليسَ في الأوَّلِ.

والإفاضةُ المقصودةُ في قولِه: ﴿ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ﴾ هي الإفاضةُ مِنْ عرفات، في الأظهر[1]، فَجاءَتْ ﴿ثُمَّ﴾ لِبيانِ التَّفاوتِ بينَ الإفاضتَين، فَفي الأَوَّلِ أَمرَ بمُطلَقِ الإفاضةِ مِنْ عَرفات، ثُمَّ ذكرَ هنا طَريقَ الإفاضةِ من عرفات، وكيفَ تكونُ؛ وهيَ الإفاضةُ مِنْ مكانِ إفاضةِ النَّاسِ، ومصاحبَتُهم فيهَا، فَليسَ لِأحدٍ خَصوصيَّةٌ في اختيارِ طريقةِ العبادة[2]، وإنَّما العبادَةُ مبنَاهَا على التَّوقيفِ، فلا يُعبد اللّه تعالى إلَّا بما شَرَعَهُ.

دِلَالَةُ حَرْفِ الْجَرِّ (مِنْ) فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ﴾:

بَيَانُ الشَّرْعِ لِلْأَحْكَامِ بَيَانٌ تَفْصِيلِيٌّ

أفادتْ ﴿مِنْ﴾ هنا بيانَ ابتداءِ مكانِ الإفاضةِ، وَذَكرَ ﴿حَيْثُ﴾ لِتقييدِ موضعِ الإفاضةِ وطريقتِها، وبيّنَهما ذكرُ المضافِ إليه، وهو جملةُ ﴿أَفَاضَ ٱلنَّاسُ﴾، ليدلَّ الكلامُ على أنَّ ابتداءَ موضعِ إفاضتِهمْ هو الموضعُ الذي يُفيضُ منْهُ النَّاسُ، أَي: جميعُ الحَجيجِ، وأنَّ طريقةَ إفاضتِهم هي الاجتماعُ مَعَ الحَجيجِ.

بَلَاغَةُ الِاكْتِفَاءِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَٱسْتَغْفِرُواْ ٱللَّهَ﴾:

مِنْ عَظِيمِ جُودِ اللهِ تَعَالَى وَكَرَمِهِ: إِعْطَاؤُهُ السَّائِلِينَ أَكْثَرَ مِمَّا أَمَّلُوهُ

في قول اللّه تعالى: ﴿وَٱسْتَغْفِرُواْ ٱللَّهَ﴾ اكتفاءٌ، تقديره: واستغفروا اللّه واسترحموهُ، ويدلُّ لذلك تذييلُ الآية باسمي اللّه تعالى: الغفور والرَّحيم؛ فكان اسمُ اللّه تعالى الغفور ملائمًا لقوله قبلُ: ﴿وَٱسْتَغْفِرُواْ﴾، واسمُ اللّه تعالى الرَّحيم ملائمٌ للأمر بالاسترحامِ المحذوفِ اكتفاءً.

(1) ابن جرير، جامع البيان، : 4/190.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/242.

ويَحْتَمِلُ أن لا يكونَ في الآيةِ اكتفاءٌ، بل أُمروا ههنا بخصوص الاستغفارِ، وكان الجزاءُ من الله تعالى أعظمَ ممَّا سألوهُ، فغفر لهم ذنوبهم، وأحلَّ عليهم رحمتَهُ زيادةً في الجودِ والكرمِ.

سَبَبُ فَصْلِ قَوْلِهِ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ عَمَّا قَبْلَهُ:

التَّلَبُّسُ بِالْعِبَادَاتِ الْجَلِيلَةِ غَيْرُ مُغْنٍ عَنِ الِاسْتِغْفَارِ

فُصلَ قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ عمَّا قبلَهُ؛ لما بينَهما من شبه كمال الاتِّصالِ، وهو المسمَّى: الاستئنافَ البيانيَّ؛ وذلك أنَّ قوله سبحانه: ﴿وَٱسْتَغْفِرُواْ ٱللَّهَۚ﴾، يُثير في نفس المتلقِّي للخطاب سؤالًا، وهو: ما سببُ الاستغفارِ ونحنُ متلبِّسُونَ بعبادةٍ شريفةٍ، فجاء الجواب: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ بيانًا لسببِ طلب الاستغفارِ وعلَّتِهِ؛ وهو اتِّصافُ الله تعالى بصفتي المغفرةِ والرَّحمةِ، ومن جملةِ ما يظهَرُ بهِ أثرُهُما: استغفارُ العبادِ ربَّهم تعالى.

دِلَالَةُ التَّأْكِيدِ فِي قَوْلِهِ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾:

حَثُّ الْعِبَادِ عَلَى الِاسْتِغْفَارِ وَالِاسْتِرْحَامِ

أُكِّدَ قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ بـ(إنَّ)؛ فإنَّها تُقَوّي مضمونَ الجُمَلِ الاسميَّةِ، كما أنَّ مجيءَ الجملةِ اسميَّةً يقتضي توكيدًا؛ إذِ هي آكدُ من الجملةِ الفعليَّةِ، فأفادَ مجموعُ الموكِّدَين تقريرَ اتِّصافِ الله تعالى بالمغفرة والرَّحمةِ، وتقويةَ نسبتِهِمَا له؛ حثًّا للعبادِ على لزوم الاستغفار والاسترحام.

إِيثَارُ الْإِظْهَارِ فِي مَوْضِعِ الْإِضْمَارِ:

الإِشْعَارِ بِتَرْبِيَةِ المَهَابَةِ بِذِكْرِ اسْمِ (الله) الجليلِ

ذكرَ الله تعالى اسمَهُ الأحسن ﴿ٱللَّهَ﴾ في قولِهِ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ١٩٩﴾ معَ قُربِ ذكرِ اسمِهِ صريحًا في قولِهِ: ﴿وَٱسْتَغْفِرُواْ ٱللَّهَۚ﴾، وكان مقتضى الظَّاهرِ أن يُقال: (واستَغفروا اللّه إنَّهُ غفورٌ رحيمٌ)، وفي التَّصريح بالاسم الأحسن ﴿ٱللَّهَ﴾ إشعارٌ بتَربيةِ المَهابةِ بذكرِ اسمِهِ الجليلِ، ولا سيَّما مع دِلالَتِهِ على صفاتِ الجلال والجمال والكمال.

وفي مجيءِ الخبرينِ ﴿غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ على صيغةِ المبالغةِ إيماءٌ إلى رجاءِ قبولِ الاستغفارِ.

نُكْتَةُ تَقْدِيمِ اسْمِ اللهِ تَعَالَى (الْغَفُور) عَلَى اسْمِهِ سُبْحَانَهُ (الرَّحِيم):

وفي تقديمِ اسمه الغفور على اسمه الرَّحيم نِكَاتٌ:

الْمَغْفِرَةُ سَبَبٌ فِي الرَّحْمَةِ

أحدها: أنَّه من تقديمِ السَّبَبِ على المسبَّبِ؛ فإنَّ المغفرة سببٌ في الرَّحمةِ، وهو ظاهرُ دِلالة القرآن الكريم، كما قال تعالى: ﴿لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [النمل: 46]، وذهب جماعةٌ من أهل العلم منهم ابنُ عرفة الورْغَمّيُّ إلى أنَّ الرَّحمة سَبَبٌ في المغفرَةِ؛ إذِ الرِّقَّةُ والعطفُ تُوجبانِ عادةً سَتْرَ الزَّلَلِ[1]، والأوَّلُ أظهرُ.

ثانيها: أنَّ ذلك يقتضي تقديمَ الرَّحمةِ بِدلالةِ اللُّزوم - لكونِهَا مسبَّبًا لِلْمغفرة -، وتأخيرَهَا بِدِلَالَةِ الْمُطابقة، فيُفيدُ ذلك الدُّعاءَ بها مرَّتينِ.

التَّخْلِيَةُ قَبْلَ التَّحْلِيَةِ

ثالثها: أنَّ في المغفرةِ زوالَ المرهوبِ، وفي الرَّحمةِ تحصيلَ المطلوبِ؛ فكان تقديمُ المغفرةِ من باب أنَّ التَّخليةَ قبلَ التَّحليةِ.

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/435.

﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَٰسِكَكُمْ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًاۗ فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ﴿٢٠٠﴾ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿٢٠١﴾﴾ [البقرة: 200- 201]

مُنَاسَبَةُ الْآيَتَيْنِ لِمَا قَبْلَهُمَا:

لَمَّا أَمرَهُمْ بالذِّكرِ في المَناسِكِ، أَمرَهُمْ بالذِّكرِ بعدَ قضائِها؛ لِأَنَّ مَنْ فرغَ مِنَ العبادةِ، كانَ بصدَدِ أَنْ يستريحَ فيفترَ عنِ الذِّكرِ إلى غيرِهِ، فبيَّنَ أنَّ الأولى هو الاقتصارُ على ذكرِ اللهِ وتَرْكُ ذكرِ غيرِهِ، ثُمَّ ذَكَرَ لهم كيفيَّةَ الدُّعاءِ، وَأَنَّ النَّاسَ فيهِ فريقانِ: بعضُهم يدعو بما يتعلَّقُ بالدُّنيا، دونَ الآخرةِ، والآخرُ يدعو بخيرِ الدُّنيا والآخرةِ[1]، فجاءَ الكلامُ على ترتيبٍ لطيفٍ، فقدَّمَ ذكرَ العبادةِ، لِكسرِ النَّفسِ وإزالةِ ظُلُمَاتِها، ثمَّ بعدَ العبادةِ بيَّنَ أنْ لا بُدَّ مِنَ الاشتغالِ بذكرِ اللهِ تعالى، لِتنويرِ القلبِ، وتَجلِّي نورِ جلالِهِ، ثُمَّ بعدَ ذلك ذكرَالدُّعاء، فإنَّ الدُّعاءَ إنَّما يكمُلُ إذا كانَ مسبوقًا بالذِّكرِ[2].

شَرْحُ الْمُفْرَدَاتِ:

1) ﴿قَضَيْتُم﴾: يدلُّ معنى (قضى) على إحكامِ الأَمرِ وإتقانِهِ، وإنفاذٍ لجهته، ويختلفُ معنى اللفظِ باختلاف تعلّقه، فإذا عُلِّقَ بفعل النّفس، فالمراد به الإتمام والفراغ، كقوله تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ﴾ [الجمعة: 10]، وإذا عُلِّقَ على فعل الغير فالمراد به الإلزام، كقوله تعالى: ﴿۞وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: 23]، وقد يدلُّ السِّياق على إرادةِ الإعلامِ، كقوله تعالى ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ﴾ [الإسراء: 4] يعني أعلمناهم. ومعنى قوله ﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَٰسِكَكُمْ﴾: إذا فرغتم منها[3].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 3/155.
(2) الرّازي، مفاتيح الغيب: 5/335.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات (قضى).

2) ﴿مَّنَٰسِكَكُمۡ﴾: النُّسك، هو العبادة، والنَّاسك هو العابد، ونسَكتُ الشَّيءَ غَسَلتُهُ بالماءِ وطهَّرتُهُ، والمناسك: مواقف النُّسك وأعمالها، وخُصَّت المناسكُ بأعمال الحجِّ[1].

3) ﴿خَلَٰقٖ﴾: أصلُ الكلمةِ خلَقَ، بمعنى تَقْدِيرِ الشَّيْءِ وتهيئتِه، وَمِنْ ذَلِكَ الْخُلُقُ، وَهُو السَّجِيَّةُ، لِأَنَّ صَاحِبَهُ قَدْ قُدِّرَ عَلَيْهِ. وَفُلَانٌ خَلِيقٌ بِكَذَا، أَيْ هُوَ مِمَّنْ يُقَدَّرُ فِيهِ ذَلِكَ. وَالْخَلَاقُ: الحَظُّ؛ لِأَنَّهُ قَدْ قُدِّرَ لِكُلِّ أَحَدٍ نَصِيبُهُ، وصار الخَلَاقُ مُستعملًا في الحظِّ والنَّصِيب مِنَ الْخَيْرِ وَالصَّلَاحِ[2].

4) ﴿ءَاتِنَا﴾: الإيتاءُ بمعنى الإعطاء، ويقال في الخير وفي الشَّرِّ وفي الأعيان والأعراض، وخُصَّ دفعُ الصَّدقة في القرآن بالإيتاء[3].

5) ﴿حَسَنَةٗ﴾: الحُسنُ ضدُّ القبح، وحسَّنتُ الشَّيءَ: زيَّنتُهُ، والمَحَاسِنُ في الْأَعْمَالِ ضِدُّ المساوِئ، والحُسْنُ كلُّ مُبهجٍ مرغوبٍ فيه، والحَسَنَةُ يُعبَّر بها عن كلِّ ما يَسُرُّ مِنْ نعمةٍ تَنالُ الإنسانَ في نفسِه وَبدنِه وأَحوالِه، والسِّياقُ يحددُ المرادَ[4]، والصّحيحُ أَنَّ الْمُرَادَ بِالْحَسَنَتَيْنِ نِعَمُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ[5].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

فإذا أَدَّيتُمْ عباداتِكُمْ، وَفرغتُمْ مِنْ مَنَاسِكِ حَجِّكُمْ، فَلَا تَنْقَطِعُوا عَنْ أَنْ تَذْكُرُوا اللَّهَ بِتَعْظِيمِهِ وَحَمْدِهِ، وأَكثروا مِنَ الثَّناءِ عليه، مثلَ ذكرِكُمْ آباءَكمْ وَافتخارَكم بهمْ، وأَعظمَ مِنْ ذلكَ، فَمِنَ النَّاسِ فريقٌ استولى عليه حُبُّ الدُّنيا وشهواتُها ومُتَعُها، فَأَصبحَ لا يُفكِّرُ إلّا فيها، وَلا يهتمُّ إلّا بها، يجعلُ همَّهُ الدُّنيا فقطْ، فيدعو قائلًا: ربَّنا آتِنا في الدُّنيا نعمةً مِنَ الصِّحَةِ أَو المالِ أَو الولدِ، أَوغيرِ ذلك، وَليسَ لهم نصيبٌ مِمَّا أَعدَّهُ اللّهُ لعبادِهِ المؤمنينَ في الآخرةِ، وذلكَ لِرغبتِهم في الدُّنيا، وإعراضِهمْ عنِ الآخرةِ، فَإِنَّكُمْ إِنْ سَأَلْتُمُوهُ أَعْطَاكُمْ نَصِيبًا مِمَّا سَأَلْتُمْ فِي الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ، واللّهُ سريعُ الحسابِ يومَ القيامةِ[6].

(1) الجوهري، الصحاح، والرّاغب، المفردات (نسك).
(2) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس مقاييس اللغة، وجبل، المعجم الاشتقاقي، (خَلَق).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات (أتى).
(4) الأزهري، تهذيب اللغة، والراغب، المفردات (حسن).
(5) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 2/432.
(6) نخبة من العلماء، التفسير الميسر: ص: 31.

الإيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

دِلَالَةُ أَدَاةِ الشَّرْطِ (إِذَا) فِي قَوْلِهِ: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَٰسِكَكُمْ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ﴾:

الـتَّرْغِـيـبُ فِي ذِكْرِ اللهِ تَعَالَى وَالْحَثُّ عَلَيْهِ

(إِذَا) في قول الله تعالى ﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَٰسِكَكُمْ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ﴾ دالَّةٌ على القطعِ بوقوعِ الشَّرطِ، على ما هو الأصلُ فيها؛ وهو مناسبٌ لمقامِ بيانِ أحكام الحجِّ وإيضاحِهَا، فأفادتْ (إذا) أنَّ إتمامَ المَناسكِ أَمرٌ مقطوعٌ بهِ، ولمَّا كان كذلك؛ كانَ وقوعُ الجزاءِ في مقامِ الأَمرِ المقطوعِ به كذلكَ؛ لِتعلُّقِ الجزاءِ بالشَّرطِ احتمالًا وَقطعًا، فكأَنَّهُ جعلَ الامتثالَ للأمرِ بذكرِاللهِ في مقامِ الواقعِ المقطوعِ بهِ؛ ترغيبًا فيهِ، وحثًّا عليه، وإبرازًا لأَهميَّتِهِ والعنايةِ بِهِ.

سِرُّ إِيثَارِ التَّعْبِيرِ بـ﴿قَضَيْتُم﴾:

فِـعْـلُ الْـقَـضَـاءِ مُخْتَصٌّ فِي بَابِ الْـعِـبَـادَاتِ بِمَا يَفْرُغُ مِنْهُ النَّاسُ فِي وَقْتٍ وَاحِدٍ

لمّا كانتْ (إذا) تُفيدُ القطعَ بوقوعِ الشَّرطِ ناسبهُ اقترانُ الفعلِ الماضي بها؛ لِكونِ الماضي أقربَ إلى القطعِ مِنَ المستقبلِ غالبًا.

وَعُبِّرَ بـ﴿قَضَيْتُم﴾ دونَ (أَنْهيتُمْ) أَوْ (أَكملتُمْ)، مَعَ أنَّ (قَضَى) هنَا بِمعنى الفراغِ والانتهاءِ مِنَ الشَّيءِ؛ لِأنَّ لفظَ (قَضَى) إذا اسْتُعملَ معَ العباداتِ؛ خُصَّ بِمَا يَقضِي النَّاسُ فيهِ عملَهُمْ في حينٍ واحدٍ، كقولِه تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [الجمعة: 10]؛ إذ صلاةُ الجمعةِ تُقْضَى في وقتٍ واحدٍ؛ لِوجوبِها في جماعةٍ وعدمِ صحَّتِهَا من المنفردِ، وَلمَّا كانَ الحجيجُ يقضونَ مناسِكَهُمْ في وقتٍ واحدٍ، وما قبلُ وما بعدُ فهوَ على الافتراقِ، فهذا في طوافٍ، وذاك في رميٍ، وغيرِ ذلك؛ عُبِّرَ بـ: ﴿قَضَيْتُم﴾ دونَ غيرِه[1]؛ دلالةً على هذا المعنى.

دِلَالَةُ التَّعْبِيرِ بِالْمَنَاسِكِ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَٰسِكَكُمْ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ﴾:

الْحَجُّ مِنْ أَعْظَمِ الْأَعْمَالِ الْمُكَفِّرَةِ الذُّنُوبَ

لمّا كان النُّسُكُ دالًّا على طهارةٍ وتنقيةٍ مِنَ الأَدرانِ العالقةِ بأَثنائِهِ، ومنه قولُهم: نَسَكْتُ الشَّيءَ: غسلتُه بالماءِ وطهَّرته[2]؛ أُطلقَ

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 1/276.
(2) الجوهري، الصحاح: (نسك).

على الحَجِّ، لِمَا في الحَجِّ مِنْ تطهيرِ الذُّنوبِ وَغَسلِها، لِشَرَفِ الفعلِ والمكانِ والزّمانِ، فعُبِّرَ بـ﴿مَّنَٰسِكَكُمۡ﴾ دُون (عبادتكم) مثلًا؛ إيماءً إلى تنقيةِ الذُّنوبِ والطهارةِ مِنْهَا عندَ الفَراغِ مِنَ أَعمالِ الحَجِّ.

دِلَالَةُ الْإِضَافَةِ فِي قَوْلِهِ: ﴿مَّنَٰسِكَكُمۡ﴾:

تَعْظِيمُ مَنَاسِكِ الْحَجِّ وَتَشْرِيفُ الْحُجَّاجِ

إضافةُ (مناسِك) إلى ضميرِ المخاطَبينَ في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَيۡتُم مَّنَٰسِكَكُمۡ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ﴾، تعظيمًا لشأنِ المضافِ إليه وهم المخاطبُونَ؛ حيثُ أضيفَت إليهم هذه العبادة العظيمة الشَّريفةُ.

كَما أنّ الإضافةَ لمّا كانتِ على معنَى الَّلام؛ أَفادَ ذلك تعظيمَ المناسكِ كذلكَ، وتخصيصُ الإضافةِ بمعنَى الَّلام؛ يُرادُ بها الحَثُّ على الاهتمامِ بالمناسكِ والقيامِ بِها على أكملِ وَجهٍ.

دِلَالَةُ الْفَاءِ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ﴾:

الْحَثُّ عَلَى الْمُبَادَرَةِ إِلَى ذِكْرِ اللهِ عِنْدَ الْفَرَاغِ مِنَ الْمَنَاسِكِ

لمّا كانَ الفراغُ مِنَ الحجِّ مَظِنَّةَ الحنينِ إلى الأَهلِ والأولادِ والوطنِ، والانشغالِ بالأسواقِ؛ ذكّرهم بالدُّعَاءِ وَالتَّضَرُّعِ وَكَثْرَةِ الاسْتِغْفَارِ وَالانْقِطَاعِ إِلَى اللهِ تَعَالَى، وأَتى بالفاءِ المفيدةِ التَّعقيبَ لِلدِّلالةِ على أَنَّ ذكرَ اللهِ مرتّبٌ على الفراغِ مِنَ المَناسِكِ مُستتبِعٌ لَها؛ إيذانًا بالمبادرةِ إلى ذكر اللّه تعالى.

غَرَضُ التَّشْبِيهِ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَذِكۡرِكُمۡ ءَابَآءَكُمۡ﴾:

إِبْطَالُ التَّفَاخُرِ فِي الْحَجِّ وَالِاشْتِغَالُ بِذِكْرِ اللهِ تَعَالَى

شُبِّهَ ذكرُ اللهِ بذكرِ آبائِهِمْ في قولِ اللّه تعالى: ﴿فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَذِكۡرِكُمۡ ءَابَآءَكُمۡ﴾، وَوجهُ الشَّبهِ: هو في الكثرَةِ وَالتَّكْرِيرِ وَتَعْمِيرِ أَوْقَاتِ الْفَرَاغِ بِهِ، وَلَيْسَ فِيهِ مَا يُؤْذِنُ بِالْجَمْعِ بَيْنَ ذِكْرِ اللهِ وَذِكْرِ الْآبَاءِ.

وسببُ إيرادِ هذَا التَّشبيهِ: التَّعريضُ بِأَنَّهُمْ يشتَغِلُون في تلك الْأَوْقَاتِ الفَاضِلَةِ بِذِكْرٍ لَا يَنْفَعُ، وَأَنَّ الْأَجْدَرَ بِهِمْ أَنْ يُعَوِّضُوهُ بِذِكْرِ اللّهِ تعالى، فكانَ هَذَا تَعْرِيضًا بِإِبْطَالِ ذِكْرِ الْآبَاءِ بِالتَّفَاخُرِ[1].

(1) ابن عاشور، التحرير والتَّنوير: 2/245.

دِلَالَةُ (أَوْ) فِي قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَذِكۡرِكُمۡ ءَابَآءَكُمۡ أَوۡ أَشَدَّ ذِكۡرٗاۗ﴾:

﴿أَوۡ﴾ في قول الله سبحانه: ﴿فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَذِكۡرِكُمۡ ءَابَآءَكُمۡ أَوۡ أَشَدَّ ذِكۡرٗاۗ﴾ تحتملُ ثلاثةَ معانٍ:

ذِكْرُ اللهِ تَعَالَى أَحْرَى مِنْ أَيِّ ذِكْرٍ

أوَّلهَا: أَنْ تكونَ على معنَى التَّرقي وَالتَّدَرُّجِ إِلَى أَعْلَى، والمعنى: إذا كانَ الأبُ يُذكرُ لِأَنَّهُ سببٌ ما لِوجودِكُمْ، فالباري ﷻ أَولى بِأَنْ يذكَرَ، فَمقتضَى الكلام على إيجابِ أَنْ يكونَ ذكرُ اللهِ تعالى أَشَدَّ؛ لِأَنَّ نعمةَ اللهِ أَعظمُ مِنْ نعمةِ الأبِ، وشكرَ المُنعِم بقدرِ عَظَمَةِ نعمتِه، فَصارَ ذلكَ مُنَبِّهًا أَنَّ ذكرَ اللهِ أَحرى وأَوجبُ[1].

الِانْقِطَاعُ عِنْدَ قَضَاءِ الْمَنَاسِكِ عَنْ أَيِّ ذِكْرٍ سِوَى ذِكْرِ اللهِ تَعَالَى

ثَانيها: أَنْ تكونَ للإضرابِ الإبطاليِّ، فَشُبِّهَ ذِكرَ اللهِ أَوَّلًا بِذِكْرِ آبَائِهِمْ تَعْرِيضًا بِأَنَّهُمْ يشتغلون في تلكَ المَنَاسِكِ بِذِكْرٍ لَا يَنْفَعُ، وَأَنَّ الْأَجْدَرَ بِهِمْ أَنْ يُعَوِّضُوهُ بِذِكْرِ اللهِ؛ إِذْ لَوْلَا اللهُ لَمَا كانَ لآبائِهم مفاخرُ أصلًا، وَعَلَيْهِ خُرِّجَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَرۡسَلۡنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلۡفٍ أَوۡ يَزِيدُونَ ١٤٧﴾ [الصافات: 147]، وَعَلَى هَذَا فَالْمُرَادُ مِنَ التَّشْبِيهِ أَوَّلًا: إِظْهَارُ أَنَّ اللهَ تعالَى حَقِيقٌ بِالذِّكْرِ هُنَالِكَ مِثْلَ آبَائِهِمْ، ثُمَّ بَيَّنَ إبطالَ المُفاخرةِ بذكرِ الآباءِ، وَنبَّهَ إلى أَنْ يكونَ ذكرُ اللهِ هوَ الأحقَّ وأَنْ يكونَ أشدَّ، وأفادَ ذلك أَنَّهُ يَجِبُ عَلَى الْعَبْدِ أَنْ يَكُونَ دَائِمَ الذِّكْرِ لِرَبِّهِ، دَائِمَ التَّعْظِيمِ لَهُ، دَائِمَ الرُّجُوعِ إِلَيْهِ فِي طَلَبِ مُهِمَّاتِهِ، دَائِمَ الِانْقِطَاعِ عَمَّنْ سِوَاهُ[2].

أَصْنَافُ الْحُجَّاجِ فِي ذِكْرِ اللهِ تَعَالَى

ثالثُهَا: أَنْ تكونَ لِلتَّخييرِ؛ لِلإشارةِ إلى صنفينِ مِنَ المؤمنينَ الذينَ يذكرونَ اللهَ: فَصنفٌ كثيرُالانشغالِ بالتِّجارةِ وغيرِها، كَما أَشارَ إليهِ عندَ نفيِ الجُناحِ عنهم في ابتغاءِ فضلِ اللهِ تعالَى، فهوَ مشغولُ البالِ بالمالِ أَوِ الأهلِ أَوِ الوطنِ أَوْ غيرِها، فَذِكْرُهُ يكونُ كَذكرِهِ آباءَهُ،

(1) الراغب، تفسير الراغب: 1/424، وابن عاشور، التحرير والتّنوير: 2/245.

(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 5/335، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/245.

وصنفٌ خالي البالِ غيرُ مشغولٍ بشيءٍ سِوى بذكرِ اللّهِ تعالى، فذكرُهُ أشدُّ ذكرًا ويزيدُ ما استطاعَ[1].

بَرَاعَةُ الِالْتِفَاتِ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾:

تَشْرِيفُ أَهْلِ الْإِيمَانِ بِالْعُدُولِ عَنْ خِطَابِهِمْ بِمَا يُشْعِرُ بِتَقْصِيرِهِمْ

في قول الله ﷻ: ﴿فَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ أسلوبُ التِفاتٍ، فَلَمْ يقلْ: فَمِنكُمْ وَمِنْكُمْ، فهو التفاتٌ مِنَ الخِطاب إلى الغَيْبَة، وَحكمةُ هذا الالتفات: "أنَّهُم لَمَّا وُجِّهُوا بهذا الذي لا ينبغِي أن يَسْلُكَهُ عاقل؛ وهو الاقتصارُ على الدُّنيا، فأُبْرِزُوا في صورة أنَّهم غيرُ المخاطبين بذِكْرِ اللّهِ؛ بِأَنْ جُعِلُوا في صورة الغائبينَ"[2]، كما أنَّ في الالتفات تنشيطًا للسّامعِ ومحركًا لهُ للإقبالِ على الكلام.

دِلَالَةُ أُسْلُوبِ التَّقْسِيمِ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ﴾ الْآيَةَ:

قِيَامُ الْحُجَّةِ عَلَى الْخَلْقِ بِبَيَانِ طَرِيقِ الْبَاطِلِ وَالْحَقِّ

بَيَّنَ اللّهُ تعالى في هذه الآيةِ حالَ المَأْمُورينَ بالذِّكر بعد الفراغ مِنَ المَنَاسِك، وأنَّهم على حالَيْن: من يَغْلِبُ عليه حُبُّ الدُّنيا، فلا يَدْعُو إلَّا بها، ومَن يدعُو بصلاحِ حالَيهِ في الدُّنيا والآخرة، وهذا تَقْسِيمٌ بديعٌ حاصِرٌ[3]، وفي ترتيبِ الجزاءِ على كلِّ صنفٍ تحريضٌ على تجنُّبِ الصِّنْفِ الأوَّلِ، والاندراجِ في سِلك الصِّنْفِ الآخَرِ.

وفي هَذَا الحَصْرِ بَيَانٌ لطريقِ الخَير والشَّرِّ؛ لِتَقُومَ الحجَّة على مَن سلكَ أيَّ واحدٍ مِنْهُمَا.

دِلَالَةُ الْمَجَازِ الْمُرْسَلِ الْمُرَكَّبِ فِي اسْتِعْمَالِ الْخَبَرِ مُرَادًا بِهِ النَّهْيُ وَالْأَمْرُ:

التَّحْرِيضُ عَلَى الدُّعَاءِ بِصَلَاحِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ

وردَ قولُهُ تعالى: ﴿فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ﴾ وقولُه: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ﴾ بأُسلوبِ الخبرِ، لِلإخبارِ عنْ حالِ الصِّنفينِ المتقدِّمِ ذكرُهُمَا آنفًا، والأوَّلُ: خبرٌ يُرادُ به النَّهيُ عنْ ذلكَ الدُّعاءِ المَخصوصِ بأَمرِ الدُّنيا؛ لِورودِهِ في سياقِ الذَّمِّ، والآخرُ: خبرٌ يُرادُ به الأَمرُ؛ أَي: لِيكنْ دعاؤُكُمْ بِأنْ يُعطيَكُمُ اللّهُ حسنةً في الدُّنيا وحسنةً في الآخرةِ.

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/588.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/309.
(3) أبو حيان، البحر المحيط: 2/309.

والخبرُ مستعملٌ مجازًا مرسلًا مركَّبًا في النَّهي والأمر؛ حَثًّا على الانتظامِ في سِلكِ الصِّنفِ الثَّاني؛ لِورودِهِ في سياقِ التَّمَدُّحِ وَالثَّناءِ[1].

دلالةُ الفاءِ في قولِهِ ﴿فَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾:

تَبَايُنُ أَحْوَالِ النَّاسِ فِي تَلَقِّيهِمْ أَوَامِرَ اللهِ تَعَالَى

لَمَّا تقدَّمَ الأَمرُ بذكرِ اللهِ تعالَى، أَعقبَهُ بالفاءِ التَّفريعيَّةِ؛ تنبيهًا على أَنَّ مِنَ النَّاس مَنْ لا يَمتثلُ هذا الأَمرَ وَلا يَقبلُهُ وَلايذكرُ اللهَ إلّا فيما ينفعُهُ في الدُّنيا، وَمنهمْ مَنْ يمتثلُهُ، ويعملُ بمقتضاه، ويذكرُ اللهَ ويدعوه، لِمَا ينفعُهُ في الدُّنيا وَالآخرةِ[2].

نُكْتَةُ التَّعْبِيرِ بِالْفِعْلِ الْمُضَارِعِ ﴿يَقُولُ﴾:

الدَّاعِي رَاغِبٌ فِيمَا يَقُولُ، حَرِيصٌ عَلَيْهِ

عُبِّرَ بصيغةِ الفعلِ المُضارعِ ﴿يَقُولُ﴾ في قول اللهِ تعالى: ﴿فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ﴾ وفي قوله: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ﴾؛ لِتصويرِ حال الدُّعاءِ مِنَ الصِّنفينِ، وَلبيانِ أَنَّ هذا القولَ متجدِّدٌ يقولونَهُ حالًا بعد حالٍ.

وفيه إيماءٌ إلى أنَّ قولَه: ﴿يَقُولُ﴾؛ ليس المراد به التَّفوُّه بذلكَ فقطْ، بلْ صَرفَ العنايةَ إليه والاهتمامَ به، فهوَ راغبٌ فيما يقولُ، حريصٌ عليه[3].

نُكْتَةُ مَجِيءِ الدُّعَاءِ بِصِيغَةِ الْجَمْعِ فِي قَوْلِهِ: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا﴾:

كَثْرَةِ الرَّاغِبِينَ فِي مَطَالِبِ الدُّنْيَا اقْتِصَارًا عَلَيْهَا

وَرَدَ الدُّعاءُ بصيغةِ الجمعِ في قَوْلِهِ: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا﴾، وَلَوْ جَرَى عَلَى لَفْظِ (مَنْ)، لَكَانَ بالمفردِ: رَبِّ آتِنِي، ولاسيّما أَنَّهُ جاءَ قبلَهُ بصيغة الإفراد في قوله: ﴿يَقُولُ﴾، وكذا ما بعدَهُ وردَ بصيغةِ الإفرادِ، فقالَ: ﴿وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ﴾.

وَإِنَّما رُوعِيَ الْجَمْعُ في الدُّعاءِ؛ إشعارًا - على سبيلِ الذمِّ والتَّوبيخِ - بكثرةِ مَنْ يَرْغَبُ في الاقْتِصَارِ عَلَى مَطَالِبِ الدُّنْيَا وَنَيْلِهَا، وَلَوْ أُفْرِدَ؛ لَتُوُهِّمَ أَنَّ ذلكَ قليلٌ[4].

(1) ابن عطية، المحرّر الوجيز: 1/276، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/209.
(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/588.
(3) الراغب، تفسير الراغب: 1/424.
(4) أبو حيان، البحر المحيط: 2/309.

سَبَبُ اخْتِيَارِ التَّعْبِيرِ بِاسْمِ اللهِ تَعَالَى (الرَّبِّ) فِي قَوْلِهِ: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا﴾:

رُبُوبِيَّةُ اللهِ تَعَالَى الْعَامَّةُ تَقْتَضِي الْإِنْعَامَ وَالرِّزْقَ

في اختيارِ الدَّعاءِ بقولِهِمْ: ﴿رَبَّنَآ﴾ تعجيبٌ مِنْ أَمرِهم وتوبيخٌ لَهم، إذْ يعترفونَ بأنَّ اللّه تعالى هو الذي خَلقَهم وإليه مرجعُهُمْ، وهوالذي يَمدُّهُمْ ويُعطيهمْ، ويتكفّلُ بصلاحِ أُمورِهِمْ، ثُمَّ يُفضِّلونَ الدُّنيا على الآخرةِ.

وفيه إيماءٌ إلى أنَّ عطاءَ اللّه تعالى مندرجٌ تحت ربوبيَّتِهِ لخلقِهِ؛ لأنَّ ربوبية اللّه تعالى لعباده تقتضي تربيتَه لهم بالنِّعم، ورزقَهم، وهدايتَهم لِما فيه مصالحهم التي فيها بقاؤهم في الدُّنيا، وهذه هي الرُّبوبيَّةُ العامَّةُ[1].

نُكْتَةُ حَذْفِ الْمَفْعُولِ الثَّانِي مِنْ قَوْلِهِ: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا﴾:

اخْتِلَافُ رَغَبَاتِ النَّاسِ مِنْ مَطَالِبِ الدُّنْيَا

حُذف المفعول الثَّاني لـ﴿ءَاتِنَا﴾ في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا﴾، وهذا الحذفُ مِنْ دقائقِ الإيجازِ، ومِنْ أبلغ أنواعِ الحذفِ، وذلك أنَّ حذفَهُ دالٌّ على شمولِ كلِّ مَا يُعْنَى بِهِ أَفْرَادُ هَؤُلَاءِ النَّاسِ الْمُتَفَاوِتِي الْهِمَمِ الْمُخْتَلِفِي الْأَهْوَاءِ مِنَ الْحُظُوظِ وَالشَّهَوَاتِ، حُسْنِهَا وَقَبِيحِهَا، خَيْرِهَا وَشَرِّهَا، كَبِيرِهَا وَخَسِيسِهَا، وَمَا لَا يَلِيقُ ذِكْرُهُ مِنْهَا، فَحُذِفَ، فَزَادَ المعنى، وَلو ذُكِرَ المفعولُ؛ لَقلَّ المعنى، والسِّياقُ على معنى العُموم.

وَيَحْتَمِلُ أَنَّ حَذْفَ الْمَفْعُولِ الثَّانِي يُرادُ به تَنْزِيلُ الْفِعْلِ المتعدِّي مَنْزِلَةَ اللَّازِم، فلا يُقدَّرُ له مفعولٌ أصلًا، على معنَى نظرِهِمْ إلى طلَبِ العطاءِ في الدُّنيا، أَيْ: أَعْطِنَا عَطَاءً في الدُّنْيَا[2].

دِلَالَةُ الْوَاوِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ﴾:

تَأْكِيدُ ذَمِّ قَصْرِ الدُّعَاءِ عَلَى الْمَطَالِبِ الدُّنْيَوِيَّةِ

الواوُ في قول اللّه تعالى: ﴿وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ﴾ حاليَّةٌ، وَالمعنَى: مِنَ النّاسِ مَنْ يقولُ ذلكَ، والحالُ أنَّه لا حَظَّ لَهُ في الآخرةِ.

(1) السّعدي، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 39.

(2) رشيد رضا، تفسير المنار: 2/190/م ابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/247.

والمرادُ بالحالِ ههنا: التَّعجُّبُ؛ تأكيدًا لِما قبلَهُ مِنْ ذمٍّ قَصرِ الدُّعاءِ على المطالبِ الدُّنيويَّةِ[1].

دِلَالَةُ تَنْكِيرِ ﴿خَلَٰقٍ﴾ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿وَمَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنۡ خَلَٰقٍ﴾:

تنكيرُ ﴿خَلَٰقٍ﴾ من قول الله تعالى: ﴿وَمَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنۡ خَلَٰقٍ﴾ يُرادُ به: التَّقليلُ، وقد وردت هذه النَّكرةُ في سياقِ النَّفْيِ فتدلُّ على العموم، إلَّا أنَّ دِلالةَ النَّكرةِ في سياق العموم لَمَّا كانت دلالةً ظاهرةً لا نصّيَّةً؛ جيءَ بحرف الجرِّ (مِنْ) لنقلِ الدِّلالَةِ إلى التَّنصيص على العموم، والمعنى: ليسَ لِمَنِ يفضِّلُ الدُّنيا على الآخرةِ أيَّ نَصيبٍ له مِن الخيرِ في الآخرةِ، ولو كانَ قليلًا، والخطابُ للكافرينَ كما تقدَّمَ.

لَيْسَ لِمَنْ يُعْرِضُ عَنِ الْآخِرَةِ أَيُّ نَصِيبٍ مِنَ الْخَيْرِ فِيهَا

نُكْتَةُ التَّقْدِيمِ وَالتَّأْخِيرِ فِي قَوْلِهِ: ﴿مَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنۡ خَلَٰقٍۚ﴾:

في قوله تعالى: ﴿وَمَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنۡ خَلَٰقٍ﴾ تقديمٌ وتأخيرٌ، وأصلُ الكلام: (ما مِنْ خلاقٍ لَهُ في الآخرةِ)، فقُدِّمَ متعلّق المُسندِ؛ وهوَ الجارُّ والمجرورُ (لَهُ) على المسندِ إليهِ ﴿خَلَٰقٍ﴾، وَلَمَّا كانَ الخِطابُ يشملُ جميعَ الكافرينَ كان تقديمُ الجارِّ والمجرورِ لِلعنايةِ بتأكيدِ إعلامِهم بحرمانِهمْ مِنْ أيِّ خيرٍ في الآخرة؛ لتفضيلِهم الدُّنيا عليها.

تَأْكِيدُ خَيْبَةِ الْكَافِرِينَ بِحِرْمَانِهِمْ مِنَ الْخَيْرِ فِي الْآخِرَةِ

وفي التَّقديم: تخصيصُهم بنفي أيِّ نصيبٍ لَهمْ مِنَ الْخَيْرِ في الآخرةِ.

وقُدِّمَ قولُه: ﴿فِي ٱلۡأٓخِرَةِ﴾؛ لِأجلِ التَّذكيرِ بخيبتِهم فيها، وَلِرعايةِ الفاصلةِ، ففي الكلامِ تحذيرٌ وتقريعٌ، والمقصودُ التَّعريضُ بذمِّ حالِ المشركين[2].

سِرُّ تَنْكِيرِ ﴿حَسَنَةً﴾ مِنْ قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةً وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ حَسَنَةً﴾:

لَمّا كانَ مجيءُ النَّكرةِ في سياقِ الدُّعاءِ مفيدًا العمومَ[3]؛ عُبِّرَ

الْحَسَنَةُ تَسْتَغْرِقُ كُلَّ أَنْوَاعِ الْخَيْرِ مِنْ أُمُورِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/209، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/248.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/248.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/248.

بِالحسنةِ مُنكَّرةً؛ لِاستغراقِ جميعِ ما يُطلقُ عليهِ أنَّهُ حسنةٌ مِنْ أُمورِ الدُّنيا والآخرةِ على البدلِ[1].

وذهبَ جماعةٌ من المُفسِّرينَ إلى تعيينِ المرادِ بالحسَنَةِ في الدُّنيا، فقيل: الزَّوجة الصَّالحة، وقيل: الرِّزق الواسع، وقيل غيرُ ذلك، وكلُّ ذلك حقٌّ؛ لأنَّ من فسَّر الحسنةَ بهذه الأفرادِ إنَّما كان ذلك على جهةِ التَّمثيلِ بذكرِ فردٍ يندرجُ تحت اللَّفظِ العامِّ، كما هو المعروف من طريقة السَّلفِ في التَّفسير.

وَلَمَّا كانَتِ الجنّةُ مِفتاحَ كلِّ الحَسناتِ التي ينالُها المُؤمِنُ يوم القيامة؛ ذهبَ جمهورُ المفسِّرينَ إلى أنَّ المرادَ بحسنةِ الآخرةِ الجنَّةَ، وذكرَ ابنُ عطيَّةَ الإجماعَ عليهِ[2]، وحكَى غيرُهُ أقوالًا أخرَى، إلَّا أنَّ مآلَهَا الجنَّةُ، كقول من قال: إنَّ حسنة الآخرةِ الحورُ العين، أو العفو والمعافاة؛ فإنَّ هذا من لوازم دخول الجنَّةِ[3].

نُكْتَةُ تَكْرَارِ لَفْظِ ﴿حَسَنَةً﴾ فِي قَوْلِهِ: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ حَسَنَةً﴾:

حَسَنَةُ الدُّنْيَا مُغَايِرَةٌ لِحَسَنَةِ الْآخِرَةِ قَدْرًا وَاسْتِدَامَةً

لَمّا كانتْ حَسَنَةُ الدُّنيا مغايرةً لِحَسَنَةِ الآخرةِ قَدْرًا وَاسْتِدَامَةً؛ كرَّرَ اللَّفظَ على صيغةِ التَّنكيرِ إشعارًا بهذه المغايرةِ، فَحَسَنَةُ الدُّنيا لَها وَصفُ ما تعلَّقتْ بهِ من كونِها دنيويَّةً، وَحَسَنَةُ الآخرةِ كذلكَ، كما أنَّ في التَّكرار حَثًّا على تَكرارِ هذا الدُّعاءِ؛ لِمَا فيه مِنْ جمعِ خَيْرَيِ الدُّنيا وَالآخرةِ.

بَدِيعُ الطِّبَاقِ فِي قَوْلِهِ: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ حَسَنَةً﴾:

عِظَمُ الْحَسَنَةِ بِعِظَمِ مُتَعَلَّقِهَا

بَيْنَ ﴿ٱلدُّنْيَا﴾ و﴿ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ من قوله تعالى: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ حَسَنَةً﴾ طباقُ الإيجَابِ، وفائدتُه: الإشعارُ بأثرِ كلٍّ

(1) الواحدي، التفسير البسيط، : 4/62.
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 1/277، وأبو حيان، البحر المحيط: 2/310.
(3) ابن الجوزي، زاد المسير: 1/168.

حسنةٍ بما تعلَّقت بهِ، وتأكيدٌ لمعنَى المتقدِّمِ من مغايرَةِ حَسَنَةِ الدُّنيا لِحَسَنَةِ الآخرةِ.

بَلَاغَةُ الِاحْتِرَاسِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾:

إِعْطَاءُ الْحَسَنَةِ لَا يَنْفِي الْمَسَّ بِالسَّيِّئَةِ

وردَ الدُّعاءُ بـ: ﴿وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ بعد الدُّعاء بـ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ حَسَنَةً﴾؛ لأنَّ طلبَ الحَسَنَةِ في الآخرةِ قدْ يكونُ بعدَ عذابٍ ما، فكان الدُّعاءُ بالوقايةِ من عذاب النَّارِ احتراسًا أُريدَ به دفعُ توهُّمِ غيرِ المرادِ.

وفيه أيضًا: إشعارٌ بأنَّ إعطاءَ الحَسَنَةِ لا يَنفي المَسَّ بالسَّيِّئَةِ، كما أنّهُ إذا ما أُدخلَ الجنَّةَ بعدَ الزَّحزحةِ عنِ النَّارِ، فكأنَّهُ أُنعمَ على الإنسانِ بنِعمتَينِ[1]، فلمَّا أَرادَ أَنْ يكونَ هذا الدُّعاءُ جامعًا لخيرَي الدُّنيا وَالآخرةِ؛ طلبَ الوقايةَ مِنَ النَّارِ[2]، وَصَحَّ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَكْثَرُ مَا كَانَ يَدْعُو بهذا الدُّعاءِ، وَكَانَ يَقُولُ ذَلِكَ فِيمَا بَيْنَ الرُّكْنِ اليمانيِّ وَالْحَجَرِ الْأَسْوَدِ، وَكَانَ يَأْمُرُ أَنْ يَكُونَ هذا أَكْثَرَ دُعَاءِ الْمُسْلِمِ فِي الْمَوْقِفِ، ولهذا وردَ الدَّعاءُ في سياقِ آياتِ الحَجِّ.

وبالْجُمْلَةِ؛ فَإِنَّ قَوْلَهُ: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ حَسَنَةً﴾: كَلِمَةٌ جَامِعَةٌ لِجَمِيعِ مَطَالِبِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، ولذا ذكر بعضُ أهل العلمِ أنّه أفضلُ الدُّعاء[3].

نُكْتَةُ الِاقْتِصَارِ عَلَى ذِكْرِ حَالَيْنِ مِنْ أَحْوَالِ النَّاسِ دُونَ غَيْرِهِمَا:

حَاجَةُ الْإِنْسَانِ إِلَى صَلَاحِ دُنْيَاهُ وَأُخْرَاهُ

لَمْ يُذْكَرْ فِي هذا التَّقْسِيمِ مَنْ لَا يَطْلُبُ إِلَّا حَسَنَةَ الْآخِرَةِ، كَمَا هُوَ مُقتضَى القِسمَةِ، بأنْ يَكُونَ دُعَاؤُهُ مَقْصُورًا عَلَى طَلَبِ الْآخِرَةِ؛ لِأَنَّ التَّقْسِيمَ لِبَيَانِ مَا عَلَيْهِ النَّاسُ فِي الْوَاقِعِ وَنَفْسِ الْأَمْرِ بِحَسَبِ دَاعِي الْجِبِلَّةِ وَتَأْثِيرِ التَّرْبِيَةِ وَهَدْيِ الدِّينِ، وَلَا يَكَادُ يُوجَدُ فِي الْبَشَرِ مَنْ لَا

(1) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 2/861.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/248.

(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 5/337، وابو حيان، البحر المحيط: 2/310، والبقاعي، نظم الدّرر: 5/266.

تَتَوَجَّهُ نَفْسُهُ إِلَى حُسْنِ الْحَالِ فِي الدُّنْيَا مَهْمَا يَكُنْ غَالِبًا فِي الْعَمَلِ لِلْآخِرَةِ، فاللّٰهُ تعالى يُرشدُنا إلى الدُّعاءِ بِحُسْنِ الحالِ في الدُّنيا وَبِالنَّعيم في الآخرةِ، فَلا طاقةَ لِلْإنسانِ بآلامِ الدُّنيا وَمشَاقِّ الآخرةِ، فأشعرَ إهمالُ القسمِ الثَّالثِ أنَّه غيرُ مرغوبٍ فيهِ عندَ اللّٰه تعالى، وَأَنَّهُ ينبغي الجمعُ بينَ طلبِ خَيْرَي الدُّنيا وَالآخِرةِ، حتَّى إنَّ الرَّازيَّ ذهبَ إِلى القول بأَنَّ الِاقْتِصَارَ فِي الدُّعَاءِ عَلَى طَلَبِ الْآخِرَةِ غَيْرُ جَائِزٍ[1].

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 5/336، ورشيد رضا، تفسير المنار: 2/191.

﴿أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمۡ نَصِيبٞ مِّمَّا كَسَبُواْۚ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ٢٠٢﴾

[البقرة: 202]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَرَ أنَّ مِنْ هؤلاءِ الَّذينَ يدعونَ اللّهَ فريقًا مُؤمِنًا، يدعو بخيرِ الدُّنيا وَالآخِرَةِ، بيَّن جزاءَهُمُ العَظِيمَ مِمَّا كَسَبواْ مِنَ أَعمالِهِمُ الصَّالحةِ، ترغيبًا في عَمَلِهِمْ وَالاقتداءِ بِهِمْ.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿نَصِيبٞ﴾: نَصْبُ الشيءِ: وَضْعُهُ وضعاً ناتئاً بحيث يكون بارزًا على غيره معيّنًا واضحًا، كنَصْبِ الرُّمْحِ، والبِنَاء والحَجَرِ، ومنه النَّصِيبُ هي الحجارة تُنْصَبُ على الشيءِ لتكونَ علامةً عليهِ، فيكون بارزًا معينًا، ففي النّصبِ معنى الإِشْرافِ والتَّطاولِ، والنَّصِيبُ: الحَظُّ المَنْصُوبُ، أي: المُعَيَّنُ فيكون بالحظِّ بارزًا على غيره، وأنْصَبَه جَعَلَ له نَصيبًا وقسمًا، فالنّصيبُ هو الجزاء المشخّص بقدرٍ معيّن ويكون في مقابل عملٍ، وقد يكون في خيرٍ أو في شرٍّ[1].

2) ﴿كَسَبُواْۚ﴾: يدلُّ الكسبُ على جَمْعِ الشَّيءِ وتحصيلِه شيئًا بعدَ شيءٍ بجُهْدٍ، ومنهُ كسبُ المالِ وكسبُ الرِّزقِ، ثم أُطلقَ اللَّفظُ على كلِّ ما يتحرّاه الإنسانُ ممَّا فيهِ اجتلابُ نَفعٍ، وَتحصيلُ حظٍّ، وقدْ يُستعملُ فيما يَظنُّ الإنسانُ أَنَّهُ يجلبُ منفعةً، ثُمَّ استجلَبَ بِهِ مَضرَّةً[2].

3) ﴿ٱلۡحِسَابِ﴾: الحَسْبُ العَدُّ والإحصاءُ، وَيكونُ في المعدودِ، والحِسابُ عَدُّ الشَّيءِ، وحَسَبُ الإنسانِ ما يَعُدُّهُ مِنْ مفاخِرِ آبائِهِ، واللّه سريعُ الحِسابِ بمعنَى: هو مُحْصٍ أعمالَ عبادِهِ وسريعُ المجازاة على الأعمالِ، فلا يحتاجُ إلى عدٍّ ولا إحصاءٍ[3].

(1) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن سيده، المحكم، الزمخشري، أساس البلاغة (نصب).
(2) الراغب، المفردات، جبل، المعجم الاشتقاقي (كسب).
(3) ابن جرير، جامع البيان: 6/279، و7/501، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 2/435.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

أُولئك المؤمنون الَّذين يقولون: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ۝٢٠١﴾ لهم ثوابٌ عظيمٌ جَزيلٌ على حَجِّهم الَّذي باشَروا معاناتَهُ بأَنفسِهمْ وأَموالِهمْ، وَسيؤتيهِمُ اللّه تعالى حَظًّا مِمَّا سأَلوه مِنْ خَيرَي الدُّنيا وَالآخرةِ، وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللّه مُجازاتِهمْ يومَ القيامةِ، فاللّه حافظٌ لِجميعِ أَعمالِهمْ، لا تخفَى عليهِ خافيةٌ، فَهوَ سريعٌ في إِحصاءِ الأَعمالِ وَالمُجازاةِ عليها[1].

❁ الإيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

نُكْتَةُ تَعْرِيفِ الْمُسْنَدِ إِلَيْهِ بِاسْمِ الْإِشَارَةِ فِي قَوْلِهِ: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُواْ﴾:

رِفْعَةُ دَرَجَاتِ أَهْلِ الْإِيمَانِ، وَانْحِطَاطُ دَرَكَاتِ أَهْلِ الْكُفْرَانِ

جيءَ بالمُسْنَدِ إليه ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ﴾ في قول اللّه تعالى: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُواْ﴾ معرَّفًا باسم الإشارةِ؛ مرادًا بها المؤمنونَ الذين عبدوا اللّه تعالى وَذكروه كثيرًا ودَعَوُا اللّه بخيرَي الدُّنيا والآخرةِ[2]؛ لِكمالِ العنايةِ بتمييزِهِمْ وَتعيينِهمْ بذواتِهمْ وَأَحوالِهمْ مِنَ العبادةِ وَالذِّكرِ وَالدُّعاءِ، وتَنْبيهًا على أَنَّهمْ أَحقَّاءُ بما ذكرَه مِنْ نصيبِهم العظيمِ بالوعدِ الإلهيِّ، وأَشعرَ ذلك "أَنَّ اتِّصَافَهُمْ بِمَا بَعْدَ اسْمِ الْإِشَارَةِ شَيْءٌ اسْتَحَقُّوهُ بِسَبَبِ الْإِخْبَارِ عَنْهُمْ بِمَا قَبْلَ اسْمِ الْإِشَارَةِ"[3].

وجاءَ التَّعبيرُ باسم الإشارة الدَّالِّ على البَعيدِ؛ إيماءً إلى رِفعةِ منزلتِهمْ في الفَضلِ وَعُلُوِّ درجتِهمْ عندَ اللّهِ تعالى، وتأكيدًا لاستحقاقِهِمُ النَّصيبَ العظيمَ الذي أَعدَّهُ اللّه لَهُمْ[4].

وَأَجازَ بعضُ المُفسِّرينَ عَودَ اسمِ الإشارةِ إلى الفريقَينِ معًا: الذينَ لا خلاقَ لَهُمْ في الآخرةِ، والمؤمنينَ الذَّاكرينَ اللّه كثيرًا، واستظهرَهُ

(1) ابن جرير، جامع البيان: 7/501، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 2/435.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 4/206، وابن عطية، المحرر الوجيز: 1/277، والزمخشري، الكشاف: 1/284.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/249.
(4) السكاكي، مفتاح العلوم/183، والتفتازاني، المطول/224.

أَبو حيّان[1]، فيكونُ مِنَ الإجمالِ بعدَ التَّفصيلِ، لِكمالِ العنايةِ بكلِّ فريقٍ بِتمييزِهِمْ بِذواتِهِمْ وأَحوالِهِمْ، وإشعارًا بِاستحقاقِ الفريقِ الأَوَّلِ الإبعادَ؛ لِتفريطِهِمْ وَتفضيلِهِمُ الدُّنيا على الآخرةِ، واستحقاقِ الفريقِ الثَّاني رِفعةَ الدَّرجةِ وَعُلُوَّ المكانةِ بِأَعمالِهِمُ الطّيِّبةِ، وهذا القولُ في عودِ اسمِ الإشارةِ أشملُ؛ لاندراجِ الأَوَّلِ تَحْتَهُ.

دِلَالَةُ تَنْكِيرِ ﴿نَصِيبٌ﴾ مِنْ قَوْلِ اللهِ تَعالَى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ نَصِيبٞ مِّمَّا كَسَبُواْۚ﴾:

عَظَمَةُ عَذَابِ الْكَافِرِينَ، وَفَخَامَةُ ثَوَابِ الْمُؤْمِنِينَ

أَفادَ تَنْكِيرُ ﴿نَصِيبٌ﴾ مِنْ قَوْلِ اللهِ تَعالَى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ نَصِيبٞ مِّمَّا كَسَبُواْۚ﴾ تعظيمَ النَّصيبِ الَّذي ينالونَهُ؛ بيانًا لارتفاعِ شأْنِهِمْ وعُلُوِّ درجتِهِمْ، فَلا يَعرفُ حقيقتَهُ وَلا سَعَتَهُ إِلَّا اللهُ تعالى، هذا إذا قلنا إنَّ اسمَ الإشارة ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ راجعٌ إلى أهلِ الإيمانِ.

وَإذا كان اسم الإشارة ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ راجعًا إلى الفريقينِ معًا؛ فَإنَّ تنكيرَ ﴿نَصِيبٌ﴾ لا يخرُجُ عَنِ التَّعظيمِ كذلكَ؛ إذ يكون إيماءً إلى تعظيمِ نصيبِ العذابِ لِلفريقِ الأَوَّلِ، وتعظيمِ نصيبِ النّعيمِ لِلفريقِ الثَّاني.

وَيَحتَمِلُ أَنْ يكونَ التَّنكيرُ لِلتَّنويعِ، والمعنَى: لِكلٍّ مِنهُمْ نوعُ نصيبٍ مختلفٍ عن الآخرِ[2]، وهذا المعنَى لا يُنافي دِلالةَ التَّعظيمِ، فلا مانعَ من حملِ التَّنكيرِ عليهِمَا معًا؛ إذِ النِّكاتُ البلاغيَّةُ تتوارَدُ ولا تتزاحَمُ.

نُكْتَةُ تَقْدِيمِ مُتَعَلِّقِ الْمُسْنَدِ ﴿لَهُمْ﴾ فِي قَوْلِهِ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ نَصِيبٞ مِّمَّا كَسَبُواْۚ﴾:

الْعِنَايَةُ بِإِيصَالِ الْجَزَاءِ لِمَنْ يَسْتَحِقُّهُ

في قول الله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ نَصِيبٞ مِّمَّا كَسَبُواْۚ﴾ قُدِّمَ متعلّق المسنَد ﴿لَهُمْ﴾، وأَصلُ الكلامِ: (أُولئكَ نَصيبٌ لَهُمْ)، فَقُدِّمَ ﴿لَهُمْ﴾ على المُسنَدِ إليهِ ﴿نَصِيبٌ﴾؛ للاعتناءِ بحالِ الفريقِ الثَّاني والاهتمامِ بِشأْنِهِمْ، وَلاسيَّما أَنَّهُ وردَ بعدَ اسمِ الإشارةِ المفيدِ تعظيمَ منزلتِهِمْ وَعُلُوَّ مكانتِهِمْ.

(1) الرازي، مفاتيح الغيب: 5/338، و2/311.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/209.

أو أنَّ سببَ التَّقديمِ هو الاعتناءُ بكلا الفريقينِ؛ من جهةِ إيصالِ الجزاءِ لكلِّ فريقٍ، عقوبةً للكافرينِ، وثوابًا للمؤمنينَ.

نُكتَةُ الإِخْبَارِ بِالْجُمْلَةِ الاسْمِيَّةِ:

وَعْدُ اللهِ تَعَالَى حَاصِلٌ لَا مَحَالَةَ

جيءَ بالمسندِ ﴿لَهُمْ نَصِيبٌ﴾ جملةً اسميَّةً؛ لإفادةِ ثُبوتِ النَّصيبِ العظيمِ لَهمْ يومَ القيامةِ، وتأكيدُ حصولِه بما وعدَ اللهُ تعالَى.

دِلَالَةُ تَتَابُعِ التَّأْكِيدِ:

تَعْظِيمُ الْجَزَاءِ الْأُخْرَوِيِّ وَتَفْخِيمُهُ

قول اللهِ تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُواْۚ﴾ جملةٌ اسميَّةٌ؛ يُرادُ بها تأكيدُ المعنَى، ثُمَّ زِيدَ المعنَى تأكيدًا للمسنَدِ إليهِ بالإخبارِ عنهُ بجملةٍ اسميَّةٍ أخرَى دالَّةٍ على الثُّبوتِ في قوله: ﴿لَهُمْ نَصِيبٌ﴾ - كما تقدّم -، فهو تأكيدٌ بعد تأكيدٍ تعظيمًا وتفخيمًا لشأن الجزاءِ الأخرويِّ.

دِلَالَةُ حَرْفِ الْجَرِّ (من) فِي: ﴿مِّمَّا كَسَبُواْۚ﴾:

تَكْثِيرُ الْمَعَانِي الْقُرْآنِيَّةِ بِتَعَدُّدِ أَوْجُهِ دِلَالَاتِ الْحُرُوفِ

(مِنْ) في قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُواْۚ﴾ يحتَملُ أَنْ تكونَ سببيَّةً[1]، وَالمعنَى: النَّصيبُ العظيمُ وَالجَزاءُ الكبيرُ الذي يحصلُ لِلمؤمنينَ يومَ القيامةِ بِسببِ ما كسبُوا في الدُّنيا مِنَ العبادةِ والذِّكرِ والدُّعاءِ والعملِ الصالحِ.

ويحتملُ أن تكون ابتدائيَّةً، واختارَه الرَّازي[2]، وَالمعنَى: لَهمْ نصيبٌ عظيمٌ ابتدأَ مِنْ وقتِ كَسْبِهُمُ العملَ الصالِحِ.

وتحْتَمِلُ (مِنْ) وجهًا آخرَ؛ وهي كونها تبعيضيَّةً[3]، وَالمعنى: أُولئِكَ لَهُمْ نصيبٌ عظيمٌ مِنْ بعضِ ما كَسَبُوا مِنَ الأعمالِ الصَّالحةِ، وَيلزَمُهُ أَنَّهُ إذا جازاهم على كُلِّ ما كَسَبُوا مِنَ الأعمالِ الصالحةِ؛ فالنَّصيبُ أَوفَى وَأَعظمَ.

(1) الزمخشري، الكشاف: 1/248.
(2) الرازي، مفاتيح الغيب: 5/338.
(3) أبو حيان، البحر المحيط: 2/312.

وهذه المعاني صحيحةٌ في ذاتِهَا لا تعارُضَ بينهَا، بل بعضُها يُكمّلُ بعضًا.

دِلَالَةُ (مَا) فِي ﴿مِّمَّا كَسَبُواْۚ﴾:

(مَا) في قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ نَصِيبٞ مِّمَّا كَسَبُواْۚ﴾ يحتملُ أَنْ تكونَ موصولًا اسميًّا بمعنَى (الذي)، وَأَنْ تكونَ موصولًا حرفيًّا، أي: حرفًا مصدريًّا[1].

والظّاهرُ أنَّ (مَا) موصولٌ اسميٌّ؛ والمرادُ من التَّعبير بهِ: الإشارةُ إلى أَفعالِهمْ وَأَحوالِهمْ المذكورةِ قبلَ اسم الإشارةِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾، وَيكونُ مفعولُ ﴿كَسَبُواْۚ﴾ محذوفًا؛ لإفادةِ عمومِ ما كَسَبُوا؛ لأنَّ حذف المعمولِ مؤذِنٌ بالشُّمول، وَالمعنَى: لَهمْ نصيبٌ عظيمٌ مِنْ كُلِّ الذي كَسَبُوا.

وَإذا قَدَّرنا (ما) مصدريَّةً، فَلا حذْفَ؛ إذْ تقديرُ الكلامِ: أُولئكَ لَهمْ نصيبٌ بِكسبِهم.

سِرُّ التَّعْبِيرِ بـ﴿كَسَبُواْۚ﴾:

الأَصلُ في معنَى الكَسبِ هوَ طَلبُ الرِّزقِ[2]، فكأَنَّهُ جعلَ فعلَ الصَّالحاتِ بمنزلةِ كسبِ الرِّزقِ، وفيه مدحٌ لأهل الإيمانِ لكونِهم حريصِينَ على العمل الصَّالحِ كحرصِ أهل الدُّنيا على كسب الرِّزْقِ بل أشدّ.

حُسْنُ الْخِتَامِ بِجُمْلَةِ التَّذْيِيلِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾:

أَفاد قول الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾ تحذيرَ المُؤْمنينَ مِنَ الإخلالِ بِطاعتِهِ؛ فَإِنَّ مَنْ هذا شَأْنُهُ سَيُحاسِبُ العبادَ على كثرتِهمْ وَكثرةِ أَعمالِهمْ في مِقدارِ لَمحَةٍ[3].

ويَحْتَمِلُ أنَّها أَفادتْ سُرعةَ المُجازاةِ، فيقتضي سرعةَ دخولِ المؤمنينَ إلى الجَنَّةِ؛ لِكثرةِ أَعمالِهمُ الصَّالحةِ.

جَزَاءُ اللهِ تَعَالَى الْعِبَادَ عَلَى جَمِيعِ أَعْمَالِهِمْ

حِرْصُ أَهْلِ الْإِيمَانِ عَلَى الْعَمَلِ الصَّالِحِ لِمَا يُؤَمِّلُونَهُ مِنْ حُسْنِ الْجَزَاءِ

تَحْذِيرُ الْمُؤْمِنِينَ مِنَ الْإِخْلَالِ بِطَاعَةِ اللهِ تَعَالَى

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 2/312.
(2) الجوهري، الصحاح (كسب).
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/210.

وجملةُ ﴿وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾ تذييلٌ بما أَفادتْهُ مِنْ عُموم المعنَى وَكُلِّيَّتِهِ، وهو تذييلٌ جارٍ مجرى المَثَلِ؛ لاستقلالِهِ بالإفادةِ، وعدم احتياجِهِ إلى ما قبلَهُ في الكشفِ عن أصلِ معنَاهُ.

دِلَالَةُ قَوْلِهِ: ﴿وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾ بَيْنَ الْحَقِيقَةِ وَالْمَجَازِ:

الأَوْصَافُ المُضَافَةُ إِلَى اللهِ تَعَالَى جَارِيَةٌ عَلَى حَقِيقَتِهَا

يَحْتَمِلُ أَنْ يكونَ قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾ واردًا على المجازِ المُرسَلِ بعلاقَةِ السَّببيَّة[1]، من جهةِ أنَّهُ أَرادَ بالحسابِ المُجازاةَ، وَوجهُ المجازِ فيه: أَنَّه لَمَّا كانَ الحسابُ سَبَبًا لِلأَخذِ وَالإعطاءِ، المُقتضي لِلمجازاةِ؛ أُطلِقَ السَّبَبُ وَهُوَ الحسابُ، وأُرِيدَ المُسبَّبُ وَهُوَ المُجازاةُ، وَعُبِّرَ بالمجازِ المُرسَلِ مُراعاةً للنَّظر إلى مجموعِ السَبَبِ وَالمسبَّبِ، وفيه معنى الاستدلالِ على سُرعَةِ المُجازاةِ.

وإجراؤُهُ على الحقيقةِ أَوْلَى؛ لِمَا عُلِمَ من طريقةِ أهل السُّنَّةِ والجماعةِ من أنَّ الأوصافَ المضافةَ إلى اللّٰه تعالى لا تجري مجرَى المجازِ.

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الخَلاق وَالنَّصيب:

لَمَّا كانَ الخَلاقُ دالًّا على المُقَدَّرِ مِنَ الخَيرِ خاصَّةً[2] ناسَبَ أَنْ يَنفيَهُ عَنِ الفريقِ الأَوَّلِ الذين آثَروا الدُّنيا على الآخرةِ، فقالَ ﴿وَمَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنۡ خَلَٰقٍ ٢٠٠﴾، وَلِلإشارةِ إلى أَنَّهُمُ اسْتمتَعوا بِخلاقِهِمْ في الدُّنيا، فَليسَ لَهمْ يومَ القيامةِ أَيَّ خَيرٍ. وَأَمَّا النَّصيبُ فإِنَّهُ يُطلَقُ على الأَمرِ المُقدَّرِ البارزِ المُعيَّنِ في الخيرِ وفي الشَّرِّ، فَنَاسَبَ أَنْ يُخبرَ عنْ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ بقولِهِ ﴿لَهُمۡ نَصِيبٌ﴾؛ لِلإشعارِ بأَنَّ جزاءَهَمْ واضِحٌ بارِزٌ مُعَيَّنٌ، سواءً أَكانَ اسمُ الإشارةِ عائدًا إلى الفريقِ الثَّاني أَو إلى الفريقَينِ، لِدلالةِ النَّصيبِ على الخَيرِ والشَّرِّ.

(1) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 5/339، وأبو حيان، البحر المحيط: 2/313.
(2) ابن دريد، جمهرة اللغة (خلق)، والعسكري، الفروق اللغوية/166.

﴿۞ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ فِيٓ أَيَّامٖ مَّعۡدُودَٰتٖۚ فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوۡمَيۡنِ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۖ لِمَنِ ٱتَّقَىٰۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُمۡ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ٢٠٣﴾ [البقرة: 203]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الرّبطُ بين أعمال الحجّ وقُرباتِه وبين أنساك التّشريق وزمانِه:

أيّامُ التّشريق ذكرٌ للخالق وتذكيرٌ بحشر الخلائق

لمّا ذكر الله أحكامَ الحجِّ والذِّكرِ فيها، بيّن ختامَها بأعمالِ منًى، في أيّام التّشريق، التي سُنّ فيها التّكبيرُ للعليمِ الخبير، ولمّا ذكر تفرُّقَ النّاس مِن مَوْسِمِ الحجِّ إلى سائر البُلدان بعد اجتماعِهم في المشاعر، ذكَّرهم باجتماعِهم عندَه يومَ القيامة، كَما قالَ تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي ذَرَأَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَإِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ﴾ [المؤمنون: 79]، فأمَرهم بما ينفَعُهم في ذلك اليوم فقال: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُمۡ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ٢٠٣﴾[1]، قال القرطبيّ: "ولا خلاف بين العلماء، أنّ الأيّامَ المعدوداتِ في هذه الآية، هي أيّامُ منى، وهي أيّامُ التّشريق، وأنّ هذه الثّلاثةَ الأسماءَ واقعةٌ عليها، وهي أيامُ رمي الجمار، وهي واقعةٌ عَلَى الثَّلَاثَةِ الأَيَّامِ الَّتِي يَتَعَجَّلُ الحَاجُّ مِنْهَا فِي يَوْمَيْنِ بَعْدَ يَوْمِ النَّحْرِ"[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَيَّامٖ مَّعۡدُودَٰتٖۚ﴾: جمعُ معدودةٍ، مؤنّثِ معدودٍ، اسمُ مفعولٍ من عدّ يعُدّ، ويُستعمَل كثيرًا في اللّغة للشّيءِ القليل، وكلُّ عدد قلّ أو كَثُر، فهو معدودٌ، ولكنْ معدوداتٌ أدَلُّ على القلّة، لأنّ كلَّ قليلٍ يُجمعُ بالألفِ والتّاء، نحو دُريْهماتٍ وجماعاتٍ، وهذا محلّ اتّفاقٍ بين البصْريّين والكوفيّين، ويذهبُ البَصريّون إلى أنّ ما جُمع بالألف والتّاء، قد يأتي للكَثرة

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 1/562.
(2) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 1/562.

أيضًا، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡمُسۡلِمِينَ وَٱلۡمُسۡلِمَٰتِ وَٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ﴾ [الأحزاب: 35][1]؛ فالقرينة لها أثرٌ في تحديد الدّلالة على القلّة أو الكثرة، فقَوْلُه تعالى: ﴿وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ فِيٓ أَيَّامٖ مَّعۡدُودَٰتٖۚ﴾ [البقرة: 203] المُرادُ أَيّامُ التَّشْريقِ وهي قَليلٌ.

2) ﴿تَعَجَّلَ﴾: أصلُ العجَلة: طلبُ الشّيءِ وتحَرّيه قبلَ أوانِه، والعَجَلَةُ: الإسْراعُ في شَيْءٍ والمُبادَرَةُ، وتَعَجَّلَ تَفَعَّلَ مِنْهُ، و(تعجَّل) و(استعجل) مضارعُه ومصدرُه - كلّه من العَجَلة وهي السّرعة ضد البطء؛ وتعجَّل واستعجل يكونان لازمَين ومتعدّيَين، ومتعلَّقُ التّعجيلِ محذوفٌ، فيجوزُ أن تقدِّرَه مفعولًا صريحًا، أي: من تعجَّل النَّفْر، وأن تقدِّرَه مجرورًا، أي: بالنّفر، حَسَبَ استعمالِه لازمًا ومتعدّيًا، وقوله: ﴿فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوۡمَيۡنِ﴾ أي عجّل في النّفْر، أو استعجل النّفرَ من مِنى، في ثاني أيّام التّشريق قبلَ الغُروب[2].

3) ﴿إِثۡمَ﴾: أَصْلُ الإثم: البُطْءُ والتَّأَخُّرُ. يُقالُ: ناقَةٌ آثِمَةٌ، أَيْ: مُتَأَخِّرَةٌ. والإِثْمُ مُشْتَقٌّ مِنْ ذَلِكَ، لِأَنَّ ذا الإِثْمِ بَطيءٌ عَنِ الخَيْرِ، مُتَأَخِّرٌ عَنْهُ، والإِثْمُ: الذَّنبُ. والوِزْرُ، وجمعُه آثام، وكلّ ما في القرآن من التّركيب هو (الإثم): الوِزْرُ والذّنْبُ، و(الأثامُ): حِملُه أو عاقبتُه، و(التّأثيم): تحميلُه، و(الآثم): مرتكبُه، و(الأثيم): حاملُه وقد أَثِمَ إثمًا وأثامًا، فهو آثِمٌ وأَثِمٌ وأَثيمٌ، قال الخليلُ: أَثِمَ فُلانٌ وَقَعَ في الإِثْمِ، فَإِذا تَحَرَّجَ وكَفَّ قيلَ تَأَثَّمَ، أي: خرج من إثمه، وتسمية الكذبِ إثمًا لِكَونِ الكذبِ من جملةِ الإثم[3].

4) ﴿تَأَخَّرَ﴾: من التّأخيرُ: يقابلُ التَّقديمَ، قال تعالى: ﴿عَلِمَتۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ وَأَخَّرَتۡ ۝٥﴾ [الانفطار: 5]، وقولُهم: (أبعدَ اللّه الأَخِرَ)، أي المتأخِّرَ عن الفضيلةِ وعن مَجرى الحقِّ، ومعنى قولِه تعالى: ﴿وَمَن تَأَخَّرَ﴾ أي: من تأخّر في مِنى إلى اليوم الثّالث من أيّام التّشريق فلا حرَجَ علَيه[4].

5) ﴿تُحۡشَرُونَ﴾: أصلُ الحَشر: الجمعُ، وكُلُّ جَمْعٍ حَشْرٌ. والحَشْرُ: الجمع مع سَوق وبَعْث وانْبِعاث، وقيل: الحَشر: إخراجُ الجَماعة عن مقرِّهم وإزعاجُهم عندَ الحَرب وغيرِها.

(1) الزجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 1/275-276، ومحمود صافي، الجدول في إعراب القرآن: 2/422.

(2) الرّاغب، المفردات: (عجل)، وأبو حيّان، البحر المحيط: 2/315، والسّمين، عمدة الحفّاظ: (عجل)، والسّمين، الدّرّ المصون: 2/345، والآلوسي، روح المعاني: 1/489، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (عجل).

(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (أثم)، والرّاغب، المفردات: (أثم)، والسّمين، عمدة الحفّاظ: (أثم)، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (أثم).

(4) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 1/278، والسّمين، عمدة الحفّاظ: (عجل).

والحَشْرُ: جَمْعُ القَوْمِ مِنْ كُلِّ ناحِيَةٍ، والمَحْشَرُ مَوْضِعُ الحَشْرِ. وحَشْر النّاسِ يومَ القيامةِ فيه أمورٌ؛ لأنّه يقع بَنشْرهم من قُبورِهم، وسَوْقِهم إلى الموقفِ، وجمعِهم فيه ﴿وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ [الكهف: 47]. وتأمّل قولَه تعالى: ﴿يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ۚ ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾ [ق: 44] فالحَشْرُ سَوقٌ من المقارّ ويزيدُ عليه الجمعُ: التّضامُّ في المكان المحشورِ إليه؛ فهذا هو حشْرُ يومِ القيامةِ، أي: جمعُ الخلائقِ للحسابِ. وسمّيَ يومُ القيامةِ يومَ الحَشْر[1].

المَعْنى الإجْماليُّ:

أمرَ اللّه تعالى عبادَه من حُجّاج بيته بالذّكر في الأيّام المعدودات القلائل؛ وهي أيّامُ التّشريق الثّلاثة، بعدَ يوم النَّحْر؛ الحادي عشر والثّاني عشر والثّالث عشر من ذي الحجّة، ومنَ الذّكرِ التّكبيرُ، ويتشبَّه غيرُ الحُجّاج بالحُجّاج، فيكبّرون وبخاصّة في أدبار الصّلوات، وقد خُيّر الحُجّاجُ بينَ التّعجّل والتّأخّر في مِنى، فمَن تعجّل بخُروجه من مِنًى قبلَ غروبِ شمسِ اليومِ الثّاني منْ أيّام التّشريق، أو تأخّر ببقائه فيها إلى اليوم الثّالث لِرَمْي الجَمرات، فلا حرَجَ علَيهم في ذلك ما دامُوا ممتَثلين تقوى اللّهِ تعالى، بفعلِ ما أمرَ اللّه به، واجتنابِ ما نهى اللّه عنْه، والتأخر أفضل؛ لأنه تزوُّد في العبادة واقتداء بفعل النبي ﷺ ، ثمّ أعادَ أمْرَه لهم بالتّقوى في سائرِ حياتِهم، وذكَّرَهم بأنَّهم سيُحْشَرون إلَيه سبحانَه يومَ القِيامة للجزاءِ بعدَ البَعث[2]، وهذا التّخيير ونفيُ الإثم عن المستعجل والمتأخّر، إنّما هو لمن اتّقى اللّه، وترك ما نهى عنه، لأنّه هو الحاجُّ على الحقيقة، فما الغرض من كلّ عبادة إلّا التّقوى، كما قال: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ۝٢٧﴾ [المائدة: 27]، والوسيلة إلى ذلك، ذكر اللّه بالقلب واللّسان، ومراقبته في جميع الأحوال حتّى يكون عبدًا له لا لأهوائه وشهواته[3].

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حشر)، والرّاغب، المفردات: (حشر)، والسّمين، عمدة الحفّاظ: (حشر)، والفيّومي، المصباح المنير: (حشر)، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (حشر).

(2) محمّد بن عمر نوويّ، مراح لبيد: 1/68.

(3) المراغي، تفسير المراغيّ: 2/108.

الإيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

فائدةُ عطفِ الأمرِ بالذِّكرِ على الأمرِ بالذِّكر:

التَّدرُّجَ من تعيينِ نوعِ الذِّكرِ إلى تحديدِ زمانِه ومكانِه

قوله تعالى: ﴿وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ فِيٓ أَيَّامٖ مَّعۡدُودَٰتٖ﴾ هذا أمرٌ بذكرٍ لله خاصٍّ في أيّامٍ خاصّةٍ هي أيّام التّشريق بعد قضاء مناسك الحجّ؛ لبيانِ مزيّةِ الذّكرِ في هذه الأيّام، وقد عُطفَ الأمرُ بالذِّكرِ في هذه الآيةِ على آيةٍ سابقةٍ: ﴿فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَذِكۡرِكُمۡ ءَابَآءَكُمۡ أَوۡ أَشَدَّ ذِكۡرٗا﴾ [البَقَرَة: 200] التي أمَر اللّه فيها بالذّكر مقيَّدًا بذكرٍ يُشابِه ذكرَ الآباء أو أشدّ ذِكْرًا، وهنا قيَّدَ الذِّكرَ بزَمانِهِ ومَكانِهِ؛ فزمانُه أيّامُ التّشريق، ومكانُه مِنى، والأيّام المعدودات الّتي يصحَبها هذا الذّكر، هي أيّام التّشريق الثّلاثة بعد يوم النّحر، فالعطفُ من قبيلِ عطفِ ذكر اللّهِ في زمانٍ وكانٍ مخصوصَيْن، على ذكرٍ فيه اجتهادٌ وفخرٌ وشكرٌ، إذ هذا هو ذكرُ الآباءِ؛ فأفاد العطفُ التَّدرُّجَ من نوعِ الذِّكرِ إلى تعيينِ زمانِه ومكانِه.

فائدةُ عدمِ تعيينِ الذِّكرِ المطلوبِ وإطلاقُ الأمرِ به:

كلُّ ذكرٍ لله تعالى يصحُّ العملُ به في هذا الزَّمان؛ فهو داخلٌ في الأمرِ

لم تذكرِ الآيةُ الذِّكرَ المطلوبَ الإتيانُ به في قولِه تعالى: ﴿وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ فِيٓ أَيَّامٖ مَّعۡدُودَٰتٖ﴾؛ ليشملَ كلَّ ذكرٍ يصحُّ العملُ به في هذه الأيّام، وهو كلُّ ما يُتَقَرَّبُ به إلى اللّه ﷻ من قول أو فعْل؛ فيشملُ التّكبيرَ المطلَقَ والمقيَّدَ والذِّكْرَ عندَ رمي الجمارِ ونحرِ الهدي والأضاحيّ ويشملُ الأعمالَ مثلَ نحْرِ الهدْي والأضاحيّ والتّصدقِ منها على الفقراء، ورمي الجمار، وإنما جُعل رميُ الجمارِ لإقامةِ ذكرِ اللّه، وهو عملٌ حسّيٌّ يقترنُ به عملٌ نفسيٌّ وجدانيّ، وهو إشعارُ القلبِ بعظَمة اللّه ربِّ العالمين[1]، وظاهِرُ الأمرِ بالذّكرِ في الأيّام المَعْدوداتِ كنايةٌ عن مَشْروعيَّة المَبيتِ بمِنًى أيّامَ التَّشْريق، ولَمْ تَتَعَرَّضِ الآيَةُ للرَّمْي، لا حُكْمًا، ولا وَقْتًا، ولا عَدَدًا، ولا مَكانًا؛ لِشُهْرَتِهِ عِنْدَهُمْ، وتُؤْخَذُ أَحْكامُهُ مِنَ السُّنَّةِ[2].

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 2/631.

(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/322.

سِرُّ تسميةِ الأيَّامِ بالمعدودات:

التَّنبيهُ على سرعةِ انقضاء الأيّام؛ لاغتنامِها في الخيرِ

سُمّيتِ الأيَّامُ بالمعدوداتِ في قولِه تعالى: ﴿وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ فِيٓ أَيَّامٖ مَّعۡدُودَٰتٖ﴾؛ لقلّتها وسرعةِ انقضائها، وهذا يوجبُ المسابقةَ في اغتنامها واستثمارها في الذّكر المطلوبِ قبل فواتها، وهي نعتٌ للأيّام، ولا تُشترطُ المطابقةُ في جمعِ غيرِ العاقلِ، وقد نقَل القرطبيُّ في تفسيره عن الحافظ ابنِ عبدِ البَرّ الإجماعَ، على أنّ الأيّامَ المعدوداتِ في الآيةِ الكريمةِ هي أيّامُ مِنى؛ أيّامُ التّشريقِ: الحادي عشر، والثّاني عشر، والثّالث عشر من ذي الحجّة، وهي أيّامُ أكلٍ وشُربٍ وفَرَحٍ وشُكرٍ وذِكرٍ لله تعالى[1]، كما جاء في الحديث: «أَيّامُ التَّشْرِيقِ أَيّامُ أَكْلٍ، وشُرْبٍ، وذِكْرِ اللّه»[2].

فائدةٌ في سببِ تسميةِ أيّامِ التَّشريقِ بهذا الاسم

سُمِّيت أَيّامُ التَّشْرِيقِ بِذَلِكَ مِنْ تَشْرِيقِ اللَّحْمِ، وهُوَ تَقديدُه وبَسْطُه في الشَّمْسِ ليَجِفّ، لأنَّ لُحومَ الأضاحِيّ كانَتْ تُشَرَّقُ فيها بمنى، وقيلَ سُمِّيت بِهِ لِأَنَّ الهَدْيَ والضَّحايا لا تُنحَرُ حَتّى تُشْرِقَ الشَّمْسُ: أَيْ تَطْلُع وكان المُشْركون يَقولونَ: "أَشْرِقْ ثَبير كَيْما نُغير"[3]، وثَبير: جَبَل بِمِنًى، أَي ادْخُل أَيُّها الجَبل في الشُّروقِ، وهو ضوءُ الشَّمْسِ، كَيْما نُغير: أَيْ نَدْفَع للنَّحر، وكانوا لا يُفيضونَ حَتّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ، فَخالَفَهُمْ رَسولُ اللّهِ ﷺ، فَأَفاضَ قَبْلَ طُلوعِ الشَّمْسِ[4]، وذَكَرَ بَعْضُهُمْ أَنَّ أَيّامَ التَّشْرِيقِ بِهَذا سُمِّيَتْ[5].

الفرق في وصفِ الأيّامِ بالمعدوداتِ والمعلوماتِ:

اختلف المفسِّرون في تعيين الأيَّام المعلوماتِ في قولِه تعالى: ﴿لِّيَشۡهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمۡ وَيَذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ فِيٓ أَيَّامٖ مَّعۡلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم

(1) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 3/3.
(2) أخرجه مسلم، حديث رقم: (2647)، وأحمد - واللّفظ له -، حديث رقم: (20722).
(3) أخرجه أحمد في مسنده من قول عمر رضي الله عنه، حديث رقم: (275).
(4) أخرجه البخاريّ، حديث رقم: (1684)، وابن ماجه، حديث رقم: (3022).
(5) ابن الأثير، النّهاية: 2/464.

مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلۡأَنۡعَٰمِ﴾ [الحجّ: 28]، فقيل: هي أيّامُ العَشْرِ من ذي الحجّة، وقيل: إنّها يومُ النّحر ويومان بعده[1]، وبقطعِ النَّظرِ عن الرَّاجحِ؛ فالمطلوبُ توجيهُ سببِ وصفِ الأيَّامِ في كلِّ سورةٍ بما أتَتْ عليه، أمَّا سورة الحجّ فوُصِفت الأيّامُ بـ﴿مَّعۡلُومَٰتٖ﴾ فيها، إشارةً إلى وجوبِ استفراغِ الجهدِ حرصًا على علْمِها بحسابها من أجلِ إثباتِ الشّهرِ ووقتِ الحجّ الّذي سيكونُ في آخرها، فيُقطعُ بأنّ هذا الشّهرَ ذو الحجّة اسمًا ومسمًّى في تحريرِ أوّلِه، وأمَّا في سورة البقرة فوُصِفتِ الأيّامُ بـ﴿مَّعۡدُودَٰتٖ﴾؛ لأنّها لمّا كانت مبنيّةً على العلمِ بدُخولِ الشّهرِ وعُلم منه يومُ العيدِ، فلم يُحْتَج في أمرِها إلى غيرِ العَدِّ؛ فلذا عبّر عنها بـ﴿مَّعۡدُودَٰتٖ﴾ دونَ ﴿مَّعۡلُومَٰتٖ﴾[2].

الأمرُ بالذّكر تصحيحٌ لما تعوّده أهلُ الجاهليّةِ من انفلاتٍ في أيّامِ التّشريقِ:

ذكرُ الله حصانةٌ للحاجِّ من الفِتَنِ والمعاصي واللّجاج

وإنَّما أُمِروا بِالذِّكْرِ في هذه الأَيّامِ المعدوداتِ؛ لِأَنَّ أَهْلَ الجاهِلِيَّةِ كانوا يَرَوْنَ أَنَّ الحَجَّ قَدِ انْتَهى بِانْتِهاءِ اليَومِ العاشِرِ من ذي الحجّة، فيعودون إلى مَلاذِّهِمْ التي انقَطَعوا عنها مُدَّةَ الحجّ، ويَشْغَلونَ الوقتَ بِالتَّفاخُرِ أو مُغازَلَةِ النِّساءِ[3] وما يصحب ذلك من مفاخرة ومكابرة وصخب ولعب، وتنافس في الأهواء والملذّات، وقد حفظَتْ لنا كتبُ الأدبِ والتّاريخِ نصوصًا من ذلك، فَجاءَ الأمرُ بالذّكرِ ليشغَلَهم به عن عاداتهم الآثمةِ، دونَ أن يذْكُرَ ما كانوا يفعلون، وذلك على عادة القرآن في التّعريض دون التّحديد والكناية دون التّصريح رفعا لمستوى البيانِ المُبين، وإعراضًا عن مخازي العُصاةِ المُنفلتين.

معنى الفاءِ في قولِه تعالى: ﴿فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوۡمَيۡنِ﴾:

الإفصاحُ عن المحذوفِ بعد بيانِ الأمرِ بالذِّكرِ

الفاءُ الدَّاخلةُ على (مَنْ) في قولِه تعالى: ﴿فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوۡمَيۡنِ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِ﴾ هي الفاءُ الفَصيحةُ؛ لأنّها أفصحت عن شرط مقدّر؛ تقديره: إذا عرفتم مشروعيّة الذّكر لكم، وأردتم بيانَ حُكمِ من

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/262 - 263.
(2) الواحديّ، الوسيط: 3/268، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 5/415، والشّربينيّ، السّراج المنير: 2/549.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/262.

تعجّل ومن تأخّر فهذا حكمُه[1]، وقد أفصح عن الإذْنِ بالرُّخْصَةِ في تَرْكِ حُضورِ بَعْضِ أَيّامِ مِنى لِمَنْ أَعْجَلَهُ الرُّجوعُ إلى وَطَنِهِ، وجيءَ بالفاءِ لِتَعْقيبِ ذِكْرِ الرُّخْصَةِ بَعْدَ ذِكْرِ العَزيمَةِ، رَحْمَةً مِنْهُ تَعالى بِعِبادِهِ[2] وتيسيرًا علَيهم، واليُسر من سمات هذا الدّين.

معنى صيغةِ الفعلِ ﴿تَعَجَّلَ﴾:

أثرُ السِّياقِ في ترجيح معنى صيغةٍ على أخرى

العَجَلَةُ: الإسْراعُ والمُبادَرَةُ، وتَعجُّل الحاجِّ في قول جمهور الفقهاء، أَنْ يَخْرُجَ الحاجُّ مِنْ مِنًى في اليَوْمِ الثّاني مِنْ أَيّامِ الرَّمْيِ قَبْلَ الغُروبِ، فَيَسْقُطُ عَنْهُ رَمْيُ اليَوْمِ الثّالِثِ، وهذا هو النَّفْرُ الأوَّلُ، فَإِنْ لَمْ يَخْرُجْ حَتّى غَرَبَتِ الشَّمْسُ لَزِمَهُ المَبيتُ بِمِنًى، ورَمى اليَوْمَ الثّالِثَ، وذَلِكَ لأَنَّ اليَوْمَ اسْمٌ لِلنَّهارِ، فَمَنْ أَدْرَكَهُ اللَّيْلُ فَما تَعَجَّل في يَوْمَيْنِ[3] والفعل الماضي هنا ﴿تَعَجَّلَ﴾ ووزنه (تَفَعَّل)؛ وهو إمّا بمعنى استفعل، وهو أحد المعاني الّتي يجيء لها (تفعّل)، فيكون بمعنى: استعجل، كقولهم: تكبّر واستكبر، وتيقّن واستيقن، وإمّا بمعنى الفعل المجرّد، فيكون بمعنى عَجِل، كقولهم: تلبّث بمعنى لبِث، وتعجّب بمعنى عجِب، وهو أحد المعاني الّتي جاء لها (تفعّل)، وفعلُ تَعَجَّلَ واسْتَعْجَلَ يأتي لازمًا ومتعدّيًا، تقول: تعجّلت في الشّيء وتَعَجَّلْتُهُ، واستعجلت في الشّيء، واستعجلت زيدًا، والظّاهر أنّ تعجّل هنا لازمٌ لمقابلته بلازم في قوله ﴿وَمَن تَأَخَّرَ﴾، فيكون مُطاوِعًا لعَجِلَ فـ﴿تَعَجَّلَ﴾، نحو: كسَرَه فتَكَسّرَ ... ويجوز أن يكون ﴿تَعَجَّلَ﴾ مُتعدّيًا، ومفعولُه محذوفٌ تقديره: فمَن تعَجّل النَّفْرَ[4]، وهذا من الاستدلالِ السِّياقي في ترجيحِ دلالةِ صيغةٍ على أُخرى، بدلالةِ المقابلةِ، وعليه فتعجَّل فعل لازمٌ، وهو مطاوِعٌ لعَجِلَ، والمعنى: فمن عَجِلَ في نيَّتِه ومبدأِ أمرِه، فتعجَّلَ في سلوكِه وعملِه فلا إثم عليه.

(1) الهرَريّ، تفسير حدائق الرّوح والرّيحان: 3/228.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/263.
(3) وزارة أوقاف الكويت، الموسوعة الفقهيّة الكويتيّة: 12/223.
(4) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/509، وأبو حيّان، البحر المحيط: 2/315، 321.

تغليب الأوقاتِ في قولِه تعالى: ﴿فِي يَوْمَيْنِ﴾:

من خصوصيّة المواقيت عند العربِ، تَسمِيَةُ الوقتِ بقليله وكثيره

في قولِه تعالى: ﴿فِي يَوْمَيْنِ﴾ تغليبٌ للأوقاتِ، إذِ اليومان هما يومٌ ونصفٌ، قاما مقامَ يومين؛ لأنّ التّعجّل لا يكون في يومين تامّين، وإنّما يتعجّل الحاجُّ في يوم ونصف، وكذلك هو في اليوم الثّالث من أيّام التّشريق، وليس منها شيء تامٌّ، كما قال تعالى: ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ﴾، فعبّر بـ ﴿أَشْهُرٌ﴾ على الجمع، وإنّما هما شهران وعشرةُ أيّامٍ من الشّهرِ الثّالثِ؛ وذلك أنّ العربَ إذا كان الوقت لشيء يكونُ فيهِ الحجّ وشبهه جعلوه في التّسمية للثّلاثة والاثنين وكذلك تُسمّي العربُ الوقتَ بقليلِه وكثيرِه، فيقولون: (له اليومَ يَوْمانِ مُنْذُ لَمْ أَرَهُ)، وإنّما هو يومٌ وبعضُ آخَرَ، وهذا ليس بجائزٍ في غير المواقيت؛ فقد يفعلون الفِعْلَ في أقلَّ من السّاعة، ثُمَّ يوقعونه على اليَوم وعلى السَّنَةِ والشَّهْرِ، واللّيالي، والأيّام، فيقولُ: زُرْتُهُ العامَ وأَتَيْتُهُ اليَوْمَ، وهو لا يُريدُ بِذَلِكَ أَنَّ فِعْلَهُ أَخَذَ مِنْ أَوَّلِ الوَقْتِ الّذي ذَكَرَهُ إلى آخِرِهِ، وإنّما أتاه في ساعة منه[1].

الإيجازُ بالحَذفِ في قولِهِ تعالى: ﴿فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ﴾:

التّعجُّلُ مطلبٌ بشريٌّ، والشَّريعةُ راعتْه تيسيرًا وتخفيفًا

قوله تعالى: ﴿فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ﴾، فيه إيجاز بالحذف؛ إذ التّقدير: فلا إثم علَيه بتعجّله؛ لأَنَّ الجَزاءَ مُرَتَّبٌ عَلى الشَّرْطِ، والآيَةُ عَلى عُمومِها في قول أَكْثَر أَهْلِ العِلْمِ، والرُّخْصَةُ فيها لِجَميعِ النّاسِ، سواءٌ أَهْلُ مَكَّةَ أم غَيْرُهمْ، وسَواءٌ أَرادَ الخارِجُ مِنْ مِنًى المُقامَ بِمَكَّةَ، أَم الشُّخوصَ إلى بَلَدِهِ[2]، وقيل: ﴿فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ﴾، يَعْنِي: لَا إِثْمَ عَلَى مَنْ تَعَجَّلَ فَنَفَرَ في اليَوْمِ الثَّاني في تَعْجِيلِهِ، وَمَنْ تَأَخَّرَ حَتَّى يَنْفِرَ في اليَوْمِ الثَّالِثِ فَلَا إثم عليه في تأخيره، فهي عامَّةٌ في المتعجِّلِ والمتأخِّرِ، وَقِيلَ مَعْنَاهُ: ﴿فَمَن تَعَجَّلَ﴾ فَقَدْ تَرَخَّصَ ﴿فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ﴾

(1) الفرّاء، معاني القرآن: 1/119-120، والثّعلبيّ، الكشف والبيان: 2/104.
(2) الموسوعة الفقهيّة الكويتيّة: 12/224.

بالتَّرَخُّصِ، ﴿وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِ﴾ بِتَرْكِ التَّرَخُّصِ، وَقِيلَ مَعْنَاهُ: رَجَعَ مَغْفُورًا لَهُ لَا ذَنْبَ عَلَيْهِ تعجّل أو تأخّر[1].

دلالةُ قولِه تعالى: ﴿وَمَن تَأَخَّرَ﴾ معنًى وصيغةً:

التّأخّر لُبثٌ في منى، من تِلقاءِ فعلِ الحاجِّ

التَّأَخُّرُ هو اللُّبْثُ في مِنى، من أجل رَمْيِ ثالِث أَيّامِ التَّشْريقِ، وهو الثّالِث عَشَرَ مِنْ ذي الحِجَّةِ، فإذا رمى الحاجُّ الجمارَ في هذا اليوم بعد الزّوال انصرف من منى إلى مكة، ويسمّى النّفْرَ الثّاني، وهو آخرُ أيّام التّشريق، وبه تنتهي مناسك منى[2] لذلك لم يقيّد التّأخّر؛ لأنّ نهايته باليوم الثّالث معروفة.

وصيغَةُ ﴿تَأَخَّرَ﴾ مُطاوِع أَخَّرَ، كَأَنَّهُ أَخَّرَ نَفْسَهُ فَتَأَخَّرَ، فيكونُ الفِعْل لازمًا، ويَجوزُ أَنْ تَكونَ صيغَةُ التَّفَعُّلِ لِتَكَلُّفِ الفِعْلِ كَأَنَّهُ اضْطُرَّ إلى التَّأَخُّرِ، فيكونُ المَفْعولُ مَحْذوفًا تقديره: ومَنْ تَأَخَّرَ النَّفْرَ[3]، والتّأخر أفضلُ في قول جمهور الفقهاء لِقَوْلِهِ تَعالى: ﴿وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۖ لِمَنِ ٱتَّقَىٰۗ﴾، واقْتِداءً بِالنَّبِيِّ ﷺ، وتزوُّدًا في العبادة، وذَهَبَ المالِكِيَّةُ: إلى أَنَّهُ لاَ تَفْضيل بَيْنَ التَّعْجيل والتَّأْخيرِ، بَل هُما مُسْتَوِيانِ[4].

سرُّ إيرادِ قوله تعالى ﴿فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِ﴾ بعد ذكرِ المتأخِّر:

نفيُ الإثمِ توسعةٌ على المتعجّلِ والمتأخّر وكنايةٌ عن التّخيير بينهما

لسائلٍ أن يسأل عن سرِّ مجيءِ قوله تعالى: ﴿فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِ﴾ بعد قولِه تعالى: ﴿وَمَن تَأَخَّرَ﴾؛ فإذا كان المتأخّر قَدِ اسْتَوْفى كُلَّ ما يَلزَمُهُ في تَمام الحَجِّ، فَما مَعْنى قَوْلِهِ: ﴿فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِ﴾، فَإِنَّ هَذا اللَّفْظَ إنَّما يُقالُ في حَقِّ المُقَصِّرِ، ولا يُقالُ في حَقِّ مَنْ أَتى بِتَمامِ العَمَلِ؟

وهَذا تَوَهُّمٌ مدفوع بأحدِ أمورٍ:

الأوَّل: ما رُوِيَ أَنَّ أَهْلَ الجاهِلِيَّةِ، كانوا عَلى فَريقَيْنِ، فَريقٌ مِنْهُمْ

(1) البغويّ، معالم التّنزيل: 1/262.
(2) الموسوعة الفقهيّة الكويتيّة: 23/164.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/263.
(4) الموسوعة الفقهيّة الكويتيّة: 12/224، 23/164.

جعَل المتعجّل آثمًا، وفَريقٌ جعل المتأخّر آثمًا، فورد القرآن بنفي المآثم عنهما جميعًا، توْسِعَةً في الأَمْرَيْنِ.

الثَّاني: مَعْنى نَفْيِ الإثْمِ فيهما كِنايَةً عَنِ التَّخْيير بَيْنَ الأَمْرَيْنِ كما تقدّم في رأي المالكيّة؛ كأنّه قيل: فتعجّلوا أو تأخّروا، وجاز أن يقع التّخيير بين الفاضل والأفضل، كما خُيّر المسافرُ بينَ الصَّوم والإفطارِ، وإنْ كانَ الصَّومُ أفضلَ[1].

الثَّالث: ما رآه صاحب التّحرير والتّنوير أَنَّ وَجْهَ ذِكْرِ ﴿وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۖ لِمَنِ ٱتَّقَىٰۗ﴾، أَنَّ اللّهَ لَمّا أَمَرَ بِالذِّكْرِ في أَيّام مِنى، وتَرْكِ ما كانوا عَلَيه في الجاهِلِيَّةِ مِنَ الاشْتِغالِ فيها بِالفُضولِ، وقال بعد ذَلِك: ﴿فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوۡمَيۡنِ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِ﴾، خِيفَ أَنْ يُتَوَهَّمَ أَنَّ التَّعْجيلَ بِالنَّفْرِ أَوْلى تباعدًا من مُواقَعَةِ ما لا يَحْسُنُ مِنَ الكَلام، فَدَفَعَ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ: ﴿وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۖ﴾، فَإذا نُفِيَ هَذا التَّوَهُّمُ عَلِمَ السّامِعُ أَنَّهُ قَدْ ثَبَتَتْ لِلمُتَأَخِّرِ فَضيلَةُ الإقامَةِ بِتِلْكَ المَنازِلِ المُبارَكَةِ، والمُشارَكَةِ فيها بِذِكْرِ اللّهِ تَعالى[2].

التّنبيه على التّقوى، وأنّها مدارُ الأمرِ في فريضةِ الحجِّ

فائدةُ حذفِ المبتدأِ في قولِه تعالَى: ﴿لِمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾:

عَقَّبَ السّياقُ بعد التّأكيد على الخيار بين الحالين في التّعجّل أو التّأخّر بِقَوْلِهِ تعالى: ﴿لِمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾؛ أَيْ: لِمَنِ اتَّقى اللّهَ في تَأَخُّرِهِ، فَلَمْ يَرْفُثْ ولَمْ يَفْسُقْ في أَيّام مِنى، وإلّا فالتَّأَخُّرُ فيها لِمَنْ لَمْ يَتَّقِ إِثْمٌ[3]، وفيه إيجاز بحذف المبتدأ، تقديره: ذلك التّخييرُ المذكور لمنِ اتَّقى، أو تلك المغفرةُ لمنِ اتَّقى، والجارّ والمجرور خبرُ المبتدأِ المحذوفِ، وفائدةُ الحذفِ التَّنبيه على التَّقوى، وأنَّها مدارُ الأمرِ في فريضةِ الحجِّ.

احتمالُ التَّعليل والاختصاصِ، إذِ التّقوى مقصدُ الحجّ كلّه وفي كلّ أحواله

دلالة اللّام في قوله تعالى: ﴿لِمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾:

اللّام في قولِه تعالى: ﴿لِمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾ إمّا أنْ تكونَ للتّعليل، أي: ذلك التّخيير المذكور لأجل المتّقي؛ لئلّا يتضرّرَ بترك ما يقصده من

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/250.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/263-264.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/263-264.

التّعجيل والتّأخّر؛ لأنّه حَذِرٌ متحرّزٌ عمّا يُريبُه، فشُرع هذا الحكمُ لتحصيلِ التَّقوى.

وإمَّا أنْ تكونَ للاختصاصِ، أي: ذلك المذكور من أحكامِ الحجِّ مطلقًا، مختصّة بالمتّقي؛ لأنّه هو الحاجّ على الحقيقة، والمراد من التّقوى على التّقديرَين، تجنّبُ ما يُؤثم من فعلٍ أو تركٍ[1] وقد تقدّم حملها على تقوى اللّه في التّأخّر، حتّى لا يقارِفَ المتأخّرُ فضولَ الكلام المنهيّ عنه، وقيل فيها غيرُ ذلك منَ الأقوال[2]، والأَوْلى حملُها على العموم، أي: لِمَن اتَّقى اللّه في حَجِّه، وقد جاء في الحديث: "مَنْ حَجَّ هَذا البَيْتَ، فَلَمْ يَرْفُثْ، ولَمْ يَفْسُقْ، رَجَعَ كَما وَلَدَتْهُ أُمُّه"[3] ففيه إيجازٌ بحذف مفعول اتّقى.

العدولُ في المقابلةِ اللّفظيَّةِ بين لفظَيْ ﴿تَعَجَّلَ﴾ و﴿تَأَخَّرَ﴾:

جماليّةُ التّعبيراتِ القرآنيّةِ تجعلُ تفرّدَها مُعجزًا

لسائلٍ أن يسألَ عن سرِّ عدولِ النَّظم القرآنيِّ عن لفظِ التَّأنِّي إلى لفظِ التَّأخُّر، فقال: ﴿وَمَن تَأَخَّرَ﴾ دون: (ومن تأنَّى)؛ فعَبَّرَ في ﴿تَعَجَّلَ﴾ بالمَلْزوم عَنِ اللّازِم، وعَبَّرَ في ﴿تَأَخَّرَ﴾ باللّازِم عَنِ المَلزوم[4]، وقال السّمين الحلبيّ: "وفيها من علم البيان: المقابلةُ اللفظية، وذلك أنّ المتأخِّرَ بالنَّفْر آتٍ بزيادةٍ في العبادة فله زيادةٌ في الأجر على المتعجِّل فقال في حقه أيضاً: ﴿فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِ﴾ ليقابلَ قولَه أولاً: ﴿فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوۡمَيۡنِ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِ﴾ فهو كقولِه: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ﴾ [الشّورى: 40] و﴿فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ﴾ [البقرة: 194][5].

دلالةُ فعلِ الأمرِ بالتَّقْوى في قولِه تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾:

الوَصِيَّةُ بتقوى اللّه في سائِرِ الأَحوالِ، لضمان الحاضِرِ والمآل

قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ فعل أَمْر في المُسْتَقْبَل أي: في كلّ ما تأتون وما تذَرون، فهو ليس تكرارًا مع قَوْلِه: ﴿لِمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾ الّذي أُريدَ

(1) الآلوسي، روح المعاني: 1/489.
(2) ابن الجوزي، زاد المسير: 1/169.
(3) أخرجه البخاريّ، حديث رقم: (1819)، ومسلم، حديث رقم: (1350).
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/323.
(5) السّمين، الدّرُّ المصون: 2/346.

بِهِ الماضي، وهذه وِصيَّةٌ بِالتَّقْوى، وَقَعَتْ في آخِرِ بَيانِ مَهامِّ أَحْكامِ الحَجِّ، لتذكير الرّاجعينَ مِنَ الحَجِّ بهذه الوَصِيَّة الجامِعَة وهي ملازمة تَقْوى اللَّهِ في سائِرِ أَحْوالِهِمْ وأَماكِنِهِمْ، ولا يَجْعَلوا تَقْواهُ خاصَّةً بِمُدَّةِ الحَجِّ، والتَّقْوى عِبارَةٌ عَنْ فِعْلِ المأموراتِ وتَرْكِ المنهيّاتِ[1].

دلالةُ عطفِ فعلِ الأمرِ بالعِلْمِ على الأمرِ بالتَّقوى:

تـأكـيـدُ الـخـبرِ لتقريرِ الحُكمِ، في قولـه: (أنكم إليه تحشرون)

عُطِفَ قولُه تعالى: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُمۡ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ﴾: على جملةِ ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ لاتّحادهما في الإنشائيّة، والأَمْرُ في ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ﴾ لِلتَّذْكيرِ؛ لِأَنَّه مَعْلومٌ عِنْدَهُمْ، وفيه دَليلٌ عَلى أَنَّهُ لا يَكْفي في اعْتِقادِ الحَشْرِ إلّا الجَزْمُ الذي لا يُخالطه شَيْءٌ مِنَ الظَّنِّ، وقد جاء تأكيد الخبر بأنّ واسميّة الجملة من قوله تعالى: ﴿أَنَّكُمۡ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ﴾ وتقديم الجار والمجرور ﴿إِلَيۡهِ﴾، لتقريرِ الحكم، وإفادةِ التّخصيصِ بمن يكون الحشرُ إلَيه وحده.

سرُّ إيرادِ لفظِ الحشرِ في سياقِ آياتِ الحجّ:

عبّرَ بالحشرِ بدلًا مـن المُـجـازاةِ، لمناسَبةِ السّياق

أصلُ الحشر: الجَمْعُ بَعْدَ التَّفَرُّقِ، فَلِذَلِكَ ناسَبَ قَوْلُهُ: ﴿تُحۡشَرُونَ﴾ حالَتَيْ تَفَرُّقِ الحَجيجِ بَعْدَ انْقِضاءِ الحَجِّ، واجْتِماعِ أَفْرادِ كُلِّ فَريقٍ مِنْهُمْ إلى بَلَدِهِ بَعْدَ ذَلِكَ[2]، وفيه تَأْكيدٌ لِلْأَمْرِ بِالتَّقْوى، وبَعْثٌ عَلى التَّشْديدِ فيهِ، وموجبٌ للامتثال به؛ لِأَنَّ مَنْ علم أَنَّهُ لا بُدَّ مِنْ حَشْرٍ ومُحاسَبَةٍ ومُساءَلَةٍ وجَزاءٍ، وأَنَّ بَعْدَ المَوْتِ لا دارَ إلّا الجَنَّةُ أَوِ النّارُ، كان ذَلِكَ مِنْ أَقْوى الدَّواعي لَهُ إلى ملازمة التَّقْوى[3]، وعبّر بالحشر بدلًا من المجازاة، لمناسبة السّياق، كما أنّه ناسق بين أوّل الآية وآخرها، فأمر بالذّكر في زمن محدود معدود، لزمن طويل الأمد، عظيم الهول، شديد الخَطْب واخْتيرَ لَفْظُ ﴿تُحۡشَرُونَ﴾ هُنا

(1) الرّازيّ، التّفسير الكبير: 5/343، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/264.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/264.
(3) الرّازيّ، التّفسير الكبير: 5/343، والآلوسي، روح المعاني: 1/489.

دونَ (تَصيرونَ) أَوْ (تُرْجَعونَ)؛ لِأَنَّ تُحْشَرونَ أَجْمَعُ في دلالته عَلى المَصيرِ، وعَلى الرُّجوعِ، مَعَ الدّلالَةِ عَلى أَنَّهُمْ يَصيرونَ مُجْتَمِعينَ كُلُّهُمْ، كَما كانوا مُجْتَمِعينَ في الحَجِّ، ولِأَنَّ النّاسَ بَعْدَ الحَجِّ يُحْشَرونَ إلى مَواطِنِهِمْ، فَذَكَّرَهُمْ بِالحَشْرِ العَظيمِ، فَلَفْظُ ﴿تُحْشَرُونَ﴾ هنا أَنْسَبُ بِالمَقامِ[1].

لطيفةٌ عن الحرالّيّ في مناسبةِ لفظِ الحشرِ للفظِ الحجِّ

وقد أورد الحَرالّي[2] التّناسبَ والتّطابقَ بين الحجّ والحشر، بقوله: كلّيّة الحجّ ومناسكه مطابقٌ في الاعتبار لأمر يوم الحشر ومواقفِه؛ من خروج الحاجّ من وطنه، متزوّدًا كخروج الميّت من الدّنيا، متزوّدًا بزاد العمل، ووصوله إلى الميقات، وإهلاله متجرّدًا كانبعاثه من القبر متعَرّيًا، وتَلْبِيَتِهِ في حجّه كتلبيته في حَشره، قال تعالى في وصف النّاس يوم الحشر: ﴿مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ﴾ [القمر: 8]، وكذلك اعتباره موطنًا إلى غاية الإفاضة، والحلول بحرم اللّه في الآخرة الّتي هي الجنّة، والشّرب من ماء زمزم الّتي هي آية نزّل اللّه لأهل الجنّة على وجوه من الاعتبارات، يطالعها أهلُ الفهم واليقين، فلأجل ذلك، كان أتمَّ ختْم لأحكام الحجّ ذكرُ الحشر[3].

بلاغةُ تذييلِ آياتِ الحجّ بقوله تعالى ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾:

ثمرة العباداتِ: تقوى اللهِ والإيمانُ بيوم الحسابِ

خُتمت الآياتُ التي تحدّثت عن فريضةِ الحجّ بهذا الختامِ المكوَّن من عنصرين، أحدهما: تقوى اللّه والثّاني: العلمُ اليقينيّ بالحشرِ، وأنّه سيكونُ إلى ربّ العالمين؛ للإشعار بأنّهما خلاصةُ التّديّن، وثمرة العبادات بكلّ أنواعها وكلّ طرقها، وإذا خلت أيّة عبادة من هذين الأمرين كانت صورةً لا روح فيها[4]، والتّذييل هنا تقريرٌ لموقفِ

(1) ابن عاشور، المصدر السّابق: 2/264.

(2) علي بن أحمد الحَرالّيّ، أندلسّي، وولد بمرّاكش، وتوفيّ بحماة سنة 637هـ، من تصانيفه: "مفتاح الباب المقْفل لفهم الكتاب المنزّل" جعله قوانين كقوانين أصول الفقه، ينظر: الذّهبيّ، سيَر أعلام النّبلاء: 23/47، وابن حجر: لسان الميزان: 5/498.

(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 1/383.

(4) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 2/633.

الحشرِ الّذي لا ريب فيه والحشر " اسمٌ يقع على ابتداءِ خُروجِهم من الأجداثِ، إلى انتهاءِ الموقف؛ لأنّه لا يتمّ كونُهم هناك إلّا بجميع هذه الأمورِ، والمرادُ بقوله: ﴿إِلَيۡهِ﴾، أنّه حيثُ لا مالكَ سواه، ولا ملجأ إلّا إيّاه، ولا يستطيعُ أحدٌ دفعا عن نفسه، كما قال تعالى: ﴿يَوۡمَ لَا تَمۡلِكُ نَفۡسٞ لِّنَفۡسٖ شَيۡـٔٗاۖ وَٱلۡأَمۡرُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ﴾ [الانفطار: 19]"[1].

استكمالُ سُورَةِ البقرةِ أركانَ الإسلامِ بالحديثِ عن الحجِّ

وبالكلامِ عن الحجّ تكونُ سورةُ البقرةِ، قد استكملت الحديثَ عن أركان الإسلام الخمسةِ في العقائدِ والعباداتِ، وقد ربطتها جميعًا بالتّقوى، فوردت الثّلاثة أركان الأولى منها في مقدّمة السّورة في آياتها الأُوَل مؤكّدةً على التّقوى: ﴿الٓمٓ ١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ٢ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ٣﴾ [البقرة: 1-3]. وأمّا الرّكنان الرّابعُ والخامسُ من أركانِ الإسلام وهما الصّيام والحجّ فقد تصدّرت التّقوى آياتِ الحديثِ عن ركنِ الصّيام: ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ١٨٣﴾ [البقرة: 183]، وتكرّرت التّقوى مرارًا أثناء الحديث عن الحجّ، وجاء ذكرُ الحجِّ لمزيدِ الاعتناءِ به لاحقًا للصّوم، بعد ذكره سابقًا علَيه، ولعلّ ذلك هو السّبب في تقديم الصّومِ على الحجّ تارةً، وتأخيره أخرى في رواياتِ حديثِ ابن عمر رضي الله عنهما في الصّحيحِ: «بُنِيَ الإِسْلامُ عَلى خَمْسٍ ...» الحديث[2].

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

مَعدودات ومعدُودة:

لمعرفةِ الفرقِ المعنويّ بين ﴿مَّعۡدُودَٰتٖ﴾ و﴿مَّعۡدُودَةٗ﴾ يجبُ أن نعلم بأنّ جمع المذكّر السّالم وجمع المؤنّث السّالم يدلّان – في الغالب – على عددٍ قليلٍ لا ينقصُ عن ثلاثةٍ، ولا يزيدُ على عَشرةٍ، فهما كجموعِ القلّة الّتي للتّكسير، ينحصرُ مدلولُها في ثلاثةٍ وعشرة

(1) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 5/343.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 1/383، والحديث أخرجه البخاريّ، حديث رقم: (8، 4514)، ومسلم، حديث رقم: (16).

وما بينهما؛ وعلى هذا فلفظ ﴿مَّعۡدُودَٰتٍۚ﴾ جمع قلّة، تدلّ على عددٍ ما بين ثلاثةٍ وعشرة، و﴿مَّعۡدُودَةٗ﴾ مفردٌ يدلّ على الكثرة؛ أي أكثرَ من عشرةٍ، قال تعالى في يوسف عليه السلام: ﴿وَشَرَوۡهُ بِثَمَنِۭ بَخۡسٖ دَرَاهِمَ مَعۡدُودَةٖ وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ ٱلزَّهِدِينَ﴾ [يوسف: 20]، فمعدودة أكثرُ من معدوداتٍ، وهذا من المواضعِ الّتي يكونُ فيها المفردُ أكثرَ من الجَمع.

وقد جاء استعمالُ المفرد مرّة والجمع مرّة أخرى في موضعين يبْدُوان متشابهَين وذلك في قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامٗا مَّعۡدُودَةٗ﴾ [البقرة: 80]. وقوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامٗا مَّعۡدُودَٰتٖ﴾ [آل عمران: 24] فقال مرّة: ﴿مَّعۡدُودَةٗ﴾ ومرّة أخرى: ﴿مَّعۡدُودَٰتٖ﴾ مع أنّ القصّة واحدة، وذلك لاختلاف السّياق في الموضعين؛ لأنّ الذّنوب التي ذُكرت في الأولى أكثر، فجاء بـ﴿مَّعۡدُودَةٗۚ﴾ الّتي تفيد الكثرة، والّتي ذكرت في الثّانية أقلّ، فاستعملَ ﴿مَّعۡدُودَٰتٖ﴾ مناسبةً لمعنَى كلٍّ منهما، وقال آخرُون: جمعُ المذكّر السّالم وجمعُ المؤنّث السّالم صالحان للكثرَةِ والقلّة، ما لم توجد قرينةٌ تعيّن أحد الأمرين، كالّتي تعيّن القلّة في قوله تعالى: ﴿وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ فِيٓ أَيَّامٖ مَّعۡدُودَٰتٖ﴾ [البقرة: 203]، فإنّ المراد بها أيّامُ التّشريقِ، وهي قلّة، وكالّتي تعيّن الزّيادة في قوله تعالى عن عباده الصّالحين: ﴿وَهُمۡ فِي ٱلۡغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ﴾ [سبأ: 37]، ولا يجوز أن تكون الغُرَف كلّها الّتي في الجنّة من الثّلاث إلى العشر، وكذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡمُسۡلِمِينَ وَٱلۡمُسۡلِمَٰتِ﴾ [الأحزاب: 35]، وقوله تعالى: ﴿قُل لَّوۡ كَانَ ٱلۡبَحۡرُ مِدَادٗا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلۡبَحۡرُ قَبۡلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي﴾ [الكهف: 109][1].

(1) الفيّومي، المصباح المنير: 2/695، وعبّاس حسن، النّحو الوافي: 1/137-138، وفاضل السّامرّائّي، معاني النّحو: 1/66، وفاضل السّامرّائيّ، أسرار البيان في التّعبير القرآنيّ، (كتاب بترقيم الشاملة آليا).

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيُشۡهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ
مَا فِي قَلۡبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلۡخِصَامِ ٢٠٤ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُفۡسِدَ
فِيهَا وَيُهۡلِكَ ٱلۡحَرۡثَ وَٱلنَّسۡلَۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَسَادَ ٢٠٥ وَإِذَا قِيلَ
لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتۡهُ ٱلۡعِزَّةُ بِٱلۡإِثۡمِۚ فَحَسۡبُهُۥ جَهَنَّمُۖ وَلَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ٢٠٦
وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡرِي نَفۡسَهُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ
بِٱلۡعِبَادِ ٢٠٧﴾ [البقرة: 204- 207]

مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قَبْلَها:

الحَجّ من العبادات التي تكْشفُ عن خَبايا القلوب:

المناسبة بين أثر الحجّ في التّطهيرِ ووجودِ المنافقِ الخَطير، والمُخلِص البَصيرِ

لمّا ذكرَ اللّهُ تعالى في الآياتِ السّابقةِ عبادةَ الحجّ التي تطهّرُ القلوبَ، وتغفرُ الذّنوبَ، وذكَرَ أصنافَ النّاسِ في أدْعيتِهم التي تكْشفُ عن خبايا قلوبهم، وأنّ منهم من يطلبُ الدّنيا، ولا غايةَ له وراءها، ومنهم مَن يطلبُ حسنةَ الدّنيا والآخرةِ والوقايةَ من النّار، أتى هنا بذكْر صنْفَين آخَرَين؛ أوّلُهما منافقٌ حلوُ المنطق مُظهِرٌ للودّ، يخالفُ ظاهرُه باطنَه، يَبذُلُ دينَه لِطَلَب الدّنيا، وثانيهما مَن يقصدُ رضا اللّه تعالى، ويبذُلُ نفسَه ومالَه ودنياه في سبيلِ ذلك، ولمّا كان ذكرُ الحالتين بعد ذكر الحشر في الآيات ربّما أوهم أن يكون القول أو الإعجاب، واقعاً في حالة الحشر، اقتَضَتْ دقّةُ السّياق تقييدَه بالحياة الدّنيا، فهو فيها لا يزداد إلّا تحسيناً لقوله، وتقبيحاً لما يخفى من فعله، وأمّا في الآخرة فسوفَ تُجلَى الضّمائر وتُبلَى السّرائرُ، وحينها تنكشفُ الخبيئةُ، ويظهرُ كلامُ المنافقِ على حقيقتِهِ غير حَسَنٍ ولا مُعجب وشتّانَ بين الحالين[1].

(1) الفيّومي، المصباح المنير: 2/695، وعبّاس حسن، النّحو الوافي: 1/137- 138، وفاضل السّامرّائي، معاني النّحو: 1/66، وفاضل السّامرّائيّ، أسرار البيان في التّعبير القرآنيّ، : (كتاب بترقيم الشاملة آليا).

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

العَجَبُ: انْفِعالٌ نَفْسيّ عِنْدَ أَمْرٍ يَخفى سَبَبُهُ

1) ﴿يُعْجِبُكَ﴾: منَ الإعْجَاب إيجادُ العَجَبِ في النَّفْس، والهَمْزَةُ فيه للتَّعدّي، والعَجَبُ: انْفعالٌ يَعْرِضُ لِلنَّفْسِ عِنْدَ مُشاهَدَةِ أَمْرٍ غَيْرِ مَألوفٍ خَفِيَ سَبَبُهُ، ولَمّا كانَ شَأْنُ ما يَخْفى سَبَبُهُ أَنْ تَرْغَبَ فيه النَّفْسُ، صارَ العجَبُ مستلزمًا للاستحسان فَيُقالُ: أَعْجَبَني الشَّيْءُ بِمَعْنى أَوْجَبَ لي اسْتِحْسانَهُ، فيُقالُ في الاسْتِحْسانِ: أَعْجَبَني كَذا، وفي الإنْكارِ: عَجِبْتُ مِنْ كَذا، ومعنى قَوْلِه: ﴿يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ﴾ أَيْ يَحْسُنُ عِنْدَكَ قَوْلُهُ[1].

الألدّ الخصِام يماحِكُ في الخصومة، ويشتدّ في المِراء:

2) ﴿أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ﴾: معنى اللّفظين مرتبط بوجودهما معا، الأَلَدُّ: الخصيمُ الشّديدُ التّأبّي، وجمعُه: لُدٌّ، وأصلُ الألدّ: الشّديدُ اللَّدَد، أي: صفحةُ العُنُق، وفلانٌ يَتَلَدَّدُ، أي: يتلَفّت، أو مُشْتَقٌّ من لديدَي الإنسانِ وهما جانبا الفَم، لأنّ المخاصمَ لك كلّما أخذْتَ في جانبٍ أخذَ في جانب آخَرَ من الجِدال، فالأَلَدُّ: الخَصِمُ الجَدِلُ الشّحيحُ الّذي لا يَرجِعُ إلى الحقّ مهما بان له بُطلانُ رأيه[2].

ولفظ ﴿ٱلْخِصَامِ﴾: والخَصْمُ مصدرُ خَصَمْتُهُ، أي: نازَعْته خَصْمًا، يُقال: خاصمْتُه وخَصَمْتُهُ مُخاصَمَةً وخِصامًا، و﴿ٱلْخِصَامِ﴾ مصدرٌ كالمخاصَمَةِ، قال تعالى: ﴿وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ﴾ [البقرة: 204]، ﴿وَهُوَ فِي ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴿١٨﴾﴾ [الزّخرف: 18]، ثمّ سُمّي المُخاصِمُ خَصمًا، وأصلُ المُخاصَمَة: أن يتعلّقَ كلُّ واحدٍ بخُصْم الآخَر، أي جانبِه، وأن يَجْذِبَ كلُّ واحدٍ خُصْمَ الجُوالِق مِنْ جانب، والجمعُ خُصومٌ وأخصام. والخصومَةُ: المنازَعَةُ. والخَصيمُ: الكثيرُ المخاصَمَة، قال: ﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٤﴾﴾ [النّحل: 4]، والخَصِمُ: المختَصُّ بالخُصومة، قال: ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [الزّخرف: 58][3].

(1) الرّاغب، المفردات: (عجب)، وأبو حيّان، البحر المحيط: 2/316، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/266، والخازن، لباب التّأويل: 1/136.
(2) الرّاغب، المفردات: (لدد)، والسّمين، عمدة الحفّاظ: (لدد)، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 1/279، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (لدد).
(3) الرّاغب، المفردات: (خصم)، والسّمين، عمدة الحفّاظ: (خصم)، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (خصم).

الحَرْثُ هو الزّرعُ سمّي بذلك لمجاوَرته الأرضَ المحروثةَ

3) ﴿ٱلْحَرْثَ﴾: مَصْدَرُ حَرَثَ يَحْرُثُ، الحرْث: الإثارةُ والتّفتيشُ. ومنه حرْثُ الأرضِ، وهو إثارتُها وتطْييبُها وشَقُّها لِيُبْذَرَ فيها الحَبُّ، ويُطْلَقُ عَلى المحروثِ وهو الأرضُ، ويسمّى الزّرعُ حرثًا للمجاوَرَة والتّناسُبِ[1]، و"الحَرْث في اللّغة شقّ الأرض للزّراعة، ويسمّى الزّرع حرثًا للمجاورة والتّناسب، ويدخل سائر الشّجر والغراسات في ذلك، حملًا على الزّرع"[2].

النّسل أولاد الإناث ونتاجُها

4) ﴿وَٱلنَّسْلَ﴾: ما خَرَجَ مِنْ كُلِّ أُنْثى مِنْ وَلَدٍ، وأَصْلُهُ الخُروجُ والسُّقوطُ، وهو مصدرُ نَسَلَ ينسُل أي: خَرَجَ بسرعةٍ، قال تعالى: ﴿إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ﴾ [يس: 51]، ومنه: نَسَلَ وَبَرُ البعيرِ، ونَسَلَ ريشُ الطّائرِ أي: خَرَجَ وتطايَرَ، وقيل: النّسلُ الخروجُ مُتتابعًا، ومنه: نُسالُ الطّائر: ما تتابعَ سقوطُهُ من ريشِهِ، والنُّسالة للسّاقط منه، وسمّي الولدُ نسلًا لِخُروجِهِ مِنْ ظَهْرِ الأَبِ، وسُقوطِهِ مِنْ بَطْنِ الأُمِّ بِسُرْعَةٍ[3].

5) ﴿ٱلْفَسَادَ﴾: خروجُ الشّيءِ عن حالِ استقامتِه وكونِه مُنْتفَعًا به، وهذا يشملَ العبَثَ بالأجهزةِ والمُعَدَّات حتّى تتعطّلَ، ونقيضُه الصّلاحُ، والفسادُ في الأرضِ هَيْجُ الحروبِ والفِتَن؛ لأنّ في ذلك فسادَ ما في الأرضِ، وانتفاءَ الاستقامةِ عن أحوالِ النّاسِ والزّرعِ والمنافعِ الدّينيّة والدّنيويّة، قال اللّه تعالى: ﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ﴾، والإفسادُ يعمُّ إهلاكَ الحرثِ والنّسلِ وغيرِه، فيكونُ في الأعيان والمعاني، ويُستعمَلُ في النّفْس والبَدَن[4] وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ﴾: "معناه لا يحبّ أهلَ الفسادِ، وقال بعضُهم: لا يمدحُ الفسادَ، ولا يثني

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 1/280، والرّاغب، المفردات: (حرث)، وأبو حيّان، البحر المحيط: 1/402، والسّمين، عمدة الحفّاظ: (حرث).
(2) ابن عطيّة: المحرّر الوجيز: 1/280.
(3) الرّاغب، المفردات: (نسل)، وتفسير الرّاغب: 1/428، والسّمين، الدّرّ المصون: 2/353، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 3/18، وأبو حيّان، البحر المحيط: 2/316.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، والسّمين، عمدة الحفّاظ، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (فسد).

عليه، وقيل إنّه لا يحبّ كونه دينًا وشرعًا، ويحتمل: لا يحبّ العمل بالفساد"[1].

العزيزُ يَغلبُ ولا يُغلَب، ويَقهرُ ولا يُقهَر

6) ﴿ٱلۡعِزَّةُ﴾: "العزّةُ في اللّغةِ المنفعةُ والغلبةُ كما يقال: من عزَّ بزَّ، أي من غلبَ سلبَ، ويقال: عزَّ الشّيءُ إذا اشتدّ وجوده[2]، والعِزَّةُ: حالةٌ مانعةٌ للإنسانِ من أن يُغلَب، ولفظُها يَدُلُّ عَلى شِدَّةٍ وقُوَّةٍ وما ضاهاهُما، مِنْ غَلَبَةٍ وقَهْرٍ، والعزيزُ: الغالبُ الممتنعُ على مَن يريدُه بالقهر والغلَبة، والباري تعالى أغلبُ الغالِبين فهو يَقهرُ ولا يُقهَر، قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [العنكبوت: 26]، وقد تُستعارُ العِزَّةُ للحميّة والأنَفَة المذمومَة، وذلك في قوله: ﴿أَخَذَتۡهُ ٱلۡعِزَّةُ بِٱلۡإِثۡمِۚ﴾[3].

جَهَنّم اسمٌ للنّار بعيدةُ القَعْر، عميقةُ القرار

7) ﴿جَهَنَّمُ﴾: اسمُ علم للنّار، يقالُ: بئرٌ جَهَنّم، وجَهَنّام (بتثليث الجيم): بعيدةُ القَعْر، ومنه اشتقاقُها، والمشهورُ عند النّحاة أنّها عربيّةٌ، وأنّ منْعَها من الصّرفِ للعَلَميّة والتّأنيثِ، ووزنُها فعنَّل، واختُلف في نونها بين الزّيادة والأصالة، وقيل: هي اسمٌ لجميعِ نارِ الطّبقاتِ السّبْعِ، لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوۡعِدُهُمۡ أَجۡمَعِينَ ٤٣ لَهَا سَبۡعَةُ أَبۡوَٰبٖ﴾ [الحجر: 43 - 44][4]، ومعنى الآية: "فحسبُهُ جهنّمُ، كافيه الجَحيمُ، جزاءً له وعذابًا، يقال: حسبُك كذا أي: كفاك[5].

المهاد المُعَدّ في جهنّم للمفسدين يكون لهم جزاءً وفاقًا

8) ﴿ٱلۡمِهَادُ﴾: (مَهَدَ) كَلِمَةٌ تَدُلُّ عَلى تَوَطِئَةٍ وتَسْهيلٍ لِلشَّيْءِ، ومِنْهُ مَهْدُ الصَّبِيِّ: موضعُه الذي يُهَيَّأُ له ويوَطَّأ لينامَ فيه، ومَهَّدْتُ الأَمْرَ: وَطَّأْتُهُ، والمِهادُ: الوِطاءُ مِنْ كلّ شَيْءٍ، فقيل لكلّ وطيءٍ مهدٌ، والمِهادُ جُعِل تارةً جمعًا للمَهْد، وتارةً مُفرَدًا بمعنى الفِراش، فالمهادُ

(1) الماورديّ، النّكت والعيون: 1/266.
(2) السّمرقنديّ، بحر العلوم: 1/348.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عزّ)، والرّاغب، المفردات: (عزّ)، والسّمين، عمدة الحفّاظ: (عزز).
(4) الرّاغب، المفردات: (جهنم)، وأبو حيّان، البحر المحيط: 2/317، والسّمين، عمدة الحفّاظ: (جهن)، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (جهنم).
(5) الواحديّ، الوسيط: 1/311.

كالفراشِ، والمهْدُ كالفَرْش، وزنًا ومعنًى، وجَعْلُ جهنّمَ مِهادًا لهم تهَكُّمًا بهم، أي: ولَبِئْسَ الفراشُ الذي يستَقِرُّ علَيه بسَبَبِ غُرورِه[1] "، وقيل لجهنّم (مهاد) على وجهين: أحدهما: أن يكون تقديره: بئس موضعُ المهاد، وقيل: لأنّها لهم بدلُ المهاد سمّيت باسمه، كما جاء: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٢١﴾ [آل عمران: 21][2].

لفظ ﴿يَشْرِى﴾ من الأضداد، والشّراءُ والبَيعُ متلازمان عادةً:

9) ﴿يَشْرِى﴾: الشَّرْي: من الأضداد، يُقال: شَرى، إذا باع. وشَرى: إذا اشْترى، قال تعالى: ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ﴾ [يوسف: 20] قيل: معناهُ باعوهُ؛ على أنّ الضّميرَ المرفوعَ لإخوةِ يوسفَ، وقيل: هو على بابِه بمعنى اشتروه؛ على أنّ الضّميرَ للسَّيّارة، وقال بعضُهم: الشّراءُ والبَيعُ متلازمان؛ فالمشْتري دافعُ الثَّمَنِ وآخذُ المُثْمَنِ؛ هذا إذا كانت المبايَعَةُ والمشاراةُ بناضٍّ وسلعة، فأمّا إذا كانت بَيْعَ سلعةٍ بسلعةٍ، صحّ أن يُتَصوّرَ كلُّ واحدٍ منهما في موضع الآخر، إلّا أنّ شريتُ بمعنى بِعْتُ أكثر، وابتَعتُ بمعنى اشتريتُ أكثر، والأصلُ في هذا المماثلةُ، وقد جاءَ معنى الشّراءِ المشهورُ، للمماثلةِ بين المشترى وثمنِه، في القيمة. ومعنى قوله تعالى: ﴿يَشْرِى نَفْسَهُ﴾ أي: يبيعُها، ومعنى بيع النّفس ههنا: بذلُها لأوامرِ اللّه وما يرضاه، وكلُّ ما جاء في القرآن الكريم من الفعل (شرى يشري)، فالمرادُ به البَيعُ[3].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

هذه الآياتُ تذكرُ صِنفين من النّاس، بعد أن ذكرتِ الآياتُ السّابقة صِنفين منهم، فالصِّنف الأول هنا: هو ما يسمَّى بأهل النّفاق الّذين يُظهِرون الإسلام ويُبْطِنون الكفرَ؛ وجاء من أوصافِ هذا الصّنفِ المنافقِ: أنّه حلوُ اللّسان، يُعجِبُ منطقُه السّامعين، وأنّه يؤكّد كلامه بالأيْمان الكاذبة، وفي هذا غاية الجرأة على اللّه، وأنّه فاجرٌ مخاصمٌ لدودٌ في خصومَته للإسلام والمسلمين، وأنّه مُفْسِد في الأرض، يُعطّلُ الحياةَ، ويُهلكُ الحرْثَ والنّسلَ، وإذا نُصحَ يَأْنَفُ ويتكبّر، ولا يقبلُ النّصيحةَ، فهذا حسبُه أن تكون جهنّمُ له فِراشًا ومِهادًا ومَأوى، وهناك صنفٌ آخَر: هو صنفُ الأخيارِ الصّالحين المصلِحين من

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (مهد)، والراغب، تفسير الرّاغب: 1/429، والسّمين، عمدة الحفّاظ: (مهد).
(2) أبو بكر بن فورك، تفسير ابن فورك، من أول سورة المؤمنون إلى آخر سورة السّجدة: 2/297.
(3) الجوهريّ، الصّحاح: (شرى)، والرّاغب، المفردات: (شرى)، والواحديّ، الوسيط: 1/312، والسّمين، عمدة الحفّاظ: (شرو)، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (شرى).

الّذين يَبيعون أنفسَهم لله، طالبين رِضاه؛ فيَفْدي دينَ الله والحقَّ بنفسِه ومالِه، وكلِّ ما يملكُ، حتّى وإن تعَرّض للأذى أو التّلف، أو الاستشهاد[1]، والآيات تخاطِبُ النّبيَّ ﷺ ومَن يتَأتّى خطابُه، في بيان هذا الصّنف من المنافقين الّذين يُظهرون المودّةَ والموافقةَ، وإذا تولَّوا أفسَدوا في الأرض، فكانتْ فِعالُهم مخالفةً لأقوالهم، وقابَلَ هذا بالصّنفِ الآخَرِ الّذي يَقْصِدُ وجه اللّهِ ويَبيعُ نَفْسَه ودنياه في طَلَب عفوه ورضاه.

الإيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

بلاغةُ عطفِ الجملِ على الجملِ، وأثرها في تقسيم النَّاس:

تنوّعُ أحوالِ النّاسِ بين منافقٍ لئيمٍ ومُخلصٍ يبتغي مرضاةَ الرّؤوفِ الرّحيمِ:

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ مفتتَحةٌ بقوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾، الواو عاطفة على قوله: ﴿فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنۡيَا﴾ [البقرة: 200]؛ "لِأَنَّهُ ذَكَرَ هُنَالِكَ حَالَ الْمُشْرِكِينَ الصُّرَحَاءَ الَّذِينَ لَا حَظَّ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ، وَقَابَلَ ذِكْرَهُمْ بِذِكْرِ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ لَهُمْ رَغْبَةٌ فِي الْحَسَنَةِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، فَانْتَقَلَ هُنَا إِلَى حَالِ فَرِيقٍ آخَرِينَ مِمَّنْ لَا حَظَّ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَهُمْ مُتَظَاهِرُونَ بِأَنَّهُمْ رَاغِبُونَ فِيهَا، مَعَ مُقَابَلَةِ حَالِهِمْ بِحَالِ الْمُؤْمِنِينَ الْخَالِصِينَ الَّذِينَ يُؤْثِرُونَ الْآخِرَةَ وَالْحَيَاةَ الْأَبَدِيَّةَ عَلَى الْحَيَاةِ فِي الدُّنْيَا، وَهُمُ الْمَذْكُورُونَ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡرِي نَفۡسَهُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِۗ﴾ [الْبَقَرَة: 207]"[2].

معنى التّبيعضِ في (مِن) في قولِه تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ﴾:

(مِنْ) للتّبعيض، أي: وبعض النّاس، والتّبعيضُ هنا للتّحقير، وهو مستفادٌ من سياق الذّمّ الوارد فيه.

دلالة اللّامِ في قولِه تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ﴾:

الألف اللّام في ﴿ٱلنَّاسِ﴾، تكون للعهد إذا حُملت الآيةُ على من نزلت فيهم، أو للجنس إذا كانت عامّةً فيمن نزلت فيهم وفيمن

(1) الخفاجيّ، عناية القاضي: 2/293، ونخبة من العلماء، التفسير الميسر: ص: 32.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/265.

يشملهم حُكمُها، وهذا شأن الآيات تنزل في خصوص حادثة أو سؤال، ثمّ تكون عامّةً فيما تنطبق علَيه، والعبرةُ بعمومِ اللّفظ لا بخصوص السّبب.

غاية التّعبيرِ بالاسمِ الموصولِ التّشويق إلى الخبر المقولِ:

من عادة القرآن أن يـذمّ الفعلَ لا الفاعلَ، رجاءَ إقــلاعِــهِ عـنه وتفاديه

﴿مَن﴾ في قولِه تعالى: ﴿مَن يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ﴾ اسمٌ موصولٌ، ويجوز أن تكون نكرةً موصوفة أي: ومن النّاس ناسٌ، يعجبُك قولُهم[1]، وهي في محلّ رفع مبتدأ، خبرُها الجارّ والمجرور قبلها، وتقديم الخبر للتّشويق إلى استعلام المبتدأ، فقوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ مُؤْذِنٌ بأنّه ستُساق فيهم قصّة ... و(مَن) مِنَ الأَسْماءِ الموصولة الّتي لَفْظُها مُفْرَدٌ مُذَكَّرٌ دائِمًا، وتَنْطَلِقُ عَلَيه فُروعُ المُفْرَدِ والمُذَكَّرِ، إذا كانَ مَعْناها كَذَلِكَ؛ فَتارَةً يُراعى اللَّفْظُ، فَيُفْرَدُ ما يَعودُ عَلى (مَنْ) مُذَكَّرًا، وتارَةً يُراعى المَعْنى فَيُحْمَلُ عَلَيه[2]، وقد روعي اللّفظ هنا، فجاءت الضّمائر العائدةُ علَيه بعده بصيغة المفرد.

ويأتي الاسمُ الموصولُ عندما تكونُ صلتُه، هي الّتي علَيها مدارُ الحُكم، كما أنّه يثير في النّفس الشّوقَ إلى معرفةِ الخبر، فصلةُ الموصولِ هنا إعجابُ القولِ لسامعِه: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيُشۡهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلۡبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلۡخِصَامِ﴾ وما عُطف عليه، والغرضُ ذمٌّ من يتّصفُ بذلك، إذ يتّجه الذَّمُّ إلى الفعل دون الفاعل، ليترك لفاعله فرصةَ اجتنابه، ويدعوه إلى تركِه واجتنابه، وجاء بعده قوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡرِي نَفۡسَهُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلۡعِبَادِ﴾، ليكونَ في مقابلته، حتّى تكونَ الموازنةُ قويّةً جليّة، تدفع إلى العمل الصّالح ابتغاءَ مرضاة اللّه، وسبب النّزول مدرجٌ في كثير من كتب التّفسير وكتب أسباب النّزول، ومردّه على

(1) العكبريّ، التّبيان: 1/166، وأبو حيّان، البحر المحيط: 1/88.
(2) أبو حيّان، المصدر السّابق: 1/89.

خلاف إلى قصّة الأَخْنَسِ بْنِ شريقٍ، أو سَرِيَّةِ الرَّجيعِ، وكلاهما مبسوط في مظانّه[1].

بلاغةُ التَّعبيرِ بصيغة الفعلِ المضارِعِ:

تصويرُ الإعجابِ في المستقبل

معنى الإعْجابِ هو إيجادُ العَجَبِ في النَّفْسِ، وهو مستلزِم للاستحسان، أَيْ: يَحْسُنُ عِنْدَكَ قَوْلُهُ[2]، وجاء المسنَد إلَيه ضميرًا مقدَّمًا على فاعله استقباحًا لذكْره باسمه، وجاء قولُه تعالى: ﴿يُعْجِبُكَ﴾ ماضيًا في المعنى، مضارعًا في اللَّفظِ للتّصوير والتّحقيق، كأنّه مُشاهَد للعيان، وعلى (العموم)، فهو مستقبل حقيقة[3]، وفي قوله: ﴿يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ﴾ إشارةٌ إلى أنّ له قولًا آخرَ ليس بهذه الصّفة[4]، لكنّه يَحترز من إظهاره أمام المؤمنين، حتّى لا يُفتَضَح أمرُه.

تعدُّدُ تعلُّقِ قولِه: ﴿فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾:

إجادةُ اللِّسانِ بما يخالفُ الإيمانَ سِمةُ أهل النِّفاق

اختُلف في تعلُّقِ الجارِّ والمجرورِ ﴿فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾، بأيِّ شيءٍ؟ فقيل: متعلِّقٌ بقولِه تعالى: ﴿قَوْلُهُۥ﴾، أي: يعجبُك ما يقولُه في أمورِ الدّنيا، وأسبابِ المعاشِ؛ لأنّه يطلبُ بادّعاء المحبّة حظَّ الدّنيا، ولا يريدُ به الآخرةَ، ومَن أحبّ شيئًا أحسن القولَ فيه، ومن كانت الدّنيا همَّه أحسن حكايةَ أمورها، حتّى إنّ قوله فيها ليكون عجيبًا مُعجِبًا.

وقيل: متعلِّقٌ بـ﴿يُعْجِبُكَ﴾، فيكون المعنى: يعجبُك كلامهم في الدّنيا، وفي الآخرة سيكونون بحالٍ لا يعجبُك؛ حيث يكون

---

(1) يورد أهل التّفسير أنّ هذه الآية وما بعدها، نَزَلَتْ في الأَخْنَسِ بْنِ شريقٍ، وكانَ حُلْوَ اللِّسانِ والمَنْظَرِ، يُجالِسُ رَسولَ اللَّهِ ﷺ، ويُظْهِرُ حُبَّهُ والإسْلامَ، ويَحْلِفُ عَلى ذَلِكَ، فَكانَ يُدْنِيهِ ولا يَعْلَمُ ما أَضْمَرَ، وكانَ مِنْ ثَقِيفٍ حَلِيفًا لِبَني زُهْرَةَ، فَجَرى بَيْنَهُ وبَيْنَ ثَقِيفٍ شَيْءٌ، فَبَيَّتَهُمْ لَيْلًا وأَحْرَقَ زَرْعَهُمْ، وأَهْلَكَ مَواشِيَهُمْ وقالَ ابْنُ عَبّاسٍ: نزلت في كُفّارِ قُرَيْشٍ، أَرْسَلوا إلى رَسولِ اللَّهِ ﷺ: إنّا قَدْ أَسْلَمْنا، فَابْعَثْ إلَيْنا مَنْ يُعَلِّمُنا دينَكَ، وكانَ ذَلِكَ مَكْرًا مِنْهُمْ، فَبَعَثَ إلَيهِمْ خُبَيْبًا، ومرشدًا، وعاصِمَ بْنَ ثابِتٍ، وابْنَ الدّثنة، وغَيْرَهُمْ، وتُسَمّى: سَرِيَّةَ الرَّجيعِ، والرَّجيعُ مَوْضِعٌ بَيْنَ مَكَّةَ والمَدينَةِ، فَقُتِلوا جميعًا ورُوِيَ عَنِ ابْنِ عَبّاسٍ: أَنَّه حملها على العموم لتشملَ هؤلاء المذكورين، وكُلَّ مُنافِقٍ أَظْهَرَ على لِسانِهِ ما لَيْسَ في قَلْبِهِ، كما جاء عن قَتادَة وغيره في المُنافِقينَ، قالوا: عَنْ سَرِيَّةِ الرَّجيعِ: وَيْحَ هؤلاء ما قعدوا في بُيوتِهِمْ، ولا أَدَّوْا رِسالَةَ صاحِبِهِمْ! ينظر: ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 1/279، وأبو حيّان، البحر المحيط: 2/325.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/266.

(3) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/248-249، والخفاجيّ، عناية القاضي: 1/302.

(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 1/210.

الحكم للظّاهر، ولا يُنْقَبُ عن القلوب والسّرائر، أمّا الآخرةُ فالحَكَمُ فيها علّامُ الغيوب الّذي يعلمُ ما تُخفي الصّدور، فلا سبيلَ للخديعة بالقول.

وهذا الّذي يتّفق مع السّياق؛ إذ إنّ السّياق في بيان الذين يخدعون النّاس في الدّنيا وقلوبُهم مريضةٌ، لا بيان حالِ مَن يُجيدون القول فيها، وإنّ بعض الّذين يجيدون القول في الدّنيا أخيارٌ لا أشرار[1].

دلالةُ القسمِ في قولِه تعالَى: ﴿وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ﴾:

معنى إشْهادِ اللَّهِ في قَولِه تعالى: ﴿وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ﴾ أي: حَلفُهُ بِأَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ إنَّهُ لَصادِقٌ؛ وذلك لما يعتري سامعَه من ريبة في صدق حاله ومقاله، كما قالَ تَعالى: ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ﴾ [التوبة: 62]، أي يقول حالفًا: اللّه يعلم أنّي أقول حقًّا، اللّه يعلم أنّ ما في قلبي موافِقٌ لما في لساني، وهو يجادل في ذلك ويخاصم، وجاء في قراءة تفسيريّة لأُبيّ وابن مسعود رضي الله عنهما: (ويَسْتَشْهِدُ اللّه على ما في قلبِه)[2]، ومن ألفاظ القسَم: (اللّه يعلم أنّي فعلت كذا)، أو (اللّه يشهد أنّي قلت كذا)؛ فهذا توكيد بالأيمان معروفٌ في لغة العرب، والحلِفُ على هذا النّحو أوكَدُ وأوثقُ من القسَم الصّريح[3].

عندما تضمحلُّ ثقةُ المرتابِ، يُوثّق أباطيلَه بالأَيْمان الكِذاب

معنى الواوِ في قولِه تعالى: ﴿وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ﴾:

تحتملُ الواوُ في قولِه تعالى: ﴿وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ﴾ أن تكونَ حاليَّةً، والجملةُ في محلِّ نصبٍ على الحال، وهذا ممّا استُدرك على قول الجُرجانيّ: "جملةُ الحالِ والفعلُ مضارعٌ مثبَتٌ غيرُ منفيٍّ، لا تكادُ تجيءُ بِالواو"[4]، ولهذا أمثلة أخرى[5].

احتمالُ معنى الحالِ والاستئنافِ والعطفِ

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 2/636.
(2) الراغب، تفسير الرّاغب: 1/428، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 1/279.
(3) أبو زهرة، المصدر السّابق: 2/637.
(4) الجرجانّي، دلائل الإعجاز: 1/674.
(5) محمّد عضيمة، دراسات لأسلوب القرآن الكريم: 3/586.

وتحتمل أن تكونَ الواوُ استئنافيّةً، والجملة بعدها مستأنَفة لا محلّ لها، ويجوز أن تكون الواو عاطفة جملة ﴿وَيُشْهِدُ﴾ على جملة ﴿يُعْجِبُكَ﴾[1]، وذلك لاتّحادهما في الخبريّة.

بلاغةُ الاستعارةِ في لفظِ الألد:

تصويرُ الخصومة الشَّديدة بصورةٍ حسيَّةٍ مشاهدةٍ

استعير الألدّ في قَوله تعالى: ﴿وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ﴾ للجَدِل الشّديد الخصومة المغالِب فيها، الّذي يلوي الحُجج في كلّ جانب، والألدُّ: هو المائلُ، اللَّديد، أي: المائل صفحة العنق؛ فيشْبه انحرافُه واعوجاجُه المشيَ في لديدَي الوادي[2]، قال الزّجاج: "والمعنى فيه، أنّ اللّه عالم بما يُسِرُّه، فأعلم اللّه ﷻ النّبيّ ﷺ حقيقةَ أمر هذا المنافق وقال: ﴿وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ﴾، ومعنى خَصمٌ ألدُّ في اللّغة: الشّديد الخصومة والجَدَلِ، واشتقاقه من لَديدَي العُنق، وهما صفحتا العنق، وتأويله، أنّ خصمه في أيّ وجه أخذ - من يمين أو شمال - من أبواب الخصومة غلبه في ذلك"[3].

معنى الصفةِ المشبَّهةِ في لفظِ ﴿أَلَدُّ﴾:

اللّددُ مبالغةٌ في الخصومةِ ومغالبةٌ في المحاورَةِ والمناظَرَةِ:

صيغةُ ﴿أَلَدُّ﴾ صِفَةٌ مُشَبَّهَةٌ، ولَيْسَ اسْمَ تَفْضيلٍ، وتَكونُ إضافتُه للخصام على المُبالَغَةِ فَجُعِلَ الخِصامُ أَلَدَّ، أَيْ: نُزِّلَ خِصامُهُ مَنْزِلَةَ شَخْصٍ لَهُ خِصامٌ، فَصارا شَيْئَيْنِ؛ فَصَحَّتِ الإضافَةُ عَلى طَريقَةِ المَجازِ العَقْلِيِّ، كَأَنَّهُ قيلَ: خِصامُهُ شَديدُ الخِصامِ، كَما قالوا: جُنَّ جُنونُهُ وقالوا: جَدَّ جَدُّهُ، أَوْ تكون الإضافَةُ عَلى مَعْنى (في) أَيْ: وهُوَ شَديدُ الخِصامِ في الخِصامِ، أَيْ: في حالِ الخِصامِ، هذا على اعتبارِ الخصامِ مصدرًا، أمّا إن اعتبرنا الخصامَ جمعًا فالإضافَةُ ظاهرة لا إشكالَ فيها، أَيْ: وهو أَلَدُّ النّاسِ المُخاصِمينَ[4].

(1) محمود صافي، الجدول في إعراب القرآن: 2/423.
(2) الراغب، تفسير الرّاغب: 1/427.
(3) الزّجاج، معاني القرآن وإعرابه: 1/277.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/267.

معنى ﴿ٱلۡخِصَامِ﴾ بين المصدريَّةِ والجمعِ:

صاحبُ الجدلِ يؤثرُ هواه على انتصارِ الحقّ في عُلاه

الخصام: إمّا أن يكون مصدر خاصم أي جادل، أو جمع خَصْم كضَخْم وضِخام؛ والمعنى: أنّ هذا النّوع من النّاس الّذي يحاول أن يخدع النّاس بحُلْو لسانه، ويُضلّهم بقدرة بيانه، فيه طبْعٌ ملازمٌ له، وهو شدّةُ الخصومة والجدلِ، والمغالبةِ البيانيّة، في ميدان المناظرات.

ومَن يكن همَّه الجدلُ، لا يعنيه الحقُّ بمقدار ما يعنيه انتصارُ فكْرِه، وغلَبتُه في ميدان النّزال البيانيّ؛ فيندفع إلى تأييد مذهبه بالحقّ وبالباطل؛ لذلك كان مبغَضًا إلى اللّه، وقد جاء في الحديث: "إنَّ أَبْغَضَ الرِّجالِ إلى اللّهِ الأَلَدُّ الخَصِمُ"[1].

المعاني الاشتقاقيّةُ للفظِ ﴿تَوَلَّىٰ﴾:

مـــدارُ معنى التَّولِّي على الكِبرِ والإدبار

التّولّي في قَوله تعالى: ﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ﴾ يحتملُ أن يكونَ مشتقًّا من أحدِ أمرين:

الأوَّل: إمّا أن يكون مُشْتَقًّا مِنَ التَّوْلِيَةِ، وهي الإدْبارُ والانْصِرافُ، أَيْ: وإذا فارَقَكَ سَعى في الأَرْضِ لِيُفْسِدَ، وذلك بعد أن خدع النّاس بحُلو القول، وأقسم بالأيمان المغلّظة الكاذبة، وجادل فيما يدّعيه من حبّه للخير والإصلاح، ومُتَعَلّقُ ﴿تَوَلَّىٰ﴾ حينئذ مَحْذوفٌ تَقْديرُهُ تَوَلّى عَنْكَ.

الثّاني: وإمّا أن يكون مُشْتَقًّا مِنَ الوِلايَةِ: يُقالُ وَلِيَ البَلَدَ وتَوَلّاهُ، إذا صارَ والِيًا، أَيْ: إذا تَزَعَّمَ ورَأَسَ النّاسَ سَعى في الأَرْضِ بِالفَسادِ، والآية الكريمة تحتمل الأمرين[2]، ولقوله تعالى: ﴿تَوَلَّىٰ﴾، أربعة أقوال: أحدها: أنّه بمعنى: غضب، والثّاني: أنّه الانصراف عن القول الّذي قاله، والثّالث: أنّه من الولاية، فتقديرُه: إذا صار واليًا، والرّابع: أنه الانصراف بالبدن[3]، وفي كلّ ذلك إدْبارٌ وانْصِرافٌ

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 2/638 - 640، والحديث أخرجه البخاريّ، حديث رقم: (2457)، ومسلم، حدبث رقم: (2668).
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/268، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 2/642.
(3) ابن الجوزيّ، زاد المسير: 1/171.

بحال المضادّة وعدم التّوافق أو هي تبدّل واستنكاف واستكبار حال تولّي الولاية فينصرف من تواضعه إلى الكبر والصَّلَف والظلم.

سرُّ التَّعبيرِ بالسَّعْيِ دون المشي أو السَّيْر:

يُستعمل السَّعيُ مَجازًا في تدبير الكَيْد، وإرادَةِ الفَساد في الأَرْض

استُعمل السَّعيُ في قَوله تعالى: ﴿سَعَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُفۡسِدَ فِيهَا﴾ والسَّعْيُ حَقيقَتُهُ المشيُ السّريع، ومنه قيل: السّعي بين الصّفا والمروة[1]، للدّلالةِ على معنى الإفسادِ في الأرض، أَيْ: ذَهَبَ يَسيرُ في الأَرْضِ غازيًا ومُغيرًا لِيُفْسِدَ فيها، فَيَدخلُ في هذا ما فَعَلَهُ الأَخْنَسُ بن شريق بِحَرْق الزُّروع وقَتْل المَواشي وفي قوله عزّ ذكره: ﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُفۡسِدَ فِيهَا﴾، السّعي: هو العمل، لا السّعي على الأقدام، قال الشَّافِعِي رحمه اللّه تعالى: قال زهير:

سَعَى بَعْدَهُمْ قَوْمٌ لِكَيْ يُدْرِكُوهُمُ *** فَلَمْ يَفْعَلُوا وَلَمْ يُلِيمُوا ولَمْ يَأْلُوا[2]

ويُلمح في ﴿سَعَىٰ﴾ التّشبيهُ الضِّمنيّ[3] بتشبيهِ المنافقين في عملهم بعزمٍ وإصرارٍ وحرصٍ بالماشي السّريع، بجامع الوصولِ إلى غاية معيّنة، وهي الإفسادُ في الأرض وتخريبُ نظامها الذي به قوامُ حياة النّاس، ويَجوزُ أَنْ يَكونَ سَعى مَجازًا في الإرادَةِ والتَّدْبير، أَيْ: دَبَّرَ الكَيْدَ وأَرادَ الفَسادَ في الأَرْض.

بلاغةُ اسْتِعمَالِ حَرْفَيِ الظَّرفيَّةِ في قَوْلِه: ﴿سَعَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُفۡسِدَ فِيهَا﴾:

سَعْيُ المفسِد لا يقتصِرُ على موضعٍ بعينِه، بل يشملُ الأرضَ كلَّها

استعملت الآيةُ حرْفَي الظَّرفيَّةِ للبيانِ بعد الإجمالِ، فقَوْلُهُ: ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ تَأْكيدٌ لِمَدْلولِ الإفسادِ في الأرض، وتَنْصيص عَلى أَنَّ هَذا السَّعْيَ هو السَّيْرُ في الأَرْضِ لِلْفَسادِ، وهو الغارَةُ والتَّلَصُّصُ لِغَيْرِ إعْلاءِ كَلِمَةِ اللّهِ، ولِذَلِكَ قالَ بَعْدَهُ: ﴿لِيُفۡسِدَ فِيهَا﴾ فاللّامُ لِلتَّعْليل، لِأَنَّ الإفْسادَ مَقْصودٌ لِهَذا السّاعي، وتوحي عبارة ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أنّ فساده

(1) الراغب، تفسير الرّاغب: 1/428.

(2) الشّافعيّ، تفسير الشّافعيّ: 1/323.

(3) التّشبيه الضّمني: هو ما لم يُصرّح فيه بأركان التّشبيه على الطّريقة المعلومة، بل يفهم من معنى الكلام، وسِيَاق الحديث، ينظر: أحمد المراغيّ، علوم البلاغة، ص: 234.

استشرى وعمّ الأرض كلّها، ويَكونُ قَوْلُهُ: ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾ مُتَعَلِّقًا بِسَعى لِإفادَةِ أَنَّ سَعْيَهُ في أَمْرٍ مِنْ أُمورِ أَهْلِ أَرْضِكُمْ، وبِذَلِكَ تَكونُ إعادَةُ ﴿فِيهَا﴾ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿لِيُفْسِدَ فِيهَا﴾ بَيانًا لِإجْمالِ قَوْلِهِ: ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾ مَعَ إفادَةِ التَّأْكيدِ[1]، قال الحَرَالِّي: ولما كانت الأرض موضوعة لِلنَّشْءِ منها وفيها، وموضع ظهور عامة الصّور الرّابية اللّازمة الجسميّة، ومحلّ تَنَشُّؤِ صُورة النّفس بالأعمال والأخلاق، وكان الإفساد نقض الصُّور، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ۝٢٠٥﴾، كان فعلُهم فيها من نحو فعلهم في وضع الضّدّ السَّيِّئِ موضعَ ضدّه الأكمل، والتّقصير بما شأنُه التّكملةُ، فكان إفسادًا لذلك"[2].

نوع العطفِ في قولِه تعالى: ﴿وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ﴾:

تخصيصُ المعطوفِ عليه بأحدِ أنواعِه للتَّنبيه على عظمِه

عطَفَ النَّظم الكريمُ قولَه تعالى: ﴿وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ﴾ على قولِه: ﴿سَعَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا﴾، وهو من عطف الخاصِّ على العامِّ[3]؛ لأنَّ الإفسادَ في الأرضِ يشملُ إهلاكَ الحرثِ والنَّسلِ، وقد خصَّهما بالذِّكرِ؛ "لأنّهما أعظمُ ما يُحتاج إليه في عمارة الدّنيا، فكان إفسادُهما غايةَ الإفساد"[4]، ولأنّ فيهما جماعَ حاجاتِ بني الإنسانِ، فما من أمرٍ يحتاجُ إلَيه الإنسانُ في مقوِّماتِ جِسْمِه إلّا كان من الحيوان أو من النّبات، وهلاكُهما كنايةٌ عن الخرابِ العامِّ، وضياعِ المصالح[5].

المقصودُ بإهلاك الحرثِ والنّسلِ:

كنايةٌ عن الخرابِ العامّ، وضياعِ المَصَالِحِ:

الحرثُ: مصدرُ حرثَ يحرُثُ؛ بمعنى أثارَ الأرضَ لإعدادها للزّراعةِ، ثمّ أطلقَ وأريدَ به المحروثُ وهو الأرض نفسُها، ثمّ أطلق

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/268 - 269.
(2) الحرالّي، تراث أبي الحسن الحَرَالِّيّ المراكشي في التّفسير، ص: 180.
(3) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/250.
(4) أبو حيان، البحر المحيط: 2/330.
(5) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 2/641.

وأريد به ثمراتُ الحرث، وهو الزّرع الّذي حان حصاده، والثّمرُ الّذي آتى أكلَه؛ والمراد به هنا ذلك[1]، والنّسل في أصله: مصدر نسل ينسل، بمعنى خرج وسقط، ثمّ أطلق على خروج الحيوان من بطن أمّه وولادته، ثمّ أطلق وأريد به ذات الحيوان الوليد[2].

و﴿ٱلۡحَرۡثَ وَٱلنَّسۡلَ﴾ وإن كانا في الأصلِ مصدَرَيْن، فإنّهما هنا واقعان موقعَ المفعولِ به[3]، وإهلاكُ الحَرْثِ والنَّسْلِ، كِنايَةٌ عَنِ اخْتِلالِ ما بِهِ قِوامُ أَحْوالِ النّاسِ، وكانوا أَهْلَ حَرْثٍ وماشِيَةٍ، فَلَيْسَ المُرادُ خُصوصَ هَذَيْنِ بَلِ المُرادُ ضَياعُ ما بِهِ قِوامُ النّاسِ، وهذا أعمُّ وأشمل، والآيَةُ دالَّةٌ عَلى أَنّ من يتسبّب في مِثْلِ ذَلِك صَريحًا أو كِنايَة، مُسْتَحِقٌّ لِلْعِقابِ في الآخِرَةِ، ولِذَلِكَ عَقَّبَ بِجُمْلَةِ التَّذْييلِ وهي ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَسَادَ﴾ تَحْذيرًا وتَوْبيخًا[4].

بلاغةُ الفاصلةِ القرآنيَّة: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَسَادَ﴾:

بيانُ المقاصِدِ الشَّرعيَّةِ في تطبيقِ الحكمةِ الإلهيَّة

مَعْنى نَفْيِ المَحَبَّةِ في قَوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَسَادَ﴾ نَفْيٌ لازمها وهو الرِّضا بِالفَسادِ، والفَسادُ ضِدُّ الصَّلاحِ، ومَعْنى الفَسادِ: إخراجُ الشَّيءِ من حالةٍ محمودةٍ لا لغرض صحيح، أو هو إتْلافُ ما هو نافِعٌ لِلنّاس، نَفْعًا مَحْضًا أَوْ راجِحًا، وقد سَمّى اللّهُ إتلافَ الزّرع، وقتلَ المواشي فَسادًا، مع أنّ بعض ذلك الحَرْث والنّسل لِغير المسلمين؛ لِأَنَّ إتْلافَ خَيْراتِ الأَرْضِ رُزْءٌ عَلى النّاسِ كُلِّهِمْ، وفيه تَعْطيلٌ لِما خَلَقَهُ اللّهُ في هذا العالَم لِحِكْمَةِ صَلاحِ النّاسِ؛ فَإِنَّ الحَكيمَ لا يُحِبُّ تَعْطيلَ ما تَقْتَضيهِ الحِكْمَةُ، وعلى هذا جاء التّحذير بعقوبة فاعله[5]، والجملة اعتراضٌ تذييليّ؛ مقرِّرٌ لمضمون ما قبله، وقد ذيّل اللّه سبحانه وتعالى الآية الكريمة، بقوله: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَسَادَ﴾، وذلك لأمور عدّة:

أوّلًا: بيان أنّ اللّه لا يحبّ ذلك الصّنفَ منَ النّاس الّذي يخدعُ

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 2/641.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 2/641.
(3) السّمين، الدّرّ المصون: 2/353.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/270.
(5) الراغب، تفسير الرّاغب: 1/429، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/270.

النّاسَ ويكذبُ على اللّه، ويجادل ويُماري، ويَضلّ عن بيّنة، ويسعى في الأرض بالفسادِ؛ إذ لا يحبّ اللّه الفسادَ، ولا يحبّ المفسدين، ومن لا يحبّه اللّه فهو بعيد عن رحمته، معَرَّض لنقمته.

ثانيًا: بيان أنّ اللّه سبحانه وتعالى، لا يريد بما فرضَ من عباداتٍ، إلّا مصلحةَ النّاس، ودفعَ الضّرّ عنهم، وأنّ شرع اللّه كلّه، أساسُه إقامةُ المصلحة ودفعُ المضرّة، فما من أمر شرعه اللّه إلّا فيه جلْبُ نفْع، أو دفْعُ ضرَر، وأنّ دفْع الضّرر، مُقدّمٌ على جَلْب النّفْع.

ثالثًا: إشارةُ التّذييلِ إلى أنّ اللّه سبحانه استَخلَف الإنسانَ في هذه الأرض ليَعْمُرها لا ليُفْسدها ﴿وَلَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَا﴾ [الأعراف: 56][1].

دلالة البناء للمفعول في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾:

جاءَ قَولُه تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتۡهُ ٱلۡعِزَّةُ بِٱلۡإِثۡمِ﴾ مبنيًّا للمفعولِ لِلإبْهام؛ ليصح أن يُسندَ القولُ لكلِّ أحدٍ، ممّن يرى فسادَ المفسدِ ونِفاقه على طريقة العِظة والنّصيحة: ﴿ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾، وفي ذلك أمرٌ غيرُ مباشرٍ للعلماءِ العاملين أو يأمروا المفسدين بتقوى اللّه تعالى، بقطعِ النَّظرِ عن امتثالِهم للأمرِ، إذِ القولُ هو استجابةٌ لما يحب اللّه ويرضى، وهو تسجيلٌ على أولئك المفسدين بالفساد أمام المجتمعِ المسلم، ليُعلمَ حالُهم، فتُجتنب مجالسهم.

العلماءُ الرَّبّانيُّون يقولون كلمةَ الحقِّ استجابةً لأمرِ الحقِّ

معنى لامِ التَّبليغِ في قولِه: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ﴾:

نوعُ اللّام في قولِه: ﴿لَهُ﴾ هي لامُ التَّبْليغ، وهي الجارّة لاسم السّامع لقَوْلٍ أو ما في مَعْناهُ، نَحْو: قلت لَهُ، وأذنت لَهُ، وفسّرتُ لَهُ[2]، ومقولُ القولِ هو: ﴿ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾، أي: اتّق عقابَ اللّه تعالى، بتركِ ما تباشِرُه من الفساد أو النّفاق، واحذرْ سوءَ مغبَّته.

الإضمارُ في قولِه تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتۡهُ ٱلۡعِزَّةُ بِٱلۡإِثۡمِ﴾:

تنبيهٌ على القولِ الآثمِ بذكرِ علَّتِه

في الكلام حذفٌ، والتّقدير: (إذا قيل له اتّق اللّه، لم يتّقِ، وأخذته الأَنَفة والكبرياءُ بما يوجب الإثم)، لأنّه يرى نفسَه فوق نُصح

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 2/643.

(2) ابن هشام، مغني اللّبيب: ص: 281.

النّاصحين، قال ابن عَرَفة: "الآية لها منطوق ومفهوم، والتّقدير: لم يتّق لأجل ما نالته (من العزّة) بسبب الإثم، واكتفى عن ذلك المفهوم فذكر علّته[1]، وقال الثّعلبيّ: "أي: حملته العزّة وحميّة الجاهليّة على الفعل بالإثم والعزّة والقوّة والمنعة، ويقال: معناه أَخَذَتْهُ العِزَّةُ بِالإِثْمِ الّذي في قلبه"[2].

بلاغة الاستعارة في قوله تعالى ﴿أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ﴾:

حميّةُ الجاهليّةِ حُمقٌ وانغلاقٌ

استُعير الأخذُ في قولِه تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ﴾ للحَمْل بعد أن شبّه حالةَ إغراءِ حميّة الجاهليّة، وحملَها إيّاه على الإثم بحالة شخص له حقٌّ على غريمه، فيأخذه به ويُلزمه على أداء حقّه، وهي استعارة تبعيّة واقعةٌ على التّمثيل[3].

استعارةُ العزّةِ للأنفةِ المذمومةِ

وقد استُعيرت العِزّة للحَمِيَّة والأَنَفَة المذمومة في هذه الآية: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ﴾[4]، فـ(ال) في العزّة للعهد؛ أي: العزّة المعهودة المعروفة عند أهل الجاهليّة الّتي تمنع صاحبَها من قبول النّصيحة[5]، والعِزّ في الأَصْل القُوَّةُ والشِّدَّة والغلَبَة والرِّفْعة والامْتِناع، والعِزَّة: حالةٌ مانعةٌ للإنْسان من أَن يُغلَب، وهي يُمدَح بها تارَة، ويُذَمُّ بها تارَة، كعِزَّة الكُفّار، والعِزَّةُ الّتي للكفّار هي التَّعَزُّز، وفي الحَقيقَة ذُلٌّ لأنّه تشَبُّعٌ بِما لم يُعطَه.

معنى الباءِ في قوله تعالى: ﴿بِٱلْإِثْمِ﴾:

اجتماعُ معنى المصاحبةِ والتّعليلِ في حرفِ الباءِ من بلاغةِ الاستعمالِ

حرفُ الباء في قولِه تعالى: ﴿بِٱلْإِثْمِ﴾، إمّا أن يكون بمعنى المصاحبةِ والاقتران، والمعنى على هذا: أَخَذَتْهُمُ العزّة واستولَت

(1) تفسير ابن عرفة: 1/250.

(2) الثّعلبيّ، الكشف والبيان: 2/124.

(3) الطّيبي، فتوح الغيب: 3/318، والاستعارة التّمثيليّة: تركيب استُعمل في غير ما وضع له، لعلاقة المشابهة، مع قرينة مانعة من إرادة معناه الوضعيّ، بحيث يكون كلٌّ من المشبّه والمشبّه به هيئةً منتزَعة من متعدّد، أحمد الهاشميّ، جواهر البلاغة، ص: 275.

(4) الزَّبيديّ، تاج العروس: (عزز).

(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/271.

علَيهم، مقترنةً بالإثم مصاحبةً له، فهي ليست عزّةً محمودةً، بل كبرياء مبغوضة.

أو يكون للسّببيّة، بمعنى لام التّعليل، ويكون المعنى: أخذتهم العزّةُ بسبب الإثم الّذي استغرق قلوبهم، وأحاطَ بنفوسهم، أي: أنّهم لفرط ما ارتكبوا من آثام، قد أحاطت بهم خطيئاتهم؛ فسدّت مساربَ الهداية إلى قلوبهم، فإذا سمعوا كلمةَ الرّشادِ لم يتقبّلوها، وأنغضوا رؤوسهم، حاسبين أنّ ذلك إهانةٌ لسلطانهم؛ وإصغارٌ لشأنهم، وما هو في حقيقة الأمر إلّا حمايةٌ للسّلطان، وإكبارٌ للأمر، وخصوصًا إذا كان من ناصح أمين[1]، والمعنيانِ صحيحان، فإثمهم يُصاحِبُهم، ويقترنُ بعزَّتِهم، وهي عزَّةٌ بسببِ الإثمِ المستقرِّ في قلوبِهم.

فنُّ الاحتراسِ في قولِه تعالى: ﴿بِٱلۡإِثۡمِ﴾:

تعيينُ نوعِ العزَّةِ بالقيدِ السِّياقيِّ

في قوله: ﴿بِٱلۡإِثۡمِ﴾ احتراسٌ، ويسمّى التّكميل[2]، وهو: أن يؤتى في كلام، يوهم خلافَ المقصود، بما يدفعه[3]، ويَرفع عَنْهُ اللَّبْسَ، ويُقَرِّبُهُ لِلْفَهْمِ؛ وذَلِك أَنَّ العِزَّةَ مَحْمودَةٌ ومَذْمومَةٌ، فالمَحْمودَةُ طاعَةُ اللّه، كَما قالَ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [المنافقون: 8]، فَلَمّا قالَ: ﴿بِٱلۡإِثۡمِ﴾، اتَّضَحَ المَعْنى وتَمَّ، وتَبَيَّنَ أَنَّها العِزَّةُ المَذْمومَةُ المُؤَثَّمُ صاحِبُها[4].

معنى الفاءِ في قولِه: ﴿فَحَسۡبُهُۥ جَهَنَّمُۖ﴾:

دور الفـــاء الفصيحةِ في الإفصاحِ عنِ الشّرط المقدَّر

الفاءُ في قوله تعالى: ﴿فَحَسۡبُهُۥ جَهَنَّمُۖ﴾ هي الفاءُ الفصيحةُ؛ لأنّها أفصحت عن شرطٍ مقدَّر؛ أي: إذا كانت هذه حالةُ المُعْرِضِ عن النّصحِ أنَفَة وتكبُّرًا، وأردْتَ بيانَ عاقبتِه، فأقول لك: حسبُه جهنّمُ، وهذا اسْتِعْظامٌ لِما حَلَّ بِهِ مِنَ العَذابِ، كَما تَقولُ لِلرَّجُلِ: كَفاكَ ما

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/332، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 2/644.

(2) وقد سمّى أبوحيّان التّكميل تتميما فقال: " وفي قوله: ﴿أَخَذَتۡهُ ٱلۡعِزَّةُ بِٱلۡإِثۡمِۚ﴾، نوع من البديع يسمّى التّتميم، وهو إرداف الكلام بكلمة يرفع عنه اللّبس، وتقرّبه للفهم، كقوله تعالى: ﴿وَلَا طَٰٓئِرٖ يَطِيرُ بِجَنَاحَيۡهِ﴾" البحر المحيط: 2/333.

(3) عبد المتعال الصّعيديّ، بغية الإيضاح: 2/355.

(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/332- 333.

حَلَّ بِكَ! إذا اسْتَعْظَمْتَ وعَظَّمْتَ عَلَيه ما حَلَّ بِهِ[1]، وحَسْبُهُ جَهَنَّمُ أي: كافيهِ جهنّمُ جزاءً له، والمراد به دارُ العذاب التي أعدَّ اللّه لأعدائه في الآخرة، وجهنّم أُخذت من التّجهّم وهو التّكرُّه، فتَلْقاهُمْ بِوَجْهٍ مُتَجَهِّمٍ عابسٍ، جزاءَ تجهّم وجوههم عندما كان يُقال لأحدهم: ﴿ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾، وتَتَجَهَّمُ وُجوهُهُمْ وتَعْبَسُ فيها لِما يُلاقونَ مِنْ أَلَمِ العَذابِ[2].

تقديرُ القسمِ والمخصوصِ بالذّمّ في قولِه: ﴿وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾:

معنى قَوله: ﴿وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ أَيْ: بِئْسَ ما مَهَّدوا لِأَنْفُسِهِمْ، أَوْ بِئْسَ الفِراشُ لَهُمْ[3]، الّذي يستقرّون عليه بسبب غرورهم وفجورهم، واللّام واقعة في جواب قسَم محذوف، على تقدير: واللّه لبئس المهاد جَهَنَّم، واللّه تَعالى يُقْسِمُ تَأْكيدًا لِلْوَعيدِ بِأَنَّ الّذي يَرى عِزَّتَهُ مانِعَةً لَهُ عَنِ الإذْعانِ لِلْأَمْرِ بِتَقْوى اللّهِ سَيَكونُ مِهادَهُ ومَأْواهُ النّارُ، وهي بِئْسَ المِهادُ وشَرُّهُ، لا راحَةَ فيها، ولا اطْمِئْنانَ لِأَهْلِها[4]، والمخصوص بالذّمّ محذوف لظهوره وتعيّنه، أي: ولَبِئْسَ المِهادُ جَهَنَّمُ، وحَسَّنَ حَذْفَهُ هنا كونُ ﴿ٱلْمِهَادُ﴾، وقعَ فاصلةً[5].

وعيدُ المتكبِّرين بما يُناسِبُ غطرستَهم.

بلاغةُ استعمالِ لفظِ المهادِ بدل جهنَّم:

المهاد: جمع مَهْد وهو ما يوطّأُ للنّوم، أو أنّه اسمٌ مفردٌ، سُمِّيَ به الفراشُ المُوَطَّأ لِلنَّوْمِ؛ وهو موطن الهدوء والرّاحة والمستطاب ممّا يُستَفْرش ويوطأ[6]، والتّعبير عن جهنّم بأنّها جُعِلَتْ لهم بَدَلَ مِهادٍ يَفْترشونه من باب التّهكّم والاستهزاء، بهذا النّوع المغرور المُفسد، كقوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٢١﴾ [آل عمران: 21]؛ لِأَنَّ العُصاةَ يُلْقَوْنَ فيها فَتُصادِفُ جنوبَهم وظهورَهم[7].

التّهكُّمُ والاستهزاءُ بمَنْ تعزَّزَ بإثمِه

(1) المصدر السّابق: 2/333.
(2) الجُرجانّي، درج الدُّرر: 1/372.
(3) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 15/221.
(4) محمّد رشيد رضا، تفسير المنار: 2/201.
(5) السّمين، الدّرّ المصون: 2/356.
(6) السّمين، الدّرّ المصون: 2/356، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 1/385.
(7) الراغب، تفسير الرّاغب: 1/429، وأبو حيّان، البحر المحيط: 2/333، والسّمين، المصدر السّابق: 2/356، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/272.

استكمالُ التَّقسيمِ أركانَه بذكرِ ﴿مَن يَشۡرِي نَفۡسَهُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ﴾:

خُتِمتِ الآيةُ بخيرِ الأصناف المذكورِ في قَوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡرِي نَفۡسَهُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ﴾، وهو الذي يُهلك نفسَه لاستصلاح النّاس، بعد أن ذكر شرّها وهو الّذي يُهلك النّاس لاستبقاء نفسه، وفيه إشارةٌ إلى عِظمِ المهمّةِ الملقاةِ على عاتِقِهم، وهي مجاهدةُ الشّرّ والتّغلّبُ عليه، وذلك يقتضي التّعرّضَ للأذى، وقد يصل إلى القتل، ووجودُ مثلِ هذه الفئة منَ المخلصين بين النّاس، رحمة عامّة للعباد، لا خاصّة بهم، وكثيرًا ما ينتفع النّاس بعمل المصلحين من دونهم، إذ تظهر ثمراتُ إصلاحهم من بعدهم[1].

المُصلِحون هم مَن يَبيعُون أَنفسَهم لله تعالى

بلاغةُ استعمالِ لفظِ ﴿يَشۡرِي﴾ في سياقِ الآيةِ:

جاء التّعبير بـ﴿يَشۡرِي﴾، وهو من الأضداد[2]، يقال: شرى، إذا باع، وشرى: إذا اشترى، قال اللّه تعالى: ﴿وَشَرَوۡهُ بِثَمَنِۭ بَخۡسٖ﴾ [يوسف: 20] أي: باعُوه[3]، ويصحّ أن يقال لكلِّ واحدٍ من البائعِ والمشتري: بائعٌ ومُشْتَرٍ، وذلك بحسب ما يُتصوّر في الثّمن والمُثْمَن، فأيُّ السّلعتين تصوّرتها بصورة الثّمن فآخِذُه بائعٌ، والآخرُ مُشْتَرٍ، ولهذا الشّأن صارَ البائعُ والمشتري من الأسماءِ المشترَكة المعدودةِ في باب الأضداد[4].

قوَّةُ اجتماعِ معنَيَي الأضداد؛ البيع والشِّراء في اللَّفظ الواحدِ

وبَيعُ النّفس ههنا: بذلُها لأوامر اللّه وما يرضاه[5]، لأخذِ الأجر ورضوانِ اللّه تعالى، فهو من جهةٍ يبيع نفسَه، ومن جهةٍ أخرى يشتري الأجرَ والرِّضا، وهو أعظمُ فوزٍ يناله المؤمن في صفقة، والشّراء والبيع في مثل هذا الوضع كالرّمز والإشارة، وحقيقتهما وقفُ الإنسان نفسَه على مرضاة اللّه ﷻ، والتّحرّي في مصالح عباده[6].

(1) محمّد رشيد رضا، تفسير المنار: 2/204.
(2) الأضداد: اللّفظ الواحد الدّالّ على معنيَين مختلفين فأكثر، دلالةً على السّواء عند أهل تلك اللّغة، يُنظر: السّيوطيّ، المزهر: 1/369.
(3) الواحديّ، الوسيط: 1/312.
(4) الراغب، تفسير الرّاغب الأصفهانّي: 1/105.
(5) الواحديّ، المصدر السّابق: 1/312.
(6) الراغب، تفسير الرّاغب: 1/431.

جمالُ الاستعارةِ التّبعيّةِ في لفظ: ﴿يَشْرِى﴾:

اسْتعمالُ لفظِ ﴿يَشْرِى﴾ في البَذْلِ مَجازٌ، حيث شبّه بذلَ النّفس بالبيع، على سبيل الاستعارة التّبعيّة، فالباذل كالبائع، واللّه المشتري، والثّمن مرضاة اللّه، وهو أغلى الأثمان، والمَعْنى: ومِنَ النّاسِ مَنْ يَبْذُلُ نَفْسَهُ لِلْهَلاكِ ابْتِغاءَ مَرْضاةِ اللَّهِ؛ أَيْ: هَلاكًا في نَصْرِ الدّينِ، وهذا أَعْلى دَرَجاتِ الإيمانِ، لِأَنَّ النَّفْسَ أَغْلى ما عِنْد الإنْسان[1]، والآية الكريمة عامة تتناول كلَّ من أطاع اللّه تعالى، وبذل نفسه في سبيل إعلاء كلمته، ويدخل في ذلك من نزلت فيهم الآية من باب أولى؛ فقد أورد المفسّرون رواياتٍ متعدّدةً في سبب نزول هذه الآية منها أنّها نزلت في صهيب بن سنان الرّومي، وغيرِه من الصّحابة[2] رضي الله عنهم؛ إذِ العبرةُ بعموم اللّفظ لا بخصوص السّبب كما هو مقرَّر لدى أهل العلم[3].

سرُّ التّعبيرِ بالمصدَرِ الميميّ ﴿مَرْضَاتِ﴾ دون المصدر (رضا):

توقُ المؤمن إلى مرضَاةِ الله غايةُ المطلبِ في هذه الحياة

﴿مَرْضَاتِ﴾ في قولِه تعالى: ﴿ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ﴾، مصدرٌ ميميٌّ من رضي، بمعنى الرّضا، وجاء التّعبير بالمصدر الميميّ ﴿مَرْضَاتِ﴾، دون المصدر الأصليّ (رضا)، لما في المصدر الميميّ من معنًى زائد عن المصدر، وهو دلالته على الذّات والإشعارِ بنهايةِ الحدث بالإضافة لدلالته على الحدث كما هو في غالبِ المصادر؛ فعند التّأمّل يُلْحَظُ أنّ المصدر الميميّ، يتضمّن حدثًا كما تضمّنه غيره من المصادر الأصليّة للأفعال، بيد أنّه في الغالب يزيد علَيها في دلالته على الذّات إضافةً إلى دلالته على الحدثِ الّذي يشاركُهُ فيه غيرُه من المصادر، فكلمة ﴿مُنقَلَبٍ﴾ مثلًا في قوله تعالى: ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾﴾ [الشّعراء: 227] لا تطابق (انقلاب)؛ فالانقلابُ حدثٌ مجرّد، والمنقلَب يحمل معه ذاتًا تنقلب، والمساق في قوله تعالى: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ ﴿٣٠﴾﴾ [القيامة: 30] يختلف عن قولنا:

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/273.

(2) الرّوايات التي أوردها الطّبريّ في تفسيره: 3/591 وما بعدها؛ وابن كثير في تفسيره: 1/564 - 565.

(3) ابن جرير، جامع البيان: 3/594.

إلَيه السَّوق؛ فالمساقُ يحمل معه ذاتًا تُساق، بخلاف السّوق الّذي يدلّ على مجرّد الحدث وهو السَّوْق.

ومن ناحية أخرى عند التّعبير بالمصادر الميميّة دون غيرها من المصادر الأصليّة للأفعال، فإنّ المصادر الميميّة مشعرةٌ بالنّهاية لما تضمّنته من معانٍ، فعندما نقرأ قولَ اللّه ﷻ: ﴿إِلَيۡهِ أَدۡعُواْ وَإِلَيۡهِ مَـَٔابِ ٣٦﴾ [الرّعد: 36] نجد أنّ ﴿مَـَٔابِ﴾ مشعرةٌ بنهاية الأَوْب، بخلاف (الإياب) الّذي يدلّ على مجرّد الرّجوع دون إشعارٍ بمنتهاه، ومثلُه المنقلَب والانقلاب، فإنّ المنقلَب يعني خاتمةَ الأمر وعاقبتَه، أمّا الانقلابُ فإنّه يعني مجرّد التّغيّر، يقول تعالى: ﴿وَسَيَعۡلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَيَّ مُنقَلَبٖ يَنقَلِبُونَ﴾ [الشّعراء: 227] أي: عاقبة أمرهم ونهايتهم[1]، وفي ﴿مَرۡضَاتِ﴾ يدرك السّامعُ المعنى المصدريّ واقعًا قائمًا متحقّقًا في الوجود، لملاحظة الذّات مع الحدث، أمّا المصدرُ غيرُ الميميّ فيصوّر المعنى مجرّدًا، كما أنّ التّعبير بـ﴿مَرۡضَاتِ﴾ يُشعر بإمكان الوصول إلى منتهى الرّضا، وعلى ذلك يكون معنى ﴿ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ﴾ أنّهم يبيعون أنفسَهم طالبين طلبًا موثقًا رضا اللّه سبحانه حقيقةً واقعةً مؤكدةً، ويتصوّرون رضاه سبحانه حقيقةً قائمةً قد حلّت بهم، فيشتدّ طلبُهم، وافتداؤهم للحقّ بأموالهم وأنفسهم كما أنّ نهايةَ الرّضا تتحقّق للشّهداء في جوار اللّه تعالى، كما أخبر النَّبِيُّ ﷺ عن ربّه تبارك وتعالى: «إِنَّ اللَّهَ يَقولُ لِأَهْلِ الجَنَّةِ: يا أَهْلَ الجَنَّةِ، فَيَقولونَ: لَبَّيْكَ رَبَّنا وسَعْدَيْكَ والخَيْرُ في يَدَيْكَ، فَيَقولُ: هَلْ رَضيتُمْ؟ فَيَقولونَ: وما لَنا لا نَرْضى يا رَبِّ، وقَدْ أَعْطَيْتَنا ما لَمْ تُعْطِ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، فَيَقولُ: أَلا أُعْطيكُمْ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ، فَيَقولونَ: يا رَبِّ، وأَيُّ شَيْءٍ أَفْضَلُ مِنْ ذَلِكَ، فَيَقولُ: أُحِلُّ عَلَيْكُمْ رِضْواني فَلا أَسْخَطُ عَلَيْكُمْ بَعْدَهُ أَبَدًا»[2].

بلاغةُ الفاصلةِ القرآنيّةِ في قولِه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلۡعِبَادِ﴾:

إظهارُ ما حقُّه الإضمار

عُدل عن الضّمير في قَوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلۡعِبَادِ﴾ إلى وضعِ اسم الجلالةِ فلم يقل: وهو رؤوفٌ بالعبادِ؛ لإدخالِ المهابَةِ وتربيَتِها في قلب السّامع، ولبناءِ الصِّفةِ على اسم الجلالةِ، فيُعطيها مهابةً وجلالًا.

(1) فاضل السّامرّائيّ، معاني الأبنية العربيّة، ص: 31-32.

(2) أخرجه البخاريّ، حديث رقم: (7518)، ومسلم، حديث رقم: (2829).

ذكرُ صفةِ الرأفةِ كنايةٌ عن الإحسانِ

جاء توكيدُ الخبر: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡرِي نَفۡسَهُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ﴾ باسميّة الجملة من قوله: ﴿وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلۡعِبَادِ﴾؛ للإشعارِ بأنَّ من باعَ نفسَه لله تعالى فحقيقٌ بأشدِّ أنواعِ الرَّحمة، وحريٌّ أن يكونَ في عباد الله المقبولين، وصفةُ ﴿رَءُوفُۢ﴾ من صيغ المبالغة على وزن: فعول، بمعنى فاعل، أي: كثير الرّأفة وهي أشدّ الرّحمة، وتذييلُ الآية برؤوف؛ أَي: رؤوف بِالعِبادِ الصّالِحينَ الذينَ مِنْهُمْ مَنْ يَشْري نَفْسَهُ ابْتِغاءَ مَرْضاةِ اللَّهِ، فالرَّأْفَةُ كِنايَةٌ عَنْ لازِمِها، وهو إيتاءُ الخَيْراتِ كالرَّحْمَةِ[1]، ونبّه بهذا إلى أنّ الإنسان في بيع نفسه منه تعالى يَدخل في ملك من هو أرأفُ به من نفسه، وأولى به من ذاته[2]، وجاء هذا الخَتم بِالوَعْدِ المُبَشِّرِ لعباده الأخيار، بِحُسْنِ الثَّوابِ، وجَزيلِ المَآبِ، ودَلَّ عَلى ذَلِكَ بِالرَّأْفَةِ الّتي هِيَ سَبَبٌ لِذَلِكَ، فَصارَ ذَلِك كِنايَةً عَنْ إحْسانِ اللَّهِ إلَيهِمْ، لِأَنَّ رَأْفَتَهُ بِهِمْ تَسْتَدْعي جَميعَ أَنْواعِ الإحْسانِ، ولَوْ ذَكَرَ أَيَّ نَوْعٍ مِنَ الإحْسانِ، لَمْ يُفِدْ ما أَفادَهُ لَفْظُ الرَّأْفَةِ، ولِذَلِكَ كانَتِ الكِنايَةُ أَبْلَغَ[3]، ومِنْ رَأْفَتِهِ أَنَّ النَّفْسَ والمالَ لَهُ، ثُمَّ إنَّهُ يَشْتَري مُلْكَهُ بِمُلْكِهِ فَضْلًا مِنْهُ ورحمة وإحسانًا[4]، "ومن رأفة الله بعباده أن جعل النّعيم الدّائم في الجنّة جزاءً على العمل القليل المنقطع، ومن رأفته أن تقبل توبة عبده المذنب، ومن رأفته أنّ نفس العباد وأموالهم ملكُه، ثمّ إنّه تعالى يشتري ملكَه بملكِه فضلا منه ورحمة وإحسانا"[5].

معنى الألف واللّام في العبادِ إمَّا للاستغراقِ أو العهدِ

الألف واللّام في العباد للاستغراق؛ لِأَنّ اللّه رؤوف بِجَميعِ عِبادِهِ وهُمْ مُتَفاوِتونَ فيها، أو تكون لِلْعَهْدِ، أَيْ: رؤوفٌ بِالعِبادِ الذينَ يَشْرون أنفُسَهُم ابْتِغاءَ مَرْضاةِ اللَّهِ[6].

(1) المصدر السّابق.
(2) الراغب، تفسير الرّاغب: 1/431.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/336.
(4) الرّازيّ، التّفسير الكبير: 5/351.
(5) الدّرّة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 1/483.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/273.

العدولُ عن الإضمارِ إلى الإظهارِ، في قوله: ﴿وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلۡعِبَادِ﴾:

اشتمالُ الآية على حُسن التَّقسيم البديع ممّا يُسمّى الاستيعابَ في علم البديعِ

وفي الآية عدولٌ؛ عدَل عن الإضمار (بِهم) إلى الإظهارِ ﴿بِٱلۡعِبَادِ﴾؛ وحَسَّنَ هذا العدولَ شَيْئَان:

أَحَدُهُما: أَنَّ لَفْظَ: العِبادِ، لَهُ في اسْتِعْمالِ القُرْآنِ تَشْريفٌ واخْتِصاصٌ، كَقَوْلِهِ: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٌ﴾ [الإسراء: 65]

والثّاني: مَجيءُ لفظة ﴿بِٱلۡعِبَادِ﴾ فاصلة؛ لِأَنَّ قَبْلَهُ: ﴿ٱلۡفَسَادَ﴾، ﴿ٱلۡمِهَادُ﴾ فَناسَبَ: ﴿بِٱلۡعِبَادِ﴾[1]، وهو سجعٌ متوازٍ، للاتّفاق في الوزن والتّقفية.

وفي هذه الآية، والتي قَبلها من عِلم البديع: حُسنُ التَّقسيم؛ وهو: أن يتعلّق بالكلام معنى له أقسامٌ متعدّدة، فيستوعبَها في الذّكر، ويأتي علَيها، ويسمّى الاستيعاب[2].

(1) أبو حيّان، المصدر السّابق: 2/337.

(2) العَلويّ، الطّراز: 3/59.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ٢٠٨ فَإِن زَلَلۡتُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡكُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ٢٠٩ هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِي ظُلَلٖ مِّنَ ٱلۡغَمَامِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ ٢١٠﴾ [البقرة: 208 - 210]

مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قَبْلَها:

بَعْدَ ما بَيَّنَ ﷻ حالَ المفسدين الّذين يعيثون في الأرض فسادًا، ويُهلكون الحرثَ والنّسل، وفيهم منَ اللّدَد والعُنف والخصومة ما يُغْري بالعداوة، وينشرُ الفُرقة والانقسامَ؛ ناسب بعدها أن يبيّن واجبَ المصلحين؛ وهو السّلم بين بني الإنسان، والوحدة والوِفاقُ الحنيف بين أهلِ الإسلام، والتّحذيرُ ممّا يمنَعُ مِنَ الالتزام بذلك، وهذا ما يَقْتَضيهِ الإيمانُ بِاللّهِ واليَوْمِ الآخِرِ.

السّلم بين بني الإنسان ضرورةٌ لتحقيق التّعايش والأمان

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلسِّلۡمِ﴾: السِّلم بالكسر: السّلامُ، والإسلام، والسِّلم: الصُّلحُ، يُفتح ويكسر، ويذكّر ويؤنّث، وأَصْلُهُ مِنَ الاِسْتِسْلام، وهو الاِنْقيادُ، وقوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ﴾ [البقرة: 208]، قُرِئَ بالفتح وبالكسر، فقيل: هما بمعنى واحد وهو الصّلحُ، وقيل: بل هما مختلفا المعنى: فبالكسر الإسلامُ، وبالفتحِ الصّلحُ، فالسَّلمُ ضِدُّ الحرْب، والإسْلامُ: الدّخول في السّلم[1].

2) ﴿كَآفَّةٗ﴾: أصل الكَفّ: المَنْعُ، وكَفَّ الشَّيْءَ: مَنَعَ مِنْ أَخْذِهِ،

(1) الجوهريّ، الصّحاح: (سلم)، والرّاغب، المفردات: (سلم)، وأبو حيّان، البحر المحيط: 2/317، والسّمين، الدّرّ المصون: 2/359، والسّمين، عمدة الحفّاظ: (سلم).

الكَفّ: المَنْعُ، وتُستَعمل (كافّة) بمعنى جميعًا

وكافَّةً: اسْمُ فاعِلٍ اسْتُعْمِلَ بِمَعْنى: جَميعًا، وهو مِمّا لَزِمَ انْتِصابُهُ عَلى الحالِ، والهاء فيه للمبالغة؛ كقولهم: راوية وعلّامة ونسَّابة، ومعنى قوله تعالى: ﴿ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ﴾ أي: ادخلوا جميعًا؛ اعتُبر فيها معنى الإحاطة، أو ادخلوا في جميع شرائعه[1].

الخُطُوات اسمٌ لتجاوزِ مَسافةٍ بالقَدَم إلى الأمام، مبتعدةٍ عن القدم الأخرى

3) ﴿خُطُوَٰتِ﴾: الخُطْوَةُ بالضّمّ: ما بين القدمين، وجمع القلّة خُطُواتٌ وخُطَواتٌ وخُطْواتٌ، وجمع الكثرة خُطًى، وقرئ بضم الطّاء وسكونها، والخَطْوَةُ بالفتح: المرة الواحدة، والجمع خَطَواتٌ بالتّحريك وخِطاءٌ، والفرقُ بين الخطوة بالضّمّ والفتح: أنَّ المفتوحَ مصدرٌ، دالةٌ على المَرَّة من خَطا يَخْطو إذا مَشى، والمضموم اسمٌ لِما بين القَدَمَيْن، كأنّه اسمٌ للمسافةِ بينهما وأصله تجاوزُ مَسافةٍ بالقَدَم إلى الأمام، مبتعدةٍ عن القدم الأخرى، ومعنى: ﴿خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ﴾ طُرُقُه، أي لا تتّبعوا أثره، ولا تَسْلكوا الطّريق الَّذي يدعوكم إلَيه[2].

أصل الزّلّ زَلَق القدَم، ثمّ استُعمل في الاعتقادات والآراء وغيرِها

4) ﴿زَلَلۡتُم﴾: الزَّلَّةُ في الأصل: استرسال الرِّجْلِ من غير قصْد، يقال: زَلَّتْ رِجْله تَزِلُّ زَلًّا وزلَلًا، والمَزِلَّةُ: المكان الزَّلق، وقيل للذَّنب من غير قصد: زَلَّةٌ؛ تشبيهًا بزلَّة الرِّجل، وأصل الزّلل في القدَم ثمّ يُستعمل في الاعتقادات والآراء وغيرِ ذلك؛ تشبيهًا على زلة الآراء والعقول بزلة الأقدام، ومعنى ﴿زَلَلۡتُم﴾ تنحّيتم عن القصد والشّرائع، وضلَلتم وعُجْتُم عن الحقّ[3].

5) ﴿يَنظُرُونَ﴾: النَّظَرُ: تَقْليبُ البَصَرِ والبصيرةِ لإدراكِ الشّيءِ ورؤيَتِه، وقد يُرادُ به التَّأَمُّلُ والفَحْصُ، وقد يراد به المعرفةُ الحاصلةُ بعد الفَحْصِ، وهو الرَّوِيَّةُ والنَّظَرُ: الانْتِظارُ، يقال: نَظَرْتُهُ

(1) الرّاغب، المفردات: (كف)، وأبو حيّان، البحر المحيط: 2/318، والسّمين، عمدة الحفّاظ: (كفف)، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (كفف).

(2) الجوهريّ، الصّحاح: (خطا)، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (خَطُو-أ)، والزجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 1/241، والسّمين، الدّرّ المصون: 2/224، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (خطو).

(3) الزجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 1/280، والرّاغب، المفردات: (زلّ)، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 1/283، والسّمين، عمدة الحفّاظ: (زلل).

وانْتَظَرْتُهُ وأَنْظَرْتُهُ. أي: أَخَّرْتُهُ. ومعنى قوله: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ﴾: ما ينتظر التّاركون الدّخولَ في السّلم والمتّبعون خطوات الشّيطان إلّا العذاب يوم القيامة. والنّظر فعل يُستعمل على ضروب من المعاني، كلّها يرجع إلى أصل واحد، وهي طلب الإدراك منها: النّظر، بمعنى: الانتظار، كقوله تعالى: ﴿غَيْرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ﴾ [الأحزاب: 53] أي: غير منتظرين إدراكَه وبلوغَه[1].

الأصل في معنى لفظ (النّظر) طلبُ الإدراك، أو الرّويّةُ والانتظار

6) ﴿ظُلَلٍ﴾: الظِّلُّ: ضدُّ الضَّحِّ (البارز للشّمس)، وهو أعمُّ من الفيء، فإنّه يقال: ظِلُّ اللّيلِ، وظِلُّ الجنّةِ، ويقال لكلّ موضع لم تصل إلَيه الشّمس: ظِلٌّ، ولا يقال الفيءُ إلّا لما زال عنه الشّمس، وقوله تعالى: ﴿ظُلَلٍ﴾ جمع ظُلّة، يقال ظُلّة وظُلَل وظِلال، نحو خُلة وخُلَل وخِلال، وهي: شيءٌ كهيئة الصُّفَّة يُستظلّ به منَ الشّمس، وسمّي السّحاب ظلّة؛ لأنّه يَستظلّ به مَن تحته، وتحجب عنه ضوء الشّمس[2].

الظِّلُّ: الموضعُ الّذي لم تصلْ إلَيه الشّمس

7) ﴿ٱلْغَمَامِ﴾: الغَمُّ: ستر الشّيء، ومنه: الغَمامُ لكونه ساترًا للضّوء والشّمس، وهو ما غَمَّ السَّماءَ فَألبَسَها مِنْ سَحابٍ وقَتامٍ وغَيْرِ ذَلِكَ؛ مِمّا يَسْتُرُها عَنْ أَعْيُنِ النّاظِرينَ، وكُلُّ مُغَطًّى، فَإِنَّ العَرَبَ تُسَمّيهِ مَغْمومًا، وقوله: ﴿فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ﴾ هو سحاب أبيض رقيق مثل الضّباب[3] وقَول اللّه جلّ وعزّ: ﴿يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ﴾: فالغمام مَعْرُوف في كَلَام العَرَب، إلاّ أَنّا لَا نَدْرِي كَيفَ الغَمَام الَّذِي يَأْتِي اللّه جلّ وعزّ يَوْم القِيَامَة فِي ظُلَل مِنْهُ، فَنحْن نؤمن بِهِ، وَلَا نكيِّف صفته، وكَذَلِكَ سَائِر صِفَات اللّه جلّ وعزّ"[4].

الغَمَامُ: السَّحَابُ أَجْمَعُ، كَانَ فِيهِ مَطَرٌ أَوْ لَمْ يَكُنْ

(1) الرّاغب، المفردات: (نظر)، الواحديّ، الوسيط: 1/313، والواحديّ، التّفسير البسيط: 4/95.
(2) الرّاغب، المفردات: (ظلل)، وتفسير الرّاغب: 1/435، والسّمين، عمدة الحفّاظ: (ظلل).
(3) ابن جرير، جامع البيان: 1/698، والواحديّ: التّفسير البسيط: 16/467.
(4) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: 3/156.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

يأمُرُ اللّه عبادَه المؤمنين أن يأخذُوا الإسلامَ بجُملته، ويعملوا بجميع شرائعِه، ويثبُتوا على طاعته، ويحافظوا على سِلمه ونقائه، وجمعِ كلمة المسلمين، ويحذروا من الانسياق وراء الشَّيطانِ، واتِّباعِ طرقه فيما يدعوكم إليه من المعاصي؛ فإنّه عدوٌّ يقود إلى التّفرقة والهلاك، ويُوقع في الزَّلل، ومن أصرَّ على الزّلل ومخالَفة تعاليم الإسلام وشرائعه، ومعاندة منهجه، بعد أن جاءتهم البراهينُ بصحّته وصدقِ نبيّه ﷺ، فلْيعلَموا أنَّ اللّه ﷻ لا يُعجِزه شيءٌ عن الانتقام منهم، ومجازاتهم؛ فإنَّه يقهَرُ مَن يشاء بقوَّتِه، ويعذِّب مَن أراد بمقتضى حِكمته، ثمّ يُنكر سبحانه وتعالى على هؤلاء الّذين زلَّت أقدامُهم عن طريق الحقِّ، من بعد ما جاءتهم الدّلائلُ البيِّنات، وزالت عنهم الشُّبهاتُ، إصرارَهم على زللهم، وكأنّهم بهذا ينتظرون موعدَ هلاكهم، وذلك يوم يأتي اللّه ﷻ - على الوجه اللائق به سبحانه - في ظُلَل من السَّحاب يوم القيامة؛ ليفصل بينهم بالقضاء العادل، وتأتي ملائكتُه، وحينئذ يقضي اللّه تعالى فيهم قضاءَه الحق، وإليه وحده تُرجع أمور الخلائق جميعها[1].

❁ الإيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

خطابُ المؤمنين بالالتزام بالإسلامِ والثّباتِ علَيه:

دعـوةٌ للدّخولِ في السّلم كافّة بـعـيـدًا عـن الجدلِ والتّفرّق والخلافِ

تباينت أقوال المفسّرين فيمن توجّه إليه الخطابُ في قَوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، وجاءت هذه الأقوال وَفق ما يدخل في عموم المؤمنين: مَن أسلم من اليهود، وأهلُ الكتاب الذين آمنوا بكتابهم، وكفروا بالقرآن، والمنافقون الذين آمنوا بألسنتهم، والمؤمنون المخلصون[2]، وعادة القرآن أن يوجّه هذا الخطاب ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ لِلْمُسْلِمينَ، ولِأنَّ شَأن الاسم المَوْصولِ، أَنْ يَكونَ بِمَنْزِلَةِ المُعَرَّفِ بِلامِ العَهْدِ[3] وإذا كان الخطاب للمسلمين فما المراد بالسّلم الّذي دعاهم أن يدخلوا فيه؟

(1) نخبة من العلماء، التفسير الميسر، ص: 32.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/337 - 338.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/275.

قال الزّجّاج في هذا الوجه: المقصود: أمرُ المؤمنين بالثّبات على الإسلام، ويجوز أن يكون المعنى على هذا: يا أيّها المؤمنون المخلصون، ادخلُوا في المسالَمَةِ جميعًا، ولا تشتغلوا فيما بينكم بالجدل والخلاف المذهبيّ، حتّى لا تتفرّقوا إلى شيع وأحزاب يقتل بعضكم بعضًا، وقديمًا قال الطّغرائيّ، في وصيّته لأبنائه:

كُونُوا جَمِيعًا يَا بَنِيَّ إِذَا اعْتَرَى *** خَطْبٌ، ولَا تَتَفَرَّقُوا آحَادَا

تَأْبَى القِدَاحُ إِذَا اجْتَمَعْنَ تَكَسُّرًا *** وَإِذَا افْتَرَقْنَ تَكَسَّرَتْ أَفْرَادَا[1]

الاستعارة التّصريحيّة في قَوله تعالى ﴿ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ﴾:

الدّخول في السّلم: الثّباتُ على الإسلامِ، حاضرًا ومُستقبلًا

لفظ ﴿ٱدۡخُلُواْ﴾ في قَوله تعالى: ﴿ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ﴾ اسْتَعارةٌ تصريحيّة؛ شبّه الاتِّباعَ والالتِزام والتّمسّك بالدّخول، على سبيل الاستعارة التّصريحيّة[2]، وحقيقَة الدُّخول نُفوذُ الجِسْم في جِسْم، أَوْ مَكانٍ مُحَوَّطٍ كالبَيْتِ والمَسْجِدِ، ويُطْلَقُ مَجازًا مَشْهورًا عَلى حُلولِ المكانِ الواسِعِ، يُقالُ: دَخَلَ بِلادَ بَني أَسَدٍ، والمقصود بأمرِ المؤمنين بالدّخول في السّلم: الثّبات على الإسلام، وأن يكونوا فيما يُستقبل من الزّمان علَيه، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِن قَبۡلُ﴾ [النّساء: 136]، وقد أمر بالإقامةِ على الإسْلامِ فقال: ﴿وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ [آل عمران: 102][3].

توجيه القراءات القرآنيّة في لفظِ: ﴿ٱلسِّلۡمِ﴾:

الإسلام دعوة إلى السّلام، في ظلّ التّعارف والتّعاون لا الصّدام

قَوله تعالى: ﴿فِي ٱلسِّلۡمِ﴾: ﴿ٱلسِّلۡمِ﴾ بِكَسْرِ السّينِ وفَتْحِها مَعَ سُكونِ اللّامِ لغتان، وبهما قرأ القرّاء؛ فقرأ أبو عمرو البصريّ، وابن عامر، وعاصم وحمزة، ويعقوب، وخلف، بكسر السّين، وقَرَأَ نافِعٌ

(1) البيتان منسوبان إلى الطغرائي، وإلى ذي الإصبع العدوانّي وغيرهما، والأوّل أشهر، ينظر: ديوان الطّغرائي: (ت: 513هـ) ونسبة الطّغرائي إلى كتابة الطغراء، وللمؤرّخين ثناء عليه كثير، له (ديوان شعر - ط)، وأشهر شعره (لاميَّة العجم)، وينظر كذلك حسين بن محمد المهديّ، صيد الأفكار في الأدب والأخلاق والحكم والأمثال: 1/86.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/275.

(3) الزجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 1/278- 279.

وابْنُ كَثيرٍ، والكِسائِيُّ، وأَبو جَعْفَرٍ، بِفَتْحِ السّينِ[1]، ويطلقان على المسالمة وعلى الإسلام.

فَأَمّا الَّذينَ فَتَحوا السّينَ مِنَ ﴿ٱلسِّلْمِ﴾، فَإِنَّهُمْ وَجَّهوا تَأْويلَها إلى المُسالَمَةِ، بِمَعْنى: ادْخُلوا في الصُّلْحِ والمُساوَمَةِ، وتَرْكِ الحَرْبِ، وإِعْطاءِ الجِزْيَةِ، وأَمّا الَّذينَ قَرَؤُوا ذَلِكَ بِالكَسْرِ مِنَ السّينِ، فَإِنَّهُمْ مُخْتَلِفونَ في تَأْويلِهِ؛ فَمِنْهُمْ مَنْ يُوَجِّهُهُ إلى الإِسْلامِ، بِمَعْنى ادْخُلوا في الإِسْلامِ كافَّةً، ومِنْهُمْ مَنْ يُوَجِّهُهُ إلى الصُّلْحِ، بِمَعْنى: ادْخُلوا في الصُّلْحِ[2]، ورجّح الطّبري أن يكون مَعْناهُ: ادْخُلوا في الإِسْلامِ كافَّةً؛ فَإِنَّ مَعْنى الإِسْلامِ ودَوامِ الأَمْرِ الصّالِحِ عِنْدَ العَرَبِ أَغْلَبُ عَلَيهِ مِنَ الصُّلْحِ والمُسالَمَةِ، وقال: قَدْ كانَ أَبو عَمْرِو بْنُ العَلاءِ، يَقْرَأُ سائِرَ ما في القُرْآنِ مِنْ ذِكْرِ ﴿ٱلسَّلْمِ﴾ بِالفَتْحِ، سِوى هَذِهِ الّتي في سورَةِ البَقَرَةِ، فَإِنَّهُ كانَ يَخُصُّها بِكَسْرِ سينِها، تَوْجيهًا مِنْهُ لِمَعْناها إلى الإِسْلامِ، دونَ ما سِواها[3].

إطلاقُ السِّلمِ على الإسلامِ، لأنَّه الدِّين الوحيد الكفيل بتحقيقِ السَّلامِ

وحَقيقَةُ ﴿ٱلسِّلْمِ﴾: الصُّلْحُ والمسالمة، وإطلاقه على الإسلام من حيث إنّ أحكام الدّين الحنيف، تتّجه كلّها نحو تحقيق السّلام بين النّاس، وتخليص القلوب من أدرانها، وتوجيه النّاس نحو السّلامة، والبعد بها عن مواقع الهلاك[4]، ومعنى ﴿ٱلسِّلْمِ﴾ على ما ذهب إليه قتادة ومن وافقه من المفسّرين: المسالمة والموادعة والصّلح، وهو يشمل مسالمةَ المسلمين فيما بينهم، فلا يفترقون، ولا يختصمون، ولا يتنازعون، حتّى لا يكون بأسُهم بينهم شديدًا، كما يشمل مسالمتَهم لغيرهم، فلا يعتدون على غيرهم، ما دام لم يُعْتَدَ علَيهم والسّلام بين المسلمين أمر يفرضه الدّين، وهو ممّا عُلم من الدّين بالضّرورة، أمّا مسالمة المسلمين لغير المسلمين، فالإسلام دعا إلى السّلام وحضّ علَيه، ومبدؤه العامّ التّعارفُ بين بني الإنسان لا التّنابذ بينهم؛ ولذا قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: 13]،

(1) ابن الجزَريّ، النشر: 2/227.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 3/597.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 3/597 - 598.
(4) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 2/650.

فما جاء الإسلام للحرب والخصام، بل جاء بالهدى والسّلام، ولكنَّ سلامَ الإسلام سلامٌ عزيزٌ قويّ، وليس بسلام ذليل ضعيف[1].

إعرابُ كلمةِ ﴿كَآفَّةً﴾ وتعيينُ صاحبِ الحالِ:

الإسلامُ اجتماعٌ بلا فرقةٍ، وأحكامُه كلٌّ بلا تجزئة

قَوله تعالى: ﴿كَآفَّةً﴾: بِمَعْنى جَميعًا أو مجتمعين، وهو مِمّا لَزِمَ انْتِصابُهُ عَلى الحالِ[2]، وصاحب الحال: الفاعل في ﴿ٱدۡخُلُواْ﴾، أو ﴿ٱلسِّلۡمِ﴾، وإذا أخذنا معنى ﴿ٱلسِّلۡمِ﴾ في الآية، على قول أكثر المفسّرين، وهو: الإسلام؛ يكون المعنى على الوجه الأوّل من الإعراب: يا أيُّها الّذين آمنوا ادخلوا في الإسلام مجتمعين، غير متفرّقين ولا متنابذين، أي: انقادوا لأحكامه مجتمعين، لا يفرّقُكم أيّ سبب من أسباب الفُرقة؛ لأنّ وصف الإيمان جامعُكم، فإيمانُكُم يبعثكم إلى أن تكونوا طائعين منقادين للإسلام في اجتماع لا افتراق معه، ويوجبُ عليكم أن توحّدوا كلمتَكم، والمعنى على الوجه الثّاني، وهو أنّ لفظ ﴿كَآفَّةً﴾ حال من ﴿ٱلسِّلۡمِ﴾، أي: ادخلوا في الإسلام بكلّ شرائعه وأحكامه، فلا تأخذوا بحكم وتتركوا حكمًا، فلا يصحّ أن يُؤخذَ بعضُ الإسلام، ويُتركَ بعضُه، ومن فعل ذلك كان كمن يؤمن ببعض الكتاب ويكفر ببعضٍ، فأحكام الإسلام كلٌّ لا يقبل التّجزئةَ[3].

فائدةُ النّهي والتَّحذيرِ عمّا يَصُدُّ عَنِ الدُّخولِ في السِّلْمِ المأمورِ بِهِ:

الشّيطان يستدرجُ الإنسانَ إلى الشّر، حتّى يغرقَ فيه ويهلكَ

قَوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾ أسلوبُ نهي فيه تَحْذيرٌ مِمّا يَصُدُّهُمْ عَنِ الدُّخولِ في السِّلْمِ المَأْمورِ بِهِ، وفائِدَتُهُ التَّنْبيهُ عَلى أَنَّ ما يَصُدُّ عَنِ الدُّخولِ في السِّلمِ، هُوَ مِنْ مَسالِكِ الشَّيْطانِ[4]، فقَوله: ﴿خُطُوَٰتِ﴾ الخُطُوات: جمع خطوة، بفتح الخاء وضمّها، وهي ما بين قدَمَي من يخطو، والمعنى: لا تتّبعوا سيرَ الشّيطان، وعبّر عنه

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 2/651- 652.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/318.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 2/651.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/279.

بخطواته، لأنّ الشّيطان لا يجرّ المرءَ إلى الشّرّ دفعةً واحدة، بل يأخذه إلَيه درجةً درجةً وخطوةً بعد أُخرى؛ فيبتدِئ بأيسرِها وأصغرِها حتّى إذا ألِفَه جرّأه على ما هو أكبرُ منه؛ لذلك قالواْ في الحكمة: إنّ كثرةَ ارتكابِ الصّغائر تُجَرِّئُ على الكبائر[1].

دقّةُ الاستعارة التَّمْثيليَّة في اتِّباع الخُطُواتِ:

الاستعارةُ أبلغُ عبارةٍ عن التّحذير من طاعةِ الشَّيطانِ

اتِّباعُ الخُطُواتِ استعارةٌ تَمْثيلِيَّةٌ، أَصْلُها أَنَّ السّائِرَ إذا رَأَى آثارَ خُطواتِ السّائِرينَ، تَبِعَ ذَلِكَ المَسْلَكَ، عِلْمًا مِنْهُ بِأَنَّهُ ما سارَ فيهِ السّائِرُ قَبْلَهُ، إلّا لِأَنَّهُ مُوَصِّلٌ لِلْمَطْلوبِ، فَشَبَّهَ المُقْتَدي الَّذي لا دَليلَ لَهُ سِوى المُقْتَدى بِهِ، وهُوَ يَظُنُّ مَسْلَكَهُ مُوَصِّلًا، بِالَّذي يَتَّبِعُ خُطواتِ السّائِرينَ، وشاعَتْ هاتِهِ التَّمْثيلِيَّةُ حتّى صاروا يقولونَ في الأمثال: هو يَتَّبِعُ خُطا فُلانٍ، بِمَعْنى يَقْتَدي بِهِ ويَمْتَثِلُ لَهُ[2]، قال الشّريف الرّضيّ: وهذه من شرائف الاستعارة، فهي أبلغُ عبارة عن التّحذير من طاعة الشّيطان فيما يأمر به، وقبول قوله فيما يدعو إلى فعله[3].

معنى اللّامِ في كلمة الشَّيطانِ إمَّا للجنسِ أو العهدِ:

اللّامُ في كلمةِ ﴿ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾ إمَّا أن تكونَ لِلْجِنْسِ، ويَجوزُ أَنْ تَكونَ لِلْعَهْدِ، ويَكونَ المُرادُ إبْليسَ، وهو أَصْلُ الشَّياطينِ وآمِرُهُمْ، فَكُلُّ ما يَنْشَأُ مِنْ وَسْوَسَةِ الشَّياطينِ فهو راجِعٌ إلَيْهِ؛ لِأَنَّهُ الَّذي خَطا الخُطُواتِ الأُولى[4].

بلاغةُ التّذييلِ في قولِه: ﴿إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٌ﴾:

أفادت (إنَّ) في قَوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٌ﴾: مَعْنى التَّعْليلِ والرَّبْطِ؛ فهي في مِثْلِ هَذا تُغْني غَناءَ الفاءِ، وهو شَأْنُها بَعْدَ الأَمْرِ والنَّهْيِ[5].

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 2/653، ومجمع البحوث، التّفسير الوسيط: 1/328.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/103.
(3) الشّريف الرّضّي، تلخيص البيان: 2/118-119.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/103.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/104.

وقدّم ﴿لَكُمْ﴾ ليفيد اختصاصَ عداوة الشَّيطانِ بالإنسانِ، فيكون على حذر من وساوسه، بالالتجاء إلى خالقه.

وصفةُ ﴿مُّبِينٌ﴾ معناهُ: الظّاهِرُ العَداوَةِ؛ مِنْ أَبانَ الَّذي هو بِمَعْنى بانَ، ولَيْسَ مِنْ أَبانَ الَّذي هَمْزَتُهُ لِلتَّعْدِيَةِ، بِمَعْنى أَظْهَرَ[1]، وعداوة الشّيطان مقرّرة ثابتة من بدء الخليقة؛ لذلك فهو عدوٌّ مبين.

وجاء هذا التّذييل الّذي يحذّر من هذا العدوّ الظّاهرِ العداوةِ، المتحكّم في النّفس الأمارة، من أن تظهر آثارُ مآثمه التي يحرّض عليها، في تفريق الجماعة، وضياع الكلمة، وإصابة أهل الإسلام بالذّلّة، فيكون الضّرر محقّقًا بالأفراد والجماعات.

بلاغةُ الشَّرطِ في قولِه تعالى: ﴿فَإِن زَلَلْتُم﴾:

وقوعُ الزَّلِ من المؤمنين شِبْهُ نادرٍ

حرفُ الفاء في قولِه تعالى: ﴿فَإِن زَلَلْتُم﴾ تَفْريعٌ عَلى النَّهْيِ ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾، وحرف ﴿فَإِن﴾ للشَّرطِ، وتقديرُ الشّرط: فَإِن اتَّبَعْتُمْ خُطُواتِ الشَّيْطانِ فَزَلَلْتُمْ، أَوْ فَإِنْ زَلَلْتُمْ فاتَّبَعْتُمْ خُطُواتِ الشَّيْطانِ، وجيءَ في الشَّرْطِ بِإِنْ التي تفيد الشّكّ ليفيد نُدْرَة حُصولِ هَذا الزَّلَلِ مِنَ الَّذينَ آمَنواْ، وفيه ترغيبٌ وحثٌّ على الاستقامة على منهج الله[2].

اسْتعْمالُ الزَّلَل مَجازًا على سبيلِ الاستعارةِ التَّمْثيليّة:

تشبيهُ ما يَأْمُرُ بِهِ الشَّيْطانُ بالطَّريقِ المُزَلَّقَةِ عَلى سبيلِ الاستعارةِ المَكْنِيَّةِ

وأَصْلُ الزَّلَلِ الزَّلَقُ أَي اضْطِرابُ القَدَمِ وتَحَرُّكُها في المَوْضِعِ المَقْصودِ إِثْباتُها بِهِ، واسْتُعْمِلَ لفظُ ﴿زَلَلْتُم﴾ في قَوله تعالى: ﴿فَإِن زَلَلْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْكُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾، مَجازًا في الضُّرِّ النّاشِئِ عَنِ اتِّباعِ الشَّيْطانِ على سبيل الاستعارة التَّمْثيليّة؛ فقد شُبِّهَتْ هَيْئَةُ مَنْ يَعْمَلُ بِوَسْوَسَةِ الشَّيْطانِ بِهَيْئَةِ الماشي عَلى أَثَرِ غَيْرِهِ،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/104.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/279- 280.

وشُبِّهَ ما يَعْتَريهِ مِنَ الضُّرِّ في ذَلِكَ المَشْيِ بِزَلَلِ الرِّجْلِ في المَشْيِ في الطَّريقِ المُزْلَقَةِ[1]، وفيه تشبيه ما يَأْمُرُ بِهِ الشَّيْطانُ بِالطَّريقِ المُزْلَقَةِ عَلى سبيل الاستعارة المَكْنِيَّةِ، وفي الفعل ﴿زَلَلْتُم﴾ عدولٌ عن المضارع إلى الماضي، تحذيرًا لمن وقع منهم في الزّلل، بلحوق الوعيد بهم.

تأنيثُ فعلِ المجيءِ مع البيناتِ بحسبِ السِّياقِ:

تـأتي الـبَـيِّـنـاتُ بمعنى المُعْجِزات وبمعنى الأوامر والنَّواهي

جاء قوله تعالى: ﴿مِّنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡكُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ﴾ بالتّأنيث؛ يؤنّثُ الفعلُ مع البيّنات إذا كانت الآيات تدلّ على النّبوّات، بينما جاءت في آياتٍ أخرى بالتَّذكيرِ مثل قَوله تعالى: ﴿جَآءَهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ﴾، فالبيّنات بمعنى الأمر والنّهي، فيُذكّر الفعل، كما في قوله تعالى: ﴿كَيۡفَ يَهۡدِي ٱللَّهُ قَوۡمٗا كَفَرُواْ بَعۡدَ إِيمَٰنِهِمۡ وَشَهِدُوٓاْ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقّٞ وَجَآءَهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [آل عمران: 86][2].

بلاغةُ التحذيرِ والوعيدِ في قولِه: ﴿فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ﴾:

معرفةُ صفات العزَّةِ والحكمةِ تؤولُ إلى معرفةِ اللّازمِ

الفاءُ في قَولِه تعالى: ﴿فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ﴾ واقعةٌ في جَوابِ الشَّرْطِ ﴿فَإِن زَلَلۡتُم﴾، و﴿أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ﴾، مفعول ﴿فَٱعۡلَمُوٓاْ﴾، والمَقْصودُ أن يعلموا لازِمَه؛ فَكَأَنَّهُ تَعالى قالَ: فاعْلَموا أَنَّهُ يُحِلُّ بِكُمُ العِقابَ[3]، ولفظ ﴿عَزِيزٌ﴾ فَعيلٌ مِنْ عَزَّ إذا قَوِيَ ولَمْ يُغْلَبْ، فَكانَ العِلْمُ بِأَنَّهُ تَعالى عَزيزٌ، مُسْتَلْزِمًا تَحَقُّقَهُمْ أَنَّهُ مُعاقِبُهُمْ لا يُفْلِتُهُمْ، لِأَنَّ العَزيزَ لا يَنْجو مَنْ يُناوِئُهُ ولفظ ﴿حَكِيمٞ﴾ صيغة مبالغة، ويَجوزُ أَنْ يَكونَ اسْمَ فاعِلٍ مِنْ حَكَمَ، أَيْ: هو قَوِيُّ الحُكْمِ، ويُحْتَمَلُ أَنَّهُ المُحْكِمُ لِلْأُمورِ فَهُوَ مِنْ مَجيءِ فَعيلٍ بِمَعْنى مُفْعِلٍ، ومُناسَبَتُهُ هُنا أَنَّ المُتْقِنَ لِلْأُمورِ، لا يُفْلِتُ مُسْتَحِقَّ العُقوبَةِ، فالكَلامُ وَعيدٌ، وإلّا فَإِنَّ النّاسَ كُلَّهُمْ يَعْلَمونَ أَنَّ اللَّهَ عَزيزٌ حَكيمٌ[4].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/280.
(2) فاضل السّامرّائي، أسرار البيان في التّعبير القرآنّي: (محاضرة مفرَّغة- الشّاملة).
(3) محمّد رشيد رضا، تفسير المنار: 2/208.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/280.

نكتةُ تقديمِ صفةِ ﴿عَزِيزٌ﴾ على صفةِ ﴿حَكِيمٌ﴾:

قدّم صفةَ ﴿عَزِيزٌ﴾ على صفةِ ﴿حَكِيمٌ﴾ لأنّه تعالى عَزّ فحكم؛ والعزيز: لا يُغالَب، وهو قادرٌ لا يمتنع عليه شيءٌ، والحكيم: المدبّر الّذي يُحْكِم الصّنعَ، ويُحسن التّدبيرَ، فتكون القدرة مقدّمةً على حسن التّدبير، وجاءت هذه الآية على وجه التّهديد والوعيد، وهذا أبلغُ في إثبات الرّوع والمهابة، ولو أنّ نوعَ العذاب جاء محددًا ما بلغ في الحسن مبلغَ قوله ﴿عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝٢٠٩﴾، أي: غالب لا يُعجزه الانتقام منكم، حكيمٌ لا ينتقم إلّا بحقّ[1]، فجاء هذا التّذييل بأَبْلَغ تعْبير؛ لِأَنَّهُ بَيانٌ لِلْحُجَّةِ، وتَقْريرٌ لِلْبُرْهانِ بالإشارَةِ إلى مُقَدِّماتِهِ اكْتِفاءً بِهِ عَنْ ذِكْرِ النَّتيجَةِ، وهو مِنْ ضُروبِ إيجازِ القُرْآنِ الّتي لَمْ تُعْهَدْ في كَلامِ إنْسانٍ[2].

التّذييلُ بَيانٌ لِلحُجَّةِ، وتَقْريرٌ لِلبُرْهانِ بما لم يُعهد في كلامِ إنسانٍ

دلالةُ الاستفهامِ الإنكاريّ والالتفاتِ البلاغيّ في: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ﴾:

في قول الله تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾: عبارة ﴿هَلْ يَنظُرُونَ﴾ وهي استفهامٌ إنكاريٌّ، أفادتْ نفيًا في المعنى؛ لذا وقع بعده الاستثناءُ المفرّغ[3]، والمراد ما ينتظر التّاركون للدّخول في الإسلام، والزّالّون والمتّبعون خطواتِ الشّيطان إلّا أن يأتيهم، فهو التفاتٌ منَ الخطاب إلى الغَيبة لتجديد نشاط السّامع، وللإيذانِ بأنّ سوءَ صنيعهم موجبٌ للإعراض عنهم، وحكاية جنايتِهم لما عداهم من أهل الإنصاف على طريق الإهانة[4]، وهذا من أساليب القصر بالنّفي وإلّا قوله: ﴿يَنظُرُونَ﴾ أي: ينتظرون، من النَّظَر بمعنى: الانْتِظار والتَّرَقُّب، يُقالُ: نَظَرَهُ بِمَعْنى تَرَقَّبَهُ، لِأَنَّ الذي يَتَرَقَّبُ أَحَدًا يُوَجِّهُ نَظَرَهُ إلى صَوْبِهِ ليرى شخصَه عِنْدما يَبْدو.

إيثارُ ﴿يَنظُرُونَ﴾ على (ينتظرون) للدّلالةِ على تمثّلٍ يُشبه النّظرَ بالأبصار.

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/253، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 1/212.
(2) محمّد رشيد رضا، تفسير المنار: 2/208.
(3) الخفاجيّ، عناية القاضي: 2/296.
(4) القنّوجي، فتح البيان: 1/421، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/281.

وآثر ﴿يَنظُرُونَ﴾ على: (ينتظرون)؛ لأنّ الانتظارَ ترقُّبٌ ذهنيٌّ، والنّظر رؤيةٌ بالبصر، وسرُّه البلاغيّ أنّ يوم القيامة لورود الأخبار الصّادقة به، كأنّه ماثلٌ أمامهم ينظرون إليه بأبصارهم الآن، ومفعولُ: يَنْظُرونَ، هو ما بَعْدَ إلّا، أَيْ: ما يَنْتَظِرونَ إلّا إتْيانَ اللَّهِ[1]، وهذا فيه تهْديدٌ ووَعيدٌ.

إسْنادُ الإتْيان إلى اللَّهِ تَعالى في هذه الآيَةِ على وَجْهِ إثْباتِ الصّفة:

الإتْيانُ ثابتٌ لِلَّهِ تَعالى، بِلا كَيْفَ

أُسْنِدَ الإتْيانُ إلى اللَّهِ تَعالى في قَوله: ﴿إِلَّآ أَن يَأۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ﴾، على وَجْهِ الإثْبات، فاقْتَضى ظاهِرُهُ اتِّصافَ اللَّهِ تَعالى بِهِ، فنؤمن به كما ورد، وقد ذَهَبَ سَلَفُ الأُمَّةِ إلى إقْرارِ الصِّفاتِ المُتَشابِهَةِ دونَ تَأْويلٍ، فَالإتْيانُ ثابتٌ لِلَّهِ تَعالى، لَكِن بِلا كَيْف، فهو مِنَ المُتَشابِهِ كالاسْتِواءِ والنُّزولِ والرُّؤْيَةِ، أَيْ: هو إتْيانٌ لا كَإتْيانِ الحَوادِثِ[2]، قال تعالى: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ [الشّورى: 11]، وفي قراءة ابن مسعود: (إلّا أَن يَأْتِيَهُمُ اللهُ والملائكةُ في ظُلَلٍ مِنَ الغَمام)؛ ففي الآيَةِ تَقْديمٌ وتَأْخير، وأَصْلُ الكَلام أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ والمَلائِكَةُ في ظُلَلٍ مِنَ الغَمام؛ فالغَمامُ ظَرْفٌ لإتْيانِ المَلائِكَةِ[3].

بلاغةُ التَّعبيرِ في قولِه تعالى: ﴿فِي ظُلَلٖ مِّنَ ٱلۡغَمَامِ﴾:

مجيءُ العذابِ في ظُلَلٍ من الغَمامِ مجازٌ مرسلٌ علاقتُه السّببيّةُ

قَوله تعالى: ﴿فِي ظُلَلٖ مِّنَ ٱلۡغَمَامِ﴾: الظُّلَلُ: جَمْعُ ظُلَّةٍ، وهي ما يُسْتَظَلُّ بِهِ مِنَ الشَّمْسِ، والظُّلَّةُ: سحابةٌ تُظِلُّ، وأكثرُ ما يُقالُ فيما يُسْتَوْخَمُ ويُكْرَهُ[4]، والغَمام من الغمّ وهو في الأصل: ستر كلّ شيءٍ؛ واحده غَمامَةٌ: وهي السَّحابَةُ عامَّةً، أَو البَيْضاءُ مِنها؛ سُمِّيتْ لأنَّها

(1) أبو حيّان الأندلسّي، البحر المحيط: 2/343، وابن عاشور، المصدر السّابق: 2/283، وعبد العظيم المطعني، التّفسير البلاغيّ للاستفهام في القرآن الحكيم: 1/120.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/284.

(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 1/284، وابن عاشور، المصدر السّابق: 2/286.

(4) الرّاغب، المفردات: (ظلل)، والزَّبيديّ، تاج العروس: (ظلل).

تحجب السّماءَ وتمنع ضوءَها أو الشّمسَ وحرّها[1]، والمعنى في سحاباتٍ عَظيمَة تُشْبِهُ كُلُّ سَحابَةٍ مِنْها ظُلَّةَ القَصْرِ، وهي هُنا مُسْتَعارَةٌ أَوْ مُشَبَّهٌ بِها تَشْبيهًا بَليغًا[2]، وتنوين التّنكير في ﴿ظُلَلٍ﴾ للتّهويل، وإنّما ذكر ﴿ٱلْغَمَامِ﴾ ليكون أهول، فإنّ الأهوالَ تُشَبَّه بظلل الغمام، كما قال سبحانه: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ﴾ [لقمان: 32] وفي قوله تعالى: ﴿فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ﴾ فيه مجازٌ مرسلٌ علاقتُه السّببيّةُ؛ لأنّ الغمام سببُ الرّحمة لا العذاب، واختيار الغمام أن يأتي من قبله العذابُ؛ لأَنَّ الغَمامَ مَظِنَّةُ الرَّحْمَةِ، فَإذا نَزَلَ مِنْهُ العَذابُ، كانَ الأَمْرُ أَفْظَعَ، لأنّ الشّرّ إذا جاءَ مِنْ حَيْثُ لا يُحْتَسَبُ، كانَ أَهْوَلَ وأَفْظَعَ، كَما أَنَّ الخَيْرَ إذا جاءَ مِنْ حَيْثُ لا يُحْتَسَبُ كانَ أَكْثَرَ تَأْثيرًا في السُّرورِ، فَكَيْفَ إذا جاءَ الشَّرُّ مِنْ حَيْثُ يُحْتَسَبُ الخَيْرُ، ومِنْ هَذا اشْتَدَّ عَلى المُتَفَكِّرينَ في كِتابِ اللَّهِ تَعالى، قَوْلُهُ: ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُواْ يَحْتَسِبُونَ﴾ [الزُّمَر: 47]؛ فإنّ تفسيره عَلى ما قالوا: عملوا أعمالًا حسبوها حسناتٍ، فإذا هي سيئاتٌ، وذلك لتجويزهم أن يكون عملهم كَذَلكَ، فيجيئهم الشّرّ من حيث توقّعوا الخير، فخافوا من ذلك، كما أَنَّ نُزولَ الغَمامِ عَلامَةٌ لِظُهورِ ما يَكونُ أَشَدَّ الأَهْوالِ في القِيامَةِ، قالَ تَعالى: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ﴿٢٥﴾ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا﴾ [الفرقان: 25 - 26][3].

تعدُّدُ احتمالاتِ عودِ الضّميرِ الفاعل في قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ﴾:

التَّعجُّبُ والإنكارُ وتوبيخُ المشركين على معتقدِهم في الله تعالى

جاء ضَميرُ الجَمْعِ في قَوْلِهِ: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ﴾ ليستوعب كُلَّ الاحْتِمالاتِ الّتي لا تَتَنافى فهو يصلح أن يعود على: ﴿يُعْجِبُكَ﴾، و﴿يَشْرِى﴾، و﴿ٱدْخُلُواْ﴾، و﴿لَا تَتَّبِعُواْ﴾، و﴿زَلَلْتُم﴾.

فَإِنْ كانَ الضَّميرُ لِـ﴿مَنْ يُعْجِبُكَ﴾ أَوْ ﴿لَهُ﴾ أولِ ﴿مَنْ يَشْرِى نَفْسَه﴾، فالجُمْلَةُ اسْتِئْنافٌ بَيانيٌّ، فقد يسأل سائل عن هاتَيْنِ الحالَتَيْنِ: ما جَزاء الفَريقَيْنِ؟ فَيَكونُ قَوْلُهُ: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ﴾، جَوابًا لِذَلِكَ؛ والفريق الأوّل يَنْتَظِرُهُ شَكًّا في الوَعيدِ بِالعَذابِ، والفَريقُ الآخَرُ يَنْتَظِرُهُ انْتِظارَ الرّاجي لِلثَّوابِ.

(1) الرّاغب، المفردات: (غمم)، والسّمين، عمدة الحفّاظ: (غمم)، والزَّبيديّ، تاج العروس: (غمم)، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (غمم).
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/284.
(3) الرّازيّ، التّفسير الكبير: 5/360، وحاشيتا القونويّ وابن التّمجيد على البيضاويّ: 5/164.

وإنْ كانَ الضَّميرُ راجعًا إلى الَّذينَ آمَنوا، فَجُمْلَةُ ﴿هَلْ يَنظُرُونَ﴾ اسْتِئْنافٌ، لِلتَّحْريضِ عَلى الدُّخولِ في الإسْلامِ خَشْيَةَ يَوْمِ الجَزاءِ، أَوْ طَمَعًا في ثَوابِهِ.

وإنْ كانَ الضَّميرُ لِلَّذينَ زَلّوا مِنْ قَوْلِهِ: ﴿فَإِن زَلَلْتُم﴾ [البَقَرَة: 209]، فالجُمْلَةُ بَدَلُ اشْتِمالٍ مِنْ مَضْمونِ جملَة ﴿أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البَقَرَة: 209]؛ لِأَنَّ مَعْناهُ: فَإِنْ زَلَلْتُمْ، فاللَّهُ لا يُفْلِتُكُمْ لِأَنَّهُ عَزيزٌ حَكيمٌ، وعَدَمُ الإفْلاتِ يَشْتَمِلُ عَلى إتْيانِ أَمْرِ اللَّهِ والمَلائِكَةِ وإنْ كانَ الضَّميرُ عائِدًا إلى أهل الكتاب، فَهُوَ تَوْبيخٌ لَهُمْ عَلى مُكابَرَتِهِمْ عَنِ الاعْتِرافِ بِحَقِّيَّةِ الإسْلامِ[4].

وقد وجّه بعضُ المفسّرين إتيانَ اللّه سبحانه وملائكته في هذا الموضع، إلى معنى آخر، وهو أنّ أولئك المشركين قد كفروا، مع أنّ الحُجّة قاطعةٌ، والبيّناتِ دامغةٌ، والحقّ واضحٌ أبلجُ، والرّسول ﷺ بين ظهرانَيْهم قد عُرف طولَ حياته بالصّدق والأمانة، وإذا كانوا قد كفروا مع تلك البيّنات، فهل ينتظرون أن يأتيهم اللّه هو وملائكتُه في ظُلَل من الغمام، لكي يؤمنوا برسالة محمّد ﷺ بعد أن يشاهدوا اللّه وملائكتَه! وكانوا قد طلبوا أن ينزل مَلَكٌ من السّماء برسالة محمّد ﷺ: ﴿وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ۝٨ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ۝٩﴾ [الأنعام: 8- 9]، فالاستفهام حينئذ للتّوبيخ واللّوم مع النّفي؛ أي أنّ حالَهم حالُ من لا يريدون أن يؤمنوا، إلّا بعد أن يُعاينوا ويَروا اللّه وملائكتَه جهرةً؛ كما قالوا للنّبيّ ﷺ: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ۝٩٠ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ۝٩١ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ۝٩٢﴾ [الإسْراء: 90- 92]، وكما قال بنو إسرائيل لنبيّهم موسى عليه السلام: ﴿يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ [البقرة: 55]، ومعنى ﴿وَقُضِيَ ٱلْأَمْرُ﴾ أي: انتهى الأمرُ عند هذه المعجزة الّتي جاء بها محمّد ﷺ[2].

توجيه القراءاتِ القرآنيَّة:

اختلف القرَّاءُ في قَوله تعالى: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾؛ فقرَأَ أَبو جَعْفَرٍ ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ بالجَرِّ عَطْفًا عَلى ﴿ظُلَلٍ﴾، أي: في ظُلَلٍ منَ الغمام، وفي ظُلَل من الملائكة، أي: جماعات من الملائكة

(4) الطّاهر بن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/281 - 282.

(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 2/656.

وقَرَأَهُ باقي القرّاء ﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾ بالرَّفْعِ عَطْفًا عَلى اسْمِ الجَلالَةِ، وإسْنادُ الإتْيانِ إلى المَلائِكَةِ لِأنَّهُمُ الَّذِينَ يَأْتونَ بِأَمْرِ اللَّهِ أَوْ عَذابِهِ، وهُمُ المُوكَلُ إلَيْهِمْ تَنْفيذُ قَضائِهِ[1].

معنى الواوِ في قولِه تعالى: ﴿وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ﴾:

تـــردُّدُ الـــواو بـين الـعـطـفِ والاسـتـئـنـافِ والحالِ

جملةُ ﴿وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ﴾ إمَّا أن تكونَ معطوفةً عَلى قَوْلِهِ: ﴿يَأۡتِيَهُمُ﴾، أو أن تكونَ جملة مستأنَفة، جيء بها للدّلالة على أنّ مضمونها واقعٌ لا محالة؛ أي: وفرغ من الأمر الذي هو إهلاكُهم، أو جملة حاليّة، أي: هل ينتظرون إلّا أن يأتيهم العذاب والملائكة، والحال أنّه قد قضي أمرُ هلاكهم وتدميرهم، فلا يمكن ردُّه[2].

سرُّ العدولِ عن صيغةِ المُضارعِ إلى الماضِي:

الـدّلالـةُ على تـحـقّـقِ الأمـرِ، وكأنّه قد وَقَعَ

بني الفعل الماضي: ﴿وَقُضِيَ﴾ للمفعول في قَوله: ﴿وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ﴾ فَهُوَ مِنْ وَضْعِ الماضي مَوْضِعَ المُسْتَقْبَلِ، وإنّما عُدِل إلى صيغة الماضي، دلالةً على تحقّقه، فكأنّه قد وقع، والتَّقْديرُ: وهل ينتظرون إلّا أن يُقضى الأمرُ بهلاكهم.

معنى الألفِ واللّام في كلمةِ ﴿ٱلۡأَمۡرُ﴾:

والألف واللّام في ﴿ٱلۡأَمۡرُ﴾، إمّا لِلْجِنْسِ، ويُراد مِنْهُ الاسْتِغْراقُ أَيْ قُضِيَتِ الأُمورُ كُلُّها، وإمّا لِلْعَهْدِ أَيْ أَمْرُ هَؤُلاءِ أَيْ عِقابُهُمْ، أَوِ الأَمْرُ المَعْهودُ لِلنّاسِ كُلِّهِمْ وهو الجَزاءُ[3].

مـــن جـــوامـــع الـكـلـم إيـجـازُ القِصَر في قَوله (وقضي الأمر)

وبناء الفعل: ﴿وَقُضِيَ﴾ للمفعولِ، وجعْل نائبِ الفاعل فيه ﴿ٱلۡأَمۡرُ﴾ من جوامع الكلم، فما أكثر الأمور الّتي سيقضي اللّه فيها يوم القيامة، دلّ عليها القرآن هنا بكلمة واحدة هي ﴿ٱلۡأَمۡرُ﴾ كما أنّ هاتَيْنِ الكَلِمَتَيْنِ يَنْدَرِجُ في ضِمْنِها جَميعُ أَحْوالِ العِبادِ، مُنْذُ خُلِقوا إلى

(1) الفرّاء، معاني القرآن: 1/124، وابن الجزَريّ، شرح طيّبة النّشر، ص: 194، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/287.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/345، والهرَريّ، تفسير حدائق الرّوح والرّيحان: 3/241، ومجمع البحوث، التّفسير الوسيط: 1/330.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/287.

يَوْمِ التَّنادِ، ومِنْ هذا اليَوْمِ إلى الفَصْلِ بَيْنَ العِبادِ، وهذا من إيجاز القِصَر[1]، والآية فيها تهديدٌ ووعيدٌ، لمن ينصرفُون عن الدّخولِ في الإسلام، ويعطّلون مسيرته.

بلاغةُ الفاصلةِ القرآنيَّة:

التّصريحُ باسمِ الجلالةِ لعظمةِ ما يرجعُ إليه

صُرِّحَ بِاسْمِ اللَّهِ في قَولِه تعالى: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ ولم يقل: (وإليه ترجع الأمور)؛ لِأَنَّهُ أَفْخَمُ وأَعْظَمُ وأَوْضَحُ.

تقديم الجارّ والمَجرور على الفعلِ، لقَصْرِ الصّفةِ على الموصوفِ

تقديمُ الجارِّ والمجرورِ في قَولِه تعالى: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾، على الفعل لقصر الصّفة على الموصوف، وقد أفاد تأكيد المعنى والاخْتِصاص؛ فاخْتُصَّ بِذَلِكَ اليَوْمِ لِانْفِرادِهِ فيهِ بِالتَّصَرُّفِ والحُكْمِ والمُلْكِ[2]، أي: إليه وحدَه مردُّ الأمور كلّها فما شاء فعل، وأمورُ جميع العباد، ترجع إليه في الدّنيا والآخرة، وقد يوحي ردُّها إليه يوم القيامة، أنّها لم تكن له من قبل! لكنّ الغرضَ من تأكيدها بذلك اليوم: إعلامُ الخلق بأنّه المنفردُ بالمجازاة في أمر الحساب، على الأعمال بالثّواب والعقاب، أي إليه وحده تصيرون فيعذّب من يشاءُ، ويرحم من يشاءُ[3]، ولرفع إبهام ما كانَ عليه مُلوكُ الدُّنْيا مِنْ دَفْعِ أُمورِ النّاسِ إلَيْهِمْ، فَأَعْلَمَ أَنَّ هَذا لا يَكونُ لَهُمْ في الآخِرَةِ مِنْها شَيْءٌ، بَلْ ذَلِكَ إلى اللَّهِ وَحْدَهُ، أَوْ لِإعْلامِ أَنَّها رَجَعَتْ إلَيْهِ في الآخِرَةِ بَعْدَ أَنْ كانَ مَلَّكَهُمْ بَعْضَها في الدُّنْيا، فَصارَتْ إلَيْهِ كُلُّها في الآخِرَةِ[4]، ولمّا عبَد قومٌ غيره في الدّنيا، أضافوا أفعاله تعالى إلى هؤلاء المعبودين بغير حقّ، فإذا كان يوم القيامة وظهرت الحقائق، ردّواْ إلى اللّه ما أضافوه إلى غيره في الدّنيا[5].

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/346-347، وعبد العظيم المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام في القرآن الحكيم: 1/121.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/347.
(3) الزجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 1/281.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/346.
(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/346.

توجيهُ القراءاتِ القرآنيَّة:

اختلف القرَّاءُ في قولِه تعالى: ﴿تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ﴾ على قراءتَيْن: الأولى: ﴿تُرۡجَعُ﴾ بالبناء لِلْمَفْعولِ، قرأ بها نافع وابن كثير وأبو عمرو وعاصم وأبو جعفر؛ عَلى أَنَّ: رَجَعَ، متعدٍّ، ومصدره الرّجْع، أَيْ: يُرْجِعُ الأُمورَ راجِعُها إلى اللَّهِ، وحُذِفَ الفاعِلُ على هَذا لعَدَم تَعَيُّنِ فاعِلٍ عُرْفيٍّ لِهَذا الرَّجْعِ، أَوْ حُذِفَ لِدَفْعِ ما يَبْدو مِنَ التَّنافي بَيْنَ كَوْنِ اسْمِ الجَلالَةِ فاعِلًا لِلرُّجوعِ ومَفْعولًا لَهُ بِحَرْفِ إلى، و﴿ٱلۡأُمُورُ﴾ نائب فاعل تُرجَع.

الثّانية: ﴿تَرۡجِعُ﴾ بالبناء للفاعل، قرأ بها ابنُ عامر وحمزةُ والكسائيّ ويعقوبُ وخلف، عَلى أَنَّ: رَجَعَ، لازِمٌ، ومصدره الرّجوع، و﴿ٱلۡأُمُورُ﴾ فاعل تَرجِع[1].

التّذييلُ تأكيدٌ لنفاذِ أمره وشمولِ قدرتِهِ وقهرِه

هذه الجملة ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ﴾ خبريّة، أريد بها تربيةُ المهابة في النّفوس وفي هذا، إنذارٌ بليغ بعد التّهديد السّابق، وفيه تنبيهٌ للغافلين الضّالّين، إلى أنّ مرجعَهم في الآخرة، إلى اللّه وحده، والجملةُ الكريمةُ تذييلٌ قُصد به تأكيدُ قضاءِ أمره، ونفاذِ حُكمه، وتمامِ قدرته.

(1) ابن الجَزَريّ، النّشر: 2/208، والخفاجيّ، عناية القاضي: 2/296، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/287.

﴿سَلۡ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ كَمۡ ءَاتَيۡنَٰهُم مِّنۡ ءَايَةٖ بَيِّنَةٖۗ وَمَن يُبَدِّلۡ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ٢١١﴾ [البقرة: 211]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

علاقة الآية بما قبلها على وجهين: حسب النظر إلى الضمير في قوله: ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ﴾، إن كان الضمير لأهل الكتاب؛ فهي كالدليل عليه، فكثرة الآيات التي جاءت فيهم - وهم بها مقرُّون - دليل على قدرته على الآيات التي لم تحدث بعد، وإن كان الضمير يعود إلى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ﴾؛ كانت الآية بيانًا لحال المعاندين من أهل الكتاب بعد بيان حال المعاندين من أهل الشرك، فقد جاءت هذه الآية بمنزلة البرهان لما قبلها؛ فقد عرّضت بفريقٍ تمادى في الكفر والغرور، ولم ينتفع بِالآياتِ البَيِّنات؛ فَناسَبَ ذَلِكَ أَنْ يُعَقِّبَ بتذكيرهم بما بَلَغَهُمْ مِنْ قِلَّةِ انْتِفاعِ بَنِي إِسْرائيلَ بِما أوتوهُ مِنْ آياتِ الاهْتِداءِ، مَعَ قِلَّةِ غَناءِ الآياتِ لَدَيْهِمْ عَلى كَثْرَتِها، فَإِنَّهُمْ عانَدوا رَسولَهُمْ، ثُمَّ آمَنوا بِهِ إيمانًا ضَعيفًا، ثُمَّ بَدَّلوا الدِّينَ بَعْدَ ذَلِكَ تَبْديلًا؛ فزلّوا، وتولّوا، فعوقبوا[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿سَلۡ﴾: أصلها: اسأل، يقال: سأل يسأل سؤالًا ومسألةً، ورجلٌ سُؤَلَةٌ: كثير السّؤال، والسُّؤال: استدعاء معرفةٍ أو ما يؤدّي إليها، وهو المعنى السياقي هنا، وجوابُها اللّسانُ، وتنوب عنه اليد، أو استدعاء مال، وما يؤدّي إليه، وجوابُه اليدُ، وينوبُ عنه اللّسان، والسُّؤل: ما سألتَه من عطيّة أو أُمنيّة، وهو بمعنى الطّلب: إما طلب شيء، أي: تحصيله، أو طلب علم، أي: معلومة[2].

2) ﴿ءَايَةٖ﴾: مشتقّة من التَّأيِّي الذي هو: التَّثبُّت، والإقامة على الشّيء، والآية: العلامة، وهذه آيةٌ مَأْياةٌ، كقولك: عَلامة مَعْلَمَة، وأصلها: أَأْيَة بوزن أَعْيَة، وقال الأصمعيّ: آيةُ الرّجُل: شخْصُه، وتعني: بقاء الشّيء في مكانه شاخصًا علامة لشيء، قال الخليل: خَرَجَ

(1) تفسير ابن عرفة: 1/254، والرّازيّ، التّفسير الكبير: 6/367، وابن عاشور: التّحرير والتّنوير: 2/288، والآلوسي، روح المعاني: 2/99.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سأل)، والرّاغب، المفردات: (سأل)، السّمين، عمدة الحفّاظ: (سأل)، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (سأل).

القوم بآيتهم، أي: بجماعتهم، يعني: أنّهم حملوا ما شأنه، أو المعتاد أن يكون قائمًا، ومنه آية القرآن؛ لأنّها جماعةُ حروف، وتعني: كلماته، و(الآية): هي العلامة الظّاهرة، وهو المعنى السياقي هنا، وحقيقته لكلّ شيءٍ ظاهرٍ، والآية: الدّليل والبرهان[1].

3) ﴿يُبَدِّلْ﴾: أصل البدَل: حلول شيء محلَّ شيء، وهو قيام الشّيءِ مقامَ الشّيء الذّاهب، يقال: هذا بَدَلُ الشّيءِ وبَديلُه، ويقولون: بدّلْتُ الشّيء إذا غيّرتَه، وإنْ لم تأتِ له ببَدَلٍ، وأبْدَلْتُهُ؛ إذا أتيتَ له ببدلٍ، وهو أعمُّ من العِوَض؛ فإنَّ العوض هو أن يصير لك الثّاني بإعطاء الأوّل، والتّبديل: تغيير الشّيء وإن كان بغير عِوَضٍ[2]، وتبديل النعمة هنا معناه: وضع الكفر موضع الشكر، والتكذيبِ موضعَ التصديق.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

يأمُرُ اللّهُ تعالى نبيَّه محمّدًا ﷺ أنْ يسأَل بني إسرائيل المعاندين له عمّا أعطاهم سبحانه وتعالى مِن الحُجَج الواضحة، والبراهينِ والدَّلائلِ والمعجزات التي تدلُّ على صِدْقِ ما جاءهم به الأنبياءُ والرُّسلُ ﷺ لكنَّهم بَدَّلوا، وَغَيَّروا، وكفَروا، وكذَّبوا، وأعرَضوا عن تلك الآيات، وقد توعَّد اللّهُ مَن يُعرِض عن آياته، ويختارُ الكفرَ على نعمةِ الإسلام بعد أنْ بلَغَتْه بالعقابِ الشَّديد.

❁ الإيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

مجيء التّقرير في صورة الأمر بالسؤال أوقعُ في النّفس وأدلُّ على الإلزام:

﴿سَلْ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾: سَلْ: فعل أَمْر، مِنْ سَأَلَ يَسْأَلُ، أَصْلُهُ: اسْأَلْ، فَحُذِفَت الهَمْزَةُ تَخْفيفًا بَعْدَ نَقْلِ حَرَكَتِها إلى السّاكِنِ قَبْلَها، ولمّا تَحَرَّكَ أَوَّلُ المُضارِعِ؛ اسْتُغْنِيَ عَنْ هَمْزَةِ الوَصْلِ.

وقد يكون مأخذُها من لغة: سال يسال، مثل: خافَ يَخافُ، فحينئذٍ يكون الأمر منها: (سَلْ)، مثل: (خَفْ)، وبهذا قرأ نافعٌ وابنُ عامر وأبو جعفر: ﴿سَالَ سَآئِلٌۢ﴾ [المعارج: 1] على وزن (قال)[3].

في هذا السُّؤالِ تَثْبيتٌ للنّبيّ ﷺ، وزيادَةُ يَقينِ المُؤْمِنين، وتقريع لليهود وتوبيخهم على طغيانهم وجحودهم بالحق بعد وضوح الآيات

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (أيى)، والرّاغب، المفردات: (أي)، والسّمين، عمدة الحفّاظ: (أي)، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (أيي- إي).

(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (بدل)، والرّاغب، المفردات: (بدل)، والسّمين، عمدة الحفّاظ: (بدل)، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (بدل).

(3) ابن الجَزَريّ، النّشر: 2/390.

والعَرَبُ يُكْثِرونَ مِنْ هَذا التَّخْفيفِ في (سَأَلَ) ماضِيًا وَأَمْرًا، إلّا أَنَّ فعْل الأَمْر إذا وَقَعَ بَعْدَ الواوِ والفاءِ؛ تَرَكوا هَذا التَّخْفيفَ غالِبًا، كقوله تعالى: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِي كُنَّا فِيهَا﴾ [يوسف: 82]، ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا﴾ [الفرقان: 59][1].

والمَأْمورُ بهذا السُّؤالِ هُوَ رسولُ الله ﷺ؛ لِأَنَّهُ الذي يَتَرَقَّبُ أَنْ يُجيبَهُ بَنو إِسْرائيلَ عَنْ سُؤالِهِ، إِذْ لا يعبؤون بِسُؤالِ غَيْرِهِ، وهو الراجح هنا كما هو الأصل في الخطاب[2]، أو المأمور به كلّ أحد، والمُرادُ بـ﴿بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ الحاضِرونَ مِنَ اليَهودِ في زمانه ﷺ، أي: سل الحاضرين منهم، أو استقرئ أخبار السّابقين، وسل تاريخَهم[3]، أو سَلْ أهل الإيمان منهم - وهم عبد الله بن سلام وأصحابه - عن الآيات؛ ليزدادوا يقينًا وطمأنينةَ قلبٍ؛ لأنّ الأدلّةَ إذا تظاهرت؛ كان ذلك أقوى وأثبت[4]، والسّؤال هنا ليس جاريًا على حقيقَته، إنّما هو أسلوبٌ من أساليب البيان؛ يُراد به التّذكير بكثرة الآيات التي آتاها اللّهُ بني إسْرائيل، إمّا بسؤالٍ منهم وتعنّت، وإمّا ابتداء من عند الله لحكمةٍ من الحكَم، وذلك استنطاقًا لحالهم، لا أن يسأل واحدًا، فيخبره[5]، والراجح أنَّ الأمر بالسُّؤالِ هنا مجاز يراد منه التقريع والتوبيخ لليهود في زمانه ﷺ، كما إذا أراد واحدٌ منا توبيخَ أحد؛ فإنَّهُ يقول لمن حضر: سلْه كم أنعمتُ عليه[6].

﴿بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾: تخصيصُ إيتاءِ المعجزاتِ بأهلِ الكتابِ مع عمومِه للجميعِ؛ لأنّهم أعلمُ من غيرِهم بالمعجزاتِ، وكيفيّةِ دلالتِها على الصّدقِ، لِعلمِهم بمُعجزاتِ الأنبياءِ السّابقة[7].

الموقع البديع لـ﴿كَمْ﴾ واحتمالها الخبريةَ والاستفهامَ:

﴿كَمْ ءَاتَيْنَٰهُم مِّنْ ءَايَةٍۭ بَيِّنَةٍ﴾

﴿كَمْ﴾: إمَّا أن تكون خبرية، ويكون المسؤول عنه محذوفًا، وعليه تكون الجملة ابتدائيَّة، لا محلَّ لها من الإعراب، وتكون مبيِّنة لاستحقاقهم التَّقريعَ والتَّوبيخَ، وإمَّا أن

(1) ابن عادل، اللّباب: 3/488، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/288.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 1/494.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/254، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/288- 289، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 2/657.
(4) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/697.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 1/390.
(6) الآلوسي، روح المعاني: 1/494.
(7) الآلوسّي، روح المعاني: 1/494.

كثرةُ الآيات لا تَنفع المُعَانِدَ

تكون استفهاميّة، يُراد بها: التَّقرير، أي: طلب الإقرار، والمعنى: أيّ عدد، فهي في محلِّ نصبٍ مفعولٌ ثانٍ ل ﴿ءَاتَيۡنَٰهُم﴾ مقدّم عليه وجوبًا؛ لأنّ الاستفهام له صدر الكلام، والمعنى: سلْهم هذا السُّؤال، وتقديره: آتيناهم أيّ عددٍ، أو آتيناهم عددًا كثيرًا، وهي معلِّقة ل ﴿سَلۡ﴾ عنِ العمل فيما بعده، وإنَّما عُلِّق ﴿سَلۡ﴾ عنِ العمل فيما بعده مع أنّه ليس من أفعال القلوب لأنّه سبب للعلم، والعلم يعلِّق، فكذلك سببُه، فأجري المسبَّب مُجرى السّبب، والتّعليقُ هو: إبطال العمل لفظًا، لا محلًّا، وأجاز صاحب الكشّاف أن تكون خبريّة أيضًا، بمعنى: عدد كثير، أي: آتيناهم عددًا كثيرًا من الآيات، ومنع أبو حيّان أن تكون خبرية من حيث إنَّ ﴿كَمۡ﴾ الخبرية مستقلّة بنفسها، غير متعلّقةٍ بالسّؤال، فتكون مفلتةً ممّا قبلها، والمعنى يؤدّي إلى انصباب السّؤال عليها - وأيضًا - فَيَحْتاج إلى حَذْفِ المفعول الثّاني للسّؤالِ، وتقديرُه: سَلْ بَني إسرائيل عن الآيات التي آتيناهم، والاستفهاميّةُ لا تحتاجُ إلى ذلك[1].

خطاب الحاضرين بخطاب السّابقين لاتّحاد الصّفات والأعمال:

العبرة بتأييد الفكرة، واتفاقِ المعتقد، لا باتّحاد الزّمن

﴿ءَاتَيۡنَٰهُم﴾: آتَيْنا أَسْلافَهُمْ آياتٍ بَيِّناتٍ، فَأَنْكَروها، فاسْتَوْجَبوا العِقابَ مِنَ اللّهِ تَعالى، وَفي ذَلِكَ تَنْبيهٌ لِلحاضِرينَ عَلى أَنَّهُمْ لَوْ انحرفوا عَنْ آياتِ اللّهِ فأنكروهَا؛ لَوَقَعوا في العَذابِ كَما وَقَعَ أولَئِكَ المُتَقَدِّمونَ فيهِ، والمَقْصودُ مِنْ ذِكْرِ هَذِهِ الحِكايَةِ أَنْ يعتبروا بغيرهم، كما قال تعالى: ﴿فَٱعۡتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ ۝٢﴾ [الحشر: 2]، وَقالَ: ﴿لَقَدۡ كَانَ فِي قَصَصِهِمۡ عِبۡرَةٞ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِۗ﴾ [يوسف: 111][2].

وجاز خطاب الحاضرين بخطاب السّالفين؛ لِأَنَّ الخِصالَ الثّابِتَةَ

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/254، وأبو حيّان، البحر المحيط: 2/349- 350، والسّمين، الدّرّ المصون: 2/368، 370، وابن هشام، مُغني اللّبيب، ص: 657.

(2) الرّازيّ، التّفسير الكبير: 6/365.

لِأَسْلافِ القَبائِلِ والأُمَمِ، يَصِحُّ إِثْباتُها لِلْخَلَفِ لِتَرَتُّبِ الآثارِ لِلْجَميعِ، وَيَجوزُ أَنْ يَكونَ المَعْنى: أَنَّهُمْ لَمّا تَناقَلوا آياتِ رُسُلِهِمْ في كُتُبِهِمْ، وَأَيْقَنوا بِها؛ فَكَأَنَّهُمْ أُوتُوها مُباشَرَةً[1].

بلاغةُ وصف الآيةِ بكونِها بيِّنَةً في قوله: ﴿ءَايَةٍ بَيِّنَةٍ﴾:

قـوّة الـدّليـل لا تحمل الجاحد عـلى الإيـمـان، بل تزيده عنادًا وإصـــرارًا على الباطل

﴿مِّنْ ءَايَةٍ بَيِّنَةٍ﴾: الآيَة البَيِّنَة هي المعجزة الواضحة المثبَتة إثباتًا، لا مجال للشّكّ فيه، ولا إثارة الرَّيب حوله، ممّا تَضَمَّنَتْهُ التَّوْراةُ والإِنْجيلُ مِنْ صِفَةِ النَّبِيِّ ﷺ، وَتَحْقيقِ نُبُوَّتِهِ، وَتَصْديقِ ما جاءَ بِهِ، أَوْ مُعْجِزاتُ موسى عليه السلام؛ فَيَدُ موسى تنقلب بيضاء من غير سوء، وعصاهُ تنقلبُ حيّةً تسعى، ويضربُ بها البحرَ، فتفلقُه اثني عشر طريقًا، وتضرب الحجرَ، فتنبجسُ منه اثنتا عشْرة عَينًا، ويُظلّهم الغمام في الحَرّ، وينزل عليهم المنّ والسّلوى؛ وإنزال التّوراة عليهم، وتبيين الهدى من الكفر لهم، ومع كلّ هذه الآيات البيّنات قالوا: ﴿أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ [النساء: 153]، ومنهم من كفر، وعبَدَ العِجْلَ.

فوصف الآية بكونها بيِّنَةً: إيماءٌ إلى قوَّةِ الدَّليلِ، إلَّا أَنَّ قوّتَهُ لا تحمِل الجاحدَ على الإيمان، ومَن كفر لا يكفُرُ عن نقصٍ في الدّليل، ولكن عن فسادٍ في الرَّأيِ، بسبب غشاوة على القلب وضلال في النّفس، وقوّةُ الدّليل مع هذه الحال لا تزيده إلّا عنادًا وإصرارًا على الباطلِ[2].

بَلاغَةُ إِيجَازِ الْحَذْفِ:

الْكُفْرُ بِالْآيَاتِ مِنْ عَادَةِ الْيَهُودِ

وفي الآيَةِ إِيجَازٌ بالْحَذْفِ؛ وَوَجْهُهُ: أَنَّ من أوتي هذه البيِّنات، فكَفَر بها؛ لم تكن تلك النَّتيجة الفاسدة جديرةً بالذِّكر في الكلام، فحذفُها إيماءٌ إلى عدم الاعتدادِ بها، أو لأنَّها نتيجة معروفة سلفًا مِنَ اليهود؛ إذْ كان كفران الآيات من شأنهم وعادتهم، وتَقْديرُ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/289.

(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/254، والرّازيّ، التّفسير الكبير: 6/366، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 2/657.

المحذوف: كَمْ آتَيْناهُمْ مِنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ، فَكَفَروا بِها[1]، أو فبدّلوها، كما يدلّ عليه قَوْلُه: ﴿وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ﴾[2].

نُكْتَةُ الإِظْهَارِ فِي مَقَامِ الإِضْمَارِ:

المُبَالَغَةُ فِي فَضْحِ اليَهُودِ؛ لِشَنَاعَةِ صَنِيعِهِمْ

إذا حُمِلَ الضَّمير في قول الله تعالى قبلُ: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ﴾ على أنَّ المرادَ به أهلُ الكتاب؛ فيكون في قوله سبحانه ههنا: ﴿سَلْ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ عدولٌ عن الإضمارِ إلى الإظهارِ؛ إذْ إنَّ مقتضى الظَّاهر: سَلْهُمْ.

ونُكْتَةُ هذا العدولِ: زيادَةُ النِّداءِ على فضيحةِ حالِهم، وشناعَةِ صنيعِهم؛ إذ قد رأوا آياتٍ كثيرةً، فكان الأنسبُ لحالهم أن يبادِرُوا بالإيمان بالنَّبيِّ محمَّدٍ ﷺ؛ لأنَّهم أعلمُ النَّاس بأحوالِ المُرْسَلِينَ[3].

سرُّ تنكيرِ ﴿ءَايَةٍ﴾ ونكتَةُ وصفِهَا:

مقابلَةُ اليهودِ لعظمَةِ الآياتِ وكثرتِها بالجحودِ والكفرانِ

تنكيرُ ﴿ءَايَةٍ﴾ من قول الله تعالى: ﴿سَلْ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ كَمْ ءَاتَيْنَٰهُم مِّنْ ءَايَةٍ بَيِّنَةٍ﴾ لِلتّعظيم والتّفخيم والتَّكثير، ووصفُها بـ﴿بَيِّنَةٍ﴾ زيادةٌ في التّنويه بجلال شأنها[4]، وفي كل ذلك زيادة فضح لليهود، وكشف عن إصرارهم وعنادهم.

التّبديل يقتضي مُبْدَلًا وَبَدَلًا، فالمُبْدَلُ (الذّاهب)، والبَدَلُ (الموجود الحاصل)

﴿وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ﴾: لَفْظُ (مَنْ) مِن ألفاظ العموم، وَهُوَ شَرْطٌ، فَيَنْدَرِجُ فيهِ مَعَ بَني إِسْرائيلَ كُلُّ مُبَدِّلٍ نِعْمَةَ اللَّهِ تَعالى، كَكُفّارِ قُرَيْشٍ وَغَيْرِهِمْ، فَإِنَّ بَعْثَةَ مُحَمَّدٍ ﷺ نِعْمَةٌ عَلَيْهِمْ، وَقَدْ بَدَّلوا بِالشُّكْرِ عَلَيْها وَقَبولِها الكُفْرَ[5].

والتّبديل: تغيير الشَّيء بآخر، وتصييرهُ على غير ما كان عَلَيْهِ، وذلك بتَرْك القِيامِ بِما وَجَبَ عَلَيْهِمْ مِنَ العَمَلِ بِتِلْكَ الآياتِ البَيِّناتِ، وجعْلها نقمةً بالكفران، وترك الشّكر لها[6].

---

(1) الرّازيّ، التّفسير الكبير: 6/366.
(2) تفسير الرّاغب: 1/436.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/288.
(4) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 1/122.
(5) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 3/28، وأبو حيّان، البحر المحيط: 2/351.
(6) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/351، والواحديّ، الوسيط: 1/314.

ويبدّل: يَحْتاجُ لِمَفْعولَيْنِ: مُبْدَلٌ وَبَدَلٌ، فالمُبْدَلُ (الذّاهب) هو الذي يَتَعَدّى إِلَيْهِ الفِعْلُ بِحَرْفِ جَرٍّ، والبَدَلُ (الحاصل): هو الذي يَتَعَدّى إِلَيْهِ الفِعْلُ بِنَفْسِهِ، أي: ومن يبدّل بنعمة اللّه الكفرَ؛ فنعمة اللّه هي الذّاهبة وهي المبدَل، والكفر هو الموجود الحاصلُ، وهو البدَل، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا﴾ [إبراهيم: 28]، فـ﴿كُفْرًا﴾: هو البدَل، و﴿نِعْمَتَ ٱللَّهِ﴾: هُوَ المُبْدَلُ، وَيَجوزُ حَذْفُ حَرْفِ الجَرِّ إذا عُلِمَ المرادُ، وَيجوز أيضًا حَذْفُ المَفْعولِ الواحِدِ وَحَرْفِ الجَرِّ؛ إذا فُهِمَ المَعْنى، ولم يحصل لَبس، كما هو الحال هنا؛ إذ حُذِفَ المفعولُ، وهو البدَل، وحُذف حرفُ الجَرّ[1]، وَحُذِفَ ما بُدِّلَت بِهِ النِّعْمَةُ؛ لِيَشْمَلَ جَميعَ أَحْوالِ التَّبْديلِ؛ فإنَّ حذف المتعلّق مُؤْذِنٌ بالعموم.

وفي ﴿نِعْمَةَ ٱللَّهِ﴾ هاهنا قولان:

أحدهما: أَنَّ المُرادَ آياتُهُ وَدَلائِلُهُ، وَهِيَ مِنْ أَجَلِّ أَقْسامِ نِعَمِ اللّهِ؛ لِأَنَّها أَسْبابُ الهُدى والنَّجاةِ مِنَ الضَّلالَةِ، ثُمَّ عَلى هَذا القَوْلِ في تَبْديلِهِمْ إِيّاها وَجْهانِ؛ فَمَنْ قالَ: إِنَّ المُرادَ بِالآيَةِ البَيِّنَةِ مُعْجِزاتُ موسى عليه السلام؛ قالَ: إِنَّ المُرادَ بِتَبْديلِها أَنَّ اللّه تَعالى أَظْهَرَها؛ لِتَكونَ أَسْبابَ هُداهُم، فجعلوها أسبابَ ضلالاتهم، كَقَوْلِهِ تعالى: ﴿فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾ [التّوبة: 125]، وَمَنْ قالَ: إِنَّ المُرادَ بِالآيَةِ البَيِّنَةِ ما في التَّوْراةِ والإِنْجيلِ مِنْ دَلائِلِ نُبُوَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ؛ قالَ: إِنَّ المُرادَ مِنْ تَبْديلِها تَحْريفُها، وإِدْخالُ الشُّبْهَةِ فيها.

كفران النِّعم يُوجِبُ العقوبة

والقَوْلُ الآخَرُ: أَنَّ المُرادَ بِـ﴿نِعْمَةَ ٱللَّهِ﴾ ما آتاهُمُ اللّهُ مِنْ أَسْبابِ الصِّحَّةِ والأَمْنِ والكِفايَةِ، واللّه تَعالى هُوَ الذي أَبْدَلَ النِّعْمَةَ بِالنِّقْمَةِ؛ لَمّا كَفَروا، وإسنادُ التَّبديل إليهم مجازٌ عقليٌّ؛ وإنَّما أُضيفَ إِلَيْهِمْ؛ للإيماءِ إلى أَنَّهُ كانَ بِسَبَبٍ مِنْ جِهَتِهِمْ، وَهُوَ تَرْكُهُمُ القيامَ بِما وَجَبَ عَلَيْهِمْ مِنَ العَمَلِ بِتِلكَ الآياتِ البَيِّناتِ[2].

عَظَمَةُ آيَاتِ اللهِ تَعَالَى وَشَنَاعَةُ الْكُفْرِ بِهَا

سِرُّ وضع المظهر موضعَ المُضْمَرِ:

إذا حملنا النِّعمةَ على معنى الآيات؛ فيكون قوله سبحانه: ﴿وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ﴾ من وضع المظهر موضع المضمر من غير لفظه

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/351.
(2) الرّازيّ، التّفسير الكبير: 6/366.

السّابق؛ لِلْإِشْعَار بتعظيم الآيات، وتعليل قُبح فِعلهم بكفران تلك النّعمة العظمى؛ وهو تبديلهم إيّاها[1].

وفِي إضافة النّعمة إلى اسمِ اللّه تعالى نُكتتانِ:

إحداهما: أنَّ المرادَ تشريفُها، وهو من تشريفِ المضافِ وتعظيمِهِ.

والأخرى: الإيماءُ إلى العمومِ؛ فإنَّ المفردَ المضافَ يُفيدُ ذلك؛ فهي نعمة عامّة تشمل نِعَمَهُ الظّاهرة والباطنة[2].

بلاغةُ التَّذييل، ودِلالته علَى التَّعْلِيل والعُمُوم:

تَبْدِيلُ نِعْمَةِ اللهِ تَعَالَى كُفْرًا: مُوجِبٌ شِدَّةَ الْعِقَابِ

قول اللّهِ تعالى: ﴿وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ﴾ تَذْييلٌ لِجُمْلَةِ: ﴿سَلْ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾، وقد أَفادَ أنَّ المَقْصودَ أَوَّلًا مِنْ هَذا الوَعيد هم بَنو إِسْرائيلَ المُتَحَدَّثُ عَنْهُمْ بِقَوْلِهِ: ﴿سَلْ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾، وَأَفادَ أَنَّ بَني إِسْرائيلَ قَدْ بَدَّلوا نِعْمَةَ اللّهِ تَعالى، فَدَلَّ ذَلِكَ عَلى أَنَّ الآياتِ التي أوتِيَها بَنو إِسْرائيلَ هِيَ نِعَمٌ عَلَيْهِمْ، وَإِلّا لَما كانَ لِتَذْييلِ خَبَرِهِمْ بِهذا الحُكْمِ مُناسَبَةٌ، وَهَذا مِمّا يَقْصِدُهُ البُلَغاءُ، فَيُغْني مِثْلُهُ في الكَلامِ عَنْ ذِكْرِ جُمَلٍ كَثيرَةٍ إيجازًا بَديعًا مِنْ إيجازِ الحَذْفِ، وَإيجازِ القَصْرِ مَعًا؛ لِأَنَّهُ يُفيدُ مُفادَ أَنْ يُقالَ: كَمْ آتَيْناهُمْ مِنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ هِيَ نِعْمَةٌ عَلَيْهِمْ، فَلَمْ يُقَدِّروها حَقَّ قَدْرِها، فَبَدَّلوا نِعْمَةَ اللّهِ بِضِدِّها بَعْدَ ظُهورِها، فاسْتَحَقّوا العِقابَ؛ لِأَنَّ مَنْ يُبَدِّلُ نِعْمَةَ اللّهِ؛ فاللّهُ مُعاقِبُهُ.

ويُفيدُ هذا التَّذييلُ كذلك العُمومَ حُكمًا جامعًا يَشْمَلُ المَقْصودينَ وَغَيْرَهُمْ مِمَّنْ يُشْبِهُهُمْ، وَلِذا يَكونُ ذِكْرُ مِثْلِ هَذا الكَلامِ الجامِعِ بَعْدَ حُكْمٍ جُزْئِيٍّ تَقَدَّمَهُ في الأَصْلِ، تَعْريضًا يُشْبِهُ التَّصْريحَ، وَنَظيرُهُ أَنْ يُحَدِّثَكَ أَحَدٌ بِحَديثٍ، فَتَقولَ: فَعَلَ اللّهُ بِالكاذِبينَ كَذا وَكَذا، تُريدُ أَنَّهُ قَدْ كَذَبَ فيما حَدَّثَكَ، وَإِلّا لَما كانَ لِذَلِكَ الدُّعاءِ عِنْدَ سَماعِ ذَلِكَ الحَديثِ مَوْقِعٌ[3].

(1) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 3/328.

(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 2/657.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/291.

والتَّذييل: هو جملةُ الشَّرط كلُّها، وإنَّما كان التَّذييل مؤكَّدًا؛ للإشعار بأنَّ مضمونَهُ قاعدةٌ كُلِّيَّةٌ؛ فكلُّ من يُبَدِّلُ نعمةَ اللهِ كفرًا؛ استحقَّ العقابَ الشَّديد، فكيف ببني إسرائيل وقد بدَّلوا نِعَمًا كلّها آيات بيّنات مع ما عندهم مِنَ العِلْمِ بشُؤْمِ هذهِ المخالَفَةِ؟ فالتَّذييل هَاهُنَا جارٍ مجرى المثلِ مؤكِّد للمَعْنَى السَّابق.

نُكتة التَّعبير بـ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُ﴾ دونَ (بعد ما جاءته):

مُسَارَعَةُ الْيَهُودِ فِي الْكُفْرِ

جيءَ بِلَفْظِ: ﴿مِنۢ﴾ إِشْعارًا بِابْتِداءِ الغايَةِ، وأَنَّه يعقب: ﴿مَا جَآءَتۡهُ﴾، ﴿يُبَدِّلۡ﴾، وَفي قَوْلِهِ: ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُ﴾ تَأْكيدٌ؛ لِأَنَّ إِمْكانِيَّةَ التَّبْديلِ مِنْهُ مُتَوَقِّفَةٌ عَلى الوصول إليه.

والمجيء: يُقال اعتبارًا بالحصول، ويُقال: (جاء) في الأعيان والمعاني، أَيْ: مِنْ بَعْدِ ما أُسْدِيَتْ إِلَيْهِ ووصلته، وَتَمَكَّنَ مِنْ قَبولِها، وَمِنْ بَعْدِ ما عَرَفَها، كَقَوْلِهِ تعالى: ﴿ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعۡدِ مَا عَقَلُوهُ﴾ [البقرة: 75][1].

وذِكْرُ ﴿مِنۢ﴾ قبلَ ﴿بَعۡدِ﴾ هنا يفيد أنَّ التَّبديل جاء عَقِيب مجيء النِّعمة مباشرة، وذلك بحكم دِلالة (مِن) على ابتداء الغاية، وهذا يعني: المسارعةَ في الكُفر، والإصرارَ على العِناد، فلم يَمْنَحُوا أنفسهم وقتًا للتَّفكير.

بلاغة الاستعارة في قوله: ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُ﴾:

سَعَةُ رَحْمَةِ الله تعالى بِعِبَادِهِ؛ حيثُ يُبَيِّن لَهُمُ البَيَانَ التَّامَّ

في قول الله سبحانه: ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُ﴾ إثباتُ المجيءِ للآياتِ؛ وذلك على جهةِ الاستعارةِ المكنيَّةِ، فقد شُبِّهت الآياتُ بالأشياء الحسّيَّة بجامع شدَّةِ الوضوحِ في كلٍّ؛ إذ إنَّ وضوحَ الحسِّيَّاتِ أشدُّ منه في المعنويَّاتِ.

وفي هذا بيانٌ لسعةِ رحمةِ اللهِ تعالى بالعبادِ؛ حيثُ يُبَيِّن لهم البيانَ الكافيَ الذي تقوم به الحُجَّةُ عليهم، وفيه تعريضٌ بأنّ اليهودَ

(1) الرّاغب، المفردات، ص: 212، وأبو حيّان، البحر المحيط: 2/351.

بدَّلوها بعد ما عقلوها[1]، وجُعِلَ العقابُ مترتِّبًا على التَّبديل بعد هذا التَّمكُّن للدَّلالة على أنَّه تبديل عن بصيرة لا عن جهل أو غلط[2].

وقوله: ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُ﴾ مشتمل على التَّتميم مقرِّر لقوله: ﴿كَمۡ ءَاتَيۡنَٰهُم مِّنۡ ءَايَةٖ بَيِّنَةٖ﴾؛ لتضمُّن الاستفهام في ﴿كَمۡ﴾ معنى التّقريع والتّوبيخ[3].

وإذا كانت الآيات لا يصحّ تبديلها إلّا بعد مجيئها؛ فإنَّ التَّصريح به في قوله سبحانه: ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُ﴾ ورَدَ لكون التّبديلِ قد يقعُ عن غير خبرة بالمبدّل، أو عن جهل به، فيُعذر فاعلُه، وهؤلاء المُتوعَّدُونَ على خلاف ذلك، وفائدةُ هذا التّصريح: مزيد التّقريع والتّشنيع عليهم، والتّأكيد على أنّهم مستحقّون لهذا العذاب[4].

بَلَاغَةُ الْحَذْفِ الْمُقَابِلِيِّ فِي الْآيَةِ:

مِنْ سُمُوِّ النَّظْمِ الْقُرْآنِيِّ التَّفَنُّنُ فِي طَرَائِقِ الْحَذْفِ

إذا حملنا النِّعْمَة في قوله تعالى: ﴿وَمَن يُبَدِّلۡ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ﴾ على ما هو أعمُّ من الآية، فإنَّ في قوله سبحانه: ﴿سَلۡ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ كَمۡ ءَاتَيۡنَٰهُم مِّنۡ ءَايَةٖ بَيِّنَةٖۗ وَمَن يُبَدِّلۡ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾ حذفًا مقابِليًّا، وهو المسمَّى: الاحتباكَ، فقد تضمَّنت الآية الكريمةُ أربعَةَ محذوفاتٍ دلَّ على كلِّ واحدٍ منها مقابِلُهُ، والتَّقدير: كم آتيناهم من آية بيِّنة ونعمة، فبدَّلوها، فاستحقُّوا العقابَ، ومَن يبدِّل نعمةَ اللّهِ وآياتِه؛ فإنَّ اللّه شديدُ العقابِ.

فلم تُذكر النِّعمة أوَّلًا؛ لدلالة ذِكْرِها ثانيًا في قوله: ﴿وَمَن يُبَدِّلۡ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ﴾، وطُوِيَ ذكر الآيةِ ثانيًا؛ اكتفاءً بذكرهَا أوَّلًا في قوله تعالى: ﴿كَمۡ ءَاتَيۡنَٰهُم مِّنۡ ءَايَةٖ بَيِّنَةٖۗ﴾، وطُوِيَ ذِكر التَّبديل في صدر الآيةِ؛ لذِكْرِ ما يدلُّ عليه في عَجُزِها ﴿وَمَن يُبَدِّلۡ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ﴾، وسُتِرَ التَّنصيصُ على استحقاق العقابِ في طالعتِهَا؛ لما في خاتِمَتِهَا من الإيماءِ إليه ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾.

(1) البَيضاويّ، أنوار التّنزيل: 1/134، والطّيبيّ، فتوح الغيب: 3/330.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/292.
(3) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 3/330.
(4) المصدر السّابق.

نُكْتَةُ وَضْعِ المُظْهَرِ مَوْضِعَ المُضْمَرِ:

شِدَّةُ الْعِقَابِ مُلَائِمَةٌ لِفَظَاعَةِ الذَّنْبِ

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾: الفاء واقعة جزاء للشّرط على تأويل الإخبار، يعني: تبديل النّاس نعمة اللّه سبب لإخبار اللّه بكونه شديد العقاب، وهذا لا يُصار إليه إلا عند فَظاعةِ الشّأن[1].

الِاسْمُ الْأَحْسَنُ (اللهُ) دَالٌّ عَلَى مَعَانِي الْجَلَالِ كَمَا يَدُلُّ عَلَى مَعَانِي الْجَمَالِ

وأُظْهِر الاسمُ الأحسن ﴿ٱللَّهَ﴾ مع أنَّ مقتضى الظّاهر أن يُقال: (فإنَّه شديدُ العِقاب)؛ لإدْخالِ الرَّوْعِ في ضَميرِ السّامِعِ، وَتَرْبِيَةِ المَهابَةِ، وَلِتَكونَ هَذِهِ الجُمْلَةُ كالكَلامِ الجامِعِ مُسْتَقِلًّا بِنَفْسِهِ؛ لِأَنَّها بِمَنْزِلَةِ المَثَلِ لِأَمْرٍ قَدْ عَلِمَهُ النّاسُ مِنْ قَبْلُ[2].

شِدَّةُ الْعُقُوبَةِ بِحَسَبِ شِدَّةِ الْجُرْمِ

وعُبّر بـ﴿شَدِيدُ﴾؛ ليناسب شدّة الجريمة، وأضاف ﴿شَدِيدُ﴾ إلى ﴿ٱلْعِقَابِ﴾، وجعله عامًّا، فيعاقبه أشدّ عقوبة؛ لأنّه ارتكب أشدَّ جريمة[3]، فهو خَبَرٌ يَتَضَمَّنُ الوَعيدَ بِالعِقابِ عَلى مَنْ بَدَّلَ نِعْمَةَ اللّهِ[4].

والعقاب: عذاب يَعْقُب الجُرم[5]، وقد صُدِّرت الجملة بـ﴿فَإِنَّ﴾ لإفادة التّأكيد، والكلام فيه حذف؛ إذ حُذِف السّبَبُ اكتفاءً بذِكْرِ المسبّب، كما تُذكَر المقدّمة، ولا تُذكَر النّتيجة؛ لأنّها مفهومة ضمنًا، والمعنى: من يبدّل ذلك التّبديل؛ فإنّ اللّه سيعاقبُه عقابًا شديدًا؛ لأنّه سبحانه شديدُ العِقاب، كما أنّه عَفوٌّ غفورٌ، توّابٌ رحيمٌ[6].

(1) السّابق.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/293.
(3) البَيضاويّ، أنوار التّنزيل: 1/134.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/351.
(5) الواحديّ، الوسيط: 1/314.
(6) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 2/657.

﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَيَسۡخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۘ وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ فَوۡقَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ وَٱللَّهُ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ ٢١٢﴾ [البقرة: 212]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لمّا ذكر حال من بدّلوا نعمة الله أتبعه بذكر أسباب التّبديل والبقاء على الكفر، وهو وقوعهم في حبّ زينة الحياة الدّنيا، فعرّفهم بتزيينها للكافرين تسلية للمؤمنين فيما حُفَّ بمطلوبهم الأخروي من المكاره، وأخبرهم بما لهم من المكانة في الآخرة؛ إن صبروا، واتّقوا، وعرّفهم ضَعْفَ عُقولِ الكُفّارِ والمُشْرِكينَ في تَرْجيحِ الفاني مِنْ زينَةِ الدُّنْيا عَلى الباقي مِنْ دَرَجاتِ الآخِرَةِ[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿زُيِّنَ﴾: معناه زيادة محبّبة تتعلَّق بظاهر الشّيء (ناشئة) عمّا يزخرُ به باطنُهُ، ومن ذلك الأصل: جاء المعنى الشّائع للتّزيّن، وهو التّحلّي بِحِلْيةٍ مجتلَبَةٍ، تقليدًا لما هو ناشئٌ من البدن، كالتّجمّل بالأصباغ ونحوها، فالزَّيْن يدلُّ على حُسن الشّيء وتحسينه، والزَّيْن نقيضُ الشَّيْن، يقال: زَّينت الشّيء تَزْيينًا، وازَّيَّنتِ الأرضُ، وازدانت؛ إذا حَسَّنَها عُشْبُها.

والزّينة: الحِلْيةُ الظّاهرةُ، والزّينة الحقيقيّة ما لا يشينُ الإنسانَ في شيءٍ من أحواله لا في الدّنيا، ولا في الآخرة، والتّزيينُ التّحسينُ المدرَك بالحسّ دونَ المدرَك بالعقْل، وهو المعنى السياقي، ولهذا جاء في أوصاف الدّنيا دونَ أوصاف الآخرة[2].

2) ﴿وَيَسۡخَرُونَ﴾: السّخرية: تَعَجُّبٌ مَشوبٌ بِاحْتِقارِ الحالِ المُتَعَجَّبِ مِنْها، فيدلُّ على احتقار واستذلال، ومن الباب: سَخِرت منه، إذا هزِئت به، واسْتَسخرتُه للهُزْءِ منه.

(1) ابن الزّبير، ملاك التّأويل: 1/65.

(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (زين)، والرّاغب، المفردات: (زين)، وتفسير الرّاغب: 1/436، والسّمين، عمدة الحفّاظ: (زين)، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (زين).

وأصل (سخر): انقيادٌ بيسر مع عدم مقاومةٍ، ومن الانقيادِ مع عدمِ المقاومة، وهو خفّةُ حالٍ وقَدْر، قالوا: "سَخِر منه سِخْريًّا وسُخْريًّا: هزئ"، وهذا يعبّر عنِ الاستخفافِ وعدمِ التّقدير، وهو المعنى السياقي، وقيل: رجلٌ سُخَرَةٌ؛ إذا كان يُكثر السُّخريةَ بغيرِه، وَسُخْرَةٌ؛ إذا كان يُسْخَرُ منه[1].

3) ﴿يَرْزُقُ﴾: الرّزق: ما يدخل الجوف من طعام، ونحوه دائمًا، ويطلق الرّزق في الأصل على الغذاء، والرّزق يطلق تارًة على العطاء الجاري، نحو: رزَقَ السّلطانُ جندَه، ويكون دنيويًّا، وأخرويًّا، وتارًة يُطلق على النّصيب، كقوله: ﴿وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا﴾ [النّحل: 75]، وعلى ما يصل إلى الجوف، ويتغذّى به، ويطلق على كلّ خيرٍ وصل إلى صاحبه، نحو: رُزِق فلانٌ علمًا، ثمّ يطلق على ما يعطيه اللّه العبدَ من مال وخيرٍ يَطْعَم منه، ويَنْتَفِع به، وهو المعنى السياقي هنا.

والرّازِقُ يقال لخالق الرّزق، ومعطيه، والمسبّب له، وهو اللّه تعالى، ويقال ذلك للإنسان الذي يصير سببًا في وصول الرّزق[2].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

يُخبِرُ تعالى أنَّ الدُّنيا حُلّيت في أعيُنِ الكفّارِ، وجُمِّلت في قلوبِهم، وما فيها من الشهوات والملذَّات، فرَضُوا بها، وآثَرُوها على نعيمِ الآخرة، ومع ذلك يستهزئون بالّذين آمَنوا؛ لعزوفِهم عن الدُّنيا وزُخرفِها، وغفَل هؤلاء الكفّارُ عن أنَّ المفاضلةَ الحقيقيَّةَ هي في الدّار الآخرة، حيثُ جُعل أهلُ الإيمان والتّقوى أعْلَى منهم وفوقهم بدخولِهم الجنَّة، لهم فيها ما يشتَهون، والذين كفَروا تحتهم في النّار في عذابٍ دائم، لا ينقطعُ عنهم، وهذا من عدل اللّه الذي يُعطي أهل تقواه من فضلِه بلا إحصاءٍ ولا حَصْرٍ، ويعاقب من كفر به، وعصاه.

❁ الإيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

نُكْتَةُ بِنَاءِ الْفَاعِلِ لِمَا لَمْ يُسَمَّ فَاعِلُهُ:

و﴿زُيِّنَ﴾ بالبناء للمفعول في قراءة جمهور القرّاء، وجاء بصيغة الماضي للدّلالة على

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سخر)، والرّاغب، المفردات: (سخر)، والسّمين، عمدة الحفّاظ: (سخر)، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (سخر)، ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/296.

(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (رزق)، والرّاغب، المفردات: (رزق)، والسّمين، عمدة الحفّاظ: (رزق)، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (رزق).

أنّ معنى فعل التّزيين أمر مستقرّ متحقّق، وَحُذِفَ الفاعِلُ لِفَهْمِ المَعْنى، واختلف في فاعل التّزيين على أقوال:

تَعَدُّدُ مُوجِبَاتِ التَّزْيِينِ، وشِدَّةُ تَعَلُّقِ الْكُفَّارِ بِاللَّذَّاتِ الدُّنْيَوِيَّةِ

الأوّل: أنّ الفاعل هُوَ اللّه تَعالى، يُؤَيِّدُ ذَلِكَ قِراءَةُ مُجاهِدٍ، وَحُمَيْدِ بْنِ قَيْسٍ، وَأَبي حَيْوَةَ: (زَيَّنَ) - عَلى البِناءِ لِلْفاعِلِ -، وَفاعِلُهُ ضَميرٌ يَعودُ عَلى اللّهِ تَعالى؛ إِذْ قَبْلَهُ: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾، وَتَزْيينُهُ تَعالى إِيّاها لَهُمْ بِما وَضَعَ في طِباعِهِمْ مِنَ المَحَبَّةِ لَها، فَيَصيرُ في نُفوسِهِمْ مَيْلٌ وَرَغْبَةٌ فيها، أَوْ بِالشَّهَواتِ التي خَلَقَها فيهِمْ، وَإِلَيْهِ أَشارَ بِقَوْلِهِ: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ﴾ [آل عمران: 14]، وَإِنَّما أَحْكَمَهُ مِنْ مَصْنوعاتِهِ، وَأَتْقَنَهُ، وَحَسَّنَهُ، فَأَعْجَبَهُمْ بَهْجَتُها، واسْتَمالَتْ قُلوبَهُمْ، فَمالوا إِلَيْها كُلِّيَّةً، وَأَعْطَوْها مِنَ الرَّغْبَةِ فَوْقَ ما تَسْتَحِقُّهُ[1].

وقال البيضاويّ: المزيّن في الحقيقة هو اللّه تعالى؛ إذ ما من شيء إلّا هو فاعله، ويدلّ عليه قراءة (زَيَّنَ) على البناء للفاعل، وكلٌّ مِنَ الشّيطان والقوّة الحيوانيّة وما خلقه اللّه فيها مِنَ الأمور البهيّة والأشياء الشّهيّة، مزيِّنٌ بالعَرَض[2].

الثّاني: أنّ المزيّن هو الشّيطان زيّن لهم الدّنيا، وحسّنها في أعينهم بوساوسه وإغوائه، وحبّبها إليهم، فلا يريدون غيرها[3]، قال ابن المنيّر: وردت إضافة التّزيين إلى اللّهِ تعالى، وإضافته إلى غيره في مواضع من الكتاب العزيز، وهذه الآية تحتمل الوجهين، لكن الإضافة إلى قدرة اللّهِ تعالى حقيقة، والإضافة إلى غيره مجازٌ، على قواعد السّنّة[4].

الثّالث: أنّ فاعل التّزيين أمورٌ كثيرة، يَصْلُحُ كُلٌّ مِنْها أَنْ يُعَدَّ فاعِلًا لِلتَّزْيينِ حَقيقَةً أَوْ عُرْفًا، قال ابن عاشور: حُذِفَ فاعِلُ التَّزْيينِ؛ لِأَنَّ المُزَيَّنَ لَهُمْ أُمورٌ كَثيرَةٌ: مِنْها خَلْقُ بَعْضِ الأَشْياءِ حَسَنَةً بَديعَةً كَمَحاسِنِ الذَّواتِ والمَناظِرِ، وَمِنْها إِلْقاءُ حُسْنِ بَعْضِ الأَشْياءِ في نُفوسِهِمْ، وَهِيَ غَيْرُ حَسَنَةٍ كَقَتْلِ النَّفْسِ، وَمِنْها إِعْراضُهُمْ عَمَّنْ يَدْعوهُمْ إِلى الإِقْبالِ عَلى الأُمورِ النّافِعَةِ، حَتّى انْحَصَرَتْ هِمَمُهُمْ في التَّوَغُّلِ مِنَ المَحاسِنِ الظّاهِرَةِ التي تَحْتَها

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/353.
(2) البَيضاويّ، أنوار التّنزيل: 1/495.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/254، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 1/284.
(4) ابن المنيّر، الانتصاف: 1/254.

العارُ، لَوْ كانَ باديًا، وَمِنْها ارْتِياضُهُمْ عَلى الانْكِبابِ عَلى اللَّذّاتِ دونَ الفِكْرِ في المَصالِحِ، إلى غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ أُمورٍ يَصْلُحُ كُلٌّ مِنْها أَنْ يُعَدَّ فاعِلًا لِلتَّزْيينِ حَقيقَةً أَوْ عُرْفًا، فَلِأَجْلِ ذَلِكَ طُوِيَ ذِكْرُ هَذا الفاعِلِ تَجَنُّبًا لِلإِطالَةِ، وَيَجوزُ أَنْ يَكونَ حَذْفُ الفاعِلِ لِدِقَّتِهِ؛ إِذِ المُزَيِّنُ لَهُمُ الدُّنْيا أَمْرٌ خَفِيٌّ، فَيَحْتاجُ في تَفْصيلِهِ إلى شَرْحٍ في أَخْلاقِهِمْ، وَهُوَ ما اكْتَسَبَتْهُ نُفوسُهُمْ مِنَ التَّعَلُّقِ بِاللَّذّاتِ وَبِغَيْرِها، مِنْ كُلِّ ما حَمَلَهُمْ عَلى التَّعَلُّقِ بِهِ التَّنافُسُ أَوِ التَّقْليدُ، حَتّى عَموا عَمّا في ذَلِكَ مِنَ الأَضْرارِ المُخالِطَةِ لِلَّذّاتِ، أَوْ مِنَ الأَضْرارِ المُخْتَصَّةِ المُغَشّاةِ بِتَحْسينِ العاداتِ الذَّميمَةِ، وَحَمَلَهُمْ عَلى الدَّوامِ عَلَيْهِ ضَعْفُ العَزائِمِ النّاشِئُ عَنِ اعْتِيادِ الاسْتِرْسالِ في جَلْبِ المُلائِماتِ دونَ كَبْحٍ لِأَزِمَّةِ الشَّهَواتِ[1].

سِرُّ التَّعْبيرِ بِالِاسْمِ الْمَوْصُولِ (الذِينَ):

الْكُفْرُ حَامِلٌ عَلَى شِدَّةِ التَّعَلُّقِ بِالدُّنْيَا وَالسُّخْرِيَّةِ مِنْ أَهْلِ الْإِيمَانِ

﴿لِلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾: هم كفّار مكّة[2]، ويدخل فيها مَن يشمله هذا الوصف، وَلَيْسَ المُرادُ بِالَّذينَ كَفَروا أَهْلَ الكِتابِ مِنْ مُعْلِنٍ وَمُنافِقٍ، كَما رُوِيَ عَنْ مُقاتِلٍ؛ لِأَنَّهُ لَيْسَ مِنِ اصْطِلاحِ القُرْآنِ التَّعْبيرُ عَنْهُمْ بِالَّذينَ كَفَروا، وَلِأَنَّهُمْ لَوْ كانوا هُمُ المُرادَ؛ لَقيلَ زُيِّنَ لَهُمُ الحَياةُ الدُّنْيا؛ لِأَنَّهُمْ مِنْ بَني إِسْرائيلَ، وَلِأَنَّ قَوْلَهُ: ﴿وَيَسْخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ يُناسِبُ حالَ المُشْرِكينَ، لا حالَ أَهْلِ الكِتابِ[3].

ووقع التَّعبيرُ عَنْهُم بالاسْمِ الموصولِ؛ لِلْإيماءِ إلى أنَّ شدَّة تَعَلُّقِهم بالحياةِ الدُّنيا وسُخْريتَهم مِن أهل الإيمانِ أمرٌ حَمَلَهُم عَلَيْهِ الكُفْرُ، فالاسْمُ الموصُول جَارٍ مجْرَى التَّعليل.

شِدَّةُ حُبِّ الْكُفَّارِ لِلدُّنْيَا وَقُوَّةُ تَعَلُّقِهِمْ بِمَنَافِعِهَا

نُكْتَةُ حَذْفِ الْمُضَافِ:

﴿ٱلْحَيَوٰةُ﴾: نائب فاعل، ولم يَحتج فعله ﴿زُيِّنَ﴾ إلى إِثْباتِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/294-295.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/352.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/294.

عَلامَةِ تَأْنيثٍ لِلْفَصْلِ بينهما بالجارِّ والمجرور وصلة الموصول، وَلِكَوْنِه مُؤَنَّثًا غَيْرَ حَقيقِيِّ التَّأْنيثِ[1].

و﴿ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ مُرادٌ بها ما تَشْتَمِلُ عَلَيْهِ الحَياةُ مِنَ اللَّذّاتِ والمَنافِعِ، وَهُوَ عَلى حَذْفِ مُضافٍ اشْتُهِرَ حَذْفُهُ، أَيْ: مَنافِعِ الحَياةِ الدُّنْيا، أو حُبُّ الحَياةِ الدُّنْيا[2]، ونكتةُ حَذْفِه: الإشعَارُ بأنَّ شدَّةَ حبِّهم للدُّنيا وقوَّةَ تَعَلُّقِهم بمنافِعِهَا بِمَنْزِلةِ التَّعلُّق بالدُّنيا ذَاتِها.

نُكْتَةُ التَّعْبِيرِ عَنِ التَّزْيِينِ بِصِيغَةِ الْمَاضِي، وَعَنِ السُّخْرِيَّةِ بِالْمُضَارِعِ:

رُسُوخُ صِفَةِ السُّخْرِيَّةِ فِي نُفُوسِ أَهْلِ الْكُفْرِ؛ لِاغْتِرَارِهِمْ بِزِينَةِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا

جملة: ﴿وَيَسْخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ من قوله تعالى: ﴿وَيَسْخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾: مَعْطوفَةٌ عَلى جُمْلَةِ: ﴿زُيِّنَ﴾، عطف جُمْلَة فِعْلِيَّة على فِعْلِيَّة، وَلا يُلْحَظُ فيها عَطْفُ الفِعْلِ عَلى الفِعْلِ؛ لِأَنَّهُ كانَ يَلْزَمُ اتِّحادُ الزَّمانِ، وَإِنْ لَمْ يَلْزَمِ اتِّحادُ الصِّيغَةِ، وعدل عَنِ المَاضي (سَخِروا) إلى المضارع ﴿وَيَسْخَرُونَ﴾؛ لإفادةِ التَّجدُّدِ والتَّكرارِ وَالِاسْتِمْرَار، وأنَّ سُخْرِيتَهم مِن أهل الإيمان طَبْعٌ راسِخٌ فِيهِمْ.

وَيجوز أن تكون عَلى الِاسْتِئْنافِ - وهو غيرُ الاستئنافِ البيانيِّ -، والمرادُ به هَاهُنَا: أَنْ يَكونَ عَلى إِضْمارِ (هم)، والتَّقْدير: وَهُمْ يَسْخَرونَ، فَيَكونُ خَبَرَ مُبْتَدَأٍ مَحْذوفٍ، وَيَصيرُ مِنْ عَطْفِ الجُمْلَةِ الِاسْمِيَّةِ عَلى الجُمْلَةِ الفِعْلِيَّةِ[3]، وسوَّغَ هذا العَطْفَ بينَهُمَا اشتراكُهما في الخَبَرِيَّةِ.

وَجيءَ في فِعْلِ التَّزْيينِ بِصيغَةِ الماضي، وَفي فِعْلِ السُّخْرِيَةِ بِصيغَةِ المُضارِعِ؛ لِأَنَّ الماضِيَ يَدُلُّ عَلى التَّحَقُّقِ، وفِعْلُ التَّزْيينِ أَمْرٌ مُسْتَقِرٌّ فيهِمْ، وأمَّا السُّخْرية فمُتَكَرِّرَةٌ مُتَجَدِّدَةٌ مِنْهُمْ؛ لِأَنَّ المُضارِعَ يُفيدُ التَّجَدُّدَ، وفيه إعلامٌ للسّامِعِ أَنَّ ما هُوَ مُحَقَّقٌ بَيْنَ الفِعْلَيْنِ هُوَ أَيْضًا مُسْتَمِرٌّ؛ لِأَنَّ الشَّيْءَ الرّاسِخَ في النَّفْسِ لا تَفْتُرُ عَنْ تَكْريرِهِ، وَيُعْلَمُ أَنَّ ما كانَ مُسْتَمِرًّا، هُوَ أَيْضًا مُحَقَّقٌ؛ لِأَنَّ الفِعْلَ لا يَسْتَمِرُّ إِلّا وَقَدْ تَمَكَّنَ مِنْ نَفْسِ فاعِلِهِ، وَسَكَنَتْ إِلَيْهِ.

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/353.

(2) ابن جرير، جامع البيان: 3/618، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/294.

(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/354، والخفاجيّ، عناية القاضي: 2/297.

وَاخْتيرَ لِفعْلِ التَّزْيين خُصوصُ المُضيِّ، وَلِفعْلِ السُّخْريَة خُصوصُ المُضارَعَة؛ لِأَنَّ التَّزْيينَ لَمّا كانَ هُوَ الأَسْبَقَ في الوُجودِ - وَهُوَ مَنْشَأُ السُّخْريَة - أوثِرَ بِما يَدُلُّ عَلى التَّحَقُّق؛ لِيَدُلَّ عَلى مَلَكَةٍ، واعْتُمِدَ في دِلالَتِه عَلى الاسْتِمْرارِ بِالاسْتِتْباعِ، بخلافِ السُّخْريَة فإنَّها لَمّا كانَتْ مُتَرَتِّبَةً عَلى التَّزْيين، وَكانَ تَكَرُّرُها يَزيدُ في الذَّمِّ، أوثِرَتْ بِما يَدُلُّ عَلى الاسْتِمْرارِ؛ لِأَنَّ الشَّيْءَ المُسْتَمِرَّ لا يَكونُ إلّا مُتَحَقِّقًا[1].

سِرُّ التَّعْبيرِ بِالاسْمِ المَوْصُولِ ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾:

عَـداوَةُ الْكُفَّارِ لِلْمُؤْمِنِينَ وَسُخْرِيَّتُهُمْ مِنْهُمْ إِنَّمَا هُوَ لِأَجْلِ إِيمَانِهِمْ

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾: هم فقراء المؤمنين، أمثالُ: عَمّارٍ، وَصُهَيْبٍ، وَأَبي عُبَيْدَةَ، وَسالِمٍ، وَعامِرِ بْنِ فُهَيْرَةَ، وَخَبّابٍ، وَبِلالٍ، وَوَجْهُ سُخْريَةِ الكُفّارِ بِالمُؤْمِنينَ أَنَّهُمُ احْتَقَروا رَأْيَهُمْ في إِعْراضِهِمْ عَنِ اللَّذّاتِ؛ لِامْتِثالِ أَمْرِ الرَّسولِ ﷺ، وَأَفْنَوْهُمْ في ذَلِكَ، وَرَأَوْهُمْ قَدْ أَضاعوا حُظوظَهُمْ وَراءَ أَوْهامٍ باطِلَةٍ؛ لِأَنَّ الكُفّارَ اعْتَقَدوا أَنَّ ما مَضى مِنْ حَياتِهِمْ في غَيْرِ نِعْمَةٍ قَدْ ضاعَ عَلَيْهِمْ؛ إِذْ لا خُلودَ في الدُّنْيا، وَلا حَياةَ بَعْدَها[2].

وفي التَّعبير بالاسْم المَوْصُول وصِلَته ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ إشعارٌ بأنَّ سبَبَ سُخْرية الكُفّار ليس مجرَّد بُعْد المُؤْمِنين عَنِ الاغْتِرار بالدُّنيا، وإنَّما هو إيمانُ المؤمنين الحامِلُ لَهُمْ عَلَى ذلك البُعْد.

نُكْتَةُ إِيقاعِ الظّاهِرِ مَوْقِعَ الضَّمِيرِ:

التَّقْوَى مِنْ أَعْظَمِ أَسْبَابِ الرِّفْعَةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ

﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ فَوْقَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾

أُريدَ بـ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ﴾: المُؤْمِنونَ الَّذينَ سَخِرَ مِنْهُمُ الَّذينَ كَفَروا؛ لِأَنَّ أولَئِكَ المُؤْمِنينَ كانوا مُتَّقينَ، وَكانَ مُقْتَضى الظّاهِرِ أَنْ يُقالَ: وَهُمْ فَوْقَهُمْ، لَكِنْ عَدَلَ عَنِ الإِضْمارِ إلى اسْمٍ ظاهِرٍ لِلاحْتِراس، ودَفْعِ الإيهامِ مِنِ اغْترار الكافِرين بِأَنَّ الضَّميرَ عائِدٌ إِلَيْهِمْ.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/296-297.

(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/352، 354، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/296.

وخصّ التّقوى بالذّكر؛ قَصْدَ التَّنْبيهِ عَلى مَزِيَّةِ التَّقْوى، وأنَّ المتّقيَ أرفع منزلةً مِن المؤمن، وَكَوْنها سَبَبًا عَظيمًا في هَذِهِ الفَوْقِيَّةِ؛ لِيُفيدَ فَضْلَ المُؤْمِنينَ عَلى الَّذينَ كَفَروا، وَيُنَبِّهَ المُؤْمِنينَ عَلى وُجوبِ التَّقْوى والثّبات عليها؛ لِتَكونَ سَبَبَ تَفَوُّقِهِمْ عَلى الَّذينَ كَفَروا يَوْمَ القِيامَةِ[1].

وَجاءَتْ هَذِهِ الجُمْلَةُ مُصَدَّرَةً بِقَوْلِهِ: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ﴾؛ لِبَيَانِ أَنَّ السَّعادَةَ الكُبْرى لا تَحْصُلُ إلّا لِلمُؤْمِنِ المُتَّقي، وَلِتَبْعَثَ المُؤْمِنَ عَلى التَّقْوى، وَلِيَزولَ قَلَقُ التَّكْرارِ لَوْ كانَ: (والَّذينَ آمَنوا)؛ لِأَنَّ قَبْلَهُ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾[2].

عُلُوُّ المُتَّقِينَ يَوْمَ القِيامَةِ مَكانًا وَمَكانَةً

فَوْقَ: ظَرْفُ مَكانٍ، وهو دالٌّ عَلى الظَّرْفِيَّةِ المَكانِيَّةِ حَقيقَةً؛ لِأَنَّ المُؤْمِنينَ في عِلِّيِّينَ، والكُفّارَ في سِجّينٍ، ويحتمِلُ أن تكون الفَوْقِيَّةُ مَجازًا في تَناهي الفَضْلِ والسِّيادَةِ، فهي فَوْقِيَّةُ تَشْريفٍ، فالَّذينَ اتَّقَوْا عالوهُمْ يَوْمَ القِيامَةِ، أي: أَنَّ العُلُوَّ يَوْمَ القِيامَةِ إنَّما هُوَ لِلمُتَّقينَ، وَغَيْرُهُمْ سافِلونَ، عَكْسُ حالِهِما في الدُّنْيا حَيْثُ كانوا يَسْخَرونَ مِنْهُمْ[3]، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضْحَكُونَ ۝٢٩ وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ۝٣٠ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ ۝٣١ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ۝٣٢ وَمَآ أُرْسِلُواْ عَلَيْهِمْ حَٰفِظِينَ ۝٣٣ فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ۝٣٤ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ۝٣٥ هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ۝٣٦﴾ [المطففين: 29 - 36].

الرَّغْبَةُ عَنْ ذِكْرِ الكُفّارِ تَحْقيرًا لِشَأْنِهِمْ

وذكر الكافرين بالضّمير، ولم يصرّح باللّفظ؛ لأنّه تقدّم ذكرُهم، فناسب عود الضّمير إيجازًا، ورغبةً عَن ذكرهم مرّة أخرى.

وَقُيِّدَتِ الفَوْقِيَّةُ بِـ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ تَنْصيصًا عَلى دَوامِها؛ لِأَنَّ

(1) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 3/334، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/297، والخفاجيّ، عناية القاضي: 2/297.

(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/355.

(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/355، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/297.

ذَلِكَ اليَوْمَ هُوَ مَبْدَأُ الحَياةِ الأَبَدِيَّةِ، ولإدخال السّرور والتّسلية على قلوب المؤمنين حتّى لا يتسرّب اليأس إلى قلوبهم بسبب إيذاء الكافرين لَهم في الدّنيا، وجاء التّعبير بالجملة الاسميَّة في استعلاء الذين اتّقوا؛ للدِّلالةِ على أنّه أمرٌ ثابت دائمٌ لا يطرأ عَلَيْهِ أيّ تبديل، بخلاف التَّعبير المتقدِّم عن زينة الحياة الدّنيا في نظر الذين كفروا وعَن سُخريتهم مِنَ المؤمنين؛ فقدَ جاءَ بالجُمْلَةِ الفعليّة؛ لِلْإِشَارة إلى الحدُوثِ، وأنّ ذلك أمرٌ طارئٌ، لا يَلْبَثُ أَنْ يَزُولَ بصوارف متعدّدة[1].

وَلَا يُشْكِلُ على هذا أنَّ السُّخرية وقعَ التَّعْبِير عَنْهَا بالفِعْلِ المضارع، وهُوَ دالٌّ - كما تقدَّم - على الِاسْتِمْرَارِ والدَّوام بقرينة الذَّمِّ؛ لأنَّ تلك السُّخريَّة صادرةٌ مِنْهُمْ على وجه الِاسْتِمْرَار في الحياة الدُّنيا، ثُمَّ يَنْقَطِعُ ذلكَ ويَنْعَكِسُ، فهُوَ اسْتِمْرَارٌ نسبيٌّ لا مُطْلَقٌ، بخلافِ فَوْقِيَّةِ المُؤْمِنِين على الكُفَّار يومَ القِيَامَة.

بَلَاغَةُ تذييل الآية بقوله: ﴿وَٱللَّهُ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾:

تَشْرِيفُ المُؤْمِنِينَ وَتَكْرِيمُهُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ

قول الله سبحانه: ﴿وَٱللَّهُ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾ تَذْيِيلٌ قُصِدَ بِهِ تشْريف المُؤْمِنينَ يَوْمَ القِيامَةِ، وبيان عظم ثوابهم؛ لِأَنَّ التَّذْيِيلَ لا بُدَّ أَنْ يَكونَ مُرْتَبِطًا بِما قَبْلَهُ، فالسّامِعُ يَعْلَمُ مِنْ هَذا التَّذْيِيلِ مَعْنًى مَحْذوفًا، تَقْديرُهُ: والَّذينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ فَوْقِيَّةً عَظيمَةً لا يُحيطُ بِها الوَصْفُ؛ لِأَنَّها فَوْقِيَّةٌ مُنِحُوها مِنْ فَضْلِ اللّهِ، وَفَضْلُ اللّهِ لا نِهايَةَ لَهُ، وَلِأَنَّ من أسباب سُخْرِيَةِ الَّذينَ كَفَروا بِالَّذينَ آمَنوا: أَنَّهُمْ سَخِروا منهم لِفَقْرهم وإِقْلالِهِمْ، فَوَعَدَ الفُقَراءَ بِالرِّزْقِ، وفي قوله: ﴿مَن يَشَآءُ﴾ تعريضٌ بتهديدِ الكفَّار بقطْعِ رزقِهم وإزالةِ حَظْوَتِهم[2]، والمُؤْمِنُ وَإِنْ لَمْ يُرْزَقْ في الدُّنْيا؛ فَهُوَ فَوْقَ الكافِرِ يَوْمَ القِيامَةِ[3].

وَمَفْعولُ ﴿يَشَآءُ﴾ مَحْذوفٌ، التَّقْديرُ: مَنْ يَشاءُ أَنْ يَرْزُقَهُ، دَلَّ عَلَيْهِ ما قَبْلَهُ.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/297، ومحمود صافي، الجدول: 2/435، وطنطاوي، التّفسير الوسيط: 1/455.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/298.
(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 1/285.

عَظَمَةُ الْعَطَاءِ مِنْ عَظَمَةِ الْمُعْطِي

وقَوْله: ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ كناية عن عدم العلم بمقدار الرّزق؛ لأنّ الحِسابَ هُنا حَصْرُ المِقْدارِ، فَنَفْيُ الحِسابِ نَفْيٌ لِعِلمِ مِقْدارِ الرِّزْقِ، أَيْ: بِغَيْرِ نِهايَةٍ؛ لِأَنَّ ما لا يَتَناهى خارِجٌ عَنِ الحِسابِ، وَقَدْ شاعَتْ هَذِهِ الكِنايَةُ في كَلامِ العَرَبِ كَما شاعَ عِنْدَهُمْ أَنْ يَقولوا: يُعَدّونَ بِالأَصابِعِ، وَيُحيطُ بِها العَدُّ، كِنايَةً عَنِ القِلَّةِ[1]، فالكِنايةُ في الآيةِ لكثرةِ ما يُرْزَقُونَ؛ لكونه عطاءً من اللّه تعالى، وعطاؤُه سبحانه عظيمٌ؛ إذ إنَّ عظمةَ العطاءِ مِنْ عَظَمَةِ المُعْطِي.

والباءُ لِلمُصاحَبَةِ - وَهِيَ التي يُعَبَّرُ عَنْها بِباءِ الحالِ - وقد تَقَدَّمَها ثَلاثَةُ أَشْياءَ يَصْلُحُ تَعَلُّقُهُ بِها: الفِعْلُ، والفاعِلُ، والمَفْعولُ الأَوَّلُ؛ وَهُوَ: ﴿مَن﴾، فَإِنْ كانَ لِلْفِعْلِ؛ فَهُوَ مِنْ صِفاتِ المَصْدَرِ، وَإِنْ كانَ لِلْفاعِلِ؛ فَهُوَ مِنْ صِفاتِهِ، أَوْ لِلْمَفْعولِ؛ فَهُوَ مِنْ صِفاتِهِ، وَيَكونُ الحِسابُ مُرادًا بِهِ المُحاسَبَةُ أَوِ العَدُّ، أَيْ: يَرْزُقُ مَنْ يَشاءُ، وَلا حِسابَ عَلى الرِّزْقِ، أَوْ: وَلا حِسابَ عَلَى الرّازِقِ، أَوْ وَلا حِسابَ عَلى المرزوق[2]، وهو - سبحانه وتعالى المعطي المانع، وعطاؤه في الدّنيا ليس دليل رضاه عن المُعْطَى لهُ، فقد يُعطِي الكافرَ، وهو غير راضٍ عنه، أمّا في الآخرة؛ فعطاؤه دليل رضاه عمّن أعطاه.

وفي ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ إطنابٌ بالإيغال، وَهُوَ: أَن يؤتى بَعْدَ تَمامِ المَعْنى المَقْصودِ بِكَلامٍ آخَرَ يَتِمُّ المَعْنى بِدونِهِ؛ لِنُكْتَةٍ كزيادة المبالغة وتحقيق التّشبيه[3].

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/355، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/298.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/356- 357.
(3) القَزوينيّ، الإيضاح، ص: 153.

﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾﴾ [البقرة: 213]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمّا بَيَّنَ أَنَّ سَبَبَ إِصْرارِ هَؤُلاءِ الكُفّارِ عَلى كُفْرِهِمْ هُوَ حُبُّ الدُّنْيا؛ ذكر في هَذِهِ الآيَةِ أَنَّ هَذا المَعْنى غَيْرُ مُخْتَصٍّ بِهَذا الزَّمانِ، بَلْ كانَ حاصِلًا في الأَزْمِنَةِ المُتَقادِمَةِ؛ لِأَنَّ النّاسَ كانوا أُمَّةً واحِدَةً قائِمَةً عَلى الحَقِّ، ثُمَّ اخْتَلَفوا، وَما كانَ اخْتِلافُهُمْ إِلّا بِسَبَبِ البَغْيِ والتَّحاسُدِ والتَّنازُعِ في طَلَبِ الدُّنْيا، وفي الآية ترغيب النّبيّ ﷺ والمؤمنين بالثّبات أمام سخرية الكافرين، كما كان الحال في الأمم السّابقة مع أنبيائهم، حتّى يهيّئ اللّه النّاسَ للدُّخولِ في دينٍ واحِدٍ عامٍّ يجمعهم، هو الدّين الخاتم؛ دين السّلام[1]. فوقعت الآية مما قبلها موقع الجواب عن سؤال أثارته الآية السابقة، فكأنه قيل: هل كان هذا الكفر من بدء الأمر، أم كان حادثًا.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أُمَّةً﴾: الأُمّة: الأصل فيها: تَضامُّ شيءٍ أو أشياء متجانسة، أي: لحاق بعضها ببعض في حيّزٍ يُحيط بظاهرها بلُطْفٍ. وهي: كلُّ جماعة يجمعهم أمرٌ ما؛ إمّا دين واحد، أو زمان واحد، أو مكان واحد، سواء كان ذلك الأمر الجامع تسخيرًا أم اختيارًا، وجمعها: أمم.

ومعنى قوله تعالى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾: جماعة واحدة، متفقين على الإيمان باللّه[2].

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/256، والرّازيّ، التّفسير الكبير: 6/372، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/299.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (أَمَّ)، والرّاغب، المفردات: (أمّ)، والسّمين، عمدة الحفّاظ: (أمم)، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (أمم).

2) ﴿فَبَعَثَ﴾: أصل البَعْث: إثارة الشّيء وتوجيهه، أو هو: إثارة (الحيِّ) من مكان يلزمه بقوّة، فيندفع ناهضًا أو مبتعدًا: كبعث النّائم والبعير، ويقال: بعثْتُهُ، فانْبعث، ومن ذلك: إنهاض رسول أو نبيّ، أو ملك، أو حَكَم، أو نقيب، كقوله تعالى: ﴿ٱبۡعَثۡ لَنَا مَلِكٗا نُّقَٰتِلۡ﴾ [البقرة: 246]، وهو المعنى المقصود في السياق هنا.

والبَعْثُ: الإثارة والدّفع نحو عمل شيء ما: ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابٗا يَبۡحَثُ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [المائدة: 31]، والبعث: إنهاضٌ بعد موتٍ مؤقّت أو نوم أو نحوه: ﴿ثُمَّ بَعَثۡنَٰكُم مِّنۢ بَعۡدِ مَوۡتِكُمۡ﴾ [البقرة 56] و﴿وَٱلۡمَوۡتَىٰ يَبۡعَثُهُمُ ٱللَّهُ﴾ [الأنعام: 36][1].

3) ﴿مُبَشِّرِينَ﴾: ظُهورُ الشَّيْءِ مَعَ حُسْنٍ وَجَمالٍ؛ فالبَشَرَةُ ظاهِرُ جِلْدِ الإِنْسانِ، وَسُمِّيَ البَشَرُ بَشَرًا لِظُهورِهِمْ، وَيُقالُ: بَشَّرْتُ فُلانًا أُبَشِّرُهُ تَبْشيرًا، وَذَلِكَ يَكونُ بِالخَيْرِ، بأن أخبِرَهُ بِخبرٍ مفْرح، وَرُبَّما حُمِلَ عَلَيْهِ غَيْرُهُ مِنَ الشَّرِّ، وذَلِكَ جِنْسٌ مِنَ التَّبْكيتِ، فَأَمّا إِذا أُطْلِقَ الكَلامُ إِطْلاقًا؛ فالبِشارَةُ بِالخَيْرِ والنِّذارَةُ بِغَيْرِهِ.

ويتمحور المعنى حول: انتشارٍ واسعٍ على ظاهرِ الشّيء، كانتشار جلْد البَدَن على ظاهره، وانتشار الشّعر على الجلد، والبَشَر: الخَلْقُ، والإنسانُ؛ لأنّه سلالة انبثّت من آدم، وانتشروا حتّى صاروا أكثر ما على الأرض، أو من أكثر ما عليها.

والبشير: المبُشِّر، قال تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلۡبَشِيرُ أَلۡقَىٰهُ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ فَٱرۡتَدَّ بَصِيرٗاۖ﴾ [يوسف: 96][2].

4) ﴿وَمُنذِرِينَ﴾: (نَذَرَ): كَلِمَةٌ تَدُلُّ عَلى تَخْويفٍ أَوْ تَخَوُّفٍ، ومِنْهُ الإِنْذارُ: الإِبْلاغُ، وَلا يَكادُ يَكونُ إِلّا في التَّخْويفِ، والإِنْذارُ: إخبارٌ فيه تخويف، كما أنّ التّبشير إخبار فيه سرور، فهو أخصّ من الإعلام، إذ كلُّ إنذارٍ إعلام، من غير عكس، وقيل المعنى: تَبِعة تُلْتَزَم، أو يُخْشى من لزومها، والذي جاء في القرآن منه هو النَّذْر: إيجابُ شيءٍ على النّفس، والإنْذارُ بمعنى: التّحذيرِ من مكروهٍ سيَقَعُ[3].

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (بعث)، والرّاغب، المفردات: (بعث)، والسّمين، عمدة الحفّاظ: (بعث)، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (بعث).

(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (بشر)، والرّاغب، المفردات: (بشر)، والسّمين، عمدة الحفّاظ: (بشر)، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (بشر).

(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نذر)، والرّاغب، المفردات: (نذر)، والسّمين، عمدة الحفّاظ: (نذر)، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (نذر).

5) ﴿لِيَحۡكُمَ﴾: حَكَمَ أصله: منَعَ منْعًا لإصلاح، ومنه سمِّيت اللِّجام: حَكَمَة الدّابّة، فقيل: حكَمْته وحَكَمْتُ الدّابة: منعتُها بالحَكمة، وأَحْكَمْتُها: جعلتُ لها حَكَمة، وكذلك: حَكَمْت السّفيهَ وأحْكَمته، والحُكْم بالشّيء: أن تقضي بأنّه كذا، أو ليس بكذا، سواء ألزمْت ذلك غيره أم لم تلزمْه، قال تعالى: ﴿وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ﴾ [النّساء: 58]. ويقال: حاكِم وحُكّام لمن يحكم بين النّاس.

والحكم: ضَبْطٌ يمنعُ التّسيّبَ ويمكّن من جَعْل الشّيء - أو جَرَيانه - على ما ينبغي ويُراد، ومن الضّبطِ ومنْع التّسيّب جاء الحُكْم بمعنى: القَضاء؛ لأنّ القاضي يَضْبطُ أمْرَ كلٍّ من الفريقين وَيفْصِل بينهما، مانعًا أن يدخل أيّ منهما على الآخر في حقّه[1].

6) ﴿ٱخۡتَلَفُواْ﴾: الاختلاف: أنْ يجَيء شيْءٌ بعْد شيْءٍ يقومُ مقامهُ، ومنه قوْلُهُم: اختَلفَ النّاسُ في كذا، والنّاسُ خِلْفةٌ، أيْ: مُخْتَلِفون، ومعناه: أنَّ كُلَّ واحِدٍ مِنْهُمْ يُنحّي قوْل صاحِبِه، ويُقيمُ نفْسَهُ مُقام الذي نحّاهُ، والخِلاف أعمُّ من الضّدّ؛ لأنّ كلّ ضدّين مُختلفان، وليس كلّ مُختلفَيْن ضدّين.

ولمّا كان الاختلاف بين النّاس في القول، قد يقتضي التّنازع؛ استُعير ذلك للمنازعة والمجادلة، قال تعالى: ﴿فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَا ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ ٱلۡحَقِّ بِإِذۡنِهِۦۗ﴾ [البقرة: 213]، ومنه: الاختلاف: عدم الاجتماع على رأي أو موقف أو حكم إلخ ... كأنّ كلًّا يذهب إلى ما جعله الآخر خَلْفه[2].

7) ﴿بَغۡيَۢا﴾: البغْيُ: جِنْسٌ مِنَ الفَسادِ، والبَغْيُ: الظُّلمُ، وهو: تزايُدُ الشّيء نموًّا وقوّةً أو توصّلًا لاكتمال حاله، ومن التّزايُد جاء معنى: التّجاوز؛ لأنه تعدٍّ وتزيُّد، وبغى عليهم: عَدَل عن الحقّ واستطال، والتّعدّي تزيُّدٌ، وتخطٍّ توصّلًا إلى نيل ما لا يُستحقّ، وبَغى الوالي: ظَلَم، وكلّ مجاوزة وإفراط على المقدار الذي هو حدُّ الشّيء: بَغْيٌ، كأنّ الأصل أنّ البغي لا يكون إلّا عند التّجاوز في استيفاء حقّ ما.

وأكثر استعمال البغي في الأشياء المذمومة، ولاسيّما إذا أطلق، وأصلُ البَغْي: الحسد،

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حكم)، والرّاغب، المفردات: (حكم)، والسّمين، عمدة الحفّاظ: (حكم)، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (حكم).

(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (خلف)، والرّاغب، المفردات: (خلف)، والسّمين، عمدة الحفّاظ: (خلف)، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (خلف).

وسمّي الظّلم بغيًا؛ لأنّ الحاسد ظالم، أي: متجاوز للحدّ، واستدلّ على أنّ البغيَ الحسد بقوله: ﴿إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۚ﴾ [آل عمران: 19][1].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

كان النّاسُ جماعةً واحدة، متفقين على الإيمان بالله ثم اختلفوا في دينهم، فبعث الله الأنبياءَ والمرسلين دعاةً لدين الله: مبشِّرين بنعيم الجنة مَن أطاعهم، ومنذرين بالنّار مَن عَصاهم، وأنزل معهم الكتبَ السَّماوية بالحق الذي اشتملت عليه؛ ليحكموا بما فيها بين الناسِ فيما اختلفوا فيه، ولم يختلف أهلُ التّوراة والإنجيل في أمر محمد ﷺ وكتابه ظلمًا وحسدًا إلّا من بعد ما جاءتهم البيّنات، وعلِموا بالأدلَّة القطعيَّةِ أنَّ ما فيها هو الحقُّ، فكان اختلافهم ضلالًا وبغيًا وحسدًا، ولكنّ الله تعالى وفَّق المؤمنين بفضله إلى تمييز الحق من الباطل، وأرشَدهم إلى الطَّريق المستقيم بإرادته، فكانت هذه الأمةُ خيرَ الأمَم، والله يوفِّق مَن يشاء مِن عباده إلى طريق مستقيم[2].

❁ الإيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

دِلَالَةُ (كانَ) بَيْنَ المُضِيِّ وَالثُّبوت:

﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾: أي: كانَ النّاسُ أُمَّةً مُجْتَمِعَةً عَلى مِلَّةٍ واحِدَةٍ وَدينٍ واحِدٍ، فاخْتَلَفوا، فَبَعَثَ اللهُ النَّبيينَ مُبَشِّرينَ وَمُنْذِرينَ[3]، قالَ ابن عبّاس رضي الله عنهما: كانَ بَيْنَ نوحٍ وَآدَمَ عَشَرَةُ قُرونٍ، كُلُّهُمْ عَلى شَريعَةٍ مِنَ الحَقِّ، فاخْتَلَفوا، ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ [البقرة: 213][4].

رَحْمَةُ اللهِ تَعَالَى تَـتَـدَارَكُ الأُمَـمَ بِإرسَالِ الرُّسُلِ وإنْزَالِ الْكُتُبِ

فَـ﴿كَانَ﴾ عَلى بابِها مِنَ الدِّلالة على المُضِيِّ المُنْقَضي، وفي الكلام إيجازٌ بالحذف، بمعنى: أنَّ النّاس كانوا أمّة واحدة على الإيمان متمسّكين بالحقّ، ثمّ اختلفوا، وتنازعوا، فبعث اللهُ النّبيّين.

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (بغي)، والرّاغب، المفردات: (بغي)، والسّمين، عمدة الحفّاظ: (بغي)، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (بغو- بغى).

(2) نخبة من العلماء، التفسير الميسر، ص: 33، وجماعة من العلماء، المختصر في التفسير، ص: 33.

(3) ابن جرير، جامع البيان: 3/622.

(4) أخرجه ابن جرير الطّبريّ في جامع البيان: 3/621.

وَيَحْتَمِلُ أَنْ تَكونَ ﴿كَانَ﴾ لِلثُّبوتِ، والمُرادُ الإِخْبارُ عَنِ النّاسِ الَّذينَ هُمُ الجِنْسُ كُلُّهُ أَنَّهُمْ أُمَّةٌ واحِدَةٌ في خُلُوِّهِمْ عَنِ الشَّرائِعِ، وَجَهْلِهِمْ بِالحَقائِقِ، لَوْلا أَنَّ اللَّهَ تعالى مَنَّ عَلَيْهِمْ بالرُّسُلِ تفضّلًا منه؛ فعلى هذا يكونُ مَعناها الاستمرار، كقوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٩٦﴾﴾ [النّساء: 96][1].

وجاء التّعبير القرآنيُّ بالأمّة في قوله: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾؛ للدّلالة على الجَماعَةِ الَّذينَ أَمْرُهُمْ واحِدٌ، وهي مُشْتَقَّةٌ مِنَ الأَمِّ: وَهُوَ القَصْدُ، تقول: أَمَمْتُ كَذا، أَيْ: قَصَدْتُهُ، فَمَعْنى ﴿أُمَّةً﴾ أي: مَقْصِدُهُمْ واحِدٌ، أو يقصدون غايَةً واحِدَةً، وَإِنَّما تَكونُ الجَماعَةُ أُمَّةً؛ إِذا اتَّفَقوا في المَوْطِنِ أَوِ الدّينِ أَوِ اللُّغَةِ أَوْ في جَميعِها.

والوَصْف بـ﴿وَٰحِدَةً﴾ في الآيَةِ لِتَأْكيدِ الإِفْرادِ في قَوْلِهِ: ﴿أُمَّةً﴾؛ لِدَفْعِ تَوَهُّمِ أَنْ يَكونَ المُرادُ مِنَ الأُمَّةِ القَبيلَةَ، فَيُظَنَّ أَنَّ المُرادَ: كانَ النّاسُ أَهْلَ نَسَبٍ واحِدٍ؛ لِأَنَّ الأُمَّةَ قَدْ تُطْلَقُ عَلى مَنْ يَجْمَعُهُمْ نَسَبٌ مُتَّحِدٌ[2].

دِقَّةُ النَّظْمِ الْقُرْآنِيِّ فِي انْتِقَاءِ الْأَسَالِيبِ الْمُلَائِمَةِ لِسِيَاقَاتِهَا

ومن المشابه لهذه الآية قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُواْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٩﴾﴾ [يونس: 19]، فقد جاءت بصيغةِ القَصرِ: (ما وإلّا)؛ للمُبالَغةِ في تأكيدِ الخبَرِ؛ لأنَّه خبرٌ مهمٌّ عجيبٌ؛ إذِ القصرُ تأكيدٌ على تأكيدٍ، باعتبارِ اشتِمالِه على صيغَتَيْ إثباتٍ للمُثبَتِ، ونفيٍ عمّا عَداه، فهو أقوى مِن تأكيدِ ردِّ الإنكارِ، ولذلك يُؤْذِنُ بردِّ إنكارٍ شديدٍ؛ إذ سياقه متعلّق بمن هم شديدو التّكذيب والإنكار، فناسبه تأكيد الخبر بأسلوب القصر[3].

وحسَّنَ القَصْرَ هنا وُقوعُه عَقِبَ الجدالِ معَ الَّذين غيَّروا الدّينَ الحقَّ، وروَّجوا نِحْلتَهم بالمَعاذيرِ الباطلةِ، كقولِهم: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: 18]، بخِلافِ آيةِ سورةِ البقرَةِ: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ

(1) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 3/31.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/300.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/127، وسعد عبد العظيم محمّد، استدراك ما فات من بلاغة الآيات المتشابهات، ص: 234.

أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾؛ فإنَّها وقَعَت في سياقِ المجادلةِ مع أهلِ الكتابِ؛ لقولِه: ﴿سَلۡ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ كَمۡ ءَاتَيۡنَٰهُم مِّنۡ ءَايَةٖ بَيِّنَةٖ﴾ [البقرة: 211]، وأهلُ الكتابِ لا يُنكِرون أنَّ النّاسَ كانوا أمَّةً واحدةً، فآيةُ سورةِ يونُسَ تُشيرُ إلى الوَحْدةِ الاعتِقاديَّةِ، ولذلك عبَّر عَنِ التَّفرُّقِ الطّارئِ عليها باعتِبارِ الاختِلافِ المُشْعِرِ بالمَذمَّةِ، والمعقَّبِ بالتَّخويفِ في قولِه: ﴿وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ﴾ [يونس: 19]، وآيةُ سورةِ البقَرةِ تُشيرُ إلى الوَحْدةِ الشَّرعيَّةِ التي تَجمَعُها الحنيفيَّةُ الفِطريَّةُ؛ ولذا عبَّر عنِ التَّفرُّقِ الذي طرَأ عليها بقولِه: ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾، ثمَّ جاء ذِكْرُ الاختِلافِ عرَضًا عَقِبَ ذلك بقولِه: ﴿وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ﴾، وأريدَ به الاختِلافُ بينَ أتباعِ الشَّرائعِ؛ لقولِه: ﴿وَمَا ٱخۡتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ﴾[1].

تَنَوُّعُ دِلَالَةِ الْفَاءِ وَأَثَرُهُ فِي إِثْرَاءِ الْمَعَانِي:

﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾

شَرَائِعُ السَّمَاءِ تَقْضِي عَلَى الْخِلَافِ، وَتَهْدِي النَّاسَ، وَتُنْقِذُهُمْ مِنَ الضَّلَالِ

الفاء هُنَا هي: الفاء الفصيحة؛ لإفصاحها عن مَحْذوفٍ معطوفٍ عليه، تقديره: ثمّ اختلفوا، فبعث اللّه النّبيّين، وقد دلّ على هذا المحذوف قوله تعالى: ﴿لِيَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ﴾، وقوله تعالى في سورة يونس: ﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ فَٱخۡتَلَفُواْ﴾ [يونس: 19][2]، وَكَذَلِكَ هِيَ في قِراءَةِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعودٍ: (كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا فَبَعَثَ اللهُ النَّبِيِّينَ)[3].

ويَحْتَمِلُ أن تكون الفاء للتّرتيبِ والتّعقيبِ على أصلِ دِلالَتِهَا من غير افتقارٍ إلى تقديرٍ؛ لأنّ كون النّاس أمّةً واحدة اقتضتِ الرّسالةَ واقتضتِ الاختلاف، فكان لا بُدَّ مِن شرائع السّماء؛ لتقضيَ على الخلاف، ولتهدي النّاس، وتنقذهم مِنَ الضّلال[4].

(1) تفسير ابن عرفة: 2/338، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/127.
(2) الخفاجيّ، عناية القاضي: 2/298.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 3/621.
(4) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 2/664.

والوجهُ الأوَّل أَظْهَرُ؛ لِدِلَالَةِ السِّيَاقِ عَلَيْه، وتَقَوِّيه بِنَظِيرِ الآية مِن سُورَةِ يُونُس، وقراءةِ ابنِ مسعودٍ رضي الله عنه، إلَّا أنَّ المَعْنَيَيْنِ في أَنْفُسِهِمَا صَحِيحانِ، ولا تعارُضَ بينَ دلالَتَي الفاءِ المذكورتَيْنِ آنِفًا.

نُكْتَةُ تَقْدِيمِ الْبِشَارَةِ عَلَى النِّذَارَةِ:

تَقْدِيمُ الْبِشَارَةِ يَبْعَثُ فِي النَّفْسِ بَهْجَةً وَاطْمِئْنَانًا

﴿مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ أَيْ: أَرْسَلَ النَّبيِّينَ مُبَشِّرينَ بِثَوابِ مَنْ أَطاعَ، وَمُنْذِرينَ بِعِقابِ مَنْ عَصى، وَقَدَّمَ البِشارَةَ؛ لِأَنَّها أَبْهَجُ لِلنَّفْسِ، وَأَقْبَلُ لِما يُلْقي النَّبِيُّ، وَفيها اطْمِئْنانُ المُكَلَّفِ، والوَعْدُ بِثَوابِ ما يَفْعَلُهُ مِنَ الطّاعَةِ، وَمِنْهُ قوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا ﴿٩٧﴾﴾ [مريم: 97][1]، وهذه الطَّريقةُ الغالبةُ في القرآن الكريم أَنْ تُقَدَّمَ البِشَارةُ على النِّذارةِ.

دِلَالَةُ الطِّبَاقِ بَيْنَ ﴿مُبَشِّرِينَ﴾ وَ﴿وَمُنذِرِينَ﴾:

الدَّعْوَةُ إِلَى اللهِ تَعَالَى قَائِمَةٌ عَلَى الْجَمْعِ بَيْنَ الْبِشَارَةِ وَالنِّذَارَةِ

بين ﴿مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ طباقُ إيجابٍ، والطِّباق هاهنا دالٌّ على أنَّ الدعوةَ لا يُغْنِي فيها أحدُ الضِّدَّين عنِ الآخر، فالطِّباق يُبْرِزُ مِنهاجًا واضحًا وطريقًا لَاحبًا للدَّاعِي إلى الله تعالى.

نُكْتَةُ إِفْرَادِ الْكِتَابِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾:

أَصْلُ دِينِ اللهِ تَعَالَى وَاحِدٌ وَهُوَ التَّوْحِيدُ، وَبِذَلِكَ نَزَلَتْ كُلُّ الْكُتُبِ

﴿وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾: ﴿وَأَنزَلَ﴾: معطوفٌ على ﴿فَبَعَثَ﴾، و﴿مَعَهُمُ﴾: ظرف زمان متعلّق بمحذوفٍ حالٌ مِنَ ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾، أي: وأنزل الكتاب مصاحبًا لَهم وقتَ الإنزال، وتعلّق الجارّ والمجرور ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ بحالٍ مِنَ الكتاب، أي: ملتبسًا بالحقّ، أو متعلّقًا بأنزل، كقوله ﷻ: ﴿وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ﴾ [الإسراء: 105][2].

وعبّر عن الأنبياء بصيغة الجمع ﴿ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾، وعن الكتاب بالإفراد: ﴿وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ﴾، ولم يقل: (الكتب) موافقةً

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/364.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 1/214، ودرويش، إعراب القرآن وبيانه: 1/313.

لجمع النّبيّين، مع أنّ الكتابَ الذي أُنْزِلَ على كلِّ نبيٍّ مُغَايِرٌ لِما أُنْزِلَ على آخَرَ؟ وَذَلِكَ لِأَنَّ المرادَ بالكتابِ الجنسُ، وهو مُفِيدٌ العمومَ، وهذا كما تقول: كثُر الدّرهم في أيدي النّاس، أي: الجنس كلّه، وكذلك في لفظ ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ يُراد به الجنسُ؛ للدِّلالةِ على أنّ الحقّ الذي أنزله اللّه تعالى على الأنبياء واحد، فكلّ الكتب اتّفقت على أصل واحد: وهو التّوحيد، فكانت بهذا الاعتبار كأنَّها كتاب واحدٌ، فهي وإن تعدَّدت أفرادُهَا؛ فهي في لُبِّها كتاب واحدٌ[1].

وقوله تعالى: ﴿لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ بعد قوله: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ﴾ فيه وضع المظهر موضع المضمر؛ إذ مقتضى الظَّاهر: (ليحكم بينَهُم)؛ لتقدُّمِ ذِكْرِ النَّاسِ، والنُّكْتَةُ في ذلك: زيادَةُ التَّعيينِ.

بَلَاغَةُ الْمَجَازِ الْعَقْلِيِّ فِي إِسْنَادِ الْحُكْمِ لِلْكِتَابِ:

التَّمَسُّكُ بِحُكْمِ الْكِتَابِ الْتِزَامٌ بِطَرِيقِ الصَّوَابِ

وقرأ جمهور القرّاء: ﴿لِيَحْكُمَ﴾ بالبناء للفاعل، وقرأ أبو جعفر: ﴿لِيُحْكَمَ﴾ بالبناء للمفعول[2].

ومن قرأ ببنائه للفاعل على معنى: ليحكمَ الكتابُ؛ أسندَ الحُكمَ للكتاب على سبيل المجاز العقليّ، كما أسند النُّطقَ إليه في قولهِ تعالى: ﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ﴾ [الجاثية: 29]؛ وَلِأَنَّ الكِتابَ هُوَ أَصْلُ الحُكْمِ، فَأُسْنِدَ إِلَيْهِ رَدًّا لِلْأَصْلِ، أو على معنى: ليحكم كلّ نبيّ بكتابه، فإذا حكم بالكتاب، فكأنَّما حكَمَ الكتابُ؛ لأنَّه متضمّن للمنهج والتَّشريعات والأحكام التي أوجبها اللّه على عباده، فكأنَّ اللّه هو الذي حكم على لسان نبيّه بما يتضمّنه كتابه.

ومن قرأ ببنائه للمفعول على معنى: إرادة عموم الحكم من كلِّ حاكم، أو المعنى: ليحكم اللّه؛ لأنَّ الكتابَ لا يَحكم في الحقيقة، إنَّما يُحكَم به بين النّاس، أي: يُقْضَى بِهِ بينَهم فيما اختلفوا فيه من أمور الدّين[3].

(1) البَيضاويّ، أنوار التّنزيل: 1/135، وأبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 2/665.

(2) ابن الجَزَريّ، النّشر: 2/429.

(3) البنّا الدّمياطيّ، إتحاف فضلاء البشَر، ص: 202، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 3/32، وأبو حيّان، البحر المحيط: 2/365، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/308.

شَنَاعَةُ الاِخْتِلَافِ فِي كُتُبِ اللهِ تَعَالَى الْمُنْزَلَةِ بِالْحَقِّ الْمُسْتَبِينِ

دلَالَةُ حَرْفِ الْجَرِّ (فِي) مِنْ قَوْلِهِ سُبْحَانَهُ: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا﴾:

﴿وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾: التّنصيص على: ﴿فِيهِ﴾ دلالة على أنّ الاختلاف المحكوم فيه هو الاختلاف في الكتب وما تضمّنتها من الشّرائع، لا مطلق الاختلاف[1].

انْحِرَافُ أَهْلِ الْكُفْرِ عَنِ الْحَقِّ مَعَ عِلْمِهِمُ التَّامِّ بِهِ

نُكْتَةُ التَّعْبِيرِ عَنِ الْإِنْزَالِ بِالْإِيتَاءِ:

التّعبيرُ عن الإنزال بالإيتاء في قوله سبحانه: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ﴾؛ يُرادُ به التّنبيهُ منْ أولِ الأمرِ عَلى كمال تمكُّنِهم من الوقوف على ما في تضاعيفِ الكتاب من الحقّ، فإنّ الإنزالَ لا يفيد تلك الفائدةَ، ومع ذلك فقد كان مآلُ أمرِهم أَنْ جعلوا ما أُنزل لإزالة الاختلافِ سببًا لاستحكامه ورسوخِه[2].

سِرُّ التَّعْبِيرِ بِالِاسْمِ الْمَوْصُولِ ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ﴾:

قُبْحُ صَنِيعِ الْمُخْتَلِفِينَ فِي كُتُبِ اللهِ تَعَالَى

ووقعَ التَّعبير بالاسم الموصول وصِلَتِهِ ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ﴾؛ تنبيهًا على شَناعة فِعلهم، وقَبيح ما فعلوه مِنَ الاختلاف.

مُسَارَعَةُ أَهْلِ الْكُفْرِ فِي الضَّلَالِ

وجِيءَ بحرف الجرِّ ﴿مِنۢ بَعْدِ﴾ الدّالَّةِ على ابتداء الغاية؛ إيماءً إلَى أنَّ اختلافهم متَّصل بأوَّل زمانِ مجيء البيِّنات، فلم يقعْ مِنْهُمُ اتِّفاقٌ على شيء بعد المجيء، بل أَوَّلَ ما جاءتهم البيِّناتُ؛ اختلفوا، لم يتخلَّلْ بينهما زَمَنٌ؛ ولو يسيرًا[3].

الْحِرْصُ عَلَى الدُّنْيَا يَجُرُّ إِلَى الظُّلْمِ وَالْحَسَدِ، وَهُمَا طَرِيقَانِ إِلَى رَدِّ الْحَقِّ

نُكْتَةُ تَقْيِيدِ الْفِعْلِ بِالْمَفْعُولِ لَهُ:

في قوله تعالى: ﴿بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾: قُيِّدَ فعل الاختلافِ بالمفعول لأجله: ﴿بَغْيًۢا﴾؛ للإشعارِ بأنَّ دَاعِيَ الاختلاف بَيْنَهُم: هو الحسَدُ والظّلم، وحِرْصُهم على الدّنيا، وقلّة الإنصاف مِنْهُم[4].

(1) الخفاجيّ، عناية القاضي: 2/298.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 1/214.
(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 1/286، وأبو حيّان، البحر المحيط: 2/367.
(4) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/256.

بَلَاغَةُ أُسْلُوبِ الْقَلْبِ:

عِظَمُ شَأْنِ الْهِدَايَةِ إِلَى الْحَقِّ

في قوله تعالى: ﴿وَمَا ٱخۡتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ﴾، ثمّ قوله: ﴿فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَا ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ ٱلۡحَقِّ بِإِذۡنِهِۦۗ﴾: بيانٌ بعدَ إبهامٍ، فأُخْرِجَ المعنى في قَالَبَيْن اثْنَيْن؛ تنبيهًا على فخامتِهِ.

الذِينَ اهْتَدَوْا يَزِيدُهُمُ اللهُ تَعَالَى هُدًى

والفاءُ في قوله: ﴿فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَا ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ ٱلۡحَقِّ بِإِذۡنِهِۦۗ﴾ مؤْذِنة بسرعة هداية المؤمنين وإنقاذهم من الانحراف الحاصلِ بسببِ الاختلاف.

والتَّعبير بالاسم الموصول وصلته؛ للإيماءِ إلى أنَّ سببَ الهداية إلى الحقِّ كونُهم مؤمنينَ، فقد أرَوا اللّه تعالى من أنفسهم خيرًا، فزادهم اللّه هُدًى.

مِنْ طَرَائِقِ الْقُرْآنِ فِي بَيَانِ الْمُهِمَّاتِ الْعُدُولُ عَنْ مُقْتَضَى الظَّاهِرِ؛ جَلْبًا لِانْتِبَاهِ الْمُخَاطَبِ

وفي هذه الآية الكريمة أسلوبُ قَلْبٍ، ومن صُوَرِهِ: أَن يُجْعَل أحدُ أَجزاء الكَلام مَكانَ الآخر والآخرُ مَكانَهُ[1]، فقوله تعالى: ﴿فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَا ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ ٱلۡحَقِّ بِإِذۡنِهِۦۗ﴾ معناه: فهدى اللّه الذين آمنوا للحقّ فيما اختلف فيه من كتاب اللّه الذين أوتوه[2]، ووقع القَلْبُ جَلْبًا لِانْتِبَاهِ المخاطَبِ؛ ليُدرِكَ عِظَمَ شأن الهدايةِ، واتِّكالًا على فهمهِ لِوجهِ الكلامِ، ولما يستلزِمُهُ القَلبُ من تقديمِ لفظ الاختلاف على لفظ الحقِّ، وذلك مفيدٌ للاهتمام به؛ إذ العناية إنَّما هي بذِكر الاختلافِ[3].

وفي ذِكر الاسم الأحسن ﴿ٱللَّهُ﴾ من قوله تعالى: ﴿فَهَدَى ٱللَّهُ﴾ تربيةُ المَهَابَةِ في القلوب، فهو مقلّب القلوب، وعلّام الغيوب سبحانه وتعالى.

---

(1) أبو الفتح العبّاسّي، معاهد التّنصيص: 1/178.

(2) ابن جرير، جامع البيان: 3/634، ومحمود صافي، الجدول: 2/439.

(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 1/287، وأبو حيّان، البحر المحيط: 2/370.

بَلَاغَةُ رَدِّ عَجُزِ الْكَلَامِ عَلَى صَدْرِهِ:

دِلَالَةُ مَوَارِدِ الْكَلَامِ عَلَى مَصَادِرِهِ: أَمَارَةُ عُلُوِّ بَلَاغَتِهِ

وفي قوله تعالى: ﴿فَهَدَى ٱللَّهُ﴾ إلى قوله: ﴿وَٱللَّهُ يَهۡدِي﴾ ردُّ العجُزِ على الصَّدْرِ[1]؛ ونكتَتُهُ: الدِّلالة على تأكيد المعاني وتقريرِهَا، وفيه من سُمُوِّ البلاغةِ قدرٌ عظيمٌ؛ إذِ الكلامُ الجيِّدُ هو ما دلَّت مواردُهُ على مصادرِهِ، وارتبطَ مقطَعُهُ بمطلعِهِ[2].

فَخَامَةُ شَأْنِ الْهِدَايَةِ

في قوله تعالى: ﴿مِنَ ٱلۡحَقِّ بِإِذۡنِهِۦۗ﴾: قُيِّد الاختلاف بالجارّ والمجرور: ﴿مِنَ ٱلۡحَقِّ﴾؛ لأنّه وقعَ بيانًا لقوله: ﴿لِمَا ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ﴾، أي: فهدى الله الذين آمنوا للحقّ الذي اختَلَف فيهِ مَنِ اختَلَف، وفي إبهامِهِ أوَّلًا وتفسيرِه ثانيًا ما لا يَخفَى مِنَ التّفخيم والتّعظيم[3].

دلالة القصر في تقديم المسند إليه على خبره الفعلي:

افْتِقَارُ الْعِبَادِ إِلَى الْهِدَايَةِ

وفي الآية قصرٌ طريقُه تقديم المسند إليه على خبره الفعلي في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾، فالهداية مقصورة عليه وحده سبحانه.

وفي الجملةِ تكرارٌ لِلنِّسبةِ، وهي مقتضيةٌ تأكيدَها، فقد أُسندت الهداية إلى الله تعالى؛ أُولَاها: إلى الاسم الأحسن ﴿ٱللَّهُ﴾ في قوله سبحانه: ﴿وَٱللَّهُ يَهۡدِي﴾، والأُخرى: إسنادها إلى الضَّمير الرَّاجع إلى الله تعالى في قوله: ﴿يَهۡدِي﴾، وهذا التَّأكيدُ مُشعِرٌ بالاهتمامِ بشأنِ الهدايةِ؛ إذ العبادُ محتاجُونَ إلى الهدايةِ أشدَّ من احتياجهم إلى الطَّعام والشَّراب والنَّفَس.

نُكْتَةُ اخْتِيَارِ كَلِمَةِ ﴿صِرَٰطٖ﴾ وَإِفْرَادِهِ وَوَصْفِهِ:

في اختيارِ كلمة ﴿صِرَٰطٖ﴾ دون (طريق) أو (سبيل) نكتةٌ؛ وذلك أن كلمة ﴿صِرَٰطٖ﴾ على وزن (فِعال) من (صَرَطَ)؛ وهو مِنَ الأوزان

(1) هُوَ أن يُجعل أحَدُ اللَّفظين المكرَّرين أوِ المتجانِسَيْنِ أو المُلْحَقَيْنِ بِهِمَا في أوَّل الفقرةِ والآخَرُ في آخرها.
ينظر: عبد المتعال الصَّعيدي، بغية الإيضاح: 4/649.
(2) بسيوني فيّود، علم البديع، ص: 315-314.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 1/215، والشّربينيّ، السّراج المنير: 1/139.

الدّالّة على الاشتمال، كالرِّباط والشِّداد، فيشتمل على كلّ السّالكين، ولا يضيق بهم، فهو واسع رَحْبٌ، بخلاف كلمة (طريق) و(سبيل).

وجاء الصّراط مفردًا؛ تنبيهًا على أنه صِراطٌ واحدٌ؛ فليس ثمّة صراط غيره، فالصّراط المستقيم هو طريق الإسلام وهو دين الله تعالى.

لَا يُوصِلُ إِلَى السَّعَادَةِ الْأَبَدِيَّةِ إِلَّا طَرِيقٌ وَاحِدٌ؛ وَهُوَ دِينُ اللهِ تَعَالَى

وَوَصْفُهُ بالاستقامة فيه إيماءٌ إلى أنَّه أقصرُ الطّرق وأقربُها إلى المطلوب، فلا يشقّ على السّالك، وما عداه مِنَ الطّرق معْوجٌّ، ولا يوصل إلى المقصود.

والمراد مِنَ السّلوك على الصّراط: هو الوصول إلى الله تعالى، كما قال: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذۡكِرَةٞۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلٗا ١٩﴾ [المزمل: 19]، [الإنسان: 29]، والذي يوصل إليه صراط مستقيم، فتعيّن السّلوك على هذا الصّراط للوصول إليه[1].

بَلَاغَةُ اسْتِعَارَةِ الصِّرَاطِ لِدِينِ اللهِ تَعَالَى.

يُطلقُ الصِّراطُ أصالةً على الطَّريق الحِسِّيِّ المخصوصِ، فاستعمالُهُ هُنا لدينِ الإسلام ﴿وَٱللَّهُ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ استعارة تَصريحيَّةٌ أصليَّةٌ: حيث شُبِّهَ دينُ الإسلام بالطَّريق المخصوص الحسِّيِّ، والجامع بينهما: أنَّ كُلًّا مِنْهُمَا مُوَصِّل للمقصودِ، فصُرِّحَ باسم المُشَبَّه بِه وطُوِيَ ذكرُ المشبَّه، على طريقة الاستعارة التَّصْريحِيَّة، وفائدةُ الاستعارة ههنا: التَّنْبيه على وضوحِ الطَّريقِ وعدم اشتباهِهِ؛ إذِ الْحِسِّيَّاتُ أظْهَرُ في التَّصوُّرِ مِنَ العقليَّاتِ.

وُضُوحُ دِينِ اللهِ تَعَالَى وَعَدَمُ اشْتِبَاهِهِ

بَلَاغَةُ التَّذْيِيلِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَٱللَّهُ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾:

قول الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ اعتراضٌ - كما قاله أبو السُّعود - مقرِّرٌ لمضمونِ ما سبق[2]، والذي

تَقْرِيرُ الْمَعَانِي الْجَلِيلَةِ وَتَثْبِيتُهَا طَرِيقَةٌ قُرْآنِيَّةٌ

(1) فاضل السّامرّائي، لمسات بيانيّة، ص: 58-59.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 1/215.

استقرَّ عليه الاصطلاحُ تسميةُ مثلِ هذا بالتَّذْييلِ، وهو تذييلٌ جارٍ مجرى المثلِ؛ لاستقلالِهِ بالإفادةِ، وعدم افتقارِهِ إلى ما قبلَهُ في الكشفِ عن المرادِ منه.

وجاء هذا التَّذْييلُ لِبَيانِ أَنَّ فَضْلَ اللهِ يُعْطيه مَنْ يَشاءُ، وتفصيلُهُ: أنَّ حكمةَ اللهِ اقتضَتْ أَنْ يَتَأَخَّرَ تَمامُ الهُدى إلى وَقْتِ مَجيءِ شَريعَةِ الإسْلامِ لَمَّا تَهَيَّأَ البَشَرُ بِمَجيءِ الشَّرائِعِ السّابِقَةِ لِقَبولِ هَذِه الشَّريعَة الجامعة، فَكانَت الشَّرائِعُ السّابِقَةُ تَمْهيدًا وَتَهْيِئَةً لِقَبولِ دينِ الإسْلامِ، وَلِذَلِكَ صُدِّرَتْ هَذِهِ الآيَةُ بِقَوْلِه: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾، فَكَما كانَ البَشَرُ في أَوَّلِ أَمْرِهِ أُمَّةً واحِدَةً عَلى هُدًى بَسيطٍ، ثُمَّ عَرَضَتْ لَهُ الضّلالاتُ عِنْدَ تَحَرُّكِ الأَفْكارِ البَشَرِيَّةِ، رَجَعَ البَشَرُ إلى دينٍ واحِدٍ في حالَةِ ارْتِقاءِ الأَفْكارِ، وَهَذا اتِّحادٌ عَجيبٌ؛ لأَنَّهُ جاءَ بَعْدَ تَشَتُّتِ الآراءِ والمَذاهِبِ، وَلِذا قالَ تَعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۗ﴾ [آل عمران: 19][1].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/315.

﴿أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا يَأۡتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِكُمۖ مَّسَّتۡهُمُ ٱلۡبَأۡسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلۡزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصۡرُ ٱللَّهِۗ أَلَآ إِنَّ نَصۡرَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ ٢١٤﴾

[البقرة: 214]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمّا ذكَر اللّهُ تعالى اختلافَ الأممِ السّابقة على ما جاءهم به أنبياؤُهم من الحقِّ، وضلالَهم عنه، وذكَر أنَّه هدى المؤمنين إلى الصِّراط المستقيم؛ بيَّن اللّهُ تعالى هنا أيضًا وَعْثاءَ هذا الطّريق الذي هُدوا إليه، وما يكتَنِفُه مِن عقباتٍ، عليهم تجاوُزُها، وشدائِد وَتكاليف عليهم احْتِمالها، والخطاب لأَصْحابِ مُحَمَّدٍ ﷺ، ومَن بعدهم من هذه الأمّة بأنّهم لا يَسْتَحِقّونَ الفَضيلَةَ في الدّينِ إلّا بِتَحَمُّلِ هَذِهِ المِحَنِ[1]، فالآية السابقة حدثتنا عن الاختلاف الواقع في الأمم، والاختلاف منشئ للعداوات التي يقع خطرها على الأموال والأنفس، فبيَّنت هذه الآية أن دخول الجنة لايكون إلا باحتمال الشدائد والمضرّات.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مَّثَلُ﴾: المَثَل: يدلُّ على مناظرة الشّيء للشّيء، وهذا مثلُ هذا: أي: نظيره، والمِثْل والمثال في معنى واحد، وربّما قالوا: مثيلٌ كشبيه، والمَثَل: المِثْلُ أَيْضًا، كَشَبَهٍ وَشِبْهٍ، والمثَل المضروب مأخوذ من هذا؛ لأنّه يُذكر مُوَرًّى به عن مِثْله في المعنى.

والمثَل: تشخُّص الشّيء قائمًا على هيئة أو صفات معينة، وهو عبارةٌ عن قولٍ في شيء، يشبه قولًا في شيءٍ آخر، بينهما مشابهة؛ لتبْيين أحدهما للآخر وتصوّره، نحو قولهم: (الصّيفَ ضيّعتِ اللّبن)، فإنّ هذا القول يشبه قولك: أهملتَ وقت الإمكان أمرك، ولذلك قال تعالى: ﴿وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِۖ وَمَا يَعۡقِلُهَآ إِلَّا ٱلۡعَٰلِمُونَ ٤٣﴾ [العنكبوت: 43]؛ لأنّه لابدّ من تدبّر المثَل والممثَّل له ومطابقةِ ما بينهما.

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/371.

والمثَل أعمّ من الشّكل والشّبه، ولهذا لمّا أراد الباري ﷻ نفي التّشبيه عن ذاته المقدّسةمن كلّ وجهٍ خصّه بالذّكر دون بقيَّة الألفاظ المذكورة، فقال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ [الشّورى: 11]، وجمَع بين كاف التّشبيه ولفظ المِثْل؛ تنبيهًا على إرادة تأكيد النّفي[1].

2) ﴿خَلَوْا۟﴾: الخلوُّ: يدُلُّ على تعرِّي الشّيء من الشّيء، والقرون الخالية: المواضي، والمكان الخَلاء: الذي لا شيءَ به، والخُلُوُّ يُسْتَعْمَلُ في الزّمان والمكان، لكِن لما تُصُوِّرَ في الزّمانِ المُضيُّ؛ فَسَّرَ أهلُ اللّغة: خَلا الزّمانُ، بقولهم: مَضى الزّمانُ، وذَهَبَ.

ومعنى قوله: ﴿خَلَوْا۟﴾: مضَوْا من قبلكم[2].

3) ﴿مَّسَّتْهُمُ﴾: المسُّ: مباشرة الجسم، ويقال: فيما يكون منه إدراكٌ بحاسّة اللّمس.

ويُكنّى به عن الجماع كالمباشرة والملامسة، قال تعالى: ﴿مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ﴾ [البقرة: 237].

ويكنّى به عن الجُنون، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ﴾ [البقرة: 275].

والمسّ يقال في كلّ ما ينال الإنسان من أذى، وقد ورد المسّ، بمعنى: إيقاع الضُّرّ ونحوه، كالعذاب والنّفحة منه، والنّار، والسّوء، والشّرّ، والضُّرّ، والطّائف الشّيطانيّ، وهو المعنى السياقي هنا، واللُّغوب، والنَّصَب في أكثر ما ورد في القرآن الكريم، كقوله تعالى: ﴿مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ﴾، وفيه مبالغة من حيث إنّه جعل البأساء كالجسم، ويستَعمل في الإصابة بمكروه ونحوه، وهو بمعنى إيقاع الضُّرّ كالشَّر[3].

4) ﴿وَزُلْزِلُوا۟﴾: الزّلزلة: الحركة الشّديدة جدًّا، ومن ثمّ استعظمها العظيم في قوله تعالى: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾﴾ [الحجّ: 1]، وذلك بالنّسبة إلينا، إذ لا يعظم عنده شيءٌ، وقوله: ﴿وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ﴾ [البقرة: 214]، أي: خُوِّفوا، وحُرِّكوا ... من الزّلزلة: شدّة التّحريك تكون في الأشخاص والأحوال، إشارة إلى ما لقُوا من الأذى، فإنّهم أُزعِجوا، وحُرّكوا بأنواع المصائب والرّزايا من ذلك، والزّلزال عند العرب: الدّواهي العظام، وتكرير لفظه يدلّ على تكرير معناه.

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (مثل)، والرّاغب، المفردات: (مثل)، والسّمين، عمدة الحفّاظ: (مثل)، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (مثل).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (خلو)، والرّاغب، المفردات: (خلا)، والسّمين، عمدة الحفّاظ: (خلو)، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (خلو- خلى).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (مسّ)، والرّاغب، المفردات: (مسس)، والسّمين، عمدة الحفّاظ: (مسس)، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (مسس- مسمس).

وهي في الأصل: انزلاقٌ عن الموضع لاستوائه مع ملاسته التّامّة[1].

5) ﴿نَصۡرُ ٱللَّهِۗ﴾: والنَّصر والنُّصرة: الإعانة والمنَعة، يقال: نصرته، أي: أعنتُهُ على عدوّه، ومنعتُه منه، والنّصر يَدُلُّ عَلى إتّيانِ خَيْرٍ وَإيتائِهِ، وَنَصَرَ اللَّهُ المُسْلِمينَ: آتاهُمُ الظَّفَرَ عَلى عَدُوِّهِمْ، يَنْصُرُهُمْ نَصْرًا، قال تعالى: ﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ﴾ [محمّد: 7]، ونُصْرَةُ الله للعبد ظاهرة، ونُصْرَةُ العبد لله هو نصرته لعباده، والقيام بحفظ حدوده، ورعاية عهوده، والقيام بأحكامه، واجتناب نهيه.

وأصل النّصر: الإمدادُ بما فيه زيادةٌ مناسِبةٌ وقوةٌ وعطاء، ومن مَلحظ الإمداد بالزِّيادة والقوّة جاءت النُّصْرة: حُسْنُ المعونة، وإعانة المظلوم، ومعنى المعونة هو: أَشْيَعُ معاني النّصر[2].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

يوجِّهُ اللهُ خطابَه لعباده المؤمنين ألّا يظنّوا أنَّ الطّريقَ إلى الجنَّة خالٍ من الصُّعوبات والعَقَبات فيه، بل هو طريقٌ وَعْرٌ وشائكٌ، محفوفٌ بالعوائقِ والمِحَن والبلايا، مثلما حصَل للأمم قبلهم؛ فقد أصابهم الفقرُ وشدَّةُ الحاجة، وأصابتهم الأمراضُ والأوجاعُ، وخُوِّفوا، ورُعِّبوا مِن قِبَل أعدائِهم بأنواع المخاوفِ، فأُصيبوا في أموالهم بالبأساءِ، وفي أبدانهم بالضَّرّاء، وفي قلوبهم بالخوفِ، حتّى بلَغ بهم الحال إلى أنْ يتساءَلَ الرَّسُولُ المبعوث والَّذين آمنوا معه: متى سيأتي نصرُ اللهِ؟ وهكذا كلُّ من قام بالحق فإنه يمتحن، وإنَّما هي سنَّة الابتلاء والتَّمحيص، فلمَّا كان الفرج عند الشِّدَّة، وكلما ضاق الأمر اتسع، لا يتخلَّى الله عن أوليائه، فأكَّد لهم أنَّ نصرَه لا محالةَ آتٍ عن قريب، كما قال تعالى: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ ۝٣﴾ [العنكبوت: 2 - 3][3].

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (زَلَّ)، والرّاغب، المفردات: (زلّ)، والسّمين، عمدة الحفّاظ: (زلزل)، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (زلل - زلزل).

(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نصر)، والرّاغب، المفردات: (نصر)، والسّمين، عمدة الحفّاظ: (نصر)، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (نصر).

(3) ابن جرير، جامع البيان: 3/636، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 1/571، والسعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 33.

الإيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

الثَّبَاتُ وَالصَّبْرُ وَعَدَمُ التَّبَرُّمِ مِنَ الشَّدَائِدِ طَرِيقٌ لِنَيْلِ الْجَنَّةِ:

بَلَاغَةُ الِالْتِفَاتِ مِنَ الْغَيْبَةِ إِلَى الْخِطَابِ

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ﴾: ﴿أَمْ﴾: منقطعة، للإضراب الانتقاليّ، بمعنى: (بل)، وهمزة الاستفهام المقدرة (أأم) للتّقرير والتّوبيخ وإنكار الحُسبان واستبعاده.

والظنُّ المُنْكَرُ والمستبعَدُ أن يظنّ النّاسُ أنّهم سيدخلون الجنّة دون شديدِ الابتلاء، فقال لهم على طريقة الالتفات مِنَ الغيبة إلى الخطاب - وهو أبلغُ -: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ﴾، أي: بل أحسِبتم؟[1]، وفي هذا تشجيع للرّسول ﷺ والمؤمنين على الثّبات والصّبر على أذى المشركين، وتهيئة للأمّة، وإعدادها لتحمّل المشاقّ، وعدم التّبرّم مِنَ الشّدائد، لنيل جنّة الله ورضوانه[2].

وهذا التَّركيب ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ﴾ ورد في ثلاثة مواضع مختلفة السّياق:

أحدها: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾﴾ [البقرة: 214].

ثانيها: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾﴾ [آل عمران: 142].

ثالثها: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُواْ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾ [التّوبة: 16].

فآية البقرة جاءت في سياق الصّبر في أرضِ المعْرَكة، وبيان أهمّيّة الثّبات، والبشارة بتحقّق النّصر، وأنّ على المؤمنين أن يصبروا على ابتلاءات الحياة في البأساء والضّرّاء، كما صبر الذين خلوا مِن قبلهم.

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/256، والبَيضاويّ، أنوار التّنزيل: 1/135.
(2) الآلوسّي، روح المعاني: 1/499، والطّيبيّ، فتوح الغيب: 3/340.

وآية آل عمران جاءت في سياق الجهاد، وبيان أهمّيّة الصّبر، والثّبات بعد المعركة، خاصّةً إذا حصلت هزيمَةٌ، كالذي حصل للمؤمنين يوم أُحُد مِنَ الهزيمة والقتل والجراحات، فهي تحثّهم على الثّبات والصّبر على ما جرى لهم.

وآية التّوبة واردةٌ في سياق التّحذير مِنَ النّفاق، وإفشاء الأسرار لِلْأَقَارب، أو الكفار المعاندين لرسول الله ﷺ ، وتشير إلى أهمّيّة السّرّيّة، وكتمِ الأخبار والأنباء قبل المعركة والاستعداد لها.

دَلَالَةُ النَّفْيِ بِ﴿وَلَمَّا﴾:

الِابْتِلَاءُ مِنْ سُنَنِ اللهِ تَعَالَى الَّتِي لَا تَتَخَلَّفُ

في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُمۖ﴾: (لَمَّا): حرف نفي وجزم وقلب، يستمرّ نفيُه إلى الحال، أي: لم يأتِكم بعدُ ما أصابهم، وأصل لَمّا: (لم)، زيدت عليها (ما) النّافية، وفيها معنى: التّوقّع، وهي في النّفي نظيرةُ (قد) في الإثبات، والمعنى أنّ إتيان ذلك متوقّع منتَظَر[1].

وقد عبّر بـ﴿وَلَمَّا﴾ لتأكيد النّفي؛ إذ النّفي بها مشعِر بأنّ السّامع كان يترقّب حصول الفعل المنفيّ بها، فمنفيُّ ﴿وَلَمَّا﴾ متوقّع ثبوته، بخلاف منفيِّ (لم)، وهو أبلغ مِنَ النّفي بـ(لم)؛ لأنّها لا تنفي إلّا الزّمانَ المتّصل بزمان الحال، فيكون النّفيُ بها نفيًا لحصولٍ قريبٍ، أي: حتّى زمن التكلّم، ويُشعر بأنّ حصول المنفيّ بها يكون بعد مدّة[2].

بَلَاغَةُ الْمَجَازِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَلَمَّا يَأْتِكُم﴾:

مِنْ مَقَاصِدِ ذِكْرِ أَحْوَالِ الْأُمَمِ السَّابِقَةِ: الِاعْتِبَارُ وَالِاتِّعَاظُ

جاء التَّعبيرُ عَنِ الحصول بالإتيان بـ﴿يَأْتِكُم﴾ مجازًا على طريق الاستعارةِ؛ لِأَنَّ الشَّيْءَ الحاصِلَ بَعْدَ العَدَمِ يُجْعَلُ كَأَنَّهُ أَتى مِنْ مَكانٍ بَعيدٍ، والمَثَلُ: المُشابِهُ في الهَيْئَةِ والحالَةِ، وَقَدِ اخْتَصَّ

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/256، والبَيضاويّ، أنوار التّنزيل: 1/135.
(2) ابن هشام، مُغني اللّبيب، ص: 1/367، والسّمين، الدّرّ المصون: 1/381، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/315.

لَفْظُ المَثَلِ بِإِطْلاقِهِ عَلى الحالِ الغَرِيبَةِ الشَّأْنِ؛ لِأَنَّها بِحَيْثُ تُمَثِّلُ لِلنّاسِ وَتُوَضِّحُ وَتُشَبِّهُ، والقَصْدُ مِنْ ذِكْرِ الأُمَمِ السّالِفَةِ هُوَ العِبْرَةُ والمَوْعِظَةُ، والتَّحْذِيرُ مِنَ الوُقوعِ فيما وَقَعوا فيهِ بِسوءِ عَمَلِهِمْ، والِاقْتِداءُ بهم في المحامد[1].

والمرادُ بقوله: ﴿وَلَمَّا يَأْتِكُم﴾ التّوقّع والانتظار لما سيقَعُ؛ إذِ الحالُ أنّه لم يأتِكم مثلُهم بعد، ولم تُبتلوا بما ابتُلوا به من الأحوالِ الهائلةِ التي هي مَثَلٌ في الفظاعة والشِّدّة[2].

وفي الكَلامِ حَذْفٌ، تَقْديرُهُ: مَثَلُ مِحْنَةِ الَّذينَ مِنْ قَبْلِكُمْ[3].

بَلاغَةُ الِاسْتِعارَةِ المَكْنِيَّةِ في قَوْلِهِ: ﴿مَّسَّتْهُمُ﴾:

شَرَفُ الصَّابِرِينَ الثَّابِتِينَ عَلَى دِينِهِمْ

﴿مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ﴾: قَوْلُهُ: ﴿مَّسَّتْهُمُ﴾ بَيانٌ لِلْمَثَلِ، وَهُوَ اسْتِئْنافٌ بيانيٌّ، كَأَنَّ قائِلًا قالَ: فَكَيْفَ كانَ ذَلِكَ المَثَلُ؟ فَقالَ: مَسَّتْهُمُ البَأْساءُ والضَّرّاءُ، وَزُلْزِلوا[4].

وفيه استعارةٌ مكنيّة؛ إذ شبّه المحَن المعبّر عنها بالبأساء والضّرّاء بالنّار في شدّة إيلامها، وحذف المشبّه به، ودلّ عليه بخاصّة من خواصّه، وهي: المسّ، وفي هذا بيان فضيلة الصّابرين الثّابتين على دينهم وأعباء التّكاليف، فمع شدّة المحَن عليهم ظلّوا ثابتين على عقيدتهم[5].

الْعُدُولُ عَنْ وَزْنٍ إِلَى وَزْنٍ آخَرَ أَكْثَرَ حُرُوفًا:

شِدَّةُ ابْتِلَاءِ أَهْلِ الْإِيمَانِ لِرَفْعِ دَرَجَاتِهِمْ

﴿وَزُلْزِلُواْ﴾: أي: أُزعجوا إزعاجًا شديدًا شبيهًا بالزّلزلة، بما أصابهم مِنَ الهول والفزَع، وتكريرُ الزّاي واللّام إشعار بتكرير الإزعاج مرّة بعد مرَّةٍ، وأصل الزّلزلة في اللّغة: من زَلّ الشّيء عَنْ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/303، 2/313- 315.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 1/215.
(3) الرّازيّ، التّفسير الكبير: 6/379.
(4) الرّازيّ، التّفسير الكبير: 6/379.
(5) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 1/125.

مكَانِه، فإذا قلت: زلزلة؛ فتأويله كرّرت زلزلته من مكانه، وكلّ ما فيه ترجيعٌ، كُرّرت فيه فاءُ التّفعيل، فالمعنى: أنه يكرّر عليهم التّحريك بالخوف[1].

قال ابن الأثير: "اللّفظ إذا كان على وزن من الأوزان، ثمّ نقل إلى وزن آخر أكثر منه، فلا بدّ من أن يتضمّن من المعنى أكثر مما تضمّنه أوّلًا؛ لأنّ الألفاظ أدلّة على المعاني، وأمثلة للإبانة عنها، فإذا زيد في الألفاظ؛ أوجبت القسمة زيادة المعاني، وهذا لا نزاع فيه لبيانه، وهذا النّوع لا يستعمل إلّا في مقام المبالغة"[2]، فلفظة ﴿وَزُلۡزِلُواْ﴾ أبلغ من كلّ ما يعبَّر به عن غِلَظ ما نالهم[3].

كما أنَّ في قوله: ﴿وَزُلۡزِلُواْ﴾ استعارةً مكنيَّة، حيث شبَّه أهل الإيمان بالأرض في ثباتها في أغلب الوقت، وإصابتها بالزَّلازل في بعض الأوقات، فَحُذِفَ المشبَّه بهِ ورُمِز له بشيءٍ مِن لوازمه (زلزلوا).

ويحتَمِلُ أَنْ تكونَ استعارةً تصريحيَّة تبعيَّة في ﴿وَزُلۡزِلُواْ﴾، ويكون المعنى مُتَّجهًا لتشبيهِ أثَرِ الشَّدائد التي تُصيب أهلَ الإيمان بالزِّلْزَال.

والوجهان صحيحَان لا تعارُضَ بينهما، وإن كان الأوَّلُ أَوْلَى؛ لأنَّ الآيةَ سيقَتْ مساقَ بيانِ أقدار الصَّابرين مِنَ المؤمنين، والوجه الأوَّلُ أنسَبُ لهذا.

دِلَالَةُ الِاسْتِفْهَامِ فِي ﴿مَتَىٰ نَصۡرُ ٱللَّهِۗ﴾:

شِدَّةُ الْبَلَاءِ تَحْمِلُ أَهْلَ الْإِيمَانِ عَلَى التَّطَلُّعِ إِلَى النَّصْرِ

الذي قاله الرَّسول والمؤمنون معًا هو: ﴿مَتَىٰ نَصۡرُ ٱللَّهِۗ﴾، وهو استفهامٌ يُرادُ به الاستبطاءُ، ويحتَمِلُ أن ينضمَّ إلى ذلك إرادَةُ الطَّلَبِ دعاءً على جهة الكنايةِ، وجاءهم الجواب: ﴿أَلَآ إِنَّ نَصۡرَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ﴾، والقول الأوّل مقول المؤمنين، والثّاني مقول الرَّسول، وعلى هذا الوجهِ؛ فالآية الكريمة من قبيل اللَّفّ والنَّشر غير المرتَّب.

فثَمَّ قائلان: الرَّسول والمؤمنون، ومقالتان: ﴿مَتَىٰ نَصۡرُ ٱللَّهِۗ﴾، و﴿أَلَآ إِنَّ نَصۡرَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ ٢١٤﴾، فوقع اللَّفُّ والنَّشر غيرَ مرتَّب؛

(1) الزجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 1/285، ودرويش، إعراب القرآن وبيانه: 1/315-316.
(2) ابن الأثير، المثل السّائر: 2/197، وللتوسّع ينظر: الخصائص لابن جنّي في باب قوّة اللّفظ لقوّة المعنى الخصائص: 3/268.
(3) الرّازيّ، نهاية الإيجاز، ص: 158.

وذلك لِحكاية حالِ الشِّدة، وإنَّما حُمِلَتِ المقالتَان على التَّوزيعِ؛ لئلَّا يُنْسَبَ الاستبطاءُ إلى الرُّسُلِ[1].

والأظهَرُ أنَّ ﴿مَتَىٰ نَصۡرُ ٱللَّهِۗ﴾ مقولٌ للرَّسول والمؤمنين وهو ظاهرُ السِّياقِ، ودلالَةُ الاستفهام على الاستبطاءِ لا تقتضي شكًّا، بل إنَّ الاستبطاءَ يستلزِمُ الإقرارَ بالوقوعِ، إلَّا أنَّ غايةَ ما فيه هُوَ استعجالُهُ[2]، وليس في هذا نسبةُ نقصٍ مَا إلى الأنبياءِ، ولا ما يقدحُ في عِصمَتِهم.

وعبّر بالفعل المضارع ﴿يَقُولَ﴾ تصويرًا لحالهم، وإشارة إلى تكرير ذلك من مقالهم[3].

وفي إضافتهم النَّصرَ إلى الله ﴿مَتَىٰ نَصۡرُ ٱللَّهِۗ﴾ إشعارٌ بثَبَاتهم على الإيمان، وأنَّ قوَّة الشدائد لم تُزعزع إيمانَهم بأنَّ النَّصْرَ من عند الله تعالى.

سِرُّ تَأْكِيدِ جُمْلَةِ التَّذْيِيلِ:

تَفْرِيجُ اللهِ تَعَالَى عَنِ الْأَنْبِيَاءِ وَمَنْ مَعَهُمْ يَكُونُ عِنْدَ انْقِطَاعِ أَسْبَابِهِمْ مِمَّنْ سِوَاهُ

﴿أَلَآ إِنَّ نَصۡرَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ﴾: لمّا كان السّؤال بـ﴿مَتَىٰ﴾ يشير إلى استعلام القرب؛ تضمّن الجوابُ القربَ، واكتفى به؛ ليكون الجواب طبق السّؤال.

وآثر في تذييل الآيةِ الجملةَ الاسميّة على الفعليّة؛ لتناسبَ الجملةَ قبلَها، وللدِّلالةِ على معنى الثُّبوتِ واللُّزومِ.

وفي تصديرها بحرف التّنبيه ﴿أَلَآ﴾ - وهي من المؤكِّدات - و﴿إِنَّ﴾: إشعارٌ بتحقّق مضمونها وتقريره، وفي ذلك: تطييب أنفس المؤمنين باستجابة دعائهم، والبِشارة بقُرب النّصر، وقد بلغت تلك المِحَنُ حدًّا غيرَ معهود[4].

وفي هذا إيماءٌ بأنّ الله سبحانه وتعالى إنّما يفرّج عن أنبيائه ومن معهم بعدَ انقطاعِ أسبابهم مِمَّن سِواه؛ ليمتحن قلوبَهم للتّقوى، فتتقدّس سَرَائِرُهم مِنَ الرّكون لشيء مِنَ الخَلق، وتتعلّق ضمائرُهم بالله تعالى وحده"[5].

(1) إبراهيم الهدهد، اللَّفّ والنَّشر في الذِّكر الحكيم: مواقعه، وأسراره، ص: 89-88.
(2) ابن عثيمين، تفسير الفاتحة والبقرة: 3/40.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 1/396.
(4) الآلوسّي، روح المعاني: 1/499.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 1/397.

﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَۖ قُلۡ مَآ أَنفَقۡتُم مِّنۡ خَيۡرٖ فَلِلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِۗ وَمَا تَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٞ ٢١٥﴾ [البقرة: 215]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

دَلَّت الآيات السّابِقَة عَلى أَنَّ حُبَّ النّاسِ لِزينَةِ الحَياةِ الدُّنْيا هُوَ الذي أَغْراهُمْ بِالشِّقاقِ والخِلافِ، وَأَنَّ أَهْلَ الحَقِّ والدّينِ هُمُ الَّذينَ يَتَحَمَّلونَ البَأْساءَ والضَّرّاءَ في سَبيلِ اللّهِ وابْتِغاء مَرْضاتِهِ، وَمِنْها ما يُصيبُهُمْ في أَنْفُسِهِمْ وَأَمْوالِهِمْ، وَذَلِكَ مِمّا يُرَغِّبُ الإِنْسانَ في الإِنْفاقِ في سَبيلِ اللّهِ، والصَّبْر عَلى النَّفَقَةِ وَبَذْلِ المالِ هُوَ مِنْ أَعْظَم ما تَحَلّى بِهِ المُؤْمِنُ، وهو مِنْ علاماتِ الإيمانِ، ومِنْ أَقْوى الأَسْبابِ المُوَصِّلَةِ إِلى الجَنَّةِ، فَكَأَنَّ السّامِعَ تَتَوَجَّهُ نَفْسُهُ إِلى البَذْلِ، فَيَسْأَلُ عَنْ طَريقِهِ، فَجاءَ بَعْدَهُ السُّؤالُ عن الإنفاق مَقْرونًا بِالجَوابِ[1]، كما أنَّ النفقة من أصول مابنيت عليه السورة، ﴿وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ﴾ [البقرة: 3].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يُنفِقُونَۖ﴾: نفق: يَدُلُّ عَلى انْقِطاعِ شَيْءٍ وَذَهابِهِ، يقال: نَفَقَ الشَّيْءُ: مَضى، ونَفِدَ، يَنْفُقُ، إمّا بالبيع، نحو: نَفَقَ البَيْعُ نَفاقًا، ومنه: نَفاقُ الأَيِّم، ونَفَقَ القَوْمُ؛ إذا نَفَقَ سوقُهُمْ، وإمّا بالمَوْتِ، نحو: نَفَقَتِ الدّابَّةُ نُفوقًا، وإمّا بالفَناءِ، نحو: نَفِقَتِ الدَّراهِمُ تَنْفَقُ، وأَنْفَقْتُها، والإِنْفاقُ قد يكون في المالِ وفي غَيْرِهِ، وقد يكون واجبًا وتطوُّعًا، قال تعالى: ﴿وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: 195]، والإنفاق: إذهابُ عَين الشّيء، وهو إخراج مال من الحَوْزة، يقال: أنفق المال: صَرَفه وأذهبه، وأصل الفعل للإِنْفاد، والنَّفَقَة: ما يُنْفَق من الدّراهم وغيرها، ﴿وَمَآ أَنفَقۡتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوۡ نَذَرۡتُم مِّن نَّذۡرٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُهُۥ﴾ [البقرة: 270][2].

2) ﴿خَيۡرٖ﴾: الخير: العَطْفُ والمَيْلُ، ثُمَّ يُحْمَلُ عَلَيْهِ، فالخَيْرُ: خِلافُ الشَّرِّ؛ لِأَنَّ كُلَّ أَحَدٍ يَميلُ إِلَيْهِ، وَيَعْطِفُ عَلى صاحِبِهِ.

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/376، ومحمّد رشيد رضا، تفسير المنار: 2/244-245.

(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نفق)، والرّاغب، المفردات: (نفق)، والسّمين، عمدة الحفّاظ: (نفق)، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (نفق).

الخَيْرُ: ما يَرغَب فيه كلّ أحد، كالعَقْل، والعَدْل، والفَضْل، والشّيء النّافع، والخَير يُقابَلُ بالشّرّ تارةً، وهو الغالب، وبالضُّرّ أخرى، قال تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ﴾ [الأنعام: 17]، فالخير هنا: العافية والنّفع بالصّحّة لاستعمال بدنه في عبادة ربّه التي هي أمّ الخيور كلّها.

وأَصْلُ الخَيْر نفعٌ مستحسَنٌ يجيزه الشّرع، وهو من الرّخاوة والطّراءة، كما أنّ الشّرّ من الجفاف والحِدّة، ويجمع الخير على خيرات: ﴿فَٱسْتَبِقُواْ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ [البقرة: 148].

ويطلق الخَيْر على المال؛ لأنّه ليونة في الحياة وطراءة وسهولة، قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ﴾ [العاديات: 8]، أي: المال، وقال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ﴾ [البقرة: 180]، أي: مالًا كثيرًا، وسُمِّي المالُ هاهنا خيرًا؛ لمعنى لطيف: وهو أنَّ المالَ إنّما تحْسُنُ الوصيّةُ به؛ إذا كان مجموعًا من وجهٍ محمود[1].

ومعنى قوله: ﴿مِّنْ خَيْرٍ﴾: أي مال قليل أو كثير.

3) ﴿وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾: سبل: يَدُلُّ عَلى إِرْسالِ شَيْءٍ مِنْ عُلُوٍّ إِلى سُفْلٍ، وَعَلى امْتِدادِ شَيْءٍ، والممتدُّ طولًا: السّبيل، وهو الطَّريق، والسُّبُل جمع سبيل: وهو الطّريق، يذكّر، ويؤنّث، قال تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ﴾ [يوسف: 108].

وسمّي السّبيل: طريقًا لامتداده متميّزًا ممَّا حوله من أرض موصلًا إلى مكان آخر، ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ [آل عمران: 97].

والسّبيل يأتي بمعنى: الطّريق المادّي المعروف، أو بمعنى: الطّريق المجازي، مثل: ﴿سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، ﴿سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ﴾ [النّساء: 76]. أو بمعنى نفي المحاسبة والمؤاخذة في مثل: ﴿لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٌ﴾ [آل عمران: 75].

وتعبير: ابن السّبيل: يقصد به المُسافِرُ البعيدُ عَنْ مَنزِله المنقَطِع به، نُسِبَ إلى السّبيلِ (ابن الطّريقِ) لمُمارستهِ وملازمته إيّاه[2].

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (خير)، والرّاغب، المفردات: (خير)، والسّمين، عمدة الحفّاظ: (خير)، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (خور- خير).

(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سبل)، والرّاغب، المفردات: (سبل)، والسّمين، عمدة الحفّاظ: (سبل)، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (سبل- سنبل).

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

يَسْأَلُكَ أَصْحابُكَ: - أيها النبيُّ - أَيَّ شَيْءٍ يُنْفِقونَ مِنْ أَمْوالِهِمْ، فَيَتَصَدَّقونَ بِهِ، وَعَلى مَنْ يُنْفِقونَهُ؟ فقل لهم: أنفقوا أيَّ خير يتيسّر لكم من أصناف المال الحلال الطّيّب، واجعلوا نفقتكم للوالدين، والأقربين من أهلكم وذوي أرحامكم، واليتامى الذين مات آباؤهم وهم دون سنِّ البلوغ، والمحتاجين الذين لا يملكون ما يكفيهم ويسدُّ حاجتهم، والمسافر المحتاج الذي بَعُدَ عن أهله وماله، ويكون التّفضيل في الإعطاء والتّرتيب للأقرب فالأقرب، وما تنفقوا من خير مطلقًا؛ فإنّ اللّه مطَّلعٌ عليه مُحْصيهِ لَكُمْ وسيجازيكم به؛ لأنّه عليم بكلّ شيء[1].

❁ الإيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

دِلَالَةُ الْأُسْلُوبِ الْحَكِيمِ فِي قَوْلِهِ: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَۖ﴾:

﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَۖ﴾: الاستفهامُ هُنَا حقيقيٌّ؛ لأنّ السّائل لا يعلم جواب سؤاله، ويريد مِنَ المسؤول أن يعلّمه ما هو جاهل به.

وجاءَ التَّعبيرُ بالفعلِ المُضَارِعِ لحكاية الحال الماضية، واستحضار صورتها في الذّهن، ولبيان تجدّد السّؤال وتكراره حرصًا من الصّحابة الكرام على التّفقّه في أمور الدِّين.

وظاهر السّؤال ﴿مَاذَا يُنفِقُونَۖ﴾، يعني: أيّ شيء نُنْفِقُه؟ ووقع الجوابُ بِبَيَانِ مصارف النّفقة؛ لأنَّها أهمُّ، وفي بيانها تظهر قيمة النّفقة ومنزلتُهَا، وما يترتَّب على ذلك من آثارِهَا دُنيويَّةً كانت أو أخرويَّةً.

وهذا الأسلوب يُعرف بالأسلوب الحكيم، الذي يُقصد به توجيهُ السّائل إلى ما كان ينبغي أن يَسأل عنه[2].

حِرْصُ أَهْلِ الْإِيمَانِ عَلَى التَّفَقُّهِ فِي أُمُورِ دِينِهِمْ

الزِّيَادَةُ فِي الْجَوَابِ عَلَى مَا يَقْتَضِيهِ السُّؤَالُ مُسْتَحْسَنَةٌ

(1) ابن جرير، جامع البيان: 3/640، ونخبة من العلماء، التّفسير الميسّر، ص: 33.

(2) الأسلوب الحكيم: هو تلقّي المخاطَب بغير ما يترقّب، بحَمْل كلامه على خلاف مراده، تنبيهًا على أنّه الأَوْلى بالقَصد، أو السائلِ بغيرِ ما يتطلّب بتنزيلِ سُؤاله منزلةَ غيرِه تنبيهًا على أنّه الأَوْلى بحاله أو المهمّ له، ينظر: الخطيب القَزوينيّ، الإيضاح، ص: 70.

ويمكن أن يقال: إنّه تعالى أجاب عن سؤالهم بما يناسبه، وزاد عليه فائدة أخرى، هي بيان المصرف، فإنّ الإجابة عن سؤالهم: ﴿مَاذَا يُنفِقُونَۖ﴾ واردة إجمالًا في الآية الكريمة وهي: ﴿مَآ أَنفَقۡتُم مِّنۡ خَيۡرٖ﴾؛ والخير: يتضمَّن ما كان حلالًا، كثيرًا كان أو قليلًا، إذ لا يسمّى ما عداه خيرًا، ومثل هذا مثل رجل يسأل طبيبَه: هل آكل العسَل؟ فيجيبه الطّبيب قائلًا: كُلْهُ مع الخلّ، فالزّيادة في الجواب على ما يقتضيه السّؤال مستحسنة، وتسمّى أيضًا: الأُسلوب الحكيم[1].

وفي قصَّة نزول الآية أنّهم سألوا الرّسول ﷺ عنِ النّفقة وعن مصرفها، فقالوا: بماذا نتصدَّق؟ وعلى مَنْ ننفق؟[2]، ولكن حُذف في حكاية السّؤالِ أحدُهما إيجازًا في النّظم، ودلَّ عليه الجوابُ بقوله: ﴿مَآ أَنفَقۡتُم مِّنۡ خَيۡرٖ﴾، كأنّه قيل: المنفَق هو الخير، والمنفَق عليهم هؤلاء، فلفّ أحد الجوابين في الآخر، فتكون الآية جوابًا لأمرَيْنِ مسؤولٍ عنهُما[3].

وذكر الرّاغب جوابًا آخر في التّطابق بين السّؤال وإجابتِه، فقال: "السّؤال ضربان:

سؤال جدَلٍ: وحقّه أن يطابقه جوابُه، لا زائدًا عليه، ولا ناقصًا عنه.

وسؤالُ تَعلُّم: وحقُّ المعلّم أن يصير فيه كطبيب رفيق يتحرّى شفاءَ سقيمٍ، فيطلبُ ما يشفيه، طلَبَه المريضُ أو لم يطلُبْه، فلمّا كان حاجتهم إلى من ينفَق عليهم كحاجتهم إلى ما ينفَق؛ بَيَّن لهم الأمرَين"[4].

نُكْتَةُ التَّعْبِيرِ بِالْفِعْلِ الْمَاضِي ﴿أَنفَقۡتُم﴾:

حَثُّ الشَّارِعِ الْحَكِيمِ عَلَى الْإِنْفَاقِ وَالْمُسَارَعَةُ فِيهِ

﴿قُلۡ مَآ أَنفَقۡتُم مِّنۡ خَيۡرٖ﴾: فُصِلَ قوله: ﴿قُلۡ مَآ أَنفَقۡتُم﴾ عمَّا قبْلَهُ: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَۖ﴾؛ لأنَّه استئنافٌ بيانيٌّ؛ إذ الجملة الثَّانية ﴿قُلۡ مَآ أَنفَقۡتُم﴾ واقعةٌ جوابًا عن سؤالٍ يُفْهَمُ من الأولى، كأنّه قال: فماذا أُجيبُهم؟ فقال: ﴿قُلۡ مَآ أَنفَقۡتُم مِّنۡ خَيۡرٖ﴾.

(1) الرّازيّ، التّفسير الكبير: 6/382، والآلوسّي، روح المعاني: 1/501.
مجمع البحوث- الأزهر، التّفسير الوسيط: 1/341.
(2) الواحديّ، أسباب النّزول، ص: 67، وابن حجر، العُجاب في بيان الأسباب: 1/533.
(3) تفسير الرّاغب: 1/444، والرّازيّ، التّفسير الكبير: 6/382، والآلوسّي، روح المعاني: 1/501، ومجمع البحوث- الأزهر، التّفسير الوسيط: 1/341.
(4) تفسير الرّاغب: 1/444.

و﴿مَآ﴾ شَرْطية، وفعْلُ ﴿أَنفَقْتُم﴾ مُرادٌ بِهِ الاِسْتِقْبالُ كَما هُوَ مُقْتَضى الشَّرْطِ، وَعَبَّرَ بِالماضي؛ لِإِظْهارِ الرَّغْبَةِ في حُصولِ الشَّرْطِ، فَيُنَزَّلُ منزلة الحاصِلِ المُتَقَرِّر[1]، وفيه: الحثُّ وعدم الإبطاء في هذه المصارف.

ويحتمِلُ أن تكون ﴿مَآ﴾ موصولةً، حُذف العائدُ من صِلَتِهَا، أي: ما أنفقتموه؛ لتُفيدَ العموم.

وقوله: ﴿مِّنْ خَيْرٍ﴾، ﴿مِّنْ﴾: بيانية لما في السّؤال، إلا أنه جُعل من جُملةِ ما في حيز الشّرطِ أو الصّلة، وأُبرز في معرِض بيانِ المصرِف.

وتنكير ﴿خَيْرٍ﴾ يفيد الشّمول والعموم؛ لوقوعِهِ في سياق الشَّرْطِ، أي: من أيِّ خيرٍ كان؛ ففيه تجويزُ الإنفاق من جميع أنواعِ الأموالِ[2]، وفيه إيماءٌ إلى أنَّ العبرة في المُنْفَقِ ليست كَثْرَتَهُ، وإنَّما العبرةُ في كونِه خيرًا.

والتّعْبيرُ عَنِ المالِ بِالخَيْرِ يَتَضَمَّنُ كَوْنَهُ حَلالًا، فَكَأَنَّهُ قالَ: إنَّ الإنْفاقَ والتّصَدُّقَ يَكونُ مِنْ فَضْلِ المالِ الكَثيرِ الحَلالِ الطَّيِّبِ[3].

سِرُّ تَرْتيبِ الأَصْنَافِ المُنْفَقِ عَلَيْهِمْ:

رِعَايَةُ حَقِّ الْوَالِدَيْنِ أَوْجَبُ الْحُقُوقِ بَعْدَ رِعَايَةِ حَقِّ اللَّهِ تَعالى

قوله تعالى: ﴿فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾: رُوعِيَ في ترتيب هذه الأصنافِ الخمسة الأعظمُ حَقًّا، فقُدِّم الوالدَان؛ لأنّهما سبب وجود المرءِ في الحياة، ثُمَّ رَبَّياهُ في الحالِ الذي كانَ في غايَةِ الضَّعْفِ، فَكانَ إنْعامُهُما عَلى الابْنِ أَعْظَمَ مِنْ إنْعامِ غَيْرِهِما عَلَيْهِ، وَلِذَلِكَ قالَ تَعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ [الإسراء: 23]، وَفيهِ إشارَةٌ إلى أَنَّهُ لَيْسَ بَعْدَ رِعايَةِ حَقِّ اللّهِ تَعالى شَيْءٌ أَوْجَبَ مِنْ رِعايَةِ حَقِّ الوالِدَيْنِ، وليس لأحد حَقّ أَعْظَمُ مِنْ حَقِّهِما؛ فَلِهَذا أَوْجَبَ تَقْديمَهُما عَلى غَيْرِهِما في رِعايَةِ الحُقوقِ.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/318.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 1/216.
(3) تفسير الرّاغب: 1/444، ومحمّد رشيد رضا، تفسير المنار: 2/246.

ثمّ ذكر بعدهما الأقربين؛ وذلك لأنّ الإنسان لا يمكنه أن يقومَ بمصالح جميع الفقراء، بل لا بدّ أن يُؤْثِرَ بعضَهم على بعضٍ، فالفقير ذو القرابةِ أولى مِنَ الفقير البَعِيد؛ ولأنَّ الإنسان أعلم بحال الفقير القريب مِن غيره؛ ولأنَّه إذا لم يُراعِ قريبَه الفقيرَ؛ لاحْتَاجَ الفقيرُ إلى الرُّجوع إلى غيره، وذلك عارٌ في حقِّ قريبه الغنيّ.

وفي ذكر الأقربين بعد الوالدين: عطفٌ للعام على الخاصِّ؛ وفيه تنبيهٌ لشرفِ الوالِدَين وعِظَم حقِّهما؛ حيثُ ذكرهُمَا مرَّتين، إحداهما: على سبيل الانفراد، والأخرى: على سبيل الاندراج في الأقربين، وزادَهما تعظيمًا بذكرهما أوَّلًا - كما تقدَّم -.

ثمّ إنّ اللّه ﷻ ذكر بعد الأقربين اليتامى؛ لأنَّهم لصِغَرِهم لا يَقْدِرُون على الاكتساب، وليس لهم أحدٌ يكتسب لهم، فالطفل اليتيم: قد عدم الكسب والمكاسب، وأشرف على الضياع.

ثمّ ذكر بعدهم المساكين، وحاجة هؤلاء أقل من حاجة اليتامى؛ لأنّ قدرتهم على التّحصيل أكثر من قدرة اليتامى.

ثمّ ذكر اللّه بعدهم ابن السّبيل، فإنّه بسبب انقطاعه عن بلده قد يقع في الحاجة والفقر[1]، وإن كان غنيًّا أو ميسورَ الحال في بلده؛ لهذا اقتضت البلاغة القرآنيّة أن يكون آخر من يستحقّ الإنفاق.

وتسمية المسافر ابنَ السَّبيلِ مجاز؛ لملازمته السّبيل، وهو الطّريق، كما يلازم الولد أمَّه.

بَلَاغَةُ التَّذْيِيلِ فِي قَوْلِهِ ﴿وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ﴾:

عِلْمُ اللهِ تَعَالَى بِأَعْمَالِ الْعِبَادِ يَقْتَضِي مُجَازَاتَهُمْ عَلَيْهَا

﴿وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ﴾: عبّر بـ﴿تَفْعَلُواْ﴾، ولم يقل: (تُنفقوا) أو نحوه؛ لأنّ الفعل أعمّ من الإنفاق، وأتى بما يعمّ ذلك، تأكيدًا للخاصّ الواقع في الجواب[2].

والمُرادُ مِنَ الخَيْرِ المالُ؛ لِقَوْلِهِ ﷻ: ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ۝٨﴾ [العاديات: 8]، وَقالَ: ﴿إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ﴾ [البقرة: 180]، فالمَعْنى: وَما تَفْعَلوا مِنْ إِنْفاقِ شَيْءٍ مِنَ المالِ قَلَّ أَوْ كَثُرَ.

(1) الرّازيّ، التّفسير الكبير: 6/382-383، وابن عادل، اللباب: 3/519-522.
(2) الآلوسّي، روح المعاني: 1/501.

وَفيهِ وجهٌ آخَرُ، وَهُوَ أَنَّهُ يَتَناوَلُ هَذا الإِنْفاقَ وَسائِرَ وُجوهِ البِرِّ والطّاعَةِ الأخرى، وَهَذا أَوْلى[1]؛ لكون الوجهِ الأوَّلِ مندرجًا فيهِ.

وقد أجملَ في قوله: ﴿وَمَا تَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٞ﴾ بعد هَذا التّفْصيل الحَسَن الكامِل؛ ليبيّن أنّ كُلّ ما فَعَلتُموهُ مِنْ خَيْرٍ مع هَؤُلاءِ المَذْكورينَ أو مَعَ غَيْرِهِمْ حِسْبَةً للّهِ تعالَى وَطَلَبًا لِجَزيلِ ثَوابِهِ واتّقاء عذابه؛ فَإِنَّ اللّه بِهِ عَليمٌ.

و﴿عَلِيمٞ﴾: صيغة مبالغة في كَوْنِهِ عالِمًا، يَعْني: لا يَعْزُبُ عَنْ عِلْمِهِ مِثْقالُ ذَرَّةٍ في الأَرْضِ وَلا في السَّماءِ، فَيُجازيكُمْ أَحْسَنَ الجَزاءِ عَلَيْهِ، كَما قالَ تعالى: ﴿أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٖ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰۖ﴾ [آلِ عِمْرانَ: 195]، وَقالَ: ﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ ٧﴾ [الزَّلزلة: 7][2].

وَهذا التّذْييل مَقْصود بِهِ: أنّ كلّ ما يفعلونه من أَفْعال واجِبَة أو مُتَطَوَّع بها لا تخفى على اللّه تعالى على الوجه الذي يفعلونه؛ فهو كِنايَةٌ عَنِ الجَزاءِ عَلَيْهِ وتوفية ثوابه؛ لِأَنَّ العَليمَ القَديرَ، إذا امْتَثَلَ أَحَدٌ لِأَمْرِهِ؛ فلا يَحولُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ جَزائِهِ عَلَيْهِ حائِلٌ[3].

وجاء التّوكيد بـ(إنّ) واسميَّة الجملة في قوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٞ﴾، وتقديم الجارّ والمجرور على المسند إليه؛ للاهتمام وتقوية الحكم وتوكيده.

(1) الرّازيّ، التّفسير الكبير: 6/383، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 1/216.
(2) الرّازيّ، التّفسير الكبير: 6/383.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/318.

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾﴾ [البقرة: 216]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

ذكر الجهاد الّذي به قِوام الدِّين بعد ذكر الإنفاق الّذي به قِوام الدُّنيا

لَمَّا ذكر الله تعالى ما مسَّ مَن تَقدَّمَنا مِن أَتباع الرُّسُل مِن البأساء ومن البلايا في قوله: ﴿وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ﴾ [البقرة: 214]، وأَنَّ دُخولَ الجنّة مَعروفٌ بالصّبر على ما يُبتَلى به المُكَلَّفُ، ثمّ ذكر الإنفاقَ على مَن ذكر فهو جهادُ النَّفسِ بالمال، انتقلَ إلى أعلى منه وهو الجهاد الَّذي يَستقيمُ به الدِّينُ، وفيه الصَّبرُ على بَذل المال والنَّفس[1].

فقدَّم ذِكرَ الإنفاق وعقَّبَهُ بالقتال لإعلاء كلمته تَرَقِّيًا من الأدنى إلى الأعلى[2].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿كُتِبَ﴾: أَصلُ (كَتَبَ) يدُلُّ على جمع شيء إلى شيء، والكِتابُ يُوضَعُ مَوضِعَ الفَرضِ، فيُقالُ: كَتَبَ عليه شيئًا أي فَرَضَهُ، ومعنى الآية: فُرض عليكم الجهادُ[3].

2) ﴿كُرْهٌ﴾: يُقال: كَرِهتُ الشَّيء كَرهاً وكُرهاً وكَرَاهَة وكَرَاهِيَةً؛ وأصل (الكُره) يدُلُّ على خلاف الرِّضا والمحبَّة، والقِتالُ مَكروهٌ من حيث الطَّبع لمَا فيه من الشِّدَّة والمَشقَّة، يُقالُ: إنِّي أكره الشَّيء وأريده

(1) أبو حَيّان، البحر المحيط: 2/379، والآلوسّي، روح المعاني: 1/502، وابن عاشور، التَّحرير والتّنوير: 2/319.
(2) الكُورانّي، غاية الأماني، ص: 825.
(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن منظور، لسان العرب، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (كتب)، وابن قُتيبة، غريب القرآن، ص: 82، والسّجستانيّ، غريب القرآن، ص: 394.

من حيث الشَّرع والعقل، والمعنى هنا: تَكرهونه من حيث الطَّبع؛ وهو مَشَقَّةٌ لكم[1].

3) ﴿وَعَسَىٰٓ﴾: عسى فعلُ طَمَعٍ وتَرجٍّ، يجيءُ للتَّرَجّي في المحبوب والإشفاق في المَكروه، وأصل (عسى) يدُلُّ على قُربٍ وإمكانٍ، وإذا أُسندت (عسى) إلى اللّه ﷻ فاللّه لا يُعجزُهُ شيء، فعسى من اللّه إيجاب؛ وذاك أنَّ اللّه تعالى إذا ذَكَرَ ذلك يَذكُرهُ ليكون الإنسان منه راجيًا، لا أنْ يكون هو تعالى يَرجُو. "وقد ذُكرت (عسى) في الذّكر الحكيم في ثلاثين مَوضِعًا، وذُكرت (لعلّ) في تسعة وعشرين ومئة مَوضِع، وجاءت كلٌّ منهما على حقيقتهما في حقّ العباد، وخرجتا إلى معانٍ مَجازية في حقّ اللّه تُستنبط من السّياق بحسب ما يهدي إليه سياق السّباق واللّحاق"[2].

والمعنى هنا: ولعلّكم أَنْ تكرهوه وهو خيرٌ لكم[3].

المَعْنى الإجْماليُّ:

فُرِض عليكم - أيُّها المؤمنون - قتالُ الكفَّار لحماية دينكم والدِّفاع عن أنفسكم؛ وهو مكروه لكم من جهة الطَّبع، لمشقَّته وما فيه من بذل المال والنَّفس، ولعلّكم تكرهون شيئًا وهو في الواقع خيرٌ ونفعٌ لكم كالقتال في سبيل اللّه؛ فمع عِظم ثوابه فيه النَّصر على الأعداء، ورَفعُ كلمة اللّه، وقد تحبُّون شيئًا لما فيه الرَّاحة واللَّذة العاجلة كالقعود عن الجهاد، وهو شرٌّ ووبالٌ عليكم؛ فإنَّ فيه الخِذْلان، وتَسَلُّطَ الأعداء، واللّه يعلم ما غاب من مصالحكم

فرض الله على عباده الجهاد نصرًا للدِّين، وعِلمُه سبحانه بمصالحهم يُوجِبُ عليهم الطَّاعة والتَّسليم

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، والسَّمين، عُمدة الحفّاظ، والزّبيديّ، تاج العروس، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصَّل: (كره)، وابن قُتيبة، غريب القرآن، ص: 82.

(2) إبراهيم الهدهد، التّرجّي في الذّكر الحكيم مواقعه وأسراره، بحث منشور في مجلة كليّة اللّغة العربيّة بالقاهرة 1997م، ثمّ نُشر ضمن كتاب في أنوار البلاغة القرآنيّة للمُؤلِّف عام 2022م، ص: 54 وما بعدها.

(3) الرّاغب، المفردات، والزّبيديّ، تاج العروس، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (عسى)، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (عسوي)، وابن جرير، جامع البيان: 4/298.

عنكم، وأنتم لا تعلمون ذلك، فاستجيبوا لأمره، فبادروا إلى الجهاد في سبيله؛ ففيه الخير كلُّه[1].

الإيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

السِّرُّ في استعمال لفظ ﴿كُتِبَ﴾ بَدَلَ (فُرِضَ):

في لفظ الكَتْبِ زيادة تأكُّدٍ للطَّلَبِ ولُزومٍ، فالكَتْبُ فرضٌ مُوثَّق

في قوله تعالى ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ﴾ استئنافٌ لحكم جديد، افتُتِح بلفظ الكَتْبِ دليلًا على تأكيد وجوب القتال، فاختار لفظة ﴿كُتِبَ﴾ ولم يَقُلْ: (فُرِض)، والاختيار دليلُ الحِكمة؛ فإنَّ الجهاد عبادةٌ شاقَّة، لما فيه من القتلِ والجِراح وفراق الأهل والأولاد، وما فيه من ترك للرَّاحَة المحبوبة للنَّفس، ولأنَّ النُّفوسَ تحبّ الرَّاحةَ والدَّعَةَ والرَّفاهيةَ[2]؛ كان المقام أن تُذكَرَ الفرضيَّة بلفظ ﴿كُتِبَ﴾؛ لأنَّ الكتابة في معنى التَّكليف أوثَق وأقوى مِن لفظ (فُرِضَ)[3]؛ فالشَّيء يُراد ثمَّ يُقال ثمَّ يُكتَبُ، فالأمر قد فُرِضَ وفُرِغَ منه[4]، ففي اللَّفظِ إيجاب مؤكَّدٌ من اللّه تعالى للجهاد على المسلمين أن يكُفُّوا شرّ الأعداء عن حَوْزة الإسلام[5].

فائدة بناء فعل ﴿كُتِبَ﴾ للمفعول:

إشعارٌ بجلالةِ مَن كَتَبَ، وتَنويهٌ بفخامة ما كُتِبَ وفضله، وكشفٌ عن مَنزلة مَن كُتِبَ عليه

بُنِي الفعل ﴿كُتِبَ﴾ للمفعول؛ لأنَّ في القتال شدَّةً ومَشَقَّةً وإلزامًا، فلم يَقل (كتبنا) لكون الجملة مُذَيَّلَةً بقوله: ﴿وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ﴾: وهو لا يُناسبُ إظهار الفاعل صَونًا لمقامِهِ عن الهتك، وحِفظًا لاسمه عن الاستخفاف أن تقع الكتابة المنسوبة إليه صريحًا مَوردًا لكراهة المؤمنين، كما أنَّ اللّه سبحانه وتعالى لم يُكَلِّفْ كافرًا بأيّ تكليفات

(1) لجنةٌ من علماء الأزهر، المُنتخَب في تفسير القرآن الكريم، ص: 48، ونخبةٌ من العلماء، التَّفسير المُيسَّر، ص: 34، وجماعةٌ من علماء التَّفسير، المُختصر في تفسير القرآن الكريم، ص: 34.

(2) ابن قيّم الجوزيّة، الجواب الكافي، ص: 194.

(3) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/259.

(4) ابن القوطيَّة، كتاب الأفعال، ص: 65.

(5) ابن كَثير، تفسير ابن كَثير: 1/573.

إيمانيَّة؛ فسبحانه لم يُكَلِّفْ بأيّ حكم من أحكام الإيمان إلَّا من آمن به وأَسلمَ له، ففيه إشعارٌ وإيذانٌ بفخامة ما كُتِبَ وعلى من كُتِبَ[1].

فقد جاء هذا البناء للمفعول فيما يَشقُّ على النُّفوس، لأنَّ التَّكليفَ إلزامُ ما في فعله كُلفَةٌ ومَشَقَّة[2] كما في قوله: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ﴾ [البقرة: 178]، وقوله: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾ [البقرة: 183]، بينما نجد الاسمَ الجليل ظاهرًا في مثل قوله: ﴿يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُواْ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِي كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ [المائدة: 21] لما فيه من ذِكْرِ البِشارَة والمَسَرَّة، وهذا من رحمة الله بهذه الأمّة، فكلُّ تكليف فيه مشقّة وإزهاق للنّفوس، لايقترن باسم الله الجليل تخفيفًا للهيبة، حتّى لا يجمع الله تعالى على الأمّة عِظم المهابة مع شدّة التّكليف؛ تقديرًا لما فُطِرت عليه النّفوس من حبّ الحياة وكراهيّة الموت.

دلالة التَّعبير بالمصدر ﴿كُرْهٌ﴾ دون الوصف أو المفعول في قوله تعالى ﴿وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ﴾:

المُبالغة في شِدَّة الكُره، وتَمَكُّنِ الوَصفِ من المُخاطَب

فقوله تعالى: ﴿وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ﴾ من الكراهة بدليل قوله: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا﴾، ثُمَّ إمَّا أن يكون بمعنى الكراهة على وضع المصدر مَوضِع الوصف مُبالغةً[3]، كقول الخنساء:

تَرْتَعُ ما رَتَعَتْ حتَّى إذا ادَّكَرَت *** فَإِنَّما هِيَ إِقْبالٌ وإِدْبارُ[4]

فهو مَصدرٌ نُعِتَ به للمُبالغة، فالقتال وُصِفَ به معنى؛ كأنَّ القتال لِكمالِ شدَّتِهِ وعِظَمِ مَشقَّتِهِ تَجسَّمَ مِنَ الكَراهة[5].

وإمَّا أن يكون (فُعْلٌ) بمعنى مَفعول كالخُبز بمعنى المخبوز، فأُقِيمَ فيه المصدرُ مُقامَ المفعول[6]، فـ﴿كُرْهٌ﴾ أي: وهو مكروه لكم،

(1) الشَّعراويّ، تفسير الشَّعراويّ: 9/5420، ومحمَّد بن سعد الدَّبل، دليل البلاغة القرآنيَّة: 1/291.

(2) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 6/24.

(3) الزّمخشريّ، تفسير الكشَّاف: 1/258، وزاده، حاشية على تفسير البَيضاويّ: 2/515، ومحمد علي جميل، صَفوة التَّفاسير: 1/138.

(4) البيت للخنساء من قصيدة ترثي بها أخاها صَخْرًا، والبيت ذَكَرَهُ الرَّضي شاهدًا على أنَّ اسم المعنى إقبالٌ يَصِحُّ وقوعه خبَرًا عن اسم العين، إذا لزم ذلك المعنى لتلك العين، حتَّى صار كأنَّه هي فلم يكن لها حالٌ غيرهما، وكأنَّها قد تجسَّمت من الإقبال والإدبار، وهو من قبيل (زيد عدل)، يُنظر: ديوان الخنساء، اعتنى به: حمدو طمّاس، ص: 46، والجُرجانيُّ، دلائل الإعجاز، ص: 301، ومحمَّد حسن شُرَّاب، شرح الشَّواهد الشِّعريَّة: 1/505.

(5) القونويّ، حاشيةُ القونويّ على البَيضاويّ: 5/189.

(6) زاده، حاشية على تفسير البَيضاويّ: 2/515، وابن التَّمجيد، حاشية ابن التَّمجيد على البَيضاويّ: 5/189.

ويجوز أن يكون بمعنى الإكراه على طريق المجاز، من حيث اشتماله على إطلاق الإكراه على المُكرَهِ عليه، ثُمَّ حُمِلَ المُكرَهُ عليه على القتال الشَّبيه به كأنَّهم أُكرِهوا عليه لشدَّةِ كراهَتِهم له ومشقَّتِه عليهم[1]، فالكُرهُ الّذي هو بمعنى الكراهة مجازٌ للإكراه؛ لأنَّه سببٌ للكراهة فذُكِرَ المُسَبَّب وأُريدَ السَّبَبُ[2].

ومنه قوله تعالى: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا﴾ [الأحقاف: 15]، وجميع ما كُلِّفوهُ على نسَقِ قوله تعالى: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا﴾، فإنَّ النُّفوس تكرهه، وتَنفِرُ عنه وتُحبُّ خلافَهُ[3].

فالحاصل أنَّ التَّعبير بالمصدر هنا للمُبالغة في شدَّةِ الكُرهِ، وتَمَكُّنِ الوَصفِ من المُخبَرِ عنه، فالقتال كَريهٌ لِلنُّفوس، ومكروه للطِّباع؛ لِمَا فيه من مَشَقَّةٍ وبَذلٍ للنَّفس والمال[4].

كما أنّ الخبرَ بهذا لَمَّا كانَ مَعلومًا للمُخاطَبينَ تعيَّنَ أَنْ يكونَ المُرادُ مِنَ الإخبارِ لازم الفائدةِ، أي: كَتَبنَاهُ عليكم، ونحن عالمون أَنَّهُ شاقٌّ عليكم، بدليل قوله تعالى بعد هذا: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[5].

فإن قيل: إنَّ الخطاب في هذه الآية للمؤمنين، فكيف يُخاطِبُ اللّٰه تعالى المؤمنين بأنَّ ما كَتَبتُهُ عليكم وكلَّفتُكم به كُرهٌ لكم، وهو يُشعِرُ بكون المؤمنين كارهين لحكم اللّٰه وتكليفه؟! وذلك غير جائز؛ لأنَّ المؤمن لا يكونُ ساخطًا لأوامر اللّٰه وتكاليفه، بل يرضى بذلك ويُحبُّه ويعلم أنَّ صلاحه فيه وفساده في تركه.

والجواب: أنَّ المُراد من كونِه كُرهًا للمؤمن كونُه ثقيلًا شاقًّا على نفسه، وما كان كذلك يكرهه الإنسان بطبعه، وإن كان يُحِبُّه المؤمن بعقله واعتقاده، وكراهة الطَّبع لا تُنافي الإيمان، بل تُحقِّقُ معنى العُبوديَّة لأنَّ التَّكليفَ إلزامُ ما فيه كُلفَةٌ ومَشقَّةٌ، ومَدارُ أمر الدِّين ليس إلا مُخالفة الهوى واختيار جانب المولى، وتَحمُّل مشقَّة اتّباع الشَّرع، وعدم الالتفات

(1) أبو حَيّان، البحر المُحيط: 2/380، والبَيضاويّ، أَنوار التَّنزيل: 1/136، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 1/216، وزاده، حاشية على تفسير البَيضاويّ: 2/515.

(2) القونويّ، حاشية القونويّ على البَيضاويّ: 5/190.

(3) الزّمخشريّ، الكشَّاف: 1/257-258، والطِّيبي، فتوح الغَيب: 3/347.

(4) عادل الرّوينيّ، من غريب بلاغة القرآن الكريم في سورتيَ الفاتحة والبقرة، ص: 561.

(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/320.

إلى نُفرَةِ الطَّبع، وأمَّا كراهة الاعتقاد فهي من صفات المنافقِين الّذين قال تعالى فيهم: ﴿وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ﴾ [التّوبة: 54][1].

فالمُراد في الآية الكراهة بحسب الطَّبع، بمعنى أنَّها غير مُلائمة للطَّبع، فإنَّ الطبع يَجِدُها أمرًا شاقًّا وتَعَبًا مُنافيًا له غير مُلائِم[2].

سرُّ اختصاص الآية الكريمة بثلاث جمل حاليّة اسميّة:

ضمّتِ الآية الكريمة ثلاث جمل حاليّة اقترنت كلّها بالواو لكونها حالًا لازمة، وجاءت كلُّها جملًا اسميّة ﴿وَهُوَ كُرْهٌ﴾ و﴿وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ و﴿وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ﴾، وفي ذلك تأكيد لمَا يكون عليه حال العباد من عدم معرفتهم بخفايا الأمور، وأنّ اللّه هو العليم العالم ببواطن الأمور وظواهرها، لذا يجب على العبد قبول التّكليف مع اليقين بأنّ الخير كُلَّهُ في قبول التّكليف والامتثال لأوامر اللّطيف.

اللـه أعلـم بحقيقة الأشياء، والعبد لايعلم إلا ظاهرها، وتخفى عليه الحقائق

سرُّ الاحتباك في الآية الكريمةِ[3]:

في الآية الكريمة احتباكٌ، سواء أكان المعنى بالنّظر إلى ما كان عليه المسلمون من قوّة الرّجل الواحد بعشرة إلى نزول الآية، أم بالنّظر إلى ما حدث في صلح الحديبيّة، أم بالنّظر إلى واقع المسلمين في كلّ زمن، وقد كانوا كَرِهوا الصُّلحَ واستَحَبُّوا القتالَ؛ لأنّهم يومئذٍ جيشٌ كثيرٌ فيكونُ تَذكيرًا لهم بأنّ اللّه أَعلمُ بمصالحهم، فقد أَوجبَ عليهمُ القتال حين كانوا يكرَهونَهُ وأَوجبَ عليهمُ الصُّلحَ في وَقتٍ أَحَبُّوا فيه القتال[4]، قال البقاعيّ: "والآية من الاحتباك: ذِكرُ الخير

وجـوب إسقاط نـظـرة المـؤمـن لـلأمـور حـال صدور الأمر عن علّام الغيوب

(1) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 6/24، وزاده، حاشية على تفسير البَيضاويّ: 2/516.

(2) ابن التَّمجيد، حاشية ابن التَّمجيد على البَيضاويّ: 5/189.

(3) الاحتباك أو الحذف المقابلّي: هو أن يُحذَفَ مِنَ الأوائل ما جاء نَظيرُهُ أو مُقابِلُهُ في الأواخر، ويُحذَفَ مِنَ الأواخر ما جاء نَظيرُهُ أَو مُقابِلُهُ في الأوائل، مثل قوله تعالى: ﴿لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ۝١٣﴾ [الإنسان: 13]، فقد قيل في الزَّمهرير قولان؛ فقيل: هو القمر في مقابل الشَّمس، وقيل: هو البَرد، فأفاد بالشَّمس أنَّه لا قمر فيها، وبالزَّمهرير أنَّه لا حرَّ فيها، فحُذِفَ مِن كلٍّ شقٍّ مُقابِلَ الآخر، يُنظر: السُّيوطيّ، التَّحبير في علم التَّفسير، ص: 45، والمَيدانيّ، البلاغة العربيَّة: 02/54، وأحمد مطلوب، معجم المصطلحات البلاغية وتطورها، ص: 36-35.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/320، وقد سمّاه الزّركشّي في البرهان: 3/129: الحذف المقابلّي، وكتب فيه د. إبراهيم الهدهد كتابًا عنوانُه: الاحتباك في الذّكر الحكيم: مواقعه - أسراره، جمع فيه خمسة عشَر ومئة مَوضِع في الذّكر الحكيم، أبان فيها عن سرّ ماذُكِر وسرّ ماحُذِف.

أوّلًا دالٌّ على حذفه ثانيًا، وذِكر الشّرّ ثانيًا دالٌّ على حذف مثله ثانيًا"[1]، وتقدير المعنى على ذلك: وعسى أن تكرهوا شيئًا شرًّا وهو خير لكم، وعسى أن تُحبّوا شيئًا خيرًا وهو شرٌّ لكم، وسِرُّ الحذف في المَوضِعين: إسقاط نظرة المؤمن للأشياء عن درجة الاعتبار، مادام الأمر صادرًا من الله ﷻ مهما تظاهرت أسباب الواقع على كونه خيرًا أو شرًّا، ونُكْتَةُ ذِكر الكره والحبّ هو إظهار خفايا النّفوس، وبيان أنّها أساس الإقدام والإحجام في المَوضِعين، وقد أظهرهما النّظم الكريم في تقابل بديع يكشف عن بيان الدّوافع وتعارضها، وكلّ ذلك ممّا يُبَغّض طاعة النّفس فيما تهوى، وتحطّم تقديرها الأشياء الّتي بيّنَ الله وجه الثّواب فيها"[2].

وجه ارتباط جملة ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ﴾ بما قبلها:

تأكيد مضمون ما قبلها ودفع الاستغراب عمَّا قد ينشأ عنه

قوله تعالى: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ﴾ جملةٌ تذييليَّة دالَّة على أنَّ طبيعةَ المُكَلَّفِ عادتُها استكراه ما هو خيرٌ لها؛ فلذا يكون القتالُ كُرهًا لها وهو خيرٌ مَحضٌ يترتَّب عليه خير الدَّارين، كإعلاء كلمة الله، والغنيمة، والشَّهادَة، والسَّعادة، والوصول إلى دار الكرامة؛ فجيء بهذا التَذييلِ لِدفع الاستغراب النَّاشئ عن قوله: ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ وَهُوَ كُرۡهٞ لَّكُمۡۖ﴾، لأنَّه إذا كان مَكروهًا؛ كان شأنُ رَحمةِ اللَّهِ بخلقِه ألَّا يكتُبَهُ عليهم، فذَيَّلَ بهذا لِدفع ذلك[3]، وقد تُخرَّجُ الجملةُ من باب الاحتراسِ، بالنَّظَرِ إلى إرادةِ دفعِ الإيهامِ.

وقيل: هي جملةٌ اعتراضيَّة دالَّة على أنَّ في القتال خيرًا لهم فتكون مُؤَكِّدَةً لمضمونها، ومشيرةً إلى سبب نُفرَةِ الطَّبع عن المأمورات؛ إذِ النَّفس لَمَّا كانت تُحِبُّ المنهيّات كَرِهَت بالطَّبع المأمورات، وبهذا الاعتبار تكون مُقَرِّرة لما قبلها[4].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 1/402.
(2) الهدهد، الاحتباك في الذّكر الحكيم مواقعه، أسراره، ص: 58.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/321.
(4) القونويُّ، حاشية القونويّ على البَيضاويّ: 5/190.

خروج ﴿وَعَسَىٰٓ﴾ من الدّلالة على ترجّي المتكلّمِ إلى إحداث الشّكّ في المُخاطَب:

بيان تلطّف الله بعباده وتخفيف مَشقّة التّكليف، تعويدًا للعباد على أنّ الشّريعة مُعلَّلة مُذلَّلة

﴿وَعَسَىٰٓ﴾ من أفعال المقاربة، ولم يُستعمل إلا ماضيه فقط، ونُقِل إلى إنشاء التَّرجّي أو الإشفاق مثل (لعلَّ)، وهذا في استعمال العباد إيّاه، وأمَّا ما وقع في كلام اللّه تعالى فهو يكون للتَّرجية أو التَّخويف[1].

فعسى من اللّه واجبة[2]؛ وقيل: إنّها هنا للإشفاقِ دون التَّرجّي[3]؛ أو للإشفاق في الأولى والتَّرجّي في الثَّانية[4] أو العكس، لأنَّ المستقبل في الأولى خَيرٌ وانتظاره رجاء، والمستقبل في الثَّانية شَرٌّ فانتظاره إشفاق وخوف[5].

ومُجمَل القول: أنَّ (عسى) تأتي لمعانٍ منها: الرَّجاء، والإشفاق، والتَّوقع، والتَّعليل.

وقد ذكر المُفسّرون أنّ ﴿وَعَسَىٰٓ﴾ هنا في مَوضِعيها خرجت من الدّلالة على شكّ القائل إلى إحداث الشّكّ في المُستمِع[6]، وذكر بعضهم أنّ الأولى للإشفاق لا للتّرجّي، وأنّ الثّانية للتّرجّي"[7] وهو ناظر في ذلك إلى مدخول (عسى) على أنّ دلالة ﴿وَعَسَىٰٓ﴾ في المَوضِعين تدُلُّ على "تلطّف اللّه تعالى لرسوله والمؤمنين، وإنْ كان سبحانه غنيًّا عن البيان والتّعليل؛ لأنّه يَأمر فيُطَاع، ولكنّ في بيان الحكمة تخفيفًا من مشقّة التّكليف، وفيه تعويد المسلمين على تلقي

(1) زاده، حاشية على تفسير البَيضاويّ: 2/516، والبروسوي، روح البيان: 1/332.

(2) ويُنسَبُ هذا القول إلى الصَّحابي الجليل عبد الله بن عبَّاس ﷺ، فقد أخرج البيهقيّ عن ابن عبَّاس ﷺ قوله: "كلُّ عسى في القرآن فهي واجبة"، يُنظر: البيهقيّ، السُّنن الكبرى، حديث رقم: (17753).

(3) أبو حَيّان، البحر المُحيط: 2/380.

(4) أبو حَيّان، البحر المُحيط: 2/380، والسَّمين، الدُّرُّ المَصون: 2/387.

(5) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/260.

(6) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 3/225-226، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 1/401 402-، والجمل، الفتوحات الإلهيّة: 1/171، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/321 322-.

(7) أبو حَيّان، البحر المُحيط: 2/143-144.

الشّريعة مُعلَّلة مُذلَّلة، فأشار إلى أنّ حكمة التّكليف تعتمد المصالح ودرء المفاسد، وتعتمد ملاءمة الطّبع ومنافرته"[1].

وهذا الأسلوب كثيف الدّلالة؛ إذ جاء مُتضمِّنًا ثلاثة أساليب، أوّلها: أسلوب إنشائيّ غير طلبيّ سببيله (عسى)، وأسلوب احتباك، وأسلوب مقابلة، وكلُّ ذلك تعاون في إبراز المعنى المُراد؛ وهو الحثُّ على أشقّ الطّاعات، وفي تكثيف الأساليب وتظاهرها على بيان معنى واحد إقناعٌ للعقل وإمتاعٌ للوجدان.

بديع المقابلة في قوله تعالى: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ﴾:

الغايات الحميدة قد توجد في خبايا الأسباب المكروهة، والغايات المكروهة في الأسباب المستلذَّة

بين هاتين الجملتين مُقابلة بديعة؛ حيث قابل بين الكراهيَّة والحبِّ، وبين الخير والشَّرِّ[2]؛ فالعبد إذا عَلِمَ أنَّ المكروه قد يأتي بالمحبوب، والمحبوب قد يأتي بالمكروه، لم يأمن أن تُوافيه المضرَّة من جانب المسرّة، ولم ييأس من أن تأتيه المسرَّة من جانب المضرَّة، لعدم عِلمِهِ بالعواقب، فإنَّ اللّه يَعلَمُ منها ما لا يعلمه العبد، فلا أنفع للعبد من امتثال أمر ربِّه وإن شَقَّ عليه في الابتداء، لأنَّ عواقبَه كُلَّها خيرات، ومسرَّاتٌ، ولذَّاتٌ، وأفراح، وإن كَرِهَتهُ نفسه فهو خير لها وأنفع، وكذلك لا شيءَ أضرُّ عليه من ارتكاب المنهيِّ وإنْ هَوِيَتهُ نفسه ومالت إليه، وأنَّ عواقبه كلَّها آلام، وأحزان، وشُرور، ومصائب[3].

وخاصَّةُ العاقل تَحَمُّلُ الألَم اليَسيرِ لِما يعقبه من اللَّذة العظيمة، والخير الكثير، واجتناب اللَّذة اليسيرة لِما يعقبها من الألم العظيم والشَّرّ الطَّويل، فَنَظَرُ الجاهل لا يجاوز المبادئ إلى غاياتها، والعاقل الكيِّس دائمًا ينظر إلى الغايات من وراء سُتورِ مباديها[4]، فالغايات الحميدة في خبايا الأسباب المكروهة الشَّاقَّة، كما أنَّ الغايات المكروهة

(1) إبراهيم الهدهد، في أنوار البلاغة القرآنيّة، ص: 113.
(2) محمد علي جميل، صَفوة التَّفاسير: 1/124.
(3) ابن قيِّم الجوزيَّة، الفوائد، ص: 136.
(4) ابن قيِّم الجوزيَّة، تفسير القرآن الكريم، ص: 147.

المؤلمة في خبايا الأسباب المُشتهاة المُستلذَّة، وهذا من حين خلق اللّه سبحانه الجنَّة وحفَّها بالمكاره، وخلق النَّار وحفَّها بالشَّهوات[1].

سرُّ تَكرار ﴿وَعَسَىٰٓ﴾ في الجملتين:

تَعويدُ المُسلم على تَلَقِّي التَّشريع بتعليله وتَيسير فهمه وامتثاله

في تَكرار ﴿وَعَسَىٰٓ﴾ تلطُّفٌ من اللّه تعالى لرسوله والمؤمنين، وإنْ كان سبحانَه غَنيًّا عَنِ البيان والتّعليل، لأنّه يأمُرُ فيُطاع، ولكنْ في بيان الحكمة تخفيف مِن مَشقَّةِ التَّكليفِ، وفيه تَعويدُ المسلمين بتلقِّي الشَّريعةِ مُعلَّلةً مُذلَّلةً، فأشارَ إلى أَنَّ حكمةَ التَّكليفِ تعتمدُ المصالِحَ ودَرءَ المَفاسِدِ، ولا تعتمدُ مُلاءمةَ الطَّبعِ ومُنافَرَتَهُ؛ إذ يَكرَهُ الطَّبعُ شَيئًا وفيه نَفعُهُ، وقد يُحِبُّ شَيئًا وفيه هلاكُهُ، وذلك باعتبار العواقب والغايات فإنَّ الشَّيءَ قد يكونُ لذيذًا مُلائمًا ولكنَّ ارتكابَهُ يُفضي إلى الهلاكِ، وقد يكونُ كَريهًا مُنافِرًا وفي ارتكابه صلاحٌ. وشأنُ جُمهور النَّاس الغَفلَةُ عَنِ العاقِبَة والغايَة أَو جَهلُهُما، فكانتِ الشَّرائعُ وحَمَلَتُها مِنَ العلماء والحكماء تُحرِّضُ النَّاسَ على الأَفعال والتُّروك باعتبار الغايات والعواقب[2].

بلاغة القصر بتقديم المُسند إليه على خبره الفعليّ في ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ﴾ و﴿وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾:

إفادة الاختصاص وتقوية الحكم وتوكيده، وتَعليمُ المسلمين تَلَقِّي أَمرِ اللّهِ تعالى باعتقاد أَنَّه الصَّلاحُ والخيرُ

قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ تَذييلٌ للجميع، والمقصود مِن هذا تعليمُ المسلمين تَلَقِّي أمرِ اللّه تعالى باعتقاد أَنَّه الصَّلاحُ والخيرُ، وأنّ ما لم تَتَبَيَّنْ لنا صفتُه مِنَ الأفعال المُكَلَّفِ بها نُوقِنُ بأَنَّ فيه صفةً مُناسبةً لحُكم الشَّرع فيه فنطلبها بقدر الإمكان عسى أَنْ نُدركَها، لِنُفَرِّعَ عليها ونَقيسَ. ويَدخُلُ تحت هذا مَسائلُ مسالكِ العلَّةِ، لأنَّ اللّه تعالى لا يُجري أَمرَه ونَهيَه إلَّا على وَفقِ

(1) ابن قيِّم الجوزيَّة، إغاثة اللَّهفان: 2/109.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/321.

عِلمِهِ[1]. فالآية تقتضي أنَّ الأحكامَ كلَّها لا تكون إلا لمصلحة، لأنَّها خرجت مَخرَج (التَّبيين) على كمال المبادرة إلى امتثال الأحكام الشَّرعيَّة، فدلَّ على أنَّ المُراد: واللّه أعلم ما في ذلك من المصلحة، وأنتُم لا تَعلَمونها، فعليكم أن تأخذوها بالقبول[2]، والمقصود من هذا الحذف التَّرغيب العظيم في الجهاد؛ لأنّ الإنسان إذا اعتقد قصور عِلمِ نفسه، وكمال عِلمِ اللّه تعالى، ثُمَّ عَلِمَ أنَّه سُبحانَهُ لا يأمر العبد إلا بما فيه خِيَرَتُهُ ومصلحتُه، علم قطعاً أنّ الّذي أمره اللّه تعالى به وجب عليه امتثاله، سواء أكان مكروهًا للطَّبع أم لم يكن[3].

بلاغة إيجاز القِصَر في الآية الكريمة:

تنويع المعاني وتكثير دلالاتها

حيث ورد في الآية الكريمة إيجازُ القِصَر[4] في استعمال لفظتي ﴿خَيْرٌ﴾ و﴿شَرٌّ﴾ وما تحمله كلُّ كلمة من المعاني الكثيرة المختلفة؛ فهي ألفاظ عامَّة مُطَّردة، في أنّ أفعالَ الخيرِ الّتي تكرهُها النّفوس لَمَا فيها من المشقَّة خيرٌ بلا شكّ، وأنَّ أفعالَ الشَّرِّ الّتي تُحبّها النّفوس لَمَا تتوهمه فيها من الرَّاحة واللَّذَّة شرٌّ بلا شكّ[5].

بلاغة الإيجاز بحذف مفعولي ﴿يَعْلَمُ﴾ و﴿تَعْلَمُونَ﴾:

التّأكيد على علم الله بكلّ شيءٍ، دون نـصّ على معيَّنٍ

ورد إيجاز بحذف مفعولي ﴿يَعْلَمُ﴾ و﴿تَعْلَمُونَ﴾ اللّذين دلَّ عليهما ما قبلهما؛ أَي: واللّهُ يعلمُ الخير والشَّرَّ وأنتم لا تَعلَمونهما، فبادروا إلى ما يأمركم به لأنَّه لا يأمركم إلّا بما عَلِمَ فيه خيرًا لكم،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/323.

(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/260.

(3) الرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 6/30.

(4) إيجاز القصر: هو ما تزيد فيه المعاني على الألفاظ الدَّالّة عليها بلا حَذفٍ، فهو الإيجاز الّذي لا يُعتَمَدُ فيه على استخدام الحذف، فتجيءُ العبارة بألفاظها القليلة، ومعانيها الغزيرة، دون أن يكون فيها ما يدُلُّ على كلام مَطويٍّ محذوف من اللَّفظ، وللقرآن الكريم فيه المنزلة الّتي لا تُسامى، والغاية الّتي لا تُدرك، ففيه أمثلة رائعة وكثيرة جدًّا، يرى فيها مُتَدبِّرو كتاب الله المجيد قِصَرًا في ألفاظها، وثَروةً واسعةً في معانيها ودَلالتها، يُنظر: محمَّد أحمد قاسم، ومحيي الدِّين ديب، علوم البلاغة البيان، ص: 188، وعبد الرحمن حسن، البلاغة العربيَّة: 2/29.

(5) السِّعدي، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 96.

وانتهوا عمَّا نهاكم عنه لأنَّه لا ينهاكم إلّا عمَّا هو شرٌّ لكم[1]. لأَنَّ اللَّهَ يَعلَمُ الأَشياءَ على ما هي عليه، والنَّاسُ يُشتَبَهُ عليهم العِلمُ فيظُنُّون المُلائمَ نافعًا والنّافع ضارًّا[2]، وممَّا زاد هذا المعنى تقوية وتوكيدًا طباق السَّلبِ بين ﴿يَعۡلَمُ﴾ و﴿لَا تَعۡلَمُونَ﴾[3].

وقد ورد هذا المعنى مُؤَكَّدًا في سورة النَّحل عند قوله تعالى: ﴿فَلَا تَضۡرِبُواْ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡثَالَۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ٧٤﴾ [النَّحل: 74] بحرف التّوكيد (إِنَّ)، بخلاف ما هاهنا فإنَّه لم يُؤكد؛ لأنَّ آية النَّحل تحدّثت عن الشِّرك بالله ﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمۡلِكُ لَهُمۡ رِزۡقٗا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ شَيۡـٔٗا وَلَا يَسۡتَطِيعُونَ﴾ [النَّحل: 73]، فناسبها التّوكيدُ؛ لعظَمِ شأنه وخطَرِه.

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الكتابة والفرض:

في الكَتْبِ مَزيدُ إلزامٍ وتَأكيد

تأتي كلمة ﴿كُتِبَ﴾ في كتاب الله تعالى على معانٍ عدّة؛ فتأتي بمعنى شَرع لكم، وبمعنى فَرض وقَدَّر وحَكَم، وقَضى وأَوجب وأَثبت[4].

فتكون في مَوضِع (الفَرضِ) كقوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ﴾ [البقرة: 178] وقوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾ [البقرة: 183]، وتكون بمعنى الحُكم[5]، وبمعنى القضاء والتَّقدير كقوله تعالى: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا﴾ [التَّوبة: 51]، أي: ما قضاه وقدَّره وأَبرَمَهُ[6].

ووجه ذلك أَن الشَّيء يُراد ثمَّ يُقال ثمَّ يُكتَبُ، فالإرادة مبدأ والكتابة مُنتَهى، فالأمر قد فُرِضَ وفُرِغَ منه،[7] ثمَّ يعبَّر عَنِ المُرَاد الَّذي هو المَبدأُ إذا أُرِيد به توكيد بالكتابة الَّتي هي المُنتَهى، فالكتابة توكيدٌ لهذه المعاني[8].

---

(1) الآلوسّي، روح المعاني: 1/502.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/323.

(3) محمد علي جميل، صَفوة التَّفاسير: 1/138 - 139.

(4) الجَوهريّ، الصِّحاح: (كتب)، والكفويّ، الكُلِّيات، ص: 766، وابن جُزَي، التَّسهيل لعلوم التَّنزيل، ص: 109، والبَغويّ، معالم التَّنزيل: 8/62، والرّاغب، تفسير الرّاغب: 4/314، والقُرطبيّ، تفسير القُرطبيّ: 17/308.

(5) الزّبيديّ، تاج العروس: (كتب).

(6) السَّمين، عُمدة الحفّاظ: (كتب).

(7) ابن القوطيَّة، كتاب الأفعال، ص: 65.

(8) الكفويّ، الكلِّيات، ص: 766، والرّاغب، المفردات، والسَّمين، عُمدة الحفّاظ: (كتب).

أمَّا الفرض فإنَّه يأتي بمعنى الإيجاب، أي: ما أوجبه اللّه تعالى بقَطعِ الحكم فيه[1]، والفرض لا يكون إلَّا من اللّه [2]ﷻ، وكلُّ مَوضِعٍ ورد فَرْضُ اللّه عليه ففي الإيجاب الّذي أدخله اللّه فيه قال تعالى ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِيٓ أَزْوَٰجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ﴾ [الأحزاب: 50] أي: قد علم اللّه ما يجب فَرْضه على المُؤمنِينَ في الأزواج والإماء من المَهر والنَّفقة[3].

كما تأتي كلمة ﴿فَرَضَ﴾ في كتاب اللّه تعالى على معانٍ عدّة:

فيأتي الفرض بمعنى التَّقدير كقوله تعالى: ﴿مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥۖ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴿٣٨﴾﴾[4] [الأحزاب: 38].

ويأتي بمعنى أنزل كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍۚ﴾ [القصص: 85]، أي: أنزل عليك القرآن[5].

ويأتي فرض بمعنى بيّن كما في قول اللّه ﷻ: ﴿قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْۚ﴾ [التحريم: 2]، أي: بَيَّن لكم كَفَّارة اليمين[6].

فمع اشتراك اللَّفظتين في الدَّلالة على بعض المعاني واختلافهما في البعض الآخر؛ إلا أنَّ في مادَّة (الكَتْبِ) مَزيد تأكيد وحَتمٍ وإلزام في باب الإيجاب، وهي أعمُّ من مادَّة الفَرضِ وأوسعُ منها في المعنى.

القتل والقتال:

القتال غرضه كفُّ الأذى والدِّفاع عن النَّفس والدِّين، والقتل إزهاق النَّفس بحقٍّ أو بغير حقٍّ

القتال: القتل إزالة الرُّوح عن الجسد كالموت، لكن إذا اعتُبِر بفعل المُتولي يُقال: قَتَلَ، وإذا اعتُبِر بفوت الحياة يُقال: موتٌ قال تعالى: ﴿أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ﴾ [آل عمران: 144]، وقال: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْۚ﴾ [الأنفال: 17]. والمُقاتلة المحاربة وتحرِّي القَتلِ، قال تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ [البقرة: 193]، وقال تعالى: ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ

(1) الرّاغب، المفردات: (فرض).
(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 223.
(3) الكفويّ، الكلّيات، ص: 689.
(4) البَيضاويّ، أَنوار التّنزيل: 3/233.
(5) البغويّ، مَعالم التّنزيل: 06/226.
(6) الكفويّ، الكلّيات، ص: 688.

يَلُونَكُم﴾ [التّوبة: 123]، وقال: ﴿وَمَن يُقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقۡتَلۡ﴾ [النّساء: 74]. والاقتتالُ كالمُقاتلة، قال تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱقۡتَتَلُواْ﴾ [الحجرات: 9][1]؛ والمُقاتلة مُفاعلةٌ، وهي حصولُ الفعل مِن جانبَين، ولمَّا كانَ فِعلُها وهو القَتلُ لا يُمكِنُ حصولُهُ مِن جانبَين، لأَنَّ أَحد الجانبَين إذا قُتِلَ لم يَستَطِعْ أَنْ يَقتلَ، فكانَتِ المُفاعلةُ في هذه المادَّة بمعنى مُفاعلة أَسباب القَتل، أَي: المُحاربة، فقوله ﴿وَقَٰتِلُواْ﴾ بمعنى (وحارِبوا)، والقِتالُ: الحربُ بجميعِ أَحوالها مِن هُجوم ومَنعِ سُبُلٍ وحِصارٍ وإغارةٍ واستِيلاءٍ على بلادٍ أَو حُصونٍ. والمُقاتِلةُ بكسر التَّاء: القومُ الّذين يصلحون للقتال[2]، وإذا أُسندَتِ المُفاعلةُ إلى أَحد فاعلَيها فالمَقصودُ أَنَّه هو المُبتدِئُ بالفِعلِ، ولهذا قال تعالى: ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: 190]، فجعل فاعِلَ المُفاعلةِ المُسلمينَ، ثُمَّ قال: ﴿ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ﴾ [البقرة: 190]، فجعل فاعلَه ضميرَ عدُوِّهم، فلزِمَ أَن يكونَ المُرادُ (دافِعوا الَّذين يَبتدِئونَكُم)[3]، فالغرضُ من القتال كفُّ الأذى والدِّفاع عن المظلومين ضدَّ الظُلم، فإذا تَوقَّفَ الظُّلم أو اندحر تَوَقَّف القتال، أمَّا القَتلُ فهو مُطلَقُ إزهاق الرُّوح بحقٍّ أو بغير حقٍّ.

كُرهًا وكَرهًا:

كثيرٌ مِن أَهلِ اللُّغةِ لم يُفَرِّقوا بين الكَرْه والكُرْه، وقالوا: إنّهما لُغتانِ، فبأَيِّ لغةٍ وقع الخطاب بهما فجائزٌ[4].

ومنهم من فَرَّقَ؛ فقال: الكُرْه ما أَكرهتَ نفسَك عليه، والكَرْهُ ما أَكرَهَك غيرُك عليه، تَقولُ: جئتُكَ كُرْهًا وأَدخَلتَني كَرْهًا[5]، فيكون الكَرْهُ بفتح الكاف ما يأتي من الخارج، ويُقابلُه الطَّوعُ كما في قوله تعالى ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلۡأَرۡضِ ٱئۡتِيَا طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهًا﴾ [فصّلت: 11].

أمَّا الكُرهُ بضمّ الكاف فهو ما يَنبَعِثُ من الدَّاخل كما في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ كُرۡهٞ لَّكُمۡۖ﴾، فقد جاءت كلمة الكُره لأنَّ الإنسان بطبيعته يَكرهُ القتال لما فيه من المَشقَّة.

"وقد وردت مادّة (كره) في القرآن الكريم في واحد وأربعين مَوضِعًا، إلّا أنّ هذا

(1) الرّاغب، المفردات، والسَّمين، عُمدة الحفّاظ: (قتل).
(2) الجَوهريّ، الصِّحاح، والزّبيديّ، تاج العروس: (قتل).
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/201.
(4) ابن دُريد، جمهرة اللّغة: (ركه)، والجَوهريّ، الصِّحاح، والزّبيديّ، تاج العروس: (كره).
(5) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس: (كره)، والكفويُّ، الكلّيات، ص: 769.

المَوضِع هو الوحيد الّذي لايجوز فيه الفتح والضّم، وقد ذكروا أنّ (الكَره) بالفتح: المشقّة الّتي تنال الإنسان من خارجٍ فيما يُحمَل عليه بإكراه، أمّا (الكُره) بالضّم فهو ما يناله من ذاته وهو يعافه، والثّاني ضربان: أحدهما: مايُعاف من حيث الطّبع، والثّاني: ما يُعاف من حيث العقل أو الشّرع، وما في الآية من الضّرب الأوّل"[1].

الحُبّ والوُدّ:

الحبُّ: ميل النَّفس إلى ما تراه وتظنُّه خيرًا[2] على سبيل اللُّزوم والثَّبات[3]، فمُجرَّدُ تَعلُّق القلب يُسَمَّى حُبًّا[4]. وأمَّا الوُدُّ: فهو خالص الحُبُّ وألطفُه وأَرقُّهُ، وهو من الحُبّ بمنزلة الرَّأفة من الرَّحمة، فالوُدُّ أَصفى الحُبِّ وأَلطفُهُ[5]، قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [الرُّوم: 21] وفي الوُدّ معنى الصِّلة وبَذل ما يَزيدُ في الحبِّ، فمشاعرُ الميل نحو المحبوب حُبٌّ، والابتسامة في وجهِهِ وبذل النُّصحِ والهديَّة وُدٌّ، ومنه قوله تعالى: ﴿تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾ [الممتحنة: 1]، أي: بأسباب المحبَّة من النَّصيحة[6]، ومن أسماء اللّه تعالى الوَدودُ قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ﴾ [البروج: 14]، أي: المُحبُّ لعباده يَصِلُهم ويُمِدّهم برحمته[7].

فالمشاعر الدَّاخليَّة حُبٌّ، والظَّواهر الماديَّة وُدٌّ، فكُلُّ وَدُودٍ مُحِبٌّ وليس كلُّ مُحِبٍّ وَدودًا.

الـوُدُّ خـالـص الحُبِّ؛ والحُبُّ مـا اسـتـقـرَّ في القلب، والوُدُّ ما ظهر في السُّلوك

(1) إبراهيم الهدهد، الاحتباك في الذّكر الحكيم مواقعه أسراره، ص: 58.
(2) الرّاغب، الذّريعة إلى مكارم الشّريعة، ص: 256.
(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (حب)، وابن منظور، لسان العرب: (حبب).
(4) الهروي، منازل السّائرين، ص: 88.
(5) ابن قيّم الجوزيّة، روضة المحبّين، ص: 46.
(6) الرّاغب، المفردات: (ودد).
(7) الرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (ودد).

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۚ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟ ۚ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢١٧﴾﴾ [البقرة: 217]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

تقييد حُرمَةِ القتال بالزَّمان والمكان بعد فَرضِهِ مُطلَقًا:

لمَّا فَرَضَ اللّه سبحانه وتعالى القتالَ لم يخُصَّه بزمانٍ دون زمانٍ، وكان مِنَ العَوائد السَّابقة أَنَّ الشَّهرَ الحرامَ لا يُستباحُ فيه القتالُ، فبَيَّنَ حُكمَ القتالِ في الشَّهر الحرام[1].

فلمَّا أخبرهم سبحانه وتعالى بإيجاب القتال عليهم مُرسَلًا في جميع الأوقات، وكان قد أمرهم فيما مضى بقتلهم حيث ثقِفوهم، ثُمَّ قَيَّدَ عليهم في القتال في المسجد الحرام، كان بحيث يَسأَلُ هنا: هل الأمر في الحَرم والشَّهر الحرام كما مضى أم لا؟[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ﴾: أصلُ (حَرُمَ) يدُلُّ على المَنع والتَّشديد، والحُرْمة: ما لا يَحِلُّ انتهاكُه، وأَحرَمتُ: دَخَلتُ في الشَّهر الحَرا م، والأَشهُرُ الحُرُم: هي ذو القَعْدة وذو الحِجَّة والمُحَرَّم، ورَجَبٌ، ثلاثة سَرْدٌ وواحد فَرْدٌ.

وسُمِّيَ الشَّهر بالحرام لمَنع القتال فيه، ولأَنَّهم لايَستَحلُّونَ فيه القتال[3].

2) ﴿وَصَدٌّ﴾: أصلُ (صَدَّ) يدُلُّ على إعراضٍ وعُدُولٍ، يُقال: صَدَّ عنه يَصِدُّ ويَصُدُّ

(1) أبو حَيّان، البحر المُحيط: 2/382.
(2) البقاعيّ، نظْم الدُّرر: 3/224.
(3) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن سيده، المُحكَم، والسَّمين، عُمدة الحفّاظ، ابن فارس، مقاييس اللغة: (حرم).

صَدًّا وصُدُودًا، أي: أَعرَضَ، وصدَّه عن الأَمر صدًّا، منعهُ وصرفه عنه، والصَّدُّ: الإعراضُ والمنعُ والصُّدُوف، والصَّدُّ: الهِجرانُ، والمعنى هنا: مَنعٌ عن الإسلام الموصِلِ العبدَ إلى الله تعالى[1].

3) ﴿سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾: أَصلُ (سَبَلَ) يدُلُّ على امتداد شَيءٍ، والسَّبيل: الطَّريق، وجَمعُهُ سُبُل، والسَّابلةُ: المختلفةُ في الطُّرُقات للحوائج، وسَبَّلَ الرَّجل ضيّعتَه، أي: جعلَها في سبيل الله، وسبيلُ اللهِ: طريقُ الهدى الّذي دعا إليه. وسَبِيلُ اللَّهِ عامٌّ يقعُ على كُلِّ عملٍ خالصٍ سُلِكَ به طريقُ التّقرُّب إلى اللَّه تعالى بأداء الفرائض والنَّوافل[2].

4) ﴿وَٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ﴾: أَصلُ (حَرُمَ) يدُلُّ على المَنعِ والتَّشديد، والحُرمةُ: ما لا يَحِلُّ انتهاكُه. والمعنى: مكَّة المكرَّمة، وسُمِّيَت بالمسجد الحرام لكونها حُرِّمَت على الجبابرة، ومُنِعَت منهم، أو لأنَّه حُرِّم فيها أشياء وهي حلال في غيرها كالاصطياد، وقطع الأشجار ونحو ذلك[3].

5) ﴿وَٱلۡفِتۡنَةُ أَكۡبَرُ مِنَ ٱلۡقَتۡلِۗ﴾: أصلُ (فَتَنَ) يدُلُّ على ابتلاءٍ واختبارٍ، والفتنةُ من فَتَنَ فلانٌ يَفتِنُ، فهو فاتِنٌ، أي: مُفتَتِنٌ، والفِتنةُ أيضًا: العذابُ، والفِتنةُ: أن يَفتِنَ اللهُ قومًا، أي: يبتليهم. والفِتَنُ: ما يقعُ بين النَّاس من الحروب. والمعنى هنا: والشِّركُ أعظمُ وأكبرُ من القتل[4].

6) ﴿يَرۡتَدِدۡ﴾: أصل (رَدَّ) يدُلُّ على رَجعِ الشَّيءِ، يُقالُ: رَدَدتُهُ فارتدَّ تَحَوَّلَ ورجع، وسُمِّي المُرتدُّ أَي: الرُّجوعُ عنه مرتدًّا؛ لأَنَّه ردَّ نفسَه إلى كُفره، ومنه الرِّدَّة عَنِ الإِسلام، أَي: الرُّجوعُ عنه. والمعنى: يتحوَّل ويرجعُ من الرَّد؛ وهو صرف الشَّيءِ بذاته أو بحالةٍ من أحواله، تقولُ: رَدَدتُ الشَّيءَ أَرُدُّهُ رَدًّا[5].

---

(1) الجَوهريّ، الصّحاح، وابن سيده، المُحكَم، وابن الأثير، النّهاية في غريب الحديث، وابن منظور، لسان العرب: (صدد)، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (صدد - صدى)، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 1/217، والبروسوي، روح البيان: 1/334.

(2) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، والجَوهريّ، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن سيده، المُحكَم، وابن الأثير، النّهاية في غريب الحديث: (سبيل)، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (سبل-سنبل).

(3) السَّمين، عُمدة الحفّاظ: (حرم)، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (حرم)، والأزهريّ، تهذيب اللّغة: (حرم)، ومحمد علي جميل، صفوة التفاسير: 1/123.

(4) الخليل، العين: (فتن)، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (فتن)، وابن جرير، جامع البيان: 4/301.

(5) الرّاغب، المفردات، والسَّمين، عُمدة الحفّاظ، وابن منظور، لسان العرب: (ردد)، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (رد).

7) ﴿حَبِطَتْ﴾: أصل (حبط) أن تُكثِرَ الدَّابَّةُ أكلًا حتَّى ينتفخَ بَطنُها؛ يُقال: حَبِطَ عَمَلُهُ حَبْطًا وحُبوطًا: بَطَلَ ثوابه، فالحَبْطُ: البُطلان والألم، والمعنى هنا: أي: بَطَلَت؛ تَلِفَت وبَطَلَ ثَوابُها[1].

8) ﴿أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾: أصل (صَحِب) يدُلُّ على مُقارنة شيءٍ ومُقاربتِه، فالأصلُ في الصُّحبة: الملازمةُ، والصَّاحب الملازم إنسانًا كان، أو حيوانًا، أو مكانًا، أو زمانًا، ولا يُقال في العرف إلَّا لمن كَثُرَت ملازمته. والمعنى هنا: الملازمون لها ملازمة الصَّاحب لصاحبه[2].

المَعْنى الإجْماليُّ:

يسألك النَّاس - أيُّها النَّبيّ - عن حكم القتال في الأشهر الحُرُم: ذي القَعْدَةِ وذي الحِجَّة والمُحرَّم ورجب، قُل مُجيبًا إيَّاهم: استحلالُ القتال في هذه الأشهر عظيمٌ عند الله، ومُستَنكرٌ، وإثمٌ كبير، ولكن أكبرُ منه ما حدث من أعدائكم المشركين من منعهم النَّاس من دخول الإسلام بالتَّعذيب والتَّخويف، ومنع المؤمنين من دخول المسجد الحرام، وإخراج النَّبيّ ﷺ والمهاجرين من مكَّةَ أَكبَرُ ذنبًا، وأعظمُ جُرمًا عند الله من القتال في الشَّهر الحرام، والشِّركُ الَّذي هم فيه أعظم من القتل، ولا يزال المشركون على ظلمهم يقاتلونكم - أيُّها المؤمنون - حتَّى يردُّوكم عن دينكم الحقِّ إلى دينهم الباطل إن استطاعوا إلى ذلك سبيلًا، ومن يَرجِعْ منكم عن دينه فيمت وهو كافر بالله؛ فقد بَطُلَ عملُه الصَّالح، ومآلُه في الآخرة دخولُ النَّار وملازمتُها لا يخرج منها أبدًا[3].

القتال في الأشهر الحُرم إثمٌ عظيمٌ والكفر بالله والصَّدُّ عن سبيله أعظم منه وأشدُّ جُرمًا

(1) الرّاغب، المفردات، والجَوهَريّ، الصِّحاح، والسَّمين، عُمدة الحفّاظ: (حبط)، ابن قُتيبة، غريب القرآن، ص: 82، والسِّجِستانيّ، غريب القرآن، ص: 186، وابن الهائم، التِّبيان، ص: 106.

(2) الرّاغب، المفردات، والسَّمين، عُمدة الحفّاظ، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (صحب)، والكَفَوِيّ، الكُلِّيات، ص: 131، والسِّعدي، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 50.

(3) لجنةٌ مِن علماء الأزهر، المُنتخَب في تفسير القرآن الكريم، ص: 49، ونخبة مِن أساتذة التَّفسير، التفسير المُيسَّر، ص: 34، وجماعة مِن علماء التَّفسير، المُختصر في تفسير القرآن الكريم، ص: 34.

الإيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

بلاغة التّعبير بالفعل المضارع في قوله: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ﴾:

استحضار الحالة الماضيّة إلماعًا لأهميّة السّؤال، وكشفًا عن حرص الصّحابة على دينهم

عبّر هنا بالمضارع، والسّؤال قد سبق التّنزيلَ، فهم قد سألوا، وقد عدَل القرآن الكريم عن التّعبير بالماضي فلم يقُل: وسألوك؛ لبيان أهميّة السّؤال، واستحضار الصّورة الماضية لمَا في ذلك من الكشف عن حرص الصّحابة رضوان الله عليهم على دينهم وإرضاء ربهم، واعتدادًا بالحالة النّفسيّة؛ لأنّ السّؤال يظلُّ ملحًّا حاضرًا مالم يكن له جواب، فيظلّ السّائل مُتشوّفًا للجواب حتّى كأنّ الفعلَ حاضر.

بلاغة تقديم المُبْدَلِ منه على البدل في قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ﴾:

الاهتمام بالشَّهر الحرام وبيانُ عِظَمِ حُرمَتِهِ وحُرمَةِ انتهاكه بالقتال وغيره

الجملة استئناف ابتدائيٌّ، وَرَدَت على سؤال النَّاس عن القتال في الشَّهر الحرام[1]، وقد جاء النَّظم الكريم بتقديم ذِكرِ الشَّهر الحرام على قوله ﴿قِتَالٍ فِيهِ﴾، مع أنَّ السُّؤالَ عن القتال في الشَّهر الحرام، فكان مُقتَضى الظَّاهر أن يُقالَ: (يسألونك عن القتال في الشَّهر الحرام)، لكنَّه جاء في الآية بتقديم المُبدَلِ منه، ثُمَّ الإتيان بالبدل، وقد دلَّ سبب النُّزول على أَنَّ هذا السُّؤال لم يقع إلا بعد وقوع القتال في الشَّهر الحرام، وتشنيع الكفرة عليهم انتهاكَ حُرمَة الشَّهر، فاغتمامُهم واهتمامُهم بالسُّؤال؛ إنَّما وَقَعَ من أجل حُرمَةِ الشَّهر؛ فلذلك قُدِّم في الذِّكرِ[2]، فاختير طَريقُ الإبدال هنا؛ لأجل الاهتمام بالشَّهر الحرام؛ تنبيهًا على أنَّ السُّؤال لأجل الشَّهر أيقع فيه قتال؟ لا لأَجل القتال هل يقع في الشَّهر؟ لكنّ التّقديم لقضاء حقّ الاهتمام؛ لينبّه أنّ السّؤال لم يكن لأجل القتال نفسه، وإنّما لأجل خصوص الشَّهر[3].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/324.
(2) عبد الرّحمن السُّهيلّي، نتائج الفكر في النَّحو، ص: 243.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/325.

فقدَّم ذِكرَ الشَّهر الحرام لعموم حُرمَتِهِ وشُمولها لكلِّ مخالفة من قَتلٍ أو غَيرِهِ، ثُمَّ أُبدِلَ منه ﴿قِتَالٍ فِيهِۖ﴾، لكونه سببَ السُّؤال، فجُمع بين الأمرين، ومعلوم عند أهل اللُّغة أنَّ البدل على نيَّة تَكرار العامل، فكأنَّه هُنا قال: (يسألونك عن الشَّهر الحرام، يسألونك عن قتال فيه)، ولو قال (يسألونك عن قتال في الشَّهر الحرام)؛ لكان المسؤول عنه القتال فقط دون سائر ما يُنتَهَكُ به الشَّهر الحرام[1]، فالتّقديم هاهنا لقضاء حقّ الاهتمام، ثمّ إنّ فيه تشويقًا بطريق الإجمال ﴿ٱلشَّهۡرِ ٱلۡحَرَامِ﴾ ثمّ التّفصيل.

فائدة بدل الاشتمال في لفظة ﴿قِتَالٍ﴾:

تقرير ما يَرِدُ بعده من تعظيم القتال في الشَّهر الحرام

﴿قِتَالٍ فِيهِۖ﴾ بدل اشتمال من الشَّهر الحرام[2]؛ لأنَّ التّعريفَ في الشَّهر الحرام تَعريفُ الجِنس، ولذلك حَسُنَ إبدالُ النَّكرة منه في قوله: ﴿قِتَالٍ فِيهِۖ﴾، ولأنّه بَدَلُ اشتمالٍ يجوزُ فيه إبدالُ النَّكرة من المعرفة، ووصف النّكرة بـ (فيه) يجعلها في قوّة المعرفة، وفائدتُهُ: زيادة تقرير ما يَرِدُ بعده من تعظيم القتال في الشَّهر الحرام[3].

سِرُّ تنكير لفظة (قتال) في قوله تعالى: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهۡرِ ٱلۡحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِۖ﴾:

إفادة حُرمَة عموم أنواع القتال في الشَّهر الحرام

جاء تنكير لفظة ﴿قِتَالٍ﴾؛ لأنَّ سؤالهم لم يكن عنِ القتال المعهود، ولكن كان عن مُطلَقِ القتال الواقع في الشَّهر الحرام، فيدخل القتال المعهود دُخولًا أوليًّا[4].

فتنكيرُ ﴿قِتَالٍ﴾ مُرادٌ به العُمومُ، إذ ليس المسؤولُ عنه قِتالًا مُعيَّنًا ولا في شهرٍ مُعيَّنٍ، بل المُرادُ هذا الجنسُ في هذا الجنس[5].

(1) أبو حَيّان، البحر المُحيط: 2/383، والسَّمين، الدُّرُّ المَصون: 2/389.
(2) البَيضاويّ، أنوار التَّنزيل: 1/136.
(3) الواحِديّ، التفسير البسيط: 4/137، والقونويّ، حاشية القونَويّ على البيضاويّ: 5/193، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/324.
(4) القونويّ، حاشية القُونَويِّ على البيضاويّ: 5/193، والقاسِمي، مَحاسن التَّأويل: 3/143.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/325.

السِّرُّ في وضع المظهر مَوضِع المضمَر بإعادة ذكر القتال بلفظه الظَّاهر:

إفادة عموم حكم القتال في الشَّهر الحرام في كلّ زمان

كان مقتضى الظَّاهِرِ أن يُعادَ لفظ القتالِ بلفظ المُضمَر، فيكون النَّظْمُ: (قل: هُوَ كَبيرٌ)، كما لو سأل إنسان عن رجل في الدَّار، فقيلَ: هو فلان، أو: هو طويلٌ أو قصيرٌ، بلفظ المُضمَر؛ لأنَّ المُضمَرَ أَوجَزُ وأَولى.

ولكن في إعادة لفظ الظَّاهر هنا فائدة؛ هي عُموم الحُكم، ولو جاء بلفظ المُضمَرِ فقيل: (هو كبيرٌ)؛ لاختَصَّ الحكم بذلك القتال الواقع في القِصَّة، وليس الأمر كذلك، وإنَّما هو عامٌّ في كلِّ قتال وَقَعَ في شهر حرام، ونظير هذه المسألة قوله ﷺ وقد قيل له: أنتوضأ بماء البحر؟ فقال: «هو الطَّهُورُ ماؤُهُ»[1]، ولم يقُل: نعم، توضؤوا منه؛ لِئلَّا يُتوهَّم أنَّ الحكمَ مخصوصٌ بالسَّائل، فلمَّا أخبر عنه أنَّه الطَّهور ماؤُهُ استمرَّ الحكم فيه على العموم، ولم يُتوهَّمْ قَصرُهُ على السَّببِ، وكذلك هذا حين قال: ﴿قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌۚ﴾، جعل الاسم المُخبر عنه ﴿قِتَالٌ﴾.

ولأجل هذا خصَّصه بالمجرور الّذي هو ضمير الشَّهر، فَتَعَلَّقَ الحكم به على العموم متَّى وقع؛ لأنَّ اللَّفظ المُضمَر لا تقتضي صيغتُه إلّا تخصيص الخبر بما يعود عليه[2].

كما أنَّ إظهارَ لفظِ القتالِ في مَقامِ الإضمارِ لِيكونَ الجوابُ صريحًا حتَّى لا يُتوهَّم أَنَّ الشَّهر الحرامَ هو الكبيرُ، وليكونَ الجوابُ على طِبقِ السُّؤال في اللَّفظ[3].

تأكيد رفع الحرج عنِ الصّحابة الّذين قاتلوا في الشّهر الحرام

دلالة مجيء الجواب بصيغة التّلقين ﴿قُلْ﴾:

مَن يتدبّر آي الذّكر الحكيم يجد المعاني العظمى والمهمة جدًّا تأتي مسبوقةً بلفظ ﴿قُلْ﴾؛ ليكون الجواب مُلقّنًا من الله لرسوله، وليُسند الجواب إلى الذّات العليّة مباشرة رفعًا لتوهّم أن يكون ذلك

(1) أخرجه أبو داود، حديث رقم: (83)، والتّرمذي، حديث رقم: (69)، والنَّسائي، حديث رقم: (59)، كلُّهم من حديث أبي هريرة ﷺ، وصحَّحه الألبانيّ، يُنظر: الألبانيّ، سلسلة الأحاديث الصَّحيحة: 1/864.

(2) عبد الرّحمن السُّهيلّي، نتائج الفكر في النَّحو، ص: 243-244.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/325.

اجتهادًا من سيدنا رسول الله ﷺ، ولذلك تراه في مثل ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ [الإخلاص: 1]، وتراه في مقامات المفاصلة ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ ۝١﴾ [الكافرون: 1] إلى آخر ذلك، وشواهد كثيرة.

دلالةُ تنكير المُسنَدِ إليه في قوله تعالى: ﴿قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ﴾:

إنْ قيل: قد ذُكِرَ لفظ ﴿قِتَالٍ﴾ أوَّلًا نكرةً، فلو أعيد معرفةً؛ لكان القتال المذكور ثانيًا عَينَ الأوّل، ودلَّ الكلام على استعظام القتال المذكور المسؤول عنه؛ وهو قتال سريّة عبد اللّه بن جَحْشٍ رضي الله عنه حينما قتلوا عمرو بن الحضرميّ في رجب، ولم يعلموا بدخول الشّهر الحرام، فأُعيد لفظ: ﴿قِتَالٌ﴾ نكرةً فكان المذكور الثَّاني غير الأوَّل، فلم يُفهَم استعظام قتال عبد اللّه وعدّه كبيرًا فمَا الوجه فيه؟!

تعظيم حُرمَةِ القتال الّذي يكون فيه ظُلمٌ واعتداء على المُستضعفين لا قتال الدّفاع عن الدّين

والجواب: أنَّه ليس المُرادُ تعظيمَ القتال المسؤول عنه حتَّى يُعاد بالألف واللَّام، بل المراد تعظيم القتال المُغاير لقتال ابن جَحش، وذلك لأنَّ قِتَاله كان لنُصرَة دين الإسلام وإذلال قاعدة الكفر وأهله، فليس من الكبائر، بل الّذي يكون من الكبائر هو القتال المُغاير له، وهو ما كان فيه إذلال الإسلام ونصرة الكفر، فاختير التَّنكير في اللَّفظ المُعاد لهذه الدَّقيقة، إلّا أنَّه تعالى لم يُصرِّح بهذا المقصود، بل أَبْهَمَ الكلام بحيث يكون ظاهره كالوهم لِما أرادوه وباطنه مُوافِقًا للحقِّ؛ لكونه أُدخِلَ في النُّصح وإصغاءِ الخصم إلى كلام النَّاصح[1].

ولم يُعَرَّفْ لفظُ القتال ثانيًا باللَّام مع تقدُّم ذِكره في السُّؤال؛ لأنَّه قد استُغنِيَ عن تعريفِهِ باتِّحاد الوصفَينِ في لفظ السُّؤال ولفظ الجواب وهو الظرفُ ﴿فِيهِ﴾.

والجواب هنا: تَشريعٌ إنْ كان السُّؤالُ مِنَ المُسلمِينَ، واعترافٌ

(1) أبو حَيّان، البحر المُحيط: 2/384، والسَّمين، الدُّرُّ المَصون: 2/392، وزاده، حاشية على تفسير البَيضاويّ: 2/519.

وإبكاتٌ إنْ كان السُّؤالُ إنكارًا مِنَ المُشركِينَ، لأَنَّهُم تَوَقَّعوا أَنْ يُجيبَهُم بإباحة القتال فيُثَوِّروا بذلك العربَ، ومَنْ في قلبِهِ مَرَضٌ[1].

دلالة الاستعارة في تشبيه القِتال بالشَّيء المحسوس في قوله تعالى ﴿قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌۖ﴾:

بيان عَظمةِ إثم القتال في الأشهر الحُرُم

الكبيرُ في الأَصل هو عظيمُ الجُثَّة مِن نوعه، وهو مَجازٌ في القويِّ والكثيرِ والمُسِنِّ والفاحشِ، وهو استِعارةٌ مبنيَّةٌ على تشبيه المَعقول بالمَحسوس، شبَّهَ القويَّ في نوعِهِ بعظيم الجُثَّة في الأَفراد، لأَنَّه مألوفٌ في أَنَّه قويٌّ، وهو هنا بمعنى العظيم في المَآثِم بقرينة المَقام، مِثلَ تَسميةِ الذَّنبِ كبيرةً، والمعنى: أَنَّ القتال في الأَشهرِ الحُرُمِ إثمٌ كبيرٌ، ولأجل هذا جيء بالنَّكرة هنا للعموم بقرينة المَقام[2].

سرُّ الاستعارة في التَّعبير عن هدى الإسلام بسبيل الله:

بيان أنَّ هُدى الله تعالى طريق مُوصِلٌ إليه وإلى رِضوانه

سبيلُ اللَّهِ: الإسلام، وما يُوصِلُ العبد إلى الله سبحانه وتعالى من الطَّاعات[3]، وهو المُعبَّر عنه بالصِّراط المستقيم في مَواضِعَ عديدةٍ، ففي الكلام استعارَةٌ مُصرِّحَةٌ، الجامع فيها: الإيصال؛ أي: ما يُوصِلُ العبد إلى الله تعالى وإلى رحمته ورضاه أو إلى لِقائه[4].

بديع ترتيب النَّظم الكريم في قوله تعالى: ﴿وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفۡرُۢ بِهِۦ وَٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ وَإِخۡرَاجُ أَهۡلِهِۦ﴾:

الاهتمام بتقديم ما هو أفظعُ من جَرائِمهم

كان مُقتَضى ظاهرِ تَرتيبِ نَظمِ الكلام أَن يُقالَ: (وصدٌّ عَن سبيل اللَّه والمسجدِ الحرام وكُفرٌ به وإخراجُ أَهله منه أَكبرُ عند اللَّهِ)، فخُولِفَ مُقتَضى هذا النَّظم إلى الصُّورة الَّتي جاءَت الآيةُ عليها، ففيها تقديمُ ما حَقُّهُ التَّأخيرُ، حيث قدَّم قوله: وكُفرٌ به فجُعل مَعطوفًا على ﴿وَصَدٌّ﴾ قبل أن يَستوفيَ (صَدٌّ) ما تعلَّق به؛ وهو

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/325.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/326.
(3) البَيضاويّ، أنوار التَّنزيل: 1/137.
(4) القونويّ، حاشية القونَويّ على البَيضاوي: 5/196.

﴿وَٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ﴾، فجاء بهذا التَّرتيب؛ للاهتمام بتقديم ما هو أفظعُ من جَرائمهم؛ فإنَّ الكفرَ باللّهِ أفظعُ من الصدِّ عن المسجد الحرام، فكان ترتيب النَّظم على تقديم الأهمِّ فالأهمِّ؛ فإنَّ الصَّدَّ عن سبيل الإسلام يَجمع مظالمَ كثيرةً[1].

فالعطف عليه قبل تمام المعطوف عليه؛ لأنَّ قوله: ﴿وَٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ﴾ من تمام قوله: ﴿وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، ولمَّا كان الاعتناء عند ذكر اللّه بأنَّ الكفر به أمُّ الكبائر وأكبرُها؛ عُطف ﴿وَكُفۡرُۢ بِهِۦ﴾ على ﴿وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ قبل تمامِهِ[2]، فليسَ الكُفرُ باللّه إلَّا رُكنًا مِن أَركان الصَّدِّ عَنِ الإِسلام، فلذلك قدّم الصَّدَّ عَن سبيل اللّه، ثُمَّ ثَنَّى بالكُفرِ باللّه؛ لِيُفادَ بدلالة المُطابقة بعد أَن دلَّ عليه الصَّدُّ عَن سبيل اللّه بدلالة التَّضَمُّن، ثُمَّ عَدَّ عليهمُ الصَّدَّ عَنِ المسجد الحرام، ثُمَّ إخراجَ أَهلِهِ منه[3].

اختيار صيغة أَفعَل في قوله ﴿أَكۡبَرُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ وقوله ﴿وَٱلۡفِتۡنَةُ أَكۡبَرُ مِنَ ٱلۡقَتۡلِ﴾:

تَعدادُ كبائرِهم في حكمها ونوعها، وبيانُ عِظَمِ إثمها

قول اللّه تعالى: ﴿أَكۡبَرُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي: أكبرُ عند اللّه ممَّا فعلته السَّريَّة اجتهادًا وبناءً على الظَّنّ، وهو خبرٌ عن الأَشياء الأربعة المعدودة من كبائر قريش.

وأَفعَلُ ممَّا يستوي فيه الواحد والجمع، والمذكر والمؤنّث[4]، فاختيار صيغة (أفعل)؛ لِتعدادِ كبائرِهم وبيان عظم إثمها، فهو أكبر في حكمه، وأكبرُ في القيامة عذابًا وعتابًا، وفي هذا التَّعبير تَهديدٌ عظيمٌ يَعرِفه من له عقلٌ سليمٌ[5]؛ فالكفرُ باللّه والصَّدُّ عن سبيله من أكبر الكبائر، وفتنةُ المؤمنين بتعذيبهم كبيرةٌ؛ لأنَّ الفتنةَ تُطلَقُ على الإيذاء والتَّعذيب وإصابة المحنة والبلاء، قال تعالى: ﴿فَإِذَآ أُوذِيَ فِي ٱللَّهِ جَعَلَ فِتۡنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ﴾ [العنكبوت: 10]،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/329، وهذا الوجه بناءً على أنَّ قوله تعالى: ﴿وَٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ﴾ معطوفٌ على ﴿وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾.
(2) القونويّ، حاشية القونَويّ على البَيضاويّ: 5/196.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/330.
(4) البَيضاويّ، أنوار التَّنزيل: 1/137.
(5) القونويّ، حاشية القونَويّ على البَيضاويّ: 5/198.

وقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ﴾ [البروج: 10]، والإخراج من الوطن وأسباب المعاش من أصعب المحن والبلايا[1]، فَتعذيبُ الكفَّار المسلمِينَ لإسلامهم أَشَدُّ قُبحًا، وأعظم إثمًا وعقوبةً من قتل هؤلاء المسلمِين الكفار؛ لأنّ الكفر وإيذاء المسلم على إسلامه لا يَحلُّ بحال بخلاف قتل الكافر في الشّهر الحرام، ولا سيّما إذا كان القتل مبنيًّا على الخطأ في الاجتهاد والغلط في الحساب[2].

سِرُّ تَسْمِيَةِ الْمُؤْمِنِينَ أَهْلًا لِلْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فِي قوله تعالى: ﴿وَإِخۡرَاجُ أَهۡلِهِۦ مِنۡهُ﴾:

المُبالغة في توبيخ المُشركينَ ومدح المُؤمنين

في التَّعبير بـ﴿وَإِخۡرَاجُ أَهۡلِهِۦ﴾ مُبالغةٌ في توبيخ المُشركينَ ومدح المُؤمنينَ، وإنَّما جَعَل المؤمنين أهلًا له؛ إذ كانوا هم القائمين بحقوق البيت، كما قال تعالى: ﴿وَأَلۡزَمَهُمۡ كَلِمَةَ ٱلتَّقۡوَىٰ وَكَانُوٓاْ أَحَقَّ بِهَا وَأَهۡلَهَاۚ﴾ [الفتح: 26] وقال تعالى: ﴿وَمَا لَهُمۡ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمۡ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ وَمَا كَانُوٓاْ أَوۡلِيَآءَهُۥٓۚ إِنۡ أَوۡلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُتَّقُونَ﴾ [الأنفال: 34]، فأخبر تعالى أنَّ المشركين خرجوا بشركهم عن أن يكونوا أولياءَ المسجد[3].

وفي التّعبير بكلمة (أهل) وإضافتها إلى ضمير المسجد: تفخيم لشأن المؤمنين، وبيان علوّ استحقاقهم أهليّة البيت؛ لأنّهم من قدّسوا صاحب البيت، وعظّموه، ونزّهوه عن الشّرك.

وفي التّعبير بـ﴿مِنۡهُ﴾ إشارةٌ إلى شدَّة تعلّق المؤمنين بالبيت؛ إذْ قد كان يكفي القول: (وإخراج أهله أكبر) لإفادة أصلِ المعنى.

دلالة التَّذييل بقوله ﴿وَٱلۡفِتۡنَةُ أَكۡبَرُ مِنَ ٱلۡقَتۡلِۗ﴾:

التَّعليل لما سبق من تشنيع كبائرهم

قول الله تعالى ﴿وَٱلۡفِتۡنَةُ أَكۡبَرُ مِنَ ٱلۡقَتۡلِۗ﴾ تَذييلٌ مَسوقٌ مَساقَ التَّعليل لقوله: ﴿وَإِخۡرَاجُ أَهۡلِهِۦ مِنۡهُ﴾، وإذ قد كان إخراجُ أَهل الحرم

(1) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 6/30.
(2) البَيضاويّ، أنوار التَّنزيل: 1/137، وزاده، حاشية على تفسير البَيضاويّ: 2/521.
(3) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 6/30.

منه أَكبرَ مِنَ القتل؛ كان ما ذُكِرَ قبله مِنَ الصَّدّ عَنِ الدِّين والكُفرِ باللَّه والصَّدِّ عَنِ المسجد الحرام أَكبَرَ بدلالة الفَحوى، لأَنَّ تلك أَعظم جُرمًا مِن جريمة إِخراج المُسلمِينَ مِن مَكَّةَ[1]، وأكثرُ السّلَف فسَّروا (الفتنةَ) ههنا بالشِّرك كقوله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ﴾ [البقرة: 193]، ويدُلُّ عليه قوله: ﴿ثُمَّ لَمۡ تَكُن فِتۡنَتُهُمۡ إِلَّآ أَن قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشۡرِكِينَ﴾ [الأنعام: 23] أي: لم يكن مآلُ شِركِهِم وعاقبتُه وآخرُ أَمرِهم إلّا أن تبرّؤوا منه وأَنكَروه، وحقيقتُها: أنَّها الشِّرك الّذي يدعو صاحبُه إليه، ويُقاتِل عليه، ويُعاقب مَن لم يَفتَتِنْ به، ولهذا يُقال لهم وقتَ عذابهم بالنَّار وفِتنَتِهم بها: ﴿ذُوقُواْ فِتۡنَتَكُمۡ﴾ [الذّاريات: 14][2].

والأَوْلَى بالمعنى أن يكون ذلك كلّه خبرًا للأشياء المعدودة من كبائر قريش، وفيه تقبيح لأفعالهم، وتشنيع عليهم، وتهوين لفعل المؤمنين الّذين قاتلوا في الشّهر الحرام اجتهادًا.

دلالة الالتفات والاعتراض في قوله ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ﴾:

بيانُ استحكام عَداوتهم وإصرارِهم على الفتنة في الدِّين

جاءتِ الجملة ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ﴾ على طريقة الالتفات، حيث التفت عن خطاب رسول الله ﷺ ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ﴾ و﴿قُلۡ﴾ إلى خطاب المؤمنين في ﴿يُقَٰتِلُونَكُمۡ﴾، وهذا إخبارٌ مِنَ اللَّه للمُؤمنِينَ بفرْط عداوة الكفَّار، ومُباينَتِهم لهم، ودوامُ تلك العداوة، وأَنَّ قتالَهم إيَّاكم مُعلَّقٌ بإِمكان ذلك منهُم لكُم، وقُدرَتِهم على ذلك[3]، ففي الكلام ابتداءُ خبرٍ من اللّه تعالى وتحذيرٌ منه للمؤمنين مِن شَرِّ الكفرة[4].

ومجيءُ الكلام على طريقة الالتفات غرضُه بيانُ استحكام عَداوتهم، وإصرارِهم على الفتنة في الدِّين[5]؛ لأنّ أَهلَ كُلِّ دينٍ إذا اعتقدُوا صحَّةَ دينِهم حَرَصوا على إِدخال النَّاس فيه[6].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/330.
(2) ابن قيّم الجوزيّة، زاد المعاد: 3/150.
(3) أبو حَيّان الغَرناطيّ، البحر المُحيط: 2/390-391.
(4) القُرطُبيّ، تفسير القُرطبيّ: 3/46.
(5) أبو السّعود، إرشاد العقل االسّليم: 1/217.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/331.

وقوله: ﴿وَلَا يَزَالُونَ﴾ يَحْتَمِلُ أن يكونَ معطوفًا على ﴿يَسْـَٔلُونَكَ﴾ بجامع اتّحاد المسند إليه في كلتا الجملتين، وذلك في حال كان المرادُ بواو الجماعة في فعل ﴿يَسْـَٔلُونَكَ﴾ هم المشركين، ويقوّيه أنّ الضَّمير في ﴿يَزَالُونَ﴾ للكفَّار، وإن كان المرادُ بواو الجماعة في فعل ﴿يَسْـَٔلُونَكَ﴾ هم المسلمين؛ فيكون قوله ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ﴾ جملةً مُعترضةً اعتراضًا تذييليًّا، ويكون الدَّاعي إلى الاعتراض بها مُناسبة قوله: ﴿وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ﴾ لِمَا تَضَمَّنَته مِن صُدور الفتنة مِنَ المُشركينَ على المُسلمينَ وما تَتَضَمَّنُهُ الفتنةُ مِنَ المُقاتلة الَّتي تَداولَها المُسلمونَ والمُشركونَ؛ إذِ القتالُ يَشتَمِلُ على أنواع الأذى، ويكون التَّقدير: وقد فتنوكم، وقاتلوكم، وكان اللّه سبحانه وتعالى عالمًا بأنَّهم إنْ تراخوا في قتالِهم ليتركوا الكُفرَ لم يتراخوا هم في قتالِهم ليتركوا الإسلام، وكان أشدُّ الأعداء مَن إذا تَرَكتَه لم يَتْركك، فهم يُجدِّدون قتالكم كُلَّما لاحت لهم فرصة[1].

دلالة استعمال (حتَّى) في قوله ﴿حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ﴾:

بَيَانُ شِدَّةِ قُصُورِ الكَافِرِينَ عَنِ الوُصُولِ إِلَى رَدِّ المُؤْمِنِينَ عَن دِينِهِم

﴿حَتَّىٰ﴾ هنا معناها: التَّعليل، أي: يقاتلونكم كي يَردُّوكم، كقول القائل: فلان يَعبدُ اللّه حتَّى يَدخُلَ الجنَّة[2]، فهي للتَّعليل لا للغاية، فلا إشكال بأنَّه كيف يكون الرَّدُّ غاية مع أنَّه لم يكن واقعًا، فلا يخفى أنَّ الغَرَضَ لا يجب تحقُّقُه، فالعلَّة تَحصيليَّة هنا[3].

واستُدلَّ على كون ﴿حَتَّىٰ﴾ للتَّعليل بقوله تعالى: ﴿إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟﴾ من حيث إنَّه تعالى أورد كلمة ﴿إِنِ﴾ في مقام الجزمِ بعدم وقوع استطاعتهم على ردّ المؤمنين عن دينهم؛ للإشارة إلى أنَّ ذلك طمعٌ فارغٌ بعيدٌ كلَّ البُعد بناء على عداوة الكُفَّار إيَّاهم، والعلَّة الحاملة على الفعل تكون معلولًا مُترتِّبًا على الفعل بحسب الوجود، وما يُستَبعدُ وقوعه لا يصلح حاملًا عليه، فظهر بهذا التَّقرير أنَّ قوله: ﴿إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟﴾ يستدعي أن تُحمَلَ ﴿حَتَّىٰ﴾ على التَّعليل، لا

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/331، والبِقاعيّ، نَظم الدّرر: 1/405.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/259.
(3) القونويّ، حاشية القونَويّ على البَيضاويّ: 5/198، والآلوسيُّ، روح المعاني: 2/110.

على الغاية؛ لأنَّ الحمل عليها إنَّما يَحسُنُ فيما لا يكون تَرَتُّبُهُ على الفعل بعيدًا[1].

فتخريجُ معنى التَّعليل في ﴿حَتَّىٰ﴾ أَمكَنُ مِن حيثُ المعنى، إذ يكونُ الفعلُ الصَّادرُ منهم المُنافي للمؤمنِينَ، وهو المُقاتلةُ، ذكرَ لها عِلَّةً توجيهًا، فالزَّمانُ مُستَغرِقٌ للفعلِ ما دامَت عِلَّةُ الفعلِ، وذلك بخلاف الغاية، فإنَّها تَقييدٌ في الفعل دُونَ ذِكر الحامل عليه، فزمانُ وجودِهِ مُقيَّدٌ بغايته، وزمانُ وجود الفعل المُعَلَّل مُقيَّدٌ بوجود عِلَّة، وفرقٌ في القوَّة بين المُقيَّد بالغاية والمُقيَّد بالعِلَّة؛ لِمَا في التَّقييد بالعِلَّة مِن ذِكر الحامل وعدم ذلك في التَّقييد بالغاية[2].

وبَعيدٌ أَن يكون لهم استطاعة، فالاستطاعة مفروضة كما تُفرَضُ المُحالات، وهذا الّذي يُرشِدُ إلى سبب العدول عن حقيقة (حتَّى) وهي الغاية إلى كونها للتَّعليل[3].

الغرض من تعليق الشّرط بـ(إنْ) في قوله تعالى ﴿إِنِ ٱسۡتَطَٰعُواْۚ﴾:

حيث وقعَ الشَّرط ﴿إِنِ ٱسۡتَطَٰعُواْۚ﴾ مَوقِعَ الاحتراسِ ممَّا قد تُوهِمهُ الغايةُ في قوله: ﴿حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمۡ﴾؛ ولهذا جاء الشَّرط بحرف (إنْ) المُشعِر بأنَّ شرطَهُ مَرجُوٌّ عدمُ وقوعه؛ ففيه استبعادٌ لاستطاعتهم، وتعريضٌ وإيذانٌ بأنَّهم لا يستطيعون ردَّ المسلمين عن دينهم، وإيذان بأنَّهم لا يردُّونهم، وإشارة إلى رسوخ قَدَم المُخاطَبين في الدِّين، كقول الرَّجل لعدوِّه: إن ظفرتَ بي فلا تُبقِ عليَّ، وهو واثقٌ أنَّه لا يَظفَر به، فتكونُ مُحاولةُ المشركين ردَّ واحدٍ مِنَ المسلمين عناءً باطلًا[4]، كما أنَّ فائدة التَّقييد بالشَّرط أيضًا التَّنبيه على سخافة عقولهم وكون

استبعاد استطاعة الكافرين رَدّ المؤمنين عن دينهم، وإيذان بأنَّهم لا يردُّونهم

(1) زاده، حاشية على تفسير البَيضاويّ: 2/522.
(2) أبو حَيّان، البحر المُحيط: 2/391.
(3) القونويّ، حاشية القونويّ على البَيضاويّ: 5/199.
(4) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/259، وأبو حَيّان، البحر المُحيط: 2/391، والبَيضاويّ، أنوار التَّنزيل: 1/137، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/331.

دوام عداوتهم فِعْلًا عبثًا لا يترتَّب عليه الغرض[1]، فالتَّقييد بهذا الشَّرط مُشعِرٌ باستبعاد تمكُّنِهم من ذلك وقدرتهم عليه[2].

سرُّ التَّعبير بصيغة المُطاوعة ﴿يَرْتَدِدْ﴾، وسرّ مجيئها على طريقة فكّ الإدغام:

بيان رسوخ قَدم المؤمنين في الدِّين وإخراجٌ لمن أُكرِهَ على الكُفرِ مِن حُكمِ المُرْتَدّ

هذا اعتراضٌ ثانٍ، أَو عَطفٌ على الاعتراض الَّذي قبله، والمَقصِدُ منه التَّحذيرُ، وقد عبَّر بصيغة المُطاوعة في ﴿يَرْتَدِدْ﴾؛ إشارةً إلى أنَّ رجوعهم عن الإسلام - إن قُدِّر حصولُه - لا يكون إلَّا عن محاولةٍ من المشركين؛ فإنَّ مَن ذاق حلاوة الإيمان لا يَسهُل عليه رجوعُه عنه، ومَن عرفَ الحقَّ لا يَرجِعُ عنه إلَّا بعناءٍ، كما أنَّه لم يأت هنا مفعول ثانٍ، حيث لم يقُل: (من يَرتَدد عن دينه إلى دين كذا)؛ لأنَّه لا اعتبار بالدّين الّذي ارتُدَّ إليه، وإنَّما نِيط الحكم بالارتداد عن الإسلام إلى أيّ دين[3].

كما أنَّ في لفظة المطاوعة رحمةً وتفضُّلًا من الله ﷻ؛ لأنَّ قبلها قول الله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ﴾، فكان المناسب أن يقول: ومن (يُرَدَّ) منكم عن دينه؛ لكنّه لو قيل هكذا لدخلَ في عمومه من أُكرِهَ على الرِّدَة، فقال: ﴿وَمَن يَرْتَدِدْ﴾؛ لِيختصَّ الوعيد بمن ارتدَّ مُختارًا مُتعمِّدًا[4]، "وكأنّ صيغة الافتعال المؤذنة بالتّكلف والعلاج، إشارة إلى أنّ الدّين لايرجع عنه إلا بإكراه النّفس لما في مفارقة الإلف من الألم، وإجماع القرّاء على الفكّ هنا للإشارة إلى أنّ الحبوط مشروط بالكفر ظاهرًا باللّسان وباطنًا بالقلب، فهو مليح بالعفو عن نطق اللّسان مع طمأنينة القلب"[5]، وهذا وجه لطيف جيّد يؤيّده أنّ حدّ الرّدّة لا يقام إلا بعد الاستتابة[6].

دلالةُ وَضعِ الظَّاهر مَوضِعَ المُضمَرِ من قوله ﴿عَن دِينِهِۦ﴾:

قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ﴾، ثُمَّ قال بعدها: ﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن

(1) الآلوسيُّ، روح المعاني: 2/110.
(2) القِنَّوجيّ، فتح البيان: 1/436.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/332.
(4) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/262.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 3/232-233.
(6) إبراهيم الهدهد، تنوّع الأفعال، ص: 40.

دِينِهِۦ﴾، ولم يقُل: (عنه)؛ للإشعار بفداحة المَوقِف، وفظاعة الجُرم والهلاك لمن اشترى الضَّلالة بالهدى، وباع دينه، واتَّبَعَ الهوى[1].

الإشعار بفداحة الرِّدّة عن دين الإسلام وفظاعة جُرمِ المُرتَدّ

ولأجل التَّمسُّك بِعُرى الدِّين، والاعتصام بحبل الله المتين أُضيفَ (الدِّين) إلى ضمير المُخاطَبين المسلمين في الجملتين؛ لتثبيت نفوسهم على التَّمسُّك بدينهم[2].

دلالة العطف بالفاء في قوله تعالى ﴿فَيَمُتْ﴾:

الدَّلالة على حكم قتل المُرتَدّ عن الإسلام

أشار العَطفُ في قوله: ﴿فَيَمُتْ﴾ بالفاء المُفيدة للتَّعقيب إلى أَنَّ الموتَ يَعقُبُ الارتدادَ، وقد عَلِمَ كلُّ أَحدٍ أَنَّ مُعظمَ المُرتَدِّينَ لا تَحضُرُ آجالُهم عَقِبَ الارتداد! فيعلمُ السَّامعُ حينئذٍ أَنَّ المُرتَدّ يُعاقَبُ بالموت عُقوبةً شَرعيَّةً، فتكونُ الآيةُ دليلًا على وجوب قَتل المُرتَدِّ[3]، وهذا وجه لايمنع أن يكون المرادُ الموتَ بغير الحدِّ.

مجيء الحال جملةً ﴿وَهُوَ كَافِرٌ﴾:

المبالغة في التَّأكيد لتَكرار الضَّمير فيها

قوله: ﴿وَهُوَ كَافِرٌ﴾ جملةٌ حاليَّةٌ من ضميرِ ﴿فَيَمُتْ﴾، وكأنَّها حالٌ مؤكِّدَةٌ؛ لأنَّها لو حُذِفَت لفُهِم معناها؛ لأنَّ ما قبلها يُشعِرُ بالتَّعقيب للارتداد، وجيءَ بالحال هنا جملةً؛ مبالغة في التَّأكيد، مِن حيث تكرُّرُ الضَّمير بخلاف ما لو جِيءَ بها اسمًا مفردًا[4].

السّرُّ في اقتران شرطَي الارتِدَاد والموت على الكفر في الآية مع خُلُوِّ نظائرها من الآيات منه:

تهويل وعيد الوقوع في الشِّرك لاحتماليَّة وُقوعه هنا

رَتَّبَ اللهُ ﷻ حَبْطَ الأَعمالِ على مجموع أَمرَينِ: الارتداد والموت على الكُفر، ولم يُقيِّدِ الارتداد بالموت عليه في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلۡإِيمَٰنِ فَقَدۡ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ۝٥﴾

(1) الدَّبل، دليل البلاغة القرآنيَّة، ص: 292.
(2) الرّوينيّ، من غريب بلاغة القرآن الكريم، ص: 562.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/335.
(4) أبو حَيّان، البحر المُحيط: 2/392، والسَّمين، الدُّرُّ المَصون: 2/400-401.

[المائدة: 5]، وقوله تعالى: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الزّمر: 65]، وقوله: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُواْ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: 88].

والسِّرُّ في اقتران هذين الشَّرطَين في هذه الآية مع خُلُوّ بقيَّة نظائرِها عَن ثاني الشَّرطَين، لأنَّ تلك الآي الأُخَر جاءَت لِتهويل أَمر الشِّرك على فَرض وقوعه مِن غيرِ مُعيَّنٍ، كما في قوله: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ [المائدة: 5]، أو وقوعه ممّن يَستَحيلُ وقوعُه منه كما في قوله: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُواْ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: 88]، وقوله ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزّمر: 65] فاقتصر فيها على ما يَنشأُ عَنِ الشِّرك بعد الإيمان مِن حَبْطِ الأَعمالِ ومِنَ الخسارة بإجمالٍ، أمّا هذه الآيةُ فقد وَرَدَت عَقِبَ ذِكرِ مُحاولة المشركينَ ومُعالَجَتِهِمُ ارتدادَ المسلمينَ المخاطَبين بالآية، فكان فَرضُ وقوع الشِّرك والارتداد منهم أَقرَبَ لمحاولة المشركينَ ذلك بقتال المسلمين، فذُكِر فيها زيادة تهويلٍ؛ وهو الخلودُ في النَّار[1].

دلالة التَّمثيل في استعمال الفعل حَبِطَ، ودلالة الطّباق في ﴿ٱلدُّنْيَا﴾ و﴿وَٱلْآخِرَةِ﴾:

التّأكيد على أنّ الرّدّة تُزيلُ الأعمال الصّالحة، وتذهب بأثرها في الدّنيا والآخرة

فعلُ (حَبِطَ) من باب سَمِعَ، ويتعدَّى بالهمزة، وقد قال اللُّغويُّون: إنّ أصله من الحبَط؛ وهو انتفاخٌ في بطون الإبل من كثرة الأكل فتموتُ من ذلك[2]، فإطلاقه على إبطال الأعمال تَمثيلٌ؛ لأنَّ الإبل تأكل الخَضِرَ شهوةً للشِّبَعِ فيؤول عليها بالموت، فَشَبَّه حال من عمل الأعمال الصَّالحة لِنَفعها في الآخرة فلم يجِد لها أثرًا، بالماشية الّتي أَكَلَت حتَّى أصابها الحَبَطُ، ولذلك لم تُقَيّد الأعمال بالصَّالحات لظهور ذلك التَّمثيل.

وحَبْطُ الأعمال زوالُ آثارها المَجعولَةِ مرتَّبةً عليها شرعًا، فيشمل آثارها في الدُّنيا وثوابَها في الآخرة، وهو سِرُّ المُطابقة بين لفظتي ﴿ٱلدُّنْيَا﴾ و﴿ٱلْآخِرَةِ﴾[3] في قوله: ﴿فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ﴾.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/335.
(2) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (حبط).
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/332.

دلالة تعريف المُسندِ إليه باسم الإشارة في قوله تعالى ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتۡ﴾ و﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ﴾:

الإشعار ببعد منزلتهم في الشَّر والفساد، والإعلام بأنَّ سوء أعمالهم هو السَّبب في وبالهم

الإتيانُ باسم الإشارة في مَوضِعين تنبيهٌ على أنَّهم أَحرِياءُ بما ذُكِرَ بعد اسم الإشارة مِن أَجل ما ذُكِرَ قبلَ اسم الإشارة، وللإشعار ببُعد منزلة من يفعل ذلك في الشَّر والفساد، وتنبيهًا على أنّ اتّصافهم بهذه الصّفة الشَّنيعة يقتضي كلّ واحدة من الأثرتَين، لذا قرن الأوَّل بفاء السَّبب إعلامًا بأنَّ سوء أعمالهم هو السَّبب في وبالهم[1]، ووَسَّطَ العاطِفَ لاختلاف مفهوم الجملتين هنا[2].

ففي قوله: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ﴾ عَطفٌ على جملة الجزاء على الكُفر، إذِ الأُمورُ بخواتمِها، فقد ترتَّبَ على الكُفر أَمرانِ: بُطلانُ فَضلِ الأَعمالِ السَّالفةِ، والعقوبةُ بالخلودِ في النَّار، ولكونِ الخلودِ عقوبةً أخرى أُعِيدَ اسم الإشارة في قوله: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ﴾، وقدّم ضمير الفصل (هم) لتقوية هذا الحكم وتأكيده، فقال سبحانه: ﴿هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾[3].

السِّرُّ في تَكرار اسم الإشارة في قوله تعالى ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ﴾:

تقبيح شأن الرِّدّة وتشنيع حال المُرتَدِّ والتَّلويح بوقوعها بعد وفاة النَّبيّ ﷺ

لمّا كانت الرِّدّة أقبح أنواع الكفر؛ كرَّر المناداة بالبُعدِ على أهلها فقال: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ﴾، فدلَّ بالصُّحبةِ على أَنَّهم أحقُّ النَّاس بها، فَهُمْ غيرُ مُنفكِّينَ منها، فكأنّهم المُختَصُّون بها دون غيرهم لبلوغ ما لهم فيها من السُّفول إلى حدٍّ لا يُوازيه غيره، فقال تقريرًا للجملة الّتي قبلها: ﴿هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ أي: مُقيمون إقامة لا آخرَ لها، وهذا الشَّرط مُلوّح إلى ما وقع بعد موت النَّبيِّ ﷺ من الرِّدَّة؛ لأنَّ الله سبحانه وتعالى إذا ساق شيئًا مَساقَ الشَّرطِ اقتضى

(1) البِقاعيّ، نَظم الدّرر: 1/406.
(2) القونويّ، حاشية القونَويّ على البَيضاويّ: 5/200، والآلوسّي، روح المعاني: 2/110.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/333.

أنَّه سيقع شَيءٌ منه[1]، وكانت هذه الآيةُ مِن دلائل النُّبوَّة؛ إذ وَقَعَ في عام الرِّدَّة، أَنَّ مَن بقي في قلبهم أثرُ الشِّركِ حاولوا مِنَ الْمُسْلِمِينَ الارْتِدَادَ، وقاتلوهم على ذلك، فارتَدَّ فريقٌ عظيمٌ، وقام لها الصِّدِّيقُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بعزمه ويقينه فقاتلهم فرَجعَ منهم مَن بَقِيَ حيًّا، فلولا هذه الآيةُ لأَيسوا مِن فائدة الرُّجوع إلى الإسلام؛ وهي فائدة عدم الخلود في النَّار[2].

الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الصَّد والصَّدْف والمَنع:

الصَّدُّ: هو المَنع عَن قصد الشَّيء خاصَّة، ولهذا قال اللّه تعالى: ﴿وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ [الأنفال: 34]، أَي: يمنعون النَّاس عَن قَصده، والمنعُ يكون في ذلك وغيره، فيُقال: مَنَعَ الحائِطَ عن الميل، ولا يُقال: صدَّه عن الميل، لأَنَّ الحائط لا قصد له، ويقولون: صدَّني عَن لقائك يريد عَن قَصد لقائِك[3]، ويأتي الصَّد بمعنى الإعراض، من ذلك قوله تعالى: ﴿رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا﴾ [النّساء: 61].

الصَّدُّ: هو العدول عَنِ الشَّيء بقصد الصّرفِ والمنعِ[4]، والمنعُ أَعمُّ.

أمّا الصّدفُ والصُّدوفُ فهو الإعراض والنُّفور بعد ظُهور الآيات[5]، وأصل الصّدْفِ يدُلُّ على الميل.

وصَدَفَ عَنِ الشَّيءِ، إذا مال عنه وولَّى ذاهبًا[6]، قال اللّه تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَاۗ سَنَجْزِى ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَٰتِنَا﴾ [الأنعام: 157]، فصَدَفَ عنها، أي: أَعرَضَ عنها إعراضًا شَديدًا، فانصرف عنها، وعمل على أن يَصرِفَ غيره عنها،

الصَّدُّ: هو العدول عَن الشَّيء بِقصدٍ، والمنع أعمّ

الصُّدوف إعراضٌ شديدٌ مع صَرفٍ للغير عن الشَّيء، وهو أَخصُّ من الصَّدّ والمنع

(1) البِقاعيّ، نَظم الدّرر: 1/407.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/335.
(3) العسكريّ، الفُروقُ اللّغويّة، ص: 114.
(4) الكَفَوِيّ، الكُلِّيات، ص: 28.
(5) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/18، وأبو حَيّان، البحر المُحيط: 4/116.
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (صدف).

فالصَّدْفُ إعراضٌ شديدٌ فيه نفور وهو مع ذلك الانصراف عن الشّيء، وصَرْفُ النَّاس عنه[1].

الطَّريق والسَّبيل والصِّراط:

الطَّريقُ: هو كلُّ ما يَطرُقُهُ الطارقُ مِنَ النَّاس؛ مُعتادًا كان أم غير مُعتادٍ[2]، قال تعالى: ﴿فَٱضۡرِبۡ لَهُمۡ طَرِيقٗا فِي ٱلۡبَحۡرِ يَبَسٗا لَّا تَخَٰفُ دَرَكٗا وَلَا تَخۡشَىٰ ٧٧﴾ [طه: 77].

الطَّريقُ ما يُسلَكُ، والسَّبيلُ أَسهَلُهُ، والصِّراطُ أَقوَمُهُ

أَمَّا السَّبيلُ فهو الطَّريقُ السَّهلُ؛ وأغلب ما يقعُ في الخير، وقد يقعُ في الشَّرِّ كقوله تعالى: ﴿وَلِتَسۡتَبِينَ سَبِيلُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾، [الأنعام: 55].

أَمَّا الصِّراطُ فهو السَّبيلُ الّذي لا اعوجاجَ فيه ولا التواء.

فالفرقُ بين الطَّريق والسّبيل أَنَّ الطَّريقَ لا يَقتضي السُّهولةَ واعتيادَ السُّلوك[3]، أَمَّا السَّبيلُ مِنَ الطُّرُق فهو السَّهلُ المُعتادُ.

والفرقُ بين السَّبيل والصِّراط أَنَّ الصِّراط لا اعوجاجَ فيه[4]، قال الله تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [الأنعام: 161]، فالصِّراطُ أَخَصُّ مِنَ السَّبيلِ قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام: 153]، والسَّبيلُ أَخَصُّ مِنَ الطَّريقِ[5]؛ وقد يُطلَقُ كُلٌّ منهما على الآخَرِ تَوَسُّعًا.

الابتلاء والفتنة:

الابتلاء: التّكليف في الأمر الشّاقّ من البلاء[6]، لاستخراج ما عند المُبتلى وتَعرُّفُ حاله في الطَّاعة والمعصية بتحميله المشَقَّة، فالابتلاء لا يكون إلَّا بتحميل المكاره والمشاقِّ[7].

الابتلاءُ تكليفٌ بالمكاره، والفتنةُ شِدَّةُ الابتلاء

(1) الراغب، المفردات: (صدف)، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2750.
(2) الكَفَوِيّ، الكُلِّيات، ص: 513.
(3) العسكريّ، الفُروقُ اللّغويّة، ص: 298.
(4) الكَفَوِيّ، الكُلِّيات، ص: 513.
(5) المَناويّ، التَّوقيفُ على مُهمَّات التَّعاريف، ص: 190، 215.
(6) الكَفَوِيّ، الكُلِّيات، ص: 34، والعسكريّ، الفُروقُ اللّغويّة، ص: 216.
(7) العسكريّ، الفُروقُ اللّغويّة، ص: 216.

وأمَّا الفتنة فهي البليَّة وبها يَتبيَّن حال الإنسان من خيرٍ أو شَرٍّ[1]، قال تعالى: ﴿وَنَبۡلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلۡخَيۡرِ فِتۡنَةٗۖ﴾ [الأنبياء: 34]، وهي في الشّدة أظهر معنى، وأكثر استعمالًا، والفتنة من الأفعال الّتي تكون من اللّه تعالى ومن العبد كالبليّة والمصيبة والقتل والعذاب وغير ذلك[2]، فيدور معناها بين الابتلاء إيقاعًا أو تعريضًا للبلاء[3].

فالفتنة أشدُّ الاختبار وأَبلَغُهُ، وتكون في الخير والشَّرِّ قَالَ تعالى ﴿لَأَسۡقَيۡنَٰهُم مَّآءً غَدَقٗا ١٦ لِّنَفۡتِنَهُمۡ فِيهِۚ﴾ [الجنّ: 16 - 17]، فجعل النِّعمَةَ فتنَةً؛ لأنّه قصد بها المبالغة في اختبار المُنعم عليه بها[4].

الحبوط والبطلان:

الحبوطُ بُطلانُ العمل أو فسادُه بعد صحَّته، والبُطلان أعمُّ منه

الحبوط: إبطالُ ثواب عمل البرِّ من الحسنات بالسَّيئات بعقاب أَزيَدَ أو بِنَدَم على الطَّاعة[5]، قال تعالى:

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيۡسَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [هود: 16]، والإحباط في الحسنات في مُقابَلَةِ الغُفران للسَّيئات[6]، ويكون في كسب الإنسان وعمله، فمعنى الحُبوط يدور على معنيين؛ الأوَّل: بطلان العمل فيكون مَرجع الحبط إلى الانحباط، إذ لا أساس صحيح، ولا أصل ثابت لها، قال تعالى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ﴾، وقوله تعالى﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُواْ مَآ أَسۡخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُواْ رِضۡوَٰنَهُۥ فَأَحۡبَطَ أَعۡمَٰلَهُمۡ ٢٨﴾ [محمّد: 28].

والثَّاني: فساده بعد الوقوع والصِّحَّة، فإذا عَمِلَ الرَّجُلُ عَمَلًا، ثمَّ أَفسدَه، قيل: حَبِطَ عَمَلُه[7]، ويكون بمعنى المحو، قال تعالى﴿وَلَوۡ أَشۡرَكُواْ لَحَبِطَ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٨٨﴾ [الأنعام: 88]، وقال تعالى لنَبِيِّه

(1) المَناويّ، التّوقيفُ على مُهمَّات التّعاريف، ص: 256.
(2) الرّاغب، المفردات، والسّمين، عُمدة الحفّاظ: (فتن).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (فتن).
(4) العسكريّ، الفُروقُ اللّغويّة، ص: 217.
(5) العسكريّ، الفُروقُ اللّغويّة، ص: 236، والزّمخشريّ، تفسير الكشّاف: 1/503.
(6) الغَزنَويّ، باهر البرُهان: 3/1338.
(7) الزّبيديّ، تاج العروس: (حبط).

الكريم ﷻ: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾﴾ [الزُّمر: 65]، فمعنى الحبوط إذن فساد في الشَّيء الصَّالح يأتي عليه من وجه يُظَنُّ به صلاحُه[1]، أمَّا البُطلان فهو ما كان على خلاف شرائط الصِحَّة وخصوصيَّاتها، وهو في مُقابل الحقِّ[2]، فالبُطلانُ أعمُّ، ويكون في العمل وغير العمل كالقضاء والاعتقاد، قال تعالى ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا﴾ [آل عمران: 191]، فالحبوط أَخَصُّ من البطلان من جهة خصوصيَّته بالعمل وفساده بعد صحَّتِه.

الصَّاحب والصَّديق:

الصَّاحِبُ: مِنَ الصُّحبةِ في الزَّمان والمكان، وقد تكونُ صُحبَتُهُ مُؤَقَّتَةً في الطَّريق مِثلَ العبد الصَّالح مع موسى عليه السلام، كما ورد في قوله تعالى على لسان موسى عليه السلام: ﴿قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَٰحِبْنِيۖ﴾ [الكهف: 76].

الصَّداقةُ اتِّفاقُ الضَّمائر وصِدقُ المشاعر، والصُّحبةُ مُطلَقُ الرُّفقَةِ

أَو في مكانٍ مِثل يُوسف مع صاحِبَيهِ في السّجن، كما ورد في قوله تعالى على لسان يُوسف عليه السلام: ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾﴾ [يوسُف: 39]، وقد تكونُ الصُّحبَةُ دائمةً مِثلَ الوالدين، قال تعالى﴿وَصَاحِبْهُمَا فِي ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًاۖ﴾ [لقمان: 15]، ومِثلَ الزَّوجةِ الّتي تَصحَبُ الزَّوجَ طَوالَ عُمُرِهِ، قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾﴾ [عبس: 34 - 36].

أَمَّا الصَّديقُ فمن الصَّداقة: وهي اتِّفاقُ الضَّمائر وصِدقُ الاعتقادِ على المودَّة[3]، وفي التَّنزيل جَوازُ الأَكلِ من بيت الصَّديقِ واعتباره ضمن الأقارب، قال تعالى ﴿أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ أَوْ صَدِيقِكُمْۚ﴾ [النّور: 61]، وقال تعالى يَصِفُ حالَ المُشركينَ، وهم في النَّار يَصطَرِخونَ ويتَحَسَّرونَ على فَقد الأَصدقاء: ﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾ [الشّعراء: 100 - 101]، فمصطلح الصَّاحبِ أَعمُّ مِنَ الصَّديق، والصَّداقةُ مِن درجاتِ الصُّحبة.

(1) المَناويّ، التَّوقيف على مُهمّات التّعاريف، ص: 135.
(2) المُصطفوي، التَّحقيقُ في كلمات القرآن الكريم: 2/159.
(3) الرّاغب، المفردات: (صدق)، والعسكريّ، الفُروق اللّغويّة، ص: 285.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرۡجُونَ رَحۡمَتَ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٢١٨﴾ [البقرة: 218]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

التَّعقيب بذكر أهل الإيمان بعد ذكر أهل الرِّدَّة والكفران

لَمَّا بَيَّن الله سبحانه وتعالى المقطوعَ لهم بالنَّار بَيَّنَ الّذين هُم أَهلٌ لِرجاء الجنَّة، لئلا يزال العبد هاربًا من مُوجبات النَّار مُقبِلًا على مُوجباتِ الجنَّة، خوفاً من أن يقع فيما يُسقِطُ رجاءَهُ فلمَّا ذَكَرَ أَمرَ المُتَزَلزِلِينَ ذَكَرَ أَمرَ الثَّابتين[1].

فهذا التَّعقيب هو باب تَعقيب الإنذار بالبشارة وتَنزيهٌ للمؤمنين مِن احتمال ارتدادهم، فإِنَّ المُهاجرينَ لم يَرتَدَّ منهم أَحدٌ[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿هَاجَرُواْ﴾: أصل (هَجَرَ) يدُلُّ على قطيعةٍ وقَطعٍ، والهَجرُ: ضدُّ الوَصلِ، وهاجر القومُ مِن دارٍ إِلى دارٍ: تركوا الأُولى للثَّانية، وكذلك الهِجرَانُ، ومنه سُمّي المُهاجرونَ؛ لأَنَّهم هجروا بلادهم، أَي: تَركوها وصاروا إِلى رسول الله ﷺ والهَجرُ والهِجران مُفارَقة الإنسان غَيرَهُ إِمَّا بالبدن أو باللِّسانِ أو بالقلب. والمعنى هنا: تركوا دُورَهُم وعَشائرَهم في الله ﷻ، وخرجُوا من دار الكُفر إلى دار الإِسلام[3].

2) ﴿وَجَٰهَدُواْ﴾: أَصلُ (الجُهدِ) الطَّاقةُ والمشقَّةُ، يُقالُ: جَاهَدَ العَدوَّ مُجاهدَةً وجِهَادًا: قاتَلَه، والجِهادُ والمجاهدَةُ: استفراغ الوُسْعِ في مُدافَعَةِ العدُوِّ، فالجهاد استفراغُ ما في الوُسْعِ والطّاقَةِ من قَولٍ أَو فِعلٍ، والمعنى هنا: مُحاربةُ الأَعداءِ[4].

3) ﴿يَرۡجُونَ﴾: أصل (رجى) يدُلُّ على الأَمل، يُقال: رَجا يَرجو رَجاءً نقيض اليَأس،

(1) البِقاعيّ، نَظم الدّرر: 1/407.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/337.
(3) الرّاغب، المفردات، والسَّمين، عُمدة الحفّاظ، وابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن عبَّاد، المُحيط، والسِّجستانّي، غريب القرآن: (هجر).
(4) الرّاغب، المفردات، والسَّمين، عُمدة الحفّاظ، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والزّبيديّ، تاج العروس: (جهد).

والرَّجاء بمعنى الأمل والطَّمع؛ لأنَّ الرَّاجي ليس مُطمَئِنًّا مُتَيَقِّنًا بحصول ما يرجو، بل تُخالِجُهُ درجةٌ من تَوَقُّعِ الحرمان، والمعنى هنا: يَطمَعونَ في رحمة اللّه[1].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

الإيمان والهجرة والجهاد من أسباب الثَّبات على الدِّين، ومن مُوجبات الفوز بجنَّات النَّعيم

إنَّ الّذين صَدّقوا باللّه ورسوله، وعَمِلوا بشرعه، والّذين تركوا أوطانهم مُهاجرين إلى اللّه ورسوله لِنُصرة الدِّين، وقاتلُوا لِتكون كلمةُ اللّه هي العليا؛ أولئك يَطمعونَ في فضل اللّه، وثوابه، ومغفرته، واللّه غفور لذنوب عباده رحيم بهم رحمةً واسعةً[2].

❁ الإيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

نُكتةُ تَكرار الاسم الموصول:

تعظيم الهجرة والجهاد، وبيان أثرِهِمَا في تَحْقِيق الرَّجاء

تكرّرَ الاسم الموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾؛ لتعظيم الهجرة والجهاد، كأنَّهما مستقلَّان في تحقيق الرَّجاء[3]، ولَمَّا كان الإيمان هو الأصل؛ أُفرد به موصول وَحدَه، ولَمَّا كانتِ الهجرة والجهاد فرْعَيْنِ عنه أُفردا بموصول واحد؛ لأنَّهُما من حيث الفرعيَّة كالشَّيء الواحد[4]، ويكون قوله: ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ مُتعلِّقًا بالفعلَينِ على سبيل التَّنازع[5].

فَتَكريرُ الموصولِ بالنّسبة إلى الصِّفات لا الذَّوات؛ فإنَّ الذَّواتِ مُتّحِدَةٌ موصوفةٌ بالأوصاف الثَّلاثة، فهو من باب عَطفِ بعض الصِّفات على بعض، والموصوفُ واحدٌ[6].

---

(1) الخليل، العين: (رجو)، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (رجي)، جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (رجو)، والقِنّوْجيّ، فتح البيان: 1/438.

(2) لجنةٌ مِن علماء الأزهر، المُنتخب في تفسير القرآن الكريم، ص: 50، ونخبةٌ مِن العلماء، التفسير المُيسّر، ص: 34، وجماعةٌ مِن علماء التّفسير، المُختصر في تفسير القرآن الكريم، ص: 34.

(3) البَيضاويّ، أنوار التَّنزيل: 1/137، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/337.

(4) أبو حَيّان، البحر المُحيط: 2/394.

(5) القونويّ، حاشية القونَويّ على البَيضاويّ: 5/201.

(6) السَّمين، الدُّرُّ المَصون: 2/402.

سِرُّ ترتيبِ الأوصَافِ الثَّلاثةِ: الإيمان ثُمَّ الهجرة ثُمَّ الجهاد:

الإيمانُ والهِجْرَةُ والجهادُ: عنوانُ السَّعادَةِ وقُطْبُ رَحَى العُبُودِيَّة

جِيءَ بهذه الأوصافِ الثَّلاثةِ مُرتَّبةً على حسب الواقع؛ إذِ الإيمانُ أولُ ثُمَّ المُهاجَرةُ ثُمَّ الجهادُ، وأتى بخبرِ (إنَّ) اسمَ إشارة ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾؛ لأنّه مُتضمِّنٌ للأوصاف السّابقة، فَقَدَّم الهجرةَ على الجهاد لِتقدُّمها عليه في الوقوع تَقَدُّم الإيمان عليهما[1].

وهذه المنازل الثَّلاثة الّتي هي: الإيمان، والمهاجرة، والجهاد هي المعنيَّة بقوله: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبۡتَغُوٓاْ إِلَيۡهِ ٱلۡوَسِيلَةَ وَجَٰهِدُواْ فِي سَبِيلِهِۦ﴾ [المائدة: 35]، ولا سبيل إلى المهاجَرة إلّا بعد الإيمان، ولا إلى جهاد الهوى في سبيله إلّا بعد هجران الشَّهوات، ومن وصل إلى ذلك حُقّ له أن يرجوَ رحمته، والرَّاجونَ رحمةَ اللّهِ هُمُ الَّذين قاموا بهذه الثَّلاثة[2].

فحقيق بهؤلاء أن يكونوا هُمُ الرَّاجينَ رحمةَ اللّه؛ لأنَّهم أتوا بالسَّبب المُوجِبِ للرَّحمة، وفيه دليل على أنَّ الرَّجاء لا يكون إلّا بعد القيام بأسباب السَّعادة، فهذه الأعمال الثَّلاثة هي عنوان السَّعادة، وقُطْبُ رحى العبوديَّة، وبها يُعرَفُ ما مع الإنسان من الرِّبح والخسران[3].

إثبات الرّجاء لهم دون الفوز بالمرجوِّ:

العملُ غيرُ مُوجِبٍ للأجر والثَّواب، وإنَّما هو مَحضُ تَفضُّلٍ مِنَ الله تعالى

مع أنَّ رحمةَ اللّه مُستَحَقَّةٌ للمؤمنين إلّا أنَّهم طَمِعُوا في نَيلِها ولم يجزموا بها؛ لأنَّهم لمَّا لم يعلموا حالهم في المستقبل جاز أن يرجوا الرَّحمة خوفًا أن يحدث من مستقبل أمورهم ما لا يَستَوجِبونها معه، وصيغة المستقبل ﴿يَرۡجُونَ﴾ للاستمرار؛ إشعارًا بأنَّ العملَ غيرُ مُوجِبٍ، أو بأنَّ عادات العُظماءِ ذكر الرَّجاء في مقام القطع واليقين

(1) السَّمين، الدُّرُّ المَصون: 2/402، والآلوسيُّ، روح المعاني: 2/113.
(2) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 1/448، وابن التَّمجيد، حاشية ابن التَّمجيد على البَيضاويّ: 5/201، والبروسوي، روح البيان: 1/417.
(3) السّعديّ، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 98.

والعبرة بالخواتيم، والحال في الخواتيم غير معلوم فلا سبيل إلى القطع بالرَّحمة، والرَّأفة في الآخرة[1].

كما رجوا الرَّحمة لأنَّهم لم يَتَيَقَّنوها بتأدية كلِّ ما أوجبه الله تعالى عليهم[2]، بل هم مُستَقصِرونَ أنفسهم في حقّ الله تعالى يرون أنَّهم لم يَعبُدوهُ حَقَّ عبادته، ولم يقضوا ما يلزمهم في نُصرَة دينه، فَيُقدِمونَ على الله مع الخوف والرَّجاء[3]، كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمۡ وَجِلَةٌ أَنَّهُمۡ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ رَٰجِعُونَ ٦٠﴾ [المؤمنون: 60].

ولأَجلِ تحقيق هذه المعاني عَبَّرَ النَّظمُ الكريم بالرَّجاء، لأنَّ من معانيهِ الخوفَ، كما في قوله تعالى: ﴿مَّا لَكُمۡ لَا تَرۡجُونَ لِلَّهِ وَقَارٗا ١٣﴾ [نوح: 13] أي: لا تخافون عظمة الله، فيكون في الكلام مجاز علاقته اللّزوم؛ لأنّ الرَّجاء لا يكون إلّا مُلازمًا للخوف[4].

فوعدُ الله وإن كان لا يُخلَفُ فَضلًا منه وصدقًا، ولكنّ الخواتم مَجهولةٌ، ومُصَادَفَةُ العمل لمُرادِ الله قد تَفوتُ لموانع لا يَدريها المُكَلَّفُ، ولئلا يَتَّكلوا في الاعتماد على العمل[5].

فأثبت لهُمُ الرَّجاءَ دونَ الفَوزِ بالمرجوِّ للإيذان بأنَّهُم عالمون بأنَّ العملَ غيرُ مُوجِبٍ للأجر، وإنَّما هو على طريق التَّفضُّل منه سبحانه[6].

فهؤلاء هم خيار هذه الأمَّة جعلهم الله أهل رجاء، فمن رجا طلب، ومن خاف هرب[7].

سِرُّ تَعْرِيفِ الْمُسْنَدِ إليهِ بِاسْمِ الإشارَة من قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَرۡجُونَ رَحۡمَتَ ٱللَّهِۚ﴾:

الإيذانُ بعُلوّ شأن المُشارِ إليه وبُعدِ مَنزِله

قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَرۡجُونَ رَحۡمَتَ ٱللَّهِۚ﴾؛ هذه الجملة خبر ﴿إِنَّ﴾؛ واسمها ﴿ٱلَّذِينَ﴾، وجاء خبر إنَّ جملة مؤلفة من (أولاء) مبتدأ و﴿يَرۡجُونَ﴾ جملة خبر المبتدأ الثَّاني، والجملة من المبتدأ الثّاني والخبر: خبر إنَّ، وفي الإشارة بمبتدأ جديد دلالة على رفعة مقامهم، ولا سيّما أنَّهُ قد أتى باسم الإشارة، وتصدير خبر ﴿إِنَّ﴾

(1) القونويّ، حاشية القونَويّ على البَيضاويّ: 5/201.
(2) الماورديّ، النُّكت والعيون: 1/275.
(3) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 6/34.
(4) ابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 4/25، والقِنّوْجيّ، فتح البيان: 1/438.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/338.
(6) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 1/218.
(7) الخازن، لُباب التّأويل: 1/207.

باسم الإشارة للبعيد يدُلُّ على علوّ همّتهم؛ فيكون في ذلك تنويه بذكرهم من وجهين:

أوّلهُمَا: الإشارة إليهم بما يدُلُّ على الرّفعة والعلوّ.

والآخَرُ: أنّ تعدد المبتدأ يجعل الجملة الواحدة كالجملتين؛ فيكون في ذلك توكيد على توكيد[1].

فجيء بإنَّ واسميّة الجملة، وَجِيءَ باسم الإشارة للدَّلالة على أَنَّ رجاءَهُم رحمةَ اللَّه لأَجل إيمانِهِم وهِجرَتِهِم وجِهادِهِم، ولأجل تأكيد هذا المعنى فتأَكَّدَ بذلك ما يدُلُّ عليه الموصول مِنَ الإيماء إلى وَجه بناء الخبر، وإنَّما احتيجَ لتأكيدِهِ، لأَنَّ الصِّلَتَين لَمَّا كانَتا ممَّا اشتُهِرَ بهما المسلمون وطائفةٌ منهم صارتا كاللَّقب؛ إذ يُطلَقُ على المسلمين يومئذٍ في لسان الشَّرع اسمُ (الَّذينَ آمَنوا)، كما يُطلَقُ على مُسلمي قريشٍ يومئذٍ اسمُ (المهاجرين)، فأَكَّدَ قَصدَ الدَّلالةِ على وَجه بناءِ الخبر مِنَ الموصول[2].

دلالةُ التّذييل بذكر المغفرة والرَّحمة في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾:

تَحْقِيقُ المُبالغة في وَصْـفِ الله تعَالَى بالْمَغْفِرَةِ والرَّحمة

هذا تذييلٌ لما تقدَّمَ وتأكيدٌ له، فاللّه ﴿غَفُورٌ﴾ مبالِغٌ في مغفرة ما فَرَطَ من عبادِهِ خَطَأً، ﴿رَّحِيمٌ﴾ يُجزِل لهم الأجرَ والثوابَ، ولم يَذْكُرِ المغفرةَ فيما تقدَّم؛ لأنَّ رجاء الرَّحمة يدُلُّ عليها، وقدَّمَ وصف المغفرةِ؛ لأنَّ درءَ المفاسد مُقدَّمٌ على جَلبِ المصالح، فالجملةُ تذييل محقَّقٌ لِمضمون ما قبلها[3]، كما أنَّ في إظهار الاسم الجليل في هذا التّذييل تربية للمهابة الجالبة للطَّاعة والاستجابة، وهما من مُوجبات الرَّحمة والغفران[4].

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

التَّمنّي والتّرجّي:

التَّمَنّي هو الرَّغبةُ في حُصول الشَّيء المستحيل، كقول الكافر عند

(1) ابن عُثَيمين، تفسير الفاتحة والبقرة: 3/63.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/338.

(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 1/218، والآلوسّي، روح المعاني: 1/506.

(4) القونويُّ، حاشية القونويّ على البَيضاويّ: 5/201.

مُعاينة العذاب ﴿يَٰلَيۡتَنِي قَدَّمۡتُ لِحَيَاتِي ٢٤﴾ [الفجر: 24]، أَو ما في حُكم المستحيل ممَّا يُمكنُ وُقوعُهُ، مِثلَ قَول الّذين يريدون الحياة الدُّنيا: ﴿يَٰلَيۡتَ لَنَا مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٖ ٧٩﴾ [القَصص: 79]، ويُعَبَّرُ عليه غالبًا بالأَداة (ليت)، فهي حرف تمنٍّ يتعلّق بالمستحيل غالبًا وبالممكن قليلًا[1].

التَّمنّي يكون في المستحيل وما في حُكم المستحيل، والرَّجاء يختَصُّ بالممكن

أمّا التَّرجِّي فهو رغبةٌ وطمع في حُصولِ أَمرٍ مُمكِنِ الحدوث[2]، كقوله تعالى على لسان موسى عليه السلام: ﴿قَالَ عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهۡدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ٢٢﴾ [القصص: 22]؛ وتُستخدم فيه الأَداةُ (لعلَّ) غالبًا.

فكلٌّ من التّمنّي والتّرجّي يَشتَمِلُ على معنى الطَّلب، إلَّا أَنَّ التَّمنّي يكون في المستحيل والممكن القريب منه، والرَّجاءَ يختصُّ بالممكن[3]، فالترجّي توقُّعُ أمرٍ مشكوكٍ فيه أو مظنونٍ، والتّمنّي طلبُ أمر موهوم الحصول وربّما كان مستحيلَ الحصول، نحو قوله تعالى: ﴿يَٰلَيۡتَهَا كَانَتِ ٱلۡقَاضِيَةَ ٢٧﴾ [الحاقّة: 27]، و﴿يَٰلَيۡتَنِي مِتُّ قَبۡلَ هَٰذَا﴾ [مريم: 23]، وهذا طلبٌ مستحيل؛ إذ كان الواقع بخلافه[4].

التَّمنّي يكون مع الكسل، والرَّجاء يكون مع العمل:

يكون التّمنّي مع الكسل، ولا يَسلُكُ بصاحبه طريقَ الجِدِّ والاجتهادِ، والرَّجاءُ يكونُ مع بَذل الجُهد وحُسن التَّوكُّل.

فالأوّل: كحال مَن يتمنَّى أَن يكونَ له أَرضٌ يَبذُرُها ويأخذُ زرعَها.

وَالثَّاني: كحال مَن يشقُّ أَرضَه، ويفلحُها، ويبذرُها، ويرجو طلوعَ الزَّرع.

ولهذا أَجمعَ العارفون على أَنَّ الرَّجاءَ لا يَصِحُّ إلَّا مع العمل[5].

(1) ابن هشام، مُغني اللَّبيب، ص: 375.
(2) الدَّماميني، تعليق الفرائد: 4/15.
(3) العسكريّ، الفُروق اللّغويّة، ص: 74، والصَّبَّان، حاشية الصَّبَّان على شرح الأشمونّي: 1/399.
(4) ابن يعيش، شرح المفصّل: 4/570.
(5) ابن قيّم الجوزيّة، مَدارج السّالكين: 2/37.

﴿۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ۖ قُلِ ٱلْعَفْوَ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾﴾

[البقرة: 219]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

ذِكْرُ أُمَّهات الخبائث بعد ذكرِ أُمِّهات الأطايب

لما ذَكَرَ تعالى فَرضَ النّفقة، ثُمَّ أتبعها بذكر القتال والجهاد والهجرة في سبيل اللّه، ونصَّ فيها على أنَّ فاعلَ أَجَدِّ الجِدِّ وأمّهات الأطايب من الجهاد، وما ذُكِرَ معه في محلّ الرَّجاء للرَّحمة، اقتضى الحالُ السُّؤالَ عن أَهزَلِ الهَزلِ وأمّهات الخبائث الخمر، لأنَّ السَّكران لا يُنتفعُ به في رأيٍ ولا بَطشٍ، فقال مُعْلِمًا بسؤالهم عنه ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ﴾؛ كما ناسب ذِكرَ سُؤالِهم عَنِ الخمر والميسر هنا، إذ هما أيضًا مِن مصارف المال، ومع مُداومتهما قلَّ أن يبقى مالٌ فتتصدَّق به، أَو تُجاهد به، فلذلك وقع السُّؤالُ عنهما[1].

وعليه فعلاقة الآية بما قبلها علاقة تناسب بالتّضاد.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلْخَمْرِ﴾: الخمر: ما أسكرَ من عصير العنب أو غيره، وهو يدُلُّ على التَّغطية، والمُخالطة في سَتر، وسُمِّيَت الخمر خمرًا؛ لأنَّها تُخامِرُ العقلَ وتخمِّرهُ، أي: تَستُرُهُ وتغطِّيه، والعرب تُسمِّي العنب خمرًا؛ لأنَّها تُعصَرُ منه[2].

2) ﴿وَٱلْمَيْسِرِ﴾: أصله يدُلُّ على انفتاح شيءٍ وخِفَّته، واشتقاقه من

(1) أبو حَيّان، البحر المُحيطُ: 2/402-403، والبِقاعيّ، نَظم الدّرر: 1/408.

(2) ابن دريد، جمهرة اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (خمر)، والفيروز آبادي، القاموس المحيط: (خمر)، والأنباري، الزّاهر في معاني كلمات النّاس: 1/436.

اليُسر؛ لأنَّه أخذُ مال الرَّجل بيُسرٍ وسُهولة من غير كَدٍّ ولا تعبٍ، وهو مِن يَسَرَ: إذا ضَرَبَ بالقِداح، والضَّارب بها يُقال له: ياسر، وجمعه ياسرون ويُسرٌ وأَيسارٌ، ، فالمَيسِرُ: تداولُ المال بالقمار والخِطار[1].

3) ﴿إِثۡمٞ﴾: أصل الإثم: البُطءُ والتَّأخُّرُ، والإثمُ مُشتقٌّ مِن ذلك، يُقال أَثِمَ فلانٌ يأثمُ إثمًا، أي: وقع في الإثم، والإثمُ: الذّنب؛ لأنّ هذا الإثم بطيءٌ عَنِ الخير مُتأخِّرٌ عنه، والمعنى هنا: أَي: في تناولِهما إبطاء عَنِ الخيرات[2].

4) ﴿يُنفِقُونَۖ﴾: أصل (نَفَقَ) يدُلُّ على انقطاع شيءٍ وذهابه، وأنفق يُنفِقُ المال إنفاقًا: صَرَفَهُ، والإنفاق: إخراج المال من الحَوْزة، والمعنى هنا: ما يعطون ويتصدَّقون في مصارف البِّر والصَّدقة[3].

5) ﴿ٱلۡعَفۡوَۗ﴾: الفَضل والكَثرَة، يُقال: عفا الشَّيءُ: إذا كَثُرَ، والعفو: مصدر عفا يَعفو إذا زاد ونما، وأصلُ (العفو) القصد لتناول الشَّيءِ وطلبه، يُقال: عفاه واعتفاه: إذا قصدهُ مُتناوِلًا ما عنده، ويُقال: "خُذْ ما عفا لك" أي: ما أتاك سهلًا بلا إكراه، ولا مشقّة، والمعنى هنا: ما زاد على حاجة المرء مِنَ المال، أَي: فَضَلَ بعد نفقته ونفقة عياله[4].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

حُـرمَـةُ الخمر والمـيـسـر لكثرة إثـمـهـمـا وقِـلَّـةِ منافعهما

يَسألك أصحابك - أيُّها النَّبيُّ ﷺ - عن حُكم تَعاطي الخَمرِ؛ وهي: كُلُّ مُسكِرٍ غَطَّى العقل وأذهبه؛ ويسألونَك عن حكم القِمار؛ وهو: ما يُؤخَذُ من المال عن طريق المنافسات الّتي فيها عِوَضٌ

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (يسر)، وابن قُتيبة، غريب القرآن، ص: 145، وابن الجوزيّ، تذكرة الأريب، ص: 32، وابن الهائم، التّبيان، ص: 107، والمُصطفوي، التَّحقيق في كلمات: 14/243.

(2) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللّغة، والرّاغب، المفردات، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والزّبيديّ، تاج العروس: (أثم)، والكفويّ، الكُلّيات، ص: 40.

(3) ابن سيده، المُحكَم، وابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (نفق)، وابن قُتيبة، غريب القرآن، ص: 81، والسِّجستانيّ، غريب القرآن، ص: 330.

(4) الراغب، المفردات، (عفا)، والزمخشري، أساس البلاغة، والسَّمين، عُمدة الحفّاظ، (عفو)، وابن قُتيبة، غريب القرآن، ص: 82، والسِّجِستانِيّ، غريب القرآن، ص: 330، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/351.

مِنَ الطَّرفَينِ المشترِكَين في المُنافسة، قل مُجيبًا إيَّاهم: فيهما مَضَارُّ ومفاسد دينيَّة، ودنيويَّة كثيرة؛ من ذَهاب العقل والمال، والوقوع في العداوة والبغضاء، وفيهما مَنافع قليلة كالمكاسب الماليَّة والرِّبح السَّهل، وضرَرُهما والإثم الحاصل بهما أكبرُ من نفعهما، وما كان ضُرُّه أكثرَ من نفعه؛ فإنَّ العاقلَ يجتنبه، وهذا البَيانُ مِنَ اللّٰه فيه تمهيدٌ لتحريم الخمرِ.

ويسألونك عن القَدْر الّذي يُنفِقونه من أموالهم تَبَرُّعًا وصَدَقَةً، قُلْ لهم: أنفقوا القَدْرَ الّذي يَزيدُ على حاجتكم.

مثلَ ذلك البيان الواضح يبيِّنُ اللّٰه لكم الآيات وأحكام الشَّريعة؛ لكي تَتَفَكَّروا فيما يَنفَعُكُم في الدُّنيا والآخرة[1].

❁ الإيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

وَجه مُتَعلَّق السُّؤال عن الخمر والميسر:

بيان حُكمِ تعاطي الخمر والميسر وإبطال عوائد الجاهليَّة في ذلك

قول اللّٰه تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ﴾ أي: يسألونك عمَّا في تعاطيهما، بدليل قوله تعالى: ﴿قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾، وإثمُهُما وعِقابُ الإثم في تعاطيهما أَكبَرُ مِن نَفعِهما؛ وهو الالتذاذ بشرب الخمرِ ومُتعة القمار، والطَّرب فيهما، والتَّوصل بهما إلى مصادقات الفتيان ومعاشراتهم، والنَّيل من مطاعمهم ومشاربهم وأُعطياتِهم، وسلب الأموال بالقمار، والافتخار بكل ذلك[2].

فالسُّؤالُ هنا ليس عَنِ الذَّات، وإنَّما هو عن حُكم هذين مِن حِلٍّ وحُرمةٍ وانتفاعٍ، ولذلك جاء الجوابُ مُناسبًا لذلك، لا جوابًا عن ذاتٍ، وهذا مِن عِداد الأحكام الَّتي بَيَّنَها في هاته السُّورة ممَّا يَرجعُ إلى إِصلاح الأحوال الَّتي كان عليها النَّاسُ في الجاهليَّة[3].

(1) لجنةٌ مِنْ علماء الأزهر، المُنتخب في تفسير القرآن الكريم، ص: 50، ونخبةٌ مِن العلماء، التفسير المُيَسَّر، ص: 34، وجماعةٌ مِن علماء التَّفسير، المُختصَر في تفسير القرآن الكريم، ص: 34.

(2) يُنظر: الزّمخشريّ، الكشَّاف: 1/262، والبَيضاويّ، أنوار التَّنزيل: 1/138.

(3) أبو حَيّان، البحر المُحيطُ: 2/403.

فهو استئنافٌ لإبطالِ عملَينِ غالبَينِ على النَّاس في الجاهليَّة، وهما شُربُ الخمرِ والميسرُ[1].

سِرُّ اقتران الخمر بالْمَيْسِر، ونكتةُ تَقديمِ ذِكْرِ الخَمْرِ على ذِكْرِ الْمَيْسِرِ.

بيان اشتراك الخمر والميسر في كونهما سببًا لضياع المال والعقل، والخمر أقوى في سبب الضّياع

قرن سبحانه وتعالى الخمر والميسر لتآخيهما في الضَّرر بالجهاد وغيره؛ بإذهاب المال مجانًا عن غير طِيبِ نَفسٍ، كما بَيَّنَ سبحانه وتعالى من المؤاخاة بينهما في سورة المائدة بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ٩٠﴾ [المائدة: 90][2]؛ لأنّ الخمر أشدُّ ضرَرًا، وأخبث شرًّا من الميسر؛ وفي كليهما إتلاف للعقل، وإتلاف للمال[3].

فائدةُ الاستعارة في الحرف (في) الدَّالِّ على الظَّرفيَّة:

المبالغة في بيان شدَّة تعلّق الإثم الكبير والمنفعة بهما

جيء بـ(في) الدَّالَّة على الظَّرفيَّة لإفادة شدَّة تعلُّق الإثم والمنفعة بهما؛ لأنَّ الظَّرفيَّةَ أشدُّ أنواع التَّعلُّق، وهي هنا ظرفيَّةٌ مجازيَّةٌ شائعةٌ في كلام العرب، وجُعِلَتِ الظَّرفيَّةُ مُتعلِّقةً بذات الخمر والميسر للمبالغة، والمُرادُ في استِعمالهما المُعتاد[4]. وجاءتِ المبالغة من تشبيه الخمر والميسر بوعاء يضمُّ أشياءَ خبيثة؛ منها: الإثم، ثمّ حُذف المشبه به، ورُمز له بحرف الوعاء (في) بما فيه من تجسيد للميسر والخمر والإثم؛ لأنّ الإثم ليس فيهما، وإنّما هو مصاحب لهما.

دلالة تقديم الإثم على المنافع:

تَحقُّقُ الإثم، وتأصُّلُهُ في الخمر والميسر

قُدِّم الإثمُ لِتأصُّلِهِ وتحقُّقِهِ فيهما قَطعًا، أمَّا المنافع فهي على حسب اعتقادهم، ولا أصل لها شَرعًا، والآية كانت تمهيدًا لتحريم الخمر، حيث إنَّها لم تُحرَّم دفعةً واحدة؛ لإلفِ المُخاطَبين لها، بَلْ كان التَّحريم تدريجيًّا - وهذا من عظمة الشَّرع - حتَّى نَزَلَ تحريمهما

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/338.
(2) البِقاعيّ، نَظم الدّرر: /408.
(3) الرّوينيّ، من غريب بلاغة القرآن الكريم، ص: 564.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/343.

صراحةً في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ﴾ [المائدة: 90][1].

سرُّ التَّعبير عن ذَنب تعاطي الخمر والميسر بالإثم:

بيان خِلال السُّوء الّتي فيهما قبل النَّهي، والإثم الّذي يَلحَقُ صاحبهما بعده

قول الله سبحانه: ﴿فِيهِمَآ إِثۡمٞ﴾ يحتمل معنيين؛ أحدهما: أَن يُراد في استعمالهما بعد النَّهي، والآخر: أن يُراد خِلالُ السُّوءِ الّتي فيهما[2]، للإشارة إلى لحُوق العقوبة بمتعاطي الخمر وبالمقامر في الدُّنيا والآخرة؛ ولأجل هذا جاءَ تَنكيرُ المُسند ﴿إِثۡمٞ﴾؛ للإيذان بفداحته وخُطورَته في الحالين[3].

الاستعارة في وصف الإثم بكونه كبيرًا، وكثيرًا في قوله: ﴿فِيهِمَآ إِثۡمٞ كَبِيرٞ﴾:

تَفظيعُ إِثْمِ الخَمْرِ والْمَيْسِرِ وتهويلُ شأنِه؛ تنفيرًا مِنْهُ.

قرأ حمزة والكِسائي ﴿كَثِيرٞ﴾ بالثَّاء المثلَّثة[4]، وهو مجازٌ استُعيرَ فيه وصفُ الكثيرِ للشَّديد؛ تشبيهًا لقوّة الكَيفيَّة بوَفرَة العدد[5]، فقد وُصِفَ الإثمُ بالكَثرَة؛ إمَّا باعتبار الآثِمينَ، فكأنَّه قيل: فيه للنَّاس آثام، أي: لكلِّ واحدٍ مِن مُتعاطيها إثمٌ، وإمّا باعتبار ما يَترتَّبُ على شُربِها مِن توالي العقاب وتضعيفه، وإمَّا باعتبار ما يترتَّبُ على شُربها ممَّا يصدُر من شاربها من الأقوال السَّيئة، والأفعال القبيحةِ، كالسِّباب والافتراء والأذيّة والتَّعدي، فناسبَ أَن يُنعَتَ بالكَثرَة، وإمّا باعتبار مَن زَاوَلَها مِن لَدُن كانت إلى أن بِيعت وشُرِيَت، فقد لَعَنَ رسولُ اللَّهِ ﷺ الخمر، وشاربَها، وساقِيَها، وبائعَها، ومبتاعَها، وعاصرَها، ومعتَصِرَها، وحاملَها، والمحمولةَ

(1) الرّوينيّ، من غريب بلاغة القرآن الكريم، ص: 565.
(2) ابن عطيَّة، المُحرّر الوَجيز: 1/294.
(3) الدَّبل، دليل البلاغة القرآنيَّة، ص: 294.
(4) ابن الجزريّ، النَّشر: 2/227.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/344.

إليه[1]، فهذه آثام كثيرة، وأيضًا فجمعُ المنافع يحسنُ معه جمعُ الآثام، و(كثير) بالثّاء المثلّثة يعطي ذلك.

وقرأ باقي القرّاء وجمهور النّاس ﴿كَبِيرٌ﴾ بالباء الموحَّدة، وحجّتهم: أنّ الذّنب في القمار وشرب الخمر منَ الكبائر، فَوَصَفَهُ بالكبيرِ، وأيضًا فاتّفاقهم على (أَكبَر) حجّة لـ(كبير) بالباء[2]، ودلالة وصف الإثم بأنّه كبير؛ لتفظيع الإثم وتهويل شأنه، وللتّنفير منه بيان لفداحته وخطره[3]؛ وهذا مادلَّ عليه الجناس المغاير بين لفظتي (كبير وأكبر)، والوصف بالأحجام يكون في الجثث، ففي الاستعارة تجسيد للإثم، وزيادة تبشيع له، وتقبيح إلى النّفوس، ممّا يدعو إلى الإسراع في الإقلاع عنه.

ففي قراءتي الباء الموحدة والثّاء المثلّثة: إنباء عن مجموع الأمرَين من كبر المقدار وكثرة العدد، وواحد من هذين يصدّ ذا الطبع الكريم والعقل الرّصين عن الإقدام عليه، بل يتوقّف عن الإثم الصّغير القليل، فكيف عن الكبير الكثير؟![4].

السِرُّ في ترك وصف المنافع:

بيان حقارة تلك المنافع والتّزهيد فيها:

المنفعة في "الخمر": اللَّذَّة بها، كما قال حسَّان بن ثابت رضي الله عنه:

ونَشْرَبُها فَتَتْرُكُنا مُلُوكًا *** وأُسْدًا ما يُنَهْنِهُنَا اللِّقَاءُ[5].

والمنفعة بها أيضًا: كَسبُ أثمانِها؛ لأَنَّهم كانوا يَجلِبونها مِنَ الشَّامِ برُخصٍ، فيبيعونها في الحجاز بربحٍ كثيرٍ.

وأمّا اللَّذَّةُ فهي مُضرّةٌ عند العقلاء؛ لأَنَّ ما تَجلِبُهُ مِنَ اللَّذَّة لا يفي بما تُذهِبُهُ مِنَ التَّحصيل والعقل[6]، ولأنَّ الإثم فيهما بعد التَّحريم، والمنفعة فيهما قبله[7]، فلا عِبرة بتلك المنافع بعد تحريمها.

---

(1) رواه أبو داوود في سننه، حديث رقم: (3674)، والبيهقيُّ في سننه، حديث رقم: (11045)، من حديث عبد الله بن عُمَر رضي الله عنهما؛ وصحَّحه الألبانيّ في الإرواء، حديث رقم: (2385)، يُنظر: الألبانيّ، إرواء الغليل: 8/50.

(2) ابن عطيَّة، المُحرّر الوَجيز: 1/294، وأبو حَيّان، البحر المُحيط: 2/405، والسَّمين، الدُّرُّ المَصون: 2/407-408.

(3) الدَّبل، دليل البلاغة القرآنيَّة، ص: 294.

(4) البِقاعيُّ، نَظم الدّرر: 1/408.

(5) ديوان حسَّان بن ثابت، ص: 19.

(6) ابن العربيّ، أحكام القرآن: 1/299.

(7) ابن عطيّة، المُحرّر الوَجيز: 1/294.

وكذلك "الميسر"؛ فقد كانتِ النُّفوسُ تَنتفعُ بما تُحصِّلُهُ به مِنَ المال، وما يَحصُلُ به مِن لذَّة اللَّعب[1].

دلالة العَطف وتَكرار السُّؤالِ في قوله تعالى﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَۖ قُلِ ٱلْعَفْوَۗ﴾:

ذِكرُ مِقدار الإنفاق بعد ذِكرِ مَصارِفه، وبيان أثر تعاطي الخمر والميسر في تَعَطُّل الإنفاق

كان سُؤالُ المؤمنين عن الخمر والميسر حاصلًا مع سؤالهم ﴿مَاذَا يُنفِقُونَۖ﴾، فعُطِفَتِ الآية الّتي فيها جَوابُ سؤالهم ﴿مَاذَا يُنفِقُونَۖ﴾ على آية الجواب عن سؤال الخمر والميسر، ولذلك خُولِفَ الأسلوب الّذي سَلَفَ في الآيات المُختلفة بجُمَلِ ﴿يَسْـَٔلُونَكَ﴾ من دون عطف، فجيء بهذه معطوفة بالواو على الّتي قبلها، فساق ذلك سبحانه وتعالى على طريق العطف؛ لأنَّه لمَّا تقدم السّؤال عنه والجواب في قوله: ﴿قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ﴾ [البقرة: 215]؛ مُنِع من توقع سؤالٍ آخرَ[2]، فهذا السُّؤالُ قد تَقَدَّم ذِكرُهُ فأجيب عنه بذِكرِ المصرِفِ، وأُعيد ههنا فأجيب عنه بذكر الكميَّة، فلمّا رأى النّاس أنّ اللّه ورسولَه يَحُضَّانِ على الإنفاق، ويدُلَّان على عظيم ثوابه، سألوا عن مِقدارِ ما كُلِّفُوا به، هل هو كلُّ المال أو بعضه؟ فأعلمهم اللّه أنَّ العَفوَ مقبول[3].

ووَجهُ السُّؤال عن الإنفاق بعد ذِكر الخمر والميسر أَنَّ تعاطيَهما وإدمانَهما يُتَوقَّعُ منه تَعَطُّل إنفاقٍ عظيمٍ كان ينتفع به المحاويج، فَبَيَّنت لهم الآية وجهَ الإنفاق الحَقِّ[4].

وقد أَشعرَ تَكْريرُ السُّؤال عنها بتكريرِ الواردات المقتضية لذلك، فأنبأ ذلك بعظم شأنها؛ لأنَّها أعظم دعائم الجهاد[5].

(1) ابن تيميّة، مجموع الفتاوى: 32/230.
(2) البِقاعيّ، نَظم الدّرر: 3/260.
(3) الرّازيّ، التفسير الكبير: 6/49.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/350.
(5) البِقاعيّ، نَظم الدُّرر: 3/260.

دلالةُ التَّعبير عن الصَّدقة المستحبَّة بلفظة العفوِ:

بَيانُ أنَّ الإنفاقَ يكُونُ مِمَّا زاد عَنِ الحاجة، وذِكْرُ أَفضلِ الإنفَاقِ

العفو: مَصدَرُ عَفا يَعفو؛ إذا زَادَ ونَمَى، قال تعالى: ﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا۟﴾ [الأعراف: 95]، وهو في قوله: ﴿قُلِ ٱلْعَفْوَ﴾ ما زاد على حاجة المرء مِنَ المال، أَي: فَضَلَ بعد نفقتِه ونفقة عياله بمُعتادِ أَمثاله، فالمعنى أَنَّ المرءَ ليس مُطالبًا بارتكاب المآثم لِيُنفقَ على المحاويج، وإنَّما يُنفقُ عليهم ممَّا استَفضَلَهُ مِن ماله، وهذا أَمرٌ بإنفاقٍ لا يَشُقُّ عليهم، وهذا أَفضلُ الإنفاق[1].

وَجهُ ذكر مَنافع الخَمر والميسر مع أنَّ سياقَ التَّحريمِ والتَّمهيد له يقتضي تنَاسِيَ المنافع:

بيان حكمة التَّشريع؛ ليَعتاد المسلمون مُراعاة علل الأحكامِ

إن كانتِ الآية نازلةً لتحريم الخمر والميسر؛ فالفائدة الأولى في ذكر المنافع؛ هي بيان حكمة التَّشريع ليَعتاد المسلمون مُراعاة عِلَل الأحكام؛ لأنَّ الله جعل هذا الدّين دينًا دائمًا، وأَودعَهُ أُمَّةً أراد أن يكون منها مُجْتَهِدُونَ لما يستَجِدُّ من الحوادث المختلفة، فلذلك أشار لِعِلَلِ الأحكام في غير مَوضِعٍ، كقوله تعالى بعد ذِكْرِ الغَيْبَة: ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا﴾ [الحجرات: 12]، وتخصيص التَّنصيص على العلل ببعض الأحكام في بعض الآيات؛ إنَّما هو في مَواضِع خفاء العِلَل، فإنَّ الخمرَ قدِ اشتهرَ بينهم نَفعُها، والمَيسِرُ قد اتَّخذوه ذَريعةً لنفع الفقراء، فوجب بيانُ ما فيهما مِنَ المفاسد إنباءً بحكمة التَّحريم. وثَمَّ فائدةٌ أُخرى؛ وهي تأنيسُ المُكلَّفينَ عِنْدَ فِطامِهم عن أَكبرِ لذائذهم تَذكيرًا لهم بأنَّ ربَّهم لا يريد إلاَّ صلاحَهم من دون نكايتهم، كقوله: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة: 216]، وقوله: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ [البقرة: 183] وهنالك أَيضًا فائدةٌ أُخْرى؛ وهي عُذرُهُم عمَّا سلف منهم حتَّى لا يَستكينوا لهذا التَّحريم والتَّنديد على المفاسد،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/351.

كقوله: ﴿عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمۡ كُنتُمۡ تَخۡتَانُونَ أَنفُسَكُمۡ فَتَابَ عَلَيۡكُمۡ وَعَفَا عَنكُمۡۖ﴾ [البقرة: 187][1].

دلالات اسم الإشارة ﴿كَذَٰلِكَ﴾ واقترانه بالكاف:

بيان أَنَّ العفوَ أَصلحُ مِنَ الجهدِ فِي النَّفقة، والإشارة إلى بيان الأحكام السَّابقة جميعًا

وردتِ الكافُ للتَّشبيه، وهي في مَوضِع نعتٍ لمصدرٍ محذوفٍ، أي: تَبيينًا مثلَ ذلك يُبيِّنُ، أو في مَوضِع الحال: أي: يُبيِّنُ التَّبيينَ مُماثِلًا لذلك التَّبيينِ.

واسمُ الإشارةِ الأقرَبُ أن يعودَ إلى الأقربِ مِن تَبَيُّنِه حالَ المُنفقِ أو ما يؤولُ إليه؛ وهو تَبيينُ أَنَّ العفوَ أَصلحُ مِنَ الجَهد في النَّفقة، أو حُكم الخَمر والميسر، والإنفاق القريب، أَي: مثل ما يُبيِّنُ في هذا يُبيِّنُ في المستقبل، والمعنى: أَنَّه يُوضِّحُ الآيات مِثلَ ما أَوضحَ هذا، ويجوزُ أَن يُشارَ به إلى بيان ما سألوا عنه، فبيَّنَ لهم كتَبيينِ مَصرَفِ ما يُنفقون، وتَبيينِ ما ترتَّبَ عليه مِنَ الجزاء الدَّالّ عليه عِلمُ اللَّهِ في قوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: 215]، وتَبيينِ حُكم القتال، وتَبيينِ حاله في الشَّهر الحرام، وما تضمَّنَته الآيةُ الَّتي ذُكِرَ فيها القِتالُ في الشَّهر الحرام، وتَبيينِ حالِ الخمر والميسر، وتَبيينِ مقدار ما يُنفقون[2].

وفي تقديم الجارِّ والمجرور من قوله: ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ﴾ توكيد وتَقويةٌ لحكم وجوه البيان.

وَقَد حَمَل اسمُ الإشارة هنا معنى البُعدِ؛ للإيذان بعلُوِّ درجة المُشار إليه في الفضل مع كمال تميّزِه وانتظامِه - بسبب ذلك - في سلك الأمور المُشاهَدَة، والكافُ لتأكيد ما أفاده اسمُ الإشارة من الفخامة[3]، مع ما في ذكر الاسم الأحسن ﴿ٱللَّهِ﴾ بعده من تربية للمَهابَة.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/345.
(2) أبو حَيّان، البحر المُحيط: 2/408.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 1/219.

فاقتران اسم الإشارة بعلامة البعد تعظيمٌ لشأن المُشار إليه لكماله في البيان؛ إذ هو بيانٌ للحُكم مع بيان عِلَّته حتَّى تتلقَّاهُ الأمَّةُ بطيبِ نَفسٍ، وحتَّى يُلحِقوا به نظائرَهُ، وبيانٌ لقاعدةِ الإنفاقِ بما لا يَشِذُّ عن أحدٍ مِنَ المُنفقين[1].

دِلَالَةُ تَوْحِيد الخطابِ في ﴿كَذَٰلِكَ﴾:

تناول الخطاب للمفردِ والجمعِ على حدٍّ سواء

الكاف في ﴿كَذَٰلِكَ﴾ علامة حال المُخاطَب مِن الإفراد والجمع والتَّذكير والتَّأنيث، والمخاطبون هنا جَمعٌ، فكان مقتضى الظَّاهر أن يُقال: (كَذَلِكُم)، لكن وحَّدَ في مَقام الجمع بتأويل القَبيل أو القوم أو الجمع ممَّا هو مفردٌ في اللَّفظ ومجموع في المعنى[2].

وهي لغةُ العربِ؛ يُخاطبون الجمعَ بخطاب الواحد، وذلك في اسم الإشارة، ويؤيِّدُ هذا هنا قوله: ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ﴾، فأتى بضمير الجمعِ فدلَّ على أنَّ الخطابَ للجمع[3].

خروج (لعلّ) من معنى التّرجّي إلى التَّعليل في قوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾:

(لعلّ) في مثل هذا المقام استعارة تمثيليَّة، والتَّفسير بـ(كي) هو الإشارةُ إلى حاصل المعنى[4].

وفي هذا التَّعليلِ امتنانٌ وتَشريفٌ بهذه الفضيلةِ؛ لإشعاره بأنّ البيانَ على هذا الأسلوبِ ممَّا اختُصَّت به هاته الأُمَّةُ ليتلقَّوا الشَّرائعَ على بصيرة، بمنزلة المَوعظة الَّتي تُلقى إلى كامل العقل مُوضَّحةً بالعواقب، لأنّ اللَّه أراد لهاته الأُمَّة أن يكونَ عُلماؤُها مُبيِّنينَ للشَّريعة، وبيّن فائدةَ هذا البيان على هذا الأسلوب بقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ۝١٩ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ﴾ [البقرة: 219 - 220]، أي: لِيَحصُلَ للأمّة تفكُّرٌ وعلمٌ في أُمور الدُّنيا وأُمور الآخرة[5]، فأخبر تعالى أنَّه يُبيِّنُ للمؤمنين الآيات الّتي تَقودُهم إلى الفكرة في الدُّنيا والآخرة، وذلك طريق النَّجاة لمَن تَنفَعُهُ فِكرَته[6].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/352.
(2) البَيضاويّ، أنوار التَّنزيل: 1/138، وابن التَّمجيد، حاشية ابن التَّمجيد على البَيضاويّ: 5/208.
(3) أبو حَيّان، البحر المُحيط: 2/408.
(4) القُونَويّ، حاشية القُونَويّ على تفسير البيضاويّ: 5/209.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/353.
(6) ابن عطيَّة، المُحرّر الوجيز: 1/295، والثَّعالبيّ، الجواهر الحسان: 1/170.

وإنّما جاءت (لعلّ) هنا بمعنى التّعليل؛ ليكون التّعليلُ مصحوبًا بالرّجاء، فكلّما كان القلبُ مُعلّقًا بالرّجاء في الأخذ بالأسباب؛ كان أرجى للقبول وأقرب إلى نجاح الأمور.

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الإثم والذَّنب:

الإثم هو الذَّنب الّذي عليه تَبِعَةٌ، أمّا الذُّنوب فمنها ما لا تَبِعَةَ فيه

الإثم والأثام اسم للأفعال المبطِّئَة عن الثّواب، وجمعه: آثام، ولتَضَمُّنه لمعنى البطء[1]، والإثم في أصل اللُّغَة التَّقصير، فيُقال: أثم يأثم، إذا قَصَّرَ، والإثم: الخطيئةُ وأن يعملَ المرء ما لا يحلّ له، وفي التّنزيل: ﴿وَٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمۡ يَغۡفِرُونَ ٣٧﴾ [الشّورى: 37] فيكون كالذّنب على هذا المعنى[2]، أَمَّا الذَّنب فهو ما يتبعهُ الذَّم أَو ما يتبع عليه العَبد من قَبيح فعله، ولهذا يُقال للصَّبي إذا فعل ما يُذَمُّ عليه: قد أذنب، ولا يُقالُ: قد أَثِمَ، والأصل في الذَّنب الرَّذلُ من الفعل، والفرق بين الإثم والذَّنب أنَّ الإثمَ هو القبيح الَّذي عليه تَبِعَةٌ، والذَّنب هو القبيح من الفعل ولا يُفيد معنى التَّبِعَةِ[3].

المنفعة والنّعمة:

النِّعمة ما قُصِدَ به الإحسانُ ولا تكون إلّا حَسَنَةً، والمنفعة أَعمُّ

النّعمة هي المنفعةُ المفعولةُ على جهة الإحسان إلى الغير، فخرجَ بالمنفعة المضَرَّةُ، كمن أَحسنَ إلى جاريةٍ لِيربح فيها، أو أراد استِدرَاجَ غيره بمحبوبٍ إلى ألم، أو أطعمَ غيرَه نحو: سُكرٍ أو سمّ لِيهلِكَ، فليسَ بنعمة[4]. فالمنفعةُ تكونُ حَسنةً؛ وهي ما يُستعانُ به في الوصول إلى الخير، وتكون قبيحة. أمَّا النِّعمةُ فهي ما قُصِدَ به الإحسانُ ولا تكون إلّا حَسنةً[5].

(1) الرّاغب، المفردات: (إثم).
(2) ابن سيده، المُحكَم، وابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس: (أثم).
(3) العسكريّ، الفُروق اللُّغويّة، ص: 233.
(4) الرّازيّ، التفسير الكبير: 1/220، والمَناويّ، التّوقيف على مُهمّات التّعاريف، ص: 327، والرّاغب، المفردات: (نعم).
(5) العسكريّ، الفُروق اللّغويّة، ص: 196، والزّبيديّ، تاج العروس: (نفع).

﴿فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۗ وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡيَتَٰمَىٰۖ قُلۡ إِصۡلَاحٞ لَّهُمۡ خَيۡرٞۖ وَإِن تُخَالِطُوهُمۡ فَإِخۡوَٰنُكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ ٱلۡمُفۡسِدَ مِنَ ٱلۡمُصۡلِحِۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعۡنَتَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ٢٢٠﴾ [البقرة: 220]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

ذكَرَ أبو حيَّان أنَّ في هذه الآية مناسبتين لما قبْلها، أوّلها: أنّه لَمّا ذَكَر السُّؤال عن الخمْرِ والمَيْسِرِ، وكان تركُهُما مدعاةً إلى تنميةِ المال، وذكر السُّؤال عن النَّفقة، وأجيبوا بأنهم يُنفقونَ ما سَهُلَ عليهم، ناسبَ ذلك النَّظر في حال اليَتِيم، وحِفْظِ مالِه، وتنميتِهِ، وإصْلاحِهِ، وَتَرْبِيَتِهِ. فالجامِعُ بين الآيتين أنَّ في ترك الخَمْر والمَيْسِر إصْلاحَ أحوالِهم وأنفسِهم، وفي النَّظر في حال اليتامى إصْلاحًا لغيرهم ممَّن هو عاجزٌ أنْ يُصلح نفسَه، فَيَكونونَ قد جمَعُوا بين النَّفع لأنْفُسِهم ولغيرِهم.

وثانيها: أنّه لما كان العفْوُ غير مقْصُورٍ على المال بل يعمُّ القوى البَدَنيَّة والعقليَّة وكان النَّفعُ لليتيم من أجلِّ ما يُرشِدُ إليه التَّفكُّرُ في أمور الآخرة وكان الجِهادُ من أسبابِ القتْل المُوجبِ لليُتْم؛فنزل التَّحريج الشَّديد في أكل أموالهم؛ فجانبوهم واشتدَّ ذلك عليهم، فسألوا، فندبَهم سبحانَه وتعالى إلى مخالطَتِهم على وجهِ الإصْلاح الذي لا يكون لمنْ يتعاطى الخَمْرَ والمَيْسِرَ[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلدُّنۡيَا﴾: الدَّالُ، وَالنُّونُ، وَالحَرْفُ المُعْتَلُّ أَصْلٌ وَاحِدٌ يُقَاسُ بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ، وَهُوَ القُرْبُ[2]. والدُّنيا فُعْلَى من الدُّنوِّ، أي: دَنَتْ وتأخَّرَتِ الآخِرةُ. والسَّماء الدُّنيا؛ لقُرْبها من ساكني الأرض[3]. والدُّنوُّ: القُرْبُ بالذّات، أو بالحُكْم، ويُستعمل في المكان، والزَّمان، والمنزلة[4]. وكلمة (الدُّنيا) من أشْيَعِ مُفردات القرآن، وهي اسمٌ لهذه الحيَاة لبُعد الآخِرة عنها، وكلّ ما فيه من التَّركيب هو من الدُّنوِّ: القُرْبِ، لكنَّ هناك صُوَرًا خاصَّةً له[5].

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/170.
(2) ابن فارس، المقاييس: (دَنَىَ).
(3) الخليل، العين: (دنأ، دنو)، ابن الأثير، النهاية: (دنا).
(4) الراغب، المفردات: (دنا).
(5) جبل، المعجم الاشتقاقي: (دنو).

2) ﴿وَٱلۡأٓخِرَةِۚ﴾: الهَمْزَةُ وَالخَاءُ وَالرَّاءُ أَصْلٌ وَاحِدٌ إِلَيْهِ تَرْجِعُ فُرُوعُهُ، وَهُوَ خِلَافُ التَّقَدُّمِ. والآخِرُ، والآخِرة نَقِيضُ المُتَقَدِّمِ والمُتَقَدِّمَة[1]. ويعبر بالدار الآخرة عن النَّشأة الثانية، كما يُعبَّر بالدَّار الدُّنيا عن النَّشأة الأولى[2]، فـ﴿ٱلۡأٓخِرَةِ﴾: صفةٌ غالبةٌ للدّار أو الحيَاة التي بعد دار الدُّنيا. وهي في كل القرآن بهذا المعنى عدا ﴿ٱلۡمِلَّةِ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ [ص: 7][3].

3) ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ﴾: السِّينُ، وَالهَمْزَةُ، وَاللَّامُ كَلِمَةٌ وَاحِدَةٌ، وهي: اسْتِدْعاء معرفةٍ، أو ما يؤدِّي إلى المعرفةِ، واسْتِدْعاءُ المعرفةِ جوابُه على اللسان[4]. والسُّؤال استخْبارٌ، والمجيبُ مخْبِرٌ[5]. وخلاصةُ معنى هذا التَّركيب هو الطَّلبُ: إما طلبُ شيءٍ، وتحصيلُه، أو طلبُ علمٍ أو معلومةٍ عن شيءٍ[6]. وهو معنى اللفظة في الآية الكريمة.

4) ﴿ٱلۡيَتَٰمَىٰۖ﴾: ذهبَ الخليلُ إلى أنّ اليُتْم لا يقال: إلّا بفقدانِ الأَبِ[7]. ونقلَ عنه الأزهريُّ أنَّ "اليَتِيم الَّذِي مَاتَ أَبوهُ فَهُوَ يتيمٌ حَتَّى يَبْلُغَ، فَإِذا بَلَغَ زَالَ عَنهُ اسْم اليَتِيم"[8]. ووسَّع ابن دريد فذهب إلى أنّ اليُتْم: هو الفَرد، وَبِه سُمِّيَ الَّذِي يَمُوتُ أَحَدُ وَالِديهِ؛ كَأَنَّهُ أُفْرِدَ[9]. ونُقل عن ابن السِّكيت أنّه لا يُقال لِمَنْ فَقَدَ الأُمَّ من النَّاس: يَتِيمٌ، ولكن مُقْطَعٌ[10]. وعلى هذا فاليَتِيم من الصبيان: الذي مات أبوه، فأُفرِد بذاته، وكل ما في القرآن من التَّركيب هو اليَتِيمُ بهذا المعنى أُفرد، أو ثنّي، أو جُمِع[11].

5) ﴿قُلۡ﴾: (القَافُ، والواوُ، واللّامُ) أَصْلٌ صحيحٌ، وهو القوْلُ من النُّطقِ[12]. والقوْلُ: كلُّ لفظٍ قال به اللسان تامًّا كان، أو ناقصًا، فهو: الألفاظُ المفردةُ التي ينبني الكلامُ

(1) الخليل، العين: (أَخَرَ)، ابن فارس، المقاييس: (أَخَرَ).
(2) الراغب، المفردات: (آخر).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقي: (أَخَرَ).
(4) ابن فارس، المقاييس، الراغب، المفردات: (سَأَلَ).
(5) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 41.
(6) جبل، المعجم الاشتقاقي: (سأل).
(7) الخليل، العين: (يَتَمَ).
(8) الأزهري، تهذيب اللغة، الراغب، المفردات: (يَتَمَ).
(9) ابن دريد، جمهرة اللغة: (يَتَمَ).
(10) المحكم، ابن سيده: (يَتَمَ).
(11) جبل، المعجم الاشتقاقي: (يَتَمَ).
(12) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قول).

منها[1]، ويُقالُ: هذا قولُ فلانٍ، أي: رأيُه، ومذهَبُه[2]، أي: "لم يُرد القول النطقيَّ فقط، بل معه اعتقادٌ، وعمل"[3]، فالقول يُستعمَل على أنحاءٍ، منها: أنْ يُفْصَل به حكاية الجُمَل المفيدة، وهذا غالب أحواله، وقد يُراد به: الاعتقادُ[4]. فقد يُطلق القول على الآراء، والاعتقادات[5]، وهو في الآية المباركة أمر من الله لنبيّه ﷺ بإجابة السّائلين عن اليتامى قولا متضمّنًا حقيقة التَّشريع، والمعتقد، والحكمة في هذه المسألة.

6) ﴿إِصْلَاحٌ﴾: الصَّادُ، وَاللَّامُ، وَالحَاءُ أَصْلٌ وَاحِدٌ يدلُّ عَلَى خِلَافِ الفَسَادِ[6]. فالصّلاحُ: نقيض الطّلاح[7]. وهما مختصَّان في أكثر الاستعمال بالأفعال، وقُوبِل في القرآن تارةً بالفَساد، وتارةً بالسَّيِّئَة[8]. وَأصْلح الشَّيء بعد فَسَاد، أَقَامَهُ. وأصلحَ الدَّابَّة: أحسن إِلَيْهَا، فصَلَحَتْ. فالصالحُ: الَّذِي يؤدِّي إِلَى اللّه ﷻ مَا افْترض عَلَيْهِ، وَيؤدِّي إِلَى النَّاس حُقُوقهم، والمُصْلِح، المُقِيم على الإِيْمَان المُؤَدِّي فَرَائِضه اعتقادا وَعَملا[9]. والإِصْلاح الاسْتِقَامَة على مَا تَدْعُو إِلَيْهِ الحِكْمَة[10]، ومما سبق يتبيَّنُ أنَّ الإصْلاح هو الذي يتَّفق ويلتئم مع ما يطلبه الشرع، أو يرضاه من صدور الأفعال والأقوال الحسنة[11]. وبه تُفَسَّرُ اللفظة في الآية الكريمة.

7) ﴿خَيْرٌ﴾: الخاءُ، واليَاء، والرَّاءُ: جذرٌ أصلُهُ العَطْف، والميْلُ، ونقيضُهُ الشَّرُّ؛ لأنَّ كلَّ واحدٍ يميلُ إليه، ويعطِفُ على صاحبِه، والخيرُ: الكَرمُ[12]، وهو: ما يرغبُ فيه الكلُّ: كالعَقْلِ، والعَدْلِ، والفَضْلِ، والشَّيء النافع، وهو من الخير المطلق؛ لكونه مرغوبًا فيه بكلِّ حالٍ[13]. وتحتملُ الخيريَّة في الآيةِ الكريمةِ المعانيَ الواردةَ في تفْسيرها من مَيْلٍ إلى اليَتِيم،

(1) ابن سيده، المحكم، ابن منظور، اللسان: (قول).
(2) الزمخشري، أساس البلاغة: (قول).
(3) السمين، عمدة الحفاظ: (قول).
(4) السمين، المصدر نفسه: (قول).
(5) ابن سيده، المحكم: (قول).
(6) ابن فارس، المقاييس: (صلح).
(7) الخليل، العين: (صلح).
(8) الراغب، المفردات: (صلح).
(9) ابن سيده، المحكم: (صلح).
(10) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 209.
(11) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/355.
(12) ابن فارس، المقاييس: (خير).
(13) الراغب، المفردات: (خير).

وعطْفٍ، وَكَرَمٍ، وعَدْلٍ، وفَضْلٍ، ونفْعٍ، وغير ذلك ممّا يُتحصَّلُ به النَّظر في إصْلاحِهِ في أموالِهِ وبدَنِهِ وترْكِ إضاعتِهِ بالتَّقويمِ والتَّأديبِ وغيرها، لكي ينْشَأ على عِلمٍ وأدبٍ وفضْلٍ، فضلا عن النَّظر في حال الوليّ بدَفْعِ التَّقْصير عنه في حقِّ اليَتيم[1].

8) ﴿تُخَالِطُوهُمْ﴾: الخَاءُ، وَاللَّامُ، وَالطَّاءُ أَصْلٌ وَاحِدٌ مُخَالِفٌ للخلوص الَّذِي هُوَ تَنْقِيَةُ الشَّيء وَتَهْذِيبُهُ، بَل هُوَ مُضَادٌّ لَهُ[2]. فالخلط: خلطُكَ الشَّيء بعضَه ببَعْض[3]. والخُلَطَاءُ: الشُّرَكاءُ، الَّذين لَا يتميَّز مِلكُ كلِّ واحدٍ من مِلكِ أَصْحابِه إلَّا بالقِسْمَةِ[4]. ويقال للصَّديق والمجاور والشَّريك: خليطٌ[5]. ومعنى اللفظة في الآية الكريمة: خلطُ مالِ اليَتيم بمالِ كافلِه[6].

9) ﴿فَإِخْوَٰنُكُمْ﴾: الأصل فيه: أخَوَ، وهو: المشاركُ آخَرَ في الولادة من الطَّرفين، أو من أحدهما، أو من الرَّضاع. ويُسْتَعار في كلّ مشاركٍ لغيره في القبيلة، أو في الدِّين، أو في صنْعةٍ، أو في معاملةٍ، أو في مودَّةٍ، وفي غير ذلك من المناسبات[7]. وأصلُ معناه عُرْوةٌ أو نحوها يُشَدُّ فيها الشَّيء، أي: يُرْبَط كما تُرْبط الدابَّة في عُرْوة الآخية. والأَخَوانِ مرتبطان بخروج كلٍّ منهما من نفس الصُلب، ولِملحظِ الارتباطِ عُبّر بها عن الصَّداقة والصُّحبة، وفي المقترنين المتلازمينِ في عقيدة أو حال[8]. ومعناه في الآية الكريمة: مُلازِمونَ لكم مُشارِكونَ فيما خالطوكُم فيه.

10) ﴿ٱلْمُفْسِدَ﴾: الفَاء، والسِّين، والدَّال كلمةٌ واحدةٌ، هي: الفَساد[9]: نَقيضُ الصَّلاح[10]، وفَسَد الشَّيء: إذا بارَ[11]. وبَطَلَ واضْمَحَلّ، وتَغَيَّرَ، فهو: أَخْذُ المالِ ظُلماً بِغَيْر حَقٍّ[12]، وهو: خروج الشَّيء عن الاعتدال، قليلا كان الخروجُ عنه أو كثيرًا، ويُستعمل في النَّفْس، والبَدَن، والأشياء الخارجة عن الاستقامة[13]. وخلاصةُ القوْل في الفَسَاد في هذه الآية أنّه: يشملُ

(1) الرازي، مفاتيح الغيب: 6/404، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/356.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (خَلَطَ).
(3) ابن دريد، جمهرة اللغة: (خَلَطَ).
(4) الأزهري، تهذيب اللغة: (خَلَطَ).
(5) الراغب، المفردات: (خَلَطَ).
(6) جبل، المعجم الاشتقاقي: (خَلَطَ).
(7) الراغب، المفردات: (أخ)
(8) جبل، المعجم الاشتقاقي: (أخو: أخي)
(9) ابن فارس، المقاييس: (فسد).
(10) الخليل، العين: (فسد).
(11) الأزهري، التهذيب: (فسد).
(12) الزبيدي، التاج: (فسد).
(13) الراغب، المفردات: (فسد).

الأضرارَ التي تَمَسُّ اليَتِيمَ مباشرةً وذلك بالتَّقصير في الرِّعاية، والتَّربية، والغِشّ، والإهمال، ونهْبِ المال وسرقتِه، والخيانَةِ في إدارته وغيرها.

11) ﴿لَأَعْنَتَكُمْ﴾: العَيْنُ، وَالنُّونُ، وَالتَّاءُ أَصْلٌ صَحِيحٌ يدلُّ عَلَى مَشَقَّةٍ وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، وَلَا يدلّ عَلَى صِحَّةٍ وَلَا سُهُولَةٍ[1]. والعَنَت: إدخالُ المشقّةِ على إنسانٍ[2]. والعَسْف أو الحَمْل على المَكْرُوه[3]. وهو الفساد، والهَلَاك. وأعْنَتهُ وتَعَنَّتَه: سَأَلَهُ عَن شَيْء أَرَادَ بِهِ اللّبْس عَلَيْهِ وَالمَشَقَّة، أوْقَعه في الهَلَكَة[4]. والمعانتة: معاندةٌ فيها خوفٌ وهلاكٌ، ووقوعٌ في أمر يُخافُ منه التَّلف[5]. وعَنَتَهُ: شدَّد عليه وألزَمَهُ ما يصعُب عليه أداؤه، وعُمِّمَ في الهلاك، والضَّرر والمشقَّة الشَّديدة[6]. وجلُّ هذه المعاني مرادة في معنى اللفظة.

12) ﴿عَزِيزٌ﴾: العَيْنُ، وَالزَّاي أَصْلٌ صَحِيحٌ وَاحِدٌ، يدلّ عَلَى شِدَّة وَقُوَّةٍ وَمَا ضَاهَاهُمَا، مِنْ غَلَبَةٍ وَقَهْرٍ[7]. العِزُّ: خلاف الذُّلِّ[8]. وكل شَيْء صلب فقد اسْتعزَّ[9]. ومن أسماء الله تعالى: (العزيز)، وهو الغالب الشَّديد القوي الذي لا يُغلب[10].

13) ﴿حَكِيمٌ﴾: الحَاءُ، وَالكَافُ، وَالمِيمُ أَصْلٌ وَاحِدٌ، وَهُوَ المَنْعُ. وحَكَمَ أصلُهُ: مَنَعَ منعًا لإصْلاح. وَالحِكْمَةُ هَذَا قِيَاسُهَا؛ لِأَنَّهَا تَمْنَعُ مِنَ الجَهْلِ، فهي إصابةُ الحقِّ بالعِلم والعَقْلِ، وهي من الله تعالى: معرفةُ الأشياءِ وإيجادُها على غايةِ الإحكام، ومن الإنسان: معرفةُ الموجوداتِ وفعلُ الخيراتِ[11]. ومَرْجِعُها إلى العَدْل والعِلم والحِلم. ويقال: أحْكَمَتْه التَجارِبُ إذا كانَ حَكِيمًا[12]. فالحَكِيمُ: العالِمُ، وصاحبُ الحكمة المتْقِنُ للأمور[13].

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عَنِتَ).
(2) الخليل، العين: (عَنِتَ).
(3) ابن دريد، جمهرة اللغة: (عَنِتَ)
(4) الزجاج، معاني القرآن وإعرابه: 5/34، وابن سيده، المحكم: (عَنِتَ).
(5) الراغب، المفردات: (عَنِتَ)
(6) جبل، المعجم الاشتقاقي: (عَنِتَ).
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عَزَّ).
(8) الجوهري، الصحاح: (عزز).
(9) ابن دريد، جمهرة اللغة: (عزز).
(10) ابن الأثير، النهاية، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (عزز).
(11) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (حَكَمَ).
(12) الخليل، العين: (حَكَمَ).
(13) الزجاج، تفسير أسماء الله الحسنى، ص: 56، والجوهري، الصحاح: (حَكَمَ).

المَعْنى الإجْماليُّ:

الإصلاح لليتامى، ومخالطتُهم أُخُوَّةٌ

الآية الكريمة حثٌّ على إصْلاح حال اليتامى الذين مات آباؤهم وهم دون سن البلوغ، كيف يتصرفون معهم في معاشهم وأموالهم وسائر أحوالهم؟ بعد أنْ كان وصْفُ اليَتِيم عندهم ملازمًا لمعنى الخَصاصَةِ، والإهمال، والذُّلِّ، وبه يظهرُ معنى امتنان اللّه تعالى على نبيِّه أنْ حفظَه في حالِ اليُتْم ممّا ينالُ اليتامى في قوله: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ۝٦﴾ [الضحى: 6]. ولسببِ نزولها أثرٌ في استجلاء إجْماليِّ معناها؛ إذ لَمَّا نزلتْ: ﴿وَلَا تَقْرَبُواْ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [الأنعام: 152] تجنبوا النَّظر في اليتامى، وعزلوا أموالَهم فذكروا ذلك لرسولِ اللّه ﷺ؛ فنزلتْ: ﴿وَإِن تُخَالِطُوهُمْ﴾[1].

وترشدُ الآية الكريمة إلى مراعاةِ حالِ الأيْتَام والتحوّط في التَّصرف في أموالهم ومخالطتِهم إخْوانًا، وعلى الأخ أن يرعى مصلحة أخيه، وفعل الأنفع لهم دائمًا، فضلا عن ترضيةِ ولاة الأيْتَام فيما ينالهم من كَراهِيَةِ بعض محاجِيرهِمْ وضَرْبهم على أيْدِيهم في التَّصرُّف الماليِّ، وما يلاقونَ في ذلك من الخَصاصة، وتهدي الآية أيضًا إلى أنه ليس من المَصْلَحَةِ أنْ يُعْرِضَ النَّاس عن النَّظر في أموالِ اليتَامى اتقاءً لألسنةِ السُّوء، واللّه يعلم المضيع لأموال اليتامى من الحريص على إصلاحها. ولو شاء اللّه لضيَّق وشقَّ عليكم بتحريم المخالطة. إن اللّه عزيز في ملكه، حكيم في خلقه وتدبيره وتشريعه[2].

الإيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

التعلّق بـ (يبيّن) على التَّقْديم والتَّأخير

دلالة ارتباط المطلع بما قبله:

﴿فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ متعلقٌ إمّا بـ﴿يُبَيِّنُ﴾ فيكونُ فِيهِ تَقْدِيمٌ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/355-354.

(2) ابن عاشور، المصدر نفسه: 2/357- 358، ونخبة من العلماء، التفسير الميسر، ص: 35.

وَتَأْخِيرٌ، وَتَقْدِيره: يبين الله لكم الآيَات فِي الدُّنيا وَالآخِرَة لَعَلَّكُمْ تَتَفكَّرون؛ فتعرفون فضْلَ الآخِرَة على الدُّنيا، فتزهدونَ فِي الدُّنيا، وتنفقون رَغْبَة فِي الآخِرَة[1]، وإمّا بمحذوفٍ وقعَ حالًا من الآيات، أي: يُبَيِّنُها لكم كائنةً فيهما، أي: مبيِّنةً لأحوالِكم المتعلِّقة بهما.

التعلّق بـ﴿تَتَفَكَّرُونَ﴾ تَخْصِيصًا أو تعميمًا:

ويحتملُ تعلُّقهُ بقوله تعالى ﴿تَتَفَكَّرُونَ﴾ أي: تَتَفكَّرون في الأمور المتعلِّقة بالدُّنيا والآخرة في الأحكام الواردةِ في أجوبة الأسئلة المتقدِّمَةِ، فتختارون منها ما يَصلُح لكم فيهما، وتجتنبون غيره، وهذا التخصيصُ هو المناسبُ لمقام تَعْدادِ الأحكام الجزئيةِ، ويجوزُ التَّعْميمُ لجميعِ الأمورِ المتعلِّقة بالدُّنيا والآخرةِ، فذلك حينئذٍ إشارةٌ إلى ما مرَّ مِنَ البيانَاتِ كُلًّا أو بعضًا، لا إلى مصْدر ما بعده؛ فإنَّه حينئذٍ فعلٌ مستقلٌّ ليس بِعِبارَةٍ عَنْ تلك البيانات[2].

سِرُّ تقديم جُملة التَّعليل:

أَهَمِّيَّةُ إِعْمَالِ الْفِكْرِ لِاسْتِكْنَاهِ أَسْرَارِ الشَّرْعِ

قدَّمتْ جملة التَّعليل: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ على شبه الجُمْلَةِ ﴿فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ﴾؛ لمزيد الاعتناءِ بشأن التَّفكّر[3].

براعة الطِّباقِ بين لفظي: ﴿ٱلدُّنْيَا﴾ و﴿وَٱلْآخِرَةِ﴾:

تَعْمِيمُ الحدِيثِ عَن علمِ شؤُونِ الدُّنيا والآخِرةِ

قوله ﴿فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ﴾ يتعلق بـ﴿تَتَفَكَّرُونَ﴾ لا بـ﴿يُبَيِّنُ﴾؛ لأنَّ البيان واقعٌ في الدُّنيا فقط، والمعنى: لِيَحْصُلَ لكم فكرٌ، أي: عِلمٌ في شؤون الدُّنيا والآخرة[4]، فالقرآنُ الكريمُ يستعمل كلمة ﴿ٱلدُّنْيَا﴾ عندما تردُ وحدَها من غير لفظ - (الحياة الدّنيا) - لتقابل في السِّياقِ القُرآنيِّ كلمة ﴿وَٱلْآخِرَةِ﴾ تصريحًا أو إضمارًا؛ لتخصيص

(1) الزمخشري، الكشاف: 1/263، والسمعانّي، تفسير القرآن: 1/221.
(2) الزمخشري، الكشاف: 1/263، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/220.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/220.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/354.

الحديث عن الدُّنيا فقط، من غير تعرّض لعمل الإنسانِ، وصفاتِه، وآثاره، ونتائجِه، وهذا يدلُّ على أنّ ﴿ٱلدُّنۡيَا﴾ بهذا الاستعمال عَلَمٌ على هذه الحيَاةِ التي نحياها قبلَ الموْت، وكذلك الحديثُ عن الآخرةِ فقد استُعمِلتْ لتُقابِلَ الدُّنيا والأُولى[1].

بلاغةُ التَّصريح بلفظ السُّؤال:

أَهَمِّيَّةُ النَّظَرِ في مَصَالِحِ اليَتَامَى

التَّصريحُ بقيْدِ ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ﴾ - بذِكْرِ مادّة السُّؤال - لِقَصْد الاهتمام بما سَيُذكَرُ بعدَه، والعناية بما سَيُورَدُ مِن حكم، مع ما في هذا النَّظم البَليغِ من زيادةِ إخراج الكلام في صورةِ الحُكم الكُلِّيِّ والعامِّ[2]، ولا يخفَى شأنُ اليتامى، والخمْرِ والمَيْسِر من قبله وأهميتها في ديننا الحنيف، حثًّا أو تحذيرًا، فقد ثَبُتَ أنَّ النَّظر في مصالح الأيْتَام من أهمِّ مقاصدِ الشَّريعة في حفْظِ النِّظام[3].

نُكْتَةُ إيثارِ صيغة المُضارع في التَّعْبير عن السُّؤال:

حِرْصُ الصَّحابَةِ عَلَى تَحْصِيلِ العِلْمِ؛ تَحَرُّزًا مِنَ الوقُوعِ فِيمَا لا يَجُوز

عبّر عن السُّؤال بصيغة المضارع ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ﴾ حِكايةً لِلحال الماضية؛ لاستحضارِ صورة الحدث - السُّؤال - في الذِّهن وكأنّه يحصُلُ الآن، أي: وقتَ نزولِ هذه الآية. وللدَّلالة على تكْرارهم السُّؤالَ؛ بُغْيةَ تحْصِيلِ العِلْم بما يجهلُون منه تحرُّزًا من الوقُوعِ في محرّماتِه[4].

أثرُ الوصلِ في تَرابط الآيَة مع ما قَبْلَها:

تَرابُطُ سُؤالاتِ الذِّكْرِ الحَكِيمِ وتَنَاسُبُها

﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡيَتَٰمَىۖ﴾ عَطَفَ بَيَانَ مُعامَلةِ اليتامى على بَيَانِ الإنفاق؛ لتعلُّقِ الأمرين بحكم تحريم المَيْسِر، أو التَّنْزيه عنه؛ فإنَّ المَيْسِر كان بابًا واسعًا للإنفاق على المحتاجين وعلى اليتامى، وهو وجْهُ عَطفِ هذه الجُمْلَةِ على التي قبلها بواو العَطْف لاتِّصال بعض

(1) أبو عودة، التطور الدلالي بين لغة الشعر الجاهلي ولغة القرآن، ص: 350-349 و370.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/178.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/354.
(4) المطعنيّ، التفسير البلاغي للاستفهام: 1/126.

هذه السُّؤالات ببعض كما تقدم في قوله: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَۖ قُلِ ٱلْعَفْوَۗ﴾، فهو من باب العَطْف على ما قبلَه من نظيرِه[1].

التَّصريحُ بالسُّؤال وسيلةٌ لحُسْن التخلّص

لكون تحريم المَيْسِر مما يُثير سؤالا عن سدِّ هذا الباب على اليتامى، وفيه صلاحٌ عظيمٌ لهم، وكان ذلك السُّؤال مناسبةً حسنةً للتخلُّص إلى الوَصَاية باليتامى، والرأفة بهم، وحسنِ معاملتهم، وذِكْرِ مُجْمَلِ أحوالهم في جملة إصْلاح الأحوال التي كانوا عليها قبل الإسلام[2].

سَبَبُ إسْقاطِ الفاء من جواب السُّؤال:

طَرِيقَةُ القُرآن الكريم إسقَاطُ الفاءِ مِن جوابِ السُّؤالِ عَن أمرٍ دُنيويٍّ؛ لكونِه واقعًا في الوُجُود

جواب السُّؤال في القرآن مع لفظ القول كله بغير (فَاءٍ)، ومنه الآية: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰۖ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌۖ﴾ إلا قوله ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا﴾ [طه: 105]؛ وذلك لكون تلكم السُّؤالات من الأمور الدنيويَّة، فالسُّؤال عنها ثابتٌ واقعٌ في الوجود، أما قوله: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ﴾ [طه: 105] فأمرٌ أخرويٌّ والكُفَّار منكرون للبَعْث، فالسُّؤال غير واقع، لكنَّه مقدَّرُ الوقوعِ في المستقبل، أي: (إنْ يَسْأَلُوكَ عَنِ الجِبَالِ)، فهو جوابٌ لشرطٍ مقدَّر فحَسُنَتْ فيه الفاءُ[3].

بلاغة التَّعْبير عَنِ الإصْلاح بلفظ المصدر منكّرًا:

العَاقِبَةُ الحَمِيدَةُ لِلْإِصْلَاحِ عَلَى المُصْلِحِ وَالمُصْلَحِ جَمِيعًا

التَّعْبيرُ بلفظ المصدر ﴿إِصْلَاحٌ﴾، وإطلاقه مُجرّدًا عن لام التَّعْريف والزّمن وعن فاعلِه لإرادةِ العمومِ واستغراقِه كلَّ أنواع الإصْلاح، وعلى هذا فإنَّ الخيريّة تكون شاملةً للإصْلاح المتعلِّق بالفاعل والمفعول، أي: للجانبين معًا، بمعنى: أنّ إصْلاحهم لليتامى خيرٌ للمُصْلِح والمُصْلَح، فيتناولُ حالَ اليَتيم، والكفيلِ، والوليّ. والمعنى: إصْلاحُه من غير عوضٍ ولا أُجْرةٍ خيرٌ له وأعظمُ أجرًا.

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/220، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/354.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/354.
(3) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/230.

وقيل: ﴿خَيْرٌ﴾ عائدٌ لليتيم، أي: إصْلاحُ الوليِّ لليتيم، ومخالطتُه له، خيرٌ لليتيم من إعراض الوليِّ عنه، وتفرده عنه.

ولفظُ: ﴿خَيْرٌ﴾ مطلقٌ، فتقييدُهُ بأحدِ الجانبين يحتاجُ إلى مرجِّح، والحمْلُ على الإطلاق كما هو ظاهر اللَّفْظِ أحسنُ[1].

براعَةُ العُدُولِ عَنِ الإِضَافَةِ:

العدول لدفع توهُّم قَصْر الإصلاح على ذواتهم

اللَّام: للتَّعليل أوِ الاختصاص، وقد أفادتِ التَّقوية والتوكيدَ[2]، ووصفُ الإصْلاح بـ﴿لَّهُمْ﴾ دون الإضافة؛ إذْ لم يقُل: (إصْلاحهم)، إشعارٌ بالحثِّ على تخصيصهم بالنَّظر في أحوالهم ولو أدّى ذلك إلى مشقَّةٍ على الوليّ[3]، ولئلَّا يُتَوَهَّمَ قَصْرُهُ على إصْلاح ذواتهم؛ وأنَّ الإضافة لَمَّا كانت من طُرقِ التَّعْريف؛ كانت ظاهِرةً في عهْد المضاف، فعَدَلَ عنها لئلَّا يُتَوَهَّمَ أنَّ المراد إصْلاح مُعَيَّنٌ، كما عَدَلَ عنها في قوله: ﴿ٱئْتُونِى بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ﴾ [يوسف: 59] ولم يقُل: (بأخيكم)؛ ليُوهِمَهُمْ أنَّه لم يُرِدْ أخًا معهودًا عنْدَهُ[4].

شُمُولِيَّةُ الإِصْلَاحِ لِلْيَتَامَى إِصْلَاحَ عَقَائِدِهِمْ وَأَخْلَاقِهِمْ وَأَبْدَانِهِمْ

فيشملُ الإصلاحُ إصْلاحَ ذواتهم، فَضْلًا عن إصْلاح عقائِدِهم وأخلاقِهم بالتَّعليم الصَّحيح والآداب الإسلاميَّة ومعرفة أحوال العالم، وإصْلاح أمزجتِهم بالمحافظة عليهم مِنَ المهْلكات والأَخْطارِ والأمراض، وبِمُداواتِهِمْ، ودفْعِ الأضرار عنهم بكفايةِ مُؤَنِهم مِنَ الطَّعام واللِّباس والمسْكَن بحسْبِ مُعْتَادِ أمثالِهم، دون تقْتيرٍ ولا سَرَفٍ، وإصْلاحِ أموالِهم بتنميتِها وتعهُّدِها وحفظِها[5].

فإنَّه لو قيل: (إصْلاحهم)؛ لتُوُهِّمَ قَصْرُهُ على ذواتِهم، فيحتاجُ في دلالةِ الآية على إصْلاح الأموال إلى القياس، ولو قيل: (قُل

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/171-172.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/356، وفخر الدين قباوة، المفصّل في تفسير القرآن، ص: 114.
(3) البقاعي، نظم الدُّرر: 3/266.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/356.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/356.

تَدْبيرهُم خيرٌ) لتبادَرَ إلى تَدْبير المال، فاحتِيجَ في دِلالتها على إصْلاح ذواتِهم إلى فَحْوى الخِطَاب[1].

دَفْعُ تَوَهُّمِ غَيْرِ الْمُرَادِ فِي مَقَامِ بَيَانِ الْأَحْكَامِ

نُكْتَةُ إِيرَادِ ﴿خَيْرٌ﴾ مَصْدَرًا مُجَرَّدًا عَنِ التَّعريفِ والوَصْفِ:

التَّعْبير بالمصْدَر ﴿خَيْرٌ﴾ الدَّالّ على مُطْلق الخيريَّة، مجرّدًا عنِ لامِ التَّعريفِ والإضافة والوصْفِ: تعميمٌ يقابلُ مُطْلقَ الإصْلاح، واستغراقٌ للخيريّة لا عدٌّ لصُورهِ، ومآلُهُ الحثُّ على التخلّقِ به، والترغيبُ فيه عملا مباركًا، وصَنيعًا مُنْجيًا من المهالك، وعلّة الإخبار بـ﴿خَيْرٌ﴾ الدَّالِّ على تحصيل الثواب: ليُبادر المسلمُ إلى فعل ما فيه الخيرُ طلبًا لثواب اللّه تعالى[2].

الْمُبَادَرَةُ إِلَى فِعْلِ الْخَيْرِ طَلَبًا لِلثَّوَابِ

دِلالة التَّعْبير بلفظ ﴿خَيْرٌ﴾ بينَ التَّفْضيل والوصفيَّةِ:

لفظ ﴿خَيْرٌ﴾ في الآية يَحْتَمِلُ أن يكونَ أفعل تفْضيل، إن كان خطابًا للذين حملهم الخوف من أكْلِ أمْوالِ اليتامى على اعتزال أمورهم وتركِ التَّصرف في أموالهم بعلَّة الخوف من سوء التَّصرف فيها، فالمعنى: إصْلاح أمورِهم خيرٌ من إهمالهم، أي: أفضلُ ثوابًا وأبعد عن العقاب، أي: خيرٌ في حصول غرضكم المقصودِ من إهمالهم؛ فإنَّ مآله إثْمُ الإضاعة، وعدم حصول ثوابِ السَّعي والنَّصيحة، وبناءً عليه فاسم التَّفضيلِ مستعمَلٌ في غير بابِهِ؛ إذ الإهمالُ ليس فيه خيرٌ ألبتةَ.

فِي الْإِصْلَاحِ تَحْصِيلٌ لِلثَّوَابِ وَبُعْدٌ عَنِ الْعِقَابِ

ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ صفةً مقابلَ الشَّر، إنْ كان خطابًا لتغيير الأحوال التي كانوا عليها قبل الإسلام، فالمعنى: إصْلاحُهم في أموالهم وأبدانِهم تركُ إضاعتِهم في الأمرين خيرٌ[3].

وهو تعريضٌ بأنَّ ما كانوا عليه في معاملتهم ليس بخير بل

التَّعْرِيضُ بِسُوءِ مَا كَانَ عَلَيْهِ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ؛ لِلْحَثِّ عَلَى التَّمَسُّكِ بِحُسْنِ شَرِيعَةِ الْإِسْلَامِ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/356.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/171-172.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/356.

هو شرٌّ، فيكونُ مرادًا مِن الآية على هذا: التَّشريعُ والتَّعريضُ؛ إذ التَّعريضُ يجامعُ المعنى الأصليّ؛ لأنَّه من باب الكنايةِ، والكنايةُ تقعُ مع إرادةِ المعنى الأصليِّ[1].

فائدة التَّعبير عَنِ المُخَالَطَةِ بِطَرِيقِ المجاز:

شِدَّةُ المُلابسَةِ متمثِّلةٌ فِيما زادَ عَلَى إصْلاح المالِ والتَّربيةِ

قول اللّه تعالى: ﴿وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ﴾ معطوفٌ على قوله: ﴿إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ﴾، وعُبِّرَ عنِ المخالطة بصيغةِ المُفاعلة للدِّلالة على المبالغة بتكثير جمعِ الأشْياء وخلطِها، فضلا عمّا تَحْمِلُه مِن معنى المشاركة، فهو هنا مجازٌ في شِدَّة الملابسَةِ والمصاحَبةِ، والمراد بذلك ما زاد على إصْلاح المالِ والتَّربية عن بُعدٍ، فيشملُ المصاحبةَ والمشَاركةَ والكفَالةَ والمُصاهرة؛ إذ الجميعُ مِن أنواع المخالطة[2].

نُكْتَةُ الِالتفاتِ مِنَ الغَيْبَةِ إلى الخطابِ:

تَنْبِيهُ متلقِّي الحُكم إلى أهميّةِ ما سيُلقَى إلَيْهِ، وحثُّه على الانقيادِ لهُ

في قول اللّه تعالى: ﴿تُخَالِطُوهُمْ﴾ التفاتٌ مِن الغَيْبةِ في قولِهِ سبحانه: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ﴾ إلى الخطابِ؛ لتنبيهِ السَّامعِ، فيتهيَّأ لسَمَاع ما يُلقَى إليه، وحملِه على الإقبالِ عليه، والانقيادِ له وتقبُّله، والتحرّزِ فيه، فمحاورة المخاطب مظنَّةُ التأثيرِ وقوّةِ الإبلاغِ المؤدّيَيْن إلى الاستجابة، وشأنُ المخالطةِ وأخوّةِ الدِّين أمرٌ لا تَخفَى أهمّيتُه؛ لكونهما مدارَ احتمالِ الإصْلاح أو الإفسادِ[3].

دِلالةُ الفاءِ واسميَّةِ الجُمْلة:

الدَّعْوَةُ إِلَى تَرْسِيخِ شَأْنِ الْأُخُوَّةِ

الفاءُ في قوله: ﴿فَإِخْوَانُكُمْ﴾ جوابيّةٌ للتَّعليل، والجُمْلة: جواب الشَّرط، وقُرِنَ بالفاء؛ لأن الجُمْلة الاسميَّة غير صالحة لمباشرة أداة الشَّرط، ولذا فـ﴿فَإِخْوَانُكُمْ﴾ خبر مبتدأ محذوف، تقديره: فهم إخوانكم، ووجود الفاء في الجواب يُنادي على أنّ الجوابَ جملةٌ اسميَّةٌ

(1) ابن عاشور، المصدر نفسه: 2/356-357.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/357.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/171، والسمين، الدُّرُّ المصون: 2/413.

محْضَةٌ، والمقْصُود من هذه الجُمْلة: الحثُّ على مخالطتهم؛ لأنَّه لَمَّا جعلهم إخوانًا كان من المتأكِّد مخالطتُهُم والوِصَايةُ بهم في هذه المُخَالطة؛ ووجبَ بَذْلُ النُّصْح لَهُمْ كما يُبْذلُ للأخِ[1]، ومصداقُه قولُ رسولِ الله ﷺ: «لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ»[2].

والتَّعْبير بالجُمْلة الاسميَّة دعوةٌ إلى ترْسيخ شأنِ الأخوّة وتمكّنها فيهم، ثباتًا دائمًا يدومُ معه شأن الإصْلاح، ما تغيّرتْ أحوالٌ واستجدَّ مآلٌ.

جماليَّةُ التَّشبيهِ البليغ في التَّعبير عن الأُخُوَّةِ:

مَبْنَى الأُخُوَّةِ فِي الإِسْلَامِ

وجملة ﴿فَإِخْوَٰنُكُمْۚ﴾ أي: هم كإخوانِكُمْ، فهو على معنى التَّشْبِيهِ، وأُخْرِجَ في صورة التَّشبيهِ البليغ - بِحَذْفِ الأداةِ ووجهِ الشَّبَهِ -؛ لبيانِ شدَّةِ المشابهَةِ بين الأُخُوَّتين، بل إنَّ أخوَّةَ الإسلام أقْوى مِنَ الأخوَّة النَّسبيّة؛ لاقتضاءِ الأُولَى المخالَطةَ بالإصْلاح، والنَّفعِ، والمشاورةِ، والرِّفقِ، والنُّصحِ[3].

نُكْتَة التَّعْرِيض في لَفْظَتَي المخالطة والأُخُوَّة:

إِبْطَالُ صِفَةِ التَّرَفُّعِ، وَإِعْلَاءُ شَأْنِ المُسَاوَاةِ

في قول الله تعالى: ﴿وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْۚ﴾ التَّعريضُ بإبطالِ ما كانوا عليه من احتقار اليتامى، والتَّرفُّع عن مخالطتِهم ومصاهرتهم، كما قال تعالى: ﴿وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ﴾ [النِّساء: 127] أي: عن أنْ تنكحوهنَّ؛ لأن الأخوَّة تتضمَّن معنى المساواةِ، ومشاركةِ الأحوال؛ فيبطلُ التَّرفُّع[4].

بَراعَةُ الِابْتِدَاءِ بِالِاسْمِ الْأَحْسَنِ ﴿ٱللَّهُ﴾:

تَرْبِيَةُ المَهَابَةِ فِي النُّفُوسِ، وإِدْخَالُ الرَّوْعِ فِي القُلُوبِ

في قوله: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِۚ﴾ مبالغةٌ مِلاكُها جعلُ المبتدأ الاسمَ الجليلَ؛ لتربية المهابة في النّفوس، وإدخال الرَّوْع في القُلوب، وترغيبًا، وترهيبًا، ﴿وَٱللَّهُ﴾ أي: الذي له الإحاطةُ بكلِّ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/357).
(2) رواه البخاري في صحيحه، حديث رقم: (13)، ومسلم في صحيحه، حديث رقم: (1599).
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/220، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/357.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/357.

شيءٍ، ورسَّخ ذلك بتقديمِهِ اسمَهُ جلَّ في عُلَاهُ على الخبرِ الفعليِّ بأسلوبِ القَصْر وصيغة الاِسْتقبَال، ﴿يَعْلَمُ﴾ المفيدِ لِدَوامِ عِلْمِهِ عزَّ في عُلاه[1].

دِلَالَةُ التَّضمين في لَفْظِ العِلْمِ:

اتِّسَاعُ المعَانِي وَوَفْرَتُهَا فِي أُسْلُوبِ التَّضْمِينِ

العِلْمُ هُنا بمعنى المَعْرِفةِ المتعدِّيةِ إلى واحدٍ، وجِيءَ بـ﴿مِنَ﴾ هنا؛ لتضمِينه معنى التَّمييز، أي: يعلمُ مَنْ يُفسد في أمورهم عند المخالطة أو مَنْ يقصدُ بمخالطته الخيانةَ والإفْساد مميِّزًا له ممَّن يُصْلحُ فيها أو يقصد الإصْلاح، فيجازي كُلًّا منهما بعمله، ففيه وعدٌ ووعيدٌ[2]، وفي هذا إيماءٌ إلى الجمعِ بين دِلالتَي المعرفة والتَّمييز في لفظ العِلْم، وبيانُ ذلك: أنّ استعمال الفعل ﴿يَعْلَمُ﴾ في هذا الموضع فيه قصْدٌ إلى معنىً معيّن لا يتأتّى من دون ذكره، إلَّا أنّ تعْديتَهُ بغير الحرف المُسْتعملِ معه عادةً فيه ضربٌ مِنَ التَّوسُّع في المعنى مع غاية الإيجاز، ومؤدّاهُ أنّ للفعل دلالةً علَى أصلِ معناه، وباستعمال حرف الجرّ الذي يقتضِي فعلًا آخرَ؛ يَصِيرُ للفعل معنيَانِ يُكمِّلُ أحدُهما الآخرَ؛ إذ يؤدِّي الفعلُ أصلَ معناه بالتَّصريح به، ويقتضي حرفُ الجرّ معنَى الفعلِ الذي يطلبُه بالتَّضمينِ[3]، ويكون المعنى: يعرِفُ مُميِّزًا.

سرّ التَّعْبير بالفعلِ المُضَارعِ:

تَكْرَارُ الْجَزَاءِ بِتَكَرُّرِ الْأَوْصَافِ الْمُقْتَضِيَةِ لَهُ

جاءَ الخبر هنا بالفعل المضارع المُفِيدِ التَّجدّدَ ﴿يَعْلَمُ﴾، وإن كان عِلْمُ اللّه تعالى أَزَلِيًّا لم يسبِقْهُ جهلٌ ولا يلحقُه نسيانٌ؛ لأنَّه قُصِدَ به لازمُ العلمِ؛ وهو العقابُ للمُفْسِدِ والثَّوابُ لِلمُصْلِح، وهُما وصفان يتجدَّدان مِنَ الموصوف بهما، فتكرَّر ترتيبُ الجزاء عليهما لتكرُّرِهما[4].

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 3/267، والقونوي، حاشية على البيضاوي: 5/210.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/172، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/220.
(3) ابن قيم الجوزية، بدائع الفوائد: 2/258.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/172.

نُكْتَةُ التَّعْبيرِ عَنِ الإفسَاد والإصْلاح بِاسْمِ الفَاعِل:

الْأَهْلِيَّةُ لِولايَةِ اليَتِيم بِحُسْنِ التَّصرُّف فيهِ والتَّنزُّهِ مِنَ الشُّبْهَةِ

آثَرَ الوصفَ بالاسم على الوصفِ بالفعلِ؛ لأنّه أقوى دِلَالةً وأثبتُ؛ لما فيه مِن دلالة تمكّن صفتَي الإفساد، والإصْلاح في أصحابِهمَا وثبوتها فيهما، ورسوخِ أصحابهما في هذا الوَصْف، بخلافِ لو قيل: (من يُفسد)، و(من يُصلح)[1]، وأهميّة التَّكليف وعِظَمُه منَاطَا رسوخ الوصفين لصعوبته على وَلِيِّ اليتيم؛ إذ لا يتأتّى لأي أحدٍ حُسْنُ التّصرّف فيه، والتنزّه من الشُّبْهة، إلا من رَسَخَ فيه وصْفُ الإصْلاح، فكان أهلا لهذا الشَّأن.

نُكْتَة تقديم المُفْسِد على المُصْلِح:

زِيَادَةُ التَّهْدِيدِ وتَوْكِيدُ الوَعِيدِ فِي مَقَامَاتِ الورَعِ

في تقديم ﴿ٱلۡمُفۡسِدَ﴾ على ﴿ٱلۡمُصۡلِحِۚ﴾ مزيدُ تهديدٍ وتأكيدٌ لِلْوَعيد؛ لكون الورعِ مندوبًا إليه، محثوثًا عليه، ولا سيَّما في أمر اليتامى، فكان التَّحذير بهذا المقام أَوْلَى[2]، ولذلك عُلِّق العمل بالمُفْسِد أوَّلًا؛ ليقع الإمساك عن الإفساد[3].

دِلالة اللَّامِ في ﴿ٱلۡمُفۡسِدَ﴾ و﴿ٱلۡمُصۡلِحِۚ﴾:

عِلْمُ اللهِ تَعَالَى بِكُلِّ مُفْسِدٍ وَمُصْلِحٍ

المرادُ بقول الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ ٱلۡمُفۡسِدَ مِنَ ٱلۡمُصۡلِحِۚ﴾ العمومُ؛ بناء على أنَّ اللَّام في الموضعين - ﴿ٱلۡمُفۡسِدَ﴾ و﴿ٱلۡمُصۡلِحِۚ﴾ - لِاستغراق جَميعِ المُفْسِدين والمُصْلِحين، فيدخل المُفْسِد في أمر اليتامى دخولا أوليًّا؛ لكونه مِن جملة مدلولاته، ولو حُملتِ اللَّام على العهد الخارجيِّ؛ فإنَّ المرادَ المُفْسِدُ في مال اليَتِيم مِن المُصْلِح فيه، والمُفْسِدُ بالإهمال في تربيته مِنَ المُصْلِح له بالتَّأديب[4]، والأوَّلُ أشمَلُ وأعمُّ، والثَّاني مندرِجٌ فيهِ.

(1) السّامرائي، معاني الأبنية: 15-14.
(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 3/267، والجمل، الفتوحات الإلهية: 1/266.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/172.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/172، والقونوي، حاشية على البيضاوي: 5/210.

دِلَالةُ حرف الجرِّ ﴿مِنَ﴾:

عِلْمُ اللهِ تَعَالَى بِالْمُفْسِدِ مِنْ بَيْنِ الْمُصْلِحِينَ

أفاد دخولُ (مِنَ) في قوله: ﴿مِنَ ٱلْمُصْلِحِۚ﴾ على ثاني المتضادَّين معنى الفَصْل والتَّمييز، وهو معنى رشيقٌ لا غِنًى عن إثباتِه، وهو حاصلٌ من فعْلٍ يميِّز ومن فعْلِ يَعْلَم، ويكون المعنى: أنّه تعالى يَعْلَمُ المُفْسِدَ مِن بينِ المُصْلِحين[1]، وفي هذا إيماءٌ إلى معنَى الوعيدِ؛ حيث إنَّه سبحانه لا يخفى عليه شأنُ المُفْسِدِ فيُجازيهِ على إفسادِهِ.

بلاغةُ الطِّباق بينَ المفْسِد والمُصْلِح:

تَعْزِيزُ الْوَظِيفَةِ الْإِبْلَاغِيَّةِ لِلطِّبَاقِ بِالْوَظِيفَةِ التَّأْثِيرِيَّةِ

جاءت هذه الجُمْلة بهذا التَّقسيم؛ لأنَّ المخالطة على قسمين: مخالطة بإفساد، ومخالطة بإصْلاح؛ ولأنه لما قال اللّه سبحانه قبلُ: ﴿قُلۡ إِصۡلَاحٞ لَّهُمۡ خَيۡرٞۖ﴾؛ فُهِمَ مقابِلُه، وهو أنَّ الإفساد شرٌّ، فجاء هذا التقسيم باعتبار الإصْلاحِ ومقابله[2].

وفي هذا الطباق إفصاحٌ عن دِلالة الرَّبط في الآية الكريمة المؤدّي إلى مزيدِ إيضَاحٍ لِلْمَعنى وبيانه، وترسيخِ دِلالة مبناه؛ بما يسبّبه مِن شدٍّ وجَذْبٍ على النَّفْس المتلقِّيَة له قراءةً وتدبّرًا، وفي ذلك تعزيزٌ للوظيفة الإبلاغيّة للطِّباق بالوظيفة التأثيريّة التي يترسّخ من خلالها المنهج الفطريّ السّليم للنَّفس البشريّة باتِّباع الإصْلاح، ونبذ الإفساد.

نُكْتَةُ الِاكْتِفَاءِ فِي قَوْلِهِ سُبْحَانَهُ: ﴿قُلۡ إِصۡلَاحٞ لَّهُمۡ خَيۡرٞۖ﴾:

شِدَّةُ تَشَوُّفِ الشَّارِعِ إِلَى وُقُوعِ الْإِصْلَاحِ

في قول اللّه تعالى: ﴿قُلۡ إِصۡلَاحٞ لَّهُمۡ خَيۡرٞۖ﴾ اكتفاءٌ؛ إذِ المعنى: قل إصلاح لهم خيرٌ، والإفسادُ شرٌّ، ولم يُذكر الإفسادُ؛ لدلالةِ الإصلاح عَلَيْهِ، ولأنَّ فيه إيماءً إلى ما يُريده الشَّارعُ مِنَ العبادِ مِنَ الإصلاحِ، حتَّى إنَّ الإفسادَ لَمَّا كان مِمَّا لا ينبَغِي وقوعُهُ؛ أُعْرِضَ عن ذكرِهِ لفظًا.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/358.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/172.

بَلَاغَةُ الِاسْتِعَارَةِ فِي قوله: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْۚ﴾:

العَنَتُ: المشقّةُ، والإعْنَاتُ: الحملُ على مشقّةٍ لا تُطاق[1]. فالعَنَتُ: المشقَّة والصعوبة الشَّديدة، والجُمْلة تذييل لما دلَّ عليه قوله: ﴿قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌۖ﴾، أي: ولو شاء الله لكلَّفَكُم ما فيه العَنَتُ، وهو أن يُحَرِّم عليكم مخالطةَ اليتامى فتجدوا ذلك شاقًّا عليكُم وعنتًا[2]، وفيه استعارةٌ تبعيّة؛ فقد شبّه المشقّة بالعَنَتِ، وهو في الأصْلِ كسْرُ العِظام، ثمَّ حُذِفَ المشبَّه به، واشْتُقَّ مِنَ المشبَّه به فعلُ: (أعْنَتَ)[3]، إبرازًا لِلْمَعنويِّ في صُورة المَحْسُوس؛ لأنَّ ذلك أَحْضَرُ في الذِّهن، وأقوَى في البيانِ.

سَعَةُ رَحْمَةِ اللهِ تَعَالَى بِعِبَادِهِ؛ حَيْثُ لَمْ يُكَلِّفْهُم بِمَا يَشُقُّ عَلَيْهِم

وإيرادُ الشَّرطِ بـ(لو) وهي دالَّةٌ في الأصلِ على امتناعِ ما بعدهَا؛ لأنَّ الآيةَ خرجتْ مخْرج التَّمدُّح بكمال قُدْرةِ الله تعالى والامتنان على خلقِهِ بتيسير التَّكليف، والتَّمدُّح إنما يكون بالجائز[4].

التمدُّحُ بِكَمَالِ قُدْرَةِ اللهِ تعالى وامْتِنَانِهِ عَلَى خَلْقِهِ

سِرُّ حَذْفِ مفعُولِ المَشِيئَةِ:

حذفُ مفعولِ المشيئة حذفٌ شائعٌ لدلالة السِّياقِ عليه؛ فلا يكادون يذكرُونه، وإنّما ساغ الحذْفُ؛ لأجلِ الإيجاز، فالبليغُ تارةً يستغني بالجَواب، فيقصِدُ بذلك البيانَ بعد الإبهامِ، وهو من مقاصد كلام العرب[5]، وفي الحذف توسُّعٌ في المعنى، فمشيئة الله تعالى شاملة نافذةٌ لا يحدُّها حدٌّ، وذكرُ الإعناتِ بعد تأمّلٍ ملمحٌ بلاغِيٌّ عزيزٌ يُسعى إليه ويُتَقَصَّد.

عُمُومُ مَشِيئَةِ اللهِ تَعَالَى وَنَفَاذُهَا

عِلَّة التَّذْيِيل في فاصلة الآية الكريمة:

قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ تذييل لما اقتضاه شرط

مِنْ آثَارِ حِكْمَةِ اللهِ تَعَالَى: تَعْلِيلُ الْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ

(1) زاده، حاشية على البيضاوي: 2/531.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/358.
(3) الإندونيسي، الشامل في بلاغة القرآن: 1/111.
(4) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/266.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/322، و2/358، و15/59.

﴿وَلَوْ﴾ من الإمكان وامتناع الوقوع، أي: إنَّ اللّه عزيز غالبٌ على أمرِه، قادرٌ لا يعِزُّ عليه أمر، فلو شاء لكلَّفكم العَنَتَ، لكنّه حكيمٌ واضعٌ الأشياءَ مواضعها، فاعلٌ لأفعاله حَسْبما تقتضيه الحكْمةُ الدَّاعيةُ إلى بناء التَّكليف، فلذا لم يُكَلِّفْكُمُوهُ، وفي الجُمْلة تعليلٌ لمضمون الشَّرطيِّة[1].

دِلالةُ الجَمْعِ بَيْنَ اسمَي اللهِ تعالى: العزيزِ والحَكِيمِ:

أَفْعَالُ اللهِ تعالى تَجْرِي على ما تَقْتَضِيهِ صِفَاتُهُ كُلّهَا

في الجمع بين اسمَي اللّهِ: العزيز والحكيم؛ إشارة إلى أنَّ أفعالَ اللّه تعالى تجري على ما تقتضيه صفاتُه كلُّها[2]. فوصفه تعالى بالعزَّة - وهي عزَّة القوَّة، وعزَّة الغلبة، وعِزَّة الامْتِنَاعِ -، إشارة إلى أنه مختصٌّ بذلك لا يُشَارَك فيه، فكأنَّه لَمَّا جعل لهم ولايةً على اليتامى نبَّههُمْ على عدم قهرهم، ومغالبتهم، والحكمةُ: إشارة إلى أنه لا يتعدّى ما أَذِنَ اللّه تعالى فيهم وفي أموالهم، فليس لأحدٍ النَّظرُ إلَّا بما أَذِنَت فيهِ الشَّريعة، واقتضته الحكمةُ الإلهيَّة؛ إذْ هو الحكيم المتقن لِمَا صَنَعَ وشَرَع[3].

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الخلط، والمزج، والمذق:

اختيار لفظ المخالطة قصدًا إلى المبالغة في ضمّ مصالح اليَتِيم إلى كافله فهي أدعى إلى حسن مراعاتها

المذق: "أَصْلٌ يدلّ عَلَى خَلطِ شَيْءٍ لَا عَلَى جِهَةِ النَّصَاحَةِ"[4]. وَأَصله مزج اللَّبن، يُقَال: مذقتُ اللَّبن بِالمَاءِ، وقَالُوا: مَذَقَ لَهُ المودّة، إذا لم يُصْفِها لَهُ، ولم يُخْلِصْها[5]. فملمح الغش، وعدم صفاء النيّة في معنى اللفظة ظاهر ولذلك عدل عنها. والخلط: هو الجمع بين أجزاء الشيئين فصاعدا، سواء كانا مائعين، أو جامدين، أو أحدهما

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/220، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/358.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/359.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/173.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (مَذَقَ).
(5) ابن دريد، جمهرة اللغة، الأزهري، تهذيب اللغة: (مذق).

مائعا والآخر جامدا، وهو أعم من المزج. ويقال خليط: للصديق والمجاور والشريك[1]. وقد أشار بعض علمائنا رحمهم الله إلى أن الخلط جمعٌ يتعذَّر معه تمييز بعض المخلوط من بعض[2]. وهو تعميمٌ فيه نظر.

أمّا المزج فهو وإنْ ورد في معجمات العربية بمعنى الخلط إلا أنّه غلب فيه التمثيل بمزج السائل بالسائل ممّا يلمح إلى استحالة التَّمييز فيه. وبذا فهو أخصُّ من الخلط[3]. وللشَّيخ الشَّعراويّ رحمه الله توجيهٌ يبدو أقرب إلى بيان الفرق بينهما؛ إذ ذهب إلى أنّ المخالطة هي المعاشرة التي لا يتعثر فيه التَّمييز. فالخلط هو أن تخلط نوعَ حبٍّ بآخر. وعندما تأتي لتمييز صنف من آخر، فأنت تستطيع أن تفصل بعضا عن بعض؛ ولذلك فالمخالطة تكون بين الحبوب ونحوها. أما المزج فهو في السوائل. والحق سبحانه يرشدنا أن نخالط اليتامى لا أن نمزج مالهم بمالنا؛ لأن اليَتِيم سيصل يوما إلى سن الرشد، وسيكون على الوصيِّ أنْ يفصلَ ماله عن مال اليَتِيم[4]. وبهذا يكون اختيار لفظ المخالطة قصدًا إلى المبالغة في ضمّ مصالح اليَتِيم إلى كافله، فهي أدعى إلى حسن مراعاتها؛ وكأنّها ماله، فضلا عن إمكان الفَصْل بينهما مستقبلا. ولفظ المزج لا يؤدِّي هذه الدلالة لاقتصاره على المزج الذي لا يمكن فيه الفَصْل والله أعلم.

المعانتة والمعاندة:

أوضح الراغب الفرق بين اللفظين بقوله: "المعانتة كالمعاندة لكن المعانتة أبلغ؛ لأنها معاندة فيها خوف وهلاك، ولهذا يقال: عَنِتَ فلان: إذا وقع في أمر يخاف منه التَّلف، يَعْنَتُ عَنَتًا"[5].

(1) الراغب، المفردات: (خَلَطَ)، وللراغب في تفسيره كلام يناقض ما أسسه في نصِّه أعلاه إذ قال: "الخلط: الجمع بين أجزاء شيئين، سواء كانا مائِعَيْن، أو غير مائِعَيْنِ فهو أخص من المزج"، ينظر: الراغب، تفسير الراغب الأصفهاني: 1/453.

(2) النيسابوري، غرائب القرآن: 1/607، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/357.

(3) ابن دريد، جمهرة اللغة، ابن فارس، مقاييس اللغة، ابن سيده، المحكم: (مَزَجَ).

(4) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 954-2/953.

(5) الراغب، المفردات: 2/128.

﴿وَلَا تَنكِحُواْ ٱلۡمُشۡرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤۡمِنَّۚ وَلَأَمَةٞ مُّؤۡمِنَةٌ خَيۡرٞ مِّن مُّشۡرِكَةٖ وَلَوۡ أَعۡجَبَتۡكُمۡۗ وَلَا تُنكِحُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤۡمِنُواْۚ وَلَعَبۡدٞ مُّؤۡمِنٌ خَيۡرٞ مِّن مُّشۡرِكٖ وَلَوۡ أَعۡجَبَكُمۡۗ أُوْلَٰٓئِكَ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلنَّارِۖ وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ وَٱلۡمَغۡفِرَةِ بِإِذۡنِهِۦۖ وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ ٢٢١﴾ [البقرة: 221]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

مناسبةُ هذه الآية لما قبلها أنَّه لما ذكر تعالى حُكْمَ اليتامى في المخالطة، وكانت تقتضي المُناكَحَة وغيرها ممّا يُسمَّى مخالطة. عطف عليه ما يبعث على الرغبة في اليتامى، وأن ذلك أولى مما كانوا يتعاطون من الرغبة في المشركات، وبيَّن أنَّ أمَةً مؤمنة خيرٌ من مشركةٍ وإنْ بلغتْ النِّهاية فيما يقتضي الرَّغبة فيها، ليدلّ بذلك على ما يبعثُ على التَّزوج باليتامى، وعلى تزويجِ الأيْتَام عند البلوغ ليكونَ ذلك داعيةً لما أمَرَ به من النَّظر في صلاحِهم وصلاحِ أموالِهم[1].

ومناسبةٌ أخرى: أنه لما تقدَّم حكم الشُّرب في الخمر، والأكل في المَيْسِر، ذكر حكم المنْكَحِ، فكما حرَّم الخمْرَ من المشروبات، وما يجر إليه المَيْسِر من المأكولات، حرم النِّكاح من المشركات، والمشركين[2].

ومناسبةٌ أخرى وهي أنَّ المسلمين كانوا أيام نزول هذه السورة ما زالوا مختلطين مع المشركين بالمدينة وكان لهم أقارب وموالٍ لم يزالوا مشركين ومنهم يتامى فقدوا آباءَهم في يوم بدْرٍ وما بعده فلما ذكر اللّه بيانَ مخالطة اليتامى، وكانت المصاهرة من أعظم أحوال المخالطة تطلَّعتِ النُّفوس إلى حُكْمِ هاته المصاهرة بالنِّسبة للمشركات والمشركين، فعطفَ حُكْمَ ذلك على حُكْمِ اليتامى[3].

(1) الرازي، مفاتيح الغيب: 6/407، وأبو حيّان، البحر المحيط: 2/173.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/173.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/359.

شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

1) ﴿تَنكِحُواْ﴾: النُّونُ وَالكَافُ وَالحَاءُ أَصْلٌ وَاحِدٌ، هو العَقْدَ دُونَ الوَطْءِ. يُقَالُ نَكَحْتُ: تَزَوَّجْتُ. وَأَنْكَحْتُ غَيْرِي[1]. وهو التزويج، وعقدُ المَهر، والميثاق الغليظ[2]. ويأتي النِّكاح: كِنَايَة عَن الجِمَاع نَكَحَهَا وأنكحها غَيره[3]. واختُلف في أصله فقال الأزهريُّ: أنّ أصلَ النِّكاح في كَلَام العَرَب الوطْء، وَقيل للتزوُّج نِكاح لِأَنَّهُ سببُ الوَطْءِ المُباح. وعقد التَّزْوِيج يُسمى النِّكاح، ولَا يُعرفُ شيءٌ من ذِكْر النِّكاح فِي كتاب اللّه إِلَّا على معنى التَّزْوِيج[4]. في حين ذكر الرَّاغب أنَّ أصله للعَقْدِ لاستقباحِهم ذكرَهُ كاستقباح تعاطيه، ومحالٌ أنْ يَسْتعيرَ من لا يقصد فحشا اسم ما يستفظعونه لما يستحسنونه[5]. وذكر السّمين الحلبي أنَّه لزومُ الشَّيء والإكبابُ عليه، ومنه: (نَكَح المطرُ الأرضَ)، أو أنَّ أصلَه المداخَلَةُ ومنه: تناكَحَت الشَّجر: أي تداخلت أغصانُها[6]، وكلُّ ما في القرآن من التَّركيب فهو بمعنى الزَّواج[7]، إلا ما ورد في سورة الأحزاب من قوله تعالى: ﴿إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ [الأحزاب: 49]، فهو بمعنى العقد.

2) ﴿ٱلْمُشْرِكَٰتِ﴾: الشِّينُ وَالرَّاءُ وَالكَافُ أَصْلَانِ، أَحَدُهُمَا يدلّ عَلَى مُقَارَنَةٍ وَخِلَافِ انْفِرَادٍ، ومنه الشِّركةُ مخالطة الشَّريكين، وَهُوَ أَنْ يَكُونَ الشَّيء بَيْنَ اثْنَيْنِ لَا يَنْفَرِدُ بِهِ أَحَدُهُمَا. وَيُقَالُ: شَارَكْتُ فُلَانًا فِي الشَّيء، إِذَا صِرْتَ شَرِيكَهُ[8]، والإشراك بِاللَّه جلّ وعزّ: هُوَ أَن يُدعى للّه شَريكٌ، تبَارك ربُّنا وَتَعَالَى[9].

وهو في الدِّين ضربان: أحدُهما: الشِّركُ العظيمُ، وهو: إثباتُ شريكٍ للّه تعالى، وذلك أعظمُ كفْرٍ. والآخر: الشِّرك الصَّغير، وهو مراعاة غير اللّه معه في بعض الأمور، وهو الرِّياء والنِّفاق. ولفظ الشِّرك من الألفاظ المشتركة، فأكثر الفقهاء يحملونه على الكُفَّار

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نَكَحَ).
(2) الخليل، العين: (نَكَحَ)، الزجاج، معاني القرآن وإعرابه: 2/32.
(3) ابن دريد، جمهرة اللغة: (نَكَحَ).
(4) الأزهري، تهذيب اللغة: (نَكَحَ).
(5) الراغب، المفردات: (نَكَحَ).
(6) السمين، الدُّرُّ المصون: 2/414.
(7) جبل، المعجم الاشتقاقي: (نَكَحَ).
(8) الخليل، العين، ابن فارس، مقاييس اللغة: (شَرَكَ).
(9) ابن دريد، جمهرة اللغة: (رشَكَ).

جميعا، ويرى آخرون أنَّهم عدا أهل الكتاب[1]. والذي جاء في القرآن من مفردات التَّركيب جلُّهُ بمعنى اتِّخاذ الكُفَّار شريكًا أو شركاء للَّه تعالى عمَّا يصفون[2].

3) ﴿يُؤۡمِنُونَ﴾: الهمزةُ والميمُ والنُّونُ أصلانِ أحدهما: التَّصديقُ[3]. فالإيمان: التَّصديق، والطُّمأنينةُ، وزوالُ الخوفِ[4]، ويرادُ به إذعانُ النَّفس، والانقيادُ للحقِّ على سبيلِ التَّصديقِ[5]. وعلى هذا فمعنى اللفظة في الآية المباركة يتضمّن هذه الدلالات من حيث إنَّ الإيمان باللّه والتصديق بما أنزله من شرع عن طريق رسله، وأنبيائه، والانقياد لما جاء به من الحقّ، مصداقُ وصف المؤمنين.

4) ﴿وَلَأَمَةٞ﴾: الأمة: المرأة ذات العُبُوديّة، والأنثى المَملوكَةُ خلاف الحُرَّة، والجمع إماءٌ وآمٍ[6]. ويبدو أنّ أصلها من الأَمَم: وهو الشَّيء اليَسيرُ الهَيِّن الحقير، تقول: لقد فعلتُ شيئًا ما هو بأمَمٍ ودُونٍ. ذلك أنَّ شأن المرأة غير الحُرَّة الهوان والاحتقار بسبب قيد العبودية[7]. ولم يخرج معنى اللفظ في الآية الكريمة عمَّا تقدَّم.

5) ﴿أَعۡجَبَتۡكُمۡۗ﴾: العجب والتعجب: حالة تعرض للإنسان عند الجهل بسبب الشَّيء. ويُسْتَعار مرَّة للمونق، فيقال: أعجبه كذا أي: راقه،[8] وسَرَّه[9]؛ لكونه حسنًا جدًّا[10]. وكلُّ ما جاء من التَّركيب في القرآن الكريم من الثلاثي (عَجِبَ) ماضيهِ ومضارعِهِ، والصِّفة (عجيب)، والمبالغة (عُجاب) فهو بمعنى الاستغراب والإنْكار. أمّا الرباعيُّ منه (أَعْجبَ) كما في لفظ الآية الكريمة فهو للاستحسان. ومأْخَذُ معنى الإعجاب، أو علاقته بالأصل اعتقادُ المُعْجَب بالشَّيء أنَّ الشَّيء مخالفٌ للمعهودِ في بابه[11].

---

(1) الراغب، المفردات: (شرك).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقي: (شرك).
(3) ابن فارس، المقاييس: (أَمَنَ).
(4) الخليل، العين، والأزهري، التهذيب، السمين، عمدة الحفاظ: (أَمَنَ).
(5) الراغب، المفردات: (أَمَنَ).
(6) الخليل، العين: (أمم)، الجوهري، الصحاح: (أما)، الزبيدي، تاج العروس: (أمو)، جبل، المعجم الاشتقاقي: (أمم).
(7) الخليل، العين: (أمم).
(8) الراغب، المفردات: (عجب).
(9) ابن سيده، المحكم: (عجب).
(10) الأزهري، تهذيب اللغة: (عجب).
(11) جبل، المعجم الاشتقاقي: (عجب).

6) ﴿وَلَعَبْدٌ﴾: العَيْنُ وَالبَاءُ وَالدَّالُ أَصْلَانِ صَحِيحَانِ الأَوَّلُ يدلّ عَلَى لِينٍ وَذُلٍّ[1]. ومنه أُطْلِقَ على: الإنسانِ حرًّا أو رقيقًا، يُذْهَبُ بذلك إِلَى أَنه مَرْبوبٌ لِباريه جَلَّ وعزّ. والعَبْدُ: المَمْلُوكُ، خلافُ الحُرِّ، وجمعُهُ: عَبِيدٌ، وفرّقوا بين عبادِ اللّهِ، والعبيدِ المملوكينَ، الخادمينَ لمولاهم[2]. فالعبدُ بحكم الشَّرع: الإنسانُ الذي يصحُّ بيعُهُ وابتياعُهُ، نحو: ﴿وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ﴾ [البقرة: 178][3]. بوصفه مَحُوزًا محصورًا بالمِلك، كما أنَّه منقوصُ العِزّ والشُّموخِ ومأخذُه من الحَصر الشَّديد للشيء[4]، فهو بمنزلة المال المتملَّك.

7) ﴿يَدْعُونَ﴾: الدَّالُ وَالعَيْنُ وَالحَرْفُ المُعْتَلُّ أَصْلٌ وَاحِدٌ، وَهُوَ أَنْ تُمِيلَ الشَّيء إِلَيْكَ بِصَوْتٍ وَكَلَامٍ يَكُونُ مِنْكَ. تَقُولُ: دَعَوْتُ أَدْعُو دُعَاءً. وَالدَّعْوَةُ إِلَى الطَّعَامِ بِالفَتْحِ[5]. والدُّعاء إلى الشَّيء: الحثُّ على قصده[6].

والمعنى المحوريُّ له جَذْب الشَّيء أو محاولة ضمِّه إلى حيِّز أو أمرٍ. وكلُّ ما عُدِّيَ بـ(إلى)، أو باللام فهو من الدعوة إلى دينٍ أو عملٍ وبعض ما هو بهذا المعنى مُعَدًّى بنفسه[7]. ويصدُقُ ما تقدَّم على معنى اللفظ في الآية الكريمة.

8) ﴿يَتَذَكَّرُونَ﴾: الذَّال والكاف والرَّاء أصلان، أحدهما: ذَكَرْتُ الشَّيء، خلافُ نسِيتُه، فالذِّكْرُ: الحفظُ للشَّيْء وتَذَكُّرُه، ثم حمل عليه الذِّكْر باللِّسان، أي: جَرْيُ الشَّيء على لسَانك[8]. والذِّكْرُ: مَا ذكرْتَه بلسانك وأظهرْتَه. والذِّكْرُ: الصَّلَاة للّه تَعَالَى، والدُّعاء والثناءُ. الذكْرُ: الصَّلاةُ، والذِّكْرُ قِرَاءَة القُرْآن، والذِّكْرُ: التسبيحُ، والذِّكر: الدُّعاء، والذِّكرُ: الشُّكْرُ، والذِّكْر: الطَّاعَة[9]. ويأتي الذِّكر بمعنى الوعظ؛ لأنه إذا تذكّر قد يزدجر[10]. ومعنى لفظ ﴿يَتَذَكَّرُونَ﴾ يتعظون.

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عَبَدَ).
(2) الخليل، العين، الجوهري، الصحاح، ابن سيده، المحكم: (عَبَدَ).
(3) الراغب، المفردات: (عبد).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقي: (عبد).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (دَعَوَ).
(6) الراغب، المفردات: (دعا).
(7) جبل، المعجم الاشتقاقي: (دَعَوَ).
(8) العين، ابن فارس، المقاييس: (ذكر).
(9) الأزهري، التهذيب: (ذكر).
(10) جبل، المعجم الاشتقاقي: (ذكر).

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

أحكام مناكحة المشركين

سببُ نزول هذه الآية سؤالُ أبي مَرْثَدٍ الغَنَوي بعد إسلامه رسولَ الله ﷺ عن إمكانِ زواجِهِ من خليلةٍ له مشركةٍ كانت في الجاهلية، فنهاهُ عن التزوّج بها؛ لأنها مُشركة فنزلتْ هذه الآية[1]. وخلاصةُ معناها: أنَّ الإيمانَ فيصلٌ في مناكحة المشركين، في الزواج منهم أو تزويجهم، وهو قوام الخيريّة في الزَّواج، وليس الإعجاب، واعلموا أنَّ امرأة مؤمنةً بالله مملوكة لا مال لها ولا حَسَب، خير من امرأة مشركة، وإن أعجبتكم المشركة الحرة، واعلموا - كذلك - أن عبدًا مؤمنًا مع فقره، خير من مشرك، وإن أعجبكم المشرك؛ لما يترتّب على هذا الزواج والارتباط من مفاسد في الأسرة، وفي تربية الأولاد، ونشأتهم، وفي المجتمع.

وترشدُ الآية الكريمة إلى أنَّ طريقَ المؤمنِ في اختياره زوجًا يرضاها قرينةً له أنْ يطلُبَ ذاتَ الدِّين أولًا، ولا يقدِّم عليه ما يثير الإعجاب من منظرٍ، أو علوِّ نسبٍ، أو جاهٍ دنيويٍّ، فالمتصفون بالشرك رجالًا ونساءً يدعون كلَّ مَن يعاشرهم إلى ما يؤدِّي به إلى النار، والله سبحانه يدعو عباده إلى دينه الحق المؤدِّي بهم إلى الجنة ومغفرة ذنوبهم بإذنه، ويبين آياته وأحكامه للناس؛ لكي يتذكروا، فيعتبروا[2].

❁ الإيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

بلاغة التَّعْبير بلفظ النِّكاح والعُدول عَن غَيْرِهِ:

اسْتِعْمَالُ الْأَدَبِ فِيمَا يُسْتَحْيَى مِنَ التَّصْرِيحِ بِهِ

ذهب الرَّاغب الأصفهاني إلى أنّ النِّكاح اسمٌ للعَقْد، واستُعِير لِلْجِماع بدلالة أنَّ عامَّة أسماء الجماع كناياتٌ، وأنَّهم يتحاشَوْن التَّصريحَ بذكر الجماع وآلاته، كما يتحاشَوْن من إظهاره، حتى سَمَّوا ذلك العضوَ: السّوءةَ[3]، وذهب آخرون إلى أنّ النِّكاح أصْلُه الجِماع،

(1) الواحدي، الوسيط: 1/326.
(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 2/727، ونخبة من العلماء، التفسير الميسر، ص: 35.
(3) الراغب، تفسير الراغب: 1/454.

ويُستعْملُ في التَّزوّج تجوّزًا واتِّساعًا[1]، فهو حقيقةٌ في العَقْدِ، مجازٌ في الوَطْء من بابِ الكِنَايةِ[2]، وهو في الآية بمعنى التَّزَوُّجِ.

جَـمْـعُ لَـفْـظِ النِّكَاحِ لِلْعَقْدِ وَالوَطْءِ مَعًا

والنِّكاحُ في أصلِ الوضع اللُّغَوِيِّ: الضمُّ، ومعنى الضمِّ حاصلٌ في العَقْد وفي الوَطْءِ، فيحسُن استعمالُ هذا اللَّفظ فيهما جميعًا، والعربُ فَقِهَتْ هذا المعنى ففرَّقَتْ بين العَقْد والوطء بفرق لطيفٍ لئلَّا يحصل الالتباس، فإذا قالوا: نكَحَ فلانٌ فلانةً أرادوا تزوَّجَها، وعقدَ عليها، وإذا قالوا: نَكَحَ امرأتَه أو زوجته، فلا يريدون غير المجامعَةِ؛ لأنَّ في ذِكْر نكاح المرأة أو الزَّوْجة غنًى عن ذِكْر العقد، فلم تحتمل الكلمةُ غيرَ المجامعة[3]، وبهذا التَّفريق فإنّ المراد بلفظ ﴿تَنكِحُواْ﴾ في الآية الكريمة عقد التَّزويج على وجه الحقيقة، ويَلْزَمُ منه عادةً: الوَطْءُ.

نُكْتَة التَّعبير بلفظ الشِّرك دون غيره:

تَبَايُنُ الْأَحْكَامِ الْمُعَلَّقَةِ بِوَصْفِ الشِّرْكِ عَنِ الْمُعَلَّقَةِ بِوَصْفِ أَهْلِ الْكِتَابِ

المُشْرك في لِسان الشَّرع من يَدينُ بتعدّد آلهة مع الله سبحانه، والمراد به في القرآن مُشْركو العرب الذين عبدوا آلهة أخرى مع الله تعالى، ويقابلهم في تقسيم الكُفَّار أهل الكتاب وهم الذين آمنوا بالله ورسله وكتبه ولكنهم أنكروا رسالة محمَّد ﷺ[4]، فلفظ المشركين اسمٌ لجنس معيَّنٍ، ولا يُطلقُ على اليهود والنَّصارى، فعند ذكر القرآن للنَّصارى واليهود يُعَنْوِنُهم بـ (أهل الكتاب)، والفَصْل بينهما بوصفهما جنسين مختلفين أدّى إلى الاختلاف في المعاملة، والاختلاف في الأحكام؛ بين مَنْ لهُ كتابٌ - وإنْ كانَ محرَّفًا - وبين مَنْ لا كتابَ له، ولا ضابطَ يضبطُه، ولا عاصمَ يحولُ بينَه وبينَ الإيغالِ المُطْلقِ في الشَّر، ولا حريجةَ دينيةً تقيِّدُهُ[5].

(1) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 3/67.
(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/266، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/359.
(3) الرازي، مفاتيح الغيب: 6/408.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/360.
(5) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 2/716.

حُرْمَةُ نِكَاحِ الرَّجُلِ غَيْرَ نِسَاءِ أَهْلِ الْكِتَابِ

ولِما تقدّم من بيانٍ؛ يتبيَّنُ أنَّ المرادَ بقوله سبحانه: ﴿وَلَا تَنكِحُواْ ٱلْمُشْرِكَٰتِ﴾: ما لم يكن كتابيَّاتٍ، وإذا حملنَا معنى الشِّرْكِ على عمومِ الكفَّارِ؛ فإنَّ قولَه: ﴿وَلَا تَنكِحُواْ ٱلْمُشْرِكَٰتِ﴾ عامٌّ، مخصوصٌ بقوله: ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ﴾[المائدة: 5][1].

سِرُّ التَّعْبير بحرف الغاية ﴿حَتَّىٰ﴾ دون (إلى):

الدِّلالة على مُنْتَهَى حقائق الإيمان؛ تمثُّلا لِلشَّرائط، وتخلُّصًا مِنَ العوالقِ

حرفَا الجرِّ (حتى) و(إلى) يدلَّان على الغايةِ، إلَّا أنَّ استعمالهما في الغاية يختلفُ؛ ف (إلى) أمْكَنُ في الغاية من (حتَّى) وأعمُّ، وإيضاحُ ذلك أنَّ (إلى) تُستعملُ لعمومِ الغاياتِ، سواء أكانت آخرَ جُزءٍ مِنَ الشَّيء أم لا، فتقول: (قرأتَ الكتابَ إلى آخره، وقرأته إلى نصفه، وقرأته إلى ثلثه)، وأمَّا (حتَّى) فلا تستعمل إلَّا لِمَا كان آخرًا أو متَّصلا به، فتقول: (قرأت الكتاب حتَّى آخره)، ولا يجوز أنْ تقولَ: (قرأتُ الكتابَ حتَّى نِصْفَه)؛ لأنَّ منتصف الكتاب ليس آخره، ف (حتَّى) تُستعمل غايةً لآخرِ الأمر، ولفظها يوحي بهذا المعنى؛ إذْ يَبْدُو أنَّ لفظَها مِن (الحتّ) ومعنى (الحتّ) الاستئصال، والإزالة، والخلوص إلى النِّهاية، أي: الوصول إلى نهاية الأمر[2]، ولذلك اختيرت في سياق الآية؛ لتخصيص دِلالتها في الوصول إلى مُنْتَهى الإيمان تمثُّلا لشرائطه، وتخلُّصًا مِن عوالق الشِّرك وأدرانه وشوائبه، فذلك أدعى لديمومة حياةٍ زوجيّةٍ ذات استقامةٍ وإصْلاح ونفعٍ للزَّوجين والمجتمع.

الْبِشَارَةُ بِإِعْلَاءِ كَلِمَةِ اللهِ تَعَالَى وَإِسْلَامِ الْمُشْرِكِينَ

ومحدّد الغاية قوله: ﴿حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ﴾، وفيه إشارةٌ إلى توقّع إيمان المشركين رجالهم ونسائهم، وأنَّ الفَتْح المبينَ ليس ببعيدٍ، فلا يتعجَّلَنَّ مَن يتعلّق بأنسابه، ويرى أحقّيّة المصاهرة بهم، فسيأتي اليومُ الذي يؤمنُ هؤلاء جميعًا، وبذلك يزولُ السَّبب الذي كان من

(1) الشَّنقيطي، دفع إيهام الاضطراب، ص: 13.
(2) السَّامرائي، معاني النحو: 3/35.

أجله التَّحريم، وهو الإشراك، وإنَّ في ذلك بُشرى للمؤمنين عامَّة بهذا الفتح، وبإعلاءِ كلمة الله، وبانتهاءِ القتال بين ذوي الأرحام الواصلة، وبشرى خاصة للذين يرغبون في الزواج مِن بنات أعمامهم ويحولُ الشِّرك دونهم[1].

بَلَاغَةُ التَّعْبيرِ بِجُمْلَةِ: ﴿وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ﴾:

التّعبير بالأمة تعليل للنَّهي، وترغيبٌ، ومبالغةٌ في الحمل على الانزجار

أفادَ تصديرُ الجُمْلة بلام الابتداء الشَّبيهةِ بلام القسم مع الوصفِ: التَّأكيدَ؛ مبالغةً في الحمل على الانْزِجَارِ، والتَّعليل للنَّهي عن مواصلة المُشْرِكَات، والتَّرغيب في مواصلة المؤمناتِ[2].

نُكْتَةُ تَخْصِيصِ الأَمَةِ بِالْوَصْفِ دُونَ غَيْرِهِ:

إضفاءُ دِلَالَةِ الرَّحْمَةِ وَالتَّشْرِيفِ بِوَصْفِ الْإِيمَانِ

في وصفِ (الأَمَةِ) بالإيمان في قول اللهِ سبحانه: ﴿وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ﴾ تخصيصٌ لِلَفْظِ الأَمَةِ يُقرِّبهُ من التَّعريف وإن لم يكُن تعريفًا محضًا، وفي هذا الوصفِ من الإيضاح بعد الإبهام ما ليس في التَّخْصِيصِ بالإضافة، ففي التَّخصيصِ بالوصفِ زيادةُ تقريرٍ للغرضِ المسُوقِ له الكلامُ، وظلالُ دلالاتٍ تُوحي بالرَّحمة والتَّشريف، وإعلاء المكانة.

دِلَالَةُ حَذْفِ مَوْصُوفِ الْمُشْرِكَةِ:

دنَاءَةُ الْمُشْرِكَاتِ، وَالتَّحْذِيرُ مِنْ تَزَوُّجِهِنَّ

اكتفى بالوصفِ في قوله: ﴿خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ﴾ من غيرِ ذكْرٍ للموصوفِ؛ تنبيهًا على دناءةِ المشركات، وتلويحًا بابتذالهنَّ، وتحذيرًا من تزوجهنَّ ومنَ الاغترار بما يكون لِلْمُشْركة من حَسَبٍ أو جمالٍ أو مالٍ، وأنَّ من لَمْ يستطعْ تزوّجَ حُرَّة مؤمنةٍ؛ فليتزوَّج أمَةً مؤمنةً، وذلك خيرٌ له من أن يتزوَّج حُرَّة مُشركةً.

قَرِينَةُ الْمُقَابَلَةِ بينَ الْمُؤْمِنَةِ وَالْمُشْرِكَةِ:

الأَمَةُ هي المملوكة، والمشركة الحُرَّة، بقرينة المقابلة، أي: ﴿وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ﴾ مع ما بها مِن خساسة الرِّقِّ وقلّة الخَطَر خيرٌ مِن مشركة مع

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 2/719.

(2) الرازي، مفاتيح الغيب: 6/412، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/221.

أَدْنَى الْمُؤْمِنِينَ قَدْرًا - وَلَيْسَ فِيهِمْ دَنِيءٌ - أَعْظَمُ قَدْرًا مِنْ كُلِّ مُشْرِكٍ

ما لها من شَرَفِ الحرَّية ورِفعة الشَّأن، فالكلام وارد مورد التَّناهي في تفضيلِ أقلِّ أفراد هذا الصِّنف على أتَمِّ أفراد الصِّنف الآخر وأشرفهم، فإذا كانت الأَمَةُ المؤمنةُ خيرًا مِن كلِّ مشركة؛ فالحُرَّة المؤمنة خيرٌ مِن المشركة بدلالة فَحْوَى الخطاب التي يقتضيها السِّياق، ولظهور أنَّه لا معنى لتفضيل الأَمَةِ المؤمنة على الأمَةِ المشركة؛ فإنَّه حاصل بدلالة فحوى الخطاب لا يشك فيه المخاطبون المؤمنون، ولقوله: ﴿وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ﴾؛ فإنَّ الإعجاب بالحرائر دون الإماء[1].

دلالة التَّفْضيل بلفظ الخيريّة:

الْإِيمَانُ أَجَلُّ كَمَالَاتِ الْإِنْسَانِ

ليس التَّفْضيل هنا بلفظة ﴿خَيْرٌ﴾ من جهة الإيمان فقط؛ لأنَّه لا اشتراك مِن جهة الإيمان، لكنَّ الاشتراكَ موجود في المعاشرة، والصُّحبة، ومِلْك العِصمة وغير ذلك، ولفظة (أفعل) التي هي لِلتَّفضيل تقتضي عدمَ الاشتراك بالصِّفة عند أكثر العلماء، وتجيءُ في كلام العرب إيجابًا للأوَّل، ونفيًا عن الثَّاني[2]، فإنّ النُّقصان بالرِّقِّ في الأَمَةِ المؤمنة مجبورٌ بالإيمان الذي هو أجلُّ كمالاتِ الإنسان، ولو أعجبتِ المشركةُ بحسنها، ومالها، ونسبِها وغير ذلك؛ فإنَّ نقصان الكفر لا يُجبَرُ بها[3].

بَيَانُ حِكْمَةِ التَّحْرِيمِ اسْتِئْنَاسًا لِلْمُسْلِمِينَ

أو أنّ التَّفْضيلَ يقتضي المشاركة في الصِّفة، ولإحداهما مزيّة، فالخيرية في المؤمنة باعتبار الدُّنيا لما فيها من منافعَ دينيّة، فضلا عن منافع الآخرة، وفي الْمُشْرِكَة باعتبار الدُّنيا حَسْبُ؛ لاشتمالها على منافعها فقط؛ إمّا بكثرة المال، وإما بالنَّسب، وإمّا بالجَمال وميْلِ النَّفْس إليها، وبغير ذلك، والنَّفْعَان يشتركان في أصْلِ كونهما نفعًا، إلا أنَّ معانيَ الدِّين خيرٌ من أعراض الدُّنيا المنافية للدِّين،

(1) القاسمي، محاسن التأويل: 2/116، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/361.
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 1/297.
(3) القاسمي، محاسن التأويل: 2/116.

واجتماعُ نَفْعَيِ الدُّنيا والآخرة له المزيَّة العظمى، فالمقصود من التَّفضيلِ بيانُ حكمة التَّحريم استئناسًا للمسلمين[1].

دِلَالَةُ التَّعْبِير بـ﴿وَلَوْ﴾:

تَشْرِيفُ أَهْلِ الْإِيمَانِ عَلَى أَهْلِ الشِّرْكِ فِي جَمِيعِ الْأَحْوَالِ

الواو في: ﴿وَلَوْ﴾ حاليّة، أو للعطف على حالٍ محذوفة، والتَّقدير: خيرٌ من مُشركة على كلِّ حال، و﴿وَلَوْ﴾ وصليَّةٌ بمعنى إنِ الشَّرطية؛ لِلتَّنبيه على أقصى الأحوال التي هي مظنَّة تفضيل المُشْركة، ومع هذا فالأَمَةُ المؤمنة أفضلُ منها حتَّى في تلك الحالة، وما بعد ﴿وَلَوْ﴾ هذه إنَّما يأتي حالَ منافاتِهِ لما قبله بوجهٍ ما، فالإعجاب مُنَافٍ لحكم الخيريَّة، ومُقْتَضٍ جوازَ النِّكاح لرغبة النَّاكح فيها[2].

الْجَهْلُ بِحَقِيقَةِ الشَّيْءِ لَا يُوجِبُ حُكْمًا

وفي الجُمْلة تنبيهٌ على أنّ الاعتبار هو بإعجابهم، وليس الإعجاب إلَّا من ثمرة الجهل بحقيقة الشَّيء، والجهل لا يوجب حكمًا، فإذن لا اعتبار بهذا الإعجاب[3]؛ لأنّ هذا الإعجاب مستَمَدٌّ منَ الغريزة وحدها، ولا تشترك فيه مشاعر الإنسان العليا، ولا يرتفع عن حكم الجوارح والحواس. وجمالُ القلب أعمَقُ وأغلى، حتَّى لو كانت المسلمة أمَةً غير حُرَّة؛ فإن نسبَها إلى الإسلام يرفعها عنِ المشركة ذات الحسب. إنه نسبٌ في اللّه وهو أعلى الأنساب.

دِلالة إسنادِ الإعجاب إلى ذاتِ المُشْركة:

مَنَاطُ الْإِعْجَابِ بِالْمُشْرِكَةِ رَاجِعٌ إِلَى أَمْرٍ دُنْيَوِيٍّ، وَإِيمَانُ الْمُؤْمِنَةِ أَشْرَفُ مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ

ضميرُ الفاعلِ المستَتِرُ في قوله: ﴿وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ﴾ يعود إلى المشركة، وأُسند الإعجاب إلى ذاتها، ولم يبيّن ما يُعجبُ منها؛ لإرادة مطلق الإعجاب، إما لجمالٍ، أو شرفٍ، أو مالٍ، أو حريَّةٍ أو غير ذلك مما يقع به الإعجاب[4]، والجُمْلة من إثبات ما يُتوهَّم

(1) الرَّازي، مفاتيح الغيب: 6/413، وابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/267، وابن عاشور، التّحرير والتنوير: 2/362.

(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/174، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/362.

(3) الرَّاغب، تفسير الراغب: 1/455.

(4) الرازي، مفاتيح الغيب: 6/412، وأبو حيّان، البحر المحيط: 2/174.

نفيُه، أو نفي ما يتوهَّم ثبوتُه، مثل: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤۡمِنٖ لَّنَا وَلَوۡ كُنَّا صَٰدِقِينَ ١٧﴾ [يوسف: 17][1].

دِلالة تَكرار الحُكم في قوله: ﴿وَلَا تُنكِحُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾:

زَوَاجُ المؤمنةِ بالمُشْرِك أشَدُّ حرمةً مِن زواج المؤمنِ بالمُشْرِكَة

تكرارُ القضيّة نفسِها في صورة أخرى: توكيدٌ لها، وتدقيقٌ في بيانها، ودفعٌ لاحتمال انحصار الحُرْمة في الصُّورة الأولى، والدَّليلُ: أنّ العِلَّة في الأولى هي العِلَّة في الثَّانية: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلنَّارِۖ وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ وَٱلۡمَغۡفِرَةِ بِإِذۡنِهِۦۖ﴾، والحُكْمُ في الصُّورة الثانية أشدّ؛ لِما للرَّجل من قوامةٍ، واقتدارٍ في الزَّواج، ولذلك لم يُبَحْ تزوُّجُ المسلمةِ من الكتابيِّ اعتدادًا بقوة تأثير الرَّجل على امرأته، وذلك أدْعى إلى أنْ يجرَّهَا إلى دينه[2].

دِلالة الاكتفاء بذِكْرِ خيريَّة الأمَةِ وَالعَبْدِ:

الإيمَانُ يرفَعُ شأنَ الدَّنيء، والكفران يَخْفِض منزلةَ الشَّريف

أفهمَ الاكتفاءُ بذِكر خيريّة الأمَةِ والعبْد شمولَ الحُرَّة والحُرّ من المؤمنين من بابِ أَوْلَى، مع مزيدِ التَّشريف العظيم لهما بترك ذكرِهما؛ إعلامًا بأنَّ خيريَّتَهما أمرٌ مقطوعٌ به لا كلامَ فيه، وأنَّ المفاضلةَ إنما هي بين من كانوا يعدُّونه دَنِيًّا فشرَّفَهُ الإيمانُ، ومن يعدُّونه شَريفًا فحقَّرَهُ الكُفران[3].

سرُّ إثبات وَصْفَي الإيمانِ والشِّرك في الموضعين:

الإيمانُ والكفرُ مناطَا التَّشريفِ والتَّحقير

أُثْبِتَ وصفُ الإيمان في الموضعينِ وذُكِرَ الموصوف به (الأمَةُ والعبد)؛ ليدلّ على أنَّه وإن كان دَنِيًّا فهو موضع تفضيل وتشريفٍ لعلوِّ وصفه، وأُثبت الوصفُ بالشِّرك في الموضعين مقتصرًا عليه؛ لأنه موضع التَّحقيرِ والتَّحريمِ، وإنْ علا في العُرف موصُوفُه[4].

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/267.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/363.
(3) البقاعي، نظم الدُّرر: 3/272.
(4) البقاعي، نظم الدُّرر: 3/272، والقاسمي، محاسن التأويل: 2/116.

نُكْتَة التَّعْبير باسمِ الإشارة الدَّالّ على البُعْدِ:

بُعْدُ أَهْلِ الشِّرْكِ عَن كُلِّ خَيْرٍ

التَّعْبير باسمِ الإشارة الدالِّ على البُعْد ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ﴾ يُرادُ به المشركات والمشركون الذين هم أهلٌ للبُعْدِ من كلِّ خير؛ وفيه تنْبيهٌ بأنّ مخالطةَ أهلِ الشِّرك مظنَّة الفَساد، المؤدِّي إلى التَّهاون بالدِّين، فربّما دعا الزَّوجُ زوجتَه إلى الكُفْرِ، فقادَها الميْلُ إلى اتِّباعِه، وأنَّ صُحْبَتَهُم ومعاشرَتَهُم توجبُ الانحطاطَ في كثيرٍ من هواهم مع تربيتهم النَّسل[1].

سَبَبُ فَصْلِ ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ عمَّا قبله:

قَـرْنُ الْأَحْـكَـامِ بِعِلَلِهَا يَبْعَثُ فِي نفسِ العبدِ طُـمـأنـيـنـةً لِالْتِزَامِها

قول الله تعالى: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ إشارةٌ إلى المشركات والمشركين جميعًا، وليس خاصًّا بالمشركين؛ لصلُوحه لِلعودِ إلى الجميع، والواو في ﴿يَدْعُونَ﴾ واو جماعة الرِّجال، وغُلِّب فيه المذكَّر على المؤنَّث كما هو الشَّائع في كلامِ العربِ.

والجُمْلة مستأنفةٌ استئنافًا بيانيًّا؛ لكونها واردةً جوابًا عن سؤالٍ يُفْهَمُ ممَّا قبلُ، فنهي الله سبحانه عن نكاح المشركات وإنكاح المشركين، يبعث في نفس المتلقِّي سؤالًا عن العِلَّةِ في هذا الحكم، فجاء الجواب: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ﴾، والمرادُ: تعليل النَّهي عَن نكاح المشركات وإنكاح المشركين؛ لما هم عليه مِنَ الالتباس بالمحرَّمات، والانغماس في القاذورات، والعِلَّة في الأولى هي العِلَّة في الثانية[2].

فهذه أفعال موجبةٌ للنار، وواجبُ اجتنابِ الدَّاعي إلى النَّار اجتنابُ الحاملِ عليها، فوجبَ مجانبتهم إذن، ويلزم العكسُ، فالدَّاعي إلى الجَنَّة واجبٌ اِتِّباعه[3].

---

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 1/297، والبقاعي، نظم الدُّرر: 3/272-273.

(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/175، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/363.

(3) الراغب، تفسير الراغب: 1/455.

نُكتةُ تنْزيلِ الفعل المتعدّي منزلةَ اللّازم:

دَعْـوَةُ المشركين الخَلْقَ إلى النَّار مِـن شَـأْنِـهـم وطـبـيـعـتـهـم؛ لقُبْحِ طَوِيَّتِهم

في جملتي: الدَّعوة إلى النَّار وإلى الجَنَّة تنزيلٌ لفعل الدَّعوة ﴿يَدْعُونَ﴾ المتعدّي منزلةَ اللّازم؛ وذلك لإثبات معنى الدّعوة إلى النَّار لَهم، والدعوة إلى الجنَّة لِلباري عزَّ في عُلاه؛ وفي ذلك إقرار أنّهم أهل دعوةٍ إلى النَّار، وأنه تعالى أهل دعوةٍ إلى الجنَّة[1]، والمعنى: أنَّه تصدر منهم دعوةٌ، بصرفِ النَّظرِ عن المدعُوِّينَ.

ويَحتمِلُ أن يكون الفعلُ باقيًا في دلالتِه على التَّعَدِّي، ويكون حذفُ المفعول لإرادةِ العموم؛ إذ حذف المعمول مُؤْذِن بذلك، والمعنى: أنَّ المشركين يدعونَ كلَّ أحدٍ؛ إمعانًا منهم في إضلالِ الخَلْقِ، واللّه ﷻ يدعو كُلَّ أحدٍ إلى الجنَّةِ؛ لسعةِ رحمتِه بهم، كما ذكر العلماءُ نظيرَه في قول اللّه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ﴾ [يونس: 25][2].

والحاصلُ أنَّ مفعولَ فعلِ الدّعاءِ محذوف، إمَّا اقتصارا؛ إذِ المقصود إثبات أنَّ مِن شأنهم الدُّعاءَ إلى النَّار مِن غير ملاحظة مفعولٍ خاصٍّ، وإمَّا اختصارًا، فالمعنى: أولئك يدعونَكُم إلى النَّار[3]، أو يدعونَ كُلَّ أحدٍ.

عِلَّة التَّعْبيرِ بالمجاز المرسل في لفظ الدُّعاء إلى النَّار وإلى الجَنَّة والمغفرة:

المُـبَـالـغَـةُ في التَّنفِيرِ مِن أهلِ الشِّرك

معنى الدُّعاء إلى النَّار: الدُّعاء إلى أسبابها؛ فإسناد الدُّعاء إليهم حقيقة عقليّة، ولفظ النَّار مجازٌ مرسلٌ أُطْلِقَ على أسباب الدُّخول إلى النَّار؛ فإنَّ ما هُمْ عليه يجرُّ إلى النَّار من غيرِ عِلم[4]، ونكتةُ التَّعبير بالمجاز ههنا: المبالغةُ في التَّنفيرِ من دعوتِهم. ويجوزُ أن يكون ذلك من حذف المضافِ وإقامة المضافِ إليه مُقامه، فقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ أي: يدعون إلى أسبابِها.

(1) الإندونيسي، الشامل في بلاغة القرآن: 1/111.
(2) محمّد رشيد رضا، تفسير المنار: 11/286.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/175.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/363.

وكذا الأمرُ في الدُّعاء إلى الجَنَّة والمغفرة هو على طريق المجاز المُرسل، علاقتُه المسبِّبيَّة؛ إذْ ذُكِرتِ المغفرة وهي المسبَّب، وأُريدتِ التَّوْبة وهي السَّبب في المغفرة[1]، والدَّعوة إلى الجنَّةِ يُرادُ الدَّعوة إلى أسبابِ دخولهَا، والنُّكْتَةُ في ذلك: شدَّةُ التَّرغيب في الجَنَّةِ.

أقـربُ الأسبـابِ وأعمُّها لِلدُّخول إلى الجَنَّةِ.

وقُرِنَ لفظُ المغفرة بالجَنَّة؛ لكونِ المغفرةِ أقربَ الأسبابِ وأعمَّها للدخول إلى الجَنَّة.

سرّ تقديم الاسم الأحسن ﴿ٱللَّهُ﴾ على الفعلِ:

لما رهَّبَ اللّه تعالى من أهل الشِّرك حثًّا على البُغْضِ فيه؛ رغَّبَ في الإقبال إليه سُبْحانه وتعالى بتقديم اسمه الأعظم ﴿ٱللَّهُ﴾[2]، تقويةً لِما تقدّم من حكم، وتقريرًا له[3]، فضلا عن كونهِ الاسمَ العلم الجَامع لسائر صفاته الشّريفة جلَّ في عُلاه، وإظهاره مُقَدَّمًا أدْعى إلى تربية المهابة في النُّفوس، ومؤدّاها تجنّبُ نواهيه، والحذرُ من الوقوع في المحرَّم، وتحرّي ما هو أسْلَم.

الـتَّرْغِـيـبُ في الإقبَالِ على اللهِ تعَالَى

نُكْتَة تقديم الجَنَّة على المغفرة:

في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ وَٱلۡمَغۡفِرَةِ بِإِذۡنِهِۦۖ﴾: الأصلُ تقديمُ ﴿وَٱلۡمَغۡفِرَةِ﴾؛ لأنَّها سببٌ في دُخُولِ الجَنَّة، وأنّ حقَّ التَّخلية أن تُقدَّم على التَّحلية، وذلكَ من عادات القرآن الكريم، كما في قول اللّه تعالى: ﴿۞وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ﴾ [آل عمران: 133]، وقوله سبحانه: ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ﴾ [الحديد: 21]، وإنما أُخِّرَت هنا لتحسُنَ المقابلَةُ، أي: لرعاية مقابلة النَّار ابتداءً؛ فإنَّ قبلَها ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلنَّارِۖ﴾، فقدَّم الجَنَّة ليقابِلَ بها النَّار لفظًا، وليُشَوِّقَ تعالى النّفوسَ إليها حين ذَكَرَ دعاءَه إليها، فأتى

تَشْوِيقُ النُّفُوسِ إِلَى الْجَنَّةِ

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/175، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/363.
(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 3/273.
(3) الإندونيسي، الشّامل في بلاغة القرآن: 1/111.

بالأَشْرَفِ للأشْرَفِ، ثم أَتْبَعَ بالمغفرة على سبيل التَّتِمَّة في الإحسان، وتهيئَةِ سببِ دخول الجَنَّة[1].

وذلك أنّه لا يُوصَل إلى الجَنَّة إلَّا بعد القصاص؛ بفعل ما يؤدِّي إلى أن يَغْفِرَ لهم ويُهذِّبَ نفوسَهُم بحيث يصيرون إلى حالةٍ سَنِيَّةٍ يغفرونَ فيها للنّاس ما أتوا إليهم[2].

فائدة المقابلةِ بينَ دعوة المشركينَ ودعوةِ الله تعالى:

تفظيعُ دعوةِ المشركينَ ببَيانِ ضدِّيَّتِها لدعوةِ اللهِ تعالى

وجه المقابلة بين دعوة المشركين ودعوة الله ﷻ: بيان أَنَّها مضادَّةٌ لدعوة الله تعالى، والمقصود من هذا تفظيع دعوتهم وأنَّهَا خلاف دعوةِ الحقِّ المؤدّية إلى الجَنَّة[3].

دلالة حذفِ المضافِ وإقامةِ المضافِ إليه مقامه:

كمالُ التَّشريف لِأهلِ الإيمانِ ولدينِ الإسلامِ

وممّا وُجِّهَ به قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ﴾ أنّ الله يدعو، وأولياءُ الله يدْعون وهم المؤمنون على حذفِ المضافِ وإقامةِ المضافِ إليه مقامه، بقرينةِ إسناد مقابله وهو الدّعاء إلى النَّار للمشركين، وفي ذلك تشريفٌ لأهل الإيمان، وتفخيمٌ لشأنهم؛ حيث جعل فعلَهم فعلَ نفسِه صورةً، وكمال تشريف لدين الإسلام، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾ [الفتح: 10][4].

تأكيدُ التَّباعُدِ مِنَ المُشركِين

وَإجراء اللَّفظ على ظاهره من نسبة الدُّعاء إلى الله تعالى آكَدُ في التَّباعد مِن المشركين؛ إذ جعل موجدَ العالَم منافيًا لهم في الدُّعاء، فهذا أبلغُ مِنَ المعادلة بين المشركين والمؤمنين[5].

بلاغَةُ التَّعبير بطباقِ الإيجابِ:

جاءَ التَّعبيرُ عن هذه المتضادَّات: ﴿مُّؤۡمِنَةٌ﴾، و﴿مُّشۡرِكَةٍ﴾،

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/176، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/222.
(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 3/273-274.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/363.
(4) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/269، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/222، والقاسمي، محاسن التأويل: 2/117.
(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/175.

و﴿مُّؤۡمِنٌ﴾، و﴿مُّشۡرِكٍ﴾، و﴿ٱلنَّارِ﴾، و﴿ٱلۡجَنَّةِ﴾ بِطِبَاقِ الإيجاب، وفي هذا إفصاحٌ عن دِلالة الرَّبط في الجُمَل المتضمّنةِ هذه الألفاظَ المؤدّي إلى مزيدِ إيضَاحٍ للمعنى وبيانه؛ بما يسبِّبه من شدٍّ وجذْبٍ للنَّفس المتلقِّية له قراءةً وتدبُّرًا، وفي ذلك تعزيزٌ للوظيفة الإبلاغيّة للطِّباق بالوظيفة التأثيريّة التي يترسّخ مِن خلالها المنهج الفطريّ السليم للنَّفس البشريّة بالاتّصاف بالإيمان والنُّزوع نحو تَمثُّل شروطِهَا، ونبذ الشِّرك والتحرّز من مظاهره، واتبّاع السَّبيل المؤدّية إلى الجَنَّة، ونبذ سُبُلِ المصير إلى النَّار، وزاد تناسُبُ هذه الألفاظ بصيغة الطِّباق من ترسيخ هذه الدَّلالة.

تعزيزُ الوظيفة الإبلاغيّة للطِّباق بالوظيفة التأثيريّة

نُكْتَةُ تَقْيِيد الدُّعاء إلى الجنَّة بالإِذْنِ:

يُطلق الإذن على الأمر والقضاء وعلى الإعلام، كما يطلق على الإرادة والمشيئة مع الرِّضا والتَّوفيق والتَّيسير؛ وهذه المعاني متحقِّقة في هذه الجُمْلة السَّامية؛ فإنَّ اللّه سبحانه أعلم النَّاس بطرق الجَنَّة والمغفرة، وآذنهم بها ليسلك من يريد السّلوك، وأمرهم أمرًا قاطعًا بالحقِّ في كلِّ شيء ليطيع من طلب الحقَّ وسلك سبيله[1].

سُلوكُ طريقِ الجنَّة يَحْصُلُ لِلْعَبْدِ بتَوْفِيقٍ مِنَ اللهِ تعالَى

وفي تقييد الدُّعاء إلى الجنَّة والمغفرة بالإذن إشعارٌ بأنَّ استجابةَ العبادِ لدعوة اللّه تعالى إنَّما تكون بتيسيرِ اللّه تعالى وتوفيقِهِ لهم.

دِلالة الوصلِ في جُملة ﴿وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ﴾:

قول اللّه تعالى: ﴿وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ﴾ معطوفٌ على ﴿يَدۡعُوٓاْ﴾؛ لما بينهما من التَّوسُّطِ بين الكمالين؛ فإنَّ كِلْتَا الجملتين خبريَّةٌ، واشتركا في المسندِ إليه وهو اللّه ﷻ، وحسَّن الوصلَ كونُ الجملتين فعليَّتَين، والمعنى: أنَّ اللّه تعالى يدعو إلى الخير مع بيانِهِ وإيضاحِه حتَّى تتلقَّاه النّفوس بمزيد القبول وتمام البصيرة، فهذا كقوله: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ

لأداء معنى التَّذْييل، أو المجاز في الحصول القريب

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/363، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 2/726.

﴿ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ﴾ [البقرة: 219]، ففيها معنى التَّذْييل، وإن كانت واردة بغير صيغتِه[1].

دِلالةُ جمع الآياتِ وتعريفِها بالإضافة:

تعدُّدُ آياتِ الله تعالى وتَجَدُّدُهَا

إضافة الآيات إلى ضمير الاسم الأحسن تخصيصٌ لها بالله ﷻ، وتنبيهٌ على مكانتها وأهميتها وشرفها، والتَّعْبير بها بصيغة الجمع دِلالة تعدّدِها، وتجدّدها، ويرسّخ ذلك التَّعْبيرُ بالجُملة الفعليَّة الدَّالَّة على الاستمرارِ التجدّديِّ.

عِلَّة التَّعْبير بحرف الجرِّ (اللَّام):

آياتُ الله تعالى سَبِيلُ التَّفكّر ودليلُ تَحْصِيلِ الإيمانِ

قولُ الله تعالى: ﴿لِلنَّاسِ﴾، أي: من أراد سعادته وغيره[2]، و(اللَّام) معناها الوصولُ والتَّبليغ، والتَّبْيين[3]، وهي هنا مفيدةٌ زيادةَ تقويةِ فعل التَّبيين وإيصاله وتبليغه إلى السَّامع؛ تنبيهًا على علوِّ شأن آيات الله تعالى بوصفها مقدّماتٍ للتَّدبُّر، وسُبلا للتَّفكّر، ودلائلَ إلى تحصيل الإيمان.

قصْديَّة التَّعْبير بلفظ التذكّر دون غيره:

التَّدرُّج في التذكّر مظنّةُ إطالةٍ وتفصيلٍ

تظهرُ مع استعمال هذه الصّيغة من الفعل (يتذكَّر) صيغةٌ مُشابهةٌ لها وهي (يذَّكَّر)، ويفرّق الدّكتور فاضل السّامرائي بينهما من حيث إنّ بناء (يتفعّل) أطولُ في النُّطقِ؛ لكونه يتكوّنُ من خمسة مقاطع (يَ/تَ/ذَكْ/كَ/رُ) ولذلك استُعمِل لما هو أطْولُ زمنًا، ولما فيه مقام إطالةٍ وتفصيل؛ بسبب معنى التَّدرّج الذي يكتنفه.

فبناء (يَذَّكَّر) أقصرُ في النُّطقِ؛ لتكوّنه من أربعة مقاطع (يَذْ/ذَكْ/كَ/رُ)، لكنَّ فيه تضعيفًا زائدًا، ولذلك جيءَ به في مواطن المبالغة في الحدث والإكثار منه؛ لما فيه من معنى التّكلُّف وبذل

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/364.
(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 3/274.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/176.

الجُهْد، ومن هنا جاء في سياق الآيات مقترنا بلفظ الزَّيغ، وشرّ الدّواب، والمرض، والنُّفور، كما في قول الله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ۝٧﴾ [آل عمران: 7]، وقوله سبحانه: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٥٥ ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ۝٥٦ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي ٱلْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ۝٥٧﴾ [الأنفال: 55 - 57]، وقوله ﷻ: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ۝١٢٥ أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ۝١٢٦﴾ [التَّوْبة: 125 - 126]، وقوله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِيَذَّكَّرُواْ وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ۝٤١﴾ [الإسراء: 41].

دِقَّةُ اخْتِيَارِ الصِّيَغِ الْمُخْتَلِفَةِ فِي مَقَامَاتٍ مناسبةٍ

والوصولُ إلى تبيّن آيات الله أمرٌ يحتاجُ إلى طولِ تدبُّرٍ، وعمقِ تأمّلٍ، وامتداد نظرٍ، ومحاكمة عقليّة؛ لكونها أمرًا عقليًّا يُتَحَصَّلُ بالتّدبّرِ، وطولِ التّفكُّرِ، ومثله قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ۝٢٧﴾ [الزمر: 27]، فالخلوصُ من الأمثالِ إلى مواطن الحِكْمة والاتِّعاظ، وعقدُ الصِّلة بين المَثَلِ والواقع يحتاجُ إلى طُولِ تذكّرٍ، وتأمّلٍ وإحكامٍ عقليٍّ، فاستعملَ يتذكَّرون[1].

مَوْرِدُ التَّذَكُّرِ: التأمّلُ وطُولُ النَّظرِ

ويرسِّخ معنى طُولِ التَّفكّر، وامتدادِ التَّدبّر: التَّعْبيرُ بصيغة المُضارع للحثِّ على تكرار التَّذكّر، وتجدّده بتجدّد الآيات، وليرجُوَ النَّاس أنْ يكونوا في حالِ تذكُّرٍ دائم لربِّهم وشَرْعِهِ، وخالقِهم وما أنزَلَ لهم من أحْكَامٍ تُصْلِحُ دُنْياهم، وتُقَرِّبهم إلى الله زُلفى، فينالون رضْوانَه يومَ الدِّين[2].

(1) السّامرائي، بلاغة الكلمة، ص: 55-42.
(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 2/727.

دِلالة التَّعْبير بحرفِ الرَّجاءِ (لعلَّ):

لتأدية معنى التَّعليل

حرفُ الرَّجاء في قوله تعالى: ﴿لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ﴾ في معنى التَّعليل؛ لأنَّ الرَّجاء من الله تعالى في موضع التَّحقيق؛ أو: الرجاء على حقيقته؛ وهو مِن العبد لَا من الربّ[1]. فهو تعالى يُظْهر آياته ويكْشفها بحيث لا يحصل فيها التباس؛ رجاءَ أن يحصل بظهور الآيات تذكُّرٌ واتِّعاظٌ؛ لأنَّ الآيةَ متى كانت جليَّةً واضحةً، كانت بصدد أنْ يحْصُلَ بها التذكُّرُ، فيحصلَ الامتثالُ لما دلَّتْ عليه تلك الآياتُ من موافقةِ الأمْرِ، ومخالَفَةِ النَّهي[2].

دِلالة فَتْحِ حَرْفِ المُضارعة وضَمِّه في فِعْلِ النِّكاح:

حُرْمَةُ تَزْوِيجِ المرأةِ نَفْسَهَا دونَ وَلِيِّها

فُتِحَتِ التَّاء في ﴿وَلَا تَنكِحُواْ ٱلۡمُشۡرِكَٰتِ﴾ وضُمَّتْ في ﴿وَلَا تُنكِحُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾؛ لكون الأوَّلِ فعلًا ثلاثيًّا (نَكَحَ)، والآخرِ رُباعيًّا (أنكَحَ)، واستدلَّ بها كثيرٌ من الفقهاء على أنَّ المرأة لا تباشر عقْدَ زواجها بنفسها، وأنه لابد من الوليّ، ولو كانت بالغة عاقلة رشيدة، ففتحُ التَّاء دالٌّ على أنَّ العقدَ للنفس، وضمُّها للدَّلالة على أنَّ العقْدَ في مقام تزويج الأنثى للرَّجُلِ، وعليه؛ فلا يجوز لها مباشرة عقْدِ الزواج بنفسها ولا يسوغُ لها أنْ تنْفَردَ به دون وليِّها[3]، ومصداقُه قولُ رسول الله ﷺ: «لا نِكَاح إلا بوليٍّ»[4].

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

النِّكاح، والزواج، والعقد، والوطء:

النِّكاح: الضمُّ، ومعنى الضمِّ حاصلٌ في العَقْد وفي الوَطْءِ،

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 2/727.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/176.
(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 2/721.
(4) رواه أحمد في المسند، حديث رقم: (19518)، وأبو داود في سننه، حديث رقم: (2085)، والترمذي في جامعه، حديث رقم: (1101)، وابن ماجه في سننه، حديث رقم: (1881).، كلهم من حديث أبي موسى الأشعريِّ رضي الله عنه، وصحَّحه الألباني في إرواء الغليل، حديث رقم: (1839).

فيحسُن استعمالُ هذا اللفظ فيهما جميعًا، والعربُ فَقِهَتْ هذا المعنى ففَرَّقَتْ بين العَقْد والوطء بفرق لطيف حتى لا يحصل الالتباس، فإذا قالوا: نكَحَ فلانٌ فلانةً أرادوا تزوَّجَها، وعقدَ عليها، وإذا قالوا: نَكَحَ امرأتَه أو زوجته فلا يريدون غير المجامعَةِ؛ لأنَّ في ذِكْر نكاح المرأة، أو الزَّوْجة غِنًى عن ذِكْر العقد، فلم تحتمل الكلمة غير المجامعة[1]. وبهذا التَّفريق فإنّ المراد بلفظ ﴿تَنكِحُواْ﴾ في الآية الكريمة عقد التَّزويج على وجه الحقيقة أو المجاز، ومؤدَّى العَقْدِ مِنْ ثَمَّ الوَطْءُ.

لدفع اللبس بين عقد النِّكاح، والمباشرة

وإيثار لفظ النِّكاح؛ لأنّه أخفُّ من (تزوج) وكل مَا كَانَ أخف كَانَ ذكره أَكثر. والثقيل من الكَلِمَات: مَا كثرت مدلولاته ولوازمه، كالفعل، فَإِن مدلولاته الحَدث وَالزَّمَان، ولوازمه الفَاعِل وَالمَفْعُول وَالتَّصَرُّف وَغير ذَلِك والخفيف من الكَلِمَات: مَا قلَّ فِيهِ ذَلِك، كالاسم، فَإِنَّهُ يدلّ على مُسَمّى وَاحِد، وَلَا يلزمه غَيره فِي تحقق مَعْنَاهُ[2].

وفي لفظ النِّكاح خفّة يؤثرُ معها اللفظ

الكفر والشِّرك:

الكُفْرُ: اسمٌ جامعٌ لعديدِ الذُّنوبِ، وهو يقعُ على ضروبٍ منه، والكافرُ: الجاحد لأنعم الله التي لا تحصى. وهو "على الإطلاق متعارفٌ فيمن يجحد الوحدانية، أو النبوة، أو الشَّريعة، أو ثلاثتها، وقد يُقال كَفَرَ لمن أخَلَّ بالشَّريعة، وتركَ ما لزِمَهُ من شُكْرِ الله"[3]. في حين أنّ الشِّرك " إثباتُ شريك لله، وذلك أعظمُ كفرٍ، أو مراعاةُ غير الله في بعضِ الأمور"[4]. فهو: ضربٌ واحدٌ من الذُّنوب على عِظَمِ شأنه، وفداحةِ وصْفِه؛ لذا فهو أخصُّ.

الكفر لفظ عام، والشِّرك لفظ خاصٌّ

ولكثرة استعمال القرآن هذا اللفظ في معنى عبادة غير الله،

(1) الرازي، مفاتيح الغيب: 6/408.
(2) الكفوي، الكليات، ص: 324.
(3) الراغب، المفردات، ص: 374.
(4) المصدر نفسه: 374.

من خصوصيّة لفظ الشِّرك إطلاقه على عبادة الأوثان

أو إثبات شريك لله في العبادة كان لكلمة ﴿مُّشْرِكٍ﴾ إطلاقٌ خاصٌّ فيه؛ وهو إطلاقه على من يعبد الأوثان؛ فكلمة: مشرك، ومشركين، ومشركات، كلها إذا ذكرت في القرآن انصرفت إلى عبدة الأوثان من غير أية قرينة دالة على ذلك؛ لأنها صارت في الإسلام حقيقة عرفية عليهم؛ إذ صار لفظ المشركين اسمًا لجنس معيَّن، ولا يُطلق على اليهود والنصارى، فعند ذكر القرآن للنصارى واليهود عنونهم بـ(أهل الكتاب)[1].

دلالة التفريق الاختلاف في المعاملة، والأحكام

يضيف أبو زهرة أنّ في قوله تعالى: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ۝١﴾ [البينة: 1] ذِكرًا للجميع بعنوان الكُفْر؛ ولكنَّه فصَلَ بينهما، فجعلهما جنسين مختلفين، وإنَّ ذلك أدّى إلى الاختلاف في المعاملة، والأحكام؛ وكانت العِلَّة في هذا الاختلاف مشتقَّة من التَّسمية نفْسِها؛ فأولئك لهم كتابٌ، وإنْ كان محرَّفًا؛ والمشركونَ ليس لهم كتابٌ، فلا ضابطَ يضْبطُهم، ولا عاصِمَ يحولُ بينهم وبين الإيغال المطْلَق في الشَّر، بل هم حائرون. وعلى هذا التَّحقيق اللغويّ فاختيارُ لفظِ المشركين الدالِّ على الخصوص يناسبُ سياقَ الآية المباركة؛ لأنّه لا يُدخِلُ في عموم النَّهي إلا الوثنيات ولا يُدْخِلُ فيه قطُّ الكتابيات؛ لأن الحقيقة العرفيَّة القُرآنيّة لَا تُدخِلُ اليهود والنَّصارى في عنوان المشركين، ولا في عموم الوثنيين، وإن كانوا مُثلِّثينَ.

خير وأفضل:

فرّق ابن رجبٍ الحنبلي بين اللفظين، فذهب إلى أنَّ لفظة (أفضل) إنما تستعمل في شيئين اشتركا في غير فضل، وامتاز أحدهما من الآخر بفضلٍ اختصَّ به، فهذا الممتاز قد شارك ذاك

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 2/716.

في الفضل واختصَّ عنه بفضلٍ زائدٍ. وأما لفظة ﴿خَيْرٌ﴾، فتستعمل في شيئين: في كل منهما نوع من الخير أرجح مما في الآخر سواء كان لزيادة عليه في ذاته أو في نفعه أو غير ذلك، وإن اختلف جنساهما فترجيح أحدهما على الآخر يكون بلفظة خير[1]. فترجيح صفة الإيمان في المؤمن والمؤمنة على صفةِ حُسْنِ المنْظر وغيره يناسبُه لفظة ﴿خَيْرٌ﴾ لما فيها من زيادة في نفعه.

(1) ابن حجر، فتح الباري: 1/40-41.

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ۖ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾﴾

[البقرة: 222]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

ومناسبةُ هذه الآية لما قبلها هو أنَّه لما نَهَى عن مناكحة الكُفَّار، وتضمَّن مناكحَةَ أهل الإيمان وإيثارَ ذلك، بيَّن حكمًا عظيمًا من أحكام النِّكاح، وهو حكمُ النِّكاح في زمان الحَيْض[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلْمَحِيضِ﴾: الحَاءُ وَاليَاءُ وَالضَّادُ كَلِمَةٌ وَاحِدَةٌ، يُقَالُ حَاضَتِ السَّمُرَةُ إِذَا خَرَجَ مِنْهَا مَاءٌ أَحْمَرُ. وَلِذَلِكَ سُمِّيَتِ النُّفَساءُ حَائِضًا، تَشْبِيهًا لِدَمِهَا بِذَلِكَ المَاءِ[2]. والمحيض: الحَيْض ووقت الحَيْض وموضعه، والحَيْض هو الدم الخارج من الرَّحم على وصف مخصوص في وقت مخصوص، ويتعلق به منع الصلاة، والصوم، وحظر الجماع، وانقضاء العدِّة، واجتناب دخول المسجد ومسّ المصحف، وقراءة القرآن، وأنْ تصيرَ المرأة به في الابتداء مكلَّفةً[3].

2) ﴿أَذًى﴾: "الهَمْزَةُ وَالذَّالُ وَاليَاءُ أَصْلٌ وَاحِدٌ، وَهُوَ الشَّيء تَتَكَرَّهُهُ وَلَا تَقَرُّ عَلَيْهِ"[4]، والأذَى، هُوَ مَا تَسْمعُهُ من المَكروه[5]، وما يغمُّ ويُكْرَهُ من كلِّ شَيءٍ[6]. وهو: اسم لما ينالُ النَّفْسَ من مكروه[7]. وما يصل إلى الحيوان من الضرر إما في نفسه، أو جسمه، أو تبعاته

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/176.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حَيَضَ).
(3) الراغب، المفردات: (حَيَضَ)، تفسير الراغب: 1/456، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/365، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (حيض).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أَذَيَ).
(5) الأزهري، تهذيب اللغة: (أَذَى)
(6) الواحدي، التفسير الوسيط: 1/328،
(7) الراغب، تفسير الراغب: 1/456.

دنيويا كان أو أخرويًّا. وسُمِّيَ المحيضُ أذى في الآية الكريمة باعتبار الشَّرع، وباعتبار الطِّب على حَسَب ما يذكره أصحاب هذه الصِّناعة[1]. وكلُّ ما جاء في القرآن من (الأذى والإيذاء) فمعناه الإيلام النَّفْسي (التكرّه)، أو البدني غير المبرح[2].

3) ﴿فَٱعۡتَزِلُواْ﴾: العَيْنُ وَالزَّايُ وَاللَّامُ أَصْلٌ صَحِيحٌ يدلّ عَلَى تَنْحِيَةٍ وَإِمَالَةٍ، وعَزَلَ الشَّيء نَحَّاهُ في جَانِبٍ، ورأيته بِمَعْزِلٍ وَفِي مَعْزِلٍ، أَيْ فِي نَاحِيَةٍ عنِ القوم معتزلا[3]. والاعتزال: العُدول عن الشَّيء، وتجنّبه بالبدن أو بالقلب. وأصله من العزل، وهو صرف العامل عن عمله[4]. ومعنى ﴿فَٱعۡتَزِلُواْ﴾: أي: دعوا مجامعتهنَّ إذا حِضْنَ[5].

4) ﴿ٱلنِّسَآءَ﴾: النِّسْوَةُ، والنّسوان، والنّسُون كلّه: جملة النِّساء، لا واحِدَ لهُ من لفظِه[6]. ويقال لجَماعَة المَرْأَة من غير لفظِها، كالقوْم في جمع المرء، وَالنِّساء: إذا كَثُرْنَ[7]. واللفظ في أصلِه خاصٌّ باللاتي بلغْنَ المحيضَ والحَمْلَ، ولذا لا تُطْلَق في الذَّوْق العامِّ على الصَّغيراتِ قبْلَ الحَيْض، ثم تعمَّمُ في كلّ مَنْ شأنُ جِنسهنَّ ذلك ﴿وَقَالَ نِسۡوَةٞ فِي ٱلۡمَدِينَةِ﴾ [يوسف: 30]. وبهذا المعنى جاء كلّ (نسْوةٍ)، و(نساءٍ) في القرآن[8].

5) ﴿تَقۡرَبُوهُنَّ﴾: القَافُ وَالرَّاءُ وَالبَاءُ أَصْلٌ صَحِيحٌ يدلّ عَلَى خِلَافِ البُعْدِ[9]، والاقترابُ الدُّنوُّ، والتَقَرُّبُ: التَّدنِّي والتَّواصل إِلَى إنسانٍ بحقٍّ أو قَرابةٍ. والقُرْبانُ: ما تَقَرَّبْتَ به إلى الله تبتغي به قُرْبًا ووسيلة. وما قَرَبْتُ هذا الأمر قُرْباناً ولا قُرْباً. وقَرَبَ فلان أهلَه أي غشيها قُرْبانًا[10]، والقُرْبُ: وجود الشَّيء في الحيِّز متاحًا مهيَّأً للتناول أو الوصول إليه. ومفردات هذا التَّركيب تدور معانيها بين القرب المكاني والزماني، والنَسَبِيّ، وقرب المنزلة. فكلُّ (لا تقربا، لا تقربوا) كناية في غالبها عن تجنّب التَّناول أو الممارسة[11]،

(1) الراغب، المفردات: (أذى).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقي: (أذى).
(3) الخليل، العين، ابن فارس، مقاييس اللغة: (عَزَلَ).
(4) الراغب، تفسير الراغب: 1/456، والمفردات: (عزل).
(5) الواحدي، التفسير الوسيط: 1/328.
(6) الخليل، العين: (نسو).
(7) الأزهري، تهذيب اللغة: (نسي)، الراغب، المفردات: (نسى).
(8) جبل، المعجم الاشتقاقي: (نسو - نسى).
(9) الخليل، العين، ابن فارس، مقاييس اللغة: (قَرُبَ).
(10) الخليل، العين، الأزهري، تهذيب اللغة، الجوهري، الصحاح: (قَرُبَ).
(11) جبل، المعجم الاشتقاقي: (قرب).

وعليه فمعنى النَّهي عن التَّقرب للنِّساء منع وطئهنَّ؛ لأنَّ معنى القُرْب الدنوُّ، واسْتُعملَ في المجامعة؛ لأنَّ فيه قربًا[1].

6) ﴿يَطۡهُرۡنَ﴾، ﴿تَطَهَّرۡنَ﴾، ﴿ٱلۡمُتَطَهِّرِينَ﴾: "الطَّاءُ وَالهَاءُ وَالرَّاءُ أَصْلٌ وَاحِدٌ صَحِيحٌ يدلّ عَلَى نَقَاءٍ وَزَوَالِ دَنَسٍ. وَمِنْ ذَلِكَ الطُّهر، خِلَافُ الدَّنَسِ. وَالتَّطَهُّرُ: التَّنَزُّهُ عَنِ الذَّمِّ وَكُلِّ قَبِيحٍ. وَفُلَانٌ طَاهِرُ الثِّيَابِ، إِذَا لَمْ يُدَنَّسْ "[2]. والطُّهر: نَقيضُ الحَيْض. وطَهَرَتِ المرأةُ وطَهُرَت وطَهِرَتْ، فهي طاهر؛ إذا انقطع عَنْهَا الدَّم، وهي ذات طُهْر. وتَطَهَّرَتْ، أي: اغتسلت من الحَيْض، والاطِّهارُ: الاغتِسال، والاستِنْجاء بالماء[3].

وطهَرت المرأة خلاف طَمَثَتْ. والطَّهارة ضربان: طهارة جسْم، وطهارة نفْسٍ، وحُمِلَ عليهما عامّة الآيات. يقال: طهَّرتُه فطَهُرَ، وتطهَّر، واطَّهر فهو طاهر ومتطهِّر. والتَّطهر: الغُسل باستعمال الماء، أو ما يقوم مقامه[4]. فالمعنى المحوري نقاء الشَّيء مما يُتَأَذَّى به، ثم عُمِّم في التنزُّه عن القبائح الماديّة والمعنويّة. وكلُّ ما في القرآن من التَّركيب فهو من الطَّهارة بمعنى النَّقاء من الأدران الماديَّة أو المعنويَّة، ومن المعنويَّة قبائح النَّفْس والقلب[5]، واختُلِفَ في معنى الألفاظِ الثَّلاثة وسيأتي بيان ذلك في الشَّرح اللغويِّ والبلاغيِّ، وفي عمومها لا تخرج عن: طهارة النَّفْس، وطهارة البدن بالاغتسال، والاستنجاء، والنَّقاء من النَّجاسة، والقاذوراتِ.

7) ﴿فَأۡتُوهُنَّ﴾: من (أتي - أتو - أتى) الهمزة والتاء والحرف المعتل ياءً، أو واوًا، أو ألفًا، يدلُّ على مجيء الشَّيء وإصْحابِهِ وطاعتِهِ[6]. فالإتْيان: المجيءُ[7]، وهو الدنوُّ والقُربُ، يُقَال للرجل إذا دنا من عدوه: أُتيتَ أيّها الرجُل، و﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ﴾ [النَّحل: 1]، أَي قَرُبَ ودَنَا[8]، وكُلُّ مَسِيلٍ سَهَّلتَه لماءٍ: أَتِيٌّ، وَطَرِيق مِيتاء، أَي: مسلوكٌ وَاضح[9]. ومنه

(1) الراغب، تفسير الراغب: 1/457.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، الجوهري، الصحاح: (طَهَرَ).
(3) الخليل، العين، ابن سيده، المحكم: (طهر).
(4) الراغب، المفردات: (طهر).
(5) جبل، المعجم الاشتقاقي: (طهر).
(6) ابن فارس، المقاييس: (أَتَوَ).
(7) الجوهري، الصحاح: (أتا).
(8) الأزهري، التهذيب: (أَتَىَ).
(9) ابن دريد، الجمهرة: (توواي)، ابن سيده، المحكم: (أتى).

قيل: للإتيان: مجيء بسهولة، فالإتْيان يقال للمجيء بالذَّات وبالأمر وبالتَّدبير، ويقالُ في الخير وفي الشَّر وفي الأعيان والأعراض[1]. وتُفسَّرُ لفظةُ ﴿فَأْتُوهُنَّ﴾ في الآية الكريمة بمباشرة النِّساء بعد التَّطهُّر.

8) ﴿أَمَرَكُمُ﴾: الهَمْزَةُ وَالميمُ وَالرَّاءُ أُصُولٌ خَمْسَةٌ: أحدها: الأَمْرُ ضِدُّ النَّهي، وهو قَوْلُكَ افْعَل كَذَا. قَالَ الأَصْمَعِيُّ: يُقَالُ: لي عَلَيْكَ أَمْرَةٌ مُطَاعَةٌ، أَيْ: لي عَلَيْكَ أَنْ آمُرَكَ مَرَّةً وَاحِدَةً فَتُطِيعَنِي[2]، وأمرته: إذا كلَّفته أنْ يفعلَ شيئا، وهو لفظٌ عامٌّ للأفعال والأقوال كلها[3]، ومن العلوِّ مع النَّفاذ جاء "الأمر ضدّ النَّهي ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ﴾ [النحل: 90] وبهذا المعنى جاء عُظْم ما في القرآن من الفعل [أمَر] ومضارعِه وأمرِه[4]، ملاك الأمر إذن أنَّ استعمالَ الأمر غلَبَ في الطَّلب الصَّادر من الأعلى إلى من دونه[5]. كما في الآية الكريمة.

9) ﴿يُحِبُّ﴾: الحَاءُ وَالبَاءُ أُصُولٌ ثَلَاثَةٌ، أَحَدُهَا اللُّزُومُ وَالثَّبَاتُ، وَأَمَّا اللُّزُومُ فَالحُبُّ وَالمَحَبَّةُ، اشْتِقَاقُهُ مِنْ أَحَبَّهُ إِذَا لَزِمَهُ[6]، أحببْته نَقيضُ أبغضته[7]، والحُبُّ، والحِبُّ: الوداد[8]، والمحبَّة: إرادة ما تراه أو تظنُّه خيرًا، وهي على ثلاثة أوْجُه: محبَّة للذَّة، كمحبَّة الرَّجل المرأة، ومحبَّة للنَّفع، كمحبة الغني للفقير، ومحبَّة للفضل، كمحبَّة أهل العلم بعضهم لبعض لأجل العلم. ومحبة اللّه تعالى للعبد: هي محبةُ صفةٍ تليق بجلال اللّه تعالى، ومن لوازمها إرادته لِثَوَابِهِ، وعفوه عنه، وإنعامه عليه، ومحبة العبد له طلبُ الزُّلْفى لديه[9]، فالحبُّ تعلق القلب بالمحبوب، وملازمته إياه ماديًّا أو فكريًّا، وهذا تجمُّع وتلازمٌ. وكل ما في القرآن من التَّركيب هو من الحُبّ عدا كلمة (حَبّة) فهي من حَبِّ البُرّ ونحوه والخرْدَل[10].

(1) الراغب، المفردات: (أتى).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أَمَرَ).
(3) الراغب، المفردات: (أَمَرَ).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقي: (أمر)
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 9/43.
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حَبَّ).
(7) الخليل، العين: (حَبَّ).
(8) ابن سيده، المحكم: (حَبَّ)
(9) الراغب، المفردات: (الحب والحبة).
(10) جبل، المعجم الاشتقاقي: (حبب).

10) ﴿ٱلتَّوَّٰبِينَ﴾: التَّاءُ، وَالوَاوُ، وَالبَاءُ، كَلِمَةٌ وَاحِدَةٌ تَدُلُّ عَلَى الرُّجُوعِ. يُقَالُ تَابَ مِنْ ذَنْبِهِ، أَيْ رَجَعَ عَنْهُ[1]. وفي العين "التَّوْبة: الاستِحياءُ"[2]. وهو معنى أصلٌ في التأسيس لدَلالة اللفظة، إذ إنَّ ابتداء الأوب، والرجوع الاستحياءُ من الله. فأصلُ تَابَ: عَاد إِلَى اللّه وَرجع وأنابَ، وتَابَ اللّه عَلَيْهِ، أَي عَاد عَلَيْهِ بالمغفرة، وتوبوا، أَي: عودوا إِلَى طَاعَته، وأنيبوا. وَاللّه التوّاب. يَتُوب على عَبده بفضله إِذا تَابَ إِلَيْهِ من ذَنبه، أَي رجع، وندم على مَا فَرَط مِنْهُ[3].

فالتّوْب: تركُ الذَّنْب على أجمل الوجوه، وهو أبلغُ وجوه الاعتذارِ، فإنَّ الاعتذارَ على ثلاثة أوجه: إما أنْ يقول المعتَذِرُ: لم أفعل، أو يقول: فعلتُ لأجل كذا، أو فعلت وأسأتُ وقد أقلعتُ، ولا رابعَ لذلك، وهذا الأخير هو التَّوْبة. والتَّوْبة في الشرع: توقف الشخص، وانقطاعه عما كان يعمله من الذَّنْب لقبحه، والنَّدم على ما فَرَطَ منه، والعزيمة على ترك المعاودة، وعلى التَّمادي في المعاصي، وتدارك ما أمكنه أن يتدارك من الأعمال بالإعادة، فمتى اجتمعت هذه الأربع فقد كَمُلتْ شرائطُ التَّوْبة[4].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

حكم مباشرة النساء في المحيض

يبيِّنُ اللّهُ سبحانه وتعالى في هذه الآية أسس العِشرة الحَسَنة بين الزَّوجين، ومنها بيانُ النَّزاهة البدنيَّة في العلاقة الطبيعية التي يقتضيها الطبعُ السَّليم بين الرَّجل والمرأة، والتي بها يُعمر الكوْن، ويبقى نسل الإنسانِ الذي جعله اللّه سبحانه وتعالى في الأرض خليفة، ومن ذلك ما يتكرَّر بحكم بشرية الأنثى، وهو الحيض - الدم الذي يسيل من أرحام النساء جِبِلَّة في أوقات مخصوصة -، فهو أذى مستقذر يضرُّ من يَقْرَبُه، فيأمر اللّه تعالى باجتنابِ جِماع النساء مدةَ الحيض حتى ينقطع الدم، فإذا انقطع الدم،

(1) ابن فارس، المقاييس: (توب).
(2) الخليل، العين: (توب).
(3) الأزهري، التهذيب: (توب).
(4) الراغب، المفردات: (توب)، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (توب).

واغتسلن، فللزوجِ مجامعةُ امرأته في الموضع الذي أحلَّه اللّه له، وهو القُبُل لا الدُّبُر[1].

وترشدُ الآية الكريمة إلى أنّه ليس كل ما يكون موجبًا للاستحياء والنُّفور ممّا هو باختيار العبد، فقد يكون من النقائص ما ليس للعبْدِ فيه كَسْب أو اختيار، وترشد إلى المسارعة بالتوبة، والطهارة؛ فاللّه يحب عباده المكثرين من الاستغفار والتوبة، ويحب عباده المتطهرين الذين يبتعدون عن الفواحش والأقذار[2].

❁ الإيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

عِلَّةُ التَّغاير في التَّعْبير عَن فعلِ السُّؤال بين قرنِهِ بالواو وحَذْفِها:

التَّفْرِيقُ بَيْنَ السُّؤالات الواقعةِ في وقْتٍ واحدٍ، والسُّؤالات الصَّادرة في أوقاتٍ مُخْتَلِفَةٍ

جاء فعلُ السُّؤال في: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ﴾ ثلاث مرَّات مقرونا بواو العَطْف، وجاء قبل ذلك أربع مرَّات غير مقرونٍ بواو العَطْف، وذلك في قوله سبحانه: ﴿۞يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ﴾ [البقرة: 189]، وقوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ﴾ [البقرة: 215]، وقوله ﷻ: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ﴾ [البقرة: 217]، وقوله ﷻ: ﴿۞يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ﴾ [البقرة: 219]، وذلك لأنّ السُّؤالات الأواخر وقعت في وقت واحدٍ، فجُمع بينها بواو العَطْف المفيدة مُطلقَ الجَمْع، وأما السُّؤالات الأولى؛ فوقعتْ في أوقات متفرقة، كما في قول اللّه سبحانه: ﴿۞يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾؛ كأنَّه قيل: يجمعون لك بين السُّؤال عن الخمر والميسر، والسُّؤال عنِ الإنفاق، والسُّؤال عن كذا وكذا[3].

تَنَاسُبُ مَوْضُوعَاتِ السُّؤالِ مُحَسِّنٌ لِلْعَطْفِ بينَهَا

فلمَّا سألُوا عمَّا كانوا ينفقون وأجيبوا بمصْرِف النّفقة، أعادوا سؤالهم بالواو، ماذا ينفقون فأجيبوا بالعفوِ، ولَمَّا كان السُّؤال الثّاني

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 2/728، ونخبة من العلماء، التفسير الميسر، ص: 35.
(2) القشيري، لطائف الإشارات: 1/178، ونخبة من العلماء، التفسير الميسر، ص: 35.
(3) الزمخشري، الكشاف: 1/267.

عن مخالطة اليتامى في النفقة - وهو مناسبٌ لما قبله عطف بالواو، باعتبار أنَّهم إذا خالطوهم أنفقوا عليهم -؛ عطفه على ما قبله، ولَمَّا كان الثَّالث سؤالًا عَنِ اعتزال الْحُيَّض كما يُعتزل اليتامى، فهو مناسبٌ لما قبله؛ إِذْ كلاهما سؤالٌ عَنِ اجتناب، عُطِفَ بالواو، وليس كذلك الأربعة الأُوَل؛ إِذْ لا تعلُّق بينهما ولا ارتباط[1].

الجَامِعُ بَيْنَ الجُمْلَتينِ في الوَصْلِ بَيْنَهُما:

مِنْ سُنَّةِ المُسْلِمِين مُخَالفَةُ أحوالِ المُشْرِكِين

عُطِفَ قولُ اللّٰه سبحانه: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِۖ﴾ على قوله قبلُ: ﴿وَلَا تَنكِحُواْ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّۚ﴾، بمناسبة أنَّ تحريم نكاح المشركات يُؤذن بالتَّنَزُّهِ عَن أحوال المشركين، وكان المشركون لا يقربون نساءَهم إِذَا كنَّ حُيَّضًا، وكانوا يُفْرِطُون في الابتعاد منهنَّ مدّة الحَيْض؛ فناسبَ تحديد ما يكثُر وقُوعُه، وهو من الأحوال التي يخالِفُ فيها المشركون غيرَهم، ويتساءَل المسلمون عن أحقِّ المناهج في شأنها[2].

قَصْديّة اختيارِ لَفظِ المَحِيض:

اختِيَارُ القرآنِ الكريم لِلْأَلْفَاظِ الجامِعَةِ المَعَانِيَ الكَثِيرَةَ

المَحِيضُ في الآية في الموضعين اسمٌ على زِنَةِ مَفْعِل منقولٌ من أسماء المصادر؛ وهو" الحَيْض، ووقت الحَيْض، وموضعه"[3]، وقُدِّرَ مُضافٌ محذوفٌ في الموضع الثَّاني، والتَّقدير: في زمن المَحِيض؛ لكثرة إنابة المصدر عن ظرف الزمان[4]، واحتمال هذه الصِّيغةِ المعانيَ الثَّلاثةَ مِن بديع الانتقاء القُرآنيّ للألفاظ ووضعها في سياقها على الوجْه الأتمّ الأمثَل، وبيانُ ذلك: أنّ مآلَ اجتماعِ المعاني الثَّلاثة النَّهي عن نفسِ الحَيْض، وهو الدَّم الذي يسيل مع ما فيه مِن فسادٍ ونجاسة، والنَّهي عن قِربان موضع الحَيْض مدَّة المَحِيض، وعليه فيُباح التَّمتع بالمرأة في غير هذا المكان.

(1) السيوطي، نواهد الأبكار: 2/417، والخفاجي، عناية القاضي: 2/306.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/364.
(3) الراغب، المفردات: (حيض)، والرَّاغب، تفسير الراغب: 1/456، والرازي، مفاتيح الغيب: 6/415.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/366.

نُكْتَة الإخْبَار عَنِ الحَيْضِ بالأذى:

شِدَّةُ النَّهي عَن قِربان المرأةِ الحائض نهيًا معلَّلا

في قوله: ﴿قُلْ هُوَ أَذًى﴾ إخبارٌ عن الحيض بكونِهِ أذًى، والأذى: الشَّيء المستقذر، ونُكْتَة التَّعْبير به المبالغةُ في النَّهي والتنفير عن قِربان المرأة الحائض نهيًا مُعَلَّلًا، فتتلقَّاه النُّفوس على بصيرة وتتهيّأ به الأمَّةُ للتَّشريع في أمثاله[1].

فالتَّعْبير بهذا الأسلوب عن المَحِيض بأنَّه أذى يهيِّئ الذِّهن لأنْ يتلقَّى حُكْمًا في هذا الأذى، وبذلك تستعدُّ النَّفسُ للخَطَرِ الذي سيأتي به الحُكْم، وقد جاءَ الحُكْم بالحظْرِ والمنْعِ بعد أنْ سبقتْ حَيْثِيّاتُهُ[2].

تَعْلِيمُ العبادِ التَّحفُّظَ فِي الألفاظِ بِمَا لَا يُؤْذِي الخَلْقَ

وفي قوله: ﴿أَذًى﴾ إشارةٌ إلى القَذَر على جهةِ الإجمالِ، أي: أنّ الحَيْض شيء يُسْتَقْذَرُ، ويؤذي من بقربه نُفْرةً منه، وكراهة له، فتتأذى منه المرأة وغيرها، وفيه إشارة إلى إبطال ما كان من التَّغليط في شأنه وشأن المرأة الحائض في شريعة التَّوراة[3]، وفي هذا التَّعْبيرِ: رعايةٌ لمشاعر المرأة، ومراعاةٌ لحالتها النَّفْسيّة وقتَ الحَيْض، فقَصَدَ إلى انتقاء ما لا يَجْرَحُ مِنَ اللَّفظِ وما يعمُّ.

فائدةُ تنكيرِ لفظ الأذى:

الأَذَى فِي الْحَيْضِ يَعُمُّ الرَّجُلَ والمرأةَ والولدَ

وردَ الأذى مُنَكَّرًا في قوله: ﴿قُلْ هُوَ أَذًى﴾ وهو جامعٌ لمعان شتَّى، وليس معنى واحدًا[4]، فإنَّهُ لَمَّا لم يبيّن جهتَه؛ تعيَّن أنَّ الأذى في مخالطة الرَّجل للحائض يعمُّ الرَّجُلَ والمرأةَ والولدَ[5].

بَلَاغَةُ الْكِنَايَةِ فِي لفظِ الِاعْتِزَال:

الْمُبالَغَةُ فِي التَّحذيرِ مِن إتيانِ الحائضِ

لَمَّا كان الإنسان قد يتحمّل الأذى ولا يراه محرَّمًا صرَّح بتحريمه

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/365.
(2) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 2/966.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/365، والإندونيسي، الشامل في بلاغة القرآن: 1/112.
(4) ابن جرير، جامع البيان: 4/374.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/365، والشعراوي، تفسير الشعراوي: 2/966.

بقوله: ﴿فَٱعۡتَزِلُواْ ٱلنِّسَآءَ فِي ٱلۡمَحِيضِ﴾[1]، على طريق الكناية، فالمراد بالاعتزال: التَّباعد بمعزلٍ؛ كنايةً عن ترْك مجامعتهنَّ[2].

ولفظُ الاعتزال أنْسَب للسِّياق؛ لكون الاعتزال قولًا مشتركًا، ويكنَّى به عن العُدول عَنْهَا عند الفراغ، وعن مجانَبَة ذلك الموْضع، وعن مجانَبَتِها رأسًا[3]، فالتكْنية بلفظ الاعتزال أدْعَى إلى المبالغة في التحوّط من إتيانِ الزّوجةِ في هذه الحالة، والتحذير من الوقوع فيه؛ لما يتضمّنه معناهُ مِن الانصرافِ والعدولِ والتنحية.

سرّ تقديمِ الأذى على الاعتزالِ وعدَمِ القُرب:

أَهَمِّيَّةُ الاحتياطِ مِـنَ الـوقـوعِ فِي المَنْهِيِّ عَنْهُ

قُدِّم ذكرُ العِلَّة، وهي الأذى، ثمَّ فُرِّعَ الحكمُ، وهو وجوب الاعتزال، ورَتَّبَه عليها[4]، فقُدِّم السَّببُ على المسبَّب، والعِلَّةُ على المعلول جريًا على الأصل؛ فإنَّ سببَ الوصيّة بالاعتزال كونُ المَحِيضِ أذًى يُوجب الاعتزالَ فيه[5]، ولذلك قُدِّم تنبيهًا على أهمية الاحتياط منه، والتَّحرّز من مضارّه، فضلا عن أصالَتِهِ في تأسيس الحكم.

دلالة اللَّام في ﴿ٱلنِّسَآءَ﴾:

الاِعْـتِـزَالُ يَـكُـونُ عَـمَّـا شَـأْنُـهُ أَن يُخَالَط

النِّساء اسمُ جمعٍ لِلْمرأة لا واحدَ له من لفظه، واللَّامُ فيه عهْديّة، والمرادُ بها هنا الزَّوجاتُ، كما يقتضيه لفظ: ﴿فَٱعۡتَزِلُواْ﴾ المخاطَبُ به الرِّجال، وإنما يُعْتَزَلُ مَن كان يُخالِط، وإطلاق النِّساء على الأزواج شائعٌ بالإضافة كثيرًا نحو: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ﴾ [الأحزاب: 30]، ودُون إضافةٍ مع القرينة كما هُنا، فالمراد: اعتزلوا نساءَكُم في أخصِّ الأحوال بهنَّ وهو المجامعة[6]، ومصداقُ أنّ الحديثَ عن الزَّوجات الآية التي بعدَه، وهي قوله سبحانه: ﴿نِسَآؤُكُمۡ حَرۡثٌ لَّكُمۡ﴾.

(1) الراغب، تفسير الراغب: 1/457.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/366.
(3) الراغب، تفسير الراغب: 1/457.
(4) ابن عادل، اللباب: 4/67.
(5) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/269، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 2/731.
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/366.

دلالة التَّعْبير بلفظ القُرب مجازًا:

النَّهْيُ عَنِ القُرْبِ نَهْيٌ عَنِ اتِّصال مخصُوصٍ

الفعل قَرُبَ من باب كرُمَ، ومن باب فَرِحَ، فيقال: قرُب يقرُبُ، ويقال: قَرِبَ يَقرَبُ، والأوَّل لازمٌ، والثَّاني متعدٍّ، والمعنى فيهما مختلف؛ فالأوَّل يكون بمعنى الدّنوِّ، والثَّاني كذلك، ولكنَّه غلَب في العُرف استعمالُهُ مجازًا عَنِ التَّلبّس، أي: الاتّصال بالشَّيء[1]، وغلَّبوا قرِبَ المكسورَ العَيْنِ فيها دُون قرُبَ المضموم؛ تفرقَةً في الاستعمال[2]، بتضمُّن المكسور معنى التَّلبُّس والاتِّصال، والنُّكتة في النَّهي عن القُرْبِ مرادًا به اتصالٌ مخصوصٌ بين الزَّوجَين: المبالغَةُ في الاحتياطِ؛ لئلَّا يقعَ العبدُ فيما حُرِّم عليه.

سرّ العدول عَنِ الفَصْل إلى الوَصْلِ:

أَهَمِّيَّة حُكم قِربان النِّساء في المحيض حَتَّى جُعِل النَّهْيُ عنهُ مقصُودًا بالذَّات

كان مقتضى الظّاهر أن تكونَ جملة ﴿وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ﴾ مفصولةً دُون عطفٍ؛ لأنَّها مؤكّدة لمضمون جملةِ ﴿فَٱعْتَزِلُواْ ٱلنِّسَآءَ فِي ٱلْمَحِيضِ﴾، ومبيِّنة للاعتزال، وكلا الأمرين يقتضي الفَصْل، فيكون بين الجملتَيْنِ حينئذٍ كَمالُ الاتِّصالِ، ولكن خُولِف مقتضى الظَّاهر اهتمامًا بهذا الحكم؛ ليكونَ النَّهي عن القِربان مقصودًا بالذَّات معطوفًا على التَّشريعات[3].

عِلَّة تَوكيدِ مَنْعِ القربان:

تَعْزِيزُ الأمْرِ باعتزالِ النِّساء في المَحِيضِ

جاء النَّهي عن قربانِ النِّساء في المحيضِ في قوله: ﴿وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ﴾؛ تأكيدًا للأمر باعتزالِهنَّ، وتبيينًا للمراد مِنَ الاعتزال، وأنَّه ليس التَّباعدُ عَنِ الأزواج بالأبدان كما كان عند اليَهود، بل هو عدم القِربان[4]، واجتماعُ التَّوكيد بلازم اللَّفظ (النَّهي عن القِربان)، ونُونِ التَّوكيد الثَّقيلة، والتَّعْبير بالمضارع: تعزيزٌ للأمر بالاعتزال، وتكرّر الحُكْم مع تجدُّد حدثِ الحَيْض.

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 2/732.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/366-367.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/366.
(4) ابن عاشور، المصدر نفسه: 2/366.

بَلاغَةُ التَّعْبيرِ عَنِ الْجِمَاعِ بالكنايَةِ:

النَّهْيُ وَارِدٌ على خُصُوص الْجِمَاع بسُلُوك طَرِيق الأدَب في العِبَارة

لَمَّا كان الاعتزال - كما تقدَّم - قولًا مشتركًا، ويكنَّى به عنِ العُدول عنها عند الفَراغ وعن مجانَبَة ذلك الموضع، وعن مجانبتها رأسًا؛ قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ﴾، فكنّى عن الجماع بالقِربان؛ لأنَّ معنى القُرْب الدنوُّ، واسْتُعملَ في المجامعة؛ لأنَّ فيه قربًا، وليدلّ بمجموع الكنايتين على مجانبة مُضاجعتها، وعلى جواز التَّمتُّع بها دون الفَرْج[1] المدلول عليه بقول النبيِّ ﷺ: «اصْنَعُوا كُلَّ شَيْءٍ إِلَّا الجماع»[2]، فظاهر الاعتزال والقِربان أنَّهما لا يتماسّان، ولكن بيَّنتِ السُّنَّة أنَّه اعتزالٌ وقِربانٌ خاصٌّ[3].

تَأْكِيدُ الاعْتِزَالِ وَالنَّهْيُ عَنِ الالْتِذَاذِ بِمَا يَقْرُبُ مِنْ ذَلِكَ الْمَوْضِعِ؛ بُعْدًا عَنِ الْمُقَارَبَةِ خَوْفًا مِنَ الْمُوَاقَعَةِ

وهذه الجُمْلة تأكيدٌ لحكم الاعتزال، وبيانٌ لغايته المذكورة بعدُ: وهو أن يغتسلن بعد الانقطاع، ويمكن أيضًا حملها على فائدة جليلة جديدةٍ؛ وهي أنْ يكون قوله: ﴿فَٱعْتَزِلُواْ﴾ نهيًا عن المباشرة في موضع الدَّم، وقوله: ﴿وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ﴾ يكون نهيًا عنِ الالتذاذ بما يقرب مِن ذلك الموضع[4] لِمَن لا يأمَنُ نفسَهُ من الوقوع في المحظورِ، فهو تنبيهٌ على أنَّ المرادَ به عدم قِربانهنَّ لا عدم القُربِ منْهنَّ[5].

إِطْلَاقُ النَّهي مَعَ إِرَادَةِ تَقْيِيدِهِ طَلَبًا لِلابْتِعَادِ عَنْ دَوَاعِي ارْتِكَابِهِ

وجاء في هذه الجُمْلة الأمر باعْتزَال النِّساء في المَحِيض، وهو مطلَقٌ، ولكن أُريدَ منعُ اعتزالٍ مقيَّدٍ؛ وهو اعتزال جِمَاعِهنّ، وجاء النَّهيُ عَنِ الاقتراب منهنّ حتَّى يَطْهُرْن، وهو أيضًا مطلقٌ، ولكن أُريد منه اقترابٌ مُقَيَّدٌ، وهو الاقترابُ منهنّ في الجِماع، وكلاهما مجازٌ مرسَلٌ بعلاقةِ الإطلاقِ والتَّقييدِ، وفائدةُ هذا المجازِ: تأكيدُ النَّهي بطلبِ الابتعاد عن الدَّواعي التي تدعو إلى ارتكاب المنهيِّ عَنْهُ[6].

---

(1) الراغب، تفسير الراغب: 1/457.

(2) رواه مسلم في صحيحه، حديث رقم: (302) بلفظ: «إلا النِّكاح»، واللفظ المذكور أعلاه لفظ ابن ماجه في سننه، حديث رقم: (644).

(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/178.

(4) الرازي، مفاتيح الغيب: 6/419، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 1/139.

(5) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/222.

(6) الميداني، البلاغة العربية أسسها وعلومها وفنونها، ص: 669.

بَرَاعَةُ الِاخْتِبَاكِ فِي جُمْلَةِ الطَّهَارَةِ:

حُزْمَةُ قِرْبَانِ الْحَائِضِ مُغَيَّاةٌ بِالطُّهْرِ والتَّطهُّر جَمِيعًا

في قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ﴾ احتباكٌ، وهو المسمَّى: الحذفَ التَّقابليّ، والتَّقدير: (لا تقربوهن حتى يَطْهُرنَ ويَتَطَهَّرْنَ، فإذا طَهُرْنَ وتَطَهَّرنَ فأتوهنَّ من حيث أمركم الله). وعبّر عنه الزركشي - بالتَّقدير نفسه -: بأنّه قول مركَّب من أربعة أجزاء؛ نسبة الأوَّل إلى الثَّالث، كنسبة الثَّاني إلى الرَّابع، ويُحذفُ مِن أحدهما لدِلالة الآخر عليه، وأيًّا ما كانَ التَّعْبيرُ؛ فإنَّ مؤدّاه بهذه المحذوفات إلى قطعيَّة دِلالة السِّياق، وبهذا التَّقدير يعتضد القولُ بالمنْعِ من وطْءِ الحائض إلَّا بعد الطُّهر والتَّطهُّر جميعًا، ويكون جوازُ الوطء معلَّقًا بالطَّهارة التي هي انقطاع الدَّم، والتَّطهُّر الذي هو الغُسْل[1].

دِلَالَةُ حَرْفِ الْجَرِّ ﴿حَتَّىٰ﴾:

الْحَثُّ والْمُبَالَغَةُ فِي الْأَمْرِ بِالتَّطَهُّرِ وَالنَّقَاءِ

قول الله سبحانه: ﴿حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ﴾ غاية لـ﴿فَٱعْتَزِلُوا۟﴾ و﴿وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ﴾[2]، وقُصِدَ إلى التَّعْبير بـ﴿حَتَّىٰ﴾؛ لكونها تُسْتعمل لِما كان آخرًا أو متَّصلا به، فَإِنّ لفظها يوحي بهذا المعنى؛ إذْ إنَّ لفظها من (الحتّ)، ومعناه الاستئصال والإزالة، والخلوص إلى النِّهاية، أي: الوصول إلى نهاية الأمر[3]، وبهذا تكون دِلالتُهَا في سياق الآية الوصولَ إلى مُنْتَهى الطُّهر، فإنَّه أنسب لإزالة الأذى، والحثّ على المبالغة في التَّنقية، والتَّطهُّرِ منه.

بِاقْتِرَانِ الطُّهْرَيْنِ؛ صَارَ مَجْمُوعُهُمَا هُوَ الْغَايَةَ

ولمَّا لم يقتصر على قوله: ﴿حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ﴾ بجعل غاية ذلك النَّهيِ أن يطْهُرن؛ بمعنى: ينقطع حيضُهنَّ، وإنَّما أردَفَهُ بقوله:

---

(1) البسيلي، التقييد الكبير، ص: 309- 310، وابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/270، والزركشي، البرهان: 3/129.

وحقيقة الاحتباك -أو الحذف التَّقابلي-: أن يجتمع في الكلام متقابلان، فيحذف من كلٍّ واحد منهما مقابلَهُ؛ لدلالة الآخر عليه، يُنظر: الزركشي، البرهان: 3/129.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/367.

(3) السَّامرائي، معاني النحو: 3/35.

﴿فَإِذَا تَطَهَّرْنَ﴾ ضامًّا فعلَ الاغتسال إليهِ؛ صار المجموعُ هو الغاية[1]، والجمع بين الأمرين ممكنٌ بأنْ يكون في النِّهاية حصولُ الشَّيئين[2]، فلا يجوز استباحة وطئها إلَّا بعد حصول الشَّرطين[3].

نُكْتَة التَّفْرِيقِ بينَ فِعْلَيِ الطَّهارة تشديدًا وتخفيفًا:

إِرْدَافُ النَّقاءِ المَعْنَوِيِّ بِنَقَاءِ الفِعْلِ المُكْتَسَبِ حَقِيقَةً أو مجازًا

حقيقة الطُّهر نقاءُ الذَّات، وأُطْلِق في عُرْفِ الشَّرع على النَّقاء المعنويِّ؛ وهو طُهْر الحدثِ الذي يُقدَّرُ حُصُوله للمسلم بسبب، ويقالُ: تَطَهَّرَ إذا اكتسبَ الطَّهارة بفعلِه حقيقةً نحو: ﴿يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ﴾ [التّوبة: 108]، أو مجازًا نحو ﴿إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [الأعراف: 82][4]، فـ﴿يَطْهُرْنَ﴾ بالتَّخفيف، بمعنى: يَنْقَيْنَ بانقطاعِ الدَّم، وبالتَّشديد: يغتسلنَ[5].

تَشْرِيعُ اللهِ تَعَالَى الطَّهارةَ لِلْعِبَادِ، وَتَطْهِيرُهُم بالتَّشْرِيعِ

فالتَّطهُّر بالفعل هو الوضوء أو الاغتسال، وهو فعلٌ مِن المرأة نفسها منسوبٌ حدوثُه إليها؛ فهي التي تُنشئُهُ لا أنَّه حالُ طُهْرٍ بتشريع اللهِ يعودُ بعد زوال سبب النّجاسة المُؤَقَّتَة، فكما أنَّ الله طَهَّر الملائكة أصلا فقد طهَّرنا معشرَ الإنس تشريعًا، ويكون معنى ﴿حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ﴾: حتى يأذَنَ اللهُ لهنَّ بالطُّهر، ثُمَّ يغتسلنَ استجابةً لتشريعِ الله لهنَّ بالتَّطهُّر[6]، والدّليل أنّه تعالى أثنى على فاعل هذه الطّهارة، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾، والثَّناء لا يقع إلَّا على فعل يصدر مِنَ المكلَّف، وانقطاع الدَّم ليس مِن فعل المرأة؛ إذْ ليست قادرةً على كفِّه، فلا يكون الثَّناءُ إلَّا على الاغتسال بالمَاء[7].

(1) الرازي، مفاتيح الغيب: 6/419.
(2) النيسابوري، غرائب القرآن: 1/615.
(3) البسيلي، التقييد الكبير، ص: 310.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/367.
(5) الكرماني، غرائب التفسير: 1/213، والزمخشري، الكشاف: 1/265.
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/368، والشعراوي، تفسير الشعراوي: 2/967، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 2/732.
(7) البسيلي، التقييد الكبير: ص: 310.

والجمع بين التَّطهُّرين: القلبِ والبدنِ، أبلغُ، وأدخَلُ في المدحِ مِن ذِكْرِ نَوْعٍ واحدٍ؛ فإنَّه يُحبُّ المتَطهِّرين جميعًا[1].

الْجَمْعُ بَيْنَ تطهُّر القلبِ والبدَنِ: أدخَلُ في المدحِ

عِلَّة تَشْدِيد الفِعْلِ ﴿تَطَهَّرۡنَ﴾:

يقالُ: اطَّهَّر، بتشديد الطَّاء وتشديد الهاء، وهي صيغة تَطَهَّر، وقع فيها إدغام التَّاء في الطَّاء قال تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمۡ جُنُبٗا فَٱطَّهَّرُواْۚ﴾ [المائدة: 6] وصيغة التَّفعل في هذه المادَّة لمجرَّد المبالغة في حصول معنى الطُّهر[2]، فموردُ تَشْديدِ التَّنبيهِ: تناولُه مقصدًا إسلاميًّا مَكِينًا، ألَا وهو النَّظافة؛ لِما يترتّب علَى ضدِّهَا مِن أذى قاصرٍ ومُتَعَدٍّ.

الطَّهارةُ والنَّظافةُ مِمَّا حثَّت عَلَيْهِ الشَّريعَةُ

توجيهُ قِرَاءَةِ تَشْدِيدِ يَطْهُرنَ:

قرأ الجمهور ﴿يَطۡهُرۡنَ﴾ بصيغة الفعلِ المجرَّد، وقرأ حمزةُ والكِسَائيُّ وخلفٌ وأبو بكر عن عاصمٍ: ﴿يَطَّهَّرۡنَ﴾ بتشديد الطاء والهاء مفتوحتين[3]، والمعنى على قراءةِ التَّخفيف: ولا تقربوا النِّساء في حال حيضهنَّ حتَّى ينقطع عنهنَّ دم الحَيْض، وأمَّا على وجهِ التَّشديد؛ فمعناهُ: حتَّى يغتسلنَ بالماء[4]، ويكون التّشديد دالًّا على أنَّ الطُّهر الأوَّل هو الثَّاني[5]، ومجموعُ القراءَتينِ دالٌّ على غايةِ التَّحريم؛ وأنَّه الطُّهْرُ والتَّطهُّرُ مَعًا.

التَّكامُلُ الدِّلاليُّ لِلْقِرَاءاتِ القُرآنيَّةِ

بيانُ مُتَشابه اللَّفظ بينَ ﴿ٱلۡمُتَطَهِّرِينَ﴾، و﴿ٱلۡمُطَّهِّرِينَ﴾:

فصّل الدكتور فاضل السّامرائي بين قول اللّه تعالى في هذه الآية ﴿وَيُحِبُّ ٱلۡمُتَطَهِّرِينَ﴾، وقولِه في آية براءةَ: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُطَّهِّرِينَ﴾ [التَّوبة: 108]، وذلك أنَّ الآية الأولى في الطُّهر مِن الحَيْض والتَّطهّر منه، وهو متكرِّرٌ متطاوِلٌ في العُمُر، فجاء به على صيغة الفكِّ؛ لأنَّها أطول.

طُولُ حَدَثِ التَّطَهُّرِ مُنَاسِبٌ لِطُولِ مَقْطعِ المُتَطَهِّرِينَ

(1) السَّامرائي، بلاغة الكلمة، ص: 52.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/367، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 2/732.
(3) ابن الجزري، النشر: 2/259.
(4) ابن جرير، جامع البيان: 4/383-385.
(5) البسيلي، التقييد الكبير، ص: 307.

التَّطهُّر في آية البقرة بَدَنِيٌّ، وفي التَّوْبة بدَنِيٌّ وَقَلْبِيٌّ مَعًا

والتَّطهُّر في آية المحيض أمرٌ بَدَنيٌّ بالنّسبة إلى النِّساء، فضلا عَنِ الرّجال باعتزالهم النِّساء حتَّى يَتَطَهَّرنَ، وأمَّا آية التَّوْبة فالطُّهر فيها منظور إلى التَّطهُّر القلبيّ وهو أبلغُ، ذلك أنَّها في سياق ذِكر المسجد الذي اتَّخذه المنافقونَ ضِرارًا، وهذا من فساد الباطل وسوء السَّريرة ودنس القلب، فأمر الله رسوله ﷺ بعدم القيام في هذا المسجد، والقيام فيما أسِّسَ على التَّقوى منه، ثُمَّ ذكر بإزاء أولئك المنافقين أصحابِ القلوبِ الدَّنِسَة، رجالًا آخرين هم أصحابُ القلوب الطّاهرة المُنِيبَة إلى ربِّها، فقال فيهم: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا۟ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ۝١٠٨﴾ [التّوبة: 108] ومعناه: أنَّه يُحبُّ الذين يبالغون في التَّطهُّر، أي: يتكلّفونه، فهي في التَّطهُّر القلبيِّ، ولا مانعَ من إرادةِ التطهُّرِ البدَنيّ معَهُ، كما وردَ في بعض الآثارِ في سبب نزول الآيةِ[1].

آيـة البقرة في عُمُومِ المؤمنين، وآيـة التَّوْبة في الصَّحابة رضي الله عنهم أصالةً

وآية البقرة في عموم المؤمنين والمؤمنات إلى يوم الدِّين، وأمّا آية التَّوْبة ففي صحابة رسول الله ﷺ أصالةً - ولا مانع من دخول غيرهم تبعًا؛ لما تقرَّر من أنَّ العبرة بعموم اللَّفظ لا بخصوص السَّبَبِ -؛ فاسْتُعْمِل الأبلغُ للصَّحابة رضي الله عنهم؛ لأنَّهم أكملُ النَّاس طهارةً ظاهرًا وباطنًا، واستُعملتِ الصِّيغة الطَّويلة في المدّة المتطاولة لعموم المؤمنين[2].

نُكْتَةُ تَعْلِيقِ الشَّرْطِ بـ(إِذَا):

إِتْيَانُ الزَّوجَة متوقِّفَةٌ إباحَتُهُ عَلَى التَّطَهُّر

قول الله تعالى: ﴿فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ﴾ تعليقٌ للإتيان على التَّطهُّر بـ(إِذَا) الشَّرطيّةِ الدَّالةِ على المستقبل، المفيدَةِ - في الأصل - الجزمَ بوقوعِ مدخولِهَا، فأفادَ ذلك عدمَ جوازِ الإتْيان عند عدم التَّطهُّر[3].

إيضاحُ الْكِنَايَةِ فِي فِعْلِ الْإِيتَاءِ:

كُنِّيَ بالإتْيان عن الوطءِ في قول الله تعالى: ﴿فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ﴾،

(1) ابن أبي حاتم، تفسير القرآن: 1883-6/1882.
(2) السَّامرائي، بلاغة الكلمة، ص: 52.
(3) النيسابوري، غرائب القرآن: 1/615.

وهذا الأمر يُقَوِّي أنّ المرادَ بالتَّطهُّر الغسل بالماء؛ لأنَّ صيغة الأمر مِن الله تعالى لا تقع إلَّا على الوجه الأكمل[1]، والتَّعْبير بالإتْيان شهير في الكنايةِ به عن الوطء؛ لما عُلِمَ من سلوكِ القرآنِ الكريم طريقةَ الأدبِ وعدولِهِ عن التَّصريح بألفاظِ الجماعِ ونحوِهَا، وجاءَ لفظُ الإتيانِ هنا لبيان أنَّ المراد بالقِربان المنهيِّ عنه هو المعنى الكنائِيُّ[2].

سُلُوكُ طَرِيقَةِ الأَدَبِ فِي الأَلفاظِ، وبيانُ أنَّ المرادَ بالقُربان المنهيِّ عنه معنَاهُ الكنائِيُّ

وصيغةُ الأمر في ﴿فَأْتُوهُنَّ﴾؛ للإباحة، وليس للحتْمِ واللزوم، فليس الإتْيان بحتم لازم عقِبَ التَّطهُّر؛ لأنَّ ذلك مبنيٌّ على الرَّغبة والطَّاقة، إنَّما المرادُ إباحةُ الإتيانِ، وذلك لوقوعه عقِبَ النَّهي، فهو كقول الله تعالى: ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَٱصْطَادُواْ﴾ [المائدة: 2]، والمقرَّر عند جماعةٍ من علماء الأصول أنّ الأمرَ بعد النَّهي يكون للإباحة، وخصوصًا إذا كان الموضعُ موضعَ حِلٍّ وإباحة لَا موضعَ تكْليفٍ وإلزام[3]، والتَّحقيقُ: أنَّ الأمر بعد النَّهي يُرجع الأمرَ إلى ما كان عليه قبل النَّهْيِ[4]، وعلى كِلَا الوجهين؛ فإنَّ الأمر في ﴿فَأْتُوهُنَّ﴾ للإباحةِ.

دلالة الأمر بالإتْيان بين اللزوم والإباحة

نُكْتَةُ اختيارِ فِعْلِ الإتْيانِ دُونَ غَيْرِهِ:

جاءَ التَّعْبيرُ بلفظ الإتْيان؛ لكونه يُقال باعتبار القَصْد، فهو أخَصُّ من لفظ المجيء الذي يقال اعتبارًا بالحصول[5]، ويلاحظ في دلالة الإتْيان أيضًا إيصالُ الشَّيء إلى المنتهى[6]؛ ولذلك اخْتيرَ لفظُ الإتْيان باعتبار الإشارة إلى قصْدِ الوَطْءِ، ولِكَوْنِهِ منتهَى ما تصلُ إليه العلاقةُ بين الزَّوجين من أعمال الظَّاهرِ.

تَضَمُّنُ لَفْظِ الإِتْيَانِ مَعْنَى الْقَصْدِ وَالِانْتِهَاءِ

(1) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 3/90.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/369.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/179، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 2/733.
(4) الشِّنقيطيّ، مذكرة أصول الفقه، ص: 232-231.
(5) الراغب، المفردات: (جاء).
(6) البروسوي، روح البيان: 3/211.

وَفْرَةُ المَعَانِي بِتَعَدُّدِ دِلَالَاتِ الحُرُوفِ

دِلَالَةُ حَرْفِ الجرِّ ﴿مِنْ﴾:

في معنى ﴿مِنْ﴾ في قول الله تعالى: ﴿فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُۚ﴾ أقوالٌ:

أوَّلها: أنَّها لابتداءِ الغايةِ، أي: من الجهة التي تنتهي إلى موضِع الحَيْض.

وثانيها: أن تكونَ بمعنى (في)، أي: في المكان الذي نُهيتُم عنه في الحَيْض[1]، وحيث أمركم الله تعالى وهو القُبُل، ونظيره قول الله تعالى: ﴿أَرُونِي مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾ [الأحقاف: 4]، أي: في الأرض، وقوله سبحانه: ﴿إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الجمعة: 9]، أي: في يوم الجمعة، وقيل: معنى ﴿فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُۚ﴾ من الوجه الذي أذِنَ لكم فيه[2].

وثالثها: أنَّها لابتداء الأسباب، فهي بمعنى التَّعليل، والمعنى: من الصّفة التي أمركم الله وهي الطُّهر والتَّطهُّرُ، فتكون ﴿حَيْثُ﴾ مجازًا في الحال أو السَّبب[3].

ولا تعارُضَ بين هذه المعاني، بل بعضُها آخذٌ بحُجَزِ بعضٍ.

تَحْدِيدُ الجِهَةِ التِي قُيِّدَ بِهَا نَهْيُ القِربانِ حالَ الحَيْضِ

دلالةُ الظَّرْفِ ﴿حَيْثُ﴾:

﴿حَيْثُ﴾ في قوله: ﴿مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُۚ﴾ ظرفُ مكانٍ مبهم مبنيٌّ على الضّمِّ، ملازمٌ الإضافةَ إلى جملة تحدِّدُهُ ليَزُولَ إبهامُها.

وقد اعتادتِ العربُ التَّعْبيرَ عن معناه بِسلوكِ طريق الكناية والإغماض، ويكونُ فهمُهُ موْكُولًا إلى فِطْنَتِهم ومعتادِ تعبيرِهم، وعليه يكونُ معنى (أمر الله) من الجهة التي أمرَ الله تعالى، وهو القُبُل؛ لأنَّه هو المنهيُّ عنه في حال الحَيْض بوصفه المكان الذي كان مصدرًا للأذى[4].

(1) السمين، الدُّرُّ المصون: 2/422.
(2) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 3/90.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/370.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/179، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/369-370.

جَوازُ اسْتِعْمَالِ حيث مُرادًا بها التَّعليلُ

ويحتمل أن يكونَ المرادُ بأمر الله في ﴿أَمَرَكُمُ ٱللَّهُۚ﴾ أمْرَه الذي تضمَّنته الغاية بـ﴿حَتَّىٰ﴾ في قوله: ﴿وَلَا تَقۡرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطۡهُرۡنَۖ﴾؛ لأن غاية النَّهي تنتهي إلى الإباحة، فالأمر هو الإذن، و﴿مِنۡ﴾ للابتداء المجازي، و﴿حَيۡثُ﴾ مستعملة في التَّعليل مجازًا تخييليًّا، أي: لأنّ الله أمركم أنْ تأتوهنَّ عند انتهاء غاية النَّهي بالتَّطهُّر[1].

تَأْكِيدُ النَّهْيِ عَن قِرْبَانِ النِّساءِ حالَ الحَيْضِ حَتَّى كأنَّ المنهيَّ مَحْبُوسٌ

ويحتملُ أن يكون المرادُ بأمر الله في ﴿أَمَرَكُمُ ٱللَّهُۚ﴾ أمره الذي به أباح التَّمتُّع بالنِّساء وهو عقد النِّكاح، فـ﴿مِنۡ﴾ للتَّعليل والسَّببية، و﴿حَيۡثُ﴾ مستعارٌ للمكان المجازيِّ، وهو حالة الإباحة التي قبل النَّهي، كأنهم كانوا محجوزين عنِ استعمال الإباحة، أو حُجِر عليهم الانتفاعُ بها ثُمَّ أُذِن لهم باستعمالها، فشُبِّهتْ حالتُهم بحالةِ من حُبِسَ عن مكانٍ ثمَّ أُطلِقَ سراحُه، فهو يأتي منه إلى حيث يريد[2]، بِشَرْطِ أنْ يكون الإتْيان في موضع الإباحة.

حاصِلُ جِمَاعِ معاني الحرفِ ﴿مِنۡ﴾ والظَّرف ﴿حَيۡثُ﴾:

مُرَاعاةُ الوَطْءِ في موطِنِ الوَلَدِ وَمُجَانَبَةُ الموضِعِ المَكْرُوهِ

معاني ﴿مِنۡ﴾ واحتمالات ﴿حَيۡثُ﴾ المتقدِّمُ ذكرها تُومئُ إلى أنَّ قوله: ﴿فَأۡتُوهُنَّ مِنۡ حَيۡثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُۚ﴾ دالٌّ على مراعاة كلّ ما أمرَ به من أحكام النِّكاح ومجانبة الموضع المكروه[3]، فالمقصود أنْ يأتي الرَّجل زوجته في المكان الفطري الطَّبيعيِّ، وهو القُبُل؛ إذ هو مكان البذْرِ، ومنْبَتُ الإخصابِ دون سواه، فليس الهدفُ هو مطلقَ الشَّهوة، إنما الغرضُ هو امتداد الحيَاة، وابتغاء ما كتبَ الله، فالله يكتبُ الحلال ويفرضُه ليُطهِّر عباده، والمسلم يبتغي هذا الحلالَ الذي كتبه له ربُّه، ولا يُنشئُ هو نفسُه ما يبتغيه[4].

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/179، .
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/370.
(3) الراغب، تفسير الراغب الأصفهاني: 1/458.
(4) طنطاوي، التفسير الوسيط: 1/496-497.

فائدةُ حشْدِ الكناياتِ:

التَّخلّقُ بالأدَبِ القرآنيِّ في انْتِقَاءِ الأَلْفَاظِ الحسنَةِ

قوله: ﴿هُوَ أَذًى﴾، و﴿فَٱعۡتَزِلُواْ ٱلنِّسَآءَ﴾، و﴿وَلَا تَقۡرَبُوهُنَّ﴾، و﴿فَأۡتُوهُنَّ مِنۡ حَيۡثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُۚ﴾ مِنَ الكنايات اللَّطيفة، والتَّعريضات المُسْتَحْسنة، وهذه وأشباهها في كلام اللَّهِ تعالى من الآدابِ الحَسَنةِ التي ينبغي لِلمؤمنين أنْ يتعلَّموها ويتأدّبوا بها، ويتكلَّفوا مثلها في محاورتهم ومكاتبتهم[1].

تَربيةُ الذَّوْقِ وتوجيهُ العبادِ إلى حُسْنِ التأدُّبِ

وهذه الكنايات القُرآنيّة تربِّي الذَّوق وتمنعُ عن الأسماعِ الألفاظَ التي يجافي سماعُها الأذواقَ السَّليمة؛ وكَمْ للقرآن الكريم من كناياتٍ ومجازاتٍ تعلو بمستوى القارئ بما لها من وضوحٍ وقصدٍ إلى المعاني من غير خطأ في الفَهْم، ولا غموضٍ في الموضوع[2]، بالإضافة إلى أنَّ سموَّ التَّعْبير وبديعَ الكناية يغرِسُ في نفس السَّامع حُسن الأدب، وما أحوجَ المسلمين إلى التأسِّي بهذا الأدب الذي يَحفَظُ عليهم مروءَتَهُم وكرامَتَهم[3]، فالأصلُ في الكنايات تعبيرُ الإنسان عن الأفعال التي تُسْتَرُ عنِ العيونِ وتتأذّى منها النُّفوس، كالجماع مثلا بألفاظٍ تدلُّ عليها غير موضوعةٍ لها، تنزُّهًا عن إيرادها على جهتها، وتَحَرُّزًا عمّا وُضِع لأجلها؛ إذِ الحاجة إلى سَتْرِ أقوالهم كالحاجة إلى سَتْرِ أفعالهم، فيتحرَّزون عنِ التَّصريح بالتَّعريضِ فيُكَنُّون عن لفظه؛ إكرامًا لأنفسهم عنِ التَّلفُّظ به[4].

في هَذِهِ الكناياتِ إبداعُ الإيجازِ في الإطنابِ:

وفي التَّعبيرِ بالاعتزال، ثُمَّ إتباعه بالقِربان، ثم إردافه بالإتْيان: زيادَةُ فائدةٍ جديدةٍ مع كلِّ تعبيرٍ وحكمٍ جديدٍ، وهذا من إبداعِ الإيجازِ في الإطناب[5].

(1) الزمخشري، الكشاف: 1/266.
(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 2/731-732.
(3) طنطاوي، التفسير الوسيط: 1/496.
(4) الجرجاني، المنتخب من كنايات الأدباء وإرشادات البلغاء، ص: 4.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/369.

بلاغةُ حشدِ المؤكِّداتِ:

الحثُّ على التَّوبة، وتَكْرارُها كُلَّما أُتِيَت خَطِيئَة

افتتاح التَّوكيد بـ﴿إِنَّ﴾، ثُمَّ بتكرار الاسم الأحسن ﴿ٱللَّهَ﴾، وتكرار الفعل ﴿يُحِبُّ﴾ وتشديدُ صيغتي ﴿ٱلتَّوَّٰبِينَ﴾، ﴿ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾؛ للإشارة إلى تكثير التَّوْبة من العبادِ ودوامها، والتّرغيب فيها، والحثِّ عليها ما أُتِيَتْ خطيئةٌ، حتَّى وإنْ كانت توبة واحدة، لكنّها مستدامةٌ، فمن يذكر المعصية ويندم عليها تائب، ومَن يذكرها ويتشوّق للعودة إليها غير تائب؛ لأنَّه مصرٌّ عليها[1].

نكتةُ تقديمِ التَّوابين عَلَى المتَطهِّرين:

البُعْدُ عَمَّا يُقَنِّطُ التَّائِبَ مِن رَحْمَةِ اللهِ تعالى

وجهُ تقديم ﴿ٱلتَّوَّٰبِينَ﴾ على ﴿ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾: أنَّ التَّوْبة سبب للطَّهارة، فإذا تاب العبد طهّره الله تعالى[2]، وفيه تنبيهٌ على أنَّ اجتنابَ القاذوراتِ مدْرَجَةٌ إلى فعل الخيرات[3]، ولئلا يقنَطَ التَّائب مِنَ الرَّحْمة، ولا يعجب المتطهِّر بنفسه؛ كقوله في آيةٍ أخرى: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ﴾ [فاطر: 32][4].

بلاغةُ حَذْفِ مُتَعَلّقي التَّوْبة والتَّطهُّر:

شُمُولُ التَّوْبَةِ والتَّطهُّرِ لِكُلِّ أَفْرَادِهِمَا

حَذْفُ متعلّقي الوصفين - ﴿ٱلتَّوَّٰبِينَ﴾ و﴿ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ - جعل النَّفسَ تذهب كُلَّ مذهبٍ في تقدير المحذوفِ؛ فيحتمل: يُحبّ التَّوابين من الذُّنوب، والمتَطهِّرين مِن العيوب. والتَّوابين مِن الزلَّة، والمتَطهِّرين مِن توهّم أنَّ نجاتَهم بالتَّوْبة، والتَّوّابين من الهفْوة، والمتَطهِّرين من الغفلة[5]، وكلُّ ذلك وغيرُه - ممَّا يحتمله اللَّفْظُ ويصحُّ معنَاه - مرادٌ؛ لأنَّ حذف المتعلّق مشعِرٌ بالعموم.

ومعنى التَّوابين: الرجَّاعين إِلَى الله بِالتَّوْبة وَالاِسْتِغْفَار، ومعنى

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/270.
(2) الإندونيسي، الشامل في بلاغة القرآن: 1/112-113.
(3) الراغب، تفسير الراغب: 1/458.
(4) ابن عادل، اللباب: 4/77.
(5) القشيري، لطائف الإشارات: 1/178-179.

المتَطهِّرين: المتبرئينَ من حول أنْفسِهم وقوَّتهم، والتَّوابين: الراجعينَ إلى ما شَرَع بترك الذَّنب وعدم إعادته، والمتَطهِّرين: بالاستنجاء بِالمَاءِ[1]، فالتَّطهُّر عامٌّ في استعمال الماء، وعمل الصالحات، وتطهِير القلوبِ من الذُّنوب، والتَّوْبة: اجتناب الذَّنب[2]، وهي شاملةٌ لِلأزواج والزَّوجات على حدٍّ سواءٍ.

نُكْتَةُ إِظْهَارِ الِاسْمِ الأَحْسَنِ ﴿ٱللَّهَ﴾ فِي مقامِ الْإِضْمَارِ، وَتَكْرَارِهِ وَتَقْدِيمِهِ:

تَرْغِيبُ الْعِبَادِ فِي الْإِقْبَالِ عَلَى اللهِ بِالتَّوْبَةِ والتَّطهُّرِ

لَمَّا دلّ ما في السِّياق من تأكيدٍ على أنَّ بعضهم عَزَم أو أحبَّ أن يفعلَ بعضَ ما تقدَّم النَّهي عنه؛ جاءَ التعليل بالتَّصريح بالاسم الأحسن ﴿ٱللَّهَ﴾، بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ مُقدَّمًا ومكرّرًا؛ تعظيمًا للمقام، وتقويةً لما تقدَّم من نَهْيٍ، وتقريرًا له، وتنبيهًا على مبلغ أهمّيَّته، وإعلامًا بأنَّ هذا حكمٌ عامٌّ لما يقعُ من هفوةٍ، أو زلَّةٍ بسبب الحَيْض[3]، وفيه ترغيبٌ في الإقبال عليه بالتَّوْبة، والتَّطهّر فهو الاسم العلم الجامع لسائر صفاته الشّريفة جلَّ في عُلاه، وإظهاره مُقَدَّمًا أدْعى لتربية المهابةِ في النّفوس الموصلة إلى كمال الانقياد لما نهَى، وتمام الخُضوع لما حرَّم، وتجنُّبِ ما حذّرَ واللّه أعلم. فالتّطهُّرُ وإنْ كان ظاهرُه بدنيًّا يخصُّ النِّساء فإنّه يشمل الرجال أيضًا بوجوب اعتزال النِّساء حتى يَتَطَهَّرنَ[4].

نُكْتَةُ تَكْرارِ فِعْلِ المحبَّة، ودِلَالَةُ صِيغَتِهِ:

اختلافُ المحبَّة باختلافِ مُقْتَضِيهَا، والحَثُّ عَلَى التَّوبة والتَّطهُّر

كُرِّر فعلُ المحبَّةِ ﴿يُحِبُّ﴾؛ للتَّوكيدِ ومزيدِ العنايةِ بأمر التَّطهُّر، وللدَّلالة على اختلاف المقتضي للمحبَّة، فتختلف المحبَّة[5].

فإذا أحبَّ من يتكرَّر منه التَّوْبة بتكرار المعاصي؛ فهو في التَّائب الذي لم يقع منه بعد توبتِه زلّةٌ أحبّ، وفيه أرْغَبُ، وبه أرْحَمُ[6].

(1) السمعاني، تفسير القرآن: 1/225.
(2) الراغب، تفسير الراغب: 1/458.
(3) البقاعي، نظم الدُّرر: 3/276-277.
(4) السَّامرائي، بلاغة الكلمة، ص: 52.
(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/179، وابن عادل، اللباب: 4/78، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/223.
(6) البقاعي، نظم الدُّرر: 3/277.

ووقع التَّعبير بالفعل للدِّلالةِ على أنَّ الحبَّ من صفاتِ أفعالِ اللهِ تعالى التي لها أسبابٌ، منها: التَّوبة، والتَّطهُّر، وجاءَ الفعلُ مضارعًا؛ لأنَّه يُشعِرُ بالاستمرار والدَّوامِ، وذلك دافعٌ على الحثّ عليهما والتَّرغيب فيهما.

براعة التَّذْييل بجُمْلَةِ الاعتراضِ:

حَثٌّ مَن زَاغَ وتَعَدَّى على الرُّجُوعِ إلى رَبِّ العالَمِينَ بالتَّوبَةِ والتَّطهُّر

قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ جملةٌ اعتراضيّة بين: ﴿فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ﴾ وقوله: ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ﴾؛ لاتّصال الجُمْلتين في المعنى، لأنَّ الثّاني بيانٌ للأوَّل، أي: فأتوهنَّ من حيث يحصل منه الحَرْث[1]، وفي ذلك تأكيدٌ لتجنُّب الإتْيان في غير ما أمَرَ الله، وحثٌّ لِمَنْ زاغ فأتى الأمرَ مِن غيرِ وَجْهِه، وأخطأ وتعدّى - بأنْ لم يَعْتَزِلْ - على الرُّجوع إلى ربِّ العالمين بالمبالغة في التَّوْبة والطَّهارة.

التَّرغيبُ في فِعْلِ المأْمُورِ واجْتِنَابِ المَحْظُورِ

والنُّكْتَة في هذا الاعتراضِ: التَّرغيبُ فيما أمروا به والتَّنفير عمَّا نهوا عنه[2]، وفي ذلك إشعارٌ للمؤمن بأنَّ الله غفَّارٌ للذّنوب لمن ارتكبها، وأنّه سبحانه وتعالى يُحِبُّ المؤمنَ الذي لا يغترُّ بطاعاته، وأنَّ طهارةَ الحسِّ تؤدِّي إلى طهارة النَّفْس، فمن كان طَهُورَ النَّفْس لا يقبل أنْ يُقْدِمَ على أمْرٍ مُسْتَقْذَرٍ في ذاته، تعافُهُ الطَّبائعُ السَّليمةُ، والفِطْرة المُسْتقيمةُ[3]، وفيه ثناءٌ على فاعل التَّوْبة والطّهارة[4].

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الإتْيان والمجيء:

المجيءُ أعمُّ من الإتْيان؛ لأنَّ الإتْيان مجيءٌ بسهولة، والإتْيان

(1) الزركشي، البرهان: 3/58.
(2) التفتازاني، مختصر المعاني، ص: 171-170.
(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 2/734-735.
(4) البسيلي، التقييد الكبير، ص: 310.

قد يقالُ باعتبار القَصْد وإنْ لم يكن منه الحصول، والمجيءُ يقالُ اعتبارًا بالحصول[1].
ويلاحظ في دلالة الإتْيان أيضًا إيصالُ الشَّيء إلى المنتهى[2]، وملمحُ اليُسْر في أمر الإتْيان بعد الطُّهر بادٍ، إذ إنَّ الحديث عن قصد مباشرتهن بعد الطُّهر وليس في الحال، ولذلك عبّر بما يلائم القَصْد إليه بعد ذَهاب الحدث، فضلا عن كونِهِ مُنْتهى العلاقة الحميميّة بينَ الزَّوجين.

(1) الراغب، المفردات: (أتى)، (جاء).
(2) البروسوي، روح البيان: 3/211.

﴿نِسَآؤُكُمۡ حَرۡثٞ لَّكُمۡ فَأۡتُواْ حَرۡثَكُمۡ أَنَّىٰ شِئۡتُمۡۖ وَقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُمۡۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٢٢٣﴾ [البقرة: 223]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

موقع هذه الآية الكريمة ممَّا قبلها: موقع البيان والتوضيح لقوله: ﴿فَأۡتُوهُنَّ مِنۡ حَيۡثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُۚ﴾ يعني أنّ المأتى الذي أمركم اللّٰه به هو مكان الحَرْث، ترجمة له وتفسيرًا، أو إزالة للشبهة، ودلالة على أنّ الغرض الأصيل في الإتْيان هو طلب النَّسل لا قضاء الشهوة. فلا تأتوهنّ إلا من المأتى الذي يتعلق به هذا الغرض[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿حَرۡثَكُمۡ﴾: الحَاءُ وَالرَّاءُ وَالثَّاءُ أَصْلَانِ مُتَفَاوِتَانِ: أَحَدُهُمَا الجَمْعُ وَالكَسْبُ، ومنه حَرْثُ الزَّرْع. وَالمَرْأَةُ حَرْثُ الزَّوْجِ، فَهَذَا تَشْبِيهٌ، وَذَلِكَ أَنَّها مُزْدَرَع وَلَدِهِ[2]، أَي: يكون وَلَده مِنْهَا كَأَنَّهُ يَحرُثُ ليزرع[3]. والحَرْث: قَذْفُك الحَبَّ في الأرض وتهيؤها للزرع[4]. وهو أيضًا: النِّكاح هَكَذَا فُسِّرَ فِي التَّنْزِيل فِي قَوْله تَعَالَى: ﴿فَأۡتُواْ حَرۡثَكُمۡ أَنَّىٰ شِئۡتُمۡۖ﴾[5]. وفُسِّرَ كلُّ (حرثٍ) في القرآن بأنَّه الزَّرْع؛ لأنه يخرج من الأرض[6].

2) ﴿وَقَدِّمُواْ﴾: القَافُ وَالدَّالُ وَالمِيمُ أَصْلٌ صَحِيحٌ يدلّ عَلَى سَبْقٍ[7]. والقَدَم: كلُّ ما قدمت من خير أو شر. ومن أسماء اللّٰه تعالى (المقدِّم) هو الذي يقدم الأشياء ويضعها في

(1) الزمخشري، الكشاف: 1/266.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حَرَثَ).
(3) ابن سيده، المحكم: (حَرَثَ).
(4) الخليل، العين: (حَرَثَ)، والراغب، المفردات: (حَرَثَ).
(5) ابن دريد، جمهرة اللغة: (حَرَثَ).
(6) جبل، المعجم الاشتقاقي: (حَرَثَ).
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قَدَمَ).

مواضعها، فمن وفِّق لأسباب التقديم وعمل بها، واستحقَّ التَّقْديم قدَّمه[1]. وقدّم الشَّيء: جعلَهُ أمامَهُ، وأسبَقَهُ أمَامَهُ[2]. ومعنى الآية: التقرُّبُ إلى اللّهِ بفعلِ الخيراتِ.

3) ﴿وَٱتَّقُواْ﴾: الوَاوُ وَالقَافُ وَاليَاءُ: تَدُلُّ عَلَى دَفْعِ شَيْءٍ عَنْ شَيْءٍ بِغَيْرِهِ[3] ويوجّه عموم معناه إما على الحفظ، وإما على الحذر وكلاهما يعود إلى المعنى الأصل. فوَقاهُ اللّه وِقاية، أي حفظه[4]، وصانه، وحماه، وستره[5]، ووقيت الشَّيء واتّقيته: حَذِرْتُه. وَالِاسْم: التَّقْوَى. وَقَوله تَعَالَى: ﴿هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾ [المدثر: 56] أَي: هُوَ أهل أَن يُتَّقى عِقَابه، وَأهل أَن يُعْمل بِمَا يؤدِّي إِلى مغفرته[6].

ورجل تقيٌّ، وجمعه أتقياء، معناه: أنّه موقٍ نفسه من العذاب والمعاصي بالعمل الصالح[7]. فالتقوى إذن جعلُ النَّفْس في وقاية مما يُخاف، وهو في تعارف الشرع حفظ النَّفْس عمّا يُؤْثِمُ، وذلك بتركِ المحظُور[8]، والخوف من عقاب اللّه إن حصل انحرافٌ، وهو مقصد اللفظة، ومؤدّى معناها.

4) ﴿مُّلَٰقُوهُ﴾: اللَّامُ وَالقَافُ واليَاءُ: أُصُولٌ ثَلَاثَةٌ: أحدها: تَوَافِي شَيْئَيْنِ، ومنه: اللِّقَاءُ، والمُلَاقَاةُ: تَوَافِي الِاثْنَيْنِ مُتَقَابِلَيْنِ[9]. فاللَّقِيَّانِ: كل شيئين يَلقَى أحدهما صاحبه[10]. ويقال ذلك في الإدراك بالحس، وبالبصر، وبالبصيرة. وملاقاة اللّه ﷻ عبارة عن القيامة، وعن المصير إليه. أي: يوم القيامة، وتخصيصه بذلك لالتقاء من تقدّم ومن تأخّر، والتقاء أهل السَّماء والأرض، وملاقاة كل أحد بعمله الذي قدمه[11]. فاللقاء يراد به القُرْب ممَّن يلقاه على وجه يزول الحجاب بينهما[12].

(1) ابن الأثير، النهاية: (قَدَمَ).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقي: (قَدَمَ).
(3) ابن فارس، المقاييس: (وَقَيَ).
(4) الجوهري، الصحاح: (وقى).
(5) ابن منظور، لسان العرب: (وَقَيَ).
(6) المحكم، ابن سيده: (الْقَاف وَالْيَاء وَالْوَاو).
(7) ابن منظور، لسان العرب: (وَقَيَ).
(8) الراغب، المفردات: (وقى).
(9) ابن فارس، مقاييس اللغة: (لَقِيَ).
(10) الخليل، العين: (لقي).
(11) الراغب، المفردات: (لقى).
(12) الرازي، مفاتيح الغيب: 3/492.

5) ﴿وَبَشِّرِ﴾: البَاءُ وَالشِّينُ وَالرَّاءُ أَصْلٌ وَاحِدٌ: ظُهُورُ الشَّيء مَعَ حُسْنٍ وَجَمَالٍ. وأصل البِشَارَة بِالخَيْرِ، وقد تستعمل للشر[1]. وبشَّرت الرَّجل: أخبرته بخبر سارٍّ بَسَطَ بَشَرَةَ وجْهِه، وذلك أنَّ النَّفْس إذا سُرَّتْ انتشرَ الدَّم فيها انتشارَ الماء في الشَّجر، واستبشرَ: إذا وجدَ ما يبشِّره من الفرح[2]. وكل ما ورد من الفعل (بَشّر) في القرآن الكريم فهو للخير، أو الشَّرِّ بحسب السِّياق[3].

المَعْنى الإجْماليُّ:

إباحةُ هيئاتِ التَّمتُّعِ وتقييدُ المأْتَى

رُوِيَ أنَّ اليَهود كانوا يقولون: من جامع امرأته من دبرها في قبلها كان ولدُها أحول، فذُكر ذلك لرسول اللّه ﷺ: فقال كذَبَتِ اليهود ونزلت الآية[4].

فالآية الكريمة تبيحُ كلَّ أوضاع الجماع وهيئاته، وتقرِّرُ بأنَّ نساءَكم موضعُ زَرْعٍ لكم، تضعون النطفة في أرحامهن، فَيَخْرج منها الأولاد بمشيئة اللّه، فجامعوهن في محل الجماع فقط، وهو القُبُل بأي كيفية شئتم.

وترشدُ الآية الكريمة إلى أنّ الشَّارع لا يقصدُ من التَّقييد - في ضوابط العلاقة الزوجية - إعْناتَكم ومنعَكُم من لذَّاتِكم، ولكنْ يُريد ليُوقفَكُم عند حدود المصْلَحة والمنفعة؛ كيلا تضعوا الأشياء في غير مواضعها فتفوت المنفعة وتحلَّ محلَّها المفْسَدة، ويذكِّر في هذا المقام الذي تغلب في الشهوة على العقل، بأن يقدِّم المسلم أعمالًا صالحة لنفسه بمراعاة أوامر اللّه، والخوف منه، واعلموا أنكم ملاقو اللّهِ للحساب يوم القيامة. وبشِّر المؤمنين - أيها النبيُّ - بما يُفْرِحهم ويسرُّهم من حسن الجزاء في الآخرة[5]. وقد استحسن تعالى مِنْ بين

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بَشَرَ).
(2) الراغب، المفردات: (بشر)
(3) جبل، المعجم الاشتقاقي: (بَشَرَ).
(4) الزمخشري، الكشاف: 1/266.
(5) رضا، تفسير المنار: 2/287، ونخبة من العلماء، التفسير الميسر، ص: 35.

ما استحسن هنا طلبَ النَّسْل المدْعوَّ إليه بقوله ﷺ: "تناكَحُوا تَكْثُرُوا، فإنِّي أُبَاهِي بِكُمُ الأُمَمَ "[1]، وقال: "خَيْرُ نِسَائِكُمُ الوَدُودُ الوَلُودُ "[2].

❁ الإيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

بلاغةُ التَّذْييل في قوله: ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُواْ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾:

تَأْنِيسُ المخَاطَبِين والارتِفَاقُ بِهِمْ

﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُواْ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾، هذه الجُمْلة تَذْييلٌ ثانٍ لجملة: ﴿فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: 222] قُصِدَ به الارتفاق بالمخاطبين والتَّأنيس لهم؛ لإشعارهم بأنَّ منعَهم من قربان النِّساء في مدّة المحيض منعٌ مؤقتٌ لفائدتهم، وأنَّ اللّه يعلم أنَّ نساءَهم محلُّ تعهُّدهم وملابستِهم، ليس منعُهم منهنَّ في بعض الأحوال بأمرٍ هيِّن عليهم لولا إرادة حفظِهم من الأذى[3].

بيانُ موقعِ الجُمْلَةِ ممَّا قَبْلَهَا:

بَـيَـانُ مَـكَـانِ الإِتْيَانِ وَعِلَّتِهِ

مَوْقِعُ قولِه: ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ﴾ مما قبله البيان والتَّوضيح لقوله: ﴿فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ﴾، ولذا فُصِلَت عمَّا قبلَهَا؛ لما بينهما من كمال الاتِّصالِ، والمعنى: أنّ المأتى الذي أمركم اللّه به هو مكان الحَرْث، ترجمة له وتفسيرًا، أو إزالةً للشُّبهة، تنبيهًا على أنَّ المطلوبَ الأصليَّ في الإتْيان هو طلبُ النَّسل لا قضاءُ الشَّهوة، فلا تأتوهنّ إلَّا من المأتى الذي نيطَ به هذا المطلب[4].

سرُّ فَصْلِ الجُمْلةِ عمَّا قبلَهَا:

دَفْـعُ وُقُـوعِ الخَلَلِ فِي النَّظْمِ المُؤَدِّي إِلَى لَبْسٍ فِي المَعْنَى

وقعت هذه الجملة ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ﴾ متّصلةَ المعنى بجملة ﴿فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ﴾ على وجه البيانِ لها، ولم يقع العطفُ بينهما؛ لسببَيْنِ:

(1) مصنف عبد الرزاق: 6/173، حديث رقم: (10391).
(2) الراغب، تفسير الراغب: 1/459، والبيهقي، السنن الكبرى، حديث رقم: (13860).
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/370-371.
(4) الزمخشري، الكشاف: 1/266، والقزويني، الإيضاح، ص: 195- 196، والنسفي، مدارك التنزيل: 1/186.

أحدهما: أنَّ مجيءَ الجملةِ بيانًا من مقتضياتِ الفصلِ.

والآخرُ: وقوع جملتي اعتراض متعاطفتين بين الكلامين المتَّصلين في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلۡمُتَطَهِّرِينَ﴾، فهذان اعتراضان بجملتين وقعا بين جملتين متّصلتين معنًى، ولذلك استُؤْنِفَتِ الآية ولم تُعْطَف على الجُمْلة المتَّصلة به معنًى[1]؛ لدفع ما قد يعتري الجُمْلة بالوصل من خَلَلٍ في النَّظم مؤدَّاه إلى لبْسٍ في المعنى.

سببُ تقديمِ جملة التَّعليلِ على جملةِ الحُكْم:

ترتُّبُ الحكمِ على العِلَّةِ إحكامٌ لنسيجِ النَّظمِ

تعدُّ جملة ﴿نِسَآؤُكُمۡ حَرۡثٞ لَّكُمۡ﴾ مقدَّمةً لجملة ﴿فَأۡتُواْ حَرۡثَكُمۡ أَنَّىٰ شِئۡتُمۡۖ﴾، وفيها معنى التَّعليل للإذن بإتيانهن أنَّى شاءوا، والعِلَّة قد تُجعل مقدَّمة، فلو أُوثر معنى التَّعليل لأُخِّرتْ عن جملة ﴿فَأۡتُواْ حَرۡثَكُمۡ أَنَّىٰ شِئۡتُمۡۖ﴾، ولكن أُوثر أنْ تكون مقدَّمة للتي بعدها؛ لأنَّه أحْكَمُ نسيجًا للنَّظْم، ولتَأْتِي عَقِبَهُ الفاء الفصيحة[2]، وهو من تقديم السَّبب على المسبَّب بوصفه عِلَّة بناءِ الحُكْم وتأسيسه؛ وفي ذلك تقنينٌ لصورة الإتْيان وهيئته بلفظ الحَرْث ابتداءً، لدفع توهّم الإتْيان في غير موضِعه.

سِرُّ تعريفِ النِّساء بالإضافة في قوله: ﴿نِسَآؤُكُمۡ﴾:

مُراعاةُ المَرْغُوبِ فيهِ والمَرْغُوبِ عَنْهُ فِي تَلْوِينِ الْخِطَابِ

عُرِّف لفظُ النِّساء هنا بإضافته إلى ضميرِ الأزواج، وفي الآية السَّابقة عُرِّفَ باللَّام، والفرق بينهما: أنَّ الحديث هنا عن أمرٍ مرغوبٍ تسعى له الأنفس، وتستلذُّ به، بما يتحقَّق به من سكنٍ، وقُربٍ، وزيادة أُنْسٍ، وَوُدٍّ؛ فعبَّر عنه بإضافته إلى آلةِ تحقيق ذلك وهو (الزّوج)، وأمَّا الحديثُ عنِ المحيض في الآية السَّابقة؛ فهو حديثٌ عمّا تَنْفُرُ منه الأنفسُ وتعافه كراهةً، وحُرمةً، والشَّأنُ فيه أنَّه ليس مظنَّةَ قُرْبٍ واتّصالٍ، فعُبِّرَ بالنِّساء (الزَّوجات) معرَّفًا باللَّام دون تعريفِهِ بالإضافةِ إلى الأزواج، مراعاةً لما تأنف منه أنفسُهم.

(1) التفتازاني، مختصر المعاني، ص: 171-170.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/371.

إِبَاحَةُ الِاسْتِمْتَاعِ فِي حُدُودِ الشَّرْعِ

ويَحْتَمِلُ أن يكون ذلك لِما في الإضافة من معنى المُلْك، وكأنّ الزَّوجات ملكٌ لكم تمتَّعوا بهنَّ كيفما شئتُمْ بما أمرَ الله تعالى، وفي حدود شرعه، وذلك أدعى إلى التَّرغيب فيهنَّ، والسَّكن إِلَيْهِنَّ، ولا سيَّما بعدما سبَّبه الحَيْضُ لهنَّ ولأزواجهنَّ من أذى، ويعزِّزُ هذا المعنى لامُ الاختصاص في ﴿لَّكُمْ﴾.

شِدَّةُ صِلَةِ الزَّوْجِ بِامْرَأَتِه كَشِدَّةِ صِلَةِ المُزَارِعِ بِحَرْثِهِ تَعَلُّقًا بِهِ وَرِعَايَةً لَهُ

ويُزَادُ على ذلك أنّ لفظ النِّساء، لَمَّا اقترن بالحَرْث؛ أشْعرَ بقوّة صلة المُزارع بحرثه، وتعلّقه به، ورعايتِه له، ولذلك ناسبَ إضافتَه إلى الأزواج؛ لِمَا جرت به العادَةُ مِن مباشرة الرِّجالِ لهذا الضَّرْبِ مِنَ العملِ.

نُكْتَةُ جَمْعِ المبتدَأِ وإفرادِ الْخَبَرِ بصيغةِ المصدَرِ:

بيانُ موضِعِ الوطءِ

أُفْرِدَ الحَرْث في الخبر عنِ النِّساء في قوله تعالى ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ﴾، وجُمِعَ المبتدأُ؛ لأنَّه مصدرٌ بمعنى اسم المكان وهو في معنى المفعول، أي: محروثات، ولذلك لزم الإفرادَ والتذكيرَ؛ لكونه الأفصحَ[1]، ومع تصريح بعضِ أهل العلم بأنَّ المصدر هنا بمعنى المفعول، إلا أنَّ للمصدر بهيئته غرضًا مِن هذا الإخبار يتمثَّل في المبالغة، فهو أجمع تمكينًا لهذا الموضع وتوكيدًا؛ بجعل النِّساء ذاتَ الحدثِ، أي: أنهنَّ تحوّلن إلى حدث مجرَّد من الذَّات وهو الحَرْث، وكأنَّهنَّ في الحقيقة مخلوقاتٌ من ذلك الفعل؛ وذلك لكثرة تعاطيهنَّ له، واعتيادهنَّ إيَّاه، فهو معنًى متصوَّرٌ في نفوسِهِنَّ[2]، وذلك أنسبُ لسياق التَّرغيب في موْضِعِ الوطء، والإتْيان من موضع النَّسل.

دِلالة الحَرْثِ بينَ التَّنكير والتَّعْريف:

في التَّنكيرِ عمومٌ، وفي التَّعْريف اختصاصٌ بما أضيفَ إليهِ

جاء ذكر الحرثِ في قوله: ﴿حَرْثٌ لَّكُمْ﴾ نكرةً؛ لأنَّه الأصلُ في الخبر؛ لكونِهِ كان مجهولًا، فهو محطُّ الفائدةِ، فأفادتْ نسبتُه إلى المبتدأ جوازَ الاستمتاع به شرعًا، ووردَ ذكْرُ الحرثِ في قوله:

(1) العكبري، التبيان: 1/178، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 3/93، والسمين، الدُّرُّ المصون: 2/423.
(2) ابن جنّي، الخصائص: 3/189، 202، 259، والسَّامَرَّائِّي، معاني النحو: 1/193-194.

﴿فَأۡتُواْ حَرۡثَكُمۡ﴾ معرفةً؛ لأنَّ في الإضافة تحويلًا على شيءٍ سبَقَ، واختصاصًا بما أضيف إليه، وإذا تقدَّمت نكرةٌ وأُعِيد اللَّفظُ مرادًا به المعنَى السَّابقُ، فلا بدَّ أنْ يكونَ اللَّفظُ معرفةً، إمَّا باللَّام، كقوله: ﴿فَعَصَىٰ فِرۡعَوۡنُ ٱلرَّسُولَ﴾ [المزمل: 16]، وإمَّا بالإضافة كما في الآية[1]، والتَّعريف بالإضافة هنا أقوى في الدَّلالة على القُرْبِ، واستحقاق الإتْيان، وفي التَّخصيص بعد التَّعميمِ مزيدُ توضيحٍ وعنايةٍ.

نُكْتَة العدولِ عنْ إضافةِ الحَرْثِ إلى ضمير المخاطَبينَ في الموضِعِ الأوَّلِ، وإضَافَتِهِ في الموضِعِ الثَّانِي:

تخليصُ النِّساءِ حرثًا لـلأزواج؛ لاقتضاء السِّياقِ لَهُ

عُدِلَ عن إضافة الحَرْثِ إلى ضمير الأزواج، فلم يقل: (حرثكم)، وقرنَ ضميرَ المخاطب ﴿لَّكُمۡ﴾ بلام الاختصاص؛ مبالغةً في تخليصِهِنَّ حرثًا للأزواج مقصودًا بهنَّ جانبهُنّ لا غير، وأنهنَّ خلَصنَ لهم، أي: أنّ كلَّ ما فيهنَّ حرثٌ لكم، ووردَ لفظ الحرثِ مكرَّرًا مضافًا إلى ضمير المخاطَبِينَ، فقال: ﴿فَأۡتُواْ حَرۡثَكُمۡ﴾؛ لأنّه في موضع تحديد وجه الإتْيان، وكيْفيّته، ويناسبُ ذلك إضافتهنَّ إلى الأزواج.

وجهُ تشبيهِ النِّساء بالحَرْث:

بالنِّساءِ زرعُ ما فيه بَقَاءُ نَوْعِ الإنْسَانِ، كَمَا أنَّ بالأرضِ زرعَ ما بِهِ بقاءُ أَشْخَاصِهِمْ

في قول اللّهِ تعالى: ﴿نِسَآؤُكُمۡ حَرۡثٌ﴾ تشبيهٌ بليغٌ؛ فقد شُبِّه النِّساءُ بالحَرْث، فالمشبه (النِّساء)، والمشبَّه به (الحَرْث)، وحُذِفَت أداة التَّشبيه وهي الكاف، وفيه أيضًا تشبيهٌ للوطءِ بالزِّراعة، والنّطفة بالبذرة، والرَّحِم بالأرض، والولد بالنّبات[2]، ووجه التَّشبيه بحرث الزِّراعة وأحوالها وحوائجها ولوازمها؛ لكونها مظنَّة ديمومة النَّوْعِ الإنسانيّ بالتَّناسل، فبِالنِّساءِ زرعُ ما فيه بقاء نوعِ الإنسان، كما أنَّ بالأرض زرعَ ما به بقاءُ أشخاصِهم[3].

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/181.
(2) الكرماني، غرائب التفسير: 1/214.
(3) الراغب، المفردات: (حرث).

لَا تَكُونُ لِلذُّرِّيَّةِ إِلَّا بِإِتْيَانِ مَوْضِعِ الْوَلَدِ

والتَّشبيهُ البليغُ المذكورُ آنفًا متفرِّعٌ على تشبيهِ النُّطَفِ المُلْقَاة في أرحامهنَّ بالبذور؛ حيث إنّ كلًّا منهما ينمُو في مستودعِه، ويكون به البقاء والتَّوالد، ومترتِّبٌ عليه ترتُّبَ اللَّازم على الملزوم، ويسمَّى تشبيهًا تمثيليًّا على سبيل الكناية[1]؛ وذلك بالكنايةِ بالحَرْث عنِ النِّكاح، أي: فانكِحوا مُزْدَرَعَ أولادِكم[2].

فالنِّساء مُزْدَرَعُ الذُّرِّيّة، كما أنّ الحَرْث سبب للنَّبات وموضعٌ له، ولا تَكَوُّنَ لهذه الذُّرِّيَّة إلَّا بإتيانِ موضع الوَلَد؛ لتُلْقى في أرحامهنَّ النُّطف، كشأنِ الحَرْث في حاجته إلى بذورٍ مآلُها إلى النَّبْت.

لِكُلٍّ مِنَ الزَّرْعِ وَالْحَمْلِ وَقْتٌ مَخْصُوصٌ

وفي التَّشبيه بالحرث وجوه أخرى:

منها ما هو زمانيٌّ؛ إذ لكلٍّ منهما وقتٌ خاصٌّ تُحَصَّلُ فائدته فيه، فالزَّرع في موسمه، والحمل في وقت التَّبييض.

ومنها: امتداد إباحة التّصرف في الأرض، بإتيان حرثها بالطَّريقة التي يراها نافعة للإنبات، وكذا الأمر في المرأة؛ إذ يُباح إتيانها على كلِّ حالٍ ووقتٍ إلَّا ما حُرِّم في الشَّرع.

المرأةُ تمدُّ الوجودَ الإنسانيَّ بعُنْصِرِ تكوينِهِ، والأرضُ تمدُّه بأسبابِ حياتِهِ

ومنها: ما كان بين الزوجة وبين الأرض الخِصْبة المُنْتِجة من حيث إنّ كليهما يمدُّ الوجودَ الإنسانيَّ؛ فالزَّوجة تمدُّه بعنصر تكوينِه وإنشائه، والأرض تمدُّه بأسباب حياته من زرع يكون به بقاؤه[3].

نكتَةُ التَّعْبير بالحَرْث دُونَ الزَّرْع:

دِقَّةُ اخْتِيَارِ الْأَلْفَاظِ الْمُنَاسِبَةِ لِسِيَاقَاتِهَا

الفرق بين الحرث والزَّرع أنَّ الحَرْثَ: إلقاءُ البذور وتهيئة الأرض، والزَّرْع مراعاتُه وإنباتُه، ولهذا قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [الواقعة: 63 - 64] فأثبتَ لهم الحَرْث، ونفى عنهم الزَّرْعَ، وقد جعلَ اللّه تعالى النِّساء مُحترثًا للرَّجل، وجعلَ

(1) الشهاب، عناية القاضي: 2/307، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 2/736.
(2) الماوردي، النكت والعيون: 1/284، أبو حيّان، البحر المحيط: 2/180.
(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 2/736، طنطاوي، التفسير الوسيط: 1/498.

له قوَّة النِّكاح حفظًا للنَّسل[1]، وبهذا المعنى تقطع لفظةُ (الحَرْث) بأنَّ الإباحة لا تقع إلَّا في الفرج خاصّة؛ إذ هو المُزْدَرَع[2].

دِلَالَةُ حَرْفِ (الْفَاءِ):

الفَصِيحَةُ: لِبنَاءِ ما بعدها على تقرُّرِ أنَّ النِّساء حرْثٌ لهم، لا سيَّما إذَا كانوا قد سألوا عَن ذلك بلسان المقال أو بلسان الحال[3]، فيكون تشبيه النِّساءِ بالحرثِ تمهيدًا للحكم المذكور ههنا من الأمر بالإتيانِ في موضع الحرثِ.

الفاء في ﴿فَأْتُواْ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾

التَّمْهِيدُ لِلْأَحْكَامِ بِمَا يُحسِّنُ قَبُولَهَا

التَّعْبير بالإتْيانِ عن طريق الكناية:

(الإتْيان) في هذا الموضع: كنايةٌ عن الجماع[4]، فلما عبّر عنهنَّ بالحَرْث عبّر عن مجامعتهنَّ بالإتْيان، وهو بيانٌ لقوله تعالى: ﴿فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ﴾[5]، وعبَّر بلفظ الإتْيان لما يتضمَّنه من معنى القصد إلى الشَّيء، وبلوغ منتهاه، ومن عادة العرب وشأنهم: استعمالُ الكنايات في الأشياء التي يُسْتَحْيَى من ذكرها، قصدا إلى التعفُّف باللِّسان، كما يُتَعَفَّفُ بسائر الجوارح[6].

مِنْ مَوَارِدِ الْأَدَبِ: التَّعَفُّفُ بِاللِّسَانِ كَمَا يُتَعَفَّفُ بِالْجَوَارِحِ

فإنَّ اللّٰه تعالى لَمَّا عبَّر عنهنَّ بالحَرْث عبَّر عن مجامعتهنَّ بالإتْيان، أي: فأتوهنَّ كما تأتونَ أراضيَكُم التي تُريدونَ أنْ تحرثوها، من أيِّ جهةٍ شئتم، لا تُحْظَرُ عليكم جهةٌ دون جهة ما دامت مواضع للإنبات، والمعنى: جامعوهنَّ من أيِّ جهةٍ شئتم ولا تبالوا بقول اليهودِ، فَفِي تخصيص (الحَرْث) بالذِّكر تعميمُ جميعِ الكيفيَّات الموصِلة إليه[7]، وفي هذا توسيعٌ لِلْمُبَاحِ كما هو مقتضى سَعَةِ رحمةِ اللّٰهِ تعالى.

مِنْ كُلِّيَّاتِ الشَّرِيعَةِ: تَوْسِيعُ الْإِبَاحَةِ وَتَضْيِيقُ التَّحْرِيمِ

(1) الراغب، تفسير الراغب: 1/458.
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 1/299.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/371.
(4) ابن جرير، جامع البيان: 4/398.
(5) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/223.
(6) النويري، نهاية الأرب: 3/145.
(7) القاسمي، محاسن التأويل: 2/120.

نُكْتَةُ الْإِظْهَارِ فِي مَقَامِ الْإِضْمَارِ:

دَفْعُ تَوَهُّمِ إِرَادَةِ غَيْرِ مَوْضِعِ الإِنْبَاتِ جَمْعًا بَيْنَ الْإِشَارَةِ وَالتَّصْرِيحِ

أُعيدَ لفظُ الحَرْث، ولم يَرِدْ: فأتوه؛ ليراعيَ المعنى المقصودَ بذلك، لئلا يتوهَّم ما يتصوَّره قومٌ لم يُنْعِمُوا النَّظر[1]، فقولُه: ﴿حَرْثَكُمْ﴾ بالاسمِ الظَّاهِرِ؛ لما يُفيدُهُ لفظ الحَرْثِ من الإيماء إلى المحلِّ المخصوصِ الذي تنبتُ فيهِ البذور وينبتُ فيه[2]، ليقعَ الخطابُ في الآية الأولى بالإشارة لأولي الفَهْم، وبالتَّصريح في هذه لأولي العِلْم؛ لأنَّ الحَرْث إنما يكون في موضع الزَّرْع[3].

بيانُ التَّشبيه التَّمثيلي في ﴿فَأْتُواْ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾:

إِبَاحَةُ عُمُومِ الْإِتْيَانِ زَمَانًا وحالًا

معنى قولِ الله تعالى: ﴿فَأْتُواْ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾: جَامعوهنَّ متى شئتم، أو كيف شئتم بعد أنْ يكون المأتى واحدًا وهو موضع الحَرْث، وهو تشبيه تمثيلي، أي: فأتوهن كما تأتون أراضيكم التي تريدون أن تَحْرثوها من أيِّ جهة شئتم لا تُحْظَرُ عليكم جهةٌ دونَ جهةٍ[4].

دلالة التَّعبير بـ﴿أَنَّىٰ﴾:

بَيَانُ هَيْئَةِ الْإِتْيَانِ وَزَمَانِهِ إِذَا كَانَ فِي مَحَلِّ الْحَرْثِ

لَمَّا كان قول الله تعالى: ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُواْ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾ قد يَفْهَمُ مِنْهُ واهِمٌ إباحةَ الوَطْءِ في أيِّ محلٍّ شاءَ الزَّوجُ من المحلَّين، وهذا ممَّا يُحْتَاجُ إلى إيضاح، فجاء توضيحُهُ بلفظ الحرثِ في قوله تعالى: ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ﴾ - على ما تقدَّم بيانُهُ آنفا -، فعُلِمَ بهذا أنَّ قوله: ﴿أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾ تخييرُ الزَّوجِ في الوطْءِ في الهيئات التي يأتي أهلَه عليها على أن لا يُجاوزَ المحلَّ المخصوصَ، فيكون معنى ﴿أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾ كيف شئتم من الهيئات، أو متى شئتم من الزَّمان[5] سوى ما وردَ التَّنصيصُ على تحريمِهِ، كما في قوله تعالى: ﴿فَٱعْتَزِلُواْ ٱلنِّسَآءَ فِي ٱلْمَحِيضِ﴾.

(1) الراغب، تفسير الراغب: 1/459.
(2) الزركشي، البرهان: 3/67.
(3) البقاعي، نظم الدُّرر: 3/280.
(4) النسفي، مدارك التنزيل: 1/186.
(5) الإندونيسي، الشَّامل في بلاغة القرآن: 1/113.

دلالةُ أَنَّى عَلَى الْعُمُومِ أَنْسَبُ لِمَقَامِ وُرُودِهَا

الاستعمالُ العربيُّ لـ﴿أَنَّىٰ﴾: هو أنَّها تجيءُ سؤالا وإخبارًا على أمرٍ له جهاتٌ، فهي أعمّ في اللُّغة من (كَيْفَ)، و(أَيْنَ)، و(مَتَى)[1]، فهي تجمعُ الكيفيّات، والأحوال، والأزمنة، ولذلك هي أنسبُ لسياق الآية الكريمة، وقد فُسِّرتْ ﴿أَنَّىٰ﴾ في هذه الآية بهذه الألفاظ، وبغيرها، على ما يأتي.

وُجُوهُ تَفْسِيرِ ﴿أَنَّىٰ﴾:

سَعَةُ الْمَعَانِي وَتَقْيِيدُ الْقَصْدِ

أُضيفَت ﴿أَنَّىٰ﴾ في جملة ﴿أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾ إلى ﴿شِئْتُمْ﴾، والمَشِيئاتُ شَتَّى، ولذا تُؤُوِّلَتْ بوجوهٍ من التَّأويلاتِ، وحاصِلُهَا: كيف شئتم في الأحوال، أو مِن أيِّ وجهٍ أَحْبَبْتُمْ ما دام في محلِّ الولَدِ، أو أين ومن أين شئتم، أو كيف شئتم أن تعزلوا أو لا تعزلوا، أو حيث شئتم، أو متى شئتم[2]، وبالاستفهام، والشَّرط، وجعلوها في الشَّرطية ظرفَ مكانٍ فقط[3]، وكلُّ هذه المعاني على اختلاف العلماء في صِدْقِهَا على ﴿أَنَّىٰ﴾ من عَدَمِه يُقيِّد دِلالة لفظِ الحَرْث بموضع الولَدِ، وإنْ تعدّدت الكيفيّات الموصِلة إليه، ورُجِّحتْ من هذه الوجوه ثلاثةٌ: بمعنى كَيْفَ، وبمعنى مَتَى، والشَّرطية.

تَوْجِيهُ حَمْلِ ﴿أَنَّىٰ﴾ عَلَى (كَيْفَ):

تَحْدِيدُ أَمْكِنَةِ ابْتِدَاءِ الْإِتْيَانِ أَوْ أَمْكِنَةِ الِاسْتِقْرَارِ

﴿أَنَّىٰ﴾ اسمٌ لمكان مُبْهَم، تبيّنه جملةٌ هُوَ مضافٌ إليها، وقد كَثُرَ استعماله مجازًا في معنى (كيف)، بتشبيه حال الشَّيء بمكانه؛ لأنَّ (كيف) اسم للحال المبهمة، يُبَيِّنها عاملُها، نحو ﴿كَيْفَ يَشَآءُ﴾ [آل عمران: 6][4]، فجِيءَ بـ﴿أَنَّىٰ﴾ المحتملة لِلْكيفيّات ولِلْأَمْكِنَةِ، وهي أصلٌ في الأمكنة ووردت في الكيفيَّات، فَاحْتَمَلَ كونَها أمكنةَ الوصولِ مِن هذا الإتْيانِ وكيفيّاته، وأمكنةَ استقراره، فأُجْمِلَ في هذا كلّه إجمالا بديعًا[5].

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 1/299، أبو حيّان، البحر المحيط: 2/181،
(2) ابن جرير، جامع البيان: 4/398-415، والماوردي، النكت والعيون: 1/284.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/181.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/371.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/372، و374.

الْأَمْرُ بَعْدَ الْحَظْرِ دالٌّ عَلَى الإِبَاحَةِ أَوِ الرُّجوعِ إِلَى الْحُكْمِ الأَوَّلِ قَبْلَ النَّهْيِ

توجيهُ حملِ ﴿أَنَّىٰ﴾ عَلَى (مَتَى):

الذي يتبادرُ من موقع الآيةِ وتُساعِدُ عليه معاني ألفاظِها أنَّها تذْييلٌ واردٌ بعد النَّهي عَن قربان النِّساء في حال الحَيْض، فتُحمل ﴿أَنَّىٰ﴾ على معنى: مَتَى، ويكون المعنى: فأتوا نساءَكم متى شئتم إذا تطَهَّرن، فَوزَانُها وزانُ قوله تعالى: ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَٱصْطَادُواْ﴾ [المائدة: 2] بعد قوله: ﴿غَيْرَ مُحِلِّي ٱلصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ﴾ [المائدة: 1][1].

عُمُومُ الْمَشِيئَةِ فِي إِتْيَانِ الزَّوْجَةِ إِذَا كانَ فِي مَحَلِّ الوَلَدِ

تَوْجِيهُ حَمْلِ ﴿أَنَّىٰ﴾ على الشَّرطيّة:

رجّح أبو حيّان والسَّمين الحلبي أنَّ ﴿أَنَّىٰ﴾ هنا شرطيَّةٌ؛ لافتقَارِها إلى جملةٍ غيرِ الجُمْلة التي بعدها، ويكونُ قد جُعِلَتْ فيها الأحوالُ وحُذِف جوابُها؛ لدِلالة ما قبله عليه، تقديرُه: أنَّى شِئْتُم فَأْتُوه، ومفعولُ ﴿شِئْتُمْ﴾ محذوفٌ أي: شِئْتُمْ إتيانَه بعد أن يكونَ في المحلِّ المُباح[2].

مَكَانُ الْحَرْثِ يُنْبِتُ الزَّرْعَ، وَيُدِيمُ بَقَاءَ النَّوعِ

عِلَّة استبعاد إباحة الوطء في غير القُبل:

عُلِّلَ عَدَمُ إباحةِ إتيان النِّساء في الأدبار؛ لأنَّ الدُّبر لا مُحْتَرَثَ فيه، وإنَّما قال الله تعالى ذِكْرُه: ﴿حَرْثٌ لَّكُمْ﴾، فأتوا الحَرْث من أيّ وجوهه شئتم في الموضع المأذون فيه[3]، فهو طريق الولادة والتَّنَاسل الذي به بقاء النَّوع الإنسانيّ الذي هو أشرف أنواع الكائنات، فلو لم يكن في النَّهْي عن إتيانِ المحلِّ المكروهِ إلَّا فواتُ هذا الغرض من بقاء النَّوع الإنسانيِّ؛ لكفى به منقصةً وذمًّا؛ لكونه يتضمّن فناء النَّوع[4]؛ لما فيه مِنَ العبث بعدم المنفعة، فالأدبار موضع الفَرث، لا موضع الحَرْث[5].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/372.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/181، والسمين، الدُّرُّ المصون: 2/424.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 4/416.
(4) النيسابوري، غرائب القرآن: 1/616-617.
(5) البقاعي، نظم الدُّرر: 3/281.

بلاغة الوصل بالعَطْف:

الْحِرْصُ عَلَى الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ بَعْدَ الْكَلَامِ عَلَى اللَّذَّاتِ الْعَاجِلَةِ

قول الله تعالى: ﴿وَقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُمۡۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ عطفٌ على جملة ﴿فَأۡتُواْ حَرۡثَكُمۡ﴾ أو على جملة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلۡمُتَطَهِّرِينَ﴾، من باب عطفِ الإنشاء على الخبر، على أنَّ الجُمْلة المعطوفَ عليها وإن كانت خبرًا؛ فالمقصود منها الأمر بالتَّوْبة والتطهُّر، فكرَّر ذلك اهتمامًا بالحرص على الأعمال الصَّالحة بعدَ الكلامِ على اللَّذَّاتِ العاجلَةِ[1].

الِانْشِغَالُ بِالْمُبَاحِ لَا يُلْهِي الْعَبْدَ عَنْ طَاعَةِ اللهِ تَعَالَى

وَاللهُ تعالَى إذا أطلق أمرًا مِنَ الشَّهوات الدّنيويَّة لا يُخلي ذكْرَه مِنَ الحثِّ على مُراعاة العُقْبى والتَّقوى؛ لِئلَّا يلحقَ الإنسانَ غفلةٌ عمَّا خُلِقَ لأجْلِه[2]، وللاتّجاه إلى الله بالعبادة، فيكون عملا صالحا يقدِّمونه لأنفُسهم.

سِرُّ حَذْفِ الْمَفْعُولِ:

حَذْفُ الْأَلْفَاظِ يُوَسِّعُ الْمَعَانِي وَيُكَثِّرُ وُجُوهَهَا

مفعولُ ﴿وَقَدِّمُواْ﴾ محذوفٌ إيجازًا، وهو ممَّا يُوسِّعُ دلالاتِ تأْويلِه، فقيلَ في تقديره: قدِّموا ما يَجِبُ تقديمه مِنَ الأعمال الصَّالحة، وما هو خلاف ما نَهَيْتُكُم عنه، أو نيّةَ الإعفاف، أو طلبَ الولد والنّسل، أو التَّسميةَ على الوطء، وذِكْرَ اللَّهِ، أو الخيرَ، كما وردَ التَّصريحُ به في نَظيرِه في قوله: ﴿وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنۡ خَيۡرٖ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِۗ﴾ [البقرة: 110][3].

وقوله: ﴿لِأَنفُسِكُمۡۚ﴾ متعلق بـ﴿وَقَدِّمُواْ﴾، واللَّام للعِلَّة، أي: لأجل أنفسكم أي لنفعها[4]، فاللَّامُ تحتملُ التَّعليل والتَّعدّي[5].

دِلَالَةُ جُمْلَةِ الْأَمْرِ ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾:

التَّحْرِيضُ عَلَى امْتِثَالِ الشَّرْعِ

لَمَّا كانت أفعالُ الإنسان في الشَّهوات تقرِّب مِن فعْلِ مَن عنده

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/374.
(2) الراغب، تفسير الراغب: 1/459.
(3) الزمخشري، الكشاف: 1/266، والعكبري، التبيان: 1/179.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/374.
(5) السمين، الدُّرُّ المصون: 2/425.

شكٌّ؛ احتيجَ إلى مَزيدِ وعْظٍ وتحذيرٍ، فقال: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾، أي: اجعلوا بينَكم وبين ما يكرهُهُ الملك الأعظم من ذلك وغيره وقايةً مِنَ الحلال أو المشتبه[1]، وهُوَ تحريضٌ على امتثال الشَّرع بتجنُّب المخالفة، وتحذيرٌ لهم مِن اقترافها، فيدخلُ تحته: التَّخلِّي عَنِ السَّيئات، والتحلِّي بالواجبات والقربات، فمضمونها أعمُّ مِن مضمون جملة: ﴿وَقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُمۡۚ﴾، فلذلك كانت هذه تَذْيِيلا[2]، والعبدُ محتاجٌ إلى أنْ يُقَدِّمَ معهُ ما يقْدَمُ به على اللّه العظيم ممَّا لا يَفْتَضِحُ به عنْدَه؛ وهو العملُ الصَّالح[3].

سِرُّ افْتِتَاحِ الْجُمْلَةِ بِالْفِعْلِ ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ﴾:

حَثُّ المُخَاطَبِينَ عَلَى التَّأَمُّلِ

افْتُتِحَتِ الجُملة بـ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ﴾ عنايةً بالخبر الذي بعدَهُ، واستنصاتًا له، واهتمامًا بما يتضمَّنه، وحثًّا للمخاطبين على التَّأمّل فيما بعده، وذلك من أساليب الكلام البَليغ أنْ يُفْتَتَحَ بعضُ الجُمَل المشتملة على خبرٍ أو طلبِ فَهْم بـ(اِعْلَمْ) أو (تَعَلَّمْ)؛ لفْتًا لذهْنِ المخاطب[4].

التَّعْرِيضُ بِغَفْلَةِ المُخَاطَبِ عَنْ أَمْرٍ مُهِمٍّ

فَمِنَ المعروف أنَّ المُخْبَر أو الطَّالبَ ما يريد إلَّا عِلْمَ المخاطَب، فالتَّصريح بالفعل الدّالّ على طلب العِلْم مقصودٌ لِأجل العناية والاهتمام[5].

دِلَالَةُ عَطْفِ الجُمْلة عَلَى مَا قبلها:

زِيَادَةُ الْوَعْظِ جَمْعًا بَيْنَ التَّرْغِيبِ وَالتَّرْهِيبِ

قولُ اللّهِ تعالَى: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُۗ﴾ معطوفٌ على قوله: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾، وذلك لما بين الجملتين من التَّوسُّط بين الكمالين؛ لاشتراكهما في الإنشائيَّةِ، ولِمَا بينَهما من المُناسبة الظَّاهرة؛ إذ في كُلٍّ منهما وعظٌ من اللّه تعالى وتحذيرٌ لعبادِهِ وتنبيهٌ لهم، وحسَّنَ الوصلَ اشتمالُ الجملتين على ذِكْرِ اللّه تعالى ضميرًا راجعا إليه واسمًا صريحًا.

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 3/282.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/374.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/182.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/375، و9/314.
(5) ابن عاشور، المصدر نفسه: 9/314.

وفي قوله: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُۗ﴾ زيادةٌ في الوعْظ مِنْهُ سبحانه وتعالى، وهو جامعُ التَّحذير والتَّرغيب والتَّنبيه بطلبِ العِلْم، أي: فلاقُوهُ بِمَا يَرْضَى به عَنْكُم؛ لأنّه سائلكُم عَن جميع ما فعلتمُوه مِن دقيقٍ وجليل، وصالحٍ وغيره، فلا تقعوا فيما تسْتحيُون منه إذَا سألكم؛ فهو أجلُّ مِن كلِّ جليلٍ[1].

قصديَّة التَّعْبير بفعل الملاقاة:

الْحَثُّ عَلَى زِيَادَةِ الِاهْتِمَامِ بِلِقَاءِ اللهِ تَعَالَى وَالْعَمَلِ بِمُقْتَضَاهُ

الملاقاةُ في قوله: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُۗ﴾: خبرٌ يقتضي المبالغةَ في التَّحذير، أي: فهو مجازيكم على البِّر والإثم[2]، وهِيَ صيغة مُفاعَلَةٍ مِنَ اللّقاء، وأصلُها: يقتضي الوقوعَ بين شيئين، وفعل (لقيَ) و(لاقى) بمعنى واحد، يقال: لقيتُه ولاقيتُه؛ إذا استقبلته قريبًا منه[3]، إلَّا أنَّ في المفاعلة منه مبالغة ليست في المجرَّدِ.

وإنّما أمرَهُمُ اللهُ بعلْمِ أنَّهم ملاقُوه مع أَنَّ المسلمين يعلمون ذلك؛ تنزيلا لعلمهم منزلةَ العدَم في هذا الشَّأن، ليكون ذلك تحريضًا لهم على زيادةِ الاهتمام بهذا المعلوم والتَّنافُسِ فيه[4].

إِرْشَادُ الزَّوْجَيْنِ إِلَى إِعْمَالِ التَّقْوَى وَاسْتِحْضَارِ لِقَاءِ اللهِ تعالَى فِي مُعَامَلَةِ كُلٍّ مِنْهُمَا لِلْآخَرِ

وفيه إشعارٌ بأنَّ أمرَ ما بين الزَّوجين مؤخَّرٌ حُكْمُهُ إلى لقاءِ اللّه ﷻ؛ حِفاظًا على ما بين الزَّوجين ليبقى سِرًّا لا يُظْهِرُ أمرَهُ إلَّا اللّه تعالى، وفي إشعارِه إبقاءٌ لِلْمرُوءة في أنْ لا يحتكِمَ الزَّوجان عند حاكِمٍ في الدُّنيا، وأنْ يرجِعَ كلُّ واحدٍ منهما إلى تقوى اللّهِ وعلمِهِ بلقاءِ اللّه[5].

سرُّ ترتيبِ الجُمَل المتَعَاطِفَةِ:

رُتِّبتْ هذه الجُمَل الثَّلاث في قوله تعالى: ﴿وَقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُمۡۚ

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 3/282، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/375.
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 1/300.
(3) الزمخشري، الكشاف: 1/65، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/375.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/375.
(5) البقاعي، نظم الدُّرر: 3/283.

اسْتِحْضَارُ لِقَاءِ الله تعالى مُثَبِّتٌ لِلنُّفُوسِ عَلَى تَحَمُّلِ الْمَشَاقِّ فِي فِعْلِ الطَّاعَاتِ

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُۗ﴾ بمضامينها الدَّالة على فعل الطَّاعات، ثم تركِ المحظورات، وتحمُّلِ مشقَّتِهما، ثُمَّ التَّذكير بيوم البعث والحساب، وأنَّ الفعلَ والتَّرك لأجلهما على عكس ترتيب حصول مضامينها في الخارج؛ فإنَّ الظَّاهر أن يكون الإعلام بملاقاة الله هو الحاصل أوَّلا، ثُمَّ يعقبه الأمر بالتَّقوى، ثُمَّ الأمر بأنَّ يقدِّموا لأنفسهم، فخُولِف الظَّاهر لِلْمُبَادرة بالأمر بالاستعدادِ ليوم الجزاء، وأُعْقِبَ بالأمر بالتَّقوى؛ إشعارًا بأنَّها هي الاستعدادُ، ثُمَّ ذُكِّروا بأنَّهم ملاقو الله، فجاء ذلكَ بمنزلة التَّعليل[1]، فلولا ذلك اليوم لكانَ تحمُّلُ المشقَّة في فعل الطَّاعات وترك المحظورات عبثًا، فما أحسن هذا التَّرتيب![2].

نُكْتَة تَضْعِيفِ فِعْلِ الْبِشَارة:

عُمُومُ الْبِشَارَةِ وَكَثْرَتُهَا

بين ﴿وَبَشِّرِ﴾ و(أَبْشِرْ) فرقٌ، فإنّ قولك: (بشَّرتُهُ) عامٌّ، و(أَبْشَرتُه)، نحو قولك: أَحْمَدتُهُ، وبشَّرته مضعَّفٌ على إرادةِ معنَى التَّكثير[3].

بَلَاغَةُ التَّعْقِيبِ بِجُمْلَةِ الْبِشَارَةِ:

امْتِثَالُ الْأَحْكَامِ الْمُتَقَدِّمَةِ مِنْ كَمَالِ الْإِيمَانِ

قولُ اللّه تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾، أي: الْمُسْتَحقِّينَ المدحَ والتَّعظيمَ بتركِهِمُ القبائحَ وفِعْلِهِمُ الحسناتِ[4]، وهو تأنيسٌ لفاعلي البرِّ ومتَّبعي سنن الهدى[5]، وتعقيبٌ للتَّحذِير بالبِشارة، والمراد: المؤمنون الكاملون وهم الذين يُسَرُّون بلقاء الله تعالى كما جاء في الحديث: «مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ اللَّهِ أَحَبَّ اللَّهُ لِقَاءَهُ»[6]، وذِكْرُ هذه البِشَارة عَقِبَ ما تقدَّم إشارةٌ إلى أنَّ امتثالَ الأحكام المتقدِّمة مِن كمال الإيمان[7].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/375.
(2) الرازي، مفاتيح الغيب: 6/424، والنيسابوري، غرائب القرآن: 1/617.
(3) الراغب، المفردات: (بشر).
(4) الزمخشري، الكشاف: 1/266.
(5) ابن عطية، المحرر الوجيز: 1/300.
(6) رواه البخاري في صحيحه، حديث رقم: (6507)، ومسلم في صحيحه، حديث رقم: (2683).
(7) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/375.

والجمع بين الوعد والوعيد من طرائق القرآن، ويراد منها رعاية التَّرتيب المعتبر في القرآن، وهو أن يُجعل مع كلِّ وعيدٍ وعدٌ[1].

بَرَاعَةُ الِالْتِفَاتِ مِنَ الْجَمْعِ إِلَى الإِفْرَادِ:

لتخصيص كمال عقل الأوامر بأكمل الخلق ﷺ، وللمبالغة في التشريف

الضميرُ في ﴿وَبَشِّرِ﴾ لِلرَّسول ﷺ لِجَرْيِ ذِكْرِه في قوله: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ﴾[2]، ولَمَّا كان ما تقدّم من أوامرَ لا يعقلُه حقَّ عقلِه كلُّ أحدٍ، أشار إلى ذلك بالالتفات إلى أكمَلِ الخلق[3] ﷺ، وفي أمره لرسولِه بالتَّبشير تأنيسٌ عظيمٌ، ووعدٌ كريمٌ بالثَّواب الجَزيل[4]، وفيه مع ما في الالتفات مِن تلوين الخطاب وجعلِ المبشِّرِ رسولَ الله ﷺ: المبالغةُ في تشْريف المؤمنين ما لا يخفى[5].

سِرُّ حَذْفِ الْمُبَشَّر بِهِ:

الِاسْتِغْرَاقُ فِي تَخَيُّلِ العطايا؛ تَشْوِيقًا لِلْأَنْفُسِ المُؤْمِنَةِ

لم يُنَصَّ على المُبَشَّرِ به وهو الثَّواب والكرامة ونحوهما، إمَّا لأنَّه معلومٌ مِنْ نحو قول الله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴿٤٧﴾﴾ [الأحزاب: 47]، وقوله: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ﴾ [البقرة: 25]، وإمَّا لأنَّ الغرضَ نَفْسُ البِشَارَةِ، مِثْلُ: (فلان يُعْطِي)[6].

وفي حذف المُبَشَّر به والاستغناءِ بالمذكور تعميمٌ لتصوُّر مديدِ المنَح، واستغراق في تخيّل عظيم العطايا؛ لتتشوَّق إليه الأنفس وتتلهَّف إلى مديد هباتِ الله تعالى وهو الجَواد الكريم، ومصداق ذلك ما جاء عن النَّبيِّ ﷺ في وصف الجَنَّة: «إِنَّ اللَّهَ ﷻ قَالَ: أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ»[7].

---

(1) الرازي، مفاتيح الغيب: 6/424، والنيسابوري، غرائب القرآن: 1/617.
(2) السمين، الدُّرُّ المصون: 2/425.
(3) البقاعي، نظم الدُّرر: 3/283.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/183.
(5) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/223.
(6) الرازي، مفاتيح الغيب: 6/424، والنيسابوري، غرائب القرآن: 1/617.
(7) رواه البخاري في صحيحه، حديث رقم: (3244)، ومسلم في صحيحه، حديث رقم: (2824).

نُكْتَة جَمْعِ ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾:

بَعْثُ مُشَاهَدَةِ فِعْلِ الْإِيمَانِ وَمُلَازَمَتِهِ فِي الْأَنْفُسِ

جُمِعَ لفظُ ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ جمعَ مذكَّرٍ سالمًا، وهو مِن جمع الصّفات التي يخرجها مِن دائرة الدّلالةِ على القلّة إلى الدّلالة على الحدث والقُرْبِ مِنَ الفعليَّة؛ ليبعث في النَّفْس مشاهدةَ فعلِ الإيمان منهم، وملازمتهم له، ومداومتهم عليه حتَّى صار لهم الإيمان كالوصف الرَّاسخ[1]، وفيه تنبيه على الوصف الذي به يُتَّقى اللّه تعالى، ويُستحقُّ عليه التَّبشير؛ وهو الإيمان[2].

حُسْنُ الِابْتِدَاءِ وَالْخِتَامِ فِي الآيَةِ الْكَرِيمَةِ:

دِلَالَةُ مَقَاطِعِ الآيَاتِ عَلَى مَطَالِعِهَا

كان ابتداءُ هذه الآيات بالتَّحذير عَن تعاطِي العصْيان، واختتامُها بالتَّبشير لأهلِ الإيمان آياتٍ تَعجزُ عن وصفِ ما تضمَّنته البدائع الألْسُنُ، ويذعنُ لفصاحتها الجِهْبِذ اللَّسِنُ، فقد جمعت بين براعةِ اللَّفظ ونصاعة المعنى، وتناسُبِ الجُمَل وتأنُّق المبنى؛ مِن سؤالٍ وجوابٍ، وتحذيرٍ من عقابٍ، وترغيبٍ في ثوابٍ، فهدتْ إلى الصِّراط المستقيم، وتُلقِّيتْ مِن لدن حكيمٍ عليمٍ[3].

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 3/283.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/183.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/184.

﴿وَلَا تَجۡعَلُواْ ٱللَّهَ عُرۡضَةٗ لِّأَيۡمَٰنِكُمۡ أَن تَبَرُّواْ وَتَتَّقُواْ وَتُصۡلِحُواْ بَيۡنَ ٱلنَّاسِۚ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ٢٢٤﴾ [البقرة: 224]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

ملاكُ المناسبة بين هذه الآية وما قبلها: أنَّه تعالى لما أمرَ بتقوى الله تعالى، وحذَّرهم يوم الميعاد، نهاهم عن ابتذالِ اسمه، وجعْلِه معرضًا لما يحلفون عليه دائمًا؛ تنزيهًا عمَّا لا يليق به من الحلف به في قليل أو كثير، عظيم أو حقير؛ لأنَّ كثرة ذلك توجبُ عدم الاكتراث بالمحلُوفِ به[1]. ويجوز أنْ تكون المناسبة "أنه تعالى لما أمر المؤمنين بالتَّحرُّز في أفعالهم السابقة من: الخمر، والمَيْسِر، وإنفاق العفو، وأمر اليتامى، ونكاح من أشرك، وحال وطء الحائض، أمرهم تعالى بالتحرز في أقوالهم، فانتظمَ بذاك أمرُهُمْ بالتَّحرُّز في الأفعال والأقوال"[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَلَا تَجۡعَلُواْ﴾: معنى جَعَلَ في معجمات اللغة: صَنَعَ، وصَيَّر، وخَلَقَ، وَوَضَعَ[3]. وذكر الرّاغب تَصرُّفَ الفِعْلِ على خمْسَة أوْجُهٍ: منها ما يَتَعَدَّى إلى مَفْعُولٍ واحد فيجري مجْرَى أوْجَدَ، وكَوَّن شيئًا من شَيءٍ[4]. فيكون بمَعْنَى الخَلق والإيجادِ، أي: التَّوجُّهِ والشّرُوعِ في الشَّيء، والاشتغالِ بِهِ. فيتعَدَّى إلَى مفعولٍ وَاحِد[5]. قال الزمخشريُّ: "جعل يتعدى إلى مفعول واحد إذا كان بمعنى أحدث وأنشأ، كقَوْله ﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَۖ﴾ [الأنعام: 1] وإلى مفعولين إذا كان بمعنى صير، كقَوْله ﴿وَجَعَلُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمۡ عِبَٰدُ ٱلرَّحۡمَٰنِ إِنَٰثًاۚ﴾ [الزخرف: 19]"[6].

ومعنى (جَعَلَ) وما تَصَرَّف منها في القرآن التَّحويل والتَّهْيئَةُ على وَضْعٍ، أو الخَلق،

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/187.
(2) أبو حيّان، المصدر نفسه: 2/187.
(3) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، ابن سيده، المحكم: (جعل).
(4) الراغب، المفردات: (جعل).
(5) الزبيدي، تاج العروس: (جعل).
(6) الزَّمخشري، الكشَّاف: 2/3.

وهو تحويلٌ للهيئة بإنشاءِ هَيْئَةٍ جَديدةٍ[1]. وهو معنى اللفظة في الآية الكريمة بتحويل اسم الله تعالى عن أصل استعماله.

2) ﴿عُرْضَةً﴾: العَيْنُ وَالرَّاءُ وَالضَّادُ بِنَاءٌ تَكْثُرُ فُرُوعُهُ، وَهِيَ مَعَ كَثْرَتِهَا تَرْجِعُ إِلَى أَصْلٍ وَاحِدٍ، وَهُوَ العَرْضُ الَّذِي يُخَالِفُ الطُّولَ[2]. وفلان عُرْضة للنّاس لا يزالون يقعون فيه[3]. فالعرضة: ما يجعل معرضًا للشَّيءِ[4]. وجعلتُ فلانًا عُرْضَةً لكذا وَكَذَا، أَي نصبته لَهُ[5]. واعترض الشَّيء: صارَ عارضًا، أي: حائلا دونَه[6]. فالعرضة اسم ما تعرضه، وهو المانع، والحائل، والحاجز المعترض بين شيئين، وقد تصور العرضة بصورة المبتذل[7]. وكل هذه المعاني مُرادة في اللفظ بِحَسَبِ ما سيأتي بيانه في الشرح البلاغيّ.

3) ﴿لِّأَيْمَٰنِكُمْ﴾: اليَاءُ وَالمِيمُ وَالنُّونُ: كَلِمَاتٌ مِنْ قِيَاسٍ وَاحِدٍ. فَاليَمِينُ: يَمِينُ اليَدِ. وَاليَمِينُ: الحَلِفُ، وَكُلُّ ذَلِكَ مِنَ اليَدِ اليُمْنَى. وَسُمِّيَ الحَلِفُ يَمِينًا لِأَنَّ المُتَحَالِفَيْنِ كَأَنَّ أَحَدَهُمَا يَصْفِقُ بِيَمِينِهِ عَلَى يَمِينِ صَاحِبِهِ[8]. فاليمين: أصله الجارحة، وهو في الحلف مستعارٌ من اليَد اعتبارًا بما يفعلُه المعاهِد والمحالِف وغيره[9]. واليمين: القَسَم، وجمعه: أَيْمانٌ. وأَيْمُنٌ: حرفٌ وُضِعَ للقَسَم[10]. والأَيمان في الآية بمعنى الحلف والقسم[11].

4) ﴿تَبَرُّواْ﴾: البَاءُ وَالرَّاءُ فِي المُضَاعَفِ أَرْبَعَةُ أُصُولٍ: أولها الصِّدْقُ، وَبَرَّتْ يَمِينُهُ صَدَقَتْ، وبَرَّ اللَّهُ حَجَّكَ وأَبَرَّهُ، وحِجَّةٌ مبرورةٌ أَيْ: قُبِلَتْ قَبُولَ العَمَلِ الصَّادِقِ. ويَبَرُّ رَبَّهُ، أَيْ: يُطِيعُهُ. وَهُوَ مِنَ الصِّدْقِ[12]. و(البَرُّ) من أسماء الله تعالى هو العطوف على عباده

(1) جبل، المعجم الاشتقاقي: (جعل).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عَرَضَ).
(3) الخليل، العين: (عرض).
(4) الراغب، المفردات: (عرض).
(5) ابن دريد، جمهرة اللغة: (عرض)
(6) الجوهري، الصحاح: (عرض).
(7) الراغب، تفسير الراغب: 1/460-461.
(8) ابن فارس، مقاييس اللغة: (يَمَنَ).
(9) الراغب، المفردات: (يمن).
(10) الفراهيدي، العين: (يمن).
(11) جبل، المعجم الاشتقاقي: (يَمَنَ).
(12) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بَرَّ).

ببرِّه ولُطْفِه[1]. والبِرُّ بالكسر: الإحسان، وهو: خلاف العُقوقِ[2]. والبَرُّ خلاف البَحْر، وتُصُوِّرَ منه التَّوسُّع فاشتُقَّ منه البَرُّ، أي: التَّوسُّع في فعل الخير، وينسب ذلك إلى الله تعالى تارة نحو: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ٢٨﴾ [الطور: 28]، وإلى العبد تارة، فيقال: بر العبد ربه، أي: توسع في طاعته، فمن الله تعالى الثواب، ومن العبد الطاعة. وذلك ضربان: ضرب في الاعتقاد، وضرب في الأعمال[3]، وتحتمل اللفظة المعنيين.

5) ﴿سَمِيعٌ﴾: السِّينُ وَالمِيمُ وَالعَيْنُ أَصْلٌ وَاحِدٌ، وَهُوَ إِينَاسُ الشَّيءِ بِالأُذُنِ مِنَ النَّاس[4]، فالسَّمْعُ: الأُذُن، وما وقر فيها من شيء يسمعه[5]. وهو: قوة في الأذن به يدرك الأصوات، وفعله يقال له السمع. ويعبر تارة بالسمع عن الأذن، وتارة عن فعله كالسماع، وتارة عن الفهم، وتارة عن الطاعة[6]. واسْتَمَع إِلَيْهِ وتَسَمَّعَ: أصغى، والسَّميع: من صِفَاته جلّ وَعز[7]، وهو فعيل من أبنية المبالغة، وهو: الذي لا يعزُبُ عن إدراكه مسموعٌ وإنْ خفِيَ، فهو يسْمَعُ جميع الأصوات الظاهرة والباطنة، الخفية والجلية، ويحيط بها إحاطته التامة. ومعنى السَّميع أيضًا المجيب: أي سمع الإجابة منه للسائلين والداعين والعابدين فيصيبهم من كرمه ويثيبهم[8]. وكلُّ ما في القرآن من وصفِ المولى ﷻ فهو عِلمُ ما يقال بكيفيّةٍ يعلمُها تعالى في ملكوته[9].

المَعْنى الإجْماليُّ:

ولا تُكْثِروا من الأَيْمان، وتعرِّضُوا اسمَ الله تعالى للقسَم به، وتحلفوا به في الامتناع من البِرِّ، والتَّقوى، والإصْلاح بين النَّاس، بحيث يكون حَلْفكم بالله مانعًا لكم من البرِّ وصلة الرحم والتقوى والإصلاح بين الناس؛ فإذا حلف أحدكم فرأى الذي هو خيرٌ ممَّا حلف عليه من تركِ البرِّ والإصْلاح بين النَّاس، فليَحْنَثْ في يمينه، وليَبرَّ، وليتقِ الله، وليُصْلِح

(1) ابن الأثير، النهاية: (بَرَرَ).
(2) الجوهري، الصحاح: (برر)، ابن الأثير، النهاية: (بَرَرَ).
(3) الراغب، المفردات: (بر)
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سَمِعَ).
(5) الخليل، العين: (سَمِعَ).
(6) الراغب، المفردات: (سَمِعَ).
(7) ابن سيده، المحكم: (سَمِعَ).
(8) ابن الأثير، النهاية: (سَمِعَ)، والسعدي، تفسير أسماء الله الحسنى، ص: 35.
(9) جبل، المعجم الاشتقاقي: (سَمِعَ).

تكريمُ اسم الله تعالى عن مواضع ابتذال الحَلِف به

بين النَّاس، وليكفِّر عن يمينه. فإنَّ الحنث حاصل مع الإكثار من الأَيْمان، وفيه قلة رعي لحق الله تعالى، والله سميع لأقوالكم، عليم بجميع أحوالكم[1].

وترشدُ الآية الكريمة إلى أنّ في صيغة اليمين تأدُّبًا مع اسم الله تعالى، وأنَّ تعظيمَ الله لا ينبغي أن يجعل وسيلة لتعطيل ما يحبه الله من الخير، فإن المحافظة على البر في اليمين ترجع إلى تعظيم اسم الله تعالى، وتصديق الشهادة به على الفعل المحلوف عليه، وهذا وإن كان مقصدًا جليلًا يشكر عليه الحالف الطالب للبرِّ لكن التَّوسل به لقطع الخيرات مما لا يرضى به الله تعالى[2].

❁ الإيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

بَلَاغَةُ الْوَصْلِ وَالِاعْتِرَاضِ فِي مَطْلَعِ الآيَةِ:

لتعالقِ مضموني جملتي العَطْف بوصفهما تشريعًا

قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلُواْ ٱللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَٰنِكُمْ﴾ معطوف على قوله قبلُ: ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ﴾ عطفَ تشريع على تشريع، فالمناسبة بين الجُمْلتين تعلُّق مضمونَيْهما بأحكام معاشرة الأزواج، مع كونِ مضمون الجُمْلة الأولى منعًا من قِربان الأزواج في حالة الحَيْض[3].

ووجه الاعتراض في كون مضمونها تمهيدًا لما بعده

ومع كونِهِ كذلك؛ فإنَّ قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلُواْ ٱللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَٰنِكُمْ﴾ تمهيدٌ لقوله بعدُ: ﴿لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ﴾ [البقرة: 226]، فوقعَ هذا التَّمهيد موقِعَ الاعتراض بين جملة ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ﴾، وجملة ﴿لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ﴾، فبيْنَ الآيات وما قبلَها وما بعدَها تناسبٌ بهذا الاعتبار[4].

(1) ابن جرير، جامع البيان: 4/425، وابن عطية، المحرر الوجيز: 1/300، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/379.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/379.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/375-376.
(4) محمد رشيد رضا، تفسير المنار: 2/289، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/375.

من أوْجهِ وصلِ الجملةِ بما قبلَهَا بالواوِ:

تَعْظِيمُ اسمِ اللهِ تعالى والتَّحذيرُ مِن تَعْرِيضِه لِلِاسْتِخْفَافِ بكثْرَةِ الحَلِفِ

يحتمِلُ أن يكونَ العَطْف على الأوامر السَّابقة، وهي: ﴿وَقَدِّمُواْ﴾، و﴿وَٱتَّقُواْ﴾، و﴿وَٱعْلَمُوٓاْ﴾، ووجه التَّناسب: أنَّه لمّا أمرهم باستحضار يوم لقائِه بيَّن لهم شيئًا من التَّقوى دقيق المسْلَك، شديدَ الخفاء، وهو التَّقوى باحترام الاسم المعظَّم، وبيان ما يترتَّبُ على تعظيم اسمِ اللّه واتِّقائه في حُرْمةِ أسمائِه عند الحنث، مع بيانِ ما رُخِّصَ فيه من الحنث، أو لبيان التَّحذير من تعريض اسمه تعالى للاستخفاف بكثرة الحلف[1].

قصديّة التَّعْبير بلفظ الجَعْل:

التَّحْذِيرُ مِن تَحْوِيلِ الحَلِفِ باللهِ تعالَى عَن مَوَارِدِه التي شَرَعَها

الجَعْل في اللّغة: تَغْيِيرٌ بإيجادِ الأَثر في الشَّيء، وبِغَيْر ذَلِك، ويكون بِمَعْنى الإحداث[2]، وقد ورد في القرآنِ لمعانٍ، منها: التَّحويل للهيئة بإنشاء هَيْئَةٍ جَديدة[3]، وقُصِدَ إلى اختياره لمناسبته سياقَ هذه الآية الكريمة؛ من حيث استعمَالُهُم اسمَه تعالى بالحلف بهِ في غير مورده الذي شرَعَه، فيكون تحويلًا عَن مبتغاه تعالى في إيجاد مسمَّياتٍ له، وحكمتِه في توظيف مقاصِدِها في محلِّها.

سَبَبُ تَعْلِيقِ فِعْلِ الْجَعْلِ بِالذَّاتِ:

التَّحْذِيرُ مِن امْتِهَانِ اسْمِ اللهِ بِجَعْلِهِ مانِعًا مِنَ الخَيْرِ

تعليقُ فعل الجعلِ بالذَّاتِ قول اللّه تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلُواْ ٱللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَٰنِكُمْ﴾ هو على معنى التَّعليق بالاسم، فالتقدير: ولا تجعلوا اسمَ اللّه، وحُذِفَ لكثرة الاستعمالِ في مثله عند قيام القرينة؛ لظهور عدم صحَّة تعلُّق الفعل بالمسمَّى[4]، والنُّكْتَةُ في ذلك تعظيمُ الحَلِفِ باللّه تعالى عن أن يُمْتَهَنَ فيُجعلَ مانعًا من الخيرِ.

(1) ابن عاشور، المصدر نفسه: 2/376، وفي هذا العطف مانعٌ؛ لأنه يطول به التَّذييل، وشأن التَّذييل: الإيجاز، وفي العطف توجيهات أخرى عدلنا عن ذكرها إيجازًا، ولِبُعْدِها عن السّياق.

(2) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 136.

(3) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (جعل).

(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/376.

بلاغةُ الاستعارةِ في التَّعْبير بلفظ ﴿عُرْضَةً﴾:

وُجُوبُ تَعْظِيمِ اسْمِ اللهِ تَعَالَى والنَّهْيِ عَنِ ابْتِذَالِهِ

قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلُواْ ٱللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَٰنِكُمْ﴾ استعارة لِمَا يكْثُرُ الحُلُولُ حَوْلَهُ؛ أي: لا تجْعلُوا اسمَ الله كالشَّيء المُعَرَّضِ للقَاصِدِينَ[1]، فتبتذلوه بكثرة الحلف به؛ ويَؤُولَ إلى التَّهاونِ فيه، واستدعائِه متى ما رُغِبَ في ذلك مِنْ غير داعٍ؛ فإنَّ ذلك منافٍ لتعظيمِ اسمه سبحانه.

وعُرْضَةُ على وزنِ فُعْلَةٍ، بمعنى: مفعول، كالقبضة، والغرفة، وقُصد إلى التَّعْبير بهذه الصِّيغة لما تحتمله من تعدّدٍ في الدِّلالات، وسعة في المعاني بحَسْبِ مُحتَمَلاتِ السِّياق، وفيها هاهنا تأويلان:

أحدهما: أنْ تحلِفَ بالله تعالى في كلِّ حقٍّ وباطلٍ، فتتبذَّلَ اسمَه، وتجعله عُرضة.

والآخرُ: أنَّ معنى عُرضَة، أي: عِلَّة يتعلَّلُ بها في بِرّه، وفيها وجهان الأوَّلُ: أنْ يمتنع من فعل الخير والإصْلاح بين النَّاس إذا سُئِل، فيقولَ عليَّ يمين أنْ لا أفعل ذلك، أو يحلف بالله في الحال فيعتلّ في ترك الخير باليمين. والآخر: أنْ يحلِفَ بالله ليفعلنَّ الخيرَ والبرَّ، فيقصِدَ في فعله البِرَّ في يمينه لا الرَّغبة في فعله[2]، فإذا حلفتم ألَّا تفعلوا، فكفِّروا عن أَيْمانِكُم وأْتُوا الخيرَ، فتحقيق البِرِّ والتَّقوى والإصْلاح أولى مِنَ المحافظة على اليمين.

دِلَالَةُ حَرْفِ الجرِّ (اللّام):

النَّهْيُ عَنِ الحَلِفِ لِأَجْلِ الِامْتِنَاعِ مِنَ البِرِّ

اللَّام في قوله: ﴿لِّأَيْمَٰنِكُمْ﴾ لام التَّعدية، تتعلَّقُ بعُرضَة لِما فيها من معنى الفعل، أي: لا تَجْعَلُوا اسمَ الله مُرْصَدًا ومُعَرَّضًا لأيمانكم فتحلفوا به على الامتناع من البِرِّ والتَّقوى والإصْلاح، ثُم تقولوا:

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/379.

(2) الماوردي، النكت والعيون: 1/285، والرازي، مفاتيح الغيب: 6/425، وأبو حيّان، البحر المحيط: 2/187.

سبقت منَّا يمين. ويجوز أن تكون اللَّام للتَّعليل، أي: لا تجعلوا اللّه عُرْضَةً لأجل أيمانكم الصَّادرة على ألَّا تَبَرُّوا[1].

نُكْتَة التَّعْبير بالأيْمَان:

لَا يَنْبَغِي أَنْ يَحُولَ شَيْءٌ بَيْنَ الْعَبْدِ وَبَيْنَ أَفْعَالِ الْيُمْنِ وَالْبَرَكَةِ

أصلُ اليمينِ: العُضْوُ، واستُعيرَ للحلف؛ لما جرَتْ به العادة في تصافُحِ المتعاقدين[2].

والأيمان: جمع يمين، والمرادُ به الحَلِفُ، سُمِّيَ الحلف يمينًا أخذًا من اليمين التي هي إحدى اليدين وهي اليدُ التي يتيسَّر للإنسان بها فعل معظم أفعاله، وهي اشْتُقَّتْ مِنَ اليُمن وهو البركة، فتسميةُ الحلف يمينًا من تسمية الشَّيء باسم مقارنهِ المُلَازم له، وإطلاقُ اسم اليمين على الخيرات المحلوفِ عليها من المجاز المرسلِ لتلبُّسِه باليمينِ، أي: لا تجعلوا يمينَ اللّهِ أو قَسَمَ اللّهِ مانعًا لما تحلفونَ عليه من أنواع الخير كالبرِّ، والتَّقوى، والإصْلاح بين النَّاس، فإنَّ الحلف باللّه لا يمنعُ ذلك[3]، وفيه إيماءٌ إلى أنَّه لا ينبغي أن يحول شيءٌ دون أفعال الخير هذه؛ لأنَّها خيرٌ ويُمْنٌ وبركَةٌ، أو هو مِن تسمية الشَّيء باسم مكانه كما سمَّوا الماءَ واديًا، وإنما المحلُّ في هذه التَّسمية على هذا الوجه محلٌّ تخييليّ[4].

ولَمَّا كان غالبُ أيمانهم إنَّما هو في العهود والحلف؛ وهو الذي يضع فيه المتعاهدون أيديَهم بعضها في بعض، شاعَ إطلاقُ اليمين على كلِّ حَلِفٍ، جريًا على غالبِ الأحوال، فأُطلقَتِ اليمينُ على قَسَمِ المرْءِ في خاصَّة نفسه دون عهْد ولا حلف[5].

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/188، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/377.
(2) الراغب، تفسير الراغب: 1/460.
(3) الزركشي، البرهان: 2/298، والبروسوي، روح البيان: 1/349، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/377.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/377.
(5) ابن عاشور، المصدر نفسه: 2/377.

سَبَبُ حَذْفِ (لا):

جَوَازُ الحَذْفِ إِذَا دَلَّتِ الْقَرِينَةُ عَلَى الْمَحْذُوفِ وَأُمِنَ اللَّبْسُ

استُغْنِيَ بالمذكور وتُرِكَ ذِكْر (لا) في قوله: ﴿وَلَا تَجۡعَلُواْ ٱللَّهَ عُرۡضَةٗ لِّأَيۡمَٰنِكُمۡ﴾؛ لدلالة الكلام عليها، واكتفاءً بما ذُكر عَمَّا تُرِك[1]؛ إذ يجوز أن يكون ﴿أَن تَبَرُّواْ﴾ متعلقًا باليمين، وتقديره: أن لا تَبَرُّوا، فحذفَ (لا) أمنًا من الاشتباه في الإثبات[2].

وجوه تعدُّد إعرابِ المصدر:

تَعْظِيمُ اللهِ تعالَى لَا يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ سَبَبًا فِي قَطْعِ مَا أَمَرَ اللهُ بِفِعْلِهِ

اللَّام متعلِّقة بعُرضَة، و﴿أَن تَبَرُّواْ﴾ مفعول الأيمانِ، بتقدير (لا) محذوفةً بعد (أنْ)، والتَّقدير ألَّا تبَرُّوا، نظير قوله تعالى: ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ أَن تَضِلُّواْۗ﴾ [النِّساء: 176]، فتكون الآية نهيًا عن الحلف باللّه على ترك الطَّاعات، أي: لا تجعلوا الحلف باللّه حجَّةً لكم في ترك فعل الخير فيما بينكم وبينَ اللّه وبين النَّاس؛ لأن تعظيمَ اللّه لا ينبغي أنْ يكون سببًا في قطع ما أمر اللّه بفعله، وهذا النَّهي يستَلْزِم: أنَّه إنْ وقعَ الحلف على ترك البِرِّ والتَّقوى والإصْلاح، أنَّه لا حرجَ في ذلك، وأنّه يكفِّر عن يمينه ويفعل الخير[3].

النَّهْيُ عَنْ جَعْلِ اسْمِ اللهِ مُعرَّضًا لِلْحَلِفِ

أو معناه: لا تجعلوا اسمَ اللّه مُعرَّضًا للحلف، ويكون قوله: ﴿أَن تَبَرُّواْ﴾ مفعولا لأجله؛ ليكونَ عِلَّة لهذا النَّهْي. واختلفوا في التَّقدير، فقيل: كراهة أن تبَرُّوا، أو لترك أن تَبَرُّوا، أو: لأنْ لا تبرُّوا ولا تتَّقوا ولا تصلحوا، أو إرادة أنْ تبرُّوا وهو الأظهرُ، والمعنى: إنّما نهْيُكُم عن هذا لِما في توقِّي ذلك مِن البِرِّ والتَّقوى والإصْلاح، فتكونون معاشرَ المؤمنين بررة أتقياء مُصلحين في الأرض غير مفسدين[4].

فقول اللّه تعالى: ﴿وَلَا تَجۡعَلُواْ ٱللَّهَ عُرۡضَةٗ لِّأَيۡمَٰنِكُمۡ﴾ أي: لا تكثروا الحلف به وإن كان ذلك تعظيمًا له خشية أنْ يُفضي بكم

(1) ابن جرير، جامع البيان: 4/425.
(2) الراغب، تفسير الراغب: 1/461.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 4/424، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/379.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/188.

ذلك إلى التهاون وعدم التعظيم[1]؛ لأنَّ كثرة الحلف تعرِّضُ الحالف للحنث، وكانت كثرة الأيمان من عادات الجاهلية، في جملة العوائد النَّاشئة عن الغضب واضطراب الحُمْقِ، فنهى الإسلام عن ذلك، ولذلك تَمَدَّحُوا بقلَّةِ الأَيْمَانِ[2].

التَّحْذِيرُ مِنْ كَثْرَةِ الْحَلِفِ وَالْإِسْرَاعِ إِلَيْهِ

دِلَالَةُ حَذْفِ مَفْعُولَيْ ﴿تَبَرُّواْ وَتَتَّقُواْ﴾:

عُنِيَ بـ﴿تَبَرُّواْ﴾ فعل الخير كلّه؛ وذلك أنَّ أفعال الخير كلّها من البِرِّ، ولم يخصِّصِ اللّه في قولِه: ﴿أَن تَبَرُّواْ﴾ معنى دون معنى من معاني البِرِّ، فهو على عمومه[3]، وكذا الأمر في فعل التَّقوى لعديد متعلقاته، وكثرةِ صُوَرِهَا وأفرادِهَا، ووجه ذلك: أنَّ حذف المتعلَّق مُشْعِرٌ بالعموم ومُؤذِنٌ بهِ.

عُمُومُ أَفْعَالِ الْخَيْرِ، وَاسْتِغْرَاقُ صُوَرِ التَّقْوَى

سِرُّ إِظْهَارِ مُتَعَلَّقِ الإِصْلاحِ:

لَمَّا كانت هذه الآيةُ نازلةً في مسألة اليمين في حالٍ من حالات إصْلاح ذاتِ البين؛ إذ نزلتْ في عبد اللّه بن رواحة، وكان بينَه وبين خَتَنِهِ على أختِه بشيرِ بن النّعمان الأنصاريّ شيءٌ، فحلَفَ عبد اللّه أن لا يدخل عليه ولا يكلِّمَه ولا يُصلِحَ بينه وبين خصْمِه، وإذا قيل له فيه، قال: قد حلفتُ باللّه أن لا أفعل، فلا يحلُّ لي إلّا أن تبرَّ بيميني، فأنزل اللّه هذه الآية[4]، ولذلك حدَّد متعلّق الإصْلاح في قوله: ﴿وَتُصْلِحُواْ بَيْنَ ٱلنَّاسِۚ﴾؛ ليُطابقَ علَّة نزول الآي، مع أنّ في الآية إلماحًا إلى العموم، مصداقُه: لفظ ﴿ٱلنَّاسِۚ﴾ بدلالة اللّام المُعرِّفة لاستغراق الجنس التي وسّعت حدود انطباق حكم الآية الكريمة من خصوصية سبب النّزول إلى عموم الإصْلاح بين النَّاس؛ إذ من قواعد أهل العلم: أنَّ العبرةَ بعموم اللَّفظِ لا بخصوصِ السَّبَبِ، وفي التَّصريحِ بالمتعلَّقِ إيماءٌ إلى شرَفِ الإصلاحِ بين النَّاسِ.

سُمُوُّ مَنْزِلَةِ الْإِصْلَاحِ بَيْنَ النَّاسِ

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/271.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/379.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 4/425.
(4) الواحدي، الوسيط: 1/330 والبغوي، معالم التنزيل: 1/262.

نُكْتَةُ التَّعْبير بِالْأَفْعَالِ الْمُضَارِعَةِ:

المُدَاوَمَةُ عَلَى أَفْعَالِ الْخَيْرِ وَعَدَمُ قَطْعِهَا

جاءت صيغة الأفعال الثلاثة: ﴿تَبَرُّواْ﴾، و﴿وَتَتَّقُواْ﴾، و﴿وَتُصْلِحُواْ﴾، وقبلها: الفعل ﴿تَجْعَلُواْ﴾ بصيغةِ المضارعِ؛ للدَّلالة على التَّجدُّدِ الاستمراريِّ وجريانه في كلِّ زمان، بقرينَةِ مدحِ الأفعالِ والنَّهي عن جعل اليمين حاجزًا دونَهَا، وفيه إيماءٌ إلى أنَّ أفعالَ الخيرِ المذكورةَ مطلوبٌ إتيانُهَا على وجهِ الاستدامَةِ وعدمُ قطعَها.

عِلَّة ترتيب الأفعال:

التَّدَرُّجُ مِنَ الأَعَمِّ إلى الأخصِّ، وشرَفُ الإصلاحِ بينَ النَّاس

في قول الله تعالى: ﴿تَبَرُّواْ وَتَتَّقُواْ وَتُصْلِحُواْ بَيْنَ ٱلنَّاسِۚ﴾ انتظم تسلسل ورود الأفعال المضارعة ترقِّيًا مِن العامّ إلى الخاصّ، لأنّ التَّقوى أخصُّ من البرِّ، والإصْلاح بين النَّاس أخصُّ[1].

وفي عطف التَّقوى على البر، والإصلاح على التَّقوى: إطنابٌ بذكر الخاصِّ بعد العامِّ؛ تنبيهًا على شرفِ الفَرْدِ الخاصِّ، إذ قد كُرِّر ذكرُهُ، مرَّةً مندرجًا تحتَ اللَّفْظِ العامِّ، وأخرَى على سبيل الانفرادِ، وزاد الإصلاح بين النَّاسِ فذُكِرَ ثلاثَ مرَّاتٍ؛ مرَّتين مندرجًا في اللفظ العامِّ - البرِّ، التَّقوى -، وثالثةً على جهة الاستقلالِ، فيكون في هذا تنويهٌ بشأنِ الإصلاح بين النَّاسِ؛ لنفعِهِ المتعدِّي.

سرّ التَّذْييل فِي قَولِهِ: ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾:

عُمُومِ عِلْمِ اللهِ تعالى بالظَّاهر والباطن ومجازاةُ العبادِ عليهَا

قول الله سبحانه: ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ تذييلٌ، وهو تذييلٌ جارٍ مجرى المثَلِ؛ لاستقلالِهِ بالإفادةِ، وعدم افتقارِهِ إلى ما قبلَهُ في الكشفِ عن حقيقةِ معناه، والمرادُ منه: العلم بالأقوال والنّيّات، فسَمِيعٌ، أي: لأقوال العباد، وعَلِيمٌ، أي: بنيَّاتهم، والمقصود مع معناهُ الأصليّ الإشارةُ إلى لازِمِه؛ وهو الوعْد على الامتثال، أو العُذْر في الحِنث، أو التَّحذير مِن الحلِف[2]، والجميعُ حقٌّ؛ إذ لا تعارُضَ بينها،

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/272.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/379.

وقد أطلقَ اللّه تعالى الوصفين ولم يُقيِّدهما بقيدٍ، وحَذْفُ المُتَعَلَّقِ مُشْعِرٌ بالعموم، فهو سميع بكل مسموع، عليم بكل معلوم، يجازِي بالثَّواب عليهِ إن كان خيرًا، ويعاقبُ عليه إن كان شرًّا.

عِلْمُ العبدِ بأنَّ اللهَ عَلِيمٌ يُوجِبُ عَلَيْهِ الْخَوْفَ مِنْهُ

فالتهديدُ والوعيدُ من اللّه تعالى بأنّه مُطَّلع على جميع ما تُعلنونه أو تُسرُّونه[1]، وذلك يوجِبُ على العبدِ الخوفَ مِنْهُ، وفيهِ التَّنبيهُ بأنّ اللّه تعالى عالمٌ بالمقاصد[2]، فإن حلفتم يسمع، وإن تركتم الحلفَ تعظيمًا للّه وإجلالًا من أنْ يُسْتَشْهَدَ باسمه الكريم في الأعراض العاجلة، فهو عليم عالم بما في قلوبكم وَنِيّتكم[3].

تنَاسُبُ فاصِلَةِ الآيـــةِ مـعَ مَضْمُونِهَا

خُتِمَتِ الآيةُ بهاتين الصّفتين ﴿سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ لتقدُّم مناسبتهما؛ وهو من تشابُهِ الأطراف[4]؛ فإنَّ الحَلفَ متعلِّقٌ بالسّمع؛ لأنّه من المسموعات، وإرادةَ البرِّ والتّقوى والإصْلاح متعلّقةٌ بالعِلم؛ لأنّها من أفعال القلبِ، وكذا فعلُ البرِّ وما بعده متعلِّقَةٌ بالعلْم؛ لأنَّها من أفعال الجوارِحِ، فجاءت هاتان الصّفتان منتظمتين للعِلَّة والمعلول[5].

عِلَّة تقديم السَّمع على العِلْمِ:

انْتِظَامُ كلِّ اسمٍ للهِ تعالَى معَ مُتَعَلَّقِهِ

قُدِّم اسم اللّه (السّميع)؛ لتقدُّم متعلَّقِه وهو الحَلفُ، فجاءتا على ترتيب ما سبق مِن تقديم السَّمع على العِلْم، كما قُدِّمَ الحلف على الإرادة[6]، ففيه ضربٌ من اللَّفِّ والنَّشْرِ المُرتَّب.

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(جَعَلَ)، و(خَلَقَ)، و(صَنَعَ)، و(عَمِلَ)، و(فَعَلَ)، و(أَنْشَأَ):

الـجَـعْـل: لفظ عامٌّ في الأفعال كـلّـهـا، وهـو إيـجـادٌ، أو تغييرٌ، مصحوبٌ بأثَرٍ أو بغيرِهِ

الجَعْل: تَغْيِيرٌ بإيجادِ الأَثر فِي الشَّيء، وبِغَيْر ذَلِك؛ أَلا ترى

(1) ابن جرير، جامع البيان: 4/427.
(2) الراغب، تفسير الراغب: 1/461.
(3) الرازي، مفاتيح الغيب: 6/425.
(4) تشابه الأطراف: أن يُخْتَمَ الكلامُ بما يُناسبُ أوَّله في المعنى. يُنظر: عبد المتعال الصَّعيديّ، بغية الإيضاح: 4/584.
(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/189-190.
(6) أبو حيّان، المصدر نفسه: 2/189-190، والسمين، الدُّرُّ المصون: 2/430.

أَنَّك تَقول: جعل الطين خزفًا، وجَعَلَ السَّاكِن متحرِّكًا، وَتقول: عمل الطين خزفًا، وَلَا تَقول عمل السَّاكِن متحركا؛لِأَن الحَرَكَة لَيست بأثر يُؤثر بِهِ فِي الشَّيء. والجَعْلُ أَيْضًا يكون بِمَعْنى الإحداث[1]، والتَّوجُّهِ والشّرُوع فِي الشَّيء والاشتغالِ بِهِ. وتبيّن في شرح المعنى اللغوي للفظة أَنَّ تَصَرُّفَها في القرآن ورد بمعنى: التَّحويل والتَّهْيئة على وَضْعٍ، أو التَّحويلُ للهيئة بإنشاء هَيْئَةٍ جَديدة[2]. فلفظ الجَعْل: لفظ عامٌّ في الأفعال كلها، وهو أعمُّ من فَعَلَ، وصَنَعَ وسائر أخواتها[3].

الجَعْل: فيه معنى التَّضمين، والتَّحصيل من آخر، والخَلْقُ: فيه معنى التَّقدير، والأوَّليّة

يُستعمل الخَلق في إبداع الشَّيء من غير أصل ولا احتذاء، أي: من غير مثال سابق. ولا يكون إلا للّه تعالى، وأمّا الذي يكون بالاستحالة، فقد جعله اللّه تعالى لغيره في بعض الأحوال كعيسى[4] عليه السلام. وفرّق الزمخشريُّ بين الجَعْل، والخَلق بالقول: "إنَّ الخَلق فيه معنى التقدير، وفي الجَعْل معنى التَّضمين، كإنشاء شيء من شيء، أو تصيير شيء شيئًا، أو نقله من مكان إلى مكان"[5]. فالخَلق معناه الإنْشاءُ والإيجادُ الابتدائيُّ من العدم من غير مثالٍ سابقٍ، أما الجَعْل فيتضمَّنُ معنى تكوين شيءٍ من شيءٍ، أو من أشياء، أي: كونه محصَّلًا من آخر كأنَّه في ضمنه[6].

العَمَلُ إيجاد الأثر في الشَّيء من غير اقتضاء العلم به، والجَعْل تغيير بأثر أو بغيره

فرّق أبو هلال العسكريّ بين العَمَلِ، والجَعْل فذهب إلى أنَّ العَمَل هُوَ إيجاد الأثر فِي الشَّيء من غير علم، والجَعْل تَغْيِير بإيجاد الأَثر فِيهِ وبِغَيْر ذَلِك. فالعَمَل لَا يَقْتَضِي العلم بِما يعلم لَهُ، والعَمَل يكون بمعنى الإحداث[7]؛ لأنّه: إيجاد الأثر في الشَّيء من غير إحاطةٍ شاملة، أو عِلمٍ وافٍ بما سيؤول إليه حالُه مِنْ بَعْدُ. فهو: كل فعل يكون

(1) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 136.
(2) جبل، المعجم الاشتقاقي: (جعل).
(3) الخليل، العين، الراغب، المفردات، ابن منظور، اللسان: (جعل).
(4) الراغب، المفردات: (خلق).
(5) الزمخشري، الكشاف: 2/3.
(6) الآلوسي، روح المعاني: 7/82، وطنطاوي، التفسير الوسيط: 5/29.
(7) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 135.

من الحيوان بقصد، دون ما كان من الجماد. فهو أخصُّ من الفعل لأن الفعل قد ينسب إلى الحيوانات التي يقع منها فعل بغير قصد، وقد ينسب إلى الجمادات، والعَمَل قلما ينسب إلى ذلك[1].

شرط الصنع الإجادةُ، وليس في الجَعْل ذلك

الصنع: إجادة الفعل، ولا ينسب إلى الحيوانات والجمادات كما ينسب إليها الفعل. ولذلك يقال للحاذق المجيد: صَنَعٌ؛ لإجادته[2]. فهو مضمَّن بالجَودة، وهو: تَرْتِيب العَمَل وإحكامه على مَا تقدَّم من علم بِهِ[3].

الفعل عامٌّ، وفي طلبهم قَصْدٌ، وخصوصيّة

الفعل: هو التأثير من جهة مؤثّر، وهو عام لما كان بإجادة أو غير إجادة، ولما كان بعلم أو غير علم، وقَصْدٍ أو غير قَصْدٍ، ولما كان من الإنسان، والحيوان، والجَمادات[4]. وعُمُومُهُ يُخْرجه من قَصْديّة التَّعْبير به في هذا الموضع، فضلًا عن عدم تضمّنه معنى الإيجاد المصحوب بأثر التي يتضمّنهما لفظ الجعْل.

ملاك أمر الإنشاء التّدرّج، وليس ذلك في الجَعْل

الإنشاءُ: إحداث الشَّيء، وإيجاده، وتربيته[5]. شيئًا فشيئًا حتى يستوي على سوقه، فملاك معناه التَّدرّج بدءًا، وانتهاءً.

نخلص إذن ممَّا تقدَّم عرضُه من معانٍ للألفاظ المشابهة للفظة الجَعْل: قصديّة اختيارها في الآية الكريمة والعدول عن مُشابهاتها بوصف الجعْل إحداثًا، أو تَغْيِيرًا بإيجادِ الأَثر في الشَّيء، وبِغَيْر ذَلِك، وإنشاءَ هَيْئَةٍ جَديدة، وهو الحاصل عند الحالف الجاعل اسم الله تعالى معرَّضًا للقَسَم، ومحطًّا للتهاون، ومنعًا للبرِّ واسمه تعالى أقدس من أن يُتَنَزَّلَ به إلى هذه المآلات، والله أعلم.

(1) الراغب، المفردات: (عمل).
(2) الراغب، المفردات: (صنع).
(3) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 135.
(4) الراغب، المفردات: (عمل).
(5) الراغب، نفسه: (عمل).

﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِيٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ٢٢٥﴾ [البقرة: 225]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

مناسبة قوله تعالى: ﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِيٓ أَيْمَٰنِكُمْ﴾ لمَا قبلها ظاهرةٌ؛ لأنّه سبحانه لمّا نهى عن جعل اسم (الله) مَعرَّضًا للأيمان، كان ذلك حتمًا لترك الأيمَانِ، وهم يشقُّ عليهم ذلك، لأنّ العادَةَ جرت لهم بالأيمان، فذكر أنّ ما كان منها لغوًا فهو لا يؤاخَذُ به؛ لأنّه مِمّا لا يقصد به حقيقة اليمين، وإنّما هو شيءٌ يجري على اللّسانِ عند المحاورة من غير قصد، وهذا أحسن ما يفسَّر به اللّغو؛ لأنّه تعالى جعل مقابَلَة ما كسبه القَلبُ وهو ماله فيه اعتمادٌ وقصدٌ[1]. فجعل الآية كجواب سؤالِ من يسأل بعد سماع قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلُواْ ٱللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَٰنِكُمْ﴾ فيقول: وكيف نفعل والأيمان جارية على ألسنتنا؟؛ فيأتي الجواب: ﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِيٓ أَيْمَٰنِكُمْ﴾.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿بِٱللَّغْوِ﴾: جذرُ الكلمةِ هو (لغو)، اللُّغة واللُّغاتُ: اختلافُ الكلام في معنى واحدٍ. ولغا يلغُو لَغوًا، يعني اختلاط الكلام في الباطل، وقول الله ﷻ: ﴿وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغْوِ مَرُّواْ كِرَامًا ٧٢﴾ [الفرقان: 72]؛ أي: بالباطل. وقوله تعالى: ﴿وَٱلْغَوْاْ فِيهِ﴾ [فصّلت: 26]، يعني: رفع الصّوت بالكلام ليغلّطوا المسلمين.

ولاغية في قوله تعالى: ﴿لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَٰغِيَةً ١١﴾ [الغاشية: 11]: كلمة قبيحة أو فاحشة[2]. واللّغا: السّقط، وما لا يُعتدّ به من كلام وغيره، ولا يحصل منه على فائدة ولا نفع[3]. وقال ابن الأنباري: اللّغو عند العرب ما يُطرح من الكلام استغناء عنه، ويُقال: هو ما لا يُفهم لفظُه. ويُقال: لغا بالأمر، لَهِجَ به، يلغا، ويُقال: اشتُقّ من هذا اللّغة، وقال ابن عيسى، وقد ذكر أنّ اللّغو: ما لا يفيد، وأنّ اللّغة إنّما اشتُقّت من قولهم: لغى بكذا إذا أولع به[4].

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/443.
(2) الخليل، العَين: (لغو).
(3) ابن سيده، المُحكم: (لغو).
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/436.

ومعنى ﴿بِٱللَّغۡوِ﴾: هو اليمينُ بغير إرادةٍ لها وقَصْدٍ.

2) ﴿كَسَبَتۡ﴾: جذر الكلمة هو (كَسَبَ)، والكَسْبُ: طلب الرّزق[1]. ورجل كسوب يَكسِبُ: يطلب الرّزق. وكَساب: اسم للذّئب، وكَسّاب، فعّال، من كَسب المال[2]. ورجل كسوب للمال وكسّاب، وله مَكاسبُ، وهو طيّب المَكْسَبة أي: طيّب الكَسْب، وكسبتُ. وهو يتكسّب بالشِّعر، وكسَبْتُه مالًا فكسَبَه، ولا يُقال: أكسبتُه. ومن المجاز: كسَبتُ خيرًا واكتسبتُ شرًّا، قال تعالى: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَعَلَيۡهَا مَا ٱكۡتَسَبَتۡۗ﴾ [البقرة: 286]، وكَسَب أهلَه خيرًا[3].

ومعنى ﴿كَسَبَتۡ قُلُوبُكُمۡۗ﴾: قَصَدَتْه قُلوبُكم.

المَعْنى الإجْماليُّ:

يخبر اللّه تعالى بأنه لا يحاسبكم بسبب الأَيْمان التي تجري على ألسنتكم من غير قصد لها، كقول أحدكم: لا واللّه، وبلى واللّه، فلا كفارةَ عليكم فيها ولا عقوبة في ذلك، ولكن يحاسبكم بما قصدَتْه قلوبُكم من تلك الأَيْمان، واللّه غفور لذنوب عباده، حليم لا يعاجلهم بالعقوبة. واختار اسمَي الغفور الحليم لبيان سعة مغفرته سبحانه، وحلمه على بني آدم، إذ هم يعقِدونَ الأيمانَ ويذكرون اسمه في جميع أحوالهم؛ صدقهم وكذبهم.

وترشد الآية إلى أنَّ اللّه تعالى قد عفا عن اليمين اللّغو ممّا هو غير مقصود منه عقد اليمين وتوثيقه، وذلك ما يقع في الكلام حشوًا غير مقصود، مع لزوم الكفّارة بما كسبت قلوبكم، وذلك إذا نويت الحَلِفَ وقصدتَ اليَمين.

وفي الآية دليل على اعتبار المقاصد في الأقوال، كما هي معتبرة في الأفعال[4].

الإيضَاحُ اللُّغَويُّ وَالبَلَاغِيُّ:

سِرُّ فصلِ قوله: ﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغۡوِ فِيٓ أَيۡمَٰنِكُمۡ﴾ عمَّا قبلَه:

قوله تعالى: ﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغۡوِ فِيٓ أَيۡمَٰنِكُمۡ﴾ استئنافٌ بيانيٌّ؛ لأنّ الآية السّابقة

(1) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة: (كسب).
(2) الخليل، العين: (كسب).
(3) الزّمخشريّ، أساس البلاغة: (كسب).
(4) جماعة من العلماء، المختصر في تفسير القرآن الكريم، ص: 36، والموصلّي، أولى ما قِيل: 2/326، والسعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 36.

مِنْ طَرِيقَةِ القُرآن الكريم: تَشْوِيقُ المتلقّي إلى الأَحْكَامِ

لمّا أفادت النّهي عنِ التّسرُّع بالحَلْف لغرض مَمدُوحٍ؛ هو البرُّ والتّقوى والإصلاح قال تعالى: ﴿أَن تَبَرُّواْ وَتَتَّقُواْ وَتُصۡلِحُواْ﴾، استدعى دواخل النّفس إلى الاطِّلاع على أحكام اليمين، وبخاصّة ذلك الّذي يجري على الألسن لما عُلم قبلُ مِن النّهي عن الحَلِف عمومًا في قوله: ﴿وَلَا تَجۡعَلُواْ ٱللَّهَ عُرۡضَةٗ لِّأَيۡمَٰنِكُمۡ﴾، فجاءتِ الجملة كأنّها جوابٌ عن سؤال مُقدَّر في النّفس، مفاده: أنّ كثيرًا من الأيمان تجري على ألسنتنا من قبيل اللّغوِ، فما الحُكم فيها؟.

نُكْتَةُ ذِكْرِ الاسمِ الأحسَنِ ﴿ٱللَّهَ﴾ وتَكرارِه:

مِنْ سَعَةِ رحمةِ اللهِ بالعبادِ: رفعُ المُؤَاخذةِ بلَغْوِ اليَمِين

لمّا تقدّم سبحانه وتعالى إلى المخاطَبين في شأن الحَلِف، وكانت ألسنتهم قد تعوّدت على الأيمان من غير قصد، فصاروا لا يقدرون على ترك ذلك إلّا برياضة، ومُتابعة للنّفس، ومعالجة طويلة للأقوال والأفعال، وكان ممّا رحم الله به هذه الأمّة العفو عمّا أخطأت به ولم تتعمّده؛ قال في جواب مَن كأنّه سُئِل عن ذلك: ﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ﴾؛ أي: لا يعاقبكم، فكرَّرَ في الإطلاق والعفو الاسمَ الأحسن ﴿ٱللَّهُ﴾ الّذي ذكره في التّقييد والمنع؛ إيذانًا بأنّ عظمتَه لا تمنع منَ المغفرة ﴿بِٱللَّغۡوِ﴾[1]، ولكنْ يلزمكم الكفّارة بما كسبت قلوبكم؛ أي: بما نوت قلوبكم، وقصدت من الأيمان، ولم يكن كَسْبَ اللّسان وحده[2].

دِلَالَةُ المُفَاعَلَةِ فِي (يُؤَاخِذُ):

إِرْشَادُ المُؤْمِنِينَ إِلَى تَرْكِ التَّقْصِيرِ فِي حُقُوقِ اللهِ تعالَى

في قوله تعالى: ﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ﴾؛ المؤاخذة مفاعلة من الأَخذ، بمعنى العدِّ والمحاسبة، يُقالُ: أخذه بكذا؛ أي: عدّه عليه ليُعاتبه أو يعاقبه، قال كعب بن زهير:

لَا تَأْخُذَنِّي بِأَقْوَالِ الوُشاةِ وَلَمْ ***أُذنِبْ وإِنْ كَثُرَتْ فيَّ الأَقَاوِيلُ[3].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 1/425.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/267.
(3) القُرشّي، جمهرة أشعار العرب، ص: 638.

فالمُفاعَلة هنا للمُبَالغة في الأخذ؛ إذ ليس فيه حصول الفِعلِ من الجانبين[1]، وفي نفي هذه المؤاخذة إشعارٌ لأهل الإيمان بتركِ التَّقصيرِ في حقوقِ اللّه تعالى؛ إذْ إنَّ نفيَ المؤاخذةِ مؤذِنٌ بضَرْبٍ من التّقصيرِ أو الخطأ.

بَلَاغَةُ التَّرَقِّي فِي ذِكْرِ أَنْوَاعِ الْأَيْمَانِ:

اخْتِلَافُ دَرَجَاتِ الْأَيْمَانِ بِاعْتِبَارِ آثَارِهَا

عند قوله تعالى: ﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِيٓ أَيۡمَٰنِكُمۡ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتۡ قُلُوبُكُمۡۗ﴾ يظهر فنّ التّرقّي في أنواع الأيمان، ويظهر النّص تبعًا لها ولآثارها على الفرد والأسرة، بدءًا بيمين اللّغو الّذي نهى عنه الشّارع، لكنّه أُتبع بعدم المؤاخذة إثمًا وكفّارة، ثم ترقّى بِذِكْر ما كسبت القلوب، وأكّدته، وقصدَتْه، وبيّن أنّ فيه مؤاخذةً إثمًا أو كفّارة، ثمّ يذكر نوعًا آخر من الأَيمَانِ الّتي تكون بين المرء وزوجه، في قوله: ﴿لِّلَّذِينَ يُؤۡلُونَ مِن نِّسَآئِهِمۡ تَرَبُّصُ أَرۡبَعَةِ أَشۡهُرٖ﴾، وما يترتّب على ذلك من أثرٍ مهمّ في الأسرة ومصيرها، وسيأتي بيانه وحكمه.

الْمُؤَاخذة كِنَايَة عَنِ الإلزامِ بالوَفَاءِ باليَمِينِ:

الإرشَادُ إِلَى حِفْظِ اليَمِينِ وعدمِ التَّساهُلِ فيها

المؤاخذة باليمينِ كنايةٌ عنِ الإلزام بالوفاء بهَا وعدم الحِنث، ويترتَّب على ذلك أَنْ يأثم إذا وقع الحنث، إلَّا ما أذِنَ اللّه في كفّارته[2]، وفي التَّعبير بنفي المؤاخذة في قوله: ﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِيٓ أَيۡمَٰنِكُمۡ﴾ على وجه الكنايةِ: إرشادٌ إلى حفظ اليمينِ وعدم التَّساهُلِ فيها اتِّكالًا على نفي المؤاخذةِ على ما وردَ منها لغوًا؛ إذ نفي المؤاخذةِ مشعرٌ بنوعِ تقصيرٍ.

فجعل اللّه تعالى اللّغو قسيمًا لِلّتي كسبها القلب في هذه الآية، والّتي عقد عليها الحالفُ اليَمينَ في قوله: ﴿وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/380.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/381.

﴿ٱلۡأَيۡمَٰنَۖ﴾ [المائدة: 89]، فما عقّدتم الأيمان هو ما كسبته القلوب؛ لأنّ ما كسبت قلوبكم مُبيَّن، فيُحمل عليه مُجمَل ﴿بِمَا عَقَّدتُّمُ﴾، فتعيّن أن تكون أيمان اللّغو هي الّتي لا قصد فيها إلى الحِلف، وتجري على اللّسان دون قصد، وعليه فَنَفْيُ المؤاخذة بمعنى نفي المؤاخذة بالإثم وبالكفّارة؛ لأنّ نفيَ الفعل يعمّ، فاليَمين الّتي لا قصد فيها لا إثم فيها ولا كفّارة عليها، وغيرها تلزم فيه الكفّارة؛ للخروج من الإثم، بدليل آية المائدة؛ إذْ فسّر المؤاخذةَ فيها بقوله: ﴿فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ إِطۡعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ﴾ [المائدة: 89][1].

دِلَالَةُ الْبَاءِ فِي قَوْلِهِ ﴿بِٱللَّغۡوِ﴾:

تقول العربُ: لَغَوتُ في اليمين، فأنا أَلْغُو لَغْوًا، ويُكنَّى باللّغو عن القبيح مِنَ الكلام، وأصله من لغي العصافير[2]، ويقال: لَغِيتُ باسم فلان، فأنا ألغى به لَغًى، أي: أذكُرُهُ[3].

لَغْوُ اليمِينِ: لَا تَلْزَمُهُ كفَّارة في العَاجِلِ ولا إِثْمَ فِي الآجِلِ

وما لم تتعمّد فيه الإثمَ قلوبُهم، فهم لُغاةٌ في أيمانهم، لا تلزمهم كفّارة في العاجل، ولا عقوبة في الآجل[4]. وقوله: ﴿بِٱللَّغۡوِ﴾ من قوله: ﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغۡوِ فِيٓ أَيۡمَٰنِكُمۡ﴾ مُتعلِّق بـ﴿يُؤَاخِذُكُمُ﴾، والباء سببيّة مثلها في قوله: ﴿وَلَوۡ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلۡمِهِم﴾ [النّحل: 61]، وقوله: ﴿فَكُلًّا أَخَذۡنَا بِذَنۢبِهِۦۖ﴾ [العنكبوت: 40].

دِلَالَةُ حَرْفِ الجَرِّ (فِي) مِن قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغۡوِ فِيٓ أَيۡمَٰنِكُمۡ﴾:

قوله: ﴿فِيٓ أَيۡمَٰنِكُمۡ﴾ مُتعلِّق بالفعل، أو بالمصدر، أو بمحذوف؛ أي: كائنًا في أيمانكم، فيكون حالًا، ويقرّبه أنّك لو جعلته في صلة (الّذي)، ووصفتَ به اللّغو؛ لاستقام[5].

كَثْرَةُ الْمَعَانِي بِتَعَدُّدِ دِلَالَاتِ الْحُرُوفِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/382.
(2) الراغب، تفسير الرّاغب: 1/461.
(3) الأخفش، معاني القرآن: 1/187.
(4) ابن جرير، جامع البيان: 4/449.
(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/444.

والأيمانُ: جمعُ يَمِينٍ؛ وهو القَسَم والحِلف، ويكون بذِكْرِ اسم اللّه تعالى أو صفةٍ من صفاته[1].

و﴿فِيٓ﴾ للظّرفيّة المجازيّة المُرادِ بها المُلابَسَة، وهي ظرف مُستقرّ، صفة اللّغو أو حال منه، فيكون المعنى على جعل اللّغو بمعنى المصدر، وهو الأظهر: لا يؤاخذكم اللّه بأنْ تَلغوا لغوًا مُلابسًا للأيمان؛ أي: لا يؤاخذكم بالأيمان الصّادرة صدور اللّغو؛ أي: غير المقصود مِن القول، فإذا جعلتَ اللّغو اسمًا بمعنى الكلام السّاقط الخاطئ، لم تصحَّ ظرفيّته في الأيمان؛ لأنّه مِنَ الأيمان، فالظّرفيّة مُتعلِّقة بـ﴿يُؤَاخِذُكُمُ﴾، والمعنى لا يؤاخذكم اللّه في أيمانكم باللّغو؛ أي: لا يؤاخذكم من بين أيمانكم باليمين اللّغو[2].

الاستعارة في قوله ﴿بِٱللَّغۡوِ فِيٓ أَيۡمَٰنِكُمۡ﴾:

إِذَا ضَاقَ الْأَمْرُ اتَّسَعَ

مِن عادة العرَبِ في القَسَمَ أَنَّ بعَضَ القسَم يُقْسِمُونَ بهِ على التزام فِعْلٍ يفعلُهُ المُقْسِمُ؛ ليُلْجِئَ نفسَه إلى عملهِ ولا يندم عنهُ، وهو مِن قبيلِ قِسْمِ النَّذر، فإذا أراد أحدٌ مَا أن يُظْهِرَ عزمَهُ على فِعْلٍ لا محالةَ مِنْهُ، ولا مطمعَ لأحدٍ في صرفِه عنهُ؛ أكَّده بالْقَسَم، فصارَ النّطقُ باليمين مُؤْذِنًا بالغُرْم، وقد كَثُرَتِ الأيمانُ في ألسنة العرب في أغراض التّأكيد ونحوه، حتّى صارتِ الأيمانُ تجري على الألسُن كما تجري الكلماتُ الدّالّة على المعاني من غير إرادة الحِلفِ، فكثُر التّحَرُّج من ذلك في الإسلام[3]، قال الزّجّاج: اللّغو في كلام العرب: ما اطُّرح ولم يُعقد عليه أمرٌ[4].

وذهب الجُمهور إلى أنّ اللّغو في اليمين تلك الّتي تجري على اللّسان، ولم يقصد بها الحالِفُ الحِلفَ، ولكنّها جرت مَجرَى التّأكيد أو التّنبيه، كقول العرب: لا واللّه، وبلى واللّه[5]، وكَكَلامِ الرّجل في بيته: كلا واللّه، وبلى واللّه[6].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/381.
(2) المصدر السّابق: 2/381.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 2/381-382.
(4) ابن الجوزيّ، زاد المَسِير: 1/194.
(5) النّحاس، معاني القرآن: 2/350، والرّازيّ، مفاتيح الغيب: 6/426.
(6) السُّيوطيّ، معترك الأقران: 3/502.

ولهذا فقد أشبَهَ جريانُ الحِلف على اللّسان اللّغوَ من الكلام[1]، فيكون اللّغو في الآية على هذا المعنى مجازًا بعلاقة المشابهة، وذلك على سبيل الاستعارة المكنيّة، فَجَرَيانُ الحِلفِ وكثرتُه هو اللّغو فيه، فشُبِّهَ اللّغو بالجريان، وتُفيد هذه الاستعارة معنى الكثرة في هذا النّوع من الحِلف ووقوع النّاس جميعهم به، ومن هنا فقد جاءَت رحمة اللّه وحلمه بالنّاس جميعًا؛ لأنَّ من قواعد الشَّريعةِ: أنَّ الأمرَ إذا ضاق اتَّسعَ.

الإجمال في قوله: ﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ﴾ و﴿وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم﴾:

الإجْـمَـالُ في مَحَلِّه الملائِمِ لَهُ عَيْنُ البلَاغَةِ، والتَّفْصِيلُ في مَقَامِهِ المُنَاسِبِ لَهُ عَيْنُ البَرَاعَةِ

تكون المؤاخذة على الحنث لا على أصل القسم؛ إذ لا مؤاخذة لأجل مُجرّد الحِلف، ولا سيّما مع البرّ، فتعيّن أن يكون المُراد من كسب القلب كسبه الحنث، أي: تعمّده الحنث، والتّقدير: بما كسبت قلوبكم من حنث اليمين، فهو الّذي فيه المؤاخذة، والمؤاخذة أُجملت في هاته الآية[2]؛ لأنّ مقصدَ الآية هنا التّعريفُ بأنواع اليمين، انتقالاً إلى الإيلاء من النِّساء، ثمّ الدّخول إلى أحكام الطَّلاق، ولكن فَصّلت آية سورة المائدة في الكفّارة، فقال تعالى: ﴿فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ إِطۡعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ مِنۡ أَوۡسَطِ مَا تُطۡعِمُونَ أَهۡلِيكُمۡ أَوۡ كِسۡوَتُهُمۡ أَوۡ تَحۡرِيرُ رَقَبَةٖۖ فَمَن لَّمۡ يَجِدۡ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٖۚ ذَٰلِكَ كَفَّٰرَةُ أَيۡمَٰنِكُمۡ إِذَا حَلَفۡتُمۡۚ وَٱحۡفَظُوٓاْ أَيۡمَٰنَكُمۡۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ٨٩﴾ [المائدة: 89].

المجازُ في التّعبير عن القصد والتّعمّد بالكَسْبِ:

الْـحَـامِـلُ على اليَمِينِ المَنَافِعُ الدُّنيويَّة غَالِبًا

لمّا كان الحامل على اليمين في الأغلب المنافع الدّنيويّة كالرّزق، وكان الكسب يُطلق على طلب الرّزق وعلى القصد والإصابة، عُبّر به مجازًا، وهو مجاز مُرسَل علاقته المُسَبَّبيّة؛ لأنّ حلف اليمين يكون لغرض كسب شيء، فيكون اليمينُ سببًا للكَسبِ، والكَسبُ هو المُسبَّبُ،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/382.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/383.

فذكر المُسَبَّب وحذف السّبب؛ أي: إنّه ذكر الكسب وحذف اليمين أو الحِلفَ، فقال: بما كسبت قلوبكم، بدلًا من: بما حلفت قلوبكم؛ أي: يمينٌ معقودٌ في القلب قناعةً ويقينًا. فقوله: ﴿بِمَا كَسَبَتْ﴾ أي: تعمّدته ﴿قُلُوبُكُمْ﴾ وقصدَته، فاجتمع فيه مع اللّفظ النّية[1]، فخُيّل للسّامع كأنّ اليمينَ سببُ الكسبِ للحالف.

كسبُ القلبِ كنايةٌ عنِ التّعمّد في حنث اليَمِين:

مَا قُصِدَ مِنَ القَوْلِ: هُوَ مِنْ كَسْبِ الْقَلْبِ أيضًا

كسبُ القلبِ يُرادُ به تعمّده للشّيء، وقوله: ﴿كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ بمُجملهِ كناية للتعمّد فيه، بخلاف ما وقع لغوًا، فجميع الأقوالِ غير اللّغو يصدقُ عليها أنّها كسبُ القلب؛ لأنّ للقلب قصدًا إليها، ونفي الوحدة يدُلُّ على أنّه لا إثم ولا كفّارة، فيضعف قول من قال: إنّها تختصّ بالإثم، ويفسّر اللّغو باليمين المُكفّرة[2].

نُكْتَةُ الْمَجَازِ فِي قَوْلِه: ﴿كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾:

مَنْزِلَةُ القَلْبِ فِي تَحْقِيقِ المَكَاسِبِ

لمّا كان القلب يُعبّر به عن الجزء الّذي به المعرفة والفكر، ويجري من سائر أجزائه مَجرَى الرّاعي من المراعي[3]، قال: ﴿يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾، أي: باليمين الّتي للقلب فيها كسب، وذلك إذا نويتَ الحِلف وقصدتَ اليمين[4]، فكلُّ يمين عقدها القلب فهي كسب له، وكذلك فسّر مُجاهد الكَسبَ بالعقد، كآية المائدة ﴿بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَٰنَ﴾[5]، وقوله: ﴿كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ ولم يقُل: (كَسَبتُم)؛ إذ عبّر بالجُزء وأرادَ الكُلَّ، فهو مجاز مُرسَل علاقته الجزئيّة، وغاية ذلك: إبراز دور القلب في تحقيق المكاسبِ جرّاءَ الأيمانِ المغلّظة أو المعقودة الّتي عبّر عنها هنا بالكسب.

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 1/425.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/444.
(3) الراغب، تفسير الرّاغب: 1/462.
(4) الموصلّي، أولى ما قِيل: 2/326.
(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/444.

مُنَاسَبَةُ اقْتِرَانِ اسْمَيِ الله تعالى: الْغَفُورِ وَالْحَلِيمِ:

سَعَةُ حِلْمِ اللهِ تَعَالَى، فَلَا يُعَاجِلُ بِالْعُقُوبَةِ، بَلْ يَسْتُرُ وَيَغْفِرُ

الواو في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ استئنافيّة، والمعنى أنّه سبحانه يتجاوز عمَّا لم تتقصّده القلوبُ مِن مظاهر الذّنوب[1]، ومناسبة اقتران وصف الغفور بالحليم هنا دون الرّحيم كَالْوَرادِ في أكثر القرآن؛ لأنّ هذه المغفرة في مقابلةِ تَقصير يتعلَّقُ بِالأدب مع الله تعالى[2]، فلذلك ذُكِرَ اسمُ الله الحليم؛ مناسبةً لبيان حِلمه سبحانه عمّن يقصِّرُ في جَنْبِهِ؛ فإنَّ شأن الحليم أن لا يعاجِلَ بالعقوبة، بل شرعَ الله للعباد مكفّرات لتقصيرِهم لا تعسُّرُ عليهم؛ فقال: ﴿فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ إِطۡعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ مِنۡ أَوۡسَطِ مَا تُطۡعِمُونَ أَهۡلِيكُمۡ أَوۡ كِسۡوَتُهُمۡ أَوۡ تَحۡرِيرُ رَقَبَةٖۖ﴾، فكان هذا التّكفير تعبيرًا دقيقًا عن ذلك الحِلم؛ لأنّ الحليم هو الّذي لا يستفزّه التّقصير في جَنْبِهِ، ولا يغضب للغفلة، ويقبل المعذرة.

وقال البِقاعيّ: ولمّا كان السّياق للمؤاخذة الّتي هي معالجة كلٍّ من المُتناظرين لصاحبه بالأخذ كان الحِلم أنسب الأشياء، لذلك قال: ﴿حَلِيمٌ﴾، لا يعاجلهم بالأخذ، والحلم احتمال الأعلى للأذى من الأدنى، وهو أيضًا رفع المؤاخذة عن مُستحقّها بجناية في حقّ مُستعظَم[3].

نُكْتَةُ الْإِظْهَارِ فِي مَوضِعِ الْإِضْمَارِ:

عَظَمَةُ مَغْفِرَةِ اللهِ وَحِلْمِهِ

لمّا كان ذكر المؤاخذة شاغلًا قلوبَ الخائفين فقد أقرّها وبثّ فيها السّكينة، بقوله: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ مُظهرًا الاسم الأحسن ﴿ٱللَّهُ﴾ في مَوضِع الإضمار؛ إذ مقتضى الظّاهر أن يُقال: (وهو غفور حليم)، ففي هذا الإظهار: بيانُ عظمَةِ مغفرتِهِ وحِلْمِهِ؛ إذ هما وصفانِ للّهِ تعالى الذي دلَّ اسمه (الله) على صفاتِ الكمال والجمال والجلال.

(1) الموصلي، أولى ما قِيل: 2/326.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/384.
(3) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 1/426.

والغفور: هو اسم من أسماء اللّٰه تعالى على وزن (فعول) بصيغة المبالغة، بما يدُلُّ على كثرة الغفر لذنوب عباده التّائبين[1]. والحليم الّذي له الحلم الكامل، والّذي وسع حلمه أهل العصيان، ومنع عقوبته أن تحلّ بهم عاجلًا، فهو يمهلهم ليتوبوا، ولا يهملهم إذا أصرّوا واستمرّوا في طغيانهم، ولم يُنِيبوا[2].

مَدْحُ مَنْ لَا يُكْثِرُ الْحَلِفَ؛ حِفْظًا لِاسْمِ اللهِ تَعَالَى مِنَ الِامْتِهَانِ

والخبر في قوله: ﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِيٓ أَيۡمَٰنِكُمۡ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتۡ قُلُوبُكُمۡۗ﴾ مسوقٌ مساقَ المدحِ لمن لا يكثر الحِلف، قال الحرَالّي: فيكون ذلك عزمًا باطنًا وقولًا ظاهرًا فيُؤاخذ باجْتماعهما، ففي جملته ترفيعٌ لمن لا يحلِف باللّٰه في عزم ولا لغو، وذلك هو الّذي حفظ حرمةَ الحِلف باللّٰه، وفي مقابلته من يحلِف على الخير أن لا يفعله.

ثم إنّه في الآية لم يبيّن الكفّارة صريحًا؛ إشارة إلى أنّهم ينبغي أن يكونوا أتقى من أن يُمنعوا مِن شيء فيُقَارِفُوهُ[3]، وبُيِّنَتِ الكفّارة في سورة المائدة؛ لمناسبة المقامِ لذلك.

بَلَاغَةُ تَشَابُهِ الْأَطْرَافِ فِي الآيَةِ الْكَرِيمَةِ:

تَطْمِينُ قُلُوبِ الْمُعَظِّمِينَ اسْمَ اللهِ تعالى، والتَّعْرِيضُ بِالْمُتَساهِلِ فِي كَثْرَةِ الْحَلِفِ

في ختْمِ الآية باسْمَيِ اللّٰه تعالى: الغفور والحليم مناسبة ظاهرة لعدم المؤاخذة على اللّغو في الأَيْمَان؛ إذ بُدِئَتِ الآية بعدم المؤاخذة، وخُتِمَتْ بما يناسب ذلك، فهي من قبيل تشابُهِ الأطرافِ؛ وهو ضربٌ أخصُّ من ردِّ العجزِ على الصَّدْرِ، وفي ذلك من زيادةِ التّطمين للنّفوس وإراحة القلوب ما فيه، كما أنّ فيها تعريضًا بمَنْ يكسبُ الإثم بحِنْثِ اليمين.

(1) سعد ندا، مفهوم الأسماء والصِّفات: 46/72.
(2) السّعديّ، تفسير أسماء الله الحسنى، ص: 189.
(3) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 1/425.

رَحْمَةُ اللهِ تَعَالَى سَبَقَتْ غَضَبَهُ

التّذييل في قوله ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾:

في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾؛ تذييل لحكم نفي المؤاخذة[1]، وهو تذييلٌ جارٍ مجرى المثل؛ لاستقلاله بالإفادةِ.

وقد جاءت هاتان الصّفتان (المغفرة والحِلم) دالَّتين على توسعة اللّه على عباده؛ حيث لم يؤاخذهم باللّغو في أيمانهم[2]، وفي تعقيب الآية بهما إشعار بالغفران والحِلم عمّن أوعده تعالى بالمؤاخذَة، وإِطْمَاع في سعة رحمته، لأنّ مَن وَصَفَ نفسه بكثرة الغفران والصّفح مطموعٌ في مَا وَصَفَ به نفسَه، فالوعيد السَّابقُ مُقيّد بالمشيئة، كسائر وعيده تعالى[3].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/384.
(2) النّسفيّ، مدارك التّنزيل: 1/190، والهرويّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 3/294.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/445.

﴿لِّلَّذِينَ يُؤۡلُونَ مِن نِّسَآئِهِمۡ تَرَبُّصُ أَرۡبَعَةِ أَشۡهُرٖۖ فَإِن فَآءُو فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٢٢٦﴾ [البقرة: 226]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الظّاهر من مناسبة هذه الآية لما قبلها، أنّه تقدّم شيء من أحكام النِّساء، وشيء من أحكام الأيمان، وقد جمعت هذه الآية بينهما. وبيّنتِ الآية أنّ الإيلاء نوعٌ من أنواع الأيمان؛ وذكرت امتدادًا وتفصيلًا لأنواع الأيمان، فبعد أن بيّن نوعي اللّغو منها وما كسبت القلوب كناية عن غير اللّغو، بيّن هنا نوعًا من أنواع ما كسب القلب من الأيمان، فذكر الإيلاء.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يُؤۡلُونَ﴾: جذر الكلمة (ألا) يَأْلُو أَلْوًا وأُلُوًّا، وأَلَّى يُؤَلِّي تَأْلِيَةً وأْتَلَى: قَصَّر وأَبطأَ[1]. و(أَلَّى) مُشَدّدًا ومُخَفَّفًا، وجَمعُ الأَلِيَّة، بمعنى اليَمِين، الأَلَايَا[2].

الإيلاء: مصدر آلى على كذا؛ أي: حلف، عليه باللّه أو بغيره من الطَّلاق، أو العتاق، أو الحَجّ، أو نحو ذلك[3]. قال اللّه تعالى: ﴿وَلَا يَأۡتَلِ أُوْلُواْ ٱلۡفَضۡلِ مِنكُمۡ﴾ [النّور: 22]. وقال الفَرَّاء: الائتلاء: الحِلف[4]. والإيلاء: الحِلف، وظاهر كلام أهل اللّغة أنّه الحِلف مُطلقًا[5].

2) ﴿فَآءُو﴾: جذر الكلمة هو (فيأ)، الفَيءُ: التَّحَوُّلُ، فاءَ الظِّلُّ: تَحَوَّل[6]. فاء يفيء إذا رجع[7]. و(الفيء) في كتاب اللّه تعالى على ثلاثة معان، مرجعها إلى أصل واحد، وهو الرّجوع[8]. قال تعالى: ﴿فَإِن فَآءُو فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [البقرة: 226]، وقال اللّه تعالى: ﴿مِن

(1) ابن منظور، لسان العرب: (ألا).
(2) المصدر السّابق: (ألا).
(3) الكفويّ، الكُلّيّات: (ألا).
(4) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (أ ل ا).
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/384.
(6) الزَّبيديّ، تاج العروس: (فيأ).
(7) الأزهريّ، الزّاهر: (ف ي أ).
(8) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (ف ي أ).

شَيۡءٖ يَتَفَيَّؤُاْ ظِلَٰلُهُۥ عَنِ ٱلۡيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدٗا لِّلَّهِ﴾ [النّحل: 48]، وقال تعالى: ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰ﴾ [الحشر: 7].

ومعنى ﴿فَآءُو﴾: رَجَعُوا قبلَ فواتِ الأشهرِ الأربعةِ.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

يذكر اللّه حكمَ الإيلاء - وهو أن يحلف الرّجل لا يَقْرب زوجته - الّذي كان سائدًا في الجاهليّة؛ ممّا يُجعل فيه اليمين عُرضةً للإضرارِ بالنِّساء، مُتّبعين خطوات الشّيطان في ذلك لأنّه أمر مُخالِفٌ للبرِّ، ويقع ذلك عند المُغاضبة والغيظ، وما في ذلك اليمين من ترك التّوادِّ وحسن المعاشرة، وما يترتّب عليه من مفاسد في الحياة الزّوجيّة وانعكاساتها على المجتمع: فعلى الذين يحلفون على ترك جماع نسائهم انتظارُ مدةٍ لا تزيد على أربعة أشهر، ابتداء من حلفهم، وهو ما يُعرف بالإيلاء، فإن رجعوا إلى جماع نسائهم بعد حلفهم على تركه في مدة أربعة أشهر فما دون، فإنَّ اللّه غفور يغفر لهم ما حصل منهم، ورحيم بهم حيث شرع الكفارةَ مخرجًا من هذه اليمين[1].

❁ الإيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

سَبَبُ فَصْلِ قَوْلِ اللهِ تَعالَى: ﴿لِّلَّذِينَ يُؤۡلُونَ مِن نِّسَآئِهِمۡ﴾ عمَّا قبلُ:

دَفْعُ المُضَارَّةِ عَنِ النِّسَاءِ

في قوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ يُؤۡلُونَ مِن نِّسَآئِهِمۡ﴾ استئناف ابتدائيٌّ للانتقال إلى تشريع في عمل كان يغلِب على الرّجال أن يعملوه في الجاهليّة والإسلام[2]، فيُقسمون أليَّةً، والأليّة: الحَلِفُ[3] الّذي كان من أشهر الأيمَان الحائلة بينهُم وبين البرِّ والتَّقوى وإصلاح الأسرة والمجتمع، متمثّلًا بأيمان الرّجال على مهاجرة نسائهم، ومردّ ذلك أنّ حسن المعاشرة من البرِّ بين المتعاشرين، وقد أمر اللّه به في قوله: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ﴾ [النّساء: 19]، فامْتِثَاله من التّقوى، ولأنّ دوامه من دوام الإصلاح، ويحدث بفقده الشّقاق، وهو منافٍ للتّقوى[4]،

(1) جماعة من العلماء، المختصر في تفسير القرآن الكريم، ص: 36، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/384.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/384.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 4/456.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/384.

وقد كان الرّجل في الجاهلية يولي من امرأته السّنة والسّنتين، ولا تنحلّ يمينه إلَّا بعد مضي تلك المدّة، ولا كلام للمرأة في ذلك[1]، وكان الرّجل في الجاهلية لا يريد المرأة، ولا يحبّ أن يطلّقها؛ لئلا يتزوّجها غيره، فكان يحلف ألَّا يقربَها مُضَارّةً لها[2]؛ وإنَّما يُقسم على ذلك لئلَّا يعود إليها إذا حصل لهُ شيءٌ مِنَ النّدم، ثمّ كان أهلُ الإسلام يفعلون ذلك، فأزال الله ذلك، وأمهل الزّوجَ مدّةً حتّى يتروَّى، فكان هذا الحكمُ مِن أهمّ المقاصد في أحكام الأَيْمَانِ الّتي مُهِّدَ لها بقوله: ﴿وَلَا تَجۡعَلُواْ ٱللَّهَ عُرۡضَةٗ لِّأَيۡمَٰنِكُمۡ﴾ [البقرة: 224][3].

نُكْتَةُ تَقْدِيمِ الْمُطْلَقِ عَلَى الْمُقَيَّدِ:

بَيَانُ اللهِ تَعَالَى الْأَحْكَامَ لِعِبَادِهِ، وَحِلْمُهُ سُبْحَانَهُ بِهِمْ

لمّا بيَّن الله تعالى حكم مطلق اليمين، وكان الإيلاءُ يمينًا مُقيّدةً؛ ناسبَ أن يُذكرَ بعدَهُ؛ من بابِ ذكر المقيَّدِ بعد المطلَق، وهو قريبٌ من عطفِ الخاصِّ على العامِّ؛ إذِ المطلَقُ فيه ضربٌ مِنَ العموم، والمقيَّدُ فيه خصوصٌ بإدخالِ القيودِ عليهِ، والجادَّةُ: تقديمُ بيانِ ما خلَا من القيودِ؛ ليُتصوَّر الحكمُ في ذاتِهِ تصوُّرًا كاملًا، ثمَّ تُتصوَّرُ أفرادُه المقيَّدَةُ بعدُ.

وجُعِلَ تعقيبُ اليمينِ المطلقَةِ باليمين المقيَّدَةِ دليلًا على حلمه سبحانه؛ إذ قدّم ذكر الحِلم على ذكر الإيلاء، فلم يؤاخذهم به، فقد كانوا يضارّون به النِّساء في الجاهليّة بأن يَحْلِفُوا على عدم الوطء أبدًا، فتكون المرأة لا أيّمًا ولا ذاتَ بعل، وجعل لهم فيه تشريعًا يرجعون إليه، فقال: ﴿لِّلَّذِينَ يُؤۡلُونَ﴾؛ أي: يحلفون حلفًا مبتدئًا ﴿مِن نِّسَآئِهِمۡ﴾ في صلب النّكاح بأن لا يجامعوهنّ أبدًا أو يحدُّونَ مدَّةً تُجَاوِزُ أربعةَ أشهُرٍ، فالتّعديّة بـ﴿مِنۡ﴾ تدُلُّ على أَخْذٍ في البُعد عنهنّ[4].

والإيلاء: الحَلِفُ، قال الرّاغب: الإيلاء حَلِفٌ يقتضي التّقصير في المحلوف عليه مُشتقّ من (الألو)، وهو التّقصير، قال تعالى: ﴿لَا

(1) ابن الجوزيّ، زاد المسير: 1/194.
(2) السّجستانّي، غريب القرآن، ص: 529.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/384.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 1/426.

﴿يَأۡلُونَكُمۡ خَبَالٗا﴾ [آل عمران: 118]، وقوله: ﴿وَلَا يَأۡتَلِ أُوْلُواْ ٱلۡفَضۡلِ مِنكُمۡ وَٱلسَّعَةِ﴾ [النّور: 22]، وصار في الشّرع الحَلِفَ المخصوصَ، فيؤخذ من هذا كلام أنّ الإيلاء حلف على الامتناع والتّرك؛ لأنّ التّقصير لا يتحقَّقُ بغير معنى التّرك؛ وهو الّذي يشهد به أصل الاشتقاق من (الألو)، وتشهد به موارد الاستعمال.

وأيًّا ما كان فالإيلاء بعد نزول هذه الآية، صار حقيقة شرعيّة في هذا الحَلِف على الوصف المخصوص[1].

دِلَالَةُ الْخَبَرِ فِي قَوْلِهِ: ﴿لِّلَّذِينَ يُؤۡلُونَ مِن نِّسَآئِهِمۡ تَرَبُّصُ﴾:

مَنْعُ الشَّرِيعَةِ الإِسْلَامِيَّةِ مِنْ مُضَارَّةِ النِّسَاءِ

قول الله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ يُؤۡلُونَ﴾، أي: يعتزلون من نسائهم[2]، ومجيء اللّام في ﴿لِّلَّذِينَ﴾ لبيان أنّ التّربّص جُعل توسعة عليهم، فاللّام للأجل، ويُعلم منه معنى التّخيير فيه؛ أي: ليس التّربّص بواجب، فَلِلْمُولِي أن يَفِيءَ لِأقلّ مِن الأشهر الأربعة[3]، ولكن حدَّتِ الآيةُ أبعدَ الأجلِ لهذا اليمين، لِمَا كان من أفعال الأزواج في الجاهليّة مِنَ المبالغة في المُدّة، فخَيّرتِ الآيةُ الحالف في المدّة تقليلًا لا تكثيرًا، وجعلته غير مُخيّرٍ في أكثر ممّا حدَّتْ؛ وهو أربعة أشهر، ووجهُ التَّقليلِ: أنَّ الإيلاءَ كان عند أهل الجاهليّة السّنَة والسَّنَتَين وأكثر، فوقَّت اللّهُ ذلك[4].

وقوله: ﴿لِّلَّذِينَ يُؤۡلُونَ مِن نِّسَآئِهِمۡ تَرَبُّصُ﴾ جملةٌ خبريَّةٌ، خرجت عن أصلِ دلالَتِهَا؛ إذْ إنَّنا نجدُ مِنَ المُولِينَ مَن لا يستمرُّ على إيلائه هذه المدَّةَ كاملةً، ولو كان خبرًا باقيًا على دلالتِهِ الخبريَّةِ؛ لما جازَ أن يتخلَّفَ مدلولُهُ؛ لأنَّ تخلُّفَهُ يقتضي أن يكون الإخبار عن ذلك كذبًا أو وهمًا، وكلام اللّه تعالى منزَّهٌ عن ذلك، فأفادَ هذا أنَّ الخبرَ ههنا

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/385.
(2) ابن الجوزيّ، زاد المسير: 1/196.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/385.
(4) التّضمين: هو أن تزيد في الكلام نكتَةً أو معنىً لا يوجد في الأصل.

يُرادُ به الجوازُ؛ فإنَّ تربُّصَ الأزواج هذه المدَّةَ فأقلّ جائزٌ، وما زادَ على ذلك فغيرُ جائزٍ، دفعًا للإضرار بالزَّوجاتِ.

بَلَاغَةُ التَّضْمِينِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ﴾:

﴿مِن﴾ في قوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ﴾ يجوزُ أن تكون بمعنى (على)، والتّقدير: الذين يُؤْلُونَ - أي: يحلفون - على وَطْءِ نسائهم، فحذف الوطءَ، وأقام النِّساء مُقامه، وهو كقوله تعالى: ﴿مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ﴾ [آل عمران: 194]؛ أي: على ألسنة رسلك، وحذف المضافِ كثيرٌ في كلام العربِ.

وأقوى منه أن تُخرَّجَ الآيةُ على التَّضمينِ؛ فقدْ عُدِّيَ فعلُ الإيلاء بـ﴿مِن﴾ مع أنّ حقّه أن يعدَّى بـ(على)؛ لتضمينِ الفعلِ هُنا معنى البُعد[1]، أو معنى الامتناع[2]، فعُدِّيَ بالحرف المُناسبِ لفعل البُعد والامتناع، والمعنى: للّذين يؤلون مُتَبَاعِدِينَ ممتنِعينَ مِن نسائهم، مُولِينَ أَو مُقْسِمِين[3]، فـ﴿مِن﴾ لِلابْتِدَاءِ المجازي[4]، وهو مُتعلِّق بما في (اللّام) من معنى الاستقرار؛ أي: استقرّ مِنهنَّ، وهو كما تقول: لي من الأمير الرّزق وله منّي الدّعاء[5].

وفي دلالة التَّضمينِ إيقاظٌ لِلْمُولِينَ من نسائهم إلى عظيم هذا اليمينِ، وأنَّ ما يُقْدِمُون عليه مِنْهُ خطرٌ يوشك أن يفكّك الأسرة، وفيه إشعارُهم بأنّ عليهم الإحجامَ، لا المبالغة في إطالة مُدّة الإيلاء، ولذا حَبّبَ إليهم الفَيْئَةَ، فقال: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

تَنْبِيهُ الْمُولِينَ إِلَى خَطَرٍ عَظِيمٍ يُوشِكُ أَنْ يُفَكِّكَ الْأُسْرَةَ

دِلَالَةُ تَقْدِيمِ الْجَارِّ وَالْمَجْرُورِ عَلَى الْمُسْنَدِ إِلَيْهِ:

جاء تقديم ﴿لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ﴾ على المبتدأ المسندِ إليه؛ وهو

مِنَ الْمَقَاصِدِ الشَّرْعِيَّةِ الْحَثُّ عَلَى أَسْبَابِ الِاجْتِمَاعِ وَالنَّهْيُ عَنْ دَوَاعِي الِافْتِرَاقِ

(1) ابن الجوزي، زاد المسير: 1/196.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/447.
(3) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 6/429.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/385.
(5) الكرمانّي، غرائب التّفسير: 1/214.

﴿تَرَبُّصُ﴾، تشويقًا لذِكر المسند إليه، واهتمامًا بهذه التّوسعة الّتي وسّعها اللّه على الأزواج[1]، وهذا الاهتمام محطُّ عنايةِ الشَّرع مع كونِهِ من موضوعات الحياة الزّوجيّة وأحداثها المُمكِنَة مع كلّ أسرة؛ لما عُلِمَ من كلّيّاتِ الشَّريعةِ من تشوُّفِها إلى كلِّ ما يُؤدّي إلى الاجتماعِ، ونبذِهَا لكلِّ ما يُؤدّي إلى الفراقِ ما دام الاجتماع ممكِنًا.

نُكْتَةُ اخْتِيَارِ لَفْظِ ﴿تَرَبُّصُ﴾ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ﴾:

التّربّص: الانتظار والتّوقف، وقد أُضِيفَ إلى الظّرفِ على سبيلِ الاتّساع؛ أي: لِلْمُولِي حقُّ التّلبّث في هذه المدّة، فلا يُطالَب بفيء ولا طلاق[2]؛ وقوله: ﴿تَرَبُّصُ﴾ أي: إمهال وتمكّثٌ يتحمّل فيه الصّبر الّذي هو مَقْلُوبِ لَفْظِهِ[3]، فإنَّ مادَّةَ التَّربُّص: الرَّاء والباء والصَّاد، وفيه إشارة إلى مقلوبها وهو: الصَّبْرُ، ومادَّتُه الصَّاد والباء والرَّاء، وهذا قريبٌ ممَّا يُسمّيه البلاغيُّون: جناسَ الإشارةِ وجناسَ الإضمار[4].

فالتّربّص مراد به الصّبر والتّريّث؛ لأنَّ العجلةَ مظنَّةُ الزَّلَلِ في الرَّأيِ والغلطِ فيه، بخلاف الصَّبْرِ والتَّأنّي؛ لأنَّه مُشعِرٌ بالنَّظر والتَّأمُّلِ في العواقبِ.

الْعَجَلَةَ مَظِنَّةُ الزَّلَلِ فِي الرَّأيِ وَالْغَلَطِ فِيهِ

إضافة المصدر إلى الظّرف على الاتّساع:

قوله تعالى: ﴿تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ﴾ من باب إضافة المصدر إلى ما هو ظرف زمان في الأصل، لكنّه اتّسع فيه فَصُيّر مفعولًا به، ولذلك صَحَّتِ الإضافة إليه[5]، والتّربّص: الانتظار والتّوقف، ومعنى ﴿تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ﴾ أنَّ لِلْمُولِي حقَّ التّلبّث في هذه المدّة، فلا يُطالَب بفيء ولا طلاق،

اللّه سبحانه هو الخالق لطبائع البشر، وهو المُشَرِّعُ لهم ما يناسب طباعهم

(1) المصدر السّابق: 2/385.
(2) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 1/140.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 1/426.
(4) ابن حجّة الحمويّ، خزانة الأدب: 1/95-97.
(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/448.

ولذلك قال الشّافعي: لا إيلاء إلّا في أكثر من أربعة أشهر، ويؤيّده ﴿فَإِن فَآءُو﴾ رجعوا في اليمين بالحنث ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[1].

دِلَالَةُ تَعْلِيقِ الْفِعْلِ بِحَرْفِ الشَّرْطِ (إِنْ) فِي قَوْلِهِ ﴿فَإِن فَآءُو﴾:

المُوْلِي مُدَّةَ تُجَاوِزُ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ مُخَيَّرٌ بَيْنَ الْفَيْئَةِ وَبَيْنَ الْفِرَاقِ

لمّا كان حالهم بعد الإيلاءِ مُترددًا؛ إمَّا أن يفيؤوا وإمَّا أن يُفارقُوا بالطَّلاقِ؛ بَيّنَ تعالى هذين القِسمينِ؛ فقال مُفصِّلًا له: ﴿فَإِن فَآءُو﴾؛ أي: رجعوا في الأشهر، من الفيء وهو الرّجوع إلى ما كان منه انبعاث الإيلاء؛ إذِ الفيء في أصلِ اللّغة: هو رجوع الشّيء إلى ما كان عليه من قبل[2]، ولهذا قيل لما تنسخه الشّمس من الظّلّ ثمّ يعود: فيء[3].

وعُلِّقَ الفعلُ بحرف الشَّرط (إنْ)؛ لأنَّها موضوعةٌ في الأصلِ للدِّلالةِ على عدمِ الجزمِ بوقوعِ مدخولِهَا، والفَيْئَةُ بعد الإيلاء ليست متحقِّقةً.

نُكْتَةُ التَّأْكِيدِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾:

سَعَةُ رَحْمَةِ اللهِ تَعَالَى وَمَغْفِرَتِهِ

قول اللّه تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي: يغفر لهم ما قَارفوهُ في ذلك مِن إثم، ويرحمهم بإنجاح مقاصدهم؛ لأنّه ﴿غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، له هذان الاسمان، يتضمَّنانِ صفتَي المغفرة والرَّحمةِ، يغفر ويرحم من يشاء، ويعامل بعد ذلك بالإكرام[4].

وفي ختم الآية بهذين الاسمين الكريمَيْنِ إشارةٌ إلى ظهورِ أثرِهما على المُولي، ولذا استدلَّ بعض أهل العلم بذلك على أنّ المولِيَ إذا فاء ووَطِئَ؛ فلا كفّارة عليه في يمينه، وذهب الجمهور إلى إيجاب كفّارة اليمين على المُولي بجماع امرأته، فيكون الغفران هنا إشعارًا بإسقاط الإثم بفعل الكفّارة[5].

(1) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 1/140.
(2) الراغب، تفسير الرّاغب: 1/463.
(3) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 6/426.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 1/426.
(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/450.

تَرْغِيبُ الْأَزْوَاجِ فِي الْفَيْئَةِ لِزَوْجَاتِهِمْ

وأُكِّد قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ بـ(إنَّ) واسميَّةِ الجملةِ؛ إظهارًا لكمال مغفرة الله تعالى ورحمته، ترغيبًا للعبادِ في الفيئةِ للزَّوجاتِ؛ لِمَا عُلِمَ في الشَّرع من تشوُّفِهِ إلى تحصيلِ أسبابِ الاجتماعِ والائتلافِ.

عُمُومُ مَغْفِرَةِ اللهِ تَعَالَى وَرَحْمَتِهِ لِمَنِ انْعَقَدَتْ فِيهِ أَسْبَابُهُمَا

وقوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ دليلُ الجواب، والمعنى: فإن فاؤوا؛ فَإِنَّ حِنثَهُم في يمين الإيلاء مغفورٌ لهم؛ لأنّ الله غفورٌ رحيمٌ، وعُدِلَ عن نحو (فإن فاؤوا فإن الله يغفر لهم ويرحمهم) إلى قوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾؛ لفائدتين:

إحداهما: القصد إلى العموم؛ فإنَّ في ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ من العمومِ ما يندرجُ فيه المُولِي وغيرُهُ.

والأخرَى: أن لا يكون في التَّنصيصِ على خصوص المُولِي تزهيدًا وتسهيلًا في تقحُّم الإيلاءِ؛ اتِّكالًا على مغفرة الله تعالى ورحمته.

وفي قوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ إيذانٌ بأنّ الإيلاءَ حرامٌ؛ لأنّ شأن إيلائِهم الوارد فيه القرآنُ قَصْدُ الإضرار بالمرأة، وقد يكون الإيلاءُ مباحًا إذا لم يُقصد به الإضرار، ولم تَطُلْ مدَّتُهُ، كالّذي يكون لقصد التّأديب، أو لقصدٍ آخرَ مُعتبرٍ شرعًا، غيرَ قصدِ الإضرارِ المذموم شرعًا، ولذا ثبت أنَّ النّبيّ ﷺ آلَى من نسائه شهرًا[1].

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الإيلاء مصطلحٌ لقَسَمٍ خاصٍّ بحالة معيّنة، أمّا الحِلف فيدلّ على القسم العامّ

يؤلون ويحلفون:

قال ﴿يُؤْلُونَ﴾ لأنّ فيها معنى التّأخير والتّقصير، إذ تكون نيّة الزّوج في الإيلاء الإضرار بالزّوجة؛ ذكر ابن منظور قوله: أَلَّى يُؤَلِّي تَأْلِيَةً وأَتَلَى: قَصَّر وأَبطأ[2]. أمّا الحِلفُ أو القسم فقد يكون في الخير

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/386.
(2) ابن منظور، لسان العرب: (ألا).

والشّرّ، والحَلْفُ والحَلِفُ لغتان، في القَسَم، الواحدة حَلْفة، ويُقال: مَحلُوفةً باللّه ما قال ذاكَ، قال النّابغة:

فإن كنت لا ذو الضّغن عني مُكذِّبٌ *** ولا حَلِفي على البراءة نافعُ[1]

ورجل حَلاّف وحَلّافة: كثير الحَلْف. واستَحلفتُه باللّه ما فَعَل ذاكَ[2].

النِّسَاء والزّوجات:

الإيلاء يمين خاصٌّ يُقْسِم الرّجل فيه أنْ لا يطأ زوجته ... فعبّر القرآن بالنِّسَاء دون الزّوجات؛ لأنّ الزّوجة تكون محطّ رضا من الزّوج، ويغلب حين ذكرها استقرار الحياة الزّوجيّة، لكنّه لمّا عرض مشكلةً بين الزّوج والزّوجة، مُنِعت ولو لفترة محدّدة تلك المُعاشرة، فقد اختار أن يذكر النِّسَاء دون الزّوجات؛ وهذه ظاهرة قرآنيّة مطَّرِدة، ومثل ذلك قوله: ﴿فَٱعۡتَزِلُواْ ٱلنِّسَآءَ فِي ٱلۡمَحِيضِ﴾ [البقرة: 222]. وتعليق الإيلاء باسم النِّساء؛ من باب إضافة التّحليل والتَّحريم ونحوهما إلى الأعيان، مثل﴿حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمۡ أُمَّهَٰتُكُمۡ﴾ [النّساء: 23][3].

الـزّوجـة إذا ذُكرت في القرآن الكريم فتكون في مَـعـرِض الحياة الزوجيّة السّليمة

(1) أبو هلال العسكريّ، ديوان المعاني: 1/218.

(2) الفراهيديّ، العين: (حلف).

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/385.

﴿وَإِنۡ عَزَمُواْ ٱلطَّلَٰقَ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ٢٢٧﴾ [البقرة: 227]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لمّا تقدّم كثير من الأحكام مع النِّساء ذكر حكم الإيلاء مع النِّساء، وهو: الحِلف على الامتناع من وطئهنَّ، فجعل لذلك مدَّة، وهي أربعة أشهر أقصى ما تصبر المرأة عن زوجها غالبًا، ثم بعد انتظار هذه المدّة وانقضائها إن فاء فإنَّ الله غفور لا يؤاخذه بل يسامحه في تلك اليَمين، وإن عزم الطَّلاق أوقعه[1]. ولمّا كان الحال في مدّة الإيلاء شبيهًا بحال الطَّلاق وليس به، قال مبيّنًا أنّ الطَّلاق لا يقع بمجرد مُضيّ الأربعة الأشهر، بل إمّا أن يفيء أو أن يُطلِّقَ[2]، فإن أبى طلّقَ عليه الحاكم، فقال: ﴿وَإِنۡ عَزَمُواْ ٱلطَّلَٰقَ﴾.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿عَزَمُواْ﴾: جذر الكلمة هو (عزم)، والعَزمُ: ما عَقدَ عليه القلبُ أنَّكَ فاعلهُ، أو من أمرٍ تيقّنتَهُ. وما وجدنا له عَزمًا، وإنّ رأيه لذو عزم. وعزائم القرآن: الآيات الّتي يقرأ بها على ذوي الآفات لما يُرجى من البُرءِ بها[3]. اعتزم الفرس في عنانه، إذا مرّ جامحًا لا ينثني[4].

ومعنى الآية: وقَعَ العَزْمُ منهم.

2) ﴿ٱلطَّلَٰقَ﴾: جذر الكلمة (طلق)، وأطلَقتُ الأسيرَ، وهو طَليقٌ، وهو من الطّلقاء. وأطلقتُ النّاقة من عِقالها فطَلَقَت، وهي طَالِقٌ وطَلْقٌ، وإبل أطلاق[5]، وطلاق المرأة: بينونتها عن زوجها. ورجل مِطلاق، ومِطليق، وطليق: كثير التّطليق للنّساء. وطلّق البلاد: تركها، عن ابن الأعرابيّ[6].

ومعنى ﴿ٱلطَّلَٰقَ﴾: إزالةُ عقد النكاح بلفظ مخصوص.

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/484.
(2) ابن كَثير، تفسير القرآن العظيم: 3/331.
(3) الخليل، العين: (عزم).
(4) الزّمحشريّ، أساس البلاغة: (عزم).
(5) الزّمحشريّ، أساس البلاغة: (طلق).
(6) ابن سيده، المُحكم: (طلق).

المَعْنى الإجْماليُّ:

يخبر اللّه تعالى عن حكم من وقَعَ العَزْمُ منهم على حلِّ عقد النكاح منهم لزوجاتهم اللّاتي حلفوا على ترك جماعهنَّ حتّى مضَت أربعةُ أشهر، فإن لم يحصل منهم رجعةٌ لهنَّ وقعت عليهنَّ تطليقةٌ بمضيِّها، وكان هذا الصَّنيع من الأزواجِ دليلًا على رغبتهم عنهنَّ، وعدم إرادتهم لأزواجهم، فإن لم يرجع الزوجُ - فظاهر قصده بذلك المضارَّة والمشاقَّةُ لزوجته - أُلْزِم بالطلاق، فإن لم يطلِّق طلَّق عليه الحاكم، والطلقةُ تكون رجعيةً له رجعتها في العدة. فإنَّ اللّه سميعٌ لأقوالهم التي منها الطلاق، عليمٌ بأحوالهم ومقاصدهم، وسيجازيهم عليها[1].

وترشد الآية الكريمة إلى أنَّ الإيلاء خاص بالزوجات؛ لقوله تعالى: ﴿مِن نِّسَآئِهِمْ﴾، وإلى حقِّ المرأة في العلاقة الزوجية ووجوب وطء الزوجة - في الحدِّ الأدنى - كل أربعة أشهر مرة؛ لأنَّ الزوج بعد الأربعة الأشهر يجبر إمَّا على الوطء، وإمَّا على الطلاق، ولا يكون ذلك إلا لتركه واجبًا[2].

الإيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

بَلَاغَةُ الِاحْتِبَاكِ:

في قَوْلِه: ﴿لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِن فَآءُو فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٢٢٦ وَإِنْ عَزَمُواْ ٱلطَّلَٰقَ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝٢٢٧﴾، العزم: عقد القلب على الشّيء، يُقال: عزم على الشّيء يَعْزِم عزمًا وعزيمة[3]، وعَزْمُ الطّلاقِ: التّصميمُ عليه، واستقرار الرّأي فيه بعد التّأمُّل، وهو شيء لا يحصل لكلّ مُولٍ من تلقاء نفسه، وخاصَّة أنَّ غالبَ القصد مِنَ الإيلاء المغاضبةُ والمضارّة، فقوله: ﴿وَإِنْ عَزَمُواْ ٱلطَّلَٰقَ﴾ دليل على شرط محذوف، دلَّ عليه قوله: ﴿فَإِن فَآءُو﴾، والتَّقدير: وإن لم يفيؤوا؛ فقد وجب عليهم الطَّلاق، فهم بِخَير النَّظَرَين: بين أن

الشَّرْعُ لَا يَتَشَوَّفُ لِمُطْلَقِ الِاجْتِمَاعِ، بَلْ لِلِاجْتِمَاعِ الْمُتَضَمِّنِ الِائْتِلَافَ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 1/427، والموصلّي، أولى ما قِيل: 2/327،
(2) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 36.
(3) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 6/429.

يفيؤوا، أو يُطلِّقوا، فإن عزموا الطَّلاق فقد وقع طلاقهم[1]، وهذا على طريق الاحتباك[2]، وتقديره: فإن فَآؤوا ورجعوا عن الطَّلاق، فإنّ اللّه غفورٌ رحيمٌ، وإن لم يفيؤوا وعزموا الطَّلاق، فإنّ اللّه سميعٌ عليمٌ، فحُذِفَ من الأوَّل (رجعوا عن الطَّلاق)؛ لدلالة الثَّاني عليه، وهو قوله: ﴿وَإِنۡ عَزَمُواْ ٱلطَّلَٰقَ﴾، وحُذِفَ من الثَّاني (وإن لم يَفيؤوا)؛ لدلالة الأوَّلِ عليه، وهو قوله: ﴿فَإِن فَآءُو﴾، ولذا سُمِّيَ الاحتباكُ الحذفَ المُقَابَلِيَّ أو حذفَ التَّقَابُلِ[3].

وحُذِفَ ذِكْرُ الطَّلاقِ من الجملة الأولى ﴿فَإِن فَآءُو﴾؛ لأنَّ المقصودَ منها التَّحريض على الفَيئَةِ بذكر مغفرة اللّه تعالى ورحمتِه، والطَّلاقُ وإن كان واردًا إلَّا أنَّه ليس من المناسبِ ذِكْرُهُ؛ لئلَّا تميلَ النَّفْسُ إليه، وحُذِفَ ذكرُ الفَيئةِ من الجملة الثَّانية ﴿وَإِنۡ عَزَمُواْ ٱلطَّلَٰقَ﴾ وإن كانت الفيئةُ من محبوباتِ الشَّرعِ في الجُملةِ؛ لأنَّ الأمرَ آلَ إلى شدَّةِ الإضرارِ بالمرأةِ، والشَّرعُ وإن كان يتشوَّفُ إلى الاجتماعِ، إلَّا أنَّ ذلك لا يكون بالإضرار والفسادِ، فَطُوِيَ ذِكرُ الفيئَةِ؛ إشعارًا بهذا المعنَى.

بَلَاغَةُ التَّضْمِينِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَإِنۡ عَزَمُواْ ٱلطَّلَٰقَ﴾:

الْعَزْمُ يَقْتَضِي تَحَقُّقَ النِّيَّةِ قَبْلُ، فَالنِّيَّةُ تَسْبِقُ الْعَزْمَ

﴿ٱلطَّلَٰقَ﴾ في قول اللّهِ تعالى: ﴿وَإِنۡ عَزَمُواْ ٱلطَّلَٰقَ﴾ منصوبٌ إمّا على نزع الخافضِ، وهو حرف الجرِّ (على)؛ لأنّ الفعلَ (عزمَ) يتعدّى بـ(على)، والتَّقديرُ: وإن عزمُوا علَى الطَّلاق، وإمّا أن يكون منصوبًا بتضمينِ الفعل (عزم) مَعْنَى الفعلِ (نَوَى)، فيتعدّى إلى مفعول به[4]، والثَّاني أوفقُ ببلاغة القرآنِ الكريم؛ لما فيه من تكثيرِ المعاني.

دِلَالَةُ حَذْفِ جَوَابِ الشَّرْطِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَإِنۡ عَزَمُواْ ٱلطَّلَٰقَ﴾:

النَّظَرُ فِي الْعَوَاقِبِ قَبْلَ إِيقَاعِ الطَّلَاقِ

العزم في قوله سبحانه: ﴿وَإِنۡ عَزَمُواْ﴾ يُرادُ به التّصميمُ على الطَّلاق؛ إذِ العزمُ آخرُ مراتبِ القصدِ: الهاجس، ثم الخاطر، ثم حديث النفس، ثم الهمُّ، ثم العزمُ؛ وليس بعدَ العزم إلَّا فعلُ ما عُزِمَ عليه، وفي اختيار العزمِ لتعليق الطَّلاقِ به: إشعارٌ بأنَّ المُولِيَ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/386.
(2) الاحتباك: هو أن يجتمع في الكلام مُتقابلان، ويُحذف من كلّ واحدٍ منهما مُقابِلُه. يُنظر: عبد الرَّحمن حبنَّكة، البلاغة العربيَّة: 1/54.
(3) الزركشي، البرهان في علوم القرآن: 3/129.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/450.

يتعيَّنُ عليه التَّأنِّي والتَّأمُّلُ قبل إيقاعِ الطَّلاقِ، ولا يُبادِرُ به عند أوَّلِ خطورِهِ ببَالِهِ.

رَغْبَةُ الشَّرِيعَةِ الإِسْلَامِيَّةِ عَنِ الطَّلَاقِ إِلَّا لِدَفْعِ الضَّرَرِ

وجوابُ الشَّرطِ محذوفٌ، والتَّقدير: وإن عزموا الطَّلاقَ؛ فَلْيُوقِعُوهُ؛ ووجهُ حذفِهِ الجوابَ: العُدُولُ عن صورةِ الأمرِ بالطَّلاقِ؛ إيماءً إلى أنَّه مرغوبٌ عَنْهُ، ولا تتشوَّفُ له الشَّريعَةُ إلَّا لدفعِ الضَّرَرِ.

ويَحْتَمِلُ أن يكون الشَّرْطُ محذوفًا؛ لعدم توقُّفِ وقوعِ الطَّلاقِ بعد مضي الأشهر الأربعة على إيقاع المولي للطَّلاقِ، بل إنَّ الطَّلاقَ يقع عليه بمضيّ المدَّةِ ولو لم يُطلِّقْ، كما ذهب إليه جمعٌ من الفقهاء، والجمهور على خلافه، وأنَّهُ لا بدّ من التّوقيف بعد تمام الأشهر، والعزيمة: هي التّطليق، أو الإبانة وقت التّوقيف حتّى يطلّق الحاكم[1].

بَلَاغَةُ أُسْلُوبِ التَّقْسِيمِ فِي اسْتِيعَابِ حَالَيِ الْمُولِي:

بَيَانُ الشَّرِيعَةِ لِلْأَحْكَامِ: لَا لَبْسَ فِيهِ

قول اللّه تعالى: ﴿وَإِنْ عَزَمُواْ ٱلطَّلَٰقَ﴾ تتميمٌ للاحتمالَيْنِ اللَّذين يؤول إليهما حالُ المُولي، بعد ذِكْرِ أوَّلِهما في قوله: ﴿فَإِن فَآءُو﴾، والفاء للتَّعقيب[2]، وفي هذا أسلوبُ التَّقسيم؛ إذ في ذكر حالَيِ المُولي؛ الفيئةِ والطَّلاقِ: استيعابٌ لأحوالِهِ؛ فليس له حالٌ أُخرَى، وهذا يَتَناسبُ معَ بيان الأحكام؛ فإنَّ طريقةَ الشَّريعةِ بيانُهَا بيانًا شافيًا لا لبسَ فيه، ولا سيَّما ما يتعلَّقُ بقضايا الأُسرةِ.

الْكِنَايَةُ عَنْ لُزُومِ الطَّلَاقِ وَإِمْضَائِهِ:

إِلْزَامُ الْمُولِي بِالطَّلَاقِ بَعْدَ انْقِضَاءِ الْأَجَلِ الْمُحَدَّدِ؛ دَفْعًا لِلضَّرَرِ عَلَى الْمَرْأَةِ

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ عَزَمُواْ ٱلطَّلَٰقَ﴾؛ أي: حقّقوا وصدّقوا ونَوَوا، وقوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ دليل الجواب، وكناية عن لزوم الطَّلاق وإمضائِهِ؛ أي: فقد لَزِمَهم، وأُمْضِيَ طلاقُهم، فإنَّ قوله سبحانه: ﴿سَمِيعٌ﴾ يقتضي مسموعًا، وذلك هو الطَّلاقُ؛ إذ الطَّلاقُ يكون بنُطْقِ الزَّوْجِ باللَّفْظِ المخصوصِ، فكأنَّه لِلُزومِهِ قد تحقَّقَ ووقعَ، وسَمِعَهُ اللّه تعالى.

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوَجيز: 1/292.
(2) النّسفيّ، مدارك التّنزيل: 1/189.

واللّه تعالى قد حَدَّ للرّجال في الإيلاء أجلًا محدودًا، لا يتجاوزونه، فإمّا أن يعودوا إلى مضاجعة أزواجهم، وإمّا أن يطلقوا، ولا مندوحة لهم غير هذين، وقد جعل اللّه تعالى للمُولي أجلًا وغاية؛ الأجل هو أربعة أشهر، والغاية تكون بعد مضي الأجل، وأمّا الأجل فقد اتفقّ عليه علماء الإسلام[1]، وأمّا الغاية؛ فوقع فيها خلافٌ بين أهل العلم، وذهب جمهورهم إلى أنَّ الحاكمَ يُوقِفُ المُولِيَ بعد مضي الأجل، فإمَّا أو يفيءَ وإمَّا أن يُطلِّقَ بنفسهِ، أو يُطلِّق عليه الحاكمُ[2].

قَوْلُ اللهِ تَعَالَى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ بَيْنَ بَلَاغَةِ التَّذْيِيلِ وَبَرَاعَةِ تَشَابُهِ الْأَطْرَافِ:

آيَاتُ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ وِحْدَاتٌ مُتَكَامِلَةٌ فِي تَنَاسُبِهَا

قول اللّه تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ تذييلٌ لمضمونِ الآيةِ؛ فإنَّ قوله سبحانه: ﴿سَمِيعٌ﴾ أي: سميعٌ لأقوالهم، ومنها تطليقُهم، وقولَه: ﴿عَلِيمٌ﴾ أي: عليمٌ بأحوالهم، ومنها: مُفَارَقتُهم زوجاتِهم، إن كان مضارَّةً أو دفعًا للضَّرَرِ[3]، وفيه من التَّهديدِ ما فيهِ.

ويحتمِلُ أن يكون تذييلًا لمضمون هذه الآية والتي قبلَهَا؛ وذلك بأن يكون قوله: ﴿سَمِيعٌ﴾، أي: لإيلائه، الّذي صار طلاقًا بمضي أجله، وذلك أنّ صيغة الإيلاء جعلها الشَّرع سببَ طلاقٍ بشرطِ مضيّ الأمد، ﴿عَلِيمٌ﴾ بنيَّة العازم على ترك الفَيئة[4]، ويكون هذا ضربًا من مراعاةِ النَّظير المسمَّى: تشابُهَ الأطرافِ؛ وذلك بأن يُخْتَمَ الكلامُ بما يتناسبُ مع أوَّلِهِ في المعنى؛ فاسم اللّه تعالى (السَّميع) مناسبٌ للإيلاءِ، واسمه سبحانه (العليم) مناسبٌ لعزمِ الطَّلاقِ.

دِلَالَةُ الْجُمْلَةِ الْخَبَرِيَّةِ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾:

الْحَذَرُ مِنَ الْإِيلَاءِ بِقَصْدِ الْمُضَارَّةِ وَالْمُشَاقَّةِ

قال الزّمخشريّ: قول اللّه تعالى: ﴿وَإِنْ عَزَمُواْ ٱلطَّلَٰقَ﴾، وذلك بأن تربّصوا إلى أن مضتِ المدّة؛ ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ وفي هذا مِنَ الوعيد على الإصرار وترك الفَيئة ما لا يخفى[5]، قال الحَرَالّي:

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/386.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/387.
(3) ابن عثيمين، تفسير الفاتحة والبقرة: 3/96.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/450.
(5) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 1/224.

"وفيه تهديد بما يقع في الأنفس والبواطن مِنَ المضارّة والمضاجرة بين الأزواج في أمور لا تأخذها الأحكام، ولا يمكن أن يصل إلى عِلْمِهَا الحكّام، فجعلهم أمناء على أنفسهم فيما بطن وظهر، ولذلك رأى العلماء أنّ الطَّلاق أمانة في أيدي الرّجال، كما أنّ العِدَدَ والاستبراء أمانةٌ في أيدي النِّساء، فلذلك انتظمَت آية تربّص المرأة في عِدَّتها بآية تربّص الزَّوج في إيلائه"[1]، فتحصَّل من هذا أنَّ قولَ الله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ جملةٌ خبريَّةٌ يُرادُ بها التَّهديدُ والوعيدُ لمن يحلِفُ هذا الحَلِفَ قاصدًا بذلك المضارَّةَ والمُشاقَّة[2].

بَلَاغَةُ التَّرَقِّي مِنَ الْخَاصِّ إِلَى الْعَامِّ:

بَلَاغَةُ الْمَعْنَى وَجَمَالُ اللَّفْظِ عُنْصُرَانِ رَئِيسَانِ فِي الْبَيَانِ الْقُرْآنِيِّ

قُدِّم اسم الله تعالى (السَّميع) على اسمه (العليم) لنُكْتَتَيْنِ:

إحداهما: الترقِّي من الخاصِّ إلى العامِّ؛ وذلك لأنّ العلمَ أعمُّ مِن السَّمع، لعموم متعلَّقِهِ، وبخلاف السَّمْعِ؛ فإنَّ مُتعلّقه أخصّ[3]، وهذا التَّرقِّي أنسبُ لغرضِ التَّهديدِ، وأنَّ الله تعالى لا يخفى عليه شيءٌ، ومن لازِمِه مجازَاتُهُ الخلقَ بمقتضى سمعِهِ وعلمِهِ.

والأخرى: تناسبُ فواصلِ الآيِ؛ إذْ قد خُتِمت آيات هذه القطعة مِنَ القرآن الكريم، بـ(حليم، رحيم، عليم، حكيم)، وفي ذلك تناسقٌ صوتِيٌّ بديعٌ، يُورِثُ جمالَ التّلاوة، وجمال الأداء، ولو قال في الآية: فإنّ الله عليم سميع؛ لفاتِ هذا التَّناسُبُ.

مُنَاسَبَةُ قَوْلِهِ: ﴿سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ لِسِيَاقِ الْآيِ:

التَّحْذِيرُ مِنْ كِتْمَانِ الْحُقُوقِ

لمّا كان المُطَلِّق ربَّما نَدِمَ، فَحَمَلَهُ شَوْقُهُ إلى مُطَلَّقَتِهِ على إنكار الطَّلاق، جاء التّعبير بما فيه مِن مناسبة ذلك، فينهره تعالى بقوله:

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 1/427.
(2) السّعدي، تيسير الكريم الرَّحمن: 1ص: 101.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/450.

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ﴾؛ أي: المَلك الّذي قدّر هذه الأحكام والحدود ﴿سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾؛ أي: سميع بما قلتم، عليم بما تكنّ قلوبكم وما تعلنون.

وفي هذا دليل على أنّها لا تطلّق بعد مضيّ الأربعة الأشهر ما لم يطلّقها زوجها أو السّلطان لأنّه شرط فيه العزم، ولأنّ السَّماع يَقْتَضِي مسموعًا، والقول هو الّذي يُسمع، والسَّماع راجع إلى الطَّلاق[1]. وفي إشارته إعلامٌ بأنّ الطَّلاق لا بدّ له من ظاهر لفظ يقع مسموعًا[2].

المُقَابَلَةُ الْخَفِيَّةُ بَيْنَ مَضْمُونِ فَاصِلَتَي الْآيَتَيْنِ:

الْجَمْعُ بَيْنَ التَّرْغِيبِ وَالتَّرْهِيبِ مِنْ أَبْرَزِ طَرَائِقِ الْقُرْآنِ فِي سَوْقِ الْأَحْكَامِ

خُتِمتْ هذه الآية والتي قبلهَا بأسلوبٍ متشابِهٍ؛ إذْ قُرِنَت كلُّ جملةٍ منهما بالفاء، وأُكِّدَتْ بـ(إنّ)، وذُكِرَ فيها اسمَان من أسماء اللّه الحسنى؛ فالآيَةُ الأولى: تضمّنت حالَ التّرغيب في قوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾؛ إذْ تُرِك التّصريح بأنّه ينبغي أن يكونوا في غاية النَّزَاهة عن الإضرارِ؛ وأومأ إلى ذلك بصفتي المغفرة والرَّحمَة، والآيةُ الثّانية: تضمّنت حالَ التّهديد والوعيد في قوله: ﴿سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾، وفي ذلك مُقابلة خفيَّةٌ بينهما؛ ليس من ذات لفظِهمَا؛ إذ الغفور الرَّحيم ليس مقابلًا للسَّميع والعليم باعتبار المعنى الوضعيِّ لهما، ولكنَّ المقابلةَ بينهما باعتبار لازِمِ معناهُمَا.

والإشارة في تحقيق الآيتين أن يعلم العبد أنّ اللّه لا يُضيّع حقّ أحد من عباده لا على نفسه ولا على غيره، فلمّا تقاصر لسان الزّوجة لكونها أسيرة في يد الزّوج؛ فاللّه تعالى تولّى الأمر بمراعاة حقّها، فأمر الزّوج بالفَيْئَةِ إليها أو تسريحها[3].

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

عزموا وأرادوا:

قوله: ﴿وَإِنْ عَزَمُواْ ٱلطَّلَٰقَ﴾ تفيد معنى أعمقَ وأبعد من الإرادة

(1) الثّعلبيّ، الكشف والبيان: 2/169.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 1/427.
(3) إسماعيل حقي، روح البيان: 1/352.

أو النّيّة؛ لأنّ العزم يأتي بعد التّفكير ودراسة الموضوع ومشكلاته، وبعد أن تدخل الجهات الوسيطة للإصلاح من كلا الطّرفين، ويبذلون محاولاتهم في حلِّ المشكلات؛ بغيةَ أن يفيء الزّوجان إلى رشدهما، ويرجعان إلى حياتهما الزّوجيّة. ولكن إن فشلت تلك المحاولاتُ فإنَّ العزيمة على الطّلاق تكون قائمة، وحينها لا يجدون سبيلًا غير انفصال الزوجين بطريقة شرعية. أمّا قولنا: (أرادوا) أو (نَوَوا) الطّلاق فهو لا يأتي نتاج عمل مُجتمعيّ يتحرّك نحو الإصلاح، وإنّما هي إرادة الزّوج والمرأة أو كليهما دون عرض المشكلة على الرّاشدين من أهل الزّوج والزّوجة والحُكّام بغية الإصلاح.

﴿وَٱلۡمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصۡنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٖۚ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكۡتُمۡنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِيٓ أَرۡحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤۡمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَٰلِكَ إِنۡ أَرَادُوٓاْ إِصۡلَٰحٗاۚ وَلَهُنَّ مِثۡلُ ٱلَّذِي عَلَيۡهِنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيۡهِنَّ دَرَجَةٞۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ٢٢٨﴾ [البقرة: 228]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

﴿وَٱلۡمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصۡنَ بِأَنفُسِهِنَّ﴾، مناسبة هذه الآية لما قبلها ظاهرة جدًا؛ لأنّه حُكم غالب من أحكام النِّسَاء، ولأنّ الطَّلاق يحصل به المنع من الوطء والاستمتاع دائمًا، وبالإيلاء منع نفسه من الوطء مدّةً محصورةً، فناسب ذكر غير المحصور بعد ذكر المحصور، ومشروع تربّص المُولي أربعة أشهر، ومشروع تربّص هؤلاء ثلاثة قروء، ولمّا ذكر تربّص الزّوج في أمر الطَّلاق الّذي هو أمانته ذكر تربّص المرأة في أمر العِدّة الّتي هي أمانتها[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَتَرَبَّصۡنَ﴾: جذر الكلمة (ربص)، والتَّرَبُّصُ: الانتظار بالشَّيء يَومًا[2]. والرُّبْصَةُ الاسمُ، ومنه يُقال: ليس في البَيع رُبْصَةٌ، أي: لا يُتَرَبَّصُ به[3]. والمُتَرَبِّصُ: المحتكِرُ. ولي في متاعي رُبْصَةٌ، أي: لي فيه تَرَبُّصٌ[4]. والفرق بين الانتظار والتّربّص أنّ التَّرَبُّص طول الانتظار يكون قصيرَ المدَّة وطويلها، ومن ثمَّ يُسمّى المُتربّص بالطَّعام وغيره مُتربِّصًا؛ لأنّه يُطِيل الانتظار لزيادة الرِّبح، ومنه قوله تعالى: ﴿فَتَرَبَّصُواْ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٖ ٢٥﴾ [المؤمنون: 25]، وأصله من الرّبصة، وهي التّلبُّث. يُقال: ما لي على هذا الأمر ربصة، أي: تلبَّث في الانتظار حتّى طال[5].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 1/427.
(2) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، والجوهريّ، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن فارس، مُجمل اللّغة: (ربص).
(3) الخليل، العين: (ربص).
(4) الجوهريّ، الصّحاح: (ربص).
(5) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 122.

ومعنى الآية: ينتَظِرْن دُونَ نكاحٍ بعدَ حصول الطَّلاقِ.

2) ﴿قُرُوٓءٍ﴾: القُرء: جذر الكلمة هو (قرأ)، تقول: قَرَأتِ المرأة قرءًا إذا رأت دمًا، وأَقرأَت إذا حاضت، فهي مقرىء[1]، ولا يُقال: أَقرَأَت إلا للمرأة خاصّة. والقارئ: الحامِلُ، ويُقال للمرأة: قعدَت أيّام إقرائها، أي: لم تَحمِل، وقوله تعالى: ﴿ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ﴾، والقياس أَقرُءٌ[2]. قال الشّافعي: ثلاثة أطهار[3]. وهذا اللفظ من الأضداد عند أهل اللُّغة للوجهين المذكورين في معناه، وحَقيقَته الوَقت عند بَعضهم، والجمع عند آخَرين، والانتقال من حال إلى آخر عند آخَرين[4].

ومعنى الآية: ثلاثةَ أوقاتٍ من الطُّهر أو الحيضِ للتأكدِ من فراغِ الرَّحِم.

3) ﴿وَبُعُولَتُهُنَّ﴾: جذر الكلمة هو (بَعَلَ)، والبَعْلُ: الزّوجُ[5]. وامرأةٌ مستَبْعَل، إذا كانت تحظَى عند زوجها، والرّجل يتعرَّس لامرأته يطلب الحُظْوَة عندها، والمرأة تَتَبَعّل لزوجها إذا كانت مطيعةً له[6]. وأيّامُ بِعالٍ؛ أي: مباشرةٍ، وقد باعلها مباعلة وبِعالًا؛ أي: باشرها مباشرة، والبَعلةُ: الزّوجة[7].

وتظهر أهميّة استعمال هذا اللّفظ في الآية في قوله: ﴿وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ﴾؛ لتقريب الذّهن إلى ما كان بينهما من العلاقة والمودَّة والعِشْرة.

المَعْنى الإجْماليُّ:

يذكر اللّه ﷻ حكم العِدّةِ للمطلقات، وهنَّ المطلقاتُ ذوات الحيض، فيجب عليهنَّ أن ينتظرن دون نكاح بعد الطلاق مدةَ ثلاثةِ أطهار أو ثلاث حيضات على سبيل العدة؛ ليتأكدنَّ من فراغِ الرَّحم من الحَمْل. ولا يجوز لهن تزوج رجل آخر في أثناء هذه العدة حتى تنتهي؛ حتى تكون مهلة للتّفاهم والتَّراجع وتلافي النّدم. ولا يحلُّ لهن أن يُخفين

(1) الزّمحشريّ، أساس البلاغة: (قرأ).
(2) الخليل، العين: (قرأ).
(3) الأزهريّ، الزّاهر: (قرأ).
(4) السّبتيّ، مشارق الأنوار: (قرأ).
(5) الخليل، العين، وابن دريد، جمهرة اللّغة: (بعل).
(6) الخليل، العين: (بعل).
(7) النّسفيّ، طلبة الطّلبة: (بعل).

ما خلق الله في أرحامهن من الحمل أو الحيض، إن كانت المطلقات مؤمناتٍ حقًّا بالله واليوم الآخر؛ لئلا يفضي هذا الكتمانُ إلى اختلاط الأنساب. وأزواجُ المطلقات أحق بمراجعتهن في العدة. وينبغي أن يكون ذلك بقصد الإصلاح والخير، وليس بقصد الإضرار؛ تعذيبًا لهن بتطويل العِدَّة. وللنساء حقوق على الأزواج، مثلُ التي عليهن على الوجه المعروف، وللرجال على النساء منزلةٌ زائدة من حسن الصحبة، والعشرة بالمعروف، والقِوامة على البيت، ومِلْك الطلاق. والله عزيز له العِزَّة القاهرة، حكيمٌ يضع كل شيء في موضعه المناسب[1].

❁ الإيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

سَبَبُ وَصْلِ قَوْلِهِ: ﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ﴾ بِمَا قَبْلَهُ:

مَشْرُوعِيَّةُ تَرَبُّصِ الْأَزْوَاجِ الْمُولِينَ وَتَرَبُّصِ الزَّوْجَاتِ الْمُطَلَّقَاتِ

المُطلَّقات في قوله تعالى: ﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ﴾، يقصد بها المدخول بهنّ من ذوات الْأَقْرَاء[2] لِما دلَّت عليه الآيات والأخبار أنَّ حكم غيرهنّ خلاف ما ذكر[3].

ووُصِلَ قولُهُ: ﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ﴾ بالجملةِ قبلَهُ؛ لأنَّ بينهما توسُّطًا بين الكمالين؛ إذِ الجملتان خبريَّتانِ، وبينهما تناسبٌ في المعنَى واتِّحادٌ في الحكمِ؛ وهو التَّربُّص، فكلاهما فيه انتظارٌ لأجل المراجعةِ، ولذلك لم يقدّم قوله: ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ﴾ على قوله: ﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ﴾؛ لأنّ هذه الآي جاءت متناسقةً منتظمةً على حسب مناسبات الانتقال على عادة القرآن في إبداع الأحكام وإلقائها، بأسلوب سَهل، لا تَسأَم له النّفس، ولا يجيء على صورة التّعليم والدّرس[4]، وهذا ما يُرشّح للتّدرّج أو لِفَنَّيِ التّرقّي والتّدلّي، فناسب ذكرها بعقبها[5].

(1) نخبة من العلماء، التفسير الميسر، ص: 36.
(2) النّسفيّ، مدارك التّنزيل: 1/188.
(3) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 1/141.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/388.
(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/452.

نُكْتَةُ تَقْدِيمِ الْمُسْنَدِ إِلَيْهِ عَلَى الْمُسْنَدِ الفعلي:

أَهَمِّيَّةُ وُجُوبِ تَرَبُّصِ الْمُطَلَّقَاتِ وَاعْتِدَادِهِنَّ الْمُدَّةَ الَّتِي أَمَرَ اللهُ تَعَالَى

الجملة في قوله: ﴿وَٱلۡمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصۡنَ﴾ اسمية، وهي تفيد الثّبات، وقُدِّمَ فيها المُسْنَدُ إليه ﴿وَٱلۡمُطَلَّقَٰتُ﴾ على المُسْنَدِ الفعليِّ ﴿يَتَرَبَّصۡنَ﴾؛ لزيادةِ التَّوكيدِ؛ إذْ لو قيل: ويتربّص المُطلّقات؛ لم يكن بتلك القوَّةِ في التَّوكيدِ.

ووجهُ إفادةِ تقديم المسند إليه على المسند الفعلي التَّوكيدَ: أنَّ فيها تكرارَ النِّسبةِ مرَّتينِ؛ إحداهما في نسبة الفعل ﴿يَتَرَبَّصۡنَ﴾ إلى الاسم الصَّريحِ للمسند إليه ﴿وَٱلۡمُطَلَّقَٰتُ﴾، والأخرى: في نسبة الفعل ﴿يَتَرَبَّصۡنَ﴾ إلى نونِ النِّسوة العائدِ على ﴿وَٱلۡمُطَلَّقَٰتُ﴾[1]، وفيه إشعارٌ بأهميَّةِ التَّربُّصِ ووجوبِهِ ولزومِهِ؛ لما فيه من جلب المصالحِ العظيمةِ، ودفع المفاسدِ الخَطِيرةِ.

دِلَالَةُ اسْتِعْمَالِ الْخَبَرِ فِي مَعْنَى الْأَمْرِ فِي قَوْلِهِ: ﴿يَتَرَبَّصۡنَ﴾:

وُجُوبُ اعْتِدَادِ الْمُطَلَّقَاتِ، وَعَدَمُ التَّرَاخِي فِي امْتِثَالِ ذَلِكَ

قوله تعالى: ﴿يَتَرَبَّصۡنَ﴾ خَبَرٌ، خرج عن أصلِ دِلالَتِهِ الخبريَّةِ؛ وذلك أنَّنا نرى مطلَّقاتٍ لا يتربَّصن المدَّة التي أمر اللّه تعالى بها، ولو كان خبرًا باقيًا على دِلالَتِهِ الخبريَّةِ؛ لاقتضى تخلُّفَ خبرِ اللّه تعالى، وهذا غيرُ جائزٍ، وإنَّما المرادُ بالخبر ههنا: الأمر، والمعنى: لِيتربَّصنَ.

ووجه العدولِ عن التَّعبير بصيغةِ الأمر الصَّريحةِ إلى التَّعبير بالخبَرِ: الإشعارُ بأنَّه مما ينبغي أن يكون واقعًا ولا بدَّ، فلا يُطلَبُ من المخاطب تحصيلُهُ، بل يُخْبَرُ بِهِ عنه؛ لِتَحَقُّقِهِ خبرًا خالصًا، كالإخبار عن سائر الأشياء الموجودة[2]، والمعنى: أنَّه ممَّا يجب أن يسارعَ إلى امتثالِهِ، ليتحقَّقَ في الخارجِ ويُخبَرُ عنه موجودًا[3].

والخبر المُستعمَل في الإنشاء ضربٌ من المجاز، وهو مجازٌ مرسَلٌ

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/453.
(2) ابن القيم، بدائع الفوائد: 1/181.
(3) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 1/141.

مركَّبٌ؛ إذ قد استُعمِلَ الخبرُ في لازم معناه، وهو التّقرير والحصول، وهو الوجه الّذي ارتضاهُ التّفتازانيّ في قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِى ٱلنَّارِ﴾ [الزّمر: 19]، بأن يكون الخبر مُستعمَلًا في المعنى المركب الإنشائيّ، بعلاقة اللّزوم بين الأمر - مثلًا - كما هنا وبين الامتثال، حتّى يقدّر المأمور فاعلًا فيخبر عنه، فهو تشبيه ما هو مطلوب الوقوع بما هو مُحقّق الوقوع في الماضي، كما في قول النّاس: رحمه اللّه، أو في المستقبل، أو الحال، كما في هذه الآية[1].

ويجوز جعله مجازًا تمثيليًا كما اختاره الزّمخشريّ في هذه الآية إذ قال: "فكأنّهنّ امتثلن الأمر بالتّربّص فهو يخبر عنه موجودًا، ونحوه قولهم في الدّعاء: رحمه اللّه ثقة بالاستجابة"[2].

دِلَالَةُ الْفِعْلِ الْمُضَارِعِ فِي قَوْلِهِ: ﴿يَتَرَبَّصْنَ﴾:

وُجُـوبُ امْتِثَـالِ الْأَوَامِرِ الشَّرْعِيَّةِ كُلَّمَا وُجِدَ سَبَبُهَا

لمّا أُريد تَأكيد أَمْرِهنّ بالعِدّة وقع التَّعبير بالجملةِ الخبريَّةِ مرادًا بها الأمرُ - كما سبق آنفًا -، وكان يُمكن الإبقاءُ على الجملة الخبريَّة بأن يقال: (والمطلَّقات متربِّصاتٌ)، إلَّا أنَّ الخبر وقع فعلًا مضارعًا؛ لما في التَّعبير بالفعل من تَكرارِ النِّسبة المفيدةِ تقويةَ الإسنادِ، ولما في الفعل المضارعِ من الدِّلالةِ على التَّجدُّدِ، ففيه الإشعارُ بأنَّ العدَّةَ تجبُ كُلَّما وُجدَت مطلَّقةٌ.

بَلَاغَةُ الْإِطْنَابِ فِي قَوْلِهِ ﴿بِأَنفُسِهِنَّ﴾:

إِلْـزَامُ النَّفْسِ بِمُجَانَبَةِ الْهَوَى الْمُخَالِفِ لِلشَّرْعِ

لمّا كانتِ النَّفسُ داعيةً إلى الشّهوات، وكان التّربّص عامًّا في النّفس بالعقد لزوج آخر، وفي التّعرّض له باكتحال وتزيّن وتعريض بكلام، مع البينونة، وبغير ذلك؛ خصّ الأوّل معبّرًا لها بالنّفس، هزًّا إلى الاحتياط في كمال التّربّص والاستحياء، ممّا يوهم

(1) الكرمانيّ، غرائب التّفسير: 1/214.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/298.

الاستعجال، فقال: ﴿بِأَنفُسِهِنَّ﴾، فلا يُطْمِعْنَهَا في مواصلة رجلٍ قبل انقضاء العِدّة[1].

فقوله: ﴿يَتَرَبَّصْنَ﴾؛ أي: يَتَلَبَّثْنَ وينتظرنَ مرورَ ثلاثةِ قروءٍ، وَزِيدَ: ﴿بِأَنفُسِهِنَّ﴾ تهييجًا وبعثًا لَهُنَّ على التَّرَبُّصِ المأموراتِ به؛ إذْ إنَّ نفوسَ النِّساء طوامحُ إلى الرِّجال، فأُمِرْنَ بأن يَقْمَعْنَهَا ويَحْمِلْنَهَا على التَّرَبُّصِ[2]، جاء في (الكشّاف): "ففي ذِكْرِ الأنفس تهييج لهنّ على التّربّص وزيادة بعث؛ لأنّ فيه ما يَسْتَنْكِفْنَ منه، فيحملُهنّ على أن يتربّصنَ"[3].

دِلَالَةُ الْبَاءِ فِي قَوْلِهِ: ﴿بِأَنفُسِهِنَّ﴾:

قوله: ﴿بِأَنفُسِهِنَّ﴾ مُتعلّق بـ﴿يَتَرَبَّصْنَ﴾، وظاهر الباء مع فعل التَّربُّص كونُهَا للسَّبَبِيَّةِ؛ أي: من أجل أنفُسِهِنَّ، ولا بُدَّ أنَّ ذلك من ذكر الأنفُسِ، لأنَّهُ لو قيل في الكلام: يتربَّصُ بهنَّ لم يجز، لأنّ فيه تعديّةَ الفعل الرّافع لضمير الاسم المتّصل إلى الضّمير المجرور، وهذا غير جائز، ويجوز هنا أن تكون زائدة للتّوكيد، والمعنى: يتربّصن أنفسهنّ.

وفائدة التّأكيد هنا: أنّهنّ يباشرن التّربّص، ودفعُ احتمال أنَّ غيرهنّ تباشر ذلك بهنّ، بل هنّ أنفسهنّ المأمورات بالتّربّص؛ إذ ذاك أدعى لوقوع الفعل مِنهُنَّ، فاحتيج إلى ذلك التّأكيد لِما في طباعهنّ من الطّموح إلى الرّجال والتّزويج، فمتى أُكّد الكلامُ؛ دلّ على شدّة المطلوب[4].

تَقْوِيمُ الْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ لِمَكْنُونَاتِ النُّفُوسِ وَخَلَجَاتِهَا

إفادة التّوكيد في ورود الخبر في معنى الأمر:

قوله: ﴿يَتَرَبَّصْنَ﴾ خبر بمعنى الأمر، وهو من قبيل التّبادل بين الخبر والإنشاء، فإخراج الأمر في صورة الخبر تأكيدٌ للأمر، وإشعار بأنَّه ممّا يجب أن يتلقى بالمسارعة إلى امتثاله، فكأنَّهُنَّ امتثلن الأمر

الخطاب للمُطلّقات بيان لهنّ أنّ هذا الأمر ممّا كتب الله عليهنّ؛ إذ لا خيار لأنفسهنّ فيه

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 1/427.
(2) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 1/141.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/298.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/454.

بالتّربّص، فهو يخبر عنه موجودًا، أخرج في صورة الخبر عن اللّه ثقة بالاستجابة، كأنّما وُجدت الرّحمة فهو يخبر عنها[1]، وبناؤه على المبتدأ ممّا زاد فضل تأكيد[2]. لأنّ الجملة الاسميّة تدلُّ على الدّوام والثّبات بخلاف الفعليّة[3]. وقيل: هو أمر لفظًا ومعنى على إضمار اللّام، أي: ليتربّصن، وهذا على رأي الكوفيّين[4].

الْعُدُولُ عَنْ جَمْعِ الْقِلَّةِ إِلَى جَمْعِ الْكَثْرَةِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ﴾:

عُمُومُ وُجُوبِ الْعِدَّةِ لِكُلِّ الْمُطَلَّقَاتِ

القروءُ في قوله تعالى: ﴿ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ﴾ جمع قرء؛ وهو الحدّ الفاصل بين الطّهر والحيض، فهو يقبل الإضافة إلى كلّ واحد منهما، ولذا تعارضت في بيان حقيقَتِهِ أقوالُ اللّغويين، واختَلَفتْ في معناه آراءُ العلماء؛ لخفاء معناه بما هو حدّ بين الحالين، كالحدّ الفاصل بين الظّلّ والشّمس، فالقروء: الحدود[5].

وقروء جمعٌ من جموعِ الكثرةِ، اقترنَ ههنا بالثّلاثة؛ وهي داخلةٌ في حدِّ جمعِ القلّة؛ وذلك على سبيل التَّوسُّع، على عادة العربِ في الجموعِ أنّها تتناوب، إلَّا أنَّه أوثر في هذه الآية جمع الكثرةِ؛ لكونه أخفَّ على اللِّسانِ من جمع القلَّةِ (أَقْرَاء)، واللّبس مأمونٌ؛ لوجود العدد الصَّريح، ولكونِهِ أكثر استعمالًا، فنُزِّلَ قليلُ الاستعمال منزلةَ المهملِ[6]، وللإيماء إلى تعدُّدِ الأقراء بتعدُّدِ النِّساءِ؛ إذ الحكم يعمُّ المطلَّقاتِ، فهي بهذا الاعتبار كثيرةٌ[7].

تَقْدِيمُ الْجَارِّ وَالْمَجْرُورِ ﴿بِأَنفُسِهِنَّ﴾ عَلَى الْمَفْعُولِ ﴿ثَلَٰثَةَ﴾:

وُجُوبُ تَحْصِينِ النَّفْسِ وَالْحِرْصِ عَلَيْهَا

قُدِّم الجارُّ والمجرور ﴿بِأَنفُسِهِنَّ﴾ تهييجًا وبعثًا للمطلَّقاتِ على

(1) النّسفيّ، مدارك التّنزيل: 1/188.
(2) الزّمحشريّ، الكشّاف: 1/298.
(3) النّسفيّ، مدارك التّنزيل: 1/188.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/453.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 1/428.
(6) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/272.
(7) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/456، والطّيبي، فتوح الغيب: 3/395.

التّربّص؛ إذ إنّ نفوس النِّسَاء طوامح إلى الرّجال، فأُمرن بأن يقمعنَها ويحملنَها على التّربّص، ففي التّقديم إيماءٌ إلى وجوب تَحْصِين النّفسِ والحرص عَلَيْهَا.

و﴿ثَلَٰثَةَ﴾ من قولِه: ﴿ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٖ﴾ منصوبٌ على الظّرفيَّةِ، أو المفعول به، أي: يتربّصن مضيّها[1].

نُكْتَةُ الْإِجْمَالِ فِي اسْتِعْمَالِ اللَّفْظِ الْمُشْتَرَكِ ﴿قُرُوٓءٖ﴾:

فِي لَفْظِ (الْقَرْءِ) سَعَةٌ فِي الدِّلَالَةِ، وَفَتْحٌ لِبَابِ نَظَرِ الْفُقَهَاءِ وَاجْتِهَادِهِمْ

صار لفظ (القَرْءُ) مستعارًا للوقت المنتظر، وأصله من قولهم: أَقْرَأَ النّجمُ؛ إذا طلع واحدٌ وغاب آخر[2]، والقُروء: جمع قَرء - بفتح القاف وضمّها -، وهو مُشترَك في اللّغة للحيض والطّهر[3]، وقال أبو عبيدة: إنّه موضوعٌ للانتقال من الطّهر إلى الحيض، أو من الحيض إلى الطّهر، فلذلك إذا أُطلق على الطّهر أو على الحيض؛ كان إطلاقًا على أحد طرفيه، وتبعه الرّاغب، ولعلّهما أرادا بذلك وجه إطلاقه على الضّدّين[4].

ومَرجِع النّظر في هذا إلى الجمع بين مقصدي الشّارع من العِدّة؛ وذلك أنّ العِدّة قصد منها تحقّق براءة رحم المُطلَّقة من حمل المُطلِّق، وانتظارُ الزّوج لعلّه يرجع، فبراءة الرّحم تحصل بحيضة أو طهر واحدٍ، وما زاد عليه تمديد في المدّة انتظارًا للرجعة، فالحيضة الواحدة قد جُعِلت علامة على براءة الرّحم في استبراء الأمَةِ في انتقال الملك، فتعيّن أنّ ما زاد على حيض واحدٍ؛ ليس لتحقّق عدم الحمل، بل لأنّ في تلك المدّة رفقًا بالمُطلِّق، ومشقّة على المُطلَّقة، فتعارض المقصدان، وقد رُجِح حقّ المُطلِّق في انتظاره أمدًا بعد حصول الحيضة الأولى وانتهائها، وحصول الطّهر بعدها، فالّذين جعلوا القروء أطهارًا؛ راعوا التّخفيف عن المرأة، مع حصول

(1) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 1/141، والدّعّاس، إعراب القرآن: 1/94.
(2) الراغب، تفسير الراغب: 1/465.
(3) ابن جُزيّ، التّسهيل: 1/122.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/390.

الإمهال للزّوج، واعتضدوا بالأثر، والّذين جعلوا القروء حيضات؛ زادوا للمُطلّق إمهالًا؛ لأنّ الطَّلاق لا يكون إلاّ في طهر عند الجميع، كما ورد في حديث عمر بن الخطاب في الصّحيح، واتّفقوا على أنّ الطّهر الّذي وقع الطَّلاق فيه معدودٌ في القروء الثّلاثة[1].

دِلَالَةُ اسْتِعْمَالِ الِاسْمِ الْمَوْصُولِ (مَا) فِي قَوْلِهِ ﴿وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ﴾:

مِنْ مَفَاسِدِ كَتْمِ الدَّمِ: قَطْعُ رَجْعَةِ الزَّوْجِ، وَمِنْ مَفَاسِدِ كَتْمِ الْوَلَدِ: إِلْحَاقُ الْوَلَدِ بِغَيْرِ أَبِيهِ

في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِيٓ أَرْحَامِهِنَّ﴾ إخبار عن انتفاء إباحة الكتمان، وذلك مقتضى الإعلام بأنّ كتمانهنّ مَنهيٌّ عنه مُحرَّم، فهو خبر عن التّشريع، وإعلام لهنّ بذلك، وما خلق اللّه في أرحامهنّ هو الدّم، ومعناه كتم الخبر عنه لا كتمان ذاته[2]، وممَّا خلقه اللّه في أرحامهنَّ: الولد.

واستعمال (مَا) وهي اسم موصولٌ مبهمٌ يُوسِّعُ الدِّلالةِ، فيكون النَّهي عن كتم دمِ الحيض والولدِ معًا؛ لعدم التَّعارُضِ بينَ الدِّلالتين، فأمَّا عدم كتم دم الحيض؛ فلئلا تَنْقَطِعَ رجعة الزَّوج وشيءٌ مِنَ الدمِ باقٍ، وأمَّا عدم كتم الولدِ؛ فلئلا يُلْحَقَ الولدُ بغيرِ أبيه، كما كان يصنَعُ أهلُ الجاهلية[3].

نُكْتَةُ الْعُدُولِ عَنْ صِيغَةِ النَّهْيِ الصَّرِيحَةِ إِلَى نَفْيِ الْحِلِّ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ﴾:

التَّحْذِيرُ مِنْ كِتْمَانِ الْحُقُوقِ

نفي الحلِّ في قوله: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ﴾ يستلزِمُ التَّحريمَ؛ وفي هذا التَّعبير: نفيٌ للحلّ بصريح اللَّفْظِ، وإثباتٌ للحرمة بالفَحْوَى؛ تأكيدًا له، والمعنى: ولا يَكْتُمْنَ، إلَّا أنَّ نفي الحلِّ آكدُ؛ لكونِهِ نصًّا في التَّحريم، بخلافِ صيغةِ النَّهي فقَد يُتَوَهَّمُ مِنْهَا الكراهَةُ.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/391.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/391.
(3) بيان الحقِّ النَّيسابوريّ، باهر البرهان في معاني مشكلات القرآن: 1/225.

دِلَالَةُ الْكِنَايَةِ عَلَى الِاكْتِفَاءِ بِشَهَادَةِ الْمُطَلَّقَةِ:

اتِّهَامُ الْمَرْأَةِ الْمُؤْمِنَةِ فِي الْإِخْبَارِ عَنْ أَحْوَالِهَا الْخَاصَّةِ

في قوله: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِىٓ أَرْحَامِهِنَّ﴾ كناية عن الاكتفاء بشهادة المُطلَّقة نفسها على حالها، وقرينة ذلك قوله: ﴿إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾، ففيه إيماءٌ إلى أنَّه لا يُستقصَى عليهنّ، فهُنّ مُؤتمنات على ذلك[1].

وليس في هذا ما يدلُّ على عدمِ التَّثبُّتِ فيما يُخبِرْنَ به عند وجودِ الرِّيبةِ، كما قال ابن عاشور: "وليس في الآية دليل على تصديق النِّسَاء في دعوى الحمل والحيض، كما يجري على ألسنة كثير من الفقهاء، فلا بُدَّ من مراعاة أن يكون قولهنّ مشبهًا، ومتى ارتيب في صدقهنَّ؛ وجب المصير إلى ما هو المحقّقُ، وإلى قول الأطبّاء، ولذلك قال مالك: لو ادَّعت ذات القروء انقضاء عِدّتها في مدَّة شهر من يوم الطَّلاق لم تُصدَق، وقال ابن العربيّ: لا تُصدَق في أقلّ من ثلاثة أشهر. وفي الآية دلالة على أنَّ المطلَّقَة الكتابيَّة لا تُصدَق في قولها: إنها انقضت عدتها"[2].

الْإِيمَانُ بِاللهِ تَعَالَى وَالْخَوْفُ مِنْهُ أَعْظَمُ مَوَانِعِ الْكَذِبِ

ومع ذلك كلّه؛ فإنّ احتمال الكذبِ قائم، ولو في حال الاستعانةِ بالطّبيبات - إن لم يكُنّ يؤمنّ بالله واليوم الآخر -؛ إذِ احتمال الكذِبِ وارد باتّفاق المُطلَّقة مع الطبيبة، فيبقى أقوى وازعٍ استدعاء الإيمانِ والخوف من الله تعالى ومن عقوبته.

دِلَالَةُ الْكِنَايَةِ بِكِتْمَانِ مَا فِي الْأَرْحَامِ:

إِسْقَاطُ الْأَجِنَّةِ مِنَ الْمُحَرَّمَاتِ الْمُنَافِيَةِ لِكَمَالِ الْإِيمَانِ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ

نهي المطلَّقاتِ عن كتمان ما خلق الله في أرحامهنَّ يجوز أن يُرادَ به النَّهي؛ فَقَدْ يَكْتُمْنَ "فلا يعترفنَ به، ويجحدنَه، لذلك جعل كتمان ما في أرحامهنّ كناية عن إسقاطه"[3].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 1/429.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/392.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/457.

وقد كَثُرت في الأزمنة المتأخرة أساليبُ التَّدليسِ وجَحْدِ الحقائقِ، ولذا نهى اللّه تعالى عنه بقوله: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِىٓ أَرْحَامِهِنَّ﴾، ويَدخل في التَّحريم الأصيلُ في الكتمان، والمشارِكُ فيه؛ من طبيبةٍ وغيرهَا.

دِلَالَةُ الْمَجَازِ الْمُرْسَل الْمُرَكَّبِ في قوله: ﴿إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾:

الْإِيمَانُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ حَامِلٌ عَلَى امْتِثَالِ الْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ

قوله تعالى: ﴿إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ شرط أُريد به التّهديد دون التّقييد، فهو مُستعمل في معنى غير معنى التّقييد، على طريقة المجاز المُرسَل المركَّب، كما يُستعمل الخبر في التّحسر والتّهديد؛ لأنّه لا معنى لتقييد نفي الحمل بكونِهنَّ مُؤمنات، وإن كان كذلك في نفس الأمر؛ لأنّ الكوافرَ غيرُ ملتزماتٍ بأحكام الشَّريعة، وإنَّما المعنى: أنّهنّ إن كتمن فَهُنَّ لا يؤمنّ باللّه واليوم الآخر كمالَ الإيمانِ؛ إذ ليس مِن شأن المؤمناتِ هذا الكتمان[1]، فقوله: ﴿إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ﴾ سيقَ مساقَ الوعيدِ.

نُكْتَةُ التَّعْلِيقِ بِحَرْفِ الشَّرْطِ ﴿إِن﴾:

التَّذْكِيرُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ مِنْ دَوَاعِي الْإِصْلَاحِ وَضَمَانِ الْحُقُوقِ

جيء في هذا الشّرط بـ﴿إِن﴾؛ لأنّها أصل أدوات الشّرط ما لم يكن هنالك مقصد لتحقيق حصول الشّرط فيُؤتى بـ(إذا)، فإذا كان الشّرط مفروضًا فرضًا لا قصد لتحقيقه ولا لعدمه جيء بـ﴿إِن﴾. وليس لوجود شيء من معنى الشّك في حصول الشّرط، ولا تنزيل إيمانهنّ المُحقّق منزلة المشكوك، لأنّه لا يستقيم[2]، وفي استعمال الشَّرط تحريضٌ لهنَّ على امتثال النَّهي، بتركِ المنهيِّ عنه.

دِلَالَةُ الْحَذْفِ وَبَلَاغَتُهُ:

في قوله تعالى: ﴿إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ شرطٌ جوابه محذوف، وإنَّما حُذِف لدلالة ما قبله عليه، ويقدّر هنا من لفظه؛ أي:

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/391.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/392.

إن كنّ يؤمنّ بالله واليوم الآخر، فلا يحلّ لهنّ ذلك، والمعنى: أنّ من اتّصف بالإيمان لا يُقدِم على ارتكاب ما لا يحلّ له، وعُلِّق ذلك على هذا الشّرط وإن كان الإيمان حاصلًا لهنّ؛ إيعادًا وتعظيمًا للكتمانِ، وهذا كقولهم: إن كنت مؤمنًا فلا تظلم، وإن كنت حرًّا فانتصر، يجعل ما كان موجودًا كالمعدوم ويعلّق عليه، وإن كان موجودًا في الأمر نفسه[1]، فإن كنّ مؤمنات فلا يحلّ لهنّ الكتم.

الْعَاصِي يُسْلَبُ الْإِيمَانَ الْمُطْلَقَ لَا مُطْلَقَ الْإِيمَانِ

وفي الكلام محذوفٌ آخرُ، والتَّقدير: إن كنّ يؤمنّ بالله واليوم الآخر حقّ الإيمان، أي: الإيمان الكامل الّذي يجعل صاحبه مُؤتمِرًا بأوامر الله، مُنتهيًا عن نواهيه؛ والقرينَةُ على المحذوف: ما عُلِمَ مِن أدلَّة الشَّرع مِن أنَّ العبدَ لا يُسلَبُ عنه مطلَقُ الإيمانِ بمطلَقِ المعاصي، فمرتكب المعصية يُسلَبُ الإيمانَ المطلقَ لا مطلقَ الإيمانِ، ولم يُنصَّ على المحذوفِ ههنا؛ لأنَّ التَّصريح به يُضعِفُ الوعيدَ، وربَّما جرَّأَ على اقتحام المعصيةِ اتِّكالًا على بقاء أصلِ الإيمان.

تَقْدِيمُ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَن يَكۡتُمۡنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِيٓ أَرۡحَامِهِنَّ﴾ عَلَى الشَّرْطِ فِي قَوْلِهِ: ﴿إِن كُنَّ يُؤۡمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ﴾:

تَجَدُّدُ الْإِيمَانِ بِتَجَدُّدِ أَفْرَادِهِ

في تقديم قوله: ﴿أَن يَكۡتُمۡنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِيٓ أَرۡحَامِهِنَّ﴾، تحذير شديد وتهديد عظيم عنِ الكتمان[2]، فهي مدار الأمر منَ التّربّص أوّلًا، ثمّ ما في ذلك من ضمان الحقوق، ومَجرَى القول وتقديره: ولا يحلّ لهنّ إن كُنّ يؤمنّ بالله واليوم الآخر أن يكتمنَ ما خلق الله في أرحامهنّ، فقدّم ما هو صَادِرٌ عَنِ الذّات، وهو كتم الخبر؛ لأنّ فيه احتمالَ تردّدٍ، وعبّر عنه بالفعل المضارع ﴿يَكۡتُمۡنَ﴾ لاحتمال التّبدّل والتّجدّد مع الوقت، ثمّ ذكر ما هو ثابت؛ وهو الإيمان؛ إذ الإيمانُ رسوخٌ وعقيدَة.

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/457.
(2) الموصلّي، أولى ما قِيل: 2/329.

والتَّعبير عنه بالفعل المضارع في قوله: ﴿يُؤْمِنَّ﴾؛ للإيماء إلى تجدّد الإيمان وترسّخه مع المواقف الصّعبة، فهو متجَدِّدٌ بتجدُّدِ أفرادِهِ؛ ولذا تقع فيه الزِّيادَةُ.

أُسْلُوبُ التّدلّي فِي قَوْلِهِ: ﴿يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾:

الْإِيمَانُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ هُمَا طَرَفَا الْإِيمَانِ؛ فَالْأَوَّلُ إِيمَانٌ بِالْمَبْدَأِ، وَالثَّانِي إِيمَانٌ بِالْمَعَادِ

ذكر الإيمان بالله أوّلًا، ثمّ الإيمان باليوم الآخر، هو من قبيل التّدلّي، وغيرهُمَا من أركان الإيمان داخلٌ في ذلك؛ لكون الإيمان بالله تعالى إيمانٌ بالمبدأ، والإيمانُ باليوم الآخر إيمانٌ بالمعادِ، فهما طرفَا الإيمانِ، وما بينهما داخلٌ فيهما، على القاعدة المستقرَّة عند أهل العلم من أنَّ: الْبَيْنَ مستحضَرٌ في الطَّرفَين.

والإيمان بالله تعالى يستلزمُ الإيمان ببقيَّة الأركان، والإيمانُ باليوم الآخر يستلزمُ الاستعدادَ له بالأعمال الصَّالحةِ فعلًا للمأمور واجتنابًا للمحظور.

نُكْتَةُ الْمَجَازِ الْمُرْسَلِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَبُعُولَتُهُنَّ﴾:

تَذْكِيرُ الْأَزْوَاجِ بِالْعِشْرَةِ الزَّوْجِيَّةِ وَمَا تَضَمَّنَتْهُ مِنْ مَوَدَّةٍ وَرَحْمَةٍ: دَاعٍ إِلَى مُرَاجَعَةِ زَوْجَاتِهِنَّ

في قول الله تعالى: ﴿وَبُعُولَتُهُنَّ﴾ مجاز مرسَلٌ، اعتبارًا بما كان، كإطلاق اسم اليتامى في قوله تعالى: ﴿وَءَاتُواْ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ﴾ [النّساء: 2] على البالغينَ، وإنَّما كان ﴿وَبُعُولَتُهُنَّ﴾ لأنَّ المطلِّقين بحسب هذه الحالِ: حالٌ وسطَى بين حال الأزواج وحال الأجانب، وعلى اعتبار هذه الحال الوُسْطَى أُوقِعَ عليهم اسم البعولةِ ههنا.

وحَمْلُ قولِه تعالى ﴿وَبُعُولَتُهُنَّ﴾ على المجازِ قولُ الجمهورِ؛ فإنّهم عدُّوا المُطلَّقة طلاقًا رجعيًّا امرأةً أجنبيّة عنِ المُطلِّق بحسب الطَّلاق، ولكن لما كان للمُطلِّق حقّ المراجعة، ما دامتِ المرأة في العِدّة، ولو من دون رضاها، وجب إعمال مُقتضى الحالتين، وهذا قول مالك والشّافعيّ[1].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/393.

ونكتة التَّعبير بالمجازِ ههنا: تذكيرُ الأزواج بالعشرة الزَّوجيَّةِ وما فيها من المودَّة والرَّحمةِ الدَّاعِيَيْنِ إلى المراجعة؛ لما عُلِمَ من أدلَّة الشَّرعِ تشوُّفُهُ إلى الاجتماع.

وذكر أبو حيّان الأندلسيّ أنَّ الأَولَى أن يكون ذلك على حذف مضافٍ دلّ عليه الحكمُ، تقديره: وبعولةُ رجعيّاتهنَّ.

الْإِيجَازُ فِي صِيَاغَةِ أُسْلُوبِ التَّفْضِيلِ فِي قَوْلِهِ: ﴿أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ﴾:

تَرْجِيحُ حَقِّ الزَّوْجِ فِي الرَّجْعَةِ عَلَى حَقِّ الْمَرْأَةِ فِي الِامْتِنَاعِ عَنْهَا؛ تَغْلِيبًا لِمَقْصِدِ الِاجْتِمَاعِ

في قوله: ﴿وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ حكمةٌ أخرى وحُكمٌ آخر؛ وهو الرّجعة[1]، ولمّا كان للمُطلَّقة حقّ في نفسها قال: ﴿أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ﴾؛ أي: إلى ما كان لهم عليهنّ من العصمة؛ لإبطال التّربّص، فله حرمة الاستمتاع من المطلّقات بإرادة السّراح ﴿فِي ذَٰلِكَ﴾ أي: في أيام الأقراء، فإذا انقضت صارت أحقّ بنفسها منه بها؛ لانقضاء حقّه، والكلام في الرّجعيّة بدليل الآية الّتي بعدها[2].

وقوله ﴿أَحَقُّ﴾؛ هو بمعنى اسم الفاعل مسلوب المفاضلة، أتى به لإفادة قوّة حقّهم، وذلك ممّا تُستعمل فيه صيغة أفعل، كقوله تعالى: ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [العنكبوت: 45]، ولا سيّما إن لم يُذكر بعدها مفضَّل عليه بحرف (من)، فـ﴿أَحَقُّ﴾ - على هذا الوجه - ليست على بابها؛ لأنّ غير الزّوج لا حقّ له ولا تسليط على الزّوجة في مدّة العِدّة، إنّما ذلك للزّوج ولا حقّ لها أيضًا في ذلك، بل لو أبت كان له ردّها، فكأنّه قيل: وبعولتُهُنّ حقيقون بردّهن، فيكون أحَقُّ مجازًا. ودلّ قولُه: ﴿بِرَدِّهِنَّ﴾، على انفصال سابق، فمن قائلٍ: إنّ المُطلَّقة الرّجعية محرَّمة الوطء فالرّدّ حقيقيّ على بابه، ومن قائلٍ: هي مباحة الوطء وأحكامها أحكام الزّوجة، فلمَّا كان هناك سبب تعلَّق به زوال النّكاح عند انقضاء العِدّة جاز إطلاق الردّ عليه؛ إذ كان رافعًا لذلك السَّبَب[3].

(1) الموصلّي، أولى ما قِيل: 2/329.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 1/429.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/458.

ويَحْتَمِلُ أن يكون اسم التَّفضيل على بابه، والمُفضَّل عليه محذوف، وأنّ التّفضيل بين صِنْفَيْ حقٍّ مختلفَين باختلاف المُتعلّق؛ هما حقّ الزّوج في الرّجعة إن رغب فيها، وحقّ المرأة في الامتناع من المراجعة إنْ أَبَتْهَا، فصار المعنى: وبعولتُهُنّ أحقّ بردّ المُطلَّقات من حقّ المطلّقات بالامتناع، وقد نُسِج التّركيب على طريقة الإيجاز[1].

دِلَالَةُ الْمَجَازِ فِي قَوْلِهِ: ﴿بِرَدِّهِنَّ﴾:

تَحْرِيضُ الْأَزْوَاجِ عَلَى الرَّجْعَةِ قَبْلَ انْقِضَاءِ الْعِدَّةِ

(الرّدّ) المُراد به هنا الرّجوع إلى المعاشرة؛ وهو المراجعة، وتسمية المراجعة ردًّا يرجّح أنّ الطَّلاق قد عُدّ في الشّرع قطعًا لعصمة النّكاح، فهو إطلاق حقيقيّ على قول مالك، وأمّا أبو حنيفة ومن وافقَهُ فتأوّلوا التّعبير بالرّد بأنّ العصمة في مدّة العِدّة سائرة في سبيل الزّوال عند انقضاء العِدّة، فسمّيت المراجعة ردًّا عن هذا السّبيل الّذي أخذت في سلوكه، وهو ردّ مجازيّ[2]، وفيه تحريضٌ للزَّوْجِ على الرَّجْعةِ قبل انقضاء العِدَّةِ.

دِلَالَةُ اسْمِ الْإِشَارَةِ فِي قَوْلِهِ: ﴿فِي ذَٰلِكَ﴾:

إِعْلَامُ الرِّجَالِ بِأَنَّهُمْ أَوْلَى بِالرَّغْبَةِ فِي مُرَاجَعَةِ النِّسَاءِ والصَّفْحِ عَنِ الْأَسْبَابِ الَّتِي أَوْجَبَتِ الْفِرَاقَ

الفائدة من قوله: ﴿فِي ذَٰلِكَ﴾ أنّ حقَّ الرّدِّ إنّما يثبت في الوقت الّذي هو وقت التّربّص، فإذا انقضى ذلك الوقت فقد بطل حقّ الرّدّة والرّجعة[3].

واسم الإشارة ﴿ذَٰلِكَ﴾ راجعٌ إلى التّربّص، بمعنى: مدّته؛ أي: للأزواجِ حقّ الإرجاع في مدّة القُروء الثّلاثة؛ أي: لا بعد ذلك، كما هو مفهوم القيد، هذا تقرير معنى الآية، على أنّها جاءت لتشريع حكم المراجعة في الطَّلاق ما دامت العِدّة، وهذا ليس لتشريع المراجعة فحسب، بل الآية جامعة لأمرين: حكم المراجعة، وتحضيض المُطلِّقين على مراجعة المُطلَّقات، وذلك أنّ المتفارِقَيْنِ لا بدّ أن يكون

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/395.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/395.
(3) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 6/440.

لأحدهما أو لكليهما رغبة في الرّجوع، فالله يُعلِّمُ الرّجال بأنّهم أولى بأن يرغبوا في مراجعة النِّساء، وأن يصفحوا عن الأسباب الّتي أوجبت الطَّلاق[1].

والحاصلُ أنَّ اسمَ الإشارةِ الدالَّ على مدة التَّربّص تحريضٌ للأزواج على سُرْعةِ مراجعة زوجاتِهم؛ إذ إعادة ذِكْرِ مدَّة التَّربُّصِ مشارًا إليه باسم الإشارة تذكيرٌ للأزواجِ بأنَّ المراجعةَ مؤقَّتةٌ بوقتٍ؛ فليبَادروا إليها قبل انقضاء أجلها.

دِلَالَةُ التَّعْلِيقِ بِالشَّرْطِ فِي قَوْلِهِ: ﴿إِنْ أَرَادُوٓاْ إِصْلَٰحًا﴾:

ظاهرُ تعليقِ ردِّ الأزواج لزوجاتهم بالشّرط في قوله: ﴿إِنْ أَرَادُوٓاْ إِصْلَٰحًا﴾ دالٌّ على أنّه إذا أراد غير الإصلاح؛ فإنَّهُ لا يكون له ذلك[2]، ثُمَّ إنَّ النَّوايا قد لا يمكنُ الوقوف عليها؛ فيكون قوله: ﴿إِنْ أَرَادُوٓاْ إِصْلَٰحًا﴾ شرطًا قُصِدَ به الحثُّ على إرادة الإصلاح، وليس شرطًا للتّقييد[3].

إِصْلَاحُ الْخَلَلِ فِي وُصْلَةٍ سَابِقَةٍ أَوْلَى مِنِ افْتِتَاحِ وُصْلَةٍ أُخْرَى

ويجوز أن يكون خطابًا عامًّا للأمّة بغية تحقيق الإصلاح العامّ في شؤون الأسرة والمجتمع[4]. والإصلاح لخلل ما بينهما أحقّ في علم الله وحكمته من افتتاح وصلة ثانية؛ لأنّ تذكّر الماضي يخلّ بالحاضر، فلذلك كان الأحقّ إصلاح الأوّل دون استفتاح وصلة لثانٍ[5].

سَبَبُ حَذْفِ جَوَابِ الشَّرْطِ فِي قوله: ﴿إِنْ أَرَادُوٓاْ إِصْلَٰحًا﴾:

في قوله تعالى: ﴿إِنْ أَرَادُوٓاْ إِصْلَٰحًا﴾ شرطٌ آخر حُذِف جوابه؛ لدلالة ما قبله عليه، وظاهره: أنّ إباحة الرّجعة منوطةٌ بإرادة الإصلاح، ولا خلاف بين أهل العلم أنّه إذا راجعها مُضارًّا في

الْإِصْلَاحُ الَّذِي أُنِيطَتْ بِهِ الرَّجْعَةُ يَشْمَلُ إِصْلَاحَ فَسَادٍ مَاضٍ، وَقِيَامًا بِحَقٍّ مُسْتَقْبَلٍ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/395.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/460.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/395.
(4) الموصلّي، أولى ما قِيل: 2/330.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 1/429.

الرّجعة مريدًا تطويلَ العِدّة عليها؛ أنّ رجعته صحيحة، واستدلّوا على ذلك بقوله تعالى: ﴿وَلَا تُمۡسِكُوهُنَّ ضِرَارٗا لِّتَعۡتَدُواْۚ﴾ [البقرة: 231]، فدلّ ذلك على صحّة الرّجعة وإن قُصِد الضّرَر؛ لأنّ المراجعةَ إذا لم تكن صَحيحَة إن وقعت على وجه الضّرار؛ لَمَا كان ظالمًا بفعلها، قال الماورديّ: في الإصلاح المشار إليه وجهان: أحدهما: إصلاح ما بينهما من الفساد بالطَّلاق، والثّاني: القيام لِمَا لكلّ واحد منهما على صاحبه من الحقّ[1].

بَرَاعَةُ أُسْلُوبِ التَّدلّي وَالتَّرَقّي:

صِيَانَةُ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ الْمَرْأَةَ وَحِفْظُهُ حَقَّهَا

لمّا كانت إرادة الإصلاح بِرَدِّ المرأة إلى العصمة، إنّما تؤتي ثمرتها إذا قام كلٌّ منهما بالحقوق الواجبة عليه؛ ذكر ذلك سبحانه بقوله: ﴿وَلَهُنَّ مِثۡلُ ٱلَّذِي عَلَيۡهِنَّ﴾[2].

ويجوزُ أن يكون الضّمير في قوله: ﴿وَلَهُنَّ﴾ راجعًا إلى النِّساء في قوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ يُؤۡلُونَ مِن نِّسَآئِهِمۡ﴾ [البقرة: 226] بمناسبة أنّ الإيلاء مِنَ النِّساء هضمٌ لحقوقهنّ؛ إذا لم يكن له سببٌ يُسوِّغُهُ، فجاء هذا الحكم الكليّ على ذلك السّبب الخاصّ لمناسبة؛ فتدرّج الكلامُ من ذِكر النِّساء اللّائي في العصمة، حين ذكر طلاقهنّ بقوله: ﴿وَإِنۡ عَزَمُواْ ٱلطَّلَٰقَ﴾ [البقرة: 227]، إلى ذكر المُطلَّقات بتلك المناسبة[3]، وهو من قبيل التدَلِّي في ذكر حالات النِّساء؛ وهو من قَبِيل التَّرقّي في التَّنبيه على الحقوق؛ لأنَّ المطلَّقةَ قد يتساهلُ الرِّجالُ في إعطائهَا حقَّهَا، فكان التَّنبيه على حقِّهَا أعظمَ، فاجتمعَ تَدَلٍّ وترقٍّ باعتبارَين مختلفين، وهذا في غاية البراعَةِ.

ردُّ العَجُزِ عَلَى الصَّدرِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَلَهُنَّ مِثۡلُ ٱلَّذِي عَلَيۡهِنَّ﴾:

تَذْكِيرُ الْأَزْوَاجِ بِحُقُوقِ الزَّوْجَاتِ

لمّا اختتم حكم الطَّلاق بقوله: ﴿وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ أعاد إلى الذِّهن الحياة الزّوجيّة، فصارت أولئك النِّساءُ المُطلَّقات

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/459-460.
(2) الموصلّي، أولى ما قِيل: 2/330.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 1/429.

زوجاتٍ، فعاد الضَّمير إليهنَّ بقوله: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ﴾ باعتبار هذا الوصف الجديد، الّذي هو الوصفُ المبتدأُ به في الحكم، فكان في الآية ضربٌ من ردِّ العَجُزِ على الصَّدرِ، فعادت إلى أحكام الزّوجات بأسلوب عجيب، والمناسبةُ أنّ في الإيلاء مِنَ النِّساء تطاولًا عليهِنّ، وتظاهرًا بما جعل الله للزَّوج من حقِّ التَّصرُّف في العصمة، فناسب أن يُذكَّروا بأنَّ للنّساء من الحقّ مثل ما للرّجال[1].

بَرَاعَةُ التَّشْبِيهِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ﴾:

رَفْعُ الإِسْلَامِ مِنْ شَأْنِ المَرْأَةِ

قوله: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ﴾ أي: ولهنّ على الرّجال مثل الّذي عليهنّ للرّجال[2]، وجاء الاعتناء بذكر ما للنّساء من الحقوق على الرّجال، وتشبيهه بما للرّجال على النِّساء؛ لأنّ حقوق الرّجال على النِّساء مشهورة مسلمَّة من قديم، بخلاف حقوق النِّسَاء فلم تكن ممّا يُلتفت إليه أو كانت مُتهاوَنًا بها، وموكولة إلى مقدار حظوة المرأة عند زوجها، حتّى جاء الإسلام فأقامها، وأعظمُ ما أُسِّست به هو ما جمعَته هذه الآية[3].

واختُلِف في هذه حقيقة هذا التَّماثُلِ، فذُكر في ذلك أوجهٌ، منها: أنَّه تماثلٌ في الموافقة والطّواعيّة، ومنها: أنه مماثلةٌ في التّزيّن والتّصنّع، كما قال ابن عَبَّاس رضي الله عنهما: أُحِبُّ أن أتزيّن للمرأة كما أحبُّ أن تتزيّن لي؛ لهذه الآية، ومنها: أنَّ المماثلة في تقوى الله فيهنّ، كما عليهنّ أن يتقينّ الله فيهم.

وطَيُّ وجه الشَّبه في الآيةِ يقتضِي اندراجَ كلِّ حقٍّ في المماثلةِ، وما يُذكر عن السّلف من أقوالٍ في تعيين التَّماثل، هو من باب التَّفسير بالمثالِ على طريقتهم في التَّفسير، فالمماثلة عامّةٌ في جميع حقوق الزَّوج على الزّوجة، وحقوق الزّوجة على الزّوج[4].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/396.
(2) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 1/141.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/396.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/461.

نُكْتَةُ تَقْدِيمِ الْجَارِّ وَالْمَجْرُورِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ﴾:

بِمُرَاعَاةِ كُلٍّ مِنَ الزَّوْجَيْنِ لِحَقِّ الْآخَرِ يَتَحَقَّقُ مَقْصُودُ النِّكَاحِ

لمّا بيّن تعالى في قوله: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ﴾ أنّه يجب أن يكون المقصود من المراجعة إصلاح حالهنَّ، لا إيصال الضّرر إليهنَّ؛ بيّن أنّ لكلّ واحد من الزّوجين حقًّا على الآخر، وأنّ المقصود من الزّوجين لا يتمّ إلّا إذا كان كلّ واحد منهما مراعيًا حَقّ الآخر، وتلك الحقوق المشتركة كثيرة[1].

قُدِّمَ الجارُّ والمجرورُ اهتمامًا بالخبر وتشويقًا للمسند إليه؛ لكونه من الأخبار المستغربةِ الّتي لا يتوقّعها السّامعون، فَقُدِّمَ لِيَتشوَّقَ السَّامعون إلى المُسنَدِ إليه، بخلاف ما لو أُخّر، فقيل: ومثل الّذي عليهنّ لهنّ بالمعروف، فإنَّ دلالةَ الاهتمام والتشويق تفوتُ، مع ما في توالي حرفي الجرِّ وضمائرهما (عليهنَّ لهنَّ) من الثِّقَلِ.

إِبْرَازُ حُقُوقِ النِّسَاءِ وَالْإِشَادَةِ بِهَا مِنْ مَحَاسِنِ الشَّرِيعَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ

وفي هذا التَّقديم إبرازٌ لحقوق النِّسَاء، وصدعٌ بها، وإشادة بذكرها، ومثل ذلك من شأنه أن يُتلقى بالاستغراب؛ لجريانِ كثيرٍ من الخَلْقِ على خلافهِ، فلذلك كان محلّ الاهتمام.

والآية تعمّ حقوق الزّوجيّة جميعها[2]، وهذه الآية من أوّل ما أُنزل في الإسلام في بيان الحقوق الزَّوجية[3].

دِلَالَةُ الْإِطْنَابِ بِالِاحْتِرَاسِ فِي قَوْلِهِ: ﴿بِٱلْمَعْرُوفِ﴾:

الْمَعْرُوفُ الَّذِي جُعِلَ ضَابِطًا لِحُقُوقِ الزَّوْجَيْنِ: الْعَادَةُ الْجَارِيَةُ فِي ذَلِكَ الْبَلَدِ وَذَلِكَ الزَّمَانِ مِنْ مِثْلِهَا لِمِثْلِهِ

معنى: ﴿بِٱلْمَعْرُوفِ﴾؛ أي: بالوجه الّذي لا يُنكَر في الشرّع وعادات النّاس، ولا يكلِّف أحدهما الآخر من الأشغال ما ليس معروفًا له، بل يقابل كلٌّ منهما صاحبه بما يليق به[4]. فبعد أن ذكر المماثلة بين حقوق الزّوج والزّوجة بقوله: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ﴾، قيَّدَهُ بقوله ﴿بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ من باب الاحتراس؛ دفعًا لِما قد يُظنَّ مِنَ أنَّ الحقوقَ

(1) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 6/440.
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوَجيز: 1/294.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/398.
(4) النّسفي، مدارك التّنزيل: 1/188.

والواجباتِ لا ضابطَ بها، فبيَّنَ بهذا أنَّ ضابطَهَا "العادة الجارية في ذلك البلد وذلك الزمان من مثلها لمثله، ويختلف ذلك باختلاف الأزمنة والأمكنة والأحوال والأشخاص والعوائد"[1].

دِلَالَةُ الِاحْتِرَاسِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾:

لِلرِّجَالِ حَقٌّ زَائِدٌ عَلَى النِّسَاءِ

بعد أن بيَّن اللّه حقَّ الزَّوجين بقوله: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ﴾، ثمَّ احترس بقوله: ﴿بِٱلْمَعْرُوفِ﴾؛ وكان ذلك مقتضيًا استواءَ الحقَّين من كلِّ وجهٍ؛ دَفعَ ذلك التَّوهُّمَ بقوله: ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾؛ أي: مزيّة وفضيلة في الحَقّ، فكان هذا احتراسًا بعد احتراسٍ.

فقولهُ: ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ﴾؛ هو من تنبيه لفضل الرّجل على المرأة بالجملة من وجهٍ، وهو كالاستثناء بأنّ له عليها حَقًّا زائدًا من وجهٍ آخرَ[2].

نُكْتَةُ التَّقْدِيمِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾:

قَدَّمَ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ ذِكْرَ الْمَرْأَةِ فِي التَّنْبِيهِ عَلَى حُقُوقِهَا؛ لِئَلَّا تُظْلَمَ، وَقَدَّمَ ذِكْرَ الرَّجُلِ فِي الْقِوَامَةِ وَالْإِدَارَةِ؛ لِئَلَّا يَحْصُلَ التَّنَازُعُ فِي الْقِيَادَةِ

في قوله: ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ إثباتٌ لتفضيل الأزواج في حقوق كثيرة على نسائهم؛ لئلَّا يُظنّ أنّ التَّماثُلَ كُلّيٌّ في قوله: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾، وهذا التّفضيل ثابتٌ على الإجمال لكلِّ رجل، ويظهر أثر التّفضيل عند نزول المقتضيات الشّرعيّة والعاديَّة[3].

وقوله: ﴿وَلِلرِّجَالِ﴾ خبر عن ﴿دَرَجَةٌ﴾، قُدِّم اهتمامًا بما تفيده اللّام من معنى استحقاقهم تلك الدّرجة، كما أشير إلى ذلك الاستحقاق في قوله تعالى: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [النِّساء: 34]، وفي هذا الاهتمام مقصدان؛ أحدهما: دفع توهُّم المماثلة بين الرّجال والنِّساء من كلِّ وجهٍ، والآخر: تحديدُ

(1) السّعدي، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 101.
(2) الراغب، تفسير الرّاغب: 1/465.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/401.

إيثارِ الرّجال على النِّساء بمقدار مخصوص، لإبطال إيثارهم المُطلَق الّذي كان مُتَّبَعًا في الجاهليّة[1].

بَلَاغَةُ التّذْيِيلِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾:

أَحْكَامُ اللهِ تَعَالَى مُقْتَضَى عِزَّتِهِ، وَإِتْقَانُهُ لَهَا مُقْتَضَى حِكْمَتِهِ

لمّا أعزّ سبحانه وتعالى الرّجل بتفضيلِهِ؛ وصف نفسه بالعزّة، مبتدئًا بالاسم الأحسن ﴿ٱللَّهُ﴾ الدّالّ على كلّ كَمَالٍ، فقال - عطفًا على ما تقديره: لأنّ اللّه أعزّهم عليهنّ بحكمته -: ﴿وَٱللَّهُ﴾ أي: الّذي له كمال العظمة، ﴿عَزِيزٌ﴾ إشارة إلى أنّه أعزّ، بل لا عزيزَ على الكمالِ إلّا هو، وقال: ﴿حَكِيمٌ﴾ تنبيهًا على أنّه ما فعل ذلك إلّا لحكمة بالغةٍ تسليةً للنّساء، وأنّ ما أوجده بعزّته، وأتقنه بحكمته، لا يمكن نقضه[2]، فكان ذلك ضمانًا لديمومة الحياة وتماسك الأسرة.

ففي خَتْمِ الآية باسمي اللّه تعالى العزيز والحكيم ضربٌ مِن تشابُهَ الأطرافِ.

وَعْدُ اللهِ تَعَالَى الزَّوْجَيْنِ فِيمَا يَتَحَرَّيَانِهِ مِنْ صَلَاحٍ، وَتَوَعُّدُهُمَا فِيمَا يَتَحَرَّيَانِهِ مِنْ فَسَادٍ

وفي قوله: ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ تنبيهٌ على أنّ اللّه سبحانه يحكم بكلّ ما يشاء، فلا يغالب لعزّة، ويتقن كلّ ما يفعله فيصيب بحكمته، وفيه وعد وإيعَادٌ على مُجَازَاة الزَّوجينِ فِيما يتحرّيانه من صلاح وفساد[3].

فخَتْمُ الآيةِ بهما؛ لأنّها تضمّنت ما معناه الأمر في قوله: ﴿يَتَرَبَّصْنَ﴾، والنّهي في قوله: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ﴾، والجواز في قوله: ﴿وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ﴾، والوجوب في قوله: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ﴾، ناسب وصفه تعالى بالعزّة؛ وهو القهر والغلبة؛ وهي تناسب التّكليف، وناسب وصفه بالحكمة؛ وهي إتقان الأشياء ووضعها على ما ينبغي؛ وهي تناسب التّكليف أيضًا[4].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/401.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 1/430.
(3) الراغب، تفسير الرّاغب: 1/470.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/462-463.

الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

بُعُولَتُهُنَّ وأزواجهُنّ:

تذكير للمُطلَّقة بأحقّيّة مُطلّقها بردّها ومباشرة الحياة الزّوجيّة معها من جديد

في قوله تعالى: ﴿وَبُعُولَتُهُنَّ﴾، البُعولة جمع بَعْل، والبَعْل: اسم زوج المرأة، والتّاء لتأنيث الجمع كالعمومة والخُؤولة، أو مصدر من قولك: بَعُلَ حسن البُعولة نُعتَ به، أو أقيم مُقام المضاف المحذوف، أي: وأهلُ بعولتهُنّ[1].

إنّ اسم البَعْل ممّا يشترك فيه الزوجان، فيُقال للمرأة: بَعلة، كما يُقال لها: زوجة في كثير من اللّغات، وزوجٌ في أفصح اللّغات، فهما بعلان، كما أنّهما زوجان[2]، والبَعْل في كلامهم يطلق على: السَّيِّد، وعلى الرب، وعلى المالك، وعلى النَّخل الذي لا يُسقى وهو الشارب بعروقه، أو يُسقى بماء المطر، وسُمِّي باسمه كل مستعل على غيره، وعبِّر به عن الزوج لإقامته على الزوجة للمعنى المخصوص، فهو سائسها والقائمُ عليها، ولأنّه مَلَكَ أمر عصمة زوجه، ففي اختيار لفظ البُعُولة – في سورة البقرة، وهو جَمْعٌ مسْموع لا ينقاس – إشارة إلى أنَّ أصل الرجعة للمطلَّقة يكون بالمجامعة لها، ولأنّ الزّوج كان يعتبر مالكًا للمرأة وسيّدًا لها، وهو في الأصل الرّجل المتهيئ لنكاح الأنثى المتأتّي له ذلك، فكان حقيقًا بهذا الاسم، وأطلق العرب لفظ الزّوج على كلٍّ من الرّجل والمرأة اللّذين بينهما عصمة نكاح، وهو إطلاق عادل؛ لأنّ الزّوج هو الّذي يَثْنِّي الفرد، فصارا سواء في الاسم، وقد عبّر القرآن بهذا الاسم في أغلب المَواضِع، غير الّتي حكى فيها أحوال الأمم الماضية كقوله: ﴿وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا﴾ [هود: 72]، وغير المَواضِع الّتي أشار فيها إلى التّذكير بما للزّوج من سيادة، نحو قوله تعالى: ﴿وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا﴾ [النّساء: 128]

(1) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 1/141.
(2) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 6/439.

وهاته الآية كذلك، لأنّه لمّا جعل حقّ الرّجعة للرَّجل جبرًا على المرأة، ذكَّر المرأة بأنّه بعلُها قديمًا، والمتهيئ لنكاحها المتأتّي له ذلك[1].

وهذا هو السّبب الأهمُّ لاستعمال هذا اللّفظ في هذا المَوضِع؛ تذكيرًا لما بين الزّوجين من المصاحبة - وبخاصة أن أول أصول مادة (الباء والعين واللام) هو: الصاحب[2] - وطول العشرة، والفضل الذي بينهما.

(1) الراغب، المفردات: (بعل)، وابن عطيّة، المحرّر الوَجيز: 1/194، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 1/429، والآلوسي، روح المعاني: 1/529، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/392، وينظر: ردُّ العلامة أحمد محمد شاكر على دعوى أن كلمة: (بَعْل) كلمة سامية قديمة، وجوهر معناها "سيد أو مالك". موجز دائرة المعارف الإسلامية: 6/1692.

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بعل).

﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ فَإِمۡسَاكُۢ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ تَسۡرِيحُۢ بِإِحۡسَٰنٖۗ وَلَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَأۡخُذُواْ مِمَّآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ شَيۡـًٔا إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِۖ فَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَا فِيمَا ٱفۡتَدَتۡ بِهِۦۗ تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعۡتَدُوهَاۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٢٢٩﴾ [البقرة: 229]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

من مناسبة الآية لسابقتها أنّه لمّا تضمّنت الآية قبلها الطَّلاق الرّجعيّ، وكانوا يُطلّقون ويراجعون من غير حدّ ولا عدّ، بيّن في هذه الآية أنّه: مرّتان، فحصر الطَّلاق الرّجعيّ في مرّتين؛ أي: يملك المراجعة إذا طلّقها، ثمّ يملكها إذا طلّق، ثمّ إذا طلّق ثالثة لا يملكها[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَإِمۡسَاكُۢ﴾: جذر الكلمة (مسك)، ومَسّكتُ بالشّيء وتَمَسَّكت به، واستَمسكت به. والمَساكُ من الأرض: ما يُمسِكُ الماء[2]. المَسك: الجلد[3]، وخصّ بعضهم به: جلد السّخلة، قال: ثم كثر حتّى صار كلُّ جلد مَسكًا[4]. وأمسك الحبل وغيره، وأمسك بالشّيء ومَسَك وتمسّك واستمسك. وقوله تعالى: ﴿أَمۡسِكۡ عَلَيۡكَ زَوۡجَكَ﴾ [الأحزاب: 37]، وقوله: ﴿فَٱسۡتَمۡسِكۡ بِٱلَّذِيٓ أُوحِيَ إِلَيۡكَۖ﴾ [الزّخرف: 43]. وأمسكتُ عليه مالَه: حبسته، وأمسَكَ عن الأمر: كفّ عنه. وأمسكتُ واستمسكت وتماسكت أن أقع عن الدّابّة وغيرها. وغشيَني أمرٌ مقلق فتماسكتُ. وفلان يتفكّك ولا يتماسك، وما تماسك أن قال ذلك وما تمالك، وهذا حائط لا يتماسك ولا يتمالك. وحفر في مَسكَةٍ من الأرض: في صَلابة. ومسّكه: أعطاه المُسْكان. ورجلٌ مُسَكَةٌ: يُمسك الشّيء فلا يتخلّص منه[5].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 2/463.
(2) الخليل، العين: (مسك).
(3) ابن سيده، المُحكم، والزّبيديّ، تاج العروس: (مسك).
(4) ابن سيده، المُحكم: (مسك).
(5) الزّمخشريّ، أساس البلاغة: (مسك).

والمعنى: فإبقاءُ الزوجة في عصمته مع حُسْنِ العِشْرةِ بعدَ مراجَعَتِها.

2) ﴿أَوۡ تَسۡرِيحُۢ﴾: جذر الكلمة (سرح) الإرسال، سرّحَ: سَرَّحنا الإبِل، سَرْحًا. والمَسرَح: مَرعَى السَّرح. والسَّرح من المال: ما يُغدَى به ويُراح، والجميع: سُرُوح، والسّارِح اسم للرّاعي[1]. والتّسريح: إرسالك رسولًا في حاجة سراحًا[2]. وسرّح إليه رسولًا. وسرّحت شعرَها: مشَطته. وأمر سَريح: لا مَطل فيه. وإن خيرك لَسريح[3].

والمعنى: أو يطلق التطليقة الثالثة مع الإحسان إلى المرأة وأداء حقوقها.

3) ﴿حُدُودُ ٱللَّهِ﴾: جذر الكلمة هو (حدد)، وأصل الحَدِّ: المَنع. يُقال: حدّني عن كذا وكذا إذا مَنَعَني عنه. وبه سمّي السّجّان حدادًا لمَنعه، كأنَّهُ يمنَع من الحركة[4]. وحدّ السّكين وغيره: مَعروف. يُقال: حددتُ السّكين، وأحددت إليك النّظر أُحِدّه إحدادًا. والحَدُّ بين الشَّيئَينِ: الفرق بينهما لئلّا يعتدي أَحدهمَا على الآخر. وحدُّ الدَّار: مَعروف. وحدُّ السَّارق وغيره: الفِعل الّذي يمنعهُ من المعاودة ويحدّه عَنهُ ويمنع غَيره أيضًا[5].

والمعنى: الأحكامُ الشرعية الفاصلةُ بين الحلال والحرام.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

سبب نزول هذه الآية ما روى هشام بن عروة عن أبيه: أنّ الرّجل كان إذا طلّق امرأته ثمّ راجعها قبل انقضاء عِدّتها كان له ذلك، ولو طلّق ألف ألف مرّة، فطلّق رجل امرأته، فحين طلّق وشارفت انقضاء العِدّة راجعها، ثمّ طلّقها، ثمّ قال: واللّه لا أقربك إليّ ولا تخلين منّي، فشكت ذلك إلى النّبيّ ﷺ، فنزلت[6].

فهذه الآيةُ رافعة لما كان عليه الأمر في ابتداء الإسلام: من أن الرجل كان أحقَّ برجعة امرأته وإن طلقها مئةَ مرة ما دامت في العدة، فلما كان هذا فيه ضررٌ على الزوجات، قصرهم اللّه ﷻ على ثلاث طلقات، وأباح الرجعة في المرة الواحدة والثنتين، وأبانها بالكلية في الثالثة.

(1) الخليل، العين، وابن سيده، المُحكم: (سرح).
(2) ابن سيده، المُحكم: (سرح).
(3) الزّمحشريّ، أساس البلاغة: (سرح).
(4) ابن دريد، جمهرة اللّغة، والزّمحشريّ، أساس البلاغة: (حدد).
(5) ابن دريد، جمهرة اللّغة: (حدّ).
(6) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/463.

فالطلاق الذي تحصل به رجعةُ المرأةِ لزوجها مرتان، واحدة بعد الأخرى، فحُكْم الله بعد كلِّ طلقة هو إمساكُ المرأة بالمعروف، وحسن العشرة بعد مراجعتها، أو يطلِّق الزوجُ زوجتَه التطليقةَ الثالثة طلقةً غير رجعية، مع الإحسان إلى المرأة وأداء حقوقها وحسن معاملتها، وألّا يذكرها مُطَلِّقها - بعد الفِراق - بسوء. ولا يحل لكم - أيها الأزواج - أن تأخذوا شيئًا مما أعطيتموهن من المهر ونحوه، إلَّا أن يخاف الزوجان ألَّا يقوما بالحقوق الزوجية، فحينئذ يَعْرضان أمرهما على الأولياء، فإن خاف الأولياءُ عدمَ إقامة الزوجين حدود الله، فلا حرج على الزوجين فيما تدفعه المرأةُ للزوج مقابلَ طلاقها، حين وقوع الفُرْقة بين الزوجين بطلب من الزوجة. تلك الأحكام هي حدودُ الله الفاصلةُ بين الحلال والحرام، فلا تتجاوزوها، ومن يتجاوَزْ حدودَ الله تعالى فأولئك هم الظالمون أنفسَهم بتعريضها لعذاب الله[1].

الإيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

سَبَبُ فَصْلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ﴾ عَمَّا قَبْلَهُ:

رَفْعُ الشَّرِيعَةِ الضَّرَرَ عَنِ المَرْأَةِ بِجَعْلِ حَدٍّ لِلطَّلَاقِ

فُصِلَ قول الله تعالى: ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ﴾ عمَّا قبلَهُ؛ لكونِهِ وقع استئنافًا بيانيًّا، إذْ هو جوابٌ عن سؤالٍ يُفْهَمُ ممَّا قبلَهُ، فقوله تعالى: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌۗ﴾ [البقرة: 228] إعلان الله تعالى أنّ للنّساء حَقًّا كحَقّ الرّجال، وجعل للرّجال درجة زائدة، منها: أنّ لهم حَقّ الطَّلاق، ولهم حَقّ الرّجعة؛ لقوله سبحانه: ﴿وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ [البقرة: 228]، ولمّا كان أمر العرب في الجاهليّة جاريًا على عدم تحديد نهاية الطَّلاق، أورثَ ذلك سؤالًا؛ وهو: هل للطَّلاقِ حدٌّ ونهايةٌ؟ فجاء الجوابُ: ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ﴾ تحديدًا للطَّلاق، وإفادةً للتّشريع في هذا الباب، ودفعًا لِما قد يَعلق بالأوهام في شأنه[2].

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 1/610، ونخبة من العلماء، التفسير الميسر، ص: 36، وجماعة من العلماء، المختصر في تفسير القرآن الكريم، ص: 36.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/403.

فالآية استئناف لذكر غاية الطَّلاق الّذي يملكه الزّوج من امرأته، فهي بيانٌ لعدد التّطليقات الّتي للمرء فيه أن يرتجع دون تجديد مهر وولي[1].

دِلَالَةُ اللَّامِ فِي ﴿ٱلطَّلَٰقُ﴾ مِنْ قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ﴾:

في قوله: ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ﴾: الألف واللّام في الطَّلاق للعهد في الطَّلاق السّابق، وهو الّذي تثبت معه الرّجعة، فيكون المعنى بذلك: تفريق الطَّلاق إذا أراد أن يُطلق ثلاثًا، وهو ما يقتضيه اللّفظ؛ لأنّه لو طلّق مرّتين معًا في لفظ واحد؛ لما جاز أن يُقال: طلّقها مرَّتين، كما أنَّهُ لو دَفَع إلى رجل دِرهمين؛ لم يجز أن يُقال: أعطاه مرّتين[2].

والمعهود هو المذكور في قوله تعالى: ﴿وَٱلۡمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصۡنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٖۚ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكۡتُمۡنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِيٓ أَرۡحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤۡمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ﴾ [البقرة: 228]، فيكون كالعهد في تعريف الذَّكر في قوله تعالى: ﴿وَلَيۡسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلۡأُنثَىٰۖ﴾ [آل عمران: 36]، فإنّه معهود ممّا استفيد من قوله: ﴿إِنِّي نَذَرۡتُ لَكَ مَا فِي بَطۡنِي﴾ [آل عمران: 35][3]، فالعهد في ﴿ٱلطَّلَٰقُ﴾ من قوله: ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ﴾ للعهد الكِنَائيِّ.

مِنْ حِكْمَةِ اللهِ تَعَالَى وَرَحْمَتِهِ بِعِبَادِهِ: تَفْرِيقُ الطَّلَاقِ، فَجَعَلَهُ مَرَّتَيْنِ؛ تَوْسِعَةً عَلَى الْعِبَادِ

دِلَالَةُ الْفَاءِ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَإِمۡسَاكُۢ﴾:

قوله: ﴿فَإِمۡسَاكُۢ بِمَعۡرُوفٍ﴾؛ أي: فعليه إمساكٌ بمعروفٍ[4]، وهي جملة مُفرَّعة على جملة ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ﴾، فتكون الفاء للتّعقيب في الذّكر لا في وجود الحكم.

وقوله: ﴿فَإِمۡسَاكُۢ﴾ خبر مبتدأ محذوف تقديره: فالشّأن أو فالأمر إمساك بمعروف أو تسريح بإحسان، على طريقة ﴿فَصَبۡرٞ جَمِيلٞۖ﴾ [يوسف: 18][5].

لمّا شرَعَ اللهُ تَعَالَى الطَّلَاقَ؛ شَرَعَ مَعَهُ الْحُقُوقَ

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 1/306.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/463.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/405.
(4) الكرمانيّ، غرائب التّفسير: 1/215.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/405.

وقد ذكر ابن عطيّة[1] أنّ الإمساك بالمعروف هو الارتجاع بعد الثّانية إلى حسن العِشرة، والتزام حقوق الزّوجيّة.

دِلَالَةُ تَقْدِيمِ الْإِمْسَاكِ عَلَى التَّسْرِيحِ:

تَطَلُّعُ الشَّرِيعَةِ إِلَى الاجْتِمَاعِ وَالْوِئَامِ بَيْنَ الزَّوْجَيْنِ

بعد أن ذَكَرَ اللّه تعالى المعروفَ في الآية السّابقة؛ تذكيرًا بمماثلة الحقوق بين الزّوجين مُحترسًا في قوله: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾، كَرَّرَ ذِكْرَهُ ههنا في قوله: ﴿فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَٰنٍ﴾، اعتناءً بهِ واهتمامًا.

وقوله: ﴿فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَٰنٍ﴾، أي: ليس لكم بعد المرّتين إلّا أحد أمرين[2]: إعمال وإهمال، والإعمال إمَّا بالرَّجعة وإمَّا بالطَّلاق، وقد بدأ بالإعمال؛ لأنّه الأَولَى بالبيان؛ ولأنّه أقرب إلى أن يؤذي به، وأخَّرَ الإهمال إلى أن تنقضي العِدّة؛ لأنّه مع فهمه من آية الأَقْرَاء سيصرّح به في قوله في الآية الآتية: ﴿أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾، فقال مُعقّبًا بالفاء: ﴿فَإِمْسَاكٌۢ﴾[3].

وفي تقديم الإعمال بالإمساك فائدةٌ أخرَى؛ وهي الاهتمامُ؛ إذ الشَّريعة تَتَطلَّعُ إلى الاجتِمَاع والوئام بين الزَّوجين.

بَلَاغَةُ الِاسْتِعَارَةِ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَٰنٍ﴾:

مِنْ دَعَائِمِ الْحَيَاةِ الزَّوْجِيَّةِ الرِّضَا بِهَا وَالرَّغْبَةُ فِي اسْتِمْرَارِهَا

حقيقةُ الإمساكِ: قبضُ اليد على شيءٍ مخافةَ أن يسقط أو يتفلَّت، وهو هنا استعارة لدوام المعاشرة، ونكتة الاستعارة: تصوير شدّة الرّغبة في العودة إلى الحياة الزّوجيّة رضًا بها وركونًا إليها، فهي إرجاعٌ لشيءٍ يُخافُ عليه، ولا يُخافُ إلّا على محبوبٍ للنَّفْس.

والتّسريح ضدّ الإمساك في معنييه الحقيقيّ والمجازيّ؛ وهو هنا مُستعار لإبطال سبب المعاشرة بعد الطَّلاق، وهو سبب الرّجعة

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوَجيز: 1/295.
(2) الموصلّي، أولى ما قِيل: 2/331.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 1/430.

ثمّ استُعِيرَ ذلك الإبطال للمفارقة، فهو مجاز بمرتبتين[1]، وفائدته تصوير حال من أَيِسَ مِنَ الرّجعة؛ إذ يمتنع مع التّسريح أيّ شيء مِنْ مُتعلّقات القلب والميل نحو الشَّريكِ عادةً.

نُكْتَةُ الِاسْتِعَارَةِ فِي التَّعْبِيرِ عَنِ الطَّلْقَةِ الثَّالِثَةِ بِالتَّسْرِيحِ:

حُرْمَةُ تَعْوِيقِ الْمَرْأَةِ وَمَطْلِهَا عِنْدَ عَدَمِ إِرَادَةِ رَجْعَتِهَا

التّسريح في قوله: ﴿أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَٰنٍ﴾ الطّلقة الثّالثة بعد الاثنتين[2]، وسمّى الثّالثة تسريحًا على سبيل الاستعارة؛ لأنّه إرسال لغير معنى الأخذ، كتسريح الشّيء الّذي لا يُراد إرجاعه، فتكون الطَّلقة الثَّالثة لا رجعة فيهَا، ونكتة هذه الاستعارة: الإيماء إلى عدم تعويق المرأةِ ومَطْلِهَا عند عدمِ إرادةِ رَجْعَتِها؛ لأنَّ أصلَ مادة (التَّسريح) وهي السّين والرَّاء والحاء دالٌّ على هذا المعنى، ومنه قولهم: أَمْرٌ سَرِيحٌ؛ إذا لم يكن فيهِ تَعْوِيقٌ ولا مطلٌ[3].

ويجوز أن يُراد بالتّسريح عدم المراجعة من الثّانية لا أنّه طلقة ثالثة.

دِلَالَةُ التَّعْرِيضِ فِي قَوْلِهِ: ﴿أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَٰنٍ﴾:

لَا يُجْمَعُ عَلَى الْمَرْأَةِ الْمُسَرَّحَةِ مَنْعَانِ: مَنْعُ النَّفْسِ وَمَنْعُ الْمَالِ

لمّا كان مقصودُ النّكاح حسنَ الصّحبة؛ وكانت مِن الرّجل الإمتاع بالنّفس والمال، وكان الطَّلاق منعًا للإمتاع بالنّفس؛ قال: ﴿بِإِحْسَٰنٍ﴾ تعريضًا بالجبرِ بالمال؛ لئلا يجتمع على المرأةِ مَنْعَانِ: منع النّفس وذات اليد، أفاده الحرَالّي، وقال: ففيه بوجهٍ مَا تعريضٌ بِما صرَّحت به آية المُتعة الآتية[4].

دِلَالَةُ التَّعْبِيرِ بِالْمَصْدَرِ الْمَرْفُوعِ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَٰنٍ﴾:

يجوز أن يكون إمساكٌ وتسريحٌ مَصْدَرَيْنِ جُعِلا بَدَلَيْنِ من

(1) المصدر السّابق: 2/407.
(2) ابن جُزيّ، التّسهيل: 1/123.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سرح).
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 1/430.

فعليهما على طريقة المفعول المُطلق الآتي بدلًا من فعله، وأصلُهما النّصب، ثمّ عُدِل عنِ النّصب إلى الرّفع لإفادة معنى الدّوام، كما عُدِل عنِ النّصب إلى الرّفع في قوله تعالى: ﴿قَالَ سَلَٰمٌۖ﴾ [هود: 69]، فيكون مفيدًا معنى الأمر بالنّيابة عن فعله، ومفيدًا الدّوامَ برفع المصدرين، والتّقدير: فأمسكوا أو سرّحوا.

تَوْسِعَةُ اللهِ تَعَالَى عَلَى الْعِبَادِ بِالرَّجْعَةِ؛ لِتَدَارُكِ مَا قَدْ يَعْرِضُ لَهُمْ مِنَ النَّدَامَةِ

فتبيّن أنّ الطَّلاق حُدِّد بمرّتين، قابلةٌ كلّ منهما للإمساك بعدها، والتّسريح بإحسان؛ توسعةً على النّاس لِيَرْتَؤوا بعد الطَّلاق ما يليق بحالهم وحال نسائهم، فلعلَّه تَعْرِض لهم ندامة بعد ذوق الفراقِ، ويُحِسُّوا ما قد يغفلون عن عواقبه حين إنشاء الطَّلاق عن غضب أو عن مَلالَةٍ[1].

دِلَالَةُ أُسْلُوبَيِ الطِّبَاقِ وَالْإِدْمَاجِ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَإِمۡسَاكُۢ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ تَسۡرِيحُۢ بِإِحۡسَٰنٖۗ﴾:

مَزْجُ الشَّرِيعَةِ فِي سَوْقِ الْأَحْكَامِ بَيْنَ الْحُقُوقِ وَالْوَاجِبَاتِ

ظهر ممَّا تقدَّم هذا أنّ المقصود من قوله تعالى: ﴿فَإِمۡسَاكُۢ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ تَسۡرِيحُۢ بِإِحۡسَٰنٖۗ﴾ أحد أمرين متقابلَيْن، بينهما طباقٌ، هما: الإمساك أو التّسريح المُطْلَقان، وأمّا تقييد الإمساك بالمعروف والتّسريح بالإحسان فهو إدماجٌ لوصيّة أخرى في كلتا الحالتين إدماجًا للإرشاد في أثناء التّشريع[2]؛ إذ حقيقة الإدماج: تضمينُ كلام سيقَ لمعنًى معنًى آخر[3].

فقُيِّدَ المتقابِلَانِ بوصيّتين متناسبتين، وهذا من بديع الإجمال في النّصّ وروعة بلاغته، فأدمج كلّ واحد من المتقابلَيْن بما يناسبه أوّلًا، ثمَّ جَعَلَ ترابطًا وتناسبًا بين المُناسِبَين وهما (المعروف والإحسان)، وجعلهما من جنس الرّحمة والعدل.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/406.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/406.
(3) الصَّعيدي، بغية الإيضاح: 4/62.

الْعَادَاتُ مُعْتَبَرَةٌ إِذَا لَمْ تُعَارِضْ أَحْكَامَ الْإِسْلَامِ

وَجْهُ التَّنَاسُبِ بَيْنَ الْإِمْسَاكِ وَالْمَعْرُوفِ:

قوله تعالى: ﴿فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ﴾ معناه: فالواجب عليكم إمساك بمعروف[1]، والمعروف هنا هو ما عرفه النّاس في معاملاتهم من الحقوق الّتي قرّرها الإسلام أو قرّرتها العادات الّتي لا تنافي أحكام الإسلام، وهو يناسب الإمساكَ؛ لأنّه يشتمل على أحكام العصمة كلّها، من إحسان معاشرة وغير ذلك، فهو أعمّ من الإحسان[2].

مِنْ عَظَمَةِ الشَّرِيعَةِ: رَفْعُ الْمَفَاسِدِ عَنِ النِّسَاءِ، وَجَلْبُ الْمَصَالِحِ لَهُنَّ

وَجْهُ التَّنَاسُبِ بَيْنَ التَّسْرِيحِ وَالْإِحْسَانِ:

علّق التّسريح بالإحسان في قوله: ﴿أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَٰنٍۗ﴾، والتّسريح: فراقٌ، ومعروفه منحصر في الإحسان إلى المفارَقة بالقول الحسن والبذل بالمُتعة، كما قال تعالى: ﴿فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٤٩﴾﴾ [الأحزاب: 49]، وقد كان الأزواج يظلمون المُطلَّقات ويمنعونهنّ من حليهنّ ورياشهنّ، ويكثرونَ الطّعن فيهنّ، فجاء القرآن الكريم غيرَ مقتصرٍ على كفِّ الأذى والضَّرر عن المرأة، بل بالإحسانِ إليها، ومن إحسان التّسريح ألّا يأخذ المُسرِّح وهو المُطلِّق عوضًا عن الطَّلاق، وهذه مناسبة مجيء هذا الاعتراض، وهو تفنُّنٌ بديعٌ في جمع التّشريعات والخطاب للأمّة؛ ليأخذَ منه كلُّ أفرادها ما يختصّ به[3].

قال ابنُ عَرفة: "فإن قلت: هلّا قيل: فإمساكٌ بإحسان أو تسريحٌ بمعروف؛ قلت: عادتهم يجيبون بأنّ المعروف أخفّ من الإحسان؛ إذِ المعروف حُسن العِشرة وإعطاء حقوق الزّوجيّة، والإحسان ألّا يظلمها من حَقّها فيقتضي الإعطاء، وبذل المال أشقّ على النّفوس من حسن المعاشرة، فجعل المعروف مع الإمساك المُقتضي دوام العصمة؛ إذ لا يَضرّ تكرُّره، وجُعِل الإحسان الشّاقّ مع التّسريح الّذي لا يتكرّر"[4].

(1) النّسفيّ، مدارك التّنزيل: 1/190.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/407.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/408.
(4) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/407، 658.

التَّنَاسُبُ بَيْنَ الْمَعْرُوفِ وَالْإِحْسَانِ:

الْفَضْلُ وَالْخَيْرُ مَأْمُورٌ بِهِمَا فِي حَالَيِ الْإِمْسَاكِ وَالتَّسْرِيحِ

التّناسب بين المعروف والإحسان بيّنٌ؛ إذْ هما في الجملةِ من جنس الخير والفضل، ولهذا جاءتِ الآية بهما ضمانًا لمكانة المرأة، وحفظًا لحقوقها، وقد ذكر الطّيبيّ أنّ العلاقةَ بين الإحسان والمعروف كالعلاقة بين العامّ والخاصّ، فالإحسان أعمّ معنى من المعروف؛ لأنّ الشّيء قد يكون معروفًا غير مُنكَر ولا يكون مُستحسَنًا، فكلُّ إحسان معروف، وليس كلّ معروف إحسانًا، وبيّن أنّ من حَقّ المُسرِّح أن يبذل ما يزيد على الإنصاف تبرّعًا، وذلك على حسب ما كانوا يراعون في بذل فضل المعروف لمن يرتحل عنهم[1].

ويحتمل أن يكون المعروف أعمَّ من الإحسان، وأيًّا ما كان الأعمُّ منهما والأخصُّ؛ فإنَّ بينهما تناسُبًا ظاهرًا على الوجهينِ.

تَعْيِينُ مَرْجِعِ الضَّمَائِرِ:

التَّشْرِيعَاتُ الْقُرْآنِيَّةُ فِي الطَّلَاقِ خَاطَبَتِ الْأَفْرَادَ جَمِيعًا

ذكر ابن عطيّة والقُرطبيّ والزَّمخشريُّ أنَّ ضميرَ الخطاب في قوله: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ﴾ راجعٌ إلى الأزواج، بقرينة قوله: ﴿أَن تَأْخُذُواْ﴾، وقولِه: ﴿ءَاتَيْتُمُوهُنَّ﴾، والخطاب في قوله: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ﴾ راجعٌ إلى الحُكّام؛ لأنّه لو كان للأزواج لقيل: فإن خفتم ألّا تقيموا، أو ألّا تُقيما، قال في الكشّاف: "ونحو ذلك غير عزيز في القرآن"[2].

والضّمير المؤنث في ﴿ءَاتَيْتُمُوهُنَّ﴾ راجع إلى المُطلَّقات، المفهوم من قوله: ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ﴾؛ لأنّ الجنس يقتضي عددًا من المُطلِّقين والمُطلَّقات.

دِلَالَةُ التَّعْبِيرِ بِالِاسْمِ الْمَوْصُولِ وَصِلَتِهِ فِي قَوْلِهِ: ﴿مِمَّآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ﴾:

الرُّجُوعُ فِي الْعَطِيَّةِ مُسْتَقْبَحٌ شَرْعًا وَطَبْعًا

قوله: ﴿وَلَا يَحِلُّ﴾ أي: لا يجوز، واستعمال الحلّ والحرمة في هذا المعنى وضدّه قديم في العربيّة، قال عنترة[3]:

(1) الطّيبيّ، حاشية الطّيبيّ: 3/400.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/302.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/408.

يا شاةَ ما قَنَصٍ لِمَن حَلَّت لَهُ *** حَرُمَت عَليّ وَلَيتَها لَم تَحرُمِ[1]

وقال كعب:

إذا يُساورُ قِرنًا لا يَحِلُّ لَهُ *** أن يَترُكَ القِرنَ إلّا وَهْوَ مَفلول[2]

وقوله: ﴿مِمَّآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ﴾؛ ممّا أعطيتموهنّ من المهور[3]، وعُدِلَ عن التَّعبير بالمهور إلى التَّعبير بالموصول وصِلَتِهِ ﴿مِمَّآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ﴾؛ لبيان شناعة أن يأخذ المُطلِّق العوضَ عن طلاقه للمرأة؛ فهو بمنزلةِ من رجعَ في عطائِهِ وإتيانِهِ، وهو مستقبَحٌ شرعًا وطبعًا.

وقوله: ﴿مِمَّآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ﴾ ظاهر في عموم ما آتوا على سبيل الصّداق أو غيره من هبة، وقد فسّره بعضهم بالصّدقات، إلَّا أنَّ استعمال الاسم الموصول يقتضي العمومَ؛ إذ هو من الألفاظ الدَّالَّةِ عليه.

دِلَالَةُ اسْتِعْمَالِ لَفْظِ (الشَّيْءِ):

مُـرُوءَةُ الـرَّجُـلِ تَـدْفَـعُـهُ إِلَى التَّسَامِي عَنْ أَخْـذِ شَيْءٍ مَا مِنْ حُقُوقِ امْرَأَةٍ كَانَتْ زَوْجَةً لَهُ

وقع التَّعبير بلفظ الشَّيءِ في قوله: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَأۡخُذُواْ مِمَّآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ شَيۡـًٔا﴾؛ لأنّه مِن النَّكرات المتوغّلة في الإبهام، تحذيرًا من أخذ أقلِّ قليل، بخلاف ما لو قال (مالًا) أو نحوه، وهذا المَوقِع من محاسن مَواقِع كلمة (شيء)، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَنَبۡلُوَنَّكُم بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلۡخَوۡفِ وَٱلۡجُوعِ﴾ [البقرة: 155].

سِرُّ تَنْكِيرِ ﴿شَيْـًٔا﴾ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَأۡخُذُواْ مِمَّآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ شَيۡـًٔا﴾:

خَطَرُ الْأَخْذِ مِنَ الْمُطَلَّقَاتِ، قَلِيلًا كَانَ الْمَأْخُوذُ أَوْ كَثِيرًا

تنكيرُ ﴿شَيۡـًٔا﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَأۡخُذُواْ مِمَّآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ شَيۡـًٔا﴾ دالٌّ على العموم؛ إذ هو نكرةٌ في سياق النَّفي فتعمّ، وهو يقوِّي دلالةَ الاسم الموصول (مَا) على العموم في قوله: ﴿مِمَّآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ﴾.

(1) القُرَشّي، جمهرة أشعار العرب، ص: 368.
(2) القُرَشّي، جمهرة أشعار العرب، ص: 640.
(3) النّسفيّ، مدارك التّنزيل: 1/190.

وفي تنكير ﴿شَيۡـًٔا﴾ أيضًا: إيماءٌ إلى خطر الأخذ منهنَّ قليلًا كان أو كثيرًا.

بَلَاغَةُ الْقَصْرِ بِالنَّفْيِ وَالِاسْتِثْنَاءِ:

حُقُوقُ الْعِبَادِ مَبْنِيَّةٌ عَلَى الْمُشَاحَّةِ

تضمَّنَ قولُه: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَأۡخُذُواْ مِمَّآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ شَيۡـًٔا إِلَّآ أَن يَخَافَآ﴾ النَّفي واستثناءً، فأفادَ ذلك: القصرَ، ففيه منطوق ومفهوم.

والقصرُ بالنَّفي والاستثناء أقوَى طرقِ القصر، ولذا اختيرت في أعظم شهادةٍ وهي الشَّهادة للّه تعالى بالوحدانية (لا إله إلَّا اللّه)، واختيرَ النَّفي والاستثناءُ في هذه الآيةِ؛ لتعلُّقِهَا بالحقوقِ، وهي مبنيَّةٌ على المشاحَّةِ، وفيه إشعارٌ بالحُرمةِ الشَّديدةِ في أخذِ شيءٍ من المرأةِ المطلَّقَةِ.

نُكْتَةُ الِاعْتِرَاضِ بِآيَةِ: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمۡ﴾:

مُبَادَرَةُ الشَّرِيعَةِ إِلَى تَرْسِيخِ الْحُقُوقِ قَبْلَ ضَيَاعِهَا

قوله: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَأۡخُذُواْ مِمَّآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ شَيۡـًٔا إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِۖ فَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَا فِيمَا ٱفۡتَدَتۡ بِهِۦۗ تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعۡتَدُوهَاۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٢٢٩﴾ جملة مُعترِضة بين قوله: ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ فَإِمۡسَاكُۢ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ تَسۡرِيحُۢ بِإِحۡسَٰنٖۗ﴾، وبين قوله: ﴿فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعۡدُ﴾؛ قُصِدَ تثبيتُ حقِّ المرأةِ وترسيخُهُ قبل اختيارِ الزَّوجِ تطليقَهَا الطَّلقة الثَّالثَةَ، فلا يَضيعُ حقُّهَا.

دِلَالَةُ الْمَجَازِ الْعَقْلِيِّ فِي قَوْلِهِ: ﴿أَن تَأۡخُذُواْ﴾:

حَمْلُ الْكَلَامِ عَلَى الْحَقِيقَةِ أَوْلَى مِنْ حَمْلِهِ عَلَى الْمَجَازِ إِذَا عُدِمَتِ الْقَرِينَةُ الصَّارِفَةُ

جُوِّز أن يكون الخطاب كلّه للحكّام، وتُؤُوِّلَ قولُه: ﴿أَن تَأۡخُذُواْ﴾ وقوله: ﴿مِمَّآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ﴾ بأنّ إسناد الأخذِ والإتيان للحكّام غيرُ حقيقيٍّ، فهو مجازٌ عقليّ، وإنَّما أُسندَ إليهم؛ لكونِهم الآمرينَ بالأخذ والإعطاء، وعلاقة المجاز العقليِّ: السّببيّة.

ويحتملُ أن يكون الخطابُ للأزواجِ، بقرينةِ قولِه بعد:

﴿ءَاتَيْتُمُوهُنَّ﴾؛ وهو أظهرُ بدلالةِ السِّياقِ، ولأنَّ العدولَ عن الحقيقةِ إلى المجاز من غير قرينةٍ صارفةٍ ليس بالمَسْلَكِ القويِّ.

بَلَاغَةُ الِالْتِفَاتِ فِي تَنَوُّعِ الْقِرَاءَاتِ:

فِي تَعَدُّدِ الْقِرَاءَاتِ إِثْرَاءٌ لِلْمَعَانِي

﴿إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِۖ﴾ الألف في ﴿يَخَافَآ﴾ و﴿يُقِيمَا﴾ عائدةٌ على صِنْفَي الزَّوجين، ففيه التفات من الخطاب إلى الغَيْبَةِ؛ إذْ تقدَّم الخطاب في قوله: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُواْ﴾؛ والأصل أنَّه إذا اجتمع مُخاطَب وغائب، وأُسند إليهما حكمٌ كان التّغليب للمُخاطَب، ولمّا كان الاستثناء بعد مضيّ الجملة للخطاب؛ جاز الالتفات إلى الغَيْبَةِ[1].

وقرأ حمزة وأبو جعفر ويعقوب بضمّ الياء ﴿يُخَافَا﴾[2] على البناء للمفعول، وفيه ضربٌ من الالْتِفَاتِ؛ إذِ التُفِتَ من المبنيّ للفاعلِ إلى المبنيّ للمفعول، ووجه الالتفاتِ ههنا: قوله بعدها: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ﴾، فجعل الخوفَ لغيرهما، ولم يقل: (فَإِنْ خَافَا)، فكان البناء للمفعول عندهم أَوْلَى.

والقراءتانِ تُكَمِّلُ إحداهما الأخرى، إذ إنَّ تعدُّدَ القراءات بمنزلة تعدُّدِ الآيات.

دِلَالَةُ جِنَاسِ الِاشْتِقَاقِ بَيْنَ قَوْلِهِ: ﴿إِلَّآ أَن يَخَافَآ﴾ وَقَوْلِهِ: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ﴾:

اسْتِشْعَارُ حَالِ الزَّوْجَيْنِ مِنَ التَّوَافُقِ أَوِ التَّنَافُرِ تَبْصِرَةٌ لِلْوُقُوفِ عَلَى الْحُلُولِ

قول الله تعالى: ﴿إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِۖ﴾ أي: إلّا أن يعلمَ الزّوجان ترك إقامة حدود الله فيما يَلزمهما من واجباتِ الزّوجيّة[3].

ومعنى الخوف هنا: الإيقَان والعلم؛ أي: إلاّ أن يعلما، والأولى بقاء الخوف على بابه، وهو أن يُراد به الحذر من الشّيء، فيكون

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/470.
(2) القاضي، البُدور الزّاهرة: 1/117.
(3) النّسفيّ، مدارك التّنزيل: 1/191.

المعنى: إلّا أن يعلم أو يظنّ أو يوقن أو يحذر كلّ واحد منهما بنفسه أن لا يقيم حقوق الزّوجيَّة لصاحبه على الوجه المأمور به، فيجوز الأخذ[1].

وبينهما: ﴿يَخَافَآ﴾ و﴿خِفۡتُمۡ﴾: جناسُ الاشتقاق، وفائدةُ إيرادِه ههنا: بيانُ طبيعة الخوف النّاشئ عن ضميري الزّوجين، فهو خوف ناشئ عن عِشْرةٍ سابقة بينَهُمَا وتجربة معروفةٍ تفاصيلُها الدّقيقةُ ممّا لا يطَّلِعُ عليه الآخرون.

وفيه أيضًا: حثّ المُخاطَبين من الحكّام أو من أُوكِلَ إليهم أمرُ الزّوجين أن يَسْتَشْعِرُوا حالَ الزّوجين، فيُقدّروا حالَهم من التّوافق أو التَّنافُر؛ ليقفوا على اسْتِعْدَادِهِما - إن رجعا إلى حياتهما - لإقامة حدود الله تعالى بينهما، وليحفظا عهدَهما وأسرتهما.

وإقامة حدود الله تعالى، فسّرها مالك رحمه الله بأنّها حقوق الزّوج وطاعته والبرّ به، فإذا أضاعتِ المرأة تلك فقد خالفت حدود الله[2].

دِلَالَةُ تَكْرَارِ قَوْلِهِ: ﴿أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِۖ﴾:

الْخَوْفُ بَاعِثٌ عَلَى الْعَمَلِ الصَّالِحِ امْتِثَالًا لِلْأَمْرِ وَاجْتِنَابًا لِلنَّهْيِ

تَكرّر قولُ الله تعالى: ﴿أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِۖ﴾، فقد ذكره أوّلًا في قوله: ﴿إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِۖ﴾، ثم في قوله سبحانه: ﴿فَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ﴾؛ وفي ذلك إيماءٌ إلى أهميَّةِ إقامتها، وبيانِ شدَّةِ الحرص على ذلك.

وأُدْرِجَ معهَا في السّياق ذكرُ (الخوف)؛ لبيان الطَّريقةِ المثلَى التي تكون دافعًا لامتثال إقامة الحدود، وهو الخوفُ؛ إذِ الخوفُ باعثٌ على العملِ الصَّالِح امتثالًا للأمر واجتنابًا للنَّهْيِ.

بَرَاعَةُ الِاسْتِعَارَةِ فِي قَوْلِهِ: ﴿يُقِيمَا﴾:

حقيقةُ الإقامة: الإظهار والإيجاد، كما في قولهم: أقام حدًّا لأرضه.

مَشْرُوعِيَّةُ الْتِزَامِ الْأَحْكَامِ بِقُوَّةٍ

وهي هنا استعارة للعمل بالشّرع؛ تبعًا لاستعارة الحدود للأحكام الشّرعيّة[3]. وَفَائِدَتُها: بيانُ أنَّ الأحكام الشَّرعيَّةَ ينبغي امتثالُهَا امتثالًا قويًّا حتَّى كأنَّها تكون ظاهرةً ماثلةً أمام الأعينِ.

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/471.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/409.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/413.

دِلَالَةُ التَّعْبِيرِ عَنِ الْوَاحِدِ بِالتَّثْنِيَةِ:

الزَّوْجَانِ لِشِدَّةِ الصِّلَةِ بَيْنَهُمَا كَالنَّفْسِ الْوَاحِدَةِ

ترك إقامة الحدود الوارد في قوله تعالى: ﴿أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِۖ﴾ يُرادُ به ظهور النّشوز وسوء الخلق منها، أو عدم طواعية أمره وإبرار قسمه، أو إظهار حال الكراهة له بلسانها، وعلى هذه الاحتمالات الثّلاثة - وكلُّها حقٌّ لعدم التَّعارضِ بينها - الأقوال الثّلاثة، فإنَّ التَّثنيةَ أريد بها الواحد على سبيل التَّجَوُّزِ والتَّوسُّعِ.

وفائدة هذا المجاز بيان الشَّركَةِ في الحياةِ بينَهما؛ إذ لا تُقام حدود الله بينهما إلَّا بالمشاركة والتّعاون، فضلًا عمّا في هذا المجَازِ مِن دِلالة الوحدة الّتي كانت تجمعهما؛ إذْ هما كنفس واحدةٍ، فما يخافه أحدهما، كالذي يخافه الآخرُ، قال تعالى: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمۡ وَأَنتُمۡ لِبَاسٌ لَّهُنَّۗ﴾ [البقرة: 187].

ويحتمل أن يكون المرادُ بترك إقامة حدود الله: كراهة كلّ منهما صاحبَه، وعلى هذا الوجه؛ فالتَّثنيةُ على بابها[1].

بَلَاغَةُ اللَّفِّ وَالنَّشْرِ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَا فِيمَا ٱفۡتَدَتۡ بِهِۦۗ﴾:

التَّذْكِيرُ بِقُوَّةِ الرَّابِطَةِ الزَّوْجِيَّةِ حَالَ إِرَادَةِ الْفِرَاقِ

والضّمير في: ﴿عَلَيۡهِمَا﴾ عائد على الزّوجين معًا؛ أي: لا جناح على الزّوج فيما أخذ، ولا على الزّوجة فيما افتدت به[2]. والمعنى: لا جناح على الزّوج والزّوجة فيما افتدت به، وأخذ منها.

وهذا لفٌّ ونشرٌ، ففي قوله: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَا﴾؛ أي: على الزّوج والزّوجة، وهذا لفٌّ أو طيٌّ، وقوله: ﴿فِيمَا ٱفۡتَدَتۡ بِهِۦۗ﴾؛ أي: فيما افتدت به وأخذ منها، وهذا هو نشر الطّيّ، وفائدته: الإيماءُ إلى تلك المشاركة المتداخلة بين الزّوجين، وإن كانا في ميدان المفارقة ولحظاتها، فقد كانا قبل قرار الخلع بمنزلةِ الواحد المطويِّ الملفوف بعضه في بعض، فلمّا قرّرا الانفصالَ؛ تمايز

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/473.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/474.

أحدهما عن الآخر؛ فهي افتدت نفسها بمالها، وهو قبل ما افتدت به، فعُبِّر عَنْهُ بالنَّشْرِ.

دِلَالَةُ أُسْلُوبِ الِاكْتِفَاءِ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِۦ﴾ فِي وَجْهٍ آخَرَ:

التَّلَازُمُ بَيْنَ الْأَخْذِ وَالْعَطَاءِ

ذهب بعض أهل العلم إلى أنَّ ﴿عَلَيْهِمَا﴾ بمعنى: عليه، فهو كقوله: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ﴾ [الرحمن: 22]، واللُّؤلُؤُ إنَّما يخرج من المالح، و﴿نَسِيَا حُوتَهُمَا﴾ [الكهف: 61]، والنّاسي إنَّما هو يوشع بن نون[1]، وهذا ضربٌ من ضروبِ التَّجَوُّزِ.

وعلى هذا التَّوجيه؛ فلا يكون في الآيةِ لفّ ونشر؛ لأنَّ اللّفّ فَقَدَ أحد شَطْرَيْهِ، إذ لا يكون للمرأة ذكر في هذا التّقدير، فامتنع اللّفّ.

إلَّا أنَّ العبارةَ تكون من باب الاكتفاءِ، فقوله: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِۦ﴾ أي: وفيما أخذَ الزَّوجُ، فاكتُفِيَ بذِكر فداءِ المرأة عن ذِكْرِ أخذ الرَّجل؛ لأنَّ فداء المرأة عطاءٌ، وثَمَّ تلازمٌ بين الأخذ والعطاءِ.

دِلَالَةُ تَكْرَارِ الْحُدُودِ مُضَافَةً إِلَى الِاسْمِ الْأَحْسَنِ ﴿ٱللَّهِ﴾:

تَعْظِيمُ حُدُودِ اللهِ تَعَالَى وَخَطَرُ تَعَدِّيها

في قول الله تعالى: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِۦ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ﴾ تَكرارُ الاسم الأحسن ﴿ٱللَّهِ﴾، وهو دالٌّ على رفعة زائدةٍ لهذا المقام، وتعظيم كبير لهذه الأحكام، وحثّ أكيدٌ على التَّقيُّد بهَا؛ بمراعاتها والتزامها؛ إذ كلّ إنسان مجبولٌ على تقديم حظِّ نفسِه على حظِّ غيره، والشَّرعُ قائمٌ على العدل والإنصاف، وأن يُحبَّ المرء لغيره ما يحبُّ لنفسه.

ولمَّا كانت أحكام الطّلاق قد حدَّ الله تعالى فيها حدودًا، تكون بها المصالح، وتزول المفاسد؛ منع سبحانه وتعالى مِن تعدّي تلك

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/474.

الحدود؛ أي: الأحكام الّتي بيَّنها في ذلك، فقال: ﴿تِلْكَ﴾، أي: الأحكام العظيمة الّتي تولّى اللّه بيانها من أحكام الطَّلاق والرّجعة والخلع وغيرها، ﴿حُدُودُ ٱللَّهِ﴾؛ أي: شرائع اللّه تعالى، الّذي له جميع العزّة من الأوامر والنّواهي الّتي بيّنها فصارت كالحدود المعروفة في الأراضي[1]، وَتَكْرَارُ ذِكْرِ الْحُدُودِ مُضَافةً إلى الاسم الأحسنِ ﴿ٱللَّهِ﴾ مُفِيدٌ تعظيمَهَا وتهويلَ شأنِ تَعَدِّيها.

نُكْتَةُ الِاسْتِعَارَةِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ﴾:

وُجُوبُ تَحَرِّي الْحَلَالِ، وَالتَّحْذِيرُ مِنْ خَطَرِ إِصَابَةِ الْحَرَامِ

﴿حُدُودَ ٱللَّهِ﴾ يُرادُ بها أوامرهُ ونواهيهِ الشّرعيّة، وقد شُبّهت بالحدود الّتي هي الفواصل المجعولة بين أملاك النّاس؛ لأنّ الأحكام الشّرعيّة تفصل بين الحلال والحرام، والحَقّ والباطل، وتفصل بين ما كان عليه النّاس قبل الإسلام وما هم عليه بعده[2]، فالتَّعبير عنها بالحدودِ استعارةٌ تصريحيَّةٌ، ونكتَتُهَا: إشعار المُخاطَبين بدقّة الفواصل بين الحلال والحرام، فاقتضى ذلك العناية بِتَحَرِّي الحلال، والحذَرَ من خطر إصابة الحرام بتجاوز حدود اللّه تعالى.

فائدة صيغة الافتعال في قوله: ﴿فَلَا تَعْتَدُوهَاۚ﴾، ومعنى التّمثيل فيها:

تَعَدِّي حُدُودِ اللهِ تَعَالَى بِقَصْدٍ وَإِصْرَارٍ مَظْلَمَةٌ كُبْرَى

لمّا كانت شرائع اللّه ملائمة للفطرة السّليمة؛ أشار إلى ذلك سبحانه بصيغة الافتعال في قوله: ﴿فَلَا تَعْتَدُوهَاۚ﴾، أي: لا تتكلّفوا مجاوزتها، وفيه أيضًا إشارة إلى العفو عن المجاوزة من غير تعمّد.

ولمّا أكّد الأمر تارّة بالبيان وتارّة بالنّهي زاد في التّأكيد بالتهديد، فقال عاطفًا على ما تقديره: فمن تعدّى شيئًا منها فقد ظلم[3].

بَلَاغَةُ الِاسْتِعَارَةِ فِي قَوْلِهِ: ﴿تَعْتَدُوهَاۚ﴾:

إنّ إطلاقَ الاعتداء الّذي هو تجاوز الحدِّ على مخالفة حكم

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 1/431-432.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/413.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 1/432.

الشّرع، استعارةٌ تابعة لتشبيه الحكم بالحدِّ[1]، وهي في ذاتها: استعارة تصريحيّة؛ إذ ذُكر المشبه به، وهو التّعدّي، وحُذف المشبّه، وهو المخالفة، وفي هذه الاستعارة تصويرُ شناعة المخالفةِ.

شَنَاعَةُ مُخَالَفَةِ أَحْكَامِ اللهِ تَعَالَى

وذكر الفعل ﴿يَتَعَدَّ﴾ مع حدود اللّهِ تعالى مرادًا به معنى مخالفة أحكامه: هُوَ ترشيحٌ لاستعارة الحدود للأحكام الشرعية، وهو مع كونه ترشيحًا مستعارٌ لمخالفة أحكام اللّه؛ لأنّ مخالفة الأمر والنّهي تشبه مجاوزة الحدِّ في الاعتداء على صاحب الشَّيء المحدود[2].

نُكْتَةُ الْإِظْهَارِ فِي مَوْضِعِ الْإِضْمَارِ فِي قَوْلِهِ: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَاۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ﴾:

في قول اللّه تعالى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَاۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ﴾ إظهارٌ في مقام الإضمار؛ إذ كان مقتضى الظَّاهر: تلك حدود اللّه فلا تعتدوها، ومن يتعدَّها، إلَّا أنَّه أظهر ﴿حُدُودَ ٱللَّهِ﴾؛ تعظيمًا لشأن تعدِّيها وتحذيرًا للعبادِ من التَّساهُلِ فيها.

تَحْذِيرُ الْعِبَادِ مِنَ التَّسَاهُلِ فِي تَعَدِّي حُدُودِ اللهِ تَعَالَى

دِلَالَةُ الْإِضَافَةِ فِي قَوْلِهِ: ﴿حُدُودُ ٱللَّهِ﴾:

في إضافة الحدود إلى الاسم الأحسن ﴿ٱللَّهِ﴾ تعظيمٌ لها وتشريفٌ[3]، ويُقَوِّي هذا الوجه: الإشارة إليها بِاسم الإشارة ﴿تِلْكَ﴾ الدَّالِّ على البُعْدِ؛ وفيه زيادةُ تنويهٍ بشأنها، وحثُّ العبادِ على تعظيمها والاهتمام ببذل الوُسْعِ في إقامتها.

وُجُوبُ بَذْلِ الْوُسْعِ فِي إِقَامَةِ حُدُودِ اللهِ تَعَالَى

فَائِدَةُ الْإِطْنَابِ بِالِاعْتِرَاضِ فِي قَوْلِهِ: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَاۚ﴾:

قول اللّه تعالى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَاۚ﴾ أي: ما حدّ من النّكاح واليمين والإيلاء والطَّلاق والخلع وغير ذلك[4]، وهي معترضة بين جملة ﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُواْ مِمَّآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْـًٔا﴾ وما اتّصل

اخْتِيَاجُ الْعَبْدِ إِلَى التَّذْكِيرِ بِأَحْكَامِ اللهِ تَعَالَى نُصْحًا وَإِرْشَادًا

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/413.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/413.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/476.
(4) النّسفيّ، مدارك التّنزيل: 1/191.

بها، وبين الجملة المُفرَّعة عليها وهي قوله: ﴿فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعۡدُ﴾، ومناسبة الاعتراض ما جرى في الكلام الّذي قبلها من منع أخذ العِوَض عنِ الطَّلاق إلّا في حالة الخوف من ﴿أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ﴾، وكانت حدود اللّه مبيّنَة في الكتاب والسُّنّة، فجيء بهذه الجملة المُعترِضة تبْيينًا وتذكيرًا؛ لأنّ منع أخذ العوض على الطَّلاق هو من حدود اللّه[1].

دِلَالَةُ الْقَصْرِ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾:

مَا مِنْ ظَالِمٍ إِلَّا وَهُوَ مُتَعَدٍّ حُدُودَ اللهِ تَعَالَى

الظّلم: وضع الشّيء في غير مَوضِعه، فشمل بذلك المُخاطَبين وغيرهم.

وحُمل الفعلُ ﴿يَتَعَدَّ﴾ من قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ﴾ على لفظ (مَنْ)، ولذا أُفْرِدَ، وحُمِلَ (أولئك) على معنى (مَن)، فجمع.

وجاءَ قوله: ﴿ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ معرَّفًا باللّام المفيدةِ الحصرَ أو المبالغةَ في الوصف، والحصر حقيقيّ؛ إذ ما من ظالم إلّا وهو مُتعدٍّ لحدود اللّه، فظهر حصر حال المُتعدِّي حدود اللّه في أنّه ظالم[2].

ويحتمِلُ أن يكون هذا الْقَصْرُ إضافيًّا؛ إذ فيه قصرُ الظُّلْم على المتعدِّينَ حدودَ اللّهِ؛ ويكون المعنى مِنْ إفادة انحصار الظُّلْم فيهِمْ: أنَّ ظلمَهُمْ أعظَمُ ظلمٍ، حتَّى كَأَنَّ ظلمَ غَيْرِهِمْ ليس بشيءٍ مقارنةً لظُلْمِهِمْ.

فَائِدَةُ الْإِتْيَانِ بِضَمِيرِ الْفَصْلِ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾:

الظَّالِمُ وَاضِعٌ الْأَشْيَاءَ فِي غَيْرِ مَوَاضِعِهَا فَكَأَنَّهُ يَمْشِي فِي ظَلَامٍ

ضميرُ الفصل (هُمْ) في قوله: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ جيءَ بِهِ لتأكيدِ القصر وتقويتِهِ، لا لإفادة القصر ابتداءً؛ إذِ القصرُ مستفادٌ مِنْ تعريف جُزْأَيِ الجملةِ، ومحلُّ إفادةِ ضميرِ الفصلِ القصرَ: إذا خَلَتِ الجملةُ مِنْ طريقٍ لِلْقَصرِ، وليس الأمر هُنا كذلك.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/413.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/413.

وقُوِّيَت الجملةُ أيضًا بالإتيان بِها اسميَّةً؛ ففي ذلك دِلالَةٌ على تجذُّرِ الظُّلْمِ فِيهِمْ.

وتعريفُ ﴿ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ باللَّامِ، وهي دالَّةٌ على الكمالِ، أي: العريقون في الظّلم، الكاملونَ فيه؛ بوضعهم الأشياءَ في غير مَواضِعها، فكأنّهم يمشون في الظّلام[1].

بَرَاعَةُ الِالْتِفَاتِ الْعَدَدِيِّ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾:

عِنَايَةُ الشَّرِيعَةِ بِالْعِبَادِ فَرْدًا فَرْدًا

في قوله سبحانه: ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ التفاتٌ عَدَديٌّ؛ إذ التُفِتَ من المفردِ ﴿يَتَعَدَّ﴾ إلى الجمعِ ﴿ٱلظَّٰلِمُونَ﴾، وفائدته: الإيماء إلى أنَّ الآية ترشد كلّ واحدٍ إلى التزام حدود اللّه، ففيه اهتمامٌ بالعبادِ فردًا فرْدًا.

دِلَالَةُ اسْمِ الْإِشَارَةِ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾:

تَمَيُّزُ بعضِ النَّاس في الشَّرِّ؛ لِتَوَغُّلِهِم في الْأَخْذِ بأسبَابِهِ

اسم الإشارة (أولَئِكَ) من قوله: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ يُرادُ منه تمييز المشار إليه - وهو من يتعدّى حدود اللّه - أكملَ تمييزٍ؛ اهتمامًا بإيقاع وصف الظُّلْمِ عليهم.

وقوَّى هذه الدِّلالةَ كونُ اسمِ الإشارة دالًّا على البُعْدِ، وهو مفيدٌ بُعْدَ منزلتِهم في الظُّلْمِ، وأنَّهم متوغِّلُون فيه للغايَةِ.

التّذييل في قوله ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾:

مِنْ طَرِيقَةِ الْقُرْآنِ فِي تَثْبِيتِ الْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ تَكْرَارُهَا

لمّا نهى عن اعتداء الحدود؛ وهو تجاوزها، وكان ذلك خطابًا لمن سبق له الخطاب قبل ذلك؛ جاءت هذه الجملة الشَّرطية ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ وهي عامّة شَاملة لكلّ فردٍ ممّن يتعدّى الحدود، وحُكِمَ عليهم بِأَنَّهُم الظّالمون، فتكون جملةُ: ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ تذييلًا، وهو تذييلٌ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 1/433.

جارٍ مجرى المثلِ؛ لاستقلالِهِ بالإفادةِ، وعدم افتقارِهِ إلى ما قبلَهُ لبيانِ المرادِ منه، وقد سيقَ التَّذييلُ تأكيدًا وتحذيرًا من تجاوز حدود الله تعالى.

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

مرّتان وطَلْقَتَانِ:

قال تعالى: ﴿مَرَّتَانِۖ﴾ دون (طلقتان)؛ تنبيهًا على أنّه ينبغي أن يكون الطلاقُ مرّة بعد مرّة، وفي كلّ مرّة تجربة لفراق مؤقّت، وليتمكَّن الزوج - إن لم يرد المضارة - من ارتجاعها، ويراجع رأيه في هذه المدة، وأما ما فوقها، فليس محلا لذلك؛ لأن من زاد على الثنتين، فإما متجرئ على المُحَرَّم، أو ليس له رغبة في إمساكها، بل قصده المضارَّة بالزوجة[1]، وتكونَ كلُّ طلقة في مرّة، فلا يجمعهما في مرّة.

احتاط التّشريع للرّجل خشية أن يغلبه الغضب فيطلّق طلقاته الثّلاث في مجلس واحـد، فجعل له كلّ واحدة في مجلس

مرّتان، أي: اثنتان، وإيثار ما ورد به النّظم الكريم عليه للإيذان بأنّ حَقّهما أن يقعا مرّة بعد مرّة لا دفعة واحدة، وإن كان حكم الرّد ثابتًا حينئذ أيضًا.

(1) الموصلّي، أولى ما قِيل: 2/331، والسعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 36.

﴿فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعۡدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوۡجًا غَيۡرَهُۥۗ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِۗ وَتِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ٢٣٠﴾ [البقرة: 230]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لمّا تناولت الآية السّابقة بعض أحكام الطّلاق، فذكر عِدّة المُطلّقة: ﴿ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٖ﴾، وبيّن أنّ ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ﴾، ثمّ نهى تعالى عن تعدّي حدود الله فيما شرّع، وحذّر من تجاوزها، وأخبر أنّ من تعدّاها ظالم، أتبعها بهذه الآية فقال: ﴿فَإِن طَلَّقَهَا﴾ يعني: ثلاث؛ والمعنى: إن أوقع التّسريح الّذي ذكرته الآية السّابقة في قوله: ﴿فَإِمۡسَاكُۢ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ تَسۡرِيحُۢ بِإِحۡسَٰنٖ﴾، فهي لا تحلّ له إلّا بعد نكاح زوج غيره، فإن طلّقها الزّوج الثّاني، وأراد الأوّل أن يراجعها فله ذلك لكنّه شرط في هذا التّراجع ظنّهما إقامة حدود الله.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تَنكِحَ﴾: جذر الكلمة هو (نكح): نَكَحَ يَنكِحُ نَكْحًا: وهو البَضْع[1]. ويُجرَى نَكَحَ أيضًا مُجرَى التّزويج. وامرأةٌ ناكِحٌ، وفلانة ناكِحٌ في بني فلانٍ: أي ذاتُ زوج منهم[2]، ونكَحَها واستنكحها، وَالنِّكَاحُ يَكُونُ الْعَقْدَ دُونَ الْوَطْءِ، يُقَالُ نَكَحْتُ: تَزَوَّجْتُ، وَأَنْكَحْتُ غَيْرِي. والنكاح بمعنى التزويج مطّرد في القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿أَن يَسۡتَنكِحَهَا خَالِصَةٗ﴾ [الأحزاب: 50]، وقوله: ﴿ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوۡ مُشۡرِكَةٗ وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوۡ مُشۡرِكٞۚ﴾ [النّور: 3]. وقوله: ﴿فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ [النّساء: 3]، وقوله: ﴿فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذۡنِ أَهۡلِهِنَّ﴾ [النّساء: 25]، وقوله: ﴿وَأَنكِحُواْ ٱلۡأَيَٰمَىٰ مِنكُمۡ﴾ [النّور: 32]، وأمّا للوطء فقوله تعالى: ﴿وَٱبۡتَلُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ﴾ [النّساء: 6]، وأمّا النكاح بمعنى العقد فلم يرد إلا في قوله تعالى: ﴿إِذَا نَكَحۡتُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقۡتُمُوهُنَّ مِن قَبۡلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمۡ عَلَيۡهِنَّ مِنۡ عِدَّةٖ تَعۡتَدُّونَهَا﴾ [الأحزاب: 49].

(1) الخليل، العين، وابن سيده، المُحكم: (نكح).
(2) الخليل، العين، والزّمخشريّ، أساس البلاغة: (نكح).

ومعنى الآية: تتزوَّجَ مع الوطء.

2) ﴿يَتَرَاجَعَآ﴾: جذر الكلمة هو (رجع): رجعتُ رُجوعًا. والرَّجْعَةُ: المرّة الواحدة. والتّرجِيع: تقارُبُ ضروب الحركات في الصَّوت. هو يُرجِّع في قراءته، وهي قراءةُ أصحاب الألحان[1]. والتَّرجيع في الأذان ترديدُ الشَّهادتين؛ أي تكريرهما[2]. وترجيع وشي النَّقش والوشم والكتابة خطوطها. والرَّجْعُ: ترجيع الدَّابّة يدها في السَّير[3]. وتفرّقوا في أوّل النّهار ثمّ تراجعوا مع اللّيل، أي: رجع كلّ واحد إلى مكانه. ومن المجاز: خالفني ثمّ رجع إلى قولي[4]. وقوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا﴾ [طه: 89]، وقوله: ﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ ۝٨﴾ [الطّارق: 8]، أي على بعث الإنسان وإعادته[5].

ومعنى الآية: يَرْجِعَ كُلُّ واحِدٍ مِنهُما لِصاحِبِهِ بعَقْدٍ جديدٍ، ومَهْرٍ جديدٍ.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

تبيِّن الآيةُ أحكام الطلاق المكمِّل للثلاث، بعد بيان اللّهِ أحكامَ الطلاق الرجعي وأحكام الخُلْع، فإن طلَّق الرجل زوجته الطلقةَ الثالثة، فلا تحلُّ له إلا إذا تزوجت رجلًا غيره زواجًا صحيحًا وجامعها فيه، ويكون الزواج عن رغبة، لا بنية تحليل المرأة لزوجها الأول، فإن طلَّقها الزوجُ الآخر، أو مات عنها وانقضت عدتها، فلا إثم على المرأة وزوجِها الأول أن يتزوجا بعقد جديد، ومهر جديد، إن غَلَب على ظنهما أن يقيما أحكام اللّه التي شرعها للزوجين. وتلك أحكام اللّه المحددة يبينها لقوم يعلمون أحكامه وحدوده؛ لأنهم المنتفعون بها[6].

وترشد الآيةُ الكريمة إلى أنه لا يحلُّ للمرأة التي طُلِّقت من زوجها أن تعود إليه بعد الطلقة الثالثة إلَّا بعد أن تتزوج رجلًا آخر زواجًا صحيحًا ونكاحًا شرعيًا مقصودًا لذاته

(1) الخليل، العَين: (رجع).
(2) النّسفيّ، طِلبة الطّلبة: (رجع).
(3) الفراهيديّ، العين: (رجع).
(4) الزّمخشريّ، أساس البَلاغة: (رجع).
(5) ابن سيده، المُحكم: (رجع).
(6) نخبة من العلماء، التفسير الميسر، ص: 36.

- لا نكاحًا غير مقصود لذاته - يدخل بها فيه، ويجامعها، ثم يطلقها، وتنقضي عدتها منه، ولا يكفي مجرد العقد؛ ليكون حيلة للتحليل، وذريعة إلى ردِّها إلى الزوج الأول، فإن ذلك حرامٌ للأدلة الواردة في ذمِّه وذم فاعله، وأنه التَّيِّس المُستعار الذي لعنه الشارعُ، ولعن من اتخذه لذلك.

ومن حِكَمِ هذا التشريع الحكيم ردعُ الأزواج عن الاستخفاف بحقوق زوجاتهم، وزجرهم عن التساهل في إيقاع الطلاق، فإنَّ الرجلَ الشريف الطبع، العزيزَ النفس إذا علم أن زوجته لن تحلَّ له بعد الطلقة الثالثة إلا إذا افترشها شخص آخر، توقَّف عن إيقاع الطلاق، وتباعد عن التسرع والاندفاع، وحاول أن يصلح ما بينه وبين أهله بالمعالجة الحكيمة، التي تتميَّز بسَعة الصدر وضبط النفس[1].

❁ الإيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

دِلَالَةُ الْفَاءِ فِي قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿فَإِن طَلَّقَهَا﴾:

في تَنَوُّعِ دِلَالَاتِ الْحُرُوفِ إِثْرَاءٌ لِمَعَانِي النَّصِّ الذِي وَرَدَتْ فِيهِ

الفاء في قوله تعالى: ﴿فَإِن طَلَّقَهَا﴾: إمّا عاطفة لجملة ﴿فَإِن طَلَّقَهَا﴾ على جملة ﴿فَإِمۡسَاكُۢ﴾ [البقرة: 229] باعتبار ما فيها من قوله: ﴿فَإِمۡسَاكُۢ﴾، إن كان المرادُ مِنَ الإمساك المراجعةَ ومِن التّسريح عدمَها؛ أي: فإن أمسك المُطلِّق؛ أي: راجع ثمّ طلّقها فلا تحلّ له من بعد، وهذا هو الظّاهر، وإمّا أن تكون الفاءُ فصيحةً؛ لبيان قوله: ﴿أَوۡ تَسۡرِيحُۢ بِإِحۡسَٰنٖۗ﴾ [البقرة: 229]، إن كان المراد من التّسريح إحداث الطَّلاق؛ أي: فإن ازداد بعد المراجعة فسرَّحَ، فلا تحلّ له من بعد، وإعادتُهُ على هذا الوجه إنَّما ليُرَتَّبَ عليه تحريمُ المراجعة إلّا بعد زوجٍ، تصريحًا بما فُهِم من قوله: ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ﴾[2].

نُكْتَةُ التّفْرِيعِ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَإِن طَلَّقَهَا﴾:

زِيَادَةُ الْبَيَانِ فِي أَحْكَامِ الْأُسْرَةِ لِخَطَرِهَا وَدِقَّتِهَا صِيَانَةٌ لَهَا عَنِ الْفَهْمِ السَّقِيمِ

قوله: ﴿فَإِن طَلَّقَهَا﴾ مُتعلِّق بقوله: ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ﴾، أو تفسيرٌ لقوله: ﴿أَوۡ تَسۡرِيحُۢ بِإِحۡسَٰنٖۗ﴾ اعتَرَضَ بينَهما ذِكْرُ الخلع؛ دلالةً

(1) الشوكاني، فتح القدير: 1/274، وطنطاوي، التفسير الوسيط: 1/519.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/414.

على أنّ الطَّلاق يقع مجّانًا تارة، وبِعِوَضٍ أخرى[1]، وهو تفريع مرتّبٌ على قوله: ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ﴾ [البقرة: 229] بالفدية أو بالتّسريح[2]، وما بينهما بمنزلة الاعتراض، على أنّ تقديمه يكسبه تأثيرًا في تفريع هذا على جميع ما تقدّم؛ لأنّه قد عُلِم من مجموع ذلك أنّ بعد المرّتين تخييرًا بين المراجعة وعدمِها، فرَتَّب على تقدير المراجعة المعبَّر عنها بالإمساكِ قولَهُ: ﴿فَإِن طَلَّقَهَا﴾ وهو يدُلُّ بطريق الاقتضاء على مُقدَّر، أي: فإن راجعها فطلّقها؛ لبيان حكم الطّلْقة الثّالثة، وقد تهيأ السّامع لتلقّي هذا الحكم من قوله: ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ﴾ [البقرة: 229]؛ إذْ عَلِمَ أنّ ذلك بيانٌ لآخرِ عددٍ في الرّجعيِّ، وأنّ ما بعده قطعيّ، فذكر قولَه: ﴿فَإِن طَلَّقَهَا﴾ زيادةً في البيانِ، وتمهيدًا لقوله: ﴿فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعۡدُ﴾[3].

نُكْتَةُ التَّعْبِيرِ فِي الشَّرْطِ بـ(إنْ) دُونَ (إذَا):

النِّكاحُ عَقْدُ حُرْمَةٍ مُؤَبَّدَة لَا حدُّ مُتعةٍ مؤقتةٍ

قوله: ﴿فَإِن طَلَّقَهَا﴾ قيل فيه: الضّمير عائد على ﴿زَوۡجًا﴾ من قوله: ﴿حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوۡجًا غَيۡرَهُۥۗ﴾، وهو الزَّوْجُ الثّاني.

وعُلِّقَ الشَّرط ههنا بـ(إن) دون (إذا)؛ لأنَّ (إذا) إنَّما تأتي للمُتحقِّق، و(إنْ) تأتي للمُبهم، والمُجوّزِ وقوعُه وعدمُ وقوعِه، أو للمُحقّق المُبهمِ زمانُ وقوعِه، كقوله تعالى: ﴿أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلۡخَٰلِدُونَ ٣٤﴾ [الأنبياء: 34]، والمعنى: فإنْ طلّقها، وانقضت عِدّتها منه؛ فلا جناح عليهما، أي: على الزّوج المُطلِّق ثلاثَ مرّات وهذه الزّوجة أن يتراجعَا[4]، فكان في تعليقِ فعلِ الطَّلاقِ بحرف الشَّرطِ (إنْ) دون (إذا) إشعارٌ بأنَّ طلاقَه يجب أنْ يكونَ على ما يَخْطُرُ لَهُ دون الشَّرط، وفيه تنبيهٌ على أنّه متى شَرَطَ الطَّلاق على المحلّل بطل العقدُ بخروجه عن دائرة الحدود المذكورة؛ لأنّ النّكاحَ - كما قال الحرَالّي: - عقدُ حُرمة مُؤبَّدة لا حدُّ متعةٍ مؤقتةٍ؛ فلذلك لم يكن

(1) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 1/142.
(2) الكرمانّي، غرائب التّفسير: 1/215.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/414.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/479.

الاستمتاع إلى أمد مُحلّلًا في السّنة وعند الأئمة؛ لما يفرق بين النّكاح والمتعة مِن التّأبيد والتّحديد[1].

تَرْشِيحُ الْكِنَايَةِ الْوَارِدَةِ فِي قَوْلِهِ: ﴿أَوْ تَسْرِيحٌ﴾ بِقَوْلِهِ: ﴿فَإِن طَلَّقَهَا﴾:

قوله في الآية السّابقة ﴿أَوْ تَسْرِيحٌ﴾ كنايةٌ عَنِ الطَّلاق البائنِ، رُشِّحت الكنايةُ بترشيح مُؤخَّر وهو قوله في هذه الآية: ﴿فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ﴾.

بَيَانُ شَرْطِ الرَّجْعَةِ وَإِبْطَالِ مَا كَانَ عَلَيْهِ النَّاسُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ

فقوله: ﴿فَإِن طَلَّقَهَا﴾ أي: الطَّلقة الثّالثة الّتي تقدّم التّخيير فيها بلفظ التّسريح، فكأنّه قال: فإن اختار الطَّلاق الباتَّ بعد المرّتين؛ إمّا في العدّة من الطَّلاق الرجعيِّ، وإمّا بعد الرّجعة بعِوَضٍ أو غيره، ولا فرقَ في جعلها ثالثةً بين أن تكون بعد تزوّجِ المرأة بزوجٍ آخر أو لا، فردّد معنى التّسريح الّذي بيّنه في مَوضِعه بلفظ الطَّلاق؛ لَمَّا هيّأها بوجه إلى المعاد، وذلك فيما يُقال من خصوص هذه الأمّة، وإنْ حَكَمَ الكتابُ الأوّل أنّ المُطلَّقة ثلاثًا لا تعود أبدًا، فهذا العود ميسّر بعد زوج، وصار السّراح طلاقًا.

وقوله: ﴿فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعْدُ﴾، كان إسقاط الحرف والظّرف ﴿مِنۢ بَعْدُ﴾ يُوهم أنّ الحرمة تختصّ بما استغرق زمن البعد، فيفهم أنّ نكاحه لها في بعض ذلك الزّمن يحلّ، ولذا قال: ﴿مِنۢ بَعْدُ﴾، أي: في زمنٍ ولو قلّ من أزمان ما بعد استيفاء الدّور الّذي هو الثّلاث، بما أفاده إثبات الجارّ[2].

بَلَاغَةُ الْإِيجَازِ فِي حَذْفِ الْجُمَلِ:

مِنْ نَهْجِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ وَبَلَاغَتِهِ: حَذْفُ التَّفْصِيلَاتِ وَالْجُمَلِ الَّتِي دَلَّتْ عَلَيْهَا أَدِلَّةٌ أُخَرُ

ثَمّ معطوفات في الآية الكريمة قبلَ الغايةِ المذكورة في الآية وما بعدها، والتّقدير: ﴿فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعْدُ﴾؛ أي: من بعد الطَّلاق الثّلاث، حتّى تنقضي عِدّتُها منه، وتعقدَ على زوج غيره، ويدخلَ بها،

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 1/434-435.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 1/434.

ويطلّقَها، وتنقضيَ عِدّتُها منه، فحينئذ تحلّ للزّوج المُطلِّق ثلاثًا أن يراجعَها، ودلَّ على إرادة هذه المحذوفاتِ الكتابُ والسّنّة الثّابتة[1].

نُكْتَةُ التَّعْبِيرِ بـ﴿زَوْجًا﴾ دُونَ (رَجُلًا):

الْـوَطْءُ فِي عَقْدٍ صَحِيحٍ شَرْطٌ لِرُجُوعِ الْمَرْأَةِ إِلَى زَوْجِهَا الْأَوَّلِ

قوله تعالى: ﴿فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعۡدُ﴾؛ أي: من بعد هذا الطَّلاق الثّالث، ﴿حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوۡجًا غَيۡرَهُۥ﴾؛ أي: غير المُطلِّق فيجامعها، والنّكاح يتناول العقد والوطء جميعًا[2]. وظاهر قوله: ﴿حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوۡجًا﴾، أنّه بنكاح صحيح، فلو نكحت نكاحًا فاسدًا لم يحلّ، قال الشّافعيّ: والورع أن لا يفعل إذا وقع في نفسه أنّها كَذَبَتهُ[3].

وفي التَّعبير بـ﴿زَوۡجًا﴾ دون (رجلًا) إشارةٌ إلى أنّ شرط هذا الجماع أن يكون حلالًا في عقد صحيح.

بَيَانُ مَرْجِعِ الضَّمِيرِ فِي قَوْلِهِ: ﴿يَتَرَاجَعَآ﴾:

الِاحْتِمَالُ فِي تَعْيِينِ مَرْجِعِ الضَّمَائِرِ مِنْ أَسْبَابِ إِثْرَاءِ الْمَعَانِي

ضميرُ التَّثنية في ﴿عَلَيۡهِمَآ﴾ من قوله: ﴿فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ﴾ يحتمل أن يعود على الزّوج الثّاني والمرأة، وتكون الآية قد أفادت حُكْمَيْنِ؛ أحدهما: أنّ المبتوتة ثلاثًا تحلّ للأوّل بعد نكاح زوج غيره بالشّروط الّتي تقدّمت، وهذا مفهوم من صدر الآية، والحكم الآخر: أنّه يجوز للزّوج الثّاني الّذي طلّقها أن يراجعها؛ لأنّه يُنَزَّل مَنزِلة الأوّل، فيجوز لهما أن يتراجعا، ويكون ذلك دفعًا لما يتبادر إليه الذّهن من أنّه إذا طلّقها الثّاني حلّت للأوّل دونه، فبكونها حلّت له اختصَّت به، ولا يجوز للثّاني أن يردّها، فيكون قوله: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ﴾ مُبيّنًا أنّ حكمَ الثّاني حكمُ الأوّل، وأنّه لا يتحتَّم أنْ يُراجِعَهَا الأوّل، بل إن انقضت عِدّتها من الثّاني؛ فهي مُخيّرة فيمن يُريد منهما أن يتزوَّجها، فإن لم تنقضِ عِدّتها،

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/479.
(2) الثَّعلبيّ، الكشف والبيان: 2/176.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/478.

وكان الطَّلاق رجعيًّا؛ فلزوجها الثّاني أن يُراجعها، وفائدة ذلك أنّ هذا لا يحتاج إلى حذف بَيْنَ قولِه: ﴿فَإِن طَلَّقَهَا﴾ وبَيْنَ قولِه: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ﴾.

وإذا كان الضّمير في ﴿عَلَيْهِمَآ﴾ عائدًا على المُطَلِّقِ ثلاثًا وعلى الزّوجة؛ فإنَّ هذا يفتقِرُ إلى محذوفٍ، تقديره: فإن طلَّقها الثَّاني وانقضت عِدّتها منه؛ فلا جناح على المُطلِّق ثلاثًا والزّوجة أن يتراجعا.

وقوله: ﴿إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ﴾، أي: إن ظنَّ الزّوج الثّاني والزّوجة أن يقيما حدود الله؛ لأنّ الطَّلاق لا يكاد يكون في الغالب إلّا عند التّشاجر والتّخاصم والتّباغض، وتكون الضّمائر كلّها منساقة انسياقًا واحدًا لا تلوين فيه ولا اختلاف، مع استفادة هذين الحكمين من حمل الضّمائر على ظاهرها[1].

سِرُّ التَّعْبِيرِ بِالْخَوْفِ دُونَ الْعِلْمِ فِي قَوْلِهِ: ﴿إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ﴾:

قوله: ﴿إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ﴾؛ أي: إن كان في ظنّهما أنّهما يقيمان حقوق الزّوجيّة، ولم يقُل: إن علما أنّهما يقيمان؛ لأنّ اليقين مُغيَّب عنهما لا يعلمه إلّا الله[2]، والشَّريعةُ أقامتِ المَظِنَّةَ مُقامَ المَئِنَّةِ في أحكامٍ كثيرةٍ قد لا يتأتَّى فيها اليَقِينُ أَوْ يعسُرُ ويشُقُّ.

أَقَامَتِ الشَّرِيعَةُ المَظِنَّةَ مُقَامَ المَئِنَّةِ فِي أَحْكَامٍ كَثِيرَةٍ

تَقْدِيرُ جَوَابِ الشَّرْطِ الْمَحْذُوفِ فِي قَوْلِهِ: ﴿إِن ظَنَّآ﴾:

قول الله تعالى: ﴿إِن ظَنَّآ﴾ شرطٌ، جوابه محذوف؛ لدلالة ما قبله عليه، فيكون جواز التّراجع موقوفًا على شرطين؛ أحدهما: طلاق الزّوج الثّاني، والآخر: ظنّهما إقامة حدود الله، ومفهوم الشّرط الثّاني: أنّه لا يجوز إن لم يُظنّا، ومعنى الظّنّ هنا: تغليب أحد الجائزين، وبهذا يتبيّن أنّ معنى الخوف في آية الخلع معنى الظّنّ؛ لأنّ مساق الحدود مساق واحد[3].

تَوَقُّفُ جَوَازِ رَجْعَةِ الْمَرْأَةِ إِلَى زَوْجِهَا الْأَوَّلِ عَلَى شَرْطَيْنِ: طَلَاقِ الزَّوْجِ الثَّانِي، وَظَنِّهِمَا إِقَامَةَ حُدُودِ اللهِ

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/480.
(2) النّسفي، مدارك التّنزيل: 1/190.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/481.

دِلَالَةُ إِسْنَادِ النِّكَاحِ إِلَى الْمَرْأَةِ:

النِّكَاحُ يُطْلَقُ مُرَادًا بِهِ الْعَقْدُ، وَقَدْ يُرَادُ بِهِ الْوَطْءُ أَيضًا فِي قَوْلِ بَعْضِ أَهْلِ الْعَرَبِيَّةِ

يُسند النّكاح إلى المرأة كما يسند إلى الرّجل كالتّزوّج، وفيه دليل على أنّ النّكاح ينعقد بعبارتها[1]، وذكر ابن عاشور أنّ: "المُراد من قوله: ﴿تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥ﴾ أن تعقد على زوج آخر؛ لأنّ لفظ النّكاح في كلام العرب لا معنى له إلّا العقد بين الزّوجين، ولم أرَ لهم إطلاقًا آخر فيه لا حقيقة ولا مجازًا، وأيًّا ما كان إطلاقه في الكلام؛ فالمُراد في هاته الآية العقد، بدليل إسناده إلى المرأة، فإنّ المعنى الّذي ادّعى المُدّعون أنّه من معاني النّكاح بالاشتراك والمجاز أعني: المسيس، لا يُسند في كلام العرب للمرأة أصلًا، وهذه نكتة غفلوا عنها في المقام"[2].

وذهب جماعة من العلماء أنَّ النّكاح يُطلق بمعنى الوطء، وبمعنى العقد أيضًا، يُقال: نكحها ينكح - بالفتح والكسر -؛ ونكحت هي أيضًا فهي ناكح، أي: ذات زوج، قال الشّاعر:

لصلصلةُ اللّجام برأسِ طرْفٍ *** أحبُّ إليّ من أن تَنكِحيني[3]

والنّكاح في اللّغة عبارة عن الضّمّ والوطء، يُقال: نكح المطرُ الأرضَ؛ إذا وصل إليها، ونكح النّعاس عينَه، وقال الشّاعر:

التَّارِكِين على طُهْرٍ نسَاءَهُمُ *** والنَّاكِحِين بشَطَّيْ دِجلةَ البَقَرا[4]

ومعلوم أنّ معنى الضّمّ والوطء في المباشرة أتمّ منه في العقد، فوجب حمله عليه، ومن النّاس من قال: النّكاح عبارة عن الضّمّ، ومعنى الضّمّ حاصل في العقد وفي الوطء، فيَحْسُن استعمالُ هذَا اللّفظ فيهما جميعًا[5].

(1) النّسفيّ، مدارك التّنزيل: 1/190.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/416.
(3) اليوسّي، زهر الأكم في الأمثال والحِكم: 3/163.
(4) هو للنّجاشي الحارثي يُنظر: ابن قتيبة، الشّعر والشُّعراء: 1/318.
(5) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 6/47.

بَرَاعَةُ التَّرَقِّي فِي سَوْقِ الْأَحْكَامِ:

إِرْشَادُ الْأَزْوَاجِ إِلَى التَّأَنِّي قَبْلَ إِنْهَاءِ الْحَيَاةِ الزَّوْجِيَّةِ

في هذه الأحكام معنى التّرقّي في ذكر أنواع الطَّلاق أو حالِه؛ إذ ذُكِرَتِ الطّلقتَان بقوله: ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ﴾، فبعد الأولى إمساكٌ بمعروف أو أن يطلّق الطّلقة الثّانية، وبعد الثّانية: إمساكٌ بمعروف أو تسريحٌ بإحسان، فهاتان مرحلتانِ، ثمّ ذكر الخُلعَ، في قوله: ﴿فَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَا فِيمَا ٱفۡتَدَتۡ بِهِۦۗ﴾، فهذه ثلاثة أطوارٍ تنتهي معها الحياة الزّوجيّة، ففيه تَرَقٍّ في سَوْقِ الأحكام.

وفائدة هذا التّرقّي في ذكر الطّلاق: إرشادُ الْعُقُولِ إلى التّأنّي في اتّخاذ قرار الطّلاق في كلّ مرحلةٍ من مراحله.

ويمكن تخريجُ السياقِ المذكورِ تدلّيًا؛ باعتبار أحوال الصِّلَةِ الزوجيّة إلى نهايتها بالطَّلاق الثّالث.

دِلَالَةُ اسْمِ الْإِشَارَةِ (تلك) مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَتِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾:

عَظَمَةُ حُدُودِ اللهِ تَعَالَى وَوُجُوبُ تَعْظِيمِهَا

الإشارة بـ﴿وَتِلۡكَ﴾ وهو اسمُ إشارةٍ للبُعْدِ فيهِ إيماءٌ إلى عظمة حدود الله تعالى ورفعةِ منزلَتِهَا، ويُؤَيِّدُ ذلك وجهانِ[1]:

أحدهما: تكرارُ ذِكْرِ ﴿حُدُودُ ٱللَّهِ﴾، مع ما تقدَّمَ من التَّكرار أيضًا في الآية السابقةِ.

والآخرُ: إضافة الحدود إلى اللّهِ؛ زيادةً في تعظيمِهَا وتشريفِهَا.

وإذا كانت حدود الله تعالى بهذه الدرجةِ الرَّفيعةِ؛ فالواجبُ على العبادِ التزامُهَا وتعظيمُهَا.

بَلَاغَةُ الِاسْتِعَارَةِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَتِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ﴾:

وُجُوبُ الْوُقُوفِ عِنْدَ حُدُودِ اللهِ تَعَالَى وَعَدَمِ تَجَاوُزِهَا

قوله تعالى ﴿وَتِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ﴾، أي: أحكامه وشرائعه، شُبِّهت بالحدود لأنّ المكلّف لا يتجاوزها فكأنّه يقف عندها، وحقيقة

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 1/435.

الحدود: الفواصل بين الأشياء ونحو ذلك، ونكتة الاستعارة: إعلام العبادِ بدقَّةِ الفاصلِ بين الحلال والحرام، فكان ذلك داعيًا لشدَّةِ الاعتناءِ بتحرِّي الحلال واجتناب الحرام.

دِلَالَةُ تَخْصِيصِ التَّبْيِينِ بِالْقَوْمِ الْعَالِمِينَ:

الْـتِـزَامُ حُـدُودِ اللهِ تَعَالَى أَمَارَةٌ عَلَى الْعِلْمِ

معنى التّبْيِين في قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ الإيضاح، وخصّ المُبيّن لهم بالعلم تشريفًا لهم، فقال: ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾؛ لأنّهم الّذين ينتفعون بما بيّن الله تعالى من نصب دليل على ذلك من قول أو فعل[1].

والمُراد بقوله: ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾؛ أي: الّذين يفهمون الأحكام فهمًا يهيّئهم للعمل بها، وإدراك مصالحها، ولا يتحيّلون في فهمها[2].

بَلَاغَةُ التَّعْرِيضِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾:

حَقِيقَةُ الْعِلْمِ شَـرْعًـا: فَـهْـمُ خِـطَـابِ الشَّـرْعِ وَالْعَمَلُ بِهِ

وصف القوم بأنَّهم يعلمونَ في قوله: ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ صريح في التّنويه بالّذين يُدركون صريحَ ما في أحكام الله من المصالح، ثم يلتمسونَ العملَ بها في حياتهم، وفيه تعريضٌ بالمشركين الّذين يُعرضون عن اتّباع الإسلام، وأنَّهم عَارُونَ عن العلم، وفيه إيقاظُ قلوبهم لِلدُّخولِ في الإسلامِ والتزام حدودِهِ؛ ليتخلَّصُوا مِن معرَّة الجَهْلِ.

وفي إيرادِ كلمةِ ﴿لِقَوْمٍ﴾: إيذانٌ بأنّ صفة العلم سجيّتهم ومَلَكَة فيهم[3].

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/483.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/420.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/421.

﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍۚ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُواْۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥۚ وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًاۚ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ٢٣١﴾

[البقرة: 231]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

العلاقة بين أحكام الطّلاق، وواجبات المطلّق بعد الطّلاق:

أحكام الطّلاق ضمانٌ لحقوق المرأة، وحفظٌ لكرامتها

بَيَّنَ السّياق السَّابق للآية الكريمة، نظامَ الطَّلاق في الإسلام، فذكَر عَدَده، محدّدًا بقوله: ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ﴾ [البقرة: 229]، كما بَيَّن أنَّ الزَّوج أَولى بِرَدِّ زوجه إلى عِصْمته ما دامت في عِدَّتها، إنْ كان ذلك بعد الطَّلْقة الأولى أو الثَّانية، وبَيَّن سبيلَ افتداء المرأة نفسها بمالٍ تُقَدِّمه لزوجها مِن أجل طلاقها، ثُمَّ بَيَّن الحُكْم الشَّرعيّ الّذي يعقُب الطَّلْقةَ الثَّالثة، ومتى ينتهي هذا الحُكْم؟. وفي هذه الآية المُباركَة وما بَعدَها، بَيانٌ لِما يَجِب على الرِّجال بعد انفِصَام عُرَى الحياة الزَّوجية، في مُعالجة نتائج هذا الفِراق؛ ليتحقّق العَدلُ والحَقُّ، ولينتفي الظُّلم والباطل، كما أورده الكتاب المُحكم الحكيم، مذكّرًا بتقوى الله العظيم، واليقين بأنّه بكلّ شيءٍ عليم.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

(بلغن أجلهن) أوشكن على الانتهاء مِن عِدَّة الطّلاق الشّرعيّة

1) ﴿فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾: اللّفظان يؤدّيان المعنى مع بعضهما، ولا يُستحسن فصلهما في السّياق الّذي وردت فيه الآية، فلفظ ﴿فَبَلَغْنَ﴾، من بَلَغَ يَبْلُغُ بُلُوغًا: وَصَلَ إلى الشَّيءِ، والبُلوغ حقيقته

الانتهاء إلى أقصى المَقْصِد، أو المشارَفة عليه، وهو المقصود في الآية الكريمة، أي: الإشراف على مُقارَبة المرأة المُطَلَّقة مِنَ الانتهاء مِنْ عِدَّتها؛ لأنّها إن انتهت من عِدَّتها تمامًا فقد بانَتْ مِنْ زوجها، ولا يصحُّ له مراجعتها. وقوله: ﴿أَجَلَهُنَّ﴾، من الأَجَل: وهو المدّة المُحَدَّدة للشّيء، ويطلق على المدّة المَضروبة لِعُمر الإنسان، وعلى الموتِ الّذي يَنتَهِي: أَجَلٌ، وكذلك الغايَةُ والأَمَدُ، والمراد هنا: الفترةُ الزّمنية بين طلاقِ المرأةِ وانقضاءِ عدَّتها.

2) ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ﴾: (مَسَكَ): المِيمُ والسِّينُ والكَافُ، أَصلٌ واحِدٌ صَحِيحٌ، يدُلُّ على حَبْسِ الشَّيءِ أَو تَحَبُّسِهِ[1]، وإمساك الشّيء: هو التّعلُّق به وحِفْظه، والمعنى هنا: الإبقاء عليهن بمراجعتهنَّ.

3) ﴿بِمَعْرُوفٍ﴾: المعروفُ اسمٌ لكلِّ فِعلٍ يُعرف بالعقل، أو حَسَّنَهُ الشرعُ، وقوله تعالى: ﴿وَلِلْمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: 241]، أي: بالاقتصاد والإحسان، وقوله: ﴿۞قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى﴾ [البقرة: 263]، أَي: رَدٌّ جميل ودعاءٌ خيرٌ من صدقةٍ يَتبَعُها أَذًى، والعُرْف: المعروف من الإحسان، وعَرفه يَعْرِفه معرفة وعِرْفانًا، فهو عارِف وعَرِيفٌ علمهُ[2].

والمعنى: على الوجه المستحسن شرعًا وعرفًا.

حين تستحيل العِشرة، يكون التّسريحُ كالكيّ آخر دواءٍ:

تسريح المرأة بالطّلاق، من أبغض الحلال إلى الخلّاق

4) ﴿سَرِّحُوهُنَّ﴾: (سرح) أصل مطرد واحد، يدلُّ على الانطلاق، يقال منه: أمر سريح، إذا لم يكن فيه تعويق ولا مَطْلٌ، وتَسريحُ المرأَة: تطليقُها،[3]، والسَّرْحُ: المالُ السَّائم، وما يسامُ في المَرْعى مِنَ الأَنعام، والاسم السَّراحُ، مثل التّبليغ والبلاغ[4]. وسَمَّى اللّهُ ﷻ الطَّلاقَ سَراحاً، فقال: ﴿وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٤٩﴾﴾ [الأحزاب: 49]؛ كما سَمَّاهُ طلاقًا مِنْ طَلَّقَ المرأَة، وسَمَّاهُ الفِراقَ، فهذه ثلاثةُ ألفاظ، تَجمع صَريحَ الطَّلاقِ الّذي لا يُدَيَّنُ فيها المُطَلِّقُ بها، إذا أنكر أَن يكونَ عَنَى بها طلاقًا[5].

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (مسك).
(2) الفيروزابادي، القاموس المحيط: (عرف).
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (سرح).
(4) ابن منظور، لسان العرب: (سرح).
(5) ابن منظور، لسان العرب: (سرح).

ومعنى الآية: اترُكوهُنَّ، حتى تنقضِيَ العِدَّةُ.

5) ﴿ضِرَارًا﴾: الضِّرار: من المُضارَّة، وهو مَصدَرُ ضارَّ ضِرارًا ومُضارَّةً، ومشتقٌّ من الضُّرّ، والضُّرُّ: سوء الحال، والضَّرَّاء: مقابل الرَّخاء، والضَّرر: المُضارة، والمقصود في الآية الكريمة: إيقاع الأذَى بالمرأة المُطَلَّقة، بِتَطويلِ عِدَّتها، وسُوءِ معاشرتها، وبِتَضييقِ النَّفَقَةِ عليها[1].

الاعتداء مجاوزة الحَدِّ، بالنّأي عن الحَقِّ إلى الظُّلْمِ:

6) ﴿لِّتَعْتَدُواْۚ﴾: الاعتداء: مجاوزة الحَدِّ، اعتدى يعتدي، اعتَدِ، اعتداءً فهو مُعتَدٍ، والمفعول مُعتدًى عليه، واعتَدَى عليه ظُلماً وعُدوانًا، اعتَدَى الحَقَّ: جاوَزَهُ، أي جازَ عَنِ الحَقِّ إلى الظُّلمِ وآذاهُ وظَلَمَه، واعتدى عليه، في الظّلم[2].

الاعتداء ظلمٌ عظيم، منتهاه على المُعتدي وخيم

والمعنى: لأجل الاعتداء عليهن.

الهزء بالآيات والمخلوقات، من أكبر المنهيّات المهلكات:

7) ﴿هُزُوًاۚ﴾: "هزئ به ومنه، وهَزأ وتهَزّأ واستهزأ، واتّخذه هُزُؤًا، وفعل ذلك استهزاءً به. ورجل هَزّاءٌ وهُزَأة، وهو هُزْأة بين النّاس: يهزؤُون به، ومن المجاز: مفازة هازئة بالرّكب، أي فيها سرابٌ"[3]، ورَجلٌ (هُزْأَةٌ) بالتّسكين يُهزَأُ به، و(هُزَأَةٌ) بالتّحريك يَهزَأُ بالنّاس[4]. والهُزْء: المَزْح في خِفيَة، والمراد هنا: استهزاء، وسُخرية بالتّهاون في المحافظة على آيات اللّه.

لا تَهزَأَنَّ بمنْ ابتُلِيَ بما ليس فيك، فيعافيه الله ويبتليك

الحكمةُ معرفة أفضل الأشياء، بتحصيل أفضل العلوم:

8) ﴿وَٱلۡحِكۡمَةِ﴾: الحاء والكاف والميم، أصلٌ واحدٌ، ومعناه المنْع.

(1) الزّمخشريّ، أساس البلاغة: (ضرر)، نجم الدّين النّسفيّ، طلبة الطّلبة، ص: 53.
(2) نشوان الحميري، شمس العلوم: 7/4424.
(3) الزّمخشريّ، أساس البلاغة: (هزأ).
(4) االرّازيّ، مختار الصّحاح: (هزأ).

الحكمة ضالّة المؤمن، أنّى وجدها فهو أحقّ بها

وأوّل ذلك الحُكم، وهو المنع من الظّلم. وسمّيت حَكَمَة الدَّابَّة؛ لأنّها تمنعها، ويقال: حَكَمتَ السّفيه وأحكمته، إذا أخذت على يديه، والحِكمَة هذا قياسها؛ لأنّها تمنع من الجهل، والمُحَكَّم: المُجَرِّبُ المنسوب إلى الحِكمة، والحَكيم، هو ذُو الحكمة، والحكمةُ عبارة عن معرفة أفضل الأشياء، بأفضل العلوم، ويقال: لمن يُحسن دقائق الصِّناعات ويُتقنها: حكيم. ومدار الحِكمَة على شيئين: أوّلهما: المنع؛ لأنَّها تَحكُم صاحبها أو المُتَّصف بها، من الوقوع فيما يُذَمُّ عليه، أو يَلحقه النّدم، وثانيهما: الفِطنَة في تدبير الأمور وحُسْن إدارتها، من حيث تقديم الأهمّ على المهمّ، وتقديم الفاضل على المفضول[1]، وقد ورد لفظ (الحِكمة) في القرآن على ستَّة أوجه: النُّبُوة، والقرآن، وعلوم القرآن، والسُّنّة، والموعظة، والفهم[2].

والمراد بالحِكمَة في الآية الكريمة: السُّنَّة النّبويّة المشَرَّفة.

المَعْنى الإجْماليُّ:

دعوة المطلّقين لترميم العلاقة الزّوجيّة، وإصلاح ذات البين بين الزّوجين:

التّحذير من بقاء المرأة كالمعلّقة، أو مضارّتها في عدّة أو تسريح

يُخاطِب اللّه تعالى في هذه الآية الكريمة الرِّجالَ المطلِّقين بأنّه إذا شارفت عِدَّة أَزواجهم على الانتهاء، وأوشَكتِ العلاقة الزَّوجيّة على الانبتات، فيجب أن يتدبّر الزّوج أَمرَه، وأن يُعيدَ تفكيرَه في حياته الزّوجيّة، فإن تَراءَى له أنَّ الخير في إبقاء زوجه في عِصمته، مُستَذكِرًا ما كان بينهما من وَشائج الأُلفَة، وحِبال المَوَدَّة، عازِمًا على إقامة العدل معها، ومعاملتِها بالمعروف؛ فَلْيُمسِكها، أمَّا إنْ وجدَ في نفسه أنَّه لا يَستطيع أنْ يُقيم العدل معها، وأنّه قد يظلمها، وأَنْ لا خير في الإبقاء عليها؛ لِبقَاء أسباب الشِّقاق، فَلْيُفارقها فِراقًا حَسَنًا، ولا يُبقيها حَبِيسَةً في عصمته؛ انتقامًا منها، وتعنُّتًا معها؛ لأَنَّ هذا مِنَ

(1) السَّمين، عمدة الحُفَّاظ: 1/440.

(2) ابن الجوزي، نزهة الأعين النواظر، ص: 262-261.

الظُّلْم المُبين، والجَور العظيم، وينبغي له حينئذٍ أنْ يُفارِقَها فِراقًا جميلًا، لا أذَى فيه، ولا إجْحاف لِحَقِّها.

وفي الآية الكريمة نَهيٌ آخر للأزواج، عن إطالة العِدّة لِقَصد الإضرار بنسائهنَّ؛ وعن اتخاذ آيات الله محل استهزاء بالتلاعب بها والتجرؤ عليها، وفيها أمرٌ مِنَ الله تعالى لعباده المؤمنين الموَحِّدين، بذكر نعمته عليهم بهدايتهم للإسلام، ومن أعظمها ما أنزل عليهم من القرآن والسُّنَّة، ووجوب شُكره على تلك النّعمة العظيمة، وتحذيرٌ لهم من التَّحايل على شرعه، ومجاوزة أحكامِه، وعِصيان أوامرِه؛ لأنّه تعالى رقيبٌ عليهم، وسيجازي كلَّ امرىء على حسب عمله.

❁ الإيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

علّة العدول عن أداة الشرط (إنْ) الى (إذا):

إيثار أداة الشرط(إذا) لبيان تحقّق حالات الطلاق وتجسّدها واقعًا

صُدِّرَت الآية الكريمة بأداة الشَّرط ﴿وَإِذَا﴾ الّتي تدُلُّ على تحقّق وقوع الشّرط، وأُوْثِرت على (إنْ) الّتي تدلُّ على الشَّكّ في وقوع الشّرط؛ لأنّ الحديث عن حالات طلاق تجسّدت بالفعل؛ لذا صارت أمرًا واقعيّا معيشًا، يدُلُّ على ذلك استخدام الفعل الماضي ﴿طَلَّقْتُمُ﴾، الّذي يدلّ على انتهاء الحدث.

نكتة إطلاق لفظ النساء وعدم إضافته:

ترك الإضافة دفع لفَهْمٍ قد يعْرضُ بمغايرة الحكم

وقيل: ﴿طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾، ولم يقُل: طلّقتم نساءَكم؛" لئَلّا تُفهمَ الإضافةُ أنَّ لطلاقِهم غيرَ نسائِهم حُكمًا مُغايرًا لهذا في بُلُوغِ الأجَلِ مثلًا ونحوَهُ"[1].

سرُّ إيثار لفظ النّساء على الأزواج:

قال تعالى: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾، ولم يقُل: (طَلَّقْتُم أزواجكم)؛

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 318.

في اختيار لفظ الأزواج حثٌّ لهم بإعادة الحياة الزّوجيّة الى ماكانت عليه

لأنَّ عُرَى الزَّوجيَّة أوشكَتْ على الانحلال، وقاربَتْ على الانتهاء، وكادتِ الزَّوجات المُطَلَّقات طلاقًا رَجعيًّا أنْ يَصِرْن أجنبيّات مع أزواجهنَّ، بعد أن شارَفْن انقضاء عِدَّتهنَّ، وفي هذا حَثٌّ للأزواج على اتّخاذ القرار الّذي يعيد الحياة الزّوجيّة إلى ما كانت عليه، من سكينة ومودّة وأُلفة، قبل فوات الأوان. بشرط أن تكون تلك المراجعةُ بالمعروف، وأن تكون الرّغبةُ منعقدةً في إقامة ميزان العدل مع النّساء.

علّة تقديم الإمساك على التّسريح:

تقديم الإمساك على التّسريح، دعوة ضمنيّة للصّلح والتّصليح

قُدِّم الإمساك، أي: المُراجعة على التّسريح، أي: الفِراق، فقال تعالى: ﴿فَأَمۡسِكُوهُنَّ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعۡرُوفٍ﴾. إشارة إلى أنَّهُ الأهَمُّ، المرغوب فيه في نظر الشرع[1]؛لكونه الأوْلَى حِفْظًا لعشرة دامت بين الزّوجين ومن دواعي الوفاء الإبقاء عليها، وإصلاحها بدل إنهائها.

بلاغة الإيجاز بالحذف:

الاستغناء بالمذكور ضمانٌ لجلاء المعنى ورشاقة العبارة

حُذِفَت صِفَة الطَّلاقِ في قوله تعالى: ﴿طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾، حيث التّقدير: طلاقًا رجعيًّا؛ لدلالة سيّاق الآية الكريمة عليه، وفي هذا الحذف اختصارٌ للجملة، وقد أضفى عليها رشاقةً وخِفَّة في النّطق، وجَنَّبَها الإطناب في التّعبير، والزّيادة في اللّفظ، ممّا يفتح البابَ لتقديرات أخرى، تبعد عن المراد بتأكيد مفهوم الرّجعة، إصلاحًا للحال، وسدًّا للذّريعة.

براعة توظيف حرف الفاء:

لا شكّ في أنّه بعد بلوغ الأجل لا خِيار للزّوج في إمساك امرأته، وفي هذه الفاء تحذيرٌ للزَّوج من الاستهانة بالزَّمن، وفي دلالتها على التّعقيب مَلمَحٌ وجيهٌ؛ حيث إنّها تكاد تسلِب زمن العِدَّة من الأزواج

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/407.

المُعتَدين، الّذين يريدون تطويل زمن العِدَّة، ومُماطلة زوجاتهم، فإذا بالفاء تسحب من أيديهم زمن العِدَّة كلّه، قبل أن يتهيّأ بعضهم ليكرّر مُمَاطلته، يقول صاحب "المحرّر الوجيز" في تفسيره لهذه الآية الكريمة: "خطابٌ للرِّجالِ لا يَختَصُّ بحُكمِهِ إلّا الأزواجُ، وذلك نَهي للرَّجُلِ أنْ يُطَوِّلَ العِدَّةَ على المَرأةِ، مُضارَّةً منهُ لها، بأنْ يَرتَجِعَ قُربَ انقِضائِها، ثُمَّ يُطَلِّقُ بعد ذلك"[1]. وقد تآزرت هذه الفاء، مع التَّجَوُّز ببلوغ الأجل عن قُرْبه؛لأنّه بعد بلوغ الأجل، لا خيار للزّوج في إمساك امرأته.

الفاء تَسلِبُ زمن العِدَّة من المطلّق، لتحمِي المطلّقة من المُضارّة

نلاحظ أنّ في هَمْسِ هذه الفاء، تحذيرًا للزّوج من الاستخفاف بالزّمن، والاستهانة بالوقت، وتضييع الفرصة على من أراد إبقاء زوجته، بِحَثِّه على سرعة مراجعتها في بداية زمن العِدّة، قبل انقضائها، فَتَبِينُ الزّوجة، وتتعذر مراجعتها إلّا بعَقد ومَهر جديدين[2].

تكشف الفاء عن معنى الحثّ على سرعة المراجعة قبل انقضاء العِدّة

قصديّة التّعبير بلفظ (الأجل):

في قوله تعالى: ﴿فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾: المقصودُ بالأَجَل قُرْبُ انقضاء عِدّة المرأة المُطَلَّقة، ومِنْ ضِمنِ معانيه انتهاء عُمر الإنسان، فيكون الفِراق الأبَدِّي من الدّنيا، وفي ذلك إلماحٌ الى أنّ عُمْر العلاقة الزّوجيّة بات قاب قَوسَين أو أدنى من الانتهاء. وبذا يكون في إيثار التّعبير بالأجل - بما يحمله من ظِلالٍ حزينةٍ - هزَّةٌ لِعَقل هذا الزّوج واستجاشة لعاطفته، ليراجع زوجه، ويبقيها في عِصمته، قبل أن يفقدَها.

لفظ (الأجل) يَستَجِيشُ عاطفة الزَّوج وهو منهج القرآن في إيثار اللّفظ الأكثر تأثيرًا وتعبيرًا

دلالة المجاز المُرْسَل:

نلحظ في قوله تعالى: ﴿فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾ مجازًا مُرسلًا؛ إذ أُطْلق اسم الكلّ وهو انقضاء عِدَة المطلّقات على الأكثر، وهو قُرب انقضاء عِدَّتهنَّ؛ لأنّه لو انقضتِ العِدَّة، لَمَا جاز للأزواج إمساكهنَّ، واللّه

في المجاز حَثٌّ للزَّوج على اغتنام ما بقي من وقت يسيرٍ لسرعة اتخاذ قرارٍ حكيمٍ

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز، ص: 205.
(2) الخضري، من أسرار حروف العطف، ص: 61-60.

تعالى يقول: ﴿فَأَمۡسِكُوهُنَّ بِمَعۡرُوفٍ﴾، وقد تآزر المجازُ المُرسل هنا مع التّعبير بالأَجَل، وبالفاء العاطفة في حَثِّ الزَّوج على اغتنام ما بقيَ من وقت يسير لسرعة اتخاذ قرار حكيم، إمَّا بإرجاع زوجه إلى عصمته، وهذا ما رَغَّب فيه البيان القرآنيّ، بدلالة تقديم قوله: ﴿فَأَمۡسِكُوهُنَّ بِمَعۡرُوفٍ﴾، وإمَّا مُفارقتهنَّ بإحسان واحترام دون ظُلم لهنَّ، ولا تعدٍّ على حقوقهنَّ ولا كرامتهنَّ.

وجه إضافة الأجل الى النّساء:

تخصيصُ الأجل بالنساء؛ لأنّه أمسّ بِهِنَّ

وقد أضيف الأَجَل إلى النِّساء في قوله تعالى: ﴿فَبَلَغۡنَ أَجَلَهُنَّ﴾؛ لأنّه أمَسّ بِهِنَّ؛ لذا قيل: الطَّلاق للرِّجال، والعِدَّة للنِّساء.

أثر الاستعارة التّصريحيّة في تصوير المعنى:

وجه الاستعارة التّصريحيّة إبراز معنى دَوامُ المُعاشرَةِ في صورة مُشاهَدة محسوسة

المقصود بالإمساك في قوله تعالى: ﴿فَأَمۡسِكُوهُنَّ بِمَعۡرُوفٍ﴾ المُراجعة، والإمساكُ حَقيقَتُهُ قَبْضُ اليدِ على شيءٍ، مَخافَةَ أنْ يَسقُطَ أو يَتَفَلَّتَ، وهو هُنا استعارَةٌ تصريحيّة لدَوامِ المُعاشرَةِ، حيث شُبِّه استبقاءُ المرأة في عصمة زوجها، وهذا أمر معنويٌّ، بالقَبض بقوّة على شيء خشية تَفَلُّته، وهذا شيءٌ حِسّيٌّ، وحُذِف المشبه، وصُرِّح بالمشبَّه به، وقد أبرزتِ الاستعارةُ المعنويَّ في صورة مُشاهَدة محسوسة تراها العين.

بديع إغناء الدلالة بالاستعارة التّبعيّة:

الاستعارة التبعية مُجازٌ بِمَرتَبَتَين: إبطالِ سَبَبِ المعاشرَةِ بَعدَ الطَّلاقِ، ثُمَّ استعارَتُه للمُفارَقَةِ

أصل التَّسريح من سَرَّحْتُ الإبِل، أي: أرسلتها في المَرْعَى، والتَّسريح في الطَّلاق مُستعارٌ من هذا المعنى، كالطَّلاق مُستعارٌ من إطلاق الإبِل. والمقصود بالتَّسريح في قوله تعالى: ﴿أَوۡ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعۡرُوفٍۚ﴾ مقابل الإمساك، وهو المفارقة، وهو استعارة تبعيّة لإبطالِ سَبَبِ المعاشرَةِ بَعدَ الطَّلاقِ، وهو سَبَبُ الرَّجعَةِ، ثُمَّ استعارَةُ ذلك الإبطالِ للمُفارَقَةِ، فهو مُجازٌ بِمَرتَبَتَين[1].

(1) ابن عاشورٍ، التّحرير والتّنوير: 2/321.

فائدة التكرار اللفظي للجارّ والمجرور:

كُرِّر الجارّ والمجرور﴿بِمَعۡرُوفٍ﴾، في قوله تعالى: ﴿فَأَمۡسِكُوهُنَّ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعۡرُوفٖۚ﴾، حيث لم يَقل: فأمسكوهنَّ أو سَرحوهنَّ بمعروف؛ لأنّ في التّسريح معرُوفَ الإمتاعِ والإحسانِ، وهو غَيرُ معرُوفِ الإمساكِ، ولذلك فَرَّقَهُ الخِطابُ ولم يَقل: فَأمسِكُوهُنَّ أو سَرِّحُوهُنَّ بِمعرُوفٍ[1]، والمعنى: إذا طَلَّقتُمُ النِّساءَ فَقارَبْنَ آخِرَ العِدَّةِ، فَلا تُضارُّوهُنَّ بِالمُراجعة مِن غَير قَصدٍ لاستمرارِ الزَّوجيَّةِ واستَدامَتِها، بَلِ اختارُوا أحَدَ أمرَينِ: إمّا الإمساك بِمعرُوفٍ مِن غيرِ قَصدٍ لِضرارٍ، وإمَّا التَّسرِيحُ بإحسانٍ: أي تَركُها حَتّى تَنقَضِيَ عِدَّتُها مِن غيرِ مُراجعةِ ضِرارٍ.

تَكرار لفظ (بمعروف)؛ لأنّ معرُوفَ الإمساكِ غَيرُ معرُوفِ التّسريح

نكتة التعبير عن التَّخليَةِ بالتَّسريحِ:

وعَبَّرَ بالتَّسريحِ عنِ التَّخليَةِ؛ لأنَّها تؤول إليهِ؛ إذ بانقِضاءِ العِدَّةِ تقع البَيْنُونَةُ، مع ملاحظة أنّه لا يُشترَطُ رِضى المَرأةِ في المراجعة، ما دامت في حالة طلاق رَجعيٍّ.

إيثار التّسريح؛ لأنّ التخلية تؤول إليه

علّة تنكير لفظة ﴿بِمَعۡرُوفٍ﴾ مع التَّسريح:

وقوله: ﴿بِمَعۡرُوفٍ﴾، أي: بِحالٍ حَسَنَةٍ، تُحمَدُ عاقِبَتُها، ونَكَّرَهُ؛ إشعارًا بأنَّهُ لا يُشتَرَطُ فيه رِضى المَرأةِ في تلك المراجعة، ما دامت قد كانت في حالة طلاق رَجعيٍّ[2].

في تنكير (معروف) إشعارٌ بأنَّهُ لا يُشتَرَطُ فيه رِضى المَرأةِ في تلك المراجعة

فائدة إتباع الأمر بالنَّهي:

فائدة التَّكرار بذِكر النَّهي: ﴿وَلَا تُمۡسِكُوهُنَّ ضِرَارٗا﴾ بعد الأمر: ﴿فَأَمۡسِكُوهُنَّ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعۡرُوفٖۚ﴾ - مع أنَّ من البديهيِّ كون الأمر بالشّيء نهيًا عن ضدّه - هو أنَّ الأمر لا يفيد التَّكرار، ولا يدُلُّ على كَون امتثال المأمور به مطلوبًا في كلِّ الأوقات، فلو اقتُصِر

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 320/3.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 3/320.

يدُلُّ الإتباعُ في الآية على المبالغة في التَّوصية بالإمساك بالمعروف، وتأكيده، وتوضيح معناه

على الأمر لجاز للزّوج أن يُمسِك امرأتَه بمعروف، في بُرْهَة منْ زمن، وكان في قلبه أن يُضارّها فيما بعد ذلك الزّمان، فلمَّا عُبِّر بالنَّهي بعد الأمر المذكور، فقيل: ﴿وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا﴾، دلَّ ذلك على المبالغة في التَّوصية بالإمساك بالمعروف؛ لدلالته على أنَّ الإمساك المُقَيَّد بالمعروف مطلوب في كلِّ الأوقات، فاندفعت بذلك الشّبهات، وزالت الاحتمالات[1]. فجاء النَّهي هنا؛ تأكِيدًا للأمرِ بالإمساكِ بمعرُوفٍ؛ وتَوضِيحًا لمعناهُ؛ وزَجرًا صَرِيحًا عَمّا كانُوا يفعلونهُ؛ أيْ: لا تُراجِعوهُنَّ إرادَةَ الإضرارِ بِهِنَّ؛ حيث كانَ المُطَلِّقُ يَترُكُ المُعتَدَّةَ؛ حتّى إذا شارَفَتِ انقِضاءَ الأجَلِ يُراجِعُها؛ لا لرَغبَةٍ فيها؛ بَلْ لِيُطَوِّلَ عليها العِدَّةَ؛ فَنُهِيَ عنهُ؛ بعدَما أُمِرَ بضِدِّهِ مبالغة[2].

حكمة إتباع الأمر بالنهي التَّنبيه على قبيح فعلهم ليحترز المكلَّفُ عنه

وجه حِكمَة هذا النَّهي؛ "لينبِّه على ما كانوا يفعَلُونَهُ من الرَّجعَةِ، ثُمَّ الطَّلاقِ، ثُمَّ الرَّجعَةِ، ثُمَّ الطَّلاقِ على سبيلِ الضِّرارِ؛ فنَهى عن هذه الفِعلَةِ القبِيحَةِ بخُصُوصِها، تعظِيمًا لهذا المُرتَكَبِ السَّيِّئِ الّذي هو أعظَمُ إيذاء النِّساءِ، حتّى تبقى عِدَّتُها في ذَواتِ الأشهُرِ تسعةَ أشهُرٍ"[3]، ومن المعلوم أنّ رعاية أحد هذين الأمرين عند مشارفة العدّة على الزّوال أولى بالوجود من سائر الأوقات الّتي قبل هذا الوقت، وذلك لأنّ أعظم أنواع المُضارّة أن يطلّقَها ثمّ يُراجعها مرّتين، عند آخر الأجل، حتّى تبقى في العدّة تسعةَ أشهر، فلمّا كان هذا أعظم أنواع المُضارّة، لم يقبحْ أن يعيدَ اللّه تعالى حكم هذه الصّورة، تنبيهًا على أنّها أعظم الصّور اشتمالًا على المُضارّة، وأولاها بأن يحترزَ المكلّف عنها[4].

(1) زاده، حاشية على البيضاويّ: 1/539.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 1/228.
(3) أبو حيَّان، البحر المحيط: 2/208.
(4) زاده، حاشية على البيضاويّ: 2/559

سرُّ إيثار التّعبير بلفظ ﴿ضِرَارًا﴾ على التّعبير بلفظي (الضُّرّ)، و(الضَّرر):

الضِّرار مبادلة الضَّرر الّتي تنشأ عن المكايدة والمعاندة؛ لأنّ معناهُ المشاركة

يَعُمُّ لفظ الضرار كلَّ ما يُؤذي الزّوجة من سُوءُ عِشرَة، أو تضييق نَفَقَة، أو إطالة عِدَّة. وبالمُجمَل يَشمَل أيَّ إيذاء، سواءً أكان نَفسِيًّا أم جَسَدِيًّا، والسِّرّ في إيثار التّعبير بضِرار على التّعبير بالضُّرّ، هو أنّ الرَّجُل عند الإمساك الّذي يؤدّي إلى الضِّرار، وهو مبادلة الضَّرر الّتي تنشأ عن المكايدة والمعاندة[1]. فـ"(لا ضرر) أي لا يضر الرجل أخاه فينقص شيئًا من حقه أو مسلكه، وهو ضد النفع. وقوله: (لا ضرار) أي لا يضار الرجل جاره مجازاة فينقصه ويدخل عليه الضرر في شيء فيجازيه بمثله، فالضرار منهما معًا، والضرر فعل واحد"[2].

لفظة ﴿ضِرَارًا﴾ بَيْنَ معنى المشاركة ونفيها:

تخريجٌ آخر لمعنى المشاركة في لفظ (ضِرار)، يتناسب مع كيد النّساء

لفظ (الضِّرار) على وزن (فِعَال)، وهذه الصّيغة توجب المشاركة في الفعل، بحسب ما تدُلُّ عليه صيغة المفاعلة، لكنّ هذا ممّا لا يتصوّر ظاهِرًا ههنا في وجه منه؛ فالرَّجل إن أمسَك امرأته بقصد الإيذاء، والظلم، والتّعنت، دون رغبة حقيقيّة منه في الإبقاء عليها مَوَدَّة وحُبًّا، فهذا ضرر يقع على المرأة؛ لأنَّ الرَّجُل هو الّذي بيده الأمر في تلك الحالة، بخلاف المرأة؛ لذا لا يُنْتَظَر إيقاع ضرر منها على مُطَلِّقها، وبذلك تنتفي المشاركة[3]. وحيث إنّ كيدَ المرأة عظيمٌ، وحِيَلهنّ كثيرة، وردود أفعالهنَّ خطيرة، فإنّ تخريجًا آخر يمكن اعتماده في هذا المِضمار، وهو أنّ إمكانيّة المشاركة في الضُّرّ - إذا أنعمنا النّظر - مُتحقِّقة في الطّرفين؛ فالرَّجل إنْ أمسك زوجه بُغية إطالة مُدَّة العِدَّة عليها، أو تلذُّذًا بعذابها النّفسيّ؛ لعدم نيّته

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 1/796.
(2) الأزهري، تهذيب اللغة: (ضرَّ).
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 1/796.

الحقيقيّة في إقامة العدل معها، واستنفاد رغبته فيها، مُسَبِّبًا لها بذلك الإيذاء والضُّر، فإنّه بهذا يَستجلبُ عداوةَ امرأته، فتكيد له، فتُوقعُ به الضُّرّ، كما أوقعه هو عليها، فتكون هي مُشارِكة بذلك في إيقاع الضَّرر، فتستقيم بذلك دلالة الصّيغة على المفاعلة والمشاركة، ولعلّ ممّا يؤيّد هذا قوله تعالى: ﴿وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَقَدۡ ظَلَمَ نَفۡسَهُۥۚ﴾، فالرَّجُلُ ظَلَمَ نَفسَه بفعله، وباستجلاب عداوة امرأته، وكيدها له، انتقامًا منه.

بيان معنى لام العاقبة:

أبانت اللام أنَّ ثمرة الرَّجعَة الّتي لا يُتَوَقع فيها العدل تسَمَّى اعتداءً

اللاَّم في قوله: ﴿لِّتَعۡتَدُواْۚ﴾، هي لام العاقبة[1]، وقد أبانت أنَّ ثمرة الرَّجعَة الّتي لا يُتَوَقع فيها العدل تسَمَّى اعتداءً، وأبرزت أنّ ذاتَ الرَّجعَة في تلك الحالة هي الاعتداء عَينُه والظُّلم نَفسُه، ويجوز أن تكون اللّام للتعليل، فَإن كانَ (ضِرارًا) حالًا تعلَّقَتِ اللّامُ به، أو بـ﴿وَلَا تُمۡسِكُوهُنَّ﴾، وإنْ كانَ مَفعولًا مِن أجلِهِ تعلَّقَتِ اللّامُ به، وكانَ عِلَّةً للعِلَّةِ، كما تقولُ: ضَرَبْتُ ابنِي تأدِيبًا لِيَنتَفِعَ، فالتَّأديب عِلَّةٌ للضَّرب، والانتفاع عِلَّةٌ للتّأديب[2].

بلاغة الإيجاز بالحذف:

في الحذف إلماحٌ الى أنّ في ظلم الزوجة ظلمًا للنفس

في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَقَدۡ ظَلَمَ نَفۡسَهُۥۚ﴾ إيجازٌ بالحذف، تقديره: ومن يفعلْ ذلك فقد ظلمَ زوجه، وفي الاستغناء بالمذكور (نفسه) إلماحٌ الى أنّ في ظلم الزوجة ظلمًا للنفس، فإنّ منشأ خلقها نفسٌ واحدةٌ قال تعالى: ﴿۞هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَجَعَلَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا﴾ [الأعراف: 189]، وفيه استثارةٌ لمشاعر الزَّوج،

(1) وَتسَمى لام صيرورة، وَلاَم المَآل، وعند أكثر البصريين، صنف من أصناف لام كي. وهي ناصبة لما تدخل عليه من الأفعال، بإضمار أنْ والمنصوب بعدها بتقدير اسم مخفوض، ذكرها الكوفيون، والأخفش، وقوم من المتأخرين، منهم ابن مالك. ومن شواهدها قوله تعالى ﴿فَٱلۡتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرۡعَوۡنَ لِيَكُونَ لَهُمۡ عَدُوّٗا وَحَزَنًاۗ﴾ [القصص: 8] فهم لم يلتقطوه لذلك، إنّما التقطوه، ليكون لهم فرحًا وسُرورًا. يُنظر: المرادي، الجنى الداني، ص: 121، وعبّاس حسن، النّحو الوافي: 3/542.

(2) السَمين، الدُّرُّ المَصون: 2/458.

واستنفارٌ لعاطفته نحوَ زَوجِه الّتي يريد إبقاءها تحته ضِرارًا، فهي بمثابة جزء منه، بل بمثابة نفسه مصداقًا لقوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا﴾ [الرّوم: 21]، فما يقع عليها من ضَرَر فيؤلمها، فإنّه ينبغي أن يؤلمَه؛ لذا وجب عليه أن يُقْلِع عن ظلمها وإيذائها.

بديع الإيجاز باسم الإشارة:

عُبِّر عن الإمساك للضِّرار بقوله: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ﴾ وأوجز المعنى بالتعبير باسم الإشارة لتجسيده في صورة محسوسة يُشار إليها.

التعبير باسم الإشارة أوجزَ المعنى بتجسيده في صورة محسوسة يُشار إليها

وأوثر اسم الإشارة للبعيد؛ للدّلالة على بُعْد منزلته في السُّوء، والإيذاء، والظُّلْم، والشَّرّ.

في اسم الإشارة الدالِّ على البعيد دلالة على بعد المنزلة

سرّ التعبير بالمضارع:

التّعبير بالمضارع في قوله: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ﴾ إشعارٌ بأنَّ مِنَ المُخاطَبين مَنْ يتمادَى في فِعلِه، بالدوام عليه، والاستمرار على اقترافه.

التعبير بصيغة المضارع كشفٌ عن تماديهم في الفعل:

فائدة التّعبير بأسلوب الشَّرط:

وعُبِّر عن هذا المعنى بأسلوب الشّرط في قوله: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ﴾؛ للدّلالة على سرعة تحقّق ظُلم النّفس بتعريضها للمكايدة من المرأة، ولعذاب الله بمجرّد وقوع الشّرط، أي: الإمساك للمضارّة.

إيثار الشّرط للدّلالة على سرعة تحقّق ظُلم النّفس بتعريضها للمكايدة من المرأة

وفيه تحذير للمُخاطَبين، ووعيد لهم إنْ تجاسروا على ظُلم المرأة، كما كان يفعل أهل الجاهليّة.

في الشّرط دلالة التحذير والوعيد لِمَنْ يضارُّ المرأة ظلمًا وعدوانًا

وجه النهي عن اتّخاذ آيات الله هُزُوًا:

جاء قوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا﴾ تحذيرًا

إذا ذُكِرَ التَّحذير بَعدَ ذِكرِ التَّكالِيفِ كانَ تَهدِيدًا على تَركِها

للمُخاطَبين من التّهاون في العمل بآيات الله، وما تتضمّنه من تشريع، والمعنى كما يقول صاحب الكشّاف: "أي جِدُّوا في الأخذ بها، والعمل بما فيها، وارعَوها حقّ رِعايتها، وإلّا فقد اتخذتموها هُزُوًا ولعبًا، ويقال لِمَن لم يَجِدَّ في الأمر: إنّما أنت لاعبٌ وهازئٌ"[1]، وهذا تهديدٌ والتَّهديد إذا ذُكِرَ بَعدَ ذكرِ التَّكاليفِ، كان تَهدِيدًا على تَركِها[2].

إضافة الآيات إلى الاسم الأعظم لزيادة التّرهيب من التّهاون في شرعه تعالى

نكتة إضافة الآيات إلى اسم الله الأعظم:

المرادُ بـ﴿ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾: آياته النّازلة في الأوامر والنّواهي، وإضافة الآيات إلى لفظ الجلالة اسم الله الأعظم الجامع لكلّ صفاته تعالى؛ لزيادة التّرهيب من التّهاون في شرعه تعالى.

ثقل النطق لتوالي الضَّمَتين إيحاءٌ بمدى بشاعة هذا المُرتَكَب

توجيه توالي الضَّمَتين في لفظة ﴿هُزُوًا﴾ صوتيًّا:

وقد أوحى ثقل نطق قوله: ﴿هُزُوًا﴾ بسبب توالي الضَّمَتين بمدى بشاعة هذا المُرتَكَب وشناعته، وثقل إثمه، مع سهولة فعله، وخفّة أدائه.

إجمالُ ذكر النِّعم ترغيبٌ في أدائها، وتخصيصُ نِعَمِ الدِّين لأنَّها أجَلُّ مِن نِعَمِ الدُّنيا

بلاغة التخصيص بعد الإجمال:

و لَمّا رَغَّبَ الله تعالى عِبَاده في أداء التَّكاليف بما ذَكَرَ مِنَ التَّهديد، رَغَّبَهم أيضًا في أدائها بأن ذَكَّرَهم أنواعَ نِعَمِهِ عليهم، فبدأ أوَّلًا بذِكرِها على سبيلِ الإجمالِ، فقال: ﴿وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ﴾، وهذا يَتناوَلُ كُلَّ نِعمِ اللَّهِ على العَبدِ في الدُّنيا وفي الدِّينِ، ثُمَّ إنَّهُ تعالى ذَكرَ بعدَ هذا نِعَمَ الدِّينِ، وإنَّما خَصَّها بالذِّكرِ لأنَّها أجَلُّ مِن نِعَمِ الدُّنيا، فقال: ﴿وَمَآ أَنزَلَ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَٱلۡحِكۡمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦۚ﴾[3]، أو أجلُّ ما في الدّنيا من نِعم؛ لكونها الموصلة الى السعادة الأبدية في جنّة الخُلد.

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/140.
(2) الرّازي، مفاتيح الغَيب: 5/110.
(3) الرّازي، مفاتيح الغَيب: 6/453-454.

ذِكر الخاصّ بعد العامّ، إظهارٌ لأهميّته، وتَمْييزٌ لمكانته، بذكرِه مَرَّتين: مَرَّة في العُموم، ومَرَّة بتخصيصه.

ذِكر الخاصّ بعد العامّ تصريحٌ بأهميّته بذكرِه مَرَّتين

والتخصيصُ بعد التَّعميم، بعطف ﴿وَمَآ أَنزَلَ عَلَيۡكُم﴾ على ﴿نِعۡمَتَ ٱللَّهِ﴾ معناه: أنّ ما أنزل هو من النعمة، وهو من باب التجريد، كقوله: ﴿وَجِبۡرِيلَ وَمِيكَىٰلَ﴾ [البقرة: 98]، بعد ذكر الملائكة[1].

فن التجريد في ذِكر الخاصّ بعد العامّ

بديعُ التَّعبير عن السُّنَّة بلفظ الحكمة:

ذكر أبو حيان أنّ المراد بـ﴿ٱلۡكِتَٰبِ﴾ في الآية الكريمة القُرآنُ، وبـ﴿وَٱلۡحِكۡمَةِ﴾ السُّنَّةُ الَّتي بها كمالُ الأحكامِ الَّتِي لم يَتَضَمَّنْها القرآنُ، والمبَيِّنَةُ ما فِيهِ مِنَ الإجمالِ على لسانِ النَّبِيِّ ﷺ، فيما لم يُنَصّ عليه في القرآن الكريم، ودَلَّ هذا على أنَّ السُّنَّةَ أنزلَها اللّٰه على رسولِه ﷺ، كما قال تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ ۝٣ إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ ۝٤﴾ [النّجم: 3 - 4][2].

سنة النبي ﷺ قَبَسٌ من نور مشكاةٍ ربَّانية متلألئة

على هذا الوجه من التفسير فإنّ في التَّعبير عن السُّنَّة بلفظ الحكمة قصدًا إلى تحقيق التّناغم مع ما ورد في سيّاق الآية من تشريع حكيم خاصّ بشأن الطَّلاق، والرّسول ﷺ لا ينطق عن الهوى، ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ ۝٤ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلۡقُوَىٰ ۝٥﴾ [النّجم: 4 - 5]، فكلامه يفيضُ حِكمَة، وبُرهانًا، ويقينًا، وهُدًى مُستَمَدًّا مِن فَيضِ ما أنزل ربّه عليه، فَسُنَّتُه الشّريفة قَبَسٌ من نور مشكاة ربَّانية متلألئة؛ فناسب التّعبير عنها في هذا المَوضع، بلفظ ﴿وَٱلۡحِكۡمَةِ﴾.

دلالة الأمر بذكر نعم الله تعالى:

الأَمر في قوله: ﴿وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ﴾ للوجوب، ومُستعملٌ في معناه الحقيقيّ وغرضُه دوامُ استمرار ذِكر نِعمَة اللّٰه تعالى.

الأمر للوجوب، وغرضُه دوامُ استمرار ذِكر نِعَمِه

(1) أبو حيَّان، البحر المحيط: 209/2، و"التجريد: وهو أن ينتزع من أمرٍ ذي صفة أمرًا آخرَ مثله في تلك الصِّفة مبالغة في كمالها فيه" يُنظر: القزويني، الإيضاح: ص: 338.

(2) أبو حيَّان، البحر المحيط: 209/2، والقُرطِبيّ: الجامع لأحكام القرآن: 150/3.

بلاغة المجاز المُرسَل في الآية :

وجه المجاز بذِكر النِّعمَة شُكرُها

المراد بِذِكر النِّعمَة شُكرها؛ لأنَّ ذِكرَ المُسلِم النِّعمَةَ سَبَبٌ لشُكرِها، فَعَبَّرَ بالسَّبَبِ عنِ المُسَبَّبِ على سبيل المجاز المُرسَل[1].

والاستعلاء مَجازيٌّ، والمقصود بالنِّعمَة نِعمَة الإسلامِ ونُبُوَّة نَبِيِّنا مُحَمَّدٍ ﷺ.

علّة التعبير بشبه الجملة ﴿عَلَيْكُم﴾:

إيثار لفظ (عليكم) تنبيهٌ للمَأمُورِينَ، وتشريفٌ، وعلى أنَّ نِعمَتَهُ تعالى متضمّنة إيّانا

ويُرادُ بالنِّعمَةِ المُنعَم بِهِ فيكُون المقصود التّنبيه على أنَّ نِعمَتَهُ تعالى متضمّنة إيّانا، قدِ استعلَت وتَجَلَّت وصارَتْ كالظُّلَّة لَنا، وهذا هو سِرُّ التّعبير بحرف الاستعلاء ﴿عَلَيْكُم﴾ هنا. وفيه تَنبِيهٌ للمَأمُورِينَ، وتشريفٌ لهم؛ بأنَّ ما أُنزِلَ من القرآن الكريم وإنْ كان اختصَّ بالنزول على رسولِ اللَّهِ ﷺ، لكنَّهُ "لَمّا كُنّا مُخاطَبِينَ بِأحكامِهِ ومُكَلَّفِينَ بِاتِّباعِهِ؛ صار كأنَّهُ نَزَلَ علينا"[2].

نكتة إضافة النِّعمة إلى اسم الله الأعظم:

إضافة النِّعم إلى الاسم الأعظم تشريفٌ لها، وجريٌ على عادات القرآن في نسبته إليه تعالى

وإضافة النِّعمَة إلى الله تعالى؛ لتشريفها وتعظيمها، فلا أَجَلَّ من نِعمِه تعالى ولا أعظم، وهو جَرْيٌ على منهاج الآداب التنزيلية في نسبة النعم والخيرات إليه ﷻ دون أضدادها[3].

علّة العُدول عن التّثنية إلى الإفراد:

عدلَ عن التّثنية إلى الإفراد لأنّ السُّنَّة تابعة للقرآن، فهو أصل لها

الضّمير المجرور في قوله ﴿يَعِظُكُم بِهِۦ﴾، عائد على الكتاب، والمعنى: يَعِظُكم بالكتاب الّذي أُنزِل عليكم[4]، أو أنَّ الضّمير عائد على المنَزَّل، أي: الكِتَاب والحِكمة، وعُدِل عن التّثنية إلى الإفراد، حيث كان الظّاهر أن يُقال: يعظكم الله بهما؛ لأنّ السُّنَّة تابعة للقرآن، فهو أصل لها، ومنه تَستمدُّ شرفَها ونورَها وحِكمتَها.

(1) أبو حيَّان، البحر المحيط: 2/209.
(2) أبو حيَّان، البحر المحيط: 209/2.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السليم: 1/19.
(4) ابنُ جَريرٍ، جامع البيان: 2/494.

براعة العدول عن إضمار اسم الله الأعظم الى إظهاره :

وعُدِل عن الإضمار إلى الإظهار في قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ﴾، حيث كان الظّاهر أن يُقال: (واتقوا اللّه واعلموا أنه بكل شيء عليم)؛ للمبالغة في التَّحذير، ولتربية المَهَابة، ولزيادة الحثِّ على الامتثال للأمر بتكرير الاسم الأعظم مرّتين.

العدول عن الإضمار إلى الإظهار للمبالغة في التَّحذير، ولتربية المَهَابة

نكتة التذييل بصيغة المبالغة ﴿عَلِيمٌ﴾:

خُتِمَتِ الآية الكريمة بتحذير مُزلزلٍ، وتهديدٍ شديد، بصيغة المبالغة ﴿عَلِيمٌ﴾، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ﴾، والمعنى: فلا يخفى عليهِ شيءٌ مِن أمُورِكُم السِّرِّيَّةِ وَالجَهرِيَّةِ، الظَّاهرة، ولا الباطِنَة، فهو رقيبٌ عليكم، السِّرُّ والعلانيّةُ عندهُ سواءٌ، وسَيُجازيكُم على دقيق أعمالكم وجليلها، وصغيرها وكبيرها[1].

التعبير بصيغة المبالغة وعيدٌ، وتهديدٌ

وجاء خِتامُ الآية الكريمة بوصفِ ﴿عَلِيمٌ﴾ مُنسَجِمًا مع سياقها أيَّما انسِجام؛ لأنَّ الوَصفُ بِـ ﴿عَلِيمٌ﴾ يَقتضِيهِ ما تَقَدَّمَ منَ الأفعال الَّتِي ظاهِرُها خلافُ النِّيَّةِ فيها كالمُحَلِّل والمُرتَجِع مُضارَّةً[2]، وفيه تحذيرٌ للمُخاطَبين، وتنبيهٌ لهم على أنّه لا يسقط الجزاء على شيءٍ من أعمالهم لخفائه عند اللّه تعالى؛ لأنّه بكلّ شيءٍ عليم.

الوصف بـ(عليم) يَقتضِيهِ ما تَقَدَّمَ منَ الأفعال الَّتِي ظاهِرُها خلافُ النِّيَّةِ

قصديّة التعبير بفعل (العِلْم):

وقولُهُ: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ﴾، تذكِيرٌ للمُخاطَبين بالتَّقوى وبمُراعاةِ علمِهم بأنَّ اللّه عليمٌ بكلِّ شيءٍ، تنزيلًا لهم في حين مُخالَفَتِهم بأفعالِهم لمقاصدِ الشَّريعةِ مَنزِلَةَ مَن يَجهَلُ أنَّ اللّه عليمٌ، فإنَّ العليمَ لا يَخفى عليهِ شيءٌ، وهو إذا علمَ مُخالَفَتَهم لا يَحولُ بينَ عِقابِهِ وبينَهم شيءٌ، لأنَّ هذا العليمَ قديرٌ.

إيراد فعل الأمر (واعلموا) تَنزيلًا لَهم مَنزِلَةَ مَن يَجهَلُ، وتذكير باتّقاء قدرة العليم

(1) ابنُ كَثِير، تفسير القرآن العظيم: 2/370.
(2) ابنُ عطِيَّة، المُحَرَّر الوَجيز، ص: 204.

براعة الجناس الاشتقاقي:

في الجناس هنا إجمال للعبارة، وتشوّق لبيان طبيعة علم الله تعالى

في قولِه: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ﴾ و﴿عَلِيمٌ﴾ تجنيسٌ مماثِلٌ يُسمّى بِجِناس الاشتقاق، وهو ممّا يرد من اشتقاق واحد للّفظ، ويكون بليغًا في السّياق، دالًّا على المعنى، ومُجمّلًا للعبارة، يُكسب التَّعبير جمالًا وحُسنًا، باتّحاد الجَرْسِ، وتناسقِ الإيقاع، وإحداث ميلٍ للنفس نحو التّشوق والإصغاء لطبيعة علمه تعالى بدقائق الأمور، وخفايا النّفوس.

بلاغة متشابه النّظم القرآنّي في هذه الآية، وآية سورة الطّلاق:

سياق آية البقرة تشديدٌ، على عدم مُضارَّة النِّساء، وسياق آية الطّلاق ليس فيه مبالغة في التّوصية بالنّساء

قال تعالى هنا: ﴿وَإِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغۡنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمۡسِكُوهُنَّ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعۡرُوفٖۚ﴾ [البقرة: 231]. وقال في سورة الطّلاق: ﴿فَإِذَا بَلَغۡنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمۡسِكُوهُنَّ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ فَارِقُوهُنَّ بِمَعۡرُوفٖ﴾ [الطّلاق: 2].

فذكر في آية البقرة: ﴿أَوۡ سَرِّحُوهُنَّ﴾ وفي آية الطَّلاق: ﴿أَوۡ فَارِقُوهُنَّ﴾؛ لأنَّ في سياق آية البقرة تشديدًا على عدم مُضارَّة النِّساء، وتحريم أخذ شيءٍ من صداقهنَّ مقابل طلاقهنَّ، ما لم يكنْ منْ ذلك بُدٌّ لإقامة حدود الله، ﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَأۡخُذُواْ مِمَّآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ شَيۡـًٔا إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِۖ فَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَا فِيمَا ٱفۡتَدَتۡ بِهِۦۗ تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعۡتَدُوهَاۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٢٢٩﴾ [البقرة: 229]، أي: أنّه لا يجوز أخذ شيء منهنّ إلّا إذا خاف الزَّوجان ألا يُراعيا حقوق الزّوجيّة.

ثم أُتبِع ذلك بالنَّهي عن عَضلهن، أي: مَنْع المرأة عن نكاح مَنْ تَرضاه ﴿وَإِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغۡنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعۡضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحۡنَ أَزۡوَٰجَهُنَّ إِذَا تَرَٰضَوۡاْ بَيۡنَهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِۗ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمۡ يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۗ ذَٰلِكُمۡ أَزۡكَىٰ لَكُمۡ وَأَطۡهَرُۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ٢٣٢﴾ [البقرة: 232].

وهكذا يؤكِّد سيّاق آية البقرة عدم ظُلْمِ الزَّوجات، والإحسان

إليهنَّ في حالتي الرُّجوع إلى بيت الزّوجيّة أو الانفصال، وسِياقُ هذا شأنه فإنّه لم يكن من المناسب له ذِكرُ اللّفظ الّذي يدُلُّ على الانفصال، أي: الطَّلاق صراحة، بقوله: ﴿فَارِقُوهُنَّ﴾ [الطَّلاق: 2]؛ لأنَّ اللَّفظَ أقربُ إلى الإساءة منه إلى الإحسان؛ فعدل عنه إلى لفظ يؤدّي معناه مع تحسين العبارة، وعدم التّصريح بالفِراق، وهو لفظ التّسريح، فقال تعالى: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ [البقرة: 231]، كما أنَّ التّعبير بالتَّسريح في آية البقرة جاء مناسبًا مع ما قبله في قوله تعالى: ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَٰنٍ﴾ [البقرة: 229].

أمّا سياق آية سورة الطّلاق فليس فيه تلك المبالغة في التّوصية بالنّساء، والتّلطّف بِهِنَّ، والإحسان إليهنَّ في حالتي الصُحبة والطَّلاق، كما خلا سيّاق الآية من الحديث عن العَضْل، وعن المُضارة بالنِّساء؛ لذا لم يُنكَر ورود التّعبير باللَّفظ الدّال على الفِراق صريحًا، فقيل: ﴿أَوْ فَارِقُوهُنَّ﴾ [الطَّلاق: 2]، واكتفى بقوله: ﴿بِمَعْرُوفٍ﴾ [الطَّلاق: 2] عن الوصيّة بهنَّ[1].

(1) ابن الزُّبير، ملاك التّأويل: 1/124-125.

﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ إِذَا تَرَٰضَوْا۟ بَيْنَهُم بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۗ ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٢﴾﴾ [البقرة: 232]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

بيان الضّرار في تطويل العِدّة، والعَضْل بعدها:

إسناد العَضْل الواقع من الأولياء للأزواج، نهيًا لمن يكون منه العَضْل

بَيَّنَ اللّه تعالى في الآية السّابقة، عواقب إمساك الرّجال لنسائهنَّ ضِرارًا، وما في ذلك من جَوْر على النّساء وغَبْن، وفي هذه الآية بَيان لِحُكم اللّه تعالى في نوع آخر مِن ظُلم يقع بالنِّساء؛ وهو العَضل وذلك لعاقبته الوخيمة على المجتمع، وفي ذلك يقول صاحب "نَظم الدُّرر" في بيان مناسبة هذه الآية لِما قبلها: "ولمّا نَهى عَنِ الضِّرارِ في العِصمَةِ، وفي أثَرِها الّذي هو العِدَّةُ، أتبَعَهُ النَّهيَ عمّا كان منهُ بعدَ انقضائِها بالعَضْلِ، مِن كُلِّ مَن يُتَصَوَّرُ منه عَضْلٌ، لكنْ لمّا كانَ نَهيُ الأولياءِ إذا كانوا أزواجًا، نهيًا لغَيرِهِم بطريقِ الأولى، أسنَدَهُ إلى الأزواجِ وهم في غِمارِهِم"[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾: سبق بيان جذر المفردتين وأصلهما في الآية السابقة.

والمعنى هنا: انتهَتْ عِدَّتُهن من غيرِ مراجعَةٍ لهنَّ.

2) ﴿فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ﴾: العَينُ والضَّادُ واللَّامُ أصلٌ واحِدٌ صحيحٌ، يدُلُّ على شِدَّةٍ والتِواءٍ في الأَمرِ[2]، والعَضْل: المَنع، والمادَّة تدور حول الحبس والتّضييق، وعَضَّلَتِ الدّجاجةُ بِبَيْضِها، والمرأة بولدها: إذا تعسّر خروجهما تشبيهًا بها[3].

(1) البقاعيّ، نَظم الدُّرر: 3/234.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عضل).
(3) الواحديّ، التّفسير البسيط: 4/239.

والمعنى هنا: فلا تمنعوهنّ من التّزوّج مرّة أخرى بالعودة إلى الرّجل الّذي طلّقها ولم يراجعها، حتّى انقضت عدّتها.

3) ﴿يُوعَظُ﴾: من قولك: وَعَظتُه أَعِظَه، والوَعظُ والعِظَةُ والمَوعِظَة مصادر، وهو زَجرٌ مقتَرِنٌ بتخويف، وقال الخليل: تذكيرُك إيّاه الخيرَ ونحوَه ممّا يرقُّ له قلبُهُ[1]. وذكر الحَرَالِّي المرّاكشيّ، أنّ الوعظ هو إهزاز النّفس، بموعود الجزاء ووعيده[2]، ومن حقّ الوعظ، أنْ يتضمّن التّحذير من المخالفة، كما يتضمّن التّرغيب في الموافقة، فكان في الآية تهديدٌ من هذا الوجه[3].

4) ﴿تَرَاضَوْاْ﴾: رَضِيَ: يَرضَى رِضًى، وَهُوَ رَاضٍ، وَمَفعُولُهُ مَرضِيٌّ عَنهُ، وهو مقابل السُّخطِ[4]، وقوله: "﴿إِذَا تَرَاضَوْاْ﴾ - أي الرّجال والنّساء - تراضيًا واقعًا بينهم بالمعروف، بما يحسُن في الدّين والمروءة من الشّرائط، كالعقد الحلال، والمهر الجائز، والشّهود والعدول، وقيل: بمهر المثل"[5].

5) ﴿أَزْكَىٰ لَكُمْ﴾: من زكا يزكو زكاء وزكوا، والزكاء، ممدود: النماء والرَّيْع والبركة في الشّيء، وأرض زكية: طيبة سمينة[6]، والمعنى: النّهي عن عَضل النّساء بقيده وشرطه أَنْمى لكم وأنفع.

6) ﴿وَأَطْهَرُ﴾: الطاء والهاء والراء أصل واحد صحيح، يدلُّ على نقاء وزوال دنس. ومن ذلك الطهر، خلاف الدنس. والتطهر: التنزه عن الذم وكل قبيح. وفلان طاهر الثياب[7]. والطُّهر: نَقِيضُ الحَيض. والطُّهر: نَقِيضُ النَّجاسةِ، والجمعُ أَطهار، والمعنى: وأَطهَرُ للقلوب من العداوة والتّهمة، بسبب المحبّة بينهما[8].

(1) الخليل، العين، والفيرزابادي، بصائر ذوي التّمييز: (وَعَظَ).
(2) الحَرَالِّي، تراث أبي الحسن الحَرَالِّي، ص: 403.
(3) الرّازي، مفاتيح الغيب: 6/457.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (رضي).
(5) النّيسابوريّ، غرائب القرآن: 1/636.
(6) ابن منظور، لسان العرب: (زكا).
(7) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (طهر).
(8) النّيسابوريّ، غرائب القرآن: 1/636.

المَعْنى الإجْماليُّ:

النّهي عن عضل المرأة، والاعتداء على حرّيتها في الرّجوع لزوجها:

النّهي عن التّعسّف مع المرأة في الرّجعة، إذا تراضى الزّوجان

نزلَتِ الآية الكريمة في جَميلَةَ بنتِ يسارٍ أُختِ معقلِ بنِ يسارٍ المُزَنيِّ، كانَتْ تحتَ أَبي البَدَّاحِ عاصِمِ بنِ عَدِيِّ بنِ عَجْلَانَ فَطَلَّقَهَا، وأراد أن يراجعها فرفض أخوها معقل، فنزلتِ الآيةُ الكريمة تنهى الأولياءَ عن ذلك[1].

يَنهى اللّه تعالى أولياء أمور النِّساء أن يَمنعوا المُطَلَّقة طَلْقةً أو طلقتينِ، من أن تعودَ إلى زوجها الّذي طلَّقها، وبانت منه بانقضاء عِدَّتها، بعقد ونكاح جديد إذا رغبت في ذلك وتراضَيا بالزَّواج مرَّة أخرى، وعزَمَا على المعاشرة الحسنة بالمعروف، وصلاح حالهم، ذلك الحكم المتضمن النهي عن منعهن يُذكَّر به من كان منكم يؤمن باللّه واليوم الآخر، ذلكم أكثر نماء للخير فيكم، وأشد طُهْرًا لأعراضكم وأعمالكم وأنسابهم من الأدناس، وأحفظ لشرفهم وأحسابهم؛ لأنّ عَضْل النّساء، والتّضييق عليهنّ، مدعاةٌ لفسوقهنّ، ومفسدةٌ لأخلاقهنّ، وسببٌ لفساد نظام البيوت، وشقاء الذّراري، واللّه يعلم حقائق الأمور وعواقبها وأنتم لا تعلمون ذلك[2].

الإيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

دلالة التّعبير بلفظ (إذا) دون (إنْ) الشّرطيّة:

دلالة إذا على التحقق أدّت معنى انتهاء أَجَل العِدَّة

والتّعبير بأداة الشّرط إذا الّتي تدُلُّ على تحقُّق الوقوع، جاء متناغمًا مع معنى البلوغ هنا، في قوله: ﴿فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾؛ إذ إنَّ المراد به الانتهاء، أي: انتهاء أَجَل العِدَّة، وهذا أمر مُحَقَّقٌ لا لَبْس فيه؛ لذا كان من المُناسب التّعبير بـ(إذا) دون (إنْ) الّتي تدُلُّ على الشَّك في وقوع الشّرط.

(1) البَغَويّ، معالِم التَّنزيل: 1/156.

(2) محمّد رشيد رضا، تفسير المنار: 2/321، وجماعة من العلماء، المختصر في التفسير، ص: 37.

دلالة النهي عن العَضْل في الآية :

وجه النهي التشنيع بعَضْل المرأة، وتهويلٌ لأمره، وتحذيرٌ منه

النّهي في قوله: ﴿فَلَا تَعۡضُلُوهُنَّ﴾ تشنيعٌ بعضل المرأة؛ لأنّ في ذلك حيفًا عليها، وجورًا على حقوقها، قال العماديّ: "إذا وجد فيكم طلاق فلا يقعْ فيما بينكم عضلٌ سواء كان ذلك من قبل الأولياء، أو من جهة الأزواج، أو من غيرهم، وفيه تهويلٌ لأمر العضل وتحذيرٌ منه، وإيذانٌ بأن وقوع ذلك بين ظهرانهم وهم ساكتون عنه بمنزلة صدوره عن الكل في استتباع اللائمة وسراية الغائلة "[1].

عود الضمير في فعل العضل:

المقصود بالخطاب الأولياء، أو الأزواج

ذهب الزمخشري الى أنّ الخطاب للأولياء في عضلهنّ أن يرجعن إلى أزواجهنّ. أو هو خطاب للأزواج الذين يعضلون نساءهم بعد انقضاء العدة ظلماً وقسرًا، ولحمية الجاهلية لا يتركونهنّ يتزوّجن من شئن من الأزواج[2]. أمّا الفخر الرّازيّ وأبو حيّان فقد رَجَّحا أن يكون الخطاب للزّوج، وفَنَّدا الرّأي القائل باختلاف المخاطَبين؛ لكون سياق الكلام جملَةً واحدةً مُرَكَّبَةً مِن شرطٍ وجزاءٍ، فالشَّرطُ قولُهُ: ﴿وَإِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغۡنَ أَجَلَهُنَّ﴾، والجزاءُ قولُهُ: ﴿فَلَا تَعۡضُلُوهُنَّ﴾ ولا شَكَّ أنَّ الشَّرطَ وهو قولُهُ: ﴿وَإِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ خطابٌ مع الأزواجِ، فوجبَ أنْ يكونَ الجزاءُ وهو قولُهُ: ﴿فَلَا تَعۡضُلُوهُنَّ﴾ خطابًا معهم أيضًا؛ إذ لو لم يكنْ كذلكَ لانتفت المناسبة بين الشَّرطِ والجزاءِ، وذلك يُوجِبُ تفكُّكَ نَظْمِ الكلامِ[3].

إعمام الخطاب لكل المؤمنين يدل على التكافل بين آحاد الأمة لمنع الظلم

يرى العماديُّ أنّ إسناد ما فعله واحد منهم إلى الجميع شائعٌ مستفيضٌ، والمعنى: إذا وجد فيكم طلاق فلا يقعْ فيما بينكم عضلٌ سواء كان ذلك من قبل الأولياء أو من جهة الأزواج أو من غيرهم[4].

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/229.
(2) الزمخشري، الكشاف: 1/140.
(3) الرّازي، مفاتيح الغيب: 6/113، وأبو حيّان، البحر المحيط: 2/210.
(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/229.

وبذا يكون الخطاب عامًّا لكل المؤمنين ممن يقع في دائرتهم ذلك، فهو يعم المطلقين، ويعم الأولياء، ويعم غيرهم ممن يتصلون بهم، ويعم أولياء الأمر الذين بيدهم الهيمنة على الأمور، والتعميم بهذا الشَّكل يدلّ على التكافل بين آحاد الأمة، ووجوب التعاون بينهم في منع كل ظلم يقع على الضعفاء، ولا سيّما ما يمسّ الحرّية الشّخصية في أدقّ ما تتجه إليه، ولا شيء يهم المرأة أكثر من اختيار زوجها، ولا عقد أمس بالوجدان من عقد الزواج، ولا اتفاق أكبر خطرًا في الحياة من ذلك الاتفاق؛ فالظلم فيه خطير بمقدار ماله من خطر وشأن[1].

القَيدُ بالشَّرط يُعَكِّر أنْ يكون المقصودُ من الخِطابِ الأزواجَ

والتّعبيرَ بالشَّرطِ في قوله: ﴿إِذَا تَرَٰضَوۡاْ بَيۡنَهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِۗ﴾، يُضْعِف تَوجيه الخطابِ إلى الأزواج في الآيةِ الكريمة؛ لأنَّ هذا يُؤَدّي إلى امتلاك مَن كانوا أزواجًا، تحديد مَصائر نسائهنَّ السّابقات، بعد انقضاء عِدَّتهنَّ في اختياراتهنّ لأزواج جُدُدٍ، وإبقاءِ الوِلاية عليهنَّ بعد انقطاع العلاقة الزّوجيّة، وهذا ليس من العدل الّذي يُنادي به الشّرع؛ فهذا الشّرط إنْ لم يتحقّق يُقْبَل أن يكون مُسَوِّغًا لرفض أولياء الأمور اختيار مَنْ يقعن تحت ولايتهم، لسوء اختيارهنَّ، لكنّه لا يُقْبَل عقلًا أنْ يكون سببًا لرفض أزواجٍ سابقين، زواج منْ كنَّ تحت ولايتهم في يوم ما، وتعنّتهم معهنَّ، والتّضييق عليهنَّ في الزّواج، وحبسهنَّ أسيرات تحت وصايةٍ لاحَقَّ لأزواجَهنَّ السّابقين فيها.

التعبير ببلوغ الأجل بين الحقيقة والمجاز:

دلالة البلوغ انقضاء العدّة، أو المشارفة على الانتهاء

البلوغ حقيقة يطلق على الوصول إلى الشيء، ويتسع مجازاً في المشارفة والدنو، والأجل موضوع للمدة كلها، فيقال لعمر الإنسان: أجل، ويتسع مجازاً على آخر المدة فيقال للموت الذي ينتهي عمر الإنسان إليه: أجل[2].

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 2/801.
(2) الطّيبي، فتوح الغيب: 3/406.

وعلى هذا فُسِّر بلوغ الأجل بآخر عدتهن وشارفن منتهاها[1]، أو مقاربة الأجل دون حقيقة الانتهاء إليه،[2]، أو بانقِضاءُ العِدَّةِ[3].

عِلَّة إيثار لفظ ﴿يَنكِحۡنَ﴾ على (يَتَزَوَّجْنَ):

إيثار لفظ النكاح استدعاءٌ لخفّة اللّفظ، ورشاقة العبارة

أوثر التّعبير بقوله: ﴿يَنكِحۡنَ أَزۡوَٰجَهُنَّ﴾، على: يتزوجْنَّ أزواجهنَّ، طلبًا للخِفَّة، وتَجَنُّبًا للثِّقل الّذي يستتبع تَكرار كلمتين متتالتين من جذر واحد، ولو حاولنا النُّطق بالجملة المقترحة: يتزوّجن أزواجهنّ، لشعرنا بمدى هذا الثّقل في العبارة، ولَفَرَرْنا منها إلى رِحاب اللَّفظ القرآنيِّ العذب اللّطيف ﴿يَنكِحۡنَ﴾، ولا عجب في حِرْص لغة القرآن الكريم على الخِفَّة والرَّشاقة، ليسهل التَّلَفُّظ بها، ولا يَكدُّ اللّسان بنطقها، ولا تنقبض النَّفَس بقراءتها.

بلاغة المجاز المُرسَل في قوله: ﴿أَن يَنكِحۡنَ أَزۡوَٰجَهُنَّ﴾:

المجاز يُرقِّق قلوب أولياء المرأة، ويستجيش العاطفة الإنسانيّة في نفوسهم

المُرادُ بأزواجِهنَّ في قوله: ﴿أَن يَنكِحۡنَ أَزۡوَٰجَهُنَّ﴾ طالبُو المراجعةِ بعدَ انقضاءِ العِدَّةِ، وسَمّاهُنَّ أزواجًا مَجازًا باعتبارِ ما كانَ، لقُربِ تلكَ الحالَةِ، وللإشارَةِ إلى أنَّ مَنعَ النّساء منَ العودة إلى أزواجهنَّ ظُلمٌ؛ فَإنَّهم كانُوا أزواجًا لَهُنَّ مِن قَبْلُ، فَهم أحَقُّ بِأنْ يَرجِعْنَ إليهِم[4]. وعُمِدَ إلى المجاز المرسل ﴿أَزۡوَٰجَهُنَّ﴾، بعلاقة ما كان - إنْ كان الخطابُ للأولياء في قوله: ﴿فَلَا تَعۡضُلُوهُنَّ﴾ - لترقيق قلب وَلِّي المرأة، في العودة لِمطَلِّقها إذا تراضيًا على ذلك بالمعروف، فالعلاقة الزَّوجية لم يتلاش دفئها بعدُ، بدليل رغبة الطّرفين في إقامتها مرّة أخرى، وإعادة نَسْج حِبال المَوَدة، فبالأمس القريب كان الرّجل زوجًا لها، وكانت المرأة زوجة له، وكانا يتدثّران بغطاء واحد، فلمَ إذًا التّضييق على المرأة بوضع العوائق أمامها، لتستأنف حياة زوجيّة

(1) الزمخشري، الكشاف: 1/277.
(2) ابن الجوزيّ، زاد المسير: 1/204.
(3) الرّازي، مفاتيح الغيب: 7/117، ويُنظر: البقاعيّ، نَظم الدُّرر: 3/325.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/235.

جديدة، مع الرَّجُل الّذي بات يطلب إعادة الرّوح لحياة زوجيّة خمد أوارها، وانطفأت جذوتها، وتَصدّع بنيانها ؟! إنّ تلك الظّلال الّتي أشاعها المجاز المرسل، لَتَسْتَجيش العاطفة الإنسانيّة في نفس وَلِيّ أمر المرأة، وتُحَرِّك في داخله مشاعر الفِطرة الإنسانيّة، وتخمد ثورة تعنّته وعناده بعضْله لِوَلِيَّته، ومَنْ وَلِيَتُه ؟ أليست هي من أقرب النّاس إليه ؟! فلِمَ إذًا يكسر قلبها، ويُدْمي مُقْلتيها، بمنعها من استئناف علاقتها الزّوجيّة مع الرّجل الّتي كانت تعيش على أرضه، وتبيت تحت سمائه؟!

قصدية العدول عن استعمال لفظ الرّجال إلى الأزواج:

تـركُ التَّعبير بلفظ الرجال لدفع انصراف الذّهن الى نكاحهنّ برجال آخرين

"وسُمُّوا أزواجاً لمآل أمرهم إلى ذلك كما أنَّ المُطلِّقين سُمُّوا أزواجاً بما كان"[1]. ولو قيل مثلًا: (أنْ ينكِحنَ رِجَالَهُنَّ)، لتلاشت تلك المعاني الرّحيمة الرّحبة من ظلال اللّفظة، ولتبخّرت تلك الشّحنة العاطفيّة الّتي بثّتها تلك الكلمة؛ لانصراف الذهن الى نكاحهنّ برجال آخرين غير أزواجهنَّ المطلقين لهنّ.

سرُّ إسناد النّكاح الى النساء:

سـرُّ الإسناد؛ لأنّ النّكاح لا يصحُّ إلا برضى النِّساء، وفي ذلك تكريم لهنّ، وتشريف

نسب النِّكاحَ إلى النِّساءِ في قوله تعالى: ﴿أَن يَنكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ﴾؛ لأنه لا يصحُّ إلا برضاها، وكل من لا يتمُّ الفعلُ من دونه، يصحُّ أن يُنْسَبَ ذلك الفعلُ إليه[2].

وفي الإسناد دلالة على حقهنَّ الأصيل في الاختيار، وتقرير مصيرهن، ورسم مستقبلهنّ، وهذا تكريمٌ للمرأة، وتشريفٌ لها، واعتناءٌ برأيها، واعتدادٌ باختيارها، بشرط موافقته للمشروع والمعقول.

(1) البقاعي، نظم الدرر: 3/324.
(2) الراغب، تفسير الراغب: 1/479.

من متشابه النّظم القرآنيّ، الفرق بين قوله: ﴿وَبُعُولَتُهُنَّ﴾، وقوله ﴿أَزْوَاجَهُنَّ﴾:

قال تعالى: ﴿وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ﴾ [البقرة: 228]، وقال تعالى هنا: ﴿فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ﴾.

منهج القرآن استعمال لفظ (بعل) في سياقٍ تهديد الحياة الزّوجية

على الرّغم من تشابه السّياق في الآيتين الكريمتين، وهو الحديث عن الطّلاق، وجواز إعادة الحياة الزّوجيّة، لكنّه أطلق على المُطلِّقين لفظ (بُعُول) في الآية الأولى، في حين أطلق لفظ ﴿أَزْوَاجَهُنَّ﴾، على المُطلِّقين في الآية الثّانية، والسبب: أنّ منهج البيان القرآنيّ لا يُطْلق لفظ (بَعْل) أو (بُعولة)، إلاَّ في سياقٍ فيه ما يُهَدِّد الحياة الزّوجية مِنْ شِقاق الزَّوجين، أو سوء معاملة من الزّوج لزوجته، أو سلوك معيب من الزّوجة، ممّا يناقض قُدْسية الحياة الزّوجيّة ونقاءها.

وعند مراجعة مقام الآية الأولى، نَجِد إشارة إلى وجود مُنافس من الرِّجال للمُطَلِّقين، والقرآن الكريم يحكم بأولوية المُطَلِّقين في التَّزَوُّج مِن مُطَلَّقاتهم، فَهُم أولى مِن غيرهم ممّن يُظهرون رغبتهم في التّزوّج من مطلّقاتهم، هذا ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوٓاْ إِصْلَٰحًا﴾، وأفعل التّفضيل ﴿أَحَقُّ﴾ يقتضي اشتراك طرفين في معنى مع أفضليّة أحدهما على الآخر، فجاء التّعبير بِناءً على القاعدة فقال: ﴿وَبُعُولَتُهُنَّ﴾ دون ﴿أَزْوَاجَهُنَّ﴾.

أمّا الآية الثّانيّة فالخطاب فيها من أوّل الأمر مُوَجَّه إلى وُلاة أمور المطلّقات، وتنهاهم عن منعهنَّ من التَّزوّج بمطلِّقيهن، إذا أراد المطَلِّقُون والمطَلَّقات العودة إلى الحياة الزّوجية مرَّة أخرى، فيميل كلُّ واحد منهما نحو الآخر، وحنينه إلى عِشْرته متحقّقٌ في الآية الثّانية، ممَّا يجعل الطّلاق كأنّه لم يكن؛ فاقتضى ذلك أن يُطلق على المُطلّقين ﴿أَزْوَاجَهُنَّ﴾، وهذا أنسب لمقام النّهي عن العَضْل.

دلالة التّعبير بالظّرف المكانيّ المجازِيّ، وبالباء في الآية الكريمة:

وقوله: ﴿إِذَا تَرَٰضَوْاْ بَيْنَهُم بِٱلْمَعْرُوفِ﴾، الظَّرف ﴿بَيْنَهُم﴾ هنا مَكاني مَجازِي، جاء ظرفًا

المَنعُ مِنَ التَّزَوُّجِ بِغَيرِ كُفءٍ أو بما دُونَ مَهرِ المِثلِ ليس مِن باب العَضْل

للتّراضي مفيدًا رسوخه واستحكامه، ﴿بِٱلۡمَعۡرُوفِۗ﴾ أي: بما لا يكونُ مُستَنكَرًا شرعًا ومُروءَةً، والباءُ إمّا مُتعلِّقَةٌ بمحذُوفٍ وقَعَ حالًا مِن فاعِلِ ﴿تَرَٰضَوۡاْ﴾، أو نعتًا لمَصدَرٍ مَحذُوفٍ؛ أي: تَراضِيًا كائنًا بالمعرُوفِ، وفي التَّقييدِ بذلك، إشعارٌ بأنَّ المَنعَ مِنَ التَّزَوُّجِ بغيرِ كُفءٍ، أو بما دُونَ مَهرِ المِثلِ، ليسَ مِن بابِ العَضْلِ[1]، قال البِقاعيّ: "﴿تَرَٰضَوۡاْ﴾ أي: النّساء والأزواج الأكفاء، بما أَفْهَمَتْهُ الإضافة، دون أن يقال: أزواجًا لهنّ مثلًا، ولَمَّا كان الرّضى ينبغي أن يكون على العدل، أشار إليه بقوله: ﴿بَيۡنَهُم﴾، ولما كانا قد يتراضيان على ما لا ينبغي، قيّده بقوله: ﴿بِٱلۡمَعۡرُوفِۗ﴾، فإنْ تراضوا على غيره، كما لو كان الزّوج غير كفءٍ فاعضلُوهنّ، وعرّفه كما قال الحَرَالِّي: لاجتماع معروفين منهما، فكان مجموعهما المعروف التّامّ، وأمّا المُنَكَّر فوصف أحدهما"[2].

وجه التقييد بالشرط بالجارّ والمجرور:

التعبير بـ(إذا) والجارّ والمجرور تقييد لِحُرِّيَة المرأة في اختيار زوجها

وفي التّعبير بالشَّرط، وبالأداة الّتي تدُلُّ على تحقّق الوقوع ﴿إِذَا﴾، وبالجار والمجرور ﴿بِٱلۡمَعۡرُوفِۗ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَعۡضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحۡنَ أَزۡوَٰجَهُنَّ إِذَا تَرَٰضَوۡاْ بَيۡنَهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِۗ﴾، تقييد لِحُرِّية المرأة في اختيار زوجها، بَيانُ هذا: أنَّ الشَّرعَ الحكيم، لم يترك حرية اختيار المرأة لزوجها مُطلَقَة بِلا حدود، بل اشترط التَّحقق مِن أنَّ اختيارها ينبغي أن يكون بالتّوافق مع زوج المستقبل، وهذا ما أنبأت عنه أداة الشّرط ﴿إِذَا﴾. فـ"قولُهُ ﴿إِذَا تَرَٰضَوۡاْ بَيۡنَهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِۗ﴾، شَرطٌ لِلنَّهيِ؛ لأنَّ الوَلِيَّ إذا علمَ عدَمَ التَّراضِي بينَ الزَّوجَينِ، ورأى أنَّ المُراجَعَةَ سَتعودُ إلى دَخَلٍ وفَسادٍ فلهُ أنْ يَمنعَ مَولاتَهُ، نُصحًا لها، وفي هذا الشَّرطِ إيماءٌ إلى عِلَّةِ النَّهيِ: وهي أنَّ الوَلِيَّ لا يَحِقُّ له مَنعُها، مع تَراضي الزَّوجَينِ بعودِ المُعاشَرَةِ، إذ لا يكونُ الوَلِيُّ أدرى

(1) الآلوسي، روح المعاني: 2/145.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 3/325.

بِمَيلِها مِنها، على حدِّ قولِهم، في المَثَلِ المَشهُورِ: رَضِيَ الخَصمانِ ولم يَرضَ القاضِي"[1].

أدت شبه جملة الجار والمجرور معنى موافقة الاختيار للعرف والعقل والشرع

دلَّ التّعبير بالقَيد - الجارّ والمجرور - ﴿بِٱلۡمَعۡرُوفِۖ﴾ على أن يكون اختيارها موافقًا للعُرْف، ومتجاوبًا مع العقل، ومُنسَجِمًا مع المعقول والمشروع، فإنْ لم يتحقّق هذان الشَّرطان، وكان اختيارها عن هوًى وطَيْش وتَسَرُّع، فإن الشَّارع الحكيم يُقَيِّد حقّها في الاختيار، ويُعطي لِوَلِّيها الحَقَّ الأصيل في الاعتراض على اختيارها تَجنُّبًا لِمَا قد يَحِلُّ بها إنْ أساءت هذا، وبإباحته لها دون قَيد أو شَرط.

وجه التعبير بصيغة (تفاعل):

بيانُ صيغة التفاعل تحقّق مشاركة طرفي الزواج بالتّراضي

لصيغة (تَفاعَل) الَّتي تدُلُّ على المشارَكة في قوله: ﴿إِذَا تَرَٰضَوۡاْ بَيۡنَهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِۖ﴾، أَثَرٌ في استخلاص الحُكم الفِقهيّ، بَيانُ هذا أنَّ التّراضي بين المرأة ومن تُريد أن تتزوّجه، لا بُدَّ أن يكون مُتَحَقّقًا بين الطَّرَفين ومُتَيَقّنًا، أي يتشاركانه، فهو رِضًى مُتبادَلٌ يُقِرُّه الشَّرع والعُرف، فإن كان الرِّضى غير مُتَيَّقَّنٍ، بأن كان من طرف واحد، وكان منشؤه الهوى، فلِوَلِيِّ المرأة الحقّ في عَضْلها، هكذا يظهر دور صيغ الأفعال والقيود المختلفة كالقيد بالشّرط وبالجار والمجرور وبالمفعول، في استنباط الحُكم الفقهيّ أو الشَّرعيّ.

سِرُّ الإفراد والجمع لاسم الإشارة ﴿ذَٰلِكَ﴾ في الآية:

في إفراد اسم الإشارة وجمعه مراعاةٌ للمخاطبين:

ذكر الراغب أنّ في ذلك وجوهًا، أحدها: أن كاف الخطاب مع (ذا) تارة تفيد الخطاب، فيراعى فيه المخاطبون فيثنى، ويجمع، ويؤنث بحسبهم، وتارة يعتبر به الفرق بين القريب والبعيد، فيقال: (ذا) لما يتصور قريبا، و(ذاك) لما يتصور بعيدا، فلا يثنى ولا يجمع، فعلى هذا (ذلك)، و(ذلكم). والثاني: أن الكاف الأولى

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/427.

خطاب للنبي - عليه السلام، والثانية للكافة، وعلى هذا قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ [الطلاق: 1] وفائدة ذلك أن قوله: (ذلك) إشارة إلى حقائق ما تقدم، ولا يكاد يتصوره إلا هو ﷺ، ومن يدانيه من أولياء الله عز وجل -، وذلك إشارة إلى العمل، والعمل به يتشارك فيه كافة المسلمين. والثالث: أن خطاب الجمع تارة يعتبر بلفظ مفرد، فيفرد خطابهم نحو: بهذا القبيل فعلتُ كذا، وتارة يعتبر معنى الجمع، فيقال: فعلتم فعلي هذا[1].

في التعبير بـ(ذلك) إشارَةٌ إلى ما فُصِّلَ مِنَ الأحكامِ، ولتعظيم المُشار اليه، وبيان أنّ سبيل الهداية معلوم لا تَشَعُّبَ فيه

التعبير بـ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارَةٌ إلى ما فُصِّلَ مِنَ الأحكامِ؛ وما فِيهِ مِن معنى البُعدِ، لتعظِيمِ المُشارِ إلَيهِ[2]، ويمكن أن يكون في التّعبير باسم الإشارة المفرد إلماحٌ إلى أصل مصدر هداية المؤمنين، من آيات الله وأحكامه ومواعظه، وما أوحي به على رسوله ﷺ؛ فالأصل واحد، ومنه تنبثق سائر الحِكم والهدايات، فسبيل الهداية معلوم لا تشعُّب فيه، ولا اعوجاج، ولا تخبُّط، ولا تحيُّر؛ لذا يجب على المؤمن أن يسير في هذا الطّريق النّورانيّ، ولا يحيد عنه، وذلك بالمبادرة بالامتثال لشرع ربّه.

النُّكتة البلاغيّة في التّعبير بـ(ذلكم) إشارة إلى أنَّ حماية المرأة حقٌّ على الجميع

التعبير باسم الإشارة للجمع، في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمۡ أَزۡكَىٰ لَكُمۡ وَأَطۡهَرُۚ﴾، فيه إشارة إلى أنَّ حماية المرأة من الهوان، ومنع التّضييق عليها في اختيار زوجها - إن كان الاختيار في دائرة المعقول - حقٌّ على الجميع، وفائدته على الجميع[3]، ولا يخفى ما في استخدام الإشارة للبعيد، من دلالة على فخامة المشار إليه، وعُلُو قَدْره، وبُعْد منزلته في الفضل.

(1) الراغب، تفسير الراغب: 1/479-480، وأبو حيَّان، البحر المحيط: 2/230، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 1/234.
(2) أبو حيَّان، البحر المحيط: 2/230، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 1/234.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 1/803.

علّة التعبير بجملة الشّرط:

استدعاء الشّرط استنفارٌ لنفوس المؤمنين، وتهييج لعاطفة الإيمان عند المُخاطَبين للإذعان للحكم

في جملة الشّرط: ﴿ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمۡ يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۗ﴾، إلهاب لعاطفة الإيمان عند المُخاطَبين، وإيقاظ لها، فالمُخاطبون من الأولياء والأزواج، مؤمنون مُوَحِّدون، يؤمنون بالله واليوم الآخر، وجاء الشّرط ليستنفر تلك النّفوس المؤمنة، لتتلقّى ما ورد من أوامرَ ونواهٍ، ممتثلة لها، ومُذعِنة لحكم ربّها، ومُتّعظة به، ومُستجيبة له، ومبادرة إلى تطبيقه، دون تردّد أو تلكؤ لتكون أهلًا للإيمان الحقِّ الخالص، بالتّطبيق العمليّ بالإقلاع عن الإضرار والعَضْل، وكلّ ما يُضَيِّق على المرأة، ويُعَسِّر عليها أمرها[1].

بيان التعبير بالجارّ والمجرور ﴿مِنكُمۡ﴾:

في لفظ (منكم) الأثر البالغ في إثارة نخوة إيمانهم

الجارّ والمجرور في قوله ﴿مِنكُمۡ﴾، سوطٌ لاذعٌ على ضمائر المخاطبين، وله أثره البالغ في إثارة نخوة إيمانهم، وإلّا فقد كان من الممكن أن يُقال: (ذلك يُوعظُ به من كان يُؤمنُ بالله واليوم الآخر)، فأظهر الجارّ والمجرور إيمانهم، في صورة المشكوك فيه، وغير الجازم بتحقّقه فيهم، واتّصافهم به، وكأنّه قيل لهم: لا تستحقّوا وصف الإيمان، أو لستم بمؤمنين حقًّا إن لم تبادروا بالاتّعاظ، وتسارعوا بالإذعان، وتنهضوا لامتثال شَرع ربّكم، وما أمركم به، وما نهاكم عنه.

وجه تقديم التزكية، وإتباعها بالتطهير:

قدّم التزكية تأديبًا لهم، وصيانة، وإصلاحًا

من معاني الزكاة التنقية، والطّهارة، والصلاح، والصيانة[2]، من زكا الزرع إذا نما فقوله: ﴿أَزۡكَىٰ لَكُمۡ﴾ إشارة إلى استحقاق الثواب الدائم، وقوله: وأطهر إشارة إلى إزالة الذنوب والمعاصي التي يكون حصولها سببا لحصول العقاب[3]. ولما كان المقام للتنزيه والتأديب

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/495.
(2) الفيروزابادي، بصائر ذوي التمييز: 3/134-135.
(3) الرازي، مفاتيح الغيب: 6/457.

من عضل النساء، قدم التزكية فقال: ﴿ذَٰلِكُمۡ أَزۡكَىٰ لَكُمۡ﴾ لتضمّنه معنى الصيانة، والإصلاح، أي: يصونهم عن الأخلاق غير المحمودة.

بلاغة الإيجاز بالحذف:

أوجَزَ بالحذف استغناءً بالمذكور

وحَذَفَ الجارّ والمجرور (لَكُمْ)، بعد قوله: ﴿وَأَطۡهَرُۚ﴾، حيث لم يقل: أزكى لكم، وأطهر لكم، لدلالة سابقه عليه، وتصفية للعبارة.

بديع إظهار الاسم الأعظم وتكراره:

علمُ الله بكلّ شيء محيط، وعلم البشر موصوفٌ بالقصور والتّفريط

قوله: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾، بدأت الجملة بتكرار لفظ الجلالة، لِعلَّة بلاغيّة، أبان عنها صاحب نظم الدّرر بقوله: "ولَمّا كان وصفُ المتكلِّم بالعلم، أدعى لقَبُولِ مَن دُونه منهُ، قال مُظهِرًا ومُعِيدًا للاسم الأعظَم تعظِيمًا للأمر: ﴿وَٱللَّهُ﴾، أي: أُشِير إليكم بهذا، والحالُ أنَّ المَلِكَ الأعظَمَ ﴿يَعۡلَمُ﴾ أي: له هذا الوَصفُ ﴿وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾، أي: ليسَ لكم هذا الوصفُ بالذّاتِ، لا في الحالِ ولا في الاستِقبالِ، لِما أفهَمَهُ النَّفيُ بكلمَةِ (لا) وصِيغَةِ الدَّوام"[1].

دلالة عبارة التّذييل:

ذُيِّلتِ الآية بما يُزيل استغراب المُخاطَبين من أحكام الطّلاق

جيء بالتَذْيِيلُ في قولُهُ ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ لإزالة استغراب المخاطَبين، حِينَ تَلَقِّي هذا الحُكم، لمُخالفتِهِ لعاداتِهِمُ القديمَةِ، الّتي كانوا عليها في الجاهليّة، وما اعتقدُوا نَفعًا وصَلاحًا وإبقاءً على أعراضِهِم، فَعَلَّمَهُمُ اللَّهُ أنَّ ما أمَرَهم به ونَهاهم عنه، هو الحَقُّ، لأنَّ اللَّه يعلَمُ النّافِعَ، وهم لا يَعلمُونَ إلّا ظاهِرًا.

وجه تخصيص المؤمنين بالموعظة:

خصّ المؤمنين بالذكر؛ لأنّهم مظنّة الانتفاع بالوعظ

ذكر الإيمان بالله، لأنّه تعالى هو المكلّف لعباده، النّاهي لهم والآمر، وباليوم الآخر، لأنّه هو الّذي يحصل به التّخويف، وتجنى فيه ثمرة مخالفة النّهي، وخصّ المؤمنين؛ لأنّه لا ينتفع بالوعظ إلّا

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 4/327.

المؤمن؛ إذ نُورُ الإيمان يرشدُهُ إلى القبول، وسلامة عقله، تُذهب عنه مداخلة الهوى[1].

إيجاب التّكاليف للكفار على سبيل الإثبات بالدليل المُلزم، وذكرها للمؤمن على سبيل التنبيه والتحذير

فـ "بيان الأحكام وإن كان عامًّا في حق المكلَّفين، إلا أن كون ذلك البيان وعظًا مختصًّا بالمؤمنين؛ لأن هذه التَّكاليف إنما تُوجَبُ على الكفار على سبيل إثباتها بالدَّليل القاهر المُلزم المُعجز، أما المؤمن الذي يقرُّ بحقيقتها، فإنها إنما تُذكرُ له وتُشرحُ له على سبيل التَّنبيه والتَّحذير"[2].

بلاغة تقديم الإيمان بالله على اليوم الآخر:

الإيمان بالله أصلٌ للإيمان بموجوداته

ذكر الإيمان بالله؛ لأنّه تعالى هو المكلّف لعباده، النّاهي لهم والآمر، وعقّب باليوم الآخر؛ لأنّه هو الّذي يحصل به التّخويف، وتجنى فيه ثمرة مخالفة النّهي[3]. وقدّم الإيمان بالله؛ لأنه الأصل فمن آمن به جلّ وعلا آمن بما أنزلَ، وقرّر، وتصرّف في هذا الكون.

جمال التعبير بالجملتين الاسمية والفعلية:

وجه التّعبير بالجملتين إثباتُ دوام العلم لله تعالى، ونفي دوامه عن المخاطبين

وجاء افتتاح التّذييل بجملة اسميّة، في قوله: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ﴾؛ للدِّلالة على دوام عِلم الله، ورسوخه، فعِلمُه تعالى أزليٌّ وغير مُتَناهٍ، وخُتِم التّذييل بقوله: ﴿وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾، فنفى عن ذوات المخاطَبين - بـ﴿لَا﴾ وصيغة المضارع الدّالة على الدّوام وفاق ما مرّ ذكره - العِلم بِحِكمة التّشريع من الأحكام الّتي وردت، والمَصالحِ فيما يأمُرُ به وينهَى عنهُ، والخَيْرَةُ فِيمَا يَأْتُونَ وما يَذَرُون[4].

سِرُّ حذف المفعول وتنزيل الفعل المتعدّي منزلة الفعل الّلازم:

دلالة الحذف تلاشي عِلمهم بجانب علم رَبِّهم المحيط بكل شيء

نُزِّل الفعل المتعدّي منزلة الفعل الّلازم، بحذف مفعول ﴿تَعۡلَمُونَ﴾؛ للدّلالة - والله أعلم - على تلاشي عِلمهم بجانب علم

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/495.
(2) الرازي، مفاتيح الغيب: 6/457.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/495.
(4) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 2/372.

رَبِّهم سبحانه، وحِكمته، واستغراقهم في الجهل قبالة علمه تعالى المحيط بكل شيء؛ لذا ينبغي لهم المسارعة إلى الاستجابة لشرع اللّه تعالى؛ لأنّه لا يُشَرِّع لهم إلّا ما فيه صلاحهم وفلاحهم في الدّنيا والآخرة، فالحذف هنا فيه تحفيز للمخاطَبين، ولكلّ من يتأتّى له الخطاب، إلى المبادرة، إلى الإذعان لأوامر اللّه تعالى ونواهيه، دون انتظار لمعرفة الحِكمة من ذلك.

من متشابه النّظم القرآنيّ بين هذه الآية ونظائرها:

مناسبة الألفاظ لتغيّر المعاني في الآيات وفاق السياق

قال تعالى هنا: ﴿ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمۡ يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۗ﴾، وقال في سورة الطلاق: ﴿ذَٰلِكُمۡ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ﴾ [الطّلاق: 2] فابتدأ آية البقرة بـ﴿ذَٰلِكَ﴾ بالإفراد، وابتدأ آية الطّلاق بـ﴿ذَٰلِكُمۡ﴾ بالجمع.

والسرُّ في هذا أنّ آية سورة البقرة وردت في سياق فيه تشديد، على عدم ظُلْم الزّوجات أو الإضرار بهِنَّ، كما يدلّ عليه قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَأۡخُذُواْ مِمَّآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ شَيۡـًٔا إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِۖ﴾ [البقرة: 229]، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تُمۡسِكُوهُنَّ ضِرَارٗا لِّتَعۡتَدُواْۚ﴾ [البقرة: 231]، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوٗاۚ﴾ [البقرة: 231] وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغۡنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعۡضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحۡنَ أَزۡوَٰجَهُنَّ إِذَا تَرَٰضَوۡاْ بَيۡنَهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِۗ﴾ [البقرة: 232]، وقد استدعى هذا السّياق المُحتشد بجملة من الأوامر والنّواهي، التّعبير بأداة الإفراد ﴿ذَٰلِكَ﴾؛ للإشارة إلى قلّة المترفّعين المُتورِّعين عن الطّمع في أموال الزّوجات، والإضرار بهِنّ بأخذ صَداقِهِّن، أو مَنع الواحدة منهنَّ عن نِكاح مَن تَرْضاه، أمّا سيّاق آية الطّلاق، فأقلُّ توتُّرًا، وأخفُّ حِدَّة، وأهدأ نبرةً؛ لأنَّ الوارد في السّورة أيسر في التّكليف، وأَخَفُّ في المَطلب، وأَبعد عن الطّمع؛ لأنّها أحكامٌ مُتعلّقةٌ بالطّلاق، فالمستجيب لها أكثر؛ لبُعدها عن شُحِّ النّفس؛ لذا ناسب هذا السِّياق التّعبير بأداة الجمع ﴿ذَٰلِكُمۡ﴾ الّتي يُخاطَب بها الجميع ويشملهم، ولهذا

قيل في آية الطّلاق ﴿مَن كَانَ يُؤۡمِنُ﴾، ولم يردِ التّعبير بكلمة التّبعيض ﴿مَن كَانَ يُؤۡمِنُ﴾؛ لأنَّه لم يرد في آية سورة الطّلاق ما يشعر بالقليل والتّبعيض، بخلاف آية سورة البقرة الّذي ناسب فيها التّعبير بالتّبعيض ﴿مِنكُمۡ﴾، مع قلّة المستجيبين، وندرة الزّاهدين في أموال النّساء، والمعبّر عنه بأداة الإفراد ﴿ذَٰلِكَ﴾[1].

(1) ابن الزّبير، ملاك التّأويل: 1/126-127.

﴿۞وَٱلۡوَٰلِدَٰتُ يُرۡضِعۡنَ أَوۡلَٰدَهُنَّ حَوۡلَيۡنِ كَامِلَيۡنِۖ لِمَنۡ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَۚ وَعَلَى ٱلۡمَوۡلُودِ لَهُۥ رِزۡقُهُنَّ وَكِسۡوَتُهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ لَا تُكَلَّفُ نَفۡسٌ إِلَّا وُسۡعَهَاۚ لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةُۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوۡلُودٞ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦۚ وَعَلَى ٱلۡوَارِثِ مِثۡلُ ذَٰلِكَۗ فَإِنۡ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٖ مِّنۡهُمَا وَتَشَاوُرٖ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَاۗ وَإِنۡ أَرَدتُّمۡ أَن تَسۡتَرۡضِعُوٓاْ أَوۡلَٰدَكُمۡ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ إِذَا سَلَّمۡتُم مَّآ ءَاتَيۡتُم بِٱلۡمَعۡرُوفِۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ٢٣٣﴾ [البقرة: 233]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

انتقال من أحكام الطّلاق إلى أحكام الرّضاع وشروطه :

إتمام الرّضاعة من حقوق الطّفل على والديه

في هذه الآيةِ المُباركة، انتِقالٌ من أحكامِ الطَّلاقِ والبَيْنُونَةِ، كما ورد في السِّياق السَّابق؛ فَإِنَّهُ لَمّا نهى عنِ العَضْلِ، وكانَتْ بعضُ المُطَلَّقاتِ لهنَّ أولادٌ في الرَّضاعَةِ، ويَتعذَّرُ عليهِنَّ التَّزَوُّجُ، وهنَّ مُرضِعاتٌ؛ لأنَّ ذلك قد يَضُرُّ بالأولادِ، ويُقَلِّلُ رغبَةَ الأزواجِ فيهِنَّ، كانَتْ تلك الحالةُ مَثارَ خِلافٍ بينِ الآباءِ والأُمَّهاتِ، فلذلك ناسبَ التَّعَرُّضُ لوجهِ الفَصْلِ بينَهم في ذلك، فإنَّ أمرَ الإرضاعِ مُهِمٌّ، لأنَّ به حياةَ النَّسلِ، ولأنَّ تنظِيمَ أمرِهِ، من أهَمِّ شؤُونِ أحكامِ العائلةِ[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَٱلۡوَٰلِدَٰتُ﴾: الواو واللام والدال أصل صحيح، وهو دليل النَّجل والنَّسل، ثم يقاس عليه غيره. وتولد الشيء عن الشيء:

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/429.

حصل عنه[1]. ولدَتِ المرأةُ وِلادًا ووِلادة وأَوْلَدَتْ: حَانَ وِلادُها، والوالدةُ: الأُمّ، وكلُّ حاملٍ تَلدُ، ويُقال لأُمّ الرَّجلِ: هذه والِدَةٌ[2]، وحيث إنَّ المراد من ذكر الوالدات، أنّ الأمّ مشفقة على الولد، فكان الغرض من ذكر الأمّ تذكيرًا بالشّفقة.

2) ﴿حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ﴾: الحَوْل: السَّنَة، سُمِّيَت حَوْلًا لِتَحَوُّلها وانقلابها ودورانها، وأصل الحَوْل تَغَيُّر الشّيء وانفصاله عن غيره، وباعتبار التّغيّر قيل: حال يحول حَوْلًا واستحال: تَهَيَّأَ لأن يَحُوَل، والحَوْلُ في الأصل مصدر، ويُقال: حالتِ الدّار: تغيّرت، وأحالت: أي: مضى عليها حول، نحو: أعامت، أي: مضى عليها عام، وأشهرت، أي: مضى عليها شهر[3].

وقوله ﴿كَامِلَيْنِ﴾ يقال: كَمَلَ وكَمُلَ بفتح العين وضَمِّها، فهو كامِلٌ كَمالًا، والكمال حصول ما فيه الغرض منه، وأكملت الشّيء وكمّلته: جعلته كاملًا[4].

3) ﴿لَا تُكَلَّفُ﴾ يقال: كلّفته الأمر فَتَكَلَّف، وكَلِفَ، وأَصلُه من الكَلَف، وهو الأثر في الوجه من السَّوَاد، فمعنى تَكَلَّفَ الأمرَ، أي: اجتَهَدَ يُبَيِّنُ فيه أَثَرَه، وكَلَّفَه: أَلْزَمَه ما يَظهَرُ فيه أثره، والتّكليفُ: الإلزام[5]، قال الرَّاغب: وتكلُّف الشّيء ما يَفعلُهُ الإنسانُ، بإظهارِ كَلَفٍ مع مشَقَّةٍ تنالُهُ في تَعَاطيه، وصارتِ الكُلْفة في التّعارُف اسمًا للمَشَقَّة، والتَّكلُّفُ: اسمٌ لما يُفعلُ بمشقَّة أو تصنُّع أو تشبُّع[6].

4) ﴿وُسْعَهَا﴾: طاقتها، وقَدْر إمكانها. والوُسْع، أُخِذَ مِن سَعَةِ المسلَك إلى الغرضِ، ولو ضاق لعجز عنه، فالسَّعَةُ فيه بمنزلة القُدرَة، فلذلك قيل: الوُسْعُ بمعنى الطَّاقَة[7]، والوُسْعُ، بِتَثْلِيثِ الواو، الطّاقَةُ، وأصلُهُ مِن وسِعَ الإناءُ الشَّيءَ إذا حَواهُ، ولم يَبقَ منهُ شيءٌ، وهو ضدُّ ضاقَ عنهُ، والوُسْعُ هو ما يسعُهُ الشَّيءُ فهو بمعنى المفعُول، وأصلُهُ استعارَةٌ؛ لأنَّ الزَّمَخشريَّ في الأساسِ ذكرَ هذا المعنى في المَجازِ، فكأنَّهم شَبَّهُوا تَحمُّلَ النَّفسِ عملًا ذا مَشَقَّةٍ باتِّساعِ الظَّرفِ للمُحوي، لأنَّهم ما احتاجُوا إلى إفادةِ ذلك، إلّا عندما يَتَوَهَّمُ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ولد).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (ولد).
(3) السّمين، عُمدة الحفّاظ: 2/468.
(4) السّمين، عُمدة الحفّاظ: 4/430.
(5) الأزهري، تهذيب اللّغة: (كلف)، والرّاغب، المفردات: (كلف)، وابن منظور، لسان العرب: (كلف).
(6) الرَّاغِب، المفردات: (كلف).
(7) في (وسع): الأزهريّ، تهذيب اللّغة، والثعالبي، تفسير الثّعالبي، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، وأبو حيّان، البحر المحيط.

النّاظرُ أنَّهُ لا يسعُهُ، فمِن هنا استُعِيرَ للشّاقّ البالغ حَدَّ الطّاقَة[1]، وذكر الرَّاغب: أنّ السَّعَة تُقال في الأمكِنة وفي الحال، كقوله تعالى ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ﴾ [الطّلاق: 7]، والوُسْعُ من القُدرة، ما يَفضُلُ عن قَدرِ المُكَلَّف، قال تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: 286]، تنبيهًا أنَّ اللّه تعالى يُكلِّف عبدَه دُوَيْنَ ما ينُوءُ به قُدرَتُه، وقيل: يُكلّفُه ما يُثمِرُ له السَّعة، وهي الجنّة[2].

5) ﴿ٱلْوَارِثِ﴾: الوِرَاثَةُ والإِرْثُ: انتقال شيء إليك عن غيرك من غير عَقْد، ولا ما يَجري مَجرى العَقْد، وسمّي بذلك المُنتَقل عن الميِّت، فيقال لِلقِنْيَةِ المَوروثَة: مِيرَاثٌ وإِرثٌ. وتُراثٌ أصله وُرَاثٌ، فقُلبت الواو ألفًا وتاء، قال تعالى: ﴿وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ﴾ [الفجر: 19]، وقال رسول اللّه ﷺ: «كونوا على مشاعِركم فإنّكم على إرثٍ من إرثِ إبراهيمَ»[3]، أي: أصله وبقيّته[4]، والمراد هنا: وارثُ الطفل بعد وفاة أبيه.

6) ﴿فِصَالًا﴾: فِطامًا قبل الحَوْلَيْن، والفِصَالُ والفَصْلُ: الفِطَامُ، وأَصلُهُ التَّفريقُ، فهو تَفرِيقٌ بينَ الصَّبِيِّ والثَّدي، ومنهُ سُمِّيَ الفَصِيلُ؛ لأنَّهُ مَفصُولٌ عنْ أُمِّه[5]، "ويعني بالفِصال: الفِطام، وهو مصدر من قول القائل: (فاصلتُ فلانًا أفاصله مُفاصلة وفصالًا)، إذا فارقه من خُلْطة كانت بينهما، فكذلك (فصال الفطيم)، إنّما هو منعه اللّبن، وقطعه شربَه، وفراقه ثدي أمّه إلى الاغتذاء بالأقوات الّتي يغتذي بها البالغ من الرّجال"[6].

7) ﴿تَرَاضٍ﴾: رَضِيَ عنه، ورضي عليه يَرْضَى رِضاً ورِضْواناً، ومَرضاةً: ضِدُّ سَخِطَ، فهو راضٍ، وأرضاهُ: أعطاهُ ما يُرضيه، واستَرضاهُ وتَرَضَّاهُ: طَلَبَ رِضاهُ، ورَضِيتُهُ، وبه، فهو مَرْضُيٌّ ومَرْضِيٌّ، وارتَضاهُ لصُحبَتِه وخِدمَتِه. وتراضياهُ: وقَعَ به التَّراضِي، واستَرضاهُ: طلبَ إليه أن يُرضيَهُ في أمر من الأمور[7]، وأصل (تَرَاضٍ): (تراضِو) بالواو، لأنّه مصدر

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/432-433.
(2) الرّاغب، المفردات: (وسع).
(3) أخرجه أبو داود، حديث رقم: (1919)، والترمذي، حديث رقم: (883) واللفظ له، والنسائي، حديث رقم: (3014)، وابن ماجه، حديث رقم: (3011)، وأحمد، حديث رقم: (17233).
(4) الرّاغب، المفردات: (ورث).
(5) القرطبيّ: الجامع لأحكام القرآن: 3/155.
(6) ابن جرير: جامع البيان: 5/65.
(7) الفيروزابادي، القاموس المحيط: (رَضِيَ).

تراضى تفاعلَ، من رَضِي، ورَضِي من ذوات الواو، بدليل الرُّضوان، وإنّما تطرَّفت الواو بعد كسرة، فقُلبت ياء، فقلت: تراضيًا.

والمعنى: اتفاق الزوجين على فِطام المولودِ.

8) ﴿وَتَشَاوُرٍ﴾: التَّشَاوُر الاستخراج، وكذلك المَشوَرَة، وشُرتُ العسلَ: استخرجته، والشَّوَار: متاعُ البيت؛ لأنه يَظهَر للنّاظِر، والشَّارَة: هَيئَة الرَّجُل، والمعنى: أنّهما إن تشاورا في شأن الولد وتفحُّصٍ عن أحواله وتراضيا على الفِطام قبل الحَولين[1].

9) ﴿فَلَا جُنَاحَ﴾: "جَنَحَ: الجِيمُ والنُّونُ والحَاءُ أَصلٌ واحِدٌ، يدُلُّ على المَيلِ والعُدوانِ، ويُقال: جنحَ إلى كذا، أي مالَ إليهِ، وسُمِّيَ الجَناحانِ جَناحَينِ لمَيلِهما في الشِّقَّين، والجُنَاحُ: الإثمُ، سُمِّيَ بذلك لمَيلِه عنْ طريقِ الحَقِّ، وهذا هو الأصلُ ثُمَّ يُشتَقُّ منهُ، فيُقال للطَّائفة مِنَ اللَّيلِ: جُنْحٌ وجِنْحٌ، كأنَّهُ شُبِّهَ بالجناحِ، وهو طائفةٌ مِنْ جِسمِ الطَّائِرِ، والجَوانِحُ: الأَضلاعُ: لأنَّها مائِلَةٌ، وجُنِحَ البَعِيرُ إذا انكسرَتْ جَوانِحُهُ مِنْ حِمْلٍ ثقيلٍ، وجَنَحَتِ الإبِلُ في السَّيرِ: أَسرَعَتْ. فهذا مِنَ الجَناحِ، كأَنَّها أَعمَلَتِ الأَجنِحَةَ"[2]. وأصل هذا من جَناح الطّائر، قال تعالى: ﴿وَلَا طَٰٓئِرٖ يَطِيرُ بِجَنَاحَيۡهِ﴾ [الأنعام: 38]، وجَنَحَتُ الطّائر: أصبتُ جناحه، ثمّ عبّر عن جانبي الشّيء بجناحيه؛ فقيل: جناحا الإنسان ليديه، كما قيل لجناحي الطّائر يداه على الاستعارة فيهما، وجناحي السّفينة، وجناحي الوادي، وجناحي العسكر، وقوله: ﴿وَٱضۡمُمۡ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ﴾ [طه: 22] أي: ما بين إبطك وعَضُدك"[3].

والمعنى هنا: فلا إثْم ولا حَرَج إذا كان الولد قويًا، وليس لهما ذلك مع ضعفه.

المَعْنى الإجْماليُّ:

الأمر بإتمام الرّضاعة وتأديّة الحقوق المستحقّة للوالدة أو المرضعة:

النفقة من الوالد الحيّ ومن الوارث، ضمانٌ لحقوق الرّضيع وأمّه

وعلى الوالدات إرضاع أولادهنَّ مُدَّة سنتين كاملتين، لِمَن أراد إتمام الرّضاعة، ويجب على الآباء أن يكفُلوا للمُرضِعات المُطَلَّقات طعامهنَّ وكِسوتهنَّ على الوجه المستحسن شرعًا وعُرفًا؛ لأنّ الله لا

(1) ابن جرير: جامع البيان: 5/68، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 1/231.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (جنح).
(3) السَّمين، عُمدة الحُفَّاظ: 4/218.

يكلّف نفسًا إلّا قدر طاقتها، ولا يَحِلّ للوالدين أن يجعلوا المولود وسيلة للمُضارّة بينهما أو للمُكايدة، ويجب على الوارث عند موت الوالد، مثل ما يجب على الوالد قبل موته، من التَّكفل بِنَفَقة المُرْضِعة وكِسوَتها، فإنْ أراد الوالدان فِطام مولودهما، قبل انتهاء السّنتين، فلا حَرَجَ عليهما ولا إثم، إذا تراضيا وتشاورا في ذلك؛ لِيَصلا إلى ما فيه مصلحة المولود، وإن اتّفق الوالدان على إرضاع المولود مِن مُرْضعة أُخرى غير والدته، فلا حرج عليهما، إذا سلَّم الوالد للأمّ حقَّها، وسلَّم للمرضعة أَجْرها، بما يتعارفه الناس. وخافوا اللّه في جميع أحوالهم، وعلِموا أنَّ اللّه بما يعلمون بصيرٌ، وسيجازيهم على ذلك[1].

وترشد الآية الكريمة إلى الرَّضاعة الطبيعية من الأمهات مباشرة؛ لأنهنَّ الوعاء الذي خرج منه أولادَهنَّ إلى الحياة، ومنهن يكون الغذاء الطبيعي المناسب لهذا المولود الذي جاء عن طريقهن[2].

الإيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

بلاغة الوصل في مطلع الآية:

وجه الوصل اتّحاد السياق بوصف الحديث عن المُطَلَّقات في الآية السابقة

سبب وصل الآية الكريمة بما سبقها بالعطف؛ للدّلالة على اتّحاد السّياق، فقولُهُ: ﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ﴾، معناهُ: (والوالِداتُ مِنَ المطَلَّقاتِ اللّائي لَهُنَّ أولادٌ في سِنِّ الرَّضاعَةِ)، ودَليلُ التَّخصيصِ أنَّ الخِلافَ في مُدَّةِ الإرضاعِ، لا يقعُ بينَ الأبِ والأُمِّ إلّا بعدَ الفِراقِ، ولا يقعُ في حالةِ استمرار الحياة الزّوجيّة؛ إذ مِنَ العادةِ المعروفةِ عند العَرَبِ، ومُعظَمِ الأُمَمِ، أنَّ الأُمَّهاتَ يُرضِعْنَ أولادَهُنَّ في مُدَّةِ العِصمَةِ، وأنَّهُنَّ لا تَمتَنِعُ منهُ مَن تَمتَنِعُ إلّا لسببِ طلبِ التَّزَوُّجِ بزوجٍ جديدٍ بعدَ فِراقِ والِدِ الرَّضيعِ؛ فإنَّ المَرأةَ المُرضِعَ لا يرغَبُ الأزواجُ فيها؛ لأنَّها تَشتغِلُ برضيعِها عنْ زَوجها في أحوالٍ كثيرة[3].

(1) نخبة من العلماء، التفسير الميسَّر، ص: 37.
(2) طنطاوي، التفسير الوسيط: 1/521.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/429.

التّعريف بـ(أل) بين العموم والخصوص في قول الله تعالى: ﴿وَٱلۡوَٰلِدَٰتُ﴾:

الأرجح أن يكون المقصودُ بالوالدات الأُمَّهات المُطلَّقات، فتكون (أل) للعهد

و(أل) في قوله: ﴿وَٱلۡوَٰلِدَٰتُ﴾، إمَّا أن تكون للجِنْس[1]، فيشمل كُلَّ الأُمَّهات، وإمَّا أن تكون للعَهد[2]، إن كان المقصود الأُمَّهات المُطَلَّقات، وقد ذكر الفخر الرّازيّ في تفسيره ثلاثة أقوال للمقصود من قوله: ﴿وَٱلۡوَٰلِدَٰتُ﴾؛ إيجازها:

أنَّ المُرادَ جَميعُ الوالِداتِ، المُتزوّجاتِ والمُطَلَّقاتِ؛ لعموم اللَّفظَ وعدم التَّخصيص، فوجبَ تَركُه على عُمُومِه. أو المُرادُ منهُ: الوالِداتُ المُطَلَّقاتُ، لكون الآية ذُكِرت عقيبَ آيةِ الطَّلاق، فكانَتْ تَتِمَّةَ لها، وسببُ التعليق بينَ هذه الآيةِ وما قَبْلَها أنَّهُ إذا حصلَتِ الفُرقَةُ، حصلَ التَّباغُضُ والتّعادِي، وذلك يَحملُ المَرأةَ على إيذاءِ الوَلَدِ لكونه يَتَضَمَّنُ إيذاءَ الزَّوجِ المُطَلِّق، أو أنّها رُبَّما رغِبَتْ في التَّزَوُّجِ بزوجٍ آخَرَ، وذلك يقتضي إهمال أمرِ الطِّفلِ، فلمّا كانَ هذا الاحتِمالُ قائمًا لاجَرم نَدَبَ اللَّهُ الوالِدات المُطَلَّقات إلى رِعاية جانِبِ الأطفالِ والاهتِمام بشأنِهِمْ. أو أنّ المراد الزَّوجات، في حالِ بَقاءِ النِّكاحِ؛ لأنَّ المُطَلَّقَةَ لا تَستَحِقُّ الكِسوةَ، وإنَّما تَستَحِقُّ الأُجرَةَ وهو رأي الواحدي[3]. ولعلّ الأرجح أن يكون المقصودُ الأُمَّهات المُطَلَّقات فتكون (أل) للعهد، فهذا كلام عن المُطَلَّقات اللائي تركنَ بيوتهنَّ بدليل قوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلۡمَوۡلُودِ لَهُۥ رِزۡقُهُنَّ وَكِسۡوَتُهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾،

---

(1) (أل) الجنسيّة: إمَّا أن تشير إلى الحقيقة من حيث هي، بقطع النّظر عن عمومها وخصوصها، كقولنا: (الرّجل أقوى من المرأة)، وإمَّا أن تشير إلى الحقيقة ضمن هي فَرْد مُبْهم، إن قامت القرينة على ذلك، كقوله تعالى: ﴿وَأَخَافُ أَن يَأۡكُلَهُ ٱلذِّئۡبُ وَأَنتُمۡ عَنۡهُ غَٰفِلُونَ ١٣﴾ [يوسف: 13]، وإمّا تفيد الاستغراق الحقيقيّ، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱلۡعَصۡرِ ١ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ٢﴾ [العَصر: 1-2]، وإمّا تفيد الاستغراق العُرْفي، كقولنا: (خطب الواعظ في النّاس)، ويُنظر: السّيد أحمد الهاشميّ، جواهر البلاغة، ص: 116 - 117.

(2) (أل) العهديّة: تدخل على المُسند إليه، للإشارة إلى فرد معهود خارجًا بين المتعاطفين، وعهده يكون إمّا بتقدّم ذكره صريحًا، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ رَسُولٗا شَٰهِدًا عَلَيۡكُمۡ كَمَآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ رَسُولٗا ١٥ فَعَصَىٰ فِرۡعَوۡنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذۡنَٰهُ أَخۡذٗا وَبِيلٗا ١٦﴾ [المزمّل: 15- 16] ويسمّى عهدًا صريحًا، وإمّا أن يتقدّم ذكره تلويحًا، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَيۡسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلۡأُنثَىٰۖ﴾ [آل عمران: 36]، وإما بحضوره بذاته، ويسمّى عهدًا حضوريًا، كما في قوله تعالى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ﴾ [المائدة: 03]. يُنظر: السّيد أحمد الهاشميّ، جواهر البلاغة، ص: 116 وما بعده.

(3) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 7/124.

وهذا دليلٌ على أنَّ المرأة بعيدةٌ عن الرَّجُل؛ إذ لو كانت معه لكان الأمر برزق الوليد وكسوته، لا جَدْوى منه، وهنا أمرٌ من اللّه تعالى بحقِّ الوليد، وأُمّه لم تكن لتستحقّه لولا الرَّضاعُ، ولأنّ السّياق كلّه، في الطَّلاق وأحكام الطّلاق والمُطَلَّقات، ولأنّه مظنّة إهمال الولد عند الطّلاق والافتراق، ولأنّ إيجاب الرّزق مقابل الرّضاع بعد ذلك يُرَجِّح هذا الاختيار، وللنّهي عن المضارّة والإيذاء الّذي لا يُتوقّع صدوره إلّا عند الطّلاق.

الأمر بالإرضاع بين الوجوب، والندب:

تقرير أنّ الأمر بالإرضاع للنَّدْب؛ لأنَّ غِذاء الرَّضيع بِلَبَن أُمِّه، أَصلح له وأنفع، وشَفَقَتها به أتمُّ

الأمر هنا للنَّدْب، وليس للوجوب، بدليل قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾، فلو كان الأمر للوجوب، لما استحقّت عليه الأُجرَة، ويدُلُّ على النَّدْب أيضًا، قوله تعالى: ﴿وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُۥٓ أُخْرَىٰ ۝٦﴾ [الطّلاق: 6]، فهذا نصٌّ صريحٌ في عدم وجوب الرّضاعة على الأمّ المُطَلَّقة. ووَجْه النَّدْب أنَّ غِذاءَ الرَّضيع بِلَبَن أُمِّه أَصْلحُ له وأنفعُ من لَبَن غيرها، وأنَّ شَفَقَة الأُم أتمُّ مِن شفقة غيرها، وحُكم النَّدْب قد يتحوّل إلى الوُجوب، إذا كان الرَّضيع لا يَلْقم إلاَّ ثدي أُمِّه، أو إذا لم توجد مُرضعة غيرها، فيجب عليها حينئذٍ الإرضاع[1].

علّة إخراج الأمر مخرج الخبر:

التعبير بالخبر للمبالغة في الحثّ على الالتزام به وإظهاره على أنّه أمرٌ واقعٌ طبيعيٌّ ولا يُخالَف

أُخْرِج الأمرُ مخرج الخبر، في قوله تعالى: ﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ﴾؛ للمبالغة في الحثّ على الالتزام به، وكأنّ الأمر بالإرضاع حولَين كاملين، لمن تريد إتمام مدّة الرّضاعة، قد أُجيب فعلًا، وحصل الإرضاع، فالتّعبير بصيغة الخبر، إشارة إلى الأمر والتّنفيذ معًا[2]. وأضاف الشّيخ الشّعراوي في تفسيره لتلك الآية الكريمة: ﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ﴾، فقال:

(1) زاده، حاشية زاده على البَيضاوي: 1/541.

(2) الرّويني: من غريب بلاغة القرآن الكريم في سورتي الفاتحة والبقرة، ص: 584.

"نلحظ فيه أنّه لم يأت بصيغة الأمر، فلم يقُل: يا والدات أرضِعْنَ؛ لأنَّ الأمرَ عُرضَةٌ لأنْ يُطاع وأن يُعصى، لكنَّ اللّه أَظهر المسألة في أسلوب خبريّ على أنّها أمرٌ واقعٌ طبيعيٌّ، ولا يُخالَف"[1].

العدول عن الإخبار بالمفرد إلى الإخبار بالجملة الفعليّة:

وقَوله: ﴿يُرۡضِعۡنَ﴾ دلالَةٌ على أنَّ الأُمَّ أحَقُّ برضاعِ الولدِ، وعُدِل عن التّعبير بالخبر المفرد (مُرضِعات)، إلى الخبر الفعليّ المضارعيّ؛ للإشعار بأنَّ الإرضاع يجب أن يكون مُستمرًا، غير مُنقطع، حفاظًا على حقِّ الرّضيع في التَّغذية بالرِّضاعة الّتي لا سبيل له بغيرها.

في الإخبار بالجملة الفعليّة إشعارٌ بأنَّ الإرضاع يجب أن يكون مُستمرًا، غير مُنقطع

سِرُّ التّصريح بالمفعول: ﴿أَوۡلَٰدَهُنَّ﴾:

صُرِّح بالمفعول به مع كونه معلومًا في قوله تعالى: ﴿وَٱلۡوَٰلِدَٰتُ يُرۡضِعۡنَ أَوۡلَٰدَهُنَّ﴾؛ للإشارة إلى أحقيِّة الوالدات في إرضاع أولادهنّ، وتذكيرًا لهنَّ، وترغيبًا في الإرضاع، وإثارة لكوامن مشاعر الأمومة، وما تحمله من معاني الحنان، والعطف، والشفقة، والرّحمة[2].

السّياق القرآنيّ يراعي مقتضيات العاطفة والوجدان، والترغيب في الحكم المتوخّى

توجيه التعبير عن الكثرة بجمع القلّة:

ذكر البسيلي أنّ (الوالدات) في قوله تعالى: ﴿وَٱلۡوَٰلِدَٰتُ يُرۡضِعۡنَ أَوۡلَٰدَهُنَّ حَوۡلَيۡنِ كَامِلَيۡنِۖ﴾ جمع سلامة الإناث محلى بالألف واللام فيفيد العموم، والكثرة، و(أولاد) جمع قلة وإذا كان (الوالدات) كثيرات فأولادهن كذلك، فهو من جمع القلة الموضوعِ موضعَ جمع الكثرة[3]، فاكتسب حكمه بالإتباع، ويحتمل التعبير بالقلة الإشارة إلى قلة مثل هذه الحالات.

اكتسبَ جمعُ القلّة التكثيرَ من كثرة الوالدات المرضعات

سرّ التّعبير بالحَوْل دون السّنة:

التّعبير بالحَوْل يتناسب مع تحوّل الرَّضيع، وتَدَرُّجه في مراحل

(1) الشّعراوي، خواطر الشّعراويّ: 3/1005.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/430.
(3) البسيلي، التقييد الكبير: ص: 316.

مراعاة قوانين النّموّ، واعتبار عمليّة التّحوّل عند الرّضيع

النّمو بعد الفِطام، وأوثر التّعبير بالحَوْل على السَّنَة، في قوله تعالى: ﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ﴾؛ لأنّ المادّة تدور حول التّقلب والتّغير، وهذا يتناسب مع تَحَوُّل الرَّضيع بعد انتهاء المُدّة القُصوى للرِّضاع، فهو يبدأ معتمدًا في غذائه مطلقًا على ثدي أمّه، ثمّ يضاف إليه شيء آخر معه، بعد مرور أشهر، حتّى إذا بلغ الحولَيْنِ، استحالَت أحواله، وتغيّرَت أطواره، واستغنى تمامًا عن الرّضاعة.

الاحتراس بِذِكر الوَصف ﴿كَامِلَيْنِ﴾:

التأكيد بصفة الكمال لبيان أنّ مدّة الرَّضاعَةِ تحقيقي لا تقديري

ذُكِر الوَصف ﴿كَامِلَيْنِ﴾، للاحتراس من أنْ يُفهَم أنَّ تقدير مُدَّة الرَّضاعة، لمن تريد إكمالها تقديريّة، وليست نَصِيَّة أو تحقيقيّة[1]، ووجه التقدير أن يكون المراد حَوْلًا وبعض الثاني؛ لأن إطلاق التثنية والجمع في الأزمان والأعمار إطلاق شائع عند العرب، فيقولون: هو ابن سنتين ويريدون سنة وبعض الثانية[2]. فنُبِّهَ بالوصف للتّأكيد أنَّ تلك المدَّة غاية ما يتعلّق بها إصلاح الوَلَد.

الاحتراس بالجملة دَلالَةٌ على جَوازِ نقْصِ المدّة للمصلحة

لَمّا عُبِّر بصيغة الأمر الّتي توحي بوجوب استيفاء مدّة الرَّضاع حَوْلين كاملين، قصدَ الى نفيه بقولِه: ﴿لِمَنْ﴾، لدفع توهّم حمل المدّة على الوجوب، أي: هذا الحُكمُ لِمَن ﴿أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ﴾، فأفهَمَ أنَّهُ يَجوزُ الفِطامُ للمَصلَحةِ قبلَ ذلك، وأنَّهُ لا رِضاعَ بعد التَّمام، وقوله: ﴿لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ﴾ بَيانٌ لمن يتوَجَّهُ إليهِ الحُكمُ؛ أي: ذلك لمن أرادَ إتْمامَ الرَّضاعَةِحَوْلين كامِلَين؛ وفيه دلالَةٌ على جَواز النَّقْص، وهذا وَجه اتِّصال هذه الجملة بما قبلها[3].

ليس التّحديدُ بالحَوْلَين تحديدَ وجوبٍ؛ بدليل قوله تعالى بعد

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/230.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/431.
(3) الزَّمخشريّ، الكَشَّاف: 1/455، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/230.

هذا: ﴿فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا﴾، ولكنّه تحديدٌ لقطع التّنازع بين الزّوجين، إذا تنازعا في مدّة الرّضاع، فجُعِل الحولان ميقاتًا لهما، يرجعان إليه عند الاختلاف، فإن أراد الأَبُ أن يَفطِمَه قبل الحَوْلَين، ولم ترضَ الأمّ، لم يكنْ له ذلك، وكذلك لو كان على عكس هذا، فإن اجتمعا قبل الحَوْلين فَطِماه[1].

الـتَّرخّـص بـمدّة الـفـطـام لقطع الـــنّـــزاع بـين الـزّوجـين، وهـو مَـنـهـجُ الـقـرآن لـجـبر خـاطـرِ الزّوجين، وحفظِ حقوق الرّضيع

فائدة تحديد ميقات الرَّضاعة بالحولين:

دَلَّ قوله تعالى: ﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ﴾، على عناية الإسلام بالطّفل وهو في المهد، من حيث إرضاعه، وتغذيّته من خلالها؛ لأنّ لبن الأمّ هو الغذاء الأكمل للرّضيع؛ فأوجب الشَّرْع على أُمِّه إرضاعه إلى الحَدِّ الّذي يَحْفظ عليه سلامة جسمه، فضلا عن أنّ تعرُّض الطِّفْل لِتَغيّر المراضع وتعدّدها يُعَرِّضه للعِلل والأمراض الوراثيّة بَلْهَ النّفسيّة؛ لذا أوجب الإسلامُ على الأُمَّهات إرضاع أولادهنّ؛ لما في هذا من فوائد صحيّة ونفسيّة للرضيع، وهذا يدلّ على عناية الإسلام بغذاء الطّفل من بداية ولادته، وحرصه على نقاء دمه، وسلامة جسده.

تطابق مضمون الآيـة مع تأكيد الـكـشـوفـات الـعـلـمـيّـة على أهـمـيّـة حليب الأمّ في الحولين إظـهـارٌ لـعِـنـايَـة الإسلام بالطِّفل وهو في المَهد

وجه الفصل في جملة التّكلف عما قبلها:

جاءت جملة ﴿لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا﴾، مفصولة عمَّا قبلها؛ للإشارة إلى أهميتّها، وهذه الجملة إمّا أن تكون تعليليّة لوجوب نفقة المُرْضِع بالمعروف، وإمّا تفسيريّة للمعروف[2].

الـفـصـل عـن سـابـق سياقـها لـلإشـارة إلى أهمِّيَتِها

بيان معنى العموم في بِناء فعل التّكليف للمفعول، وتنكير النفس، وحذفُ المستَثنى:

بُني الفعلُ ﴿تُكَلَّفُ﴾ للمجهول؛ لإفادة عموم الفاعِلين، فيفيدُ حذفُهُ عُموم الفاعِلينَ. وأفادَ وُقوعُ ﴿نَفْسٌ﴾، وهي نَكرةٌ في سِيّاقِ

(1) الواحِديّ، التّفسير البسيط: 4/245.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/230.

في الآية بشارة للأُمَّة الإسلاميّة بعدم وقوع تكليف شرعيّ إلّا بما يُطاق

النَّفيِ عُمومَ المَفعُولِ الأوَّلِ للفعل ﴿تُكَلَّفُ﴾، وهو الأنْفسُ المكَلَّفةُ. وأفاد حذفُ المستَثنى في قولِهِ إلّا وُسْعَها، عُمومَ المَفعُول الثّاني للفعل ﴿تُكَلَّفُ﴾: وهو الأحكامُ المكَلَّفُ بها، أي: لا يُكلِّفُ أحدٌ نَفسًا إلّا وُسْعها. وفي ذلك كلّه تشريعٌ منَ اللّهِ للأُمَّةِ بأنْ ليس لأحدٍ أنْ يُكَلِّفَ أحدًا إلّا بما يستَطِيعُه، وذلك أيضاً وعدٌ منَ اللّه، بأنَّه لا يُكلِّفُ في التَّشريعِ الإسلامِيِّ إلّا بما يُستَطاع في العامَّةِ والخاصَّةِ، فقد قال في آياتِ خِتامِ هذه السُّورَةِ: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: 286][1]، والجملة مَنهَجُ حياةٍ للمسلم، وبيانٌ لوسطيّة الإسلام واعتداله.

بلاغة الاستعارة في لفظ الوسع:

وجه الاستعارة تشبيه تحمّل النفس عملًا ذا مشقة باتساع الظرف للمحوي

ذكر الزمخشري أن من المجاز أنْ يكون معنى الوسع: هو ما يسعه الشيء[2]، فهو استعارة وجهها تشبيه تحمّل النفس عملًا ذا مشقة باتساع الظرف للمحوي؛ لأنهم ما احتاجوا لإفادة ذلك إلا عندما يتوهم الناظر أنه لا يسعه، فمن هنا استعير للشاقّ البالغ حد الطاقة[3].

وجه العدول عن لفظ الطاقة إلى الوسع:

التعبير بالوسع لجعل مناط التكليف ما تسعه قدرة المكلّف

أُوثِرَ لفظ ﴿وُسْعَهَا﴾ دون لفظ (طاقتها) في قوله تعالى: ﴿لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا﴾؛ لأن الطاقة هي أقصى قدرة المكلف بحيث لَا يستطيع الأمر إلا بمشقة وجهد، أما الوسع فهو قدرة المكلف على الأمر مع بقاء فضل من جهده، بحيث لَا يستغرق العمل أقصى قدرته. فوضَّحَ هذا المعنى في إيجاز بليغ فجعل مناط التكليف ما تسعه قدرة المكلف، تنبيها إلى أنه لَا يكلف دون ما تنوء به قدرته[4].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/433.
(2) الزمخشري، أساس البلاغة: (وسع).
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/433.
(4) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 2/808.

بيان الفصل بالجملة الاعتراضيّة:

وجه الفصل بالاعتراض التنبيه على استقلال الجملة، وكونها تشريعًا مستقلًّا

جُمْلَةُ ﴿لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةُۢ بِوَلَدِهَا﴾ جملةٌ مُعترِضةٌ، وفُصلتْ، ولم تُعطَفْ على الَّتي قبلَها؛ تَنبيهًا على استقلالها، وأنّها جديرة بأن تكون مَقصُودةً لِذاتِها؛ لأنَّها تَشريعٌ مُستَقِلٌّ، كما جاءت تفصيلًا لما قبلَها؛ وتَقريرًا له.

وجه الفصل بالاعتراض إيقاظ عاطفة الأبوة والأمومة لدى المُرضِع له والمرضعة

معنى الجملة: لا تُضارَّ والدةٌ فتأبى أن ترضعَ ولدها، لتشقّ على أبيه، ولا مولود له، أي: ولا يضارَّ الأبُ أمَّ الصّبيّ، فيمنعها من إرضاعه وينزعه منها، والضِّرار يرجع إلى الوالدين، يُضارّ كلُّ واحدٍ منهما صاحبه بسبب الولد. ويجوز أن يكون الضِّرار راجعًا إلى الصَّبِيَّ، أي: لا يُضارَّ كلُّ واحد منهما الصَّبِيَّ، فلا تُرضِعُه أُمُّه حتّى يموت، ولا يمتنع والده عن النَّفَقَة على مُرضِعته، أو ينتزعه من أُمِّه، حتّى يَضُرَّ بالصَّبِيِّ[1].

علّة تقديم مُضارّة الوالدة:

في التقديم مراعاةٌ للتّرتيب، ولأنّ حنو الأم أشدّ، ومظنّة إنزال الأذى بها أقرب

قُدِّمَ ذِكرُ عدم مُضارّة الوالدة، على مُضارّة الوالد؛ مراعاةً للتّرتيب الوارد في الجملتين؛ إذ بَدَأَ بِحُكم الوالدة، وأردف بِحُكم الوالد. "وقُدِّمتِ الأمُّ؛ لأنّ حنوَّها أشد، ولأن مظنّة إنزال الأذى بها أقرب"[2].

بلاغة التعبير عن المضارّة بصيغة المفاعلة، ووجه القراءتين فيها:

معنى المفاعلة في (لَا تُضَآرَّ) منع لمبادلة الضُّرّ بين الزوجين

قرأ ابن كثير، والبصريان أبو عَمرٍو، ويَعقوبُ ﴿لَا تُضَآرُّ﴾ برفع الراء على معنى نفي الضرر، ونفي الضرر يقتضي النهي عنه؛، وقرأ الباقون بفتحها. واختلف عن أبي جعفر في سكونها مخففة ﴿لَا تُضَآرْ﴾، وعند الوصل خفف السكون بالفتح على أصل التخلص من التقاء الساكنين، وإن لم يكن هنا ساكنان؛ ولذا قرئ بالسكون،

(1) الواحديّ، التّفسير البسيط: 4/251.
(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 2/810.

وقراءة السكون تدلّ على النهي الصريح، ولأن كلمة ﴿لَا تُضَآرَّ﴾ من مادة المفاعلة من الضرر تصلح أن تكون مبنية للمفعول؛ والمعنى في الفرضين واحد، وهو أنه لَا يجوز أن يَضُرَّ كل واحد منهما صاحبه، أو يُضَرَّ مِن صاحبه بسبب عطفه على ولده وحنوه عليه[1].

دلالة إضافة الولدِ إلى الوالِدَين:

وجه الإضافة إثارة غريزة المحبّة، والحثّ على الاتفاق على استصلاح الأولاد

إضافَةُ الولدِ إلى ضمير الوالدَين، في قوله ﴿بِوَلَدِهَا﴾، وقوله ﴿بِوَلَدِهِۦ﴾؛ لإثارة غريزة محبّة ولدهما الفطريّة في قلبيهما، ولاستِعطافِهما إليه؛ وللتَّنبيهِ على أنَّه حقيقٌ بأنْ يَتَّفِقا على استِصلاحِهِ، ولا ينبغِي لهما أنْ يتضارّا بسببه، أويكونا سببًا في ضرره وإيذائه[2].

ففي التعبير إشارة إلى منزلة الولد من قلب كل منهما، وأنه قطعة من قلوبهما، ولإشعارهما بأن الإيذاء باسم الحنو قد يؤدي إلى نقص العطف على الولد، ولكي يعرف كل منهما أن الولد ولدهما معًا ومزيج من جسمهما معًا، فلا يصح أن يتخذ سبيلا للكيد والإعنات والإرهاق[3].

نكتة التّعبير بالمولود له دون الوالد، والأبّ:

التّعبير بالمولود له إشعارٌ بالمنحَةِ وشبهِ التَّمليكِ

ذكر أبو حيّان أنّ لفظ ﴿ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ﴾ لمّا كان "مُشعِرًا بالمنحَةِ وشبهِ التَّمليكِ، أتى به دُونَ لفظِ (الوالدِ)، ولفظِ (الأبِ)، وحيثُ لم يَرِدْ هذا المعنى أتى بلفظِ (الوالِدِ) ولفظِ (الأبِ)، كما قال تعالى: ﴿لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ﴾ [لقمان: 33]، وقالَ: ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِىٓ ءَابَآئِهِنَّ﴾ [الأحزاب: 55]"[4].

(1) ابن الجزري، النّشر: 2/227، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 2/810.
(2) البيضاوي، أنوار التّنزيل: 1/134.
(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 2/810.
(4) أبو حيَّان، البحر المحيط: 2/215.

سِرُّ التّعبير عن الوالد بالمولود له:

الوالد حقيقٌ بتحمُّل مؤونة المرضعة؛ لأنَّ منافعَ الولد تعود إليه، وإليه يُنْسَب

عُبِّر عن الوالد بـ(المولود له) في قوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾؛ للإشارة إلى أنّ الوالدَ حَقيق بأنْ يتحمل مؤونة المُرضعة من رزقٍ وكسوةٍ؛ لأنَّ منافعَ الولد تعود إليه، وإليه يُنْسَب؛ لذا فالأب هو الأجدَرُ بإعانته وإعاشته[1]، قال أبو حيّان: "إنَّهُ لمّا كُلِّفَ بِمُؤَنِ المُرضِعةِ لولدِهِ منَ الرِّزقِ والكسوَةِ؛ ناسَبَ أنْ يُسَلّى، بأنَّ ذلك الولدَ، هو ولدٌ لك لا لأُمِّه، وأنَّكَ الّذي تَنتفعُ به في التَّناصُرِ وتَكثيرِ العشيرَةِ، وأنَّ لك عليه الطَّواعِيَةَ، كما كان عليك لأجلِهِ كُلْفةُ الرِّزقِ، والكِسوَةِ لِمُرضِعَتِه"[2]. ويُلحظ أنّ التّعبير الأوّل أَوجبَ على الأمَّهات الإرضاع، والتّعبير هنا أَوجبَ على الآباء النّفقة على مَنْ أوقفَت نفسها لخدمة مَنْ تنجبه، ومن خَصَّصتها الفطرةُ لرعايته، وتغذيته بلبنها الّذي هو دَرٌّ من دمها.

براعة تقييد المُقَيَّد في الآية الكريمة:

لا تكلفة في النَّفَقَةِ والكِسوة الواجِبَتينِ إلّا بما يَدخُلُ تَحتَ وُسْعِ المولود له وطاقَتِهِ

أوجب اللّه تعالى على الآباء النَّفَقة على الأمَّهات المُطَلَّقات اللّاتي يرضعْنَ أولادَهُنَّ، وذلك في قوله: ﴿وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾، أي: على قَدْر وسع الوالد، ممّا يتعارف عليه النّاس، فَقُيِّدَتْ تلك النّفقة بالجارّ والمجرور ﴿بِٱلْمَعْرُوفِ﴾، "والمُرادُ بالرِّزقِ هُنا الطَّعامُ الكافي، المُتعارَفُ عليه بينَ النّاسِ، والمُرادُ بالكِسوة: ما يَتعارَفُونَ به أيضًا، وفي ذلك دَليلٌ على وُجُوبِ ذلك على الآباءِ للأُمَّهاتِ المُرضِعاتِ، وهذا في المُطَلَّقاتِ، وأمّا غَيرُ المُطَلَّقاتِ، فَنَفَقَتُهُنَّ وكُسوَتُهُنَّ واجِبَةٌ على الأزواجِ، مِن غيرِ إرضاعِهِنَّ لأولادِهِنَّ، وقولُهُ: ﴿لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا﴾ هو تَقييدٌ لقولِهِ: ﴿بِٱلْمَعْرُوفِ﴾، أي: هذه النَّفَقَةُ والكِسوة الواجِبَتانِ على الأبِ،

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 1/230.
(2) أبو حيَّان الأندلسي، البحر المحيط: 2/215.

بما يَتعارفُهُ النّاسُ لا يُكَلَّفُ منها إلّا ما يَدخُلُ تحت وُسْعِهِ وطاقَتِهِ، لا ما يَشُقُّ عليه ويَعجِزُ عنه"[1].

دلالة العطف بجملة الوارث:

وجه العطف أنّ على وارث الوالد الميّت، التَّكَفُّل بِنَفقة الرّضاع بعده

جملة ﴿وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ﴾ عطفٌ على قوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾، وما بينهما تعليل، وتفسير مُعترضٌ للمعروف، والمرادُ به وارثُ الصبيِّ ممن كان ذا رحِم محرَمٍ منه، أو عَصَباتُه، أي: إنْ مات المولود له، لزم مَنْ يَرِثُه أَنْ يقوم مقامه في أن يرزقها ويكسوها وكسوته بالشَّريطة الّتي ذُكرَتْ مِنَ المعروف وتَجنُّب الضِّرار[2].

تقديم الخبر على المبتدأ:

قُدِّم الخبر شبه الجملة ﴿وَعَلَى ٱلْوَارِثِ﴾ على المبتدأ ﴿مِثْلُ﴾؛ للاهتمام به، والعناية بمهمَّتهِ بوصفه محلَّ تأصيل حُكم شَرعِيٍّ.

قُدِّم الخبر؛ لكونه مَحَلَّ تأصيلِ حُكم شَرعِيٍّ

تفسير متعلّق ﴿ٱلْوَارِثِ﴾:

وجه التعبير بـ(مثل): أنّ تكليف الوارث مماثلٌ لما أوجب على الوالد

عبّر عن ضرورة مماثلة تكليف الوارث لما أُوجِبَ على الوالد من نفقة بقوله: ﴿مِثْلُ ذَٰلِكَ﴾ فلفظ ﴿مِثْلُ﴾ هو أعمّ الألفاظ الموضوعة للمشابهة، والمراد به التّساوي في الجنس أو القيمة باعتبار جهة المماثلة[3]؛ لأن الغُنم بالغُرم، فما دام يرثه عند الوفاة إن كان له مال، فإنه ينفق عليه إذا كان محتاجًا عاجزًا، مع الإقرار بأنَّ الوجوب على الوارث هو وجوب بدليٌّ، أو عارض، أي: أنّ الوارث قام فيه مقام الأب، والوجوب الأصلي على الأب[4].

وجه التعبير باسم الإشارة اكتنازُ العبارة، وتجنيبُ السّياق التّكرار

وفي لفظ ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارةٌ إلى ما وجب على الأب من الرزق

(1) الشّوكاني، فتح القدير: 1/244.
(2) الزَّمخشريّ، الكَشَّاف: 1/457.
(3) الراغب، المفردات: (مَثَلَ)، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/161.
(4) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 2/810.

والكسوةِ[1]. فعُبّر باسم الإشارة؛ إيجازًا، واكتنازًا للمعنى، واختصارًا للعبارة، وتجنّبًا لطول الجملة وترهُّلها، وتلافيًّا لتَكرار الكلام.

قصديّة التعبير بلفظ ﴿ٱلۡوَارِثِ﴾ دون لفظ (القريب):

إيثار كلمة (وارث) للإشارة إلى أنَّ الوراثة هي السّبب في تكّفل مؤونة إرضاع المولود من رِزق وكُسوَة

أوثر التّعبير بكلمة (وارث) دون كلمة (قريب) في قوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلۡوَارِثِ مِثۡلُ ذَٰلِكَ﴾؛ للإشارة إلى أنَّ الوراثة هي السّبب في تكّفل مؤونة إرضاع المولود من رِزق وكُسوَة، لا مجرّد القرابة؛ وعلى ذلك يكون الوجوب تابعًا لمقدار المِيراث، ولدرجة التّوريث، وأنّ الميراثَ هو السّببُ في الوجوب، فيكون الوجوب مُشتقًّا من درجته ومقداره وقوته[2].

في تكليف الوارث بالنّفقة إشارةٌ إلى تنظيم للعلاقات المالية بين الأسرة

وفى هذا الكلام الحكيم تنظيم للعلاقات المالية بين الأسرة أو إشارة إليه؛ فإنه يوضح أن الحقوق المالية في الأسرة متقابلة، فمن كان له حق الميراث عليه واجب الإنفاق؛ وكأن مال الأسرة شركة بين آحادها يتوارثون المال فيما بينهم؛ ويتعاونون في الإنفاق فيما بينهم؛ فالقادر ينفق على العاجز، والغني يمد الفقير بحاجته في موضع الحاجة.

بيان رخصة الفِصال بين التراضي، والتشاور:

التّراضي أساسٌ في تقديم الفطام، أو التزام الحَوْلين بالتّمام

أفادَ بقولِه: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَا﴾، أنَّ ذلك مُباحٌ، وأنَّ حَقَّ إرضاعِ الحَوْلَينِ مُراعًى فيه حَقُّ الأبَوَينِ، وحَقُّ الرَّضيعِ، ولَمّا كان ذلك يختَلفُ باختلافِ أمزِجَةِ الرُّضعاءِ، جعل اختلافَ الأبَوَينِ دليلًا على تَوَقُّعِ حاجةِ الطِّفلِ، إلى زيادةِ زمن الرَّضاعة، فإذا تَشاورَ الأبَوانِ وتَراضَيا، تراضيًا حُرًّا صريحًا تامًّا دون شُبهَة إكراه، بحسب ما يُنْبِئُ عنه التّعبير بالجارّ والمجرور ﴿عَن تَرَاضٍ﴾، فإنِ ارتأيا بعدَ ذلك فِطام رضيعهما، قبل انتهاء الحَوْلَينِ، كانَ تَراضِيهُما دليلًا

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/231.
(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 2/810.

على أنَّهُما رَأيا مِن حالِ الرَّضيعِ، ما يُغنيهِ عن إتمام مدّة الرّضاعة كاملة؛ إذ لا يُظَنُّ بهما التَّواطؤ على ضُرِّ الولدِ، ولا يُظَنُّ إخفاءُ المصلحَةِ عليهما، بعد تَشاوُرِهما، إذ لا يَخفى عليهما حالُ ولدِهما.

بعد أنْ نُبِّهَ بقوله: ﴿عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا﴾ على أنَّهُ لا يَجوزُ الفِطام إلّا مع المَصلحَةِ، بَيَّنَ خُطورة الأمر، واحتِياجه إلى تقليب الرَّأي بقولِهِ: ﴿وَتَشَاوُرٍ﴾، أي: تَبادُل الرَّأي بينَ والدَي الرّضيع في ذلك، ليُستَخرَجَ الرَّأيُ النَّاضِجُ الّذي فيه مصلحة رَضيعهما، والّذي يَنبغِي أنْ يُعمَلَ به، ولا يَستأثر به أحدهما، بل يشتركان في المشورة، كما تدُلُّ عليه صيغة (تَفاعُل).

التّشاورُ دفعٌ للاستئثار، واستخراجٌ للرَّأي النَّاضِجُ الّذي فيه مصلحة رَضيعهما

وجه التعبير بالفصال دون الفطام:

وقيل: ﴿فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا﴾، ولم يقُل: فِطامًا؛ لأنّه أعَمُّ مِنَ الفَطْمِ[1]. فـ"المراد بالفصال الرضاع التام المنتهي بالفطام ولذلك عبر بالفصال عنه أو عن وقته دون الرضاع المطلق فإنه لا يفيد ذلك"[2].

الفصال أعمّ، فهو الرضاع التام المنتهي بالفطام

توظيف أداة الشّرط الّتي تدُلُّ على الشَّكّ:

أوحى استخدام أداة الشّرط (إنْ) الّتي تدُلُّ على الشَّكّ، في وقوع الشّرط، في قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا﴾، بالإلماح إلى استِحباب إتمام مُدَّة الرّضاعة كاملةً وهي: حولَان؛ بدلالة التّنكير في قوله: ﴿فِصَالًا﴾ إشارةً إلى أنّه فِصالٌ غير مُعتاد، إنْ لم يَستوفِ مُدَّتَه كاملةً.

استحباب إتمام مدّة الرّضاعة كاملة، وهو الأنفع والأسلم

الفروق الدّلالِيَّة بينَ قوله: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾، وقوله: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ﴾:

يأتي التّعبير بـ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ في سِيّاق الحديث عن

(1) البقاعيّ، نظم الدرر: 3/337.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 13/175.

العبادات وتنظيم الأسرة وشؤونها، والحقوق والواجبات الزّوجيّة والأمور المهمّة[1]؛ لذا اختصّ بالصّيغة الأقوى دلالة.

اختصّت (لا) بالصيغة الأقوى دلالةً، واختصّت (ليس) بالأقلّ توكيدًا

أمّا قوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ﴾، فقد ورد في مَواضع شتّى من القرآن الكريم - بحسب ما هو موضّحٌ في الهامش[2] - في سياقات الحديث عن الآداب والأمور المعيشيّة اليوميّة، كالبيع والشّراء والتّجارة وغيرها، ممّا هو دون العبادات في الأهميّة؛ لذا كان من المناسب لها استعمال التّعبير الأقل توكيدًا، وهو قوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ﴾.

الغرض من الالتفات[3] في قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا﴾، ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوٓاْ﴾:

الالتفات لِحَثِّ الآباء على الامتثال بما أُمِروا به من تشاور من أجل مصلحة أولادهما

في قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا ۗ وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّآ ءَاتَيْتُم بِٱلْمَعْرُوفِ﴾، التفاتٌ من الغَيْبة إلى الخطاب، ومن المثنّى إلى الجمع؛ لِحَثِّ الآباء على الامتثال بما أُمِروا به من التّشاور والتّفاهم، من أجل مصلحة أولادهما، وخصوصًا الرُّضَّع منهم، فطلاق الرّجل لزوجته، لا يعني أنّ ما كان بينهما قد انتهى،

---

(1) أحمد محمد أبو عوض https: //www، manhal، net/art/s/22334.

(2) ورد قوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ﴾ في القرآن الكريم في المَواضع الآتية: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُواْ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ۚ فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَٰتٍ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ ۖ وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿١٩٨﴾﴾ [البقرة: 198]، وفي قوله تعالى: ﴿إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا ۗ﴾ [البقرة: 282]، وقوله: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُواْ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ ۚ﴾ [النّساء: 101]، وقوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓاْ إِذَا مَا ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّأَحْسَنُواْ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [المائدة: 93]، وقوله: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُواْ بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَٰعٌ لَّكُمْ ۚ﴾ [النّور: 29]، وقوله: ﴿فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتٍۭ بِزِينَةٍ ۖ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.. [النّور: 60]، وقوله: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ ۗ﴾ [النّور: 61]، وقوله"﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ﴾ [الأحزاب: 05].

(3) الالتفات هو: انتقال الكلام - أسلوب التّكلّم والخطاب والغيبة - إلى أسلوب آخر غير ما يترقّبه المخاطب، وهذا التّعريف هو مذهب جمهور البلاغيين، أو هو الانتقال بالأسلوب من صيغة المتكلّم أو الخِطاب أو الغيبة إلى صيغة أخرى من هذه الصّيغ، بشرط أن يعود الضَّمير الثّاني على نفس الّذي يعود عليه الضّمير الأوّل. يُنظر: الرّويني، المعجم الوافي، ص: 30-29، ويسمّى بشجاعة العربيّة، وعَلَّل ابن الأثير هذه التّسميّة بقوله: "لأنّ الشّجاعة هي الإقدام، والرَّجُل الشُّجاع يَركَب ما لا يستطيع غيره، ويتورَّد ما لا يتورّده سواه، وكذلك هذا الالتفات في الكلام، فإنّ اللّغة العربيّة تختصّ به دون غيرها من اللّغات. ابن الأثير، المثل السّائر: 171/2، ود. أحمد مطلوب، معجم المصطلحات البلاغيّة وتطوّرها، ص: 432.

ويضيع الأولاد ويَشْقَون بسبب هذا الطّلاق، إنَّ قوله تعالى: ﴿عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ﴾، دليلٌ على أنَّه ما زالت هناك قضيّة مُشتركة بينهما، وهي تتعلّق برعاية أولادهما، وهذه القضيّة المُشتركة، لابُدَّ أن يُلْحظ فيها حَقُّ الأولاد في عاطفة الأمومة، وحقّهم في عاطفة الأبوّة، حتّى ينشأ الولدُ وهو غير مَحروم من حنان الأمّ والأب، وإن اختلفا حتّى انتهيا بعد خصام وسوء تفاهم إلى الطّلاق[1].

دلالة التّناوب بين أداتي الشّرط (إن)، و(إذا):

وُجـوب تَكَفُّل الأب بنفقة مُرضِعَة ولده، وأنْ لا يلجأ إلى الاسترضاع إلاَّ في حالات الضّرورة القُصوَى

يُلمَح في إيثار التّعبير بأداة الشّرط (إنْ) - الّتي تدُلُّ على الشَّكّ في وقوع الشَّرط - على (إذا) الّتي تدُلُّ على تحقّق وقوع الشّرط في هذا المقام، هو تَلويحٌ بأنّه من الأجدر للأب، بألَّا يلجأ إلى هذا الاسترضاع إلاَّ في حالات الضّرورة القُصوَى؛ لأنّه لا يُعَوِّض لبنَ الأُمِّ لرَضيعها أَحَدٌ بِما أودعه اللّه تعالى فيه من خصائصَ، ومُقَوِّمات صحيَّة؛ ففيه بَصْمَتُها الوراثيّة والنّفسيّة والعقليّة، كما أثبت العلم الحديث، ولأنّه لا يُغني مخلوق عن دفء حنان الأُمِّ، وضمّها لرضيعها؛ لذا أُخرِجَ هذا الحُكم التَّشريعيّ في صورة الأمر النّادر الّذي لا ينبغي أن يختاره الوالدان إلا بعُذر، هذا ما دلَّ عليه التّعبير بـ(إنْ)، في قوله: ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ﴾. لكنّه عُدِلَ عنها إلى (إذا)، في قوله: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّآ ءَاتَيْتُم بِٱلْمَعْرُوفِ﴾؛ للدّلالة على وجوب تكفّل الأب بنفقة مُرضعة ولده، وأنّ هذا حُكمٌ قاطع باتٌّ لا شكّ فيه؛ مراعاة لحق المُرضعة مقابل عملها، واشترط أن يكون بالمعروف، أي: من المُتعارف عليه، والمُستحسن شرعًا وعرفًا، وهذا ما دَلَّ عليه القَيد بالجارّ والمجرور ﴿بِٱلْمَعْرُوفِ﴾.

(1) الشَّعراوي، تفسير الشّعراويّ: 1/1007.

حكمة استئجار غير الأمّ لإرضاع وليدها:

علّة الاستئجار التّعاسر، وشرطُه أن يكون بموافقة الأمّ ورضاها

بيَّن اللّه تعالى في قوله: ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ﴾ أنَّ الوالد إذا أرادَ أنْ يَطلُبَ لولدِهِ مُرضِعةً غيرَ أُمِّه، فلا إثم عليهِ في ذلك، إذا سَلَّمَ الأُجْرَةَ المُعَيَّنَةَ في العَقْدِ للمُرضعة نظير إرضاعها ولده، ولم يُبَيِّنْ هنا الوَجهَ المُوجِبَ لِذلك، ولكنَّهُ بَيَّنَهُ في سورةِ الطَّلاقِ، بقوله تعالى: ﴿وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُۥٓ أُخْرَىٰ ۝٦﴾ [الطّلاق: 6][1]، ففي هذه الجملة الشّريفة، يُبَيِّن اللّه تعالى حُكم استرضاع الأب غير الأمّ، وأنّ ذلك لا حرج فيه ولا إثم، شرط أن يكون بموافقة الأمّ ورضاها، وقد تَحُوْلُ ظروفُ الأُمِّ بينها وبين إرضاع وليدها، كضعفٍ في صحّتها، أو في قُواها، حينئذٍ فالوالد مُطالَبٌ بأن يَسترضعَ مُرضعة لولده، مع وجوب تَكَفُّلِهِ بنفقتها؛ حفاظًا على صحّة ولده، كما يدلّ عليه قوله تعالى: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّآ ءَاتَيْتُم بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ وكان الاعتبار لاتّفاق الوالدين معًا؛ لِمَا للأب من الولاية، والأُمّ من الشّفقة.

دلالة السّين في فعل الاسترضاع، وحذف المفعول منه:

عدم تخصيص مُرضِعٍ على مُرضَعٍ، ما توافرت السّلامة فيهنَّ

السّين في قوله تعالى: ﴿أَن تَسْتَرْضِعُوٓاْ﴾ للطّلب، والفعل متعدٍّ لمفعولين، والتّقدير: تسترضعوا المراضع لأولادكم، على تقدير حذف الجارّ، وحذف المفعول يدُلُّ على العُموم، وعدم تخصيص مُرْضع على مُرْضع ما توافرت السّلامة فيهنَّ.

مقصديّة تشريع الحكم، تَحديدُ مُدَّةِ الإرضاعِ، وحقوق المُرضِعِ على الأبِ:

للعرف السّاري دورٌ في تحديد المُرضع وحقوق الرّضاع

دلَّ قولُهُ تعالى: ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾، على أنَّهُ ليسَ المُرادُ بقولِهِ: ﴿يُرْضِعْنَ﴾، تَشريعَ وُجوبِ الإرضاعِ على الأُمَّهاتِ، بَلِ المقصودُ تحديدُ مُدَّةِ الإرضاعِ، وواجباتُ المُرْضِعِ على الأبِ، وأمّا إرضاعُ الأُمَّهاتِ فَمَوكُولٌ إلى ما تعارَفَهُ

(1) الشّنقيطيّ، أضواء البيان: 1/134.

النّاسُ، فالمَرأةُ الَّتي في العِصمَةِ، إذا كان مِثلُها يُرضِعُ، يُعتبرُ إرضاعُها أولادَها مِن حقوقِ الزَّوجِ عليها في العِصمَةِ، إذِ العُرفُ كالشَّرطِ، والمَرأةُ المطَلَّقَةُ لا حَقَّ لزوجِها عليها، فلا تُرضِعُ له إلّا باختِيارِها، ما لم يَعرِضْ في الحالَينِ مانِعٌ أو مُوجِبٌ، مثلُ عَجزِ المَرأةِ في العِصمَةِ عَنِ الإرضاعِ لمرضٍ، ومثلُ امتناعِ الصَّبيِّ مِن رَضاعِ غيرِها، إذا كانَتْ مُطَلَّقَةً، بحيثُ يُخشى عليهِ[1].

وجه المجاز في لفظ الإتيان:

المجاز في لفظ الإتيان للتعبير عن القصد

قرأ ابن كثير بقصر الهمزة من باب المجيء، وقرأ الباقون بالمد من باب الإعطاء[2]. ومعنى قراءة ابن كثير: إذا سلمتم ما جئتم، أي ما قصدتم، فالإتيان حينئذ مجاز عن القصد، كقوله تعالى: ﴿إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾﴾ [الصافات: 84][3].

علّة إظهار اسم الجلالة بالعدول عن الإضمار إلى الإظهار:

إظهار اسم الجلالة لتربية المهابة، والتّذييل للتحذير، والتخويف

وذيّل الآية الكريمة بقوله: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾؛ لئلّا يَخفى عليه شيءٌ من أعمالِكم، فيُجازِيكم عليها، وفي العدول عن الإضمار إلى الإظهار، حيث كان الظّاهر أنْ يُقال: (واتّقوا اللّه، واعلموا أنّه بما تعملون بصير)، تربيةٌ للمَهابةِ بإظهار اسم اللّه الأعظم. وفي الآيةِ مِنَ التَّهديدِ ما لا يَخفى، وهذا التّذييل فيه تخويفٌ، وحَثٌّ على تنفيذ ما شرعه اللّه تعالى.

توجيه متشابه النَّظْم بين هذه الآية من البقرة، وآية سورة الطّلاق:

قال تعالى هنا: ﴿وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾، وقال في سورة الطّلاق: ﴿فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ [الطّلاق: 6]، اتّفقتِ الآيتان الكريمتان في الحديث عن الإرضاع،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/439-440.
(2) ابن الجزري، النّشر: 2/228.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/440.

واختلفتا في الحديث عن أُجْرَته، حيث عُبِّر عنه في آية البقرة بالرِّزق، أي: الإطعام والكِسوة، وعُبِّر عنه في آية الطلاق بالأُجْرَة. والسِّرُّ في هذا الاختلاف أنّ المتأمّل لآية الطَّلاق وسياقها، يُدرك أنَّها تتحدّث عن المُطَلَّقات، وما يفرض لهنَّ من نفقة وأَجَلها، ثمّ بَيَّنَت ما تَستَحقِقْنَ في مُقابل الإرضاع، إنْ أرضعْنَ، وقدِ انفصلت عُرَى حياتهنَّ الزَّوجيَّة، وهذا في قوله تعالى: ﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُواْ عَلَيْهِنَّۚ وَإِن كُنَّ أُوْلَٰتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُواْ عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّۚ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأْتَمِرُواْ بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٖۖ وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُۥٓ أُخْرَىٰ ٦﴾ [الطّلاق: 6]؛ لذا كان من المناسب التّعبير بالأُجْرَة في آية الطَّلاق.

آية الطّلاق تتحدّث عن المُطَلَّقات، وما يفرض لهنَّ من نفقة وأَجَلها، وما تَستَحقِقْنَ في مُقابل الإرضاع

والبيان القرآنيّ هنا عَبَّرَ عن الأُمِّ بكونها (والدة)، وعَبَّرَ عن الأَب بوصفه (مولودًا له)، فناسب أن يُعَبَّر هنا عن النّفقة بالرِّزق والكِسوة؛ حيث إنَّ المَقصِد أنَّ الواجبات للطِّفل، مُوَزَّعَةٌ بين أبويه، وأنّها ليست مُلقاة على عاتق أحدهما دون الآخر، فالمسؤوليّةُ مُشتركةٌ، والحقوق فيه متقابلة، فللأُمِّ النّفقة من إطعام وكِسوَة، مقابل ما تؤدّيه لطفلها من عناية ورعاية، وما تغذّيه من لبنها الّذي هو منْ دمها، أمّا الأَبُ فوجب عليه مقابل ذلك، أن يَكِدَّ ويَكدَح؛ لِيُوَفِّر لها طعامَها وشرابَها وكِسوتَها بالمعروف، دون تقتير ولا إسراف بِنَفْسٍ راضية[1]، فالسّياق في الآيتين، هو ما استدعى اختلاف التّعبير فيهما.

الحديث في آية البقرة عن تأصيل حُكم الإرضاع على الأُمَّهات، وبيان توزيع التّكليفات

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

جُناح وإثم:

قوله: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَاۖ﴾، أي لا إثم فيما نَقَصاهُ عنِ الحَوْلَين، لأنَّهُما ليسا في مَظَنَّة تُهمَة في أمر رَضيعهما، واجتِماعُ رَأيهما فِيهِ،

لفظ (الجُنَاح) أعمّ من لفظ (الإثم)

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 2/809.

ورَأيِ مَن يَستَشِيرانِه، قَلَّ ما يَحيد عَنِ الصَّواب، والجُنَاح في اللُّغة العربيّة: الميْل إلى الإثم والجناية والجُرْم، كما سبق بيانه في شرح المفردات، وقد وَرَدَ لَفظُ ﴿جُنَاحَ﴾ مَنفيًّا بـ(لا)، في أربعة وعشرين مَوضعًا[1]، وبمراجعة سيّاقات هذه الآيات الكريمة الّتي ذكرناها في الهامش، يُلحَظُ أَنَّ أغلبها في الحقوق والواجبات بين الزَّوجين، في حالات التّوافق بينهما، أو الخلافات والمنازعات، وتنظيم الأسرة وشؤونها، والأمور المهمَّة، وبعضها في العبادات، وقد وردَتْ منفيّةً في جميع مَواضعها، وهذا يعني الإباحة لكُلِّ ما ذُكِرَ في تلك المَواضع، فَنَفيُ الجُنَاح تخييرٌ بين الفعل والتّرك[2]، والاستعمال القرآنيّ للفظ ﴿جُنَاحَ﴾ يجعله أعمَّ من لفظ (الإثم)؛ لأنّ الإثم يقتضي العقاب، أمَّا الجُناح فيُستعمَل فيما يقتضي العقاب، وفيما يقتضي الزّجر دون العِقاب[3].

ويمكن تلخيص منهج البيان القرآنيّ في استعمال ﴿فَلَا جُنَاحَ﴾:

أوّلًا: في عُموم معناه، فهو أعمّ من الإثم والذّنب ... وغيرهما؛ لأنّ الجُناحَ قد يقتضي العِقاب، أو ما دون العِقاب كالزّجر.

وثانيًا: في أنّ فيه معنى المَيل إلى المعصيّة، وإن لم يقع فيها، أو مَيل إلى الإثم، وليس اقتراف الإثم.

وثالثًا: كونه يُلحَظ أنّه استعمل منفيًّا، في جميع مَواضعه من القرآن، وهذا يعني التّخيير بين الفعل والتَّرك[4].

---

(1) ورد قوله تعالى: ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ في القرآن الكريم في مَواضع؛ نحو قوله تعالى: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَاۚ﴾ [البقرة: 185]، وقوله تعالى: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِۦۗ﴾ [البقرة: 229]، وقوله تعالى: ﴿فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ﴾ [البقرة: 230]، وقوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَاۗ وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾، ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِيٓ أَنفُسِهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِۗ﴾، ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِۦ مِنْ خِطْبَةِ ٱلنِّسَآءِ﴾، ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُواْ لَهُنَّ فَرِيضَةً﴾ [البقرة: 234 - 236]، وقوله تعالى: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِيٓ أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ﴾ [البقرة: 240]، وقوله تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ تَكُونُواْ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾، ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَٰضَيْتُم بِهِۦ مِنۢ بَعْدِ ٱلْفَرِيضَةِ﴾ [النّساء: 23 - 24]، وقوله تعالى: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓاْ أَسْلِحَتَكُمْ﴾ [النّساء: 102]، وقوله تعالى: ﴿وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا﴾ [النّساء: 128]، وقوله تعالى: ﴿وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ﴾ [الأحزاب: 51]، وقوله تعالى: ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِيٓ ءَابَآئِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآئِهِنَّ وَلَآ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ أَخَوَٰتِهِنَّ وَلَا نِسَآئِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّۗ﴾ [الأحزاب: 55]، وقوله تعالى: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ [الممتحنة: 10].

(2) الزَّمَخشريّ، الكشّاف: 1/324.

(3) أبو حيَّان، البحر المحيط: 1/457.

(4) د، محمد داود، موقعه الرَّسميّ على الشّبكة العنكبوتيَّة؛ د. أحمد محمد أبو عوض https: //www، manhal، net/art/s/22334.

﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًاۖ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِيٓ أَنفُسِهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٣٤﴾﴾ [البقرة: 234]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

بَيَّن صاحب "التَّحرير والتَّنوير" مُناسبة الآية الكريمة لِما قبلها بقوله: "انتقالٌ إلى بيان عِدَّة الوفاة بعد الكلام عَن عِدَّة الطَّلاق، وما اتَّصَلَ بذلك مِن أحكامِ الإرضاعِ عَقِبَ الطَّلاقِ، تَقَصِّيًا لما به إصلاحُ أحوال العائِلات، فهو عَطفُ قصَّةٍ على قصَّةٍ"(1).

وقال الحَرالِّيُّ: "لَمّا ذَكَرَ عِدَّةَ الطَّلاق الَّذي هو فِرْقَةُ الحياة، انتظمَ برأْس آيَتِهِ ذِكرُ عِدَّةِ الوَفاةِ الَّذي هو فِراقُ المَوت، واتَّصَلَ بالآية السّابِقة لِما انجَرَّ في ذِكر الرِّضاع مِن مَوت الوالِد وأمر الوارِث"(2).

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يُتَوَفَّوْنَ﴾: (وَفَى) الواو والفاء والحرفُ المُعتَلُّ: كلمةٌ تدُلُّ على إكمالٍ وإتمام. ومنه الوفاءُ: إتمامُ العهد وإكمالُ الشَّرطِ. ووَفى: أَوفى، فهو وَفيٌّ. ويقولونَ: أَوفَيتُك الشَّيء، إذا قَضيتَهُ إيَّاهُ وافيًا. وتوفَّيْتُ الشَّيء واستَوفيْتُهُ إذا أَخذتَه كُلَّه، حتَّى لم تَترُكْ منه شيئًا. ومنه يُقالُ للمَيِّت: تَوَفَّاهُ اللّهُ، ومنه الآية، بمعنى: يموتون(3).

2) ﴿وَيَذَرُونَ﴾: من يَذَرُ الشيءَ، أي: يقذفه لقلّة اعتداده به، وهذا الفعل لم يُستعمل منه في العربية ماضٍ ولا مصدرٌ. وقد سُمِع - وهو شاذٌّ - الوَذْر مصدرًا. قَالَ أَهْلُ اللُّغَةِ: أَمَاتَتِ الْعَرَبُ الْفِعْلَ مِنْ (ذَرَّ) فِي الْمَاضِي، فَلَا يَقُولُونَ: وَذَرْتُهُ. ومن الأمر منه في القرآن: ﴿وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ﴾ [البقرة: 278]، و﴿فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾﴾ [الأنعام: 112].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/441.
(2) البقاعيّ، نَظم الدّرر: 3/340.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (وفى).

والمعنى في الآية: يَترُكون ويُخلِّفون[1].

3) ﴿أَزْوَاجًا﴾: الزوجُ يقال لكلِّ واحد من القرينين من الذّكر والأنثى في الحيوانات المُتَزَاوِجَة، ولكلِّ قرينين فيها وفي غيرها، كالخفّ والنّعل، ولكلّ ما يقترن بآخر مماثلا له أو مضادّا، ويطلق الزَّوج على خلاف الفَرد.

وزَوجُ المرأة: بَعلها، وزَوجُ الرَّجل: امرأته، ويُقال أيضاً: هي زوجتُه على لغة قليلة. وامرأة مِزْواج: كثيرة التّزوّج. ورَجُل مِزْواج: كثير التّزوّج. وحكى يونس الضَّبي أنه ليس مِن كلام العرب: تزوَّجتُ بامرأةٍ، بتَعدية الفعل بالباء. وقوله تعالى: ﴿وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ۝٥٤﴾ [الدخان: 54]، أي: قرنّاهم بهنَّ؛ تنبيهًا أن ذلك لا يكون على حسب المتعارف فيما بين الناس في الدنيا من المناكحة. وفي لغة أزد شنوءة، يقولون: تزوجت بامرأة، بتَعدية الفعل بالباء[2].

4) ﴿يَتَرَبَّصْنَ﴾: تَرَبَّصَ عن الأمر: تَوَقَّفَ، ورَبَصَه أَمرٌ: حَبَسَه، وفي المكان: لَبِث، وتَرَبَّص بِسلْعته الغَلاء: أبقاها لوقته، وتربَّصَ: احتكر. والمعنى المِحوري: جُثوم أو ثباتٌ للشّيء في مكانِه مع استغلاظ أو حِدّة ما، كانتظارِ المرأة صلاح حال زَوجها المَعَنَّن عنها، واللُّبث في المكان، واختِزان السِّلعة. ويتمثل الغِلَظ هنا في التحفُّز والترقُّب وهو تَوَتُّر. وفي الاحتكار مع ذلك قَصد سُوء. وسائر ما جاء في القرآن منه فهو بمعنى الثَّبات انتظارًا مع حِدّة[3].

والمعنى في الآية الكريمة هنا: ينتظِرْنَ في منزلِ الزوجِ، ويمتنعن عن الزينة والطِّيب.

5) ﴿بَلَغْنَ﴾: بَلَغَ: بلغَ الشّيءُ يَبلُغُ بُلُوغاً وبَلاغاً: وصَلَ وانتهى، وتَبَلَّغَ بالشَّيءِ: وصلَ إلى مُرادِه. وأَبلَغَه هو إبلاغاً وبَلَّغَه تَبليغاً، وبَلَغتُ المكانَ بُلوغاً: وصلتُ إليه، وكذلك إذا شارَفتَ عليه؛ ومنه قوله تعالى: ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾ في الموضع الأول [البقرة: 231]، أَي: قارَبْنَه. وبَلَغَ النّبتُ: انتهى[4].

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرَّاغب، المفرادت، والسَّمين، عُمدة الحفَّاظ: (وذر).
(2) الجوهريّ، الصِّحاح، والرَّاغب، المفرادت: (زوج).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصَّل: (ربص).
(4) الرَّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (بلغ).

والمعنى هنا: فإذا انقضَتِ المدةُ المذكورةُ.

6) ﴿أَجَلَهُنَّ﴾: الأَجَل: المدّةُ المضروبةُ للشّيء، قال تعالى: ﴿وَلِتَبْلُغُوٓاْ أَجَلًا مُّسَمًّى﴾ [غافر: 67]، ويُقال: دينه مُؤَجَّلٌ، وقد أَجَّلْتُهُ: جعلت له أَجَلًا، ويُقال للمُدّة المضروبة لحياة الإنسان: أَجَلٌ، فيُقال: دنا أَجَلُه؛ عبارةٌ عن دُنُوّ الموت. وأصله: استيفاء الأجل أي: مدّة الحياة[1].

والمعنى هنا: المُدَّة المَضروبة بين وفاة الزوج وانقضاء العِدَّة.

7) ﴿جُنَاحَ﴾: الجُناح: الإثم، وجَنَحَ: "الجيمُ والنُّونُ والحاءُ أَصلٌ واحدٌ يدُلُّ على المَيل والعُدوان. ويُقالُ: جَنَحَ إلى كذا، أَي: مَالَ إليهِ. وسُمِّيَ الجَناحانِ جَناحَينِ لِمَيلِهما في الشِّقَّين. والجُناحُ: الإثمُ، سُمِّيَ بذلك لِمَيلِهِ عَن طريقِ الحقِّ، وهذا هو الأَصلُ ثمَّ يُشتَقُّ منه، فيُقالُ للطَّائفةِ مِنَ اللَّيل: جُنْح وجِنْح، كأَنَّه شُبِّهَ بالجَناح، وهو طائفةٌ مِن جِسم الطَّائِر. والجَوانِحُ: الأَضلاعُ: لأَنَّها مائِلَةٌ. وجُنِحَ البَعيرُ إذا انكَسرَت جَوانِحُهُ مِن حِملٍ ثَقيلٍ. وجَنَحَتِ الإبِلُ في السَّير: أَسرَعَت. فهذا مِنَ الجَنَاح، كأَنَّها أَعْمَلَتِ الأَجنِحَة"[2].

8) ﴿بِٱلْمَعْرُوفِ﴾: المَعروف: اسمٌ لكلّ فِعلٍ يُعرَف بالشَّرع والعقل حُسنُه.

وقوله تعالى: ﴿وَلِلْمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: 242]، أي: بالاقتصاد والإحسان.

وقوله: ﴿۞قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى﴾ [البقرة: 263]، أي: رَدٌّ جميلٌ ودُعاءٌ خَير مِن صَدَقة هكذا.

والعُرْف: المَعروف من الإحسان. وعَرفه يَعرِفه مَعرِفة وعِرفانًا فهو عارِف وعَرِيف: عَلِمَهُ[3].

9) ﴿خَبِيرٌ﴾: الخُبْرُ: العِلم بالأشياء المَعلومة مِن جِهَة الخَبَر، وخَبَرْتُهُ خَبراً وخِبرةً وأَخبَرتُ: أُعْلَمتُ بما حصل لي من الخَبَر، وقيل: الخُبرةُ المَعرِفة بِبَواطِن الأمر. ومعنى قوله تعالى: ﴿خَبِيرٌ﴾ أي: عالم بأخبار أعمالكم، وقيل: أي: عالمٌ ببواطن أموركم، وهو سبحانه ذو خبرة وعلم، لا يخفى عليه منها شيء، وقال ابن القيم - رحمه الله -: "الخبير: الذي انتهى علمه إلى الإحاطة ببواطن الأشياء وخفاياها، كما أحاط بظواهرها"[4].

(1) الرَّاغب، المفردات: (أجل).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (جنح).
(3) الفيروز آبادي، بصائر ذوي التَّمييز: (عرف).
(4) الرَّاغب، المفردات: (خبر)، وابن جرير، جامع البيان: 5/94، وابن القيم، الصواعق المرسلة: 2/492.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

ما زال السّياق في هذه الآية في بَيان أحكام الطَّلاق والعِدَّة والنَفَقات، فعلى مَن مات عَنها زَوجها أن تَنتظرفي منزل الزوجية أربعة أشهُر وعَشْر ليالٍ إن كانت حُرَّة؛ ليتبين الحملُ في مدة الأشهر الأربعة، ويتحرَّك في ابتدائه في الشهر الخامس، فلا تَتَجمّل ولا تَمَسّ طِيبًا ولا تَتَعرَّض للخُطَّاب حتّى تَنقضي عِدَّتها المذكورة، إلَّا أن تكونَ حاملًا فإنَّ عِدَّتها تَنقَضي بِوَضع حَملها لقوله تعالى في سورة الطَّلاق: ﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلۡأَحۡمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعۡنَ حَمۡلَهُنَّۚ﴾ [الطّلاق: 4]، فإذا بلغت أجَلَها، أي: انتهتِ المُدَّة الّتي هي مُعتدَّة فيها؛ فلا جُناح على ذوي زوجها المُتوفَّى ولا على ذويها فيما تفعل بِنَفسها من تَرك الإحداد والتَّعرض للخُطَّاب طَلَبًا للتَّزَوج، على الوجه المقرر شرعًا. واللّه سبحانه وتعالى خبير بأعمالكم ظاهرها وباطنها، وسيجازيكم عليها[1].

❁ الإيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

وجه وصل الآية بما قبلها:

بيان الوصل عطف قصة على قصة

الآية "انتقال إلى بيان عدة الوفاة بعد الكلام عن عدّة طلاق وما اتَّصل بذلك من أحكام الإرضاع عقب الطلاق، تقصّيًا لما به إصلاح أحوال العائلات"[2].

نكتة بناء الفعل ﴿يُتَوَفَّوۡنَ﴾ للمفعول:

العرب تُظهِرُ الفاعل المَجهولَ في مَقامِ التَّعليم أوِ المَوعظة، وتُبقي استِعمالَ الفعلِ مَبنيًّا للمَجهولِ فيما عدا ذلك؛ إيجازًا وتبعًا للاستِعمال

الفعل المضارع ﴿يُتَوَفَّوۡنَ﴾ مبنيٌّ للمفعول، والمعنى: يَموتونَ وتُتَوَفَّى آجالُهُم، ومعنى التَّوَفِّي أَخذُ الشَّيءِ وافيًا، وهو مِنَ الأفعال الَّتي يُلتَزَم فيها البناء للمَفعول دائمًا مِثل: هُرِع، عُنِيَ، واضطُر، وذلك في كلِّ فعلٍ قد عُرِفَ فاعلُهُ ما هو، أو لم يَعرِفوا له فاعلًا مُعَيَّنًا. فالعرب تُظهِرُ الفاعل المَجهول في مَقام التَّعليم أو المَوعظة، وتُبقِي استِعمالَ الفعلِ مَبنيًّا للمَجهولِ فيما عدا ذلك إيجازًا وتَبَعًا للاستِعمال[3].

(1) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 38، ونخبة من العلماء، التفسير الميسر، ص: 38.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/441.
(3) ابن عاشور، المصدر السابق نفسه: 2/441.

وجه المجاز في فعل التوفّي:

وجه المجاز تَنزيلُ عُمْرِ الحَيِّ مَنزِلَةَ حقٍّ للموت أو لخالق الموت

وهذا الفعل مِن تَوَفّاهُ اللّه ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلۡأَنفُسَ﴾ [الزّمر: 42]، أو تَوَفّاهُ المَوتُ ﴿حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلۡمَوۡتُ﴾ [النّساء: 15] ﴿قُلۡ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلۡمَوۡتِ﴾ [السّجدة: 11] فاستِعمالُ التَّوَفِّي منه مَجازٌ، تَنزِيلًا لعُمرِ الحَيِّ مَنزِلَةَ حقٍّ للموت أو لخالق الموت. فقالوا: تُوُفِّيَ فُلانٌ، كما يُقالُ: تُوُفِّيَ الحقُّ، ونَظيرُهُ قُبِضَ فُلانٌ، وقُبِضَ الحَقُّ، فصارَ المُرادُ مِن تُوُفِّيَ: ماتَ، كما صار المُرادُ مِن قَبَضَ وشاعَ هذا المجازُ حتّى صار حَقيقةً عُرفِيَّةً[1].

بلاغة الإيجاز بحذف المضاف:

الاستغناء بالمذكور اقتصادٌ في الكلام

في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوۡنَ﴾ إيجازٌ بحذف المضاف، والتّقدير: وأزواج الَّذينَ يُتَوَفَّوْنَ منكم يتربّصنَ، فتكون جملة اسميّة حُذِف منها المبتدأ المضاف، وأُقيم المضاف إليه مقامه إيجازًا، والخبر قوله: يتربّصنَ.

بلاغة المجاز المُرسل:

في المجاز استجاشةٌ لعاطفة تلك المُعتدّة الّتي كانت يومًا زوجًا

في قوله: ﴿وَيَذَرُونَ أَزۡوَٰجًا﴾ أي: يتركون أزواجًا، مجازٌ مُرسلٌ بعلاقة ما كان؛ لأنَّ الحياة الزَّوجيّة تنقضي بالموت. ولعلّ التّعبير بقوله: ﴿وَيَذَرُونَ أَزۡوَٰجًا﴾ دون مثلًا: (ويَذَرُون أرامل) فيه استجاشةٌ لعاطفة تلك المُعتدّة، الّتي كانت يومًا زوجًا بأن تُظهِر مِن حالها ما يُؤكِّد صَونها لذكريات تلك العِشرَة الّتي أنهى الموتُ مَسيرتَها، وفَضَّ شَراكَتَها، ووفاءً للرَّاحل الّذي كان زوجًا لها، ولحياتها الزوجيّة الّتي كانت معه.

فائدة التعبير عن الأمر بلفظ الخبر:

قوله تعالى: ﴿يَتَرَبَّصۡنَ بِأَنفُسِهِنَّ﴾ أَمرٌ من اللّه للنِّساء اللَّاتي يُتَوفّى عنهُنَّ أَزواجُهُنَّ أَنْ يَعتَدِدْن أَربعة أَشهر وعَشْرَ ليالٍ، وهذا الحُكم يَشمَلُ الزَّوجاتِ المَدخول بهنَّ وغير المَدخولِ بهنَّ، والمعنى:

(1) ابن عاشور، المصدر السابق نفسه: 2/441.

إخراج الأمر في صورة الخبر تأكيدٌ للأمر، وإشعارٌ بأنَّه ممّا يجب أن يُتَلَقَّى بالمبادرة إلى الإذعان له

يَتَلَبَّثْن ويَنتَظِرْن، والتّقدير: ولِيَتَرَبّصْنَ، بلام الأمر على غِرار قوله تعالى: ﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ﴾ [البقرة: 233] فهو خَبَرٌ في معنى الأمر؛ وذلك إظهارٌ للمُعتدّات في صورة المُذعِنات المُمتَثِلات فيُخبَر عنهنَّ بذلك. وإخراج الأمر في صورة الخبر تأكيدٌ للأمر، وإشعارٌ بأنَّه ممّا يجب أن يُتَلَقَّى بالمبادرة إلى الإذعان له، فكأنّهنَّ امتثلنَ الأمرَ بالتَّرَبُّص، فهو يُخبَر عنه موجودًا[1].

التعبير عن الأمر بلفظ الخبر دفعٌ لتوهّم عدم حصول المقصود إلا إذا شرعت فيها بالقصد والاختيار

قال الرازي: "أنه تعالى لو ذكره بلفظ الأمر لكان ذلك يوهم أنه لا يحصل المقصود إلا إذا شرعت فيها بالقصد والاختيار، وعلى هذا التقدير فلو مات الزوج ولم تعلم المرأة ذلك حتى انقضت العدة وجب أن لا يكون ذلك كافيا في المقصود، لأنها لما كانت مأمورة بذلك لم تخرج عن العهدة إلا إذا قصدت أداء التكليف، أما لما ذكر الله تعالى هذا التكليف بلفظ الخبر زال ذلك الوهم، وعرف أنه مهما انقضت هذه العدة حصل المقصود، سواء علمت ذلك أو لم تعلم وسواء شرعت في العدة بالرضا أو بالغضب"[2].

في صيغة الخبر تأكيدٌ للتربّص مراعاةً لحق الأزواج وحفظاً لقلوب الأقارب واحتياطاً للنكاح

قال البقاعي: "ولما أريد تأكيد التربص مراعاة لحق الأزواج وحفظاً لقلوب الأقارب واحتياطاً للنكاح أتى به في صيغة الخبر الذي من شأنه أن يكون قد وجد وتمّ"[3].

أي: أنَّ التربّص أمر نظري يتلاقى مع الأمر الشرعي؛ فإن الحرَّة الكريمة لَا ترضى لنفسها ولا ترضى معها أسرتها أن تتزوج فور وفاة زوجها، أو بعدها بمدة قليلة؛ فإن ذلك أمر مستهجن في الفطرة السليمة، وفي الشرع الحكيم، وفي عرف الناس، ولا ترضى العقول به[4].

(1) الزمخشري، الكشاف: 1/270.
(2) الرازي، مفاتيح الغيب: 6/434.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 3/341.
(4) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 2/817.

وجه التعبير بالجملة الاسمية:

جملة يتربّصن خبر للمبتدأ ﴿وَٱلَّذِينَ﴾ في وجه من وجوه الإعراب، وبناؤه على المبتدأ زاده أيضًا فَضلَ تأكيد. ولو قيل: (ويتربّصُ المُعتدّات)، أو (يتربّصُ المطلقات) لكان ذلك جملة فعليّة ولم يكن بقوّة هذا التّأكيد، وثبوته المستفاد من التّعبير باسميّة الجملة؛ لأنّك أوجبت أن يكونَ تقديمُ ذِكْر المحدَّثِ عنه بالفعلِ آكَدَ لإثباتِ ذلك الفعلِ له.

التعبير بالجملة الاسمية رسّخ توكيد المعنى، وقوّاه، وتقديم المحدَّث عنه يقتضي تأكيد الخبر

وهذا ما أوضحه الشيخ عبد القاهر الجرجاني بأنَّك إذا قدَّمت الاسم فقلت: زيد فعل فهذا يفيد من التأكيد والقوة ما لا يفيده قولك: فعل زيد، وذلك؛ لأن قولك: زيد فعل يستعمل في أمرين أحدهما: أن يكون لتخصيص ذلك الفاعل بذلك الفعل، والثاني: أن يكون المقصود تقديم ذكر المحدَّث عنه بحديث؛ لإثبات ذلك الفعل له، وتحقيق أن هذا الفعل دأبه عند السامع.

والسبب في حصول هذا المعنى عند تقديم ذكر المبتدأ أنك إذا قلت: عبد الله، فقد أشعرت بأنك تريد الإخبار عنه، فيحصل في العقل شوق إلى معرفة ذلك فإذا ذكرت ذلك الخبر قبله العقل قبول العاشق لمعشوقه، فيكون ذلك أبلغ في التحقيق ونفي الشبهة،[1].

في الأخبار عن الاسم تشويقٌ إلى معرفة الخبر ويكون قبوله أبلغ في التحقيق ونفي الشبهة

سرّ العدول عن التّعبير بالزَّوجات إلى الأزواج:

التعبير بقوله: ﴿أَزْوَٰجًا﴾ عن الزّوجات من فصيح استعمال لفظ الزوج في كل من الرجل وامرأته، والزوج في الأصل العدد المكون من اثنين، وقد اعتبر في تسمية كل من الرجل وامرأته (زوجًا) أنَّ حقيقته من حيث هو زوج مكونة من شيئين اتحدا فصارا شيئًا واحدًا في الباطن وإن كانا شيئين في الظاهر، ولذلك وضعَ لهما لفظًا واحدًا؛ ليدلَّ على أن تعدّد الصّورة لا ينافي وحدة المعنى،

التعبير بالأزواج يشعر باتّحاد الرَّجل بامرأته حتى يكون كل منهما كأنه عين الآخر

(1) الجرجاني، دلائل الإعجاز: 1/133.، والرازي، مفاتيح الغيب: 6/434.

فهذا اللفظ المشترك يشعر بأن من مقتضى الفطرة أن يتّحد الرَّجل بامرأته والمرأة ببعلها بتمازج النفوس ووحدة المصلحة، حتى يكون كل منهما كأنه عين الآخر[1].

الدّلالة الإيحائيّة لكلمة ﴿يَتَرَبَّصْنَ﴾:

التَّرَبُّصُ هو التَّمَهُّل والتَّرَيُّث والانتظار، وفي التَّعبير لَذْعٌ للنِّساء المُعتدّات، وزيادةُ تهييج لَهُنَّ لانتظار انتهاء العِدَّة؛ لأنَّ أنفس بعض النِّساء طوامح إلى الزّواج؛ فكان الحُكم بالتَّرَبُّص حتَّى تنتهيَ عِدَّتَهُنَّ، وما يوحي به هذا من التَّصَبُّر والتَّرقّب؛ لإنَّ الكرامة توجب عليها الانتظار والتَّمَهل، فلا يَليق بالحُرَّة الكريمة أنْ تنتقل بين الأزواج انتقالًا سريعًا لا فاصل فيه.

كرامة المرأة توجب على المُعتَدَّة الانتظار والتَّمَهل، وعدم التّعجّل في الزواج

ولفظ التّربّص هنا كالمجمل؛ لأنه ليس فيه بيان أنها تتربص في أي شيء فالمراد من تربّصها بنفسها الامتناع عن النكاح، والامتناع عن الخروج من المنزل الذي توفي زوجها فيه إلا عند الضرورة والحاجة، والامتناع عن التزيّن[2].

في لفظ التّربّص معنى الإجمال

سرّ التّعبير بجمع القِلَّة ﴿بِأَنفُسِهِنَّ﴾:

استُعمِلت في الآية الكريمة صِيغَة جمع القِلَّة (الأنفس) مكان جمع الكثرة (نفوس)؛ لتشير إلى معنى التَّقليل والتَّهوين من شأن هؤلاء النِّساء الطَّامحات إلى الأزواج قبل تمام عِدَّة زوجها الأوّل، وقلّتهنَّ.

التعبير بجمع القلّة إشارة إلى التَّقليل والتَّهوين من شأن هؤلاء النِّساء، وقلّتهنَّ

في التّعبير بالجارّ والمجرور تأكيد للتَّربّص، وفائدةُ هذا التَّأكيدِ هنا أنَّهُنَّ يُباشرْنَ التَّرَبُّص، وزوال احتمالِ أنَّ غَيرَهُنَّ تُباشرُ ذلك بهنَّ بل أنفسُهُنَّ هنَّ المأمورات بالتَّرَبُّص؛ وهو أدعى لِوقوع الفعل منهُنَّ "[3] فالتَّمَهُّل والتَّرَيُّث يجب أن يكون من ذات نَفس الأرملة

التعبير بالتربّص فيه إشارة إلى أنَّ التَّرَيُّث يجب أن يكون من ذات نَفس الأرملة ودفع احتمالِ أنَّ غَيرَهُنَّ تُباشرُ ذلك

(1) رشيد رضا، تفسير المنار: 2/331-332.
(2) الرازي، مفاتيح الغيب: 6/468.
(3) أبو حَيَّان، البحر المحيط: 2/227.

وبكامل إرادتها دون أن يُفْرَض عليها؛ لأنّه هو الّذي يليق بكرامتها، ويتّفق مع فِطرتها، ويتلاءم مع حيائها.

التَّعريض بالنِّساء لما في طِباعهنّ من استعجال الأمور

ولما كان الممنوع إنما هو العقد والتعرض له بالأفعال دون طلبه بالتعريض قال معبرًا بالنفس لذلك، وللتنبيه على أن العجلة عن ذلك إنما تكون شهوة نفسانية ينبغي البعد عنها بأنفسهنَّ فلا يبذلنها لزوج، ولا يخرجن من منزل الوفاة، ويتركن الزينة وكل ما للنفس فيه شهوة تدعو إلى النكاح[1]. ف" زِيْدَ بأنفسهن تعريضًا بهنّ، بإظهار حالهن في مظهر المستعجلات، الراميات بأنفسهن إلى التزوّج، فلذلك أُمرن أنْ يتربصنّ بأنفسهنّ"[2].

التعبير بـ(أنفُسِهنَّ) فيه تلميحٌ إلى صيانتهنّ، وحفظٌ لكرامتهنَّ

وكان مع ذلك التعبير بقوله تعالى: ﴿بِأَنفُسِهِنَّ﴾ فيه تلميح إلى أن ذلك التربص فيه صيانة لأنفسهن، وحفظ لكرامتهنَّ، ودفع لمعنى الامتهان الذي يلحق المرأة حين تعرض نفسها طالبة الأزواج من غير تمهّل، كأنّ المتوفى ليس عشيرًا أليفًا يستحق الحداد[3].

التّعبير بجمع القِلَّة ﴿أَشْهُرٍ﴾:

إيثار جمع القلّة للتهوين على المُعتَدّات وإشعارهنَّ بِقِصَر فَترة العِدَّة

وأوثر التَّعبير بجمع القِلَّة ﴿أَشْهُرٍ﴾ على جمع الكَثرَة (شهور) في قوله: ﴿يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾؛ تهوينًا على المُعتَدّات وإشعارهنَّ بِقِصَر فَترة العِدَّة، وأنّها ماهي إلاَّ أشهر قليلة ولَيالٍ أَقَلّ.

علّة تذكير العدد:

في تذكير لفظ العشر تغليبٌ لِحُكمِ اللّيالي

قال تعالى: ﴿وَعَشْرًا﴾ ولم يَقلْ: عَشْرَةً؛ تَغليبًا لِحُكمِ اللّيالي؛ إذِ اللّيلة أسبَقُ مِنَ اليوم إذا اجتمعنَ في التَّاريخ وغيره، وذلك أنَّ ابتداء الشَّهر يكونُ ليلًا، فلمّا كانتِ اللَّيالي الأوائل غلبت؛ لأنَّ الأوائل أقوى من الثَّواني، والأيّام في ضِمنها، كما أنَّ لفظ عَشْرٍ أخَفُّ في اللّفظ.

(1) البقاعي، نظم الدرر: 3/341.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/390.
(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 2/817.

وقال جُمهور أهل العلم: ويَدخُلُ في ذلك اليومُ العاشرُ، وهو مِنَ العِدَّةِ، لأنَّ الأيّامَ مَعَ اللّيالي[1].

بلاغة الاستعارة التَّبعيّة في قوله ﴿بَلَغْنَ﴾:

أصلُ البُلوغِ الوصولُ، استُعيرَ لإكمالِ المُدَّةِ تَشبيهًا للزَّمان بالطَّريق المُوَصِّلة إلى المقصودِ

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾، أي: إذا انتهَت فترة انتظارهنَّ بانتهاء مدّة العِدَّة المذكورة، وجُعِلَ امتِدادُ التَّرَبُّصِ بُلوغًا على وجه الإطلاق الشّائِع في قولهم: بَلَغَ الأمَدَ.

وأصلُ البُلوغِ الوصولُ، استُعيرَ لإكمالِ المُدَّةِ تَشبيهًا للزَّمان بالطَّريق المُوصِّلة إلى المَقصودِ على طريق الاستعارة التّبعيّة في الفعل[2].

علّة التعبير بلفظ الأجل:

الأجَلُ مُدَّةٌ مِنَ الزَّمن جُعِلَت ظرفًا لإيقاع فِعلٍ في نهايتِها أو في أثنائِها

الأجَلُ مُدَّةٌ مِنَ الزَّمنِ جُعِلَت ظَرفًا لإيقاعِ فعلٍ في نهايتِها أو في أثنائِها

الأجَلُ مُدَّةٌ مِنَ الزَّمن جُعِلَت ظرفًا لإيقاع فِعلٍ في نهايتِها أو في أثنائِها تارةً، وضَميرُ ﴿أَجَلَهُنَّ﴾ للنّساء اللّائي تُوُفِّيَ عنهُنَّ أزواجُهُنَّ[3].

سِرَّ إسناد الأَجَل إلى المُعتدّات:

وجه إسناد الأَجَل إلى المُعتدّات التّنبيه على أنَّ مشقّة العِدَّة تقع عليهنّ

المقصودُ ببلوغ الأجل في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾ انقضاءُ العِدَّة، وأُسند الأَجل إلى المُعتدّات؛ للتَّنبيه على أنَّ مُدَّة عِدَّة المُتوفَّى عنها زوجها تقع على المُعتدّات. قال ابن عاشور: "وأسند البلوغ إليهن وأضيف الأجل إليهن، تنبيها على أن مشقة هذا الأجل عليهن"[4].

سِرُّ تعريف الأجل بالإضافة:

مؤدّى التعريف بالإضافة النهي عن تجاوز مدّة العدّة بتطويلها

وعُرِّف الأجَلُ بالإضافةِ إلى ضميرِ المُعتدّات ﴿أَجَلَهُنَّ﴾ دُونَ غيرِه مِن طُرُق التَّعريف؛ لِمَا تُشعر به الإضافةُ من كَونِ المُعتدّات قد أَدَّيْنَ

(1) الواحديّ، البسيط: 4/265، وابن عطيَّة، المُحَرَّر الوجيز، ص: 209.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/446.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/446.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/446.

ما فُرِضَ عليهِنَّ، والتزمْنَ بقضاء عِدَّتهنَّ كاملة فلا ينبغي لأَحدٍ أنْ يزيد عليهنَّ بتطويل مُدَّة عدَّتهنَّ مُتجاوزًا ما شرعه اللّه من أَجَل.

فائدة الإخبار عن انتهاء العدّة، وما يترتّب عليها:

في قوله: ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِيٓ أَنفُسِهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٣٤﴾﴾ بيانٌ لانتهاء العِدَّة وما يترتّب عليها بعد بيان مُدَّة العِدَّة في قوله تعالى: ﴿يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًاۖ﴾، ويُستفادُ مِن هذا الخبر وجوبُ الإحدادِ على المُتوفَّى عنها زَوجُها مُدَّةَ عِدَّتِها المحددة بأربعة أشهر وعشْر ليال؛ لِمَا ثَبَتَ في الصَّحيحَين مِن غيرِ وَجهٍ عَن أُمِّ حبيبةَ وزينبَ بنتِ جَحشٍ أُمَّي المُؤمنينَ، أَنَّ رسولَ اللّه ﷺ - قال: «لا يحِلُّ لامرأة تؤمن باللّهِ واليوم الآخِرِ أَنْ تُحدّ على ميِّتٍ فوق ثلاثٍ، إلَّا على زَوجٍ أَربعةَ أَشهرٍ وعشْرًا»[1].

يُستفادُ من الإخبار وُجوبُ الإحدادِ على المُتَوَفَّى عنها زَوجُها مُدَّةَ عِدَّتِها

دلالة التّعبير بـ﴿فَإِذَا﴾ الشّرطيّة:

دلَّ التّعبير بأداة الشَّرط (إذا) في قوله ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾ على وجوب استيفاء فترة العِدَّة كاملة، وهي أربعة أشهر وعشْر ليال دون أدنى نقص، وأنّ المُعتدّاتِ من وفاةٍ مَنهيّاتٌ عَن أفعالٍ في أنفُسِهِنَّ كالتَّزَين والتّطيّب والخِطبَةِ والتَّعرّض للرِّجال من أَجل الزَّواج قبل انتهاء عدّتهنَّ كاملة.

وجوب استيفاء فترة العِدَّة كاملة دون نقص

إيثار التّعبير بالجُناح على التَّعبير بالإثم في الآية الكريمة :

أوثر التّعبير بالجُناح على التّعبير بالإثم هنا؛ لأنّه أعمَّ من الإثم، والإثم يقتضي العقاب، أمَّا الجُناح فيُستعمَل فيما يقتضي العِقاب وفيما يقتضي الزّجر دون العقاب.

الجُناح يُستعمَل فيما يقتضي العِقاب وفيما يقتضي الزّجر دون العقاب؛ فهو أعمّ

نكتة توجيه الخطاب للأولياء:

وجِّه الخِطاب للأولياء؛لأنَّ الرِّجالَ قَوَّامون على النِّساء مأمورون

(1) صحيح البخاريّ، حديث رقم: (1281)، وصحيح مسلم، حديث رقم: (1486)، من حديث زينب بنت جحش رضي الله عنها.

خطاب الأولياء؛ لأنهم قوّامون على النِّساء مأمورون بزجرهِنَّ عن مجاوزة حدود الله

بزجرِهِنَّ عن مجاوزة حدود اللّه، فبَيَّنَ اللّه تعالى أنَّ المُعتدَّات إذا انقضت عِدَّتهنّ فلا جُناح على الأولياء في رَفع الرِّقابة عنهُنَّ، وتخلية سبيلهنَّ ليفعلنَ في أنفسهنَّ بالمعروف ما يُرِدْنَ ممَّا كان ممنوعًا عليهنَّ فِعلُه في مُدَّة العِدَّة؛ مِن خروجٍ من البيت، وتزوُّجِ الأَكْفاء بإذن الأولياء، وغير ذلك.

الخِطاب للأولياء رَفعًا للحَرَج عنهم

في توجيه الخطاب للأولياء أيضًا رَفعٌ للحرج عنهم، وإزالة ما عسى أنْ يكونَ قد بَقِيَ في نُفوس النّاس مِن استنكار تَسَرُّعِ النِّساءِ إلى التّزوّج بعد استيفائهنَّ عِدَّةِ الوفاةِ، وتَغليظًا للَّذين يُنكرونَ على النِّساءِ تَسَرُّعَهُنَّ بعد العِدَّةِ، أو بعد وضعِ الحَملِ، أي: إنَّ ذلك مِنَ المعروف[1].

يحتمل السياق توجيه الخطاب إلى المسلمين

قال البقاعي: "ولما كان اللّه سبحانه وتعالى قد جعل المسلمين كالجسد الواحد وكان الكلام في أزواج الموتى أعلم سبحانه وتعالى بأنه يجب على إخوانهم المسلمين من حفظ حقوقهم ما كانوا يحفظونه لو كانوا أحياء بقوله: ﴿فَلَا جُنَاحَ﴾"[2].

فنفى الإثم عن الجماعة فيما يفعلن بأنفسهن بالمعروف غير المستنكَر، ليدلَّ على أن الجماعة الإسلامية متعاونة متآزرة متماسكة بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأن على كل امرئ أن يصلح من شأن أخيه، ويقوِّمه بالمعروف، ويبين له أوامر الشرع وحكم اللّه تعالى، ولا تذهب عنه هذه المسؤولية حتى يكون عمل من يكون ذا صلة به في دائرة الشرع والخلق القويم[3].

علّة نسبة الفعل المباح إلى المعتدات:

أن المرأة تباح لها الزينة بالمعروف، أي: بالأمر المعقول الذي

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/446.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 3/342.
(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 2/820.

تقره العقول، وتدركه الأفهام، وتعرفه أهل المدارك السليمة والأذواق الدقيقة المحكومة بشكائم الأخلاق، ويدخل فيما يفعلن بأنفسهن الزواج، فلها اختيار الزوج، وتولّي العقد، بشرط أن يكون ذلك في دائرة العرف والتقيد بالكفاءة، وألا تجلب عارًا على أسرتها وذويها[1].

إباحة الزينة، واختيار الزّوج للمرأة في دائرة العرف، وقويم الأخلاق

دَفعُ إشكال التعارض بين الآيات:

في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ يَظهَرُ تعارُضٌ مع قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم مَّتَٰعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ﴾ [البقرة: 240]، والجوابُ ظاهِرٌ؛ وهو أنَّ الأُولى ناسخَةٌ لهذه، وإنْ كانَت قَبلَها في المُصحفِ لأنَّها مُتأخِّرَةٌ عنها في النُّزُول، وليس في القرآنِ آيَةٌ هي الأُولى في المُصحفِ وهي ناسخةٌ لآيةٍ بعدَها فيه إلّا في مَوضِعَين: أحدُهما هذا المَوضِع، والآخر: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ﴾ [الأحزاب: 50] هي الأُولى في المُصحف، وهي ناسخةٌ لقوله ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ﴾ [الأحزاب: 52]؛ لأنَّها وإنْ تَقَدَّمَتْ في المُصحفِ فهي مُتأخِّرَةٌ في النُّزُول[2].

الآية الأُولى ناسخَةٌ لهذه، وإنْ كانَت قَبلَها في المُصحفِ لأنَّها مُتأخِّرَةٌ عنها في النُّزُول

علّة خطاب الذكور في التذييل:

الخِطاب في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ مُوَجَّهٌ إلى النّساء المُعتدَّات، لكنَّه جاء بصيغة المذكَّر من باب التّغليب[3]، أي: تغليب الذّكور على الإناث، وليكون تذييلاً مُستقلًّا بنَفسه، ولأجلِ التَّعميم.

وجه الخطاب تغليب للذّكور على الإناث، وإعمامه، ولتحقيق استقلالية التذييل

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 2/820.
(2) الشّنقيطي، أضواء البيان: 1/68.
(3) التَّغليب: "حقيقته إعطاء الشيَّء حُكم غيره، أو إطلاق لفظه عليهما إجراءً للمُختلفين مَجرَى المتَّفِقين"، الزِّركشيّ، البُرهان: 2/302.

وجه تعريف لفظ المعروف:

تعريف المعروف انصرافٌ إلى كماله

وعرّف لفظ المعروف لينصرف إلى كماله فلا يكون في ذلك شوب نكارة، فإن فعلن ما ينكر كان على الناس الجناح بترك الأمر كما عليهن بالفعل[1].

مقام الحديث أَمرٌ معلومٌ مشهورٌ مِن موجب الشَّرع، محددٌ فيه ميقات العدّة

فالمَقام للحديث أَمرٌ معلومٌ مشهورٌ مِن موجب الشَّرع وهو ما يَحلُّ للمرأة فعله من التَّعَرض للزِّواج بعد انتهاء عِدَّة الوفاة، ولكون مُدَّةُ العِدَّة مُحدَّدةً معلومةً مُصَرَّحًا بها في الآية ﴿أَرۡبَعَةَ أَشۡهُرٖ وَعَشۡرٗا﴾ وعليه فـ﴿بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾ هنا هو؛ لذا كان من المناسب تعريف لفظ ﴿بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾ وسيتبيّن القصد أوضح عند الحديث عنه في المتشابه.

سرُّ التذييل بلفظ ﴿خَبِيرٞ﴾:

إيثارُ لفظ الخبير تعبيرٌ عن علمه بخفايا البواطن كما يعلم ظواهرها

لما كان الحديث عن أعمال النساء المعتدّات في السرّ والعلانية محذراً من التهاون في شيء منها في أنفسهم أو من الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر للوليّ، أو عامّة المسلمين، ولكون أمر العدّة ممّا لم تعرفه العرب قبل فربما أنكرته القلوب لعدم فهمها لسرّه، ختم بقوله ﴿خَبِيرٞ﴾، أي: يعلم ما يُخفينَ وما يُضمِرنَ ما لا يجوز إضماره من خفايا البواطن كما يعلم ظواهرها فاحذروا مخالفته وأطيعوا أمره، واقترن هذا الوصف المُصاغ على صيغة المبالغة الدالّ على الرسوخ، والثبوت باسم الله الأعظم ﴿وَٱللَّهُ﴾ الذي له صفات الكمال للمبالغة في إظهار علمه بأحوالهم من سرٍّ وعلانية[2].

المَقام في الآية الأولى للحديث عمّا يَحلُّ للمرأة فعله من التَّعَرض للزِّواج بعد انتهاء عِدَّة الوفاة، أمّا الآية الثّانية ففيها تخيير للمُعتدّات المُنقضية عِدَّتُهُنَّ بين أَمرَينِ مَشروعَينِ

مِن متشابه النّظم القرآني تعريف لفظ (المعروف) وتنكيره:

قال تعالى هنا: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ فِيمَا فَعَلۡنَ فِيٓ أَنفُسِهِنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ﴾ وقال في الآية [240]: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ فِي مَا فَعَلۡنَ فِيٓ أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعۡرُوفٖۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٞ﴾.

(1) البقاعي، نظم الدرر: 3/343.
(2) البقاعي، المصدر السّابق نفسه: 3/344.

فعرّف المعروف هنا ونكّره في الآية الثانية؛ لأنَّ اللَّفظ ﴿بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ﴾ الواقع في الآية الأولى جاء عقب قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوۡنَ مِنكُمۡ وَيَذَرُونَ أَزۡوَٰجٗا يَتَرَبَّصۡنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرۡبَعَةَ أَشۡهُرٖ وَعَشۡرٗاۖ﴾، فالمَقام للحديث أَمرٌ معلومٌ مشهورٌ مِن موجب الشَّرع وهو ما يَحلُّ للمرأة فعله من التَّعَرض للزِّواج بعد انتهاء عِدَّة الوفاة، ولكون مُدَّةِ العِدَّة مُحدَّدةً معلومةً مُصَرَّحًا بها في الآية ﴿أَرۡبَعَةَ أَشۡهُرٖ وَعَشۡرٗاۖ﴾ وعليه فـ﴿بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ﴾ هنا هو؛ لذا كان من المناسب تعريف اللَّفظ ﴿بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ﴾.

أما الآية الثّانية ففيها تخيير للمُعتدَّات المُنقضيَة عِدَّتُهُنَّ بين أَمرَينِ مَشروعَين هما: القعود والزَّواج؛ فلمَّا لم يَنُصَّ على أمرٍ واحدٍ مُتَعَيَّن بل كان المعروف وجهًا من الوجوه المشروعة غير مُحَدَّدٍ؛ ناسب ذلك تنكيره، والإتيان بـ(مِن) الّتي تفيد التّبعيض[1].

بلاغة اختلاف الفاصلة في الآيتين:

خُتِمت الآية الأولى بقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ﴾، في حين خُتمت الآية الثّانية بقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٞ﴾ [البقرة: 240]؛ لمجيء التَّذييل في كلتا الآيتين مناسبًا للمقام؛ وبيان ذلك أنّ الحديث في الآية الأولى عن عِدَّة الوفاة، وما يَلزَم المُعتدَّات فيها من إحداد، وما يجوز لَهُنَّ فعله بعدها؛ فلمَّا كان ذلك مَظِنَّةَ استعجالٍ منهنَّ مِن أجل زواجِهنَّ فيُخفين أو يُضمِرنَ ما لا يجوز إضماره؛ كان من الملائم أن تُختَم الآية الكريمة بقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ﴾ أي: فَعِلْمُ اللهِ تعالى مُحيطٌ بمحاولة تلاعُبِهِنَّ في شأن العِدَّة أو كِتمان ما لا يجوُز وهو تَعالى خبيرٌ بذلك.

لفظ الحكيم يناسب علمه ما يضمرن من نيّة التزويج والخروج، ولفظ العزيز الحكيم يناسب قدرته على عقوبتهنّ، أو العفو عنهنّ

أما الآية الثّانية فلمَّا كان فيها قوله تعالى: ﴿فَإِنۡ خَرَجۡنَ﴾، وقام فيها احتمال أن يَخرُجْنَ غير مُحتشمات أو طائعات فيستعجلنَ أو يتعدّينَ؛ ناسب ذلك ذكر قدرته سبحانه عليهنّ بالمُعاقبة بما شاء أو العفو عن أفعالهنّ فهو سبحانه ﴿عَزِيزٌ حَكِيمٞ﴾، أي: الغالب الّذي لا غالب له، فلا يفوته هارب، ولا يغيب عنه شيء، الحكيم إنْ عفا عن إساءتهنَّ.

(1) الإسكافي، دُرَّة التَّنزيل، ص: 44-43، وابن الزّبير، مِلاك التَّأويل: 1/128، والكِرماني، أسرار التِّكرار، ص: 43 44-.

ولا يخفى أنّ نبرة التَّهديد أشدُّ وأعلى صوتًا في ختام الآية الثّانية عنها في الآية الأولى؛ لِتَعدُّد المُباح لَهُنَّ في الآية الثّانية، وبوجوب مُراعاة حدود الله تعالى فيها، والتَّهديد والوعيد لمن لم تتمثّل لها من المُعتدّات[1].

(1) ابن الزّبير، مِلاك التَّأويل: 1/130.

﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ فِيمَا عَرَّضۡتُم بِهِۦ مِنۡ خِطۡبَةِ ٱلنِّسَآءِ أَوۡ أَكۡنَنتُمۡ فِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمۡ سَتَذۡكُرُونَهُنَّ وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّآ أَن تَقُولُواْ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗاۚ وَلَا تَعۡزِمُواْ عُقۡدَةَ ٱلنِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبۡلُغَ ٱلۡكِتَٰبُ أَجَلَهُۥۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٞ ٢٣٥﴾ [البقرة: 235]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لمّا حَدَّد الله تعالى مُدَّةً لِمَنعِهِنَّ عَنِ الرِّجالِ بَيَّنَ أنَّ التَّعريضَ بالخِطبَةِ ليس داخِلًا في المَنعِ، فقال: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ﴾ أي: لا إثم ﴿فِيمَا عَرَّضۡتُم بِهِۦ﴾ أي: قُلتُمُوهُ، وأنتُم تَقصِدُون ما هو بَعيدٌ عنهُ كأنَّهُ في جانِبٍ، وهو في جانِبٍ آخَرَ لا يَتَأَدّى إليه[1]. فحديث السياق السَّابق عن أحكام عِدَّة الطَّلاق، وعِدَّة الوَفاة، ووجوب استيفاء زمن العِدَّة كاملًا، وضرورة التزام المُعتَدَّات بآداب الحِداد، وأنَّ المُطَلَّقاتِ إذا بَلَغْنَ أجَلَهُنَّ جاز أن يَفعَلْنَ في أنفُسِهِنَّ ما أردْنَ مِنَ التَّزيّن والتَّطيُّب والتَّعَرض للخُطَّاب بالمعروف رغبةً في الزّواج، فَعُلِمَ مِن ذلك أنَّهُنَّ إذا لم يَبلُغْنَهُ لا يجوزُ ذلك، فالتّزوّج في مُدَّةِ العِدَّة حرامٌ، ولمّا كان التَّحَدُّثُ في التّزوّج إنَّما يَقصِدُ منه المُتَحَدِّث حُصول الزَّواج، وكان مِن عادَتِهِم أن يَتسابقوا إلى خِطبةِ المُعتَدَّةِ ومُواعدَتِها حرصًا على الاستِئثار بها بعد انقضاء العِدَّة فَبَيَّنَ الشَّارع الحكيم حُرمَة ذلك لهم، ورَخَّصَ في شيءٍ من التَّعريض بالخِطبَة دون اللّفظ الصَّريح المُحَرَّم؛ ولذلك عَطَفَ هذا الكلامَ على سابِقِه[2].

كما أنَّ هذه الآية الكريمة مِن أحكامِ الرِّجالِ فيما يخصّ النِّساء المُعتدّات عن وفاة، فكان المُناسبُ أن يُذكَرَ بعد الفراغ مِن أحكامِهِنَّ قبل البُلوغ مِنَ الأجَل وبَعدَهُ.

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 3/344.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/450.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَلَا جُنَاحَ﴾: لا حَرَجَ، ولا إثم، وسبق شرحها مفصَّلًا قريباً.

2) ﴿عَرَّضْتُم﴾: التَّعريض أصله: من عَرْضِ الشّيء، وهو جانبه، كأنّه يَحوم به ولا يُظهره. وهو ضدّ التَّصريح، ومعناه: تضمين الكلام ما يَصلُحُ للدَّلالةِ على المَقصودِ، ويَصلُحُ للدَّلالةِ على غير المَقصودِ، إلّا أنَّ إشعارَهُ بجانب المَقصودِ أتَمُّ وأرجحُ[1].

والتَّعريض أيضًا: كلامٌ له وجهان من صدق وكذب، أو ظاهر وباطن، أو: إيهام المقصود بما لم يوضع له حقيقة ولا مجازًا[2].

والتَّعريضُ قد يُسمَّى تَلويحًا؛ لأنَّهُ يَلوحُ منه ما يُريدُ.

والمعنى المُراد لَوَّحْتُم وأَشَرْتُم به، دون تصريح[3].

3) ﴿خِطْبَةِ ٱلنِّسَآءِ﴾: الخِطبَةُ مَصدرٌ بمَنزِلة الخَطب، وهو مِثلُ قولك: إنَّه الحَسنُ القَعدَةِ والجِلسَةِ، تريدُ القُعودَ والجُلوسَ. وفي اشتقاقه وجهان:

الأوَّلُ: أنَّ الخَطبَ هو الأمرُ والشَّأنُ، يُقالُ: ما خَطْبُكَ؟ أي: ما شَأْنُكَ؟، فقولهم: خَطَبَ فُلانٌ فُلانةَ، أي: سألها أمرًا وشأْنًا في نفسِها.

والآخر: أصلُ الخِطبةِ مِنَ الخطاب الَّذي هو الكلامُ، يُقالُ: خَطَبَ المرأةَ خِطبَةً؛ لأنَّهُ خاطِبٌ في عَقدِ النِّكاحِ. وخَطَبَ خُطبَةً؛ أي: خاطَبَ بالزَّجرِ والوَعظِ. والخَطبُ: الأمرُ العظيمُ؛ لأنَّهُ يُحتاجُ فيه إلى خِطابٍ كثيرٍ، لكن الخُطبة تختصُّ بالموعظة، والخِطبة بطلب المرأة[4].

والمُراد بالنّساء في هذه الآية المُعتدَّاتُ لوفاة أزواجهنَّ، أو المطلقاتُ طلاقًا بائنًا.

4) ﴿أَكْنَنتُمْ﴾: كَنَنْتُ العلم وأَكْنَنْتُهُ، فهو مَكْنونٌ ومُكَنٌّ، وكَنَنْتُ الجارية وأَكْنَنْتُها، فهي مَكْنونَةٌ ومُكَنَّةٌ. والكِنُّ جمع أكنان، والكِنّ ما يَحمي ويَستر ويصون عمّا يُؤذي، ويُقال: أَكْنَنْتُ: أي: سَتَرتُ، وهذا يخصُّ بما يُستَر في الضَّمير، وهو ضدّ أظهرتُ

(1) 3 - يُنظر: الرَّازي، مفاتيح الغيب: 7/134.
(2) الراغب، المفردات: (عرض)، والبَيضاوي، أنوار التَّنزيل: 1/247.
(3) مخلوف، كلمات القرآن، ص: 29.
(4) الراغب، المفردات: (خطب)، والرَّازي، مفاتيح الغيب: 7/135.

وأعلنتُ. وسُمِّيتِ المرأة المتزوّجة كَنَّة؛ لحمايتها من حيث إنها تُحفَظ وتُصان في بيت زوجها. والمُراد من قوله تعالى: ﴿أَوۡ أَكۡنَنتُمۡ فِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ﴾: أضمَرتُم في قلوبكم فلم تذكروه تصريحًا ولا تلميحًا[1].

5) ﴿لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ﴾: الوَعدُ يكون في الخير والشّرّ، يُقال: وَعَدْتُهُ بِنَفع وضُرّ وَعداً ومَوعِداً ومِيعاداً، والوَعيدُ في الشّرّ خاصّة[2].

ويُقال: أرضٌ واعِدة: إذا رُجِي خَيرُها من المطر والأَعشاب، وقد وَعَدَتْ: رُجِي خَيرُها. ويوم واعدٌ: أَوّلُه يَعِدُ بحرٍّ أو بَرد. وسَحَابٌ واعدٌ كأنّه يَعِد بالمطر. وفرس واعد: يَعِدُك جَريًا بعد جَري. والمعنى المحوريّ: الاحتواء على ما يوجد مستقبلًا زائدًا عن الحال. ومنه: وَعَدَه بالأمر قال له: إنَّه يُجْريه له أو يُنيله إياه[3]، والأصل في وَعَدَ وأَوعَد أنَّهما للخير والشّرّ، والّذي جاء في القرآن من (أوعد) هو في الشّرّ: ﴿وَلَا تَقۡعُدُواْ بِكُلِّ صِرَٰطٖ تُوعِدُونَ﴾ [الأعراف: 86].

والمعنى في الآية: النهي عن المواعدة على النِّكاح.

6) ﴿سِرًّا﴾: السُّر ما يُكْتَمُ، ومادَّة السِّرِّ تدور حول الخَفاء، وسِرُّ الشَّيء خيارُه؛ لأنَّه يُخفَى، ويُضَنُّ به.

والسِّرُّ في اللُّغة يُطلَقُ على معانٍ عدّة[4]، منها: ما تَكَلَّم به في سِرِّه، وأخفى ما أَضمَر، والثّاني: شطُّ الوادي، والثّالث: الزِّنا، والرَّابع: الجِماع.

والمُراد هنا: لا تَذكروا لهنَّ صريح النِّكاح.

7) ﴿وَلَا تَعۡزِمُواْ﴾: عَزَمَ، العَينُ والزّاي والميمُ أَصلٌ واحدٌ صحيحٌ يدُلُّ على الصَّريمةِ والقَطع. يُقالُ: عَزَمْتُ أَعزِمُ عَزمًا[5] وعُزمًا وعَزيماً وعَزيمة. وعَزَمه واعتَزَمَهُ: أَراد فعله وقَطع عليه، أَوْ جَدَّ في الأَمر ويُقال: عَزَمتُ على الأَمر: عَقَدْتُ النِّيَّة على إمضائِهِ، يَعزِم عَزمًا[6].

(1) الجوهري، الصّحاح، والسَّمين، عمدة الحفّاظ (كنن).
(2) الرّاغب، المفردات: (وَعَدَ).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصَّل: (وعد).
(4) الجوهري، الصّحاح، (سرر)، وأحكام القرآن لابن العربي: 1/288.
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عزم).
(6) الفيروزابادي: (عزم).

والمعنى: لا تَقْصِدُوا قَصْدًا جازِمًا.

8) ﴿عُقْدَةَ﴾ (عَقَدَ): العَين والقَاف والدَّال أَصلٌ واحدٌ يدُلُّ على شَدٍّ وشِدَّةٍ وُثُوقٍ، وإليه تَرجِعُ فروعُ البابِ كُلّهَا. مِن ذلك عَقدُ البِناء، والجَمعُ أَعقادٌ وعُقودٌ. ولو قيلَ عَقَّدَ تَعقيدًا، أَي بَنى عَقْدًا لجازَ. وعَقَدْتُ الحَبلَ أَعقِدُهُ عَقْدًا، وقدِ انعَقَدَ، وتلك هي العُقدَةُ[1].

المعنى المحوريّ: امتساك وتَحَبُّس يبلغ الأثناءَ شديدًا. كعَقْد البناء وتماسُك العَسَل والثَّرى (وشدة التّماسك في العَسَل والثَّرى نسبيَّة؛ لأنَّ العَسَل مائعٌ والثَّرى تسيّب كالرّمل) وعَقْد الحبل. ومِن معنويه: عَقدَ العَهدَ واليمينَ: أكّدهما، نحو قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَٰنَ﴾ [المائدة: 89].

"وانعقدَ النِّكاح بين الزَّوجين، والبيعُ بين المُتبايعين. وعُقدة كلّ شيء - بالضّم -: إبرامه"[2]. والمعنى: مَوْضِعُ العَقْدِ، وهي نَفْسُ النِّكاحِ.

9) ﴿ٱلْكِتَٰبُ أَجَلَهُۥ﴾: الكِتاب في الأصل مصدر، ثم سمّي المكتوب فيه كتابًا، والكتابُ في الأصل اسمٌ للصّحيفة مع المكتوب فيه، والكِتاب: الفَرضُ والحُكمُ والقَدَر. ويعبَّر عن الإثبات والتّقدير والإيجاب والفرض والعزم بِالْكِتَابَةِ، ووجه ذلك أنَّ الشيء يراد، ثم يقال، ثم يُكْتَبُ، فالإرادة مبدأ، والكِتَابَةُ منتهى[3].

والمعنى المُراد هنا: حتّى تنتهي العِدّة.

المَعْنى الإجْماليُّ:

النَّهي عن العَزم على عَقد النِّكاح في زمان العِدَّة

ولا إثم عليكم - أيُّها الرِّجال - فيما تُلَمِّحون به مِن طَلَب الزَّواج من النّساء المُتوفَّى عنهنَّ أزواجهنَّ، أو المُطلَّقاتِ طلاقًا بائنًا في أثناء عِدَّتهنَّ، ولا ذَنب عليكم أيضًا فيما أضمرتموه في أنفُسِكُم مِن نِيَّة الزَّواج بهنَّ بعد انتهاء عِدَّتهنَّ. عَلِم اللّه أنَّكم ستذكرون النِّساء المُعتدّات، ولن تصبروا على السُّكوت عنهنَّ لضعفكم؛ لذلك أباح لكم أن تذكروهنّ تلميحًا أو إضمارًا في النَّفس، واحذروا أن تواعدوهنَّ

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عقد).
(2) جَبل، المعجم الاشتقاقي المُؤصّل: (عزم).
(3) الرّاغب، المفردات: (كتب).

على النِّكاح سِرًّا بالزِّنى أو الاتِّفاق على الزِّواج في أثناء العِدَّة، إلا أن تقولوا قولًا يُفهَم منه أنَّ مثلها يَرغب فيها الأزواج، كأن يقول لها: إني أريد التزوج، وإني أحبُّ أن تشاوريني عند انقضاء عدتك، ولا تعزموا على عَقد النِّكاح في زمان العِدَّة حتى تنقضي مُدَّتها. واعلموا أنَّ اللّٰه يعلم ما في أنفسكم فخافوه، واعلموا أنّ اللّٰه غفورٌ لمن تاب من ذنوبه، حليمٌ على عباده لا يُعَجِّل عليهم بالعقوبة[1].

❁ الإيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

وجه النّهي عن التّصريح:

إباحة التَّعريض بخِطبَة المُتَوَفَّى عنهنَّ أزواجهنَّ:

﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ فِيمَا عَرَّضۡتُم بِهِۦ مِنۡ خِطۡبَةِ ٱلنِّسَآءِ﴾ في الآية المباركة إباحة التّعريض بخِطبَة المرأة المُعتدّة، ويقتضي ذلك النَّهي عن التَّصريح. والتَّعريضُ أنْ يَذكُر شَيئًا يدُلُّ به على شَيءٍ لم يَذكُرْه. والمعنى: لا حَرَجَ في التَّعريض بخِطبَة المُتَوَفَّى عنهنَّ أزواجهنَّ، كأنْ يقول لِوَليِّها: لا تسبقني إليها، أو بأن يقول لها: إنِّي راغب في الزَّواج مِن مثلك، إنَّ اللّٰه لسائقٌ إليك خيرًا، وإنِّك لجميلة، وإنَّ لي حاجة في النِّساء، وغيرها من العبارات الّتي تشير إلى رغبته في الزّواج منها تلميحًا لا تصريحًا مراعاة لمشاعر أهل المُتَوَفَّى، ولمشاعرها بوصفها حديثة عهد بوفاة زوجها.

وجه النفي بين (لا)، و(ليس):

النَّفـي بـ(ولا جنـاح عليكم) أقوى من النَّفي بـ(ليس عليكم جناح)

النفي بـ(لا) في قوله: ﴿وَلَا جُنَاحَ﴾ في هذه الآية وما قبلها من آيات سورة البقرة: [158، 229، 230، 233، 234]. وما بعدها: [236، 240] وغيرها من مواضع ورود هذا الأسلوب من النفي في عموم القرآن الكريم: جاء التّعبير فيها بصيغة الجملة الاسميّة المُؤكَّدة، والدَّالّة على الثّبوت مُتساوقًا مع خطورة موضوعاتها؛ لكونها حديثًا خاصًّا بالعبادات والحقوق والعَلاقات الأُسريَّة وأحكام تنظيمها.

(1) نخبة من العلماء، التفسير الميسر، ص: 38.

أما التعبير بـ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ﴾ [البقرة: 198] وغيرهما من مواضع ورود هذا الأسلوب من النفي في عموم القرآن الكريم: فقد وردت في سياقات الحديث عن الآداب والأمور المعيشيّة اليوميّة كالبَيع والشّراء والتِّجارة وغيرها ممّا هو دون العبادات في الأهميّة؛ لذا كان من المناسب لها استعمال صيغة الجملة الفعليّة الأقلّ دلالة على الثّبوت.

فلغة القرآن الكريم تُؤثِر التّركيب الأوّل ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ على التّركيب الثّاني ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ﴾ في مقامات الحديث عن العبادات والحقوق والعَلاقات الأُسريَّة وأحكام تنظيمها، والّتي تستدعي التّوكيد؛ لأهميّة تلك الموضوعات التي يلائمُ مقاماتها وسياقاتها التّعبير الأوّل؛ لأنه يدُلُّ على الثّبوت؛ لاسميّة الجملة المُفتَتَحة بلا النّافيّة للجنس الّتي هي أقوى في النَّفي من ﴿لَيْسَ﴾، ولعلَّ ترادف توكيدين باسميّة الجملة وبالنَّفي بـ(لا) النَّافية للجنس كان أَقوى تجاوبًا مع مضمون سياقات تلك الآيات.

دلالة أل التعريف في ﴿ٱلنِّسَآءِ﴾:

أل في النساء للعهد والمَعهوداتُ هنّ الأزواجُ المتوفى عنها زوجها

و(أَلْ) في النِّساء للعهد، والمَعهوداتُ هي الأزواجُ المَذكورَةُ في قوله تعالى: ﴿وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا﴾، ولا يُمكِنُ حَملُها على الاستغراق؛ لأنَّ مِنَ النِّساء مَن يَحرُمُ التَّعريضُ بخطبتِهِنَّ في العِدَّة، كالرَّجعيّات والبائنات[1].

وجه إباحة التّعريض:

التَّعريض رأفة الله تعالى بعباده، وتيسير للمعتدّات من وفاة

أباح اللّه تعالى التَّعريض في قوله: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِۦ﴾ تيسيرًا على الرّاغبين في الزّواج مِن المُعتدّات مِن وفاة، وحَرَّم التّصَّريح في الحال، ثمّ قال: ﴿أَوْ أَكْنَنتُمْ فِىٓ أَنفُسِكُمْ﴾، والمُراد أن يَعْقِد قلبه أنّه سيصرّح بهذا في المستقبل، فالجملة الأولى لإباحة التَّعريض بالخِطبَة في الحال، وتحريم

(1) الآلوسّي، روح المعاني: 2/150.
وقد فَصَّل الفخر الرَّازي أحكام خِطبة النِّساء بقوله: " النِّساءُ في حُكمِ الخِطبَةِ على ثلاثة أقسام: أحدُها: الَّتي تَجوزُ خِطبَتُها تَعريضًا وتَصريحًا، وهي الَّتي تكونُ خاليةً عَنِ الأزواجِ والعِدَدِ، القسمُ الثّاني: الَّتي لا تجوزُ خِطبَتُها لا تَصريحًا ولا تَعريضًا، وهي ما إذا كانَت مَنكُوحَةً للغير، القسمُ الثّالثُ: أنْ يُفَصَّلَ في حَقِّها بَينَ التَّعريض والتَّصريح، وهي المُعتَدَّةُ غيرُ الرَّجعيَّة. والبائِنُ الَّتي يَحِلُّ لزَوجِها نِكاحُها في عِدَّتِها، وهي المُختَلِعَةُ والَّتي انفَسَخَ نكاحُها بعَيب أو عُنَّة أو إعسار نَفَقَتِه. ينظر: الفخر الرَّازي، مفاتيح الغيب: 6/130.

التّصريح في الحال، والجملة الثّانية ﴿أَوۡ أَكۡنَنتُمۡ فِيٓ أَنفُسِكُمۡ﴾ لإباحة التَّصريح بما عقد في قلب الخاطب بعد انقضاء العِدَّة في المستقبل[1]، وجاء قوله تعالى: ﴿عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمۡ سَتَذۡكُرُونَهُنَّ﴾ بمثابة التّعليل الّذي لأجله أباح ذلك.

وجه إباحة التَّعريض، وتحريم التَّصريح:

التَّصريح لا يَحتَمل غير النِّكاح؛ فلهذا حُرِّم

أجاب السَّعدِيّ عن هذا وفَصَّله بقوله: "وأمَّا التَّعريض، فقد أَسقَط تعالى فيه الجُناح، والفَرق بينهما: أنَّ التَّصريح لا يَحتَمل غير النِّكاح، فلهذا حُرِّم؛ خَوفًا من استعجالها وكَذِبها في انقضاء عِدَّتها رغبةً في النِّكاح، ففيه دِلالة على مَنع وسائل المُحرَّم، وقضاءً لِحقِّ زوجها الأوّل بعدم مُواعدتها لغيره مُدَّة عِدَّتها. وأمَّا التَّعريض الّذي يَحتَمِل النِّكاح وغيره فهو جائز للبائن كأنْ يقول لها: إنّي أريد التّزوّج، وإنّي أُحِبّ أن تشاوريني عند انقضاء عِدَّتك ونحو ذلك، فهذا جائز؛ لأنّه ليس بمنزلة الصّريح، وفي النّفوس داعٍ قَوِيٌّ إليه، وكذلك إضمار الإنسان في نَفسِه أنْ يَتَزَوّج مَن هي في عِدَّتها إذا انقضت، ولهذا قال: ﴿أَوۡ أَكۡنَنتُمۡ فِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمۡ سَتَذۡكُرُونَهُنَّ﴾ هذا التَّفصيل كُلُّه في مُقَدِّمات العَقد. وأمّا عَقدُ النِّكاح فلا يَحِلُّ ﴿حَتَّىٰ يَبۡلُغَ ٱلۡكِتَٰبُ أَجَلَهُۥ﴾ أي: تنقضي العِدّة."[2].

وزاد صاحب مَحاسن التَّأْويل سَبَبًا آخر لِتَحريم التَّصريح بالنِّكاح على مَنْ يرغب في الزَّواج مِن المُعتدَّة من وفاة زوجها فقال: "وإنَّما نهى عن ذلك؛ لأنَّ المُواعدةَ بذكر الجماع والرَّفَث بين الأجنبيِّ والأجنبيَّةِ غيرُ جائزٍ إجماعًا، كالمُواعدة بينهما على وجهِ السِّرِّ إذ لا تنفكُّ ظاهرًا عن أن تكونَ مُواعدةً بشيءٍ منَ المُنكراتِ."[3].

(1) زاده، حاشية على البَيضاويّ: 1/547.
(2) السَّعدي، تيسير الكريم الرّحمن: 1/170.
(3) القاسِميّ، محاسن التَّأْويل: 3/235.

دِلالة ﴿أَوۡ﴾ في قوله: ﴿أَوۡ أَكۡنَنتُمۡ﴾:

علم اللّهُ أنَّكُم ستذكُرُونَهُنَّ لا محالة

الإكنانُ: الإخفاءُ والسِّتر، وأفادت (أو) الإباحة، أي إباحة ما يُضْمَر في النِّفس بقوله: ﴿أَوۡ أَكۡنَنتُمۡ فِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ﴾. والمعنى: أو سَتَرتُم وأَضمَرتم في قلوبكم فلم تذكروه بألسنتكم لا مُعَرِّضين ولا مُصَرِّحين، عَلِمَ اللّهُ أَنَّكُم ستذكُرُونَهُنَّ لا محالة، ولا تنفكّون عن النّطق برغبتكم فيهنّ ولا تصبرون عنه[1].

سِرُّ عطف الإكنان على التّعريض:

العطف للتّنبيه على أنَّ العَزم أمرٌ لا يُمكنُ دَفعُه ولا النَّهيُ عنه، والرُّخصة رحمةٌ بالنّاس

عُطِفَ الإكنانِ على التَّعريض في قوله تعالى: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ فِيمَا عَرَّضۡتُم بِهِۦ مِنۡ خِطۡبَةِ ٱلنِّسَآءِ أَوۡ أَكۡنَنتُمۡ فِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ﴾ لرفع الحرج ونفي الإثم مع أنَّ التَّعريضَ من آثار الإكنان الّذي لا يكونُ إلّا عن عَزم في النَّفس؛ لأنَّ المُرادَ التَّنبيه على أنَّ العَزم أمرٌ لا يُمكِنُ دَفعُه ولا النَّهيُ عنه، فلمّا كان كذلك، وكان تَكَلُّمُ العازم بما عَزَمَ عليه جِبِلَّةً في البَشَر؛ لِضَعف الصَّبرِ على الكِتمان، بَيَّنَ اللّهُ مَوضِعَ الرُّخصةِ أنَّه الرَّحمَةُ بالنّاس مع الإبقاءِ على احترام حالة العِدَّة، مع بيان عِلَّة هذا التَّرخيص، وأنَّهُ يَرجِعُ إلى نَفي الحَرَج، ففيه حِكمَةُ هذا التَّشريعِ الَّذي لم يُبَيَّنْ لهم من قبل[2].

فائدة تأخير الإكنان عن التَّعريض:

التأخير للتَّنبيه على أنَّه أفضلُ وأبقى على ما للعِدَّةِ مِن حُرمَةٍ، وأنَّهُ نادِرٌ وُقُوعُهُ

أخّر الإكنانَ في الذِّكر؛ للتَّنبيه على أنَّه أفضلُ وأبقى على ما للعِدَّة مِن حُرمَةٍ، مع التَّنبيهِ على أنَّهُ نادِرٌ وُقُوعُهُ؛ لأنَّهُ لو قَدَّمَهُ لكانَ الانتقالُ مِن ذِكر الإكنان إلى ذِكر التَّعريض جارِيًا على مُقتَضى ظاهِر نَظم الكلام في أنْ يكونَ اللّاحقُ زائدَ المعنى على ما يَشمَلُهُ الكلامُ السّابقُ، ولم يَتَفَطَّنِ السّامِعُ لهذهِ النُّكتَة، فلمّا خُولِفَ مُقتضى الظّاهِرِ عَلِمَ السّامِعُ أنَّ هذهِ المُخالفةَ تَرمي إلى غَرَضٍ، كما هو شأْنُ البَليغِ في مُخالفةِ مُقتَضى الظّاهِرِ[3].

(1) الزّمخشريّ، الكشاف: 1/458.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/452.
(3) المصدر السابق نفسه: 2/453.

وقد زادَ ذلك إيضاحًا بقوله عَقِبَهُ: ﴿عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمۡ سَتَذۡكُرُونَهُنَّ﴾ أي: عَلِمَ أنَّكم لا تَستَطيعونَ كِتمانَ ما في أنفُسِكم، فأباحَ لَكُمُ التَّعريضَ تَيسيرًا عليكم، فَحَصَلَ بتأْخيرِ ذِكرِ ﴿أَوۡ أَكۡنَنتُمۡ﴾ فائِدَةٌ أُخرى؛ وهي التَّمهيدُ لقولِهِ: ﴿عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمۡ سَتَذۡكُرُونَهُنَّ﴾[1].

حَصَلَ بتأْخيرِ ذِكرِ (أكننتم) التَّمهيدُ

وفيه طَرَف مِن التّوبيخ؛ لدلالته على عدم صبرهم عن الرَّغبة في المُعتدّات، والسُّكوت عنهنَّ، وأيضًا لِقِلَّة التَّثَبُّت كقوله تعالى: ﴿عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمۡ كُنتُمۡ تَخۡتَانُونَ أَنفُسَكُمۡ﴾ [البقرة: 187].

بلاغة التعبير بلفظ ﴿سَتَذۡكُرُونَهُنَّ﴾:

وقوله: ﴿سَتَذۡكُرُونَهُنَّ﴾ شامِلٌ لذِكر اللِّسان وذِكر القَلب، فَنَفى الحَرَجَ عَنِ التَّعريض وهو كَسرُ اللِّسان، وعَنِ الإخفاء في النَّفس وهو ذِكرُ القَلب[2].

التعبير بهذا اللفظ شامِلٌ لذِكر اللِّسان وذِكر القَلب

وجه التّعبير بـ﴿أَكۡنَنتُمۡ﴾ دون: (كَنَنْتُم):

وقيل: ﴿أَوۡ أَكۡنَنتُمۡ فِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ﴾ ولم يقُل: أو (كَنَنْتُم)؛ لأنّ الإكنان الإخفاء في النَّفس، أي: الإخفاء المعنويّ، والكِنُّ هو الإخفاء الحِسِّيّ، وفي الصِّحاح: كَنَنْتُ الشَّيء: سترتُه وصُنته من الشَّمس. وأكنَنْتُهُ في نفسي: أسررته[3]، والدّليل على هذا قوله تعالى: ﴿مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمۡ﴾ [النّمل: 74]، وقوله: ﴿بَيۡضٞ مَّكۡنُونٞ ٤٩﴾ [الصّافات: 49]، وبناءً عليه فالهمزة في (أَكَنّ) للتَّفرقة بين الاستعمالين.

الإخفاء يكون حسّيًّا ومعنويًّا، والهمزة للتفريق بين الاستعمالين

بيانُ حذف مفعول من الفعل: ﴿أَكۡنَنتُمۡ﴾:

حُذِف مفعول الفعل: ﴿أَكۡنَنتُمۡ﴾، وهو الضّمير العائد على (ما) الموصولة في قوله: ﴿فِيمَا عَرَّضۡتُم﴾، والتّقدير: فيما أكننتموه في أَنفسكم، وفي هذا الحذف تجاوبٌ مع مدلول مادة الإكنان الّتي تدور حول السِّتر والإخفاء.

حَذف المفعول يتوافق مع دلالة مادَّة الإكنان الّتي تدور حول السِّتر والإخفاء

(1) المصدر السابق نفسه: 2/453.
(2) أبو حيَّان، البحر المحيط: 2/240.
(3) الجوهري، الصِّحاح: (كنن).

بلاغة الكناية في لفظ (السرّ):

وجه الكناية التَّعبيرُ عن معنى يُستَهجَن التَّصريح به:

و(السِّرّ) في قوله: ﴿وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا﴾ وقع كناية عن موصوف، وهو النِّكاح الّذي هو الوطء؛ لأنّه ممّا يُسَرُّ، ثمّ عُبِّر به عن النِّكاح الّذي هو العَقدُ لأنّه سببٌ فيه كما فُعِل بالنّكاح[1].

وعُبِّرَ به ﴿سِرًّا﴾ عن الوَطء؛ للإيذان بأنَّه ممّا ينبغي أنْ يُسَرَّ به ويُكتَم، وحَملُه على الوَطءِ رُبَّما يُوهِم الرُّخصَة في المَحظورِ الَّذي هو التَّصريح بالنِّكاح[2]، ويُذكَرُ السِّرُّ ويُرَادُ به الجِماع، قال امرؤ القيس:

أَلَّا زَعَمَتْ بَسباسَةُ القَومِ أَنَّني *** كَبِرتُ وأَلَّا يُحسِنَ السِّرَّ أَمثالي[3].

رَخَّصَ اللّه تعالى التَّعريض بالرّغبة في زواج المُعتدَّة؛ لِعلمِهِ تعالى بغلبة النُّفوس وضعفها

وإنَّما قيلَ للزِّنا والجِماعِ سرٌّ؛ لأَنَّه يكونُ في خفاءٍ بين الرَّجل والمرأة[4] فرفع اللّه الإثم عَمَّن أَرادَ تَزوُّجَ المُعتدَّة مع التَّعريضِ ومع الإكنان، ونهى عَنِ المُواعدةِ الَّتي هي تَصريحٌ بالتَّزويج، ورخَّص سبحانه بهذا؛ لِعلمه تعالى بغلبة النُّفوس وطَمَحِها، وضَعفِ البشرِ عَن كَبح جِماحها.

بلاغة جملة الاستدراك:

في الاستدراك تأكيدٌ للكلام السّابق، ومزيد تنبيه للنفس بعدم اقتراف الفعل

الاستثناء في قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا﴾ استثناء مُتَّصلٌ، والمعنى: لا تواعدوهن نكاحًا بقول من الأقوال، إلا بقول معروف، وهو التعريض[5]. والاستِدراك في قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا﴾ هو عن مَحذُوف دَلَّ عليه ﴿سَتَذْكُرُونَهُنَّ﴾ أي: فاذكُرُوهُنَّ ﴿وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ﴾ نِكاحًا، بلِ اكتَفوا بما رخَّصَ لكم من التَّعريض[6]. وبدء الجملة بأداة الاستدراكِ فيه تأكيد لما

(1) الزَّمخشريّ، الكشَّاف: 1/459.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 1/232.
(3) امرؤ القيس، ديوان امرئ القيس، ص: 147.
(4) البَغَويّ، معالم التَّنزيل: 1/164.
(5) السيوطي، نواهد الأبكار: 2/436.
(6) الآلوسّي، روح المعاني: 2/151.

قبله من كلام، وتنبيه للنفس للانتهاء عن القيام بفعل المواعدة بالسرّ.

فائدة الاستدراك استثناء وجه المواعدة سرًّا من مطلق الذِّكر

والاستدراك هنا مِن قوله: ﴿سَتَذۡكُرُونَهُنَّ﴾، والذِّكرُ يقع على أنحاءٍ وأوجهٍ، فاستدركَ منه وجهًا نهى فيه عن ذِكرٍ مَخصوصٍ، ولو لم يَستَدرِكْ لكان مأذونًا فيه لاندراجِهِ تحت مُطلَقِ الذِّكرِ الَّذي أخبَرَ اللّٰه بوقوعه[1].

وجه الاستثناء في قوله تعالى ﴿إِلَّآ أَن تَقُولُواْ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗاۚ﴾:

في الاستثناء تأكيدٌ بأنّ القولُ المعروفُ هو المأذونُ فيه

الاستثناء في الجملة استثناءٌ مُتَّصلٌ مِنَ المفعول المُطلق، والتّقدير: إلّا وعدًا معروفًا، وهو التَّعريضُ الَّذي في قوله تعالى: ﴿فِيمَا عَرَّضۡتُم بِهِۦٓ﴾، فإنَّ القولَ المعروفَ من أنواع الوعد، إلّا أنَّه غير صريحٍ، وإذا كان النَّهيُ عَنِ المُواعدةِ سِرًّا، عُلِمَ النَّهيُ عَنِ المُواعدةِ جهرًا بالأولى. والقولُ المعروفُ هو المأذونُ فيه، وهو التَّعريضُ، فهو تأكيدٌ لقوله تعالى: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ فِيمَا عَرَّضۡتُم بِهِۦٓ﴾[2].

علّة تسمية العُهود والأنْكحة عُهودًا:

سُمِّيَت العُهود والأنْكحة عُهودًا؛ لأنَّ أصلَ العَقدِ الشَّدُّ، والعهودُ والأنْكحةُ تُسَمّى عُقودًا؛ لأنَّها تُعقَدُ وتُوَثَّق كما يُعقَدُ الحبلُ ويُوَثَّق[3].

دلالة النَّهي بالكناية في قوله ﴿وَلَا تَعۡزِمُواْ عُقۡدَةَ ٱلنِّكَاحِ﴾:

النَّهي عن مُجَرد الهَمِّ بالعَقد والعزم عليه وإرادته نَهيٌ عن العَقد، أي: (الفعل)

إنَّ النَّهي عن مُجَرد الهَمِّ بالعَقد والعزم عليه الّذي هو سببٌ في الفعل ومُقَدَّمٌ عليه نَهيٌ عن العَقد، أي: الفعل مِن باب أولى بطريق الكِناية، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقۡرَبُواْ مَالَ ٱلۡيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ حَتَّىٰ يَبۡلُغَ أَشُدَّهُۥۚ﴾ [الأنعام: 152]، والمعنى: "لا تعزموا وجوب

(1) السيوطي، نواهد الأبكار: 2/436.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/453.
(3) الرازي، مفاتيح الغيب: 6/473.

النِّكاح؛ لأنَّ القَصد إليه حال العِدَّة يفيد مزيدَ تحريكٍ من الجانبين بحيث لا يُطاق معه الصّبر إلى انقضاء العِدَّة"[1].

علّة النَّصب بنزع الخافض:

ذِكـرُ العَـزم مبالغةٌ في النَّهي عن عَقد النّكاح في العدّة

جاء قوله: ﴿عُقۡدَةَ ٱلنِّكَاحِ﴾ منصوبًا بنزع الخافض؛ أي: الجارّ، فقيل: ﴿وَلَا تَعۡزِمُواْ عُقۡدَةَ ٱلنِّكَاحِ﴾ ولم يقُل: ولا تعزموا على النِّكاح؛ لأن ذِكرَ العَزم مبالغةٌ في النَّهي عن عَقد النّكاح في العدّة[2].

المـراد النَّـهي عن العَـزم على العَقد في العِدَّة

الإضافة في: ﴿عُقۡدَةَ ٱلنِّكَاحِ﴾ بيانيّة، والمُراد النَّهي على العَقد في العِدَّة، أمّا العَزم، والعَقد بعدها فَمُباح، وكأنَّ الآية الكريمة تُشير إلى أنَّ عُقدة النِّكاح تَمُرُّ بثلاث مراحل:

مرحلة التَّعريض، أي: التّلميح، ومرحلة العَزم الّذي لا يجوز ولا يستقيم إلاَّ بعد انتهاء فترة عِدَّة المُتَوَفّى عنها زوجها، ومرحلة العَقد. والحكمة من ذلك أن يأخذ كلّ طرف فرصته للتَّفكير بِرَوِيَّةٍ في هذا الأمر الجادِّ، فإنْ كان التَّفكير قد هَدى إلى العَزم فإنَّ للجادِّ أنْ يتقدّم بعد انتهاء العِدَّة لِيَعقِد، وإنْ لم يشعر باطمئنان فله أنْ يبتعد.

إنَّ الغرض من هذا التَّدَرُّج أخذ الوقت الكافي للتَّدبر في الأمر والتَّروِّي فيه؛ لخطورته وشدة أهميّته، وإعطاء الفرصة للتَّراجع إنِ اكتشف أَحَد الطَّرَفين في الآخر ما لا يروق له وما يُؤَزِّقه. وكُلُّ هذه الخُطوات تدُلُّ على أَنَّ العَقد لا يكون إلاَّ بعزم[3].

معنى جملة بلوغ الأجـل استـمرارُ النَّـهي عـن عَقد النِّـكـاح إلى أن تنقضي العِدَّة

وجه التعبير بـ﴿حَتَّىٰ﴾، ولفظ ﴿أَجَلَهُۥ﴾:

أشار قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَبۡلُغَ ٱلۡكِتَٰبُ أَجَلَهُۥ﴾ إلى غاية النَّهي عنِ التّحريم، والمعنى: يستمرُّ التَّحريم والنَّهي عن عَقد النِّكاح إلى

(1) القاسميّ، محاسن التَّأويل: 3/618.
(2) الزمخشري، الكشاف: 1/284.
(3) الشَّعراوي، تفسير الشّيخ الشّعراوي: 2/101.

أن تنقضي العِدَّة، وهذا ما دَلَّ عليه التّعبير بـ﴿حَتَّىٰ﴾ الّتي تُفيدُ زوال الحَظرِ وارتفاعه، وبلفظ ﴿أَجَلَهُۥ﴾ والمقصود به آخر مُدَّة العِدَّة.

سِرُّ التَّعبير بلفظ الكتاب:

إيثار لفظ الكتاب استجاشة عاطفة الإيمان عند المخاطَبين بِعَدم تجاوز ما هو مفروض ومُدَوَّن

المُراد بلفظ ﴿ٱلْكِتَٰبُ﴾ هنا وجهان[1]: الأوَّل: المكتوبُ، والمعنى: تَبلُغُ العِدَّةُ المَفروضةُ آخِرَها، وصارَت مُنقَضيَةً، والثّاني: أن يكونَ الكتابُ نَفسُهُ في معنى الفرض؛ كقوله ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾ [البقرة: 183]، فيكون المعنى حتّى يبلغَ هذا التَّكليفُ آخِرَهُ ونهايتَه. وإنَّما حَسُنَ أن يُعَبَّرَ عن معنى فَرَضَ، بلفظ (كَتَبَ)؛ لأنَّ ما يُكتَبُ أثبَتُ وآكَدُ في النُّفوس، وفيه كذلك إشارة إلى ضرورة الالتزام التَّام بتحريم التَّصريح بالنِّكاح والعَقد على المُعتدَّة حتى تفرُغ من عِدتَّها تمامًا، فالتّعبير عن ذلك بالكتاب فيه استجاشة لعاطفة الإيمان عند المخاطَبين بعدم تجاوز ما هو مفروض ومُدَوَّن.

نكتة ابتداء التذييل بلفظ العلم:

الخطاب بـ(واعلموا) قَطعٌ لِمَظِنَّة التَّساهل والتَّأوُّل

ابتُدِئَ الخطاب بـ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ﴾ قَطعًا لِمَظِنَّة التَّساهل والتَّأوُّل في هذا الشَّأن، لِيأتي النّاسُ ما شَرَعَ اللّٰهُ لهم عن صفاءِ سريرةٍ مِن كلِّ دَخلٍ وحيلةٍ[2].

بيان التهديد، والوعيد في مختتم الآية:

وجه الوعيد التَّنبيه على وجوب الحذر في كلِّ ما يفعلُهُ الإنسانُ في السِّرِّ والعلانية

خُتِمَت الآية بالتَّهديد والوعيد والتحذير في قوله تعالى: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ﴾ المعطوف على قوله﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِۦ مِنْ خِطْبَةِ ٱلنِّسَآءِ﴾، وهو تَنبيهٌ على أنَّه تعالى لمّا كان عالِمًا بالسِّرِّ والعلانية، وجَبَ الحذرُ في كلِّ ما يفعلُهُ الإنسانُ في السِّرِّ والعلانية[3].

(1) الرّازي، مفاتيح الغيب: 6/133.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/456.
(3) الرازي، مفاتيح الغيب: 6/473.

وجه التحذير قَرن الأحكام بالموعظة ترهيبًا وترغيبًا للتأكيد على تمثّلها

التّحذيرُ في ختام هذه الآية الكريمة راجعٌ إلى الأحكام الّتي تقدَّمت من التَّعريض وغيره، وقد وَرَدَ على سُنَن القرآن الكريم في قَرْن الأحكام بالموعظة ترغيبًا وترهيبًا تأكيد التَّمَسُّك بها وتنفيذها والمحافظة عليها[1].

سِرُّ التَّعبير بالجملة الاسميّة في التّذييل:

التعبير بالاسميّة تأكيدٌ لعلمه تَعالى بضَعف النَّفس البشريَّة

خُتِمَت الآية الكريمة بتذييل مُتَضَمَّن وعدًا بالمغفرة وذلك في قوله تعالى: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ لِمَن عزم ولم يَفعلْ خَشيَةً مِنَ اللَّه تعالى، ﴿حَلِيمٌ﴾ لا يُعاجِلُكم بالعقوبة. وثبات التّعبير بالجملة الاسمية تأكيد لعلمه تعالى بضَعف النَّفس البشريَّة في بعض الأحيان، وأنَّه لا يُعاجِل بالعقوبة، ويُعطي الفرصة للتَّوبة؛ لأنّه هو الغفور الحليم وفي ثبات هذين الوصفين فيه تعالى ترغيبٌ بالتَّوبة، والإنابة.

عِلَّة العُدول عن الإضمار إلى الإظهار:

عُدِل إلى إظهار الاسم الجليل؛ لإدخال الرَّوْعَة والمهابة على النّفوس

عُدِل عن إضمار الاسم الجليل إلى إظهاره في قوله: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾، حيث كان الظّاهر أن يُقال: واعلموا أنّه غفور حليم؛ لإدخال الرَّوْعَة والمهابة على النفوس[2].

قصدية التعبير عن مغفرته تعالى بصيغة المبالغة:

التّعبير بصيغة المبالغة (غفور) ترغيبًا في التوبة، لدوامها منه تعالى

قال البقاعي: "ولما كان الغالب على أحوال البشر أنَّ حليمَهُم إذا غضب لا يغفر، وإن عفا كان عفوه مكدَّرًا، قال تعالى: ﴿غَفُورًا ﴿٤٤﴾﴾ [الإسراء: 44] مشيرًا بصيغة المبالغة إلى أنه على غير ذلك ترغيباً في التوبة"[3]. بما تحمله الصيغة من معنى الدّوام.

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

التَّعريض والكناية:

التَّعريض أخفى من الكناية؛ لأنَّ الكناية عُدول عن الذِّكر

(1) محمّد رشيد رضا، تفسير المنار: 2/428.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/233.
(3) البقاعي، نظم الدّرر: 11/428.

الأَخَصِّ إلى ذِكرٍ يدُلُّ عليه، والتَّعريض دلالة على شيء ليس له فيه ذكر، كقولك: ما أقبحَ البُخلَ! تُعَرِّض بأَنَّه بخيلٌ، والكناية كقولك: رأيته وضربته، من غير أن تذكر اسمه[1].

أَو أنَّ الكنايةَ أنْ تَذكُر الشَّيء بِذِكر لوازِمِه، كقولك: فُلان عَريض القَفا، وفُلانٌ طويلُ النِّجادِ كَثيرُ الرَّمادِ، وفلانة نَؤوم الضُّحى. والتَّعريضُ أنْ تَذكُرَ كلامًا يَحتَمِلُ مَقصُودَكَ ويَحتَمِلُ غيرَ مَقصودِكَ، إلّا أنَّ قَرائنَ أحوالِكَ تُؤَكِّدُ حَملَهُ على مَقصودِكَ.

(1) الأَزهري، تهذيب اللّغة، والرَّاغب، المُفردات، وابن منظور، لسان العرب: (عَرَض).

﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ إِن طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمۡ تَمَسُّوهُنَّ أَوۡ تَفۡرِضُواْ لَهُنَّ فَرِيضَةٗۚ وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلۡمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلۡمُقۡتِرِ قَدَرُهُۥ مَتَٰعًۢا بِٱلۡمَعۡرُوفِۖ حَقًّا عَلَى ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٢٣٦﴾ [البقرة: 236]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمّا بيَّن تعالى حُكمَ المُطلَّقاتِ المدخولِ بهنَّ والمُتوفَّى عنهنَّ أزواجُهُنَّ، بيَّن في هذه الآية الكريمة حُكمَ المُطلَّقة غيرِ المدخول بها وغير المُسَمّى لها مَدخولًا بها أو غير ذلك[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿لَّا جُنَاحَ﴾: لا إثم، وسَبَق شرح معناه تفصيليًا في آية البقرة (233).

2) ﴿طَلَّقۡتُمُ﴾: الطَّلاق أصله من التَّخلية مِن الوثاق، يُقال: أَطلقتُ البعير مِن عِقاله، وأطلقتُ لك مِن مالي كذا: خَلَّيتُ عنه. ويُستعار التَّطليق لفراق الأَلم. وعَدَا الفرسُ طَلقًا أو طَلقَين اعتبارًا بتَخلية سبيله. وإطلاق اليد: سخاؤها كقولهم في العكس: يدُه مغلولةٌ، وغُلَّت يده. وفلان طَلْق المُحَيَّا وطَلْق الوجه: إذا لم يكن كالِحًا، والمُطْلَق يُقابل المُقَيَّد لغة وعُرفًا.

وهو في الشرع: حَلُّ عُقدة النِّكاح، بقول صريح، أو كناية من الزّوج بشروط، والارتباط وثيق بين المعنيَين: اللُّغويِّ والشرعِيِّ؛ لأنّه تخلية للمرأة من رَبَقَة الزَّوج. ويُقال: طَلَّقتُ المرأة فهي مُطَلَّقة وطالق، ويُقال للحلال طَلَق، أي: أنَّه غير مُقَيَّد على أَحد شرعًا[2].

3) ﴿تَمَسُّوهُنَّ﴾: "(مَسَّ) الميم والسِّين أَصلٌ صحيحٌ واحدٌ يدُلُّ على جَسِّ الشَّيءِ باليد. ومَسِستُهُ أَمَسُّهُ. ورُبَّما قالوا: مَسَستُ أَمُسُّ. والمَمسوسُ: الَّذي به مَسٌّ، كأَنَّ الجنَّ مَسَّتهُ. والمَسوسُ من الماء: ما نالته الأَيدي"، ومَسَّ يَمَسُّ وأَمَسُّ مَسًّا ومَسيسًا، والمَسُّ - أيضاً -: الجُنون، والمَمسوس: المجنون. وكنّي بالمسِّ عن النكاح، فقيل: مسّها وماسّها[3].

والمعنى: تجامعوهنَّ.

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/246.

(2) الرَّاغب، المفرادت، والسَّمين، عُمدة الحفَّاظ: (طلق).

(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (مَس)، والرَّاغب، المفرادت: (مسس).

4) ﴿أَوۡ تَفۡرِضُواْ لَهُنَّ فَرِيضَةٗۚ﴾: فَرض يَفرِضُ فَرضًا فهو فارِض، وهي مَفروضة، فرَضت الشَّيءَ أَفرِضه فَرضًا وفَرَّضتُه للتَّكثير: أَوجَبتُه. وفَرائضُ اللّهِ: حُدودُه الَّتي أَمرَ بها ونهى عنها، والفَرضُ: ما أَوجبه اللّهُ ﷻ، سُمِّي بذلك لأَنَّ له مَعالِمَ وحدودًا[1].

وقد ذُكِر الفَرضُ في القرآن على أوجهٍ عدّة منها: الإيجاب؛ كقوله تعالى: ﴿فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلۡحَجَّ﴾ [البقرة: 197]، والإحلال؛ كما في قوله تعالى: ﴿مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ مِنۡ حَرَجٖ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ﴾ [الأحزاب: 38]، والإنزال؛ كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِي فَرَضَ عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ﴾ [القصص: 85]، أي: أَنزل وأَوجب العمل به، وقِسْمة الصَّدقات والغنائم والميراث؛ كما في قوله تعالى: ﴿أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ لَكُمۡ نَفۡعٗاۚ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ﴾ [النّساء: 11]، أي: قِسْمة.

والمعنى المحوريّ للمادّة: قَطعٌ غائر (غير نافذ) في جُرم غليظ (يَرسَخُ فيه شيء). والفَريضة: الحِصَّة (القطعة) المفروضة على شخص بقدْر معلوم؛ كالمَهر في قوله تعالى: ﴿وَقَدۡ فَرَضۡتُمۡ لَهُنَّ فَرِيضَةٗ فَنِصۡفُ مَا فَرَضۡتُمۡ﴾ [البقرة: 237] ومنه: عِلم الفرائض، أي: ما فُرِضَ لكلّ وارث من الميراث، ومن ذلك أيضًا: الفريضة: مقدار الزّكاة في المال: ﴿فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ﴾ [التّوبة: 60]، وقوله تعالى: ﴿لَّأَتَّخِذَنَّ مِنۡ عِبَادِكَ نَصِيبٗا مَّفۡرُوضٗا ١١٨﴾ [النّساء: 118]، أي: محُدَّدًا، وقوله تعالى: ﴿فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلۡحَجَّ﴾ [البقرة: 197]، أي: أوقعه وأدّاه فيهنّ، أو شَرَع فيه. ومن الأصل يُؤخذ فَرضُ الشّيء بمعنى إلْزامه[2].

والمُراد هنا: تُقدِّروا لَهُنَّ مَهرًا.

5) ﴿وَمَتِّعُوهُنَّ﴾: (مَتَعَ) الميمُ والتَّاءُ والعينُ أَصلٌ صحيحٌ يدُلُّ على مَنفعةٍ وامتدادِ مُدَّةٍ في خيرٍ[3].

والمُتوعُ الامتداد والارتفاع، يُقال: مَتَعَ النّهار ومَتَع النّبات: إذا ارتفعَ في أول النّبات. والمَتاعُ: انتفاعٌ مُمتدُّ الوقت، يُقال: مَتَّعَهُ اللّه بكذا، وأَمتَعَهُ، وتمتَّعَ به، والقرآن ورد بالثاني، قال تعالى: ﴿وَمَتَّعۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ حِينٖ ٩٨﴾ [يونس: 98]، وكلُّ مَوضِع ذُكِر فيه تمتّعوا في الدّنيا فعلى طريق التّهديد، وذلك لمَا فيه من معنى التّوسُّع، واستَمتعَ: طلب التَّمتُّع. ويُقال لما يُنتفع به

(1) ابن منظور، لسان العرب: (فرض).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقي المُؤصَّل: (فرض).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (متع).

في البيت مَتاعٌ، والمَتاعُ والمُتعَةُ: ما يُعطَى للمُطلّقة لِتَنتفعَ به مُدّة عِدّتها، نحو قوله تعالى: ﴿فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ﴾ [الأحزاب: 49]، ومُتعةُ النّكاح هي: أنّ الرَّجُل كان يُشارِط المرأة بمال مَعلُوم يُعطيها إلى أجلٍ مَعلُوم، فإذا انقضى الأجلُ فارقَها من غير طلاق[1].

والمعنى هنا: أعطوا المطلَّقات شيئًا ينتفِعْنَ به جَبْرًا لهن.

6) ﴿عَلَى ٱلْمُوسِعِ﴾: والوُسْع والسَّعَة: الجِدَّة والطَّاقةُ، قال تعالى: ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ﴾ [الطلاق: 7]، أي على قَدْر غِناه وسَعَتِه، وأوسَعَ الرّجل إذا صار ذا سَعَةٍ وغِنًى، ويقال: أوسَعَ اللّه عليك، أي: أغناك. والتَوسيعُ: خلاف التّضييق. تقول: وسّعتُ الشّيء فاتَّسَع واستَوسَع، أي: صار واسعًا. وتَوَسَّعوا في المجلس، أي: تفسَّحوا[2].

والمُوسِعُ هنا: المُوسِرُ.

7) ﴿قَدَرُهُۥ﴾ قَدرُ الشّيء مَبلغه، والقَدَرُ والقَدْرُ: ما يُقَدِّرُه اللّه تعالى مِن القضاء. ورَجُلٌ ذو قُدْرة أي غِنى، وذو مَقدُرَة بالضَّم، أي: ذو يَسار أيضًا، ويقال: مالي عليه مَقْدَرَةٌ ومَقْدِرَةٌ ومَقْدُرَةٌ، أي قُدْرَةٌ[3].

وقد ورد القَدَر وما يتصرَّف منه في القرآن الكريم لمعانٍ مختلفة تصل إلى ستة معانٍ، منها: الشَّرَف والعَظَمة، نحو قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾ [القدر: 1]، وضِيق المعيشة، نحو قوله تعالى: ﴿يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾ [الشّورى: 12]، أي: يُضيّق[4].

ومعنى ﴿قَدَرُهُۥ﴾ هنا: مِقدارُ ما يُطيقُهُ الزَّوجُ، أَي: ما يليق بحاله مَقدورًا عليه.

8) ﴿وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ﴾: قَتَرَ: أَصل المادَّة يدُلُّ على تجميع وتضييق، مِن ذلك القُتْرة: بيتُ الصَّائد؛ وسُمِّي قُتْرَةً لضيقه وتَجَمُّع الصَّائد فيه؛ والجَمعُ قُتَر. والإقتَارُ: التَّضييقُ. يُقالُ: قَتَرَ الرَّجل على أَهله يَقتُرُ، وأَقتَر وقَتَّر. والقَتَر: الغُبارُ. والمُقتِرُ: الضَّيِّقُ الحال[5].

9) ﴿بِٱلْمَعْرُوفِ﴾: المعروفُ: اسمٌ لكلّ فعل يُعرَفُ بالعقل أو حَسَّنَه الشَّرع.

---

(1) الرَّاغب، المفردات: (متع).
(2) الجوهريّ، الصِّحاح: (وسع).
(3) الجوهريّ، الصِّحاح: (قدر).
(4) الفيروزابادي، بصائر ذوي التَّمييز: (قدر).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (قتر).

المَعْنى الإجْماليُّ:

لا إثم عليكم - أيُّها الأزواج - إن طلقَّتم النِّساء بعد العَقد عليهنَّ، وقبل أن تجامعوهنّ، أو تُحدِّدوا مهرًا لهنّ، ومتِّعوهنّ بشيء ينتفعنَ به جبرًا لهنّ، ودفعًا لوحشة الطّلاق، وإزالة الأحقاد. وهذه المتعة تجب بحسب حال الرَّجل المطلِّق، على الغني قَدْر سَعَة رزقه، وعلى الفقير قَدْر ما يملكه، متاعًا على الوجه المعروف شَرعًا، وهو حقٌّ ثابت على المُحسنين الّذين يُحسنون إلى المُطلّقات وإلى أنفسهم بطاعة اللّه[1].

الإيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

بلاغة العدول إلى الفصل في مطلع الآية:

وجه الفصل الاستئناف البياني لحكم ما يترتّب على الطلاق من دفع المهر

قوله تعالى: ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ إِن طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾: "استئناف تشريع لبيان حكم ما يترتب على الطلاق من دفع المهر، كله أو بعضه، وسقوطه وحكم المتعة مع إفادة إباحة الطلاق قبل المسيس. فالجملة مستأنفة استئنافا ابتدائيا"[2].

سرّ التعبير بـ﴿إن﴾ الشَّرطيَّة:

التعبير بـ(إن) إيماءٌ إلى عدم استحباب وقوع الطَّلاق:

الآية الكريمة خَبَرٌ برفع الحَرَج عَنِ المُطلِّق قبل البناء والمَسيس سواء فرض مَهرًا أَو لم يَفرِض، وهذا ما يُنبئ عنه قوله تعالى: ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ إِن طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمۡ تَمَسُّوهُنَّ أَوۡ تَفۡرِضُواْ لَهُنَّ فَرِيضَةٗ﴾ وقد أومأ التّعبير بإنْ الشّرطية الّتي تدُلُّ على الشَّك في وقوع الشَّرط إلى عدم استحباب وقوع الطَّلاق في هذه الحالة إلاَّ عند الضَّرورة؛ لمَا فيه من كَسرٍ للقلوب، فأُخرِج الخبر في صورة الأمر النّادر الّذي يُشَكّ في حصوله.

(1) نخبة من العلماء، التفسير الميسر، ص: 38.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/457.

وجه تعريف ﴿ٱلنِّسَآءَ﴾:

تعريف النساء هنا للجنس والمرادُ الأزواج

والنساء: الأزواج، والتعريف فيه تعريف الجنس، فهو في سياق النفي للعموم، أي لا جناح في تطليقكم الأزواج[1].

بلاغة الكناية في لفظ المسيس:

وجه الكناية التعبير عن قربان المرأة

والمسيس هنا كناية عن قربان المرأة[2]، أو عن الجِماع، وقوله: ﴿مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ﴾ من بديع الكنايات القرآنيّة الّتي تسمو بالأخلاق، وتُهذِّب السُّلوك، وتَرقى بالنَّفوس، وتَنأى بالمُسلم عن بذاءة القول، وإسفاف اللَّفظ، وفُحش الكلام، فكان التَّعبير عمَّا يُستَحَى مِن ذكره صراحة بتلك الكنايات الرَّاقية.

توجيه القراءات في صيغة المسيس:

القراءة بصيغة التفاعل دليلٌ على معنى المشاركة وعدمها

قرأَ حمزةُ والكسائيُّ وخلفٌ العاشرُ: ﴿مَا لَمْ تُمَـٰسُّوهُنَّ﴾ بصيغة المُشاركة (التَّفاعل) بالألف هاهنا؛ لأنَّ بَدَنَ كلِّ واحدٍ منهما يلاقي بَدَنَ صاحبِهِ كما قال اللّٰه تعالى: ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا﴾ [المجادلة: 3]، وقرأ الباقونَ ﴿تَمَسُّوهُنَّ﴾ بلا ألفٍ[3]؛ لأنَّ الغِشيانَ يكونُ مِن فِعلِ الرَّجلِ، بدليل قوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ﴾ [آل عمران: 47][4].

وجه قراءة ﴿تُمَـٰسُّوهُنَّ﴾ المشاركة ايضًا:

وجه قراءة ﴿تُمَـٰسُّوهُنَّ﴾ على صيغة المُفاعَلة الدّلالة على المشاركة من اثنين، ووجه دلالتها في هذا المقام أنَّ الفعل من الرَّجُل، والتَّمكين مِن المرأة.

دلالة (أو) في قوله ﴿أَوْ تَفْرِضُواْ لَهُنَّ فَرِيضَةً﴾:

(أو) بمعنى (حتَّى)، أو بمعنى إلَّا

(أو) في هذه الجملة الشّريفة بمعنى (حتَّى)، أو بمعنى إلَّا، والمعنى: حتّى تفرضوا لهنَّ صَداقًا، أو إلاَّ أنْ تَفرضوا لهنَّ صَداقًا،

(1) ابن عاشور، المصدر السابق نفسه: 2/458.
(2) ابن عاشور، المصدر السابق وحده: 2/458.
(3) ابن الجزري، النشر: 2/228.
(4) العليمي، فتح الرّحمن: 1/338، والبغويّ، معالم التّنزيل: 1/161.

والمعنى: لا طَلَبَ عليكم بشيء من الصّداق إنْ طلّقتم قبل الدّخول مالم تمسّوهنّ أو تفرضوا لهنَّ مَهرًا.

دلالة الأمر في الآية الكريمة للوجوب:

الأمر في قوله تعالى: ﴿وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ مَتَٰعًۢا بِٱلْمَعْرُوفِۖ﴾ للوجوب؛ لئلّا يكونَ عَقدُ نِكاحِ المُطلَّقة قبل الدُّخول والمَسيس خاليًّا من عوضِ المَهرِ، وجَبرًا لِكسر قلبها بطلاقها، وجَبرًا لوحشةِ الفِراقِ قبل الدّخول بها، والمعنى: زَوِّدوهنَّ وأَعطوهُنَّ مِن مالِكُم ما يَتمتعنَ به. وممَّا يؤكّد هذا أنَّ أصل الصِّيغةِ للوجوب مع قرينة قوله تعالى: ﴿حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾، وقوله تعالى في الآية الآتية: ﴿حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ۝٢٤١﴾ [البقرة: 241]؛ لأنَّ كلمةَ ﴿حَقًّا﴾ تُؤَكِّدُ الإلزام والوُجوب[1].

الأمر في الآية الكريمة للوجوب ضمانًا لعوض المهر، وجَبرًا لِكسر قلب المطلقة

والمرأة تستحقّ المُتعة دون المَهر إذا طُلِّقت قبل تسميّة المَهر، وقبل المَسيس، وإنّما تستحقّ المُتعة في مقابل ما حصل من العَقد عليها، وإنْ طلّقها بعد الدّخول وقبل الفَرض فلها مَهر مِثلها والمُتعة أيضًا[2].

علّة تأكيد الطلب في قوله: ﴿وَمَتِّعُوهُنَّ﴾:

قال أبو زهرة: "ولقد أكد سبحانه وتعالى الطلب في قوله: ﴿وَمَتِّعُوهُنَّ﴾ أكده بصيغة تفيد أن التمتيع لازم لَا مساغ من التخلص من لزومه، فقال سبحانه عز من قائل: ﴿حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾، أي أن التمتيع هو حق أي أمر ثابت لازم واجب على المحسنين"[3].

تأكيد الطلب أنّ التمتيع هو حق؛ أَيْ: أَمْرٌ ثابت لازم واجب على المحسنين

بلاغة الكناية عن الغِنى والفَقر والطَّاقة:

في قوله تعالى: ﴿وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ﴾ كِنايتان عن الغِنى والفَقر، أو سَعَة العيش وضيقه، وأمَّا القَدَر فكناية

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/458.
(2) الواحديّ، التّفسير البسيط: 4/200.
(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 2/829.

عن المُساواة في الطَّاقة والحال، فكُلٌّ يُعطي مُطَلَّقته ما تنتفع به زمن عِدَّتها على أن يكون هذا الانتفاع ممّا يمتدّ زمنًا؛ لِيُعين المُطلَّقة على التّخفيف من آثار الطّلاق قبل الدُّخول.

معنى الطِّباق إبرازُ معنى المساواة في التَّمتيع، وَتَأْكِيدُهُ

براعة الطِّباق بين ﴿ٱلْمُوسِعِ﴾ و﴿ٱلْمُقْتِرِ﴾:

بَينَ ﴿ٱلْمُوسِعِ﴾ و﴿ٱلْمُقْتِرِ﴾ طِباق يُبرِز معنى المساواة في التَّمتيع، ويؤكّده كُلٌّ على حسب قدرته وطاقته.

الباء لملابسة المتاع بالمعروف والالتصاق به

معنى الباء في لفظ ﴿بِٱلْمَعْرُوفِ﴾:

الباء في قوله: ﴿مَتَٰعًۢا بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ للملابسة، أي: متاعًا مُلتصِقًا بالمعروف ومُتلبِسًا به لا ينفكّ عنه.

التعبير بالمفعولين المطلقين تأكيدٌ للتمتيع

بلاغة التعبير بالمصدر:

وأكّد التّمتيع بمصدرين هما: المفعول المُطلق ﴿مَتَٰعًۢا﴾ وبمفعول مُطلق آخر، وهو قوله: ﴿حَقًّا﴾. وقد أدى هذا المعنى قوّة المصدر في الدلالة على المعنى وهو هنا إيجاب التمتيع بالمعروف، والحثّ عليه.

التتميم إتمام للمعنى، وبيانُ أنَّه مِن باب التَّفَضُّل والإحسان لا مِن باب الإيجاب

بلاغة التَّتميم في الآية:

في قوله تعالى: ﴿حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ تتميم بلاغيّ، بيان هذا أنَّه لَمَّا قيل: ﴿حَقًّا﴾ أفهَمَ الإيجابَ، فلمّا قال: ﴿عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ تَمَّمَ المعنى، وبَيَّنَ أنَّه مِن باب التَّفَضُّل والإحسان لا مِن باب الإيجاب، فلمّا قال: ﴿عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ تَمَّمَ التَّعميمَ، وبَيَّنَ أنَّه من باب التَّفَضُّل والإحسان، لا مِن باب الإيجاب[1].

وجه التقديم إفادة الاختصاص، والترغيب في الإحسان

نكتة تقديم المفعول على الجارّ والمجرور:

أفاد تقديم المفعول له ﴿حَقًّا﴾ على الجارّ والمجرور ﴿عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ الاختصاص، وفي هذا ترغيب في الإحسان وتأكيد عليه.

(1) أبو حيَّان، البحر المحيط: 2/247.

علّة التذييل بلفظ المحسنين:

أكّد تمتيع المُطَلَّقة قبل الدُّخول والّتي لم يُسَمَّ لها مَهرٌ عِوَضًا عن وَحشَة الطَّلاق وآثاره بقوله: ﴿حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾؛ للدّلالة على إلزاميّة التَّمتيع ووجوبه على المُحسنين إلى أنفسهم بإبعادهم عن ظُلم مُطَلَّقاتهم قبل الدّخول، والّذين يَتَحَرّون الإحسان إلى مَن عَقدوا عليهنَّ ولم تشأ الأقدار إكمال مسيرة الزّواج بهنَّ، " فالتّعبير بالمُحسنين؛ للإشارة إلى أنّ هذا الواجب هو من قَبيل الإحسان في المودّة، والإشعار بالقُربى في وقت الانفصال، ومنع الغَضاضة والألم، وتطييب القلوب، وهذا لا يُنافي الوجوب واللّزوم"[1].

التذييل بلفظ المُحسنين؛ للإشارة الى إلزاميّة التَّمتيع ووجوبه على المُحسنين إلى أنفسهم بإبعادهم عن ظُلم مُطَلَّقاتهم قبل الدّخول

فوجه تخصيص المحسنين في هذه الآية أنّه لما كان الإحسان قد يكون لما يريد على الواجب، وقد خصّ بذلك المحسنين دلّ على أن ذلك حقٌّ على المعروف لا الإيجاب، أو أنّ ذلك للمحسنين والمتقين لا لتخصيص الإيجاب، بل للتأكيد، وأنه من تمام الإحسان والتقوى، كما أن قوله: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢﴾ [البقرة: 2] ليس بتخصيص أنه لا يهدي به إلا المتقين، لكن يبينه على أن الاهتداء به من تمام التقوى[2].

التذييل بلفظ المُحسنين لا لتخصيص الإيجاب، بل للتأكيد، وهو من تمام الإحسان والتقوى

"وإنَّما حَسُنَ ذِكر الإحسان هنا؛ لأنّ المفروضَ غيرُ مُحَدَّد، والشَّارع يُحِبُّ بَسط الكَفِّ فيه، فَذَكَّر بالإحسان من أجل ذلك، وليبيّن أنّ المتعةَ ليست من قبيل الغرامة؛ إذ لو كانت غرامةً لا اختيارَ في قدرها كما لا اختيار في أصلها لَما تحقّقت بها الحِكمة "[3] فذِكر لفظ "المحسنين" في ختام الآية الكريمة فيه ترغيب في الإحسان، وحَضٌّ عليه.

في التذييل بلفظ (المحسنين) ترغيب في الإحسان وحَضٌّ عليه.

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 1/830.
(2) الراغب، تفسير الراغب: 1/490.
(3) محمّد رشيد رضا، تفسير المنار: 2/431.

بلاغة التعبير عن المحسنين على طريق المجاز المرسل:

صَـحَّ التعبير بالمجاز المُرسل بعلاقة ما يَؤول إليه

المُقَرَّر في قواعد النَّحو أنَّ اسم الفاعل يدُلُّ على مَن قام بالفعل، أو قام به الفعل، وهو ما لم يتحقّق هنا؛ لأنَّ الّذين يُحسِنون إلى المُطَلَّقات بالتَّمَتّع لم يَقُم بهم الإحسان إليهم بَعد، فَهُم إنَّما كُلِّفوا به في هذه الآية الكريمة، فسُمُّوا مُحسِنين واسم الفاعل لا يدُلُّ على المُستقبل إلاَّ تأويلًا، وتأويله أنَّه مِن باب المجاز المُرسل بعلاقة ما يَؤول إليه، كما في قول الرّسول ﷺ: «مَنْ قَتَلَ قَتيلًا فَلَهُ سَلَبُهُ»[1].

(1) زاده، حاشية على البَيضاوي: 1/549، والحديث أخرجه مُطوَّلاً البخاري، حديث رقم: (3142)، ومسلم، حديث رقم: (1751).

﴿وَإِن طَلَّقۡتُمُوهُنَّ مِن قَبۡلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدۡ فَرَضۡتُمۡ لَهُنَّ فَرِيضَةٗ فَنِصۡفُ مَا فَرَضۡتُمۡ إِلَّآ أَن يَعۡفُونَ أَوۡ يَعۡفُوَاْ ٱلَّذِي بِيَدِهِۦ عُقۡدَةُ ٱلنِّكَاحِۚ وَأَن تَعۡفُوٓاْ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۚ وَلَا تَنسَوُاْ ٱلۡفَضۡلَ بَيۡنَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ٢٣٧﴾ [البقرة: 237]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

بيانٌ بحُكم المُطلَّقة غير المدخول بها إذا كان قد سُمِّيَ لها مَهرٌ

ذَكَرَ اللّه تعالى في الآية السَّابقة حُكمَ المُطلَّقة قبل الدُّخول ولم يُفرَض لها مَهرٌ، وفي هذه الآية الكريمة بيان بحُكم المُطلَّقةِ غيرِ المدخول بها إذا كان قد سُمِّي لها مَهرٌ، فما دام لم يدخل بها زوجها ولم يستمتع بها فلها نصف المَهر ولا عِدَّة عليها.

"وقُدِّم حُكم الحال الأولى؛ لأنَّ عدم ذِكر المَهر مَظِنّة ألَّا تُعطى شيئًا إذا كان الطّلاق قبل الدُّخول فسيقَت الآية الكريمة ببيان هذا الوجوب؛ ليزول مِن الأفهام ما يُسبق إليها"[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تَمَسُّوهُنَّ﴾: المَسُّ لُغةً: اللَّمس، ويُطلَق على كلِّ ما يكون فيه إدراك بحاسة اللَّمس، ثمَّ أُطلِق على سبيل الكناية على كلّ ما يكون فيه إصابة حسِّيَّة أو معنويّة ولها مظهر حِسِّيّ؛ لذا كنَّى به القرآن الكريم عمَّا يكون بين الرَّجل وامرأته،[2]، كما في هذه الآية الكريمة والّتي قبلها، وفي مَواضعَ عديدة أخرى.

2) ﴿فَرَضۡتُمۡ لَهُنَّ فَرِيضَةٗ﴾: سبق شَرح هذا في الآية السّابقة.

3) ﴿فَنِصۡفُ﴾: النِّصف: الجُزء من اثنين على المساواة، وكلُّ

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 2/831.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 1/826.

شيءٍ بلغ نِصفَ غيره فقد نَصَفَه، يُقال: نَصَفَ النهارُ ينصُفُ، ونَصَفَ الماءُ القَدَحَ، ونصفَ السّاقَ إزاري، ونصفَ الغلامُ القرآنَ[1].

4) ﴿يَعۡفُونَ﴾: العَين والفاء والحَرف المُعتلّ أَصلان يدُلُّ أَحدُهما على تَركِ الشَّيءِ، والآخَرُ على طَلَبِهِ[2]. وعفا اللّه عن عبده: تَرَكه ولم يُعاقبه على إساءته تَفَضُّلًا منه ورحمة. وأصل العفو القَصْد لتناول الشَّيء، يُقال: عفاه واعتفاه، إذا قصده مُتناولًا لما عنده.

والمُراد هنا: أنَّ المطلقات يَتْرُكْنَ النِّصْفَ الَّذِي يَجِبُ لَهُنَّ عَلى الأَزْواجِ[3].

5) ﴿عُقۡدَةُ ٱلنِّكَاحِۚ﴾: العَقدُ: الجَمعُ بين أطراف الشّيء، ويُستَعمل أَصلًا في المحسوسات كالأجسام الصُّلبة كعَقد الحبل وعَقد البناء، ثمّ استُعير ذلك للمعاني نحو: عَقدِ البيع والعَهد وغيرهما، فيُقال: عاقَدتُه وعَقَدتُهُ وتَعاقَدنا وعَقَدتُ يمينَه ... والعَقدُ: مصدرٌ استُعمل اسمًا فَجُمِع نحو قوله تعالى: ﴿أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ﴾ [المائدة: 1]، والعُقدَةُ: اسمٌ لِمَا يُعقَدُ من نِكاح أو يَمين أو غيرهما، نحو قوله تعالى: ﴿وَلَا تَعۡزِمُواْ عُقۡدَةَ ٱلنِّكَاحِ﴾ [البقرة: 235][4].

والنِّكاح: النِّكاح له معنيان: الوَطء، وعَقد الزَّواج. "والنِّكاح لُغَةً: المُداخلة والاشتباك. ومنه: تناكحتِ الأشجار، أي: تداخلت أغصان بعضها في بعضٍ. ومنه قيل للوَطء نِكاحٌ، ويُطلَق على العَقد؛ لأنّه سببه"[5].

والّذي بيده عُقدة النِّكاح هو الزَّوج، والمراد هنا: تنازل الزَّوج عن حَقِّه بدفع المَهر كاملًا، وليس نِصفه لمُطلَّقته إحسانًا منه.

6) ﴿أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۚ﴾: القُربُ نقيضُ البُعدِ، قَرُبَ الشّيءُ يقرُبُ قُرباً وقُرباناً وقِرباناً: أَي دَنا، فهو قريبٌ، المفرد والمثنى والجمع في ذلك سواءٌ[6].

ويدور المعنى المحوريّ للتقوى حول الحِفظ من الأذى أو الضَّرَر باتّخاذ حاجز دونه: كالوقاية[7].

---

(1) الواحديّ، التَّفسير البسيط: 4/285.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عفو).
(3) الشوكاني، فتح القدير: 1/291.
(4) الرَّاغب، المفردات: (عقد).
(5) السَّمين، عُمدة الحفَّاظ: (نكح).
(6) ابن منظور، لسان العرب: (قرب).
(7) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المُؤصّل: (وقي).

والتّقوى شَرعًا: حِفظ النَّفس مِمَّا يُؤثِم، وذلك بترك المَحظور، ويَتِمُّ ذلك بترك بعض المُباحات[1].

والمعنى هنا: وأن تتسامحوا في الحقوق بينكم أقرب إلى خشية الله وطاعته.

7) ﴿وَلَا تَنسَوُاْ﴾: نَسِي ينسى نِسيانًا، والنُّون والسِّين والياء أَصلانِ صحيحانِ: يدُلُّ أَحدُهما على إغفالِ الشَّيءِ، والثَّاني على تَركِ شَيءٍ[2].

8) ﴿ٱلْفَضْلَ﴾: الفَضلُ والفَضيلةُ: ضدّ النَّقص والنَّقيصة. والإفضالُ: الإحسان. والجمع: فُضُول، وامرأة مِفضالَة، ورجل فَضَّالٌ ومِفضَلٌ ومِفضَالٌ كثير الفضل. والفضيلة: الدّرجة الرّفيعة في الفضل. وأَصل الفَضل الزِّيادة على الاقتصاد، وذلك ضربان: مَحمودٌ كفضل العِلم والحِلم، ومَذمومٌ كفضل الغضب على ما يجب أن يكون. والفضل في المحمود أكثر استعمالًا، والفضول في المذموم[3].

والمعنى هنا: ولا تَتْرُكُوا أنْ يَتَفَضَّلَ بَعْضُكم عَلى بَعْضٍ وأن يسامحوا في الحقوق.

9) ﴿بَصِيرٌ﴾: البَصَر يُقال للجارحة النّاظرة نحو، قوله تعالى: ﴿كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ﴾ [النحل: 77] وللقُوّة الّتي فيها، ويُقال لِقوَّة القلب المُدْرِكة بَصِيرَةٌ وبَصَرٌ، نحو قوله تعالى:

﴿فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ۝٢٢﴾ [ق: 22]، وجمع البصر أَبْصَار، وجمعُ البصيرة بَصَائِر قال تعالى: ﴿فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ﴾ [الأحقاف: 26]، ولا يكادُ يُقال للجارحة بصيرةٌ، ويُقال من الأوّل: أبصرتُ، ومن الثّاني: أبصرتُه وبصُرتُ به. وقلّما يُقال بصُرتُ في الحاسَّة إذا لم تُضامَّهُ رُؤيةُ القلب[4].

والبَصير: من أَسماء الله الحسنى، هو الَّذي يُشاهدُ الأَشياء كلَّها ظاهرَها وخافيها، ويبصر كل شيء وإن دق وصغر، ويبصر ما تحت الأرضين السبع كما يبصر ما فوق السموات السبع، والبَصَرُ عبارةٌ في حقِّه تعالى عَنِ الصِّفة الَّتي يَنكَشفُ بها كمالُ نُعوتِ المُبصَرات[5].

(1) الرَّاغب، المفردات: (وَقى).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نسي).
(3) الجوهريّ، الصِّحاح، والفيروزابادي، بصائر ذوي التَّمييز، والسَّمين، عُمدة الحفَّاظ: (فضل).
(4) الرَّاغب، المفردات: (بصر).
(5) ابن منظور، لسان العرب: (بصر)، والسعدي، تيسير الكريم الرحمن: 5/299.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

وإن طلَّقتم النِّساء بعد العَقْد عليهنّ، ولم تمسّوهنّ، ولكنّكم سَمَّيتم لهنَّ صَداقًا فلهنَّ نصف المَهر المُتَّفَق عليه، إلّا أنْ تُسامِح المُطلَّقاتُ فَيَترُكنَ نصف الصَّداق المُستحقّ لهنّ، أو يسمح الزَّوج بأن يترك للمُطلَّقة المَهر كلَّه تَفَضُّلًا منه وإحسانًا.

فتسامحكم -أيُّها الرِّجال والنِّساء- أقرب إلى خشية اللّه وطاعته، فلا تنسوا -أيّها النّاس- الفضل والإحسان بينكم، وهو إعطاء ما ليس بواجبٍ عليكم، والتَّسامح في الحقوق. فإنّ اللّه بما تعملون بصير، يُرغِّبكم في المعروف، ويحثُّكم على الفضل[1].

وترشد الآية إلى الحثِّ على المعاملة بالمعروف بين الأزواج والأقارب، وأن يكون العفو والمسامحة أساس التعامل فيما بينهم.

❁ الإيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

سرّ العدول عن التعبير بـ﴿وَإِن﴾ دون (إذا):

عُبِّر بـ(إنْ) ولم يُعَبَّر بـ(إذا) الّتي تدُلُّ على تحقّق وقوع الشَّرط في قوله: ﴿وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ﴾؛ للإشارة إلى عدم استحباب وقوع الطَّلاق في هذه الحالة إلاَّ عند الضَّرورة؛ لمَا فيه من كسرٍ للقلوب، وجرحٍ للمشاعر، وتمزيقٍ للأواصر؛ فأُخرِج الخبر في صورة الأمر النَّادر الّذي يُشَكُّ في حصوله.

التعبير بإنْ للإشارة إلى عدم استحباب وقوع الطَّلاق في هذه الحالة إلاَّ للضَّرورة

عِلَّة عدم التَّصريح بوجوب دَفْع نِصف المَهر:

صَرَّحتِ الآية الكريمة بوجوب نِصف المَهر في قوله تعالى: ﴿فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ﴾ ولم تُصَرِّح بوجوب دَفعه؛ لأنّه عسى أن يكون الزَّوج قد دَفَع المَهر مُقَدَّمًا كُلَّه أو بَعضه، فكان التّعبير بالوجوب؛ لِيُبَيِّن حَقَّ المُطَلِّق في استرداد أكثر من نصف ما دفعه،

عدم التَّصريح بالدفع لاحتمال أن يكون الزَّوج قد دَفَع المَهر مُقَدَّمًا كُلَّه أو بَعضه

(1) نخبة من العلماء، التفسير الميسر، ص: 38.

وليشمل وجوب الأداء ومقداره إن لم يكن قد أدَّى شيئًا، أو أدَّى أَقَل من النِّصف[1].

والمعنى: فلهنَّ نِصفُ ما قَدَّرتُم وسَمَّيتُم لهنَّ مِن المَهر، أو فالواجِبُ عليكم ذلك، وهذا صريحٌ في أنَّ المَنفِيَّ في الصُّورة السّابقة إنَّما هو تَبِعَة المَهر، وقُرِئَ (فَنِصفَ) بالنَّصبِ على معنى: فأدَّوا نِصفَ.

نُكتة تأخير حُكم تَسمية المَهر:

تأْخير حُكم التَّسمية مع أنَّها الأصلُ في العَقد، والأكثرُ في الوقوعِ مِن باب التَّدَرُّج في الأحكام، وذِكرِ الأشَقِّ فالأشَقِّ[2].

تأخير حُكم التَّسمية مِن باب التَّدَرُّج في الأحكام، وذِكرِ الأشَقِّ فالأشَقِّ

تأويل الاستثناء المُنقطع في قوله: ﴿إِلَّآ أَن يَعۡفُونَ﴾:

الضّمير في قوله: ﴿إِلَّآ أَن يَعۡفُونَ﴾ راجعٌ إلى المُطلَّقات، والاستثناء في قوله: ﴿إِلَّآ أَن يَعۡفُونَ﴾ استِثناءٌ مُنقطعٌ؛ لأَنَّ عَفوَه المُطلَّقات عَنِ النِّصفِ ليس مِن جنسِ أخذِهِنَّ.

وجه الانقطاع أَنَّ عَفوَه المُطلَّقات عَنِ النِّصفِ ليس مِن جنسِ أَخذِهِنَّ

مَرجِع الضّمير في قوله ﴿أَوۡ يَعۡفُوَاْ ٱلَّذِي بِيَدِهِۦ عُقۡدَةُ ٱلنِّكَاحِۚ﴾:

الضّمير في ﴿أَوۡ يَعۡفُوَاْ﴾ مقصودٌ به الزَّوج الّذي بيده عُقدة النِّكاح وليس الوَلِيَّ بدليل قوله تعالى: ﴿وَأَن تَعۡفُوٓاْ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۚ﴾؛ لأنّه ليس للوليِّ أن يَهَبَ مَهر وَلِيَّته صغيرة كانت أَم كبيرة، كذلك ليس المُراد بالعُقدة العَقد لكن المُراد به الأثر الّذي ينشأ عن العَقد، وهو فَكُّ تلك الرَّابطة بالطَّلاق، وهذا يملكه الزَّوج لا الوليِّ.

عودُ الضمير مقصودٌ به الزَّوج الّذي بيده عُقدة النِّكاح وليس الوَلِيَّ

وجه الكناية في التعبير عن اليَد:

ذُكِرت اليَد في قوله: ﴿أَوۡ يَعۡفُوَاْ ٱلَّذِي بِيَدِهِۦ عُقۡدَةُ ٱلنِّكَاحِۚ﴾؛ لأنَّ غالب الأعمال باليَد، فأُسندَت كلّها إليها فصار التَّعبير كِناية عن القُدرة على فَكِّ العلاقة الزَّوجيّة وإنهائها بالطَّلاق.

ذكر اليد لأنّ غالب الأعمال بها، فصار التَّعبير كِناية عن القُدرة على إنهاء الزواج بالطَّلاق

(1) محمّد أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 2/832.
(2) الآلوسّي، روح المعاني: 2/154.

سرُّ تَسمية التَّنازل عن نصف المَهر عَفوًا:

"تسمية هذا الإسقاطِ عَفوًا؛ لأنَّ نصفَ المَهرِ حقٌّ وجبَ على المُطلِّقِ للمُطلَّقةِ قبل البناءِ بما استَخَفَّ بها، أو بما أوحشَها، فهو حقٌّ وجبَ لغُرمِ ضُرٍّ، فإسقاطُهُ عَفوٌ لا محالة، أو عند عَفوِ الَّذي بيده عُقدَةُ النِّكاح. و(ال) في ﴿ٱلنِّكَاحِ﴾ للجنس، وهو مُتبادِرٌ في عَقد نكاح المرأة، لا في قبول الزَّوج"[1]؛ لأنّ فيه تنازُلًا عن حقوقٍ، وتسامحًا فيها، وهذا عَفو عن المطالبة بتلك الحقوق وإسقاطها.

العَفْوُ إسقاطُ نصفِ المَهرِ بوصفه حقًّا وجبَ على المُطلِّقِ للمُطلَّقةِ

يزاد على تعليل تَسمية التَّنازل عن نِصف المَهر عَفوًا أنَّه مَبنيٌّ على عادة القوم مِن سَوق المَهر كاملًا عند التّزوّج، فإذا طَلَّق رَجُل منهم ولم يُطالِب بالنِّصف فهو عَفوٌ، أو سُمِّي عَفوًا للمُشاكلة[2]، أو لوقوعه في صحبَة عَفو المرأة[3].

التسمية بالعفو مَبنيٌّ على عادة القوم مِن سَوق المَهر كاملًا عند التّزوّج، فإذا طَلَّق رَجُل منهم ولم يُطالِب بالنِّصف فهو عَفوٌ

ليس المراد بالعُقدة العَقد:

وليس المُراد بالعُقدة العَقدَ؛ لأنَّ العَقد هو الرَّبط الّذي يتمّ به الاتّفاق بين الرَّجُل والمرأة وبه يكون الزَّواج، أمَّا العُقدة فهي أَثَر هذا العَقد، أو الرَّابطة الّتي تكون بعد العَقد، وهذه تكون بيد الزَّوج لا بيد الوليِّ[4].

العُدول عن التَّعبير عن الزَّوج صراحة إلى الكِناية:

وقيل كِناية عن موصوف: ﴿أَوۡ يَعۡفُوَاْ ٱلَّذِي بِيَدِهِۦ عُقۡدَةُ ٱلنِّكَاحِۚ﴾ ولم يُقَل صراحةً: أو يَعفو الزَّوج؛ للإشارة إلى أنَّ الزَّوج هو الّذي يَملِك إنهاء تلك الرَّابطة الزَّوجيّة؛ لذا كان العَفو من جانبه أَحرى وأَولى[5].

في الكناية إشارة إلى أنَّ الزَّوج هو الّذي يَملِك إنهاء الرَّابطة الزَّوجيّة

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/463.
(2) المُشاكلة: هي أن تَذكر الشيَّء بلفظ غيره لوقوعه في صُحبته تحقيقًا أو تقديرًا. السَّكّاكي، مفتاح العلوم، ص: 200.
(3) الجَمَل، الفتوحات الإلهيّة: 1/194.
(4) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 2/833.
(5) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 2/833.

وفي قوله: ﴿ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِۚ﴾ عدول عن الحقيقة إلى المجاز؛حيث عَبَّرَ عَنِ الإيجاب والقَبول بالعُقدة الَّتي تُعقَدُ حقيقةً؛ لمَا في ذلك القولِ مِنَ الارتباط لكلِّ واحد مِنَ الزَّوجَينِ بالآخر[1].

الـعـدول عن الحقيقة إلى المجاز؛ لمَا في ذلك القول مِنَ الارتباط لكلِّ واحدٍ مِنَ الزَّوجَينِ بالآخر.

الحِكمة من التَّنازل عن الحقوق في هذه الحالة:

الحكمة مِن التَّنازل عن الحُقوق في هذه الحالة هي أن تُستَلَّ الضَّغائن الّتي تكون قد عَلِقت بالقلوب نتيجة الطَّلاق قبل الدُّخول وما يَستتبعه هذا من القيل والقال، فكان الإرشاد الإلهيّ للمُطَلِّقين والمُطَلَّقات في هذه الحالة بأنَّ التَّعامل يُستَحبُّ أن يكون بالفَضل لا بالعَدل، فإنْ كان الطَّلاق بسببها أو كانت هي راغبة فيه فلتتنازل عن نِصف مَهرها، وإن كان الرَّجُل هو الرَّاغب في الفِراق فلْيَترك ما له عند مُطَلَّقته من باب الإحسان إليها، وسَدًّا لباب النِّزاعات، وغَلقًا لسبل العداوات، وليبقى الذِّكر الحَسَن بعد الانفصال، لأنّ العَفوَ أي: ترك بعض الحقوق في هذا الوقت أقربُ لتقوى الله تعالى ونيل رضاه؛ لذا قال تعالى: ﴿وَأَن تَعْفُوٓاْ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰۚ وَلَا تَنسَوُاْ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْۚ﴾.

التَّنازل من باب الإحسان إليها، وسَدًّا لباب النِّزاعات، وغَلقًا لسبل العداوات

سرُّ العُدول عن حرف الانتهاء إلى حرف الاختصاص:

عُدِل عن حرف الانتهاء إلى حرف الاختصاص في قوله: ﴿وَأَن تَعْفُوٓاْ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰۚ﴾، حيث كان الظّاهر أن يُقال: وأن تعفوا أقرب إلى التّقوى، وذلك للدّلالة على سرعة الوصول للتَّقوى من باب العفو، وأنَّه ليس مُوصلًا للتّقوى فحسب بل يختصُّ بها، ويَثبت عليها.

دلالة حرف الاختصاص سرعة الوصول للتَّقوى من باب العفو، والاختصاص به

استعارة النِّسيان للتَّرك والإهمال:

في قوله: ﴿وَلَا تَنسَوُاْ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْۚ﴾ شُبِّه الإهمال والتَّرك وعدم الاهتمام بالنِّسيان على سبيل الاستعارة التّصريحيّة التّبعيَّة.

وجه الاستعارة تشبيه الإهمال بالنّسيان

(1) أبو حيَّان، البحر المحيط: 2/247.

براعة خِطاب التَّغليب:

تغليب المُذَكَّر على المُؤنث إشعارٌ بأنَّ الرِّجال هم الأَوْلى بهذا العَفو من النِّساء

المُخاطَب في قوله: ﴿وَأَن تَعۡفُوٓاْ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۚ﴾ الرِّجال والنِّساء، وكذلك في قوله: ﴿وَلَا تَنسَوُاْ ٱلۡفَضۡلَ بَيۡنَكُمۡۚ﴾، فجاء الخِطاب بصيغة المُذَكَّر مِن باب تغليب المُذَكَّر على المُؤنث إشعارًا بأنَّ الرِّجال هم الأَوْلى بهذا العَفو من النِّساء، والمعنى: عَفو بعضكم أيُّها الرِّجال والنِّساء أقربُ للتَّقوى، أي: أنَّ التَّنصيف وهو التَّعامل بالعَدل ليس مِن باب العَفو أو الفَضل. والمُراد بالتَّقوى الأُلفة وتطييب الخاطر مِن الجانبين.

فائدة عَطف التَذييل على التَذييل:

بيانُ العطف لزيادة التَّرغيب في العَفو والحثُّ على المُسارعة إليه، والتَّنافس فيه

جاء قولُه تعالى ﴿وَلَا تَنسَوُاْ ٱلۡفَضۡلَ بَيۡنَكُمۡۚ﴾ تَذييلًا آخر، مَعطوفًا على التَّذييل قبله ﴿وَأَن تَعۡفُوٓاْ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۚ﴾؛ لزيادة التَّرغيب في العَفو، والتَّعامل بالفَضل والإحسان؛ للتَّأليف بين القلوب الّتي فَرَّق الطَّلاق بينها، وأَشعلَ البغضاءَ في صدورها، وأَحلَّ الشِّقاق والتّنازع محلَّ التّآلف والتَّفاهم. والمعنى: لا تتركوه كالشَّيء المُهمَل المَنسِي بل تعاهدوه وتنافسوا فيه أيُّها الرِّجال والنِّساء فكلُّ مَن عفا له سَبقُ الفَضل على الآخر، ولا ينبغي لعاقلٍ أنْ يتقاعس عن ما فيه رِفْعَته على غيره، بل ينبغي له المُسارعة لذلك.

سر وجوب التزام الفَضل:

في تعاهُد الفضل عَونٌ كبيرٌ على الإلف والتَّحابُب

"والفضلُ: هو فعلُ ما ليس بواجبٍ مِنَ البرِّ، فهو مِنَ الزَّوج تَكميلُ المَهر، ومِنَ الزَّوجة تَركُ شَطرِهِ الَّذي لها "[1]. وأُمرُوا في هذه الآية المباركة بأنْ يتعاهدُوا الفَضل ولا يَنسَوه؛ لأنَّ نسيانَهُ "يُباعدُ بينهم وبينه، فيَضمَحِلُّ منهم، ومُوشِكٌ أنْ يَحتاجَ إلى عَفوِ غيره عنه في واقعة أُخرى، ففي تعاهُده عَونٌ كبيرٌ على الإلف والتَّحابُب، وذلك سبيل واضح إلى الاتّحاد والمُؤاخاة والانتفاع بهذا الوصفِ عند حُلول التَّجرِبة.

(1) أبو حيَّان، البحر المحيط: 2/247.

نكتة التعبير بالظرف:

في كلمة ﴿بَيۡنَكُمۡۚ﴾ إشارة إلى تعامل الناس بالعفو فيما بينهم، إذا لم يُنسَ تعامُلُ النّاس به بَعضهم مع بعضٍ[1].

براعة التذييل بإنَّ واسميّة الجملة:

وجه هذا التذييل الترغيب في تَعاهُد الفَضل والالتزام به

خُتِمت الآية المباركة بِتَعليلٍ مُؤكَّدٍ بإنَّ واسميّة الجملة في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾ ترغيبًا في تَعاهُد الفَضل والالتزام به في أمثال تلك الحالات من النِّزاعات والخلافات والفِراق.

وجه التذييل أيضًا التعريض بأنَّ التَّعامل بالفَضل والإحسان والعَفوِ إنَّما هو سبيلُ مَرضاة اللَّه تعالى

وهنا تَعريض أيضًا بأنَّ التَّعامل بالفَضل والإحسان والعَفوِ إنَّما هو سبيلُ مَرضاة اللَّه تعالى، فهو سبحانه بصير، مُطَّلع على أعمال عباده، يجازي بالإحسان إحسانًا، وفيه كذلك إلهاب وتهييج للرِّجال والنِّساء المُخاطَبين بالتزام العفو والتّحَلِّي بالإحسان؛ لأنّه سبحانه يعلم خائنة الأعين وما تُخفي الصُّدور، وخَلَجات النُّفوس، ومَكنون الضَّمائر، فلْيعلم المخاطبون ذلك؛ "فإنَّ العِلم به يُرَبِّي فيهم المَهابة منه سبحانه وتعالى، إذ يشعرون بِرقابته فَيُكَفكفون مِن غضبهم، ويُنَهنِهون مِن حِدَّتهم وَقت الطَّلاق حتَّى لا يذهب بهم فَرْط الغَضَب إلى نسيان المَعروف، وتجاهل الفَضل، فلا يُسَرِّحوا بإحسان بعد أنْ فات الإمساك بمعروف."[2].

سرُّ ختام هذه الآية الكريمة بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾ وختام الآية: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوۡنَ مِنكُمۡ وَيَذَرُونَ أَزۡوَٰجٗا يَتَرَبَّصۡنَ﴾ بقوله: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ﴾:

ناسب مشهد دفع نصف المقبوض المجيء بالصِّفة المتُعلِّقة بالمبُصَرات

جاء ختام هذه الآية المباركة بهذه الصِّفة ﴿بَصِيرٞ﴾ الدّالَّة على المُبصَراتِ مُنسجمًا مع مضمون الآية؛ لأنَّ ما تَقَدَّمَهُ مِنَ العَفو مِنَ المُطلَّقات والمُطلِّقين، وهو أنْ يَدفعَ نِصفَ ما قبضْنَ أو يُكملون لهُنَّ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/464.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 2/834.

الصَّداقَ، هو مُشاهدٌ مَرئيٌّ، فناسب ذلك المجيءَ بالصِّفة المُتعلِّقة بالمُبصَرات.

وختام هذه الآية بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾ وعدٌ جميلٌ وترغيب للمُحسن وحِرمانٌ لغير المُحسن[1].

ناسب ما يُدرَكُ بلُطفٍ وخَفاءٍ لفظ الخبير

ولمّا كان آخرُ قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوۡنَ مِنكُمۡ﴾ [البقرة: 234]، وقوله: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ فِيمَا فَعَلۡنَ فِيٓ أَنفُسِهِنَّ﴾ [البقرة: 234] ممّا يُدرَكُ بلُطفٍ وخَفاءٍ، وممَّا يُمكِن التَّدليس فيه والخداع؛ كان مِن المناسب خِتامها بقوله: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ﴾. وختام هذه الآية بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾ وعدٌ جميلٌ وترغيب للمُحسن وحِرمانٌ لغير المُحسن[2].

(1) أبو حيَّان، البحر المحيط: 2/247.
(2) أبو حيَّان، البحر المحيط: 2/247.

﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلۡوُسۡطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ٢٣٨﴾

[البقرة: 238]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

المناسبة بين أحكام الأسرة وبين الصّلاة الّتي تعين على الالتزام بالأحكام والتّشريعات:

المحافظة على الصّلاة تزكيَةٌ تنعكس على المعاملات الفرديّة والأسريّة

تحدَّث السِّياق السَّابق عن أحكام النِّكاح والطَّلاق والعِدَّة، وفيها أوامر ونواهٍ قد يُشَقُّ على البعض الالتزام بها، فجيء بما يشدُّ عضدهم، ويُقَوِّي عزائمهم، ويشحذ هِمَمَهم، للامتثال بما وَرَد من أحكام، ولا أفضل من الحديث عن عِماد الدِّين، وعمود الإسلام بما تشتمل عليه مِن انقياد وتذلّل وخضوع وخشوع ودعاء؛ لتكون عَوْنًا لَهُم على تطبيق ما سبق من تشريع وأحكام، وكأنَّ الآية الكريمة تقول للمخاطبين: إنْ أردتم التَّنفيذ والانقياد؛ فعليكم بالصَّلاة، فهي السَّبيل القويم، والمِنْهاج الواضح الّذي يعينكم على التَّقَيُّد بأحكام ربِّكم. قد فَصَّل الفَخْر الرَّازيّ تلك المناسبة بقوله: "اعْلَمْ أنَّه سُبْحانَه وتَعالى لَمّا بَيَّن لِلْمُكَلَّفِينَ ما بَيَّنَ مِن مَعالِمِ دِينِهِ، وأوْضَحَ لَهم مِن شَرائِعِ شَرْعِهِ؛ أمَرَهم بَعْدَ ذَلِكَ بِالْمُحافَظَةِ عَلى الصَّلَواتِ، وذَلِكَ لِوُجُوهٍ:

أحَدُها: أنَّ الصَّلاةَ - لِما فِيها مِنَ القِراءَةِ والقِيامِ، والرُّكُوعِ والسُّجُودِ، والخُضُوعِ والخُشُوعِ - تُفِيدُ انْكِسارَ القَلْبِ مِن هَيْبَةِ اللَّهِ تَعالى، وزَوالَ التَّمَرُّدِ عَنِ الطَّبْعِ، وحُصُولَ الِانْقِيادِ لِأوامِرِ اللَّهِ تَعالى، والِانْتِهاءِ عَنْ مَناهِيهِ، كَما قالَ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ﴾ [العنكبوت: 45].

والثّانِي: أنَّ الصَّلاةَ تُذَكِّرُ العَبْدَ جَلالَةَ الرُّبُوبِيَّةِ، وذِلَّةَ العُبُودِيَّةِ،

وأمْرَ الثَّوابِ والعِقابِ، فَعِنْدَ ذَلِكَ يَسْهُلُ عَلَيْهِ الانْقِيادُ لِلطّاعَةِ، ولِذَلِكَ قالَ: ﴿ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ﴾ [البقرة: 153][1]. وأضاف صاحب "روح المعاني" لبيان المناسبة، حيث قال: "ولَعَلَّ الأمْرَ بِها عَقِيبَ الحَضِّ عَلى العَفْوِ والنَّهْيِ عَنْ تَرْكِ الفَضْلِ؛ لِأنَّها تُهَيِّئُ النَّفْسَ لِفَواضِلِ المَلَكاتِ، لِكَوْنِها النّاهِيَةَ عَنِ الفَحْشاءِ والمُنْكَرِ، أوْ لِيُجْمَعَ بَيْنَ التَّعْظِيمِ لِأمْرِ اللَّهِ تَعالى والشَّفَقَةِ عَلى خَلْقِهِ"[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

المراد بالمحافظة على الصلاة المُداومة على أدائها في أوقاتها

1) ﴿حَٰفِظُواْ﴾: من الفعل (حَفِظَ): الْحَاء وَالْفَاء وَالظَّاء أَصْلٌ وَاحِدٌ: يَدُلُّ عَلَى مُرَاعَاة الشَّيْء، يُقَالُ: حَفِظْتُ الشَّيْءَ حِفْظًا، وَالتَّحَفُّظُ: قِلَّةُ الْغَفْلَةِ، وَالْحِفَاظُ: الْمُحَافَظَةُ عَلَى الْأُمُورِ، وأَصْل الحِفْظ: المنع للشّيء بتفقّده ورعايته، ومنه حِفْظ الدَّرس، وهو مَنْع ما تدرسه أن يَشُذَّ عنك[3]، و"الحِفْظ: نقيض النِّسيان، وهو التَّعاهدُ وقلّة الغَفْلة، والحَفيظ: المُوَكَّل بالشّيء يحفَظُه، والحَفَظَةُ جمع: الحافظ، وهم الّذين يُحصُون أعمال بني آدَم من الملائكة، والاحتفاظ: خُصُوص الحفظ، تقول: احتفظت به لنفسي، واستَحْفَظْتُه كذا، أي: سألته أن يحفَظه عليك"[4].

ومعنى الآية: المداومة على أداء الصّلوات في أوقاتها، قَالَ الأزهريّ: "أَي: واظبوا على إقَامتها فِي مَواقيتها"[5].

2) ﴿ٱلصَّلَوَٰتِ﴾: جمع مفرده: الصَّلاة، وهي لُغَةً: الدُّعاء، يقال: صَلَّيْتُ عليه، أي: دَعَوتُ له، ومِنه قوله ﷺ: «إذا دُعي أحدُكُم إلى طعام فَلْيُجِب، فإن كان مُفْطِرًا؛ فليأكل، وإن كان صائمًا؛

(1) الرَّازي، مفاتيح الغيب: 6/145.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 2/157.
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والسَّمين، عُمْدة الحُفَّاظ: (حَفِظَ).
(4) الخليل، كتاب العين: (حفظ).
(5) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (حَفِظَ).

فليُصَلّ»[1]، أي: لِيَدْعُ لأهل الطعام، وصَلَاةُ اللّهِ للمسلمين: تزكيته إيّاهم، قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ﴾ [البقرة: 157]، ومن الملائكة: الدّعاء والاستغفار، كما هي من النّاس، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ﴾ [الأحزاب: 56]، والصَّلَاةُ الّتي هي العبادة المخصوصة، أصلها: الدّعاء، وسمّيت هذه العبادة به كتسمية الشّيء باسم بعض ما يتضمّنه[2].

لفظ (الوُسْطى) مُؤَنَّثُ الأَوْسَط، وهُوَ خِيارُ الشَّيْءِ وأَعْدَلُهُ

3) ﴿ٱلۡوُسۡطَىٰ﴾: وَسَطَ: الْوَاوُ وَالسِّينُ وَالطَّاءُ: بِنَاءٌ صَحِيحٌ يَدُلُّ عَلَى الْعَدْلِ وَالنَّصَفِ، وَأَعْدَلُ الشَّيْءِ: أَوْسَطُهُ وَوَسَطُهُ[3]، والوُسْطى: فُعْلى مُؤَنَّثَةُ الأَوْسَط، كَما قالَ أَعْرابِيٌّ يَمْدَحُ رَسُولَ اللّهِ ﷺ:

يا أَوْسَطَ النّاسِ طُرًّا في مَفاخِرِهِمْ *** وأَكْرَمَ النّاسِ أُمًّا بَرَّةً وأبا

وهُوَ خِيارُ الشَّيْءِ وأَعْدَلُهُ، كَما يُقالُ: فُلانٌ مِن واسِطَةِ قَوْمِهِ، أيْ: مِن أَعْيانِهِم[4].

والصلاة الوسطى اختلف أهل العلم في تعيينها على ثمانيةَ عشر قولا، وأرجح الأقوال وأصحُّها ما ذهب إليه الجمهور من أنها صَلَاة الْعَصْر، وَإِنَّمَا سمّيت وسطى؛ لِأَنَّهَا بَين صَلَاتَيْن فِي اللَّيْل، وصلاتين فِي النَّهَار، وسمّيت باسم الوَقْت، كَمَا سمّيت الظُّهْر باسم الوَقْت[5].

قوله تعالى: ﴿وَقُومُواْ﴾، قام يقوم قَوْمًا وقِيَامًا وقَوْمة وقامة، فهو قائم، والقِيام والقِوَام: اسم لِما يَقوم، ويُثَبَّت به الشَّيء، كالعِماد والسِّناد لما يُعمد، ويُسْنَد به، والقِيام على وجوه: قِيام بالشَّخص، ويكون إمَّا بالتَّسخير، نحو قوله تعالى: ﴿مِنۡهَا قَآئِمٞ وَحَصِيدٞ ١٠٠﴾ [هود: 100]، وإمَّا باختيار نحو قوله تعالى: ﴿أَمَّنۡ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ سَاجِدٗا وَقَآئِمٗا﴾ [الزمر: 9]، ويكون بمعنى: مراعاة الشّيء، نحو قوله تعالى:

(1) مُسْلِم، صحيح مسلم، حديث رقم: (1431).
(2) الراغب، المفردات: (صلا)، والأبياريّ، الموسوعة القرآنيّة: 8/322.
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (وَسَطَ).
(4) أبو حيَّان، البحر المحيط: 2/249.
(5) ابن قتيبة، غريب الحديث: 1/179، والشوكاني، فتح القدير: 1/293.

﴿كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ﴾ [المائدة: 8]، ويكون بمعنى: العَزْم نحو قوله تعالى: ﴿إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾ [المائدة: 6] وقوله تعالى: ﴿وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [البقرة: 3] أي: يُديمون فِعْلها، ويُحافظون عليها، وهذا هو المعنى المراد هنا[1].

وقوله تعالى: ﴿وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ﴾ [البقرة: 238]، أي: قوموا لله طائعين في الصّلاة مطيعين، ويقال: صلُّوا لله قائمين، فكأنّه أمر بطول القيام في الصّلاة، كما قال في آية أخرى: ﴿يَٰمَرۡيَمُ ٱقۡنُتِي لِرَبِّكِ﴾ [آل عمران: 43][2].

4) ﴿قَٰنِتِينَ﴾: قَنَتَ يَقْنُت قُنوتًا: أطاع اللّه، وخَضَع له، وأَقَرَّ بالعبوديَّة، وهذا هو المعنى المراد هنا، وقَنَت: أطال القِيام في الصَّلاة وفي الدُّعاء، فهو قانت، والجمع (قُنَّتٌ)[3]، و"الْقُنُوتُ: قِيلَ: هُوَ الطَّاعَةُ، أَيْ: قُومُوا لِلَّهِ فِي صَلَاتِكُمْ طَائِعِينَ، قَالَهُ جَابِرُ بْنُ زَيْدٍ وَعَطَاءٌ وَسَعِيدُ بْنُ جبير والضّحّاك والشّافعي، وَقِيلَ: هُوَ الْخُشُوعُ، قَالَهُ ابْنُ عُمَرَ وَمُجَاهِدٌ، وَمِنْهُ قَوْلُ الشَّاعِرِ:

قَانِتًا لِلَّهِ يَدْعُو رَبَّهُ *** وَعَلَى عَمْدٍ مِنَ النَّاسِ اعْتَزَلْ

وَقِيلَ: هُوَ الدُّعَاءُ، وَبِهِ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ، وَفِي الْحَدِيثِ: «أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَنَتَ شَهْرًا، يَدْعُو عَلَى رِعْلٍ وَذَكْوَانَ»، وَقَالَ قَوْمٌ: إِنَّ الْقُنُوتَ طُولُ الْقِيَامِ، وَقِيلَ: مَعْنَاهُ: سَاكِتِينَ"[4].

المَعْنى الإجْماليُّ:

الصّلاة صلة مع الخالق، ومشاركة في العبوديّة لله مع الخلائق

داوموا - أيّها المسلمون - على الصّلوات الخمس المفروضة، والتزموا بأدائها في أوقاتها بشروطها وأركانها وواجباتها، ولا يَشْغلنَّكم عنها شاغل، وواظبوا على الصَّلاة المتوسّطة بينها، وهي صلاة العصر، وقوموا في صلاتكم مطيعين لله، خاشعين مُنيبين، وإنّما خصّ الله الصّلاة الوسطى بالذّكر، "تنبيهًا على شرفها في جنسها، وتذكيرًا بها، سواء أكانت صلاة الظّهر - بسبب شدّة الحرّ

(1) الفيروزابادي، بصائر ذوي التَّمييز: 4/307.
(2) السّمرقنديّ، بحر العلوم: 1/157، والحديث أخرجه مسلم برقم: (756).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (قَنَتَ).
(4) الشّوكانّي، فتح القدير: 1/296، وحديث قنوت النّبيّ ﷺ أخرجه البخاريّ، حديث رقم: (1003) ومسلم، حديث رقم: (677).

في الأقاليم الحارّة، ولأنهّا في وسط النّهار، كما رجّح القرطبي - أم صلاة العصر، حيث يشغل النّاس عنها؛ لإنهاء أعمالهم اليوميّة، وشكرًا للّه تعالى على التّوفيق في إنجاز العمل اليوميّ الّذي يعود بالثّمرة الطّيبة على النّفس والأهل والوطن"[1].

❁ الإيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

علّة العدول إلى الفصل في مطلع الآية:

موقع هذه الآية موقع الجملة المعترضة بين أحكام الطلاق والعدد

هذه الآية المباركة نزلت عقب آيات تشريع العدة والطلاق لسبب اقتضى ذلك من غفلة عن الصلاة الوسطى، أو استشعار مشقّة في المحافظة عليها، فموقع هذه الآية موقع الجملة المعترضة بين أحكام الطلاق والعدد[2].

سِرُّ توسيط آية الصَّلاة بين الآيات الخاصَّة بأحكام المُعْتدات:

صرف الكلام إلى ذكر المحافظة بين حكمي الطلاق والعدة يندرج فيما يسمى بـ(التفات المعدود في بديع الكلام)

قد يبدو أنَّ إفراد كل باب من الحكم أحسن في الترتيب من خلط بعضه ببعض، لكنّ نَظْمَ القرآن نظمٌ خاصٌّ؛ فآياته منزَّلة بحسب الحاجات فاللّه تعالى لا يخلي شيئاً يذكره مما تعلق بالأحكام الدنيوية إلا ويقرنه بحكم أخروي لينبههم إلى مراعاة الآخرة في جميع أحوالهم وأعمالهم، وأنها هي المقصودة بالقصد الأول فهو هنا لما حثَّهم على العفو ورغبهم في المحافظة على الفضل، عرَّفهم أن السَّلوك إلى التَّخصيص بذلك هو المحافظة على الصلوات في كل حال، فإن الصلاة هي الآمرة بالمعروف، والناهية عن المنكر، ثم صرف الكلام إلى ذكر ما كان بصدده، فتمَّمَهُ، وهذا النحو من جنس ما يسمى بالتفات المعدود في بديع الكلام[3].

والسِّرّ في التوسيط أن يتوسّط التَّهذيبُ النَّفسيُّ التَّعاملَ

(1) الزّحيلّي، التّفسير المنير: 2/394.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/465.
(3) الراغب، تفسير الراغب: 1/494.

وجه إيراد آيات الصلاة أن يتوسّط التَّهذيبُ النَّفسيِّ التَّعاملَ الاجتماعيِّ

الاجتماعيّ، وليتبيّن المؤمن أنَّ التَّقوى أساس الصِّلات الّتي تربط آحاد الأسرة، وأنَّ التّقوى لازمة؛ لتكون روح الاتّصال وميزان الاعتدال عند قِيام الحياة الزَّوجية وعند انقطاعها، وإن التَّعرض للصَّلاة في هذا الجوّ الخاصّ بأحكام المطلّقات والمعتدّات يوحي بأنَّ الطّاعة للّه في كلّ هذا عبادة كعبادة الصّلاة ومن جِنْسها[1].

سرّ التوسيط الحاجةُ إلى مذكّر عمليّ يصل الإنسان بالله

الحكمة من توسيط آيات المحافظة على الصّلاة آيات أحكام الأسرة: "الحاجة إلى مذكّر عمليّ يصل الإنسان باللّه، للتّرفُّع عن البغي والعدوان، والميل إلى العدل والإحسان في معاملة الأسر، ولا سيّما بعد الطّلاق الّذي يولّد الشّحناء والبغضاء، وذلك المذكّر هو الصّلاة الّتي تنهى عن الفحشاء والمنكر، وتدعو إلى الإحسان والتّسامح، وتنفي الجزع، وتنسي هموم الدّنيا، فتتربّى النّفس الإنسانيّة على أفضل سلوك، وأقوم طريق، وإشارة إلى أنّه يجب ألّا تشغلنا البيوت وأوضاعها، ولا أنفسنا عن الصّلاة"[2].

وجه اختيار لفظ (المحافظة) على لفظ (الحفظ):

مجيء الأمر على صيغة المفاعلة يفيد المبالغة في الحَثّ على الثّبات والمُداومة

و﴿حَٰفِظُواْ﴾ في قوله: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ﴾: "صيغة مفاعلة استعملت هنا للمبالغة على غير حقيقتها، والمحافظة عليها هي المحافظة على أوقاتها من أن تؤخر عنها والمحافظة تؤذن بأن المتعلّق بها حق عظيم يخشى التَّفريط فيه"[3]. ففي التَّعبير بصيغة المُفاعَلة (المحافظة) مُبالغةٌ في الحَثِّ على المواظبة على الصّلوات المفروضات، والمداومة عليها، والحثّ على المنافسة في المحافظة على الصَّلوات والمسابقة في ذلك، ومُغالبة دواعي التَّفْريط، ومُجاهدة النَّفْس في سبيل دوام المحافظة عليها، ف" المحافظة على الصلاة

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 2/846.
(2) الزّحيلّي، التّفسير المنير: 2/393.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/466.

أن يدخلها بالهيبة، ويخرج بالتعظيم"[1]، "والمحافظة عليها: أداؤها في وقتها وشروطها، وأركانها وخشوعها، وجميع ما لها من واجب ومُسْتَحب، وبالمحافظة على الصَّلوات، تحصل المحافظة على سائر العبادات، وتفيد النّهي عن الفحشاء والمنكر"[2]، وقال ابن أبي حاتم في تفسيره عن قَوْلِهِ: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ﴾ "يَعْنِي: مَوَاقِيتَهَا، وَوُضُوءَهَا، وَتِلَاوَةَ الْقُرْآنِ فِيهَا، وَالتَّكْبِيرَ وَالرُّكُوعَ، وَالتَّشَهُّدَ وَالصَّلَاةَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ؛ فَقَدْ أَتَمَّهَا، وَحَافَظَ عَلَيْهَا"[3].

مجيء الأمر على صيغة المفاعلة تحذير بعدم الانشغال بالتعلّق بأحوال النساء وغيرهنّ عن أداء ما فرض الله من العبادات

ويلمح في صيغة الأمر معنى: لا يشغلنّكم التّعلّق بالنّساء وأحوالهنّ، عن أداء ما فرض الله عليكم، فمع تلك الأشغال العظيمة، لا بدّ من المحافظة على الصّلاة، حتّى في حالة الخوف، فلا بدّ من أدائها رجالاً وركبانًا، وإن كانت حالة الخوف أشدّ من حالة الاشتغال بالنّساء، فإذا كانت هذه الحالة الشّاقّة جدًّا، لا بدّ معها من الصّلاة؛ فأحرى ما هو دونها، من الأشغال المتعلّقة بالنّساء"[4].

معنى المنازعة والمقاومة في صيغة المفاعلة توجيه بالاجتهاد على حفظ الصّلوات والمداومة عليها

إن صيغة المفاعلة على أصلها، تفيد المشاركة في الحفظ، وهي هنا بين العبد وربّه، كأنّه قيل: احفظ الصّلاة؛ يحفظك الله الّذي أمرك بها، كقوله: ﴿فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ﴾ [البقرة: 152]. وثمّة ملمح آخر في قوله تعالى: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ﴾، وعدم قوله مثلا: احفظوها؛ وهو أنّ المفاعلة تدلّ على المنازعة والمقاومة، لقوله: ﴿عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ﴾ أي: اجتهدوا في حفظها والمداومة عليها فالّذي في المفاعلة في الشّيء هو فعله المرّة بعد المرّة، وحفظ الصّلاة المرّة بعد المرّة على الاستمرار، عبارة عن الإتيان بها كلّ مرّة كاملة الشّرائط والأركان العمليّة،

(1) القشيري، لطائف الإشارات: 1/187.
(2) السَّعْدي، تيسير الكريم الرّحمن: 1/106.
(3) ابن أبي حاتم، تفسير القرآن العظيم: 2/447.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط في التّفسير: 2/542.

كاملة الآداب والمعاني القلبيّة، فالشّيء الّذي يتعاهد بالحفظ دائمًا، هو الّذي لا يلحقه النّقص وإلّا لم يكن محفوظًا دائمًا[1].

العهديّة في لام التعريف في كلمة: ﴿ٱلصَّلَوَٰتِ﴾:

"كلّ صلاة في القرآن مقرونة بالمحافظة[2]؛ فالمراد بها الصّلوات الخمس"[3]. ومن هنا فـ(أل) في قوله: ﴿عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ﴾ للعَهْد، وهي الصَّلوات الخمس؛ لأنّها التّي يُؤْمَر بالمحافظة عليها، وقد أمر اللّه تعالى بالمحافظة على الصّلاة، في كلّ حال مِن صِحَّة وسَقَم، وحَضَرٍ وسَفَرٍ، وقُدْرة وعَجْز، وخَوْف وأَمْن، لا تسقط عن المُكَلَّف بحال، ولا يُتَطرّق إلى فرْضِيَّتِها اختلال[4]، وهذه المحافظة تكون بين العبد والرّب، كأنّه قيل له: احفظ الصّلاة؛ ليحفظك الإله الّذي أمرك بالصّلاة، وتكون بين المصلّي والصّلاة، فكأنّه قيل: احفظ الصّلاة حتّى تحفظك الصّلاة"[5].

المراد: الصلوات الخمس المفروضة المتكررة؛ لأنها التي تطلب المحافظة عليها.

نكتة اختيار الصَّلاة دون غيرها مِن العبادات:

واختيرت الصَّلاة دون سائر العبادات؛ لتقطع سِياق الحديث عن الطَّلاق والفِراق؛ لأنَّ الصَّلاة هي الملاذ الرُّوحي الّذي يَهَب المؤمنين السَّكينة والاطمئنان، إن كانت أمور الطّلاق والفِراق بالموت، قد حَزَبتهم، وأقضَّت مضاجعهم، وأغمَّتهم، في شِقاق الاختيار في الطَّلاقات التَّي وقعت، أو أَلَم الافتراق بالوفاة؛ فبَيَّن لهم الحقُّ سبحانه في هذه الآية الكريمة الوسيلة الّتي تُزيل عنهم كلَّ ما يُؤَرِّقهم، وتربط على قلوبهم، ألا وهي الوقوف بين يدي خالقهم مُصَلِّين خاشعين مُتضرِّعين لِرَبِّهم، كما كان يفعل الرَّسول ﷺ، إذا حَزبه أَمْرٌ؛ قام إلى الصَّلاة[6].

إيثار الصلاة لتقطع سِيَاق الحديث عن الطَّلاق والفِراق بوصفها ملجأ المؤمن، وراحته

(1) محمّد رشيد رضا، تفسير المنار: 2/346.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/467.
(3) الثّعلبيّ، الكشف والبيان: 2/194.
(4) ابن العربّي، أحكام القرآن: 1/302.
(5) الجاوي، مراح لبيد: 1/84.
(6) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 2/1018.

علّة جمع الصلوات في الأول، وإفراد الصلاة في الثاني:

المراد من الصلوات في الأول الفرائض الخمس بأعيانها، والمعنى في الصلاة في الثاني هو الفعل، فكان المؤدى: داوموا على الصلوات وأن تكون صلاتكم كلها من النوع الأمثل الفاضل[1].

المراد من الصلوات الفرائض الخمس، والمعنى في الصلاة في الثاني هو الفعل

تخصيص الصلاة الوُسْطى بالذِّكْر:

قوله ﴿ٱلْوُسْطَىٰ﴾: الفُضْلى من قولهم للأفضل: الأوسط، وليست من الوسط الّذي معناه التّوسّط بين شيئين؛ لأنَّ فُعْلى معناها التَّفْضيل، ولا يُبْنَى للتَّفضيل إلّا ما يقبل التّفاوت، أي: الزّيادة والنّقص[2]، والصَّلاة الوُسْطى هي صلاة العصر على أرجح الأقوال[3]، والوُسْطى: تَأْنيثُ الأَوْسَط، وأَوْسَطُ الشَّيْءِ ووَسَطُهُ: خِيارُهُ، ومِنهُ قَوْلُهُ تَعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾، وأُفْرِدت الصَّلاة الوُسْطى بالذِّكْر؛ للتَّنبيه على فضلها[4]. وشَرَفها بِذِكْرها مرَّتين: مَرَّةً بِدُخولها في عُموم الصَّلوات في قوله تعالى: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ﴾، ومَرَّة بإفرادها بالذِّكْر، وكأنَّها لفضلها ومنزلتها جِنْسٌ آخر غير جِنْس الصَّلوات المأمور بالمحافظة عليها؛ لذا وجب التَّنبيه بإفرادها بالذِّكْر[5].

خُصَّت الصَّلاة الوُسْطى بالذِّكْر، للتّنبيه على فضلها وشرفها وخصوصيّتها

نقَل البِقاعي في تفسيره نُكْتة دقيقةً؛ لبيان عِلَّة تَخْصيص الصَّلاة الوُسْطى بالذِّكْر، فقال: "وقالَ الحَرالِّيُّ: وما مِن جُمْلَة إلّا ولَها زَهْرَةٌ، فَكانَ في الصَّلَواتِ ما هو مِنها بِمَنزِلَةِ الخِيارِ مِن الجُمْلَة، وخِيارُها وُسْطاها؛ فَلِذَلِكَ خَصَّصَ تَعالى خِيارَ الصَّلَواتِ بِالذِّكْرِ، وذَكَرَها بِالوَصْفِ إبْهامًا؛ لِيَشْمَلَ الوُسْطى الخاصَّةَ بِهَذِهِ الأُمَّةِ، وهي العَصْرُ الَّتِي لَمْ تَصِحَّ لِغَيْرِها مِنَ الأُمَمِ"[6].

ما مِن جُمْلَة إلّا ولَها زَهْرَةٌ، ومن الصَّلَواتِ ما هو مِنها بِمَنزِلَةِ الخِيارِ مِن الجُمْلَةِ، وخِيارُها وُسْطاها

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 2/840.
(2) الدّرويش، إعراب القرآن وبيانه: 1/357.
(3) مثلاً: البغويّ، معالم التنزيل، القُرْطُبي، الجامع لأحكام القرآن، وابن كَثير، تفسير القرآن العظيم: 2/391.
(4) الثّعلبيّ، الكشف والبيان: 2/194.
(5) الشّوكانّي، فتح القدير: 1/257.
(6) البقاعيّ، نَظْم الدُرَر: 2/238.

بيان قراءة النَّصب في الصَّلاة:

وجه النّصب على الإغراء الحضّ على الالتزام بالصلاة الوسطى والمداومة عليها

وقُرِئَ: (والصَّلاة الوُسْطى) بِالنَّصْبِ[1] عَلى المدح والاختصاص[2]، والإغْراءِ[3]؛ على الالتزام بها، والمداومة عليها، ولَمْ تُعَيَّن الصَّلاة الوُسْطى؛ ليجتهد المسلمون في المحافظة على الصَّلوات كلّها، والله أعلم.

دلالة عطف الخاصّ على العامّ، في قوله تعالى: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلۡوُسۡطَىٰ﴾:

الإطناب بذكر صلاة العصر بعد الصّلوات للعناية الفائقة الخاصّة بها

والعطف في الآية من باب عطف الخاصّ على العامّ، قال عبد الرحمن حسن: "وفائدة ذكر الخاصّ بعد العامّ، التّنبيه على فضله، حتَّى كأنّه ليْسَ من جنس العامّ أو نوعه؛ تنزيلاً للتّغاير في الوصف منزلة التّغايرُ في الذّات ... نلاحظ أنّ الصَّلاة الوسْطى - وهي في أظهر الأقوال صلاةُ الْعَصْر - داخلةٌ في عموم لفظ ﴿ٱلصَّلَوَٰتِ﴾، لكن خُصَّتْ بالذكْر وعُطِفَتْ على عموم الصّلوات، اهتمامًا بشأنها، وتوجيهًا لتخصيصها بعناية فائقة خاصّة، وهذه فائدة الإطناب بذكرها؛ إذْ هي داخلةٌ في عموم لفظ ﴿ٱلصَّلَوَٰتِ﴾ الوارد قبلها في النّصّ"[4].

وجه تفسير المقصود مِن القُنوت في الآية الكريمة الدُّعاء:

القيام أهمُّ أركان الصَّلاة، وذلك لارتباطه بالقنوت لله

والمخاطَب في قوله تعالى: ﴿وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ﴾ المسلمون، والمقصود مِن القيام هنا الوقوف؛ لأنّه مِن أركان الصَّلاة، ولا يُتْرك إلاَّ لِعُذْر، أمَّا القُنوت؛ فالمراد منه الطَّاعة والخشوع والخضوع لله تعالى، والتّقدير: (طائعين)، وذَكَرَ صاحب "مفاتيح الغَيْب" عِدَّة وُجوه لتفسير المراد من القنوت في الآية الكريمة، تدور حَوْل فَلَك

(1) القراءة منسوبة إلى أبي جعفر الرُّؤاسي، ينظر: النّحاس، إعراب القرآن: 1/118.
(2) الزمخشري، الكشاف: 1/288.
(3) ابن عطية، المحرر الوجيز: 1/322.
(4) عبد الرّحمن حَبَنَّكَة، البلاغة العربيّة: 2/69.

الطَّاعة والخضوع[1]، ومن ذلك أمر المؤمن أن يلتزم بحالها، " وألَّا يشتغل بشاغل عن أداء فروضها الواجبة، ولا يلهو بسبب عن إقامة سننها الرّاتبة، فإنّها عماد الدّين الّذي نمت أعاليه، ومهاد الشّرع الّذي تمّت قواعده ومبانيه، "[2]. "وبالمحافظة على الصَّلوات، تحصل المحافظة على سائر العبادات، وتفيد النّهي عن الفحشاء والمنكر، خصوصًا؛ إذا أكملها كما أمر بقوله ﴿وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ﴾، أي: ذليلين خاشعين، ففيه الأمر بالقيام والقنوت، والنّهي عن الكلام، والأمر بالخشوع، هذا مع الأمن والطّمأنينة"[3].

علّة تقديم القيام على القنوت:

أصل (القنوت) القيام على سبيل الخضوع[4]. و"القنوت: أن تذكر اللّه قائمًا"[5]. فالقيام فعل القنوت، وسبيل تحققه، وهو سابق في الفعل له؛ فجاء به في الذّكر على الترتيب.

القيام سبيل تحقّق القنوت؛ فجاء به في الذّكر على الترتيب

وجه تقديم لفظ الجلالة المجرور على لفظ القنوت:

إظهار اسمه الأعظم الدالّ على كمال الصفات، وتقديمه على فعل القنوت في قوله: ﴿وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ﴾؛ تخصيصٌ للقيام الخالص له عزّ في علاه.

تقديم لفظ الجلالة تخصيصٌ للقيام الخالص له

علّة التّعبير عن القنوت بصيغة اسم الفاعل:

التعبير باسم الفاعل ﴿قَٰنِتِينَ﴾ فيه حثٌّ على دوام القيام بالفعل، والاستمرار عليه وكأنّه وصفٌ ثابتٌ في القائم، مستقرٌّ فيه، ملازم له. فالقنوت في معناه المداومة على الفعل، وقد خصّه القرآن الكريم

في الوصف باسم الفاعل حثٌّ على دوام القيام بالفعل

(1) ومن وُجُوهها: الدُّعاءُ والذِّكْرُ، والطاعة، والسّكوت، والخُشُوع، وخَفْض الجَناحِ وسُكُون الأطْرافِ، وتَرْك الإلتِفاتِ مِن هَيْبَةِ اللَّهِ تَعالى، وكانَ أحَدُهم إذا قامَ إلى الصَّلاةِ يَهابُ رَبَّهُ، فَلا يَلْتَفِتُ، ولا يَقْلِبُ الحَصى، ولا يَعْبَثُ بِشَيْءٍ مِن جَسَدِهِ، ولا يُحَدِّثُ نَفْسَهُ بِشَيْءٍ مِنَ الدُّنْيا حَتّى يَنْصَرِفَ". الفخر الرَّازي، مفاتيح الغيب: 6/152-153.

(2) القلقشنديّ، صبح الأعشى: 10/107.

(3) السَّعْدي، تيسير الكريم الرّحمن: 1/106.

(4) الراغب، تفسير الراغب: 1/492.

(5) الطيبي، فتوح الغيب: 3/446.

بمعنى الدوام على الطاعة والملازمة لها وأدائها على وجهها في خشوع ضارع، وانصراف كامل، وشعور بالعبودية الحقة لله رب العالمين. ومعنى قوله تعالى: ﴿قَٰنِتِينَ﴾ في الآية، أي: قوموا لله بعبادتكم وجهها الكامل مديمين على ذلك القيام في أوقات وجوبه واستحبابه، ملازمين للخضوع والخشوع، غير مفرطين، ولا منصرفين عن رب العالمين، مستشعرين عظمته، قد ملأت قلوبكم هيبته[1].

(1) الرازي، مفاتيح الغيب: 6/488، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 2/840.

﴿فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا ۖ فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٩﴾﴾ [البقرة: 239]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

المناسبة في الآيتين: بين الصّلاة في حالة الأمن، والصّلاة في حالة الخَوْف:

الصّلاة عمل قلبيّ لا يسقط في أيّ ظرف؛ لإبقاء الوصل بالله دائمًا

أَمَرَ اللّه تعالى في الآية السَّابقة بالمحافَظَةِ عَلى الصَّلَواتِ المفروضة، والقِيَامِ عَلى أدائِها بِأرْكانِها وشُرُوطِها، وذلك في قوله: ﴿قَٰنِتِينَ﴾، وفي هذه الآية الكريمة بَيَّنَ أنَّ هَذِهِ المُحافَظَةَ عَلى هَذا الحَدِّ، لا تَجِبُ إلّا مَعَ الأمْنِ دُونَ الخَوْفِ، حيث قد تَعْرِضُ لِلْمُصَلِّينَ حالَةٌ يَخافُونَ فِيها، فَرَخَّصَ لَهم في الصَّلاةِ ماشِينَ عَلى الأقْدام، وراكِبِينَ، فَقالَ: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا﴾، والخَوْفُ يَشْمَلُ الخَوْفَ مِن عَدُوٍّ، وسَبُعٍ، وسَيْلٍ وغَيْرِ ذَلِكَ، فَكُلُّ أمْرٍ يُخافُ مِنهُ، فَهو مُبِيحٌ ما تَضَمَّنَتْهُ هذه الآيَةُ الكريمة[1]. وذكر محمّد سيّد طنطاويّ: أنّ الإمام محمد عبده قد أوجز هذا المعنى، فقال ما ملخّصه: "وقوله تعالى: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا﴾ هذا تأكيدٌ للمحافظة على الصّلاة، وبيان أنّها لا تسقط بحال؛ لأنّ حال الخوف على النّفس أو العرض أو المال، هو مَظِنّةُ العذر في التّرك، كما يكون السّفر عذرًا في ترك الصّيام ... والسّبب في عدم سقوط الصّلاة عن المكلّف بحال أنّها عمل قلبيّ، وإنّما فرضت تلك الأعمال الظّاهرة؛ لأنّها مساعدة على العمل القلبيّ المقصود بالذّات، وهو تذكّر سلطان اللّه تعالى المستولي علينا وعلى العالم كلّه، ومن شأن الإنسان: إذا أراد عملًا قلبيًّا، يجتمع فيه الذّكر؛ أن يستعين على ذلك ببعض ما يناسبه من قول وعمل"[2].

(1) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 6/153، وأبو حيّان، البحر المحيط: 2/252.
(2) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 1/549.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

الخَوْف: توقّع مكروه عن أمارة مظنونة أو معلومة:

من خاف الله؛ خوّف الله منه كلّ شيء، ومن لم يخفه؛ خوّفه الله من كلّ شيء

1) ﴿خِفْتُمْ﴾، خَوَفَ: الْخَاءُ وَالْوَاوُ وَالْفَاءُ: أَصْلٌ وَاحِدٌ يَدُلُّ عَلَى الذُّعْرِ وَالْفَزَعِ، يُقَالُ: خِفْتُ الشَّيْءَ خَوْفًا وَخِيفَةً[1]، والخَوْف: توقّع مكروه عن أمارة مظنونة، أو معلومة، كما أنّ الرّجاء والطّمع توقّع محبوب عن أمارة مظنونة، أو معلومة، ويضادّ الخوف الأمن، ويستعمل ذلك في الأمور الدّنيويّة والأخرويّة.

والخوف من الله لا يراد به ما يخطر بالبال من الرّعب، كاستشعار الخوف من الأسد، بل إنّما يراد به الكفّ عن المعاصي واختيار الطّاعات، ولذلك قيل: لا يعدّ خائفًا مَن لم يكن للذّنوب تاركًا[2].

قال ابن عرفة: الخوف أمر محقّق؛ لكونه شرطًا في الرّخصة، والرّخصة إنّما تكون في الأمر المحقّق الثّابت؛ لأنّها مظنة المبادرة للعمل بمقتضاها، لما فيها من التّخفيف، فلو لم يكن شرطها محقّقًا؛ لأدّى إلى التّهاون بفعلها من غير استيفاء شروطها"[3].

والمعنى في الآية: الخوف من العدوّ.

2) ﴿فَرِجَالًا﴾: أي: مُشاةً، وجَمْع راجِل: رَجَّالَةٌ ورُجْلٌ، وسُمِّي راجلًا؛ لأنَّه يمشي على رِجْلَيْه، واشتقّ من الرِّجْلِ رَجِلٌ ورَاجِلٌ للماشي بالرِّجْل، ويقال: رَجُلٌ رَاجِلٌ، أي: قويّ على المشي، جمعه رِجَالٌ[4]، " يقول أهل الحجاز: مشى فلان إلى بيت الله حافيًا رجُلًا، حكاه ابن جرير الطّبري وغيره، لما ذكر الله سبحانه الأمر بالمحافظة على الصّلوات؛ ذكر حالة الخوف، أنّهم يُضيعُون فيها

(1) ابن فارس، مقايس اللُّغة: (خَوَف).
(2) الرَّاغب، المفردات: (خَوَف).
(3) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/689.
(4) الرَّاغب، المفردات: (رَجِلَ).

ما يمكنهم، ويدخل تحت طوقهم من المحافظة على الصّلاة بفعلها حال التّرجّل، وحال الرّكوب، وأبان لهم أنّ هذه العبادة لازمة في كلّ الأحوال بحسب الإمكان"[1].

ومعنى الآية: فصلوا صلاة الخوف ماشين.

3) ﴿رُكۡبَانٗاۖ﴾، والرِّكابُ: الإبل التي يُسارُ عليها، الواحدةُ راحلةٌ، ولا واحد لها من لفظها. ركب: رَكِبَ الدابَّة يَرْكَبُ رُكُوباً: عَلا عَلَيْهَا، وَالِاسْمُ الرِّكْبة، بِالْكَسْرِ، والرَّكْبة مرَّةٌ واحدةٌ، وكلُّ مَا عُلِيَ؛ فَقَد رُكِبَ[2]، "والرّكبان: جمع راكب، قيل: لا يطلق إلّا على راكب الإبل، ويقال لمن ركب الحمار والبغل: حمّار وبغّال، والأجود صاحب حمار وبغل، وهذا بحسب اللّغة، والمراد بها هنا ما يعمّ الكلّ"[3].

ومعنى اللّفظ في الآية: "أو ركبانًا على دوابّهم، وهو جمع راكب، معناه: إن لم يمكنكم أن تُصَلُّوا قانتين موفين للصّلاة حقّها لخوف، فصلّوا مشاة على أرجلكم، أو ركبانًا على ظهور دوابّكم، وهذا في حال المقاتلة والمسايفة، يصلّي حيث كان وجهه، راجلًا أو راكبًا مستقبل القبلة، وغير مستقبلها، ويومئ بالرّكوع والسّجود، ويجعل السّجود أخفض من الرّكوع"[4].

4) ﴿أَمِنتُمۡ﴾: أَمِنَ، يأمَنُ، أَمْنًا، وأمانًا، وإمْنًا، وأَمَنَةً: اطمأنَّ، ولم يَخَفْ، فهو آمِنٌ، وأَمِنٌ، وأمينٌ، قوله: ﴿فَإِذَآ أَمِنتُمۡ﴾، أي: إذا أمنتم من عدوّكم، وقال ابن زيد: "معناه: إذا أمنتم من العدوّ"[5].

5) ﴿فَٱذۡكُرُواْ﴾، المراد بالذِّكر هنا الصَّلاة، وذَكَر الشَّيْءَ، يذكُر ذِكْرًا وذُكْرًا: حَفِظَه، واستحضره، وتَذَكَّره، وذَكَرَ اللَّه: استحضره في قلبه وحَمِدَه، وأثنى عليه، وذَكَر النِّعْمَة: شَكَرَها، والذِّكْرُ: الحِفْظُ لِلشَّيْءِ تَذْكُرُه، والذِّكْرُ أَيضًا: الشَّيْءُ يَجْرِي عَلَى اللِّسَانِ، والذِّكْرُ: جَرْيُ الشَّيْءِ عَلَى لِسَانِكَ[6]، والذِّكْرُ: تارة يقال، ويُراد به: هيئة للنّفس، بها يمكن للإنسان

(1) الشّوكانّي، فتح القدير: 1/296.
(2) الجوهري، الصِّحاح، وابن منظور، لسان العرب: (رَكِبَ).
(3) القِنَّوجيّ، فتحُ البيان: 2/58.
(4) البغويّ، معالم التّنزيل: 1/326.
(5) مكيّ بن أبي طالب، الهداية إلى بلوغ النّهاية: 1/326.
(6) ابن منظور، لسان العرب: (ذَكَرَ).

أنْ يحفظ ما يقتنيه مِن المَعْرفة، وهو كالحِفْظ إلّا أنّ الحِفْظ يقال؛ اعتبارًا بإحرازه، والذِّكْرُ يقال؛ اعتبارًا باستحضاره، وتارةً يقال لحضور الشَّيء القلب أو القول، ولذلك قيل: الذّكْر ذِكْران: ذِكْر بالقلب، وذِكْر باللِّسان[1]، أي: اذكروه بتوحيده وشكره وتسبيحه، وكلّ ما يمكن أن يتقرّب به منه[2].، وقال الماورديّ: "وفيه تأويلان: أحدهما: معناه (فإذا أمنتم؛ فصلّوا كما علّمكم)، وهو قول ابن زيد، والثّاني: يريد: فاذكروه بالثّناء عليه والحمد له، كما علَّمكم من أمر دينكم ما لم تكونوا تعلمون"[3].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

تّأكيد المحافظة على الصّلاة وذكر الله، حتّى في أشدّ حالات الخوف:

الأمر بأن يحافظ الرّجال والرّكبان على الصّلاة؛ شكرًا على نعم الله الجليلات

لا تتركوا - أيُّها المسلمون - الصَّلاة على أيِّ حالٍ؛ ولو كنتم في حال حَرْبٍ وخوف، حيث رَخَّص الله لكم صلاة الخوف ماشين أو راكبين في تلك الحالة، على أي هيئة تستطيعونها ولو بالإيماء، أو إلى غير جهة القبلة، "والمقصود من ذلك، أن تفعل الصّلاة كيفما أمكن، لا تسقط بحال حتّى لو لم يتّفق فعلها إلّا بالإشارة بالعين، للزم فعلها كذلك، إذا لم يقدر على حركة سائر الجوارح، وبهذا المعنى تميّزت من سائر العبادات، فإنّ العبادات كلّها تسقط بالأعذار؛ ولذلك قال علماؤنا: إنّ تارك الصّلاة يقتل؛ لأنّها أشبهت الإيمان الذي لا يسقط بحال، ولا تجوز النّيابة فيها ببدن ولا مال"[4]، فإذا ذهب الخوف، وحَلَّ الأمن، فَصَلُّوا صلاة كاملة وافية الشَّروط والأركان، ولا تنقصوها عن هيئتها الأصلية، مع كثرة ذِكْركم لله مِثْلما عَلَّمَكُم في كتابه؛ شُكْرًا له على هذا العِلْم، حيث كنتم قبل رسالة نَبَيِّكم في ضلالة، وقبل العِلم في جَهالة.

(1) الرّاغب، المفردات: (ذكَرَ).
(2) الزّجاج، معاني القرآن وإعرابه: 2/99.
(3) الماورديّ، النّكت والعيون: 1/311.
(4) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 1/550، وينظر: ابن العربيّ، أحكام القرآن: 1/227.

الإيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

بيان وصل الآية بما قبلها:

وجه الوصل تأكيد المحافظة، وبيان عدم سقوط الصّلاة المكتوبة بحال

قصد إلى الوصل دون الفصل في الآية؛ لتأكيد المحافظة على الصلوات المكتوبة، وبيان أنها لا تسقط بحال؛ لأن حال الخوف على النفس، أو العرض، أو المال هو مظنة العذر في الترك، كما يكون السفر عذرًا في ترك الصيام، وكالأعذار الكثيرة لترك صلاة الجمعة، واستبدال صلاة الظهر بها، ولمّا لم يحصل فيها العذر ففي غيرها عدم العذر أولى[1].

علّة حذف عامل الخَوْف ومعموله:

عدم تعيين ما يُخاف منه لإرادة التّعميم

حُذِف معمول الخَوْف في قوله تعالى: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ﴾، حيث التّقدير: من عدوّ أو غيره، فَصَلُّوا رِجالًا أو رُكْبانًا، ولم يُذْكَر ما يُخاف منه للتعميم؛ "ليشمل الخوف مِن كافر وظالم وسَبُع، وغير ذلك من أنواع المخاوف، أي: إن خِفْتم بِصَلاتكم على تلك الصِّفة؛ فَصَلُّوها ﴿فَرِجَالًا﴾، أي: ماشين على أقدامكم، ﴿أَوْ رُكْبَانًا﴾ على الخيل والإبل وغيرها، ويلزم على ذلك أن يكونوا مستقبلي القبلة وغير مستقبليها، وفي هذا زيادة التّأكيد على المحافظة على وقتها، حيث أمر بذلك، ولو مع الإخلال بكثير من الأركان والشُّروط، وأنّه لا يجوز تأخيرها عن وقتها، ولو في هذه الحالة الشّديدة، فصلاتها على تلك الصّورة أحسن وأفضل، بل أوجب من صلاتها، مطمئنًّا خارج الوقت"[2]، قال الشَّافِعِيّ رحمه الله: "وأذن اللّه تبارك وتعالى في صلاة الخوف بوجهين، أحدهما: الخوف الأدنى، وهو قول اللّه ﷻ: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [النساء: 102]، والثّاني: الخوف الّذي أشدّ منه، وهو قول اللّه تبارك وتعالى: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ

(1) رضا، تفسير المنار: 2/351.
(2) السَّعْدي، تيسير الكريم الرّحمن: 1/167.

﴿رُكۡبَانٗا﴾ الآية، فلما فرّق بينهما، ودلّت السّنة على افتراقهما؛ لم يجز إلّا التّفريق بينهما - واللّه تعالى أعلم - لأنّ اللّه فرّق بينهما لا فتراق الحالين فيهما"[1].

دلالة الفاء في قوله: ﴿فَإِنۡ خِفۡتُمۡ﴾:

الفاء في الآية الكريمة تفريع على قوله تعالى في الآية السّابقة: ﴿وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ﴾، والتّفريع؛ للتّنبيه على قطع العُذْر في المحافظة على الصَّلوات في أيّ حال من الأحوال، حتّى في حالة الخوف، وقد رَخَّصَ اللّه تعالى للمؤمنين في حال الخوف أن يُصَلُّوا رِجالًا أو رُكْبانًا، أي: مُشاة على أقدامهم أو وقوفًا في أماكنهم أو راكبين، فَيُتجاوز عَنْ كَثْرَة الأفْعال وإتْمام الرُّكُوعِ والسُّجُودِ واسْتِقْبال القِبْلَة، وهَذا مِن يُسْر الدِّين وسَماحَته، ومِن رُخَصِ اللّهِ تَعالى الَّتِي رَخَّصَ لِعِبادِهِ، ووَضْعِهِ الآصارَ عَنْهُم.

الفاء للتّفريع تنبيهًا على قطع العُذْر في المحافظة على الصَّلوات

وفي هذا أيْضًا دِلالة على أنَّ الصَّلاة لا تَسْقُط إلَّا في حال العجز التَّام، حتَّى عن الصّلاة بالإيماء، وهذا يومئُ إلى أهميّتها القصوى، فهي عمود الدّين، ومِعْراج العبد إلى ربِّه، وصِلَة بينه وبين خالقه.

قال ابن عاشور: إنّ هذه الآية " تفريعٌ على قوله: ﴿وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ﴾؛ للتّنبيه على أنّ حالة الخوف لا تكون عذرًا في ترك المحافظة على الصّلوات، ولكنّها عذر في ترك القيَام للّه قانتين، فأفاد هذا التّفريع غرضين: أحدهما بصريح لفظه، والآخر بلازم معناه"[2].

لفظ الذِّكْر بين التَّخصيص بالصلاة، وبين الإعمام بغيره:

الصَّلاة بِغَيْر الذِّكر لا تُسَمَّى صلاة

والمراد بالذِّكر في قوله تعالى: ﴿فَإِذَآ أَمِنتُمۡ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ﴾ الصَّلاة، والتّقدير: أَقِيمُوا صَلَاتَكُمْ كَمَا أُمِرْتُمْ، فَأَتِمُّوا[3]، وعُبِّر هنا

(1) الشّافعيّ، تفسير الإمام الشافعي: 1/417.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/469.
(3) ابن كَثير، تفسير القرآن العظيم: 2/409.

عن الصَّلاة بالذِّكر؛ لأنَّ مُعْظم أركان الصَّلاة تشتمل على الذِّكر، وللإشارة إلى أن المَغْزى فيها ذِكر الله تعالى، وأنَّ الصَّلاة بغيره لا تُسَمَّى صلاة، ولو كانت مُسْتَوفية الأركان الظَّاهرة[1].

وجه التخصيص والإعمام حثٌّ على ذكره كيفما يقتضيه ما علم من الأحكام

وفي جعل الذِّكر هاهنا مخصَّصًا بالصَّلاة، وجعله عامًّا فيه وفي غيره من الأذكار؛ حثٌّ على ذكره، وعلى الصلاة كيفما يقتضيه ما علم من الأحكام وسائر العلوم[2].

نكْتَة تعليق الشَّرْط الأوَّل بـ(إنْ)، والثّاني بـ(إذا):

الطّمأنينة حالة غالبة، والخوف حالة طارئة، ولكلٍّ حُكْمُه وحِكْمَتُه

أوثر استخدام (إنْ) الشَّرْطيَّة الّتي تدلّ على الشَّك في جانب الخوف، في قوله تعالى: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا﴾؛ للإشارة إلى قِلَّته وإلى نُدْرة حدوثه، وعُلِّق الشَّرْط في جانب الأمن بـ(إذا) الشَّرْطيَّة الّتي تدلّ على تحقّق وقوع الشّرط في قوله: ﴿فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ﴾؛ للإشارة إلى أنَّ حال الأمْن هي الغالبة، وأنّها أَمْر مُحَقَّق ثابت، وأنَّها هي الكثرة، وأنّ حال الخَوْف هي القِلَّة، وأنَّها ليست أمرًا مُؤكدًا ثابتًا بل عارضًا، وفي ذلك إشارة إلى نِعْمة الأمن والأمان والاطمئنان الّتي وهبها الله تعالى للإنسان، وأنَّ ما يكون من خوف وجزع واضطراب، فقد يكون من فِعْل الإنسان[3]. وقد" أمر اللَّه تعالى بالقيامِ له في الصّلاة بحالة قُنُوت، وهو الوقار والسَّكينة، وهدوء الجوارحِ، وهذا على الحالة الغالبَةِ من الأمْن والطُّمأْنينة، ثمّ ذكر تعالى حالة الخَوْف الطّارئَة أحيانًا، فرخّص لعبيده في الصّلاة، فَرِجالًا: متصرّفين على الأقدام، ورُكْباناً: على الخَيْل والإبل ونحوهما إيماء، وإشارة بالرّأس حيث ما توجَّه، هذا قول جميع العلماءِ، وهذه هي صلاة الفَذِّ الّذي قد ضايقه الخَوْفُ

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 2/844.
(2) الراغب، تفسير الراغب: 1/495.
(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 2/845.

على نَفْسه، في حال المسايفة، أو مِنْ سَبُعٍ يطلبه، أو عدوّ يتبعه، أو سَيْلٍ يحملُه، وبالجملة فكلُّ أمْر يخافُ منْه على رُوحِهِ، فهو مبيحٌ ما تضمَّنته هذه الآية"[1]، والشّرط هنا يبيح الرّخصة الّتي خفّف بها اللّه على كلّ من يطرأ عليه الخوف، وتصيبه رهبته ومشقّته، وهو جوهر الحكمة في هذا الحكم.

بلاغة التَّشْبيه في الآية الكريمة:

المراد بقوله تعالى: ﴿فَإِذَآ أَمِنتُمۡ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمۡ تَكُونُواْ تَعۡلَمُونَ ٢٣٩﴾ تشبيه هيئة الصَّلاة الّتي في حال الخوف، بِهَيْئَة صَلاة الأمْن، هذا باعتبار (ما) موصولة، والمعنى على تقدير كونها مصدريّة: (فاذكروا اللّه ذكرًا كائنًا مثل تعليمه إيّاكم)[2]، أو"اذْكُرُوهُ ذِكْرًا يُشابِه ما مَنَّ بِهِ عَلَيْكم مِن عِلْمِ الشَّرِيعَة في تَفاصِيلِ هَذِهِ الآياتِ المتَقَدِّمَة، والمَقْصُود مِن المشابَهَةِ، المشابَهَةُ في التَّقْدِيرِ الاعْتِبارِيِّ، أيْ: أنْ يَكُونَ الذِّكْرُ بِنِيَّةِ الشُّكْرِ، عَلى تِلْكَ النِّعْمَةِ والجَزاءِ، فَإنَّ الشَّيْءَ المُجازيّ بِهِ شَيْءٌ آخَر، يُعَدُّ كالمُشابِهِ لَه، ولِذَلِكَ يُطْلَق عَلَيْهِ اسْم المِقْدارِ، وقَدْ يُسَمُّونَ هَذِهِ الكافَ: كافَ التَّعْلِيل، والتَّعْلِيل مُسْتَفاد مِنَ التَّشْبِيه؛ لِأنَّ العِلَّةَ عَلى قَدْرِ المَعْلُولِ"[3].

باعتبار (ما) موصولة فالغرض تشبيه هيئة الصَّلاة في حال الخوف، بِهَيْئَة صَلاة الأمْن

(1) الثّعالبيّ، الجواهر الحسان: 2/409.
(2) الجَمَل، الفتوحات الإلهيّة: 1/195.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتّنوير: 2/270-271.

﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم مَّتَٰعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ ۚ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِى مَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٤٠﴾﴾ [البقرة: 240]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

التّناسب بين آية الصّلاة وآيات أحكام الأسرة، ودلالته على وِحْدة التَّكاليف الإيمانيَّة:

تساؤل وجيه، مفاده: كيف يتأتّى أن تنسخ الآيةُ المتقدّمةُ الآيةَ المتأخّرة؟

للشَّيخ محمد متولى الشَّعراوي توجيه دقيق في بيان سِرِّ الفَصْل، وعَلاقة هذه الآية المُباركة بِما قبلها، حيث قال: "فبعد أنْ تكلَّم الحقُّ سبحانه وتعالى عن الطَّلاق، يقول: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ﴿٢٣٨﴾ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا ۖ فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٩﴾﴾، ثمَّ يعود إلى الأسرة والمتَوَفَّى عنها زوجها، فيقول: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم مَّتَٰعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ ۚ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِى مَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٤٠﴾﴾، إذًا فالحقُّ سبحانه وتعالى، فَصَل بآية الصَّلاةِ بين قَضِيَّة واحدة، هي قضيّة الفِراق بين الزَّوْجين، وقسَّمها قِسْمين، وأدخل بينهما الحديث عن الصَّلاة؛ ليُنَبِّهنا على وِحْدة التَّكاليف الإيمانيَّة؛ لأنَّ الحقَّ يتكلّم عن الأشياء في كلّ مظاهرها، إمَّا شِقاق اختياريّ بالطَّلاق، وإمَّا افتراق قَدَرِيٌّ بالوفاة، فأراد الله سبحانه وتعالى، أن يُدْخِل الإنسان في العَمليَّة التّعبديَّة التي تصله باللَّه الّذي شَرَّع الطَّلاق والصَّلاة، وقَدَّر الوفاة"[1]. ورأي الجُمْهُور أنَّ هذه الآية الكريمة مَنسُوخَة بِالآيَةِ المُتَقَدِّمَة في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ

(1) الشّعراوي، تفسير الشّعراويّ: 2/1018.

مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ۖ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾[1]، وتعقيبًا على هذا، لنا أن نتساءل تساؤلًا وجيهًا، مفاده: كيف نَسَخَت الآيةُ المتقدّمةُ الآيةَ المتأخّرة؟ ويُجاب عنه بأنَّه قد تكون الآية متقدّمةً في التِّلاوة، وهي متأخّرة في النّزول، كقوله تعالى: ﴿۞سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ﴾ [البقرة: 142]، مع قوله: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ ۖ﴾ [البقرة: 144][2]، وفي الآية بحث لخّصه ابن عاشور في تفسيره[3].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يُتَوَفَّوْنَ﴾، أي: يموتون، و(وَفَى) الْوَاوُ وَالْفَاءُ وَالْحَرْفُ الْمُعْتَلّ: كَلِمَةٌ تَدُلُّ عَلَى إِكْمَالٍ وَإِتْمَام، ومِنْهُ الْوَفَاءُ: إِتْمَام الْعَهْدِ وَإِكْمَال الشَّرْطِ، وَوَفَى: أَوْفَى، فَهُوَ وَفِيٌّ، وَيَقُولُونَ: أَوْفَيْتُكَ الشَّيْءَ؛ إِذَا قَضَيْتَهُ إِيَّاه وَافِيًا، وَتَوَفَّيْتُ الشَّيْءَ وَاسْتَوْفَيْتُهُ؛ (إِذَا أَخَذْتَهُ كُلَّهُ) حَتَّى لَمْ تَتْرُكْ مِنْه شَيْئًا، وَمِنْهُ يُقَالُ لِلْمَيِّتِ: تَوَفَّاه اللَّه[4].

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ﴾، أي: يُقبضون بالموت ... قال ابن قتيبة: هو من استيفاء العدد، واستيفاء الشّيء: أن نستقصيه كلّه، يقال: توفّيته، واستوفيته، كما يقال: تيقّنت الخير، واستيقنته، هذا الأصل، ثمّ قيل للموت: وفاةٌ وتوفٍّ"[5].

2) ﴿وَيَذَرُونَ﴾: من يَذَرُ الشيءَ، أي: يقذفه لقلّة اعتداده به، وهذا الفعل لم يُستعمل منه في العربية ماضٍ ولا مصدرٌ. وقد سُمِع – وهو شاذٌّ – الوَذْر مصدرًا. قَالَ أَهْلُ اللُّغَةِ: أَمَاتَتِ الْعَرَبُ الْفِعْلَ مِنْ (ذَرَّ) فِي الْمَاضِي، فَلَا يَقُولُونَ: وَذَرْتُهُ. ومن الأمر

(1) الرَّازيّ، مفاتيح الغَيْب: 6/158، وابن كَثير، تفسير القرآن العظيم: 2/409.

(2) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 1/146.

(3) يقول ابن عاشور: " موقع هذه الآية هنا بعد قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ﴾ إلى آخرها، في غاية الإشكال، فإنّ حكمها يخالف في الظّاهر حكم نظيرتها الّتي تقدّمت، وعلى قول الجمهور هاته الآية سابقة في النّزول على آية: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ﴾، يزداد موقعها غرابة، إذ هي سابقة في النّزول متأخّرة في الوضع، والجمهور على أنّ هذه الآية شرعت حكم تربّص المتوفّى عنها حولًا في بيت زوجها، وذلك في أوّل الإسلام، ثمّ نسخ ذلك بعدّة الوفاة وبالميراث، روي هذا عن ابن عبّاس، وقتادة والرّبيع وجابر بن زيد، وفي البخاريّ في كتاب التّفسير عن عبد الله بن الزّبير، قال: قلت لعثمان هذه الآية، ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم﴾، قد نسختها الآية الأخرى، فلم تكتبها، قال: لا أغيّر شيئًا منه عن مكانه يا بن أخي، فاقتضى أن هذا هو موضع هذه الآية، وأنّ الآية الّتي قبلها ناسخة لها، وعليه؛ فيكون وضعها هنا بتوقيف من النّبي ﷺ، لقول عثمان: «لا أغيّر شيئًا منه عن مكانه»، ويحتمل أنّ ابن الزّبير أراد بالآية الأخرى، آية سورة النّساء في الميراث"، ينظر: ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/471.

(4) الرَّاغب، المفرادت: (وفى).

(5) ابن الجوزيّ، زاد المسير: 1/208.

منه في القرآن: ﴿وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ﴾ [البقرة: 278]، و﴿فَذَرۡهُمۡ وَمَا يَفۡتَرُونَ﴾ [الأنعام: 112].

الفِعل (يَذر) لم يُستعمل منه ماضٍ ولا مصدر

والمعنى في الآية: يَترُكون ويُخلِّفون[1].

3) ﴿أَزۡوَٰجًا﴾: الزوجُ يقال لكلِّ واحد من القرينين من الذّكر والأنثى في الحيوانات المُتَزَاوِجَة، ولكلِّ قرينين فيها وفي غيرها، كالخفّ والنّعل، ولكلّ ما يقترن بآخر مماثلا له أو مضادّا، ويطلق الزَّوج على خلاف الفَرد.

الـــزّوج لفظ يـذكّـر ويـؤنّـث في استعمال القرآن

وزَوجُ المرأة: بَعلها، وزَوجُ الرَّجل: امرأته، ويُقال أيضًا: هي زوجتُه على لغة قليلة. وامرأة مِزْواج: كثيرة التّزوّج. ورَجُل مِزْواج: كثير التّزوّج. وحكى يونس الضَّبي أنه ليس مِن كلام العرب: تزوَّجتُ بامرأةٍ، بتَعدية الفعل بالباء. وقوله تعالى: ﴿وَزَوَّجۡنَٰهُم بِحُورٍ عِينٖ﴾ [الدخان: 54]، أي: قرنّاهم بهنَّ؛ تنبيهًا أن ذلك لا يكون على حسب المتعارف فيما بين الناس في الدنيا من المناكحة، وفي لغة أزد شنوءة، يقولون: تزوجت بامرأة، بتَعدية الفعل بالباء[2].

"والزّوج يطلق على الذّكر والأنثى كما قال تعالى: ﴿وَأَزۡوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمۡۗ﴾ [الأحزاب: 6] ، وأصله العدد المكوّن من شيئين، اتّحدا وصارا شيئًا واحدًا في الباطن، وإن كانا شيئين في الظّاهر، وسُمِّيَ به كلّ من الرّجل والمرأة، للدّلالة على أنّ من مقتضى الفطرة، أن يتّحد الرّجل بامرأته، والمرأة ببعلها، بتمازج النّفوس ووحدة المصلحة، حتّى يكون كلّ منهما كأنّه عين الآخر"[3].

4) ﴿وَصِيَّةً﴾: أَصْل الكلمة يدلُّ عَلَى وَصْلِ شَيْءٍ بِشَيْءٍ، يُقَالُ: وَصَّيْتُهُ تَوْصِيَةً، وَأَوْصَيْتُهُ إِيصَاءً، وَوَصَيْتُ الشَّيْءَ: وَصَلْتُهُ، وَيُقَالُ:

كـــلّ وصـيّـة تخالف الشّرع والأحكام، فهي باطلة لا تستحقّ الاهتمام

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرَّاغب، المفرادت، والسَّمين، عُمدة الحفَّاظ: (وذر).
(2) الجوهريّ، الصِّحاح، والرَّاغب، المفرادت: (زوج).
(3) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 2/190.

وَطِئْنَا أَرْضًا وَاصِيَةً، أَيْ: إِنَّ نَبْتَهَا مُتَّصِل قَدِ امْتَلَأَت مِنْه، وَوَصَيْتُ اللَّيْلَةَ بِالْيَوْم: وَصَلْتُهَا، وَذَلِك في عَمَل تَعْمَلُه، وَالْوَصِيَّةُ مِنْ هَذَا الْقِيَاسِ، كَأَنَّهُ كَلَامٌ يُوصَى، أَيْ: يُوصَلُ، والوَصِيَّة: هي التَّقَدُّم إلى الآخر بما يعمل به مُقْتَرنًا بوعظٍ، مِن قولهم: أرضٌ واصية، وهي المَتّصِلة النبات، والوَصِيُّ يُطْلَق على الموصي إلى الآخر، وعلى الموصى إليه؛ فهو فعيل، بمعنى: فاعلٍ تارةً، وبمعنى: مفعولٍ تارة أخرى[1]، "قال المفسّرون: كان في ابتداء الإسلام، إذا مات الرّجل؛ لم يكن لامرأته في الميراث شيءٌ إلّا السّكنى والنّفقة سنة؛ ما لم تخرج من بيت زوجها، وكان المتوفّى يوصي بذلك لها، فإن خرجت من بيت زوجها؛ لم يكن لها نفقة، وكان الحول واجبًا عليها في الصّبر عن التّزوُّج، ثمّ نسخت هذه الآية بالرّبع والثّمن، وتقديرٍ لمدّة الوفاة، بأربعة أشْهرٍ وعشْرٍ"[2].

الدّنيا متاع، وخير متاعها الزّوجة الصّالحة

5) ﴿مَّتَٰعًا﴾: (مَتَعَ): الْمِيم وَالتَّاء وَالْعَيْن: أَصْلٌ صَحِيحٌ، يَدُلُّ عَلَى مَنْفَعَةٍ وَامْتِدَادِ مُدَّةٍ فِي خَيْرٍ[3]، والمُتُوعُ: الامتداد والارتفاع، يقال: مَتَعَ النّهار، ومَتَع النّبات: إذا ارتفع في أول النّبات، والمَتَاعُ: انتفاعٌ ممتدُّ الوقت، يقال: مَتَّعَهُ اللّه بكذا، وأَمْتَعَه، وتَمَتَّع به، قال تعالى: ﴿وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [يونس: 98]، واسْتَمْتَعَ: طَلَبَ التّمتّع، ويقال لما يُنْتَفَع به في البيت: مَتاع، والمَتَاعُ والمُتْعَةُ: ما يُعْطَى للمُطَلّقة؛ لِتَنتفع به مدّة عِدّتها، نحو قوله تعالى: ﴿فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ﴾ [الأحزاب: 49]، وقوله: ﴿وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ﴾ [البقرة: 236]، ومُتْعَةُ النّكاح هي: أنّ الرَّجُل كان يُشارِط المرأة بمال معلوم يعطيها إلى أجل معلوم، فإذا انقضى الأجل؛ فارقها من غير طلاق، ومُتْعَةُ الْحَجِّ: ضمّ العمرة إليه، قال تعالى: ﴿فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ﴾ [البقرة: 196][4].

والمقصود من المَتاع هُنا: السُّكْنى، والمتعة من حقوق المرأة، وهي

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والسَّمين، عُمْدة الحفَّاظ: (وَصَي).
(2) الواحديّ، الوسيط: 1/353.
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (مَتَع).
(4) الرَّاغب، المفردات: (مَتَع).

هنا منسوخة، "ومعناها: أنّ الرّجل إذا مات، كان لزوجته أن تقيم في منزله سنة، وينفق عليها من ماله، وذلك وصيّة لها، ثمّ نسخ إقامتها سنة بالأربعة الأشهر والعشر، ونسخت النّفقة بالرّبع أو الثّمن الّذي لها في الميراث، حسبما ذكر في سورة النّساء"[1].

6) ﴿ٱلْحَوْلِ﴾: الحَوْل: السَّنَة، سُمِّيَت حَوْلًا؛ لِتَحَوُّلها وانقلابها ودورانها، وأصل الحَوْل: تَغَيُّر الشّيء وانفصاله عن غيره، وباعتبار التّغير، قيل: حال يحول حولاً، واستحال: تَهَيَّأَ؛ لأن يَحُولَ، والحَوْلُ في الأصل مصدر، ويقال: حالت الدّار: تغيّرت، وأحالت، أي: مضى عليها حَوْل، نحو: أعامت، أي: مضى عليها عام، وأشْهَرت، أي: مضى عليها شهر[2]، ومعنى قوله تعالى: ﴿مَّتَٰعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ﴾، أي: نفقة وكسوة إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْراجٍ، يقول: لا يخرجن من بيوت أزواجهن، وهذا في أوّل الشّريعة كانت العدّة حوْلًا، وهكذا كان في الجاهليّة[3].

أمـر الـلـه ألّا تـخـرج المطلّقة من بيتها، حتّى تستوفي عدّتها

7) ﴿غَيْرَ إِخْرَاجٍۚ فَإِنْ خَرَجْنَ﴾، الخُروج: نَقِيضُ الدُّخُولِ، يقال: خَرَجَ يَخْرُجُ خُرُوجًا ومَخْرَجًا، فَهُوَ خارِجٌ وخَرُوجٌ وخَرَّاجٌ، خَرَجَ خُرُوجًا: بَرَزَ مِن مَقرّه أو حاله، سواء كان مَقرّه دارًا، أو بلدًا، أو ثوبًا، وسواء كان حاله حالة في نفسه، أم في أسبابه الخارجة[4]، ومعنى اللّفظين "أَيْ: من غير إخراج الورثة إيَّاها ﴿فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ - يا أولياء الميِّت - في قطع النَّفقة عنهنَّ، وترك منعها عن التَّشوف للنَّكاح، والتَّصنُّع للأزواج، وذلك قوله: ﴿فِي مَا فَعَلْنَ فِيٓ أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍۗ﴾، وهذا كلُّه منسوخٌ بآية المواريث، وعدَّةِ المتوفّى عنها زوجها"[5].

8) ﴿فَلَا جُنَاحَ﴾: الجُناح: الإثْم، وجَنَحَ: الْجِيم وَالنُّون وَالْحَاء: أَصْلٌ وَاحِدٌ، يَدُلُّ عَلَى الْمَيْل وَالْعُدْوَان، وَيُقَالُ: جَنَحَ إِلَى كَذَا، أَيْ: مَالَ

(1) ابن جزي، التّسهيل: 1/128.
(2) السَّمين، عمدة الحُفَّاظ: (حَوَلَ).
(3) السّمرقنديّ، بحر العلوم: 1/158.
(4) الرَّاغِب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، (خَرَجَ).
(5) الواحديّ، الوجيز: 1/176.

إِلَيْهِ، وَسُمِّيَ الْجَنَاحَانِ جَنَاحَيْنِ لِمَيْلِهِمَا فِي الشِّقَّيْنِ، وَالْجُنَاحُ: الْإِثْمُ، سُمِّيَ بِذَلِكَ لِمَيْلِهِ عَنْ طَرِيقِ الْحَقِّ، وَهَذَا هُوَ الْأَصْلُ، ثُمَّ يُشْتَقُّ مِنْهُ، فَيُقَالُ لِلطَّائِفَةِ مِنَ اللَّيْلِ: جُنْحٌ وَجِنْحٌ، كَأَنَّهُ شُبِّهَ بِالْجَنَاحِ، وَهُوَ طَائِفَةٌ مِنْ جِسْمِ الطَّائِرِ، وَالْجَوَانِحُ: الْأَضْلَاعُ؛ لِأَنَّهَا مَائِلَةٌ، وَجُنِحَ الْبَعِيرُ؛ إِذَا انْكَسَرَتْ جَوَانِحُهُ مِنْ حِمْلٍ ثَقِيلٍ، وَجَنَحَتِ الْإِبِلُ فِي السَّيْرِ: أَسْرَعَتْ، فَهَذَا مِنَ الْجَنَاحِ، كَأَنَّهَا أَعْمَلَتِ الْأَجْنِحَةَ[1].

ومعنى اللّفظ في الآية: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِيٓ أَنفُسِهِنَّ﴾ فلا إثم عليكم – أيها الورثة – يحتمل أنّه أراد به الخروج بعد مُضيّ السّنة، ويحتمل الخروج في السّنة؛ إذا خرجت بعذر في أمر لا بدّ لها منه[2].

9) ﴿مِن مَّعۡرُوفٖۗ﴾، المعروف: اسم لكلّ فعل يُعرف بالشَّرْع والعقل حُسنُه، والعُرْف: المعروف من الإحسان، وعَرفه يَعْرِفه مَعْرِفة وعِرْفانًا، فهو عارِف وعَرِيف: عَلِمَهُ[3]، قال الأصفهانيّ: "فقوله: ﴿مِن مَّعۡرُوفٖۗ﴾ إباحة لجنس الأفعال المعروفة، أي: المباحة لجنسه، وقوله: ﴿بِٱلۡمَعۡرُوفِۗ﴾ في موضوع الحال، وهو إباحة لما فعلته، على شريطة تحرّي المعروف"[4].

قدرةُ العزيز الجبّار، تخترقُ الحُجُب، وتتجاوزُ الأسوار

10) ﴿عَزِيزٌ﴾: العَزيز: الغالب المُمْتَنع على من يُريده بالقَهْر والغَلَبة، والعزيز: الّذي يَقْهَر، ولا يُقْهَر، "قال أبو زيد: عزّ الرّجل يعزُّ عزًّا وعزّة؛ إذا قوي بعد ذلّة، وصار عزيزًا، وأعزّه الله تعالى: جعله عزيزًا، وعزّزه تعزيزًا كذلك، ويقال: عززت القوم، وأعززتهم وعززتهم: قوّيتهم وشددتهم، وفي التّنزيل: ﴿فَعَزَّزۡنَا بِثَالِثٖ﴾ [يس: 14]، أي: قوّينا، وشددنا، وقد قرئت: ﴿فَعَزَزۡنَا﴾ بالتّخفيف[5] كقولك: شددنا، والعزّ في الأصل القوّة والشّدّة والغلبة، والرّفعة والامتناع، وفي "البصائر": العزّة: حالة مانعة للإنسان من أن يغلب، وهي يمدح بها تارة، ويذمّ بها تارة،

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، [جَنَحَ].
(2) السّمرقنديّ، بحر العلوم: 1/158.
(3) الفيروزآباديّ، بصائر ذوي التّمييز: [عرف].
(4) الرّاغِب، تفسير الرّاغب: 1/497.
(5) وهي قراءة شعبة عن عاصم، ينظر: ابن الجزري، النشر: 2/353.

كعزّة الكفّار: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ۝٢﴾ [صاد: 2]، ووجه ذلك أنّ العزة للّه ولرسوله، وهي الدّائمة الباقية، وهي العزّة الحقيقيّة، والعزّة الّتي هي للكفار، هي التّعزّز، وفي الحقيقة ذلٌّ؛ لأنّه تشبّع بما لم يعطه، وقد تستعار العزّة للحميّة والأنفة المذمومة، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ﴾[البقرة: 206]"[1].

ومعنى لفظ ﴿عَزِيزٌ﴾ في الآية: "أي: عزيز في انتقامه ممّن تعدّى حدوده؛ إذ هو القاهر فوق عباده"[2].

الـلـه حكيم في كونه، فلا يخلق شيئًا عبثًا، ولا يـشـرّع حكمًا سدى

11) ﴿حَكِيمٌ﴾: الحِكْمَة: وَضْع الأشياء مَواضعها، وتَنزيلها منازلها، والحكيم من أسماء اللّه الحُسْنى، ومعناه: الّذي له الحِكْمَة العُلْيا في خَلْقه وأَمْره، الذي أَحْسَن كلَّ شيء خَلَقَه ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ۝٥٠﴾ [المائدة: 50]، فلا يَخْلق شيئًا عَبَثًا، ولا يُشَرِّع شيئًا سُدى، الذي له الحُكْم في الأولى والآخرة، وله الأحكام الثّلاثة، لا يُشاركه فيها مُشارك، فيَحْكُم بين عباده، في شَرْعه، وفي قَدَره وجزائه[3].

قال السّعديّ: "والحكيم: الموصوف بكمال الحكمة، وبكمال الحكم بين المخلوقات، فالحكيم هو واسع العلم والاطلاع، على مبادئ الأمور وعواقبها، واسع الحمد، تامّ القدرة، غزير الرّحمة، فهو الّذي يضع الأشياء مواضعها، وينزلها منازلها اللّائقة بها في خلقه، وأمره، فلا يتوجّه إليه سؤال، ولا يقدح في حكمته مقال"[4].

المَعْنى الإجْماليُّ:

وصيّة المتوفّى للورثة بنفقة زوجته والتّكفّل بها حولًا؛ إذا آثرت البقاء في بيت الزّوجيّة:

والأزواج الّذين يموتون، وَيَتْركون زوجات بعدهم، فلْيوصوا وصيةً

(1) الزَّبيديّ، تاج العروس: 15/220.
(2) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 1/553.
(3) السَّعْدي، تيسير الكريم الرّحمن: 1/168.
(4) السَّعْدي، تفسير أسماء الله الحسنى، ص: 186.

نسخ الآيات بعضها بعضًا، يؤكّد مواكبة القرآن للتّحوّل الاجتماعيّ ومقتضياته

لهنَّ: أن يُمَتَّعن سنة تامَّة من يوم الوفاة، بالسُّكْنى في منزل الزَّوج، مِن غير إخراج الورثة لهنَّ مدّة السّنة؛ جبرًا لخاطر الزّوجة، وبِرًّا بالمتوفَّى، فإن خرجت الزّوجات باختيارهن قبل انقضاء السّنة؛ فلا إثم عليكم - أيّها الورثة - في ذلك، ولا حَرَجَ على الزّوجات فيما فعلن في أنفسهن مِن أمور مُباحة، والله عزيز في مُلْكه، حكيم في أمره ونهيه، "ومن عزّته وقدرته أن يحوّل الأمم من عادات ضارّة، إلى عادات نافعة، تقتضيها المصلحة، كتحويل العرب من عادتهم في العدّة والحداد؛ إذ كانوا يجعلون المرأة أسيرة ذليلة مقهورة في عقر دارها سنة كاملة، إلى ما هو خير من ذلك، وهو إكرامها في بيت زوجها، بين أهله، وعدم الحجر على حريّتها؛ إذا أرادت الخروج منه، ما دامت في حظيرة الشّرع وآدابه"[1].

وهذه الآية منسوخة بالآية المتقدِّمة في نظم القرآن على هذه الآية وهي قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ۖ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٣٤﴾﴾، ونسخ الأمر بالوصية للزوجة بما فرضَ لها الزوج من ميراثه.

الإيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

وجه الفصل في الآية:

بيان حكم جديد للمتوفَّى عنها زوجها بالانتفاع من الإقامة في بيت الزوج المتوفَّى

الواو استئنافية، والجملة مستأنفة ووجه الفصل أن الله تعالى فرضَ حكمًا مؤكّدًا، وصيةً لهؤلاء الزوجات انتفاعًا مستمرًا بالإقامة في مسْكَنهنَّ الذي كنَّ يسكنَّ فيه في حياة أزواجهن من غير إخراج منه إلى نهاية الحول، أي: حتى يحول الزمن ويجيء الوقت الذي مات زوجها فيه[2].

(1) المراغي، تفسير المراغي: 2/205، ويُنْظَر: نخبة من العلماء، التفسير الميسر، ص: 39.
(2) ابو زهرة، زهرة التفاسير: 2/847.

بلاغة المجاز في لفظ ﴿يُتَوَفَّوْنَ﴾:

دلالة المَجاز على الوصيّة بحفظ حقوق الزّوجة؛ عند مشارفة الزّوج على الوفاة

ذَكَرَ اللَّهُ تَعالى الوَفاةَ، ثُمَّ أمَرَ بِالوَصِيَّةِ، فَكَيْفَ يُوصِي المتَوَفّى؟ والجواب أنّ المَعْنى: والَّذِينَ يُقارِبُونَ الوَفاةَ يَنْبَغِي أنَّ يَفْعَلُوا هَذا، فالوَفاةُ عِبارَةٌ عَنِ الإشْرافِ عَلَيْها[1]، وعليه؛ فقوله تعالى: ﴿يُتَوَفَّوْنَ﴾، مَجازٌ عن المشارفة على الموت، أو اقتراب أسبابه ومُقَدِّماته.

وجَوابٌ آخَرُ: وهو أنَّ هَذِهِ الوَصِيَّةَ يَجُوزُ أنْ تَكُونَ مُضافَةً إلى اللَّهِ تَعالى بِمَعْنى: أمْرِهِ وتَكْلِيفِهِ، كَأنَّهُ قِيلَ: وصِيَّةٌ مِنَ اللَّهِ لِأزْواجِهِمْ، كَقَوْلِهِ: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ﴾ [النساء: 11]، وإنَّما يَحْسُنُ هَذا المَعْنى عَلى قِراءَةِ مَن قَرَأ بِالرَّفْعِ في ﴿وَصِيَّةٌ﴾[2].

وفي التعبير بالمجاز استحباب للوصيّة:

وأشار التَّعبير بالمَجاز في قوله: ﴿يُتَوَفَّوْنَ﴾ إلى استحباب الوَصِيَّة عامَّة قبيل الموت؛ لتكون قريبة العهد للموصى إليهم، فيبادرون بتنفيذها؛ إكرامًا للموصِي، ووفاءً لزوجته.

عِلَّة بِناء الفعل ﴿يُتَوَفَّوْنَ﴾ لِما لم يُسَمَّ فاعله:

فاعل الوفاة هو الله تعالى

وبُنِي الفعل ﴿يُتَوَفَّوْنَ﴾ لِما لم يُسَمَّ فاعله للعِلْم به؛ لأنَّ فاعل الوفاة هو اللّه تعالى، ودليل ذلك ما روي عن جعفر الصّادق، عن أبيه قال: «نظر رسول اللّه ﷺ إلى ملك الموت، عند رأس رجل من الأنصار، فقال له النّبيّ ﷺ: يا ملك الموت، ارفق بصاحبي، فإنّه مؤمن، فقال ملك الموت عليه السلام: يا محمّد، طب نفسًا، وقرّ عينًا، فإنّي بكلّ مؤمن رفيق، واعلم أنّ ما من أهل بيت مدر ولا شعر، إلّا وأنا أتصفّحهم في كلّ يوم خمس مرّات، حتّى لأنا أعرف بصغيرهم وكبيرهم، منهم بأنفسهم، واللّه - يا محمّد ﷺ - لو أنّي أردت أن أقبض روح بعوضة، ما قدرت على ذلك، حتّى يكون اللّه تعالى هو الآمر بقبضها»[3].

---

(1) الواحديّ، التَّفسير البسيط: 4/302.

(2) الرّازي، مفاتيح الغيب: 6/159، وقراءة الرفع من المتواتر، ينظر: ابن الجزري، النشر: 2/228.

(3) ورواه الطّبراني في المعجم الكبير: 4/220، والبزّار في مسنده، حديث رقم: (784)، وورد في تفسير القرطبيّ: 14/93، وابن كثير في تفسير القرآن العظيم: 6/361، والماورديّ، النّكت والعيون: 4/357.

سرّ التعبير بلفظ ﴿مِنكُمْ﴾:

في التَّعبير بالجارّ والمجرور في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ﴾، تأكيد على تصريف الخِطاب إلى الأزواج الّذين دنا أَجَلُهم، وهذا يومئ إلى أهميَّة الرِّسالة المُتضَمَّنة في هذا الخطاب.

تأكيدٌ على أهمية الخطاب المنصرف إلى الأزواج الّذين دنا أَجَلُهم

بلاغة المجاز المُرسل في قوله تعالى: ﴿وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا﴾:

وفي التّعبير بقوله: ﴿وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا﴾، مجاز مُرْسَل باعتبار ما كان؛ لأنَّ المرأة بعد موت زوجها لا تُسَمَّى زوجة، وقد أضفى المجاز المُرْسل هنا بظِلاله على المعنى؛ ففيه استجاشة للوارث بأنْ يُنَفِّذ وصيَّة المَتوفَّى فيمن كانت زوجًا له، ومازالت حديثة عَهْد بفِراقه، ولم يَجِفَّ بَعْد مِداد ذِكْرياتهما؛ و"ليكون للخير والمعروف بقاء في الإسلام بوجه ما، فأيّما عقد وعهد كان في الجاهليّة؛ فلن يزيده الإسلام إلّا شدّة"[1].

قداسة الرّابطة الزّوجيّة معتبرة إلى الممات، ثمّ إلى نهاية العدّة بعد الممات

معاني وَجْهَيْ القراءة في ﴿وَصِيَّةً﴾:

وقَوْلُهُ تعالى: ﴿وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم﴾، قَرَأَهُ نافِعٌ وابْنُ كَثِيرٍ والكِسائِيُّ وأَبُو بَكْرٍ عَنْ عاصِمٍ وأَبُو جَعْفَرٍ ويَعْقُوب وخَلَفٌ[2]: بِرَفْعِ ﴿وَصِيَّةٌ﴾ عَلى الابْتِداءِ، مُحَوَّلًا عَنِ المَفْعُولِ المُطْلَقِ، وأَصْلُهُ: وصِيَّةً بِالنَّصْبِ بَدَلًا مِن فِعْلِهِ، فَحُوِّلَ إلى الرَّفْعِ لِقَصْدِ الدَّوام، ويكون تقدير القول: عليهم وصيةٌ لأزواجهم حال كون هذه الوصية متاعًا إلى الحول غير إخراج، أو لأجل الانتفاع إلى الحول غير إخراج. وقَرَأَهُ أَبُو عَمْرٍو وابْنُ عامِرٍ وحَمْزَةُ وحَفْصٌ عَنْ عاصِمٍ: ﴿وَصِيَّةً﴾ بِالنَّصْبِ، فَيَكُونُ قَوْلُهُ: ﴿لِّأَزْوَٰجِهِم﴾ مُتَعَلِّقًا بِهِ عَلى أَصْلِ المَفْعُولِ المُطْلَقِ الآتِي، بَدَلًا مِن فِعْلِهِ؛ لِإفادَةِ الأَمْرِ، ويكون تقدير القول: كتب الله وصيةً متاعًا إلى الحول غير إخراج[3].

وجه النّصب على المصدريّة، ووجه الرفع التحويل منها لقصد الدّوام

(1) الْحَرَالِيّ، تراث أبي الحسن الْحَرَالِيّ، ص: 417.
(2) ابن الجزري، النشر: 2/228.
(3) البَغَوِيّ، معالم التَّنزيل: 1/165، والشّوكاني، فَتْح القدير: 1/259، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/472، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 2/847.

علَّة التَّعبير عن حَقِّ الانتفاع بالوصيَّة، والمتاع:

حكم الوصيّة الواجبة لغير الوارث أنّها تنفّذ فيما لا يزيد على الثّلث

عُبِّر عن حَقِّ انتفاع المُتَوَفَّى عنها زوجها، بالسُّكنى والنَّفَقة، بالوَصِيَّة في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم مَّتَٰعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ﴾؛ للإشارة إلى "أنّه حَقٌّ يثبت بعد وفاة الزّوج لامرأته في ماله لا على أنَّه ميراث، بل على أنه وصيَّة أوجبها اللّه تعالى بموجب الفِراق بالوفاة، دون أن يكون له أثرٌ في قدر ميراثها في تركة زوجها "[1].

علة إتباع الوصيّة بالمتاع:

التعبير بالمتاع ليقابل متاع المطلقات، وسُمِّيَ متاعًا للانتفاع به رعاية لمكانتها، ووفاءً لصبرها

قوله تعالى: ﴿مَّتَٰعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ﴾، نُصِبَ بإضمار فِعْل بتقدير: مَتِّعوهنَّ مَتاعًا، والتّعبير عن حق الانتفاع بـ﴿مَّتَٰعًا﴾؛ فلأنّه في مقابل ما للمُطلَّقات مِن مَتاع، في قوله تعالى: ﴿وَلِلْمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾"[2]. والمقصود بالمَتاع: نَفَقة سَنَة لِطَعام المُتَوفَّى عنها زوجها وكِسْوتها، وسَكَنها وما تحتاج إليه، وسُمِّي هذا مَتاعًا؛ لأنَّه مِمَّا يُنْتَفع به، قال الْحَرَالِّي: "لتكون الأربعة الأشهر والعشر فرضًا، وباقي الحول متاعًا؛ لتلحق أنواع المتعة بأنواع اللّازم في الزّوجية، من نفقة وكسوة وإخدام وسكنى، ولما كان هذا المتاع الزّائد، إنّما هو تقرير للزّوجة، في حال ما كانت عليه مع زوجها، إشعارًا ببقاء العصمة، وإلاحة من اللّه تعالى بحسن صبر المرأة - المتوفّى عنها زوجها - على زوجها، لا تتزوّج عليه غيره"[3].

معنى (إلى) في جملة المتاع إلى الحول:

معنى (إلى) انتهاء الغاية، وهو يناسب تمام انقضاء مدة الحول

(إلى) في قوله تعالى: ﴿مَّتَٰعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ﴾؛ لانتهاء الغاية الزمانية "مؤذنة بشيء جعلت غايته الحول، وتقديره متاعًا بسكنى إلى

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 2/847.
(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 2/848.
(3) الْحَرَالِّي، تراث أبي الحسن الْحَرَالِّي، ص: 417.

الحول، كما دلَّ عليه قوله: ﴿غَيْرَ إِخْرَاجٍ﴾"[1]. وهذا المعنى يناسب تمام انقضاء مدة الحول.

سرُّ العدول إلى التَّعبير بـ﴿ٱلْحَوْلِ﴾ بدل (السّنة):

إيثار الحول لتمام الاستفادة من المدَّة كاملة، وهي عامٌ كاملٌ من وقت الوفاة

هذه الآية الكريمة فيها وصية لأهل الميِّت أن يبقوا زوجة مَيِّتهم عندهم حَوْلاً كاملًا؛ جَبْرًا لخاطرها، وبِرًّا بِمَيِّتهم؛ ولهذا قال: ﴿وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم﴾، وعبر بـ(حَوْل) بدل (سَنة)؛ لتمام الاستفادة من المدَّة كاملة، فالحَوْل فيه دِلالة على التَّحَوُّل حتى يعود التّاريخ الّذي كانت فيه الوفاة، ولو قيل: إلى سَنَة؛ لاحتمل أن ينتهي الانتفاع بالسَّكَن بانتهاء السَّنة الّتي حدثت فيها الوفاة، ولم يَحُل الحَوْل؛ لذا كان التّعبير بالحَوْل نصًّا، في أنْ يَمَرَّ عام كامل من وقت الوفاة، على بقاء المتوَفَّى عنها زوجها، لتستفيد من السُّكْنى والنَّفقة[2].

معنى (أل) في لفظ الحول:

معنى أل: العهد، والقصدُ الحول المعروف

فإنّ (أل) التَّعْريف في قوله ﴿ٱلْحَوْلِ﴾ هي للعهد، وهو أمر اعتادته العرب منذ الجاهليّة، والحَوَلُ المَعْرُوفُ عِنْدَ العَرَب مِن قديم معلوم، وهو ما ورد معناه في قَوْلِ لَبِيدٍ[3]:

إِلَى الحَوْلِ ثُمَّ اسْم السَّلامِ عَلَيْكُمَا *** وَمَنْ يَبْكِ حَوْلًا كَامِلًا فَقَدِ اعْتَذَر[4]

(إنْ) الشرطيّة تشير إلى استحباب تنفيذ الزّوجات للوصيَّة:

أشار التّعبير بإنْ الشّرطيّة الّتي تدلّ على الشَّكّ في وقوع الشَّرط، في قوله: ﴿فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِيٓ أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ﴾، إلى عدم استحباب خروج النِّساء من بيوتهن قبل انقضاء الحَوْل، بإظهار الخبر في صورة الأمر المستبعد أو النَّادر

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 2/473.
(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 2/847.
(3) ديوان لبيد بن ربيعة العامري، ص: 51.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 2/473.

حدوثه، بدلالة أيضًا التّعبير بجمع القِلَّة ﴿أَنفُسِهِنَّ﴾، والخِطاب في قوله: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ لأولياء المَيِّت، والمعنى: فإن خرجن من قِبَل أنفسهن قبل الحَوْل من غير إخراج الورثة، فلا إثم عليكم - يا أولياء الميت - ولَيْسَ لَكُم مَنعُهُنَّ مِمّا يَفْعَلْنَ في أَنْفُسِهِنَّ مِن تَزْوِيجٍ، وتَرْكِ إحْدادٍ، وتَزَيُّنٍ، وخُرُوجٍ، وتَعَرُّضٍ لِلْخُطّابِ، إذا كانَ ذَلِكَ بِما هو مَعْرُوفٌ في الشَّرْعِ غَيْرُ مُنْكَرٍ، وفِيهِ دَلالَةٌ عَلى أنَّ المَحْظُورَ إخْراجُها عِنْدَ إرادَةِ القَرارِ، ومُلازَمَةِ مَسْكَنِ الزَّوْجِ والحِدادِ مِن غَيْرِ أنْ يَجِبَ عَلَيْها ذَلِكَ، وأنَّها كانَتْ مُخَيَّرَةً بَيْنَ المُلازَمَةِ مَعَ أخْذِ النَّفَقَةِ، وبَيْنَ الخُرُوجِ مَعَ تَرْكِها"[1].

الخِطاب لِأولياءِ المَيِّتِ، والنِّساءُ كُنَّ مُخَيَّراتٍ في سُكْنى الحَوْلِ

فائدة تخصيص رفع الحرج عن الرّجال:

قال تعالى في هذه الآية، وفيما قبلها: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ﴾، فرفع الجناح عن الرجال فيما فعلنَ، وذلك يقتضي أنْ يزر أحدنا وزر الأخرى، وقد قال تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الأنعام: 164]، وفي ذلك وجهان: الأول: أنّ النساء لما كنَّ تابعات للرجال، وتحرر أمرهم، صار الجناح في كثير مما يفعلن راجعاً إليهم إذا لم ينهوهنَّ، ولهذا قال: ﴿قُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ [التحريم: 6].

وجه التخصيص أن النساء تابعات للرجال، فالجُناح في كثير ممّا يفعلن راجعٌ إليهم

والثاني: أن ما يشير إليه، فإنهن يفعلن في أنفسهن هو أمر يتعلق بالرجال، فلا يمكِّنوهنَّ، أو يساعدوهنّ وكل موضع اجتمع فيه مذكر ومؤنث، أو مخاطب أو غائب، فالحكم في اللفظ للمذكر والمخاطب دون المؤنث والغائب، فلهذا قال: ﴿عَلَيْكُمْ﴾[2].

كل موضع اجتمع فيه مذكر ومؤنث، فالحكم في اللفظ للمذكر

وفي رفع الجُناح عن الرِّجال بخروج النّساء وجهان: أحدهما: لا جناح في قَطْعِ النّفقة عنهن، إذا خرجن قبل انقضاء الحول،

ومعنى رفع الجناح عن الرّجال: قطع النفقة عنهنّ، أو ترك منعهنّ من الخروج

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 1/236.
(2) الراغب، تفسير الراغب: 1/496-497.

والثّاني: لا جُناحَ عليكم في ترك منعهنّ من الخروج؛ لأنّ مُقامَها حولًا في بيت زوجها غيرُ واجب عليها[1].

بلاغة توكيد المتاع بالمصدر بنفي ضدّه:

"قوله: ﴿غَيْرَ إِخْرَاجٍ﴾ حال من ﴿مَّتَٰعًا﴾ مؤكدة، أو بدل من ﴿مَّتَٰعًا﴾ بدلًا مطابقًا، والعرب تؤكد الشيء بنفي ضده"[2]. والمعنى: "غير مخرجات، أو يبقيَن في مسكنهن من غير إخراج من ورثة المتوفى لهن؛ والتعبير بالمصدر في هذا المقام هو الأصل، وهو المغزى والمرمى؛ لأن الوصية هي عدم الإخراج؛ فالوصية ألا يخرجن؛ ولذلك كان التعبير بالمصدر هو الأصل"[3]. وتوكيد المتاع بالمصدر على طريق نفي الضدّ أقوى في الدلالة على منع الخروج.

توكيد المتاع بالمصدر على طريق نفي الضدّ أقوى في الدلالة على منع الخروج

نكتة الوعيد الشديد في جُمل التذييل:

خُتِمت الآية الكريمة بِصفتين مناسبتين لمقام الآية الكريمة، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾، فَقَوْلُهُ: ﴿عَزِيزٌ﴾ إظْهارٌ لِلْغَلَبَةِ والقَهْرِ، لِمَن عاند ومَنَعَ مِن إنْفاذِ وَصِيَّةِ المتَوَفَّى، بِالتَّمْتِيعِ المَذْكُورِ، أوْ أخْرَجَهُنَّ، وهُنَّ لا يَخْتَرْنَ الخُرُوجَ، وفيه إشعار بِالوَعِيدِ عَلى ذَلِكَ، وفي ضِمْنِهِ - كَما قالَ الحَرالِّيُّ - تَهْدِيدٌ شَدِيدٌ لِلْأوْلِياءِ؛ إنْ لَمْ يُنَفِّذُوا، ويُمْضُوا هَذِهِ الوَصِيَّةَ، بِما أَلْزَمَ اللَّهُ، فَفي إلاحَتِهِ: أنَّ مَن أضاعَ ذَلِكَ، نالَهُ مِن عِزَّةِ اللَّهِ عُقُوباتٌ في ذاتِ نَفْسِهِ وزَوْجِهِ، ومُخَلِّفِيهِ مِن بَعْدِهِ، ويَجْرِي مَأْخَذَ ما تَقْتَضِيهِ العِزَّةُ عَلى وزْنِ الحِكْمَةِ؛ جَزاءً وِفاقًا وحُكْمًا قِصاصًا، وقَوْلُهُ: ﴿حَكِيمٌ﴾، إظْهارُ أنَّ ما شُرِعَ مِن ذَلِكَ؛ فَهو جارٍ عَلى الحِكْمَةِ والإتْقانِ، ووَضْعِ الأشْياءِ مَواضِعَها، فلا ينبغي أنْ يتجاوزها أَحَدٌ، وفيها ترغيب بتنفيذ الوَصِيَّة[4].

الله عزيز في انتقامه ممّن خالف أمره ونهيه، وحكيم فيما قضى بين عباده

(1) الواحديّ، التّفسير البسيط، ويُنْظَر: الشّوكانّي، فتح القدير: 1/260.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/473.
(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 2/847.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/255، والبِقاعي، نَظْم الدُرَر: 3/381.

قال الطّبريّ: "فإنّه يعني تعالى ذكره: ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ﴾ في انتقامه، ممّن خالف أمره ونهيه، وتعدّى حدوده من الرّجال والنّساء، فمنع من كان من الرّجال نساءهم وأزواجهم ما فرض لهنّ عليهم في الآيات الّتي مضت قبل: من المتعة والصّداق والوصيّة، وإخراجهن قبل انقضاء الحول، وترك المحافظة على الصّلوات وأوقاتها، ومنع من كان من النّساء ما ألزمهن الله من التّربُّص عند وفاة أزواجهن عن الأزواج، وخالف أمره في المحافظة على أوقات الصّلوات، حكيم فيما قضى بين عباده من قضاياه الّتي قد تقدّمت في الآيات قبل قوله: ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾، وفي غير ذلك من أحكامه وأقضيته"[1].

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(يذر) و(يترك) و(يدع):

السّياق يناسبه لفظ (يـذر) بما فيه مـن معنى الإهـمـال وعـدم الاعتداد

الأفعال: (يَذَر ويَتْرك ويَدَع)، كلُّها تدلُّ على مفارقة الشّيء، والتَّخلِّي عنه، لكن بينها فَرْق دقيق في المعنى، بيان هذا: أنَّ يَدَعَ، هو تَرْك الشّيء مع الاهتمام به والحرص عليه، ومنه الإيداع، وهو تركك المال في المَصْرِف، والوَديعة عند الشَّخْص المؤتَمَن حِرْصًا عليها، والتَّرْك يدلُّ على مُطْلَق التَّخلِّي عن الشّيء، مع الحِرْص عليه، أو الزُّهْد فيه، أو" رَفْضه قَصْدًا واختيارًا، كقوله تعالى: ﴿وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا﴾ [الدخان: 24]، أو قهرًا واضطرارًا، كقوله تعالى: ﴿كَمْ تَرَكُواْ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ۝٢٥﴾ [الدخان: 25]، " ومنه تَرِكَة المَيِّت[2]، أمّا الوَذْرُ؛ فهو التَّخلي عن الشّيء إهمالًا له؛ لِعَدم الاعتداد بشأنه، كما قال الرَّاغب في مفرداته: "يقال: فلان يَذَرُ الشّيءَ، أي: يقذفه لقلّة اعتداده به"[3]، وقال في الآية الكريمة: ﴿وَيَذَرُونَ﴾، ولم يَقُل: يتركون، أو يَدعون، أو يُخْلِفون؛ لأنَّه هو المناسب لسياق الآية، فالموصي مُدْبِر عن الدُّنيا بهمومها، مُقْبِل على الآخرة بأهوالها، وسياق كهذا يناسبه استخدام المادّة الّتي تدلُّ على إهمال الشّيء، وعدم الاعتداد به، وليس مجرد مُطْلَق التَّرْك.

(1) ابن جرير، جامع البيان: 5/262.
(2) الرَّاغب، المفردات، والسَّمين، عمدة الحُفَّاظ: (تَرَكَ).
(3) الرَّاغب، المفردات: (وذَر).

﴿وَلِلْمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعُۢ بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٤١﴾ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٤٢﴾﴾ [البقرة: 241 - 242]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الرّبط بين متعة المتوفّى عنها زوجها ومتعة المطلّقة؛ تبيانًا لحكمته تعالى في الأحكام:

أحكام المتعة نموذج من الأحكام الشّرعيّة الصّالحة لكلّ زمان ومكان

لَمّا ذَكَرَ سُبْحانَه وتَعالى مَتاعَ المُتَوَفّى عَنْهُنَّ؛ عَقَّبَهُ مَتاعَ المُطَلَّقاتِ تَأْكِيدًا لِلْحُكْمِ بِالتَّكْرِيرِ، وتَعْمِيمًا بَعْدَ تَخْصِيصِ بَعْضِ أفْرادِه[1]، وارتباطًا بين ما سلف وهذه الآية، فقد شرعت المتعة للمتوفّى عنها زوجها، "وشرعت المتعة لكلّ مطلّقة على سبيل الوجوب؛ إذا كانت غير مدخول بها، وعلى سبيل الاستحسان لغيرها، والّذي يفعل ذلك من أُشْرِبَ قلبه تقوى اللّه، والخوف من عقابه، فهو الّذي يجود بالمال، تطييبًا للقلوب وإزالة للضّغن ... إنّ اللّه جلّت قدرته، مضت سنّته أن يبيّن لعباده أحكام دينهم على هذا النّحو من البيان الّذي تقرن فيه الأحكام بعللها وأسبابها، وبيان فوائدها؛ ليعدّهم بذلك لكمال العقل، حتّى يتحرّوا الاستفادة من كلّ عمل، وليكونوا على بصيرة من دينهم، عالمين بانطباق أحكامه على مصالحهم، فدينهم هو دين العقل، وأحكامه تنطبق على مصالح البشر في كلّ زمان ومكان"[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلْمُتَّقِينَ﴾: يقال: وَقَيْتُ الشّيءَ أَقِيهِ وِقَايَةً ووِقَاءً، والوِقَايَةُ: حفظُ الشّيءِ ممّا يؤذيه ويضرّه، والتَّقْوَى جعل النّفس في وِقَايَةٍ مِمَّا يُخاف، ثمّ يُسمّى الخوف تارة: تَقْوًى، والتَّقْوَى خوفًا حسب تسمية

(1) البِقاعي، نَظْم الدُّرَر: 3/383.
(2) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 2/206.

مقتضى الشّيء بمقتضيه، والمقتضي بمقتضاه، والتَّقْوَى شَرْعًا: حِفْظ النّفس عمّا يُؤْثِم، وذلك بترك المحظور، ويتمّ ذلك بترك بعض المباحات[1]، "فمن كان يتقي اللّه تعالى؛ فليعطِ مطَلَّقَتَه - وقد كانت ضجيعتَه وموضعَ سرّه ومحبّته - نفقتها ﴿بِٱلۡمَعۡرُوفِۖ﴾ من غير أذى، ولا معاندة، ولا مضارّة"[2].

التّقوى خوف من اللّه، وخشية من عذابه وعدم رضاه

2) ﴿يُبَيِّنُ﴾: أي: يُظْهر، ويوضِّح، "أي: مثل البيان الّذي تقدّم فيما ذكر من الأحكام يبيّن اللّه ما به يكون فهم الأحكام للنّجاة من التّصادم والشّنآن، ولصون حقوق المرأة، أن تعصف بها أهواء الأنانيّة والطّمع، " قال عطاء: يريد: يفسّر لكم فرائضه؛ لتعملوا بها حتّى تفقهوا، وهو قوله: ﴿لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾، أي: يثبت لكم صفة العقلاء باستعمال ما بيّنا لكم"[3].

السُّنَّة تفصيلٌ تبيّن ما في القرآن من مجمل

3) ﴿ءَايَٰتِهِۦ﴾: المقصود هنا آيات السُّوَر الدَّالَّةِ عَلى أحْكامِهِ الَّتِي شَرَعَها لِعِبادِهِ، والآية: هي العلامة الظَّاهرة، وحقيقته لكل شيء ظاهر، وهو مُلازم لشيء لا يظهر ظهوره[4]، قال الزّجاج: "آياته علاماته ودلالاته على ما فرض عليكم، أي: مثل هذا البيان، يبيّن لكم ما هو فرض عليكم، وما فرض عليكم"[5].

4) ﴿تَعۡقِلُونَ﴾، عَقَلَ يَعْقِل عَقْلًا: أَدْرَك الأشياء على حقيقتها، والعَقل ضدّ الحُمْق، عَقَل يَعْقِل، وعَقَّل: فهو عاقل، والجمع: عُقَلاء، وعَقِل الشّيءَ: فهِمه، وله قلبٌ عَقُول، وسُمِّي العقل عقلاً؛ لأَنه يَعقل صاحبَه عمّا لا يَحْسُن، والمادَّة تدور حَوْل الحَبْس[6]، والمعنى: إنّ اللّه جلّت قدرته، مضت سنّته أن يبيّن لعباده أحكام دينهم، على هذا

لا يدرك الحقائق وينتفع بها، إلّا الّذين لهم قلوب يعقلون بها

(1) الرّاغب، المفردات: (وَقَى).
(2) محمّد بن الخطيب: أوضح التّفاسير، ص: 47.
(3) الواحديّ: الوسيط: 1/354.
(4) الرّاغب، المفردات: (أَيْ).
(5) الزّجاج، معاني القرآن وإعرابه: 1/322.
(6) الفيروزآباديّ: (عَقِلَ).

النّحو من البيان الّذي تقرن فيه الأحكام بعللها وأسبابها، وبيان فوائدها؛ ليعدّهم بذلك لكمال العقل، حتّى يتحرّوا الاستفادة من كلّ عمل، وليكونوا على بصيرة من دينهم، عالمين بانطباق أحكامه على مصالحهم، فَدِينُهم هو دِين العقل، وأحكامه تنطبق على مصالح البشر في كلّ زمان ومكان"[1].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

يجب على الزّوج متعة الطّلاق، وأن يلتزم بالتّقوى عند الفراق:

أحكام المتعة جبر للخواطر، وعمل على إراحة الضّمائر

وللمُطَلَّقات مَتاع مِن كِسْوة ونفقة على الوجه المعروف المستحسن شرعًا، دون مبالغة، ولا تقصير، وهو أمر واجبٌ على الأزواج أن يُمتِّعوا المطلّقات، بقدر استطاعتهم؛ جَبْرًا لخاطرهنَّ، وأداءً لبعض حقوقهنَّ، فرض اللّه هذه المتعة حقًّا مُتَعَيَّنًا على المُطَلّقين الأتقياء الّذين يخافون اللّه، ويتَّقونه في أمره ونَهْيه. مثل ذلك البيان الشّافي - في أحكام الأولاد والنساء - الّذي يوجّه النّفوس نحو المودّة والرّحمة، يبيّن اللّه سبحانه لكم آياته الدّالة على أحكامه الشّرعيّة، في كل ما تحتاجون إليه في معاشكم ومعادكم؛ لتعقلوا ما فيها، وتعملوا بموجبها[2].

❁ الإيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

وجه الوصل بالعطف في الآية:

لاستيفاء أحكام المتعة للمطلقات كلهنَّ

عطف على جملة: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ﴾؛ لاستيفاء أحكام المتعة للمطلقات، فزادتْ هذه الآية أحكامًا على الآية التي سبقتها، بعد أن تقدم حكم متعة المطلقات قبل المسيس وقبل الفرض، فعمَّم بهذه الآية طلب المتعة للمطلقات كلهن[3].

(1) المراغيّ، تفسير المراغي: 2/206.
(2) محمد علي جميل، صفوة التّفاسير: 2/206، ونخبة من العلماء، التفسير الميسر، ص: 39.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/474.

بلاغة تقديم الجارّ والمجرور: ﴿وَلِلْمُطَلَّقَٰتِ﴾:

بيان التّقديم اختصاص الحكم في المطلقات، وقصر المتّعة مِن نفقة وكِسْوة عليهنَّ

وقد أفاد تقديم الجار والمجرور في قوله: ﴿وَلِلْمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعٌۢ﴾ القَصْر، حيث قُصِرت المُتْعة مِن نفقة وكِسْوة على المُطَلَّقات قَصْرًا إضافيًا، فزادَتْ هَذِهِ الآيَةُ أَحْكامًا عَلى الآيَةِ الَّتِي سَبَقَتْها، ف" يكون تخصيص من تقدَّم ذكرها لتأكيد أمرها"[1].

معنى (أل) في ﴿وَلِلْمُطَلَّقَٰتِ﴾:

معنى الاستغراق في (أل) للدلالة على وجوب المتْعة لكلّ مُطَلَّقة

التَّعْرِيفُ في ﴿وَلِلْمُطَلَّقَٰتِ﴾ يُفِيدُ الِاسْتِغْراقَ؛ ليشمل كُلَّ المُطلَّقات، وجُعِلَتِ المُتْعَةُ لَهُنَّ بِلام التَّمْلِيك (الاستحقاق)، وَقَدِ اسْتَدَلَّ بِهَذِهِ الْآيَةِ مَنْ ذَهَبَ مِنَ الْعُلَمَاءِ إِلَى وُجُوبِ الْمُتْعَةِ لِكُلِّ مُطَلَّقَةٍ، سَوَاءٌ كَانَتْ مُفَوَّضَةً، أم مَفْرُوضًا لَهَا، أَوْ مُطَلَّقة قَبْلَ الْمَسِيسِ، أَوْ مَدْخُولًا بِهَا، وَهُوَ قَوْلٌ عَنِ الشَّافِعِيِّ رحمهُ اللَّهُ وَمَنْ لَمْ يُوجِبْهَا مُطْلَقًا، يُخَصِّصُ مِن هَذَا الْعُمُومِ، بِمَفْهُومِ قَوْلِهِ: ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُواْ لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ مَتَٰعًۢا بِٱلْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٣٦﴾﴾ [البقرة: 236]، وَأَجَابَ الْأَوَّلُونَ: بِأَنَّ هَذَا مِنْ بَابِ ذِكْرِ بَعْضِ أَفْرَادِ الْعُمُومِ، فَلَا تَخْصِيص عَلَى الْمَشْهُورِ[2].

سرّ تكرار الأمر بالمتعة:

استيعاب جميع أحوال المتعة، تعميمٌ للأحكام، وترسيَة للعدل بين الأنام

كرّر الأمر بالمتعة في قوله: ﴿وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ﴾، وقوله: ﴿وَلِلْمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾؛ لأنَّ ما ذُكِر في الآية المتقدِّمة حُكْم خاصٌّ، وهَهُنا ذَكَرَ تعالى حُكْمًا عامًّا[3]، "ولما فيها من زيادة المعنى على ما سواها، وهي أنّ فيما سوى هذا، بيان حكم غير الممسوسة؛ إذا طلّقت، وهاهنا بيان حكم جميع المطلّقات في المتعة ... فبيّن أنّ

(1) الراغب، تفسير الراغب: 1/498.
(2) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 2/413.
(3) الرّازي، مفاتيح الغيب: 6/160.

لكل مطلّقة متاعًا"[1]، فقوله: ﴿وَلِلْمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعٌۢ﴾، عمَّ المطلّقات بإيجاب المتعة لهنّ، بعد ما أوجبها لواحدة منهنّ، وهي المطلّقة غير المدخول بها، وعن سعيد بن جبير وأبي العاليّة والزّهريّ: أنّها واجبة لكلّ مطلّقة، وقيل: قد تناولت التّمتيع الواجب والمستحبّ جميعًا[2]، وذكر الرّاغب الأصفهاني أنَّ من المفسرين من جعل هذا المتاع للمطلقات عامّة على سبيل الاستحباب، لا على الإيجاب، أي: أنّ اللّه أراد أنّ يكون تسريحاً على وجه تطيب به نفسها، ويزول عنها ما خامرها من وحشة الفراق، أو: هو على الإيجاب[3].

علّة تنكير لفظ ﴿مَتَٰعٌۢ﴾:

علّة التنكير هنا إعمام المتاع، والنفقة بحسب اختلاف المطلّقين

التَّنكير في قوله: ﴿مَتَٰعٌۢ﴾ للتَّعميم، والتَّقدير: أيُّ مَتاع، أيّ نَفَقَة، وشُرِعَت نفقة المتْعة للمُطَلَّقات؛ جَبْرًا للخاطر، واستبقاء للمودَّة الإنسانيّة، واحتفاظها بالذِّكرى على حسب وُسْع المطَلِّق؛ لذا عُمِّم المتاع بالنِّكرة؛ لأنَّ نفقة المتْعة تختلف على حسب اختلاف أحوال المطَلِّقين، فَقْرًا وغِنًى[4].

القيْد بالجارّ والمجرور في قوله تعالى: ﴿مَتَٰعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِۖ﴾:

الطّلاق والمتاع بالمعروف من أرقى ألوان التّعامل الإنسانيّ

في قوله: ﴿مَتَٰعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِۖ﴾، تقييدٌ للمَتاع بالجارّ والمجرور: ﴿بِٱلْمَعْرُوفِۖ﴾، وقد أفاد هذا القَيْد مراعاة أحوال المطلَّقين في المتْعة، بحيث تكون مِمّا يتعارفه الشَّرْع، ولا يُنْكره، دون إسراف ولا تقتير، والمعنى يوجّه للدّلالة، "أَي: الْمُتْعَة لَهُنَّ ملكًا، جعلهَا لَهُنَّ بلام التَّمْلِيك، وَقَوله: ﴿حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ﴾، يَعْنِي: وَاجِبًا على الْمُؤمنِينَ[5].

(1) الثّعلبيّ، الكشف والبيان: 2/201.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/289.
(3) الراغب، تفسير الرّاغب: 1/497.
(4) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/289.
(5) السّمعانّي، تفسير القرآن: 1/245.

سرُّ تخصيص الحق بالمتَّقين:

وخُصَّ المُتَّقون بالذِّكر، في قوله: ﴿حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ﴾؛ لأنَّهم هم المُنتفعون بِما يُكَلَّفون به من أوامر ونَواهٍ وأحكام، بمبادرتهم إلى الامتثال والتّنفيذ.

التذييل بالمتقين؛ لأنَّهم هم المُنتفعون بِما يُكَلَّفون به، بمبادرتهم إلى الامتثال والتّنفيذ

التذييل بلفظي ﴿عَلَى﴾، والمصدر ﴿حَقًّا﴾:

قال أبو زهرة: "لا يوجد تعبير يوثق وجوب المتعة كقوله تعالى: ﴿حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ﴾؛ لأن الوجوب فيه قد تأكد بأنه من موجبات التقوى التي يتقى بها العذاب، وبالتعبير بعلى التي تفيد الإلزام، وبكلمة ﴿حَقًّا﴾ وهي مصدر حذف فعله، وهو يدل على تقرير الأمر وتثبيته"[1].

وفي هذا التذييل توثيق وجوب المتعة بالمتقين.

❁ الإيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

بلاغة التشبيه في الآية الكريمة:

"الكاف في قوله: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ للتّشبيه، وذلك إشارة إلى هذا الشّرع والتّنويع الّذي وقع في النّساء، وإلى إلزام المتعة لهنّ، أي: كبيانه هذه القصّة يبيّن سائر آياته"[2]، وفي قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾، تشبيه بيان ببَيانٍ، والتَّقدير: مِثْل البيان الّذي تَقَدَّم فيما ذَكَر مِن الأحكام، يُبَيِّن اللّه لَكُم آياته[3]، فشُبِّه البيان الّذي يأتي بالبيان الّذي مَضى[4]، وهذا التَّشبيه لتصوير بيان اللّه دائمًا لآياته الكريمة بهذه الصّورة التّي يقرؤها القارئ في آيات الأحكام، بيانٌ يُوَجِّه النّفوس نحو الرَّحمة والعدالة والفضل، كما أن قوله: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: 2]، ليس بتخصيص أنّه لا يهدي به إلّا المتّقين، لكن يبيِّنه على أنّ الاهتداء به من تمام التّقوى[5].

تشبيه البيان الّذي يأتي بالبيان الّذي مَضى، لتوجيه النّفوس نحو الرَّحمة والعدالة والفضل

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 2/853.
(2) ابن عطيّة، المحرر الوجيز: 1/327.
(3) الواحدي، الوسيط: 1/354.
(4) الزَّجّاج، معاني القرآن: 1/322.
(5) الراغب، تفسير الرّاغب: 1/490.

سرّ تقديم الجار والمجرور على المفعول:

تخصيص وَعْد تَبيين الآيات بعباده، وتشريفٌ لهم

تقديم الجار والمجرور ﴿لَكُمْ﴾ على المفعول ﴿ءَايَٰتِهِۦ﴾ تخصيصٌ للبيان بالمكلّفين، وتشريفٌ لهم بتخصيصهم بالبيان، لما فيه من وعْدٌ من الله تعالى، بِأنَّه سَيُبَيِّن لِعِبادِهِ مِنَ الدَّلائِل والأحْكام، ما يَحْتاجُونَ إلَيْهِ مَعاشًا ومَعادًا[1].

بيان الأحكام وأصول الانتظام؛ لضمان سعادة الدّنيا، وفوز الآخرة

قال الطبريُّ: "يقول تعالى ذكره: كما بيّنت لكم ما يلزمكم لأزواجكم، ويلزم أزواجكم لكم - أيّها المؤمنون - وعرّفتكم أحكامي، والحق الواجب لبعضكم على بعض في هذه الآيات، فكذلك أبيّن لكم سائر الأحكام في آياتي الّتي أنزلتها على نبيي محمّد ﷺ في هذا الكتاب، لتعقلوا - أيّها المؤمنون بي وبرسولي - حدودي، فتفهموا اللّازم لكم من فرائضي، وتعرفوا بذلك ما فيه صلاح دينكم ودنياكم، وعاجلكم وآجلكم، فتعملوا به؛ ليصلح ذات بينكم، وتنالوا به الجزيل من ثوابي في معادكم"[2].

سرّ التّعبير بفعل الرّجاء (لَعَلَّ)، ودوره في الإقناع والتّحفيز والنّجاعة

ورود الإضافة للتّشْريف في قوله تعالى: ﴿ءَايَٰتِهِۦ﴾:

والمقصود من الآيات حدود اللّه تعالى، وحلاله وحرامه والأحكام النّافعة، وإضافة الآيات لضميره سبحانه؛ لتشريفها وتعظيمها.

سر التعبير بجملة الرّجاء:

في التّعبير بـ(لَعَلَّ) إلهاب وتهييج للمخاطبين

وفي التَّعبير بـ(لَعَلَّ) في قوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾، بمعنى: رَجاءٌ لِأنْ يَعْقِلوا، فَلَمْ يَبْلُغ الظَّنُّ بِهِم مَبْلَغَ القَطْع، وهو إلهاب وتهييج للمخاطبين، بأن يكونوا على حالٍ يُرْجى لَهم مَعَها التَّفَكُّر في الآياتِ المَسْمُوعاتِ والآياتِ المَرْئِيّاتِ، كَما يَفْعَلُ العُقَلاءُ، فَيَهْدِيكم ذَلِكَ إلى سَواءِ السَّبِيلِ[3].

(1) البَيْضاويّ، أنوار التَّنْزيل: 1/251.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 5/265.
(3) البِقاعيّ، نَظْم الدُّرَر: 3/384.

والتّعبير بصيغة الرّجاء، هو في معنى التّعليل، أي: لتعقلوا؛ لأنَّ الرَّجاء في حقّ اللّه تعالى لا يكون على معناه الحقيقيّ، أو يقال: إنَّ هذا البيان مِن شأنه أن يُرْجى تعقُّلهم وتفكُّرهم، وأحكام الأُسْرة كما وردت في الآيات الكريمة باعثة على هذا[1].

في التَّعبير بـ(لَعَلَّ) معنى التّعليل؛ لأنَّ الرَّجاء في حقّ الله تعالى لا يحمل على الحقيقة

قصدية التذييل بلفظ ﴿تَعۡقِلُونَ﴾:

"العاقل ههنا، هو الّذي يعمل بما افْتُرِضَ عليه؛ لأنّه؛ إن فهم الفرض ولم يعمل به فهو جاهل ليس بعاقل، وحقيقة العقل، هو استعمال الأشياءِ المستقيمة، متى عُلِمَت، ألا ترى إلى قوله ﷻ: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوۡبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٖ﴾ [النساء: 17]، لو كان هُؤلاء جهّالاً غيرَ مميّزين البَتَّةَ؛ لسقط عنهم التّكليف؛ لأنّ اللّه لا يكلّف من لا يميّز، ويقال: جهّال وإن كانوا مميّزين؛ لأنّهم آثروا هواهم على ما علموا أنّه الحقّ"[2].

لفظ تعقلون يتضمن معنى الفهم مع العمل بما افْتُرِضَ عليه

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 2/856.

(2) الزّجاج، معاني القرآن وإعرابه: 1/322.

﴿۞أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُواْ ثُمَّ أَحْيَٰهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ٢٤٣﴾ [البقرة: 243]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

المناسبة بين الحفاظ على مكوّنات المجتمع والدّفاع عن كيانه في حماية من يحيي ويميت:

الـرّبـط بين مظاهر التّكليف، وخوارق التّحفيز والتّخويف

بَيَّن البِقاعيُّ عَلاقة الآية الكريمة بسِياقها، بقوله: "ولَمّا انْقَضى ما لا بُدَّ مِنهُ، مِمّا سِيقَ بَعْدَ الإعْلامِ بِفَرْضِ القِتالِ المَكْرُوهِ لِلأنْفُسِ، مِن تَفْصِيلِ ما أُحْمِلَ في لَيْلِ الصِّيامِ مِنَ المشارِبِ والمناكِحِ، وما تَبِعَها، وكانَ الطَّلاقُ كَما سَلَفَ كالمَوْتِ، وكانَتِ المُراجَعَةُ كالإحْياءِ، وخَتَمَ ذَلِكَ بِالصَّلاةِ حالَ الخَوْفِ، ثُمَّ بِتَبْيِينِ الآياتِ أعَمَّ مِن أنْ تَكُونَ في الجِهادِ أوْ غَيْرِهِ؛ عَقَّبَ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ دَلِيلًا عَلى آيَةِ كَتْبِ القِتالِ المَحْثُوثِ فِيها عَلى الإقْدامِ عَلى المَكارِهِ، لِجَهْلِ المَخْلُوقِ بِالغاياتِ ﴿۞أَلَمْ تَرَ﴾"[1].

ولصاحب "روح المعاني" توجيه آخر؛ لبيان مناسبة هذه الآية الكريمة بما قبلها، حيث قال: "ومُناسَبَةُ هَذِهِ لِما قَبْلَها: أنَّهُ سُبْحانَهُ لَمّا ذَكَرَ جُمَلًا مِنَ الأحْكامِ التَّكْلِيفِيَّةِ مُشْتَمِلَةً عَلى ذِكْرِ شَيْءٍ مِن أحْكامِ المَوْتى؛ عَقَّبَ ذَلِكَ بِهَذِهِ القِصَّةِ العَجِيبَةِ؛ تَنْبِيهًا عَلى عَظِيمِ قُدْرَتِهِ، وأنَّهُ القادِرُ عَلى الإحْياءِ والبَعْثِ؛ لِلْمُجازاةِ واسْتِنْهاضًا لِلْعَزائِمِ عَلى العَمَلِ لِلْمَعادِ، والوَفاءِ بِالحُقُوقِ، والصَّبْرِ عَلى المَشاقِّ"[2].

وربط الشّيخ الزّحيليّ مختلف السّياقات بصورة أكثر استيعابًا

(1) البِقاعي، نَظْم الدُرَر: 3/242.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 2/160.

لعلائق الارتباط، بين السّابق واللّاحق، فقال: "ذكر اللّه تعالى في الآيات السّابقة أحكام الأسرة لتنظيم العلاقة بين أفرادها، وبنائها على دعائم وطيدة وأسس ثابتة راسخة، ثمّ ذكر بعدها أحكام الجهاد، للدّفاع عن الأمّة وصون مقدّساتها والدّفاع عن عقيدتها؛ إذ لا صلاح للأسرة إلّا بصلاح المجتمع، وللجمع بين الحفاظ على المصلحة الخاصّة، والمصلحة العامّة، فيتحقّق التّوازن والتّعادل، بين ما يحفظ الجماعة، وما يحفظ الفرد والأسرة، بل إنّ صون المصالح الخاصّة لا يتمّ في الحقيقة، بدون صيانة المصالح العامّة، وحماية الأمّة، والذّود عن حياضها ووجودها أمام أعدائها"[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أُلُوفٌ﴾: الألْف: عَدَد معروف، يُمَيَّز بواحدٍ مخصوص، قال تعالى: ﴿أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [البقرة: 96]، ويُثَنَّى، ويُجْمَع على آلافٍ وألوفٍ، وسُمِّيَت بذلك؛ لائتلاف الأعداد فيها، وذلك أنّ الأعداد آحاد وعشرات ومئون وألوف، فإذا بلغت الألف، فقد ائتلفت، وما بعده يكون مكررًا، وآلفت الدّراهم، أي: بلغت بها الألف[2]، قال الجمهور: هي جمع ألف، واختلفوا في العدد، فأكثره ستمائة ألف، وأقلّه ثلاثة آلاف، قال القرطبيّ: "والصّحيح أنّهم زادوا على عشرة آلاف، لقوله تعالى: ﴿وَهُمْ أُلُوفٌ﴾، وهو جمع الكثرة، ولا يقال في عشرة فما دونها: ألوف، وقال ابن زيد في لفظة ألوف: إنّما معناها، وهم مؤتلفون، أي: لم تخرجهم فُرقة قومهم، ولا فتنة بينهم، إنّما كانوا مؤتلفين، فخالفت هذه الفرقة، فخرجت فرارًا من الموت، وابتغاء الحياة بزعمهم، فأماتهم اللّه في منجاهم بزعمهم، فألوف على هذا جمع آلف، مثل جالس وجلوس"[3].

2) ﴿حَذَرَ﴾: يقال: حَذِرَ حَذَرًا، وحذرته، الحِذْرُ والحَذَرُ: الْخِيفَةُ، والحَذَر: احتراز من مخيف، وحاذِرٌ: متأهِّب مُعِدٌّ كأنه يَحْذَرُ أن يُفاجَأ، والْحَاءُ وَالذَّالُ وَالرَّاءُ: أَصْلٌ وَاحِدٌ، وَهُوَ مِنَ التَّحَرُّزِ وَالتَّيَقُّظِ، يُقَالُ: حَذِرَ يَحْذَرُ حَذَرًا، وَرَجُلٌ حَذِرٌ وَحَذُورٌ وَحِذْرِيَانٌ: مُتَيَقِّظٌ مُتَحَرِّزٌ[4]،

تقول العرب في الأثـر: لا ينفع حذر من قدر

(1) الزّحيلّي، التّفسير المنير: 2/411.
(2) السَّمين، عُمْدَة الحُفَّاظ: [أَلِفَ].
(3) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 3/231.
(4) الرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، وابن فارس، مقاييس اللُّغة: (حَذِرَ).

وفي قوله تعالى: ﴿حَذَرَ ٱلۡمَوۡتِ﴾، قال الماورديّ: "وفيه قولان: أحدهما: أنّهم فرُّوا من الطّاعون، وهذا قول الحسن ... والقول الثّاني: أنَهم فرُّوا من الجهاد، وهذا قول عكرمة والضّحّاك"[1].

الـلـه المنـعـم الـعـظـيـم ذو فضل عميم على جميع خلقه

3) ﴿لَذُو فَضۡلٍ﴾: المعنى المِحْوريُّ: زيادة من مادَّة الشَّيء مُتَمَيِّزة منه: كَفَضْل الإزار، وفَضول المال والغنائم، ومن ذلك "الفَضْلة: الثَّياب التّي تُبْتَذَل للنّوم، والفَضْلُ والفَضيلَةُ: خِلاف النَّقْص والنَّقيصة، والإفْضالُ: الإحسان، ورجلٌ مِفْضالٌ وامرأةٌ مِفْضالَةٌ على قومها، إذا كانت ذات فضْلٍ سمحةً[2].

ومعنى الآية: "ذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ حيث يبصّرهم ما يعتبرون به، ويستبصرون، كما بصّر أولئك، وكما بصّركم باقتصاص خبرهم، أو لذو فضل على النّاس، حيث أحيا أولئك؛ ليعتبروا، فيفوزوا، ولو شاء؛ لتركهم موتى إلى يوم البعث"[3].

أكـثر الـنّـاس لا يـشـكـرون الـلـه عـلـى أنـعـمـه الغزيرة وألطافه الكثيرة

4) ﴿لَا يَشۡكُرُونَ﴾: شَكَرَ فلانًا، وشَكَر له شُكْرًا وشُكورًا: ذَكَرَ نِعْمَته، وأثنى عليه بها، والشُّكْر: عِرْفان النِّعْمَة وإظهارها والثَّناء بِها، والشُّكْر مِن اللّه: الرِّضا والثَّواب، والشّكور: الكثير الشُّكْر، والشّكور مِن أسماء اللّه الحُسنى، ومَعْناه: المثيب المُنْعِم بالجزاء[4].

ومعنى الآية: لا يشكرونه كما ينبغي، ويجوز أن يراد بالشّكر الاعتبار والاستبصار[5]، و"يعني: أن أكثر من أنعم اللّه عليه لا يشكره، أمّا الكافر؛ فإنّه لم يشكره أصلًا، وأمّا المؤمنون؛ فلم يبلغوا غاية شكره"[6].

(1) الماورديّ، النّكت والعيون: 1/312.
(2) جَبَل، المعجم الاشتقاقيّ المُؤَصَّل، والجوهريّ، الصِّحاح: (فَضَلَ).
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/290.
(4) مَجمَع اللّغة العربيَّة بالقاهرة، المُعجم الوسيط: (شَكَر).
(5) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 1/149.
(6) الخازن، لباب التّأويل: 1/177.

المَعْنى الإجْماليُّ:

بلاء الألوف من بني إسرائيل بالموت والحياة كان عقابًا وإظهارًا لمطلق القدرة:

ومن كانت منيّته بـأرض؛ فليس يـموت في أرض سواها

ألم يبلغ علمك - أيُّها الرَّسول ﷺ - خَبَر الّذين خرجوا من بيوتهم وأرضهم - وَهُمْ خَلْق كثير من بني إسرائيل - خوفًا من الموت وهوله، بسبب الوباء أو القتال، ما دفعهم إلى هذا إلّا الجبن والخور، وعدم الإيمان بالله ورسله، ولما خرجوا فارّين قال لهم الله: موتوا، فماتوا دُفعة واحدة عقوبةً على فرارهم من قَدَر الله، ثمّ أعادهم الله أحياء؛ لِيُبَيِّن لهم أنَّ الأمر كلّه بيده سبحانه، وأنّهم لا يملكون لأنفسهم نفعًا ولا ضَرًّا، وهكذا سنة الله في الأمم؛ بابتلائهم بالعدوِّ والشّدائد الّتي تصهرهم، وتميّز الطّيب من الخبيث منهم، فحقًّا الحوادثُ تَخْلُق الرّجال، والحوادث تخلق الأمم، إنَّ الله لذو عطاء وفَضْل على النّاس، ولكنَّ أكثر النّاس لا يشكرون الله على نعمه[1].

وفي هذه القصة عبرةٌ ودليل على أنَّه لن يغني حَذرٌ من قدَر، وأنه لا ملجأ من الله إلا إليه، فإنَّ هؤلاء فرُّوا من الوباء؛ طلبًا لطول الحياة، فعوملوا بنقيض قصدهم، وجاءهم الموت سريعًا في آنٍ واحد[2].

الإيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

وجه العدول إلى الفصل في المطلع:

لِلحَثِّ عَلى الجِهادِ في سبيل الله، وللتَّنبيهِ بِأنَّ الحَذَرَ لا يُؤَخِّرُ الأجَلَ

الآية الكريمة اسْتِئْنافٌ ابْتِدائِيٌّ؛ لِلحَثِّ عَلى الجِهادِ في سبيل الله، وللتَّنبيهِ بِأنَّ الحَذَرَ لا يُؤَخِّرُ الأجَلَ، وأن الجبان قد يلقى حتفه في مَظِنَّة النجاة[3]. ومن "عادته تعالى في القرآن أن يذكر بعد بيان الأحكام القصص ليفيد الاعتبار للسّامع، ويحمله ذلك الاعتبار على ترك التمرد والعناد، ومزيد الخضوع والانقياد"[4].

(1) حجازي، التّفسير الواضح: 1/159، ونخبة من العلماء، التفسير الميسر، ص: 39.
(2) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 1/661
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/475.
(4) الرازي، مفاتيح الغيب: 6/495.

بلاغة أسلوب الاستفهام:

الاستفهام للتّعجيب، والتّقرير، والإنكار؛ والغرض الحثّ والتحريض من طريق الكناية بلازم معنى الاستفهام

ذكر ابن عاشور[1] للاستفهام في قوله تعالى: ﴿۞أَلَمْ تَرَ﴾ ثلاثة معان يحتملها سياق الآية الكريمة وتحريرها وفاق الآتي:

الوجه الأول: أن يكون الاستفهام مستعملًا في التعجب أو التعجيب، من عدم علم المخاطب بمفعول فعل الرؤية، ويكون فعل الرؤية علميًّا من أخوات ظن.

الوجه الثاني: أن يكون الاستفهام تقريريًا فإنه كثر مجيء الاستفهام التقريري في الأفعال المنفية، لقصد تحقيق صدق المقر بعد إقراره؛ لأنّه إنْ أقرَّ بالفعل لم يبق له عذر بعد ذلك بادعاء أنه مكره فيما أقر به.

الوجه الثالث: أن تجعل الاستفهام إنكاريًّا، إنكارًا لعدم علم المخاطب بمفعول فعل الرؤية والرؤية علمية، أو بصرية ضُمِّن الفعلُ معنى (تنظر) على أن أصله أن يخاطب به من غفل عن النظر إلى شيء مبصر ويكون الاستفهام إنكاريًا: حقيقة أو تنزيلًا، ثم نقل المركب إلى استعماله في غير الأمور المبصرة فصار كالمثل.

واستفادة التحريض، على الوجوه الثلاثة إنما هي من طريق الكناية بلازم معنى الاستفهام؛ لأن شأن الأمر المتعجب منه أو المقرر به أو المنكور علمه، أن يكون شأنه أن تتوافر الدواعي على علمه، وذلك مما يحرض على علمه.

نكتة التعبير بالتركيب ﴿۞أَلَمْ تَرَ﴾:

هذا التركيب "تقرير لمن سمع بقصتهم من أهل الكتاب وأخبار الأوّلين، وتعجيب من شأنهم. ويجوز أن يخاطب به من لم يرَ ولم يسمع؛، لأنّ هذا الكلام جرى مجرى المثل في معنى التعجيب"[2].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/476 - 477.

(2) الزمخشري، الكشاف: 1/290.

و" إذا جاء فعل الرؤية فيه متعدِّيًا إلى ما ليس من شأن السامع أن يكون رآه، كان كلامًا مقصودًا منه التحريض على علم ما عُدِّي إليه فعل الرؤية، وهذا مما اتفق عليه المفسرون ولذلك تكون همزة الاستفهام مستعملة في غير معنى الاستفهام بل في معنى مجازي أو كنائي، من معاني الاستفهام غير الحقيقي، وكان الخطاب به غالبًا موجهًا إلى غير معين، وربما كان المخاطب مفروضًا متخيَّلًا "[1].

تقرير للسامع بالقصّة، وتعجيب من شأنهم، وتحريض على علم ما عُدِّي إليه فعل الرؤية

فالرُّؤْية المَقصودة، إمَّا أن تكون بَصَريَّة؛ فيُنَزَّل فيها غير الرَّائي مَنْزلة الرائي؛ لأنَّ تلك الحادثة وقعت قبل نزول القرآن الكريم بِزَمن طويل، والغَرَض مِن هذا التَّنزيل الإشارة إلى اشْتهار تلك الواقعة حتَّى لكأنَّها تقع ساعة نُزول الآية وحال سَماعها، وإمَّا أن تكون الرُّؤْية عِلْمِيَّة قَلْبية، وهذا هو الأرْجَح، فيكون الاستفهام تحريكًا للذِّهن؛ لاستحضار حقيقة الواقعة[2].

بيان المراد من الموصول: ﴿ٱلَّذِينَ﴾ :

المُرادُ مِن المَوْصُولِ في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ خَرَجُواْ﴾ أهل قرية من بني إسرائيل أُمِروا بالجهاد، فخافوا الموت، فخرجوا من ديارهم فرارًا من ذلك، فأماتهم اللّه؛ ليعرّفهم أنه لا يُنَجِّيهم من الموت شيء، ولِيَعْتَبِرُوا، وليَتَيَقَّنُوا أنَّه لا مَفَرَّ مِن قَضاءِ اللَّهِ تَعالى وقَدَرِهِ.

المراد بالذين أهل قرية من بني إسرائيل

سرُّ تعدية الفعل ﴿۞أَلَمۡ تَرَ﴾ بحرف (إلى):

وعُدِّيَ الفعل ﴿۞أَلَمۡ تَرَ﴾ بحرف (إلى) في قوله تعالى: ﴿۞أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ﴾؛ لأنَّ الرّؤية مُسَلَّطَة على القِصَّة، لا على ذوات ﴿ٱلَّذِينَ خَرَجُواْ﴾ أي: المَلأ مِن بني إسرائيل، ولو قيل: ألم تَرَ الّذين خَرجوا، بإسقاط حرف الانتهاء؛ لانصرفت الرُّؤْية إلى ذَواتهم لا إلى قِصَّتهم، وهذا غير مراد.

وجه التعدية بـ(إلى) أنَّ الرّؤية مُسَلَّطَة على القِصَّة، لا على الذوات

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/476.

(2) عبد العظيم المَطْعَني، التَّفسير البلاغيّ للاستفهام في القرآن الحكيم: 1/130.

لَمّا اسْتُعِيرَ (ألم تر) لِمَعْنى (أَلَمْ تَنْظُرْ)، عُدِّيَ بـ(إلى)

وللّراغب الأصفهانيّ تعليل آخر لِبيان سِرِّ هذه التَّعْدِية؛ إذ قال: "رَأَيْتُ" يَتَعَدّى بِنَفْسِهِ دُونَ الجارِّ، لَكِنْ لَمّا اسْتُعِيرَ ﴿۞أَلَمْ تَرَ﴾، لِمَعْنى (أَلَمْ تَنْظُرْ)، عُدِّيَ تَعْدِيَتَهُ بـ(إلى) وفائِدَةُ اسْتِعارَتِهِ: أنَّ النَّظَرَ قَدْ يَتَعَدّى عَنِ الرُّؤْيَةِ، فَإذا أُرِيدَ الحَثُّ عَلى نَظَرٍ ناتِجٍ لا مَحالَةَ لِلرُّؤْيَةِ؛ اسْتُعِيرَتْ لَهُ، وقَلَّما اسْتُعْمِلَ ذَلِكَ في غَيْرِ التَّقْرِيرِ، فَلا يُقالُ: رَأَيْتُ إلى كَذا، وكما أن الرؤية ضربان: رؤية بصر، ورؤية بصيرة، كذا أيضًا النظر والإبصار"[1].

وجه دخول لفظة (إلى) في ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى﴾:

(إلى) حرفٌ للانتهاء، فكأن المعلم أوصل المتعلم إلى المعلوم وأنهاه إليه

دخول ﴿إِلَى﴾ يحتمل أن يكون لأجل أنّها عندهم حرف للانتهاء كقولك: من فلان إلى فلان، فمن علم بتعليم معلم، فكأن ذلك المعلم أوصل ذلك المتعلم إلى ذلك المعلوم وأنهاه إليه، فحسن من هذا الوجه دخول حرف ﴿إِلَى﴾ فيه، ونظيره قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ﴾ [الفرقان: 45][2].

المَغْزى البَلاغي لِجُملة الحال: ﴿وَهُمْ أُلُوفٌ﴾:

التّعبير بِجَمع الكَثْرة (ألوف) للمبالغة في التّصوير والتّكثير، وشِدَّة الهَلَع

وقد دَلَّت جُملة الحال: ﴿وَهُمْ أُلُوفٌ﴾ عَلى شِدَّة الهَلَع الّذي خَلَع قلوب الملأ الّذين خَرَجوا من ديارهم، حيث لم تمنعهم كثرتُهم مِن الفِرار، كما تفيد جهلهم بِسُنَّة الإحياء والإماتة، وأوثر التّعبير بِجَمع الكَثْرة ﴿أُلُوفٌ﴾، على جَمْع القِلَّة (آلاف)؛ للمبالغة في تصوير كَثْرة الّذين خَرجوا مِن ديارهم، فَهُم ألوف مُؤَلَّفة، ولم يكن خروجهم عِن قِلَّة عَدَد، بل دَفعهم إليه جُبْنهم وتخاذلهم.

توجيه معنى المفعول له ﴿حَذَرَ﴾:

"نصب ﴿حَذَرَ ٱلْمَوْتِ﴾ على أنّه مفعول له، والمعنى: خرجوا لحذر الموت، فلما سقطت اللّام؛ نصب على أنّه مفعول له، وجاز أن يكون

(1) الراغب، تفسير الرّاغب: 1/499، والرّاغب، المفردات، (رَأى)، والقاسِمي، محاسن التّأويل: 2/636.
(2) الرازي، مفاتيح الغيب: 6/495.

نَصبه على المصدر؛ لأنّ خروجهم يدلّ على حذر الموت حذرًا[1]. وقال الواحديّ في الوسيط: "قال الزّجّاج: إنّما نصب حذر؛ لأنّه في تأويل المصدر، كأنّه قيل: يحذرون حذرًا؛ لأنّ جعل الأصابع في الآذان، يدلّ على الحذر"[2]، وقد بَيَّنَ المفعول له في قوله: ﴿حَذَرَ ٱلْمَوْتِ﴾ سبب خروجهم، وهو خَوفهم المطْلَق مِن الموت، وحِرْصهم التّامّ على الحياة، أيًّا كانت هذه الحَياة، ثُمَّ إنَّ هَلَعهم هذا لَم يَكُن عن يَقين، فالموت لم ينزل بساحتهم، ولم تتحقّق شواهده؛ لِيَفرُّوا مِنه، بل إنَّ الحَذَر هو الّذي دفعهم للهروب قبل أن تتحقّق أسباب الموت المسَوِّغَة لِخروجهم؛ لذا كان التّعبير القرآنيّ ﴿حَذَرَ ٱلْمَوْتِ﴾؛ كاشفًا بِدِقَّة مُتناهية عن نُفوس مُتخاذلة، وقلوب هَلِعَة وجُبْنٍ مُتَأصِّل.

المفعول له يُبيِّن سَبب خروج الملأ مِن دِيارهم

علَّة تَقَدُّم ضَمير الَّذين خَرجوا على الفاعل: :

وتَقْديم ضَمير الَّذين خَرجوا (هُمْ) في قوله: ﴿لَهُمُ﴾ عَلى الفاعِل اسم الجَلالة؛ لأنَّ التَّعجيب المُراد مِن الاستفهام مُنْصَبٌّ عَلى قِصَّتهم، فاقتضت بلاغة التَّنْزيل تقديم ضميرهم على الفاعل؛ لأَنَّهم مَوْضِع الاهتمام في الآية الكريمة، ومَحَطّ الرِّحال[3].

قدّم الجارّ والمجرور (لهم)؛ لأنّهم المعنيون بالقصة، فقدّمهم اهتمامًا بهم

سرُّ الإيجاز بالحَذْف في قوله: ﴿فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُواْ ثُمَّ أَحْيَٰهُمْ﴾:

وفي قوله: ﴿فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُواْ ثُمَّ أَحْيَٰهُمْ﴾، إيجاز بالحَذْف، تقديره: فماتوا، بدليل أحياهم؛ لأنَّ الإحياء لا يكون إلَّا بَعْد الفَناء، وسرّه البلاغيّ الدِّلالة على فَوْرِيَّة تَحقّق مُراد اللّه تعالى، وعلى استحالة تَخَلُّف مُراد اللّه تعالى عن إرادته[4].

سرّ الحذف الدّلالة على فَوْرِيَّة تَحقّق مُراده تعالى، وعلى استحالة تَخَلُّف مُراده تعالى عن إرادته

علّة إماتة الذين خرجوا ثم إحيائهم:

أمَّا عِلَّة إماتة المَلأ من بني إسْرائيل، ثُمَّ إحيائهم في قوله تعالى:

(1) الزّجاج، معاني القرآن وإعرابه: 1/322.
(2) الواحديّ، الوسيط: 1/92.
(3) المَطْعَني، التَّفسير البلاغي للاستفهام في القرآن الحكيم: 1/131.
(4) المَطْعَني، التَّفسير البلاغي للاستفهام في القرآن الحكيم: 1/131.

غاية الإماتة والإحياء الاعتبارُ بأنّه لا مفرّ من قضاء الله تعالى

﴿فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُواْ ثُمَّ أَحۡيَٰهُمۡۚ﴾؛ فهِي كِي يَعْتَبِروا، ويَعْلَمُوا أنَّهُ لا مَفَرَّ مِن حُكْم اللّهِ، ولا رادَّ لِقَضائِهِ.

سِرُّ العدول عن عبارة (أماتهم الله)، إلى قوله تعالى: ﴿فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُواْ﴾:

سرّ التعبير بما عليه النظم القرآنيّ أنّه تعالى قضى عليهم بالموت في آن واحد، وكأنّها مَيْتة رجل واحد، أو امتثال أمر واحد

سِرُّ العدول عن عبارة: (أماتهم اللّه)، إلى ما عليه النَّظم القرآنيّ المقصود به إماتتهم، أي: فأماتهم في قوله تعالى: ﴿فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُواْ﴾ وعدل به عن التَّصريح بهذا اللّفظ الصّريح (أَماتَهم)، إلى ما عليه النّظم؛ للدِّلالة على أنّه سبحانه قضى عليهم بالموت في آن واحد، وكأنّها مَيْتة رجل واحد، وتلك مَيتة خارجة عن المألوف، وكأنّهم أمروا بشيء فامتثلوه امتثالًا، من غير تردّد ولا تريّث، وفي هذا ترغيب للمسلمين في الجهاد في سبيل اللّه تعالى، وأنّ الموت - إذ لا مفرّ منه - فأولى أن يكون في سبيل اللّه[1]. قال الشهاب: "عُبِّر عن أماتهم اللّه بِما ذُكِر؛ للدِّلالة على أنَّ موتهم كان شبيهًا بامتثال أَمْر واحد، مِن آمِرٍ مُطاعٍ، لا يُتَوقَّف في امتثاله، فيكون دفعة على خلاف العادة"[2]. فالمُراد مِن القَوْل في الجملة؛ تَعَلُّق إرادة اللّه تعالى بِمَوت الّذينَ خَرجوا دُفْعة واحدةً، وإمَّا تَمْثيل لإماتَته تَعالى إيَّاهم مَيْتة نَفْس واحِدةٍ في أَقْرب وَقتٍ وأدناه[3].

المقصود بالتعبير موعظة المسلمين بترك الجبن، وأن الخوف من الموت لا يدفع الموت

قصدية التعبير بلفظ الموت بين المجاز والحقيقة:

أوضح ابن عاشور وَجْهَي المجاز والحقيقة في قوله تعالى: ﴿فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُواْ ثُمَّ أَحۡيَٰهُمۡۚ﴾ بقوله: "القول فيه إما مجاز في التكوين والموت حقيقة أي جعل فيهم حالة الموت، وهي وقوف القلب وذهاب الإدراك والإحساس، استعيرت حالة تلقي المكون لأثر الإرادة بتلقي

(1) الزَّمَخشري، الكشّاف: 1/147، والنَّسَفيّ، مدارك التنزيل: 1/123.
(2) الخَفاجيّ، عِناية القاضي: 2/327.
(3) الجَمَل، الفُتوحات الإلهيَّة: 1/197.

المأمور للأمر، فأطلق على الحالة المشبهة المركب الدال على الحالة المشبه بها على طريقة التمثيل، ثم أحياهم بزوال ذلك العارض فعلموا أنهم أصيبوا بما لو دام لكان موتًا مستمرًا وقد يكون هذا من الأدواء النادرة المشبهة داء السكت وإما أن يكون القول مجازًا عن الإنذار بالموت، والموت حقيقة، أي أراهم الله مهالك شموا منها رائحة الموت، ثم فَرَّجَ الله عنهم فأحياهم. وإما أن يكون كلامًا حقيقيًا بوحي الله، لبعض الأنبياء، والموت موت مجازي، وهو أمر للتحقير شتمًا لهم، ورماهم بالذّل والصَّغار، ثم أحياهم، وثبت فيهم روح الشجاعة. والمقصود من هذا موعظة المسلمين بترك الجبن، وأن الخوف من الموت لا يدفع الموت"[1].

دلالة الفاء في قوله تعالى: ﴿فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُواْ﴾:

وقد أشارتِ الفاء في قوله تعالى: ﴿فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُواْ﴾، إلى مُباغتتهم بِعَكْس مُرادهم، فَوْر خُروجهم هَرَبًا مِن ساحة المَوْت، فإذا بالمَوْت يَسْلب أرواحهم، ولم يَتْرك لهم فُرْصَة مِن الوَقْت[2].

المُراد مِن القَوْل في قوله تعالى: ﴿فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُواْ﴾، تَعَلُّق إرادة اللّه تعالى بِمَوتهم.

العَطْف بِحَرف التَّراخي في قَوْله تَعالى: ﴿ثُمَّ أَحۡيَٰهُمۡۚ﴾:

أوثر العطف بحرف التَّراخي؛ للإشارة إلى أنَّ إحياء تلك الألوف - الّتي قُضِي عليها بِالمَوْت جميعًا في آن واحد - حَدَث بعد فَتْرَة مُتراخِية من الزَّمَن، لا يعلم مداها إلّا الله تعالى، وذلك بالتّأكيد على تحقّق موتهم، واليأس التَّام من كَوْنهم أحياء، مُغْمى عليهم مثلًا، والواقع أنّهم لمّا فرّوا من الموت، حسبوا أنّهم أصبحوا منه بنجوة، ولكنّه سبق عليهم قدر الله، فأتاهم الموت الّذي فرّوا منه، وماتوا بأمر الله في لحظة واحدة.

العطف بـ(ثم) للإشارة إلى أنَّ إحياء من أُميتَ حدَث بعد فَتْرَة مُتراخِية من الزَّمَن

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/479- 480.

(2) الجَمَل، الفُتوحات الإلهيَّة: 1/197.

بلاغة تعاقب تأكيدات الخَبَر:

تـوكـيـد الـخـبـر بجماع المؤكّدات تـشـريـفٌ لـه، وتفخيم

أُكِّد الخبر في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ﴾، بثلاث مُؤكِّدات: إنَّ، واللَّام، واسميّة الجملة؛ لتفخيم الخَبر وتَشْريفه.

نكتة إيثار لفظ ﴿لَذُو﴾ على لفظ (صاحب):

إيثار ﴿لَذُو﴾ على صاحب؛ لدلالته على الشَّرَف والفَخامة، وليتناسب مع فَخامة الخَبَر.

سرّ التنكير في لفظة ﴿فَضۡلٍ﴾:

تـنـكـيـر لـفـظـة فضل للتعظيم

والتَّنْكِيرُ في قَوْلِهِ: ﴿فَضۡلٍ﴾ لِلتَّعْظِيم، أيْ: لَذُو فَضْلٍ عَظِيم عَلى النّاسِ جَمِيعًا، أمّا هَؤُلاءِ الَّذِينَ خَرَجُوا؛ فَلِكَوْنِه أحْياهم؛ لِيَعْتَبِرُوا، وأمّا المخاطَبُونَ؛ فَلِكَوْنِهِ قَدْ أرْشَدَهم إلى الِاعْتِبارِ والِاسْتِبْصارِ بِقِصَّةِ هَؤُلاءِ[1].

قصديّة التعليل بجملة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾:

سبب التعليل بـثُّ خُـلـق الاعـتـمـاد على الله في نفوس المسلمين في جميع أمورهم

جملة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ "واقعة موقع التعليل لجملة ﴿ثُمَّ أَحۡيَٰهُمۡۚ﴾ والمقصود منها بث خلق الاعتماد على الله في نفوس المسلمين في جميع أمورهم، وأنهم إن شكروا الله على ما آتاهم من النعم، زادهم من فضله، ويسر لهم ما هو صعب"[2].

الاستدراك للتّوبيخ، ولتأكيد العموم في قوله: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ﴾:

علّة الاستدراك لـلـتّـوبـيـخ، ولتأكيد العموم

الاستدراك في قوله: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ﴾، استدراك على مضمون الجملة السَّابقة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾؛ لأنَّ تقديره: فيجب عليهم أن يشكروا تفضُّلَه عليهم بالإيجاد والرِّزْق، ولكنَّ أكْثرهم غير شاكر، فهو للتّوبيخ، ولتأكيد

(1) الشَّوْكانّي، فتح القدير: 1/261.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/480.

العموم ودلّ على أنّ الشّاكر قليل، كقوله: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ۝١٣﴾ [سبأ: 13][1].

العدول عن الإضمار إلى الإظْهار:

ايثار الإظهار ليكون أنصَّ على العموم، ولِدَفْعِ قَصْدِ المرادِ بالنّاسِ الأُوَلِ، أهْلِ زَمانٍ ما

عُدِل عن الإضمار إلى الإظهار في قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾، حيث كان الظَّاهر أنْ يُقال: إنّ اللّه لذو فضل على النّاس ولكن أكثرهم لا يشكرون؛ للغارة عليْهِم لِجُحودهم، وكفران النِّعْمة، "ولِيَكُونَ أنَصَّ عَلى العُموم؛ لِئَلّا يَدَّعِي مُدَّعٍ أنَّ المرادَ بِالنّاسِ الأُوَلِ، أهْلُ زَمانٍ ما، فَيَخُصُّ الثّاني أكْثَرَهم ﴿لَا يَشْكُرُونَ﴾، وذَلِكَ تَعْرِيضٌ بِبَنِي إسْرائِيلَ، في أنَّهم لَمْ يَشْكُرُوهُ سُبْحانَهُ وتَعالى، في الوَفاءِ بِمُعاهدَتِهِ لَهم، في اتِّباعِ هَذا النَّبِيِّ الكَرِيمِ، عَلَيْهِ أفْضَلُ الصَّلاةُ والسَّلامُ، وفي هَذا الأُسْلُوبِ بَعْدَ هَذِهِ المناسَباتِ إثْباتٌ لِقُدْرَتِهِ سُبْحانَهُ وتَعالى عَلى الإعادَةِ، وجَرٌّ لِمُنْكِرِ ذَلِكَ إلى الحَقِّ مِن حَيْثُ لا يَشْعُرُ"[2].

توجيه تكرار لفظ ﴿ٱلنَّاسِ﴾ في مختتم الآية:

تكرار لفظ الناس لدوران معنَيَيْهِما بين العموم والخصوص

أعاد ذكر ﴿ٱلنَّاسِ﴾ ولم يقل: (ولكن أكثرهم)؛ لأن الناس في الأول عام لكون نعمته على جميعهم، وفي الثاني خاص للمكلفين، لأنه لا يلزم شكرهم غيرهم، فكأنه قيل: ذو فضل على جميع الناس، ولكن أكثر المكلفين لا يشكرون[3].

نكتة تخصيص النبي ﷺ بالخطاب:

اختلاف اعتبارات الخطاب، باختلاف مقامات المخاطبين

ذهب بعضهم إلى أنّ اللّه تعالى قد خصّ بهذا الخطاب النبيَّ ﷺ، فقال في هذه الآية: ﴿۞أَلَمْ تَرَ﴾، وعمّ الخطاب في موضع آخر، فقال: ﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۝١٥﴾ [نوح: 15]؛ لأن

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/564، والسَّمين، عُمْدَة الحُفَّاظ: 2/257.
(2) البقاعي، نَظْم الدُرَر: 3/396.
(3) الراغب، تفسير الراغب: 1/501.

ذلك لما كان من الاعتبارات التي تخفى إلا على ذوي البصائر من الأنبياء ومن يدانيهم في العلم ولم تكن من المحسوسات المشاهدة؛ خصّ النبي ﷺ بالخطاب، وفي الآية الأخرى ونظائرها لما كانت من الأمور المحسوسة عَمَّهم بالخطاب[1].

بيان متشابه لفظ الآية مع غيرها:

قال الراغب: "﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ﴾ كقوله: ﴿وَقَلِيلٞ مِّنۡ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ١٣﴾ [سبأ: 13]، لكنه أبلغ في الذم، لأنه نفى وقوع شكرٍ منهم وشكور هنا مبالغة، وقد لا يكون شكوراً من كان شاكراً"[2].

التذييل في هذه الآية أبلغ في الذم، لأنه نفى وقوع شكرٍ منهم

براعة تقديم الدليل قبل المقصود:

قال ابن عاشور: "موقع ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم قبل قوله: وقاتلوا في سبيل الله موقع ذكر الدليل قبل المقصود، وهذا طريق من طرق الخطابة أن يقدم الدليل قبل المستدل عليه لمقاصد، والمقصود من مثل ذلك الاهتمام والعناية بالحجة قبل ذكر الدعوى تشويقًا للدعوى، أو حملًا على التعجيل بالامتثال"[3].

تقديم الدليل للاهتمام والعناية بالحجة قبل ذكر الدعوى تشويقًا لها، أو حملًا على التعجيل بالامتثال

وذكر الفخر الرازي أنّ الله سُبْحانَهُ قدّم بِلُطْفِهِ ورَحْمَتِهِ ذِكْر الَّذينَ خَرَجُوا مِن دِيارِهِمْ عَلى الأمْرِ بِالقِتالِ؛ لِئَلّا يُنْكَصَ عَنْ أمْرِ اللَّهِ بِحُبِّ الحَياةِ بِسَبَبِ حَذَرِ المَوْتِ، ولِيَعْلَمَ كُلُّ أحَدٍ أنَّهُ بِتَرْكِ القِتالِ لا يَثِقُ بِالسَّلامَةِ مِنَ المَوْتِ، كَما قالَ في قَوْلِهِ: ﴿قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلۡفِرَارُ إِن فَرَرۡتُم مِّنَ ٱلۡمَوۡتِ أَوِ ٱلۡقَتۡلِ وَإِذٗا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلٗا ١٦﴾ [الأحزاب: 16]، فَشَجَّعَهم عَلى القِتالِ الَّذي بِهِ وعَدَ إحْدى الحُسْنَيَيْنِ، إمّا في العاجِلِ الظُّهُورُ عَلى العَدُوِّ، أوْ في الآجِلِ الفَوْزُ بِالخُلُودِ في النَّعِيمِ، والوُصُولُ إلى ما تَشْتَهِي الأنْفُسُ، وتَلَذُّ الأعْيُنُ[4].

علّة التقديم لِئَلّا يُنْكَصَ عَنْ أمْرِ اللَّهِ بِحُبِّ الحَياةِ بِسَبَبِ حَذَرِ المَوْتِ

(1) الراغب، تفسير الراغب: 1/501.
(2) الراغب، تفسير الراغب: 1/501.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/475-476.
(4) الرَّازي، مفاتيح الغَيْب: 6/165.

﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ٢٤٤﴾ [البَقَرة: 244]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

مناسبة بين الأمر بالقتال المذكور، والتّأكيد بأنْ لا فرار من الموت المقدور:

تُعَدُّ الآية الكَريمة السَّابِقَة تَمْهيدًا لهذه الآية الكريمة؛ حيثُ بَيَّنَت أنَّ المَوْتَ لا يَصُونُ مِنهُ فِرارُ أمْرٍ بالجِهادِ، وهنا تَنْبيه لِهَذِهِ الأُمَّة، ألَّا تَفِرَّ مِنَ المَوْتِ، كَفِرار أُولَئِكَ، وتَشْجيع لَها وتَثْبيت[1]، و"قالَ المُفَسِّرُونَ: في إتْباعِ القِصَّة المُتَقَدِّمَة الأمْرَ بالقِتالِ، دَليلٌ عَلى أنَّها سِيقَتْ بَعْثًا عَلى الجِهادِ، فَحَرَّضَ عَلى الجِهادِ بَعْدَ الإعْلامِ بِأنَّ الفِرارَ مِنَ المَوْتِ لا يُغْنِي، كَما قالَ تَعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالُواْ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ وَقَعَدُواْ لَوۡ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْۗ قُلۡ فَٱدۡرَءُواْ عَنۡ أَنفُسِكُمُ ٱلۡمَوۡتَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ١٦٨﴾ [آل عمران: 168][2]، و"هذه الآية الكريمة استئناف مترتّب فيه الأمر الملزم بالقتال، على القصّة المشار إليها آنفًا، فإنّه إذا كان الخروج من الدّيار حذر الموت يؤدّي لَا محالة إلى الموت، فإنّه من الواجب القتال في سبيل اللّه تعالى، ورد الاعتداء، وإذا كان الموت في القتال محتملًا أو راجحًا، فالموت في الفرار والخروج من الدّيار حذر الموت، مؤكّد لَا محالة، ولو خُيّر العاقل بين موت احتماليّ وفيه الفخار، وموت مؤكّد وفيه العار؛ لاختار بلا ريب القتال"[3].

البَاعِث على الجِهاد حماية الثّوابت، ولا فرار من المقدور الثّابت

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾: السَّبِيلُ: هو الطَّرِيقُ، وسُمِّيَت العِباداتُ سَبِيلًا إلى اللَّهِ تَعالى، مِن حَيْثُ إنَّ الإنْسانَ يَسْلُكُها، ويَتَوَصَّلُ إلى اللَّهِ تَعالى بِها، قوله تعالى: ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، "فالسّبيل

مَن تَكُن في سَبيل اللّه أعماله ونواياه؛ نال الأجر والمقام العالي عند الله

(1) أبو حَيَّان، البحر المحيط: 2/260.
(2) القاسِمي، مَحاسن التَّأويل: 2/368.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 2/368.

هو الطّريق، وسمّيت العبادات سبيلًا إلى اللّه تعالى، من حيث إنّ الإنسان يسلكها، ويتوصّل إلى اللّه تعالى بها، ومعلوم أنّ الجهاد تقوية للدّين، فكان طاعة، فلا جرم كان المجاهد مقاتلًا في سبيل اللّه"[1]، و"القتال في سبيل اللّه، هو القتال لإعلاء كلمة الحقّ، وتأمين الدّعوة، ونشر الدّين، حتّى لا يغلب أهله، ولا يصدّهم صادّ عن إقامة شعائره، وتلقين أوامره، والدّفاع عن بلاد الإسلام، إذا همّ الطّامع في اغتصابها والتّمتّع بخيراتها، وإرادة إذلالها، والعدوان على استقلالها، فهذا أمر لنا بأن نتحلّى بالشّجاعة، ونلبس سرابيل القوّة، ليخشى العدوّ بأسنا، ويرهب جانبنا، ونكون أعزّاء، ونحيا حياة سعيدة، في دنيانا وأخرانا"[2]، "وسمّيت المجاهدة سبيلًا إلى اللّه تعالى، من حيث إنّ الإنسان يسلكها ويتوصّل إلى اللّه بها؛ ليتمكّن من إظهار عبادته تعالى، ونشر الدّعوة إلى توحيده وحماية أهلها، والمدافعة عن الحقّ وأهله، فالقتال دفاع في سبيل اللّه، لإزالة الضّرر العامّ، وهو منع الحقّ وتأييد الشّرك، وذلك بتربيَة الّذين يفتنون النّاس عن دينهم، وينكثون عهودهم، لا لحظوظ النّفس وأهوائها، والضّراوة بحبّ التّسافك وإزهاق الأرواح، ولا لأجل الطّمع في الكسب.

اللـه يَسْمَع السِّرَّ والنَّجْوى، ويعلم السّرّ وأخفى

2) ﴿سَمِيعٌ﴾: سَمِعَ يَسْمَع سَمْعًا، وسَماعًا: أَصْغى، وَأَنْصَتَ، وسَمِع لَه: أطاعَه، وسَمِع اللّه لِمن حَمِده: أجاب حَمْدَه وتَقَبَّله، والسَّميع على وَزْن: فَعيل، من صِيَغ المُبالغة، وهو من أسماء اللّه تعالى الحُسْنى، ومَعناه: الّذي يَسْمَع السِّرَّ والنَّجْوى، سَواء عنده الجَهْر والخُفوت، والنُّطْق والسَّكوت، وهو: الذي لا يعزُبُ عن إدراكه مسموعٌ وإنْ خفِيَ، فهو يسْمَعُ جميع الأصوات الظاهرة والباطنة، الخفية والجلية، ويحيط بها إحاطته التامة، ومعنى السَّميع أيضًا: المجيب، أي: سمع الإجابة منه للسائلين والداعين والعابدين فيصيبهم من كرمه ويثيبهم[3].

(1) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 6/498.
(2) المراغيّ، تفسير المراغي: 2/210.
(3) ابن الأثير، النهاية: (سَمِعَ)، والسعدي، تفسير أسماء الله الحسنى، ص: 35.

3) ﴿عَلِيمٌ﴾: (عَلَمَ) الْعَيْنُ وَاللَّامُ وَالْمِيمُ: أَصْلٌ صَحِيحٌ وَاحِدٌ، يَدُلُّ عَلَى أَثَرٍ بِالشَّيْءِ يَتَمَيَّزُ بِهِ مِن غَيْرِهِ، عَلِمه يَعْلَمه عِلْمًا: عَرَفَهُ حَقَّ المعرفة[1]، وعَليمٌ، فَعِيلٌ: مِنْ صِيَغ الْمُبَالِغَةِ، ومِنْ أسماء اللَّهِ وصفاته ﷻ العَلِيم والعالِمُ والعَلَّامُ، "فَهُوَ اللَّهُ العالمُ بِمَا كَانَ وَمَا يكونُ قَبْلَ كَوْنِه، وبِمَا يكونُ، ولَمَّا يكُنْ بعْدُ قَبْل أَنْ يَكُونَ، لَمْ يَزَل عالِمًا، وَلَا يَزالُ عَالِمًا بِمَا كَانَ وَمَا يَكُونُ، وَلَا يَخْفَى عَلَيْهِ خافيةٌ فِي الأَرض وَلَا فِي السَّمَاءِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، أحاطَ عِلْمُه بِجَمِيعِ الأَشياء باطِنِها وظاهِرِها دقيقِها وجليلِها عَلَى أَتَمِّ الإِمْكان"[2].

الله عليمٌ بما كان وما سيكُونُ، لا يخفى عليه شيءٌ في الكون

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

دعوة إلى القتال في سبيل الله طلبًا لرضا الله السّميع العليم:

"هذه الآية الكريمة استئناف مترتّب فيه الأمر الملزم بالقتال، على القصّة المشار إليها آنفًا، فإنّه إذا كان الخروج من الدّيار حذر الموت، يؤدّي لَا محالة إلى الموت؛ فإنّه من الواجب القتال في سبيل اللّه تعالى، ورد الاعتداء، وإذا كان الموت في القتال محتملاً أو راجحًا، فالموت في الفرار والخروج من الدّيار حذر الموت، مؤكد لَا محالة، ولو خُيّر العاقلُ بين موت احتماليّ، وفيه الفخار، وموت مؤكّد وفيه العار؛ لاختار بلا ريب القتال، وإنّ القتال في سبيل اللّه هو الحياة الكاملة؛ فإن قتل في ذلك؛ فقد رزق الشّهادة، وهي رزق يتنافس فيه المؤمنون، ويطلبه المتّقون"[3]؛ لذا حثَّ اللّه تعالى عليه المؤمنين بقتال أعداء اللّهِ؛ نُصْرَةً لِدينه ورِفْعة لِكَلمته، مبينًا لهم: واعلموا أنّ اللّه سميع لأقوالكم، عليم بنياتكم وأفعالكم، وسيجازيكم عليها.

القتال بأمر الله في سبيل الله دفاع عن الأوطان، لا عدوان على الإنسان

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، (عَلِمَ).
(2) ابن الأثير، النهاية: (علم)، ويُنْظَر: ابن مَنْظور، لسان العرب، (عَلِمَ).
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 2/866.

❁ الإيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

بيان وَجْهَيِ الوصل والفصل في الآية:

وُصلت الآية بما قبلها لكون ما قبلها تمهيدًا لها، ودليلًا عليها وفُصلت لكونها عطفت على جملة ﴿۞أَلَمۡ تَرَ﴾ فيكون لها حكم جملة الاستئناف الابتدائي.

جملة: ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ هي المقصود الأول، فإن ما قبلها تمهيد لها، وقد جعلت في النظم معطوفة على جملة ﴿۞أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ﴾ عطفًا على الاستئناف، فيكون لها حكم جملة مستأنفة استئنافًا ابتدائيًّا، ولولا طول الفصل بينها وبين جملة ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ وَهُوَ كُرۡهٞ لَّكُمۡۖ﴾ [البقرة: 216]، لقلنا: إنها معطوفة عليها على أن اتصال الغرضين يلحقها بها بدون عطف[1]. فالخطاب إما موجّه إلى الذين أحْياهم اللّه بَعْد مَوْتهم، أو هو اسْتِئْنافٌ ابتدائيٌّ لأمَّة مُحَمَّد ﷺ يَتَضَمَّنُ الأمْرَ بالجِهادِ[2].

سِرُّ التَّعبير بِحَرْف الوِعاء (في) في قوله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾:

التعبير بِحَرْف الوِعاء للإشارة إلى وُجُوبِ انغماس المُجاهدين في القِتال

وعَبَّرَ بِـ (في) الظَّرْفِيَّة؛ للإشارة إلى وُجُوبِ انغماس المُجاهدين في القِتال؛ مَهْما حَمِي الوَطيس، واشْتَدَّتِ الأهوالُ؛ إثباتًا لِصدقهم مع اللّه في الدِّفاع عن حَوْزَة الدِّين ونَشْره.

وحَرْف الوِعاء صَوَّر المجاهدين في سبيل اللّه "مَظْرُوفِينَ لِلدِّين، مُراعِينَ لَهُ، لا يَخْرُجُون عَنْه بِوَجْهٍ ما، فَيَصْدُقُونَ في الإقْدام عَلى مَن لَجَّ في الكُفْران، ويُسارِعُون إلى الإحْجام عَمَّنْ بَدا مِنهُ الإذْعان ونَحْو ذَلِكَ، مِن مُراعاةِ شَرائِعِ الإيمانِ"[3].

عَبَّرَ بِالسَّبِيل إشارَةً إلى يُسْرِ الدِّين ووُضُوحِه، فَلا عُذْرَ في الخُرُوجِ عَنْ شَيْءٍ مِنهُ بِحالٍ

قصدية التعبير بلفظ السبيل:

السَّبِيلُ في قَوْلُهُ تَعالى: ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ هو الطَّرِيقُ، وسُمِّيَت العِباداتُ: سَبِيلًا إلى اللّهِ تَعالى؛ لأنَّها الطَّرِيق المُوَصِّلة إلى طاعة اللّه تعالى ورِضْوانه، والجِهاد إعلاءٌ للدِّين، ورَفْع لِلِواء الإسْلام؛ لذا

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/480.
(2) الرَّازي، مفاتيح الغَيْب: 6/165.
(3) البِقاعيّ، نَظْم الدُّرَر: 1/401.

كان مِن أعْظَم الطَّاعات، فَلا جَرَمَ كانَ المُجاهِدُ مُقاتِلًا في سَبِيلِ اللَّهِ. " وعَبَّرَ بِالسَّبِيل إشارَةً إلى يُسْرِ الدِّينِ ووُضُوحِه، فَلا عُذْرَ في الخُرُوجِ عَنْ شَيْءٍ مِنهُ بِحالٍ، فَقالَ: ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، أي: الَّذِي لا كُفُؤَ لَهُ، كَما كَتَبَه عَلَيْكم، وإنْ كُنْتُم تَكْرَهُونَ القِتال"[1].

علَّة افتتاح جملة التذييل بفعل الأمر: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ﴾:

افْتُتِحَتِ جُمْلَةُ التَّذييل بِقوله: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ﴾؛ لاسترعاء سَمْع المخاطَبين، ولَفْت انتِباههم، وتَهْيِئَةٍ لَهُم؛ لِتَلَقِّي ما يُلْقى عليهِم بِنَفْسٍ يَقِظَة، وللتنبيه على ما تحتوي عليه من معنى صريح وتعريض، اهتمامًا بالخبر واستنصاتًا له، وإنما أمرهم الله بعلم أنه سميع عليم مع أن المسلمين يعلمون ذلك تنزيلًا لعلمهم منزلة العدم في هذا الشأن، ليزاد من تعليمهم اهتماما بهذا المعلوم ومزيد خوف من قدرته[2].

لاسترعاء سمع المخاطبين، استنصاتًا وتنبيها لتلقّي الأمر بنفسٍ يقظةٍ

وفي الجُمْلة حَضٌّ للمخاطبين عَلى الجهاد في سبيل اللَّه، وتَحْذِيرٌ مِن تَرْكه، بِتَذْكِيرِهم بِإحاطَة عِلْم اللَّهِ تَعالى بِجَميع المَعْلومات ظاهِرِها وباطِنها، علمًا بأنّ " القتال في سبيل الله: هو القتال لإعلاء كلمته، وتأمين دينه ونشر دعوته، والدّفاع عن حزبه، كي لا يغلبوا على حقّهم، ولا يصدّوا عن إظهار أمرهم، فهو أعمّ من القتال لأجل الدّين؛ لأنّه يشمل مع الدّفاع عن الدّين، وحماية دعوته"[3].

في الأمر حَضٌّ للمخاطبين عَلى الجهاد في سبيل اللَّه، وتَحْذِيرٌ مِن تَرْكِه

سِرُّ تقديم وَصْف ﴿سَمِيعٌ﴾ على وَصْف ﴿عَلِيمٌ﴾:

وقُدِّمَ وصْفُ ﴿سَمِيعٌ﴾، وهو أخَصُّ مِن ﴿عَلِيمٌ﴾؛ اهْتِمامًا بِهِ هُنا؛ لِأنَّ مُعْظَمَ أحْوالِ القِتالِ في سَبِيلِ اللَّهِ مِنَ الأُمُورِ المَسْمُوعَةِ، مِثْلَ: جَلَبَةِ الجَيْشِ، وقَعْقَعَةِ السِّلاحِ، وصَهِيلِ الخَيْلِ، ثُمَّ ذُكِرَ وصْفُ ﴿عَلِيمٌ﴾؛ لِأنَّهُ يَعُمُّ العِلْمَ بِجَمِيعِ المَعْلُوماتِ، وفِيها ما هو مِن حَدِيثِ

قدم وصف السميع عنايةً؛ لِأنَّ مُعْظَمَ أحْوالِ القِتالِ في سَبِيلِ اللَّهِ مِنَ الأُمُورِ المَسْمُوعَةِ

(1) البِقاعيّ، المصدر السابق نفسه: 1/401.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/375، 481.
(3) محمّد رشيد رضا، تفسير المنار: 2/365.

النَّفْسِ مِثْلُ خُلُقِ الخَوْفِ، وتَسْوِيلِ النَّفْسِ القُعُودَ عَنِ القِتالِ، وفي هَذا تَعْرِيضٌ بِالوَعْدِ والوَعِيد[1]، فمن علم علمًا صحيحًا أنّ الله سميع لما يقول، عليم بما يفعل، حاسب نفسه، وناقشها، ومن حاسب نفسه، وناقشها؛ تجلّى له كلّ آن من تقصيرها ما يحمله على التّشمير؛ لتدارك ما فات، والاستعداد لما هو آت، فمن تراه مشمّرًا؛ فاعلم أنّه عالم، ومن تراه مقصّرًا؛ فاعلم بأنّه مغرور آثم[2].

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 2/480.

(2) محمّد رشيد رضا، تفسير المنار: 2/366.

﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضۡعَافًا كَثِيرَةً ۚ وَٱللَّهُ يَقۡبِضُ وَيَبۡصُۜطُ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ٢٤٥﴾ [البقرة: 245]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الرّبط بين المبادرة إلى القتال في سبيل الله، وإنفاق المال رجاء الأجر المضاعف :

اقتران الأمر بالقتال بالحثّ على بذل المال؛ لما بينهما من تلازم

لمّا كانت النَّفَقَة الَّتي هي مِن أعْظَم مَقاصِد السُّورة، أوْثَق دَعائم الجِهادِ، وأقْوى مُصَدِّق لِلْإيمان، ومُحَقِّقٍ لِمُبايَعَة المَلِك الدَّيّان؛ كَرَّرَ الحَثَّ عَلَيْها عَلى وجْهٍ أبْلَغ تَشْوِيقًا مِمّا مَضى، "لهذا قرن الله تعالى الأمر بالقتال، بالحثّ على بذل المال، فالمراد بالبذل هنا ما يعين على القتال، وما هو بمعناه من كلّ ما يعلي شأن الدّين، ويصون الأمّة، ويمنعها من عدوان العادين، ويرفع مكانتها في العالمين، وقد ذكر حكم هذا الإنفاق في سبيل الله، بعبارة تستفزّ النّفوس، وأسلوب يحفّز الهمم، ويبسط الأكفّ بالكرم"[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

القرض ما يسلف من عمل صالح أو سيّئ

1) ﴿يُقۡرِضُ﴾: القَرْضُ: القَطْعُ، قَرَضه يَقْرِضُه قَرْضًا: قطَعه، وأَقرضه: قطع له قطعة مِن ماله بِشَرْط أن يُجازَى عليها، وما يُدفع إلى أَحَد بِشَرْط رَدّ بَدَله، يُسمّى: قَرْضًا، "والْقَرْضُ: اسْمٌ لِكُلِّ مَا يُلْتَمَسُ عَلَيْهِ الْجَزَاءُ، وَأَقْرَضَ فُلَانٌ فُلَانًا، أَيْ: أَعْطَاهُ مَا يَتَجَازَاهُ"[2].

وقال الزّجاج: القرض في اللّغة البلاء الحسن والبلاء السّيِّئ.

وقال الكسائيّ: القرض ما أسلفت من عمل صالح أو سيئ"[3].

ومعنى الآية: يُنْفِقُ في سبيلِ اللّهِ. "أي: من ذا الّذي ينفق في

(1) محمّد رشيد رضا، تفسير المنار: 2/366.
(2) الجوهريّ، الصّحاح: (قَرَضَ).
(3) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 3/240.

سبيل اللّه محتسبًا في نفقته، فيضاعف له ربّه بالحسنة عشرة أمثالها، إلى سبعمائة ضعف"[1].

الحسَنُ ما أبهر النّاظر بجماله الآسر

2) ﴿حَسَنًا﴾: الحَسَن: هو الشّيء المُبْهِج من يُنْظَر إليه، والمرغوب فيه، وذلك إمّا من جهة العقل أو الشّرع أو الهوى أو الحِسّ، والحَسَنَةُ يعبّر عنها عن كلّ ما يسرّ من نعمة، تنال الإنسان في نفسه وبدنه وأحواله، والسَّيِّئة تضادّها[2]، وقوله ﴿قَرْضًا حَسَنًا﴾، فيه تأويلان: أحدهما: أنّه الجهاد، وهو قول ابن زيد، والثّاني: أبواب البرّ، وهو قول الحسن، ومنه قول الشّاعر:

وَإِذَا جُوزِيتَ قَرْضًا فَأَجْزِهِ *** إِنَّمَا يَجْزِي الفَتَى لَيْسَ الجَمَل[3]

يضاعف الله الثّواب بأن يزيد على أصله؛ ليصبح مثلين أو أكثر

3) ﴿فَيُضَٰعِفَهُۥ﴾: ضَعَفَ: الضَّادُ وَالْعَيْنُ وَالْفَاءُ: أَصْلَانِ مُتَبَايِنَان، يَدُلُّ أَحَدُهُمَا عَلَى خِلَافِ الْقُوَّة، وَيَدُلُّ الْآخَرُ عَلَى أَنْ يُزَادَ الشَّيْءُ مِثْلَهُ، وَأَمَّا الْأَصْلُ الْآخَرُ؛ فَقَالَ الْخَلِيلُ: أَضْعَفْتُ الشَّيْءَ إِضْعَافًا، وَضَعَّفْتُهُ تَضْعِيفًا، وَضَاعَفْتُهُ مُضَاعَفَةً، وَهُوَ أَنْ يُزَادَ عَلَى أَصْلِ الشَّيْءِ، فَيُجْعَلَ مِثْلَيْن أَوْ أَكْثَر[4].

ولفظ ﴿فَيُضَٰعِفَهُۥ﴾ في هذه الآية، " فيه قولان: أحدهما: سبعمائة ضعف، وهو قول ابن زيد. والثّاني: لا يعلمه أحد إلّا اللّه، وهو قول السّدّي"[5].

القَبْض خلاف البَسْط، وهو في الآية بمعنى: المنع والإمساك

4) ﴿يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ﴾: اللّفظان متلازمان على التّضادّ، أوّلهما ﴿يَقْبِضُ﴾، من قَبَضْت الشّيء قبضًا: أخذته، والقَبْض: خِلاف البَسْط، وأصْلُ القَبْضِ: الشَّدُّ والتَّماسُكُ، ومِن أسْمائِهِ تَعالى: القابِضُ، بِمَعْنى: المانِعِ[6]، وقَدْ تَفَرَّعَتْ عَنْ هَذا المَعْنى مَعانٍ: مِنها

(1) مكيّ بن أبي طالب، الهداية إلى بلوغ النّهاية: 11/7312.
(2) السّمين، عُمْدَة الحُفَّاظ، والرَّاغب، المُفْردات: (حَسن).
(3) الماورديّ، النّكت والعيون: 1/313.
(4) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (ضَعَفَ).
(5) الماورديّ، النّكت والعيون: 1/313.
(6) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 2/483.

القَبْضُ، بِمَعْنى: الأَخْذِ، نَحْوُ قَوْله تعالى: ﴿فَرِهَٰنٌ مَّقْبُوضَةٌۖ﴾ [البقرة: 283]، وبِمَعْنى: الشُّحِّ، نَحْوُ قَوْله تعالى: ﴿وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْۚ﴾ [التوبة: 67].

وثانيهما: قوله تعالى: ﴿وَيَبْصُۜطُ﴾، من بسَطَه يبسُطه بَسْطاً، فانبسَط، وبَسَّطَه، فتبَسَّط، وأَصْلُ البَسْطِ: ضِدُّ القَبْضِ، وهو الإِطْلاقُ والإِرْسالُ، والباسِط: مِن أَسماء اللَّهِ تَعَالَى، ومعناه: الَّذِي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ، وَيُوَسِّعُه عَلَيْهِمْ بجُوده وَرَحْمَتِه، ويبسُط الأَرواح فِي الأَجساد عِنْدَ الْحَيَاةِ[1].

ومِن معاني البَسْط: البَذْل، نَحْوُ قَوْله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [الرعد: 26]، ومنها: السَّخاء، نَحْوُ قَوْله تعالى: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة: 64].

والمعنى في لفظي ﴿يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ﴾، "فِيهِ أَرْبَعَة أَقْوَال: أَحدها: قَالَ الْحسن: يقبض بالتّقتير، ويبسط بالتّوسيع، وثانيها: قال الزّجاج: يقبض بِقبُول الصَّدَقَة، ويبسط بإِعْطاء الثّوَاب عَلَيْهِ، وَالْقَوْل الثَّالِث: يقبض بتقليل الْأَعْمَار، ويبسط بتكثير الْأَعْمَار، وَالْقَوْل الرَّابِع: يقبض بِالتَّحْرِيمِ، ويبسط بِالْإِبَاحَةِ"[2].

الرُّجُوع العَوْد إلى ما كان منه البدء

5) ﴿تُرْجَعُونَ﴾: رَجَعَ يَرْجِعُ رُجوعًا ومَرْجِعًا: انْصَرَفَ، والرُّجُوعُ: العَوْد إلى ما كان منه البدء، أو تقدير البدء مكانًا كان أو فعلاً، أو قولًا، وبذاته كان رجوعه، أو بجزء من أجزائه، أو بفعل من أفعاله، فَالرُّجُوعُ: العَوْد، والرَّجْعُ: الإعادة[3].

ومعنى قوله ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾: "أَيْ: إِلى اللّه تعُودُون، فيجْزيكُمْ بأعْمالكُمْ، وقال قتادةُ: الهاءُ راجعةٌ إلى التُّراب، كناية عنْ غيْر مذكور، أي: من التُّراب خلقهُمْ، وإليه يعُودُون"[4].

(1) ابن منظور، لسان العرب: (بَسَطَ).
(2) السّمعانّي، تفسير القرآن: 1/248.
(3) الرَّاغب، المفردات: (رَجَعَ).
(4) تفسير البغويّ، معالم التّنزيل: 1/295.

المَعْنى الإجْماليُّ:

دعوة إلى إقراض الله في الدّنيا؛ لكي يردّ مضاعفًا لك في الآخرة:

مَن يقدّم تضحيَةً في الدّنيا بماله؛ يجازَ في الآخرة على قدر فضل الله وكماله

لَمَّا كان القتال فى سبيل اللّه لا يتمُّ إلا بالنفقة وبذل الأموال، أمر تعالى بالإنفاق في سبيله ورغَّب فيه، فقال: من ذا الّذي ينفق في سبيل اللّه إنفاقًا حسنًا احتسابًا للأجر، فمن هذا المؤمن القويُّ الإيمان المتخلِّي عن شحِّه الّذي يقدِّم ماله في الجهاد، من أجل إعلاء كلمة اللّه، وفي غير ذلك من وجوه الخير، كمعاونة المحتاجين، وسدِّ حاجة البائسين، ومساعدة الأمّة الإسلاميّة، بما يفيدها ويعلي من شأنها، فيضاعفه له أضعافًا كثيرة لا تُحْصى، مِن الثّواب وحسن الجزاء؟ فيردُّ اللّه تعالى بفضله وكرمه إلى هذا الباذل المعطي المقرض، بدل ما أعطى، وبذل، وأنفق، أمثالاً كثيرة لا يعلم مقدارها إلّا اللّه أكرم الأكرمين؛ إذ المضاعفةُ معناها: إعطاء الشّخص أمثال ما أعطى، وبذل. واللّه يُضَيِّقُ على مَن يشاء مِن عباده في الرّزق، ويُوَسِّعُ فيه على آخرين، له الحِكْمة البالغة في ذلك، فأنفقوا، ولا تبالوا؛ فإنّ اللّه تعالى هو الرّزاق، فتصريف الأشياء كلها بيديه، ومدار الأمور راجع إليه، فالإمساك لا يبسط الرزق، والإنفاق لا يقبضه، وإليه وحده ترجعون بعد الموت، فيجازيكم على أعمالكم[1].

الإيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

توجيه معنى الآية الكريمة بوصفها اعتراضًا:

قُصِدَ بالاعتراض الاستطرادُ للحثّ على الإنفاق لوجه الله في طرق البر، وعلى القتال، وبيانًا لمضمون تذييل الآية السابقة

الآية الكريمة اعتراض بين جملة: ﴿۞أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِمْ﴾ [البقرة: 243]، وجملة ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [البقرة: 246]، قصد به الاستطراد للحث على الإنفاق لوجه اللّه في طرق البر، لمناسبة الحث على القتال، فإن القتال يستدعي إنفاق المقاتل على نفسه في العُدَّة والمُؤْنة مع الحث على إنفاق الواجد فضلًا في سبيل اللّه بإعطاء العدة لمن لا عدة له، والإنفاق على المعسرين من

(1) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 39، وطنطاويّ، التفسير الوسيط: 1/560، ونخبة من العلماء، التفسير الميسر، ص: 39.

الجيش، وفيها تبيين لمضمون جملة: واعلموا أن اللّه سميع عليم [البقرة: 244] فكانت ذات ثلاثة أغراض[1].

الغَرَض من الاستفهام في الآية:

وجه الاستفهام التَّحضيض والتهييج على الاتصاف بالخير

والاستفهام في قوله: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنًا﴾ مستعملٌ في التَّحضيض والتهييج على الاتصاف بالخير كأن المستفهم لا يدري من هو أهل هذا الخير والجدير به[2].

ذِكْر لفظ (ذا) هنا؛ أبْرَزَ المَعْنويَّ في مُشاهَدَة مَحْسوسة

والاستفهام في قوله تعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنًا﴾، للطَّلَب والحَضِّ على بَذْل المال في سبيل اللّه، والتَّرغيب في الإنفاق في وِجوه البِرِّ على أن يكون مُنْبَعِثًا عن نَفْس طيِّبة بالعطاء، راغبة فيما عند اللّه من الثّواب.

وذِكْر لفظ القَرْض تقريبٌ للأفهام؛ لأنَّ المنْفِق ينتظر الثَّواب، كما ينتظر المسَلِّف ردّ ما أسلف، وإقْراضُ اللّهِ مَثَلٌ لِتَقْديمِ العَمَلِ الصّالِحِ الَّذي يَسْتَحِقُّ بِهِ فاعِلُهُ الثَّوابَ[3].

فائدة التعبير بلفظ ﴿ذَا﴾:

ذكرُ (ذا) جَعلٌ للمعقول المعنويّ، كالمشاهَد المَرْئيّ؛ لِيُتَوجَّه إليه، ويُعَيَّن بعد الإبهام

وفائدة ذِكْر ﴿ذَا﴾ هنا، مع كَونِ المشار إليه غَيْر مَحسوس مُتَعيَّن، ومع الاستغناء عنه بِقَوله: ﴿ٱلَّذِى﴾، جَعل المعقول المعنويّ، كالمشاهَد المَرْئيِّ؛ لِيُتَوجَّه إليه، ويُعَيَّن بعد الإبهام[4]، "فإذا لم يكن في مقام الكلام شيء يصلح لأن يشار إليه بالاستفهام كان استعمال ﴿ذَا﴾ بعد اسم الاستفهام للإشارة المجازية بأن يتصور المتكلم في ذهنه شخصًا موهومًا مجهولًا صدر منه فعل فهو يسأل عن تعيينه، وإنما يكون ذلك للاهتمام بالفعل الواقع وتطلب معرفة فاعله"[5].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/481.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/481.
(3) ابن جُزِّي، التَّسهيل: 115، والبَيْضاويّ، أنوار التَّنزيل: 1/252.
(4) الكازروني، حاشِية الكازروني على تفسير البَيْضاويّ: 1/252.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/481.

جمع الإشارة بالاستفهام لبيان علوّ شأن الباذل

جمع الإشارة والموصول في الاستفهام فقال: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى﴾؟ وفي ذلك بيان لعلو شأن من يبذل، فإنه لَا يستفهم ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى﴾ إلا إذا كان المقام ذا شأن وخطر، وكان موضع الاستفهام خطيرًا وعظيمًا وكان المخاطب له شأن جليل إلى درجة أن يشار إليه، ويتحدث عنه، فالإشارة كناية عن أنه يشار إليه في كل أمر جليل، والموصول كناية عن أنه يتحدث عنه عند ذكر كل أمر جليل[1].

قصديّة التعبير بلفظ القرض:

سمّى البذل قرضًا استعطافاً لعبده واستلطافاً

لما حثَّ الله على المجاهدة في سبيله وذلك ببذل المال والبدن والنفس سمى ذلك قرضاً كما سماه بيعاً واشتراء في قوله تعالى: ﴿*إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم﴾ [التوبة: 111] الآية وسماه إحساناً في قوله: ﴿وَأَحْسِنُوٓاْ﴾ [البقرة: 195] كل ذلك استعطافًا لعبده واستلطافًا[2].

بلاغة الاستعارة التَّصْريحية التَّبَعيَّة في لفظ القرض:

في التَّعْبير طَمْأنة للمُنْفِق في سَبيل الله تعالى، وترغيب للإنفاق في وُجوه البِرِّ المشروعة

القَرْض لُغةً: القَطْع، ومِنْه المِقراض لِما يُقْطَع به، وسُمِّي: القَرْض، بمعنى: أن تُعْطي شيئًا؛ لِيَرْجع إليك مِثْله بذلك؛ لِما فيه مِن قَطْع شَيْء مِن المال، والمقصود بالقرض: البذل والإنفاق في سبيل الله، وشُبِّه حال المُؤْمن في تقديمه العَمَل الصَّالح تَوَقُّعًا لِثوابه مِن الله تعالى بِحال المقْرِض في تَقْديمه المال، وإعطائه أحدًا، بِجامِع عَوْدة المال إلى المقْرِض على سَبيل الاستعارة التَّصْريحية التَّبَعيَّة، وفي التَّعْبير طَمْأنة للمُنْفِق في سَبيل الله تعالى، بأنَّ أجْر ما أنْفَقه في سَبيل الله لنْ يَضيع هَباء، وفي ذلك ترغيب للإنفاق في وُجوه البِرِّ المشروعة[3].

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 2/872.
(2) الراغب، تفسير الراغب: 1/503.
(3) زاده، حاشِية على البَيْضاويّ: 1/555.

حكمة احتمال لفظ القرض للحقيقة والمجاز:

اختلفوا في أن إطلاق لفظ القرض على هذا الإنفاق حقيقة أو مجاز، فهو حقيقة؛ لأن القرض هو كل ما يُفعل ليُجازى عليه، أو هو مجاز؛ لأن القرض هو أن يعطي الإنسان شيئا ليرجع إليه مثله وهاهنا المنفق في سبيل الله إنما ينفق ليرجع إليه بدله. والحكمة فيه التنبيه على أن ذلك لا يضيع عند الله، فكما أن القرض يجب أداؤه لا يجوز الإخلال به؛ فكذا الثواب الواجب على هذا الإنفاق واصل إلى المكلَّف لا محالة[1].

الحكمة في الإطلاق التنبيهُ على أن ذلك لا يضيع عند الله، فكما أن القرض يجب أداؤه ولا يخلُّ به فكذا الثواب الواجب على هذا الإنفاق

علَّة التَّقييد بالصِّفَة في قوله: ﴿قَرۡضًا حَسَنٗا﴾:

وقُيِّد القَرْض بالنَّعْت؛ للدِّلالة على شَرْط قبول القَرْض ومُضاعفته، فلا بُدَّ من أن يكون ﴿قَرۡضًا حَسَنٗا﴾، طَيِّبَةً بِهِ نَفْسُه، مِن دُونِ مَنٍّ ولا أذًى، " أيْ: جامِعًا لِطِيبِ النَّفْسِ وإخْلاصِ النِّيَّة، وزَكاءِ المال، ويَدلُّ تسمية الإنفاق في سبيل الله قرضًا له سبحانه، على تشريف الإنفاق في سبيل الله، والضَّمان له من الضّياع؛ لأنّه يقع في يد الغنيّ الّذي له ملك السّموات والأرض سبحانه[2].

تَسْمية الإنفاق قَرْضًا لله سبحانه، يَدلُّ على تَشْريف الإنفاق، وتَنزيهه عن الضّياع

بلاغة المَجاز المُرْسَل في قوله تعالى: ﴿فَيُضَٰعِفَهُۥ﴾:

والهاء في ﴿فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ﴾، عائد إلى القَرْضِ، والضّمير في ﴿لَهُۥٓ﴾، عائد إلى المنْفِق، وجَعْلُهُ مُضاعَفًا مَجاز مُرْسَل بعَلاقة السَّببيَّة؛ لِأنَّهُ سَبَبُ المُضاعَفَةِ[3].

جَعْلُ القرض مُضاعَفًا مَجاز مُرْسَل بعَلاقة السَّببيَّة؛ لِأنَّهُ سَبَبُ المُضاعَفَةِ

دلالة صيغة المفاعلة في لفظ المضاعفة:

"وصِيغَةُ المفاعَلَةِ لَيْسَت عَلى بابِها؛ إذْ لا مُشارَكَةَ، وإنَّما اخْتِيرَتْ لِلْمُبالَغَةِ المشِيرَة إلَيْها المُغالَبَةُ"[4].

(1) الرازي: مفاتيح الغيب: 500-6/499.
(2) المَطْعَني، التَّفسير البلاغيّ للاستفهام في القرآن الحكيم: 1/133.
(3) الآلوسّي، روح المعاني: 2/163.
(4) الآلوسّي، روح المعاني: 2/163.

فائدة ذِكْر جملة: ﴿فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضۡعَافٗا كَثِيرَةٗۚ﴾، بعد جملة المطلع:

للإغراء بالإنفاق في سبيل الله، بوصفه قرضًا رابحًا، وليس قرضًا بالمثل

فائدة ذِكْر قَوْله تعالى: ﴿فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضۡعَافٗا كَثِيرَةٗۚ﴾، بعد قَوْله: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا﴾، فهي للإغراء بالإنفاق في سبيل اللّه؛ لأنّه لَمَّا كان القَرْض بين النّاس، لا زيادة في المال المقرض حين ردّه؛ فإنَّ مَن يُقْرِض اللّه تعالى؛ لا يضمن عودة ماله إليه، فحسب؛ بل هو يعود إليه مع أمثاله، فهو قَرْضٌ رابحٌ، وليس قرضًا بالمِثْل؛ لذلك قال سبحانه: ﴿فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضۡعَافٗا كَثِيرَةٗۚ﴾[1].

نكتة الإبهام في مقدار المضاعفة:

ذكر المبهم في باب الترغيب أقوى من ذكر المحدود؛ ولأنه ألمح إليه في موطن آخر

ولَمْ يُبَيِّنِ اللّه تعالى هُنا قَدْرَ هَذِهِ الأَضْعافِ الكَثِيرَةِ "لأن ذكر المبهم في باب الترغيب أقوى من ذكر المحدود"[2]. فضلا عن أنّه أَلْمَحَ في مَوْضِعٍ آخَرَ، أنَّها تَبْلُغُ سَبْعَمِائَةِ ضِعْفٍ وتَزِيدُ عَنْ ذَلِكَ، وذَلِكَ في قَوْلِهِ تَعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتۡ سَبۡعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٖ مِّاْئَةُ حَبَّةٖۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ﴾[3].

وجه التعليل في قوله: ﴿وَٱللَّهُ يَقۡبِضُ وَيَبۡصُۜطُ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾:

وجه التعليل الترهيبُ من القبض والتَّرغيب في الإنفاق في وجوه الخير، والحَثّ عليها

هذه الجملة مُرَهِّبَة مُرَغِّبَة، وهي بمنزلة التَّعليل لِما قَبْلها مِن التَّرغيب في الإنفاق في وجوه الخير، والحَثّ عليْها لأمر؛ لأنَّ المعنى " يُضَيِّقُ عَلى مَن يَشاءُ مِن عِبادِهِ في الرِّزْقِ، ويُوَسِّعُهُ عَلى آخَرِينَ، أيْ: فَلا تَبْخَلُوا عَلَيْهِ بِما وسَّعَ عَلَيْكُمْ، لِئَلّا يُبَدِّلَ السَّعَةَ الحاصِلَةَ لَكم بِالضِّيقِ"[4].

دلالة تقديم القبض على البسط:

وفي قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَقۡبِضُ وَيَبۡصُۜطُ﴾، "قدّم القبض ترجيحًا له، أي: ذلك القبض الّذي ينالكم بالصّلاة والزّكاة راجعٌ؛ لكونه

(1) المَطْعَني، التَّفسير البلاغيّ للاستفهام في القرآن الحكيم: 1/133.
(2) الرازي، مفاتيح الغيب: 6/501.
(3) الشَّنْقيطيّ، أضواء البيان: 1/146.
(4) القاسميّ، محاسن التَّأويل: 2/641.

يعود عليكم بالبسط في الدّنيا والثّواب في الآخرة، وهذا بحسب الأشخاص، فقد يكون إنفاق درهم قليلاً لشخص، وكثيرًا لآخر، كما في الحديث: «سبقَ دِرهمٌ مائةَ ألفِ درهم، قالوا وَكَيفَ ؟ قالَ: كانَ لرجلٍ درهمانِ تصدَّقَ بأحدِهما وانطلقَ رجلٌ إلى عُرضِ مالِهِ، فأخذَ منهُ مائةَ ألفِ درهمٍ فتصدَّقَ بِها»[1].

قدّم القبض ترجيحًا له، فالقبض الّذي ينالكم بالصّلاة والزّكاة راجعٌ عليكم بالبسط في الدّنيا والثّواب في الآخرة

بلاغة الاستعارتين: التجريدية، والترشيحية:

قال الطِّيبيُّ في توجيه قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَقۡبِضُ وَيَبۡصُۜطُ﴾: إنّ الجملة "تتميم للتحريض على الإنفاق، وإيذان بأن الإنفاق والإمساك لا ينقص من المال ولا يزيد، بل الله هو الموسع والمقتر، هذا على تأويل الإقراض بالإنفاق في سبيل الله كالتجريد للاستعارة، وعلى تأويل المجاهدة في نفسها وإما بمعنى: المفعول كالترشيح لها"[2].

الجملة تتميم للتحريض على الإنفاق، وإيذان بأن الإنفاق والإمساك لا ينقص من المال ولا يزيد

بلاغة تقديم الجار والمجرور في قوله تعالى: ﴿وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾:

الجملة تذييل للتحريض على الإنفاق والمنع من البخل[3]، وقد أفاد تقديم الجارّ والمجرور القَصْر، فالرَّجوع، أي: البَعْث إلى الله تعالى وحده، وعليه؛ فالقَصْر حقيقيٌّ تحقيقيٌّ، مِن باب قَصْر الصِّفَة على المَوْصوف[4].

أفاد تقديم الجارّ والمجرور القَصْر، فالبَعْث مقصورٌ عليه تعالى وحده

بيان التعريض في جملة التذييل:

قَوْلُهُ تعالى: ﴿وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾، خَبَرٌ مُسْتَعْمَلٌ في التَّنْبيهِ والتَّذْكِيرِ، بِأنَّ ما أُعِدَّ لَهم في الآخِرَةِ مِنَ الجَزاءِ عَلى الإنْفاقِ في سَبِيلِ اللَّهِ، أعْظَمُ مِمّا وُعِدُوا بِهِ مِنَ الخَيْرِ في الدُّنْيا، وفِيهِ تَعْرِيضٌ بِأنَّ المُمْسِكَ البَخِيلَ عَنِ الإنْفاقِ في سَبِيلِ اللَّهِ مَحْرُومٌ مِن خَيْرٍ كَثِيرٍ[5].

تَعْرِيضٌ بِأنَّ المُمْسِكَ البَخِيلَ عَنِ الإنْفاقِ في سَبِيلِ اللَّهِ مَحْرُومٌ مِن خَيْرٍ كَثِيرٍ

(1) ابن عرفة، تفسير الإمام ابن عرفة: 2/695، والحديث أخرجه النسائي، حديث رقم: (2527) واللفظ له، وأحمد، الحديث رقم: (8929).
(2) الطيبي، فتوح الغيب: 3/456.
(3) الطّيبي، فتوح الغيب: 3/456.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/483.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/483.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُوا۟ ۖ قَالُوا۟ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا ۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْا۟ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٤٦﴾﴾ [البقرة: 246]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

القِتال كان مَطْلُوبًا مَشْرُوعًا في الأُمَمِ السّابِقَةِ بأحكامه وشروطه

ارتباط هذه الآية بما قَبْلها - كما بَيَّنَه صاحب البحر المحيط - يؤكِّد أنَّ: "مُناسَبَة هَذِهِ الآيَةِ لِما قَبْلَها ظاهِرَةٌ، وذَلِكَ أنَّهُ لَمّا أمَر المُؤْمِنِينَ بِالقِتال في سَبِيلِ اللَّهِ، وكانَ قَدْ قَدَّم قَبْلَ ذَلِكَ قِصَّة الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيارِهم حَذَرَ المَوْت، إمَّا بِالقِتال أوْ بِالطَّاعُون، عَلى سَبِيلِ التَّشْجِيعِ والتَّثْبِيت لِلْمُؤْمِنِينَ، والإعْلام بِأنَّهُ لا يُنْجِي حَذَرٌ مِن قَدَرٍ؛ أرْدَفَ ذَلِكَ بِأنَّ القِتالَ، كان مَطْلُوبًا مَشْرُوعًا في الأُمَمِ السّابِقَة، فَلَيْس مِن الأحْكام الَّتِي خُصِصْتُمْ بِها؛ لِأنَّ ما وقَعَ فِيهِ الِاشْتِراك، كانَتِ النَّفْسُ أمْيَلَ لِقَبُولِه مِنَ التَّكْلِيف الَّذِي يَقَعُ بِهِ الِانْفِرادُ"[1].

وفي المضمار نفسه، قال محمد علي جميل: "لَمَّا ذكر تعالى أحكام الأسرة بالتَّفصيل، والنُّظم الَّتي تربط بين أفرادها، وسعى لإصلاحها، باعتبار أنَّها النَّواة واللَّبنة الَّتي يشاد منها صرح المجتمع الفاضل؛ ذكر بعدها أحكام الجهاد، وذلك لحماية العقيدة، وصيانة المقدّسات، وتأمين البيئة الصّالحة للأسرة المسلمة الّتي تنشد الحياة الكريمة، فلا صلاح للأسرة إلّا بصلاح المجتمع، ولا بقاء لها ولا خلود، إلّا ببقاء الحقّ وأنصاره، ولهذا أمر تعالى بالقتال، وضرب عليه الأمثال، بالأمم السّابقة، كيف جاهدت في سبيل الحقّ، وانتصرت القلّة مع إيمانها على

(1) أبو حَيَّان، البَحْر المُحيط: 2/262.

الكثرة مع كفرها وطغيانها، فليست العبرة بكثرة أنصار الباطل، بل بصمود أهل الحقّ، والتزامهم له وجهادهم في سبيله"[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

الملأ هم الأشراف الَّذِينَ يَمْلَؤُونَ العُيُونَ هَيْبَةً

1) ﴿ٱلْمَلَإِ﴾: هم الأشْرافُ مِنَ النَّاسِ، وهو اسْمُ الجَماعَةِ، كالقَوْمِ والرَّهْطِ والجَيْشِ، وجَمْعُهُ أمْلاءٌ، قالَ الشّاعِرُ:

وقالَ لَها الأمْلاءُ مِن كُلِّ مَعْشَرٍ *** وخَيْرُ أقاوِيلِ الرِّجالِ سَدِيدُها

وأصْلُها: مِنَ المَلْءِ، وهُمُ الَّذِينَ يَمْلَؤُونَ العُيُونَ هَيْبَةً ورواءً، وقِيلَ: هُمُ الَّذِينَ يَمْلَؤُونَ المَكانَ؛ إذا حَضَرُوا، وقالَ الزَّجّاجُ: المَلَأُ: الرُّؤَساءُ، سُمُّوا بِذَلِكَ؛ لِأنَّهم يَمْلَؤُونَ القُلُوبَ بِما يُحْتاجُ إلَيْهِ مِن قَوْلِهِمْ: مَلَأَ الرَّجُلُ يَمْلَأُ مِلْأَةً، فَهو مَلِيءٌ[2]، واحتجّ الأنباريّ بقوله تبارك وتعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾، وبالحديث الّذي يروى عن النّبيّ ﷺ: أنّه سمع رجلاً من الأنصار بعد وقعة بدر، يقول: إنّما قتلنا عجائزَ صُلْعًا، فقال له النّبيّ ﷺ: «أولئك الملأ من قريش، لو احتَضَرْتَ فَعالَهم؛ احتقرتَ فعالَك مع فعالهم»[3].

البَعْث ضَرْبان بَشَريٌّ قوامه التَّجدُّد والحركة، وإلهيٌّ قوامه القدرة والإرادة

2) ﴿ٱبْعَثْ﴾: بَعَثَ: الْبَاءُ وَالْعَيْنُ وَالثَّاءُ: أَصْلٌ وَاحِدٌ، وَهُوَ الْإِثَارَةُ، وَيُقَالُ: بَعَثْتُ النَّاقَةَ؛ إِذَا أَثَرْتَهَا، وَقَالَ ابْنُ أَحْمَرَ:

فَبَعَثْتُهَا تَقِصُ الْمَقَاصِرَ بَعْدَمَا***كَرَبَتْ حَيَاةُ النَّارِ لِلْمُتَنَوِّرِ

ويختلف البعث بحسب اختلاف ما علّق به، فَبَعَثْتُ البعير: أثرته، وسيّرته، وقوله ﷻ: ﴿وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ﴾ [الأنعام: 36]، أي: يُخْرجهم، ويُسَيِّرهم إلى القيامة، فالبَعْثُ ضَرْبان:

بَشَريٌّ: كبَعْث البَعير، وبَعْث الإنسان في حاجة. وإلهيٌّ: وذلك

(1) محمد علي جميل، صفوة التّفاسير، ص: 140.
(2) الرّازي، مفاتيح الغيب: 6/168.
(3) الأنباريّ، الزّاهر: 2/161.

ضربان: أحدهما: إيجاد الأعيان والأجناس والأنواع، وذلك يختصُّ به الباري تعالى، ولم يقدر عليه أحد. والثاني: إحياء الموتى، وقد خَصَّ اللَّه تعالى بذلك بعض أوليائه، كعيسى عليه السلام وأمثاله، ومنه قوله عز وجل: ﴿فَهَٰذَا يَوۡمُ ٱلۡبَعۡثِ﴾ [الروم: 56]، يعني: يوم الحشر[1]، وقولهم: "بَعَثَهُ من منامه، أي: أهَبَّه، وبَعَثَ الموتى: نَشَرَهُم ليوم البعث، وانْبَعَثَ في السّير، أي: أسرع، وتَبَعَّثَ منِّي الشِعْرُ، أي: انبعثَ، كأنَّه سارَ، والبعيث: اسم شاعر من بني تميم"[2].

ومعنى الآية: أقم وعيِّنْ لنا ملِكًا نجتمع عليه.

3) ﴿عَسَيۡتُمۡ﴾: من عسى، قيل: فِعْل مطلقًا، وقيل: حرف مطلقًا، للتَّرَجِّي في المحبوب، وللإشفاق في المكروه، واجتمعا في قوله تعالى: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ﴾ [البقرة: 216]، ويكون للشَّك، ولليقين، وقد يشبّه بكاد، وهو من اللّه تعالى إيجاب، وبمنزلة (كان) في المَثَل السائر: عَسَى الغُوَيْرُ أَبْؤُسًا[3]، وعَسَيْتُ أَن أفعل كَذَا، وعَسِيتُ: قاربت، وَالْأَولَى أعلَى، قَالَ سِيبَوَيْه: لَا يُقَال: عَسَيْت الفِعْلَ، وَلَا عَسَيْتُ للْفِعَلِ، قَالَ: اعلم أَنَّهم لَا يستعملون عَسَى فعلك، استغنوا بِأَن تفعل عَن ذَلِك، كَمَا اسْتغنى أَكثر الْعَرَب بعَسَى عَن أَن يَقُولُوا: عَسَيا وعَسَوا[4].

(عسى) للتَّرَجِّي في المحبوب، وللإشفاق في المكروه

والمعنى هنا: هل قاربتم ألَّا تقاتلوا كما أتوقعه منكم.

4) ﴿دِيَٰرِنَا﴾: الدّارُ: المحلُّ، يَجمعُ البِناءَ والعَرْصَةَ، كالدّارَةِ، وقد تُذَكَّرُ، والجمع: أُدْؤُرٌ ودِيارٌ ودِيَارَةٌ، ومِن معانيها: البلدُ، ومدينةُ النّبيِّ ﷺ والقبيلةُ، والدَّار مِن الرَّمْلِ: ما اسْتَدارَ منه، والدّنيا كما هي دار، والدّار الدّنيا، والدّار الآخرة، إشارة إلى المقرّين في النّشأة الأولى، والنّشأة الأخرى[5]، "وَقِيلَ لِلْبِلَادِ: (دِيَارٌ)؛ لِأَنَّهَا جَامِعَةٌ

(1) الرّاغب، المفردات، ابن منظور، لسان العرب: (بعث).
(2) الجوهري، الصحاح: (بعث).
(3) ابن هشام، مغني اللَّبيب: 1/132، والفيروزاباديّ، بصائر ذوي التّمييز: (عسى).
(4) ابن سيده، المحكم: (عسي).
(5) الفيروزباديّ، القاموس المحيط، والرّاغب، المفردات: (دوَر).

لِأَهْلِهَا كَالدَّارِ، وَمِنْهَا قَوْلُهُمْ: دِيَارُ رَبِيعَةَ وَدِيَارُ مُضَرَ، وَقِيلَ: لِلْقَبَائِلِ دُورٌ، كَمَا قِيلَ: لَهَا بُيُوتٌ، وَمِنْهَا: «أَلَا أُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرِ دُورِ الْأَنْصَارِ» الْحَدِيث"[1]، "وَالْأَصْلُ فِي إِطْلَاقِ الدُّورِ عَلَى الْمَوَاضِعِ، وَقَدْ تُطْلَقُ عَلَى الْقَبَائِلِ مَجَازًا، وَالدَّارُ: الصَّنَمُ، وَبِهِ سُمِّيَ، فَقِيلَ: عَبْدُ الدَّارِ، وَالدَّارَةُ دَارَةُ الْقَمَرِ وَغَيْرِهِ، سُمِّيَتْ بِذَلِكَ لِاسْتِدَارَتِهَا، وَالْجَمْعُ: دَارَاتٌ وَدَوَائِرُ"[2].

5) ﴿تَوَلَّوْاْ﴾: التَّوَلِّي: الإعْراض، والتَّوَلِّي قد يكون بالجِسْم، وقد يكون بِتَرْك الإصغاء والائتمار، قال تعالى: ﴿وَلَا تَوَلَّوْاْ عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ۝٢٠﴾[3] [الأنفال: 20]، والتولّي: الإعراض مطلقًا، ولا يلزمه الإدبار، فإنّ تولّي الرّسول ﷺ عن ابن أمّ مكتوم، لم يكن بالإدبار، والتّولّي بالإدبار قد يكون على حقيقته كما في قوله تعالى: ﴿بَعْدَ أَن تُوَلُّواْ﴾ [الأنبياء: 57]، وقد يكون كناية عن الانهزام، كما في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ۝٢٥﴾ [التوبة: 25]، والتَّولِّي: قد يكون لحاجة تدعو إلى الانصراف مع ثبوت العقد"[4].

التَّوَلِّي قد يكون بالجِسْم، وقد يكون بِتَرْك الإصغاء والائتمار

والمعنى هنا: أعرضوا وضيَّعوا أمر الله تعالى.

6) ﴿بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾: يُقَال: ظَلَمَه يَظْلِمُهُ ظَلْمًا وظُلْمًا ومَظْلِمةً، فالظَّلْمُ: مَصْدر حقيقيّ، والظُّلْمُ: الاسمُ يَقُومُ مَقام الْمَصْدَرِ، وَهُوَ ظالمٌ وظَلوم، قَالَ ضَيْغَمٌ الأَسدِيُّ:

إِذَا هُوَ لَمْ يَخْفِني في ابْنِ عَمِّي *** وإِنْ لَمْ أَلْقَهُ الرَّجُلُ الظَّلُومُ

وأَصْلُ الظُّلم: الجَوْرُ، ومُجاوَزَة الحدِّ، والظُّلْمُ: وَضْع الشَّيْءِ في غَيْرِ موضِعه، وَمِنْ أَمْثَالِ العَرَبِ فِي الشَّبه: مَنْ أَشْبَهَ أَباه؛ فَمَا ظَلَم،

الظُّلْمُ وضع الشَّيْء في غير موضعه، وهو منهيٌّ عنه في كلّ الشّرائع

(1) الْمُطَرِّزِيّ، المغرب في ترتيب المعرب، ص: 170.
(2) الفيّوميّ، المصباح المنير: 1/202.
(3) السَّمين، عمدة الحفَّاظ: (وَلِي).
(4) الكفويّ، الكليّات، ص: 28.

قَالَ الأَصمعي: مَا ظَلَم، أَيْ: مَا وَضَعَ الشَّبَه في غَيْرِ مَوْضعه، وَفي الْمَثَلِ: مَنِ اسْتَرْعَى الذِّئْبَ؛ فَقَدْ ظلمَ[1]، وَرَدَ لفظ (ظَلَمَ) بمشتقاته في القرآن ثلاثمئة وخمس عشرة مَرَّة[2].

قال بعض الحكماء: الظّلم ثلاثةٌ: الأوّل: ظلمٌ بين الإنسان وبين اللّه تعالى، وأعظمه الكفر والشّرك والنّفاق، ولذلك قال ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ ١٣﴾ [لقمان: 13]، والثّاني: ظلمٌ بينه وبين النّاس، وإيّاه قصد بقوله: ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظۡلِمُونَ ٱلنَّاسَ﴾ [الشورى: 42]، وبقوله: ﴿وَمَن قُتِلَ مَظۡلُومٗا فَقَدۡ جَعَلۡنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلۡطَٰنٗا﴾ [الإسراء: 33]، والثّالث: ظلمٌ بينه وبين نفسه، وإيّاه قصد بقوله تعالى: ﴿فَمِنۡهُمۡ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ وَمِنۡهُم مُّقۡتَصِدٞ﴾ [فاطر: 32]، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقۡرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٣٥﴾ [البقرة: 35]، أي: أنفسهم، وقوله: ﴿وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَقَدۡ ظَلَمَ نَفۡسَهُۥۚ﴾ [البقرة: 231]، وكلّ هذه الثّلاثة في الحقيقة ظلم للنّفس"[3].

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

طَلَبُ بني إسرائيل تَوْلِيَةَ مَلِك، يجمعهم تحت قيادته لمقاتلة أعدائهم

ألم يبلغ علمُك - أيّها الرّسول ﷺ - بإخبارنا إيّاك قِصَّةَ الوُجَهاء مِن بني إسرائيل، مِن بعد زمان موسى؟ إذ طَلبوا مِن نبيِّهم أن يُوَلِّي عليهم مَلِكًا، تَنْتَظِمُ بِهِ كَلِمَتُهم، ويَجْتَمِع بِهِ أمْرهم، ويَسْتَقِيمُ حالُهم في جِهاد عَدُوِّهم، فقال لهم نبيُّهم: هل الأمْر كما أتوقَّعه: إنْ فُرِضَ عليكم القِتال في سبيل اللّه؛ فإنَّكم تَجْبُنون ولا تُقاتلون؟ فردُّوا مستنكرين تَوَقُّع نبيِّهم: وأيُّ مانِع يمنعُنا عن قتال أعدائنا وقد توافرت أسباب ذلك؟ فقد أَخْرَجَنا عدوُّنا مِن ديارنا، وأُبْعِدْنا عَن أولادنا بالقَتْل والأسْر، فلمَّا فَرَض اللّه عليهم القتال مع المَلِك الّذي عَيَّنه لهم؛ جَبُنوا، وفرُّوا عن القِتال، ونَكَثوا إلّا قليلًا منهم، ثَبَتوا بِفَضْل اللّه، فعصمهم اللّه وثبتهم وقوى قلوبهم، فالتزموا أمر اللّه

(1) ابن منظور، لسان العرب: (ظَلَمَ).

(2) وَرَدَ لفظ: (ظَلَمَ) بمشتقاته في القرآن 315، وعلى النّحو التّالي: 134 مَرَّة اسمًا مشتقًا من الثّلاثي المُجَرَّد، مَرَّتان اسمًا مشتقًا من باب: (فَعَلَ). 16 مَرَّة اسمًا بصيغة: (أَظْلَم). مَرَّتان اسمًا بصيغة: (ظالِي). مَرَّتان اسمًا بصيغة: (ظَلُوم). مَرَّتان اسمًا بصيغة: (ظَلُوم). 5 مَرَّات اسمًا بصيغة: (ظَلّام). مَرَّتان اسمًا بصيغة: (ظَلُوم). 5 مَرَّات اسمًا بصيغة: (ظَلّام). 23 مَرَّة اسمًا بصيغة: (ظُلْمَة). 20 مَرَّة اسمًا بصيغة: (ظُلْم)، 110 مَرَّة فعلًا من الثلاثي المجرد. مَرَّة فِعْلًا من باب: (أَفْعَلَ).

(3) الزّبيديّ، تاج العروس: 32/33-33.

ووطنوا أنفسهم على مقارعة أعدائه، فحازوا شرف الدنيا والآخرة، والله عليم بالظّالمين النّاكثين عُهودهم[1].

الإيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

بلاغة العدول إلى الفصل بالاستئناف في الآية:

في الفصل بالاستئناف زيادة تأكيد لفظاعة حال التقاعس عن القتال في سبيل الله، وتكريره يفيد مزيدَ تحذيرٍ وتعريضٍ بالتوبيخ

ذكر ابن عاشور أنّ "جملة: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ استئناف ثانٍ من جملة ﴿۞أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ﴾ [البقرة: 243] سيق مساق الاستدلال لجملة ﴿وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: 244]، وفيها زيادة تأكيد لفظاعة حال التَّقاعس عن القتال بعد التهيُّؤ له في سبيل الله، والتَّكرير في مثله يفيد مزيد تحذير وتعريض بالتوبيخ فإن المأمورين بالجهاد في قوله: ﴿وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: 244] لا يَخْلون من نفر تعتريهم هواجس تثبطهم عن القتال، حُبًّا للحياة، ومن نفر تعترضهم خواطر تهوِّن عليهم الموت عند مشاهدة أكدار الحياة، ومصائب المذلة، فضرب الله لهذين الحالين مثلين: أحدهما ما تقدم في قوله: ﴿۞أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ﴾ [البقرة: 243]، والثاني: قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾"[2].

في الفصل بالاستئناف تشجيعٌ للنفوس على الجهاد

وقد سيق هذا الاستئناف أيضًا مساق الاستدلال، لقوله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: 244]، حتّى تتشجّع النّفوس على الجهاد، وتهون عليها المصاعب، في سبيل حياة العزّة والكرامة[3].

وجه تقديم جملة الخروج من الدّيار وتأخير جملة القتال هذه:

وجه التقديم؛ ليقع التحريض على القتال بينهما، وليقع الأمر بعدها موقع القبول

وقد قدّم جملة ﴿۞أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ﴾ [البقرة: 243] وأخّر جملة ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾؛ ليقع التّحريض على القتال بينهما من ديارهم مع كثرتهم، وهذه الحالة أنسب بأن تقدّم

(1) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 40، ونخبة من العلماء، التفسير الميسر، ص: 40.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/484.
(3) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 1/363.

بين يدي الأمر بالقتال والدفاع عن البَيْضَة؛ لأن الأمر بذلك بعدها يقع موقع القبول من السامعين لا محالة[1].

ووجه التأخير لكونها تمثيلًا لحال الذين عرفوا فائدة القتال في سبيل الله

"ومناسبة تأخير الثانية: أنَّها تمثيل حال الذين عرفوا فائدة القتال في سبيل اللّه لقولهم: ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ﴾. فسألوه دون أن يُفرض عليهم، فلمَّا عيَّن لهم القتال؛ نكصوا على أعقابهم، وموضع العبرة هو التحذير من الوقوع في مثل حالهم بعد الشروع في القتال أو بعد كتبه عليهم، فلله بلاغة هذا الكلام، وبراعة هذا الأسلوب تقديمًا وتأخيرًا!"[2].

دلالة الاستفهام في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ﴾:

الرُّؤية المقصودة إمَّا أن تكون بَصَرِيَّة، وإمَّا أن تكون عِلْمِيَّة قَلْبيّة

والاستفهام في قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ﴾، للتَّقريروالتَّعجيب، "تقرير لِمَن سَمع بقصَّتهم من أهل الكتاب وأخبار الأوّلين، وتَعجيب مِن شأنهم"[3]، والرُّؤية المَقْصُودة، إمَّا أن تكون بَصَرِيَّة، فيُنَزَّل فيها غير الرَّائي مَنْزلة الرّائي؛ لأنَّ تلك الحادثة وقعت قبل نزول القرآن الكريم بِزَمن طويل، والغَرَض مِن هذا التَّنزيل، الإشارة إلى اشْتهار تلك الواقعة، حتَّى لكأنَّها تقع ساعة نُزول الآية، وحال سَماعها، وإمَّا أن تكون الرُّؤية عِلْمِيَّة قَلْبيّة، وهذا هو الأرْجَحُ، فيكون الاستفهام تحريكًا للذِّهن؛ لاستحضار حقيقة الواقعة[4].

دلالة التَّعبير بلفظ ﴿ٱلْمَلَإِ﴾:

يوحي التعبير بلفظ (الملأ) بِوَصْف بني إسرائيل بالطَّيْش والسَّفَه

وفي التَّعبير بـ ﴿ٱلْمَلَإِ﴾ إيحاءٌ بِوَصْف بني إسرائيل بالطَّيْش والسَّفَه؛ لأنَّه إذا كان أشرافهم وسادتهم وعقلاؤهم بهذا القَدْر مِن الخَوَر، وبهذه المَنزلة مِن نَكْث العهود، وعدم الوفاء بِما يَقْطعون على أنْفُسِهم؛ فما بالنا بعامَّتهم؟[5].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/484.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/484.
(3) الزَّمخشريّ، الكشَّاف: 1/147.
(4) المُطْعَنيّ، التَّفسير البلاغيّ للاستفهام في القرآن الحكيم: 1/130.
(5) المُطْعَنيّ، التَّفسير البلاغيّ للاستفهام في القرآن الحكيم: 1/136.

معنى حرف ﴿مِنۡ﴾ في الموضعين:

لفظ (مِن) الأُولى تَبْعِيضِيَّة، والثّانِيَة ابتدائيَّة

قوله: ﴿مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعۡدِ مُوسَىٰٓ﴾: فَلفظ ﴿مِنۡ﴾ الأُولى: تَبْعِيضِيَّة، فالملأ بَعْضٌ مِن قومهم، و﴿مِنۢ﴾ الثّانِيَة: لِابْتِداء الغايَة[1]، أي: ابتداء الزَّمن مِن بَعْد موسى عليه السلام.

وجه التَّعْرِيض في قولهم: ﴿مِنۢ بَعۡدِ مُوسَىٰٓ﴾:

بيان التعريض تحْذِير المسْلِمِينَ مِنَ الاِخْتِلافِ عَلى رَسُولِهِمْ

وفي قولهم: ﴿مِنۢ بَعۡدِ مُوسَىٰٓ﴾ إعلام بأنّ أصحاب هذه القصة كانوا مع نبي بعد موسى عليه السلام، فإن زمانه لم يكن فيه نصب ملوك على بني إسرائيل وكأنه إشارة إلى أنهم أضاعوا الانتفاع بالزمن الذي كان فيه رسولهم بين ظهرانيهم، فكانوا يقولون: اذهب أنت وربك فقاتلا، وكان النصر لهم معه أرجى لهم ببركة رسولهم، والمقصود التعريض بتحذير المسلمين من الاختلاف على رسولهم[2].

نكتة تنكير لفظ ﴿لِنَبِيّٖ﴾:

وجه التنكير الإشارة إلى أنَّ المقصود ليس النَّبِيّ، وإنَّما حالُ القَوْمِ

وجاء لفظ ﴿لِنَبِيّٖ﴾ نَكِرَة، كما حكاه القرآن في قولهم: ﴿إِذۡ قَالُواْ لِنَبِيّٖ لَّهُمُ﴾؛ لأنَّه لا يتعلّق غَرَض بِذِكْره، ولعدم وجود مُقْتَضٍ لِتَعْرِيفِه، "وللإشارة إلى أنَّ مَحَلَّ العِبْرَةِ لَيْسَ هو شَخْصَ النَّبِي، فَلا حاجَةَ إلى تَعْيِينِه، وإنَّما المَقْصُودُ حالُ القَوْمِ وهذا دأبُ القرآن في قصصه"[3].

دلالة إيثار التّعبير بلفظ ﴿ٱبۡعَثۡ﴾، دون لفظ (أَرْسِلْ):

التَّعبير بالبَعْث يتلاءم مع حال القوم الّذين خارت قواهم، وتَفَرَّق شَمْلُهم

عبّر بلفظ ﴿ٱبۡعَثۡ﴾ في قوله: ﴿إِذۡ قَالُواْ لِنَبِيّٖ لَّهُمُ ٱبۡعَثۡ لَنَا مَلِكٗا نُّقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾؛ لأنّ مادّة البعث تدور حول التّهييج والإثارة[4] بخلاف مادّة الإرسال الّتي تدور حول الرِّفق واللِّين، واليُسْر

---

(1) تأتي: (مِن) على خمسة عشر وَجْهًا، وابتداء الغاية أشهرها، وهو الغالب عليها، وتقع لهذا المعنى في غير الزَّمان، نَحْو: انتقلتُ مِن مَكَّة إلى المدينة. وتقع في الزَّمان، نحو: مُطِرنا مِن يوم الجمعة، ينظر: ابن هشام، مُغْني اللَّبيب: 2/14.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/485، والمطْعَني، التَّفسير البلاغيّ للاستفهام في القرآن الحكيم: 1/136.

(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 2/485.

(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (بَعَثَ).

والسُّهولة[1]، فالتَّعبير بالبَعْث يتلاءم مع حال القوم الّذين خارت قواهم، وتَفَرَّق شَمْلُهم، بعد أن استباح عدوّهم أرضهم؛ لذا كانوا في حاجة إلى مَلِك قَوِيٍّ الشَّكيمة، ينضمّون تحت لِوائه؛ ليوقظ فيهم روح العِزَّة التَّي مُحِيَت، والكرامة الّتي هُدِرت، ويَنْفُض عنهم غُبار الذُّل والهَوان، وهذا بلا شَكٍّ يحتاج إلى جهْد جَهيد؛ لذا أوثر التّعبير بالمادَّة الّتي تدلّ على الإثارة والتّهييج.

بلاغة تقديم الجارِّ والمجرور:

تقديم الجارِّ والمجرور أفاد الاختصاص بالقصر

وأفاد تقديم الجارّ والمجرور في قولهم: ﴿ٱبۡعَثۡ لَنَا مَلِكٗا﴾ القَصْر؛ إذْ مقصودهم أن يُبْعَث الملِك لهم خاصَّة، لا لغيرهم، وفيه تأكيد على عَزْمهم الانقياد لأمره، والانضواء تحت لوائه.

توجيه القراءة في ﴿نُقَٰتِلۡ﴾ بين الحال المقدّرة، والاستئناف البيانيّ:

تنوّع القراءات سعة في الدلالات

وقوله: ﴿ٱبۡعَثۡ لَنَا مَلِكٗا نُّقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ مَجْزوم في جواب الأمْر، وقُرِئَ شاذًّا[2] بالرَّفْع عَلى أنَّهُ حالٌ مُقَدَّرَة، أي: ابْعَثْهُ لَنا مُقَدِّرِينَ القِتال، أوْ مُسْتَأْنِف اسْتِئْنافًا بَيانِيًّا، كَأَنَّهُ قِيل: فَماذا تَفْعَلُونَ مَع المَلِك؟ فَأُجِيبَ: نُقاتِلُ[3]، و" الجَزْمُ في ﴿نُّقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، الوجهُ على الجوابِ للْمسْأَلَة الَّتِي في لفْظِ الأمْر، أي: ﴿ٱبۡعَثۡ لَنَا مَلِكٗا﴾ نُقاتِلْ، أي: إنْ تَبعث لنا مَلِكاً نُقَاتِلْ في سبيل اللّه، ومن قرأ (مَلِكاً يُقَاتِلُ) بالياءِ[4]؛ فهو على صفة المَلِك، ولكن ﴿نُّقَٰتِلۡ﴾ هو الوجهُ الّذي عليه القرّاء، والرّفع فيه بعيد، يجوز على معنى: فَإنّا نقاتل في سبيل اللّه، وكثيرٌ مِن النَّحوِّيينَ، لا يُجِيزُ الرفْعَ فِي ﴿نُّقَٰتِلۡ﴾"[5].

(1) الرَّاغِب، المفردات: (رسل).
(2) السمين الحلبي، الدّرّ المصون: 2/515.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 2/165.
(4) السمين الحلبي، الدّرّ المصون: 2/515.
(5) وهي قراء شاذة، ينظر: الزّجاج، معاني القرآن إعرابه: 1/326.

دلالة الاستفهام في قوله: ﴿هَلۡ عَسَيۡتُمۡ﴾:

معنى الاستفهام التَّقْرير، وفيه إلهابٌ، وتهييجٌ، وتحذير

والاستفهام في قوله: ﴿هَلۡ عَسَيۡتُمۡ إِن كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُواْ﴾ للتَّقرير، والمعنى: هل الأمر كما أتوقّعه أنّكم لا تقاتلون؟ وهذا بِناءً على مواقفهم المتخاذلة مع نَبِيِّهم موسى عليه السلام، حين قالوا له: ﴿فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ﴾ [المائدة: 24]، أرادَ أنْ يَقُولَ: عَسَيْتُمْ ألّا تُقاتِلُوا، بِمَعْنى: أتَوَقَّعُ جُبْنَكم عَنِ القِتالِ، فَأدْخَلَ ﴿هَلْ﴾ مُسْتَفْهِمًا عَمّا هو مُتَوَقَّعٌ عِنْدَهُ ومَظْنُونٌ، وأرادَ بِالِاسْتِفْهامِ التَّقْرِيرَ، وتَثْبِيتَ أنَّ المُتَوَقَّعَ كائِنٌ، وأنَّهُ صائِبٌ في تَوَقُّعِهِ، كَقَوْلِهِ تَعالى: ﴿هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ حِينٞ مِّنَ ٱلدَّهۡرِ﴾"[1] [الإنسان: 1]، وفي هذا الاستفهام إلهاب وتهييج للكرامة الّتي سقطت، والعِزَّة الّتي خَمدت في نفوسهم[2].

بلاغة الإيجاز، والنفي في جملة الاستفهام:

قرّرهم على إضمارهم نية عدم القتال اختبارًا وسبرًا لمقدار عزمهم عليه بأوجز عبارة

قوله: ﴿أَلَّا تُقَٰتِلُواْ﴾ "مُسْتفهمٌ عنه بـ ﴿هَلْ﴾ وخبر لعسى متوقّع، ودليل على جواب الشرط ﴿إِن كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ﴾ وهذا من أبدع الإيجاز فقد حكى جملًا كثيرة وقعت في كلام بينهم، وذلك أنه قرَّرَهم على إضمارهم نية عدم القتال اختبارًا وسبرًا لمقدار عزمهم عليه؛ ولذلك جاء في الاستفهام بالنفي، فقال ما يؤدي معنى (هل لا تقاتلون)، ولم يقل: (هل تقاتلون)؛ لأنّ المُستفهَم عنه هو الطرف الراجح عند المستفهِم، وإن كان الطرف الآخر مقدّرًا، وإذا خرج الاستفهام إلى معانيه المجازية؛ كانت حاجة المتكلم إلى اختيار الطرف الراجح متأكدة"[3].

نكتة ذكر فرضية القتال عليهم:

لم يُقَل: (هَلْ عَسَيْتُمْ إنْ بَعَثْتُ لَكم مَلِكًا ألاَّ تقاتلوا؟) بَلْ ذَكَر

(1) الرّازي، مفاتيح الغيب: 6/171 والقاسِمي، مَحاسن التَّأويل: 2/246.
(2) البِقاعي، نَظْم الدُّرَر: 3/410.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 2/485.

عبّر بذكر فرضية القتال عليهم لِلْمُبالَغَةِ في بَيان تَخَلُّفِهِم عَنْه

فَرْضِيَّة القِتال عَلَيْهِمْ؛ لِلْمُبالَغَةِ في بَيان تَخَلُّفِهم عَنْه، فَإِنَّهم، إذا لَمْ يُقاتِلُوا عِنْد فَرْضِيَّة القِتالِ عَلَيْهِم بِإيجاب اللَّهِ تَعالى؛ فألَّا يُقاتِلُوا عِنْدَ عَدَم فَرْضِيَّتِه أوْلى، ولِأنَّ إيرادَ ما ذَكَروه، رُبَّما يُوهِمُ أنَّ سَبَب تَخَلُّفِهِم عَنِ القِتال، هو المَبْعُوث، لا نَفْس القِتال[1].

نكتة التعبير بجملة ﴿وَمَا لَنَآ﴾:

وجه التعبير بجملة (مَا لَنَا) ربطها بما قبلها، ودفع احتمال الانقطاع عمّا قبلها

ولفظ ﴿وَمَا لَنَآ﴾ رابطة لهذه الجملة بما قبلها؛ إذْ لو حذفت؛ لجاز أن يكون منقطعًا عمّا قبله، و (مَا) في محلّ رفع بالابتداء، ومعناها الاستفهام، وهو استفهام إنكار[2].

ونقل عن المبرّد: أنّ (ما) نافية، أي: ليس لنا ترك القتال، والأكثرون على أنّه للاستفهام، وأورد عليه أنّه خلاف المشهور، فإنّه لا يقال: مالك ألّا تفعل كذا؟ وإنّما يقال: مالك لا تفعل، فعن الأخفش: أنّ (أن) زائدة، أي: ما لنا لا نقاتل، ورد بأنّ الزّيادة خلاف الأصل، ولا سيّما في كلام ربّ العزّة، وعن الفرّاء أنّ الكلام محمول على المعنى؛ لأنّ قولك: (ما لك لا تقاتل) معناه: ما منعك أن تقاتل، فلما ذهب إلى معنى المنع؛ حسن إدخال (أن) فيه، وعن الكسائيّ- واستحسنه الفارسيّ- أنّ التّقدير: (أيّ شيء لنا؟ وأيّ داعٍ أو غرض في ترك القتال؟)، فسقطت كلمة (في) على القياس"[3].

معنى الاستفهام الاستبعاد والتّعجيب من حالهم؛ إذ تخاذلوا عن قتال عدوِّهم

دلالة الاستفهام في قولهم: ﴿وَمَا لَنَآ﴾:

والاستفهام في قولهم، كما حكاه القرآن: ﴿قَالُواْ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدۡ أُخۡرِجۡنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبۡنَآئِنَاۖ﴾؛ للاستبعاد والتّعجيب من حالهم؛ إذ تخاذلوا عن قتال عدوِّهم الّذي أخرجهم من ديارهم، وسَبى ذراريهم، وأراد أن يستأصل شأفتهم، وقد ذَكر الملأ

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 1/239.
(2) زاده، حاشية على البيضاويّ: 2/600.
(3) النّيسابوريّ، غرائب القرآن: 1/665.

مُسَوِّغات عَزْمهم على القتال، وهي: القِتال في سبيل اللّه، وطردهم مِن ديارهم، وحِرْمانهم مِن أبنائهم، وجملة ﴿وَقَدْ أُخْرِجْنَا﴾: حال مُعَلِّلة لاستبعادهم وتعجيبهم.

إيثار التَّعبير بـ (إنْ) دون (إذا) في قوله تعالى: ﴿إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ﴾:

وفي إيثار التَّعبير بـ ﴿إِن﴾ - الّتي تدلّ على الشّكّ في وقوع الشَّرْط دون (إذا) الّتي تدلّ على تحقّق وقوع الشَّرْط - في قوله: ﴿إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ﴾، إشارة إلى رغبة نَبِيِّهم في عدم فرضيَّة القِتال عليهم؛ لتوقّعه تخاذلهم عنه، ولعلَّ هذا يشير أيضًا إلى شفقته عليهم، ورحمته بِهِم، "﴿قَالُواْ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ﴾، أيْ: وأيُّ سبب لنا في ترك قتال عدوّنا في سَبِيلِ اللَّهِ؟ ﴿وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا﴾، أي: والحال أنّه قد عرض ما يوجب القتال إيجابًا قويًّا، من أخذ بلادنا، وسبي أولادنا، ﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ﴾، بعد إلحاحهم في طلبه تَوَلَّوْا، أي: أعرضوا عن قتال عدوّهم جبنًا ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾[1].

إيثار التَّعبير بـ (إنْ) إشارة إلى رغبة نَبِيِّهم في عدم فرضيَّة القِتال عليهم؛ لتوقّعه تخاذلهم عنه، أو لشفقته عليهم

سرّ بناء الفعل ﴿كُتِبَ﴾ للمفعول:

وقوله: ﴿إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ﴾، أي: فُرِضَ فَرْضًا لازِمًا، وبَناؤه لِلْمَفْعُولِ صِيانَة لِاسْم الفاعِل عَنْ مُخالَفَة يُتَوَقَّعُ تَقْصِيرُهم بِها[2].

بناء الفعل للمفعول صِيانَةٌ لِاسْم الفاعِل عَنْ مُخالَفَة يُتَوَقَّعُ تَقْصِيرُهم بِها

سرّ بناء الفعل ﴿أُخْرِجْنَا﴾ للمفعول:

بُنِي الفعل للمفعول؛ صيانةً لاسم الفاعل عن تقصيرهم.

وفي بناء الفعل للمجهول ﴿أُخْرِجْنَا﴾، إشارة إلى القوّة الشّديدة الّتي أَخْرَجتهم، كما كشف عن الحالة النَّفسية لهم، فهم لا يُريدون مجرد ذِكْر اسم مَن أخرجهم، وهم العمالقة رهبة منهم، وللدّلالة على كمال شِدَّة السَّخَط عليهم، والغيظ منهم.

بناء الفعل للمفعول صِيانَة لِاسْمِ الفاعِلِ عَنْ تَقْصِيرِهم

(1) القاسميّ، محاسن التّأويل: 2/178.
(2) البِقاعي، نَظْم الدُّرَر: 3/410.

وجه التعريض في قوله: ﴿وَقَدۡ أُخۡرِجۡنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبۡنَآئِنَاۖ﴾:

في التعريض دلالة على أنّهم يريدون القتال مِن أَجْل أنفسهم، وحِرْصهم على الدُّنيا

وقولهم: ﴿وَقَدۡ أُخۡرِجۡنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبۡنَآئِنَاۖ﴾، تكذيب لِما ادَّعوه بأنّهم يريدون المَلِكَ ليقاتلوا في سبيل الله؛ لأنَّ قولهم: ﴿وَقَدۡ أُخۡرِجۡنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبۡنَآئِنَاۖ﴾، دلالة واضحة على أنّهم يريدون القتال مِن أَجْل أنفسهم، ومِن أَجْل حِرْصهم على الدُّنيا، ولو كانوا صادقين في أنّهم يريدون الجهاد في سبيل الله؛ لم يقولوا هذا القول الفاضح لِنِيَّاتهم الكاشف عن طواياهم، فهو تَعْريض بِهم، وإن لم يريدوا التَّعْريض بأنفُسِهم[1].

سِرُّ التَّعبير بالدِّيار دون غيره من الألفاظ:

إيثار البيان القرآنيّ التّعبير بالدّيار، دليل على دقّة القرآن وبلاغته

لا تكاد المعاجم اللُّغويَّة تُفَرِّق بين المترادفات الثّلاثة: (البيت، المنزل، المسكن)[2]، لكن بعد التَّأمل اتَّضح سِرُّ إيثار البيان القرآنيّ التّعبير بالدّيار، في قوله: ﴿وَقَدۡ أُخۡرِجۡنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبۡنَآئِنَاۖ﴾، دون بقيَّة مرادفاتها: البيوت أو المساكن أو المنازل، فالدَّار: يُشار بها إلى الأرض والبِناء معًا، بخلاف البيت والمسكن الّذي يشار فيه إلى الفضاء الّذي يشغله السّاكن، والدَّار: قد يكون فيها بيت أو أكثر من بيت، وقد لا يكون فيها بَيْت إطلاقًا، مثل: دار القَضاء، أو دار الحِكْمة، كما تسمّى البلدة دارًا[3]، أمَّا المَنْزِل: فهو المكان الّذي يُنْزَل فيه بَعْد مَسير أو رَحيل، ليلًا أو نهارًا، ويَتَّضِح مِمَّا سَبق: أنّ الدّار أشمل في التّعبير عن الأرض والبناء.

ولعلّ إيثار التّعبير بها أيضًا، يدلّ على أنّ بني إسرائيل، أخرجوا مِن كامل حدود مساكنهم القريبة والبعيدة، بدليل قولهم في رَدِّهم على تَوَقُّع نَبِيِّهم وتخاذلهم: ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدۡ أُخۡرِجۡنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبۡنَآئِنَاۖ﴾، فَهُمْ أُبْعِدوا إبعادًا

(1) المَطْعَني، التَّفسير البلاغيّ للاستفهام في القرآن الحكيم: 1/136.
(2) ابن منظور، لسان العرب، والجَوْهري، الصّحاح: (سَكَنَ)، (نَزَلَ)، (بَيَت)، (دَوَرَ).
(3) الرَّاغب، المُفردات: (دور).

تامًّا عن حدود الأرض الّتي كانوا يعيشون فيها، ولو قالوا: (وقد أُخْرِجنا مِن مساكننا أو بيوتنا أو منازلنا)؛ لتُوهِّم أنّهم قد أُبْعدوا فقط عَن مبانيهم الّتي يعيشون فيها، وهذا لا يؤيّده قولهم: ﴿وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا﴾، حيث إنَّه يُشير إلى هزيمتهم هزيمة مُنْكَرة فقدوا فيها الأرض والعِرض، وجملة ﴿وَقَدْ أُخْرِجْنَا﴾: جملة حالية؛ إذ الإخراج أكبر من القتل، وأصعب منه لدوام تعبها وتألّم النّفس، فلا جرم أن يوجب القتال، وفسّر البيضاويّ الدّيار، بمعنى: الأوطان، ودلالة الوطن عليها أوضح، وقد شنّع بعضهم على البيضاويّ ذكره الأوطان بدل الدّيار، والأولاد بدل الأبناء، وعدَّه من سوء الأدب مع اللّه، ومن أحسن من اللّه قيلاً، وليس لكلامه المعجز بديلاً، وهو ما عدَّه القونويّ في حاشيته على البيضاويّ من الصّلف والتّجنّي؛ لأنّ المفسّرين جميعًا فسّروا اللّفظ بلفظ آخر؛ لتبيين المعنى، وتوضيح المبنى، وهذا المتحامل نفسه فعل ذلك في مواضع كثيرة[1].

نكتة إفْراد الأبْناء بِالذِّكْرِ

إفْرادُ الأبْناء بِالذِّكْرِ؛ لتأكيد أسْبابِ حِرْصهم على القتال، حيث حُرِموا مِن فَلِذات أكْبادهم، ومُهَج قلوبهم، وهل يوجد أعزُّ من الأبناء عند الآباء والأمّهات؟ فإذا أصيب أحدهم بِشَوْكة؛ لا يغمض لهما جِفْن، فكيف إذا سُبوا واستُرِقُّوا؟

وجه الإفراد تأكيد أسْبابِ حِرْصهم على القتال.

وقد أشار القونويّ إلى أنّ الأبناء يشمل الذّكور والإناث؛ لأنّهم الأشرف، وفراقهم من أقوى أسباب القتال، والمراد مطلق الأولاد، فجاز بطريق ذكر الخاصّ وإرادة العامّ، وهو من البلاغة والبراعة[2].

والمراد مطلق الأولاد، فجاز بطريق ذكر الخاصّ وإرادة العامّ

(1) القونويّ، حاشية القونويّ على تفسير البيضاويّ: 5/344.
(2) القونويّ، حاشيّة القونويّ على تفسير البيضاويّ: 5/344.

وجه استقامة عَطْف الأبْناءِ عَلى الدِّيارِ في قوله: ﴿وَقَدۡ أُخۡرِجۡنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبۡنَآئِنَا﴾:

وجه العطف أنَّ الإخراجَ يُطْلَقُ على إبْعادِ الشَّيْءِ مِن حَيِّزِهِ، وعَلى إبْعادِهِ مِن بَيْنِ ما يُصاحِبُهُ

جاز التّعبير بَعطْفِ الأبْناءِ عَلى الدِّيارِ، في قوله: ﴿وَقَدۡ أُخۡرِجۡنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبۡنَآئِنَا﴾؛ لأنَّ الإخْراجَ يُطْلَقُ عَلى إبْعادِ الشَّيْءِ مِن حَيِّزِهِ، وعَلى إبْعادِهِ مِن بَيْنِ ما يُصاحِبُهُ، ولا حاجَةَ إلى دَعْوى جَعْلِ الواوِ عاطِفَةً عامِلًا مَحْذُوفًا، تَقْدِيرُهُ: وأبْعَدَنا عَنْ أبْنائِنا[1]، وفي السّياق نفسه، "فإنّه يعني: وقد أخرج من غلب عليه من رجالنا ونسائنا، من ديارهم وأولادهم، ومن سبي.

وهذا الكلام: ظاهره العموم، وباطنه الخصوص؛ لأنّ الّذين قالوا لنبيّهم: ﴿ٱبۡعَثۡ لَنَا مَلِكٗا نُّقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ﴾، كانوا في ديارهم وأوطانهم، وإنّما كان أخرج من داره وولده من أسر، وقهر منهم"[2].

بلاغة الفَصْل في جملة: ﴿قَالُواْ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾:

الفَصْل بين الجملتين لشِبْه كمال الاتِّصال

وفُصِلَت جملة: ﴿قَالُواْ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، عَمَّا قبلها للاستئناف البيانيّ، أي: شِبْه كمال الاتّصال، حيث وقعت الجملة جوابًا عن سؤال أثارته الجملة الأولى، تقديره: بِمَ أجاب الملأ نَبِيَّهم؟ أو ماذا قالوا ردًّا عليه؟[3].

دلالة أسلوب الشَّرْط:

يَكْشِف أسلوب الشرط عن سُرْعة انسلاخ القوم مِن وَعْدهم لِنَبِيِّهم بالقتال وهو مَوْطِن توبيخ وإنكار عليهم

دلَّ التَّعبير بأسلوب الشَّرْط في قوله: ﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقِتَالُ تَوَلَّوۡاْ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنۡهُمۡۚ﴾، على سُرْعة إخلاف القوم من بني إسرائيل الوَعْد لنبيِّهم بالقتال في سبيل الله بِمُجَرَّد فَرْضِه عليهم مع قُرْب عَهْدهم به، وهذا فيه من الغارة عليهم، والتَّوبيخ لَهُم ما فيه، ولقد

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/486.

(2) ابن جرير، جامع البيان: 5/305.

(3) شِبْه كمال الاتِّصال: مِن مسائل الفصل والوصل، وهو أن تكون الجملة الثّانية جوابًا عن سؤال اقتضته الأولى، فتُنَزَّل منزلته، فتُفصل الثّانية عنها، كما يُفْصل السّؤال عن الجواب، وتنزيل السّؤال بالفحوى منزلة الواقع، لا يُصار إليه إلّا لِنكات لطيفة، أشار إليها السَّكّاكي في مِفْتاح العلوم، ص: 121، وينظر: د، أحمد مطلوب، معجم المصطلحات البلاغيّة: 515-514.

ذَكَر اللّه حالهم بعدما فرض عليهم القتال؛ لِيُبَيِّن التناقض بين أقوالهم وأفعالهم، وهذا مَوْطِن التوبيخ والإنكار عليهم[1].

براعة إيثار التّعبير بـ ﴿تَوَلَّوْاْ﴾ دون غيره من متشابه اللفظ:

أوثر التّعبير بلفظ ﴿تَوَلَّوْاْ﴾ على لفظ (قعدوا)؛ لأنّه من الألفاظ الحَرَكِيَّة الكاشفة عن المعنى في صورة حِسِّية مُشاهدة تكاد ترينا القوم، وهُمْ يَنْكصون على أعقابهم، مُنْدَحِرين فارِّين مِن عَدُوِّهم، مُنْهزمين، ولو قيل: (قَعَدوا)؛ لرُبَّما تُوُهِّم أنَّهم سَيَثْبتون؛ إذا انقضَّ عليهم أعداؤهم، لكنَّ التعبير بـ ﴿تَوَلَّوْاْ﴾، أرانا القوم، وهم يَنْحدرون، في خبط عشواء، لا يَلْوون على شيء، وهم يَهيمون في الأرض، فِرارًا مِن عدوِّهم، فصَوّر جُبْنهم وتخادلهم، في صورة مرئيَّة محسوسة، وهَذا شَأْنُ الْمُتْرَفِ الْمُنَعَّم، مَتى كانَ مُتَلَبِّسًا بِالنِّعْمَةِ، قَوِيَ عَزْمُهُ، وأنِفَ، فَإذا ابْتُلِيَ بِشَيْءٍ مِنَ الخُطُوبِ؛ ذُلَّ، وهَؤُلاءِ القَلِيلُ ثَبَتُوا عَلى نِيّاتِهِمُ السّابِقَةِ، واسْتَمَرَّتْ عَزائِمُهم عَلى قِتالِ أعْدائِهِم[2].

التعبير بـ (تولّوا) صَوَّر جُبْن القوم، وتخادلهم في صورة محسوسة مشاهدة

دلالة التّذييل في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾:

وذُيِّلت الآيةُ الكريمةُ بقوله: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾، وهو وعيد لهم على ظُلْمهم بالقعود عَنِ القِتالِ وتَرْكِ الجِهادِ وتَنافي أقْوالِهِمْ وأفْعالِهِمْ[3]، قال أبو حيّان: "﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾ فِيهِ وَعِيدٌ وَتَهْدِيدٌ لِمَنْ تَقَاعَدَ عَنِ الْقِتَالِ بَعْدَ أَنْ فُرِضَ عَلَيْهِ بِسُؤَالِهِ وَرَغْبَتِهِ، وَأَنَّ الْإِعْرَاضَ - عَمَّا أَوْجَبَ اللَّهُ عَلَى الْعَبْدِ - ظُلْمٌ؛ إِذِ الظُّلْمُ وَضْعُ الشَّيْءِ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ"[4].

في التذييل وعيدٌ وتهديد للمتخاذلين عن القتال في هذه الآية

(1) النّيسابوريّ، غرائب القرآن: 1/665.
(2) أبو حَيَّان، البحر المحيط: 2/265، والمطعني: التفسير البلاغي للاستفهام: 1/136.
(3) الزَّمْخشري، الكشَّاف: 1/148، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 1/240.
(4) أبو حَيَّان، البحر المحيط: 2/573.

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

البعث والإرسال:

عبّر بلفظ (ابعث) في قوله: ﴿إِذْ قَالُواْ لِنَبِيّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ﴾؛ لأنّ مادّة البعث تدور حول التّهييج والإثارة، يقال: بَعَثْتُ النَّاقَةَ؛ إِذَا أَثَرْتُهَا، وقوله ﷻ: ﴿وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ﴾ [الأنعام: 36]، أي: يخرجهم، ويسيرهم إلى القيامة، وَقَالَ ابْنُ أَحْمَرَ:

فَبَعَثْتُهَا تَقِصُ المَقَاصِر بَعْدَمَا *** كَرَبَتْ حَيَاةُ النَّارِ لِلْمُتَنَوِّرِ[1]

بخلاف مادّة الإرسال الّتي تدور حول الرِّفق واللِّين، واليُسْر والسُّهولة، يقال: ناقة رِسْلَةٌ: سهلة السّير، وإبل مَرَاسِيلُ: مُنْبَعِثة انبعاثًا سَهْلًا، ومنه: الرَّسُولُ المنبعث، وتصوّر منه الرّفق، فقيل: على رِسْلِكَ؛ إذا أمرته بالرّفق[2]، فالتَّعبير بالبَعْث يتلاءم مع حال القوم الّذين خارت قواهم، وتَفَرَّق شَمْلُهم، بعد أن استباح عدوّهم أرضهم، واستَرَقَّ أبناءهم، وسَبى نساءهم؛ لذا كانوا في حاجة إلى مَلِك قَوِيِّ الشَّكيمة، ينضمّون تحت لِوائه؛ ليوقظ فيهم روح العِزَّة التَّي مُحِيَت، والكرامة الّتي هُدِرت، ويَنْفُض عنهم غُبار الذُّل والهَوان، وهذا بلا شَكٍّ يحتاج إلى جهْد جَهيد؛ لذا أوثر التّعبير بالمادَّة الّتي تدلّ على الإثارة والتّهييج.

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (بَعَثَ).
(2) الرَّاغِب، المفردات: (رسل).

﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًاۚ قَالُوٓاْ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِي ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِۖ وَٱللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ٢٤٧﴾ [البقرة: 247]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

المناسبة بين طلب بني إسرائيل من يقودهم، وتنكّرهم لطالوت الّذي اختير لهم:

لَمّا بَيَّنَ في الآيَةِ الأُولى أنَّهُ أجابَهم إلى ما سَألُوا، ثُمَّ إنَّهم تَوَلَّوْا؛ فَبَيَّنَ أنَّ أوَّلَ ما تَوَلَّوْا إنْكارُهم إمْرَةَ طالُوتَ؛ لِأنَّهم طَلَبُوا مِن نَبِيِّهِمْ أنْ يَطْلُبَ مِنَ اللَّهِ أنْ يُعَيِّنَ لَهم مَلِكًا، فَأجابَهم بِأنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَهم طالُوتَ مَلِكًا[1]، "فكان هذا تعيينًا من الله، الواجب عليهم فيه القبول والانقياد، وترك الاعتراض، ولكن أبوا إلّا أن يعترضوا، فقالوا: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِۚ﴾، أي: كيف يكون ملكًا، وهو دوننا في الشّرف والنّسب ونحن أحقّ بالملك منه"[2].

رفض اليهود لطالوت خاضعٌ للهوى، لا يحكمه دين ولا عرف ولا منطق

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿طَالُوتَ﴾: "فيه قولان، أظهرهما: أنّه اسم أعجميٌّ، فلذلك لم ينصرف، وقيل: إنّه عربيّ من الطّول، ولكنّه ليس من أبنية العرب، فمنع صرفه للعلميّة وشبه العجمة، على القول به، وأمّا ادّعاء العدل عن طويل، والقول بأنّه عبرانيّ وافق العربيّ؛ فتكلُّفٌ"[3].

(1) الرّازي، مفاتيح الغيب: 6/172
(2) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن: 1/107.
(3) الخفاجي، عناية القاضي: 2/327.

وهو من سبط بنيامين، اختاره النبيّ صموئيل بأمر من الله بعد أن طلب إليه بنو إسرائيل ملكاً يقودهم في الحرب. وانتقدت بنو إسرائيل اختيار صموئيل لطالوت لأنه لم يكن ثريًّا. وقاد طالوت بني إسرائيل إلى الانتصار على جيش جالوت الذي قتل على يد داود، ولم يكن طالوت نبيًّا، وقد حكم من قرابة عام 1020 إلى 1000 ق، م[1].

الاصطفاء التّفضيل والاختيار للصّفوة الأخيار

2) ﴿ٱصۡطَفَىٰهُ﴾: صَفَوَ: المادَّة تدلُّ عَلَى النَّقاء والخُلُوص مِنْ كُلِّ شَوْبٍ، مِنْ ذَلِكَ الصَّفَاءُ، وَهُوَ ضِدُّ الْكَدَرِ، يُقَالُ: صَفَا يَصْفُو صفاء؛ إِذَا خَلَصَ مِن الكَدرِ، واصْطِفَاءُ اللهِ بعضَ عباده قد يكون بإيجاده تعالى إيّاه صَافِيًا عن الشّوب الموجود في غيره، وقد يكون باختياره وبِحُكْمه[2].

والمعنى المراد هنا: ﴿ٱصۡطَفَىٰهُ عَلَيۡكُمۡ﴾، أي: اختاره، وفضّله عليكم، "قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰهُ عَلَيۡكُمۡ﴾ أنّ فيه الخصال الّتي هي قانون في استحقاق الملك، وبيانه أنّ الملك يستحقّ في أن يكون الإنسان من عنصر صالح، سواء كان من بيت الملك أم لم يكن، وأن يكون ذا علم بسياسة نفسه وأهله من رعيته، وأن يكون في جسمه كامل الخلقة، شديد القوّة، ذا سلامة من العاهات الشّائنة، وذكر أنّه قد آتاه كلّ ذلك"[3].

حقيقة المُلك هو التّصرّف بالأمر والنّهي، ممّا يختصّ بسياسة النّاس

3) ﴿بِٱلۡمُلۡكِ﴾: مَلَكَ الشَّيْء يَمْلِكه مَلْكًا: حازه، وانفرد بالتَّصَرُّف فيه، فهو مالِك، والمُلْكُ: يُذَكَّرُ وَيُؤَنَّثُ كالسُّلْطان، ومُلْكُ اللَّهِ تَعَالَى ومَلَكُوته: سُلْطَانُهُ وَعَظَمَتُهُ، وحقيقة المُلْك هو التّصرّف بالأَمر والنَّهي في الجمهور، وذلك يختصّ بسياسة النَّاس، ولهذا يقال: ﴿مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢﴾ [الناس: 2]، ولا يقال: مَلِك الأَشياء، والمُلْك ضربان: مُلْكٌ: هو التّملُّك والتّولّي، ومُلْكٌ: هو القوّة على ذلك، تولَّى أَو لم

(1) الموسوعة العربية العالمية، 14/29.
(2) ابن فارس، مقايس اللُّغة، والرَّاغب، المفردات: (صَفَا).
(3) الرَّاغب، تفسير الرّاغب: 1/507.

يتولَّ، فمن الأوّل: قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُواْ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا﴾ [النمل: 34]، ومن الثّاني: قوله تعالى: ﴿إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا﴾ [المائدة: 20][1].

البسطة السّعة في العِلْم، والقوَّة في الجِسْم، وهي مِن مُؤهِّلات القِيادة

4) ﴿بَسۡطَةً﴾: بَسَط يَبْسط بَسْطًا، البَسْط: الاتِّساع في الشّيء، ومنه بَسْط الرِّزْق، والبُساط: المفترش من ذلك لاتّساعه، قال تعالى: ﴿جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ١٩﴾ [نوح: 19]، والبَسْط: النَّشْر يُقابل القَبْض، وبَسيط الأرض: مبسوطها، وقوله: ﴿۞وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ﴾ [الشورى: 27]، أي: وَسَّعه عليهم، ونَشَرَه فيهم، وبَسْط اليد وقبضها كناية عن الجود والبخل، ومنه: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة: 64]، وقوله: ﴿وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ﴾ [الإسراء: 29]، تعبير عن التَّبذير والإسراف المنهيّ عنهما[2]، والمراد بِبَسْطَة في الجسم: أي طُولًا زائدًا يعلو به مَن عَداه، والمراد بالبسطة في العلم القدرة على تدبير المُلْك، فعنده الحنكة، والرّأي ما جعله مختارًا عليهم من قبل الله ﷻ، أيضًا زاده بسطة في الجسم، وهي القوّة، والضّخامة، والشّجاعة، فاجتمعت في حقّه القوّتان: المعنويّة: وهي العلم، والحسيّة: وهي أنّ الله زاده بسطة في الجسم[3].

علم الله لا يعزب عنه شيء في الأرض ولا في السّماء

5) ﴿وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾: اللّفظان يفهمان في سياق واحد، ولهذا يشرحان مع بعضهما، أوّلهما: ﴿وَٰسِعٌ﴾، وهو مِن أسماء الله تعالى الحُسْنى، وهُوَ الَّذِي وَسِعَ رِزْقُه جميعَ خَلْقِه، ووَسِعتْ رحمتُه كُلَّ شَيْءٍ، وغِناه كُلَّ فَقْرٍ، وَقَالَ ابْن الأَنباريّ: الوَاسِع: مِنْ أَسماءِ اللَّهِ، الكثيرُ العطاءِ الَّذِي يَسَعُ لِمَا يُسْأَلُ[4].

(1) الفيروزآباديّ، بَصائر ذَوي التَّمييز، وابن منظور، لسان العرب، مادَّة: (مَلَكَ).
(2) السَّمين، عُمْدة الحُفَّاظ: (بَسَطَ).
(3) ابن عثيمين، تفسير الفاتحة والبقرة: 3/213.
(4) ابن منظور، لسان العرب: (وَسِعَ).

وثانيهما: ﴿عَلِيمٌ﴾: يقال: عَلِم فلان الشَّيْء عِلْمًا: عَرَفَه، عَلَمَ: الْعَيْنُ وَاللَّامُ وَالْمِيمُ أَصْلٌ صَحِيحٌ وَاحِدٌ، يَدُلُّ عَلَى أَثَرٍ بِالشَّيْءِ يَتَمَيَّزُ بِهِ مِنْ غَيْرِهِ، والعليم: الكثير العِلْم، والعليم من أسماء اللّٰه تعالى الحُسْنى، ومعناه: أنّ اللّٰه عليمٌ بما كان، وما هو كائن، وما سيكون، وما لم يكن لو كان كيف يكون، وأحاط عِلْمه سبحانه وتعالى بجميع الأشياء، ظاهرها وباطنها، دقيقها وجليلها[1].

وقوله: ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ﴾ "أي: واسع الفضل والعطاء، يوسّع على من ليس له سعة من المال، ويغنيه بعد الفقر ﴿عَلِيمٌ﴾ بمن يصطفيه للملك"[2].

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

اعتراض الملأ مِن بني إسرائيل على اختيار طالوت مَلِكًا

يحكي اللّٰه تعالى اعتراضَ سادة بني إسرائيل على تعيين طالوت ملكًا عليهم، وذلك عندما أقام لكم نبيُّكم طالوتَ ملكًا عليكم؛ لتقاتلوا تحت رايته، فقال أشرافهم مُستنكرين هذا الاختيار، ومعترضين عليه: كيف يكون له الملكُ علينا، ونحنُ أولى بالملك منه؛ إذ لم يكن مِن أُسْرَة عريقة، وليس من سِبْط الملوك، ولا مِن بيت النُّبُوَّة، ولم يُعْط كثرة في الأموال، يستعين بها على المُلْك؟ فنحن أَحَقُّ بالمُلْكِ منه؛ لأنَّنا من سِبْط المِلوك، ومِن بيْت النُّبُوّة.

تصحيح مفهوم اختيار القائد

فأجابهم نَبِيّهم: إنَّ اللّٰه اختاره عليكم، وزاده عليكم سِعَة في العِلم، وقوَّة في الجسم؛ لِيُجاهد العدُوّ، واللّٰه يؤتي مُلْكه مَن يشاء بِحِكْمته ورحمته، واللّٰه واسع الفَضْل والعطاء يُعْطيه مَن يشاء، عليم بِمَن يَسْتحقّه مِن خَلْقِه، وعليم بدقائق الأمور وحقائقها[3].

وترشد الآية الكريمة إلى أنَّ أهم صفات القائد التي تؤهِّله

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (عَلِمَ).
(2) النّسفيّ، مدارك التّنزيل: 1/205.
(3) نخبة من العلماء، التفسير الميسر، ص: 40.

لقيادة الناس، هي العلم بمتطلبات الرئاسة وما يكون قائدًا فيه، وامتلاك القوة التي تعينه عليها.

الإيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

بلاغة الوصل في الآية:

وجه الوَصْل بَيْن الجُمْلتين للتَّوَسُّط بَيْن حالتي كمال الانقطاع وكمال الاتِّصال

وعُطِفت جملة: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ﴾ على جملة: ﴿قَالَ هَلْ عَسَيْتُم﴾؛ لاتِّفاق الجملتين في الخبريَّة لفظًا ومعنًى، وهذا الوَصْل للتَّوَسُّط بَيْن الكَمالين، أي: التَّوسُّط بين حالتي كمال الانقطاع وكمال الاتِّصال، وهو مِن مواضع الوصل بَيْن الجُمَل[1].

بديع توكيد الخبر بحشد المؤكّدات:

توكيد الخبر مراعاة لحال القوم في اللِّجاج والتَّمَرُّد

وجاء الخبر مُؤَكَّدًا بِثَلاث مُؤَكِّدات: (إنَّ، واسميَّة الجملة، وقد) في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا﴾؛ مُراعاة لِحال المُخاطَب في التّمرد، واللِّجاج والاعتراض على ما يُبَلَّغ إليهم، فقد تَوَقَّع نَبِيُّهم الإنكار منهم، فأكَّد لهم الخبر بعِدَّة مُؤَكِّدات[2].

علّة إسناد البَعْث إلى اللّه تعالى:

تقويةً لدافع الامتثال لحكم الله واختياره

بعد أن أَكَّد المَلأ مِن بني إسرائيل لِنَبِيِّهم شِدَّة حِرْصهم على مُواجهة عَدُوِّهم، وعَدَّدوا أسباب ذلك؛ أبلغهم استجابة اللّه تعالى لِطَلبهم، وأنَّه قد جَعل عَليهم طالوت مَلِكًا، فقال كما حكاه القرآن الكريم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا﴾، فأسند البعث إلى اللّه تعالى؛ ليمتثلوا إلى حُكْم اللّه تعالى وأَمْره، لكنَّهم كَدَأْبهم، وعادتهم في العِناد والتَّمَرُّد واللِّجاج، طَعنوا في قرار اللّه تعالى، ورفضوا أَمْره واختياره، وبَنَوا رَفْضهم على أَمْرَيْن، كونهم أحقّ منه نسبًا، وكونه فقيرًا لا مال له يدعمه.

(1) الصِّعيدي، بُغْيَة الإيضاح: 2/299.
(2) المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 1/138.

سِرُّ إيثار لفظ (بَعَثَ) على لفظ (أرسل):

لفظة (بَعَثَ) تتضمَّن معنى الإثارة والفَحْص، ثُمَّ الإخراج

وأوثر التَّعبير بالفعل (بَعَثَ) على الفِعْل (أَرْسَل)؛ "لأنَّ (بَعَثَ) تتضمَّن معنى الإثارة والفَحْص، ثُمَّ الإخراج"[1]. وهو أنسب لسياق إنكارهم واعتراضهم.

نكتة اعتراض الأشراف بالاستفهام:

الغرض من الاستفهام الاستبعاد والتَّعَجُّب والتمرُّد على اختيار اللَّه تعالى وحُكْمه

لَمْ يُذْعِن الأشراف مِن بني إسرائيل لاختيار اللّه تعالى لهم، بِتَنْصيب طالوت مَلِكًا عليهم، بل أَخَذوا في اللِّجاج والتَّمرُّد، مُستخدِمين الاستفهام: ﴿قَالُوٓاْ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا﴾، أي: مِن أين يكون له المُلْك؟ وكيف يستحقُّه؟ والغرض الاستبعاد والتَّعَجُّب؛ لأن القوم ذكروا للإنكار سببين، وهما: أحقيَّتهم بالملك: ﴿وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ﴾، حيث إنَّه لم يَكُن مِن سُلالة الملوك، وفقره: ﴿وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ﴾، إذ لم تكن له ثروة تُؤهلِّه؛ ليكون مَلِكًا بحسب نَظْرتهم الضَّيِّقة[2].

علّة العدول إلى الفَصْل في جملة الاستفهام:

وجه الفصل لِشِبْه كمال الاتِّصال

فُصِلت جُملة ﴿قَالُوٓاْ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا﴾، لِشِبْه كمال الاتِّصال؛ لكون الجملة الثّانية جوابًا عن مقدّر اقتضته الجملة الأولى، تقديره: بِمَ أجابوا نَبِيَّهم لَمّا أَخْبرهم؟ فهي استئنافٌ بيانيٌّ صادر عن السؤال المقدّر[3].

وجه عطف الجملة الفعليّة على الجملة الأسميّة:

وجه العطف تأكيد إثبات عدم أحقية طالوت بالحكم

وقد اجتمع في قوله: ﴿وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ﴾ واوان: الأولى حاليَّة، والثَّانية جامعة للجُمْلتين في الحُكْم، وجملة ﴿وَنَحْنُ أَحَقُّ﴾: جُمْلَة حالِيَّةٌ اسْمِيَّة عُطِفَ عَلَيْها جُمْلَة فِعْلِيَّة،

(1) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 2/889.
(2) المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 1/138.
(3) المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 1/138.

هي: ﴿وَلَمۡ يُؤۡتَ سَعَةٗ مِّنَ ٱلۡمَالِۚ﴾، والمَعْطُوفُ عَلى الحالِ حالٌ، والمعْنى: أنَّ مَنِ اجْتَمَعَ فِيهِ هَذانِ الوَصْفانِ: وُجُودُ مَن هو أحَقُّ مِنه، وفَقْرُه؛ لا يَصْلُحُ لِلْمُلْك، أو أنّ التَّقْدير: كيف يتملّك علينا، والحال أنَّه لا يستحقّ التَّملك لِوُجود مَن هو أحقُّ مِنْه، ولعدم وجود ما يتوقّف عليه المُلْك مِن المال[1].

توكيد الخَبَر؛ لأنَّ المُخاطَب شديد الإنكار في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰهُ عَلَيۡكُمۡ﴾:

وأُكِّد الخَبَر في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰهُ عَلَيۡكُمۡ وَزَادَهُۥ بَسۡطَةٗ فِي ٱلۡعِلۡمِ وَٱلۡجِسۡمِۖ﴾؛ لأنَّ المُخاطَب من بني إسرائيل شديد الإنكار، بدليل التَّصريح بإنكارهم اختيار اللّه تعالى طالوت لَهُم مَلِكًا؛ لذا أُرْدِف الخبر بِما يُقَوِّي إثباته مِن الزِّيادة والبسطة في العِلْم والجِسْم[2].

من اختاره الله تعالى لقيادة النّاس وهدايتهم؛ جعله أنموذجًا في الخَلْق والخُلُق

سِرُّ تقديم العِلْم على الجِسْم:

وقُدِّم العِلْم على الجِسْم في قوله: ﴿وَزَادَهُۥ بَسۡطَةٗ فِي ٱلۡعِلۡمِ وَٱلۡجِسۡمِۖ﴾؛ للدِّلالة على فَضْل العِلْم، ولأنَّ من شروط القائد أن يكون عالمًا بِما هو مسؤول عنه، وإلاَّ فَشِلَ مِن بداية الطَّريق؛ ولأنَّ القوَّة وإن كان لا يمكن الاستغناء عنها، إلَّا أنَّها لا بُدَّ أن تكون مُسَلَّحة بالعِلم، وإلَّا دمَّرت نفسها، قال الفخر الرازي: "أنه تعالى قدم البسطة في العلم، على البسطة في الجسم، وهذا منه تعالى تنبيه على أن الفضائل النفسانية أعلى وأشرف وأكمل من الفضائل الجسمانية."[3].

تقديم العلم في مَوْضِع تبدو فيه القُوَّة واجبة، للدِّلالة على فَضْله، وأهميته للقائد

علّة الإجابة بذكر العلم والجسم، دون التّعرّض للمال:

لَمْ يُجِبْهم نَبِيّهم عَنْ قَوْلِهِم: ﴿وَلَمۡ يُؤۡتَ سَعَةٗ مِّنَ ٱلۡمَالِۚ﴾؛ "اكْتِفاءً

(1) أبو حَيَّان، البحر المُحيط: 2/266، و الجَمَل، الفُتوحات الإلهيّة: 1/201.

(2) المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 1/138.

(3) الرازي، مفاتيح الغيب: 6/505، والآلوسي، روح المعاني: 1/588، ود، محمد عفيف الإندونيسي، الشامل في بلاغة القرآن: 1/124.

بِدَلالَةِ اقْتِصارِهِ عَلى قَوْلِهِ: ﴿وَزَادَهُۥ بَسۡطَةٗ فِي ٱلۡعِلۡمِ وَٱلۡجِسۡمِۖ﴾ فَإِنَّهُ بِبَسْطَةِ العِلْمِ وبِالنَّصْرِ، يَتَوافَرُ لَهُ المالُ؛ لِأَنَّ المالَ تَجْلِبُهُ الرَّعِيَّةُ، ولِأَنَّ المَلِكَ، ولَوْ كانَ ذا ثَرْوَةٍ؛ فَثَرْوَتُهُ لا تَكْفِي لِإقامَةِ أُمُورِ المَمْلَكَةِ، ولِهَذا لَمْ يَكُنْ مِن شَرْطِ وُلاةِ الأُمُورِ - مِنَ الخَلِيفَةِ فَما دُونَهُ - أنْ يَكُونوا ذا سَعَةٍ، وقَدْ ولِيَ عَلى الأُمَّةِ أَبُو بَكْرٍ وعُمَرُ وعَلِيٌّ، ولَمْ يَكُونُوا ذَوِي يَسارٍ، وغِنى الأُمَّةِ في بَيْتِ مالِها، ومِنهُ تَقُومُ مَصالِحُها، وأرْزاقُ وُلاةِ أُمُورِها"[1].

عدل عن الإجابة عن سعة المال اكتفاءً بذكره بسطة العلم والجسم فإنهما إن طُبِّقا توافر المال

بلاغة العطف على الجُمْلة الحاليّة:

وعطف جملة التذييل ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ﴾، على الجملة الحاليّة: ﴿وَٱللَّهُ يُؤۡتِي مُلۡكَهُۥ مَن يَشَآءُۚ﴾، استطرادٌ للرَّدِّ على جَهْل بني إسرائيل بكمالات الله تعالى، وطَلاقة إرادته[2].

عطف جملة التذييل على الجملة الحاليّة استطرادٌ للرَّدِّ على جَهْل بني إسرائيل

بيان إظهار اسم الله الأعظم:

صُرِّحَ بذكر اسم الله الأعظم قبل الفاصلة مرتين في مقام الإنعام بالاصطفاء، وإيتاء الملك، وعدل عن إضماره إلى إظهاره في قوله: ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ﴾، حيث كان الظَّاهر أن يقال: إنَّه واسع عليم؛ لِتربية المَهابة في نفوس المخاطبين[3]؛ ليسارعوا إلى الإذعان لأوامر اللّه، لكونه واسع الفضل، عَليم بِما يُصْلح عباده[4].

الإظهار في مقام الإضمار؛ لِتَرْبِية المَهابة في نُفوس المُخاطبين

وجه تقرير الحُكْم بجملة التذييل:

جاء حكم جملة التذييل بالتعبير باسم الفاعل (واسع)، والصفة المشبّهة (عليم) في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ﴾ فالتعبير بـ ﴿وَٰسِعٌ﴾؛ للدلالة على ثبوت صفة السعة ودوامها فيه جلّ وعزّ،

الجمع بين الصفتين تأكيد للحكم، ووصفٌ له بالثبوت والدوام والعلِّيَّة

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/491.
(2) المطعني، التَّفسير البلاغيّ للاستفهام: 1/138.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/240.
(4) المطعني، التَّفسير البلاغيّ للاستفهام: 1/138.

وعبّر بـ ﴿عَلِيمٌ﴾ معلّقًا العلم بالوصف ليدلّ على العلية[1]، وجمع بين ﴿وَاسِعٌ﴾، وبين ﴿عَلِيمٌ﴾ على سبيل التأكيد[2] بـ "أنَّهُ واسِعُ الفَضْل يُوَسِّعُ عَلى الفَقِير، ويُغْنِيه، عَلِيمٌ بِمَن يَلِيقُ بِالمُلْكِ مِن النَّسِيبِ وغَيْرِه"[3]. قال الآلوسيُّ: "في اختيار واسِعٌ وعَلِيمٌ في الإخبار عنه تعالى هنا من حسن المناسبة لبسطة الجسم وكثرة العلم ما تهتش له الخواطر لا سيما على ما يتبادر من بسطة الجسم"[4].

سرّ تقديم وصف واسع على عليم:

سرّ تقديم السعة لمناسبته أول الإخبار عن الاصطفاء، ولمراعاة فواصل الآي

وقدم الوصف الأول ﴿وَاسِعٌ﴾ مع أن ما يناسبه ظاهرًا مؤخَّر؛ لأن له مناسبةَ معنى لأول الإخبار؛ إذ الاصطفاء من سعة الفضل أيضًا، ولأنَّ ﴿عَلِيمٌ﴾ أوفق بالفواصل[5].

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 1/480.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 1/531.
(3) البَيْضاويّ، أنوار التَّنْزيل: 1/253.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 1/559.
(5) الآلوسي، روح المعاني: 1/559.

المحتويات

الجزء الثاني	**7**
سورة البقرة	**9**
- [البقرة: 181]	10
- [البقرة: 182]	15
- [البقرة: 183]	25
- [البقرة: 184]	37
- [البقرة: 185]	55
- [البقرة: 186]	72
- [البقرة: 187]	84
- [البقرة: 188]	103
- [البقرة: 189]	114
- [البقرة: 190]	131
- [البقرة: 191]	137
- [البقرة: 192]	151
- [البقرة: 193]	155
- [البقرة: 194]	165
- [البقرة: 195]	177
- [البقرة: 196]	186
- [البقرة: 197]	208
- [البقرة: 198]	227
- [البقرة: 199]	239
- [البقرة: 200- 201]	243
- [البقرة: 202]	255
- [البقرة: 203]	261
- [البقرة: 204- 207]	276
- [البقرة: 208- 210]	299
- [البقرة: 211]	316
- [البقرة: 212]	327
- [البقرة: 213]	336
- [البقرة: 214]	349
- [البقرة: 215]	357
- [البقرة: 216]	364
- [البقرة: 217]	379
- [البقرة: 218]	400
- [البقرة: 219]	406
- [البقرة: 220]	417
- [البقرة: 221]	436
- [البقرة: 222]	458
- [البقرة: 223]	481
- [البقرة: 224]	499
- [البقرة: 225]	512
- [البقرة: 226]	523
- [البقرة: 227]	532
- [البقرة: 228]	540
- [البقرة: 229]	563
- [البقرة: 230]	583
- [البقرة: 231]	593
- [البقرة: 232]	612
- [البقرة: 233]	628
- [البقرة: 234]	651
- [البقرة: 235]	667
- [البقرة: 236]	682
- [البقرة: 237]	691
- [البقرة: 238]	701
- [البقرة: 239]	713
- [البقرة: 240]	721
- [البقرة: 241- 242]	736
- [البقرة: 243]	744
- [البَقَرة: 244]	757
- [البقرة: 245]	763
- [البقرة: 246]	772
- [البقرة: 247]	789

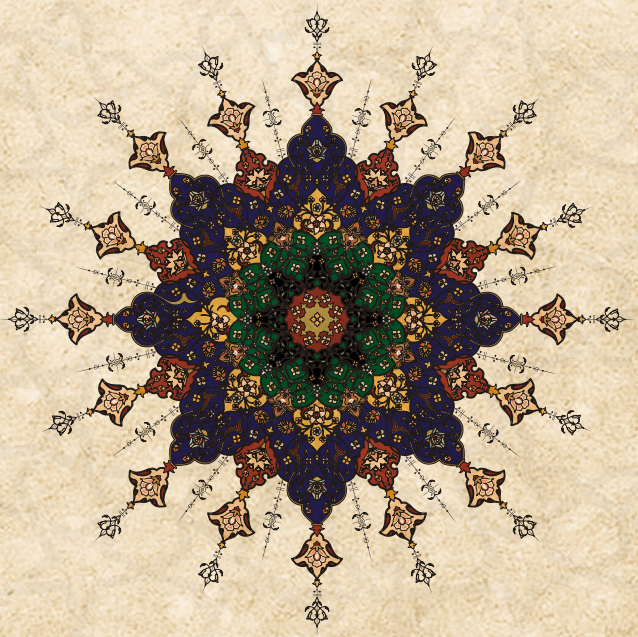

مجمع القرآن الكريم بالشارقة

موسوعة التفسير البلاغي

المُجلَّدُ الرَّابِعُ

سورة البقرة من الآية 248 إلى سورة آل عمران الآية 38

موسوعة التفسير البلاغي

Government of Sharjah حكومة الشارقة
مجمع القرآن الكريم بالشارقة
HOLY QURAN ACADEMY IN SHARJAH

موسوعة التفسير البلاغي

المجلد الرابع

سورة البقرة من الآية 248 إلى سورة آل عمران الآية 38

نخبة من علماء مجمع القرآن الكريم بالشارقة

منشورات القاسمي
AL QASIMI PUBLICATIONS
2023

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الرابع، سورة البقرة من الآية 248 إلى سورة آل عمران الآية 38
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1444هـ - 2023م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2023م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: سورة البقرة من الآية 248 إلى سورة آل عمران الآية 38 [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2023.
مج. 4 ، 808 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-798-55-2
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 4 : سورة البقرة من الآية 248 إلى سورة آل عمران الآية 38.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث ج- المستغانمي، امحمد صافي

الترقيم الدولي : 978-9948-798-55-2
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-5828584 بتاريخ 2023/03/10م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الجُزْءُ الثَّانِي

سُورَةُ البَقَرَةِ

﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾﴾ [البقرة: 248]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الرّبط بين طلبهم ملكًا صالحًا يحكمهم، وبين إخبارهم بتعيين الشّخص ومواصفاته:

نكران ما يبعثه الله، ويختاره سوء أدب مع الله ﷻ

ظاهِر الآيَةِ السَّابقة يَدُلُّ عَلى أنَّ أُولَئِكَ الأقْوامَ كانُوا مُقِرِّينَ بِنُبُوَّةِ النَّبِيِّ الَّذِي كانَ فِيهِمْ بدليل قَوْله تَعالى حِكايَةً عَنْهم: ﴿إِذْ قَالُواْ لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا﴾، فَهُمْ كانُوا مُعْتَرِفِينَ بِنُبُوَّةِ ذَلِكَ النَّبِيِّ، ومُقِرِّين بِأنَّهُ مَبْعُوثٌ مِن عِنْد اللَّه تَعالى، ثُمَّ إنَّ ذَلِكَ النَّبِيَّ لَمّا قالَ لَهُم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا﴾؛ كانَ هَذا دَلِيلًا دامِغًا، لا يقبل الشَّك في كَوْنِ طالُوتَ مَلِكًا، ثُمَّ إنَّهُ تَعالى لِكَمالِ رَحْمَتِهِ بِالخَلْقِ، ضَمَّ إلى ذَلِكَ الدَّلِيلِ دَلِيلًا آخَرَ، يَدُلّ عَلى كَوْنِ ذَلِكَ النَّبِيِّ صادِقًا في خبره، ويَدُلُّ أيْضًا عَلى أنَّ طالُوتَ اختاره اللَّه تَعالى لِلْمُلْك؛ لِذا قالَ تَعالى: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ﴾[1]، قال الطّبريّ؛ خلاصة لذلك: "وهذا الخبر من اللّه تعالى، ذكره عن نبيّه الّذي أخبر عنه به، دليل على أنّ الملأ من بني إسرائيل الّذين قيل لهم هذا القول، لم يقرُّوا ببعثة اللّه طالوت عليهم ملكًا؛ إذ أخبرهم نبيّهم بذلك، وعرّفهم فضيلته الّتي فضّله اللّه بها، ولكنّهم سألوه الدّلالة على صدق ما قال لهم من ذلك، وأخبرهم به، فتأويل الكلام؛ إذ كان الأمر على ما وصفنا: "واللّه يؤتي ملكه من يشاء، واللّه واسع عليم"، فقالوا

(1) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 6/175.

له: ما آية ذلك؛ إن كنت من الصّادقين؟" ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ﴾"[1].

شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

المعجزة المرسلة للبشر آيةٌ تؤكّد قدرة الله الّتي لا يعجزها شيء

1) ﴿ءَايَةَ﴾: من أيي، وفي اشتقاق الآية قولان: أحدهما: أنّها من أيِّ المستفهم، فإنها يُتبيَّن بها أيُّ من أيٍّ، والثّاني: أنها من قولهم: أوى إليه؛ لأن أوي فيه معنى الانضمام، وفي الآية ضمٌّ ما[2].

وقد وردت كلمة (الآية) في القرآن على عدة وجوه[3]: منها بمعنى: العلامة، نحو قوله تعالى: ﴿إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ﴾، وبمعنى: آيات القرآن، نحو قوله تعالى: ﴿ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ﴾ [آل عمران: 7]، وبمعنى: مُعجزات الرّسُل، نحو قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ [القصص: 36]، وبمعنى: عِبْرَة، نحو قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً﴾ [المؤمنون: 50].

ومعنى قوله تعالى: ﴿إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ﴾: علامته الظاهرة لكم.

2) ﴿ٱلتَّابُوتُ﴾: هو الصُّنْدُوقُ الَّذي فِيهِ التَّوْراةُ، ووزنه (فَعْلُوتٌ) مِنَ التَّوْبِ، وهو الرُّجُوعُ؛ لِأَنَّهُ ظَرْفٌ تُوضَعُ فِيهِ الأَشْياءُ، ويُودَعُ فِيهِ؛ فَلا يَزالُ يَرْجِعُ إِلَيْهِ ما يَخْرُجُ مِنهُ، وصاحِبُه يَرْجِع إِلَيْه فِيما يَحْتاجُ إِلَيْهِ مِن مُودَعاتِهِ[4]، "وهو التّابوت الّذي كانت بنو إسرائيل، إذا لقوا عدوًّا لهم؛ قدّموه أمامهم، وزحفوا معه، فلا يقوم لهم معه عدوّ، ولا يظهر عليهم أحد ناوأهم، حتّى ضيّعوا أمر اللّه، وكثر اختلافهم على أنبيائهم، فسلبهم اللّه إيّاه مرّة بعد مرّة، يردّه إليهم في كلّ ذلك، حتّى سلبهم آخرها مرّة، فلم يردّه عليهم، ولن يردّ إليهم آخر الأبد"[5].

(1) ابن جرير، جامع البيان: 5/315.
(2) السمين، عمدة الحفاظ: (أيي).
(3) الفيرزابادي، بصائر ذوي التّمييز: (الآيات).
(4) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 6/174.
(5) ابن جرير، جامع البيان: 5/315..

السَّكينةُ طُمأنينةٌ تُثَبِّتُ قلوب المؤمنين المخْلِصين

3) ﴿سَكِينَةٌ﴾: سَكَنَ: السِّينُ وَالْكَافُ وَالنُّونُ: أَصْلٌ وَاحِدٌ يَدُلُّ عَلَى خِلَافِ الاضْطِرَابِ وَالْحَرَكَةِ، أي: ثبوت الشّيء بعد تحرّك، يُقَالُ: سَكَنَ الشَّيْءُ يَسْكُنُ سُكُونًا، فَهُوَ سَاكِنٌ، وَالسَّكَنُ: الْأَهْلُ الَّذِينَ يَسْكُنُونَ الدَّار[1]، والسَّكينةُ فعيلةٌ: من السُّكون، وهي طُمأنينةٌ تُثَبِّتُ قلوبَ المخْلِصين[2].

البَقِيَّةُ فُتات الألواح وعَصا موسى، وما نقل من ذلك الزّمان القديم

4) ﴿وَبَقِيَّةٌ﴾: بَقِيَ الشيءُ يَبْقَى بَقَاءً: ضِدُّ فَنِيَ، والبَقِيَّةُ في الأَصْلِ: ما يَفْضَلُ مِن شَيْءٍ بَعْدَ انْقِضاءِ مُعْظَمِهِ، والبَقِيَّة: اسم من البقاء، والبقاء ثبات الشّيء على حالته الأولى[3]. والبَقاء المطْلَق لا يُقال إلّا للّه تعالى.

والمقصود هُنا: فُتات الألواح وعَصا موسى وأمور من التّوراة وغير ذلك[4].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

المصدّقون عن إيمان ويقين، لا تزيدهم المعجزة إلّا إيمانًا مع إيمانهم

ثم ذكر لهم نبيّهم أيضًا آية حسِّيةً - يشاهدونها - على صحة اختيار هذا الملك المعيِّن عليهم، وقال لهم نبيّهم: إنَّ علامة صِدق اختيار طالوت مَلِكًا عليكم أن يأتيكم الصَّندوق الّذي فيه التَّوراة - وهو صندوقٌ يعظِّمه بنو إسرائيل وكان أعداؤهم قد انتزعوه منهم - فيه طمأنينة مِن رَبِّكم، وسَكِينة تُصاحبه، تُثَبِّت قلوب المخلصين، وفيه بقيِّة مِن بعض أشياء تركها آل موسى وآل هارون، مثل العصا وبعض الألواح، تحمله الملائكة، إنّ في ذلك لأعظم بُرْهان، وأكبر دليل لَكُم على اختيار اللّه طالوت ملكًا عليكم، إن كنتم مُصَدِّقين باللّه ورُسُلِهِ[5].

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (سَكَنَ).
(2) الأنباريّ، الزّاهر: 1/427.
(3) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 1/509.
(4) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 1/334.
(5) نخبة من العلماء، التفسير الميسر، ص: 40.

الإيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

بديع تكرار الفاعل ﴿نَبِيُّهُمْ﴾:

إعادة ذكر الفاعل؛ لدفع كون القول جوابًا عمّا لا يُستفهم عنه

قال الآلوسيّ: "أعاد الفاعل ليغاير ما علم صراحة كونه جوابًا، وإنما لم يجرِ ذلك المجرى بأن يذكر مقولهم، ويكون هذا جوابًا له، ويكتفي بالإضمار، كما اكتفى به أولًا؛ للإيماء إلى أن ذلك السؤال للنبي بعد تصديقهم له، وبيانه لهم ما استفهموا عنه مما لا ينبغي أن يكون حتى يجاب؛ لأن له شبهًا تامًّا بالتعنت حينئذٍ، وإن عُدَّ من باب السؤال لتقوية العلم"[1].

إتيان التابوت بين الحقيقة والمجاز:

نزول التابوت من السماء حملٌ على الحقيقة، والإتيان به مجاز

قال ابن عبّاس رضي الله عنهما في قوله: ﴿إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ﴾: إنّ التّابوت نزل من السّماء إلى الأرض بنفسه، بعد أن رفعه الله تعالى سخطًا على بني اسرائيل، والملائكة كانوا يحفظونه، والقوم كانوا ينظرون إليه، حتّى نزل عند طالوت، وعلى هذا فالإتيان حقيقة في التّابوت، أو أنّهم رأوا التابوت عند طالوت، فعلموا أن ذلك دليل على كونه ملكًا لهم، فيكون الإتيان على هذا مجازًا؛ لأنه أُتي به ولم يأتِ هو فنُسب إليه توسّعًا، كما يقال: ربحت الدراهم، وخسرت التجارة[2].

سرّ التّعبير بالإتيان دون المجيء:

التعبير بالمجيء السهل الذي لا مشقّة فيه (الإتيان) مناسبٌ للقدرة الإلهيّة

وعُبِّر بالإتيان دون المجيء في قوله: ﴿يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ﴾؛ لأنّه مجيء سَهْل يَسير لا مَشقَّة فيه؛ لكون الإتيان بالتَّابوت آية مِن عِند اللَّه تعالى بِقُدْرته سبحانه؛ بُرهانًا لبني إسرائيل، ليتيقّنوا من صِدْق خَبَر نبيِّهم لهم، باختيار اللَّه تعالى طالوت مَلِكًا لَهُم، فعُبِّر به في مقام بيان سهولته لقدرة الفاعل عليه، أمَّا المجيء؛ فَهُو مُجِيء

(1) الآلوسي، روح المعاني: 1/559.

(2) الرازي، مفاتيح الغيب: 6/506، وزاده، حاشية على البيضاويّ: 2/605.

فيه مَشَقَّة وصعوبة، وهذا لا يتناسب مع مقام الآية، وما فيه مِن دِلالة على القدرة الإلهيّة.

المجيء حصولٌ، والإتيان قصْدٌ

المجيء أعمُّ من الإتيان، ويقال اعتبارًا بالحصول، أما الإتيان؛ فيقال باعتبار القصد[1]. والتعبير عن الفعل بصيغة المضارع الدّالِّ على المستقبل يناسب دلالة القصد فيه؛ إذ هو إخبار سيتحقق حصوله بعدَ حين.

نكتة تكرار جملة: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ﴾:

إعادة الفعل تجديد لا ترديد؛ للدّلالة على أنّ كلامه هذا، ليس من بقية كلامه الأوّل

كرّرت جملة: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ﴾ أوّلاً في مطلع قوله تعالى: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا﴾، ثمّ كررت هنا ثانية بقوله: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ﴾؛ للدّلالة على أنّ كلامه هذا، ليس من بقية كلامه الأوّل، بل هو حديث آخر جديد متأخّر عنه، وذلك أنّه بعد أن حذّرهم عواقب الحكومة الملكيّة، والتّولّي عن القتال؛ تكلّم معهم كلامًا آخر في وقت آخر[2]. قال أبو السّعود: "﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ﴾ توسيطُه فيما بين قوليه المحكِيَّيْن عنه عليه السلام، للإشعار بعدم اتّصالِ أحدِهما بالآخر"[3].

بلاغة تأكيد الخبر بإنّ، واسميّة الجملة:

تأكيد الخبر لأهميّته، ولمراعاة حال المخاطب في الإنكار

وأُكِّد الخَبَر في قوله: ﴿إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ﴾، بإنَّ واسميَّة الجملة؛ لأهميّة الخبر، وجدارته بالتّأكيد، حيث جاء تلبيَةً لِطَلَب بني إسرائيل مِن نبيِّهم حُجَّةً عَلى أنَّ اللّه تَعالى، اصْطَفى طالُوتَ، ومَلَّكَهُ عَلَيْهِمْ، و أُكِّد أيضًا لمراعاة حال المخاطبين في اللِّجاج والإنكار.

دلالة التّنكير في لفظي ﴿سَكِينَةٌ﴾ و﴿وَبَقِيَّةٌ﴾:

المراد بالسَّكينة في قوله: ﴿فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ﴾ الوقار،

(1) الراغب، المفردات: (جاء).
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتنوير: 2/489.
(3) أبو السُعود، إرشاد العقل السَّليم: 1/241.

والطمأنينة، والجَلال، والهَيْبَة، أوْ فِيهِ سُكُونُ نُفُوسِ بَنِي إسْرائِيلَ يَتَقَوَّوْنَ بِهِ عَلى الحَرْبِ، و﴿وَبَقِيَّةٌ﴾، أيْ: مِن آثارِهِمُ الفاضِلَةِ، والتَّنكير؛ لتفخيم السَّكينة، وما تبقَّى من آثار آل موسى وآل هارون (عليهما السلام) في التّابوت[1].

التنكير لتفخيم السكينة، وما بقي من آثار موسى وآل هارون عليهما السلام

وجه المجاز في لفظ السكينة:

السَّكِينَةُ: هي الطُّمَأْنِينَة، ولَمّا كانَتْ حاصِلَةً بِإتْيانِ التّابُوتِ، جُعِلَ التّابُوتُ مُسْتَقَرًّا لَها، وهَذا مِنَ المَجازِ الحَسَنِ، وهو تَشْبِيهُ المَعنَوِيّ بِالمحسوس بإبرازه في صورة مُشاهدة تفخيمًا له.

تشبيه المعنوي بالحِسِّيّ؛ لإبرازه في صورة مُشاهَدة

إيثار لفظ (الرَّبِّ)، وقصديّة إضافته إلى ضمير المخاطبين:

التّعبير بالرَّب وإضافته إلى ضمير المخاطبين في قوله: ﴿فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾؛ لإشعارهم بتدبير اللّه تعالى لأمورهم، وتولِّيه أَمْرهم؛ لتطمئن قلوبهم باختياره لهم.

في لفظ (الربّ) إشعارٌ بتدبير الله تعالى لأمورهم؛ لتطمئن قلوبهم باختياره لهم

سِرُّ التّعبير بآل في قوله: ﴿ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ﴾

يجوز أن يكون ﴿ءَالُ﴾ في قوله: ﴿ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ﴾، هُم الأنْبِياء الَّذِينَ كانُوا بَعْدَهما، أو هما مُوسى وهارونُ أنْفُسُهُما، أو هُمُ الأتْباعُ، قالَ تَعالى: ﴿أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ۝٤٦﴾ [غافر: 46]"[2].

التعبير بلفظ (الآل) لِتفخيم شأني موسى وهارون عليهما السلام، أو جرت مجرى التوكيد

وسِرّ التَّعبير بالآل أنّه مُقْحَمٌ لِتَفْخِيم شَأْنِ مُوسى وهارون[3] عليهما السلام.

وخالفه أبو حيّان: فذهب إلى أنّ ﴿ءَالُ﴾ هَنا جرت مجْرى التَّوْكِيدِ الَّذِي يُرادُ بِهِ: أنَّ المَتْرُوكَ مِن ذَلِكَ الخَيْرِ، هو مَنسُوبٌ لِذاتِ مُوسى وهارُونَ، فَيَكُونُ في التَّنْصِيصِ عَلَيْهِما بِذاتِهِما تَفْخِيمٌ لِشَأْنِهِما،

(1) القاسميّ، محاسن التَّأويل: 2/248
(2) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 6/174.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/149.

وكانَ ذَلِكَ مُقْحَمًا؛ لِأَنَّهُ لَوْ قِيلَ: مِمّا تَرَكَ مُوسى وهارُونُ؛ لاكْتَفى، وكانَ ظاهِرُ ذَلِكَ أَنَّهُما أَنْفُسَهُما تَرَكا ذَلِكَ، ووُرِثَ عَنْهُما[1].

وجه الاستئناف في جملة ﴿تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُۚ﴾:

والضَّمِيرُ في ﴿تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُۚ﴾ يَعُودُ عَلى التّابُوتِ، والجُمْلَةُ: حالٌ مِنَ التّابُوتِ، والتَّقدير: حامِلًا لَه المَلائِكَة، ويُحْتَمَلُ أن تكون استئنافًا بيانيًّا- شِبه كمال الاتِّصال- إجابة عن تساؤل أثارته الجملة الأولى، تقديره: (ومَن يَأْتِي بِهِ، وقَدْ فُقِدَ؟)، فَقالَ: ﴿تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُۚ﴾.

وجه الاستئناف البياني شِبه كمال الاتِّصال

واستأنف بيانيًّا؛ "اسْتِعْظامًا لِشَأْنِ هَذِه الآيَة العَظِيمَة، وهو أنَّ الَّذِي يُباشِرُ إتْيانَهُ إلَيْكُمُ المَلائِكَةُ الَّذِينَ يَكُونُونَ مُعَدِّينَ لِلْأُمُورِ العِظامِ، ولَهُمُ القُوَّةُ والتَّمْكِين والاطِّلاعُ، بِإقْدارِ اللَّهِ لَهم عَلى ذَلِكَ، ألا تَرى إلى تَلَقِّيهِم الكُتُب الإلَهِيَّة، وتَنْزِيلِهِم بِها عَلى مَن أُوحِيَ إلَيْهِم، وقَلْبِهِمْ مَدائِن العُصاةِ، وقَبْضِ الأرْواح، وإرْجاءِ السَّحاب، وحَمْلِ العَرْش، وغَيْرِ ذَلِك مِنَ الأُمُور الخارِقَة، والمَعْنى: تَحْمِلُهُ المَلائِكَةُ إلَيْكم"[2].

وجه الاستئناف استعظام شأن آية التابوت؛ إذ يُباشرُ حملَه المَلائكةُ

نكتة التعبير باسم الإشارة قبل تمام القصة:

اسم الإشارة في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ٢٤٨﴾، يعود إلى ما ذكر من شأن التابوت فهو من تمام كلام النبيّ عليه السلام لقومه، أو إلى نَقلِ القصة وحكايتها فهو ابتداءُ كلامٍ من جهة الله تعالى جيءَ به قبل تمام القصةِ إظهارًا لكمال العنايةِ به وإفرادُ حرفِ الخطاب مع تعدُّد المخاطَبين على التقديرين بتأويل الفريق أو غيره كما سلف[3].

باسم الإشارة ابتدىء كلامٌ من الله تعالى قبل تمامِ القصةِ إظهارًا لكمال العنايةِ به

(1) أبو حَيَّان، البحر المُحيط: 2/272.
(2) أبو حَيَّان، المصدر السّابق: 2/271.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/242، والآلوسّي، روح المعاني: 2/169.

بلاغة التوكيد في جملة التذييل:

في التأكيد إلزام بالخضوع لإمْرة طالوت

وأكّد مطلع جملة التذييل بإنّ واللام (إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ) وختم بجملة الشّرط؛ لبيان أن عليهم أن يخضعوا لإمْرة طالوت بعد أن تبين لهم اختيار اللّه له، واصطفاؤه إيّاه[1].

سرُّ التعبير بإنْ الشّرطيّة دون إذا:

(إن) الشَّرْطِيَّة تَكْشِف عن شَكِّ نَبيّ بني إسرائيل في إيمانهم

والتَّعبير بـ(إنْ) الشَّرطيَّة دون (إذا) في قوله: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ كَشْفٌ عن شَكِّ نبيِّهم في إيمانهم وثَباتهم عليه، وإيمانهم بِدَلالَةِ المُعْجِزَةِ عَلى صِدْقِ المُدَّعِي بعد تلك الآية الباهرة، الدّالّة على جَعْلِ طالُوتَ مَلِكًا عليهم، يُؤَيِّد هذا تَوقُّع نبيِّهم عدم صِدْقهم في القتال في سبيل اللّه، حينما طَلَبوا منه تَنْصيبَ مَلِكٍ عليهم، يأتمرون بأمره، ويجاهدون تحت رايته، وذلك في قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالُواْ لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُواْۖ﴾.

كما أيَّد شَكَّ نَبِيِّهم في إيمانهم، ما وَقَع منهم مِن نُكوص وتخاذل وجُبْن، عن مواجهة عَدُوِّهم إلاَّ قليلًا منهم مِمَّن عَبروا النَّهر، كما سيأتي في الآية التَّالية إن شاء اللّه.

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الإتيان والمجيء:

وعُبِّر بالإتيان دون المجيء في قوله: ﴿يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ﴾؛ لأنَّه مجيء سَهْل يَسير لا مَشقَّة فيه، كما تَدُلُّ عليه المادَّة[2]، فالإتيان بالتَّابوت آية مِن عِند اللّه تعالى بِقُدْرته سبحانه؛ بُرهانًا لبني إسرائيل، ليتيقّنوا من صِدْق خَبَر نبيِّهم لهم، باختيار اللّه تعالى

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 2/898.

(2) قال الرَّاغب في مفرداته: (أَتَى): الإتيان: مجيء بسهولة، ومنه قيل للسَّيْل المارّ على وَجْهه: أَتِيٌّ وأَتَاوِيّ، ولسهولة الإتيان يقال: تَأَتَّى له أَمْرُه، إذا تَسَهَّلت. ينظر: الجَوْهريّ، الصِّحاح، وابن منظور، لسان العرب: (أتى).

طالوت مَلِكًا لَهُم، فعُبِّر به في مقام بيان سهولته لقدرة الفاعل عليه، أمَّا المجيء؛ فَهُو مُجِيء فيه مَشَقَّة وصعوبة، كما تدلُّ عليه مادَّة المجيء[1]، وهذا لا يتناسب مع مقام الآية، وما فيه مِن دِلالة على القدرة الإلهيّة، قال الحَرالِّيُّ: "وقَلَّ ما احْتاجَ أحَدٌ في إيمانِهِ إلى آيَةٍ خارِقَةٍ إلّا كانَ إيمانُهُ - إنْ آمَنَ غَلَبَةً - يَخْرُجُ عَنْهُ بِأيْسَرِ فِتْنَةٍ، ومَن كانَ إيمانُهُ باسْتِبْصارٍ؛ ثَبَتَ عَلَيْهِ، ولَمْ يَحْتَجْ إلى آيَةٍ، فَإنْ كانَتِ الآيَةُ؛ كانَتْ لَهُ نِعْمَةً، ولَمْ تَكُنْ عَلَيْهِ فِتْنَةً ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرۡسِلَ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلۡأَوَّلُونَۚ﴾ [الإسراء: 59]، فَإنَّ الآياتِ طَلِيعَةُ المُؤاخَذَةِ، والِاقْتِناعُ بِالِاعْتِبارِ طَلِيعَةُ القَبُولِ والثَّباتِ"[2].

(1) ويتَّصل بصعوبة المجيء دلالة المادَّة على الغَلَبَة والإلجاء، يقال: أجاءه إلى الشيَّء، أي: جاء به، وألجأه، واضطرّه إليه، وفي المجيء معنى: الحَبْس وعدم النَّفاذ إلى الغاية، لذا أخذ من المادَّة الاسم: (الجِئة)، وهو مجتمع الماء حول الحِصْن وغيره، لأنَّها تحبس الماء عنه، فلا ينفذ إليه. ينظر: ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (جاء).

(2) البِقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 2/419-420.

﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن
شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّيٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ
غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ ۚ فَشَرِبُواْ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۚ فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ
ءَامَنُواْ مَعَهُۥ قَالُواْ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ
يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ
بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٢٤٩﴾﴾ [البقرة: 249]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

تحدَّثتِ الآياتُ السّابقةُ عن اختيار الله لهم مَلِكاً يقاتلون معه وَفْقَ طلبهم ﴿ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ الآية، وجاءتهم الإجابة من نبيِّهم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا﴾، ولكنَّهم أبَوا واعترضوا؛ لأنَّه لم يؤتَ سَعَةً من المال، ولكنَّ نبيَّهم أسكتَهم بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ﴾، وأعطاه ما يُؤهِّلُه لذلك من البَسْطة في العلم والجسم، ومع ذلك لم يطمئِنَّ القومُ إلى ما أخبرهم به نبيُّهم عن هذا المَلِكِ: (طالُوت)، فجاءهم نبيُّهم بآية محسوسة تكون دليلاً على اصطفاء الله له، وهو التّابوت الّذي افتقدوه من زمن بعيد، فآمنوا وصدَّقوا، ورضُوا بطالُوتَ مَلِكاً، فجاءت هذه الآيةُ لِتَضَعَهم أمامَ تَجْرِبَةٍ حِسِّيَّةٍ، اختبرَ فيها طالُوتُ ولاءَهم له، والانْضِواءَ تحت قيادته بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ﴾ الآية.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَصَلَ﴾: فِعْلٌ ماضٍ ثُلاثيٌّ صحيحٌ، فالفاءُ والصّادُ واللّامُ: كلمةٌ صحيحةٌ تَدُلُّ عَلَى تمييز الشَّيء من الشَّيء، وإبانَتِهِ عنه، يُقالُ: فَصَلْتُ الشَّيْءَ فَصْلًا[1]، والفَصْلُ: بُعْدٌ بين الشَّيئَينِ[2]، وفَصَلَ فُلانٌ من عندي فُصولًا: إذا خَرَجَ[3]، فأفادَ هنا معنى الخروج، وفَصَلَ

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (فصل).
(2) الخليل، العين: (فصل).
(3) الأزهريُّ، تهذيب اللُّغة: (فصل).

القومُ عن مكان كذا وانْفَصَلوا: فارَقُوهُ[1]، و﴿فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ﴾: فارَقَ مكانَه ومركزَه الّذي كان فيه[2]، وانْفَصَلَ من مكان إقامته، بادئًا المسيرَ بجيشه[3].

فمعنى ﴿فَصَلَ﴾ هنا: بمعنى فارَقَ مكانَهُ، وخرجَ بجيشه لقتال عدوِّه.

2) ﴿طَالُوتَ﴾: مَلِكُ بني إسرائيل، وهو اسمٌ أعجميٌّ ليس بعربيٍّ[4]، وأَبْعَدَ مَنْ زعم أنَّه عربيٌّ على وزن (فالوْتَ)، جاء للمبالغة بطُوله، فقيلَ: (طالوْت)[5].

وهو اسم المَلِك الّذي اختارَه اللّه لبني إسرائيلَ، قال تعالى: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا﴾.

3) ﴿مُبْتَلِيكُم﴾: اسم فاعل من الفعلِ الرُّباعيِّ (ابْتَلَى)، ويعودُ هذا اللَّفظُ بجَذْره اللُّغويِّ إِلَى مادَّة: (بَلَوِي)، وفيها: الباءُ واللّامُ والواوُ والياءُ، أصلان، أحدُهما: إخلاقُ الشَّيءِ، والثّاني: نوعٌ من الاختبار، ويُحمَلُ عليه الإخبارُ أيضًا، وقولُهم: بُلِيَ الإنسانُ وابتُلِيَ، وهذا من الامتحان، وهو الاختبارُ[6]، وبُلِيَ الإنسانُ وابتُلِيَ: إذا امتُحِنَ، والبَلاءُ: في الخير والشَّرِّ، واللّه يُبْلي العَبْدَ بَلاءً حسناً وبَلاءً سيِّئاً، والبَلْوى: هي البَلِيَّة، والبَلْوى: التَّجْرِبة، بَلَوْتُه أَبْلُوه بَلْواً[7]، وبَلَوْتُهُ: أَي اختبرتُه[8]، وسائرُ ما في التَّركيب من الفعل (بَلا يَبْلو)، أو الاسم (بَلَاءً)، أو اسم الفاعل (مُبْتَلٍ): فهو بمعنى الشِّدَّةِ مع الاختبار[9]، ومعنى الامتحانِ هو المعنى المرادُ هنا؛ لأنَّ اللّه تعالى امتَحَنَ طاعةَ القومِ، فيكون معنى: ﴿مُبْتَلِيكُم﴾: مُمتحنُكم ومُختبرُكم.

4) ﴿بِنَهَرٍ﴾: اسمٌ مشتقٌّ من الفعل (نَهَرَ)، يُقالُ: نَهَرَ يَنْهَرُ نَهْرًا، فالنّونُ والهاءُ والرّاءُ: أصلٌ صحيحٌ يَدُلُّ عَلَى تَفَتُّحِ شيْءٍ أو فَتْحِهِ، وسُمّيَ النَّهْرَ: لأنَّهُ يَنْهَرُ الأرضَ، أيْ: يَشُقُّها[10]،

(1) الرّاغب، المفردات: (فصل).
(2) السَّمين، عُمدة الحفاظ: (فصل).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (فصل).
(4) ابن دريد، جمهرة اللُّغة: (باب: ما جاء على فيعال).
(5) السَّمين الحلبيّ، عمدة الحفاظ: (طول).
(6) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (بلوي).
(7) الخليل، العين: (بلو).
(8) الرّاغب، المفردات، والسَّمين، عمدة الحفاظ: (بلو).
(9) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (بلو).
(10) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (نهر).

وفيه لغتان: النَّهَرُ، بفتح الهاء، والنَّهْرُ، بسكونها، والجمعُ: نُهُرٌ وأَنْهارٌ[1]، فالنَّهْرُ والنَّهَرُ: مجرى من مجاري المياه[2]، وهو الشَّقُّ الواسعُ الّذي يجري فيه الماءُ[3]، ونَهَرَ الماءَ، كفَتَحَ: جرى في الأرض، وجعل لنفسه نَهرًا، وكُلُّ كثيرٍ جرى فقد نَهَر[4].

فالنَّهَرُ هنا: الشَّقُّ من الأرض، يجري فيه الماءُ.

5) ﴿يَطْعَمُهُ﴾: فعلٌ مضارعٌ مُشتَقٌّ من الثُّلاثيِّ: (طَعِمَ)، والطّاءُ والعينُ والميمُ: أصلٌ مُطَّرِدٌ مُنْقاسٌ في تَذَوُّقِ الشَّيءِ، يُقالُ: طَعِمْتُ الشَّيءَ طَعْماً، والطَّعامُ: هو المأكولُ، ثمَّ يُحمَلُ على باب الطَّعام استعارةً ما ليس من باب التَّذَوُّقِ، فيُقالُ: اسْتَطْعَمَني فُلانٌ الحديثَ؛ إذا أرادكَ على أنْ تُحَدِّثَهُ، والإطعامُ يقعُ في كلِّ ما يُطْعَمُ، حتّى الماءَ، قال اللّه تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّيٓ﴾[5].

والطَّعْمُ: طَعْمُ كُلِّ شَيءٍ، وهو ذَوْقُهُ، وقَولُ العربِ: "مُرُّ الطَّعْم، وحُلْو الطَّعْم" معناهُ: الذَّوْقُ، لأنّكَ تقولُ: اطْعَمْهُ، أي: ذُقْهُ، ولا تُريدُ به امْضَغْه، كما يُمْضَغُ الخُبْزُ، وهكذا في القرآن: ﴿وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّيٓ﴾، فجَعَلَ ذَوْقَ الشَّرابِ طَعْماً، فنهاهم أن يأخُذوا منه إلّا غُرْفةً، وكان فيها رِيُّ الرّجلِ، ورِيُّ دابَّتِه[6]، فمعنى ﴿يَطْعَمْهُ﴾ هُنا: يَذُقْهُ.

6) ﴿ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ﴾: هذه اللَّفظةُ مُشتقَّةٌ من الفعلِ الثُّلاثيِّ: (غَرَفَ)، والغينُ والرّاءُ والفاءُ: أصلٌ صحيحٌ، إلّا أنَّ كَلِمَهُ لا تَتَقاسُ، بل تَتَبايَنُ، فالغَرْفُ: مصدرُ غَرَفْتُ الماءَ وغيرَهُ أَغْرِفُهُ غَرْفًا، والغُرْفَةُ: اسْمُ ما يُغْرَفُ[7]، والغَرْفُ: غَرْفُكَ الماءَ باليدِ وبالمِغْرَفَةِ، والغَرْفةُ: قَدْرُ اغْترافِكَ، مِثْلَ الكَفِّ، والغَرْفَةُ: مرَّةً واحدةً[8]، وغَرَفْتُ الماءَ بيَدي غَرْفًا، واغْتَرَفْتُ منهُ غَرْفَةً وغُرْفَةً.

فالغَرْفَةُ: المرّةُ الواحدةُ، والغُرْفَةُ بالضَّمِّ: اسمٌ للمفعول منه، لأنَّكَ مالم تَغْرِفْهُ لا تُسمّيهِ غُرْفَةً[9]، فالغُرْفَةُ هنا: مَلْءُ اليدِ ماءً، تناوُلًا من مَقَرٍّ عميقٍ[10].

---

(1) الخليل، العين: (نهر).
(2) ابن سِيده، المحكم: (نهر).
(3) الرّاغب، المفردات، والسَّمين، عمدة الحفاظ: (نهر).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (نهر).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (طعم).
(6) الخليل، العين: (طعم).
(7) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (غرف).
(8) الخليل، العين: (غرف).
(9) الجوهريّ، الصّحاح: (غرف).
(10) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (غرف).

7) ﴿جَاوَزَهُۥ﴾: جَذْرُ الفعلِ (جاوَزَ)، وأصلُه مادَّةُ: (جَوَزَ)، والجيمُ والواوُ والزّاءُ أصلانِ: أحدُهما: قَطْعُ الشَّيْءِ، والآخَرُ وسَطُ الشَّيْءِ، وجُزْتُ المَوضِعَ: سِرْتُ فيهِ، وأَجَزْتُهُ: خَلَفْتُهُ وقَطَعْتُهُ[1]. وتَقولُ: جُزْتُ الطَّريقَ جَوازًا ومَجازًا وجُؤوزًا، وجاوَزْتُه جِوازًا: جُزْتُهُ[2]، وجُزْتُ الشَّيءَ أَجُوزُه: إذا قَطَعْتُهُ[3]، وجُزْتُ المَوضِعَ أَجُوزُهُ جَوازًا: سَلَكْتُهُ وسِرْتُ فيهِ[4]، وجاوَزَهُ: تَجاوَزَ جَوْزَهُ[5]، وجاوَزَهُ: تَعدّاهُ[6]، فجاوَزَهُ هنا بمعنى: سارَ فيهِ وسَلَكَهُ[7].

8) ﴿ءَامَنُواْ﴾: أصلُ الأَمْنِ: طمأنينةُ النَّفْسِ، وزوالُ الخوف، آمن: إنّما يُقال على وجهين، أحدهما: مُتعدِّياً بنفسه، يُقال: أَمَّنْتُهُ، أي: جعلْتُ له الأَمْنَ، والثّاني: غيرُ مُتَعَدٍّ، ومعناه: صار ذا أمن، والإيمان: يُستعمَلُ تارةً اسماً للشَّريعة الّتي جاء بها محمّد ﷺ، ويوصَف به كلُّ مَنْ دخل في شريعته مُقِرًّا باللّه وبنبوَّته، وتارةً: يُستعمَلُ على سبيل المدح، ويُراد به إذعان النَّفْس للحقِّ على سبيل التَّصديق، وذلك باجتماع ثلاثة أشياءَ: تحقيق بالقلب، وإقرار باللِّسان، وعمل بحسب ذلك بالجوارح[8].

9) ﴿طَاقَةَ﴾: جَذْرُ المفردةِ اللُّغويُّ (طَوَق)، والطّاءُ والواو والقاف: أصلٌ صحيحٌ يدلُّ على دَوران الشَّيء على الشَّيء، فكُلُّ ما اسْتَدارَ بشيءٍ فهو طَوْقٌ، فأمّا قولُهم: أَطاقَ هذا الأمرَ إطاقَةً، وهو في طَوْقِهِ، وطَوَّقْتُكَ الشَّيءَ: إذا كَلَّفْتُكَهُ، فكُلُّه من الباب وقياسِه؛ لأنَّه إذا أَطاقَهُ فكأنَّه قد أحاط به، ودار به من جوانبه[9]، والطّاقَةُ: القوَّةُ على الشَّيء[10]، والطّاقَةُ: القُدْرةُ على الشَّيء[11]، وهي غايةُ مَقدرة القادر، واستفراغُ ما في وُسعه في المقدور، يُقالُ: هذا طاقتي، أي: قَدْرُ إمكاني[12]، والطّاقةُ أيضًا: اسمٌ لمقدارِ ما يمكن للإنسان أن يفعلَه

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (جوز).
(2) الخليل، العين: (جوز).
(3) ابن دريد، جمهرة اللّغة: (جوز).
(4) الجوهريّ، الصّحاح: (جوز).
(5) الرَّاغب، المفردات: (جوز).
(6) السّمين، عمدة الحفاظ: (جوز).
(7) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (جوز).
(8) الرَّاغب، المفردات: (أمن).
(9) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (طوق).
(10) ابن الأنباريّ: الزّاهر: 1/476.
(11) ابن سيده: المخصّص: 1/194.
(12) العسكريّ: الفروق اللّغوية: ص: 110.

بمشقَّةٍ[1]، والطّاقَةُ والطّوْقُ والإطاقَةُ: القُدْرةُ على الشَّيءِ، بجامع ما يَضُمُّهُ بَدَنُهُ منْ قوَّةٍ على الإحاطة بالشّيء، ومنه قوله تعالى: ﴿قَالُواْ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ﴾[2]، فمعنى قول أصحاب طالُوتَ: لا قُدرَةَ لنا على مواجهتهم.

10) ﴿بِجَالُوتَ﴾: اسمُ مَلِكٍ جبّارٍ طاغٍ، رماهُ داودُ، عليه السلام، فقتَلَهُ[3]، وفي جالُوتَ قولانِ، أظهرُهما: أنَّه أعجميٌّ لا اشتقاقَ له، فلذلكَ مُنِعَ منَ الصَّرْفِ للْعَلَميَّةِ والعُجْمَةِ، والثّاني: أنّه مُشْتَقٌّ مِنْ: جالَ، ووَزْنُهُ: فَعَلُوت، كَ: رَهَبُوت، والأصلُ: جَوْلُوت؛ فقُلِبَتِ الواوُ ألفًا، وهذا ليسَ بشيءٍ[4]؛ لأنَّ طالُوتَ وجالُوتَ ليس بكلامٍ عربيٍّ، وإنْ جاءَ في التَّنزيلِ[5].

11) ﴿يَظُنُّونَ﴾: فعلٌ مُضارعٌ مِنْ ظَنَّ الماضي، و (ظَنَّ): أصلٌ صحيحٌ يَدُلُّ على معنيَينِ مُختلفَينِ: يقينٍ وشكٍّ، فأمّا اليقينُ: فقولُ القائلِ: ظَنَنْتُ ظَنًّا، أيْ: أَيْقَنْتُ، والأصلُ الآخَرُ: الشَّكُّ، يُقالُ: ظَنَنْتُ الشَّيْءَ، إذا لم تَتَيَقَّنْهُ، ومِنْ ذلكَ الظِّنَّةُ: التُّهْمَةُ، والظَّنينُ: المُتَّهَمُ[6]، فالظَّنُّ في كلام العرب جاء على هذَينِ المعنيَينِ: اليقينِ، والشَّكِّ[7]، وهو اسم لما يحصل عن أمارة، ومتى قويت أدّت إلى العلم، ومتى ضعفت جدّا لم يتجاوز حدّ التّوهّم[8]، ويأتي الظَّنُّ في القرآن بمعنى العلم والاعتقاد، وعلى هذا يكونُ معنى قولِه تعالى: ﴿يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ ٱللَّهِ﴾: يعتقدون أنَّهم مُلاقو اللهِ، فيُفَسَّرُ الظَّنُّ هنا بالاعتقادِ، وهو الدَّرجةُ العُليا من الظَّنِّ[9].

12) ﴿مُّلَٰقُواْ﴾: أصلُه: (مُلاقُونَ)، سقطت منه النّونُ بسبب الإضافةِ، وهو جمع مُذكَّر سالم لِمُلاقٍ: اسم فاعل مِنْ (لَاقَى)، وجَذْرُهُ: (لَقِيَ)، واللّامُ والقافُ والحرفُ المعتلُّ، الياء هنا، أصولٌ ثلاثةٌ: أحدُها: يَدُلُّ على العِوَجِ، والآخَرُ: على تَوافي شيئَينِ، والآخرُ: على طرْحِ شيْءٍ، والمعنى الثّاني: هو المُرادُ هنا، وهو المُلاقاةُ[10]، فكُلُّ شيءٍ من الأشياء إذا استقبلَ

(1) الرّاغب، المفردات: (طوق).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (طوق).
(3) الرّاغب، المفردات: (جال).
(4) السّمين، عمدة الحفاظ: (جلت).
(5) ابن دريد، جمهرة اللّغة: (ما جاء على فيعال).
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ظنّ).
(7) الخليل، العين: (ظنّ).
(8) الرّاغب، المفردات: (ظنَّ).
(9) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (ظنّ).
(10) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (لقي).

شيئًا أو صادَفهُ فقد لَقيَهُ[1]، ولاقاهُ مُلاقاةً ولِقاءً: قابَلَهُ وصادَفَهُ، ولاقى اللّهَ: صار إلى حِسابِه[2]، وهو المعنَى الّذي يُناسبُ السِّياقَ هنا.

13) ﴿فِئَةٍ﴾: الفاءُ والهمزةُ مع معتلٍّ بينهما: كلماتٌ تدلُّ على الرُّجوعِ، يُقالُ: فاءَ الفَيْءُ: إذا رَجَعَ الظِّلُّ من جانب المغرب إلى جانب المشرق، وكُلُّ رُجوعٍ فَيْءٌ[3]، والفِئَةُ: طائِفَةٌ من النّاس[4]، والفِئَةُ: الجماعةُ من النّاس، يَفِيئُونَ إلى الرَّئيسِ، أي: يرجِعون إليه[5].

والفِئَةُ: الفِرْقَةُ مِنَ النّاسِ[6]، والفِئَةُ: الطّائفةُ[7]، والفِئَةُ: الجماعةُ المتظاهرةُ الّتي يرجعُ بعضُهم إلى بعضٍ في التَّعاضُد[8]، وهذا هو المعنى المناسبُ للسّياقِ هنا.

14) ﴿غَلَبَتْ﴾: أصلُ غَلَبَتْ: أنْ تتناوَلَ وتُصيبَ غَلَبَ رَقَبَتِه، والغَلَبَةُ: القَهْرُ، ويُقال: غَلَبْتُهُ غَلْباً وغَلَبَةً وغَلَباً، فأنا غالِب، قال تعالى: ﴿يَغْلِبُواْ مِاْئَتَيْنِۚ﴾ [الأنفال: 65]، وقال تعالى: ﴿يَغْلِبُوٓاْ أَلْفًا﴾ [الأنفال: 65][9].

والمعنى هنا: قَهَرت عند المحاربة.

15) ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِۚ﴾: والإِذْنُ في الشّيء إعلامٌ بإجازته والرُّخصة فيه، نحو: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِۚ﴾ [النساء: 64] أي: بإرادته وأمره، ومِنْ ذلك قولُه: ﴿وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ شَيْـًٔا إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۚ﴾ [المجادلة: 10] أي: بعلمه، لكنْ يوجد فَرْقٌ بين العلم والإِذْن؛ فالإِذْن أَخَصُّ، ولا يكاد يُستَعمل إلّا فيما فيه مشيئة ما، ضامَّه الأمر أم لم يضامَّه؛ فإنَّ قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۚ﴾ [يونس: 100] فمعلومٌ أنَّ فيه مشيئتَه وأمرَه، وقوله: ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۚ﴾ [البقرة: 102] ففيه مشيئتُه من وجه[10].

والمعنى هنا: بحُكْمه وتيسيره.

---

(1) الخليل، العين: (لقي).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (لقي).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (فأ).
(4) الخليل، العين: (فأو).
(5) ابن دريد، جمهرة اللّغة: (فيأ).
(6) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (فأى).
(7) الجوهريّ، الصّحاح: (فآ).
(8) الرّاغب، المفردات: (فيأ).
(9) الرّاغب، المفردات: (غلب).
(10) الرّاغب، المفردات: (أذن).

16) ﴿ٱلصَّٰبِرِينَ﴾: الصَّبرُ: الإمساكُ في ضِيق، ويُقال: لحبس النَّفْس على ما يَقتضيه العقلُ والشَّرعُ، أو عمّا يَقتضيان حبسَها عنه؛ فالصَّبرُ لفظٌ عامٌّ، وله إطلاقاتٌ بحَسَب اختلاف سياقه[1].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

عندما تملَّك طالوتُ ببني إسرائيل واستقرَّ له المُلْك فيهم، تجهَّز هو ومن معه لقتال أعدائهم العمَالقة، فلمَّا خَرَجَ طالوتُ بالجنودِ عن البلدِ، قال لِمَنْ معه مِن بني إسرائيلَ: إنَّ اللّٰه مختبرُكم بنَهَرٍ، أمامكم تعبرونه؛ ليتميَّز المؤمن من المنافق، فمن شرب منكم من ماء النهر فليس من أهل ديني، ولا على طريقتي، ولا يصلح للجهاد معي، ولا يُصاحِبْني في قتالٍ، ومن لم يذق الماء فإنه مني وعلى طَريقتي؛ لأنه مطيع لأمري وصالح للجهاد، ويُصاحِبُني في القتالِ، إلا مَن ترخَّص واغترف غُرْفة واحدة بيده فلا لوم عليه، فلما وصلوا إلى النهر انكبوا على الماء، وأفرطوا في الشرب منه، إلا عددًا قليلًا منهم صبروا على العطش والحرِّ، واكتفَوْا بغُرْفة اليد، وحينئذ تخلَّف العصاة. فلمَّا عبر طالوت النهر هو والقِلَّةُ المؤمنةُ معه - وهم ثلاثمائة وبضعة عشر رجلًا - لملاقاة العدو، ورأوا كثرة عدوهم وعدَّتهم، قالوا: لا قدرة لنا اليوم بجالوت وجنوده الأشداء، عِنْدَئِذٍ أجاب الذين يوقنون بلقاء اللّٰه - يُذَكِّرون إخوانهم باللّٰه وقدرته - قائلين: كم من جماعة قليلةِ العَدَدِ مؤمنة صابرة، غلبت - بإذن اللّٰه وأمره وعونِهِ - جماعة كثيرةَ العَدَدِ كافرة باغية. واللّٰه مع االصّابرينَ مِنْ عِبادِهِ، يُؤَيِّدُهم ويَنصُرُهُم بتوفيقه[2].

❁ الإيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

بلاغةُ العطفِ بالفاءِ في الرَّبطِ بين الجمل:

التَّنبيه على وجودِ محذوفٍ مفهومٍ من السِّياق

عُطفت بالفاء للدَّلالة على وجود كلام مُقَدَّر بين هذه الآية والسّابقة عليها، وهو الرِّضا بالمَلِك، ومجيءُ التّابوت، وتجنيدُ الجنود، فكُلُّ ذلك تَمَّ قبل أن يَخرُجَ (طالُوت) بالجنود[3].

(1) الرَّاغب، المفردات: (صبر).
(2) نخبة من العلماء، التّفسير الميسّر: ص: 41، وجماعة من العلماء، المختصر في تفسير القرآن الكريم: ص: 41.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/495.

والتَّركيزُ على المقصود الأهمِّ لأخذ العبرة مِنْ طالُوتَ وجنوده، ومدى صبرهم، وتَحمُّلِهم مشاقَّ الابتلاءِ في سبيل نُصرة الحقِّ.

سبق القرآن إلى العصف الذّهنيّ

تمتازُ الفاءُ من بين حروف العطف بكثرةِ الحَذْف معها، ودليلُ ذلك: كثرةُ ورودها في القَصَص القرآنيِّ، وذلك لِطَيِّ كثيرٍ من الأحداث اعتماداً على فَهْم السّامع من خلال قراءة الآيات، والّذي معنا هنا في قصّة طالُوت هو عَينُ ذلك المطلوب، من الاعتماد على فَهم السّامع، وإيقاظ الفِكْر عندَه، وهذا منهجٌ قرآنيٌّ يجب التَّنبيه عليه في المراحل التَّعليمية بدلاً من التّلقين فقط.

المُهْلَةُ معَ ترتيبِ الأَحـــداثِ من معاني الفاءِ

أفادتِ الفاءُ في قوله: ﴿فَلَمَّا﴾: العطفَ والتَّعقيبَ والمُهْلَةَ، وعطفَ المُفَصَّلِ علَى المُجْمَلِ[1]، وهو هنا: أَفادَ هذه المعاني بِدِقَّةٍ، ويَظْهَرُ ذلكَ مِنْ سياقِ القِصَّةِ؛ فخُروجُ القوم مع طالُوتَ جاءَ بعد أَخْذٍ ورَدٍّ، وتَفكيرٍ وتَرَوٍّ، فاخْتَصَرَتِ الفاءُ ما فُصِّلَ قبل هذه الآيةِ، وعَطَفَتْهُ على ما أُجْمِلَ هنا، مع مُراعاةِ التَّعقيبِ على القِصَّةِ والمُهْلَةِ الّتي احْتاجوها قبل اتِّخاذِهم قرارَهم النِّهائيَّ بالخروجِ.

سرُّ التَّعبيرِ بفعل الفصلِ دون غيرِه من الأفعال:

يـوحـي فـعـلُ (فـصـل) بقطعِ الصِّلةِ مع حياةِ الذُّلِّ والهوان

جاءَ التَّعبيرُ بالفعل ﴿فَصَلَ﴾ دون غيره من الأفعالِ كَفعل (خَرَجَ) مثلاً؛ لأَنَّ المعنى الّذي في ﴿فَصَلَ﴾ لا يُؤدّيهِ الفعلُ (خَرَجَ)، وإن كان مُتَضَمِّنًا مَعناهُ، فالفَصْلُ هنا: القَطْعُ والبُعْدُ والمُفارَقَةُ، وعَدَمُ الرُّجوعِ إلى ما كان عليه الحالُ؛ لأَنَّ مَقامَ الحربِ والجِهادِ في سبيلِ الحقِّ يَتَطَلَّبُ قَطْعَ الصِّلَةِ مع الباطِلِ وأهلِه بِصُورِها كافَّةً، وقَطْعَ الصِّلَةِ بماضي الذُّلِّ والهَوانِ، والبُعدَ عنه، ومُفارقَتَهُ، وهذه الصِّفاتُ هي الّتي يَجِبُ أن يَتَّصِفَ بها المُجاهِدُ في سبيلِ اللّهِ والحقِّ، الخارجُ لِنُصْرَةِ دِينِ اللّهِ وعِزَّتِهِ.

(1) المراديّ، الجنى الدّاني: ص: 62-61.

وهي مَعانٍ لم يَتَضَمَّنْها الفِعْلُ (خَرَجَ)، ولا غيرُه، وهذه المعاني على الإطلاق العامِّ في مادّة (فصل)؛ فما ذُكر في هذه المعاني السّابقة يَنطبِقُ على يوم الفَصْل وهو يوم القيامة؛ لأنّه يَفْصِلُ بين أهل الإيمان وأهل الكفر.

بناءُ القيمِ التَّربويّة استعدادًا للنَّصرِ العسكريِّ

أمّا ما يخصُّ سياقَ الآية فله معنىً آخرُ، عنوانُه: (قطع الصِّلة بين الحياة المدنيّة والحياة العسكريّة).

وعلى هذا فالمرادُ هنا: تربيةُ الجنود، وهذا معنى مُهمٌّ في العسكريّة، وذلك بفَصْلهم عن الحياة المدنيّة بما فيها من حياة التّرفيه والملذّات والشّهوات إلى الحياة العسكريّة، ولا تتأتّى إلّا بانقطاعهم عن كلِّ ذلك في معسكرٍ، خارجَ البيئة التي يعيشون فيها، ولذلك تَروي بعضُ كتب التَّفسير، أنَّ طالُوت قال: لا يخرُجْ معي رجلٌ بنى بناءً لم يفرُغ منه، ولا صاحبُ تجارة يَشتغِلُ بها، ولا رجلٌ عليه دَينٌ، ولا رجلٌ تزوَّجَ امرأةً، ولم يَبنِ بها[1].

إذاً لا يريدُ إلا الشّبابَ النَّشيطَ الّذي انقطع عن كلِّ سببٍ يؤثر على انشغاله بالجهاد والقتال، انظر إلى دقَّة القرآن الكريم في اختيار اللَّفظ الّذي يحمِلُ هذه الدَّلالاتِ في التَّربية العسكريّة.

بلاغةُ تعديةِ الفعلِ ﴿فَصَلَ﴾ بحَرْفِ (البَاءِ):

القائدُ المخلصُ هو القريبُ من الجنودِ، الملاصقُ لأحوالِهم وأعمالِهم

دلَّ حرفُ الجرِّ (الباءُ) في قوْلِه تَعالى: ﴿بِٱلْجُنُودِ﴾ على لَطيفَةٍ دَقيقَةٍ، وبيانُ ذلك أنَّ هذا الحَرْفَ وهو مِنْ حُروفِ المَعاني، مُخْتَصٌّ بالاسْم، ولَهُ مَعانٍ كَثيرَةٌ، مِنْها: الإلْصاقُ، وهوَ أَصْلُ مَعانيه، والإلصاقُ: حَقيقيٌّ، نَحْوَ: أَمْسَكْتُ الحَبْلَ بيَدي، ومَجازيٌّ، نَحْوَ: مَرَرْتُ بزَيْدٍ[2]، ومَعْنَى الإلصاقِ هُنا هوَ أَكْثَرُ مَعاني الباءِ مُناسَبَةً لِلسّياقِ، فكأنَّ طالُوتَ لَمّا فصَلَ عن دِيارِهِ وسارَ بِجَيْشِه للقِتالِ

(1) البغويّ، معالم التّنزيل: 1/301.
(2) المراديّ، الجنى الدّاني: ص: 36.

والمناجزَة، اقْتَرَبَ مِنْ جُنودِه كَثيرًا، واخْتلَطَ بِهِمُ اخْتِلاطَ القائِدِ الّذي يريدُ الانْدِماجَ مَعَ جنودِه، وإزالة الفَوارقِ بينَه وبينهم، حَتَّى التَصَقَ بِهِمُ التِصاقًا مَجازيًّا، ليُشارِكَهم مَشاقَّ السَّفَرِ والطَّريقِ، مِنْ تَعَبٍ ونَصَبٍ، وظمأٍ وعَطَشٍ، ويُرَبّي فيهم رُوحَ الجُنْديَّةِ والطّاعَةِ والاسْتِبْسالِ في سَبيلِ تَحقيقِ النَّصْرِ. ومُلاصَقَتُهُ لهم كَشَفَتْ لَهُ كثيراً من أَسرارِ الجنودِ وأَحوالِهم، فعَرَفَ أَنَّ في جُنْدِه المؤمنَ الشُّجاعَ الصّادقَ، والمنافقَ الجبانَ الكاذبَ، فقَرَّرَ الفَصلَ بَيْنَ الفَريقينِ والتَّمييزَ بَيْنَهما، وذَلِكَ باخْتِبارِهم بالنَّهْرِ، وعَدَمِ الشُّربِ منه، وهُمْ في قِمَّةِ الظّمأِ والحاجَةِ إلى الماءِ.

سِرُّ التَّعبير بلفظِ الجنود:

معالم الجُنديّة تتَّسمُ بالصَّلابةِ والشِّدَّة والثَّبات

جاء التَّعبيرُ في قولِه تعالى: ﴿بِٱلۡجُنُودِ﴾ دون المقاتلين أو الجيش؛ لأنَّ مفردةَ الجند تحملُ في طيّاتها بعضَ صفات الجنديّة، الّتي يجب أن تتوفَّر في الشَّخص الّذي يخرج للقتال في سبيل الله، وعلى رأسها القوَّةُ والشِّدَّةُ، وهذا ما يُفهم من بُنية الكلمة اللُّغويّة، فهي مأخوذةٌ من الجَنَد، وهي: الأحجار الغليظة في الأرض، فالأحجار تحملُ معنى الصَّلابةِ والشِّدَّةِ والثَّبات، وهذا هو البنيانُ العسكريُّ للجند.

فائدةُ إسنادِ الابتلاءِ إلى الله تعالى:

الحكمةُ أصلٌ في القيادةِ الرَّشيدةِ

أُسنِد الابتلاءُ إلى الله تعالى في قولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مُبۡتَلِيكُم بِنَهَرٖ﴾؛ ليكتسب الابتلاءُ صفةً شرعيَّةً، فهو وحيٌ من الله تعالى، وبنو إسرائيل طبيعتُهم قائمةٌ على التَّمرُّدِ والعصيانِ؛ فلو أمرهم بما جاء في مضمون الابتلاءِ وهو عدمُ الشُّرب من النَّهر، لوقعوا في المعصيةِ والجدال والنشوز، وفي ذلك اختصارٌ للوقتِ وكسبٌ للجهدِ، ودفعٌ للفتنةِ، وهو من الحكمة البالغةِ، وفي حِكْمَةِ هَذا الابْتِلاءِ وجْهانِ:

الْأَوَّلُ: كانَ مَشْهورًا مِنْ بَني إِسْرائيلَ أَنَّهُمْ يُخالِفونَ الأَنْبياءَ والمُلوكَ مَعَ ظُهورِ الآياتِ الباهِرَةِ، فأَرادَ اللَّهُ تَعالَى إِظْهارَ عَلامَةٍ قَبْلَ

لِقاءِ العَدوِّ، يَتَمَيَّزُ بها مَنْ يَصْبِرُ عَلَى الحَرْبِ، مِمَّنْ لا يَصْبِرُ؛ لِأَنَّ الرُّجوعَ قَبْلَ لِقاءِ العَدوِّ لا يُؤَثِّرُ كتأثيرِهِ حالَ لِقاءِ العَدوِّ، فلَمّا كانَ هذا هوَ الصَّلاحَ قَبْلَ مُقاتَلَةِ العَدوِّ، لا جَرَمَ قالَ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مُبۡتَلِيكُم بِنَهَرٖ﴾، والثّاني: أَنَّهُ تَعالَى ابْتَلاهُمْ، ليَتَعَوَّدوا الصَّبْرَ عَلَى الشَّدائِدِ[1].

معنى الابتلاءِ والمقصود منه:

تمحيصُ الجنودِ، وتمييزُ الأقوياءِ من غيرِهم

أُجريَ الابْتِلاءُ لاخْتِبارِ الجنودِ؛ فمَنْ ظَهَرَتْ طاعَتُهُ في تَرْكِ الماءِ، عُلِمَ أَنَّهُ مُطيعٌ فيما عَدا ذَلِكَ، ومَنْ غَلَبَتْهُ شَهْوَتُهُ في الماءِ، وعَصَى الأَمْرَ، فهوَ في العِصْيانِ في الشَّدائِدِ أَحْرَى، فرُوِيَ أَنَّهُمْ أَتَوُا النَّهَرَ، وقَدْ نالَهُمْ عَطَشٌ، وهوَ في غايَةِ العُذوبَةِ والحُسْنِ، فلِذَلِكَ رُخِّصَ لِلْمُطيعينَ في الغَرْفَةِ[2] ليَرْتَفِعَ عَنْهُمْ أَذَى العَطَشِ بَعْضَ الارْتِفاعِ، وليَكْسِروا نِزاعَ النَّفْسِ في هَذِهِ الحالِ، وبَيَّنَ أَنَّ الغَرْفَةَ كافَّةٌ ضَرَرَ العَطَشِ، عِنْدَ الحَزَمَةِ الصّابِرينَ عَلَى شَظَفِ العَيْشِ الَّذينَ هَمُّهُمْ في غَيْرِ الرَّفاهيَةِ[3]، وأيضاً: ليَعْلَمَ طالُوتُ مَنْ له نيَّةُ القِتالِ مَعَهُ، ومَنْ لَيْسَ لَهُ نيَّةٌ[4].

سرُّ إبهامِ اسمِ النَّهرِ:

لِلإبْهامِ أثرٌ كبيرٌ في توجيهِ المقصودِ

أَبْهَمَ اللهُ اسْمَ النَّهْرِ؛ لِعَدَمِ وجودِ فائدَةٍ كبيرةٍ في تَعْيينِهِ[5]، إذِ القَصْدُ النَّهْيُ عَنِ الشُّرْبِ اخْتِبارًا وامتِحانًا لهم، وليسَ القصْدُ الشُّرْبَ من نَهَرٍ بعينِهِ، لِذا جاءَ النَّهَرُ نَكِرَةً، فقالَ: ﴿بِنَهَرٖ﴾، فالمَقامُ مَقامُ حَرْبٍ، وهوَ يَتَطَلَّبُ السُّرْعَةَ في تَبليغِ الأَوامرِ وتَنفيذِها، ولَيْسَ مَقامَ راحَةٍ وتَفصيلٍ[6].

---

(1) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 6/509.

(2) أثبتَها القرطبيُّ، رحمه الله، في تفسيره: (غَرْفَةً) بفتح الغَين، على ما يوافقُ قراءةَ نافع، ولم أغيِّر ما كتبه، لأنَّ المعنى العامَّ على القراءتين واحد.

(3) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 3/251.

(4) الزّجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 1/330.

(5) وهذا أحد أسباب الإبهام في القرآن الكريم. يُنظر: السّيوطي، مفحمات الأقران: ص: 10.

(6) السّيوطي، مفحمات الأقران: ص: 21.

كمالُ اختيارِ النُّخبةِ عائدٌ إلى دقَّةِ الابتلاءِ

فائدةُ استعمالِ لفظ ﴿يَطْعَمْهُ﴾ دون غيره من الألفاظِ:

عبَّرَ القرآنُ الكريمُ بقوله: ﴿وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ﴾، ولم يقل: (لَمْ يَذُقْهُ)، أو: لم يشرب منه، لأمورٍ:

أوَّلًا: لأنَّ نفيَ الطّعْمِ يستلزِمُ نفيَ الشُّربِ، بخلاف نفي الشُّرب فلا يستلزِمُ نفي الطّعْم[1].

ثانيًا: أَنَّ الإنْسانَ إذا عَطِشَ جِدًّا، ثُمَّ شَرِبَ الماءَ وأرادَ وصْفَ ذَلِكَ الماءِ بِالطّيبِ واللَّذَّةِ قالَ: إنَّ هَذا الماءَ كأنّهُ الجُلّابُ، وكأنّه عَسَلٌ، فيَصِفُهُ بِالطُّعومِ اللَّذيذَةِ، فقَوْلُهُ: ﴿وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ﴾ مَعْناهُ: أَنَّهُ وإنْ بَلَغَ بِهِ العَطَشُ إلَى حَيْثُ يَكونُ ذَلِكَ الماءُ في فمِهِ، كالمَوصوفِ بِهَذِهِ الطُّعومِ الطَّيِّبَةِ، فإنّه يَجِبُ عَلَيْهِ الاحْترازُ عَنْهُ، وأنْ لا يَشْرَبَهُ.

ثالثًا: أَنَّ مَنْ جَعَلَ الماءَ في فمِهِ وتَمَضْمَضَ بِهِ، ثُمَّ أَخْرَجَهُ مِنَ الفَمِ، فإنَّهُ يَصْدُقُ عَلَيْهِ أَنَّهُ ذاقَهُ وطَعِمَهُ، ولا يَصْدُقُ عَلَيْهِ أَنَّهُ شَرِبَهُ، فلَوْ قالَ: (وَمَنْ لَمْ يَشْرَبْهُ) فَإِنَّهُ مِنّي، كانَ المَنْعُ مَقْصورًا عَلَى الشُّرْبِ، أَمّا لَمّا قالَ: ﴿وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ﴾ كانَ المَنْعُ حاصِلًا في الشُّرْبِ وفي المَضْمَضَةِ، ومَعْلومٌ أَنَّ هَذا التَّكْليفَ أَشَقُّ، وأَنَّ المَمْنوعَ مِنْ شُرْبِ الماءِ إذا تَمَضْمَضَ بِهِ، وجَدَ نَوْعَ خِفَّةٍ وراحَةٍ[2].

معنى حرفِ الجرِّ في قولِه: ﴿فَلَيْسَ مِنِّي﴾:

جاء التَّعبيرُ القرآنيُّ بـ (مِن) في قوله: ﴿فَلَيْسَ مِنِّي﴾، لأنَّ معناها هنا التَّبعيضُ، وهو تبعيضٌ مجازيٌّ، كأنّه يجعل أتباعَه بعضَه، فالمعنى في قوله: ﴿فَلَيْسَ مِنِّي﴾: أي ليس مُتّصلاً بي ولا عَلاقةَ بيني وبينه، سمّاها بعضُ النُّحاة بـ (مِنْ) الاتّصاليّة[3].

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 2/586.
(2) الرازي، التفسير الكبير: 6/510.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/497.

سِرُّ العُدولِ في المقابلات القرآنيَّة:

دفعُ إبهامِ الأوهامِ، وتعيينُ المقصودِ بالأمرِ

قَالَ تعالى في أَوَّلِ الْآيَةِ: ﴿فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي﴾ ثُمَّ قَالَ: ﴿وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ﴾ وما يقتضيه ظاهر النَّظم أَنْ يُقَالَ: (وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْ مِنْهُ)؛ لِيَكُونَ آخِرُ الْآيَةِ مُطَابِقًا أَوَّلَهَا، إِلَّا أَنَّهُ تَرَكَ ذَلِكَ اللَّفْظَ، وَاخْتِيرَ هَذَا لِفَائِدَةٍ، وَهِيَ:

إِنَّ قَوْلَهُ: ﴿فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي﴾ ظَاهِرُهُ أَنْ يَكُونَ النَّهْيُ مَقْصُورًا عَلَى الشُّرْبِ مِنَ النَّهْرِ، حَتَّى لَوْ أَخَذَهُ بِالْكُوزِ وَشَرِبَهُ لَا يَكُونُ دَاخِلًا تَحْتَ النَّهْيِ، فَلَمَّا كَانَ هَذَا الِاحْتِمَالُ قَائِمًا فِي اللَّفْظِ الْأَوَّلِ ذَكَرَ فِي اللَّفْظِ الثَّانِي مَا يُزِيلُ هَذَا الْإِبْهَامَ، فَقَالَ: ﴿وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّيٓ﴾ أَضَافَ الطَّعْمَ وَالشُّرْبَ إِلَى الْمَاءِ لَا إِلَى النَّهْرِ إِزَالَةً لِذَلِكَ الْإِبْهَامِ[1].

توجيه القراءاتِ القرآنيَّة:

أثرُ اختلافِ القِراءاتِ في تنوُّعِ المعنى وإثرائِه

غُرْفَةً، وغَرْفَةً: القِراءَةُ الَّتي عَلَيْها التَّفْسيرُ هُنا رِوايَةُ حَفْصٍ، من قراءَةِ عاصِمٍ، رَحِمَهُما اللهُ، وهي بِضَمِّ الغَيْنِ: ﴿غُرْفَةًۢ﴾، وبِها أَيْضًا قَرَأَ: حَمْزَةُ والكِسائيُّ، وابْنُ عامِرٍ الشّاميُّ، ويَعْقوبُ وخَلَفُ العاشِرُ، وَقَرأَ: نافِعٌ وابْنُ كَثيرٍ، وأبو عَمْرٍو وأَبو جَعْفَرٍ: ﴿غَرْفَةًۢ﴾، بِفَتْحِ الغَيْنِ[2].

فقِراءَةُ الضَّمِّ: ﴿غُرْفَةًۢ﴾ على مَعْنَى: اغْتَرَفَ بِكَفِّهِ، فصارَ كَفُّهُ إناءً لِلْماءِ، ولم يَشْرَبْ مِنَ النَّهْرِ مُباشَرَةً، وقِراءَةُ الفَتْحِ: ﴿غَرْفَةًۢ﴾: عَلَى مَعْنَى: مَرَّةً واحِدَةً لم يَزِدْ عَلَيْها، وتَضَمَّنَتْ مَعْنَى الاغْتِرافِ في قِراءَةِ الضَّمِّ، وزادَت عَلَيْها بَيانَ المَرَّةِ[3]، فالغُرْفَةُ: المغروفُ، والغَرْفَةُ: الفَعْلَةُ[4]، والغُرْفَةُ: مِقْدارُ مِلءِ اليَدِ مِنَ المغروفِ، والغَرْفَةُ:

(1) الرازي، التفسير الكبير: 6/510.
(2) الدّاني، التّيسير: ص: 81، وابن الجزريّ، النّشر: 2/230.
(3) الفارسّي، الحجّة: 2/265، والأزهريّ، معاني القراءات: 1/215، وابن زنجلة، حجّة القراءات: ص: 140.
(4) الفرّاء، معاني القرآن: 2/190.

مرَّةً واحدةً باليدِ[1]. ويَتَّضِحُ عَلَى القِراءتَيْنِ: أَنَّ المَسْموحَ لَهم بِهِ هوَ الاغْتِرافُ بِاليَدِ، دونَ الكُروعِ مِنَ النَّهْرِ[2].

فكانَ في المُغْتَرِفِينَ مَنِ اسْتَوفَى الغَرْفَةَ، ومِنْهُم مَنْ لم يَسْتَوفِ، فكانَ فيهِ إيْذانٌ بِتَصْنيفِهم ثَلاثةَ أَصْنافٍ: مَنْ لم يَطْعَمْهُ البَتَّةَ، وأولئك الّذين ثَبَتُوا وظَنّوا أَنّهم مُلاقو اللّهِ، ومَنْ شَرِبَ مِنْهُمْ، وأولئكَ الّذين افْتُتِنوا وانْقَطَعُوا عَنِ الجِهادِ في سبيلِ اللّهِ، ومَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً، وَهُمُ الّذينَ ثَبَتوا وتَزَلْزَلوا، حَتَّى ثَبَّتَهُمُ الّذين لم يَطْعَموا[3].

أثرُ معنى الشُّرْبِ في تحديد نوعِ الاستثناءِ:

قَوْلُهُ تَعالى: ﴿إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةَۢ بِيَدِهِۦۚ﴾ استثناءٌ مِنَ الموصولِ الأَوَّلِ ﴿فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّى﴾، أَوْ ضَميرِهِ في الخبرِ ﴿فَإِنَّهُۥ مِنِّىٓ﴾؛ فإنْ فُسِّرَ الشُّرْبُ بالكُروعِ كانَ الاسْتِثْناءُ مُنْقَطِعًا، وإلّا كان مُتَّصِلًا.

فائدةُ تقديمِ الجملةِ على الاستثناءِ:

بيانُ تتمَّةِ الجملةِ الثَّانية للأولى والنَّهيُ عن الكروعِ

فائِدَةُ تَقْديمِ الجملةِ الثّانيَةِ ﴿وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّىٓ﴾ على الاستثناءِ ﴿إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةَۢ بِيَدِهِۦۚ﴾: الإيذانُ بِأنّها مِنْ تَتِمَّةِ الأولى، وأَنَّ الغَرَضَ مِنْها تَأْكيدُها وتَتْميمُها، نَهيًا عَنِ الكُروعِ مِنْ كُلِّ وجْهٍ، وإفادَةُ أَنَّ المُغْتَرِفَ لَيْسَ بِذائِقٍ حُكْمًا، فيُؤَكَّدُ تَرْخيْصُ الاغْتِرافِ، ولَو أُخِّرَتْ لم تُفِدْ هَذِهِ الفَوائِدَ[4].

وكذلك ليَقَعَ بَعْدَ الجُمْلَةِ الَّتي فيها المُسْتَثنى مِنْهُ مَعَ الجُمْلَةِ المُؤَكِّدَةِ لَها؛ لِأَنَّ التّأكيدَ شَديدُ الاتِّصالِ بالمُؤَكِّدِ، وقَدْ عُلِمَ أَنَّ الاسْتِثْناءَ راجِعٌ إِلَى مَنْطوقِ الأولى ومَفْهومِ الثّانيَةِ، فإنَّ مَفْهومَ ﴿وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّىٓ﴾: أَنَّ مَنْ طَعِمَهُ لَيْسَ مِنْهُ، ليَعْلَمَ السّامِعونَ أَنَّ المُغْتَرِفَ غَرْفَةً بيَدِهِ، هوَ كَمَنْ لَمْ يَشْرَبْ مِنْهُ شَيْئًا، وأنَّه لَيْسَ دونَ مَنْ لَمْ يَشْرَبْ في الوَلاءِ والقُرْبِ، ولَيْسَ هوَ قِسْمًا واسِطَةً، والمَقْصودُ مِنْ هَذا الاسْتِثْناءِ: الرُّخْصَةُ لِلْمُضْطَرِّ في بِلالِ ريقِهِ[5].

(1) السِّجستاني، غريب القرآن: ص: 353.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/587.
(3) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 3/428.
(4) الألوسّي، روح المعاني: 1/561.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/497.

فنُّ الاحتراسِ في قولِه: ﴿بِيَدِهِۦٓ﴾:

إزالةُ اللَّبسِ والتَّوهُّمِ في تقديرِ مقدارِ الشُّرب

جاءَ التقيدُ في قَولِهِ تَعالَى: ﴿إِلَّا مَنِ ٱغۡتَرَفَ غُرۡفَةَۢ بِيَدِهِۦۚ﴾ بِقَوْلِهِ: ﴿بِيَدِهِۦۚ﴾ مَعَ أَنَّ الغَرْفَ لا يَكونُ إلّا باليَدِ؛ لِدَفْعِ تَوَهُّمِ أَنْ يَكونَ المُرادُ: تَقْديرَ مِقْدارِ الماءِ المَشْروبِ، فيَتَناوَلُهُ بَعْضُهُمْ كَرْهًا، فرُبَّما زادَ عَلَى المِقْدارِ، فجُعِلَتِ الرُّخْصَةُ الأَخْذَ باليَدِ[1]؛ قد يضطرُّ الجنديُّ للحفاظ على حياته أنْ يغترِفَ من الماء غَرْفةً بيده، من أجل إبقاء حياته، وهذا قدْرٌ يسيرٌ جدّاً في شُرب الماء بيده مرَّةً واحدةً، وممّا يؤكِّدُ هذه الضّرورةَ قولُه: ﴿بِيَدِهِۦۚ﴾، فكانتِ احتراساً في تطبيق الضَّرورة، فلا توجد مساحة لغرف الماء بكوب أو نَحْوِهِ، وبذلك يكون التَّقييد باليد لتحديد مقدار المشروب، حتّى يمنعَ التّجاوز.

دَلالةُ التَّعبير بالاستثناء في قوله تعالى: ﴿فَشَرِبُواْ مِنۡهُ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنۡهُمۡ﴾:

التَّمرُّدُ والعصيانُ طبيعةٌ إسرائيليَّةٌ

لمّا قال طالُوتُ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مُبۡتَلِيكُم بِنَهَرٖ﴾، أي: لا يَصِحُّ الشُّربُ منه؛ فمَنْ شرب منه ليس من جندي، ومع ذلك وقعوا في الشُّرب، الّذي هو من باب الكَرْعِ، فقدَّموا هواهم على أمر الله، وعصوا أمرَ قائدهم، وهذا من طبعهم إلّا القليلَ منهم، وهذا القليل دأبهم، كما في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقِتَالُ تَوَلَّوۡاْ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنۡهُمۡ﴾، وهذا يُشعِرُ بأنَّ أكثريَّةَ بني إسرائيلَ وقعت في الشُّرب، والقليلُ هو الّذي لم يشرب، وذكرَ العلماءُ تحت القليل قسمين: أحدهما: لم يطعمه البتَّةَ، والثّاني: اغترف بيده على قَدْر الضّرورة.

سِرُّ التَّعبير بصيغةِ: (جاوز) دون (جاز):

الدّلالة على تحمّل المصاعب لتحقيقِ الأهداف

آثرَ التَّعبيرُ الحكيمُ الفعلَ: (جاوز) الذي هو على صيغة (فاعَلَ)، الّتي تَدُلُّ على المبالغة فيما لاقاه الجيش، في صعوبة الوصول إلى

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/498.

المكان الذي دارت فيه المعركةُ، بخلاف: (جاز)، فلا تَدُلُّ إلّا على الانتقال من مكان لآخرَ، دون مشقَّةٍ أو عناءٍ[1].

سرُّ ذكرِ: ﴿ءَامَنُواْ﴾ في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ﴾:

ادّعاءُ الإيمانِ غيرُ كافٍ في البرهنةِ على الإيمانِ

جاء التَّعبيرُ بهذا التَّركيب ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ﴾، دون أن يقول: (والذين معه)؛ ليُنوِّه بشأنهم، وعلوِّ مكانتهم، وأنَّ من عداهم بمعزل عن الإيمان، فهم مع طالوت في أمرين: الأوّل: الإيمان، والآخر: الطَّاعة في الجهادِ، فهم من جهةٍ آمنوا، ومن جهةٍ أخرى صاحبوه في الجهاد، وهذا دليلٌ على أنَّ الإيمانَ النَّظريَّ القائمَ على الدَّعاوى لا يثبتُ في الواقعِ ما لم يُبرهن عليه بالأدلةِ العمليَّةِ.

ودَلَّت هذه المعيَّةُ على التّلاحم والتّكاتُف، وصدقِ العزيمة من أولئك الّذين ثبتوا ونجحوا في عدم الشُّرب من النَّهر، وهذا برهانٌ على صدق نيّاتهم، والتفافِهم حول راية الحقِّ.

وأيضاً: أنَّ الإيمان بالله هو السَّببُ في حملهم في طلب العزّة، وتحمُّل المشاقِّ من أجلها، والصَّبر على الشّدائد لنَيلها، والطّاعة لوليِّ أمرهم[2].

سرُّ التَّعبيرِ بالطّاقة دون القوّة:

تصويرُ الحالةِ النَّفسيَّةِ لبني إسرائيل عند ملاقاة العدوِّ

جاء التَّعبير بالطَّاقةِ في قولِه تعالى: ﴿قَالُواْ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلۡيَوۡمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦۚ﴾؛ لأنَّ الطّاقة تُطلق على ما يفعله الإنسان بمشقّة، وتُطلق أيضاً للتّعبير عن أقصى الجهد، ونهايةِ الاحتمال والتحمّلِ، أو فيما يثقُل على الإنسان أداؤه[3]، وهذه المعاني لا تَرِدُ مع غير الطّاقة، ولذلك كان تعبيرُهم يدلُّ على وجود الإيمان منهم، وأنّهم لم يخرجوا من حظيرة الإيمان؛ لأنّ الأمرَ فوق طاقتهم فيما يظنُّون،

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/589.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 2/901.
(3) الدوري، دقائق الفروق، ص: 165.

فهذه المفردةُ صوَّرت الحالةَ النفسيَّةَ لبني إسرائيل عند ملاقاةِ جالوت وجنودِه، فثباتُهم وملاقاتُهم لجالوت دليلٌ على أنَّ الابتلاءَ قد تحقَّقت غايتُه، وهي الصَّبر والثَّباتُ عند الملاقاةِ.

سرُّ التَّعبيرِ بالظَّنِّ على مَعْنَى العِلْمِ واليَقِين:

مدحُ المؤمنين والتَّعريضُ بغيرِهم

تَضَمَّنَ الظَّنُّ في قَوْلِه تَعَالَى: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ مَعْنَى العِلْمِ واليَقِين، فقَولُهُ تَعالى: ﴿يَظُنُّونَ﴾ بِمَعْنَى: يَعْلَمونَ ويوقِنونَ، وأَطْلَقَ لَفْظَ الظَّنِّ عَلَى اليَقين، عَلَى سَبيلِ المَجاز، لِما بَيْنَ الظَّنِّ واليَقين مِنَ المُشابَهَةِ في تأَكُّدِ الاعْتِقادِ[1]، وهوَ المَعْنَى المُناسِبُ لِصَفاتِ المؤمنينَ الصّادقينَ، الّذينَ نَذروا أَرْواحَهم للّه تَعالى، فأَطاعوه في تَلْبيةِ منادي الجِهادِ أَوّلًا، وفي عَدَمِ الشُّربِ مِنَ النَّهَرِ ثانيًا، وفي الثَّباتِ أَمامَ جَبَروتِ جالوتَ وجنودِه، وعَدَدِهم وعُدَّتِهم ثالثًا.

وعبَّر بالظَّنِّ دون اليقين؛ لأنَّ ذكرَ الظَّنِّ فيه تعريضٌ بمن لم يتيقَّن، وفيه مزيدُ مدحٍ للمؤمنين، أي: إذا كان هذا ظنُّهم فما بالك بيقينهم؟!

إيثارُ التَّعبيرِ باسم الفعل: ﴿مُّلَٰقُواْ﴾ دون الفعل: (يلاقوا):

عبَّر باسم الفاعل في قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ ٱللَّهِ﴾ دون الفعل المضارِع؛ لأنَّ ظنَّهم قائمٌ على الملاقاة الثَّابتةِ الآتيةِ؛ فَظَنُّ المؤمنين بمُلاقاة اللّه ثابتٌ دائمٌ: لا يَنْفَكُّ عنهم.

إيثارُ التَّعبيرِ بعنوانِ الألوهيّة دون الرّبوبيَّة:

المناسِبُ لمَشْهدِ القِيامةِ التَّعبيرُ بالألوهيّةِ

جاءَ التَّعبيرُ في قولِه تعالى: ﴿أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ ٱللَّهِ﴾ بلفظ الجلالة، دون لفظ الرُّبوبيَّة، ذلك أنَّ الحديثَ عن لقاء اللّه تعالى يوم القيامةِ فيما يَعْتَقِدُونَهُ، وهو مقامٌ قائم على الجلال والهيبةِ

(1) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 6/513.

والحسابِ والجزاء، فناسب أن يكون بعنوانِ الألوهيَّة، وهو من كلامِ الله تعالى في وصف اعتقادِهم وظنِّهم.

ويُضافُ إلى ذلك: أنَّ التَّعبيرَ بقوله: ﴿مُّلَٰقُواْ ٱللَّهِ﴾ هو الباعثُ القويُّ، والدَّافعُ للرِّضا بالقتال، والتَّضحيةِ بالنَّفْس، فالإيمانُ بلقاء الله: يجعلُ المرءَ لا يأبَهُ بالدُّنيا وما فيها، نظيرَ لقاءِ ربِّه، راضياً عنه، وذلك على القولِ بأنَّ اللِّقاء هو يوم القيامةِ.

الجِناسُ والمُقابلةُ، وَدَوْرُهما في أَدَاءِ المَعْنَى الدَّقِيقِ:

أثرُ المؤمنين الصَّادقين في تقويةِ الضُّعفاءِ

في قَوْلِه تَعالَى: ﴿كَم مِّن فِئَةٖ قَلِيلَةٍ غَلَبَتۡ فِئَةٗ كَثِيرَةَۢ﴾ جِناسٌ تامٌّ، ومُقابلَةٌ بَيْنَ: ﴿فِئَةٖ قَلِيلَةٍ﴾، و﴿فِئَةٗ كَثِيرَةٖ﴾، والمُرادُ مِنْ هَذِهِ العِبارَةِ: تَقْوِيَةُ قُلوبِ الَّذينَ قالوا: ﴿لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلۡيَوۡمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ﴾، والمَعنى: أَنَّهُ لا عِبْرَةَ بِكَثْرَةِ العَدَدِ، إِنَّما العِبْرَةُ بالتَّأييدِ الإِلَهيِّ، والنَّصْرِ السَّماويِّ، فإذا جاءَتِ الدَّوْلَةُ فلا مَضَرَّةَ في القِلَّةِ والذِّلَّةِ، وإذا جاءَتِ المِحْنَةُ فلا مَنْفَعَةَ في كَثْرَةِ العَدَدِ والعُدَّةِ[1]، وفيها تَحْريضٌ عَلَى القِتالِ، واسْتِشْعارٌ لِلصَّبْرِ واقْتِداءٌ بِمَنْ صَدَّقَ رَبَّهُ[2]، والمَعْنى: أَنّا لا نَكْتَرِثُ بِجالُوتَ وجُنودِهِ، وإِنْ كَثُروا، فإِنَّ الكَثْرَةَ لَيْسَتْ سَبَبًا لِلانْتِصارِ، فكَثيرًا ما انْتَصَرَ القَليلُ عَلَى الكَثيرِ، ولَمّا كانَ قَدْ سَبَقَ ذَلِكَ في الأَزْمانِ الماضيَةِ، وعَلِموا بِذَلِكَ، أُخْبِروا بِصيغَةِ: ﴿كَم﴾، المُقْتَضيَةِ لِلتَّكَثُّرِ[3]؛ إِذْ دَلَّتْ ﴿كَم﴾ الخَبَرِيَّةُ عَلى الكَثْرَةِ، والمعنى: قَدْ وقَعَ كَثيرًا في الماضي انْتِصارُ القِلَّةِ المؤمنةِ عَلى الكَثْرَةِ الكافِرَةِ، بِأَمرِ اللهِ تَعالَى، وإِذْنِهِ وتَوْفيقِهِ.

نُكتَةُ المُبالَغَةِ فِي الرَّدِّ عَلى القَائِلِينَ بِعَدَمِ الطَّاقَةِ عَلَى القِتَالِ

نكتةُ العدولِ في الجوابِ:

عدلَ النَّظم عن كلام القائلين: ﴿لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلۡيَوۡمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ﴾ فرُوعيَ في جَوابِ القائِلينَ: ﴿كَم مِّن فِئَةٖ قَلِيلَةٍ غَلَبَتۡ

(1) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 6/513.
(2) القرطبيّ: الجامع لأحكام القرآن: 3/255.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/591.

﴿فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ﴾ نُكْتَةٌ بَديعَةٌ، حَيْثُ لم يقُلْ: (أَطاقَتْ بِفِئَةٍ كَثيرةٍ)، حَسْبَما وقَعَ في كَلامِ أَصْحابِهم، وذَلِكَ مُبالَغَة في رَدِّ مَقالَتِهم، وتَسْكِينِ قُلوبِهم، وهَو جَوابٌ ناشِئٌ مِنْ كَمالِ ثِقَتِهم بِنَصْرِ اللّهِ تَعالى وتَوْفيقِه، أو الاستشهاد ولقاءِ اللّه تعالى يوم البعث.

إيثارُ التَّعبيرِ بفئةٍ دون جماعةٍ أو فريقٍ:

الإشارةُ إلى أثرِ التَّعاونِ والمساندةِ في النَّصرِ

عُبِّر بفئةٍ في قولِه تعالى: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتۡ فِئَةً كَثِيرَةًۢ﴾ لأنَّ الفِئَةَ مأخوذةٌ من الجماعة الّتي يَفِيءُ بعضُها إلى بعضٍ، كما هو في القتال، قال تعالى: ﴿أَوۡ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ﴾ [الأنفال: 16] وهي: الّتي يُعاوِنُ بعضُها بعضاً، ففيها معنى المساندةِ والمُعاوَنةِ، وهو المناسِبُ لأمر القتال.

ويمكنُ أنْ يُقالَ: سُمِّيت بفئةٍ لأنّها انشقَّتْ عن الّذين شربوا من النَّهر، فهي مأخوذةٌ مِنْ قولهم: فَأَوْتُ رأسَه بالعَصا، أيْ: شَقَقْتُهُ، وفيها معنى القُوَّةِ، وهو أيضاً يُناسِبُ مَقامَ الحرب.

الفرقُ بين الفئتين قائمٌ على الإيمانِ

وعبَّر في المقابل بفئةٍ كذلك لبيانِ أنَّ العدوَّ متآزرٌ متعاونٌ، وأنَّ التَّعاون القائمَ على أمرِ اللّه تعالى هو الذي يقودُ أصحابه إلى النَّصر، فليس كلُّ تعاونٍ مؤدِّيًا إلى النَّصر، وإنَّما هو المتعلِّق باللّه تعالى، وفيه فائدةٌ عظيمةٌ وهي أنَّ العملَ يجب أن يقوم على جانبين: أحدهما مادِّيٌّ، والآخر: معنويٌّ، فإيمانٌ دونَ عملٍ تواكلٌ، كما أنَّ العمل من غير إيمان لا يُنْتَفَعُ بِهِ في الدُّنيا أو الآخرة.

فائدةُ التَّعبير بأداةِ كم الخبريّة:

تثبيت المؤمنين من خلال الاعتبارِ بالسَّابق

عُبِّرَ بأداةِ ﴿كَم﴾ الخبريَّة؛ لتَثْبيت المؤمنين أنفسَهم، وتثبيتِ رفقائِهمُ الّذين قالوا: لا طاقةَ لنا اليومَ بجالُوتَ وجنودِه، والمقصودُ: ليستِ العِبرةُ بالكَثْرة في العَتاد والعُدَد؛ إنّما العِبرةُ بالتّأييدِ الإلهيِّ، فكثيرًا ما انتَصَرَ القليلُ على الكثير، وهذا واقعٌ في الأزمان الماضية.

وفيه إشارةٌ إلى جَواز قتالِ القليلِ للْكثيرِ، وهذا ما ذَكَرَهُ القرآنُ الكريمُ في قوله تعالى: ﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُواْ مِاْئَتَيْنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ يَغْلِبُوٓاْ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ [الأنفال: 65].

إيثارُ التّعبيرِ بقوله: ﴿غَلَبَتْ﴾:

قانونُ الغلبةِ مرتَهنٌ بالفئةِ لا بعددها

جاءَ التَّعبيرُ بالفعل: (غَلَبَ) دون غيره؛ لكسرِ المتوقَّع، فإنَّ المتوقَّع أنْ تَغْلِبَ الكَثْرَةُ القِلَّةَ، لا العكس، ولم يقل: (انتصرت)، لدفع توهم أنَّ الفئة لم تستعدّ، وأنَّ النَّصرَ جاءهم من غيرِ عمل، ولبيانِ أنَّ الغلبةَ لا علاقةَ لها بكثيرٍ أو قليلٍ، وإنما هي مرتبطةٌ بقوانين ماديّة ومعنويّة وعلى رأسها الإيمان؛ فالفئة تغلب الفئة، بقطع النظر عن العددِ، كثرةً وقلَّةً.

فائدةُ القيدِ: ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِۗ﴾:

الإذن الإلـهـيُّ مفتاحُ كلِّ نصرٍ

جاء التَّعبيرُ ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ دون أنْ يقولَ: بعِلْمه؛ لأنَّ الإذْنَ أَخَصُّ، فلا يُستعمَلُ إلّا فيما فيه مَشيئةٌ ما، ومعلومٌ أنَّ أمرَ الغَلَبَةِ يكون بمشيئته وأمْرِه، وذلك لأنَّ اللّه أوْجَدَ في الإنسان قوَّةً، فيها إمكانُ قَبول الضَّرَرِ من جهة مَنْ يَظْلِمُهُ فيضرُّه، ولا خلافَ في أنَّ إيجادَ هذا الإمكانِ مِنْ فعل اللّه تعالى[1]، وعلى هذا: فَغَلَبَةُ العدوِّ تكون بإذنه ومشيئته، وفيه إشارةٌ: إلى أنَّ اللّه إذا أَذِنَ بنَصْر عبادِه الّذين خرجوا مع طالُوتَ، فلا مانعَ مِنْ وُقوعه؛ لأنّه غالبٌ على أمره.

وفيها إشارةٌ ودعوةٌ إلى طلبِ الإذنِ من اللّه تعالى للنَّصرِ على جالوت وجنودِه، وأنَّه مفتاح كلِّ نصر، وفائدةٌ أخرى حسنةٌ وهي أن لا يظنَّ أحدٌ أنَّ الغلبةَ ذاتيَّة، فقيد: ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ نصٌّ في أنَّها من اللّه تعالى.

بلاغةُ الفاصلةِ القرآنيَّة:

وقوله ﷻ: ﴿وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ يَعْني: أَنَّ اللّهَ يَنْصُرُ الصّابِرينَ،

(1) الرّاغب، المفردات: (أذن).

التَّحْرِيضُ على الصَّبْرِ

إذا صَبَروا على طاعتِه، وما يُزْلِفُ عِنْدَهُ[1]، وفي قَوْلِهِ تَعالى: ﴿وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ تَحْريضٌ عَلَى الصَّبْرِ في القِتالِ، فإنَّ اللَّهَ مَعَ مَنْ صَبَرَ لِنُصْرَةِ دينِهِ، يَنْصُرُهُ ويُعينُهُ ويُؤَيِّدُهُ، ويُحْتَمَلُ أَنْ يَكونَ مِنْ تَمامِ كَلامِهِمْ، ويُحْتَمَلُ أَنْ يَكونَ اسْتِئْنافًا مِنَ اللَّهِ[2].

مُنَاسَبَةُ الفَاصِلَةِ لِمَعْنَى الآيَةِ

جاءَتِ فاصِلَةُ هَذِهِ الآيةِ، وهي قَوْلُهُ: ﴿وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ مُناسِبَةً لِسياقِ القِصَّةِ فيها، إذْ حَكَى قِصَّةَ خُروجِهِم مَعَ طالُوتَ للجهادِ والقِتالِ، ومُعاناةِ السَّفرِ ومَشاقِّهِ، والنَّهَرِ والابْتِلاءِ بِمَنْعِ الشُّربِ مِنْهُ، مَعَ صَفاءِ مائِهِ وعُذوبَتِهِ، وشِدَّةِ ظَمئِهِم وتَشَوُّفِهِم، وهيَ أَحْداثٌ تَتَطَلَّبُ صَبْرًا كَبيرًا، وإيمانًا راسِخًا، وهِمَّةً عاليَةً لِتُحْتَمَلَ، فناسَبَ اخْتِتامَ الآيةِ بِحُسْنِ عاقِبَةِ الصَّبْرِ، وهي مَعيَّةُ اللهِ الدّائِمَةُ، ومَنْ كانَ اللهُ مَعَهُ فلَنْ يَضُرَّه شَيْءٌ، ويُؤَيِّدُ هَذا: أَنَّ الوَقْفَ عَلى ﴿ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ وَقْفٌ تامٌّ[3]، لِتَمامِ المَعنَى.

مَعيّةُ اللهِ للصّابرين سبيلُ نصرِهم

عبَّر بالمَعِيَّةِ في قولِه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ لأنَّها تَستلزِمُ الحُبَّ، فلا معيَّةٌ خاصَّةٌ مِنْ غيرِ حُبٍّ، ولأنَّ المَقامَ هنا في القتالِ والمجاهدة، وهذا يقوِّي المؤمنين في قتالهم، حينما يُدركون أثرَ هذه المعيَّةِ، وممّا يُؤكِّدُ ذلك: ما ذكرَه القرآنُ الكريمُ في غزوة بَدْرٍ مِنْ معيَّته سبحانه، قال تعالى: ﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ﴾ [الأنفال: 12]، وفي هجرة رسول الله ﷺ، ومَعَهُ صاحبُه في الغارِ، قال تعالى: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: 40]، ومِثْلُ ذلك أيضاً في مَقامِ موسى مع فِرْعونَ، قال الله تعالى: ﴿قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: 46]، فكانتِ المَعيّةُ خيرَ سلاحٍ، في النَّصرِ والتَّثبيتِ في مثلِ هذه المواقفِ.

(1) الزّجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 1/332.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/592.
(3) الأنصاري، المقصد لتلخيص ما في المرشد: ص: 40.

﴿وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُواْ رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٢٥٠﴾ [البقرة: 250]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

عُطِفَتْ هذه الآيةُ على الآية الّتي قبلها؛ لأنّها تَكْمِلةٌ للقِصَّةِ، وتَتْميمٌ لها، فقصَّةُ خروجِ طالُوتَ بجَيشه لم تَنْتَهِ في الآية السّابقة، ولا يزالُ سِياق الحديث مُستَمِرًّا عن مُجريات الأحداث، وتفصيلاتِ القصَّة الدَّقيقة، ورسْمِ وقائعها؛ فناسبَ أنْ تأتيَ هذه الآيةُ مُكَمِّلةً للأحداثِ، مُتمِّمةً لها.

ويُضافُ إلى ذلك: لمّا ذَكرَتِ الآيةُ السّابقةُ مَقالةَ المؤمنين المُشجِّعين لإخوانهم، الّذين تهيَّبوا قتالَ أعدائهم، وقالوا تَثْبيتاً وتَحفيزاً لهم: ﴿كَم مِّن فِئَةٖ قَلِيلَةٍ غَلَبَتۡ فِئَةٗ كَثِيرَةَۢ﴾ الآية، ذَكَرَ في هذه الآيةِ ما قالَه المؤمنون عند مُلاقاة عدوِّهم في المعركة: ﴿رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا﴾.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿بَرَزُواْ﴾: (بَرَزَ) الباءُ والرّاءُ والزّاءُ أَصْلٌ واحِدٌ، وهوَ ظُهورُ الشَّيْءِ وبُدوُّهُ، قياسٌ لا يُخْلِفُ، يُقالُ: بَرَزَ الشَّيْءُ فهوَ بارِزٌ[1]، وبَرَزَ يَبْرُزُ بُروزًا: إذا ظهَرَ[2]، وبَرَزَ: خَرَجَ[3]، ومِنْهُ: المُبارَزَةُ لِلْقِتالِ، وهي: الظُّهورُ مِنَ الصَّفِّ[4]، وهوَ المعنى المراد هنا.

2) ﴿أَفۡرِغۡ﴾: جَذْرُه: (فَرَغَ)، والفاءُ والرّاءُ والغَيْنُ أَصْلٌ صَحيحٌ، يَدُلُّ عَلَى خُلوٍّ وسَعَةِ ذَرْعٍ، مِنْ ذَلِكَ الفَراغُ: خِلافُ الشُّغْلِ، يُقالُ: فرَغَ فَرَاغًا وفُروغًا، وفَرِغَ أَيْضًا، ومِنَ البابِ الفَرْغُ: مَفْرَغُ الدَّلْوِ الَّذي يَنْصَبُّ مِنْهُ الماءُ، وأَفْرَغْتُ الماءَ: صَبَبْتُهُ[5]، والإفراغُ: الصَّبُّ، قال

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (برز).
(2) ابن دريد، الجمهرة: (برز).
(3) الجوهريّ، الصّحاح: (برز).
(4) الرّاغب، المفردات: (برز).
(5) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (فرغ).

اللّه تعالى: ﴿أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا﴾، أيْ: اصْبُبْ[1]، وأَفْرَغْتُ الدَّلْوَ: صَبَبْتُ ما فيهِ، ومنهُ اسْتُعيرَ: ﴿أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا﴾[2]، أيْ: صُبَّ علينا الصَّبْرَ[3]، وهو المعنى المرادُ هنا.

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

ولمّا خَرَجَ طالُوتُ وجيشُه، ظاهرينَ في ميدان المعركة لجالُوتَ قائدِ قوات العَمالقة وجُنودِه، ورأوا الخطر رأي العين تَوَجَّهوا إلى اللّهِ بالدُّعاءِ قائلينَ: رَبَّنا صُبَّ على قُلوبِنا الصَّبْرَ صَبًّا، وثَبِّتْ أَقْدامَنا واجعلها راسخة في قتال العدو حَتَّى لا نَفِرَّ، ولا نَنْهَزِمَ أَمامَ عَدوِّنا، وانْصُرْنا بِقوَّتِكَ وتَأييدِكَ عَلى القَوْمِ الكافِرينَ[4].

❁ الإيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

سِرُّ اختيارِ التَّعبيرِ بالفعل: ﴿بَرَزُواْ﴾:

أثرُ المؤمنين في بناءِ الشَّجاعةِ والجرأة عند بقيَّة الجندِ

آثرَ القرآنُ الكريمُ التَّعبيرَ بالفعل: ﴿بَرَزُواْ﴾؛ لأنّه يُصوِّر أرضَ المعركةِ، فجنود طالوت برزوا لجالوت بعد أن كانوا مستورين أو بعيدين، فلما اقتربوا وظهروا؛ برزوا، والنَّظمُ يريد أن يُظهر ساعةَ الالتقاءِ، وأنَّها ساعةُ ظهورِ جند طالوت لجالوت وجنده؛ لبيانِ أنَّهم اكتسبوا الشجاعة والجرأة بعد شحنهم بالإيمان، وفي الآيةِ إشارةٌ إلى أنَّه قبل لقاءِ العدوِّ على المؤمنين العلماء الرَّبانيين توجيهُ بقيَّةِ الجند بالخيرِ والإيمانِ، وتذكيرُهم بما عند اللّه تعالى.

نكتةُ الاختلاف في المقابلة في قولِه تعالى: ﴿بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ﴾:

القائدُ متَّصلٌ بجندِه غير متميِّزٍ عنهم

جاء التَّعبيرُ في قولِه تعالى: ﴿بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ﴾ بذكر طالوت وجنوده بالإضمارِ ﴿بَرَزُواْ﴾ دون تفصيل، بينما في المقابل قال: ﴿لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ﴾ ففصَّل وذكر القائدَ وجندَه، ذلك أنَّهم قالوا في الآيةِ السَّابقة: ﴿لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلۡيَوۡمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦۚ﴾، ناسبَ

(1) الخليل، العين: (فرغ).
(2) الرّاغب، المفردات: (فرغ).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (فرغ).
(4) نخبة من العلماء، التّفسير الميسّر: ص: 41، وجماعة من العلماء، المختصر في تفسير القرآن الكريم: ص: 41.

في هذه الآية أن يُخبرَ عن ملاقاةِ من ذكروا، فجرى ذكرُ جالوت وجنودِه كالتَّذكير بقيلِهم قبل اللِّقاءِ، أي: قابلوا من ظنُّوا أن لا طاقة لهم بهم، وأمَّا ذكر طالوت وجنودِه بالضَّميرِ، فهو ما يقتضيه النَّظمُ، وللإشارةِ إلى أنَّ طالوت أثناء المعركة كان وَسَطَ جنوده في خَنْدَقٍ واحدٍ، فلا تمييزَ بين القائد وجُنده.

نكتةُ التَّعبير بلفظِ: ﴿قَالُواْ﴾ دون دعوا:

صدورُ الدُّعاءِ عن الجميعِ مرَّةً واحدةً أحرى بالإجابةِ

عَبَّرَ القرآنُ الكريمُ عن دعاءِ المؤمنين بلفظِ: ﴿قَالُواْ﴾ دون (دَعَوْا)؛ لأنَّ القولَ يُشيرُ إلى رفعِ الصَّوت بالدُّعاء في المعركة، وأنَّهم دعوا مرَّةً واحدةً مجتمعين، بخلاف: (دعوا)، فقد يكونُ سِرّاً، وقد يكون عَلانيةً، وقد يكون من الجميع وقد يكون من الأفراد، وهذا ما وقع من العلماءِ والأقوياءِ مِنْ عَسْكَرِ طالُوتَ، لَمّا قَرَّروا مَعَ العَوامِّ والضُّعَفاءِ أَنَّهُ: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِۗ﴾، وأَوْضَحُوا: أَنَّ الفَتْحَ والنُّصْرَةَ لا يَحْصُلانِ إلّا بإعانَةِ اللّهِ، ولَمّا بَرَزَ عَسْكَرُ طالوتَ إلَى عَسْكَرِ جالُوتَ، ورأَوُا القِلَّةَ في جانِبِهِمْ، والكَثْرَةَ في جانِبِ عَدوِّهِمْ، اشْتَغَلوا بِالدُّعاءِ والتَّضَرُّعِ، فقالوا: ﴿رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا﴾[1].

سرُّ الدُّعاء بلفظ: ﴿رَبَّنَآ﴾:

الرُّبوبيَّةُ هي مقامُ الرِّعايةِ والعنايةِ والنَّصرِ

لَمّا كان دعاء المؤمنين بإفراغِ الصَّبرِ - والصَّبرُ: حَبْسُ النَّفْسِ على شدائد القتال وأهوالِه - دَعَوا بَلَفظِ: ﴿رَبَّنَآ﴾؛ لإعلان عُبوديتِهم وتَذَلُّلِهم لخالِقِهم ومربّيهم وناصِرِهم؛ لينالُوا العَونَ والمَدَدَ، ولفظ (الرَّبِّ) دالٌّ على الإصْلاحِ، وعلى المُلْكِ، ففي ذَلِكَ إشْعارٌ بالعُبوديَّةِ، فهُمْ قَدْ تَوَسَّلوا إلى اللّهِ تَعالى بِرُبوبيَّتِه لهم، وعُبوديَّتِهمْ لَهُ، ففي قَوْلِهِمْ ﴿رَبَّنَآ﴾: إقرارٌ لِلّهِ تعالى بِالوَحْدانيَّةِ، وإقْرارٌ لَهُ بالعُبوديَّةِ[2]،

(1) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 6/514.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/592.

وهوَ مَقامٌ عَظيمٌ وشَريفٌ، مِنْ مَقاماتِ التَّعَرُّضِ لِرَحْمَةِ اللّهِ تعالى ولُطْفِهِ، ومُناسِبٌ لأَنْ يَتَوَسَّلوا بِهِ إِلَى اللّهِ لِنُصْرَتِهم.

بلاغةُ الاستعارةِ في الآية:

يقينُ العبدِ بأنَّ النَّصرَ من الله يقودُه إلى طلبِ أسبابِه

جاءَ التَّعبيرُ عَنْ إِلْهَامِهِمْ إِلَى الصَّبْرِ بِالْإِفْرَاغِ اسْتِعَارَةً لِقُوَّةِ الصَّبْرِ؛ فَإِنَّ الْقُوَّةَ وَالْكَثْرَةَ يَتَعَاوَرَانِ الْأَلْفَاظَ الدَّالَّةَ عَلَيْهِمَا؛ فَاسْتُعِيرَ الْإِفْرَاغُ هُنَا لِلْكَثْرَةِ مَعَ التَّعْمِيمِ وَالْإِحَاطَةِ، وَتَثْبِيتِ الْأَقْدَامِ اسْتِعَارَةً لِعَدَمِ الْفِرَارِ شِبْهِ الْفِرَارِ وَالْخَوْفِ بِزَلَقِ الْقَدَمِ، فَشَبَّهَ عَدَمَهُ بِثَبَاتِ الْقَدَمِ فِي الْمَأْزِقِ[1]، ورشَّح الاستعارةَ تعديةُ الفعلِ بـ ﴿عَلَيْنَا﴾ الّذي يَدُلُّ على الاسْتعلاء، فسألوا ربَّهم أنْ يَصُبَّ عليهم الصَّبرَ، حتّى يكونَ مُسْتَعلياً عليهم، ويكونَ لهم كالظَّرْف، وهم كالمَظْروفين فيه، صَبْراً على مُقاساة شدائدِ الحرب، واقتحامِ مواردِها.

وبلاغةُ الاستعارةِ تظهر في أنَّ الجندَ دعوا اللّه تعالى بإفراغ الصَّبرِ عليهم، ليتمكَّنوا من النَّصرِ، وفيه إشارةٌ إلى أنَّهم علموا أنْ لا نصرَ إلَّا به سبحانه، فطلبوا منه أسبابَه وهو الصَّبرُ والتَّثبيتُ.

سِرُّ التَّرتيبِ البَليغِ في دُعاءِ المؤمنينَ:

عملُ القلوبِ أصلُ عملِ الجوارحِ، وبهما تتحقَّقُ الأعمالُ

رتَّبتِ الآيةُ: ﴿رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٢٥٠﴾ الدُّعاءَ بذكرِ إفراغِ الصَّبرِ، وتثبيتِ الأقدام، والنَّصرِ على الكافرين، وهو تَرْتيبٌ بَليغٌ، إذْ سألوا أوَّلاً إفراغَ الصَّبرِ في قُلوبِهم، الَّذي هوَ مَلاكُ الأَمرِ، ثُمَّ ثَباتَ القَدَمِ في مَداحِضِ الحَرْبِ، ثُمَّ النَّصْرَ على العَدوِّ، المُتَرَتِّبَ عَلَيْهِما[2]، فالصَّبرُ عملُ القلوبِ، وتثبيتُ الأقدامِ عملُ الجوارحِ، والنَّصرُ على الكافرين نتيجة الأمرين.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/499.
(2) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 1/152.

بلاغةُ الكِنَايَةِ في قولِه: ﴿وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا﴾:

الكنايةُ عَنِ التَّشْجِيعِ بِطَلَبِ ثَبَاتِ الأَقْدَامِ أبلغُ من التَّصريح بها

قالَ المؤمنون: ﴿وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا﴾، أي: فلا تَزِلُّ عن مَداحِضِ القِتالِ، وهوَ كِنايَةٌ عن تَشْجيعِ قُلوبِهِمْ وتَقْوِيَتِها، ولَمّا سأَلوا ما يَكونُ مُسْتَعْلِيًا عَلَيْهِمْ مِنَ الصَّبْرِ، سأَلوا تَثْبيتَ أَقْدامِهِمْ وإِرْساخها[1]، فإنَّ تثبيتَ الأقدامِ لا يكون إلَّا باكتسابِ القلوبِ شجاعةً وجرأةً على المواجهة، مع الصَّبرِ الذي صرَّحوا بطلبِ إفراغِه عليهم، والكنايةُ أبلغُ من التَّصريحِ؛ لما في التَّصريحِ من ذكر الشَّجاعةِ التي تُقابلُ الجبن، وهو يشعر بأنَّهم اتَّصفوا بالجبن فطلبوا دفعَه بالشجاعةِ.

بلاغةُ الفاصلةِ القرآنيَّة:

إيمانُ العبدِ وكفرُ العدوِّ سببٌ في النَّصرِ

خُتِمت الفاصلة القرآنيّة بقولِه تعالى: ﴿وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ أَيْ: أعِنّا عليهم، وجاؤوا بِالوَصْفِ المُقْتَضي لِخُذْلانِ أَعْدائِهِمْ، وهوَ الكُفْرُ، وكانوا يَعْبُدونَ الأَصْنامَ[2]، فالإيمانُ المبدوءُ به في الدُّعاءِ يقابلُ الكفرَ المنتهي به في الفاصلةِ، فهم بدأوا داعين بإيمانِهم، لينتصروا به على كفرِ غيرِهم.

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/592.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/592.

﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾﴾ [البقرة: 251]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمّا بيَّنَ اللّهُ سبحانه وتعالى في الآية السّابقة لُجوءَ المؤمنين إلى الدُّعاء، عند رُؤية جيش جالُوتَ وكثرتِه، بعد أخذِ أُهْبَةِ الاسْتعداد، وطلبِ المَعُونة والصَّبرِ من اللّه، رَتَّبَ على ذلك النَّتيجةَ، وأَخْبَرَ في هذه الآيةِ بإجابة دعائِهم، وهُزِمَ جالُوتُ وجنودُه بإذن اللّه، وإعانتِه وتوفيقِه وتَيسيرِه، ولولا إعانتُه وتيسيرُه، لَمَا حَصَلَتْ هزيمتُهم[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَءَاتَىٰهُ﴾: الإيتاءُ الإِعْطاءُ، تقولُ: آتَى يُؤْتي إيتاءً[2]، وآتى يُؤْتي إيتاءً، بمعنَى: أَعْطَى[3]، ويقال: آتَاه: جَازَاهُ. وَرَجُلٌ مِيتاءٌ: مُجازٍ مِعْطاء[4].

ومعنى ﴿وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ﴾: وأَعْطاهُ اللّهُ المُلْكَ.

2) ﴿وَٱلْحِكْمَةَ﴾: جَذْرُ الكَلِمَةِ الفِعْلُ الثُّلاثيُّ الصَّحيحُ: (حَكَمَ)، والحاءُ والكافُ والميمُ: أَصْلٌ واحِدٌ، وهوَ المَنْعُ، وأَوَّلُ ذَلِكَ الحُكْمُ، وهوَ المَنْعُ مِنَ الظُّلم، وسُمِّيَتْ حَكَمَةُ الدّابَّةِ: لِأَنَّها تَمْنَعُها، يُقالُ: حَكَمْتُ الدّابَّةَ وأَحْكَمْتُها، ويُقالُ: حَكَمْتُ السَّفيهَ وأَحْكَمْتُهُ، إذا أَخَذْتَ عَلَى يَدَيْهِ، والحِكْمَةُ هَذا قياسُها؛ لِأَنَّها تَمْنَعُ مِنَ الجَهْلِ، وتَقولُ: حَكَّمْتُ فُلانًا تَحْكيمًا: مَنَعْتُهُ عَمّا يُريدُ، وحُكِّمَ فُلانٌ في كَذا، إذا جُعِلَ أَمْرُهُ إِلَيْهِ، والمُحَكَّمُ: المُجَرَّبُ، المَنْسوبُ إِلَى الحِكْمَةِ[5].

(1) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 6/515، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 3/437.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرّاغب، المفردات: (أتى).
(3) ابن دريد، الجمهرة: (أتى).
(4) ابن منظور، اللسان: (أتى).
(5) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (حكم).

والحِكْمَةُ: فَهْمُ المعاني[1]، والحِكْمَةُ: العَدْلُ والحِلْمُ[2]، والحِكْمَةُ: إِصابَةُ الحَقِّ بِالعِلْمِ والعَقْلِ، وهيَ مِنَ الإِنسانِ: مَعْرِفَةُ المَوْجُودَاتِ، وفِعْلُ الخَيْراتِ[3].

3) ﴿لَّفَسَدَتِ﴾: (فَسَدَ) الفاءُ والسّينُ والدّالُ: كَلِمَةٌ واحِدَةٌ، فسَدَ الشَّيءُ، يَفْسُدُ فسادًا وفُسودًا، وهوَ فاسِدٌ وفَسيدٌ[4]، والفَسادُ: نَقيضُ الصَّلاحِ، وفَسَدَ يفسُدُ، وأَفْسَدْتُهُ[5]، والفَسادُ: خُرُوجُ الشَّيءِ عَنِ الاعْتِدالِ، قَليلًا كانَ الخروجُ عنهُ، أَو كثيرًا[6]، والفَسادُ: الجَدْبُ في البَرِّ، والقَحْطُ في البَحْرِ، وفَسَدَ الشَّيْءُ: بَطَلَ واضْمَحَلَّ، والفَسادُ: ذَهابُ نَفْعِ الشَّيءِ المقصودِ مِنهُ، أَيْ: تَلَفُهُ وهَلاكُهُ، لحِدَّةٍ ضارَّةٍ، تَسْري في أثنائِه؛ كالجَدْبِ في الأَرْضِ[7].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

لَمّا وَقَعَتِ المُنازَلَةُ: هَزَمَ طالُوتُ وجيشُه، جالُوتَ وجنودَه، بعون اللهِ وتوفيقه، وقَتَلَ داودُ - بيده لشجاعته وقوته وصبره، وكان مع جنود طالوت - قائِدَ العمالقةِ وملكَهم جالُوتَ، وأعطى اللهُ ﷻ داود عليه السلام - بعد ذلك - المُلك والنُّبوة في بني إسرائيل، وعَلَّمَهُ مِمّا يَشاءُ مِنْ أَنْواعِ العُلومِ، فجَمَعَ لَهُ بَيْنَ ما يُصْلِحُ الدُّنْيا والآخِرَةَ، ثمَّ بَيَّنَ اللهُ سبحانه وتعالى: لولا أنَّه يدفع ببعض الناس - وهم أهل الطاعة له والإيمانِ به - بعضًا، وهم أهل المعصية لله والشركِ به، لفسدت الأرض بغلبة الكفر، وتمكُّن الطغيان، وأهلِ المعاصي. فالتَّدافُعُ بين الخيرِ والشَّرِّ، وبينَ الحقِّ والباطل، وغير ذلك، مِنْ مَواقع التَّدافع في الحياة، هو الّذي يُحرِّكُ دُولابَ العملِ على هذه الأرضِ، ويَبعَثُ الحياةَ في كلِّ جوانبها، ولو كان النّاسُ على مَنْهَجٍ واحدٍ، ونَمَطٍ واحدٍ، لكانوا شيئاً واحداً، كَكُتْلَةٍ باردةٍ مُتَضَخِّمَةٍ، ولكنَّ اللهَ ذو فضلٍ على العالمين، بهذا التَّدافُعِ[8].

(1) الفارابيّ، ديوان الأدب: 1/200.
(2) ابن عبّاد، المحيط: (حكم).
(3) الرّاغب، المفردات: (حكم).
(4) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (فسد).
(5) الخليل، العين: (فسد).
(6) الرّاغب، المفردات: (فسد).
(7) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (فسد).
(8) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 41، ونخبة من العلماء، التفسير الميسر، ص: 41.

الإيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

معنى الفاءِ في قولِه تعالى: ﴿فَهَزَمُوهُم﴾:

الجمع بين الدّلالة على المعاني المطويّة، والسَّببيَّة

تحتمل الفاءُ أن تكون عاطفةً؛ للدَّلالة على جُمَلٍ محذوفةٍ، يَقتضيها سياقُ الكلامِ والتَّقدير؛ فنَشَبَتِ المعركةُ، والْتَحَمَ الجيشانِ، وتفوَّقَ طالُوتُ وجنودُه، فَهَزموهم بإذن اللّه، وأن تكون فصيحةً، أي: إذا شئت أن تعرف ماذا أسفرت عنه المعركة فقد هزموهم[1].

وللدَّلالة على سُرعة انْتصارِ طالُوتَ وجيشِه على عدوِّهم، وهذا الانْتصارُ أدّى إلى نجاح بني إسرائيلَ في بلاد العَمالِقة، وفيها معنى السَّببيَّةِ، أيْ: بسببِ قُوَّةِ عَزْمِهم، وحُسنِ صبرِهم، وضراعَتِهم إلى ربِّهم؛ هزموهم بإذن اللّه.

سرُّ التَّعبيرِ بالهزيمة دون غيرِها من الألفاظ:

تصويرُ ضعفِ العدوِّ ذي الكثرةِ الكاثرةِ

جاء التَّعبيرُ القرآنيُّ بالفعل ﴿فَهَزَمُوهُم﴾: لأنَّ أصْلَ الهَزْمِ في اللُّغة: كَسْرُ الشَّيءِ، وثَنْيُ بعضِه على بعضٍ؛ ولذلك: فهذا الفعلُ يُشيرُ إلى كَسْرِ العَدُوِّ، وردِّه ودَحْرِه؛ لأنَّ العَدُوَّ في هُجومه يُشْبِهُ الصَّخْرةَ، فإذا رُدَّ على أعقابه، تكونُ حالُه كالتَّكَسُّرِ بعد الاجتماعِ، والتَّقَطُّعِ بعد الاتِّصال[2]، ويدل على قوَّةِ العدوِّ وصلابتِه، ولذلك فإنَّ هزيمةَ العدوِّ غير متوقَّعةٍ، فجاء بالتَّعبيرِ الدَّقيق الذي يحمل معنى المفاجأةِ، وكذلك يدلُّ الهزمُ على الغمزِ، "فَالْهَزْمُ: أَنْ تَغْمِزَ الشَّيْءَ بِيَدِكَ فَيَنْهَزِمَ إِلَى دَاخِلٍ"[3]، وهو معنًى يصوِّر المشهد؛ فكأنَّهم هزموهم بأن دخلوا في باطِنِ جيشِهم؛ فانهزموا إلى داخلٍ، وهو يدلُّ على القوّة والصَّلابة الظَّاهرةِ، والهشاشةِ الباطنةِ في جندِ العدوِّ.

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 1/374.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 2/907.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (هزم).

دَلالةُ قيدِ ﴿بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾:

دفعُ غرورِ المنتصرين منهجٌ تربويٌّ قرآنيٌّ

وَقَعَتِ الهزيمةُ للأعداء مُقيَّدةً بإذن الله؛ حتّى تُثبِتَ أنَّ النَّصرَ على الأعداء بمَعُونة الله، وكي لا يقعَ الغرورُ من المنتصرين، وعَبَّرَ بلفظ الجلالة، دون لفظ الرَّبِّ؛ لأنَّ المَقامَ يَقتضي العَظَمَةَ والجبروتَ، بخلافِ ما جاءَ عليه التَّعبيرُ في أوّل سورةِ إبراهيمَ ﴿بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ﴾ [إبراهيم: 1]؛ لأنَّ المَقامَ هناك مَقامُ الإنعام والتَّربية، بإرسال الرّسول، وإنزالِ الكتاب.

فائدةُ ذكرِ داود في قولِه: ﴿وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ﴾:

إرهاصٌ من إرهاصات داود فيما كان في شأنِه

أخبرَ السِّياقُ عن قتل داود جالوت، في قوله تعالى: ﴿وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ﴾، ولم يُسند القتل لطالوت؛ وذلك لإبراز دور الجنديِّ المخلص، وأنَّ الله يُظهر من يشاءُ من عبادِه، وهو إرهاصٌ في شأن داود عليه السلام وما كان له في المستقبل من الملك والنبوة، وفيه تنبيهٌ خطابيٌّ ولفتٌ للأنظارِ لفعل داود في قتل جالوت فيُعلم أنَّه كان في أولئك الجندِ، ولتعليم النَّاسِ أنَّ من يُخلص لله يوصله منازل الكرام.

سِرُّ التَّعبير بالإيتاء للمُلْك والحكمة، دون الإعطاء:

الملكُ مهما كبُر حجمُه فهو محدودٌ منتهٍ وجودُه لا محالة

نَلْحَظُ من خِلالِ تَدَبُّرِ اسْتِعمالِ القُرآنِ لِلَفْظَيِ الإيتاءِ والإعطاءِ، أَنَّ الإيتاءَ خاصٌّ فِيما يُنالُ في الدُّنْيا وهوَ مُحدَّدٌ مَعلُومٌ، والإعطاءَ عَامٌّ فيما يُنالَ في الدُّنْيا والآخِرَةِ وهو غيرُ مُحدَّدٍ، فاستُعمِلَ الإيتاءُ في إيتاءِ الزَّكاةِ، والآيَاتِ، والبَيِّنَاتِ، والحِكْمَةِ، والعِلْمِ، والإنْجِيلِ، والزَّبُورِ، والنُّبوَّةِ، والمُلْكِ، وزُبرِ الحديدِ، والأُكُلِ، والتَّقوى، وهذه مُحدَّدَةٌ مَعلومَةٌ، وَهِيَ خاصَّةٌ فيما يُنَالُ في الدُّنْيا، أَمَّا الإعطَاءُ فَاسْتُعمِلَ في إعْطَاءِ الكَوْثَرِ، والجزَاءِ في الجَنَّةِ، والرِّزقِ، والجزيةِ، وإعْطَاءِ كُلِّ شَيْءٍ خَلْقَهُ، وذُكِرَ فِعلُ الإعطاءِ دُونَ مَفعولٍ للإطلاقِ من مِثْلِ قَولِه: ﴿وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ ۝٥﴾ [الضحى: 5]، وقَوْلِه: ﴿فَأَمَّا

﴿مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥﴾ [الليل: 5]، وقوله: ﴿وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ۝٢٠﴾ [الإسراء: 20]، وهذه غيرُ مُحدَّدَةٍ، وتَكُونُ عامَّةً في الدُّنْيَا والآخِرَةِ.

والذي جاءَ في الآيةِ هو الإيتاءُ، ذلك أنَّ الإيتاءَ كان لأمرِ الملك، وهو لا يكون إلّا في الدُّنيا، وهو محدَّدٌ غير مطلق.

نكتةُ قرنِ المُلْكِ بالحكمةِ:

تكريم الله لداود بجمع المفترقِ

جمعَ اللّه تعالى بَيْنَهما؛ لاحتياج المُلْكِ إلى الحكمةِ في إقامة العَدْلِ؛ فالمُلْكُ مِنْ غير حكمةٍ: جَبَروتٌ وطُغيانٌ، وللدَّلالةِ على تكريم اللّه لداودَ، حيث جَمَعَ له ما كان مُتَفَرِّقاً، مِنْ أَمْرِ المُلْكِ والنُّبُوَّةِ، فكان المُلْكُ في سِبْطٍ مِنْ أَسْباط بني إسرائيلَ، والنُّبوَّةُ في سِبْطٍ آخرَ، فَجُمِعَ له بينَهما[1].

سِرُّ تقديم المُلْك على الحكمة:

بيانُ ترقِّي داود عليه السلام، والتَّدرجِ في نيل السَّعادات

قَدَّمَتِ الآيةُ المُلْكَ على الحكمة؛ لبيانِ تَرَقّي داودَ عليه السلام في معارج السّعادات، والتَّدرُّجُ في مِثْلِ هذا المَقام من الشَّريف إلى الأشْرف، هو التَّرتيبُ الطَّبيعيُّ، ولأنَّ الحكمةَ جاءت بعد المُلْكِ؛ لأنّه كان مَحَلَّ عنايتِهم، وعليه مَدارُ اهتمامِهم، وهو مَحَلُّ سُؤالهم في قولهم: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا﴾ [البقرة: 247]؛ لذلك قَدَّمَهُ[2].

فائدةُ عطفِ التَّعليمِ على إيتاءِ الملك والحكمة:

عُطِفَ قولُه: ﴿وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَآءُ﴾ على قوله: ﴿وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾؛ للإشعار بأنَّ العلمَ أمرٌ زائدٌ على الحكمة، وأنَّ الإنسانَ لا يَستغني عن التعلُّم مهما كان- إنْ نَبِيًّا وإنْ عَالِمًا -؛ لأنَّ داودَ عليه السلام - مَعَ حُصوله على النُّبوَّة - في حاجةٍ إلى تَعليم اللّه إيّاهُ؛ ولذلك أَمَرَ اللّه نبيّنا ﷺ أنْ يَلْتَمِسَ المزيدَ من العلم في قوله: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ۝١١٤﴾

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 3/438، والبغويّ، معالم التّنزيل: 1/307.
(2) النيسابوري، غرائب القرآن: 1/673.

[طه: 114]، وفيه إشارةٌ أيضاً إلى تَعليم اللّهِ داودَ العلومَ الدُّنيويَّةَ، كصناعة الدُّروع، والتَّقْديرِ في السَّرْدِ، إضافةً إلى تعليمِه كلامَ الطَّيرِ والنَّمْلِ، قال تعالى: ﴿أَنِ ٱعۡمَلۡ سَٰبِغَٰتٖ وَقَدِّرۡ فِي ٱلسَّرۡدِۖ﴾ [سبأ: 11]، وقال تعالى: ﴿وَعَلَّمۡنَٰهُ صَنۡعَةَ لَبُوسٖ لَّكُمۡ لِتُحۡصِنَكُم مِّنۢ بَأۡسِكُمۡ﴾ [الأنبياء: 80].

دَلالةُ تقييدِ العلمِ بالمشيئةِ في قوله: ﴿وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ﴾:

سَعَةُ تعليم اللّه لداود، دليلُ الاصطفاءِ والتَّشريف

لم يُذكر مفعول التعليم ولم يُعيَّن، فتعلَّق التَّعليمُ بما يشاءُ اللّه تعليمَه إيَّاه، وفيه إشارةٌ إلى سَعَةِ العلم، وأنّه كثيرٌ مُتَشَعِّبٌ، لا تَحُدُّهُ إلّا مَشيئةُ اللّه وإرادتُهُ، فَعَلَّمَهُ اللّهُ سِياسةَ المُلْكِ وأحوالَ النّاسِ، وتَنازعَ النُّفوسِ، وأحوالَ البُلدان، إلى غير ذلك مِنْ تعليمِ اللّهِ له، بالنُّبوَّةِ الّتي مَنَحَهُ إيّاها[1]، وفي ذلك دليلٌ على اصطفاء اللّه لداود عليه السلام في أمر العلم، وتشريفٌ له أن يُنزِلَه هذه المنزلة.

معنى أداة الشّرط ﴿وَلَوۡلَا﴾ في سياقِ الآيةِ:

الحضُّ على مدافعةِ الباطلِ والفسادِ لمنعِ انتشارِه

(لولا) حرفُ امْتناعِ شيءٍ لوجود غيره، أيْ: امتنعَ فسادُ الأرضِ، لأجلِ وُجودِ دَفْعِ النّاسِ بعضَهم ببعضٍ، فلولا هذا الدَّفعُ لفسدتِ الأرضُ، ففيها معنى التَّحريضِ على المدافعةِ، ورفضِ كلِّ أشكالِ الفسادِ، كي لا يعمَّ في الأرضِ كلِّها، فالآيةُ الكريمةُ: تأمُرُ أهلَ الخير في كُلِّ زمانٍ ومكانٍ، أنْ يَقِفُوا في وجه أهلِ الشَّرِّ، وأنْ يُقاوموهم، بكُلِّ وَسيلةٍ مِنْ شأنها أنْ تَحُولَ بينَهم، وبينَ الفسادِ والطُّغيان[2].

توجيه القراءات القرآنيَّة:

سنَّةُ المدافعةِ من شأنِها إيقافُ حركةِ الفسادِ العالميِّ

اختَلَفَ القُرَّاءُ في قراءةِ ﴿دَفۡعُ﴾؛ فَقَرَأَ الْمَدَنِيَّانِ وَيَعْقُوبُ: ﴿دِفَعُ﴾ بِكَسْرِ الدَّالِ وَأَلِفٍ بَعْدَ الْفَاءِ، وَقَرَأَ الْبَاقُونَ: ﴿دَفۡعُ﴾ بِفَتْحِ الدَّالِ، وَإِسْكَانِ الْفَاءِ مِنْ غَيْرِ أَلِفٍ[3].

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 2/909.
(2) طنطاوي، التّفسير الوسيط: 1/574.
(3) ابن الجزري، النشر: 2/230.

والقراءتان متكاملتان متضافرتان غيرُ متدافِعتَيْن؛ فقراءة ﴿دَفْعُ﴾ تدلُّ على أنَّ اللّه يدفع بسننه التي خلق النَّاسَ عليها بعضَهم ببعضٍ، ومعنى الدفاع في قراءة: ﴿دِفَعُ﴾ يكون باستجابة النَّاس لهذه السُّنَّة التي خلقهم اللّه عليها، "وَكَانَ أَبُو عَمْرو يَقُول: إِنَّمَا الدفاع من النَّاس، وَالدَّفْع من اللّه"[1]، ومن شأنِ المدافعةِ - بقطْعِ النَّظرِ عن القائمِ عليها - أن تُنهي الفسادَ، وأن تفتحَ بابًا لأهل الحقِّ.

دلالةُ التَّعبيرِ بلفظِ النَّاسِ في قولِه تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ﴾:

سنَّةُ المدافعةِ عامَّةٌ، ومآلُها على أهل الخيرِ خاصَّةً

جاءَ التَّعبيرُ القرآنيُّ في قولِه تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ﴾ بلفظِ النَّاسِ، دون المؤمنين أو المسلمين، أو الصَّالحين؛ لبيانِ أنّه لا يوجَدُ أقوامٌ بأعيانهم للخير، وآخرون للشَّرِّ، فقد يكونُ بعضُ النّاس فيه خيرٌ في بعض النّواحي، فيَدْفَعُ شَرَّ غيرِه في ناحية أخرى، ويكونُ في الآخَر شرٌّ؛ لكنّه يَدْفَعُ به ظُلْمَ الآخَرِ، ويَنْصُرُ الحقَّ، ومِنَ السُّنَنِ الإلهيّةِ: أنْ يُنصَرَ الحقُّ بالأخيار والأشرار؛ فجاء التَّعبيرُ بهذا العُموم، ليَعُمَّ تلك الأحوالَ[2]، وسنَّةُ المدافعةِ عامَّةٌ بين أهل الإسلامِ والكفرِ، لكنَّ مآلَها ونتيجتَها خاصَّةٌ في أهل الإسلامِ.

دلالةُ عطفِ جملةِ الفاصلةِ القرآنيَّة:

عُطفَت الفاصلةُ: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ على ما قبلها؛ للدّلالة على أنّ ذلك التَّنْظيمَ الحكيمَ في أمر التَّدافُعِ، هو مِنْ فَضْلِ اللّه، ورحمتِه، وإنْعامِه على خَلْقِه، وليسَ ذلكَ بواجبٍ عليه سبحانه وتعالى؛ لأنّه خَلَقَ للنّاس عُقولاً، يَعرفونَ بها الخيرَ من الشَّرِّ؛ فإنْ ساروا في طريق الخيرِ والفلاحِ، فَلَهُم ما قَصَدُوا إليه، وإنْ ساروا في طريقِ الشَّرِّ و الفسادِ، فإلى الهاويةِ يَسيرونَ.

توجيه المخصوصِ بالذِّكرِ:

آثر النَّظمُ القرآنيُّ ذكرَ لفظِ: ﴿ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ دون المؤمنين أو

(1) ابن زنجلة، حجة القراءات: 140.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 2/913.

فضل الله يعمُّ العالمين جميعًا دون استثناءٍ أو إقصاءٍ

المسلمين ممَّا يقتضيه ظاهرُ الفهمِ البشريِّ القاصرِ؛ لبيانِ أنَّ فضلَ اللّهِ يعمُّ الجميعَ، وأنَّ رحمةَ اللّه وسِعت كلَّ شيءٍ، فقد تَفَضَّلَ اللّهُ سبحانَه وتعالى بهذا الفَضْلِ، وأَنْعَمَ بهذه النِّعمةِ على خَلْقِهِ، مِنْ دَفْعِ الفسادِ في الأرضِ، وهو امْتِنانٌ يَنْعَمُ به المؤمنونَ والمُشركونَ، والأَبرارُ والأَشْرارُ على حَدٍّ سواءٍ؛ لأنَّ الفسادَ إذا عَمَّ لا يَسْلَمُ منه أحدٌ، قال تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةٗ لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗ﴾ [الأنفال: 25]، والخيرُ إذا تَحَقَّقَ عَمَّ الجميعَ، وقد دَلَّ اخْتيارُ هذا اللَّفْظِ ﴿ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ على هذه المعاني، الّتي عَمَّ الخيرُ فيها جميعَ النّاسِ، مُؤمنَهم وكافرَهم، للحِفاظ على اسْتقرار الكَونِ[1].

وفي هذا سَبْقٌ عِلْمِيٌّ للقرآنِ الكريم، حيثُ سَبَقَ عُلماءَ الاجتماعِ، فيما يُسَمُّونَهُ بتَنازُعِ البقاءِ؛ لأنّهم يقولون: إنَّ الحربَ طبيعيَّةٌ في البَشَرِ؛ لأنّها مِنْ فُروعِ سُنَّةِ تَنازُعِ البَقاءِ العامَّةِ، وأنتَ ترى أنَّ قولَه تعالى: ﴿وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّفَسَدَتِ ٱلۡأَرۡضُ﴾، ليسَ نَصّاً فيما يكونُ بالحَرْبِ والقتالِ، كما يدَّعونَ، بَلْ هو عامٌّ لكُلِّ نَوعٍ مِنْ أنواعِ التّنازُعِ بينَ النّاسِ، الّذي يَقْتَضي المُدافعةَ والمُغالَبَةَ[2].

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 2/913.
(2) رشيد رضا، تفسير المنار: 2/394.

﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّۚ وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ٢٥٢﴾ [البقرة: 252]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمّا قَصَّ اللّهُ تعالى في الآيةِ السّابقةِ، وما قَبْلَها، قِصَّةَ طالُوتَ وجنودِه، ومُكافأتِهم بالنَّصْرِ لِقاءَ صبرِهم وثَباتِهم، وذَكَرَ ما أَكْرَمَ به عَبْدَهُ ونبيَّه داودَ، عليه السلام، مِنَ النُّبوَّةِ والمُلْكِ وسائِرِ النِّعَمِ، ناسَبَ أنْ يُؤكِّدَ القِصَّةَ كُلَّها، ويُثَبِّتَها في عقولِ المؤمنين والمُنْكِرين، على حَدٍّ سواءٍ؛ فجاءَ بهذه الآيةِ، الّتي تُبَيِّنُ أنَّ ما قَصَصْناهُ علامةٌ ظاهرةٌ مِنْ علاماتِ نُبوَّةِ محمدٍ، ﷺ، ورسالتِه، فلا مجالَ للإنْكارِ، ولا للشَّكِّ، فالقِصَّةُ مِنْ أَوَّلِها إلى آخرِها، بهذه التَّفْصيلاتِ الدَّقيقةِ لأحْداثِها، لا يُمكِنُ الإحاطةُ بها إلّا عن طريقِ الوَحْيِ، الّذي أَنْزَلَهُ اللّهُ على نبيِّه المصطفى، ورسولِه الخاتَمِ: محمدٍ، ﷺ.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ءَايَٰتُ﴾: جَمْعُ آيَةٍ، وهيَ: العَلامةُ، والآيَةُ مِنْ آياتِ اللّهِ، والجَميعُ: الآيُ، والآيةُ: العِبْرَةُ[1]، والعَلامَةُ الظّاهِرَةُ[2]، والآيَةُ: الشَّيءُ العَجَبُ[3]، فالمرادُ بـ ﴿ءَايَٰتُ ٱللَّهِ﴾ هُنا: عَلاماتُ قُدْرتِه، الظّاهرةُ العَجيبَةُ، وعِبَرُه الّتي يُربّي بها عِبادَه.

2) ﴿نَتْلُوهَا﴾: فِعْلٌ مُضارِعٌ، جاءَ بِصيغَةِ التَّعْظيمِ، وفِعْلُه الثُّلاثيُّ: تَلا، وتَلا فُلانٌ القُرْآنَ، يَتْلوهُ تِلاوةً، وتَلا الشَّيءَ: تَبِعَهُ تُلُوًّا[4]، وتَلا يَتْلو تِلاوةً، يَعْني: قَرأَ قِراءةً، وتَلا إذا تَبِعَ، فهوَ تالٍ، أَيْ: تابعٌ[5]، فالتِّلاوةُ هُنا: القِراءةُ بواسطة جبريل[6] عليه السلام.

3) ﴿بِٱلْحَقِّۚ﴾: جَذْرُهُ: (حَقَّ)، والحاءُ والقافُ أَصْلٌ واحِدٌ، وهوَ يَدُلُّ عَلَى إحْكامِ

(1) ابن سيده، المحكم: (أي).
(2) الرّاغب، المفردات: (أي).
(3) البندنيجيّ، التّقفية: ص: 705 (باب الياء).
(4) الخليل، العين: (تلو).
(5) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة: (تلا).
(6) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (تلا).

الشَّيْءِ وصِحَّتِه، فالحَقُّ نَقيضُ الباطِلِ، ويُقالُ: حَقَّ الشَّيْءُ: وجَبَ[1]، وأَصْلُ الحَقِّ: المُطابَقَةُ والمُوافَقَةُ[2]، والحَقُّ: الشَّيءُ الثّابِتُ الرّاسِخُ المُتَمَكِّنُ بِشَريعَةٍ صَحيحَةٍ، أَوْ عُرْفٍ عامٍّ مُسَلَّمٍ[3]، وهوَ المَعْنَى المُرادُ هُنا؛ لأَنَّ آياتِ اللّهِ تُتْلَى بِوَحْيٍ صَحيحٍ ثابِتٍ، ويَجِبُ عَلَى الخَلْقِ اتِّباعُه.

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

تِلْكَ آياتُ اللّهِ، الواضِحاتُ البَيِّناتُ، نتلوها عَلَيْكَ - أَيُّها النَّبيُّ ﷺ - بواسطة جبريل عليه السلام؛ مُتَضَمِّنَةً صِدْقًا في الأَخْبارِ، وعَدْلًا في الأَحْكامِ، وإِنَّكَ حَقًّا وصِدْقًا لِمَنَ المُرْسَلينَ، مِنْ رَبِّ العالمينَ[4].

الإِيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

إيثارُ التَّعبيرِ باسم الإشارةِ: ﴿تِلْكَ﴾، دونَ (هذه):

القَصصُ المرويُّ له حكمُ الغائبِ المنقضي

استُعمِل اسمُ الإشارةِ ﴿تِلْكَ﴾ في قَوْلِه تَعالى: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّۚ وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾، إشارَةً إِلَى القصَصِ المذكورِ في الآياتِ السَّابقةِ، ولا شَكَّ أَنَّه آياتٌ باهِرَةٌ، دالَّةٌ عَلَى كَمالِ قُدْرَةِ اللّهِ تَعالَى، وحِكْمَتِه ورَحْمَتِه، وقَدْ قالَ: ﴿تِلْكَ﴾، ولَمْ يَقُلْ: (هَذِهِ)، مَعَ أَنَّ (تلك): يُشارُ بها إِلَى غائِبٍ أو بعيدٍ، لا إِلَى حاضِرٍ قريبٍ؛ لِأَنَّ هَذِهِ القَصَصَ لَمّا ذُكِرَتْ، صارَتْ بَعْدَ ذِكْرِها كالشَّيْءِ الَّذي انْقَضَى ومَضَى، فكانَتْ في حُكْمِ الغائِبِ، فلِهَذا التّأويلِ قالَ: ﴿تِلْكَ﴾[5]، فاخْتَصَرَ إِعادَةَ القَصَصِ السّابِقَةِ كُلِّها، بِاسْتِعْمالِ اسْمِ الإِشارةِ ﴿تِلْكَ﴾، وهَذا مِنْ عَظيمِ الإيجازِ، وصَميمِ البَلاغَةِ.

سِرُّ إيثارِ التّعبيرِ بلفظِ: ﴿ءَايَٰتُ﴾، دونَ غيرِها من الألفاظ:

آثَرَتِ الآيةُ التَّعبيرَ بلفظ: ﴿ءَايَٰتُ﴾، وذلك لأنّها تُطلَقُ في القرآن

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (حق).
(2) الرّاغب، المفردات: (حق).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (حقق).
(4) نخبة من العلماء، التّفسير الميسّر: ص: 41، وجماعة من العلماء، المختصر في تفسير القرآن الكريم: ص: 41.
(5) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 6/208.

الكريم على مَعانٍ عِدَّةٍ؛ فهي بمعنى العلامةِ، وبمعنى: آياتِ القرآن، ومعجزاتِ الرُّسلِ، والعِبرةِ للمُعتَبرين، إلى غير ذلك من المعاني[1]، وهي مُرادَةٌ في الآيةِ، حيث بَيَّنَ اللهُ تَعالى: أَنَّ آياته الّتي تُتْلَى، هي جُزْءٌ مِنْ كِتابِهِ الّذي أَنْزَلَهُ، وأتى بِكُلِّ ما يَتَعَلَّقُ بِأُمورِ الدِّينِ، مِنَ التَّوْحيدِ والأَخْلاقِ والدِّياناتِ، وأَحْوالِ الآخِرَةِ، وقِصَصِ الأَنْبياءِ السّالِفَةِ، والأُمَمِ الدّارِجَةِ، وشَيْءٍ صالحٍ مِنَ الأَحْكامِ، الّتي يُناطُ بِها أَكْثَرُ أُمورِ الأُمَّةِ، وأَطْنَبَ فيها كُلَّ الإِطْنابِ؛ ليُؤْذِنَ بِهِ أَنَّ الكِتابَ كَما أَنَّهُ مُعْجِزَةٌ في نَفْسِهِ، مُشْتَمِلٌ عَلى حِكَمٍ وعُلومٍ، وأَحْكامٍ، يَتَوَقَّفُ عَلَيْها أَمْرُ الرِّسالةِ، ولَمّا أَرادَ أَنْ يَرْجِعَ إِلى ما بَدَأَ بِهِ، مِنْ إِثْباتِ نُبوَّتِه ورِسالَتِه، قال: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ﴾، ليَكونَ كالفَذْلَكَةِ لِسائِرِ ما ذُكِرَ، وكالتَّخَلُّصِ إلى حَديثِهِ، صَلَواتُ اللهِ عَلَيْهِ، وأَنَّهُ ﷺ نَبِيٌّ مُرْسَلٌ، وأَنَّهُ أَفْضَلُ الرُّسُلِ عَلى سَبيلِ التَّرَقّي، كأَنَّهُ قيلَ: تِلْكَ المذكوراتُ كُلُّها آياتُ اللهِ، مُلْتَبِسَةً بِالحَقِّ الهادي إلى صِراطٍ مُسْتَقيمٍ، ليُقَرَّرَ بِها أَمْرُ نُبوَّتِكَ، الّذي ثَبَتَ بِالمُعْجِزَةِ القاهِرَةِ، وليُعْلَمَ بِها أَنَّكَ لِمَنَ المُرسَلينَ، الجامِعينَ بينَ المعجزةِ والوَحيِ، وأَنَّكَ مِنْ أَفْضَلِهِمْ وواسِطَتِهِمْ؛ لِأَنَّكَ أُعْطِيتَ ما أُعْطُوا، وزِدْتَ على ما أُعْطوا، وهوَ هَذا الكِتابُ الكَريمُ[2].

إجمالُ ذكرِ المعاني العديدة والقصص الفريدة في لفظٍ جامعٍ

دلالة إسنادِ التِّلاوة إلى الله تعالى:

أُسندتِ التِّلاوةُ إلى اللهِ تعالى في قَوْلِه تَعالَى: ﴿نَتْلُوهَا﴾، مع أنَّ الذي تلاها على سمعِ النَّبيِّ ﷺ هو جبريلُ عليه السلام، لبيانِ أنَّ المتلوَّ هو كلامُ اللهِ تعالى من غير زيادةٍ ولا نقصانٍ، وأنَّ ما يتلوه عليه السلام على الأمَّة هو كلام اللهِ تعالى، لاسيَّما أنَّ الآيات تتكلَّم عن أحداثٍ غيبيَّةٍ، فقد يطرأ عليها التبديل والتَّكذيب، أو قد يُتَّهم ﷺ بأنَّه افتراها؛

القرآنُ كلامُ الله يقينًا، لا شُبهةَ فيه ولا تبديل

(1) الفيروزابادي، بصائر ذوي التّمييز: 2/65.
(2) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 3/476.

فإسنادُ التِّلاوةِ إلى اللّه يعيِّن أنَّها صدقٌ تامٌّ وحقٌّ كامل، ولمّا ذَكَرَ تعالَى: أَنَّهُ تَلا الآياتِ عَلَى نَبيِّه، أَعْلَمَ أَنَّهُ مِنَ المُرسَلينَ، وأَكَّدَ ذلك بـ (إنَّ) و (اللّام)، حَيْثُ أَخْبَرَ بِهَذِهِ الآيَةِ، مِنْ غَيْرِ قِراءَةِ كِتابٍ، ولا مُدارَسَةِ أَحْبارٍ، ولا سَماعِ أَخْبارٍ[1]، وهي كذلك تشريفٌ للنَّبيِّ ﷺ لأنَّها أُلقيت عليه، ولجبريل[2] عليه السلام.

فائدةُ تقييد التِّلاوة بقيدِ: ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾:

تأييدُ النَّبيِّ ﷺ بأسبابِ الثَّباتِ في مواجهةِ أهلِ البطلان

جاءَ التَّعبيرُ القرآنيُّ مُقيِّداً التِّلاوةَ بهذا اللَّفْظِ؛ لتأكيد نبوَّتِه ﷺ، فيَزْدادَ أهلُ الإيمانِ إيماناً، ويُزولَ الشَّكُّ عنْ أهلِ الكتابِ، ويُؤمنوا بالنَّبيِّ الخاتَم ﷺ، و"فيهِ وُجوهٌ:

أَحَدُهَا: أَنَّ المُرادَ مِنْ ذِكْرِ هَذِهِ القصَصِ، أَنْ يَعْتَبِرَ بها مُحَمَّدٌ، ﷺ، وتَعْتَبِرَ بِها أُمَّتُهُ في احْتِمالِ الشَّدائِدِ في الجِهادِ، كَما احْتَمَلَها المُؤمنونَ في الأُمَمِ المُتَقَدِّمَةِ.

وَثَانِيهَا: ﴿بِٱلۡحَقِّۚ﴾، أَيْ: بِاليَقينِ الَّذي لا يَشُكُّ فيهِ أَهْلُ الكِتابِ، لِأَنَّهُ في كُتُبِهِمْ، كَذَلِكَ مِنْ غَيْرِ تَفاوُتٍ أَصْلًا.

وَثَالِثُهَا: إنّا أَنْزَلْنا هَذِهِ الآياتِ عَلَى وجْهٍ، تَكونُ دالَّةً في نُبوَّتِكَ، بِسَبَبِ ما فيها مِنَ الفَصاحَةِ والبَلاغَةِ.

وَرَابِعُهَا: ﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتۡلُوهَا عَلَيۡكَ بِٱلۡحَقِّۚ﴾، أَيْ: يَجِبُ أَنْ يُعْلَمَ أَنَّ نُزولَ هَذِهِ الآياتِ عَلَيْكَ مِنْ قِبَلِ اللّهِ تَعالَى، ولَيْسَ بِسَبَبِ إِلْقاءِ الشَّياطينِ، ولا بِسَبَبِ تَحْريفِ الكَهَنَةِ والسَّحَرَةِ"[3].

بلاغةُ التّأكيدِ في قوله: ﴿وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ بأكثرَ من مُؤكِّدٍ:

أَكَّدَ القرآنُ الكريمُ رسالتَه ﷺ بأكثرَ مِنْ مُؤكِّدٍ، أَوَّلُها: (إنَّ)، وهي في أصل معناها للتّأكيد، (اللّام) مع حرف الجرِّ (مِن)، في

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/596.
(2) الرازي، التفسير الكبير: 6/208.
(3) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 6/209.

قولِه: ﴿لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾، و (الجُملةُ الاسميّةُ)، كلُّ ذلك للدَّلالة على أنَّ تلك الآياتِ بُرهانٌ للنُّبوَّةِ، ومُعجزةٌ لرسالة نبيِّنا ﷺ.

نكتةُ خِطاب الله لرسوله المباشر:

التنويه بشأنِ النَّبيِّ ﷺ وتثبيتُ قلبِه

خاطَبَ اللهُ رسولَه بقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ تَنْويهاً بشَأنه، وتَثْبيتاً لقلبه، وَجِيءَ بِقَوْلِهِ ﴿لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ دُونَ أَنْ يَقُولَ: وَإِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ، لِلرَّدِّ عَلَى الْمُنْكِرِينَ بِتَذْكِيرِهِمْ أَنَّهُ مَا كَانَ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ، وَأَنَّهُ أَرْسَلَهُ كَمَا أَرْسَلَ مَنْ قَبْلَهُ، وَلَيْسَ فِي حَالِهِ مَا يَنْقُصُ عَنْ أَحْوَالِهِمْ[1].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/503.

الجُزْءُ الثَّالِثُ

﴿۞ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿٢٥٣﴾﴾ [البقرة: 253]

۞ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

مُناسَبَةُ الآيةِ لما سَبَقَ هيَ بَيانُ تَكرارِ سُنَّةِ المُدافَعَةِ بَينَ الأُمَمِ؛ لتثبيتِ الصَّلاحِ ودَفْعِ الفَسادِ، فكما كانَتْ هذِهِ السُّنَّةُ في أقْوامِ الأنْبياءِ السَّابِقينَ المَنْصوصِ عَليهم في قَوْلِه تَعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾﴾ [البقرة: 251]، بَعدَ بيانِ قِصَّةِ طالوتَ واخْتِلافِ بَني إسرائيلَ في مُلْكِهِ عَلَيْهِم، وقَتْلِ داوُدَ جالوتَ، وإيتائِهِ المُلْكَ والنُّبُوَّةَ، هيَ كذلكَ في أَتْباعِ الرُّسُلِ، فقَولُه تَعالى في الآيَةِ السَّابِقَةِ: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٥٢﴾﴾ [البقرة: 252]، بَيانٌ لسُنَّةِ المُدافَعَةِ بَينَ النَّاسِ إثْرَ بَيانِ مِثالٍ عِيانيٍّ، وقَولُه تَعالَى في الآيَةِ اللَّاحِقَةِ: ﴿۞تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿٢٥٣﴾﴾، بَيانٌ لاسْتِمْرارِ هَذِهِ السُّنَّةِ في أتْباعِ الرُّسُلِ، ومِنْ أُولئِكَ سَيِّدُ الخَلْقِ ﷺ؛ ففيها أنَّ ما كانَ للأُمَمِ السَّابِقَةِ سَيكُونُ للَّاحِقينَ، فيَكونُ مَقصُودُ خِطابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ في الآيَةِ السَّابِقَةِ: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٥٢﴾﴾ [البقرة: 252]، التَّنْبيهَ على ما سَيكونُ في قابِلِ الأيَّامِ لأُمَّتِه، وهذا مَعْنى ﴿وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٥٢﴾﴾ [البقرة: 252] أيْ: حالُك كحالِ جَميعِ المُرسَلين، فما كانَ لأَتباعِهِم سَيكونُ لأتْباعِكَ، وفيها إشارَةٌ إلى أنَّ اللهَ تَعالى مِنْ سُنَّتِهِ أَنْ يَجْعَلَ العاقِبَةَ للمُؤمِنينَ، فهيَ بِشارَةٌ لهذِهِ الأُمَّةِ، فكَما كانَتِ العاقِبَةُ لداودَ عليه السلام؛ نُبُوَّةً ومُلْكًا وعِلْمًا، فسَتَكونُ لهذِهِ الأُمَّةِ.

شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

1) ﴿وَرَفَعَ﴾: الرَّفْعُ يُسْتَعْمَلُ في القُرْآنِ لعِدَّةِ مَعانٍ، فيُقالُ في الأجْسامِ المَوْضوعَةِ إذا أُعْلِيَتْ عَن مَقَرِّها، نَحْو: ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ﴾ [البقرة: 63]، وفي البِناءِ إذا طُوِّلَ، نَحْوَ قَوْلِه: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ﴾ [البقرة: 127]، وفي الذِّكْرِ إذا نُوِّهَ به، نَحْوَ قَوْلِه: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۝٤﴾ [الشرح: 4]، وغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الاسْتِعْمالاتِ، والرَّفْعُ في هذِه الآيةِ لِتَشْريفِ المَنْزِلَةِ[1]، وهوَ نَقيضُ الذِّلَّةِ والوَضْعِ[2].

2) ﴿وَأَيَّدْنَٰهُ﴾: قَوَّيْناهُ وَشَدَدْناهُ وأَعَنَّاهُ، وهو مُشْتَقٌّ مِنَ الأَيْدِ، وهيَ الشِّدَّةُ والقُوَّةُ، والتَّأييدُ: مَصْدَرُ أَيَّدْتُهُ، أيْ: قَوَّيْتُهُ، والتَّعْبيرُ بالأَيْدِ دونَ القُوَّةِ؛ لأَنَّ الأَيْدَ هيَ القُوَّةُ الشَّديدَةُ[3]، فالإِيادُ: الجَبَلُ الحَصينُ، وتُفيدُ مَعْنى الإحاطَةِ الواقِيَةِ مِنَ الفَسادِ، فإيادُ كُلِّ شَيْءٍ مَا يُقَوَّى بِهِ مِنْ جَانِبَيْهِ، وَكُلُّ شَيْءٍ كانَ واقِيًا لشَيْءٍ فهُوَ إِيادٌ، وَالإِيَادُ: التُّرَابُ يُجْعَلُ حَوْلَ الحَوْضِ والخِباءِ، يُقَوَّى بِهِ، أَوْ يَمْنَعُ ماءَ المَطَرِ[4].

3) ﴿بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾: أَصْلُ الرُّوحِ يَدُلُّ عَلى سَعَةٍ وَفُسْحَةٍ واطِّرادٍ[5]، والرُّوحُ المُقَدَّسَةُ أَي: الرُّوحُ المُطَهَّرَةُ، وَهُوَ جِبْريلُ عليه السلام، كما تَقولُ: حاتِمُ الجودِ، ووَصَفَها بالقُدُسِ للكَرامَةِ[6]، وسَمَّى اللهُ تَعالى جِبْريلَ روحًا؛ فلَمْ يَقُلْ: (جِبريل)؛ لِسَبَبَيْنِ اثنَيْنِ: الأَوَّلُ: أَنَّهُ كانَ بِتَكْوينِ اللهِ لَهُ رُوحًا مِنْ عِنْدِهِ[7]، الثَّاني: لتَشْبيهِ جِبْريلَ عليه السلام بِرُوحِ الإنْسانِ؛ فهُوَ سَبَبٌ لِحَياةِ القُلوبِ بِالعُلومِ[8]، وَهُوَ سَبَبٌ قائِمٌ عَلى التَّشْبيهِ.

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

بَيَانُ فَضيلَةِ عُمومِ الرُّسُلِ؛ بحسب ما منَّ اللهُ به عليهم، وبما خصَّهم اللهُ به من بين سائر الناس باصطفائهم وإيحائه إليهم، وإرسالهم إلى الناس، ودعائهم الخلق إلى

(1) الراغب، المفردات: (رفع).
(2) الخليل، العين، وابن فارس، المقاييس: (رفع).
(3) الراغب، المفردات: (أيد).
(4) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، والراغب، المفردات: (أيد)، وابن جرير، جامع البيان: 5/379، والزجاج، معاني القرآن: 1/168.
(5) ابن فارس، المقاييس: (روح).
(6) الزمخشري، الكشاف: 1/162.
(7) ابن جرير، جامع البيان: 2/322.
(8) الرازي، مفاتيح الغيب: 3/596.

اللّه، وَبيانُ تَفْضيلِ بَعْضِهِم عَلى بَعْضٍ؛ بما أودع فيهم من الأوصاف الحميدة، والأفعال السديدة، والنفع العام، فَلَمَّا ثَبَتَ تَفْضيلُ بَعْضِهِم ثَبَتَ فَضْلُ جَميعِهِم، وَقَسَّمَتِ الآيَةُ التَّفْضيلَ إلى ثَلاثَةِ أَقْسام: التَّفضيلُ النَّوْعِيُّ، وهُوَ تَفْضيلُ تَكْليم بَعْضِ الرُّسُلِ، وَيَدْخُلُ موسَى عليه السلام دُخولًا أَوَّلِيًّا، وَالتَّفضيلُ العامُّ، وَهُوَ رَفْعُ بَعْضِ الرُّسُلِ دَرَجاتٍ، وَيَدْخُلُ في ذَلِكَ مُحَمَّدٌ ﷺ دُخولًا أَوَّلِيًّا؛ لِرَفْعِهِ على سائرهم درجات، إذ اجتمع فيه من الفضائل ما تفرَّق في غيره، وجمع اللّه له من المناقب ما فاق به الأولين والآخرين، وبعموم رسالته، وخَتْم النبوة به، وتفضيلِ أمته على جميع الأمم، وغير ذلك، وَالتَّفْضيلُ المُعَيَّنُ، وَهُوَ تَفْضيلُ عيسَى عليه السلام بإيتَائِهِ البَيِّنَاتِ، كإبراء مَن وُلد أعمى بإذن اللّه تعالى، ومَن به برص بإذن اللّه، وكإحيائه الموتى بإذن اللّه، وَتَأْييدِهِ بجبريل عليه السلام.

وَبَعْدَ بَيانِ فَضيلَةِ الرُّسُلِ، شَرَعَ في بَيانِ تَقاتُلِ أَتْباعِهِمْ مِن بعد ما جاءتهم البينات الموجبة للاجتماع على الإيمان - بَعْدَ انْقِسامِهِم إلى مُؤْمِنٍ وكافِرٍ -، فكان موجب هذا الاختلاف التفرق والمعاداة والمقاتلة، وعَلَّقَ ذَلِك بِمَشيئَتِهِ سُبْحانَهُ وَتَعالَى، تَحْذيرًا لأَتْباعِ الرُّسُلِ مِنَ الحِيادِ عَنِ الجادَّةِ، وَأَنَّ الثَّباتَ عَلَيْها بِإِرادَتِه سُبْحانَهُ وَتَعالَى، فمشيئة اللّه نافذة غالبة للأسباب، وإنما تنفع الأسباب مع عدم معارضة المشيئة، فإذا وجدت اضمحل كلُّ سبب، وزال كل موجب، ولكنَّ اللّه يوفق مَن يشاء لطاعته والإيمان به، ويخذل مَن يشاء، فيعصيه ويكفر به، فهو يفعل ما يشاء ويختار[1].

وفي الآية تَمْهيدٌ للأَمْرِ بالإِنْفاقِ الآتِي فِي الآيَةِ اللّاحِقَةِ، فَإِنَّ مِنْ مُقْتَضى الإِيمانِ بالرُّسُلِ الإِنْفَاقَ في سَبيلِ دَعْوَتِهِم.

❁ الإيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

بَديعُ اسْتِعْمالِ اسْمِ الإِشارَةِ:

الابْتِداءُ بِاسْمِ الإِشارَةِ ﴿*تِلْكَ﴾ الدَّالِّ عَلى مَعْنَى البُعْدِ، لِلْإِيذانِ بِأَمْرَيْنِ اثْنَيْنِ: الأَوَّلُ: لبَيانِ عُلُوِّ طَبَقَتِهِمْ، وبُعْدِ مَنْزِلَتِهِم[2]، والثَّاني: "للدَّلالَةِ عَلى الاسْتِحْضارِ حَتَّى كَأَنَّ جَماعَةَ الرُّسُلِ حاضِرَةٌ للسَّامِعِ بَعْدَ ما مَرَّ مِنْ ذِكْرِ عَجيبِ أَحْوالِ بَعْضِهِمْ، وَما

(1) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 42، ونخبة من العلماء، التفسير الميسر، ص: 42.

(2) أبو السعود، إرشادُ العقلِ السليم: 1/246.

أَعْقَبَهُ مِنْ ذِكْرِهِمْ عَلى سَبيلِ الإِجْمَالِ"[1]، فهِيَ إِشارَةٌ إِلى كَمالِ الرُّسُلِ وعُلُوِّ شَأْنِهِم مِن جِهَةٍ، وأَنَّهُمْ حاضِرونَ بِما أُخْبِرَ عَنْهُمْ في الآياتِ السَّابِقَةِ للسَّامِعِ عُمُومًا عَلى قَوْلٍ، أَو في آخِرِ الآيَةِ السَّابِقَةِ خُصوصًا عَلى قَوْلٍ آخَرَ[2]، فهُمْ في عُلوِّ شَأْنٍ، وقُرْبِ ذِكْرٍ، وهَذا مِنْ بَديعِ مَحاسِنِ الإِشارَةِ في القُرْآنِ الكَريمِ، أَنْ يَجْتَمِعَ مُتَقابِلانِ في دَلالَةِ اسْمِ الإِشارَةِ.

اجْتِماعُ مَعْنَيَيْ عُلوِّ الشَّأْنِ وقُرْبِ الذِّكْرِ المُتَقابِلَيْنِ في اسْمِ الإِشارَةِ

دِقَّةُ الاخْتِيارِ تُجَلِّي بَرَاعَةَ المَطْلَعِ وسِرَّ العُدولِ:

لانْتِقاءِ اسْمِ الإِشارَةِ ﴿تِلْكَ﴾ بَراعَةُ مَطْلَعٍ، وحُسْنُ اسْتِهْلالٍ؛ فَلَمْ يَقُلْ: (أولئِكَ)، مَعَ أَنَّ مُقْتَضى الظَّاهِرِ، ومُقْتَضى التَّذْكيرِ اللَّفْظِيِّ الإِشارَةُ بِأُولَئِكَ؛ كَما جاءَ في قَولِه تَعالَى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ﴾ [الأنعام: 90]، فعَدَلَ عَنِ اسْمِ الإِشارَةِ (أُولئِكَ) إِلى اسْمِ الإِشارَةِ ﴿تِلْكَ﴾، وَذَلِكَ لسَبَبَيْنِ:

التَّناسُبُ البَديعُ بَيْنَ المَطالِعِ، وتَأْكيدُ الوَحْدَةِ بَيْنَ الرُّسُلِ

الأَوَّلُ: مُطابَقَةُ مَطْلَعِ الآيَةِ للآيَةِ السَّابِقَةِ ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتۡلُوهَا عَلَيۡكَ بِٱلۡحَقِّۚ وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ٢٥٢﴾ [البقرة: 252]، وفي ذَلِكَ إِشارَةٌ إِلى تَنْزِيلِ الرُّسُلِ مَنْزِلَةَ الآياتِ المَتْلُوَّةِ عَلى سَيِّدِنا رَسولِ اللهِ ﷺ، وهَذا في غَايَةِ الجَمالِ والبَراعَةِ.

الثَّاني: مُعامَلَةُ الرُّسُلِ مُعامَلَةَ الجَماعَةِ، كَأَنَّهُ قيلَ: تِلْكَ الجَماعَةُ الرُّسُلُ[3]، تَأْكيدًا لمَبْدَأِ الوَحْدَةِ بَيْنَهُم، وهوَ ما يُناسِبُ فاصِلَةَ الآيَةِ السَّابِقَةِ ﴿وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ٢٥٢﴾ [البقرة: 252].

والأَنْسَبُ لهَذا التَّوْجيهِ أَنْ يَكونَ إِعْرابُ ﴿ٱلرُّسُلُ﴾ عَطْفَ بَيانٍ[4]، فلَفْظُ ﴿ٱلرُّسُلُ﴾ بَيَّنَ مَعْنى الإِشارَةِ، فاسْمُ الإِشارَةِ مُبْهَمٌ[5] مُجْمَلٌ،

(1) ابنُ عاشور، التحريرُ والتنويرُ: 3/5.
(2) محمد رشيد رضا، تفسير المنار: 3/4.
(3) الزَّجّاج، معاني القرآن: 1/333، والزَّمَخشَري، الكشَّاف: 1/297، والرَّازي، مفاتيح الغيب: 6/521.
(4) مكي، مشكل إعراب القرآن: 1/136، وابنُ عَطيَّة، المُحرَّرُ الوجيز: 1/338.
(5) مكي، مشكل إعراب القرآن: 1/135.

و﴿ٱلرُّسُلُ﴾ مُبَيِّنٌ لَهُ، ويكونُ خَبَرُ ﴿تِلْكَ﴾ هُوَ ﴿فَضَّلْنَا﴾، فالإِخْبارُ بالتَّفْضيلِ هوَ مَقْصودُ الابْتداءِ وفائِدَتُهُ، وهوَ الأَنْسَبُ بسِياقِ الآيَةِ، إِذْ مَدْحُهُمْ قَدْ يَسْتَدْعِي في الذِّهْنِ أَنَّهُمْ في رُتْبَةٍ واحِدَةٍ، فكانَ الإِخْبارُ بِتَفْضِيلِ بَعْضِهِمْ عَلى بَعْضٍ مِمَّا يَدْفَعُ هَذا الوَهْمَ.

مَعْنى اللَّامِ في ﴿ٱلرُّسُلُ﴾:

﴿ٱلرُّسُلُ﴾ جَمْعُ رَسولٍ، وَاللَّامُ في ﴿ٱلرُّسُلُ﴾ للاسْتِغْراقِ[1]، وهوَ ما يَقْتَضيهِ الظَّاهِرُ، واسْمُ الإِشارَةِ الدَّالُّ عَلى جَماعَةِ الرُّسُلِ، وَقيلَ: إِنَّها لِلْعَهْدِ، عَلى أَنْ تَكونَ للجَماعَةِ المَعْلومَةِ لَهُ ﷺ، أوِ المَذْكورَةِ قِصَصُها في السُّورَةِ[2]، ويكونُ العَهْدُ ذِهْنِيًّا عَلى الاحْتِمالِ الأَوَّلِ، وذِكْرِيًّا عَلى الاحْتِمالِ الثَّاني.

مَعْنى اللَّامِ الاسْتِغْراق، أو العهد ليشمل الجماعةَ المذكورةَ قصَصُها في القرآنِ

بيان الفَرْقِ بَيْنَ صيغَتي الجَمْعِ ﴿ٱلرُّسُلُ﴾، و﴿ٱلْمُرْسَلِينَ﴾:

اخْتيرَ في النَّظْمِ اسْتِعْمالُ صِيغَةِ جَمْعِ ﴿ٱلرُّسُلُ﴾ دُونَ صِيغَةِ جَمْعِ اسمِ المَفْعُولِ (المُرْسَلين) - الَّذي تَقْتَضيه صَنْعَةُ اللفظِ، فهو فاصِلَةُ الآيَةِ السَّابِقَةِ ﴿وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٢٥٢﴾ -؛ لأَنَّ سِياقَ الآيَةِ حَديثٌ عَنْهُم باعْتِبارِ المُفاضَلَةِ فيما بَيْنَهُم، لا باعْتِبارِ وَظيفَتِهم بِأَنَّهم مُرْسَلُونَ لأَقْوامِهِم، وغالِبُ اسْتِعمالِ القُرآنِ لِصيغَةِ جَمْعِ (الرُّسُلِ) هوَ بالاعْتِبارِ الوَصْفِيِّ، لا بالاعْتِبارِ الوَظيفيِّ، مِثْلَ قَوله تَعالَى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾ [آل عمران: 144]، وقد اجتَمَعت الكَلِمتانِ في قوله تَعالَى: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَىٰ مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٣٤﴾ [الأنعام: 34]، فدَلَّت كَلِمَةُ ﴿ٱلرُّسُلُ﴾ على جماعَةِ الرُّسُلِ باعتبارِ الوَصْفِ، كما أنَّ كلمةَ المُرسَلين دَلَّتْ على وَظيفَتِهمُ الدَّعَوِيّةِ، أيْ: جاءَكَ مِن نَبَئِهم في دَعوَتِهم لِقَومِهم، فسَيَكُونُ لَكَ مَا كانَ لَهُم.

غالِبُ اسْتِعْمالِ جَمْعِ الرُّسُلِ في القُرْآنِ بالاعْتِبارِ الوَصْفِيِّ، بِخِلافِ جَمْعِ المُرْسَلينَ، فهو بالاعْتِبارِ الوَظيفِيِّ

(1) الآلوسي، رُوحُ المَعاني: 3/2.
(2) الآلوسي، روحُ المَعاني: 3/2.

وفَائِدَةٌ أُخرَى: أَنَّ (رَسُولَ) في الاسْتِعمالِ القُرآني يُطلَقُ على الملائِكةِ والبَشَرِ، فهوَ أَعَمُّ مِن (مُرْسَل)؛ كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ ٧٥﴾ [الحج: 75]، وقَالَ: ﴿جَاعِلِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا﴾ [فاطر: 1]، أمَّا (المُرسَلُون) فلا تُطلَقُ إلا عَلى البَشَرِ تَحديدًا.

دِقَّةُ اخْتِيارِ لَفْظَيْ (فَضَّلْنَا) وَ (بَعْضٍ):

بَيانُ أَنَّ المُفاضَلَةَ بَيْنَ الرُّسُلِ مُفاضَلَةٌ نِسْبِيَّةٌ لا مُطْلَقَةٌ، وإجمالِيَّةٌ لا تَفصِيلِيَّةٌ

أَخْبَرَتِ الآيَةُ بِالمفَاضَلَةِ بَينَ الرُّسُلِ ﴿فَضَّلۡنَا بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ﴾، وهوَ تَفضيلُ بَعْضِهم بِمَنقَبَةٍ لَيْسَتْ لِبَعْضِهم الآخَرِ[1]، وفُضِّلَ لَفْظُ التَّفضِيلِ على غَيرِهِ؛ كالاصْطِفاءِ، والاختِيارِ، فلمْ يَقُلْ: (اصْطَفَيْنَا بَعْضَهُم على بَعْضٍ)، أوِ (اخْتَرنَا بَعْضَهُم عَلى بَعْضٍ)، كما قَالَ في شأْنِ بَني إسرائيلَ: ﴿وَلَقَدِ ٱخۡتَرۡنَٰهُمۡ عَلَىٰ عِلۡمٍ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ٣٢﴾ [الدخان: 32]، وذلكَ أَنَّ التَّفضِيلَ يُشْعِرُ بالاشتِراكِ في أَصْلِ الرِّسَالةِ، وأنَّه كانَ لأَمْرٍ زائِدٍ، فهو تَفضِيلٌ نِسْبِيٌّ لا مُطلَقٌ، إذْ تَدُلُّ مادَّةُ (فضل) في اللُّغَةِ على "زِيَادةٍ مِنْ مَادَّةِ الشيءِ مُتَميِّزَةٍ عَنْهُ"[2]، وتَفضيلُ بَعْضِ الرُّسُلِ عَلى بَعْضٍ يَدُلُّ على أَمْرَينِ؛ الأَوَّلُ: الاشتِراكُ في الفَضِيلَةِ العُظْمى وهي الرِّسَالةُ، الثَّاني: تَمَيُّزُ بَعْضِهم في بَعْضِ الصِّفاتِ على بَعْضٍ، بِخلافِ لَفْظِ الاصْطِفاءِ فَيَدُلُّ على انْتِقاءِ شَيْءٍ مِنْ شَيْءٍ، فالمُصْطَفى هوَ الصَّافي مِنَ الأَكدَارِ[3]، وَهذا المَعْنى غَيْرُ مُرادٍ في المُفاضَلَةِ بَيْنَ الرُّسُلِ فيمَا بَيْنَهم.

في لفظ (بعض) نأيٌ عن تحديد المفضول، وتعيينه

وانْتِقَاءُ لَفْظِ بَعْضٍ في قَوْلِهِ: ﴿بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ﴾، لِلنَّأْيِ عَنِ التَّحدِيدِ، وذلكَ في الجُملَةِ دُونَ تَعْيينِ مَفْضولٍ[4]، وفي هذا الإِجْمالِ اكْتِفاءٌ بتَفْضيلِ اللهِ بَعْضَ الرُّسُلِ عَلى بَعْضٍ، دونَ الخَوْضِ

(1) الآلوسي، رُوحُ المَعاني: 3/2.
(2) جَبَل، المُعجَمُ الاشتقَاقي المُؤَصَّل: (فضل).
(3) الزَّجَّاج، معاني القرآن: 1/399.
(4) ابنُ عَطيَّة، المُحرَّرُ الوجيز: 1/338.

في التَّفاصِيلِ، فإنَّ التَّعْبيرَ القُرْآنيَّ لَهُ دَلالَتُهُ البَيانِيَّةُ، وإشارَتُهُ المَعْنَويَّةُ المُرادَةُ.

بَلاغَةُ إسْنادِ الفِعْلِ لضَميرِالعَظَمَةِ:

بَيانُ أنَّ مَنْ أرسَلَ فَضَّلَ، فلَيسَ للأتْباعِ إلَّا الاتِّباعُ

وأُسنِدَ فِعْلُ التَّفْضيلِ إلى ضَميرِ العَظَمَةِ ﴿فَضَّلْنَا﴾ فلَم يَقُلْ: (فُضِّلَ بَعْضُهُمْ عَلى بَعْضٍ) لِمَا فيهِ مِنْ مَزيدِ التَّشْريفِ والتَّفْخيمِ، وأَنَّ تَفضيلَ بَعْضِهِمْ عَلى بَعْضٍ ما كانَ إلَّا بِسابِقِ عِلْمِهِ وحِكْمَتِهِ، واسْتُعمِلَ حَرْفُ ﴿عَلَىٰ﴾ للاسْتِعْلاءِ المَعْنَويِّ[1]، ومُقْتَضاهُ التَّسْليمُ لإرادَةِ المُفَضِّلِ جَلَّ في عُلاه؛ لدَفْعِ مُشاغَبَةِ الأَتْباعِ، وإقامَةِ الحُجَّةِ عَلَيْهِم، فكَأَنَّهُ قالَ: إنَّ مَنْ أَرْسَلَ فَضَّلَ، فلَيْسَ للأَتْباعِ إلَّا الاتِّباعُ.

سِرُّ الابْتِداءِ بأَفْضَلِيَّةِ التَّكْليمِ، وبحَرْفِ (مِنْ) دونَ (بَعْضٍ):

تَفْخيمُ أَمْرِ الرُّسُلِ الَّذينَ كُلِّموا، وللإيجازِ اللَّفْظِيِّ

ابْتَدَأَ تَقْسيمَ التَّفضيلِ بمَنْ كلَّمَهُ اللهُ؛ لتَفْخيمِ أَمْرِهِ، وأَنَّهُ صاحِبُ مَنْزِلَةٍ عاليَةٍ ودَرَجَةٍ عَظيمَةٍ، وابْتَدَأَ بـ (مِنْ) الدَّالَّةِ عَلى التَّبعيضِ[2]، فكَأَنَّهُ قالَ: (بَعْضُهُم مَنْ كَلَّمَ اللهُ)، لَكِنْ لا مِنْ جَعْلِ (بَعْضٍ) رَديفَةً لِـ (مِنْ)، وإنَّما مِنْ مَعْنَى الكَلامِ[3]، ولذَلِكَ آثَرَ حَرْفَ الجَرِّ لِحُسنِ الابْتِداءِ بِهِ، إذ هوَ مَبدَأُ تَقْسيمِ أَنْواعِ التَّفْضيلِ، فهُوَ دالٌّ عَلى ابْتِداءِ التَّفضيلِ والتَّبْعيضِ، ولَمْ تَأْتِ هَذِهِ الجُمْلَةُ كلاحِقَتِها: ﴿وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ﴾، كَأَنْ يَقولَ: (كَلَّمَ اللهُ بَعْضَهُم)، لتَفْويتِها بَلاغَةَ الجُمْلَةِ الاسْمِيَةِ كَما سَيَأْتي.

فائِدَةُ الالْتِفاتِ من التكلّم إلى الغيبة:

فائِدَةُ الالْتِفاتِ تَفْخيمُ التَّكْليمِ

قَوْلُه تَعالَى: ﴿مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ﴾، فيهِ التِفاتٌ وإظْهارُ ما حَقُّهُ الإضْمارُ، وهُما في هذِهِ الآيةِ مُتَلازِمان، أَمَّا الالتِفاتُ فهُوَ التِفاتٌ

(1) ابنُ مالِك، شرح تسهيل الفوائد: 3/162.

(2) عَلامَتُها عِندَ النُّحاةِ جَوازُ الاسْتِغناءِ عَنْهَا بكلمة "بعض"، وَزَعَمَ ابنُ عصفورٍ أَنَّكَ لو جَعَلتَ مكان: (مِنْ) كلمة: (بعضٍ) لكان المعنى واحِدًا، وكَلامُه صحيحٌ نحوًا ولغةً، لا بيانًا وإعجازًا، وقدِ اعْتُرِضَ عليهِ بكلامٍ بديعٍ دقيقٍ في التفريقِ بينَ الحرفِ والكلمةِ، يُنظر: أبو حيان، التذييل والتكميل: 11/122-123.

(3) ناظر الجيش، تمهيد القواعد: 6/2888.

عَنِ التَّكَلُّمِ في ﴿فَضَّلْنَا﴾ إلى الغَيْبَةِ، وفائِدَتُه تَفْخيمُ التَّكليمِ، وهَذا سِرُّ الابْتِداءِ بِهِ.

سرّ إظْهارِ ما حَقُّهُ الإضْمارُ:

عَدَلَ النَّظْمُ الكَريمُ في قوله تعالى: ﴿مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُۖ﴾ "عَنِ الضَّميرِ إلى التَّعْبيرِ بالظَّاهِرِ، لتَفْخيمِ شَأْنِ هَذِهِ المَنْقَبَةِ"[1]، ولتَرْبِيَةِ المَهابَةِ في نُفوسِ المُخاطَبينَ[2]، وللعِنايَةِ بإبْرازِ مَعْنى الحُضورِ والخِطابِ مِنْهُ تَعالى للمُتَكَلِّمِ[3].

في الإظْهارِ تَرْبِيَةٌ للمَهابَةِ، وتَفْخيمٌ للمَنْقَبَةِ، وعِنايَةٌ بإبْرازِ مَعْنى الحُضورِ والخِطابِ مِنْهُ تَعالى للمُتَكَلِّمِ

تَوْجيهُ اختلافِ إعْرابِ جملة ﴿مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُۖ﴾:

قَوْلُهُ تَعالى: ﴿مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُۖ﴾ إمَّا أَنْ يُحْمَلَ عَلى الاسْتِئْنافِ، أوِ البَدَلِيّةِ[4]، فمَعْناهُ عَلى الاسْتِئْنافِ: تَفْصيلُ أَنْواعِ التَّفْضيلِ[5]، فالجُمْلَةُ لا مَحَلَّ لَها مِنَ الإعْرابِ، وأَمَّا حَمْلُهُ عَلى البَدَلِيّةِ فمَعْناهُ الالْتِفاتُ جُمْلَةً إلى أَنْواعِ التَّفْضيلِ بَيْنَ الرُّسُلِ، وأَنَّها مَقْصودُ الكَلامِ، والإعْرابانِ مُتَقارِبانِ في المَعْنى، إذِ التَّفْصيلُ مَقْصودُ الكَلامِ.

وجْهانِ الإعْرابِ على (الاسْتِئْنافِ، أوِ البَدَلِيّةِ) مُتَقارِبانِ؛ إذ تَفْصيلُ أَنْواعِ التَّفْضيلِ مَقْصودُ الكَلامِ

فائِدَةُ حَذْفِ المفعول:

حُذِفَ المَفْعولُ في قَوْلِهِ: ﴿مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُۖ﴾، وهُوَ الضَّميرُ العائِدُ عَلى المَوْصولِ[6]؛ لأَنَّ مَبْنى الآيَةِ عَلى الإجْمالِ، ولَوْ ذُكِرَ المَفْعولُ؛ لاكْتَسَبَ نَوْعَ تَعْيينٍ.

إيثارُ الحَذْفِ لابْتِناءِ الآيَةِ عَلى الإجْمالِ، لا التعيين

سِرُّ التَّغايُرِ بَيْنَ الجُمْلَتَيْنِ الاسميّة، والفعليّة:

عَدَلَ أُسْلوبُ الكَلامِ في قوله: ﴿وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٖۚ﴾ عَنِ الجُمْلَةِ السَّابِقَةِ: ﴿مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُۖ﴾، فلَمْ يَقُلْ: (وَمِنْهُم مَنْ رَفَعَهُ

(1) رضا، تفسير المنار: 3/4.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/246.
(3) أبو حيان، البحر المحيط: 2/600.
(4) السمين، الدُّرُ المصون: 2/536.
(5) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/246.
(6) الدمياطي، إتحاف فضلاء البشر: 1/207.

التَّعبيرُ بالاِسْمِيَّةِ لثُبوتِ المَنْقَبَةِ الذَّاتِيَّةِ، وبالفِعْلِيَّةِ لبَيانِ تَجَدُّدِ رَفْعِ الدَّرَجاتِ

دَرَجاتٍ)؛ لبَيانِ الفَرْقِ بَيْنَ الجُمْلَتَيْنِ، فالأُولَى جُمْلَةٌ اسْمِيَّةٌ أَفادَتْ ثُبوتَ تِلْكَ المَنْقَبَةِ عَلى مَدارِ الزَّمانِ، وهيَ مَنْقَبَةٌ ذاتِيَّةٌ اتَّسَمَ صاحِبُها بالفَخامَةِ والتَّشْريفِ، والثَّانِيَةُ فِعْلِيَّةٌ، أَفادَتْ تَجَدُّدَ أَمْرِها، مِنْ مِثْلِ قَوْلِه تَعالى: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۝٤﴾ [الشرح: 4]، وقَوْلِه تَعالى: ﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾ [البقرة: 128]، وقَوْلِه تَعالى: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ﴾ [البقرة: 130]، وهذا مِن رَفْعِ الدَّرَجاتِ المُتَجَدِّدَةِ عِنْدَ اللّهِ تَعالى.

نكتة إضمار اسم الله الأعظم:

وجه الإضمار دفع قُربِ التِّكرار

جاءَت جُمْلَةُ ﴿وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ﴾، "فِعْلِيَّةً مُسْنَدَةً لضَميرِ اسْمِ اللّهِ، لا لَفْظِه، لقُرْبِه، إذْ لَوْ أُسْنِدَ إلى الظّاهِرِ لَكانَ: (مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللّهَ، ورَفَعَ اللّهُ)، فَكانَ يَقْرُبُ التَّكْرارُ، فكانَ الإِضْمارُ أَحْسَنَ"[1].

اتِّساقُ اخْتِيارِ لَفْظِ ﴿وَرَفَعَ﴾ مَعَ لَفْظِ ﴿دَرَجَٰتٍ﴾:

دَلَّتْ كُلُّ مُفْرَدَةٍ عَلى رِفْعَةٍ وشَرَفٍ، فَأَكَّدَتْ إحداهما الأُخْرَى، وهُوَ دليلُ اتِّساقِ المُفْرَداتِ القُرْآنِيَّةِ

يُسْتَعْمَلُ الرَّفْعُ لتَشْريفِ المَنْزِلَةِ[2]، وهوَ نَقيضُ الذِّلَّةِ والوَضْعِ[3]، فمَنْ رَفَعَهُ اللّهُ فهوَ صاحِبُ الشَّرَفِ المَرومِ، ومَا أَرْفَعَ التَّعْبيرَ بِـ ﴿دَرَجَٰتٍ﴾ في هَذا السِّياقِ! دونَ مُرادِفاتِها كمَنازِلَ، والفَرْقُ بَيْنَهُما أَنَّهُ إذا اعْتُبِرَ الصُّعودُ دُونَ الامْتِدادِ فهيَ الدَّرَجَةُ، ولذَلِك يُعَبَّرُ بها عَنِ المَنْزِلَةِ الرَّفيعَةِ[4]، فاجْتَمَعَ ذِكْرُ الرَّفْعِ والدَّرَجاتِ، بأَنْ دَلَّتْ كُلٌّ مِنْهُما عَلى رِفْعَةٍ وشَرَفٍ، فأَكَّدَتْ كُلُّ مُفْرَدَةٍ مَعْنى الأُخْرى، ويُؤَكِّدُ هَذا المَعْنَى إعْرابُ ﴿دَرَجَٰتٍ﴾ بأَنَّها مَنْصُوبَةٌ عَلى المَصْدَرِ؛ "لأَنَّها بِمَعْنى الرِّفْعَةِ؛ فَكَأَنَّهُ قالَ: ورَفَعْنا بَعْضَهُمْ رَفَعاتٍ"[5]، وهوَ مِمَّا يُؤَكِّدُ اتِّساقَ المُفْرَداتِ في القُرْآنِ الكَريمِ، كَما أَنَّهُ دَلَّتْ مادَّةُ (درج) عَلى

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 2/602.
(2) الراغب، المفردات: (رفع).
(3) الخليل، العين، وابن فارس، المقاييس: (رفع).
(4) الخليل، العين، والراغب، المفردات: (رفع).
(5) العكبري، التبيان: 1/201.

المُضِيّ والطَيِّ[1]، وهذِهِ المَعاني مَلْحوظَةٌ في دَرَجاتِ الرُّسُلِ المُفَضَّلين، فَقَدْ مَضَوْا في دَرَجاتٍ - عَنْ سائِرِ الخَلْقِ - مطْوِيٍّ ذِكْرُها عَلى سَبيلِ الإِجْمالِ، زِيادَةً في التَّفْخيمِ والتَّعْظيمِ، وهوَ مِمّا يَنْسَجِمُ مَعَ السِّياقِ.

تَوْجيهُ المُتَشابِهِ اللَّفْظِيِّ:

سَبَبُ اخْتِلافِ التَّعْبيرِ بِـ ﴿وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍۚ﴾، المَنْظُومِ عَلى هذا المِنْوالِ المُخالِفِ لما جاءَتْ عَلَيْهِ آيَةُ الزُّخْرُفِ: ﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ﴾ [الزخرف: 32]؛ لتَبايُنِ حالِ الفَريقَيْنِ، فآيَةُ البَقَرَةِ في الرِّفْعَةِ الدِّينِيَّةِ، وآيَةُ الزُّخْرُفِ في الرِّفْعَةِ الدُّنْيَوِيَّةِ واتِّضاعِها[2].

للتَّنْويهِ برَفْعِ دَرَجاتِ الرُّسُلِ المُفَضَّلين، مَعَ عَدَمِ التَّعَرُّضِ لِلرُّسُلِ المَفْضُولين، وَلتَرْبِيَةِ نُفُوسِ المُخاطَبينَ عَلى الأَدَبِ مَعَ مَقامِ الرُّسُلِ.

وجه اختلاف التعبير؛ لتَبايُنِ حالِ الفَريقَيْن

وجه الاختلاف الإشارةُ إلى رَفْعِ دَرَجاتِ الرُّسُلِ المُفَضَّلين وَلتَرْبِيَةِ نُفُوسِ المُخاطَبينَ عَلى الأَدَبِ مَعَهم

بلاغة إبْهام المُكَلَّمِ والمَرْفوعِ دَرَجاتٍ:

اخْتَلَفَ المُفَسِّرونَ[3] في تَعْيينِ المُكَلَّمِ في قوله تعالى: ﴿مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُۖ﴾، فَمِنْهُم مَنْ قَصَرَهُ عَلى موسَى عليه السلام، فهُوَ الأَشْهَرُ والأَعْرَفُ، ومِنْهُم مَنْ جَعَلَهُ في كُلِّ مَنْ كَلَّمَهُ اللّه تَعالَى، واخْتَلَفوا في تَعْيينِ المَرْفوعِ دَرَجاتٍ، فَمِنْهُم مَنْ خَصَّهُ بِسَيِّدِ الخَلْقِ صلى الله عليه وسلم، ومِنْهُم مَنْ جَعَلَهُ عامًّا في كُلِّ مَن اخْتَصَّ بِفَضيلَةٍ، فَمَنْ ذَهَبَ إلى تَعْيينِ المُبْهَمِ؛ عَلَّلَ الإِبْهامَ بِأَنَّهُ "لتَفْخيمِ شَأْنِهِ، كَأَنَّهُ العَلَمُ المُتَعَيِّنُ لهَذا الوَصْفِ المُسْتَغْني عَنِ التَّعْيينِ"[4].

والَّذي يَقْتَضيهِ النَّظْمُ والسِّياقُ أَنّ الإِبْهامَ مَقْصودُ النَّصِّ، فاسْمُ الإِشارَةِ، واسْتِغْراقُ لَفْظِ الرُّسُلِ المُشارِ إِلَيْهِم - عَلى ما اسْتُظْهِرَ آنِفًا -، ولَفْظُ ﴿بَعْضَهُمْ﴾ و﴿مِّنْهُم﴾ الدَّالُّ عَلى التَّبْعيضِ، وحَذْفُ المَفْعولِ الدَّالِّ عَلى المُكَلَّمِ، وخُلُوُّ الكَلامِ مِنْ أَيِّ إِشارَةٍ لَفْظِيَّةٍ

الإِبْهامُ أَبْلَغُ مِنَ التَعْيينِ، وأَعَمُّ دَلالَةً، وأَقْوى إِشارَةً، وأَمْتَنُ مَدْحًا، وأَرْسَخُ أَثَرًا في نُفوسِ المُخاطَبينَ للرُّسُلِ المُفَضَّلين

(1) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، المقاييس: (درج).
(2) الفارسي، الحجة: 3/336.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 2/4.
(4) البيضاوي، أنوار التنزيل: 1/153.

أَوْ سِياقِيّةٍ تَدُلُّ عَلى التَّعْيين، وتَعْيينُ عِيسى ابْنِ مَرْيَمَ عليهما السلام في الجُمْلَةِ التَّالِيَةِ، كُلُّ ذَلِك يَدُلُّ عَلى أَنَّ الإِبْهامَ مُرادٌ، وما تَقْضي بِهِ بَلاغَةُ النَّظْمِ أَنْ يَكونَ المُرادُ غَيْرَ مُعَيَّنٍ، فكُلُّ مَنْ كَلَّمَهُ اللهُ تَعالَى، وكُلُّ مَنْ رَفَعَهُ دَرَجاتٍ، دَاخِلٌ في التَّفْضيلِ - مِمّن عَلِمْنا ومَنْ لَم نَعْلَم -، وهُمْ عَلى دَرَجاتٍ كَذَلِك في المُفاضَلَةِ فيمَا بَيْنَهُم، إذِ الإِبْهامُ أَعَمُّ دَلالَةً، وأَقْوى إِشارَةً، وأَمْتَنُ مَدْحًا، وأَرْسَخُ أَثَرًا في نُفوسِ المُخاطَبينَ للرُّسُلِ المُفَضَّلين.

مدح المواجهة هجاء، والثناء في الوجه قبيح، والإطراء مظنّة الغفلة، والممدوح مستغنى به عن ذكره

وُجِّهَ قوله: ﴿وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ﴾ على أنه إشارة إلى النبيّ ﷺ. ولَمْ يُصرّح بذكره أو بوصفه، كما فعل بموسى وعيسى عليهما السلام؛ لأنّ مورد كلام الله تعالى مورد خطاب الناس فيما بينهم، وهو ما يُستحسن فيه في بعض المواضع أن يُذْكَرَ الممدوحُ المخاطبُ تعريضاً، فيكون أبلغ من التصريح لما جرى من عادتهم أن مدح المواجهة هجاء، والثناء في الوجه قبيح، أو لأن الإطراء قد يدعو إلى الغفلة، أو لكون الممدوح بذلك المدح مستغنى به عن ذكره[1].

بَلاغَةُ الالتِفاتِ والاِنْتِقالِ مِنَ الإِبْهامِ إلى التَّعْيينِ:

المُناسَبَةُ بَيْنَ الغَيْبَةِ والمُبْهَمِ تَفْضيلُهُمْ، والتَّكَلُّمِ والمُعَيَّنِ ذِكْرُهُ، ونُكْتَةِ التَّعْيينِ رَدُّ الغُلُوِّ في شَأْنِهِ

جاءَتْ جُمْلَةُ ﴿وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾ "فِعْلِيّةً مُسْنَدَةً لضَميرِ المُتَكَلِّمِ عَلى سَبيلِ الالْتِفاتِ، إذْ قَبْلَهُ غائِبٌ، وَكُلُّ هَذا يَدُلُّ عَلى التَّوَسُّعِ في أَفانينِ البَلاغَةِ وَأَساليبِ الفَصاحَةِ"[2]، وحَسُنَ الالْتِفاتُ مِنَ الغَيْبَةِ إلى التَّكَلُّمِ، كَما حَسُنَ الانْتِقالُ مِنْ إِبْهامِ المُكَلَّمِ والمَرْفوعِ دَرَجاتٍ إلى تَعْيينِ مَنْ آتاهُ اللهُ البَيِّناتِ وَأَيَّدَهُ بِروحِ القُدُسِ، وهُوَ عيسى عليه السلام، فناسَبَ الإِبْهامَ الغَيْبَةُ، كَما حَسُنَ مَعَ التَّعْيينِ التَّكَلُّمُ.

(1) الراغب، تفسير الراغب: 1/517.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 2/602.

نُكْتَةُ تَعْيينِ اسْمِ عيسَى عليه السلام وأُمِّهِ:

نُكْتَةُ تَعْيينِ الاسْمِ الرَّدُّ عَلى أَهْلِ الكِتابَيْنِ تَفْريطَهُمْ في إِنْكارِ رِسالَتِهِ وإِفْراطَهُمْ في أُلوهِيَّتِهِ

وعُيِّنَ اسْمُ عيسى عليه السلام، مَعَ أَنَّ سائِرَ الرُّسُلِ أُيِّدوا بالبَيِّناتِ وبِروحِ القُدُسِ، أَنَّ ما آتاه اللّه لَمّا كانَ مُشْتَرَكًا كانَ ذِكْرُهُ بِالإِبْهامِ غَيْرَ صَريحٍ في كَوْنِهِ مِمَّنْ فُضِّلَ بِهِ[1]، وَ"لِرَدِّ ما بَيْنَ أَهْلِ الكِتابَيْنِ في شَأْنِهِ عليه السلام مِنَ التَّفْريطِ وَالإِفْراطِ"[2]، "فاليَهودُ أَنْكَروا رِسالَتَهُ ومُعْجِزاتِهِ، والنَّصارى غَلَوْا فزَعَموا أُلوهِيَّتَهُ، ولأَجْلِ هَذا ذُكِرَ مَعَهُ اسْمُ أُمِّهِ؛ للتَّنْبيهِ عَلى أَنَّ ابْنَ الإِنْسانِ لا يَكونُ إِلَهًا، وعَلى أَنَّ مَرْيَمَ أَمَةُ اللّهِ تَعالى لا صاحِبَتُه؛ لأَنَّ العَرَبَ لا تَذْكُرُ أَسْماءَ نِسائِها وإِنَّما تَكْني، فيَقولونَ رَبَّةُ البَيْتِ، والأَهْلُ، ونَحْوَ ذَلِكَ ولا يَذْكُرونَ أَسْماءَ النِّساءِ إِلَّا في الغَزَلِ، أَوْ أَسْماءَ الإِماءِ"[3].

سِرُّ تَسْمِيَةِ جِبْريلَ بروحِ القُدُسِ:

وجْهُ التَّسمية بروحِ القُدُسِ؛ أَنَّهُ روحٌ يَبْعَثُ الحَياةَ في القُلوبِ

معنى ﴿بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾ بالرُّوحِ المُقَدَّسَةِ أَي: الرُّوح المُطَهَّرَة – وهوَ جِبْريلُ عليه السلام –، كما تَقولُ: حاتِمُ الجودِ، ووَصَفَها بالقُدُسِ للكَرامَةِ[4]، وسَمَّى اللّهُ تَعالَى جِبْريلَ روحًا؛ فلَمْ يَقُلْ:)جِبْريل(؛ لسَبَبَيْنِ اثْنَيْنِ:

الأَوَّلُ: أَنَّهُ كانَ بتَكْوينِ اللّهِ لَهُ روحًا مِنْ عِنْدِهِ، مِنْ غَيْرِ وِلادَةِ والِدٍ ولَدَهُ، فسَمَّاهُ روحًا[5]، وهوَ سَبَبٌ حَقيقيٌّ.

الثَّاني: مِنْ حَيْثُ إِنَّ الرُّوحَ كما أَنَّهُ سَبَبٌ لحَياةِ الرَّجُلِ، فكَذَلِكَ جِبْريلُ عليه السلام سَبَبٌ لحَياةِ القُلوبِ بالعُلومِ[6]، وهُوَ سَبَبٌ قائِمٌ عَلى التَّشْبيهِ.

(1) رضا، تفسير المنار: 3/7.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/246.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/9.
(4) الزمخشري، الكشاف: 1/162.
(5) ابن جرير، جامع البيان: 2/322.
(6) الرازي، مفاتيح الغيب: 3/596.

علّة إضافة الرّوح إلى القدس:

وأُضيفَ الرّوح إلى القُدُسِ؛ لأنَّه "يَنْزِلُ مِنَ اللهِ تَعالى بالقُدُسِ، أَيْ: بِما يُطَهِّرُ بِهِ نُفوسَ عِبادِهِ مِنَ القُرْآنِ والحِكْمَةِ والفَيْضِ الإلَهِيِّ"[1]، فهُوَ يَبْعَثُ الحَياةَ في القُلوبِ، ويُطَهِّرُ النُّفوسَ، وهذا شَأْنُ الرُّسُلِ المُؤَيَّدينَ، أَنَّهُمْ أَحْياءٌ مُطَهَّرونَ، ومِنْ ثَمَّ هُم مُحْيُونَ غَيْرَهُمْ بالحِكْمَةِ، مُطَهِّرُونَ أَتْباعَهُمْ بالشَّريعَةِ.

وجه إضافة الرّوح إلى القُدُس؛ لأنَّهُ يُطَهِّرُ النُّفوسَ

فَنُّ التَّقابُلِ بَيْنَ الرُّسُلِ وأَتباعِهِمْ:

بَعْدَ بَيانِ تَفْضيلِ اللهِ تَعالى بَعْضَ رُسُلِهِ؛ شَرَعَ في بَيانِ تَفْضيلِ بَعْضِ أَتْباعِ رُسُلِهِ؛ فَقالَ: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾، وأُسْلوبُ الآيَةِ قَريبٌ مِنْ فَنِّ التَّقابُلِ في عِلْمِ البَديعِ، فقابَلَ بَيْنَ الرُّسُلِ وأَتباعِهِمْ؛ لبَيانِ الفَرْقِ بَيْنَهُمْ، فالمُفاضَلَةُ بَيْنَ الرُّسُلِ حَقيقِيَّةٌ، إذْ هِيَ بَيْنَ الفُضَلاءِ، أَمَّا الأَتْباعُ فَهُمْ ما بَيْنَ مُؤْمِنٍ وكافِرٍ، فالمُفاضَلَةُ مَجازِيَّةٌ، والتَّقابُلُ اعْتِبارِيٌّ[2]، وتَكْمُنُ بَلاغَةُ التَّقابُلِ في بَيانِ الفَرْقِ بَيْنَ صَفْوَةِ خَلْقِ اللهِ المُخْتارينَ لحَمْلِ الرِّسالَةِ، وعُمومِ الخَلْقِ، فبَرَزَتْ فَضيلَةُ الرُّسُلِ عَلى عُمومِ الخَلْقِ.

وجه بلاغة التَّقابُلِ بَيانُ الفَرْقِ بَيْنَ صَفْوَةِ خَلْقِ اللهِ، وعُمومِ الخَلْقِ، وإظْهارُ فَضيلَةِ الرُّسُلِ عَلى عُمومِ الخَلْقِ

نكتة حَذْفِ مَفْعولِ المَشيئَةِ:

مَفْعولُ المَشيئَةِ في قَوْلِه تَعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم﴾ مَحْذوفٌ تَقْديرُهُ: "لَوْ شاءَ اللهُ عَدَمَ اقْتِتالِهِمْ ما اقْتَتَلوا؛ بأَنْ جَعَلَهُم مُتَّفِقينَ عَلى اتِّباعِ الرُّسُلِ المُتَّفِقَةِ عَلى كَلِمَةِ الحَقِّ .. لكَوْنِهِ مَضْمونَ الجَزاءِ"[3]، فالقاعِدَةُ أَنَّ مَفْعولَ المَشيئَةِ "إذا حَذَفْتَهُ بَعْدَ (لَوْ) فهوَ المَذْكورُ في جَوابِها أَبَدًا"[4]، وهيَ قاعِدَةٌ شِبْهُ مُطَّرِدَةٍ، والمَعْنى: "أَنَّ اللهَ شاءَ اقْتِتالَهُمْ فاقْتَتَلوا، وشاءَ اخْتِلافَهُمْ فاخْتَلَفوا،

وجه الحذف تَثْويرُ الذِّهْنِ في تَقْديرِ المَحْذوفِ، ونُكْتَتُهُ أَنَّ المَشيءَ المَحْذوفَ مِمَّا يَجِبُ أَنْ يَكونَ حاضِرًا لَدى السّامِعِ

(1) السمين، عمدة الحفاظ: (قدس).
(2) التفتازاني، المطول، ص: 653.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/246.
(4) السبكي، عروس الأفراح: 1/376.

والمَشيئَةُ هُنَا مَشيئَةُ تَكْوينٍ وتَقْديرٍ لا مَشيئَةُ الرِّضا؛ لأَنَّ الكَلامَ مَسوقٌ مَساقَ التَّمَنِّي للْجَوابِ والتَّحْسيرِ عَلى امْتِناعِهِ وانْتِفائِهِ المُفادِ بـ ﴿وَلَوْ﴾"[1]، والبَلاغَةُ في أَنْ يُجاءَ بِهِ كَذلِكَ مَحْذوفًا؛ لِعلمِ السَّامِعِ أَنَّ المُتَكَلِّمَ قَدْ عَلَّقَ هَذِهِ المَشيئَةَ في المَعنى بشَيْءٍ، فهُوَ يَضَعُ في نَفْسِهِ أَنَّ هَهُنا شَيْئًا يَقْتَضي المُتَكَلِّمُ مَشيئَتَهُ لَهُ أَنْ يَكونَ أَوْ أَنْ لا يَكونَ[2]، وفائِدَتُهُ إِثارَةُ ذِهْنِ السَّامِعِ في تَقديرِ المَحْذوفِ لِيَتَجاوَبَ مَعَ النَّصِّ.

بَلاغَةُ الاسْتِدْراكِ بـ (لكنْ):

تَكْمُنُ بَلاغَةُ الاِسْتِدْراكِ في رَفْعِ مَفْهومِ الكَلامِ السَّابِقِ؛ لا لإِلْغائِهِ، بَلْ لِتَمَحُّضِهِ في بَيانِ عِلَّةِ الاِقْتِتالِ

الاِسْتِدراكُ هُوَ نِسْبَةُ حُكْمٍ يُخالِفُ المَحْكومَ عَلَيْهِ قَبْلَهُ[3]، واحتلَّ في قَوْلِهِ تَعالى: ﴿وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُواْ﴾ مَوْقِعًا بَديعًا، فهُوَ "واقِعٌ بَيْنَ ضِدَّيْنِ، إِذِ المَعْنى: ولَوْ شاءَ اللّهُ الاتِّفاقَ لاتَّفَقوا، ولَكِنْ شاءَ الاخْتِلافَ فاخْتَلَفوا"[4]فهُوَ "اسْتِدْراكٌ لِمَا دَلَّ الكَلامُ عَلَيْهِ؛ لِأَنَّ اقْتِتالَهُمْ كانَ مِنِ اخْتِلافِهِمْ، ثُمَّ بَيَّنَ الاخْتِلافَ بقَوْلِهِ: ﴿فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ﴾ والتَّقْديرُ: فاقْتَتَلوا"[5]. وتَكْمُنُ بَلاغَةُ الاِسْتِدراكِ ههنا في رَفْعِ مَفْهومِ الكَلامِ السَّابِقِ، لَكِنَّهُ هُنا لا لإِلْغائِهِ، بَلْ لبَيانِ تَمَحُّضِهِ في بَيانِ عِلَّةِ الاقْتِتالِ، وهِيَ الاخْتِلافُ إِيمانًا وكُفْرًا.

بَلاغَةُ تَقْديمِ ﴿مَّنْ ءَامَنَ﴾ عَلى ﴿مَّن كَفَرَ﴾:

أَفادَ تَقْديمُ المُؤْمِنِ على الكافِرِ أنّ الإِيمانَ هُوَ أَصْلُ الفِطْرَةِ، وَالكُفْرُ طارِئٌ عَلَيْها

قُدِّمَ (من آمن) عَلى (من كفر) في قَوْلِهِ: ﴿فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ﴾؛ لأَمْرَينِ وهُما: تَقْديمُ المُؤْمِنينَ؛ لأَنَّهُمْ أَتْباعُ الرُّسُلِ هُوَ الأَنْسَبُ بالسِّياقِ المُتَحَدِّثِ عَنْ تَفاضُلِ الرُّسُلِ، فهَذا سَبَبٌ سِياقِيٌّ، ولأَنَّ الإِيمانَ هُوَ أَصْلُ الفِطْرَةِ، وَالكُفْرُ طارِئٌ عَلَيْها، وهَذا سَبَبٌ جِبِلِّيٌّ.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/11.
(2) الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص: 164.
(3) المرادي، الجنى الداني، ص: 615.
(4) السمين، الدر المصون: 2/537.
(5) العكبري، التبيان: 1/202.

وفائدة التقديم أيضًا أنَّ مَنْ كَفَرَ هُوَ سَبَبُ الاخْتِلافِ المُؤَدِّي إلى الاقْتِتالِ

وأَفادَ التَّقديمُ مَعَ مَجْموعِ السِّياقِ نُكْتَةً بَيانِيَّةً وهِيَ أَنَّ المُخالِفَ للأَصْلِ الطَّارِئَ هُوَ سَبَبُ الاخْتِلافِ المُؤَدِّي إلى الاقْتِتالِ، وأَنَّه لَو بَقِيَ عَلَى إيمانِهِ لَما اقْتَتَلَ الفَرِيقانِ.

بَلاغَةُ تكْرارِ جملة المشيئة:

فائِدَةُ التَّكْرارِ تَأْكيدُ الجُمْلَةِ السَّابِقَةِ، والتَّمْهيدُ لِلَّاحِقَةِ

التَّكْرارُ الَّذي لا يُضيفُ فائِدةً مَعْنَوِيَّةً لا وُجودَ لَهُ في النَّظْمِ الكَريمِ، وإذا أُعيدَتْ أَلفاظٌ وجُمَلٌ إثْرَ أُخْرى مُشابِهَةٍ لها لَفْظًا فلَها مَقْصَدٌ بَيانِيٌّ كإرادَةِ التَّأكيدِ والإفْهامِ[1]، وقَدْ أَفادَ تَكْرارُ قَوْلِهِ تَعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُواْ﴾ التَّأْكيدَ[2]، والتَّمْهيدَ ليُبْنى عَلَيْهِ ما بَعْدَهُ[3]، وهَذا لَوْنٌ مِنْ أَلْوانِ الاتِّساقِ المَتينِ بَيْنَ المَعاني.

وجه تناسب الكلام واقتران كلّه بشكله أنْ يَتْلُو ذِكْرَ تَعَلُّقِ المَشيئَةِ بالاقْتِتالِ؛ عُمومُ تَعَلُّقِ المَشيئَةِ

وهُناكَ سِرٌّ أُسْلوبِيٌّ آخَرُ سِوى التَّأْكيدِ أَخَصُّ مِنْهُ، أَضافَهُ ابْنُ المُنَيِّرِ عَلى كَلامِ الزَّمَخْشَرِيِّ، وهُوَ "أَنَّ العَرَبَ مَتى بَنَتْ أَوَّلَ كَلامِها عَلى مَقْصَدٍ، ثُمَّ اعْتَرَضَها مَقْصَدٌ آخَرُ، وأَرادَتِ الرُّجوعَ إلى الأَوَّلِ، قَصَدَتْ ذِكْرَه إمَّا بتِلْكَ العِبارَةِ أَوْ بقَريبٍ مِنْها. وذَلِكَ عِنْدَهُمْ مَهْيَعٌ مِنَ الفَصاحَةِ مَسلوكٌ، وطَريقٌ مُعَبَّدٌ. وهذِهِ الآيَةُ مِنْ هَذا النَّمَطِ، لَمَّا صُدِّرَ الكَلامُ بأَنَّ اقْتِتالَهُمْ كانَ عَلى وَفْقِ المَشيئَةِ، ثُمَّ طالَ الكَلامُ، وأُريدَ بَيانُ أَنَّ مَشيئَةَ اللهِ تَعالى كَما نَفَذَتْ في هَذا الأَمْرِ الخاصِّ - وهُوَ اقْتِتالُ هَؤُلاءِ - فهِيَ نافِذَةٌ في كُلِّ فِعْلٍ واقِعٍ، وهُوَ المَعْنَى المُعَبَّرُ عَنْهُ في قَوْلِه: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾، طَرَأَ ذِكْرُ تَعَلُّقِ المَشيئَةِ بالاقْتِتالِ؛ ليَتْلُوَهُ عُمومُ تَعَلُّقِ المَشيئَةِ؛ ليَتَناسَبَ الكَلامُ، ويُقْرَنَ كُلٌّ بشَكْلِهِ، فَهَذا سِرٌّ يَنْشَرِحُ لبَيانِهِ الصَّدْرُ، ويَرْتاحُ لَهُ السِّرُّ"[4].

بَلاغَةُ فنّ التَّصدير:

ناسَبَتْ فاصِلَةُ الآيَةِ النَّاصَّةُ عَلى عُمومِ الإرادَةِ ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ

(1) ابن قتيبة، تأويل مشكل القرآن، ص: 149.

(2) الزمخشري، الكشاف: 1/298.

(3) ابن جزي، التسهيل: 1/131، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/13.

(4) ابن المنير، الانتصاف: 1/298، والآلوسي، روح المعاني: 2/5.

يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ مَطْلَعَ الآيَةِ النَّاصَّ عَلى خُصوصِ إرادَةِ التَّفْضيلِ، ففيهِ رَدُّ الفاصِلَةِ عَلى مَطْلَعِ الآيَةِ، الَّذي يُسَمُّونَهُ في عِلْمِ البَديعِ: التَّصْديرَ[1]، ونُكْتَتُه تَسْليمُ الأَمْرِ كُلِّهِ للهِ فيما يُريدُ، مَعَ ما فيها مِنَ الاِسْتِدراكِ الدَّالِّ عَلى أَنَّ اصْطِفاءَ الرُّسُلِ، وَتَفضيلَ بَعْضِهِمْ عَلى بَعْضٍ، واقْتِتالَ النَّاسِ فيما بَيْنَهُم، مآلُهُ إلى إرادَتِه سُبْحانَهُ وتَعالى، ولَمَّا كانَتْ إرادَتُهُ عامَّةً في كُلِّ شَيْءٍ وَجَبَ حَذْفُ المَفْعولِ كَما يَقولُ البَيانِيُّونَ[2]، وهُوَ المُناسِبُ للسِّياقِ.

نُكْتَةُ رَدِّ الفاصِلَةِ عَلى مَطْلَعِ الآيَةِ؛ تَسْليمُ الأَمْرِ لإرادَتِهِ سُبْحانَهُ فيما يَفْعَلُ

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الإيتاء والإعْطاء:

نَلْحَظُ مِن خِلالِ تَدَبُّرِ اسْتِعْمالِ القُرْآنِ للَفْظَيِ الإيتاءِ والإعْطاءِ، أَنَّ الإيتاءَ خاصٌّ فيما يُنالُ في الدُّنْيا وهُوَ مُحَدَّدٌ مَعْلومٌ، والإعْطاءَ عامٌّ فيما يُنالُ في الدُّنْيا والآخِرَةِ وهُوَ غَيْرُ مُحَدَّدٍ، فاسْتُعْمِلَ الإيتاءُ في إيتاءِ الزَّكاةِ، والآياتِ، والبَيِّناتِ، والحِكْمَةِ، والعِلْمِ، والإنْجيلِ، والزَّبورِ، والنُّبُوَّةِ، والمُلْكِ، وزُبرِ الحَديدِ، والأُكُلِ، والتَّقْوى، وهَذِهِ مُحَدَّدَةٌ مَعْلومَةٌ، وهِيَ خاصَّةٌ فيما يُنالُ في الدُّنْيا، أَمَّا الإعْطاءُ فاسْتُعْمِلَ في إعْطاءِ الكَوْثَرِ، والجَزاءِ في الجَنَّةِ، والرِّزْقِ، والجِزْيَةِ، وإعْطاءِ كُلِّ شَيْءٍ خَلْقَهُ، وذُكِرَ فِعْلُ الإعْطاءِ دونَ مَفْعولٍ للإطْلاقِ، مِنْ مِثْلِ قَوْلِهِ: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ۝٥﴾ [الضحى: 5]، وقَوْلِه: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥﴾ [الليل: 5]، وهَذِهِ غَيْرُ مُحَدَّدَةٍ، وتَكونُ عامَّةً في الدُّنْيا والآخِرَةِ.

الإيتاءُ خاصٌّ فيما يُنالُ في الدُّنْيا وهوَ مُحَدَّدٌ مَعْلومٌ، والإعْطاءُ عامٌّ فيما يُنالُ في الدُّنْيا والآخِرَةِ، وهُوَ غَيْرُ مُحَدَّدٍ

وَإذا قابَلْنا بَيْنَ الزَّكاةِ والجِزْيَةِ لتَقابُلِهِما مَثَلًا، نَجِدُ أَنَّ الزَّكاةَ مُحَدَّدٌ مِقْدارُها بِنِسْبَةٍ ثابِتَةٍ لا تَتَغَيَّرُ، أَمَّا الجِزْيَةُ فلَيْسَتْ مُحَدَّدَةً،

(1) ابن المعتز، البديع، ص: 140.
(2) الزركشي، البرهان: 2/396.

إذْ هِيَ خاضِعَةٌ للسِّياسَةِ الشَّرْعِيَّةِ، ويَتَغَيَّرُ مِقْدارُها بحَسَبِ التَّكْييفِ الفِقْهِيِّ، وقَوْلُهُ تَعالى: ﴿وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾ جاءَ عَلى اسْتِعْمالِ القُرْآنِ، إذِ ﴿ٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ مُحَدَّدَةٌ مَعْلُومَةٌ للمُخاطَبِ، وهِيَ تَشْمَلُ "المُعْجِزاتِ مِنْ إحْياءِ المَوْتى ونَحْوِها والإنْجيلَ؛ لأَنَّ المُعْجِزَ يُبَيِّنُ صِحَّةَ نُبُوَّتِهِ كَما أَنَّ الإنْجيلَ يُبَيِّنُ كَيْفِيَّةَ شَرِيعَتِهِ"[1].

التأييد والتقوية:

التَّأييدُ هُوَ التَّقْوِيَةُ الشَّديدَةُ الواقِيَةُ مِنْ أَيِّ فَسادٍ يُهَدِّدُ المُؤَيَّدَ، وهوَ لَفْظٌ قُرْآنِيٌّ بَليغٌ لا يُؤَدِّي مَعْناهُ لَفْظُ التَّقْوِيَةِ، ويَزْدادُ اسْتِعْمالُ هَذا اللَّفْظِ بَراعَةً أَنْ يَكونَ التَّأييدُ بِجِبْريلَ عليه السلام، ولأن اختصاص عيسى بجبريل من آكد وجوه الاختصاص، إذ لم يكن لأحد من الأنبياء مثل ذلك، لأنه هو الذي بشَّر مريم بولادته، وتولَّد عيسى بنفخه، وربَّاه في جميع الأحوال، وكان يسير معه حيث سار، وكان معه حيث صعد إلى السماء[2]، وبِهِ يَظْهَرُ وَجْهُ تَفْضِيلِ عِيسَى عليه السلام بهذا التأييد.

(1) الرازي، مفاتيح الغيب: 3/595.

(2) أبو حيان، البحر المحيط: 1/481.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا بَيۡعٞ فِيهِ وَلَا خُلَّةٞ وَلَا شَفَٰعَةٞۗ وَٱلۡكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٢٥٤﴾ [البقرة: 254]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

بَعْدَ بَيانِ تَفاضُلِ الرُّسُلِ، واخْتِلافِ أَتْباعِهِم، اقْتِتالًا بِسَبَبِ الإيمانِ والكُفْرِ، أَمَرَ اللَّهُ المُؤْمِنينَ بالإنْفاقِ؛ لأَنَّهُ بُرْهانُ الإيمانِ، وحَذَّرَهُم مِنَ الفَوْتِ بَعْدَ المَوْتِ، و"أَصْعَبُ الأَشْياءِ عَلى الإنْسانِ بَذْلُ النَّفْسِ في القِتالِ، وبَذْلُ المالِ في الإنْفاقِ، فلَمَّا قَدَّمَ الأَمْرَ بالقِتالِ؛ أَعْقَبَهُ بالأَمْرِ بالإنْفاقِ"[1]، وفي هَذِهِ المُناسَبَةِ سِرٌّ بَديعٌ، وهُوَ أَنَّ مَنْ أَرادَ أَنْ يَلْحَقَ بالرُّسُلِ، فعَلَيْهِ أَنْ يَبْذُلَ مِنْ نَفْسِهِ ومالِهِ بقَدَرِ إيمانِهِ بِهِمْ، فإنَّ الإيمانَ عَمَلٌ لا مُجَرَّدُ دَعْوى.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَنفِقُواْ﴾: ترجع مادَّةُ (نفق) في اللُّغَةِ إلى أَصْلَيْنِ صَحيحَيْنِ، "يَدُلُّ أَحَدُهُما عَلى انْقِطاعِ شَيْءٍ وذَهابِهِ، والآخَرُ عَلى إخْفاءِ شَيْءٍ وإغْماضِهِ"[2]، والمَعْنَيانِ مُتَقارِبانِ في الاسْتِعْمالِ؛ فإنَّ ذَهابَ الشَّيْءِ خَفاؤُهُ، وهُوَ مَأْخوذٌ مِنْ نَفَقَتِ الدَّابَّةُ إذا ماتَتْ[3]، و"المُرادُ بالإنْفاقِ هُنا ما هُوَ أَعَمُّ مِنَ الإنْفاقِ في سَبيلِ اللَّهِ"[4].

2) ﴿وَلَا خُلَّةٞ﴾: أَصْلُ الخُلَّةِ يَرْجِعُ إلى دِقَّةٍ أَوْ فُرْجَةٍ، فالخَليلُ الَّذي يُخالُّكَ؛ كأَنَّكُما قَدْ تَخَالَلْتُما؛ كالكِساءِ الَّذي يُخَلُّ[5]؛ فالخُلَّةُ الصَّداقَةُ، والخَلَّةُ الحاجَةُ[6]، والعَلاقَةُ بَيْنَهُما أَنَّ الخَليلَ "الَّذي لَيْسَ في مَحَبَّتِهِ نَقْصٌ ولا خَلَلٌ"[7]، يُلْجَأُ إلَيْهِ عِنْدَ الخَلَّةِ، وسُمِّيَتِ الصَّداقَةُ بالخُلَّةِ لأَنَّها تَتَخَلَّلُ الأَعْضاءَ، أَيْ: تَدْخُلُ خِلالَها، والمُرادُ في الآيَةِ المَصْدَرُ؛ ليَدْخُلَ فيها المُفْرَدُ والجَمْعُ، وكُلُّ مَنِ اتَّصَفَ بأَنَّهُ خَليلٌ، ويَصِحُّ إرادَةُ الصَّديقِ.

(1) الرازي، مفاتيح الغيب: 6/530.
(2) ابن فارس: المقاييس: (نفق).
(3) الخليل، العين: (نفق).
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/14.
(5) ابن فارس: المقاييس: (خلل).
(6) أبو عبيد، غريب الحديث: 4/63.
(7) الأنباري، الزاهر: 1/493.

3) ﴿وَلَا شَفَٰعَةٌۗ﴾: الشِّينُ والفاءُ والعَيْنُ أَصْلٌ صَحيحٌ يَدُلُّ عَلى مُقارَنَةِ الشَّيْئَيْنِ، مِنْ ذَلِكَ: الشَّفْعُ خِلافُ الوَتْرِ، تَقولُ: كانَ فَرْدًا فَشَفَعْتُهُ، وشَفَعَ فُلانٌ لِفُلانٍ إذا جاءَ ثانِيَهُ مُلْتَمِسًا مَطْلَبَهُ ومُعينًا لَهُ[1]، والشَّفاعَةُ: الانْضِمامُ إلى آخَرَ ناصِرًا لَهُ وسائِلًا عَنْهُ، وأَكْثَرُ ما يُسْتَعْمَلُ في انْضِمامِ مَنْ هُوَ أَعْلى حُرْمَةً ومَرْتَبَةً إلى مَنْ هُوَ أَدْنى، ومِنْهُ: الشَّفاعَةُ في القِيامَةِ[2]، كما هُوَ في هَذِهِ الآيَةِ.

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

حضُّ المؤمنين على الإنفاق في سبيل الله، لأنَّه من أهم عناصر القوة في الأمة

الآيَةُ نِداءٌ للمُؤْمِنينَ بالبَعيدِ، تَنْبيهًا عَلى أَهَمِّيَّةِ الاسْتِجابَةِ لِلأَمْرِ بالإِنْفاقِ، وسنامه إخراج الزكاة المفروضة، ثم التصدق ممَّا وهب اللّه، وقَدْ بُنِيَ الأَمْرُ بالإِنْفاقِ عَلى الإيمانِ، وقُوِّيَ بالامْتِنانِ بأن هذا المال الذي بين أيدى الأغنياء ما هو إلا رزق رزقهم اللّه إياه، ونعمة أنعم بها عليهم، والتَّحْذير مِنَ النِّسْيانِ، ليَوْمٍ لا يوجَدُ فيه خلَّانٌ، والبَيْعُ مَحْمُولٌ؛ إمَّا عَلى المُبادَلَةِ والمُعاوَضَةِ، وإمَّا عَلى الافْتِداءِ، والخُلَّةُ والشَّفاعَةُ إمَّا أَنْ يُحْمَلا عَلى ظاهِرِهِما حيث لا صداقة صديق تُنقذكم، ولا شافع يملك تخفيف العذاب عنكم، وإمَّا عَلى لازِمِهِما في الكَسْبِ؛ كالهَدِيَّةِ والإِقْطاعِ[3]، وهِيَ مَعانٍ يَحْتَمِلُها سِياقُ الآيَةِ، وتَتَّفِقُ في المَقْصودِ بنَفْيِ كُلِّ وَهْمٍ مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يُنْقِذَ الإِنْسانَ مِنْ قَهْرِ ذَلِكَ اليَوْمِ.

والشفاعة المنفية هنا هي التي لا يقبلها اللّه تعالى وهي التي لا يأذن بها، أمَّا شفاعة النبيّ ﷺ فقد أذن اللّه له بها وقبلها منه، وقد وردت أحاديث صحيحة بلغت مبلغ التواتر المعنوي في أن النبي ﷺ ستكون له شفاعة في دفع العذاب عن أقوام من المؤمنين وتخفيفه عن أهل الكبائر من المسلمين.

(1) ابن فارس: المقاييس: (شفع).
(2) الراغب، المفردات: (شفع).
(3) رضا، تفسير المنار: 15-3/14.

والكافرون هم الظالمون المتجاوزون حدود الله، واخْتَلَفَ المُفَسِّرونَ في مَعْنَى الكُفْرِ، فمِنْهُمْ مَنْ قالَ بأَنَّهُ الاعْتِقادِيُّ، الذين ثبت فيه الظلم التامُّ، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ۝١٣﴾ [لقمان: 13]، ومِنْهُمْ مَنْ قالَ بأَنَّه العمليُّ، والمراد التَّارِكونَ للزَّكاة[1]، ويَصْدُقُ اللَّفْظُ عَلى المَعْنَيَيْنِ، تَشْنيعًا وتَحْذيرًا، ويُؤَيِّدُهُ السِّياقُ.

فالآية الكريمة تحض المؤمنين على الإنفاق في سبيل الله؛ لأنه من أهم عناصر القوة في الأمة، وأفضل وسيلة لإقامة المجتمع الصالح المتكافل، وفيها حثٌّ آخر على التعجيل بالإنفاق؛ لأنه تذكير للناس بهذا الوقت الذي تنتهي فيه الأعمال، ولا يمكن فيه استدراك ما فاتهم، ولا تعويض ما فقدوه من طاعات[2].

الإيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

بَلاغَةُ النِّداءِ في مطلع الآية:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ﴾ خطابٌ للمُؤْمِنينَ بأُسْلوبِ نداءِ البَعيدِ؛ للتَّنْبيهِ عَلى أَهَميَةِ الأَمْرِ المُتَحَدَّثِ عَنْهُ، و"أَنَّ ما يَعْقُبُه أَمْرٌ خَطيرٌ يُعْتنى بشَأْنِه"[3]، ولِذَلِكَ حَفَّزَهُم بما في حَيِّزِ الصِّلَةِ وهُوَ وَصْفُ الإيمانِ، فمُقْتَضاهُ الاسْتِجابَةُ للأَمْرِ بالإنْفاقِ، "وفي الآيَةِ التِفاتٌ شَديدٌ إلى أَوَّلِ السُّورَةِ، حَيْثُ وَصَفَ المُؤْمِنينَ بالإنْفاقِ مِمَّا رَزَقَهُم، والإيقانِ بالآخِرَةِ"[4]، وهُوَ رَبْطٌ بَديعٌ يُؤَكِّدُ اتِّصالَ المَعاني ووَثاقَتَها.

التَّنْبيهُ عَلى أَهَمِّيَّةِ الأَمْرِ المُتَحَدَّثِ عَنْهُ، وأَنَّ ما يَعْقُبُهُ أَمْرٌ خَطيرٌ يُعْتَنى بشَأْنِهِ

دَلالاتُ تَعَلُّقِ الكَلامِ بَعْضِهِ ببَعْضٍ:

قَوْلُه تَعالى: ﴿مِمَّا رَزَقْنَٰكُمْ﴾ إمَّا أَنْ يَتَعَلَّقَ بمفعولِ ﴿أَنفِقُواْ﴾ المَحذوفِ؛ أَيْ: أَنْفقوا شَيْئًا مِمَّا رَزَقناكُم، و"المُرادُ بالإنْفاقِ هُنا ما هُوَ أَعَمُّ مِنَ الإنْفاقِ في سَبيلِ اللهِ، ولِذَلِكَ حُذِفَ المَفْعولُ"[5]، وفائِدَةُ

تَنَوُّعُ المُتَعَلَّقِ بِهِ يَدُلُّ عَلى سَعَةِ الدَّلالَةِ في بَيانِ القِيَمِ التَّرْبَوِيَّةِ والبَيانِيَّةِ

(1) الزمخشري، الكشاف: 1/299، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 1/153، ورضا، تفسير المنار: 3/17، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/16.
(2) طنطاوي، التفسير الوسيط: 1/581.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/58.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 4/24.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/14.

حَذْفِهِ التَّرغيبُ في الإِنْفاقِ بالمُتَيَسِّرِ المَقْدورِ عَلَيْهِ، تَرْبِيَةً ارْتِقائِيَّةً في دَرَجاتِ المُنْفِقِين. قال ابن عاشور: "وقوله: ﴿مِمَّا رَزَقْنَٰكُم﴾ حثٌّ على الإنفاق واستحقاقٌ فيه"[1]. وفي التَّعْبيرِ بالإِنْفاقِ إرشادٌ تَرْبَوِيٌّ، فهُوَ مَأْخوذٌ مِنْ نَفَقَتِ الدَّابَّةُ إذا ماتَتْ[2]، وإنفاقُ المالِ طَريقٌ إلى مَوْتِ حُبِّهِ في النُّفوسِ؛ لإِحْياءِ الإيمانِ، فالمُفْرَدَةُ لَفَتَتِ المُخاطَبينَ إلى ضَرورَةِ الإِنْفاقِ لتَقْوِيَةِ الإيقانِ بيَومِ القِيامَةِ.

وإِمَّا أَنْ يَتَعَلَّقَ قَوْلُهُ: ﴿مِمَّا رَزَقْنَٰكُم﴾ بالفِعْلِ نَفْسِهِ[3]، وعَلى الاحْتِمالَيْنِ فإِنَّ الأَمْرَ مُتَّجِهٌ إلى إِنْفاقِ بَعْضِ ما رُزِقَهُ المُخاطَبونَ.

أفادَتْ نونُ العَظَمَةِ تَفْخيمَ الأَمْرِ، وأَفادَتْ كافُ الخِطابِ الامْتِنانَ

فائدة نونِ العَظَمَةِ وكافِ الخِطابِ:

وجاءَ الفِعْلُ ﴿رَزَقْنَٰكُم﴾ بصيغَةِ التَّكَلُّمِ وبنونِ العَظَمَةِ تَفْخيمًا للأَمْرِ، وأَفادَتْ كافُ الخِطابِ الامْتِنانَ، تَحْفيزًا للهِمَمِ، وتَذْكيرًا بالنِّعَمِ، فالآمِرُ بالإِنْفاقِ هُوَ الرَّزَّاقُ.

فائدة التّعلّق تَضْمينُ مَعْنَى التَّحْذيرِ

علّة تَعَلُّقِ الجارِّ الثَّاني بالأَمْرِ:

جاءَ قَوْلُه تَعالَى: ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ﴾ مُتَعَلِّقًا بِفِعْلِ الأَمْرِ ﴿أَنفِقُواْ﴾ مُضَمَّنًا مَعْنَى التَّحْذيرِ، فإِنَّ الأَمْرَ بالإِنْفاقِ قَبْلَ وُقوعِ الواقِعَةِ، مَعَ الجَهْلِ بوَقْتِ وُقوعِها، دَالٌّ عَلى التَّحْذيرِ مِنَ التَّراخي والتَّسْويفِ، فالتَّحْذيرُ دَعْوَةٌ إلى المُسارَعَةِ في الإِنْفاقِ قَبْلَ وُقوعِ المَحْذورِ[4].

وفي الجملة حثٌّ إضافيٌّ؛ بالتذكير بيوم القيامة حيث لاعملَ يُزادُ، أو يُستدرك

وقوله: ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ﴾ حثٌّ آخرُ بعد قوله: ﴿مِمَّا رَزَقْنَٰكُم﴾؛ لأنّه تذكيرٌ بأنَّ هنالك وقتًا تنتهي الأعمالُ إليه، ويتعذَّرُ الاستدراكُ فيه، وهو يومُ القيامة[5].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/14.
(2) الخليل، العين: (نفق).
(3) السمين، الدر المصون: 2/538.
(4) القاسمي، محاسن التأويل: 2/189.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/14.

دِقَّةُ النَّظْمِ في تَعَلُّقِ حَرْفَيْنِ بِفِعْلٍ واحِدٍ:

يَتَوَخَّى النَّظْمُ الكَريمُ دِقَّةً عَجيبَةً في بَيانِ المَعاني، فَمِنْ ذَلِكَ أَنْ يَتَعَلَّقَ بالفِعْلِ ﴿أَنفِقُواْ﴾ حَرْفانِ؛ أَحَدُهُما لِلتَّبْعيضِ، والثَّاني لِلابْتِداءِ، ولِاخْتِلافِ الحَرْفَيْنِ مَعْنًى جازَ التَّعَلُّقُ[1]، ونُكْتَتُهُ تَوْجيهُ المُخاطَبِ إلى مَعْنَيَيْنِ اثْنَيْنِ دَفْعَةً واحِدَةً، الأَوَّلُ: الإِنْفاقُ مِنْ رِزْقِ اللهِ، والثَّاني: الحَذَرُ مِنْ فُجاءَةِ يَومِ القِيامَةِ؛ لِيَسْتَعينَ المُخاطَبُ بِأَحَدِهِما عَلى الآخَرِ، وهَذا مِنْ بَلاغَةِ أُسْلوبِ الإِقْناعِ في القُرآنِ الكَريمِ.

مِنْ بَديعِ أُسْلوبِ الإِقْناعِ في القُرْآنِ؛ تَوجيهُ المُخاطَبِ إلى مَعْنَيَيْنِ دَفْعَةً واحِدَةً؛ لِيَسْتَعينَ بِهِما عَلى المَقْصودِ

قصديّة التَّعْبيرِ بالإِتْيانِ دونَ المَجيءِ:

فَرَّقَ الرَّاغِبُ بَيْنَ الإِتْيانِ والمَجيءِ، بِأَنَّ الإِتْيانَ هُوَ مَجيءٌ بِسُهولَةٍ[2]، ويَتَّسِقُ هَذا المَعْنى مَعَ تَحْذيرِ الآيَةِ مِنْ مُباغَتَةِ إِتْيانِ القِيامَةِ ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ﴾، وسُهولَةُ الإِتْيانِ يَقْتَضي سُرْعَتَهُ كَذَلِكَ، فإِنَّ سُرْعَةَ الإِتْيانِ وسُهولَتَهُ، أَوْقَعُ في نُفوسِ المُخاطَبينَ، والتَّعبيرُ بِفِعْلِ ﴿يَأْتِيَ﴾ أَشَدُّ تَلاؤُمًا في الإِيقاعِ الصَّوْتِيِّ في نَظْمِ الآيَةِ.

دَلالَةُ الإِتْيانِ عَلى سُهولَةِ المجيءِ، أَوْقَعُ في نُفوسِ المُخاطَبينَ، وأَشَدُّ تَلاؤُمًا في الإِيقاعِ الصَّوْتِيِّ

دَلالَةُ تَنْكيرِ ﴿يَوْمٌ﴾:

تَنْكيرُ ﴿يَوْمٌ﴾ أَفادَ التَّعْظيمَ، ولَوْ كانَ النَّظْمُ: (مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمُ القِيامَةِ) لَمَا أَفادَ هَذا البَيانَ، ووَصْفُه بِأَنَّهُ ﴿لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌۗ﴾ أَعْطاهُ مَعْنى التَّهْويلِ، فاجْتَمَعَ لَهُ مَعْنَيانِ وَرَّثا التَّرْهيبَ مِن اقْتِرابِ وُقوعِهِ؛ لِتَرْبِيَةِ النُّفوسِ عَلى مَهابَتِهِ، وحُسْنِ الاسْتِجابَةِ لِما يَقيهِم مِنْ شَرِّهِ.

أَفادَ التَّنْكيرُ التَّعْظيمَ، والوَصْفُ التَّهْويلَ

فائِدَةُ المَخْصوصِ بالذِّكْرِ:

خَصَّتِ الآيَةُ بالذِّكْرِ البَيْعَ والخُلَّةَ والشَّفاعَةَ، وفائِدَةُ ذَلِكَ أَنَّها أَتَتْ عَلى جَميعِ ما يَتَعَلَّقُ بِهِ الإِنْسانُ لِإِنْقاذِ نَفْسِهِ، فَنَفَتْهُ لِيُبْطِلَ كُلَّ وَهْمٍ في النَّجاةِ، وهَذا يُؤَكِّدُ مَعْنى التَّحْذيرِ في السِّياقِ، فَوَصْفُ اليَوْمِ

أَفادَ المَخْصوصُ بالذِّكْرِ نَفْيَ العُمومِ لِيُبْطِلَ كُلَّ وَهْمٍ يَظُنُّهُ الإِنْسانُ مُنْجِيًا

(1) السمين، الدر المصون: 2/538.

(2) الراغب، المفردات، والسمين، عمدة الحفاظ: (جيء).

بهَذِهِ المَخْصوصاتِ بالذِّكْرِ نَشَأَ عَنْهُ ما يُعْرَفُ بنَفْيِ العُموم، والعُمومُ وإنْ لَمْ يُذْكَرْ بأَلْفاظِهِ فَإِنَّهُ ذُكِرَ بمَعْناهُ، وهَذا مِنْ بَلاغَةِ المَخْصوصِ بالذِّكْرِ، أَنْ يُفيدَ نَفْيَ العُمُومِ، وسِرُّ اسْتِعْمالِ هَذِهِ المَخْصوصاتِ أَنَّ البَيْعَ يَشْمَلُ الجانِبَ المادِّيَّ، والخُلَّةَ تَشْمَلُ الجانِبَ المَعْنَوِيَّ، والشَّفاعَةَ تَشْمَلُ الجَانِبَيْنِ معًا.

بلاغة الكناية في انتفاءِ البيعِ والخلّةِ والشَّفاعة:

بيان الكناية تعذّر التّدارك للفائتِ

قال ابن عاشور: "وانتفاءُ البيعِ والخلّةِ والشَّفاعة كنايةٌ عن تعذّر التّدارك للفائت؛ لأنَّ المرءَ يحصلُ ما يعوزُهُ بطرقٍ هي المعاوضة المُعبَّرُ عنها بالبيع، والارْتفاقُ من الغير وذلك بسبب الخُلة، أو بسبب توسّط الواسطة إلى من ليس بخليل"[1].

سِرُّ التَّعْبيرِ بالخُلَّةِ دون غيرها من الألفاظ:

الخَليلُ ما لَيْسَ في مَحَبَّتِهِ نَقْصٌ ولا خَلَلٌ

للتَّعْبيرِ بالخُلَّةِ سِرٌّ لُغَوِيٌّ لَطيفٌ، فالخُلَّةُ الصَّداقَةُ، والخَلَّةُ الحاجَةُ[2]، والعلاقَةُ بَيْنَهُما أَنَّ الخَليلَ "الَّذي لَيْسَ في مَحَبَّتِهِ نَقْصٌ ولا خَلَلٌ"[3]، يُلْجَأُ إِلَيْهِ عِنْدَ الخَلَّةِ، وسُمِّيَتِ الصَّداقَةُ بالخُلَّةِ لِأَنَّها تَتَخَلَّلُ الأَعْضاءَ، أَيْ: تَدْخُلُ خِلالَها.

نَفْيُ الخُلَّةِ في الآيَةِ تَرَتَّبَ عَلَيْه نَفْيُ الأَدْنى وهُوَ الصَّديقُ

والفَرْقُ بَيْنَ الخُلَّةِ والصَّداقَةِ أَنَّ الخُلَّةَ تُطْلَقُ عَلى الخَليلِ، وعلى المَصْدَرِ[4]:

أَلَا أَبْلِغا خُلَّتي جابِرًا *** بأَنَّ خَليلَكَ لَمْ يُقْتَلِ[5]

بخِلافِ الصَّداقَةِ فلا تُطْلَقُ عَلى الصَّديقِ، ونَفْيُ الخُلَّةِ في الآيَةِ تَرَتَّبَ عَلَيْه نَفْيُ الأَدْنى وهُوَ الصَّديقُ، والخُلَّةُ إذا قُصِدَ بها

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/14.
(2) أبو عبيد، غريب الحديث: 4/63.
(3) الأنباري، الزاهر: 1/493.
(4) أبو حيان، البحر المحيط: 2/598.
(5) ابن السكيت، الألفاظ، ص: 339، والبيت لأوفى بن مطر المازني: (شاعر جاهلي)، لسان العرب، والجمهرة: (خلل).

الخَليلُ فهُوَ "مِنْ إطْلاقِ المَصْدَرِ عَلى العَيْنِ مُبالَغَةً"[1]، "ولِيَسْتَوِي فيهِ الواحِدُ وغَيْرُهُ، والمُذَكَّرُ وغَيْرُهُ"[2]، وإذا قُصِدَ الصَّداقَةُ فمَعْناهُ المُبالَغَةُ في النَّفْيِ، أيْ: إذا كانَتِ الصَّداقَةُ مُنْتَفِيَةً فكَيْفَ الصَّديقُ؟! فهِيَ مِنْ بابِ بَيانِ انْقِطاعِ العَلائِقِ عَلى التَّحْقيقِ، وهَذا أَبْلَغُ مِنْ أَنْ يَقولَ: ولا خَليلٌ.

بلاغة الاكتفاء في حَذْفِ الجارِّ والمَجْرورِ:

حَذْفُ الجارِّ والمَجْرورِ في قَوْلِه تَعالى: ﴿وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌۗ﴾ إذِ "التَّقْديرُ: ولا خُلَّةٌ فيهِ، ولا شَفاعَةٌ فيه، فَحُذِفَ خَبَرُ الثَّانِيَةِ والثَّالِثَةِ؛ لدَلالَةِ الخَبَرِ الأَوَّلِ عَلَيْهِما"[3]، والاكْتِفاءُ[4] لَوْنٌ مِنْ أَلْوانِ الإيجازِ البَديعِ، ونُكْتَتُهُ: الدَّلالَةُ بالأَوْلى، زِيادَةً في الإيْاسِ، فلَمَّا نَفَى البَيْعَ في ذَلِكَ اليَوْمِ - وهُوَ مِنْ ضَروريَّاتِ الحَياةِ -، كانَ ما هُوَ مِنْ حاجِيَّاتِها ومُحَسِّناتِها - وهُوَ الخُلَّةُ والشَّفاعَةُ - أَوْلى بالنَّفْيِ؛ ليَتَجاوَبَ المُخاطَبُ مَعَ إشاراتِ النَّصِّ.

حَذْفُ الجارِّ والمَجْرورِ؛ للاسْتِغْناءِ بالمَذْكورِ عنهما؛ لدَلالَةِ الأولى عليهما، زيادةً في الإيْاسِ

علّة تَأْخيرِ الجارِّ والمَجْرورِعَنِ اسْمِ ﴿لَّا﴾:

تَقْديمُ الجارِّ والمَجْرورِ وتَأْخيرُهُ بحَسَبِ ما يَقْتَضيهِ المَعْنى، وقَدْ تَأَخَّرَ الجارُّ والمَجْرورُ في قَوْلِه تَعالى: ﴿لَّا بَيْعٌ فِيهِ﴾؛ لأَنَّهُ تَمَحَّضَ إلى نَفْيِ البَيْعِ في الآخِرَةِ، دونَ التَّعْريضِ ببُيوعِ الدُّنْيا، بخِلافِ قَوْلِه تَعالى: ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ۝٤٧﴾ [الصَّافَّات: 47]، فإنَّها تَعْريضٌ بخَمْرِ الدُّنْيا الَّتي تَغْتالُ العُقولَ[5].

وجهُ التأخيرِ هنا؛ القَصْدُ إلى نَفْيِ البَيْعِ في الآخِرَةِ، دونَ التَّعْريضِ ببُيوعِ الدُّنْيا

تَوْجيهُ قراءتي الرَّفعِ والنَّصب:

قَرَأَ الجُمْهورُ بالرَّفْعِ؛ لأَنَّ المُرادَ بالبَيْعِ والخُلَّةِ والشَّفاعَةِ أَسْماءُ

(1) السمين، الدر المصون: 2/539.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/14، ويُنظر: ابن دريد، جمهرة اللغة: (خلل).

(3) ابن الشجري، الأمالي: 2/66، ويُنظر: أبو حيان، البحر المحيط: 2/606.

(4) الاكْتِفاءُ: "نَوْعٌ مِنْ أَنْواعِ الحَذْفِ، وهُوَ أَنْ يَقْتَضِيَ المَقامُ ذِكْرَ شَيْئَيْنِ بَيْنَهُما تَلازُمٌ وارْتِباطٌ، فَيُكْتَفَى بأَحَدِهِما عَنِ الآخَرِ لنُكْتَةٍ". التهانوي، كشاف اصطلاحات الفنون: 1/249.

(5) الزمخشري، الكشاف: 1/34.

وجهُ التَّكامُلِ الدَّلاليِّ نفْيُ العمومِ، والوحدة

أَجْناسٍ لا نَكِراتٌ، وقَرَأَ ابْنُ كَثيرٍ وأَبو عَمْرٍو ويَعْقوبُ بالفَتْحِ[1] لنَفْيِ الجِنْسِ نَصًّا[2]، ووجه القراءة بالرفع - على أن (لا) عاملة عمل ليس - نفيٌ لجنس البيع، والخلّة، والشّفاعة، ونفي الواحدة منها وليست نصًّا في أحدهما، بل يحتمل الاثنين. أمّا وجهُ النّصب - على أنها لا نافية للجنس - فنفيٌ مستغرِقٌ لجنس المذكورات شاملٌ جميعَها دون نفي الواحدة منها، والجمع بينهما يُبْرِزُ تَكامُلَهُما الدَّلاليَّ؛ بتأكيد قراءة النّصبِ - بما أفادته من عموم النفي، واستغراق جنس الموجودات - دَفْعَ احتمالِ نفي الجنس منها دون الواحدة أو نفي الواحدة دون نفي الجنس التي أدّى معناها وجه الرّفع.

بَلاغَةُ الاِحْتِباكِ:

نُكْتَةُ الاِحْتِباكِ كامِنَةٌ في مَدْحِ المُؤْمِنينَ إِشارَةً، وذَمِّ الكافِرينَ نَصًّا

جُمْلَةُ ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ الاِسْتِئْنافِيّةُ النّاشِئَةُ عَنِ النَّفْيِ تُرْشِدُ" إلى أَنَّ التَّقْديرَ: فالَّذينَ آمَنوا يَفْعَلونَ ما أَمَرْناهُم بِهِ؛ لِأَنَّهُمُ المُحِقُّونَ، والكافِرونَ هُمُ المُخْتَصُّونَ بِأَنَّهُم الظّالِمونَ، أَيْ: الكامِلونَ في الظُّلْمِ لا غَيْرُهُم"[3]، وعَلى هَذا التَّقْديرِ ففي الآيَةِ احْتِباكٌ، تَقْديرُهُ: فالمُؤْمِنونَ هُمُ المُحِقُّونَ في إِنْفاقِهِمْ، والكافِرونَ هُمُ الظّالِمونَ في امْتِناعِهِم، وفائِدَةُ الاِحْتِباكِ مَدْحُ المُؤْمِنينَ إِشارَةً، وذَمُّ الكافِرينَ نَصًّا، وهَذا مِنْ لُطْفِ الخِطابِ وعَدالَتِهِ.

فائِدَةُ القَصْرِ التَّشْنيعُ عَلى الكافِرينَ، بِجَعْلِ كُلِّ ظُلْمٍ غَيْرَ ظُلْمِهِمْ ضَعيفًا لا يُعْتَدُّ بِهِ

القَصْرُ بِتَعْريفِ الجُزْأَيْنِ:

قَوْلُه تَعالى: ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ قَصْرٌ بِتَعْريفِ الجُزْأَيْنِ، وفائِدَتُهُ التَّشْنيعُ عَلى الكافِرينَ، "كَأَنَّ كُلَّ ظُلْمٍ غَيْرَ ظُلْمِهِمْ ضَعيفٌ لا يُعْتَدُّ بِهِ"[4]، فالقَصْرُ حَقيقِيٌّ ادِّعائِيٌّ بِقَصْدِ المُبالَغَةِ[5]، وهَذا مِنْ

(1) ابن الجزري، النشر: 2/211.
(2) الزركشي، البرهان: 4/352، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/14.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 2/25.
(4) رضا، تفسير المنار: 3/17.
(5) التفتازاني، المطول، ص: 378.

أَبْلَغ ما يَكونُ في تَقْبيحِ اتِّصافِهِم بالظُّلْم؛ "لِأَنَّ ظُلْمَهُمْ لَمَّا كانَ أَشَدَّ الظُّلْمِ جُعِلوا كمَنِ انْحَصَرَ الظُّلْمُ فيهِمْ"[1].

والقَصْرُ الحَقيقيُّ الادِّعائِيُّ يُقارِبُ مَفْهُومَ التَّجْريدِ[2] في عِلْمِ البَديعِ، ومَعْناهُ هُنا تَجْريدُ الظُّلْمِ مِنْ جَميعِ مُتَّصِفيهِ، وجَعْلُهُ مُقْتَصِرًا عَلى الكافِرينَ، والتَّجْريدُ ادِّعاءٌ عَلى سَبيلِ المُبالَغَةِ[3]، فكَأَنَّه لا ظالِمَ سِواهُمْ.

وجه التّجريد في هذا القصر المبالغة في نزع الظُّلم مِنْ مُتَّصِفيهِ، وقصْرِهِ عَلى الكافِرينَ

فائدة ضمير الفصل:

وضَميرُ الفَصْلِ ﴿هُمُ﴾؛ للتَّأْكيدِ، وفائِدَتُهُ وصْفُ الكافِرينَ "بِأَنَّهُمُ الكامِلونَ في الظُّلْمِ البالِغونَ فيهِ المَبْلَغَ العَظيمَ"[4].

الإتيان بضمير الفصل لتأكيد وصف الكافرين بكمال ظلمهم

فَصاحَةُ اسْتِعْمالِ المُشْتَرَكِ في مَعْنَيَيْهِ:

اخْتَلَفَ المُفَسِّرونَ في مَعْنَى الكُفْرِ في هَذا السِّياقِ، فمِنْهُمْ مَنْ ذَهَبَ إلى أَنَّه الكُفْرُ الاعْتِقادِيُّ، ومِنْهُمْ مَنْ قالَ بأَنَّهُمُ التَّارِكونَ الزَّكاةَ[5]، والصَّحيحُ أَنَّ وَصْفَ الكُفْرِ يَصْدُقُ عَلى الكافِرينَ تَصْريحًا، وعلى الجاحِدينَ النِّعَمَ تَلْميحًا، تَعْريضًا وتَهْديدًا وتَغْليظًا بهِم، اسْتِعمالًا للمُشْتَرَكِ في مَعْنَيَيْهِ، وهُوَ اسْتِعْمالٌ بَديعٌ، فمِنْ حَيْثُ أَفادَ في بَيانِ بَشاعَةِ الكُفْرِ، أَجادَ في بَيانِ شَناعَةِ تَرْكِ الإنْفاقِ جُمْلَةً، وهَذا في غايَةِ الفَصاحَةِ المُؤَثِّرَةِ في النُّفوسِ؛ فإِنْ عَلِمَ المُخاطَبُ أَنَّهُ مَزْجوجٌ بِهِ في أَصْفادِ الكَفَرَةِ، فمَهْيَعُ الخَلاصِ مَبْسوطٌ لِأَدْنى دَرَجاتِ إيمانِهِ.

بَيانُ بَشاعَةِ الكُفْرِ، وشَناعَةِ الكُفْرانِ، وهَذا في غايَةِ الفَصاحَةِ المُؤَثِّرَةِ في النُّفوسِ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/16.

(2) التَّجْريدُ: "أَنْ يُنْتَزَعَ مِنْ أَمْرٍ ذي صِفَةٍ آخَرُ مِثْلُهُ فيها، مُبالَغَةً لكَمالِها فيه". السبكي، عروس الأفراح: 2/256.

(3) القزويني، الإيضاح، ص: 340.

(4) النيسابوري، غرائب القرآن: 2/25.

(5) الزمخشري، الكشاف: 1/299، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 1/153، ورضا، تفسير المنار: 3/17، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/16.

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ٢٥٥﴾ [البقرة: 255]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

بَعْدَ بَيانِ تَفاضُلِ الرُّسُلِ فيما بَيْنَهُمْ نَصًّا، حَسُنَتِ الإشارَةُ إلى أَفْضَلِ آيَةٍ في القُرْآنِ بذِكْرِها، إثْرَ الإشارَةِ إلى أَفْضَلِ رَسولٍ، والتَّفاضُلُ بَيْنَ الآياتِ بحَسَبِ المَعْنى والمَوْضوعِ، لا بحَسَبِ النَّظْمِ والبَلاغَةِ، وهِيَ "إبانَةٌ مِنَ اللهِ تَعالى ذِكْرُهُ للمُؤْمِنينَ بهِ وبرَسولِهِ، عَمَّا جاءَتْ بهِ أَقْوالُ المُخْتَلِفينَ في البَيِّناتِ مِنْ بَعْدِ الرُّسُلِ الَّذينَ أَخْبَرَنا تَعالى ذِكْرُهُ أَنَّهُ فَضَّلَ بَعْضَهُم عَلى بَعْضٍ، واخْتَلَفوا فيه، فاقْتَتَلوا فيهِ كُفْرًا بهِ مِنْ بَعْضٍ، وإيمانًا بهِ مِنْ بَعْضٍ"[1].

و"لَمَّا ذَكَرَ فيمَا تَقَدَّمَ مِنْ عِلْمِ الأَحْكامِ ومِنْ عِلْمِ القَصَصِ ما رَآهُ مَصْلَحَةً، ذَكَرَ الآنَ ما يَتَعَلَّقُ بعِلْمِ التَّوْحيدِ"[2]، "فبَعْدَ أَنْ أَمَرَنا تَعالى بالإنْفاقِ في سَبيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لا مالٌ فيهِ ولا كَسْبٌ، ولا يُنْجي مِنْ عِقابِهِ فيهِ شَفاعَةٌ ولا فِداءٌ، انْتَقَلَ كَدَأْبِ القُرْآنِ إلى تَقْريرِ أُصولِ التَّوْحيدِ والتَّنْزيهِ الَّتي تُشْعِرُ مُتَدَبِّرَها بعَظيمِ سُلْطانِهِ تَعالى، ووُجوبِ الشُّكْرِ لَهُ، والإذْعانِ لأَمْرِهِ، والوُقوفِ عِنْدَ حُدودِهِ، وبَذْلِ المالِ في سَبيلِهِ، وتَحولُ بَيْنَهُ وبَيْنَ الغُرورِ والاتِّكالِ عَلى الشَّفاعاتِ والمُكَفِّراتِ الَّتي جَرَّأَتِ النَّاسَ عَلى نَبْذِ كِتابِ اللهِ وَراءَ ظُهورِهِمْ"[3]. "وأُودِعَتْ هَذِهِ الآيَةُ العَظيمَةُ هُنا؛ لِأَنَّها كالبَرْزَخِ بَيْنَ الأَغْراضِ السَّابِقَةِ واللَّاحِقَةِ"[4].

(1) ابن جرير، جامع البيان: 5/386.
(2) الرازي، مفاتيح الغيب: 7/5.
(3) رضا، تفسير المنار: 3/20، ويُنظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/17، والآلوسي، روح المعاني: 2/12.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/17.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلْحَيُّ﴾: (حي) الحاء والياء والحرف المعتل أصلان: أحدهما خلاف الموت، فأمَّا الأول فالحياة والحيوان، وهو ضد الموت والموتان، ويسمى المطر حيًّا؛ لأن به حياة الأرض[1]، فالحيُّ هُوَالذي له الحياة الكاملة - المستلزمة لجميع صفات الذات، كالسمع والبصر والعلم والقدرة، ونحو ذلك- التي لم يسبقها عدم، ولا يلحقها زوال، ولا يعتريها نقص، أو سِنَة، أو نوم، أو مرض، "الَّذي لَمْ يَزَلْ مَوْجودًا، وبالحَياةِ مَوْصوفًا، لَمْ تَحْدُثْ لَهُ الحَياةُ بَعْدَ مَوْتٍ، ولا يَعْتَرِضُهُ المَوْتُ بَعْدَ الحَياةِ"[2].

2) ﴿ٱلْقَيُّومُ﴾: قوام الأمر بالكسر: نظامه وعماده، والقيوم: اسم من أسماء اللّٰه تَعَالَى[3]، وهو عَلى وَزْنِ فَيْعول: اجتَمَعَتْ ياءٌ ووَاوٌ، سُبِقَتْ إحداهُما بالسُّكونِ؛ فقُلِبَتْ وأُدغِمَت[4]، "هوَ القائِمُ الدَّائِمُ بِلا زَوالٍ، ووَزْنُهُ: فَيْعولٌ، مِنَ القِيامِ، وهُوَ نَعْتُ المُبالَغَةِ في القِيامِ عَلى الشَّيْءِ، ويُقالُ: هُوَ القَيِّمُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ بالرِّعايَةِ لَهُ"[5].

ومعناه: الدائم الذي لا يزول، القائم بنفسه، فاستغنى عن جميع مخلوقاته، القائم بغيره؛ فجميع الموجودات مفتقرة إليه في الإيجاد والإعداد والإمداد، وهو غني عنها، ولا قوام لها بدون أمره، فهو الذي قام بتدبير الخلائق وتصريفهم[6].

3) ﴿سِنَةٌ﴾: "الوَسَنُ: النُّعاسُ، وكَذا السِّنَةُ، ورَجُلٌ وَسْنانُ"[7]، والوَسَنُ والسِّنَةُ: الغَفْلَةُ والغَفْوَةُ، ورَجُلٌ وَسْنانُ ووَسِنٌ؛ يُقالُ لتَصَوُّرِ النَّوْمِ مِنْهُ[8]، وهُوَ مِنْ مَبادِئِ النَّوْمِ[9]، والمُرادُ بالسِّنَةِ في الآيَةِ ما يَعْتَري الحَيَّ مِنَ الغَفْوَةِ اليَسيرَةِ التي تُؤَثِّرُ فيه تَأْثيرًا يَسيرًا، وهو منفيٌّ عن اللّٰه تعالى.

4) ﴿وَلَا يَحِيطُونَ﴾: الحاءُ والواوُ والطَّاءُ كَلِمَةٌ واحِدَةٌ، وهُوَ الشَّيْءُ يُطيفُ بالشَّيْءِ؛

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حي).
(2) الخطابي، شأن الدعاء، ص: 80، وينظر السعدي، تفسير أسماء الله الحسنى، ص: 166.
(3) الجوهري، الصحاح: (قوم).
(4) تفسير ابن عرفة: 2/772.
(5) الخطابي، شأن الدعاء، ص: 81-80.
(6) السعدي، تفسير الكريم الرحمن، ص: 121.
(7) ابن فارس، المقاييس: (وسن).
(8) الراغب، المفردات: (وسن).
(9) السمين، عمدة الحفاظ: (وسن).

فالحَوْطُ مِنْ حاطَهُ حَوْطًا[1]، وهِيَ تَدُلُّ عَلى الإِحْرازِ والبُلوغِ، "فكُلُّ مَنْ أَحْرَزَ شَيْئًا كُلَّه، وبَلَغَ عِلْمُه أَقْصاه فقَدْ أَحاطَ بِه"[2]، وعَلى التَّمَكُّنِ والحِفْظِ، و"حُطْتُ الرَّجُلَ أَحوطُهُ حَوْطًا: إذا حَفِظْتُه"[3]، وعَلى الشُّمولِ، "فالإِحاطَةُ تَقْتَضي الحُفوفَ بالشَّيْءِ مِنْ جَميعِ جِهاتِه، والاشْتِمالَ عَلَيْه"[4].

5) ﴿كُرْسِيُّهُ﴾: الكرسيُّ في اللُّغَةِ يَدُلُّ عَلى الأَصْلِ، فإِنَّ "العَرَبَ تُسَمِّي أَصلَ كُلِّ شَيْءٍ: الكُرْسَ، يُقالُ مِنْهُ: فُلانٌ كَريمُ الكُرْسِ، أَيْ: كَريمُ الأَصْلِ"[5]، "ومادَّةُ (كرس) تَدورُ عَلى القُوَّةِ والاجْتِماعِ والعَظَمَةِ"[6].

والكُرْسِيُّ قيلَ فيهِ: إنَّهُ جِسْمٌ عَظيمٌ يَسَعُ السَّماواتِ والأَرْضَ، وقيلَ: إِنَّه العَرْشِ، وقيلَ: السُّلْطانُ والمُلْكُ، وقيلَ: العِلْمُ[7]، وقالَ القَفَّالُ: "إِنَّ المَقْصودَ مِنْ هَذا الكَلامِ تَصْويرُ عَظَمَةِ اللَّهِ وكِبْرِيائِه"[8].

والصواب أنَّ الكرسيَّ هو موضع قدَمي الله ﷻ، وممَّن قال بهذا القول أبو موسى الأشعري، وابن عباس رضي الله عنهما، والسُّدي، وأبو عبيد القاسم بن سلَّام، والدارمي، والأزهري، وأكثر أهل العلم، وهو قول أهل السنة[9].

6) ﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ﴾: الأَوْدُ: في اللُّغَةِ يَدُلُّ عَلى المَيْلِ والانْحِناءِ[10]، وسَبَبُهُ الثِّقَلُ، فالَّذي يَحْمِلُ حِمْلًا ثَقيلًا يَميلُ، وقَدْ رَدَّهُ ابنُ فارِسٍ إِلى هَذا حينَ قالَ: "وإِلى هَذا يَرْجِعُ آدَني

(1) ابن فارس، المقاييس: (وسن).
(2) الخليل، العين: (حوط).
(3) ابن دريد، جمهرة اللغة: (حوط).
(4) أبو حيان، البحر المحيط: (حوط).
(5) ابن جرير، جامع البيان: 5/402.
(6) البقاعي، نظم الدرر: 4/33.
(7) ابن جرير، جامع البيان: 5/402، والرازي، مفاتيح الغيب: 7/13.
(8) الرازي، مفاتيح الغيب: 7/13.
(9) عبد الله بن أحمد بن حنبل، كتاب السنة: حديث رقم: (588): 1/303، وابن جرير، جامع البيان: 4/538، والبيهقي، الأسماء والصفات، حديث رقم: (859): 2/296، وقال ابن حجر في فتح الباري: 9/697: "بإسناد صحيح"، وقال الألباني في مختصر العلو، رقم: (75)، ص: 124: "إسناده موقوف صحيح . . رجاله كلهم ثقات معروفون".
والدارقطني، كتاب الصفات، حديث رقم: (57)، ص: 68، والالكائي، شرح أصول اعتقاد أهل السنة: حديث رقم: (928): 2/581، والدارمي، نقض الدارمي على بشر المريسي: 1/414، والأزهري، تهذيب اللغة: (كرس): 10/32، والذهبي، سير أعلام النبلاء: 10/505، وابن أبي زَمَنِين، أصول السنة: ص: 96.
(10) الأزهري، تهذيب اللغة: (أود)، وابن جرير، جامع البيان: 5/402.

الشَّيْءُ يَؤودُني، كأَنَّهُ ثَقُلَ عَلَيْكَ حَتَّى ثَناكَ وعَطَفَكَ"[1]، وَيَظْهَرُ مِن اسْتِعْمالِ العَرَبِ أَنَّ الأَوْدَ يُطْلَقُ عَلى مَيْلٍ سَبَبُه ثِقَلٌ عَظيمٌ، فمِن ذَلِكَ "المؤِيد بِوَزْن مُعْبِدٍ: الأَمْرُ العَظِيم"[2]، ومِنْهُ المَآوِدُ: الدَّواهِي[3]، ومَعْناهُ في الآيَةِ: لا يَمْنَعُهُ ولا يَشُقُّ عَلَيْهِ.

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

هذه الآية الكريمة أعظمُ آيات القرآن وأفضلها وأجلها، فلهذا كثرت الأحاديث في الترغيب في قراءتها وجعلها وردًا للإنسان في أوقاته صباحا ومساء وعند نومه وأدبار الصلوات المكتوبات، ولَمَّا اشْتَمَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ عَلى نُعوتِ جَلالِهِ وصِفاتِ كِبْرِيائِهِ سُبْحانَهُ، كانَتْ بالِغَةً في الشَّرَفِ إِلى أَقْصى الغاياتِ وأَبْلَغِ النِّهاياتِ[4]، "وفُضِّلَتْ هَذا التَّفْضيلَ لِما اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ مِنْ تَوْحيدِ اللَّهِ وتَعْظيمِهِ، وذِكْرِ صِفاتِهِ العُلا، ولا مَذْكُورَ أَعْظَمُ مِنَ اللَّهِ، فَذِكْرُهُ أَفْضَلُ مِنْ كُلِّ ذِكْرٍ"[5]، ففي آية الكرسي خمسة من أسماء الله ﷻ، وفيها من صفات الله ما يزيد على العشرين صفة.

ابْتَدَأَتِ الآيَةُ باسْمِ اللَّهِ تَعالى ليَكونَ ما بَعْدَهُ تَعْريفًا به، وإِرْسالًا لِما يَسْتَحِقُّهُ مِنْ صِفاتِ الكَمالِ والجَلالِ، وذَكَرَتْ خمسة أَسْماءٍ لِلَّه، أعظمها الاسمان الجليلان: الحَيُّ القَيُّومُ، فالحَيُّ هُوَ الَّذي لَمْ يَزَلْ مَوْجودًا، والقَيُّومُ هُوَ المُتَصَرِّفُ في تَدْبيرِ خَلْقِهِ عَلى أَفْضَلِ نِظامٍ، وأَكَّدَ ذَلِكَ بأَنْ نَفى عَنْهُ ما يَعْتَري آحادَ البَشَرِ مِن النُّعاس والنَّوْم، وأَثْبَتَ لَهُ مِلْكِيَّةَ المَوْجوداتِ كُلِّها، فهُو الحَقيقُ بأَنْ يَأْمُرَ ويَمْنَعَ، وهُوَ الَّذي يُحيطُ عِلْمُهُ بكُلِّ شَيْءٍ، ولا يَطَّلِعُ أحد من الخلق على شيء من علمه إلا بما أعلمه الله وأطلعه عليه، وسع كرسيه السموات والأرض، وهو موضع قدمي الرب ﷻ ولا يعلم كيفيته إلا الله سبحانه، ولا يُثْقِلُه حِفْظُ السَّماواتِ والأَرْضِ؛ لأَنَّهُ العلي بذاته وصفاته على جميع مخلوقاته، الجامع لجميع صفات العظمة والكبرياء.

وسِرُّ تَسْمِيَةِ هَذِهِ الآيَةِ بالكُرْسِيِّ؛ ما يُشيرُ إِلَيْهِ الكُرْسِيُّ مِنَ التَّمَكُّنِ والعَظَمَةِ والعِلْمِ

(1) ابن فارس، المقاييس: 1/155، ويُنظر: الراغب، تفسير الراغب: 1/526، ويُنظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/24.
(2) الأزهري، تهذيب اللغة: (أود).
(3) الزبيدي، تاج العروس: (أود).
(4) الرازي، مفاتيح الغيب: 7/5، بتصرف.
(5) أبو حيان، البحر المحيط: 2/607.

والسُّلْطانِ، وهِيَ الَّتي تُصَوِّرُ عَظَمَتَه مِنْ خَلْقِ اللَّهِ تَعالى، فكَذلِكَ هَذِهِ الآيَةُ تُمَثِّلُ عَظَمَتَهُ مِنْ آيِ القُرْآنِ، وهِيَ إشارَةٌ بَديعَةٌ للتَّناسُبِ بَيْنَ خَلْقِ اللَّهِ وكَلامِهِ، في اختيارِه لأَعْظَمِ آياتِه، اسْمًا مِنْ أَعْظَمِ مَخْلُوقاتِه.

الإيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

نُكْتَةُ الابْتِداءِ بلَفْظِ الجَلالةِ:

لَفْظُ الجَلالَةِ أَعْرَفُ المَعارِفِ، وابْتُدِئَ بِهِ تَعْظِيمًا وتَفْخِيمًا وتَعْرِيفًا، وتَوْطِئَةً لِما سَيُأْتي مِنَ النَّظْمِ الكَريمِ

ابْتَدَأَتْ هَذِهِ الآيَةُ بِلَفْظِ الجَلالةِ، "وجيءَ باسْمِ الذَّاتِ هُنَا لأَنَّهُ طَريقٌ في الدَّلالَةِ عَلى المُسَمَّى المُنْفَرِدِ بهَذا الاسْمِ، فإِنَّ العَلَمَ أَعْرَفُ المَعارِفِ؛ لعَدَمِ احْتِياجِهِ في الدَّلالَةِ عَلى مُسَمَّاهُ إلى قَرينَةٍ أَوْ مَعونَةٍ"[1]، والابْتِداءُ بلفْظِ الجَلالةِ يورِثُ المَهابَةَ في النُّفوسِ، والفَخامَةَ في الصُّدورِ، وهُو تَوْطِئَةٌ مُبارَكَةٌ لِما سَيُبْنَى عَلَيهِ مِنَ النَّظْمِ الكَريمِ والمَعْنَى السّليمِ.

بَلاغَةُ الإِخْبارِ بجُملَةِ: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ في القُرْآنِ الكَريمِ:

تَقْريرُ عَظَمَةِ التَّوْحيدِ بالجُملَةِ النَّاصَّةِ عَلى ذَلِكَ اسْتِثْناءً بَعْدَ نَفْيٍ

لَفْظُ الجَلالَةِ مُبْتَدَأٌ خَبَرُهُ ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾، وهِيَ جُمْلَةٌ مُسْتَقِلَّةٌ بذاتِها، مُكْتَنِزَةٌ بِجَلالِها، تَكَرَّرَتْ في القُرْآنِ تِسْعَ مَرَّاتٍ، وهِيَ: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ ۝٢﴾ [آل عِمْرَان: 2]، ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِۗ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا ۝٨٧﴾ [النِّساء: 87]، ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُۖ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ۝١٢٩﴾ [التَّوْبَة: 129]، ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۝٨﴾ [طَه: 8]، ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِيٓ ۝١٤﴾ [طَه: 14]، ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ۩ ۝٢٦﴾ [النَّمل: 26]، ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِي ٱلْأُولَىٰ وَٱلْآخِرَةِۖ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝٧٠﴾ [القَصَص: 70]، ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١٣﴾ [التَّغَابُن: 13].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/17.

وجَميعُ هَذِهِ الآياتِ جاءَتْ في سِياقِ العَقيدَةِ وتَقْريرِها، وهَذا يَدُلُّ عَلى عَظَمَةِ هَذِهِ الجُمْلَةِ، وأَنَّها بمَكانَةٍ لا تَحْظَى بها جُمْلَةٌ أُخْرى؛ لأَنَّها تَعْريفٌ بوَحْدانيّةِ اللهِ تَعالى، بالجُمْلَةِ النَّاصَّةِ عَلى ذَلِك، حَصْرًا بالنَّفْيِ ﴿لَآ إِلَٰهَ﴾ وبالاستِثْناءِ ﴿إِلَّا هُوَ﴾، وأَصلُهَا: (لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ)، وقُدِّمَ لَفْظُ الجَلالَةِ تَعْظيمًا وتَفْخيمًا، وليَكونَ مُسْنَدًا إليْهِ التَّوْحيدُ تَعْريفًا، فكَأَنَّهُ قيلَ: إذا أَرَدتَ أَنْ تَعْرِفَ اللهَ فاعْلَمْ أَنَّهُ واحِدٌ.

بلاغة نفي الجنس، والاستثناء في مطلع الآية:

أفادتْ (لا) نفيَ كلِّ أنواعِ الآلهة المعبودة، وأفادتْ (إلا) استثناءَهُ تعالى من النَّفي العامّ

قُصِدَ إلى التعبير بـ (لا) النافية للجنس في قوله تعالى ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ لتحقّق استغراق النفي لجميع الآلهة المعبودة من دون اللّه، وشموله كلّ أنواعها، وأُرْدِف بالاستثناء لدفع توهّم دخوله - جل في علاه - ضمن النفي العام.

دَلالَةُ اقْتِرانِ اسْمِ الحَيِّ بالقَيُّومِ:

علّة الاقتران مُعامَلَةُ الاسْمَيْنِ مُعامَلَةَ التَّرْكيبِ، ودَلالَتُهما عَلى سائِرِ الأَسْماءِ

اقْتَرَنَ اسْمُ الحَيِّ بالقَيُّوم في ثَلاثِ آياتٍ، هَذِهِ إِحْداها، وفي مَطْلَعِ سورَةِ آلِ عِمْرانَ: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ ۝٢﴾ [آل عِمْرَان: 2]، وفي سُورَةِ طَه ﴿۞وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَيِّ ٱلْقَيُّومِ﴾ [طَه: 111]، ولَمْ يَرِدْ في القُرْآنِ اسْمُ القَيُّومِ إلَّا مُقْتَرِنًا باسْمِ الحَيِّ، فاقْترانُ هَذَيْنِ الاسمَيْنِ أَشْبَهُ ما يَكونُ تَرْكيبًا في الاسْتِعْمالِ القُرْآنيِّ، فهُمَا "يَدُلَّانِ عَلى سائِرِ الأَسْماءِ الحُسْنى مُطابَقةً وتَضَمُّنًا ولُزومًا"[1].

وجْهُ الاقتران بين الاسمين تَنْزيلُ الصِّفَةِ مَنْزِلَةَ العِلَّةِ

وأَفادَ الاسْمانِ مَعْنى التَّعْليلِ، فاللّهُ مُسْتَحِقٌّ لإِفْرادِهِ بالتَّوْحيدِ؛ لأَنَّهُ الحَيُّ القَيُّومُ، فنُزِّلَتِ الصِّفَةُ مِنَ المَوْصوفِ مَنْزِلَةَ العِلَّةِ مِنَ المَعْلولِ، "فمِنْ ضَرورَةِ اخْتِصاصِ ذَيْنِكَ الوَصْفَيْنِ بهِ تَعالى، اخْتِصاصُ اسْتِحْقاقِ المَعْبوديّةِ بهِ تَعالى؛ لاسْتِحالَةِ تَحَقُّقِهِ بدونِهِما"[2]، و"لا سَبيلَ إلى الإِحاطَةِ بشَيْءٍ مِنَ المَسائِلِ المُتَعَلِّقَةِ بالعِلْمِ الإِلَهيِّ إلَّا

(1) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 110.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 2/3.

بِوَاسِطَةِ كَوْنِهِ تَعالى حَيًّا قَيُّومًا"[1]، فالحَيُّ هُوَ "الَّذي لَمْ يَزَلْ مَوْجودًا، وبالحَياةِ مَوْصوفًا، لَمْ تَحْدُثْ لَهُ الحَياةُ بَعْدَ مَوْتٍ، ولا يَعْتَرِضُه المَوْتُ بَعْدَ الحَياةِ"[2]، و"القَيُّومُ: هوَ القائِمُ الدَّائِمُ بلا زَوالٍ، ووَزْنُهُ: فَيْعولٌ، مِنَ القِيامِ، وهُوَ نَعْتُ المُبالَغَةِ في القِيامِ عَلى الشَّيْءِ، ويُقالُ: هُوَ القَيِّمُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ بالرِّعايَةِ لَهُ"[3]، "وَمِنْ هَذَيْنِ الأَصْلَيْنِ تَتَشَعَّبُ جَميعُ المَسائِلِ المُعْتَبَرَةِ في عِلْمِ التَّوْحيدِ"[4].

إِعْرابُ ﴿ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ عَلى الوَصْفِ:

وَجاهَةُ إِعْرابِ (الحيّ) وَصْفًا لِلَفْظِ الجَلالَةِ بَيانُ أَهَمِّيَّةِ الوَحْدانِيَّةِ، واسْتِقْلالُ الجُمْلَةِ

ومِنْ أَوْجَهِ الأَعاريبِ[5] أَنْ يُعْرَبَ الحَيُّ صِفَةً لِلَفْظِ الجَلالَةِ، وعَلَيْهِ يَكونُ غَرَضُ الفَصْلِ بَيْنَ الصِّفَةِ ومَوْصوفِها بالخَبَرِ ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ بَيانَ أَهميَّةِ الوَحْدانيَّةِ في اعْتِقادِ المُخاطَبِ، وأَنَّها مَدارُ قَبولِ الاعْتِقادِ الصَّحيحِ، وإبرازَ اقْتِرانِ الحَيِّ بالقَيُّومِ نَعْتَيْنِ لَهُ، فإِنَّ اقْترانَ الصِّفَةِ بالصِّفَةِ تَلازُمًا يَقومُ مَقامَ التَّرْكيبِ الواحِدِ، وهَذا الإِعْرابُ يَجْعَلُ الجُمْلَةَ واحِدَةً مُسْتَقِلَّةً، وهُو أَشَدُّ اتِّساقًا، وأَقوى دَلالَةً، وأَوْضَحُ مَعْنًى، قالَ صاحِبُ البَحْرِ المُحيطِ: "وأَجْوَدُها الوَصْفُ، ويَدُلُّ عَلَيْهِ قِراءَةُ مَنْ قَرَأَ: (الْحَيَّ الْقَيُّومَ) بالنَّصْبِ، فقَطَعَ عَلى إِضْمارِ: أَمْدَحُ، فلَوْ لَمْ يَكُنْ وَصْفًا ما جازَ فيهِ القَطْعُ"[6].

وهُوَ المَفْهومُ مِنْ كَلامِ (الكَشَّافِ) حينَ قالَ في بَيانِ تَرَتُّبِ الجُمَلِ بَعْضِها عَلى بَعْضٍ، وأَنَّ البَيانَ مُتَّحِدٌ بالمُبَيَّنِ: "فالأُولى بَيانٌ لِقيامِهِ بتَدْبيرِ الخَلْقِ، وكَونِهِ مُهَيْمِنًا عَلَيْهِ، غَيْرَ ساهٍ عَنْهُ"[7]، فجَعَلَ قَوْلَه تَعالى: ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ بَيانًا لِقَوْلِهِ تَعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ

(1) الرازي، مفاتيح الغيب: 7/7.
(2) الخطابي، شأن الدعاء، ص: 80.
(3) الخطابي، شأن الدعاء، ص: 81-80.
(4) الرازي، مفاتيح الغيب: 7/6.
(5) في إِعْرابِ الحَيِّ مَجْموعَةُ أَعارِيبَ، فقيلَ: إِنَّهُ خَبَرٌ بَعْدَ خَبَرٍ، أَوْ بَدَلٌ مِنْ هُوَ، أَوْ مِنَ "اللَّهُ" تَعالى، أَوْ خَبَرُ مُبْتَدَأٍ مَحْذوفٍ، أَيْ: هُوَ، أَوْ مُبْتَدَأٌ والخَبَرُ: لا تَأْخُذُهُ. يُنظر: أبو حيان، البحر المحيط: 2/608-609.
(6) أبو حيان، البحر المحيط: 2/609، ويُنظر: أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/247.
(7) الزمخشري، الكشاف: 1/302.

﴿إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ﴾، فمَعْنى الوَصْفِ صَريحٌ في اقْترانِ المُفْرَدَتَيْنِ، فصِيحٌ في تَرْتيبِ الجُمْلَتَيْنِ.

سِرُّ تَأْكيدِ صِفَةِ القَيُّومِ دونَ صِفَةِ الحَيِّ:

جُمْلَةُ ﴿لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ﴾ بَيانٌ لِقَوْلِهِ تَعالَى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ﴾، مُقَرِّرَةٌ لِمَضْمونِها، فهِيَ "كالدَّليلِ عَلى كَوْنِهِ حَيًّا قَيُّومًا"[1]، ولِذَلِكَ فُصِلَتْ ولَمْ تُعْطَفْ، ومَعْنَى بَيانِها أَنَّها جاءَتْ نافِيَةً لأَيِّ مَعْنًى يَخْدِشُ صِفَتَيِ الحَياةِ والقَيُّوميّةِ عَلى طَريقِ المُقابَلَةِ، فهُوَ "لا يَغْفُلُ عَنْ تَدْبيرِ الخَلْقِ"[2]، وجَعَلَ الزَّمَخْشَرِيُّ هَذِهِ الجُمْلَةَ تَأْكيدًا لِصِفَةِ القَيُّومِ؛ "لأَنَّ مَنْ جازَ عَلَيْهِ ذَلِكَ اسْتَحالَ أَنْ يَكونَ قَيُّومًا"[3].

فالجُمْلَةُ بَيانٌ لِلْجُمْلَةِ السَّابِقَةِ كُلِّها، وتَأْكيدٌ لِصِفَةِ القَيُّومِ، وهَذا مِنْ أَبْلَغِ ما يَكونُ في ارْتِباطِ الجُمَلِ، أَنْ تَجْمَعَ وَظيفَتَيْنِ؛ بَيانًا لِلْكُلِّ، وتَأْكيدًا لِلْجُزْءِ، والمُقابَلَةُ بَيْنَ القَيُّومِ والنَّوْمِ تَقابُلُ العَدَمِ والمَلَكَةِ، فالنَّوْمُ كَيْفِيَّةٌ عَدَمِيَّةٌ، وهِيَ عَدَمُ القِيامِ، فإِنْ قالَ قائِلٌ: لِماذا لَمْ يَذْكُرْ مُقابِلَ الحَياةِ وهُوَ المَوْتُ؟! كما قالَ سُبْحانَهُ: ﴿وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱلۡحَيِّ ٱلَّذِي لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان: 58]؛ والجَوابُ: أَنَّهُ جاءَ عَلى أُسْلوبِ نَفْيِ الأَعْلى بالأَدْنى، فإِذا كانَ النَّوْمُ مُنَزَّهًا عَنْهُ سُبْحانَهُ، فَكَيْفَ بِما هُوَ أَعْلى مِنَ النَّوْمِ؟! وعَلَيْهِ فهَذِهِ الجُمْلَةُ أَكَّدَتْ صِفَةَ القَيُّومِ مُقابَلَةً لَفْظِيَّةً، وصِفَةَ الحَيِّ التِزامًا، نَفْيًا لِلأَعْلى بِنَفْيِ الأَدْنى، وهُوَ ما يُفْهِمُهُ كَلامُ البَيْضاوِيِّ: "وَالجُمْلَةُ تَأْكيدٌ لِكَوْنِهِ حَيًّا قَيُّومًا"[4]، وهَذا مِنْ بَديعِ الإِيجازِ في فَنِّ التَّقابُلِ في القُرْآنِ الكَريمِ.

نَفْيُ الأَدْنى يَسْتَلْزِمُ نَفْيَ الأَعْلى، وهَذا مِنْ بَديعِ الإِيجازِ في فَنِّ التَّقابُلِ في القُرْآنِ الكَريمِ

نُكْتَةُ تَقْديمِ السِّنَةِ عَلى النَّعاسِ:

اخْتَلَفَ المُفَسِّرونَ في بَيانِ نُكْتَةِ تَقْديمِ السِّنَةِ عَلى النَّوْمِ، فمِنْهُمْ

تَدَرُّجٌ مِنْ نَفْيِ الأَدْنى، إِلى نَفْيِ الأَعْلى، لا لِتَلازُمِهِما، بَلْ لِنَفْيِ أَيِّ تَأْثيرٍ مُتَصَوَّرٍ نَفْيًا كُلِّيًّا

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/725.
(2) الرازي، مفاتيح الغيب: 7/8.
(3) الزمخشري، الكشاف: 1/300.
(4) البيضاوي، أنوار التنزيل: 1/154.

مَنْ قالَ: إنَّها مِنْ بابِ مُراعاةِ التَّرْتيبِ الوُجودِيِّ، فلِتَقَدُّمِها عَلى النَّوْمِ في الخارِجِ قُدِّمَتْ عَلَيْهِ في اللَّفْظِ، ومِنْهُمْ مَنْ قالَ: إنَّهُ عَلى طَريقِ التَّتْميمِ، وهُوَ أَبْلَغُ لما فيهِ مِنَ التَّأْكيدِ، إذْ نَفْيُ السِّنَةِ يَقْتَضي نَفْيَ النَّوْمِ ضِمْنًا، فإذا نَفى ثانِيًا كانَ أَبْلَغَ، ومِنْهُمْ مَنْ قالَ: إنَّ تَأْخيرَ النَّوْمِ رِعايَةٌ لِلْفَواصِلِ[1]، ومِنْهُمْ مَنْ قالَ: التَّرْتيبُ عَلى مُقْتَضى الظَّاهِرِ، إذْ يَكونُ المَعْنى: لا تَغْلِبُه السِّنَةُ، ولا النَّوْمُ الَّذي هُوَ أَكْثَرُ غَلَبَةً مِنْها[2].

وعِنْدَ تَدْقيقِ النَّظرِ فيما قيلَ، نَجِدُ أَنَّ المُفَسِّرينَ حَصَروا السِّنَةَ فيما هُوَ قَبْلَ النَّوْمِ، باعْتِبارِ الغالِبِ، ومِنْ هُنَا نَشَأَ الإشْكالُ، ولأَجْلِهِ اعْتُسِفَ الجَوابُ، والصَّحيحُ أَنَّ تَعَلُّقَ السِّنَةِ بالنَّوْمِ لَيْسَ تَعَلُّقًا لُزوميًّا، فقَدْ تَكونُ السِّنَةُ ولا يُتْبِعُها نَوْمٌ، وقَدْ يَهْجُمُ النَّوْمُ دونَ مُقَدِّماتِهِ، والسِّنَةُ في سِياقِ الآيَةِ لا يَصِحُّ أَنْ تَكونَ مُقَدِّمَةَ النَّوْمِ، إذْ لا مَعْنى لنَفْيِها قَبْلَ نَفْيِهِ؛ لأَنَّها داخِلَةٌ فيهِ ضِمْنًا، ولا يُرادُ هَذا المَعْنى، بَلِ المُرادُ هُوَ نَفْيُ حالَتَيْنِ؛ الأُولى: ما يُصيبُ الإنْسانَ حالَ اليَقَظَةِ مِنَ النُّعاسِ الطَّفيفِ الَّذي يُؤَثِّرُ تَأْثيرًا يَسيرًا عَلى تَدْبيرِهِ، والثَّانِيَةُ: ما يُصيبُ الإنْسانَ مِنَ الثِّقَلِ العَميقِ في النَّوْمِ الَّذي يُفْقِدُه القُدْرَةَ التَّامَّةَ عَلى التَّدْبيرِ، إذَنْ هُوَ نَفْيٌ لحالَتَيْنِ؛ حَالَةِ التَّأْثيرِ اليَسيرِ عَلى التَّدْبيرِ، وحَالَةِ التَّأْثيرِ التَّامِّ عَلى التَّدْبيرِ، فهُوَ تَدَرُّجٌ مِنْ نَفْيِ الأَدْنَى، إلى نَفْيِ الأَعْلى، لا لتَلازُمِهما، بَلْ لنَفْيِ أَيِّ تَأْثيرٍ مُتَصَوَّرٍ نَفْيًا كُلِّيًّا، وعَلَيْهِ فلا تَلازُمَ بَيْنَهُما في هَذا السِّياقِ.

وَهَذا مَفْهومُ كَلامِ الماتُريدِيِّ حينَ قالَ: "والنَّوْمُ والسِّنَةُ حالانِ تَدُلَّانِ عَلى غَفْلَةِ مَنْ حَلَّا بِهِ، وعلَى حاجَتِهِ إلى ما فيهِ راحَتُهُ، وعَلى عَجْزِهِ، إذْ هُما يَغْلبانِ ويَقْهَرانِ، فوَصَفَ الرَّبُّ نَفْسَهُ بما يَعْلو عَنِ الَّذي دَلَّا عَلَيْهِ مِنَ الوُجوهِ"[3]. وقالَ ابنُ عَرَفَةَ: "إنَّا نَجِدُ مَنْ يُدافِعُ النَّومَ لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ؛ لأَنَّهُ مَهْما تَأْخُذْهُ السِّنةُ يُدافِعْها ويَغلِبْها حَتَّى يَأْتِيَهُ النَّوْمُ غَلَبَةً فيَنام؛ فما يَلْزَمُ مِن عَدَمِ السِّنَةِ عَدَمُ النَّوْمِ"[4].

وقالَ ابنُ عاشُور: "ونَفْيُ السِّنَةِ عَنِ اللَّهِ تَعالى لا يُغْني عَنْ نَفْيِ النَّوْمِ عَنْهُ؛ لأَنَّ مِنَ الأَحْياءِ مَنْ لا تَعْتَريهِ السِّنَةُ، فإذا نامَ نامَ عَميقًا، ومِنَ النَّاسِ مَنْ تَأْخُذُهُ السِّنَةُ في غَيْرِ

(1) هَذا عَلى رَأْيِ الدَّاني، بأَنَّ الفاصِلَةَ كَلِمَةُ آخِرِ الجُمْلَةِ. يُنظر: الزركشي، البرهان: 1/53.

(2) الآلوسي، روح المعاني: 2/9-10، ورضا، تفسير المنار: 3/26، والمراغي، تفسير المراغي: 3/12.

(3) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 2/235.

(4) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/772.

وَقْتِ النَّوْمِ غَلَبَةً . . والمَقْصودُ أَنَّ اللَّهَ لا يَحْجُبُ عِلْمَهُ شَيْءٌ حَجْبًا ضَعيفًا ولا طَويلًا، ولا غَلَبَةً ولا اكْتِسابًا، فلا حاجَةَ إلى ما تَطَلَّبَهُ الفَخْرُ والبَيْضاوِيُّ مِنْ أَنَّ تَقْديمَ السِّنَةِ عَلى النَّوْمِ مُراعًى فِيهِ تَرْتيبُ الوُجودِ، وأَنَّ ذِكْرَ النَّوْمِ مِنْ قَبيلِ الاحْتِراسِ"[1].

فائدةُ تَكْرارِ (لَا):

فائدة التكرار دفعُ توهُّم نفي السِّنَةِ والنَّوم بقيد الاجتماع، والتَّنْصيصُ عَلى إحاطَةِ النَّفْيِ وشُمولِه كلًّا منهما

وتَبْرُزُ لتَكْرارِ: (لا)، في قَوْلِه: ﴿وَلَا نَوْمٌ﴾ فائِدَتان؛ الأُولى: "انْتِفاؤُهُما عَلى كُلِّ حالٍ، إذْ لَوْ أُسْقِطَتْ (لَا)؛ لاحتَمَلَ انْتِفاؤُهُما بِقَيْدِ الاجْتِماعِ، تَقولُ: ما قامَ زَيْدٌ وعَمْرٌو، بَلْ أَحَدُهُما، ولا يُقالُ: ما قامَ زَيْدٌ ولا عَمْرٌو، بَلْ أَحَدُهُما"[2]، والثَّانِيَةُ: التَّنْصيصُ عَلى الإحاطَةِ وشُمولِ النَّفْيِ لكُلٍّ مِنْهُما، كما في قَوْلِه ﷻ: ﴿وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً﴾ [التوبة: 121][3].

عِلَّةُ العدول إلى الفَصْلِ:

وجهُ الفصل إفادَةُ البَيانِ، والتَّقْريرِ، والتَّعْليلِ، فكانَتْ كالدَّليلِ عَلى الجُمْلَةِ السَّابِقَةِ

فُصِلَتْ جُمْلَةُ ﴿لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ عَمَّا قَبْلَها لأَنَّها وَقَعَتْ مِنْها مَوْقِعَ البَيانِ، وهِيَ "كالدَّليلِ عَلى أَنَّه لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ ولا نَوْمٌ"[4]، فهِيَ مُقَرِّرَةٌ "لانْفرادِهِ بالإلَهِيَّةِ إذْ جَميعُ المَوْجوداتِ مَخْلوقاتُهُ، ومُعَلِّلَةٌ لاتِّصافِهِ بالقَيُّوميَّةِ؛ لأَنَّ مَنْ كانَتْ جَميعُ المَوْجوداتِ مِلْكًا لَهُ فهُوَ حَقيقٌ بأَنْ يَكونَ قَيُّومَها وأَلَّا يُهْمِلَها"[5].

بيانُ تَقْديمِ المُسْنَدِ:

وجه التقديم ثُبوتُ مِلْكِهِ تعالى لعُمومِ المَخْلوقاتِ، وإبْطالُ عَقائِدِ أَهْلِ الشِّرْكِ بِخُصوصِيَّةِ القَصْرِ

وَفائِدَةُ تَقْديمِ المُسْنَدِ في جُمْلَةُ ﴿لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ المؤدّي معنى: له لا لِغَيْرِهِ؛ ثُبُوتُ مِلْكِهِ لعُمومِ المَخْلوقاتِ، حَيْثُ لا يَشِذُّ عَنْ مِلْكِهِ مَوْجودٌ فحَصَلَ مَعْنَى الحَصْرِ؛ لإفادَةِ الرَّدِّ عَلى أَصْنافِ المُشْرِكينَ[6].

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/19-20.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 2/610.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/248، والآلوسي، روح المعاني: 2/9-10.
(4) تفسير ابن عرفة: 2/725.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/20، بتصرف يسير.
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/20.

سرُّ تكرار (ما) وإيثارُها دون (مَنْ):

تكرار ما للتوكيد، وإيثار (ما) إجراءٌ للغالِبِ مَجْرى الكُلِّ؛ لكون غالب المخلوقات غير عاقلة

وكَرَّرَ ﴿مَا﴾ الَّتي للعُمومِ لغرض التَّوْكيدِ، و" استغراق أمكنة الموجودات، فقد دلّت الجملة على عموم الموجودات بالموصول وصلته"[1].، وآثَرَتِ الآيَةُ ذِكْرَ ﴿مَا﴾ الَّتي تُسْتَعْمَلُ لغَيْرِ العاقِلِ، دونَ (مَن) الَّتي هِيَ للعاقِلِ؛ لأَمْرَيْنِ اثْنَيْنِ: الأَوَّلُ: أنَّ الغالِبَ ما لا يَعْقِلُ، فأَجْرى الغالِبَ مَجْرى الكُلِّ، وأَمَّا الثَّاني: فأُسْنِدَتِ المَخْلُوقاتُ إِلَيْهِ مِنْ حَيْثُ إِنَّهَا مَخْلوقَةٌ، وهِيَ مِنْ هَذِهِ الجِهَةِ غَيْرُ عاقِلَةٍ، ورسَّخ هذا المعنى لام للملك[2].

نُكْتَةُ ذِكْرِ المَظْروفِ دونَ الظَّرْفِ:

مَقْصودُ الذِّكْرِ نَفْيُ الإِلَهِيَّةِ عَنْ غَيْرِهِ تَعالى بإِثْباتِ أَنَّه مالِكُ السَّماواتِ والأَرْضِ وما فيهِنَّ

ونُكْتَةُ ذِكْرِ المَظْروفِ وهُوَ ﴿مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۗ﴾ دونَ ذِكْرِ الظَّرْفِ الَّذي هُوَ (السَّماوات والأَرْض)؛ لأَنَّ المَقْصودَ نَفْيُ الإِلَهِيَّةِ عَنْ غَيْرِ اللّٰهِ تَعالى بإِثْباتِ أَنَّه مالِكُ السَّماواتِ والأَرْضِ وما فيهِنَّ، وأَنَّهُ لا يَنْبَغي أَنْ يُعْبَدَ غَيْرُهُ، مِمَّا يَعْبُدُه النّاسُ في السَّماواتِ والأَرْضِ؛ كالشَّمْسِ، والقَمَرِ، والأَصْنامِ، وبَعْضِ بَني آدَمَ[3]، "فهَذِهِ الجُمْلَةُ أَفادَتْ تَعْليمَ التَّوْحيدِ بِعُمومِها، وأَفادَتْ إِبْطالَ عَقائِدِ أَهْلِ الشِّرْكِ بخصوصِيَّةِ القَصْرِ، وهَذا بَلاغَةٌ مُعْجِزَةٌ"[4].

بيانُ التشابه اللفظي:

هَذِهِ الآيَةُ جاءَتْ في سِياقِ تَقْريرِ العَقيدَةِ بمَفْهومِها العامّ، وآيَةُ المائِدَةِ في سِياقِ الحَديثِ عَنْ أُلوهِيَّةِ عيسى عليه السلام

ذَكَرَ البَيْضاويُّ[5] أنّ قوله تعالى ﴿مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۗ﴾ أَبْلَغُ مِنْ قَوْلِه: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّۚ﴾ [المائدة: 120]؛ وهو وصفٌ محلُّ نظرٍ؛ لأَنَّ كُلَّ آيَةٍ جاءَتْ في سِياقٍ يَخُصُّها، ونَظْمُ الكَلامِ يَتْبَعُ المَعْنى، وغايَةُ النَّظْمِ بَيانُ مُرادِ المُتَكَلِّمِ، والكَشْفُ عَنْ دَقائِقِ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/20.
(2) الرازي، مفاتيح الغيب: 7/10-11، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/20.
(3) أبو حيان، البحر المحيط: 2/610.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/20.
(5) البيضاوي، أنوار التنزيل: 1/154.

أَسْرارِ المَعاني المُرادَةِ، فهَذِهِ الآيَةُ جاءَتْ في سِياقِ تَقْريرِ العَقيدَةِ بمَفْهومِها العامّ، فَحَسُنَ أَنْ يَكونَ النَّظْمُ عامًّا، بخِلافِ آيَةِ المائِدَةِ فهِيَ في سِياقِ الحَديثِ عَنْ أُلوهِيَّةِ عيسى عليه السلام، فناسَبَ أَنْ يَأْتِيَ قَوْلُهُ: ﴿وَمَا فِيهِنَّۚ﴾ مِنْ قَبيلِ عَطْفِ المَظْروفِ عَلى الظَّرْفِ، تَنْبيهًا عَلى خصوصِيَّةٍ لذَلِكَ المَظْروفِ، يُحَدِّدُها السِّياقُ، فكُلُّ نَظْمٍ بَليغٍ لا يَسُدُّ مَسَدَّهُ نَظْمٌ آخَرُ، والمُفاضَلَةُ بَيْنَ الآياتِ القُرْآنِيَّةِ في بابِ البَلاغَةِ، لَيْسَ مِنَ البَلاغَةِ في شَيْءٍ.

بلاغة العدول إلى الفصل:

بيان الفصل تقرير الجملة السّابقة بإبطال معتقد الكافرين بشفاعة آلهتهم لهم

فُصِلَت جُمْلَةُ ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦۚ﴾ مِنَ السَّابِقَةِ؛ لأَنَّها تَقْريرٌ لها، فالسَّابِقَةُ أَسْنَدَتْ مِلْكَ جَميعِ المَوْجوداتِ لِلَّهِ تَعالى، وهَذا أَمْرٌ يَعْتَقِدُهُ العَرَبُ، لَكِنَّهُم يَعْتَقِدونَ أَنَّ آلِهَتَهُم تَشْفَعُ لَهُمْ عِنْدَ اللَّهِ شَفاعَةً خاصَّةً، فقالوا: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ﴾ [يُونُس: 18]، وقالوا: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: 3]، فأَبْطَلَت هَذِهِ الجُمْلَةُ ذَلِكَ الاعْتِقادَ[1].

بديع الابتداء بالنفي على صيغة الاستفهام:

معنى الاستفهام الإنكار، والنّفي به أبلغ من النّفي الصّريح، وأقوى

ابْتَدَأَتْ جملة ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى﴾ باسْمِ الاسْتِفْهامِ المُتَضَمِّنِ مَعْنى الإِنْكارِ والنَّفْيِ[2]، ووُقوعُ النَّفْيِ بصيغَةِ الاسْتِفْهامِ أَبْلَغُ مِنْ أَنْ يَأْتِيَ نَفْيًا صَريحًا؛ لاقْتِضائِهِ مُوافَقَةَ المُخاطَبِ عَلَيْهِ[3]، ومن المعلوم أن الاستفهام أقوى من النّفي.

بَرَاعَةُ أُسْلُوبِ ﴿مَن ذَا﴾ وبيانُ متشابه ورودها اللفظي:

وَاخْتَلَفَ النُّحاةُ في إِعْرابِ ﴿ذَا﴾، فَمِنْهُمْ مَنْ جَعَلَها خَبَرًا لاسْمِ الاسْتِفْهامِ، ومِنْهُمْ مَنْ جَعَلَها زائِدَةً، ومِنْهُمْ مَنْ جَعَلَها بمَعْنى الَّذي،

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/21.
(2) الرازي، مفاتيح الغيب: 7/11.
(3) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/725.

في اسْتِعْمالِ هَذا الأُسْلوبِ تحقُّقُ التَّنْبيهِ الذِّهْنِيِّ، والتَّحْفيزِ الفِكْرِيِّ، إلى أمْرٍ يَقَعُ النَّاسُ في الغَفْلَةِ عَنْهُ

ومِنْهُمْ مَنْ جَعَلَهَا مَعَ مَنْ بِمَنْزِلَةِ اسْمٍ واحِدٍ تَرَكَّبا كَمَاذَا[1]، وهَذا الوَجْهُ هُوَ الوَجْهُ، لِمَا فيهِ مِنْ صِحَّةِ مَعْنًى، وفَصاحَةِ أُسْلُوبٍ، ودِقَّةِ مَسْلَكٍ، وقَدْ وَرَدَ هَذا الأُسْلوبُ في القُرْآنِ الكَريمِ في أَرْبَعَةِ مَواضِعَ، وهِيَ:

قَوْلُهُ تَعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ۚ وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٤٥﴾﴾ [البقرة: 245]، وقَوْلُهُ تَعالى: ﴿قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ۚ وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧﴾﴾ [الأحزاب: 17]، وقَوْلُهُ تَعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١١﴾﴾ [الحديد: 11]، ومَوْضِعُ آيَةِ الكُرْسِي.

والمُلاحَظُ أَنَّ تَرْكيبَ ﴿مَن ذَا﴾ وَرَدَ في سِياقَيْنِ: السِّياقُ الأَوَّلُ تَضَمَّنَ التَّحْفيزَ إلى الصَّدَقَةِ، كَما هُوَ في آيَتَي البَقَرَةِ والحَديدِ، والسِّياقُ الثَّاني كانَ بِمَعْنى الاسْتِفْهامِ المُتَضَمِّنِ النَّفْيَ والإِنْكارَ، كَما في آيَةِ الكُرْسِيِّ والأَحْزابِ، وفي اسْتِعْمالِ هَذا الأُسْلوبِ نَلْحَظُ التَّنْبيهَ الذِّهْنِيَّ، والتَّحْفيزَ الفِكْرِيَّ، إلى أَمْرٍ يَقَعُ النَّاسُ في الغَفْلَةِ عَنْهُ، فاجْتَمَعَتْ وَظيفَةُ اسْمِ الاسْتِفْهامِ في تَطَلُّبِ الجَوابِ، مَعَ وَظيفَةِ اسْمِ الإِشارَةِ في إِطْلاقِ الفِكْرِ لِمُشارٍ ذِهْنِيٍّ في تَرْكيبٍ واحِدٍ، وهَذا مِنْ بَلاغَةِ الاسْتِعْمالِ؛ لِتَوْليدِ تَرْكيبٍ بَديعٍ يَسْتَثيرُ الفِكْرَ، ويَنْشَطُ بِهِ العَقْلُ.

جمالُ التَّعْبيرِ بصيغَةِ المُضارِعِ:

عُبِّرَ بالفِعْلِ المُضارِعِ لِيُفيدَ تَصْويرَ الشَّفاعَةِ، فيَقَعَ النَّفْيُ مَوْقِعًا قَوِيًّا في النُّفوسِ

التَّعْبيرُ بصيغَةِ الفِعْلِ المُضارِعِ في ﴿يَشْفَعُ﴾ لِيُفيدَ تَصْويرَ الشَّفاعَةِ عِنْدَ اللَّهِ، فيَتَصَوَّرُها المُخاطَبُ، فيَقَعُ الاسْتِنْكارُ والنَّفْيُ مَوْقِعًا قَوِيًّا في النُّفوسِ، وهُوَ ما يَتَناسَبُ تَناسُبًا بَديعًا مَعَ دَلالَةِ الإِشارَةِ في تَرْكيبِ ﴿مَن ذَا﴾، فتَتَوَجَّهُ الإِشارَةُ إلى تِلْكَ الشَّفاعَةِ المُتَصَوَّرَةِ في الأَذْهانِ، فيَنْفيها المُخاطَبُ، وهُوَ مَقْصُودُ الجُمْلَةِ.

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 2/611، والسمين، الدر المصون: 2/508.

فائدة الاستثناء بـ (إلا):

وَأَفادَ الاسْتِثْناءُ في قوله: ﴿إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ تَعْليقَ الشَّفاعَةِ عَلى إذْنِ الرَّحْمَنِ، فالشَّفاعَةُ المَنْفِيَّةُ هِيَ الشَّفاعَةُ الَّتي يَنْتَفِعُ مِنْها المُشْرِكون، وغَيْرُ المَقْبولين عِنْدَ اللَّهِ تَعالى، والشَّفاعَةُ المُثْبَتَةُ هِيَ الشَّفاعَةُ المُتَوَقِّفَةُ عَلى إذْنِ المَوْلى سُبْحانَهُ، وهُوَ ما يُوَضِّحُ مَعْنى نَفْيِ الشَّفاعَةِ في الآيَةِ السَّابِقَةِ، وهُوَ ما يُؤَكِّدُ تَرابُطَ الجُمَلِ واتِّساقَ بَعْضِها بِبَعْضٍ.

قصدُ التّعبير بالاستثناء تَعْليق الشَّفاعَةِ عَلى إذْنِ الرَّحْمَنِ

براعة التّعبير بقوله: ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾:

اخْتَلَفَ المُفَسِّرونَ في مَعْنى: ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ عَلى أَقْوالٍ كَثيرَةٍ، مِنْ مِثْلِ السّابِقِ واللّاحِقِ، أَوِ العَكْسِ، أَوِ الدُّنْيا والآخِرَةِ، أَوْ قَبْلَ خَلْقِ الخَلْقِ وبَعْدَه، أَو الشَّرِّ والخَيْرِ[1]، والصَّحيحُ أَنَّ الكُلَّ مُحْتَمَلٌ[2]، ونُضيفُ عَلى تِلْكَ الأَقْوالِ؛ أَنَّ المَقْصودَ بـ ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾: ما يَقَعُ الآنَ، وهُوَ الزَّمَنُ الحاضِرُ، والمَقْصودُ بـ ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾، الماضي والمُسْتَقْبَلُ، باسْتِعْمالِ المُشْتَرَكِ في مَعْنَيَيْه، فيَكونُ التَّعْبيرُ قَدْ شَمِلَ الزَّمانَ كُلَّه، وهُوَ المُناسِبُ لِدِقَّةِ النَّظْمِ، وسِياقِ الآيَةِ.

بيان البلاغة استغراق التعبير الزَّمانَ كُلَّه، وهُوَ المُناسِبُ لِدِقَّةِ النَّظْمِ، وسِياقِ الآيَةِ

بلاغة الكناية في الجملة:

مِنْ بَلاغَةِ النَّظْمِ احتمال قوله تعالى: ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ لِجَميعِ المُحْتَمَلاتِ الذِّهْنِيّةِ المَقْبُولَةِ في أَلْفاظِ العِبارَةِ، وهُوَ المُناسِبُ لِسَعَةِ عِلْمِ اللَّهِ تَعالى، قال أَبو حَيَّانَ: "إنَّ هَذا كِنايَةٌ عَنْ إحاطَةِ عِلْمِه تَعالى بِسائِرِ المَخْلوقاتِ مِنْ جَميعِ الجِهاتِ، وكَنَّى بِهاتَيْنِ الجِهَتَيْنِ عَنْ سائِرِ جِهاتِ مَنْ أَحاطَ عِلْمُهُ بِهِ . . فالمَعْنى أَنَّهُ تَعالى عالِمٌ بِسائِرِ أَحْوالِ المَخْلوقاتِ، لا يَعْزُبُ عَنْهُ شَيْءٌ، فلا يُرادُ بِما بَيْنَ الأَيْدي ولا بِما خَلْفَهُمْ شَيْءٌ مُعَيَّنٌ"[3]. وما اسْتَظْهَرَه أَبو حَيَّان هَدَفٌ بارِعٌ أَصابَ عَيْنَ الحَقيقَةِ.

وجه الكناية شُمولُ التَّعْبيرِ جَميعَ المُحْتَمَلاتِ الذِّهْنِيّةِ، وإحاطَةِ عِلْمِهِ تَعالى بِسائِرِ المَخْلوقاتِ مِنْ جَميعِ الجِهاتِ

(1) ابن جرير، جامع البيان: 5/396، والرازي، مفاتيح الغيب: 7/12.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 2/10.
(3) أبو حيان، البحر المحيط: 2/611-612.

بديع التّقابل بين جُمْلَتَيْ: إثبات العلم، ونفي الإحاطة به:

التَّقابُلُ بَيْنَ الجُمْلَتَيْنِ إثباتًا ونَفْيًا، نَزَّلَهُما مَنْزِلَةَ الجُمْلَةِ الواحِدَةِ

جُمْلَةُ ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾ عُطِفَتْ عَلى السَّابِقَةِ؛ "لأَنَّ مَجْموعَهُما يَدُلُّ عَلى تَفَرُّدِهِ بالعِلْمِ الذَّاتِيِّ التَّامِّ، الدَّالِّ عَلى وَحْدانِيَّتِهِ سُبْحانَهُ وتَعالى"[1]، فاشْتَرَكَتِ الجُمْلَتانِ في إثْباتِ عِلْمِ اللَّهِ الشَّامِلِ، حَيْثُ أَثْبَتَتِ الجُمْلَةُ السَّابِقَةُ شُمولَ عِلْمِهِ لِكُلِّ شَيْءٍ، ونَفَتِ اللَّاحِقَةُ إحاطَةَ المَخْلوقينَ بشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ، وإثْباتُ عِلْمِهِ في الأُولى، مَعَ نَفْيِ إحاطَتِهِم في الثَّانِيَةِ، إثْباتٌ لإحاطَتِهِ بعِلْمِ كُلِّ شَيْءٍ، وهُوَ مَأْخوذٌ مِنْ دَلالَةِ التَّقابُلِ الضِّدِّيِّ، وحَصَلَ مِنْ هَذا التَّقابُلِ أَنْ نُزِّلَتا مَنْزِلَةَ الجُمْلَةِ الواحِدَةِ، وهُوَ المَفْهومُ مِنْ سؤالِ صاحِبِ الكَشَّافِ حينَ قالَ: "فإنْ قُلْتَ: كَيْفَ تَرَتَّبَتِ الجُمَلُ في آيَةِ الكُرْسِيِّ مِنْ غَيْرِ حَرْفِ عَطْفٍ؟".

وقَدْ وَرَدَ هَذا الأُسْلوبُ في القُرْآنِ الكَريمِ، حَيْثُ تُعامَلُ الجُمْلَتانِ أَوِ الصِّفَتانِ المُتَقابِلَتانِ مُعامَلَةَ الجُمْلَةِ الواحِدَةِ أَوِ الصِّفَةِ الوَاحِدَةِ، مِنْ مِثْلِ قَوْلِهِ تَعالى: ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْءَامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾﴾ [التوبة: 112]، فعومِلَتْ صِفَةُ: ﴿ٱلْءَامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ مُعامَلَةَ الصِّفَةِ الواحِدَةِ، وهَذا مِنْ بَديعِ أُسْلوبِ القُرْآنِ في التَّعامُلِ مَعَ المُتَقابِلاتِ، حَيْثُ تُنَزَّلُ مَنْزِلَةَ الشَّيْءِ الواحِدِ.

وجه التّقابل بين الجملتين أنّ مَجموعهما أفاد البَيانَ والتَّعْليلَ وهُوَ ما اقْتَضى الفَصْلَ

ووِفاقَ ما تقرَّر يكون مَجموعُ الجُمْلَتَيْنِ: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾، هُوَ ما يُبَيِّنُ سَبَبَ فَصْلِهِما عَنْ جُمْلَةِ ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾، فالفَصْلُ لبَيانِ جَهْلِ مَنْ يَزْعُمُ وُجودَ شافِعينَ، وتَعْليلُ ذَلِكَ بإحاطَةِ عِلْمِهِ بِكُلِّ شَيْءٍ، فمَجْموعُ الجُمْلَتَيْنِ أَفادَ البَيانَ والتَّعْليلَ وهُوَ ما اقْتَضى الفَصْلَ.

(1) الزمخشري، الكشاف: 1/300-301، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 1/154.

دِقَّةُ التَّعْبيرِ بلفظ الإحاطَةِ:

انْتُقِيَتْ في الآيَةِ كَلِمَةُ الإحاطَةِ، لِما تَشْتَمِلُ عَلَيْهِ مِنْ مَعْنًى يَتَّسِقُ مَع مَقْصودِ الكَلامِ، فالإحاطَةُ تَدُلُّ عَلى الإحْرازِ والبُلوغِ، والتَّمَكُّنِ والحِفْظِ، والشُّمولِ، وهَذِهِ المَعاني هِيَ ما ازدانَتْ به اللَّفْظَةُ دونَ سِواها مِنَ الأَلفاظِ، فإذا نُفِيَتِ الإحاطَةُ، نُفِيَ مَعَها الإحْرازُ والبُلوغُ والتَّمَكُّنُ والحِفْظُ والشُّمولُ، وإذا ثَبَتَتْ ثَبَتَتْ مَعَها هَذِهِ المَعاني، وهِيَ ثابِتَةٌ في حَقِّ اللَّهِ تَعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عِلۡمَۢا ١٢﴾ [الطلاق: 12]، فَنَفْيُ الإحاطَةِ أَشَدُّ مِنْ نَفْيِ العِلْمِ والمَعْرِفَةِ، كما أَنَّ إثْباتَها أَبْلَغُ وأَمْدَحُ، لما يَلْزَمُ عَنْ النَّفْيِ والإثْباتِ.

تَدُلُّ الإحاطَةُ عَلى الإحْرازِ والبُلوغِ والتَّمَكُّنِ والحِفْظِ والشُّمولِ، فنَفْيُها أَشَدُّ، وإثْباتُها أَبْلَغُ

دَلالَةُ العُمومِ في لَفْظِ ﴿بِشَيۡءٖ﴾:

دلّ لَفْظُ شَيْءٍ عَلى العُمومِ، مِنْ ثَلاثَةِ أُمورٍ؛ هي: التَّنْكيرُ والسِّياقُ ودَلالَةُ اللَّفْظِ، فهُوَ نَكِرَةٌ في سِياقِ نَفْيٍ، ودَلّ هَذا اللَّفْظُ عَلى المَوْجودِ والمَعْدومِ[1]، وهَذا يَقْتَضي العُمومَ، وهُوَ المُناسِبُ لنَفْيِ الإحاطَةِ، فَنَفَتِ الآيَةُ إحاطَتَهُمْ بِأَيِّ شَيْءٍ، صَغيرًا أَوْ كَبيرًا، مَوْجودًا أَوْ مَعْدومًا، قَليلًا أَوْ كَثيرًا، وهَذا يَزيدُ مِنْ بَيانِ جَهْلِهِم، وتَمَكُّنِ عِلْمِه سُبْحانَهُ وتَعالى، وإحاطَتِهِ بكُلِّ شَيْءٍ.

اكتُسِبَ العُمومُ في لَفْظِ شَيْءٍ مِنَ التَّنْكيرِ، والسِّياقِ، واللَّفْظِ، وأَفادَ حُسْنَ الاتِّساقِ والبَيانِ

بلاغة الفصل في جملة سعة الكرسيّ:

﴿وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖ﴾ هذِهِ الجُمْلَةُ المَفْصولَةُ الخامِسَةُ في الآيَةِ، وهِيَ "تَقْريرٌ لِمَا تَضَمَّنَتْهُ الجُمَلُ كُلُّها مِنْ عَظَمَةِ اللَّهِ تَعالى وكِبْرِيائِهِ وعِلْمِهِ وقُدْرَتِهِ وبَيانِ عَظَمَةِ مَخْلوقاتِهِ المُسْتَلْزِمَةِ عَظَمَةَ شَأْنِهِ"[2]، ولِبَيانِ سَعَةِ مُلْكِهِ وسُلْطانِهِ، ولبَيانِ عِلْمِه الغُيوبَ والمُشاهَداتِ وإحاطَتِهِ بِها.

وجه الفصل تَقْريرُ مَا تَضَمَّنَتْهُ الجُمَلُ كُلُّها مِنْ عَظَمَةِ اللَّهِ تَعالى

(1) الراغب، المفردات: (شيء).

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/23.

دِقَّةُ اخْتِيارِ الأَلْفاظِ واتِّساقِها:

اتِّساقُ الأَلْفاظِ في الدَّلالَةِ عَلى مَعْنى السَّعَةِ، سَعَةٌ مِن بَعْدِها سَعَةٌ

اشْتملَ قَوله تَعالى: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ عَلى أَرْبَعَةِ أَلفاظٍ كُلُّها تَدُلُّ عَلى السَّعَةِ، أَمَّا لَفْظُ (وَسِعَ) فَمِنَ اللُّغَةِ، فالواسِعُ: هُوَ المُحيطُ بِكُلِّ شَيْءٍ[1]، وأَمَّا الكُرسيُّ فَمِن سَعَةِ الأَقْوالِ التي قيلَتْ فيه.

وأَمَّا ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾، فَمِنَ المُشاهَدَةِ العِيانِيَّةِ، فاجْتَمَعَ في هَذِهِ الجُمْلَةِ دَليلُ اللُّغَةِ والعِلْمِ والمُشاهَدَةِ عَلى مَعْنى السَّعَةِ، وهَذا مِنْ أَقْوى الأَدِلَّةِ عَلى سَعَةِ هَذِهِ الجُمْلَةِ لاتِّساعِها جَميعَ هَذِهِ الدَّلالاتِ، وهُوَ ما يَتَناسَبُ مَعَ سِرِّ اسْتِعْمالِ لَفْظِ الكُرْسِيّ، الَّذي هُوَ اسْمُ الآيَةِ، وهُوَ يُشيرُ إلى عِلَّةِ تَسْمِيَةِ أَعْظَمِ آيَةٍ في القُرْآنِ الكَريمِ بِهَذا الاسْمِ؛ لِتَمَكُّنِها تَمَكُّنَ الكُرْسِيّ، ولِعَظَمَتِها عَظَمَةَ العَرْشِ، وَلِسَعَةِ ما فيها مِنَ العِلْمِ الصَّادِرِ عَنْ عِلْمِ اللَّهِ تَعالى، ولِسُلْطانِها في النُّفوسِ، وهِيَ إشارَةٌ بَديعَةٌ لِلتَّناسُبِ بَيْنَ خَلْقِ اللَّهِ وكَلامِهِ، في اختيارِه لأَعْظَمِ آيَةٍ اسْمًا مِنْ أَعْظَمِ مَخْلوقاتِه.

بلاغة المجاز في عبارة ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ﴾:

التَّعبير كناية عن سعة الملك، والعلم، والإحاطة، أو استعارة تصريحية عنها

وقَوله تَعالى: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ كناية عن سعة الملك، والعلم، وعِظَم القدرة، وكمال حياطة الخلق، وهو المناسب لنسق الآية الكريمة، وهو تفسير ترجمان القرآن عبد الله بن عباس[2]. وتحتمل العبارةُ الاستعارةَ التصريحيةَ؛ لكون الكلمة مجازًا عن علمه تعالى، أو ملكه وتصوير صحيح لعظمته، حذف المشبه وهو العلم والقدرة والعظمة وما يترتب على الجلوس فوق كرسي الملك من معاني الأبهة والإحاطة الجامعة[3].

قصديّة التَّعْبير بالأَوْدِ دونَ سِواهُ مِنَ الأَلْفاظِ:

التَّعْبيرُ بالأَوْدِ في قَوْلِهِ تَعالى: ﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَاۚ وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ

(1) الأزهري، تهذيب اللغة: (وسع).
(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 2/941
(3) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 1/383

ٱلْعَظِيمُ﴾ تَعْبيرٌ غَريبٌ قَليلُ الاسْتِعْمالِ، وهُوَ مِنْ أَفْرادِ القُرْآنِ، فَلَمْ يُسْتَعْمَلْ إلَّا في هَذا المَوْضِعِ، والمُفَسِّرون يُفَسِّرُونَه بالثِّقَلِ والمَشَقَّةِ، فإنْ قيلَ: لماذا آثَرَتِ الآيَةُ التَّعْبيرَ بِهِ دونَ ما هُوَ أَوْضَحُ وأَكْثَرُ اسْتِعْمالًا؟ فيُقالُ: إنَّ الأَوْدَ في اللُّغَةِ يَدُلُّ عَلى المَيْلِ والانْحِناءِ[1]، وَسَبَبُه الثِّقَلُ، فالَّذي يَحْمِلُ حِمْلًا ثَقيلًا يَميلُ، ويَظْهرُ مِن استِعْمالِ العَرَبِ أَنَّ الأَوْدَ يُطْلَقُ عَلى مَيْلٍ سَبَبُه ثِقَلٌ عَظيمٌ؛ فمَزَجَ هَذا اللَّفْظُ مَعْنَيَيْنِ، وهُما المَيْلُ والثِّقَلُ الشَّديدُ، أَي: السَّبَبُ ونَتيجَتُهُ، وهَذا سِرُّ اسْتِعْمَالِه في هَذا السِّياقِ، فالأَوْدُ لَيْسَ أَيَّ مَيْلٍ، كما أَنَّهُ لَيْسَ أَيَّ ثِقَلٍ، وإنَّما هُوَ مَيْلٌ بسَبَبِ ثِقَلٍ شَديدٍ، ومعْناهُ أَنَّ اللَّهَ لا يَؤودُهُ الأَمْرُ العَظيمُ، فما بالُك بمَا هُوَ دونَهُ، فهَذا مِنْ بابِ التَّنْبيهِ عَلى الأَدْنى بالأَعْلَى.

التَّنْبيهُ عَلى نَفْيِ الأَدْنَى بالأَعْلى، فالأَوْدُ هُوَ المَيْلُ بِسَبَبِ ثِقَلٍ شَديدٍ

وجه اخْتِصاصِ لفظ الحِفْظِ بالذِّكْرِ:

قَد يَسْأَلُ سائِلٌ عَنْ سِرِّ اخْتِصاصِ الجُمْلَةِ بلَفْظِ الحِفْظِ، مَعَ أَنَّ ما يَقْتَضيهِ السِّياقُ ذِكْرُ الحَمْلِ؛ لأَنَّ الأَوْدَ مَعْناه: مَيْلٌ بسَبَبِ ثِقَلٍ شَديدٍ، وهَذا المَعْنى يُناسِبُ الحَمْلَ لا الحِفْظَ؟

والجَوابُ أَنَّ الحِفْظَ مُتَراخٍ عَنِ الحَمْلِ، فَقَدْ يُحْمَلُ الشَّيْءُ ولا يُحْفَظُ، بخِلافِ الحِفْظِ فَيَلْزَمُ عَنْه الحَمْلُ والمُلْكُ والتَّدْبيرُ والتَّصَرُّفُ، فهَذِه معانٍ لازِمَةٌ للَفْظِ الحِفْظِ، وما حُفِظَ فهُوَ مَحْمولٌ لُزومًا، فلمَّا ذَكَرَ الحِفْظَ لَزِمَ عَنْهُ تِلْكَ المَعاني ومِنْها الحَمْلُ، وهَذا مِنْ بابِ التَّنْبيهِ عَلى الأَخَصِّ بالأَعَمِّ، فاجْتَمَعَ في الجُمْلَةِ لَفْظانِ، كلٌّ مِنْهُما دلَّ عَلى مَعْنًى آخَرَ يُفْهَمُ التِزامًا، وهَذا مِنَ الإيجازِ اللُّغَوِيِّ البَليغِ في هَذِهِ الجُمْلَةِ، الَّذي لا يَؤُودُ القُرْآنَ الإتْيانُ بمِثْلِه.

اخْتِصاصُ الحِفْظِ بالذِّكْرِ؛ لشُموله مَعْنى الحَمْلِ، بخِلافِ العَكْسِ، وهَذا مِنَ التَّنْبيهِ عَلى المَفْهومِ الأَخَصِّ بالأَعَمِّ

علّة تثنية الضمير في ﴿حِفْظُهُمَا﴾:

ولَمْ يَقُلْ: (حِفْظها) بضَميرِ جَماعَةِ مَا لا يَعْقِلُ، وعدل إلى

(1) الأزهري، تهذيب اللغة: (أود)، وابن جرير، جامع البيان: 5/402.

التثنية: ﴿حِفۡظُهُمَاۚ﴾؛ لتخصيصه السماوات، والأرض بالذِّكْرِ؛ بوصفهما المُشاهَدينِ للإنْسانِ الَّذي يَراهُما ويُوافِقُ عَلى إمْساكِهما وعَدَمِ إزالَتِهما؛ ليَكونَ ذَلِكَ أَقْطَعَ في طَريقِ الاسْتِدْلالِ، وأَقْوى في قِيامِ الحُجَّةِ عَلَيْه[1].

تخصيص السماوات، والأرض بالذِّكْرِ؛ أَقْطَعُ في طَريقِ الاسْتِدْلالِ، وأَقْوى في قِيامِ الحُجَّةِ

بَلاغَةُ الفاصِلَةِ:

لَمَّا ابْتَدَأَت الآيَةُ بوَصْفِ اللَّهِ تَعالى بالحَيِّ القَيُّوم، وبَعْد إيرادِ تِلْكَ الجُمَلِ المُفْصِحَةِ عَن جَلالَةِ عَظَمَتِه، وواسِعِ عِلْمِه، وكَبيرِ مِلْكِه، وفَضْلِ تَدْبيرِه، ناسَبَ أَنْ تُخْتَمَ بالعَليِّ العَظيم، مِنْ بابِ رَدِّ الفاصِلَة عَلى مَطْلَعِ الآيَةِ، فَفيهَا فَنُّ التَّصْديرِ، فَمَبْدَأُها العَظَمَةُ، وخِتامُها العَظَمَةُ، "وقَدْ خُتِمَتِ الآيَةُ بِما بُدِئَت بِه، غَيْرَ أَنَّ بَدْءَها بالعَظَمَةِ - كَما قالَ الحرالِيُّ - كانَ باسْمِ اللَّهِ إلاحَةً، وخَتْمَها كانَ بذَلِكَ إفْصاحًا، لما ذُكِرَ مِنْ أَنَّ الإبْداءَ مِنْ وَراءِ حِجابٍ، والإعادَةَ بغَيْرِ حِجابٍ، كذَلِك تَنَزُّلُ القُرْآنِ، مَبْدَأُ الخِطابِ إلاحَةٌ، وخاتِمَتُهُ إفْصاحٌ؛ ليَتَطابَقَ الوَحْيُ والكَوْنُ تَطابُقَ قائِمٍ ومَقامٍ"[2].

رَدُّ الفاصِلَةِ عَلى المَطْلِعِ، تَقْريرًا لِصِفَةِ اللَّهِ العَظيمِ، إلاحَةً وإفْصاحًا

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

السِّنَة والنَّوْم:

السِّنَةُ تَكونُ في الرَّأْسِ، فإذا خالَطَتِ القَلْبَ وأَثْقَلَتْه فهُوَ النَّوْمُ[3]، ولابْنِ عَطِيَّةَ تَفْريقٌ لَطيفٌ حيث قال: "السِّنَةُ بَدْءُ النُّعاس، وهُو فُتورٌ يَعْتَري الإنْسانَ وترنيقٌ في عَيْنَيْه، ولَيْس يَفْقِدُ مَعَهُ كُلَّ ذِهْنِه، والنَّوْمُ هُو المُسْتَثْقَلُ الَّذي يَزولُ مَعَهُ الذِّهْنُ"[4]، "فالنَّوْمُ شاغِلُ المُدَبِّرِ عَنْ التَّدْبيرِ، والنُّعاسُ مانِعُ المُقَدِّرِ عَنِ التَّقْديرِ بوَسَنِه"[5]، والسنة لا

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/729.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 4/37.
(3) ابن السكيت، الألفاظ، ص: 468، وقول الضحاك في جامع البيان: 5/391، والسمرقندي، بحر العلوم: 1/167.
(4) ابن عطية، المحرر الوجيز: 1/340.
(5) ابن جرير، جامع البيان: 5/393.

يفقد معها العقل، بخلاف النوم فإنه استرخاء أعضاء الدماغ من رطوبات الأبخرة حتى يفقد معه العقل، بل وجميع الإدراكات بسائر المشاعر والمراد: أنه لا يعتريه سبحانه شيء منهما[1]، والرَّبْطُ بَيْنَ بَدْءِ النُّعاسِ والنَّوْمِ باعْتِبارِ الغالِبِ، لا باعْتِبارِ اللَّازِمِ، فقَد يُصيبُ الإِنْسانَ النُّعاسُ ولا يَنامُ، وقد يَنامُ مِنْ غَيْرِ نُعاسٍ.

(1) الشوكاني، فتح القدير: 1/311.

﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ٢٥٦﴾ [البقرة: 256]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

بَعْدَ التَّعْريفِ باللَّهِ سُبْحانَهُ وتَعالى في آيَةِ الكُرْسِيِّ، لَمْ يَبْقَ لجاهِلٍ عُذْرٌ في عَدَمِ الإيمانِ، أَو الإِصْرارِ عَلى الكُفْرِ والعِصْيانِ، حَيْثُ اتَّضَحَ المُعْتَقَدُ السَّليمُ، المُؤَدِّي إلى الخُضوعِ والتَّسْليمِ، ولَمَّا كانَ اللهُ يُريدُ مِنَ النَّاسِ الإيمانَ بِحُرِّيَّةٍ وإِقْبالٍ، دونَ تَرَدُّدٍ وإِقْفالٍ، جاءَتْ هَذِهِ الآيَةُ لِتُجيبَ عَنْ سُؤالِ سائِلٍ: فهَلْ يُكْرَهُ مَنْ أَصَرَّ عَلى دينِهِ، وأَبى الانْصِياعَ إلى حينِهِ، فحَسُنَ في هَذا المَوْقِعِ الجَوابُ، أَنْ لا إِكْراهَ في الدِّينِ؛ لِتَبَيُّنِ الرُّشْدِ مِنَ الغَيِّ المُبينِ، وبَيانِ الحَقِّ بَعْدَ التَّعْريفِ بالحَقِّ، فعُرْوَةُ هذِهِ الآيَةِ بالسَّابِقَةِ كَلِمَةُ ﴿تَّبَيَّنَ﴾، فمِنْ هُنَا كانَتِ العَلاقَةُ بَيْنَ الآيَتَيْنِ عَلاقَةَ تَتْميمٍ، لِمَنْ بَقِيَ في خاطِرِهِ اعْتِقادٌ فَطيمٌ، فَهِيَ جَوابٌ بَديعٌ، عَنْ سُؤالٍ مُتَوَقَّعٍ، يَتَّضِحُ بها المَقْصودُ، ويَكْمُلُ بها حَقُّ المَعْبودِ.

"وتَعْقيبُ آيَةِ الكُرْسِيِّ بهاتِهِ الآيَةِ بِمُناسَبَةِ أَنَّ ما اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ الآيَةُ السَّابِقَةُ مِنْ دَلائِلِ الوَحْدانِيَّةِ وعَظَمَةِ الخالِقِ وتَنْزيهِهِ عَنْ شَوائِبِ ما كَفَرَتْ بِهِ الأُمَمُ، مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يَسوقَ ذَوي العُقولِ إلى قَبولِ هَذا الدِّينِ الواضِحِ العَقيدَةِ، المُسْتَقيمِ الشَّريعَةِ، باخْتِيارِهِمْ دونَ جَبْرٍ ولا إِكْراهٍ، ومِنْ شَأْنِهِ أَنْ يَجْعَلَ دَوامَهُمْ عَلى الشِّرْكِ بِمَحَلِّ السُّؤالِ: أَيَتْرُكونَ عَلَيْهِ أَمْ يُكْرَهُونَ عَلى الإِسْلامِ، فكانَتِ الجُمْلَةُ اسْتِئْنافًا بَيانِيًّا"[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿لَآ إِكۡرَاهَ﴾: الإِكْراهُ: خِلافُ الرِّضا والمَحَبَّةِ، ويُقالُ في حَمْلِ الإِنْسانِ عَلى ما يَكْرَهُهُ[2]، قَسْرًا وجَبْرًا، والمَقْصودُ بالإِكْراهِ في الآيَةِ إِجْبارُ الإِنْسانِ عَلى اعْتِناقِ دينِ الإِسلامِ جَبْرًا عَنْهُ بِأَيِّ نَوْعٍ مِنْ أَنْواعِ الجَبْرِ والقَهْرِ.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/25.

(2) ابن فارس، المقاييس، والراغب، المفردات: (كره).

2) ﴿تَّبَيَّنَ﴾: التَّبَيُّنُ: مَأْخوذٌ مِنَ البَيْنِ، وهُوَ بُعْدُ الشَّيْءِ وانْكِشافُهُ، وهُوَ مَوْضوعٌ للخِلالَةِ بَيْنَ الشَّيْئَيْنِ ووَسَطِهِما، ويُقالُ: بانَ الشَّيْءُ إذا انْفَصَلَ وظَهَرَ ما كانَ مُسْتَتِرًا مِنْهُ، ولا يُسْتَعْمَلُ البَيْنُ إلَّا فيما كانَ فيهِ مَسافَةٌ[1]، وقُصِدَ بِهِ التَّمَيُّزُ بَيْنَ شَيْئَيْنِ مُتَناقِضَيْنِ.

3) ﴿ٱلرُّشْدُ﴾: يَدُلُّ عَلى اسْتِقامَةِ الطَّرِيقِ، والعَرَبُ تَقولُ: مَنْ أصابَ وَجْهَ الأَمْرِ والطَّرِيقِ فقَدْ رَشِدَ، ولذلِكَ يُستَعمَلُ استِعمالَ الهِدايَةِ، ومَعْناهُ إِصابَةُ الخَيْرِ[2]، فالرُّشْدُ في الآيةِ يَدُلُّ عَلى السَّدادِ في الطَّرِيقِ إِلى حينِ الوُصولِ إِلى الهَدَفِ.

4) ﴿ٱلْغَيِّ﴾: ناشِئٌ عَنْ جَهْلٍ مِنِ اعْتِقادٍ فاسِدٍ، ذَلِكَ أَنَّ العَرَبَ تَقولُ في الفَصيلِ: غَوِيَ يَغْوَى غَوًى؛ إِذا لَمْ يُصِبْ رِيًّا مِنَ اللَّبَنِ حتَّى كادَ يَهْلَكُ، ومِنْهُ قيلَ للصَّغيرِ إِذا نَضَجَ وكَبُرَ: رَشَدَ، والإِنْسانُ إِذا تَبِعَ هَواهُ فقَد غَوي، إِذِ المُغَوَّاةُ عِنْدَ العَرَبِ هِيَ حُفْرَةُ الصَّيّادِ[3]، والغَيُّ في الآيَةِ يَدُلُّ عَلى ضَلالٍ ناشِئٍ عَنْ جَهْلٍ بالطَّرِيقِ المَسْلوكِ حَتَّى يَقَعَ سالِكُهُ فَرِيسَةً للشَّيْطانِ.

5) ﴿بِٱلطَّٰغُوتِ﴾: من طَغا يَطْغى ويَطْغو طُغْيانًا، أي جاوَزَ الحدّ، وكلُّ مجاوزٍ حدَّه في العِصيان فهو طاغٍ، وطَغِيَ يَطْغى مثله[4]، وهوعِبارَةٌ عَنْ مُجاوَزَةِ الحَدِّ في الاعْتِقادِ والعِصْيانِ، ويُطلَقُ عَلى كُلِّ مُتَعَدٍّ، وكُلِّ مَعْبودٍ مِنْ دونِ اللّه عُبِد من دونه، إما بقهر منه لمن عَبده، وإما بطاعة ممَّن عبده له، وإنسانا كان ذلك المعبود، أو شيطانا، أو وثنا، أو صنما، أو كائنا ما كان من شيء[5]، وكُلُّ الوارد منه في القُرْآنِ فهُوَ بمَعْنى التَّجاوُزِ في غِلَظٍ وتَخَطٍّ للحَقِّ وعُدْوانٍ، ويُستَعْمَلُ في الواحِدِ والجَمْعِ، والأَصْلُ فيهِ التَّذْكيرُ، فأَمَّا قَوْلُهُ: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا﴾ [الزُّمَر: 17] فإِنَّما أُنِّثَتْ إِرادَةَ الآلِهَةِ، ولِذَلِكَ يُعامَلُ مُعامَلَةَ المَصادِرِ[6]، قالَ ابْنُ عاشور: "ولا أَحْسَبُهُ إِلَّا مِنْ مُصْطَلَحاتِ القُرْآنِ"[7].

(1) ابن فارس، المقاييس، والراغب، المفردات: (بين).
(2) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، المقاييس، والراغب، المفردات: (رشد)، والرازي، مفاتيح الغيب: 7/15.
(3) الخليل، العين، وابن فارس، المقاييس، والراغب، المفردات: (غيي).
(4) الجوهري، الصحاح: (طغا).
(5) ابن جرير، جامع البيان: 4/555.
(6) ابن فارس، المقاييس، والراغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (طغي)، والرازي، مفاتيح الغيب: 7/16، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/29.
(7) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/28.

6) ﴿ٱسۡتَمۡسَكَ﴾: الاسْتِمْساكُ: التَّعَلُّقُ بالشَّيْءِ بشِدَّةٍ والتِصاقٍ وتَحَرٍّ ومُبالَغَةٍ، ويُقالُ للماسِكِ بالشَّيْءِ: اسْتَمْسِكْ، فالسِّينُ والتَّاءُ للتَّأْكيدِ والطلب، كما قالَ تَعالى: ﴿فَٱسۡتَمۡسِكۡ بِٱلَّذِيٓ أُوحِيَ إِلَيۡكَۖ﴾ [الزُّخْرُف: 43]، واسْتُعْمِلَ في القُرْآنِ الكَريمِ للاعْتِصامِ بالشَّيْءِ، فالمُسْتَمْسِكُ مُلْتَبِسٌ به، يَطْلُبُ مِن نَفْسِه الزِّيادَةَ فيه، والثَّباتَ عَلَيْه[1]، فهُوَ تَأْكيدٌ لِمَعْنى المَسْكِ والمُحافَظَةِ عَلى الشَّيْءِ.

7) ﴿بِٱلۡعُرۡوَةِ﴾: العُرْوَةُ: الشَّيْءُ الَّذي يُتَعَلَّقُ بهِ ويُتَمَسَّكُ به بقَصْدِ النَّجاةِ، يُجْعَلُ كالحَلْقَةِ في طَرَفِ شَيْءٍ ليُقْبَضَ عَلى الشَّيْءِ مِنْهُ، وهِيَ مَوْضِعُ شَدِّ الأَيْدي، ولذَلِكَ هِيَ أَوْثَقُ العَلائِقِ وآكَدُها، وهِيَ مَأْخوذَةٌ مِنْ عُرْوَةِ الكَلَأِ، وهُوَ النَّباتُ الَّذي لَهُ أَصْلٌ ثابِتٌ في الأَرْضِ كالشِّيحِ، فإذا كانَتِ السَّنَةُ قَليلَةَ المَطَرِ، رَعَتْها الماشِيَةُ وعاشَتْ بِها، ثُمَّ ضُرِبَتْ مَثَلاً لِكُلِّ ما يُعْتَصَمُ بهِ، ويُلْجَأُ إِلَيْه[2].

8) ﴿ٱلۡوُثۡقَىٰ﴾: هِيَ الأَمرُ المُحْكَمُ المَوْثوقُ بهِ في الضَّروريّاتِ، وهِيَ تَأْنيثُ الأَوْثَقِ، مَأْخوذٌ مِنْ قَوْلِهِمْ: أَرْضٌ وَثيقَةٌ، أَيْ: كَثيرَةُ العُشْبِ مَوْثوقٌ بها، والمَوْثِقُ مِنَ الشَّجَرِ هُوَ الَّذي يُعَوِّلُ النَّاسُ عَلَيْهِ إذا انْقَطَعَ الكَلَأُ والشَّجَرُ[3]، فالوُثْقَى هِيَ الأَكْثَرُ وثاقَةً مِنْ غَيْرِها في بابِ كَوْنِها صِفَةً لِلْعُرْوَةِ.

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

نفي الإجبار على الدخول في دين الإسلام؛ إذ التدين إذعانٌ قلبيٌّ

لكمال هذا الدين واتضاح آياته لا يُحتاج إلى الإكراه عليه، فالآيَةُ الكَريمَةُ تَنْهى عَنْ إِكْراهِ النَّاسِ على الدُّخولِ في دينِ الإسلام، قَسْرًا وجَبْرًا، بِأَيِّ صورَةٍ كانَتْ؛ لأَنَّ طَريقَ الرُّشْدِ قَدْ تَبَيَّنَ وتَمَيَّزَ مِنَ الغَيِّ، ولَمْ يَعُدِ الأَمْرُ مُلْتَبِسًا عَلى أَحَدٍ، ليَتَذَرَّعَ بالجَهْلِ وضَعْفِ البَصيرَةِ، وتَفَرَّعَ عَلى ذَلِكَ وُجوبُ الكُفْرِ بكُلِّ مَعْبودٍ مِنْ دونِ اللَّهِ تَعالى، والإيمانِ باللَّهِ وَحْدَهُ، ووَصَفَتْ حالَ مَنْ يُحَقِّقُ الكُفْرَ بالطَّاغوتِ والإيمانَ باللَّهِ،

(1) الراغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (مسك)، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/251، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/29.

(2) الهروي، الغريبين، والراغب، المفردات: (عرو)، والسمين، الدر المصون: 2/548، وحنفي، غريب القرآن، ص: 223، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/29.

(3) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، والراغب، المفردات، والزبيدي، تاج العروس: (وثق).

بأَنَّهُ مُسْتَمْسِكٌ بعُرْوَةِ الإِسْلامِ الوُثْقى، وقِلادَةِ الإيمانِ العُظْمى، الَّتي لا تَكْسِرُها المَطاعِنُ ولا الشُّبُهاتُ ولا الشَّهواتُ، فَضْلًا عن التّفريط في صاحِبِها، بأَنْ تَتْرُكَهُ حائِرًا تائِهًا، واللَّهُ سَميعٌ لدُعاءِ المُسْتَجيبينَ، عَليمٌ بنِيّاتِهِمْ وقُلوبِهِمْ، فلا يَخْفى عَلَيْهِ إيمانُ المُؤْمِنِ، مِنِ ادِّعاءِ المُنافِقِ.

الإيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

بَراعَةُ الِاسْتِهْلالِ بالنَّفْي :

بَدَأَت الآيَةُ بالنَّفْي بلا النَّافِيَةِ للجِنْسِ: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾؛ ليَشْمَلَ جَميعَ أَنْواعِ الإِكْراهِ وأَشْكالِه؛ المادِّيّةِ، والمَعْنَوِيّةِ، والنَّفْسِيّةِ، والأُسَرِيّةِ، والاجْتِماعِيّةِ، فهِيَ إِنْشاءٌ لبَنْدٍ مِنْ بُنودِ حُقوقِ الإِنْسانِ، في أَلَّا يُمارَسَ عَلى أَحَدٍ أَيُّ إِكْراهٍ ليُغَيِّرَ ما يَرْتَضيه لنَفْسِه دينًا، "ونَفْيُ الإِكْراهِ خَبَرٌ في مَعْنى النَّهْيِ، والمُرادُ نَفْيُ أَسْبابِ الإِكْراهِ في حُكْمِ الإِسْلامِ، أَيْ: لا تُكْرِهوا أَحَدًا عَلى اتِّباعِ الإِسْلامِ قَسْرًا، وجيءَ بنَفْيِ الجِنْسِ لقَصْدِ العُمومِ نَصًّا"[1].

إيثار النفي بـ (لا) النَّافِيَةِ للجِنْسِ مَنْعٌ لجَميعِ أَنْواعِ الإِكْراهِ

قصديّة اخْتِيارِ كَلِمَةِ الإِكْراهِ لفظًا، وصيغةً:

والإِكْراهُ: خِلافُ الرِّضا والمَحَبَّةِ، ويُقالُ في حَمْلِ الإِنْسانِ عَلى ما يَكْرَهُهُ[2]، قَسْرًا وجَبْرًا، فهُوَ مُراعًى فيه الجانِبُ النَّفْسيُّ، واسْتُعْمِلَ لَفْظُ الإِكْراهِ؛ لأَنَّ الإِنْسانَ قَدْ يَقومُ بما أُكْرِهَ عَلَيْهِ ظاهِرًا، وفي الباطِنِ غَيْرُ راضٍ، كما قالَ تَعالى: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ﴾ [النحل: 106] واللَّهُ لا يَرْضى إِلَّا الدِّينَ الخالِصَ. والمجيء به على صيغة المصدر مجرّدًا من الزّمن دليلُ استغراقه كلّ أنواع الإكراه، وشموله كلّ وجوهه، واحتمالاته؛ لأنّ المصدر أقوى في الدلالة على الحدث من الاسم والفعل.

في اختيار لفظ الإكراه مُراعاةٌ للجانِبِ النَّفْسيّ، ودَفْعٌ لمَظِنَّةِ إِكْراهِ النَّاسِ عَلى الخَيْرِ، ومصدريّته دليل عمومه

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/25.

(2) ابن فارس، المقاييس، والراغب، المفردات: (كره).

معنى حرف الجرّ ﴿فِي﴾:

الظرفية إيذانٌ بالتغلغل في جميعِ مَعاني الدِّينِ العَقَدِيَّةِ

وأَفادَ حَرْفُ الظَّرْفِيَّةِ (في) التَّغَلْغُلَ في جَميعِ مَعاني الدِّينِ العَقَدِيَّةِ، مِمَّا يَراهُ أَهْلُ الحَقِّ خَيْرًا؛ لأَنَّهُ خِلافُ المَقْصودِ.

نَوْعُ اللّامِ في كَلِمَةِ ﴿ٱلدِّينِ﴾:

دلالة أل في (الدين) اسْتِحْضارٌ لِلْمَعْهودِ الذِّهْنِيِّ (الاسلام)، والتَّقْديرِ الذِّهْنِيِّ (دين الله)

اخْتَلَفَ المُفَسِّرونَ في نَوْعِ اللّامِ في كَلِمَةِ ﴿ٱلدِّينِ﴾ عَلى قَوْلَيْنِ: القَوْلُ الأَوَّلُ: العَهْدُ الذِّهْنِيُّ، وهُوَ الَّذي يَتَبادَرُ إلى الأَذْهانِ عِنْدَ الإِطْلاقِ، وهُوَ دينُ الإِسْلامِ. والقَوْلُ الثّاني: بَدَلٌ مِنَ الإِضافَةِ، أَيْ: بَدَلٌ مِنَ المُضافِ إِلَيْهِ المَحْذوفِ، والمُرادُ: في دينِ اللّٰهِ[1]. والمَعْنَيانِ مُتَقارِبانِ، فالإِسْلامُ هُوَ المَعْهودُ الذِّهْنِيُّ، وهُوَ يَحْتاجُ إلى اسْتِحْضارِ المَعْنى، وَلِكَوْنِهَا بَدَلًا مِنَ الإِضافَةِ تَحْتاجُ إلى اسْتِحْضارِ التَّقْديرِ الذِّهْنِيِّ، وهُوَ: دينُ اللّٰهِ؛ فكِلا المَعْنَيَيْنِ مُتَقارِبٌ.

سرُّ إيثار لفظ ﴿ٱلدِّينِ﴾ على لفظ (الإسلام):

إِقامَةُ قانونٍ دَوْلِيٍّ، وعُرْفٍ إِنْسانِيٍّ، في رَفْضِ أَيِّ مُمارَسَةٍ لإِكْراهِ النّاسِ عَلى أَيِّ دينٍ كانَ

آثَرَتِ الآيَةُ كَلِمَةَ ﴿ٱلدِّينِ﴾ دونَ كَلِمَةِ (الإِسْلام)، مَعَ أَنَّها أَوْضَحُ عِبارَةً؛ إِشارَةً إلى تَعْليمِ النّاسِ جَميعًا أَنَّ الدِّينَ لا إِكْراهَ فيهِ، فالمُرادُ دينُ الإِسْلامِ صَراحَةً، وجَميعُ الأَدْيانِ إِشارَةً، تَعْريضًا بِمَنْ يُكْرِهُ النّاسَ عَلى دينِهِ مِنْ أَرْبابِ الأَدْيانِ والنِّحَلِ والمِلَلِ الأُخَرِ، فَرِسالَةُ هَذِهِ الكَلِمَةِ البَليغَةِ هِيَ إِقامَةُ قانونٍ دَوْلِيٍّ، وعُرْفٍ إِنْسانِيٍّ عادِلٍ، يَرْفُضُ أَيَّ مُمارَسَةٍ في إِكْراهِ النّاسِ عَلى أَيِّ دينٍ كانَ، وهَذا مِنْ بَراعَةِ الكَلِمَةِ القُرْآنِيَّةِ، وبَلاغَتِها الكَوْنِيَّةِ في التَّواصُلِ الإيجابِيِّ مَعَ الأُمَمِ الأُخْرَى.

بلاغة التَّوكيد والتَّعليل في جملة تبيّن الرّشد:

أَفادَ حَرْفُ قَدْ في قوله تعالى: ﴿قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّ﴾ التَّحْقيقَ المُؤَكِّدَ لِزِيادَةِ تَقْريرِ مَضْمونِهِ[2]، وأُشْرِبَتِ الجُمْلَةُ مَعْنَى التَّعْليلِ،

(1) الرازي، مفاتيح الغيب: 7/15، والسمين، الدر المصون: 2/547.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/249.

كَأَنَّهُ قيلَ: لا إكْراهَ في الدِّينِ؛ لأَنَّهُ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِن الغَيِّ تَبَيُّنًا بَيِّنًا، فالجُمْلَةُ "لا مَحَلَّ لَها مِنَ الإعْرابِ؛ لأَنَّها اسْتِئْنافُ جارٍ مَجْرى التَّعْليلِ لِعَدَمِ الإكْراهِ في الدِّينِ"[1].

أفادَ حرفُ قد زيادةَ تَقْريرِ مَضْمونِ الجملةِ، وأُشْرِبَتِ الجُمْلَةُ مَعْنَى التَّعْليلِ

دِقَّةُ اسْتِعمالِ كَلِمَةِ ﴿تَّبَيَّنَ﴾ في مَعْنَيَيْنِ مُتَقابِلَيْنِ:

واسْتُعْمِلَ التَّبَيُّنُ في إبْرازِ مَعْنَيَيْنِ، وهُما: الرُّشْدُ والغَيُّ، واللُّغَوِيُّونَ والمُفَسِّرونَ يُفَسِّرونَ أَحَدَهُما بجَعْلِهِ خِلافَ الآخَرِ، وهَذا مِنْ دَقيقِ المُقابَلَةِ في اللُّغَةِ والاسْتِعْمالِ القُرْآنِيِّ؛ فالرُّشْدُ يَدُلُّ عَلى السَّدادِ في الطَّريقِ إلى حينِ الوُصولِ إلى الهَدَفِ، والغَيُّ ضَلالٌ ناشِئٌ عَنْ جَهْلٍ بالطَّريقِ المَسْلوكِ حَتَّى يَقَعَ سالِكُهُ فَريسَةً للشَّيْطانِ، ومِنْ هُنا كانَ اسْتِعْمالُ كَلِمَةِ ﴿تَّبَيَّنَ﴾ في غايَةِ الوُضوحِ والانْكِشافِ؛ لأَنَّها مايَزَتْ بَيْنَ رَجُلَيْنِ يَسْلُكانِ طَريقَيْنِ مُتَضادَّيْنِ مُتَباعِدَيْنِ، أَحَدُهُما رُشْدٌ، والآخَرُ غَيٌّ، الأَوَّلُ يَصِلُ، والثَّاني يَنْقَطِعُ، "فكانَ المُرادُ أَنَّهُ حَصَلَتِ البَيْنونَةُ بَيْنَ الرُّشْدِ والغَيِّ بسَبَبِ قُوَّةِ الدَّلائِلِ وتَأْكيدِ البَراهينِ، وعَلى هَذا كانَ اللَّفْظُ مُجْرًى عَلى ظاهِرِهِ"[2]، أَيْ: ظاهِرِ الاسْتِعْمالِ اللُّغَوِيِّ.

التَّقابُلُ المَعْنَوِيُّ بَيْنَ الوُصولِ والانْقِطاعِ، والعِلْمِ والجَهْلِ، والاسْتِنارَةِ والظَّلامِ

بلاغةُ الاسْتِعارَةِ التَّمْثيلِيَّةِ البَديعَةِ:

في قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّۚ﴾ اسْتِعارَةٌ تَمْثيلِيَّةٌ بَديعَةٌ، فكَأَنَّ الرُّشْدَ رَجُلٌ تَخَلَّصَ مِنَ الغَيِّ، وانْفَصَلَ عَنْهُ انْفِصالاً تامًّا، بَعْدَ طولِ مُعاناةٍ ومُجاهَدَةٍ، بدَلالَةِ حَرْفِ ﴿مِنَ﴾ الدَّالِّ عَلى "الفَصْلِ والتَّمْييزِ"[3]، ويُشْعِرُ لَفْظُ التَّبَيُّنِ بتَزَحْزُحِ شَيْءٍ عَنْ آخَرَ بصُعوبَةٍ بالِغَةٍ، حَتَّى يَنْفَرِدَ كُلٌّ مِنْهُما عَنِ الآخَرِ بانْكِشافٍ ووُضوحٍ، ولذَلِكَ "ضُمِّنَ مَعْنَى تَمَيَّزَ؛ فلِذَلِكَ عُدِّيَ بمِنْ"[4]. وإسْنادُ التَّبَيُّنِ إلى

بيانُ الاسْتِعارَةِ تَشْبيهُ الرُّشْدِ بِرَجُلٍ يَعْمَلُ عَلى التَّخَلُّصِ مِنَ الباطِلِ، والانْفِصالِ عَنْهُ

(1) السمين، الدر المصون: 2/547.
(2) الرازي، مفاتيح الغيب: 7/16.
(3) السمين، الدر المصون: 2/547.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/25.

الرُّشْدِ إِسْنادٌ مَجازِيٌّ، لبَيانِ قيمَةٍ عَقَدِيّةٍ، وهِيَ أَنَّ أَهْلَ الحَقِّ هُمْ مَنْ يَسْعى إلى التَّمَيُّزِ والانْفِصالِ عَنْ أَهْلِ الغَيِّ، وبذَلِكَ اسْتَحَقُّوا الذِّكْرَ في قَوْلِهِ تَعالى: ﴿فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ﴾، مَعَ إِغْفالِ ذِكْرِ الغافِلينَ السَّاقِطينَ في مُغَوَّاةِ باطِلِهِمْ، وهَذا مِنَ المَدْحِ البَليغِ للمُسْتَمْسِكينَ بالعُرْوَةِ الوُثْقى.

سَبَبُ التَّعْبيرِ بالطَّاغوتِ:

اسْتُعْمِلَتْ كَلِمَةُ (الطاغوت) في قَوْلِهِ تَعالى: ﴿فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ﴾ دونَ غَيْرِها لما تَحْويهِ مِنَ العُمومِ والتَّعْليلِ، أَمَّا العُمومُ فهُوَ اشْتِمالُها عَلى جَميعِ ما يُعْبَدُ مِنْ دونِ اللَّهِ تَعالى، وأَمَّا التَّعْليلُ، فلِتَضَمُّنِها مَعْنى تَجاوُزِ الحَدِّ، وهَذا مِنْ بَلاغَةِ إِيصالِ المَعْنى المُرادِ، بالأَلْفاظِ الجامِعَةِ.

اسْتُعْمِلَتْ هَذِهِ الكَلِمَةُ لما تَحْويهِ مِنَ العُمومِ والتَّعْليلِ، فهِيَ مِنَ الأَلْفاظِ الجامِعَةِ

علّة التَّعْبير بالفِعْلِ المُضارِعِ:

تَفَرَّعَتْ جُمْلَةُ ﴿فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ﴾ عَنِ السَّابِقَةِ، بَيانًا لِحالِ المُتَبَيِّنِ المُنْفَصِلِ مِنَ الغَيِّ، وهَذا يُرَشِّحُ الاسْتِعارَةَ، وأَتَتْ بالفِعْلِ المُضارِعِ دونَ الماضي في ﴿يَكۡفُرۡ﴾ و﴿وَيُؤۡمِنۢ﴾، مَعَ مُناسَبَتِهِما لـ ﴿تَّبَيَّنَ﴾ و﴿ٱسۡتَمۡسَكَ﴾ سِباقًا ولَحاقًا؛ لدَلالَتِهِ عَلى وُجوبِ الحَذَرِ المُتَجَدِّدِ، فالرَّاشِدُ يَمْضي في طَريقِهِ مُجَدِّدًا الكُفْرَ بالطَّاغوتِ، والإيمانَ باللَّهِ، وأَنَّ الاسْتِمْساكَ بَعْدَ التَّبَيُّنِ مَنوطٌ بِذَيْنِكَ الأَمْرَيْنِ مَعًا، "وعُطِفَ ﴿وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ﴾ عَلى الشَّرْطِ؛ لأَنَّ نَبْذَ عِبادَةِ الأَصْنامِ لا مَزِيَّةَ فيهِ؛ إِنْ لَمْ يَكُنْ عَوَّضَها بعِبادَةِ اللَّهِ تَعالى"[1].

بَيانُ وُجوبِ الحَذَرِ المُتَجَدِّدِ مِنَ الكُفْرِ، وتَجْديدِ الإيمانِ

بلاغة تَقْديم لَفْظِ الكُفْرِ عَلى الإيمانِ:

قُدِّمَ ذِكْرُ الكُفْرِ عَلى الإيمانِ في قوله: ﴿فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ﴾؛ لأَنَّ الكُفْرَ بالطَّاغوتِ هُوَ أَوَّلُ أَعْمالِ التَّبَيُّنِ مِنَ الغَيِّ؛ فالتَّخْلِيَةُ قَبْلَ التَّحْلِيَةِ، "واهْتِمامًا بوجوبِ الكُفْرِ بالطَّاغوتِ، وناسَبَه

الكُفْرُ بالطَّاغوتِ هُوَ أَوَّلُ أَعْمالِ المُتَبَيِّنِ، وللعناية بِهِ، والإِشارَةِ إِلى التَّرْتيبِ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/29.

اتِّصالُهُ بلَفْظِ الغَيِّ"[1]، "وفيهِ إشارَةٌ إلى أَنَّهُ لا بُدَّ للكافِرِ مِنْ أَنْ يَتوبَ أَوَّلًا عَنِ الكُفْرِ، ثُمَّ يُؤْمِنَ بَعْدَ ذَلِكَ"[2]؛ إذ لا يستقيم الإيمانُ إلا بعد نزع كلّ العقائد الباطلة.

بَراعَةُ اخْتِيارِ أَلْفاظِ (الاسْتِمْساكِ، والعُرْوَةِ، والوُثْقى):

اخْتارَ النَّظْمُ الكَريمُ في قوله: ﴿فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾ ثَلاثَةَ أَلْفاظٍ عَريقَةٍ؛ لتَصْويرِ هَيْئَةِ المُسْتَمْسِكِ بالإِسْلامِ.

اخْتِيارُ أَلْفاظِ (الاسْتِمْساكِ والعُرْوَةِ والوُثْقى)، يُصَوِّرُ دِقَّةَ النَّظْمِ في تَجْلِيَةِ صورَةِ المُسْتَمْسِكِ

وفَهْمُ الاسْتِعارَةِ التَّمْثيلِيّةِ بجَلاءٍ، مُتَوَقِّفٌ عَلى تَحْقيقِ هَذِهِ الأَلْفاظِ برَواءٍ، فهِيَ مادَّةُ الصُّورَةِ البَيانِيَّةِ، ومَضْمونُ الاسْتِعارَةِ التَّمْثيلِيَّةِ، وسَبيلُ الهَيْئَةِ الكُلِّيَّةِ.

فأَمَّا الاسْتِمْساكُ: فهُوَ التَّعَلُّقُ بالشَّيْءِ بشِدَّةٍ والتِصاقٍ وتَحَرٍّ ومُبالَغَةٍ، فهُوَ تَأْكيدٌ لمَعْنى المَسْكِ والمُحافَظَةِ عَلى الشَّيْءِ، لا إِنْشاءٌ لَهُ، وهُنَا التَّأْكيدُ أَبْلَغُ مِنَ التَّأْسيسِ، والتَّعْبيرُ بالاسْتِمْساكِ يوحي بمَكانَةِ المُسْتَمْسَكِ بهِ البالِغَةِ، وأَنَّهُ لا تَصِحُّ الاسْتِهانَةُ بهِ بحالٍ، "ويَدُلُّ عَلى أَنَّ مَنْ لَمْ يَكْفُرْ بجَميعِ مَناشِئِ الطُّغْيانِ، ويَعْتَصِمْ بالحَقِّ اليَقينِ مِنْ أُصولِ الإيمانِ، فهُوَ لا يعدُّ مُسْتَمْسِكًا بالعُرْوَةِ الوُثْقى"[3].

والعُرْوَةُ: الشَّيْءُ الَّذي يُتَعَلَّقُ بهِ ويُتَمَسَّكُ بهِ بقَصْدِ النَّجاةِ، والوُثْقى: هِيَ الأَمْرُ المُحْكَمُ المَوْثوقُ بهِ في الضَّروريَّاتِ؛ فالوُثْقى هِيَ الأَكْثَرُ وَثاقَةً مِنْ غَيْرِها في بابِ كَوْنِها صِفَةً لِلْعُرْوَةِ.

بَلاغَةُ الاسْتِعارَةِ التَّمْثيلِيَّةِ:

في قَوْلِهِ تَعالى: ﴿فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا﴾ اسْتِعارَةٌ تَرْكيبيَّةٌ تَمْثيلِيَّةٌ، تُصَوِّرُ مَنْ كَفَرَ بالطَّاغوتِ وآمَنَ باللَّهِ تَعالى، تَصْويرًا حِسِّيًّا حَيْثُ إِنَّ "الاسْتِمْساكَ بالعُرْوَةِ الوُثْقى تَمْثيلِيٌّ،

تَصْويرُ المَعْنى للقارِئِ، كأَنَّهُ يَنْظُرُ إِلَيْهِ، فَيُنْقَشُ مَعْناهُ في قَلْبِهِ

(1) السمين، الدر المصون: 2/548، ويُنظر: ابن عطية، المحرر الوجيز: 1/344.
(2) الرازي، مفاتيح الغيب: 7/16.
(3) رضا، تفسير المنار: 3/32.

شُبِّهَتْ هَيْئَةُ المُؤْمِنِ في ثَباتِهِ عَلى الإيمانِ بِهَيْئَةِ مَنْ أَمْسَكَ بِعُرْوَةٍ وُثْقى مِنْ حَبْلٍ، وهُوَ راكِبٌ عَلى صَعْبٍ أَوْ في سَفينَةٍ في هَوْلِ البَحْرِ، وهِيَ هَيْئَةٌ مَعْقولَةٌ شُبِّهَتْ بِهَيْئَةٍ مَحْسوسَةٍ؛ فالمَعْنى أَنَّ المُؤْمِنَ ثابِتُ اليَقينِ، سالِمٌ مِنِ اضْطِرابِ القَلْبِ في الدُّنْيا، وهُوَ ناجٍ مِنْ مَهاوي السُّقوطِ في الآخِرَةِ؛ كحالِ مَنْ تَمَسَّكَ بِعُرْوَةِ حَبْلٍ مَتينٍ لا يَنْفَصِمُ"[1].

فهُوَ "تَمْثيلٌ للمَعْلومِ بالنَّظَرِ، والاسْتِدْلالِ بالمُشاهَدِ المَحْسوسِ، حَتَّى يَتَصَوَّرَهُ السَّامِعُ كأَنَّهُ يَنْظُرُ إِلَيْهِ بِعَيْنِهِ، فيُحْكِمَ اعْتِقادَهُ والتَّيَقُّنَ بِهِ"[2].

وقَدْ جاءَتْ هَذِهِ الجُمْلَةُ ﴿فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾ في مَوْضِعَيْنِ في القُرْآنِ الكَريمِ، هُنا وفي [لُقمان: 22]، فَشابَهَتْ أَنْ تَكونَ تَرْكيبًا مَقْصودًا، والجُمْلَةُ اسْتِعارَةٌ تَمْثيلِيَّةٌ في المَوْضِعَيْنِ، للمُسْتَمْسِكِ بالإِسْلامِ والإيمانِ، وسِياقُ الآيَتَيْنِ - لاسِيَما اللَّحاقُ في المَوْضِعَيْنِ - حَديثٌ عَنْ حالِ النَّاسِ بَيْنَ مُؤْمِنٍ وكافِرٍ، فكانَ لِكُلٍّ اسْتِعْمالٍ بَلاغَتُهُ البَديعَةُ، وحُسْنُهُ الذَّائِعُ، وسورَةُ البَقَرَةِ وسورَةُ لُقْمانَ مِنَ السُّوَرِ الَّتي بَيْنَها تَشابُهٌ مِنْ حَيْثِيَّاتٍ كَثيرَةٍ، هَذِهِ إِحْداها، وإِنْ صَحَّ وَصْفُ سورَةِ لُقْمانَ بالبَقَرَةِ الصُّغْرى، فهُوَ وَصْفٌ لَيْسَ بمَعْزِلٍ عَنِ التَّقْريبِ.

نكتة استعمال (اللام) دون (في):

اسْتِعْمالُ (اللَّامِ) دونَ (في) يُشيرُ إلى نَفْيِ الِانْفِصامِ بسَبَبٍ داخِلِيٍّ أَوْ خارِجِيٍّ

مُقْتَضى الظَّاهِرِ أَنْ يَقولَ: لا انْفِصامَ فيها، أَي: العُرْوَة، لَكِنَّ النَّظْمَ جاءَ باللَّامِ، وبَيانُ ذَلِكَ أَنَّ سَبَبَ الانْفِصامِ قَدْ يَكونُ داخِلِيًّا أَوْ خارِجِيًّا، فدَلَّ حَرْفُ الظَّرْفِيَّةِ عَلى نَفْيِ قابِلِيَّتِها الذَّاتِيَّةِ لِلانْفِصامِ، وأَمَّا اللَّامُ فدَلَّ عَلى نَفْيِ تَعَرُّضِها لأَمْرٍ خارِجِيٍّ فتَنْفَصِمُ بسَبَبِهِ، فلَزِمَ عَنْ ذِكْرِ اللَّامِ نَفْيُ الِانْفِصامِ؛ بسَبَبٍ خارِجِيٍّ أَصالَةً، وداخِلِيٍّ تَبَعًا؛ لأَنَّ الَّذي يَصْمُدُ أَمامَ أَسْبابِ الِانْفِصامِ الخارِجِيَّةِ مَتينٌ في ذاتِهِ، وهُوَ ما يُفَسِّرُ لنا سَبَبَ صُمودِ القُرْآنِ أَمامَ هَجَماتِ المَطاعِنِ والشُّبُهاتِ عَلى مَدى التَّاريخِ الإِسْلامِيِّ، وفي اللَّفْظِ عِدَةٌ مِنَ اللَّهِ تَعالى، لِمَنْ يَسْتَمْسِكُ بالقُرْآنِ أَنْ لا خَلَلَ يَقْرَبُهُ، ولا شَكَّ يَعْتَريهِ.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/29، ويُنظر: ابن عطية، المحرر الوجيز: 1/344، والرازي، مفاتيح الغيب: 7/16، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/250، والآلوسي، روح المعاني: 2/15، ورشيد رضا، تفسير المنار: 3/32.

(2) الزمخشري، الكشاف: 1/304.

بَلاغَةُ التعبير بـ (السَّميع العَليم) في الفاصِلَةِ:

انْتِقاءُ (السَّميعِ العَليمِ) لبَيانِ اسْتِجابَةِ الدُّعاءِ، وقَبولِ المُعْتَقَدِ، تَرْغيبًا وتَرْهيبًا

خُتِمَتِ الآيَةُ باسْمَيِ اللَّهِ تَعالى السَّميعِ العَليمِ، وقَدْ جاءا مُنَكَّرَيْنِ إخْبارًا عَنْ صِفاتِ اللَّهِ تَعالى، فتَنْكيرُ ﴿سَمِيعٌ﴾ مِنْ شَأْنِهِ لَفْتُ الأَنْظارِ إلى الاسْتِجابَةِ لِمَنْ يَدْعو اللَّهَ أَنْ يُثَبِّتَهُ بالاسْتِمْساكِ بالعُرْوَةِ الوُثْقى، وتَنْكيرُ ﴿عَلِيمٌ﴾ مِنْ شَأْنِهِ التَّنْبيهُ عَلى عِلْمِهِ سُبْحانَهُ بما في الضَّمائِرِ والقُلوبِ، وهُوَ ما يَتَناسَبُ مَعَ النَّهْيِ عَنِ الإكْراهِ في الدِّينِ؛ لأَنَّ اللَّهَ يُريدُ قَلْبًا مُقْبِلاً لا مُكْرَهًا، "ولَمَّا كانَ الكُفْرُ بالطَّاغوتِ والإيمانُ باللَّهِ مِمَّا يَنْطِقُ بِهِ اللِّسانُ ويَعْتَقِدُهُ القَلْبُ؛ حَسُنَ في الصِّفاتِ ﴿سَمِيعٌ﴾ مِنْ أَجْلِ النُّطْقِ، و﴿عَلِيمٌ﴾ مِنْ أَجْلِ المُعْتَقَدِ"[1].

والفاصِلَةُ فيها تَرْغيبٌ بالإيمانِ تُنْبِئُ عَنْهُ صِفَةُ ﴿سَمِيعٌ﴾، وتَرْهيبٌ ضِمْنِيٌّ تُنْبِئُ عَنْهُ صِفَةُ ﴿عَلِيمٌ﴾، "فالجُمْلَةُ اعْتِراضٌ تَذْييلِيٌّ حامِلٌ عَلى الإيمانِ، رادِعٌ عَنِ الكُفْرِ والنِّفاقِ، بما فيهِ مِنَ الوَعْدِ والوَعيدِ"[2].

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الفَصْم والقَصْم:

الفَصْمُ كَسْرٌ جُزْئِيٌّ دونَ إبانَةٍ، فدَلَّ عَلى مَعْنى القَصْمِ تَبَعًا

الفَصْمُ هُوَ أَنْ يَنْصَدِعَ الشَّيْءُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَبينَ، بخِلافِ القَصْمِ فهُوَ أَنْ يَنْكَسِرَ الشَّيْءُ فيَبينَ[3]، فهُوَ كَسْرٌ يَنْشَأُ عَنْهُ انْقِطاعٌ جُزْئِيٌّ لا كُلِّيٌّ، ولذَلِكَ "قيلَ للسُّيوفِ إذا كانَ بها فُلولٌ: بها فَصْمٌ"[4]، وفُسِّرَ الانْفِصامُ بالانْقِطاعِ والانْكِسارِ[5]، بإطْلاقِ العِبارَةِ، لَكِنَّهُ لَيْسَ دَقيقًا، فهُوَ أَخَصُّ مِنَ الكَسْرِ والقَطْعِ، فالتَّعْبيرُ بالْفَصْمِ في قوله ﴿لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ﴾ يَدُلُّ عَلى أَنَّ العُرْوَةَ لا يَحْصُلُ لَها قَطْعٌ أَوْ كَسْرٌ

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 1/344.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/250، ويُنظر: رضا، تفسير المنار: 3/33.
(3) الخليل، العين، وأبو عبيد، غريب الحديث، والهروي، الغريبين: (فصم).
(4) العسكري، تصحيفات المحدثين: 1/258.
(5) ابن قتيبة، تفسير غريب القرآن، ص: 93، والسجستاني، نزهة القلوب، ص: 101.

جُزْئِيٌّ، فالكُلِّيُّ مَنْفِيٌّ بالأَوْلى، ولَوْ قالَ: لا انْفِصامَ لَها، لما تَعَيَّنَ هَذا الفَرْقُ، "والمَقْصودُ مِنْ هَذا اللَّفْظِ المُبالَغَةُ، لأَنَّهُ إذا لَمْ يَكُنْ لَها انْفِصامٌ، فأَنْ لا يَكونَ لها انْقِطاعٌ أَوْلى"[1]، ولِمَا في التَّعْبيرِ بالانْفِصامِ مِنِ انْسِجامِ صَوْتِيٍّ لا يَخْفَى، ولَوْ جاءَتْ بالقافِ لَوَقَعَ قَصْمٌ صَوْتِيٌّ في الأُذُنِ. ومِنْ هُنا تَظْهَرُ دِقَّةُ التَّعْبيرِ، فالفَصْمُ هُوَ كَسْرٌ جُزْئِيٌّ يَنْشَأُ عَنِ انْصِداعٍ دونَ إبانَةٍ.

(1) الرازي، مفاتيح الغيب: 7/16.

﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخۡرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِۗ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٢٥٧﴾ [البقرة: 257]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

قامَتِ الآيةُ مَقامَ التَّعْليلِ والبَيانِ للآيَةِ السَّابِقَةِ، فنُزِّلَتْ مَنْزِلَةَ الجَوابِ عَنْ سُؤالِ سائِلٍ: لماذا الكُفْرُ بالطَّاغوتِ والإيمانُ باللّهِ اسْتِمْساكٌ بالعُرْوَةِ الوُثْقى؟ فكان الجَوابُ: لأَنَّ اللّهَ وَلِيُّ المُؤْمِنينَ، فهُوَ يُخْرِجُهُم مِنَ الظُّلُماتِ إلى النُّورِ، فاسْتِمْساكُ المُؤْمِنينَ بالعُرْوَةِ الوُثْقَى التي هِيَ طَريقُ النّجاةِ دَعْوى، ودَليلُها تَوَلِّي اللّهِ لهُمْ، فما كان لاسْتِمْساكٍ أَنْ يَدومَ إلا بِوِلايَةِ اللّهِ تَعالى[1].

مُناسَبَةُ الآيَةِ للآيَتَيْنِ اللَّاحِقَتَيْنِ:

مِهادٌ وتَوْطِئَةٌ عَنْ طَريقِ فَنِّ اللَّفِّ والنَّشْرِ التَّمْثيلِيِّ

مَقامُ الآيَةِ مَعَ الآيَتَيْنِ اللاحِقَتَيْنِ مَقامُ اللَّفِّ والنَّشْرِ[2] غَيْرِ المُرَتَّبِ جاءَ عَلى طَريقَةِ التَّفْصيلِ، فقَوْلُهُ تَعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ﴾ نَشَرَهُ: ﴿أَوۡ كَٱلَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرۡيَةٖ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾، وقَوْلُهُ: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخۡرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِۗ﴾ نَشَرَهُ: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِي حَآجَّ إِبۡرَٰهِـۧمَ فِي رَبِّهِۦٓ﴾ [البقرة: 258]، فجَعَلَ لكُلِّ جُمْلَةٍ مَثَلًا، فمَثَلُ الذينَ يُخْرِجُهُمُ اللّهُ مِنَ الظُّلُماتِ إلى النّورِ، مَنْ أَنْكَرَ البَعْثَ، ثُمَّ آمَنَ فأَقَرَّ بِهِ، ومَثَلُ الَّذينَ يُخْرِجُهُمُ الطّاغوتُ مِنَ النّورِ إلى الظُّلُماتِ، الَّذي حاجَّ إِبْراهيمَ في رَبِّهِ، وهَذا مِنْ بَديعِ مُبْتَكَراتِ بَلاغَةِ القُرْآنِ

(1) ينظر هذا المعنى عند البقاعي، نظم الدرر: 44/4.

(2) قال المبرد: "العرب تلفُّ الخبرين المختلفين، ثم ترمي بتفسيرهما جملةً، ثقةً بأنَّ السّامع يردُّ إلى كلٍّ خبَره"، الكامل في اللغة: 1/107. وقال السكاكي "اللف والنّشر: أن تلفَّ بين شيئين في الذّكر، ثم تُتبعهما كلامًا مشتملًا على متعلّق بواحد وبآخر من غير تعيين، ثقةً بأنَّ السّامع يردُّ كلًا منهما على ما هو له". السكاكي، مفتاح العلوم، ص: 425.

الكَريم، أَنْ دَمَجَ بَيْنَ فَنَّيْنِ؛ اللَّفِ والنَّشْرِ، والتَّمْثيلِ، وجَعَلَ مِنَ التَّمْثيلِ بَيانًا لما تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ، وجاءَ عَلى طَريقَةِ اللَّفِّ والنَّشْرِ غَيْرِ المُرَتَّبِ، ليَبْدَأَ بلَفْظِ الجَلالَةِ، ويَنْتَهِيَ بالإيمانِ بالبَعْثِ، إشْعارًا بمَبْدَأِ الأَمْرِ ومُنْتَهاهُ، وأنَّ ما بَيْنَهُما لا عِبْرَةَ فيهِ[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَلِيُّ﴾: مَصْدَرُهُ الوَلْيُ وهُوَ القُرْبُ، وأَصْلُهُ المَطَرُ الذي يَأْتي بَعْدَ المَطَرِ، يُقالُ: وُلِيَتِ الأَرْضُ وَلْيًا، والاسْمُ: الوَلِيُّ[2]، يُقالُ: "تَباعَدَ بَعْدَ وَلْيٍ، أَيْ: قُرْبٍ، وجَلَسَ مِمَّا يَليني، أَيْ: يُقارِبُني"[3]، و"المُوالاةُ أَنْ يُوالِيَ بَيْنَ رَمْيَتَيْنِ أو فِعْلَيْنِ في الأَشْياءِ كُلِّها . . وتَقولُ: عَلى الوَلاءِ، أَيِ: الشَّيْءُ بَعْدَ الشَّيْءِ"[4].

فمَعْنى الوَلِيِّ: الشَّيْءُ القَريبُ التَّالي دونَ فاصِلٍ مادِّيٍّ أَوْ زَمانيٍّ، فهُوَ لَيْسَ التِصاقًا، وجَميعُ الاسْتِعْمالاتُ تَدورُ حَوْلَ هَذا المَعْنى، يُقالُ: أَوْلى، أَيْ: أَحَقُّ، وذَلِكَ لقُرْبِهِ، سَواءٌ أَكانَ القُرْبُ مَعْنَويًا أَمْ ماديًّا، و"الوَلِيُّ والمَوْلَى يُسْتَعْمَلانِ في تَوَلِّي الأَمْرِ"[5]، ولا يَتَوَلَّى الأَمْرَ إلَّا مَنْ كانَ قَريبًا، مِنْ حَيْثُ الدِّينُ، أو النَّسَبُ، أو الصَّداقَةُ، أَوْ غَيْرُها، ولِذَلِكَ حَسُنَ أَنْ يُطْلَقَ "المَوْلى عَلى: المُنْعِمِ المُعْتِقِ، وعَلى المُنْعَمِ عَلَيْهِ المُعْتَقِ"[6]؛ لقُرْبِ كُلٍّ مِنْهُما مِنَ الآخَرِ.

2) ﴿يُخْرِجُهُم﴾: الإخْراجُ: نَقيضُ الإدْخالِ، وأَصْلُ الكَلِمَةِ مَأْخوذٌ مِنَ البُروزِ مِنَ المَقَرِّ أَوِ الحالِ[7]، فالعَرَبُ تَقولُ: ناقَةٌ مُخْتَرِجَةٌ، أَيْ: خَرَجَتْ عَلى خِلْقَةِ الجَمَلِ، وتُسَمِّي السَّحابَ أَوَّلَ ما يَبْدَأُ: الخَروجَ، والخُراجُ: وَرَمٌ وقُرْحٌ يَخْرُجُ مِنْ ذاتِهِ[8]، ومَعْنى الخُروجِ: الانْتِقالُ مِنْ داخِلٍ إلى خارِجٍ، ومِنْ باطِنٍ إلى ظاهِرٍ، مادِّيًّا أَوْ مَعْنَويًّا، فيَأْتي بمَعْنى الظُّهورِ؛ كقَوْلِهِ تَعالى: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ﴾ [مريم: 11] ويَأْتي بمَعْنى الفِرارِ؛ كقَوْلِهِ تَعالى: ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ ۖ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢١﴾﴾ [القصص: 21]، والإبْرازِ والإظْهارِ؛ كقَوْلِهِ تَعالى: ﴿وَنُخْرِجُ

(1) ينظر نحو هذا التناسب عند ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/3.
(2) الأزهري، تهذيب اللغة: (ولي).
(3) ابن فارس، المقاييس: (ولي).
(4) الخليل، العين: (ولي).
(5) الراغب، المفردات: (ولي).
(6) ابن الأنباري، الأضداد، ص: 46.
(7) الراغب، المفردات: (خرج).
(8) الخليل، العين: (خرج).

لَهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ كِتَٰبٗا يَلۡقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ [الإسراء: 13]، والنُّمُوُّ الظَّاهِر؛ كقَوْلِه تَعالى: ﴿فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡۖ﴾ [البقرة: 22]، والطَّرْد؛ كقَوْلِه تَعالى: ﴿قَالَ فَٱخۡرُجۡ مِنۡهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٞ ﴿٣٤﴾﴾ [الحجر: 34]، والتَّحَوُّل مِنْ حالٍ إلى أُخْرى؛ كقَوْلِه تَعالى: ﴿فَأَخۡرَجَ لَهُمۡ عِجۡلٗا جَسَدٗا لَّهُۥ خُوَارٌ﴾ [طه: 88]، والمُغادَرَة؛ كقَوْلِه تَعالى: ﴿فَٱخۡرُجۡ إِنِّي لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾﴾ [القصص: 20]، والوِلادَة؛ كقَوْلِه تَعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ﴾ [النحل: 78]، فالانْتِقالُ هُوَ المَعْنى الجامِعُ لجَميعِ هَذِهِ الآيات، "والإخْراجُ أَكْثَرُ ما يُقالُ في الأَعْيانِ"[1].

3) ﴿ٱلظُّلُمَٰتِ﴾: الظُّلْمَةُ: جَمْعُها: ظُلُماتٌ، وظُلَمٌ، والاسْمُ الظَّلامُ، وهِيَ: عَدَمُ النُّورِ وذَهابُهُ، أَوْ حَجْبُ ما يَنْبَغي أو ما يُسْتَحَقُّ، أَيْ: مَنْعُهُ أَوِ انْتِقاصُهُ[2]، والظَّلامُ أَصْلُ الظُّلْمِ الذي يُقابِلُ الجَوْرَ، فالظُّلْمُ في حَقيقَتِهِ ظَلامٌ؛ لأَنَّ عَدَمَ إِعْطاءِ الشَّيْءِ حَقَّهُ هُوَ مَحْوٌ لِصِفاتِهِ، فَيُصْبِحُ الشَّيْءُ مُظْلِمًا؛ لأَنَّ نورَ الشَّيْءِ صِفاتُهُ، وبِدونِها فالأَمْرُ مُظْلِمٌ لا نورَ فيهِ، "والعَرَبُ تَقولُ: ظَلَمَ فُلانٌ سِقاءَهُ: إذا سَقاه قَبْلَ أَنْ يُخْرِجَ زَبَدَهُ، ويُقالُ: ظَلَمْتَ الحَوْضَ: إذا عَمِلْتَهُ في مَوْضِعٍ لا تُعْمَلُ فيهِ الحِياضُ، وأَرْضٌ مَظْلومَةٌ إذا لَمْ تُمْطَرْ"[3]، وهَذا كُلُّهُ حَجْبٌ ومَنْعٌ للصِّفاتِ المُسْتَحَقَّةِ.

4) ﴿ٱلنُّورِ﴾: هُوَ الضِّياءُ، والفِعْلُ: نارَ وأَنارَ، أَيْ: أَضاءَ، والنَّوْرُ: زَهْرُ الشَّجَرِ، وتَنْوِيرُ الشَّجَرَةِ: إِزْهارُها، وامْرَأَةٌ نَوارٌ: وهِيَ العَفيفَةُ النّافِرَةُ عَنِ الشَّرِّ والقَبيحِ، والجَميعُ: النُّورُ[4]، فأُطْلِقَ النُّورَ تَشبيهًا عَلى أَمْرٍ حِسِّيٍّ وهُوَ تَنْويرُ الشَّجَرَةِ، ومَعْنَوِيٍّ وهُوَ خُلُقُ المَرْأَةِ النّافِرَةِ عَنِ القَبيحِ، والجامِعُ بَيْنَهُما الأَصْلُ الواضِحُ النَّقِيُّ، وهَذا شَأْنُ النُّورِ، ولِذَلِكَ وَرَدَ في الخَبَرِ أَنَّ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَرَضَ لِلجَدِّ، ثُمَّ أَنارَها، أَيْ: وضَّحَها وبَيَّنَها[5].

والنُّورُ هُوَ: الضَّوْءُ المُنْتَشِرُ الَّذي يُعينُ عَلى الإِبْصارِ، وذَلِكَ ضَرْبانِ: ضَرْبٌ مَعْقولٌ بِعَيْنِ البَصيرَةِ، وهُوَ ما انْتَشَرَ مِنَ الأُمورِ الإِلَهِيَّةِ كنورِ القُرْآنِ، ومَحْسوسٌ بِعَيْنِ البَصَرِ[6].

(1) الراغب، المفردات: (خرج).
(2) الأزهري، تهذيب اللغة، والراغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (ظلم).
(3) الأزهري، تهذيب اللغة: (ظلم).
(4) الخليل، العين: (نور).
(5) الهروي، الغريبين: (نور)، وابن الأثير، النهاية: 5/125.
(6) الراغب، المفردات: (نور).

5) ﴿أَصۡحَٰبُ﴾: الصَّاحِبُ: مَأْخوذٌ مِنَ الجِذْرِ الثُّلاثِيِّ (صَحِبَ)، "وكُلُّ شَيْءٍ لازَمَ شَيْئًا فقَدْ اسْتَصْحَبَهُ"[1]، فالصُّحْبَةُ "أَصْلُها الاجْتِماعُ؛ طالَ زَمَنُها أَوْ قَصُرَ"[2]، والصَّاحِبُ: "المُلازِمُ؛ إنْسانًا كانَ أَوْ حَيَوانًا، أَوْ مَكانًا، أَوْ زَمانًا، وَلا فَرْقَ بَيْنَ أَنْ تَكونَ مُصاحَبَتُهُ بالبَدَنِ - وهُوَ الأَصْلُ والأَكْثَرُ -، أَوْ بالعِنايَةِ والهِمَّةِ"[3].

6) ﴿خَٰلِدُونَ﴾: الخُلودُ: "تَبَرِّي الشَّيْءِ مِن اعْتِراضِ الفَسادِ، وبَقاؤُهُ عَلى الحالَةِ التي هُوَ عَلَيْها، وكُلُّ ما يَتَباطَأُ عَنْهُ التَّغْييرُ والفَسادُ تَصِفُهُ العَرَبُ بالخُلودِ"[4]، وأَصْلُ هَذِهِ المادَّةِ مِنَ الثَّباتِ والمُلازَمَةِ[5]، وجَميعُ الاسْتِعْمالاتِ لا تَخْرُجُ عَنْ هَذا المَعْنى، فالخالِدونَ في النَّارِ هُمُ الثَّابِتونَ المُلازِمونَ لَها.

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

تُبَيِّنُ الآيَةُ مَعالِمَ الوِلايَةِ المَقْبولَةِ عِنْدَ اللهِ تَعالى الخاصَّةِ بِهِ دونَ سِواه، فاللهُ هُوَ وَلِيُّ المُؤْمِنينَ هِدايَةً ونُصْرَةً ورِعايَةً، ومِنْ شَأْنِ هَذِهِ الوِلايَةِ أَنْ تُخْرِجَ المُؤْمِنينَ مِنْ ظُلُماتِ الشَّكِّ والاضْطِرابِ والقَلَقِ إلى نورِ الإيمانِ والطُّمَأْنينَةِ والسَّكينَةِ.

وفي المُقابِلِ وِلايَةُ الكافِرينَ للطَّاغوتِ مُتَشَعِّبَةٌ مُتَعَدِّدَةٌ، لا تَرْسو عَلى حالٍ، ولا تَرْسُبُ في مَآلٍ، ومن أعظم الطواغيتِ الشيطانُ الرجيم؛ فإنه يسلِّط عليهم عقوبةً لهم، فَهُمْ في دَيْمومَةِ الخُروجِ مِنْ أَسْبابِ النُّورِ والهِدايَةِ والإيمانِ، إلى ظلمة الكفر والجهل والمعاصي، وهُمْ بذَلِكَ يَسْتَحِقّونَ الصُّحْبَةَ السَّرْمَدِيَةَ في النَّارِ الأَبَدِيَةِ، كَما ارْتَضَوْا صُحْبَةَ الطَّاغوتِ الدَّائِمَةَ في الدُّنْيا الفانِيَةِ.

❁ الإِيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

بلاغة العدول إلى الفصل بالاستئناف في الآية:

وردَ قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ على سبيل الاستئناف؛ لبيان الفرق بين

(1) الأزهري، تهذيب اللغة: (صحب).
(2) السمين، عمدة الحفاظ: (صحب).
(3) الراغب، المفردات: (صحب).
(4) الراغب، المفردات: (خلد).
(5) ابن فارس، المقاييس، والسمين، عمدة الحفاظ: (خلد).

الوليّ الهادي والوليّ المضلّ، وبين طريق الحقّ والنّور، وطريق الظلمات، فلا بدّ من استئنافِ كلامٍ بأنْ يُقال: فقد ظهرَ الحقّ من الباطل، فمن سلك طريق الحقّ فقد رُشد وهُدي، ومن خبط في ظلمات الباطل فقد ضلّ وغوى؛ لأن من يكون هاديه الله يخرجه من الظلمات إلى النور، ومن يكون مضلّه الطاغوت فالحكم بالعكس[1].

عُدل إلى الاستئناف؛ لبيان الفرق بين الوليّين، وبين الطريقين

وقع قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ موقع التَّعليل لقوله تعالى في الآية قبلها: ﴿لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ﴾ [البقرة: 256]؛ "لأن الذين كفروا بالطاغوت وآمنوا بالله قد تولوا الله فصار وليهم، فهو يقدر لهم ما فيه نفعهم وهو ذب الشبهات عنهم، فبذلك يستمرّ تمسّكهم بالعروة الوثقى ويأمنون انفصامها، أي: فإذا اختار أحدٌ أنْ يكونَ مسلمًا فإن الله يزيده هدى"[2].

وجه الفصل وقوع الآية موقع التعليل لما قبلها

جمال صحّةِ التّقسيم في الآية:

ومن البديع صحةُ التقسيم الممثّل في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخۡرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِۗ﴾[3]؛ إذ قسَّم الجملة قسمة مستوية تحتوي على صورتي الولايتين، وما يخلص عنهما من طريق فلا يندُّ عنهما وجه. وحسن التقسيم ههنا لكونه بيانًا لأحوال ولاية المؤمنين والكافرين ومآليهما هدايةً، وغوايةً على صيغة إبلاغيّة إرشاديّة بيّنة قاطعة للاحتمال والتأويل.

في صحّة التّقسيم بيانٌ لأحوال ولاية المؤمنين والكافرين ومآليهما هدايةً، وغوايةً

بَديعُ المُطَابَقَةِ الجمليّة واللفظيّة[4]:

في الآيَةِ طِباقٌ بَيْنَ جُمْلَةِ ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ﴾، وجُمْلَةِ ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخۡرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِۗ﴾، وتَظْهَرُ لَذَّةُ المُطابَقَةِ في كَوْنِها

(1) الطيبي، فتوح الغيب: 3/498.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/30.
(3) بنت الشاطئ، الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق: ص: 114.
(4) المطابقة: الجمع بين الشيء وضدّه في جزءٍ من أجزاء الكلام. يُنظر: العسكري، الصناعتين، ص: 307.

في الطباق بين جملتي الآية إظهارٌ جمال الولايَةِ الإلَهيَّةِ، وإبرازُ شَناعَةِ الولايَةِ الكُفْرِيَّةِ بالتَّضادِّ

قابَلَتْ بَيْنَ وِلايَتَيْنِ مُتَضادَّتَيْنِ، تَضَمَّنَتْ كُلٌّ مِنْهُما: الوَليَّ، والمُتَوَلَّى، ونَتيجَةَ الوِلايَةِ، فأَظْهَرَتْ كُلُّ جُمْلَةٍ مَزِيَّةَ الأُخْرى، فلا يُظْهِرُ جَمالَ الوِلايَةِ الإلَهيَّةِ للذينَ آمَنوا شَيْءٌ، كوِلايَةِ الطّاغوتِ للَّذينَ كَفَروا، ولا يُبْرِزُ شَناعَةَ الكافِرينَ في مُوالاةِ الطَّاغوتِ شَيْءٌ، كسَعادَةِ إخْراجِ المُؤْمِنينَ مِنَ الظُّلُماتِ إلى النّورِ.

الطباق في ألفاظ الآية إفصاحٌ عن دلالة الربط المؤدّي إلى مزيدِ إيْضاحٍ للمعنى، وترسيخ دلالة المبنى

وفي الآية طباق على مستوى الألفاظ بين: ﴿ءَامَنُواْ﴾، و﴿كَفَرُوٓاْ﴾، وبين: ﴿ٱلنُّورِ﴾، و﴿ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ وفي هذا الطباق إفصاحٌ عن دلالة الرَّبط في الآية الكريمة المؤدّي الى مزيدِ إيْضاحٍ للمعنى، وبيانه، وترسيخ دلالة مبناه؛ بما يسبّبه من شدٍّ، وجذب على النَّفْس المتلقية له قراءةً، وتدبّرًا. وفي ذلك تعزيزٌ للوظيفة الإبلاغيّة للطباق بالوظيفة التأثيريّة التي يترسّخ من خلالها المنهج الفطريّ السّليم للنَّفس البشريّة باتبّاع الإيمان، ونبذ الكفر، والاستبشار بالنّور واتّباعه، والنّفرة من الظلمة ونبذها.

بَلاغَةُ التّعبير بالجُمْلَةِ الاِسْمِيَّةِ:

دلالة اسميّة الجملة دَيْمومَةُ وِلايَةِ اللهِ للمُؤْمِنينَ، وبَيانُ عَلاقَتِها بالعُرْوَةِ الوُثْقى

الجُمْلَةُ الاِسْمِيَّةُ في قَوْلِهِ تَعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، تُعَيِّنُ ثُبوتَ وِلايَةِ اللّهِ تَعالى للذينَ آمَنوا، وأنَّها وِلايَةٌ دائِمَةٌ لا تَنْقَطِعُ، وهُوَ ما يُرَشِّحُ قُوَّةَ عَلاقَةِ العُرْوَةِ الوُثْقى التي لا انْفِصامَ لها بها، فدَيْمومَةُ وِلايَةِ اللّهِ للمؤمنين، هيَ دَليلُ اتِّصالِ العُرْوَةِ الوُثْقى، وهَذا ما يَزيدُ المُؤْمِنَ طُمَأْنينَةً في أَنَّهُ ناجٍ عِنْدَ رَبِّهِ.

بديعُ الاِبْتِداءِ بلَفْظِ الجَلالَةِ:

البدء بلفظ الجلالة الأعظم بَراعَةُ اسْتِهْلالٍ، وبثّ مهابةٍ وجلالٍ، وتَشْويقٌ لمَعْرِفَةِ الخَبَرِ

الاِبْتِداءُ بلَفْظِ الجَلالَةِ بَراعَةُ اسْتِهْلالٍ فإنَّهُ يُورِثُ المَهابَةَ والجَلالَ في قُلوبِ المُخاطَبينَ، ويوقِعُ في النُّفوسِ التَّشْويقَ وتَرَقُّبَ الإخْبارِ عَنْهُ، فإنَّهُ مَثارُ تَهَيُّبِ النُّفوسِ لتَلَقِّي خَبَرٍ ذي شَأْنٍ.

ومجيء المسندِ إليه في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ علَماً وبأجلّ الأسماء وأعظمها؛ لاستحضارِ معناهُ في ذهنِ السَّامعِ،

والابتداءُ باسمهِ الأعظم الخاصِّ لِيمتازَ عمَّا عداهُ، فضلًا عمّا يحتمله من وجوه المدح بما يُشْعرُ به الاسم، والتبرّكُ بذكرهِ، و التلذّذُ باسمهِ[1].

البدء باسمه الأعظم؛ استحضارٌ لمعناهُ في ذهنِ السَّامعِ، ومدحٌ، وتبرّكٌ بذكرهِ، وتلذّذٌ

سرُّ التَّعْبيرُ بالاِسْمِ المَوْصولِ:

آثَرَتِ الآيَةُ ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ التَّعْبيرَ بالاِسْمِ المَوْصولِ لا بالاِسْمِ الظَّاهِرِ فلَمْ يَقُلْ: (وَلِيُّ المُؤمِنينَ)، لبَيانِ أَنَّ الإيمانَ هُوَ العِلَّةُ التي لأجْلِها تَوَلَّى اللهُ المُؤْمِنينَ، ممَّا يَسْتَدْعي تَمامَ المَدْحِ لَهُمْ بإيمانِهِمْ، وهِيَ دَعْوَةٌ ضِمْنِيَّةٌ للمُحافَظَةِ عَلى الإيمان، ولَوْ قال: وَلِيُّ المُؤْمِنينَ، لَفُهِمَ أَنَّ الوِلايَةَ للمُؤْمِنينَ باعْتِبارِ مُجَرَّدِ الاتِّصافِ بِهِ، لا باعْتِبارِ المُحافَظَةِ عَلَيْهِ، واسْتِحْقاقِهِمْ لِمُسَمَّاهُ.

التعبير بالموصول كَشْفٌ عَنِ العِلَّةِ التي لأجْلِها اسْتَحَقَّ المُؤْمِنونَ الوِلايَةَ

علّة إيثارِ صيغَةِ المُضارِعِ:

وَقَعَ الفِعْلُ المُضارِعُ ﴿يُخْرِجُهُم﴾: مَوْقِعَ التَّفْسيرِ والبَيانِ للوِلايَةِ، فكَأَنَّ سائِلًا قَدْ سَأَلَ عَنْ كَيْفِيَّةِ الوِلايَةِ؟ فكانَ الجَوابُ: بِأَنْ يُخْرِجَهُم مِنَ الظُّلُماتِ إلى النُّورِ، والإتيانُ به على هيئة المُضارِعِ لبَيانِ تَجَدُّدِ "الإخْراجِ مِنَ اللهِ تَعالى في الزَّمَنِ المُسْتَقْبَلِ في حَقِّ مَنْ آمَنَ، بزِيادَةِ كَشْفِ الشُّبْهَةِ ومُضاعَفَةِ الهِدايَةِ، ولَفْظُ الماضي لا يَدُلُّ عَلى هَذا المَعنى"[2]، وما أَجْمَلَ بَيانَ اسْمِيَّةِ الوِلايَةِ بصيغَةِ المُضارِعِ! وذَلِكَ لبَيانِ دَيْمومَةِ وِلايَةِ اللهِ للمُؤْمِنينَ، وتَجَدُّدِها في الأثَرِ وهُوَ إخْراجُهُمْ إلى نورِهِ سُبْحانَهُ، وهَذا التَّجَدُّدُ دَليلُ تَمامِ الوِلايَةِ وعَظيمِ الرِّعايَةِ، وعَلى هَذا فأَنْ تَكونَ جُمْلَةُ: ﴿يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ استِئْنافًا، أَوْلى مِنْ جَعْلِها حالِيَّةً أَوْ خَبَرًا ثانِيًا[3].

إيثار المضارع بَيانٌ لدَيْمومَةِ الوِلايَةِ بتَجَدُّدِ أثَرِها في زِيادَةِ كَشْفِ الشُّبْهَةِ وَمُضاعَفَةِ الهِدايَةِ:

نكتة التَّعْبير بالنُّورِ دونَ الضِّياءِ:

يُسْتَعْمَلُ النُّورُ في المَعْنَوِيَّاتِ والمَحْسوساتِ، بخِلافِ الضِّياءِ فلا

(1) علي بن نايف الشحود، الخلاصة في علوم البلاغة، ص: 17

(2) الرازي، أنموذج جليل في أسئلة وأجوبة عن غرائب آي التنزيل، ص: 27، بتصرف.

(3) السمين، الدر المصون: 2/549.

عبّر بالنّور لحصْرِ المُحْتَمَلاتِ الدَّلاليَّةِ، وتَعَيُّنِ حَمْلِها عَلى المَعْنى المَعْنَويِّ فِطْرِيًّا وقُرْآنِيًّا

يُسْتَعْمَلُ إلَّا في المَحْسوساتِ، ولذَلِكَ لَوِ اسْتُعْمِلَ الضِّياءُ في هَذا السِّياقِ لَحُمِلَ عَلى المَعْنى الحِسِّيِّ، وهُوَ غَيْرُ مُرادٍ، إذِ المُرادُ تَعَيُّنُ حَمْلِهِ عَلى الهِدايَةِ الفِطْرِيَّةِ والقُرْآنِيَّةِ، دونَ احْتِمالِهِ لِمَعْنى الضِّياءِ المادِّيِّ المَحْسوسِ. وهَذا مِنْ بَلاغَةِ اخْتِيارِ الأَلْفاظِ القُرْآنِيَّةِ، في حَصْرِ المُحْتَمَلاتِ الدَّلالِيَّةِ؛ لِدَفْعِ شَتاتِ الذِّهْنِ عَنِ التَّأْويلِ البارِدِ، وكذَلِكَ اخْتِيارُ لَفْظِ النُّورِ يُعينُ عَلى حَمْلِهِ عَلى مَعْنَيَي الفِطْرَةِ والبَيِّناتِ، وهُوَ الأَوْفَقُ بَلاغَةً، والأَقْوى فَصاحَةً، والأَرْسَخُ دَلالَةً، كما سَيَأْتي.

جَمالُ الاستعارة التصريحية: في استعارة ﴿ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ و﴿ٱلنُّورِ﴾ للضلال والهدى:

بِناءُ القيمَةِ التَّرْبَوِيَّةِ الهِدائِيَّةِ في نُفوسِ المُخاطَبينَ، تَرْغيبًا وتَرْهيبًا

اسْتَعارَتِ الآيَةُ لَفْظَ الظُّلُماتِ لِمَعْنى الشِّرْكِ والضَّلالِ والجَهْلِ، ولَفْظَ النُّورِ لِمَعْنى الإيمانِ والهِدايَةِ والعِلْمِ، عَلى سَبيلِ الاسْتِعارَةِ التَّصْريحِيَّةِ الأَصْلِيَّةِ؛ مُبالَغَةً في الكَشْفِ عَنْ حَقيقَةِ الشِّرْكِ والإيمانِ، بأُمورٍ حِسِّيَّةٍ، لِلتَّرْغيبِ في الإيمانِ، والتَّرْهيبِ مِنَ الشِّرْكِ، ولإخراجِ المؤمنين من الكفر إلى الإيمان، ومن الغَيِّ إلى الرشاد، ومن عمياء الجهل إلى بصائر العلم،[1]. فهَدَفُ الاسْتِعارَةِ بِناءُ القيمَةِ التَّرْبَوِيَّةِ الهِدائِيَّةِ في النُّفوسِ، "وذَلِكَ مِنْ أَحْسَنِ التَّشْبيهاتِ؛ لأَنَّ الكُفْرَ كالظُّلْمَةِ التي يَتَسَكَّعُ فيها الخابِطُ، ويَضِلُّ القاصِدُ، والإيمانُ كالنُّورِ الذي يَؤُمُّهُ الحائِرُ، ويَهْتَدي بِهِ الجائِرُ؛ لأَنَّ عاقِبَةَ الإيمانِ مُضيئَةٌ بالإيمانِ والثَّوابِ، وعاقِبَةَ الكُفْرِ مُظْلِمَةٌ بالجَحيمِ والعَذابِ. وفي لِسانِهِمْ وَصْفُ الجَهْلِ بالعَمى والعَمَهِ، ووَصْفُ العِلْمِ بالبَصَرِ والجَلِيَّةِ"[2].

في اللفظين مجازٌ فالمراد بالظلمات هنا الضلالة؛ لأن المفاسد

(1) الشريف الرضي، تلخيص البيان: 2/121.

(2) الشريف الرضي، تلخيص البيان: 2/121، ويُنظر: الشريف المرتضى، أمالي المرتضى: 2/14.

التي ينشرها الطغيان تظلمُّ بها النفس وتكون في حيرة، وتنقطع عن سبيل الهداية، والمراد بالنور هو الهدى؛ لأن الهدى يكشف عن ينابيع الحق والخير في النفس، وهو سلوك الطريق الموصل إلى ما يسعد الإنسان في الفانية والباقية فهو كالمصباح للمؤمن به يهتدي، وبه يصل إلى الغاية[1].

وجه الاستعارة أنّ المفاسد التي ينشرها الطغيان تظلمُّ بها النفس، وأنّ الهدى كالمصباح للمؤمن به يهتدي، وبه يصل إلى الغاية.

سِرُّ جَمْعِ الظُّلُماتِ وإِفْرادِ النُّورِ:

لَمَّا كانَ طَريقُ الحَقِّ واضِحًا مستقيمًا كان واحِدًا، وأمَّا الباطِلُ فلَمَّا كان غامِضًا مُبْهَمًا كانَتْ طُرُقُه كثيرة مُتَشَعِّبَةً مُتَعَدِّدَةً مُخْتَلِفَةً، ولَمَّا كانَتِ الظُّلْمَةُ بمَنْزِلَةِ طَريقِ الباطِلِ، والنُّورُ بمَنْزِلَةِ طَريقِ الجَنَّةِ، بَلْ هُما هُما، أَفْرَدَ النُّورَ وجَمَعَ الظُّلُماتِ، وأَصْلُ النُّورِ واحِدٌ وهُوَ اللهُ جَلَّ في عُلاهُ، وأَصْلُ الظُّلُماتِ مُتَعَدِّدٌ بتَعَدُّدِ الأَهْواءِ والضلالات، وطرق الغيّ[2]، فـ" إفراد النور لِوَحْدَةِ الحقِّ كما أن جمْعَ الظلمات لتعدّد فنون الضَّلال"[3]، وفيهِ إشارَةٌ إلى أنَّ الإفْرادَ إيماءٌ إلى القِلَّةِ، والجَمْعَ إيماءٌ إلى الكَثْرَةِ[4]، فإنَّ أَهْلَ الحَقِّ هُمُ القِلَّةُ القَليلَةُ، قال تَعالى: ﴿وَإِن تُطِعۡ أَكۡثَرَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنۡ هُمۡ إِلَّا يَخۡرُصُونَ ١١٦﴾ [الأنعام: 116]، وقالَ: ﴿الٓمٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِۗ وَٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ ١﴾ [الرعد: 1].

طَريقُ الحَقِّ واحِدٌ لوُضوحِهِ، وطَريقُ الباطِلِ مُتَعَدِّدٌ لغُموضِهِ

بلاغةُ تقْديم الفاعلِ وتأخيرِه في الجُمْلَتَيْنِ:

اخْتَلَفَ التَّعْبيرُ بَيْنَ الجُمْلَتَيْنِ، فقَدَّمَ في الأولى الفاعل (لَفْظَ الجَلالَةِ)، وقدّم في الثَّانِيَةِ الاسْمَ المَوْصولَ ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾، فلَمْ يَقُلْ: (والطَّاغوتُ وَلِيُّ الذينَ كَفَروا)؛ إشارَةً إلى أنَّ مَبْدَأَ الحَقِّ

وجه تقديم الفاعل وتأخيره الإشارَةُ إلى مَبْدَأِ الحَقِّ والباطِلِ، ومراعاةُ لفْظِ الجَلالَةِ أَنْ يُقابِلَهُ لَفْظُ الطَّاغوتِ

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 2/952.
(2) ابن القيم، بدائع الفوائد: 1/120، وطريق الهجرتين، ص: 177، والزركشي، البرهان: 4/12.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/250.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 2/15.

مِنَ اللّهِ تَعالى فهُوَ الذي يَتَوَلَّى المُؤمِنينَ، وأنَّ مَبْدَأَ الباطِلِ مِنَ الذينَ كَفَروا، فَهُمُ الذينَ يَتَّخِذونَ الطَّاغوتَ مِنْ دونِ اللّهِ تَعالى، و"للاحْتِرازِ عَنْ وَضْعِ الطاغوتِ في مُقابَلَةِ الاسْمِ الجَليلِ، ولقَصْدِ المُبالَغَةِ بتَكْريرِ الإسْنادِ مَعَ الإيماءِ إلى التَّبايُنِ بَيْنَ الفَريقَيْنِ مِنْ كُلِّ وَجْهٍ، حَتَّى مِنْ جِهَةِ التَّعْبيرِ أيْضًا"[1].

التَّعْبيرُ بالاِسْمِ المَوْصولِ:

إقامَةُ الدَّليلِ عَلى الكافِرينَ بالاِسْتِشْهادِ عَلَيْهِم بما في حَيِّزِ الصِّلَةِ

جرى إيثارُ الاسْمِ المَوْصولِ في قَوْلِهِ تَعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ دونَ الاسْمِ الظَّاهِرِ، فَلَمْ يَقُلْ: (والكافِرونَ)؛ للاسْتِشْهادِ عَلَيْهِم بكُفْرِهِمْ، وأنَّهُ سَبَبُ اتِّخاذِهِمُ الطَّاغوتَ أَوْلِياءَ لَهُمْ، وإخْراجِهِم مِنَ النُّورِ إلى الظُّلُماتِ، قال العمادي: أنّ ذكرَ"الموصول باعتبار اتّصافه بما في حيّز الصلة وما يتبعه من القبائح"[2]. "ففي التعبير بالذين كفروا إشارة بيانية إلى أنهم هم الذين ارتضوا أن يجعلوا الطغيان متحكِّمًا في قلوبهم، إذ كفرُهم واستيلاءُ الشهوات على نفوسهم هو الذي سهَّلَ استمراءَ ولاية الطاغوت عليهم، وتَحَكُّمَه فيهم، وسيطرته على نفوسهم، وحيث كانت الشهوات مُسْتَحْكِمَةً فللأوهام سلطان، وللجبابرة سلطان، وللكبراء المضلّين مكان"[3].

مُقابَلَةُ المُفْرَدِ بالجَمْعِ:

إفادَةُ الاِخْتِصاصِ، ووُضوحُ نورِ الحَقِّ، وغُموضُ طُرُقِ الباطِلِ

أُفْرِدَ (الوَليُّ) في حَقِّ اللّهِ تَعالى لأنَّ الحَقَّ واحِدٌ، فهُوَ الوَليُّ دونَ سِواهُ، ولا يَتَوَلَّى أَمْرَ العِبادِ عَلى الحَقيقَةِ أَحَدٌ سِواهُ، وجُمِعَ (الأَوْلِياءُ) في جانِبِ الطَّاغوتِ؛ لأنَّ أَوْلِياءَ الكافِرينَ مُتَعَدِّدونَ، بحَسَبِ أَنْواعِهِمْ وأَجْناسِهِمْ واتِّجاهاتِهِمْ؛ ولِذلِكَ قال: ﴿يُخْرِجُونَهُم﴾، فدَلَّ الإفْرادُ عَلى وُضوحِ نورِ الحَقِّ، والجَمْعُ عَلى غُموضِ طُرُقِ الباطِلِ، وأفادَتْ مُقابَلَةُ إفْرادِ الوَليِّ بجَمْعِ الأَوْلِياءِ الاِخْتِصاصَ، إذْ لا وَليَّ للمُؤْمِنينَ

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/250.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/251.
(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 2/953.

سِواهُ تَعالى، بخِلافِ الكافِرينَ فأَوْلِياؤُهُمْ كَثْرَةٌ. قال ابن القيّم: "فَوَحَّدَ وليّ الذين آمنوا وهو اللّه الواحد الأحد وجَمَعَ أولياء الذين كفروا لتعدّدهم وكثرتهم"[1].

عِلَّةُ إفرادِ الطاغوت وجَمْعِ الأولياء:

جَعل ﴿ٱلطَّٰغُوتُ﴾ "علمًا على الكفر وعلى الأصنام، وأصله صفة بالمصدر ويطلق على الواحد والجمع والمذكر والمؤنث كشأن المصادر"[2]. وهو ههنا واحد في معنى جماعة، وجاز؛ لأنّ في الكلام دليلًا على الجماعة[3]. وفي إفراده، وجمع الأولياء إشارةٌ بيانيةٌ إلى أنّ الطاغوت مهما تتعدد ضروبه، وأشكاله ومظاهر سلطانه، فهو نوع واحد، أساسه أن يتحكَّمَ في وَهَمِ الأنفس، وهواها، وذلّها، وضعفها. لكن سلطانه متعدد؛ يظهر مرة في مظهر ذي سلطان متجبّر تخضع الرقاب لطغيانه ذلّةً أو شهوةً رديّةً، ويظهر أخرى في دعوةٍ إلى الباطل زخرفها تمويهُ داعيةٍ مضلٍّ، أو في أوهام مسيطرة على الجماعة تجعلها تعبد حجرًا أصمَّ لَا يَسمعُ ولا يُبصرُ، وغير ذلك من صور الغواية والضلال. وعلى ذلك يكون الطاغوت واحدًا؛ لأنه ضلال كيفما كان، ولكن لتعدد مظاهر سلطانه تعددت ولاياته وكلها لَا قوة لها أمام قوة اللّه سبحانه وتعالى علوًا كبيرًا[4].

في الإفراد والجمع إشارة بيانية إلى أن الطاغوت مهما تتعدد ضروبه، ومظاهر سلطانه، فهو نوع واحد

عِلَّةُ عَوْدِ الضمير بصيغة العقلاء:

"وأعيد الضمير إلى الطاغوت بصيغة جمع العقلاء؛ لأنه أسند إليهم ما هو من فعل العقلاء وإن كانوا في الحقيقة سبب الخروج لا مخرجين"[5]. وهو أقوى في الدلالة على تمكّن الطاغوت ممّن يُضلِّهم؛ بتصوير فعل الإخراج، وعموم أفعاله وكأنها صادرة من عقلاء، وترسيخ لمعنى تعدد صور الغواية.

عودُ ضمير العقلاء أقوى في الدلالة على تمكّن الطاغوت ممّن يُضلِّهم

(1) ابن القيم، بدائع الفوائد: 1/120.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/29.
(3) الزجاج، معاني القرآن وإعرابه: 1/340.
(4) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 2/953.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/31.

سرُّ جَمْعِ الضَّميرِ لا إفْرادِه:

وجه جمع الضَّمير التَّحذيرُ مِنْ طَرائِقِ الباطِلِ الملْبِسَةِ، وأَشْكالِهِ المُتَعَدِّدَةِ

جاءَ الضَّميرُ في قَوْلِه: ﴿يُخْرِجُونَهُم﴾ جَمْعًا لا مُفْرَدًا، فلَمْ يَقُلْ: (والذينَ كَفَروا أَوْلِياؤُهُمُ الطَّاغوتُ يُخْرِجُهُمْ)، فعادَ الضَّميرُ إلى مَعْنى الجَمْعِ لا الإفْرادِ، تَنْبيهًا عَلى أنَّ الإخْراجَ مِنَ النُّورِ إلى الظُّلُماتِ، لَهُ طُرُقُهُ المُلْبِسَةُ وأَشْكالُهُ المُتَعَدِّدَةُ، وأَنَّ عَلى الإنْسانِ أنْ يَحْذَرَ مِنْها، فالتَّعَدُّدُ في الظُّلُماتِ، والأَوْلِياءِ، والطُّرُقِ، وهَذا مِن بَديعِ التَّنْبيهِ والتَّحْذيرِ مِنْ طَرائِقِ الباطِلِ وأَهْلِهِ. قال البقاعي: "ثم بَيَّنَ استيلاءهم عليهم بقوله: ﴿يُخْرِجُونَهُم﴾ وإسناده إلى ضمير الجمع يؤيد أنَّ جمع الظلمات؛ لكثرة أنواع الكفر"[1]

في تعدد وجوه الضلالات إشارةٌ إلى أن الفطرة في أصلها نور

وفي تضمّن قوله تعالى: ﴿يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ الضلالاتِ الرديّة المختلفة الأنواع،؛ إشارةٌ إلى أن الفطرة في أصلها نور، ففي الفطرة الإنسانية نور الحق ووجدان الهداية، والإيمان الفطري، حتى يكون الضلال؛ إذ تتحكم الأهواء، والأوهام، وتستخذي النفوس، "فكل مولود يولد على الفطرة"[2]، وهي نور، حتى يكون الضلال بما في النفس من استعداد له مع وجود ذلك النور[3].

لفظ (النور) بين الاستعارة التّصريحيّة، ووجوه أساليب بلاغيّة:

بَلاغَةُ التَّنَوُّعِ في الأُسْلوبِ البَلاغِيِّ فَرْعٌ عَنْ تَنَوُّعِ المَعاني

لفظ ﴿ٱلنُّورِ﴾ في قَوْلِهِ تَعالى: ﴿يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ إمَّا أنْ يُحْمِلَ عَلى الفِطْرَةِ الجِبِلِّيَّةِ، أَوْ البَيِّناتِ[4]، أو عَلَيْهِما مَعًا، وهُوَ الأَوْفَقُ في المَعْنى، والأَدَقُّ في الاسْتِعْمالِ، والأَلْصَقُ بمَقامِ البَلاغَةِ، ويَنْشَأُ عَن كُلِّ مَعْنًى أُسْلوبٌ بَيانيٌّ، فعَلى الأَوَّلِ تَكونُ اسْتِعارَةً تَصْريحِيَّةً، وعَلى الثَّاني تَحْتَمِلُ عِدَّةَ أَساليبَ بَيانِيَّةٍ.

(1) البقاعي، نظم الدرر: 4/46.
(2) البخاري، صحيح البخاري، حديث رقم: (1359)، ومسلم، صحيح مسلم، حديث رقم: (2658).
(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 2/953- 954.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 2/16.

بلاغة الاِسْتِعارَةُ التَّصْريحِيَّةُ:

تَشْبيهُ الفِطْرَةِ بـالـنُّـورِ دَلـيـلٌ عَلى الاِسْتِعْدادِ الفِطْرِيِّ للهِدايَةِ

إنْ حَمَلْنا النُّورَ عَلى مَعْنى الفِطْرَةِ الجِبِلِّيَّةِ فالإخْراجُ عَلى حَقيقَتِهِ، والنُّورُ اسْتِعارَةٌ أَصْلِيَّةٌ تَصْريحِيَّةٌ، حَيْثُ شَبَّهَ الفِطْرَةَ بالنُّورِ بجامِعِ البَيانِ لسالِكِ الطَّريقِ الحَقِّ، وبَلاغَةُ هَذا الوَجْهِ أَنْ جَعَلَ الفِطْرَةَ نورًا، وسِواها ظُلْمَةً، وهُوَ يَدُلُّ عَلى الاِسْتِعْدادِ الفِطْرِيِّ في النَّفْسِ البَشَرِيَّةِ للهِدايَةِ.

براعة اجْتِماعِ الأَساليبِ البَيانِيَّة:

اجْـتِـمـاعُ عِـدَّةِ أَساليبَ بَيانِيَّةٍ دَليلٌ عَلى ثَراءِ النَّظْمِ القُرْآنِيِّ

وإنْ حَمَلْنا النُّورَ عَلى البَيِّناتِ؛ فإمَّا أَنْ نَحْمِلَ الكَلامَ عَلى نَفْيِ الشَّيْءِ بإيجابِهِ، أَوْ عَلى التَّهَكُّمِ، أَوْ عَلى المُشاكَلَةِ، أَوْ عَلَيْها جَميعِها مَعًا، وهَذا مِنَ الثَّراءِ البَيانِيِّ في النَّظْمِ القُرْآنِيِّ.

أَوَّلًا: نَفْيُ الشَّيْءِ بإيجابِهِ[1]:

قَوْلُهُ تَعالى: ﴿يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ يُوهِمُ أَنَّ الكُفَّارَ كانوا في النُّورِ ثُمَّ أُخْرِجوا مِنْهُ إلى الظُّلُماتِ، وهُمْ لَيْسوا كذَلِكَ، فالمَقْصودُ نَفْيُ النُّورِ عَنْهُمْ، إذْ لا نورَ لَهُمْ أَصْلًا ليَخْرُجوا مِنْهُ، فهِيَ نَفْيٌ للنُّورِ لانْتِفاءِ سَبَبِهِ، وهُوَ عَدَمُ إيمانِ الكافِرينَ أَصْلًا، فكَيْفَ يَثْبُتُ لَهُمْ نورٌ؟! فهِيَ أَبْلَغُ مِنَ النَّفْيِ الصَّريحِ؛ لأَنَّها تَحْتاجُ إلى إعْمالِ ذِهْنٍ، وإثارَةِ سُؤالٍ عَنِ النُّورِ الذي أُخْرِجوا مِنْهُ، فَعِنْدَ البَحْثِ نَجِدُهُ غَيْرَ مَوْجودٍ.

وهذا أُسْلوبٌ عَرَبِيٌّ عَتيقٌ عَريقٌ، قال امْرُؤُ القَيْسِ:

عَلى لاحِبٍ لا يُهْتَدَى بمَنارِهِ *** إذا سافَهُ العَوْدُ النُّباطِيُّ جَرْجَرا[2]

(1) ذكره ابنُ رشيق في العمدة، وعرّفه ابنُ أبي الإصبع بقوله: "أن يثبت المتكلِّم شيئًا في ظاهر كلامه، وينفي ما هو من سببه مجازًا، والمنفيُّ في باطن الكلام حقيقةً هو الذي أثبته"، يُنظر: ابن رشيق، العمدة: 2/80، والعدواني، تحرير التحبير، ص: 377.

(2) ديوان امرئ القيس، ص: 96، ومعنى البيت: على طريق واضح، والمنار: جمع منارة، وأصلها: مُنوَّرة، مفعَّلة من النّور، وسمّيت بذلك لأنها في الأصل كلُّ مرتفع عليه نار، وسافه: شمّه، والعَوْد: البعير الهرم، وقد عوّد البعير: إذا صار عَوْدًا، وذلك بعد بزوله بأربع سنين، واشتقاقه من عاد يعود، لأنه لعلوّ سنّه يعود في الطّرق مرارًا، والجرجرة: صوت يردّده البعير في حنجرته، وإنما يجرجر في الطريق إذا شمّه، لما يعرف من شدّته وصعوبة مسلكه. يُنظر: ابن الشجري، أمالي ابن الشجري: 1/298.

فلَمْ يُرِدِ امْرُؤُ القَيْسِ نَفْيَ الاهْتِداءِ بِمَنارِ الطَّرِيقِ، وإنَّما أَرادَ نَفْيَ المَنارِ أَصْلًا، فإذا نُفِيَ المَنارُ، نُفِيَ الاهْتِداءُ بِهِ[1]، وهَذا الأُسْلوبُ مِنَ المُبالَغَةِ في النَّفْيِ بَدِيعٌ؛ لأَنَّهُ يَنْفي الشَّيْءَ بما يُشْبِهُ إثْباتَهُ[2].

ثانيًا: فَنُّ التَّهَكُّمِ:

حَمْلُ الآيَةِ عَلى نَفْيِ الشَّيْءِ بإيجابِهِ يَجْعَلُها قَرِيبَةً مِنْ فَنِّ التَّهَكُّمِ[3]، ففيها اسْتِهْزاءٌ بحالِ الكافِرين، وذَلِكَ بتَنْزِيلِهِمْ مَنْزِلَةَ مَنْ كانَ لَهُ نورٌ ثُمَّ أُخْرِجَ مِنْهُ إلى الظُّلُماتِ، مَعَ انْتِفائِهِ أَصْلًا! وهِيَ كقَوْلِهِ تَعالى: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾﴾ [الدخان: 49]، ولا عِزَّةَ ولا كَرامَةَ، وإنَّما ذَكَرَ هَذَيْنِ الوَصْفَيْنِ تَهَكُّمًا بالمُخاطَبِ.

ثالثًا: فَنُّ المُشاكَلَةِ[4]:

جاءَتْ هَذِهِ الجُمْلَةُ مُشاكِلَةً[5] للجُمْلَةِ السَّابِقَةِ: ﴿يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾، فلمَّا ذَكَرَ الإخْراجَ في حَقِّ المُؤمِنينَ مِنَ الظُّلُماتِ إلى النُّورِ، ذَكَرَ الإخْراجَ في حَقِّ الكافِرينَ مَعَ التَّعْكيسِ في المَبْدَأِ والمُنْتَهى، مُشاكَلَةً لَفْظِيَّةً؛ لبَيانِ الفَرْقِ بَيْنَ الفَرِيقَيْنِ.

اجتماعُ هذه الفُنونِ البَديعِيَّةِ اجْتِماعٌ في الفِكْرِ لَطيفٌ وفي النَّفْسِ خَفيفٌ

ولا مانِعَ مِنِ اجْتِماعِ هَذِهِ الفُنونِ البَديعِيَّةِ في ثَنايا هَذِهِ الدُّرَّةِ القُرْآنِيَّةِ التي وَصَفَتْ إخْراجَ الكافِرينَ مِنْ نورِ الهِدايَةِ والبَلاغَةِ، إلى ظُلُماتِ الضَّلالَةِ والغِوايَةِ، فإنَّ الآيَةَ مَحْمولَةٌ عَلى نَفْيِ النُّورِ بانْتِفاءِ سَبَبِهِ، فلَمَّا أَثْبَتَتْهُ الآيَةُ فُهِمَ إثْباتُهُ تَهَكُّمًا بالمُتَحَدَّثِ عَنْهُمْ، وكانَ ذَلِكَ عَلى سَبيلِ المُشاكَلَةِ قُوَّةً لَفْظِيَّةً مُؤَثِّرَةً، وهَذا اجْتِماعٌ في الفِكْرِ لَطيفٌ وفي النَّفْسِ خَفيفٌ، لهَذِهِ الأَلْوانِ البَيانِيَّةِ والفُنونِ البَديعِيَّةِ.

التَّعبير بصيغَةِ المُضارِعِ في قَوْلِهِ: ﴿يُخْرِجُونَهُم﴾:

جاءَ قَوْلُهُ تَعالى: ﴿يُخْرِجُونَهُم﴾ بصيغَةِ المُضارِعِ؛ لبَيانِ أَنَّ مَنْهَجَ الطَّاغوتِ مُتَجَدِّدٌ في إضْلالِ الكافِرينَ، وهُوَ يَقودُ إلى الهَلاكِ

(1) العكبري، شرح ديوان المتنبي: 1/304.
(2) صافي، الجدول في إعراب القرآن: 3/30
(3) التّهكّم عبارة عن إخراج الكلام على ضدّ مقتضى الحال، استهزاءً بالمخاطب، يُنظر: العلوي، الطراز لأسرار البلاغة: 3/91.
(4) المشاكلة أن تذكر الشيّء بلفظ غيره لوقوعه في صحبته، يُنظر: السكاكي، مفتاح العلوم، ص: 424.
(5) الأنصاري، فتح الرحمن، ص: 64.

السَّرْمَدِيِّ الدَّائِم، وتَجَدُّدُهُ يَدُلُّ عَلى حالِ الضَّلالَةِ التي يَعيشُها الكافِرُ مِرارًا وتَكْرارًا، وأنَّ العِنادَ ماكِثٌ تَحْتَ أَنْيابِهِ؛ لِمَنْعِ الكافِرينَ مِنْ رُؤْيَةِ أَيِّ نورٍ قَدْ يَسْطَعُ في قُلوبِهِمْ في أيِّ وَقْتٍ مِنَ الأَوْقاتِ. وليقابل ديمومة تلطّف الباري ﷻ بالذين آمنوا بتجدد إخراجهم من الظلمات إلى النور الذي أُفْصِحَ عن معناه بالفعل المضارع ﴿يُخْرِجُهُم﴾ كما سبق.

تَجَدُّدُ حالِ الضَّلالِ الذي يَعيشُهُ الكافِرُ يَدُلُّ عَلى العِنادِ في المُحافَظَةِ عَلى الكُفْرِ

بَلاغَةُ الفاصِلَةِ وارْتِباطُها بالمَعاني الإشارِيَّةِ في الآيَةِ:

إيثارُ الإشارَةِ إلى الكافِرينَ بالبَعيدِ لبَيانِ حالِهِمْ، وأنَّهُمْ في مَنْزِلَةٍ راسِخَةٍ مِنْ مُلازَمَةِ النَّارِ التي عُرِفوا بأَنَّهُمْ أَصْحابُها، فأَفادَ تَعْريفُهُمْ باسْمِ الإشارَةِ اخْتِصاصَهُمْ بهَذا الوَصْفِ، فهُمْ أَصْحابُ النَّارِ الحَقيقونَ بها دونَ سِواهُمْ، وهَذا فيهِ مِنَ التَّشْنيعِ عَلَيْهِمْ والتَّبْشيعِ لحالِهِمْ بما يُؤَكِّدُ أَنَّهُمْ في الظُّلُماتِ ماكِثونَ. وفي هذه الإشارة أيضًا "بيانٌ إلى أن أحوالهم التي عرفوا بها من كفرهم، ورضاهم بالطغيان حاكمًا عليهم متحكمًا فيهم مسيطرًا على قلوبهم، هي السبب في ذلك الحكم الخالد عليهم، وهو أنهم أصحاب النار"[1].

الإشارَةُ بالبَعيدِ لإفادَةِ رُسوخِهِمْ في النَّارِ مُلازَمَةً وعَذابًا

فاصِلَةُ الآيَةِ تُشيرُ إلى مَعْنًى ضِمْنِيٍّ مَآلِيٍّ أُخْرَوِيٍّ للفَريقَيْنِ، فإخْراجُ المُؤْمِنينَ مِنَ الظُّلُماتِ إلى النُّورِ إشارَةٌ إلى إخْراجِهِمْ مِنْ ظُلُماتِ النَّارِ إلى نورِ الجِنانِ، وإخْراجُ الكافِرينَ مِنَ النُّورِ إلى الظُّلُماتِ إشارَةٌ إلى إخْراجِهِمْ مِنْ نورِ الجِنانِ إلى ظُلُماتِ النَّارِ.

دَلالَةٌ إشارِيَّةٌ للفَريقَيْنِ

ذِكْرُ أَصْحابِ النّارِ دونَ أَصْحابِ الجَنَّةِ اكْتِفاءٌ بَديعٌ، وذَلِكَ لرُسوخِ العِلْمِ بحالِهِمْ في الآخِرَةِ، فهُمْ في مَنْزِلَةٍ عالِيَةٍ وصُحْبَةٍ شَريفَةٍ دانِيَةٍ، وهَذا يُرَسِّخُ طُمَأْنينَةَ أَصْحابِ الجَنَّةِ بمَصيرِهِمْ، مِمَّا يَزيدُ غَيْظَ أَصْحابِ النَّارِ مِنْ مَآلِهِمْ، وهُوَ ما يَتَّسِقُ مَعَ النَّصِّ عَلى الوَعيدِ عَدالَةً في التَّبْليغِ، والإشارَةِ إلى الوَعْدِ فَضْلًا وإحْسانًا.

بَديعُ الاكْتِفاءِ

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 2/954.

ذِكْرُ الصُّحْبَةِ دونَ مُرادِفاتِها إشارَةٌ إلى الوَصْفِ الجامِعِ بَيْنَ السَّبَبِ والمُسَبَّبِ

ناسَبَ ذِكْرُ وَصْفِ الصُّحْبَةِ دونَ غَيْرِها مِنَ المُرادِفاتِ؛ لأَنَّ الكافِرينَ كانوا بِمُوالاتِهِمْ للطّاغوتِ مُصاحِبينَ لَهُ، بدَيْمومَةِ العَلاقَةِ ولُزومِ الرَّابِطَةِ، التي أفادَها الفِعْلُ المُضارِعُ ﴿يُخْرِجُونَهُم﴾، فكانَ مِنَ المُناسِبِ ذِكْرُ الوَصْفِ الجامِعِ في الكافِرينَ بَيْنَ السَّبَبِ والمُسَبَّبِ عَنْهُ، وهِيَ صُحْبَةُ الكافِرينَ للطَّاغوتِ في الدُّنيا وصُحْبَةُ النَّارِ في الآخِرَةِ، فمَنْ صَحِبَ السَّبَبَ صَحِبَ المُسَبَّبَ عَنْهُ، وتُقَوِّيهِ جُمْلَةُ: ﴿هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾، فلمَّا كانوا مُلازِمينَ للطَّاغوتِ في الدُّنْيا شابَهَتْ دَيْمومَةُ مُلازَمَتِهِمُ الخُلودَ في الآخِرَةِ، وهَذا مِنْ تَمامِ العَدْلِ الإلَهيِّ. قال أبو زهرة: "وفي التّعبير بأصحاب النار إشارة إلى ملازمتهم لها، وبقائهم فيها، واختصاصها بهم؛ لأن أصحاب جمع صاحب، والصاحب هو الرفيق الملازم الذي اختصصت بصحبته، فهذا التعبير أفاد ملازمتهم للنار واختصاص النار بهم"[1].

ذِكْرُ النَّارِ دونَ جَهَنَّمَ أَوِ السَّعيرِ

جاء اخْتِيارُ لَفْظِ النَّارِ دونَ مُرادِفاتِها؛ لأَنَّها العَذابُ الأَشْهَرُ، ولِمُناسَبَةِ لَفْظِ النَّارِ للَفْظِ النُّورِ، فالدَّاخِلُ في النُّورِ في الدُّنْيا خارِجٌ مِنَ النَّارِ، والخارِجُ مِنَ النُّورِ داخِلٌ في النَّارِ، ويَتَرَتَّبُ عَلَيْهِ أَنَّ الدَّاخِلَ في النَّارِ في الآخِرَةِ خارِجٌ مِن نورِ الجِنانِ، والخارِجُ مِنْ نورِ الجِنانِ داخِلٌ في النَّارِ، وهَذا مِنْ بَديعِ التَّناسُبِ اللَّفْظِيِّ في القُرْآنِ الكَريمِ.

قال الحرالّيّ: وجعل الخلود وصفاً لهم إشعاراً بأنهم فيها وهم في دنياهم[2].

وجه التوكيد ترسيخ اختصاص النّار بهم، وأبديّة مكوثهم فيها

بلاغة التوكيد في الفاصلة:

قال أبو زهرة: "وفى قوله تعالى: ﴿هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ تأكيد لبقائهم فيها واختصاصها بهم دون غيرها؛ ذلك لأن التعبير بالجملة الاسمية فيه تأكيد، وتكرار المسند إليه بذكر كلمة ﴿هُمْ﴾،

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 2/954.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 4/47

فيه فضل تأكيد، وتقديم الجار والمجرور وهو ﴿فِيهَا﴾؛ دليلٌ على اختصاصها بخلودهم فيها فلا منفذ لهم في غيرها؛ لأنهم سدوا على أنفسهم باب النور في الدنيا، فسدت عليهم أبواب الرحمة في الدنيا والآخرة"[1].

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الضِّياء والنُّور:

الضِّياءُ ما يَتَخَلَّلُ الهَواءَ مِنْ أَجْزاءِ النُّورِ، فيَبْيَضَّ بذَلِكَ، وهُوَ النُّورُ السَّاطِعُ القَوِيُّ، الَّذي يُوَضِّحُ الأَشْياءَ؛ لأَنَّهُ يُضيءُ للرَّائي، وأَمَّا النُّورُ فهُوَ الشُّعاعُ، فالفَرْقُ بَيْنَهُما يَكْمُنُ في أَمْرَيْنِ:

الأَوَّلُ: النُّورُ أَعَمُّ مِنَ الضِّياءِ، مِنْ جِهَتَيْنِ:

الأولى: يَصْدُقُ عَلى الشُّعاعُ الضَّعيفِ والقَوِيِّ، فضِياءُ الشَّمْسِ نورٌ، ونورُ القَمَرِ لَيْسَ بضِياءٍ، فكُلُّ ضِياءٍ نورٌ، ولَيْسَ كُلُّ نورٍ ضِياءً.

الثَّانِيَةُ: الضِّياءُ يُسْتَعْمَلُ في المَحْسوساتِ، بَيْنَما النُّورُ يُسْتَعْمَلُ في المَحْسوساتِ والمَعْنَوِيَّاتِ.

الثاني: الضِّياءُ أَقْوى مِنَ النُّورِ مِنْ حَيْثُ الأَثَرُ، ولذَلِكَ ارْتَبَطَ بالشَّمْسِ، بخِلافِ النُّورِ فارْتَبَطَ بالقَمَرِ[2]، قال تَعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا﴾ [يونس: 5].

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 2/954.

(2) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 311، والزمخشري، الكشاف: 2/329، والرازي، التفسير الكبير: 17/209، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/94.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾﴾ [البقرة: 258]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

تتجلى مُناسَبَةُ هَذِهِ الآيَةِ لما قَبْلَها، في كَوْنِها مِثالًا ناصِعًا كاشِفًا لتَوَلِّي اللهِ لعِبادِهِ المُؤْمِنينَ، ووِلايَةِ الطّاغوتِ لعِبادِهِ الكافِرينَ، فإبْراهيمُ عليه السلام هُوَ مِثالُ مَنْ تَوَلَّاهُ اللهُ فأَخْرَجَهُ مِنَ الظُّلُماتِ إلى النُّورِ، ونُمْرودُ هُوَ مِثالُ مَنْ تَوَلَّاهُ الطّاغوتُ فأَخْرَجَهُ مِنَ النُّورِ إلى الظُّلُماتِ.

وبَراعَةُ هَذِهِ المُناسَبَةِ أنَّها أتَتْ بشَخْصِيَّةٍ يَعْتَزُّ بها المُشْرِكونَ؛ لتَكونَ حُجَّةً ظاهِرَةً عَلَيْهِمْ، في إثْباتِ البَعْثِ ضِمْنًا، وتَوْحيدِ اللهِ في رُبوبِيَّتِهِ وأُلوهِيَّتِهِ صَراحَةً، وفيها إشارَةٌ إلى أنَّ مَصيرَ المُشْرِكينَ أنْ يُبْهَتوا كما بُهِتَ هَذا الظّالِمُ، وهِيَ مِنْ بَدائِعِ المُناسَباتِ في القُرْآنِ الكَريمِ، بتَوْظيفِ المَثَلِ القُرْآنيِّ؛ ليَكونَ دَليلًا وبُرْهانًا عَلى صِحَّةِ أَدِلَّةِ القُرْآنِ النَّظَرِيَّةِ، فوَقَعَتْ هَذِهِ الآيَةُ مِنَ الآيَةِ السّابِقَةِ مَوْقِعَ التَّمْثيلِ مِنَ التَّنْظيرِ.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿حَآجَّ﴾: المُحاجَّةُ: إظْهارُ البَيِّناتِ والبَراهينِ بقُوَّةٍ واقْتِدارٍ مَعَ الخَصْمِ، والحُجَّةُ: البُرْهانُ المُصَدِّقُ للدَّعْوى، وجَمْعُها: حُجَجٌ، وفِعْلُ ﴿حَآجَّ﴾ جاءَ عَلى زِنَةِ المُفاعَلَةِ، والفِعْلُ حاجَجْتُهُ فحَجَجْتُهُ، واحْتَجَجْتُ عَلَيْهِ، والمُحاجَّةُ: المُقاوَمَةُ في إظْهارِ الحُجَّةِ، والمَحَجَّةُ: قارِعَةُ الطَّريقِ الواضِحِ، وهُوَ أَصْلُ الحُجَّةِ؛ لأَنَّهُ بها يُقْصَدُ الحَقُّ المَطْلوبُ، والحُجَّةُ: الدَّلالَةُ المُبَيِّنَةُ للمَحَجَّةِ، أَيْ: المَقْصَدُ المُسْتَقيمُ الَّذي يَقْتَضي صِحَّةَ أَحَدِ النَّقيضَيْنِ[1].

(1) الخليل، العين، وابن فارس، المقاييس: (حجج)، والراغب، تفسير الراغب: 1/536، والمفردات، ص: 219، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/32.

ولَمْ تُسْتَعْمَلِ الحُجَّةُ ومُشْتَقَّاتُها في القُرْآنِ الكَريمِ إلا في حَقْلِ العَقيدَةِ، سَواءٌ في مُحاجَّةِ المُشْرِكينَ، كقَوْلِهِ تَعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ﴾ [البقرة: 258]، أَم أَهْلِ الكِتابِ كقَوْلِهِ: ﴿يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [آل عمران: 65].

2) ﴿فَبُهِتَ﴾: البَهْتُ: انْقِطاعٌ عَنِ الكَلامِ أَوِ الفِعْلِ مَعَ حَيْرَةٍ لِسَبَبٍ غَيْرِ مُتَوَقَّعٍ، وأصله مَأْخوذٌ مِنْ قَوْلِهِمْ: بَهَتَ الفَحْلَ عَنِ النَّاقَةِ، أي: نَحَّاهُ ليَحْمِلَ عَلَيْها فَحْلًا أَكْرَمَ مِنْهُ، فتَنْحِيَةُ الفَحْلِ عَنِ النَّاقَةِ حينَ إتْيانِها هُوَ قَطْعٌ ودَهْشَةٌ، تُوَلِّدُ حَيْرَةً واضْطِرابًا، فعلى هذا مَدارُ المَعْنى.

ويُطْلَقُ عَلى فِعْلِكَ بالإِنْسانِ ما يُحَيِّرُه، وسُمِّيَ الكَذِبُ المُسْتَقْبَلُ بِهِ الإِنْسانُ بُهْتانًا؛ لتَحَيُّرِ صاحِبِهِ فيه، وذَلِكَ لا يَكونُ إِلَّا مُواجَهَةً بما لَمْ يَقُلْ، ويُقالُ: بُهِتَ الرَّجُلُ فهُوَ مَبْهوتٌ، إذا اسْتَوْلَتْ عَلَيْهِ الحُجَّةُ[1].

واسْتُعْمِلَ البَهْتُ في القُرْآنِ في الأُمورِ الكُبْرى، كما في قَوْلِهِ تَعالى: ﴿قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ﴾، وقَوْلِهِ: ﴿بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا﴾ [الأنبياء: 40].

ومِثْلُهُ البُهْتانُ، وهُوَ الباطِلُ والكَذِبُ الَّذي يُتَحَيَّرُ مِنْهُ؛ لشِدَّةِ وَقْعِهِ وعَدَمِ تَوَقُّعِهِ، مِنْ مِثْلِ قَوْلِهِ تَعالى: ﴿وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَـٰنًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾﴾ [النساء: 156]، وقَوْلِهِ: ﴿سُبْحَـٰنَكَ هَـٰذَا بُهْتَـٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾﴾ [النور: 16]، وكَثُرَ اسْتِعْمالُ البُهْتانِ في القُرْآنِ الكَريمِ فيما كانَ أَثَرُهُ عَظيمًا عَلى المُجْتَمَعِ والأُسْرَةِ، وهُوَ ما يَسْتَرْعي انْتِباهَ المُتَدَبِّرِ إلى أَنَّ شَرَّ البُهْتانِ يَعُمُّ ولا يَخُصُّ.

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

تُبَيِّنُ الآيَةُ طَريقَةَ الأَنْبِياءِ في المُحاجَّةِ بمِثالٍ تَطْبيقِيٍّ - من أبيهم إبراهيمَ عليه السلام، مع الرَّجلِ الجبَّارِ الذي وهَبه اللهُ المُلْكَ - في إِثْباتِ تَوْحيدِ اللهِ وربوبيَّته ببَيانِ أَنَّهُ لا قادِرَ عَلى الإِحْياءِ والإِماتَةِ إِلَّا اللهُ سُبْحانَهُ وتَعالى، إذ أخبره إبراهيم عليه السلام أنَّ اللهَ يحيي ويميت،

(1) ابن قتيبة، تفسير غريب القرآن، ص: 94، وابن دريد، جمهرة اللغة: (بهت)، وغلام ثعلب، ياقوتة الصراط، ص: 181، والأزهري، تهذيب اللغة: (بهت)، والهروي، الغريبين: 1/225، وابن سيده، المخصص: (بهت)، والراغب، المفردات، ص: 148، والراغب، تفسير الراغب: 1/536.

إثْباتُ عَقيدَةِ التَّوْحيدِ والبَعْثِ، بأُسْلوبٍ حِجاجِيٍّ مُنْقَطِعِ النَّظيرِ

مستدلًا بذلك على وجود الرب تعالى، فردَّ عليه الملك- عنادًا- بأنه أيضًا يملك أن يفعل هذا الفعل؛ فالإحياء - عنده - استبقاءُ من أراد قتله، والإماتةُ قتلُ من أراد إماتته، فردَّ عليه إبراهيم عليه السلام بحجة قاطعةٍ بأنَّ اللّه يأتي بالشمس كلَّ يوم من جهة المشرق، فإن كان إلهًا حقًّا، يحيي ويميت، فليجعلها تطلع من جهة المغرب، فعلم هذا المحاجِجُ أنه انقطع عن الحُجَّة، فتحيَّر واندهش، واللّه تعالى لا يوفِّق من ظلم نفسه بإيثاره الكفرَ على الإيمان.

ففي الآيةِ إثْباتُ عَقيدَةِ التَّوْحيدِ والبَعْثِ، بأُسْلوبٍ حِجاجِيٍّ مُنْقَطِعِ النَّظيرِ؛ لإقامَةِ الحُجَّةِ عَلى مَنْ يَزْعَمُ انْتِسابَهُ إلى إبْراهيمَ عليه السلام، وبَيانِ ضَلالِ الظَّالِمينَ في ظُلُماتِ الجَهلِ والضَّياعِ.

الإيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

بَلاغَةُ الأُسْلوبِ التَّرْكيبِيِّ ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى﴾:

جَرى هَذا التَّرْكيبُ مَجْرى الأَمْثالِ للحَضِّ عَلى العِلْمِ، و التَّأْكيدِ عَلى أَهَمِّيَّتِهِ

ابْتَدَأَتِ الآيَةُ بتَرْكيبٍ بَديعٍ كَثُرَ اسْتِعْمالُهُ في القُرْآنِ الكَريمِ اسْتِعْمالَ الأَمْثالِ[1]، وهُوَ ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى﴾، واسْتُعْمِلَ في مُخاطَبَةِ مَنْ لَمْ يَرَ ولَمْ يَسْمَعْ؛ لأَنَّهُ جَرى مَجْرى المَثَلِ في مَعْنى التَّعْجيبِ. قال الزجاج: "هذه كلمة يُوقَفُ بها المخاطَبُ على أمر يعجب منه، ولفظها لفظ استفهام، تقول في الكلام: ألم تر إلى فلان صنع كذا وصنع كذا"[2]، ومَضْمونُ هَذا التَّرْكيبِ " إثارة الاهتمام والتقرير، وتثبيت المعنى في نفس القارئ والسامع"[3]. و الحَثُّ والتَّحْريضُ عَلى العِنايَةِ بالمَذْكورِ بَعْدَهُ مِمَّا لَمْ يَرَهُ المُخاطَبُ عِيانًا، تَنْزيلًا لِمَنْ لَمْ يَرَ ولَمْ يَسْمَعْ مَنْزِلَةَ مَنْ رَأى وسَمِعَ، زِيادَةً في التَّأْكيدِ عَلى أَهَمِّيَّتِهِ؛ لما يَحْتَويهِ مِنْ غَرابَةٍ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/477.
(2) الزجاج، معاني القرآن وإعرابه: 1/340.
(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 2/883

وتَعَجُّبٍ. قال الطِّيبي: "وأما معنى ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ ففيه تنبيه للمخاطب على التعجيب فيما يشاهده"[1].

وفي التركيب دلالة الاختصاص

قال أبو حيّان: "وفي قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى﴾ دليلٌ على الاختصاص؛ لأنهم قد ذكروا أن الخبر إذا كان بمثل هذا، دلَّ على الاختصاص، فتقول: زيد الذي يصنع كذا، أي: المختص بالصنع"[2]. وفيه إلماح بكونه مختصًّا بالمحاجّة.

تنوُّع معاني همْزَة الاسْتِفْهام تَعَجُّبًا وتَقْريرًا وإنْكارًا

لِهَمْزَةِ الاسْتِفْهامِ ثَلاثَةُ أَوْجُهٍ مِنَ المَعاني:

الوَجْهُ الأَوَّلُ: أَنْ يَكونَ الاسْتِفْهامُ مُسْتَعْمَلًا في التَّعَجُّبِ أَوِ التَّعْجيبِ مِنْ عَدَمِ عِلْمِ المُخاطَبِ بِمَفْعولِ فِعْلِ الرُّؤْيَةِ، ويَكونُ فِعْلُ الرُّؤْيَةِ عِلْمِيًّا مِنْ أَخَواتِ ظَنَّ.

الوَجْهُ الثَّاني: أَنْ يَكونَ الاسْتِفْهامُ تَقْريرِيًّا، إيذانًا بِأَنَّ القِصَّةَ مِنَ الشُّهْرَةِ بِحَيْثُ يَحِقُّ لِكُلِّ أَحَدٍ أَنْ يُحْمَلَ عَلى الإِقْرارِ بِرُؤْيَتِها، وإِنْ لَمْ يَكُنْ رَآها أَوْ سَمِعَ بِها.

الوَجْهُ الثَّالِثُ: أَنْ يَكونَ الاسْتِفْهامُ إِنْكارِيًّا؛ لِعَدَمِ عِلْمِ المُخاطَبِ بِمَفْعولِ فِعْلِ الرُّؤْيَةِ، وذَلِكَ لِإيلاءِ حَرْفِ النَّفْيِ هَمْزَةَ الاسْتِفْهامِ، فالاسْتِنْكارُ واقِعٌ عَلى نَفْيِ الرُّؤْيَةِ التي يَجِبُ أَنْ تَكونَ مَعْلومَةً[3].

وهَذِهِ الأَوْجُهُ الثَّلاثَةُ مُرادَةٌ وصَحيحَةٌ في ذاتِها، فَهَمْزَةُ الاسْتِفْهامِ لِإنْكارِ النَّفْيِ وتَقْريرِ المَنْفِيِّ، ومَقْصودُها التَّعْجيبُ مِمَّنْ هَذِهِ حالُهُ، وهَذا مِنْ بَليغِ اسْتِعْمالِ السِّياقِ القُرْآنِيِّ لِلاسْتِفْهامِ.

تضمينُ فِعْلِ الرُّؤْيَةِ مَعْنى النَّظَرِ والوُصولِ

بِناءً عَلى الأَوْجُهِ الثَّلاثَةِ، لا بُدَّ مِنْ تَضْمينِ فِعْلِ الرُّؤْيَةِ المُتَعَدِّي بِحَرْفٍ إِلى مَعْنى النَّظَرِ في الأَوْجُهِ الثَّلاثَةِ؛ لِيَحْصُلَ الادِّعاءُ بِأَنَّ

(1) الطيبي، فتوح الغيب: 3/503
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 2/299
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/476-477.

هَذا الأَمْرَ المُدْرَكَ بالعَقْلِ كأَنَّهُ مُدْرَكٌ بالنَّظَرِ؛ لكَوْنِهِ بَيِّنَ الصِّدْقِ لِمَنْ عَلِمَهُ، أو مَعْنى الوُصولِ والانْتِهاءِ، عَلى مَعْنى: أَلَمْ يَنْتَهِ عِلْمُكَ إِلَيْهِمْ[1]؟! والمَقْصودُ هُوَ أَنْ يَعْلَمَ المُخاطَبُ ذَلِكَ الأَمْرَ عِلْمًا يَقينِيًّا كأَنَّهُ مُشاهَدٌ أمامَهُ، وهَذا هُوَ غايَةُ التَّضْمينِ[2].

التَّحْريضُ مَعْنىً كِنائِيٌّ؛ إِذْ إِنَّهُ لازِمُ الاِسْتِفْهامِ

استُفيدَ التَّحْريضُ عَلى الأَوْجُهِ الثَّلاثَةِ مِنْ طَريقِ الكِنايَةِ بلازِمِ مَعْنى الاِسْتِفْهامِ؛ لأَنَّ شَأْنَ الأَمْرِ المُتَعَجَّبِ مِنْهُ، أَوِ المُقَرِّ بِهِ، أَوِ المَنْكورِ عِلْمُهُ، أَنْ يَكونَ شَأْنُهُ أَنْ تَتَوَفَّرَ الدَّواعي عَلى عِلْمِهِ، وذَلِكَ مِمَّا يَحُثُّ ويُحَرِّضُ عَلى عِلْمِهِ[3].

بلاغة الاستعارة في التركيب:

إنّ النظر قد يتعرى عن الرؤية، وفي الاستعارة حثٌّ على نظرٍ ناتج للرؤية

قال الراغب: "أصل تعدية الفعل (رأيت) بنفسه دون الجار، لكن لما استعير قولهم ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ لمعنى: (ألم تنظر) عدى تعديته، وفائدة استعارته أن النظر قد يتعرَّى عن الرؤية، فإذا أريد الحثّ على نظر ناتج لا محالة للرؤية استعيرت له، وقلَّ ما استعمل ذلك في غير التقرير"[4].

بديع التعبير بالحيدة، والانتقال:

هو انتقال إلى استدلال لا يجد فيه المحاجج وجهًا يتخلّص منه

تندرج الآية المباركة ضمن فن (الحيدة، والانتقال)[5]، فقد علم نبيّ الله ابراهيم عليه السلام أنّ المحاجج لم يفهم معنى (الإحياء والإماتة)، فانتقل عليه السلام إلى استدلال لا يجدُ له وجها يتخلّص منه، فقال: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأۡتِي بِٱلشَّمۡسِ مِنَ ٱلۡمَشۡرِقِ فَأۡتِ بِهَا مِنَ ٱلۡمَغۡرِبِ﴾ لينقطع، وينتهي الجدل بقوله: ﴿فَبُهِتَ ٱلَّذِي كَفَرَۗ﴾[6].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/476-477

(2) القونوي، حاشية القونوي: 4/164، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 2/883

(3) الزمخشري، الكشاف: 1/290، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/237، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/477.

(4) الراغب، تفسير الراغب: 1/499 (بتصرّف يسير).

(5) الحيدة، والانتقال: هو أن يجيب المسؤول بجواب لا يصلح أن يكون جوابًا عما سئل عنه، أو ينتقل المستدلّ إلى استدلال غير الذي كان آخذًا فيه ويكون هذا الضرب من البلاغة إذا أتى به المستدلّ بعد معارضته بما يدلّ على أنّ المعارض لم يفهم وجه استدلاله. ينظر: الإندونيسي، الشامل في بلاغة القرآن: 1/131.

(6) الإندونيسي، الشامل في بلاغة القرآن: 1/131.

بَراعَةُ التَّعْبيرِ بالمُحاجَّةِ دونَ المُجادَلَةِ:

لسائلٍ أَنْ يَسْأَلَ عَنْ سِرِّ اخْتِيارِ كَلِمَةِ ﴿حَآجَّ﴾ دونَ (جادَلَ)، مَعَ أَنَّ المَقامَ في الظّاهِرِ أَقْرَبُ أَنْ يَكونَ جِدالًا مِنْهُ مُحاجَّةً، وقَدْ أُسْنِدَ فِعْلُ ﴿حَآجَّ﴾ إلى المُخاصِمِ في رَبِّه، ويَرْجِعُ سَبَبُ ذَلِكَ إلى الأُمورِ الآتِيَةِ:

الأَوَّلُ: الَّذي ابْتَدَأَ الكَلامَ هُوَ إِبْراهيمُ عليه السلام، فناسَبَ أَنْ يَكونَ ما ابْتَدَأَهُ حِجاجًا.

الثّاني: نُظِمَتِ القِصَّةُ عَلى أُسْلوبِ الإِجْمالِ والإيجازِ، فناسَبَ وَصْفُها بالمُحاجَّةِ.

الثّالِثُ: انْتَهَتِ المُحاجَّةُ في انْقِطاعِ المُخاصِمِ الكافِرِ وتَحَيُّرِه، فظَهَرَتِ الحُجَّةُ للمُحِقِّ، وهَذا حِجاجٌ لا جِدالَ، إِذِ العِبْرَةُ بالنِّهاياتِ، ومَنْ أَشْرَقَتْ بِداياتُهُ أَشْرَقَتْ نِهاياتُهُ.

الرّابِعُ: اخْتَصَّ وَصْفُ مُحاوَراتِ إِبْراهيمَ عليه السلام في القُرْآنِ بالحِجاجِ، كقَوْلِهِ تَعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦۚ﴾ [الأنعام: 83]، فائْتَلَفَتِ الأَلْفاظُ وتَجانَسَتْ.

الخامِسُ: شابَهَتِ القِصَّةُ ما كان مِنْ قَوْمِ إِبْراهيمَ عليه السلام في مُحاجَّتِهِمْ: ﴿وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِۚ﴾ [الأنعام: 80]، فبُنِيَ نَظْمُ الآيَتَيْنِ عَلى إِغْفالِ كَلامِ الخُصومِ، والعِنايَةِ بالحُجَّةِ التي ذَكَرَها إِبْراهيمُ عليه السلام، فحَسُنَ أَنْ يَتَجاوَبَ النَّظْمُ، أُسْلوبًا ولَفْظًا.

اخْتِيارُ الأَلْفاظِ قائِمٌ عَلى اعْتِبارِ المَقاصِدِ والمَضامينِ والخَواتيمِ

بَلاغَةُ (الاِسْتِخْدامِ) في الآيةِ[1]:

يُحْتَمَلُ عَوْدُ الضَّميرِ في ﴿رَبِّهِۦٓ﴾، إِمَّا إلى إِبْراهيمَ، وتَكونُ الإِضافَةُ حينَئِذٍ لتَشريفِ المُضافِ إِلَيْهِ، وإِمَّا إلى الاِسْمِ المَوْصولِ،

وجهُ (الاِسْتِخْدامِ) بَيانُ مَعْنَيَيْنِ مُتَناقِضَيْنِ، تَشْريفًا لأَحَدِهِما، وتَشْنيعًا عَلى الآخَرِ

(1) الاستخدام: "إطلاق لفظ مشترك بين معنيين، فتريد بذلك اللفظ أحدَ المعنيين، ثم تعيد عليه ضميرًا تريد به المعنى الآخر، أو تعيد عليه -إن شئتَ- ضميرين، تريد بأحدهما أحد المعنيين، وبالآخر المعنى الآخر". ابن حجة، خزانة الأدب وغاية الأرب: 1/119.

وتَكونُ الإضافَةُ لإظْهارِ غَلَطِ المُخاصِمِ إبْراهيمَ عليه السلام؛ لأنَّهُ يُخاصِمُهُ في رَبِّهِ[1]، وهَذا مِنْ قَبيلِ "الاسْتِخْدام" في عِلْمِ البَديعِ، في اسْتِعْمالِ المُشْتَرَكِ في مَعْنَيَيْهِ؛ لصِحَّةِ ذَلِكَ لَفْظًا ومَعْنًى، وقَدْ صَحَّ هُنا عَوْدُ الضَّميرِ إلى الاثْنَيْنِ، تَشْريفًا لأَحَدِهِما وهُوَ إبْراهيمُ؛ لأنَّهُ أَقْرَبُ مَذْكورٍ، وتَشْنيعًا عَلى الآخَرِ لأَنَّ اللهَ آتاهُ المُلْكَ، وهَذا مِنْ بَلاغَةِ النَّظْمِ الكَريمِ، وقُوَّةِ سَبْكِهِ، حَيْثُ تُقْرَأُ الآيَةُ عَلى الاحْتِمالَيْنِ فتَجِدُها مُتَّسِقَةً مُنْسابَةً.

التَّعَرُّضُ لعُنْوانِ الرُّبوبِيَّةِ دونَ الأُلوهِيَّةِ:

إيثارُ لفظ الرَّبِّ ليَتَّسِعَ الاحْتِمالُ في عَوْدَةِ الضَّميرِ إلى ذاتَيْنِ، وبَيانُ أَنَّ المُنازَعَةَ في الرُّبوبِيَّةِ

جرى إيثارُ عُنْوانِ الرُّبوبِيَّةِ في قَوْلِهِ تَعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ﴾ دون الأُلوهِيَّةِ، ليَتَّسِعَ الاحْتِمالُ في عَوْدَةِ الضَّميرِ إلى إبْراهيمَ عليه السلام، وإلى المَقْصودِ بالاسْمِ المَوْصولِ، فإنَّ اللهَ رَبُّ الاثْنَيْنِ، والمُنازَعَةُ كانَتْ في الرُّبوبِيَّةِ، كَما هُوَ ظاهِرٌ في قَوْلِ إبْراهيمَ: ﴿رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾، وفي قَوْلِ المَأْفونِ: ﴿أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ﴾، فكانَ المُناسِبُ إظْهارَ عُنْوانِ الرُّبوبِيَّةِ، لبَيانِ أَنَّ مَدارَ النِّزاعِ عَلَيْها.

بيانُ إيثارِ الإظْهارِ على الإضْمارِ:

في الإظْهارِ بَيانٌ لكُنودِ الكافِرِ، وشِدَّةِ خُصومَتِهِ، وإيذانٌ بتَأْييدِ الوَلِيِّ

أَظْهَرَتِ الآيَةُ لَفْظَ الجَلالَةِ في قَوْلِهِ: ﴿أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ﴾، تَرْبِيَةً لِلْمَهابَةِ في قُلوبِ المُخاطَبينَ، ولبَيانِ عَظيمِ الاجْتِراءِ في حَقِّ اللهِ تَعالى، فإنَّ إظْهارَ الاسْمِ الكَريمِ لَيْسَ كإضْمارِهِ، وهَذا ما يَكْشِفُ جَمالَ ذِكْرِ لَفْظِ الجَلالَةِ، فذِكْرُهُ جاءَ عَلى سَبيلِ الامْتِنانِ، المُتَضَمِّنِ بَيانَ كُنودِ الكافِرِ المُخاصِمِ، فكانَ ذِكْرُ الرُّبوبِيَّةِ تَوْطِئَةً موصِلَةً لبَيانِ غُلُوِّ الجُحودِ، وهِيَ كذَلِكَ "إيذانٌ مِنْ أَوَّلِ الأَمْرِ بتَأْييدِ وَلِيِّهِ لَهُ في المُحاجَّةِ؛ فإنَّ التَّرْبِيَةَ نَوْعٌ مِنَ الوِلايَةِ"[2].

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 1/346، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/32.

(2) الآلوسي، روح المعاني: 2/16.

طوى ذكر ابراهيم عليه السلام في موضعين للتنويه برفعة شأنه، واحتقار الذي حاجّه والحطِّ من قدره[1].

في الإظهارِ رفعةٌ لشأنِ نبيّه عليه السلام، وحطٌّ لشأن الذي حاجّه

بَلاغَةُ التَّهَكُّمِ:

مَكْمَنُ التَّعَجُّبِ في قَوْلِهِ تَعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ﴾ هو عِلَّةُ المُحاجَّةِ، وهِيَ إيتاءُ اللهِ المُلْكَ للمُخاصِمِ، أَيْ: ألأَنْ آتاهُ اللهُ المُلْكَ يُخاصِمُ ويُشاغِبُ؟! ففي الآيَةِ تَهَكُّمٌ بَليغٌ، يَكْشِفُ عَنْ رُسوخِ الكُفْرِ في قَلْبِهِ، وَضْعًا للمُحاجَّةِ التي هِيَ أَقْبَحُ وجوهِ الكُفْرِ مَوْضِعَ ما يَجِبُ عَلَيْهِ مِنَ الشُّكْرِ[2]، كما في قَوْلِهِ: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [الواقعة: 82].

كشف التَّهَكُّم رُسوخَ الكُفْرِ في قَلْبِ المُخاصِمِ، إذْ وَضَعَ الكُفْرَ مَوْضِعَ الشُّكْرِ

قال ابن عاشور: "وقوله: ﴿أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ﴾ تعليل حُذفت منه لام التعليل، وهو تعليل لما يتضمنه ﴿حَآجَّ﴾ من الإقدام على هذا الغلط العظيم الذي سَهَّلَه عنده ازدهاؤه وإعجابه بنفسه، فهو تعليل محض وليس علّة غائية مقصودة للمُحاجِّ من حجاجه. وجَوَّزَ صاحب الكشاف أن يكون تعليلًا غائيًّا أي حاجَّ لأجل أن الله آتاه الملك، فاللام استعارة تبعيَّة لمعنى يؤدى بحرف غير اللام، والداعي لهاته الاستعارة التَّهكُّمُ، أي أنه وضع الكفر موضع الشكر كما في أحد الوجهين في قوله تعالى: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [الواقعة: 82]، أي جزاء رزقكم"[3].

وفي جملة التعليل وجهُ استعارةٍ تبعيّةٍ داعيها التهكّمُ

بلاغة التعبير بالجملة الإسميّة:

وجاء بقوله: ﴿رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾، مبتدأً وخبرًا؛ للدلالة على ثبوت إيجاده هو تعالى للكافر وإحيائه، وإماتته: "كأنه قال: ربي الذي يحيي ويميت هو متصرّف فيك وفي أشباهك بما لا تقدر عليه

التعبير بالجملة الإسميّة ثبوتٌ لإيجاده تعالى الكافر وإحيائه، وإماتته

(1) المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 1/143.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/251، والآلوسي، روح المعاني: 2/16.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/32.

أنت ولا أشباهك من هذين الوصفين العظميين المشاهدَيْن للعالم اللذين لا ينفع فيهما حيل الحكماء ولا طب الأطباء، وفيه إشارة أيضاً إلى المبدأ والمعاد"[1].

دلالة تضمين الجملة الاسميّة بالفعلين المضارعين:

أفاد المضارعان أن الإحياء، والإماتة هما شأنه المعهود دائمًا

وضمّن الجملة الاسميّة الدّالة على ثبوت إيجاده تعالى للكافر الفعلين المضارعين ﴿يُحْيِۦ﴾ ، و﴿وَيُمِيتُ﴾ للدّلالة على التجدد والاستمرار، لإفادة أن هذا شأنه دائما كما هو معهود معروف لمن نظر في الأكوان نظر المفكر المستدل[2].

فائِدَةُ الإخْبارِ بالاِسْمِ المَوْصولِ:

إفادَةُ الإخْتِصاصِ، إثْباتًا للهِ تَعالى، ونَفْيًا عَمَّنْ سِواهُ، بِقَصْدِ التَّعْريضِ

جاءَ ذِكْرُ صِفَةِ الإحْياءِ والإماتَةِ صِلَةً للْمَوْصولِ: ﴿إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّيَ ٱلَّذِى يُحْيِۦ وَيُمِيتُ﴾، ولَمْ يَأْتِيا خَبَرًا مُباشِرًا، فلَمْ يَقُلْ: (رَبِّي يُحْيي ويُميتُ)، ذَلِكَ أَنَّ الإخْبارَ بالاِسْمِ المَوْصولِ أَقْوى مَنَ الإخْبارِ بالجُمْلَةِ الفِعْلِيَّةِ؛ لإفادَتِهِ الاِخْتِصاصَ، والتَّعْريضَ، فكَأَنَّهُ قالَ: رَبِّي هُوَ الذي يُحْيي ويُميتُ دونَ سِواهُ، ولَوْ قالَ: رَبِّي يُحْيي ويُميتُ، لأَفادَ مُجَرَّدَ الإخْبارِ، ولا مَعْنى لَهُ في سِياقِ الحِجاجِ، إذِ المَقْصودُ إثْباتُهُما للهِ تَعالى اخْتِصاصًا، ونَفْيُهُما عَمَّنْ سِواهُ تَعْريضًا. ولذلك عدل عن التّعبير بالموصول (مَنْ) التي فيها الإبهام إلى ﴿ٱلَّذِى﴾ الدالّ عن المعهود المعروف، للتخصيص والتعبير عن معهود شأنه[3].

بلاغة المجاز في جملة (إيتاء المُلْك):

بيانُ المجاز إظهار وجه التفضّل بإيتاء الملك

وإيتاءُ المُلك في قوله تعالى: ﴿أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ﴾ مجازٌ في التفضّل عليه بتقدير أنْ جعله ملكًا وخوّله ذلك[4].

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 2/299.
(2) رضا، تفسير المنار: 3/39.
(3) رضا، تفسير المنار: 3/39.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/32.

توجيه المعارضة بالتعبير: ﴿أَنَا۠ أُحۡيِۦ وَأُمِيتُۖ﴾:

توجيه جملة المعارضة المشاركة في الاختصاص

قال أبو حيان: "لما ذكر إبراهيم أنّ ربَّه الذي يحيي ويميت عارضه الكافر بأنه يحيي ويميت بقوله ﴿أَنَا۠ أُحۡيِۦ وَأُمِيتُۖ﴾، ولم يقل: (أنا الذي يحيي ويميت)؛ لأنّه كان يدلّ على الاختصاص، وكان الحسّ يكذبّه؛ إذ قد حيي ناسٌ قبل وجوده وماتوا، وإنما أراد أنّ هذا الوصف الذي ادّعيتَ فيه الاختصاص لربك ليس كذلك، بل أنا مشاركُه في ذلك"[1].

بيانُ مَقْصودِ الاِخْتِصاصِ:

استدراجُ الخَصْمِ للدَّليلِ القاطِعِ، وإقامَةُ الحُجَّةِ النَّيِّرةِ، والبُرْهانِ السَّاطِعِ

إرادَةُ الاِخْتِصاصِ في كَلامِهِ عليه السلام، يَدُلُّ عَلى أَلْمَعِيَةٍ عالِيَّةٍ، وحِذْقٍ رَفيعٍ، ذَلِكَ أَنَّ بَوادِرَ ادِّعاءِ القُدْرَةِ عَلى الإحْياءِ والإماتَةِ لَدى المُخاصِمِ الفاجِرِ، غَيْرُ خَفِيَّةٍ عَنْهُ، فبادَرَهُ عليه السلام بجُمْلَةِ الاِخْتِصاصِ لِيَسْتَدْرِجَهُ فيوقِعَهُ في شَرَكِ زَعْمِهِ الباطِلِ، وهَذا ما حَصَلَ حينَ رَدَّ قائِلًا: ﴿أَنَا۠ أُحۡيِۦ وَأُمِيتُۖ﴾، فَكَرَّ عَلَيْهِ حينَئِذٍ بطَلَبِ الإتْيانِ بالشَّمْسِ مِنَ المَغْرِبِ، فوَقَعَ مَبْهوتًا مَقْطوعًا عَنِ الجَوابِ، مُتَحَيِّرًا في الرَّدِّ!! فكانَ الإخْبارُ باخْتِصاصِهِ سُبْحانَهُ بالإحْياءِ والإماتَةِ اسْتِدْراجًا ومُقَدِّمَةً للدَّليلِ القاطِعِ، وعَلَيْهِ فإبْراهيمُ عليه السلام لَمْ يَنْقَطِعْ في الحِجاجِ - كما تُوُهِّمَ - بَلْ قَطَعَ، هَذا ما يُفيدُهُ تَدَبُّرُ قَصْدِ الاِخْتِصاصِ.

نُكْتَةُ تَقْديمِ الإحْياءِ عَلى الإماتَةِ في قَوْلِهِ: ﴿يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ﴾:

إقامَةُ الحُجَّةِ النَّفْسِيَّةِ، تَوْطِئَةً للقَبولِ والإذْعانِ

تَقْديمُ الإحْياءِ عَلى الإماتَةِ امْتِنانٌ وتَرْغيبٌ وتَذْكيرٌ بما كان عَلَيْهِ المُخاصِمُ قَبْلَ وِلادَتِهِ، وهَذا مِنْ لُطْفِ الحِجاجِ والاسْتِمالَةِ، ولَوْ عَكَسَ لَفُهِمَ التَّرْهيبُ والتَّهْديدُ، فقامَتِ الحُجَّةُ النَّفْسِيَّةُ عَلى الخَصْمِ ابْتِداءً، مُسَوَّرَةً بالحُجَّةِ العقليَّةِ، تَوْطِئَةً للقَبولِ والإذْعانِ، وبِهِ تَلْتَقي

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 2/299.

مَحاسِنُ المَقاصِدِ النَّفْسِيَّةِ الهدائِيَّةِ، والمَقاصِدُ العَقْلِيَّةُ الإقْناعِيَّةُ في الحِجاجِ النَّبَوِيِّ في القُرْآنِ الكَريمِ.

علّةُ فَصْلِ الجُمَلِ في المُحاوَراتِ:

عـلّـة الـفَـصْـلِ تَنْبيهُ المُخاطَبِ، وإيـقـاظُ حِـسِّ الـيَـقَـظَـةِ في ذِهْنِهِ، كَيْ يَبْقى مُـتَـشَـوِّقًـا لما سَيُقالُ

فُصِلَتْ جُمْلَةُ ﴿قَالَ أَنَا۠ أُحْيِۦ وَأُمِيتُ﴾، وجُمْلَةُ ﴿قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ﴾ لأَنَّها اسْتِئْنافٌ بَيانيٌّ، وهَذِهِ طَريقَةُ المُحاوَراتِ في الحَدَثِ الواحِدِ،[1]. وبَلاغَتُها تَنْبيهُ المُخاطَبِ، وإيقاظُ حِسِّ اليَقَظَةِ في ذِهْنِهِ، كَيْ يَبْقى مُتَشَوِّقًا لما سيُقالُ، والانْتِقالُ في جُمْلَةِ ﴿قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ﴾ إمَّا مِنْ دَليلٍ إلى آخَرَ أشدَّ وُضوحًا، وإما أنْ يَكونَ تَتِمَّةً للدَّليلِ الأَوَّلِ.

لَطيفَةٌ بَيانِيَّةٌ في الهُروبِ مِنَ الحَقيقَةِ إلى المَجازِ

لَمَّا وَصَفَ إبْراهيمُ عليه السلام رَبَّهُ بما يَتَّصِفُ بِهِ مِنْ صِفَتَيِ الإحْياءِ والإماتَةِ عَلى الحَقيقَةِ، فزِعَ نَمْرودُ إلى المَجازِ ومَوَّهَ بِهِ عَلى قَوْمِهِ، فسَلَّمَ لَهُ إبْراهيمُ تَسْليمَ الجَدَلِ، وانْتَقَلَ مَعَهُ مِنْ أَمْرٍ يَحْتَمِلُ الحَقيقَةَ والمَجازَ، إلى أَمْرٍ لا مَجازَ فيهِ، فبُهِتَ الَّذي كَفَرَ[2].

بَلاغَةُ الفاءِ الفَصيحَةِ في الحِجاجِ القُرْآنِيِّ:

تَـرْمُـزُ الـفـاءُ الـفَـصيحَةُ إلى ضَـرورَةِ الحَـذَرِ أَثْـنـاءَ مُـحاجَّـةِ الـبـاطِـشـينَ، وتَكْمُنُ بَلاغَتُها في وَظيفَتِها الاِخْتِزالِيَّةِ

الفاءُ الواقِعَةُ في كَلامِ إبْراهيمَ عليه السلام ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِي بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ﴾ هِيَ الفَصيحَةُ، وهِيَ التي تُفْصِحُ عَنْ مُقَدَّرٍ مَحْذوفٍ، وتَقَعُ في الغالِبِ جَوابًا لشَرْطٍ مُقَدَّرٍ، ومَعْناها في الآيَةِ: إنْ كُنْتَ قادِرًا أيُّها المُخاصِمُ عَلى الإحْياءِ والإماتَةِ؛ فإنَّ اللهَ يَأْتي بالشَّمْسِ مِنَ المَشْرِقِ، فإنْ كُنْتَ صادِقًا في زَعْمِكَ فأْتِ بِها مِنَ المَغْرِبِ، فنَجِدُ أَنَّ الفاءَ الفَصيحَةَ تَكَرَّرَ مَجيئُها في هَذا السِّياقِ مَرَّتَيْنِ، لحُسْنِ تَقْديرِ المَحْذوفِ في بابِ الحِجاجِ، وتَرْمُزُ إلى ضَرورَةِ الحَذَرِ أَثْناءَ مُحاجَّةِ الباطِشينَ، وتَكْمُنُ بَلاغَتُها في وَظيفَتِها الاِخْتِزالِيَّةِ، فالحِجاجُ القَوِيُّ مُخْتَزَلٌ في مَبْناهُ، مُكْتَنَزٌ في مَعْناهُ[3].

(1) أشار ابن عاشور إلى هذا التوجيه في أكثر من موضع في تفسيره التحرير والتنوير: 8/190.
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 1/346.
(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 2/958.

سرُّ توكيد الخبر:

أكّدَ جملةَ الخبرِ ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأۡتِي بِٱلشَّمۡسِ مِنَ ٱلۡمَشۡرِقِ﴾ بـ (إنّ) لأنَّ المخاطب منكرٌ، شديدُ الإنكار بالله تعالى، مدافعٌ عن إنكاره، محتجٌّ له[1].

توكيد الخبر يناسب شدّة الإنكار

اخْتِيارُ لَفْظِ الرُّبوبِيّةِ، ولَفْظِ الجَلالَةِ في المَوْضِعِ الأَنْسَبِ بالمَقام:

جيءَ بلَفْظِ الرُّبوبِيَّةِ في قَوْلِه تَعالى: ﴿رَبِّيَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ﴾، في حين جيءَ بلَفْظِ الجَلالَةِ في قَوْلِ تَعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأۡتِي بِٱلشَّمۡسِ مِنَ ٱلۡمَشۡرِقِ﴾، وهَذا التَّنَوُّعُ لَيْسَ تَفَنُّنًا، بَلْ هُوَ ما تَقْتَضيهِ البَلاغَةُ، ويُسْنِدُهُ جَمالُ المَعْنى، فإنَّ المَأْفونَ خاصَمَ في كَوْنِه رَبًّا قادرًا عَلى الإحْياءِ والإماتَةِ، فذُكِرَ لَهُ لَفْظُ الرُّبوبِيَّةِ فيما يَدَّعيهِ، وذُكِرَ لَفْظُ الجَلالَةِ فيما لا يَقْوى عَلَيْهِ، تَعْريفًا للنَّاسِ باللهِ رَبِّ العالَمينَ، وأَنَّهُ لا رَبَّ قادِرًا سِواهُ، وليَكونَ لَفْظُ الجَلالَةِ الاِسْمَ الذي يُنْبِتُ المَهابَةَ في الصّدورِ، ويَرْسُمُ الابْتِسامَةَ عِنْدَ قِراءَتِهِ في السُّطورِ، وهُوَ ما كان. وأَفادَ الآلوسيُّ بأَنَّ اخْتِيارَ الاِسْمِ الكَريمِ جاءَ ليُقابِلَ ﴿أَنَا۠ أُحۡيِۦ وَأُمِيتُ﴾؛ ففيهِ تَرَقٍّ كالتَّرَقّي مِنَ الأَرْضِ إلى السَّماءِ[2].

التَّعْريفُ باللهِ رَبِّ العالَمينَ، وأَنَّهُ لا رَبَّ سِواهُ، مَهابَةً وجَلالَةً وتَسْليمًا

فَنُّ المُقابَلَةِ[3]:

في قَوْلِه تَعالى: ﴿إِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّيَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ﴾، وقَوْلِه تَعالى: ﴿قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأۡتِي بِٱلشَّمۡسِ مِنَ ٱلۡمَشۡرِقِ﴾، بَديعُ المُقابَلَةِ، فقابَلَتِ الآيَةُ بَيْنَ الإحْياءِ الذي هُوَ دَليلُ اسْتِمْرارِ الحَياةِ، وبَيْنَ إتْيانِ الشَّمْسِ مِنْ مَشْرِقِها الذي هُوَ دَليلُ اسْتِمْرارِ زَمانِها، وبَيْنَ الإماتَةِ الَّتي هي دَليلُ تَوَقُّفِ الحَياةِ، وبَيْنَ إتْيانِ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِها الَّذي هُوَ دَليلُ تَوَقُّفِ زَمانِها، فقابَلَتْ بَيْنَ الحَياةِ الجُزْئِيَّةِ،

أَفانينُ استِعْمالِ الأَداةِ البَلاغِيَّةِ (المُقابَلَةُ)، في إثْباتِ العَقائِدِ القُرْآنِيَّةِ (البَعْثِ)

(1) المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 1/143.

(2) الآلوسي، روح المعاني: 2/20.

(3) المقابلة: "إيرادُ الكلام، ثمّ مقابلته بمثله في المعنى واللفظ، على جهة الموافَقةِ أو المخالَفةِ". يُنظر: العسكري، الصناعتين، ص: 337.

والحَياةِ الكُلِّيَّةِ، وبَيْنَ الإماتَةِ الجُزْئِيَّةِ والإماتَةِ الكُلِّيَّةِ، وهَذا التَّقابُلُ خَفِيٌّ بَديعٌ، ونُكْتَتُهُ الدَّلالَةُ عَلى البَعْثِ، فإنَّ مَوْتَ الجُزْئِيِّ يَنْتَهي بمَوْتِ الكُلِّيِّ، وإتْيانُ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِها (المَوْتُ الكُلِّيُّ) دَليلُ البَعْثِ، فإذا وَقَعَ قامَتِ القِيامَةُ، فدَلَّتْ بَلاغَةُ المُقابَلَةِ عَلى البَعْثِ. وهَذا مِنْ أَفانينِ اسْتِعْمالِ الأَداةِ البَلاغِيَّةِ في إثْباتِ العَقائِدِ القُرْآنِيَّةِ.

أَثَرُ اخْتِيارِ لَفْظِ البَهْتِ في تَصْويرِ المَشْهَدِ القُرْآنِيِّ:

تَصْويرُ الحَيْرَةِ الفِكْرِيَّةِ، والدَّهْشَةِ النَّفْسِيَّةِ، والإنْقِطاعِ الجَدَلِيِّ، في مَشْهَدٍ غَيْبِيٍّ عَجيبٍ

اخْتارَتِ الآيَةُ لَفْظَ البَهْتِ دونَ مُرادِفاتِهِ؛ كالدَّهَشِ، أَوِ التَّحَيُّرِ، أَوِ الانْقِطاعِ، لمَعْنًى دَقيقٍ لا يُؤَدّيهِ سِوى هَذا اللَّفْظِ، وهُوَ أَنَّ هَذا المُخاصِمَ جَمَعَ بَيْنَ خَسيسَتَيْنِ وهُما: إنْكارُ البَعْثِ، وادِّعاءُ الرُّبوبِيَّةِ، فأَتى لَهُ إبْراهيمُ عليه السلام بدَليلٍ يَقْطَعُ بِهِ أَبْهَرَ فِكْرِهِ، ووَتينَ مَكْرِهِ، وهُوَ أَنْ يَأْتِيَ بالشَّمْسِ مِنَ المَغْرِبِ، فإنْ زَعَمَ أَنَّهُ قادِرٌ عَلى ذَلِكَ، اعْتَرَفَ ضِمْنًا بالبَعْثِ الذي هُوَ خِلافُ مُعْتَقَدِهِ؛ لأَنَّهُ يَدَّعي خُلودَ الحَياةِ الدُّنْيا، وبالتَّالي إنْكارَ البَعْثِ، وإنِ اعْتَرَفَ بعَجْزِهِ أَقَرَّ بمَرْبوبِيَّتِهِ للخالِقِ القادِرِ، فكانَ الانْقِطاعُ دَليلَ العَجْزِ والتَّسْليمِ، ولا يُصَوِّرُ هَذا المَشْهَدَ الَّذي يَجْمَعُ الحَيْرَةَ الفِكْرِيَّةَ، والدَّهْشَةَ النَّفْسِيَّةَ، والانْقِطاعَ الجَدَلِيَّ، إلَّا لَفْظُ البَهْتِ؛ لأَنَّهُ الجامِعُ لهَذِهِ المَعاني جَميعِها. وهَذا مِنْ بَديعِ أَسْرارِ اسْتِعْمالِ الأَلْفاظِ القُرْآنِيَّةِ.

ارْتِباطُ الفاصِلَةِ بمَضْمونِ الآيَةِ:

بَيانُ عِلَّةِ الكُفْرِ، وسَبَبِ الضَّلالِ، تَحْذيرًا وتَنْبيهًا

ارْتَبَطَتِ الفاصِلَةُ بمَضْمونِ الآيَةِ ارْتِباطًا وَثيقًا، فإنَّ الهِدايَةَ هُنا هِيَ هِدايَةُ الحُجَجِ والبَراهينِ للطَّريقِ القَويمِ[1]، فلَمَّا قالَ سُبْحانَهُ: ﴿فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ﴾، أَرْدَفَ بِهِ: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، لأَنَّ المَبْهوتَ انْكَشَفَ عَوَرُهُ، وبانَتْ حَيْرَتُهُ، وتَجَلَّى ضَياعُهُ، فناسَبَ هَذِهِ المَعاني نَفْيُ الهِدايَةِ عَنْ صاحِبِها، فجُمِعَ لَهُ وَصْفانِ: الكُفْرُ والظُّلْمُ، ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٥٤﴾﴾ [البقرة: 254]، وذِكْرُ الظُّلْمِ لبَيانِ

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 1/347.

أَنَّهُ عِلَّةُ الكُفْرِ وسَبَبُهُ الرَّئيسُ، فمَنْ تَجَرَّدَ مِنْهُ، فقَدْ شَقَّ طَريقَ الهِدايَةِ، ولَمْ يَبْقَ لِمُحْتَجٍّ حُجَّةٌ، ولا لِمُخاصِمٍ دَليلٌ.

جملة التذييل تقريرٌ لمضمون ما قبلها

وقوله: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ "تذييل مقرّر لمضمون ما قبله، أي: لا يهدي الذين ظلَموا أنفسَهم بتعريضِها للعذابِ المخلّد بسبب إعراضِهم عن قبول الهداية إلى مناهج الاستدلالِ أو إلى سبيل النجاةِ أو إلى طريق الجنةِ يوم القيامة"[1].

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

المُحاجَّة والجِدال والمُحاوَرَة[2]:

المُحاجَّةُ: إِظْهارُ البَيِّناتِ والبَراهينِ بقُوَّةٍ واقْتِدارٍ مَعَ الخَصْمِ في المَسائِلِ الكُبْرى، بتَثْبيتِ القَصْدِ والرَّأْيِ بالدَّليلِ المَتينِ، والبُرْهانِ الواضِحِ.

"والحُجَّة في كلام العرب ما يقصد به إثبات المخالف، بحيث لا يجد منه تفصِّيًا، ولذلك يقال للذي غلبَ مخالفَه بحُجَّته قد حَجَّه، وأما الاحتجاج فهو إتيان المحتج بما يظنه حجة ولو مغالطة، يقال: احتجَّ، ويقال: حاجَّ إذا أتى بما يظنه حُجَّة، قال تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِي حَآجَّ إِبۡرَٰهِـۧمَ فِي رَبِّهِۦٓ﴾، فالحجة لا تطلق حقيقة إلا على البرهان والدليل الناهض المبكت للمخالف، وأما إطلاقها على الشبهة فمجاز؛ لأنها تُورَد في صورة الحُجَّة، ومنه قوله تعالى: ﴿حُجَّتُهُمۡ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمۡ﴾ [الشورى: 16]"[3].

الجِدَالُ: تَعارُضٌ يَجْري بَيْنَ مُتَنازِعَيْنِ فصاعِدًا، إمَّا لتَحْقيقِ حَقٍّ، أَوْ تَغْليبِ ظَنٍّ، أَوْ إبطالِ باطِلٍ، وتَكونُ عَلى سَبيلِ المُنازَعَةِ والمُغالَبَةِ، وأَصْلُهُ مِنْ: جَدَلْتُ الحَبْلَ، أَيْ: أَحْكَمْتُ فَتْلَهُ، والغالِبُ في اسْتِعْمالِ الجِدالَ فيما كانَ خُصومَةً بَيْنَ طَرَفَيْنِ، فيَطْلُبُ كُلٌّ مِنْهُما رُجوعَ الخَصْمِ عَنْ مَذْهَبِهِ.

وكَثُرَ اسْتِعْمالُ المُجادَلَةِ في القُرْآنِ الكَريمِ في مَسائِلِ العَقيدَةِ، وغَلَبَ عَلى المُجادَلَةِ

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/252.

(2) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 159-158، والراغب، المفردات، ص: 189 وص: 262، والسيوطي، معجم مقاليد العلوم، ص: 76، والمناوي، التوقيف على مهمات التعاريف، ص: 298، وص: 303، والزبيدي، تاج العروس: 11/108.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/46.

العِنادُ، وقُوَّةُ المُعارَضَةِ، ولذَلِكَ جاءَ الإرْشادُ القُرْآنيُّ بطَلَبِ تَخْفيفِ ذَلِكَ لا مَنْعِه، كما في قَوْلِهِ تَعالى: ﴿وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾ [النحل: 125]، وقَوْلِهِ: ﴿۞وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ [العنكبوت: 46].

المُحاوَرَةُ: المُرادَّةُ في الكَلامِ، ومِنْهُ التَّحاوُرُ، وهُوَ مَأْخوذٌ مِنَ الرُّجوعِ، ويَدُلُّ عَلى مُراجَعَةِ الكَلامِ بَيْنَ طَرَفَيْنِ، بقَطْعِ النَّظَرِ عَنْ قُوَّةِ الدَّليلِ، مِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعالى: ﴿وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٞ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكۡثَرُ مِنكَ مَالٗا وَأَعَزُّ نَفَرٗا ٣٤﴾ [الكهف: 34].

ومِنْ بَديعِ اسْتِعْمالِ القُرْآنِ لِمُصْطَلَحِ المُجادَلَةِ والمُحاوَرَةِ، ما جاءَ في قَوْلِهِ تَعالى: ﴿قَدۡ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوۡلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوۡجِهَا وَتَشۡتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسۡمَعُ تَحَاوُرَكُمَآۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ ١﴾ [المجادلة: 1]، فانْتَقَلَتْ تِلْكَ المُجادَلَةُ لِرَسولِ اللهِ ﷺ مِنْ جِدالٍ عَنيدٍ، إلى حِوارٍ لَطيفٍ، بما أَفاضَ عَلَيْها صَلَواتُ رَبِّي وسَلامُهُ عَلَيْهِ مِنْ لُطْفِ الحِوارِ والاسْتِماعِ والتَّجاوُبِ الحَسَنِ، وهُوَ ما يُؤَكِّدُهُ إِسْنادُ المُجادَلَةِ لَها ﴿تُجَٰدِلُكَ﴾، وإِشْراكُ التَّحاوُرِ لَهُما ﴿تَحَاوُرَكُمَآۚ﴾، وهَذا مِنْ بَديعِ اسْتِعْمالِ الأَلْفاظِ القُرْآنِيَّةِ المُتَقارِبَةِ في سِياقٍ واحِدٍ في بِناءِ التَّرْبِيَةِ التَّواصُلِيَّةِ.

﴿أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِاْئَةَ عَامٍ فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥٩﴾﴾ [البقرة: 259]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الآيَةُ مَرْدودَةٌ إلى جُمْلَةِ ﴿يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾، فهِيَ تَمْثيلٌ لتِلْكَ الدُّرَّةِ البَهِيَّةِ، ولمَّا قَرَّرَ سُبْحانَهُ في الآيَةِ السَّابِقَةِ تَفَرُّدَهُ بالرُّبوبِيَّةِ والأُلوهِيَّةِ، كان لا بُدَّ مِنْ إثْباتِ البَعْثِ بمَثَلٍ قُرْآنيٍّ واضِحٍ للعِيانِ، وهَذا التَّناسُبُ بَيْنَ المِثْلَيْنِ في إثْباتِ التَّوْحيدِ واليَوْمِ الآخِرِ، هُوَ ما يَتَّسِقُ مَعَ تَلازُمِيَّةِ الإيمانِ باللهِ واليَوْمِ الآخِرِ في الآياتِ القُرْآنِيَّةِ، مِنْ خِلالِ هَذا التَّمْثيلِ البَديعِ، وما يُذْكَرُ في القُرْآنِ مِنْ هَذِهِ التَّلازُمِيَّةِ مَرْدودٌ فَهْمُهُ إلَيْها، فخُيوطُ الآيَةِ مَعْذوقَةٌ بالسَّابِقِ القَريبِ تَمْثيلًا لَهُ، ومُرْتَبِطَةٌ بالآياتِ اللاحِقَةِ تَأْصيلًا وبَيانًا لَها.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مَرَّ﴾: المُرورُ: هُوَ المُضِيُّ والاجْتِيازُ بالشَّيْءِ دونَ تَوَقُّفٍ، ويُقالُ لِما هُوَ خِلافُ الحَلاوَةِ والطِّيبِ: المُرُّ؛ فمَرارَةُ الشَّيْءِ تَمْنَعُ النَّاسَ مِنَ المُكْثِ فيهِ، وسُمِّيَ الأَمَرُّ لأَنَّهُ غَيْرُ طَيِّبٍ، ثُمَّ سُمِّيَتْ بَعْدَ ذَلِكَ كُلُّ شِدَّةٍ وشَديدَةٍ بهَذا البِناءِ، يَقولونَ: أَمْرَرْتُ الحَبْلَ: فَتَلْتُهُ، وهُوَ مُمَرٌّ، والمَرُّ: شِدَّةُ الفَتْلِ، والمَريرُ: الحَبْلُ المَفْتولُ[1].

وقَدِ اسْتُعْمِلَ المُرورُ في القُرْآنِ فيما كان اجْتِيازًا سَريعًا دونَ تَوَقُّفٍ، فمِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعالى: ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ﴾ [يونس: 12]، وقَوْلُهُ: ﴿وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ﴾ [هود: 38]. وأَمَّا قَوْلُهُ تَعالى: ﴿حَمَلَتْ حَمْلًا

(1) ابن فارس، المقاييس، والراغب: المفردات: (مرر).

خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ﴾ [الأعراف: 189]، فقَدْ ذُكِرَ المُرورُ باعْتِبارِ الحَمْلِ الخَفيفِ قَبْلَ الإثْقالِ: ﴿فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ١٨٩﴾، فكَأنَّ الآيَةَ عَقَدَتْ مُقارَنَةً بَيْنَ زَمانِ الخِفَّةِ وزَمانِ الإثْقالِ، فكانَ الأَوَّلُ سَريعًا، والثّاني بَطيئًا.

وقَد اسْتَعْمَلَ القُرْآنُ ما كانَ لجُزْءٍ يَسيرٍ مِنَ الزَّمانِ مَرَّةً، ومَرَّتَيْنِ، قالَ تَعالى: ﴿يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ﴾ [الأنفال: 56]، وقال: ﴿وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [التوبة: 13]، وقال: ﴿إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً﴾ [التوبة: 80]، وقال: ﴿لَتُفْسِدُنَّ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ﴾ [الإسراء: 5]، اسْتِبْشارًا بسُرْعَةِ الزَّوالِ.

2) ﴿خَاوِيَةٌ﴾: الخاوِيَةُ: الخالِيَةُ مِنَ السُّكّانِ والبِناءِ بَعْدَ امْتِلاءٍ، والخَلاءُ يَتَحَقَّقُ بَعْدَ التَّهَدُّمِ والخَرابِ، وأَصْلُ الخَواءِ: خَلاءُ البَطْنِ، يُقالُ: خَوَى بَطْنُهُ مِنَ الطَّعامِ يَخْوِي خَوًى، وخَوًّى أَيْ: تَهَدَّمَ ووَقَعَ، والخَواءُ: الهَواءُ بَيْنَ الشَّيْئَيْنِ، والهَواءُ الذي بَيْنَ الأَرْضِ والسَّماءِ، قالَ تَعالى: ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓاْ﴾ [النمل: 52]، أَيْ: خالِيَةً بَعْدَ هَلاكِهِمْ[1].

3) ﴿عُرُوشِهَا﴾: العَرْشُ: السَّقْفُ، وفي الأَصْلِ: شَيْءٌ مُسَقَّفٌ، وجَمْعُهُ عُروشٌ، وهُوَ يَدُلُّ عَلى ارْتِفاعٍ في شَيْءٍ مَبْنِيٍّ، ثُمَّ يُسْتَعارُ في غَيْرِ ذَلِكَ، وسُمِّيَ مَجْلِسُ السُّلْطانِ عَرْشًا اعْتِبارًا بعُلُوِّهِ، قالَ تَعالى: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [يوسف: 100]، وقال: ﴿أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا﴾ [النمل: 38]، وقال: ﴿نَكِّرُواْ لَهَا عَرْشَهَا﴾ [النمل: 41][2].

والمعنى هنا: تهدُّم القرية واشتدادُ خرابها.

4) ﴿لَبِثْتَ﴾: اللَّبْثُ: المُكْثُ والإبْطاءُ والتَّأَخُّرُ، ولَبِثَ لَبْثًا، واللُّبْثُ: البَطيءُ، وهُوَ الإقامَةُ في المَكانِ وطولُ المُلازَمَةِ[3]، قالَ تَعالى: ﴿ثُمَّ سُئِلُواْ ٱلْفِتْنَةَ لَأَتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُواْ بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا ١٤﴾ [الأحزاب: 14]، ويُطْلَقُ عَلى اللَّبْثِ الزَّمانيِّ وهُوَ الأَكْثَرُ في اسْتِعْمالِ القُرآنِ، قالَ تَعالى: ﴿قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ١٦﴾ [يونس: 16]، وقال: ﴿فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِيٓ أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ ٤٠﴾ [طه: 40]، وقال: ﴿لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ٢٣﴾ [النبأ: 23].

5) ﴿يَتَسَنَّهْ﴾: يَتَغَيَّر، مَأْخوذٌ إمَّا من (سنن)، وأصله: يتَسَنَّنُ بثلاثِ نونات، فاسْتُثْقِلَ

(1) الخليل، العين، والراغب، المفردات: (خوى)، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/36، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (خوى).
(2) الراغب، المفردات، وابن فارس، المقاييس: (عرش).
(3) الخليل، العين، والراغب، المفردات، والزبيدي، تاج العروس: (لبث).

توالي الأمثال، فَأُبْدِلت الأخيرةُ ياءً، كما قالوا في تَظَنَّنَ: تظَنَّى، وفي قَصَّصْت أظفاري: قَصَّيْت، ثم أُبْدِلت الياءُ ألفاً لتحرُّكِها وانفتاح ما قبلَها، ثم حُذِفَتْ جزماً، والهاء للسكت، ومثله قوله تعالى: ﴿مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ۝٢٦﴾ [الحجر: 26]، أي: متغيِّر مُنْتِن، وإمَّا مأخوذٌ من السَّنَةِ، على القول بأنَّ لامَها المحذوفةَ واوٌ، ولذلكَ تُرَدُّ في التصغير والجمع، قالوا: سُنَيَّة وسَنَوات، أو أنَّ لامها هاءٌ؛ رَوى أَبو عُبَيْدٍ عَنِ الأَصْمَعِيِّ أَنَّهُ قالَ: إذا حَمَلَتِ النَّخْلَةُ سَنَةً ولَمْ تَحْمِلْ سَنَةً قيل: قَدْ عاوَمَتْ، وسانَهَتْ، فمَنْ قال في السَّنَةِ: سانَهَتْ؛ فالهاءُ مِنْ أَصْلِ الكَلِمَةِ، ومَنْ قال في السَّنَة: سانَيَتْ؛ فالهاءُ زيدَتْ لبَيانِ الحَرَكَةِ، ولَيْسَ مِنَ الأَسَنِ وتَغَيُّرِ الرِّيحِ في شَيْءٍ، وإلَّا لكانَ يَتَأَسَّنُ[1].

ومَعْناهُ: التَّغَيُّرُ والفَسادُ مِنْ طولِ مَرِّ السِّنينَ، ومُضِيِّ الأَعْوامِ عَلَيْه.

6) ﴿نُنشِزُهَا﴾: النَّشْزُ[2]: المَكانُ المُرْتَفِعُ العالي مِنَ الأَرْضِ، ومِنْهُ: نَشَزَ فُلانٌ عَنْ مَقَرِّهِ: نَبا، وكُلُّ نابٍ ناشِزٌ، ونُشوزُ الشَّيْءِ: ارْتِفاعُهُ قَليلًا قَليلًا، فيُلْحَظُ فيهِ الارْتِفاعُ التَّدْريجِيُّ الَّذي يُشْبِهُ الإِنْباتَ، فلا يُقالُ لِمَنْ رَفَعَ حائِطًا: نَشَزَ، قال أبو زَيْدٍ: نَشَزْتُ بقِرْني أَنْشُزُ بِهِ، إذا احْتَمَلْتَهُ فصَرَعْتَهُ، وتَلٌّ ناشِزٌ، وقَلْبٌ ناشِزٌ، إذا ارْتَفَعَ عَنْ مَكانِهِ من الرُّعْبِ، وعِرْقٌ ناشِزٌ: لا يَزالُ مُنْتَبِراً يَضْرِبُ مِنْ دائِه، ونُشوزُ المَرْأَةِ: رَفْعُ نَفْسِها وتَعاليها عَمَّا أَوْجَبَ اللهُ عَلَيْها مِنْ طاعَةِ الأَزْواجِ، ويُعَبَّرُ عَنِ الإِحْياءِ بالنَّشْزِ والإِنْشازِ؛ لكَوْنِهِ ارْتِفاعًا بَعْدَ اتِّضاعٍ، ونَشْزُ العِظامِ: إِعْلاءُ بَعْضِها عَلى بَعْضٍ.

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

ظهور قدرة الله على البعث بعد الموت

يَخْتَزِلُ هَذا المَثَلُ حالَ الإِنْسانِ في الدّنيا، فالمارُّ يُمَثِّلُ عُمومَ النّاسِ، والقَرْيَةُ تُمَثِّلُ الدُّنْيا وأَنَّ مَآلَها الخَرابُ والدَّمارُ بسَبَبِ ذُنوبِ ومَعاصي أَهْلِها، واسْتِبْعادُ المَارِّ حَياةَ القَرْيَةِ مَرَّةً أُخْرى، هُوَ حالُ مُعْظَمِ النَّاسِ مَعَ البَعْثِ، وإماتَةُ المارِّ ثُمَّ إِحْياؤُهُ يُمَثِّلُ إِحْياءَ الإيمانِ

(1) أبو عبيدة، مجاز القرآن: 1/80، والفراء، معاني القرآن: 1/172، وابن السكيت، إصلاح المنطق، ص: 216، وابن قتيبة، تفسير غريب القرآن، ص: 95، والزجاج، معاني القرآن: 1/343، والأزهري، تهذيب اللغة: (سنو)، والخطابي، غريب الحديث: 2/242، وابن الهائم، التبيان في تفسير غريب القرآن، ص: 114، والسمين، الدر المصون: 2/563.

(2) أبو عبيدة، مجاز القرآن: 1/80، والسجستاني، نزهة القلوب، ص: 472، والأزهري، تهذيب اللغة: (نشز)، والهروي، الغريبين: 6/1839، والراغب، المفردات: (نشز)، وابن عطية، المحرر الوجيز: 1/351، وابن الهائم، التبيان في تفسير غريب القرآن، ص: 138.

والهِدايَةِ والعِلْم، ﴿يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾، ومَوْتُهُ مِئَةَ عامٍ يُمَثِّلُ حالَ النَّاسِ في قُبورِهِمْ، وشُعورُهُ بمُدَّةِ اللَّبْثِ بَعْدَ البَعْثِ كشُعورِ النَّاسِ بَعْدَ بَعْثِهِمْ.

ففي هَذا المَثَلِ إشارَةٌ وَعِظِيَّةٌ بَليغَةٌ، في أَنَّ الدُّنْيا دارُ مَمَرٍّ، وأَنَّ عَلى الإِنْسانِ إِحْسانَ المُرورِ فيها، وحالُ الدّنيا كحال هَذِهِ القَرْيَةِ الخاوِيَةِ عَلى عُروشِها، واخْتِلافُ المُفَسِّرينَ في كَوْنِ هَذا المارِّ ابْتِداءً كانَ كافِرًا مُنْكِرًا للبَعْثِ أو لا؟ يُعْطي إشارَةً أَنْ لا قَطْعَ في المَسْأَلَةِ مِن نَظْمِ الآيَةِ، ويُشْعِرُ نَظْمُها الجَزيلُ أَنَّ حالَ النّاسِ كهَذا المارِّ غَيْرُ مَقْطوعٍ في حُكْمِهِمْ هِدايَةً وضَلالَةً إِلَّا في النّهاياتِ.

فلمَّا اتَّضَح لهذا المارِّ بعد ردِّ الله إليه روحَه - وقد قبضها الله مئة عام -، وشَاهَدَ أنَّ ما معه من طعامٍ وشراب لم يُغيِّره مرورُ كلِّ هذا الوقتِ، مع كونهما من أسرع الأشياء تغيُّرًا، وشَاهَدَ حمارَه وقد مات وبَلِيتْ عِظامُه، وليجعل الله هذا الرجلَ للناس حُجَّةً على قدْرته سبحانه، ثم شاهَدَ العِظامَ البالية لحماره؛ كيف يُحْييها الله، ثم يُغطِّيها ويكسوها بعد الالتئام باللحم، فلمَّا اتضح له ذلك عِيانًا اعترف بعظمة الله وتَيَقَّنَ أنَّ الله قادرٌ على كلِّ شيء.

ولم يعتنِ الله في القرآن الكريم بتحديد الأشخاص والأماكن - في هذه القصةِ وغيرها - لأنه يقصد إلى العبرة وبيان الحال وتجلية الحدث.

وفي الآيةِ الكريمة بيان للناس بأنَّ الموت يشبه النوم، وأن البعث يشبه اليقظة بعده، وأنه لا شيء محال على الله تعالى فهو القائل: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ [لقمان: 28].

❁ الإيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

إيثارُ حَرْفِ ﴿أَوْ﴾ عَلى حَرْفِ (الواوِ):

ذَكَرَتِ الآيَةُ حَرْفَ ﴿أَوْ﴾ التي فَرَّقَتْ بَيْنَ المَثَلَيْنِ، فحَرْفُ ﴿أَوْ﴾ دَلَّ عَلى التَّفْصيلِ[1]، دونَ الواوِ التي تَجْمَعُ بَيْنَهُما؛ "للاحْترازِ عَنْ تَوَهُّمِ اتِّحادِ المُسْتَشْهَدِ عَلَيْهِ مِنْ أَوَّلِ الأَمْرِ"[2]،

(1) السمين، الدر المصون: 2/555.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/252.

فلَوْ قالَ: وكالَّذي مَرَّ عَلى قَرْيَةٍ؛ لفُهِمَ أَنَّ المَثَلَ الأَوَّلَ والثَّانيَ تَمْثيلان لمَعنًى واحِدٍ، فيَكونُ المَقْصودُ بالمَثَلِ الثّاني عَيْنَ المَقْصودِ بالمَثَلِ الأَوّلِ، وهَذا غَيْرُ مُرادٍ، إذِ المُرادُ التَّمْثيلُ بمَثَلَيْنِ عَلى مَعْنَيَيْنِ مُخْتَلِفَيْنِ، كما سَبَقَ بَيانُ ذَلِكَ في اللَّفِّ والنَّشْرِ التَّمْثيلِيِّ.

الإحْتِرازُ عَنْ تَوَهُّمِ اتِّحادِ مَقْصودِ المَثَلَيْنِ في مَعْنًى واحِدٍ

بَلاغَةِ الإحْتِباكِ في الآيَةِ:

عَطْفُ قَوْلِهِ تَعالى: ﴿أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ﴾ عَلى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى﴾، فيه احْتِباكٌ خَفِيٌّ، حَيْثُ أَفادَ العَطْفُ إظْهارَ مَعْنَيَيْنِ مُقَدَّرَيْنِ، أَحَدُهُما في الأولى دَلَّتْ عَلَيْهِ الثّانِيَةُ، والثّاني في الثّانِيَةِ دَلَّتْ عَلَيْهِ الأولى، فيَكونُ المَعْنى كالآتي: أَلَمْ تَتَعَجَّبْ مِنْ مِثْلِ الَّذي حاجَّ إبْراهيمَ في رَبِّهِ، أَوْ أَلَمْ تَتَعَجَّبْ مِنْ مِثْلِ الَّذي مَرَّ عَلى قَرْيَةٍ، فحُذِفَ مِنَ الأولى التَّشْبيهُ الَّذي دَلَّتْ عَلَيْهِ الثّانِيَةُ، وحُذِفَ مِنَ الثّانِيَةِ التَّعَجُّبُ الَّذي دَلَّتْ عَلَيْهِ الأولى، فاجْتَمَعَ في الآيَتَيْنِ المَعْنَيانِ بنَوْعِ تَقْديرٍ للمَعْنى، بَعْدَ تَأَمُّلٍ للمَبْنى، "فمِنْ شَأْنِ العَرَبِ العَطْفُ بالكَلامِ عَلى مَعْنى نَظيرٍ لَهُ قَدْ تَقَدَّمَهُ، وإنْ خالَفَ لَفْظُهُ لَفْظَهُ"(1)، وحَسُنَ أَنْ يُحْذَفَ التَّشْبيهُ مِنَ الأولى للبَدْءِ بالتَّعَجُّبِ والتَّمَحُّضِ لَهُ فهُوَ المَطْلوبُ ابْتِداءً، وحَسُنَ أَنْ يُحْذَفَ التَّعَجُّبُ مِنَ الثّانِيَةِ لحُضورِ مَعْناهُ مِنَ الأولى بما يَقْتَضيهِ العَطْفُ، وذُكِرَ حَرْفُ التَّشْبيهِ في الثّانِيَةِ؛ "لأَنَّ المُنْكِرَ للإحْياءِ كَثيرٌ، والجاهِلَ بكَيْفِيَّتِهِ أَكْثَرُ مِنْ أَنْ يُحْصى، بخِلافِ مُدَّعي الرُّبوبِيَّةِ"(2)، و"للتَّنْبيهِ عَلى تَعَدُّدِ الشَّواهِدِ وعَدَمِ انْحِصارِها فيما ذُكِرَ"(3)، وليُرَدَّ الأُسْلوبُ عَلى الأُسْلوبِ، فيَتَّحِدا في بَيانِ المَطْلوبِ.

حُذِفَ التَّشْبيهُ مِنَ الأولى للبَدْءِ بالتَّعَجُّبِ، وحُذِفَ التَّعَجُّبُ مِنَ الثّانِيَةِ لحُضورِ مَعْناه، وليُرَدَّ الأُسْلوبُ عَلى الأُسْلوبِ، فيَتَّحِدا في بَيانِ المَقْصودِ

وما قَدْ يُظَنُّ بأَنَّ الأولى لا يَصِحُّ تَقْديرُ مَثَلٍ فيها؛ لأَنَّ التَّعَجُّبَ مِنَ الاسْمِ المَوْصولِ لا مِنَ المَثَلِ، فغَيْرُ دَقيقٍ، وادِّعاءٌ خالٍ مِنَ الدَّليلِ، فإنَّ

(1) ابن جرير، جامع البيان: 5/438، ويُنظر: الفراء، معاني القرآن: 1/170، والزمخشري، الكشاف: 1/306، والآلوسي، روح المعاني: 2/20.

(2) البيضاوي، أنوار التنزيل: 1/156.

(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/252.

وُقوعَ التَّعَجُّبِ مِنْ مَثَلِ الَّذي حاجَّ، أَبْلَغُ مِنَ التَّعَجُّبِ مِنْهُ، وهَذِهِ نَظيرُ قَوْلِهِ تَعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: 11]، فإِنَّ نَفْيَ مُشابَهَةِ أَحَدٍ لِمِثْلِ اللّهِ عَلى افْتِراضِهِ، أَبْلَغُ مِنْ نَفْيِ مُشابَهَةِ أَحَدٍ للّهِ تَعالى[1]، فإِذا وَقَعَ التَّعَجُّبُ مِمَّنْ يُشابِهُ هَذا المُحاجَّ في رَبِّهِ، فكَيْفَ بالمُحاجِّ نَفْسِهِ؟! وهَذا مِنْ بَليغِ الاِسْتِعْمالِ في الحَذْفِ.

بيان نوع التشبيه في الآية:

الكاف ههنا ليس للتشبيه المجرد بل هو للتحديد والتحقيق

قال الراغب: "والوجه أن الكاف ههنا ليس للتشبيه المجرد بل هو للتحديد والتحقيق؛ كما هو في قولك: الاسم كزيد وعمر وعلي، أنه وإن جعل للتشبيه، فعلى سبيل المثل والمشبه غير مذكور"[2].

سرُّ إيثار الفعل ﴿مَرَّ﴾ في قَوْلِهِ تَعالى: ﴿أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ﴾:

التَّعْبيرُ بـ (مرّ) إِشارَةٌ وَعْظِيَّةٌ بَليغَةٌ، في أَنَّ الدُّنْيا دارُ مَمَرٍّ

يَدُلُّ الفِعْلُ ﴿مَرَّ﴾ في قَوْلِهِ تَعالى: ﴿أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ﴾ عَلى المُضِيِّ السَّريعِ دونَ تَوَقُّفٍ، وأَنَّ الإِنْسانَ في الدُّنْيا كهذا المارِّ الذي لَمْ يُرِدِ المُكْثَ في القَرْيَةِ، وإِنَّما أَرادَها طَريقًا يَجْتازُهُ، ففاجَأَهُ المَوْتُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ، وكَذَلِكَ الدُّنْيا، هِيَ دارُ مَمَرٍّ لا دارُ مُسْتَقَرٍّ، فعلى الإِنْسانِ أَنْ يَعْتَبِرَ بهَذا المَثَلِ القُرْآنيِّ، فيُحْسِنَ بمُرورِهِ عَلى الدُّنْيا الخاوِيَةِ عَلى عُروشِها. قال الحرالِّي: "﴿مَرَّ﴾ من المرور وهو جعل الشيء على مسلك إلى غيره مع التفات إليه في سبيله"[3].

دَلالَةُ الإِبْهامِ في تنكير لفظ القرية:

إِبْهامُ (قَرية) في سِياقِ الآيَةِ، يُعينُ عَلى الاِسْتِنْباطِ، ويُطابِقُ مُقْتَضى البَلاغَةِ وظاهِرَ النَّظْمِ

تَنْكيرُ ﴿قَرْيَةٍ﴾ دَليلُ الإِبْهامِ، وإِبْهامُها أَوْسَعُ في فَضاءِ التَّدَبُّرِ مِنْ تَعْيينِها، وما جاء في بَعْضِ التَّفاسيرِ[4] مِن تَعْيينِها، لا دَليلَ يُسْنِدُهُ، فَضْلًا عَنْ تَقْييدِهِ لحَرَكَةِ التَّفَكُّرِ والتَّأَمُّلِ لأَلْفاظِ الآيَةِ وتَراكيبِها وحُروفِها، فحَمْلُ القَرْيَةِ عَلى الإِبْهامِ هُوَ الظّاهِرُ وما تَقْتَضيهِ

(1) دراز، النبأ العظيم، ص: 165 فما بعدها.
(2) الراغب، تفسير الراغب: 1/542.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 4/55.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 2/21.

البَلاغَةُ، وهُوَ ما تَجْري عَلَيْهِ اسْتِنْباطاتُ المَعاني سَلِسَةً رَقْراقَةً، فإنَّ التَّعْيينَ يَذْهَبُ بالفِكْرِ رَأْسًا، ويَضْرِبُ بالفَأْسِ رَأْسًا، فعَدَمُهُ عِنْدَ إعْدامِهِ خَيْرٌ مِنْ وُجودِهِ بَعْدَ إيجادِهِ.

وجه إجراء قَوْلِهِ تَعالى: ﴿خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ مَجْرى التَّرْكيبِ:

لِهَذا التَّعْبيرِ دِقَّةٌ بَيانِيَّةٌ لا تُفْهَمُ إلَّا عَلى ضَوْءِ اجْتِماعِ هَذِهِ الدُّرَرِ الثَّلاثِ، فهُوَ يُفيدُ أَنَّ القَرْيَةَ سَقَطَ سَقْفُ أَبْنِيَتِها، "وذَلِكَ أَشَدُّ الخَرابِ؛ لِأَنَّ أَوَّلَ ما يَسْقُطُ مِنَ البِناءِ السَّقْفُ، ثُمَّ تَسْقُطُ الجُدْرانُ عَلى تِلْكَ السُّقُفِ"[1]، وأَنَّ السُّقوطَ لَمْ يَكُنْ مِنَ الجُدْرانِ المُحيطَةِ، أَوْ مِنَ القَواعِدِ السُّفْلِيَّةِ، بَلْ مِنَ السُّقُوفِ العالِيَةِ، ويُشيرُ التَّرْكيبُ إلى أَنَّ دَمارًا وَقَعَ بسببِ ذَنْبٍ حَصَلَ، هَذا هُوَ المُلاحَظُ في اسْتِعْمالِ القُرْآنِ لِهَذِهِ اللَّفْظَةِ، قال تَعالى: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّيٓ أَحَدًا ﴿٤٢﴾﴾ [الكهف: 42]، وقال: ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾﴾ [الحج: 45]، وقال: ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓاْۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [النمل: 52]، ويُرَشِّحُ ذَلِكَ في هَذِهِ الآيَةِ قَوْلُ المارِّ: ﴿أَنَّىٰ يُحْيِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَاۖ﴾، وهُوَ دَليلٌ عَلى شِدَّةِ الفَزَعِ مِمَّا رَأى مِنْ دَمارِها، وفُقْدانِ الأَمَلِ مِنْ مُعاوَدَةِ الحَياةِ فيها عَلى ما يَعْرِفُهُ النَّاسُ، وفي ذَلِكَ إشارَةٌ إلى أَنَّ الدُّنْيا سَتَزولُ وتُصْبِحُ في نِهايَةِ الزَّمانِ خاوِيَةً عَلى عُروشِها بسَبَبِ ذُنوبِ أَصْحابِها!

دَلَّ التَّرْكيبُ القُرْآنِيُّ ﴿خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ عَلى الهِلاكِ التّامِّ بِسَبَبِ الذُّنوبِ

دِقَّةُ تَصْويرٍ تراتبيّة مَشْهَدِ الخَرابِ:

صَوَّرَ التَّرْكيبُ القُرْآنِيُّ ﴿خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ مَشْهَدَ الخَرابِ الَّذي لَحِقَ القَرْيَةَ، وتَظْهَرُ دِقَّةُ اسْتِعْمالِ لَفْظِ ﴿خَاوِيَةٌ﴾ بِمَعْنى الوُقوعِ والتَّهَدُّمِ، فالقَرْيَةُ مُتَهَدِّمَةٌ فَوْقَ العُروشِ، فالعُروشُ الَّتي هِيَ

دَلَّ حَرْفُ (على) عَلى سُقوطِ العُروشِ أَوَّلًا، ثُمَّ تَهَدُّمِ الجُدْرانِ ثانِيًا، وهَذا كَشْفٌ تاريخِيٌّ بَديعٌ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/36، ويُنظر: الآلوسي، روح المعاني: 2/21.

سُقُفُ البُيوتِ تَحْتَ جُدْرانِ القَرْيَةِ، وهُوَ ما يَدُلُّ عَلى أَنَّ السُّقُفَ هِيَ أَوَّلُ ما وَقَعَ، ثُمَّ تَهَدَّمَتْ فَوْقَها الجُدْرانُ، كقَوْلِهِ تَعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾﴾ [هود: 82]، فهُوَ تَصْويرُ تَهَدُّمِ الأَبْنِيَةِ فَوْقَ العُروشِ، وهُوَ ما يُرَشِّحُ أَنَّ القَرْيَةَ كانَتْ مُعَذَّبَةً، فحَرْفُ الاسْتِعْلاءِ قادَ إلى كَشْفٍ تاريخِيٍّ بَديعٍ، هَذا ما يَدُلُّ عَلَيْهِ دَقيقُ الكَلامِ، وفَصيحُ البَيانِ، أَوْ نَجْعَلُ ﴿خَاوِيَةٌ﴾ بمَعْنى خالِيَةً عَلى الظَّاهِرِ، فيَكونُ المَعْنى: القَرْيَةُ خالِيَةٌ مِنْ سُكَّانِها، عَلى وُجودِ عُروشِ الأَبْنِيَةِ مُرْتَفِعَةً، أَيْ أَنَّ الأَبْنِيَةَ مَوْجودَةٌ لكِنَّها خالِيَةٌ مِنْ أَهْلِها، وعَلى هَذا المَعْنى فلا دَمارَ ولا خَرابَ، وهُوَ بَعيدٌ مِنَ النَّظْمِ، واسْتِعْمالِ القُرْآنِ، وما يَقْتَضيهِ سِياقُ الكَلامِ.

بلاغة الكناية في جملة ﴿خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾:

"الجملة كناية عن صفة الدّمار والخراب في تلك القرية المرور بها. ومن أسرار هذه الكناية أنها نقلت حدث التّدمير والخراب من فكرة ذهنيّة مجرّدة إلى صورة حسيّة ماثلة أمام الخيال: جدران محطّمة وأسقف هامدة، وعظام مفتتة"[1].

سرّ الكناية نقل حدث التّدمير والخراب من فكرة ذهنيّة مجرّدة إلى صورة حسيّة ماثلة أمام الخيال

وجه إيثار الأداةِ ﴿أَنَّىٰ﴾ دونَ كَيْفَ أَوْ مَتى، وحيث:

في ﴿أَنَّىٰ﴾ وَجْهان، أَحَدُهُما: أَنْ تَكونَ بمَعْنى (مَتى)، و (حيث) وعَلَيْهِ فتَكونُ ظَرْفًا، والثّاني: أَنْ تَكونَ بمَعْنى (كَيْفَ)، وعَلَيْهِ فيَكونُ مَوْضِعُها حالًا مِنْ ﴿هَٰذِهِ﴾[2]، وحَمْلُها عَلى مَعْنى كَيْفَ أَظْهَرُ أَصالَةً؛ لدَلالَةِ اسْتِبْعادِ القائِلِ الإِحْياءَ، والإِحْياءُ كَيْفِيَّةٌ لا زَمَنٌ، وهِيَ مُتَضَمِّنَةٌ مَعْنى الظَّرْفِيَّةِ تَبَعًا؛ لأَنَّ الكَيْفِيَّةَ لا تَكونُ إلَّا في زَمَنٍ، فهُوَ يَسْتَبْعِدُ وَقْتَ الإِحْياءِ ومكانه، بَعْدَ اسْتِبْعادِ كَيْفِيَّتِه، وهَذا سِرُّ اخْتِيارِ ﴿أَنَّىٰ﴾ دونَ غَيْرِها، وهُوَ مِنْ فَصيحِ الاسْتِعمالِ. قال الحرالِّي: "وفي لفظة

استِبْعادُ الإِحْياءِ للكَيْفِيَّةِ والمكان، والزَّمَنِ، واسْتِعْمالُ (أَنَّى) أَذْنى لِلاسْتِعْمالِ الفَصيحِ

(1) المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 1/145.

(2) السمين، الدر المصون: 2/560.

(أنى) - لشمول معناها لمعنى كيف وحيث ومتى- استبعاده الإحياء في الكيف والمكان والزمان، ومنشأ هذا الاستبعاد إنما يطوق النفس من طلبها لمعرفة تكييف ما لا يصل إليه علمها"[1].

معنى الاستفهام في ﴿أَنَّىٰ﴾:

دلالة الاستفهام الاستبعاد والاستعظام

وقوله: ﴿أَنَّىٰ يُحْيِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ استفهامُ إنكارٍ واستبعادٍ[2]. واستعظامٍ لقدرة الله على الإحياء[3].

بيان كون الحَقيقَةِ أَبْلَغَ مِنَ المَجازِ بالحَذْفِ:

مَقْصودُ الآيَةِ عُمومُ الحَياةِ لا خُصوصُ حَياةِ النَّاسِ، وهَذا أَقْوى في الاِسْتِبْعادِ، وأَدَقُّ تَصْويرًا

حَمْلُ الإِحْياءِ والإِماتَةِ في قَوْلِه تَعالى: ﴿قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ عَلى الحَقيقَةِ أَبْلَغُ مِنَ المَجازِ بالحَذْفِ؛ فإِنَّ القُرى تَموتُ بمَوْتِ أَهْلِها، ودَوابِّها، وأَشْجارِها، وحَرَكَتِها المَعيشِيَّةِ، وتَحْيا بحَياتِهِمْ، وهَذا أَفْصَحُ مِنْ أَنْ يُقالَ: أَنَّى يُحْيي أَهْلَ هَذِهِ اللهُ بَعْدَ مَوْتِهِمْ؛ لما في ذَلِكَ مِنْ تَخْصيصِ الإِحْياءِ والإِماتَةِ بالنَّاسِ، ومَقْصودُ الآيَةِ عُمومُ جَميعِ الكائِناتِ التي تَكونُ في القُرى، وهَذا أَقْوى في الاِسْتِبْعادِ، وأَدَقُّ في تَصْويرِ مَشْهَدِ الخَرابِ والبُؤْسِ، ودَليلٌ عَلى بُعْدِ عَهْدِ خَرابِ القَرْيَةِ. ومِنْ هُنا يَظْهَرُ بُعْدُ القَوْلِ بأَنَّ الإِحْياءَ مَحْمولٌ عَلى كَوْنِهِ مَجازًا مُرْسَلًا مِنْ قَبيلِ إِطْلاقِ المَحَلِّ وإِرادَةِ الحالِ فيه، أو من كان حالًّا فيه، فيكون مجازًا عقليًّا إذ أوقع الإشارة الحسّية على القرية مريدًا أهلها ولوا أُحْيُوا لَعَمَرُوها كما عَمَرُوها من قبل[4]. فضلًا عن أَنَّهُ "عَبَّرَ عَنْها بالإِحْياءِ الَّذي هُوَ عَلَمٌ في البُعْدِ عَنْ الوُقوعِ عادَةً، تَهْويلًا للخِطابِ، وتَأْكيدًا للاِسْتِبْعادِ، كما أَنَّهُ لأَجْلِهِ عَبَّرَ عَنْ خَرابِها بالمَوْتِ"[5].

(1) البقاعي، نظم الدرر: 4/55-56.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/36.
(3) المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 1/145.
(4) المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 1/145.
(5) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/253.

تَقْديمُ المَفْعولِ عَلى الفَاعِلِ، والتّعْبيرُ عَنْهُ باسْمِ الإشارَةِ:

الإغْتِناءُ بالمَفْعولِ مِنْ جِهَةِ السّائِلِ المُسْتَبْعِدِ، وتَصْويرُ الحالَةِ النَّفْسِيَّةِ للقائِلِ

مُقْتَضى الظَّاهِرِ تَقْديمُ الفاعِلِ عَلى المَفْعولِ، لَكِنْ لَمَّا كانَ الاسْتِبْعادُ في قوله تعالى: ﴿أَنَّىٰ يُحْيِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ ناشِئًا مِنْ جِهَةِ القائِلِ، لا مِنْ جِهَتِهِ سُبْحانَهُ الفاعِلِ، حَسُنَ تَقْديمُ المَفْعولِ بِهِ المُعَبَّرِ عَنْهُ باسْمِ الإشارَةِ، عَلى الفاعِلِ اعْتِناءً بِهِ[1]، وتَصْويرًا للحالَةِ النَّفْسِيَّةِ للقائِلِ حينَ قَوْلِهِ، ودَليلُ ذَلِكَ اسْتِعْمالُ اسْمِ الإشارَةِ دونَ الضَّميرِ، فلَمْ يَقُلْ: (أَنَّى يُحييها؟!) لتَصْويرِ حالِهِ عِنْدَ قَوْلِهِ وهُوَ يُشيرِ بيَدِهِ، ومَدى تَفاعُلِهِ في اسْتِعْمالِ اسْمِ الإشارَةِ حينَ النَّظَرِ إلى القَرْيَةِ الهالِكَةِ، وهَذا يُرَجِّحُ أَنَّهُ قالَ قَوْلَتَهُ التي ضُرِبَتْ مَثَلًا؛ بلِسانِ المَقالِ لا بلِسانِ الحالِ، "فالتَّعْبيرُ بالإشارَةِ ﴿هَٰذِهِ﴾ فيهِ إشارَةٌ إلى تِلْكَ الحالِ الحِسِّيَّةِ الثّابِتَةِ التي اسْتَوْلَتْ عَلى حِسِّهِ، وهِيَ تِلْكَ القَرْيَةِ الخَرِبَةِ، وقَدْ قَدَّمَها عَلى لَفْظِ الجَلالَةِ فقالَ: ﴿أَنَّىٰ يُحْيِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾؛ لأَنَّ السَّبَبَ في التَّساؤُلِ تِلْكَ الحالُ الحِسِّيَّةُ التي هُوَ عَلَيْها"[2]، وأما حَمْلُ اسْمِ الإشارَةِ عَلى أَنْ يَكونَ إشارَةً للعِظامِ البالِيَةِ[3] فبَعيدٌ.

في التقديم وصفٌ لحالة الذهول، والشك في القدرة على الإحياء

في التقديم إيحاء بأنّ حالة الدمار والخراب في القرية قد بلغا حدًّا غير معهود، وأنَّ تَعَجُّبَ الرّجُلِ وذهولَهُ من شدّة التدمير ولَّدَ عنده الشَّكَّ في أيّ قوة قادرة على إعادة هذه القرية إلى ما كانت عليه[4].

سرّ التكرار اللفظي للَّبْثِ:

وجه تكرار لفظ (لبث) عناية بالفعل، وبيانٌ لفخامة حدثه

إعادة كلمة (اللبث) ثلاث مرّاتٍ للعناية بهذا (اللبث)؛ لأنّه أفخم حدث في القصّة، وأهمّه، وأشدّه إثارة للتعجب؛ إذ كان يكفي أن يقال: ﴿يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ في الردّ على السؤال، وأن يقال في الردّ على الردّ: ﴿بَل لَّبِثْتَ مِاْئَةَ عَامٍ﴾[5].

(1) الآلوسي، روح المعاني: 2/22.
(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 2/961.
(3) السمين، الدر المصون: 2/560.
(4) المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 1/145.
(5) المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 1/145.

سرّ تحديد مدّة الإماتة، واللبث بـ (مئة) عامٍ:

في تعليل تخصيص لفظة (المئة) في قوله تعالى: ﴿مِأْتَةَ﴾ قال البقاعي: "ولما كان المراد أن مدة موته كانت طويلة ليكون قد بلي فيها فتكون إعادته أمكن في القدرة على ما تستبعده العرب"[1]. ونقل عن الحرالِّي قوله: "وخصّ المائة لكمالها في العد المثلث من الآحاد والعشرات وعشرها وتر الشفع لأن ما تم في الثالث كان ما زاد عليه تكراراً يجزىء عنه الثلاث"[2].

خصّ المئة؛ لدلالتها على طول المدّة، فتكون الإعادة أمكن في القدرة؛ ولكمالها في العدّ

نكتة التعبير بالعام دون السّنَة:

وللدلالة على "أنّ ذلك الزمان كان حسناً طيباً لقبوله الإحياء والعمارة عبّر عنه بما يدل على السعة فقال: ﴿عَامٍ﴾ حتى بلي حماره وحفظ طعامه وشرابه من التغير؛ ليتحقق كمال القدرة بحفظ ما شأنه التغير، وتغير ما شأنه البقاء، وإعادة ما فَنِي"[3]. ولذلك أُوثِر لفظ العام؛ لإنَّ السَّنَةَ تُسْتَعْمَلُ للزَّمَنِ الَّذي يَكونُ فيهِ شِدَّةٌ ومَحْقٌ.

آثرَ لفظ العام لدلالته على حسن الزمان وطيبه لقبوله الإحياء والعمارة

إيثارُ اسْتِعْمالِ لَفْظِ البَعْثِ عَلى الإحْياءِ:

اسْتَعْمَلَتِ الآيَةُ الكَريمَةُ فِعْلَ البَعْثِ ﴿ثُمَّ بَعَثَهُۥ﴾ وهُوَ مَأْخوذٌ مِنْ: بَعَثَ النَّاقَةَ إذا أَقامَها مِنْ مَكانِها، وإيثارُهُ عَلى (أَحْياهُ)؛ للدَّلالَةِ عَلى سُرْعَتِهِ وسُهولَةِ تَأَتِّيهِ عَلى الباري عَزَّ اسْمُهُ، وللإيذانِ بأَنَّهُ قام كهَيْئَتِهِ يَوْمَ مَوْتِهِ، عاقِلًا فاهِمًا مُسْتَعِدًا للنَّظَرِ والاسْتِدْلالِ[4]، وللإشْعارِ والتَّذْكيرِ بمَضْمونِ مُصْطَلَحِ البَعْثِ المُسْتَعْمَلِ عَلَمًا عَلى يَوْمِ القِيامَةِ، تَشْبيهًا للبَعْثِ هُنا ببَعْثِ النَّاسِ يَوْمَ القِيامَةِ، واسْتِعْمالُ هَذا المُصْطَلَحِ بَدَلَ الإحْياءِ الَّذي يُقابِلُ الإماتَةَ - وهُوَ الَّذي يَقْتَضيهِ

إفادَةُ ثَلاثَةِ أَنْواعٍ مِنَ البَلاغَةِ، وهِيَ الإيجازُ والإدْماجُ والتَّشْبيهُ، ولِما يَحْويهِ هَذا اللَّفْظُ مِنَ التَّذْكيرِ بالقِيامَةِ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 4/56.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 4/56.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 4/56.
(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/253.

الظَّاهِرُ اللُّغَوِيُّ -، مِنْ قَبيلِ الإِدْماجِ[1] في اسْتِعْمالِ المُصْطَلَحِ، حَيْثُ أَدْمَجَ التَّنْبيهَ عَلى البَعْثِ الأُخْرَوِيِّ المُطْلَقِ، مِنْ خِلالِ إيثارِ اسْتِعْمالِ مُصْطَلَحِ البَعْثِ الدُّنْيَوِيِّ المُقَيَّدِ، ودَلالَةُ لَفْظِ البَعْثِ شَمِلَتِ الإِحْياءَ تَضَمُّنًا، فهُوَ إيجازٌ بَديعٌ، أَداتُهُ إيثارُ لَفْظٍ عَلى آخَرَ، ولَوْ قالَ: ثُمَّ أَحْياهُ، التِزامًا بمُقْتَضى الظَّاهِرِ اللُّغَوِيِّ؛ لفاتَتْ هَذِهِ الفَرائِدُ، وضُيِّعَتْ هَذِهِ النِّكاتُ.

الاِسْتِئْنافُ البَيانِيُّ في المُحاوَراتِ القُرْآنِيَّةِ:

بِناءُ التَّفْكيرِ المُتَدَرِّجِ، لِلوُصولِ إلى المَعْرِفَةِ اليَقينِيَّةِ، والاِعْتِقادِ الصَّحيحِ

سُنَّةُ القُرْآنِ في الحِوارِ الهادِفِ، قائِمَةٌ عَلى الجُمَلِ المَفْصولَةِ بَيْنَ المُتَحاوِرينَ؛ لتَحْريكِ أَذْهانِ المُخاطَبينَ في تَوَقُّعِ الأَقْوالِ، وهَذا تَشْويقٌ قُرْآنِيٌّ، وتَشْريكٌ حِوارِيٌّ، هَدَفُهُ بِناءُ قيمَةٍ تَرْبَوِيَّةٍ فِكْرِيَّةٍ، في بِناءِ العَقْلِ وتَوْجيهِهِ نَحْوَ مُقْتَضى الحَقِّ والاِعْتِقادِ الصَّحيحِ، ففي قَوْلِهِ تَعالى: ﴿قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ﴾، ثَلاثَةُ أَقْوالٍ مَفْصولَةٍ، أُريدَ مِنَ الأَوَّلِ التَّوْطِئَةُ للمَعْرِفَةِ، ومِنَ الثَّاني بَيانُ جَهْلِ الإِنْسانِ وقِلَّةِ حيلَتِهِ، ومِنَ الثَّالِثِ المَعْرِفَةُ اليَقينِيَّةُ؛ للتَّسْليمِ والإيقانِ بأَنَّ الأَمْرَ أَيْسَرُ مِمَّا يَسْتَبْعِدُهُ الإِنْسانُ بمَحْضِ فِكْرِهِ ووَهْمِهِ، وهَذا فَحْوى المَثَلِ، ومَكْمَنُ فائِدَتِهِ، ولُبُّ ثَمْرَتِهِ.

مَعْنى ﴿أَوْ﴾ في السِّياقِ:

التَّصْويرُ البَلاغِيُّ لِمَعْنى المَثَلِ القُرْآنِيِّ، سَبيلٌ في التَّرْجيحِ بَيْنَ مَعاني الحُروفِ

ذَكَرَ المُفَسِّرونَ أَنَّ ﴿أَوْ﴾ في قَوْلِهِ تَعالى: ﴿قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ للشَّكِّ، أَوْ للإِضْرابِ[2]، والصَّحيحُ أَنَّها للشَّكِّ الصَّادِرِ عَنِ الحَيْرَةِ، لأَنَّ الإِضْرابَ إمّا أَنْ يَكونَ انتِقاليًّا، أَوْ إِبْطالِيًّا، والمَعْنَيانِ غَيْرُ واردَيْنِ، فإِنَّ تَصْويرَ المَشْهَدِ يَدُلُّ عَلى أَنَّ المَسْؤولَ مُتَحَيِّرٌ في جَوابِهِ، غَيْرُ مُتَيَقِّنٍ مِنْ إيرادِهِ، ولَوْ قُلْنا بالإِضْرابِ لَدَلَّ عَلى تَيَقُّنِ المَسْؤولِ، وهَذا مِمَّا لا سَبيلَ إلى إِثْباتِهِ.

(1) الإدماج: "أن يُضمَّنَ كلامٌ سيق لمعنًى معنًى آخر". التفتازاني، المطول، ص: 684.

(2) السمين، الدر المصون: 2/561.

فائِدَةُ حَرْفِ الإِضْرابِ:

تَعْيينُ خَطَأِ المَسْؤولِ في تَقْديرِهِ، وضُعْفِ حيلَتِهِ

حَرْفُ الإِضْرابِ في قوله ﴿قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِاْئَةَ عَامٍ﴾ إِبْطالِيٌّ، وقَدْ عَطَفَ اللَّاحِقَةَ عَلى جُمْلَةٍ مَحْذوفَةٍ، تَقْديرُها: ما لَبِثْتَ الَّذي قلتَ، بَل لَّبِثْتَ مِئَةَ عامٍ[1]، ولَمْ يَبْدَأْ بالجَوابِ مُباشَرَةً دونَ إِبْطالِ جَوابِ المَسْؤولِ، كأَنْ يَقولَ: لَبِثْتَ مِئَةَ عامٍ؛ لتَعْيينِ خَطَأِ المَسْؤولِ في تَقديرِهِ الذِّهْنِيِّ، وفَهْمِهِ الفِكْرِيِّ؛ وهَذا أَقْوى مِنَ الجَوابِ المُجَرَّدِ عَنْ بَيانِ الخَطَأِ؛ لأَنَّ المَقامَ مَقامُ حِجاجٍ عَقَدِيٍّ، وبَيانُ الخَطَأِ أَوْلَوِيَّةٌ حِجاجِيَّةٌ لا يَنْبَغي التَّساهُلُ فيها.

بَلاغَةُ التَّقابُلِ، وأَثَرُهُ في تَقْديرِ المَحْذوفِ:

وجهُ التّقابلِ وتقديرِ المحذوفِ دفعُ مشكلِ فناءِ الطَّعامِ والشَّرابِ لا تغيُّرِهما

تَفَرَّعَ قَوْلُهُ تَعالى: ﴿فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ﴾ على قوله: ﴿بَل لَّبِثْتَ مِاْئَةَ عَامٍ﴾، وهُوَ تَفَرُّعٌ بحاجَةٍ إلى مَزيدِ تَأَمُّلٍ وتَدَبُّرٍ، فلا يَظْهَرُ مَعْنى عَدَمِ تَغَيُّرِ الطَّعامِ والشَّرابِ بَعْدَ مُرورِ مِئَةِ عامٍ، إِذْ مُقْتَضى الأَمْرِ الفَناءُ، وعَدَمُ تَغَيُّرِ الطَّعامِ والشَّرابِ مُلْتَئِمٌ مَعَ جَوابِ المَسْؤولِ في كَوْنِهِ لَبِثَ يَومًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ، وهَذا مُشْكِلٌ لا يَدْفَعُهُ إِلَّا تَدَبُّرُ النَّظْمِ المُعْجِزِ، ولدَفْعِهِ طَريقَتانِ: إِمَّا بتَقْديرِ المَحْذوفِ بتَصْويرِ المَشْهَدِ بتَمامِهِ بإِلْحاقِ النَّظيرِ بالنَّظيرِ، وإِمَّا بدَلالَةِ التَّقابُلِ بَيْنَ الجُمَلِ المُتَغايِرَةِ، وكِلْتا الطَّريقَتَيْنِ مُشْتَمِلَةٌ عَلى جَمالٍ باهِرٍ، وسِرٍّ زاهِرٍ.

تَصْويرُ المَشْهَدِ بتَمامِهِ بإِلْحاقِ النَّظيرِ بالنَّظيرِ

إِلْحاقُ الجُمْلَةِ بنَظيرَتِها أَداةٌ بَيانِيَّةٌ في فَهْمِ المَعاني وتَقْديرِ المَحْذوفِ، ففي الآيَةِ قَدْ أُمِرَ المَبْعوثُ أَنْ يَنْظُرَ إلى طَعامِهِ وشَرابِهِ، وإلى حِمارِهِ، فقَوْلُهُ: ﴿لَمْ يَتَسَنَّهْ﴾ دَليلٌ عَلى حَياةِ الحِمارِ المَحْذوفِ ذِكْرُها، فذَكَرَ حالَ الطَّعامِ والشَّرابِ، وحَذَفَ حالَ الحِمارِ، ثُمَّ أَفْنى الطَّعامَ والشَّرابَ، وأَماتَ الحِمارَ، والرَّجُلُ يَنْظُرُ إِلَيْها، وقَوْلُهُ: ﴿وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا﴾ دَليلٌ عَلى كَيْفِيَّةِ

(1) السمين، الدر المصون: 2/561.

عَوْدَةِ الطَّعامِ والشَّرابِ إلى عَهْدِها السَّابِقِ المَحْذوفِ ذِكْرُهُ، فذَكَرَ كَيْفِيَّةَ إحْياءِ الحِمارِ، وحَذَفَ كَيْفِيَّةَ إعادَةِ الطَّعامِ والشَّرابِ، فيَكونُ مَعْنى الكَلامِ: انْظُرْ إلى طَعامِكَ وشَرابِكَ كَيْفَ نُفْنيها، وإلى الحِمارِ كَيْفَ نُميتُهُ، ثُمَّ نُعيدُها جَميعًا إلى سابِقِ عَهْدِها، ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ﴾، أَيْ: شاهَدَ فَناءَ الطَّعامِ والشَّرابِ ومَوْتَ الحِمارِ، ثُمَّ عَوْدَتَها إلى سابِقِ عَهْدِها، تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ ماتَ وبُعِثَ، وهَذِهِ نَظيرُ قَوْلِهِ تَعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾﴾ [البقرة: 260].

تَقْديرُ المَحْذوفِ بالتَّقابُلِ بَيْنَ الجُمَلِ المُتَغايِرَةِ

مِنْ أَدَواتِ تَقْديرِ المَحْذوفِ التَّقابُلُ بَيْنَ الجُمَلِ بتَقْديرِ مَعانٍ مُتَغايِرَةٍ لقَرائِنَ لَفْظِيَّةٍ، فمِنْ ذَلِكَ ما جاء في هَذا السِّياقِ، فقَدْ أَمَرَ اللّٰهُ المَبْعوثَ أَنْ يَنْظُرَ إلى طَعامِهِ وشَرابِهِ، وإلى حِمارِهِ، ونُلاحِظُ أَنَّ الآيَةَ ذَكَرَتْ حِفْظَ الطَّعامِ والشَّرابِ، ولَمْ تُبَيِّنْ حالَ الحِمارِ، وفي المُقابِلِ ذَكَرَتْ كَيْفِيَّةَ إحْياءِ الحِمارِ، ولَمْ تَذْكُرْ حالَ الطَّعامِ والشَّرابِ، فدَلَّتِ المُقابَلَةُ عَلى التَّغايُرِ بَيْنَ حالِ الطَّعامِ والشَّرابِ، وحالِ الحِمارِ، فالطَّعامُ والشَّرابُ حُفِظا بِدَليلِ: ﴿لَمْ يَتَسَنَّهْ﴾، وفي المُقابِلِ لَمْ تَذْكُرِ الآيَةُ شَيْئًا عَنِ الطَّعامِ والشَّرابِ، وذَكَرَتْ إحْياءَ الحِمارِ، ففَهِمْنا مِنْ هَذا التَّقابُلِ أَنَّ الحِمارَ قَدْ بَلِيَ، وأَحْياهُ اللّٰهُ تَعالى، وفي كِلْتَيْهِما إثْباتٌ لقُدْرَةِ اللّٰهِ تَعالى[1]. وبِهَذا يَظْهَرُ أَنَّ ذِكْرَ الطَّعامِ والشَّرابِ مَعَ الحِمارِ البالي، مَقْصودُهُ بَيانُ أَنَّ المُحْيي والمُميتَ هُوَ اللّٰهُ تَعالى، فالَّذي حَفِظَ هَذا أَماتَ هَذا، فظَهَرَ مِنْ هَذا التَّقابُلِ حُسْنُ تَقْديرٍ بَديعٍ، يَتَّضِحُ بِهِ المَعْنى ويَنْدَفِعُ مَعَهُ الإشْكالُ.

وَجازَةُ التَّعْبيرِ بـ﴿لَمْ يَتَسَنَّهْ﴾:

التَّرْكيبُ القُرْآنيُّ مُلائِمٌ للأَلْفاظِ والمَعاني عَلى حَدٍّ سَواءٍ، لا تَجِدُ فيهِ خَلَلًا، ولا بَلَلًا، ومِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعالى: ﴿لَمْ يَتَسَنَّهْ﴾، فقَدْ جاءَتْ فيهِ مَجْموعَةٌ مِنَ الدَّقائِقِ البَيانِيَّةِ، لا يُؤَدِّيها تَعْبيرٌ آخَرُ، وهِيَ كالآتي:

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 2/962.

بَلاغَةُ النَّفْيِ بـ ﴿لَمْ﴾:

أَفادَ النَّفْيُ النَّصَّ عَلى مَعْنَيَيْنِ مُتَقابِلَيْنِ

إِنَّ (لمْ) تَنْفي وُقوعَ الحَدَثِ عَمّا مَضى نَفْيًا قاطِعًا، مَعَ تَصْويرِ وُقوعِ النَّقيضِ، فأَفادَ النَّفْيُ في قوله تعالى: ﴿فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ﴾ ما لَمْ يُفِدْهُ الإِثْباتُ، فلَوْ قالَ: فانْظُرْ إلى طَعامِكَ وشَرابِكَ صالِحًا، أَوْ صَحيحًا، لَما أَدَّى المَعنى البَيانيَّ الَّذي أَدَّاه النَّفْيُ، وهُوَ النَّصُّ عَلى المَعْنَيَيْنِ المُتَقابِلَيْنِ، وهُما الصَّلاحُ ونَفْيُ الفَسادِ، وآثَرَ اسْتِعْمالَ النَّفْيِ للإِشْعارِ بأَنَّ الأَصْلَ في الطَّعامِ التَّغَيُّرُ والفَسادُ.

قصديّة النفي بـ ﴿لَمْ﴾ دون (ما):

أفادت (لم) نفي صفة سرعة التغيّر المعهودة في الشراب والطعام

وقُصد إلى النفي بـ ﴿لَمْ﴾ في الآية: "لأن تغير الشّراب والطعام يحصل تدريجيًّا ويستمر وليس دفعة واحدة فجاء بـ (لم) للدلالة على أنه لم يحصل شيء من ذلك، ولو جاء بـ (ما) وقال: (ما تسنّه) لأفاد نَفْيَ التّسَنُّه وهو التغير بصورته النهائية التامة"[1].

سرّ التعبير بصيغَة المُضارِعِ:

الإيذانُ بأَنَّ ما حَصَلَ أَمْرٌ خارِقٌ للعادَةِ

التَّعْبيرُ بصيغَةِ الفِعْلِ المُضارِعِ، أَشارَ إلى مَعْنًى اعْتِيادِيٍّ، وهُوَ قابِلِيَّةُ الطَّعامِ والشَّرابِ للتَّغَيُّرِ والفَسادِ بسَبَبِ مُرورِ السِّنينَ، وهُوَ أَمْرٌ سُنَنِيٌّ، فالتَّعْبيرُ بالمُضارِعِ نَبَّهَ عَلى اسْتِحْضارِ هَذا المَعْنى؛ لبَيانِ أَنَّ ما حَدَثَ هُوَ أَمْرٌ خارِقٌ للعادَةِ.

نكتة إِفْرادُ الضَّميرِ:

تَنَوُّعُ تَوْجيهاتِ إِفْرادِ الضَّميرِ العائِدِ عَلى التَّثْنِيَةِ، دَليلٌ عَلى غَناءِ النَّظْمِ وزَهاءِ التَّعْبيرِ

إِفْرادُ الضَّميرِ في ﴿لَمْ يَتَسَنَّهْ﴾ مَعَ عَوْدَتِهِ عَلى الطَّعامِ والشَّرابِ، لَهُ عِدَّةُ تَوْجيهاتٍ مِنَ البَيانِ بما يَتَلاءَمُ مَعَ جَوْدَةِ التَّفْسيرِ؛ فمِنْ تِلْكَ التَّوْجيهاتِ:

أولاً: تَنْزيلُهُما مَنْزِلَةَ الطَّعامِ الواحِدِ، فلا يُكْتَفى بأَحَدِهِما دونَ الآخَرِ، كأَنَّهُ قالَ: انْظُرْ إلى غِذائِكَ.

(1) د. فاضل السامرائي، معاني النحو: 4/196.

ثانيًا: الاكْتِفاءُ بالمَذْكورِ عَنِ المَحْذوفِ، ويَعودُ الضَّميرُ إلى الشَّرابِ؛ لأَنَّهُ أَقْرَبُ مَذْكورٍ، مَعَ تَقْديرِ جُمْلَةٍ أُخْرى مَحْذوفَةٍ دَلَّتِ المَذْكورَةُ عَلَيْها.

ثالثًا: سَكَتَ عَنْ تَغَيُّرِ الطَّعامِ، تَنْبيهًا بالأَدْنى عَلى الأَعْلى، وذَلِكَ أَنَّهُ إذا لَمْ يَتَغَيَّرِ الشَّرابُ مَعَ نَزْعَةِ النَّفْسِ إِلَيْهِ؛ فَعَدَمُ تَغَيُّرِ الطَّعامِ أَوْلَى[1].

فَجَمَعَ هَذا التَّعْبيرُ مِنْ هَذِهِ المَعاني البَلاغِيَّةِ العالِيَةِ، بدَقيقِ النَّظْمِ، ورَقيقِ الاخْتِيارِ، ما يَعْجُزُ عَنْهُ آحادُ البُلَغاءِ، وأَفْرادُ الفُصَحاءِ، وهَذا مِنْ بَديعِ بَلاغَةِ القُرْآنِ في الكَشْفِ عَنِ المَضامينِ التَّاريخِيّةِ بعِبارَةٍ وَجيزَةٍ للسَّامِعِ، وأَلْفاظٍ وَنيسَةٍ للمُتَأَمِّلِ.

العَطْفُ عَلى المَحْذوفِ:

عَطْفُ العِلَّةِ الخَفِيَّةِ عَلى العِلَّةِ الظَّاهِرَةِ، تَنْبيهًا عَلى ضَرورَةِ اسْتِظْهارِها مِنْ قِبَلِ القارِئِ

الواوُ في قَوْلِهِ تَعالى: ﴿وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ﴾، عَطَفَتِ الجُمْلَةَ عَلى جُمْلَةٍ مَحْذوفَةٍ مُقَدَّرَةٍ مِنَ السِّياقِ، تَقْديرُها: "لنُزيلَ تَعَجُّبَكَ ونُريَكَ آياتِنا في نَفْسِكَ وطَعامِكَ وشَرابِكَ وحِمارِكَ، ولنَجْعَلَكَ آيَةً للنَّاسِ، فالعَطْفُ دَلَّنا عَلى المَحْذوفِ المَطْوِيِّ دَلالَةً ظاهِرَةً، وهَذا مِنْ لَطائِفِ إيجازِ القُرْآنِ"[2]. وهُوَ مِنْ عَطْفِ العِلَّةِ الخَفِيَّةِ المَذْكورَةِ عَلى العِلَّةِ الظَّاهِرَةِ المُقَدَّرَةِ، فإِنَّ إزالَةَ التَّعَجُّبِ هُي العِلَّةُ الظَّاهِرَةُ مِنَ السِّياقِ، وتَقْديرُها يَسيرٌ عَلى المُخاطَبِ المُتَدَبِّرِ، فذَكَرَ المَعْنى الخَفِيَّ وعَطَفَهُ عَلى المَعْنى الظّاهِرِ المُقَدَّرِ تَنْبيهًا عَلى ضَرورَةِ اسْتِظْهارِهِ مِنْ قِبَلِ القارِئِ، وأَنَّهُ مَدارُ المَثَلِ المَضْروبِ، وهَذا أُسْلوبٌ قُرْآنِيٌّ فَريدٌ، ومِنْهُ قَوْلُهُ تَعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ۝٧٥﴾ [الأنعام: 75]، تَقْديرُ المَحْذوفِ: نُري إبْراهيمَ مَلَكوتَ السَّماواتِ والأَرْضِ ليَتَثَبَّتَ في حُجَجِهِ، ويَتَقَوَّى في بَراهينِهِ، وليَكونَ مِنَ الموقِنينَ.

نَوْعُ التَّعْريفِ في ﴿لِّلنَّاسِ﴾:

المَقْصودُ بالنَّاسِ "الجِنْسُ؛ إذ هو آية لمن عاصره ولمن يأتي

(1) السمين، الدر المصون: 2/562.

(2) الآلوسي، روح المعاني: 2/22.

بعدهم إلى يوم القيامة"[1]، لا قَوْمُ المارِّ عَلى القَرْيَةِ، فهُوَ آيَةٌ عامَّةٌ لجَميعِ النَّاسِ، ودَليلُ ذَلِكَ، أَنَّ اللهَ جَعَلَهُ آيَةً للنَّاسِ في القُرْآنِ الكَريمِ إلى يَوْمِ القِيامَةِ، وجَعَلَهُ آيَةً للنّاسِ في مَسْأَلَةٍ عَامَّةٍ لا تَخُصُّ أَحَدًا دونَ أَحَدٍ وهِيَ البَعْثُ، فحَمْلُ النَّاسِ عَلى الجِنْسِ حَقيقَةً، هُوَ المُتَبادِرُ الصَّحيحُ، وهُوَ المُلائِمُ للسِّياقِ، والمَوْضوعِ، وهُوَ ما يُؤَيِّدُهُ انْتِفاءُ أَدِلَّةِ أَنْ يَكونَ التَّعريفُ لمَعنًى آخَرَ. وتحتمل: "الألف واللام في: للناس، العهد إن عنى به مَن بقي مِن قومه، أو مَن كان في عصره"[2].

تعريف (الناس) للجنس ليشمل عمومهم، أو للعهد والمراد مَن بقي مِن قومه، أو مَن كان في عصره

نوع التَّعْريفُ في ﴿ٱلْعِظَامِ﴾:

التَّعْريفُ في كَلِمَةِ ﴿ٱلْعِظَامِ﴾ عِوَضٌ عَنِ المُضافِ إِلَيْهِ المَحْذوفِ[3]، ويعني بالعظام عظام نفسه، أو: عظام حماره، أو عظامهما؛ والأظهر في هَذا السِّياقِ أَنْ يَكونَ المَقْصودُ بالعِظامِ عِظامَ الحِمارِ المَذْكورِ آنِفًا، وما قيلَ بأَنَّهُ عِظامُ النّاسِ الباليَةِ، فلا دَليلَ عَلَيْهِ مِنَ النَّظْمِ الكَريمِ، ويعضده قوله معقّبًا بالفاء: ﴿فَٱنظُرْ﴾ إلى آخره، إذ يدلُّ على أنّ العظام لا يُراد بها عظام نفسه[4].

تعريف العظام للعهد ويراد به عظام نفسه، أو عظام الحِمارِ، أو عظامهما

نكتة التعبير بـ ﴿كَيْفَ﴾:

وكيف في قَوْلِهِ: ﴿وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا﴾ لتَّأْكيدِ مَا قَبْلَهَا، وَتَحْقيقِه[5].

التعبير بـ(كيف) للتأكيد، والتحقيق

التَّكامُلُ الدَّلاليُّ في القِراءَتَيْنِ:

اخْتَلَفَ القُرَّاءُ في قِراءَةِ: ﴿نُنشِزُهَا﴾؛ فقَرَأَها ابْنُ عامِرٍ والكوفِيُّونَ بالزَّايِ المَنْقُوطَةِ، وقَرَأَها الباقُونَ بالرَّاءِ المُهْمَلَةِ[6]، فمَعْنى الآيَةِ

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 2/305.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 2/305.
(3) السمين، الدر المصون: 2/568.
(4) أبو حيان، البحر المحيط: 2/305، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/37.
(5) الزركشي، البرهان: 4/331.
(6) ابن الجزري، النشر: 2/231.

النُّشوزُ ارْتِفاعُ العِظامِ وتَرْكيبُها، والنَّشْرُ إحْياؤُها، فقِراءَةٌ أشارَتْ إلى مَبْدَأِ الأَمْرِ، والثّانِيَةُ إلى مُنْتَهاهُ

عَلى قِراءَةِ الكوفِيِّينَ والشّامِيِّ: رَفْعُ العِظامِ بَعْدَ هُمودِها والْتِصاقِها بالأَرْضِ، وتَرْكيبُ بَعْضِها عَلى بَعْضٍ، ومَعْناها عَلى قِراءَةِ البَقِيَّةِ: نُحْيِيها بَعْدَ مَوْتٍ، مَأْخوذٌ مِنَ النَّشْرِ الَّذي يُقابِلُ الطَّيَّ، وأَنْشَرَ اللّهُ المَيِّتَ ونَشَرَهُ: أَحْياهُ، وكان بَعْضُ بَني الحارِثِ يَقولُ: كان بِهِ جَرَبٌ فنُشِرَ، إذا عادَ وحَيِيَ[1]. وحُجَّةُ مَنْ قَرَأَ بالرّاءِ المُهْمَلَةِ: ﴿ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ۝٢٢﴾ [عبس: 22]، فالإِنْشازُ هُوَ رَفْعُ العَظْمِ قَليلًا قَليلًا حَتّى يَتَرَكَّبَ ويَكْتَمِلَ، فكَأَنَّهُ وَقَفَ عَلى نَباتِ العِظامِ الرُّفاتِ، وخُروجِ ما يوجَدُ مِنْها عِنْدَ الاخْتِراعِ، والإِنْشارُ إعادَةُ الحَياةِ إلى العِظامِ[2]، فالعَلاقَةُ التَّكامُلِيَّةُ بَيْنَ القِراءَتَيْنِ تَظْهَرُ في أَنَّ إِنْشازَ العِظامِ كانَ أَوَّلَ الإِحْياءِ، وإِنْشارَها آخِرُه، فالعِظامُ بَدَأَتْ تَرْتَفِعُ شَيْئًا فشَيْئًا، حَتّى تَكامَلَتْ فنُشِرَتْ فسَرَتْ فيها الحَياةُ، فقِراءَةٌ أَشارَتْ إلى مَبْدَأِ الأَمْرِ، والثّانِيَةُ إلى مُنْتَهاهُ.

صيغَةُ المُضارِعِ في ﴿نُنشِزُهَا﴾:

التعبير بالمضارع تَصْويرٌ للمَشْهَدِ الغَيْبِيِّ عَنِ المُخاطَبِ؛ زِيادَةً في إيمانِهِ وتَسْليمِهِ

للفِعْلِ المُضارِعِ أَثَرُهُ الكَبيرُ في إثارَةِ الخَيالِ لَدى المُخاطَبِ، وقَدْ تَرَكَ فِعْلُ ﴿نُنشِزُهَا﴾ تَصْويرًا بَديعًا لكَيْفِيَّةِ إحْياءِ عِظامِ الحِمارِ، وهَذا التَّصْويرُ مِنْ شَأْنِهِ تَحْريكُ الذِّهْنِ لتَصَوُّرِ حالِ العِظامِ في الأَرْحامِ، وكَيْفَ أَنَّ الَّذي رَفَعَها مِنَ الأَرْضِ، يَرْفَعُها في الأَرْحامِ، مِمَّا يَزيدُ قَلْبَ المُؤْمِنِ تَسْليمًا.

بلاغةُ تعالُقِ الاستعاراتِ:

تَنَوُّعُ الاسْتِعارَةِ دَليلُ ثَراءِ البَيانِ القُرْآنِيِّ

تَتَنَوَّعُ أَساليبُ البَيانِ القُرْآنِيِّ في إِبْرازِ جَمالِ المَعاني، وبَهاءِ المَباني، ففي قَوْلِهِ تَعالى: ﴿وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا﴾ زاحَمَتِ الاسْتِعارَةُ الاسْتِعارَةَ، وتَعَدَّدَتْ وتَعالَقَتْ باعْتِبارِ زاوِيَةِ النَّظَرِ إِلَيْها، وكانَ لِكُلِّ اسْتِعارَةٍ جَمالُها في النَّفْسِ، وأَثَرُها في الحِسِّ، ففي الآيَةِ نَوْعا اسْتِعارَةٍ، مَكْنِيَّةٌ وتَصْريحِيَّةٌ.

(1) الأزهري، تهذيب اللغة: (نشر).

(2) ابن جرير، جامع البيان: 5/478، وابن عطية، المحرر الوجيز: 1/351.

الاِسْتِعارَةُ المَكْنِيَّةُ

شَبَّهَتِ الآيَةُ العِظامَ بجَسَدِ الإِنْسانِ، واستعارها هنا لما أنشأ من اللحم الذي غطى به العظم؛ فحَذَفَتِ المُشَبَّهَ بِهِ، وذَكَرَتْ لازِمًا مِنْ لَوازِمِهِ وهُوَ فِعْلُ الكَسْوِ، فإِنَّ العَظْمَ يُنْبِتُ اللَّحْمَ، ولا يُكْسى بِهِ، تَشْبيهًا بسَتْرِ الإِنْسانِ جَسَدَهُ باللِّباسِ، عَلى سَبيلِ الاِسْتِعارَةِ المَكْنِيَّةِ. وهي استعارة في غاية الحسن، إذ هي استعارةُ عَيْنٍ لِعَيْنٍ[1].

الاِسْتِعارَةُ التَّصْريحِيَّةُ

شَبَّهَتِ الآيَةُ اللَّحْمَ باللِّباسِ السَّاتِرِ، ثُمَّ حَذَفَتِ المُشَبَّهَ، وصَرَّحَتْ بالمُشَبَّهِ بِهِ، بجامِعِ الظُّهورِ في كُلٍّ مِنَ اللِّباسِ واللَّحْمِ، عَلى سَبيلِ الاِسْتِعارَةِ التَّصْريحِيَّةِ، والمُرادُ باللَّحْمِ هاهُنا ما يَشْمَلُ اللَّحْمَ والشَّحْمَ والشَّعَرَ؛ لَكِنَّهُ اكْتَفى بذِكْرِهِ لأَنَّهُ أَصْلُ البَقِيَّةِ، وإِذا أُطْلِقَ فُهِمَ المُرادُ.

إيثارُ اسْتِعْمالِ الفِعْلِ (كَسا):

في استعمال الفعل إشارةٌ إلى قُبْحِ العُرْيِ، وفَضْلِ السِّتْرِ

إيثارُ فِعْلِ ﴿نَكْسُوهَا﴾ عَلى غَيْرِهِ مِنَ الأَفْعالِ؛ للإِشارَةِ إِلى قُبْحِ العُرْيِ، وفَضيلَةِ السِّتْرِ، فما أَصابَتِ الفَضيلَةُ شَيْئًا إِلَّا حَسَّنَتْهُ وجَمَّلَتْهُ، ولَوْ كانَ عَظْمَ حِمارٍ، فلْيَحْذَرِ الَّذينَ يُخالِفونَ طَريقَ الفَضيلَةِ، أَنْ تَفْضُلَهُمْ عِظامُ الحَميرِ، فلا تَكْمُلَ حَياتُهُمْ، ولا تَجْمُلَ نُفوسُهُمْ.

سِرُّ التَّعْبيرِ بالنَّظَرِ وتَكْرارِهِ:

النَّظَرُ تَقْليبُ البَصَرِ والبَصيرَةِ، وكُرِّرَ لفَهْمِ كُلِّ مَعْنًى عَلى وَجْهٍ مُسْتَقِلٍّ

تَكَرَّرَ الأَمْرُ بالنَّظَرِ في الآيَةِ ثَلاثَ مَرَّاتٍ، الأولى: ﴿فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ﴾، والثَّانِيَةُ: ﴿وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ﴾، والثَّالِثَةُ: ﴿وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا﴾، والأَمْرُ بالتَّكْرارِ دَليلُ العِنايَةِ بالاِعْتِبارِ، فإِنَّ المَثَلَ قائِمٌ عَلى اعْتِبارِ المُشاهَدِ للوُصولِ إِلى الحَقيقَةِ المُسْتَبْعَدَةِ، والنَّظَرُ هُوَ "تَقْليبُ البَصَرِ والبَصيرَةِ لإِدْراكِ الشَّيْءِ ورُؤْيَتِهِ"[2]، فلَيْسَ المُرادُ بالنَّظَرِ مُجَرَّدَ الإِبْصارِ، بَلِ الإِدْراكَ ومَعْرِفَةَ الأُمورِ عَلى حَقيقَتِها الظَّاهِرَةِ والباطِنَةِ، وهَذا سِرُّ التَّعْبيرِ

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 2/306.
(2) الراغب، المفردات، ص: 812.

بالنَّظَرِ وتَكْرارِهِ، فلَوْ لَمْ يُكَرَّرْ لفُهِمَ أَنَّ المَطْلوبَ النَّظَرُ الكُلِّيُّ للجَميعِ، ولَوْ جاءَ النَّظْمُ: (فانْظُرْ إلى طَعامِكَ وشَرابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وإلى حِمارِكَ . . وإلى العِظامِ) لَصَحَّ المَعْنى، لَكِنَّهُ يَكونُ قاصِرًا عَنِ المَقْصودِ، وهُوَ إفْرادُ كُلِّ جُزْءٍ مِنَ المَطْلوبِ تَأَمُّلُهُ بالنَّظَرِ الدَّقيقِ؛ للوُصولِ إلى المَعْنى الأَنيقِ؛ فإنَّ النَّظَرَ إلى الطَّعامِ والشَّرابِ عَلى حالِهِما وعَدَمِ عَوَزِهِما لأَسْبابِ البَقاءِ مُدَّةَ اللَّبْثِ الطَّويلِ، يَخْتَلِفُ عَنْ أَسْبابِ بَقاءِ الحِمارِ حَيًّا، أَوْ مَوْتِهِ، والنَّظَرُ إلى كَيْفِيَّةِ إحْياءِ الحِمارِ، يَخْتَلِفُ عَنِ النَّظَرِ إلَيْهِ وهُوَ مَنْخورُ العَظْمِ، فلِذَلِكَ أَمَرَتِ الآيَةُ بأَنْ يَكونَ النَّظَرُ مُتَّجِهًا إلى كُلِّ مَنْظورٍ باسْتِقْلالٍ، وهَذا فيهِ مَزيدُ عِنايَةٍ ورِعايَةٍ، لإدْراكِ الحَدَثِ، والعِنايَةِ بتَفاصيلِهِ، فإنَّ العِلْمَ بتَفاصيلِ الأَشْياءِ ومَقاديرِها، لَيْسَ كالمَعْرِفَةِ المُتَعَجِّلَةِ.

وجه التكرار أنّ كلّ واحد منها خارق عظيم، ومعجز بالغ، ولتعالق معناها بعضها ببعض

وتكرر الأمر بالنظر إلى الطعام والشراب في الثلاث الخوارق، ولم ينسق نسق المفردات؛ لأن كل واحد منها خارق عظيم، ومعجز بالغ، وبدأ أولاً بالنظر إلى العظام والشراب حيث لم يتغيرا على طول هذه المدة، لأن ذلك أبلغ، إذ هما من الأشياء التي يتسارع إليها الفساد، إذ ما قام به الحياة وهو الحمار يمكن بقاؤه الزمان الطويل، ويمكن أن يحتش بنفسه ويأكل ويرد المياه. ثم أَعْقَبَهُ بالنظر إلى مصاحبه وهو الحمار، فجاء النظر الثالث توضيحاً للنظر الثاني، من أي جهة ينظر إلى الحمار، وهي جهة إحيائه وارتفاع عظامه شيئاً فشيئاً عند التركيب وكسوتها اللحم، فليس نظراً مستقلاً، بل هو من تمام النظر الثاني، فلذلك حَسُنَ الفَصْلُ بَيْنَ النَّظَرَيْنِ بقوله: ﴿وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ﴾[1].

التّعبير بالفاء للإيذان بظُهورِ تَحَقُّقِ المَحْذوفِ في اسْتِغْنائِهِ عَنِ الذِّكْرِ، وسُرْعَةِ وُقوعِهِ

بَلاغَةُ الفاءِ الفَصيحَةِ:

الفاءُ في قَوْلِهِ تَعالى: ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ هِيَ الفَصيحَةُ، وهِيَ تُفْصِحُ عَنْ مَعْنًى مُقَدَّرٍ يَسْتَدْعِيهِ الأَمْرُ المَذْكورُ، وسِرُّ حَذْفِ المُقَدَّرِ للإيذانِ بظُهورِ تَحَقُّقِهِ واسْتِغْنائِهِ عَنِ الذِّكْرِ، وللإشْعارِ بسُرْعَةِ وُقوعِهِ كأَنَّهُ قيلَ: فأَنْشَرَها اللهُ تَعالى،

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 2/306.

وكَساها لَحْمًا، فنَظَرَ إِلَيْها، فتَبَيَّنَ لَهُ كَيْفِيَّتُهُ، فلَمَّا تَبَيَّنَ ذَلِكَ، ﴿قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[1].

جَمالُ الاِحْتِمالِ في بابِ التَّنازُعِ:

اشْتِمالُ الفِعْلِ عَلى الدَّلالاتِ السَّابِقَةِ واللاَّحِقَةِ، مِنْ جَمالِ الاِتِّساعِ، وجَلالِ الاِتِّساقِ

اخْتَلَفَ المُفَسِّرونَ في تَقْديرِ الفاعِلِ لفِعْلِ ﴿تَبَيَّنَ﴾، فمِنْهُمْ مَنْ قَدَّرَهُ مِنَ السِّباقِ، أَيْ: فلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَمْرُ الإِحْياءِ بَعْدَ الإِماتَةِ وكَيْفِيَّتُهُ، ومِنْهُمْ مَنْ قَدَّرَهُ مِنَ اللَّحاقِ: أَيْ: فلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ اقْتِدارُ اللهِ عَلى كُلِّ شَيْءٍ، واحْتِمالُ تَقْديرِ الفاعِلِ سِباقًا ولَحاقًا يَدُلُّ عَلى جَمالِ النَّظْمِ القُرْآنِيِّ، واتِّساعِ دَلالَتِهِ؛ لاشْتِمالِ التَّبَيُّنِ عَلى ما وَرَدَ في السَّابِقِ واللاَّحِقِ، وإِنْ كانَ هَذا يَدْخُلُ في بابِ التَّنازُعِ النَّحْوِيِّ، إِلَّا أَنَّ أَثَرَهُ البَيانِيَّ لا يُنْكَرُ، فحَمْلُهُ عَلى التَّنَوُّعِ المَقْصودِ، أَوْلى مِنْ حَمْلِهِ عَلى التَّرْجيحِ، لما في ذَلِكَ مِنْ جَمالِ الاِتِّساعِ، وجَلالِ الاِتِّساقِ.

التَّكامُلُ في القِراءاتِ:

تَصْويرُ سُرْعَةِ الاِسْتِجابَةِ، فكَأَنَّ الأَمْرَ والاِسْتِجابَةَ لَهُ مُتَّحِدانِ في لَحْظَةٍ واحِدَةٍ

اخْتَلَفَ القُرَّاءُ في قَوْلِهِ تَعالى: ﴿قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، فقَرَأَ حَمْزَةُ والكِسائِيُّ بالوَصْلِ، وإِسْكانِ الميمِ عَلى الأَمْرِ، وقَرَأَ الباقونَ بقَطْعِ الهَمْزَةِ، والرَّفْعِ عَلى الخَبَرِ[2]، فقِراءَةُ الأَخَوَيْنِ هِيَ القِراءَةُ الآمِرَةُ تَوجيهًا وإِرْشادًا وتَعْليمًا، والقِراءَةُ الأُخْرى قِراءَةُ الاِسْتِجابَةِ للتَّوْجيهِ والإِرْشادِ والتَّعْليمِ، فقِراءَةٌ دَلَّتْ عَلى الأَمْرِ، وأُخْرى دَلَّتْ عَلى الاِسْتِجابَةِ، قِراءَةٌ دَلَّتْ عَلى البِدايَةِ، وأُخْرى دَلَّتْ عَلى المَآلِ، وتَكْمُنُ بَلاغَةُ القِراءَتَيْنِ في تَصْويرِ سُرْعَةِ الاِسْتِجابَةِ، فبِمُجَرَّدِ أَنْ أُمِرَ اسْتَجابَ، فكَأَنَّ الأَمْرَ والاِسْتِجابَةَ مُتَّحِدانِ في لَحْظَةٍ واحِدَةٍ، وهَذا مِنْ أَسْرارِ التَّعْبيرِ بالقِراءاتِ المُخْتَلِفَةِ لَفْظًا عَنِ المَعاني القُرْآنِيَّةِ، وهُوَ شَكْلٌ مِنْ أَشْكالِ بَلاغَةِ القُرْآنِ المُعْجِزَةِ.

(1) الآلوسي، روح المعاني: 2/23.
(2) ابن الجزري، النشر: 2/231.

ويجوز أن تكون القراءة أمرًا بالعلم، أو على سَبيلِ التَّجْريدِ مُبَكِّتًا لَها

ويمكن أنْ يُحْمَلَ قوْلِهِ تَعالى: ﴿ٱعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ عَلى قِراءَةِ حَمْزَةَ والكِسائِيِّ بِهَمْزَةِ الوَصْلِ، عَلى مَعْنَيَيْنِ:

الأَوّلُ: أَنْ تَكونَ أَمْرًا مِنَ اللّهِ تَعالى للمُخاطَب أَنْ يَعْلَمَ.

الثّاني: أَنْ تَكونَ خِطابًا مِنَ الرَّجُلِ لنَفْسِهِ، "عَلى سَبيلِ التَّجْريدِ مُبَكِّتًا لَها، مُوَبِّخًا عَلى ما اعْتَراها مِنْ ذَلِكَ الاِسْتِبْعادِ"[1]، والمَعْنَيانِ مُحْتَمِلانِ، وحَمْلُها عَلى التَّجْريدِ قَوِيٌّ؛ لمُعاضَدَةِ القِراءَةِ الأُخْرى لَها، فكَأَنَّهُ قالَ: اعْلَمْ! ثُمَّ قالَ مُقِرًّا: أَعْلَمُ، وهَذا مِنْ حِوارِ الإِنْسانِ لذاتِهِ إِقْرارًا واعْتِرافًا.

إيثارُ صيغَةِ المُضارِعِ:

التّعبير بالمضارع وَعْدٌ باسْتِحْضارِ العِلْمِ عَلى الدَّوامِ

آثَرَتِ الآيَةُ صيغَةَ المُضارِعِ في قِراءَةِ الجُمْهورِ؛ "للدَّلالَةِ عَلى أَنَّ عِلْمَهُ بذَلِكَ مُسْتَمِرٌّ، نَظَرًا إلى أَنَّ أَصْلَهُ لَمْ يَتَغَيَّرْ، بَلْ إنَّما تَبَدَّلَ بالعِيانِ وَصْفُهُ، وفيهِ إِشْعارٌ بأَنَّهُ إنّما قالَ ما قالَ بِناءً عَلى الاِسْتِبْعادِ العادِيِّ، واسْتِعْظامًا للأَمْرِ"[2]، وفي التَّعْبيرِ بصيغَةِ المُضارِعِ عِدَةٌ بأَنَّهُ سيَبْقى مُسْتَحْضِرًا أَثَرَ العِلْمِ بأَنَّ اللّهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَديرٌ؛ لدَلالَةِ المُضارِعِ عَلى تَجَدُّدِ العِلْمِ، وما في ذَلِكَ التَّجَدُّدِ مِنَ الارْتِقاءِ والاِقْتِرابِ.

بلاغة توكيد الخبر:

وجه التوكيد إزالة الشكّ من النّفس

وسُعي في قوله تعالى: ﴿أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ إلى توكيد الخبر بلفظ ﴿أَعْلَمُ﴾ الدالّ على الاستيقان، والإيمان، والاعتقاد[3]، و﴿أَنَّ﴾، وباللفظين الدّالّين على الاستغراق والشمول: ﴿كُلِّ﴾، و﴿شَيْءٍ﴾؛ "لإزالة الشكّ الذي كان في نفسه قبل أن يريه اللّه تلك الآيات الناطقة بطلاقة القدرة الإلهيّة"[4].

(1) الآلوسي، روح المعاني: 2/24.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 2/24.
(3) ابو زهرة، زهرة التفاسير: 2/964.
(4) المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 1/145.

الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

اللَّبْث والمكْث:

يَدُلُّ لَفْظُ المُكْثِ واللَّبْثِ عَلى الإقامَةِ، طالَتْ أَمْ قَصُرَتْ، والفَرْقُ بَيْنَهُما أَنَّ اللَّبْثَ هُوَ الإقامَةُ الزَّمانِيَّةُ مَلْحوظًا فيها المَكانُ، والمُكْثُ هُوَ الإقامَةُ المَكانِيَّةُ مَلْحوظًا فيهِ الزَّمانُ، فالعِبْرَةُ بالتَّغْليبِ، وغالِبُ اسْتِعْمالِ اللَّبْثِ في القُرْآنِ الكَريمِ للإقامَةِ الزَّمانِيَّةِ، كما قالَ تَعالى: ﴿قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍۚ قَالُواْ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ﴾ [الكهف: 19]، وقالَ: ﴿فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ۝٤٢﴾ [يوسف: 42]، وقالَ: ﴿فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾ [العنكبوت: 14]، وقالَ: ﴿فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ۝٦٩﴾ [هود: 69].

أمَّا المُكْثُ فاسْتُعْمِلَ للإقامَةِ المَكانِيَّةِ، قالَ تَعالى: ﴿وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي ٱلْأَرْضِۚ﴾ [الرعد: 17]، وقالَ: ﴿مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ۝٣﴾ [الكهف: 3]، وقالَ: ﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ۝٢٢﴾ [النمل: 22]، وقالَ: ﴿إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا﴾ [طه: 10]، وقالَ: ﴿قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا﴾ [القصص: 29]، وقالَ: ﴿وَنَادَوْاْ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَۖ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ۝٧٧﴾ [الزخرف: 77].

وأمَّا قَوْلُهُ: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ۝١٠٦﴾ [الإسراء: 106]، فهو من المُكث الدالِّ عَلَى تَوَقُّفٍ وَانْتِظَارٍ. وَمَكَثَ مَكْثًا وَمُكْثًا وَرَجُلٌ مَكِيثٌ: رَزِينٌ غَيْرُ عَجُولٍ. وَمَكَثَ وَمَكُثَ وَالتَّمَكُّثُ: الانْتِظَارُ[1]. ومَعْناهُ: لتقرأه على الناس على تُؤَدة، فتُرتِّله وتبيِّنه، ولا تعجَل في تلاوته، فلا يُفْهم عنك.

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (مكث).

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾﴾ [البقرة: 260]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لهذه الآية أوجهٌ من الرّبطِ مع الآيةِ السَّابقة، فهي مرتبطةٌ بفاصِلة الآيةِ السَّابقة، وبجملَةٍ توسّطت الآيةَ السّابقةَ، ومرتبطةٌ ارتباطَ تَدَرُّجٍ من الأدنى إلى الأعلى، وهذا الرَّبطُ يقوّي بيانَ العلاقةِ الدّلاليّة في الآياتِ القرآنيّة، ومدى اتِّساقها فيما بينها، وبيانُ ذلك:

الارتباطُ بالفاصِلةِ:

ارتبطَت الآيةُ بفاصلة الآيةِ السّابقة، فلمّا قال المارُّ على القرية: ﴿أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥٩﴾﴾ [البقرة: 259]، بعد أنْ رأى من تلك المشاهدات ما رأى؛ ذكر في هذه الآية مثلًا ناصعًا لمَنْ عَلِمَ أنَّ اللّه على كلِّ شيءٍ قديرٌ، لكنَّه أرادَ أنْ يَرَى كيفيّةَ القدرةِ، فهما مَثَلان مُتعاطِفان: مثلٌ لمن عَلِمَ القُدرةَ بعد أنِ استبعدَ البعثَ، فأراه اللّه ما أراه، ومثلٌ لمَنْ عَلِمَ القدرةَ، وطلب رؤيةَ كيفيّتها، وكِلا المَثَلَيْن مُرتَبطٌ بقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [البقرة: 257]، وتقديمُ المثلِ الأوّلِ من بابِ تقديمِ الأُصولِ على الفروعِ، فإنَّ معرفةَ قدرةِ اللّه على كلِّ شيءٍ أصلٌ، ومعرفةُ كيفيّةِ الإحياءِ فرعٌ عن ذلك الأصل، فالعطفُ من قبيلِ عَطْفِ الفرعِ على الأَصْلِ.

الارتباطُ بالجزءِ:

ارتبطتِ الآيةُ بجملةٍ في الآيةِ السَّابقةِ، وهي قولُ مدَّعي الرّبوبيَّة: ﴿أَنَا۠ أُحْيِۦ وَأُمِيتُ﴾ [البقرة: 258]، فلمَّا لم يُجبه إبراهيمُ عليه السلام، وانتقَلَ إلى الدَّليل الآخر، كان بيانُ كيفيَّة الإحياءِ والإماتة لإبراهيم عليه السلام من الحَسَن جدًّا في هذا السِّياق، فعطف عليه هذه القصَّة؛ لِتزولَ أيُّ مشاغبةٍ حولَ إبراهيمَ عليه السلام، فإنَّ عدمَ جوابِه للنمرود قد يُثيرُ استفسارًا عن سببِ

ذلك، فكان إيرادُ هذه القصَّة من قبيل دفعِ الشُّبَه، وهذا يدلُّ على مكانةِ إبراهيم عليه السلام عندَ ربِّه، في اختصاصِه بمثلِ هذا الإيرادِ الذي يَدفعُ عنْ شَخْصِه أيَّ إيراد.

الارتباطُ التَّدريجيّ:

تَرتُّب هذه القصةِ على سابقتها يُظهِرُ مكانةَ الخليلِ عليه السلام عند ربِّه، فإنَّه لا يَسْأَلُ مثلَ هذا السّؤال إلا من غَمَرَ الإيمانُ قلبَه، وتمكَّن اليقينُ من فؤادِه، فإنَّ ضعيفَ الإيمانِ يخشى على نفسِه مثلَ هذه الأسئلة، فيتحاشاها، وليس التّحاشي عن مثلِها ديدنَ الخليل، ولمكانته من ربِّه سَأَلَ، ولحُسنِ ظنِّه طَلَب، فكان سؤالُه سؤالَ المستطلب للطّمأنينةِ، المُستجلِبِ للسّكينةِ في أنَّه الخليلُ، صاحبُ المنزلةِ الرَّفيعة، والدّرجةِ العالية، وأنَّه أكرمُ عند الله من ذلك المستبعدِ الإحياءَ بعد الإماتة؛ فأراه بناءً على طلبه، ويقَّنه حفاوةً بسؤاله، فدلالة التّرتيب من قبيل التّدرج من سؤالِ الأدنى إلى سؤالِ الأعلى، ولدفع سؤالٍ قد يصدُرُ: هل يصدُر مثلُ هذا السّؤال عن مسلم؟ فكان الجوابُ من لسان إبراهيم عليه السلام.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿لِّيَطۡمَئِنَّ﴾: الطَّمأنينة[1]: الطَّمْنُ: غيرُ مُسْتَعْملٍ في الكلام، وزيدت له الهمزة، فقيل: اطْمأَنّ الرّجلُ، واطمأنّ قَلْبُهُ، واطمأنَّتْ نَفْسُه؛ إذا سَكَنَ، واستأنس، والاسمُ: الطُّمأنينة، وأصلُه مأخوذٌ من المُتَطَأْمِنة: وهي الأرضُ المنخفضة، والمُطْمَئِنُّ من الأرض: المنخفض، والمستوطِنُ في الأرض، واطْمَأَنَّتِ الأرضُ، وتَطَأْمَنَتْ: انْخَفَضَتْ، وفيه تطامنٌ: أي: سكونٌ ووقارٌ، ويُقال: طامن ظهرَه: إذا حناه - بِغَيْر همز- لأنَّ الهمزة التي حلَّت في اطْمَأَنَّ إنَّما حلَّت فيها حِذارَ الجمع بين السَّاكنين، فمعنى الطُّمَأْنِينَةِ والاطْمِئْنَانِ: الاستقرارُ والسُّكون بعد جَوَلانٍ بسببٍ ذاتيّ، وأكثرُ ما يكون في جَوَلان الفكرِ في القلبِ، قال تعالى: ﴿وَلِتَطۡمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمۡۚ﴾، [الأنفال: 10]، وقال: ﴿وَلَٰكِن لِّيَطۡمَئِنَّ قَلۡبِيۖ﴾ [البقرة: 260]، وقال: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ ٢٧﴾ [الفجر: 27]، وقال تعالى: ﴿أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ٢٨﴾ [الرعد: 28]، وقال: ﴿وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ﴾ [النحل: 106]، وقال: ﴿فَإِذَا ٱطۡمَأۡنَنتُمۡ﴾ [النساء: 103].

(1) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، والهروي، الغريبين، والراغب، المفردات، والزبيدي، تاج العروس: (طمن).

2) ﴿قَلْبِيۖ﴾[1]: القلبُ: باطنُ الشّيء ولُبُّه، ويُطلَق على العقلِ والفؤادِ والشّيء المحْض؛ لخلُوصِه، وكونِه لُبًّا، فقُلُوبُ الشَّجر: عُروقُها وأجوافُها، وقَلْبُ النَّخلة: شحمتُها، ولكلِّ شيء قَلْبٌ، ويُقال للشّيء المُحوَّلِ عن وجهه إلى جهة أخرى: قلبٌ؛ لأنَّه إخراجُ باطنِ الشّيء إلى الظّاهر، كالقَليبِ، ثمَّ أصبح عَلَمًا على المضغة اللحميّة المعلّقَة بالنِّياط، والتصق بكل باطنٍ يتقلَّب، ولذلك ما سُمِّيَ القَلْبُ إلا من تقلُّبه وتحوُّله، وكذلك كلُّ أمرٍ يتقلَّب، فهو قلبٌ، والعرب تستعملُ لفظ القلبِ للتّعبير عن الدّاء، فيقولون: مَا بِهِ قَلَبة، أَيْ: ما بِهِ دَاءٌ، وَهُوَ القُلاب، داءٌ يَأْخُذ الْإِبِل في رؤوسها فيَقلِبُها إِلَى فَوق، وقال الفرّاء: معناه: ما به عِلّةٌ يُخشى عليه منها، وهو مأخُوذٌ من قولِهم: قُلِب الرجل: إذا أَصابَهُ وجعٌ في قَلْبه، وَلَيْسَ يكَاد يُفْلِتُ منه، وقال الطائيّ: معناه: ما به شيءٌ يُقْلِقُه، فيتقلَّب من أجله على فراشِه.

وأُطلق اسمُ القلبِ في القرآنِ على القوّة المدرِكَةِ والفَهْم والعَقْلِ، قال تعالى: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ [الأعراف: 179]، وقال ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾ [ق: 37]، كما أُطلق على المُضْغَة اللحميَّة قال تعالى: ﴿وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ﴾ [الأحزاب: 10]، واستُعمل فعلُ التَّقليبِ في التّحوُّل من جهةٍ إلى أخرى، والرّجوع إلى الأصْلِ، قال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام: 110]، وقال: ﴿وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴿٢١﴾﴾ [العنكبوت: 21]، وقال: ﴿وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ﴾ [المطففين: 31]، وقال: ﴿وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ [آل عمران: 144].

3) ﴿فَصُرْهُنَّ﴾: الصَّوَرُ[2]: المَيلُ والضَّمُّ وما ينتهي إليه الأمرُ مآلًا، حيث تدورُ استعمالاتُ هذه الكَلِمة على هذا المعنى، فيُقال: فلانٌ يصُورُ عُنُقَه، أي: يميل بعُنُقه ووَجْهِه، والأَصْوَر: المائِل العُنُق، وعُصفورٌ صَوّارٌ: ميَّالٌ لمن يدعوه، فيُجيبه، وينضمُّ إليه، والصَّوْرُ: النَّخلُ الصِّغارُ المُتضامّ، والصِّوارُ: رِيحُ المِسْكِ، فمن يشُمَّه؛ يملْ إليه، وانصارتِ الجبالُ: انهدَّتْ، فسَقَطَتْ، والصَّيْرُورة مصدرُ صارَ يصيرُ، صِرْت إِلَى مَصِيري وَإِلَى صِيرِي وصَيُّوري، وصَيرُ الأَمْرِ: مُنْتَهاه، والصَيِّرُ: القَبْرُ، يُقَال: هذا صَيِّرُ فلَان، أَي: قبرُه؛ لأنه ينتهي إليه، فكأنَّه يميل إليه، فيُضمُّ جسده فيه مآلًا، وتصيَّرَ فلانٌ أَبَاهُ، وتقيَّضَه؛ إذا نَزَع، ومال إِلَيْهِ

(1) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (قلب).

(2) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، والصغاني، التكملة والذيل والصلة: (صور)، والآلوسي، روح المعاني: 2/28.

في الشَّبه، والصِّيارُ: صَوْت الصَّنْجِ وأوتاره؛ إذِ الأُذُنُ تميلُ إلى سماعه، ويُقَال للمنزل الطيّب: مَصِيرٌ؛ لأنَّ صاحبه يميلُ إليه.

ودار الاستعمالُ القرآنيُّ حول هذا المعنى، فقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٤﴾﴾ [غافر: 64]، فإنَّ تصويرَ النَّاس في الأرحام هو خلقُهم وتشكيلُهم، وجمعهم بما سيصيرون إليه، وهذا مَيْل، في مآله اكتمال الخلق، ورسول الله ﷺ يقول: "إِنَّ أَحَدَكُمْ يُجْمَعُ خَلْقُهُ في بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا"(1)، والصُّورة هي ما ينتهي إليه الشَّكل النهائيُّ للشَّيْءِ، ولا يبعُدُ أن يكونَ اسمُ الصُّور في قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ﴾ [النمل: 87]، محمولًا على هذا المعنى، فإنَّ الصُّور يُمَيِّلُ النَّاس من قبورهم إلى حشرِهم.

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

إخبارٌ من الله تعالى عن طلبِ الخليل عليه السلام أن يُريَه كيفيَّةَ إحياءِ الموتى؛ ترسيخًا لطمأنينة قلبِه بعدَ جولان فكره، "فإنَّ إبراهيمَ لِفَرْطِ محبَّته الوصولَ إلى مرتبةِ المعاينة في دليل البعث، رامَ الانتقالَ من العلم النظريّ البرهانيّ، إلى العلم الضروريّ، فسأل الله أنْ يُريَه إحياءَ الموتى بالمحسوس"(2)؛ ليزداد يقينًا إلى يقينه، وبيان تلك الكيفيَّة بتفصيلاتها، أمْرُ اللهِ له بأخذ أربعةٍ من الطَّير، وضمِّهنَّ إليه، وذَبْحِهنَّ وتقطيعِهنَّ، ثمَّ توزيعهنَّ بأنْ يضعَ على كلِّ جبلٍ منهنَّ جزءًا؛ لينظر كيف يأتينَه مُسرعاتٍ إليه بعد دعوتِه إيَّاهنَّ، فلمَّا فعل ما أمره الله به عاد كلُّ جزءٍ من هذه الطيور الأربعةِ إلى موضعه منها، ورجعتْ إليهنَّ الحياة، فأَمَره اللهُ تعالى أنْ يتيقَّن أنَّ الله عزيزٌ لا يغلبه شيء، حكيمٌ في أقواله وأفعاله وشرعه وقَدَره.

وهذا الذي رآه عليه السلام هو من ملكوتِ السَّماواتِ والأرضِ - وما تحتويان عليه مِن مُلك عظيم، وقُدرة باهرة؛ ليكون من الراسخين في الإيمان- الواردِ ذكرُه في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾﴾ [الأنعام: 75].

(1) رواه البخاري، صحيح البخاري، حديث رقم: (3208)، ومسلم، صحيح مسلم، حديث رقم: (2643)، ويُنظر: الراغب، المفردات: (فأد).

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/38.

الإيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

بلاغة الوصل في الآية:

وجه العطف كونه مثالًا ثالثًا لقضيّة ولاية الذين آمنوا، ومثالًا ثانيًا لقضيّة المرور على القرية

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ معطوف على الآية السابقة: ﴿أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ﴾، على أنّه مثالٌ ثانٍ لها، ومثالٌ ثالثٌ لقضية قوله: ﴿ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [البقرة: 257] الآية؛ فالتقدير: أو هو كإبراهيم إذ قال رب أرني.... إلخ. فإن إبراهيم لِفَرْطِ مَحَبَّتِهِ الوصولَ إلى مرتبة المعاينة في دليل البعث رامَ الانتقالَ من العلم النظري البرهاني، إلى العلم الضروري، فسأل الله أن يريه إحياء الموتى بالمحسوس[1].

علّة تقديم آية المارّ على هذه الآية:

بيان التقديم أنّه تعجّبٌ من الإحياء بعد الموت، وأما قصة إبراهيم فهي سؤال لكيفية إراءة الإحياء

وقدّمت آية المارّ ﴿أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ﴾ [البقرة: 259] على آية إبراهيم هذه، وإن كان إبراهيم مقدّماً في الزمان على المار؛ لأنه تعجب من الإحياء بعد الموت، وإن كان تعجب اعتبارٍ فأشبه الإنكار، وإن لم يكن إنكاراً فكان أقرب إلى قصة النمرود وإبراهيم، وأما إن كان المار كافراً فظهرت المناسبة أقوى ظهور. وأما قصة إبراهيم فهي سؤال لكيفية إراءة الإحياء، ليشاهد عياناً ما كان يعلمه بالقلب، وأخبر به النمرود[2].

بلاغة الإيجاز بالحذف:

وجه الاستغناء بالمذكور، وحذف تتمّة القصّة؛ لأنها مدركةٌ بالبداهة

في قوله تعالى إيجاز بحذف تتمّة القصّة؛ إذ أوردت أوامر الله تعالى، وحذفت تتمّة القصّة من غير تعرّض لامتثال نبي الله إبراهيم عليه السلام لها؛ لأنّ ذلك مدركٌ بالبداهة[3].

سرّ اختيار عنوان الرُّبوبيّة دون الألوهيّة:

وبدأ السؤال بكلمة ﴿رَبِّ﴾ التي تفيد عنايته تعالى بعبيده وتربيته

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/38.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 2/308.
(3) الدرويش، إعراب القرآن وبيانه: 1/403.

لعقولهم، وأرواحهم بالمعارف لتكون ثناءً، وحسنَ استلطافٍ، واستعطافٍ أمام الدُّعاء، أي أرني بعيني كيفية إحيائك للموتى، وليناسب قولَهُ للنمرود ﴿رَبِّيَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ﴾؛ لأن الربّ هو الناظر في حاله، والمصلح لأمره[1].

وجه الافتتاح بلفظ الربّ ليُسبق الدعاء بالثناء والاستعطاف

لمَّا كان إحياءُ الموتى مظهرًا من مظاهر الخلقِ المتعلِّقة بالرُّبوبيّة، ناسَبَ الدُّعاءُ بها، فقال عليه السلام: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيۡفَ تُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰۖ﴾، وفيه دليلٌ على أنَّ الدَّعاءَ كان لتحقيق أمرٍ وجوديٍّ لا لتقوية أمرٍ متعلِّقٍ بالإيمان.

في اختيار لفظ الربوبية دليلٌ على أنَّ الدَّعاءَ كان لتحقيق أمرٍ وجوديٍّ لا لتقوية أمرٍ متعلِّقٍ بالإيمان

نكتة حذف ضمير المتكلّم المضاف اليه:

وحذفت ياء الإضافة من ﴿رَبِّ﴾ اجتزاءً بالكسرة، وهي اللغة الفصحى في نداء المضاف لياء المتكلم[2]. وفي هذا الحذف تخفيفٌ على الدّاعين لكثرة ما يدعو المؤمنون ربّهم[3]

في حذف الضمير تخفيفٌ على الدّاعين لكثرة دعائهم به

بلاغة حذف ياء النداء:

وحذف حرف النداء (يا) في قوله: ﴿رَبِّ أَرِنِي﴾ للدّلالة عليه[4].، وإشارةً إلى قربه تعالى بعلمه من كلّ خلقه، ولذلك لم يأتِ في القرآن ياء النداء مذكورًا مع (رب) إلا في موضعين، مع أنّ هذا النداء ورد في القرآن زهاء الألف مرّة، والموضعان اللذان ذُكِرَ فيهما حرف النداء (الياء) كان علّةُ ذِكْرِهِ استشعارَ المنادى البعدَ عن ربّه، لا بعد ربّه عنه[5].

للدّلالة عليه وإشارةً إلى قربه تعالى بعلمه من كلّ خلقه

سِرُّ الاستِفهامِ بكيفَ:

جاء السؤالُ على لسانِ المارِّ على القرية الخاوية على عروشها بأنّى، أمَّا هنا فجاء بكيف، تعيينًا لمعناها لا تأوُّلًا، فيُسألُ عن الفرق بين الاستعمالين؟

تعيينُ الاستفهامِ عن كيفيّة أمرٍ متقرِّرٍ عند السّائل

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 2/308، ورضا، تفسير المنار: 3/45.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 2/308.
(3) المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 1/149.
(4) أبو حيان، البحر المحيط: 2/308.
(5) المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 1/149.

ففي الآية المتقدِّمة جاء الاستفهام بأنَّى المحتملةِ لمعنى الكيفيّة والوقت؛ لاشتمالها على المعنيَيْن: الكيفيّةِ أصالةً، والوقتِ تبعًا، وهذا ما يقوِّي الاستبعاد الحقيقيّ عند السّائل للإحياءِ، بينما في هذه الآية فجاء الاستفهام بكيف؛ لأنَّ السَّائلَ متَيَقِّنٌ بأنَّ للبعثِ وقتًا آتيًا، لكنَّه يجهلُ الكيفيّة، فأراد معرفتَها تشوُّفًا لأمرٍ غيبيٍّ، وهذا ليس بمستَغرَبٍ عن شخص إبراهيم عليه السلام، الذي بحث بتجرُّدٍ عن الله تعالى، فلاقَ به السّؤالُ بما لا يليقُ بآحاد البشرِ، ممَّن يُسلِّمون لاعتقادات آبائهم.

و"الاستفهامُ بكيف إنَّما هو عن حالِ شيءٍ موجودٍ متقرِّر الوجودِ عند السَّائل . . وكَيْفَ في هذه الآية إنَّما هي استفهامٌ عن هيئةِ الإحياءِ، والإحياءُ مُتقَرِّرٌ"[1] لدى السَّائل، وإنَّما سألَ؛ لِيَعلمَ أمرًا يرغب في معرفته كلُّ مؤمنٍ، ولِيعلمَ مكانتَه عند ربِّه، فيطمَئِنَّ قلبُه بذلك، لاسيَّما أنَّ "الفِكرَ في صورة الإحياءِ غيرُ محظورة، كما لنا نحن اليوم أن نفكِّر فيها، بل هي فِكرٌ فيها عِبَرٌ، فأراد الخليل أن يعاين، فيذهب فكرُه في صورة الإحياء"[2]، والذي أثارَ عنده هذا السُّؤالَ قولُ النمرود: ﴿أَنَا۠ أُحۡيِۦ وَأُمِيتُۖ﴾ [البقرة: 258].

إيثارُ صيغةِ الحالِ على الاستقبال:

أفادت صيغةُ المضارعِ طَلَبَ تصويرِ المشهدِ في الزَّمن الحاضر

في قولِ إبراهيمَ عليه السلام: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيۡفَ تُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰۖ﴾ جاء التّعبيرُ بصيغة المضارعِ الدّالِّ على الحال، ولم تُضَف إليه السِّين الدَّالةُ على الاستقبال؛ لتمحُّض طلبه عليه السلام في رؤية الكيفيّة، مع تجرُّده عن التّفكير في المستقبل، فهو غيرُ معتنٍ بالسّؤال عن الوقت، لرؤيته يقينًا قلبيًّا، فأفادت صيغةُ المضارع طلبَ تصويرِ المشهدِ في الزَّمن الحاضر.

أثرُ البلاغةِ القرآنيّةِ في السّنّة النبويّة:

لَمَّا سألَ إبراهيمُ ربَّه كيفيّةَ إحياءِ الموتى؛ أثارَ ذلك سؤالًا: فماذا قال الله له؟ فكانت الجملةُ: ﴿قَالَ أَوَلَمۡ تُؤۡمِنۖ﴾ استئنافًا بيانيًّا؛ لبيان أنَّ الله سبحانه وتعالى أرادَ تقريرَه على سببِ سؤاله؛ لنفي أيِّ مَظِنَّةٍ قد تخطر في فكرِ واهمٍ، ولذلك كان الجوابُ مزيحًا لأوهام الأفهام:

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 1/353.
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 1/353.

﴿قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطۡمَئِنَّ قَلۡبِيۖ﴾، على طريقة الاستئناف البيانيّ كذلك، فكان مقصودُ السُّؤال والجواب دفعَ الشبهات، وتعليمَ النَّاس حسنَ الظنِّ بأنبياء الله تعالى، كما قال عليه السلام: "نحن أحقُّ بالشَّكِّ من إبراهِيمَ؛ إذْ قَالَ: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيۡفَ تُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰۖ قَالَ أَوَلَمۡ تُؤۡمِنۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطۡمَئِنَّ قَلۡبِيۖ﴾"[1]، وهذا من أثرِ البلاغة القرآنيّة في تقرير مسائل السُّنّة النبويّة.

دفعُ الشُّبهاتِ عن أنبياءِ الله تعالى، وتعليمُ النَّاسِ حسنَ الظّنِّ بهم

توجيه معنى الاستعجاز في جملة الاستفهام:

الظاهر في استعمال صيغة ﴿أَوَلَمۡ تُؤۡمِنۖ﴾ في السؤال عن الكيفية، ويحتمل استعمالها هنا لمعنى الاستعجاز؛ نحوَ أن يدّعي مدّع أنه يحمل ثقلًا من الأثقال وأنت جازم بعجزه عن حمله، فتقول له: أرني كيف تحمل هذا؟ فلما كانت هذه الصيغة قد يعرض لها هذا الاستعمال الذي أحاط علم الله تعالى بأن إبراهيم عليه السلام مبرّؤٌ منه؛ أراد بقوله: ﴿أَوَلَمۡ تُؤۡمِنۖ﴾ أن ينطق عليه السلام بقوله: بَلى آمنت؛ ليدفع عنه ذلك الاحتمال اللفظيّ في قوله (أرني كيف تحيي الموتى)؛ ليكون إيمانه مخلصًا، نصّ عليه بعبارة يفهمها كل من يسمعها فهمًا لا يلحقه فيه شك[2].

وجه الاستعجاز في الجملة أنْ يأتي جواب الاستفهام دافعًا لاحتمال الشّكّ

بلاغةُ الجوابِ ببلى:

الهمزة للتقرير، أي: لتقرير المنفي، أو لإنكاره، والمعنيان متقاربان في المآل، والواو للعطف، عطفت الجملة المنفيّة (لم تؤمن) على جملةٍ مقدَّرةٍ، أي: "ألم تعلمْ، ولم تؤمنْ بأنَّي قادرٌ على الإحياء كيف أشاء، حتَّى تَسْأَلَنِي إراءتَه؟"[3]، فالتَّقرير للجملة المقدَّرة المنفيَّة، والمعطوفة عليها، فلمّا قال عليه السلام: ﴿بَلَىٰ﴾ دون نعم، وقعَت

جمع جوابُ الخليلِ بين الإقرارِ المستفهَمِ عنه بالهمزةِ، ونفيِ نقيضِه

(1) صحيح البخاري، حديث رقم: (4537).
(2) القاسمي، محاسن التأويل: 2/200.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/256.

جوابًا للجملة الاستفهاميّة المنفيّة، أي: بلى آمنت، وهذا أبلغُ ما يكونُ عليه الجوابُ؛ فأقرَّ بالإيمانِ المستَفهَمِ عنه بالهمزة، ونفى نقيضَه المنفيَّ بلَمْ.

بلاغةُ الحذفِ:

حضورُ الجواب وإيجازُه دليلُ القرار

الواو في قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن لِّيَطۡمَئِنَّ قَلۡبِيۖ﴾ عطفت الجملة على جملةٍ مقدَّرة واقعةٍ في جواب بلى، والتَّقدير: بلى آمنتُ، "ولكن سألتُ ذلك إرادةَ طمأنينة القلب"[1].

أو نجعل اللامَ متعلِّقةً بمقدَّرٍ من السباق، تقديره: أَرِني؛ ليطمئنَّ قلبي.

وهذا الإيجاز بالحذف بليغٌ، وهو مقصودٌ لذاته، فإيجازُ الجواب وسرعته يدلَّان على استقرارِ الإيمانِ وطمأنينةِ قلبِ صاحبه، فإنَّ حضورَ الجوابِ دليلُ القرار.

دِقَّةُ اختيار لفظ الطّمأنينة:

بيانُ أنَّ الطّمأنينةَ المقصودة هي طمأنينةُ فكرِ القلب لا اعتقادِه

من لم يقف على دقائقِ البلاغةِ، وحسنِ النّظم، ودقَّةِ الاختيارِ، لم يفقه المعنى المُجاد، ولم يَعِ الحالَ المُراد، من ذلك اختيار لفظ الطّمأنينة، "فإنْ قلت: كيف قال له: ﴿أَوَلَمۡ تُؤۡمِنۖ﴾ وقد علم أنَّه أثبتُ النَّاس إيمانًا؟ قلت: ليجيبَ بما أجاب به لما فيه من الفائدة الجليلة للسَّامعين"[2]، أي: ليزولَ عن قلبه عليه السلام الفكرُ في كيفية الحياة؛ لأنَّه إذا شاهدها؛ سَكَنَ قلبُه عن الجَوَلان في كيفيّاتها المتخيَّلة، وتعينت بالتَّصوير المشاهد، وجاءت الآيةُ مطابقةً لسؤاله؛ لأنَّه شاهَدَ صورةَ حياةِ الموتى[3]، فمعنى الطَّمأنينةِ المطلوبة: هي سكونُ القلبِ عن التَّفكُّر في أمرٍ غيبيٍّ جائزٍ في حكم العقلِ التّفكر فيه؛

(1) الزمخشري، الكشاف: 1/309.
(2) الزمخشري، الكشاف: 1/308.
(3) ابن المنير، الانتصاف: 1/308.

لأنّ طلبه عليه السلام "طلبٌ للطمأنينة فيما تنزع إليه نفسه القدسية من معرفة خفايا أسرار الربوبية لا طلبٌ في أصل عقد الإيمان بالبعث الذي عرفه بالوحي والبرهان دون المشاهدة والعيان"[1]. ومن هنا تندفع الإشكاليّات؛ إذِ الطَّمأنينةُ المطلوبةُ هي طمأنينة فكر القلب، لا طمأنينةُ اعتقاده، والأوّل لا يصْدُرُ إلا عن مكتمِلِ الإيمان، بخلاف الثَّاني، فأثبَتَتِ الآيةُ مزيدَ مدحٍ وثناءٍ للخليل عليه السلام.

بيان المجاز في لفظ الطمأنينة:

وجه المجاز إطلاق الطمأنينة على استقرار العلم في النفس

قال ابن عاشور: إنَّ "حقيقة (يطمئن) يسكن، ومصدره الاطمئنان، واسم المصدر الطمأنينة، فهو حقيقة في سكون الأجسام، وإطلاقه على استقرار العلم في النفس، وانتفاء معالجة الاستدلال أصله مجاز بتشبيه التردد، وعلاج الاستدلال بالاضطراب والحركة، وشاع ذلك المجاز حتى صار مساويًا للحقيقة، يقال: اطمأنَّ بالُه واطمأنَّ قلبه"[2].

نكتة نسبة الاطمئنان إلى القلب لا إلى الفكر:

المراد بالقلب العلم؛ لكونه لا يضطربُ عند الشكّ وإقامة الدليل

قال ابن عاشور: "والقلب مراد به العلم إذ القلب لا يضطرب عند الشك ولا يتحرك عند إقامة الدليل وإنما ذلك للفكر، وأراد بالاطمئنان العلم المحسوس وانشراح النفس به وقد دله الله على طريقة يُرى بها إحياء الموتى رأي العين"[3]؛

التّناسب بين الألفاظ:

إيقاعُ التّصوير باستعمال لفظين في بيان معنًى واحد

يقع التّناسب بين الألفاظ كما يقع بين الجمل والآيات، فلفظ القلب يناسب لفظ الطَّمأنينة، ويُناغمه، ذلك أنَّ الطَّمأنينة هي السّكينة بعد الجولان، والقلب ملحوظٌ فيه معنى تقلُّب الفكر وجولانه، فإذا زال جولانُ الفكر؛ سكَنَ القلبُ، واستقرَّ، فكان ذلك

(1) رضا، تفسير المنار: 3/46.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/39.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/39.

طمأنينته، وفي هذا التَّناسب تصويرٌ بديع للقلب، فكأنَّه قد استقرَّ في مكانه منحنيًا منخفضًا آخذًا موقعَه بعد أن جالَ، وثارَ، وهذا غاية ما يكون عليه الاستقرار، استقرارُ الحالِّ في المحلِّ، ومطابقةُ الحزِّ بالمحزِّ، وهذا برهانٌ أكيدٌ على أنَّ للقلب مكانًا يطمئنُّ فيه، بعد أن يشبَعَ من غذائه الفكريِّ، ورِوائه الإيمانيِّ.

بلاغةُ اقترانِ الاستئنافِ البيانيّ بالفاءِ الفصيحة:

استدعاءُ الفكرِ للتَّجاوبِ مع النَّظم، وتدبّرُ المشهدِ الغيبيّ بصورةٍ بيانيّة بديعة

وقع قوله تعالى: ﴿قَالَ فَخُذۡ أَرۡبَعَةٗ مِّنَ ٱلطَّيۡرِ﴾ استئنافًا بيانيًّا، فكأنَّ سائلًا قال: فماذا أجابَه ربُّ العزةِ؟ وصُدِّرَ مقولُ القولِ بالفاء الفصيحة مفصحةً عن شرطٍ مقدَّرٍ محذوف[1]. تقديره: إن أردت رؤيةَ ذلك؛ ﴿فَخُذۡ أَرۡبَعَةٗ مِّنَ ٱلطَّيۡرِ﴾، وتقديرُ المحذوفاتِ في القرآن الكريم دليلٌ على أنَّ ثَمَّ استدعاءً للفكر في التَّجاوبِ مع النَّظم، لحسنِ تدبّرِ المشهد الغيبيّ بصورةٍ بيانيّة بديعة.

دلالة ﴿مِّنَ﴾ التبعيضيّة:

حكمةُ تعدّد الطير واختلافه دفعُ أنْ يكون إحياء بعضها أهون من بعض

تبعيضيّة ﴿مِّنَ﴾ إشارةٌ إلى اختلاف أنواع الطّير: "وجيء بمن للتبعيض للدَّلالة على أنّ الأربعة مختلفة الأنواع"[2].

وحكمة التَّعدد، والاختلاف، والتنوّع في الطّير الزيادةُ في تحقّق أنَّ الإحياء لم يكن أهونَ في بعض الأنواع دون بعض، فلذلك عُدِّدَتِ الأنواع.

علّة جعلها أربعةً لدفع الظن بأنّ لبعض الجهات مزيدَ اختصاص بتأتّي الإحياء

وجعلها أربعة ليكون وضعها على الجهات الأربع: المشرق والمغرب والجنوب والشمال لئلا يُظَنَّ أنّ لبعض الجهات مزيد اختصاص بتأتّي الإحياء.

وعلّة جعلها أربعة أنّها أربعةُ أجزاءٍ من طيرٍ واحدٍ فتكون اللام للعهد.

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 2/966.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/39.

ويجوز أن المراد بالأربعة: أربعةُ أجزاءٍ من طيرٍ واحدٍ فتكون اللام للعهد إشارة إلى طير حاضر، أي: خذ أربعة من أجزائه ثم ادعهن[1].

توجيهُ المخصوصِ بالذِّكر ﴿ٱلطَّيۡرِ﴾:

الطَّير أجمعُ لخواصِّ الحيوان، وأكثر نفورًا من الإنسان؛ فإتيانُها بمجرَّد الدَّعوة أبلغُ في المثل، ولمشاكِلة المعجزة لهمَّة ابراهيم عليه السلام

لسائلٍ أن يَسألَ عن سبب تخصيص الطَّير بالذِّكر دون بقيّة المخلوقات؟ والجواب؛ أنَّ الطَّيرَ أقربُ إلى الإنسان باعتبار طلبه المعاشَ والمسكنَ؛ ولذلك قال ﷺ في الحديث: "لو أنَّكم كنتم توكَّلون على الله حقَّ توكُّله؛ لرُزِقتُم كما يُرزَق الطَّير تغدو خماصًا، وتروح بطانًا"[2]؛ ولأنَّ الطَّيْر أجمعُ لخواصِّ الحيوان، والطَّير أكثر نفورًا من الإنسان في الغالب، ولَا تستأنس به وتطير عند مجرد رؤيته؛ فإتيانُها بمجرَّد الدَّعوة أبلغُ في المثل، وفي دعوتها مزيدُ ظهور القدرة؛ لأن تحويلهن إليه بيسر لا يكون إلا بتأليف من الله العلي الخبير؛ ولأنّ الطير سَهْلُ الطّواعية لما يُفعل به من التّقطيع والتّجزئة؛ ولأنَّ من صفته الطيران في السَّماء، وكان من هِمَّةِ إبراهيم عليه السلام المَيْلُ إلى جهة العُلوِّ والوصول إلى الملكوت، فكانت معجزتُه مشاكِلةً لهمَّتِه[3].

توجيهُ القِراءات:

صحةُ المعاني المُتوارِدَة تزدادُ جمالًا وقوَّةً بردِّها إلى معنىً كليٍّ واحد

اختلف القرَّاء في قوله تعالى: ﴿فَصُرۡهُنَّ﴾، فقرأ أبو جعفر وحمزة وخلف ورُوَيْس بكسر الصَّاد، وقرأ الجمهور بضمِّها[4]، وحمل علماء التَّوجيه القراءتين على معنَيَي الميلِ والقطع، فمن قدَّر أنَّ معنى ﴿فَصُرۡهُنَّ﴾: أَمِلْهُنّ، وضُمَّهُنَّ، حذَفَ من الكلام معنى التقطيع، والمعنى: أَمِلْهُنّ، فقطعهنّ، فحذف لدلالة الكلام عليها، فتكون الفاء

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/39.
(2) سنن الترمذي، حديث رقم: (2344).
(3) الآلوسي، روح المعاني: 2/28، ورضا، تفسير المنار: 3/46، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 2/966.
(4) ابن الجزري، النشر: 2/232.

على هذا فصيحةً، ومن قدّر: ﴿فَصُرْهُنَّ﴾، بمعنى: قطّعهنّ، لم يحتج إلى إضمارٍ، كما احتاج في الوجه الأوّل[1].

إيثارُ التَّعبيرِ بـ ﴿فَصُرْهُنَّ﴾:

الجمعُ بين معنَيَيْن مرادَيْن بإيجازٍ بديع

لهذا التَّعبير قليلِ الاستعمال سرٌّ لمن تدبَّر السِّياق وتأمَّله، فقد جمع معنَيَيْن اثنين، وهما الإمالة والقطع، أمَّا الإمالة؛ فهو إمالةُ الطَّيرِ المأخوذِ وتربيتُه بحيث يصيرُ مائلًا لمَنْ صيَّره، وجعل منتهى أمره إليه، ومعنى القطع أن يصبحَ الطيرُ قطعةً واحدةً كقطيع الغنَم، فيكون المعنى: فَأَمِلْهُنَّ إليك بحيث يكنَّ قطعةً واحدةً، فجمع هذا الفعل ذينك المعنَيَيْنِ بإيجازٍ بديع، فإمالة الطّير تكون ابتداءً، وتصييره قطعة واحدةً يكون انتهاءً، فنبَّه بهذا التَّعبير على الأمرين، وهذا سرٌّ إيثار هذا اللفظ على غيره.

توجيه اختلاف تفسير لفظة: ﴿فَصُرْهُنَّ﴾:

اختلف المفسِّرون في معنى ﴿فَصُرْهُنَّ﴾: فذَهَبَ جمهورُ المفسِّرين إلى أنَّه محمولٌ على تقطيع الطَّير، وذهب أبو مسلم ومحمّد رشيد رضا[2] تبعًا له إلى معنى الضَّمِّ والجمع، وحمل الكلام في الآية على أنَّه مَثَلٌ محسوسٌ لإحياء الموتى، ومعناه: خذ أربعةً من الطَّير، فضُمَّها إليك، وآنِسها بك حتّى تَأنَس، وتصيرَ بحيث تُجيب دعوتَك، فإنَّ الطُّيور من أشدِّ الحيوان استعدادًا لذلك، ثمَّ اجعل كلَّ واحدٍ منها على جبلٍ، ثمَّ ادعُها؛ فإنَّها تسرِع إليك، لا يَمنعُها تفرُّقُ أمكنتِها من ذلك، كذلك أمرُ ربِّك، إذا أرادَ إحياءَ الموتى؛ يدعوهم بكلمة التكوين، فيكونون أحياءً، وردُّه على الجمهور يتلخَّص بالآتي:

الأوّل: المشهورُ في اللغة في قوله: ﴿فَصُرْهُنَّ﴾: أَمِلْهُنَّ، وأمَّا

(1) الفارسي، الحجة: 2/389-392.

(2) رضا، تفسير المنار: 3/47.

التقطيع والذبح؛ فليس في الآية ما يدلُّ عليه لغةً أو سياقًا؛ فكان إدراجُه في الآية إلحاقًا لزيادةٍ بالآية لم يدلَّ الدَّليلُ عليها.

الثَّاني: لو كان المراد بـ ﴿فَصُرۡهُنَّ﴾: قطِّعهنَّ؛ لم يقُلْ: ﴿إِلَيۡكَ﴾، فإنَّ ذلك لا يتعدى بإلى، وحمل الكلام على التَّقديم والتّأخير من غير دليلٍ ملجئٍ إلى التزامه خلافُ الظَّاهر.

الثّالث: الضَّمير في: ﴿ثُمَّ ٱدۡعُهُنَّ يَأۡتِينَكَ سَعۡيٗاۚ﴾ عائدٌ إليها لا إلى أجزائها.

الرَّابع: فواتُ مقصودِ الطَّلب، فإتيانُ الطُّيور بعد تقطيعها وتفريقِ أجزائها في الجبال لا يقتضي رؤيةَ كيفيَّة الإحياء؛ إذْ ليس فيها إلا رؤيةُ الطُّيور كما كانتْ قبل التَّقطيع؛ لأنَّ الإحياءَ حَصَلَ في الجبال.

الخامس: العطف بثُمَّ- وهي تفيد التّراخي الزّماني- يُرشِّح جعل الأمر في ﴿فَصُرۡهُنَّ﴾ للتّربية والضمِّ والجمع، فإذا حصل ذلك، جَعَلَ على كلِّ جبلٍ منهنَّ جزءًا، أي: من هذه المجموعة.

السَّادس: هذه الآيةُ نظيرُ قولِه تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكّٗا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقٗاۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٤٣﴾ [الأعراف: 143].

السَّابع: فاصلةُ الآية ﴿عَزِيزٌ حَكِيمٞ﴾ متناسبةٌ مع كون المذكور مثلًا لإراءة كيفيَّة إحياء الموتى.

ومن هنا فإنَّ قول الجمهور تردُ عليه أسئلة واستشكالات لغوية وبيانيّة لا ترِدُ على قول أبي مسلم، وإن كان لقول أبي مسلم من عَيْبٍ؛ فهو مخالفتُه لرأي جماهير المفسِّرين، وهذا ما يوقع في الحرجِ والضِّيق، وتوجيهُ بلاغةِ الآية على قول الجمهور فيه نوعُ اعتسافٍ؛ لذا كان من الحكمة تفسير الآية بلاغيًّا بما يتوافق مع رَأْيِ الجمهور، بما يحفظ للنّظم جمالَه، ويُقيم لقول الجمهور احترامَه.

فائدة ضمّ الطير إلى نفسه عليه السلام:

ومعنى أمره بضمها إلى نفسه بعد أن يأخذها، ليتأملها ويعرف أشكالها، وهيآتها،

الأمر بإدناء الطير ليتأمل هيآتها فلا تلتبس عليه بعد الإحياء

وأحوالها حتى يعلم بعد إحيائها أنها لم ينتقل جزء منها عن موضعه؛ فلا تلتبس عليه بعد الإحياء ولا يتوهم أنها غير تلك. ولذلك قال: ﴿يَأْتِينَكَ سَعْيًا﴾ أي ولم يقل: (طيرانًا)؛ لأنه إذا كانت ساعية كانت أثبت لنظره عليها من أن تكون طائرة. والله أعلم[1].

وجه تعدّد الجبال:

تعدّد الجبال تقويةٌ لتفرّق أجزاء الطير، ومدعاةٌ لصعوبة تصوّر الأمر

وذكر ﴿كُلِّ جَبَلٍ﴾ يدل على أنه أمر بجعل كل جزء من أجزاء الطير على جبل لأن وضعها على الجبال تقوية لتفرق تلك الأجزاء فإنها فُرِّقَت بالفصل من أجسادها وبوضعها في أمكنة متباعدة وعسرة التناول[2]، وفي هذا زيادة استصعاب شأن الجمع بعد التفريق؛ فجمعُ الأجزاءِ من مواضع متفرّقة شديدة الوعورة، وصعوبة المسلك أصعب من جمعها من مكان واحد.

نكتة العطف بـ ﴿ثُمَّ﴾:

أفاد العطف بـ (ثمّ) التراخي الذي يقتضيه إمالة الطيور وتأنيسها

والعطف بـ ﴿ثُمَّ﴾ يدلُّ على التراخي الذي يقتضيه إمالة الطيور وتأنيسها على أن لفظ صرهن يدل على التأنيس، ولولا أن هذا هو المراد لقال: فخذ أربعة من الطير فقطعهن واجعل على كل جبل منهن جزءًا، ولم يذكر لفظ الإمالة إليه، ويعطف بـ ﴿ثُمَّ﴾ جعلها على الجبال[3].

سرّ التعبير بلفظ السعي:

وجه التعبير بلفظ السعي هنا جعلها آية على حياة جديدة غير الأولى

السعي من أنواع المشي لا من أنواع الطيران، فجعل ذلك آية على أنهن أعيدت إليهن حياة مخالفة للحياة السابقة، لئلا يظن أنهن لم يمتن تمامًا[4].

ولفظ السعي أثبت للصورة الذهنية عن الحياة من الطيران؛ وذلك لمشابهتها فعلَ البشر.

(1) القاسمي، محاسن التأويل: 2/201، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/40.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/40.
(3) رضا، تفسير المنار: 3/49.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/40.

سرّ وصف الطير بوصف العاقل:

وصفت الطير وصف العاقل لأنهنّ دُعين فأجَبْنَ

في قوله تعالى ﴿ثُمَّ ٱدۡعُهُنَّ يَأۡتِينَكَ سَعۡيٗاۚ﴾ وصف للطير بصفة العاقل بقوله ﴿ٱدۡعُهُنَّ﴾، و﴿يَأۡتِينَكَ﴾؛ وذلك لأنهنّ دُعينَ وفقهنَ الدّعوة، ولبّينَها. فنزلت منزلة العاقل لقيامها بما يقوم به العقلاء[1].

مناسبة الفاصلة لسياق الآية:

الإقرار بالإحياء بعد الموت مناسبٌ لذكر العزّة والحكمة

جاءت فاصلة الآية: ﴿وَٱعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ﴾ في محزِّها ومِطبقها، وهي المناسبة لسؤال إبراهيم عليه السلام، ولا يَرِدُ هنا أن يقال: لِمَ لم يذكر القدرة، كما تقدَّم في قصَّة المارِّ على القرية؟ ذلك أنَّ القصَّة المتقدِّمة في استبعاد الإحياء بعد الموت، بينما هنا؛ فهي في الإقرار بالإحياء بعد الموت، فناسب ذكر العزة والحكمة؛ لأنَّ الله لم يُرِ الخليلَ ما أراه إلا بعزته وحكمته، وجاءت لإعلام النَّاس أنّ الإراءة كانت صادرةً عنِ العزَّة والحكمة، فذكرُ ذَيْنك الوصفين هو المناسب بالمقام.

وجه المناسبة أنّ الحكمة مشروطةٌ بالإتقان

"الحكمة مشروطة بالإتقان وهو سأل عن كيفية الإتقان فأخبره أنّه إذا علم كيفية الإتقان فلا يسأل عما وراء ذلك، فَإنّ اللّه عَزِيز حَكِيم لا يُمانَع ولا يُعانَد في فعله، فإذا تدبّر الإنسان في ملكوت اللّه وقدرته على الأشياء وخلقه لها، فلا يتدبّر فيها وراء ذلك لئلا يجرّ به تدبيره إلى الكفر وفساد العقيدة"[2]

بلاغة توكيد الخبر:

لتنزيل سؤال ابراهيمَ عليه السلام منزلة المُنكِر بحسب الظاهر

أُكِّدَ الخبرُ في قوله تعالى: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ﴾؛ لتنزيل سؤال ابراهيمَ عليه السلام: ﴿كَيۡفَ تُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰۖ﴾ منزلة المُنكِر بحسب الظاهر، وهذا من سنن العرب أن تهجر جانب المعنى أحيانًا إلى جانب اللفظ، وتهجر جانب اللفظ أحيانًا إلى جانب المعنى، وفاق

(1) المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 1/149.
(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/318.

مقتضيات الأحوال[1]. وفي ذلك عظة لخالفيه بإدراك عظيم قدرة الله الموجبة لسلامة التفكير، وحسن الظن به جلّ وعزّ وتعالى. وإنْ لم يحصل منه عليه السلام سوء ظنٍّ، وشكٍّ حاشاه من ذلك.

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الطّمأنينة والسّكينة:

تشابهت لفظتا الطّمأنينة والسَّكينةِ في الاستعمال اللغويِّ والقرآنيّ، فيتَّفقان بأنَّهما يحصلان بعد تحركٍ وجولانٍ، ويفترقان بأنَّ الطَّمأنينة ذاتيّة، فتُطلَقُ على استقرارِ الشّيءِ ذاتيًّا، كطمأنينة القلب والبدن، كقوله تعالى: ﴿وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ﴾ [آل عمران: 126]، و﴿وَرَضُواْ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّواْ بِهَا﴾ [يونس: 7]، و﴿فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ﴾ [الحج: 11] أمَّا السَّكينةُ؛ فتتحقَّقُ بأمرٍ خارجيٍّ، كما قال تعالى: ﴿أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [البقرة: 248]، وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: 26]، و﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا﴾ [التوبة: 40]، و﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الفتح: 26]، وهذا دليلٌ على أنَّ السّكينة تنزل على الرّسول والمؤمنين، فهي أمرٌ خارجيّ، وكذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ﴾ [التوبة: 103]، فصلاة النبيّ ﷺ بالنسبة للمؤمنين أمرٌ خارجيٌّ.

الفُؤاد والقَلْب:

الفؤاد: اسمٌ من أسماء القلب، لكنَّه يختصُّ بالقلبِ؛ إذا اعتُبِر فيه معنى التَّفَؤُّدِ، أي: التّوقّد، يقال: فَأَدْتُ اللّحمَ: شَوَيْتُهُ، ولحم فَئِيدٌ: مشويٌّ[2]، وهذا ملاحَظٌ في استعمال القرآن، قال تعالى: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ۝١١﴾ [النجم: 11]، وقال: ﴿فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ﴾ [إبراهيم: 37]، فإنَّ ذكر الفؤاد كان باعتبار الامتلاء بالرّؤية، والمحبَّة، وقال: ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ﴾ [الإسراء: 36]، وقال: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾ [الملك: 23]، فإنّ اقترانَ الفؤاد بالسمع والبصر دليلٌ على حيويّته وفاعليّته، وقال تعالى: ﴿وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ۝٤٣﴾ [إبراهيم: 43]؛ لفتًا لما كانت عليه في الدّنيا من الامتلاء بالكفر والمعاصي، أمَّا في

(1) المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 1/150.
(2) الأزهري، تهذيب اللغة: (قلب).

القيامة؛ فهي هواء، وقال تعالى: ﴿نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ۝٦ ٱلَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ ۝٧﴾ [الهمزة: 6-7]؛ تنبيهًا على حالها في الدّنيا، وما أدقَّ استعمال لفظ الإيقاد مع معنى التّوقد، وقد فرَّق بينهما رسول الله ﷺ حين قال: "أهلُ اليمن أرقُّ قلوبًا، وألين أفئدةً"[1]، "فوصَفَ الْقُلُوب بالرّقة والأفئدة باللين، وَكَأن القلبَ أخصُّ من الْفُؤَاد في الاستعمال"[2].

(1) مسند الإمام أحمد، حديث رقم: (17406)، وحسن إسناده الألباني في السلسلة الصحيحة، حديث رقم: (1775).
(2) صحيح البخاري، حديث رقم: (3208).

﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتۡ سَبۡعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٖ مِّاْئَةُ حَبَّةٖۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ٢٦١﴾ [البقرة: 261]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

إنبات الحبَّة شكلٌ من أشكال إحياء الموتى، فناسَبَ ذكرُها بعد ذكر الطَّير، فإذا كان سعيُ الطَّير إلى صاحبه مثالًا واضحًا لإحياء الموتى في الدُّنيا؛ فإنَّ سعيَ الحسنات إلى صاحبها مثال جليٌّ في قَبول نفقات المؤمنين وإحيائها في الآخرة، وقد تعلَّقتِ الآيةُ بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا بَيۡعٞ فِيهِ وَلَا خُلَّةٞ وَلَا شَفَٰعَةٞۗ وَٱلۡكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٢٥٤﴾ [البقرة: 254] تعلُّقًا وشائجيًّا قويًّا، بل هي مبدأُ تفصيل وترغيب للأمر بالإنفاق الوارد ذكرُه في تلك الآية، وقد توسَّط الأمرَ بالإنفاق والتّرغيبِ فيه مقطعٌ قرآنيٌّ يتعلَّق بصفات الله تعالى في أعظم آية في القرآن، وولايته للمؤمنين، وبيانٌ فاصلٌ في التَّفريق بين أولياء الله وأولياء الطَّاغوت، وتمثيل عجيبٌ للأولياء، وانتهى المقطعُ بقصَّة إبراهيم عليه السلام ربطًا سباقيًّا بقوله تعالى: ﴿وَرَفَعَ بَعۡضَهُمۡ دَرَجَٰتٖۚ﴾ [البقرة: 253]؛ لبيان مثالٍ واضحٍ من أمثلة رفع الدَّرجات، ولحاقيًّا ببيان أنَّ المنفقَ أموالَه في سبيل الله تعالى، هو أشدُّ النَّاس إيمانًا بالإحياء بعد الموت؛ فإنَّ مَنْ ينفقُ مالَه في سبيل الله مطمئنٌّ قلبُه بسعيِ نفقتِه إليه يومَ القيامة، كالذي جَعَلَ على كلِّ جبلٍ من الطَّير جُزْءًا، وهي إشارةٌ صريحةٌ في أنَّ شرطَ الإنفاقِ هو الإيمانُ بالله تعالى وبالبعثِ رجاءَ ما عنده تعالى.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يُنفِقُونَ﴾: نفق[1]: نَفَقَ الشَّيْءُ نَفاقًا: مَضَى، ونَفِدَ بسرعةٍ: إمَّا بالبيع، وإمّا بالمَوْتِ، وإمّا بالفَنَاءِ نحو: نَفِقَتِ الدَّرَاهِمُ تُنْفَقُ، وأَنْفَقْتُهَا، والإِنْفَاقُ قد يكون في المَالِ، وفي غَيْرِهِ، وقد يكون واجباً وتطوُّعاً، وأصلُ المادَّةِ مأخوذٌ من النَّفَق، وهو سَرَبٌ في الأرضِ له مخلص

(1) الخليل، العين، وابن قتيبة، غريب القرآن، والأزهري، تهذيب اللغة، والراغب، المفردات، والزبيدي، تاج العروس: (نفق).

إلى مكانٍ، وأكثرُ ما يُستعمل عِندَ العربِ في نفقِ اليربوع والضَّبِّ، فيقولون: أنفَقْنا اليربوعَ؛ إذا لم يُرفَق به حتّى انتَفَقَ، وذهب، والنَّفَقُ: السَّرِيع الِانْقِطَاع من كل شَيْء، يُقَال: سيرٌ نفق، أَي: مُنْقَطع، وأنفقتِ الْإِبِل؛ إِذا انتثرت أوبارُها عَن سمن، ونفق الجرحُ؛ إذا انقشر.

وسُمِّيَ الْمُنَافِق في الإسلام منافقاً؛ أخذًا من النَّفق، وَهُوَ السَّرَب في الأَرْض، وسُمِّي منافقاً؛ لأنّه نَافق كاليربوع، وَهُوَ دُخُولُه نافِقاءَه، وهذا يدلُّ على أنَّ أصلَ هذه المادّة: هو النَّفق، فاشتقَّ القرآنُ معناه الإسلاميَّ الخالِص، ممَّا اشتقَّتِ العربُ منه معنى: النُّفوق والنَّفقةِ.

ومصطلحُ الإنفاق في سبيل الله: هو مصطلح إسلاميٌّ خالصٌ؛ فإنَّ العربَ لا تعرفه بهذا المعنى، وهذا من بديع ابتكارات القرآن، أنِ اختارَ لفظًا واحدًا، دالًّا على معنَيَيْن اثنين، كلٌّ منهما على نقيض المعنى الآخر، فالمنافقُ هو أبعدُ النَّاسِ عن الإنفاقِ في سبيلِ الله، والمُنفِقُ في سبيل الله هو أبعدُ النَّاس عنِ النِّفاق، وهذا مما يبرهن، ويدلُّ على دقة الاختيار القرآنيّ لألفاظه في سياقها.

2) ﴿حَبَّةٍ﴾: حبب[1]: الحَبُّ والحَبَّة، يُقال في الحنطة والشَّعير ونحوهما، وهو أصل النّبات الذي يكون به حياةُ الأحياء، قال تعالى: ﴿كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتۡ سَبۡعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٖ مِّاْئَةُ حَبَّةٖۗ﴾ [البقرة: 261]، وقال تعالى: ﴿وَلَا حَبَّةٖ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡأَرۡضِ﴾ [الأنعام: 59]، وقال تعالى: ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلۡحَبِّ وَٱلنَّوَىٰۖ﴾ [الأنعام: 95]، وحَبَّة الْقلب هِيَ العَلَقَة السَّوْدَاء الَّتِي تَكونُ دَاخل الْقلب، وَهِي وسط الْقلبِ أَيْضًا، وقيل: لوسط القلب حبَّة القلب؛ لأنَّ ما يكون في القلب من المعاني والأفكار ينبت من وسطه، كما أنَّه قيل للمعنى الذي هو نقيض البُغض: الحُبُّ؛ تشبيهًا بالحَبِّ الذي يكبر، ويكون أصلًا للحياة التي ينشأُ فيها، فالحَبُّ هو الأصل الحسيّ، وشُبِّه الحُبُّ به، حتَّى أصبح أصلًا في هذا الباب، وغالبُ ألفاظ الحُبِّ في القرآن الكريم استُعمِلَت فيما فيه تحري المُحِبِّ بما يولِّد الزيادَةَ والنّماء، كقوله تعالى: ﴿فِيهِ رِجَالٞ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْۚ﴾ [التوبة: 108]، وقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيۡنَٰهُمۡ فَٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡعَمَىٰ عَلَى ٱلۡهُدَىٰ﴾ [فصلت: 17].

(1) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، والراغب، المفردات: (حبب).

3) ﴿سُنۢبُلَةٍ﴾: (سبل- سنبل)[1]: السبيل هو الطّريق الممتد المسترسل الواضح المُنكشِف المُوصِل إلى منتهاه، مادّيًّا ومعنويًّا، ويكون ظاهرًا سلسًا، وجمعه: سُبُلٌ، ويُستعمل السَّبِيلُ فيما كان ممتدًّا من أصلٍ، يُقال: أَسْبَلَ السّتر، والذّيل، وفرس مُسْبَلُ الذّنب، وسَبَلَ المطرُ، وأَسْبَلَ.

والسُّنْبُلَةُ أصلها مأخوذ من سبل، فالنُّون زائدة، وقيل: أصليّة، وجمعها: سَنَابِلُ، وهي ما على الزّرع، قال تعالى: ﴿سَبۡعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٖ﴾ [البقرة: 261]، والسَبُّولة: سُنْبلةُ الذُّرَةِ والأَرُزّ إذا مَالَتْ، وأَسْبَلَ الزَّرعُ، أي: سَنبَلَ، ويُلاحَظ في السُّنبُلة: أنَّها إذا امتلأتْ؛ مالتْ، فميلانها امتلاء خيرٍ، وتكون في ظاهر الزَّرع، وهذا وصفٌ حميدٌ.

والملاحظ في استعمال القرآن الكريم للفظ السّبيل: أنَّها تأتي في استعمال الخير غالبًا، وإذا استُعملت لغير ذلك؛ فهي محمولةٌ على المقابَلَة والمشاكلة، كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام: 153].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

أثنتِ الآية على المنفقين أموالَهم في سبيل الله تعالى - وهو من أعظم ما ينتفع به المؤمنون - بأن جعلت الحبة المُنبتة سبع سنابل في كل سنبلة مئة حبة مثلًا لنفقاتهم، فالحبَّة - التي هذه صفاتها، وهذا إنباتُها - حقيقٌ بها الإعجاب، وحريٌّ بالعاقل أن يحرِصَ على بذرِها، فإنَّ التَّطلُّع إلى أسباب الخير، شيمةُ الفضلاء، والله يضاعف الأجر لمن يشاء، بحسب ما يقوم بقلب المنفق من الإيمان والإخلاص التام؛ إذ هو الواسع في عطائه، العليمُ في سرائر قلوبِ عباده، والنَّفقةُ في سبيل الله المقصودةُ في الآية: الظَّاهر أنَّها عامَّةٌ في الجهاد وغيرِه، وإن كان الجهادُ داخلًا فيها دخولًا أوّليًّا، وقد قال ﷺ: "كُلُّ عَمَلِ ابْنِ آدَمَ يُضَاعَفُ، الحَسَنَةُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا إِلَى سَبْعِمِائَة ضِعْفٍ"[2].

(1) الخليل، العين، وابن دريد، جمهرة اللغة، والأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، والزبيدي، تاج العروس، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (سبل).

(2) مسلم، صحيح مسلم، حديث رقم: (1151).

الإيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

بلاغة فنّ تكرار القول:

بيان تكرار الحديث أن للإنفاق عند الله خَطْباً جليلاً وخطراً عظيماً

قال الطِّيبي: "اعلم أن للبلغاء فنّاً يذهبون إليه دقيق المسلك لطيف المغزى، وهو أنهم إذا شرعوا في حديث ذي شجون له شعب وفنون شتى ولهم اعتناء بنوع منها أكثر من الآخر، فإذا اندفعوا وتعمّقوا فيها لا يتسع لهم ولا يتمالكون أن يهملوا ذلك الأمر المعني بشأنه، فحيث وجدوا له مجالاً كيف ما كان أوردوه، ومثاله: أن يحدّث الرجل بحديث وفي صدره اهتمام بشيء منه وفضل عناية، فتراه يعيد ذكره ولا ينفك عن الرجوع إليه، والله جل سلطانه حين فرغ من بيان الأحكام وشرع في القصص تحريضاً على الجهاد وحثّاً على الإنفاق في سبيله إشادةً للدِّين وقمعاً للملحدين، قال: ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ٢٤٤ مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا﴾ [البقرة: 244 - 245] الآية، ولما أن الإنفاق هو العمدة في الجهاد، ومنه فتح باب سائر العبادات، وهو رأس الخيرات وأسّ المبرّات، كَرَّرَ ذِكْرَهُ مراراً، وذلك أنّه لمّا قَصَّ حديثَ طالوت وجالوت ونُبَذاً من أحوال الأنبياء تقريراً للجهاد تأسياً بهم، رجع إلى حديث الإنفاق بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا بَيۡعٞ فِيهِ وَلَا خُلَّةٞ﴾ [البقرة: 254]، ثم أتى بوصف ذاته الأقدس بالمطالب العالية الشريفة وبقصة خليله عليه السلام، ثم رجع إلى قضية الإنفاق قائلاً: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ﴾ الآية، ثم لما استوفى حقه من البيان ختم السورة بخاتمة سَنِيَّة، وما ذلك إلا أن للإنفاق عند الله خَطْباً جليلاً وخطراً عظيماً، والله أعلم"[1].

بلاغةُ التَّشبيهُ التَّمثيليّ:

يكتنزُ التَّشبيهُ التَّمثيليُّ في الآية مجموعةً من النِّكات البيانيّة، والإشارات البلاغيّة، هذا بعضُها:

(1) الطيبي، فتوح الغيب: 3/516.

موقع التشبيه التمثيلي:

علّة مجيء التشبيه التمثيلي في مفتتحِ الكلامِ، كونه قياساً موضِّحاً، وبرهانا مصاحِباً، وهو كثيرٌ جدًّا في القرآن، ومنها هذه الآية المباركة[1].

تشبيه المَثَل بالمثَل للمبالغة

شُبِّه مَثَلُ المنفقين بمَثَل الحبَّة، فلم يقل: (الذين ينفقون أموالَهم في سبيل الله كحبَّةٍ أنبتَتْ)؛ ليُبنى الكلامُ على المبالغة، فإنَّ تشبيه مثل المنفقين أموالَهم في سبيل الله بمثل الحبَّة، فيه زيادةُ مبالغةٍ، فإذا كان هذا مثلُ المنفقين في سبيل الله، فكيف بحقيقتهم؟ وإذا كان هذا مثلُ مضاعفة الحبَّة؛ فكيف بحقيقة الأمر؟ ولذلك قال سبحانه في آخر الآية بيانًا لهذا المعنى: ﴿وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ٢٦﴾؛ فإنَّ المضاعفةَ لا تقتصرُ على المذكور؛ لأنّه واقعٌ موقعَ التّمثيل والتّقريب، والأمر عند الله أعظمُ وأوسع.

تقديرُ المضافِ في أحدِ طَرَفي التّشبيه:

قدَّر المفسِّرون مضافًا في أحدِ طرفي التَّشبيه؛ ليستقيم فهم التَّشبيه، فإمّا أن نُقدِّر مضافًا في المشبَّه: مَثَلُ نفقةِ الذين ينفقون أموالَهم كَمَثَلِ حَبَّةٍ، وإمَّا أن نُقدِّر مضافًا في المشبَّه به: مثلُ الذين ينفقون أموالَهم كمثلِ باذرِ حبّةٍ[2]، وفائدةُ تقديرِ المضاف: مزيدُ بيانٍ في إظهارِ المقصود، وجاء النَّظم الكريم على ما جاء عليه؛ لتوجيه الأنظار للمنفقين، فعليهم مدارُ العمل، وللحبَّة التي بها مبدأُ المضاعفة، لا بالباذر؛ لأنَّ ذكرَ الحبَّة يستلزم ذكر باذرها.

نوعُ التَّشبيه التَّمثيليّ:

شُبِّهت نفقةُ المنفقينَ أموالَهم بمثلِ حبَّةٍ، والحبَّةُ أمرٌ معلومٌ محسوسٌ مشاهَدٌ للعيان، وما ينفقه المنفقون أمرٌ عقلي مدرَكٌ بالذِّهنِ، فالتَّشبيهُ من قبيل تشبيه المعقولِ

(1) الشحود، الخلاصة في علوم البلاغة: ص: 34.

(2) الزمخشري، الكشاف: 1/310، والخفاجي، عناية القاضي: 1/388، والآلوسي، روح المعاني: 2/32.

بالمحسوس، والمشبَّه به هيئة معلومة[1]. و" الغرض من التشبّه مجرّد جعل المتخيَّل محققًا والمعقول محسوسًا"[2].

غايةُ التّشبيه التَّمثيلي:

الغايةُ من التّشبيه التَّمثيليّ تصويرُ إضعافِ اللّه تعالى أجرَ المنفقين؛ كأنَّ النَّفقةَ في سبيل اللّه تعالى حاضرةٌ بين عيني ناظرٍ إليها[3]، يرى نموَّها وزيادتها وبركتَها؛ زيادةً في الحثِّ على النَّفقة، والحرصِ على ذلك، فإنَّ ما يُرى أوقع في النُّفوس، وأقنع للقلوب.

بلاغة الاحتباك في التشبيه:

"الآية من الاحتباك وتقديرها: مثل الذين ينفقون ونفقتهم كمثل حبة وزارعها، فذكر المنفق أولاً دليل على حذف الزارع ثانياً، وذكر الحبة ثانياً دليل على حذف النفقة أولاً"[4].

سِرُّ التّعبيرِ بالاسمِ الموصولِ:

بيانُ سِرِّ المَدْحِ والثَّناء

فائدةُ التَّعبير بالاسم الموصول؛ لبيانِ أنَّ المُتعيِّنَ بالمدح، والمقصودَ بالتَّشبيه، هو خصوصُ المَمْدوحِين باعتبار اتَّصافهم بالإنفاقِ، ولو قال: مثلُ المنفقين؛ لما تعيَّن هذا المقصودُ، بل لفُهم أنَّه يريد عنوانَ المنفقين، فحسب، لا صفتهم المستوجبةَ للمدح والثَّناء. قال ابن عاشور: "والصلة مؤذنة بأن المراد خصوص حال إنفاقهم بتقدير: مثل نفقة الذين"[5].

فائدة التَّعبير بصلة الموصول مضارعًا:

الإشعارُ باستمرارِ حالِ الإنفاق

جاء التَّعبيرُ بصلة الموصول فعلًا مضارعًا؛ للإشعارِ بأنَّ دَيْدَن المنفقين هو الإنفاقُ في سبيلِ اللّه في جميع أحوالِهم، وهم مستمرُّون

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/41.
(2) القونوي وابن التمجيد، حاشيتان على البيضاوي: 5/427.
(3) أبو حيان، البحر المحيط: 2/315، والآلوسي، روح المعاني: 2/32.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 4/75.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/41.

على ذلك لا يوقفُهم طُروُّ حالٍ، أو قلَّةُ مالٍ، وممَّا يُرشِّح ذلك التَّمثيلُ بالحبَّة المستمرَّةِ بالإنباتِ بعد الإنبات، والمضاعفةِ بعد المضاعفةِ.

انتقاءُ لفظةِ النَّفقة دون مرادفاتها:

براعةُ الاتِّساقِ اللغويِّ والبيانيّ

عبَّرتِ الآيةُ عن إخراجِ المالِ في سبيل الله بالإنفاق، دون أن يكونَ نظمُ الآيةِ: الذين يُخرجون، أو يؤتون، أو يؤدُّون، أو يعطون، لأمرين اثنين: أحدهما لغويٌّ، والآخر بيانيٌّ سياقيّ.

أمَّا الأوّل: فإنَّ اللغةَ تدلُّ على أنَّ الملحوظَ في معنى النَّفقة السُّرعَةُ والنفاد، فلفظُ الإنفاقِ يُشعِرُ بفقد الأملِ في استردادِ ما أُنفق، فكان التَّعبير به دالًّا على عدم تشبُّثِ المنفقين بأموالِهم؛ لتَيَقُّنِهم نفادَها دُنيويًّا، وهو ما يعكس إيمانَهم بقبولِها ومضاعفتها أُخرويًّا.

وأمَّا الثَّاني: فهو البيانيُّ السِّياقيّ، فإنَّ لفظ الإنفاق مأخوذٌ من النَّفقِ، أي: السَّرَبُ تحتَ الأرض، وهو ما يُناسِبُ المُستعملَ في المُشبَّه به، أي: لفظُ الحبَّة، فإنَّ الحبَّة مكانها تحت الأرضِ كذلك، وهذا من التّناسب العجيب في الاختيار اللغوي القرآنيّ، أنْ يقعَ لفظان بينهما ذلك الاتِّفاق، فالشَّيْءُ النَّافقُ يكون عادةً تحت الأرض، والحبَّة تكون كذلك تحت الأرض، وهذا من أدقِّ مناسبات التَّشبيهات التي لا تخطر على ذهنٍ بشريٍّ، ولا تُحلِّق في خيالِ جِنيٍّ.

علّةُ جَمْعِ المالِ دونَ إفرادِه:

مدحُ المنفقين إرشادٌ ضمنيٌّ في أن يكون الإنفاقُ من جميع أنواع المال لا في بعضِها

جاء النَّظمُ الكريمُ بصيغة الجمع: ﴿أَمْوَٰلَهُمْ﴾، دون التَّعبير بالمفرد، فلم يقل: (مالَهم)؛ للإيذانِ بأنَّ المنفقَ لا يختار نوعًا دون آخر لإنفاقه في سبيل الله، بل ينفق منها جميعًا، ففي صيغة الجمع إرشادٌ ضمنيٌّ لمنْ أرادَ أن يكون ممَّن هذه صفته، أن يحرِصَ على الإنفاق من المال العزيز؛ كحرصِه على إنفاقِ المرذولِ، وأنْ لا يتخيَّر مالًا دون آخر، فالنّكتة كامنةٌ في مدح حال المنفقين، وإرشادٌ لمن أراد الاقتداءَ بهم.

بلاغةُ استعمالِ جملة: ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾:

لهذا التَّركيب مجموعةٌ من الخصائص والمواصفات البيانيّة، نوجزها فيما يأتي:

جَرَيانُ قولِه تعالى (في سبيل الله) مَجْرَى التَّركيبِ

جرَى قولُه تعالى: ﴿سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ مجرى التَّركيب في القرآن الكريم، وقد جاء ما يقرُبُ من سبعين مرَّةً، معظمُها الغالبُ كان في حقل الجهاد والحثِّ عليه، وجاء مرَّةً واحدةً في مصارفِ الزَّكاة، وهي قوله تعالى: ﴿۞إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡعَٰمِلِينَ عَلَيۡهَا وَٱلۡمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمۡ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَٱلۡغَٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِۖ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٦٠﴾ [التوبة: 60]، وجاء في هذه الآية الدَّالَّةِ على عُموم الإنفاق، الواجبِ والنَّافلِ، في الجهاد وغيره.

الاستعارةُ التّصريحيّة

التَّعبيرُ بحرف الظَّرفيَّة يُوحي بأنَّ النَّفقةَ توسَّطتِ السَّبيلَ، حيث أصبحتْ مظروفًا فيه، فعلى هذا تكون السَّبيل واقعةً موقعَ الظَّرف الموصلِ إلى الغاية المُبتغاةِ، وهذا من الاستعارة البديعة، حيث شبَّه السَّبيل بالتربة التي توضع فيها النَّفقةُ، على سبيل الاستعارة التَّصريحية، والتَّعبير بحرف الظَّرفيَّة يدلُّ على أنَّ المرادَ بالسَّبيلِ: السَّبيلُ الماديُّ والمعنويُّ، أمَّا المعنويُّ؛ فهو الظَّاهر من النَّصِّ، وأمَّا الماديُّ؛ فهو المفهوم من الاستعارة، وتعدية فعل الإنفاق بحرف الظَّرفيَّة الدّالِّ على تمكُّنِ النَّفقة في السَّبيل، وهذا شأن المادّيات.

تضمينُ فعلِ الإنفاقِ معنى فعل الوضع

ضُمِّنَ فعلُ ﴿يُنفِقُونَ﴾ معنى فعلِ (يضعون)، وهو مأخوذ من تعدية فعل الإنفاق بحرف الظَّرفيَّة، فكأنَّ النَّفقة تُوضَعُ في تربة السَّبيل لغاية المضاعفة، كما أنَّ الحبَّة تُوضَع في التُّربة لغاية النُّمو، وهذا في الاتِّساق يبلغُ الغايةَ، وقد جاء من حديث أبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ما يُبيِّن هذا الاستعمال البليغ للفظ يضع، وأنَّه يؤدِّي معنى الإنفاقِ، فقد قال رسُولُ اللَّهِ ﷺ: "مَا تَصَدَّقَ امْرُؤٌ بِصَدَقَةٍ مِنْ كَسْبٍ طَيِّبٍ - وَلَا يَقْبَلُ اللَّهُ إِلَّا

طَيِّبًا - إِلَّا وَضَعَهَا - حِينَ يَضَعُهَا- فِي كَفِّ الرَّحْمَنِ، وَإِنَّ اللَّهَ لَيُرَبِّي لأَحَدِكُمُ التَّمْرَةَ، كَمَا يُرَبِّي أَحَدُكُمْ فَلُوَّهُ - أَوْ فَصِيلَهُ - حَتَّى تَكُونَ مِثْلَ أُحُدٍ"[1]، وهذا النُّور النَّبويّ متلألئٌ من مشكاة القرآن.

بلاغةُ الاختزالِ في التَّعبير بالحبَّة:

أوجـز بالحذف لظهور أنّ الحبّة لا تنبت السنابل إلا في أرض نقية أصابها الغيث

الحبَّةُ المُشبَّه بها اختزلتْ واقعًا افتراضيًا يعلمُه المُخاطَبُ؛ إذ هي هيئة معلومة، أي: زُرِعت في أرضٍ نقيَّةٍ، وتراب طيِّب، وأصابها الغيث، فنبتت، ثم أنبتت سبعَ سنابل، وحُذِف ذلك كلُّه؛ إيجازًا لظهور أنَّ الحبَّة لا تُنْبِت ذلك إلا كذلك، وجعل أصلَ التَّمثيل في التَّضعيف حبَّةً؛ لأنَّ تضعيفَها من ذاتها لا بشيء يُزادُ عليها[2].

الإسنادُ المجازيُّ في قوله: ﴿أَنۢبَتَتۡ سَبۡعَ سَنَابِلَ﴾:

أُسْنِدَ الإنباتُ إلى الحبَّة؛ على طـريـق المـجـاز لكونها سببًا له

أُسنِد الإنباتُ في قوله تعالى: ﴿أَنۢبَتَتۡ سَبۡعَ سَنَابِلَ﴾ للحبَّة على سبيل المجاز، وفي الحقيقة المنبتُ هو اللَّه تعالى، ولكنَّ الحبَّة لمَّا كانتْ سببًا للإنباتِ أُسنِد إليها الإنباتُ كما يُسْنَدُ إلى الأرضِ وإلى الماء[3].

بيانُ الاتِّساقُ بين السَّبيلِ والسّنبلةِ:

النّفقة تنمو في سبيل الله حتَّى تصل إلى الرِّضا العظيم، كذلك السُّنبلة تنمو في التُّربة حتَّى تَصِلَ إلى الخير العميم

لفظا السّبيل والسُّنبلة من مصدر واحد، وهو "سبل"، إلَّا إن عددنا النُّون زائدةً - على رأي بعض اللغويين - فتكونا من مصدرين متقاربين، والصَّحيح أنّهما من مصدر واحد؛ لما بينهما من وشائج الرَّابطة الدّلاليّة؛ فإنَّ السَّبيل يدلّ على الامتداد والسّلاسة والظّهور، وكذلك السُّنبلة، والسَّبيل موصلٌ سالكَه إلى منتهاه وبغيته، وكذلك السُّنبلة قد بلغَتْ منتهى سبيلِها في النُّمو والنُّضج، ووجه اتِّساقهما في الآية: أنَّ النّفقة تنمو في سبيل اللّه حتَّى تصل إلى الرَّضا العظيم، كذلك السُّنبلة تنمو في التُّربة حتَّى تَصِلَ إلى الخير العميم.

(1) مسلم، صحيح مسلم، الحديث رقم: (1014)، والترمذي، سنن الترمذي، حديث رقم: (667).
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/41.
(3) الزمخشري، الكشاف: 1/310، وأبو حيّان، البحر المحيط: 2/315.

سرُّ تحديد عدد السنابل بسبع:

خصَّ سبعًا من العدد؛ لأن عددها كما ذكر، فأقصى ما تخرجه الحبة من السيقان سبع. ولأن السبع أكثر أعداد العشرة، والسبعين أكثر أعداد المائة، وسبع المائة أكثر أعداد الألف، والعرب كثيراً ما تراعي هذه الأعداد[1].

عدد السنابل سبع، وهي أقصى ما تخرجه الحبة من السيقان ولأنها أكثر أعداد العشرة

وذكر السّبع لما فيه من التمام بالحرث بوصف الحبة أصلاً يثمر سنابل وفي كل سنبلة أعدادٌ من الحبّ، فكان ما ذكر تعالى هو أول الإنفاق في سبيل الله وذكر السبع لما فيه من التمام وما يقبله من التكثير، فإن ما أنبت أكثر من سبع إذا قصد بالتكثير أنبأ عنه بالسبع، لأن العرب تكثر به ما هو أقل منه أو أكثر، فجعل أدنى النفقة في سبيل الله سبعمائة ضعف، ثم فتح تعالى باب التضعيف إلى ما لا يصل إليه عدٌّ[2].

السبع أوّلُ الإنفاق وفيه التمام وإمكان التكثير

سِرُّ التَّعبير بجمع الكثرة لا القلة:

آثرتِ الآيةُ جمعَ الكثرة على جمع القلَّة، فلم يقل: (سنبلات)، كما في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّيٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ﴾ [يوسف: 43]، ويُحمَلُ ذلك على أحد أوجهٍ، وهي:

إيثار جمع الكثرة اتّساعٌ في الكلام، وحملٌ على المجاز

الأوَّل: أنّها من باب تعاور الجموع، أي: يصح أن يقع جمعٌ مكان آخر، من باب الاتِّساع في الكلام، والحمل على المجاز[3].

الثَّاني: أنَّ ما جاء هنا؛ فهو على الأصل، وما جاء في سورة يوسف؛ فهو من باب المشاكلة، فلمَّا قال: ﴿سَبْعَ بَقَرَٰتٍ﴾ [يوسف: 43]؛ حسُن أن يقول: ﴿وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ﴾ [يوسف: 43][4].

إيثار جمع الكثرة إئتلافٌ مع السّياق لبيان حال المضاعفة

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 2/316.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 4/75.
(3) الزمخشري، الكشاف: 1/310.
(4) أبو حيان، البحر المحيط: 2/656.

الثّالث: ما جاء في سياق الرّؤيا التي رآها الملكُ كان على الحقيقة، أمَّا قوله تعالى: ﴿سَبۡعَ سَنَابِلَ﴾؛ فهو المؤتلف مع السِّياق؛ إذ مقصودُه بيانُ حالِ المضاعَفَةِ، وحقُّ ذلك إيثارُ صيغة الكثرةِ على صيغة القلَّة، فالمضاعَفَةُ متحقِّقةٌ حتَّى في ألفاظِ الآية.

قال ابن الزبير: "إنّ آية البقرة مبنية على ما أعدّ الله للمنفق فى سبيله وما يضاعف له من أجر إنفاقه وإن ذلك ينتهي إلى سبعمائة ضعف، وقوله ﴿وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُۗ﴾ قد يفهم الزيادة على ما نصّ عليه من العدد كما أشارت إليه آيات وأحاديث، فبناء هذه الآية على التكثير فناسب ذلك ورود المفسر على ما هو من أبنية الجموع للتكثير لحظًا للغاية المقصودة، ولم يكن ما وضعه للقليل فى الغالب ليناسب ما تلحظ فيه الغاية من التكثير. أما آية يوسف فإنما بناؤها على إخبار الملك عن رؤياه سبعَ سنبلات فلا طريق هنا للحظ كثرة ولا قلة لأنه إخبار برؤيا فوجهه الاتيان من أبنية الجموع بما يناسب المرئى وهو قليل؛ لأن ما دون العشرة قليل فلحظ في آية البقرة ما بعده مما يتضاعف إليه هذا العدد وليس فى آية يوسف ما يلحظ فافترق القصدان وجاء كل على ما يجب ويناسب والله أعلم"[1].

بلاغةُ التَّشبيه وأثرُها في فهم حقيقة القبول:

سِـرُّ الحبَّةِ المباركةِ في النِّيَّة الخالصة، والمتابعة الفاحِصَة

تظهرُ بلاغةُ التَّشبيه القرآنيّ في أثره النَّفسيِّ، وإنباته للقيم التّربويّة، فتشبيه نفقة المنفق في سبيل الله بالحبَّة - التي أنبتت سبْعَ سنابل - يُثير في النَّفس تساؤلًا عن تحققِّ وجودها في الواقع؟ وهي موجودة لكن لها حكم النُّدرة؛ ذلك أنَّها تستوجبُ اجتماعَ الحبَّة ذات المواصفات العالية، والتُّربة الحميدة، والماء النقيِّ، والهواء الزكيِّ، ومتابعتها بإزالة الحشائش الضّارّة، وتعاهدها بالسَّقي الدائم، فهذا هو الذي يُنبت سبع سنابل، في كل سنبلة مئة حبة. وكذلك النَّفقة في سبيل الله تعالى، يجب أن تكون طيِّبة في ذاتها، وأن توضع في مقارِّها، وأن يتعاهدها صاحبها بالنِّسيان والتَّغافل، وأن يرجو ما عند الله على خوفٍ وَوَجَلٍ من قبولها، فهذا مقصودُ التَّمثيل، وهو يُجلِّي للمنفقين حقيقةَ القبول، وسرَّ المضاعَفَة.

(1) ابن الزبير الغرناطي، ملاك التأويل: 1/70.

إفادةُ الاختصاصِ في قولِه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُۗ﴾:

وجه الاختصاص حصر مضاعفة الأجر به سبحانه وتعالى

أُتبع التَّشبيهُ التّمثيليُّ بجملة: ﴿وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُۗ﴾؛ زيادةً في التَّرغيب، وقد أفادتِ الاختصاصَ بأمرين اثنين: الأوَّل: تعريف المسند إليه، وهو لفظ الجلالة، وتقديمه على فعل المضاعفة، ومجيء المسند فعلًا مضارعًا، الثَّاني: السِّياق، فإنَّ أمر المضاعفة خاصٌّ بمشيئته سبحانه وتعالى، ومقصورٌ عليه سبحانه.

سِرُّ التَّعبير عن المضاعفة بصيغة المضارع:

عُبِّرَ عن المضاعفة بالمضارع لبيان أنّها ليست حكمًا ثابتًا، وأنّ تجدُّدِها بتجدُّد العمل والنيّة

جاء التَّعبير عن المضاعفة بصيغة الفعل المضارع ﴿يُضَٰعِفُ﴾ دون الاسم كما هو في الفاصلة؛ لبيان تجدُّدِ المضاعفة بتجدُّد العمل والنيّة، ففيه أنَّ المضاعفة ليست حكمًا ثابتًا، بل هي أمر قابل للتّجدُّد والزّيادة، وهي معذوقة بفقه العبد المنفق، وحسنِ قُربِه وتقرُّبِه من اللّه تعالى، فإن جدَّد العلاقة؛ جُدِّدت له المضاعفة.

فائدةُ التّعقيب بالمضاعفةِ بعد التَّمثيل:

إنّ اختلافِ أحوال المتصدِّقين في الأجْرِ والثَّواب هو بحسب حال المنفق وإيمانه وإخلاصه وإحسانه

اختلف المفسِّرون في بيان المضاعفة على قولين[1]:

الأوَّل: أنَّ المضاعفةَ هي في ذات المذكور سابقًا، أي: لا تزيد عن سبع مائة ضعفٍ، فتكون جملة: ﴿وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُۗ﴾ بيانًا لاختلافِ أحوال المتصدِّقين في الأجْرِ والثَّواب، بحسب اختلاف نواياهم ونفقاتهم وسُبُل الإنفاق، كما أنَّ الحبَّة تختلف بحسب نوعيَّتها، وتربتها، ومائها، ورعايتها، فيكون التَّمثيل بأقصى الأضعاف، ويُؤيِّده قولُه ﷺ: "كُلُّ عَمَلِ ابْنِ آدَمَ يُضَاعَفُ، الْحَسَنَةُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا إِلَى سَبْعِمِائَةِ ضِعْفٍ"[2]. قال ابن القيم: "واللّه يضاعف لمن يشاء فوق ذلك، بحسب حال المنفق وإيمانه وإخلاصه وإحسانه، ونفع نفقته وقدرها ووقوعها موقعها؛ فإن ثواب الإنفاق يتفاوت

(1) تُنظر الأقوال: أبو حيان، البحر المحيط: 2/657.
(2) صحيح مسلم، حديث رقم: (1151).

بحسب ما يقوم بالقلب من الإيمان والإخلاص، والتثبيت عند النفقة، وهو إخراج المال بقلب ثابت، قد انشرح صدره بإخراجه، وسمحت به نفسه، وخرج من قلبه قبل خروجه من يده، فهو ثابت القلب عند إخراجه، غير جزع ولا هلع، ولا متبعه نفسه، ترجف يده وفؤاده. ويتفاوت بحسب نفع الإنفاق بحسب مصادفته لموقعه، وبحسب طيب المنفق وزكائه"[1].

التعقيب بالمضاعفة لتقع مرّتين في مضاعفة النّفقة ذاتها، وفي المضاعفة الاستتباعيّة

الثَّاني: المضاعفة هي ما زاد على المذكور، ويكون التَّعقيب بقوله: ﴿وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُۗ﴾؛ لبيان المضاعفة المطلَقَة، التي لا تكون إلا بمزيد تقرُّبٍ لله تعالى، وهو ما يؤكِّد ضرورةَ إنباتِ النَّفقة بماء الإخلاص، ورعيِها بدُعاء التَّضرُّع؛ لتقع المضاعفةُ مرَّتين: الأولى: في مضاعفة النّفقة ذاتها، والثانية: في المضاعفة الاستتباعيّة، ويكون ذلك في توريث النَّفقة في سبيل الله الرِّضا التَّامَّ، والدُّعاء بالقَبُول.

سرّ إطلاق المضاعفة دون تقييدها بعشر أمثالها:

إن الخيرات تختلف باختلاف العالمين واختلاف نياتهم، وباختلاف الأعمال

وقال ههنا: ﴿يُضَٰعِفُ﴾، وفي موضع آخر: ﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشۡرُ أَمۡثَالِهَاۖ﴾ [الأنعام: 160]، والمضاعفة هنا تدلُّ على أنّه يجازي بواحد سبع مائة؛ وذلك لأنّ الخيرات تختلف باختلاف العالمين واختلاف نياتهم، وتختلف باختلاف الأعمال[2].

التَّناسبُ بين الجمل المتعاطفة:

عُبِّرَ بالجمل المتعاطفة؛ لإقامة الدّليل على الدّعوى

نوعُ العلاقة بين الجمل المتعاطفة، هي من باب إقامة الدّليل على الدّعوى، فإنَّ قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُۗ﴾ دعوى، دليلُها قولُه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾، فالله يُضاعف لمن يشاء من عباده؛ لأنَّه صاحب السَّعة، ومن كان هذا شأنه؛ فإنَّه صاحبُ المضاعفة.

(1) ابن القيم، التفسير القيم: ص: 152، 157.
(2) الراغب، تفسير الراغب: 1/548.

براعةُ الفاصلة القرآنيّة:

تنزيلُ الصفات منزلةَ إردافِ العلَّة بالمعلول

صُدِّرت الفاصلةُ القرآنيّة بلفظ الجلالة: ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾؛ تربيةً للمهابة والإجلال، وإعلامًا بأنَّ المضاعفةَ إنَّما صُدِّرتْ عن واسعٍ في عطائه، عليمٍ بقلوب عباده، فسعة عطائه صادرةٌ عن علمه، وهذا من تنزيل الصفات منزلة إرداف العلَّة بالمعلول، كأنَّه قال: هو واسعٌ في عطائه؛ لأنَّه عليم بعباده.

فنُّ الإطنابِ بالبَسْط[1]:

غايةُ الإطنابِ إغراءُ النُّفوس، وتحريضُها على البَذْلِ والإنْفاقِ

غَرضُ الآيةِ بَيَانُ مُضَاعَفَةِ أجْرِ المنفق في سبيل الله إلى سبعمائة ضعف، وهذا المعنى يُؤَدَّى بعبارة قصيرة، لكِنْ جاء في الآية مُطنَبًا مبْسُوطًا، والغرضُ منه إثارةُ مِحْور الطّمع في المخاطبين؛ إذْ يُعْرَضُ لهم الأَجْرُ الموعودُ به على الإنفاق في سبيل الله في صورة مثالٍ يَشْهَدون نظائره في الظَّواهر الزراعيّة، وهو من أندر ما يراه المزارع ويرجوه، فإنَّ إنبات سبع سنابل في كلِّ سنبلةٍ مئة حبَّة من حبَّةٍ واحدة، يندر في الواقع، فتصوُّرُه يُغري النُّفوس، فيقع الطَّمعُ محرِّضًا ذاتيًّا في الأنفس على بَذْلِ الأموال في سبيل الله تعالى[2].

وجه مطابقة الفاصلة لسياقها:

إنّ فضله تعالى لا يناقض حكمته بل يضعُ فضلَه مواضعَهُ لسعته ورحمته ويمنعه من ليس من أهله بحكمته وعلمه

ختم الآية "باسمين من أسمائه الحسنى مطابقين لسياقها وهما (الواسع العليم) فلا يستبعد العبد هذه المضاعفة ولا يضيق عنها عَطَنُهُ فإنّ المضاعِف واسع العطاء، واسع الغنى، واسع الفضل.

ومع ذلك فلا يُظنُّ أنّ سعة عطائه تقتضي حصولها لكل منفق فإنه عليم بمن تصلح له هذه المضاعفة وهو أهل لها ومن

(1) الإطناب بالْبَسْط: تكثير الجمل وبسط المعاني، واستعمالُ كلامٍ طويل يُغْنِي عنه كَلامٌ قصير، دون أنْ تكون فيه ألفاظ زائدة. يُنظر: الميداني، عبد الرحمن حَبَنَّكَة، البلاغة العربية: 2/62.

(2) الميداني، البلاغة العربية: 2/64.

لا يستحقها ولا هو أهل لها، فإن كرمه وفضله تعالى لا يناقض حكمته بل يضع فضله مواضعه لسعته ورحمته ويمنعه من ليس من أهله بحكمته وعلمه"[1].

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

السَّبيل والطّريق:

السَّبيل مأخوذٌ من السَبْل، وهو الامتداد الموصل، وفيه معنى اليُسر والسَّلاسة والوضوح والانكشاف، أمَّا الطَّرِيقُ؛ فمأخوذٌ من الطَّرق بالأقدام، ففيه معنى القوّة والامتداد والثبات، كقوله تعالى: ﴿فَٱضۡرِبۡ لَهُمۡ طَرِيقٗا فِي ٱلۡبَحۡرِ يَبَسٗا﴾ [طه: 77]، وقوله تعالى: ﴿وَيَذۡهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلۡمُثۡلَىٰ ٦٣﴾ [طه: 63]، وقد اجتمعتا في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ قَدۡ ضَلُّواْ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ١٦٧ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ لَمۡ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغۡفِرَ لَهُمۡ وَلَا لِيَهۡدِيَهُمۡ طَرِيقًا ١٦٨ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٗا ١٦٩﴾ [النساء: 167-169]، فاستُعمل السَّبيل مضافًا إلى الله تعالى في غالب القرآن، واستُعمل مع غيره على سبيل المقابلة والمشاكلة، مثل قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓاْ أَوۡلِيَآءَ ٱلشَّيۡطَٰنِۖ إِنَّ كَيۡدَ ٱلشَّيۡطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ٧٦﴾ [النساء: 76]، بينما استُعمل الطَّريقُ مضافًا إلى جهنَّم، وما كان توطئةً له.

كذلك خُصَّ الطَّارِقُ بالسّالك للطَّرِيقِ ليلًا؛ لما فيه من الإبهام والغُموض، وقيل للنّجم: طارِق؛ لأنَّه يظهر في اللّيل، فيُعيِّن الطَّريقَ للسَّالك، أو لأنَّه يَطرُقُ العين بنوره، فيُعينُها على الرُّؤية ليلًا، ويُطلق على الحوادث التي تكون في اللّيل.

ويُستعمل الطَّريق فيما فيه غموض وخفاء، فقوله تعالى: ﴿كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدٗا ١١﴾ [الجن: 11]، جيء بالطَّريق؛ لارتباطه بالجنِّ، وهم في خفاءٍ وسِتر، وكذلك قوله تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰقَوۡمَنَآ إِنَّا سَمِعۡنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعۡدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٣٠﴾ [الأحقاف: 30]، جاء على لسان الجنِّ، وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا فَوۡقَكُمۡ سَبۡعَ طَرَآئِقَ﴾ [المؤمنون: 17]، ذُكرت الطّرائق؛ لأنَّها مجهولةٌ خفيَّةٌ.

فالفرق بينهما أنّ السَّبيل يُستعمَل للطريق الواضح الظَّاهر السّلس، وهو الأكثر في

(1) ابن القيم، التفسير القيم: ص: 158.

استعمال القرآن، وأُضيف في القرآن إلى لفظ الجلالة ما يقرب من سبعين مرَّةً، أما الطَّريق؛ فيغلب استعماله فيما فيه قوة، أو كان خفيًّا مستورًا في ذاته أو مآله، ولم يُضف إلى لفظ الجلالة مطلقًا.

﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتۡبِعُونَ مَآ أَنفَقُواْ مَنًّا وَلَآ أَذٗى لَّهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٢٦٢ * قَوۡلٞ مَّعۡرُوفٞ وَمَغۡفِرَةٌ خَيۡرٞ مِّن صَدَقَةٖ يَتۡبَعُهَآ أَذٗىۗ وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٞ ٢٦٣﴾ [البقرة: 262- 263]

❁ مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِمَا قَبْلَهُما:

جاءتِ الآيتان بعد آية التَّمثيل بالحبَّة التي أنبتَتْ سبْعَ سنابِل؛ لبيان أنَّ المَثَلَ المذكورَ له شروطُه وضوابِطُه، وأنَّه غيرُ متروكٍ لأفهامِ المخاطَبين، وأفعالِ المنفقين، بل هو على ميزان الشَّريعة، وعلى دُستور الأخلاق، فجاءتِ الآيتان؛ لبيان ذلك تتميمًا وتكميلًا، وإتباعًا للتَّمثيل البلاغيِّ، بالبيان التَّشريعيّ، وهذا من محاسن المناسبات بين الآيات.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مَنًّا﴾: المنّ[1]: العطاءُ الذي يكون عن غير تعَبٍ ولا نصب، كالمنِّ السّاقط على بني إسرائيل، وأصله مأخوذ من المنين، وهو الحبلُ الأوَّل الدّاخليّ الذي يُشَدُّ عليه حبل آخر، يقالُ له: الكَرَب، فإذا انْقَطع المَنِينُ؛ بَقِيَ الكَرَبُ، فالمنين هو الذي يتلقَّى حِملَ الدِّلاء، ولذلك يُسارع إليه الضّعف والقطعُ، وارتبط لفظ المنِّ بالقطع لهذا، فإنَّ المنين يكثر قطعُه بسبب ما يَعرِض إليه من حِملٍ، فقيل: المنّ: قَطْعُ الخَيْر، وقوله تعالى: ﴿لَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونٖ ٨﴾ [فصلت: 8]، أي: غيرُ مَقطوع، واستعمالُ لفظِ المنِّ في قوله تعالى: ﴿لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ﴾، يُراد به: قطع الأجر؛ لأنَّه إبطالٌ للأجر بإظهار ما يجب أن يُخفى، كما أنَّ الحبل المنين يجب أن يبقى خفيًّا غير ظاهر، فإذا انقطع من الدّاخل؛ ظهر أثره في الخارج.

واستُعمِلت هذه الكلمة في معانٍ، منها: الحلوى التي تسْقُط من السّماء، والاعْتِداد،

(1) الخليل، العين. والزجاج، معاني القرآن: 1/138، والأزهري، تهذيب اللغة، والراغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (منن)، والأزهري، تهذيب اللغة: (كرب).

والعَطَاء، والقَطْع، أمَّا القطع؛ فواضحٌ في أصله اللغوي، وأمَّا العطاء؛ فلأنَّه صادرٌ عن الله تعالى، ومن أمثلته المنُّ والكمأة، وسُمِّيا كذلك؛ لانعدام الجهد فيهما، والله ﴿يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾ [إبراهيم: 11]، من عباده في كلِّ شَيْءٍ، وهذه من صفاته التي لا تجوزُ لأحدٍ سواه، فإذا صدَرَت عن أحدٍ؛ بطل أجرُه، وانقطع؛ تشبيهًا بالحبل المنين؛ إذا حَمَلَ فوق طاقته، فالمِنَّةُ هي النّعمة الثّقيلة، فإذا كانت من الله تعالى؛ فهي حميدة، وإذا كانت من عباده؛ فهي قبيحة.

2) ﴿أَذًى﴾: الأذى[1]: الشَّيْء تتكرَّهُه، وتنأى عنه، يُقال: بعيرٌ أذٍ وناقةٌ أذِيَة؛ إذا كانا لا يَقَرَّان في مكانٍ واحدٍ من غير وجعٍ، ولكن خلقةً، وكأنَّه يأذى بمكانه، ومنه الآذِيّ: مَوجُ البحر الشديدُ؛ إذ يتحاشاه النَّاس، وينأون عنه.

وكل ما يَصِل من ضررٍ: إمّا في نفسه أو جسمه أو تبعاته دنيويًّا كان أو أخرويًّا، ويُتحاشى؛ فهو أذًى، قال تعالى: ﴿لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ﴾ [البقرة: 264]؛ لأنَّ المُتصدَّق عليه يتحاشى سماع المنِّ؛ لأنَّه قهرٌ مؤلم، وقوله تعالى: ﴿فَـَٔاذُوهُمَا﴾ [النساء: 16] بما يقع عليهما من الأذى التأديبيِّ بحيث ينأيان عن الوقوع في الفاحشة مرّةً أخرى، وقوله: ﴿وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ﴾ [التوبة: 61]، وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦١﴾﴾ [التوبة: 61]، وقوله: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى﴾ [البقرة: 222]، فسمَّى ذلك: أذىً باعتبار الشَّرع، وباعتبار الطِّب على حسب ما يذكره أصحاب هذه الصِّناعة.

3) ﴿خَوْفٌ﴾: الخَوْف[2]: ذُعْرٌ يصيب الإنسان بسبب توقُّع مكروهٍ عن أمارةٍ مظنونة، أو معلومة، كما أنّ الرّجاء والطمع توقّع محبوب عن أمارة مظنونة، أو معلومة.

وأصل الخَوْف: أديمٌ أَحمرُ، يُقَدُّ منه أمثال السُّيُورِ، فهذا هو أصل الخوف الحسيّ، ثم أصبح يُطلق على انتقاص الأطراف شيئًا فشيئًا. ويضادّ الخوف: الأمن، ويستعمل ذلك في الأمور الدنيوية والأخروية، ويُلاحظ في الخوف القلق والاضطراب.

والخوف من الله لا يُراد به ما يخطر بالبال من الرُّعب، بل يُراد به الكفّ عن المعاصي واختيار الطّاعات، ولذلك قيل: لا يعدّ خائفًا من لم يكن للذنوب تاركًا، والخِيفة: الهيئة

(1) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (أذي).
(2) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مجمل اللغة، والراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ، والزبيدي، تاج العروس، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (خوف).

التي يكون عليها الإنسان من الخوف كالجِلسة، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَءَآ أَيۡدِيَهُمۡ لَا تَصِلُ إِلَيۡهِ نَكِرَهُمۡ وَأَوۡجَسَ مِنۡهُمۡ خِيفَةٗۖ قَالُواْ لَا تَخَفۡ إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ إِلَىٰ قَوۡمِ لُوطٖ ٧٠﴾ [هود: 70]. والتخوُّف: ظهورُ الخوفِ في النَّاس، حين تُؤْخَذُ أموالهم وأبدانهم وثمارهم من خافاتها، أي: من جوانبها شَيْئًا فشيئًا، ﴿أَوۡ يَأۡخُذَهُمۡ عَلَىٰ تَخَوُّفٖ فَإِنَّ رَبَّكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٌ ٤٧﴾ [النحل: 47].

فهو انتقاص بالقطع من الأطراف، وعليه مدار الكلمة، فإنَّ الخوف شعورٌ يَعْتري الإنسانَ كراهة أن ينقص منه شيءٌ ما، كالأنفس، والتّجارات، والثّمار، والأمن، والصّحة، فالنَّقصُ وذهاب الأطراف حتَّى تتلاشى هو أصل هذه الكلمة.

4) ﴿يَحۡزَنُونَ﴾: الحزن[1]: شعورٌ يعتري النَّفسَ بسبب غمٍّ قاسٍ على أمر قد فات غالباً، وبسببه تضعفُ القريحةُ، ويخفُتُ نورُ العمل، ويقابِلُه الفرحُ.

وفيه لُغتان: الحَزَن، والحُزْن، وأصلُه الحسِّيُّ مأخوذٌ من الغليظِ من الأرضِ الذي فيه خُشونَةٌ، فالأرضُ الغليظةُ الخَشِنَة، تُضْعِفُ مسيرَ من يسلُكُها، وتزيد من شقائِه ونَصَبه، فتورِثُه الهمَّ؛ لذلك كثُر عند العربِ إضافةُ الحزنِ إلى الأماكن والقبائل؛ إذا كانت وَعِرَةً، ويُقال للأبناء: الحُزانَة؛ لأنَّ الآباءَ يتحزَّنون لأمرِهم.

وقد استُعمل الحزن في القرآن الكريم؛ لما يُصيب الإنسانَ من خشونةٍ في النَّفس لما ينزِلُ عليه من الغمّ، قال تعالى: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَذۡهَبَ عَنَّا ٱلۡحَزَنَۖ﴾ [فاطر: 34]، وقال: ﴿تَوَلَّواْ وَّأَعۡيُنُهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ حَزَنًا﴾ [التوبة: 92]، وقال: ﴿إِنَّمَآ أَشۡكُواْ بَثِّي وَحُزۡنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [يوسف: 86]، وغالبُ استعماله فيما مضى، ويُستعمل فيما يُستقبل فيما كان توقُّعُه حتميًّا؛ فيُعامل معاملةَ الماضي، كقوله تعالى: ﴿إِنِّي لَيَحۡزُنُنِيٓ أَن تَذۡهَبُواْ بِهِۦ﴾ [يوسف: 13]؛ لأنَّه بذهابِهم به سيقعُ الحزنُ في قلبِه على فِراقِه بذكره يوسفَ عليه السلام، ووقع التَّعليلُ لهذا المعنى في قوله تعالى: ﴿لِّكَيۡلَا تَحۡزَنُواْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمۡ﴾ [آل عمران: 153]، فهو - وإن جاءَ فيما يُستقبلُ - لكنَّه محمولٌ على ما مضى.

(1) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، وابن دريد، جمهرة اللغة، وابن فارس، مجمل اللغة، والراغب، المفردات، والزبيدي، تاج العروس، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (حزن).

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

أثنى اللّه على المنفقين أموالَهم في سبيل اللّه: في الجهاد وأنواع الخير، بما لهم من الأجر المادّيّ، والمعنويّ بنفي الخوف عليهم فيما يستقبلونه من أمر الآخرة، والحزن على شيء فاتهم في هذه الدنيا، وشرطت في قبول الإنفاق أن يخلو من إتباعِ ما أنفقوا من الخيرات منًّا على مَن أعطَوه، ومِنْ أذىً بقول أو فِعْلٍ يشعره بالتفضُّل عليه، فاجتمع فيها مدحٌ وثناء على المنفقين، وشرطٌ في قبول صَدَقاتِهم، وبيانُ جزائهم، ثمَّ جرتِ الآيةُ التَّالية مَجرى القاعدة، بأنْ: كلامٌ طيب يُرَدُّ به السائل، وعفوٌ عما بَدَر منه مِن إلحاحٍ في السؤال، خير من صدقة يتبعها من المتصدق أذى وإساءة؛ وذلك للإجابة عمَّا قد ينقدحُ في ذهْنِ بعضِ المخاطَبين عن حال من يُتبع صدَقَتَه منًّا وأذًى؟

وخُتمت بأنَّ اللّه غنيٌّ عن صدقات العباد، حليمٌ لا يعاجلهم بالعقوبة؛ لتربية النَّفس بما يُفيضه لفظ الجلالة، واختير اسم اللّه الغني؛ ليتحلَّى النَّاس به، ويعلموا أنَّه سبحانه عن صدقاتهم غنيٌّ، واسمُ اللّه الحليم؛ ليعلم النَّاس أنَّه بهم حليم؛ وإنْ بخِلوا بأموالِهم.

❁ الإيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

بلاغة الفصل في الآية:

وجه الفصل بيان كيفيّة الإنفاق في سبيل الله

قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ﴾ جملة مبتدأة جيء بها لبيان كيفية الإنفاق الذي بين فضله بالأجر الجزيل في جزائه وثوابه؛ ولذا ترك العاطف[1]. ولذلك " أتى به غير معطوف لأنه في معنى التفسير للأول فعلى هذا يكون خبر مبتدإ مقدر، أي: هم الذين ينفقون أموالهم"[2].

وجه الفصل أن تكون الآية كلها وصفاً للإنفاق في سبيل الله

ويجوز أن تكون الآية كلها وصفاً للإنفاق في سبيل اللّه؛ وبيان ذلك أن حق المنفق في سبيل اللّه أن تطيب به نفسه، وأن لا تتعقبه بالمن وأن لا تشفق من فقر تناله من بعد، بل تثق بكفاية اللّه - ﷻ -،

(1) الراغب، تفسير الراغب: 1/552.

(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/319.

ولا يحزنون إن يناله فقر، وبَيَّنَ تعالى أن ما تقدم ذكره من مجازاة واحد بسبع مائة هو لمن هذا وصفه[1].

فائدةُ تكرار قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾:

أعادتِ الآيةُ جملةَ: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾؛ "إظهارًا للاهتمام بهذه الصلة"[2]. وللانتقال من الثَّناء على المنفقين في سياق التَّمثيل، إلى الثَّناء عليهم في سياق التَّشريع، فكان التَّمثيل توطئةً للتَّشريع؛ فإنْ علِمَ المنفِقُ أنَّه سينالُ ثناءً عظيمًا وأجرًا جزيلًا بسبب إنفاقِه في سبيل الله؛ فإنَّه سيتطلَّع إلى الاستزادة والاستكثار، وإذا ما طَمِحَ، وطَمِعَ في الأجر والثَّواب؛ بُيِّنَ له شرطُ ذلك وتوابعُه، فأتى بالغاية المرجوَّة، وهذا أرجى في العملِ الجادّ.

بـيـانُ الإعـادة إظهار الاهتمام، بـالانـتـقـال من الـثَّـنـاء على المنفقين في سياق الـتَّـمـثـيـل، إلى الثَّناء عليهم في سياق التَّشريع

نوعُ العَطْفِ بحَرْفِ التَّراخي:

عُطِفَ قولُهُ: ﴿ثُمَّ لَا يُتۡبِعُونَ﴾ بحرفِ التَّراخي مع أنَّ الظَّاهِرَ أَنْ يُعْطَفَ بِالْوَاوِ؛ لِإِظْهَارِ التَّفَاوُتِ بَيْنَ أنواعِ الصَّدقات، فتكون ثمَّ للتَّراخي الرُّتْبي لا للزَّمانيّ، رفعًا لِرُتْبَةِ تَرْكِ المَنِّ والْأَذَى عَلَى رُتْبَةِ الصَّدَقَةِ المقترنةِ بالمنِّ والأذى؛ لِأَنَّ الْعَطَاءَ قَدْ يَصْدُرُ عَنْ كَرَمِ النَّفْسِ وَحُبِّ الْمَحْمَدَةِ، فَلِلنُّفُوسِ حَظٌّ فِيهِ مَعَ حَظِّ الْمُعْطَى، بِخِلَافِ تَرْكِ المنِّ وَالْأَذَى؛ فَلَا حَظَّ فِيهِ لنَفس الْمُعْطِي، فإنّ الْأَكْثَر يميلون إِلَى التبجّح والتَّطاول على الْمُعْطى؛ لذلك أتى بحرف ﴿ثُمَّ﴾ المفيدِ للتَّراخي الرُّتْبي؛ إذِ الإنفاقُ في سبيلِ الله تعالى معَ تركِ المَنِّ والأذى مما يعُزُّ حصولُه، كأنَّه قال: أنفقْ، ثمَّ اثبُتْ على تركِ المنِّ والأذى؛ لتنالَ الأجرَ العظيم[3].

وجـه الـعـطـف بـ (ثـم) بـيـانُ الـتَّـفـاوُتِ بَـيْـنَ أنواعِ الصَّدقاتِ، وتـعـيـينُ شـرْطِ المقبولِ منها

"إنه سبحانه وتعالى عطف بـ ﴿ثُمَّ﴾ في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَا

(1) القونوي وابن التمجيد، حاشيتان على البيضاوي: 5/428.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/42.

(3) الزمخشري، الكشاف: 1/311، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/42.

يُتۡبِعُونَ مَآ أَنفَقُواْ مَنًّا وَلَآ أَذًى﴾ فلماذا كان العطف بـ ﴿ثُمَّ﴾ دون الفاء؟ فهل مقتضى هذا أنه يسوغ المن والأذى عند العطاء، ولا يسوغ بعده بفترة من الزمان؟ والجواب عن ذلك أن التعبير بـ ﴿ثُمَّ﴾ أفاد النفي المطلق على عدم إتِّباع الإنفاق بالمنّ والأذى في زمن قريب أو بعيد؛ لأن المنفق في غالب الأحوال يكون عند إنفاقه في حال حماسية نفسية تدفعه إلى الإنفاق، فما يفكر في مَنٍّ ولا أذىً وقته، وإن خطر له ذلك فقد يمنعه من الإعطاء، إنما يكون التفكير في المَن أو الأذى بعد ذهاب فورة الخير في النفس. فإذا كان الله سبحانه قد صدَّر النفي بـ ﴿ثُمَّ﴾ فليحثَّ المنفقَ على الاستمرار على نزعة الخير، ولا ينكص على عقبيه، فيفسد نيته بأذى يؤذي به من أجرى الخير على يديه، أو من يمن به على من أعطاه"[1].

أفاد التعبير بـ (ثُمَّ) النفي المطلق على عدم إتِّبَاعِ الإنفاق بالمنِّ والأذى في زمن قريب أو بعيد

قال ابن عرفة: "عطفه بـ ﴿ثُمَّ﴾ إما لبعد ما بين المنزلتين أو للمهلة حقيقة ويكون فيه إشارة إلى أنهم يمنون بنفقة طال أمدها، وداموا عليها؛ فأحرى أنْ لا يَمُنُّوا بنفس الإنفاق[2].

فائدَةُ أسلوبِ الشَّرطِ بحرفِ التَّراخي الرُّتْبيّ:

الأساليب القرآنية المفيدة لأنواعٍ من المعاني تتوزَّعُ القرآنَ كالدُّرِّ المنثورِ بعناية فائقةٍ؛ للفتِ الأنظار لمعانٍ يغفل عنها النَّاسُ عادةً، وهي جوهرُ المطلوبِ، وأساسُ المقصود، ومن تلك الأساليب أسلوبُ الشَّرط بحرفِ التَّراخي الرُّتْبي، كهذه الآية: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتۡبِعُونَ مَآ أَنفَقُواْ مَنًّا وَلَآ أَذًى لَّهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٢٦٢﴾، فإنَّ شرطَ قَبولِ النَّفقةِ هو خُلُوُّها من المنِّ والأذى، وقد أتى لهذه الآية نظائر في القرآن الكريم، من مثل قوله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ

أسلوب الشرط بـ (ثم) أوقعُ في النَّفسِ، وأدعى للقَبُول؛ لتقريرِه المطلوبَ بالإخبارِ عمَّا يجبُ أنْ يكونَ عليه الأمرُ

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 2/977.

(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/319.

﴿فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ٦٥﴾ [النساء: 65]، فإنَّ شرطَ القبول بحكم رسول الله ﷺ هو خلوُّ النَّفس من الحَرَج، والتَّسليمُ له، وقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ٣٠﴾ [فصلت: 30]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ١٣﴾ [الأحقاف: 13]، فإنَّ الاكتفاءَ بالقولِ دونَ الاستقامةِ عليه لا يحقِّقُ شرطَ الإيمانِ الشَّرعيِّ، وغيرُ ذلك من الآياتِ الدَّالة على أنَّ تتميمَ الأحكامِ بِشُروطِها يكونُ بحرفِ التَّراخي الرُّتبي، وفائدةُ هذا الأسلوب: أنَّه أوقعُ في النَّفسِ من أساليبِ الشَّرطِ المعهودَة، وأدعى في القَبُول، حيث إنَّه يقرِّر المطلوبَ بالإخبارِ عمَّا يجبُ أنْ يكونَ عليه الأمرُ، فهو يُخبر عن أمرٍ واقعيّ، لا تصوّريّ، وهو ما يجعل الإذعانَ للمطلوب أمكنَ في ذهنِ المُخاطَب. قال القاسمي: "اختاروا في أكثر الأحوال تكرار تلك المسائل بعبارة جديدة وأسلوب غريب ليكون أوقع في النفس وألذّ في الأذهان دون التكرار بلفظ واحد"[1].

سِرُّ العدول عنِ الإنشاءِ إلى الإخبار:

الاكْتِفاءُ بالإشارَةِ دون العبارةِ، دَيْدَنُ العمَّال في سبيل الله

ممَّا يقتضيه مقامُ بيان شروطِ قبول النَّفقة عند الله تعالى، أن تُذكر بأسلوب الأمر الإنشائيّ؛ إذِ السِّياقُ سياقٌ تشريعيّ، لكنَّ النَّظم القرآنيَّ عَدَلَ عنِ الأمر المباشر؛ فلم يقُل: (ولا تُتبعوا نفقاتكم منًّا ولا أذًى)، إلى أسلوب الإخبارِ على سبيل المدح والثَّناء، ذلك أنَّ مِهمازَ المُنفقين أموالَهم في سبيل الله هو الإخبارُ بالثَّناء الجميل، لا الأمرُ بالنَّظم الجزيل، إذْ تغْمرُهُم روحُ الإشارةِ دون ظاهرِ العبارة، ويكفي المنفقَ إعلامُه بالمراد؛ ليتحقَّق مقصودُ الخطاب.

فائدةُ التَّعبير بصيغةِ المضارع:

بيانُ شرطِ قبول الصَّدقات في المستقبل

آثر النَّظم الكريمُ صيغةَ المضارعِ على غيرها، فقال: ﴿ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُواْ مَنًّا وَلَآ أَذًى﴾، ولم يقل: (ثمَّ لم يُتبعوا ما أنفقوا منًّا ولا أذًى)؛ للدّلالة على شرطِ قبول الصَّدقات، هو بالاستمرار على

(1) القاسمي، محاسن التأويل: 1/176.

الحفاظِ عليها ممَّا يُفسِدُها، فالمنفقُ على خطرٍ عظيم قد يتطرَّقُ في أيِّ لحظة ما يُفسِدُ عليه صدقته، فكانت صيغةُ المضارع كاشفةً عنِ المطلوب، وهذا من التَّحذير الضمنيِّ في القرآن الكريم، فبدل أن يُقال: فليحذرِ المنفقون من المنِّ والأذى، جاء بصيغة المضارع؛ ليقرِّر المطلوب بإيثار صيغةٍ على أخرى.

بلاغةُ الاستعارةِ المكنيَّة:

تصويرُ حالِ المنفق، وأثرُه في المحافَظةِ على حياةِ نفقتِه

في قولِه تعالى: ﴿ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُواْ مَنًّا وَلَآ أَذًى﴾ استعارةٌ بليغة، حيث شبَّه النَّفقات بالفريسةِ الضَّعيفة القابلةِ للسُّقوط، وشبَّه المنَّ والأذى بالتَّابع القويّ المفترِس، فالنَّفقةُ تسيرُ في سبيل الله تعالى، فإنْ لم يتبعْها ما يفترِسُها؛ وَصَلَتْ، وإن كانتِ الثَّانيةَ؛ فهي المنْقطِعَةُ عن سَبيلِ الله، وذلك تنبيهًا على أنَّ النَّفقات تحتاجُ إلى مزيدِ رعايةٍ وعنايةٍ، وأنَّها إنْ تُرِكَتْ - لتتبعَها أقوالُ المنِّ، وإشاراتُ الأذى - فإنَّها تضْعُفُ عنِ الاستمراريَّة والإثمار، فتقع فريسةً لأنياب مفترسِها، فلا ينتفع بنتاجِها في قابل الأيَّام؛ لتحصيلِه على منفعتها الدّنيويَّة العاجلة، وتناسيه منفعتها الأخرويّة الآجِلة، وهي استعارةٌ مكنيَّة، فائدَتُها تصويرُ حالِ النَّفقة، وأنَّها مرهونَةٌ بحذْقِ صاحبِها وخُلُقه.

مناسبَةُ فنِّ الاستعارةِ للتَّمثيل:

اتبعَ المثالَ بالاستعارة لبيان أنّ شرطَ مضاعفة النفقة المعاملة كالزَّرع

لَمَّا نبَّه في الآية السَّابقة على مثالٍ مختصٍّ بالزِّراعة؛ أتبعه باستعارةٍ تبيِّن أنَّ النَّفقة كي تتضاعف، يجبُ أنْ تُعامَلَ معاملةَ الزَّرع، لا معاملةَ الصَّيد، فإنَّ الصَّيدَ يستهلِكُ، والزَّرعَ يستبقي، ففيها تفضيلُ مطلقِ الزَّرع على مطلقِ الصَّيد، فحسُنتِ الاستعارةُ في ذاتِها وارتباطها، وهي إشارةٌ بيانيَّةٌ لطيفةٌ، تتَّسقُ مع صريح العَقْلِ، وفِقْهِ المعيشةِ، وطبيعةِ الحال.

إيثارُ الاسمِ المَوْصُول على الظَّاهر:

وجهُ التعبير بـ(ما) الدّلالةُ على قصدِ العموم وتعيينه

آثرَ النَّظْمُ الاسمَ الموصولَ على الظَّاهر، فقال: ﴿مَآ أَنفَقُواْ﴾، ولم يقل: (نفقاتهم)؛ للدّلالة على قصدِ العموم وتعيينه، لاسيَّما في كونه أتى بـ (ما) التي قوَّت معنى العموم، فيُدفعُ توهّمُ أنَّ المرادَ نفقةٌ من النَّفقات، ولبيانِ أنَّ النفقةَ مهما كانتْ صغيرةً أو كبيرةً؛ فإنَّها تتأثَّر بالمنِّ والأذى.

السرُّ في تكرار (لا):

تكرار (لا) إشارة إلى السَّلب الكلّي للأذى، توكيدًا للنَّفي

كرَّر اللّه سبحانه وتعالى النفي بـ (لا)، في قوله: ﴿ثُمَّ لَا يُتۡبِعُونَ مَآ أَنفَقُواْ مَنًّا وَلَآ أَذًى﴾؛ للإشَارَة إلَى السَّلب الكلّي بملاحظة النفي أولًا ثم العطف ثانيًا[1]، و" لتأكيد النفي، بألا يصدر عنهم أي نوع من أنواع الأذى، فلا يكون مَنٌّ، ولا شبهةُ منٍّ، ولا أذى، سواء أكان أذى عن قرب أو بعد؛ حتى لقد قال بعض الصالحين: (لئن ظننت أن سلامك يثقل على من أنفقت عليه تريد وجه اللّه فلا تسلم عليه)"[2]. قال العمادي: "وتوسيطُ كلمة لا للدَلالة على شمول النفي لإتباع كل واحدٍ منهما، وثم لإظهار علوِّ رتبة المعطوف"[3].

نُكتةُ اقتران (المنِّ) بـ (الأذى):

وجه الاقتران الجمع بين الخصوص والعموم ليشمل كلَّ ما قد يخطر في الذِّهن ممَّا قد يؤذي المتصدَّق عليه

قرنت جملةُ ﴿ثُمَّ لَا يُتۡبِعُونَ مَآ أَنفَقُواْ مَنًّا وَلَآ أَذًى﴾ (المنَّ) بـ (الأذى)، ولم تكتَفِ بأحدهما عنِ الآخر؛ لأنَّ (المنَّ) نصٌّ في الأقوال الصَّريحة؛ فله دلالة الخصوص، و (الأذى) لفظٌ عامٌّ يُراد منه كلُّ ما يُؤذي المُتصدَّق عليه، من قولٍ، أو فعلٍ، أو إشارةٍ؛ فله دلالة العموم، والجمع بين الدّلالتين يشمل كلَّ ما قد يخطر في الذِّهن ممَّا قد يؤذي المتصدَّق عليه. قال ابن عرفة: "وتقدم لنا سؤال وهو

(1) القونوي وابن التمجيد، حاشيتان على البيضاوي: 5/428.
(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 2/977.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/258.

أنه لا يلزم من نفي الأخص نفي الأعم بل العكس، فالمنّ أعم من الأذى فإذا لم يمنّوا فأحرى أن لا يسبّوا عليها. وأجيب بأن الإنسان قد يشكو بإعطائه النفقة لغيره ويذم معه ولا يمن عليه لأنه إذا رآه يستحيي منه فلا يمن عليه، فقال: المن على المعطي يكون بمحضره وفي غيبته. قال: وإنما عادتهم يجيبون بأن سبب المن أخف من سبب الأذى، فإنهم اعتبروا الفاعل ونحن نعتبر المفعول. فنقول: سبب المن مجرد بذل المال للفقير فقط، وأما الأذية والتشكي والسب فما يصدر إلا عن موجب وهو إذاية المعطي للفاعل ونحو ذلك. فلا يلزم من نفي المنّ نفي الأذى"[1].

تقديمُ (المنِّ) وفائدةُ ذكرِه:

قُدِّمَ المنِّ؛ لكثرةِ وقوعِه من المتصدِّق، وتحذيرًا من الوقوع فيما يكثُر بين النَّاس

لفظُ الأذى أعمُّ من المنِّ، فهو "يشْمَل المنَّ وغيرَه، ونَصَّ على المنِّ، وقُدِّم؛ لكثرةِ وقوعِه من المتَصدِّق"[2]؛ وتحذيرًا من الوقوع فيما يكثُر بين النَّاس، ويُمحِقُ الأجرَ عنِ النَّاس، ذلك أنَّ المتصدِّق يتساهل في المنِّ ما لا يتساهل في الأذى؛ لأنَّه يقع موقعَ التَّسرية عنِ النَّفس الشَّحيحة، ويخفِّفُ من ندَم الإنفاق بعد وقوعه، فيَسْتَعِرُ فؤادُه بما لا منتهى من ورائه؛ إذِ المالُ يَهْلَك، والكلامُ يُهلِك.

علّة تنكير ﴿مَنًّا﴾ و﴿أَذًى﴾:

وجه التنكير تقليل المنّ، وتحقير الأذى

وتنكير المن والأذى للتقليل والتحقير أي: لا يتبعون مَنًّا قليلًا ولا أذى حقيرًا فضلًا عن كثير وعظيم[3].

فائدةُ تأكيدِ الخبرِ بتقديم ما حقُّه التأخير:

في قوله تعالى: ﴿لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ تقديمُ ما حقُّه التَّأخير، وفي ذلك فائدةُ توكيد الخبر، وتشريفه ورعايةٌ لحالهم،

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/320.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 2/659.
(3) القونوي وابن التمجيد، حاشيتان على البيضاوي: 5/428.

وإكسابهم الطَّمأنينة، فإنَّ وقعَ ﴿لَّهُمْ﴾ الصَّادرة عن الله تعالى هي أعظم بُشرى[1].

بيان الإضافة في قولهم: ﴿لَّهُمْ أَجْرُهُمْ﴾:

أفادت الإضافة الاستحقاق أي أجرهم اللائق بهم

معنى اللام في ﴿لَّهُمْ﴾ الاستحقاق، وأفادت الإضافة في قوله تعالى: ﴿لَّهُمْ أَجْرُهُمْ﴾ الاستحقاق أي أجرهم اللائق بهم فواحد يقل أجره وواحد يكثر وآخر في مادة التوسط بحسب عمله ونفقته[2]، قال أبو زهرة: "وقال سبحانه: ﴿لَّهُمْ﴾، ولم يقُلْ مثلا: (أعطيهم) - ولكلام الله تعالى المثل الأعلى - للإشارة إلى أنه كان لهم بنياتهم، واستحقوه باحتسابهم، وليعلمهم كيف يكون العطاء من غير أجر"[3].

توكيدُ الجملةِ بالإخبارِ بالاسميَّة:

توكيد الجملة دليلٌ ثبات الأجر لهم

جاء الخبرُ في قوله تعالى: ﴿لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ جملةً اسميَّة، مفيدًا التَّوكيد، فهو أجرٌ ثابت لهم؛ إن لم يُبطلوا صدقاتهم بالمنِّ والأذى.

اقترانُ الأجر الماديِّ بالأجر المعنويِّ:

أفاد الاقتران تأكيد الإنفاق، وتشريف المنفقين

أفاد قولُه تعالى: ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ مزيدَ تشريف للمنفقين، بعد ذكر الأجر الماديّ، فإنَّ الأجر عندما يكون عند الله تعالى يكون أجرًا مضاعفًا، فهو أجرٌ في ذاته، وكونه عند الله أجرٌ فوق أجرٍ. قال العمادي: وفي " تقييدِ الأجر بقوله عِندَ رَبِّهِمْ من التأكيد والتشريفِ ما لا يخفى"[4].

نكتة تخلية الخبر من الفاء:

وتخليةُ الخبر ﴿لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ "عن الفاء المفيدة لسببيةِ

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/258.
(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/320.
(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 2/976.
(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/258.

ما قبلَها لما بعدَها للإيذانِ بأن ترتّبَ الأجر على ما ذُكر من الإنفاق وتركَ إتباعِ المن والأذى أمرٌ بَيِّنٌ لا يحتاجُ إلى التَّصريحِ بالسببية، وأما إبهام أنهم أهلٌ لذلك وإن لم يفعلوا فكيف بهم إذا فعلوا؛ فيأباه مقامُ الترغيب في الفعل والحث عليه"[1].

الاستغناء عن الفاء للإيذانِ بأن ترتبَ الأجر، وتركَ إتباعِ المنّ والأذى أمرٌ بيّن لا يحتاجُ إلى التَّصريحِ بالسببية

بيان المتشابه اللفظي:

جرد الخبر هنا عن الفاء فقال: ﴿لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ وقرَنَهُ بالفاء في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [البقرة: 274] فإن الفاء الداخلة على خبر المبتدأ الموصول أو الموصوف تُفهم معنى الشرط والجزاء وأنّه مستحقٌّ بما تضمَّنه المبتدأ من الصلة أو الصفة، فلما كان هنا يقتضي بيان حصْرِ المستحقّ للجزاء دون غيره جرَّد الخبر عن الفاء؛ فإنَّ المعنى أنَّ الذي يُنفق ماله لله، ولا يمنّ ولا يؤذي هو الذي يستحق الأجر المذكور لا الذي ينفق لغير الله، ويمنّ ويؤذي بنفقته، فليس المقام مقام شرط وجزاء، بل مقام بيان للمستحق دون غيره.

ليس المقام هنا مقام شرط وجزاء، بل مقام بيان للمستحقّ فلم يأتِ بالفاء

وفي آية البقرة الأخرى ذكر الإنفاق بالليل والنهار سرًّا وعلانية، فذكر عموم الأوقات، وعموم الأحوال فأتى بالفاء في الخبر ليدل على أن الإنفاق في أي وقت وجد من ليل أو نهار وعلى أي حالة وجد من سر وعلانية، فإنه سبب الجزاء على كل حال؛ فليبادر إليه العبد ولا ينتظر به غير وقته وحاله ولا يؤخر نفقة الليل إذا حضر إلى النهار، ولا نفقة النهار إلى الليل، ولا ينتظر بنفقة العلانية وقت السر، ولا بنفقة السر وقت العلانية، فإن نفقته في أي وقت وعلى أي حال وجدت سبب لأجره وثوابه[2].

وأتى بالفاء في الخبر في آية [البقرة 274] ليدل على الإنفاق في عموم الأوقات، والأحوال؛ فإنه سبب الجزاء على كل حال فليبادر إليه العبد

لما كان المراد هنا إنفاقًا خاصًا على وجه شبيه بحسنة موصوفة

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/258.

(2) ابن القيم، التفسير القيم: ص: 160.

وجه دخول الفاء تحقيق الارتباط من عدمه

بهذه الصفة وأكدت خصوصية سلامته من المن والأذى؛ كان ترتيب الأجر عليه كالمعلوم بالبديهة وكالمستفاد من اللفظ فلم يحتج إلى ما يحقق الارتباط. ولما قصد عند قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُم بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ فَلَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٢٧٤﴾ [البقرة: 274] الإخبار بأن مطلق الإنفاق في سبيل الله يلزمه الأجر قلّ أو كثر دخلت الفاء تحقيقًا للارتباط[1].

إيثارُ عنوانِ الرُّبوبيّة في الذِّكر:

إيثارُ الربوبيّة لمناسبته سياق التنمية، والمضاعفة

لَمَّا كان السِّياقُ مختصًّا بالحديثِ عن تنميةِ الحبَّة ومضاعفتها؛ ناسَبَ ذلك ذكرُ الرُّبوبيّة؛ لاختصاصِها بمعاني الخلقِ والإيجادِ والتَّربية، وفيه إقناعُ المخاطَبِ بدلالة الألفاظ، كأنَّه قال: من ربَّى هؤلاء أربى لهم نفقاتهم.

ظاهرةُ تلازمِ نفيِ الخوفِ بنفي الحزن في القرآن الكريم:

في تلازم نفي الخوفِ بنفي الحزن حثٌّ على تدبُّر إحدى النِّعم التي لا تكون إلا للمؤمنين، وهي نعمةٌ عزيزة في ذاتها

اقترن نفيُ الخوف بنفي الحزن في القرآن الكريم، فيما يقرب من أربعةَ عشَرَ مَوْضِعًا، جاء جميعُها بذكر الخَوْف بالاسم الظَّاهر، وذكرِ الحزنِ بصيغة الفعل المضارع، في حقل مدح المؤمنين، سواءٌ في الدُّنيا أم في الآخرة، وهذه الظَّاهرة تسترعي انتباهَ القارئ، فهي تحثُّه على تدبُّر إحدى النِّعم التي لا تكون إلا للمؤمنين، وهي نعمةٌ عزيزة في ذاتها، نادرةٌ في حالها، بريقةٌ وضَّاءة في وجه طالبها، حديقةٌ غنَّاء في نفس صاحبِها، ولا يكادُ يسْلَمُ من غَصَّةِ الشُّعور بالخوف، واستحضار الحُزن أحدٌ من العالمين، وقدِ استعاذ ﷺ منهما، فقال: "اللَّهُمَّ، إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الهَمِّ وَالحَزَنِ"[2]، مخافةَ أن تصيباه، ومن تلك الآيات الواردة في القرآن الكريم في تلازم نفي الخَوْف بنفي الحزن:

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/320.
(2) صحيح البخاري، حديث رقم: (2893).

قوله تعالى: ﴿قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [البقرة: 38]، وقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [البقرة: 62]، وقوله: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾﴾ [البقرة: 112]، وقوله: ﴿فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾﴾ [آل عمران: 170]، وقوله: ﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۖ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [الأنعام: 48]، وقوله: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [يونس: 62]، وقوله: ﴿يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾﴾ [الزخرف: 68].

سِرُّ تلازُمِ نفيِ الخَوْفِ بنفيِ الحُزْن:

إنَّ التَّخلُّص من الخَوْفِ بنفيِ الحُزْن على الدَّوام مجلَبَةٌ للسُّرور على الدَّوام

لَمَّا اجتمع الخوفُ والحُزْن على سلبِ الطَّمأنينة عن صاحبها، وورَّثا الجَزَعَ والاضطرابَ، كانا كفكَّيْ مفترسٍ كاسرٍ على رَقَبَة الفريسة، فإنْ تخلَّصَتِ الفريسةُ من فكٍّ لم تنجُ من الآخر، فكان نفيُهما من أعظمِ النِّعَم، ودفعُهما من أجلِّ المِنَن، فإنَّ التَّخلُّص منهما على الدَّوام مجلَبَةٌ للسُّرور على الدَّوام، وهذا لا يكون إلا بإذن المولى جلَّ في علاه، فكان الوعد بذلك ترغيبًا معنويًّا، بعد ذكر الأجر الماديّ.

علّة تخصيص النفي بالخوف دون الخائفين:

الخوف أمر نفسي، وقد يكون من غير مخوِّف

وقد نفَى سبحانه وتعالى الخوف، ولم يقل: (لَا يخافون)؛ لأن الخوف أمر نفسي، وقد يكون من غير مخوِّف، وتكون الخشية والخوف من شأن المؤمن شعورًا بتحمل التبعة؛ ولذا نفَى سبحانه الخوف أي الأمر المخوِّف، أي لَا ينزل بهم أمر من شأنه أن يخافوه،

ولم ينف الخشية النفسية في ذاتها؛ إذ الحال النفسية من قوة الإحساس، أما الحزن وهو الهمّ الذي يصيب القلب فهو منفي في كل صورة ولا يصح أن يكون حالا من حالات الإيمان[1].

سِرُّ التَّعبير بالاسم الظَّاهر عن الخوف وبالمضارعِ عنِ الحزنِ:

تعلّق الخوف بالمستقبل يقتضي فعل التجدّد، وتعلّق الحزن بالماضي يقتضي فعل الثبوت

جاء التَّعبير عن نفيِ الخوفِ بالاسم الظَّاهر، فلم يَقُل: (ولا هم يخافون)، كما قال: ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾، وهذا في القرآنِ كلِّه، لم يخرج عن ذلك استثناءٌ واحد، ذلك أنَّ الخَوْفَ، إنْ دَخَل جَوْفَ الإنسانِ؛ تمكَّنَ منه، وأخَذَ منه سكينتَه وطمأنينتَه، وشلَّ حركتَه، ولم يفارقْه ما لم تُفارِق أسبابُه ودواعيه فكرَ الإنسان، فهو دائِمٌ ثابتٌ لا ينقلبُ عن قلبِ الخائف، بخلاف الحُزنِ؛ فإنَّه يغيب، ويحضر، فهو في حالةِ تجدُّدٍ على قلبِ المحزُونِ، بحسب تجدُّد ذكريات الماضي، فكان نفي تجدُّد الحزن بليغًا، كأنَّه قال: لن يحزنوا، فأفاد في معناه ما أفاده التَّعبيرُ بالاسم، فالتَّعبيرُ عن نفيِ كلِّ شعورٍ مُناسِبٌ لمعناه وواقعِه. قال ابن عرفة: "الخوف يتعلّق بالمستقبل فالمناسب فيه أن يكون الفعل المقتضي للتجدّد، والحزن يتعلق بالماضي فالمناسب أن يكون بالاسم المقتضي للثبوت والتحقيق"[2].

وجهُ ترتُّبُ الأجْرِ المعنويّ على المادِّي:

ترتُّبُ الأجْرِ المعنويّ على المادِّي زيادةٌ في الإكرام، وتعظيمٌ لشأن أهلِه

بعد أن ذكرتِ الآيةُ ما للمنفقين في سبيل الله تعالى من الأجر الماديّ إثباتًا؛ ذكرتِ الأجرَ المعنويَّ نفيًا، ورتَّبتِ الأجرَ على الأجرِ؛ زيادةً في الإكرام، وتعظيمًا لشأن أهلِ الإكرام، فكما أنَّ الانتفاع بالحبَّة يكون مادّيًا؛ فإنَّ النَّظرَ إليها وترقُّبَ نِتاجِها هو أجرٌ معنويّ، وهذا من محاسن الوعد بالأجر بعد التّمثيل له، فإنْ لم يفهمِ المخاطَبُ مضمون التَّمثيل؛ فَهِمَ صريح العبارة.

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 2/976.

(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/320.

نكتة النَّفيُ المؤَكَّدُ في الحُزْن دُونَ الخَوْف:

أُكِّد نفيُ الحُزنِ بضمير الفصْل؛ لأنَّ ماضي الدُّنيا المليءَ بالأحزان يُهدِّدُ القلوبَ، وممَّا لا يُتصوَّر ذهابُه بالكليَّة، فوقع نفيُه موقعَ الشَّكِّ، فكان تأكيدُه مناسبًا ولائقًا بالمقام، وليس كذلك أمرُ الخَوْف، فإنَّه متعلِّقٌ بالزَّمن المستقبل، فهو وعدٌ ضمنيٌّ أنْ لا يقعَ للإنسانِ ما يُخيفُه، فلم يحتجْ إلى النَّفي كما هو الأمرُ في نفيِ الحُزْن.

وقع نفيُ الأحزان موقعَ الشَّكِّ؛ لأنَّ ماضي الدُّنيا المليءَ بالأحزان لا يُتصوَّر ذهابُه بالكليَّة فكان تأكيدُه مناسبًا للمقام

العَلاقَةُ بين الآيتينِ تمهيدٌ وتقعِيد:

مهَّدَتِ الآيةُ السَّابقة إلى المعنى الواردِ في قوله تعالى: ﴿۞قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى﴾؛ إذْ أصَّلت لقاعدةٍ في النَّفقة، وهي: تركُ الصَّدَقة خيرٌ منها عند اقترانِها بالمنِّ والأذى، فكانتِ الآيةُ الأولى تمهيدًا، والثّانيةُ تقعيدًا. فـ" الجملة مستأنفةٌ مقرِّرة لاعتبار ترك إتباعِ المن والأذى"[1].

أصَّلت الآيةُ لقاعدةٍ في النَّفقة، وهي تركُ الصَّدَقة خيرٌ منها عند اقترانِها بالمنِّ والأذى

بديع فن التمثيل:

في قوله تعالى: ﴿۞قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى﴾ فنُّ التمثيل؛ لأنه قولٌ خرج مخرج المثل السائر الذي يستدعيه الناس في حديثهم للحثّ على عدم المنِّ[2].

خرجت الآيةُ مخرجَ المثل للحثّ على عدم المنِّ

بلاغةُ الابتداءِ بالنَّكرةِ الموصُوفةِ:

قال العمادي: "صحّ الابتداءُ بالنكرة في الأول لاختصاصها بالوصف وفي الثاني بالعطف أو بالصفة المقدرة، أي: ومغفرة كائنةٌ من المسؤول"[3].

ابتدأَتِ الآيةُ بـ: ﴿۞قَوْلٌ﴾، وهو نكرةٌ، اكتَسَبَ نَوْعَ تعريفٍ بالصِّفةِ: ﴿مَّعْرُوفٌ﴾، فجَمَعَ بين معنَيَيْن مختلِفَيْن، وهما النَّكارة

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/258.
(2) الإندونيسي، الشامل في بلاغة القرآن: 1/134.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/258.

الابتداء بالنكرة لتوجيه الأنظارِ إلى ضـرورة العناية بصفة القول، كالعناية بالصَّدَقة

والتَّعريف: أمَّا النَّكارةُ؛ فذاتيَّةٌ، وأمَّا التَّعريف؛ فبالصِّفة، فتعريفُ القولِ متوقِّفٌ على استحضار صفته، وبدونها فلا معنى له، وعليه؛ فإنَّ المقصودَ الصِّفةُ لا ذاتُ القول، وما القولُ إلا وسيلةٌ موصِلة لصفته، غايتُها إرضاءُ السَّائل، وتطريةُ نفسِه عند الامتناعِ عن العطاء، والقول المُجرَّد لا يُرضي سائلًا، ولا يُسمع صُمًّا، وتظهرُ بلاغةُ هذا الأسلوب في توجيه الأنظار إلى ضرورة العنايةِ بصفة القولِ، كالعناية بالصَّدَقة.

فائدةُ تنكيرِ القولِ:

وجه تنكير القول التقليلُ

أفاد تنكيرُ ﴿*قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾ التَّقْليل، أيْ: أَقَلُّ قَوْلٍ مَعْرُوفٍ[1] ﴿خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى﴾، ولو عرَّفه، فقال: القول المعروفُ؛ لفُهِم أنَّ المطلوبَ هو نوعٌ من القول، وفي ذلك كُلفةٌ، فنكَّر للتَّخفيف من وطأة الاعتذار، والاكتفاء بأيِّ قولٍ يراه النَّاسُ معروفًا.

أثرُ المفاضلةِ في استنباطِ المعاني:

أبرزتِ المفاضلَةُ بين القولِ المعروف والصَّدقة المتبوعةِ بالأذى تشريفَ القول وتعظيمَ حالِه، فإنَّ الكلامَ لا يفضُلُ المالَ، لكنْ لمَّا اتَّصف بالمعروف، وفُضِّل على الصَّدقة المتبوعة بالأذى؛ اكتسب معنى التَّشريف، وهو مستفادٌ من السِّياق التَّقابليّ. ولذلك قُدِّمَ القولُ على الصدقة ههنا.

أبرزتِ المفاضلَةُ بين القولِ والصَّدقة المتبوعةِ بالأذى تشريفَ القول وتعظيمَ حالِه

اختصاصُ الأذى بالذِّكر دون المنِّ:

هو من باب التَّنبيه بالأدنى على الأعلى، إذِ المنُّ أشدُّ وقعًا من عموم الأذى

لسائلٍ أنْ يسألَ عن سرِّ اختصاصِ الأذى بالذِّكر دون المنِّ في هذه الآية، مع النَّصِّ عليهما سباقًا ولِحاقًا؟ وجواب ذلك يكْمُنُ في تدبُّر ما جاءَت عليه الآية، فقد أتَتْ مفصولةً استئنافًا بيانيًّا، فكأنَّ سائلًا سأَلَ: ما حالُ من يُتبع صدقتَه منًّا وأذًى، فكان الجواب: ﴿*قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى﴾، أيْ: إذا كان

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/47.

قولٌ معروفٌ خيرًا من صدقةٍ يتبعُها أذًى، فكيف بالصَّدقة التي يتبعُها منٌّ وأذًى؟ فهي من باب التَّنبيه بالأدنى على الأعلى، إذِ المنُّ أشدُّ وقعًا من عموم الأذى.

بَلاغَةُ الفاصِلَة:

الجمعُ بين التَّشريعِ والتَّربيةِ بتنزيلِ الفاصِلَة منزِلَةَ اختزالِ القاعِدَة

خُتمت الآيةُ بقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ﴾ لاختزال القاعدة الأفضلية بين القول المعروف والصَّدقة المتبوعة بالمنِّ والأذى، وهي جملةٌ مستقلَّةٌ بذاتها، ترجمتها: واعلموا أنَّ الله ﴿غَنِيٌّ﴾ عن صدقاتِكم، فيكفيكم قولٌ معروفٌ ومغفرة، ﴿حَلِيمٌ﴾ بكم؛ إنْ بَخِلْتُم بأموالِكم، فنُزِّلت الفاصلةُ منْزِلةَ اخْتِزالِ القاعِدَة، فجَمَعتْ بين التَّربية الرُّوحية بالأسماء الحسنى، والتَّشريع بالقاعدة المذكورة، وهذا من خصائص البلاغة القرآنيّة في كشفِها عن خصائص التَّشريع القرآنيّ الجامعِ بين الجانبِ الرُّوحيّ، والبُعد التَّشريعيّ.

جملة الفاصلة تذييلٌ لما قبلَها مشتمِلٌ على الوعد والوعيد مقرِّرٌ لاعتبار الخيرية بالنسبة إلى السائل قطعاً

وقوله: ﴿وَٱللَّهُ غَنِيٌّ﴾، أي: لا يُحوِجُ الفقراءَ إلى تحمل مؤنةِ المنِّ والأذى ويرزقُهم من جهةٍ أخرى. وقوله: ﴿حَلِيمٌ﴾، أي: لا يعاجل أصحابَ المن والأذى بالعقوبة لا أنهم لا يستحقونها بسببهما، والجملةُ تذييلٌ لما قبلَها مشتمِلٌ على الوعد والوعيد مقرِّرٌ لاعتبار الخيرية بالنسبة إلى السائل قطعًا[1].

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الخَوْف والخَشْية:

الخوفُ ذعرٌ[2] يصيب الإنسان بسبب توقُّع المكروه[3]، ويختصُّ الخوفُ بأنّه من شَيْءٍ مخوفٍ منه إجمالًا، بخلاف الخشية؛ فهي لأمرٍ مخشيٍّ منه عن علمٍ تفصيليّ، كما أنَّ الخاشي يستحضرُ

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/258.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (خوف).
(3) الراغب، المفردات: (خوف).

المخشيَّ منه، فالخشيةُ أعلى رتبةً من الخوف، كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْۗ﴾ [فاطر: 28]، وفي قوله تعالى: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمۡ عَنِ ٱلۡمَضَاجِعِ يَدۡعُونَ رَبَّهُمۡ خَوۡفٗا وَطَمَعٗا﴾ [السجدة: 16]، نجد أنَّ السياق يتحدث عن العُبَّاد، ودرجتهم دون درجة العلماء، وعلمهم دون علمهم؛ لذلك آثَرَ ذكْرَ لفظ الخوف دون الخشية، وقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسۡعَىٰ ۝٨ وَهُوَ يَخۡشَىٰ ۝٩﴾ [عبس: 8-9]، فذكر الخشية؛ لبيان استحضار ذلكم الصحابي خشيته من الله تعالى وقت سعيه للنبي ﷺ، وهو ما زاد من درجة عتاب النبيّ ﷺ في شأنه، وكذلك قوله تعالى: ﴿مَّنۡ خَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ بِٱلۡغَيۡبِ وَجَآءَ بِقَلۡبٖ مُّنِيبٍ ۝٣٣﴾ [ق: 33]، فإنَّ مدح أصحاب الجنَّة كان لبلوغهم مقامَ الإحسان والتقوى، وقوله تعالى: ﴿جَزَآؤُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَشِيَ رَبَّهُۥ ۝٨﴾ [البيّنة: 8]، فهو كذلك بيانٌ لأصحاب مقام الإحسان.

وأمَّا قوله تعالى: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوۡقِهِمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ۩ ۝٥٠﴾ [النحل: 50]، فإنَّه حديثٌ عن الملائكة، والملائكةُ لا تجري عليهم مقاماتُ عبادةِ المكلَّفين، والدَّليل: ﴿وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ۩ ۝٥٠﴾، فخوفُ الملائكة ليس كخوف البشر، وهذا لا يَنْفي التَّفاضلَ بَيْنَهم.

وقد اجتمع لفظا الخشية والخوف في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلۡحِسَابِ ۝٢١﴾ [الرعد: 21]، فالخشية هنا من الله تعالى التي هي خشيةُ المحسنين، وسببُ إيراد الخَوْف من سُوء الحساب هو المقابلة، فلا تستوي الخشية من الله تعالى مع الخوف من سوء الحساب؛ ليُقال: ويخشَوْن سُوءَ الحساب؛ لأنَّ ذلك يعني ضمنًا التَّسويةَ بين الله تعالى وسوءِ حسابه، وهذا غيرُ مُتصوَّر.

واجتمع اللفظان في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَسۡرِ بِعِبَادِي فَٱضۡرِبۡ لَهُمۡ طَرِيقٗا فِي ٱلۡبَحۡرِ يَبَسٗا لَّا تَخَٰفُ دَرَكٗا وَلَا تَخۡشَىٰ ۝٧٧﴾ [طه: 77]، فخوفُ موسى عليه السلام كان من دَرَكِ فرعونَ وجنودِه، والخشيةُ ما استحضرَه موسى عليه السلام من الغرَق في البحر، وهي تكشفُ عمَّا يجول في نفسه عليه السلام، وهذا يبيِّنُ لنا أنَّ الخوفَ كان محدَّدًا من دَرَك فرعون، بينما الخشيةُ كانت عامةً؛ لذلك حُذِفَ مفعولُها، كأنّه قال: لا تخافُ دَرَكًا، ولا تَخشَى غَرَقًا.

وأمّا قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَوۡلَٰدَكُمۡ خَشۡيَةَ إِمۡلَٰقٖۖ نَّحۡنُ نَرۡزُقُهُمۡ وَإِيَّاكُمۡۚ إِنَّ قَتۡلَهُمۡ كَانَ

خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴿٣١﴾﴾ [الإسراء: 31]؛ فالمقصود منه: لا تقتلوا أولادَكم، وأنتم تستحضرون الإملاقَ، وما ينشأ عنه من سُوءِ الحال، فإنَّ هذا الاستحضارَ مذمومٌ، ومنِ استحضر صفةَ اللّٰه الرزَّاق، لم يَعْبَأ بالإملاق وتوابِعه.

ومثله استحضارُ المؤمنِ الوقوعَ في الإثم: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ ٱلْعَنَتَ مِنكُمْۚ وَأَن تَصْبِرُواْ خَيْرٌ لَّكُمْۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٥﴾﴾ [النساء: 25]؛ لذا فقد نبَّه الراغبُ على ذلك بأنَّه لمن خافَ خوفًا اقتضاه معرفته بذلك من نفسه[1]، أي: لكثرة التَّفكير في الخوف من الوقوع في إثم الفاحشة، فله أن ينزل رتبة ويتزوَّج من مِلك اليمين المؤمنة؛ لدفع الإثم عن نفسه، وهذا ناشئ عن خشية اللّٰه تعالى.

الخَوْف والحُزْن:

يقعُ الخوفُ فيما يُستَقبَل من الزَّمان؛ بسبب ترقُّبِ مكروهٍ، بما يورِثُ قلقًا وضَجَرًا دائمًا لدى الخائِف، ممَّا يُنغِّص عليه حياته، ويُضيِّقُ عليه أنفاسَه، ويقعُ الحزنُ على ما مضى من الزَّمان، فالحزنُ ذكرياتٌ مجرورة، في القلبِ محفورةٌ، شأنُها إضعافُ الحزينِ، وإرهاقُه بالأنين، فهما شعوران يصدران عن القلب، أحدُهما يختصُّ بالماضي، والآخر بالمستقبل، ويتَّفقان في أثرهما الشَّاقّ في سلوك الإنسان وفكره.

(1) الراغب، المفردات: (خوف).

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ كَٱلَّذِي يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفۡوَانٍ عَلَيۡهِ تُرَابٞ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٞ فَتَرَكَهُۥ صَلۡدٗاۖ لَّا يَقۡدِرُونَ عَلَىٰ شَيۡءٖ مِّمَّا كَسَبُواْۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٢٦٤﴾ [البقرة: 264]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

تناسبَتِ الآية مع السَّابقة من خلال فنِّ الالتفات من الغَيْبة إلى الخطاب، ويظهر ذلك في أثر الالتفات في توجيه المخاطَب إلى المقصود من الكلام السَّابق، فيكون شبيهًا بالتَّفصيل بعد التوطئة، وبالبيان بعد التّمهيد، فإذا عَلِم المخاطَبُ شروطَ قَبُول النَّفقة؛ تهيَّأ لذلك، فوقع النَّهي المباشر موقعه النَّافع، بعد بيان شرطه بالأسلوب الماتع، وهو مناسبٌ للآيات السَّابقة المتحدِّثة عن الحبَّة المنبتة سبعَ سنابل، فإنَّه هناك ذكر الحبَّة، ولم يذكر الماءَ، وهنا عَكسَ، فذكر الماءَ، ولم يذكر بذرته؛ لبيان أنَّ المطلوب ابتداءً النِّيَّة الصّادقة، فإذا حسُنَتْ حسُن ما بعدها، وأنَّ الاعتمادَ التَّامَّ على الأسباب موغِلٌ في الفساد، وإنَّ إبطالَ القبول نزل من السَّماء إلى الأرض، بينما قبول الحبَّة كان بصعود إنباتها من الأرض إلى السَّماء: ﴿إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلۡعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرۡفَعُهُۥۚ﴾ [فاطر: 10].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تُبۡطِلُواْ﴾: الإبْطالُ: بطَلَ الشَّيءُ: فسَدَ، وزال بعد أن كان، والإبْطالُ: يُقال في إفْسَاد الشَّيْء وإزالَتِه، حَقًّا كَانَ ذَلِك الشَّيْء أَو باطِلاً، كما قال تعالى: ﴿وَبَطَلَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١١٨﴾ [الأعراف: 118]، وقيل: إنّما سُمّيَ البَطَلُ بطلًا؛ لأنَّه يُبْطل العظائمَ بسيْفه، فيُبَهْرِجها، ويُقال: الدِّماءُ تَبْطُل عِنْده، فَلَا يُدرك عِنْده ثأر، وأبطلتُ الشَّيءَ جعلتُه بَاطِلًا، وَسُمِّيَ الشَّيْطانُ بالْبَاطِل؛ لأنَّه لا حقيقةَ لأفعاله، وَكُلُّ شَيْءٍ منه فلا مَرْجُوعَ له، ولا مُعَوَّلَ عَلَيْهِ؛

فحُكمُه الفسَادُ والزَّوال[1]. فهذا هو أصلُ هذه الكلمة، فالإبطال هو الإزالةُ بعد الوجود، ثمَّ استُعمل في القرآن لما يُقابل الحقَّ، قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلۡبَٰطِلُ﴾ [الحج: 62]، وقال: ﴿لِيُحِقَّ ٱلۡحَقَّ وَيُبۡطِلَ ٱلۡبَٰطِلَ﴾ [الأنفال: 8]، وهو استعمالٌ مجازيٌّ باعتبار ما سيكون؛ لأنَّ شأْنَ الباطلِ إلى زوالٍ، فوصفُ القرآنِ الشرَّ والسُّوءَ والشِّركَ بالباطلِ؛ لحْظًا لما سيؤولُ إليه الأمر.

2) ﴿رِئَآءَ﴾: الرُّؤْيَةُ: إدراكُ المرئِيّ، واشتُقَّ منه رِئاء، فقيل: منازلُهم رِئَاءٌ، أي: متقابلة؛ لأنَّه يرى بعضُهم بعضًا[2]، فالرِّئَاءُ فِعَالٌ مِنْ رَأَى، وهو أَنْ يُكْثِرَ مِنْ إِظْهَارِ أَعْمَالِهِ الْحَسَنَةِ لِلنَّاسِ؛ فَصِيغَةُ الْفِعَالِ فِيهِ لِلْمُبَالَغَةِ وَالْكَثْرَةِ، وَأُولَى الْهَمْزَتَيْنِ أَصْلِيَّةٌ، وَالْأَخِيرَةُ بَعْدَ الْأَلِفِ الزَّائِدَةِ مُبْدَلَةٌ عَنِ الْيَاءِ، وَيُقَالُ: رِيَاءٌ عَلَى إِبْدَالِ الْهَمْزَةِ يَاءً بَعْدَ الْكَسْرَةِ[3]، ولمَّا كان الخفاءُ سرَّ القبول، وموطنُه القلب؛ كان الحرصُ على المُراءَاةِ دليلًا على تجرُّد المرائي في إظهار أعماله للنَّاس، فأراد بإظهار أعماله تحسينَ صورته، فارتَبَطَ هذا المعنى بهذا اللفظ في الاستعمال القرآنيّ، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۗ وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيۡطَٰنُ لَهُۥ قَرِينٗا فَسَآءَ قَرِينٗا ٣٨﴾ [النساء: 38]، وقال: ﴿إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمۡ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلٗا ١٤٢﴾ [النساء: 142]، وقال: ﴿ٱلَّذِينَ هُمۡ يُرَآءُونَ ٦ وَيَمۡنَعُونَ ٱلۡمَاعُونَ ٧﴾ [الماعون: 6-7]، فالرِّياء في الاستعمال القرآنيّ عبارةٌ عن أمرين متقابلين: الصُّورة الظّاهرة الجميلة، والباطن الخفيّ القبيح.

3) ﴿صَفۡوَانٍ﴾: الصَّفْوان[4]: أصل الصَّفَاءِ: خلوصُ الشيءِ من الشّوب وغيره، ومنه: الصَّفَا، للحجارة الصَّافِيَة، ويُقال للنَّاقة الكثيرة اللّبن، والنّخلة الكثيرة الحَمْل: الصَّفِيُّ والصَّفِيَّةُ، والصَّفْوَانُ: اسمُ جنسٍ؛ لذلك صحَّ عَوْدُ الضَّمير عليه في قوله: ﴿عَلَيۡهِ﴾[5]، والواحدةُ: صَفْوَانَةٌ، وَسُمِّيَتْ صَفْوَانَةً؛ لِأَنَّهَا تَصْفُو مِنَ الطِّينِ وَالرَّمْلِ، ويُطلق الصَّفاء

(1) الخليل، العين، وابن دريد، جمهرة اللغة، والأزهري، تهذيب اللغة، والراغب، المفردات، والزبيدي، تاج العروس، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (بطل).

(2) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، والراغب، المفردات: (رأى).

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/48.

(4) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (صفو).

(5) أبو البقاء، التبيان: 1/215.

على الخُلُوِّ، فقيل: أَصْفَتِ الدّجاجةُ؛ إذا انقطع بيضُها كأنَّها صَفَتْ منه، فالصَّفوان حَجَرٌ أمْلَس صافٍ من أيِّ شَائبة.

4) ﴿وَابِلٌ﴾: الوابل[1]: الوَبْلُ والْوَابِلُ: المطر الثّقيل القَطَّار، ولمراعاة الثّقل قيل للأمر الذي يُخاف ضرره: وَبَالٌ، قال تعالى: ﴿فَذَاقُواْ وَبَالَ أَمْرِهِمْ﴾ [التغابن: 5]، ويُقال: طعام وَبِيلٌ، وكلأٌ وَبِيلٌ، أي: يُخاف وبالُه، قال تعالى: ﴿فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا ١٦﴾ [المزمل: 16]، والوَبِيل والمَوْبِل: العَصا الضَّخْمة، والوابلة: رأسُ العَضُد في حُقّ الكَتف، وتسمية المطر الثَّقيل المتتابع بالوابل مأخوذ من هذا، فلغِلَظِ المطر وتتابعه من أعلى وشدَّة أثره على الأرض شُبِّه بالعصا الضَّخمة، فالمعنى الملحوظ في مشتّقات هذا اللفظ، الثِّقل والتَّتابع، وغالب أثره سلبيّ.

5) ﴿صَلْدًا﴾: الصَّلْد[2]: الحجر الصُّلب الأملس اليابس الشَّديد الذي لا يُنبت، ولا يُوري، ولا خير فيه، يُقال: صَلَدَ الزَّنْدُ: لا يُوري نارًا، ومنه قيل: رأس صَلْدٌ: لا ينبت شعرًا، وفرس صَلُودٌ: لا يعرَق، ويُقال: رجلٌ صَلْدٌ: بَخيلٌ جدًّا، فالصَّلادَةُ: هي ملاسةٌ وصلابة لا تقبل معها تعلُّقَ شيء.

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

نداء المخاطَبين بأجمل أوصافهم، وأرقِّ أسمائهم، النَّافعة في قبول الأعمال، والصَّالحة لتلقِّي الأوامر والنَّواهي؛ للتمهيد بالنَّهي عن إبطال الصَّدقات، بما شاع بين النَّاس وذاع، بتقبيح صورة ذلك للسَّامع الواعي، بصورةٍ تشبيهيةٍ قبيحة مكروهةٍ، وهي صورة المنافقِ المرائي، الذي يُخرج ماله ليراه الناسُ، فيُثنوا عليه، وهو لا يؤمن باللّه ولا يوقن باليوم الآخر، ثمَّ التَّمثيل لذلك المعنى المعقول، بصورة حسيَّة مشاهدة، كمَثَلِ حَجَر أملس عليه تراب، هَطَل عليه مطر غزير فأزاح عنه الترابَ، فتركه أملسَ لا شيء عليه، فكذلك هؤلاء المراؤون تضمحلُّ أعمالهم عند اللّه، ولا يجدون شيئًا من الثواب على ما أنفقوه؛ ليرسَخَ هذا التمثيلُ في الذّاكرة، ولا يتزحزح أثناءَ الغفلة عنِ المذاكرة؛ تقويةً للمجتمع في أصوله، وترسيخًا لمبدأ الوحدة الشُّعوريّة، فالمنُّ والأذى بعيدان عن طبيعة الإيمان، ولذلك ابتدأ

(1) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (وبل).

(2) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (صلد)، والسمين، الدر المصون: 2/588.

اللهُ الآية بخطاب المؤمنين، وختمها بالتّحذير من القوم الكافرين؛ إذ الله لا يوفِّق الكافرين لإصابة الحق في نفقاتهم وغيرها، فمن أشرقت بدايته بالفهم، لم تُظلم نهايته بالوهم.

❁ الإيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

بيانُ نداء ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾:

الإشعارُ بأهميَّة المُتحدَّثِ عنه

النِّداءُ بحرف (يا) الموضوع لنداء البعيد، والتَّعبير عن المنادى بالاسم الموصول، ومدحه بصلة الموصول، وهو وصف الإيمان في قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ﴾، يُشعِر بأهميَّة المتحدَّث عنه، وضرورة الانتباه لمضمونه. فافتتح الكلام بالنداء؛ لأن فيه إشعارًا بخبر مهمٍّ عظيم، فإن شأن الأخبار العظيمة التي تهول المخاطب أن يقدم قبلها ما يهيئ النَّفس لقبولها لتستأنس بها قبل أنْ تَفْجَأَهَا[1].

تصويرُ معنى التَّحذير بالنَّهي بعد النِّداء:

ترتيبُ النَّهي على النِّداء يُصوِّر معنى التّحذير، فكأنَّ الذين آمنوا قد صَعَدوا بإيمانهم وصدقاتهم إلى قمَّة جبلٍ، ووقفوا على شفير هاويته، فنُودُوا أنِ احذَرُوا من السُّقوطِ بقَطْع حَبْل صدَقاتِكم بالمنِّ والأذى.

ترتيبُ النَّهي على النِّداء يُصوِّر معنى تحذير المؤمنين، وتنبيههم

علَّة التَّحذير خبيئةٌ تحت لواء النَّهي بعد النِّداء، ولولا قابليَّةُ المتصدِّق للمنِّ والأذى؛ لما نُهي عن إبطال صدقاته، فالنَّهيُ محمولٌ على التَّنبيه والتَّحذير من أمرٍ لم يقع، فهو نهيٌ عن أمرٍ مستقبليّ؛ صيانةً لاحتمال الوقوع، واحترازًا من مغبَّة الإبطال.

النَّهي محمولٌ على التَّربية الاحترازيَّة

براعةُ الاستعارةِ المكنيَّة:

شُبِّه الإبطال بالقطع، والصَّدقات بالشَّيء المقطوع، والمنُّ والأذى

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/52.

بالسَّيْف، وحذف المُشبَّه به، وذَكَرَ المُشبَّه ولازمًا من لوازمه، وهو الباء - على أن تكون بمعنى: الاستعانة - على سبيل الاستعارة المكنيَّة، فكأنَّ المُبطلَ يقطع صدقته بسيف المنِّ والأذى، ويُقوّي ذلك أنَّ العربَ سمَّتِ البَطَلَ بطلًا؛ لأنَّه يُبْطل العظائمَ بسيْفه[1]، وبراعةُ الاستعارة مكنونةٌ في كون الصَّدقة نامية حيَّةً كالحبَّة النَّامية، فإذا ما قُطعت؛ ماتت.

في الاستعارةِ تصوير للمُبطلَ كأنَّه يقطع صدقته بسيف المنِّ والأذى

سرُّ إعادةُ ذِكر (المنِّ)، و(الأذى) وعدمُ الاكتفاء بأحدِهما:

قال الرّاغب: "وليعظّم الله تعالى منح المنّة، أعاد ذلك في معارض من الكلام، فأثنى على تاركها أولاً، وفضّل المنع على عطية يتبعها المنّ"[2].

إعادة اللفظ في الكلام تعظيمٌ لمنح المنّة

أُعيد ذكرُ المنِّ والأذى دون الاكتفاء بأحدهما كما هو في الآية السَّابقة؛ دفعًا لتوهُّم اقتصار الإبطال عليه دون الآخر، بخلاف الآية السَّابقة؛ فإنَّ ذكر الأذى لفَّ المنَّ بمضمون الكلام، فكان النَّصُّ على الاثنين مفيدًا الشُّمول.

وجه إعادةُ اللّفظين لدفع توهُّم اقتصار الإبطال عليه دون الآخر

بلاغةُ التَّشبيه التَّمثيليّ:

شبَّهتِ الآيةُ حالَ المبطلِ صدقتَه بحال من ينفقُ مالَه رِئاءَ النّاس، ولا يُؤمنُ بالله تعالى، فهو تشبيهٌ تمثيليٌّ من باب تشبيه حالٍ بأخرى، والغرضُ من هذا التَّشبيه تفظيعُ المشبَّه به[3]، فإنَّ تفظيعَ المشبَّه به يستلزم تفظيعَ المُشبَّه؛ لأنَّه ملحَقٌ به، فعُومِل معاملةَ الفرع مع أصله، مع اختلافِ كلٍّ منهما عنِ الآخر في الإيمان والكفر، فإنَّ المُشابهةَ في الأحوالِ لا تقتضي المُشابَهةَ في الذَّوات، فتمحَّض التَّشبيه التَّمثيليّ في غرضه، وهو تفظيعُ حال مبطل الصَّدقة؛ ليحصلَ الاعتبارُ من التَّشبيه، وهو الارتداعُ عن مقاربةِ المنِّ والأذى في الصَّدقات.

المُشابهةُ في الأحوالِ لا تقتضي المُشابَهةَ في الذَّوات

(1) الأزهري، تهذيب اللغة: (بطل).
(2) الراغب، تفسير الراغب: 1/556.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/52.

ووجه التّشبيه التمثيلي؛ أنّ وجه الشّبه منتزعٌ من متعدّد؛ فقد شبّه اللّه تعالى قلب المرائي في الإنفاق وحالته العجيبة كحجرٍ أملس عليه شيء يسير من التّراب فأصابه مطرٌ غزيرٌ فتركه أملسَ ليس عليه شيء من الغبار[1].

وجه التّشبيه التمثيلي أنّ وجه الشّبه منتزعٌ من متعدّد

التَّعبيرُ بالاسمِ الموصول دونَ الاسْمِ الظَّاهر:

آثرتِ الآيةُ القرآنيّة ذكرَ المُشبَّه به بالاسمِ الموصول: ﴿كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ﴾ لا بالاسم الظّاهر، فلم تقل: كالمنفقِ مالَه، مع أنَّ المقصودَ جنسُ المُرائين لا شخْصًا بعينه، ذلك أنَّ الاسم الموصول يعطي نوعَ تعريفٍ، فإيثاره لبيان صورةٍ مستقبَحَةٍ مكروهةٍ مُتصوَّرةٍ في الأذْهان، فكأنَّ الآية تُشير إلى منفقٍ بعينه يعرِفه المخاطَبون، وهذا أدعى في الاستقباح والاستكراه لمن هذه حالُه، وهذا من بلاغة التَّعبير بالاسم الموصول المُفضي إلى قيمة تربويّةٍ أداتها البيان.

تقبيحُ صورَة المنفقِ مالَه رِئاءَ النّاس؛ للارتداعِ عن مشابهته

سرُّ التَّعبيرِ بالمال دُونَ الصَّدقة:

عبَّرتِ الآيةُ ﴿كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ﴾ عمَّا ينفقه المشبَّه به بالمال، في حين كان التَّعبير عمَّا ينفقه المُشبَّه بالصَّدقات، وهذا من دقيق الاستعمال؛ ذلك أنَّ المشبَّه به لا يؤْمنُ باللّه واليوم الآخر، وشرط الصَّدقة الإيمانُ، ففي الآية تنبيهٌ وتحذير لفظيٌّ بديع، وهو: إياكم أيها المنفقون أن تجعلوا صدقاتكم الأخرويَّة مالًا دنيويًّا، فالصَّدقات مقبولَةٌ، والأموالُ مرذُولَةٌ، فحسُن بذلك استعمالُ كلِّ لفظٍ في محلِّه، ووضع كلِّ مبنى في محزِّه، ولو عكس أو ساوى؛ لاختلَّ قانون البلاغة.

دقةُ الاستعمال؛ لبيان الفرق بين خصوص الصَّدقة، وعموم المال

وجه تخصيص الصّدقة بالنهي:

وخصّ الصدقة بالنهي؛ لكون المنة فيها أعظم وأبشع، ولكون ذلك فظيعًا مستبشَعًا قال ﷺ: "ثلاثة لا يجدون ريح الجنة، وإن

تخصيص الصَّدقة بالنهي؛ لكون المنة فيها أعظم وأبشع

(1) ابن القيم، التفسير القيم: ص: 155-154، والإندونيسي، الشامل في بلاغة القرآن، 135-134.

ريحها لتوجد من مسيّرة خمس مائة عام: العاق لوالديه، ومدمن الخمر، والمنّان"[1].

نُكتةُ جمعِ الصَّدقات وإفرادِ المال:

يُلاحظ جمعُ الصَّدقات ﴿لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم﴾ في باب الإنفاق في سبيل الله، وإفرادُ المال ﴿كَٱلَّذِي يُنفِقُ مَالَهُۥ﴾ في باب الإنفاق رِياءً؛ ذلك أنَّ الجمع يُشير إلى كثرة سُبُل الصَّدقات وتنوعها، وأنَّ قبولها ليس مقتصرًا على باب واحد، ولا محصورًا في سبيل أوحد، وأمَّا الأموال المنفقة رئاءَ النَّاس؛ فهي على خلاف ذلك؛ إذ إنَّ المنفقَ ينحصرُ عملُه في المراءاة وطلب الشُّهرة.

الجمع يُشير إلى كثرة سُبُل الصَّدقات وتنوعها والإفرادُ يشير إلى أنّ المنفقَ ينحصرُ عملُه في المراءاة وطلب الشُّهرة

اسْتعمالُ اللفظِ العامّ؛ لِيشملَ معنى العُمومِ والخُصُوص:

لفظُ النَّاس من الألفاظ العامَّة، واستُعمل في قوله تعالى: ﴿رِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾ مرادًا به الخاصّ بدليل: ﴿رِئَآءَ﴾، فإنَّه من المستحيل أن يرى نفقة المرائي إلا القليلُ من النَّاس زمانًا ومكانًا، وسِرُّ استعماله دون ألفاظٍ أخرى يكمُنُ في الكشف عن نفسيَّة المنفقِ مالَه، فإنَّه يتمنَّى المستحيل، وهو أنْ يرى نفقتَه جميعُ النَّاس، ويعلم بها كلُّ النَّاس، فأدّى هذا اللفظ معنيين: الأوّل: الخصوص، وهو المُتَحقِّقُ في الواقع، والثَّاني: العموم، وهو ما يجول في نفس المنفق مالَه، فاستُعمل استعمالًا مجازيًّا بالاعتبار الأوّل، واستعمالًا حقيقيًّا بالاعتبار الثَّاني.

العموم هو ما يجول في نفس المنفق مالَه، والخصوص هو المُتَحقِّقُ في الواقع

علّة التَّعبير بصيغة المضارع:

ممَّا يقتضيه الظَّاهر أنْ يأتيَ بيانُ معتقد الكافر بالجملة الاسميَّة، كأن يقول: وهو كافرٌ، فغرضُ التَّشبيه تفظيعُ إبطال الصَّدقات، وما يُناسبه التَّعبير بالاسميّة، وبلاغة القرآن رُصفت

(1) الراغب، تفسير الراغب الأصفهاني: 1/556، والحديث عند النسائي: 5/80-81، وأحمد، حديث رقم: (6180).

اقترانُ الإنفاق بعدمِ الإيمان، وبيانُ تجدُّدِهِ بتجدُّدِ الإنفاق

بمقتضى الأحوال، لا بما تقتضيه ظواهر العقول، والفعل المضارع في قوله: ﴿وَلَا يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ﴾ هو الأنسب لأمرين اثنين:

الأوَّل: بيانُ اقترانِ الإنفاقِ رياءً بعدم الإيمان بالله واليوم الآخر، كأنَّه قال: يُنفق حالَ كونه لا يؤمن، فاكتسب معنى الحاليَّة.

الثَّاني: بَيانُ تجدُّدِ عَدَمِ الإيمان؛ فإنَّ من ينفِقُ مالَه في سبيل إعانة النَّاس يأتيه شكرُهم، ويصلُه حمدُهم، ويطرق أُذنَه مدحُهم، وهذا يستدعي نوعَ أريحيَّةٍ نفسيَّة، تقودُ صاحبَها إلى الإيمان، فنطقت الآية بأنَّه مع هذا كلِّه، فهو ﴿وَلَا يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ﴾، وهذا ما زاد في تفظيع حالِه المستلزِمة تفظيعَ حالِ من تشبَّه به من المؤمنين.

الثَّالث: التّناسبُ اللفظيّ بين ﴿يُنفِقُ﴾، و﴿يُؤۡمِنُ﴾.

المخصوص بالذِّكر في قوله: ﴿وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ﴾:

وجه التخصيص التّنبيهُ على وجوه الإنفاق ابتداءً، وانتهاءً

خصَّت الآيةُ اليومَ الآخر بعد لفظ الجلالة بالذكر دون بقيَّة أركان الإيمان؛ للتّنبيه على أنَّ الإنفاق يجب أن يكون لله ابتداءً، ورجاءَ نَيْل الثَّواب في اليوم الآخر انتهاءً؛ كي لا تُبطله شبهات المنِّ، ولا مطاعن الأذى.

اكتمالُ أركانِ التَّشبيه التَّمثيليّ:

اكتملتِ الأركان الأربعة للتَّشبيه التّمثيلي الأوّل، وهي:

المشَبَّه: الذي هو عبارةٌ عن إبطال الصَّدقات بالمنِّ والأذى في قوله تعالى: ﴿لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ﴾، والمُشبَّه به: وهو قوله تعالى: ﴿كَٱلَّذِي يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ﴾، وأداة التَّشبيه: الكاف في قوله تعالى: ﴿كَٱلَّذِي﴾، ووجهُ الشَّبَه: لرُكني التَّشبيه، وهما: المُشبَّه: وهو المبطلُ صدقتَه، والمشبَّه به: وهو المنفِقُ مالَه رياءً، هو عدمُ الانتفاع بالإنفاق دنيويًّا وأُخرويًّا، فنُزِّل قوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ صَفۡوَانٍ عَلَيۡهِ تُرَابٞ فَأَصَابَهُۥ

﴿وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلۡدٗاۖ لَّا يَقۡدِرُونَ عَلَىٰ شَيۡءٖ مِّمَّا كَسَبُواْۗ﴾ منزلةَ وجه الشَّبه للتَّشبيه الأوَّل.

فائدة الفاء ربطُ ما بعدَها بما قبلها

نوعُ الفاءِ في قوله: ﴿فَمَثَلُهُۥ﴾:

الفاء في ﴿فَمَثَلُهُۥ﴾ رابطةٌ ما بعدَها بما قبلها[1]، أي: فمثل المتقدِّم ذكرُه كمثل صفوانٍ.

جزالة التَّشبيه كونُه تشبيهَ مُركَّبٍ معقولٍ بمركَّبٍ محسُوسٍ

جَزالةُ التَّشبيه التَّمثيليّ:

اختُلف في عودة الضَّمير في قوله تعالى: ﴿فَمَثَلُهُۥ﴾، على الآتي:

القول الأوَّل: عاد الضَّميرُ على ﴿كَٱلَّذِي يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾؛ لأنه أقربُ مذكور.

القول الثَّاني: عاد على المانِّ المُؤذِي، كأنه تعالى شَبَّهه بشيئين: بالذي يُنفِقُ رِئَاءً، وبصفوانٍ عليه ترابٌ[2].

القول الثَّالث: عاد الضَّمير على مجموع التَّشبيه التَّمثيليّ في قوله تعالى: ﴿لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ كَٱلَّذِي يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾، لا على أحد رُكني التّشبيه، وعلى هذه الأقوال الثَّلاثة؛ فإنَّ التَّشبيه هو: "تشبيهُ مُركَّبٍ معقول بمركَّبٍ محسوس"[3].

صحَّةُ إيرادِ أكثرَ من تشبيهٍ على التَّعدُّد والتَّنوّع:

مجموعُ التَّشبيه التَّمثيليّ هو المقصودُ بالمَثَل في قوله تعالى (فمثله)

بناءً على القول الثَّالث؛ فإنَّ التَّشبيه في الآية هو تشبيهُ مَثَلٍ بمَثَل، تركَّب المَثَل الأوّلُ من تشبيه حالِ المُبطِلِ صدقتَه بحالِ المُنفِقِ مالَه رئاءَ النَّاس، فمجموعُ التَّشبيه التَّمثيليّ هو المقصودُ بالمَثَل في قوله تعالى: ﴿فَمَثَلُهُۥ﴾، والضَّمير يعود إلى مجموع المُشبَّه والمُشبَّه به، أي: مَثَل هذا التَّشبيه التَّمثيليّ المكوَّن من تشبيه حالٍ بحال ﴿كَمَثَلِ صَفۡوَانٍ عَلَيۡهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٞ فَتَرَكَهُۥ صَلۡدٗاۖ﴾، وهذا كلامٌ مُختَزَلٌ

(1) أبو البقاء، التبيان: 1/215.
(2) السمين، الدر المصون: 2/586.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/49.

جَزْلٌ، لا يقوى على مثله آحادُ البلغاء؛ لما فيه من الجزالة المتينة، والمعاني البليغة، فأفاد صحَّةَ تشبيه المُبْطل صدقتَه بالمنِّ والأذى منفردًا، بصفوانٍ عليه تراب، وصحَّةَ تشبيهِ المنفقِ مالَه منفردًا، بصفوانٍ عليه تراب، كما صحَّ تشبيهُ مجموع التَّشبيه التَّمثيليّ الأوّل بمثل صفوانٍ عليه تراب، وهذا معنى الاختزال في التّشبيه التّمثيليّ في الآية، فيكون القولُ الثّالث شاملًا للقولين الأوّل والثّاني.

زيادةُ بيانٍ وإيضاح للتَّشبيهين في الآية:

ورد في الآية تشبيهان، وكلاهما تمثيليّ: الأوَّل: تشبيه المبطل صدقتَه بالمرائي، والثَّاني: تشبيهُ مجموع التَّشبيه التَّمثيليّ الأوّل بمثل صفوانٍ عليه تراب، وهذا كقولنا في أحد أوجه إعراب قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ [الإخلاص: 1]: ضمير الفصل مبتدأ أوَّل، ولفظ الجلالة مبتدأ ثانٍ، وأحد خبرُ المبتدأ الثَّاني، والجملة الاسميّة خبر المبتدأ الأوّل، فكذلك الأمر هنا، الركنُ الأول – وهو المشبَّه – يتكون من المشبَّه والمشبَّه به الأوّل، والرُّكن الثَّاني: هو المشبَّه به الثَّاني، فكما أنَّ مجموع الجملة الاسميّة ﴿ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ هي خبر المبتدأ الأوّل، فكذلك مجموع التَّشبيه المكوَّن من المشبَّه والمُشبَّه به في الجملة الأولى هو المُشبَّه الثَّاني، لكن على عكس التَّرتيب في جملة الإعراب.

وجه الشبه في المرائي:

بيَّن التشبيه أنَّ إنفاق هذا المرائي مع نافع الانفاق فلم يفده إلا زوال ترابه

قال الراغب: "شبَّه المرائي بصفوانٍ ومالَهُ بتراب، وإنفاقَهُ بالوابل. وبيَّن أنَّ إنفاق هذا المرائي مع كون الإنفاق في نفسه شيئًا نافعًا لم يفده إلا زوال ترابه، كما أن المطر الذي أتى على الصفوان مع كون المطر نافعًا في نفسه لم يفده إلا زوال ثراه، وقال تعالى في ضياع أعمال الكافر: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْۖ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍۖ﴾ [إبراهيم: 18] "[1].

لبيان أنَّ ما يعلق عليه إنَّما يعلَقُ بصعوبةٍ بالِغةٍ، ويذهب بأدنى مؤثِّر

نكتة التَّعبير بالصَّفوان دون مرادِفاته:

الصَّفوان هو حجرٌ أملس يخلو من أيِّ شائبة، واختيار هذا

(1) الراغب، تفسير الراغب الأصفهاني: 1/556.

الوصف في التَّشبيه؛ لبيان أنَّ ما يعلق عليه إنَّما يعلَقُ بصعوبةٍ بالِغةٍ، ويذهب بأدنى مؤثِّر.

اختيارُ كلمة ﴿تُرَابٌ﴾ دون مرادفاتها:

الجَمْعُ بين معنَيَيْن متعارِضَيْن للتَّحريض والتَّحذير

آثر النَّظمُ الكريم كلمةَ تراب، دون طين، أو حصى، أو غبار، أو غيرها من الألفاظ؛ للتَّنبيه على ثلاثة أمور:

الأوّل: قابليَّة التُّراب للإنبات، وهذا اعتبارٌ تحريضيٌّ لإمكان قَبول الصَّدقة وتنميتها، وهو ما يُرشِّح ترشيحًا استئناسيًّا عَوْدَ الضَّمير في ﴿فَمَثَلُهُۥ﴾ إلى المشبَّه.

الثَّاني: قابليَّة التُّراب للزّوال بأدنى سببٍ، وهذا اعتبارٌ تحذيريّ لقابليّة زوال الصَّدقة ومَحْقِها، وهو ما يُقوّي عَوْدَ الضَّمير في ﴿فَمَثَلُهُۥ﴾ إلى مجموع التَّشبيه التَّمثيليّ.

الثَّالث: معنًى إشاريّ، وهو أنَّ التُّراب مستعملٌ بمعنى: الافتقار، يُقال: تَرِبَ الرجلُ: افتقَرَ[1]، كقوله تعالى: ﴿أَوۡ مِسۡكِينٗا ذَا مَتۡرَبَةٖ ١٦﴾ [البلد: 16]، فهي إشارةٌ روحيَّة إلى المتصدِّق: أنِ اعلم أنَّك فقيرٌ إلى رازِقك، فمهما تصدَّقتَ؛ فأنت مترِبٌ مُعوِز، وهذا من بديع اختيار المفردات القرآنيَّة في سياق التَّشبيه والبيان، بما يُصيب معنًى ونقيضَه، ويُحقِّق غايةً، ويؤمُّ قصدًا.

استحضارُ الأملِ في قوله: ﴿صَفۡوَانٍ عَلَيۡهِ تُرَابٌ﴾:

مشهد التُّراب فوق الصَّفوان يُغطِّي حقيقةَ القسوة الماكثة تحته، ويُبرقُ الأملَ في عينَي ناظرِه

الأحجارُ الملْساءُ لا تُعطي لناظرِها أيَّ أملٍ في الحياة، فهي لا تُنبتُ، ولا تجمع ماءً، فكأنّ التَّعبير القرآنيّ ﴿صَفۡوَانٍ عَلَيۡهِ تُرَابٌ﴾ يُعطي للنَّاظر بصيصَ أملٍ في الإنبات، وفي الحياة، فإنَّ مشهد التُّراب فوق الصَّفوان يُغطِّي حقيقةَ القسوة الماكثة تحته، ويُبرقُ الأملَ في عينَي ناظرِه.

(1) السمين، الدر المصون: 2/587.

وظيفة حرف الفاء في قوله: ﴿فَأَصَابَهُۥ﴾:

الإشارةُ إلى حال المتصدِّق الزّائغِ قلبُه، وأنَّ تحمُّلَه يُسارعُ إليه الهدْمُ

عطف حرفُ الفاء فعلَ الإصابة على فعل محذوف تعلَّق به الجارُّ والمجرور ﴿عَلَيْهِ﴾، والتَّقدير: استقرَّ على الصَّفوان تُرابٌ، فأصابه[1]، ودلَّ حرف الفاء على التَّعقيب، أي: بمجرد أنِ استقرَّ التُّرابُ أصابه وابلٌ، ولو أتى بالواو؛ لأفاد مجرَّد ترتيب فعلٍ على آخر، والمقصودُ التَّعقيبُ؛ إشارةً إلى أنَّ من تصدَّق- وفي قلبه زيغٌ وضعفٌ- فإنَّ تحمُّلَه لثِقَلِ الصَّدَقة لا يستمرُّ طويلًا.

دِقَّةُ اختيار فعل ﴿فَأَصَابَهُۥ﴾:

التعبير بالإصابة لبيان قصديّتها

التَّعبيرُ بالإصابَة لبيانِ أنَّها كانت عن قصدٍ[2]، ولم يقل: (فنزل عليه وابلٌ)، فإنَّ في النُّزول لُطفًا، ليس متحقِّقًا في الإصابة.

إيثارُ لفظِ ﴿وَابِلٌ﴾ على بقيَّة مرادفاته:

اختيار الوابل لقوّة وقْعه وشدَّة أثرِه

اختيارُ الوابلِ دونَ المطرِ أو الغَيْث؛ لقوّة وقْعه وشدَّة أثرِه، فإنَّه إذا نَزَلَ لم يُبقِ أثرًا للتُّراب، وهذا بيانٌ حسيٌّ لأمر معنويّ، فإنَّ المنَّ والأذى إذا أصابا الصَّدقةَ؛ أبطلاها بالكليَّة، كما هو حال الوابل مع التُّراب، فإنَّ الصَّدقة ضعيفةٌ مع وقْع المنِّ والأذى، كضعفِ التُّراب مع الوابل على الصَّفوان.

الإسنادُ المجازيّ في قوله: ﴿فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلۡدٗاۖ﴾:

نُكتةُ الإسنادِ بيانُ أنَّ الله تعالى يسلِّط جندَه على مَنْ يريدُ من عباده

الوابل لا يُصيب بذاته، بل الذي يُصيب هو خالقُ الوابل سبحانه وتعالى، ونُكتةُ الإسنادِ بيانُ أنَّ اللّٰه تعالى يسلِّط جندَه على مَنْ يريدُ من عباده، ومثله قوله تعالى: ﴿فَتَرَكَهُۥ صَلۡدٗاۖ﴾.

معنى الفاء في قوله تعالى: ﴿فَتَرَكَهُۥ﴾:

أفادتِ الفاء التَّعقيب السَّريع، أي: بمجرَّد أنْ أصابَ الوابلُ

(1) السمين، الدر المصون: 2/587.

(2) الراغب، المفردات: (صوب).

الصَّفوان، ترَكَه صلدًا، كأنْ لم يكن بينهما زمنٌ، وهو ما يقوِّي معنى الوابل، وهو المطر الذي ينزل شديدًا قويًّا، فبمجرَّد نزوله لا يبقى معه شيءٌ من التُّراب.

أفادت الفاء معنى أنّه بمجرَّد أنْ أصابَ الوابلُ الصَّفوان، ترَكَه صلدًا

دقَّةُ التَّعبيرِ في قوله تعالى: ﴿فَتَرَكَهُۥ صَلۡدٗاۖ﴾:

التَّعبيرُ بالتَّرك؛ لبيان أنَّه لم يبقَ شيءٌ من التُّراب فوق الصَّفوان، بل تحوَّل الصَّفوان إلى حَجَرٍ صلْد، وهو أكثرُ صلَابةً من الصَّفوان، فإنْ كان الصَّفوان ممّا يستقرّ عليه التُّراب؛ فإنَّ الصلد ممَّا لا يُتوقَّع منه ذلك، فكما أنَّ الوابلَ لن يتركَ شيئًا على الصَّفوان، فكذلك المنُّ والأذى لن يتركا شيئًا من الأجر والثَّواب، وهذا المعنى هو ذاته الواردُ في السِّباق: ﴿۞قَوۡلٞ مَّعۡرُوفٞ وَمَغۡفِرَةٌ خَيۡرٞ مِّن صَدَقَةٖ يَتۡبَعُهَآ أَذٗىۗ﴾، فإنَّ الصَّفوان الذي عليه التُّراب، خيرٌ من الصلْد، فأنْ يبقى المسلمُ بلا تصدُّقٍ خيرٌ له من صَدقةٍ يتبعُها أذًى.

تنزيل الصَّفوان منزلةَ القول المعروف، والصلْد منزلةَ الصَّدَقة التي يتبعُها أذًى

أفاد التَّعبير بقوله: ﴿فَتَرَكَهُۥ صَلۡدٗاۖ﴾ أنَّه مهملٌ، لا رجاءَ فيه، ولا أمل في مبتغيه، ففيه تقبيحُ صورة المانِّ، فهو متروك بلا خير، كما الصَّلْد.

تقبيحُ صورة المانِّ بتنزيله منزلةَ الحجر الصَّلْد المتروك بلا خير

مَوْقِعُ الفصل بالاستِئنافِ البَيانيّ بعد المثَل:

جاء قولُه تعالى: ﴿لَّا يَقۡدِرُونَ عَلَىٰ شَيۡءٖ مِّمَّا كَسَبُواْۗ﴾ إثرَ بيان المَثَل، وقد فُصِل؛ لأنَّه استئنافٌ بيانيّ، فكأنَّ سائلًا قد سأل: فما حال أولئك الذين أنفقوا أموالَهم، هل ستذهب عليهم سدًى، ولا يقدرون على شيءٍ منها؟ وهذا سؤالٌ بَدَهيّ؛ فإنَّ ممَّا يظنّه النَّظرُ القاصِر: أنَّ من أنفقَ مالَه؛ فله فائدةٌ مرجوَّةٌ ينالُه بعضُها، ولو أساء بمنٍّ وأذًى؛ فكان الجوابُ دافعًا لهذا الظَّنّ الموهوم.

وجه الفصل بالاستئناف البياني دفعُ ظنٍّ موهوم

العُدولُ عن الإفرادِ إلى الجمع:

تقدَّم ذكر الذي ينفق ماله بصيغةِ الإفراد، وكذلك التَّمثيل بالصَّفوان، فالأوفق في الظَّاهر أن يكون كذلك هنا، لكنَّه عدل

عن ذلك إلى الجمع في قوله: ﴿لَّا يَقۡدِرُونَ﴾؛ لتأويل الذي ينفقُ بالجماعة، ورعيًا للمعنى، وصالحًا لأنْ يُجعل استئنافًا بيانيًّا، وصالحًا لأن يُجعل تذييلًا وفذلكةً لضرب المثل، فهو عَوْدٌ عن بَدْء قولِه: ﴿لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ﴾ إلى آخر الكلام[1].

العدول إلى الجمع؛ لتأويل الذي ينفقُ بالجماعة، ورعيًا للمعنى

فإن قيل: وكيف يجوز أن يكون ﴿لَّا يَقۡدِرُونَ﴾ فعلًا للذي، والذي هو فعلاً للواحد؟ قيل: قد يقدر أن الذي قد يقع على الجمع، وأنه إذا أريد به الجمع، فقيدٌ يخبر عنه كما يخبر عن الواحد وقوله: ﴿لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾[2].

ما يقع على الجمع فقيدٌ يُخبر عنه كما يُخبر عن الواحد

إيثارُ الإطنابِ على الإيجاز:

العبرةُ في بلاغة القرآن قائمةٌ على إيصال المعنى، بأجمل صورةٍ لفظيَّة، وقد يُقدَّم الإطناب على الإيجاز؛ لحلاوة غير متحقِّقة في إيجازه، فقال سبحانه: ﴿لَّا يَقۡدِرُونَ عَلَىٰ شَيۡءٖ مِّمَّا كَسَبُواْۗ﴾، ولم يقل: (لا يقدرون على كسبهم)، مع أنَّه أوجز في العبارة؛ ذلك أنَّ ذكر شَيْءٍ يدفعُ أيَّ وهمٍ قد يَسْتصْحبُه ضعيفُ العقل، عديمُ الفؤاد، فإنَّ التَّمسُّك بأطراف المُنْجيات سبيلُ الواهيات، فأراد سبحانه أن يدفع أيَّ وهم، فجاء بلفظ شيءٍ للدّلالة على العموم، بحيث لا يشُذُّ عن ذلك شاذٌّ، ولا يلوي عنه لاوٍ، وبه تنقطع الأطماع، وإليه تُشدُّ الأسماع.

سِرُّ ذِكرِ لفظِ شيءٍ لدفع أيِّ وهمٍ، وعلاج كلِّ سَقْمٍ

العُدولُ عن خُصوصِ الإنفاقِ إلى عُموم الكَسْب:

عدلتِ الآية عن لفظ الإنفاق إلى الكسب في قوله تعالى: ﴿لَّا يَقۡدِرُونَ عَلَىٰ شَيۡءٖ مِّمَّا كَسَبُواْۗ﴾؛ ذلك لسببَيْن اثنين: أمَّا أوَّلهما: فهو لقَطْع أيِّ أمَل ومَطْمَعٍ في تحصيل شيءٍ ممَّا أنفقوه؛ فإذا كان عمومُ كسبهم غيرَ مقدورٍ عليه، فكيف خصوصُ إنفاقهم المتبوع بالمنِّ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/49.
(2) الراغب، المفردات: (صوب).

والأذى؟ وأمَّا ثانيهما: فهو من قبيل تسميةِ الإنفاقِ بأصله؛ فإن النَّفقة كَسْبُ الإنسان، وهذا أشدُّ في نفيِ الانتفاعِ، وأقوى في جبيِ الارْتِداع.

موقعُ الفاصلةِ من الآية:

تقريرُ ما تقدَّم في السِّياق؛ تحذيرًا من مشابهة الكافرين

وقع قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ تذييلًا مقرِّرًا لمضمونِ ما قبله، مسوقًا لتحذيرِ المؤمنين من تسرُّب أحوال الكافرين إليهم، فإنَّ من أحوالهم المنَّ على من ينفقون عليه، وفيه تعريضٌ بأن كلًّا من الرِّياء والمنِّ والأذى من خصائص الكفَّارِ ولا بد للمؤمنين أن يجتنبوها[1]، وحسَّن ذلك كلَّه الابتداء بلفظ الجلالة المورث هيبةً وجلالًا وتحذيرًا.

ردُّ الفاصلة على صدر الآية بالأوصاف المتناقضة:

في ردّ الفاصلة تقوية المبدأ بالختام، وتعضيد الصَّدر بالفاصلة

ابتدأت الآية بخطاب المؤمنين؛ لبناء ما سيأتي من الأوامر والنّواهي، وخُتمتْ بذكر القوم الكافرين؛ للحذر من مشابهة صنيعهم، وفيه تقويةُ المبدأ بالختام، وتعضيد الصَّدر بالفاصلة.

وجه التعريض في الفاصلة:

بيان التعريض بأن الرياء والمنّ والأذى على الإنفاق من صفات الكفار

قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾، أي: إلى الخير والرشاد؛ وفيه تعريضٌ بأنّ الرّياء والمنّ والأذى على الإنفاق من صفات الكفار، ولا بدّ للمؤمن أن يتجنب عنها[2].

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الصَّفوان والصَّلد:

ورَدَتْ هاتان الكلمتان مرَّة واحدةً في موضع واحد في القرآن الكريم، أمَّا الصَّفوان؛ فهو الحجر الصَّافي من الشَّوائب في ذاته، لكنَّه قد يقبل تعلُّقَ بعض الأتربة والرِّمال، وأمَّا الصّلد؛ فهو الحجر الصَّافي الأملس الصُّلب، الذي لا يقبلُ أيَّ تعلُّقٍ.

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/259، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/50.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/259، والقاسمي، محاسن التأويل: 2/205.

الوابِل والمَطَر والغَيْث والطَّلّ:

المطر: هو اسمٌ للماء النَّازل من السماء، فإذا كان نافعًا مفيدًا تترقَّبُه القلوب قبل العيون؛ فهو الغَيْث، وَرُبَّمَا سُمي السحابُ والنباتُ: غَيْثاً، والغَيْث الكَلأُ يَنْبُتُ مِنْ مَاءَ السَّمَاءِ[1]، وإذا كان كثيرًا كثيفًا شديدًا متتابِعًا بشدَّة؛ فهو الوابِل، وإذا كان قليلًا سريعًا، بالكاد يُروي؛ فهو الطَّلّ.

(1) ابن منظور، لسان العرب: (غيث).

﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثۡبِيتٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ كَمَثَلِ جَنَّةِۭ بِرَبۡوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٞ فَـَٔاتَتۡ أُكُلَهَا ضِعۡفَيۡنِ فَإِن لَّمۡ يُصِبۡهَا وَابِلٞ فَطَلّٞۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ ٢٦٥﴾ [البقرة: 265]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

بعد بيانِ مَثَل الصَّفوان، ناسَبَ التَّمثيلُ بما هو شبيهٌ به، قريبٌ منه، فإنَّ الصَّفوان الذي عليه ترابٌ، شبيهٌ في الظَّاهر من بعيدٍ بالرَّبوةِ، مُختَلِفٌ عنها في الباطن، فيا لِقَسْوةِ الصَّفوان، وما ألينَ تربة الرَّبوة! والمُنْفِقُ المرائي يُشابِه المنفقَ المخلِصَ في الظَّاهر، ويختلفُ عنه في الجوهر، وناسَبَ الإتيان بذكر إصابةِ الوابلِ؛ لِيعلَمَ المخاطَبُ الفرقَ بين الأمرين، وأنَّ نزولَ الشَّدائد يكشف عن جواهر الأرض، وانصبابَ المدلهمَّات يُجلِّي معادِنَ الأشياء، فالأمثالُ تبهج السامع كلما كانت أكثر تركيبًا وضمِّنت الهيئة المشبهة بها أحوالًا حسنة، تكسِبُها حُسْنًا ليسري ذلك التحسين إلى المشبَّه، وهذا من جملة مقاصد التشبيه[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَتَثۡبِيتٗا﴾: الثَّبَات[2]: دَوَامُ الشَّيْءِ على حالٍ لتحقيقِ غايةٍ مرجوَّة؛ ماديًّا ومعنويًّا، وهو ضدّ الزوال، يقال: ثَبَتَ يَثْبُتُ ثَبَاتًا، وأصلُ الكلمة الحِسّيُّ مأخوذٌ من قولهم للجراد إذا رَزّ أَذْنَابَه لِيبيضَ: ثَبَتَ وأَثْبَتَ وتَثَبَّتَ، وهذا المعنى ملحوظٌ في جميع استعمالات هذه الكلمة في القرآن الكريم؛ فمن ذلك قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمۡ فِئَةٗ فَٱثۡبُتُواْ﴾ [الأنفال: 45]، أي: داوموا على حالكم حتَّى تنتصروا.

وقوله تعالى: ﴿وَتَثۡبِيتٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ﴾، في مَعْناه أقوال: فَقالَ الحَسَنُ ومُجاهِدٌ: مَعْناهُ أَنَّهم يَتَثَبَّتُونَ أنْ يَضَعُوا صَدَقاتِهِمْ، وقِيلَ: مَعْناهُ تَصْدِيقًا ويَقِينًا، ورُوِيَ ذَلِكَ عَنِ ابْنِ عَبّاسٍ، وقِيلَ: مَعْناهُ احْتِسابًا مِن أَنْفُسِهِمْ، قالَهُ قَتادَةُ، وقِيلَ: مَعْناهُ أنَّ أَنْفُسَهم لَها بَصائِرُ فَهي تُثَبِّتُهم عَلى الإنْفاقِ في طاعَةِ اللَّهِ تَثْبِيتًا، قالَهُ الشَّعْبِيُّ والسُّدِّيُّ وابْنُ زَيْدٍ وأَبُو صالِحٍ،

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/50.

(2) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، والزبيدي، تاج العروس: (ثبت).

وهَذا أرْجَحُ مِمّا قَبْلَهُ[1]، أي: ليكتسبوا التَّثبيت من أنفسهم المؤمنة، فيُداوِموا على الإنفاق، حتَّى يحصلَ القَبول.

2) ﴿بِرَبْوَةٍ﴾، الرَّبْوُ[2]: نموُّ الشَّيء تدريجيًّا حتّى يعلو ويُشرف، وسُمِّيت الرَّبْوَة رَابيَةً كأنّها رَبَتْ بنفسها في مكان، ومنه: رَبَا: إذا زاد وعلا، وأربى عليه: أشرف عليه، والرَّابية: مَا ارْتفع من الأَرْض، والرَّبو: البُهْرُ، وهو عُلُوُّ النَّفَسِ، والأُرْبِيَّتَان: لحمتان ناتئتان في أصول الفخذين من باطن، سُمِّيَتَا بذلك لِعُلُوِّهِمَا على ما دُونَهُمَا، فدلَّت هذه المادّة على الارتفاع التّدريجيّ في ذات الشَّيْء، وهو معنًى ملحوظ في جميع استعمالات القرآن الكريم لها.

فالرِّبَا: زيادةٌ على رأس المال، لكن خُصّ في الشَّرع بالزِّيادة على وجهٍ دون وجه، وباعتبار الزِّيادة قال تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَاْ فِيٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُواْ عِندَ ٱللَّهِ﴾ [الروم: 39]، ونبّه بقوله: ﴿يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِي ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ [البقرة: 276]، أنّ الزيادة المعقولة المعبّر عنها بالبركة مرتفعة عن الرّبا، ولذلك قال في مقابلته: ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [الروم: 39]، وقوله تعالى: ﴿فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾ [الحج: 5]، وقوله: ﴿كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ﴾، وقوله: ﴿فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا﴾ [الرعد: 17]، جميع هذه الألفاظ استُعملت في معنى العلو والارتفاع التَّدريجي في ذات الشَّيْء.

3) ﴿فَطَلٌّ﴾[3]: الطَّلُّ: أضعَفُ المطَر، إنَّما سُمِّيَ به لأَنَّهُ يُحَسِّنُ الأرضَ، وهو يُطِلُّ على الأرض ويُشرف عليها، مأخوذٌ من الطَّلَل، وهو مَا شَخَصَ مِنْ آثَارِ الدِّيَارِ، وهي التي تُشرف فيراها البعيد، فيتأمَّل بها خيرًا مظنونًا، وكذلك الطَّلُّ فإنَّ من يراه يتأمَّل به خيرًا؛ لشدَّة احتياجه للماء، ولوحِظَ فيه معنى القلَّة، فنُقل عنِ العربِ قولُهم: ما بالنَّاقةِ طَلٌّ، أَيْ: ما بها لبَنٌ، ولا قليلٌ منه، فقوله تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾، يُراد به المطر القليل، الذي يُشرف على الزَّرع فيُعطيه حياة ونموًّا، وهي من أفراد ألفاظ القرآن.

(1) الشوكاني، فتح القدير: 1/328.
(2) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (ربو).
(3) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (طلل).

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

ضرَب اللّه سبحانه مثلًا لمَن يَبذُلون أموالَهم في وجوه البِرِّ والخير ابتغاءَ مرضاتِ اللّه تعالى، وقد بذَلوا أموالَهم مِن تلقاء أنفسهم، ولم يَحمِلهم على ذلك أحدٌ، أو أنفقوا وهم مُوقِنون بوعد اللّه تعالى على إثابته للمُنفِقين، بحديقة كثيرة الأشجار غزيرة الظلال، تستر أشجارُها ما فيها، وهي في أرض عالية طيبة المَنبَتِ، فنفعتْ غيرَها، باختلاف أنواعِ المياه النَّازِلة عليها؛ فإن أصابَها مطرٌ كثيفٌ عظيمٌ زاد خيرُها، وتباركتْ ثمارُها، وكثُر أُكلُها، فتضاعَفَ بكثرة المياه، ونقاءِ المكان، وارتفاعِها عن السّيول، وإنْ أصابَها ماءٌ قليلٌ رقيقٌ، أعطت ثمارَها مضاعفةً، وكذلك نفقات المخلصين تُقْبل عند اللّه وتُضاعفُ، قَلَّتْ أم كثُرت.

وهو تمثيلٌ لحال المؤمن المنفق، فبقَدَر ما يؤتيه ربُّه من المال الوفير أو النَّزْر اليسير يكون إنفاقه، وبقدر عطائه يكون أجره وثوابُه، وكلٌّ ينمِّي اللّه له ما أنفق أتمَّ تنمية وأكملها، واللّه بصيرٌ بعبادِه، مُطَّلِعٌ على قلوبِهم وسرائرِهم، فليَحذرِ المنفقون مشابهةَ المنافقين، فإنَّ مَنْ أفسَدَ نيَّته في الصَّدقات، أفسَدَ ذهنيَّته في تصوُّر الجنَّات.

❁ الإِيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

بلاغة عطف المثَل على المثَل:

مقصودُ العَطْفِ كامنٌ في المقابلَة بين الفريقَيْن حالًا ومآلًا

عُطِف مَثَلُ ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثۡبِيتٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ﴾ على المَثَل المُتقدِّم ذكرُه وهو قوله: ﴿فَمَثَلُهُۥ﴾، العائدِ على مجموع التَّشبيه التَّمثيلي في قوله: ﴿لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ كَٱلَّذِي يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ﴾، ومقتضى العطفِ المقابلَةُ بين المعطوفِ والمعطوفِ عليه؛ لبيانِ الفارقِ بين الفريقَيْن في الحال والمآل، و"لِزيَادةِ بيانِ ما بين المرتبتَيْنِ من البَوْنِ، وتأْكِيدًا للثَّنَاءِ على المُنْفِقِينَ بِإِخْلَاص"[1].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/50.

علّة تنوُّع التَّمثيل في حقِّ المنفقين:

لَمَّا مثَّل فيما سلفَ بِحَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سبعَ سنابلَ، تَمثيلًا غيرَ كثيرِ التَّرْكِيبِ لِتَحْصُلَ السُّرْعَةُ بِتَخَيُّلِ مُضَاعَفَةِ الثَّوَابِ، ولَمَّا مَثَّلَ حَالَ الْمُنْفِقِ رِئَاءً بِالتَّمْثِيلِ الَّذِي مَضَى- أُعِيدَ تَمْثِيلُ حَالِ الْمُنْفِقِ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ بِمَا هُوَ أَعْجَبُ فِي حُسْنِ التَّخَيُّلِ؛ فَإِنَّ الْأَمْثَالَ تُبْهِجُ السَّامِعَ كُلَّمَا كَانَتْ أَكْثَرَ تركيبًا، وضُمِّنت الهيئةُ المشبّهُ بِهَا أَحْوَالًا حَسَنَةً تُكْسِبُهَا حُسْنًا؛ لِيَسْرِيَ ذَلِكَ التَّحْسِينُ إِلَى الْمُشَبَّهِ، وَهَذَا مِنْ جُمْلَةِ مَقَاصِدِ التَّشْبِيهِ[1].

التَّدرُّجُ في التَّمثيل، لإكسابِ المُشبَّه مزيدًا من الحُسن، بما يُبهِج السَّامع

سِرُّ إعادةِ التَّعبيرِ بالاسمِ الموصولِ:

سَبَق فيما سَلَف ذكرُ المنفقين بالاسم الموصول ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ﴾، وأُعيدَ هنا ذكرُهم بالتَّعبير نفسِه، فلم يقُل: (ومثلُ المنفقين)؛ لبيان أنَّ المذكورين هنا هم المذكورون هنالك، مع مزيد إيضاحٍ وإفصاح، في التَّمثيل والتَّلوين، إشعارًا بعُلوِّ مقامِهم، وبيانًا لحُسنِ حالهم، ولتضمين الإعادة الحثَّ على تكرار فعل الإنفاقِ، فإنَّ تكرار الألفاظ يدلُّ على طلب تثبيتها، بالحضِّ على إتيان معانيها، فالآيةُ حثٌّ وحضٌّ على إعادة الإنفاق المرَّة تلو الأخرى؛ ليثبت سلوكًا قويمًا في النَّفس؛ فإنَّ ما اعتيد سلوكُه، ارتيض قبولُه.

الحثُّ والحضُّ على تَكرار الإنفاقِ، حتَّى يرتاضَ المنفِقون على قبولِه

بلاغَةُ قولِه تعالى: ﴿ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ﴾:

خُصَّ الابتغاءُ بالاجتهاد في طلب الرِّضوان[2]، فإنَّ المنفقينَ أموالَهم استحقُّوا المدحَ بسبب مزيد اجتهاد، والمرضاتُ رضاه تعالى، مَصْدَرُ رَضِيَ، عَلَى وَزْنِ المفْعَلِ، زِيدَتْ فِيهِ التَّاءُ سَمَاعًا كالمدْعَاةِ والمسْعَاةِ[3]، وإضافتها إلى لفظ الجلالة فيها مزيدُ تعظيمٍ وإجلال،

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/50.
(2) الراغب، المفردات: (بغي).
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/273.

الابتغاءَ اجتهادٌ لتحصيل الكمالاتِ المُرضِيات، قبالة النَّاقصات المُسخِطات، وهو مقدِّمةُ القبول، ومُنتهى الوصول

وقد ورد هذا التَّركيب في القرآن الكريم ثلاث مرَّاتٍ، الأولى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡرِي نَفۡسَهُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلۡعِبَادِ ٢٠٧﴾ [البقرة: 207]، والثَّانية: ﴿۞لَّا خَيۡرَ فِي كَثِيرٖ مِّن نَّجۡوَىٰهُمۡ إِلَّا مَنۡ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوۡ مَعۡرُوفٍ أَوۡ إِصۡلَٰحِۭ بَيۡنَ ٱلنَّاسِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوۡفَ نُؤۡتِيهِ أَجۡرًا عَظِيمٗا ١١٤﴾ [النساء: 114]، والثَّالثة في هذا الموضع، وأفاد في المواضع الثَّلاثة الثَّناءَ الواسع، والحمد البالغ، وجميعُها ورد في مقابلة نقيضٍ لها؛ فالأولى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ [البقرة: 204]، والثَّانية: ﴿وَمَن يَكۡسِبۡ خَطِيٓـَٔةً أَوۡ إِثۡمٗا ثُمَّ يَرۡمِ بِهِۦ بَرِيٓـٔٗا فَقَدِ ٱحۡتَمَلَ بُهۡتَٰنٗا وَإِثۡمٗا مُّبِينٗا ١١٢﴾ [النساء: 112]، والثَّالثة في مقابلة الذين ينفقون أموالَهم رِئاءَ النَّاس، وهذا الأسلوبُ البيانيّ يدلّ على أنَّ الابتغاءَ اجتهادٌ لتحصيل الكمالاتِ المُرضِيات، في مقابلة النَّاقصات المُسخِطات، وهو مقدِّمةُ القبول، ومُنتهى الوصول.

بلاغةُ التَّعبير بلفظ التثبيت:

في لفظ التثبيت تمثيلٌ لمنعِ النَّفس عنِ التَّردُّد في الإقدام على الخَيْر

عبَّرتِ الآية ﴿ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثۡبِيتٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ﴾ بلفظ التَّثبيت، وهو دوامُ الشَّيْء وترسيخه لتحقيق غايةٍ مقصودة؛ تمثيلًا لكبْح النَّفس عنِ التَّردُّد، أيْ: أنَّهم يَمْنعون أنفسَهم من التَّردُّد في الإنفاق في وجوه البِرِّ، ولا يتركون مجالًا لخواطر الشُّحِّ، وهذا من قولهم: ثبَّت قدَمَه، أيْ: لم يتردَّد، ولم ينْكُص، فإنَّ إراضَةَ النَّفس على فعلِ ما يَشقُّ عليها، لها أثرٌ في رسوخ الأعمال حتّى تعتاد الفضائل، وتصير لها دَيْدَنًا[1].

تردُّدُ حرف ﴿مِّنۡ﴾ بين التَّبعيض والابتداء، ومعنى اللام:

التَّبعيضُ مقوٍّ لجانب التَّمثيل

معنى التَّبعيض في قوله: ﴿وَتَثۡبِيتٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ﴾: إمَّا يُحمل على التَّبعيض الحقيقيّ، ومعنى التَّبعيض "أنَّ مَنْ بذل مالَه لوجه اللَّه فقد ثبَتَ بعضُ نفسِه، ومَن بذلَ مالَه وروحَه معًا فهو الذي ثبَّتها كلَّها

(1) الزمخشري، الكشاف: 1/313، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/51.

﴿وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡۚ﴾ [الصّف: 11] "[1]، وإمَّا أن يُحمَل حَرفُ ﴿مِّنۡ﴾ على التَّبعيض المجازيِّ، باعتبار الأحوال، على معنى: تثبيتًا لبعض أحوال النَّفس، وهي حالة الإنفاق[2]، وهذا المعنى أوضحُ في التَّمثيل.

الابتداءُ يدلُّ على صلاحِ النَّفس وطُهرِها

معنى الابتداء: أيْ: تثبيتًا بَدَأَ من النَّفس، باعتبارها العائق الحقيقيّ للإنفاقِ في غالبِ الأحوال، فإذا كان بدْءُ التَّثبيت منها؛ فإنَّها لَنَفْسٌ عزيزة، ودَيْمومَة الإنفاق أرسخُ وألصقُ بصاحبِها، وفيه مدْحٌ لها؛ فإنَّ الثَّبات على الخيرات إنْ كان ناشئًا عنها فهو يدلُّ على تُرْبتها الصَّالحة، ومَعْدنِها النَّفيس، "فإذا أنفقَ المسلمُ مالَه في سبيل اللَّه، عَلِم أنَّ تصديقَه وإيمانَه بالثَّواب من أصل نفسه، ومن إخلاص قلبِه"[3]، "وفيه تنبيهٌ على أن حكمةَ الإنفاق للمنفق تزكيةُ النفس عن البخلِ وحبِّ المال الذي هو رأس كل خطيئة"[4]، وهذا المعنى أفخمُ في جانب التَّبجيل.

ومعنى الابتداء أقوى وأمتنُ؛ لاتِّساقه مع أصل الكلام في الحفاظ على الصَّدقات من مفترِسات المنِّ والأذى، ومعنى التَّبعيض تابعٌ في حقيقة أمرِه، ومُنتهى حالِه إلى معنى الابتداء، فالقولُ ابتداءً للابتداء، والتَّبعيض بعضُ القول.

دلالةُ تركيبِ: ﴿مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ﴾ يؤول إلى معنى اللام:

أشار بعض المفسِّرين إلى أنَّ ﴿مِّنۡ﴾ تنوب عنِ اللّام[5]، أي: تثبيتًا لأنفسهم[6]. والقول بالتَّناوب ينوبُ عنه معنى التَّركيب، فإنَّه يُفيدُ معنى اللّام ضمنيًّا، فإنَّ التَّثبيت المنبعثَ من النَّفس يرجع في الحقيقة إليها؛ فكأنَّه قال: تثبيتًا من أنفسِهم لأنفسِهم، والعكسُ لا يصِحُّ.

(1) الزمخشري، الكشاف: 1/313.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/51.
(3) الزمخشري، الكشاف: 1/313.
(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/259.
(5) الآلوسي، روح المعاني: 2/35.
(6) القاسمي، محاسن التأويل: 2/205.

بيانُ التَّشبيه وأنواعه في الآية:

تمثيليّ لِتَشْبيهِ هيئةٍ معقولةٍ بهيئةٍ محسوسة؛ ليتحققَ الحضُّ ويكتملَ المشهَد

ذُكِر في هذا التَّشبيه الهيئةُ المشبَّهة وهي النَّفقة التي قامت على طلب ابتغاء رضوان الله، والتَّصديق بوعده؛ فضُوعِفَت أضعافًا كثيرة، والهيئةُ المشبَّهة بها هي هيئةُ الجنَّة الطيِّبة المكان التي جاءها الوابل فزكا ثمرُها، وتزايَدَ فأكملت الثَّمرة، أو أصابَها طلٌّ فكانت دون ذلك، ووجهُ الشَّبَه هو الهيئةُ الحاصِلَةُ من مجموعِ أشياء تكامل بها تضعيفُ المنْفَعَة[1].

مركّب حالهم في اتباع القلة والكثرة تضعيف الأجر، كحال الجنة في إنتاج الوابل والطل تضعيف ثمارها

والتشبيه لحال النفقة بحال الجنة بالربوة في كونها زاكية متكثّرة المنافع عند الله كيفما كانت الحال، أو تشبيه حالهم بحال الجنة على الربوة في أن نفقتهم، كثرت أو قلت، زاكية زائدة في حسن حالهم. كما أن الجنة يضعّف أكلها قويّ المطر وضعيفه. وهذا تشبيه مركّب لوحظ الشبه فيما بين المفردات؛ وحاصله أنّ حالهم في اتباع القلة والكثرة تضعيف الأجر كحال الجنة في إنتاج الوابل والطل تضعيف ثمارها[2].

أنّه من تشبيه المفرد بالمفرد

ويَحتمل وجهًا ثالثًا وهو أن يكون من تشبيه المفرد بالمفرد: بأن تُشَبَّهَ حالهم بجنة مرتفعة في الحُسن والبهجة، والنفقة الكثيرة والقليلة بالطَّلِّ والوابل، والأجر والثواب بالثمرات[3].

الجنَّةُ تُجلِّي النِّعمةَ، وتستجلبُ المسرَّة؛ ممَّا يستدعي أريحيَّة النَّفس، وراحةَ البال

سِرُّ التَّعبير بالجنَّة:

الجنَّة مكانٌ ذو شجر كثير كثيف، يُستَر الكائنُ فيه؛ فاسمُها مُشتّقٌ من جَنَّ إذا سَتَر، وتُطلَق على ذات الشَّجر المُثمِر المُختَلِف الأصْناف، فأمَّا ما كان نخلًا بحتًا فيُسمَّى حائطًا[4]، فالجنَّةُ أوضحُ أنواعِ الأماكن المُثمرة في ظهور النِّعمة، واستجلاب المسرَّة؛ لذلك

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/52.
(2) الخفاجي، عناية القاضي: 2/342، وينظر: القاسمي، محاسن التأويل: 2/206.
(3) الخفاجي، عناية القاضي: 2/342، وينظر: القاسمي، محاسن التأويل: 2/206.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/52.

كان التَّعبير بها ممَّا يستدعي أريحيَّة النَّفس، وراحةَ البال؛ فتُتلقَّى المعاني كتلقِّي الأشجار العَطْشى لوابلِ السماء.

فنُّ الجِناسِ المصحَّف:

الجمْعُ بينَ أصْلِ الشَّيْءِ وغايتِه براعةٌ لفظيَّة، ودلالةٌ إشاريَّة

بين قوله تعالى: ﴿حَبَّةٍ﴾ في المَثَل السَّابق، وبين ﴿جَنَّةٍ﴾ في المَثَل اللّاحق جِناسٌ مُصحَّف[1]، فقد أُهمِل نقطُ حرفِ الحاء، وأُعجِم حرفُ الجيم، كذلك اختلف حرف الباء والنون من حيث النَّقط، وهذا الفنُّ البديعيُّ فيه جمالٌ لفظيٌّ يورِّث الإعجابَ، فإنَّ الحبَّة هي أصلُ الجنَّة، فبدأ بذكر الأصل في المَثَل السَّابق وهو الحبَّة، وانتهى بذكر الغاية في المَثَل اللاحق وهي الجنَّة، فجَمَع بين أصل الشَّيْء وغايتِه على غاية ما يكون عليه الانتقاء من الألفاظ، ومثلُه لا تجِدُه إلّا في مثلِه.

توجيهُ تخصيصِ الرَّبوَة بالذِّكر:

ارتفاعُ الرَّبوَة يُعطيها الحمايةَ الذّاتيّة، ويزيدُ عطاءَها

الرَّبوة مكانٌ مرتفعٌ من الأرض، مُشرِفٌ على غيره، قريبة من معنى التَّلَّة، إلّا أنَّه يُلاحَظُ فيها معنى النُّموّ؛ لما يربو فيها وينمو من الأشجار والزُّروع، وارتفاعُ الرَّبوَة يحميها من السُّيول الجارِفة، وتدفُّقِ الأحجار العاتية، ويُقلِّل من سوم الحيوانات الآكلة، وهذه فوائد جمَّة، يصعب اجتماعها في كل جنَّة، فالرَّبوة "مكانٌ مرتفعٌ، مأمونٌ من أن يصطلِمَه البردُ لِلطافة هوائهِ بهبوب الرياحِ المُلطِّفة له؛ فإنَّ أشجارَ الرُّبى تكون أحسنَ منظرًا وأزكى ثمرًا، وأمَّا الأراضي المنخفضةُ فقلَّما تسلم ثمارُها من البرد؛ لكثافة هوائِها بركود الرياحِ"[2].

فائدةُ تَكرارِ قوله: ﴿أَصَابَهَا وَابِلٌ﴾ في المثَلين المتقابِلَيْن:

ذُكر قولُه تعالى: ﴿فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ﴾ في ﴿كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ

(1) الجناس المصحف: ما تماثل ركناه في الحروف، وتخالفا في النقط. يُنظر: الهاشمي، جواهر البلاغة، ص: 328، والأولى استبدال هذا المصطلح بمصطلح الجناس المُنقّط، لتحاشي لفظ التصحيف.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/259.

تأمُّلُ الاختلافِ بين إصابةِ الوابلِ للصَّفوانِ مَحْقًا، وإصابتُه للجنَّة بركةً

﴿ٱلنَّاسِ﴾ [البقرة: 264]، وفي هذا المَثَل، جاء: ﴿أَصَابَهَا وَابِلٌ﴾، وهو من قبيل تكرار اللفظ الواحد، والمعنى مختلف في سياقٍ واحد، وسمَّاه أبو هلال بالتَّعطُّف[1]، وزَعَم أنْ لا وجودَ له في القرآن إلّا في قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُواْ غَيْرَ سَاعَةٍۚ كَذَٰلِكَ كَانُواْ يُؤْفَكُونَ ۝٥٥﴾ [الروم: 55]، وفائدةُ هذا النَّوع تعيينُ المقابلةِ إيماءً، فإنَّ ذكر قوله: ﴿فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ﴾ و﴿أَصَابَهَا وَابِلٌ﴾ في مَثَلَيْن متقابلَيْن مختلِفَين، يدعو المتأمِّل لفهم الاختلاف بين إصابة الوابل للصَّفوان، وإصابته للرّبوة؛ فإنَّ إصابةَ الأوَّل مَحْقٌ، والثَّاني بَرَكةٌ، لإدراك أنَّ العبرةَ فيما يُصيبُه الوابلُ لا فيه، كما أنَّ العبرةَ في حالِ مَنْ يُنفقُ، لا في النَّفقةِ نفسِها!

حقيقة إسناد الإيتاء إلى الجنّة:

أسند العطاء إلى الجنّة لتوافر الأسباب التي خلقها المولى القدير فيها

الفاء في: ﴿فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ﴾؛ "للسببية، أي: أنّ ما قبلها سببٌ لما بعدها، وآتت بمعنى أعطت، والمعطي في الحقيقة هو الله تعالى، ولكن أسند إليها العطاء لتوافر الأسباب التي خلقها المولى القدير فيها، وتضافر كل المهيئات التي هيأها المولى العلي القدير لإنتاجها"[2].

سرّ التّعبير عن الثّمر بـ (الأُكل):

سرُّ التعبير بالأُكل القطْعُ بالاستفادةِ من نِتاج الجنَّة، والنَّصُّ على البرَكة

إسنادُ الإيتاءِ إلى الجنَّة في قولِه: ﴿فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا﴾ مجازيٌّ، وهو يُصوِّر حالةَ العطاء والبركة، واختيار الأُكل دون الثِّمار أو الحبّ، أو الزَّرع، أو الخير؛ لزيادة الطّمأنينة في القَبول؛ فإنَّ التَّعبير بالأُكل عن نتاج الجنَّة يؤكِّد الاستفادةَ منْها، فليس كلُّ ما تُنتجُه الجنَّات يُستفاد منه عادةً؛ فقد يُحرَق، أو يُتلف، أو يُسرق، أو تُصيبُه جائحةٌ، وهذا معروف معهود، فالتَّعبيرُ بالأُكل يقطعُ بأنَّ نتاج الجنَّة قد استُفيد منه، وذكرُ قَيْد ﴿ضِعْفَيْنِ﴾، أكَّد بركةَ الجنَّة

(1) أبو هلال العسكري، الصناعتين، ص: 420.
(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 2/986.

في الدّنيا، فإنَّ اجتماع الطَّلِّ، مع كون الجنَّة بربوة، ممَّا يزيدُ من العَطاءِ والبَرَكة.

في التعبير بالأُكل إشارةٌ إلى طِيبِ ثَمَرِ الجنّة وحُسْنِهِ

"الأُكل: الثمر الذي يؤكل، وفي التعبير عن الثمر بالأكل من غير وصف سواه إشارة إلى طيب ثمرها وحسنه، واستساغة النفس له، وجودة الغذاء منه؛ لأنه وصف بأخص ما يطلب له الثمر الجيد الطيب المستساغ وهو أن يؤكل"[1].

وجه تحديد المقدار بضعفين:

تأويل الضعفين بالكثرة أبلغ في التشبيه للنفقة بالجنة

ذهب أبو حيان إلى أنّ " قوله: ﴿ضِعْفَيْنِ﴾، مما لا يزاد به شفع الواحد، بل يكون من التشبيه الذي يقصد به التكثير. وكأنه قيل: فآتت أكلها ضعفين، ضعفاً بعد ضعف أي: أضعافاً كثيرة، وهذا أبلغ في التشبيه للنفقة بالجنة؛ لأن الحسنة لا يكون لها ثواب حسنتين، بل جاء: تضاعف أضعافاً كثيرة، وعشر أمثالها، وسبع مئة وأزيد"[2].

الضعف المثل أو المثلين، أو الإتيان مرتين مدحًا فيها وتأكيدًا في أوصاف حسنها

ونقل ابن عرفة عن مُفَسِّرِين أنّ (الضِّعف) هو المِثْل، أي آتت أُكلها المعهود على مرتين أعني: آتته وآتت مثله معه، أو مثليه، وعلى هذا يكون المعنى: فأتت أكلها أربع مرات، وعلى القول الآخر يكون المعنى: فإن أصابها الوابل تؤتي أكلها مرتين، وإن أصابها الطلّ فقط تؤتي أكلها مرة واحدة. وزاد ابن عرفة: ولا يمتنع أن يراد أنها تؤتي أكلها مرتين سواء أصابها وابل أو طلّ ويكون ذلك مدحًا فيها وتأكيدًا في أوصاف حسنها[3].

فائدةُ مجيءِ "إنْ" دون "إذا" في قوله: ﴿فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ﴾:

تُفيد (إنْ) مَظِنَّةَ وقوع الأمرِ مع قلَّته، بخلاف (إذا) فإنَّها تُفيد تحقُّقَه، وأفاد مجيؤها هنا تقليلَ توقُّع عدمِ إصابةِ الطَّلِّ للجنَّة لدى

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 2/986-987.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 2/325.
(3) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/321.

السَّامع، إشعارًا بأنَّ الخيرَ العميمَ هو الأصلُ، والخير الأقلّ هو الطَّارئ، والخير المعدوم لا وجود له، "والمعنى أنَّ نفقاتِ هؤلاءِ زاكيةٌ عندَ اللّه تعالَى، لاَ تَضيعُ بحالٍ، وإن كانت تتفاوتُ باعتبار ما يقارنها من الأحوال"[1].

أَثَرُ الفاصِلةِ في المثَل ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ﴾:

تضمَّنتِ الفاصِلَة براعةً في البيان لمضمون المَثَل، فجاءتْ بلفظِ الجلالة للتَّنبيه على عظيم العمل، وذُكِر لفظُ العملِ للتَّذكير بأنَّ هذا المَثَل هو مَثَلٌ لأعمال النَّاس، واختِير اسمُ ﴿بَصِيرٌ﴾، لإعلام المخاطبين بأنَّ أعمالهم معلومةٌ للّه تعالى؛ لاطِّلاعه عليها، ومراقبتِه لها، فهو "ترغيبٌ في الإخلاص، مع تحذيرٍ من الرِّياء"[2].

جمالُ التَّقابلِ بين المثَلَيْن:

التَّقابُلُ بين الصَّفوان والجنَّة

يمثِّل الصَّفوان نفقة المانِّ والمؤذي بنفقته الآخرين، كما أنَّ الجنَّة تمثِّلُ نفقة المتَّقي بلسانه فُحشَ القَوْل وأذى الجوارح، والنَّتيجةُ أنَّ الصَّفوان تُركَ صَلْدًا، تشبيهًا بالميّت الذي لا يُرجى منه خير، وأمَّا الجنَّة فقد أثمرَتْ وأنبَتَتْ، تشْبيهًا بامرأةٍ مِعطاءَة تُؤْتي أُكلَها عن حبٍّ للآخرين.

التَّقابُلُ بين إبطالِ النَّفقات وقبولِها

في المَثَل إشارة عجيبة لقبول النَّفقات، فإنَّ الوابل النّازل من السَّماء يمثِّل الإرشاد الإلهي، والصَّفوان والجنّة يمثِّلان النَّفقات التي يُقدِّمها أصحاب الأموال، فالصَّفوان يمثِّل إبطالَها، والجنَّة تمثِّل قبولَها، فعبِّر عن الإبطال بالصَّلْد، وعن القبول بإيتاءِ الأُكلِ، وهو ما يُمثِّل الأجرَ العظيم عند اللّه تعالى، وبقدر الماء النَّازل من السَّماء يزداد الخير، كما أنه بقدر العمل بتشريعات القرآن، يزداد القبول والأجر.

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/260.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/260.

التَّقابلُ بين الفاصلَتين:

خُتِم كلُّ مَثَلٍ بفاصلةٍ تُناسِبُه، فجاءَتْ فاصلةُ المَثَل الأوَّل: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: 264]؛ لبيان أنَّ المنَّ والأذى بعد الإنفاق من أحوال الكافرين، والله لا يهدي الكافرين ليتَّصفوا - على كفرهم - بصفات المؤمنين؛ فهي تحذيرٌ للمؤمنين.

بينما في فاصِلة المَثَل الثَّاني: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ﴾، فذُكر ما يُشيرُ إلى القَبول مع التَّحذير من مزالق الشيطان، فإنَّ اسم الله البصير يتضمَّنُ مراقبة الأحوال والاطّلاع عليها، فجاءَتْ كلُّ فاصلةٍ بما يناسِب المَثَل الذي سيقت فيه، فالفاصلتان اتَّحدتا في تحذير المؤمنين، مع تباين موضوعهما.

بلاغة الالتفات في الفاصلة:

تغيير جهة الكلام من الغائب إلى المخاطب فيه مزيد تنبيه وحثٍّ على التزامه، وقصد عمومه

في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ إلتفات في لفظ ﴿تَعۡمَلُونَ﴾ على الخطاب، والمعنى: أنه تعالى لا يخفى عليه شيء من الأعمال والمقاصد من رياء وإخلاص، وفيه وعد ووعيد[1]. وتغيير جهة الكلام من الغائب إلى المخاطب فيه مزيد تنبيه وحثٍّ على التزامه، وعموم في شموله وذلكم أبلغ من التخصيص المحتمل لعودة الكلام في الفعل (يعملون)[2] على المنفقين المخلصين، أو المنافقين.

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 2/326.

(2) وهي قراءة للزُّهري بحسب ما ذكر أبو حيان في البحر المحيط: 2/326.

﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٦٦﴾﴾ [البقرة: 266]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

ناسبَ المَثَلُ المذكورُ في هذه الآيةِ السَّابقَ من الأمثال؛ فمَثَل الصَّفوان هو مَثَلٌ حجريّ، فيه إشارةٌ إلى قسْوة القلوب، والتُّراب الذي عليه إشارةٌ إلى قابلية اللّين وإنباتِ الخَيْر، والمَثَل المقابل هو مَثَلُ الجنَّة التي بربوة، وهو مَثَلٌ تُرابيّ، إشارةً إلى الخَيْر الكامِن في النّفس المؤمنة، ثم جاءَ هذا المَثَل تنبيهًا وتحذيرًا لعدم الاغترار بكثرة النَّبات، وعظيم الفِعال؛ فإنَّ العبرة كامنةٌ في الاستمرار والبقاء، لا بمجرَّد الرفع والبناء.

فوقع هذا المَثَلُ بعد المَثَلين لبيان أنَّ اختيار طريق الجنَّة التي هي بربوة، يحتاج إلى إنضاج نِيَّة، لا أعمالٍ نَيّة، وقد ذكرتْ فاصلةُ الآيةِ السَّابقة بأنَّ الله بصيرٌ بأعمالنا، فكان مَثَلُ هذه الجنَّة التي آلتْ إلى الاحتراق مثالًا واضحًا على التَّنبيه الوارد في فاصلة السَّابقة؛ ليقوى العمل، ويتيقَّظ الفكر؛ ولذلك خُتِمت هذه الآية بقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾؛ فناسَبَ المَثَلُ المَثَلَ، والفاصِلةُ الفاصلةَ، على أبدع ما يكون عليه النّظم، وأغزر ما تأتلف عليه معاني الفَهْم.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ذُرِّيَّةٌ﴾[1]: تُطلق في الأصل على الصِّغار من الأولاد، وتقعُ - في العُرْفِ - على الصّغار والكبارِ معًا، وتُستعملُ في الأصل للجمعِ، وللواحدِ كذلك، قال تعالى: ﴿ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ ۗ﴾ [آل عمران: 34]، وقال: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ۚ﴾ [الإسراء: 3]، وقال: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾﴾ [يس: 41]، وقال: ﴿إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ﴾ [البقرة: 124].

(1) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (ذرأ)، (ذرو)، (ذرر)، والسمين، الدر المصون: 2/102.

وفي أصل الذُّرِّيَّة أربعةُ مذاهبَ، أحدُها: أنها مشتقةٌ من ذَرَوْتُ، فيجوز - على هذا المذهب - أَنْ يكونَ وزنها فُعُّولَة، ويجوزُ أَنْ يكونَ وزنُها فُعِّيْلَة. الثاني: مِنْ ذَرَيْتُ، لغةً في ذَرَوْتُ، فيجوز فيها أيضاً الوجهان السابقان. الثالث: من ذَرَأَ اللهُ الخَلْقَ، مهموزاً، فوزنُها فُعِّيْلة. الرابع: من الذَّرّ، فيجوزُ في وزنها أربعةُ أوجه، أحدُها: فُعْلِيَّة، وتَحْتمل هذه الياءُ أَنْ تكونَ للنسَبِ وغَيَّروا الذالَ من الفتحِ إلى الضمِّ، كما قالوا في النَّسَبِ إلى الدَّهْر: دُهْري وإلى السَّهْل: سُهْلي بضمِّ الدال والسين فيهما، وأَنْ تكونَ لغيرِ النسَبِ فتكونُ كقُمْرِيَّة، والثاني: أن تكونَ: فُعِّيْلَة كمُرِّيقَة، والثالث: أن تكونَ فُعُّولة كَقُدُّوس وسُبُّوح، والرابع: أن تكونَ فُعْلُولَة.

والأصولُ الأربعةُ المختلَفُ في أصْلِها تعودُ إلى معنًى واحدٍ متقارب، وهو البَذْرة الصَّغيرة، فالخلقُ يَبْدأُ من البَذْرةِ الصَّغيرة، والذَّرا ما تذروه الرِّياح، وهو الشَّيءُ الصَّغير الذي تتناقلُه الرِّيح، والذَّرُّ الشَّيءُ الصَّغيرُ اللطيف، ويُقال: ذرّ البقلُ: أول خروجِه.

فبقطع النَّظر عنِ الأصلِ الذي تنتمي له كلمة الذُّرية، فهي ترجع إلى معنىً كليٍّ واضح، وهو: صِغارُ الأشياء أوَّل ما تظهر ويخرجُ منها نِتاجٌ آخر؛ لذلك فلفظ الذُّريّة من الألفاظ التي فيها أملُ الحاضر والمستقبل، كما قال تعالى: ﴿وَأَصۡلِحۡ لِي فِي ذُرِّيَّتِيٓۖ إِنِّي تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَإِنِّي مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ١٥﴾ [الأحقاف: 15]، أي: أصلح لي إصلاحًا مستمرًّا في ذريَّتي، ولذلك عدَّاه بحرف (في) لا بنفسه.

2) ﴿إِعۡصَارٞ﴾[1]: تدور مادَّة العصر على استخلاص لُبِّ المعصور، وهذا المعنى شِبْه مُطَّرِد في القرآن الكريم، وهو ملحوظٌ في غالب الاستعمالات اللغوية صراحةً أو بنوع تأويل، فالعصر المُقْسَمُ به في القرآن هو آخر اليوم، الذي يُستخلَصُ فيه عملُ اليوم كلِّه، والمُعْصِرات هي التي تعصِرُ الماءَ المجموعَ في الهواء، ويعصرون عصر البُذور، والزيتون، والفاكهة. وأمَّا الإعصار فهو الهواء المُلتفّ عموديًا، "وإنَّما سُمِّي ذلك الهواءُ إعصارًا لأنَّه يلتفُّ كما يلتفُّ الثَّوبُ المعصورُ، وقيل: لأنَّه يعصِرُ السَّحابَ، أو يعصِر الأجسامَ المارَّ بها"[2].

(1) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (عصر).
(2) الآلوسي، روح المعاني: 2/37.

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

ضربَ اللّٰهُ مثلًا متكاملًا في مضامينه، متتامًّا في معانيه، يصوِّر به حالَ المُنْفِقِ مالَه رياءً، وهو خطابٌ لكل عاقلٍ بانفرادِه، وقد تضمَّن المَثَلُ أوصافًا لحديقةٍ دنيويَّةٍ لمْ ترَ العَيْنُ مثلَها، فهي أوصافٌ من الصّعْبِ وجودُها، وإن وُجدَت فلا تكون إلّا لمن جُمِع له خيرُ الدُّنيا بتمامه؛ ففيها النَّخيلُ والأعناب، وتجري من تحت أشجارها المياهُ العَذْبة، وله فيها من كلِّ ألوان الثمرات وأنواعها، ثمَّ بعد ذلك تجتمعُ - على صاحب هذه الحديقةِ الغَنَّاء - مصائبُ الزّمان السُّنَنيَّة، مع مصائب الدَّهر القَدَريَّة، فيَشتَعلُ رأسُه شَيْبًا، فأصبح شيخًا لا يقدر على الكسب، ولا يستطيع أن يغرس مثل هذا الغرس، وله أبناء صغار ضعفاء لا يستطيعون العمل، وفي هذه الحالة هبَّت على حديقته الأثيرةِ ريح شديدة، فيها نار محرقة فأحرقتها، فلم يبقَ من عمل الأبدَان إلّا ما احتفَظَ به الوِجْدان، وهكذا حال غير المخلصين في نفقاتهم، يأتون يوم القيامة ولا حسنة لهم! بمثل هذا البيان يبيِّن اللّٰه لكم ما ينفعكم؛ كي تتأملوا، فتخلصوا نفقاتكم للّٰه؛ وليقوى النَّاظر في هذا المَثَلِ على التَّفكُّر بمفردِه؛ فإنَّ المقصود بناءُ الإيمان الغيبيِّ، بما يراه الإنسانُ من الواقع الحسيِّ، فهذا أدعى للتَّفكُّر والعمل، من الانكفاءِ خَلْفَ الأماني والكَسَل، وليَعلَم كلُّ عاقلٍ أنَّ العِبرَة بالصّبر على الإيمان، والتَّحلّي بكتم اللسان، وهذا من أعظم ما اشتملَ عليه بيان القرآن، وذاقه فكرُ الإنسان.

❁ الإِيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

هذه الآيةُ أصْلٌ في التَّفكُّر البلاغيّ عنْد الصَّحابةِ والسَّلَف:

المَثَلُ القرآنيُّ وأثرُه في فَهْمِ مقصودِ الخطابِ القرآنيِّ

للحوارِ اللغويّ والبلاغيِّ بين الصَّحابة في القرآنِ الكريمِ إشاراتٌ في الموروثِ الصَّحيح بالغةُ الأهميَّة، ومنْها هذه الآيةِ، وقد ورَدَ عن السَّلفِ طائفةٌ من التَّأويلات لهذا المَثَل، وكلُّها يحومُ حول ركيزةٍ واحدة، وهي بلاغةُ المَثَل القرآنيِّ في بيان مقصودِ الخِطاب.

التَّوجيه الأوَّل

أخرجَ البُخاريُّ عنْ عمرَ بنِ الخطَّاب رضي الله عنه أنَّه قال يَوْمًا لِأَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ: "فِيمَ تَرَوْنَ هَذِهِ الآيَةَ نَزَلَتْ: ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ﴾؟ قَالُوا: اللّٰهُ أَعْلَمُ، فَغَضِبَ عُمَرُ فَقَالَ: "قُولُوا نَعْلَمُ أَوْ لَا

نَعْلَمُ"، فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: فِي نَفْسِي مِنْهَا شَيْءٌ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، قَالَ عُمَرُ: "يَا ابْنَ أَخِي قُلْ وَلاَ تَحْقِرْ نَفْسَكَ"، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: ضُرِبَتْ مَثَلًا لِعَمَلٍ، قَالَ عُمَرُ: "أَيُّ عَمَلٍ؟" قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: لِعَمَلٍ، قَالَ عُمَرُ: "لِرَجُلٍ غَنِيٍّ يَعْمَلُ بِطَاعَةِ اللَّهِ ﷻ، ثُمَّ بَعَثَ اللَّهُ لَهُ الشَّيْطَانَ، فَعَمِلَ بِالْمَعَاصِي حَتَّى أَغْرَقَ أَعْمَالَهُ""[1].

التَّوجيه الثَّاني

قولُ مجاهِد: مَثَلٌ للمفرِّط في طاعة الله حتّى يموت، أي: أيوَدُّ أحدُكُم أنْ يكونَ له دنيا لا يَعْملُ فيها بطاعةِ الله، كمَثَل هذا الذي له جنَّةٌ، وأَصابَه الكِبَرُ وله ذريَّة ضُعَفاء، فأصابَ الجنَّةَ إعصارٌ فيه نارٌ فاحترقتْ، فمثلُه بعد موتِه كمَثَلِ هذا حين أُحرِقَتْ جنَّتُه وهو كبيرٌ، لا يُغني عنها شيئًا، وولَدُه صِغارٌ لا يُغْنون عنْها شيئًا، وكذلك المفرِّطُ بعد الموتِ، كلُّ شيءٍ عليه حَسْرة[2].

التَّوجيه الثَّالث

قولُ الضَّحّاك: "مَثَلٌ ضَرَبَه الله للكافِرِ، يقولُ: يَلْقاني يَومَ القِيامَة، وهو أحوجُ ما يكونُ إلى خيرٍ يُصيبُه، فلا يجدُ له عِندي خيرًا، ولا يَستطيعُ أنْ يدفعَ عن نفسِه من عذابِ الله شيئًا"[3].

التَّوجيه الرَّابع

قولُ السُّدّيِّ: "هذا مَثَلٌ آخرُ لنفقةِ الرِّياء، إنَّه يُنفِقُ مالَه يُرائِي النَّاسَ به، فيذهب مالُه منه وهو يُرائي، فلا يأجُرُه الله فيه، فإذا كان يومُ القِيامَة واحتاجَ إلى نفقتِه، وجدها قد أحرَقَها الرِّياءُ، فذهبتْ كما أنْفقَ هذا الرَّجُلُ على جنَّتِه، حتّى إذا بلَغَتْ وكَثُرَ عيالُه، واحتاجَ إلى جنَّتِه جاءَتْ رِيحٌ فيها سَمومٌ، فأحرقَتْ جنَّتَه، فلم يجدْ منها شيئًا، فكذلك المنْفِقُ رِياءً"[4].

هذه أربعةُ توجيهات ورَدَتْ عنِ السَّلف في تأويل المَثَل، وهي متقارِبةٌ في أثرِها، متدانِيَةٌ في معناها، فإنَّ هذا المَثَل يصلح أن يكون

(1) صحيح البخاري، حديث رقم: (4538).
(2) ابن جرير، جامع البيان: 5/554.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 5/550.
(4) ابن جرير، جامع البيان: 5/554.

تَداني التَّوجيهاتِ في معانيها، وتقاربُها في مقصُودِها يُؤكِّدُ قوّةَ النَّظم

للمفرِّط في طاعتِه، وللكافِرِ، وللمُنْفِقِ المرائِي، إلّا أنَّ أكثرَها اتِّساقًا مع الآيات، وأوضحَها في العبارةِ ما ورَدَ عن السُّدِّيّ، فهو مَثَلٌ آخر للمنفقِ المُرائِي، وتوجيهُه مبنيٌّ على تأمُّل السِّياق، وإيضاحِ المعاني المعقولةِ بالمحسوسة.

وما ورد عن عمرَ بنِ الخطاب رضي الله عنه عامٌّ يدخلُ فيه المُنْفِقُ المُرائي، والمفرِّطُ بآخرتِه، وأمَّا قولُ الضَّحاك فيصلح أن يكونَ المَثَل استشهادًا له على حالِ الكافر يومَ القيامة.

بلاغةُ المَثَل في الاتِّساع الدّلاليّ، والمرونة البيانيّة

مَثَّلَ هذا المَثَلُ اكتنازًا بيانيًّا منقطعَ النَّظير، حيث أتى على مجموعَةٍ من المعاني الإرشاديَّة للمسلِم المفرِّط، والدّلالات الهدائيَّة للكافرِ الضَّال، ولو قطعنا المَثَل من سياقِه لصلُحَ أن يكونَ قطعةً بلاغيَّةً، ومثلًا سائرًا، ومعنًى سائدًا، يَظْهرُ فيه أثرُ إرشادِ المفرِّطين، وهداية الضَّالّين، وينطوي تحتَ ألفاظِه من عيون المعاني الجارية، وأنهار الاستنباطات المتدفِّقة، ما لا يخطُر في عقل عربيّ، ولا في خيال بلاغيّ.

براعة الاستعارة التمثيلية في الآية:

وجه الاستعارة تشبيهُ حالٍ بحالٍ لم تُذكر فيه أداة التشبيه ولا المشبّه

التشبيه في الآية من النوع البياني الذي يسميه علماء البلاغة (استعارة تمثيلية) وهي تشبيهُ حالٍ بحالٍ لم تُذكر فيه أداة التشبيه ولا المشبّه، بل ذُكر المشبّه به فقط، وقامت قرائن تدل على إرادة التشبيه، فهو تشبيه من ينقض عمل الخير الذي يعمله برياء يحبطه، أو مَنٍّ وأذى، أو مباهاة ومفاخرة ببرِّه بين الناس، بمن كانت له حديقة غَنَّاء جعلها موضع أمله في حياته فيها نخيل وأعناب، وأنهار تجري فيها مع الثمرات وقد أصابه الكِبَرُ، وله ذرية ضعفاء، وتكون عونًا لهم بعد وفاته؛ فأصابتها رياح شديدة فيها نار فاحترقت. فكذلك يجب أن ينفر فاعل الخير من تلك الموبقات التي هي كالريح العاصف الذي يهلك الزرع[1].

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 2/989-992.

بلاغة الاستفهام في قولِه: ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ﴾:

فائدة الاستفهام إنكار أنْ يَقَعَ في خاطرِ أحَدٍ من المخاطَبين وُدُّ امتلاكِ جنَّةٍ فيها من كلِّ الخَيْرات

أَلبَسَ السِّياقُ الهمزَةَ في قولِه: ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ﴾ ثوبَ الإنكارِ[1]؛ فهو" استفهام إنكارٍ وتحذير"[2]، ومفادُه: استِنْكارُ أنْ يَقَعَ في خاطرِ أحَدٍ من المخاطَبين وُدُّ امتلاكِ جنَّةٍ فيها من كلِّ الخَيْرات، وأصَابَه الكِبَرُ وهو ينفقُ منها على ذريَّةٍ ضُعفاء، فيُصيبها إعصارٌ فيه نارٌ فتتلف حرقًا ونثرًا، فإنَّ وقوعَ مثلِ هذا الودّ، ممَّا يُستنكَرُ ويُستهجَن!

بلاغة افتتاح المطلع بالودّ:

ترقيق الخطاب تهيئة للذهن طلبًا في الإقبال عليه

وترقيق الخطاب بـ ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ﴾ تهيئة للذهن لفهم ما يقال، والإقبال عليه، وتحريك للمشاعر، وبعثٌ للنشاط، وإشراك للعقول في تصوّر الحكم واعتناقه[3].

التَّعبيرُ بالودِّ دون الحبِّ:

اشْتمالُ الودِّ على معنى الحبِّ والتَّمنّي

للتَّعبير بالودِّ في هذا التَّمثيل معنًى مقصود، ذلك أنَّ الودَّ هو محبّة الشَّيء، وتمنّي كونه[4]، فلا يقتصِر اللفظُ على معنى الحُبِّ، بل فيه معنى التَّمنّي، ولأجل ذلك آثر النَّظمُ هذا اللفظ دون سواه، واستنكارُ الودِّ أشدُّ من استنكار الحبِّ؛ لأنَّه ينتقل بصاحبِه من مجرَّد الشُّعور إلى طلب الوقوع، وهذا ما وقع عليه الاستنكار في الآية.

التَّعبيرُ بالودِّ دون الإرادة:

التنبيه على الإنكار التام، والنفرة البالغة إلى الحد الذي لا مرتبة فوقه

وإنما قال: ﴿أَيَوَدُّ﴾ ولم يقل: (أيريد)؛ لأنّ "المودّة هي المحبة التّامة ومعلوم أنّ محبة كل أحدٍ لعدم هذه الحالة محبة كاملة تامة، فلما كان الحاصل هو مودة عدم هذه الحالة ذكر هذا اللفظ في

(1) الزمخشري، الكشاف: 1/313.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/54.
(3) المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 1/151.
(4) الراغب، المفردات: (ودد).

جانب الثبوت فقال أيود أحدكم حصول مثل هذه الحالة؛ تنبيها على الإنكار التام، والنفرة البالغة إلى الحد الذي لا مرتبة فوقه"[1].

دلالةُ المضارِعِ على الاستقبال:

دلالة المضارِع - بقرينة الاستفهام الإنكاريّ- نصٌّ في عدم مِلكيةِ المخاطَب للجنَّة وقتَ الخطاب

دلَّ الفعلُ المضارِعُ في قوله تعالى: ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ﴾ على الاستقبال؛ بقرينة الاستفهام الإنكاريّ، وبدلالة قوله: ﴿أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ﴾، فإنَّها نصٌّ في عدم مِلكيةِ المخاطَب للجنَّة وقتَ الخطاب؛ لأنَّ معنى (أنْ) الاستقبال[2]، واللام للمِلك؛ فكأنَّه قال: أنْ يَمْلِك جنَّةً في المستقبَل، وهذه دلالة مُستقاةٌ من السِّياق كذلك.

دلالةُ إفرادِ الجنَّةِ:

دلالة الإفرادِ أوضحُ في التَّصوُّر من الجمْعِ، وملحوظٌ فيه عِظَمُ شأنِها

أُفرِدَتْ الجنَّةُ ولم تُجمَعْ، على أنَّ الجمعَ في الظَّاهرِ أقوى في التَّمثيل، فامتلاكُ الجنّات واحتراقُها، أشَدُّ وقعًا من امتلاك الجنَّة الواحدة واحتراقِها، والجوابُ عن ذلك من وجهين:

الأوَّل: الإفرادُ يُحقِّقُ مُرادَ الجَمْع؛ ذلك أنَّ المقصودَ بالتَّمثيل تعظيمُ شأنِ الجنَّة، فهي جنَّةٌ ليستْ كأيِّ جنَّة، دلَّ على عِظَم شأنِها قولُه: ﴿جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾، فهو دليلٌ على سعتِها، وامتدادِ شجرِها وتكاثفِه، ويُؤيِّدُه جمعُ الأنْهار، وكونُها تجري من تحتها، فإذا تحقَّق مقصودُ الجَمْع استُغنيَ عَنْه؛ وعليه فالتَّنوينُ أفادَ التَّعظيم.

الثَّاني: الإفرادُ أقوى في التَّصوُّر والتَّخيُّل، فإنَّ تصوَّرَ الجنَّة الواحدة في الذِّهنِ أوضَحُ من تصوُّر جنَّاتٍ؛ فإنَّ التَّصوُّر يتركَّزُ حولَ جنَّةٍ واحدة، فيقوى تأثيرُ ذلك في الاعتبار، وهذا مقصودُ التَّمثيل.

تخصيصُ النَّخيل والأعنابِ بالذِّكر:

خُصَّ ذِكرُ النَّخل والأعناب بالذِّكر دون غيرها من الأشجار

(1) الرازي، مفاتيح الغيب: 7/51.
(2) الفراء، معاني القرآن: 1/175.

والثَّمرات؛ لأنَّهما أصلُ الجنّات، فالنَّخيل حائطُ الجنَّة، والأعنابُ أشْهرُ ثمارها عند العرب، فتخصيصهما بالذِّكر لا للحصْر، وإنَّما لأنَّ العربيَّ لا يتصوَّر الجنَّة بدونهما، فكان ذكرُهما أَرْشقَ في الاستحْضَار والتَّخيُّل، وقولُه في اللحاق: ﴿مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ دليلٌ على أنّ ذِكرَهما لم يكن حصرًا، ولا تتميمًا، بل تنبيهًا على أنَّهما أصلُ الجنَّة وعمادُها؛ فهي النّكتة المقصودة. قال الزمخشري: "النخيل والأعناب لمّا كانا أكرم الشّجر وأكثرها منافع، خصّهما بالذكر، وجعل الجنة منهما - وإن كانت محتوية على سائر الأشجار- تغليباً لهما على غيرهما"[1] وزاد الرازي: "وإنما خصّ النخيل والأعناب بالذكر؛ لأنهما أشرف الفواكه، ولأنهما أحسن الفواكه مناظر حين تكون باقية على أشجارها"[2].

وجهُ تخصيص النَّخيل والأعنابِ بالذِّكر التنبيهُ على أنَّهما أصلُ الجنَّة وعمادُها، وتغليبًا لهما على غيرهما

تخصيصُ شجَرة النَّخيلِ بالذِّكر دون ثمرِها، وثمَرة الأعنابِ دون شجرِها:

خصَّتِ الآيةُ بذكرِ شجَرَة النَّخيل لا ثمرِها، كما أنَّها في المقابلِ ذكرَتْ ثمرةَ الكرمة لا شجرتها، وهو كذلك في سائر القرآن؛ لأنَّ أُعجوبةَ النَّخلة في شجرتِها وثمرتها على حدٍّ سواء، جمالًا، وحجمًا، وفائدةً، وطولَ عمر، وحياطةً، واخضرارًا، ونفعًا في الطَّعام، فاكهةً، وقوتًا، وشرابًا، وسائرِ أصنافِ المنافع؛ كالسُّكنى، والأثاثِ، والعريش، وغيرها[3]، ولذلك قُدّم في الآية على الأعناب، أمَّا الكرْمة فإنَّ العربيَّ يتعلَّق بها لارتباطِها بثمرها؛ فاكهةً، وشرابًا، وقوتًا، ولا يكادُ يُذكرُ للكرْمة أمرٌ زائد على ذلك عن بقيَّة الأصناف، فتخصيصُ شجرِ النَّخيل، وثمر الكرْمَة بالذِّكر؛ أرسخُ بالمَثَل، وأقوى في الصُّورة، وأغنى في البيان.

أُعجوبةَ النَّخلة في شجرتِها وثمرتها على حدٍّ سواء، أما الأعناب فوجهُ تعلّق العربيّ بها ثمرةً، وفاكهةً، وشرابًا، وقوتًا

(1) الزمخشري، الكشاف: 1/314.
(2) الرازي، مفاتيح الغيب: 7/51.
(3) رضا، تفسير المنار: 3/58.

إيثارُ صيغةِ الجَمْع للأعنابِ:

الدّلالة على أنَّ الجنَّة المضروبَ بها المثَل واسعةٌ غنيَّة

آثَرَ النَّظمُ الكريم هنا جمعَ الأعناب دون الإفراد ﴿جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ﴾؛ ذلك أنَّ المقصودَ بالجمع هو أصنافُ العِنَب، فكأنَّه قال: أصنافٌ من الأعناب، وهذا يدلُّ على أنَّ الجنَّة غنيَّةٌ واسعةٌ، فإنَّ تعدُّد الأصناف يدلُّ على كثرتها، وهذا يوافق مقصودَ التَّمثيل، ويُؤيِّدُه السِّياق، حيث قال بعدها: ﴿لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾، بخلافِ قولِه تعالى: ﴿أَوۡ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٞ مِّن نَّخِيلٖ وَعِنَبٖ فَتُفَجِّرَ ٱلۡأَنۡهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفۡجِيرًا ٩١﴾ [الإسراء: 91]، فإنَّ المقصودَ التَّعجيزُ، وإفرادُ العنب يُغطِّي المُراد.

دلالَةُ صِيغةِ المضارِع ﴿تَجۡرِي﴾:

معنى المضارع ديمومة جريان المياه المترتب عليه دوام اخضرار الجنّة ونضارتها

أفادَت صيغةُ المضارعِ في قوله تعالى: ﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ تصويرَ المشْهدِ، وتلمُّسَ آثارِ المياه في أشجارِها، فهي تجري على الدَّوام، وديمومتُها دليلُ اخضرار الجنَّة ونضارتِها، "ولا شكّ أنّ هذا سببٌ لزيادة الحُسن في هذه الجنة"[1].

بلاغة المجاز العقلي:

وجه بلاغة المجاز المبالغةُ في حركة جري الماء حتى لكأنّ أماكن جريه هي التي تجري

إسناد الجري إلى الأنهار وهو للماء مجازٌ عقلي علاقته المكانيّة وسرُّ بيانه: المبالغةُ في تصوير حركة جري الماء حتى لكأنّ أماكن جريه هي التي تجري[2].

دلالةُ جمعِ الأنْهارِ دون إفرادِها:

يُثيرُ جمعُ الأنهارِ في النَّفس تصوُّرَ مدى سعة الجنَّة، فإنَّ جَرَيان الأنْهار من تحت أشجار الجنَّة يدلُّ على أنَّ الجنَّة واسعةٌ ومُمتدَّة، ويُشيرُ كذلك إلى أنَّ أشجارَها عظيمةٌ كبيرة، فإنَّ الأنهار لا تجري تحت الحشائش والشُّجيرات الصَّغيرة، فالجنَّة فوق أنَّها واسعةٌ،

(1) الرازي، مفاتيح الغيب: 7/51.

(2) المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 1/152.

بيان سَعَة الجنَّة وعِظَم أشجارِها وقِدمِها

هي قديمةٌ عتيقة، لا جديدةٌ فَطيرَةٌ، وهو ما يقودُنا إلى تصوُّر مدى العناية التي بلغتها يدُ مَنْ أشرَفَ عليها، حتَّى وصلت إلى ما وصلَت إليه، من السَّعة والعراقة حتَّى جَرَت الأنهار من تحتها.

استعمالُ التَّركيب ﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ في جنَّةٍ أرضيَّة:

خطابُ النَّفس فيما تشتهيه في الدُّنيا؛ لتحصيل ما تشتهيه في الآخِرَة

أُستُعمِل هذا التَّركيب ﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ للدلالة على جنَّة الخُلْد، إلّا في هذا الموضع فقد جاء والمقصود به جنَّةٌ أرضيَّة! فيُسْأَلُ عن ذلك؟

والذي يظهرُ أنَّ هذا المَثَل قُصِد به أمورٌ كثيرةٌ سوى الحثِّ على الإنفاق بإخلاص نيّة، فمن ذلك؛ أنْ يرتسمَ في خيالِ النَّاس هذه الجنَّة الأرضيَّة، فلا يجدون لها حضورًا واقعيًّا، فيحصُلُ في النَّفس شهوةٌ خفيَّةٌ لامتلاكها، فإذا ما قرؤوا الآياتِ التي ذَكَرت أوصافَ جنَّة الخُلْد وجدوها، فاطمأنّوا بها، فعَمِلوا لها، وهذا من أثرِ البلاغة القرآنيَّة في استعمال التَّراكيب الخاصَّة لبناءِ قيَمٍ نفسيَّة عميقة.

بلاغة الاحتراس في ذكر كل الثّمرات:

وجه الاحتراس لئلا يُظنّ أنّ هذه الجنة لا تجود إلا بالنخيل والأعناب

ذكر ﴿كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ بعد النخيل، والأعناب احتراسٌ بليغ؛ لدفع توهّم اقتصار الجنة على هذين النوعين من الثمار، والفواكه[1]، وهو إظهار لكمال حال هذا البستان[2].

فائدةُ جَمْعِ الثَّمرات دون إفرادِها:

لسائلٍ أن يسأل عن جمع الثَّمرات في قوله تعالى: ﴿لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾، وعدَم الاكتفاء بكلمة ﴿كُلِّ﴾ الدَّالة على العموم[3]؟ فلم

(1) المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 1/152.

(2) الرازي، مفاتيح الغيب: 7/51.

(3) ذهب بعض المفسِّرين إلى أنَّ جمع الثَّمرات لا يدلّ على العموم بل على التَّكثير، وهو كلامٌ فيه عموم وبعيدٌ عن التَّحرير، إذ إنَّ لفظَ كلّ، وجمع الثّمرات، كلاهما يدلُّ على العموم، نعم قد لا يُراد العموم في الواقع، وإنَّما العموم الذِّهني، أي: كلُّ ما يتصوَّرُه الذِّهن من الثّمرات داخل في مضمون اللفظ، والعموم دالٌّ على التّكثير، بخلاف العكس، وهو قولٌ لا يُحفَل به، لاحتياجه إلى الدّليل، ومخالفته الظَّاهر، يُنظر: أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/206، والآلوسي، روح المعاني: 2/37.

المقصود بجمع الثمرات عمومُ أصنافِ نوعِ كلِّ ثَمَرة لا عمومُ أنواعِ الثَّمر

يقُل: (من كلِّ ثَمَرة؟) والجواب: أنَّه لا يُريد بالعُموم عمومَ أنواع الثَّمر، بل يريدُ عمومَ أصنافِ نوعِ كلِّ ثَمَرة، أيْ: أَصْنَافُ الرُّمَّان، والحمضيَّات، وغيرها. وإعرابُ ﴿مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ نعتٌ مبتدأٍ محذوفٍ تقديرُه: "ثمرٌ كائِنٌ من كلِّ الثَّمرات"[1]، والمعنى: له فيها من كلِّ نوعِ ثمرٍ أصنافُه، ثمَّ جَمَعَ النَّوعَ فقال: الثَّمرات؛ لِيدخلَ من كلِّ نوعٍ أصنافُه، ويُؤيِّده جمْعُ الأعناب، فكأنَّها مثالٌ متقدِّمٌ ذكرُه على ذلك؛ فكأنَّه قال: وأصنافُ نوعِ العنَب؛ ليُفهَم المقصود، وهو إيجازٌ بديعٌ، يتَّسقُ مع رَصْفِ الأمثالِ في القرآن.

سِرُّ التّعبيرِ عن إصابة الكبر بالماضي:

التعبير بالماضي استحضارٌ لصُورَة الجنَّة بعد تلاشيها؛ لتحقيقِ النَّدامة والخسارة

ذهبَ بعضُ المفسِّرين إلى أنَّ الماضي في قولِه: ﴿وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ﴾ وُضِع موضِعَ المضارع[2]، وعلَّل بعضُهم ذلك بكون الكِبَر لا يتمنَّاه أحد[3]؛ لأنّه مَظِنَّةُ شدَّةِ الحاجة إلى المنافع، ومَئِنَّةُ كمالِ العجز عن تدارك أسباب المعايش[4]. والتَّعبير بالماضي هو عينُ البلاغة، إذ المقصودُ استحضارُ صورةِ الجنَّة بعد أنْ يُصيب المتخيِّلَ الكِبَرُ، وبعد الاحتراق، أي: وقع للجنَّة وصاحبِها ما وقع من الخسارة الكبيرة، وهذا معنى حملِ الاستفهام على الاستنكار، وأيُّ موقعٍ لاستنكار امتلاكِ جنَّةٍ بهذه المواصفات قبل وقوع المصيبة؟!

علّة إيثار لفظِ الذُّريَّة:

الذُّريَّة تعبيرٌ عن الأولاد باعتبار التَّكاثر

عبَّرتِ الآية عن الصِّغار بالذُّريَّة دون الأولاد، أو الصِّغار؛ لِلَحَظٍ اختصَّ به هذا اللفظُ، وهو أنَّ الذُّريَّة تعبيرٌ عن الأولاد باعتبار التَّكاثر، فالذُّريَّة هي مَنْبَتُ البُذور، ومنها ينشأُ النَّسْل، والأملُ بالتَّكاثُر معقودٌ بها، والدّعامةُ الكبرى للذُّريَّة هي الجنَّة،

(1) الآلوسي، روح المعاني: 2/37.
(2) الفراء، معاني القرآن: 1/175.
(3) أبو حيان، البحر المحيط: 2/673.
(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/260.

فبذهابها يفقد معها صاحبُها طموحَ المستقبل في التَّكاثر، فهي عذابٌ مادّيٌّ ومعنويّ.

بلاغة الاحتراس في قوله: ﴿وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ﴾:

وجه الاحتراس أنّ من بلغ الكبر يكفيه ذرية ينفقون عليه

جملة: ﴿وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ﴾؛ احتراسٌ؛ لأن من بلغ الكبر يكفيه ذرية ينفقون عليه ولا يحتاج إلى أحد، وفيه بيانٌ لتمام الحاجة إلى ثمار الجنة[1].

تصويرُ اجتماعِ الإعصار بالنَّار مُنَكَّرَيْنِ:

اجتماعُ الإعصارِ بالنَّارِ تهويلٌ وتفظيعٌ، ونفيٌ لأسباب الحياة في الجنَّة، فما فاتَ الإعصار، أدركتْه النَّار

الإعصار هو الهواء الملتفّ الذي يجري بشكل عموديّ وبسرعةٍ كبيرة، يُدمِّرُ كلَّ ما يمرُّ به من الأشْجارِ والمزروعات، وأمَّا النَّارُ فهي المعروفة، والأصلُ حملُ الألفاظ على الظَّاهر، وهذا أمرٌ معهودٌ معروفٌ لدى من عنده خِبرةٌ بالأعاصير، وما قاله المفسِّرون من تفسيرِ النَّار بالسّموم[2]، فهو لعدم تصوّرهم وجودَ النَّار في الإعصار. واجتماعُ الإعصارِ بالنَّارِ في قوله: ﴿فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْۗ﴾ لا يُبقي شيئًا من أسباب الحياة في الجنَّة، فما فاتَ الإعصار، أدركتْه النَّار.

الإعصار ريح شديدة في غيم يكون فيها حدة من برد الزمهرير، وهو أحد قسمي النار

لفظ ﴿إِعْصَارٌ﴾ دالٌّ على الريح الشديدة جداً؛ وذلك لمجيئها على صيغة الاشتداد بزيادة الهمزة والألف فيه من العصر وهو الشدّة المخرجة لخبء الأشياء، والإعصار الريح الشديدة في غيم يكون فيها حدّةٌ من بردِ الزمهرير، وهو أحد قسمي النار[3]. وهذا هو وجه اجتماع الإعصار بالنار في الآية الكريمة.

دلالة العطف بحرف الفاء:

عطفتِ الإصابةُ بالفاء في قوله تعالى: ﴿فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/322.
(2) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 3/319.
(3) البقاعي: نظم الدرر: 4/87.

دلّت الفاء على سرعة المفاجأة بالإعصار، والتدمير بالاحتراق

﴿فَٱحۡتَرَقَتۡۗ﴾؛ لتصوير سرعة المفاجأة المؤلمة، وعُطف الاحتراق بها أيضًا لبيان سرعة فنائها وتدميرها[1].

بلاغة التشبيه في الفاصلة:

أظهر التَّشبيهُ بلاغةَ المَثَل في شدَّة بيانه، ووضوح معناه، فجُعِلَ أصلًا وقاعدةً ليُشبَّه به غيرُه من الآيات

الكاف في قولِه تعالَى: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَتَفَكَّرُونَ ٢٦٦﴾؛ للتَّشبيه، أي: مثل ذلك البيان المتقدِّم الواضحِ الجاري في الظهور مجرى الأمورِ المحسوسة[2]. يُبيِّن اللّٰه لكم جميعَ الآيات، رجاءَ أن تتفكَّروا فيها، وتُمعنوا النَّظر في مجاريها، فتصلوا إلى مبتغى الفقه، ومقصود الفهم، وقد أظهر التَّشبيهُ بلاغةَ هذا المَثَل في شدَّة بيانه، ووضوح معناه، فجُعِلَ أصلًا وقاعدةً ليُشبَّه به غيرُه من الآيات، وهذا من دواعي عدِّ هذه الآيات من أمثلة فنِّ التَّتميم[3] في القرآن الكريم.

هو من تشبيه الكلّي العام بالصورة الجزئية للتشبيهات السابقة

التشبيه في الفاصلة تشبيه الكلي العام من بيان اللّٰه سبحانه وتعالى في كل آياته، بهذه الصورة الجزئية التي رأيناها في تلك التشبيهات الرائعة وذلك السياق المحكم، وتلك المعاني الجلية التي يتدبرها المتدبر، فتجلى له معان كريمة سامية كلما أعمل فكره وتفكر وقدر، ومثل ذلك كما يجري في عباراتنا - ولكلام اللّٰه المثل الأعلى - أن يقول عندما يعمل عملا جيدًا يعمله فيستحسن، فيقول: كذلك أعمل دائمًا، أي كهذا العمل الذي استحسنتموه كل عمل. والمعنى التشبيه في الآية الكريمة على هذا يكون هكذا: كهذا البيان الجلي الرائع الذي بدا في هذا المثل المحكم بيان اللّٰه الكلي لكل آياته في كتابه الحكيم[4].

(1) المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 1/152.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/260.
(3) التَّتميمُ: هو ذكرُ معنًى فلا يُترك من أحواله التي تتمُّ بها صحتُه، وتكمُلُ معها جودتُه شيئًا إلاّ أُتِي به. يُنظر: قدامة بن جعفر، نقد الشعر، ص: 49.
(4) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 2/994.

بلاغة فنِّ التَّتميم:

بيان التتميم في الآية للمَثَل الذي ذكرَه الله للمنفقِ المُرائي في ذاته ومآله، تنبيهًا وتحذيرًا

القرآنُ كلُّه تامُّ المعنى، لكنَّ بعض الآيات نجدُ فيها استقصاءً للمعاني، واستتباعًا لأطراف المسألة، حتَّى يُؤتَى على حُسنِها من جميع الأوجه بما يندرج في ضمن فنِّ التَّتميم، وبيانها في هذه الآية للمَثَل الذي ذكرَه اللّه للمنفقِ المُرائي، من ذِكر الجنَّة وما فيها من النَّخيل والأعناب، تجري من تحتها الأنهار، وفيها من كلِّ الثَّمرات، وما يُصيبُ صاحبَها من الكِبَر، وعنده ذريةٌ ضعفاء، وما يُصيبُ الجنَّة من الإعصار الذي فيه نارٌ؛ فيتركها محروقةً، وعنده ذريَّةٌ غيرُ مفيدة، فاجتمعت عليه مصائب ضياع الأموال، ومصيبة الكِبَر مع الذّريّة الضّعفاء؛ فلا هو قادرٌ على الإطعام، ولا هو قادرٌ على إعادة الإنبات، وهذا من بدائع تتميم المعاني وتكاملها في بيان المَثَل في ذاته ومآله، تنبيهًا وتحذيرًا، ابتداءً صريحًا وانتهاءً فصيحًا.

إيثارُ التَّفكُّر على مرادِفاتِه في الفاصِلة:

التفكّرُ طريقُ الإيمانِ، الموصِلُ إلى الحقِّ البيِّن، وبه تقومُ الحجَّةُ على الخلق

اختيرت مادّة التّفكُّر في فاصِلة الآية ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾، دون التَّدبّر أو التّذكّر أو العقل؛ ذلك أنَّ "التّفكّر تصرُّفُ القلبِ بِالنّظرِ في الدَّلَائِل"[1]، وأما الفكرة فهي: "قوّة مُطْرِقةٌ للعلم إلى المعلوم، والتَّفَكُّرُ: جَوَلان تلك القوّة بحسب نظر العقل"[2]، وعلى هذا فقد ذكرتِ الآيةُ القرآنيَّةُ دلائلَ محسوسةً للتَّفكّرِ فيها؛ للوصولِ إلى المعلومِ الحقّ، فإذا وصلَ المُتفكِّرُ إلى المعلوم؛ لَزِمَه أنْ يلزَمَ ما عَلِمَه بوساطةِ التَّفكُّر، فالفكرُ طريقُ الإيمانِ، الموصِلُ إلى الحقِّ البيِّن، وبه تقومُ الحجَّةُ على الخلق.

دلالة (لعل) في الفاصلة:

"ولعل في قوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ هي في الرجاء،

(1) الفروق اللغوية، أبو هلال العسكري، ص: 75.
(2) المفردات، الراغب: (فكر).

(لـعـل) منه سبحانه وتعالى تحقّق وتأكّد، أو هي في الفاصلة للتعليل

وليس الرجاء من الله تعالى؛ لأن الله سبحانه وتعالى عالم بكل شيء، فلا يكون منه رجاء وتوقع؛ لأن ذلك شأن من لَا يعلم، إنما يكون منه سبحانه وتعالى تحقق وتأكد؛ وإنما معنى الرجاء هو المتفق مع ذات البيان؛ لأنَّ ذلك من شأنه أن يرجى معه تفكر المتفكر وتدبر التدبر؛ ولذلك قال بعض العلماء: إن لعل هنا للتعليل، فالمعنى كان ذلك البيان لتتفكروا وتتدبروا"[1].

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 2/995.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ ۖ وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُواْ فِيهِ ۚ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٢٦٧﴾﴾ [البقرة: 267]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

بعد ذكرِ الأمثالِ الموطِّئة للأمر بالنَّفقة على وجهها، شرَعَ في بيانِ المقصودِ وهو الأمرُ بالصَّدقات بعد أن قدَّم بين يدي الأمر بها مواعظ ترغيبًا وتحذيرًا، وهي طريقةٌ بلاغيَّةٌ في الخطابِ، بتقديم ما يُرغِّبُ بالمقصود قبل ذكرِه، وهذا وإن كان من ارتكابِ خِلافِ مقتضَى الظَّاهر في ترتيبِ الجُمَل، إلّا أنَّه لمَّا شَاعَ بين النَّاس التَّرغيبُ في الصَّدقة، وتكرَّر ذلك في نزول القرآن، فأصبَحَ غرضًا دينيًّا مشهورًا، فكان الاهتمامُ بإيضاحِه والتَّرغيبُ فيه والتَّنفيرُ من نقائصِه أجدرَ بالبيان[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَلَا تَيَمَّمُواْ﴾: التيمّمُ: القصدُ، يقال: أَمَّ ك (ردَّ)، وأَمَّمَ ك (أَخَّرَ)، ويَمَّمَ، وتَيَمَّم بالتاء والياء معًا، وتَأَمَّم بالتاء والهمزة، وكلُّها بمعنَى قَصَدَ، وفُرِّق بينها بفروقٍ لطيفة، فقيل: "أَمَّمْتُه قَصَدْتُ أمامه، ويَمَّمْتُه: قصدتُه من أيِّ جهةٍ كان"، وأمَّ فلانٌ أمرًا، أي: قصد، والتَّيمُّم: يجري مجرى التَّوخِّي، يقال: تَيَمَّمْ أمرًا حَسَنًا، وتَيَمَّمْ أطيبَ ما عندَك فأَطعِمناه[2]، فشَمَلَ لفظُ التَّيمُّم معنى القصد والتَّوخِي، لتحقيقِ أمرٍ مرغوبٍ في النَّفس، وهذا المعنى لا يُؤدِّيه لفظُ القصْد وحدَه، ولا لفظُ التَّوخي وحدَه.

2) ﴿تُغْمِضُواْ﴾: الغَمْضُ[3]: النَّومُ العارِضُ، تقول: ما ذُقْت غَمْضًا ولا غِمَاضًا، وأصلُه مأخوذٌ ممَّا تَطَامَن من الأرضِ، وجمعه: غُمُوضٌ، ودارٌ غامِضةٌ: غير شارعةٍ، وغَمَضَتْ تَغْمُضُ غُمُوضًا، وأمرٌ غامِضٌ، غَمَضَ غُموضًا، وحسبٌ غامِضٌ غيرُ معروف، وخلخالٌ غامِضٌ: غَمَضَ في السَّاقِ غُمُوضًا، والغُمُوضُ: بطونُ الأوديةِ.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/55.

(2) الخليل، العين: (أمم)، والسمين، الدر المصون: 2/600-601.

(3) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، والراغب، المفردات: (غمض).

فالغُموضُ هو ذَهاب شيءٍ في شَيءٍ حتَّى لا يُرى، أو يُعامَلَ معاملةَ ما لا يُرى، ولذلك استُعمل في التَّغافل والتَّساهل عن التَّدقيق في الأشياء، كما قال تعالى: ﴿وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُواْ فِيهِۚ﴾.

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

خطابٌ من اللّهِ لعباده للمؤمنين بالأمرِ بالإنفاقِ من طيِّباتِ كَسْبِهم، من التِّجارات والصِّناعاتِ والمِهَن، وما أخرجه اللّه تعالى لهم من الأرضِ من الثِّمار والزُّروع والمعادن، ليَعُمَّ أنواعَ الرِّزق على عباده، فكما منَّ عليكم بتسهيل تحصيلها فأنفقوا منها شكرًا للّه، وأداء لبعض حقوق إخوانكم عليكم، وتطهيرًا لأموالكم، وتزكية لنفوسكم من البخل، ويقتضي هذا الأمرُ اجتنابَ الإنفاقِ من المحرَّمات، ونهاهم إذ أنفقوا أن يجتنبوا اختيارَ الرديءِ من النَّفقات لإنفاقِه دون الجيِّد، ووضع لذلك معيارًا في معرفة الرّديء من الجيِّد: بأنَّهم لا يقبلوه إنْ قُدِّمَ لهم لو كانوا في مقام آخذ الصَّدقة، إلّا في حال التغافل عن النَّظر فيه.

ثمَّ أخبرَهم سبحانه بأنَّه غنيٌّ عن أموالِهم؛ لأنَّه هو الذي يمُدُّهم بها، ونفع صدقاتهم وأعمالهم عائد إليهم، وحميدٌ سبحانه وتعالى لمن أنفقَ الحلالَ من المكاسب، واختارَ الطيِّبَ الجيِّدَ مما أخرجه اللّه من رزق الأرض، وهو المحمود؛ لأنَّه الذي يمُدُّ عبادَه بأسباب الرِّزق ليشكروه عليها، وعلى ما يأمرهم به من الأوامر الحميدة والخصال السَّديدة[1].

❁ الإِيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

النِّداءُ بالبعيدِ وخطابُ المؤمنين بالاسم الموصول:

وجه النداء لتحفيز المخاطَبين على الإنفاقِ، وحثِّهم على الإسراع فيه

بدأتِ الآيةُ بأداة نداء البعيد ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ لترقُّب ما بعد النِّداء، من الأمر بالإنفاقِ، ولتحفيز المخاطَبين على الإنفاقِ، وحثِّهم على الإسراع فيه؛ خاطبَهم بالاسم الموصول، وجعَلَ صِلَتَه الإيمانَ، فهو القاعدةُ التي يُبنى عليها العملُ، وهو البناءُ الشَّامخ الذي يقوى باستطالته وامتداده.

(1) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 45.

"ابتدأ سبحانه بالنداء بالبعيد للدلالة على عموم النداء للمؤمنين في كل الأجيال من وقت البعث المحمدي إلى يوم القيامة، وكان النداء للمؤمنين لبيان أن من أخلاق أهل الإيمان أن يتصدقوا من الطيب لَا من الخبيث، وممّا تحبّه النّفس لَا مما تزهد فيه، فليس من مقتضيات الإيمان"[1].

الابتداء بنداء البعيد لشمول جميع المؤمنين به؛ ولبيان أنّ من أخلاق المؤمنين التّصدّق من الطيب لَا من الخبيث

بلاغة الافتتاح بالأمر:

أفضى قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا كَسَبۡتُمۡ﴾ إلى المقصود وهو الأمر بالصدقات بعد أن قدّم بين يديه مواعظَ وترغيبًا وتحذيرًا. وهي طريقة بلاغية في الخطاب؛ بتقديم المطلوب ثم المجيء بما يُكْسِبُهُ قبولًا عند السامعين، وربما قدَّموا ما يُكْسِبُ القبولَ قبل المقصود كما هنا. وهذا من ارتكاب خلاف مقتضى الظاهر في ترتيب الجمل، ونكتة ذلك أنه قد شاع بين الناس الترغيب في الصدقة، وتكرر ذلك في نزول القرآن؛ فصار غرضًا دينيًّا مشهورًا، وكان الاهتمام بإيضاحه والترغيب في أحواله والتنفير من نقائصه أجدرَ بالبيان"[2].

قدموا ما يكسب القبول عند السامعين قبل المقصود؛ لبيان وجه الترغيب بالصدقة، والتنفير عن نقائضه

علّة إيثارِ الإطنابِ الظَّاهر على الإيجاز:

آثرتِ الآيةُ الإطنابَ على الإيجاز في قولِه تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا كَسَبۡتُمۡ﴾، ولم يقلْ: (أنفقوا ممَّا كسبتُم) مَعَ إيجازِه؛ لأنّ البَلاغةَ القرآنيَّة قامتْ على رعيِ المعاني بالألفاظِ، والألفاظُ خوادِمُ المعاني، فآثر النَّظمُ الإطنابَ الظَّاهر على الإيجاز؛ للإشعارِ بأنَّ الإنفاقَ يجبُ أنْ يقومَ على قاعدة الكَسْب الطيِّب؛ فكأنَّه قال: أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ ولا تُنْفقوا من خبائث ما كَسَبْتُم، فحقَّقتِ الآيةُ بهذا الإطناب الظَّاهر إيجازًا بَدِيعًا؛ لأنَّ النَّهيَ عن

وجه الإطناب الإشعارِ بأنَّ الإنفاقَ يجبُ أنْ يقومَ على قاعدة الكَسْب الطيِّب

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 2/996.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/55.

الكسبِ الخبيث ما كان ليُعلَم إلّا بذكر الطَّيِّبِ من الكَسْب؛ وهذا الإطناب في حقيقته إيجازٌ، ومثلُه لا يكونُ إلّا في القرآنِ الكريم.

اتِّساقُ التَّعبيرِ بين مفردة الإنفاقِ والطَّيِّب:

بناءُ القيمةِ الإيمانيَّة في التّفكير لما بعد الموت، وما سيجنيه المؤمن من أعمالِه

التَّعبيرُ بالإنفاقِ في قولِه تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا كَسَبْتُمْ﴾ يدلُّ على أنَّ المُنفَقَ من الطّيِّبات خبيءٌ تحتَ الأرض؛ لما دلَّت عليه مفردةُ الإنفاق، فالنَّفقُ هو أخدودٌ ترابيٌّ، فما يُنفقه المؤمنُ يُحفظ له تحت الأرض؛ لتنموَ وتتكاثرَ كما سبق في الأمثال المذكورة في سياق الآيات، لكنَّ الذي يزيده البيانُ القرآنيُّ في هذه الآية، هو أنَّ ما يكون خبيثًا تحت الأرضِ هو الطَّيِّبات لا الخبائث؛ فالآيةُ تُخاطِبُ المؤمنَ إرشادًا وتنبيهًا، أنِ احذَرْ أن تُنفقَ إلّا الطَّيِّبات؛ لأنَّها هي التي ستجدُها بعد موتك ناميةً متكاثرةً، فهي إشارةٌ عميقةٌ لمن تفكَّر فيما يُنفِق، فالطَّيِّب في الآخرة أكثرُ ترعرعًا، وأعظمُ أثرًا من غيره، والمضاعفَةُ مرهونةٌ بنوعِ المُنْفَق.

دلالةُ الجَمْعِ مع العُموم:

اشتمالُ المُنْفَقِ كلَّ ما هو مُتصوَّر من النَّفقات قلَّ أو كثُر

دلَّ جمعُ الطَّيِّبات في قوله: ﴿مِن طَيِّبَـٰتِ مَا كَسَبْتُمْ﴾ على العُموم والشُمولِ؛ فدخل فيه كلُّ مُكتَسَبٍ طيِّب، وهو متَّسِقٌ مع ﴿مَا﴾ المُشرَبَة بالعموم، وهذا يدُلُّ على أنَّ الإنْفاقَ مَقْبولٌ في كلِّ كسْبٍ طيِّب مُتصوَّر، مَهْما كان قليلًا في عدَدِه، أو صغيرًا في حَجْمه، وإخالُ قولَه ﷺ: "اتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ"[1] مُستقًى من نور هذه الآية، وهو ما يجعل الفقراءَ دَاخِلين في زُمرَة المنفقين أموالَهم ابتغاءَ مرضات الله تعالى.

نكتة إعادةُ الجارِّ وعدمُ الاكتفاء بالمُتقدِّم:

أُعيدَ حرفُ الجرِّ في قولِه تعالى: ﴿وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾، فلم يقل: (ومَا أَخرَجنا لَكُم)، عطفا على: ﴿مَا كَسَبْتُمْ﴾،

(1) صحيح البخاري، حديث رقم: (1417).

إمَّا من باب التَّأكيد، وإمَّا للدّلالةِ على عاملٍ آخرَ مقدَّرٍ، أي: وأَنْفقوا مِمَّا أَخْرَجْنا، ولا بدَّ من حَذْفِ مضافٍ، أي: ومن طيّباتِ ما أَخْرَجنا[1].

إعادةُ الجارِّ إمَّا من باب التَّأكيد، وإمَّا للدّلالةِ على عاملٍ آخرَ مقدَّرٍ

نُكتةُ عدم ذكر الطَّيِّبات في المُخرَجِ من الأرض:

عدَمُ ذِكرِ الطَّيِّبات في قوله: ﴿وَمِمَّآ أَخۡرَجۡنَا لَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِۖ﴾ إمَّا اكتفاءً؛ لتقدُّمِ ذكرِه؛ فأغنَى ذكرُ المتقدِّمِ لفظًا عن إعادته، وإمَّا لأنَّ ما يخرُجُ من الأرضِ غالبًا ما يكون طيِّبًا، وغالبُ المالِ الخبيثِ يَحْصُلُ من اكتسابِ النَّاس؛ كالظُّلْم والغِشِّ والاحتكار، وذلك غيرُ متصوَّرٍ في الثَّمراتِ والخُضرَوات والحُبُوب المُسْتخرَجَة من الأَرْض[2].

عُدل عن ذكر الطيبات رعيًا للاكتفاء، أو للغالبِ في الأموال المُكْتَسَبة

تقديمُ الجارِّ والمجرور:

قُدِّم الجارُ والمجرور في قولِه تعالى: ﴿وَمِمَّآ أَخۡرَجۡنَا لَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِۖ﴾: للاهتمامِ والعناية، فإنَّ قابليَّةَ الأرضِ لإخراجِ الخَيْرات منها، يدلُّ على العنَاية بالمخاطَبين، ويدلُّ كذلك على الامتنانِ؛ فإنَّ الإخراج كان لهم.

الدّلالةُ على العناية والرِّعاية، والامتنان بالنِّعم الجليلة

إسنادُ الفعل لضمير العظمة:

إسنادُ فعل الإخراج لضمير الفاعل (نا) الدالّ على العظمة في قولِه: ﴿أَخۡرَجۡنَا﴾، يزيد أمر إخراج الخيرات عنايةً ورعايةً وأهميَّةً، فالذي تولَّى إخراجَها هو اللّه تعالى.

ضمير العظمة يزيد أمر إخراج الخيرات عنايةً ورعايةً وأهميَّةً

دلالةُ حَرْفِ الجر (مِنْ):

أفادَ حرفُ ﴿مِّنَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمِمَّآ أَخۡرَجۡنَا لَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِۖ﴾ مَعْنى الابتداءِ، ولهذا المعنى تصويرٌ بديعٌ؛ فإنَّ الابتداءَ كائنٌ في الأرض، لكنْ أيُّ أرضٍ هي؟! وهذا ما يجعل الابتداءَ شاملًا للأرضِ كلِّها، أيْ: ما يُخرِجُه اللّه من كلِّ بقعةٍ في الأرضِ فإنَّ الإنفاقَ حاصلٌ

أفاد حرفُ الجر (مِنْ) معنى الابتداء، فدلَّ على شمولِ الأرض كلِّها، وعمومِ الخارج منها

(1) الزمخشري، الكشاف: 1/314، والسمين، الدر المصون: 2/600.

(2) الزمخشري، الكشاف: 1/314، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/56.

فيه، سواءٌ أكان الإخراجُ زرعًا، أو ثَمَرًا، أو معادن، فإنَّ الأمر بالإنفاق يشملُه جميعَه، فإنَّه ما من بقعةٍ في الأرض إلّا وفيها نوعُ خيرٍ خارجٍ للنَّاس، فدلَّ هذا الحرفُ على شمولِ الأرضِ، وعموم ما يخرُجُ منها.

معنَى أل في كلمة ﴿ٱلْأَرْضِ﴾:

دلَّت أل على الجنسِ، وفيه امتنانٌ خفيٌّ يُناسبُ النِّعَم الخفيَّة

الذي يُفهم من سِياقِ الآية، ومن دلالةِ حرف ﴿مِّنَ﴾ الابتدائية أنَّ الأرضَ هي كلُّ الأرضِ، فـ (أل) شاملةٌ لها كلِّها، فعلى ذلك يكونُ التَّعريفُ للجنسِ، وفي ذلك من الامتنان ما لا يخفى؛ فإنَّه ما من بُقعَةٍ إلّا ويخرُجُ منها من أنواع الخَيْر ما لا يُحيطُ به أحدٌ من الخَلْق، وهذا امتنانٌ خفيٌّ، يُناسِبُ النِّعَمَ الخفيَّةَ في الأرض.

بلاغةُ عَطْفِ النَّهي على الأمر:

وجه العطف التَّفصيلُ بعد الإجمال، والتَّعيينُ بعدَ الإبهام

جاءَ النَّهيُ عن قَصْدِ المالِ الرَّديءِ لإنفاقِه بعد عموم الأمرِ بالإنفاق في قولِه تعالى: ﴿وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُواْ فِيهِۚ﴾، وهو ما يُفصِّلُ المقصودَ بالإنفاق، بأنْ يكون من أوسَط المالِ جَوْدَةً، فيُجتَنَبُ توخِّي المالِ الرَّديء، وهذا من تعيين المُراد بالخطاب، وبلاغتُه تكمُنُ في دفع توهُّم أنَّ الإنفاق يتحقَّقُ في أيِّ مالٍ ما دام حلالًا.

دِقَّةُ التَّعبيرِ بالتَّيمُّم دونَ مُرادِفاته:

الكَشْفُ عمَّا يجولُ في النَّفس من معاني الشُّحِّ والحرص

استعمَلَتِ الآيةُ لفظَ التَّيمُّم دون مرادِفاتِه؛ لاشتمالِه على مَعْنَى القَصْدِ والتَّوخِي في تحقيقِ أمرٍ مرغوبٍ في النَّفس، وهذا المعنى لا يُؤدِّيه لفظُ القصْدِ وحدَه، ولا لفظُ التَّوخّي وحدَه، وهذا من بليغ استعْمالِ القرآنِ لمفرداته، فإنَّ قولَه تعالى: ﴿وَلَا تَيَمَّمُواْ﴾ نهيٌّ بليغٌ في تركِ توخّي المالِ الرَّديء لإنفاقه على الفقراء، وهو يكشف عن مكنونِ النَّفس التي تحرِص عن قصدٍ وتحرٍّ ورغبةٍ في التَّخلُّص من خبيثِ المال، والاستئثار بجيِّده، وهو يَنُمُّ عن شُحٍّ وبُخلٍ ذميم، غيرِ مقبولٍ عدُّه من صفات المؤمنين.

بَلاغةُ تقديرِ الجملةِ المحذوفةِ بالمذكُورَةِ:

من بلاغةِ الحَذْفِ في القرآن أنْ يَدُلَّ المُقابِلُ المذكورُ، على المقابلِ المحذوفِ، وهو حذفٌ يُعرَف من السِّياق، ويقدَّر من القرائن، فقوله تعالى: ﴿وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلۡخَبِيثَ مِنۡهُ تُنفِقُونَ﴾ دلَّ على المقابلِ المحذوف وهو: ولا تيمَّموا الطَّيِّبَ منه تبقون.

ونكتةُ حذف هذه الجملة دون التَّصريح بها، هو العلمُ بمضمونها التزامًا لدى المخاطَب، ولما تحويه من كَشْفٍ وتعرٍّ لحقيقة النَّفس المستأثرة بالطَّيِّب دون الرَّديء، وزعمها النَّفقةَ في سبيل الله تعالى؛ فكان لفُّ المحذوفةِ بأختها المذكورة أدعى للأوْبةِ من المواجهةِ، فهي قيمةٌ نفسيَّةٌ، هدفُها تهذيبٌ وتنبيهٌ وتحذيرٌ، من ورائه عملٌ جادّ، عن الشُّحِّ صادّ.

دلالة المُقابل المذكور على المحذوف قيمةٌ نفسيَّةٌ، هدفُها تهذيبٌ وتنبيهٌ وتحذيرٌ، من ورائه عملٌ جادّ عن الشُّحِّ صادّ

سرُّ التَّعبيرُ بالخَبيثِ دون الرَّديءِ:

المفرَدَة القرآنيَّةُ تكتنزُ المعاني اللّغويّة والسِّياقيَّة والثَّانويَّة، وقد آثرتِ الآية استعمالَ مفردة الخبيث في قولِه تعالى: ﴿وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلۡخَبِيثَ مِنۡهُ تُنفِقُونَ﴾ والمرادُ بها الرَّديءُ؛ لهدفٍ بيانيٍّ عظيم، وهو تنزيلُ الرَّديء منزلةَ الخبيث في الأثر، فإنَّ الخبيثَ "لا يُطْلَق على الرَّديءِ إلّا على وجه المبالَغَة، ووقوعُ لفظِه في سِياقِ النَّهي يُفيد عمومَ ما يَصْدُقُ عليه اللّفظُ"[1]، وفيه إشارةٌ إلى النَّفس التي أخرَجتْه؛ فإنَّ نفسَ الكريم تأبى أن تُخرِجَ إلّا ما يُترجِم عن مكنونها، ممَّا يُربِّي المجتمع على كرَمِ النَّفس، وتحاشي اقتراف خسائس الصِّفات.

تنزيلُ الرَّديء منزلةَ الخبيثِ مبالغةً، وتربيةُ المؤمنِ على تحاشي الفِعال الرَّديئة

بديعُ دِقَّةِ المقابلةِ في الحذفِ بين الجُمل:

ورد لفظُ الطَّيِّب[2] في الآية وأُريدَ به الحلالُ في قولِه: ﴿أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبۡتُمۡ﴾، وحُذِف مقابلُه وهو لفظُ الخبيث المراد به

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/56.

(2) هذا على القول الرّاجح في المسألة، وهو أنَّ الطَّيِّب هو الحلال، وهو الذي تقوّيه عمومُ الأدلة، وتشهد له القرائن الاتصاليّة.

الحرام، وذُكر الخبيثُ[1] المرادُ به الرَّديء في قولِه: ﴿وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلۡخَبِيثَ مِنۡهُ تُنفِقُونَ﴾، وحُذِف مقابلُه وهو لفظُ الطَّيِّب المراد به الجيِّد، فيكون التَّقديرُ كالآتي:

في الاستغناء بالمذكور اقتصادٌ في المباني واكتنازٌ في المعاني، وبلاغة في الحذف

أنفقوا من طيِّبات ما كسبتم، ولا تُنفقوا من خَبائثَ ما كسبتم، ولا تيمَّموا الخبيثَ منه تُنْفقون، ولا تيمَّموا الطَّيِّبَ منه تُبقون، وهذا من أدقِّ مسالكِ الحذْفِ في القرآن الكريم، فإنَّ الجملةَ الأولى المذكورةَ في جُمْلة الأمْر أعانَتْ على تقديرِ الجملة الثَّانيةِ المحذوفةِ في جُملَة النَّهي؛ لاشتراكِهما في لفظِ الطَّيِّب - وإن اختلف معناهما[2] -، وأعانتِ الجملَةُ الأولى المذكورَةُ في جملة النَّهي، على تقدير الجملةِ الثّانيةِ المحذوفةِ في جُملَة الأمْرِ؛ لاشتراكهما في لفظِ الخَبيثِ - وإن اختلف معناهما[3] -، وهذا من بليغِ الحذف ورصينِه، ومن قويِّ اللفظ وفصيحِه.

تَقْديمُ الجارِّ والمجرورِ على الفعلِ:

في تقديم المجرور دلالة الاختصاص؛ لتوبيخهم بما كانوا يتعاطَوْنه من إنفاق الخبيثِ خاصة لا لتسويغ إنفاقِه مع الطيب

دلالةُ تقديمِ الجارِّ والمجرور على فعل ﴿تُنفِقُونَ﴾ في قولِه تعالى: ﴿مِنۡهُ تُنفِقُونَ﴾؛ دلالةٌ نفسيَّةٌ، فإنَّ التَّقديم كَشَف عمَّا يجولُ في نفوس بعضِ المنفقين، من المُسارَعة والمبادَرة للتَّخلُّص من رديءِ المال وخسيسه، فكأنّهم يبحثون في المالِ عن رديئه ليتخلَّصوا منه، ولو قدَّم فعلَ ﴿تُنفِقُونَ﴾ لاختلف المعنى، إذْ لو قال: ولا تيمَّموا الخبيثَ تنفقون منه؛ لكان القَصْدُ متَّجهًا إلى الإنفاق ابتداءً، دون لَحْظِ ما يُصوِّرُه التَّقديمُ من المعنى النَّفسيّ، وهذا من بلاغة التَّقديم المُفصِحة عمّا يجول في النُّفوس، وهو ملْحَظٌ يدخلُ في الإعجاز النَّفسيِّ والغيبيّ في آنٍ؛ لأنَّه يكشف عن أمرٍ غيبيٍّ كامنٍ في بعض النُّفوس، وهو كذلك يكشف عن بُعدٍ نفسيٍّ، يستَتْبع تربيةً وعلاجًا.

(1) هذا على القول الرّاجح في المسألة، وهو أنَّ الخبيث هو الرَّديءُ من المال، والقول الآخر بأنَّ المرادَ به الحرام، حرامٌ عند دقيق النَّظر، فإنَّه لا يقوى أمام القرائن، ولا يصمد في مقابلة الأدلة.

(2) فلفظُ الطَّيِّب المذكورة معناها الحلال، والمحذوفة معناها الجيِّد.

(3) فلفظُ الخبيث المذكورة معناها الرَّديء، والمحذوفة معناها الحرام.

قال العمادي: "الجارُّ متعلق بـ ﴿تُنفِقُونَ﴾ والضميرُ لـ ﴿ٱلۡخَبِيثَ﴾ والتقديمُ للتخصيص والجملةُ حال من فاعل ﴿تَيَمَّمُواْ﴾ أي لا تقصدوا الخبيث قاصرين الإنفاقَ عليه أو من الخبيث أي مختصًّا به الإنفاق وأياما كان فالتخصيصُ لتوبيخهم بما كانوا يتعاطَوْنه من إنفاق الخبيثِ خاصة لا لتسويغ إنفاقِه مع الطيب"[1].

صيغةُ فعلِ ﴿تُنفِقُونَ﴾ وأثرُ السِّياق في فهمها:

دلالة (تنفقون) بيانُ قبحِ صُورة المنفقِ مالَه، والكشفُ عن سوء طويَّته

صوَّر الفعلُ المضارعُ ﴿تُنفِقُونَ﴾ قباحةَ الإنفاقِ الصَّادرِ عمَّن يفصِلُ المالَ الرَّديءَ عن الجيِّد، فما أقبحَ صورة المُنفقِ مالَه في هذا السِّياق، وما أجملَها في قوله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ﴾، وفي قوله تعالى: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثۡبِيتٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ كَمَثَلِ جَنَّةِۭ﴾، فجاء فعلُ الإنفاقِ بصُورة المضارِع في سياقين اثنين: أحدُهما: كان المنفقُ على أجمل ما يكونُ عَلَيْه الوصفُ، والثَّاني: كان المنفقُ على أقبح ما يكون عليه الوصف؛ إذ إنَّ إنفاقَه كان للتَّخلُّص من المالِ الرَّديء، لا لنَيْل الجزاء الجزيل، مع الحرص على إظهارِ أنَّهم ممَّن ينفقون، فأظهرَت الآيةُ ما يريدون إظهارَه، وكشَفَتْ عن حقيقةِ نفوسِهم، بأبدعِ لفظٍ، وأجزَلِ عبارة، وهذا من أثر السِّياق في فهم بلاغة الصِّيغ في القرآن الكريم.

بلاغة القياس التشبيهي:

وجه تَشبيهِ حالٍ بأخرى؛ لتصويرِ قُبح الفعل، وتداركه

تضمَّن قوله تعالى: ﴿وَلَسۡتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغۡمِضُواْ فِيهِۚ﴾ قياسًا تشبيهيًّا بديعًا، حيث خاطَبَ المُنفِقين، ونزَّلَهم منزلةَ المُنفَق عليهم، وبيَّن حالَهم إذا أُعطوا ما يُعطَوْه من الرَّفض الظَّاهر، أو الأخذ مع التَّغافل عن حقيقة المأخوذ، وهو ما يدلُّ على أنَّ "كراهيةَ كَسْبِه كانت معلومةً لديهم متقرِّرةً في نفوسِهم، ولذلك وقعَ القياسُ عليها"[2].

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/261.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/56.

نكتةُ التَّعبيرِ بالإغماض دون غيره:

لفظُ الإغماض تصويرٌ وتقبيحٌ لمدى رداءةِ المُنْفَق، ما لا يُصَوِّرُه لفظٌ آخر، والكشْفُ عن قسوة قلبِ المنْفِق

جاء التَّعبير بالإغماض دون التَّغافل، أو التَّساهل في قولِه تعالى: ﴿تُغۡمِضُواْ فِيهِۚ﴾؛ ذلك أنَّ لفظَ الإغماضَ فيه معنى التَّغافل الشَّديد[1]، وتصوير الحال، فإنَّ الإغماضَ هو غمضُ العَيْنَين، حتَّى لا يرى الرَّائي شيئًا، وهذا يزيد من تقبيح حال المُنفَق الرَّديء؛ فإنَّه يتطلَّب إغماضًا حقيقيًّا حتَّى لا يُرى، وهذا فيه تصويرٌ وتقبيحٌ لمدى رداءةِ المُنْفَق، ما لا يُصَوِّرُه لفظٌ: إلّا أن تتغافلوا عنه، وممَّا يزيدُ هذا البيانَ التَّعبيرُ بحرف الظَّرفيَّة، فإنَّ الآخذَ يُغمِضُ عيْنَيْه في المالِ الرَّديء، بمجرَّد رؤيته، ولا يُجبِرُه عليه إلّا الحاجة، وهو ما يعكس قسوةَ قلبِ هذا المنفِق على الفقراء، وعدمَ احتياطه فيما يُخرِج.

بلاغة المجاز في لفظ الإغماض: كنايةً أو ستعارةً:

الإغماض هناءٌ، واستراحةٌ، وتسامحٌ، ومبالغة في التغافل

قال العماديُّ في قوله تعالى: ﴿إِلَّآ أَن تُغۡمِضُواْ فِيهِۚ﴾ "هو عبارةٌ عن المسامحة بطريق الكناية أو الاستعارة يقال أغمضَ بصره إذا غضّه"[2]. أو الكراهة فكأن الرائي لكراهته له لا يملأ عينه منه بل يغمض من بصره ويغضّ عنه بعض نظره بُغضًا[3].

فالإغماض إطباق الجفن ويطلق مجازًا على لازم ذلك، فيطلق تارة على الهناء والاستراحة لأن من لوازم الإغماض راحة، ويطلق تارة على لازمه من عدم الرؤية فيدل على التسامح في الأمر المكروه، فإذا أرادوا المبالغة في التغافل عن المكروه الشديد قالوا: أغمض عينه على قذًى، وذلك لأن إغماض الجفن مع وجود القذى في العين هو لقصد الراحة من تحرك القذى[4].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/58.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/261.
(3) ابن القيم، التفسير القيم: ص: 170.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/57-58.

بلاغة أسلوب الاستثناء:

الاستثناء تقييد للنفي، أو تأكيد للشيء بما يُشبه ضدّه

الاستثناء في قوله: ﴿إِلَّآ أَن تُغۡمِضُواْ فِيهِۚ﴾ على وجه جعل الكلام إخبارًا، تقييدٌ للنفي. وأما على وجه جعل النفي بمعنى النهي فهو من تأكيد الشيء بما يشبه ضدّه أما لا تأخذوه إلا إذا تغاضيتم عن النهي وتجاهلتموه[1].

نُكتةُ الأمرِ بعلمِ المعلوم:

الأمر بعلم أنه الغنيُّ الحميد توبيخٌ على صنيعهم، وإيذانٌ بنعتهم بالجهل

أمرَ سبحانه وتعالى عبادَه أن يعلموا أنَّه الغنيُّ الحميد: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾، وهو أمرٌ معلومٌ يفيدُ "توبيخَهم على ما يصنعون من إعطاء الخبيث، وإيذانٌ بأنَّ ذلك من آثار الجهل بشأنه عن شأنه"[2]. فَنُزِّلَ المخاطبون الذين نُهوا عن الإنفاق من الخبيث منزلةَ من لا يعلم أن الله غني، فأعطوا لوجهه ما يقبله المحتاج بكل حال ولم يعلموا أنه يحمد من يعطي لوجهه من طيب الكسب، وافتتحه بـ ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ﴾ للاهتمام بالخبر[3].

اتِّساقُ الفاصِلة مع الآية:

في الفاصلة جمعٌ بين التَّرغيب والتَّرهيب، تحقيقًا لمنع التّصدّق بالرَّديء، وتقويةً لفعل ضدِّه

خُتِمَت الآيةُ بقوله تعالى: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ إعلامًا للمنفقين بـ ﴿أَنَّ ٱللَّهَ﴾ باسمه الأعظم المستكمل لجميع صفات الكمال من الجلال والجمال[4]؛ ﴿غَنِيٌّ﴾ عن أموالهم، فهي "كَالتَّهْدِيدِ عَلَى إِعْطَاءِ الْأَشْيَاءِ الرَّدِيئَةِ فِي الصَّدَقَاتِ، و﴿حَمِيدٌ﴾ بِمَعْنَى حَامِدٍ، أَيْ: أَنَا أَحْمَدُكُمْ عَلَى مَا تَفْعَلُونَهُ مِنَ الْخَيْرَاتِ"[5]، فهو "من أمثلة المبالغة، أي شديد الحمد؛ لأنه يُثني على فاعلي الخيرات"[6]، فجمَعَتِ الصِّفتان بين التَّرغيب والتَّرهيب، تحقيقًا لمنع هذا السُّلوك، وتقويةً لفعل ضدِّه.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/58.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/، والآلوسي، روح المعاني: 2/39.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/58.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 4/90.
(5) الرازي، التفسير الكبير: 5/55.
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/58.

﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلۡفَقۡرَ وَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغۡفِرَةً مِّنۡهُ وَفَضۡلٗاۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ ٢٦٨﴾ [البقرة: 268]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا ذكر سبحانه في الآية السَّابقة مظهرًا من المظاهر التي تطرأ على النُّفوس من الشُّحّ والبخل، وهو الاستئثارُ بطيبات الكسب والرِّزق، والتَّخلُّص من رديء المالِ - ممَّا كان حرامًا أو مستقذرًا - عن طريق إنفاقِه؛ نبَّه في الآية التي تليها على العلَّة الحقيقيَّة وراءَ ذلك المَظْهَر، وهي وساوس الشَّيطان، فكان صدرُ الآية بيانًا للعلَّة التي لأجلِها يتيمَّم المُنفقُ خبيثَ مالِه، وكان آخرُها بيانًا لعلاج هذا المظهر، فناسب مجيؤها في هذا الموقع أيَّما مناسبةٍ.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿بِٱلۡفَحۡشَآءِ﴾: الفُحْشُ[1]: هو القُبْحُ الشَّديدُ في كل قوْلٍ أو فعلٍ جاوَزَ قَدْرَه، وأصلُ هذه الكلمة يدُلُّ على قبحٍ في الأقوال والأفعالِ؛ كالفُحْشِ وَالْفَحْشَاء وَالْفَاحِشة، وَلَا يَكُونُ ذَلِكَ إِلَّا فِيمَا يُتَكَرَّهُ، وَأَفْحَشَ الرَّجُلُ: قَالَ الْفُحْشَ، وَفَحَشَ، وَهُوَ فَحَّاشٌ.

ومعنى القُبحِ ملحوظٌ في استعمالِ الآيات القرآنيَّة، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ﴾ [الأعراف: 28]، و: ﴿وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ٩٠﴾ [النحل: 90]، ﴿مَن يَأۡتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖ﴾ [الأحزاب: 30].

والْفَاحِشُ: الْبَخِيلُ، والبُخْلُ أَقْبَحُ خِصَالِ المرْءِ، قَالَ طَرَفَةُ[2]:

أَرَى الْمَوْتَ يَعْتَامُ الْكِرَامَ وَيَصْطَفِي *** عقيلةَ مَالَ الْفَاحِشِ الْمُتَشَدِّدِ

يعني به: العظيمَ القبحِ في البُخْل.

واستُعمل لفظ الفحشاء في الآية الكريمة: ﴿وَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ﴾ بمعنى البُخْلِ؛ لأنَّه

(1) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (فحش).
(2) ديوان طرفة بن العبد، ص: 26.

ممَّا تستقبِحه العربُ أشدَّ الاستقباح، وهو من الفواحش الباطنة؛ فإنَّ نَفْسَ البخيل مشحونةٌ بمشاعر حادَّة قبيحةٍ نحو الآخرين.

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

ابتدأت الآيةُ بذكر الشَّيطان لبيان قُبْحه، وقبح ما سيترتَّبُ على ذكره، وهو الوعدُ بالفقر، والأمر بكلِّ شيء مستقبحٍ ومستشنعٍ من قول أو فعل، وهما مدار تعاسة الإنسان في الدُّنيا والآخرة، ثمَّ قابلت ذلك بوعد اللّه تعالى عبادَه المؤمنين، بالمغفرة الصَّادرة عنه، والفضلِ الواسع، ومنه أن يُخلِف عليكم ما تصدَّقتم به، ويَزيدَ في أجوركم وأرزاقكم؛ دفعًا لوعد الشَّيطان الباطل، وإحقاقًا لما يجب أن يكون عليه المؤمنُ من الطَّاعات الواجبة والمستحبَّة، وعلى رأسِها الاستغفار وطلب الأفضال من اللّه تعالى وحدَه، فهو صاحبُ الوعد الحقِّ، وما دونه لا يعدو أن يكونَ باطلًا.

❁ الإِيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

سرُّ تقديم ﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾:

وجه تقديم الشيطان تخصيصه بالتخويف، والوسوسة

قُدِّم الفاعل ﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾ على فعله المضارع: ﴿يَعِدُكُمُ ٱلۡفَقۡرَ﴾؛ لتقوية الحكم الإسنادي، بل لامَسَ معنى الاختصاص؛ لأنَّ الذي يُخوِّف النَّاس من النَّفقة، ويُحذِّرُهم الفقرَ؛ لا يعدو أن يكون شيطانًا في ذاته، أو مُشْرَبًا بوساوس الشَّيطان، ويقوِّي هذا المعنى المقابلة بلفظ الجلالة. قال ابن عاشور: "قدَّمَ اسمَ الشَّيطان مسنَدًا إليه؛ لأن تقديمه مؤذِنٌ بذمِّ الحكم الذي سيق له الكلام وشؤمِه، لتحذير المسلمين من هذا الحكم، كما يقال في مثال علم المعاني: (السَّفَّاح في دار صديقك)، ولأن في تقديم المسند إليه على الخبر الفعلي تَقَوِّيَ الحكم وتحقيقَه"[1].

سِرُّ التَّعبيرِ بالوَعْد دون التَّخويف:

الوعدُ هو عَهْدٌ بإنجازِ أمرٍ في المستقبل، والفقر والغنى رزقٌ غيبيٌّ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/59.

الوعدَ أبلغ في بيان حرصِ الشَّيطان على بخل المنفقين من التَّخويف

لا يعلم بحقيقته إلّا اللّه؛ فليس لمؤمنٍ أن يُسدِلَ أُذنيه ليسمع وعودًا لا يملِكُها إلّا اللّه وحدَه؛ لذلك لم تُكذِّب الآيةُ الشَّيطان فيما وَعَدَ صراحةً، بل عدَلَت عن ذلك إلى المقابَلَةِ بوعدِ اللّه تعالى؛ لِيُعلَم كذِبُه فيما زَعَم، وظاهرُ النَّظم أن يأتي بالتَّخويف لا بالوعد؛ كما قال سبحانه: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوۡلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمۡ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ١٧٥﴾ [آل عمران: 175]؛ ذلك أنَّ الوعدَ أبلغ في بيان حرصِ الشَّيطان على بخل المنفقين من التَّخويف، ويحمل معنىً زائدًا في توكيد وقوع الموعود به إنْ هم أنفقوا جيِّدَ أموالِهم. قال العمادي: "الوعدُ هو الإخبارُ بما سيكون من جهة المخبِر مترتباً على شيء من زمان أو غيره يُستعمل في الشر استعمالَه في الخير؛ قال تعالى: ﴿ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۖ﴾ [الحج: 72]، أي: يعدُكم في الإنفاق الفقرَ ويقول: إنّ عاقبة إنفاقِكم أن تفتقِروا، وإنما عبّر عن ذلك بالوعد مع أن الشيطان لم يُضِف مجيءَ الفقرِ إلى جهته للإيذان بمبالغته في الإخبار بتحقّق مجيئه؛ كأنه نَزَّلَهُ في تقرّر الوقوعِ منزلةَ أفعالِه الواقعةِ بحسب إرادته، أو لوقوعه في مقابلة وعدِه تعالى على طريقة المشاكلة"[1].

استعمالُ لفظِ الوعد بين الحقيقة والمجاز:

استعمالُ الوعد باعتبار الصَّادر عنه والمتلقي، والفقر باعتبار ما سيكون في حقيقة الأمر

شاع بين اللّغويين والمفسّرين أن لفظ (الوعد) يُستعمل في الخير، والوعيد في الشَّر[2]، وبناءً على هذا حمل المفسِّرون اللفظ في قوله تعالى: ﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلۡفَقۡرَ﴾ على المجاز. قال ابن عاشور: "وسُمِّيَ الإخبار بحصول أمر في المستقبل وعدًا مجازًا؛ لأنّ الوعد إخبار بحصول شيء في المستقبل من جهة المخبر، ولذلك يقال: أنجز فلان وعده أو أخلف وعده، ولا يقولون: أنجز خبره، ويقولون: صدق خبره وصدق وعده، فالوعد أخصّ من الخبر"[3].

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/261-262.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 2/39، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 5/55.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/59.

والصَّحيح الذي تقضي به البلاغةُ، أنَّ الوعد مستَعمَلٌ في حقيقته، ذلك أنَّ الشَّيطان لمَّا وعدَ، لم يَعِد المنفقين بالفقر، بل بالغنى، فوعدُه لهم هو وعدُ خيرٍ فيما يسمعون ويتمنَّون ويرجون، والآيةُ أخبرت عن مآل هذا الوعد وما سيتحقَّقُ منه وهو الفقر، فالشَّيطان يعدهم الغنى في الدُّنيا، والآية تُخبرُ بحقيقة الوعد ومضمونه ومآله وهو الفقر؛ وعليه فاستعمالُ الوعد باعتبار الصَّادر عنه والمتلقي، والفقر باعتبار ما سيكون في حقيقة الأمر، وهذا من بديع استعمال الألفاظ على معانيها الحقيقيَّة.

التَّعبيرُ بالأمرِ دُونَ الوَسْوَسة:

إظهارُ أثرِ الشَّيطانِ ومُكنته في نفوسِ بَعْضِ المُنْفقين؛ للارتداعِ والأَوْبَة

لاستعمالِ مفردة (الأمر) في قولِه: ﴿وَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ﴾ وَقْعٌ بليغ، ذلك أنَّ الشّيطان لمَّا أصبح ذا سُلطةٍ ومُكْنةٍ على نفوس البخلاء، أصبحتْ وَسْوَستُه وغوايته بمثابة الأمر؛ فهو المتبوعُ في أوامره وإرشاداته، فوقع هذا الإخبار موقعَ التَّحذير من المكانة التي وصلها هؤلاء المنفقون؛ ليرتدعوا عمَّا هم عليه؛ فإذا عَلِم هذا المنفقُ أنَّه بفعلِه المذموم يتبع أوامرَ الشَّيطان؛ فإنَّ ذلك أدْعى للمسارَعَة في الأوبة والرُّجوع إلى دائرة الاتِّباع الحقيقيَّة، إن كان أصلُ الإيمان حاضرًا.

وفي استعمال لفظ (الأمر) وجه مجازيٌّ:

قال ابن عاشور: "وإطلاق الأمر على وسوسة الشيطان وتأثير قوته في النفوس مجاز؛ لأن الأمر في الحقيقة من أقسام الكلام"[1].

استعمالُ مفردةِ الفَحْشاء دونَ البُخْلِ:

بيانُ مآلِ البُخلِ، وأثره السَّيِّئ على المجتمع المُسْلم

الفحشاءُ اسمٌ لفعلٍ أو قولٍ شديد القُبحِ، مُشتقٌّ من الفُحْش، وهو تجاوُزُ الحدِّ، وخَصَّه الاستعمالُ بالتَّجاوز في القبيح، أي: يأمركم بفعلٍ قبيح، وهذا ارتقاءٌ في التَّحذير من الخواطر الشيطانية التي

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/59.

تدعو إلى الأفعال الذَّميمة[1]؛ فالشيطان لا يأمرُ بالبُخْل فحسب، بل يَأْمرُ بالبُخلِ الفاحِش؛ لأنَّ البُخلَ مقتصرٌ على صاحبِه، وأمَّا البُخلُ الفاحشُ فهو الذي يمنعُ الحقوقَ، وينشِئُ العداوَةَ بَيْنَ النَّاس، والبخيلُ الفاحِشُ دَمارٌ على المجتمعِ المُسْلِم؛ لأنَّ فُحْشَه يُصبحُ منهجَ حياةٍ، والبخيلُ يَبْقى خبيئًا تحت سِتْرِ خَوْف الفضيحَةِ ما لمْ يبلُغِ الفُحشَ؛ فإنَّه يُمسي حينئذ وبالًا على النَّاس، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ وَيَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبُخۡلِ وَيَكۡتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۗ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا ٣٧﴾ [النساء: 37].

بلاغة العطف في الآية:

في العطف إظهار للفرق بين دعوة الشيطان ودعوة الله تعالى

عطف جملة ﴿وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغۡفِرَةٗ مِّنۡهُ وَفَضۡلٗاۗ﴾ على جملة ﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلۡفَقۡرَ﴾؛ لإظهار الفرق بين ما تدعو إليه وساوس الشيطان وما تدعو إليه أوامر الله تعالى[2].

أثرُ التَّقديمِ والتَّأخير في بيان المعاني:

ذِكْـرُ وَعْـدِ الله بَـعْـدَ وَعْـدِ الشَّيطانِ كفيلٌ بإزاحتِه كُلِّيًّا

قابلتِ الآيةُ بين وعد الشَّيطان ووعد الله، وابتدأَتْ بذكرِ وعد الشَّيطان؛ ذلك لأنَّ ذكرَ وعد الله بعد وعد الشَّيطان كفيلٌ بإزاحتِه كُلِّيًّا، ولا معنى للعكس، فإنَّ مقصودَ تقديمِ وعدِ الشَّيطان هو التَّأكيدُ على علَّة البُخل، وتأخير ذكرِ وعد الله هو بيانُ وسيلة دَفْعِ الباطِل المتقدِّم ذِكْرُه، وهذا من وسائل تثبيتِ ركائز الحقِّ، أن يُدفع الباطلُ بالحقِّ، كما قال تعالى: ﴿بَلۡ نَقۡذِفُ بِٱلۡحَقِّ عَلَى ٱلۡبَٰطِلِ فَيَدۡمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٞۚ وَلَكُمُ ٱلۡوَيۡلُ مِمَّا تَصِفُونَ ١٨﴾ [الأنبياء: 18].

بلاغة الايجاز بالاستغناء بالمذكور:

لما كان أمر الشيطان بالفحشاء إنما هو لأجل وعده بالفقر؛ لأن من خافَ بخِلَ بماله، والبخل سبب ارتكاب سائر الفواحش

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 5/55.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/60.

لقوله ﷺ: "وأي داء أدوى من البخل؟"[1]، استغنى أن يذكر في مقابل قوله: ﴿وَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ﴾ بما ذكر من قوله: ﴿مَّغۡفِرَةً مِّنۡهُ وَفَضۡلٗاۗ﴾؛ لأن أمر الله تعالى بالخيرات والحسنات معلوم وإنما المجهول أمر الشيطان، إذ كان أمره يخفى على الجهال وإنما يعرفه أولو الألباب[2].

أمر الله تعالى بالخيرات والحسنات معلوم، وأمر الشيطان مجهول على الجهّال

نكتة مقابلة الفقر بالمغفرة والفضل:

قابل الفقر بالمغفرة والفضل، والفضل أعم من الغنى، لأنه يتناوله وغيره، فبين أنه يعد بالغنى وزياداتِ فضلٍ، فأتى في مقابلة وعد الشيطان بالمغفرة، أنه يغفر مع ذلك انقيادكم للشيطان، وسائر الذنوب[3].

إنّ من فضل الله تعالى أنّه يغفر الانقياد للشيطان، وسائر الذنوب

بلاغة تنوين المغفرة وتنكيرها وصفها:

المغفرةُ التي يعدُ الله بها عبادَه المتَّقين هي مغفرةٌ عظيمة، فالتنوينُ في ﴿مَّغۡفِرَةً﴾ للتَّفخيم، وكذا تنكيرها، وصفُها بقوله تعالى: ﴿مِّنۡهُ﴾؛ فهو مُؤكِّدٌ لفخامتها؛ لأنَّها صادرةٌ عنه سبحانه، وممَّا يزيدُ من فخامتِها عَدَمُ تعريفِها إلّا بكونِها صادرةً عنه، وكونِها داخلةً في وعدِه[4]، وأكرِمْ به من وعد!

التنوينُ في المغفرة للتَّفخيم، والوصف بـ (منه) تأكيد للفخامة لصدورها عنه تعالى

تقديمُ المغفرةِ على الفَضْل:

قُدِّمَت المغفرةُ على الفضل؛ لتوجيه الأنْظار إلى أنَّ العِبرَةَ فيما يُهذِّب النَّفسَ من فُحشِ الحياة ومعاصيها، وأنَّ المسلمَ أحوجُ ما يكونُ إلى المغفرة من الله تعالى؛ لأنَّه بطلب المغفرة يستحقُّ الوعْدَ الكريم، ثم بعد ذلك ذكَرَ الفضلَ، وهو يشمَلُ فضلَ الدُّنيا والآخرة،

تقديمُ الأَوْلى بالرِّعاية والعَمَل، من بابِ التَّخلية قبل التَّحلية

(1) البخاري، الأدب المفرد، حديث رقم: (296)، والطبراني، المعجم الأوسط، حديث رقم: (8913).
(2) الراغب، تفسير الراغب: 1/566.
(3) الراغب، تفسير الراغب: 1/566.
(4) الراغب، تفسير الراغب: 1/566.

فأوَّلُ ما يجبُ أنْ يعتنيَ به المؤمنُ في أعمالِه تحصيلُ المغفرة، ثمَّ بعد ذلك تتَّجه الأنظار إلى المنافع الأخرى؛ إذْ مقدِّمتُها المغفرةُ.

إيجازُ القَصْرِ في لَفْظِ المغفرة:

الاكتفاءُ بالإشارَةِ إلى المعلومِ، والتَّنبيهُ على ذلك بأدنى عبارة

في قوله تعالى: ﴿مَّغْفِرَةٌ﴾ إيجازُ قَصْرٍ؛ ذلك أنَّ اللّٰه وعدَ عِبادَه بالمغفرةِ إنْ همُ استغفروا، فكأنّ نَظْمَ الآيةِ: واللّٰه يعدكم مغفرةً منه فاستغفروه، أو إنِ استغفرتُم، فهي قد تَضمَّنَت الأمرَ بالاستغفارِ، لاسيَّما أنَّها اقترنَتْ بالفضل، واللّٰه يغفرُ لمن يشاءُ من عبادِه، وفائدةُ الإيجازِ عِلمُ المخاطَب بذلك، وعدمُ جَهلِه به.

مناسَبَةُ فاصِلة الآيةِ لصدرِها: ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾:

لمّا بدَأَت الآيةُ بوعد الشَّيطان وهو الفقر، ناسَبَ بيانُ سَعَة عطاء اللّٰه لعباده، فإذا كان الشَّيطانُ يعِدُ النَّاس الفقرَ إنْ أنفقوا؛ فإنَّ اللّٰه يَعِدُهم السَّعةَ إنْ أنفقوا، وعلى هذا جاءت الفاصلة: ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾؛ تذييلًا مقرِّرًا لمضمونِ ما قبلها[1].

تنزيلُ الصِّفة من الصِّفة منزلةَ العلَّة من المعلُول:

حثُّ المؤمنين على الأعمالِ الصَّالِحة، وحضُّهم على الخَير

نُزِّلتْ صفةُ ﴿عَلِيمٌ﴾ منزلةَ العلَّة لصفة ﴿وَٰسِعٌ﴾؛ فالآيةُ أخبرتْ أنَّ اللّٰه سبحانه وتعالى واسعٌ في عطائه، لا يحجبُه عن أحدٍ من عبادِه؛ لأنَّه عليمٌ بما يُصلِحهم في الدُّنيا، عليمٌ بما يستحقونَه من الفضل والعدْل في الآخرة، فمَنْ طَلبَ عطاءَ اللّٰه الواسع؛ فعليه أنْ يُريَه من إقدامِه على الطَّاعات؛ فهي قد تضَمَّنَتِ الحثَّ على الأعمالِ الصَّالِحة والحضَّ على الخَيْر.

بيانُ دلالة التوهين والترغيب في الفاصلة:

التوهين لكيد الشيطان، والترغيب للمفتون بخوف الفقر

في جملة الفاصلة توهينٌ لكيد الشيطان ووعدٌ كريمٌ للمفتون بخوف الفقر وعمل الفحشاء؛ لما يعلمه تعالى من ضعف الأنفس وسرعة قبولها من الوسواس[2].

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/262.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 4/92.

﴿يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٦٩﴾﴾ [البقرة: 269]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَرَ في فاصِلَة الآيةِ السَّابقة أنَّه سبحانه واسعٌ عليمٌ، ناسَبَ أنْ يذكُرَ في هذه الآية إيتاءَه الحكمة لمن يشاء من عبادِه، وهو إيتاءٌ مبنيٌّ على سَعَة عطائه، وبالغِ علمِه، ولمَّا قال سبحانه في الآية السَّابقة: ﴿وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ﴾ ذَكَر في هذه الآيةِ مثالًا عظيمًا من أمثلة الفضل الإلهيِّ العظيم، وهو الحكمة، تنبيهًا أنَّ الأمرَ بيد الله وحدَه، وأنَّ على العبادِ - إنْ هُم طلبوها من مظانِّها، ونأَوْا بأنفسِهم عن الشَّيطان ووعودِه - أن يجتهدوا في تحصيلِها.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلْحِكْمَةَ﴾[1]: أصلُ الحكم: المنع لإصلاحٍ، وهو مأخوذٌ من حَكَمَة الدَّابَّة، وهو اللِّجام، فقيل: حَكَمتُه وحَكَمْتُ الدّابَّة: منعتها من الجِماحِ بالحَكَمَة، وأَحْكَمْتُهَا: جعلت لها حَكَمَة، وكذلك: حَكَمتُ السَّفيه وأحكَمْتُه، والحِكْمَةُ: إصابة الحق بالعلم والعقل، فالحكمة من الله تعالى معرفة الأشياء وإيجادُها على غايةِ الإحكام، ومن الإنسان معرفةُ الموجودات وفعلُ الخيرات.

والحُكْمُ أعمُّ من الحِكْمَة، فكلُّ حِكمَة حُكْمٌ، وليس كلُّ حكم حِكمَةً؛ فإنَّ الحكمَ أنْ يُقضَى بشيء على شيء حكمًا نافذًا بالحكمة، أمَّا الحكمة فهي إصابة الحقِّ بالعلم والعقل.

وقد اختلف في المُرادِ بالحِكْمَةِ على أحَدَ عَشَرَ قَوْلًا، قال ابن عطية: "وهَذِهِ الأقْوالُ كُلُّها ما عَدا قَوْلِ السُّدِّيِّ قَرِيبٌ بَعْضُها مِن بَعْضٍ، لِأنَّ الحِكْمَةَ مَصْدَرٌ مِنَ الإحْكامِ وهو الإتْقانُ في عَمَلٍ أو قَوْلٍ - وكِتابُ اللّهِ: حِكْمَةٌ - وسُنَّةُ نَبِيِّهِ: حِكْمَةٌ، وكُلُّ ما ذُكِرَ فَهو جُزْءٌ مِنَ الحِكْمَةِ الَّتِي هي الجِنْسُ"[2].

(1) الأزهري، تهذيب اللغة، والراغب، المفردات، والسمين، عمدة الحفاظ، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (حكم).
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 1/364، وينظر: ابن الجوزي، زاد المسير: 1/242.

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

أبرزَت الآيةُ قيمة الحكمة التي يُؤتيها اللّٰه لعبادِه المخلصين، فإنَّ الإصابة في القول والفعل من أعظم خيرٍ ينالُه عبدٌ في هذه الدُّنيا، وهو محضُ فضل وعطاءٌ من اللّٰه تعالى، ومؤتاه من ورثة الأنبياء، فكمال العبد متوقِّف على الحكمة، وأنَّ الخَيْر الحقيقيَّ لا يقتصِرُ على المالِ وتوابِعِه بل يتعدَّاه إلى ما هو أعظمُ من ذلك، وهو الخير المُعين على الدَّار الآخرة، وجِماعُه في كلمة الحكمة، ولا يتَّعِظ بمواعظِ اللّٰه تعالى- فيذكُر وعْدَه ووعيدَه، فيَمتثِل لِمَا أُمر به، ويَنتهي عمَّا نُهي عنه- إلَّا أصحابُ العقولِ الكاملة المستنيرةِ بنور اللّٰه وهدايته، وآثرتِ الآيةُ ذِكرَ أصحاب العقول الزكيَّة؛ لأنَّ الحكمةَ تكون غالبًا في رأي المجموع، لا في رأي فردٍ بعَيْنه.

❁ الإِيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

بلاغة الفصل بجملة الاعتراض والتذييل:

في الفصل تنبيه الى نفاسة ما وعظهم الله به، وتنبيههم إلى أنهم قد أصبحوا به حكماء

الآيةُ الكريمة اعتراضٌ وتذييلٌ لما تضمنته آيات الإنفاق من المواعظ والآداب وتلقين الأخلاق الكريمة، مما يكسب العاملين به رجاحة العقل واستقامة العمل. والغايةُ التنبيهُ إلى نفاسة ما وعظهم اللّٰه به، وتنبيههم إلى أنهم قد أصبحوا به حكماء بعد أن كانوا في الجاهلية جهلاء[1].

الابْتداءُ بالفعليَّة لا الاسميَّة:

إظهارُ أهميَّة إيتاء الحكمةِ في توفيق العبادِ

ابتدأَت الآيةُ بالفعل المضارِع ﴿يُؤْتِي﴾ لا بالاسم، كما في الآية السَّابقة: ﴿وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا﴾ فلم يكنِ النَّظمُ: (اللّٰه يُؤتي الحكمة)، ذلك أنَّ المقصودَ هو بيانُ إيتاءِ الحكمة، وإظهارُ بالغِ أهميّتها، وترغيبُ النَّاس بِها، وبيان أنَّها من أعظمِ وأرْجى ما

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/61.

ينالُه العبدُ من الخَيْر، وهذا ما تُحقِّقُه الجملةُ الفعليَّة دون الاسميَّة؛ لما يُصوِّره الفعل من الخير المتجدِّد.

دلالةُ صوغ الإيتاء على هيئة المضارِع:

وجه المضارعة أنَّ إيتاءَ الحكمة مستمرٌّ في الزَّمان والمكان والإنسان، فهو إيتاءٌ مستمرٌّ بمشيئة تعالى

دلَّ الفعل المضارِعُ ﴿يُؤْتِي﴾ على التَّجدُّدِ المستَمرّ، بمعنى أنَّ إيتاءَ الحكمة ليس متوقِّفًا على زمنٍ دون آخر، أو على قومٍ دون آخرين، أو على مكانٍ دون مكان، بل هو مستمرٌّ في الزَّمان والمكان والإنسان، فهو إيتاءٌ مستمرٌّ بمشيئة الله تعالى، وهو ما يجعل المُؤمنَ حريصًا أشدَّ الحِرصِ على نيلها، والتَّحلي بآثارِها.

نُكْتةُ حَذْفِ مفعولِ المشيئة:

إيتاءَ الحكمة مُرتَهنٌ بالاختيار الإلهيّ المطلَق، ولإبرازِ معنى الاختيار

جرتْ عادَةُ الاستعمال القرآنيّ على حذفِ مفعولِ المشيئة ﴿يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ﴾، ولكلِّ سياقٍ قرآنيّ نُكتتُه الخاصَّة به، وفي هذا السِّياق لم يجرِ ذِكرُ المفعول، ولا ذكر قيدٍ كأنْ يقول: من عبادِه المتقين، أو المصلِحين، أو المحسنين؛ ذلك أنَّ إيتاءَ الحكمة مُرتَهنٌ بالاختيار الإلهيّ المطلَق، ولإبرازِ معنى الاختيار، وأنَّها غير مرتبطةٍ بأسبابٍ محدَّدةٍ حُذِفَ مفعولُ المشيئة، وفيه دلالةٌ على عظيم عطاء الله تعالى.

نُكْتةُ بِناءِ الفِعْل للمفعولِ:

بيانُ فضيلةِ من نال الحِكمة وشرفه

بُني فعلُ إيتاء الحِكْمةِ على المفعولِ في قولِه تعالى: ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ﴾؛ إمَّا لأنَّ المقصودَ بيانُ فضيلة مَنْ نَالَ الحِكمةَ بقطع النظر عن الفاعل، وإمَّا لتعيُّن الفاعل[1]، ومعرفة النَّاس به، وإمَّا جمعًا بين الأمرَيْن وهو الأظهر؛ فإنَّه لمَّا عُرِفَ المؤتي سبحانه في السِّباق، كان إبرازُ إيتاءِ الحِكمة هو الأَوْلى في نَظْم هذه الجملة، ويؤيِّد ذلك قراءةُ يعقوب: ﴿وَمَن يُؤْتِ ٱلْحِكْمَةَ﴾ على تقدير: ومن يُؤتِه اللهُ الحكْمَةَ[2].

(1) الآلوسي، روح المعاني: 2/40.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/64.

وجه جَرَيانُ جُمْلة إيتاء الحكمة مَجْرَى الأمثال:

تصلُحُ جُمْلة إيتاء الحكمة أن تكونَ شاهدًا لكلِّ قولٍ صائِب، ورأيٍ راجِح، وفعلٍ حميد

من الجُملِ القرآنيَّة ما يصلُحُ أنْ يكونَ مَثَلًا سائرًا بينَ النّاس، تتلقَّاه الألسُنُ، وتتشنَّفه الأسماع، ومنها قولُه تعالى: ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾، ذلك أنَّ نظْمَ هذه الجملة بُني على شرطٍ وجوابِه، وتضمَّن معانيَ تحتاجُها الأممُ والمجتمعات، واكتنَزَ حقائقَ يَحرِصُ عليها العقلاءُ من العلماء، تصلُحُ أن تكونَ شاهدًا لكلِّ قولٍ صائِب، ورأيٍ راجِح، وفعلٍ حميد، ويطمَعُ في نَيْل شرَفِ أن تُقالَ فيه كلُّ متفاخرٍ ومتواضع، وهي من الجمل السَّلِسَة في الألسُن، السَّهلة في الحفظ، وهذا من بلاغة هذه الجملة الفذَّة، وفصاحَةِ هذه الدُّرَّة.

سرُّ إظهارِ ما حقُّه الإضمار:

إظهارُ الحكمةِ لمزيدِ العنايةِ بشأنها

أظهرَتِ الجملةُ القرآنيَّةُ لفظَ ﴿ٱلْحِكْمَةَ﴾ في قوله: ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ﴾ وحقُّها الإضمارُ؛ للاعْتِناء بشأْن هذا المُظْهَر، وللإشعار بعلَّة الحُكْم[1]، ولبيانِ أنَّها المقصودُ بالمَدْح.

نُكتَةُ تَكرارِ فعل الإيتاء في سياقٍ واحد:

أعظم ما ينالُه العبدُ في هذه الدُّنيا هو الحكمةُ الموصِلة إلى معرفةِ المطلوب المُنْجِي عند الله تعالى

تكرَّر ذكرُ الإيتاءِ في هذا السِّياق ثلاثَ مرَّاتٍ، وفي جميعِها كانت أفعالًا، وهو ما يدُلُّ على أنَّ الأفعال التي تُذكَرُ في السِّياق الواحد من مادَّة واحدة، مقصودةٌ لذاتها، وأنَّ التَّفنُّنَ غيرُ مرادٍ في كتابِ الله تعالى، بل إنَّ الأمر قائمٌ على اختيارِ الألفاظ بناءً على المعاني؛ كما في قولِه تعالى: ﴿وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٢٠﴾﴾ [الشعراء: 19-20]، فقد تكرَّر لفظ الفعل أربع مرَّاتٍ، ومعنى الإيتاءِ هو المقصودُ هنا، فإنَّ لفظَ الإيتاءِ يُستعمَل فيما يُنالُ في الدُّنيا، بخلاف الإعطاء، فهو يُسْتعمَل فيما يُنال في الدُّنيا والآخرة، وذكرُه هنا لبيان أنَّ أعظمَ ما ينالُه العبدُ في هذه الدُّنيا هو الحكمةُ الموصِلة إلى معرفةِ المطلوب المُنْجِي عند الله تعالى.

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/262، والآلوسي، روح المعاني: 2/40.

إيثارُ لفظِ الخَيْر على مُرادِفاته ووصفُه بالكثير:

يُعطي لفظُ الخَيْر معانيَ عديدةً من العقل الرَّاجح، والقول الصَّائب، والقرار المتين، والأفعالِ الصَّالحة، ويُشعرُ كذلك من باب الإشارة بما يُصيبُ العبدَ من المالِ الوفير؛ فإنَّ من معاني الخَيْر المال، قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ۝٨﴾ [العاديات: 8]، وهو ما ينسجِم مع وصف الخَيْر بالكثير؛ فإنَّ هذا الوصف ليُنادي على كثرةِ النِّعم، ومنها النِّعم الماديَّة، ويأتلِف بالسِّياق، فإنَّ الآية السَّابقة أشارت إلى وعدِ الله تعالى بالفضل، والمال من فضل الله الذي ينالُه العبد في دنياه، وهو ما يتناسبُ مع مقابلة وعد الشَّيطان بالفَقْر، وفَهْمُ مثل هذه الإشارات القرآنيَّة الخبيئة تحت الأسْتار اللفظيَّة من الحكم الخفيَّة، التي لا تظهرُ إلّا لأولي الألباب.

دلَّ اللفظ على أنواعِ الخير المعنويَّة عبارةً، وأنواع الخير الماديَّة إشارةً

علّة إيثارِ لفظِ التَّذكّر دون التَّفكُّر أو العقل:

يُطلَق الذِّكرُ ويُرادُ به ذكرُ المعاني والألفاظ، والمراد في الآية هو ذكر المعاني التي يقتضيها الشَّرع والعقل، والتَّذكُّر هو تفعُّلٌ بين الذّاكِر والمذكور، وإنَّ من أكثر ما يغيب عن العقل هو المعاني الصَّحيحة بتنزيلِها على مستجدَّات الحياة، وهو ما يُميِّز العقلاء، فإنَّ عقلَهم يستدعي تلك المعاني، ويجعلها حاضِرةً غيرَ غائبة، ولذلك ذكرتِ الآيةُ أنَّ التَّذكُّرَ هو مزيَّةُ أولي الألباب.

أُوثِر لفظ التذكّر؛ لإنَّ من أكثر ما يغيب عن العقل هو المعاني الصَّحيحة بتنزيلِها على مستجدَّات الحياة، وهو ما يُميِّز العقلاء

التَّعبيرُ بالألباب دون العقول أو النُّهى:

اللُّبُّ هو العقلُ الخالصُ من الشَّوائِب، فهو درجةٌ أعلى من درجة العقل، وملحوظٌ فيه التَّوسُّط والاعتدال، فإنَّ لُبَّ كلِّ شَيْءٍ وسطُه، ولا تكون الحكمةُ إلّا في الوسَطِ المحميِّ من الأطراف، وهذا يدلُّ على أنَّ الألباب ليس مجرَّد وصف ذكاء أو ذاكرة، بل هو وصفُ عقلٍ رفيعٍ في ذاته، عظيم الشّأن في آثاره.

اللُّبُّ أعلى درجةً من العقل، ومحفوظٌ من الأطراف

بلاغةُ استعمالِ الألبابِ جمعًا:

الآراءُ السَّديدة، والأقوال الحكيمة، إنَّما تصدُر عن الجماعات لا عن الأفراد

استُعمِلَ لفظُ الألبابِ جمعًا في القرآن الكريم؛ للإشارَةِ إلى أنَّ التَّذكُّر والتَّعقُّلَ يجبُ أنْ يكون فعلًا جماعيًّا، فلا يستَقِلّ الواحِد برأْيِه، فإنَّ الفسادَ يُسارِع إليه، وما كانتِ الحِكمَةُ إلّا في الجماعات النَّاهضة، والأقوام المتكاتفة، وما امتازَتْ أمةٌ بذكاء أفرادِها، بل بائتلافِ جماعاتِها، وحسن تراصِّ عقول رجالاتِها.

دلالةُ الحَصْر في الفاصِلة:

الاعتبارُ والاتِّباعُ لأقوالِ أولي الألبَاب

جاءَتِ الآيةُ بأسلوبِ الحَصْرِ: ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾؛ لا لغرَض الإخبار فحسْب، بل لغرَضِ الاعتبار والاتِّباع؛ فإنَّ النَّاس إن علموا أنَّ تذكُّر الحكمة، لا يكون إلّا لأولي الألباب، حرصوا على اتِّباعهم، والعمل بمقتضى كلامِهم، هذا ما يقضي به الحصْرُ، ويُعيِّنه الذِّكْرُ، أمَّا الإخبار المجرَّد، فلا معنى له في ذاته.

ردُّ الفاصِلة على صَدْر الآية:

تحقيقُ بديعِ الإيجازِ بردِّ أوَّلِ الآيةِ على فاصلتِها

من أعجب أفانين الآيات القرآنيَّة، أنْ تُرَدَّ فاصِلَةُ الآية على صدرِها، فقد ذكرتِ الآيةُ أنَّ الحكمةَ يُؤتيها اللّه من يشاءُ من عبادِه: ﴿يُؤۡتِي ٱلۡحِكۡمَةَ مَن يَشَآءُۚ﴾، والذين يُؤتيهم اللّهُ الحكمةَ ذكرتهم فاصِلَةُ الآية: ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾؛ فكأنَّه قال: يُؤتي الحكمةَ أولي الألباب؛ وهذا من بديع الإيجاز في القرآن الكريم.

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الإيتاء والإعطاء:

الإيتاء في الجملة أقوى من الإعطاء في إثبات مفعوله؛ لأن الإعطاء له مطاوع تقول: أعطاني فعطَوْتُ، ولا يقال في الإيتاء: أتاني فأتيتُ، وإنما يقال فأخذتُ، فالفعل الذي له مطاوع أضعف في إثبات مفعوله من الفعل الذي لا مطاوع له؛ لأنك تقول قطعته فانقطع، فيدلُّ على

أنَّ فعل الفاعل كان موقوفًا على قبول في المحل، لولاه ما ثبت المفعول، ولهذا يصحُّ: قطعته فما انقطع، ولا يصح فيما لا مطاوع له ذلك، فلا يجوز ضربته فانضرب، أو فما انضرب، ولا قتلته فانقتل، ولا فما انقتل؛ لأن هذه أفعال إذا صدرت من الفاعل ثبت لها المفعول في المحل، والفاعل مستقل بالأفعال التي لا مطاوع لها، فالإيتاء أقوى من الإعطاء.

وهذا المعنى مراعى في القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ﴾ [آل عمران: 26]؛ لأن الملك شيء عظيم لا يعطاه إلا من له قوة، وقوله تعالى: ﴿يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ﴾، و﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي﴾ [الحجر: 87]؛ لعظم القرآن وشأنه.

وقال في أمر الإعطاء: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١﴾ [الكوثر: 1]؛ لأنه مورود في الموقف مرتحل عنه قريب إلى منازل العز في الجنة، فعبر فيه بالإعطاء؛ لأنه يترك عن قرب وينتقل إلى ما هو أعظم منه، وقال: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ۝٥﴾ [الضحى: 5]، لما فيه من تكرير الإعطاء والزيادة إلى أن يرضى كلَّ الرضا، وهومفسَّر أيضًا بالشفاعة وهي نظير الكوثر في الانتقال بعد قضاء الحاجة منه، وقال: ﴿ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ﴾ [طه: 50]؛ لتكرر حدوث ذلك باعتبار الموجودات، وقال: ﴿حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ﴾ [التوبة: 29]؛ لأنها موقوفة على قبول من المسلمين وإنما يعطونها عن كُرْه[1].

(1) الراغب، المفردات، والزبيدي، تاج العروس: (أتى)، والسيوطي، معترك الأقران: 3/488، والإتقان: 2/362.

﴿وَمَآ أَنفَقۡتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوۡ نَذَرۡتُم مِّن نَّذۡرٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُهُۥۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٍ ٢٧٠﴾ [البقرة: 270]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

بَيانُ الأَمْرِ الكُلِّيِّ الشَّامِلِ لِجَميعِ أَفْرادِ النَّفَقاتِ والنُّذورِ، بَعْدَ بَيانِ ما كانَ مِنْها في سَبيلِ اللهِ تَعالى

لَمَّا بَيَّنَ اللهُ تَعالى أَنَّ الإِنْفاقَ يَجِبُ أَنْ يَكونَ مِنْ أَجْوَدِ المالِ، في قَوْلِه تَعالى: ﴿وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلۡخَبِيثَ﴾، وطَلَبَ وَضْعَهُ وجَمْعَهُ بِوَجْهِ الحِكْمَةِ في قَوْلِهِ: ﴿يُؤۡتِي ٱلۡحِكۡمَةَ مَن يَشَآءُۚ﴾ عَطَفَ عَلَيْهِ بقَوْلِهِ: ﴿وَمَآ أَنفَقۡتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوۡ نَذَرۡتُم مِّن نَّذۡرٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُهُۥۗ﴾؛ حثًّا على النَّفَقَةِ في الخَيْرِ والوَفاءِ بِالنَّذْرِ، وتَأْكيدًا لِلْكَلامِ السَّابِقِ المَسوقِ لِلْأَمْرِ بِالْإِنْفاقِ وَبَيانِ صِفاتِهِ[1]؛ وتَحْذيرًا مِنَ الإِنْفاقِ في المَعْصِيَةِ[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَنفَقۡتُم﴾: صَرَفْتُمْ وأَعْطَيْتُم[3]، يُقالُ: أَنْفَقَ الرَّجُلُ المالَ؛ إذا صَرَفَهُ، وأَذْهَبَهُ، وأَصْلُ الفِعْلِ (نَفَقَ): يَدُلُّ عَلَى انْقِطاعِ الشَّيْءِ وَذَهابِهِ، يُقالُ: نَفِقَ مالُهُ وطَعامُهُ؛ إذا فَنِيَ، وذَهَبَ، والنَّفَقَةُ هُنا: ما يُصْرَفُ مِنَ النُّقودِ وغَيْرِها ممَّا يَصْدُقُ فيه الإنفاق[4].

2) ﴿نَذَرۡتُم مِّن نَّذۡرٖ﴾: أَوْجَبْتُمْ، وأَلْزَمْتُمْ؛ مِنْ نَذَرْتُ على نَفْسي النَّذْرَ أَنْذُرُهُ، أَيْ: أَوْجَبْتُه، وأَصْلُ (نَذَرَ) يَدُلُّ على إِعْلامٍ وتَخْويفٍ، يُقالُ: نَذِرَ بِالعَدُوِّ، وأَنْذَرَهُ: أَعْلَمَهُ وحَذَّرَهُ، ومَعْنى النَّذْرِ هُنا: إيجابُ المَرْءِ على نَفْسِهِ ما لَيْسَ بِواجِبٍ لِحُدوثِ أَمْرٍ[5].

(1) ابْنُ عاشورٍ، التَّحْريرُ والتَّنْويرُ: 3/65.
(2) البِقاعيّ، نَظْمُ الدُّرَرِ: 4/97، والرّازيّ، مفاتيح الغيب: 7/59.
(3) ابْنُ قُتَيْبة، غريبُ القُرْآنِ: ص: 81.
(4) ابنُ فارِسٍ، مقاييسُ اللُّغة، ابْنُ مَنْظورٍ، لِسانُ العرب، جبل، المُعْجمُ الاِشْتِقاقيُّ المُؤَصَّلُ: (نفق).
(5) ابْنُ فارِسٍ، مقاييسُ اللُّغة، الرّاغِب، المُفْردات: (نذر)، والفيرُوزابادي، بصائِرُ ذوي التَّمْييزِ: 5/34، وجبل، المُعْجمُ الاِشْتِقاقيّ: (نذر).

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

وما أَعْطَيْتُمْ مِنْ مالٍ أَوْ غَيْرِهِ كَثيرٍ أَوْ قَليلٍ في الخَيْرِ أَوِ الشَّرِّ، أَوْ أَوْجَبْتُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ فَعْلَ طاعَةٍ للهِ لَمْ تُكَلَّفوا بها؛ فَإِنَّ اللهَ يَعْلَمُ ذلكَ كُلَّهُ، فَلا يَضيعُ عِنْدَهُ شَيْءٌ مِنْهُ، وهُوَ المُطَّلِعُ على نِيَّاتِكُمْ، وسَيُجازيكُمْ عَلَيْهِ أَوْفَرَ الْجَزَاءِ لِلْعَامِلِينَ لِذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِهِ وَرَجَاءَ مَوْعُودِهِ، ولَيْسَ للوَاضِعِينَ لِلنَّفقاتِ والنُّذورِ في غَيْرِ مَوْضِعِهَا، مِنْ أَعْوانٍ يَدْفَعونَ عَنْهُمْ عَذابَ اللهِ ونِقْمَتَهُ[1].

إيقانُ المؤمنِ بإطّلاعِ رَبِّهِ عَلى قَوْلِهِ وفِعْلِهِ؛ هُوَ الدَّافِعُ لِلْإِخْلاص

الإِيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

بلاغةُ التذييل[2] في قولِه تعالى: ﴿وَمَآ أَنفَقۡتُم مِّن نَّفَقَةٍ﴾:

قَوْلُه تَعالى: ﴿وَمَآ أَنفَقۡتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوۡ نَذَرۡتُم مِّن نَّذۡرٖ﴾ تَذْيِيلٌ لِلْكَلَامِ السَّابِقِ المَسوقِ لِلْأَمْرِ بِالْإِنْفَاقِ وَصِفاتِهِ المَقْبُولَةِ، وَالتَّحْذِيرِ مِنَ المُثَبِّطَاتِ عَنْهُ ابْتِدَاءً مِنْ قَوْلِهِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبۡتُمۡ﴾ [البقرة: 267]، وَالمَقْصُودُ مِنْ هذَا التَّذْيِيلِ التَّذْكِيرُ بِأَنَّ اللَّهَ لا يَخْفى عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنَ النَّفَقاتِ وَصِفاتِها، وَأُدْمِجَ النَّذْرُ مَعَ الْإِنْفَاقِ، فَكانَ الكَلَامُ جَدِيرًا بِأَنْ يَكونَ تَذْيِيلًا[3].

التَّذْكِيرُ بِعِلْمِ اللَّهِ لِلنَّفَقَاتِ وَصِفَاتِهَا

بعد أن ذَكَرَ في السِّياقِ السَّابِقِ النَّفقاتِ التي هي في سبيلِ اللهِ تعالى، ذكر في هذه الآيةِ عمومَ النَّفقاتِ، ودَليلُ هذا العُمومِ دُخولُ ما الشَّرْطيَّةِ في: ﴿وَمَآ أَنفَقۡتُم﴾ التي تُفيدُ العُمومَ المُسْتَغْرِقَ لِكُلِّ مَا دَخَلَتْ عَلَيْهِ؛ ويَجوزُ أَنْ تَكونَ ﴿وَمَآ﴾ مَوْصولَةً حُذِفَ عَائِدُها مِنَ الصِّلَةِ، أَيْ: وما أَنْفَقْتُموهُ، ويَكونُ هَذا مِنْ قَبيلِ الإيجازِ بِالحَذْفِ[4].

إِفادَةُ العُمومِ لِلنَّفَقاتِ كلِّها بَعْدَ ذِكْرِ ما كانَ مِنْها في سَبِيلِ اللهِ

(1) ابْنُ كثيرٍ، تفْسيرُ ابْنِ كثير: 1/701، ولجْنةٌ مِنْ عُلماءِ الأزْهر، المُنْتخبُ في تفْسيرِ القُرآنِ الكريمِ، ص: 64، ونُخْبةٌ مِنْ العلماء، التَّفْسيرُ المُيَسّرُ، ص: 46، وجماعةٌ مِنْ عُلماءِ التّفْسير، المُخْتصرُ في تفْسيرِ القُرْآنِ الكريم، 46.

(2) التّذْييلُ: هو تعْقيبُ الجُمْلةِ بِجُمْلةٍ أُخْرى تشْتمِلُ على معْناها لِلتّأْكيدِ. يُنْظَرُ: إبْراهيمُ بْنُ مُحمّدٍ الحنفيّ، الأُطُولُ شرْحُ تلْخيصِ مِفْتاحِ العُلوم، 01/70.

(3) ابْنُ عاشورٍ، التّحْريرُ والتّنْوير: 3/65.

(4) القِنّوْجيّ، فتْحُ البيان: 2/131.

فَمَا شَرْطِيَّةً كانَتْ أَوْ مَوْصولَةً تُفيدُ عُمومَ النَّفَقَةِ قَليلةً أَوْ كَثيرَةً، في حَقٍّ أَوْ باطِلٍ، في سِرٍّ أَوْ عَلانيَةٍ؛ وعُمومَ النَّذْرِ، سَوَاءٌ كانَ في طاعَةٍ أَوْ مَعْصيَةٍ، بِشَرْطٍ أَوْ بِغَيْرِ شَرْطٍ، مُتَعَلِّقٍ بالمالِ أَوْ بالأَفْعالِ[1]؛ فَفي قَوْلِهِ تَعالى: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم﴾ بَيانٌ لِحُكْمٍ كُلِّيٍّ شامِلٍ لِأَفْرادِ النَّفَقاتِ وما في حُكْمِها إِثْرَ بيانِ حُكْمِ ما كَانَ مِنْهَا في سَبيلِ اللّهِ[2].

الغَرَضُ مِنْ دُخولِ (مِنْ) البَيانيَّةِ عَلى النَّكِرَةِ:

التَّفصيلُ وتَأْكيدُ الِاسْتِغْراقِ والعُمومِ

أفاد حرفُ (مِنْ) في قَوْلِهِ: ﴿مِّن نَّفَقَةٍ﴾ و ﴿مِّن نَّذْرٍ﴾ بَيَانَ ما أُنفِقَ ونُذِرَ، ولَمَّا كَانَ شَأْنُ البَيَانِ أَنْ يُفيدَ مَعْنًى زائِدًا عَلَى مَعْنَى المُبَيَّنِ، وَكَانَ مَعْنَى البَيَانِ هنا عَيْنَ مَعْنَى المُبَيَّنِ الذي جاءَ بِصُورَةِ الجِناسِ الاشْتِقاقيِّ[3]؛ تَعَيَّنَ أَنْ يَكُونَ المَقْصُودُ مِنْهُ بَيَانَ المُنْفَقِ وَالمَنْذُورِ، بِمَا في تَنْكِيرِ مَجْرُورَيْ ﴿مِّن﴾ وتَنْوِينِهِما مِنْ إِرَادَةِ كلِّ أَنْوَاعِ النَّفَقَاتِ وَالمَنْذُورَاتِ، مَعَ اسْتِحْضارِ أَنَّ النَّكِرَةَ في سياقِ الشَّرْطِ مِنْ صِيغِ العُمومِ أَيْضًا[4]، فَأَكَّدَ بِذَلِكَ العُمُومَ الذي أَفَادَتْهُ مَا الشَّرْطِيَّةُ، ومِثْلُ هَذَا البَيَانِ يَكونُ لِتَأْكِيدِ العُمُومِ وَمَنْعِ الخُصوصِ[5].

فائِدَةُ تأكيدِ الجملةِ في قولِه تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ﴾:

اسْتِشْعارُ مُراقَبَةِ اللهِ وعِلْمِهِ بالنِّيَّاتِ جالِبٌ لِلْحياءِ دافِعٌ لِلرِّياءِ

تَصْديرُ جُمْلَةِ ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ﴾ بـ (إِنَّ) واسْمِيَّةِ الجُمْلَةِ لِتَأْكيدِ مَضْمونِها؛ إِفادَةً لِتَحْقيقِ الجَزاءِ، فَإِنَّه تعالى يُجازي عبادَه، إِنْ خَيْرًا فَخَيْرٌ، وإِنْ شَرًّا فَشَرٌّ؛ فَهُوَ تَرْغيبٌ وتَرْهيبٌ، ووَعْدٌ ووَعيدٌ[6]، وَعْدٌ

(1) أبو السُّعود، إرْشادُ العقْلِ السّليم: 1/407، وأبو حيان، البحْرُ المُحيط: 2/686، والبيْضاويّ، أنْوارُ التّنْزيل: 1/160، وابْنُ التّمْجيد، حاشية على البيْضاويّ: 5/448.

(2) أبو السُّعود، إرْشادُ العقْلِ السّليم: 1/407.

(3) التّجْنيسُ أوِ الجِناسُ: هو تشابُهُ لفْظيْنِ في النُّطْق، واخْتِلافُهُما في المعْنى. يُنْظرُ: أحْمد الهاشِمي، جواهِرُ البلاغةِ في المعاني والبيانِ والبديع، ص: 326. وجِناسُ الاشْتِقاقِ: هو أنْ تجْتمِع الكلِمتانِ في أصْلِ الاِشْتِقاقِ من مادة لغوية واحدة، ويُسمّى المقْتضب أيْضًا: يُنْظرُ: السُّيوطي، الإتْقان: 3/312، وأحْمد مطْلوب، مُعْجمُ المُصْطلحاتِ البلاغيّةِ وتطوُّرُها 697. ففي لفْظةِ "أنْفقْتُمْ" مع لفْظةِ "نفقةٍ"، وكذا في" نذرْتُم " مع" نذْرٍ" جِناسُ اشْتِقاقٍ.

(4) القونْويّ، حاشيةُ القونْويِّ على البيْضاويّ: 5/448.

(5) ابْنُ عاشورٍ، التّحْريرُ والتّنْوير: 3/65-66، وابْنُ التّمْجيد، حاشية على البيْضاويّ: 5/448، وأبو حيّان، البحْرُ المُحيط: 2/686، والهرري، تفْسيرُ حدائِقِ الرّوْحِ والرّيْحان: 4/99.

(6) أبو السُّعود، إرْشادُ العقْلِ السّليم: 1/408، وإسْماعيل حقّي، روحُ البيان: 1/432.

لِمَنْ أَنْفَقَ، ونَذَرَ على الوَجْهِ المَقْبولِ، ووَعيدٌ لِمَنْ جاءَ بِعَكْسِ ذَلكَ[1]، فهو خَبَرٌ يُفيدُ - على اخْتِصارِهِ - الوَعْدَ العَظيمَ لِلْمُطيعينَ، والوعيدَ الشَّديدَ لِلْمُتَمرِّدينَ[2] بِتَرْتيبِ عِلْمِ اللَّهِ عَلَى ما أَنْفَقوا، أَوْ نَذَروا[3].

نكتةُ توحيدِ الضَّمير في قولِه: ﴿يَعْلَمُهُۥ﴾ دون تثنيته:

تَوْجيهُ الأنظارِ إلى عِلْمِ اللهِ المُحيطِ بكلِّ شَيْءٍ

جاء الضَّميرُ في قولِه تعالى: ﴿يَعْلَمُهُۥ﴾ مفردًا مَعَ أَنَّ مَرْجِعَهُ اثْنانِ: نَفَقَةٌ ونَذْرٌ، فَلَمْ يَقُلْ: (يَعْلَمُهُما)؛ لِكَوْنِ العَطْفِ هنا بـ ﴿أَوْ﴾، ولِأَنَّهُ رَدَّ الضَّميرَ على الآخِرِ مِنْهُما، وقَدْ تَكَرَّرَ هذا في القُرْآنِ الكَريمِ، كَقَوْلِهِ تَعالى: ﴿وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا﴾ [النساء: 112]، وقيلَ: إِنَّ الضَّميرَ عائِدٌ على (ما) في قَوْلِهِ: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم﴾؛ لِأَنَّها اسْمٌ، فَهُوَ كَقَوْلِهِ تعالى: ﴿وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦ﴾ [البقرة: 231] ولَمْ يَقُلْ: (بِهِمَا)[4]، أو أَنَّ الضَّمير يرجع إلى المنفقِ عمومًا سواءٌ أكانَ نفقةً أو نذرًا، ونكتةُ ذلك توجيهُ النَّظرِ إلى علمِ اللّه تعالى فيما يُنفِقُه المنفقُ، فإنَّ علمَ اللّهِ شاملٌ لكلِّ شَيءٍ، ومحيطٌ بكلِّ نفقةٍ.

بلاغةُ الكِنَايَةِ[5] بِالْعِلْمِ عَنِ الْمُجازاةِ:

التَّرْغيبُ في طَلَبِ الثَّوابِ مِنَ اللهِ وَحْدَهُ وتَقْديمِ رِضاهُ عَلى رضا مَنْ سِواهُ

قَوْلُهُ تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ﴾ كِنايَةٌ عَنِ الْجَزاءِ المترتِّب على العلم؛ لِأَنَّ عِلْمَ اللَّهِ بِالْكائِناتِ وما يصدُرُ عنهُم من أعمالٍ لَا يَشُكُّ فيهِ السَّامِعونَ ولا يجهلونه، فَأُريدَ لَازِمُ مَعْناهُ، أي: (فَإِنَّهُ يُجازيكُمْ)، فَفيهِ مَعَ التَّأْكيد والْجَزاءِ العامِّ بِالخَيْرِ أَوْ بِالعُقوبَةِ مَزيدُ اخْتِصاصٍ وعِنايَةٍ بِعَمَلِ الْمُؤْمِنينَ؛ تَرْغيبًا لَهُمْ في طَلَبِ الثَّوابِ[6]؛ فَهَذِهِ الكِنايَةُ

(1) القِنَّوْجيّ، فتْحُ البيان: 2/131.
(2) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 7/60، وابْنُ عاشورٍ، التّحريرُ والتّنْوير: 3/65-66.
(3) أبو حيّان، البحرُ المُحيط: 2/686.
(4) السّمين، الدُّرُّ المصون: 2/607، والهرري، حدائِقُ الرّوْحِ والرّيْحان: 4/84، والقونْويّ، حاشيةُ القونْويِّ على البيْضاويّ: 5/448.
(5) الكِنايةُ: لفْظٌ اسْتُعْمِل في غيرِ معْناهُ الأصْلي مع جوازِ إرادةِ المعْنى الأصْلّي. يُنْظَرُ: الصّعيديّ، بُغْيةُ الإيْضاحِ لِتلْخيصِ المِفْتاح: 3/538.
(6) القونْويّ، حاشيةُ القونْويِّ على البيْضاويّ: 5/448، والآلوسّي، روحُ المعاني: 2/42، وابْنُ عاشورٍ، التّحريرُ والتّنْوير: 3/66، والهرري، حدائِقُ الرّوْحِ والرّيْحان: 4/99.

تُخاطِبُ في المُؤْمِنِ الدَّافِعَ إلى الإنْفاقِ، وتُشْعِرُهُ بالعِنايَةِ الرَّبَّانِيَّةِ؛ لِأَنَّ الحاجَةَ إلى الأَجْرِ تَتَطَّلَبُ أَنْ يَكونَ الإنْفاقُ خالِصًا، والذي يَعْلَمُ ذَلِكَ هُوَ اللّه، فَأَيُّ شَرَفٍ أَعْظَمُ مِنْ عِلْمِ اللّه بِنَفَقَةِ عَبْدِهِ، وماذا يَضُرُّهُ لَوْ لَمْ يَعْلَمِ النَّاسُ ماذا وكَمْ أَنْفَقَ، وفي هذا مِنَ الإيناسِ مَا يَجْعَلُ العَبْدَ يُنْفِقُ، ولا يَخْشَى مِنْ ذي العَرْشِ إقْلالًا.

فائدةُ الاِسْتِئْنافِ في قولِه تعالى: ﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾:

الظُّلْمُ بِجَميعِ الأَشْكالِ مُنْذِرٌ بِفَظاعَةِ الحالِ وسُوءِ المآلِ

قُوبِلَ وَعيدُ الظَّالِمينَ هُنا بِالْوَعْدِ الَّذي كَنّى عَنْهُ بِقَوْلِهِ: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ﴾[1]، إشارَةً إلى الْجَزاءِ بالعِقابِ[2]، فَالجُمْلَةُ إذَنْ اسْتِئْنافٌ مُقَرِّرٌ لِمَا قَبْلَهُ مِنَ الوَعيدِ، وأفادَ؛ فَظاعَةَ حالِهِم وسُوءَ مآلِهِمْ[3]، وأفادَ عُمُومَ الظَّالِمين في النَّفقةِ؛ فَيَشْمَلُ المُنْفِقينَ بِالرِّياءِ والمَنِّ والأَذى، والمُتَحَرِّينَ لِلْخَبيثِ في الإنْفاقِ، والمُنْفِقين في باطِلٍ، والنَّاذرينَ في مَعْصيَةٍ، والمُمْتَنِعينَ عَنْ أَداءِ ما نَذَرُوا في حَقٍّ، والباخِلينَ بِالصَّدَقَةِ مِمَّا آتاهُمُ اللّه تَعالى مِنْ فَضْلِهِ[4]، إذِ الظُّلْمُ وَضْعُ الشَّيْءِ في غَيْرِ مَوْضِعِهِ الذي يَحِقُّ أَنْ يُوضَعَ فيهِ[5].

الكِنايَةُ بِنَفْيِ الأَنْصارِ نَفْيٌ لِنَصْرِ الظَّالِمِ في الدَّارَيْنِ

الْأَنْصَارُ جَمْعُ نَصيرٍ، وَنَفْيُ الْأَنْصارِ كِنايَةٌ عَنْ نَفْيِ النَّصْرِ وَالْغَوْثِ في الْآخِرَةِ، وَهُوَ ظَاهِرٌ؛ وَفي الدُّنْيَا أَيْضًا؛ لِأَنَّهُمْ لَمَّا بَخِلُوا بِنَصْرِهِمُ الفَقيرَ بِأَمْوالِهِمْ، فَإِنَّ اللّه يُعْدِمُهُمُ النَّصيرَ في الْمَضائِقِ، وَيُقَسِّي عَلَيْهِمْ قُلُوبَ عِبادِهِ، وَيُلْقِي عَلَيْهِمُ الْكَرَاهِيَةَ من النَّاس[6]؛ فَكُلُّ ظَالِمٍ لَا يَجِدُ لَهُ مَنْ يَنْصُرُهُ، وَيَمْنَعُهُ مِنَ عِقابِ اللّه[7].

(1) ابْنُ عاشورٍ، التّحريرُ والتّنْوير: 3/66.
(2) القونْويّ، حاشيةُ القونْويِّ على البيْضاويّ: 5/448، وإسْماعيل حقّي، روحُ البيان: 1/432.
(3) أبو السُّعود، إرْشادُ العقْلِ السّليم: 1/408.
(4) الآلوسّي، روحُ المعاني: 2/42.
(5) أبو السُّعود، إرْشادُ العقْلِ السّليم: 1/408، والبيْضاويّ، أنْوارُ التّنْزيل: 1/160.
(6) ابْنُ عاشورٍ، التّحريرُ والتّنْوير: 3/66.
(7) أبو حيّان، البحْرُ المُحيط: 2/687، والبيْضاويّ، أنْوارُ التّنْزيل: 1/160.

الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

النَّفَقَة والصَّدَقَة والزَّكاة:

النَّفَقَةُ: هِيَ أَنْ يُعْطِيَ الإِنْسانُ مِمَّا رَزَقَهُ اللهُ مِنْ مالٍ وثَمَراتٍ وطَعامٍ وشَرابٍ؛ والإِنْفَاقُ قَدْ يَكونُ في المَالِ، وفي غَيْرِهِ[1]، قال تَعالى: ﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ﴾ [البقرة 272]، فَالنَّفَقَةُ عامَّةٌ تَكُونُ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا، قال تَعالى: ﴿قُلْ أَنفِقُواْ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ﴾ [التوبة: 53]، وتَكُونُ النَّفَقَةُ مُسْتَحَبَّةً، كَقَوْلِهِ تَعالى: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: 92]، وقَدْ تَكُونُ واجِبَةً، كالنَّفَقَةِ على الزَّوْجَةِ والأَوْلادِ، ومِنْهُ قَوْلُهُ تَعالى: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ﴾ [النّساء: 34]، وقَدْ تَكونُ في الخَيْرِ، كَقَوْلِهِ تعالى: ﴿وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: 195]، وقَدْ تَقَعُ في الشَّرِّ وحتَّى مِنَ الكافِرِ، كَقَوْلِهِ تَعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ﴾ [الأنفال: 36].

النَّفقةُ عَامّةٌ، والزَّكاةُ نَفَقَةٌ مُسْتَحَقَّةٌ مَخْصوصَةٌ، والصَّدَقَةُ نَفَقَةُ التَّبَرُّعِ، وهي أَخَصُّ مِنَ النَّفَقَةِ مِنْ جِهَةِ عَدَمِ الإِلْزامِ والإِكْراهِ في صَرْفِها

أَمَّا الصَّدَقَةُ: فَهِيَ إِعْطاءُ المَرْءِ مِنْ نَفْسِهِ تَبَرُّعًا دونَ إِلْزامٍ أَوْ إِكْراهٍ، وقَدْ تَكُونُ عَلَنِيَّةً أَوْ خَفِيَّةً، قال تعالى: ﴿إِن تُبْدُواْ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِيَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة: 271]، فَالمُتَصَدِّقُ: إِنْ أَعْطى ما هُوَ حَقٌّ لَهُ مُتَنازِلًا عَنْهُ عَنْ طيبِ خاطِرٍ؛ كان صَدَقَةً.

فالصَّدَقَةُ أَخَصُّ مِنَ النَّفَقَةِ مِنْ جِهَةِ عَدَمِ الإِلْزامِ والإِكْراهِ في صَرْفِها؛ وهِيَ تَجْمَعُ بَيْنَ القَلْبِ واليَدِ لِما فيها مِنْ مَعْنى الصِّدْقِ، فيُسْتَدَلُّ بِهَا عَلَى صِدْقِ العَبْدِ في إِيمانِهِ وكَمالِهِ فِيهِ؛ لِذا كانَتِ الصَّدَقاتُ تُطَهِّرُ الإِنْسانَ، وتُزَكِّيهِ، فَتَكونُ سَبَبًا لِلشِّفاءِ مِنَ الأَمْراضِ، وتَزْكِيَةً لِلنَّفْسِ وتَنْقِيَةً لَها، ورِفْعَةً في الدَّرَجاتِ[2].

أَمَّا الزَّكاةُ؛ فَهِيَ حَقٌّ يجِبُ في مَالٍ خَاصٍّ، لِطَائِفَةٍ مَخْصُوصَةٍ، في وَقْتٍ مَخْصوصٍ[3]،

(1) الرّاغِب، المُفْردات: (نفق).
(2) الرّازيّ، مفاتيح الغيب7/61.
(3) ابْنُ مُفْلِحٍ، المُبْدِعُ في شرْحِ المُقْنِعِ: 2/291.

تَـكُـونُ الـنَّـفَـقَـةُ عَـيْنَ الـصَّـدَقَـةِ؛ إِذَا كَـانَ الـمَـالُ مُنْفَقًا في بَعْضِ وُجُـوهِ الـخَـيْرِ، وتَكونُ الصَّدَقَةُ أَخَـصَّ فِي نِيَّـةِ الخَيْرِ وقَصْدِهِ

وهِيَ بِهذا أَخَصُّ مِنَ النَّفَقَةِ والصَّدَقَةِ، قال تَعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ فِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ مَّعۡلُومٞ ۝٢٤ لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ ۝٢٥﴾ [المَعارج: 24- 25]؛ والزَّكَاةُ لَا تَأْتِي إِلَّا بِلَفْظِهَا الْمُخْتَصِّ بِهَا، وَهُوَ الزَّكَاةُ المَفْروضَةُ، فَإِذَا جَاءَتْ بِلَفْظِ غَيْرِ الزَّكَاةِ؛ احْتَمَلَتِ الْفَرْضَ وَالتَّطَوُّعَ، وإِذَا جَاءَتْ بِلَفْظِ الْإِنْفَاقِ لَمْ تَكُنْ - غالباً - إِلَّا في التَّطَوُّعِ[1].

وَقد تُسَمَّى الزَّكاةُ صَدَقَةً تَوَسُّعًا؛ لِأَنَّهَا دَلِيلٌ لِصِحَّةِ إِيمَانِ مُؤَدِّيهَا وَتَصْدِيقِهِ؛ قال تَعالى: ﴿خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ تُطَهِّرُهُمۡ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبة: 103].

(1) القُرْطُبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 1/274. وقد يأتي الإنفاق في الواجب شرعًا، كقوله تعالى: ﴿لِيُنفِقۡ ذُو سَعَةٖ مِّن سَعَتِهِۦۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيۡهِ رِزۡقُهُۥ فَلۡيُنفِقۡ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُۚ﴾ [الطلاق: 7].

﴿إِن تُبۡدُواْ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِيَۖ وَإِن تُخۡفُوهَا وَتُؤۡتُوهَا ٱلۡفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمۡۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ٢٧١﴾ [البقرة: 271]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

إظْهارُ الصَّدَقاتِ مِفْتاحُ المَبَرَّاتِ، وإخْفاؤُها عُنْوانُ الخَيْراتِ

لا تَزالُ الآيَاتُ الكريمة تَتَحَدَّثُ عَنِ الإِنْفاقِ في وجوه البرِّ والخير، فلَمَّا ذَكَرَ اللهُ تَعالى الإِنْفاقَ، ومَا يَكُونُ فيه مِنْ جَيِّدٍ أَوْ رَديءٍ، وذكَرَ حُكْمَ كلِّ واحِدٍ مِنَ القِسْمَيْنِ؛ ذَكَرَ بَعْدَهُ أَنَّ الإِنْفاقَ قَدْ يَكُونُ ظاهِرًا، وقَدْ يَكونُ خَفيًّا[1]، فَقالَ: ﴿إِن تُبۡدُواْ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِيَۖ﴾، ففيها حثٌّ وتَرْغيبٌ في إِخْفاءِ الصَّدَقاتِ؛ لِأَنَّها أَبْعَدُ عَنِ الرِّياءِ[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تُبۡدُواْ﴾: تُظْهِروا، مِنْ بَدَا يَبْدو بَدْوًا وبُدُوًّا وبَداءً، وأَصْلُ بَدَوَ: يَدُلُّ على البُروزِ والظُّهورِ بِقُوَّةٍ[3]، أَيْ: ظَهَرَ ظُهُورًا بيِّنًا، وَسُمِّيَ من سكَنَ البادِيَةَ بَدْوًا مِنْ هَذَا؛ لِأَنَّهُمْ في بَرَازٍ مِنَ الْأَرْضِ، وَلَيْسُوا في قُرًى تَسْتُرُهُمْ أَبْنِيَتُهَا[4]، وسائرُ ما في القرآن الكريم من هذا اللفظ هو من البُروزِ والظُّهورِ، والمَعْنى هُنا: تُظْهِروا الصّدقاتِ، وتُبْرِزوها عِنْدَ إِنْفَاقِها.

2) ﴿فَنِعِمَّا هِيَۖ﴾: فنِعمَ شيئًا، أَوْ فَنِعْمَ الشَّيْءُ هِيَ[5]، وأَصْلُ نَعِمَ: يَدُلُّ على تَرَفُّهٍ، وطِيبِ عَيْشٍ، وصَلاحٍ[6].

(1) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 7/61.
(2) الهرري، حدائِقُ الرّوْحِ والرّيْحان: 4/82.
(3) ابْنُ فارِسٍ، مقاييسُ اللُّغة، وجبل، المُعْجمُ الاِشْتِقاقيّ: (بدو).
(4) ابْنُ فارِسٍ، مقاييسُ اللُّغة: (بدو)، والرّاغِب، المُفْردات: (بدا).
(5) الزّبيديّ، تاجُ العروس: (ما).
(6) ابْنُ فارِسٍ، مقاييسُ اللُّغة: (نعِم).

والمَعْنى هُنا: نِعْمَتِ الخَصْلَةُ هِيَ[1].

3) ﴿تُؤْتُوهَا﴾: مِنْ (آتَى) بِالمدِّ، ويُسْتَعْمَلُ في الإعْطاءِ، يُقالُ: آتَى فُلانٌ فُلانًا شَيْئًا يُؤْتِيهِ إيتاءً: أَعْطاهُ إيَّاهُ[2]، وأَصْلُ الإيتاءِ: الإحْضارُ[3]، يُقالُ: آتَى إلَيْهِ الشَّيءَ، إيتاءً؛ إذا ساقَهُ، وجَعَلَه يَأْتِي إلَيْهِ[4]؛ والمَعْنى هُنا: تُعْطوها الفُقَراءَ.

4) ﴿وَيُكَفِّرُ﴾: يَغْفِرُ، ويَسْتُرُ، ويَمْحُو، وَقَدْ كَفَرْتُ الشَّيْءَ أَكْفِرُهُ كُفْرًا، أَيْ: سَتَرْتُهُ، وَأَصْلُ الكُفْرِ: السَّتْرُ وَالتَّغْطِيَةُ[5]؛ والمَعْنى هُنا: يَغْفِرُ لَكُمْ مِنْ صَغائِرِ ذُنوبِكُمْ[6].

❁ المَعْنَى الإجْمَالِيُّ:

صَدَقَةُ الجَهْرِ والسِّرِ؛ يمحو اللهُ بها الخَطايا ويَدْفع العِقاب

إنْ تُظْهِرُوا ما تَبْذُلُونَ مِنَ الصَّدَقَةِ وتَقْصِدون بها وجهَ اللّه؛ فَنِعْمَ ما تَصَدَّقْتُمْ بِهِ، إذ صدقةُ الجَهْرِ تَرْفعُ التهمةَ وتدعو أهلَ الخير إلى الاقتداء بهذا الفِعْل الحَسَن، وإنْ تُسِرُّوا الصَّدقةَ وتُعْطوها الفُقَراءَ؛ فَهُوَ أَفْضَلُ لَكُمْ مِنْ إظْهارِها؛ لِأَنَّهُ أَقْرَبُ إلى الإخْلاصِ، وأَبْعَدُ عَنِ الرِّياءِ، وأسترُ لحالِ الفقيرِ المُحتاج، واللّه يَغْفِرُ لَكُمْ مِنْ ذُنوبِكُمْ بِسَبَبِ إخْلاصِكُمْ في صَدَقاتِكُمْ الظَّاهرةِ والخَفيَّة، واللّه يَعْلَمُ دَقائِقَ الأُمورِ، فَلا يَخْفى عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ أَحْوالِكُمْ، وسَيُجازي كُلًّا بِعَمَلِهِ[7].

❁ الإيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

فائدةُ الاسْتِئْنافِ البَيانيِّ في قولِه: ﴿إِن تُبْدُواْ ٱلصَّدَقَٰتِ﴾:

قَوْلُه تَعَالَى: ﴿إِن تُبْدُواْ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ اسْتِئْنافٌ بَيانيٌّ ناشِئٌ عَنْ قَوْلِه: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ﴾ [البقرة: 270]؛ إذْ أَشْعَرَ تَعْمِيمُ

(1) الرّاغِب، المُفْردات: (نعِم).
(2) ابْنُ فارِسٍ، مقاييسُ اللُّغة، والزّبيديّ، تاجُ العروس: (أتى).
(3) الزّمخْشري، الكشّاف: 5/381
(4) الزّبيديّ، تاجُ العروس: (أتى).
(5) ابْنُ فارِسٍ، مقاييسُ اللُّغة، والجوْهريّ، الصّحاح: (كفر).
(6) البغويّ، معالِمُ التّنْزيل: 1/336.
(7) لجْنةٌ مِنْ عُلماءِ الأزْهر، المُنْتخبُ في تفْسيرِ القُرآنِ الكريم، ص: 65، ونُخْبةٌ مِنْ العلماء، التّفْسيرُ المُيسّر، ص: 46، وجماعةٌ مِنْ عُلماءِ التّفْسير، المُخْتصرُ في تفْسيرِ القُرْآنِ الكريم، ص: 46.

﴿مِّن نَّفَقَةٍ﴾ بِحَالِ الصَّدَقَاتِ الْخَفِيَّةِ، فَيَتَسَاءَلُ السَّامِعُ فِي نَفْسِهِ: هَلْ إِبْدَاءُ الصَّدَقَاتِ يُعَدُّ رِيَاءً؟[1] فَجاءَ الجَوابُ المُفَصَّلُ في هَذِهِ الآيةِ، وهذا ما يُعَبَّرُ عَنْهُ بِشِبْهِ كَمالِ الاتِّصالِ[2]، فَوَقَعَتْ هَذِهِ الجُمْلَةُ جَوابَ سُؤَالٍ يُفْهَمُ مِمَّا قَبْلَها، فَكانَتْ بَيانًا لِما أُجْمِلَ في الآيةِ السَّابِقةِ، وتَفْصيلًا لَها، ولِأَجْلِ هذا تُرِكَ العَطْفُ بِالْواوِ[3]، وَلِأَنَّ قَوْلَهُ: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ﴾ قَدْ كَانَ قَوْلًا فَصْلًا في اعْتِبَارِ نِيَّاتِ الْمُتَصَدِّقِينَ وَأَحْوَالِ مَا يُظْهِرُونَهُ مِنْهَا، وَمَا يُخْفُونَهُ مِنْ صَدَقَاتِهِمْ، فَهَذَا الاسْتِئْنَافُ يَدْفَعُ تَوَهُّمًا مِنْ شَأْنِهِ تَعْطِيلُ الصَّدَقَاتِ وَالنَّفَقَاتِ، وَهُوَ أَنْ يُمْسِكَ الْمَرْءُ عَنْهَا؛ إِذَا لَمْ يَجِدْ بُدًّا مِنْ إِظْهارِهَا، فَيَخْشَى أَنْ يُصِيبَهُ الرِّيَاءُ.

دَفْعُ تَوَهُّمِ الإِمْسَاكِ عَنْ إِظْهارِ الصَّدَقَةِ مَخَافَةَ الرِّيَاءِ

معنى الألفِ واللَّامِ في قولِه تعالى: ﴿ٱلصَّدَقَٰتِ﴾:

التَّعْرِيفُ فِي قَوْلِهِ: ﴿ٱلصَّدَقَٰتِ﴾؛ تَعْرِيفُ الْجِنْسِ، وَمَحْمَلُهُ عَلَى الْعُمُومِ، فَيَشْمَلُ كُلَّ الصَّدَقَاتِ: فَرْضَهَا وَنَفْلَهَا، وَهُوَ الْمُنَاسِبُ لِمَوْقِعِ هَذِهِ الْآيَةِ عَقِبَ ذِكْرِ أَنْوَاعِ النَّفَقَاتِ.

وممَّا يَدُلُّ على العُمومِ والسَّعَةِ أَيْضًا: الطِّباقُ[4] الجَميلُ بَيْنَ ﴿تُبْدُواْ﴾، و﴿تُخْفُوهَا﴾؛ لِأَنَّ ذِكْرَ الشَّيْءِ ومُقَابِلِهِ هُنا يُوَسِّعُ نِطاقَ المَعْرِفَةِ والعِلْمِ بِجوازِ الإِبْداءِ والإِخْفاءِ في الفَرْضِ والنَّفْلِ، ويشملُ ما يُبديه المنفقُ وما يُخفيه.

فَنُّ الطِّباقِ بينَ الإبداءِ والإخفاءِ

بلاغة التعبير بـ ﴿إِن﴾ الشَّرطيَّة في المَوْضِعَيْن:

جَاء الشَّرْط بـ ﴿إِن﴾ فِي الصَّدَقَتَيْنِ في قولِه تعالى: ﴿إِن تُبْدُواْ

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/66-67.

(2) شِبْهُ كمالِ الاتِّصالِ: هو كَوْنُ الجُمْلةِ الثّانيةِ قوية الارْتباطِ بِالأُولى، لِوُقوعِها جوابًا عنْ سُؤالٍ يُفْهمُ مِن الجُمْلةِ الأولى، فتُفْصلُ الثّانيةُ عنْها، كما يُفْصلُ الجواب عنِ السُّؤال، ويُسمّى الفصْلُ لِذلِك استئنافًا، كقوله تعالى: ﴿۞وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ﴾ فكأنّ قائِلًا يقولُ: ولِم؟ فجاء الجوابُ: ﴿إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ﴾ [يوسُف: 53]. يُنْظرُ: أحْمد المراغي، عُلومُ البلاغةِ، ص: 169، وأحْمد الهاشِمي، جواهِرُ البلاغةِ، ص: 184.

(3) أبو السُّعود، إرْشادُ العقْلِ السّليم: 1/408، وابْنُ التّمْجيد، حاشيةُ ابْنِ التّمْجيدِ على البيْضاويّ: 5/449.

(4) الطِّباقُ: ويُقالُ: المُطابقةُ والتّضادّ، والمقابلةُ: وهو الإتْيانُ بالضِّد في إثْرِ ضدِّه في سياقٍ واحدٍ. يُنْظرُ: يحْيى الحُسيْنيّ، الطِّرازُ لِأسْرارِ البلاغةِ وعُلومِ حقائِقِ الإعْجاز: 3/198.

الإشارة إلى قلة المنفقين سرًّا

﴿ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِيَۖ وَإِن تُخۡفُوهَا وَتُؤۡتُوهَا ٱلۡفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۚ﴾ في سياقٍ واحدٍ متقابلتين؛ لبيانِ أنَّ الصَّدقتين إبداءً وإخفاءً مما يقبلُه اللّٰه تعالى، و"إن" تأتي لما هو غيرُ متحقِّقِ الوقوعِ؛ فإبداءُ الصَّدقةِ متوقَّعٌ وإخفاؤها كذلك، وعليه فكلا الصَّدَقَتَيْنِ مُرْضٍ لِلَّهِ تَعَالَى، وَإِنْ كان إخفاؤُها هو الأفضل، فتَفْضِيلُ صَدَقَةِ السِّرِّ قَدْ وَفَّى بِهِ صَرِيحُ قَوْلِهِ: ﴿فَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۚ﴾[1]، وفي ذلك إشارة خفيَّة لطيفة إلى قلة المنفقين سرًّا.

بلاغَةُ تقديمِ الإبداءِ عَلَى الإخْفَاءِ:

الحثُّ على النفقةِ سرًّا

من جمالِ النَّظم القرآنيِّ تقديمُ الإبداءِ على الإخفاءِ في قولِه تعالى: ﴿إِن تُبۡدُواْ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِيَۖ وَإِن تُخۡفُوهَا وَتُؤۡتُوهَا ٱلۡفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۚ﴾، فلمَّا كان الإبداءُ هو الأشيَعَ في سُلُوكِ النَّاسِ، قُدِّم؛ لبيانِ حكمِه في كونِه مقبولًا عند اللّٰه تعالى، وليكونَ توطئةً لما بعدَه من ذكرِ أمرِ الإخفاءِ، وبيان أنَّه الأفضلُ عند اللّٰه تعالى، ففيه تشجيعٌ وحثٌّ على النفقةِ سرًّا.

سرُّ المدْحِ بـ(نِعِمَّا) في قولِه تعالى: ﴿إِن تُبۡدُواْ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِيَۖ﴾:

إبداءُ الصَّدَقَةِ المَفْرُوضَةِ مَعَ الإخْلاصِ، يُنالُ بِهِ الثَّناءُ ويَتَحَقَّقُ به الاقْتِداءُ

أَصْلُ ﴿فَنِعِمَّا﴾: فَنِعْمَ مَا، ولَفْظَةُ نِعِمَّا جَمَعَتِ الأَمْداحَ المُبْهَمَةَ؛ لِأَنَّ (نِعْمَ) كَلِمَةُ مُبالَغَةٍ، تَجمَعُ المَدحَ كُلَّهُ، و (ما) كَلِمَةٌ مُبهمَة تَجْمَعُ المَمْدُوحَ؛ فَتَطَابَقَتَا في الإبْهام، والمُرادُ بِهِمَا التَّناهي في المَدْحِ؛ لِأَنَّ المَدْحَ إنَّما يَكُونُ مُتَعَلِّقًا بِما ثَبَتَ، وظَهَرَ، واسْتَقَرَّ[2].

ومعنى هذه الكلمةِ في الآيةِ: إنْ تُظْهِرُوا الصَّدَقاتِ؛ فَنِعِمَّ شَيءٌ إبْدَاؤُها وإظْهارُهَا، ونِعْمَتِ الخَصْلَةُ هِيَ[3]؛ إنْ لَمْ يَكُنْ في ذلِكَ رِياءٌ وسُمْعَةٌ[4]، فَنِعِمَّا هُنا ثَناءٌ على إبْداءِ الصَّدَقَةِ المَفْروضَةِ، وفي ﴿فَنِعِمَّا﴾

(1) ابْنُ عاشورٍ، التّحْريرُ والتّنْوير: 3/66-67.
(2) البِقاعيّ، نظْمُ الدُّرر: 4/99، وابن عطية، المُحرَّرُ الوجيز: 1/365.
(3) مُجيرُ الدّينِ العُلَيْميّ، فتْحُ الرّحمنِ في تفْسيرِ القُرآن: 1/386.
(4) أبو السُّعود، إرْشادُ العقْلِ السّليم: 1/408.

إشَارَةٌ إلى أَنَّ إظْهارَ الصَّدَقَةِ المَفْروضَةِ مَمْدُوحَةٌ عِنْدَ اللهِ تَعالى كما هِيَ مَمْدوحَةٌ عِنْدَ النَّاسِ؛ فَالمُعْلِنُ بِصَدَقَتِهِ يَنالُ ثَناءَ النَّاسِ، إذْ يَتَحَدَّثُونَ بِامْتِثالِهِ لِأَمْرِ رَبِّهِ وجُودِهِ، ويَقْتَدونَ بِهِ، فَبَيَّنَ سُبْحانَهُ أَنَّ عَمَلَهُ مَمْدوحٌ عِنْدَ النَّاسِ أَيْضًا، وبِذَلِكَ يَنالُ المُتَصَدِّقُ المُخْلِصُ في نِيَّتِهِ وقَصْدِهِ - إنْ أَعْلَنَها - ثَوابَ اللهِ، وثَناءَ النَّاسِ وثَناءَ الشَّرْعِ[1].

فَضْلُ إبْداءِ الصَّدَقَةِ المَفْروضَةِ في نَفْيِ التُّهْمَةِ وإبْراءِ الذِّمَّةِ

وإنَّما كان إبْداءُ صَدَقَةِ الفَرْضِ لِغَيْرِهِ أَفْضَلَ لِنَفْيِ التُّهْمَةِ، ولِأَنَّ الفَرائِضَ لا يَدْخُلُها الرِّياءُ غالِبًا، فَتَكونُ عَلَنِيَّةً؛ لِأَنَّها مَفْروضَةٌ وواجِبَةٌ، بِخِلافِ النَّوافِلِ فَإنَّها عُرْضَةٌ لِلرِّياءِ[2]؛ ولِيَعْلَمَ الذي يُؤَدّي الزَّكاةَ: أَنَّ ما يُعْطيهِ لَيْسَ مِنْ حَقِّهِ هُوَ، بَلْ هُوَ حَقٌّ لِلْآخَرِ في مالِهِ، وعَلَيْهِ أَداؤُهُ، وكَذا تَكونُ أَفْضَلَ حتَّى لِمَنْ يَقْتَدي بِهِ[3].

فائدةُ عَطْفِ الإخْفاءِ على الإبْداءِ:

إخْفاءُ المَرْءِ صَدَقَةَ التَّطَوُّعِ وسَتْرُهُ على الفُقَراءِ أَدْعى لِإخْلاصِهِ وأَنْفَعُ لِخَلاصِهِ

معنى قَوْلِه: ﴿وَإِن تُخْفُوهَا﴾: أَيْ: إنْ تَستروا صَدَقَتَكُمْ غَيْرَ المَفْروضَةِ عَلَيْكُمْ، فتُعْطوها الفُقَراءَ في السِّرِّ؛ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ، وقَدْ ذَهَبَ جُمْهورُ المُفَسِّرينَ إلى أَنَّ هَذِهِ الآيَةَ في صَدَقَةِ التَّطَوُّعِ لا في صَدَقَةِ الفَرْضِ[4].

وإنَّما كان الإخْفاءُ في صَدَقَةِ التَّطَوُّعِ أَفْضَلَ مِنْ إظْهارِها؛ لِأَنَّ في الإخْفاءِ: سَتْرًا على الفَقيرِ، وحِفْظًا لِماءِ وَجْهِهِ بِعَدَمِ تَخْجيلِهِ وفَضيحَتِهِ بَيْنَ النَّاسِ؛ حَيْثُ لَمْ يَطَّلِعْ عَلَيْهِ غَيْرُ المُعْطي[5]، وهذا قَدْرٌ زائِدٌ عَنِ الإحْسانِ إلَيْهِ بِمجَرَّدِ الصَّدَقَةِ، مَعَ كَوْنِهِ أَدْعى إلى إخْلاصِ صاحِبِها، وأَبْعَدَ لَه عَنِ الرِّياءِ[6].

(1) مُحمد أبو زهرة، زهْرةُ التّفاسير: 2/1019.
(2) ابْنُ عطية، المُحرَّرُ الوجيز: 1/365.
(3) الآلوسّي، روحُ المعاني: 2/43.
(4) القِنّوْجيّ، فتْحُ البيانِ في مقاصِدِ القُرآن: 2/132.
(5) ابْنُ عاشورٍ، التّحْريرُ والتّنْوير: 3/67.
(6) القونْويّ، حاشيةُ القونْويِّ على البيْضاويّ: 5/450.

ولَيْسَ في هَذا نفيٌ لِمَزِيَّةِ الإِبْداءِ هُنا أَيْضًا، فَالْمُتَصَدِّقُ الْمُتَطَوِّعُ: إِنْ أَرادَ أَنْ يُقْتدى بِهِ؛ كانَ إِظْهارُهُ لِصَدَقَتِهِ أَفْضَلَ[1]، فَالإِبْداءُ مَمْدُوحٌ والإِخْفاءُ لِصَدَقَةِ التَّطَوُّعِ خَيْرٌ مِنْهُ، كَما نَطَقَ بِهِ النَّظْمُ الكَرِيمُ.

بَلَاغَةُ الإِضْمَارِ فِي مَوْضِعِ الإِظْهارِ:

إِيجازُ الحَذْفِ مُشْعِرٌ بِالخَيْرِيَّةِ مُظْهِرٌ لِلْأَفْضَلِيَّةِ

مِمَّا يَدُلُّ عَلى خَيْرِيَّةِ الإِخْفَاءِ مَجِيءُ الضَّميرِ مَحَلَّ الاسْمِ الظَّاهِرِ في قَوْلِهِ: ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾؛ إِذِ التَّقديرُ: فَالإِخْفاءُ خَيْرٌ لَكُمْ، وهَذا مِنَ الإِيجازِ بِالحَذْفِ الذي يُبْرِزُ الاعْتِناءَ بِشَأْنِ صَدَقَةِ التَّطَوُّعِ، فَهِيَ أَفْضَلُ ما تَكونُ في الخَفاءِ، والفاءُ في: ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾: جَوابُ الشَّرْطِ، وَهُوَ ضَميرٌ عائِدٌ عَلى المَصْدَرِ المُنْسَبِكِ مِنْ أَنِ المُضْمَرَةِ مَعَ الفِعْلِ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿وَإِن تُخْفُوهَا﴾، والتَّقْديرُ: فَالإِخْفَاءُ خَيْرٌ لَكُمْ، فالظَّاهِرُ أَنَّهُ أَفْعَلُ التَّفْضيلِ، وَالمُفَضَّلُ عَلَيْهِ مَحْذوفٌ لِدَلالَةِ المَعْنَى عَلَيْهِ، وَهُوَ الإِبْداءُ، وَالتَّقْديرُ: فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ مِنْ إِبْدائِهَا[2].

نكتةُ عَطْفِ إيتاءِ الفقراءِ على الإخفاءِ:

المَصْلَحةُ الأرجحُ لِلمُنفِقينَ والفقراءِ هو في إخفاءِ الصَّدقةِ

لسائلٍ أن يسألَ عن سِرِّ ذكرِ إيتاءِ الصَّدقة للفقراءِ في قَولِهِ: ﴿وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ﴾، مَعَ الْعِلْمِ بِأَنَّ الصَّدَقَةَ لَا تَكُونُ إِلَّا لِلْفُقَرَاءِ، وَأَنَّ الصَّدَقَةَ الْمُبْدَاةَ أَيْضًا تُعْطَى لِلْفُقَرَاءِ، فَعَطْفُ إِيتَاءِ الْفُقَرَاءِ عَلَى الْإِخْفَاءِ الْمَجْعُولِ شَرْطًا لِلْخَيْرِيَّةِ فِي الْآيَةِ؛ يُؤْذِنُ بِأَنَّ الْخَيْرِيَّةَ هي في الحرصِ على إِخْفَاءِ حَالِ الْفَقِيرِ، وَعَدَمِ إِظْهَارِ اليَدِ الْعُلْيَا عَلَيْهِ، وهَذَا إِيمَاءٌ إِلَى عِلَّةِ الْإِبْقَاءِ عَلَى مَاءِ وَجْهِ الْفَقِيرِ، فَلا يَجْتَمِعُ عَلَيْهِ ذُلُّ الفَقْرِ، وذُلُّ الأَخْذِ، وذُلُّ الإِفْشاءِ والإِبْداءِ، وَهُوَ الفِعْلُ الذي يَحْسِمُ مادَّةَ الرِّيَاءِ حَسْمًا[3].

كَما أَنَّ إِظْهارَ الصَّدَقَةِ مَظِنَّةُ الكَشْفِ عَنْ حالِ آخِذِها، وكَثْرَةِ

(1) الزَّمخْشري، تفْسيُر الكشّاف: 1/316.
(2) أبو حيّان، البحْرُ المُحيط: 2/690.
(3) ابْنُ عاشورٍ، التّحْريرُ والتّنْوير: 3/69.

السُّؤالِ عَنْهُ، وإخْفاؤُها مَظِنَّةٌ لِعَدَمِ ذَلِكَ، فَإعْطاؤُها في العَلانِيَةِ مُتَوَقِّفٌ على عِلْمِ المُعْطي وغَيْرِهِ بِفَقْرِ آخِذِها، فَلا تَقَعُ إلَّا في يَدِ فَقيرٍ؛ لِأَنَّهُ إمَّا أَنْ يَسْأَلَ عَنْ حالِهِ، أَوْ يَراهُ مَنْ يَعْلَمُ أَنَّهُ غَنِيٌّ؛ فَيَنْهاهُ عَنِ الصَّدَقَةِ عَلَيْهِ. أَمَّا إعْطاؤُها سِرًّا؛ فَيَتَوَقَّفُ عَلى مُجَرَّدِ عِلْمِ المُعْطي فَقَطْ، فَقَدْ تَقَعُ في يَدِ غَنِيٍّ يَظُنُّهُ المُعْطي فَقيرًا؛ لِأَنَّهُ لا يَسْأَلُ عَنْ حالِهِ، ولا يَطَّلِعُ عَلَيْهِ مَنْ يَعْرِفُ حالَهُ، فَيُخْبِرُهُ بِحالِهِ؛ فَلِذلِكَ قالَ: ﴿وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ﴾، أَيْ: تَحَرَّوا ذلِكَ[1].

كَما قَيَّدَ تعالى الإخْفاءَ بِإيتاءِ الفُقَراءِ خاصَّةً؛ لِأَنَّ مِنَ الصَّدَقَةِ ما لا يُمكِنُ إخْفاؤُهُ، كَتَجْهيزِ الجَيْشِ، أَوْ يَتَرَتَّبُ على الإظْهارِ مَصْلَحَةٌ راجِحَةٌ، كَإظْهارِ شَعائِرِ الدِّينِ، وحُصُولِ اقْتِداءِ النَّاسِ بِهِ[2].

جمالُ فنِّ الطِّباقِ المعنويِّ[3] وأثرُه في المعنى الإشاريِّ:

مِن كمالِ الصَّدقةِ وحُسْنِ قَبولِها حِرْصُ صاحِبِها على الخَفاءِ

في قَوْلِهِ: ﴿وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ﴾ طِباقٌ مَعْنَوِيٌّ؛ لِأَنَّهُ لا يُؤتي الصَّدَقاتِ إلَّا الأَغْنِياءُ، فَكَأَنَّهُ قيلَ: يُؤتي الأغنياءُ الفقراءَ؛ فَقابَلَ الإبْداءَ بِالإخْفاءِ لَفْظًا، والأَغْنِياءَ بِالفُقَراءِ مَعْنًى[4]، وَفي هَذِهِ الآيَةِ دَلالَةٌ عَلَى أَنَّ الصَّدَقَةَ حَقٌّ لِلْفَقيرِ[5]، وفي عدمِ التَّصريحِ بلفظِ الأغنياءِ إشارةٌ إلى النَّهيِ عنِ الرِّياءِ، وعدمُ الحرصِ على الظُّهورِ عند الصَّدقةِ إن أرادُوا الأجرَ سليمًا معافًى.

تنوُّعُ دلالاتِ الحَذْفِ والإيجازِ:

الإيجازُ بِالحَذْفِ ثَراءٌ لِلَّفْظِ والمعنى على حدٍّ سواءٍ

تنوَّعَ تقديرُ المحذوفِ في قَوْلِه تَعالى: ﴿وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾، على احْتِمالَيْنِ:

الاحتمالُ الأوَّلُ: إمَّا أن يكونَ إيجازًا بِحَذْفِ الفاعلِ، وله

(1) ابْنُ عرفة، تفْسيرُ ابْنِ عرفة: 1/323.

(2) ابن جرير، جامع البيان: 5/14-17، وابْنُ كثيرٍ، تفْسيرُ القرآن العظيم: 1/701-702.

(3) وهو الذي يكونُ التّضادُّ فيهِ بينَ الاِسْمِ وضِدِّهِ في المعنى، وليْس في اللّفْظ، ويعْتمِدُ اسْتِخْراجُ هذا الطِّباقِ على الفهْم، لا على المعْنى الظّاهريِّ لِلْجُمْلة، ومِثالُ ذلِك قوْلُهُ تعالى: ﴿قَالُواْ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ۝١٥ قَالُواْ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ۝١٦﴾ [يس: 16]، فمعْنى قوْلِهِ تعالى: ﴿قَالُواْ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ۝١٦﴾ أيْ: أنّ الله يعْلمُ صِدْقنا، ومِنْ هُنا جاء الطِّباقُ المعْنويُّ بيْن التّكْذيبِ والتّصْديقِ مع عدمِ وُرودِ كلِمةِ الصِّدْق، أوْ ما يُشيرُ إليْها بِشكْلٍ واضِحٍ، يُنْظرُ: مُحمّد قاسم، ومُحيي الدّين ديب، عُلومِ البلاغة: (البيانُ والبديعُ والمعاني) 66-67. بِتصرُّفٍ يسيرٍ.

(4) السّمين، الدُّرُّ المصون: 2/610.

(5) أبو حيّان، البحْرُ المُحيط: 2/691.

تقديران: التَّقديرُ الأوَّل: وَيُكَفِّرُ اللهُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئاتِكُمْ، والتقديرُ الثَّاني: أَنْ يَعُودَ عَلَى الْإِخْفَاءِ، أي: وَيُكَفِّرُ إِخْفَاءُ الصَّدَقَاتِ، وَتكُونُ نِسْبَةُ التَّكْفِيرِ إِلَيْهِ عَلَى سَبِيلِ الْمَجَازِ العَقْلِيِّ[1]؛ لِأَنَّ الإِخْفاءَ سَبَبٌ في تَكْفِيرِ الذُّنوبِ[2]، ودَليلُ النِّسْبَةِ المَجازيَّةِ عَلى هَذا التَّقديرِ مجيءُ (مِن) التي تُفيدُ التَّبْعيضَ، أَيْ: ويُكَفِّرُ عَنْكُمْ بَعْضَ سَيِّئاتِكُمْ، كَما سَتَرْتُموها[3]؛ لِأَنَّ السَّيِّئَاتِ كُلَّها لَا تُكَفَّرُ بِذَلِكَ، وإِنَّما يُكَفَّرُ بَعْضُها، وعَلى هَذا يَكُونُ في الكَلامِ حَذْفٌ لِلْمَفْعولِ (بَعْضَ)، ثُمَّ أُبْهِمَ الكَلامُ في ذَلِكَ البَعْضِ؛ لِأَنَّ بَيانَهُ كالإِغْواءِ بِارْتِكابِها؛ إِذا عُلِمَ أَنَّها مُكَفَّرَةٌ[4].

الاحتمالُ الثَّاني: وإِمَّا أن يكونَ إيجازًا بحذفِ المبتدَأ، ويكون لَفْظُ ﴿وَيُكَفِّرُ﴾ خَبَرًا، والتَّقديرُ: ونَحْنُ نُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئاتِكُمْ، وهذا على قِرَاءَةِ: ﴿وَنُكَفِّرُ﴾[5] بِالنُّونِ، فَإِنَّهُ ضَميرٌ لِلَّهِ يَدُلُّ عَلَيْهِ تَوْكيدُ الخَبَرِ بِاسْمِيَّةِ الجُمْلَةِ مِنْ قَوْلِهِ تَعالى: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾.

بلاغةُ الفاصِلةِ القرآنيَّة:

الإِسْرارُ في الصَّدَقاتِ دَليلُ الإِخْلاصِ ومِفْتاحُ البَرَكاتِ

في قَوْلِهِ تَعالى: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ نكاتٌ عدَّة؛ ففيها تَوْكيدُ الخَبَرِ بِاسْمِيَّةِ الجُمْلَةِ، وتَقْديمُ ما حَقُّه التَّأْخيرُ فلم يقُل: (والله خبيرٌ بما تعملون)، والمبالغةُ في صفةِ ﴿خَبِيرٌ﴾ على وزنِ فعيل، وكُلُّ هذا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ اللهَ سُبْحانَهُ وتَعالى خَبيرٌ بِالعَمَلِ، مُحيطٌ عِلْمُهُ بِدَقائِقِ الأُمورِ وكِبارِها، والمُرَادُ بِهِ هُنا العَليمُ بِهِ، لا العَليمُ بما ظَهَرَ فَقَطْ، وفي هَذا كِنَايَةٌ عَنِ المُجازَاةِ بِحَسَبِ النِّياتِ[6].

كَمَا أَنَّ في المُبالَغَةِ والتَّأْكيدِ تَرْغيبًا في الإِسْرارِ[7]، بَلْ تَرْغيبًا

(1) هو إِسْنادُ الفِعْلِ أَوْ ما في مَعْناهُ إلى غيرِ صاحِبِهِ لِعلاقةٍ، مع قرينةٍ مانِعةٍ مِنْ إرادةِ الإِسْنادِ الحقيقي، ولا يكونُ إلاّ في التَّرْكيبِ: يُنْظَرُ: عبْدُ العزيزِ عتيق، عِلْمُ البيان 143.

(2) أبو حيّان، البحْرُ المُحيط: 2/692.

(3) أبو السُّعود، إرْشادُ العقْلِ السّليم: 1/408.

(4) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 7/65، والسّمين، الدُّرُّ المصون: 2/613، والقِنّوْجيّ، فتْحُ البيان: 2/133.

(5) قرأ أبو عمْرٍو وابْنُ كثيرٍ وعاصِمٌ في رِوايةِ أبي بكْرِ بْنِ عيّاشٍ" ونُكفِّرْ" بِالنّونِ ورفْعِ الرّاء، وقرأ نافِعٌ وحمْزةُ والكِسائي بِالنّونِ والجزْمِ في الرّاء، وقرأ ابْنُ عامِرٍ وحفْصٌ عنْ عاصِمٍ بِالياءِ ورفْعِ الرّاءِ. ينظر: ابن الجزري، النشر: 2/236، والقُرْطُبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 4/364-365.

(6) القونْويّ، حاشيةُ القونْويِّ على البيْضاويّ: 5/452.

(7) أبو السُّعود، إرْشادُ العقْلِ السّليم: 1/408، والقِنّوْجيّ، فتْحُ البيانِ في مقاصِدِ القُرآن: 2/133، والعُلَيْميّ، فتْحُ الرّحمنِ في تفْسيرِ القُرآن: 1/388.

في الإِخْلاصِ سِرًّا أَوْ عَلَنًا، فَرْضًا أَوْ تَطَوُّعًا، وتَرْهيبًا ووَعيدًا لِلْمُرَائي والمُؤْذي[1].

مناسبةُ وَصْفِ ﴿خَبِيرٌ﴾ لسلوكِ الإخفاءِ:

في خَتْمِ هَذِهِ الآيةِ بِهَذِهِ الصِّفَةِ ﴿خَبِيرٌ﴾، مُنَاسَبَةٌ حَسَنَةٌ، فَإِنَّها تَدُلُّ على العِلْمِ بما لَطُفَ مِنَ الأَشْياءِ وخَفِيَ، فَناسَبَ الإِخْفاءَ في قَوْلِه: ﴿وَإِن تُخْفُوهَا﴾ خَتْمُها بِالصِّفَةِ المُتَعلِّقَةِ بما خَفِيَ ﴿خَبِيرٌ﴾[2]، فَفيهِ بَيانٌ لِلرَّبْطِ المَعْنويِّ بَيْنَ نَظْمِ الآي[3] الذي يُبَيِّنُ أَسْرارَ إِسْرارِ الصَّدقاتِ.

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الإِبْداء والإِظْهار:

فَالإِظْهارُ مِنَ الظُّهورِ، وهُوَ الانْكِشافُ والبُروزُ، يُقالُ: ظَهَرَ الشَّيْءُ؛ إِذَا انْكَشَفَ، وَبَرَزَ[4]، والإِبْداءُ ظُهورٌ في غايَةِ الشِّدَّةِ والوُضوحِ والبَيانِ، فَبَدا الشَّيْءُ بُدُوًّا، أَيْ: ظَهَرَ ظُهورًا بَيِّنًا قَوِيًّا[5]، فَقَوْلُنا: بَدا يُشيرُ إِلى السُّطوعِ في الظُّهورِ، فَفيهِ قَدْرٌ زائِدٌ عَنْ مُجَرَّدِ الظُّهورِ؛ إِذَنْ هُناكَ ظُهورٌ بيِّنٌ ساطِعٌ، فَيَكونُ بَيْنَهُمَا عُمومٌ وخُصوصٌ: فَالإِظْهارُ أَعَمُّ مِنَ الإِبْداءِ، والإِبْداءُ أَخَصُّ مِنْ حَيْثُ شِدَّةُ الظُّهورِ وقُوَّتُهُ، قال تَعالى: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ [النور: 31].

الإِبْداءُ هُوَ الظُّهورُ البَيِّنُ الواضِحُ، والإِظْهارُ مطلقُ البُروز

الإِيتاء والإِعْطاء:

لَا يَكادُ أَهْلُ اللُّغَةِ يُفَرِّقُونَ بَيْنَ الإِيتَاءِ وَالإِعْطَاءِ، لَكِنْ نَجِدُ في الاسْتِعْمَالِ القُرْآنيِّ بَعْضَ الفُرُوقِ الدَّقِيقَةِ الَّتي تُوحِي بِبَلاغَةِ القُرْآنِ وَعَظَمَتِه، وَذَلِكَ مِنْ حَيْثُ إِنَّ الإِيتَاءَ أَقْوَى مِنَ الإِعْطَاءِ في إِثْبَاتِ مَفْعُولِه؛ لِأَنَّ الإِعْطَاءَ، لَهُ فِعْلٌ مُطَاوِعٌ، تَقُولُ: أَعْطَانِي، فَعَطَوْتُ، وَلَا يُقَالُ: في

الإِيتاءُ أَقْوى مِنَ الإِعْطاءِ

(1) القونْويّ، حاشيةُ القونْويِّ على البيْضاويّ: 5/452.
(2) أبو حيّان، البحرُ المُحيط: 2/693.
(3) ابْنُ التّمْجيد، حاشيةُ ابْنِ التّمْجيدِ على البيْضاويّ: 5/452.
(4) ابْنُ فارِسٍ، مقاييسُ اللُّغة: (ظهر).
(5) الرّاغِب، المُفْردات: (بدا)، جبل، المُعْجمُ الاشْتِقاقيُّ المُؤصّل: (بدو).

الْإِيتَاءِ أَتَانِي، فَأَتَيْتُ، وَإِنَّمَا يُقَال: آتَانِي، فَأَخَذْتُ، وَالْفِعْلُ الَّذِي لَهُ فِعْلٌ مُطَاوِعٌ أَضْعَفُ فِي إِثْبَاتِ مَفْعُولِهِ مِنَ الَّذِي لَا مُطَاوِعَ لَه[1].

فَالإيتاءُ أَقْوى مِنَ الإعْطاءِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ﴾ [آل عِمران: 26]؛ لِأَنَّ الْمُلْكَ شَيْءٌ عَظِيمٌ، لَا يُعْطَاهُ إِلَّا مَنْ لَهُ قُوَّةٌ، وَكَذَا قَوْلُهُ: ﴿يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ﴾ [البقرة: 269]، والحِكْمَةُ شَيْءٌ عَظِيمٌ أَيْضًا، وقال: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾﴾ [الحِجر: 87]؛ لِعِظَمِ الْقُرْآنِ وَشَأْنِه[2].

فِي الإِيتَاءِ مَعْنَى الوُجُوبِ والِالْتِزَامِ، وفِي الإِعْطَاءِ مَعْنَى التَّفَضُّلِ والإِكْرَامِ

وَمِنَ الْفُرُوقِ أَيْضًا: أَنَّ الْإِتْيَانَ، فِيهِ مَعْنَى الْوُجُوبِ وَالِالْتِزَام، أَمَّا الْعَطَاءُ؛ فَفِيهِ مَعْنَى التَّفَضُّلِ وَالْإِكْرَام؛ فَبَعْدَ أَنْ أَسْعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ بِدُخُولِ الْجَنَّةِ قَالَ: ﴿عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾﴾ [هُود: 108]، وقال: ﴿جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا ﴿٣٦﴾﴾ [النّبأ: 36].

الإِيتَاءُ عَامٌّ فِي الأُمُورِ المَادِّيَّةِ والمَعْنَوِيَّةِ، والإِعْطَاءُ مُخْتَصٌّ بِالمَادِّيَّةِ

وَمِنَ الْفُرُوقِ أَيْضًا: أَنَّ الْعَطَاءَ يَكُونُ فِي الْأَشْيَاءِ الْمَادِّيَّةِ، وَيُفِيدُ التَّكْرَارَ: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ﴿١﴾﴾ [الكوثر: 1] أَيْ: سَيَتَكَرَّرُ شُرْبُكَ - يَا مُحَمَّدُ ﷺ - كَثِيرًا مِنْ نَهْرِ الْكَوْثَرِ، ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ﴿٥﴾﴾ [الضُّحى: 5] أَيْ: سَيَكُونُ عَطَاءُ اللَّهِ لَكَ مُكَرَّرًا حَتَّى تَبْلُغَ دَرَجَةَ الرِّضَا[3].

أَمَّا الإيتاء؛ ففي الأشياءِ المادِّيَّة والمعنويَّة، قال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ﴾ [الأنبياء: 51] وقال: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ﴿٢٠﴾﴾ [ص: 20][4].

وَمِنَ الْفُرُوقِ أَيْضًا: أَنَّ فِي الْإِعْطَاءِ دَلِيلَ التَّمَلُّكِ دُونَ الْإِيتَاءِ[5]،

(1) السُّيوطي، الإتْقان: 2/367.
(2) الكفوي، الكُلّيات، ص: 212.
(3) السُّيوطي، الإتْقان: 2/367، والكفوي، الكُلّيات، ص: 212.
(4) صلاح لاشين، مِنْ أسرارِ التّعْبير في القُرْآنِ الكريم، صفاءُ الكلِمة، ص: 77-71.
(5) أبو هِلالٍ العسكري، الفُروقُ اللُّغويةُ، ص: 86، والكفوي، الكُلّيات: 1/360.

الْإِعْـطَـاءُ دَلِـيـلُ اَلتَّمَلُّكِ، والْإِيتَاءُ يَلحقه اَلنَّزْعُ

فَالْإِيتَاءُ يَشْمَلهُ اَلنَّزْعُ، بِمَعْنَى: أَنَّهُ لَيْسَ تَمْلِيكًا، وَلَكِنَّ الْعَطَاءَ تَمْلِيكٌ، وَالْإِيتَاءُ لَيْسَ بِالضَّرُورَةِ تَمْلِيكًا؛ لِأَنَّ الْإِعْطَاءَ هُوَ إِيصَالُ الشَّيْءِ إِلَى الْأَخْذِ لَهُ، وَكَثُرَ اسْتِعْمَالُ اَلْإِعْطَاءِ، حَتَّى صَارَ لَا يُطْلَقُ إِلَّا عَلَى اَلتَّمْلِيكِ، فَيُقَال: أَعْطَاهُ مَالاً، إِذَا مَلَّكَهُ إِيَّاهُ[1].

مَغْفِرَة الذُّنوبِ وتَكْفِيرُ السَّيِّئَاتِ:

المَـغْـفِـرَةُ وِقـايَـةٌ وحِفْظٌ والتَّكْفيرُ إِزالَةٌ وسَتْرٌ

لَفْظُ المَغْفِرَةِ يَتَضَمَّنُ الوِقَايَةَ والحِفْظَ، ولَفْظُ التَّكْفيرِ يَتَضَمّنُ السَّتْرَ والإِزالَةَ، وعِنْدَ اقْتِرانِ الذُّنوبِ والسَّيِّئَاتِ، يَنْصَرِفُ مَعْنى الذُّنُوبِ إِلى الكَبائِرِ، ومَعْنى السَّيِّئَاتِ إِلى الصَّغائِرِ، وعَلَيْهِ تَكُونُ المَغْفِرَةُ لِلذُّنوبِ، والتَّكْفيرُ لِلسَّيِّئَاتِ[2]، قال تَعالى: ﴿رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ١٩٣﴾ [آلُ عِمْران: 193]، فَالْمَغْفِرَةُ أَكْمَلُ مِنْ لَفْظِ التَّكْفيرِ، ولِهذا كانَ مَعَ الكَبائِرِ، والتَّكْفيرُ مَعَ الصَّغائِرِ؛ وعِنْدَ الانْفرادِ يَدْخُلُ كُلٌّ مِنْهُما في مَعْنى قوله تَعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ [الزُّمَر: 53].

(1) السُّيوطي، الإِتْقان: 2/197.

(2) ابْنُ القيِّم، مدارِجُ السّالِكين: 1/317.

﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۗ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٢﴾﴾ [البقرة: 272]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الهِدايَةُ والتَّوْفيقُ إلى الخَيْرِ بِيَدِ اللهِ وحْدَهُ، والرَّسُولُ مُرْشِدٌ ومُبَلِّغٌ

لَمَّا حَثَّ اللهُ سُبْحانَهُ وتَعالى عَلى وُجوهِ الخَيْرِ، ورَغَّبَ في لُزومِ الهُدى، وكانَ أَكْثَرُهُمْ مُعْرِضينَ؛ لِأَنَّ ما دعا إِلَيْهِ هادِمٌ لِمَا جُبِلوا عَلَيْهِ مِنَ الحُبِّ لِتَوْفيرِ المالِ والحَفيظَةِ على النَّفْسِ، وكانَ ﷺ شَديدَ الأَسَفِ عَلَيْهِمْ دائِمَ القَلَقِ مِنْ أَجْلِهِمْ؛ لِعَظيمِ رَحْمَتِهِ بهِمْ وشَفَقَتِهِ عَلَيْهِمْ، فَكانَ يَجِدُ مِنْ تَقاعُدِهِمْ عَمَّا يَدْعوهُمْ إِلَيْهِ وَجْدًا شَديدًا هَوَّنَ سُبْحانَهُ وتَعالى عَلَيْهِ الأَمْرَ وخَفَّفَ عَلَيْهِ الحالَ[1]، فَقالَ: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ﴾، فَعَقَّبَ اللهُ بهذا تسكينًا لنَفْسِ رَسُولِهِ، وَتهْوينًا عَلَيْهِ بِأَنْ لَيْسَ عَلَيْكَ هُداهُمْ، وَلَكِنْ عَلَيْكَ الْبَلاغُ[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿هُدَىٰهُمْ﴾: الهُدى: الرَّشادُ والدَّلالةُ والتَّوفيقُ[3] والبَيانُ[4] مِنْ هَدَيْتُهُ الطَّريقَ والبَيْتَ هِدايَةً وهُدًى، أَيْ: عَرَّفْتُهُ، وأَرْشَدْتُهُ، وأَصْلُ هُدى: التَّقَدُّمُ لِلْإِرْشادِ[5]، والهِدايَةُ دَلالَةٌ بِلُطْفٍ[6]، وهِيَ بَيانُ طَريقِ الرُّشْدِ خاصَّةً والتَّوْجيهُ إِلَيْهِ[7]، والمَعْنى هُنا: التَّوفيقُ الَّذي يَخْتَصُّ اللهُ بِهِ مَن تَوَلَّاهُ وأَعْطاهُ[8].

(1) البِقاعيّ، نظْمُ الدُّرر: 1/100-101.
(2) ابْنُ عاشورٍ، التّحريرُ والتّنْوير: 3/69.
(3) الجوْهريّ، الصِّحاح، والزّبيديّ، تاجُ العروس: (هدى).
(4) الأزْهريّ، تهْذيبُ اللُّغة: (هدى).
(5) ابْنُ فارِسٍ، مقاييسُ اللُّغة: (هدي).
(6) الرّاغِب، المُفْردات: (هدى).
(7) حسن المُصطفوي، التّحْقيقُ في كلِماتِ القُرآنِ الكريمِ 11/233. وجبل، المُعْجمُ الاشْتِقاقيّ: (هدى).
(8) السّمين، عُمْدةُ الحُفّاظ: (هدي)، والزّبيديّ، تاجُ العروس: (هدى).

2) ﴿خَيْرٍ﴾: الخَيْر ضدُّ الشَّرِّ، وهُوَ: ما يَرْغَبُ فيهِ كُلُّ أَحَدٍ كالعَدْلِ والفَضْلِ والشَّيْءِ النَّافِعِ[1] مِنْ مالٍ أَوْ غَيْرِهِ، وأَصْلُ الخَيْرِ مَأْخوذٌ مِنَ الرَّخاوَةِ والطَّراءَةِ[2]، ويُطْلَقُ الخَيْرُ على المالِ؛ إذا كان مَجْمُوعًا مِنْ وَجْهٍ مُباحٍ[3]، والمَعْنى هُنا: كُلُّ نَفْعٍ مُسْتَحْسَنٍ يُجيزُهُ الشَّرْعُ[4].

3) ﴿ٱبْتِغَآءَ﴾: طَلَبَ؛ وبَغَيْتُ الشَّيء أَبغيه بُغاء وابتغاء: طلبته، وأصل بَغَيَ: طَلَبُ الشَّيْءِ[5] ومِنْهُ البَغْيَةُ، وهِيَ الطِّلْبَةُ والحاجَة[6]، وخُصَّ الابْتِغاءُ بالاجْتِهادِ في الطَّلَبِ[7]، فالمعنى هنا ابتغاء مرضاة الله، أي: طلبًا لرضاه[8].

4) ﴿يُوَفَّ إِلَيْكُمْ﴾: يُؤَدَّ إِلَيْكُمْ وافِيًا أَجْرُهُ، وأَصْلُ الوَفاءِ والتَّوفِيَةِ: بُلوغُ التَّمام، فَكُلُّ شَيْءٍ بَلَغَ تَمامَ الكَمالِ، فَقَدْ وَفَّى[9]؛ وتَوْفِيَةُ الشَّيْءِ: بَذْلُهُ، واسْتِيفاؤُهُ: تَناوُلُهُ وافِيًا[10]؛ والمَعْنى هُنا: يُؤَدَّ إِلَيْكُمْ تامًّا[11].

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

مَنْ رُزِقَ الهِدايَةَ؛ فَقَدْ وُفِّقَ، ومَنْ أَنْفَقَ؛ فَلِنَفْسِهِ أَعْتَقَ:

لَيْسَ عَلَيْكَ - أَيُّها النَّبِيُّ ﷺ - هِدايَةَ الخَلْقِ إلى الإِسْلامِ هِدايَةَ تَوْفيقٍ وقَبُولٍ لِلْحَقِّ، ولَكِنَّ اللهَ يَشْرَحُ صُدورَ مَنْ يَشاءُ لِدينِهِ، ويُوَفِّقُهُ لَهُ، فَإِنَّ التَّوْفيقَ لِلْحَقِّ والهِدايَةِ إِلَيْهِ بِيَدِهِ، وما تَبْذُلوا مِنْ مالٍ أو مَعونَةٍ لِغَيْرِكُمْ؛ فَنَفْعُهُ الحقيقيُّ عائِدٌ إِلَيْكُمْ بالسَّعادةِ في الدنيا، وبالثوابِ الجزيلِ في الآخرة؛ لِأَنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنْهُ، وَلْتَكُنْ نَفَقَتُكُمْ خالِصَةً للهِ، فَالمُؤْمِنونَ حَقًّا لا يُنْفِقونَ إِلَّا طَلَبًا لِمَرْضاتِهِ، وما تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ - قَليلًا كانَ أَوْ كَثيرًا - فَإِنَّكُمْ تُعْطَوْنَ ثَوابَهُ تامًّا غَيْرَ مَنْقوصٍ، فَإِنَّ اللهَ لا يَظْلِمُ أَحَدًا، ولا تُنْقَصُونَ شيئًا ممَّا وعدكم اللهُ به على نفقتكم في سبيله[12].

---

(1) الرّاغِب، المُفْردات: (خير).
(2) جبل، المُعْجمُ الاِشْتِقاقيّ: (خور-خير).
(3) السّمين، عُمْدةُ الحُفّاظ: (خير).
(4) جبل، المُعْجمُ الاِشْتِقاقيّ: (خور-خير).
(5) ابْنُ فارِسٍ، مقاييسُ اللُّغة: (بغي).
(6) الجوْهريّ، الصِّحاح: (بغي)، وابْنُ منْظورٍ، لِسانُ العرب: (بغا).
(7) الرّاغِب، المُفْردات، والزّبيديّ، تاجُ العروس: (بغى).
(8) الكفوي، الكُلّيات، ص: 34.
(9) الخليل، العينُ: (وفي) وابْنُ قُتيْبة، غريبُ القُرْآنِ، ص: 98.
(10) الرّاغِب، المُفْردات: (وفى).
(11) الكفوي، الكُلّيات، ص: 992.
(12) ابْنُ عُثيمين، تفْسيرُ ابْنِ عُثيْمين: (سورةُ الفاتِحةِ والبقرة) 3/361-362، ولجْنةٌ مِنْ عُلماءِ الأزْهر، المُنْتخبُ في تفْسيرِ القُرآنِ الكريم، ص: 65، ونُخْبةٌ من العلماء، التّفْسيرُ المُيسّر، ص: 46، وجماعةٌ مِنْ عُلماءِ التّفْسير، المُخْتصرُ في تفْسيرِ القُرْآنِ الكريم، ص: 46.

الإيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

بلاغةُ الاسْتِئْنَافِ المُعْتَرِض[1]:

تَسْلِيَةُ قَلْبِ النَّبِيِّ ﷺ وبَيانٌ لِأَنْواعِ الهِدايَةِ

قَوْلُهُ تَعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ﴾، اسْتِئْنَافٌ مُعْتَرِضٌ بِهِ بَيْنَ قَوْلِهِ: ﴿إِن تُبْدُواْ ٱلصَّدَقَٰتِ﴾، وَبَيْنَ قَوْلِهِ: ﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ﴾، و"في هَذا الاِسْتِئْنافِ تَسْكينٌ لِرَوْعَتِهِ ﷺ؛ لِأَنَّهُ مَضى قَبْلَ الآيةِ مِقْدارُ رُبْعِ حِزْبٍ في الحَضِّ على الصَّدَقَةِ، وعلى خُلوصِ النِّيَّةِ، وكَرَّرَ ذَلِكَ وأَكَّدَ، فَخُشِيَ أَنْ يَتَهالَكَ عَلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ لِأَجْلِ عَدَمِ امْتِثالِهِمْ، فَأَتَتْ هَذِهِ الآيَةُ تَسْكِينًا لِرَوْعَتِهِ وتَطْمِينًا لِجَنانِهِ"[2]، فالْآيَاتُ الْمُتَقَدِّمَةُ فَصَّلَتْ في ذِكْرِ أَصْنَافٍ مِنَ النَّاسِ: مِنْهُمُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ، وَلا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُبْطِلُونَ صَدَقَاتِهِمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى، وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يَتَيَمَّمُونَ الْخَبِيثَ مِنْهُ يُنْفِقُونَ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ الْفَقْرَ، وَيَأْمُرُهُمْ بِالْفَحْشَاءِ، وَكانَ وُجُودُ هَذِهِ الْفِرَقِ مِمَّا يَثْقُلُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَعَقَّبَ اللَّهُ ذَلِكَ بِتَسْكِينِ نَفْسِ رَسُولِهِ وَالتَّهْوِينِ عَلَيْهِ بِأَنْ لَيْسَ عَلَيْهِ هُدَاهُمْ، وَلَكِنْ عَلَيْهِ الْبَلَاغُ[3].

بلاغةُ الاستعلاءِ المجازِيِّ في قولِه: ﴿عَلَيْكَ﴾:

أفادَ حرفُ الاستعلاءِ في قَوْلِهِ: ﴿عَلَيْكَ﴾؛ الاِسْتِعْلَاءَ الْمَجازِيَّ[4]، أَيْ: طَلَبَ فِعْلٍ عَلى وَجْهِ الْوُجُوبِ، وَالمَعْنَى: لَيْسَ ذَلِكَ بِواجِبٍ عَلَى الرَّسُولِ، فَلَا يَحْزَنْ عَلى عَدَمِ حُصولِ هُداهُمْ؛ لِأَنَّهُ أَدَّى واجِبَ التَّبْلِيغِ؛ فَكانَ التَّعْبِيرُ بِالاِسْتِعْلاءِ المَنْفِيِّ أَدْخَلَ في رَفْعِ الحَرَجِ عَنْهُ ﷺ، وفي التَّسْرِيَةِ عَنْهُ.

---

(1) الاِعْتِراضُ: هو أنْ يُؤْتى بِجُمْلةٍ وسط كلامٍ مُتَّصِلٍ، بعْضُهُ بِبعْضٍ، يُنْظرُ: فضْل عبّاس، البلاغةُ فُنونُها وأفْنانُها: (عِلْمُ المعاني)، ص: 490.

(2) ابْنُ عرفة، تفْسيرُ ابْنِ عرفة: 1/323.

(3) ابْنُ عاشورٍ، التّحْريرُ والتّنْوير: 3/69.

(4) مِنْ معاني على: إفادةُ الاِسْتِعْلاء، وقدْ يكونُ الاِسْتِعلاءُ حقيقيًّا كقوْلِك: (هو على الجبلِ) و: (حملهُ على ظهْرِهِ) أيْ: فوْقه، وقدْ يكونُ مجازيًّا، كقوْلِهِمْ: (عليْهِ دينٌ)، كأنّ الدّيْن علاهُ وركِبه، ولِذا تقولُ العربُ: ركِبتْني دُيونٌ " كأنّهُ يحْمِلُ ثِقل الدّينِ على عُنُقِهِ أوْ على ظهْرِه، ومِنْهُ عليّ قضاءُ الصّلاةِ وعليْهِ القِصاصُ، لِأنّ الحُقوق كأنّها راكِبةٌ لِمنْ تلْزمُهُ". يُنْظرُ: فاضل السّامرائي، معاني النّحو: 3/48.

فائدةُ التَّقديمِ والتَّأخيرِ:

توجيهُ النَّبيِّ ﷺ لما يجبُ عليه من الهدايةِ

أفادَ تَقْديمُ الظَّرْفِ وَهُوَ ﴿عَلَيْكَ﴾ - عَلَى المُسْنَدِ إِلَيْهِ - وَهُوَ ﴿هُدَىٰهُمْ﴾، في قولِه تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ﴾ مُجَرَّدَ الاهْتِمامِ، بِنَفْيِ كَوْنِ هُدَاهُمْ حَقًّا عَلَى الرَّسُولِ تَهْوِينًا لِلْأَمْرِ عَلَيْهِ[1]، ومعنى الكلامِ: لَا يَجِبُ عَلَيْكَ أَنْ تَجْعَلَهُمْ مَهْدِيِّينَ إلى الإتْيانِ بما أُمِروا بِهِ مِنَ المَحاسِنِ، والانْتِهاءِ عَمَّا نُهُوا عَنْهُ مِنَ القَبائِحِ المَعْدودَةِ، وإنَّما الواجِبُ عَلَيْكَ الإرْشادُ إلى الخَيْرِ، والحَثُّ عَلَيْهِ، والنَّهْيُ عَنِ الشَّرِّ، والرَّدعُ عَنْهُ؛ بما أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الآياتِ والذِّكْرِ الحَكيمِ[2].

نوعُ الهدايةِ المذكورةِ في الآيةِ:

هُدى التَّوْفيقِ مِنَ اللهِ المَنَّانِ وعَلى الرَّسولِ ﷺ هُدى الإرْشادِ والبَيانِ

الهداية نوعان: هدايةُ توفيقٍ، وهدايةُ إرشادٍ، قَالَ ابْنُ عَرَفَةَ: "يُقالُ: هَدَيْتُ فُلانًا إلى الإيمانِ، أَيْ: دَعَوْتُهُ إِلَيْهِ؛ فَاهْتدى بِخِلافِ ما إذا دَعَوْتَهُ إِلَيْهِ - فَلَمْ يَهْتَدِ - فَإِنَّكَ لا تَقولُ: هَدَيْتُهُ إلى الإيمانِ، فَهَذا هُو المَنْفِيُّ في الآيَةِ، أَيْ: لَيْسَ مَطْلُوبًا بِتَحْصيلِ الهِدايَةِ الكَسْبِيَّةِ"[3]. وأَمَّا هِدايَةُ البيانِ والإرْشادِ والدَّعْوَةِ؛ فَكانَتْ على رَسولِ اللهِ ﷺ، كَما قالَ تَعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٥٢﴾ [الشورى: 52][4]، أَيْ: تُبَيِّنُ، وتَدْعو، وتُرْشِدُ إلى صِراطٍ مُسْتَقيمٍ، فَهُدى التَّوفيقِ عَلى اللهِ، وهُدى البَيانِ على النَّبيِّ ﷺ[5].

اكتسابُ دلالةِ العمومِ من الألفاظِ والسِّياقِ:

في ذِكْرِ الهُدى والهِدايَةِ عُمومُ خِطابٍ لِكُلِّ داعِيَةٍ ومَدْعوٍّ

في قولِه تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ﴾ تَسْلِيَةٌ لَهُ ﷺ، ولِكُلِّ داعِيةٍ مِنْ بَعْدِه، فَالمُرادُ مِنْهُ العُمومُ؛ بِدَليلِ قَوْلِه: ﴿إِن تُبْدُواْ ٱلصَّدَقَٰتِ﴾، وهَذا خِطابٌ عَامٌّ، ثُمَّ قالَ: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ﴾، وهُوَ في الظَّاهِرِ

(1) ابْنُ عاشورٍ، التَّحْريرُ والتَّنْوير: 3/69-70.
(2) أبو السُّعود، إرْشادُ العقْلِ السّليم: 1/409.
(3) ابْنُ عرفة، تفْسيرُ ابْنِ عرفة: 1/323.
(4) الهرري، حدائِقُ الرّوْحِ والرّيْحان: 4/88
(5) إسْماعيل حقّي، روحُ البيان: 1/434.

خاصٌّ، ثُمَّ قالَ بَعْدَهُ: ﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْۚ﴾، وهذا عامٌّ؛ فَيُفْهَمُ مِنْ عُمومِ ما قَبْلَ الآيَةِ وعُمومِ ما بَعْدَها؛ عُمومُها أَيضًا[1]، وعلى تَقْديرِ خُصوصِ خِطابِ النَّبيِّ ﷺ بِقَوْلِهِ تَعالى ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ﴾، فَإِنَّهُ يَسْتَلْزِمُ العُمومَ؛ لِأَنَّهُ إذا رُفِعَ التَّكْليفُ عَنِ النَّبيِّ ﷺ الذي هُوَ رَسُولٌ مَأْمورٌ بِالتَّبْليغِ والدُّعاءِ إلى الإيمانِ، فَأَحْرى أَنْ يُرْفَعَ عَمَّنْ سِواهُ[2].

فنُّ الطِّباقِ المعنويِّ

في قَوْلِهِ: ﴿هُدَىٰهُمْ﴾ عُمومٌ في كُلِّ مَدْعوٍّ أَيْضًا جاءَ على هَيْئَةِ الطِّباقِ المَعْنويِّ؛ إذ المَعْنى: لَيْسَ عَلَيْكَ هُدى الضَّالِّينَ[3]، فالضَّميرُ راجِعٌ إِلَى جَميعِ مَنْ بَقِيَ فيهِمْ شَيْءٌ مِنْ عَدَمِ الهُدى، وَأَشَدُّهُمُ المُشْرِكونَ وَالمُنافِقونَ[4].

فائِدَةُ الِالْتِفاتِ[5] مِنَ الخِطابِ إلى الغَيْبَةِ:

تأكيدُ خُصوصيَّةِ الهدايةِ بالله وحدَه، وأنَّها معذوقةٌ بمشيئته

في قولِه تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ الِتفاتٌ مِنَ الخِطابِ إلى الغَيْبَةِ، فَبَعْدَ تَوْجيهِ الخِطابِ إلى رَسُولِ اللهِ ﷺ جاءَ تَلْوينُهُ بِالِالْتِفاتِ إلى الغَيْبَةِ على عادَةِ النَّظْمِ الكَريمِ في التَّفَنُّنِ في الأَساليبِ، مَعَ تَأْكيدِ الخَبَرِ بِاسْمِيَّةِ الجُمْلَةِ، و﴿وَلَٰكِنَّ﴾؛ لِإفادَةِ مَعْنى خُصوصِيَّةِ الهِدايَةِ باللهِ تعالى وتَأْكيدِها في حَقِّهِ؛ فَقَدْ أَتى فيهِ بِالِاسْمِ الأَحْسَنِ الخاصِّ بِهِ، ولَوْ قالَ: ولكِنَّا نَهْدي مَنْ نَشاءُ؛ لَكانَ عامًّا؛ لِأَنَّ الضَّمائِرَ كُلِّيَّةٌ، ولِأَنَّ النُّونَ والأَلِفَ تَكُونُ لِلْمُتَكَلِّمِ وَحْدَهُ؛ إذا عَظَّمَ نَفْسَهُ ولِلْمُتَكَلِّمِ ومَعَهُ غَيْرُهُ، بِخِلافِ الِاسْمِ الأَحْسَنِ فَإِنَّهُ خاصٌّ بِلا شَكٍّ[6].

---

(1) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 7/66، وأبو حيّان، البحرُ المُحيط: 2/693.
(2) ابْنُ عرفة، تفْسيرُ ابْنِ عرفة: 1/323.
(3) السّمين، الدُّرُّ المصون: 2/614، والهرري، حدائِقُ الرّوْحِ والرّيْحان: 4/99.
(4) ابْنُ عاشورٍ، التّحْريرُ والتّنْوير: 3/69.
(5) الِالْتِفاتُ: هو أنْ يُنْتقل مِن التّكلُّمِ والخِطابِ والغيْبةِ مُطْلقًا إلى الآخِرِ. يُنْظرُ: السّكاكّي، مِفْتاحُ العُلومِ، ص: 202.
(6) ابْنُ عرفة، تفْسيرُ ابْنِ عرفة: 1/323.

فائِدَةُ استعمالِ حرفِ الاستدراكِ:

دَفْعُ تَوَهّمِ إمكانِ هدايةِ الضَّالين بالحِرْصِ عَلَيْهِم

استُعمِلَ حرفُ الاسْتِدْراكِ في قولِه تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ﴾؛ لِما في الكَلَامِ المَنْفِيِّ مِنْ تَوَهُّمِ إمْكانِ هَدْيِهِمْ بِالحِرْصِ أَوْ بِالْإِلْجَاءِ، فَمَصَبُّ الاسْتِدْرَاكِ هُوَ الصِّلَةُ في ﴿مَن يَشَآءُ﴾، أَيْ: فَلَا فائِدَةَ في إِلْجَاءِ مَنْ لَمْ يَشَأِ اللَّهُ هَدْيَهُ، وَالتَّقْدِيرُ: وَلَكِنَّ هُدَاهُمْ بِيَدِ اللَّهِ، وَهُوَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ، فَإِذَا شاءَ أَنْ يَهْدِيَهُمْ هَداهُمْ[1].

فنُّ الجناسِ الاشتقاقيِّ

وَلِمُراعاةِ هَذِهِ الخُصوصيَّةِ أَيْضًا جِيءَ بِالجِناسِ الاشْتِقاقِيِّ المُغايِرِ في لَفْظِ الهُدى بَيْنَ قَوْلِهِ: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ﴾، مَعَ قَوْلِهِ: ﴿لَّيۡسَ عَلَيۡكَ هُدَىٰهُمۡ﴾[2]، كَما عَطَفَ بِالْواوِ في قَوْلِهِ تَعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ﴾ عَلى ما قَبْلَهُ لِبيانِ اتِّحادِ الجُمْلَتَيْنِ في الخَبَرِيَّةِ بِهَذِهِ الخُصوصِيَّةِ.

فائدةُ العَطْفِ عَلى ما قَبْلَ الإعْتِراضِ:

أوَّلُ المُنْتَفِعِين بالصَّدَقَةِ المُتَصَدِّقُ نفسُه ثم المتصدَّقُ عليهم

قَوْلُهُ سُبْحانَهُ وتَعالى: ﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَلِأَنفُسِكُمۡ﴾ عَطْفٌ عَلَى جُمْلَةِ ﴿إِن تُبۡدُواْ ٱلصَّدَقَٰتِ﴾، وفَائِدَتُهُ: زِيادَةُ بَيانِ فَضْلِ الصَّدَقاتِ كُلِّها، وَأَنَّها لَمَّا كانَتْ مَنْفَعَتُها لِنَفْسِ المُتَصَدِّقِ؛ فَلْيَخْتَرْ لِنَفْسِهِ مَا هُوَ خَيْرٌ، وَعَلَيْهِ أَنْ يُكْثِرَ مِنْها بِنَبْذِ كُلِّ مَا يَدْعُو لِتَرْكِ بَعْضِها[3].

فائدةُ الِالْتِفاتِ مِنَ الغَيْبَةِ إلى الخِطابِ:

تشريفُ المخاطَبينَ وحضُّهم على النَّفقةِ والِامْتِثالِ

قولُهُ تَعالى: ﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِنۡ خَيۡرٖ﴾ الْتِفاتٌ مِنَ الغَيْبَةِ في قَوْلِهِ: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ﴾ إلى خِطابِ المُكَلَّفينَ لِزِيادَةِ هَزِّهِمْ نَحْوَ الِامْتِثالِ، وترغيبِهم في الإنفاقِ بتوجيهِ الخطابِ لهم من اللّه تعالى، ففيه تشريفٌ رفيعٌ، وفضلٌ عظيمٌ.

---

(1) ابْنُ عاشورٍ، التَّحْريرُ والتَّنْوير: 3/72.

(2) أبو حيّان، البحرُ المُحيط: 2/694، والسّمينُ الحلبيّ، الدُّرُّ المصونُ: 2/614.

(3) ابْنُ عاشورٍ، التَّحْريرُ والتَّنْوير: 3/72.

بلاغةُ قولِه تعالى: ﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِنۡ خَيۡرٖ﴾:

إفادةُ فضلِ التَّصدُّقِ بالبعضِ بعد ذكرِ العمومِ

لِلتَّرْغيبِ في تَحَرِّي الأَجْرِ وطَلَبِ الثَّوابِ جِيْءَ بـ ﴿وَمَا﴾ الشَّرْطيَّةِ التي فيها رائحةُ العموم، و ﴿مِنۡ﴾ التَّبْعِيضيَّةِ المُتَعَلِّقَةِ بِمَحْذوفٍ، تَقْديرُهُ: أيُّ شَيءٍ تُنْفِقوا كائِنٌ مِنْ مالٍ؛ فَهُوَ لِأَنْفُسِكُمْ، فَلا يَنْتَفِعُ بِهِ غَيْرُكُمْ، فَلا تَمُنُّوا عَلى مَنْ أَعْطَيْتُموهُ، ولا تُؤْذوهُ بِالتَّطاوُلِ عَلَيْهِ، ولا تُنْفِقوا مِنَ الخَبيثِ[1]، وحاصِلُهُ: إذا كانَ الانْتفاعُ الأُخْرَوِيُّ لَكُمْ لا لِغَيْرِكُمْ اشْتِراكًا أَوِ انْفِرادًا؛ فَلا تُبْطِلوا ذَلِكَ الأَجْرَ العَظيمَ بِالمَنِّ اللَّئيمِ، ولا تُنْفِقوا الخَبيثَ؛ لَعَلَّكُمْ تُثابونَ بالثَّوابِ الجَسيمِ[2].

انتقاءُ مفردةِ (خير) دليلٌ مرشدٌ لوصفِ النَّفقةِ

اختيرتْ مفردَةُ ﴿خَيۡرٖ﴾ دون غيرِها من المفردات؛ لبيانِ أنَّ ما يجبُ أنْ يُنفقَه المنفقُ في سبيلِ اللّه هو الخيرُ، فأتى بهذا الوصفِ ليُبيِّنَ أنَّه مقصودٌ في الخطابِ، وأنَّ على المتصدِّقِ أن يسعى في أنْ تكونَ صدقتُه خيرًا في أصلِها، ومآلِها.

بلاغةُ قَوْلِه: ﴿وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ ٱللَّهِۚ﴾:

إيرادُ الجملةِ الخبريَّةِ بمعنى الإنشاءِ

قَوْلُهُ: ﴿وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ ٱللَّهِۚ﴾ خَبَرٌ مُسْتَعْمَلٌ في معنى الإنشاءِ، وعلى ذلك فإمَّا أن يُحمل الخبرُ على الأَمْرِ، أَيْ: إنَّما تَكونُ مَنْفَعَةُ الصَّدَقاتِ لِأَنْفُسِكُمْ؛ إنْ كُنْتُمْ مَا تُنْفِقونَ إلَّا ابْتِغاءَ وَجْهِ اللّهِ لا لِلرِّياءِ[3]، وإمَّا أن يُحملَ الخبرُ على النَّهْيِ، أَيْ: لَا تُنْفِقُوا إلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللّهِ[4]، وَحينئذٍ تكونُ مَعْطُوفَةً على ما قَبْلَها.

إعرابُ الجملةِ حالًا يُعطيها مزيدَ بيانٍ لشروطِ العمل

جملةُ: ﴿وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ ٱللَّهِۚ﴾ حالِيَّةٌ، وجَعْلُ الْجُمْلَةِ حالًا أَشَدُّ مُلاءَمَةً لِجَمعِ شُروطِ قَبولِ العَمَلِ مِنَ الإخْلاصِ وتَحَرِّي الصَّوابِ فيهِ، فَيَكونُ المَعْنى: وما تُنْفِقوا مِنْ خَيْرٍ، فَإِنَّما يَكُونُ لَكُمْ لا عَلَيْكُمْ؛ إذا كانَ حالُكُمْ ألَّا تُنْفِقوا إلَّا ابْتِغاءَ وَجْهِ اللّهِ، فَفيهِ إِشْعارٌ،

(1) أبو السُّعود، إرْشادُ العقْلِ السّليم: 1/409-410، والآلوسّي، روحُ المعاني: 2/44.
(2) القونْويّ، حاشيةُ القونْويِّ على البيْضاويّ: 5/454.
(3) ابْنُ عاشورٍ، التّحْريرُ والتّنْوير: 3/72.
(4) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 7/66-67، والبيْضاويّ، أنْوارُ التّنْزيل: 1/161.

بالمَنِّ والأذى، وإنفاقُ الخَبيثِ لَيْسَ لِوَجْهِ اللَّهِ؛ لأَنَّ الإنْفاقَ كَذَلكَ يَتَضَمَّنُ أَمْرَيْنِ: أَنْ يَكونَ خالصًا لا يَشُوبُهُ رِياءٌ، وأَنْ يَكونَ صَوابًا عَلَى الوَجْهِ الذي أُمِرَ بِهِ[1].

نكتةُ ذكرِ الوجهِ في قولِه تعالى: ﴿وَجْهِ ٱللَّهِ﴾:

ذِكْرُ الوَجْهِ في قولِه تعالى: ﴿وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِ﴾ لِلتَّعْظيمِ ودَفْعِ الشِّرْكَةِ؛ لأَنَّكَ إذا قُلْتَ: فَعَلْتُهُ لِوَجْهِ زَيْدٍ؛ كانَ أَجَلَّ مِنْ قَوْلِكَ: فَعَلْتُهُ لَهُ؛ لأَنَّ وَجْهَ الشَّيْءِ أَشْرَفُ ما فِيهِ[2].

عِلَّةُ عَطْفِ الجملِ بعضِها على بعضٍ:

عُطِفَت جملةُ: ﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ عَلَى الجملةِ الَّتي قَبْلَهَا لِبَيَانِ أَنَّ جَزاءَ النَّفَقاتِ بِمِقْدارِهَا، وَأَنَّ مَنْ نُقِصَ لَهُ مِنَ الأَجْرِ؛ فَهُوَ السَّاعِي في نَقْصِهِ[3]، ومَعْنَى قولِه: ﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ﴾، أَيْ: أَجْرُهُ وثوابُهُ أَضْعَافًا مُضاعَفَةً حَسَبَمَا فُصِّلَ فيما قَبْلُ فلا عُذْرَ لَكُمْ في أَنْ تَرْغَبوا عَنْ إنْفاقِهِ على أَحْسَنِ الوُجوهِ وأَجْمَلِها، فَهُو تَأْكيدٌ وبَيانٌ لِلشَّرْطيَّةِ السَّابِقَةِ[4].

تَمامُ الثَّوابِ بِالإِحْسانِ في الصَّدَقاتِ؛ ومُضاعَفَةُ أُجورِها بِحَسَبِ النِّياتِ

فَائِدَةُ تكرارِ فعلِ الإنفاقِ في سياقٍ واحدٍ:

كُرِّرَ فِعْلُ النَّفَقَةِ ﴿وَمَا تُنفِقُواْ﴾، ﴿وَمَا تُنفِقُونَ﴾، ﴿وَمَا تُنفِقُواْ﴾ ثَلاثَ مرَّات، وجِيءَ بِهِ مَرَّتَيْنِ بِصيغَةِ الشَّرْطِ عِنْدَ قَصْدِ بيانِ المُلازَمَةِ بَيْنَ الإنْفاقِ والثَّوابِ، وجِيءَ بِهِ مَرَّةً في صِيغَةِ النَّفْيِ والاسْتِثْناءِ؛ لأَنَّه قَصَدَ الخَبَرَ بِمَعْنَى الإنْشاءِ، أَيْ: النَّهْيِ عَنْ أَنْ يُنفقوا؛ إلَّا في حالةِ كونِهم يريدونَ وَجْهَ اللَّهِ في نفقاتِهم، فَجُعِلَتْ هَذِهِ الأَحْكامُ جُمَلًا مُسْتَقِلًّا بَعْضُها عَنْ بَعْضٍ، ولَمْ تُجْعَلْ جُمْلَةً واحِدَةً مُقَيَّدَةً فَائِدَتُها بِقُيودِ جَميعِ الجُمَلِ، وأُعِيدَ لَفْظُ الإنْفاقِ في جَميعِها بِصِيَغٍ مُخْتَلِفَةٍ؛

التَّكْرارُ لِلْمُبالَغَةِ في التَّأْكيدِ والاهْتِمامِ بِشأْنِ الإنْفاقِ في وُجوهِ الخَيْرِ

(1) ابْنُ التِّمْجيد، حاشيةُ ابْنِ التِّمْجيدِ على البيْضاويّ: 5/454.
(2) الآلوسّي، روحُ المعاني: 2/45.
(3) ابْنُ عاشورٍ، التَّحْريرُ والتَّنْوير: 3/72.
(4) الزَّمخْشري، الكشّاف: 1/317 وأبو السُّعود، إرْشادُ العقْلِ السّليم: 1/410، والبيْضاويّ، أنْوارُ التَّنْزيل: 1/161.

تَكْريرًا لِلاهْتِمامِ بِشَأْنِهِ؛ ولِتَكونَ كُلُّ جُمْلَةٍ مُسْتَقِلَّةً بِمَعْناها، قَصيرةَ الأَلْفاظِ كَثيرَةَ المَعاني، فَتَجْري مَجْرى الأَمْثالِ[1]، وهذا يدلُّ على أنَّ التَّفنُّنَ غيرُ مرادٍ في القرآنِ، وأنَّ المقصودَ بالدَّرجةِ الأولى هو المعنى الذي يُؤدِّيه اللَّفظُ.

احتمالُ جملةِ الفاصلةِ الإطنابَ وعدمَه بحسبِ المعنى:

فَائِدَةُ الإِطْنابِ تَقْوِيَةُ الخَبَرِ وتَقْريرُ مَعْناهُ في النَّفْسِ

إذا كان معنى: ﴿يُوَفَّ إِلَيْكُمْ﴾ أي: وافيًا غيرَ منقوصٍ، فإنَّ هذا من قبيل الإطناب، ويكونُ قَوْلُه: ﴿وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ تَوْكيدًا لِلْخَبَرِ: ﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ﴾، وذلك بِاسْمِيَّةِ الجُمْلَةِ، وَتَقْديمِ ضَميرِ الفَصْلِ ﴿وَأَنتُمْ﴾ عَلَى الْخَبَرِ الفِعْلِيِّ المنفيِّ ﴿لَا تُظْلَمُونَ﴾، وفائِدَتُهُ: تَقْوِيَةُ الخَبَرِ وَزِيَادَةُ التَّنْبيهِ عَلَى أَنَّهُمْ لَا يُظْلَمُونَ من غَيْرِهم، وَإِنَّمَا يَظْلِمُونَ أَنْفُسَهُمْ[2]، وتقويةُ الخبرِ وزيادةُ بيانِ التَّوفيةِ مِنْ قَبيلِ الإِطْنابِ؛ لِوُرودِهِ بَعْدَ قَوْلِهِ: ﴿يُوَفَّ إِلَيْكُمْ﴾ الذي مَعْناهُ: يَصِلُكُمْ وافِيًا غَيْرَ مَنْقوصٍ[3].

وإذا كان معنى: ﴿يُوَفَّ إِلَيْكُمْ﴾ أي: التَّوْفيةُ في المِقْدارِ، وعَدَمُ الظُّلْمِ في الصِّفَةِ، فَلا إِطْنابَ حِيْنَها لاخْتِلافِ المَعْنَيَيْنِ؛ لِأَنَّ مَنْ لَكَ عَلَيْهِ طَعامٌ مَوْصوفٌ مَثَلًا تَارَةً يُعْطيكَ مِثْلَ الصِّفَةِ وأَقَلَّ في المِقْدارِ، وتَارَةً يُعْطيكَ مِثْلَ القَدْرِ وأَدْوَنَ في الصِّفَةِ[4].

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الهِدايَة والإِرْشاد:

الهُدى اِسْتِقامَةٌ في العِلْمِ، والإِرْشادُ اسْتِقامَةٌ في العَمَلِ

الْإِرْشَادُ إِلى الشَّيْءِ هُوَ الدَّلالَةُ عَلَيْهِ والتَّبْيينُ لَهُ، وَالْهِدايَةُ: هِيَ التَّمَكُّنُ مِنَ الوُصُولِ إِلَيْهِ، وَقَدْ جَاءَتِ الهِدَايَةُ لِلْمُهْتَدي في قَوْلِهِ

(1) ابْنُ عاشورٍ، التَّحْريرُ والتَّنْوير: 3/72-73.
(2) ابْنُ عاشورٍ، التَّحْريرُ والتَّنْوير: 3/73.
(3) الهرري، حدائِقُ الرَّوْحِ والرَّيْحان: 4/99.
(4) ابْنُ عرفة المالِكي، تفْسيرُ ابْنِ عرفة: 1/323.

تَعَالَى: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: 6]، فَذَكَرَ أَنَّهُمْ دَعَوْا بِالهِدايَةِ وهُمْ مُهْتَدونَ لَا مَحَالَةَ، وَلَمْ يجىءْ مُثْلُ ذَلِكَ فِي الْإِرْشَادِ.

وَيُقَال أَيْضًا: هَداهُ إِلَى الْمَكْرُوه، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَٱهۡدُوهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡجَحِيمِ ٢٣﴾ [الصافات: 23] وإِلى المَحْبوبِ قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدٗى مُّسۡتَقِيمٖ ٦٧﴾ [الحج: 67]، ولا يُقالُ: أَرْشَدَهُ إلّا إلى المَحْبُوبِ[1].

والهِدايَةُ ضِدُّ الضَّلَالَةِ، كَما إِنَّ الرُّشْدَ ضِدُّ الغَيِّ، وهُوَ الانْهِماكُ في الفِسادِ، فالرُّشْدُ يَدُلُّ على الحَدَثِ، ويَكونُ في العَمَلِ، والهَدايَةُ الاسْتِقامَةُ في العِلْمِ[2].

الرَّغْبَة والابْتِغاء:

الرَّغْبَةُ: إِرَادَةُ الشَّيْءِ بِالحِرْصِ عَلَيْهِ[3].

وأَمَّا الابْتِغاءُ؛ فَهُوَ: الاجْتِهادُ في الطَّلَبِ، وقِيلَ: هُوَ الاشْتِدادُ في طَلَبِ شَيْءٍ ما[4].

فَيُلاحَظُ في الرَّغْبَةِ مَعْنى الحِرْصِ، وفي الابْتِغاءِ مَعْنى الشِّدَّةِ والاجْتِهادِ، وكِلَاهُما قَدْ يُسْتَعْمَلُ في بَعْضِ السِّياقاتِ- اسْتِعْمالَ الآخَرِ[5].

فـي الـرَّغْـبَـةِ مَعْنى الحِرْصِ، وفِـي الابْـتِـغـاءِ مَـعْـنى الـشِّـدَّةِ والاجْتِهادِ

(1) العسْكري، الفُروقُ اللُّغوية، 209.
(2) حسن المُصطفوي، التّحْقيقُ في كلِماتِ القُرآنِ الكريم: 4/141.
(3) الكفوي، الكُلّيات، ص: 482.
(4) المناويّ، التّوقيفُ على مُهِمّاتِ التّعاريفِ، ص: 179.
(5) عدد مِن المُخْتصّين، بِإِشْرافِ صالِح بن حميد، نضْرةُ النّعيمِ في مكارِمِ أخْلاقِ الرّسولِ الكريمِ ﷺ: 6/2126.

﴿لِلۡفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحۡصِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسۡتَطِيعُونَ ضَرۡبٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ يَحۡسَبُهُمُ ٱلۡجَاهِلُ أَغۡنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِۚ تَعۡرِفُهُم بِسِيمَٰهُمۡ لَا يَسۡـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلۡحَافٗاۗ وَمَا تُنفِقُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ٢٧٣﴾

[البقرة: 273]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لمَّا ذَكَرَ الإنْفاقَ في سَبيلِهِ، ودعا المُؤْمِنينَ إلَيْهِ؛ بَيَّنَ لَهُمُ المَصارِفَ التي يُنْفِقونَ فِيها

لَمَّا كَانَ غَالِبُ الأَحْكامِ السَّابِقَةِ التي ذُكِرَتْ في الإنْفاقِ مِنْ أَجْلِ المحَاويجِ، ولَمَّا بيَّنَ اللهُ تَعالى صَرْفَ الصَّدَقَةِ إلى الفُقَراءِ؛ بيَّنَ في هَذِهِ الآيَةِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ الفُقَراءِ اسْتِحْقاقًا بِصَرْفِ الصَّدَقَةِ إلَيْهِ والِانْتِفاعِ بِها[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أُحۡصِرُواْ﴾: أي: مُنِعوا، وحُبِسوا[2]، والحَصِيرُ والمَحْصُورُ المَحْبُوسُ[3] وأصْل الحَصْر: الجمع والتَّضييق والمنْع[4]، والمعنى هنا: حبسوا عن التَّصرُّف في مَعايِشِهم؛ خَوفَ العَدُوِّ أو بالمرض[5].

2) ﴿ضَرۡبٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾: سفرًا وذهابًا، وهو مجاز عن السفر والذهاب فيها[6]، يقال: ضرب في الأرض؛ إذَا سَارَ فِيهَا مُسَافِراً؛ لأنَّ المسافر كالضارب الأرض برجله[7] أي: لا يَسْتَطِيعُونَ تِجارةً أو سفرًا[8].

3) ﴿ٱلتَّعَفُّفِ﴾: تَرْك السُّؤال، والكفُّ عمَّا لا يحل[9]، وأصل عفَّ:

(1) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 7/67، والبِقاعيّ، نظْمُ الدُّرر: 4/104.
(2) الأزْهريّ، تهْذيبُ اللُّغة: (حصر).
(3) ابْنُ عبّادٍ، المُحيطُ في اللُّغة: (صرح).
(4) ابْنُ فارِسٍ، مقاييسُ اللُّغة: (حصر)، جبل، المعجم الاشتقاقي: (حصر).
(5) السِّجِسْتاني، غريبُ القُرْآنِ، ص: 368، والنيسابوري، إيجازُ البيان: 1/172، والغزْنويّ، باهِرُ البُرْهان: 1/266.
(6) الزّبيديّ، تاجُ العروس: (ضرب).
(7) السّمين، عُمْدةُ الحُفّاظ: (ضرب).
(8) ابنُ جريرٍ، جامع البيان: 5/26، والسِّجِسْتاني، غريبُ القُرْآن، ص: 312، والراغب، المفردات: (ضرب).
(9) الخليل، العين: (عف).

الْكَفُّ عَنِ الْقَبِيحِ[1] والتَّعَفُّفُ: الصَّبْرُ والنَّزاهَةُ من الشَّيْءِ[2]، المعْنى هُنا: الكَفُّ عَنِ السُّؤالِ مِنَ النَّاسِ[3].

4) ﴿بِسِيمَٰهُمۡ﴾: بِعَلاماتِهِمْ وآثارِهِمْ؛ والسِّيمَا الْعَلامَة الَّتِي يُعْرَفُ بهَا الخَيْرُ والشَّرُّ[4]، والوَسْمُ: التَّأْثِيرُ والسِّمَةُ الأَثَرُ[5]، وأَصْلُ وَسَمَ يَدُلُّ على أَثَرٍ ومَعْلَمٍ[6]، والمَعْنى هُنا: تَعْرِفُهُمْ بِعَلاماتِهِمْ مِنْ رَثاثَةِ الثِّيابِ، والجُوعِ الخَفِيِّ عَلى النَّاسِ[7].

5) ﴿إِلۡحَافٗاۗ﴾: إلحاحًا، والإِلْحافُ في المَسْأَلَةِ: الإِلْحاحُ[8]، وأَلْحَفَ السَّائِلُ يُلْحِفُ إِلْحافًا؛ إذا أَلَحَّ وأَبْرَمَ في المَسْأَلَةِ[9]، وأَصْلُ (لَحَف) يدل على اشْتِمالٍ ومُلازَمَةٍ[10]، وَمِنْهُ اشْتُقَّ اللِّحافُ؛ لأَنَّه يَشْمَلُ الإنسانَ في التَّغْطِيَةِ[11]، والمَعْنى هُنا: لَيْسَ منهم سُؤَالٌ للناس؛ فَيَكونُ إِلْحافٌ[12].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

اِجْعَلوا صَدَقَاتِكُمْ لِلْفُقَراءِ الذينَ لا يَسْتَطيعونَ السَّفَرَ؛ طَلَبًا لِلرِّزْقِ لاشْتِغالِهِمْ بالجِهادِ في سَبيلِ اللهِ، يَظُنُّهُمْ مَنْ لا يَعْرِفُهُمْ ومَنْ لا يتفقَّدُ المساكين غَيْرَ مُحْتاجينَ إلى الصَّدَقَةِ؛ لِكَفِّهِمْ عَنِ السُّؤالِ تَنَزُّهًا، ويَعْرِفُهُمْ المُطَّلِعُ عَلَيْهِم بِعَلاماتِهِمْ، مِنْ آثارِ الحاجَةِ الظَّاهِرَةِ على أَجْسامِهِمْ وثِيابِهِمْ، ومِنْ صِفاتِهِمْ أَنَّهُمْ لَيْسوا كَسائِرِ الفُقَراءِ الذينَ يَسْأَلونَ النَّاسَ مُلِحِّينَ في مَسْأَلَتِهِمْ، وإن سألوا اضطرارًا لم

الفَقيرُ المُتَعَفِّفُ العَاجِزُ عَنْ طَلَبِ رِزْقِهِ هُوَ أَوْلى النَّاسِ بالصَّدَقاتِ وأَحْراهُمْ بِالمَبَرَّاتِ

(1) ابْنُ فارِسٍ، مقاييسُ اللُّغة: (عف).
(2) الزَّبيديّ، تاجُ العروس: (عف).
(3) ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث والأثر: 3/264.
(4) الأزْهريّ، تهْذيبُ اللُّغة: (سمو) وابْنُ منْظورٍ، لِسانُ العرب: (سوم).
(5) الرّاغِب، المُفْردات: (وسم).
(6) ابْنُ فارِسٍ، مقاييسُ اللُّغة، والرّاغِب، المُفْردات: (وسم)، وابْنُ الهائِم، التِّبْيانُ في تفْسيرِ غريبِ القُرْآن، ص: 116.
(7) ابنُ جريرٍ، جامع البيان: 5/597.
(8) الخليل، العين، والمحكم والمحيط الأعظم: (لحف).
(9) ابْنُ دُرَيْدٍ، جمْهرةُ اللُّغة: (حفل).
(10) ابْنُ الهائِم، التِّبْيانُ في تفْسيرِ غريبِ القُرْآن، ص: 116.
(11) الزّبيديّ، تاجُ العروسِ 24/358.
(12) ابْنُ الجوْزيّ، زادُ المسير: 1/246.

يُلِحُّوا في السؤال، وما تَبْذلوا مِنْ مَعْروفٍ في سَبيلِ اللّهِ فلا يَخْفى عَلى اللّهِ شَيءٌ مِنْهُ، وسَيُجازيكُمْ عَلَيْهِ أَعْظَمَ الجَزاءِ وأوفاه[1].

الإيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

براعةُ الاسْتِئْنافِ البيانيِّ في تثوير الأذهانِ والرَّبط بين الجملِ:

العنايةُ بحقِّ الفقيرِ له حقُّ الصَّدارةِ وأصلُ الرِّعايةِ

جاءتْ جُمْلَةُ: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ جوابًا عن سؤالِ سائلٍ، فكَأَنَّهُ قيلَ: هَذِهِ الصَّدَقاتُ التي يُحَثُّ عَلَيْها لِمَنْ هِيَ؟ فَأُجيبَ: ﴿لِلْفُقَرَآءِ﴾، فالجملةُ استئنافيَّةٌ؛ ولِذا تُرِكَ العَطْفُ لِتَعَلُّقِ الكَلامِ بِما قَبْلَهُ مِنْ قَوْلِهِ تَعالى: بـ ﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ﴾، وَتَعَلُّقُهُ بِهِ يُؤْذِنُ بتعلّق مَعْنَاهُ بِنَظَائِرِهِ الْمُتَقَدِّمَةِ، فَمَا مِنْ نَفَقَةٍ ذُكِرَتْ آنِفًا إِلَّا وَهِيَ لِلْفُقَرَاءِ؛ لِأَنَّ الْجُمَلَ قَدْ عَضَّدَ بَعْضُهَا بَعْضًا[2]، وفي هَذا مَزيدُ عِنَايَةٍ واهْتِمامٍ بِحَقِّ الْمُحْتاجِ والفَقيرِ، وَقَدْ دَلَّ عَلى تِلْكَ العِنايةِ وذاكَ الاهْتِمامِ تَأْكيدُ الخَبَرِ بِاسْمِيَّةِ الجُمْلَةِ في قَوْلِهِ تعالى: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُواْ﴾.

أثرُ الإيجازُ بالحذفِ في بيانِ الخبرِ في معنى الإنشاءِ:

المَقاصِدُ والنِّياتُ أُسُسُ الأَعْمالِ، وعُمَدُ المَبَرَّاتِ

في قَوْلِهِ تَعالى: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ إيجازٌ بِالحَذْفِ؛ فَالجَارُّ والمَجْرورُ ﴿لِلْفُقَرَآءِ﴾ مُتعلِّقٌ بِمَحْذوفٍ يُفْهَمُ مِنَ السِّياقِ، والتَّقْديرُ: اقْصُدوا الفُقراءَ، أَوِ اعْمَدُوا، فَالجُمْلَةُ خَبَرِيَّةٌ في ظاهِرِها إِنْشائِيَّةٌ في مَعْناها.

وَإِنَّما كانَ التَّقديرُ هُنا: (اقْصُدوا الفُقراءَ أَوِ اعْمَدُوا) عِنْدَ كَثيرٍ مِنَ الْمُفَسِّرينَ بَدَلَ أَنْفِقوا لِلْفُقَراءِ، مَعَ أَنَّهُ الْمُنَاسِبُ لِلسِّباقِ والسِّياقِ، لِلتَّنْبيهِ عَلَى أَنَّ القَصْدَ والعَمْدَ هُوَ العُمْدَةُ في الصَّدَقاتِ وسَائِرِ المَبَرَّاتِ[3].

(1) عبْدُ اللهِ الزّيد، مُخْتصرُ تفْسيرِ البغويّ: 1/106، ولجْنةٌ مِنْ عُلماءِ الأزْهر، الْمُنْتخبُ في تفْسيرِ القُرآنِ الكريمِ، ص: 65، ونُخْبةٌ مِنْ العلماء، التّفْسيرُ الميُسّرُ، ص: 46، وجماعةٌ مِنْ عُلماءِ التّفْسير، المُخْتصرُ في تفْسيرِ القُرْآنِ الكريمِ 46.

(2) ابْنُ عاشورٍ، التّحْريرُ والتّنْوير: 3/74.

(3) البيْضاويّ، أنْوارُ التّنْزيل: 1/161، والقونْويّ، حاشيةُ القونْويّ على البيْضاويّ: 5/456.

سرُّ استعملِ مفردةِ الحَصْرِ دون الحَبْسِ:

الحَصْرُ حَبْسٌ وتَضْييقٌ يَمْنَعُ التَّصَرُّفَ أَوْ يُعيقُ

اختارَ النَّظمُ فعلَ الإحصارِ في وَصْفِ الفُقَراءِ: ﴿ٱلَّذِينَ أُحۡصِرُواْ﴾، ولَمْ يَقُلْ: (حُبِسُوا)؛ لِأَنَّ الحَبْسَ مَنْعٌ، والحَصْرَ مَنْعٌ مَعَ تَضْييقٍ، فَيُقالُ: حَصَرَهُمْ في البَلَدِ، أي: حَبَسَهُمْ، وضَيَّقَ عَلَيْهِمْ؛ لِأَنَّهُ إذا فَعَلَ ذَلِكَ، فَقَدْ مَنَعَهُمْ عنِ الانْفِساحِ في السَّعْيِ والسَّفَرِ والتَّصَرُّفِ في الأُمورِ، وضَيَّقَ عَلَيْهِمْ مَعايِشَهُمْ، فَهُوَ حَبْسٌ مَعَ تَضْييقٍ، ولا يُقالُ: حُصِرَ دونَ أَنْ يُضَيَّقَ عَلَيْهِ، فَهُوَ في ضِيقٍ[1]، فدلالةُ حصَرَ أشدُّ من دلالةِ حبَسَ، وهي تصوِّرُ حالةَ الفقراءِ وما تعرَّضوا له من الضَّعفِ في ذواتِهم وقدراتِهم، أو من غيرِهم؛ لِذلك خَصَّ كَثيرٌ مِنَ المُفَسِّرينَ هَذا المَعْنى في الآيَةِ الكَريمَةِ بِالْمُجاهِدينَ في سَبيلِ اللّٰهِ الذينَ حَصَرَهُمُ العَدُوُّ، وحاصَرَهُمْ، ومَنَعَهُمْ مِنَ السَّيْرِ في الأَرْضِ لِلتَّصَرُّفِ والاتِّجارِ، وطَلَبِ الرِّزْقِ، فَمُنِعوا عَنِ التَّصَرُّفِ في مَعايِشِهِمْ خَوْفَ العَدُوِّ.

أثرُ الفَصْلِ بين الجملِ في بيانِ المعنى:

الفَصْلُ لِلِاتِّحادِ في الإِخْبارِ وبَيانِ أَثَرِ الإِحْصارِ

تحتملُ جملةُ: ﴿لَا يَسۡتَطِيعُونَ﴾ أن تكون بيانًا للجملةِ السَّابقة: ﴿لِلۡفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحۡصِرُواْ﴾، أو حالًا لها، فإذا كانت بيانًا فهي مفصولةٌ لِكَمالِ اتِّصالِها بها، فَهِيَ تَبيِّنُ وصفَ هَؤُلاءِ الفُقَراءِ، وتُفَصِّلُهُ؛ فَجِيءَ بِالْفَصْلِ بَيْنَ جُمْلَةِ ﴿لَا يَسۡتَطِيعُونَ ضَرۡبٗا﴾، ومَا قَبْلَهَا لِاتِّحادِ الجُمْلَتَيْنِ في الإِخْبَارِ بِالفَقْرِ وأَثَرِ الإِحْصَارِ.

بعضُ الأغنياءِ يراوغون في الصَّدقاتِ ويطلُبون الإقناعَ

أو تكون الجملةُ استئنافًا بيانيًّا؛ فكأنَّ سائلًا قد سأل: لماذا لا يُسافرون لتحصيلِ أرزاقِهم؟ فكان الجواب: ﴿لَا يَسۡتَطِيعُونَ ضَرۡبٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾، وممَّا يُقوِّي ذلك قولُه: ﴿يَحۡسَبُهُمُ ٱلۡجَاهِلُ أَغۡنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعۡرِفُهُم بِسِيمَٰهُمۡ لَا يَسۡـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلۡحَافٗا﴾، فهم لا يَمتلِكُون الحيلةَ في طلبِ الرِّزقِ، ولا يقدرون على السَّفرِ، ويزهدون في الطَّلبِ لتحصيلِ

(1) العسكري، الفروق اللغوية: 1/114.

قوتِ يومِهم، وهذا الوجه قويٌّ لما فيه من جوابٍ عن مرواغةِ الأغنياءِ في الكسَلِ عن إعانةِ الفقراءِ.

أو تكون في مَوْضِعِ الْحَالِ، وَالْعَامِلُ فِيهِ أُحْصِرُوا؛ أَيْ: أُحْصِرُوا عَاجِزِينَ، لِتُبَيِّنَ بذلك حالَةَ هؤُلاءِ الفُقَراءِ، وقِلّةَ ذاتِ أَيْديهِمْ بِسَبَبِ إِحْصارِهِمْ عَنِ السَّعْيِ في طَلَبِ المَعاشِ الذي بِهِ تَصْلُحُ أَحْوالُهُمْ.

قِيمَةُ الكنايةِ في تحريكِ النُّفوسِ:

معرفةُ قلّةِ حيلةِ الفقراءِ في تحصيلِ معاشِهم يقوِّي الإحسانَ عند الأغنياءِ

لبَيانِ أَثَرِ الضِّيقِ والإِحْصارِ جِيءَ بِالْكِنَايَةِ في قولِه تعالى: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا﴾، حَيْثُ عَبَّرَ بِالضَّرْبِ في الأَرْضِ عَنِ التِّجارَةِ؛ لِأَنَّ مِنْ شَأْنِ التَّاجِرِ أَنْ يُسافِرَ لِيَبْتاعَ ويَبيعَ، فَهُوَ يَضْرِبُ الأَرْضَ بِرِجْلَيْهِ أَوْ دابَّتِهِ[1]، ولَكِنَّهُ مَعَ الإِحْصارِ حُبِسَ، وتَقَيَّدَتْ حَرَكَتُهُ، فَكَأَنَّهُ مَمْنوعٌ حَتَّى مِنَ الحَرَكَةِ، وكُلُّ هَذِهِ الأَوْصافِ والأَحْوالِ تُوجِبُ الحُنُوَّ عَلى مَنْ هذا حَالُهُ، والشَّفَقَةَ بِهِ، فإِنَّ الآيَةَ لم تقتصرْ على ذكرِ الإحصارِ، بل جاوزته إلى زيادةِ بيانٍ تفصيليٍّ، لجواب من يسألُ عن حالِهم.

نكتةُ إيثارِ صِيغَةِ المُبالَغةِ في قَوْلِه: ﴿ٱلتَّعَفُّفِ﴾:

المُبالَغةُ في العَفافِ عَلامَةُ الأَشْرافِ

جيءَ بصيغةِ التَّفعُّلِ في لفظِ: ﴿ٱلتَّعَفُّفِ﴾ وهي صيغةُ مُبالَغَةٍ؛ إذِ التعفُّفُ تفعُّلٌ من العفة، وَهو تَكَلُّفُ العفاف، فَهُوَ بِناءُ مُبَالَغةٍ مِنْ عَفَّ عَنِ الشَّيْءِ؛ إذا أَمْسَكَ عَنْهُ، وتَنَزَّهَ عَنِ طَلَبِهِ[2].

ولَمْ يَقُلْ: (مِنْ تَعَفُّفِهِمْ) إشارَةً إلى اتِّصافِهِمْ بِأَبْلَغِ وُجوهِ التَّعَفُّفِ وكَمالِ الرُّسوخِ فيه، ولإِفادَةِ الاجْتهادِ في العِفَّةِ[3]؛ لِأَنَّ تَعَفُّفَ المُحْتاجِ (المُضْطَرِّ) إلى المَسْأَلَةِ، لَيْسَ كَتَعَفُّفِ مَنْ لَمْ تَبْلُغْ بِهِ الحاجَةُ إلى السُّؤالِ، فَأَفادَ أَنَّ هَؤلاءِ لَمْ يَتَّصِفُوا بِتَعَفُّفِهِمْ اللَّائِقِ بِهِمْ، بَلِ

(1) ابْنُ عاشورٍ، التَّحريرُ والتَّنْوير: 3/75.
(2) القِنّوْجيّ، فتْحُ البيان: 2/135.
(3) البِقاعيّ، نظْمُ الدُّرر: 4/106.

اتَّصَفوا بِالتَّعَفُّفِ الإِجْمالِيِّ[1]، فَهُمْ مُتَعَفِّفونَ في سائِرِ الأَحْوالِ وفي كُلِّ الأَزمانِ.

ومِمَّا يَدُلُّ على هَذا الاتِّصافِ اللَّازِمِ مَجِيءُ جُمْلَةِ: ﴿يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ﴾ حَالًا مِنَ الْفُقَرَاءِ، و ﴿مِنَ﴾: السَبَبِيَّةُ التي تَدُلُّ على أَنَّ الحَامِلَ عَلَى حُسْبَانِهِمْ أَغْنِيَاءَ هُوَ تَعَفُّفُهُمْ؛ لِأَنَّ عادَةَ مَنْ كانَ غَنِيَّ مَالٍ أَنْ يَتَعَفَّفَ، وَلَا يَسْأَلَ[2].

أثرُ فنِّ الطِّباقِ في إبرازِ أصنافِ النَّاسِ:

يُوحي الطِّباقُ بَيْنَ لَفْظَتَيْ ﴿لِلْفُقَرَآءِ﴾ و﴿أَغْنِيَآءَ﴾ برُسوخِ صِفَةِ العِفَّةِ في أُولَئِكَ الفُقَراءِ حَتَّى صَيَّرَتْهُمْ في حُسْبانِ كَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ أَغْنِيَاءَ، وهذا التَّصنيفُ يُبرِزُ أثرَ التَّعفُّفِ في الحفاظِ على كرامةِ المسلمِ، فإنَّ الغنيَّ أولى النَّاسِ معرفةً بالفقيرِ، وبحالِه التي عليها، ومع ذلك فهو يقع في دائرةِ الجهلِ لشدَّةِ تعفُّفِ الفقيرِ، ففي الآيةِ إشارَةٌ إلى أنَّ التَّعفُّفَ يحمي الفقراءَ من لمزِ غيرِهم، وأنَّ اللهَ يتولَّى سَوْقَ الرِّزقِ لهم.

على الفقيرِ التَّعفُّفُ، والرِّزقُ على اللهِ وحدَه

براعةُ ترتيبِ الجملِ بعضِها على إثرِ بعضٍ:

عند ذكرِ جهلِ حالِ الفقيرِ في قولِه: ﴿يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ﴾ لسائلٍ أن يسألَ عن كيفيَّةِ معرفتِهم لإعانتِهم، فكان الجَوابُ في البَيانِ المَذْكورِ بَعْدَ ذَلِكَ في قَولِهِ تَعالى: ﴿تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ﴾، والسِّيما: هي العلامة الخفيَّة التي تتراءى للمستبصر[3]، فَأُحيلَ ذَلِكَ على مَظِنَّةِ المتأمِّل[4]، كَقَوْلِهِ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ۝٧٥﴾ [الحجر: 75].

الحفاظُ على أخلاقِ الفقراءِ والأغنياءِ من الرَّذائلِ سياجُ قبولِ الصَّدقةِ

وَمَعْنَى ﴿تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ﴾، أَيْ: بِعَلَامَةِ الْحَاجَةِ، وَالْخِطَابُ لِغَيْرِ

(1) ابْنُ عرفة، تفْسيرُ ابْنِ عرفة: 1/323.
(2) أبو حيّان، البحرُ المُحيط: 2/697.
(3) البِقاعيّ، نظْمُ الدُّررِ: 4/105.
(4) ابْنُ عاشورٍ، التّحريرُ والتّنْوير: 3/75.

مُعَيَّنٍ؛ لِيَعُمَّ كُلَّ مُخَاطَبٍ، وَلَيْسَ لِلرَّسُولِ؛ لِأَنَّهُ أَعْلَمُ بحالهم، والمخاطب بتعرفهم: هُوَ الَّذِي تَصَدَّى لِتَطَلُّعِ أَحْوَالِ الْفُقَرَاءِ، فَهُوَ الْمُقَابِلُ لِلْجَاهِلِ فِي قَوْلِهِ: ﴿يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ﴾، فالْجُمْلَةُ إذن بَيَانٌ لِجُمْلَةِ يَحْسَبُهُمُ الْجاهِلُ أَغْنِياءَ[1]، وفي هذا دعوةٌ أن يكونَ في المجتمعِ المسلمِ من يعرفُ الفقراءَ (الأُسر المستورة)؛ لإعانتِهم بالخفاءِ، بحيث يكون هناك وسيطٌ بينهم وبين الأغنياءِ، وفي ذلك حفاظٌ على أخلاقِ الفقيرِ من رذيلةِ الحاجةِ، وعلى أخلاقِ الغنيِّ من رذيلةِ الكبر.

نكتةُ نَفْيِ الشَّيْءِ بِإِيجابِهِ:

الفَاضِلُ المُتَعَفِّفِ لا يَسْأَلُ ولَا يُلْحِفُ

قَوْلُهُ: ﴿لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلۡحَافٗا﴾ فِيهِ مِنْ بَدِيعِ البيانِ في نَظْمِ القُرْآنِ: ما يُسمَّى بـ (نَفْيِ الشَّيْءِ بِإِيجابِهِ)، وهُوَ إِثْباتُ شَيْءٍ في ظاهِرِ الكَلامِ، ثُمَّ نَفْيُ ما هُوَ مِنْ سَبَبِهِ؛ فَفي هَذِهِ الآيَةِ: المَنْفِيُّ في ظاهِرِ الكَلامِ هُوَ الإِلْحافُ في السُّؤالِ، لا نَفْسُ السُّؤالِ مَجازًا، والمَنْفِيُّ في بَاطِنِ الكَلامِ حَقيقَةُ نَفْسِ السُّؤالِ؛ إِلْحافًا كانَ أَوْ غَيْرَ إِلْحافٍ، وقَدْ يَرِدُ نَفْيُ الشَّيءِ في القُرآنِ مُقيَّدًا، والمرادُ نفيُه مُطْلقًا؛ كَمَا نَفَى هُنا عَنْهُمُ السُّؤالَ بِنَفْيِ صُورَةٍ مُسْتَكْرَهَةٍ، وهِيَ الإِلحَافُ في المَسْأَلَةِ، والمَقْصُودُ نَفْيُ السُّؤالِ مُطْلَقًا[2]، ونكتةُ ذلك: المبالغةُ في النَّفي المستوجِبُ للمدْحِ، مع التَّعريضِ بمن يُلحفُ في السُّؤالِ، ونَظيرُهُ في القُرآنِ الكَريمِ قَوْلُهُ تعالى: ﴿مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ حَمِيمٖ وَلَا شَفِيعٖ يُطَاعُ ١٨﴾ [غافر: 18]، أَيْ: لا شَفيعَ أَصْلًا، ومِنْ ثَمَّ انْتَفَى الشَّفيعُ فَلا إِطاعَةَ[3].

والمَعْنى: أَنَّهُمْ لا يَسْأَلُونَهُمْ أَلْبَتَّةَ، لا بِإِلْحاحٍ، ولا بغَيْرِه، وإِلَيْهِ ذَهَبَ جُمْهورُ المُفَسِّرينَ[4]، ومَجِيءُ الإِلْحافِ المَنْفِيِّ فيها لِلمُبَالَغَةِ والتَّوْكيدِ في نَفْيِ السُّؤَالِ، فَهِيَ كالتَّذْييلِ والتَّتْميمِ[5].

(1) ابْنُ عاشورٍ، التَّحْريرُ والتَّنْويرُ: 3/75.
(2) خالد السّبت، قواعِدُ التّفْسير: 2/527، ومُؤسّسةُ الدُّررِ السّنيةِ بِإِشْرافِ علوي السّقاف، التّفْسيرُ المُحرّرُ لِلْقُرآنِ الكريم: 1/761.
(3) ابْنُ عاشورٍ، التَّحْريرُ والتَّنْوير: 3/76، وعادِل الرّويني، مِنْ غريبِ بلاغةِ القُرآنِ الكريمِ في سورتي الفاتِحةِ والبقرةِ 633.
(4) القِنّوْجيّ، فتْحُ البيان: 2/136.
(5) حاشيةُ القونَويّ على البيْضاويّ: 5/458

بلاغةُ اجتماعِ التَّصريحِ والتَّعريضِ في سياقٍ واحدٍ:

نَفْيُ السُّؤالِ والإلْحافِ مَدْحٌ للصَّابِرينَ وتَعْريضٌ بالمُلْحِفينَ

قال ابْنُ عَرَفَةَ: يَنْبَغي أَنْ يُوقَفَ على قَوْلِهِ: ﴿لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلۡحَافٗا﴾، أَيْ: يَبْلُغونَ في شِدَّةِ صَبْرِهِمْ وتَجَلُّدِهِمْ على الفَقْرِ[1]؛ فَهُوَ مَدْحٌ وتَأْكيدٌ لِصَبْرِهِم المُشارِ إِلَيْهِ بالتَّعَفُّفِ مِنْ قَبْلُ، كَما أَنَّ اللهَ تَعالَى لَمَّا وَصَفَهُمْ قَبْلَ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ يَتَعَفَّفُونَ عَنِ السُّؤالِ، فعُلِمَ أَنَّهُمْ لا يَسْأَلُونَ الْبَتَّةَ، تَعَيَّنَ أَنَّ في قَوْلِه: ﴿لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلۡحَافٗا﴾ تَعْريضًا بِالْمُلْحِفينَ في السُّؤالِ، والْمُرادُ التَّنْبيهُ عَلَى سُوءِ طَريقَةِ مَنْ يَسْأَلُ النَّاسَ إِلْحافًا، وَمِثالُهُ إِذا حَضَرَ عِنْدَكَ رَجُلانِ: أَحَدُهُما عاقِلٌ وَقُورٌ ثابِتٌ، وَالآخَرُ طَيَّاشٌ مِهْذارٌ سَفيهٌ، فَإِذا أَرَدْتَ أَنْ تَمْدَحَ أَحَدَهُما، وَتُعَرِّضَ بِذَمِّ الآخَرِ، قُلْتَ: فُلانٌ رَجُلٌ عاقِلٌ وَقُورٌ قَليلُ الْكَلامِ، لا يَخُوضُ في التُّرَّهاتِ، وَلا يَشْرَعُ في السَّفاهاتِ، وَلَمْ يَكُنْ غَرَضُكَ مِنْ قَوْلِكَ: لا يَخُوضُ في التُّرَّهاتِ وَالسَّفاهاتِ وَصْفَهُ بِذَلِكَ؛ لِأَنَّ مَا تَقَدَّمَ مِنَ الْأَوْصافِ الْحَسَنَةِ يُغْني عَنْ ذَلِكَ، بَلْ غَرَضُكَ التَّنْبيهُ عَلَى مَذَمَّةِ الثَّاني[2].

التَّكْرارُ لِلتَّحْريضِ على الإِنْفاقِ:

فَفي قَوْلِهِ تَعالى: ﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٞ﴾ إِعادَةُ حَضٍّ عَلى الإِنْفاقِ، حَيْثُ ذُكِرَ مَرَّةً رابِعَةً في خِتامِ هَذِهِ الآيَةِ بَعْدَما ذُكِرَ ثَلاثًا في الآيَةِ قَبْلَها؛ وَقَدْ حَصَلَ بِمَجْموعِ هَذِهِ المَرَّاتِ الأَرْبَعِ مِنَ التَّحْريضِ عَلى الإِنْفاقِ ما أَفادَ شِدَّةَ فَضْلِ الإِنْفاقِ بِأَنَّهُ نَفْعٌ لِلْمُنْفِقِ، وصِلَةٌ بَيْنَهُ وبَيْنَ رَبِّهِ، ونَوالٌ لِلْجَزاءِ مِنَ اللهِ، وأَنَّهُ ثابِتٌ لَهُ في عِلْمِ اللهِ[3].

الكِنايَةُ بِالْعِلْمِ على أَثَرِهِ لِلتَّرْغيبِ في العَمَلِ ومُجانَبَةِ الوَهَنِ والكَسَلِ

قَوْلُهُ: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٞ﴾ كِنايَةٌ عَنِ الجَزاءِ عَلَى الإنفاقِ؛ لِأَنَّ العِلْمَ يُكْنَّى بِهِ عَنْ أَثَرِهِ كَثيرًا، فَلَمَّا كانَ الإِنْفاقُ مُرَغَّبًا فيهِ مِنَ اللهِ، وكانَ عِلْمُ اللهِ بِذلِكَ مَعْروفًا لِلْمُسْلِمينَ، تَعَيَّنَ أَنْ يَكُونَ الإِخْبارُ بِأَنَّهُ

(1) ابْنُ عرفة، تفْسيرُ ابْنِ عرفة: 1/323.
(2) ابْنُ عاشورٍ، التّحْريرُ والتّنْوير: 3/77، والسّمين، الدُّرُّ المصون: 2/623.
(3) ابْنُ عاشورٍ، التّحْريرُ والتّنْوير: 3/77، والقونْويّ، حاشيةُ القونْويِّ على البيْضاويّ: 5/460.

عَليمٌ بِهِ، أَنَّهُ عَليمٌ بِامْتِثالِ المُنْفِقِ، أَيْ: فَهُوَ لا يُضيِّعُ أَجْرَهُ؛ إِذْ لا يَمْنَعُهُ مِنْهُ مانِعٌ بَعْدَ كَوْنِهِ عَليمًا بِهِ؛ لِأَنَّهُ قَديرٌ عَلَيْهِ[1]، وأَكَّدَ هذا المَعْنى تَأْكيدُ الخَبَرِ ﴿عَلِيمٌ﴾ بِإِنَّ واسْمِيَّةِ الجُمْلَةِ ووُرودِهِ بِصيغَةِ المُبالَغَةِ.

قال ابْنُ عَرَفَةَ: "قَالوا: إِنَّ العَبْدَ يُفَرِّقُ بَيْنَ حالَةِ طاعَتِهِ لِسَيِّدِهِ، وهُوَ حاضِرٌ يَنْظُرُ إِلَيْهِ، وبَيْنَ حالَةِ طاعَتِهِ لَهُ في غَيْبَتِهِ، فَمَعَ الحُضورِ يَجْتَهِدُ أَكْثَرَ"[2].

وفي كُلِّ هذا تَرْغيبٌ في الإِنْفاقِ وَحَثٌّ على الصَّدَقَةِ، لا سِيما على هَؤُلاءِ[3] الذينَ قَصَدَهُمُ النَّبيُّ ﷺ بِقَوْلِهِ: "لَيْسَ المِسْكينُ الذي تَرُدُّهُ التَّمْرَةُ والتَّمْرَتانِ واللُّقْمَةُ واللُّقْمتانِ، إِنَّما المِسْكينُ الذي يَتَعَفَّفُ، واقْرَؤوا إِنْ شِئْتُمْ: ﴿لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلۡحَافٗا﴾"[4]، وبِهذا يُعْلَمُ كَيْفَ أَنَّ القُرْآنَ لَمْ يُغادِرْ شَيْئًا مِنَ الْحَثِّ عَلى إِبْلاغِ الصَّدَقاتِ إِلَى أَيْدِي الْفُقَراءِ، إِلَّا وَقَدْ جاءَ بِهِ، وَأَظْهَرَ بِهِ مَزِيدَ اعْتِناءٍ[5].

الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

القُدْرَة والاِسْتِطاعَة:

القُدْرَةُ على الشَّيْءِ: مُلْكُهُ[6]، والاسْتِطاعَةُ: هِيَ اسْتِفْعالٌ مِنَ الطَّاعَةِ، وَالانْقِيادِ[7]، فالاسْتِطاعَةَ طَاعَةُ الجَوارِحِ لِلْفِعْلِ والانْقِيادُ لَهُ، ويُقالُ: أَطاعَهُ؛ إِذا انْقادَ لَه، فَهِيَ انْطِباعُ الجَوارِحِ لِلْفِعْلِ، فَتَكونُ الاسْتِطاعَةُ أَخَصَّ مِنَ القُدْرَةِ، فَكُلُّ مُسْتَطيعٍ قادِرٌ، ولَيْسَ كُلُّ قادِرٍ مُسْتَطيعًا، فيقال: فلان قادر على فعل الشيء، لكن لا يستطيعه لمانع يمنعه[8].

(1) ابْنُ عاشورٍ، التَّحْريرُ والتَّنْوير: 3/76، والهرري، حدائِقُ الرَّوْحِ والرَّيْحان: 4/99.
(2) ابْنُ عرفة، تفْسيرُ ابْنِ عرفة: 1/323.
(3) القِنَّوْجيّ، فتْحُ البيان: 2/136، والآلوسّي، روحُ المعاني: 2/46.
(4) أخرجه البُخاري، حديث رقم: (1476)، ومُسْلِم، حديث رقم: (1039).
(5) ابْنُ عاشورٍ، التَّحْريرُ والتَّنْوير: 3/76.
(6) ابْنُ منْظور، لِسانُ العرب: (قدر).
(7) ابْنُ فارِسٍ، مقاييسُ اللُّغة: (طوع)، والجوهري، الصحاح: (طوع).
(8) العسكري، الفروق اللغوية: 1/110.

﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُم بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ فَلَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٢٧٤﴾ [البقرة: 274]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

بَيانُ أَحْوالِ الإِنْفاقِ بَعْدَ بَيانِ مَصارِفِ النَّفَقاتِ

لَمَّا حَضَّ اللهُ سُبْحانَهُ وتعالى على النَّفَقَةِ، وبَيَّنَ أَكْمَلَ مَنْ تُصْرَفُ إِلَيْهِ النَّفَقَةُ؛ ذكر في هَذِهِ الآيَةِ أَكْمَلَ وُجوهِ الإِنْفاقِ[1]، فَقَالَ: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُم بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ﴾، فَبَيَّنَ أَحْوَالَ فَضَائِلِ الإِنْفَاقِ بَعْدَ أَنْ خُصِّصَ الْكَلَامُ بِالْإِنْفَاقِ[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿سِرّٗا﴾: خِفْيَةً، والإِسْرارُ إِخْفاءُ الشَّيْءِ وكتمانه[3] يقال: أَسَرَّ إليه حَدِيثاً: أَفْضَى بِهِ إليه في خُفْيَة[4]، وأصل (سرَّ): إخفاء الشيء[5]، والإسرار خلاف الإعلان، والمعنى هنا: ينفقون أموالهم في خُفْية عن أعين الناس.

2) ﴿وَعَلَانِيَةٗ﴾: جَهْرًا، ظَاهِرًا، وعَلِن الْأَمر يَعْلُن؛ إذا شاع، وَظهر، وَفَشَا[6]، وأُعْلِنَ الأَمْرُ؛ إذا اشْتَهَرَ[7]، وأَصْلُ عَلَنَ: يَدُلُّ عَلَى إِظْهَارِ الشَّيْءِ وَالْإِشَارَةِ إِلَيْهِ وَظُهُورِهِ[8]، والمَعْنى هُنَا: يُنْفِقونَ أَموالَهُمْ جِهارًا ظَاهِرًا لِلنَّاسِ لا خَفاءَ فيه.

3) ﴿أَجۡرُهُمۡ﴾: الأَجْرُ: الثَّوابُ، وَبَدَلُ المَنْفَعَةِ، وقَدْ أَجَرَه

(1) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 7/71.
(2) ابْنُ عاشورٍ، التّحريرُ والتّنْوير: 3/77.
(3) الزّبيديّ، تاجُ العروس: (سرر).
(4) الرّاغِب، المُفْردات، والسّمين، عُمْدةُ الحُفّاظ: (سرر).
(5) ابْنُ فارِسٍ، مقاييسُ اللُّغة: (سرّ).
(6) الأزْهريّ، تهْذيبُ اللُّغة، والزّبيديّ، تاجُ العروس: (علن).
(7) الأزْهريّ، تهْذيبُ اللُّغة: (علن).
(8) ابْنُ فارِسٍ، مقاييسُ اللُّغة: (علن).

يَأْجُرُهُ، إذا جَزاهُ وأَثابَهُ وأَعْطاهُ[1]؛ وأَصْلُ الأَجْرِ الكِراءُ على العَمَلِ[2]، فَهُوَ جَزاءُ العَمَلِ[3]، والمَعْنى هُنا: لَهُمْ ثَوابُهُمُ التَّامُ يوم القيامة جَزاءَ نَفَقَتِهِمْ.

4) ﴿خَوْفٌ﴾: الخَوْفُ: تَوَقُّعُ المَكْروهِ[4]، وأَصْلُ الخَوْفِ يَدُلُّ عَلَى الذُّعْرِ وَالْفَزَعِ[5] فالخَوْفُ: فَزَعٌ، يُقالُ: خافَهُ يَخافُه خَوْفًا وخِيفة[6].

5) ﴿يَحْزَنُونَ﴾: يَشْعُرونَ بِالحُزْنِ، وهُوَ قَسْوةُ الأَمْرِ وشِدَّتُهُ وخُشونَتُهُ[7]، والحُزْنُ نَقيضُ الفَرَحِ وخِلافُ السُّرورِ، وأَصْلُ حَزَنَ: يَدُلُّ على خُشونَةِ الشَّيْءِ وَشِدَّةٍ فِيهِ[8]، فَالحُزْنُ خُشونَةٌ في النَّفْسِ؛ لِما يَلْحَقُها مِنَ الغَمِّ[9].

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

الإنفاقُ المحقِّقُ للتكافلِ والتعاونِ على البرِّ والتَّقْوى

يبيِّنُ اللّهُ التشريعَ الإلهيَّ الحكيمَ في الإنفاق، وما فيه مِن سدِّ حاجةِ الفقراء في كرامةٍ وعزَّةِ نَفْسٍ، وتطهيرِ مالِ الأغنياء، وتحقيقِ التعاون على البرِّ والتقوى؛ ابتغاءَ وجهِ اللّه بأنَّ الذينَ يُخْرِجُونَ أَمْوالَهُمُ ابْتِغاءَ مَرْضاةِ اللّهِ في اللَّيلِ والنَّهارِ، وفي خُفْيَةٍ عن أعينِ النَّاسِ، وفي العَلانِيَةِ بِلا رِياءٍ ولا سُمْعَةٍ، فَلَهُمْ ثَوابُ ما أنفقوه عِنْدَ رَبِّهِمْ يَوْمَ القِيامَةِ، ولا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ فيما يَسْتَقْبِلونَهُ مِنْ أَمْرِهِمْ، ولا هُمْ يَحْزَنونَ على ما فاتَهُمْ مِنَ الدُّنْيا، فَضْلًا مِنَ اللّهِ ونِعْمَةً[10].

(1) الزَّبيديّ، تاجُ العروس: (أجر).
(2) ابْنُ فارِسٍ، مقاييسُ اللُّغة: (أجر).
(3) الخليل، العينُ: (أجر).
(4) الرّاغِب، المُفْردات: (خوف).
(5) ابْنُ فارِسٍ، مقاييسُ اللُّغة: (خوف).
(6) جبل، المُعْجمُ الاِشْتِقاقيّ: (خوف- خيف).
(7) جبل، المُعْجمُ الاِشْتِقاقيُّ المُؤصّل: (حزن).
(8) ابْنُ فارِسٍ، مقاييسُ اللُّغة: (حزن).
(9) الرّاغِب، المُفْردات، والسّمين، عُمْدةُ الحُفّاظ: (حزن).
(10) لجْنةٌ مِنْ عُلماءِ الأزْهر، المُنْتخبُ في تفْسيرِ القُرآنِ الكريمِ، ص: 65، ونُخْبةٌ مِنْ العلماء، التّفْسيرُ المُيسّرُ، ص: 46، وجماعةٌ مِنْ عُلماءِ التّفْسير، المُخْتصرُ في تفْسيرِ القُرْآنِ الكريم، ص: 46.

الإيضاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

فائدةُ الكلامِ المُسْتَأْنَف:

تَعْميمُ أَحْوالِ الإِنْفاقِ بَعْدَ ذِكْرِ المَصْرِف

قولُه: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُم بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ﴾ جُمْلَةٌ مُسْتَأْنَفَةٌ، تُفيدُ تَعْميمَ أَحْوالِ فَضائِلِ الإِنْفاقِ بَعْدَ أَنْ خُصِّصَ الْكَلامُ بِالْإِنْفاقِ في قوله: ﴿لِلۡفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحۡصِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾[1].

مِنْ عَلاماتِ أَهْلِ التَّوفِيقِ عِمْرانُ الوَقْتِ بِالخَيراتِ والاجْتِهادِ في بَذْلِ الصَّدَقاتِ

ومعنى: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُم بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ﴾ أَيْ: يعُمُّونَ الأَوقاتَ والأَحوالَ بالخَيْرِ والصَّدَقَةِ[2]؛ لِحِرْصِهِمْ على الخَيْرِ، فَكُلَّما نَزَلَتْ بِهِمْ حاجَةُ مُحْتاجٍ؛ عَجَّلُوا قَضاءَها، ولَمْ يُؤَخِّروهُا، ولَمْ يَتَعَلَّلوا بِوَقْتٍ ولا حالٍ[3].

والمُرادُ باللَّيلِ والنَّهارِ جَميعُ الأَوْقاتِ كما أَنَّ المُرادَ بما بَعْدَهُ جَميعِ الأَحْوالِ[4]، فَعُمومُ الأَوْقاتِ مُسْتَفادٌ مِنَ اللَّيلِ والنَّهارِ، وعُمومُ الأَحْوالِ مُسْتفادٌ مِنْ قَوْلِهِ: سِرًّا وعَلانِيَةً[5].

ويُفيدُ زِيادَةَ رَغْبَتِهِمْ في الإِنْفاقِ وشِدَّةَ حِرْصِهِمْ عَلَيْهِ حتَّى أَنَّهُمْ لا يَتْرُكونَ ذَلِكَ لَيْلًا ولا نَهارًا، ويَفْعَلونَهُ سِرًّا وجِهَرًا عِنْدَ نُزولِ حاجَةِ المُحْتاجينَ وظُهورِ فاقَةِ المُفْتاقينَ في جَميعِ الأَزْمِنَةِ على جَميعِ الأَحْوالِ[6].

تَقْديمُ اللَّيْلِ على النَّهارِ والسِّرِّ على الإِجْهارِ لِلْإِيذانِ بِمَزِيَّةِ الإِخْفاءِ على الإِظْهارِ

فَقَوْلُهُ: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُم بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ﴾؛ فِيهِ تَقْديمُ اللَّيلِ عَلى النَّهارِ، والسِّرِّ على العَلانِيَةِ، وفيه دلالةٌ على تِلك الأَفْضَلِيَّةِ؛ فَاللَّيلُ مَظِنَّةُ صَدَقَةِ السِّرِّ، ونَفَقَةُ السِّرِّ، وما فيها مِنْ خَفاءٍ، يُناسِبُها ذِكْرُ اللَّيْلِ، وما فيهِ مِنْ سِتْرٍ، فَقُدِّمَ الوَقْتُ الذي

(1) ابْنُ عاشورٍ، التَّحريرُ والتَّنْوير: 3/77.
(2) أبو السُّعود، إِرْشادُ العقْلِ السّليم: 1/411.
(3) الزَّمخْشري، الكشّاف: 1/319.
(4) الآلوسّي، روحُ المعاني: 2/46.
(5) ابْنُ التّمْجيد، حاشيةُ ابْنِ التّمْجيدِ على البيْضاويّ: 5/460.
(6) القِنّوْجيّ، فتْحُ البيان: 2/137.

كانَتِ الصَّدَقَةُ فيهِ أَفْضَلَ، والحَالُ التي كانَتْ فيهَا أَفْضَلَ[1]، فَهذا التَّقْديمُ لِلْإيذانِ بِمَزِيَّةِ الإخْفاءِ على الإظْهارِ[2].

فائِدةُ تَعَدِّي فِعْلِ الإنْفاقِ بِحَرْفِ الإلْصاقِ:

إفادَةُ اسْتِغْراقِ النَّفقةِ في الزَّمانِ كلِّه

الغَرَضُ مِنْ دُخولِ البَاءِ في قولِه: (باللَّيلِ) مَدْحُ هَؤُلاءِ المُنْفِقينَ، بالإشارَةِ إلى اسْتِغراقِ إنْفاقِهِمْ لِلزَّمَنِ كُلِّه، أَيْ: لَيْلًا ونَهارًا، وَوُقوعُ تَصَدُّقِهِمْ في أَيِّ جُزْءٍ مِنْ أَجْزائِه؛ فَإنْفاقُهُمْ مُتَواصِلٌ في أَيِّ وَقْتٍ مِنْ لَيْلٍ ونَهارٍ؛ بِدَلالَةِ التَّعبيرِ بالمُضارَعِ في: ﴿يُنفِقُونَ﴾، وكَأَنَّهُ لا تَكادُ تَمُرُّ لَحْظَةٌ مِنْ زَمَنٍ إلَّا وهِيَ مَصْحوبَةٌ بِإنْفاقٍ مِنْهُمْ[3]، ولِتَأْكيدِ هَذا الاسْتِغْراقِ جِيءَ بِالمُقابَلَةِ[4] والطِّباقِ بَيْنَ اللَّيلِ والنَّهارِ والسِّرِّ والعَلانِيَةِ.

نكتةُ دُخولِ الفاءِ في خَبَرِ أَهْلِ الإنْفاقِ:

بيانُ سَبَبِ اسْتِحْقاقِ المنفقين الأجرَ عند الله تعالى

دخلتِ الفاءُ في قَوْلِه تعالى: ﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ في خَبَرِ المَوْصولِ ﴿ٱلَّذِينَ﴾؛ لِلتَّنْبيهِ على تَسَبُّبِ اسْتِحْقاقِ الأَجْرِ على الإنْفاقِ؛ لِأَنَّ الخَبَرَ إذا كَانَ ثَابِتًا، وَعُطِفَ عَلَيْهِ ما يُتَوَهَّمُ نَفْيُهُ وعَدَمُ ثُبوتِه، فلا بدَّ مِنَ الفاءِ، فَأُتِيَ بِالفَاءِ الدَّالَّةِ على كَمالِ الارْتباطِ، وأَنَّ ذلكَ سَبَبٌ في نَفْيِ الحُزْنِ والخَوْفِ عَنْهُمْ[5]، وَلِأَنَّ المُبْتَدأَ لَمَّا كانَ مُشْتَمِلًا على صِلَةٍ مَقْصودٍ مِنْها التَّعْميمُ والتَّعْليلُ، والإيماءُ إلى عِلَّةِ بِناءِ الخَبَرِ على المُبْتَدأِ - وهِيَ يُنْفِقونَ -؛ صَحَّ إدْخالُ الفاءِ في خَبَرِه، كَما تَدْخُلُ في جَوابِ الشَّرْطِ[6]، فَالفَاءُ للدَّلالَةِ على سَبَبِيَّةِ ما قَبْلَهَا لِمَا بَعْدَها[7]، وَمَا أُدْخِلَتْ في جَوابِ الشَّرْطِ إلَّا لِذَلِكَ[8].

---

(1) أبو حيّان، البحرُ المُحيط: 2/701، والقِنّوْجيّ، فتْحُ البيان: 2/137.

(2) أبو السُّعود، إرْشادُ العقْلِ السّليم: 1/411 والآلوسّي، روحُ المعاني: 2/46.

(3) عادِل الرّويني، مِنْ غريبِ بلاغةِ القُرآنِ الكريم، ص: 635.

(4) المُقابلةُ: هي أنْ يُؤْتى بِمعْنيينْ مُتوافِقيْنْ أوْ أكْثر، بما يُقابِلُ ذلك على التّرْتيب، وتبْدأُ بِتلاؤُمِ أجْزاءِ جُمْلةٍ أوْ جُملٍ ثُمّ بِالتضادِ بعْد ذلِك، مِثْل قوْلِهِ تعالى: ﴿فَلْيَضْحَكُواْ قَلِيلًا وَلْيَبْكُواْ كَثِيرًا﴾ [التّوْبة: 82]، يُنْظرُ: القزْوينيّ، الإيضاح، ص: 115، وابْنُ سِنانٍ الخفاجيّ، سِرُّ الفصاحة، ص: 200.

(5) ابْنُ عرفة، تفْسيرُ ابْنِ عرفة: 1/323.

(6) أبو حيّان، البحرُ المُحيط: 2/701، وابْنُ عاشورٍ، التّحْريرُ والتّنْوير: 3/77.

(7) القِنّوْجيّ، فتْحُ البيان: 2/137.

(8) ابْنُ عاشورٍ، التّحْريرُ والتّنْوير: 3/77.

سرُّ إضافةِ الأجرِ إلى الضَّميرِ العائدِ على المنفقين:

الإضمارُ والتَّأكيدُ لاختِصاصِ أهلِ الإنفاقِ بالفَضلِ والمَزيدِ

قال تعالى: ﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾، وَلَمْ يَقُلْ: (فَلَهُمْ أَجْرٌ)؛ لِأَنَّ المُرادَ أَجْرُهُمُ اللَّائِقُ بِهِمْ، ولَوْ قيلَ: فَلَهُمْ أَجْرٌ؛ لَكانَ مَفْهومُهُ أَنَّ مَنْ فَعَلَ دُونَ ذَلِكَ لا أَجْرَ لَهُ مَعَ أَنَّهُ يُؤْجَرُ[1]، ولِتَأْكيدِ خُصوصِيَّتِهِمْ بِهذا الفَضْلِ أُكِّدَ الخَبَرُ بِاسْمِيَّةِ الجُمْلَةِ في صَدْرِ الآيَةِ وعَجُزِها، وَقُدِّمَ ضَميرُ الفَصْلِ، فَلَهُمْ أَجْرُهُمُ المَخْبُوءُ لَهُمْ في خَزائِنِ الفَضْلِ عِنْدَ رَبِّهِمْ[2]، بِالإضافَةِ إلى ما يُوحيهِ لَفْظُ الرَّبِّ هُنَا من أَنَّ هذا الثَّوابَ مَحْضُ تَفَضُّلٍ مِنَ اللهِ تعالى[3].

توجيهُ المُتشابِهِ اللَّفظيِّ:

لسائلٍ أن يسألَ عن سِرِّ حَذْفِ الفاءِ في قَوْلِهِ تَعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾﴾ [البقرة: 262]، وسِرِّ إثْباتِها في قَوْلِهِ تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾

والجَوابُ: أَنَّهُ بِالنَّظَرِ إلى سِياقِ الآيَتَيْنِ الكَريمتَيْنِ يَتَبَيَّنُ: أَنَّ ما وُصِفَ بِهِ المُنْفِقونَ في الآيَةِ التي تُرِكَ فِيهَا العَطْفُ بِالفاءِ، أَعْظَمُ وأَبْلَغُ مِمَّا وُصِفُوا بِهِ في الآيَةِ التي أُثْبِتَ فيها العَاطِفُ؛ فَفي الآيَةِ الأُولَى تَصْريحٌ بِإخْلاصِ نَفَقَتِهِمْ للهِ تَعالى، بِقَوْلِهِ تعالى: ﴿فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ في حِينِ ذَكَرَ في الثَّانِيةِ ما يَدُلُّ على كَثْرَةِ إنْفاقِهِمْ وتَنَوُّعِهِ بَيْنَ السِّرِّ والعَلانِيةِ، ثُمَّ ارْتَقى في الأُولى ﴿ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى﴾، وتِلْكَ دَرَجَةٌ عالِيَةٌ في السَّخاءِ والإنْفاقِ حتَّى صارَ مُلازِمًا لِلنَّفْسِ وسَجِيَّةً مِنْ سَجاياها، وجاءَ حَرْفُ التَّراخي ثُمَّ؛ دَليلًا آخَرَ على أَنَّ هذا الوَصْفَ، أَيْ: عَدَمُ المَنِّ والأَذَى أَرْقَى مَنْزِلَةً مِنَ الإنْفاقِ ذاتِهِ بِدَلالَةِ "ثُمَّ" على التَّفاوُتِ الرُّتْبِيِّ، وإشْعارًا إلى أَنَّ الإنْفاقَ عَنْ قَناعَةٍ وسَماحَةٍ ورِضًا يَحُولُ بَيْنَ المُنْفِقِ وبَيْنَ إتْباعِ نَفَقَتِهِ ما يُبْطِلُها، هُوَ أَعْظَمُ ما في الإنْفاقِ؛ فَكانَ هَذا دَليلًا دامِغًا عَلى ثَباتِ أَجْرِهِمْ واسْتِحْقاقِهِ، حتَّى لَمْ يَبْقَ لِلْفاءِ المُؤَكِّدَةِ مَوْقِعٌ في الآيَةِ الكَريمَةِ فَأُسْقِطَتْ؛

(1) ابْنُ عرفة، تفْسيرُ ابْنِ عرفة: 1/323.
(2) الآلوسّي، روحُ المعاني: 2/47.
(3) ابْنُ عرفة، تفْسيرُ ابْنِ عرفة: 1/324.

فَتَخْلِيَةُ الخَبَرِ عَنِ الفَاءِ المُفيدَةِ لِسَبَبِيَّةِ ما قَبْلَهَا لِمَا بَعْدَهَا لِلْإِيذانِ بِأَنَّ تَرْتيبَ الأَخيرِ، أَيِ: الأَجْرُ على ما ذُكِرَ مِنَ الإِنْفاقِ، وتَرْكِ إِتْباعِ المَنِّ والأَذى؛ أَمْرٌ بَيِّنٌ لا يَحْتاجُ إِلى التَّصْريحِ بِالسَّبَبِيَّةِ[1].

ولَمَّا كَانَتِ الآيَةُ الثَّانِيَةُ لَيْسَ فيهَا ما يَدُلُّ على المُبَالَغَةِ في وَصْفِ المُنْفِقينَ بِمَا ذُكِرَ، أُثْبِتَتْ فَاءُ السَّبَبِيَّةِ فِيها؛ لِلدَّلالَةِ على أَنَّ اسْتِحْقاقَهُمُ الأَجْرَ المَذْكورَ في الآيَةِ، إِنَّما كان بِسَبَبِ إِنْفاقِهِمْ أَمْوالَهُمْ سِرًّا وعَلانِيَةً[2].

نكتةُ نَفْيِ الحُزْنِ بِالْفِعْلِ، والخوْفِ بِالِاسْمِ:

نَفَتِ الآيةُ عن المُنفقين في قولِه تعالى: ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٤﴾﴾ الحُزْنَ عَنْهُمْ بِالْفِعْلِ، والخَوْفَ بِالاسْمِ مَعَ أَنَّ ما يقتضيه الظَّاهِرُ العَكْسَ؛ لِأَنَّ مُتَعَلَّقَ الحُزْنِ ماضٍ والخَوْفِ مُسْتَقْبَلٌ؛ ولِأَنَّ النَّكِرَةَ[3] في سِياقِ النَّفْيِ تُفيدُ العُمومَ بِإِجماعٍ، والفِعْلَ في سِياقِ النَّفْيِ مُخْتَلَفٌ فِيه، هَلْ يُفيدُ العُمومَ أَم لا؟ والمَاضي مُحْصورٌ؛ لِأَنَّهُ مُشاهَدٌ مَرْئِيٌّ فَمُتَعَلَّقُهُ غَيْرُ مُتَعَدِّدٍ، والمُسْتَقْبَلُ مُتَعَلَّقاتُهُ مُتَعَدِّدَةٌ؛ لِأَنَّهُ غَيْرُ مَحْصورٍ، فالخَوْفُ مِنْهُ يَعْظُمُ لِكَثْرَةِ الخَواطِرِ التي تَخْطُرُ بِبالِ الإِنْسانِ، فَقَدْ يَخافُ مِنْ كَذا، ويَخافُ مِنْ كَذا، ويَخافُ مِنْ شَيْءٍ هُوَ في نَفْسِ الأَمْرِ آمِنٌ فيهِ، فَلِذلِكَ نَفَى الخَوْفَ بِلَفْظِ الاسْمِ الدَّالِّ على العُمومِ بِإِجْماعٍ، ونَفَى الحُزْنَ بِالْفِعْلِ المُحْتَمِلِ لِلْعُمومِ وعَدَمِهِ.

نَفْيُ عُمومِ الخَوْفِ والحُزْنِ عَنِ المُنْفِقِ

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الإِعْلان والجَهْر:

كُلُّ جَهْرٍ إِعْلانٌ، ولَيْسَ كُلُّ إِعْلانٍ جَهْرًا

الْإِعْلانُ خِلافُ الكِتْمانِ: وهُوَ إِظْهارُ المَعْنى لِلنَّفْسِ، ولا يَقْتَضِي

(1) أبو السُّعود، إِرْشادُ العقْلِ السّليم: 1/411.

(2) الرّويني، مِنْ غريبِ بلاغةِ القُرآنِ الكريمِ 635.

(3) النّكِرةُ عِنْد أكْثِر النُّحاةِ لا تعُمُّ إلاّ إذا كانتْ مبْنيةً مع: (لا)، مِثْل: (لا رجُل في الدّارِ)، وقدْ جاءتْ هُنا غيرْ مبْنية: (لا خوْفٌ) إلاّ أنّها أعمُّ مِن الفِعْلِ. يُنْظرْ: ابْنُ عرفة، تفْسيرُ ابْنِ عرفة: 1/324، والشِّنْقيطيّ، مُذكِّرةٌ في أُصولِ الفِقْهِ 384.

رَفْعَ الصَّوْتِ بِهِ، والجَهْرُ يَقْتَضي رَفْعَ الصَّوْتِ بِهِ، ومِنْهُ يُقالُ: رَجُلٌ جَهيرٌ وجَهُوريٌّ؛ إذا كَانَ رَفيعَ الصَّوْتِ[1].

وقَدِ اجْتَمَعَ كُلٌّ مِنَ الإعْلانِ والجَهْرِ في قَوْلِهِ: ﴿ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ۝٨ ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ۝٩﴾ [نوح: 8- 9]، فَتَقَدَّمَ الإِسْرارُ، ويَلِيهِ الجِهارُ، ثُمَّ الجَمْعُ بَيْنَهُما في مَقامٍ واحِدٍ.

وعَلى ضَوْءِ هذا يَتَبَيَّنُ أَنَّ الجَهْرَ رَفْعُ الصَّوْتِ بِالإِعْلانِ، فَهُوَ وَسيلَةٌ مِنْ وَسائِلِ الإِعْلانِ.

الأَجْر والثَّواب:

الأَجْرُ: هُوَ جَزاءُ العَمَلِ الذي يَكُونُ فيهِ عَقْدٌ، أَوْ ما يَجْري مَجْراهُ، وَالشَّاهِدُ أَنَّكَ تَقُولُ: مَا أَعْمَلُ حَتَّى آخُذَ أَجْري، وَلَا تَقولُ: ثَوابي، أَمَّا الثَّوابُ؛ فَقَدِ اشْتَهَرَ في الجَزاءِ على الحَسَناتِ[2]، وَالأَجْرُ يُقالُ: في هذَا المَعْنى، ويُقالُ في ما مَعْناهُ: المُعاوَضَةُ بِالانْتِفاعِ[3].

الأَجْـــرُ ثَـــوابٌ وزِيادَةُ عِوَضٍ

الخَوْف والخَشْيَة:

الخَوْفُ: انْفِعالٌ في النَّفْسِ يَحْدُثُ عِنْدَ تَوَقُّعِ حُلولِ مَكْروهٍ، أَوْ فَواتِ مَحْبوبٍ[4] عَنْ أَمارَةٍ مَظْنونَةٍ، أَوْ مَعْلومَةٍ[5]، وَفي التَّنْزيلِ: ﴿فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ﴾ [الأحزاب: 19]، والخَشْيَةُ: خَوْفٌ يَشوبُهُ تَعْظيمُ المَخْشيِّ، مَعَ المَعْرِفَةِ بِهِ[6]، كما أَنَّ الخَوْفَ يتَعَلَّقُ في الغالِبِ بِالمَكْرُوهِ نَفْسِهِ، أَمَّا الخَشْيَةُ؛ فتتَعَلَّق بِمَنْزِلَةِ المَكْروهِ[7]، وَلِهَذا جاءَ التَّفْريقُ بَيْنَهُما بِحَسَبِ هذا المَعْنى في قَوْلِهِ تَعالى: ﴿وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ۝٢١﴾ [الرَّعْد: 21]، فالخَشْيَةُ تَكُونُ مِنْ عِظَمِ

الْخَشْيَةُ أَخَصُّ مِنَ الخَوْفِ

(1) العسْكري، الفُروقُ اللُّغويّة، ص: 1/278.
(2) العسْكري، الفُروقُ اللُّغويّة، ص: 17.
(3) الزّبيديّ، تاجُ العروس: (أجر).
(4) الجُرْجانّي، التّعْريفاتُ، ص: 101، والأحمد نكري، جامِعُ العُلومِ في اصْطِلاحاتِ الفُنون: 2/66.
(5) الرّاغِب، المُفْردات: (خوف).
(6) السُّيوطيّ، مُعْجمُ مقاليدِ العُلومِ، ص: 204، والمناويّ، التّوقيفُ على مُهِمّاتِ التّعاريفِ، ص: 155.
(7) العسْكري، الفُروقُ اللُّغوية، ص: 241.

الْمُخْتَشَى، وَإِنْ كَانَ الْخَاشِي قَوِيًّا، وَالْخَوْفُ يَكُونُ مِنْ ضَعْفِ الْخَائِفِ، وَإِنْ كَانَ الْمَخُوفُ أَمْرًا يَسِيرًا، وَلِذَا وَرَدَتِ الْخَشْيَةُ غَالِبًا فِي حَقِّ اللَّهِ تَعَالَى، نَحْوُ: ﴿مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ [البَقَرَة: 74]، وقوله: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فَاطِر: 28][1].

وَعلَيْهِ تَكونُ الْخَشْيَةُ أَخَصَّ مِنَ الخَوْفِ، فَهِيَ خَوْفٌ مَقْرُونٌ بِمَعْرِفَةٍ وتَعْظيمٍ[2].

(1) السُّيوطي، الإِتْقان: 2/364.

(2) ابْنُ القيِّم، مدارِجُ السّالِكين: 1/508.

﴿ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِي يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مِنَ ٱلۡمَسِّۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡبَيۡعُ مِثۡلُ ٱلرِّبَوٰاْۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلۡبَيۡعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْۚ فَمَن جَآءَهُۥ مَوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمۡرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۖ وَمَنۡ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٢٧٥﴾ [البقرة: 275]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

التَّحْذيرُ مِنَ الرِّبا وذَمُّ أَهْلِهِ، بَعْدَ ذِكْرِ التَّصَدُّقِ وفَضْلِ المتصدّقين

لمّا ذكر تعالى النّفقة، ورغّب فيها بأنواع التّرغيب في أساليب متنوّعة، وكان الرّزق يشمل الحلال والحرام، وكان ممّا يسترزقون به قبل الإسلام الرّبا؛ وهو في الصّورة زيادةٌ، وفي الحقيقة نقصٌ، ضدُّ ما تقدَّم الحثُّ عليه من الإنفاق؛ وهو في الظّاهر نقصٌ، وفي الباطن زيادة، نهاهم عن تعاطي الرّبا ونفّرهم منه، وبيّن لهم حُكْمَه وأنّه خبيث ممقوت، لا يصلح لأكل ولا صدقة، حيث شنّع القرآن به وبمتعاطيه.

أو: لمّا كان حالُ المنفِقِ الّذي يبتغي وجه اللّه سبحانه أفضلَ الأحوال، وهو الحال الّذي دُعواً إليه؛ ذكر بعده أدنى الأحوال، وهو الّذي يُتَوَسّلُ به إلى الأموال بالرّبا، كان أفضلَ النّاس المنفقُ، وشرَّ النّاس المُرابي؛ فذكر شرَّ النّاس بعد أن ذكر خيرهم تنفيرا منهم[1]،

أو: لَمّا ذكَرَ تَعالى الأَبْرارَ المنفقين المُتَفَضِّلينَ بالبرِّ والصِّلاتِ، لِذوي الحاجاتِ والقَراباتِ، في جَميعِ الأَحْوالِ والأَوْقاتِ، شرَعَ في ذِكْرِ أَكَلَةِ الرِّبا وأَمْوالِ النّاسِ بالباطِلِ وأَنْواعِ الشُّبُهاتِ[2]، فسياقُ الآياتِ وارِدٌ في تَفْضيلِ الإِنْفاقِ والصَّدَقَةِ في سَبيلِ اللّهِ، وأَنَّهُ يَكونُ ذَلِكَ من طيبِ ما كَسَبَ، ولا يَكونُ مِنَ الخَبيثِ وهوَ: الرِّبا[3].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 4/108، 109.
(2) ابْنُ كثير، تفْسيرُ القرآن العظيم: 1/708.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/703.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلرِّبَوٰاْ﴾: أَصْلُ الرِّبا: النّماء والزّيادة مع العلوّ والارتفاع، فكلُّ شَيْءٍ ارْتَفَعَ أَوْ زادَ، فقَدْ رَبا،[1] وهو في الشّرع إعطاءُ المَدِينِ مالًا لِدائِنِهِ زائِدًا على قَدْرِ الدَّيْنِ، لِأَجْلِ الانْتِظارِ، فإذا حَلَّ الأَجَلُ ولَمْ يَدْفَعْ زادَ في الدَّيْنِ[2]، وهو مأخوذ من ربا يربو، إذا نما وزاد على ما كان، ومعلوم أنّ العرب تقول للغريم: أتقضي أم تربي؟ فكان الغريم يزيد في عدد المال، ويصبر الطّالب عليه، مقابل تلك الزّيادة، وأدخل الشّرع في الرّبا التّفاضل في النّوع الواحد، باعتباره زيادة، وكذلك أكثر البيوع الممنوعة شرعا، إنّما كان منعها لمعنى زيادة، إمّا في عين مال، وإمّا في منفعة لأحدهما، من تأخير ونحوه، والفرق واضح بين البيع الحلال، والرّبا الحرام، ممّا يفهم من اللّفظ.

2) ﴿يَتَخَبَّطُهُ﴾: أَصْلُ الخَبْطِ وطْءٌ وضَرْبٌ مع شدّة، والخَبْطُ الضَّرْبُ على غَيْرِ اسْتِواء، ومنهُ خَبَطَ البَعيرُ بخُفِّ يَدِهِ: أَيْ ضَرَبَ الأَرْضَ بها، والخَبْطُ: الوَطْءُ الشَّديد، ومَعْنى يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطانُ: يَضْرِبُهُ ويَطَؤُهُ فيَصْرَعُهُ[3]، ويَجْعَلُهُ مُتَخَبِّطًا، أَيْ مُتَحَرِّكًا على غَيْرِ اتِّساقٍ[4]، وقَالَ أَبُو حَاتِم: الخباط: دَاء كالجنون، يصيب الرّجل[5]، كأنّ الإنسان عند إصابته به يتخبّط[6].

3) ﴿ٱلْمَسِّ﴾: المسّ: مخالطة دقيقة ذاتُ أثر، وأكثر استعماله في جَسِّ الشَّيْءِ باليَدِ، واسْتُعيرَ لِلجِماعِ؛ لأنَّه لَمْسٌ، ولِلجُنونِ؛ كأنَّ الجِنَّ مَسَّتْهُ؛ وهوَ المَقْصودُ هنا، ولِكُلِّ أَذًى يَنالُ الإِنْسانَ[7]، وقال بعضهم هو الّذي ينال النّاس من الجنون، نسبه اللّه تعالى إلى الشّيطان، وذلك بتمكين اللّه تعالى له من ذلك[8].

4) ﴿مَوْعِظَةٌ﴾: الوَعْظُ التَّذْكيرُ بالخَيْرِ فيما يَرِقُّ لَهُ القَلْب، والوَعْظُ: نُصْحٌ وتَذْكيرٌ

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ربي)، جبل، المُعْجمُ الاِشْتِقاقيُّ: (ربو، ربى)، السّمين، عُمْدةُ الحُفّاظِ: (ربو).
(2) ابْنُ عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/79.
(3) الأزْهريّ، التّهْذيب، ابن فارس، مقاييس اللغة، الرّاغِب، المُفْردات، السّمين، عُمْدةُ الحُفّاظ، جبل، المُعْجمُ الاِشْتِقاقيُّ: (خبط).
(4) ابْنُ عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/72.
(5) ابْنُ دريد، جمهرة اللّغة: 1/291.
(6) ابن فارس، معجم مقاييس اللّغة: 2/241.
(7) الجوْهريّ، الصّحاح، وابْنُ عبّاد، المُحيط، والرّاغِب، المُفْردات: (مسس)، وابْنُ فارِس، مقاييسُ اللُّغةِ: (مس)، جبل، المعجم الاشتقاقي: (مسس، مسمس).
(8) الحِمْيري، شمس العلوم: 3/1712.

بالعَواقِبِ، وأَصْلُ الوَعْظِ: تذكير بالخير معَ تَخْويف، والوَعْظُ والعِظَةُ والمَوْعِظَةُ: تَذْكيرُكَ لِلإنْسانِ بما يُلَيِّنُ قَلْبَهُ من ثَوابٍ وعِقابٍ[1]، والوعظ مؤنّث من الموعظة، في قوله تعالى: ﴿فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ أي: وَعْظٌ، وفيه قال سيبَوَيْه كأنّه اكْتَفى بِذِكْر المَوْعِظَة عن التّاء[2].

5) ﴿سَلَفَ﴾: السَّلَفُ: المُتقدّم، يُقالُ لِفُلان: سَلَفٌ كَريمٌ، أَيْ آباءٌ مُتَقَدّمونَ، وكُلُّ شَيْءٍ مَضى وانْقَضى، فهوَ سالِفٌ، وأَصْلُ سَلَفَ، يَدُلُّ على تَقَدُّمٍ وسَبْقٍ[3] بلطف[4]، ومَعْنى الآية: فلَهُ أَخْذُ ما تَقَدَّمَ قَبْلَ التَّحْريمِ[5].

6) ﴿خَٰلِدُونَ﴾: الخلد: بقاء الشّيء أو وصفه أمدًا طويلًا، رغم زوال نظيره، أو قرينه، وذلك ببعده عمّا يفسد ذاته أو صفته، أو بعبارة أخرى: الإقامة والبقاء على صفة واحدة[6].

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

فظاعةُ حالِ المُرابي يَوْمَ القيامَةِ، وشدّة وَعيدِ الله على الرِّبا المذموم

الّذينَ يَتَعامَلونَ بالرِّبا ويستحلّونه، لا يَكونونَ في الدُّنيا إلّا في اضْطِرابٍ وخَلَل، ولا يَقومونَ يَوْمَ القيامَةِ من قُبورِهِمْ إلّا كما يَقومُ الّذي أَفْسَدَ الشَّيْطانُ عَقْلَهُ، فصارَ يَتَخبّطُ مِنَ الجُنونِ الّذي أَصابَه؛ لأَنَّهُم اسْتَحَلّوا أَكْلَ الرِّبا، ولَمْ يُفَرِّقوا بَيْنَ الرِّبا الّذي حرّمه اللّه، وبَيْنَ البيع الّذي أَحَلَّ اللّهُ وبارك فيه، فقالوا: ﴿إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ﴾، في كَوْنِهِ حَلالًا، فكُلّ منهما فيهِ مُعاوَضَةٌ وكَسْبٌ، فرَدَّ اللّهُ عَلَيْهِمْ، فبَيَّنَ لهم أَنَّ التَّحْليلَ والتَّحْريمَ ليس من شَأْنِهِمْ، وأَنَّ التَّماثُلَ الّذي زَعَموهُ ليس صحيحًا، واللّهُ قَدْ أَحَلَّ البَيعَ لِما فيهِ من نَفْعٍ عامٍّ وخاصّ، وحَرَّمَ الرِّبا لِما فيهِ من ظُلْمٍ وأَكْلٍ لِأَمْوالِ النّاسِ بالباطِلِ. فمن بلغَه نَهْيُ اللّهِ عن الرِّبا فارْتَدَعَ، وكَفَّ عنه، وتابَ إلى اللّهِ منه، فلَهُ ما مَضى من

(1) الخليل، العينُ: (عظو)، والجوْهريّ، الصّحاح، وابْنُ فارِس، مقاييسُ اللُّغة، وابْنُ منْظور، لِسانُ العرب، والرّاغِب، المُفْرداتُ: (وعظ).
(2) ابن سيده، المحكم: 8/220.
(3) الجوْهريّ، الصّحاح، ابْنُ فارِس، مقاييسُ اللُّغة، ابْنُ منْظور، لِسانُ العرب، الرّاغِب، المُفْردات، السّمين، عُمْدةُ الحُفّاظِ: (سلف).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقي: (سلف).
(5) الآلوسي، روحُ المعاني: 2/49.
(6) انظر الأزهري، تهذيب اللغة: (خلد)، ابن فارس، مقاييس اللغة، الراغب، المفردات، ابن منظور، لسان العرب، الزبيدي، تاج العروس، جبل، المعجم الاشتقاقي: (خلد).

أَخْذِهِ لِلرِّبا، لا إِثْمَ عليه فيه، وأَمْرُهُ مَوْكولٌ إلى عَفْوِ اللهِ، ومَنْ عادَ إلى أَخْذِ الرِّبا بَعْدَ أَنْ بَلَغَهُ النَّهيُ، وقامَتْ عليه الحُجَّةُ؛ فقَدِ اسْتَحَقَّ دُخولَ النّارِ والخُلودَ فيها، وهَذا الخُلودُ في النّارِ المَقْصودُ به البَقاءُ الطَّويلُ فيها، فإنّ الخُلودَ الدّائِمَ فيها لا يَكونُ إلّا لِلكُفّارِ، أَمّا أَهْلُ التَّوْحيدِ فلا يُخلَّدونَ فيها، كما هو معتقد أهل السّنّة[1].

❁ الإيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

نكتةُ التَّعْبيرِ بـ ﴿يَأْكُلُونَ﴾ في قَوْلِهِ تَعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ﴾:

الزِّيادَةُ في التَّشْنيعِ عَلَيْهِمْ وتَبْشيعِ حالِهِمْ

جُمْلَةُ ﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ﴾ استئنافٌ، والمعنى: يَكْسبونَ الرِّبا ويَتَعاطَوْنَه، وآثرَ النَّظمُ استعمالَ الأكلِ دون غيرِه من الكلمات الدَّالَّةِ على المقصود؛ لطائفةٍ من النّكات البيانيَّة:

النكتةُ الأولى: التَّشْنيعُ على المُرابينَ بلَفْظَةِ الأَكْلِ الدّالَّةِ على جَشَعِ الآكلِ من جهة، فهو يأكُلُ المالَ ويلتهمُه كما يأكلُ الطَّعامَ.

النُّكتةُ الثَّانية: آكلُ الرِّبا يُخفي المالَ الحرام كما يُخْفي الآكِلُ ما يأكلُه في بطنه.

النُّكتةُ الثَّالثة: استحالةُ إرجاعِ المالِ الحرامِ في اعتقاد آكلِه كما يستحيلُ رجوعُ المأكولِ على الحالة التي كان عليها قبل أكله.

النُّكتةُ الرَّابعة: خلطُ المالِ الحرامِ بالمال الحلال حتّى لا يتميّز منه فيمكن استرجاعه، كما لا تتميّز أنواعُ الطّعام بعضُها من بعض بعد أكلِها.

النُّكتةُ الخامسة: الأَكْلُ غالبُ ما يَنْتَفِعُ به المرابي، فيُصْرَفُ في المَأْكولِ غالبًا، فأُقيمَ هذا البَعْضُ من تَوابِعِ الكَسْبِ مَقامَ الكَسْبِ كُلِّه[2].

النُّكتةُ السَّادسة: الرِّبا شائِعٌ في المَطْعوماتِ وهوَ زيادَةٌ في الأَجَلِ، بأَنْ يُباعَ مَطْعومٌ بمَطْعوم، بأَكْثَرَ منه من جِنْسِه[3]؛ فيكون الأَكْلُ هنا على ظاهِرِه من خُصوصِ الأَكْلِ[4].

---

(1) لجْنةٌ من عُلماءِ الأزْهر، المُنْتخبُ في تفْسيرِ القرآن الكريمِ: ص: 66، ونُخْبةٌ من أساتِذةِ التّفْسير، التّفْسيرُ المُيسّرُ: ص: 47، وجماعةٌ من عُلماءِ التّفْسير، المُخْتصرُ في تفْسيرِ القرآن الكريمِ: ص: 47.

(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيزُ: 1/371، والبيضاوي، أنوار التّنزيل: 1/162.

(3) أبو السُّعود، إرْشادُ العقْلِ السّليمِ: 1/412، والبيضاوي، أنوار التّنزيل: 1/162.

(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/704.

وقد جاءَتْ لَفْظَةُ الأَكْلِ مُقترِنةً بالمالِ الحرامِ في مَواضِعَ كَثيرَةٍ مِنَ القرآنِ الكَريمِ؛ لِأَنَّ الأَكْلَ أَقْوى مَقاصِدِ الإِنْسانِ في المالِ، ثُمَّ صارَ حَقيقَةً عُرْفيَّةً، فقالوا: أَكَلَ مالَ النّاسِ، قالَ تَعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ﴾ [البَقَرَة: 188] وقالَ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً﴾ [آل عِمْرانَ: 130]، وقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ﴾ [النِّساء: 10][1].

رَوْعَةُ التَّصْويرِ في التَّشْبيهِ التَّمْثيليِّ[2] لآكِلِ الرِّبا بالمَمْسوسِ:

شَناعَةُ صورَةِ آكِلِ الرِّبا في الحالِ والمآلِ

قولُه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ﴾ في غايةِ الإِبْداعِ الذّائِعِ، والتَّصويرِ الفَنّي الرّائِعِ، الذي يَفوقُ الخَيالَ، في رَوْعَةِ الجَمالِ، وهوَ ما مَثَّلَ به القرآنُ الكَريمُ آكِلَ الرِّبا الذي يَمْتَصُّ دِماءَ الكادِحينَ بالشَّخْصِ المَصْروعِ الذي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطانُ من الجنونِ، فهوَ يَمْشي ويَسْقُط، ويَتَرَنَّحُ في مِشْيَتِه، ويَهْذي في كَلامِه فلا يَسْتَطيعُ السَّيْطَرَةَ على أَفْعالِه وحَرَكاتِه[3]، فهو تَشْبيهٌ تَمْثيليٌّ لِآكِلِ الرِّبا بمَنْ أَصابَهُ مَسٌّ فاخْتَلَّ طَبْعُه، وانْتكستْ حالُه[4].

وحَقيقَةُ القيامِ النُّهوضُ والانتِصابُ والاسْتِقْلال، فهو يُطْلَقُ مَجازًا على تَحَسُّنِ الحالِ، وعَلى القوَّةِ، يُقالُ قامَتِ السّوق، وقامَتِ الحرْبُ؛ فإن كان القيامُ المَنْفيُّ هنا مرادًا به القيامُ الحَقيقيُّ فالمَعْنَى: لا يَقومونَ يَوْمَ يَقومُ النّاسُ لِرَبِّ العالَمينَ إلّا كَما يَقومُ المَصْروعونَ لِأَنَّهُمْ أَكَلُوا الرِّبا فأَرْباهُ اللّه تَعالى في بُطونِهِمْ حَتَّى أَثْقَلَهم فلا يَقْدِرونَ على الإيفاضِ والإِسْراعِ[5]، فهُمْ يَنْهَضونَ ويَسْقُطونَ لا يَسْتَطيعونَ المَشْيَ سَويًّا[6]، تلك سيماهُمْ يُعرَفونَ بها

(1) ابْنُ عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/79.
(2) التّشْبيهُ التّمثيليُّ: ما كان وجْهُ الشّبهِ فيه صورةً عقليّةً تحتاجُ إلى تأوُّلٍ سواءٌ كان مُفْردًا أوْ مُركّبًا. ينظر: الجرجاني، أسْرارُ البلاغةِ: ص: 65.
(3) محمد علي جميل، الإبْداعُ البيانيُّ: ص: 53.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/705.
(5) الزّمخْشريّ، الكشّاف: 1/320، والبيضاوي، أنْوارُ التّنْزيلِ: 1/162، وإسْماعيل حقّي، روحُ البيانِ: 1/436.
(6) ابْنُ عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/81.

عند أَهْلِ المَوْقِفِ[1]، وَإِنْ كان المرادُ بالقيامِ المنفيِّ القيامَ المَجازيَّ فالمَعْنَى: قيامُ المرابين في حِرْصِهِمْ ونَشاطِهِمْ في مُعامَلاتِ الرِّبا كَقيامِ المَجْنونِ، وهو تَشْبيهُ حالِ القائِمِ بحِرْصٍ وجَشَعٍ إلى تجارَةِ الرِّبا بقيامِ المَجْنونِ؛ لِأَنَّ الطَّمعَ يَسْتَفِزُّهُ حَتَّى تَضْطَرِبَ أَعْضاؤُه، كَما يَقومُ المُسْرِعُ في مَشْيِهِ يَخْلِطُ في هَيْئَةِ حَرَكاتِهِ، إمّا من فزَعٍ أَوْ غَيْرِهِ قَدْ جُنَّ[2]، فالآيَةُ على المَعْنَى الحَقيقيِّ وعيدٌ لهم بابْتِداءِ تَعْذيبِهِمْ من وقْتِ القيامِ لِلحِسابِ إلى أَنْ يَدْخُلوا النّارَ، وهيَ على المَعْنَى المَجازيِّ تشْنيعٌ أَوْ تَوَعُّدٌ بسوءِ الحالِ في الدُّنْيا، ولُقْيا المَتاعِبِ ومَرارَةِ الحَياةِ تَحْتَ صورَةٍ يَخالُها الرّائي مُسْتَقيمَةً، وهي متخبّطة[3]؛ وهوَ أَيْضًا ما يُفيدُهُ التَّعبيرُ بالفِعْلِ المُضارِعِ ﴿يَقُومُونَ﴾ من تَجَدُّدِ المَتاعِبِ عَلَيْهِمْ في الحالِ واسْتِمْرارِها في المآلِ.

تَعْليلُ تَخَبُّطِ المُرابي وتَأْكيدُه بشِبْهِ الجُمْلَةِ ﴿مِنَ ٱلْمَسِّ﴾:

التَّخبُّطُ محمولٌ على معناه الحقيقيِّ

﴿مِنَ﴾ في قوله تعالى: ﴿مِنَ ٱلْمَسِّ﴾ تَعْليليَّةٌ، والجارُّ والمجرورُ ﴿مِنَ ٱلْمَسِّ﴾ يَتَعَلَّقُ بقَوْلِهِ: ﴿يَتَخَبَّطُهُ﴾، وهوَ على سَبيلِ التَّأْكيدِ، ورَفْعِ ما يَحْتَمِلُهُ ﴿يَتَخَبَّطُهُ﴾ من المَجازِ، إذْ لا يَكونُ التَّخبُّطُ إلّا من المَسِّ؛ فلا يُظَنُّ أَنَّهُ تَخَبُّطٌ مَجازيٌّ بمَعْنى الوَسْوَسَةِ[4]، فلمّا احتمل أَنْ يُرادَ بالتَّخَبُّطِ الإغْواءُ وتَزْيينُ المَعاصي أَزالَ قَوْلُهُ: ﴿مِنَ ٱلْمَسِّ﴾ هَذا الاحْتِمالَ[5].

سِرُّ مَجيءِ اسمِ الإشارةِ للبعيدِ في قَوْلِهِ تَعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓاْ﴾:

بَيانُ بُعْدِ المُرابينَ عن الحَقِّ وبُعْدِ قَولِهِمْ عن الصِّدْقِ

عادَ اسْمُ الإشارَةِ في قَوْلِهِ تَعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓاْ﴾ إلى ما ذُكِرَ من تصوير حالِ المُرابين في الدّنيا، وإلى العِقابِ المُعَدِّ لهم في الآخرة، وهوَ أَنَّهُمْ يَقومونَ من قُبورِهِمْ كالصَّرْعى بسَبَبِ مَسِّ

(1) أبو السُّعود، إرْشادُ العقْلِ السّليمِ: 1/412.
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 1/372، والشّوْكانّي، فتْحُ القديرِ: 1/339
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/705، وابْنُ عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/81.
(4) القاسِمي، محاسِنُ التّأْويلِ: 2/219.
(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/706.

الشَّيْطانِ لهم، وما في اسْمِ الإشارَةِ من مَعْنَى البُعْدِ لِلإيذانِ بفَظاعَةِ فعلِ المُشارِ إليه وبُعْدِهِ عن الصَّوابِ[1]، وقيلَ: بل هو إشارَةٌ لأَكْلِهِم الرِّبا؛ لأنَّه سَبَبٌ في عُقوبَتِهِمْ، وسَبَبُ السَّبَبِ سَبَبٌ لهُ[2].

دَلالَةُ التَّشْبيهِ المَقْلوبِ في قَوْلِهِ تَعالى: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡبَيۡعُ مِثۡلُ ٱلرِّبَوٰاْۗ﴾:

قولُ المُرابين ومُؤَيِّديهم: ﴿إِنَّمَا ٱلۡبَيۡعُ مِثۡلُ ٱلرِّبَوٰاْۗ﴾ يحتملُ أن يكونَ تشبيهًا مقلوبًا أو غيرَ مقلُوبٍ، ففي التَّشْبيهِ المَقْلوبِ، يكونُ شَبَّهَ البَيْعَ بالرِّبا؛ إشارَةً إلى أَنَّهُمْ عَكَسوا الكَلامَ لِلمُبالَغَةِ، حَتَّى جَعَلوا الرِّبا أَصْلاً، والبَيْعَ فرْعًا؛ فشَبَّهوهُ به، وهوَ في البَلاغَةِ مَرْتَبَةٌ عُلْيا، بل هو من أَعْلى مَراتِبِ التَّشْبيهِ، يُصْبِحُ المُشَبَّهُ به قائمًا بالمُشَبَّهِ وتابعًا لَه؛ وذلك لِلإشارَةِ إلى شِدَّةِ مُبالَغَتِهِمْ في اعْتِقادِ حَلِّ الرِّبا[3]، وشُبْهَتُهُمْ أَنَّهُمْ قالوا: لَوِ اشْتَرَى الرَّجُلُ ما لا يُساوي إلّا دِرْهَمًا بدِرْهَمَيْنِ جازَ، فكَذلِكَ إذا باعَ دِرْهَمًا بدِرْهَمَيْنِ؛ فجيءَ به على طَريقِ المُبالَغَةِ، وهوَ أَنَّهُ قَدْ بَلَغَ من اعْتِقادِهِمْ في حِلِّ الرِّبا أَنَّهُمْ جَعَلوهُ أَصْلًا وقانونًا في الحِلِّ حَتَّى شَبَّهوا به البَيْعَ[4].

تطرُّفُ المُرابينَ؛ بجعلِهِم الرِّبا أصْلًا والبيعَ فرعًا

وَإِنْ كان قَوْلُهم قَوْلًا حاليًّا بحَيْثُ يَقولُهُ كُلُّ مَنْ يَأْكُلُ الرِّبا لَوْ سَأَلَهُ سائِلٌ عن وجْهِ تَعاطيهِ الرِّبا، فهوَ اسْتِعارَةٌ، ويَجوزُ أَنْ يَكونَ ﴿قَالُوٓاْ﴾ مَجازًا؛ لِأَنَّ اعْتِقادَهُمْ مُساواةَ البَيْعِ لِلرِّبا يَسْتَلْزِمُ أَنْ يَقولَهُ قائِلٌ، فأُطْلِقَ القَوْلُ وأُريدَ لازِمُه، وهوَ الاعْتِقادُ به[5].

القَصْرُ الإضافيُّ بـ(إنّما) يدلُّ على قَوْلِهِم المَعْكوس وفَهْمِهِمُ المَنْكوس

وَعلى احتِمالِ أَنْ يَكونَ التَّشْبيهُ غَيْرَ مَقْلوبٍ فبناءً على ما فهِموهُ أَنَّ البَيْعَ إنَّما حَلَّ لِأَجْلِ الكَسْبِ والفائِدَةِ، وذَلِكَ في الرِّبا مُتَحَقِّقٌ وفي غَيْرِهِ مَوْهوم[6].

---

(1) أبو السُّعود، إرْشادُ العقْلِ السّليمِ: 1/412.

(2) البسيلّي، التّقْييدُ الكبيرِ: 1/358.

(3) الزّمخْشريّ، الكشّاف: 1/320-321، والسّمين، الدُّرُّ المصونُ: 2/633، والقاسِمي، محاسِنُ التّأْويلِ: 2/225.

(4) البيضاوي، أنْوارُ التّنْزيلِ: 1/162، والزّمخْشريّ، الكشّاف: 1/320، والقِنّوْجيّ، فتْحُ البيانِ: 2/140.

(5) ابْنُ عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/83.

(6) الخفاجيّ، حاشيةُ الشِّهابِ على البيضاويِّ: 2/346. والآلوسي، روحُ المعاني: 2/49.

ويَدُلُّ على هَذا الفَهْم إيثارُ القَصْرِ بـ ﴿إِنَّمَا﴾ التي تُسْتَخْدَمُ في الأَمْرِ المَعْلوم الَّذي لا يُجْهَلُ ولا يُنْكَرُ، وفيهِ دَلالَةٌ على تَعَنُّتِهِمْ وشِدَّةِ اعْتِقادِهِمْ في حَلِّ الرِّبا، وأَنَّهُ الأَصْلُ الذي يُقاسُ عليه، وأَنَّ ذَلِكَ أَمْرٌ مَعْروفٌ شائِعٌ مَعْلومٌ لا يَنْبَغي أَنْ يُنْكَرَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُنازَعوا فيهِ، ولِذلِكَ اعْتَقَدوا مَدْلولَ هَذا القَوْلِ وفَعَلوا مُقْتَضاهُ فَنَظَمُوهُما في سِلْكٍ واحِدٍ[1]، ويَدُلُّ على رُسوخِ هَذا الفَهْم السَّقيم في نُفوسِهِمْ أَيْضًا تَأْكيدُ الخَبَرِ بـ (أَنَّ)، واسْمِيَّةِ الجُمْلَةِ من قَوْلِهِ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓاْ﴾.

بلاغةُ الاِسْتِئْنافِ في قَوْلِهِ تَعالى: ﴿وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ﴾:

قَوْلُهُ تعالى: ﴿وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ﴾ جُمْلَةٌ مُسْتَأْنَفَةٌ، وهيَ جَوابٌ قاطِعٌ ذو مضمونٍ ناصع من اللّه لجميعِ البشرِ؛ وهي تضمَّنُ إرشادًا للإعْراضِ عن مُجادَلَةِ المُرابين إذْ لا جَدْوَى فيها؛ لِأَنَّهُمْ قالوا ذَلِكَ كُفْرًا ونِفاقًا، فلَيْسوا مِمَّنْ تَشْمَلُهُمْ أَحْكامُ الإِسْلامِ، وهوَ إِقْناعٌ لِلمُسْلِمينَ بأَنَّ ما قالَهُ الكُفّارُ هو شُبْهَةٌ مَحْضَةٌ، وأَنَّ اللّه العَليمَ قَدْ حَرَّمَ هَذا وأَباحَ ذَلِك، وما ذَلِك إلّا لِحِكْمَةٍ وفُروقٍ مُعْتَبَرَة، لَوْ تَدَبَّرَها أَهْلُ التَّدَبُّرِ لَأَدْرَكوا الفَرْقَ بَيْنَ البَيْعِ والرِّبا، وهوَ ما يُشْعِرُ به الطِّباقُ البَديعُ بَيْنَ كَلِمَتَي أَحَلَّ، وحَرَّمَ؛ فالمُشَرِّعُ هو اللّه، وهوَ أَعْلَم بمَصالِحِ عِبادِهِ وبِما تَسْتَقيم به حَياتُهُمْ.

أوامرُ الشَّرعِ في سياقِ الرَّدِّ على المُبطلين قواعدُ ثابتةٌ، وأركانٌ راسخةٌ

ولَيْسَ في هَذا الجَوابِ كَشْفٌ لِلشُّبْهَةِ فهوَ مِمّا وكَلَهُ اللّهُ تَعالَى إلى مَعْرِفَةِ أَهْلِ العِلْمِ مِنَ المُؤْمِنينَ، معَ أَنَّ ذِكْرَ تَحْريمِ الرِّبا عَقِبَ التَّحْريضِ على الصَّدَقاتِ يومِئُ إلى كَشْفِ الشُّبْهَةِ[2]، ولِذا جيءَ بالعَطْفِ بَيْنَ الجُمَلِ لِاتِّحادِها في الخَبَرِيَّةِ (قالوا، وأَحَلَّ، وحرَّمَ، وأَمْرُه إلى اللّه).

فَوَجْهُ ارْتِباطِ هَذِهِ الجُمَلِ بعضِها ببعضٍ لِنَسْفِ مَقولَةِ المُرابينَ، ولِإِنْكارِ تَسْوِيَتِهِمْ بَيْنَ الرِّبا والبَيْعِ، إِذِ الحِلُّ معَ الحُرْمَةِ ضِدّان،

(1) القِنّوْجيّ، فتْحُ البيانِ: 2/139، وابْنُ عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/83، والرّويني، من غريبِ بلاغةِ القرآن الكريم، ص: 637.
(2) ابْنُ عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/84.

فأَنَّى يَتماثَلانِ في الجَوازِ، فهيَ رَدٌّ من اللَّهِ تَعالى عَلَيْهِمْ وإنْكارٌ لِتَسْويَتِهِمْ بينهما[1].

سِرُّ التَّعبيرِ بالمَجيءِ وتَذْكيرِ فِعْلِهِ في قَوْلِهِ تَعالى: ﴿فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ﴾:

أُوثِرَ التَّعْبيرُ بالمَجيءِ دونَ الإتْيانِ؛ لأنَّه مَجيءٌ فيهِ إلْزامٌ لِوُضوحِ الحُجَّةِ بدَلالَةِ التَّعْبيرِ بـ ﴿مَوْعِظَةٌ﴾؛ لِما في بناءِ (مفعلة) من المُبالَغَةِ في مَعْنَى الوَعْظِ لِزيادَةِ المَبْنَى، على أنَّ التَّاء للمبالغةِ كعَلّامَة؛ فهيَ تَبْلُغُ الغايَةَ في الوَعْظِ لانْتِهائِها إلى القُلوب، وإشْراقِها في النُّفوسِ، ومَوْعِظَةٌ تلك أَوْصافُها؛ حَرِيَّةٌ عند وُرودِها وسَماعِها ومَجيئِها أَنْ تَنْقادَ لَها القُلوبُ المُؤْمِنَةُ؛ فتَمْتَثِلَ وتَنْتَهي عَمّا نَهَى اللهُ عنه[2].

تَرْفيعُ المَوْعِظَةِ وتَشْريفُها، وإيماءٌ بالوَعيدِ إلى مَنْ خالَفَها

وتاء الموعظة للتَّأنيث؛ فحَذْفُها من ﴿جَآءَهُۥ﴾ بسببِ الفَصْلِ، ولِأَنَّ تَأْنيثَ المَوْعِظَةِ مَجازيٌّ؛ لأَنَّها في مَعْنى الوَعْظِ، وللدّلالة على قوَّة الموعظة وعِظَمِها، إذ التَّذكيرُ فيه من معاني القوَّة ما لا يوجد في التَّأنيث[3]، والمَوْعِظَةُ: التَّحْريم، أَوِ الوَعيد، ويَتَعَلَّقُ قوله: ﴿مِن رَّبِّهِۦ﴾، بـ ﴿جَآءَهُۥ﴾، أَوْ: بمَحْذوف، فيَكونُ صِفَةً لِمَوْعِظَة، ويَكونُ هذا إيجازًا بالحَذْفِ والتَّقديرُ: "موعظةٌ بليغةٌ قويَّةٌ كائِنَةٌ من رَبِّه".

فَتَذْكيرُ الفِعْلِ تَرْفيعٌ لِقَدْرِ تلك المَوْعِظَةِ وتَشْريفٌ لَها[4]، كَما أَنَّ في ذِكْرِ المَوْعِظَةِ تَفْريعًا على الوَعيدِ في قَوْلِهِ: ﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ﴾[5].

تَعْليقُ المَوْعِظَةِ بالرُّبوبيَّةِ تَعْظيمٌ لها وتَأْنيسٌ لِقَبولِها

قَوْلُه: ﴿مِن رَّبِّهِۦ﴾ فيهِ تَعْظيمُ المَوْعِظَةِ؛ لأنها من رَبِّهِ، العالِمِ بمَصالِحِهِ، وفي هذا تَأْنيسٌ لِقَبولِ المَوْعِظَةِ، إذِ (الرَّبُّ) فيهِ إشْعارٌ بإصْلاحِ عَبْدِهِ، فمن دلالات الرب تعاهد المربوب لإصلاحه[6].

(1) الآلوسي، روحُ المعاني: 2/49، والنّسفيّ، مدارك التنزيل: 1/138.
(2) الرّويني، من غريبِ بلاغةِ القرآن الكريم 637.
(3) الزّمخْشريّ، الكشّاف: 1/321، وابن عطّيّة، المحرّر الوجيزُ: 1/372، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (ذكر).
(4) البِقاعيّ، نظْمُ الدُّررِ 1/538.
(5) ابْنُ عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/90.
(6) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/708، وابن فارس، مقاييس اللغة: (رب)، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (رب، ربرب).

أحكامُ المالِ بيَدِ اللهِ الرَّزَّاقِ تَشْريعًا وجَزاءً وتَوفيقًا

دَلالَةُ عَوْدِ الضَّميرِ على ما تَقَدَّمَ في قَوْلِهِ تَعالى: ﴿وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾:

في عودةِ الضَّميرِ في قَوْلِهِ تعالى: ﴿وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أَرْبَعةُ تَأْويلاتٍ:

الأَوَّل: أَنَّ الضَّميرَ عائِدٌ على الرِّبا، أي: وأَمْرُ الرِّبا إلى اللَّهِ في تَحْريمِه.

الثّاني: عودةُ الضَّميرِ على ما سَلَفَ؛ أَي: أَمْرُه إلى اللَّهِ في العَفْوِ وإِسْقاطِ تَبِعَتِه.

الثّالِثُ: أَن يَكونَ الضَّميرُ عائِدًا على آكِلِ الرِّبا، أي: أَمْرُهُ إلى اللَّهِ في أَنْ يُثيبَهُ إذا انتهى أَوْ يُعَذِّبَهُ إن عاد إلى الرِّبا.

الرّابِعُ: أَنْ يَعودُ الضَّميرُ على المُنْتَهي، ولَكِنْ بمَعْنى التّأنيس لَهُ وبَسْطِ أَمَلِه في الخَيْرِ، كَما تَقولُ: (وأَمْرُهُ إلى طاعَةٍ وخَيْرٍ، ومَوْضِعِ رَجاء)، ويَجيءَ الأَمْرُ هاهُنا ليس في الرِّبا خاصَّةً بل وجُمْلَةِ أُمورِه[1].

والأَظْهَرُ أَنَّهُ راجِعٌ إلى ﴿فَمَن جَآءَهُۥ﴾ وَهوَ المُنْتَهي؛ لأَنَّه المَقْصودُ، وسياقُ الكَلامِ فيه، ومَعْنَى ﴿وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾: أَنَّ أَمْرَ جَزائِهِ على الانْتِهاءِ مَوْكولٌ إلى اللَّهِ تَعالَى، وهَذا مِنَ الإيهامِ المَقْصودِ منه التَّفْخيم، فالمَقْصودُ الوَعْدُ بقَرينَةِ مُقابَلَتِهِ بالوَعيدِ في قَوْلِه: ﴿وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾[2].

الـقُـرآنُ يـذكـرُ أحـوالَ الـكـافـريـن، تشنيعًا عليهم، وتـحـذيـرًا من مُشابهتِهم

دَلالَةُ الشَّرْطِ وجَوابِهِ في قَوْلِهِ: ﴿وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾:

اسمُ الإشارةِ ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ راجِعٌ إلى ﴿وَمَنْ عَادَ﴾، أَيْ: رَجَعَ إلى ما سَلَفَ ذِكْرُهُ من فِعْلِ الرِّبا، واعْتِقادِ جَوازِهِ، والاحْتِجاجِ عليه بقياسِهِ على البَيْعِ.

وجُعِلَ جزاءُ العائِدِ الخلودَ في النّارِ؛ إمّا لِأَنَّ المُرادَ العَوْدُ إلى قَوْلِ المُرابين: ﴿إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ﴾، أَيْ: عادَ إلى اسْتِحْلالِ الرِّبا،

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيزُ: 1/372، والثّعالِبيّ، الجواهِرُ الحِسانُ: 1/535، وابْنُ التّمْجيد، حاشيةُ ابْنِ التّمْجيدِ: 5/466، والخفاجيّ، حاشيةُ الشِّهابِ على البيضاويِّ: 2/346.

(2) ابْنُ عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/90، وأبو حيّان، البحر المحيط: 2/709.

وذَلِكَ نِفاقٌ؛ فإنَّ كَثيرًا مِن المنافقين قَدْ شَقَّ عَلَيْهِمْ تَرْكُ التَّعامُلِ بالرِّبا؛ فعَلِمَ اللَّهُ منهُمْ ذَلِكَ، وجَعَلَ عَدَمَ إقْلاعِهِمْ عنه أَمارَةً على كَذِبِ إيمانِهِمْ؛ فالخُلودُ على حَقيقَتِهِ، وإمّا لِأَنَّ المُرادَ العَوْدُ إلى المُعامَلَةِ بالرِّبا؛ وهوَ الظّاهِرُ من مُقابَلَتِهِ بقَوْلِهِ: ﴿فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ﴾؛ فالخُلودُ طولُ المُكْثِ، فيَكونُ الخُلودُ على هَذا المَعْنى مُسْتعارًا على مَعْنى المُبالَغَةِ، ومعناه: طولُ البَقاءِ؛ والمَصيرُ إلى هَذا التَّأويلِ واجِبٌ، لِلأَحاديثِ المُتواتِرَةِ القاضيَةِ بخروجِ الموَحِّدينَ مِنَ النّارِ[1].

وَمن عاداتِ القرآن أَنْ يَذْكُرَ أَحْوالَ الكُفّارِ إغْلاظًا عَلَيْهِمْ، وتَعْريضًا بتَخْويفِ المُسْلِمينَ، ليُكَرِّهَهُمْ أحوالَ أَهْلِ الكُفْرِ، ولِهذا جاءَ الوَعيدُ مُؤَكَّدًا باسْميَّةِ الجُمْلَةِ وتَقْديمِ ضَميرِ الفَصْلِ إغْلاظًا على الكافِرينَ وتَخْويفًا لِلمُسْلمينَ[2].

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

لفظ الجِنِ ولفظ الشَّياطينِ:

الشَّياطينُ اسْمٌ لِأَتْباعِ إبْليسَ، سَواءٌ كانوا مِنَ الجِنِّ أو الإِنْسِ

لَفْظَةُ الجِنِّ بالنَّظَرِ إلى أَصْلِ مَعْناها، تَدُلُّ على الاسْتِتارِ والخَفاءِ عن الأَبْصارِ، ولِهَذا سُمِّيَتِ الجِنُّ بذلِكَ، لِاسْتِجْنانِهِمْ واسْتِتارِهِمْ عن العُيونِ، وهُمْ أَجْسامٌ هَوائيَّةٌ قادِرَةٌ على التَّشَكُّلِ بأَشْكالٍ مُخْتَلِفَةٍ، لَها عُقولٌ وأَفْهامٌ[3]، والمَشْهورُ أَنَّ جَميعَ الجِنِّ من ذُرِّيَّةِ إبْليسَ[4]؛ ومَنْ تَبِعَهُ منهُمْ يُقالُ لَهُ شَيْطانٌ، قالَ الحَسَنُ البَصْريُّ: الجِنُّ هُمْ وَلَدُ إبْليسَ، كَما أَنَّ الإِنْسَ وَلَدُ آدَمَ، ومن هَؤُلاءِ وهَؤُلاءِ مُؤْمِنونَ وكافِرونَ، فمن كان من هَؤُلاءِ وهَؤُلاءِ مُؤْمِنًا فهوَ وليُّ اللّهِ، ومَنْ كان من هَؤُلاءِ وهؤُلاءِ كافِرًا فهوَ شَيْطانٌ[5]. ومن هنا يَتَبَيَّنُ الفَرْقُ بَيْنَ الجِنِّ والشَّياطينِ؛ فالشَّياطينُ اسْمٌ لِأَتْباعِ إبْليسَ سَواءٌ كانوا مِنَ الجِنِّ أو الإِنْسِ، قالَ تعالَى: ﴿شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ﴾ [الأنعام: 112]؛

(1) القِنّوْجيّ، فتْحُ البيانِ: 2/140.
(2) ابْنُ عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/81.
(3) الشِّبْلّي، آكامُ المَرْجانِ: ص: 23، وإسْماعيلُ حقّي، روحُ البيان: 3/280.
(4) الدّميريّ، حياةُ الحيوانِ الكُبْرى: 1/300.
(5) القُرْطُبيّ، الجامع لأحكام القرآن 21/277.

والعَرَبُ تُسَمّي كُلَّ مُتَمَرِّدٍ شَيْطانًا، ولَوْ كان من غَيْرِ الجِنِّ والإِنْسِ؛ وتُسَمّي الحَيَّةَ شَيْطانًا؛ فكُلُّ عاتٍ مُتَمَرِّدٍ مِنَ الجِنِّ والإِنْسِ والدَّوابِّ شَيْطانٌ[1]، قيل: الشّياطين جنسٌ، والجنّ جنسٌ، وقيل: الجنُّ منهم أخيارٌ ومنهم أشرار، والشّياطين اسم أشرار الجنّ ومتمرّديهم[2].

(لَمَسَ) و(مَسَّ) و(لامَسَ):

اللَّمْس: إِدْراكٌ بظاهِرِ البَشَرَةِ كالمَسِّ، ويُعَبَّرُ به عن الطَّلَبِ، والمَسُّ يَكونُ باليَدِ وبِغَيْرِها[3]، وهو المباشرة كما قال الشّافعيّة، وقال الأحناف: هو القرب والمداناة[4]، ويُكَنَّى بالمَسِّ عن الجِماعِ ومُقَدَّماتِه، وعَلَى هَذا حُمِلَ قَوْلُهُ تَعالَى: ﴿وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ﴾ [البقرة: 237]، كَما يُكَنَّى به عن الجُنونِ وعَنْ كُلِّ ما يَنالُ الإِنْسانَ من الأَذَى، كَما في قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ﴾ [البقرة: 275]، وقوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ﴾ [البقرة: 80]، وقوله تعالى: ﴿مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ﴾ [البقرة: 214].

اللَّمْسُ شُعورٌ حِسّيٌّ باليَدِ، والمُلامَسَةُ فِعْلٌ بَينَ طَرَفَيْنِ، والمَسُّ الجماع

وأمّا اللَّمْسُ: فهو الشُّعورُ الحِسّيُّ بواسِطَةِ اليَدِ؛ فهوَ أَخَصُّ من المَسِّ، قالَ تَعالَى: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [الأنعام: 7]، وَعليه فإنّ لامَسَ: تَعْني فِعْلًا مُتَبادَلًا بَيْنَ طَرَفَيْنِ؛ مِثْلَ قاتَلَ ولاعَبَ، ومنه قوله تعالى: ﴿أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ [النّساء: 43]، فالمُلامَسَةُ تَعْني تَبادُلَ اللَّمْسِ معَ المَرْأَةِ بشَهْوَةٍ، دونَ حائِلٍ، سَواءٌ أَنْزَلَ أَوْ لَمْ يُنْزِل[5].

المجيء والإتْيان:

الإِتْيانُ مَجيءٌ بسُهولَة، وهوَ بدايَةُ المَجيءِ[6]، فإذا اكْتَمَلَ وبُلِغَ

(1) الجوْهريّ، الصِّحاحُ: (شطن).
(2) أبو هلال العسكريّ، معجم الفروق اللّغويّة: 1/307.
(3) الرّاغِب، المُفْردات: (لمس).
(4) الجمْيريّ، شمس العلوم: (مسّ).
(5) الجمْيريّ، شمْسُ العُلومِ: 9/6112، والمعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (لمس).
(6) الرّاغِب، المُفْرداتُ: ص: 283.

مَقْصِده من مَكان أَوْ زَمانٍ أَوْ شَخْصٍ، أَصْبَحَ مَجيئًا، فالمَجيءُ هو إتْيانٌ مُحَقَّقٌ بَعيدٌ عن عَوامِلِ النَّقْصِ، قالَ تَعالَى: ﴿قَالُوٓاْ أُوذِينَا مِن قَبۡلِ أَن تَأۡتِيَنَا وَمِنۢ بَعۡدِ مَا جِئۡتَنَاۚ﴾ [الأعراف: 129]، فالإتيانُ بدايَةُ المَجيءِ زَمانيًّا أَوْ مَكانيًّا، وقد لا يَتِمُّ فلا يَكونُ مَجيئًا، أَمّا المَجيءُ فهوَ إتْيانٌ مُحَقَّقٌ قَريبٌ زَمانيًّا ومَكانيًّا[1]، وهما في باب العقيدة بمعنى واحد[2].

المَجيءُ إتْيانٌ مُحَقَّقٌ

المَوْعِظَة والنَّصيحَة:

المَوْعِظَةُ مِنَ الوَعْظِ، وهوَ التَّذْكيرُ بالخَيْرِ، فيما يَرِقُّ لَهُ القَلْبُ[3]؛ من قَوْلٍ أَوْ فِعْلٍ، وتَذْكيرٌ بالواجِباتِ معَ تَخْويفٍ[4]، وقد تَكون برِفْقٍ ودَعْوةٍ إلى السّيرَةِ الصّالحَةِ بلينٍ كَقَولِهِ تَعالى: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ﴾ [النَّحل: 125].

المَوْعِظَةُ نَصيحَةٌ وتَذْكيرٌ بالخير، وتَنبيه إلى العَواقِبِ

والنَّصيحَةُ كَلِمَةٌ جامِعَةٌ مَعْناها حيازَةُ الحَظِّ لِلمَنْصوحِ لَهُ[5] بالدُّعاءِ إلى ما فيهِ صَلاحٌ، والنَّهْيِ عَمّا فيه فسادٌ؛ وأَصْلُها مِنَ النُّصْحِ الذي هو إخْلاصُ العَمَلِ عن شَوائِبِ الفسادِ[6]، فالنَّصيحَة: هي الدُّعاءُ إلى ما فيه صَلاح، والنَّهْيُ عَمّا فيه فسادٌ، والوَعْظُ نُصْحٌ وتَذْكيرٌ بالعَواقِبِ[7]، وَالرّجل يتَّعظ إذا قَبِل الموعظة، حين يذَكَّرُ الخَير وَنَحْوه . . يُقَال وعظته عظة. وَمن أمثالهم المَعْرُوفَة: (لاتعظيني وتَعَظْعَظِي أَي: اتَّعِظي وَلَا تَعِظي)[8].

---

(1) جبل، المُعجمُ الاِشْتِقاقيُّ المُؤَصّلُ: (جيأ).

(2) في بابِ الأسْماءِ والصِّفات، من تكلّم عن صِفةِ المجيءِ والإتْيانِ من مُحقِّقي أهْلِ السُّنّة، يجْعلُهُما بمعْنًى واحِدٍ، ويسْتدِلُّ لهُما بالأدِلّةِ نفْسِها، دون تفْريقٍ، فالفرْقُ السّابِقُ غيْرُ واردٍ هنا في بابِ الصِّفات، فقوْلهُ تعالى: ﴿أَوۡ يَأۡتِيَ رَبُّكَ﴾ [الأنعام: 158] كقوله تعالى: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾ [الفجر: 22]. [ابْنُ تيْميّة، مجْموعُ الفتاوى: 458/5، وابْنُ القيِّم الصّواعِقُ المُرْسلةُ: 1099/3].

(3) الخليل، مُعْجمُ العينِ: (عظو).

(4) ابْنُ فارِس، مقاييسُ اللُّغةِ: (وعظ)، الرّاغِب، المُفْردات: (وعظ).

(5) الخطّابيّ، معالِمُ السُّنن: 4/125.

(6) الجُرْجانّي، التّعْريفاتُ: ص: 241.

(7) الجوْهريّ، الصِّحاحُ: (وعظ).

(8) الأزْهريّ، تهذيب اللّغة: (وعظ).

﴿يَمۡحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرۡبِي ٱلصَّدَقَٰتِۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ٢٧٦﴾ [البقرة: 276]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الرّبط بين الآيتين، ببَيانِ الفَرْقِ بَيْنَ الصَّدَقَةِ والرِّبا واقعًا وجَزاءً

لَمّا زَجَرَ اللّهُ تَعالَى عباده عن الرِّبا، وأبان مفاسده ومغبّاته ومساويه، ورَغّبَ في الصَّدَقاتِ، وما فيها من الحسنات والمبرّات، وأظهر دواعي فِعْلِ الرِّبا وتعاطيه، ممّن يطْلُبُ الزّيادَة في الأَمْوالِ، والتّوسّع في متع الحياة، وذكر صوارِفَ النّاس عن الصَّدَقَةِ والمسارعة إليها، ممّن يخشى نُقْصان أَمْوالِه، ويخاف من الفقر والعوز؛ بَيَّنَ تَعالى أَنَّ الرِّبا في حَقيقَته نُقْصان، وأنّ الصَّدَقَةَ في جوهرها زيادَةٌ[1]، فقالَ سُبْحانَهُ: ﴿يَمۡحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرۡبِي ٱلصَّدَقَٰتِۗ﴾، وكَذلِكَ لَمّا ذَكَرَ اللّهُ الإنْفاقَ في سَبيلِهِ، وذكر أَخْذَ الرِّبا، بَيَّنَ الفَرْقَ بَيْنَهُما في الجَزاءِ[2]، وألمح إلى أنّه يحبّ المؤمنين الملتزمين، بما شرع في هديه الحكيم، ولا يحبّ كلّ كفّار أثيم.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَمۡحَقُ﴾: من مَحَقَ الشَّيْءَ يَمْحَقُهُ مَحْقًا، أَيْ أَبْطَلَهُ ومَحاهُ وأَذْهَبَهُ؛ وأَصْلُ المحْقِ: النُّقصانُ وذَهابُ البَرَكَةِ، يُقالُ: مَحَقَهُ، إذا نَقَصَهُ وأَذْهَبَ بَرَكَتَه، ويَمْحَقُ اللّهُ الرِّبا: أَيْ يُذْهِبُ بَرَكَتَهُ وزيادَتَهُ الظّاهِرَةَ لَكُمْ[3]، وقَالَ اللَّيْث: المَحْقُ: النُّقصانُ وذَهابُ الْبركَة، قَالَ: والمَحاقُ: آخر الشَّهْر إذا امَّحَق الْهلَال، وَأَنْشد:

يَزْدَادُ حَتَّى إِذَا مَا تَمَّ أَعْقَبَهُ *** كَرُّ الْجَدِيدَيْنِ مِنْهُ ثُمَّ يَمَّحِقُ

(1) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 7/80.
(2) جماعةٌ من عُلماءِ التّفْسير، المُختصرُ في تفْسيرِ القرآن الكريم، ص: 47.
(3) السِّجِسْتانّي، غريبُ القرآن، ص: 504، والجوْهريّ، الصِّحاح، وابْنُ فارِس، مقاييسُ اللُّغة، والرّاغِب، المُفْردات، السّمين، عُمْدةُ الحُفّاظِ: (محق).

قَالَ: وَتقول: مَحَقَه اللّه، فامَّحق وامْتَحَق، أَي ذهبَ خيرُه وبركتُه[1].

2) ﴿وَيُرۡبِي﴾: رَبا الشَّيءُ يَرْبو زادَ ونَما وعَلا، وأَصْلُ ربا يَدُلُّ على الزّيادَةِ والنَّماءِ والعُلوِّ، فيُقالُ لِما ارْتَفَعَ مِنَ الأَرْضِ: رَبْوَةٌ، ومَعْنَى يُربي الصَّدقاتِ، أَيْ: يُكَثِّرُها ويُنَمّيها وإِنْ كانتْ في الظّاهِرِ نَقْصًا[2]، وَذكر السّياق أنّ الرِّبا وَإِن كثُر، فَهُوَ إِلَى قُلٍّ، والقُلّ والقِلّة لُغَتَانِ بِمَعْنى وَاحِد، مفاده أنّ الرّبا وَإِن كثر، فَلَيْسَتْ لَهُ بركَة[3]، وقَوْله تَعَالَى ﴿وَيُرۡبِي ٱلصَّدَقَٰتِۗ﴾، لَيْسَ أَنّه يُربي نَفسهَا، وَإِنَّمَا يُربي ثَوَابهَا، فَلذَلِك يمحق ثَوَاب فَاعل الرِّبَا[4].

3) ﴿أَثِيمٍ﴾: الأَثيمُ: الفاجِرُ كَثيرُ الإِثْم، يُقالُ: أَثِمَ فُلانٌ يَأْثَمُ إِثما، أَيْ: وقَعَ في الإِثْم، والإِثْمُ الذَّنْب، وأَصْلُ الإثم البُطْءُ والتَّأَخُّرُ، لِثقَلٍ ونحوه، لِأَنَّ ذا الإِثْم بَطيءٌ عن الخَيْرِ مُتَأَخِّرٌ عنه، والأَثيمُ المُبالِغُ في الإِثْم[5]، و﴿كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾، أي: متحمّل للإثم، وقيل أي: كذّاب، و(الأثيم): كثرة ركوب الإثم، كالأثيمة بالهاء، و قوله تعالى: ﴿طَعَامُ ٱلۡأَثِيمِ ٤٤﴾ [الدخان: 44]، جاء في التّفسير أنّه طعامُ أبي جهْلٍ . . وفي الصّحاح: ناقة آثمة و نوقٌ آثماتٌ، أي: مبطئاتٌ مُعْيِيَاتٌ[6]، و(الأثيم) مبطئٌ في الخير، مُعْيٍ بما يثقل كاهله من آثام بالرّبا أو غيره من المخالفات.

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

البَرَكَةُ هِبَةُ الله لِلمُنْفق المُبادر، والمـحْـقُ عقابُه للمُرابي الماكر

يُذْهِبُ اللّهُ المالَ الرِّبَويَّ، ويَحْرِمُ صاحِبَهُ بَرَكَتَه، فلا يَنْتَفِعُ به، ويَزيدُ الصَّدَقاتِ ويُنَمّيها بمُضاعَفَةِ ثَوابِها، ويُضاعِفُ الأَجْرَ لِلمُتَصَدِّقينَ، ويُبارِكُ في أَمْوالِهِمْ، واللّهُ لا يُحِبُّ الّذينَ يُصِرّونَ على تَحْليلِ المُحَرَّماتِ كالرِّبا، ولا الّذينَ يَسْتَمِرُّونَ على ارْتِكابِها[7]، وعليه، فالعجب لمالٍ يزيدُ: فينقصُه اللّه ويمحقُه، ولمالٍ ينقصُ، فيزيدُه اللّه

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (محق).
(2) السِّجِسْتانّي، غريبُ القرآن، ص: 504، وابْنُ فارِس، مقاييسُ اللُّغةِ: (ربى)، الزّبيديّ، تاجُ العروس، السّمين، عُمْدةُ الحُفّاظِ: (ربو).
(3) السِّجِسْتانّي، غريبُ القرآن، ص: 504، وابْنُ فارِس، مقاييسُ اللُّغةِ: (ربى)، الزّبيديّ، تاجُ العروس، السّمين، عُمْدةُ الحُفّاظِ: (ربو).
(4) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 305.
(5) الخليل، العين: (باب الثاء والميم و: (وا ي ء)، أثم). والأزْهريّ، تهْذيبُ اللُّغةِ: (باب الثّاء والميم، ث م: (واي ء)، وابْنُ فارِس، مقاييسُ اللُّغة، الزّبيديّ، تاجُ العروس، والرّاغِب، المُفْرداتُ: (أثم).
(6) الزّبيديّ، تاجُ العروسِ: (أثم).
(7) لجْنةٌ من عُلماءِ الأزْهر، المُنْتخبُ في تفْسيرِ القرآن الكريمِ: ص: 66، ونُخْبةٌ من أساتِذةِ التّفْسير، التّفْسيرُ المُيسّرُ: ص: 47، وجماعةٌ من عُلماءِ التّفْسير، المُخْتصرُ في تفْسيرِ القرآن الكريمِ 47.

تعالى ويباركه[1]، وهو تأكيدٌ بأنّ موازين اللّه الحكيمة، في تقدير الأشياء وتقييمها، غير موازين البشر القاصرة، في تمييز الأمور وتثمينها، وبضدّها تتميّز الأشياء.

❁ الإيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

فائِدَةُ الفَصْلِ والاِسْتِطْرادِ في قولِه: ﴿يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِي ٱلصَّدَقَٰتِ﴾:

الصَّدَقَةُ بَرَكَةٌ ونَماءٌ وأَجْر، والرِّبا شُؤْمٌ ونُقْصانٌ ووِزْر

قَوْلُهُ تَعالى: ﴿يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ﴾ استئناف لِبَيانِ سوءِ عاقِبَةِ الرِّبا في الدُّنْيا بَعْدَ أَنْ بُيِّنَتْ عاقِبَتُهُ في الآخِرَةِ، فهوَ استئناف بَيانيٌّ لِتَوَقُّعِ سُؤالِ مَنْ يَسْأَلُ عن حالِ هَؤُلاءِ الذينَ لا يَنْتَهونَ بمَوْعِظَةِ اللّهِ؛ فجيءَ بالفَصْلِ لِشِبْهِ كمالِ الاتِّصالِ بَيْنَ الجُمْلَتَيْنِ المُتَّحِدَتَيْنِ في الخَبَرِيَّةِ، وقَوْلُهُ: ﴿وَيُرْبِي ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ اسْتِطْرادٌ لِبَيانِ عاقِبَةِ الصَّدَقَةِ في الدُّنْيا، فيَزيدُها اللّه ويُنَمّيها في الدُّنْيا بالبَرَكَةِ، وكَثْرَةِ الأَرْباحِ في المالِ الذي خَرَجَتْ منه الصَّدَقَة، ويَزيدُها في الآخِرَةِ أَيْضًا بمُضاعَفَةِ الحَسَناتِ والأُجورِ الحاصِلَةِ بالصَّدَقَةِ، كَما جاءَ في كَثيرٍ مِنَ الآياتِ والأَحاديثِ، فيَفوزُ المُتَصَدِّقُ بالخَيْرِ في الدّارَيْنِ كَما يَبوءُ المُرابي بالشَّرِّ فيهِما، فهَذا وَعْدٌ ووَعيدٌ دُنْيَويّانِ[2]، بَعْدَ بَيانِ عاقِبَتِهِ في الآخرة في قوله تَعالى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾.

فائدةُ بَديعِ الطِّباقِ في قَوْلِهِ تَعالى: ﴿يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِي ٱلصَّدَقَٰتِ﴾:

الرَّدُّ على مَنْ وَهِمَ أَنَّ الرِّبا يُغْني والصَّدَقَةَ تُفْقِرُ

بَيْنَ ﴿ٱلرِّبَوٰاْ﴾ و﴿ٱلصَّدَقَٰتِۗ﴾ مُناسَبَةٌ من جِهَةِ التَّضادِّ؛ وذَلِكَ لِأَنَّ الصَّدَقَةَ عِبارَةٌ عن تَنْقيصِ المالِ مع أَمْرِ اللّهِ بذَلِكَ، والرِّبا عِبارَةٌ عن طَلَبِ الزِّيادَةِ على المالِ معَ نَهْيِ اللّهِ عنه؛ فكانا مُتَضادَّيْنِ؛ فلَمّا حَصَلَ بَيْنَ هَذَيْنِ الحُكْمَيْنِ هَذا النَّوْعُ من المُناسَبَةِ[3]؛ جيءَ بذاكَ الطِّباقِ البَديعِ في ﴿يَمْحَقُ﴾، و﴿وَيُرْبِي﴾ لِتَكْتَمِلَ صورَةُ هَذا التَّضادِّ،

(1) ابن الخطيب، أوضح التّفاسير، ص: 57.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/710، وابنُ عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/91.
(3) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 7/72، والسّمين، الدُّرُّ المصونُ: 4/133.

وجَعَلَ اللهُ هَذَيْنِ الفِعْلَيْنِ بعَكْسِ ما يَظُنُّهُ الحَريصُ الجَشِعُ من بَني آدَمَ، الذي يَظُنُّ أَنَّ الرِّبا يُغْنيه وهوَ في الحَقيقَةِ مُمْحَقٌ، ويَظُنُّ الصَّدَقَةَ تُفْقِرُهُ؛ وهيَ نَماءٌ في الدُّنْيا والآخِرَةِ[1].

بلاغةُ المقابلةِ في تقديرِ المحذوفِ الشَّبيهِ بالاحتباكِ:

لَمّا جُعِلَ المَحْقُ بالرِّبا والإِرْباءُ بالصَّدَقاتِ كانتِ المُقابَلَةُ مُؤْذِنَةً بحَذْفِ مُقابِلَيْنِ آخَرَيْنِ، والمَعْنَى: يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبا ويُعاقِبُ عليه، ويُرْبي الصَّدَقاتِ ويُبارِكُ لِصاحِبِها ويثيب عليها، على طَريقَةِ الاحْتِباكِ[2].

بديعُ التَّجْنيسِ بين الاسمِ والفعلِ:

مِمّا زادَ هَذِهِ الصّورَةَ وضوحًا وجَلاءً وتَقْريرًا في نَفْسِ السّامِعِ تَجْنيسُ الاشْتِقاقِ في قَوْلِهِ: ﴿ٱلرِّبَوٰاْ﴾، و﴿وَيُرْبِي﴾ إِذْ أَحَدُهُما اسْمٌ والآخَرُ فِعْلٌ[3]، فالمُرابي إِنَّما يَطْلُبُ في الرِّبا زيادَةً في المالِ، ومانِعُ الصَّدَقَةِ إِنَّما يَمْنَعُها لِطَلَبِ زيادَةِ المالِ، فبَيَّنَ سُبْحانَهُ أَنَّ الرِّبا سَبَبُ النُّقْصانِ دونَ النَّماءِ، وأَنَّ الصَدَقَةَ سَبَبُ النَّماءِ دونَ النُّقْصانِ[4]، والتَّعبيرُ بالاسم عن الرِّبا لبيانِ أَنَّ المَحْقَ ثابتٌ له، وبالفعلِ لنُموِّ الصَّدقةِ لبيانِ أَنَّه متجدِّدٌ غير متوقِّف.

الرِّبا محقٌ ثابتٌ، والصَّدقةُ نمُوٌّ مُتجدِّدٌ

سِرُّ التَّعْبيرِ بمَحْقِ الرِّبا دونَ إِزالَتِهِ:

عُبِّر عن إزالةِ الرِّبا بالمحقِ؛ لِأَنَّ مَحْقَ الرِّبا أَجْلَى في الإِهْلاكِ، وأَبْلَغُ في التَّخْويفِ؛ لِما تَدُلُّ عليه كَلِمَةُ ﴿يَمْحَقُ﴾ من كَمالِ الإِذْهابِ والإِزالَةِ بالكُلِّيَّةِ بقوَّةٍ وسَطْوَةٍ، فالمُرادُ مَحْوُ البَرَكَةِ من مالِ المُرابي - وإِنْ كَثُرَ - مَحْوًا ساحِقًا، وانْتِزاعها انْتِزاعًا بحَيْثُ لا يبقَى لَها أَدْنى أَثَرِ وُجود، ففي مَحْقِ المالِ زيادَةُ تَرْهيبٍ وتَخْويفٍ[5].

لِلدَّلالَةِ على الإِهْلاك والتَّرهيبِ مِنَ الهَلاك

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيزُ: 1/373.

(2) الاِحتباكُ: هو أنْ يُحْذف مِن الأوائِلِ ما جاء نظيرُهُ أوْ مُقابِلُهُ في الأواخِر، ويُحْذف مِن الأواخِرِ ما جاء نظيرُهُ أوْ مُقابِلُهُ في الأوائِلِ. ينظر: المَيْداني، البلاغة العربيّة: 2/54، وابْنُ عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/91.

(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/705، والسّمين، الدُّرُّ المصونُ: 2/636، اوبْنُ عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/91.

(4) الآلوسي، روحُ المعاني: 2/50.

(5) ابْنُ عرفة، تفْسيرُ ابْنِ عرفة: 1/326، والرّويني، من غريبِ بلاغةِ القرآن الكريمِ: 637.

تحذيرُ المرابين بنزعِ محبَّة الله عنهم

فائِدَةُ الجُمْلَةِ المُعْتَرِضَةِ: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾:

قولُه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾ جملةٌ مُعْتَرِضَةٌ بَيْنَ أَحْكامِ الرِّبا، ولَمّا كان شَأْنُ الاعْتِراضِ ألّا يَخْلوَ من مُناسَبَةٍ بَيْنَهُ وبَيْنَ سياقِ الكَلامِ، كان الإخْبارُ بأَنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ جَميعَ الكافِرينَ مُؤْذِنًا بأَنَّ الرِّبا من شِعارِ أَهْلِ الكُفْرِ، وأَنَّهُمُ الذينَ اسْتَباحوهُ فقالوا: إنَّما البَيْعُ مِثْلُ الرِّبا، فكان هَذا تَعْريضًا بأَنَّ المُرابيَ مُتَّسِمٌ بخِلالِ أَهْلِ الشِّرْكِ[1]؛ وقد أُكِّدَ هَذا المَعْنى باسْمِيَّةِ الجُمْلَةِ هنا، وذكرُ نفيِ المحبَّة من شأنِها تحذيرُ المرابين بنزعِ محبَّةِ اللّه لهم، وفي ذلك فائدتان، الأولى: هدائيَّة للتَّرغيبِ في العودةِ والتَّوبةِ، والثَّانية: تحذيريَّة، بمن يجعلُ حبَّ المالِ مقدَّمًا على حبِّ اللّه؛ فيستحقُّ حينئذٍ نزعَ حُبِّ اللّه عنه.

تَغْليظُ أَمْرِ الرِّبا وعِظَمُ إِثْمِ صاحِبِهِ

سِرُّ التَّعبيرِ بصيغَةِ فعّالٍ وفَعيلٍ في قولِه: ﴿كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾:

جاءتْ صفتا الكفَّار الأثيم على وزن فعَّال وفعيل في قَوْلِه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾؛ لتَغْليظِ أَمْرِ الرِّبا، والإيذانِ بأَنَّهُ من فِعْلِ الكُفّارِ لا من فِعْلِ أَهْلِ الإسْلامِ، ووَجْهُ التِصاقِه بالمَقامِ؛ أَنَّ الذينَ قالوا: إنَّما البَيْعُ مِثْلُ الرِّبا كُفّارٌ[2]، وأَتى بصيغَةِ المُبالَغَةِ في الكافِرِ والآثِمِ ﴿كَفَّارٍ﴾، و﴿أَثِيمٍ﴾، واللّه تَعالى لا يُحِبُّ الكافِرَ؛ تَنْبيهًا على عِظَمِ أَمْرِ الرِّبا ومُخالَفَةِ مرتكبِه أمرَ اللّه، وأَنَّهُ لا يَقولُ قَوْلَهُمْ ويُسَوّي بَيْنَ البَيْعِ والرِّبا؛ ليَسْتَدِلَّ به على أَكْلِ الرِّبا، إلّا مُبالِغٌ في الكُفْرِ، والإثْمِ[3].

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الإِثْم والعُدْوان:

الإِثْمُ: هو الذَّنْبُ الذي يَقْتَرِفُهُ الشَّخْصُ في حَقِّ نَفْسِه، والعُدْوانُ: هو الذَّنْبُ الذي يَقْتَرِفُهُ الشَّخْصُ في حَقِّ الآخَرينَ، وهوَ من بابِ التَّعَدّي،

(1) ابْنُ عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/91.
(2) القِنّوْجيّ، فتْحُ البيانِ: 2/142.
(3) الزّمخْشريّ، الكشّاف: 1/321، وأبو حيّان، البحر المحيط: 2/710، والقاسِميّ، محاسِنُ التّأْويلِ: 2/229.

الإثْمُ كائِنًا ما كان جُرْمٌ، والعُدْوانُ هو مُجاوَزَةُ الحَدِّ

ومنهُ قَوْلُ اللَّهِ سُبْحانَهُ وتعالَى ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾ [المائدة: 2]، فالإثْمُ: الجُرْمُ كائِنًا ما كان، والعُدْوانُ: الظُّلْمُ[1]، واصْطِلاحُ الإثْم قَدْ يَتَّسِعُ ويَحْمِلُ المَعْنَيَيْن: فيَحْمِلُ مَعْنى الذُّنوبِ التي يَقْتَرِفُها الشَّخْصُ في حَقِّ نَفْسِه، ويَحْمِلُ مَعْنى التَّعَدّي على الآخَرينَ، ومنهُ قَوْلُهُ تعالَى ﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ﴾ [النَّجم: 32]، فكبائِرُ الإثْم تَدْخُلُ فيها الجَرائِمُ الّتي فيها تَعَدٍّ على الآخَرينَ؛ من سَطْوٍ ونَصْبٍ وغَشٍّ، ونَحْوِ ذلِكَ، فيَكونُ الإثْمُ أَعَمَّ مِنَ العُدْوانِ[2]، وفي الفروق أنّه يجوز أَن يُقَال "الْإِثْم هُوَ الْقَبِيح الَّذِي عَلَيْهِ تبعة، والذّنب هُوَ الْقَبِيح من الْفِعْل وَلَا يُفِيد معنى التّبعة، وَلِهَذَا قيل للصَّبِيّ قد أذْنب، وَلم نقل قد أَثم، وَالْأَصْل فِي الذَّنب الرّذل من الْفِعْل كالذّنب الَّذِي هُوَ أرذل مَا فِي صَاحبه، والجرم مَا يَنْقَطِع بِهِ عَن الْوَاجِب، وَذَلِكَ أَنّ أَصله فِي اللُّغَة الْقطع، وَمِنْه قيل للصِّرام: الجِرام"[3].

الإثْمُ مُحَرَّمُ الجِنْسِ، والعُدْوانُ مُحَرَّمُ القَدْرِ

كَما أَنَّ الإثْمَ والعُدْوانَ في جانِبِ النَّهْيِ نَظيرُ البِرِّ والتَّقْوَى في جانِبِ الأَمْرِ، والفرقُ بَيْنَ الإثْمِ والعُدْوانِ كالفَرْقِ بَيْنَ مُحَرَّمِ الجِنْسِ ومُحَرَّمِ القَدْرِ، فالإثْمُ ما كانَ حَرامًا لِجِنْسِه، والعُدْوانُ ما حُرِّمَ لِزِيادَةِ قَدْرِه وتَعَدّي ما أَباحَ اللَّه، فالزِّنا والخَمْرُ والسَّرِقَةُ ونَحْوها إثْمٌ، ونِكاح الخامِسَةِ واسْتيفاءُ المظلوم أَكْثَرَ من حَقِّه ونَحْوُهُ عُدْوانٌ[4]، والفرق بين الإثم والعدوان، أنّ الإثم هو الجرم، كائنا ما كان، والعدوان: الظّلم وتجاوز الحدّ في معاملة الآخرين، وعلى هذا فقوله تعالى: ﴿يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾ [المائدة: 62]، من عطف الخاصّ على العامّ[5].

(1) العسْكريّ، الفُروقُ اللُّغوية: ص: 16.
(2) الرّاغِب، المُفْردات: (أثم).
(3) العسكريّ، الفروق اللّغويّة: 1/233.
(4) ابْنُ القيِّم، الرِّسالةُ التّبوكيّةِ: ص: 10، والكفويّ، الكُلّياتُ 584.
(5) العسْكريّ، الفُروقُ اللُّغوية: ص: 16.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٢٧٧﴾

[البقرة: 277]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

تـوصـيـف حـال المـرابـين ومـصـيرهـم، وحـال المؤمنين وجزائهم

لَمّا ذَكَرَ اللّٰهُ ﷻ أَكَلَةَ الرِّبا، وكان من المَعْلوم أَنَّهُمْ لَوْ كانوا مُؤْمِنينَ إيمانًا يَنْفَعُهُمْ لَمْ يَصْدُرْ منهُمْ ما صَدَرَ، ذَكَرَ هنا حالَةَ المُؤْمِنينَ وأَجْرَهُمْ، فإن أَكْبَرَ الأَسْبابِ لِاجْتِنابِ ما حَرَّمَ اللّٰهُ تَعالى من المَكاسِبِ الرِّبَوِيَّةِ، تَكْميلُ الإيمانِ وحُقوقِهِ، خُصوصًا إقامَةَ الصَّلاةِ، وإيتاءَ الزَّكاةِ؛ فإن الصَّلاةَ تَنْهى عن الفَحْشاءِ والمُنْكَرِ، والزَّكاةَ إحْسانٌ إلى الخَلْقِ، وهَذا يُنافي تَعاطي الرِّبا، الذي هو ظُلْمٌ لهم[1].

وأَيْضًا لَمّا ذَكَرَ حالَ آكِلِ الرِّبا، وحالَ مَنْ عادَ بَعْدَ مَجيءِ المَوْعِظَةِ، ذَكَرَ ضِدَّ هَؤُلاءِ؛ لِيُبَيِّنَ فَرْقَ ما بَيْنَ الحالَيْنِ، فعادَةُ القرآن أَنَّهُ إذا ذَكَر وعيدًا ذكَرَ بَعْدَهُ وعْدًا[2]، فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، فكان ذلك تسليةً وتثبيتًا لأهل الإيمان، ممّن ثاب إلى اللّٰه، والتزم بما به أمر، وانتهى بقناعة وإيقان، عمّا عنه نهى وزجر.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَأَقَامُواْ﴾: أَقامَ (الشَّيْءَ) إقامَةً (أَدامَهُ) وأَصْلُ قَوَمَ يَدُلُّ على انْتِصابٍ أَوْ عَزْمٍ. فيُقالُ: أَقامَ الأَمْرَ إذا أَتى به على أَكْمَلِ هَيْئاتِهِ، ومَعْنى أَقاموا الصَّلاةَ: أَيْ يُداوِمونَ على فِعْلِها في مَواقيتِها ويُحافِظونَ عَلَيْها بتَوفيةِ حُقوقِها وشُروطِها[3]، والمأمور به ليس الصّلاة بشكلها

(1) السِّعْدي، تيْسيُر الكريمِ الرّحْمنِ: ص: 959.

(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/711، وينظر: الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 7/81.

(3) الرّاغِب، المُفْرداتُ: (صلا)، وابْنُ فارِس، مقاييسُ اللُّغة، والسّمين، عُمْدةُ الحُفّاظ، والزّبيديّ، تاجُ العروسِ: (قوم).

وحركاتها، وملفوظها وطقوسها، ولكن بإقامة أركانها، وترويض النّفس على روحانيّتها، واجتناب ما يتنافى مع هيبتها وقداستها، قال تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۗ﴾ [العنكبوت: 45]، وذلك هو سرّها الأكبر، ومقصدها الأظهر.

2) ﴿وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾: أَعْطَوْها، والإيتاءُ الإِعْطاء، تَقولُ آتَى يُؤْتي إيتاءً، وأَصْلُهُ الإِحْضار، وخُصَّ دَفْعُ الصَّدَقَةِ في القرآن بالإيتاءِ[1]، وقوله ﴿وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾، يعني إلى مستحقها عند وجوبها[2].

3) ﴿أَجۡرُهُمۡ﴾: الأَجْرُ: إعطاء الثَّوابُ وبَدَلُ المَنْفَعَةِ وجَزاءُ العَمَلِ (الكِراءُ على العَمَلِ)، أَجَرَه: جَزاهُ وأَثابَهُ وأَعْطاهُ[3].

4) ﴿خَوۡفٌ﴾: الخَوْفُ: ذُعْرٌ وفَزَعٌ بسَبب تَوَقُّعِ مَكْروه[4].

5) ﴿يَحۡزَنُونَ﴾: أصل الحُزْن: خُشونَةٌ في النَّفْسِ لِما يَلْحَقُها مِنَ الغَمِّ، أو: قَسْوةُ الشَّيْءِ وشِدَّتُهُ وخُشونَتُهُ[5].

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

مَنْ حَقَّقَ الإيمان وعَمِلَ بالأَرْكان نالَ الجِنان، وطَرَدَ اللهُ عنه الخَوْفَ والأَحْزان

إنَّ الذينَ صَدَّقوا باللَّهِ واتَّبَعوا رَسولَه، وعَمِلوا الأَعْمالَ الطَّيِّبَةَ التي أَمَرَ اللهُ بها، وأَدَّوُا الصَّلاةَ تامَّةً على الوَجْهِ الأَكْمَلِ، وأَخْرَجوا زَكاةَ أَمْوالِهِمْ لمن يَسْتَحِقُّها؛ لهم ثَوابٌ عَظيمٌ خاصٌّ بهم عند رَبِّهِمْ، ولا يَلْحَقُهُمْ خَوْفٌ فيما يَسْتَقْبِلونَهُ من أُمورِهِمْ، ولا حُزْنٌ على ما فاتَهُمْ من حُظوظِ الدُّنْيا ونَعيمِها[6].

الإيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

بلاغةُ المقابلةِ بالجُمْلَةِ المُعْتَرِضَةِ:

قَوْلُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ

(1) السِّجِسْتانّي، غريبُ القرآن، ص: 62، والرّاغِب، المُفْرداتُ: (أتى)، جبل، المُعْجمُ الاِشْتِقاقيُّ: (أتو، أتى).
(2) السِّجِسْتانّي، غريبُ القرآن: (أتو، أتى).
(3) الخليل، العينُ: (أجر)، ابْنُ فارِس، مقاييسُ اللُّغةِ: (أجر)، الزّبيديّ، تاجُ العروسِ: (أجر).
(4) ابْنُ فارِس، مقاييسُ اللُّغةِ: (خوف)، الرّاغِب، المُفْرداتُ: (خوف)، جبل، المُعْجمُ الاِشْتِقاقيُّ: (خوف، خيف).
(5) ابْنُ فارِس، مقاييسُ اللُّغة، جبل، المُعْجمُ الاِشْتِقاقيّ، الرّاغِب، المُفْردات، والسّمين، عُمْدةُ الحُفّاظِ: (حزن).
(6) لجْنةٌ من عُلماءِ الأزْهر، المُنْتخبُ في تفْسيرِ القرآن الكريمِ: ص: 66، ونُخْبةٌ من أساتِذةِ التّفْسير، التّفْسيرُ المُيسّرُ: ص: 47، وجماعةٌ من عُلماءِ التّفْسير، المُخْتصرُ في تفْسيرِ القرآن الكريمِ 47.

التَّصريحُ بمَدْحِ المُزَكّينَ، والتَّعْريضُ بذَمِّ المُرابينَ

﴿وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ جُمْلَةٌ مُعْتَرِضَةٌ لِمُقابَلَةِ الذَّمِّ بالمَدْحِ، والمَقْصودُ التَّعْريضُ بأَنَّ الصِّفاتِ المُقابَلَةَ لهاتِهِ الصِّفاتِ صِفاتُ غَيْرِ المُؤْمِنينَ، وتَزْدادُ هَذِهِ المُقابَلَةُ ظُهورًا بقَوْلِهِ: ﴿وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾[1]، وقد أَكَّدَ المَدْحَ بـ (إِنَّ) واسْمِيَّةِ الجُمْلَةِ لِتَقْوِيَةِ الذَّمِّ لِلمُرابينَ في مُقابِلِ ذَلِكَ.

الصَّلاةُ دعوى على حبِّ الله والزَّكاةُ برهانُها

توجيهُ المخصوصِ بالذِّكر في قولِه: ﴿وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾:

قولُه تعالى: ﴿وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ فيهِ عطفُ الخاصِّ على العامِّ، حَيْثُ خَصَّصَ الصَّلاةَ والزَّكاةَ بالذِّكْرِ مَعَ انْدِراجِهِما في الصّالِحاتِ؛ تَنْبيهًا على الفَضْلِ الخاصِّ فيهما، على طَريقَةِ ذِكْرِ جِبْريلَ وميكالَ عَقِيْبَ ذِكْرِ المَلائِكَةِ[2] عليهم السلام، بَيانًا لِفَضْلِهِما، وتَشْريفًا لَهُما، وتَنْبيهًا على قَدْرِهِما[3] وعُلوِّ مَنْزِلَتِهِما على سائِرِ الأَعْمالِ الصّالِحَةِ؛ إِذْ هُما رَأْسُ الأَعْمالِ؛ فإن الأولى أَعْظَمُ الأَعْمالِ البَدَنيَّةِ، والثّانيةَ أَفْضَلُ الأَعْمالِ الماليَّةِ[4]، وهاتان العبادتان هما أصلُ الانتهاءِ عن الرِّبا؛ فالصَّلاةُ تُنهي تقديمَ حبِّ المالِ على حبِّ أمرِ اللّه تعالى، والزَّكاةُ برهانُ ذلك الحبِّ.

كثرةُ التَّوجيهاتِ المجازيَّةِ دليلٌ على كثرةِ المعاني الإيجازيّة

توجيهاتُ المجازاتِ في قولِه تعالى: ﴿وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾:

في قَوْلِهِ تَعالى: ﴿وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ اسْتِعارةٌ تَصْريحيَّةٌ تَبَعيَّةٌ؛ لِأَنَّ الإِقامَةَ هي التَّسْويَةُ وجَعْلُ الشَّيْءِ مُسْتَقيمًا لا اعْوِجاجَ فيهِ يُشْبِهُ القائِمَ، ثُمَّ اسْتُعيرَ منها لِتَسْويَةِ الأَفْعالِ؛ والمَعْنى: تَعْديلُ أَرْكانِ الصَّلاةِ على ما هو حَقُّها؛ فمُقيمُ الصَّلاةِ يُعَدِّلُ أَرْكانَها ويَفْعَلُها سالِمَةً عن الاعْوِجاجِ والمَيْلِ؛ على الحالَةِ التي شُرِعَتْ عَلَيْها؛ فيوقِعُها مُسْتَجْمِعَةً لِلفَرائِضِ والواجِباتِ مَعَ الآدابِ والسُّنَنِ[5].

(1) ابْنُ عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/93.
(2) أبو السُّعود، إرْشادُ العقْلِ السّليم: 1/413، والسّمين، الدُّرُّ المصونُ: 4/137.
(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيزُ: 1/373.
(4) الآلوسي، روحُ المعاني: 2/51.
(5) الخفاجيّ، حاشية على البيضاويِّ: 1/217.

فاسْتُعيرَتِ الإقامَةُ من تَسْوِيَةِ الأَجْسامِ لِتَسْوِيَةِ المَعاني، أَيْ: لِتَعْديلِ أَرْكانِ الصَّلاةِ على ما هو حَقُّها، وتَكونُ الاسْتِعارَةُ تَبَعِيَّةً إذا كانتِ الإقامَةُ بمَعْنى المواظَبَةِ والمُداوَمَةِ؛ من قامَتِ السّوقُ إذا رُغِبَ فيها، وراجَتْ بضاعَتُها، وكَثُرَ طُلّابُها، وحينئذٍ يَهْتَمُّ التُّجّارُ بها ويَرْغَبونَ فيها، ويُداومونَ عليها، ويَتَنافَسونَ فيها، ففيهِ اسْتِعارَةٌ تَصْريحِيَّةٌ تَبَعِيَّةٌ، حَيْثُ شُبِّهَتِ المُحافَظَةُ والمواظَبَةُ والمُداوَمَةُ على الصَّلاةِ؛ بإقامَةِ السّوقِ وتَرْويجِها؛ بجامِعِ الاهْتِمامِ بشَأْنٍ مُتَعَلَّقِهِ، والرَّغْبَةِ فيهِ، والتَّوَجُّهِ إليه؛ لأَنَّ الصَّلاةَ إذا حوفِظَ عَلَيْها، كانتْ كالشَّيْءِ الرّائِجِ الذي تَتَوَجَّهُ إليه الرَّغَباتُ، ويَتَنافَسُ فيهِ المُحَصِّلونَ؛ فبالمُحافَظَةِ التّامَّةِ عَلَيْها تَكونُ كالبِضاعَةِ الرّائِجَةِ التي تَتَّجِهُ إِلَيْها الأَنْظارُ، ويَتَنافَسُ فيها التُّجّارُ[1].

عَلى أَنَّ مَعْنى (يُقيمونَ الصَّلاة): يُشَمِّرونَ لِأَدائِها بلا فتْرَةٍ عَنْها، فالإقامَةُ بمَعْنى التَّجَلُّدِ والتَّشَمُّرِ لِأَدائِها بلا فتْرَةٍ عَنْها ولا تَوانٍ؛ من قَوْلِهِمْ: قامَ بالأَمْرِ، وأَقامَهُ؛ إذا جَدَّ فيهِ، وتَجَلَّدَ واجْتَهَدَ في تَحْصيلِهِ بلا تَوانٍ؛ ففي لَفْظِ الإقامَةِ مَجازٌ مُرْسَلٌ من قَبيلِ ذِكْرِ المُسَبَّبِ وإرادَةِ السَّبَبِ، وذَلِكَ أَنَّ القيامَ بالأَمْرِ يَكونُ مُسَبَّبًا عن الاعْتِناءِ بشَأْنِهِ والتَّشَمُّرِ والتَّجَلُّدِ؛ فأُطْلِقَ القيامُ على سَبَبِهِ[2]، ويَجوزُ أَنْ يَكونَ مُجازًا مُرْسَلًا عَلاقَتُهُ المَلْزوميَّةُ، حيث ذُكِرَ المَلْزومُ وأُريدَ اللّازِمُ، فيُقالُ: إنَّ القيامَ بالأَمْرِ يَدُلُّ على الاعْتِناءِ بشَأْنِهِ ويَلْزَمُهُ التَّشَمُّرُ؛ فأُطْلِقَ القيامُ على لازِمِهِ[3].

سِرُّ التَّعبيرِ بإقامَةِ الصَّلاةِ دونَ المُصَلّينَ:

إقامةُ الصَّلاةِ أعلى من أدائِها وأبلغُ من تأديتِها

جاءَ التَّعبيرُ في قَوْلِهِ تَعالى: ﴿وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ بمدحِ مقيمي الصَّلاةِ لا المُصلِّين؛ لأَنَّ إقامَةَ الشَّيْءِ تَسْتَلْزِمُ لَوازِمَ عِدَّةً؛ منها: الاهْتِمامُ به، وجَعْلُهُ على أَحْسَنِ أَحْوالِهِ وأَقْدَرِها، وجَعْلُهُ مُسْتَقيمًا غَيْرَ مُعْوَجٍّ؛ فيَأْتونَ بالصَّلَواتِ الخَمْسِ في أَحْسَنِ أَحْوالِها وصوَرِها قائِمَةً مُعْتَدِلَةً مُسْتَوِيَةً مُقَوَّمَةً مُعَدَّلَةً، ولأَنَّ الإنْسانَ يَكونُ في حالِ قيامِهِ أَقْدَرَ على الأَشْياءِ[4]، وكَذَلِكَ الأَشْياءُ عِنْدَما تُقامُ تَكونُ على

(1) الآلوسي، روحُ المعاني: 1/218.
(2) زاده، حاشية على البيضاويّ: 1/182.
(3) الآلوسي، روحُ المعاني: 1/218، والخفاجيّ، حاشية على البيضاويّ: 1/217.
(4) ابنُ عاشور، التّحرير والتّنوير: 6/253.

أَحْسَنِ أَحْوالِها، وذَلِكَ يَكونُ بِإتْمامِ أَرْكانها وواجِباتِها وشُروطِها في وقْتِها، وإقامَتِها باطِنًا بإقامَةِ روحِها، وهوَ حُضورُ القَلْبِ فيها واسْتِحْضارُ عَظَمَةِ اللَّهِ تَعالَى في كُلِّ لَفْظٍ يُذْكَرُ اللهُ بها، كأَنَّهُ يَرَى اللَّهَ، معَ تَدَبُّرِ ما يَقولُهُ ويَفْعَلُه، فيمْتَلِئُ قَلْبُهُ من هَيْبَتِه، وتَذِلُّ عُنُقُهُ لَه، ويَسْتَحيي من رَبِّهِ تَعالَى أَنْ يُقْبِلَ على غَيْرِه، أَوْ يَلْتَفِتَ عنه[1].

وَبِهَذا وغَيْرِهِ من مَعاني الإحْسانِ في الصَّلاةِ خُصَّ لَفْظُ الإقامَةِ؛ تَنْبيهًا على أَنَّ المَقْصودَ من فِعْلِها تَوْفيةُ حُقوقِها وشَرائِطِها، لا الإتْيانُ بهَيْئَتِها فقَطْ، فالمُصَلُّونَ كَثيرٌ والمُقيمونَ قَليلٌ.

بلاغةُ التَّعْبيرِ في قَوْلِهِ: ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾:

في ذكر العنديَّة في قوله تعالى: ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ رفعةٌ للمؤمنين وتعظيمٌ لهم، وفي التَّعَرُّضِ لِعُنْوانِ الرُّبوبيَّةِ معَ الإضافَةِ إلى ضَميرِ (هم) مَزيدُ لُطْفٍ وتَشْريفٍ وتَكْريمٍ للمؤمنين[2]، مع ما يُوحيه لَفْظُ الرَّبِّ من أَنَّ الثَّوابَ الذي يناله المؤمنون هو مَحْضُ تَفَضُّلٍ منه تَعالى[3].

رفعُ المؤمنين بمكانِهم ومكانتِهم ومربوبيّتهم

دلالةُ نَفْيِ الخوفِ بالاسمِ، والحزنِ بالفعل:

للدلالة على عِظَمِ فضلِ الله على المؤمنين نفى الحُزْنَ عَن المؤمنين بالفِعْلِ، والخَوْفَ بالاسْمِ في قوله تعالى: ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾؛ لِأَنَّ أَغلبَ مُتَعَلَّقِ الحُزْنِ ماضٍ، والخَوْفُ مُسْتَقْبَلٌ؛ فلا خوفَ عليهم في المستقبلِ، ولا يحزنون على ما فاتهم، وهذا من أعظمِ الأجرِ الذي ينالُه المؤمنون في جنَّاتِ النَّعيم.

أعظمُ ما ينالُه المؤمنون في الجنَّةِ نفيُ الخوفِ والحزنِ؛ لاشتمالِه الزَّمانَ كلَّه

والنَّكِرَةُ في سياقِ النَّفْيِ تُفيدُ العُمومَ، والفِعْلُ في سياقِ النَّفْيِ مُخْتَلَفٌ في إفادته العموم[4]، ولأَنَّ الماضي محصورٌ؛ لأَنَّه مُشاهَدٌ مَرْئيٌّ، ومُتَعَلَّقاتُهُ مُحَدَّدة، والمُسْتَقْبَلُ مُتَعَلَّقاتُهُ مُتَعَدِّدَةٌ؛ لأَنَّه غَيْرُ

(1) ابْنُ القَيِّم، الوابِلُ الصَّيِّبُ: ص: 21

(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السليم: 1/413.

(3) ابْنُ عرفة، تفْسيرُ ابْنِ عرفة: 1/324، وهذا المعنى أيضا مذكور في الصّفْحةِ السّابِقةِ.

(4) تفْسيرُ ابْنِ عرفة: 1/324، والشِّنْقيطيّ، مُذكِّرةٌ في أُصولِ الفِقْهِ 384.

مَحْصور، فالخَوْفُ منه يَعْظُمُ لِكَثْرَةِ الخَواطِرِ والمَخاطِر التي تَخْطُرُ ببالِ الإنْسانِ مما يخاف منه؛ فقَدْ يَخافُ من عِدَّةِ أَشياء، أو من شَيْءٍ هو في نَفْسِ الأَمْرِ آمِنٌ فيهِ، فلذلِكَ نَفَى الخَوْفَ بلَفْظِ الاسْم الدّالِّ على العُموم ونَفَى الحُزْنَ بالفِعْلِ المُحْتَمِلِ للعُموم وعَدَمِه، ولأن ما يُحْزَنُ عليه مُتَيَقَّن، وأكثر ما يُخافُ منه مظنون، أي: فلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ من مَكْروهٍ آتٍ، ولا حُزْنٌ عَلَيْهِمْ من مَحْبوبٍ فات[1].

(1) القِنّوْجيّ، فتْحُ البيانِ: 2/142، ويُنْظرُ تفْصيلُ هذا المعْنى في الصّفْحةِ السّابِقةِ عند قوْلِهِ تعالى ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝٢٧٤﴾ [البقرةُ: 274].

قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ٢٧٨ فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ فَأۡذَنُواْ بِحَرۡبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَإِن تُبۡتُمۡ فَلَكُمۡ رُءُوسُ أَمۡوَٰلِكُمۡ لَا تَظۡلِمُونَ وَلَا تُظۡلَمُونَ ٢٧٩﴾ [البَقَرَة: 278- 279]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

التَّوْبَةُ الصّادِقَةُ مِنَ الرِّبا، تَوْبَةٌ مِمّا فات، ومِمّا هو آتٍ

لَمّا بَيّنَ في الآيَةِ المُتَقَدِّمَةِ أَنَّ مَن انْتَهَى عن الرِّبا فلَهُ ما سَلَفَ، فقَدْ كان يَجوزُ أَنْ يُظَنَّ أَنَّهُ لا فرْقَ بَيْنَ المَقْبوضِ منه والباقي في ذِمَّةِ القَوْمِ، وأَنَّ المَمْنوعَ هو إِنْشاءُ عَقْدٍ رِبَوِيٍّ بَعْدَ التَّحْريمِ؛ لِذا أَزالَ تَعالَى هَذا الاِحْتِمالَ، بأَنْ أَمَرَ بتَرْكِ ما بَقِيَ من الرِّبا في العُقودِ السّابِقَةِ، قَبْلَ التَّحْريمِ[1]، فقالَ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّـهَ﴾، كما أنّ في الآيَةِ إِفْضاءً إلى التَّشْريعِ، بَعْدَ أَنْ قَدَّمَ أَمامَهُ من المَوْعِظَةِ ما هَيَّأَ النُّفوسَ إليه، ولَمّا كان من حَقِّ من عانَدَ السَّيِّدَ الأَخْذُ بعناده إذا تمرّد وأبق؛ سَبّب عن ذَلِكَ[2] قَوْلَهُ: ﴿فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ فَأۡذَنُواْ بِحَرۡبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ﴾، وهو خطابٌ للمؤمنين المصرّين على معاملة الرّبا، أو هو خطاب مع الكفار المُستحلّين للرّبا، الّذين قالوا ﴿إِنَّمَا ٱلۡبَيۡعُ مِثۡلُ ٱلرِّبَوٰاْۗ﴾، قال القاضي: والاحتمال الأوّل أولى[3].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَذَرُواْ﴾: اتْرُكوا، وارْموا به، واقْذِفوه، يُقالُ: فُلانٌ يَذَرُ الشَّيْءَ، أَيْ: يَقْذِفُهُ لِقِلَّةِ اعْتِدادِهِ به، وقد أَماتَتِ العَرَب المَصْدرَ من (يَذَرُ) والفِعْلَ الماضي من (يَذَر)، واسْتَعْمَلَتْهُ في الحاضِرِ والأَمْرِ،

(1) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 7/82، وأبو حيّان، البحر المحيط: 2/711.
(2) البِقاعيّ، نظْمُ الدُّررِ: 4/139.
(3) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 7/84.

وأَصْلُ الإِذْراءِ القَذْف، والإِذْراءُ: ضَرْبُكَ الشَّيْءَ تَرْمي به أو تَصْرَعُه؛ ومَعْنى ﴿وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ﴾: اتْرُكوهُ[1]، "في إشعاره أنّ طائفة منهم لا يذرونه بعد تحريمه، بما أنّهم ليسوا من الّذين كانوا مؤمنين".

2) ﴿فَأْذَنُواْ﴾: أَيْ: أَيْقنوا، واعْلَموا ذَلِكَ، واسْمَعوه. أَذِنَ لَهُ أَذَنًا: اسْتَمعَ، وأَصْلُ الأَذانِ العلم، فالأُذُنُ والأَذانُ لِما يُسْمَعُ، ويُعَبَّرُ بذَلِكَ عن العلم؛ إِذْ هو مَبْدَأُ كَثيرٍ مِنَ العلم، والمَعْنى: اعْلَموا وأَعْلِموا غيركم، أَنَّ كُلَّ مَنْ لَمْ يَتْرُكِ الرِّبا فهو في حَرْبٍ[2].

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

دعـوة المؤمنين لـلـتّـعـامـل الـحـلال، والاكـتـفـاء في التّوبة من الرّبا برأس المال

يا أَيُّها الذينَ آمَنوا باللَّهِ واتَّبَعوا رَسولَه، عليكم بخوف الله، والامتثال الصّارم لأوامره، والاجتناب الفوريّ لنَواهِيه، واتْرُكوا المُطالَبَةَ بما بَقيَ لَكُمْ مِن الرِّبا في ذِمَّةِ النّاسِ، ممّا كان لَكُمْ قَبْلَ تَحْريمه، إن كُنْتُمْ مُحَقِّقينَ لِلإيمانِ قَوْلًا وعَمَلًا، فإن لَمْ تَرْتَدِعوا عَمّا نَهاكُمُ اللَّهُ عنه فاسْتَيْقِنوا بحَرْبٍ من اللَّهِ ورَسولِه، وإنْ رَجَعْتُمْ إلى رَبِّكُمْ، وتَرَكْتُم الرِّبا فلَكُمْ أَخْذُ ما لَكُمْ من دينٍ، دونَ زيادَة، لا تَظْلِمونَ أَحَدًا بأَخْذِ ما زادَ على رُؤوسِ أَمْوالِكُمْ، ولا يَظْلِمكُمْ أَحَدٌ بنَقْصِ ما أَقْرَضْتُمْ، لِأَنَّ الزِّيادَةَ التي تَأْخُذونَها ظُلْم لِغَيْرِكُمْ، كَما أَنَّ تَرْكَ جُزْءٍ من رُؤُوسِ الأَمْوالِ ظُلْمٌ لَكُمْ[3].

الإيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

سرُّ النِّداءِ لِأَهْلِ الإيمانِ بأُمِّ أَدواتِ النِّداءِ (يا):

نادى الحقُّ المؤمنين باسْمِ الإيمانِ في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ تَحْريضًا لهم على قَبولِ حُكْمِ الله بتَرْكِ ما بَقيَ مِنَ

(1) الخليل، العينُ، باب الذال والراء و: (ويع): (وذر)، السّمين، عُمْدةُ الحُفّاظ، جبل، المُعْجمُ الاشْتِقاقيُّ: (وذر).

(2) ابْنُ سيده، المُحكمُ: (الذال والنون والهمزة) مقلوبه (أذن)، الأزْهريّ، تهْذيبُ اللُّغة، الجوْهريّ، الصّحاح، ابْنُ فارِس، مقاييسُ اللُّغة، والرّاغِب، المفْرداتُ: (أذن).

(3) لجْنةٌ من عُلماءِ الأزْهر، المُنْتخبُ في تفْسيرِ القرآن الكريمِ: ص: 66، ونُخْبةٌ من أساتِذةِ التّفْسير، التّفْسيرُ المُيسّرُ: ص: 47، وجماعةٌ من عُلماءِ التّفْسير، المُخْتصرُ في تفْسيرِ القرآن الكريمِ 47.

الرِّبا[1]، بأداةِ النِّداءِ (يا)، وهي أداةٌ لنداءِ البعيدِ؛ لتنزيلِهم منزلةَ الرِّفعةِ والمجدِ.

نكاتُ تَقْديمِ الأَمْرِ بالتَّقْوى على النَّهْيِ عن الرِّبا:

الأَمْـرُ بالتَّقْوى يـقـتـضي الأمـرَ بتَرْكِ الرِّبا

قُدِّمَ أَمْرُ المؤمنين بتَقْوى اللهِ قَبْلَ الأَمْرِ بتَرْكِ ما بَقيَ مِنَ الرِّبا؛ لنِكاتٍ عدَّة، وهي:

الأولى: التقوى أَصْلُ كُلِّ خَيْر، فتقديمُه يكونُ كالتَّمهيدِ لما بعدَه.

الثَّانية: التقوى أَصْلُ الامْتثالِ والاجْتِناب، فتركُ الرِّبا المطلوبُ شرعًا هو ما كان عن إيمانٍ وتقوى.

الثَّالثة: تَرْكُ الرِّبا من جُمْلَةِ التَّقوى؛ فهوَ كالأَمْرِ بطَريقٍ بُرْهانيٍّ[2].

فالذينَ يَتْرُكُونَ ما بَقيَ من عُقودٍ عَقَدوها إنَّما يُقاوِمونَ شُحَّ أَنْفُسِهِمْ ورَغَباتِهِمْ وأَهْوائهمْ؛ فهَذِهِ المُقاوَمَةُ، وذَلِكَ الكَفُّ، فِعْلٌ نَفْسيٌّ جَليلٌ، وهوَ عَيْنُ التَّقْوَى التي حَثَّهُمُ اللهُ تَعالى عَلَيْها، ودعاهُمْ إِلَيْها[3].

نكتةُ خطابِ المؤمنين بالإيمانِ واشتراطه فيهم في فاصلتِها:

حـثُّ المُـؤمـنـين عـلى الإيـمـانِ نـوعٌ مـن تربيةِ القُرآنِ، وإيماءٌ تحذيريٌّ

هَذا من بابِ التَّهْييجِ وحَثِّ المُخاطَبينَ على تَرْكِ ما بَقيَ في ذِمَمِ الذينَ عامَلوهُمْ بالرِّبا، وأَنَّ تَرْكَ الرِّبا بالكُلِّيَّةِ شَرْطُ الإيمانِ، وأَنَّ الرِّبا والإيمانَ لا يَجْتَمِعانِ، فهوَ شَرْطٌ مَجازيٌّ على جِهَةِ المُبالَغَةِ، كَما تَقولُ لِمَن تُريدُ إِقامَةَ نَفْسِهِ: إِنْ كُنْتَ رَجُلًا فافْعَلْ كَذا[4]، فقَوْلُهُ: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ مَعْناهُ: إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنينَ حَقًّا، فلا يُنافي قَوْلَهُ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ إِذْ مَعْناهُ: يا أَيُّها الَّذينَ دَخَلوا في الإيمانِ[5]؛ فَفيهِ إيجازٌ بالحَذْفِ؛ إِذِ التَّقْديرُ: إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنينَ فامتثلوا أوامرَ اللهِ ونواهيَه، وفي هَذا تَنْفيرٌ شَديدٌ مِنَ التَّعامُلِ بالرِّبا، ووَعيدٌ رَهيبٌ

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/712.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/712، وابنُ عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/93.
(3) أبو زهرة، زهْرةُ التّفاسير، 2/1058.
(4) ابن عطيّة، المحرّر الوجيزُ: 1/374، وأبو حيّان، البحر المحيط: 2/712.
(5) ابنُ عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/94.

لمن يُصِرُّ على التَّعامُلِ به، فالمَعْنى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بأَفْواهِهِمْ ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ بقُلوبِكُمْ أَطيعوا ربَّكم؛ فما يَدُلُّ على تَصْديقِ قُلوبِكُم امْتِثالُ ما أُمِرْتُمْ به[1].

ولِخُطورَة هَذا المَوْقِفِ وصُعوبَتِه على النَّفْسِ البَشَريَّةِ ذَكَّرَهُمْ بإيمانِهِمْ؛ إذِ الإيمانُ الصَّحيحُ بمَنزلة الطّاقَةِ الدّافِعَةِ فقالَ لهم: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ فإنَّ إيمانَكُمْ قُدْرَةٌ قَويَّةٌ تَحْمِلُكُمْ على تَقْوى اللَّهِ وتَرْكِ ما بَقيَ من الرِّبا عند المَدينينَ لَكُمْ[2]؛ فجيءَ بهذا التَّركيبِ على صِفَةِ الجِناسِ المُغايِرِ بَيْنَ ﴿ءَامَنُواْ﴾ و﴿مُّؤْمِنِينَ﴾ لإفادَةِ هذا المَعْنى.

وَقيلَ: هو شَرْطٌ يُرادُ به الاسْتِدامَة، وقيلَ: يُرادُ به الكَمال، وكأنَّ الإيمانَ لا يَتَكامَلُ إذا أَصَرَّ الإنْسانُ على كَبيرَة، وإنَّما يَصيرُ مُؤْمِنًا بالإطْلاقِ إذا اجْتَنَبَ الكَبائِرَ[3].

قوله تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾﴾:

نُكْتَةُ تَسْميَةِ التَّرْكِ فِعْلًا في قَوْلِهِ تَعالى: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ﴾:

حَقيقَةُ الامْتِثالِ تَكْمُنُ في فِعْلِ المَأْمورِ وتَرْكِ المَحْظورِ

آثَرَ النَّظْمُ تسميةَ التَّركِ فعلًا في قولِه تَعالى: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ﴾ إذْ معناه: فإن لَمْ تَتْرُكوا ما بَقيَ مِنَ الرِّبا؛ لأنَّ المطلوبَ هو أن يكونَ التَّركُ فعلًا واقِعًا ومتحقِّقًا، لا مُجرَّدَ تركٍ مؤقَّت، ودلالةُ الفعلِ أبلغُ في إرادةِ المطلوب، وإذا أُمِروا بتَرْكِ ما بَقيَ مِنَ الرِّبا لزم من ذَلِكَ الأَمْر تَرْكُ إنْشاءِ الرِّبا على طَريقِ الأَوْلَى والأَحْرَى[4].

تنكيرُ لفظِ ﴿بِحَرْبٍ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ﴾ للتَّعظيمِ والتَّهديدِ:

نُكِّرَ لفظُ (حَرْبٍ) في قَوْلِه تعالى: ﴿فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ للتَّعْظيم[5] والتَّهْويلِ؛ فهيَ حَرْبٌ لا يُحيطُ بها وصْفٌ؛ لأَنَّها مِنَ اللّهِ ورَسولِه، والإذْنُ في الآيَةِ بمَعْنى العِلْمِ المُرادِ منه التَّحذير، أَيْ: فاعْلَموا وقوعَ حربٍ من اللّه ورسوله، بقصدِ الوعيدِ العظيمِ، والتَّهديدِ البالغِ.

(1) القونويّ، حاشيةُ القونويّ: 5/468.
(2) أبو بكر الجزائريّ، نِداءاتُ الرّحْمنِ: 28.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/712.
(4) أبو حيّان، البحر المُحيط2/713.
(5) البيضاوي، أنوارُ التّنْزيل: 1/163، وابْنُ عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/94.

نُكتةُ العُدُولِ عن الإضافةِ إلى استعمالِ حرفِ الجرِّ:

تهويلُ شأنِ الحربِ على المُرابين، زيادةً في التَّهديدِ

عدلَ النَّظمُ عن إضافَةِ الحَرْبِ إلى اللهِ ورَسولِهِ، حَيْثُ لَمْ يَقُلْ: (بحَرْبِ اللهِ) ورَسولِهِ، لنُكتةٍ بلاغيَّةٍ بَديعةٍ، فحرفُ ﴿مِّنَ﴾ لِابْتِداءِ الغايَةِ، وفي الابتداءِ بمن تَهْويلٌ عَظيمٌ، إذِ الحَرْبُ مِنَ اللَّهِ تَعالَى ومن نَبيِّهِ ﷺ لا يُطيقُهُ أَحَدٌ[1]، فأفادَ أَنَّهُ نَوْعٌ مِنَ الحَرْبِ عَظيمٌ من عند اللهِ ورَسولِهِ[2]، وأَيْضًا أفادَ أَنَّ الحَرْبَ مِنَ اللهِ لهم؛ فاللهُ تَعالى هو الذي يُحارِبُهُمْ، ولَوْ قيلَ: بحَربِ اللهِ؛ لاحْتَمَلَ أَنْ تَكونَ الحَرْبُ مُضافَةً لِلفاعِلِ، فيَكونُ اللهُ هو المُحارِبَ لهم، واحْتَمَلَ أَنْ تَكونَ مُضافَةً لِلمَفْعولِ، فيَكونوا هُمُ المَحارِبينَ للهِ؛ فكَوْنُ اللهِ تَعالى مُحارِبَهُمْ أَبلغُ وأَزْجَرُ في المَوْعِظَةِ من كَوْنِهِمْ مُحارِبينَ للهِ[3].

وقد دَلَّتْ هَذِهِ الآيَةُ على أَنَّ أَكْلَ الرِّبا والعَمَلَ به مِنَ الكَبائِرِ، ولا خِلافَ في ذَلِكَ؛ فتَنْكيرُ الحَرْبِ لِلتَّعْظيمِ، وزادَها تَعْظيمًا نِسْبَتُها إلى اسْمِ اللهِ الأَعْظَمِ، وإلى رَسولِهِ الذي هو أَشْرَفُ خَليقَتِهِ[4]، قال الإمامُ مالِكٌ رَحمهُ اللهُ: "تَصَفَّحْتُ كِتابَ اللهِ وسُنَّةَ نَبيِّهِ ﷺ فلَمْ أَرَ شَيْئًا أَشَرَّ مِنَ الرِّبا؛ لِأَنَّ اللهَ تَعالى قَدْ آذَنَ فيهِ بالحَرْبِ"[5].

دَلالَةُ فِعْلِ الإِذْنِ في قَوْلِهِ: ﴿فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ﴾:

من دلائلِ عَدْلِ اللهِ إعلامُ الخَصْمِ ما سيكونُ عليه من الشِّدَّةِ

يَذْكُرُ المُفَسِّرونَ أَنَّ مَعْنى فأْذَنوا فاعْلَموا أَنْتُمْ وأَيْقِنوا[6]، وهَذا هو المَعْنى المَشْهورُ لِلفِعْلِ؛ وقيلَ: مِنَ الإِذْنِ، وإذا أَذِنَ المَرْءُ في شيءٍ فقَدْ قَرَّرَهُ وبَنَى مَعَ نَفْسِهِ عليه، فكأَنَّهُ قالَ لهم: فقَرِّروا الحَرْبَ بَيْنَكُمْ وبَيْنَ اللهِ ورَسولِهِ، ويَلْزَمُهُمْ من لَفْظِ الآيَةِ أَنَّهُمْ مُسْتَدْعونَ لِلحَرْبِ

(1) أبو حيّان، البحرُ المُحيط: 2/715.
(2) الزّمخْشريّ، الكشّاف: 1/322، والهرري، حدائِق الرّوْحِ: 4/120.
(3) أبو حيّان، البحرُ المُحيط: 2/715، والسّمين، الدُّرُّ المصونُ: 2/642.
(4) القِنّوْجيّ، فتْحُ البيانِ: 2/143.
(5) القُرْطُبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 3/364.
(6) القِنّوْجيّ، فتْحُ البيانِ: 2/143.

باغونَ لَها، إذْ هُمُ الآذِنونَ بها والمُتَسَبِّبونَ فيها، لِتَعاطيهِمُ الرِّبا وعَدَمِ انْتهائِهِمْ عنه، ويَنْدَرِجُ في هَذا المَعْنى عِلْمُهُمْ بأَنَّهُمْ في حَرْبٍ وتَيَقُّنُهُمْ لِذلِكَ[1].

وفي هذا المعنى مزيدُ تهويلٍ وتعظيمٍ لشأنِ هذه الحربِ، وتخويفٍ من تعاطي الرِّبا والعملِ به.

دَلالَةُ استعمالِ (إن) دون (إذا) في قَوْلِهِ: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ﴾:

بناءُ القيمِ الهدائيَّةِ بالأدواتِ اللُّغويّة منهجٌ قرآنيٌّ فريدٌ

الخِطابُ في قَوْلِهِ تَعالى: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ لِلمُؤْمِنينَ المُصِرّينَ على التَّعامُلِ بالرِّبا؛ بدَليلِ قَوْلِهِ تَعالى: ﴿وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ﴾ فهوَ خِطابٌ معَ قَوْمٍ تَقَدَّمَ ذِكْرُهُمْ في قَوْلِهِ تَعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾.

ولِذَلِك عَدَلَ السِّياقُ عن تَعْليقِ الشَّرْطِ بـ (إذا) إلى (إنْ) لِلحَثِّ على الامْتِثالِ في تَرْكِ التَّعامُلِ بالرِّبا، ولَوْ قيلَ: فإذا لَمْ تَفْعَلوا؛ لَكان تَأْكيدًا على عَدَمِ امْتِثالِ جَميعِ المُخاطَبينَ أو أكثرهم لِلأَمْرِ بتَرْكِ التَّعامُلِ بالرِّبا، وهَذا يدلُّ على علمِ اللّه تعالى بامتثالِ المُخاطَبين لأمرِه، وكذلك فيه قيمةٌ هدائيَّةٌ بإعلامِهم بعلمِه بأنَّه سيمتثلون، معَ أَنَّ في التَّعْبيرِ بـ "إنْ" دَلالَةً على احتمالِ عَدَمِ امْتِثالِ بَعْضِ المُخاطَبينَ لِلأَمْرِ الإلَهيِّ.

بلاغةُ المقابلةِ في جملةِ: ﴿وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ﴾ مع السَّابقةِ:

بَيانُ الوَعْدِ بَعْدَ الوَعيدِ طمأنةٌ للنَّفسِ وإذهابٌ للبأسِ

صُدِّرَتِ الجُمْلَةُ في قَوْلِهِ تَعالى: ﴿وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ﴾ بفِعْلِ الشَّرْطِ ﴿تُبْتُمْ﴾؛ لِبَيانِ الوَعْدِ بَعْدَ ذِكْرِ الوَعيدِ قَبْلَهُ في قَوْلِهِ: ﴿فَأْذَنُواْ﴾، وجيءَ بالعَطْفِ معَ أَنَّ المُخاطَبَ واحِدٌ لِلتَّغايُرِ بَيْنَ الجُمْلَتَيْنِ في الخَبَريَّةِ والإنْشاءِ، ثُمَّ جيءَ بالجُمْلَةِ الاسْميَّةِ ﴿فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ﴾ المُصَدَّرَةِ بالفاءِ الواقِعَةِ في جَوابِ الشَّرْطِ؛ وفي هَذا إيماءٌ إلى أَنَّ أَمْوالَهم معَ عَدَمِ التَّوْبَةِ حَلالٌ لِمَنْ أَخَذَها مِنَ الأَئِمّةِ ونَحْوِهِمْ ممَّنْ يَنوبُ عَنْهُمْ[2]؛ معَ الإثْمِ والوَعيدِ الحاصِلِ لهم بسَبَبِ إصْرارِهِمْ على أَكْلِ الرِّبا.

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيزُ: 1/375، وأبو حيّان، البحْرُ المُحيط: 2/715.

(2) الشّوْكانّي، فتْحُ القديرِ: 1/341، والقِنّوْجيّ، فتْحُ البيانِ: 2/143.

بَديعُ الجِناسِ التّامّ في قَوْلِهِ تَعالى: ﴿لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ﴾:

بَيانُ كَمالِ عَدْلِ اللهِ معَ عِبادَهِ المُفْضي إلى رِعايَةِ مَصالِحِهِمْ في الدّارَيْنِ

في قَوْلِهِ تَعالى: ﴿لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ﴾ جناسٌ تامٌّ، ومعنى الكلام: لا تَظْلِمونَ الغَريمَ بطَلَبِ زيادَةٍ على رَأْسِ المالِ، ولا تُظْلَمونَ أَنْتُمْ بنُقْصانِ رَأْسِ المالِ، وقيلَ: بالمَطْلِ[1]، وفيه بيان كمال عدل الله مع عباده المفضي إلى رعاية مصالحهم العاجلة والآجلة.

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(يَذَرُ) و(يَدَعُ)[2]:

الوَدْعُ تَرْكُ الشَّيْءِ معَ الاهْتِمامِ، والإِذْراءُ تَرْكُهُ معَ الإهمال.

يَدَعُ: هو أَن يَتْرُكَ الشَّيْءَ معَ الاهْتِمام به والحِرْصِ عليه، و (الوَديعَةَ) عند الشَّخْصِ المُؤْتَمَنِ حِرْصًا عَلَيْها؛ ويَذَرُ: هي أَنْ يَتَخَلَّى عن الشَّيْءِ معَ إِهْمالِهِ؛ لِعَدَمِ الاعْتِناءِ بشَأْنِه، يُقالُ: فُلانٌ يَذَرُ الشَّيْءَ، أَيْ: يَقْذِفُهُ لِقِلَّةِ اعْتِدادِهِ به، ومنهُ الوَذَرَةُ: قِطْعَةٌ مِنَ اللَّحْمِ، وتَسْميَتُها بذَلِكَ لِقِلَّةِ الاعْتِدادِ بها[3].

الإذن والعلم:

الإِذْنُ أَخَصُّ مِنَ العِلْمِ، ولا يَكادُ يُسْتَعْمَلُ الإِذْنُ إِلّا فيما فيه مَشيئَةٌ به[4]، وقال ابن الكمال: "فكُّ الحَجْرِ وإطلاقُ التّصرف، لمن كان ممنوعا شرعا، وقال الرّاغب: الإذن في الشّيء، الإعلام بإجازته والرّخصة فيه، ويعبّر به عن العلم، إذ هو مبدأ كثير من العلم فينا، لكن بين الإذن والعلم فرق، فإنّ الإذن أخصّ، ولا يكاد يستعمل إلّا فيما فيه مشيئة ما، ضامه أمر أم لا"[5].

---

(1) أبو حيّان، البحْرُ المُحيط: 2/716.

(2) والعرب لم تستعمل الماضي من هذين الفعلين، فورد فيهما يدع ويذر في المضارع، ودعوا وذروا في الأمر، قال في: (المصباح) بهذا: اعلم أنّ قولهم، في علم التّصريف، أماتوا ماضي: (يدع) و: (يذر) خطأ. وجعله استعارة من الوديعة تعسّف. (انتهى)، وكذا قال في: (المستوفى): أنّه كلّه ورد في كلام العرب، ولا عبرة بكلام النّحاة فيه، وإذا جاء نهر الله بطل نهر معقل. ينظر القاسميّ، محاسن التّأويل: 9/491، وفي اللّسان: "والنبّي ﷺ أفصح العرب، وقد رويت عنه هذه الكلمة، قال ابن الأثير: وإنّما يحمل قولهم على قلّة استعماله، فهو شاذّ في الاستعمال، صحيح في القياس، وقد جاء في غير حديث ". ابن منظور، لسان العرب: 8/384.

(3) الخليل، العينُ، باب الذال والراء و: (ويء)، السّمين، عُمْدةُ الحُفّاظ، جبل، المُعْجمُ الاِشْتِقاقيُّ: (وذر).

(4) الرّاغِب، المُفْرداتُ: (أذن).

(5) المناويّ، التّوقيف على مهمّات التّعاريف، ص: 44.

﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ ۚ وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٨٠﴾﴾ [البقرة: 280]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

العلاقة بين أحكام الدَّيْن، وبَيان المعاملة مع المُعْسرين مِنَ المَدينين

لَمّا حَكَمَ اللّهُ تَعالى لِأَهْلِ الرِّبا برُؤوسِ أَمْوالِهِمْ عند الواجِدينَ لِلمالِ، حَكم في ذَوي العُسْرَةِ بالنَّظِرَةِ إلى يَسارٍ[1]، أي إن كان المدين غير قادر على السّداد، فالمطلوب إمهاله إلى حين ميسرة، ووضع الدّين عنه، آثر عند الله وأفضل لأصحاب الدّين، في الدّنيا والآخرة[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿عُسْرَةٍ﴾: العُسْرَةُ: قِلّةُ ذاتِ اليَدِ، والعُسْرُ نَقيضُ اليُسْرِ، وأَصْلُ العُسْر صُعوبَةٌ وشِدَّةٌ، والعُسْرَةُ تَعَسُّرُ وُجودِ المالِ، والعُسْرَة والمَعْسَرَة: خِلافُ المَيْسَرَة، وأَعْسَرَ الرَّجُلُ إِعْسارًا، إذا افْتَقَرَ[3]، ومعنى اللّفظ في الآية: ﴿وَإِن كَانَ﴾ ممّن تقبضون منه من غرمائكم رؤوسَ أموالكم (ذو عُسْرَة)، يعني: معسرًا برؤوس أموالكم التي كانت لكم عليهم قبلَ الإرباء، فالمطلوب إفساح المجال له حتّى يتمكّن من الأداء[4].

2) ﴿فَنَظِرَةٌ﴾: من نَظَرَ يَنْظُرُ انْتظارًا، وإِنْظارًا، وأَصْلُ النَّظَر: تأمُّلُ الشَّيْءِ ومُعايَنَتُه، والنَّظِرَة: التَّأْخيرُ في الأَمْرِ ويُقالُ: نَظَرْتُه، أَي: انْتَظَرْتُهُ؛ فمَعْنى نَظِرَةٌ: انْتِظارٌ وتَأْخيرٌ[5]، وَكَانَ الرّجل يقرضُ

(1) القِنّوْجيّ، فتْحُ البيانِ: 2/144.
(2) نخبة من أساتذة التّفسير، التّفسير الميسّر، ص: 47.
(3) الخليل، العينْ: (عسر)، ابْنُ دُرَيْد، جمْهرةُ اللُّغةِ: (رسع)، ابْنُ فارِس، مقاييسُ اللُّغة، والرّاغِب، المُفْردات، الزّبيديّ، تاجُ العروسِ: (عسر).
(4) ابن جرير، جامع البيان: 6/28.
(5) ابْنُ دُرَيْد، جمْهرةُ اللُّغةِ: (رظن)، ابْنُ فارِس، مقاييسُ اللُّغة، الزّبيديّ، تاجُ العروس، والسّمين، عُمْدةُ الحُفّاظِ: (نظر).

غَيره، وَيضْرب لَهُ أَجَلًا، فإذا حلّ الْأَجَل يَقُول لَهُ: زِدْني في الدَّين، حَتَّى أزيدك في الْأَجَل، ويرغمه على ذلك، فَهَذَا كَانَ رِبَا الْجَاهِلِيَّة وَهُوَ حرَام[1]، وقد أمر الإسلام بالنَّظِرَة، وهي التّأخير دون تبعات ولا إكراه للمدين، على ما لا طاقة له به، كما كان فعل الجاهليّة، وهو أيضًا ديدن اليهود في معاملاتهم.

3) ﴿مَيْسَرَةٍ﴾: المَيْسَرَةُ واليَسارُ: الغِنى والسَّعَة، وأَصْلُ اليسر: انْفِتاح شَيْءٍ وخِفَّته، وهوَ ضِدُّ العُسْرِ، والمَيْسُرَةُ السُّهولةُ واليُسْرُ[2]، والميسرةُ مصدرٌ بمعنى اليسر، والمعنى: أنّ المدين ذا العسرة الّذي لا يجد وفاء، يجب إرجاؤه بتمديد أجل السّداد له، إلى حين ميسرة، وهذا واجب على صاحب الدّين، بل جعل في إسقاط الدّيون على المعسرين، وإقالة ذمّتهم منها، بالنُّزول عنها كلّها أو بعضها، من الأجر الكبير الّذي يغفل عنه النّاس، ولا يعلمون قدره وعِظَمَه[3].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

إنْـظـارُ المُعْسِـرِ أَوْ إسْقاطُ دَيْنِهِ عليه من خِصالِ أَهْـلِ الخشية والإيمانِ

وإنْ كان مَنْ تُطالِبونَهُ بالدَّيْنِ مُعْسِرًا غَيْرَ قادِرٍ على سَدادِ دَيْنِه، فأَخِّروا مُطالَبَتَهُ إلى أَنْ يُيَسِّرَ اللّٰه لَهُ رِزْقًا فيَدْفَعَ إِلَيْكُمْ مالَكُمْ، وأَنْ تَتَصَدَّقوا عليه بالنُّزول عن الدَّيْنِ أَوْ بَعْضِهِ خَيْرٌ لَكُمْ إنْ كُنْتُمْ تَعْلَمونَ فضْلَ ذلِكَ عند اللّٰه تَعالى[4]، والظّاهر أنّ النَّظِرَةَ إلى الميسرة، ليست وقفًا على دين الرّبا فحسب، ولكنّها تنسحبُ على كلّ دين حلال، وهو قول جمهور العلماء[5].

❁ الإِيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

دلالَةُ العَطْفِ بالجُمْلَةِ الشَّرْطيَّةِ في قولِه: ﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ﴾:

قَوْلُهُ تعالى: ﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ﴾ مَعْطوفٌ على قَوْله

(1) السّمعاني، تفسير القرآن: 1/281.
(2) الأزهري، تهذيب اللّغة، وابْنُ فارِس، مقاييسُ اللُّغة، والرّاغِب، المُفْرداتُ: (يسر).
(3) الزّحيلّي، التّفسير المنير: 3/90.
(4) لجْنةٌ من عُلماءِ الأزْهر، المُنْتخبُ في تفْسيرِ القرآن الكريمِ: ص: 67، ونُخْبةٌ من أساتِذةِ التّفْسير، التّفْسيرُ المُيسّرُ: ص: 47، وجماعةٌ من عُلماءِ التّفْسير، المُخْتصرُ في تفْسيرِ القرآن الكريمِ 47.
(5) الثّعالبيّ، الجواهر الحسان: 1/543.

﴿فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ﴾ لِأَنَّ ظاهِرَ الجَوابِ أَنَّهُمْ يَسْتَرْجِعونَها مُعَجَّلَةً، إذِ العُقودُ قَدْ فُسِخَتْ، فعَطَفَ عليه حالَةً أُخْرَى، والمَعْطوفُ عليه حالَةٌ مُقَدَّرَةٌ، والمَعْنَى وإنْ حَصَلَ ذو عُسْرَة، أَيْ: غَريمٌ مُعْسِرٌ[1]، فلا تَعْجَلوا على الغَريمِ المُعْسِرِ بل أَمْهِلوهُ حَتَّى يَجِدَ سعَةً وغِنًى، ولِمُراعاةِ حالِ المُعْسِرِ جاءَ التَّأْكيدُ على إنْظارِهِ بالجُمْلَةِ الشَّرْطيَّةِ، وأُدْخِلَتْ إنْ - المُفيدَةُ للشَّرْطِ في الاسْتِقبالِ - على الماضي لِتُفيدَ وُقوعَ الإعْسارِ، فهوَ كائِنٌ حَقًّا فأَنْظِروا المُعْسِرينَ، وهذا عِلاجٌ اسْتِتباعيٌّ، يُعينُ على امتِثالِ الجميعِ، ويدفعُ المشقَّةَ عن المجموعِ.

إنْظارُ المُعْسِرِ يُعينُ على امتِثالِ الجميعِ، ودفعِ المشقَّةِ عن المجموعِ

دَلالَةُ إيجازِ الحَذْفِ في قَوْلِهِ تَعالى: ﴿فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ﴾:

الفاءُ في قَولِه: ﴿فَنَظِرَةٌ﴾ هي فاءُ جَوابِ الشَّرطِ، و (نَظِرَةٌ) خَبرُ مُبْتدأٍ مَحْذوفٍ، أَيْ: فالأَمْرُ أَوْ فالواجِب، أَوْ مُبْتَدأٌ خَبَرُه مَحْذوفٌ، أَيْ: فعَلَيْكُمْ نَظِرَةٌ، أو فاعلٌ بفِعْلٍ مُضْمَر، أَيْ: فتَجِبُ نَظِرَةٌ، والجُمْلَةُ لَفْظُها خَبَرٌ ومَعْناها الأَمْرُ[2].

حالُ المُعْسِرِ أصلٌ في فقهِ إنْظارِه

وَهي من صيغ الطَلَبِ المُحْتَمِلَةِ لِلوُجوبِ والنَّدْبِ؛ فإن أُريد بالعُسرة العَدَمُ، أَيْ: نَفادُ مالِه كُلِّه؛ فالطَّلَبُ لِلوُجوبِ، وإنْ أُريدَ بالعُسْرَةِ: ضيقُ الحالِ، وإضْرارُ المَدينِ بتَعْجيلِ القَضاءِ؛ فالطَّلَبُ يَحْتَمِلُ الوُجوبَ والنَّدْبَ[3]، ومِمّا يُقَوي هَذا الطَّلَبَ مَجيءُ الطِّباقِ بَيْنَ لَفْظَتَيْ (عُسْرَةٍ) و (مَيْسَرَةٍ) المُفيدِ لِتَحقُّقِ وقوعِ الحالَيْنِ.

قيمةُ التَّعْبيرِ عن إسْقاطِ الدَّينِ بالصَّدَقَةِ:

ندَبَ الشَّرعُ بإسقاطِ الدَّينِ عنِ المُعسرِ في قَوْله تَعالى: ﴿وَأَن تَصَدَّقُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾: أَيْ أَنَّ إسْقاطَ الدَّيْنِ عن المعْسِرِ والتَّنْفيسَ عليه بإغْنائِهِ أَفْضَل، وجَعَلَهُ اللَّهُ صَدَقَةً؛ لِأَنَّ فيهِ تَفْريجَ الكَرْبِ

أثرُ التَّعبيرِ البليغِ في الحثِّ على التَّسامحِ الاجتماعيِّ

(1) ابْنُ عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/95.
(2) السمين، الدر المصون: 2/645، والآلوسي، روحُ المعاني: 2/53.
(3) ابْنُ عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/96.

وإغاثَةَ المَلْهوفِ[1]، فنَدَبَ اللهُ تَعالى بهَذِهِ الأَلْفاظِ إلى الصَّدَقَةِ على المُعْسِرِ وجَعَلَ ذلك خَيْرًا من إنْظارِهِ[2]، وفي ذلك بناءٌ لقيمةِ التَّكافلِ بالصَّدقةِ بين أبناءِ المجتمعِ، والتَّعبيرُ بالصَّدقةِ ألطَفُ من التَّعبيرِ بإسقاطِ الدَّينِ، أو العفوِ عن الحقِّ؛ لأنَّ الصَّدقةَ فيها بناءُ الأجرِ والثَّوابِ، والإحسانُ ابتداءً، أمَّا إسقاطُ الدَّينِ فمُشعِرٌ بالنُّزول عن الحقوقِ، وهو شديدٌ على بعضِ النُّفوسِ.

دلالَةُ حذفِ متعلَّقِ العلمِ في قولِه تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾:

النُّفوسُ تُغريها الوعودُ المُطلقةُ من الكريمِ

حُذِف متعلَّقُ الشَّرطِ في قولِه تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ والتَّقديرُ: إنْ كُنْتُمْ تَعْلَمونَ أَنَّهُ خَيْرٌ لَكُمْ تَصَدَّقْتم على مُعْسري غُرَمائِكُمْ بالإبْراءِ من كُلِّ الدَّيْنِ أَوْ بَعْضِهِ، وفيهِ تَرْغيبٌ وتَحْريضٌ على الفِعْلِ[3]، إذ حثَّتِ الآيةُ على الصَّدقةِ بالمعلومِ المحذوفِ لتذهبَ النَّفسُ رجاءَ الأجرِ والثَّوابِ كلَّ مذهبٍ، وترجو من اللهِ الرِّضوانَ، ومثلُ هذا الحذفِ يُغري كثيرًا من النُّفوسِ المُشرئبَّةِ إلى الخيرِ.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

اليُسْر والسُّهولَة:

اليُسْرُ توصَفُ بهِ الأَحْوالُ والأَعْمال، والسُّهولَةُ توصَفُ بها الأَعْمالُ في الغالِبِ، فيُقالُ: نَحْنُ في حالِ يُسْرٍ ولا يُقالُ سَهْل، قال تَعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا ۝٤﴾ [الطَّلاق: 4]، ولِذلِكَ يُعَبَّرُ عنه بالسَّعَةِ والغنى والرَّخاءِ، وأَيْسَرَ الرَّجُلُ إذا صارَ ذا سَعَةٍ وغنى، ويُقالُ: سَهُلَ ويَسُرَ عَلَيَّ القيامُ بهَذا العَمَلِ؛ وكَوْنُ السُّهولَةِ مُخْتَصَّةً بالأَعْمالِ لِأَنَّ أَصْلَها مِنَ السَّهْلِ، وهوَ أَرْضٌ مُسْتَوِيَةٌ مُنْبَسِطَةٌ لا يَشقُّ على النّاسِ المرورُ والبِناءُ عَلَيها[4] كَقَوْلِهِ تَعالى ﴿وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ

اليُسْرُ توصَفُ بـه الأَحْـوالُ والأَعْـمـال، والسُّهولَةُ أَخَصُّ

(1) ابْنُ عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/96.
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيزُ: 1/377.
(3) الآلوسي، روحُ المعاني: 2/53، والقِنّوْجيّ، فتْحُ البيانِ: 2/144.
(4) جبل، المُعْجمُ الاشْتِقاقيُّ: (سهل).

تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا﴾ [الأعراف: 74]، ويَأْتي اليُسْرُ بمَعْنى القِلَّةِ؛ لِأَنَّ شَأْنَ الشَّيْءِ القَليلِ أَنْ يَكونَ يَسيرًا تَحْمِلُه، ومنهُ قَوْلُهُ تَعالى ﴿وَمَا تَلَبَّثُواْ بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا ١٤﴾ [الأحزاب: 14] أَيْ زَمَنًا قَليلًا، واليُسْرُ ضِدُّهُ العُسْر، قالَ تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ٥﴾ [الشرح: 5]، وقال: ﴿فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ٩ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ١٠﴾ [المدثر: 10]، وضِدُّ السُّهولَةِ الصُّعوبَةُ والشِّدَّةُ، وكما أَنَّ السُّهولَةَ في الأَعْمالِ فكَذلِكَ الصُّعوبَةُ[1]. فاليُسْرُ أَوْلَى وأَعَمُّ مِنَ السُّهولَة لِانْدِراجِهِ في الأَحْوالِ والأَعْمالِ.

(1) المُصْطفوي، التّحقيقُ في كلِماتِ القرآن الكريمِ: 8/126.

﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ٢٨١﴾ [البقرة: 281]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

المَوْعِظَةُ بِمَوْعودِ اللهِ وجَزائِهِ يَوْمَ القِيامَةِ بَعْدَ تَمامِ الأَوامِرِ والنَّواهي

لَمّا بَيَّنَ اللهُ التِزامَ الأُمورِ الشَّرْعيَّةِ في الإنْفاقِ، واجْتِنابَ المُعامَلاتِ الرِّبَويَّةِ، والإحْسانَ إلى المُعسِرينَ، أَنْهى ذَلِكَ إلى المَوْعِظَةِ بمَوْعودِ جَزائِهِ بتَقْوى يَوْمِ الرَّجْعَةِ، ليَقَعَ الخَتْمُ بأَجْمَلِ مَوْعِظَةٍ وأَشْمَلِها، وليَكونَ انْتِهاءُ الخِطابِ على تَرْهيبِ الأَنْفُسِ لِتَجْتَمِعَ عَزائِمُها على ما هو مَلاكُ أَمْرِها، من قَبولِ صَلاحِ دينِها ودُنْياها ومَعادِها؛ فتَرْكُ المَنْهيّاتِ وفِعْلُ المَطْلوباتِ يَرْجِعُ إلى اتِّقاءِ ذلِكَ اليَوْمِ الّذي تُطْلَبُ فيه السّلامَةُ[1]؛ لِذا قال تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ﴾، وهي آخر آية أنزلت من القرآن على النّبيّ ﷺ، بتسع ليال قبل وفاته على خلاف في العدد، وهي تعقيبٌ حكيمٌ، يتناسب كلّ التّناسب مع جوّ المعاملات، والأخذ والعطاء، حتّى تعمّ الخشية، وتشيع التّقوى، فيبتعد النّاس عن كلّ معاملة لم يأذن بها الله جلّ في علاه[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَٱتَّقُواْ﴾: الوِقايَةُ حِفْظُ الشَّيْءِ وصِيانَتُهُ مِمّا يُؤْذيهِ ويَضُرُّهُ باتِّخاذِ حاجِزٍ دونَه، وأَصْلُ (وقى) يَدُلُّ على دَفْعِ شَيْءٍ عن شَيْءٍ بغَيْرِهِ، ومنهُ التَّقوى؛ وهيَ جَعْلُ النَّفْسِ في وِقايَةٍ مِمّا يُخاف، والمَعْنى هنا: اجْعَلوا لَكُمْ وِقايَةً تَقيكُمْ عَذابَ يَوْمٍ شَديدِ الهَوْلِ[3]، وقيل: وَاتَّقُوا أي وخافوا يَوْماً تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ، قُرِئَ (بفتح التّاء) أي

(1) البِقاعيّ، نظْمُ الدُّررِ: 4/143، وابْنُ عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/97.
(2) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 1/641.
(3) ابْنُ فارِس، مقاييسُ اللُّغة، الرّاغِب، المُفْردات، وابن منظور، لسان العرب، جبل، المُعْجمُ الاشْتِقاقيُّ: (وقى)، أبو زهرة، زهْرةُ التّفاسيرِ: 1/223.

تصيرون فيه إلى اللّه، وقُرِئَ (بضم التّاء) وفتح الجيم، أي تردّون فيه إلى اللّه[1].

2) ﴿تُوَفَّىٰ﴾: من أَوْفَى الرَّجُلَ حَقَّهُ ووَفّاهُ إيّاهُ أَيْ: أَكْمَلَه لَهُ وأَعْطاهُ وافيًا، والوافي الذي بَلَغَ التَّمامَ؛ يُقالُ: دِرْهَمٌ وافٍ، وكَيْلٌ وافٍ، وأَوْفَيْتُ الكَيْلَ والوَزْنَ، وأَصْلُ (وفى) يَدُلُّ على إكْمالٍ وإتْمام، والتَّوْفِيَةُ نُمُوٌّ أَوْ زِيادَةٌ، يَبْلُغُ بها الشَّيْءُ تَمام قِوامِهِ، والمَعْنى هنا: تُعْطَى الجَزاءَ وافيًا[2]، وخلاصة ذلك الاستيفاء، أنّ الكافر يستوفي حَسَنَاتِهِ في الدُّنْيَا، وَيستوفي سَيِّئَاته في نار الآخِرَةِ، وَأَمَّا الْمُؤْمِنُ فيُوَفَّى حَسَنَاتِهِ في الآخِرَةِ، وَأَمَّا سَيِّئَاتُهُ فَإِنَّه يحتمل أن يَخْرُج مِنَ الدُّنْيَا، وقد ذَهَبَتْ سَيِّئَاتُهُ بِالْبَلاءِ وَالْعُقُوبَةِ، أو يَبْقَى عَلَيْهِ مِنْ سَيِّئَاتِهِ شيءٌ، فَيرجعُ أمره إلى اللّه، يفعلُ فِيهِ مَا يَشَاء[3].

3) ﴿كَسَبَتْ﴾: من كَسَبَ الشَّيْءَ يَكْسِبُهُ إذا أَصابَهُ وحَصَّلَه، ومنهُ الكَسْبُ، وهوَ جَمْعُ الشَّيْءِ وتحْصيلُه، وأَصْلُ (كَسَبَ) يَدُلُّ على ابْتِغاءٍ وطَلَبٍ وإصابَةٍ، والمعنى هنا: ما يَتَحَرّاهُ الإنْسان مِمّا فيه اجْتِلابُ نَفْعٍ، وتَحْصيلُ حَظٍّ[4].

المَعْنَى الإجْمَالِيُّ:

التّحذير من الرّجعة إلى المصير، حيث تُستوفَى الأعمال بدقّةٍ وحُسن تقدير

واحذروا - أيّها النّاس - عذابَ يومٍ تعودون فيه جميعًا إلى اللّه، وتقومون بين يديه، ثُمّ تُعطى كُلّ نفس جزاء ما عملت من خيرٍ أو شرٍّ، لا يُظلمون بنقص ثواب حسناتهم، ولا بزيادة العقوبة على سيِّئاتهم، قال ابن عبّاس: يريد: يجازون ثواب عملهم، ومعنى أنّهم ﴿لَا يُظْلَمُونَ﴾، أي لا يُنقصون من ثواب أعمالهم شيئا[5]،

(1) الخازن، لباب التّأويل: 1/213.
(2) الجوْهريّ، الصّحاح، ابْنُ منْظور، لِسانُ العرب، جبل، المُعْجمُ الاشْتِقاقيّ، والرّاغِب، المُفْرداتُ: (وفى)، والكفويّ، الكُلّيات، ص: 322، والخضيري، السِّراجُ في بيانِ غريبِ القرآن، ص: 120.
(3) ابن أبي زمنين، تفسير القرآن العزيز: 2/420.
(4) ابْنُ سيده، المُحْكم، الرّاغِب، المُفْردات، ابْنُ فارِس، مقاييسُ اللُّغة، جبل، المُعْجمُ الاشْتِقاقيُّ: (كسب).
(5) النّيسابوري، الوسيط في تفسير القرآن المجيد: 1/515.

فاللهُ لا يُضيع أجر من أحسن، ولا يغفلُ سيّئة من أساء، وكلُّ شيْءٍ عندهُ بمقدار.

الإيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

بلاغةُ المَجازِ المُرْسَلِ في قَوْلِهِ تَعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا﴾:

تصويرُ شِدَّةِ ما في القيامةِ من أهْوالٍ وأحوالٍ

على تقديرِ حذفِ المفعولِ في قولِه تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا﴾ يكونُ المعنى: (اتَّقوا العَذابَ يَوْمًا) أَوِ: (اتَّقوا ما فيه مِنَ الحِسابِ والعَذابِ)، وهو على هذا التَّقديرِ مَجازٌ مُرْسَلٌ بذِكْرِ الظَّرْفِ وهوَ المَحَلّ وإرادةِ المَظْروفِ وهوَ الحال، والدّاعي إليه المُبالَغَةُ بأَنَّ شِدَّةَ ما فيهِ بَلَغَتْ مَبْلَغًا بحَيْثُ سَرَتْ إلى الظَّرْفِ فيَسْتَحِقُّ أَنْ يُؤْمَروا باتِّقاءِ اليَوْمِ، وإنْ كان الاتِّقاءُ من نَفْسِ اليَوْمِ مِمّا لا يُمْكِن، لأنَّه آتٍ لا مَحالَةَ، ولا بُدَّ أَنْ يَراهُ أَهْلُ الجَنَّةِ والنّارِ جَميعًا، فعُلِمَ أَنَّ المُمْكِنَ المَقْدورَ اتِّقاءُ الحِسابِ والعَذابِ الواقِعَيْنِ فيهِ بالعَمَلِ الصّالِحِ[1].

أثرُ التَّذييلِ في التَّرغيبِ والتَّرهيبِ

جيءَ بقَوْلِهِ: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا﴾ تَذْييلًا للأَحْكامِ السّابِقَةِ؛ لأنَّه صالِحٌ للتَّرْهيبِ مِنِ ارْتِكابِ ما نُهِيَ عنه والتَّرْغيبِ في فِعْلِ ما أُمِرَ به أَوْ نُدِبَ إليه، لِأَنَّ في تَرْكِ المَنْهيّاتِ سَلامَةً من آثامِها، وفي فِعْلِ المَطْلوباتِ اسْتِكْثارًا من ثَوابِها، والكُلُّ يَرْجِعُ إلى اتِّقاءِ ذَلِكَ اليَوْمِ الذي تُطْلَبُ فيهِ السَّلامَةُ[2].

سرُّ تَنْكيرِ لَفْظَةِ (يَوْمًا) في قَوْلِهِ تَعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا﴾:

المُبالَغَةُ في تَفْخيمِ أهْوالِ القيامةِ

نُكِّرَ ﴿يَوۡمٗا﴾ لِلتَّفْخيمِ والمُبالَغَةِ في التَّحْذيرِ عَمّا يَقَعُ فيه مِنَ الأَهْوالِ والشَّدائِدِ التي يَشيبُ لَها الوِلْدان، وقَوَّى تَنْكيرَ ﴿يَوۡمٗا﴾ بدَلالَتِهِ على التَّفْخيمِ والتَّهْويلِ؛ تَعْليقُ الاتقاءِ به مُبالَغَةً في التَّحْذيرِ عمّا فيه مِنَ الشَّدائِدِ والأَهْوالِ[3].

---

(1) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 3/494، والآلوسي، روحُ المعاني: 1/252، والقونويّ، حاشيةُ القونويِّ على البيضاوي: 3/270، والهرري، حدائِق الرّوْحِ والرّيْحانِ: 1/405.

(2) ابْنُ عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/97.

(3) أبو السُّعود، إرْشادُ العقْلِ السّليمِ: 1/415، والآلوسي، روحُ المعاني: 2/53، والهرري، حدائِق الرّوْحِ والرّيْحانِ: 4/120.

توجيهُ القراءاتِ القُرآنيَّةِ:

الرُّجوعُ إلى الله حاصِلٌ قسرًا وإرادةً

بُنِيَ فعلُ ﴿تُرْجَعُونَ﴾ لِلمَفْعولِ من الرَّجْعِ المُتَعَدّي[1]، أَيْ: تَصيرونَ فيهِ إلى اللَّهِ لِمُحاسَبَةِ أَعْمالِكُمْ، وهي قراءةُ الجمهور، وقرأَ أبو عمرو: ﴿تَرْجِعُونَ﴾[2] مِنَ الرُّجوعِ اللّازِمِ؛ والأَوَّلُ أَدْخَلُ في التَّهْويلِ[3]، على أَنَّ المُخاطَبَةَ بالتّاءِ في الآيَتَيْنِ تُفيدُ المُبالَغَةَ في الوَعظِ والتَّحْذيرِ[4].

معنى حرفِ التَّراخي في قَوْلِهِ تَعالى: ﴿ثُمَّ تُوَفَّىٰ﴾:

احتمالُ التَّراخي لمعنَيَيْه الزَّماني والرُّتْبي

التَّعْبيرُ بأَداةِ التَّراخي (ثُمَّ) في قَوْلِه: ﴿ثُمَّ تُوَفَّىٰ﴾؛ للإشارَةِ إلى طُولِ وُقوفِهِمْ ذَلِكَ المَوْقِفَ في مَقامِ الهَيْبَةِ، وتَمادي حَبْسِهِمْ في مَشْهَدِ الجَلالِ والعَظَمَةِ، فهو تراخٍ زمانيٌّ.

وقد تَكونُ للتَّراخي الرُّتبي الذي هو بمَعْنى "وَأَعْظَمُ من ذَلِكَ"، ويَكونُ التَّقْديرُ أَنَّ جَزاءَ الكاسِبِ لِلشَّرِّ وعُقوبَتَهُ أَشَدُّ وأَعْظَمُ من بَعْثِهِ بَعْدَ مَوْتِهِ[5].

فائدةُ التَّعْميمِ في قَوْلِهِ تَعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ﴾:

توريثُ المهابةِ والحذَرِ من يومِ الجزاءِ

في قَوْلِهِ تَعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ﴾ مضافٌ محذوفٌ، والمعنى: تُعْطى كُلُّ نَفْسٍ مُكَلَّفَةٍ جَزاءَ ما عَمِلَتْ من خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ تامًّا وافيًا، أَوْ أَنَّهُ أُقيمَ المَكْسوبُ مَقامَ جَزائِهِ، وفي تَعْليقِ التَّوْفيَةِ بكُلِّ مَكْسوبٍ من الدَّلالَةِ على فخامَةِ شَأْنِ اليَوْمِ والمُبالَغَةِ في بَيانِ فظاعَةِ حالِ الكاسِبِ للشَّرِّ كما لا يَخْفى؛ فإن كُلَّ كاسِبٍ مَجْزِيًّا بعَمَلِهِ لا يُنْقَصُ منه شَيْءٌ وإنْ كان جُرْمُهُ في غايةِ القِلَّةِ والحَقارَةِ[6]، فالتَّعميمُ لِلمُبالَغَةِ في تَهْويلِ اليَوْمِ[7].

---

(1) والرُّجوع، إنْ لمْ يتعدّ، فهو بمعْنى: العوْد، وإنْ تعدّى فبِمعْنى: الإعادةِ. وبعْضُ النّحويّين يقولُ: إنّها تُضمّنُ معْنى صار، ينظر: أبو حيّان، البحرُ المُحيط: 1/123.

(2) ابْنُ الجزريّ، النّشْرُ: 2/208.

(3) الآلوسي، روحُ المعاني: 2/53، وإسْماعيل حقّي، روحُ البيانِ: 1/439.

(4) ابن عطيّة، المحرّر الوجيزُ: 1/378، والسّمين، الدُّرُّ المصونُ: 2/649، والقِنّوْجيّ، فتْحُ البيانِ: 2/145.

(5) القونويّ، حاشيةُ القونويِّ على البيضاوي: 5/473، و للآلوسي تفصيلٌ جميلٌ عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [آل عمران: 161] روحُ المعاني: 5/473.

(6) الآلوسي، روحُ المعاني: 2/323.

(7) أبو السُّعود، إرْشادُ العقْلِ السّليمِ: 1/415.

سرُّ العدولِ عن الإفرادِ إلى الجمعِ في قَوْلِهِ: ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾:

الجمْعُ أنسبُ بالجزاءِ، كما أنَّ الإفرادَ أنْسَبُ بالكسْبِ

جُمِع الضَّميرُ في قولِه تعالى: ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾، ولم يقُل: (وهي لا تُظلمُ)، أي: النَّفس؛ لأنَّ الجمعَ أَنْسَبُ بحالِ الجَزاءِ كما أَنَّ الإفْرادَ أَوْفقُ بحالِ الكَسْبِ[1]، والمعنى: أَنَّ هَؤلاءِ المُحاسَبينَ لَنْ يُظْلَموا عند اللّهِ شَيْئًا ولَوْ كان يَسيرًا.

وقد جَمعَ اللّهُ في هَذِهِ الآيَةِ خُلاصَةَ ما أَنْزَلَهُ في القُرآنِ وجَعَلَها خاتَمَ الوَحْيِ والإنْزالِ، كَما أَنَّهُ جَمعَ خُلاصَةَ ما أَنْزلَ مِنَ الكُتُبِ على الأَنْبياءِ في القرآن وجَعَلَهُ خاتم الكُتُبِ، كما أَنَّ النَّبيَّ ﷺ خاتَمُ الأَنْبياءِ عليهم السلام؛ وقد جَمعَ فيه أَخْلاقَ الأَنْبياءِ، وفائِدَتُها بالنِّسْبَةِ إلى الإنْسانِ عائِدَةٌ إلى مَعْنَيَين؛ أَحَدُهُما نَجاتُهُ مِنَ الدَّركاتِ السُّفْلى، وثانيهما فوْزُهُ بالدَّرجاتِ العُلْيا[2].

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الرُّجوع والإياب:

الإيابُ هو الرُّجوعُ إلى مُنْتهى المَقْصَدِ، والرُّجوع يَكونُ لِذلِكَ ولِغَيْرِهِ؛ فيُقالُ: رَجَعَ إلى بَعْضِ الطَّريقِ ولا يُقالُ: آبَ إلى بَعْضِ الطَّريقِ ولَكِنْ يُقالُ: رَجَعَ إلى مَنْزِلِهِ، ولِهذا قال أَهْلُ اللُّغَةِ: التَّأْويبُ أَنْ يَمْضيَ الرَّجُلُ في حاجَتِهِ ثُمَّ يَعودَ فيَثْبُتَ في مَنْزِلِهِ[3]، وهَذا يَدُلُّ على أَنَّ الإيابَ الرّجوعُ إلى مُنْتَهى القَصْدِ، ولِهذا قال تَعالى: ﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ۝٢٥﴾ [الغاشية: 25]، كان القيامَةُ مُنْتهى قَصْدِهِمْ، لِأَنَّها لا مَنْزِلَةَ بَعْدَها، ويقول البعض أنّ الإياب هو الرّجوع ذاته، دون التفات إلى الفرق الآنف، قال الشّاعر:

فَأَلْقَتْ عَصَاهَا وَاسْتَقَرَّ بِهَا النَّوَى *** كَمَا قَرَّ عَيْنًا بِالإِيابِ المُسَافِرُ[4]

(1) أبو السُّعود، إرْشادُ العقْلِ السّليمِ: 1/268، والقِنّوْجيّ، فتْحُ البيانِ: 2/145.
(2) إسْماعيل حقّي، روحُ البيانِ: 1/439.
(3) العسْكريّ، الفُروقُ اللُّغوية: ص: 303.
(4) الأخفش الأوسط، معاني القرآن: 1/213.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيۡنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى فَٱكۡتُبُوهُۚ
وَلۡيَكۡتُب بَّيۡنَكُمۡ كَاتِبُۢ بِٱلۡعَدۡلِۚ وَلَا يَأۡبَ كَاتِبٌ أَن يَكۡتُبَ كَمَا
عَلَّمَهُ ٱللَّهُۚ فَلۡيَكۡتُبۡ وَلۡيُمۡلِلِ ٱلَّذِي عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ وَلۡيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ
وَلَا يَبۡخَسۡ مِنۡهُ شَيۡـٔٗاۚ فَإِن كَانَ ٱلَّذِي عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ سَفِيهًا أَوۡ ضَعِيفًا
أَوۡ لَا يَسۡتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلۡيُمۡلِلۡ وَلِيُّهُۥ بِٱلۡعَدۡلِۚ وَٱسۡتَشۡهِدُواْ
شَهِيدَيۡنِ مِن رِّجَالِكُمۡۖ فَإِن لَّمۡ يَكُونَا رَجُلَيۡنِ فَرَجُلٞ وَٱمۡرَأَتَانِ
مِمَّن تَرۡضَوۡنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحۡدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحۡدَىٰهُمَا
ٱلۡأُخۡرَىٰۚ وَلَا يَأۡبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُواْۚ وَلَا تَسۡـَٔمُوٓاْ أَن تَكۡتُبُوهُ
صَغِيرًا أَوۡ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ أَقۡسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقۡوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ
وَأَدۡنَىٰٓ أَلَّا تَرۡتَابُوٓاْ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً حَاضِرَةٗ تُدِيرُونَهَا بَيۡنَكُمۡ
فَلَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَلَّا تَكۡتُبُوهَاۗ وَأَشۡهِدُوٓاْ إِذَا تَبَايَعۡتُمۡۚ وَلَا
يُضَآرَّ كَاتِبٞ وَلَا شَهِيدٞۚ وَإِن تَفۡعَلُواْ فَإِنَّهُۥ فُسُوقُۢ بِكُمۡۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ
وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ٢٨٢﴾ [البقرة: 282]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

بيان كيفيَّة حفظِ المال بالتَّوثيق والإشهاد، بعد بيان نَمائِه بالصَّدقة وتَرْكِ الرِّبا

لمَّا ذكر الله تعالى في المال ثلاثةَ أمور تُنْقِصُه ظاهرًا، وتُزكّيه باطنًا، وهي الاقتصارُ في كسبه على الحلال الطيِّب وَحْدَهُ، دون الحرام الخبيث، والصَّدَقَةُ منه، وتركُ الرِّبا فيه؛ نَبَّه على طَرِيقٍ حَلالٍ في تَنْمِيةِ المالِ وَزِيادتِه، وَأَكَّدَ في كيْفِيَّة حِفْظِه فبسَطَ القول في أحكام التَّوثيق وأَمَرَ فيه بالإشْهادِ[1]. وهذا مَنْظورٌ فيه للمَدين المُعْسِرِ باعتبار أنَّ المسلمين أُمَّةٌ واحدة، فَتَتَحقَّقُ التَّوسعةُ عليه والارتفاقُ والارتزاق بِنَحْوِ تجارةٍ، فيكون له مالٌ يُؤَدِّي مِنْهُ، وللدَّائن بالاعتبار

(1) أبو حيّان، البحرُ المُحيط: 2/722، 723، والهرري، تفْسيرُ حدائِقِ الرَّوْحِ والرَّيْحانِ: 4/121.

المعنويِّ الإيمانيِّ المنصوصِ عليه، والثَّابتِ بنحو قوله تعالى: ﴿إِن تُقۡرِضُواْ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنًا يُضَٰعِفۡهُ لَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ١٧﴾ [التَّغابن: 17]، ولمَّا أَمر أيضًا بالإنظار في حالة الإعسار، خَتَمَ تلك الأحكامَ بِالتَّهْدِيدِ والوعيد، في سياق التّذكير بالتّقوى، والتَّقوى تَسُدُّ على الإنسانِ أَكْثَرَ أَبْوابِ المَكاسِبِ والمَنافِعِ التي يُمْتَنَعُ عنها تَحَرُّزًا ووَرَعًا؛ أَتْبَعَ ذلِكَ بأَنْ نَدَبَهُ إِلى كَيْفِيَّةِ حِفظِ المالِ الحلالِ، وصَوْنِهِ عنِ الفَسادِ والبَوَار[1]. وبكلِّ هذا يَظهر اهتمامُ القرآن بنِظام أحوالِ المسلمين في أموالهم، فابتَدَأَ بما به قِوامُ عامَّتِهم من مُواساة الفقير، وإغاثةِ الملهوف، بعد ذِكرِ البِرِّ والصِّلةِ للوالدَيْن والأقربين بالمعروف، ووضَّح ذلك بما فيه عِبْرةٌ للمُعتبِر، ثمَّ عطَف عليه التَّحذيرَ من الرِّبا الّذي فيه استغلالٌ للمحتاجين، ثمَّ ثلَّث ببيان التَّوثيقاتِ الماليَّة من الإشهاد، وما يقومُ مَقامَه حَثًّا عَلى الاحْتِيَاطِ فِي أَمْرِ الأَمْوَالِ، لِكَونِها سَبَبًا لِمَصالِحِ المَعاشِ وَالمَعادِ[2].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تَدَايَنتُم بِدَيۡنٍ﴾: الدَّيْن: القَرْض، يُقال: دِنْتُ الرَّجلَ: أقرضْتُه واستقرضْتُ منه، وأَدَنْتُهُ: جعلتُه دائنًا، ورجلٌ مَدِينٌ ومَدْيونٌ، وأصلُ الدَّيْن الجَزاءُ مِنَ الدَّيْنُونَةِ؛ فالدَّيْنُ هو حَقٌّ للغير يلزم ذِمَّةً، ومعنى تداينْتُم: تَعَامَلْتُمْ بِالدُّيُونِ ودَايَنَ بعضُكم بَعْضًا[3]، وقال ابن السّكيت وغيره يستعمل لازما: دان الرّجل إذا استقرض، فهو دائن، وقال جماعة يستعمل لازما ومتعدّيا، فيقال دنته إذا أقرضته، فهو مدين ومديون، واسم الفاعل دائن، فيكون الدّائن من يأخذ الدّين على اللّزوم، ومن يعطيه على التّعدّي، وقال ابن القطّاع أيضا دنته أقرضته، ودنته استقرضت منه[4].

2) ﴿أَجَلٍ﴾: الأَجَلُ المُدَّة المضروبةُ للشَّيء، وغايةُ الوقتِ المحدَّدةُ، يُقال: دَيْنُهُ مُؤَجَّلٌ، وقد أَجَّلْتُهُ: جَعلْتُ له أَجَلًا، وأَصْلُ الأَجَلِ غَايةُ الوَقتِ في مَحَلِّ الدَّيْنِ وغيرِه، ويُقال للمُدَّة المضروبةِ لحياة الإنسان أَجَلًا، فيُقال: دَنا أَجَلُهُ؛ عبارةٌ عن دُنوِّ الموت، والمعنى هنا: غَايَةُ

(1) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 7/89.

(2) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 7/89، اوبْنُ عاشور، التّحريرُ والتّنْوير: 3/97.

(3) ابْنُ سيده، المُخصّص: 5/228، والخضيري، السِّراجُ في بيانِ غريبِ القُرْآن، ص: 20، والرّاغِب، المُفردات، وجبل، المُعْجمُ الاشْتِقاقيُّ المُؤصّل: (دين).

(4) الفيّوميّ، المصباح المنير: (دين).

الوَقْتِ في مَحَلِّ الدَّيْنِ[1]، والأجل وقت يُحدَّد لانتهاء الشّيء، قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: "الأجلُ محتُومٌ، والرّزق مقسُومٌ"، وقال السُّهْرَوَرْدِيُّ المقتول:

والمَرْءُ يَفْرَحُ بالأَيَّامِ يَقْطَعُهَا *** وَكُلُّ يَوْمٍ مَضَى يُدْنِي مِنَ الأَجَلِ[2]

3) ﴿بِٱلۡعَدۡلِۚ﴾: العَدْلُ الاسْتِقَامَة، والحُكْمُ بالحقّ، وهو ضِدُّ الجَوْرِ والظُّلم، وأصل عَدَلَ يَدُلُّ على اسْتِواءٍ، والعَدْلُ من النَّاس المَرْضيُّ قولُهُ وحُكْمُهُ، يُقالُ فلانٌ عَدْلٌ، وهُمْ عُدولٌ، والمعنى هُنا: ما قامَ في النُّفوس أنَّه مُسْتَقِيمٌ وحقٌّ لا زِيادةَ فيه ولا نُقْصانَ[3]، وقد صار العدلُ المطلقُ الّذي لا هوى يعروه، ولا ظلم يحتوشه، صفةً للّه تعالى دُون سواه، قال الشّاعر الأعشى:

اسْتَأْثَرَ اللّهُ بِالْوَفَاءِ وَبِالْـ***عَدْلِ، وَوَلَّى الْمَلَامَةَ الرَّجُلَا[4]

4) ﴿وَلَا يَأۡبَ﴾: لا يَمتنعْ؛ يُقال: أَبَيْتُ الشَّيْءَ أَأْبَاهُ، وَقَوْمٌ أَبِيُّونَ وَأُبَاةٌ، وأَصْلُ (أَبَيَ) يَدُلُّ على الامْتِناعِ. والإِباءُ: شِدَّةُ الامتِناعِ عن الشَّيءِ امتناعًا تامًّا كراهةً له[5]، والمعنى "ولا يأبينّ كاتبٌ استكتب ذلك، أن يكتب بينهم كتاب الدّين، كما علّمه اللّه كتابته، فخصّه بعلم ذلك، وحرمه كثيرا من خلقه"[6]، وزكاة العلم إنفاقه في تعليمه، وعدم التّأبّي على نفع من أراده، تلقينًا وتعليمًا، وكتابة وتصنيفًا، وهو ما قصده الشّارع من نهي الكاتب عن رفض الكتابة والتّأبّي عليها.

5) ﴿وَلۡيُمۡلِلِ﴾: أي يَنْطِقْ ويُقِرَّ بما عليه؛ يُقال: أَمْلَلْتُ عليه الكتابَ؛ أي: أَمْلَيْتُ عليه شَيْئًا يكتبُه، وأَصْلُ (مَلَّ) يدُلُّ عَلَى غَرَضٍ مِنَ الشَّيْءِ، وأَمَلَّ الشَّيءَ: قاله فكُتِبَ[7]، فليكتب الكاتب، ﴿وَلۡيُمۡلِلِ ٱلَّذِي عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ﴾، وهو الغريم المدينُ، وقد شاءت حكمة اللّه، أن يتولّى

(1) الرّاغِب، المُفْردات، وابْنُ فارِس، مقاييسُ اللُّغة، والزّبيديّ، تاجُ العروس، وجبل، المُعْجمُ الاِشْتِقاقيُّ المُؤصّل: (أجل).
(2) أحمد مختار عمر، معجم اللّغة العربيّة المعاصرة: (أجل).
(3) الخليل، لعينْ، والأزهريّ، تهْذيبُ اللُّغة، والجوْهريّ، الصّحاح، وابْنُ فارِس، مقاييسُ اللُّغة، والزّبيديّ، تاجُ العروس، وجبل، المُعْجمُ الاِشْتِقاقيُّ المُؤصّل: (عدل)، والمصطفوي، التّحقيق في كلمات القرآن: 8/60.
(4) ابن منظور، لسان العرب: 4/08.
(5) الرّاغِب، المُفْردات، والزّبيديّ، تاجُ العروس، والسّمين، عُمْدةُ الحُفّاظ، وجبل، المُعْجمُ الاِشْتِقاقيُّ المُؤصّل: (أبى).
(6) ابن جرير، جامع البيان: 6/51.
(7) الأزهريّ، تهْذيبُ اللُّغة، والسّمين، عُمْدةُ الحُفّاظ، وابْنُ فارِس، مقاييسُ اللُّغةِ: (ملل)، وجبل المُعْجمُ الاِشْتِقاقيُّ المُؤصّل: (ملل -ململ)، والخضيري، السِّراج، ص: 21.

المَدين إملالَ كتاب ما عليه من دين ربّ المال، على الكاتب،، شريطة التزام المُملي بتقوى اللّه، حتّى تكون الحُقوق مصونة للطّرفين.

6) ﴿يَبْخَسْ﴾: يَنقُصْ، يُقال بَخَسَ الكيلَ والميزانَ: نقصَه، وثَمَنٌ بَخْسٌ: طفيفٌ ناقصٌ دونَ ما يَجِبُ، وأصْلُ البخس نَقْصٌ في الأثناء، والمعنى هنا: نَقْصُ الشَّيءِ على سبيل الظُّلم[1]، يقال: بخسه حقّه، وبخسه إذا أنقصه، ونظائرها في القرآن كثيرة، وحتّى لا يكون هناك بخسٌ، أمر اللّه المملي أن لا ينقص شيئًا من حقوق الطّرف الآخر، وألزمه بضبط النّفس عن التّزييف، ومنع القلم من التّحريف.

7) ﴿سَفِيهًا﴾: السَّفَهُ الجَهْلُ، وخِفَّة العقل، والسَّفَهُ والسَّفاهُ والسَّفاهةُ نقيضُ الحِلْم، يُقال سَفِهَ الرَّجلُ نَفْسَه، إذا حَمَلَها على أمرٍ خَطأ، وأصلُ سَفِهَ يَدُلُّ عَلَى خِفَّةٍ وَسَخَافَةٍ، والسَّفيه: الجَاهِل والضَّعيف الأحمق ويُطْلَقُ على المرأة والصَّبيِّ لِضَعْفِ تصرُّفِهما والمعنى هُنا: ﴿سَفِيهًا﴾ أي: جاهلًا بالأمور والإملاء[2]، وَقَالَ الزّجاج: هُوَ خَفِيف الْعقل، ويشتمل هَذَا على: الْمَرْأَة، وَالصَّغِير وَنَحْوه، وَمذهب الشَّافِعِي: أَنّه المبذّر الْمُفْسد لمَاله[3]، وقيل: "السّفيه المهلهل الرّأي في المال الّذي لا يحسن الأخذ لنفسه، ولا الإعطاء منها، مشبّه بالثّوب السّفيه، وهو الخفيف النّسج، والسّفه الخفّة . . وهذه الصّفة في الشّريعة، لا تخلو من حجر أب أو وصي"، ومنع السّفيه من مزاولة الإملاء لكتابة العقد، حتّى لا يضيع حقّه، بما يجنيه عليه سفهه[4].

8) ﴿ضَعِيفًا﴾: الضَّعْفُ: ضِدُّ القُوّة، ويَكونُ في البَدَنِ وَالرَّأْي، والضَّعْفُ في الرَّأْي الحُمْقُ، وأَصْلُ الضَّعْفِ يَدُلُّ على خِلَافِ القُوَّة، وضَعْفُ الإِنْسانِ كَثْرَةُ حاجاتِهِ الّتي يَسْتَغْني عَنْهَا المَلَأُ الأَعْلى، والضّعيفُ الذي يَسْتَمِيلُه هَواهُ؛ ومعنى الضَّعيف هُنا الأحمقُ[5]، والضّعيف هو المدخول في عقله، النّاقص الفطرة، وهذا أيضا قد يكون وليّه أبا أو وصيّا[6].

(1) الرّاغِب، المُفْردات، وابْنُ فارِس، مقاييسُ اللُّغة، وجبل، المُعْجمُ الاِشْتِقاقيُّ المُؤصّل: (بخس)، ابْنُ الهائِم، التِّبْيانُ في تفْسِيرِ غريبِ القُرْآن، ص: 117، والخضيري، السِّراج، ص: 21.

(2) الخليل، العين، والزّبيديّ، تاجُ العروسِ: (سفه)، وابْنُ قُتيْبة، غريبُ القُرْآن، ص: 120، والسِّجِسْتانّي، غريبُ القُرْآن، ص: 273، وغلام ثعلب، ياقوتة الصِّراط، ص: 183، وابْنُ الهائِم، التِّبْيانُ في تفْسِيرِ غريبِ القُرْآن، ص: 51.

(3) السّمعانّي، تفسير القرآن، ص: 1/284.

(4) ابن عطيّة: المحرر الوجيز: 1/284.

(5) الخليل: (الخاء والقاف -خزرق-)، والرّاغِب، المُفْردات، والزّبيديّ، تاجُ العروس، وابْنُ فارِس، مقاييسُ اللُّغة، مادّة: (ضعف)، والسِّجِسْتانيّ، غريبُ القُرْآن، ص: 273.

(6) ابن عطيّة: المحرّر الوجيز: 1/380.

9) ﴿أَن تَضِلَّ﴾: أَي: أَن تَنسى، وضَلَّ الشَّيءُ: خَفِيَ وغابَ، وأصلُ الضَّلال ضَيَاعُ الشَّيْءِ وَذَهابُهُ في غَيْرِ حَقِّهِ، والضَّلالُ أيضًا العُدولُ عَن الطَّريقِ المُسْتَقِيم، ومعانيه كُثُرٌ، وبعضُها محمُود، وبعضُها لا يُحمد ولا يُذمُّ، ومنها ما هو جِبِلِّيّ فِطْرِيّ، ومنه ما هاهنا؛ فإنّ النِّسيان من خصائص البشريّة، ولا يَسلم منه أحدٌ، والمعنى هُنا: أن تَنْسى إحداهما الشَّهادةَ فَتُذَكِّرها الأُخرى[1].

10) ﴿وَلَا تَسْـَٔمُوٓاْ﴾: لا تَمَلُّوا، وأصْلُ السَّآمة المَلَالَةُ والضَّجَر ممَّا يَكْثُر لُبْثُه، وحقيقتُها عدمُ الصَّبر على استمرار أَمْرٍ[2]، ومنه قول لبيد:

وَلَقَدْ سَئِمْتُ مِنَ الحَيَاةِ وَطُولِهَا *** وَسُؤَالِ هَذَا النَّاسِ: كَيْفَ لَبِيدُ؟![3]

ومعنى هذا اللّفظ في الآية، أي لا تملّواْ أو تضجرواْ من كتابة الدَّيْنِ، سواء كان صغيرا أو كبيرا، بتبيان ثُبُوته في الذّمة إلى أجله المسمّى[4].

11) ﴿أَقْسَطُ﴾: أَصَحُّ وأَعدَلُ، وأصلُ القِسْطِ العدلُ، والقِسْطُ هو النَّصيب بالعدل، فمعنى ﴿أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ أَعْدَلُ عنده[5]، والمعنى في سياق الآية، أعدل عند الله وأقوم، وأقسط الحاكم، إذا عدل في حكمه، وأصاب الحقّ فيه، فإذا جار قيل: قَسَط، ومنه قول الله ﷻ: ﴿وَأَمَّا ٱلْقَـٰسِطُونَ فَكَانُواْ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾﴾ [الجن: 15]، ويعني بلفظ ﴿ٱلْقَـٰسِطُونَ﴾: الجائرون المائلون عن الحقّ[6].

12) ﴿أَقْوَمُ﴾: أَعْدَلُ وأَفْضَلُ استقامةً، وهمزة (أَقومُ) تدُلُّ على أنّه أَدخلُ في وصف القَوام، فهو أَطولُ فيه، ثمَّ ذُكر لمن له هِمَّةٌ واعتناء في القيام بالشّيء أو عليه، حتّى قيل: ذُو قِوامة، يُقال: فُلَانٌ أَقْوَمُ كَلَامًا مِنْ فُلَانٍ؛ أَي أَعدَلُ كَلَامًا، وقوَّمْتُ الشَّيءَ تقويما فهو

(1) ابْنُ قُتيْبة، غريبُ القُرْآنِ، ص: 99، وغلام ثعلب، ياقوتة الصّراط، ص: 184، وابْنُ الهائِم، التِّبْيانُ في تفْسِيرِ غريبِ القُرْآنِ، ص: ص: 117، والرّاغِب، المُفْردات، وابْنُ فارِس، مقاييسُ اللُّغةِ مادة: (ضلّ)، والزّبيديّ، تاجُ العروس: (ضلل)، وجبل، المُعْجمُ الاِشْتِقاقيُّ المُؤصّل: (ضلل -ضلضل).

(2) الرّاغِب، المُفْردات، وجبل، المُعْجمُ الاِشْتِقاقيُّ المُؤصّل: (سأم)، وابْنُ قُتيْبة، غريبُ القُرْآنِ، ص: 99، والسِّجِسْتانّي، غريبُ القُرْآنِ، ص: 1/135.

(3) ابن جرير، جامع البيان: 5/102.

(4) رضا، تفسير المنار: 3/104.

(5) الرّاغِب، المُفْردات، وابْنُ فارِس، مقاييسُ اللُّغةِ مادة: (قسط)، وابْنُ قُتيْبة، غريبُ القُرْآنِ، ص: 348، وابْنُ الهائِم، التِّبْيانُ، ص: 117، 265.

(6) ابن جرير، جامع البيان: 6/77.

قَويمٌ؛ أي مُستَقيمٌ، والمعنى هُنا: أَعْظَمُ عَوْنًا عَلى إِقَامَةِ الشَّهَادَةِ وأَثْبَتُ لها، وأكثرُ تقريرًا، وأَنْهَضُ بالحقِّ، وأَنْحى للخِلافِ الّذي يُعَرِّج المسالك بأصحابه؛ لأنَّ الكِتابة لا تُنْسَى[1].

13) ﴿وَأَدْنَىٰٓ﴾: أَقْرَبُ، يُقال دَنَا مِنْهُ وَدَنَا إِلَيْهِ يَدْنُو دُنُوًّا: قَرُبَ فَهُوَ دَانٍ، وأصلُ الدُّنُوِّ المُقَارَبَةُ، والدُّنُوُّ: القُرْبُ بالذَّات أو بالحُكم، ويُستعمَل في المكان والزَّمان والمنزلة[2].

14) ﴿تَرْتَابُوٓاْ﴾: تَشُكُّوا؛ مِنْ رَابَ يَرِيبُ إِذَا وَقَعَ فِي الشَّكِّ، وأصلُ الرَّيْبِ: الشَّكُّ والخَوْفُ، ورَابَنِي الشَّيْءُ وأَرَابَنِي بمَعْنَى شَكَّكَنِي وأَوْهَمني الرِّيبَةَ به، والمعنى هنا: أقربُ أن لا تَشُكُّوا[3]، وفي هذا الاحتياط الدّقيق، كان الأمر بتوثيق الدَّيْن . . ليس حماية لمال الدّائن فحسب، بل أيضا حماية للمدين نفسه، "لأنّه حين يعلم أنّ الدّيْن مُوثّق عليه، ومكتوب عليه، فلن ينكره، لكن لو لم يكن مكتوبا، فقد تُحدّثه نفسه أن ينكره، إذن فالحقّ يحمي الدّائن والمدين من نفسه"[4].

15) ﴿تِجَٰرَةً﴾: التِّجارةُ التَّصرُّف في رأس المال طَلَبًا للرِّبح، يقال: تَجِرَ يَتْجَرُ فهو تَاجِرٌ؛ بَاعَ وَشَرَى، وجَمعُ تاجِرٍ تِجَارٌ وتُجَّارٌ وتَجْرٌ وتُجُرٌ، فالتِّجَارَةُ: تَقْلِيبُ المالِ لِغَرَضِ الرِّبْحِ[5].

16) ﴿حَاضِرَةً﴾: من الحُضور، وهو الحالة المتحصِّلة المستقرّة بعد القدوم إلى شيء، يقال، حَضَرَ يَحْضُرُ حُضُورًا، وأصل حَضَرَ إيرادُ الشَّيْءِ ووُرُودُهُ ومُشَاهَدَتُهُ، والحَاضِرُ: المُقِيم في المُدُن والقُرَى، ومعنى ﴿تِجَٰرَةً حَاضِرَةً﴾؛ أي: نَقْدًا يَدًا بِيَدٍ[6]، ومعنى هذا اللّفظ في الآية، أنّه استثنى ممّا نهاهم عن ترك كتابته صغيرا كان أو كبيرا، ما بيع بالنّقود الحاضرة، يدا بيد، فرخّص لهم في ترك اكتتاب الكتب بذلك؛ لأنّ كلّ واحد من الباعة والمشترين، يقبض نقدا، ما وجب له قِبَلَ مبايعيه قبل المفارقة، لذلك فهم بالتّجارة الحاضرة، في غنًى عن التّوثيق، فلا حاجة إلى الاكتتاب، وقد تقابضوا الواجب لهم عليهم[7].

---

(1) الجوْهريّ، الصِّحاح، ابْنُ منْظور، لِسانُ العرب، ابْنُ فارِس، مقاييسُ اللُّغة، الفيروزآبادي، القاموس المحيط: (قوم)، والخضيري، السِّراج، ص: 21.

(2) الرّاغِب، المُفْردات، وابْنُ فارِس، مقاييسُ اللُّغةِ: (دنى)، ابْنُ الهائِم، التِّبْيان، ص: 77.

(3) ابْنُ قُتيْبة، غريبُ القُرْآن، ص: 99، والسِّجِسْتانّي، غريبُ القُرْآن، ص: 136، اوبْنُ فارِس، مقاييسُ اللُّغة، والزّبيديّ، تاجُ العروسِ: (ريب).

(4) الشّعراويّ، تفسير الشّعراوي: 4/2088.

(5) الرّاغِب، المُفْردات، والسّمين، عُمْدةُ الحُفّاظ، وابْنُ منْظور، لِسانُ العرب، والزّبيديّ، تاجُ العروس، وجبل، المُعْجمُ الاِشْتِقاقيُّ المؤصّل: (تجر).

(6) الرّاغِب، المُفْردات، وابْنُ عبّاد، المُحيطُ في اللُّغة، وابْنُ فارِس، مقاييسُ اللُّغة، والكجْراتّي، مجْمعُ بِحارِ الأنْوار، وابْنُ الأثِير الشّيْبانّي، النِّهايةُ: (حضر)، والمصطفوي، التّحقيق في كلمات القرآن: 2/240.

(7) ابن جرير، جامع البيان: 5/105.

17) ﴿تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ﴾: تَتبايَعونها، أو تَتَداولُونها وتَتَعاطَونها من غير تأجيلٍ، فالبائع يُعْطِي البِضَاعَةَ والمُشْتَرِي يُعْطي النُّقود، وأصْل الدَّوَرانِ: إحداقُ الشَّيء بالشَّيء مِن حَوالَيْه[1]. ومعنى تديرونها بينكم، أنّها بيع اليد باليد، فلا جناح عَلَى طرفيها أن لا يكتبوها، ولكن أمروا بالإشهاد عليها إذَا تبايعوا بِهَا، فكان أمر اللّه بالبيع الحاضر أن يشهد عَلَيْهِ، مَا كَانَ من قليل أَوْ كثير[2].

18) ﴿جُنَاحٌ﴾: أي إِثْم؛ من جَنَحَ يَجْنَحُ ويَجْنِحُ جُنوحًا، وأصل جَنَحَ يَدُلُّ عَلَى المَيْلِ، وسُمِّيَ الإِثْم جُناحًا لِمَيْلِهِ عَنْ طَرِيقِ الحَقِّ، والمعنى هُنا: فلا حَرَجَ عليكم أن لا تَكتبوها[3].

19) ﴿وَلَا يُضَآرَّ﴾: لا يُوقِعْ ضَرَرًا أو يُوقَعْ عليه ضَرَرٌ، والضَّرر ضِدّ النَّفْع، والضَّرَرُ: النُّقصان يَدخُلُ على الشَّيء، تقول: دَخَلَ عليه ضَرَرٌ في ماله، وكُلُّ ما كانَ من سُوءِ حال وفَقْرٍ أَو شِدّةٍ[4]، عن قتادة: ﴿وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ﴾ [البقرة: 282] قال: "لا يضار كاتب فيكتب ما لم يملل، ولا شهيد فيشهد بما لم يستشهد[5].

20) ﴿فُسُوقٌ﴾: عِصْيان؛ من فَسَق يَفسُقُ فِسقًا وفُسُوقًا، وأصله الخُروج، وعبَّر به عن تجاوُز الحدّ، ثم أُطْلِقَ على كلِّ عِصيان، والفِسْقُ: التَّرك لأمر اللّه والمَيلُ إلى المعصية و﴿فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾ [الكهف: 40]؛ أَي: جَارَ وَمَالَ عَنْ طَاعَتِهِ؛ والفاسق: الخارج عن الحقِّ، ومعنى ﴿فُسُوقٌۢ بِكُمْ﴾: عِصيانٌ وخُروج من الطّاعة إلى المعصية[6]، ويؤوّل الفسوق على ثلاثة معانٍ، أوّلها المعصية، وثانيها الكذب، وثالثها المأثم[7]، وجميعها لا ينفكّ عن معنى الفسوق، فيما يعرف من أخلاق النّاس وطباعهم.

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

يأمر اللّه المؤمنين، إذا تعاملوا بالدَّيْنِ، أن يكتبوه؛ حِفْظًا للمال ودَفْعًا للنِّزاع، ولْيكُنْ كاتبُهُ

(1) الرّاغِب، المُفْردات، وابْنُ فارِس، مقاييسُ اللُّغة، والزّبيديّ، تاجُ العروسِ: (دور)، ابْنُ قُتيْبة، غريبُ القُرْآنِ، ص: 99.
(2) النيسابوريّ، كتاب تفسير القرآن: 1/84.
(3) الجوْهريّ، الصّحاح، وابْنُ فارِس، مقاييسُ اللُّغة، والزّبيديّ، تاجُ العروسِ: (جنح)، ابْنُ قُتيْبة، غريبُ القُرْآن، ص: 66، وابن جرير، جامع البيان: 6/79.
(4) ابْنُ فارِس، مقاييسُ اللُّغة، والزّبيديّ، تاجُ العروس، وجبل، المُعْجمُ الاِشْتِقاقيُّ المُؤصّل: (ضرر).
(5) ابن جرير، جامع البيان: 5/112.
(6) ابْنُ منْظور، لِسانُ العرب، والزّبيديّ، تاجُ العروس، وجبل، المُعْجمُ الاِشْتِقاقيُّ المُؤصّل: (فسق)، وابْنُ الهائِم، التِّبْيان، ص: 117.
(7) الماورديّ، النّكت والعيون: 1/358.

الأمر بحفظ المال بالتَّوثيق والإشهاد، حِفْظًا للحقوق وحَسْمًا للنِّزاع

عدْلا، غير ممتنع من الكتابة، ولْيُملِ المَدِينُ على الكاتب دينه؛ من غير زيادة فيه ولا نقص، فإن كان المَدِينُ جاهلًا، أو محجورًا عليه، أو مجنونًا، أو لا يستطيعُ الإملاء لمانع ما؛ فَلْيَتَوَلَّ الإملاءَ عن المَدِين الوصيّ أو الكفيل، ويُطلبُ للشّهادةَ شاهدان عَدْلَان، فإن لم يوجد رجلان، فرَجُلٌ وامرأتان، مَرْضِيَّتا الدِّين والخُلق، لتذكّرا بعضهما حالة النّسيان، ويأمر اللّه الشُّهود أن لا يكتموا الشّهادة، وأن يوثّقوا الدَّين مهما قلّ، فذلك أقسط عند اللّه، وأنأى عن التّصادم والشّنآن، إلّا إذا كان التَّعاقدُ على تجارة مسلّمة يدًا بيدٍ، حيث تُعطى السّلعة للشّاري، ويُقبضُ الثّمنُ من البائع، فلا حرجَ في ترك الكتابة آنئذٍ، لعدم الحاجة إليها، مع البعد عن الإضرار بالكُتّابِ والشُّهود، أو إضرار هؤلاء بالنّاس في عملهم المعهود، لأنّ في ذلك معصيّة للّه، والمطلوب طاعته ورضاه، وهو العليم بما يصلح للبشر، وما يحفظهم من كلّ سوء أو ضرر[1].

❁ الإيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

بلاغةُ نِداءِ المؤمنين وغرضُه في أمرِ المُداينةِ:

تنبيهُ المؤمنين وتنشيطُهم لِلامتثالِ، وتطمينُ الدَّائنين لِيَأْمَنوا على أموالِهم

الخِطابُ في قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ مُوَجَّهٌ لِلمُؤْمِنِينَ؛ أَيْ: لِمَجْمُوعِهِمْ، والمَقْصُودُ مِنهُ خُصُوصُ المُتداينِينَ، والأَخَصُّ بالخِطابِ هُوَ المَدِينُ؛ لِأَنَّ مِن الواجب عليهِ أَنْ يَجْعَلَ دائِنهُ مُطْمَئِنَّ البالِ على مالِهِ[2].

وفي هذا النِّداء تدليلٌ على عُلُوِّ مكانَةِ المُنادى وسُمُوِّ مَنْزِلَتِه؛ وتَنْشيطٌ لأهل الإيمان وحثٌّ لهم على مراعاة ما يعقُبُهُ من الأمر[3]؛ مع ما في هذا النِّداء من تربية المَهابة، وإيقاظِ ضمائرِ المؤمنين لِصيانة الحقوقِ وأدائِها لذَوِيها، وإعلانِ المجتمع مسؤُوليَّته بِأَجْمَعِهِ

(1) لجْنةٌ مِنْ عُلماءِ الأزْهر، المُنْتخبُ في تفْسيرِ القُرآنِ الكريم، ص: 68، ونُخْبةٌ مِنْ أساتِذةِ التّفْسير، التّفْسيرُ المُيسّر، ص: 48، وجماعةٌ مِنْ عُلماءِ التّفْسير، المُخْتصرُ في تفْسيرِ القُرْآنِ الكريم، ص: 48، (بتصرّف).

(2) ابْنُ عاشور، التّحْريرُ والتّنْوير: 3/98.

(3) أبو السُّعود، إرْشادُ العقْلِ السّليمِ: 1/179.

عن حفظ حقوقِ أفرادِه من خلال تعظيم حُرمة المال، وأنَّه لا يَحِلُّ مالُ امرئ مسلم إلا بِطِيبِ نفسٍ منه أو سببٍ شرعيٍّ يقتضيه.

ولأجل هذه المعاني الجليلةِ حُذِفَ مُتَعلَّق الإيمانِ[1] ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾؛ لِيعُمَّ وصفُهم بالإيمان كُلَّ إيمانٍ يدفعُهم لامتثالِ الأوامرِ واجتنابِ النَّواهي، وكَفى به وَصْفًا يدلُّ على القَدْرِ الجليل، والخُلُقِ الجميل.

فائدةُ إيثارِ صِيغة المُفاعَلة في لفظ ﴿تَدَايَنتُم﴾:

تفعيلُ قيمةِ الحبِّ بينَ المؤمنين في حرصِ بعضِهم على مصلحةِ بَعْضٍ

معنى قولِه تعالى: ﴿إِذَا تَدَايَنتُم﴾: إذا تعاملْتم بدَين مُؤَجَّلٍ فاكتبوه؛ لأنَّ معنى داينْتُ الرَّجلَ عاملتُه بِدَيْنٍ مُعْطِيًا أو آخِذًا، كما تقول: بايعْتُه إذا بِعْتَهُ أو باعَكَ[2].

فالمُطالبة بالكتابة مُوَجَّهة إلى الطَّرفين معًا الدَّائنِ والمَدِين؛ مع أنَّ الذي يتولَّاها هو المَدِينُ، والتَّدايُنُ يَشْمَلُ الفريقَيْن الدَّائنَ والمَدِينَ، فكلاهما مُتَدايِنٌ؛ ذاك بالعطاء وهذا بالأخذ، وهي تختلف عن التَّعبير باسْتَدَنْتم؛ فإنَّها تُطلَق على المَدِينين فقط، والتَّعبيرِ بأَدَنْتُم الذي يُطْلَقُ على الدَّائنينَ؛ لذا كان التَّعبيرُ بصيغة المُفاعَلة التي تدلُّ على المشاركة مِن الطَّرفين هو الأنسبَ بالمقام[3].

وقد جِيءَ بصيغة المُفاعَلَةِ الدَّالَّةِ على المشارَكة لِيُنْزِلَ كلُّ واحدٍ من المُتَدَايِنَيْن أخاه منه مَنْزِلَةَ نفسِه، فيُحِبُّ له ما يُحِبُّ لنفسه من الخير، فالمَدِينُ يَحرِص على الوفاء والأداء والعِرْفانِ للدَّائن وشُكْرِه على معروفه وحِفْظِ ما أَسلفَ له، والدَّائنُ يَرِقُّ لِلمَدين فَيُسارع إلى إمْهاله، ويحرِصُ على أَنْ يَضَعَ عنه ما استطاع، وأن يُنْظِرَهُ إنْ عَجَزَ، ولِتَحقيقِ المُساواة بين جميعِ أَطْرَافِ هذه المعاملة فلا مِيزَةَ للدَّائن؛ لأنَّه أَعطى عَنْ سَعَةٍ، ولا غَضَاضَةَ على المَدِين لأنَّه أَخذ عن حاجة، ولا مَعَرَّةَ ولا نَقِيصةَ في ذلك على أيٍّ من المُسْتَجيبين للنِّداء الإلهيِّ.

(1) أبو حيّان، البحرُ المُحيط: 2/747-748.
(2) الزّمخْشريّ، الكشّافِ: 1/324، والبيْضاويّ، أنْوارُ التّنْزيلِ: 1/164، وأبو حيّان، البحرُ المُحيط: 2/721.
(3) أبو زهرة، زهْرةُ التّفاسِير: 2/1065.

النِّكاتُ البيانيَّةُ المُستنبطةُ من ذكرِ قَيْدِ: ﴿بِدَيْنٍ﴾ بعد قولِه: ﴿تَدَايَنتُم﴾:

تأكيدُ خُصوصيَّة كتابةِ الدَّين وأنَّه هو الباعثُ عليها

قَيْدُ ﴿بِدَيْنٍ﴾ إطْنابٌ في الظَّاهرِ، إيجازٌ عند التدقيقِ، ولهذا القيدِ نكاتٌ بيانيَّةٌ:

الأُولى: التَّأكيد؛ كمَا يَقُولُ القائل رأيْتُهُ بِعَيْنِي ولَمَسْتُهُ بِيَدِي[1]، فذُكِرَ الدَّيْنُ بعدَ ما يُغني عنه من المُدايَنة لِقَصْدِ التَّأكيد، وأنَّ الدَّين هو الباعثُ على الكَتْبِ[2]، ونظيرُه قولُه تعالى: ﴿وَلَا طَٰٓئِرٖ يَطِيرُ بِجَنَاحَيۡهِ﴾ [الأنعام: 38][3].

الثَّانية: ذُكِرَ لفْظُ ﴿بِدَيْنٍ﴾؛ ليَرجعَ الضَّميرُ إليه في قوله: ﴿فَٱكۡتُبُوهُۚ﴾؛ إذ لو لم يُذْكَرْ لَوَجَبَ أن يُقال: فاكتبوا الدَّين، فلم يكن النَّظمُ بذلك الحُسْنِ[4]، عند ذوي الذَّوْق العارف بأساليب الكلام[5]، وما جاءَ عليه النَّظم هو الموافقُ للبلاغةِ العاليةِ، إذ لو قالَ: (فاكتبوا الدَّينَ) لكانَ تطويلًا، بينما في قولِه: ﴿فَٱكۡتُبُوهُۚ﴾ إيجازٌ، وذكرٌ للدَّينِ مرَّتينِ؛ إحداهما ظاهرًا، باعتبارِه سببًا، والثَّانية مُضمرًا؛ ليقعَ عليه الأمرُ.

تنميةُ المسؤوليَّةِ الأخلاقيَّةِ تجاه أصحابِ الحقوقِ

الثَّالثة: قولُهُ تعالى: ﴿بِدَيْنٍ﴾ يُشعِرُ بالمسؤوليَّةِ الأخلاقيّة تجاه الدَّائنِ، فهو صاحبُ المالِ، والمداينةُ كانت بسببِ هذا الدَّينِ الذي حصلَ عليه المدينُ، فكأنَّ الآيةَ تُلوِّحُ بأنَّ ما عليه المدينون هو بسببِ الدَّين؛ فلينتبهوا عند الاستدانةِ في تبييتِ نيَّةِ السَّداد، وعند الأخذ بالكتابةِ الحافظةِ للحقوقِ، والكتابةُ برهانُ السَّدادِ.

دَفْعُ تَوَهُّمِ الاشتراك والمَجاز

الرَّابعة: قوْلُهُ: ﴿بِدَيْنٍ﴾ يدفعُ توَهُّمَ المَجَازِ؛ لأنه يُمكِنُ أَنْ يُظَنَّ اسْتِعْمالُ التَّدايُنِ مَجازًا في الوَعْدِ كقَوْلِ رُؤْبَةَ:

---

(1) ابْنُ عاشور، التّحْريرُ والتّنْوير: 3/98، وأبو حيّان، البحْرُ المُحيط: 2/723.

(2) أبو السُّعود، إرْشادُ العقْلِ السّليمِ: 1/269.

(3) القِنّوْجيّ، فتْحُ البيانِ: 2/146.

(4) الزّمخْشريّ، الكشّافِ: 1/325، اوبْنُ عاشور، التّحْريرُ والتّنْوير: 3/98، والقِنّوْجيّ، فتْحُ البيانِ: 2/146.

(5) الألوسّي، روحُ المعاني: 2/54.

دَايَنْتُ أَرْوَى وَالدُّيُونُ تُقْضَى *** فَمَطَلَتْ بَعْضًا وَأَدَّتْ بَعْضَا[1]

ولِتَخْليص الاشتراكِ ودَفعِ الإيهام نَصًّا؛ لأنَّ ﴿تَدَايَنتُم﴾ يجيء بمعنى تعاملْتم بدَين، وبمعنى تجازيْتم، ولا يَرِدُ عليه أنَّ السِّياق يدفعُه لأنَّ الكلام في النُّصوصيَّة على أنَّ السِّياق قد لا يتنبَّه له إلّا الفَطِنُ[2].

فلمَّا كان المُراد في الآية الكريمة تبيينَ الدَّينِ الماليِّ الذي يُكتَب ويُشهَد عليه وفيه، وتَبْيينُ الأحكامِ المعلَّقة به، وما ينبغي أن يُعمل فيه، كان من حقِّ البلاغةِ ذِكْرُ قيدِ: ﴿بِدَيْنٍ﴾، ومعناه: يُكْتَبُ ويُشْهَدُ فيه؛ ليقول: ﴿فَٱكْتُبُوهُۚ﴾[3].

ملحظُ التَّدَرُّجِ في خطابِ المتُعبِّدين لإقامةِ الأحكامِ

جاءَ النَّظم الكريمُ في قولِه تعالى: ﴿إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُۚ﴾ بنَقْلِ المُخاطبين تدريجيًّا إلى مَهْيَع النِّظام ومُشرِّعِ الأحكام، فقولُه تعالى: ﴿إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ﴾ جُمْلَة الشَّرط، وقولُه: ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ قيْدٌ، وقولُه: ﴿فَٱكْتُبُوهُۚ﴾ جوابُ الشَّرط، وهذا التَّرَفُّق بهم في التَّنَقُّل حتَّى يَدخلوا جميعًا في دين اللّه فيمتثلوا أمرَه.

فائدةُ التَّنكير في قوله: ﴿بِدَيْنٍ﴾:

إفادةُ العُمومِ من جميعِ الوجوهِ والصِّفاتِ والذَّوات

جِيءَ بلفظِ الدَّين نكرةً في سِياق الشَّرط ليُفيد العمومَ[4]؛ وفي هذا التَّنكيرِ المفيدِ للعموم مجموعةٌ من الفوائدِ البيانيَّة:

أوَّلًا: التَّنكيرُ المفيدُ للعموم أَبْيَنُ لتنويع الدَّيْن إلى مُؤَجَّلٍ وحالٍّ[5]، ولِيَدُلَّ عَلَى أَيِّ دَيْنٍ كان صغيرًا أَو كبيرًا، قليلًا كان أو كثيرًا، وعلى أيِّ وجْهٍ كان مِن سَلَمٍ أو بَيْعٍ[6].

(1) البيت لرُؤْبةُ بن العجّاج، ديوان رؤبة، ص: 89.
(2) الآلوسّي، روحُ المعاني: 2/54، وأبو السُّعود، إرْشادُ العقْلِ السّليمِ: 1/269.
(3) ابن أبي الإصبع، تحرير التّحبير، ص: 563.
(4) ابْنُ عرفة، تفْسيرُ ابْنِ عرفة: 1/329.
(5) الزّمخْشريّ، تفْسيرُ الكشّافِ: 1/325، وأبو السُّعود، إرْشادُ العقْلِ السّليمِ: 1/269، والبيْضاويّ، أنْوارُ التّنْزيلِ: 1/164.
(6) أبو حيّان، البحْرُ المُحيط: 2/723، والسّمين، الدُّرُّ المصون: 2/651.

ثانيًا: دلَّ التَّنكيرُ على أنَّ قليلَ الدَّينِ وكثيرَه سواءٌ في الأمر بكَتْبِه وامتثالِ ما شرعته الآية من أحكام بِخُصوصِه، وأنَّ المسؤوليَّة عليه أمامَ اللّه ثَوَابًا وعِقابًا صادقةٌ في قليله وكثيره، فأدنى ما يُسَمَّى دَيْنًا تتعلَّقُ به المسؤوليّةُ، ويُوصَفُ أداؤُه بالأمانة، ومَطْلُهُ ظُلْمٌ وخِيانة.

ثالثًا: في التَّنْكير إشارةٌ إلى العموم في المُتَدَايِنِينَ أيضًا؛ كأنْ يكون المَدِينُ وجيهًا ذا نَسَبٍ، أو رفيعًا ذا حَسَبٍ، أو ذا جاهٍ أو مكانةٍ اجتماعيَّة تَجعل توثيقَ الدَّيْن عليه شاقًّا، لا تُقْبِلُ عليه نفسُه، ولا يُطَاوِعُهُ عليه طبعُه وإلْفُه، فكان التَّعميم في الدَّيْن تَعْميمًا في الدَّائنينَ، يُنْزِلُ النَّاسَ منازلَهم، ويَعْرِفُ لهم أقدارَهم، ويحفظ ماءَ وجوههم، دون أن يستثني من تشريعه الحكيم أحدًا؛ لأنَّ البشر جميعًا متساوون أمامَه في كلِّ شيء.

بلاغةُ النَّظمِ التَّشريعيّ في قولِه تعالى: ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى﴾:

إدماجُ تشريعِ التَّأجيلِ في أثناءِ تشريعِ التَّسجيلِ دفعًا للخُصومات

في قَوْلِه تعالى: ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى﴾ طَلَبُ تَعْيينِ الآجَالِ للدُّيُونِ لِئَلَّا يَقَعَ المتداينونَ في الخُصُومَاتِ والتَّدَاعِي في المُرادات، فأُدْمِجَ[1] تشريعُ التَّأْجيلِ في أَثْنَاءِ تشريعِ التَّسجيلِ، والأَجَلُ مُدَّةٌ منَ الزَّمانِ مَحْدُودَةُ النِّهايةِ، مَجْعُولَةٌ ظَرْفًا لِعَمَلٍ غيرِ مطلوبٍ فيه المُبَادَرةُ، لِرَغبةِ تَمامِ ذلك العَمَلِ عندَ انْتِهاءِ تلك المُدَّةِ أو في أثنائِها[2].

وليُعلَمَ أنَّ من حقِّ الأجل أن يكون معلومًا كالتَّوقيت بالأيّام أو الأشهر ونظائرِهما ممّا يُفيد العِلمَ ويرْفَعُ الجَهالة، ولو قال: إلى الحصاد أو الدِّياس أو رجوع الحاجِّ لم يجُز[3]؛ لأنَّه لا يَرفع الجَهالة لعدم التَّسمية[4].

غرضُ تأكيدِ تعيينِ الآجالِ ضرورةٌ تحفظُ الحقوقَ

جاءَ قولُه تعالى: ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٖ﴾ على سبيلِ التَّأكيدِ بطريق إيجازِ الحذفِ إذ التَّقديرُ: كائن إلى أجل، ومع أنَّ الدَّين لا يكونُ إلّا مُؤَجَّلًا[5]؛ جِيءَ بعده أيضًا بالنَّعت بـ﴿مُّسَمّٗى﴾ زيادةً في التَّأكيد أيضًا[6].

(1) سيأتي تعريف الإدماج قريبًا في فقرة خاصّة.
(2) ابْنُ عاشور، التّحْريرُ والتّنْوير: 3/99.
(3) أجازه جمْعٌ من أهل العِلْم، يُنْظر: القُرْطُبيّ، تفْسيُر القُرْطُبيِّ: 3/378.
(4) الزّمخْشريّ، تفْسيُر الكشّافِ: 1/325، وأبو السُّعود، إرْشادُ العقْلِ السّليمِ: 1/269.
(5) السّمين، الدُّرُّ المصون: 2/651.
(6) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 1/440-442.

وفي هذا سَلٌّ سَخائم صُدورِهم أن يدفعوه إذا طُلِبَ في أجله، أو يَرَوْهُ قادحًا في الثِّقة أو فادحًا في الجاه.

فكلُّ هذه المؤكِّداتِ تدُلُّ على أنَّ طلب تعيينِ مواقيتِ الدُّيون عند كتابتِها أمرٌ ضروريٌّ ومُهِمٌّ، وهذا ما يدُلُّ عليه الأمر بعدُ في قوله: ﴿فَٱكۡتُبُوهُۚ﴾[1].

المُسمَّى استعارةٌ تصريحيَّةٌ بغرضِ التَّعيينِ

ولأجل طلب التَّعيين جِيءَ بلَفْظ ﴿مُّسَمًّى﴾ على وجه الاستعارة التَّصريحيَّة؛ لأنَّ (المُسَمَّى) حَقيقَتُهُ المُمَيَّزُ باسْم يُمَيِّزُه عمَّا يُشابهه في جِنْسه أو نوعه، فمِنْه أسماءُ الأَعْلام وأسماءُ الأَجْناس، فالمُسَمَّى هُنا مُسْتَعارٌ للمُعَيَّن المَحْدُود، وإنَّما يُقْصَدُ تحديدُه بنِهايةٍ مِنَ الأزمانِ المَعْلُومة عند النَّاس، فشُبِّهَ ذلك بالتَّحديد بِوَضع (الاسْم) بِجامع التَّعْيين إذْ لا يُمْكِنُ تَمْييزُهُ عن أمْثاله إلَّا بذلك، فأُطْلِقَ عليه لفظُ (التَّسْمية)، ومنهُ قَوْلُ الفُقَهاءِ المَهْرُ المُسَمَّى؛ فالمَعْنى أَجَلٌ مُعَيَّنٌ بنِهايته[2].

أثـرُ التَّركيبِ البيانيِّ في بناءِ القيمِ والأخلاقِ

وفي هذا التَّركيب فوائدُ معنويَّة عمليَّة وحياتيَّة وتوجيهاتٌ سامية وأخلاق عالية كريمة؛ إذ كلُّ ذلك الصَّوْغ البيانيّ لإفادة الإصْبار على الغَريم المَدين المُعْسِر، استدعاءَ الرِّقَّةِ له والشَّفقة عليه، ولإقْدار الدَّائن تقويةَ قَلْبِه على إنظاره وإمهاله، وللإيحاء بأنَّ الدّائن المُمْهِلَ غَريمَهُ هُنا هو بنفسه مُمْهَلٌ مِمَّن قبْضُ أَجَلِه بيده سبحانه، فعسى أن يَتَجاوزَ عن المَدين فيتجاوزَ اللّه عنه، ولإفادة أن المشَرِّع سبحانه وتعالى وبحمده هو الذي يَسْتَوْفي لكلٍّ حقَّه؛ كما أنَّه أحاط هذا الحقّ بمثل هذا السِّياج العاصم.

وقد تكرّر ذِكر الأجلِ المسمَّى في القرآن الكريم للدَّلالة على الوقت المحدَّد لتمام الشَّيء وانتهائه، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلٗاۖ وَأَجَلٞ مُّسَمًّى عِندَهُۥۖ﴾ [الأنعام: 2]، وقال: ﴿وَأَنِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/100.

(2) ابْنُ عاشور، التّحريرُ والتّنْوير: 3/99.

ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُمَتِّعۡكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى﴾ [هود: 3]، وقال: ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلّٞ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ﴾ [الرَّعد: 2]، وقال: ﴿وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبۡلُۖ وَلِتَبۡلُغُوٓاْ أَجَلٗا مُّسَمّٗى وَلَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ٦٧﴾ [غافر: 67]، وفي كُلٍّ هذا تذكيرٌ بأجل العبدِ الذي يَسْتَوْفيه، فيتوفَّاه مَوْلاهُ بهذه الآجال الشَّواهدِ لجميع الأوقاتِ والعبادات والمعاملات؛ لئَلَّا يَنسى العبدُ آخرتَه ورجعته، وأنَّه موقوف بين يدي ربِّه ومُحاسَبٌ، فيأخذُ العبدُ من نفسه لنفسه، ومن دنياه لآخرته، ومن الشَّبيبة قَبْلَ الكِبَرِ ومن الحياة قَبْلَ الممات.

دلالة الأمر في قوله: ﴿فَٱكۡتُبُوهُۚ﴾ بين الوجوب والنَّدْب:

حفظُ مصالح النَّاس في دينهم ودنياهم

قال جمهور العلماء: إنّ الأمر بالكَتْب نَدْبٌ إلى حفظ الأموال وإزالة الرَّيب، وإذا كان الغَريم تقيًّا فما يضرُّه الكتاب، وإن كان غيرَ ذلك فالكَتْبُ ثِقافٌ في دينه وحاجةُ صاحبِ الحقِّ، وقال بعضُهم بالوجوب[1]، وقال آخرون إن أَشْهدتَ فحَزْمٌ، وإن ائتمنتَ ففي حِلٍّ وسَعةٍ، وهذا هو القول الصَّحيح[2]؛ ففي الأمر بالكَتْب مصلحةٌ دنيويَّة وهي حفظُ المال، ومصلحةٌ دينيَّة وهي السَّلامة من الخصومة بين المتعاملين[3]، فهي أوثقُ وأدفع للنِّزاع[4].

ولمُراعاة هذه المصالح وحفظِها صِيغت الأوامرُ بحفظها على طريقة التَّلوينِ والتَّنويع في الالتفات[5] تهوينًا وتطمينًا، وتخفيفًا وتلطيفًا، فقد ورد الخِطابُ بالالتفات من الحُضور إلى الغَيبة، في قوله: ﴿فَٱكۡتُبُوهُۚ﴾، ﴿وَلۡيَكۡتُب﴾، ومن الغَيبة إلى الحضور في قوله: ﴿وَلَا يَأۡبَ كَاتِبٌ﴾، ﴿وَأَشۡهِدُوٓاْ﴾[6] وجيء أيضًا بالوصل بين

(1) ابن جرير، جامع البيان: 3/119 - 131 والقُرْطُبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 3/382.

(2) ابْنُ عطيّة، المُحرّرُ الوجيز: 1/379.

(3) ابْنُ عرفة، تفْسيرُ ابْنِ عرفة: 1/329.

(4) البيضاوي، أنوار التنزيل: 1/164.

(5) وهذان المثلان المذكوران لم يوردا جميع ما في الآية من هذا الباب فإنّها نحو عشرة أمثلة وناهيك بهذا تفنُّنًا بديعًا وتصرّفًا عجيبًا: منها على سبيل المثال: ﴿فَٱكۡتُبُوهُۚ﴾ - ﴿وَلۡيَكۡتُب﴾، ﴿وَٱسۡتَشۡهِدُواْ﴾، ﴿فَإِن لَّمۡ يَكُونَا﴾، ﴿تَرۡضَوۡنَ﴾، ﴿تَضِلَّ إِحۡدَىٰهُمَا﴾، ﴿تَسۡـَٔمُوٓاْ﴾، ﴿وَلَا يُضَآرَّ﴾، ﴿وَإِن تَفۡعَلُواْ﴾، ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُۗ﴾.

(6) أبو حيّان، البحْرُ المُحيط: 2/747-748، والسّمين الحلبيّ، الدُّرُّ المصون: 2/669.

هذه الجمل لاتّحادها في الإنشائيَّة والطَّلب؛ فجَمَعَتِ الواوُ بين هذه الجُمَلِ لأنَّها من باب التَّوسُّط بَيْنَ الكَمالَين؛ فكلٌّ منها أمرٌ لفظًا ومعنًى، وهذا الرَّبط بالواو يُشير إلى أنَّ كلّ جملة من الجملتين تُمَثِّل خَيْطًا من خيوط هذا النَّسيج الواحد من الأوامر.

وفي هذه الأوامر إشارةٌ إلى أنَّ الكتابة وسيلة التَّعليم، يُظْهِرُ اللّه الحاجةَ إليها هُنا لصيانة المُقَدَّرات وحفظِ الحقوق في عارِضٍ من يوميات الحياة، وحارِضٍ من طوارئ الاحتياجات البشريَّة والإنسانيّة؛ حَثًّا على تَعَلُّم الكتابة التي لا يُخْلَصُ إليها بغير تَعَلُّم القراءة ضرورةً، فهو الدُّعاء إلى التَّحضُّر والرُّقيِّ والتَّدوين بألطف عبارةٍ وأوجزِها، وهو إنباءٌ عن توجيه إلهيٍّ باعتماد أسلوبِ العلم منهجَ حياةٍ، وفيه أنَّ العناية بالوسائل والوصائل تَتَضَمَّنُ تحسينَ المآلات، وكيف أنَّ الإسلام يتحسَّب لكلِّ ما يحفظ السَّلام الاجتماعيَّ العامَّ ويَحُوطه لئلّا يتكدَّر بِعَرَضٍ أو حِرْصٍ مُتَوَقَّع؛ وفي هذه الأوامر أيضًا أنَّ التقصير في الاحتياط والحَذر بتَرْك الاعتناء بالدَّقائق قد يُوقِعُ فيما هو أخطرُ وأكبر، فالتَّهاون فيما يُتَدارَكُ يَتَرَتَّبُ عليه من الشَّرِّ ما لا يُتَدارَكُ.

تعيينُ عَوْدِ الضَّمير في قوله تعالى: ﴿فَٱكۡتُبُوهُۚ﴾:

شُمول حكمِ الكتابة للدَّين والأجل جميعًا

في تعيينِ مَرْجِعِ الهاء في قولِه تعالى: ﴿فَٱكۡتُبُوهُۚ﴾ احتمالاتٌ عدَّة؛ فهي إمَّا أنْ تعودَ على الدَّين، أو الأجلِ، أو عليهما جميعًا، وهو الأظهر؛ لدُخول الأجل في بُنود عقد الدَّين المكتوب، فلا يُقال: كَتَبَ الدَّين إلّا وهو يريد كَتْبَ مِقداره وأجلِه، ونحو ذلك، فإفرادُ الضَّمير فيه ايجازٌ بديع جامع لكتابة قيمةِ الدَّين وصاحبه، وأجلِ السَّداد ومكانِه وغيرِها من البنود التي تكون في العَقد المكتوب.

وهي إشارة ظاهرة إلى أنْ يكتبَه بجميع صفاته المبيِّنة له، المُعرِبة عنه؛ للاختلاف المتوهَّم بين المتعاملين، المُعرِّفة للحاكم ما يَحكم به عند ارتفاعِهما إليه[1].

فائدةُ ذكرِ الظَّرفِ وتقديمِه في قوله: ﴿وَلۡيَكۡتُب بَّيۡنَكُمۡ كَاتِبُۢ﴾:

قُدِّم الظَّرفُ ﴿بَّيۡنَكُمۡ﴾ على ﴿كَاتِبُۢ﴾؛ لبيانِ أنَّ المقصودَ

(1) القُرْطُبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 3/382.

ترسيخُ العدالةِ بكتابةِ كلامِ الجميعِ وعدمِ الاستئثارِ بأحدِها

حصولُ الكَتْب بين المتعاملين لا عند الكاتب وحدَه؛ فقدَّم الأهمَّ وهو البَيْنيَّةُ[1].

كما أنَّ ذكرَ الظَّرف ﴿بَيْنَكُمْ﴾ فيه إيذانٌ بأنَّ الكاتِبَ يَنْبغي أن يَتوسَّطَ بين المُتداينَيْنِ ويكتُبَ كَلامَهُما ولا يكتفي بكلام أحدِهما[2]، فينبغي للكاتب أن لا ينفردَ به أحدُ المُتَعاملَيْن دفعًا للتُّهَمة[3].

كما أنَّ في هذا اللَّفظ ﴿بَيْنَكُمْ﴾ ما يُشير إلى اجتماع الأطراف الدَّائنِ والمَدِينِ، وكذلك الشُّهودُ؛ ولو اقتصر الاجتماعُ على الدَّائن والمَدِين والكاتب لقيل: وليكتبْ بينكما، لكنْ في صِيغة الجمع ما يُفيد حضورَ جميعِ الأطراف حتَّى الشُّهود، وفي ذلك مبالغةٌ في التَّوْثيق والحِيطَةِ[4]؛ فقدَّم البَيْنِيَّةَ لضمان العلَنيَّةِ، وهُوَ مغْزى الإشهادِ، ولإحاطة الكاتب بسِياجٍ رَقابيّ مُجتمعيٍّ رَسْميٍّ عُرْفيٍّ وازعٍ مانعٍ رادعٍ، ففي هذا التَّقديم والتَّأخير بيانٌ لكيفيَّة الكتابةِ المأمورِ بها؛ وتعيينٌ لمن يتولاها إثرَ الأمرِ بها إجمالًا.

بلاغةُ حذفِ المفعولِ من الجملةِ:

التَّفاصيلُ المحذوفةُ معلومةٌ، ومعذوقةٌ بالعدلِ المذكورِ

وفي حَذْفِ المفعولِ به من الجملة شمولٌ وإحاطة لكلِّ ما يتعلَّق بتفاصيل الكتابة للدَّين من قيمة وموعد سَداد، فالحذفُ وَسَّع المعنى، وتَساوَقَ مع مقصودِ الآية الدَّاعية إلى أخْذ الضَّمانات كافَّة في تعيين الكتابة، وفي حذف المفعول حكمةٌ بالغةٌ بأنِ التُفِتَ عن تعيينه؛ إذْ ليس المقصودَ هُنا بِصيغَتِه، وكيف يُقْصَدُ قبل استكمالِ عناصر ما تُصْبِح به الكتابة حُجَّةً؛ فَمَفْعولُ ﴿وَلْيَكْتُب﴾ محذوفٌ ثِقَةً باتّضاحه، أو لِلْقَصْدِ إلى إيقاع نفسِ الفعل[5]؛ فهو لم يُحْذَفْ إلّا قد تُرك مُتَعَلَّقُه السَّادُّ مَسَدَّ المفعولِ المطلقِ المُبيِّنِ للنَّوعِ ﴿بِٱلْعَدْلِ﴾.

(1) البسيلّي، التّقييد الكبير، ص: 382.
(2) أبو السُّعود، إرْشادُ العقْلِ السّليمِ: 1/269.
(3) الآلوسّي، روحُ المعاني: 2/54.
(4) سعيد جمعة، بحث بعنوان: (البلاغة العالية في آية المداينة)، ص: 62.
(5) الآلوسّي، روحُ المعاني: 2/54.

فائدةُ فنِّ الإدماجِ[1] في قوله تعالى: ﴿وَلۡيَكۡتُب بَّيۡنَكُمۡ كَاتِبُۢ بِٱلۡعَدۡلِۚ﴾:

الإيماءُ إلى اختيارِ الكاتب العادل، وضرورةِ تعليمِ أهلِ العدلِ الكتابة

الكلامُ هنا مَسُوقٌ لمعنًى، ومُدْمَجٌ فيه آخرُ بإشارة النَّصِّ، وهو اشتراطُ الفَقاهة في الكاتب؛ لأنّه لا يَقدر على التَّسوية في الأمور الخطرة إلّا من كان فقيهًا[2].

فالنَّاظر في الجملة يستطيع أن يَلحَظ بسهولة أنَّها جاءت لتحديد نوعٍ خاصٍّ من الكُتَّاب وتخصيص الأمرِ به؛ ليقومَ بهذه الكتابةِ العادلةِ الضَّامنة للحقوقِ، المانعة من التَّحايُل؛ ذلك أنَّ الأمرَ خطيرٌ، ولذلك جاز تعلُّقُ الجارِّ والمجرور ﴿بِٱلۡعَدۡلِۚ﴾ بكلٍّ من الفعل ﴿وَلۡيَكۡتُب﴾ والفاعل ﴿كَاتِبُۢ﴾.

فإذا قُدِّر تَعلُّقُهُما بالفعل ﴿وَلۡيَكۡتُب﴾ يكون المعنى المُدْمَج هو: وليكتبْ بينكم كاتبٌ كتابةً عادلة تكون محلَّ ثقةٍ من أهل الاختصاص عند التَّنازُع؛ بحيث تخلو من الثَّغرات التي تُمكِّن أحدَهما من المُراوَغة أو الانفكاك ممَّا في ذِمَّته؛ فالعدل هنا ناتج عن موافقة الكتابة للشُّروط الواجبِ توافُرها لضمان الحقوق؛ فهي صفة للكتاب، وقد يكون الجارُّ والمجرور متعلّقين بالفاعل ﴿كَاتِبُۢ﴾، فيكون المعنى المُدْمَج هو: وليكتبْ بينكم كاتب مشهور بالفقه والعدل وعدم المَيل إلى هذا أو ذاك، وهذا يُعرف من خلال كتاباتِه السَّابقة بين النَّاس، وعلى هذا فالجار والمجرور في موضع الصِّفة للكاتب؛ ففقهُ الكاتب ومعرفتُه بأنواع الوثائق معنًى مُدْمَجٌ في الجملة، مقصودٌ منها في النِّهاية[3]، وفيه إشارةٌ إلى ضرورةِ تعليمِ أهل العدلِ الكتابةَ، وأن يكونوا هم القائمين عليها في المجتمع المسلم، إذ ما لا يتمُّ الواجبُ إلَّا به فهو واجبٌ.

(1) الإدماج هو أن يُضمّن كلام سيق لمعنى معنى آخر لم يُصرّح به وهو من المحسّنات المعنويّة، يُنْظر: القزْوينيّ، الإيضاح، ص: 327، والميْداني، البلاغةِ العربيّةِ: 2/427.

(2) الآلوسّي، روحُ المعاني: 1/460.

(3) القُرْطُبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 3/154.

دلالة توجُّه الأمر إلى المُتداينَيْنِ في قوله تعالى: ﴿وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌ﴾:

المبالغة في أَمْرِ المتعاقِدَيْنِ بالاستكتاب إشعارٌ بأهمِّيَّته في نفوس الكُتَّابِ

أمَّا الأمرُ في الجملة فمتوجِّه إلى المتداينَيْنِ، والسِّرُّ في ذلك: "المبالغة في أَمْرِ المتعاقِدَيْنِ بالاستكتاب، فالكاتب ليس مَنُوطًا بالحُكم؛ لأَنَّهُ إمَّا أن يكون أجيرًا أو مُتفضِّلًا، وفي كِلتا الحالَتَيْنِ لا يُمكن أمرُه وإرغامُه على الكتابة، لكنَّ الأقرب إلى الفهم هو توجيهُ الأمر إلى المتداينَيْنِ أن يَبحثا عن كاتبٍ فقيهٍ عَدْلٍ دَيِّن ليقوم بكتابة الدَّين؛ حتى يكون ما يكتبه موثوقًا به، متَّفَقًا عَلَيْهِ بَيْنَ أهل العلم[1]، فجاء الأمر للمتداينَيْنِ على طريق الكنايةِ، فتكون المُخاطبة للكاتب وأمره بالكتابة عن طريق المتداينين، ومِنْ بلاغة ذلك إشعارُ الكاتب بأهميَّة الأمر، حتَّى يَرْفَعَ الحرج عن المتداينَيْنِ، ويلبّي دَعْوتَهُما ويكتُب؛ لأنَّ رفضه قد يُوقِعُهما في الحرج[2].

فائدةُ تنكيرِ لفظِ: ﴿كَاتِبٌ﴾:

يقومُ بالكتابةِ من له أدنى قدرةٍ عليها بشرطِ الكتابةِ بالعدل

أفادَ التَّنكيرُ في لفظِ: ﴿كَاتِبٌ﴾ التَّأكيدَ؛ إذ قد فُهِم من قوله: ﴿وَلْيَكْتُب﴾[3] أن يكونَ هناك شخصٌ يتَّصفُ بالقدرةِ على الكتابةِ، فلمَّا قال: ﴿كَاتِبٌ﴾ كانَ تأكيدًا للأمرِ بالكتابةِ، وقُصِدَ بالتَّنكير العمومُ، أي: أيُّ كاتبٍ، دون تحديد عينه أو اسمِه أو قرابته؛ لأن هذا قد يُفهِم إنْ عُرِّف اللَّفظ بغير الصِّفة؛ كأن يُقال: وليكتب بينكم كاتبكم، أو الكاتب، أو نحو ذلك، فمن فوائد التنكير ألّا يتوقف المُتَدَايِنانِ عن استكتاب مَن يتحقّق به كفايتُهما وقضاء وطرهما؛ إذ المقصود التَّعميم إلى الحدِّ الذي يكفيهم حاجتَهم ويحقّق طِلْبتَهم، فأقلُّ من يَصدُق عليه وصفُ كاتبٍ صالحٌ للمَقام يَفي به ويؤدّي الغرضَ إلى حدِّ الكفاية فيه، حتى لو لم يوجد إلّا مَن له أدنى وصفٍ

(1) الآلوسّي، روحُ المعاني: 4/250.
(2) سعيد جمعة، البلاغة العالية، ص: 63.
(3) أبو حيّان، البحرُ المُحيطُ: 2/747، والسّمين، الدُّرُّ المصون: 2/687، وابْنُ عاشور، التّحريرُ والتّنْوير: 3/101.

من هذه الصّفة فلانفرادِه يتعيّن على المتداينيْنِ استكتابُه، فهذا اضطرار لا سَعةَ فيه لاختيار، لكن بشرطِ أن يكتبَ بالعدلِ.

فائدة تقييدِ ﴿كَاتِبٌ﴾ بقولِه تعالى: ﴿بِٱلۡعَدۡلِۚ﴾:

صفةُ الكاتب هي المطلوبُ الشَّرْعِيّ لا شَخْصه ولا جنسه

مجيءُ اللَّفظ في ذاته نكرةً قُصد به البحثُ عن الوصف، وليس عن الشَّخص؛ ثُمَّ وَصَفَهُ بشِبه الجملة ﴿بِٱلۡعَدۡلِۚ﴾، فالباء هنا مُتَعَلِّقٌ بمحذوف تقديرُه موصوفٌ، وفي الوصف بالعدل مجازٌ مُرسَل علاقتُه المُسبَّبيَّة؛ لأنَّ المقصود هُنا: وليكتب بينكم كاتبٌ فقيه عالم بضوابط العقود، وهذا الفقه بلا شكٍّ سببٌ في حدوث العدل بين المُتداينَيْنِ[1]؛ لأنّ الفقه وسيلة للوصول إلى العدل، والعدلُ غاية.

سِرُّ تَوَجُّه النَّهي إلى الكاتب في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأۡبَ كَاتِبٌ أَن يَكۡتُبَ﴾:

تأكيدُ أهميَّةِ الكتابةِ، وإشراكُ الكَاتبِ في المسؤوليَّةِ المجتمعيَّةِ

قولُه تعالى: ﴿وَلَا يَأۡبَ كَاتِبٌ أَن يَكۡتُبَ﴾ حكمٌ جديدٌ متوجِّه إلى الكاتب، وليس إلى المتداينَيْنِ، وقد حَمَله بعضُ الفقهاءِ على الوُجُوبِ والفريضةِ فرضيّةَ عينٍ؛ لعموم الكُتَّاب بدليل تنكير كلمة ﴿كَاتِبٌ﴾ فهي نكرة في سياق النَّهي تُفيد العمومَ[2].

وقال آخرون: إنّه فرض عين[3] إذا لم يكن في البلدةِ غيرُه، وحملَه بعضُ الفقهاءِ على الوجوب حالَ فراغ الكاتب وعدم شغله[4].

فتوجيهُ النَّهي إلى الكاتب وإشراكُه في زُمرة المتعاملين يجعله فردًا من أفراد هذه المعاملة، حيث تُشْرَطُ عليه وتلزمه وتأمره بالكتابة الحقَّة، وهذا الأمر بعد النَّهْي عن الإباء كالتَّأكيد، لأنَّ الموضوع هامٌّ لتعلُّقه بحفظ الحقوق[5]، وقد توجَّه النَّهيُ إلى صيغة الغائب ﴿وَلَا يَأۡبَ﴾، والأصل في النَّهي أن يكون لمخاطَبٍ، لكن لما كان

(1) سعيد جمعة، البلاغة العالية، ص: 63.

(2) الزّمخْشريّ، الكشّاف: 1/325، وأبو حيّان، البحْرُ المُحيط: 2/724، والبسيلّي، التّقييد الكبير، ص: 382.

(3) على اعتبار أنّ الخطاب هنا نهْيٌ عن الإباء، والنّهي أشدُّ من الأمر، لاقتضائه دوام التّرك في كل زمن. ينظر: البسيلّي، التّقييد الكبير، ص: 382.

(4) ابْنُ عاشور، التّحْريرُ والتّنْوير: 3/102.

(5) المراغيّ، تفْسيُر المراغيّ: 3/73.

الكاتب حاضرًا في السِّياق بتكرار لفظتي ﴿كَاتِبٌ﴾ و﴿يَكۡتُبَ﴾ على سبيل الإطناب[1]؛ صحَّ أن يُسند النَّهيُ إليه بعد حضورِه البارزِ من قَبْلُ[2].

ولأنه لا غائبَ في علم الله، فالله سبحانه وتعالى يأمر وينهى الحاضرين والغائبين، والجميعُ حاضرٌ بين يَدَي الله، واقعٌ تحت علمه[3].

فسِرُّ هذا النَّهي أنَّ الإباء مَعْنَويٌّ مستبْطَنٌ غيرُ ظاهر، فقد يتحقّق ظاهريًّا الاستجابة والانصياع، ولا يتحقّق حقيقةً ولا حُكْمًا بتركِ بعضِ القيود الاحترازيَّة الضَّامنة للحقوق، المحيطةِ بها، الصَّائنةِ لحُرْمَتِهَا، فلم تعُد الرَّقابةُ المجتمعيَّة المتحقَّقة ببينيِّة الكاتب كافلةً ولا كافيةً، فَلَزِمَ أن تُقام عليه وتُوَجّهَ إليه رقابةُ الله ذِكْرًا كما هي في الواقع حاصلةٌ، ولمَّا كانت هذه بدورها عامَّةً معلومةً كان الأَوفقُ الأَوفى بالمَقام أن يُوجّه إليه خطابٌ خاصٌّ يُشْعِرُهُ بمزيد من التَّكليف والاعتناءِ وأنَّ لله رقابةً عليه بخصوصه.

تردُّدُ الكافِ بين معنى التَّشبيه والتَّعليل في قوله تعالى: ﴿كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُۚ﴾:

تذكير الكاتب بنعمة الله عليه في التَّعليم وإلزامُه بتحرّي الدِّقّة في الكتابة

يُحْتَمَلُ أن تكون الكاف في قولِه تعالى: ﴿كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُۚ﴾ للتَّشبيه، فالمعنى: أن يَكْتُبَ كتابةً حَسَبَ علمِه بحيث تكون مستوفية لما ينبغي أن تكون عليه؛ ويُحْتَمَلُ أن تكون الكاف للتَّعليل؛ فالمعنى: أنَّه لمَّا علَّمه الله فليشكرْ نعمتَه عليه، ولا يمتنعْ من الكتابة[4].

والمرادُ بالمشابهة المطابَقةُ لا المقارَبةُ، فتكون الكاف لمقابَلة الشيءِ بمكافِئِه، والعِوَضِ بمعوَّضِه؛ أي: يكتُب كتابةً تكافئ تعليمَ الله إيَّاه الكتابةَ، فينفع النَّاسَ بها؛ شُكرًا على تيسير الله له أسبابَ علمها، وينشأ عن هذا المعنى من التَّشبيه معنى التَّعليل، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَحۡسِن كَمَآ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ﴾ [القصص: 77][5].

(1) البسيلّي، التّقييد الكبير، ص: 382.
(2) سعيد جمعة، البلاغة العالية، ص: 65.
(3) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 2/379.
(4) الزّمخْشريّ، الكشّاف: 1/325، اوبْنُ عُثيمين، تفْسيرُ ابْنِ عُثيْمين: (الفاتحة والبقرة): 3/404.
(5) السّمين، الدُّرُّ المصون: 2/652، اوبْنُ عاشور، التّحريرُ والتّنْوير: 3/102-103.

فالأَوْلى في هذا السِّياق تذكيرُه بهذه الضَّوابط وتلك الشُّروط التي تعلَّمها؛ حتى يجعلَها في ذهنه عند الكتابة، ثُمَّ يجعل ما يكتبُه مُطابقًا ومشابهًا لما تعلَّمَهُ.

غـرضُ التَّشبيهِ التَّذكيرُ بنعمةِ الله على الكُتَّابِ

وعلى هذا المعنى يكون في الجُملة تشبيهٌ مُتكامِلُ الأَركان، فالمُشَبَّهُ الكتابة المأمور بها، والمُشَبَّهُ به الكتابة التي علَّمه الله إياها، والأداة الكاف، ووجهُ الشَّبه الدِّقّة والعدل.

وجمالُ هذا التَّشبيه يَنْبُع من التَّذكير بنعمة الله تعالى على الكاتب؛ بتعليمه ما لم يكن يعلمُ، والإشارةُ إلى الدِّقّة العالية، والالتزامُ الشَّديد بضوابط الكتابة لأنَّها منسوبةٌ إلى ما علَّمه الله إيَّاه، والتَّرهيبُ من مُخالفة الأصولِ والقواعد الضَّابطة للحقوق، وذلك من خلال استعمال اسم (الله) تعالى الباعثِ على الرَّهبة؛ ولذلك لم يقل: (كما علَّمه ربُّه)، وفيه أيضًا الإشارةُ إلى أنَّ ضبط هذه المعاملات لا يكون إلّا بما شرَعه الله تعالى وحدَّده، وأنَّ العدول عمَّا أنزله الله تعالى يَحْمِلُ الفسادَ والإفسادَ للبشريَّة جميعًا[1].

ما عَلَّمَهُ اللهُ الكاتبَ يندرج تحت فضْلين؛ فَضْلٍ راجعٍ إلى اتِّباع القواعد بتوفيقه، وفضلٍ راجعٍ إلى جميل الفوائدِ ومليح العوائدِ بتزويقه، والأَوَّلُ فاشٍ معلومٌ يُحتَكم إليه، ويُخْتَصَمُ فيه، ويُعْلَمُ قدر ما خُولف منه لانضباطه، والثَّاني راجعٌ إلى المَلَكَة، والاستعداد النَّفسيّ، وحُسْنِ الإلمام، ودِقَّةِ التَّحصيل، وحُسْنِ الاستخلاص والانتخاب، ولُطْفِ التَّفريع، وبُعْدِ النَّظر في المَآلات، فليس للأمور بصاحبِ مَن لم يَنْظُر في العواقب، وإلى الاستفادة من الخِبْرات، واختزان التَّجارب والمحصِّلات، واستخلاص الدُّروس والخُلاصات، فهذا مُخْتَصٌّ به ويتفاوت الكتّاب فيه، وهو الذي فيه التَّميُّز، فلذا ناسب أن يتوجَّه النَّهيُ من الله تبارك وتعالى إليه مُباشرة؛ ليكون له وَصاةً أن يبذُل النُّصحَ ويستفرغ الوسعَ ولا يدع شيئًا من الاحتياط لطَرَفَي المداينة إلّا أثبته على وجه يُقِيمُ الحقَّ ويُقِرُّ العدلَ.

(1) سعيد جمعة، البلاغة العالية، ص: 66.

تعيينُ تعلُّقِ قوله تعالى: ﴿كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُۚ﴾ بالمتعلَّقِ به وأثرُه في المعنى:

قوله: ﴿كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُۚ﴾ يجوز أن يتعلق بـ﴿أَن يَكۡتُبَ﴾، وبقوله: ﴿فَلۡيَكۡتُبۡ﴾.

فإنْ تعلَّق بـ﴿أَن يَكۡتُبَ﴾ فقد نَهى عن الامتناع من الكتابة المقيَّدة، ثُمَّ قيل له: ﴿فَلۡيَكۡتُبۡ﴾؛ يعني: فليكتب تلك الكتابةَ لا يَعدل عنها للتَّوكيد، ويكون من قبيل المُنَزَّل على شِبْهِ كمال الاتِّصال، فكأنَّه لمَّا قيل: ﴿وَلَا يَأۡبَ كَاتِبٌ أَن يَكۡتُبَ﴾، قيل: كيف يكتبُ؟ فأجيب: ﴿كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُۚ فَلۡيَكۡتُبۡ﴾.

وإنْ تعلَّق بقوله: ﴿فَلۡيَكۡتُبۡ﴾ فقد نَهى عن الامتناع من الكتابة على سبيل الإطلاق، ثمَّ أَمر بها مقيَّدةً تفريعًا لتوكيد الأمرِ المفهوم من قوله: ﴿وَلَا يَأۡبَ كَاتِبٌ﴾[1].

فائدة التَّفريع[2] بالفاءِ في قولِه: ﴿فَلۡيَكۡتُبۡ﴾:

تأكيدُ الأمرِ بالكتابة وتأكيدُ النَّهيِ عن الإباء

معنى قولِه: ﴿فَلۡيَكۡتُبۡ﴾؛ أي: تلك الكتابةَ المُعلَّمة، أَمَرَ بها بعد النَّهي عن الإباء عنها تأكيدًا[3]، فهو تَفريعٌ على قولِه: ﴿وَلَا يَأۡبَ كَاتِبٌ﴾، وهو تَصريحٌ بمُقتَضَى النَّهي وتَكريرٌ لِلأَمرِ في قوْلِه: ﴿فَٱكۡتُبُوهُۚ﴾، فهو يُفيدُ تأكيدَ الأَمرِ وتأكيدَ النَّهي أيضًا، وفرِّع بالفاءِ للإشارةِ إلى سُرعةِ الامتثالِ، وإنَّما أُعيدَ لِيُرتَّبَ عليه قولُه: ﴿وَلۡيُمۡلِلِ ٱلَّذِي عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ﴾ لِبُعْدِ الأَمْرِ الأَوَّلِ بما ولِيَهُ، ومثلُه قوْلُه تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوهُ﴾ [الأعراف: 148] بعدَ قولِه: ﴿وَٱتَّخَذَ قَوۡمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِنۡ حُلِيِّهِمۡ عِجۡلًا جَسَدًا﴾ [الأعراف: 148][4].

وهذا التَّلوين والتَّنوُّعُ في أداء المعنى يُوَضِّح مدى أهميَّة الكتابة ممَّا حَدا ببعضِ الفقهاءِ إلى أن قالوا: إنَّ الأمر هنا للوجوب[5].

---

(1) الزَّمخْشريّ، الكشّاف: 1/325، وأبو حيّان، البحرُ المُحيط: 2/725.

(2) التّفريع عند البلاغيين من الاستطراد، وذلك أن يقصد القائل وصفًا ما ثُمّ يُفرِّع منه وصفًا آخر يزيد الموصوف توكيدًا، أي أن يُثبت حُكمًا لمتعلّقِ أمرٍ بعد إثباته لمتعلّق آخر، والمراد بتفرع الثّاني على الأوّل كونه ناشئًا ذكره عن ذكر الأوّل، حيث جعل الأوّل وسيلة للثّاني، أي كالتقدمة والتوطئة له، حتى أن الثّاني في قصد المتكلّم لا يستقل عن ذكر الأوّل، كقول الكُميْتِ:

أحْلامُكُم لِسِقام الجهْلِ شافيةٌ *** كما دِماؤكُمُ تشْفي مِن الكلِبِ

فرّع من وصفهم بشفاء أحلامهم لسقام الجهل وصفهم بشفاء دمائهم من داء الكلِب. يُنظر: ابن رشيق القيروانيّ، العمدة: 2/42.

(3) الزَّمخْشريّ، الكشّاف: 1/325، والبيْضاويّ، أنْوارُ التّنْزيلِ: 1/164، وأبو السُّعود، إرْشادُ العقْلِ السّليمِ: 1/269.

(4) ابْنُ عاشور، التّحْريرُ والتّنْوير: 3/103.

(5) أبو المظفر السمعانّي، تفسير السمعانيّ: 1/283.

واحتيج إلى هذا التَّفريع لأنَّ النَّهي عن الشَّيءِ ليس أمرًا بضِدِّه صريحًا على الأصحِّ، فأكَّده بذِكره صريحًا اعتناءً بشأن الكتابة[1].

فائدةُ أمرِ المدين بالإملالِ في قوله تعالى: ﴿وَلۡيُمۡلِلِ ٱلَّذِي عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ﴾:

إثبات إقرار المَدِين بالحقِّ الذي عليه وتطمينُ الدَّائن على ماله

بعد خِطابِ الأمَّة عامَّةً بكتابة الدَّين وخِطابِ الكاتب له جاء هذا الخطابُ للمَدِين؛ فالأمرُ في قوله تعالى: ﴿وَلۡيُمۡلِلِ ٱلَّذِي عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ﴾ موجَّهٌ إلى آخِذِ الدَّين؛ لأنَّ المنظومةَ واحدة، والسِّياقَ واحد، والغايةَ المنشودة من الآية غاية واحدة، ومسؤوليَّةَ الأطراف الثَّلاثة في حفظ هذه الأموال على درجة واحدة، ومن أجل كلّ ذلك عمَّ الأمرُ كلَّ الأطراف[2].

والسَّبب في أنَّ الذي عليه الحقُّ هو المعنيُّ بإملاء الدَّين أنَّ الغَبْن قد يقع عليه لو أملى الدَّائنُ فزاد في الدَّين أو قرَّب الأجل أو ذَكر شروطًا معيّنةً في مصلحته، وبخاصّةٍ أنَّ المَدِين في موقف ضعيف قد لا يَملك معه إعلانَ المعارضة رغبةً في إتمام الصَّفقة لحاجته إليها، فيقعُ عليه الغَبْنُ من هذه النَّاحية.

وإذا كان المَدِين هو الذي يُملي لم يُملِ إلا ما يُريد الارتباطَ به عن طيب خاطر، ثُمَّ ليكونَ إقرارُه بالدَّين أقوى وأثبت؛ فهو الذي يُملي[3].

فلا بدَّ أن يكون هو المُقِرَّ لا غيرُه، وفُهِمَ الحَصْرُ من تعلُّق الحكمِ بالوصف؛ فإنَّ ترتيب الحكمِ على الوصف مُشْعِرٌ بالعِلِّيّة، والأصلُ عدمُ علّةٍ أخرى[4].

ولأنَّه لا يستوي المنصوصُ عليه بغير المنصوص، ولأنّ النَّصِّيَّ أَدْخَلُ في القَطْعِيِّ منه في الظَّنِّيِّ، وغيره المقَدَّرُ ظنِّيٌّ فليْسا سواءً.

ولأجل هذا قال: ﴿ٱلَّذِي عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ﴾ ولم يقل: (المَدِين) لأنَّ كلمة المَدِين لن تفيد معنًى جديدًا في هذا السِّياق؛ لكن لمّا أُريد التَّأكيدُ على المَدِين بأن يعترف بما عليه أمام الشُّهود

(1) الآلوسّي، روح المعاني: 2/55.
(2) سعيد جمعة، البلاغة العالية، ص: 71.
(3) ابنُ عاشور، التّحريرُ والتّنْوير: 3/102.
(4) الآلوسّي، روح المعاني: 3/67.

والكاتب، ولمّا أُريد تذكيرُه بأنَّ ما أخذه ليس حقَّه، بل هو حقُّ الدَّائن، والحقوق لا بدَّ أن ترجع إلى أصحابها، عرَّف المَدِين بجملة الصِّلة كي تجمعَ كلَّ هذه المعاني في وسيلة واحدة للتَّعريف، كما أنَّه متوجِّه أيضًا إلى الدَّائن طَمْأنةً له وتسكينًا لفؤاده من أنَّ ماله لن يَضيع.

ومتوجّه كذلك إلى الشّاهدَين بأنّ ما يشهدان عليه ليس إلّا الحقَّ، فعليهما الإقدامُ وعدم التَّخاذُل، وعليهما الشَّهادةُ الصَّادقة التي تَحفظ الحقوق.

وهو كذلك متوجِّه إلى الكاتب بأنَّ ما سيكتبه ليس إلّا الحقَّ؛ فلا ينبغي أن يَحيد عنه، وإلا فقد ضيَّعه؛ فالكلمة جرسُ إنذارٍ للجميع[1].

سِرُّ الجَمْع بين الاسم الجليل والنَّعت الجميل في قوله تعالى ﴿وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ﴾:

تربية المَهابة وتذكيرٌ بالإحسان لامتثال الأوامر والتحذير من العصيان

التعبيرُ في قوله تعالى: ﴿وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ﴾ بالاسم العظيم (اللّه)؛ ليكون أزجرَ للمأمور، ثم قال: ﴿رَبَّهُۥ﴾ تذكيرًا بأنَّه لإحسانه لا يَأمر إلَّا بخير؛ كَوْنُهُ مُرَبِّيًا لهُ، مُصْلِحًا لِأَمْرِهِ، باسِطًا عليه نِعَمَه، وترجيةً للعِوض في ذلك إذا أدَّى فيه الأمانة في الكمِّ والكيف من الأجَل وغيره؛ وأكَّد ذلك بقوله: ﴿وَلَا يَبْخَسْ﴾[2].

والجمع بين عُنوان الأُلوهيَّة وصِفة الرُّبوبيَّة فيه تأكيدٌ، وشدَّةُ تحذير من المخالفة، فَذُكِرَ اسمُ الجلالةِ فيه مع إمكان الاستغناء بقوله: (وَلْيَتَّقِ اللّه رَبَّه)؛ لإدخال الرَّوع في ضمير السَّامع، وتربيةِ المَهابة[3]، وتذكيرٌ بأنَّه سَيُعان على الأداء بالتَّقوى، وسَيُكْفَى ما أهمَّه من أمر الوفاء، كما قال: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا ۝٤﴾ [الطلاق: 4].

وَقُدِّمَ الاسمُ الأحسن ﴿ٱللَّهَ﴾ لأَنَّ مُراقَبتَه مِنْ جِهَةِ العُبُودِيَّةِ والأُلُوهِيَّةِ أَسْبَقُ مِن جِهَةِ النِّعَم.

وفي ذِكر الرُّبوبيَّة مَزيدُ إقبالٍ على المُنْعِم المتفضِّل على خَلْقِهِ قبل

(1) سعيد جمعة، البلاغة العالية، ص: 74.
(2) البِقاعيّ، نظْمُ الدُّررِ: 4/148.
(3) أبو السُّعود، إرْشادُ العقْلِ السّليمِ: 1/267، والقاسِمي، محاسِنُ التّأْويلِ: 2/236، اوبْنُ عاشور، التّحْريرُ والتّنْوير: 3/125.

أن يكون لهم وجودٌ، ثُمَّ قَبْلَ أن يكون للإنسان إدراكٌ، ثُمَّ للتَّقرير بأنَّ التَّشريع مزيدُ إنعامٍ وإكرام؛ لأنَّه سِرُّ استِدامةِ الهداية وحارسُ التَّوفيق للعمل بمَراضي اللّه.

والجمعُ ما بين الاسمِ الجليلِ والنّعتِ الجميل للمبالغة في التحذير؛ أي: وليتَّقِ المُمْلي، فبالأحرى الكاتبُ[1].

سِرُّ الاستِعارة بلفظ البَخْسِ في قولِه: ﴿وَلَا يَبۡخَسۡ مِنۡهُ شَيۡـٔٗاۚ﴾:

تصويرُ ضَرَرِ البَخْسِ وظُلْمِه الذي يَطُولُ الحقوقَ

اختار النَّظم لفظَ البَخْس دون غيره من الألفاظِ؛ لأن مِن دلالته النقصَ والإخفاء، وأقربُ الألفاظ إلى معناه هو الغَبْنُ، فالبَخْسُ في لسان العرب هو النَّقصُ بالتَّعييب والتَّزهيد، أو المخادعةُ عن القيمة، أو الاحتيالُ في التَّزيُّدِ في الكَيل أو النُّقصانِ منه عن غَفْلَةٍ من صاحب الحقِّ[2].

كما أنَّ هذه الكلمة استُعيرت لتصوير المُجسَّد الحاكي[3]؛ إذ لفظةُ بَخْسٍ في الأصل اللُّغوي لِلعَينِ العَوراء، يُقال: بخَسَتْ عينُه؛ أي: عَوِرتْ، ولا يَخفى ما في هذا التَّصويرِ مِنَ التَّأكيدِ في الدَّلالة والبيان على مجرَّد البيان القوليِّ[4].

ولما تَحمِله هذه الكلمةُ من دلائل الضَّرر أَتبَعها بالإيجاز البديع في قوله ﴿مِنۡهُ﴾؛ إذ الضَّمير عائدٌ إلى الحقّ، وهو حقٌّ لِكلا المُتداينَيْن، فإذا بَخَسَ منه شيئًا أَضرَّ بأحدهما لا مَحالة[5].

كما عدَّى الفعل إلى كلمة ﴿شَيۡـٔٗاۚ﴾، وهي نكرة، لإفادة العموم والإحاطة؛ أيْ: أيَّ شيء، ولو كان حقيرًا؛ لأنَّ البَخْسَ يُطلق في القرآن أيضًا على نقص القليل الذي لا يُؤبه له، وقد باع إخوةُ يوسفَ النبيِّ - على نبينا وعليه الصَّلاة والسلام - أخاهم النَّبِيَّ بثمنٍ نعتَه القرآن:

(1) أبو السُّعود، إرْشادُ العقْلِ السّليمِ: 1/270.

(2) ابْنُ العربيّ، أحكام القرآن: 2/318.

(3) المجسَّد الحاكي، أو تشبيه المحسوس بالمعقول، وهو آكدُ في الدَّلالة من البيان القولي الذي تتشكَّل دَلالاته ومعانيه عن طريق التعبير باللُّغة، بسبب ما تَوَفَّر في ذلك البيان الحاكي من مشاهد متحرِّكة زائدة عن الدَّلالة باللُّغة، يصل بها إلى قِمَّة النفاذ والتأثير في النفس الإنسانية. يُنظر: محمد قاسم، علوم البلاغة «البديع والبيان والمعاني، ص: 152.

(4) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 1/440-442.

(5) ابْنُ عاشور، التَّحْريرُ والتَّنْوير: 3/104.

﴿بِثَمَنٍ بَخْسٍ﴾ [يوسف: 20]، فجاء النَّهيُ في آية المُدايَنة عن نقص الحقِّ عند كَتْبه ولو قليلًا، مُعَلَّلًا بأصل كلمة بَخْس، وبذكر المفعول ﴿شَيْـًٔا﴾.

بلاغةُ الاستثناءِ بالشَّرطِ في قولِه تعالَى: ﴿فَإِن كَانَ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ﴾:

صِيانةُ حُقُوقِ النَّاسِ بالقيودِ المُلْزِمة أولى من التَّسامحِ فيها

لمّا قال تعالى: ﴿وَلْيُمْلِلِ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ﴾ تبيّن أنّ هذا الحقَّ قد يكون على أُناس لا يستطيعون القيام بالإملال، وهم السَّفيه والضَّعيف ومَن به سببٌ عارض يمنعه من الكتابة، فاستُثنوا من الإملال لا من الكتابة بقوله تعالى: ﴿فَإِن كَانَ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ﴾؛ إذِ الكتابة واجبة على الجميع، إلّا أنّ الاستثناء هنا سلك طريق الشَّرط؛ وذلك لأنَّ الشَّرط في الأصل قيدٌ، والقيودُ تتواءَمُ مع سياقِ الآيةِ الذي يسير في فلك التَّشديدِ والتَّضييق في حفظ الحقوقِ مسايرةً لطبائع النّاس في المشاحَّة بحقوقها، وهو ما يُضِيفُ بُرهانًا مؤكِّدا أنَّ القرآن الكريم هو كلامُ الخلّاق العليم بما أَودع في فِطَر مخلوقاتِه من طبائع.

بلاغةُ ترتيبِ الأصنافِ في قولِه تعالَى: ﴿سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ﴾:

ترتيبُ الأصنافِ أولويٌّ تصاعديٌّ

المقصودُ بالسَّفيه الجاهلُ[1]، وبالضَّعيف الأحمقُ؛ أمَّا الذي لا يستطيع أن يُمِلَّ فهو الصغير، أو المسنُّ الطَّاعن في السِّنِّ الذي لا طاقةَ له بالكلام من الكِبَر؛ فأشدُّ النَّاس حاجةً إلى وليٍّ ليقومَ عنه بالإملاء هو السَّفيهُ؛ لأنَّه مُختلُّ العقل لا يُحْكِمُ الأشياءَ، ثمَّ يأتي الضَّعيف، ثُمَّ الذي لا يستطيع أن يُمِلَّ هو.

فترتيب هذه الأصناف ترتيبُ أولويَّةٍ في حاجة كلِّ صِنْفٍ إلى من يقوم عنه بالإملاء؛ فالسَّفيهُ أشدُّهم احتياجًا، ثمَّ الضَّعيف، ثُمَّ الذي لا يستطيع الإملاء[2].

(1) أبو حَيّانَ، البَحْرُ المُحيط: 2/747-748.

(2) سعيد جمعة، البلاغة العالية، ص: 78.

فائدة تَكْرارِ قولِه: ﴿ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ﴾ في سياقٍ واحد:

تأكيدُ حِفْظِ الحقوق وإحقاق الحقِّ

في قوله: ﴿وَلْيُمْلِلِ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ﴾ وقوله: ﴿فَإِن كَانَ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ﴾ تَكرارُ لفظ (عليه الحقُّ)؛ وذلك لتأكيد الدُّعاء إلى اتِّباعه، وهذا يُشير إلى أنَّ الحقّ كلمة سارية في ثنايا الآية ومُقرَّرة بعِدَّة صور؛ لِتملأ على الجميع حواسَّهم، فلا تغيب عنهم، وفي ذلك ما فيه من إثارة النُّفوس إلى حفظِ هذا الحقِّ وضمانِه والاجتهادِ في إيصاله إلى أصحابه، وأتى بحرفِ (على) للإعلام بأنَّ لصاحب الحقِّ مقالًا واستعلاءً[1].

دلالة التَّأكيد بالضَّمير في قوله: ﴿يُمِلَّ هُوَ﴾:

إفادة التَّنصيص على عدَمِ قُدرتِه بنفسِه

الضَّمير في قوله: ﴿أَن يُمِلَّ هُوَ﴾ ضميرُ توكيدٍ للضَّمير المُستتر في ﴿أَن يُمِلَّ﴾، وفائدةُ التَّوكيدِ بِهِ رفعُ المَجازِ الذي كان يحتملُه إسنادُ الفعلِ إلى الضَّمير؛ فيُقال: أو لا يستطيع أن يملَّ؛ فالضَّمير ﴿هُوَ﴾ أفاد التَّنصيصَ على أنَّه غيرُ مستطيعٍ بنفسه[2].

وتأكيد الضَّمير المستتر في فِعل (يُملَّ) بالضمير البارز ﴿هُوَ﴾ تمهيدٌ لقوله: ﴿فَلْيُمْلِلْ﴾؛ لئلَّا يَتوهَّم الناسُ أنَّ عجزَه يُسقِط عنه واجبَ الإقرار بما يَستدينه.

أثر تَكْرار الأمرِ في بناء جملة: ﴿فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُۥ بِٱلْعَدْلِ﴾:

قولُه تعالى: ﴿فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُۥ بِٱلْعَدْلِ﴾ جوابُ الشَّرط السَّابق في قوله: ﴿فَإِن كَانَ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ﴾، فالذي يتبادر إلى الذِّهن مِن هذا الشَّرط هو التَّخفيفُ عنهم؛ بأن يُقال مثلًا: فلا حرجَ عليهم ألّا يكتبوا، أو نحو ذلك؛ لكنّ جواب الشَّرط جاء بالإملال، وبصيغة المضارع المقترنِ بلام الأمر، وهي أَلزمُ وأشَدُّ في الوجوب، وهذا يشير إلى أنَّ وجوب الكتابة ليس

(1) أبو حَيّانَ، البَحْرُ المُحيط: 2/747-748، وسعيد جمعة، البلاغة العالية، ص: 81.
(2) أبو حَيّانَ، البَحْرُ المُحيط: 2/726، والسَّمين، الدُّرُّ المَصون: 2/654، والقاسِمي، مَحاسِنُ التَّأْويلِ: 2/235.

مقصورًا على أحد دون أحدٍ، فلا تَسامحَ في هذا الأمر، حتَّى وإن كان الذي عليه الحقُّ سفيهًا أو ضعيفًا أو لا يستطيع أن يملَّ، وهذه الفاء هي الواقعة في جواب الشَّرط؛ لأنَّه فعلُ أمر، والمجيءُ بالمضارع المقترنِ بلام الأمر يَدُلُّ على أنَّ الوجوب الكامنَ في الإملال الأوَّلِ على الذي عليه الحقُّ لم يُنقض، ولم يُتَسامح فيه؛ بل هو على ما هو عليه من الإلزام والفرْضيَّة[1].

بلاغةُ عَطْفِ جملةِ: ﴿وَٱسۡتَشۡهِدُواْ شَهِيدَيۡنِ﴾ وسرُّ تأخُّرِها:

العقودُ الشَّرعيَّةُ لا تكتملُ إلَّا بشهودِ عدلٍ

عُطِفَ قولُه تعالى: ﴿وَٱسۡتَشۡهِدُواْ شَهِيدَيۡنِ﴾ عَلَى ﴿فَٱكۡتُبُوهُۚ﴾؛ لإتمام أركان العقد، فبعد الحديث عن المتداينين والكاتب عَطَف عليهما بذِكر الطّرف الثَّالث في العَقد وهُما الشّاهدان؛ ليكتملَ بذلك توثيقُ العَقد.

وتأخَّر ذكرُ جملةِ الإشهادِ عن جملةِ الكتابة؛ لأنَّها مؤخَّرة عنها رُتبةً، إذ يُتصوَّر كتابةُ عقدِ الدَّين بدون شاهِدَين، لكن لا يُتصوَّرُ وجودُ شاهِدَيْن بدون عقدِ دَيْنٍ، فالشَّاهدان تابعان للعقدِ في الرُّتبةِ، متزامنان له في أثناءِ الإملال والاتّفاقِ.

بلاغة التَّوكيد في جملة: ﴿وَٱسۡتَشۡهِدُواْ شَهِيدَيۡنِ﴾:

بيان أهميَّة الشَّهادة وخطرِ التَّلاعُب أو التَّهاونِ فيها على المُجتمعِ

جاء في قولِه تعالى: ﴿وَٱسۡتَشۡهِدُواْ شَهِيدَيۡنِ﴾ عدَّةُ مُؤكِّدات تُبَيِّنُ أهميَّةَ الشَّهادة وأثرَها في حفظ الحقوق؛ ومن هذه المؤكِّدات:

أوّلًا: صِيغةُ الاستفعالِ في قوله: ﴿وَٱسۡتَشۡهِدُواْ﴾، فالسِّينُ والتَّاءُ فيه لمُجرَّدِ التَّأكيد، فإنَّ الألف والسِّين والتَّاء مع دلالة الطَّلب، تفيد: التَّوكيد والتَّحقيق[2]، فدلالة الطَّلب تُفيدُ تحرّيَ اختيارِ الشُّهود من أهل العدالة والتّحمُّلِ والقدرة على الأداء، وأن يكونوا لا يخشون في الحقِّ لومةَ لائم.

(1) الآلوسي، روح المعاني: 3/68، وسعيد جمعة، البلاغة العالية، ص: 81.
(2) ابنُ عاشور، التَّحريرُ والتَّنْوير: 3/105.

ثانيًا: لفظُ الشَّهادة، فالتَّعبير بلفظة ﴿شَهِيدَيْنِ﴾ التي هي على صِيغة فَعِيل للمُبالغة في المعنى في تَحَقُّقِ الوصفِ بالاستبصار والخِبرة، وهو مَنْ كثُرت منه الشَّهادةُ، وفي ذلك إشارةٌ إلى العدالة؛ لأنَّه لا يتكرَّر ذلك من الشَّخص عند الحُكَّام إلَّا وهو مقبولٌ عندهم[1]، فهو عالِمٌ بموقعها، مقتدِرٌ على أدائها، ففيه إشارةٌ إلى العدالة[2].

ثالثًا: تَعديةُ الفعل إلى المفعولِ المُطلقِ؛ إذ الأصلُ في المفعولِ المطلقِ التَّوكيدُ.

سِرُّ الحذفِ والإضمار في قوله: ﴿مِن رِّجَالِكُمۡۖ﴾:

الإشارةُ إلى وُجودِ العدالة والإسلام في الشَّاهدَيْنِ

جاءَ في قولِه تعالى: ﴿مِن رِّجَالِكُمۡۖ﴾ حذفٌ، وفيه إشارةٌ إلى العدالةِ والإسلامِ؛ أمَّا العدالة فَيَدُلُّ عليها إيجازُ الحذف؛ إذ التَّقدير: (شَهيدين كائنين من رجالكم)، فهي وقعتْ مَوْقِعَ الإشارةِ إلى العدالة[3].

وأمَّا الإسلام فيدلُّ عليه الضَّمير في قولِه: ﴿رِّجَالِكُمۡۖ﴾؛ أَيْ: مِنْ رِجَالِ المُسْلِمِينَ، فضَمِيرُ جماعةِ المُخاطَبِينَ مُرادٌ بِهِ المُسْلِمُونَ؛ لقوله في طالعة هذهِ الأَحكام: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾، والضَّميرُ المُضافُ إليه أفادَ وَصْفَ الإسلام[4]؛ لأنَّ المسلمين عُدولٌ بعضُهم على بعض.

سِرُّ استعمالِ نفي الشُّمول في قوله تعالى ﴿فَإِن لَّمۡ يَكُونَا رَجُلَيۡنِ﴾ لا شُمولِ النَّفي:

دفعُ توهُّم عدمِ قَبول شهادة النِّساء إلا عند تعذُّر وجودِ الرِّجال

جِيءَ في الآيَة بكان النَّاقِصَةِ مَعَ إمكانِ أن تَجيءَ تامَّة، فيُقال فإنْ لمْ يَكُنْ رجُلانِ لِئَلَّا يُتَوَهَّمَ مِنْهُ أَنَّ شهادةَ المرأتَيْنِ لا تُقْبَلُ إلَّا عِنْدَ تَعَذُّرِ الرَّجُلَيْنِ؛ إذ التامّة معناها الوجودُ، فالمُراد هُنا نفيُ الشُّمول لا

(1) أَبو حَيّانَ، البَحْرُ المُحيط: 2/727، والبِقاعيّ، نَظْمُ الدُّرَرِ: 4/153.
(2) أَبو حَيّانَ، البَحْرُ المُحيطُ: 2/727، والآلوسي، روح المعاني: 2/56.
(3) ابْنُ عَطيَّةَ، المُحَرَّرُ الوَجيز: 1/380، وأَبو حَيّانَ، البَحْرُ المُحيط: 2/747-748.
(4) ابْنُ عاشور، التَّحريرُ والتَّنْوير: 3/106.

شُمولُ النَّفي؛ لِأَنَّ مقصُودَ الشَّارِعِ التَّوْسِعةُ عَلَى المُتعامِلِينَ، وفيه مَرْمًى آخَرُ وهُوَ تَعْويدُهُمْ إِدْخالَ المَرْأَة في شُؤون الحياةِ إِذْ كانت في الجاهليَّةِ لا تشتركُ في هذه الشُّؤون، فجعلَ اللَّهُ المرأتَيْنِ مَقامَ الرَّجُلِ الواحدِ، وعلَّلَ ذلك بِقَوْلِهِ: ﴿أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ﴾، وهذه حَيْطَةٌ أُخْرى من تحريف الشَّهَادةِ، وهي خشيةُ الاشتباهِ والنِّسيانِ لأنّ المرأَة أَضْعفُ من الرَّجلِ بِأَصْلِ الجِبِلَّةِ بِحَسَبِ الغالِبِ، والضَّلَالُ هنا بِمَعْنى النِّسيانِ[1].

فالسِّرُّ في نفي الشُّمول هو قوَّةُ الدَّاعيةِ إلى العنصر النِّسائيّ في الشَّهادة وبُدُوُّ الحاجة لا سيّما في المعاملات بَيْنَ النِّساء أو ما يكون مِنْ بَيْنِ أطرافِها نِساءٌ.

سِرُّ وَصْفِ الرَّجلِ والمرأتين بقوله تعالى: ﴿مِمَّن تَرْضَوْنَ﴾:

تحرِّي العدالةِ والأمانة في الشُّهود

قوله تعالى: ﴿فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ﴾، يدلُّ على أنَّ الرَّجلَ والمرأةَ معروفان لدى المخاطَبين، وهما ممَّن يرضاهما المخاطَبون، وهذا التَّعريف يُشير إلى أنَّ كُلَّ واحدٍ منهم مُختَبَرٌ في مثل هذه المواقف؛ حيث ثبت عدلُه وصدقُهُ، وهذا يقارب معنى ﴿شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ﴾.

لكنّ قوله: ﴿شَهِيدَيْنِ﴾ فيه من الشُّهرة ما لا يُوجَدُ في ﴿فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ﴾؛ إذ الأصل في المرأة عدمُ الشُّهرة، وإن كان لا يمنَعُ تجربةَ الشَّهادةِ عليها؛ ولذلك زِيدَ بعد الوصف قولُه: ﴿مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ﴾، ولم يقل: (من المسلمين)، أو (من النَّاس).

ولأهميَّةِ الشُّهرة والعدالة في الشَّهادة جيء بإيجاز الحذفِ في ﴿فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ﴾؛ إذ التَّقدير: فليشهدْ رَجُلٌ؛ أَيْ: مَرْضِيٌّ، وامْرَأَتَانِ مَرْضِيَّتان، مِن الشُّهَدَاءِ المَرْضِيِّين[2].

سِرُّ إظهارِ ما ظاهرُه الإضمارُ في قوله تعالى: ﴿فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ﴾:

دفعُ توهُّم ضلالِ واحدة من النِّساء الشَّاهدات بعينها

قوله تعالى: ﴿أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ﴾ فيه وضعُ الظَّاهر موضعَ الضَّمير، إذِ الظَّاهر: (فتذكرها الأخرى)؛ وذلك لتأكيد الإبهامِ والمبالغة في الاحتراز عن توهُّمِ اختصاصِ

(1) ابْنُ عاشور، التَّحْريرُ والتَّنْوير: 3/109.
(2) أَبو حَيّانَ، البَحْرُ المُحيطُ: 2/747-748.

الضَّلالِ بإحداهما بعينِها دون الأخرى، ولذلك لم يقل: (أن تضلَّ إحداهما فتذكِّرَها الأخرى)[1].

ولجواز أن تَضِلَّ كلٌّ منهما في جُزئيّة غيرِ الّتي ضَلَّت فيها الأخرى؛ إذ لو كان الضّلال في واحدة لا بِعَيْنها، وكانت شهادة الأخرى مستقيمةً، لكفتْ شاهدةٌ واحدة، لأنّه يَتحصَّل من مجموع شهادَتَي المرأتين شهادةٌ واحدة كاملة مُسْتقيمة.

وهذا تعليلٌ لاعتبار العدد في النِّساء، والعِلَّة في الحقيقة هي التَّذكيرُ، ولكنَّ الضَّلال لما كان سببًا له نُزِّلَ منزلَتَه، كما في قولك أعددتُ السِّلاحَ أن يَجيءَ عَدُوٌّ فأَدفعَه، فالإعدادُ للدَّفع لا لمجيءِ العدوِّ، لكنْ قَدَّم عليه المجيءَ لأنَّه سَبَبُهُ، كأنَّه قيل: لأجل أن تُذكِّر إحداهما الأخرى إنْ ضلَّت الشَّهادةَ بأنْ نَسِيَتْ[2].

وهذا يدلُّ على شِدَّةِ الاهتمام بشأن الإذْكار بحيث صار ما هو مكروهٌ كأنَّه مطلوب لأَجله من حيث كونُه مُفْضِيًا إليه[3].

ولما كانت النُّفوس مُستشرِفَةً إلى معرفة أسبابِ الحوادث قدَّمَ في هذه العِبارة ذِكْرَ سببِ الأمر المقصود أن يُخْبَر به، وفي ذلك سَبْقُ النُّفوسِ إلى الإعلام بمُرادِها، وهذا من أبرع أنواعِ الفصاحة؛ إذ لو قال رجلٌ لك: أعددتُ هذه الخشبة أن أَدْعَمَ بها الحائط، لقال السَّامع: ولِمَ تَدعم حائطًا قائما؟ فيجب ذكرُ السَّبب فيُقال: إذا مال؛ فجاء في الكلام تقديمُ السَّبب أخصرَ من هذه المُحاوَرة[4].

وهذا التَّكرار والإظهار يُرشِّحُ الجملةَ لأنْ تَجريَ مَجرى المَثَل[5].

فائدةٌ أدبيَّةٌ في توجيه تَكرار ﴿إِحْدَىٰهُمَا﴾:

قال الخَفاجيُّ[6]: سألتُ قاضي القضاة شهابَ الدِّين الغزنويَّ عن سِرِّ تَكرار إحدى، فَقُلْتُ:

(1) أَبو السُّعود، إرْشادُ العَقْلِ السَّليمِ: 1/270، والآلوسي، روح المعاني: 2/57.
(2) إسْماعيل حَقّي، روحُ البَيانِ: 1/441.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 2/57.
(4) ابْنُ عَطيَّةَ، الْمُحَرَّرُ الوَجيز: 1/382.
(5) أَبو حَيّانَ، البَحْرُ المُحيط: 2/748، اوبْنُ عاشور، التَّحريرُ والتَّنْوير: 3/110-111.
(6) الآلوسي، روح المعاني: 2/58.

يا رَأْسَ أَهْلِ العُلُومِ السّادَةِ البَرَرَهْ *** ومَن نَداهُ عَلى كُلِّ الوَرَى نَشَرَهْ
ما سِرُّ تَكْرارِ إحْدى دُونَ تُذْكِرُها *** في آيَةٍ لِذَوِي الأَشْهادِ في البَقَرَهْ
وظاهِرُ الحالِ إيجازُ الضَّمِيرِ عَلى *** تَكْرارِ إحْداهُما لَوْ أَنَّهُ ذَكَرَهْ
وحَمْلُ الاحْدى عَلى نَفْسِ الشَّهادَةِ في *** أُولاهُما لَيْسَ مَرْضِيًّا لَدى المَهَرَهْ
فَغُصْ بِفِكْرِكَ لِاسْتِخْراجِ جَوْهَرِهِ *** مِن بَحْرِ عِلْمِكَ ثُمَّ ابْعَثْ لَنا دُرَرَهْ

فَأجابَ الغَزْنَوِيُّ:

يا مَن فَوائِدُهُ بِالعِلْمِ مُنْتَشِرَهْ *** ومَن فَضائِلُهُ في الكَوْنِ مُشْتَهِرَهْ
تَضِلُّ إحْداهُما فالقَوْلُ مُحْتَمِلٌ *** كِلَيْهِما فَهْيَ لِلْإِظْهارِ مُفْتَقِرَهْ
ولَوْ أتى بِضَمِيرٍ كانَ مُقْتَضِيًا *** تَعْيِينَ واحِدَةٍ لِلْحُكْمِ مُعْتَبَرَهْ
ومَن رَدَدْتُمْ عَلَيْهِ الحَلَّ فَهْوَ كَما *** أَشَرْتُمُ لَيْسَ مَرْضِيًّا لِمَن سَبَرَهْ
هَذا الَّذِي سَمَحَ الذِّهْنُ الكَلِيلُ بِهِ ***واللَّهُ أَعْلَمُ في الفَحْوى بِما ذَكَرَهْ

نكتةُ استعمالِ الأمرِ في الاستشهادِ، واستعمالِ النَّهي في الامتناعِ:

خطابُ كلِّ صنفٍ بما يُناسبُ حالَه ويُؤثِّر في امتثالِه

لَمَّا أمرَ سبحانه وتعالى المخَاطَبين باستشهادِ شهيدين بقولِه: ﴿وَٱسۡتَشۡهِدُواْ شَهِيدَيۡنِ﴾، عطَفَ عليه قوله: ﴿وَلَا يَأۡبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُواْۚ﴾؛ لأَنَّهُ لَمَّا أَمَرَ المُتَعَاقِدَيْنِ باسْتِشْهادِ شاهِدَيْنِ نهى مَنْ يُطلَبُ إشهادُه عن أن يأْبى؛ لِيَتِمَّ المطلوبُ وهو الإشهادُ.

وإنَّما جِيءَ في خِطابِ المُتَعاقِدَيْنِ بِصِيغةِ الأَمْرِ وجِيءَ في خِطابِ الشُّهَداءِ بِصِيغةِ النَّهْيِ اهْتِمامًا بِما فيه التَّفريطُ، فإنَّ المُتعاقِدَيْنِ يُظَنُّ بهما إهمالُ الإشهادِ فأُمِرا به، والشُّهُودُ يُظَنُّ بهم الامتِناعُ فنُهُوا عنه، وكُلٌّ يَستلزِمُ ضِدَّهُ[1].

كما أنَّ في الجملة تكرارًا للتَّأكيد؛ فإنَّه أمَرعند المُدايَنة بالكتابة أوَّلًا، ثُمَّ بالإشهاد ثانيًا، ثُمَّ أعاد ذلك مرّة أخرى على سبيل التَّأكيد فأمر بالكتابة[2].

(1) ابْنُ عاشور، التَّحريرُ والتَّنْوير: 3/112.
(2) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 7/96.

والَّذي يَظهَرُ أَنَّ الشهداء مدعوّون للشهادة تحمُّلًا ثمّ أَداءً، يدلُّ على هذا حَذْفُ المُتعلِّقِ بِفِعْلِ دُعُوا الذي يُفيد شُمُولَ مَا يُدْعَونَ لِأَجْلِه في التَّعاقُدِ مِنْ تَحَمُّلٍ عِنْد قصد الإِشْهاد، ثُمَّ مِنْ أَدَاءٍ عندَ الاحتياجِ إلى البَيِّنةِ[1].

نُكتة المجازِ المرسلِ في لفظِ الشَّهادة:

تحضيضُ الشُّهداء بالمدح وتنشيطُهم للامتثالِ

الاستشهادُ هو طلبُ الشَّهادة على أمرٍ بعينِه، وسمّتِ الآيةُ الشَّاهدين بشهيدين قبل الشهادةِ، باعتبار ما يَؤولُ إليه أمرُهما من الشَّهادة[2] في المستقبلِ؛ فذلك مَجازٌ مُرسَلٌ علاقتُه اعتبارُ ما سيكون.

فتَسْمِيةُ المَدعُوِّينَ شُهداءَ باعتِبارِ المُشارَفة تنزيلًا لما يُشارِف منزلةَ الكائنِ[3]، وكأنَّ في ذلك نُكْتةً عظيمةً هي الإيماءُ إلى أَنَّهم بمُجرَّدِ دعوتِهم إلى الإشهادِ قَدْ تَعَيَّنَتْ عَلَيْهِمُ الْإِجَابَةُ، فَصَارُوا شُهَدَاءَ[4].

وفي هذا المَجاز تحضيضٌ لهم بالمدح بهذا اللقب، بالإضافة إلى أنهم ذَوُو خِبرة، ومجرَّبون في الشَّهادة، وفي هذا إغراءٌ بالتزام العدالةِ والمروءةِ والاشتهارِ بذلك والمعرفةِ بها.

فائدةُ مجيءِ ﴿مَا﴾ في قولِه تعالى: ﴿وَلَا يَأْبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُواْۚ﴾:

الحضُّ على سُرعة الاستجابةِ بمجرَّدِ الدَّعوةِ

دخلَتْ (مَا) في قولِه تعالى: ﴿وَلَا يَأْبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُواْۚ﴾ بين (إذا) والفعل (دُعُوا)؛ للتَّوكيد، ولتدلّ على سرعة الاستجابةِ وعدمِ التّأجيلِ أو التّسويفِ؛ فكأنّها تدلّ على الحِينيّة وتخصيصِ المستقبلِ الكامِنِ في ﴿إِذَا﴾؛ وفي ذلك تعجيلٌ بحفظ الحقوقِ، وإيحاءٌ للشهود بخطورة الأمر ووجوبِ حَسْمِهِ في حينه[5].

(1) ابْنُ عاشور، التَّحْريرُ والتَّنْوير: 3/112.
(2) القِنَّوْجيّ، فَتْحُ البَيانِ: 2/149.
(3) الزَّمَخْشَريّ، الكَشّاف: 1/326، والبَيْضاويّ، أَنْوارُ التَّنْزيلِ: 1/164.
(4) ابْنُ عاشور، التَّحْريرُ والتَّنْوير: 3/112.
(5) سعيد جمعة، البلاغة العالية، ص: 95، وابن هشام، مُغني اللَّبيب، ص: 335، وفي دلالة ما على تخصيص المستقبل في: (إذا).

بلاغةُ الكنايةِ في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسْـَٔمُوٓاْ﴾:

تَنشيط المتداينين وحضُّهم على كتابة الدَّين

هذا النَّصُّ فيه النّهْيُ عن شيءٍ، والمرادُ نهيٌ عن أَثرِه، وهو هنا تَرْك الكتابة؛ فهي كِناية عن صِفة؛ لأنَّ السَّآمة تَحصُل للنَّفس من غير اختيارٍ، فلا يُنهى عنها في ذاتها، وقيل: السَّآمةُ هنا كِنايةٌ عن الكسلِ والتَّهاون، وقد وقعَ في القرآن الكريم صفةً للمنافقين[1].

كما أنَّ ضمير النَّصْبِ في ﴿تَكْتُبُوهُ﴾ عائدٌ على الدَّيْنِ لِسَبْقِه، أو على الحقِّ لِقُرْبِه، والدَّيْنُ هو الحقُّ من حيثُ المعنى، وكأنّ مَنْ كثُرت دُيُونُه يَمَلُّ من الكتابةِ، فنُهُوا عن ذلك[2].

ويلاحظ أيضًا في دَلالة الكِناية التَّحرُّزُ عن وصْف المؤمنين بصفةِ التصقتْ بالمنافقين، وهي الكسل؛ فتجنَّب النَّظمُ الكريم وصْفَ المؤمنين بالصِّفة التي اشتُهر بها المنافقون؛ تكريمًا لهم، فقال: ﴿وَلَا تَسْـَٔمُوٓاْ﴾ بدلًا من ولا تكسلوا[3].

وجه التَّقديمِ والتَّأخيرِ في قوله: ﴿صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا﴾:

تقديمُ الصَّغيرِ للاهتمامِ بشأنِ ما يتهاونُ النَّاسُ فيه في العادةِ

قُدِّم لفظُ ﴿صَغِيرًا﴾ على لفظِ ﴿كَبِيرًا﴾ في قوله تعالى: ﴿أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا﴾ معَ أَنَّ مُقتضَى الظَّاهرِ العكسُ؛ لأَنَّه قَصد التَّنصيصَ على العُمُوم؛ لِدَفعِ ما يَطرأُ من التَّوهُّماتِ في قِلَّةِ الاعتِناءِ بالدَّينِ الصَّغيرِ وهو أَكثرُ؛ خشيةَ التّهاوُنِ به والتّفريط فيه[4]؛ كقوله تعالى: ﴿لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا﴾ [الكهف: 49]، أو اعتِقادِ عَدَمِ وُجُوبِ كِتابةِ الدَّينِ الكبيرِ لوِ اقتُصِرَ في اللَّفظِ على الصَّغيرِ؛ فقدَّم الصَّغير هنا على الكبير للاهتمام به؛ لدفْع ما عساه أن يُقال: إنَّ هذا مالٌ صغيرٌ، أيْ: قليلٌ لا احتياجَ إلى كَتْبه، فبالغ في ذلك فقال على سبيل المُطابَقة: ﴿صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا﴾؛ أيْ: لا

(1) الآلوسي، روح المعاني: 2/58، اوبْنُ عاشور، التَّحريرُ والتَّنْوير: 3/114.
(2) أَبو حَيّانَ، البَحْرُ المُحيط: 2/736.
(3) الزَّمَخْشَريّ، الكَشّاف: 1/326، وأَبو السُّعود، إِرْشادُ العَقْلِ السَّليمِ: 1/271.
(4) ابْنُ عَرَفَةَ، تَفْسيرُ ابْنِ عَرَفَةَ: 1/332.

تَملّوا في حالٍ من الأحوال، سواء كان الدين كثيرًا أم قليلًا، وعلى أيّ حال كان، كما أنَّ المُعامَلات الصَّغيرةَ أكثرُ من الكبيرةِ، فلذلك نُهُوا عنِ السَّآمة هنا[1].

ولأنّ مَن مَلَّ أو فَتَّرَ عن كتابة الصَّغير يُوشِكُ أن يَضْجَرَ من كتابة الكبير، فَبُلوا بالنّهي عن ذلك.

فائِدة تَكرار ذكر الأجل في أوّلِ الآيةِ ووسطِها:

التَّنبيه على أهميَّةِ تعيينِ الأجلِ في الدُّيونِ كلِّها

ذُكِرَ الأجلُ في أوَّل الآية في قولِه تعالى: ﴿إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ﴾، وأُعيد ذِكرُه هُنا في شِبه جملةٍ ﴿إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦ﴾ وقعت حالًا من الهاء في جملة ﴿تَكْتُبُوهُ﴾، والمعنى: ولا تسأموا أن تكتبوه صغيرًا أو كبيرًا مُسْتَقِرًّا في ذِمَّة المدين إلى وقت حلولِه الذي أُقرَّ به، فهو إيجازُ حذفٍ، والضميرُ في ﴿أَجَلِهِۦ﴾ عائدٌ إلى المَدِين؛ أي: الأجلِ الذي ضربه للدَّائن؛ لأنَّه أعلمُ بموعد سَدادِه وقُدْرته على هذا السَّداد، فجَعل الأجلَ وتحديدَه من خصائصه؛ حتَّى يَنشَط في توفيره وأدائِه، وتَكرَّر ذِكْرُ الأجل لأنَّ السِّياق سياقُ سآمةٍ من الكتابة؛ مِمَّا يُشعر بالتَّهاون في الضَّوابط السَّابقة، فأُعيد التَّنصيصُ على الأجل لبيان أنَّه لا فرقَ بين ما سبق وما هو لاحقٌ[2].

ولأنّ ذِكر السَّآمة هنا بالنّهي عنها يجعلُها تُوشِكُ أن تتعدَّى إلى الأجل فتلحقَ كتابةَ الأجلِ سآمةٌ؛ أعاد ذِكرَه تأكيدًا على أهميَّة ذِكره، ولتأكيد تعيينِ الأجلِ المضروبِ؛ تحذيرًا من كتابةِ الدَّينِ وإهمالِ الأجل.

فائدةُ التَّحضيض بالخبر بعد الأمرِ والنَّهي:

حملُ المؤمنين على العدالةِ والتزام القوامة في الحقوقِ الماليّةِ

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ وَأَدْنَىٰٓ أَلَّا تَرْتَابُوٓاْ﴾ جملةٌ تحضيضيَّةٌ جاءتْ بعد تتابُعِ الأوامر والنَّواهي، وهي مكوَّنةٌ من

(1) ابْنُ عاشور، التَّحْريرُ والتَّنْوير: 3/114.
(2) سعيد جمعة، البلاغة العالية، ص: 97.

مبتدأ وهو ﴿ذَٰلِكُمۡ﴾، وعدَّةِ أخبار معطوفٍ بعضُها على بعض، فناسَب بعد النّهي عن السَّأم ما يُنشّط الهمّة ويحفّز العزيمة ويَحمِل على الاندفاع في مَهامِّ إثبات الدَّين والقيام بتحمُّله وأداءِ الشَّهادة عليه.

بلاغةُ استعمالِ اسمِ الإشارةِ ﴿ذَٰلِكُمۡ﴾:

إيقاعُ ما بعد اسمِ الإشارة موقعَ التَّعليل لما سبقَ

الإشارة في قوله: ﴿ذَٰلِكُمۡ﴾ تعود إلى أقرب مذكور، وهو الكتابة، وقيل: الكتابة والاستشهادُ، وجميع ما تقدَّم ممَّا يحصُل به الضَّبطُ[1]، ومَجيءُ المسند اسمَ إشارةٍ للإيذان ببُعد منزلة المُشار إليه وعُلوِّ مكانه، وبيانِ أهميّته.

واسمُ الإشارة هُنا يُعيد أطرافَ المعاملة إلى رُؤية ما وُضع من ضوابطَ مرَّة أخرى، ليتبيَّنوا ما فيه مِنْ نعمة تشريعيَّة في ضبط الحقوق، ومن مصلحة مستهدَفةٍ في حفظ الإخاءِ والتَّضامُن بين أفراد المجتمع، وفي استظلال الجميعِ بشريعة اللّه لتنمية شعورِ المودَّة واستجلاءِ إحساسِ التّعبد للّه والدَّينونةِ له في كلّ صغيرة وكبيرة والإحساسِ بنعمة الإسلام العظمى، فكأنَّها مُراجعةٌ أخيرةٌ للدَّين، ومن هو الذي عليه الحقُّ ومن هو صاحب الحقِّ، ومتى السَّداد[2].

ثُمَّ خُوطب المؤمنون جميعًا فجِيءَ بكاف الخطاب والميم الدَّالة على الجمع؛ ليكون الأمرُ أشبهَ بالإعلان العامِّ غير المحصور في فئة دون فئة[3]، واسمُ الإشارةِ عائدٌ إلى جميعِ ما تَقدَّمَ باعتِبارِ أنَّه مذكورٌ في الشَّأن الواحد، فلذلك أُشِيرَ إليه باسم إشارةِ الواحدِ[4].

اللَّفُّ والنَّشرُ في قولِه: ﴿ذَٰلِكُمۡ أَقۡسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقۡوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ﴾:

قيل: إنَّ في هذين الخبرين في قولِه: ﴿ذَٰلِكُمۡ أَقۡسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقۡوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ﴾ لفًّا ونَشرًا[5]، والمُراد: أنَّ الإشهاد أقسطُ عند اللّه، والكتابةَ أقومُ للشَّهادة، فيكون لفًّا ونَشرًا؛ أيْ أعدلُ وأقربُ لقيام الشَّهادة[6].

---

(1) أبو حَيّانَ، البَحرُ المُحيطُ: 2/368، والسَّمين، الدُّر المصون: 2/669.

(2) سعيد جمعة، البلاغة العالية، ص: 98.

(3) الآلوسي، روح المعاني: 2/59.

(4) ابْنُ عاشور، التَّحريرُ والتَّنْوير: 3/114.

(5) اللَّف والنَّشر: أن تَلُفِّ بَينْ شَيئين في الذِّكر ثُمَّ تُتْبعهما كلامًا مشتملاً على متعلِّق بواحد وبآخر من غير تعيين، ثِقَةً بأنَّ السّامع يردُّ كلاًّ منهما على ما هو له، كقوله عزَّ وعلا ﴿وَمِن رَّحۡمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ﴾ [القصص: 73]، يُنْظَر: السَّكاكيّ، مِفْتاحُ العُلوم، ص: 425.

(6) ابْنُ عَرَفَةَ، تَفْسيرُ ابْنِ عَرَفَةَ: 1/332.

بلاغةُ الجملِ في قولِه تعالى: ﴿ذَٰلِكُمۡ أَقۡسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقۡوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ وَأَدۡنَىٰٓ أَلَّا تَرۡتَابُوٓاْ﴾:

الأولى: إيثارُ عنوانِ الألوهيَّةِ على الرُّبوبيَّة في قولِه: ﴿أَقۡسَطُ عِندَ ٱللَّهِ﴾:

قال سبحانه: ﴿أَقۡسَطُ عِندَ ٱللَّهِ﴾، والقِسْطُ هو العدل البَيِّنُ الظَّاهر[1]، ولم يقل: (عند ربّك)؛ لأن السِّياق سياقُ حُكمٍ وميزان، وهو أليقُ بالجَلال منه بالجمال؛ لما في الاسم الجليل من تربية المَهابةِ في النُّفوس، فكيفَ إذا اجتمع الجمالُ والجلالُ المورِّثُ للمهابةِ؛ فإنَّه أدعى للامتثالِ والاعتبارِ.

تحرِّي العدل ظاهرًا، ثمرةُ المهابةِ باطنًا

الثَّانية: أثرُ ارتباطِ الشَّهادةِ بالقوامةِ:

معنى قولِه: ﴿وَأَقۡوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ﴾؛ أي: أَعْوَنُ على إقامة الشَّهادة[2]، وأَصحُّ وأحفظُ[3]، فالشَّهادة على شيء مكتوبٍ أَقْوَمُ من الشَّهادة التي تعتمد على الذَّاكرة وحدَها؛ لأنَّ تتابُع الأيام يُنسي، ممَّا يَترتَّب عليه عِوَجٌ في الشَّهادة، أو نسيانُ بعضِها[4].

الشَّهادةُ على المكتوبِ أَثْبَتُ منها على المسموعِ

وذلك أمرٌ بدأ اللّه فيه بنفسه، وجعله من نظام مَلَكوته، فأشهد على أعمال خلقِه وأوصى عليهم، فقد قال في مُحكَم تنزيلِه: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلۡزَمۡنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِي عُنُقِهِۦۖ وَنُخۡرِجُ لَهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ كِتَٰبٗا يَلۡقَىٰهُ مَنشُورًا ١٣ ٱقۡرَأۡ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفۡسِكَ ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكَ حَسِيبٗا ١٤﴾ [الإسراء: 13-14]، فهل هذا التَّشريعُ في المداينَة إلّا للتَّذكير باللّه واليوم الآخِر، مع إقامةِ المصالح في المَعاش على وجهٍ يكفُل النَّجاةَ والسَّعادة في المَعاد؟

الثَّالثةُ: بلاغةُ اختيارِ ﴿وَأَدۡنَىٰٓ﴾ مع الارتيابِ:

ثُمَّ جاء الخبر الثَّالث: ﴿وَأَدۡنَىٰٓ أَلَّا تَرۡتَابُوٓاْ﴾؛ أي: أقربُ إلى عدم

(1) الرّاغِب، المُفْردات، وابْنُ مَنْظور، لِسانُ العَرَبِ: (قسط).
(2) الزَّمَخْشَريّ، الكَشّاف: 2/404.
(3) القُرْطُبيّ، تَفْسيرُ القُرْطُبيّ: 3/401.
(4) سعيد جمعة، البلاغة العالية، ص: 99.

نفي الرِّيبة عن القلب يُقوِّي عملَ الجوارح

الارتياب، والارتيابُ شكٌّ مع تُهَمَةٍ[1]، ومع أنّ الارتياب أمرٌ قلبيٌّ فقد استُخدم معه لفظ أدنى، وهو مخصوصٌ بالقرب المكانيِّ؛ وفي ذلك إخراجٌ للمعنوي، وهو الارتياب في صورة المحسوس؛ لأن هذا المعنويَّ يترُك آثاره على الحواسّ مِن غضبٍ ونحو ذلك.

نُكتةُ حذفِ المفضَّلِ عليه في الجملِ الثَّلاث:

اختزالُ التَّفضيلِ في الألفاظِ المذكورةِ حفاظًا عليها

حَسُنَ حذفُ المُفَضَّل عليه؛ إذ التَّقدير: ذلكم أقسطُ عند اللّه من عدم الكتابة، وأقومُ للشَّهادة من عدم التَّحيُّز في الشُّهود، وأدنى إلى عدم الرِّيبة من ترْك كلِّ هذا.

ووجه الحُسْنِ هُنا هو اختزالُ التَّفضيل في تلك الألفاظ الثَّلاثة؛ حتى لا ينصرِفَ الذِّهن إلَّا إليها، فيُقبِل على الأمر والنَّهي إقبالَ المحبِّ المُوقن بحكمة ما وُضع من ضوابط، وأنَّه في صالحه[2]؛ ليُنْظَمَ هذا العمل التَّشريعيُّ المهمُّ في الجوّ الإيمانيِّ العامِّ والرُّوحِ الإصلاحيَّةِ السَّائدة بين المؤمنين المُنْبَعِثَةِ حميَّتُها وحُمَيَّاها فيهم ممَّا أمر اللّه به جميعَهم في قوله: ﴿۞يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلۡقِسۡطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ أَوِ ٱلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَۚ إِن يَكُنۡ غَنِيًّا أَوۡ فَقِيرٗا فَٱللَّهُ أَوۡلَىٰ بِهِمَاۖ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلۡهَوَىٰٓ أَن تَعۡدِلُواْۚ وَإِن تَلۡوُۥٓاْ أَوۡ تُعۡرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا ١٣٥﴾ [النِّساء: 135]، وفي قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْۚ ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ٨﴾ [المائدة: 8].

براعةُ ترتيبِ الجمل الخبريَّة الثَّلاث:

جاء نَسَقُ هذه الجمل في غاية الحُسن؛ إذ بُدئ بالأشرف، وهو قوله: ﴿أَقۡسَطُ عِندَ ٱللَّهِ﴾، فينبغي أن يُتّبَعَ ما أَمَر به؛ إذ اتّباعُه

(1) السَّمين، الدُّر المصون: 1/86.

(2) أبو حَيّانَ، البَحْرُ المُحيط: 2/268، وسعيد جمعة، البلاغة العالية، ص: 101.

مُتَعلَّق الدِّين الإسلاميِّ، وبُنِيَ عليه قولُه: ﴿وَأَقْوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ﴾؛ لأنَّ ما بعد امتثالِ أمر الله هو الشَّهادة بعد الكتابة، وجاء قوله: ﴿وَأَدْنَىٰٓ أَلَّا تَرْتَابُوٓاْ﴾ أخيرًا؛ لأن انتفاء الرِّيبة مُترتِّبٌ على طاعة الله تعالى في الكتاب والإشهاد، فعنهما تَنْشأ أَقْرِبيَّةُ انتفاءِ الرِّيبة؛ إذ ذلك هو الغاية في أن لا يقع ريبة، وذاك لا يتحصَّل إلا بالكَتْب والإشهاد غالبًا، فيُثلج الصَّدر بما كُتِب وأُشْهِد عليه، وما ضُبِطَ بالكتابة والإشهاد لا يكاد يقع فيه شكٌّ ولا لبس ولا نزاع[1].

التَّأكيد على أنَّ الشَّهادة في الحقوق لا بدَّ أن تكون بيِّنة واضحة

وهذا يؤكّد أنَّ التَّرتيب ترتيبٌ تنازُليّ، فبدأ بالأرفع وهو الالتزام بأمر الله تعالى؛ إذ هو الأساس الذي يُبْنى عليه، وانتهى بنَفي الرِّيبة؛ إذ هي العلَّة الملاحظة من وراء كلّ هذه الضَّوابط.

فهذه الضَّمانات، وإن كانت أوامر، ينبغي السَّمعُ لها والطَّاعة تَعَبُّدًا لله تعالى، إلّا أنَّ من ورائها عِلَّةً عظيمة، وهي سلامة المجتمع، والمحافظة على علاقاته وروابطه، وهذا ما أكدته جملة: ﴿وَأَدْنَىٰٓ أَلَّا تَرْتَابُوٓاْ﴾؛ فهذه ثَلاثُ عِلل، ويُسْتَخْرَجُ منها أَنَّ المَقْصِدَ الشَّرعيَّ أن تكُونَ الشَّهادةُ في الحُقُوقِ بَيِّنةً واضِحةً، بَعِيدَةً عن الاحتِمالاتِ والتَّوهُّماتِ، واسمُ الإشارةِ عائِدٌ إلى جميعِ ما تَقدَّمَ باعتِبارِ أنَّه مذكورٌ في الشَّأن الواحد، فلذلك أُشِيرَ إليه باسم إشارةِ الواحدِ[2].

فائِدةُ الاستثناءِ في قوله تعالى: ﴿إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ﴾:

بيان تيسيرِ الله وتخفيفِه على عبادِه فيما يَعْسُرُ عليهم

قولُه تعالى: ﴿إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ﴾ يُبيِّنُ أنَّ التِّجارة الحاضرةَ بُيوعُها مستثناةٌ من قيد الكتابة، وتكفي فيها شهادةُ الشُّهود؛ تيسيرًا للعمليَّات التِّجارية التي يُعرقلُها التَّقييد، والتي تَتِمُّ في سرعة، وتتكرَّرُ في أوقات قصيرة؛ ذلك أنَّ الإسلام وهو يُشرِّع

(1) أبو حَيّانَ، البَحْرُ المُحيط: 2/268-269.
(2) ابْنُ عاشور، التَّحْريرُ والتَّنْوير: 3/114.

للحياة قد راعى كلَّ ملابساتها، وكان شريعةً عمليَّة واقعيَّة لا تعقيد فيها ولا تعويق لجريان الحياة في مَجراها، فالجملةُ من باب الاستثناء المنقطع من الأمر بالكتابة؛ أي: لكنْ وقتَ كونِ تدايُنِكم أو تجارتِكم تجارةً حاضرةً بحضور البَدلَيْنِ تُديرونها بينكم بتعاطِيهما يدًا بيد[1]، ولأنّها يدخلُها الشِّراءُ بالأجل ذُكرت من باب الشّيء بالشّيء يُذكر استيفاءً تشريعيًّا سادًّا للذَّريعة فإنَّها تُتَّخذ بابًا للمُداينة.

معنى الاستثناءِ المنقطعِ أنّ التِّجارةَ ليست دَيْنًا

وقد فَصَلَ كلامٌ كثير بين المستثنى والمستثنى منه، وأصلُ جملة الاستثناء هو: يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه إلّا أن تكون تجارةً حاضرة[2]، ومعنى الانقطاع هنا أنَّ التِّجارة الحاضرة ليست من باب الدُّيون في شيء[3]، لكن لمّا كانت في حاجة إلى توثيق عقدِ البيع، كما يُوَثَّقُ عقدُ الديون، أُلحقت التِّجارةُ بالدُّيون من وجه احتياجِها إلى توثيق، لكنّ توثيق عقد البيع أقلُّ كُلفةً وشروطًا من عقد المُداينة[4]؛ لحضور المُتَبَايِعَيْنِ والمُتَبَادِلَيْنِ وحصولِ التّقابُضِ، وما لا تقابُضَ فيه فَيَعودُ أَدْخَلَ في باب الدَّيْن فَيُوَثَّق.

ولعلَّ فائدةَ ذِكْرِه الإيماءُ إلى تعليلِ الرُّخْصةِ في تَرْكِ الكِتابةِ[5]، ورفعِ الجُناح عن الكَتْب في الحاضر وبقاءِ الأمر في الإشهاد فيها من غير كَتْبٍ[6]؛ لأنَّه لا يُتَوَهَّمُ فيه ما يُتَوهّمُ ما في التَّدايُن[7].

كما أنّ في هذا الأسلوب رعايةَ تشريعِ المصالح ودَرْءِ المفاسد، والإِذْنَ بارتكاب أخفِّ الضَّررين عند تَعَيُّنِ أحدِهما، وأنَّ ذلك لدفع أعظمِهما، وأنَّ دفع المَفسدة مقدَّمٌ على جَلْبِ المَصلحة في جميع الشَّريعة.

(1) أبو السُّعود، إرْشادُ العَقْلِ السَّليمِ: 1/271، وأَبو حَيّانَ، البَحْرُ المُحيط: 2/739.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 2/59.
(3) ابْنُ عاشور، التَّحْريرُ والتَّنْوير: 3/115.
(4) سعيد جمعة، البلاغة العالية، ص: 99.
(5) ابْنُ عاشور، التَّحْريرُ والتَّنْوير: 3/116.
(6) ابْنُ عَرَفَةَ، تَفْسيرُ ابْنِ عَرَفَةَ: 1/333.
(7) الزَّمَخْشَريّ، الكَشّاف: 1/327.

وجه النَّفي بـ (ليس) دون (لا) في قوله تعالى: ﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا﴾:

رَفْعُ الحرَج عن المؤمنين في المعاملات وتنزيهُهم عن الخيانات

في الآية رخصةٌ في ترك الكتابة إذا كانت التجارة حاضرًا بحاضر لعَدَمِ شِدّة الحاجة إلى الكتابة[1]، والنَّفي بليس هُنا جاء فيما ليس بذنبٍ، نحو قوله تعالى: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ﴾ [الأحزاب: 5]، فالخطأ مَعْفُوٌّ عنه في الأصل، وعليه يُمكن فهمُ أنَّ الجُناح في قوله: ﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا﴾ غيرُ مقصور، أو غيرُ مُتأكِّدٍ في نفوسهم؛ لذلك جاء نَفْيُهُ بليس دون لا، فإنَّ نَفْيَ الجُناح عنهم لكمال التَّنزيه؛ لأنَّها تأتي في سِياق المباحات وما يُسْتَحْسَنُ من الأمور، مع أنَّ الأَوْلى كتابةُ التِّجارة الحاضرة الدَّائرةِ بَيْنَ المسلمين، وإن كان الحرج مرفوعًا[2].

سِرُّ تسميةِ المَيلِ بالجناح:

التَّخفيفُ على المتعاملين بالتِّجارة بنفي ما يقعُ منهم من ميلٍ

سُمِّي الإثم جُناحًا لمَيله؛ فهو يميلُ بصاحبه عن الجادَّةِ، وهو مأخوذٌ من جناحِ الطّائر لأنَّه يميل به، ويُسَمَّى الميلُ به تجوُّزًا، والمَيْل يَصْدُقُ إطلاقُه في أدنى ما يَحْصُلُ به، فأُريد التَّلطيفُ والتَّخفيفُ بنفي قليلِه المستلزِم نفْيَ كثيرِه؛ لأنَّ هذا أقوى لِقَلْبِ التّاجر المُنْصرِفِ إلى تقليب الأموال، والبضائعُ إحدى صُوَرِهَا، فكذا المَيْلُ.

فائِدةُ تقديمِ جَوابِ الشَّرط في قوله تعالى: ﴿وَأَشْهِدُوٓاْ إِذَا تَبَايَعْتُمْ﴾:

توكيدُ الإشهادِ في المعاملات لحفظِ الحقوقِ ودفعِ العداوات

وهذه الجملة تشريعٌ للإشهاد عند البيع، ولو بغير دَين، إذا كان البيع تجارةً حاضرةً، وهي إكمالٌ لصورة المعاملة؛ فإنَّها إمَّا تدايُنٌ أو آيِلٌ إلى التَّدايُن؛ كالبيع بدَين، وإمَّا تناجُزٌ في تجارة، وإمَّا تناجُزٌ في غير تجارة كبيع العقار والعروض في غير التَّجْرِ[3].

(1) السِّعْدي، تَيْسيرُ الكَريمِ الرَّحْمن، ص: 118.
(2) سعيد جمعة، البلاغة العالية، ص: 104.
(3) ابْنُ عاشور، التَّحْريرُ والتَّنْوير: 3/116.

والجملة هُنا جملة شرطيَّة تَقدَّم فيها جوابُ الشَّرط على الفعل والأداة، فتقديرُها دون تقديم: (إذا تبايعتم فأشهدوا)، وهذا النَّمَط من التَّركيب يُفيدُ التَّوكيدَ للجواب وهو الإشهادُ، والاستعدادَ والتّهيّؤ له بالبِدارِ إليهِ عند أوَّل بُدُوِّ الحاجة وعُرُوضِها.

وفيها تقريرٌ لمبدأ أنَّ الخيْر مهما كَثُرَ يُكْتَفى منه بما تيسّر، وتطبيقٌ لروح التَّخفيفِ ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ﴾ [التغابن: 16].

بلاغة التَّوجيه[1] في قوله تعالى: ﴿وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٞ وَلَا شَهِيدٞۚ﴾:

أمرتِ الآيةُ بالكتابة بين المتداينَيْنِ، ثُمَّ أمرت بالإشهاد، وفي ذلك انتقالٌ إلى معنًى آخرَ مُتَّصلٍ بهما وهو النَّهيُ عن الإضرار، والمضارَّةُ بأن يُوقِع المتعاقدان الشَّاهدين والكاتبَ في الحرجِ والخسارةِ، أو ما يجرّ إلى العقوبة أو العكس، فهي تَحتمِلُ أن يكونَ الكاتبُ والشَّهيدُ مَصْدرًا لِلإضرارِ، أو أن يكونَ المكتوبُ لهُ والمشهودُ لهُ مَصْدرًا لِلْإضرارِ؛ لأنَّ يُضارَّ يَحتمِلُ البناءَ للمفعولِ والفاعلِ.

احتمالُ المفردةِ مَعْنَيَيْنِ كِلاهُما مُرادٌ؛ دليلٌ على إعجازِ القرآنِ

واختيارُ مادَّةِ الإضرارِ هنا مقصودٌ؛ لِاحتمالِها حُكْمَيْنِ اثنين؛ لِيكونَ الكلامُ مُوجَّهًا عليهما؛ فيُحملُ على كِلا معنيَيْهِ لِعَدَمِ تنافيهما، وهذا من أوجهِ الإعجازِ[2]، ففي الكلام توجيهٌ؛ كقول اللّه تعالى يذكر قول المشركين: ﴿وَٱسۡمَعۡ غَيۡرَ مُسۡمَعٖ وَرَٰعِنَا﴾ [النِّساء: 46].

فالمُضارَّة تَحتمل أن تكون واقعةً مِن الكاتبِ والشُّهودِ على المتعاقِدَيْن، أو من المُتَعاقِدَيْن على الكاتبِ والشُّهودِ، فجاءت العبارة مُتّسعة للمَعْنَيَيْن كليْهما، مؤدّية لهما في إعجاز مُذْهِلٍ جامعٍ لخصائص القاعدة القانونيَّة، وقد حاولَت أرقى الأنظمة البشريَّة المعاصرة وأكثرُها تمثيلًا لقِيم العدالةِ وكفالة حقوق المتقاضِين أنْ تتواضع عليه، وتهتدي إليه، وسيادةُ القانون بأن تكون القاعدة القانونية عامّةً ومجرّدة، ومع ذلك فَلَمْ يَبْلُغْ أدقُّها أدنى ما في

(1) التوجيه هو: إيراد الكلام محتملاً لوجهين مختلفين، كقول من قال للأعور: ليت عينيه سواء، يُنْظَر: السَّكاكّي، مِفْتاحُ العُلوم، ص: 427.

(2) ابْنُ عاشور، التَّحْريرُ والتَّنْوير: 3/117.

تشريعات الإسلام من أحكام وعدل وكفالةِ حقوقٍ لجميع الأطراف والأطياف والأصناف على السَّواء.

سِرُّ مجيءِ اسمِ إنَّ ضميرَ شَأْنٍ في قوله تعالى: ﴿وَإِن تَفْعَلُواْ فَإِنَّهُۥ فُسُوقٌۢ بِكُمْ﴾:

المبالغةُ في وصف المُضارِّ بالفسوق تَنْفيرًا من الإضرار وتحذيرًا منه

جاء اسمُ (إنّ) ضَمِيْرَ شأنٍ في قولِه تعالى: ﴿وَإِن تَفْعَلُواْ فَإِنَّهُۥ فُسُوقٌۢ بِكُمْ﴾، ولضمير الشَّأنِ شأنٌ في بلاغة العرب، فقد مضى العلماء على أنَّ فائدته الدَّلالةُ على تعظيم المُخْبَرِ عَنْهُ وتفخيمِه بأن يُذكر أوَّلًا مُبهمًا ثُمَّ يُفَسَّر[1].

وعليه فتقدير المعنى: فإنَّ الفُسوق بكم، وكَوْنُ ضمير الشَّأنِ مُفَخِّمًا ومُعظِّمًا للمُخْبَرِ عنه يعني أنَّ التَّفخيم لِلفسوق تفخيمُ خطرٍ وتعظيمُ شرٍّ تحذيرًا من الوقوع فيه، وإنباءً عن تمكُّنه مبتغى التمكّين وتوطُّنه منتهى التوطُّن من نفس المخالِف وكيانه وبنيانه، وأنَّ المُبالغة في الفسوق هي لونٌ من ألوان التَّنفير، وزَجْرٌ لكلِّ من تُسوِّل له نفسُه الإضرارَ بالكاتب أو الشَّاهد؛ لأنَّ فسقَه سيكون مؤكَّدًا ومبالغًا فيه[2].

ثُمَّ إنَّه كان يُمكن أن يُقال: ﴿فَإِنَّهُۥ فُسُوقٌۢ﴾ وكفى، لكنّه زاد النِّسبةَ، فقال: ﴿بِكُمْ﴾، وكأنَّ الفسوق يتعلَّق بهم حالَ إضرارِهم بالكاتب أو الشَّهيد، فهو خروج عن طاعةٍ مُتَلَبِّسٌ بكم، وتكون الباء للظّرفية، وهو أبلغ في كونه محلًّا للفسق[3]؛ لإشعارهم بأنّ ضررًا عظيمًا وأذًى مُتَفاقِمًا قد لحِق بهم، فعليهم الإسراعُ للتَّخلص منه.

بلاغةُ تَكْرارِ الاسم الأحسن في قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾:

أُظْهِرَ اسْمُ الجَلالَةِ في الجُمَلِ الثَّلاثِ لِقَصْدِ التَّنويهِ بكُلِّ جملَةٍ

(1) السُّيوطيّ، الإتْقان: 1/552.

(2) سعيد جمعة، البلاغة العالية، ص: 108.

(3) الآلوسي، روح المعاني: 2/60.

التَّنويه بما في الجمل الثَّلاث، لتربيةِ المَهابة، والحثِّ على التَّقوى لتحصيل العلمِ

منها حتَّى تكُونَ مستقِلَّةَ الدَّلَالةِ، غيرَ محتاجة إلى غيرها المُشتمِلِ على مَعادِ ضميرِها، حتَّى إذَا سَمِعَ السَّامعُ كُلَّ واحدةٍ منها حصل لهُ عِلمٌ مستقلٌّ، وقَد لا يَسْمَعُ إحداها فلا يضُرُّهُ ذلك في فهْمِ أُخراهَا[1]، ولأنَّ الذِّكر أدخلُ في التعظيم من الكِناية؛ لإدخال الرَّوْع في القلوب، وإحداثِ المَهابة في النفوس، وترسيخِ الحُكم في الأذهان، والإشعارِ بأنَّه تعالى مطَّلع على السَّرائر، لا تعزُبُ عنه همَساتُ القلوب، وخَلَجاتُ الضَّمائر[2].

وفيه غايةُ المناسبة في ختْم آياتِ هذه المعاملات بصِفة العِلم بعد الأمْرِ بالتّقوى؛ لِما يفعلُه المتعاملون من الحِيَل التي يَجتلب كلٌّ منهم بها الحظَّ لنفسه، والتّرغيبُ في امتثال ما أمرهم به في هذه الجُمل بأنَّه من علْمه وتعليمِه، وهذا الخَتْمُ جامعٌ لبُشرى التَّعليم وتهديدِ الإنذار[3].

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الدَّين والقَرْض:

الدَّيْن ما له أجلٌ وهو أعمُّ من القَرْض

القَرْضُ أَكثرُ ما يسْتَعْمل في العين والوَرق، ويكون من جنس ما اقترض، فيَأخذ الرَّجل من مَال الرَّجل درهمًا، ليردَّ عَلَيْه بدَلَه درهمًا، فَيبقى دينًا عَلَيْه إلى أَن يَرُدَّه، أمَّا الدَّين فيدخل فيه القرضُ، وأَثمان مَا يَشْتَري بالنَّسَأ، فالدّيون تقضَى بأمثالها وبأعيانها[4]، فَكلُّ قرضٍ دينٌ، ولَيْسَ كلُّ دينٍ قرضًا، كما أنَّ الدَّين يُطلق على ما لَه أجلٌ، وأمّا ما لا أجلَ له فقرضٌ[5]، وقيل: الدّين: كلّ معاوضة يكون أحد العوضين فيها مؤجّلا، وأمّا القرض: فهو إعطاء الشّيء ليستعيد عوضًا وقتًا

(1) ابْنُ عاشور، التَّحريرُ والتَّنْوير: 3/118.
(2) البَيْضاويّ، أَنْوارُ التَّنْزيلِ: 1/165، وأَبو حَيّانَ، البَحْرُ المُحيط: 2/748، والبِقاعيّ، نَظْمُ الدُّرَرِ: 4/159-160، ودرويش، إعراب القرآن وبيانه: 1/440-442.
(3) البِقاعيّ، نَظْمُ الدُّرَرِ: 4/159-160.
(4) العَسْكَريّ، الفُروقُ اللُّغَويَة، ص: 171، والمُطَرِّزيّ، المُغرِب في ترتيب المُعْرَب، ص: 379.
(5) الكَفَويّ، الكُلّيات، ص: 444، وجبل، المُعْجَمُ الاشْتِقاقيُّ المُؤَصَّل: (دين).

آخر، من غير تعيين الوقت، ويدلّ عليه قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيۡنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى فَٱكۡتُبُوهُۚ﴾، حيث اعتبر الأجل في مفهوم الدّين، ولم يعتبر ذلك في القرض[1].

الإباء والكَراهيَة:

الإباء شِدَّةُ الامتناع

الإباء: شِدَّةُ الامتناع، ومنه قوله تعالى: ﴿إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰ وَٱسۡتَكۡبَرَ﴾ [البقرة: 34]، والكراهيَةُ للشّيء بغضُه وَعدمُ مُلاءَمَتِه، وقد يَكْرَهُ الشَّيءَ من لا يَقدر على إبائه، ولذا يقولون للمَلِك أبيتَ اللَّعنَ، ولا يَعْنون أنَّك تَكره اللَّعنَ؛ لأنَّ اللَّعنَ يكرهه كلُّ أحد، وإنَّما يُريدون أنَّك تَمتنع من أن تَلْعَنَ وتشتِم لما تأتي من جميل الأفعال[2]، والإباء الامتناع باختيار، أي مع تمكّنه من الفعل، فهو أبلغ منه، وإن أفاد فائدته[3].

البَخْس والنَّقْص:

البَخْسُ نَقْصٌ مع ظُلْمٍ واحتيالٍ، فهما يفضيان إلى ملمح مشترك

البَخْسُ النَّقْصُ المصاحب للظّلم، فيكون بِالتَّعْيِيبِ وَالتَّزْهِيدِ، أو المُخَادَعة عن القِيمةِ، أو الاحتِيالِ في التَّزْيُّدِ في الكَيْلِ أو النُّقصَان منه، عن غَفلَة من صاحِبِ الحقِّ قال تعالى ﴿وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ﴾ [الأعراف: 85]؛ أي: لا تنقصوهم ظُلْمًا، وَأَقْرَبُ الْأَلْفَاظِ إِلَى معناهُ الغَبْنُ، والنُّقصان يكون بالظُّلم وغيره[4]، وتأكيدًا لذلك نذكر أنّ "التّطفيف في الكيل والميزان، هو البخس والنّقص كما سلف، وقد فسّره بذلك الزّمخشريّ، واختاره ابن عطيّة، وقيل التّطفيف: هو تجاوز الحدّ في زيادة أو نقصان، واختاره ابن الفرس، وهو الأظهر، لأنّ المراد به هنا بخس حقوق النّاس في المكيال والميزان، بأن يزيد الإنسان على حقّه أو ينقص من حقّ غيره"[5]، وأيّا كان

(1) العَسْكَريّ، الفُروقُ اللُّغَويَة، ص: 171.
(2) الراغب، المفردات، والزَّبيديّ، تاجُ العَروسِ: (أبى)، العَسْكَريّ، الفُروقُ اللُّغَويَة، ص: 8.
(3) الخفاجيّ، عِنَايةُ القَاضي: 2/131.
(4) ابْنُ العَرَبيّ، أحكام القرآن: 2/318، اوبْنُ عاشور، التَّحْريرُ والتَّنْوير: 3/104، والعَسْكَريّ، الفُروقُ اللُّغَويَة، ص: 92.
(5) ابن جزيّ، التّسهيل: 2/460.

فالبخس نقصٌ، والنّقص بخسٌ، لكن لا شكّ أنّ في كلّ بخس ظلمًا، ولكن ليس بالضّرورة، أن يكون في كلّ نقص ظلمٌ.

الشَّهيد والشَّاهد:

الشَّاهد شَهادَتُهُ خِبْرَةٌ ومَعرِفةٌ، والشَّهيدُ شَهادَتُهُ ما سَمِعَ وَرَأى

الشَّهادةُ في أَصْلِ اللُّغةِ معناها: الحُضُورُ، وفي الاصطِلاحِ هي: خَبَرٌ قاطِعٌ صادِر عن عِلْم حَصَلَ بمُشاهدة بَصَرٍ أو بَصِيرةٍ[1]، وتَنقَسمُ من حيثُ الطَّرَفُ الَّذي يُؤَدِّيها إلى قسمين: شَهادةِ شاهدٍ وشهادةِ شَهيدٍ؛ والفرقُ بينهما أَنَّ شهادةَ الشَّاهدِ هِي شَهادةُ مَعْرِفَةٍ وخِبرةٍ مُكتسَبةٍ؛ ومِثَالُها قولُه تعالى في قِصَّةِ يُوسُفَ عليه السلام: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٢٦ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝٢٧﴾ [يوسف: 26-27]، فَهَذَا الّذي شَهِدَ مِنْ أَهْلِ امرأَةِ العَزِيزِ، لم يَشْهَدِ الواقِعَةَ بِنَفسِه، حتَّى يَكُونَ شَهِيدًا عليها؛ ولكنَّه شَهِدَ مِنْ واقِعِ خِبرتِه بالأَدلَّةِ، ومعْرِفتِه بِكيفِيَّةِ سَيْرِ الأُمُورِ، ومنطقِيَّةِ الأَحداثِ بِنتائِجِها[2]، أَمَّا شَهادةُ الشَّهيدِ فَهي شَهَادَةٌ حُضُورِيَّةٌ، تَعتمِدُ على السَّمْعِ والبَصَرِ؛ ومِثَالُها قولُهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ﴾ إلى قوله: ﴿وَٱسْتَشْهِدُواْ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ﴾ وقولُه: ﴿وَأَشْهِدُوٓاْ إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ﴾، فَنُلاحِظ هنا أَنَّ الَّذي طُلِبَ منهُ أَنْ يَشْهَدَ على عَقْدِ المُدَايَنَةِ والمُبايَعةِ، هُوَ حَاضِرٌ إبّان العقد، فَهُوَ شَهيدٌ، وليْسَ بشَاهِدٍ[3]، وقِيلَ أَيْضًا إنَّ الشَّاهِدَ بمعنى الحُدُوثِ، والشَّهيدَ بِمَعْنَى الثُّبُوتِ، فَإِنَّهُ إذَا تَحَمَّلَ الشَّهَادَةَ فَهُو شاهِدٌ باعْتِبارِ حُدُوثِ تَحمُّلِه، فَإِذَا ثَبَتَ تَحَمُّلُهُ لَها زمَانَيْنِ أو أَكْثَرَ فَهو شَهِيدٌ[4].

(1) الرّاغِب، المُفْردات: (شهد).

(2) هذا أحد وجوه تفسير وصف الشّاهد في القصّة من أقوال المفسّرين، قال القرطبيّ لما ذكر تحيد هذا الشّاهد: وهو الصَّحيح في الباب. يُنْظَر: القُرْطُبيّ، تَفْسيرُ القُرْطُبيِّ: 06/321.

(3) المَاتُريديّ، تَأْويلاتُ أَهْلِ السُّنَّةِ: 02/278.

(4) العَسْكَريّ، الفُروقُ اللُّغَويَة، ص: 292.

ويَتَحَصَّلُ مِمَّا تَقَدَّمَ أَنَّ الّذِي يُؤَدِّي شَهادَتَهُ انطِلَاقًا من خِبْرَتِه ومَعْرِفَتِه هو شَاهِدٌ، وليس بِشَهِيدٍ، وأَنَّ الذِي يُؤَدِّي شَهادتَهُ انطِلاقًا من سَمْعِه ورُؤْيَته هو شَهِيدٌ، وليس بِشاهِدٍ.

الضَّلال والنِّسيان:

الضَّلال هو العُدُول عن الطَّريق المُستقيم، ويَسبق العِلْمَ بالشَّيء والمعرفةَ به، وضِدُّه الهُدى[1]، فالكلمة من الأضداد، وأصل الضّلال الهلاك، ومنه قولهم (ضلّت النّاقة)، إذا هلكت بضياعها وفي القرآن ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلۡنَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [السجدة: 10]، أي هلكنا بتقطع أوصالنا[2]. أمَّا النِّسيانُ فهو ضَياعُ العِلْم بعد عِلْمِه، وزوالُ المعرفةِ بعدَ معرفتِها، وضِدُّه الذِّكرُ؛ فالضَّلالُ أَنْ تُخطِئَ الشَّيءَ في مكانِه، فلم تهتدِ إليه، والنِّسيانُ أن تغفُلَ عنه[3]، قال الله تعالى: ﴿وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَلَا تَقۡعُدۡ بَعۡدَ ٱلذِّكۡرَىٰ مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ٦٨﴾ [الأنعام: 68]، ويمكن أن يُسمَّى الضَّلالُ نِسْيانًا مَجازًا على اعتبار أنَّه سببٌ فيه، نحو: ﴿أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكۡرِ بَعۡدَ إِذۡ جَآءَنِيۗ﴾ [الفرقان: 29][4].

الضَّلالُ عُدولٌ عن الحقِّ، والنِّسيانُ ذُهول عنه بعدَ معرفتِه

العَدْل والقِسْط:

العَدْل لفظٌ يَحمِل مفهوم المساواةِ وضِدُّه الظُّلم، والقِسْط هُوَ العَدْل البَيِّن الظَّاهِر، وَمِنْه سُمِّي المِكْيَالُ والميزان قِسْطًا، لِأَنَّهُ يُصَوِّر العدل في الوزن حتَّى تراهُ ظاهرًا، كما أنَّ القِسْط هُوَ النَّصِيبُ العادل الَّذِي بُيِّنت وجوهُه، يُقال أخذ فلانٌ قِسْطَهُ وحِصَّتَهُ من العمل، واستوفى فلانٌ قِسْطَه من الإرث؛ أي نصيبَه كاملًا، وضِدُّ القِسْط الجَوْرُ، لأنَّ أصل قَسَطَ جارَ، ومنه قولُه تعالى: ﴿وَأَنَّا مِنَّا

العَدْلُ أعمُّ من القِسْطِ، والقِسْطُ عَدْلٌ ظاهر غالب

(1) ابن عادل، اللُّباب في علوم الكتاب: 1/225.

(2) العسكريّ، معجم الفروق اللّغويّة، ص: 392.

(3) إسْماعيل حَقّي، روحُ البَيان: 5/395.

(4) وفي قوله تعالى: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمۡ وَمَا غَوَىٰ ٢﴾ [النجم: 2]: هل الغاوي والضّال واحد؟ يجاب عن ذلك: بأنّ الضّلال: يكون قبل البيان. والغواية والفساد بعد البيان. ينظر: السّمرقنديّ، بحر العلوم: 3/358.

ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَۖ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُوْلَٰٓئِكَ تَحَرَّوْاْ رَشَدًا ﴿١٤﴾ وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُواْ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾﴾ [الجنّ: 14- 15] وهمزتُه للإزالة، وإزالةُ الجَوْرِ العَدْلُ، ومنه قولُه تعالى: ﴿فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓاْۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾﴾ [الحجرات: 9]، والقِسْطُ بكسر القاف هو العدل، والقَسْطُ بفتح القاف هو الظّلم، وهناك مصدر ثان هو (قسوط) لكن الفعل واحد، وعندما يقول تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُواْ﴾ [النساء: 3]، فهي من أقسط، أي خفتم من عدم العدل وهو الظّلم، والهمزة في أقسط هي همزة الإزالة، وهي همزة تدخل على الفعل فتزيله، مثال ذلك: (فلان عتب على فلان)، أي لامه على تصرف ما، ويقال: أعتبه، أي طمأن خاطره، وأزال مصدر العتاب[1]. وفي قوله تعالى: ﴿وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِۚ﴾ [المائدة: 42]، دلّ هذا على بيان القسط، وأنّ مادّته هو ما شرعه الله من الأحكام، فإنّها المشتملة على غاية العدل والقسط، وما خالف ذلك فهو جور وظلم[2]، وممّا سبق كلّه، فالعَدْلُ أَعَمُّ من القِسْطِ؛ لأنَّ القِسْطَ هو العَدْلُ في الظَّاهر، بينما العَدْلُ يكون في الظَّاهر والباطن جميعًا، كما أنَّ القِسْطَ يناسب الجزاءَ الحَسنَ فقط، بينما العَدْلُ يشمَل الجزاءَ الحَسن وضِدَّه[3].

الرَّيْب والشَّكّ:

الرَّيْبُ شكٌّ وزيادةُ تُهَمةٍ أو سُوءِ ظَنٍّ

الرَّيْبُ قَلَقُ النَّفس واضْطِرابُها[4]، وهو شَكٌّ مع تُهَمة لِلمُخْبِر[5]، أو هو شكٌّ وزيادةُ ظنٍّ سوءٍ[6]، والشَّكُّ وقوفُ النَّفسِ بين شَيْئَيْنِ مُتَقَابِلَيْن مِن دون أَمارةٍ مُرَجِّحةٍ بينَهما[7]، فالرَّيْب أَخَصُّ من الشَّكِّ[8]، وفي قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُواْ﴾، أي: آمنوا ثمّ لم يقع في نفوسهم أدنى شكّ فيما آمنوا به، ولا وقع في نفوسهم اتّهام لمن

(1) الشّعراويّ، تفسير الشّعراوي: (الخواطر): 4/1997.
(2) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن: 1/234.
(3) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 234، والرّاغِب، المُفردات، ابْنُ مَنْظور، لِسانُ العَرَبِ: (قسط).
(4) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 1/34.
(5) السَّمين، الدُّر المصون: 1/86، والهرريّ، تفسير حدائق الرَّوح والرَّيحان: 17/409، والعسكريّ، الفروق اللُّغويَّة، ص: 264.
(6) النَّيسابوريّ، غرائب القرآن: 1/137.
(7) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 1/115.
(8) السَّمين، الدُّر المصون:/86.

صدّقوه، ولفظ ﴿يَرۡتَابُواْ﴾ من ارتاب، "إذا أوقعه في الشّكّ في الخبر، مع التّهمة للمخبر فظهر الفرق بين الرّيب والشّك؛ فإنّ الشّكّ تَرَدُّدٌ بين نقيضين لا تهمة فيه، وفيه إشارة إلى أنّ فيهم ما يوجب نفي الإيمان عنهم، وهو الارتياب، ولفظ (ثمّ) في قوله: ﴿ثُمَّ لَمۡ يَرۡتَابُواْ﴾، للإشعار بأنّ اشتراط عدم الارتياب في اعتبار الإيمان، ليس في حال إنشائه فقط، بل وفيما يستقبل"[1].

(1) إسماعيل حقّي، روح البيان: 9/95.

﴿۞ وَإِن كُنتُمۡ عَلَىٰ سَفَرٖ وَلَمۡ تَجِدُواْ كَاتِبٗا فَرِهَٰنٞ مَّقۡبُوضَةٞۖ فَإِنۡ أَمِنَ بَعۡضُكُم بَعۡضٗا فَلۡيُؤَدِّ ٱلَّذِي ٱؤۡتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ وَلۡيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥۗ وَلَا تَكۡتُمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَۚ وَمَن يَكۡتُمۡهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٞ قَلۡبُهُۥۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ ٢٨٣﴾ [البقرة: 283]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الرّبط بين حالة وجود كاتب الدَّيْنِ، وحالة الاكتفاء بالرّهان المقبوضة

لَمَّا ذَكَرَتِ الآيةُ السَّابِقةُ حُكْمَ الدَّيْنِ، ومَا يتعلَّقُ بِهِ مِن أَحكامٍ عامَّةٍ في حالِ الاستِقرَارِ في الحضر، ناسَبَ أَنْ يَنتَقِلَ إلى بيانِ حُكْمِ الدَّيْنِ في حالِ السّفر، اسْتِكمَالًا واسْتِتْباعًا لِمَا بَدَأَتْه الآيةُ السَّابِقَةُ، في تَقريرِ الحُقوقِ الماليَّةِ وحِفظِها، وتشريعِ مستلزماتها من الإشهادِ والكَتْبِ، وأمانة الكاتب والمُملي، حِفاظًا على أموالِ الدَّيْن الّتي في الذّمم، وعلى أحكام الدِّينِ المُتجلّية في أشرف القيم، وما يطرأ من أعذارٍ مانعةٍ من التّدوين، بسبب انعدام الوسائل، ممّا يفاجئُ أحيانًا الدّائن والمدين، فكان تشريع الاسْتِيثاقِ، بأَخْذِ الرِّهَانِ عوضًا عن تدوين الدَّيْن في الأوراق، ونَصَّ في ذلك على عُذْرِ السَّفر، لا سِيَّما في زمان الغَزْو القديم، وما يكتنفه من مخاطر وضرر[1]. كما أنَّه تعالى، جَعَلَ البيع في هذا المَقام على ثَلاثَة أقسام، هي: بَيعٌ بكِتابٍ وشُهودٍ، وبيعٌ بِرهانٍ مَقْبوضةٍ، وبيعٌ بالأمانةِ، فبَيَّنَ الأوَّلَ، وشرع في الثَّاني والثَّالث، على نحو ما نصّت عليه هذه الآية[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَرِهَٰنٞ﴾: جَمْعُ رَهْنٍ، وهو ما يُوضَعُ وثيقةً للدَّينِ، وَأَصْلُ الرَّهْنِ يَدُلُّ عَلَى الحَبْسِ، يُقَالُ: هذا راهنٌ لَكَ، أَيْ: دَائِمٌ مَحْبُوسٌ

(1) القُرطُبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 3/406-407، وابنُ عَطيَّةَ، المحَرَّرُ الوَجيزُ: 1/385، والرّازيُّ، مفاتيح الغيب: 7/99.
(2) النَّيسابوريُّ، غَرائِبُ القُرآنِ: 2/79.

عَلَيْكَ، والرَّهْنُ: مَحْبوسٌ بِيَدِ الدَّائِنِ على الدَّين المَرْهونِ به إِلَى أَنْ يَسْتَوْفِيَ دَيْنَه[1]، وَيُقَال: هَذَا الشَّيْء راهِنٌ لَك، أَي معدّ لَك، وَقد أرهنتُ لَك كَذَا وَكَذَا، أَي أعددته لَك. قَالَ الشَّاعِر:

يَطْوِي ابْنُ سَلْمَى بِهَا مِنْ رَاكِبٍ بُعداً *** مَهْرِيَّةً أُرْهِنَتْ فِيهَا الدَّنانيرُ

أَي أُعِدّت. ورِهان الْخَيل: مصدر راهنتُه مراهنةً رِهاناً، إِذا تواضعتما بَيْنكُمَا الرّهونَ. وَفُلَان رَهين بِكَذَا ومرتهَن بِهِ، ومرهون بِهِ، أَي مَأْخُوذ بِهِ[2].

2) ﴿فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ﴾: الأَداءُ: دَفْعُ الحقِّ وتَوْفِيَتُهُ، كأداءِ الخَرَاجِ والجِزْيَةِ وَرَدِّ الأمانةِ، وأصلُ الأَداءِ: إِيصَالُ الشَّيْءِ إِلَى الشَّيْءِ، أو وُصُولُهُ إِلَيْهِ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِهِ، والمَعنى هُنا: فلْيَدْفَعِ المأمونُ الأمانةَ الّتي يُريدُ الآمِنُ رَدَّها، وهي الدَّينُ الّذي أُخِذَ دون كتابةٍ ورِهانٍ، أو بِرِهانٍ مَقْبوضَةٍ فَقَطْ[3]، وَقَالَ بَعْضُهُمْ كَانَتْ كِتَابَةُ الدَّيْنِ وَالإِشْهَادُ وَالرَّهْنُ فَرْضًا، ثُمَّ نُسِخَ الْكُلُّ بِقَوْلِهِ تعالى: ﴿فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ﴾، وَهُوَ قَوْلُ الشَّعْبِيِّ[4].

3) ﴿وَلَا تَكْتُمُواْ﴾: الكِتْمانُ: سَتْرُ الحديثِ، يُقالُ: كَتَمْتُه كَتْمًا وكِتْمانًا، وأصلُ كَتَمَ يَدُلُّ عَلَى إِخْفَاءٍ وَسَتْرٍ، يُقَالُ: نَاقَةٌ كَتُومٌ: لَا تَرْغُو إِذَا رُكِبَتْ، وسَحابٌ مُكْتَتِمٌ: لا رَعْدَ فيه، والمعنى هُنا: حَبْسُ الكلامِ عمَّا في القلبِ، مِنْ شهادةٍ أو عِلْمٍ[5]، وقوله: ﴿وَلَا تَكْتُمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَ﴾ "خطابٌ لمن عليه الحقّ، وللشّاهد جميعا، لأنّ الشّهادة إعلام، ويقال للإقرار شهادة، ولهذا قال تعالى: ﴿كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾ [النساء: 135]، وكما أنّ كتمان الشّهادة محرّم، فما هو منه بسبب محرّم، كالتّأخّر عن إقامتها عن تحمّلها في بعض الأحوال"[6].

4) ﴿ءَاثِمٌ﴾: الآثِمُ: المُتَحَمِّلُ الإِثْمَ، يُقالُ: أَثِمَ إِثْمًا، فهو آثِمٌ وأَثِيمٌ، والإِثْمُ: اسمٌ

(1) الرّاغِبُ، المفردات، وابنُ منظور، لِسانُ العَرَب، والسَّمين، عُمدَةُ الحُفّاظ: (رهن)، وابنُ قُتَيبَةَ، غَريبُ القُرآنِ، ص: 100، وابنُ عاشور، التَّحرير والتَّنويرُ: 3/12.

(2) ابن دريد، جمهرة اللّغة: (رنه).

(3) الرّاغِبُ، المفرداتُ: (أَدَى)، وابنُ فارِس، مقاييسُ اللّغة: (أَدَيَ)، والمصطفويّ، التَّحقيقُ في كَلِماتِ القُرآنِ الكَريمِ: 1/55.

(4) البغويّ، معالم التّنزيل: 1/349.

(5) الرّاغِبُ، المفردات، والزَّمخشريُّ، أَساسُ البَلاغَة، وابنُ فارِس، مقاييسُ اللُّغة، وجَبَل، المعجَمُ الاشتِقاقيّ: (كتم)، والمصطفويّ، التَّحقيقُ في كَلِماتِ القُرآنِ الكَريمِ: 10/24.

(6) الرّاغِبُ، تفسير الرّاغب: 1/593.

للأفعالِ المُبَطِّئَةِ عن الثَّوابِ، وَأَصْلُ الإِثْمِ: البُطْءُ وَالتَّأَخُّرُ، يُقَالُ: نَاقَةٌ آثِمَةٌ، أَيْ: مُتَأَخِّرَةٌ، والإِثْمُ: الوِزْرُ والذَّنْبُ؛ والمعنى هُنا: مُبْطِئٌ عن السَّيْرِ إلى الحقِّ، ومَحْجوبٌ عَنْهُ[1]، وخلاصة معناه: "ومن يكتم شهادته، ﴿فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٞ قَلۡبُهُۥۗ﴾، أي: فاجرٌ قلبه، مكتسبٌ بكتمانه إيّاها معصية الله"[2].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

دعوة أطراف الدّين إلى الكتابة المعروضة، مع تقوى الله فيها وفي الرّهان المقبوضة

تُرشِدُ الآيةُ المؤمنينَ إلى تقديم الرّهان المقبوضة بين الطّرفين، حالَ السّفر الملزم وانعدام كاتبٍ لوَثيقة الدَّين، ضَمانًا للحقوق من الضّياع، فإنْ وَثِقَ بَعْضُهم ببعضٍ؛ فهم على الخيار، في تَرْكِ الكِتابةِ والرَّهْنِ والإشهادِ، ويكونُ الدَّينُ حينئذٍ أمانةً في ذِمَّةِ المَدِين، يُسأل عنها يوم يقوم الأشهاد، ولا مندوحة عن أداء الدَّين ومراقبة الله في تصرّف الدّائن والمدين؛ فلا يُنْكِرِ المدين ما في ذمّته، ولا يكتم الشّاهد فحوى شهادته، ومَنْ كتم الشّهادة فهو خائنٌ للضّمير؛ ومخالفٌ لأوامر الله المُطَّلِع على الفتيل والقطمير، والمُحيطِ عِلْمُهُ بكلِّ كبير من الأمور وصغير، وسوف يُجازي كلّا بدعواه، ويحاسبه الله على ما قدّمت يداه[3].

❁ الإِيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

تتميمُ الأحكامِ واستكمالُ أحوالِها أداءً للحقوقِ وحفاظًا على الأمانات

فائدةُ الوَصْلِ بين الجُملِ:

عُطِفَ قولُه سبحانه وتعالى: ﴿۞وَإِن كُنتُمۡ عَلَىٰ سَفَرٖ﴾ عَلَى قَوْلِهِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم﴾ [البقرة: 282]، اسْتِكمالًا للحُكم الواردِ في الآيةِ السَّابقةِ، فهو تَتْميمٌ وتَكْميلٌ لأحوالِ المُدايَنةِ وتوثيقِها،

(1) الرّاغِبُ، المفرداتُ: (إثم)، وابنُ فارِس، مقاييسُ اللّغة، والجَوهَريُّ، الصّحاحُ، وجَبَل، المعجَمُ الاشتِقاقيُّ: (أثم)، والمصطفويّ، التَّحقيقُ في كَلِماتِ القُرآنِ الكَريمِ: 1/36.

(2) الرّاغِبُ، تفسير الرّاغب: 1/593.

(3) لَجنَةٌ مِن عُلَماءِ الأَزهَر، المنتَخَبُ في تَفسيرِ القُرآنِ الكَريمِ، ص: 68، ونُخبَةٌ مِن أَساتِذَةِ التَّفسير، التَّفسيرُ الميَسَّرُ، ص: 49، وجَماعَةٌ مِن عُلَماءِ التَّفسير، المختَصَرُ في تَفسيرِ القُرآنِ الكَريمِ، ص: 49 (بتصرّف).

فالعطفُ لِمَا بين المُتعاطفَين من الاشتراكِ في حُكم توثيقِ الدَّينِ، والاختلافِ في الأحوالِ، فحالُ الحَضَرِ يختلفُ عن حالِ السَّفَرِ، ففي العطفِ تتميمٌ واستكمالٌ بديعٌ.

نكتةُ اسْتِعمالِ (إن) دون (إذا):

رِعايةُ الأحوالِ نادِرَةِ الوقوعِ، دليلُ رعايةِ الأحوالِ كثيرةِ الوقوعِ

استَعملتِ الآيةُ أداةَ (إن) الشَّرطيَّة دون (إذا) في قولِه: ﴿وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ﴾؛ لبيانِ نُدْرةِ وقوعِ مثلِ هذه الحال؛ فالسَّفرُ قليلٌ زمانُه مُوازَنَةً بَيْنَهُ وبَيْنَ زَمَنِ الإقامةِ، والمسافرون عددُهم أقلُّ من عدَدِ المُقيمين، والمسافرون الّذين يَضطرُّون إلى المُداينةِ أقلُّ من الّذين لا يَتَدايَنون، ومع ذلك كلِّه، فالآيةُ ذكَرَتْ هذه الحالَ لبيانِ قِيمةِ الحقِّ في التَّشريعِ القرآنيِّ، فهذه الحالُ - وإنْ قلَّتْ - فالعنايةُ بها مَرْعيَّةٌ، وهو دليلٌ على العنايةِ بالحالِ الكثيرةِ.

فائدةُ الاستعارةِ التَّمثيليَّةِ:

بيانُ أثرِ الانشغالِ بالسَّفرِ عن وِجدانِ الكاتبِ أَبْدَالَ الكتابةِ

عدَلَ النَّظمُ الكريمُ عن استعمال اسم الفاعلِ (مُسَافرين) فلم يقل: (وإن كنتم مسافرين) مع أنَّه أوجزُ لفظًا؛ إذ ليس فيه إشارةٌ بالاستيلاءِ على السَّفر[1]، الّذي يَظهرُ بالاستعارةِ التَّمْثيليَّةِ في قولِه تعالى: ﴿عَلَىٰ سَفَرٍ﴾[2]، حَيْثُ شبَّه تَمكُّنَهُم في السَّفر بِتَمَكُّنِ الرَّاكبِ مِنْ مَرْكوبه[3]؛ فكأنَّه راكبُ سَفَرٍ؛ لأنَّ معنى الاستعلاءِ في: ﴿عَلَىٰ سَفَرٍ﴾ تمثيلُ تمكُّنِهم وتوغُّلِهم في السَّفر بحال مَن اعتلى الشَّيءَ ورَكِبَهُ؛ ففيه تَشبيهُ تَلَبُّسِه بالسَّفر باستعلاء الرَّاكب، واعتلائه عَلَى المَركوب الّذي تمكَّنَ منه واستقرَّ عليه، فهو يتصرَّفُ فيه كَيْفَ يَشَاءُ[4].

وفائدةُ هذه الاستعارةِ: بيانُ أثرِ الانشغالِ بالسَّفرِ، عن وِجدانِ الكاتبِ أبدالَ الكتابةِ، بالتَّنْصيصِ على حال العُذْرِ الغالبِ من

(1) الخَفَاجيُّ، عناية القاضي: 1/245.
(2) القُونَويُّ، حاشيةُ القُونَويِّ على البَيضاويِّ: 5/490.
(3) الآلوسيُّ، روحُ المعاني: 2/60.
(4) القُونَويُّ، حاشيةُ القُونَويِّ على البيضاويِّ: 5/9.

الأعذار، وهو التَّلبُّسُ بالسَّفر والتَّوغُّلُ فيه، والانشغالُ به عن غيرِه؛ لأنَّها الحالُ التي يُفْقَدُ فيها الكاتبُ والشَّهيدُ، فهم مسافرون قد ضربوا في الأرض حقيقةً، وتركوا الأوطانَ والدِّيارَ، وليسوا مُسافرين قد عَزَموا السَّفرَ، أو ما زالوا في أوَّلِ الطَّريقِ، أو وصلوا إلى حاضِرَةٍ، يَغلِبُ على الظَّنِّ وجودُ الكاتِبِ والشَّهيدِ فيها.

بلاغةُ الوَصْلِ بين الجملِ:

تأكيدُ مَظِنَّةِ فَقْدِ الكاتبِ في السَّفر، وأنَّه الشَّائعُ العامُّ

وُصِلَ قولُه تعالَى: ﴿وَلَمْ تَجِدُواْ كَاتِبًا﴾ بقولِه تعالَى: ﴿وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ﴾ بالواوِ دون الفاءِ؛ لتأكيدِ مَظِنَّة فَقْدِ الكاتبِ في السَّفر، ولو قالَ: فلم تجدوا كاتبًا؛ لكان ذلك نَصًّا على أنَّ وجودَ الكاتِبِ مُتوقَّعٌ وجودُه، لكنْ لمَّا جيءَ بالواوِ كان بيانًا وتأكيدًا للشَّائعِ العامِّ، وهو المُنْسابُ مع استعمالِ (إنْ).

توجِيهُ المَخْصُوصِ بالذِّكرِ:

مراعاةُ الواقِعِ الشَّائعِ، وتنبيهُ المُكلَّفين على ضرورةِ اتِّخاذِ الكاتبِ

خصَّتِ الآيةُ الكاتِبَ دون الشَّهيدِ بالذِّكرِ، في قولِه تعالَى: ﴿وَلَمْ تَجِدُواْ كَاتِبًا﴾؛ مُراعاةً للواقعِ الشَّائعِ في صعوبةِ وجودِ الكاتِبِ في السَّفرِ، إشَارَةً إِلَى أَنَّهُ لَيْسَ مِنْ شَأْنِ مَوَاطِنِ الإِقَامَةِ أَنْ تَكُونَ خِلْوًا مِنَ الكُتَّابِ[1]، وإن وُجِدَ فقد تَنْعدِمُ أداواتُ الكتابةِ، مثلُ القِرطاسِ والقلمِ والدَّوَاةِ[2]، بخلافِ الشُّهودِ فقد يَتوافرون في السَّفر بخلافِ الكُتَّابِ وأدواتِهم، وللتَّنبيهِ على أنَّ كتابةَ الدَّينِ أَصْلٌ في التَّدايُنِ حتَّى في أثناءِ السَّفر؛ لنَصِّ الآيةِ على ذلك: ﴿وَلَمْ تَجِدُواْ كَاتِبًا﴾؛ فالآيةُ أَرشدَتْ إلى البحثِ عن كاتبٍ، فإنْ عُدِمَ فرِهانٌ مقبوضةٌ[3].

بلاغةُ الإيجازِ بالحذْفِ:

أوجزتِ الآيةُ بالحذفِ في قوله تعالى: ﴿فَرِهَٰنٌ مَّقْبُوضَةٌ﴾، إذِ

(1) رضا، تَفسيرُ المنارِ: 3/109.
(2) القُونَويُّ، حاشيةُ القُونَويِّ على البيضاويِّ: 5/490.
(3) سعيد جمعة، البلاغة العالية، ص: 58.

التَّقديرُ: الّذي يُسْتَوْثَقُ به رِهانٌ مقبوضةٌ[1]، أو: فعليكم، أو: فَلْيُؤْخَذْ، أو: فالمَشروعُ رِهانٌ[2]، وهو أَمْرٌ على سبيل الإرشادِ إلى حِفظِ المالِ، بَأَنْ يُقامَ التَّوثيقُ بالارتهانِ مَقامَ التَّوثيقِ بالكِتابةِ والإشهادِ[3]، وفيه تَعَرُّضٌ لِلْغَرَضِ من الرَّهْنِ؛ لِأَنَّ الخَبَرَ في مَقامِ الأَمْرِ من الشَّارعِ آكدُ[4]، إذِ المقصودُ تحقيقُ الرَّهنِ كأنَّه خَبَرٌ واقعٌ.

تحقيقُ الرَّهنِ كأنَّه خَبَرٌ واقعٌ

سرُّ التَّعبير بالفاءِ:

حيث عبَّرتِ الآيةُ بالفاءِ؛ للتَّنبيه على سرعةِ الاستجابةِ للأمرِ الضِّمنيِّ في قولِه تعالَى: ﴿فَرِهَٰنٌ مَّقْبُوضَةٌۖ﴾، إذْ أظهرتْ المقدَّرَ بصُورةِ المُحقَّقِ.

التَّنبيهُ على سرعةِ الاستجابةِ

نكتةُ تَعَلُّقِ جوابِ الشَّرطِ بمشروطِه:

فلِسائلٍ أنْ يسألَ: لمَ شَرَطَ السَّفرَ في الارتهانِ؟ وقد رَهَنَ رسولُ اللهِ ﷺ دِرْعَهُ في غيرِ سَفَرٍ؟ والجوابُ: أنَّ هذا ليس من قَبيلِ التَّعليقِ لِاشْتِراطِ السَّفَرِ في الارتهانِ[5]؛ فمفهومُ الشَّرطِ إنَّما يُعْتَبَرُ لو لم يَخرُجْ مَخرجَ الأغلبِ، أمَّا إذا ذُكِرَ الشَّرطُ لكونِه أغلبَ؛ فلم يلزمْ من انتفائِه انتفاءَ المشروطِ، كما في قَوْلِه تَعَالَى[6]: ﴿وَلَا تُكْرِهُواْ فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا﴾ [النُّور: 33]، فليس الغَرضُ تجويزَ الارتهانِ في السَّفر خاصَّةً دون الحَضَرِ، وإنَّما ذُكرَ لأنَّ السَّفرَ مَظِنَّةٌ لإعْوازِ الكاتبِ[7]، فهو مفهومٌ خَرَجَ مَخرَجَ الغالبِ[8]، فتَعْليقُهُ هُنَا عَلَى حَالِ السَّفَرِ لَيْسَ تَعْليقًا بِمَعْنَى التَّقْييدِ[9]، بل بمعنى التَّغليبِ، واستباقًا لاستفتاءٍ مُسْتَفْتٍ عن حُكمِ مَنْ لم يجدْ كاتبًا في السَّفرِ.

تعليقُ الجوابِ بالشَّرطِ للتَّغليبِ لا للحَصْرِ، واستباقُ الإبانةِ قبلَ السُّؤالِ

(1) أبو السُّعود، إرشادُ العَقلِ السَّليم: والبَيضاويُّ، أنوارُ التَّنزيلِ: 1/165.
(2) الآلوسيُّ، روحُ المعاني: 2/60.
(3) الزَّمخشريُّ، تَفسيرُ الكَشّافِ: 1/328.
(4) القُونَويُّ، حاشيةُ القُونَويِّ على البَيضاويِّ: 5/490.
(5) البَيضاويُّ، أنوارُ التَّنزيلِ: 1/165.
(6) ابنُ التَّمْجيدِ، حاشيَةُ ابنِ التَّمْجيدِ على البَيضاويِّ: 5/490.
(7) الخازنُ، لباب التأويل: 1/217.
(8) ابنُ عَرَفَةَ، تَفسيرُ ابنِ عَرَفَةَ: 1/335.
(9) ابنُ عاشورٍ، التَّحريرُ والتَّنويرُ: 3/121.

سِرُّ وصفِ الرِّهان بالمقبوضة:

بيانُ أهميَّة القبضِ وتأكيده فهي مقبوضةٌ تحقُّقًا، لا توقُّعًا.

عبَّرتِ الآيةُ باسمِ المفعول في وصفِ الرِّهان بـ مقبوضة، دون تَقْبضونَها؛ لبيانِ أهميَّة القَبضِ وتأكيدِه، فهي مقبوضةٌ تحقُّقًا لا توقُّعًا، وإيماءً إلى الاكتفاء بقبض الوكيلِ، ولا يتوقَّفُ على قَبْضِ المُرتَهِن[1]، وَقد وَصَفَ الرِّهانَ بِمَقْبُوضَةٍ؛ إِمَّا لِمُجَرَّدِ الكَشْفِ؛ لِأَنَّ الرِّهَانَ لَا تَكُونُ إِلَّا مَقْبُوضَةً، فلا بدَّ في لُزومها من القبضِ، والمرادُ باللُّزومِ ألّا يكونَ للرَّاهنِ الرُّجوعُ عن الرَّهْنِ ولا للمُرتَهن عن الارتهان[2]، وَإِمَّا لِلِاحْتِرَازِ عَنِ الرَّهْنِ لِلتَّوْثِقَةِ فِي الدُّيُونِ فِي الحَضَرِ، فَيُؤْخَذُ مِنَ الإِذْنِ فِي الرَّهْنِ أَنَّهُ مُبَاحٌ، فَلِذَلِكَ إِذَا سَأَلَهُ رَبُّ الدَّيْنِ أُجِيبَ إِلَيْهِ، فَدَلَّتِ الآيَةُ عَلَى أَنَّ الرَّهْنَ تَوْثِقَةٌ فِي الدَّيْنِ[3].

نكتةُ استِعمالِ (إنْ) دون (إذا):

التَّنبيه على الواقعِ، بقصدِ التَّنبُّه في التَّعاملِ الماليِّ

استَعملتِ الآيةُ (إن) في قولِه تعالى: ﴿فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾؛ لنُكتَتَيْن اثنتَيْن؛ الأولى: أنَّ الأمانةَ نادرةُ الوقوعِ، فهذا إشعارٌ بالواقعِ، والثَّانية: الإيماءُ إلى ضرورةِ التَّنبُّه على عَدَمِ الائتمانِ إلَّا بعد التَّوثُّقِ من حالِ المَدين، وهذا إشعارٌ لِما يَجِبُ أنْ يكونَ عليه الواقعُ، وهو ما يدلُّ عليه لفظُ الأمنِ، فإنَّه لا يَحصُلُ إلَّا بعد معرفةٍ وطولِ مُمارَسَةٍ.

فائدةُ استعمالِ الألفاظِ المُبهمةِ:

بيان التَّشريع العامِّ في المعاملات عند الائتمانِ بين جميعِ الأشخاصِ

أَبهمتِ الآيةُ وصفَ المؤتمِنِ والمُؤتَمَنِ بأيِّ وصفٍ، واكتَفت بكلمة (بعض)؛ لأنَّ الآيَةَ تَشْرِيعٌ مُسْتَقِلٌّ يَعُمُّ جَمِيعَ الأَحْوَالِ المُتَعَلِّقَةِ بِالدُّيُونِ: مِنْ إِشْهادٍ وَرَهْنٍ ووَفاءٍ بِالدَّيْنِ، وَالمُتَعَلِّقَةِ بِالتَّبَايُعِ، وَلِهَذِهِ النُّكْتَةِ أُبْهِمَ المُؤْتَمَنُونَ بِكَلِمَةِ (بَعْض)؛ لِيَشْمَلَ الائْتِمَانَ مِنْ كِلَا الجَانِبَيْنِ: الَّذِي مِنْ قِبَلِ رَبِّ الدَّيْنِ، وَالَّذِي مِنْ قِبَلِ المَدِينِ، فَرَبُّ الدَّيْنِ يَأْتَمِنُ المَدِينَ

(1) الآلوسّي، روحُ المعاني: 2/60.
(2) النَّيسابوريُّ، غَرائِبُ القُرآنِ: 2/79.
(3) ابن عاشور، التحرير والتّنوير: 3/121.

إِذَا لَمْ يَرَ حَاجَةً إِلَى الإِشْهاد عليه، وَلَمْ يُطَالِبْهُ بِإِعْطَاءِ الرَّهْنِ في السَّفَرِ وَلَا في الحَضَرِ[1]، وَيُفْهَمُ مِنْهُ: أَنَّهُ إِنْ لَمْ يَأْمَنْهُ لَا يُدَايِنْهُ، وَلَكِنْ طُوِيَ هَذَا تَرْغِيبًا لِلنَّاسِ فِي المُوَاسَاةِ وَالاتِّسَامِ بِالأَمَانَةِ[2].

فائدةُ التَّجنيسِ اللَّفظيِّ:

ترسيخُ القيمِ الأخلاقيَّةِ في المعاملاتِ الماليَّةِ

جانستِ الآيةُ بين لفظِ صلةِ الموصولِ: ﴿ٱؤْتُمِنَ﴾ وبين لفظِ المفعول به: ﴿أَمَنَتَهُۥ﴾؛ لِحَثِّ المَدْيون على أنْ يكونَ عند ظنِّ الدَّائنِ به، وأَمْنِه منه، وائْتِمانِه لَهُ، وأن يُؤَدِّيَ إليه الحقَّ الّذي ائتمَنَه عليه فلم يرتَهِنْ منه[3]، ولأجلِ هذا المعنى في الحثِّ والتَّرغيبِ: جِيءَ بالتَّجْنِيسِ المُغايِرِ بين ﴿ٱؤْتُمِنَ﴾ و ﴿أَمَنَتَهُۥ﴾[4]، تَرْسيخًا للقِيَمِ الأخلاقيَّةِ في المُعاملات الماليَّةِ؛ فإنَّ مِنْ شأنِ بناءِ الثِّقةِ بين المؤمنين نشرَ الأمنِ والأمانِ.

بلاغةُ استعمالِ المفردةِ القرآنيَّةِ:

المُبالَغةُ في التَّحريضِ عَلَى الأداءِ والوفاءِ تعظيمًا لشأنِ الأمانات

استعملتِ الآيةُ مُفْرَدةَ الأمانةِ دون الدَّينِ؛ لأنَّه جَعَلَ الدَّينَ أمانةً بتَرْكِ الارتهانِ به، أيْ: بِبَدَلِه، ففيه استعارةٌ تصريحيَّةٌ؛ فَذُكِرَ المُشَبَّهُ به، وأُرِيدَ المُشَبَّهُ وهو الدَّين، وفي هذا التَّعْبير مُبَالَغَةٌ في التَّحريض عَلَى الأداءِ والوفاءِ[5]، وهذا على أن يكونَ المقصودُ بالأمانةِ الدَّيْنَ؛ لائتمانه عليه بترك الارتهانِ به[6]، وإضافتُها إلى الّذي عليه الدَّينُ نِسْبَةٌ؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَا تُؤْتُواْ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ﴾ [النِّساء: 5][7].

وإنْ قَصَدَ بالأمانةِ الرَّهنَ فالخطابُ مُوَجَّهٌ لِلْمُرْتَهِنِ، بأنْ يُؤَدِّيَ الرَّهنَ عند استيفاءِ المالِ، فإنَّها أمانةٌ في يده[8]، فالمَدِينُ يَأْتَمِنُ

(1) ابن عاشور، التحرير والتّنوير: 3/124.
(2) ابن عاشور، التحرير والتّنوير: 3/124.
(3) الزّمخشريُّ، الكَشّاف: 1/329.
(4) أبو حَيّانَ، البَحرُ المحيطُ: 2/747.
(5) القُونَويُّ، حاشيةُ القُونَويِّ على البَيضاويِّ: 5/492.
(6) أبو السُّعودِ، إرشادُ العَقلِ السَّليمِ: 1/272، والآلوسّي، روحُ المعاني: 2/61، والبَيضاويُّ، أنوارُ التَّنزيلِ: 1/165.
(7) القُرطُبيُّ، الجامع لأحكام القرآن: 3/415.
(8) ذكره غيْر واحد من المفسّرين، واللَّفظ يحتملُه، والأكثرون على المقصود بالأمانة الدَّين، ينظر: النَّيسابوريُّ، غَرائِبُ القُرآنِ: 2/80.

الدَّائِنَ إذا سَلَّمَ لَهُ رَهْنًا أَغْلَى ثَمَنًا بِكَثِيرٍ مِنْ قِيمَةِ الدَّيْنِ المُرْتَهَنِ فِيهِ، وَالغَالِبُ أَنَّ الرِّهَانَ تَكُونُ أَوْفَرَ قِيمَةً مِنَ الدُّيُونِ الّتِي أُرْهِنَتْ لِأَجْلِهَا، فَأَمَرَ كُلَّ جَانِبٍ مُؤْتَمَنٍ أَنْ يُؤَدِّيَ أَمَانَتَهُ، فَأَدَاءُ المَدِينِ أَمَانَتَهُ بِدَفْعِ الدَّيْنِ، دُونَ مَطْلٍ وَلَا جُحُودٍ، وَأَدَاءُ الدَّائِنِ أَمَانَتَهُ إِذَا أُعْطِيَ رَهْنًا مُتَجَاوِزَ القِيمَةِ عَلَى الدَّيْنِ أَنْ يَرُدَّ الرَّهْنَ، وَلَا يَجْحَدَهُ غَيْرَ مُكْتَرِثٍ بِالدَّيْنِ لِأَنَّ الرَّهْنَ أَوْفَرُ مِنْهُ، وَلَا يُنْقِصَ شَيْئًا مِنَ الرَّهْنِ[1].

وَقَدْ أُطْلِقَ هُنَا اسْمُ الأَمَانَةِ عَلَى الدَّيْنِ فِي الذِّمَّةِ وَعَلَى الرَّهْنِ؛ لِتَعْظِيمِ ذَلِكَ الحَقِّ، لِأَنَّ اسْمَ الأَمَانَاتِ لَهُ مَهَابَةٌ فِي النُّفُوسِ، فَذَلِكَ تَحْذِيرٌ مِنْ عَدَمِ الوَفَاءِ بِهِ، لِأَنَّهُ لَمَّا سُمِّيَ أَمَانَةً؛ فَعَدَمُ أَدَائِهِ يَنْعَكِسُ خِيَانَةً، لِأَنَّهَا ضِدُّهَا[2].

بلاغةُ الجملةِ القرآنيَّة واكتنازُها بالبيانِ:

كثرةُ المعاني المستنبَطةِ دليلٌ على قوّةِ التَّركيبِ وجزالتِه

اجتمَعَ في قولِه تعالى: ﴿وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ﴾ جملةٌ من المعاني البلاغيَّةِ، تَدُلُّ على بالغِ أهميَّة رعاية الحقوقِ الماليَّةِ في التَّشريعاتِ القرآنيَّة، وهي:

أولاً: الأمرُ بأداء الدَّائن دَيْنَهُ بلفظِ التَّقْوَى، حيث أَمَرَهُ بالتَّقوى، وهي فَرْطُ الصِّيانة.

ثانيًا: حَذْفُ المُتَّقى منه للدَّلالة عَلَى العُموم، وأنَّه مِمَّا لا يُدرَكُ بالوصفِ والبيانِ.

ثالثًا: مجيئُه عَلَى لفظ الأمرِ الدَّالِّ عَلَى الوجوبِ.

رابعًا: إيرادُ اسم الجلالِ المُسْتَجمِعِ لجميع صفات الكَمَال، تَرْهيبًا من الخيانةِ، وتَرْغيبًا في الأداء.

خامسًا: الوَصْفُ بالرُّبوبيَّةِ الّذي يُشعِر بالتَّربيةِ، وأنَّ الرَّزَّاقَ هو اللهُ تعالى، فلا يَطمعُ أحدٌ في رزقِ أحدٍ، فَحَقُّه أن يُطاعَ في جميعِ أوامرِه، ومِنْ جُملتها: أمرُه بأداءِ أمانتِه، والتَّجنُّبِ عن خِيانتِه[3].

(1) ابنُ عَطِيَّةَ، المحرَّرُ الوَجيزُ: 1/388، وابنُ عاشور، التَّحريرُ والتَّنويرُ: 3/124.

(2) ابنُ عاشور، التَّحريرُ والتَّنويرُ: 3/122.

(3) القُونَويُّ، حاشيةُ القُونَويِّ على البَيضاويِّ: 5/493، وابنُ التِّمْجيد، حاشيَةُ ابنِ التِّمْجيد على البَيضاويِّ: 5/492.

فائدةُ الجَمْعِ بين عنوان الألوهيَّةِ والرُّبوبيَّةِ:

تعظيم أمر الأمانة بالجمع بين صفتي الألوهيَّة والرُّبوبيَّة عند الأمر بالتّقوى

في الجمع بَيْنَ عنوانِ الألوهيَّة وصفةِ الرُّبوبيَّة من التَّأكيدِ والتَّحذير من خِيانة الأمانةِ والمُطْلِ ما لا يَخفى، وقد أمرَ سبحانه بالتَّقوى عند الوَفاء حَسْبما أَمَرَ بها عند الإقرارِ، تَعْظيمًا لحقوق العِباد، وتَحذيرًا عمَّا يُوجِبُ وقوعَ الفَسادِ[1]؛ فجَمَعَ ما بين الاسمِ الجليلِ والنَّعتِ الجميلِ، مُبالغةً في التَّحذير[2]، وَزِيدَ في التَّحْذِيرِ بِقَوْلِهِ: ﴿وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ﴾، وَذِكْرُ اسْمِ الجَلَالَةِ فِيهِ مَعَ إِمْكَانِ الاسْتِغْنَاءِ بِقَوْلِهِ: (وليتقّ ربّه)، لِإِدْخَالِ الرَّوْعِ في ضَمِيرِ السَّامِعِ، وَتَرْبِيَةِ المَهَابَةِ[3].

بلاغةُ خطابِ النَّهيِ:

اشتمالُ النَّهيِ الدَّائِنَ والمَدِينَ

توجَّهَ النَّهيُ إلى الدَّائن والمَدين معًا، فتكونُ الشَّهَادَةُ شهادتَهم عَلَى أنفسِهم[4]، وتكون الشَّهَادَةُ مَجَازًا مُسْتعمَلًا في معنى الإقرار[5]؛ فإنَّ من يُقِرُّ بالحقيقةِ فقد شَهِدَ على نفسِه.

كما أنَّ النَّهيَ عن كِتْمان الشَّهادةِ كلِّها بعُمومِه، والتَّعقيبَ به بعدَ ما سبَقَ من وِصايةٍ للشُّهداء، والأمرَ أنْ يَكتُبَ الشَّاهدُ بالعَدلِ، والنَّهيَ عن الامتناع عن الكتابةِ بين المتداينَيْن؛ بمنزلةِ التَّذييلِ لأحكامِ الشَّهادة في الدَّين[6]؛ فعُلِمَ من ذلك كُلِّه: الاهتمامُ بإظهار الشَّهادة إظهارًا للحقِّ.

بلاغةُ فنِّ التَّجنيسِ:

جِيءَ بالتَّجنيس المُماثِلِ[7] بين لفظَتي: ﴿تَكْتُمُواْ﴾ و﴿يَكْتُمْهَا﴾،

(1) الآلوسيُّ، روحُ المعاني: 2/61.
(2) محمد علي جميل، صَفوَةُ التَّفاسِير: 1/179.
(3) ابن عاشور، التَّحريرُ والتَّنويرُ: 3/125.
(4) البَيضاويُّ، أَنوارُ التَّنزيلِ: 1/165.
(5) ابنُ التَّمْجيدِ، حاشيَةُ ابنِ التَّمجيدِ على البَيضاويِّ: 5/492.
(6) ابن عاشور، التّحريرُ والتَّنويرُ: 3/125.
(7) أَبو حَيّانَ، البَحرُ المحيطُ: 2/747.

الرَّدعُ النَّفسيُّ لما يجولُ في الخواطرِ من الكتمانِ

وهذا التَّجنيسُ ليس لفظيًّا مَحضًا، بل فيه من البيانِ الكاشفِ عن حقائقِ ما في النُّفوسِ؛ فإنَّ ترتُّبَ الشَّرطِ على النَّهي مع احتوائهما للَّفظِ نفسِه، فيه مزيدُ تَهديدٍ بعقوبةِ كِتمانِ الشَّهادةِ واستحقاقِ الإثمِ[1]، ممَّا يُزْعِجُ الشَّاهِدَ إن خَطَرَتْ في ذِهنِه خواطرُ الكِتمانِ.

وَجْهُ إِسناد الإثم إِلَى القَلْبِ:

إبرازُ سببِ الإثمِ ومَوْضِعِه؛ لرعايةِ القلبِ، وتحاشي الإثمِ

أُسندَ الكتمانُ إلى القلبِ في قولِه: ﴿وَمَن يَكۡتُمۡهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٞ قَلۡبُهُۥ﴾ لأنَّه أبلغُ[2] من إسنادِها إلى الكاتمِ، ولذلك لم يقتصر في القول على: ﴿فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٞ﴾، لكنّه زاد النِّسبةَ، فقال: ﴿قَلۡبُهُۥ﴾، فالكِتمانُ إضمارُ النَّفسِ الشَّهَادَةَ، فهو يُضمرُها ولا يتكلَّمُ بها، فلمَّا كان الإثمُ مُقْتَرَفًا بالقلبِ أُسْنِدَ إليه، ومن ذلك: أنَّه عند إرادةِ توكيدِ الرُّؤيةِ مثلًا تقولُ: هذا أبصرتُه بعيني؛ فكأنَّه قيلَ: فقد تمكَّنَ الإثمُ في أصلِ نَفْسِه، ومَلَكَ أشرفَ مكانٍ فيه[3]، ففيه تَنْبيهٌ واحتراسٌ مِنْ أنْ يُظَنَّ أنَّ كِتمانَ الشَّهادةِ للآثامِ المُتعلِّقةِ باللِّسانِ فحَسْبُ، ولِيُعْلَمَ أنَّ القلبَ مَعْدِنُ اقترافِه، واللِّسانَ تُرْجُمانٌ عنه[4].

وإسنادُ الإثمِ إلى القلبِ إمَّا على الحقيقةِ أو المجازِ، فتَوجيهُ حَملِه على الحقيقةِ باعتبارِه سببَ الإثمِ، فالإثمُ في كِتمانِ الشَّهادةِ عَمَلُ القلبِ لا عملُ الجَوارحِ؛ ولأنَّ القلبَ مُضْغَةٌ إذا صَلَحَتْ صَلَحَ سائرُ الجسدِ، وإنْ فَسَدَتْ فَسَدَ الجسدُ كلُّه[5]، وإمَّا أن يُحملَ على المجازِ المُرسَلِ، من بابِ إطلاقِ بَعْضِ الشَّيْءِ عَلَى كُلِّه، حيثُ عبَّرَ عن الكُلِّ باسمِ الجُزءِ؛ لأنَّ في ذلك الجزءِ - وهو القلبُ - مزيدُ اختصاصٍ في موضعِ الحُكمِ؛ فالحقيقةُ أوضحُ في بيانِ السَّببِ

(1) الزُّحيليُّ، التَّفسيرُ المنيرُ: 3/15.
(2) الأنصاريُّ، فَتحُ الرَّحمنِ، ص: 72.
(3) الزَّمخشريُّ، الكَشّاف: 1/330، وأبو حَيّانَ، البَحرُ المحيطُ: 2/746، وابنُ التَّمْجيدِ، حاشيَةُ ابنِ التَّمْجيدِ على البَيضاويِّ: 5/492-493.
(4) الزَّمخشريُّ، الكَشّاف: 1/329-330، والقاسِميُّ، محاسِنُ التَّأويل: 2/237، وابنُ عاشور، التَّحريرُ والتَّنويرُ: 3/126.
(5) الزَّمخشريُّ، الكَشّاف: 1/330، وابنُ عَطيَّةَ، المحرَّرُ الوَجيزُ: 1/388.

لرِعايتِه، والمجازُ آكَدُ مِنَ الحَقِيقَةِ في الدَّلَالَةِ عَلَى الوَعِيدِ، وَهُوَ مِنْ بَدِيعِ البَيَانِ، وَلَطِيفِ الإِعْرَابِ عَنِ المَعَانِي[1].

وهذا كلُّه يدورُ في فَلَكِ المُبالغةِ والتَّحذيرِ من كِتمان الشَّهادةِ، ومِنْ أجلِ هذا: جاء الخبرُ مُؤَكَّدًا بـ (إنَّ) واسميَّةِ الجُمْلةِ، لِتَقرير معنى التَّحذير من الكِتمانِ.

توجيه المتشابِه اللَّفظيِّ في الصِّيَغِ:

استعمالُ (أثيم) في سياقِ المعاصي الاعتقاديَّةِ والعامَّةِ، واستعمالُ (آثم) في المعاصي الفرديَّةِ

اختيرَتْ صيغتا: (آثم وأثيم) في القرآن الكريم بحَسَبِ السِّياقِ الّذي ورَدَتْ فيه، فقد وردت صيغةُ (أثيم)، وهي صفةٌ مُشَبَّهَةٌ باسم الفاعل، وهي صيغةُ مبالغةٍ، تُفيدُ الإقامةَ على فعل ذلك الإثمِ، والإصرارَ عليه، والتَّمعُّنَ فيه بلامُبالاةٍ، فالأثيمُ الفاجرُ[2] المُتمادي في الإثم؛ بخلافِ الآثمِ، فهو فاعل الإثم[3]، فصفةُ (أثيم) أشدُّ وقعًا من صفةِ (آثم)، وقد وَرَدَتْ صيغةُ (أثيم) في قوله تعالى: ﴿يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِي ٱلصَّدَقَٰتِۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ٢٧٦﴾ [البقرة: 276]، وفي قوله: ﴿تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ٢٢٢﴾ [الشعراء: 222]، وفي قوله: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ٧﴾ [الجاثية: 7]، وفي قوله: ﴿مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ١٢﴾ [القلم: 12]، وفي قوله: ﴿وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ١٢﴾ [المطففين: 12]، وفي قوله: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ٤٣ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ٤٤﴾ [الدخان: 43- 44]، ونُلاحظُ أنَّ جميعَ الآياتِ تتكلَّمُ عن وَصفٍ شديدٍ لمُرابٍ أو كافرٍ، بخلافِ ﴿ءَاثِمٌ﴾؛ فوَرَدَتْ في سِياقِ كتمان الشَّهادَةِ، وهو أقلُّ جُرْمًا من تعاطي الرِّبا ومن الكفرِ، الّذي يَتَأذَّى مِنْهُ المجتمعُ كلُّه، بينما تأتي ثَمَرَةُ كتْمان الشَّهادَةِ المُرَّةُ على الأَفْرادِ[4].

(1) القُرطُبيُّ، الجامع لأحكام القرآن: 3/415.
(2) ابنُ منظور، لِسانُ العَرَبِ: (أثم).
(3) العَسكَريُّ: الفُروقُ اللُّغويَّةُ، ص: 233.
(4) محمَّد موسى، الإعجاز البلاغيّ للتَّقديم والتّأخير، ص: 22.

بلاغةُ اختيارِ الأسماءِ الحُسنى في الفواصلِ:

الـجـمـعُ بـين الـوعدِ والوعيدِ ترغيبًا وترهيبًا، من بلاغةِ القرآن المبتكرة

اشتَمَلَتْ الفاصلةُ على وعيدٍ شديدٍ لِكَاتِمِ الشَّهَادَةِ؛ لِأَنَّ عِلْمَهُ بِهَا يَتَرَتَّبُ عَلَيْهِ المُجَازَاةُ، ووعدٌ بالحسنى لِمَنْ أدَّاها؛ فلَفْظُ العِلْمِ يَعُمُّ الوَعْدَ وَالوَعِيدَ[1]؛ فهو تهديدٌ لِمَنْ كَتَمَ الشَّهَادَة، وهو مُشْعِرٌ بالمُجازاة بالعقوبةِ[2]، وَوَعْدٌ لِمَنْ أدَّى الشَّهَادَة عَلَى وَجْهِها[3]، فاللهُ يُحصيه عليكم، ليجزيَكم بذلك كلِّه، إنْ خيرًا وإنْ شرًّا على قَدْرِ استحقاقِكم[4]، وقد تَأَكَّدَ هذا الوَعْدُ والوعيدُ باسميَّة الجُمْلَةِ، وتقديمِ الاسمِ الجليلِ تَرْبِيَةً للمَهابَةِ في قلوبِ الخَلْقِ، وفي هذا التَّذييلِ جَمْعٌ ما بين الاسمِ الجليل، والنَّعتِ الجميلِ؛ للمُبالَغَةِ في التَّحذير[5]، وليس مُقتضاه حَصْرَ العِلْمِ على ما نَعمَلُ فقط[6].

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

القَبْض والإمساك:

الـقـبـض دليـل الـتَّـمـلـك، والإمـسـاك حبس النَّفس عن الفعل

القَبْضُ: الأَخذُ والتَّمَلُّكُ، يقالُ: قَبَضْتُ الشَّيءَ قَبْضًا: أخذته، وصار الشَّيءُ في قَبْضَتِكَ، أي: في مِلكِكَ، ويَصلُحُ للقَبْضِ الفعليِّ بالكَفِّ، وللحَوْزِ فَيُقالُ: "قَبَضَ الدَّارَ والأرضَ: حَازها، والقَبْضُ: خِلافُ البَسْطِ[7]"، قال الحَرَالِّي: والقبض إكمال الأخذ، أصله القبض باليد كلّه، والقَبْصُ - بالمهملة - أخذ بأطراف الأصابع، وهو جمع عن بسط، فلذلك قوبل به[8]، وأمّا الإمساكُ: فهو حَبْسُ النَّفسِ عَن الفِعْل، ويكثرُ استعمالُه في الامتناعِ عَمَّا تَدْعُو إِلَيْهِ الشَّهْوَةُ،

(1) ابنُ عَطيَّةَ، المحرَّرُ الوَجيزُ: 1/388، وأبو حَيّانَ، البَحرُ المحيطُ: 2/747.
(2) البَيضاويُّ، أنوارُ التّنزيل: 1/165، وابنُ التَّمْجيدِ، حاشيَةُ ابنِ التَّمجيدِ على البَيضاويِّ: 5/494.
(3) القُونَويُّ، حاشيةُ القُونَويِّ على البَيضاويِّ: 5/494.
(4) ابنُ جَريرٍ، جامع البيان: 6/100.
(5) القاسِميُّ، محاسِنُ التَّأويل: 2/234.
(6) ابن عُثَيمين، تَفسيرُ ابنِ عُثَيمين: (سورَةُ الفاتحة والبَقَرَة): 3/427.
(7) الجَوهَريُّ، الصّحاح، وجبل، المعجَم الاشتِقاقيُّ المؤَصَّلُ: (قبض).
(8) الحرالّي، تراث أبي الحسن الحَرَالِّي، ص: 425.

يُقَالُ: أَمْسَكَ عَن الإفطار؛ وقد يُستعمَلُ أيضًا فيما لا تدعو، كَمَا يُقالُ: أَمْسَكَ عَن الكلام؛ وأَصْلُ الإِمْسَاكِ: حَبْسُ النَّفسِ عَن الفِعْل، ونقِيضُ الإِمساكِ الإِرْسَالُ[1]، والإمساك خلاف الإطلاق والمساك والمسكة، اسمان منه، يقال: إنّه لذُو مسكة ومساكة، إذا كان بخيلا، قال الفرّاء: يقال إنّه ليس بمسّاك غلمانه، وفيه مساكة من جبر، أي قوّة[2].

الأمانة والوديعة:

الأمانةُ: هي كُلُّ حقٍّ لَزِمَ أداؤه وحِفْظُهُ[3]، وكلُّ ما افْتُرِضَ على العباد فهو أمانةٌ، كالصَّلاة والزّكاة والصّيام وأداءِ الدَّيْن، وأَوْكَدُها الودائعُ[4]، فالأمانةُ: اسمٌ لما يُؤمَّنُ عليه الإنسانُ، قال تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ﴾ [الأحزاب: 72]، وعكسها الخيانة: وهي أن يؤتمن الرّجل على شيء، فلا يؤدّي الأمانة، وسمّي ناقض العهد خائناً، لأنّه اؤتمن بالعهد، فغدر ونكث[5]. وأمّا الوَديعةُ: واحدَةُ الوَدائع، وأَوْدَعْتُهُ مالًا: دفعته إليه، وهي المالُ المدفوعُ إلى مَنْ يحفظُه بلا عِوَضٍ، وَالإِيدَاعُ تَوْكِيلٌ فِي حِفْظِهِ[6]، وفي المنار: "وعندي أنّ المؤتمن عليه هاهنا، عامّ يشمل الوديعة وغيرها، فالمعنى: إن اتّفق أنّ أحدا منكم ائتمن آخر على شيء، فعلى المؤتمن أن يؤدّي الأمانة إلى من ائتمنه، وليتّق الله ربّه، فلا يتخوّن من الأمانة شيئا، أنّه لا حجّة عليه بها ولا شهيد، فإنّ الله ربّه خير الشّاهدين، فهو أولى بأن يُتّقى ويُطاع"[7].

الوديعة استحفاظ بقَصْد، والأمانة أَعَمُّ وأشمل في الدّلالة

(1) العَسكَريُّ، الفُروقُ اللُّغَويَّةُ، ص: 112.
(2) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 5/443.
(3) الشَّوكانيُّ، فَتحُ القدير: 1/288.
(4) الكَفَويُّ، الكُلّيّات، ص: 186.
(5) السّمرقنديّ، بحر العلوم: 2/28.
(6) ابن النّجار، منتهى الإرادات: : 3/250.
(7) رضا، تفسير المنار: : 3/109..

فبينَ الوديعةِ والأمانةِ عمومٌ وخُصوصٌ؛ لأنَّ الوديعةَ هي الاستحفاظُ قَصْدًا؛ فَتكونُ خاصَّةً لاشْتِرَاطِ قصدِ الحِفْظ فِيهَا، بِخِلَافِ الأَمَانَة فهي عامَّةٌ[1].

الكتمان والإفاء:

الكتمان يختصُّ بالمعاني، والإخفاء أعمُّ منه

الكتمانُ: السُّكوتُ عن المطلوب للإفصاحِ عنه، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ [البقرة: 159]، أي: يَسْكُتُونَ عن ذِكْرِهِ، بإصرارٍ وإحكامٍ مبالَغٍ فيه،

والإِخْفاءُ: تغطيةُ المخفيِّ، ويكون في المعاني، كقوله تعالى: ﴿يُخۡفُونَ فِيٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبۡدُونَ لَكَۖ﴾ [آل عمران: 154]، وفي غيره من الأمورِ الحسّيّةِ، كقوله تعالى: ﴿تَجۡعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبۡدُونَهَا وَتُخۡفُونَ كَثِيرٗاۖ﴾ [الأنعام: 91]، والشَّاهدُ أنَّكَ تقولُ: أخفيتُ الدِّرْهَمَ في الثَّوب، ولا تقولُ: كَتَمْتُ[2]. فالكتمانُ يَختصُّ بالمعاني كالأخبارِ والأسرارِ، والإخفاءُ يكونُ في الأمور الحسّيَّة، فالعلاقةُ بينهما عمومٌ وخصوصٌ مُطلَقٌ.

الإثم والذَّنب:

الإثم الذنب الّذي عليه تَبِعَةٌ، ومن الذُّنوب ما لا تَبِعَةَ فيه

الإثمُ: اسمٌ للأفعال المبطِّئةِ عن الثّواب، وجمعُه: آثام، والإِثْم في أصل اللُّغَة: التَّقْصِيرُ[3]، فيقالُ: أَثِمَ يَأْثَمُ، إذا قَصَّرَ، والإثمُ: الخَطيئَةُ، وأنْ يعملَ المرءُ ما لا يَحِلُّ له، وفي التّنزيل: ﴿وَٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمۡ يَغۡفِرُونَ﴾ [الشّورى: 37]، فيكون كالذَّنب على هذا المعنى[4]، وفسّر بعضهم الرّجس بأنّه "الإثم والذّنب المدنّسان للإعراض، الحاصلان بسبب ترك ما أمر اللّه به، وفعل ما

(1) الكَفَويُّ، الكُلّيّاتُ، ص: 186.
(2) العَسكَريُّ، الفُروقُ اللُّغَويَّةُ، ص: 287.
(3) الرّاغِبُ، المفرداتُ: (إثم).
(4) ابن سِيدَه، المحكَم، وابنُ منظور، لِسانُ العَرَب، و الزَّبيديُّ، تاجُ العَروسِ: (أثم).

نهى عنه، فيدخل في ذلك، كلّ ما ليس فيه رضا الله"[1]. والذَّنبُ: مَا يَتبعهُ الذَّمُّ، أَو مَا يتبعُ عَلَيْهِ العَبْد من قَبِيح فعله، ولهذا يقالُ للصَّبيِّ إذا فَعَلَ ما يُذَمُّ عليه: قد أَذْنَبَ، ولا يُقالُ: قد أَثِمَ، وَالأَصْل فِي الذَّنب: الرَّذْلُ من الفِعْل.

والفرقُ بين الإثم والذَّنبِ: أنَّ الإِثْمَ: هُوَ القَبِيحُ الّذِي عَلَيْهِ تَبِعَةٌ، والذَّنبَ: هُوَ القَبِيحُ من الفِعْل، وَلَا يترتَّبُ عليه تَبِعَةٌ[2].

(1) القِنَّوجيّ: فتحُ البيان: 11/85.

(2) العَسكَريُّ، الفُروقُ اللُّغَويَّةُ، ص: 233.

﴿لِّلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَإِن تُبۡدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ أَوۡ تُخۡفُوهُ يُحَاسِبۡكُم بِهِ ٱللَّهُۖ فَيَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ٢٨٤﴾ [البقرة: 284]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

المناسبة بين أمر الله بأداء الدّين المؤجّل والحاضر، وبين اطّلاعه على خفيّ السّرائر

لَمَّا ذكرتِ الآياتُ السَّابقةُ أمرَ الدَّين، وما يتعلَّقُ به من أداءِ الحقوقِ لأصحابِها، ناسبَ أن يُذكرَ بعد ذلك أنّ مُلكَ السَّماواتِ والأرضِ للّه تعالى، وأنَّ العبدَ مهما مَلَكَ؛ فإنَّ مآلَ ذلك للّه تعالى، ولَمَّا ذَكَرَ كَتْمَ الشَّهَادَةِ بسببِ إثمِ القلبِ، وهوى النّفس، ناسَبَ أن يَذكُرَ الأَنْفُسَ، فذَكَرَ أن مَا انْطَوَى عَلَيْهِ الضَّمِيرُ، فَكَتَمَهُ أَوْ أَبْدَاهُ، فَإِنَّ اللَّهَ يُحَاسِبُهُ بِهِ، لأنَّ مَحَلَّ اعتقادِ هَذِهِ التَّكاليفِ هو الأنفُسُ، وما تَنْطوي عليه من النِّيَّات، وثوابُ مُلتزِمها، وعقابُ تارِكها، إنَّما يَظهَر في الدَّار الآخرة[1]؛ فلمَّا أَخبَرَ عن سَعَةِ عِلْمِه، دلَّ عليه بِسَعَةِ مُلْكِهِ المُسْتَلزِمِ لِسَعَةِ قُدْرته، لِيَدُلَّ ذلك على جميع الكمالِ، ومطلق التّصرف في ملكوته، ومصير عباده[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَإِن تُبۡدُواْ﴾: مِنْ بَدا الشَّيْءُ: إذا ظَهَرَ، يُقالُ: بَدا يبدو بُدُوًّا وبَدَاءً؛ أيْ: ظَهَرَ ظُهورًا بيِّنًا، والبَدْوُ: خلافُ الحَضَرِ؛ لأنَّها تَبْدُو، أي: تُكْشَفُ وتُظْهَرُ لخُلوِّها من ساترٍ، وأصلُ البَدْوِ: ظُهُورُ الشَّيْءِ، وكلُّ شَيْءٍ ظَهَرَ لَك فقد بَدا[3]، والمعنى: وَإِنْ تُبْدُوا أي تظهروا ما فِي أَنْفُسِكُمْ أي في قلوبكم من السّوء والعزم عليه، وذلك بالقول

(1) أبو حَيّانَ، البَحرُ المحيطُ: 2/749، والرّازيُّ، مفاتيح الغيب: 7/102.
(2) البِقاعيُّ، نَظم الدُّرَر: 4/163.
(3) ابنُ دُرَيد، جَمهَرَةُ اللُّغة، والسَّمين، عُمدَةُ الحُفّاظ، وابنُ فارِس، مقاييسُ اللُّغة: (بدو).

أو بالفعل[1]، فإنّ اللّه سوف يحاسبكم عليه لا محالة، طال الزّمان أو قصر.

2) ﴿أَوْ تُخْفُوهُ﴾: الإخْفاءُ: السَّترُ والتَّغطيةُ، وأصلُ الخفاءِ: السَّتْرُ، يُقالُ: خَفِيَ الشَّيءُ: اسْتَتَرَ، وأخفيتُه: سَتَرتُه وكَتَمْتُه، والمعنى هُنا: ما تُضمِروه مِنْ معصيةٍ، وتَعزموا عليه مِنْ مَفْسَدَةٍ[2]، ولا يندرج فيه ما لا يخلُو عنه البشرُ من الوساوس، وأحاديث النّفس، التّي لاعقد ولا عزيمة فيها، إذ التّكليفُ بحسب الوُسع[3].

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

في هذه الجملة البليغة بيان لشمول ملك اللّه سبحانه وتعالى، ممّا تعرّض السّياق إليه، بعد الآيات الّتي بيّنت أحكام الأموال، ببيان أحكام الدَّيْنِ، وطرق التّعامل، ودواعي الثّقة بين المعطي والآخذ[4]، إشارة إلى أنّ للّه وحدَه ما في السَّماوات وما في الأرض، خَلْقًا ومُلكًا وتَدبيرًا، وعِلمًا وإحاطة وتأثيرا، ويقول لهم في إفصاح جليّ مبين: لئن أظهرتم ما في قلوبكم أو أخفيتموه، فإنّه لا يغيب عن علم اللّه الّذي لا يعزب عن علمه شيءٌ في الأرض ولا في السّماء، وسوف يُحاسبُكم عليه يومَ القيامة، فَيَغفو عَمَّنْ يشاءُ فَضْلًا ورحمةً، ويُؤاخِذُ من يشاءُ عَدْلًا وحِكمةً، واللّهُ على كلِّ شيءٍ قَديرٌ[5].

اللّه المحيط بالكون، لا تخفى عليه الأسرار، ولا يعجزه تصريف الأقدار

الإيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

معنى لامِ الجرّ في الاسم الأحسن ﴿لِلَّهِ﴾:

اللَّامُ في الاسمِ الأحسنِ لِلْمُلْكِ والاختصاصِ، فهُوَ المُنْشِئُ

إفادةُ الملك والاختصاصِ بدَلالةِ الحرفِ والسِّياقِ

(1) إسماعيل حقّي، روح البيان: 1/444.

(2) الرّاغِبُ، المفرداتُ، وابنُ فارِس، مقاييسُ اللُّغة، والجَوهَريُّ، الصّحاح، والزَّبيديُّ، تاجُ العَروسِ: (خفي)، والغَزنَويُّ، باهِرُ البُرهانِ: 1/270.

(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم إلى مزايا الكتاب الكريم: 1/272.

(4) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 2/2083.

(5) لَجنَةٌ مِن عُلَماءِ الأَزهَر، المنتَخَبُ في تَفسيرِ القُرآنِ الكَريمِ، ص: 69، ونُخبَةٌ مِن أَساتِذَةِ التَّفسير، التَّفسيرُ المَيَسَّرُ، ص: 49، وجَماعَةٌ مِن عُلَماءِ التَّفسيرِ، المختَصَرُ في تَفسيرِ القُرآنِ الكَريمِ، ص: 49.

الخَالِقُ، فَصِفَةُ المُلْكِ تَدُلُّ عَلَى القُدْرَةِ البَاهِرَةِ[1]، فالخَلقُ كلُّهم عبيدُه وإماؤُه، وهو خالقُهم ورازقُهم، وحُكمُه نافذٌ فيهم، وفي كلِّ شيءٍ دَلالةُ ربوبيَّتِه ووحدانيَّتِه، وهو وحدَه المُسْتَحِقُّ للعبادةِ؛ لأنَّه المالِكُ المدبِّرُ لكلِّ ما في السَّمواتِ وما في الأرضِ[2].

وقد أُكِّدَ معنى الاختصاصِ بتقديمِ الجارِّ والمجرور: ﴿لِلَّهِ﴾ الّذي يُفيدُ الحصرَ، فَهِيَ للّه خَلْقًا ومُلْكًا[3]، لا لغيره أَصْلًا؛ لا استقلالًا ولا اشتراكًا، وَأَكَّدَهُ أيضًا بالتَّكرارِ في قَوْلِهِ: ﴿وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۖ﴾، فكَرَّرَ: مَا، تَفصيلًا وتَنْبِيهًا وَتَوْكِيدًا[4]، وبالطِّباق بَيْنَ لَفْظَتَي: ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ و﴿ٱلْأَرْضِۖ﴾.

نكتةُ استعمالِ (ما) دون (مَن) في قولِه: ﴿لِّلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾:

استِعْمالُ (ما) الّتي لغير العاقِلِ، تَغْليبًا في وصفِ المخلوقات

جَاءَ النَّظمُ بِلَفْظِ: ﴿مَا﴾ في قولِه تعالى: ﴿لِّلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾، دون لفظِ (مَنْ)، وذلك تَغْلِيبًا لِمَا لَا يَعْقِلُ عَلَى مَنْ يَعْقِلُ؛ لِأَنَّ الغَالِبَ فِيمَا حَوَتْهُ السَّماواتُ والأرضُ إِنَّمَا هُوَ جَمَادٌ وَحَيَوَانٌ لَا يَعْقِلُ، وَأَجْنَاسُ ذَلِكَ كَثِيرَةٌ، وَأَمَّا العَاقِلُ فَأَجْنَاسُهُ قَلِيلَةٌ إِذْ هِيَ ثَلَاثَةٌ: إِنْسٌ وَجِنٌّ وَمَلَائِكَةٌ[5].

توجيه المخصوصِ بالذِّكرِ:

إشارةٌ غيبيَّةٌ إلى عمومِ ملكِ الله لكلِّ ما يظنُّ الإنسانُ قدرتَه على تملُّكِه

خَصَّتِ الآيةُ السَّماواتِ وَالأَرضَ بالذِّكرِ من بَيْنِ المخلوقاتِ؛ لِأَنَّهَا أَعْظَمُ مَا يُرى مِنَ المَخْلُوقَاتِ، وَقَدَّمَ السَّماواتِ لِعِظَمِها[6]، ولأنَّها تَعُمُّ كلَّ ما فيه مَظِنَّةُ تَملُّكٍ للإنسانِ، أمَّا الأرضُ فظاهرةٌ قديمًا وحديثًا، وأمَّا السَّماواتُ فهي ظاهرةٌ في هذا العصرِ؛ فالإنسانُ قد أطلقَ الصَّواريخَ والطَّائراتِ والأقمارَ الصِّناعيَّةَ، وأصبح لكلِّ دولةٍ

(1) أَبو حَيّانَ، البَحرُ المحيطُ: 2/750.
(2) الماورديُّ، النُّكت والعيون: 1/360.
(3) البَيضاويُّ، أَنوارُ التَّنزيلِ: 1/165، والقُونَويُّ، حاشيةُ القُونَويِّ: 5/494.
(4) أَبو حَيّانَ، البَحرُ المحيطُ: 2/767.
(5) أَبو حَيّانَ، البَحرُ المحيطُ: 2/750، وابنُ عَطيَّةَ، المحرَّرُ الوَجيزُ: 1/389.
(6) أَبو حَيّان، البَحرُ المحيطُ: 2/750.

فضاءٌ جَوِّيٌّ خاصٌّ بها، وهذا من إشاراتِ الإعجاز الغَيبيِّ في القرآن الكريم، وهو المناسِبُ لآياتِ المُداينَة.

دلالةُ العطفِ بَيْنَ الجُملتين:

بيانُ ترتُّبِ الجملِ بعضِها على بعضٍ في القصديَّةِ والتَّمهيدِ

عُطِفَ قولُه: ﴿وَإِن تُبۡدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ﴾ بالوَاوِ دُونَ الفَاءِ؛ لِلدَّلَالَةِ عَلَى أَنَّ الحُكْمَ الّذِي تَضَمَّنَهُ مَقْصُودٌ بِالذَّاتِ، وأنَّه غيرُ مُتفرِّعٍ عن الجملةِ السَّابقةِ في المعنى الّذي سِيقَ لأجلِه الكلامُ، وَأَنَّ مَا قَبْلَهُ كَالتَّمْهِيدِ لَهُ[1].

فائدةُ العطفِ بـ ﴿أَوۡ﴾ في قولِه: ﴿وَإِن تُبۡدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ أَوۡ تُخۡفُوهُ﴾:

العطف بـ (أَوْ) للتَّرقّي في الحساب على الإبداء والإخفاء

عَطْفُ قولِه: ﴿أَوۡ تُخۡفُوهُ﴾ لِلتَّرَقِّي في الْحِسَابِ عَلَيْهِ، أي: يحاسِبكُم على الإبداءِ أو الإخْفَاءِ؛ فَقَدْ جَاءَ عَلَى مُقْتَضَى الظَّاهِرِ في عَطْفِ الْأَقْوَى عَلَى الْأَضْعَفِ، وَفِي الْغَرَضِ الْمَسُوقِ لَهُ الْكَلَامُ في سِيَاقِ الْإِثْبَاتِ[2]، وممَّا يَدُلُّ على هذا التَّرقِّي: مَجيءُ الطِّباقِ الجَميلِ بين كَلِمَتَيْ: ﴿تُبۡدُواْ﴾ و﴿تُخۡفُوهُ﴾.

توجيهُ المُتَشَابِهِ اللَّفظيِّ:

سياقُ المحاسبَةِ اقتضى تقديمَ الأعمالِ البادية، وسياقُ العلمِ بها اقتضى تقديمَ الخفيَّةِ

قُدِّمَ ذكرُ الإبداءِ على الإخفاءِ في هذه الآيةِ، وجاءَ الترتيب على عكسِ ذلك في قولِه ﷻ: ﴿قُلۡ إِن تُخۡفُواْ مَا فِي صُدُورِكُمۡ أَوۡ تُبۡدُوهُ يَعۡلَمۡهُ ٱللَّهُۗ﴾ [آل عمران: 29]؛ ذلك أنَّ سياقَ الكلامِ حديثٌ عن مُحاسبةِ العِبادِ، والمُحاسبةُ تكون للأعمالِ الباديةِ ابتداءً، إذِ الأصلُ في المحاسبةِ الأعمالُ الباديةُ فهي فرعُ النِّيّات، وأمَّا آيةُ آلِ عمرانَ فهي في سياقِ الحديثِ عن علمِ اللّه تعالَى، وعلمُ اللّه تعالى يُحيطُ بما خَفِيَ وما ظَهَرَ، فتَعَلُّقُ العلمِ بالأعمالِ الباديةِ؛ كتعلُّقِه بالأعمالِ الخافيةِ[3].

(1) ابن عاشور، التَّحريرُ والتَّنويرُ: 3/129.
(2) ابن عاشور، المرجع السّابق: 3/129.
(3) أبو السّعود، إرشادُ العَقلِ السّليمِ: 1/272، والآلوسيُّ، روحُ المعاني: 2/63.

سرُّ استعمال لفظِ الأنفسِ دون القلوبِ:

دلالةُ الأنفُسِ أعمُّ من دلالةِ القُلُوبِ

المُرَادُ بالأنفسِ: القُلُوبُ، والمُرادُ بما فيها: ما وَقَعَ فيها من نِيَّةِ خيرٍ والعَزمِ عليه، ونيَّةِ السُّوءِ والعَزمِ عليه[1]، فيَشمَلُ لفظُ الأنفسِ مَا تَقَرَّرَ فِي النَّفْسِ، وَاعْتُقِدَ وَاسْتُصْحِبَ الفِكْرُ فِيهِ، وَالخَوَاطِرَ الّتِي لا يُمْكِنُ دَفْعُها، فتكونُ دَلالةُ الأنفسِ أعمَّ مِنْ دَلالةِ القلوبِ، ولذلكَ اختيرَ هذا اللَّفظُ دون القلوبِ.

سِرُّ استعمالِ الكنايةِ في الألفاظِ:

الإخفاءُ والإبداءُ سواءٌ بالنِّسبةِ للهِ تعالى، مُختلِفان بالنِّسبةِ للمخلوقِ

ما في الأنفس مُخْتَفٍ، وإخفاؤه كِنايةٌ عن عدمِ إظهارِه؛ لأنَّه لازمٌ له[2]، وفائدةُ الكنايةِ أن الحالَتَيْنِ مِنَ الإِخْفَاءِ وَالإِبْدَاءِ بِالنِّسْبَةِ إلى اللهِ تَعَالَى سَوَاءٌ، وَإِنَّمَا يَتَّصِفُ بِكَوْنِهِ إِبْدَاءً وَإِخْفَاءً بِالنِّسْبَةِ إِلَى المَخْلُوقِينَ لَا إِلَيْهِ تَعَالَى؛ لِأَنَّ عِلْمَهُ لَيْسَ نَاشِئًا عَنْ وُجُودِ الأَشْيَاءِ، بَلْ هُوَ سَابِقٌ بِعِلْمِ الأَشْيَاءِ، قَبْلَ الإِيجَادِ وَبَعْدَ الإِيجَادِ، وَبَعْدَ الإِعْدَامِ، بِخِلَافِ عِلْمِ المَخْلُوقِ، فَإِنَّهُ لَا يَعْلَمُ الشَّيْءَ إِلَّا بَعْدَ إِيجَادِهِ، فَعِلْمُهُ مُحدَثٌ[3]، ونَظيرُ هذا المَعْنى في قوله تعالى: ﴿وَأَسِرُّواْ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُواْ بِهِۦٓۖ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ١٣﴾ [الملك: 13].

دلالةُ تقديمِ الجارِّ والمجرورِ:

الاعتناءُ بشأن ما تُبديه النُّفوس أو تخفيه، والإشارةُ إلى وعيدِ المحاسبةِ

قُدِّمَ الجارُّ والمجرورُ على الفاعلِ في قولِه تعالَى: ﴿يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُۖ﴾ للاعتناءِ به[4]، فلم يقل: (يُحاسبكم اللهُ به)؛ فاللهُ سبحانه وتعالى يُطالِبُ العِبادَ باستدامة المُراقبةِ واستصحابِ المُحاسبةِ؛ لئلّا يَغْفلوا عَنْ حفظِ حركاتِ الظَّاهر، وضبطِ خَطَراتِ الباطنِ؛ فيَقعوا في آفةِ تَرْكِ أدبٍ من آدابِ العُبوديَّة فَيَهْلَكُوا[5]، وفيه إشارةٌ إلى ما

(1) القُونَويُّ، حاشيةُ القونويِّ: 5/495.
(2) المصدر السّابق.
(3) أَبو حَيّانَ، البَحرُ المحيطُ: 2/750.
(4) أَبو السُّعود، إرشادُ العَقلِ السَّليمِ: 1/272، والآلوسيُّ، روحُ المعاني: 2/63.
(5) البروسوي، روحُ البَيانِ: 1/445.

سبق من الوَعيد في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٞ قَلۡبُهُۥۗ﴾، فذكَر ما انْطوى عليه الضَّميرُ - كَتَمَه أو أَبْداه -؛ فإنَّ اللّه يُحاسبُه به، ففيه وَعيدٌ وتهديدٌ لِمَنْ كَتَمَ الشَّهادةَ[1].

توجيه المُتشابِه اللَّفظيِّ في التَّقديمِ والتَّأخير:

قُدِّمَتِ المغفرةُ على العذابِ في قولِه تعالى: ﴿فَيَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۗ﴾؛ لوقوعها في سِياقٍ يَدُلُّ على قُوَّةِ الرَّجاءِ لِمَنْ أطاعَ اللّه تعالى وأحسنَ وأنابَ، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَإِن تُبۡدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ﴾ والخطابُ للمؤمنين؛ فناسَبَ ذلكَ تقديمُ المغفرةِ على العذابِ رحمةً منه تعالى، وحَثًّا لعباده على المُسارَعَةِ إلى مُوجِبات المغفرةِ[2].

قُوَّةُ رجاءِ العبدِ كامنةٌ في طاعتِه، وضعفُه تابعٌ لِمَعاصِيهِ

بينما قُدِّمَ ذكرُ العذاب على المغفرةِ في قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٤٠﴾ [المائدة: 40]؛ لأنَّه تَقَدَّمَها حَديثٌ عن حُكْمِ الحِرَابَةِ في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ﴾ [المائدة: 33]، وحُكْمِ السَّارقِ والسَّارقةِ: ﴿فَٱقۡطَعُوٓاْ أَيۡدِيَهُمَا﴾ [المائدة: 38]، فكان من المُلائم تقديمُ العذابِ على المغفرةِ في هذا السِّياق؛ لأنَّ عذابَ السَّارقِ والسَّارقةِ يقعُ في الدُّنيا جَزَاءً على فِعْلِهما، ثُمَّ ذَكَرَ المغفرةَ لهما إنْ تابا[3].

فنُّ تشَابُهِ الأطرافِ:

تقرير مضمون ما سبق وبيان ما يتْبعه من وعد ووعيد

ذُيِّلتِ الآيةُ بقولِه: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ بما يُقرِّرُ مضمونَ ما قبلَها؛ فإنَّ كمالَ قُدرتِه تعالى على جميعِ الأشياءِ مُوجِبٌ لقُدرتِه سبحانه على ما ذُكر، من المُحاسبةِ وما فُرِّعَ عليه من المغفرةِ

(1) الرّازيُّ، مفاتيح الغيب: 7/102-103، وأبو حَيّانَ، البَحرُ المحيطُ: 2/749-750.
(2) ابن الزُّبَيْر، ملاكُ التّأويلِ: 1/74.
(3) ابنُ الزُّبَيْر، ملاكُ التّأويلِ: 1/74، والكَرمانيُّ، أسرار التَّكرار في القرآن، ص: 87.

والتَّعذيبِ[1]، كما أنَّه لَمَّا ذَكَرَ عُمومَ العلم، وذَكَرَ المَغْفِرَةَ وَالتَّعْذِيبَ لِمَنْ يَشَاءُ، عَقَّبَ ذَلِكَ بِمَا يَدُلُّ عَلَى عُمُومِ القُدْرَةِ، إِذْ مَا ذُكِرَ جُزْءٌ مِنْ مُتَعَلِّقَاتِ الْقُدْرَةِ[2]؛ فأَشَارَ إِلَى أَنَّ خَتْمَ الكَلَامِ بهذا القَوْلِ ممَّا يُناسِبُ ابتداءَه في المَعْنَى، وهذا ما يُسَمَّى بتشابُه الأطرافِ، فلله تَعَالَى ما في السَّمَاوَاتِ وما في الأَرْضِ، له المُلْكُ والمَلَكُوتُ، فهو يَحْكُمُ بين عباده بما يشاءُ ويَختارُ، لا رادَّ لحُكْمِه[3].

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الإِبْداء والإِظْهار:

الإِبْـــداءُ هُـوَ الإِظْـهـارُ الـزَّائِـدُ البَيِّنُ

فَالإِظْهارُ مِنَ الظُّهورِ، وهُوَ الانْكِشافُ والبُروزُ، يُقالُ: ظَهَرَ الشَّيْءُ، إِذَا انْكَشَفَ وَبَرَزَ[4]، وبدا الشَّيءُ بُدُوًّا وبداء، أي ظهر ظهورا بيّنا، قال تعالى: ﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْ﴾ [الزّمر: 48]، وقال: ﴿فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا﴾ [طه: 121]، ومن الجذر ذاته ورد لفظ البادية، وهي كلّ مكان يبدو ما يعنّ فيه، أي يعرض، ويقال للمقيم بها بَادٍ، قال تعالى: ﴿سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِۚ﴾ [الحج: 25][5]، والإِبْداءُ: ظُهورٌ في غَايَةِ الشِّدّةِ والوُضوحِ والبَيانِ، فَالإِظْهارُ أَعَمُّ مِنَ الإِبْداءِ، والإِبْداءُ أَخَصُّ؛ مِنْ حَيْثُ شِدَّةُ الظُّهورِ وقُوَّتُهُ[6].

العفْو والمغفرة:

الـغـفـران يُـنْـبِـئُ عــن الــسَّــتر، والعفو يُنْبِئُ عن المَحو، وهو أبلغ

العفوُ: إسقاطُ العذابِ وتركُ العقابِ على الذَّنبِ، فكلُّ مَن اسْتَحَقَّ عُقُوبَةً فَتَرَكْتَهَا فقد عَفَوْتَ عنه[7]، والعَفْو: ضدّ الْعُقُوبَة عَفا يعْفُو عَفْواً، فَهُوَ عَفُوّ عَنْهُ، في وزن فَعول بِمَعْنى فَاعل، وَفِي التَّنْزِيل:

(1) أَبو السُّعود، إرشادُ العَقلِ السَّليمِ: 1/273، والآلوسيُّ، روحُ المعاني: 2/64.
(2) أَبو حَيّانَ، البَحرُ المحيطُ: 2/755، وابنُ عاشور، التَّحريرُ والتَّنويرُ: 3/131.
(3) القُونَويُّ، حاشيةُ القُونَويِّ: 5/498.
(4) ابنُ فارِس، مقاييسُ اللُّغة: (ظهر).
(5) سميح عاطف الزّين، تفسير مفردات ألفاظ القرآن الكريم: (بدا).
(6) لمزيدِ بيانٍ، ينظر الفَرقُ بَينَهُما في تَفسيرِ الصَّفحَةِ الخامسة من الجزء الثّالث.
(7) الكَفَويُّ، الكُلّيّاتُ، ص: 598.

﴿لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ۝٦٠﴾ [الحج: 60][1]، وَقَالَ أَبُو بكر بن الْأَنْبَارِي: الأَصْل في قَوْله الله جلّ وعزّ: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ﴾ [التّوبَة: 43]: محا الله عَنْك، مَأْخُوذ من قَوْلهم: عفت الرِّيَاح الْآثَار، إذا درستها ومحتها، وَقد عفت الآثارُ تَعْفُو عُفُوّاً، لفظ اللَّازِم والمتعدّي سَوَاء[2]. وأمّا المَغفرةُ: تَغطيةُ الذَّنبِ وسَتْرُهُ بإيجابِ المَثوبةِ، صَونًا له عن عذابِ الخِزْيِ والفَضيحَةِ، ولا يَسْتَحِقُّ الغفرانَ إلَّا المُؤمنُ المُسْتَحِقُّ للثَّوابِ، وَالعَفْوُ قد يكونُ قبلَ العقُوبَةِ، وَقد يكونُ بعْدهَا، بِخِلَاف الغُفْرانِ؛ فَإِنَّهُ لَا يكونُ مَعَه عُقُوبَةُ البَتَّةَ، وَلَا يُوصَفُ بالعَفوِ إلَّا الْقَادِرُ على ضِدّه[3]. فالغُفرانُ يُنْبِئُ عن السَّترِ، والعفوُ يُنْبِئُ عن المَحْوِ، وهو أَبْلَغُ من السَّتْرِ؛ لأَنَّ السَّتْرَ للشَّيءِ قد يَحْصُلُ مع إبقاءِ أَصْلِهِ، بخلافِ المَحْوِ؛ فإنَّه إزَالتُهُ جُمْلَةً وتفصيلًا[4].

العَذاب والعِقاب:

العِقابَ يُنْبِئُ عَنِ اسْتِحقاقٍ، وَسُمِّيَ بِذلِكَ؛ لِأَنَّ الفاعِلَ يَسْتَحِقُّهُ عَقِيبَ فِعْلِه، وَيَجوزُ أَنْ يَكونَ العَذابُ مُسْتَحَقًّا وغَيْرَ مُسْتَحَقٍّ، فالعِقابُ يَقْتَضي بِظاهِرِهِ الجَزاءَ عَلى فِعْلَةِ المُعَاقَبِ عَقِبَ فِعْلِه، والعَذابُ لَيْسَ كَذلِكَ، فَبَيْنَهُما عُمومٌ وخُصوصٌ[5]، وفي تهذيب اللّغة أنّ العِقاب والمُعاقبة: أَن تجزي الرَّجلَ بِمَا فعل سُوءاً، وَالِاسْم العُقوبة. وَيُقَال أعقبته بِمَعْنى عاقبته[6].

العِقابَ يُنْبِئُ عَنِ اسْتِحقاقٍ، والعَذابُ لا يَقتضي ذلكَ

(1) ابن دريد، جمهرة اللّغة: 2/938.
(2) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: 3/141.
(3) العَسكَريُّ، الفُروقُ اللُّغَويَّةُ، ص: 235، والكَفَويُّ، الكُلّيّاتُ، ص: 632.
(4) أبو حامد الغَزاليُّ، المقصَدُ الأسنى في شَرحِ معاني أَسماءِ اللهِ الحُسنى، ص: 140.
(5) أبو هِلالٍ العَسكَريُّ، الفُروقُ اللُّغَويَّةُ، ص: 364.
(6) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: عقب.

﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ٢٨٥﴾ [البقرة: 285]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

ذِكْرُ كمالِ العبوديَّةِ بعد ذِكْرِ كمالِ الرُّبوبيَّةِ

لَمّا بَيّنَ اللّهُ سبحانَه وتعالى في الآية المُتَقدِّمةِ، كمالَ المُلْكِ وكمالَ العِلمِ، وكمالَ القُدرةِ له سبحانه، وذلك يُوجِبُ كمالَ صفاتِ الرُّبوبيَّة؛ أَتْبَعَ ذلك بأنْ بَيَّنَ كَوْنَ المؤمنين في نهايةِ الانقيادِ والطَّاعةِ والخضوعِ للّه تعالى، وذلكَ هو كمالُ العبوديَّةِ، وإذا ظَهَرَ لنا كمالُ الرُّبوبيَّةِ، ظَهَر مِنَّا كمالُ العُبوديَّةِ[1]، كما أنَّه سُبْحانه وتعالى لَمَّا ذَكَرَ أحكامًا كثيرةً، خَتَمَها بتَعظيم نبيّه (ﷺ) والإشادة بعقيدة أَتْباعِهِ، تأكيدًا وفَذْلَكَةً[2] لجميعِ ذلك المَذْكورِ مِنْ قَبْلُ[3]، وبيان إيمان الرّسول والمؤمنين بالكتب السّماوية، وبالرُّسل الكرام المكلّفين بالبلاغ عن اللّه، دون تفريق أو تفضيل في أصل الرّسالة والتّشريع، مع إبداء ما تفضل اللّه به على هذه الأمّة من التّكاليف السّمحة الحنيفيّة الّتي لا يعتورها ضيق، ولا يخالطها حرج[4].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿سَمِعۡنَا﴾: أَيْ أَدْرَكْنَاهُ بأسماعنا وفَهِمْناهُ، يُقالُ: سَمِعَ سَمْعًا

(1) الرّازيُّ، مفاتيح الغيب: 7/105.

(2) الفَذْلَكَةُ: إجمالُ المعنى في عبارةٍ مُوجزةٍ بعدَ بَسْطه في عبارةٍ طويلةٍ، فهي خلاصةُ ما فُصِّلَ، أو مجملُه، أهمله الجوهريّ، وصاحب اللّسان، ينظر: الزَّبيديّ، تاجُ العَروسِ: (فَذلَكَ)، وقيل: هي كلمة مخترعة من قوله أي: الحاسب إذا أجمل حسابه: فذلك كذا وكذا عددا، وكذا وكذا قفيزا، الزَّبيديّ، تاج العروس من جواهر القاموس: 27/293، ومن فذلكة الحساب قوله تعالى ﴿تِلۡكَ عَشَرَةٞ كَامِلَةٞۗ﴾، بعد قوله ﴿فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٖ فِي ٱلۡحَجِّ وَسَبۡعَةٍ إِذَا رَجَعۡتُمۡۗ﴾ [البقرة: 196]، نصّ عليه في البيضاويّ وحاشيته لمولانا عصام الدّين، فالفذلكة مأخوذة من قولهم فذلك كذا، كالبسملة والحمدلة والله أعلم. ينظر التّهانويّ، كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم: 2/1265.

(3) الآلوسيُّ، روحُ المعاني: 2/64، والقاسِميُّ، محاسِنُ التّأويلِ: 2/240، وابنُ عاشور، التّحريرُ والتّنويرُ: 3/131.

(4) الزّحيلّي، التّفسير المنير: 3/132.

وسَماعًا، وأصلُ السَّمْعِ: إينَاسُ الشَّيْءِ بِالأُذُنِ، ويُعَبَّرُ تارةً بِالسَّمْعِ عن الأُذُنِ نحو: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ﴾ [البقرة: 7]، وتارةً عن فِعْلِهِ كالسَّماعِ نحو: ﴿أَوۡ أَلۡقَى ٱلسَّمۡعَ وَهُوَ شَهِيدٞ ٣٧﴾ [ق: 37]، وتارةً عن الفَهْمِ، وتارةً عن الطَّاعةِ، تَقولُ: اسْمَعْ ما أقولُ لكَ، ولم تَسْمَعْ ما قُلْتُ، وتَعْني لم تَفْهَمْ، والمَعْنى هنا: فَهِمْنا ما جاءنا من الحقِّ، وتَيَقَّنَّا بصحَّتِهِ[1]، ويعبّر تارة بالسّمع عن الأذن، نحو: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ﴾ [البقرة: 7]، وتارة عن فعلهم كالسّماع، نحو: ﴿إِنَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّمۡعِ لَمَعۡزُولُونَ ٢١٢﴾ [الشّعراء: 212]، وتارة عن الفهم، وتارة عن الطّاعة، وقوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ﴾ [البقرة: 285]، أي فهمنا[2].

2) ﴿وَأَطَعۡنَاۖ﴾: امْتَثَلْنا، يُقَالُ: طَاعَهُ يَطُوعُهُ، إذَا أذْعَنَ وانْقَادَ له، وامْتَثَلَ أمرَه، وأصلُ طَوَعَ: يَدُلُّ على الإصْحابِ والانْقِيَادِ، والمعنى هُنا: امْتَثَلْنا أمرَكَ[3]، والطّوع الانصياع والانقياد، ويضادّه الكَرْهُ، قال تعالى: ﴿ٱئۡتِيَا طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهٗا قَالَتَآ أَتَيۡنَا طَآئِعِينَ ١١﴾ [فصّلت: 11]، وقوله أيضا: ﴿وَلَهُۥٓ أَسۡلَمَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا﴾ [آل عمران: 83]، والطّاعة مثل الطّوع، ولكنّ الطّاعة أكثر ما تقال في الائتمار لما أمر، والارتسام فيما رسم، قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ طَاعَةٞ﴾ [النّساء: 81][4].

3) ﴿غُفۡرَانَكَ﴾: أي: اغفرْ مَغْفرتَكَ، يُقالُ: غَفَرَ اللّٰهُ ذَنْبَهُ، غَفْرًا وَغُفْرانًا وَمَغْفِرَةً، والمَغْفِرَةُ: هي السَّتْرُ لخَلَّةِ المُسْلِم وفاقَتِه، وترْك أذيَّته، وأصْلُ الغَفْرِ: السَّتْرُ والتَّغطيةُ والوِقايةُ، وغَفَرتُ الشَّيءَ: إذا غَطَّيتَهُ، والمعنى هُنا: نَطْلُبُ ونَسألُ مَغْفِرتَك[5]، وقوله: ﴿غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا﴾، يعني: وقالوا: ﴿غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا﴾، بمعنى: اغفر لنا ربّنا غفرانك، كما يقال: (سبحانك)، بمعنى: (نسبّحك سبحانك)، و (الغفران) و(المغفرة)، السّتر من اللّٰه على ذنوب من غفر له، وصفحه له عن هتك ستره بها في الدّنيا والآخرة، وعفوه عليه فلا يعاقبه[6].

---

(1) الرّاغِبُ، المفرداتُ: (سمع)، والسَّمِيْن، عُمدَةُ الحُفّاظِ، وابنُ منظور، لِسانُ العَرَب، وابنُ فارِس، مقاييسُ اللّغة: (سمع)، وأبو السُّعود، إرشادُ العَقلِ السّليمِ: 1/276، والقِنَّوجيُّ، فَتحُ البَيانِ: 2/162.

(2) الزّين، تفسير مفردات ألفاظ القرآن الكريم: مادّة: (سمع).

(3) الرّاغِبُ، المفردات، والجَوهَريُّ، الصّحاح، وابن فارِس، مقاييسُ اللّغة، وابن الأثير، النِّهايَةُ: (طوع)، وأبو السّعود، إرشادُ العَقلِ السّليمِ: 1/276.

(4) الزّين، تفسير مفردات ألفاظ القرآن الكريم: (طوع).

(5) الرّاغِبُ، المفردات، وابن فارِس، مقاييسُ اللّغة، والسّمِيْن، عُمدَةُ الحُفّاظ: (غفر)، والسِّجستانيُّ، غَريبُ القُرآنِ، ص: 354، وابنُ الهائِم، التِّبيانُ، ص: 117.

(6) ابن جرير، جامع البيان: 6/127.

4) ﴿ٱلۡمَصِيرُ﴾: أَيِ المَرْجِعُ وَالمَعَادُ، يُقالُ: صِرْتُ إلى فُلانٍ، أَصِيرُ مَصِيرًا، وصار إلى كذا: انتهى إليه، وأصلُ المصيرِ: هُوَ المآلُ وَالمَرْجِعُ الّذي يَنتهي إليه في تَنَقُّلِه وتَحَرُّكِهِ، والمعنى هنا: المَرْجِعُ إليكَ في كلِّ شُؤونِنا في الدُّنيا والآخرةِ[1].

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

الإيمان بالقرآن يُفْضِي إلى الإيمان بما جاء به الرّسل عبر الزّمان

بيان إيمان رسول الله الخاتم مُحَمَّدٍ ﷺ، بما أُوحِيَ إليه من ربِّه، وتأكيد إيمان المؤمنين بذلكَ، في تصديق راسخٍ، بأصول الاعتقاد الكليّة، إقرارًا بالله رَبًّا، مُتَّصِفًا بصفاتِ الجلالِ والكمالِ، وإيمانًا بملائكتِه الأبرار، وبكُتبِه الزّاخرة بالأنوار، وبرُسُلِهِ الحاملين لهداية السّماء بأقدس الأسرار؛ وهُمْ في ذلك، لا يفرّقون بَيْنَ رُسُلِ الله، في الإيمانِ بهم وتعظيمِهم، مؤكّدين إيمانَهم باللّسان والوجدان، مُتَّجهينَ إلى الله في طاعة وخضوع، وهم يقولون: ربَّنا سَمِعْنا تَنزيلَكَ المُحْكَمَ، واسْتَجَبْنا لِمَا فيهِ، فامْنَحْنا اللَّهمَّ مَغفرتَكَ، فإنَّ مَرْجِعَنا إليكَ وحدَكَ، في الحال والمآل[2].

الإِيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

نكتةُ الاستئنافِ الابتدائيّ في قوله تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ﴾:

إيذانٌ بانتهاءِ السُّورةِ لأنَّه انتقالٌ من التَّشريعِ إلى الثَّناءِ

جُمْلَةُ ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ﴾ اسْتِئْنَافٌ ابْتِدَائِيٌّ، وُضِعَتْ في هذا المَوْقِعِ لِمُنَاسَبَةِ مَا تَقَدَّمَ، وَهُوَ انْتِقَالٌ مُؤْذِنٌ بِانْتِهَاءِ السُّورَةِ؛ لِأَنَّهُ انْتِقَالٌ مِنَ المَوَاعِظِ وَالإِرْشَادِ وَالتَّشْرِيعِ، وَمَا تَخَلَّلَ ذَلِكَ؛ مِمَّا هُوَ عَوْنٌ عَلَى تِلْكَ المَقَاصِدِ، إلى الثَّنَاءِ على رَسُولِهِ وَالمُؤْمِنِينَ

(1) الرّاغِبُ، المفردات، والسَّمِيْن، عُمدَةُ الحُفّاظ، وابن الأثير، النِّهايَةُ، وابنُ فارِس، مقاييسُ اللُّغة: (صير)، وابنُ منظور، لِسانُ العَرَب، والزَّبيديُّ، تاجُ العَروسِ: (عود)، والخضيريُّ، السِّراجُ، ص: 270، ومقاتلُ بن سليمان، تفسير مقاتِل: 1/232.

(2) لَجنَةٌ مِن عُلَماءِ الأَزهَر، المنتَخَبُ في تَفسيرِ القُرآنِ الكَريمِ، ص: 69، ونُخبَةٌ مِن أَساتِذَةِ التَّفسير، التَّفسيرُ المَيَسَّرُ، ص: 49، وجَماعَةٌ مِن عُلَماءِ التَّفسير، المختَصَرُ في تَفسيرِ القُرآنِ الكَريمِ، ص: 49.

في إيمانِهِمْ بِجَمِيعِ ذَلِكَ إِيمَانًا خَالِصًا يَتَفَرَّعُ عَلَيْهِ العَمَلُ؛ لِأَنَّ الإِيمَانَ بِالرَّسُولِ وَالكِتَابِ يَقْتَضِي الامْتِثَالَ لِمَا جَاءَ بِهِ مِنْ عَمَلٍ، فَهُوَ كَالحَاصِلِ وَالفَذْلَكَةِ، فَقَدْ أَشْعَرَ بِأَنَّهُ اسْتَوْفَى تِلْكَ الأَغْرَاضَ[1].

بيانُ مظاهرِ تعظيمِ النَّبيِّ ﷺ وخصوصيَّة إيمانه:

وذلكَ يَظْهَرُ في أمورٍ عدَّة:

أوّلًا: التَّعْبيرُ بصيغةِ الفعل المَاضي: ﴿ءَامَنَ﴾ يَدُلُّ على رُسوخ الإيمانِ، وهو شهادةٌ وتَنصيصٌ من الله تعالى، على قُوَّةِ إيمانِ نبيِّه ﷺ الفائقِ على إيمانِ غيرِه من الأَنْبياءِ والمرسلينَ والمَلائكَةِ المُقرَّبينَ[2].

ثانيًا: دخول (ال) على لفظة الرَّسول، بناءً على أن اللَّامَ فيه لِلْعهدِ أو للجِنْسِ، والمُرَادُ به الفردُ الكاملُ، كأنَّ جِنْسَ الرَّسُولِ مُتَحَقِّقٌ فيه ﷺ عَلَى وَجْهِ الكَمالِ[3].

ثالثًا: التَّعْبيرُ بالرِّسالة؛ للإيذانِ في أَوَّلِ الأمرِ بأنَّه صاحبُ كِتابٍ مَجيدٍ وشَرْعٍ جَديدٍ، ويُفْهَمُ مِنْهُ: أنَّ شَرْعَه ناسِخٌ لجميع الشَّرائعِ، والمُرَادُ بما أُنزِلَ إليهِ: القُرْآنُ بأَسْرِهِ، والشَّريعةُ عَنْ آخِرِها[4].

رابعًا: التَّعْبيرُ بـ ﴿بِمَآ﴾ مع بناء الفعل ﴿أُنزِلَ﴾ للمفعول؛ تَفْخيمًا لأمر المُنْزِلِ، وفيه أيضًا: تَحقيقٌ لكَيفيَّة إيمانه ﷺ، وتَعيينٌ لِعُنوانِهِ، أي: آمَنَ ﷺ بكلِّ ما أُنْزِلَ إليهِ[5].

خامسًا: تقييدُه بـ ﴿مِن رَّبِّهِۦ﴾ مع أنَّه معلومٌ؛ للزِّيادةِ في التَّعظيم، واسمُ الرَّبِّ أَوْقَعُ هنا؛ لأنَّ الإنْزَالَ بما يُحيي القُلُوبَ، ويَشْفي ما في الصُّدورِ من العُيوبِ، وهو من آثارِ التَّرْبيَةِ مِنْ عَلَّامِ الغيوبِ، بما أَنزَلَه على رسوله الكَريمِ، تَشْريفًا له وتعظيمًا[6].

الصِّيغةُ والتَّعريفُ والوصفُ والتَّفخيمُ والتَّقييدُ والتَّقديمُ هنَّ خوادِمُ عظمتِه

(1) ابن عاشور، التَّحريرُ والتَّنويرُ: 3/131.
(2) البَيضاويُّ، أَنوارُ التَّنزيلِ: 1/166، والقُونَويُّ، حاشيةُ القُونَويِّ على البَيضاويِّ: 5/499.
(3) القُونَويُّ، حاشيةُ القُونَويِّ على البَيضاويِّ: 5/498.
(4) ابنُ التَّمْجيدِ، حاشيَةُ ابنِ التَّمْجيدِ على البَيضاويِّ: 5/498.
(5) أَبو السُّعود، إرشادُ العَقلِ السَّليمِ: 1/273.
(6) القُونَويُّ، حاشيةُ القُونَويِّ على البَيضاويِّ: 5/498.

سادسًا: تقديمُ ذِكْرِ إيمانِه ﷺ؛ لِأَنَّ إِيمَانَهُ هُوَ الْمُتَقَدِّمُ، وَإِيمَانَ الْمُؤْمِنِينَ مُتَأَخِّرٌ عَنْ إِيمَانِهِ، إِذْ هُوَ الْمَتْبُوعُ، وَهُمُ التَّابِعُونَ فِي ذَلِكَ[1]، فقُدِّمَ المؤمِنُ به على المعطوفِ؛ اعتناءً بشَأنِه، وإيذانًا بأَصالته عليه السلام في الإيمانِ[2]، ولأنَّ إيمانَه عن مُشاهَدَةٍ وعِيانٍ، وإيمانَهم عن نَظَرٍ وبُرْهانٍ[3].

بديع الجناس في ذكر وصف المؤمنين بالإيمان:

تـوكـيـد معنى اسـتـجـابـة المؤمنين وتقويته

التَّجْنِيسُ الْمُغَايِرُ بين لفظتَي: ﴿ءَامَنَ﴾ و ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَۚ﴾[4] جِيءَ به لتوكيدِ معنى الاستجابةِ والانقيادِ وتقويتِهما، فالْمُؤْمِنُونَ - هُنا - لَقَبٌ لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَلِذَلِكَ كَانَ فِي جَعْلِهِ فَاعِلًا لِقَوْلِهِ: ﴿ءَامَنَ﴾ فَائِدَةٌ، مَعَ أَنَّهُ لَا فَائِدَةَ فِي قَوْلِكَ: قَامَ الْقَائِمُونَ[5].

تَوْجِيهُ مُتَعَلَّقِ التَّنوينِ والتَّنْكيرِ في لَفْظَةِ: ﴿كُلٌّ﴾:

بيانُ إيمانِ كلِّ واحدٍ من غير اعتبار الاجتماعِ تمييزًا لإيمان النَّبيِّ ﷺ عن إيمان غيره

لفظَةُ (كلّ) من ألفاظِ العموم التي تَصْلُحُ للإحاطة، ولمَّا وَرَدَتْ هنا بعدَ قولِه ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَۚ﴾، دَلَّ ذلكَ على إحاطتِها بمَنْ ذُكِرَ[6].

وَإِذ كَانَتْ ﴿كُلٌّ﴾ مِنَ الأَسْمَاءِ الْمُلَازِمَةِ الإِضَافَةَ؛ فَإِذَا حُذِفَ الْمُضَافُ إِلَيْهِ نُوِّنَتْ تَنْوِينَ عِوَضٍ عَنْ مُفْرَدٍ[7]، فكان المعنى: كلُّ واحدٍ مِنْهُمْ؛ ولذا قيلَ: ﴿ءَامَنَ﴾ دُونَ (آمنوا)، فَتَوْحِيدُ الضَّمِيرِ في ﴿ءَامَنَ﴾ مع رجوعه إلى كلِّ المؤمنين؛ لأَنَّ المرادَ بيانُ إيمانِ كلِّ فردٍ منهم من غيرِ اعتبارِ الاجتماعِ، كما اعتُبِرَ ذلكَ في قوله تعالى: ﴿وَكُلُّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ ۝٨٧﴾ [النَّمل: 87]، وتغييرُ سبْكِ النَّظم الكريم عمَّا قبلَه؛ لتأكيدِ الإشعارِ بما بينَ إيمانِه ﷺ، المَبنيِّ على المُشاهدةِ

(1) أَبو حَيّانَ، البَحرُ المحيطُ: 2/756.
(2) أَبو السّعود، إرشادُ العَقلِ السّليم: 1/275.
(3) القُونَويُّ، حاشيةُ القُونَويِّ على البَيضاويِّ: 5/498، وابنُ التَّمجيدِ، حاشيَةُ ابنِ التَّمجيدِ على البَيضاويِّ: 5/498.
(4) أَبو حَيّانَ، البَحرُ المحيطُ: 2/767.
(5) ابن عاشور، التَّحريرُ والتَّنويرُ: 3/132.
(6) ابن عَطيّةَ، المحرَّرُ الوَجيزُ: 1/391.
(7) ابن عاشور، التَّحريرُ والتَّنويرُ: 3/132.

والعِيانِ، وبينَ إيمانِهم النَّاشِئِ عن الحُجَّةِ والبرهانِ، من التَّفاوتِ البَيِّنِ والاختلافِ الجليِّ، كأنَّهما مُختلفان مِنْ كلِّ وجهٍ، حتّى في هيئةِ التّركيبِ الدّالِّ عليهما، وما فيه من تَكريرِ الإسنادِ لِمَا في الحُكم، بإيمانِ كلِّ واحدٍ منهم على الوجْه الآتي، من نوعِ خفاءٍ مُحوِجٍ إلى التَّقويةِ والتَّأكيدِ، أيْ: كُلُّ واحدٍ منهم آمَنَ[1].

تَرْتيبُ مراتب الإيمان وأُصولِهِ:

جاءَ التَّرْتيبُ في قولِه تعالى: ﴿كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ﴾ في غَايَةِ الفَصَاحَةِ؛ لِأَنَّ الإيمَانَ باللّه هو المَرْتَبَةُ الأُولَى، وَهِيَ الَّتِي يَسْتَبِدُّ بِهَا العَقْلُ؛ إذْ وجودُ الصَّانعِ يُقِرُّ به كلُّ عَاقِلٍ، وَالإيمَانُ بِمَلَائِكَتِه هِيَ المَرْتَبَةُ الثَّانِيَةُ؛ لِأَنَّهُمْ كَالوَسَائِطِ بَيْنَ اللّه وَعِبَادِه، وَالإيمَانُ بِالكُتُبِ هُوَ الوَحْيُ الّذي يَتَلَقَّنُهُ المَلَكُ مِنَ اللّه، ويوصِلُهُ إلَى البَشَرِ هِيَ المَرْتَبَةُ الثَّالِثَةُ، وَالإيمَانُ بِالرُّسُلِ الّذينَ يَقْتَبِسُونَ أَنْوَارَ الوَحْيِ فَهُمْ مُتَأَخِّرُونَ في الدَّرَجَةِ عَنِ الكُتُبِ، وهِيَ المَرْتَبَةُ الرَّابِعَةُ[2]، ولم يَذْكُرِ الإيمانَ باليَوْمِ الآخرِ؛ لِاندراجِه في الإيمانِ بِرُسلِه وبِكُتُبِه، فحِينَئِذٍ يكون الإيمانُ بالآخرَةِ مَذكورًا ضمنًا؛ فلا حاجةَ إلى توجيه عَدَمِ ذِكْرِه[3].

التَّرابُطُ الوثيق بين المراتب، فلا يَصِحُّ الإيمانُ بالّاحقة إنْ لم يتحقَّق بالسَّابقة

توجيه القراءات القرآنيَّة في قوله تعالى: ﴿لَا نُفَرِّقُ﴾:

قَرَأَ الجُمْهُورُ[4] بِالنُّونِ: ﴿نُفَرِّقُ﴾، وَقَرَأَهُ يَعْقُوبُ بِالياءِ: ﴿يُفَرِّقُ﴾، والنُّونُ على قراءة الجُمْهُورِ تحتملُ معنَيَيْن: الأوَّل: أنَّها نُونُ المُتَكَلِّمِ المُشَارِكِ: وحينئذٍ يَحْتَمِلُ الالْتِفَاتَ، بِأَنْ يَكُونَ مِنْ مَقُولِ قَوْلٍ مَحْذُوفٍ، دَلَّ عَلَيْهِ السِّيَاقُ، وَ ﴿وَقَالُوا۟﴾ معطوفةٌ عَلَيْه؛ الثَّاني: النُّونُ فِيهِ لِلْجَلَالَةِ، أَيْ: آمَنُوا فِي حَالِ أَنَّنَا أَمَرْنَاهُمْ بِذَلِكَ؛ لِأَنَّنَا

اللّه سبحانه وتعالى أمرَ المؤمنين بعدمِ التَّفريقِ بين رسلِه

(1) أبو السُّعود، إرشادُ العَقلِ السَّليمِ: 1/274، والقُونَويُّ، حاشيةُ القُونَويِّ على البَيضاويِّ: 5/499.
(2) أبو حَيّانَ، البَحرُ المحيطُ: 2/756، والآلوسيُّ، روحُ المعاني: 2/65.
(3) القُونَويُّ، حاشيةُ القُونَويِّ على البَيضاويِّ: 5/502.
(4) ابن الجزريِّ، النَّشرُ: 2/237.

لَا نُفَرِّقُ، فَالجُمْلَةُ مُعْتَرِضَةٌ، وقد يكونُ مَقُولًا لِقَوْلٍ مَحْذُوفٍ، دَلَّ عَلَيْهِ ﴿ءَامَنَ﴾؛ لِأَنَّ الإيمَانَ اعْتِقَادٌ وَقَوْلٌ، وَمعنى قراءَةِ يَعْقُوبَ: أَنَّ الضَّمِيرَ عَائِدٌ عَلَى: ﴿كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ﴾[1].

وجهُ ذِكْرِ التَّفريق في شأن الإيمان بالرُّسل:

إظهارٌ لكمالِ إيمان القائلين وتأكيدٌ ليقينهم

ذكرَ اللّه سبحانه وتعالى عدمَ التَّفريقِ بين الرُّسُلِ، باعتبارِ أنَّ بعضَ الْكُفَّارِ: يَقُولون نُؤمِنُ ببعضٍ ونَكفرُ بِبَعْضٍ، أيْ: نُؤمِنُ ببعضِ الأشياءِ ونكفرُ ببعضٍ، فيقولُ المُؤْمِنُونَ ذلك؛ إظهارًا لكمالِ إيمانِهم، وتَحْصيلًا لاعْتداد إيقانِهم، على أنَّه يَسْتَلزِمُ عَدَمَ تَفْرقتِهم بَيْنَ الكُتُبِ دونَ العكسِ؛ ولأنَّ بَعْضَ الرُّسُلِ لا كِتابَ لهم، فيُمكِنُ أنْ يَتَحَقَّقَ عدمُ التَّفْرقةِ بَيْنَ الكتبِ والتَّفرقةِ بين الرُّسُلِ، بأنْ يَكْفُرُوا بِبَعْضِ الرُّسُلِ الّذينَ لا كتابَ لهم، مع الإيمانِ بجميع الكُتُبِ والرُّسُلِ الّذينَ أُنزِلَتْ تلك الكُتُبُ إليهم[2].

والمُرَادُ نفي الفَرْقِ بالتَّصديقِ والتَّكْذيبِ[3]؛ وأمَّا الفَرْقُ بينهم بِتَفْضيلِ بَعضِهم عَلَى بعضٍ؛ فلازمٌ على الإجمالِ، كما قال تعالى: ﴿۞تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾[4].

سِرُّ التَّعبير عن الامتثال بالسَّماع في قوله تعالى: ﴿سَمِعْنَا﴾:

الاستجابةُ بذكرِ دليلِ الطَّاعة وهو السَّماعُ، والتَّعريضُ بالمشركين

السَّمْعُ في قوله تعالى: ﴿سَمِعْنَا﴾ كِنَايَةٌ عَنِ القَبُولِ وَالِامْتِثَالِ والإجابةِ[5]، أو مَجازٌ مُرْسَلٌ، علاقتُه السَّببيَّةُ؛ فَذَكَرَ السَّبَبَ، وأُرِيدَ المُسَبَّبُ، وهو الإجابةُ؛ إذ لا ثناءَ للسَّمْعِ بدون إجابةٍ وامتثالٍ[6]، فالمَعْنَى: إنَّهُمْ آمَنُوا، وَاطْمَأَنُّوا وَامْتَثَلُوا[7]؛ فَهُوَ مَدْحٌ يَقتضي الحَضَّ

(1) ابن عاشور، التَّحريرُ والتَّنويرُ: 3/133.
(2) القُونَويُّ، حاشيةُ القُونَويِّ على البَيضاويِّ: 5/501.
(3) البَيضاويُّ، أنوارُ التَّنزيلِ: 1/166.
(4) القُونَويُّ، حاشيةُ القُونَويِّ على البَيضاويِّ: 5/501.
(5) ابن عاشور، التَّحريرُ والتَّنويرُ: 3/133.
(6) البَيضاويُّ، أنوارُ التَّنزيلِ: 1/166، والقُونَويُّ، حاشيةُ القُونَويِّ على البَيضاويِّ: 5/501-502.
(7) ابن عاشور، التَّحريرُ والتَّنويرُ: 3/134.

على هذه المَقالةِ، وأنْ يكونَ المؤمنُ يمتثلُها غابرَ الدَّهرِ، والطَّاعةُ: قَبولُ الأوامرِ وامتثالُها[1].

والغرضُ هو بيانُ سرعةِ الإجابةِ، وعدم التَّفريطِ في شيءٍ منه؛ إذ إنَّ السَّماعَ مُقدَّمٌ على الإجابة، فذِكْرُه بدلًا من الإجابة؛ إشارةٌ إلى أنَّ جميعَ ما تلقَّتْه الأذُنُ قد قاموا به خيرَ قيامٍ، دونَ تأخيرٍ أو تبديلٍ أو نقصانٍ، وهو دليلٌ على الاستجابةِ والامتثالِ، وفيه تعريضٌ بالمشركين الذين لم تنفعْهم أسماعُهم.

سِرُّ التَّعبير بصيغة الماضي دون المضارعِ:

بَيانُ رُسوخ الإيمانِ وقِدَمِ امتثالهم وطاعتهم

جِيءَ بِلَفْظِ الماضي في قولِه: ﴿سَمِعْنَا﴾ دُونَ المُضَارِعِ؛ لِيَدُلُّوا عَلَى رُسُوخِ ذَلِكَ، لا أَنَّهُمْ أَرَادُوا إِنْشَاءَ القَبُولِ وَالرِّضَا، وَصِيَغُ العُقُودِ وَنَحْوِهَا تَقَعُ بِلَفْظِ المَاضِي نَحْوَ: بِعْتُ[2]، كما أنَّ صيغةَ الماضي هُنا للاسْتِمْرَار؛ لأنَّه قد وَقَعَ فيما مضى، ولم يَعْرِضْ له ما يُنافيه، فَيَلْزَمُ الاسْتِمْرَار[3].

نكتةُ حَذْفِ المفعول في قوله: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾:

تعميمُ الاستجابة والامتثال لكلِّ أمرٍ من أوامر الله

حُذِفَ مَفْعُولُ فعلَيْ ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾، والمرادُ بالمفعولِ ما جاءَه الرَّسُولُ ﷺ من الحقِّ القَويمِ والشَّرعِ المُستقيمِ؛ ونكتةُ الحَذْفِ: التَّعميمُ مع الاختصار، أي: سَمِعْنا ما جاءَ في الكتابِ والسُّنَّةِ، وأطعنا (أمرك) بالامتثالِ، والإعراضِ عن ضِدِّهِ[4].

دَلالةُ المصدرِ وسرُّ إضافته في قوله: ﴿غُفْرَانَكَ﴾:

إظهار شدّة الحاجة إلى المطلوب، وبيان عِظَمه أمام ذنوبهم

الغُفرانُ مصدرُ: غَفَرَ يَغْفِرُ غَفْرًا ومَغْفِرةً وغُفْرانًا؛ يَدُلُّ على سَتْرِ اللهِ الذُّنوبَ لحمايةِ مُرْتكبِها من العذابِ، ولم يَرِد مصدرُ

(1) ابن عَطيَّةَ، المحرَّرُ الوَجيزُ: 1/392.
(2) ابن عاشور، التَّحريرُ والتَّنويرُ: 3/134.
(3) البَيضاويُّ، أنوارُ التَّنزيلِ: 1/166، والقُونَويُّ، حاشيةُ القُونَويِّ على البَيضاويِّ: 5/502.
(4) القُونَويُّ، حاشيةُ القُونَويِّ على البَيضاويِّ: 5/502.

(الغُفران) في القرآن الكريم إلّا في هذا الموضِع[1]؛ للدَّلالةِ على أنَّه مِنْ خصائصِ دعاء المؤمنينَ، فلا يَنبغي لأحدٍ أن يَطلبَ الغفرانَ مِن أحدٍ غيرِ اللّٰهِ تعالى.

تفخيم شأن المغفرة وتعظيم أمرها

قولُه: ﴿غُفۡرَانَكَ﴾ أي: اغْفِرْ لنا غُفْرانَكَ، أو نَطْلُبُ غُفْرانَكَ[2]؛ فيكونُ مَفْعُولًا مُطْلَقًا، والإضَافَةُ هنا للتَّفخيمِ[3].

نُكْتَةُ تقديم السَّمع على الطَّاعة؛ وتقديمها على طلب المغفرة:

تَقَدُّم ذكرِ الوسيلة على ذكرِ المسؤول أقربُ إلى الإجابة والقبولِ

قُدِّمَ ذِكْرُ السَّمعِ على الطَّاعةِ في قولِه تعالى: ﴿سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ﴾؛ لتَقَدُّمِ العامِّ على الخاصِّ، أو لأنَّ التَّكليفَ طريقُه السَّمْعُ، والطَّاعةُ بعدَه، وتقديمُ ذِكْرِهما على طلبِ الغُفْرانِ؛ لِمَا أنَّ تَقَدُّمَ الوَسيلةِ على المسؤولِ أقربُ إلى الإجابة والقَبولِ[4].

كما أنَّ في ﴿سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ﴾ إِشَارَةً إِلَى الحالِ، وَفي ﴿غُفۡرَانَكَ﴾، وَمَا بَعْدَهُ إِشَارَةً إِلَى المَعَادِ[5].

سِرُّ عدمِ الإشارةِ إلى ما يدلُّ على استجابة الدَّعوات:

الإيذانُ بأنَّ أمرَ إجابتها مُتَحقِّقٌ مَفروغٌ منه

لم يتعرَّضْ في هذه الآيةِ إلى بيانِ فَوزِ المؤمنين بمَطالبهم، الّتي من جُمْلتِها ما حُكِيَ عنهم مِنَ الدَّعواتِ؛ إيذانًا بأنَّه أمرٌ مُحقَّقٌ غنيٌّ عن التَّصريحِ[6].

دلالةُ التَّذييلِ في قوله: ﴿وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ﴾:

في قوله: ﴿وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ تذييلٌ لِمَا قبله، مُقرِّرٌ للحاجة إلى المغفرة؛ لأنَّ الرُّجوعَ يكونُ للحسابِ والجزاءِ[7].

---

(1) عبد الباقي، المعجم المفهرس، ص: 502.
(2) البَيضاويُّ، أنوارُ التَّنزيلِ: 1/166.
(3) القُونَويُّ، حاشيةُ القُونَويِّ على البَيضاويِّ: 5/502، والآلوسيُّ، روحُ المعاني: 2/66.
(4) الآلوسيُّ، روحُ المعاني: 2/66.
(5) أَبو حَيّانَ، البَحرُ المحيطُ: 2/757.
(6) أَبو السُّعود، إرشادُ العَقلِ السّليمِ: 1/273.
(7) أَبو السُّعود، إرشادُ العَقلِ السّليمِ: 1/276، والقاسِميُّ، محاسِنُ التَّأويلِ: 2/241.

بـيـانُ تَـيَـقُّـن المؤمنين بالمَعَادِ، وشِدَّةِ حاجتهم إلى مغفرة ربِّ العباد

كما أنَّه إقرارٌ منهم بالبَعْثِ[1]، ودلَّ على هذا الإقرارِ تَقْديمُ المَجْرُورِ المُفيدِ للْحَصْرِ: أَي: الْمَصِيرُ إِلَيْكَ، لَا إِلَى غَيْرِكَ، وَهُوَ قصرٌ حَقِيقِيٌّ قَصَدُوا بِهِ لَازِمَ فَائِدَتِهِ، وَهُوَ: أَنَّهُمْ عَالِمُونَ مُتَيَقِّنُونَ بِأَنَّهُمْ صَائِرُونَ إِلَيْهِ، وَلَا يَصِيرُونَ إِلَى غَيْرِهِ مِمَّنْ يَعْبُدُهُمْ أَهْلُ الضَّلَالِ، وقد يكونُ هذا التَّذْييلُ مَجازًا عَنْ تَمَامِ الِامْتِثَالِ وَالإِيمَانِ؛ كَأَنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ الْإِسْلَامِ آبِقِينَ، ثُمَّ صَارُوا إِلَى اللَّهِ، وَهَذَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ﴾ [الذّاريات: 50]، وَجَعْلُ المَصِيرِ إِلَى اللَّهِ تَمْثِيلًا لِلْمَصِيرِ إِلَى أَمْرِهِ وَنَهْيِهِ[2]، كَقَوْلِهِ: ﴿وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥۗ﴾ [النُّور: 39].

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الإنزال والتَّنزيل:

الإنـزال دَفْعِـيٌّ، والـتَّـنـزيـلُ تَدريجيٌّ

الإنزالُ على ما يكون دَفعةً واحدةً[3]، ويُطلقُ التَّنزيلُ على ما يكونُ مُفرَّقًا أو تَدْريجيًّا، فالإنزالُ دَفْعِيٌّ، والتَّنزيلُ تَدريجيٌّ، قال اللّه تعالى: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۝٣﴾ [آل عمران: 3]؛. وهذا لأنَّ حُكْمَ القرآنِ الكريم مُؤَبَّدٌ، وهو مُناسِبٌ لـ (نزَّل)؛ فإنَّه بِنَاءٌ لِلمُبالغةِ، ولِمَا في التَّنزيل مِن معنَى التَّدريجِ، فبَينَ (الإنزالِ) و(التَّنزيلِ) عُمُومٌ وخُصُوصٌ، والإنْزالُ أَعَمُّ مِنْهُ؛ لأنَّه قد يَدُلُّ على معنى التَّدْريج، وقد لا يَدُلُّ[4]. ولا يُشْكِلُ على هذا الفَرْقِ وقوعُ التَّعبيرِ عنْ نُزولِ القُرآنِ الكريم بالفِعْلَيْنِ معًا؛ وذلكَ لأنَّ لِلْقُرْآنِ الكريمِ نُزولَيْنِ، دَفْعِيًّا إلى السَّماءِ الدُّنيا، وتَدْريجيًّا بحَسَبِ الوَقائعِ والأحداثِ[5].

(1) البَيضاويُّ، أَنوارُ التَّنزيلِ: 1/166، وأَبو حَيّانَ، البَحرُ المحيطُ: 2/759.
(2) ابن عاشور، التَّحريرُ والتَّنويرُ: 3/134.
(3) السَّمِيْن، عمدة الحفّاظ: (نزل)، وأبو هلال العسكريُّ، الفروق اللُّغويّة، ص: 79، والجِرجانيُّ، التَّعريفات، ص: 68، والخَفَاجيُّ، عناية القاضي: 1/3.
(4) الراغب، المفرداتُ: (نزل).
(5) أبو شامة، المرشِدُ الوَجيزُ، ص: 17، والسُّيوطيُّ، الإتقان: 1/146.

السَّماع والاستماع والإنصات:

الاستماعُ لِمَا كَانَ بِقَصْدٍ ولَا يَكُونُ إلَّا بِالإِصْغَاءِ، والسَّماع يَكُونُ بِقَصْدٍ وَدُونَهُ

السَّماعُ وكذا السَّمْعُ: مُطْلَقُ إدراكِ الحروفِ والأصواتِ، والاسْتِماعُ طَلَبُ السَّمْعِ بالإصغاءِ بالأُذُنِ، أيْ: تَقَصُّدُ السَّماعِ، والسَّمْعُ ثلاثُ دَرَجاتٍ: إحساسٌ بالصَّوتِ دونَ فَهْمٍ، كسَماعِ الدَّوابِّ السَّارحةِ إذا دَعاها راعيها إلى ما يُرشِدها، فلا تَسْمَعُ إلّا دعاءَه ونِداءَه، ولا تَفْهَمُ ما يَقولُ[1]، قال تعالى: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً﴾ [البقرة: 171]، وإحساسٌ بالصَّوتِ مع الفَهْمِ، كما في قوله تعالى: ﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [البقرة: 75]. وإحساسٌ بالصَّوتِ مع الفَهْمِ والاقْتناعِ والإيمانِ والطَّاعةِ، وهي أعلى دَرَجاتِ السَّمْعِ الّتي تُمنَحُ للمؤمنينَ، كما في قوله تعالى: ﴿۞إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾ [الأنعام: 36] وقال تعالى: ﴿إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨١﴾﴾ [الرُّوم: 81]. والاستماعُ يكونُ على درجتَين: الأولى: استماعُ انْتفاعٍ وانْقيادٍ وطاعةٍ، وهو استماعُ المؤمنين، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٨﴾﴾ [الزُّمر: 18]، وهناكَ اسْتماعٌ لايَنْتُجُ عنه انتفاعٌ ولا قَبولٌ ولا انقيادٌ، وهو استماعُ الكافرِ والمُنافقِ، قال تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ ۚ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوْ كَانُواْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [يونس: 42]، فَهُمْ في هذهِ المَنْزِلَةِ كالبهائمِ في عَدَمِ الانْتفاعِ، وإنْ كان الفَرْقُ بَيْنَهُمَا بأنَّ مُسمَّى الاسْتماعِ مَوجودٌ في الكَفَرَةِ دونَ البهائمِ[2]. وأمَّا الإنصاتُ: فهو تَرْكُ الأشغالِ، والسُّكوتُ والتَّفرُّغُ للاسْتماعِ، قال تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾﴾ [الأعراف: 204]، فالإنصاتُ يكونُ بتَرْكِ التَّحدُّثِ، أو الاشتغالِ بما يَشْغَلُ عن الاستماعِ، وأمَّا الاسْتِماعُ له فهو: أنْ

(1) ابنُ عَطيَّةَ، المحرَّرُ الوَجيزُ: 1/238، والثَّعالِبيُّ، الجَواهِرُ الحِسانُ: 1/355.
(2) البَيضاويُّ، أنوارُ التَّنزيلِ: 3/114، وابنُ التَّمْجيدِ، حاشيَةُ ابنِ التَّمجيدِ على البَيضاويِّ: 9/472.

يُلقِيَ سَمْعَه وقَلْبَه، ويَتَدبَّرَ ما يَسْتَمِعُ إليه[1]، فالإنْصاتُ: السُّكوتُ والسُّكونُ، وتَرْكُ الأَشْغالِ بقَصْدِ الاسْتماعِ، والاسْتِماعُ: قَصْدُ السَّماعِ بُغيةَ فَهْمِ المَسْموعِ، أو الاستفادةِ منه[2].

الطَّاعة والعبادة:

الطَّاعةُ مُطلقُ الانقياد، والعبادة الخضوع لله تعالى محبَّةً وتعظيمًا

الطَّاعةُ: الانقيادُ، وهي: الفعلُ الواقعُ على حَسَبِ ما أَرادَه المُريدُ، يُقالُ: طاعَه يَطُوعُهُ؛ إذا انْقادَ معه ومضى لأَمْرِه، وأكثرُ ما تُقالُ في الائْتِمارِ لما أُمِرَ، والارتسام فيما رُسِمَ، وتكونُ للخالقِ والمخلوقِ[3]. والعبادةُ هي: غايةُ الذّلِّ والخضوعِ مع المحبَّةِ والتَّعظيم، ولا تُسْتَحَقُّ إلّا بغايةِ الإنعام، ولهذا لا يَجوز أنْ يُعْبَدَ غيرُ اللّه تعالى، ولا تكونُ العبادةُ إلّا مع المَعرفةِ بالمَعبودِ، ولا تكونُ إلّا للخالق، قال تعالى: ﴿أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ۝٣﴾ [نوح: 3]، فَجَعَلَ العِبادَةَ وَالتَّقْوَى لِلَّهِ وَحْدَهُ، وَجَعَلَ الطَّاعَةَ لِلرَّسُولِ[4]، والطّاعة الانقياد وهو لا يتصوّر إلّا بعد الأمر، فالفرق بين الطّاعة والعبادة أنّ الطّاعة فعل يعمل بالأمر لا غير، بخلاف العبادة[5]، فالطَّاعةُ: هي مُجرَّدُ المُوافقةِ للأمرِ، وهي أَعَمُّ من العبادةِ، لأنَّ العبادةَ غَلَبَ استعمالُها في تعظيمِ اللّهِ غايةَ التَّعظيمِ[6].

الغفران والمغفرة[7]:

الغفران مطلب المؤمنين في دعائهم، والمغفرة فضل غامرٌ، وعطاءٌ فيّاض

بلاغة القرآنِ تفرّق في الصِّيغة بين الغفران والمغفرة،؛ وكِلا المصدَرين (الغفران والمغفرة) يَدلّانِ على السَّتْرِ والتَّغطيةِ للذُّنوبِ، لحِمايةِ مُرتكبِها من العذاب، فقَيْدُ (الحماية) مُهِمٌّ جِدًّا في معنى

(1) السِّعديُّ، تَيسيرُ الكَريمِ الرَّحمنِ، ص: 314.
(2) إسماعيل حَقّي، روحُ البَيانِ: 8/486.
(3) الرّاغِبُ، المفردات، وابنُ فارِس، مقاييسُ اللّغة: (طوع)، والعَسكَريُّ، الفُروقُ اللُّغَويّةُ، ص: 221
(4) ابن تَيميَةَ، مجموعُ الفَتاوى: 3/108.
(5) اسماعيل حقّي، روح البيان: 3/108.
(6) الكَفَويُّ، الكُلّيّاتُ، ص: 583.
(7) نصر سعيد، أثر السِّياق في اصطفاء أحد المصادر المتعدّدة للفعل الواحد، ص: 205، وما بعدَها.

الغفرانِ، وقد قال الطَّبريُّ في معنى (الغفران) و (المغفرة): السَّترُ من اللّه على ذنوبِ مَنْ غَفَرَ له، وصفحُه له عَنْ هَتْكِ سَتْرِه بها في الدُّنيا والآخرةِ، وعفوُه عن العقوبةِ عليه[1]، وقد وردَ الغفرانُ مرّةً واحدةً، في القرآن، في قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ٢٨٥﴾ [البقرة: 285]، لكنّ المغفرة وردت ثمانيًا وعشرين مرّةً، وقد اختَلَفَ السِّياقُ على النَّحو الآتي:

أوّلًا: نَلْحَظُ أنَّ (الغفران) قد وقعَ في سِياق دعاء المؤمنين، لربِّ العالَمين.

ثانيًا: أنَّ الغُفرانَ سؤالُ العبادِ ربَّهم بصِفةٍ خاصّةٍ، دون سواه.

ثالثًا: وَقَعَتِ المغفرةُ في سِياقاتٍ مُتعدِّدَةٍ، غير الطَّلب أو السُّؤال أو الدُّعاء[2]، رابعًا: يُمكنُ أنْ تَصْدُرَ المغفرةُ - بمعناها اللُّغويِّ لا الشَّرعيِّ - من المَخلوقِ[3].

خامسًا: الغُفرانُ مَطلبُ المؤمنينَ، والمغفرةُ تفَضُّلُ اللّه ربّ العالمين.

سادسًا: الغُفران طمعٌ في كَرَمِ المنّان، والمَغفرة إسداءٌ بلا امتنان.

ومثال ذلك أنّه قد حثّ المُسارعينَ إلى المغفرةِ على تطلّب الجنّةِ بصيغة الإفراد ﴿وَجَنَّةٍ﴾ في قوله: ﴿۞وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ﴾ [آل عمران: 133]، ثمَّ بصيغة الجمع ﴿وَجَنَّٰتٌ﴾، في معرض التّفضّل والعطاء في قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغۡفِرَةٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَجَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ [آل عمران: 136].

المصير والمآب والمرجع:

هذه ألفاظٌ ثلاثةٌ مُتقاربةٌ في المعنى، فالمصيرُ: يَدُلُّ على التَّحوُّلِ إلى غايةٍ أو مَجْمَعٍ؛ ليكونَ المآلَ والمُنتهى، ومنه قوله تعالى: ﴿غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ﴾، والمآبُ: رُجوعُ الشّيءِ إلى مُستَقَرِّه، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلۡمَـَٔابِ ١٤﴾، [آل عمران: 14]،

(1) ابن جرير، جامع البيان: 6/128.

(2) المغفرة وردت في القرآن، في مُقابَلة العذابِ، كما في البقرة: 175، و الحديد: 20، واقترَنَتْ بذكر الجنَّةِ، كما في البقرة: 221 و آل عمران: 133، 136، و الحديد: 21، وبالرَّحمة، كما في آل عمران: 157، والنّساء: 96، وبالأجرِ العظيم، كما في المائدة: 9، والأحزاب: 35، والفتح: 29، والحجرات: 3، وبالأجرِ الكبير، كما في هود: 11، وفاطر: 7، ويس: 11، والملك: 12، وبالرِّزق الكريم، كما في الأنفال: 4، 74، والحجّ: 50، والنّور: 26، وسبأ: 4، وبالفَضل، كما في البقرة: 268، وجاءت المغفرةُ وعدًا من الله للمؤمنين، كما في محمّد: 15، كما جاءت خبرًا عن الله تعالى، كما في النّجم: 32، والمدّثّر: 56.

(3) مثال المغفرة -بمعناها اللُّغويِّ لا الشَّرعيِّ- من المَخلوقِ، قوله تعالى: ﴿۞قَوۡلٞ مَّعۡرُوفٞ وَمَغۡفِرَةٌ خَيۡرٞ مِّن صَدَقَةٖ يَتۡبَعُهَآ أَذٗىۗ وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٞ ٢٦٣﴾ [البقرة: 263].

المـآبُ رجُـوعٌ إلى المُستقرّ، والمرجعُ تحوّلٌ عن الاتّجاه إلى عكسه

وقولِه: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ۝٢١ لِّلطَّاغِينَ مَـَٔابًا ۝٢٢﴾ [النّبأ: 21، 22].
والمرجِعُ: من الرُّجوعُ، وهو العَودُ إلى ما كان منه البَدْءُ، والرَّجْعُ: الإعادةُ؛ تحوّلٌ عن الاتّجاه أو الحالِ إلى عكسه، كما يحصل للماءِ في الغَدير؛ لأنَه مُحتَبَسٌ فيه لا ينسابُ بعيدًا، وكلُّ ما في القرآن مِنْ (تُرْجع، تُرْجَعون، يُرْجع، راجعون، مرجعكم، مرجعهم) فهي إلى اللّه [1] ﷻ.

وعليه فهناك سُمُوٌّ في اصطفاء البيانِ القرآنيِّ للألفاظِ المُنسَجِمَةِ مع سِياقها؛ فيُذكَرُ ﴿ٱلْمَصِيرُ﴾ في نهايةِ المطافِ، مع التَّركيز على معنى التَّحوُّلِ من حال إلى حالٍ عند المُنْتهى، كما في الآية الكريمة قيد المعالجة، فالمَصيرُ: الرّجعى إلى اللّه بعدَ الموتِ، وهو لفظٌ عامٌّ شاملٌ لمآلِ العبادِ في كلِّ حالٍ ومآل[2]؛ حيثُ دعاءُ المؤمنين المتدفّق، بمظاهر الخُشوعِ والإخباتِ، وتعظيمهم للبعث بعد الممات، حيث لقاءُ اللّه ربّ الأرض والسّماوات.

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (صير)، (أوب)، (رجع).
(2) العليمي، فتح الرّحمن: 1/411.

﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَعَلَيۡهَا مَا ٱكۡتَسَبَتۡۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذۡنَآ إِن نَّسِينَآ أَوۡ أَخۡطَأۡنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تَحۡمِلۡ عَلَيۡنَآ إِصۡرًا كَمَا حَمَلۡتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلۡنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ وَٱعۡفُ عَنَّا وَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَآۚ أَنتَ مَوۡلَىٰنَا فَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٢٨٦﴾ [البقرة: 286]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

ربط التَّيسير ورفع المشقَّة، باستجابة أهل الإيمان لأوامر الرّحمن

تتجلّى العلاقة بين هذهِ الآيَةِ وما قَبْلَها، في أنّ المُؤمنين لمّا مَنَّ اللّه عليهم بالإيمان، ومتانة العقيدة، فآمنواْ باللّه المُنْزِلِ الحكيم، والقرآن المُنْزَلِ العظيم، وبالنّبيّ ذي الخلق الكريم، وصدّقوا بالرُّسل السّابقين، والكتب المنزلة على الأقوام الماضين، والتزموا بمقتضيات الإيمان، من تطبيق الأحكام، والانضباط مع مبادئ الإسلام، حينها تجسّد لهم ثقل التّكليف، وحساسيّة الالتزام الشّريف، فراحُوا يطلبون التّخفيف، حتّى لا يتحمّلوا ما لا طاقة لهم به، داعين اللّه أن يراعي لهم ما يبدر منهم من نسيان وما يصدر منهم من عصيان، وأن لايُحَمّلُوا الآصار الّتي تحمّلتها الأمم السّوالف، بل يطلبون من اللّه أن يعاملهم بعوارف الإحسان، لا بقوارع الامتحان، فيلفّهم بالعفو، ويشملهم بالمغفرة، ويكنفهم بالرّحمة، و يؤيّدهم بالنّصر المبين، على أعدائهم الكافرين[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿لَا يُكَلِّفُ﴾: من التَّكليف، وهو الأَمْرُ بِمَا يَشُقُّ، وَقد كَلَّفَه تَكْلِيفاً، وتَكَلَّفَه تَكَلُّفاً: إذا تَجَشَّمَهُ، وأصلُ التَّكليف: من الكَلَفِ وهو

(1) البِقاعيُّ، نَظم الدُّرَرِ: 4/175، والرّازيُّ، مفاتيح الغيب: 7/115.

الإيلاعُ بالشَّيءِ، ومنه الكَلَفُ في الوَجْهِ؛ لِتَصَوُّرِ كُلْفةٍ به، بتَوجيهِ أمرٍ إِلَيْهِ، يَجْعلُه في مَشقّةٍ وحَرَجٍ[1]، والمعنى لا تكلّفنا ما لا نُطيق، وقيل: ما يشقُّ علينا فعله على الدّوام، وقيلَ: مَا لَا نستطيع من عقوبة ذنوبنا[2].

2) ﴿إِلَّا وُسْعَهَاۚ﴾: أيْ طاقتَها، وهي كلُّ مُخْتَزَنٍ في باطنِ الإنسانِ من قُدْرَةٍ وُسْعٍ، وأصلُ الوُسْعِ: يَدُلُّ عَلَى خِلَافِ الضِّيقِ وَالعُسْرِ، وَالوُسْعُ: الجِدَةُ والغِنى، وَأَوْسَعَ الرَّجُلُ: كَانَ ذَا سَعَةٍ، فهو باسطٌ وواسعٌ لنَفْسِه وأهلِه، والمعنى هُنا: أيْ لا يُحمِّلُهَا مِنْ أمرِ دينِها إلّا ما هو في طَوْقِهَا[3]، والوُسْع ما يسعُ الإنسان، ولا يضيقُ عليه، ولا يُحرجُ فيه، أي لا يكلّفها إلّا ما يتّسع فيه طوقه، ويتيسّر عليه دون مدى غاية الطّاقة والمجهود، فقد كان في طاقة الإنسان أن يصلّي أكثر من الخمس، ويصوم أكثر من الشّهر، ويحجّ أكثر من حجّة[4].

3) ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْۗ﴾: الكَسْبُ: ما يَتَحَرَّاه الإنسانُ ممَّا فيه جَلْبُ مَنفعةٍ أو دَفْعُ ضُرٍّ، يُقالُ: كَسَبْتُ المالَ واكتَسبْتُه وتكسَّبْتُهُ، وأصلُ الكَسْبِ يَدُلُّ عَلَى ابْتِغَاءٍ وَطَلَبٍ وَإِصَابَةٍ، والكَسْبُ: طَلَبُ الرِّزقِ، ورَجُلٌ كَسُوبٌ للمالِ وكَسَّابٌ، له مكاسِبُ، والمعنى هُنا: لَها مَا كَسَبَتْ مِنْ خير؛ وَعَلَيْها مَا اكْتَسَبَتْ من شَرٍّ[5]، ولمّا كان الشّرّ ممّا تشتهيه النّفس، وهي أَجَدُّ واعْمَلُ فيه، جعلت لذلك مكتسبة فيه، بخلاف الخير، فإنّها لمّا لم تكن فيه كذلك، وصفت بما ليس فيه الاعتمال، فقال: كسبت[6].

4) ﴿لَا تُؤَاخِذْنَآ﴾: تُعاقِبْنا؛ مِنْ أَخَذَه بذَنْبه، وآخذَه مُؤاخذةً: عاقبَه عليه وجازاه، وأصلُ آخذَه: ضَبَطَهُ أو حازَه، وتمكَّنَ منه فعاقبَه، فآخَذَه بِذَنْبِهِ مُؤَاخَذَةً، أَخَذَه بِهِ وعاقَبَه[7].

---

(1) الرّاغِبُ، المفردات، والسَّمِيْن، عمدة الحفّاظ، وابنُ فارِس، مقاييسُ اللُّغة، والزَّبيديُّ، تاجُ العَروس، وجبل، المعجَم الاشتِقاقيُّ المؤَصَّلُ: (كلف)، والمصطفويُّ، التَّحقيقُ في كَلِماتِ القُرآنِ الكَريمِ: 10/101.

(2) الكرمانّي، غرائب التّفسير: 1/237.

(3) السَّمِيْن، عمدة الحفّاظ، وجبل، المعجَم الاشتِقاقيُّ المؤَصَّلُ: (وسع)، وابنُ قُتَيبَةَ، غَريبُ القُرآنِ، ص: 89، و السِّجِستانيُّ، غَريبُ القُرآنِ، ص: 487، والمصطفويُّ، التَّحقيقُ في كَلِماتِ القُرآنِ الكَريمِ: 13/106.

(4) النّسفيّ، مدارك التّنزيل: 1/233.

(5) الزّمخشريُّ، أَساسُ البَلاغَة، والرّاغِبُ، المفردات، والسَّمين، عمدة الحفّاظ، وابنُ فارِس، مقاييسُ اللّغة: (كسب)، والبَيضاويُّ، أَنوارُ التَنزيلِ: 1/166.

(6) الإيجيّ، جامع البيان: 1/214.

(7) ابنُ سيدَه، المحكَم، وابنُ منظور، لِسانُ العَرَب، والزّبيديُّ، تاجُ العَروس، وابنُ فارِس، مقاييسُ اللّغة، والسَّمين، عمدة الحفّاظ: (أخذ).

5) ﴿نَّسِينَآ﴾: غَفَلْنا فَتَرَكْنا؛ يُقالُ: نَسِيتُ الشَّيءَ أَنْساه نِسْيانًا: تَرَكْتُهُ عن ذُهولٍ وغَفلةٍ، وأصلُ النِّسيانِ يَدُلُّ على إغفالِ الشَّيءِ، يُقالُ: نَسيتَ الشَّيءَ إذا لم تَذْكُرْهُ[1]، قوله ﴿إِن نَّسِينَآ﴾ فيه تأويلان: أحدهما: يعني إن تناسينا أمرك، والثّاني: تركنا، والنّسيان: بمعنى التّرك كقوله تعالى: ﴿نَسُواْ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمۡۚ﴾ [التّوبة: 67]، قاله قطرب[2].

6). ﴿أَخۡطَأۡنَاۚ﴾: أتيْنا بخَطأٍ، والخطأُ ضدُّ العَمْدِ، وأصلُ خَطَأَ يَدُلُّ عَلَى تَعَدِّي الشَّيْءِ، وَالذَّهَابِ عَنْهُ، وَالخَطَاءُ مُجَاوَزَةُ حَدِّ الصَّوَابِ، وأَخْطَأَ: إذا لم يتعمَّدْ، وخَطِئَ إذا تَعمَّدَ الإثمَ، والمَعْنى هُنَا: أَتَيْنا بخَطإٍ وفاتَنا الصَّوابُ، فعدَلْنا عنه سَهَوًا من غَيْرِ تَعَمُّدٍ[3]، ومعنى أخطأنا، "فيه تأويلان: أحدهما: ما تأوّلوه من المعاصي بالشّبهات، والثّاني: ما عمدوه من المعاصي الّتي هي خطأ تخالف الصّواب، وقد فرّق أهل اللّسان بين (أخطأ) و (خطئ)، فقالوا: (أخطأ) يكون على جهة الإثم وغير الإثم، وخطىء: لا يكون إلّا على جهة الإثم"[4].

7) ﴿إِصۡرًا﴾: أيْ: ثِقَلًا، وأصْلُ الأَصْرِ: عقْدُ الشَّيءِ وحبْسُه بقَهرِهِ، وحَمَلَ عَنْهُم الإِصْرَ، أي: الثِّقَلَ العَظيمَ من كُلْفَةِ أَمْرٍ، أو وبالِ نَهْيٍ، والمعنى هُنا: لا تَحْمِلْ عَلَيْنا عَهْدًا أو تَكْليفًا يَثْقُلُ عَلَيْنا، أو إثمَ عَهْدٍ لا نَفِي بهِ[5]، وقالوا: كلّ عقد من قرابة أو عهد، فَهُو إصْر، والعرب تقول: مَا تأصِرُني على فلان آصرة، أي ما تَعطفني عليه قرابة ولا مِنّة، وفي هذا السّياق، قال الحطيئة:

عَطَفُوا عَلَيَّ بِغَيْرِ آصِرَةٍ فَقَدْ عَظُمَ الْأَوَاصِرُ[6].

8) ﴿مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ﴾: مَا يَصْعُبُ علينا، والطّاقَةُ: القُوّةُ، وتُسَمَّى الإطاقة والطَّاقة، وأصلُ طَوَقَ: كُلُّ مَا اسْتَدَارَ بِشَيْءٍ، فطَوَّقْتُكَ الشَّيْءَ، إِذَا كَلَّفْتُكَهُ، والطَّاقةُ: اسمٌ لِمَا يَقْدِرُ

(1) ابنُ فارِس، مقاييسُ اللُّغة: (نسي)، وجبل، المعجَم الاشتِقاقيُّ المؤَصَّلُ: (نسو- نسى)، والغَزنَويُّ، باهِرُ البرُهانِ: 1/271، والنَّيسابوريُّ، إيجازُ البَيانِ: 1/177.

(2) الماورديّ، النّكت والعيون: 1/364.

(3) الرّاغِبُ، المفردات، وابنُ فارِس، مقاييسُ اللُّغة، وجبل، المعجَمُ الاشتِقاقيُّ المؤَصَّلُ: (خطأ)، وابنُ قُتَيبَةَ، غَريبُ القُرآنِ، ص: 215، والنَّيسابوريُّ، إيجازُ البَيانِ: 1/177، والغَزنَويُّ، باهِرُ البُرهانِ: 1/272.

(4) الماورديّ، النّكت والعيون: 1/364.

(5) الزّمخشريُّ، أَساسُ البَلاغَة، والرّاغِبُ، المفردات، وابنُ فارِس، مقاييسُ اللُّغة، وجبل، المعجَمُ الاشتِقاقيُّ المؤَصَّلُ: (إصر) وابنُ الهائِم، التِّبيانُ، ص: 117.

(6) الزّجاج، معاني القرآن وإعرابه: 1/370.

الإنسانُ أن يفعلَه بِمَشقَّةٍ، وذلكَ تَشْبيهٌ بالطَّوْقِ المُحيطِ بالشَّيءِ، والمعنى هُنا: لا تُحَمِّلْنا ما يَصْعُبُ علينا مُزاوَلَتُهُ[1]، "وقال ابن الأنباري: المعنى: لا تحمّلنا ما يثقل علينا أداؤه، وإنْ كنّا مطيقين له على تجشّم، وتحمّل مكروه، فخاطب العرب على حسب ما تعقل، فإنّ الرّجل منهم يقول للرّجل يبغضه: ما أطيق النّظر إليك، وهو مطيق لذلك، لكنّه يثقل عليه"[2].

9) ﴿وَٱعۡفُ عَنَّا﴾: وامْحُ ذُنوبَنا؛ والعَفْوُ: المَحْوُ والطَّمْسُ، يُقَالُ: عَفَا يَعْفُو عَفْوًا وأصلُ العَفْوِ: يدلُّ عَلَى تَرْكِ الشَّيْءِ، فعَفْوُ اللَّهِ تَعَالَى عَنْ خَلْقِهِ: تَرْكُهُ إِيَّاهُمْ فَلَا يُعَاقِبُهُمْ، والمعنى هُنا: طَلَبُ التَّجاوُزِ عَنِ الذَّنْبِ وتَرْكُ العِقابِ عَلَيْهِ[3].

10) ﴿مَوۡلَىٰنَا﴾: أي: وَلِيُّنا، والمَولى: هُوَ السَّيِّدُ والمُنْعِمُ والنَّاصرُ والمُعينُ، وأَصْلُ وَلِيَ: يَدُلُّ عَلَى قُرْبٍ، والمَعنى في حقِّ اللّه: المُعينُ الّذي تَرْكَنُ إليهِ وتعتمِدُ عليهِ، وتَحْتمي به عِنْدَ الشِّدَّةِ والرَّخاءِ، وفي السَّرّاءِ والضَّرَّاءِ[4].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

لا يكلّف اللهُ المؤمن فوق الإمكان، بل يحيطه باللّطف والرّحمة كلّ أوان

تشير الآية الكريمة إلى أنّ اللّه تعالى، لا يُحمّل عباده ما لا يَسْتَطيعونَه، ولا يكلّفهم فوق ما يطيقونه، لأنَّ دِينَ اللّه مَبْنيٌّ على التّيسير، فلا مَشَقَّةَ فيه ولا تعسير، ولن يشادّ الدّين أحدٌ إلّا غلبه، والمؤمنون لا يفتؤون يتضرّعون إلى اللّه، أن لا يُعاقِبهم جرّاء النّسيان، وأن لا يؤاخذهم بالأخطاء المرتكبة عن السّهو القاهر، في الأفعال والأقوال وتوارد الخواطر،، وأن لا يحمّلهم إصرا مرهقا، تنوء به الظّهور، كما وقع للماضين في سالف العصور، وأن يشملهم بالعطف، ويسلك بهم مسالك اللّطف، عفوًا وغفرانًا ونعمة، فهو الدّاعم المؤازر في كلّ أزمة، وهو مصدركلّ نصرة ورحمة[5].

(1) الرّاغِبُ، المفردات، والسَّمين، عمدة الحفّاظ، وابنُ فارِس، مقاييسُ اللُّغة: (طوق)، والكَفَويُّ، الكُلّيّاتُ، ص: 586.
(2) ابن الجوزي، زاد المسير، ص: 586.
(3) الرّاغِبُ، المفردات، وابنُ منظور، لِسانُ العَرَبِ، وابنُ فارِس، مقاييسُ اللُّغة، وابنُ الأَثيرِ، النِّهايَةُ: 3/265، والكَفَويُّ، الكُلّيات، ص: 151.
(4) الرّاغِبُ، المفردات، والسّمين، عمدة الحفّاظ، وابنُ فارِس، مقاييسُ اللّغة: (ولي)، وابنُ قُتَيبَةَ، غَريبُ القُرآنِ، ص: 100.
(5) لَجنَةٌ مِن عُلَماءِ الأَزهَر، المنتَخَبُ في تَفسيرِ القُرآنِ الكَريمِ، ص: 69، ونُخبَةٌ مِن أَساتِذَةِ التَّفسير، التَّفسيرُ المَيَسَّرُ، ص: 49، وجَماعَةٌ مِن عُلَماءِ التَّفسير، المختَصَرُ في تَفسيرِ القُرآنِ الكَريمِ، ص: 49 (بتصرّف).

الإيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

دَلالة الاستئناف في قوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَا﴾:

بيان يُسْرِ التَّكاليف تَفَضُّلًا ورَحْمَةً من الله بعباده

جُمْلَةُ: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَا﴾ مُسْتَأْنَفَةٌ استئنافًا ابْتدائيًّا، مَسوقَةٌ لبيانِ يُسْرِ التَّكليفِ إِثْرَ حكايةِ تكليفِ المُؤْمنينَ بالأوامر والنّواهي[1]، فهي إخبارٌ منه سبحانه وتعالى[2] بعدَ تَلَقِّيهم لتَكاليفه بالطّاعة والقَبول، بما لَه عليهم في ضِمْنِ التَّكليفِ مِنْ محاسِنِ آثارِ الفَضلِ والرَّحمةِ؛ ابتداءً لا بعدَ السُّؤالِ[3]، وهذهِ الآيةُ نَظيرُ قولِه تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلۡعُسۡرَ﴾[4] [البقرة: 185].

وفي هذا الاستئناف: إِظْهَارُ ثَمَرَةِ الإيمَانِ وَالتَّسْليمِ وَالطَّاعَةِ، فَأَعْلَمَهُمُ اللَّهُ بِأَنَّهُ لَمْ يَجْعَلْ عَلَيْهِمْ في هَذَا الدِّينِ التَّكْليفَ بِمَا فِيهِ مَشَقَّةٌ، وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ تَبْشِيرٌ بِاسْتِجَابَةِ دَعْوَتِهِمُ المُلَقَّنَةِ، أَوِ الَّتِي أُلْهِمُوهَا: وَهِيَ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا - إِلَى قَوْلِهِ - مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ، قَبْلَ أَنْ يَحْكِيَ دَعَوَاتِهِمْ تِلْكَ[5].

نُكتة احتمالِ كلمةِ (وُسْع) للقُدْرَة والطَّاقة:

المبالغةُ في اتِّساعِ المعنى، وتأكيدُ رَفْعِ الحَرَجِ والمَشَقَّة

قولُه تعالى: ﴿إِلَّا وُسۡعَهَاۚ﴾ أيْ: إلّا ما تَسَعُهُ قُدْرَتُها فَضلًا ورحمةً، أَوْ ما دُونَ مَدى طاقتِها، بحيثُ يَتَّسِعُ فيه طَوْقُها ويَتَيَسَّرُ عليها[6]، كَقَوْلِهِ تَعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلۡعُسۡرَ﴾ [البقرة: 185]، ومَبْنى المَعْنى الأوَّلِ: كَوْنُ الوُسْعِ بمعنى القُدْرَةِ، أيْ: لا يُكَلِّفُ إلّا بِقَدْرِ قُدْرَتِها، ومبنى المَعْنى الثَّاني: أنَّه مَصْدَرٌ بمعنى المُشْتَقِّ،

(1) القُونَويّ، حاشية على البيضاويِّ: 5/504.
(2) وعلى القول بأنَّ قولَه: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ﴾ مِنْ جملة دعاء المؤمنين، يكونُ في الكلام التفاتٌ بالعُدول عن الخِطاب إلى الغَيبة بذِكر لفظ الجلالة: (الله)، وفائدتُه: إظهارُ التَّمَلُّقِ بأنَّ له من صِفاتِ العظمةِ ما يَقتضي العفوَ عن ضَعفهم. ينظر: البِقاعيُّ، نَظم الدُّرَرِ: 4/176، والقاسِميُّ، محاسِنُ التَّأويلِ: 2/242.
(3) الآلوسيُّ، روحُ المعاني: 2/66.
(4) أَبو حَيّانَ، البَحرُ المحيطُ: 2/760.
(5) ابنُ عاشور، التَّحريرُ والتَّنويرُ: 3/134.
(6) البَيضاويُّ، أَنوارُ التَّنزيلِ: 1/166.

أيْ: ما يَتَّسِعُ فيه طَوْقُها، ويَسْهُلُ عليها من المَقدورِ، فَهُو أَخَصُّ، كما إذَا كان في قُدْرَتِه أَنْ يُصلِّيَ ستًّا، فأَوْجَبَ خَمْسًا، فالواجبُ دون مَدى طاقتِه، أي: غَايتها ونهايتها؛ إذ عامَّةُ الأحكام كَذَلكَ؛ لأنَّا نَقْدِرُ أَكْثرَ من الصَّلواتِ الخمسِ، ومن الصَّوم في رمضانَ، وعلى كِلا التَّقديرَين في النَّظْمِ الكريم مُبَالَغَةٌ؛ حَيْثُ أَطْلَقَ الوُسْعَ الّذي هُوَ مَصْدَرٌ، على ما تَسَعُهُ القُدْرَةُ في الاحتمالِ الأوَّلِ، أَوْ أَطلَقَه على الواسِعِ، وهو المُرَادُ بما دونَ مَدَى طاقتِها؛ أي ما دونَ غايةِ طاقَتِها[1].

بَديعُ المقابلة بين جملة ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ﴾ وجملةِ ﴿وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ﴾:

التَّرغيبُ والمحافظة على مَواجِبِ التَّكليفِ والتَّحْذيرُ من الإخلال بها

قَوْلُهُ: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ﴾ حَالٌ مِنْ ﴿نَفْسًا﴾؛ لِبَيَانِ كَيْفِيَّةِ الوُسْعِ الّذي كُلِّفَتْ بِهِ النَّفْسُ، وَهُوَ أَنَّهُ إِنْ جَاءَتِ النَّفْسُ بِخَيْرٍ، كَانَ نَفْعُهُ لَهَا، وَإِنْ جَاءَتْ بِشَرٍّ كَانَ ضَرُّهُ عَلَيْهَا، وهذه المُقابَلَةُ البَديعَةُ[2] حَاصِلَةٌ مِنَ التَّعْليقِ بِوَاسِطَةِ (اللَّام) مَرَّةً، وَبِوَاسِطَةِ (عَلَى) أُخْرَى؛ فقد طابَق بينَ: ﴿لَهَا﴾ و﴿وَعَلَيْهَا﴾، فجاءت العبارةُ في الحسناتِ بـ ﴿لَهَا﴾، مِنْ حيثُ هي ممَّا يَفْرَحُ الإنسانُ بكَسْبه، ويُسَرُّ بها، فَتُضافُ إلى مُلْكِه، وجاءت في السَّيِّئات بـ ﴿وَعَلَيْهَا﴾، مِنْ حيثُ هي أَوْزارٌ وأَثْقالٌ ومُتَحمَّلاتٌ صعبةٌ، وهذا كما تقولُ: لي مالٌ، وعليَّ دَينٌ[3]، وطَابَقَ في المعنى بينَ: ﴿كَسَبَتْ﴾ و﴿ٱكْتَسَبَتْ﴾؛ فالفعلُ الأوَّلُ يَختَصُّ بالخَيْر، والفعلُ الثّاني يَخْتَصُّ بالشَّرِّ[4]، فالمعنى: لَها مَا كَسَبَتْ مِنْ خيرٍ، وَعَلَيْها مَا اكْتَسَبَتْ مِنْ شَرٍّ، ويُوضِّحُ هذه المُقابلةَ الحَصْرُ المَفْهومُ مِنْ تقديمِ الخبرِ، في كونِ الخَيْرِ مَقْصورًا على الاتّصاف بكَونِه لَها لا لغيرِها، فَيَكونُ مِنْ قبيلِ قَصْرِ المَوْصُوفِ عَلَى الصِّفَةِ، لا على العكس، ويَلْزَمُهُ كون الطَّاعةِ مَقصورًا عليها[5].

(1) القُونَويُّ، حاشية على البَيضاويِّ: 5/502-503.

(2) الزّمخشريُّ، تَفسيرُ الكَشّافِ: 1/332-333، والبَيضاويُّ، أَنوارُ التَّنزيلِ: 1/166، و أَبو حَيّانَ، البَحرُ المحيطُ: 2/762، والسَّمين، الدُّرُّ المصونُ: 2/699-700، والقاسِميُّ، محاسِنُ التَّأويلِ: 2/243، ودرويش، إعراب القرآن وبيانه: 1/451.

(3) ابنُ عَطيَّةَ، المحرَّرُ الوَجيزُ: 1/393، والزّمخشريُّ، تَفسيرُ الكَشّافِ: 1/332.

(4) ابنُ عاشور، التَّحريرُ والتَّنويرُ: 3/137.

(5) القُونَويُّ، حاشية على البَيضاويِّ: 5/503.

اكتِسابُ الشَّرِّ فيه اعتمالٌ زائدٌ على كسبِ الخيرِ

وفي المقابل: فإنَّ ﴿ٱكۡتَسَبَتۡ﴾ فيه اعْتِمالٌ، أي: الاجتهادُ في العملِ، وسِرُّه أنَّ زِيادةَ المَبْنى تَدُلُّ عَلَى زيادة المَعْنَى، فلمَّا وردت في الشَّرِّ صِيغَةُ الافْتِعالِ مع ورودِ الثُّلاثيِّ في الخير، حَصَلَ التَّنْبيهُ على أنَّ النَّفْسَ أَجَدُّ في تَحْصيلِ الشَّرِّ، بخلافِ الخيرِ؛ فإنَّهُ ثَقيلٌ عَلَيْها، والمُرَادُ أنَّه إذا خَلَّى النَّفْسَ وطَبْعَهُ، فالأمرُ ذلكَ إلَّا مَنْ عَصَمَهُ اللهُ تَعَالَى، وإلّا فَكَثيرًا ما يُسْتَعْمَلُ الكَسْبُ في الشَّرِّ أيضًا، كقوله تَعَالَى: ﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً﴾ [البقرة: 81] الآية[1].

كما كرَّرَ فِعْلَ الكَسْبِ، وخالَفَ بَيْنَ التَّصريفِ حُسْنًا لِنَمَطِ الكلامِ، فإنَّ الحسناتِ مِمَّا يُكْسَبُ؛ للإشارةِ إلى أنَّه يُجزئُ في الاعتدادِ به مجرَّدَ وقوعِه، ولو مع الكَسَلِ دون بَذْلِ أيِّ جُهْدٍ، بلْ حينما ينوي المرءُ فعلَ الخيرِ فإنَّه يُثابُ عليه[2]؛ إذ كاسِبُها على جادَّة أمرِ اللهِ ورَسْمِ شَرْعِه، في حينِ أنَّ السَّيِّئاتِ تُكْتَسَبُ ببناءِ المُبالغةِ؛ إذ كاسبُها يَتَكَلَّفُ في أمرِها خَرْقَ حِجابِ نَهْيِ اللهِ تعالى ويتَخَطَّاه إليها، فلمَّا كان الشَّرُّ مِمَّا تَشْتَهيه النَّفْسُ، وهي مُنْجَذِبَةٌ إليه وأمّارةٌ به، كانت في تَحصيله أَعْمَلَ وأَجَدَّ، فَجُعِلَتْ لذلكَ مُكْتَسَبَةً فيه، ولمَّا لم تكنْ كذلكَ في باب الخَيْرِ، وُصِفَتْ بما لا دَلالةَ فيه على الاعْتمالِ، فَيَحْسُنُ في الآية مَجيءُ التَّصريفَيْنِ إحْرازًا لهذه المعاني[3].

غرضُ المقابلةِ بين الكَسْبِ والاكتسابِ التَّرغيبُ في الخيرِ والتَّحذيرُ من الشَّرِّ

سِيقَت المُقابَلَةُ بين الكسبِ والاكتسابِ للتَّرغيب والمحافظةِ على مَواجِبِ التَّكليفِ، وللتَّحْذيرِ من الإخلال بها، وذلك ببيانِ أنَّ تَكليفَ كُلِّ نَفْسٍ - مع الموازنة بين التكليف وبين نِعْمَةِ التَّخفيفِ والتَّيسيرِ - تَتَضَمَّنُ مُراعاتُهُ مَنْفَعةً زائدةً، وأنَّها تَعُودُ إليها لا إلى غيرها، ويَسْتَتْبِعُ الإخلالُ بها مَضَرَّةً تَحيقُ بها لا بِغَيْرِها؛ فإنَّ اختصاصَ

(1) البَيضاويُّ، أَنوارُ التَّنزيلِ: 1/166، وأَبو السُّعود، إرشادُ العَقلِ السَّليمِ: 1/276 والقُونَويُّ، حاشيةُ القُونَويِّ على البَيضاويِّ: 5/504.
(2) الرُّوينيُّ، من غريب بلاغة القرآن، ص: 648.
(3) ابنُ عَطيّةَ، المحرَّرُ الوَجيزُ: 1/393، والزّمخشريُّ، تَفسيرُ الكَشّافِ: 1/332.

مَنْفعَةِ الفعلِ بفاعله مِنْ أقوى الدَّواعي إلى تَحصيلِه، واقتصارَ مَضَرَّتِه عليه مِنْ أشدِّ الزَّواجرِ عن مُباشرتِه، ويُؤَكِّدُ هذا: شمُولُ كلمةِ (ما) لِكُلِّ جُزءٍ من أجزاءِ مَكْسوبِهَا[1].

سِرُّ الدُّعاء بِعَدِمِ المؤاخذة على النِّسيانِ والخَطأِ مع كَوْنِهما مَعْفُوَّيْنِ عَنْهُما:

الدُّعاءُ في قولِه تعالى: ﴿لَا تُؤَاخِذْنَآ﴾ أي: بما أدَّى بِنَا إلى نِسيانٍ أو خَطأٍ من تَفريطٍ وقلَّةِ مُبالاةٍ، وتَرْكِ التَّحَفُّظِ والتَّحرِّي وغيرِهما، ممَّا يَدْخُلُ تحتَ وُسْعِنَا وقُدْرَتِنَا، فيدخلُ تحت التَّكْليفِ أَيْضًا، أي: المَسْؤولُ عَفْوًا لِلسَّبَبِ المؤدّي إلَى النِّسيانِ لا نَفْسِه؛ إذ هُوَ مَرفوعٌ لقوله ﷺ: «إنَّ اللّه تعالى وَضَعَ عن أُمَّتي الخطأَ، و النِّسيانَ، وما اسْتُكرِهوا عليه»[2]، فيكونُ مَجَازًا بطَريقِ ذِكْرِ المُسَبَّبِ وإرَادَةِ السَّبَبِ، وهو التَّفريطُ وقِلَّةُ المُبالاةِ، فأَخرَجَه عن ظاهره بحَمْلِ النِّسيانِ والخطأِ إلى فِعْلٍ اختياريٍّ يُؤدّي إليهمَا[3].

الفطنُ يخشى على نفسِه الوقوعَ فيما لا مؤاخذة فيه؛ خوفًا من الوقوعِ فيما فيه مؤاخذة

وقد يكون الدُّعاءُ بعدمِ المُؤاخذةِ على الخطأ والنِّسيانِ على حقيقته؛ إذ لا تُمْتَنَعُ المؤاخذةُ بهما عَقلًا، فإنَّ الذُّنوبَ كالسُّموم، فَكَمَا أنَّ تناولَها يُؤدِّي إلى الهَلاكِ؛ فَتعاطي الذُّنوبِ - وإنْ كان خَطأً أو نِسْيانًا - لا يَبْعُدُ أن يُفْضيَ إلى العقاب وإن لم تكنْ عزيمةً، لكنَّه تعالى وَعَدَ بالتَّجاوز عَنْهُ رحمةً وفضلًا، فيجوزُ أن يدعوَ الإنسانُ به استدامةً واعتدادًا بالنِّعْمَةِ فيه[4].

وفيه مزيدُ مدحٍ للمؤمنين الدَّاعين، فهم يخافون من المؤاخذةِ فيما لا يُؤاخذُ به فكيف بما يُؤاخذُ عليه؟ وهذا ينطبق على حالِ السَّلف في تركِهم لأكثر المباحاتِ خَوفًا من الوقوعِ في المكروهات.

---

(1) أَبو السُّعود، إرشادُ العَقلِ السّليمِ: 1/276، والآلوسيُّ، روحُ المعاني: 2/67.

(2) الحديث: أخرجه ابنُ ماجَةَ، حديث رقم: (2045)، واللَّفظُ له، والطَّبرانيُّ في المعجم الأوسط، حديث رقم: (8273)، والبَيهَقيُّ في: (السُّنن الكبرى)، حديث رقم: (15094)، وصحَّحه الألبانيُّ في صحيح الجامع حديث رقم: (1836)، ينظر: الألبانيُّ: صحيح الجامع: 01/375.

(3) ابن التَّمجيدِ، حاشيَةُ ابنِ التَّمجيدِ على البَيضاويِّ: 5/505.

(4) ابن التَّمجيدِ، حاشيَةُ ابنِ التَّمجيدِ على البَيضاويِّ: 5/505، والقُونَويُّ، حاشيةُ القونويِّ على البَيضاويِّ: 5/505.

نُكْتَةُ الفَصْلِ بَيْن المُتعاطِفَيْنِ بتَكْرار النِّداءِ:

التَّلذُّذُ بإظهارِ النِّداءِ لإظهارِ التَّذلُّلِ به لربّ الأرض والسماء

قَوْلُهُ: ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا﴾ فَصْلٌ بَيْنَ الجُمْلَتَيْنِ المُتَعَاطِفَتَيْنِ، وهما جملة: ﴿لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ المعطوف عليها، وجملة: ﴿وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا﴾ المعطوفة، وجاءَ الفصلُ بإعَادَةِ النِّدَاءِ ﴿رَبَّنَا﴾، مَعَ أَنَّهُ في الظَّاهرِ مُسْتَغْنًى عَنْهُ؛ لِأَنَّ مُخَاطَبَةَ المُنَادَى مُغْنِيَةٌ عَنْ إِعَادَةِ النِّدَاءِ، لَكِنْ قُصِدَ مِنْ إِعَادَتِهِ إِظْهَارُ التَّذَلُّلِ[1].

فتوسيطُ النِّداءِ بين المُتعاطفَين لإبراز مزيدِ الضَّراعةِ[2] والتَّذلُّلِ، مع ما في ذلك من التَّلذُّذِ في نداء الله تعالى، ففيه تعليم تكرارِ ﴿رَبَّنَا﴾ في كلِّ حالٍ وآنٍ.

مُناسبة المجاز للاستِعارَةِ في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا﴾:

بيان مُناسبة الحَمْلِ للتَّكْليفِ بما يَثْقُلُ ويشقُّ

الحَمْلُ في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا﴾ مَجَازٌ في التَّكْليفِ بِأَمْرٍ شَدِيدٍ يَثْقُلُ عَلَى النَّفْسِ، وَهُوَ مُنَاسِبٌ لِاسْتِعَارَةِ الإِصْرِ[3]؛ لأَنَّ أَصْلَ الإِصْرِ مَا يُؤْصَرُ بِهِ، أَيْ: يُرْبَطُ وَتُعْقَدُ بِهِ الأَشْيَاءُ، وَيُقَالُ لَهُ: الإِصَارُ، ثُمَّ اسْتُعْمِلَ مَجَازًا في العَهْدِ وَالمِيثَاقِ المُؤَكَّدِ فِيمَا يَصْعُبُ الوَفَاءُ بِهِ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ: ﴿قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى﴾ [آل عمران: 81]، وَأُطْلِقَ أَيْضًا عَلَى مَا يَثْقُلُ عَمَلُهُ، وَالامْتِثَالُ فِيهِ[4]، ومثلُه في قَوْلِهِ: ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ﴾ [الأعراف: 157]، وَهُوَ المَقْصُودُ هُنَا، وَمِنْ ثَمَّ حَسُنَتِ اسْتِعَارَةُ الحَمْلِ لِلتَّكْلِيفِ؛ لِأَنَّ الحَمْلَ يُنَاسِبُ الثِّقَلَ، فَيَكُونُ قَوْلُهُ: ﴿وَلَا تَحْمِلْ﴾ تَرْشِيحًا مُسْتَعَارًا لِمُلَائِمِ المُشَبَّهِ بِهِ[5].

(1) ابن عاشور، التَّحريرُ والتَّنويرُ: 3/140.
(2) أبو السُّعود، إرشادُ العَقلِ السّليم: 1/277.
(3) ابن عاشور، التَّحريرُ والتَّنويرُ: 3/140.
(4) أبو السُّعود، إرشادُ العَقلِ السّليمِ: 1/277، والزّمخشريُّ، الكَشّاف: 1/332.
(5) ابن عاشور، التَّحريرُ والتَّنويرُ: 3/141.

بلاغةُ المناسبةِ بيْنَ الدُّعاءَينِ في الآيةِ الكريمةِ:

إفادةُ عموم الدُّعاء وشُمولِهِ لكلِّ من رَفْعِ المَشَاقِّ ودَفْعِ العُقوبات

معنى قولِه: ﴿وَلَا تُحَمِّلۡنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ﴾ أَيْ: مَا لَا نَسْتَطِيعُ حَمْلَهُ مِنَ العُقُوبَاتِ، فهو استِعْفاءٌ عن العقوبات الّتي لا تُطاقُ بعد الاستعفاءِ عمَّا يُؤدِّي إليها، والتَّعبيرُ عن إنزال ذلكَ بالتَّحميلِ مجازٌ، باعتبار ما يُؤدّي إليه[1].

ويجوزُ أن يكونَ طلبًا لِمَا هو أعمُّ من الأوَّلِ لِتَخْصيص الأوَّلِ بالتَّشْبيه[2]، فهُنَا سَأَلُوا أَنْ لَا يُحَمِّلَهُمْ مَا لَا طَاقَةَ لَهُمْ بِهِ، وَهُوَ أَعَمُّ مِنَ الإِصْرِ السَّابِقِ لِتَخْصِيصِهِ بِالتَّشْبِيهِ وَعُمُومِ هَذَا، فجِيءَ بالتَّشْديدِ فِيما هو أعمُّ: ﴿وَلَا تُحَمِّلۡنَا﴾، الدَّالّة على تَعدية الفعل إلى المفعول الثَّاني[3].

دَلالة تَكرير النِّداء بصيغة الجمع ﴿رَبَّنَا﴾ في هذه الدَّعواتِ:

تحقيق موجبات القبول ونيل المأمول

جاءَ قوله تعالى: ﴿لَا تُؤَاخِذۡنَآ﴾، وقوله: ﴿وَلَا تَحۡمِلۡ عَلَيۡنَآ إِصۡرٗا﴾، وقوله: ﴿وَلَا تُحَمِّلۡنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ﴾ أدعيةً بصيغةِ الجمعِ وقتَ الدُّعاء؛ لبيانِ أنَّ قَبولَ الدُّعاءِ عند الاجتماعِ أكملُ؛ وذلك لأنَّ للهِمَمِ تأثيراتٍ، فإذا اجتَمَعَتِ الأرواحُ والدَّواعي على شيءٍ واحدٍ كان حصولُه أكملَ، وهذه الأدعيةُ كان المطلوبَ فيها التَّركُ، فجاءت مقرونةً بلفظ: (ربَّنا)[4].

وَجْهُ الجَمْعِ بين طلب العفو والمغفرة، وتَقْديمِهما على طلب الرَّحمة:

إظهار كمال التَّذلُّل في الدُّعاء بالعفو والغفران لنيل اللُّطف والإحسانِ

معنى الدُّعاءِ في قولِه: ﴿وَٱعۡفُ عَنَّا﴾ أي: امْحُ ذُنوبَنا، إذِ العَفوُ مَحْوُ الجريمة، وقولُه: ﴿وَٱغۡفِرۡ لَنَا﴾ أي: واسترْ عيوبَنا، إذِ الغَفْرُ في الأصلِ السَّتْرُ، والعفوُ والمَغْفرَةُ مآلُهما واحدٌ، ولإظهارِ كَمالِ التَّذَلُّلِ جَمَعَ بَيْنَهُمَا، ثُمَّ جاءَ قولُه تعالى: ﴿وَٱرۡحَمۡنَآۚ﴾، أيْ: تَعَطَّفْ بِنَا،

(1) القُونَويُّ، حاشيةُ القُونويِّ على البَيضاويِّ: 5/507، وابنُ عاشور، التَّحريرُ والتَّنويرُ: 3/141.
(2) الآلوسيُّ، روحُ المعاني: 2/68.
(3) أبو حَيّانَ، البَحرُ المحيطُ: 2/766-765، والبَيضاويُّ، أَنوارُ التَّنزيلِ: 1/166، وابنُ التَّمجيدِ، حاشيَةُ ابنِ التَّمجيدِ على البَيضاويِّ: 5/507.
(4) الرَّازيُّ، مفاتيح الغيب: 7/114، والبَيضاويُّ، أَنوارُ التَّنزيلِ: 1/167، وابنُ التَّمجيدِ، حاشيَةُ ابنِ التَّمجيدِ على البَيضاويِّ: 5/508.

وتَفَضَّلْ علينا بعدَ العفوِ والمَغْفِرَةِ بأنواعِ اللُّطفِ والكرامةِ؛ لأنَّك يا واسعَ الغفرانِ، ويا قديمَ الإحسانِ، وعَدتَ التَّائبينَ باللُّطفِ مع العَفْوِ والغُفْرانِ والإحسانِ؛ فَعُلِمَ وجْهُ تأخيرِ طَلَبِ الرَّحمةِ عَلَى أنَّ التَّحْلِيةَ بعد التَّخْلِيةِ، كما أنَّ تأخيرَ المَغْفِرَةِ؛ لأنَّ العفوَ فيه مُبَالَغَةٌ، فإنَّ محوَ الذُّنوبِ أهمُّ من سَتْرِ العُيوبِ[1].

فطَلَبُوا العَفْوَ، وَهُوَ الصَّفْحُ عَنِ الذَّنْبِ وَإِسْقَاطُ العِقَابِ، ثُمَّ سَتْرَهُ عَلَيْهِمْ صَوْنًا لَهُمْ مِنْ عَذَابِ التَّخْجِيلِ؛ لِأَنَّ العَفْوَ عَنِ الشَّيْءِ لَا يَقْتَضِي سَتْرَه، فَسَأَلُوا الإِسْقَاطَ لِلْعُقُوبَةِ أَوَّلًا؛ لِأَنَّهُ الأَهَمُّ، إِذْ فِيهِ التَّعْذِيبُ الجِسْمَانِيُّ وَالنَّعِيمُ الرُّوحَانِيُّ، ثم سألوا الْغُفْرَانَ، وهو سَتْرُ الذَّنْبِ، وَإِظْهَارُ الْإِحْسَانِ بَدَلَهُ، فَكَأَنَّهُ جَمَعَ بَيْنَ تَغْطِيَةِ ذَنْبِهِ وَكَشْفِ الإِحْسَانِ الَّذِي غَطَّى بِهِ، ثم سألوا الرَّحْمَةَ، وهي إِفَاضَةُ الإِحْسَانِ[2].

سِرُّ عدم تَكرارِ النِّداءِ بالرُّبوبيَّةِ في قوله: ﴿وَٱعۡفُ عَنَّا وَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَآ﴾:

لسائلٍ أنْ يسألَ عن سرِّ عدمِ ذكرِ ﴿رَبَّنَا﴾ في قولِه تعالَى: ﴿وَٱعۡفُ عَنَّا وَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَآ﴾ كما ذُكرَ في الدَّعواتِ السَّابقة؟ والجواب: أنَّها نتائجُ ما تَقدَّمَ من الجُملِ الّتي افتُتِحَتْ بذلكَ، فجاء قوله: ﴿وَٱعۡفُ عَنَّا﴾ مُقابلًا لقوله تعالى: ﴿لَا تُؤَاخِذۡنَآ﴾، وقوله: ﴿وَٱغۡفِرۡ لَنَا﴾، مقابلًا لقوله سبحانه: ﴿وَلَا تَحۡمِلۡ عَلَيۡنَآ إِصۡرًا﴾، وَقوله: ﴿وَٱرۡحَمۡنَآ﴾ مُقابلًا لقوله عزَّ شأنُه: ﴿وَلَا تُحَمِّلۡنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ﴾؛ لأَنَّ مِنْ آثارِ عَدَمِ المُؤاخَذَةِ بِالنِّسيان والخطأِ العفوَ، ومِنْ آثارِ عَدَمِ حَمْلِ الإصْرِ عليهم المغفرةَ، ومِنْ آثارِ عدمِ تَحميلِ ما لا يُطاقُ الرَّحمةُ؛ فَإِذا اسْتُجِيبَتْ تِلْكَ حَصَلَتْ إِجَابَةُ هَذِهِ بِالأَوْلَى؛ فَإِنَّ العَفْوَ أَصْلٌ لِعَدَمِ المُؤَاخَذَةِ، وَالمَغْفِرَةَ أَصْلٌ لِرَفْعِ المَشَقَّةِ، وَالرَّحْمَةَ أَصْلٌ لِعَدَمِ العُقُوبَةِ الدُّنْيَوِيَّةِ وَالأُخْرَوِيَّةِ، فَلَمَّا كَانَ تَعْمِيمًا بَعْدَ تَخْصِيصٍ، كَانَ كَأَنَّهُ دُعَاءٌ وَاحِدٌ، فلا يَخفى حُسْنُ التَّرتيبِ[3].

ولم يذكُرْ لفظ: ﴿رَبَّنَا﴾ في الأدعيةِ أيضًا؛ لأنَّ النِّداء إنّما يُحتاج إليه عند البُعدِ، أمَّا

(1) البَيضاويُّ، أَنوارُ التَّنزيلِ: 1/167، والقُونَويُّ، حاشيةُ القُونويِّ على البَيضاويِّ: 5/508.
(2) أبو حَيّانَ، البَحرُ المحيطُ: 2/766، والآلوسيُّ، روحُ المعاني: 2/67.
(3) الآلوسيُّ، روحُ المعاني: 2/68، وابنُ عاشور، التَّحريرُ والتَّنويرُ: 3/141.

عند القُربِ فلا، وإنَّما حَذَفَ النِّداء؛ إشعارًا بأنَّ العبدَ إذا واظبَ على التَّضرُّعِ نالَ القربَ من اللّه تعالى، وهذا سِرٌّ عظيمٌ يُطَّلَعُ منه على أَسْرارٍ أُخَرَ[1].

كما أَنَّهُ لَمْ يُؤْتَ مَعَ هَذِهِ الدَّعَوَاتِ بِقَوْلِهِ: ﴿رَبَّنَا﴾؛ لِأَنَّهُ تَكَرَّرَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، وَالعَرَبُ تَكْرَهُ تَكْرِيرَ اللَّفْظِ أَكْثَرَ مِنْ ثَلَاثِ مَرَّاتٍ، إِلَّا فِي مَقَامِ التَّهْوِيلِ[2].

دَلالة الفصل في قوله: ﴿أَنتَ مَوْلَىٰنَا﴾:

فُصِلَ قَوْلُهُ: ﴿أَنتَ مَوْلَىٰنَا﴾؛ لِأَنَّهُ كَالعِلَّةِ لِلدَّعَوَاتِ المَاضِيَةِ: أَيْ: دَعَوْنَاكَ وَرَجَوْنَا مِنْكَ ذَلِكَ؛ لِأَنَّكَ مَوْلَانَا، وَمِنْ شَأْنِ المَوْلَى الرِّفْقُ بِالمَمْلُوكِ، وَلِيَكُونَ هَذَا أَيْضًا كَالمُقَدِّمَةِ لِلدَّعْوَةِ الآتِيَةِ[3].

تَعليلُ الدَّعوات الماضية، وأنَّ المولى يَنْصُرُ أَوْلياءَهُ

سرُّ تَفْريعِ الدُّعاءِ الأَخير بالفاء:

أَدْخَلَ النَّظْمُ (الفَاءَ) في قوله تعالى: ﴿فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ إِيذَانًا بِالسَّبَبِيَّةِ، لِأَنَّ كَوْنَهُ تَعَالَى مَوْلَاهُمْ، وَمَالِكَ تَدْبِيرِهِمْ وَأَمْرِهِمْ، يَنْشَأُ عَنْ ذَلِكَ النُّصْرَةُ لَهُمْ عَلَى أَعْدَائِهِمْ، كَما تَقُولُ: أَنْتَ الشُّجَاعُ فَقَاتِلْ، وَأَنْتَ الكَرِيمُ فَجُدْ عَلَيَّ، أَيْ: أَظْهِرْنَا عَلَيْهِمْ بِمَا تُحْدِثُ فِي قُلُوبِنَا مِنَ الجُرْأَةِ وَالقُوَّةِ، وَفِي قُلُوبِهِمْ مِنَ الخَوَرِ وَالجُبْنِ[4].

الثِّقةُ بالله عندَ الدُّعاءِ بالنَّصرِ، قائمٌ على حسنِ العملِ فيما قبل طلب النَّصر

فهذا المعنى مُسْتَفَادٌ من التَّرتيبِ الّذي أفادتْه الفاءُ، أيْ: إذا كنتَ أنتَ مَوْلَانَا وسيِّدنا؛ فَحَقُّ المولى والسِّيِّدِ أن يَنْصُرَ عبيدَه عَلَى الأعداءِ[5].

فـ (الفَاء) لِلتَّفْرِيعِ عَنْ كَوْنِهِ مَوْلًى؛ لِأَنَّ شَأْنَ المَوْلَى أَنْ يَنْصُرَ،

(1) الرّازيُّ، مفاتيح الغيب: 7/114، والبَيضاويُّ، أَنوارُ التّنزيل: 1/167، وابنُ التَّمجيدِ، حاشيَةُ ابنِ التَّمجيدِ على البَيضاويِّ: 5/508.
(2) ابنُ عاشور، التَّحريرُ والتَّنويرُ: 3/141.
(3) ابنُ عاشور، التَّحريرُ والتَّنويرُ: 3/141.
(4) أبو حَيّانَ، البَحرُ المحيطُ: 2/767، والآلوسيُّ، روحُ المعاني: 2/69.
(5) البَيضاويُّ، أَنوارُ التَّنزيلِ: 1/167، وابنُ التَّمجيدِ، حاشيَةُ ابنِ التَّمْجيدِ على البَيضاويِّ: 5/508، والقِنَّوجيُّ، فَتحُ البَيانِ: 2/166.

وَفي التَّفْريعِ بالفَاءِ إيذَانٌ بتَأْكيدِ طَلَبِ إجَابَةِ الدُّعَاءِ بالنَّصْرِ؛ لأَنَّهُمْ جَعَلُوهُ مُرَتَّبًا عَلَى وَصْفٍ مُحَقَّقٍ، وَهُوَ وِلَايَةُ اللَّهِ تَعَالَى المُؤْمِنِينَ، قَالَ تَعَالَى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [البَقَرَة: 257]، وَوَجْهُ الاهْتِمَامِ بِهَذِهِ الدَّعْوَةِ أَنَّهَا جَامِعَةٌ لِخَيْرَيِ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ؛ لأَنَّهُمْ إِذَا نُصِرُوا عَلَى العَدُوِّ، فَقَدْ طَابَ عَيْشُهُمْ وَظَهَرَ دِينُهُمْ، وَسَلِمُوا مِنَ الفِتْنَةِ، وَدَخَلَ النَّاسُ فِيهِ أَفْوَاجًا[1].

سرُّ التَّعبيرِ بالقومِ الكافرين دونَ الاكتفاءِ بلفظِ الكافرين:

الدُّعاءُ بالنَّصرِ على القومِ الكافرينَ بِعَدِّهِم قوَّةً مجتمعةً على الباطلِ

جِيءَ بلفظِ القومِ في قولِه تعالى: ﴿فَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ دونَ الاكتفاءِ بلفظِ الكافرينَ؛ لأنَّ المَطلوبَ النّصرةُ عَلَى المجموعِ مِنْ حيثُ المجموعُ، لا كُلِّ واحدٍ واحدٍ؛ لأنَّ الشَّخصَ قد يكونُ غالبًا على كلِّ واحدٍ إذا انفردَ، ولا يكونُ غالبًا عَلَى المجموعِ؛ فإنَّ ﴿ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ وإنْ كان مُحلّى بـ (اللَّام) الاسْتغْرَاقيَّة؛ لَكِنَّهُ بمعنى كلِّ فَرْدٍ فَرْدٍ، لا بمعنى المَجموعِ مِنْ حيثُ المجموعُ، فَذِكْرُ القومِ للتَّنْصيصِ على المَطلوبِ، على أنَّ ﴿ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ صفةٌ تَطْلُبُ مَوْصُوفًا[2]، وللإشارةِ إلى أنَّ طلبَ النَّصرِ كان على القومِ بِعَدِّهِم قومًا لهم قوامة واجتماعٌ وقوَّةٌ.

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الكَسْب والاِكْتِساب:

الكَسْبُ فِعْلٌ عَائِدٌ نفعُه وضرُّه على فَاعِلِهِ، والاكتساب المبالغةُ في الكسب

الكَسْبُ: الفِعْلُ العَائِدُ على فَاعِلِهِ بِنَفْعٍ أَوْ ضُرٍّ[3]، ويَشْتَمِلُ على ما هُوَ خَيْرٌ، كَقَوْلِهِ: ﴿أَوۡ كَسَبَتۡ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيۡرٗاۗ﴾ [الأَنْعام: 158]، وفي ما هُوَ شَرٌّ، كَقَوْلِهِ: ﴿بَلَىٰۚ مَن كَسَبَ سَيِّئَةٗ﴾ [البقرة: 81]، ويَكُونُ لِنَفْسِهِ ولِغَيْرِهِ، والاِكْتِسابُ: المُبالَغَةُ والاِعْتِمالُ في الكَسْبِ، ويَكونُ لِنَفْسِهِ خاصَّةً[4]؛ فَفي الاِكْتِسابِ مَزِيدُ أَعْمالٍ وتَصَرُّفٍ؛ أَمَّا إِذا جاءَ الكَسْبُ مُجْتَمِعًا مَعَ

(1) ابنُ عاشور، التَّحريرُ والتَّنويرُ: 3/142.
(2) البَيضاويُّ، أَنوارُ التَّنزيلِ: 1/167، والقُونَويُّ، حاشيةُ القُونَويِّ على البَيضاويِّ: 5/508.
(3) العَسكَريُّ، الفُروقُ اللُّغَويّةُ، ص: 137.
(4) أَبو حَيّانَ، البَحرُ المحيطُ: 2/762.

الاكْتِساب، فَإِنَّ الكَسْبَ هُنا لا يَعْني إلَّا ما هُوَ خَيْرٌ، والاكْتِسابُ يَعْني ما هُوَ شرٌّ؛ قال تَعالى: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة: 286]، وعِنْدَ الافْتِراقِ يَحْتَمِلُ الاكْتِسابُ المَعْنَيَيْنِ، كما هُوَ في قَوْلِهِ تعالى: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُواْ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَ﴾ [النّساء: 32]، أَيْ: لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِنْ ثَوَابِ اللَّهِ وَعِقَابِهِ مِمَّا اكْتَسَبُوا، فَعَمِلوهُ مِنْ خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ، وَلِلنِّساءِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبْنَ مِنْ ذَلِكَ[1]، قال في المحرّر الوجيز: "والذي يظهر لي في هذا أن الحسنات هي ممّا يكسب دون تكلّف، إذ كاسبها على جادّة أمر اللّه ورسم شرعه، والسّيئات تكتسب ببناء المبالغة، إذ كاسبها يتكلّف في أمرها خرق حجاب نهي اللّه تعالى، ويتخطّاه إليها، فيحسن في الآية مجيء التّصريفين، إحرازا لهذا المعنى"[2].

النِّسيان والغَفلة:

الغفلة تَرْكٌ باختيار الغافل، والنِّسيانُ تَرْكٌ بغير اختياره

الغَفْلَةُ: عدمُ التَّفَطُّنِ للشَّيءِ، وعدمُ حضورِه في البالِ بالفعلِ، سواءٌ بَقيتْ صُورَتُه أو معناه في الخَيالِ أو الذِّكرِ، أو انْمحَتْ عن أحدِهما؛ فهي تَرْكٌ باختيارِ الغافلِ، والنِّسيانُ: غَيبَةُ الشَّيْءِ عَن القلبِ، بحيثُ يَحتاجُ إِلَى تَحْصِيلٍ جَدِيدٍ[3]، فهو تَرْكٌ بغير اختيارِه، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ۝٢٠٥﴾ [الأعراف: 205]، ولم يَقُلْ: (ولا تَكُنْ من النَّاسينَ)، فإنَّ النِّسيانَ لا يَدخلُ تحتَ التَّكليفِ، فلا يُنهى عنه[4]، فالغَفْلَةُ: أَعَمُّ من النِّسيانِ؛ لأنَّ النِّسيانَ يَحْتاجُ صاحبُه إلى تَجَشُّمِ كَسْبٍ جديدٍ، وَكُلْفَةٍ في تَحصيله ثانيًا[5]، فكلُّ نِسْيَانٍ غَفْلَةٌ، وليس كُلُّ غَفْلَةٍ نِسْيَانًا، قال ابن الأنباري: "والمراد بالنّسيان هاهنا: التّرك مع العمد، لأنّ النّسيان الّذي هو بمعنى الغفلة، قد أمنت الآثام من جهته، والخطأ أيضاً هاهنا من جهة العمد، لا من جهة السّهو، يقال: أخطأ الرّجل: إذا تعمّد، كما يقال: أخطأ إذا أغفل"[6].

(1) ابن جرير، جامع البيان: 6/669.
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 1/393.
(3) الكَفَوِيُّ، الكُلّيّاتُ، ص: 506.
(4) ابن القَيِّمِ، مدارِجُ السّالِكِين: 2/405.
(5) العَسكَرِيُّ، الفُروقُ اللُّغَويّةُ، ص: 389.
(6) العَسكَرِيُّ، الفُروقُ اللُّغَويّةُ، ص: 389.

الخاطئ والمُخطئ:

الخاطِئُ المتَعمِّدُ الخَطَأَ، وَالمُخطِئُ الّذِي لا يَتعمَّدُهُ

الخَطَأُ: هو أنْ يَقْصِدَ المَرْءُ الشَّيءَ فَيُصيبُ غيرَهُ، وَاسْمُ الفَاعِلِ منه مُخْطِئٌ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ [الأحزاب: 5]، والخِطْءُ: مَصْدَرُ خَطِئَ، إذَا أَصَابَ إِثْمًا، وَلَا يَكُونُ إِلَّا عَنْ عَمْدٍ، واسمُ الفاعلِ منه خَاطِئٌ، قَالَ تَعَالَى: ﴿نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ۝١٦﴾ [العلق: 16]، وقال عزَّ شأنه: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُواْ خَٰطِـِٔينَ ۝٨﴾ [القَصَص: 8]، فالخاطِئونَ: الآثمون أصحابُ الخطايا، الّذين تعمَّدوا الذَّنب وقصدُوه، أمَّا المُخطئون: فقد أرادوا الصَّوَابَ؛ لكنَّهم لم يُوفَّقوا إليه، فصاروا إلى غيره[1]. وعليه فالخَاطِئُ في الدِّين لا يكون إلّا عاصيًا، أمَّا المُخْطِئُ فلا يُعَدُّ عاصيًا، بلْ قد يكونُ المُخْطِئُ مِنْ طريق الاجتهادِ مُطِيعًا مأجورًا؛ لأنَّه قَصَدَ الحَقَّ واجتهدَ في إصابتِه[2]، فالفَرْقُ بينَهما أنَّ الخَطَأ خِلافُ الصَّوابِ في الفِعْلِ فَقَطْ، وفاعلُه تكونُ نِيَّتُهُ حَسَنَةً، فهو غيرُ مُتَعَمِّدٍ، فقد أصابَ في الإرادةِ، وأَخطأَ في الفعلِ، وأمَّا الخِطْءُ: فهو الخَطَأُ التَّامُّ في الإرادةِ والفعلِ، فَمُرْتَكِبُه سَيِّئُ القَصْدِ، مُتَعَمِّدٌ لِمَا ارْتَكَبَه[3]، قيل الخاطئ هو الّذي أتى بالخطيئة عمدا، وفرق بين الخاطئ والمخطئ، فلهذا الفرق يقال لمن يجتهد في الأحكام، فلا يصيب إنّه مخطئ، ولا يقال إنّه خاطئ[4]، بينما قال إخوة يوسف، معتذرين على فعلتهم الشّنعاء الّتي فعلوها مع سبق الإصرار والتّرصّد، كما ورد في القرآن: ﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ۝٩١﴾ [يوسف: 91].

(1) الجَوهَريُّ، الصّحاحُ: (خطأ)، وابنُ منظورٍ، لِسانُ العَرَبِ: 1/67، والزّمخشريُّ، الكَشّاف: 4/606، وابنُ عَطيّةَ، المحَرَّرُ الوَجيزُ: 3/277، وأَبو حَيّانَ، البَحرُ المحيطُ: 8/287.

(2) العَسكَريُّ، الفُروقُ اللُّغَويَّةُ، ص: 221.

(3) الشِّنقيطيُّ، دَفعُ إيهامِ الاضطِرابِ، ص: 279.

(4) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 18/505.

الوليّ والمولى والنَّصير:

المَولى: هُوَ السَّيِّدُ والمَمْلوكُ والحَليفُ، وابْنُ العَمِّ، وَالأَولَى بالشَّيْء، والصَّاحِبُ المُعينُ. والمعنى في حقِّ اللّه: المعينُ الّذي تَرْكَنُ إليه، وتَعتمِدُ عليه، وتَحتمي به عند الشِّدَّةِ والرَّخاءِ، وفي السَّرّاء والضَّرّاء[1]، والوَليُّ في أسماءِ اللّه تعالى خاصٌّ بالمؤمنينَ؛ فاللّه وليُّ المؤمنين، أَي: مُعينُهم وَالمُؤمنُ وَليُّ اللّه، أَي: المُعانُ بنَصْرِ اللّه[2] ﷻ، كقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [البقرة: 257]، أمّا المَولى: فيُطلَقُ على المعنى الخاصِّ بالمؤمنين، كقولِه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿١١﴾﴾ [محمّد ﷺ: 11]، ويُطلَقُ أيضًا بالمعنى العامِّ، مثلُ قولِه تعالى: ﴿وَرُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ﴾ [يونس: 30]، ولا تعارضَ بين الآيتَين الكريمتَين؛ إذ معنى كونِه مولى الكافرين، أي: مالكُهم والمُتصرِّفُ فيهم بما شاءَ، ومعنى كونِه مولى المؤمنين دونَ الكافرين، أيْ: ولاية محبَّةٍ وتَوفيقٍ[3].

الـوليُّ خـاصٌّ بـالمـؤمـنـين، والمَولى عامٌّ

أمَّا الفرقُ بين الوَليِّ والنَّصيرِ؛ فإنَّ الوَلاية تكونُ بإخلاصِ المَوَدَّةِ، والنَّصيرُ: يكونُ بالمَعونةِ والتَّقويةِ، وقد لا تُمْكِنُ النُّصْرةُ مع حصولِ الوَلايةِ[4].

الـوَلايـةُ تـكـونُ بإخلاص المَودَّة، والنُّـصـرةُ تكون بالمعونة

(1) ابنُ منظور، لِسانُ العَرَب: (ولي).
(2) العَسكَريُّ، الفُروقُ اللُّغَويَّةُ، ص: 284.
(3) الشِّنقيطيُّ، دَفعُ إيهامِ الاضطِراب، ص: 89.
(4) العَسكَريُّ، الفُروقُ اللُّغَويَّةُ، ص: 189.

سُورَةُ آلِ عِمْرَانَ

سُورَةُ آلِ عِمْرَانَ

التَّعريف العام بالسُّورة:

نقل ابنُ عطيَّة الأندلسيُّ إجماعَ أهل العلم بالتَّفسير أنَّ سورة آل عمران مدنيَّة[1]، وَهِي مئتا آيَة عند جمهور أهل العدَد[2]، ومئة وتسع وتسعون آية عند أهل العدد بالشَّام[3] على حسب اختلافهم في الوقوف على فواصل السُّورة، والمؤكَّد هنا أنَّها السُّورة الثَّالثة في ترتيب المصحف الشريف بعد سورتَي الفاتحة والبقرة، حسب التَّرتيب التَّوقيفيِّ لسُوَر القرآن الكريم، وهو التَّرتيب الَّذي تعاضدت عليه آراء جهابذة العلماء والمحقِّقين من قدماء ومعاصرين، وذكر بعض المفسِّرين أنَّ ترتيبها النُّزوليَّ هو الثَّامن والأربعون في عداد نُزُول سُوَر القرآن[4].

دلالة التَّوقيت الزَّمنيّ للسورة:

الفترة الزّمنيّة التي نزلت فيها سورة آل عمران فترة حافلةٌ بأحداث جِسام عاشها المجتمع المسلم الأوّل في المدينة المنوّرة حيث نزلت بعد فترة طويلة من حياة المسلمين بها، وبعد أن تقلَّبت عليهم فيها أحوالٌ من النَّصر والهزيمة، في غزوات مُتعدِّدة، واختلطوا بأهل الكتاب من يهود ونصارى، وجرى بينهم من الحِجاج والنِّقاش ما يتَّصل بالدَّعوة المحمَّديَّة، وقد ذُكِرَت فيها غزواتُ بدر وأحد وحمراء وبدر الأخيرة، وكانت هذه في شعبان من السَّنة الرَّابعة، وقد نزلت سورة آل عمران بعد سورة الأنفال الَّتي تكفَّلت بالحديث عن غزوة بدر، ونزلت بعدها سورة الأحزاب الَّتي نزلت في آخر السَّنة الخامسة[5].

أسماء السُّورة الكريمة:

اسم السُّورة المُشتهر: سُورَةُ آلِ عِمْرَانَ، وفي حديث النَّوَّاس بن سمعان: «يُؤْتَى بِالْقُرْآنِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَأَهْلِهِ الَّذِينَ كَانُوا يَعْمَلُونَ بِهِ، تَقْدُمُهُ سُورَةُ الْبَقَرَةِ وَآلُ عِمْرَانَ، وَضَرَبَ لَهُمَا

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: ص 274.
(2) الدّاني، البيان، ص: 143.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/144.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/144.
(5) جعفر شرف الدّين، الموسوعة القرآنية: 2/5.

رَسُولُ اللهِ ﷺ ثَلَاثَةَ أَمْثَالٍ مَا نَسِيتُهُنَّ بَعْدُ، قَالَ: كَأَنَّهُمَا غَمَامَتَانِ، أَوْ ظُلَّتَانِ سَوْدَاوَانِ، بَيْنَهُمَا شَرْقٌ، أَوْ كَأَنَّهُمَا حِزْقَانِ مِنْ طَيْرٍ صَوَافَّ، تُحَاجَّانِ عَنْ صَاحِبِهِمَا»[1]، وتُسمَّى مع البقرة: بالزَّهراوين، فهي الزَّهراء، وذلك لِمَا ورد في الحديث الصَّحيح: «اقْرَؤُوا الزَّهْرَاوَيْنِ: الْبَقَرَةَ وَسُورَةَ آلِ عِمْرَانَ، فَإِنَّهُمَا تَأْتِيَانِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَأَنَّهُمَا غَمَامَتَانِ، أَوْ كَأَنَّهُمَا غَيَايَتَانِ، أَوْ كَأَنَّهُمَا فِرْقَانِ مِنْ طَيْرٍ صَوَافَّ تُحَاجَّانِ عَنْ أَصْحَابِهِمَا»[2].

وَأمَّا وجه تسميتها بسورة (آل عمران)؛ فلأنَّها انطلقت من ذكرها فضائلَ آلِ عِمْرَانَ[3]، واصطفاءَهم على العالمين بقوله تعالى: ﴿۞إِنَّ ٱللَّـهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [آل عمران: 33].

وبيّنت كيف أنَّ امرأة عمران نذرت ما في بطنها لله ﷻ، فرُزقت بمريم الَّتي اصطفاها تعالى لخدمة بيته، واجتباها لتكون أُمًّا لعيسى عليه السلام بعد ذلك، ولعلَّ في الإشارة إلى هذه العائلة، وما مرَّت به من تحدِّيات يرتبط بمحور السُّورة الرَّئيس: وهو إثباتُ الوحدانيَّة لله تعالى[4]، فاصطفاء اللهِ ﷻ آلَ عمران: بالبذل والعطاء والانضواء في محراب توحيد لله والاستسلام لأمره سبحانه، هو اصطفاءٌ - أيضًا - لأمَّة محمّد ﷺ، واجتبادٌ لأهل التّوحيد والصّلاح، ويرتبط هذا الاصطفاء بمحور الثَّبات على الحقِّ الَّذي هو خيطٌ ناظمٌ وملمحٌ واضحٌ من ملامح هذه السُّورة عند بعض العلماء، فامرأة عمران كانت رمزًا في الثَّبات على الحقِّ والتَّضحية بالغالي والنَّفيس في سبيل دينها، وقد أحبَّت أن يكون مولودها المنتظر منذورًا لخدمة هذا الدِّين، وأمَّا مريم عليها السلام فقد أبرَّت بنذر أمِّها، وقامت على خدمة الحقِّ والثَّبات على تكاليفه الباهظة الَّتي لا تستطيعُه قريناتُها ولا يُطيقُهُ أترابُها، فتعرَّضت لصدمات نفسيَّة وهزَّات عاطفيَّة عنيفة لم تُفقِدْها توازنها في ثباتها على المبدأ الَّذي نذرت نفسها له.

ولها أسماء أخرى ذكرها بعض العلماء منها: "الزَّهْرَاءُ، وَالْأَمَانُ، وَالْكَنْزُ، وَالْمُعِينَةُ، وَالْمُجَادِلَةُ، وَسُورَةُ الِاسْتِغْفَارِ، وَطِيبَةُ"[5].

(1) مسلم، صحيح مسلم، الحديث رقم: (804).
(2) مسلم، صحيح مسلم، الحديث رقم: (805).
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/143.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 4/195.
(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/9.

موضوعات السّورة:

وقفة مع أهمّ الموضوعات التي تناولتها سورة آل عمران

تناولت سورة آل عمران جملةً من الموضوعات، يجمعُها على تفرُّقها، أنّها تقوم على ترسيخ الجانب العَقَدي لدى أبناء المجتمع المسلم الذي كانت معالمه تتّضحُ يومًا فيومًا، ولا يخفى أنّ دراسة موضوعات السّورة مفتاحٌ مُهمّ ومَلمَحٌ مُعينٌ على فهم آياتها وإدراك جوّها العامّ والأغراض التي جاءت تُعالجها وتُبرزها، وهذا أمرٌ تكتنفه بعض الصُّعوبات أحيانا لأنَّ معاني القرآن تتشابه وتتكرّرُ، وقد تناولت السّورة معاني عديدة نلخّصها فيما يأتي:

بدأت بِالتَّنْوِيهِ بِالْقُرْآنِ الكريم، وَالإشادة بالرّسول ﷺ، وَتَقْسِيمِ آيَاتِ الْقُرْآنِ، وَمَرَاتِبِ الْأَفْهَامِ فِي تَلَقِّيهَا، وَالتَّنْوِيهِ بِفَضِيلَةِ الْإِسْلَامِ، والكُتب السّماويّة، والتَّعْرِيف بدلائل القدرة الإلهيَّة، وَإِبْطَالِ مظاهر الشّرك والوثنيّة، وجدال أهل الكتاب بالّتي هي أحسن، وما أظهره اليهودُ من كيد ومُروق، مع الدّعوة إلى الاتّحاد وجمع الشّمل وتوحيد كلمة المسلمين، والتَّحذير من الماكرين وأهل النّفاق، واستعراض ما شهدته الدّعوة النّبويّة من انتصارات وانكسارات، والتّنويه بشأن الشّهداء الأبرار، وتحفيز أهل الإيمان إلى الاجتهاد في أواب البرّ والمواساة والإحسان، وإبراز ملامح التَّفْكِيرِ فِي مَلَكُوتِ العزيز القدير[1].

المحور الَّذي تدور حوله موضوعات السُّورة

أمّا من حيثُ الوحدةُ الموضوعيَّةُ لسورة آل عمران فيرى الإمامُ الأكبر الشَّيخ شلتوت أنَّها جاءت تُعالج قضيَّتيْن رئيستَيْن هما: تقرير الحقِّ في مسألة الألوهيَّة، وإنزال الكتب وما يتعلَّق بهما من أمر الدِّين والوحي والرِّسالة، وتقرير العلَّة في أسباب انصراف النَّاس عن الهداية[2].

وقد يبدو من زاوية أخرى أكثر دقَّة وتفصيلًا أنَّ المحور الَّذي تدور عليه السُّورة هو تقرير الثَّبات على هذا التَّوحيد وكلمة الدِّين، سواء أكان هذا الثَّبات في المنظور الداخليِّ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/144 - 145 (بتصرّف).

(2) شلتوت، الشيخ محمود، تفسير القرآن الكريم (الأجزاء العشرة الأولى)، ص: 77 - 78.

أم الخارجيِّ للأمَّة، وسواء أكان هذا الثَّبات فكريّا نظريّا أم عمليّا تطبيقيّا؛ إذ دعت السُّورة إلى الثَّبات على كلمة التَّوحيد، والثَّبات على الصَّبر عن الشَّهوات والمغريات، والثَّبات عند البلاء، وضربت على ذلك شواهد من ثبات الأنبياء والأولياء، وكذلك الثَّبات أمام أباطيل أهل الكتاب، وسَدّ باب الشُّبهات الَّتي يلقيها الحاقدون ويزرعها المشكّكون حول حقيقة التَّوحيد، وكذلك سلَّطت السُّورة الضَّوء على الثَّبات في ساحة المعركة؛ لذا كان اختيار غزوة أحد وما جرى فيها وبعدها، هو الأنسبَ لهذا المحور العام للسُّورة، سواء أكان عدم الثَّبات سببًا في الخسائر الَّتي لحقت بالمسلمين، أم كان الثَّبات سببًا في تجاوزهم المحنة وشفاء القرح بعد أن أصابهم ما أصابهم في المعركة، ففي قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ١٠٢ وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ كُنتُمۡ أَعۡدَآءٗ فَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم بِنِعۡمَتِهِۦٓ إِخۡوَٰنٗا وَكُنتُمۡ عَلَىٰ شَفَا حُفۡرَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنۡهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ١٠٣ وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ١٠٤ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخۡتَلَفُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ١٠٥﴾ [آل عمران: 102- 105] دعت إلى الثَّبات على الدِّين الحقِّ حتَّى الموت، وبيَّنت بعض عوامل الثَّبات من اللُّجوء إلى اللَّه ﷻ والدَّعوة إلى دينه، وجمع الكلمة ونبذ الفرقة، وتحقيق الأخوَّة الحقيقيَّة، وضربت السُّورة بعض الأمثال للثَّابتين من أتباع الأنبياء السَّابقين:

﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيّٖ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٞ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسۡتَكَانُواْۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٤٦﴾ [آل عمران: 146].

وبيَّنت السُّورة بعض مُعوِّقات هذا الثَّبات من خلال ذكر أصول الفتن الخمسة: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلۡبَنِينَ وَٱلۡقَنَٰطِيرِ ٱلۡمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلۡفِضَّةِ وَٱلۡخَيۡلِ ٱلۡمُسَوَّمَةِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ وَٱلۡحَرۡثِۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلۡمَـَٔابِ ١٤﴾ [آل عمران: 14].

وقوله جلّ شأنه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوۡاْ مِنكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ إِنَّمَا ٱسۡتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِبَعۡضِ مَا كَسَبُواْۖ وَلَقَدۡ عَفَا ٱللَّهُ عَنۡهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٞ ١٥٥ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَقَالُواْ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ إِذَا ضَرَبُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَوۡ كَانُواْ غُزّٗى لَّوۡ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ لِيَجۡعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسۡرَةٗ فِي قُلُوبِهِمۡۗ وَٱللَّهُ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ١٥٦﴾ [آل عمران: 155- 156].

هذا، وقد خُتِمت السورة الكريمة أيضا بالأمر بالثَّبات في قوله تقدّست أسماؤه: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصۡبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ۝٢٠٠﴾ [آل عمران: 200].

فالسُّورة إذًا لم تأتِ لتقرير مبدأ التَّوحيد فقط، وإنّما تكفَّلت بذلك كلُّ السُّور المكيَّة الَّتي سبقتها، وإنَّما جاءت لتؤكِّد أهمِّيَّة الثَّبات عليه، وتكشف المعوِّقات الَّتي تحول دون تحقُّقه، وجاءت تُعالج هذه المعوِّقات، وتبيِّن للأمَّة ثمرات هذا الثَّبات على الحقِّ في الدُّنيا والآخرة.

❁ المناسبات بين سورة آل عمران والسُّور المجاورة:

جاءت سورة آل عمران في ترتيب المصحف الشَّريف بعد سورتَي الفاتحة والبقرة، وترتبط السُّورتان بنَمَطيْن من علاقات المجاورة من ناحية، وعلاقات المشابهة الموضوعيَّة من ناحية أخرى، فقد تقدَّم أنَّ سورة الفاتحة قد اشتملت على المقاصد الكلِّيَّة للقرآن الكريم: من توحيد وأسماء حُسنى وأخبار وأحكام وعقائد ووعد ووعيد، فهي تمثِّل الموجز أو الملخَّص لكلِّ ما يأتي بعدها من سور، ثمّ جاءت سورة البقرة ففصَّلت ما أُجمل في سورة الفاتحة، وبيَّنت أصول العقائد ومنظومات الأحكام التَّشريعيَّة والتَّعبديَّة والأخلاقيَّة، وأخبار الماضين بدْءًا من أبي البشرية آدم عليه السلام، وبيّنت أصناف النَّاس أمام هذه الدَّعوة ومواقفهم منها، وحاورت، وجادلت أهل الملل والنِّحل، فهي سورة الخلافة الحقيقيَّة للإسلام على هذه الأرض حيث عرضت مقوِّمات هذا الاستخلاف المادِّية والمعنويِّة، ومعوِّقاته من الدَّاخل والخارج، وسُبُلَ التَّعامل مع التَّحدِّيات والمعضلات التي تُواجه مهمَّة الاستخلاف في الأرض وعمارتها، وضربت الأمثلة والشَّواهد على من أقاموا هذا الاستخلاف ومن نقضوه من الأمم السَّابقة؛ لهذا اشتركت الزّهراوان في بعض السّمات الموضوعيَّة والملامح الأسلوبيَّة ممَّا يُؤكِّد اللُّحمة بين مقاصد السُّورتيْن، وقد تفطَّن الإمام البقاعيُّ لهذه اللِّحمة بين هذه السُّور الَّتي ابتدأ بها الكتاب، فقال: "لأنَّ الفاتحة لمَّا كانت جامعة للدِّين إجمالًا؛ جاء به التَّفصيل محاذيًا لذلك، فابتدىء بسورة الكتاب المحيط بأمر الدِّين، ثم بسورة التَّوحيد الَّذي هو سرُّ حرف الحمد وأوَّل حروف الفاتحة؛ لأنَّ التَّوحيد هو الأمر الَّذي لا يقوم بناء إلا عليه، ولمَّا صحَّ الطَّريق، وثبت الأساس؛ جاءت الَّتي بعدها داعية إلى الاجتماع على ذلك، وأيضًا فلمَّا ثبت بالبقرة أمر الكتاب في أنَّه هُدًى، وقامت به دعائم الإسلام الخمس؛ جاءت هذه لإثبات الدَّعوة الجامعة في قوله سبحانه وتعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ﴾ [البقرة: 21]

فأثبت الوحدانيَّة له بإبطال إلهيَّة غيره بإثبات أن عيسى - عليه السلام - الَّذي كان يُحيي الموتى عبدُهُ، فَغَيْرُهُ بطريق الأولى، فلمَّا ثبت أنَّ الكلَّ عبيدُهُ؛ دعت سورة النِّساء إلى إقبالهم إليه واجتماعهم عليه، وممَّا يدلُّ على أنَّ القصد بها هو التَّوحيد: تسميتها بآل عمران، فإن لم يُعرِبْ عنه في هذه السُّورة ما أعرب عنه ما ساقه سبحانه وتعالى فيها من أخبارهم بما فيها من الأدلَّة على القدرة التَّامَّة الموجبة للتَّوحيد الَّذي ليس في درج الإيمان أعلى منه، فهو التَّاجُ الَّذي هو خاصَّة الملك المحسوسة، كما أنَّ التَّوحيد خاصَّتُه المعقولة، والتَّوحيدُ موجِبٌ لزهرة المتحلِّي به؛ فلذلك سمِّيت الزهراء[1]"، فالوشائج بين هذه السُّور المتجاورة ظاهرة للعيان دون أدنى تكلُّف، فلئن كانت سورة البقرة قد عرضت لمهمَّة الاستخلاف على هذه البسيطة وما يستلزمه من أغراض؛ فقد جاءت سورة آل عمران لتُفَصِّلَ ببعض ما يلزم هذا الاستخلاف من ثبات على العقيدة ورسوخ فيها، وتَعْرِضَ النماذج الحيَّة على ذلك من الأخبار الماضية وممَّا شهده الجيل الأوَّل الَّذي عاش نزول القرآن فيما جرى معهم في أحد، فضلًا عن اشتراك السُّورتَيْن في المطلع في الابتداء بنفس الأحرف المقطَّعة والحديث عن الكتاب المبين.

وخلاصة القول: إنّ سورة آل عمران مُكَمِّلة لسورة البقرة؛ فقد تضمَّنت سورة البقرة الحديث عن قواعد الدِّين، وأحكامه وشرائعه، وركّزت على شروط خلافة الإنسان في الأرض، وحدّدت الجوانب المتعدّدة التي ينبغي أن يُعنى بها المسلم خلال أدائه لمهمّة تعمير الأرض وبناء الحضارة فيها.

ثمّ جاءت سورة آل عمران لإقامة الدَّليل على الأحكام، والإجابة عن شُبُهات الخُصُوم من دعاوى النَّصارى، وكيد اليهود المعلوم، واشتركت السّورتان في الكلام تفصيلا عن الحجّ في الأولى، ووجوبه في الثّانية، وقد تعرّضت سورة البقرة ابتداء لقضايا اليهود وطباعهم وعلائقهم، وجاءت سورة آل عمران بعدها للإفاضة في الكلام عن النَّصارى؛ لكون التّوراة أصلًا والإنجيل فرعًا لها، ويؤكِّد ذلك أنَّ صدر سورة آل عمران، نزل بسبب وفد نصارى نجران ومجادلتهم مع الرَّسول[2] صلى الله عليه وسلم.

(1) البقاعي، نظم الدرر: 2/3-4.
(2) السيوطي، قطف الأزهار: 53.

ويربط الإمام الآلوسيُّ بين السُّورتين بقوله: "ووجه مناسبتها لتلك السُّورة أنَّ كثيرًا من مجملاتها تشرح بما في هذه السُّورة، وأنَّ سورة البقرة بمنزلة إقامة الحجَّة، وهذه بمنزلة إزالة الشُّبهة؛ ولهذا تكرَّر فيها ما يتعلَّق بالمقصود الَّذي هو بيانُ حقيقة الكتاب من إنزال الكتاب وتصديقه للكتب قبله والهدى إلى الصِّراط المستقيم، وتكرَّرت آية ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا﴾ [البقرة: 136] بكمالها؛ ولذلك ذكر في هذه ما هو تالٍ لِما ذُكر في تلك أو لازمٌ له، فذَكَر هناك خَلْق النَّاس، وذَكَر هنا تصويرهم في الأرحام، وذكر هناك مبدأ خلق آدم، وذكر هنا مبدأ خلق أولاده، وألطف من ذلك أنَّه افتتح البقرة بقصة آدم وخلقه من تراب ولا أمّ، وذكر في هذه نظيره في الخلق من غير أب وهو عيسى، ولذلك ضرب له المثل بآدم، واختصَّت البقرة بآدم؛ لأنَّها أوَّل السُّور، وهو أوَّل في الوجود وسابق، ولأنَّها الأصل، وهذه كالفرع والتَّتمَّة لها فاختصَّت بالأغرب، ولأنَّها خطاب لليهود الَّذين قالوا في مريم ما قالوا، وأنكروا وجود ولد بلا أب، ففوتحوا بقصَّة آدم لتثبت في أذهانهم، فلا تأتي قصَّة عيسى إلَّا وقد ذكر عندهم ما يشهد لها من جنسها، ولأنَّ قصَّة عيسى قيست على قصَّة آدم، والمقيس عليه لا بدَّ وأن يكون معلومًا لتتمَّ الحجَّة بالقياس، فكانت قصَّة آدم - والسُّورة الَّتي هي فيها - جديرة بالتَّقديم"[1].

وجاء بعدها سورة النِّساء الَّتي وضعت معادلة الخروج من حالة الضَّعف إلى حالة القوَّة، فعالجت مقاصد الشَّريعة الخمسة من حفظ الدين والنَّفس والمال والعقل والعرض، وبيَّنت مراعاة هذه المقاصد للضُّعفاء من النِّساء والأطفال والسُّفهاء، فوضعت أصول العدل والإنصاف في التَّعامل بين النَّاس؛ لأنَّهم خُلقوا من نفس واحدة، وهذه المقاصد السَّامية لا تتحقَّق في المجتمع إلَّا بعد تمكُّن حقيقة التَّوحيد في النُّفوس وثباتهم عليها، وبعد سورة النِّساء تأتي سورة المائدة الَّتي تشارك سورةآل عمران في جدال أهل الكتاب وكشف زيف ادّعاءاتهم، ولكنَّها جاءت في سورة المائدة في سياق بيان نقض أهل الكتاب للعهود الَّتي أُخذت عليهم، وكيف أنَّهم ينقضون عهودهم ومواثيقهم؛ كلَّما سنحت لهم الفرصة بذلك، فضلًا عن أنَّ سورة المائدة جاءت لتقرِّر أمرًا أبعد مدى من مجرَّد تقرير الوحدانيَّة للَّه كما هي في آل عمران، بل جاءت لتبيِّن أنَّ اللّه تعالى هو المعبودُ بحقٍّ، وهو

(1) الآلوسي، روح المعاني: 3/118.

المنفرد بالأمر والنّهي والتَّحليل والتَّحريم دون سواه، فكانت سورة آل عمران في وضعها المُحكم خلال هذه السِّلسلة من المقاصد والغايات القرآنيَّة المترابطة بحيث إنِّك لو أبدلت غيرها مكانها؛ لذهب الرَّونق ولفسد المعنى.

❁ مناسبة أوَّل سورة آل عمران لآخر سورة البقرة:

وَمُنَاسَبَةُ مطلع سورة آل عمران لمختتم سورة البقرة أنّه جلّ شأنه لَمَّا ذَكَرَ في آخِرِ الْبَقَرَةِ على ألسنة المؤمنين: ﴿أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٨٦﴾﴾ [البقرة: 286]، نَاسَبَ أَنْ يذكر نصر اللّه تَعَالَى رسوله عَلَى الْكَافِرِينَ، حَيْثُ نَاظَرَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَرَدَّ عَلَيْهِمْ بِالْبَرَاهِينِ السَّاطِعَةِ، وَالْحُجَجِ الْقَاطِعَةِ، فَقَصَّ تَعَالَى أَحْوَالَهُمْ، وَرَدَّ عَلَيْهِمْ فِي اعْتِقَادِهِمْ، وَذَكَرَ تَنْزِيهَهُ تَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ، وَبَدَاءَةَ خَلْقِ مَرْيَمَ وَابْنِهَا الْمَسِيحِ إِلَى آخِرِ مَا رَدَّ عَلَيْهِمْ، وَلَمَّا كَانَ مُفْتَتَحُ آخِرِ آيَةٍ فِي الْبَقَرَةِ: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ﴾ [البقرة: 285]، مشيرًا إلى الْإِيمَانَ بِاللَّهِ وَبِالْكُتُبِ؛ نَاسَبَ ذلك ذِكْرَ أَوْصَافِ اللَّهِ تَعَالَى، وَذِكْرَ مَا أَنْزَلَ عَلَى رَسُولِهِ، وَذِكْرَ الْمُنَزَّلِ عَلَى غَيْرِهِ - صَلَّى اللّه عَلَيْهِمْ - في مطلع سورة آل عمران[1].

❁ المناسبات الداخليَّة بين آيات السُّورة الكريمة:

تنقسم آيات السورة الكريمة إلى طائفتيْن متتاليتيْن من الآيات: الطَّائفة الأولى: من بدايتها إلى نهاية الآية (120) فيها، وقد تناولت الحديث عن تنزيل الكتاب بالحقِّ وعن هداياته، وعن الكافرين وأسباب كفرهم ومآلهم، وعن أهل الكتاب ومواقفهم المختلفة، وعن اصطفاء اللّه تعالى لآدم ونوح وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين، ثمَّ ذكرت السُّورة قصَّة ميلاد المسيح عليه السلام وما جرى مع أمِّه وجدّته قبل ذلك، وأثناء ذلك أدخلت السُّورة جانبًا من قصَّة زكريَّا عليه السلام وطلبه الذُّرِّيَّة لتحمل المهمَّة من بعده، ثمَّ جانبًا من قصَّة المسيح عليه السلام مع بني إسرائيل؛ لينتقل الحوار بعد ذلك إلى أهل الكتاب الملازمين للنَّبيِّ ﷺ وصفاتهم ومواقفهم ومجادلتهم، ووصايا للمؤمنين بكيفيَّة التَّعامل معهم، ثُمَّ جاءت الطَّائفة الثَّانية من الآيات (121 إلى نهاية السورة) تتحدَّث عن غزوة أحد وما يتعلَّق بها من قضايا وأحكام، وسلكت منهج التَّثبيت وجبر الخواطر للمسلمين على ما أصابهم في

(1) أبو حيَّان، البحر المحيط: 3/9.

أحد، ولم يأتِ الحديث عن أُحُد إلَّا في هذه السُّورة لارتباط أحداث الغزوة والتَّعقيب عليها بمحور هذه السُّورة، فاختصَّت السُّورة بموضوعات وحوارات مع أهل الكتاب ومشاهد قصصيَّة حيَّة متناغمة مع جوِّ السُّورة ومحورها العامِّ؛ فضلًا عن الظَّواهر الأسلوبيَّة فيها، حيث تكرَّرت أثناء السُّورة كلمة التَّوحيد في ثلاثة مواضع، وكلمة الكتاب في نحو (32) موضعًا، وأهل الكتاب نحو (12) مرَّة، وكلمة الدِّين والإسلام نحو (12) مرَّة، وكثرة النِّداءات للَّذين آمنوا في هذه السُّورة (7 مرَّات) من أصل (89) موضعًا في القرآن، ولأهل الكتاب (6) مرَّات في السُّورة الكريمة، نصفُها سُبِق بقوله ﴿قُلْ﴾ من أصل (12) نداء وجّهه اللّٰه تعالى إليهم في القرآن الكريم، فهناك نداء واحد في جارتها سورة النِّساء، وخمسة نداءات لهم في سورة المائدة المجاورة لها أيضًا الَّتي شاركتها في بعض المضامين المتعلَّقة بأهل الكتاب لكن من منظور آخر، ممَّا يدلُّ بوضوح على هذا التَّساوق والتَّناغم في الوحدة البنائيَّة لهذه السُّور المتجاورة، وأنَّها كالبنيان المرصوص آخذٌ بعضها بحُجز بعض، فضلًا عن أنَّه قد كثر في السُّورة أسلوب القصر عمومًا بنحو (40) موضعًا، لا سيَّما بطريقة الاستثناء بعد النَّفي الَّتي زادت عن نصف عدد مرَّات القصر في السُّورة، وهو أسلوبٌ بلاغيٌّ مهمٌّ من أساليب التَّوكيد والتَّقرير، وكذلك انفردت السُّورة ببعض الفرائد من أسماء وأفعال مثل: ﴿رَمْزًاۗ﴾ و﴿بِدِينَارٍ﴾ و﴿بِبَكَّةَ﴾ و﴿غُزًّى﴾ و﴿فَظًّا﴾ و﴿نَبْتَهِلْ﴾ و﴿تَدَّخِرُونَ﴾، وهي ألفاظ ترتبط بمعاقد ومفاصل مهمَّة من بنيان هذه السُّورة والقضيَّة الأساسيَّة الَّتي قامت عليها، ولا شكَّ أنَّ هذه الخصائص الأسلوبيَّة تساعد في رسم شخصيَّة هذه السُّورة الَّتي عالجت موضوع التَّوحيد والثَّبات عليه، والتَّأكيد على أنَّ الدِّين عند اللّٰه هو دين الإسلام الحقّ الَّذي ينبغي ألَّا يماري فيه أهل الكتاب ولا غيرهم بما يلقونه من شبهات وأباطيل بغية النَّيل منه.

﴿الٓمٓ ۝١﴾ [آل عمران: 1]

موقف العلماء من الحروف المقطَّعة في أوائل السّور:

كَثُر كلام علمائنا في هذه الحروف المُقَطَّعة الّتي افتتحت بها تسعٌ وعشرون سورة من سور القرآن الكريم، وتلوّنت أقوالهم فيها وتباينت: فمنهم من قال: إنَّها ممَّا استأثر الله بعلمه وهذا أسلَمُ وأحْوَطُ، ومنهم من قال: إنَّها أسماءٌ للسُّور، ومنهم من قال: إنَّها إشارة إلى الإعجاز والتّحدِّي، حيث يُخبر الله تعالى أنَّ هذه الحروف مِمَّا تعرفه العرب، وتنطق به في كلامها، وقد نزَل إليهم بهذه الحروف المأنوسة لديهم، ولكنّهم بقوا عاجزين عن مضاهاة الأسلوب القرآنيّ الّذي منها تركّب، وبها نُسِجت ألفاظه وآياته، وفي ذلك "إشارة إلى إعجاز القرآن؛ فقد وقع به تحدِّي المشركين، فعجزوا عن معارضته، وهو مركَّب من هذه الحروف التي تتكوَّن منها لغة العرب، فدَلَّ عجز العرب عن الإتيان بمثله على أنَّ القرآن وحيٌ من الله"[1]، ولكنَّ السُّؤال الّذي يتبادرُ إلى الأذهان، كما قال الشَّيخ البلاغيُّ أبو موسى: أنّنا لم نقرأ أنَّ أحدًا ممَّن سمع هذه الحروف من الصَّحابة توقَّف عندها، وتأمَّل ما فيها من أسرار في التَّنَوُّع، فما السِّرُّ في اختيار ﴿الٓمٓ ۝١﴾ في البقرة وآل عمران، و﴿الٓمٓصٓ ۝١﴾ [الأعراف: 1] في الأعراف، و﴿الٓرۚ﴾ [نحو: يونس: 1] في يونس وهود ويوسف وغيرها؟ ولماذا البَدْءُ بهذه الحروف دون غيرها، وما علاقة ذلك بالسُّورة ؟ ولا شكَّ أنَّ وراء ذلك أسرارًا كثيرة لا يعلمها إلا الله تعالى، وتكون ممَّا استأثر الله بعلمه؟ ومع ذلك ينبغي البحث عن هذه الأسرار، على قدر الطَّاقة؛ أملًا في الوصول إلى معنًى إعجازيٍّ، وعليه أقول: لعلَّ هذه الحروف تشير إلى وجه إعجازيٍّ في الأداء الصَّوتيِّ لها، حيث جاءت على وجهٍ غير معتادٍ في نطقها عندهم، وذلك في المدِّ والسَّكت والإمالة والتَّقليل، ونحو ذلك من وجوه الأداء في هذه الحروف المُقَطَّعَة.

ولعلَّ أرجح الأقوال في هذا الشّأن هو مذهب الذين يرون أنَّ الحروف المقطّعة الواردة في مفتتح بعض السّور القرآنيّة، الغرضُ العامُّ منها هو تنبيه المُخاطبين إلى أنّ هذا البيانَ

(1) نخبة من العلماء، التفسير الميسر: 1/2.

القرآنيّ المعجز هو من جنس هذه الحروف التي يعرفها العرب. وكأنَّ هذه الحروف في بدايات السّور تنادي الفصحاء الأبيناء وتُنبِّههم إلى أنَّ هذا القرآن الفصيح المُبين هو من جنس ما تعلمون، ومن جنس اللغة التي بها تتكلّمون، وأنتم المشهود لكم بالبيان العالي وامتلاك ناصية التّعبير وعلوّ الشّأن في الفصاحة والإفصاح، فإن كنتم تستطيعون أن تنسجوا على منوال القرآن الكريم فَافْعَلوا.

والتّاريخ أثبت أنَّ قريشا ومن تابعها في كفرها وعنادها، على الرّغم من أنَّ فصحاءها وشعراءها وخطباءها كانوا يمتلكون ناصية الإبانة والتّبيين، وكانوا مشهورين باللَّدَد في الخصومة، والتّفوُّق في الشّعر والإبلاغ في الخطب والمنازلات الأدبيّة؛ إلاّ أنّهم وجمت قلوبهم، وخارت قواهم، وخرست ألسنتهم عن مضاهاة القرآن الكريم أو النّسج على منواله؛ وما ذاك إلاّ لإدراكهم واستيقانهم أنّ ما جاء به محمد ﷺ ليس من جنس كلام البشر، بل هو من خالق القوى والقُدَر.

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

براعةُ الاستهلالِ بالحروف المقطّعة:

الإيماءُ إلى نَظْمِ القُرآنِ بالحروفِ المقطَّعةِ تلويحٌ بالتَّحدِّي

افتُتِحتْ سورةُ آل عمران بالأحرفِ المقطَّعةِ لارتباطِها بالانتصارِ للقرآنِ؛ فلمَّا كَانَ أَوَّلَ أَغْرَاضِ هَذِهِ السُّورَةِ الذي نَزَلَتْ فِيهِ، هُوَ قَضِيَّةُ مُجَادَلَةِ نَصَارَى نَجْرَانَ حِينَ وَفَدُوا إِلَى الْمَدِينَةِ، وَبَيَانُ فَضْلِ الْإِسْلَامِ عَلَى النَّصْرَانِيَّةِ؛ فلَا جَرَمَ افْتُتِحَتْ بِحُرُوفِ التَّهَجِّي الْمَرْمُوزِ بِهَا إِلَى تَحَدِّي الْمُكَذِّبِينَ بِهَذَا الْكِتَابِ"[1].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/146.

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ٢﴾ [آل عمران: 2]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

تبيان قدرة الله الّذي أنزل القرآن معجزًا من حروف اللّسان

بعد أن بدأ السيّاق بالإشارة إلى الحروف المقطّعة، لتحدّي العرب بالإتيان بشيء من مثل القرآن، ما دام هو مكوّنا من لغتهم ومن الحروف الّتي ينطقون بها وتتركّب منها كلماتهم[1]، شرع في تبيان ألوهيّة الإله الواحد وقيّوميّته العليا، "لأنّه الخالق المسيطر على الكون والنّفوس، ولأنّه مصدر الخير ودافع الضّرّ، الحيّ الدّائم الحياة الّتي لا أوّل ولا نهاية لها، القائم على خلقه بالتّدبير والتّصريف[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلۡحَيُّ﴾: الحياة تُستعمل على أوجه، الأوّل: للقوّة النّامية الموجودة في النّبات والحيوان، الثّانية: للقوّة الحسّاسة، وبه سمِّي الحيوان حيوانًا، الثّالثة: للقوّة العاملة العاقلة، الرّابعة: ارتفاع الغمِّ، الخامسة: الحياة الأُخرويَّة الأبديَّة، السّادسة: الحياة الّتي يُوصف بها البارئ سبحانه، فإنَّه إذا قيل فيه تعالى: هو حيٌّ، فمعناه: لا يصحُّ عليه الموت، والمراد بالحيِّ: الدّائم البقاء[3]، وإذا وصف الباري ﷻ بالحياة؛ فمعناه الدّائم الّذي لم يزل، ولا يزال، ولا يصحُّ عليه الموت بوجه[4]، "الْحَيُّ: فَهُوَ الْفَعَّالُ الدَّرَّاكُ"[5]، والمعنى: "اللّه تعالى هو الإله الحقّ المتفرّد بالألوهيّة الّتي لا يشاركه فيها سواه، وهو المعبود الحقّ، وكلّ معبود سواه فهو باطل، وهو ذو الحياة الكاملة"[6].

2) ﴿ٱلۡقَيُّومُ﴾: "الْقَيُّومُ: فيعول من قام: وهو القائم بالقسط، والقائم على كلِّ نفس بما

(1) الزّحيلّي، التّفسير المنير: 3/146.
(2) الزّحيلّي، التّفسير المنير: 3/146.
(3) الواحدي، التّفسير البسيط: 4/346 - 347.
(4) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 1/523.
(5) الرّازيُّ، مفاتيح الغيب: 7/130.
(6) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 2/19.

كسبت"[1]، "القائمُ بِتَدْبير جميع ما خَلَقَ من إحياءٍ وإنشاءٍ ورَزْقٍ ومَوْتٍ"[2]، "الْقَائِمُ بِذَاتِهِ، وَالْقَائِمُ بِتَدْبِيرِ الْخَلْقِ وَالْمَصَالِحِ لِمَا يَحْتَاجُونَ إِلَيْهِ فِي مَعَاشِهِمْ، مِنَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْحَرِّ وَالْبَرْدِ وَالرِّيَاحِ وَالْأَمْطَارِ وَالنِّعَمِ الَّتِي لَا يَقْدِرُ عَلَيْهَا سِوَاهُ، وَلَا يُحْصِيهَا غَيْرُهُ"[3]، "من قام بالأمر، يقوم به؛ إذا اضطلع بحفظه، وبجميع ما يحتاج إليه في وجوده، فاللّه تعالى القوَّام على كلِّ شيء بما ينبغي له أو فيه أو عليه"[4]،

وقال قتادة: القيوم: القائم على خلقه بآجالهم وأعمالهم وأرزاقهم.. وقال أبو عبيدة: القيّوم: القائم على الأشياء. قال الشّاعر:

إِنَّ ذَا الْعَرْشِ لَلَّذِي يَرْزُقُ النَّا ***سَ، وَحَيٌّ عَلَيْهِمُ قَيُّومُ[5]

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

تأكيد قيّوميّة الله وعظمته في كونه وألوهيّته

"اللّه الَّذي لا إله يُعبد بحقٍّ إلّا هو، وحده دون سواه، الحيُّ حياة كاملة، لا موت فيها ولا نقص، القيُّوم الّذي قام بنفسه، فاستغنى عن جميع خلقه، وبه قامت جميع المخلوقات، فلا تستغني عنه في كلِّ أحوالها"[6]، فأخبر أنّه تعالى لا معبود بحقّ إلّا هو، وذكر برهان استحقاقه للعبادة دون غيره، وهو كونه تعالى حيًّا أزلًا وأبدًا، وكلّ حيّ غيره مسبوق بالعدم، ويلحقه الفناء. فلذا لا يستحقّ الألوهيّة إلّا هو[7] ﷻ.

الإِيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

جمالُ البَدْءِ باسم الله الأحسنِ وبوَصْفَيْه الحيِّ القيّومِ:

بدأت الآية بلفظ الجلالة ﴿ٱللَّهُ﴾، وهو جامع لكلِّ ما في أسماء اللّه الحسنى من الكمالات المُطلقة في بقيَّة الأسماء، وجيء بصفتي

(1) نجم الدّين النّيسابوريُّ، إيجاز البيان: 1/179.
(2) الزَّجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 1/374.
(3) الرَّازيُّ، مفاتيح الغيب: 7/130.
(4) ابن عطيَّة، المحرّر الوجيز: 1/397.
(5) الأنباريّ، الزّاهر: 1/90.
(6) جماعة من علماء التفسير، المختصر في تفسير القرآن: 1/50، ونخبة من العلماء، التفسير الميسر: 1/50.
(7) الجزائريّ، أيسر التّفاسير: 1/283.

الحيِّ القيُّوم من باب ذكرِ الخاصِّ بعد العامِّ؛ لمزيد العناية بهذا الخاصِّ، وللإشارة إلى أنَّ له في هذه السورة مقامًا مقصودًا، هو التَّأكيد على معنى الوحدانيَّة، وللردِّ على مزاعم النَّصارى في شأن عيسى عليه السلام من الألوهيَّة والبنوَّة ودعوى التثليث؛ لأنَّه بشرٌ ومكتوب عليه الموت، وممَّا يؤكِّد ذلك، ما قاله الرَّازيُّ في تفسير معنى الحيِّ القيُّوم، قال: "هو محيط بجميع الصِّفات المعتبرة في الإلهيَّة، ولمَّا ثبت أنَّ المعبود يجب أن يكون حيًّا قيُّومًا - ودلَّت البديهة على أنَّ عيسى عليه السلام ما كان حيًّا قيُّومًا، كيف، وهم يقولون: بأنَّه قُتل، وأظهر الجزع من الموت؟ - علمنا قطعًا أنَّ عيسى ما كان إلهًا ولا ولدًا للإله، تعالى الله عما يقولون عُلوًّا كبيرًا[1].

الإشارةُ إلى ما في هذينِ الوَصْفَيْنِ من الرَّدِّ على دعوى التَّثليثِ

سِرُّ الإخْبارِ بالمُسْنَدِ الفِعْليِّ:

لفظُ الجلالةِ مسندٌ إليه، وابْتُدِئَ الْكَلَامُ به، وجاءَ الخبرُ مسندًا فعليًّا وهو ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ﴾؛ "لِإِفَادَةِ تَقْوِيَةِ الْخَبَرِ اهْتِمَامًا بِهِ، وَجِيءَ بِالِاسْمِ الْعَلَمِ؛ لِتَرْبِيَةِ الْمَهَابَةِ عِنْدَ سَمَاعِهِ"[2]، فالذي نزَّلَ الكتابَ هو اللّه تعالى، المتَّصِفُ بأنَّه حيٌّ قيُّومٌ، فإنزالُ الكتابِ ملحوظٌ فيه معنى هذين الوَصْفَيْنِ، والكتابُ به تكونُ الحياةُ والقوامةُ.

القُرآنُ سرُّ الحياةِ إذ بِهِ حياةُ القُلُوبِ والقوامةُ على الخَلْقِ

توجيه المتشابه اللفظيِّ:

ذُكرت هذه الجملة ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ۝٢﴾ في صدر سورة آل عمران، وفي صدرِ آيةِ الكرسيِّ، وهناك فرقٌ بين الموضعين؛ ففي سورة البقرة جاءت في سياق الإخبار العامِّ عن صفات المولى سبحانه وتعالى في إثبات صفات الكمال والجمال والجلال، فآية الكرسيِّ هي الآيةُ التي قرّرتْ أصولَ التَّوحيدِ، أمَّا هنا؛ فجاءت في سياق الحِجاج مع النَّصارى، وللرَّدِّ عليهم فيما ادَّعوه من صفاتٍ لا

جملةُ التَّوحيدِ جاءتْ لتقريرِ العقيدةِ ابتداءً في آيةِ الكرسيِّ وردًّا في آل عمران

(1) الرَّازيُّ، مفاتيح الغيب: 7/130.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/147.

تثبتُ لعيسى عليه السلام ؛ لأنَّهم إذ يقولون: إنَّه صُلب، فذلك موت في معتقدهم لا محالة؛ إذ من البيِّن أنَّه ليس بقيُّوم[1]، فهو ليس حيًّا ولا قيُّومًا، فثبت أنَّه ليس بإلهٍ، وأنَّ معتقدَهم في نبيِّ اللّه معتقدٌ باطلٌ، تنزَّه اللّه عمَّا يقولون عُلُوًّا كبيرًا.

(1) ابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 1/397.

﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۝٣﴾ [آل عمران: 3]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

المناسبة بين بيان قيوميّة الله، وإقامة الدّليل عليها بتنزّل القرآن والكتب السّماويّة قبله

لمَّا تحدَّث فيما سبق عن القَيُّوميَّة، وهي القيام بذاته، والقيام بأمر خلقه، وهذا يقتضي القيام بما يحتاجون إليه من قيم روحيَّة، وقيم ماديَّة؛ فكانت هذه الآية محقّقة ذلك، بتنزيل الكتاب على النَّبيِّ ﷺ بما يحمله من قيم روحيَّة، إضافة إلى أنّ الآية السَّابقة لمَّا أشارت إلى الذَّات الإلهيَّة، وتفرُّدها بالوحدانيَّة والقيُّوميَّةِ؛ جاءت هذه الآية؛ لتُقيم الدَّليل على هذه القيُّوميَّة، فمن هذا المقام الكريم الّذي لا يُطاول، ولا يُسامى، كان مُتَنَزَّل القرآن الّذي أُنزل على النَّبيِّ ﷺ، وهو الحقُّ الّذي لا مرية فيه؛ لأنَّه من ربِّ العالمين؛ ولأنَّه جاء مُصدِّقًا للكتب السَّماويَّة.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾: في الأصل مصدر، ثمّ سمِّي المكتوب فيه: كتابًا، وهو اسم للصّحيفة مع المكتوب فيه، قال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [النساء: 153] يعني: صحيفة فيها كتابة[1]، و﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ في هذا الموضع القرآن باتِّفاق من المفسِّرين"[2]، "وَتَكَرَّرَ كَثِيرًا، وَالْمُرَادُ الْقُرْآنُ، فَصَارَ عَلَمًا بِالْغَلَبَةِ"[3]، "فالأصل في الكتابة النّظم بالخطّ، لكن يستعار كلّ واحد للآخر، لذلك سمّي كلام الله وإن لم يكتب كتابًا"[4].

(1) الراغب، المفردات: (كتب).
(2) ابن عطية، المحرَّر الوجيز: 1/397.
(3) أبو حيَّان، البحر المحيط: 3/14.
(4) الزّين، تفسير مفردات ألفاظ القرآن الكريم: (كتب).

2) ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾: أصل الحقِّ: المطابقة والموافقة، ويقول الجرجانيُّ عن الحقِّ: "الثَّابت الَّذي لا يجوز إنكاره، وفي اصطلاح أهل المعاني: الحكم المطابق للواقع في الأقوال والعقائد والأديان والمذاهب، باعتبار اشتمالها على ذلك[1]، ويقول الرَّاغب: " ويُطلق الحقُّ على أوجه: الأوَّل: لمُوجِد الشّيء بحسب ما تقتضيه الحكمة؛ ولهذا قيل عن اللّه تعالى: أنّه الحقّ، والثَّاني: يقال للمُوجَد بحسب مقتضى الحكمة؛ ولهذا يقال: فعل اللّه تعالى كلُّه حقٌّ.

والثَّالث: في الاعتقاد للشِّيء المطابق لما عليه ذلك الشّيء في نفسه، كقولنا: اعتقاد فلان في البعث والثّواب والعقاب، والجنَّة والنَّار حقٌّ، قال تعالى: ﴿فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَا ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ ٱلۡحَقِّ بِإِذۡنِهِۦۗ﴾ [البقرة: 213]، والرَّابع: للفعل والقول الواقع بحسب ما يجب، وبقدر ما يجب، وفي الوقت الَّذي يجب كقولنا: فعلك حقٌّ، وقولك حقٌّ[2].

3) ﴿مُصَدِّقٗا﴾: يُقال: صدقت فلانًا، نسبته إلى الصِّدق، وأَصدَقتُه: وجدته صادقًا، ويستعمل التّصديق في كلِّ ما فيه تحقيق، يقال: صَدَقَني فعله وكتابه، قال تعالى: ﴿نَزَّلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ﴾ أي: مُصَدِّقٌ ما تقدَّم، فهو يخبر عمَّا قبله خبر صدقٍ دالٍّ على إعجازه، أو يخبر بصدق الأنبياء فيما أتوا به[3]، والمصدّق الصّدّيق، وهو" مُبَالغَة من الصّدْق في القَوْل وَالْفِعْل، وهُوَ أَعلَى مَرَاتِب الْعباد عِنْد اللّه بعد الْأَنْبِيَاء، وَمِنْه سمّي أَبُو بكر الصّديق، وَقَوله إِذا جَاءَ الْمُصدّق، وَمَا وجد الْمُصدّق، وَمَا صدر عنّي مُصدّق"[4].

4) ﴿بَيۡنَ يَدَيۡهِ﴾: يُستعمل (بين) لكلّ ما كان له مسافة، نحو: بين البلدين، أَوْ له عدد ما: اثنان، فصاعدًا، نحو: بين الرَّجُلين، وبين القوم، ويقال: هذا الشّيء بين يديك، أي: مُتَقَدِّمًا لك، ويقال: هو بين يديك، أي: قريب منك، ومنه قوله: ﴿مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ﴾[5]، والمراد "بما بين يديه: هي التَّوراة والإنجيل وسائر كتب اللّه الّتي تُلُقِّيَتْ من

(1) الجرجانّي، التّعريفات: 142.
(2) الرّاغب، المفردات: (حق).
(3) العزّ بن عبد السّلام، تفسير القرآن: 1/251، والرّاغب، المفردات: (صدق).
(4) القاضي عيّاض، مشارق الأنوار: (صدق).
(5) الرّاغب، المفردات: (بين).

قبلنا كالزَّبور والصُّحف، وما بين اليد في هذه الحوادث، هو المتقدِّم في الزَّمن"[1] "يَعْنِي: مِنَ الْكُتُبِ الْمُنَزَّلَةِ"[2].

5) ﴿ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ﴾: "التَّوْراة وَالْإِنْجِيل: اسمان أعجميَّان، وتكلُّف اشتقاقهما من الورى والنَّجل، ووزنُهما بـ (تفعلة، وإفعيل)، إنَّما يصحُّ بعد كونهما عربيَّين"[3]، والواقع أنّ "أصلهما عبرانيٌّ، لكن النُّحاة وأهل اللِّسان حملوهما على الاشتقاق العربيِّ"[4]، "ووزنهما بتفعلة وإفعيل تعسُّف؛ لأنَّهما أعجميَّان"[5]، "وَذَلِكَ بَعْدَ تَقْرِيرِ النُّحَاةِ: أَنَّ الْأَسْمَاءَ الْأَعْجَمِيَّةَ لَا يَدْخُلُهَا اشْتِقَاقٌ، وَأَنَّهَا لَا تُوزَنُ، يَعْنُونَ اشْتِقَاقًا عَرَبِيًّا"[6]، وعليه فإنّ "التَّوْراةَ كلمة عبريّة معناها الشّريعة، وتشتمل على خمسة أسفار هي: (سفر التّكوين، وسفر الخروج، وسفر اللّاويين، وسفر العدد، وسفر تثنية الاشتراع)، ويقول اليهود: إنّ موسى كتبها، ويسمّيها النّصارى: العهد القديم"[7]، وأمّا الْإِنْجِيل فهو" كلمة يونانيّة، معناها التّعليم الجديد أو البشارة، ويسمّى العهد الجديد، ويشتمل في سيرة المسيح عليه السلام وبعض تعاليمه على أربعة أناجيل هي: إنجيل متّى ويوحنا ومرقس ولوقا، وعلى أعمال الرّسل (الحواريين)، ورسائل بولس وبطرس ويوحنا ويعقوب، ورؤيا يوحنا، وهي كلّها مكتوبة بعد قرن أو قرنين من وفاة المسيح، وليس لها سند متّصل إلى كاتبها"[8].

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

"نزَّل عليك أيُّها النّبيُّ ﷺ القرآنَ بالصّدق في الأخبار والعدل في الأحكام، موافقًا لما سبقه من الكتب الإلهيَّة، فلا تعارض بينها، وأنزل التَّوراة على موسى، والإنجيل على عيسى"[9]، فالقرآن أنزل

لا تعارض بين القرآن والكتب السّماويّة الصّحيحة

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 1/398.
(2) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 4/5.
(3) الزّمخشريُّ، الكشاف: 1/335.
(4) ابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 1/398.
(5) البيضاويُّ، أنوار التّنزيل: 2/5.
(6) أبو حيَّان، البحر المحيط: 3/5، قال الرّازيّ: "فالتّوراة والإنجيل اسمان أعجميان: أحدهما بالعبريّة، والآخر بالسّريانيّة، فكيف يليق بالعاقل أن يشتغل بتطبيقهما على أوزان لغة العرب، فظهر أنّ الأولى بالعاقل أن لا يلتفت إلى هذه المباحث"، ينظر: الرازي، مفاتيح الغيب: 7/132.
(7) الزّحيلّي، التّفسير المنير: 3/144.
(8) الزّحيلّي، التّفسير المنير: 3/144.
(9) المختصر في تفسير القرآن الكريم: 1/50.

بالحقّ، وهو يدعو إلى الحقّ والعدل، فهو الحقّ الملازم للحقّ، وهو مصدّق لما بين يديه؛ من الشّرائع الإلهيّة الّتي سبقته؛ وهذا يدلّ على أنّ الشّرائع الإلهيّة واحدة، في لبّها ومعناها وأصولها[1].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

سرُّ الإخبارِ بالفعلِ نزَّل:

القرآنُ كتابُ اللهِ المنزَّلُ من اللهِ على رسولِه صدقًا وحقًّا وامتنانًا

قوله: "﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ خَبَرٌ عَنِ اسْمِ الْجَلَالَةِ، وَالْخَبَرُ هُنَا: مُسْتَعْمَلٌ فِي الِامْتِنَانِ على النَّبِيِّ ﷺ وذلك واضح في كاف الخطاب في قوله: ﴿عَلَيْكَ﴾ التي فيها مؤانسة للرَّسول ﷺ وعبَّر بالاستعلاء في قوله: ﴿عَلَيْكَ﴾؛ إشارة إلى عُلُوِّ الكتاب، وعلوِّ المُنَزَّل عليه.

ومن أسرار الإخبار بالفعل ﴿نَزَّلَ﴾: دلالته على التَّعْرِيضِ وَالنِّكَايَةِ بِأَهْلِ الْكِتَابِ الَّذِينَ أَنْكَرُوا ذَلِكَ، وَجِيءَ بِالْمُسْنَدِ فِعْلًا؛ لِإِفَادَةِ تَقْوِيَةِ الْخَبَرِ، أَوْ لِلدَّلَالَةِ - مَعَ ذَلِكَ - عَلَى الِاخْتِصَاصِ، أَيِ: اللهُ لَا غَيْرُهُ نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ؛ إِبْطَالًا لِقَوْلِ الْمُشْرِكِينَ: إِنَّ الْقُرْآنَ مِنْ كَلَامِ الشَّيْطَانِ، أَوْ مِنْ طَرَائِقِ الْكِهَانَةِ، أَوْ يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ"[2].

الفرقُ بين صيغةِ ﴿نَزَّلَ﴾ وصيغة ﴿وَأَنزَلَ﴾ في قوله: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾، ﴿وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾:

النُّزولُ يكونُ مرَّةً واحدةً، والتَّنزيلُ يكونُ على دَفَعَاتٍ

تعدَّدت أقوال العلماء في هذه المسألة: فمنهم من فرَّق، ومنهم من قال بعدم الفرق، ورأى أنَّ ذلك من باب التَّفنن والاحتراز عن التَّكرار:

الفريق الأول: رأى فريقٌ من العلماءِ أنَّ الفعل ﴿نَزَّلَ﴾ له دلالة تختلف عن ﴿وَأَنزَلَ﴾، وذلك من خلال التَّضعيف في الفعل ﴿نَزَّلَ﴾ الذي يدلُّ بصيغته على نزول القرآن مُنَجَّمًا، بخلاف الفعل المُتَعَدِّي بالهمز؛ فإنَّه يَدلُّ على النُّزول جملة واحدة، ودليل ذلك أنَّ صيغة

(1) المختصر في تفسير القرآن الكريم: 1/50.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/147.

فَعَّل تدلُّ على التكثير والتنجيم؛ لذلك استُعملت مع نزول القرآن؛ لأنَّه نزل تدريجيًّا، ولذلك سمِّي الكتاب العزيز: تنزيلاً؛ لأنَّه لم ينزل جملة واحدة، بل سورة سورة، وآية آية، ويدلُّ على هذا المعنى الصِّيغة كما سبق، وشاهد التاريخ، في استمرار نزول القرآن لمدة ثلاثة وعشرين عامًا.

ويؤكِّد ذلك الرَّاغب الأصفهانيُّ بقوله: "والفرق بين الإنزال والتَّنزيل في وصف القرآن والملائكة: أنَّ التنزيل يختصُّ بالموضع الذي يشير إليه إنزاله مُفرَّقًا، ومرَّة بعد أخرى، والإنزال أعمُّ من أن يكون تدريجيًّا، وذكر شواهد على ذلك.

الفريق الثاني: يرى عدم الفرق بينهما، وأنَّهما بمعنًى واحد، ومن هؤلاء الشيخ زكريا الأنصاريّ، حيث ضعَّف الرأي الأوَّل لعدم اطِّراده، وردَّ على ذلك بقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلۡقُرۡءَانُ جُمۡلَةٗ وَٰحِدَةٗۚ﴾ [الفرقان: 32]. وبقوله: ﴿وَأَنزَلَ ٱلۡفُرۡقَانَۗ﴾؛ إن أُريد به القرآن، وبقوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ﴾"[1].

وذكر أنَّ وجه اختلاف اللَّفظين في النَّص أنَّهما وردا قريبين، فخالف الصِّيغة للاحتراز من التَّكرار، ثمَّ بيّن سبب تقديم المشدَّد ﴿نَزَّلَ﴾ بأنَّه جاء قُبيل قوله: ﴿مُصَدِّقٗا﴾، فجعلهما متعاقبين للاتِّفاق الصّوتي بالتَّضعيف الصّرفي، وهذا من بديع التَّوافق الصّوتيِّ: "قوله تعالى: ﴿نَزَّلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ﴾، إن قلتَ: كيف قال هنا: ﴿نَزَّلَ﴾، ثم قال: ﴿وَأَنزَلَ﴾ مرَّتين؟ قلتُ: للاحتراز عن كثرة التَّكرار، وخُصَّ المشدَّدُ بالأوَّل لمناسبته ﴿مُصَدِّقٗا﴾"[2]، وهذا نصٌّ عظيم بليغ.

والرَّاجح أنَّ الفعل ﴿نَزَّلَ﴾ له دلالة تختلف عن الفعل ﴿وَأَنزَلَ﴾، وبيان ذلك من خلال كلام الآلوسيِّ في هذه المسألة، فقال: عبَّر مع الكتاب، وهو القرآن بـ ﴿نَزَّلَ﴾ ؛ لأنَّ له نُزولين، من اللَّوح المحفوظ إلى بيت العزَّة في السَّماء الدُّنيا، والثَّاني من بيت العزَّة إلى النَّبيِّ ﷺ مُنَجَّمًا في ثلاث وعشرين سنة على المشهور، وأمَّا التوراة والإنجيل؛ فلهما نزول واحد، عبَّر عنه بـ ﴿وَأَنزَلَ﴾[3].

(1) الأنصاري، فتح الرحمن: 1/77.
(2) الأنصاري، فتح الرحمن: 1/77.
(3) الآلوسيُّ، روح المعاني: 3/76.

وما ذكره الآلوسيُّ هو المناسب للسِّياق؛ لأنَّ الآيات التي نزلت في صدر سورة آل عمران نزلت بسبب وفد نصارى نجران، فجاءت الآيات ردًّا على مزاعمهم، وهذا شاهد على نزول القرآن مُنجَّمًا.

توجيه المخصوصِ بالذِّكرِ:

خُصَّ النَّبيُّ بذكر تنزيلِ القُرآنِ عليه تشريفًا له وتخصيصًا

لسائلٍ أن يسألَ عن سِرِّ ذكرِ من نُزِّلَ عليه القرآنُ وهو محمَّدٌ ﷺ، ولم يذكر على من نزلَت التَّوراةُ والإنجيلُ؟ وذلك "تَخْصِيصًا لَهُ وَتَشْرِيفًا بِالذِّكْرِ"[1]، و"لأنَّ القصد هنا ليس إلَّا ذكر الكتابَينِ، لا ذكر من نُزلا عليه"[2]، وللإيماءِ بأنَّه الخاتمُ، وأنَّه إمامُ المرسلين، فذِكرُه سادٌّ عن ذكرِ غيرِه، كما أنَّ القرآنَ مهيمنٌ على بقيَّة الكتبِ التي نزلتْ.

سِرُّ التّعبيرِ بحرفِ الاسْتِعلاءِ دونَ حرفِ الغَايةِ:

المقصودُ بالإنزالِ العلوُّ والشَّرفُ أصالةً، والتَّبليغُ تَبَعًا

آثرَ النَّظمُ التَّعبيرَ بحرفِ الاستعلاءِ، فقال: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ﴾ ولم يقل: (إليك)، وعند تأمل القرآن، نجد أنَّ مادة (الإنزال) تتعدَّى مرَّة بحرف الجرِّ (على) وأخرى بـ (إلى)، وكلُّ حرف منهما له دلالة: فـ (إلى) لانتهاء الغاية، و(على) تفيد الاستعلاء، وعلى هذا؛ إذا تعدَّى الفعل بـ (على)؛ أفاد النُّزول من جهة العُلوِّ دون سائر الجهات، وهذا يدلُّ على التَّشريف والتَّكريم، أمَّا إذا تعدَّى بـ (إلى)؛ فالمراد بنزوله: التبليغ، وعلى ذلك؛ فأمر نزول القرآن له مرحلتان: الأولى: مرحلة التلقِّي، وفيها يأتي حرف (على) للدَّلالة على الشَّرف والرِّفعة، والثَّانية: مرحلة التبليغ، وفيها يأتي التعدِّي بحرف الجرِّ (إلى)؛ لأنَّ الغرض هو تبليغ القرآن إلى الأمَّة، أي: ينتهي أمر البلاغ إليهم، والمقصودُ في هذا السِّياقِ المرحلةُ الأولى أصالةً، والثَّانية تبَعًا.

(1) أبو حيَّان، البحر المحيط: 3/14.

(2) القنّوجي، فتح البيان: 2/172، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السليم: 2/4.

بلاغةُ تقديمِ ﴿عَلَيۡكَ﴾ على ﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾ والإتيانُ بضميرِ الخطابِ:

آثرَ النَّظمُ تقديمَ الظَّرفِ ﴿عَلَيۡكَ﴾ على المفعول ﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾؛ للاعتناء بالمقدَّم، وهو رسولُ اللّٰه ﷺ، والتَّشويقِ إلى المؤخَّر[1]، "وَجَاءَ بِذِكْرِ الْخِطَابِ لِمَا فِي الْخِطَابِ مِنَ الْمُؤَانَسَةِ"[2].

معنى التَّعريفِ في الكتاب:

التَّعريف في لفظ الكتاب يدلُّ على أنَّه الكتاب المطلق الَّذي تحدَّى اللّٰه به، ومن شكَّ في ذلك؛ فلينظرْ لما في القرآن من قصص وأحكام وتشريع ومواعظ؛ فإنَّه لن يجد إلَّا الكمال المطلق الَّذي تحدَّى اللّٰه به النَّاسَ؛ لأنَّه كتاب أُحكمت آياته.

فائدةُ التَّعبيرِ بالكتابِ دون القرآنِ:

إشـارةٌ إلى أمرٍ غيبيٍّ، في زوالِ الأميَّةِ واكتمالِ القرآنِ

اختار النَّظمُ التّعبيرَ باسم الكتابِ دون القرآنِ؛ والمقصودُ بالْكِتَابِ في قولِه تعالى: ﴿نَزَّلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ﴾: الْقُرْآنُ، باتِّفَاقِ الْمُفَسِّرِينَ[3]، وذلك لمجموعةٍ من الفوائدِ:

أوَّلًا: ما يحمله هذا الاسم من دعوةٍ لأهلِ الكتاب للإيمان به ﷺ؛ ففيه إيماءٌ إلى أنَّه كتابٌ كما أنَّ لهم كتبًا أُنزلتْ على أنبيائهم، والمصدر واحد، فالإيمانُ ببعضِها والكفرُ ببعضِها الآخر تناقضٌ.

ثانيًا: الإيماءُ إلى أنَّه الكتابُ الجامع لكلِّ أصول الكُتُبِ السَّابقة، فهو الحقيق بهذا الاسم، ويؤكِّد هذا؛ التّصريحُ باسمِ التَّوراة والإنجيل دون الإشارةِ إلى أنَّهما كتابان.

ثالثًا: الإشارة إلى زوال الأميَّة من العرب؛ لأنَّهم سيكتبون هذا الكتاب.

رابعًا: تأنيسٌ للنَّبيِّ ﷺ رغم عنادِ أهلِ الكتاب باكتمال نزولِه؛ لأنَّ الكتابة تعني: الضَّمَّ والجمع، إذن فالقرآن سيُضمُّ، وسيجمع كلَّ أصولِ كتب السَّابقين.

---

(1) القنّوجي، فتح البيان: 2/171، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 2/4.

(2) أبو حيَّان، البحر المحيط: 3/14.

(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/14.

هيمنةُ القرآنِ على بقيَّةِ الكتبِ فهو الحقيقُ باسمِ الكتابِ

خامسًا: التَّعبيرُ "باسم الجنسِ إيذانًا بكمال تفوُّقه على بقيَّة الأفراد في حيازة كمالاتِ الجنس؛ كأنَّه هو الحقيقُ بأن يُطلَقَ عليه اسمُ الكتاب دون ما عداه، كما يلوِّح به التَّصريحُ باسمي التوراةِ والإنجيل"[1].

معنى الباء في قوله: ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾:

نـزَّل الكتابَ بسببِ الحقِّ، ومُلتبسًا به، ومُضمَّنًا مَعانِيَه

حرفُ الباءِ في قولِه: ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾ "فيه وجهان:

أحدهما: أن تتعلَّق الباءُ بالفعل قبلها، والباء حينئذٍ للسّببية، أي: نزَّله بسبب الحقِّ.

ثانيهما: أن يتعلَّق بمحذوف على أنَّه حال، إمَّا من الفاعل، أي: نزَّله مُحِقًّا، أو من المفعول، أي: نزَّله مُلتبسًا بالحقِّ، نحو: جاء بكر بثيابه، أي: مُلتبسًا بها"[2].

وقال ابنُ عطيَّة زيادةً في توضيح معنى الباءِ، وهو دائرٌ على معنى السَّببيَّةِ والالتباسِ: "قوله: ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾ يحتمل معنيين: أحدهما: أن يكون المعنى ضُمِّن الحقائق من خيره وأمره ونهيه ومواعظه، فالباء على حدِّها في قوله: جاءني كتاب بخبر كذا وكذا، أي: ذلك الخبر مقتصٌّ فيه، والثَّاني: أن يكون المعنى أنَّه نزَّل الكتاب باستحقاق أن ينزِّل لما فيه من المصلحة الشاملة، وليس ذلك على أنَّه واجب على اللّه تعالى أن يفعله، فالباء في هذا المعنى على حدِّها في قوله تعالى حكاية عن عيسى عليه السلام: ﴿سُبۡحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أَقُولَ مَا لَيۡسَ لِي بِحَقٍّۚ﴾ [المائدة: 116]"[3].

سِرُّ اختيارِ وصف الحقِّ دون غيره من الأوصافِ:

اختارتِ الآيةُ مفردةَ ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾؛ لأنَّه يطلق على الشَّيء الثَّابت الذي لا يتغيَّر، ويطلق على اللّه تعالى، وعلى وحيه، وفي هذا دلالة

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السليم: 2/4، ومحمد علي جميل، صفوة التفاسير: 1/168.
(2) ابن عادل، اللباب: 5/13.
(3) ابن عطية، المحرَّر الوجيز: 1/397.

على تكذيب الله لنصارى نجران فيما قالوه في حقِّ عيسى عليه السلام، فهي أقوال باطلة، لا تمتُّ إلى الحقِّ بصِلة، ويطلق أيضًا على الصِّدق، فهو صادق في كلِّ الأخبار، ومنها ما أخبر به في حقِّ عيسى عليه السلام.

الحقُّ لفظٌ عامٌّ يشملُ أفرادًا كثيرةً ويردُّ أباطيلَ لا تُحَدُّ كَثْرَةً

وجيءَ بلفظِ الحقِّ لما تضمَّنه من المعاني العظيمةِ، مُلخَّصها في الآتي:

أحدها: أَنَّهُ صَدَقَ فِيمَا تَضَمَّنَهُ مِنَ الْأَخْبَارِ عَنِ الْأُمَمِ السَّالِفَةِ.

ثَانِيهَا: أَنَّ مَا فِيهِ مِنَ الْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ يَحْمِلُ الْمُكَلَّفَ عَلَى مُلَازَمَةِ الطَّرِيقِ الْحَقِّ فِي الْعَقَائِدِ وَالْأَعْمَالِ، وَيَمْنَعُهُ عَنْ سُلُوكِ الطَّرِيقِ الْبَاطِلِ.

ثَالِثُهَا: أَنَّهُ حَقٌّ بِمَعْنَى: أَنَّهُ قَوْلٌ فَصْلٌ، وَلَيْسَ بِالْهَزْلِ.

رَابِعُهَا: قَالَ الْأَصَمُّ: الْمَعْنَى: أَنَّهُ تَعَالَى أَنْزَلَهُ بِالْحَقِّ الَّذِي يَجِبُ لَهُ عَلَى خَلْقِهِ مِنَ الْعُبُودِيَّةِ، وَشُكْرِ النِّعْمَةِ، وَإِظْهَارِ الْخُضُوعِ، وَمَا يَجِبُ لِبَعْضِهِمْ عَلَى بَعْضٍ مِنَ الْعَدْلِ وَالْإِنْصَافِ فِي الْمُعَامَلَاتِ.

خَامِسُهَا: أَنْزَلَهُ بِالْحَقِّ لَا بِالْمَعَانِي الْفَاسِدَةِ الْمُتَنَاقِضَةِ، كَمَا قَالَ: ﴿أَنزَلَ عَلَىٰ عَبۡدِهِ ٱلۡكِتَٰبَ وَلَمۡ يَجۡعَل لَّهُۥ عِوَجَاۜ ١﴾ [الكهف: 1][1].

سرُّ التَّعبيرِ بصيغةِ ﴿مُصَدِّقًا﴾ دون صادق:

قـوَّةُ القـرآنِ وهيمنتُه على بقيَّةِ الكتبِ في صدقِه وتصديقِه لها

اختار النَّظمُ التَّعبير بصيغةِ ﴿مُصَدِّقًا﴾ دون (صادِق)؛ لمجموعةٍ من الفوائد:

أوَّلًا: الإشارة إلى أنَّه صادق في ذاته مُصدِّقٌ لغيره، بخلاف صادق؛ فهو يدلُّ على الصِّدقِ في ذاته فقط.

ثانيًا: الإيماءُ إلى صحَّة القرآن الكريم، وأنَّه كلام الله تعالى لاتِّفاقه في الأصول التي دعت إليها الكتب السَّابقة، وفي هذا إشارة إلى الاعتراف بها؛ لأنَّه لو كان من عند غير الله، لم يكن موافقًا لها، ولا مُتَّفقًا معها.

(1) الرَّازيُّ، مفاتيح الغيب: 7/130.

ثالثًا: الإشارة إلى تأكيد وجوب إيمانهم به ﷺ وما أُنزل عليه؛ لأنَّ إيمانهم بما معهم يقتضي الإيمان بما يصدِّقه.

القرآنُ صدَّق أصولَ الكتبِ السَّابقةِ، ونسخَ مُعظمَ فروعِها

ومعنى تصديق القرآن للكتبِ السَّابقةِ، أنَّه صدَّقَ أصولها؛ لما فيها من الشَّرائع والأحكام؛ لأنَّه مصدِّقٌ لاستحقاق تلك الأحكام وجريانها وقت نزولها، ثمَّ نسخها؛ "فَالْقُرْآنُ مُصَدِّقٌ لِتِلْكَ الْكُتُبِ فِي كُلِّ ذَلِكَ، وَالْقُرْآنُ، وَإِنْ كَانَ نَاسِخًا لِشَرَائِعِ أَكْثَرِ الْكُتُبِ؛ فَهِيَ مُبَشِّرَةٌ بِالْقُرْآنِ وَبِالرَّسُولِ، وَدَالَّةٌ عَلَى أَنَّ أَحْكَامَهَا تَثْبُتُ إِلَى حِينِ بِعْثَةِ اللَّهِ تَعَالَى رَسُولَهُ - ﷺ -، وَأَنَّهَا تَصِيرُ مَنْسُوخَةً عِنْدَ نُزُولِ الْقُرْآنِ، فَقَدْ وَافَقَتِ الْقُرْآنَ، وَكَانَ مُصَدِّقًا لَهَا؛ لِأَنَّ الدَّلَائِلَ الدَّالَّةَ عَلَى ثُبُوتِ الْإِلَهِيَّةِ لَا تَخْتَلِفُ"[1].

اللَّامُ في قوله: ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ لتقويةِ ﴿مُصَدِّقًا﴾ في العملِ:

جاء لفظُ ﴿مُصَدِّقًا﴾ في قوله ﷻ: ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ متعدّيًا باللّام، دون أن يتعدَّى بنفسِه؛ لتقويةِ التَّعدية[2]، أي: لتقوية العامل وهو ﴿مُصَدِّقًا﴾؛ لكونه اسم فاعل، وهو فرعٌ في العمل[3]، إذِ "اللامُ دِعامةٌ لتقويةِ العملِ، نحوُ: ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾﴾ [هود: 107] "[4]، فقول اللّه تعالى: ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾، أقوى من: (مصدقًا ما بين يديه)، ففيها معنى التَّوكيدِ والثَّباتِ وقصدِ التَّصديقِ.

بلاغة التَّعبير عنِ الماضي بقولِه تعالى: ﴿بَيْنَ يَدَيْهِ﴾:

تصويرُ حُضُورِ المُصدَّقِ بين يَدَيِ المُصدِّقِ لَه

لسائلٍ أن يسألَ: "كَيْفَ سَمَّى مَا مَضَى بِأَنَّهُ ﴿بَيْنَ يَدَيْهِ﴾؟ وَالْجَوَابُ: أَنَّ تِلْكَ الْأَخْبَارَ لِغَايَةِ ظُهُورِهَا سَمَّاهَا بِهَذَا الِاسْمِ"[5]؛ فهي ظاهرةٌ واضحةٌ لا لُبسَ فيها كأنَّها بين يديه.

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/15.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/15.
(3) زاده، حاشية على البيضاوي: 3/5.
(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 2/4، والقنّوجي، فتح البيان: 2/171.
(5) الرَّازيُّ، مفاتيح الغيب: 7/131.

وهذا التَّعبيرُ مجازٌ؛ "لأنّ ﴿ لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ هو ما أمامه، فسمَّى ما مضى: ﴿بَيْنَ يَدَيْهِ﴾؛ لغايةِ ظهورِه واشتهارِه"[1]، "وَجُعِلَ السَّابِقُ بَيْنَ يَدَيْهِ؛ لِأَنَّهُ يَجِيءُ قَبْلَهُ، فَكَأَنَّهُ يَمْشِي أَمَامَهُ"[2]، وتظهر بلاغةُ هذا التَّعبير عن هذا المعنى في تصوير حضورِ المُصدَّقِ بين يَدَي المُصدِّقِ لَه.

التَّعبيرُ بقولِه: ﴿بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ يحملُ بَيْنَ يديه دلالاتٍ تاريخيَّةً وزمانيَّةً، ولسائلٍ أن يسألَ: إذا نظرنا إلى الكتب السَّماويَّة حسب واقعها التاريخيِّ؛ نجد أنَّ القرآن الكريم هو الذي بين يدي الكتب السَّماويَّة، وليست هي التي بين يديه؛ لأنَّه جاء إلى الوجود تاليًا لا سابقًا عليها، فكيف تكونُ هي بين يديه؟!

القُرآنُ متقدِّمٌ في المكانةِ مهيمنٌ على السَّابق فأصبح بهذا الاعتبارِ متقدِّمًا

ويجيب الشَّيخ عبد الكريم الخطيب على هذا السُّؤال الذي أورده بقوله: الكتب السَّماويَّة ليست أحداثًا حادثة، وإنَّما هي وقائع في علم اللّه تعالى موجودة من الأزل، شأنها شأن جميع ما في علم اللّه، وظهورها وانكشافها لنا يجيء موقوتًا بإرادة اللّه مقدورًا بحكمته، ففي سير الأحداث من سجلِّ الغيب، وظهورها على مسرح حياتنا، نجد أنَّ الكتب السَّماويَّة جميعها تقدَّمت القرآن الكريم واحدًا واحدًا، والسَّابق منها بين يدي اللَّاحق، وبهذا التقدير تقع جميعها بين يدي القرآن، وليس الأمر كذلك في حركة التَّاريخ، حيث تُطوى الأحداث التي تَجِدُّ، فكلُّ حدثٍ جديد في هذه الحركة يمشي على آثار الحدث الذي مضى، ويخلفه وراءه، وحركة الزَّمن ليست على تلك الصُّورة، إنَّها حركة واحدة.

وعندما ننظر إلى القرآن الكريم في هذا الوضع نجده قد أخذ مكانه من الكتب السَّماويَّة كمصدر إشعاع لها، ومركز انطلاق لكلمات اللّه منها، وكأنَّها - أي: الكتب السابقة - تمهِّد له الطريق، وتهيِّئ له الأفق الذي يستقبله حين يطلُع على النَّاس، ويملأ الوجود بنوره القدسيِّ[3].

(1) القنّوجي، فتح البيان: 2/171.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/148.
(3) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 1/395.

توجيه المخصُوصِ بالذِّكرِ:

تشريفُ التَّوراةِ والإنـــجـــيـــلِ بـالـذِّكـرِ، غايتُه تشريفُ الكتابِ المصدِّق لهما

قولُه: ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ يشملُ جميعَ الكُتُبِ المتقدِّمة؛ لكنَّه خَصَّ التوراة والإنجيل بالذِّكر مع دُخولِهما فيما سبقَ؛ تشريفًا لهما[1]، وتعيينًا لما بين يديه، وتبيينًا "لرفعة محلِّه؛ تأكيدًا لما قبله وتمهيدًا لما بعده؛ إذ بذلك يترقَّى شأنُ ما يصدِّقه رفعةً ونباهةً، ويزداد في القلوب قبولًا ومهابةً، ويتفاحش حالُ من كفرَ بهما في الشَّناعة واستتباعِ ما سيذكر من العذاب الشَّديد والانتقام"[2].

(1) الرَّاغب، تفسير الراغب: 2/408.

(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السليم: 2/4.

﴿مِن قَبۡلُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلۡفُرۡقَانَۗ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٞ ذُو ٱنتِقَامٍ ٤﴾ [آل عمران: 4]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الرّبط بين إرسال الرّسل وإنزال الكتب، وبين هداية من آمن وعقاب من كفر

"لَمَّا قَرَّرَ تَعَالَى أَمْرَ الْإِلَهِيَّةِ، وَأَمْرَ النُّبُوَّةِ، وبيَّن أنَّه أنزل التّوراة والإنجيل من قبل إنزال القرآن؛ أوضح هنا أنَّه أنزلهما هُدى للنَّاس، وفي هذا بيان لوظيفتيهما في دعوة أتباعهما إلى الإيمان بالقرآن، وما فيه من آيات، ثمّ حذَّر، وتَوَعَّدَ مَنْ كَفَرَ بِآيَاتِ اللَّهِ مِنْ كُتُبِهِ الْمُنَزَّلَةِ وَغَيْرِهَا بِالْعَذَابِ الشَّدِيدِ، مِنْ عَذَابِ الدُّنْيَا: كَالْقَتْلِ وَالْأَسْرِ وَالْغَلَبَةِ، وَعَذَابِ الْآخِرَةِ: كَالنَّارِ"[1]، لأنّهم من "الَّذِينَ كَفَروا، وَجَحَدُوا بِآيَاتِ اللهِ النَّاطِقَةِ بِتَوْحِيدِهِ، وَتَنْزِيهِهِ عَمَّا لا يَلِيقُ بِعِزَّةِ جَلالِهِ، فَكَذَّبُوا بِالْقُرْآنِ، ثُمَّ بِسَائِرِ الْكُتُبِ تَبَعًا لِذَلِكَ، وَأَنْكَرُوها"[2].

شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلۡفُرۡقَانَۗ﴾: "وهو مأخوذٌ من فَرَقَ، والفرق: يقال اعتبارًا بالانفصال، يقال: فرقت بين الشّيئين؛ فصلت بينهما، سواءٌ كان ذلك بفصلٍ يدركه البصر أم بفصلٍ تدركه البصيرة، والفرقان أبلغ من الفرق؛ لأنَّه يستعمل في الفرق بين الحقِّ والباطل، ومن ذلك قوله ﴿يَوۡمَ ٱلۡفُرۡقَانِ﴾ [الأنفال: 41]، أي: اليوم الذي يُفَرَّق فيه بين الحقِّ والباطل، والحُجَّة والشُّبهة ".[3] ومعنى ﴿وَأَنزَلَ ٱلۡفُرۡقَانَۗ﴾، أي: ما فُرِّق به بين الحَقِّ والباطِل، ورُوي عَنْ بَعْض المفسّرين: أنَّ كلَّ كتابٍ للَّهِ فُرْقَان"[4]، "من الفرق بين الحقِّ والباطل، فحروفها مختلفة،

(1) أبو حيَّان، البحر المحيط: 3/18.
(2) أسعد حومد، أيسر التّفاسير، ص: 298.
(3) الرَّاغب، المفردات: (فرق).
(4) الزَّجَّاج، معاني القرآن وإعرابه: 1/375.

والمعنى قريب بعضه من بعض؛ إذ كلُّها معناه، ظهور الحقِّ، وبيان الشَّرع، وفصله من غيره من الأباطيل"[1]، وللفُرقان في التَّنْزيل مَوَاضِع، فَمِنْهُ قَوْله ﷻ: ﴿نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ﴾، أَي الْقُرْآن، والفُرْقان: النَّصْر، وَمِنْه قَوْله جلّ ثَنَاؤُهُ: ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ﴾ [الأنفال: 41]، أَي يَوْم النَّصْر، يَعْنِي يَوْم بدر، والفُرْقان: البُرْهان، وَهَذَا مستقصى فِي كتاب لُغَات الْقُرْآن[2]، وقد قالوا: " وكلّ ما فُرِّقَ به بين الحقّ والباطل فهو فُرْقانٌ، فلهذا قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ﴾ [الأنبياء: 48] "[3].

2) ﴿عَزِيزٌ﴾: من العِزَّة، وهي حالة مانعةٌ للإنسان من أن يُغلب، من قولهم: أرض عزاز، أي: صُلبة، والعزيز: الغالب الممتنع على من يريده بالقهر والغلبة، الذي يَقهر، ولا يُقهر[4]، "﴿عَزِيزٌ﴾، معناه: غالبٌ، وقد ذلَّ له كلُّ شيء"[5]. "﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ﴾ غالب لا يُمنَع من التَّعذيب"[6]، والمشهور، أنّ العِزَّ: خلاف الذُّلّ، وعزّ الشيء يعزّ وعزّة وعزازة، إذا قلَّ لا يكاد يوجد، فهو عزيز، وفي المثل: (إذا عَزَّ أخوك فَهُنْ)، والدّليل على هذا المعنى، ما روي أنّ "العُزّى سمرة، كانت لغطفان يعبدونها، وكانوا بنوا عليها بيتا وأقاموا لها سدنة، فبعث إليها رسول الله ﷺ خالد بن الوليد، فهدم البيت، وأحرق السّمرة، وهو يقول: (يا عزّ كفرانك لا سبحانك. إنّي رأيت الله قد أهانك) "[7]، والإهانة عكس العزّة.

3) ﴿ذُو ٱنتِقَامٍ﴾: "والنِّقمة والانتقام: معاقبة المذنب بمبالغة في ذلك"[8]، "الِانْتِقَامُ: افْتِعَالٌ مِنَ النِّقْمَةِ، وَهُوَ السَّطْوَةُ وَالِانْتِصَارُ"[9]، و"عبّر بعضهم عنها بالمعاقبة"[10]، قال تعالى: ﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ﴾ [الأعراف: 136].

وقوله تعالى: ﴿ذُو ٱنتِقَامٍ﴾: من صفات الله تعالى، ومعناه: المبالغ في العقوبة لمن يشاء،

(1) ابن عطية، المحرَّر الوجيز: 1/399.
(2) الأزديّ، جمهرة اللّغة: 2/785.
(3) الجوهريّ، الصّحاح: (فرق).
(4) السمين، عمدة الحفاظ: (عزز).
(5) ابن عطية، المحرر الوجيز: 1/399.
(6) البيضاوي، أنوار التنزيل: 2/5.
(7) الجوهريّ، الصّحاح: (عزز).
(8) ابن عطية، المحرر الوجيز: 1/399.
(9) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/7.
(10) ابن عادل، اللّباب: 5/23.

المسلِّط بلاءه على العُصاة، ومن أسمائه المُنتقِم: ومعناه: المُبالغ في العقوبة لمن يشاء، المُسلِّط بلاءَه على العُصاة[1].

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

إنـــزال الـقـرآن تجديدا لهداية الكتب السّابقة، وإيعاد الكافرين بسوء العذاب

بيَّن اللّه تعالى في هذه الآية مخاطبًا نبيّه ﷺ، أنَّه " أنزل التّوراة على موسى، والإنجيل على عيسى عليهما السلام مِن قبل تنزيل القرآن عليك، وهذه الكتب الإلهيَّة كلُّها هداية وإرشاد للنّاس، إلى ما فيه صلاح دينهم ودنياهم، وأنزل الفرقان الّذي يعرف به الحقُّ من الباطل، والهدى من الضَّلال، ومعلوم أنّه قد أنزلت الرّسالات لعلاج ما يعرض في البيئات الّتي يرسل فيها الرّسول؛ بصورة محدودة في المكان والزّمان، أمّا رسالة القرآن، فعلاجٌ لما تعاني منه الإنسانيّة من أدواء، وتقرير ما يصلح لها، على اختلاف الأمصار، وتباعد الأقطار، حيث يحمل عناصر الكمال، الّتي تؤهّله للاستمرار إلى أن يقوم النّاس لربّ العالمين بيقين[2]؛ وأمّا الّذين كفروا بآيات اللّه الَّتي أنزلها على نبيّه، فلهم عذابٌ شديدٌ، واللّه عزيزٌ منتقم ممّن خالف دينه، وانتقامه ممَّن كذَّب رسله، وخالف أمره، "ليس تَشَفِّيًا وشفاء غيظ، كما هو الشّأن من البشر، بل انتقام اللّه عقوبة عادلة، وقصاص رادع"[3].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

تعدُّدُ التَّقديرِ بالإيجازِ بالحذف في قولِه: ﴿مِن قَبْلُ﴾:

الظَّرفُ في قولِه تعالى: ﴿مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ﴾، مضافٌ وحُذِفَ المضافُ إليه؛ "لفَهْم المعنى، تقديره: من قبلك، أو: من قبل الكتاب"[4]، أو: "مِنْ قَبْلِ هَذَا الزَّمَانِ، وَهُوَ زَمَانُ نُزُولِ الْقُرْآنِ"[5].

(1) أحمد مختار عمر، معجم اللّغة العربيّة المعاصرة: 3/2276، وما بعدها.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 2/1102، بتصرّف.
(3) أبو زهرة، المرجع السّابق نفسه: 2/1103.
(4) ابن عادل، اللباب: 5/20.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/149.

ويضاف في سرِّ مجيء ﴿مِن﴾ الابتدائيَّة في قوله: ﴿مِن قَبۡلُ﴾ أنَّها أفادت معنى: ابتداء الزمن؛ بخلاف لو قال: (قبل)؛ فلا يلزم منه نقطة البدء، فقد ينصرف إلى ما قبل التوراة والإنجيل، لكن ﴿مِن﴾ حدَّدت البداية الزمنيَّة، وبذلك تدخل التوراة والإنجيل دخولًا أوليًّا.

توجيهُ التَّعبير بذكرِ البدهيِّ من الكلامِ:

سُئِلَ ابنُ عرفة: ما الفائدة في قوله: ﴿مِن قَبۡلُ﴾، ولو أُسقط من الآيةِ؛ لم يختلَّ المعنى؛ لأنَّه معلوم أنَّ إنزالها قبل، وأنَّها هدًى للنَّاس من قبل؟ فأجاب:

"بأنَّكم جعلتم ﴿مِن قَبۡلُ﴾ متعلِّقًا بـ ﴿وَأَنزَلَ﴾ أو بـ ﴿ٱلتَّوۡرَىٰةَ﴾، وإنَّما يجعله متعلِّقًا بهدى، فتقول: تضمَّنت الآية أنّ هداية التَّوراة والإنجيل كان للنَّاس من قبل، وذلك غير معلوم، إنَّما كان المعلوم أنَّ إنزالها قبل الثَّاني، اقتضت من أوَّل أزمنة القبليَّة؛ إشارة إلى أنَّ هذا أمر معهود فيما سبق، وأنَّه ليس بأوَّل ما نزل، بل تقدَّمت كتب قبله، واستدام حكمها إلى أزمنة القبليَّة"[1].

المتعلِّق هو الهداية، وكونهما هادِيَيْنِ غير مقطوعٍ به لدى كثير من النَّاس

وهذا المعنى يُشير إليه قولُه: ﴿مِن قَبۡلُ﴾، ويؤكِّد ذلك ابن عاشور بقوله: "وَأَمَّا ذِكْرُ هَذَا الْقَيْدِ؛ فَلِكَيْ لَا يُتَوَهَّمَ أَنَّ هُدَى التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ مُسْتَمِرٌّ بَعْدَ نُزُولِ الْقُرْآنِ، وَفِيهِ إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّهَا كَالْمُقَدَّمَاتِ لِنُزُولِ الْقُرْآنِ الَّذِي هُوَ تَمَامُ مُرَادِ اللهِ مِنَ الْبَشَرِ: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ﴾ [آل عمران: 19]، فَالْهُدَى الَّذِي سَبَقَهُ غَيْرُ تَامٍّ"[2].

الإشارةُ إلى انقطاعِ هداية التوراة والإنجيل بعد القرآن

سرُّ إفرادِ هدًى في قوله: ﴿مِن قَبۡلُ هُدٗى لِّلنَّاسِ﴾:

أفردَتِ الآيةُ ذِكرَ الهدى في قولِه: ﴿مِن قَبۡلُ هُدٗى لِّلنَّاسِ﴾، وذلك لأمرٍ صناعيٍّ، من ورائه معنًى معنويٌّ، أمَّا الصِّناعيُّ؛ فالمصادرُ لا

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/346.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/149.

تُثنَّى، ولا تُجمع، وجيء بالمصدر للمبالغة، وأمَّا المعنويُّ؛ فالهُدى أصله ومصدره واحدٌ، فلا يمكن أن يتعدَّد أو يتشعَّب؛ لأنَّه ليس له إلا طريق واحد صادرٌ عن الذَّات الإلهيَّة: ﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ﴾؛ ولذلك ورد وصف الهدى للقرآن الكريم، وللكتب السَّماويَّة كالتَّوراة والإنجيل بلفظٍ واحد؛ للدلالة على توَحُّد المصدر في الهداية.

أُفـــردَ الـهـدى لأمـرٍ صناعيٍّ، وآخـر معنويّ، فـهـدى الـكـتـبِ السَّماويةِ واحدٌ

سِرُّ التَّعبير بالنّاس دون بني إسرائيل:

آثر القرآن التَّعبير بالنَّاس، وإن كان المرادُ: "بني إسرائيل في هذا الموضع؛ لأنَّهم المدعوُّون بهما لا غير، وهذا لا يمنع أن تُعمَّم هدايتهما؛ لأنَّهما هدًى في ذاتهما، فكلُّ إنسان مدعوٌّ للإفادة من هدايتهما، وعلى ذلك؛ فلفظُ الناس عامٌّ في كلِّ من شاء أن يستبصر"[1]، وتكون الهداية لغيرهما من باب قاعدة: شرع من قبلنا شرعٌ لنا؛ ما لم يُنسخ.

التَّوراةُ والإنجيلُ فيهما نوعُ هدايةٍ لكلِّ النَّاسِ

سِرُّ وصفِ القُرآنِ بالحقِّ، والتوراةِ والإنجيلِ بالهُدى:

وُصفتِ التَّوراةُ والإنجيلُ بالهدى في هذه الآيةِ، ولم يُنصَّ فيها على وصفِ القرآنِ بأنَّه هدًى مع ذكرِ ذلك في سورة البقرةِ؛ وَذَلِكَ لِأَنَّ المذكورَ "فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ أَنَّهُ إِنَّمَا قَالَ: ﴿هُدَى لِّلۡمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: 2]؛ لِأَنَّهُمۡ هُمُ الْمُنْتَفِعُونَ بِهِ، فَصَارَ مِنَ الْوَجْهِ هُدًى لَهُمْ لَا لِغَيْرِهِمْ، أَمَّا هَاهُنَا؛ فَالْمُنَاظَرَةُ كَانَتْ مَعَ النَّصَارَى، وَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ بِالْقُرْآنِ، فَلَا جَرَمَ لَمْ يَقُلْ هَاهُنَا فِي الْقُرْآنِ: إِنَّهُ هدًى، بَلْ قَالَ: إِنَّهُ حَقٌّ فِي نَفْسِهِ سَوَاءٌ قَبِلُوهُ أَمْ لَمْ يَقْبَلُوهُ، وَأَمَّا التَّوْرَاةُ وَالْإِنْجِيلُ؛ فَهُمْ يَعْتَقِدُونَ فِي صِحَّتِهِمَا وَيَدَّعُونَ بِأَنَّا إِنَّمَا نَتَقَوَّلُ فِي دِينِنَا عَلَيْهِمَا، فَلَا جَرَمَ وَصَفَهُمَا اللَّهُ تَعَالَى لِأَجْلِ هَذَا التَّأْوِيلِ بِأَنَّهُمَا هدًى، فَهَذَا مَا خَطَرَ بِالْبَالِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ"[2].

مناسبةُ المُناظرةِ مـع الـنَّـصـارى تـقـتـضي إيـثـارَ وصـفِ الـقـرآنِ بالحقِّ

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 1/399.

(2) الرَّازيُّ، مفاتيح الغيب: 7/133، وابن عادل، اللباب: 5/21.

تخصيص هداية القرآنِ بالمتقين وهداية التوراة والإنجيل بالنَّاس:

جاءَ ذكرُ النَّاس في هدايةِ التَّوراةِ والإنجيلِ، فقال: ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ﴾، "وقال في القرآن: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢﴾ [البقرة: 2]؛ لأنَّ هذا خبر مجرَّد، وقوله: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: 2] خبر مقترن به الاستدعاء والصّرف إلى الإيمان، فحسنت الصِّفة؛ ليقع من السَّامع النشاط والبدار"(1)، وخصّصه القرطبيُّ فجعل الهداية هنا خاصَّة بالمتَّقين: "التَّقْدِيرُ هُدًى لِلنَّاسِ الْمُتَّقِينَ، دَلِيلُهُ فِي الْبَقَرَةِ "هُدًى لِلْمُتَّقِينَ" فَرَدَّ هَذَا الْعَامَّ إِلَى ذَلِكَ الْخَاصِّ"(2).

وبناءً على هذا فالهداية على مراتب: فمنها هدايةُ الدلالةِ والإرشادِ، وهذا عامٌّ لكلِّ النَّاس، وهداية التوفيق والعناية، وهي للمتقين؛ لأنَّهم انتفعوا بما دلَّهم عليه القرآن.

دلالةُ لفظِ الفرقانِ في قولِه تعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ﴾:

الفرقانُ وصفٌ صالحٌ أن تتَّصفَ به جنسُ الكتبِ السَّماويَّة

فإن قيل: ما المراد بالفرقان بعد ذكرِ التَّوراةِ والإنجيل؟ قلت: "جنس الكتب السَّماويَّة؛ لأنَّ كلَّها فرقان يفرِّق بين الحقِّ والباطل، أو الكتب التي ذكرها، كأنَّه قال بعد ذكر الكتب الثَّلاثة: وأنزل ما يفرِّق به بين الحقِّ والباطل من كتبه، أو من هذه الكتب، أو أراد الكتاب الرابع، وهو الزَّبور، كما قال: ﴿وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ۝١٦٣﴾ [النساء: 163]، وهو ظاهر"(3).

فُرقانُ القرآن أشملُ من غيرِه لتراخِي نُزولِه

وصف القرآن بالفرقان؛ لفائدة خاصَّة به تعظيمًا لشأنه، حيث فرَّق بين الحقِّ والباطل في الأحكام والتشريعات في الكتب السابقة، ولا سيِّما التوراة والإنجيل، وأيضًا؛ لأنَّه فرَّق بين الحقِّ والباطل في أمر عيسى عليه السلام حين جادل وفد نصارى نجران، وزعموا أنَّه ابن

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 1/399.
(2) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 4/6.
(3) الزمخشري، الكشاف: 1/336، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 2/5، وأبو حيّان، البحر المحيط: 3/17، ابن عادل، اللباب: 5/22.

اللّه، فنزل القرآن؛ ليفرِّق بين الحقِّ والباطل فيما قالوه، وفي ذلك تفضيل للقرآن في فرقانه على الكتب السَّابقة.

ثراء اللفظ القرآنيّ في مفردة ﴿ٱلۡفُرۡقَانَ﴾:

احتمالُ دخولِ المعجزاتِ في دلالةِ الفُرقانِ

تعدَّدت معاني الفرقان كما سبق ذكره بين الكتب السَّابقة والقرآن، ويجوز أن تُحمل على معنًى أعمَّ للكلِّ، ويكون المراد بها المعجزات التي تكون مصاحبة للكتاب، ويؤكِّد هذا ما ذكره الرَّازيُّ بقوله: "وَالْمُخْتَارُ عِنْدِي فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ وَجْهٌ رَابِعٌ، وَهُوَ أَنَّ الْمُرَادَ مِنْ هَذَا الْفُرْقَانِ الْمُعْجِزَاتُ الَّتِي قَرَنَهَا اللّه تَعَالَى بِإِنْزَالِ هَذِهِ الْكُتُبِ؛ وَذَلِكَ لِأَنَّهُمْ لَمَّا أَتَوْا بِهَذِهِ الْكُتُبِ، وَادَّعَوْا أَنَّهَا كُتُبٌ نَازِلَةٌ عَلَيْهِمْ مِنْ عِنْدِ اللّه تَعَالَى؛ افْتَقَرُوا فِي إِثْبَاتِ هَذِهِ الدَّعْوَى إِلَى دَلِيلٍ حَتَّى يَحْصُلَ الْفَرْقُ بَيْنَ دَعْوَاهُمْ وَبَيْنَ دَعْوَى الْكَذَّابِينَ، فَلَمَّا أَظْهَرَ اللّه تَعَالَى عَلَى وَفْقِ دَعْوَاهُمْ تِلْكَ الْمُعْجِزَاتِ؛ حَصَلَتِ الْمُفَارَقَةُ بَيْنَ دَعْوَى الصَّادِقِ وَبَيْنَ دَعْوَى الْكَاذِبِ، فَالْمُعْجِزَةُ هِيَ الْفُرْقَانُ، فَلَمَّا ذَكَرَ اللّه تَعَالَى أَنَّهُ أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ، وَأَنَّهُ أَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ مِنْ قَبْلِ ذَلِكَ، بَيَّنَ أَنَّهُ تَعَالَى أَنْزَلَ مَعَهَا مَا هُوَ الْفُرْقَانُ الْحَقُّ، وَهُوَ الْمُعْجِزُ الْقَاهِرُ الَّذِي يَدُلُّ عَلَى صِحَّتِهَا، وَيُفِيدُ الْفَرْقَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ سَائِرِ الْكُتُبِ الْمُخْتَلِفَةِ، فَهَذَا هُوَ مَا عِنْدِي فِي تَفْسِيرِ هذه الآية"[1].

و﴿ٱلۡفُرۡقَانَ﴾: كلُّ أمر فرَّق بين الحقِّ والباطل، فيما قدم وحدث، فيدخل في هذا التّأويل طوفان نوح، وفرق البحر لغرق فرعون، ويوم بدر، وسائر أفعال اللّه تعالى المفرِّقة بين الحقِّ والباطل، فكأنَّه تعالى ذكر الكتاب العزيز، ثمّ التَّوراة والإنجيل، ثمّ كلَّ أفعاله ومخلوقاته التي فرَّقت بين الحقِّ والباطل، كما فعلت هذه الكتب[2].

ومن ثراء اللفظ؛ دورانه بين اسم الفاعل واسم المفعول، فإن أُريد به اسم الفاعل؛ كان بمعنى: الفارق، وإن أريد به المفعول؛ كان بمعنى: المفروق، قال تعالى: ﴿وَقُرۡءَانٗا فَرَقۡنَٰهُ لِتَقۡرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكۡثٖ﴾ [الإسراء: 106].

(1) الرازيُّ، مفاتيح الغيب: 7/133 - 134.

(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 1/399.

بلاغةُ الاستئنافِ البيانيِّ في قولِه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞۗ﴾:

زجرُ الجاحدين، وتوبيخ المنكرين، بالتلويح بالعذاب الشَّديدِ

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞۗ﴾، وعيدٌ جيء به بعدما قرّر التّوحيد بقوله: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ﴾، وبعدما مهّد إلى إثبات نبوّته ﷺ بقوله: ﴿نَزَّلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا﴾[1]، فهي اسْتِئْنَافٌ بَيَانِيٌّ تعظيمًا لأمر النّبوّة والتّوحيد لِأَنَّ نَفْسَ السَّامِعِ تَتَطَلَّعُ إِلَى مَعْرِفَةِ عَاقِبَةِ الَّذِينَ أَنْكَرُوا هَذَا التَّنْزِيلَ"[2]، والغرضُ من هذا الاستئنافِ زَجْرُ الجاحدين، والمعرضين عن هذه الآيات الظّاهرة، والبيِّنات القاطعة.

سرُّ التَّعبير عن المرادِ بالاسْمِ المَوْصُولِ:

المقصودُ بالمَوْصُولِ المُشْرِكُون، ويدخُلُ النَّصارى دُخولًا أوَّليًّا

اختُلف في المرادِ بالموصول في قولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞۗ﴾؛ فقيل: "أراد بهم نصارى وفد نجران، كفروا بالقرآن وبمحمَّد ﷺ وقيل: إنَّ خصوص السَّبب لا يمنع عموم اللَّفظ، فهو يتناول كلَّ من كفر بشيء من آيات الله"[3]، وقد خصَّصَ بعضُ المُفَسِّرِينَ "ذَلِكَ بِالنَّصَارَى، فَقَصَرَ اللَّفْظَ الْعَامَّ عَلَى سَبَبِ نُزُولِهِ، وَالْمُحَقِّقُونَ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ قَالُوا: خُصُوصُ السَّبَبِ لَا يَمْنَعُ عُمُومَ اللَّفْظِ، فَهُوَ يَتَنَاوَلُ كُلَّ مَنْ أَعْرَضَ عَنْ دَلَائِلِ اللَّهِ تَعَالَى"[4]، وقد عبّر بالموصول؛ لإظهار فِعلهم الذي استحقُّوا بسببه العذاب الشّديد.

نكتةُ إضافةِ الآيات للفظِ الجلالةِ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾:

تعليلٌ للعذاب الشَّديد، وبيانٌ لهَوْلِ كُفْرِهم

يحتمل أن تكون الإضافة للعهد؛ إشارة إلى ما تقدَّم من آيات الكتب المُنَزَّلة، ويحتمل أن تكون للجنس، فتشمل جميع ما تقدَّم،

(1) شيخ زاده، حاشية على البيضاوي: 3/6 - 7.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/150.
(3) القنّوجي، فتح البيان: 2/172.
(4) الرازيُّ، مفاتيح الغيب: 7/134، وابن عادل، اللباب: 5/23.

وغيره كالمعجزات، وأضيفت الآيات إلى الاسم الجليل؛ "تعيينًا لحيثيَّة كفرِهم، وتهويلًا لأمرهم، وتأكيدًا لاستحقاقهم العذابَ الشَّديد، وإيذانًا بأنَّ ذلك الاستحقاقَ لا يشترط فيه الكفرُ بالكلِّ، بل يكفي فيه الكفرُ ببعضٍ منها"[1].

سرُّ التعبير بالجملة الاسميَّة في قوله: ﴿لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞۗ﴾:

عبَّر بالجملة الاسميَّة ﴿لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞۗ﴾؛ للدّلالة على دوام العذاب واستمراره، والتَّنكيرُ في الجملة يدلُّ على أنَّ العذاب لا يقدِرُ قدرَه، ولا يعلم كُنهَه إلَّا اللّه، وفي هذا من التَّهويل ما فيه.

تقديمُ الجارِّ والمجرورِ ﴿لَهُمۡ﴾ على ﴿عَذَابٞ شَدِيدٞۗ﴾ للتَّهكُّمِ:

قُدِّم الجارُّ والمجرور من باب التهكُّم بالكافرين، ولإفادة استحقاقهم العذاب.

نكتةُ وصفِ العذاب بالشَّديد دون غيره من أوصاف العذاب:

شدَّة العذاب تشمل نوعه وزمانه وكيفيَّته

اختار النَّظمُ وصفَ العذابِ بالشَّديدِ دون الوصف بالعظيم أو الأليم أو المهين "باعتبار المُعَذَّب، فهناك من يناسبه وصف العذاب بالعظيم من باب الإهانة، وهناك من يناسبه كثرة العذاب كمًّا وكيفًا كما هنا؛ لأنَّهم كفروا بكلِّ آيات اللّه في الكتب السَّابقة والقرآن والمعجزات، فكان الوصف للعذاب هنا باعتبار الكميَّة والكيفيَّة والدَّوام الأبديِّ"[2].

دلالةُ عطفِ قوله: ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٞ ذُو ٱنتِقَامٍ﴾:

بيانُ شدَّةِ العذابِ بصفاتِ الله تعالى

عطفتِ الآيةُ جملةَ: ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٞ ذُو ٱنتِقَامٍ﴾؛ لأنَّ ذلك مناسب لوعيد الكفار الذين سبق ذكرهم في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾، و"لِأَنَّهُ مِنْ تَكْمِلَةِ هَذَا الِاسْتِئْنَافِ؛ لِمَجِيئِهِ مَجِيءَ التَّبْيِينِ لِشِدَّةِ عَذَابِهِمْ؛ إِذْ هُوَ عَذَابُ عَزِيزٍ مُنْتَقِمٍ"[3].

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السليم: 2/5.
(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/347.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/150.

سِرُّ ختْمِ الآية بقوله: ﴿عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ﴾:

خُتمت الآية بقوله: ﴿عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ﴾؛ لأنَّ العذاب تسلُّطٌ لا بدَّ فيه من عِزَّة وغلبة، وحيث اقترنت هاتان الصِّفتان؛ فلا بدَّ أن يكون في سياق عقوبة على ذنب، كما ورد في حكم النَّهي عن قتل الصَّيد للمحرم، قال تعالى: ﴿وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ۝٩٥﴾ [المائدة: 95]، وممَّا يذكر في هذا المقام أنَّ صفة "الْعَزِيز إِشَارَةٌ إِلَى الْقُدْرَةِ التَّامَّة عَلَى الْعِقَابِ، وَ﴿ذُو ٱنتِقَامٍ﴾ إِشَارَةٌ إِلَى كَوْنِهِ فَاعِلًا لِلْعِقَابِ، فَالْأَوَّلُ: صِفَةُ الذَّاتِ، وَالثَّانِي: صِفَةُ الفعل، والله أعلم"[1].

إيثارُ الوصف بـ ﴿ذُو ٱنتِقَامٍ﴾ دون (منتقم) لأنَّه أبلغُ في الدّلالةِ:

واختار هذا التركيب على منتقم مع اختصاره؛ لأنَّه أبلغ منه؛ إذ لا يقال: صاحب سيف إلَّا لمن يكثر القتل، لا لمن معه السَّيف مطلقًا[2].

انتقامُ الله سبحانه عن اختيارٍ في إقامةِ مصالح العبادِ

سرُّ اختيار ﴿ذُو﴾ دون صاحب:

الوصف بـ ﴿ذُو﴾ أبلغ من الوصف بصاحب؛ ولذلك لم يجئ في صفات الله صاحب، قال ابن عاشور: "وَجِيءَ فِي هَذَا الْوَصْفِ بِكَلِمَةِ ﴿ذُو﴾ الدَّالَّةِ عَلَى الْمُلْكِ؛ لِلْإِشَارَةِ إِلَى أَنَّهُ انْتِقَامٌ عَنِ اخْتِيَارٍ لِإِقَامَةِ مَصَالِحِ الْعِبَادِ، وَلَيْسَ هُوَ تَعَالَى مُنْدَفِعًا لِلِانْتِقَامِ بِدَافِعِ الطَّبْعِ أَوِ الحنق"[3]، "وهو وعيد جيء به بعد تقرير التَّوحيد، والإشارة إلى ما هو العمدة في إثبات النُّبوَّة تعظيمًا للأمر، وزجرًا عن الإعراض عنه"[4].

(1) الرّازيُّ، مفاتيح الغيب: 7/134، وأبو حيَّان، البحر المحيط: 3/18، ابن عادل، اللّباب: 5/23.
(2) الآلوسيُّ، روح المعاني: 2/76.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/151، وأبو حيَّان، البحر المحيط: 3/18، ابن عادل، اللّباب: 5/23.
(4) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 2/5.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخۡفَىٰ عَلَيۡهِ شَيۡءٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ٥﴾

[آل عمران: 5]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

المناسبة بين جزاء الكافرين بأشدّ العذاب، وبين مطلق علم الله الّذي لا تخفى عنه خافية

لَمَّا تحدَّثت الآية السَّابقة عن الجزاء المُعدِّ للّذين كفروا بآيات اللّه، ووصفته بالعذاب الشَّديد، وأنّه لا يمنع وقوعه أحد؛ لأنَّه صادرٌ عن عزيز يَقْهر، ولا يُقْهر، جاءت هذه الآية؛ لتبيِّن تمام إحاطة علمه سبحانه بكلّ شيء، فهو يعلم القلوب، وما تخفيه، ويعلم بواعث كفر الكافرين ودواعيه؛ لأنَّ علم اللّه لا يحدُّه شيء، فلا يقف عند حدود الإنسان، بل وسع السّموات والأرض، وكيف يخفى عليه شيء وهو علّام الغيوب؟!وفي التّعبير بعدم الخفاء في قوله: ﴿لَا يَخۡفَىٰ عَلَيۡهِ شَيۡءٞ﴾، إشارة بليغة، إلى أنّ علمه لا يوازن بعلوم المخلوقين، فهو الّذي أحاط بكلّ شيء علما[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿لَا يَخۡفَىٰ﴾: من (خَفِيَ) أَصْلٌ يدلُّ على السَّتْرِ[2]، خَفِيَ الشّيء خُفْيَةً: استتر[3]، والخفاء ما يُستر به الغطاء، ويقابل الإخفاء الإعلان والإبداء، قال تعالى: ﴿إِن تُبۡدُواْ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِيَۖ وَإِن تُخۡفُوهَا وَتُؤۡتُوهَا ٱلۡفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۚ﴾، وقولهم: (وهل يَخفَى القمر؟)، تُقالُ للتّدليل على وضوح الأمر، أو على شهرة الشّخص، وأخفى الصَّوتَ: كتمه، يقال: (أخفى المصلِّي قراءته)، وفي القرآن: ﴿تُسِرُّونَ إِلَيۡهِم بِٱلۡمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعۡلَمُ بِمَآ أَخۡفَيۡتُمۡ وَمَآ أَعۡلَنتُمۡۚ﴾ [الممتحنة: 1][4]، والمراد هنا: أنّه مُطَّلع على كفر من كفر، وإيمان من آمن، وهو مجازيهم عليه[5].

(1) إبراهيم القطّان، تيسير التّفسير: 1/175.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (خفي).
(3) الراغب، المفردات: (خفي).
(4) أحمد مختار عمر، معجم اللّغة العربيّة المعاصرة: (خفي).
(5) القاسميّ، محاسن التأويل: 2/255.

2) ﴿شَيۡءٖ﴾: الشَّيء، هو الّذي يصحُّ أن يُعلم، ويُخبر عنه، ويقع على الموجود والمعدوم، وإذا جاء لفظ (شيء) في سياق النّفي؛ أفاد العموم[1]، "والشّيء هو الّذي يصحّ أن يعلم ويخبر عنه، وعند كثير من المتكلّمين، هو اسم مشترك المعنى، إذ استعمل في اللّه وفي غيره، ويقع على الموجود والمعدوم، وعند بعضهم؛ الشّيء: عبارة عن الموجود، وأصله مصدر شاء، وإذا وصف به تعالى فمعناه شاء، وإذا وصف به غيره، فمعناه المَشِيء، وعلى الثّاني قوله "﴿قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ [الرعد: 16]، والمشيئة من اللّه تقتضي وجود الشّيء، ولذلك قيل: (ما شاء اللّه كان، وما لم يشأ لم يكن) "[2].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

في هذه الآية يستعرض السّياق قدرة اللّه، فيما أبدع من روعة، وما صوّر من مخلوقات بديعة، تبرزها آيات اللّه المبثوثة في ملكوت السّموات والأرض، وهي قدرةٌ محيطةٌ بكلّ شيء علمًا، وقد نظّمت القوانين الكونيّة الّتي تضمن، دقّة سير الكون وانسجامه مع الغايات الّتي خُلق من أجلها، وسُخّر لها[3]، و"هذه الآية تخبر عَنْ عِلْمِهِ تَعَالَى بِالْأَشْيَاءِ عَلَى التَّفْصِيلِ، وَمِثْلُهُ فِي الْقُرْآنِ كَثِيرٌ، فَهُوَ الْعَالِمُ بِمَا كَانَ، وَمَا يَكُونُ، وَمَا لَا يَكُونُ، فَكَيْفَ يَكُونُ عِيسَى إِلَهًا أَوِ ابْنَ إِلَهٍ، وَهُوَ تَخْفَى عَلَيْهِ الأشياء"[4]، "فَنَبَّهَتِ الْآيَةُ عَلَى أَنَّ الْإِلَهَ هُوَ الْعَالِمُ بِجَمِيعِ الْأَشْيَاءِ، فَلَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ، وَلَا يَلْزَمُ مِنْ كَوْنِ عِيسَى عَالِمًا بِبَعْضِ الْمُغَيَّبَاتِ أَنْ يَكُونَ إِلَهًا، وَمِنَ الْمَعْلُومِ بِالضَّرُورَةِ أَنَّ عِيسَى لَمْ يَكُنْ عَالِمًا بِجَمِيعِ الْمَعْلُومَاتِ"[5].

❁ الإِيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

غرَضُ الاستئنافِ في قولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخۡفَىٰ عَلَيۡهِ شَيۡءٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾:

قولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخۡفَىٰ عَلَيۡهِ شَيۡءٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ "استئنافُ كلامٍ سيق لبيان سعةِ علمِه تعالى وإحاطتِه بجميع ما في العالم من الأشياء التي من جملتها ما صدرَ

(1) الرّاغب، المفردات: (شيء).
(2) الرّين، تفسير مفردات ألفاظ القرآن الكريم: (شيء).
(3) الخطيب، التّفسير القرآنّي للقرآن، ص: 397.
(4) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 4/7.
(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/19.

عنهُم من الكفر والفسوقِ سرًّا وجهرًا"[1]، و"بَيَانٌ لِوَصْفِ الْحَيِّ؛ لِأَنَّ عُمُومَ الْعِلْمِ يُبَيِّنُ كَمَالَ الْحَيَاةِ"[2]، وجيءَ بأداةِ التَّوكيد ﴿إِنَّ﴾ للردِّ على زعم النَّصارى في أُلُوهيَّة عيسى عليه السلام وبنوَّته، وذلك من خلال إثبات علمه الشامل الذي لا يَحُدُّه شيءٌ، أمَّا علم عيسى عليه السلام، فهو علم جزئيٌّ محدودٌ.

بيانُ سعةِ علمِه تعالى وإحاطته بكلِّ شَيْءٍ

سِرُّ التَّعبيرِ بنفي الخفاءِ لا بإثباتِ العلم:

عبَّر النَّظمُ عن العلم بنفي الخفاءِ لا بإثبات العلم في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخۡفَىٰ عَلَيۡهِ شَيۡءٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾، فلم يقُل: إنَّ اللّٰه يعلمُ كلَّ شَيْءٍ؛ "إيذانًا بأنَّ علمَه تعالى بمعلوماته - وإن كانت في أقصى الغايات الخفيَّةِ - ليس من شأنه أن يكون على وجه يمكن أن يقارِنه شائبةُ خفاءٍ بوجهٍ من الوجوه كما في علوم المخلوقين، بل هو في غاية الوضوحِ والجلاءِ"[3]، فهي "خبرٌ عن إحاطة علم اللّٰه بجميع الأشياء على التَّفصيل، وهذه صفة لم تكن لعيسى، ولا لغيره، ففي ذلك ردٌّ على النَّصارى"[4]، وعلى كلِّ من يزعُمُ أنَّ مخلوقًا لا يخفى عليه شيءٌ، وفي ذلك ردٌّ على التَّهوّر الفكريِّ الذي ابُتلي به النَّاس في هذا العصر، من الوَهْمِ بأنَّهم قادرون على علم كلِّ شَيْءٍ.

الـرَّدُّ الضمنيُّ عـلى كـلِّ مَـنْ يَزْعُمُ قدرتَه على علمِ كلِّ شَيْءٍ

ثمَّ إنَّ هذا التعبير يدلُّ على أنَّه يعلم من كلِّ وجه يصحُّ أن يُعلم منه، بخلاف (يعلم)؛ فإنَّه من حيث اللفظ يصدق على علم الشَّيء من وجه دون وجه، كما في علم المخلوقين[5].

دلالةُ التَّنكيرِ في سِيَاقِ النَّفي:

النَّكرة إذا وقعت في سياق النفي؛ أفادت العموم، كما هو معلومٌ،

عِلْمُ اللهِ محيطٌ بـالـجُـزْئـيّـاتِ كـإحـاطـتِـه بالكليَّات

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 2/6.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/151.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 2/6.
(4) ابن جزي، التسهيل: 1/144.
(5) السيوطي، قطف الأزهار: 1/558.

و"﴿شَيۡءٞ﴾ نَكِرَةٌ فِي سِيَاقِ النَّفْيِ، فتعمُّ، وَهِيَ دَالَّةٌ عَلَى كَمَالِ الْعِلْمِ بِالْكُلِّيَّاتِ وَالْجُزْئِيَّاتِ"[1]، لأنَّها "مِنَ الْأَسْمَاءِ الْعَامَّةِ"[2]، والمعنى: لا يخفى عليه شَيْءٌ، مِمَّا يَقُولُونَهُ فِي أَمْرِ عِيسَى عليه السلام، وَقَالَ الزَّمَخْشَرِيُّ: مُطَّلِعٌ عَلَى كُفْرِ مَنْ كَفَرَ، وَإِيمَانِ مَنْ آمَنَ، وَهُوَ مُجَازِيهِمْ عَلَيْهِ، وَقَالَ الْمَاتُرِيدِيُّ: لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ من الْأُمُورِ الْخَفِيَّةِ عَنِ الْخَلْقِ، فَكَيْفَ تَخْفَى عَلَيْهِ أَعْمَالُكُمُ الَّتِي هِيَ ظَاهِرَةٌ عِنْدَكُمْ؟ وَكُلُّ هَذِهِ تَخْصِيصَاتٌ، وَاللَّفْظُ عَامٌّ، فَيَنْدَرِجُ فِيهِ هَذَا كُلُّهُ[3].

سِرُّ إيثار الإطنابِ على الإيجازِ في قولِه: ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾:

القرآنُ نزلَ على معهودِ الأمّيّين في الخِطابِ

عبَّرَ النَّظمُ عن جميعِ العالمِ بالأرضِ والسَّماءِ؛ "لأنَّهما المنظوران للمخاطَبَيْن، ولأنَّ الحسَّ لا يتجاوزهما، ولأنَّهما أَعْظَمُ مَا نُشَاهِدُهُ"[4]، فإنَّ الذي يعرفُه المخاطَبُ وقت نزولِ القُرآنِ هو الأرضُ والسَّماء، فهما قُطراه[5]، فقد "قُصِدَ مِنْهُ عُمُومُ أَمْكِنَةِ الْأَشْيَاءِ، فَالْمُرَادُ مِنَ الْأَرْضِ: الْكُرَةُ الْأَرْضِيَّةُ بِمَا فِيهَا مِنْ بِحَارٍ، وَالْمُرَادُ بالسَّماء: جنسُ السَّمَاوَات، وَهِيَ الْعَوَالِمُ الْمُتَبَاعِدَةُ عَنِ الْأَرْضِ"[6].

وَجْهُ تخصيصِ الأرضِ والسَّماءِ بالذِّكر:

بيانُ عظمةِ علمِ اللهِ بذكرِ أعظمِ ما تشاهدُه الأعينُ وتعرفُه العقول

إنْ سألَ سائلٌ عن فَائِدَةِ قَوْلِهِ: ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ مَعَ أَنَّهُ لَوْ أَطْلَقَ ولم يقيِّد لشملَهما؟

فالجواب: "الْغَرَضُ بِذَلِكَ إِفْهَامُ الْعِبَادِ كَمَالَ عِلْمِهِ، وفهمهم هذا المعنى عند ذكر السَّماوات وَالْأَرْضِ أَقْوَى؛ لِأَنَّ الْحِسَّ يَرَى عَظَمَةَ السماوات وَالْأَرْضِ، فَيُعِينُ الْعَقْلَ عَلَى مَعْرِفَةِ عَظَمَةِ عِلْمِ اللَّهِ عز وجل،

(1) أبو حيَّان، البحر المحيط: 3/19.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/151.
(3) أبو حيَّان، البحر المحيط: 3/19.
(4) أبو حيَّان، البحر المحيط: 3/19.
(5) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 2/6.
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/151.

وَالْحِسُّ مَتَى أَعَانَ الْعَقْلَ عَلَى الْمَطْلُوبِ؛ كَانَ الْفَهْمُ أَتَمَّ، وَالْإِدْرَاكُ أَكْمَلَ؛ وَلِذَلِكَ فَإِنَّ الْمَعَانِي الدَّقِيقَةَ إِذَا أُرِيدَ إِيضَاحُهَا؛ ذُكِرَ لَهَا مِثَالٌ، فَإِنَّ الْمِثَالَ يُعِينُ عَلَى الْفَهْمِ"[1]، "وتخصيص الأرض والسَّماء؛ لكون ذكرهما أهول بالإضافة إلينا، وفيه دلالة على كلِّ شيء"[2]، و"لقصورِ عبادِه عن العلم بما سواهما من أمكنة مخلوقاته وسائر معلوماته"[3].

سِرُّ تقديمِ الأرض على السَّماء:

إن سُئلَ عن سرِّ تقديمِ الأرضِ على السَّماءِ، فالجوابُ أن ذلك من باب التَّرقِّي من "الأدنى إلى الأعلى؛ ولأنَّ المقصود بالذِّكر ما اقترف فيها"[4]، و"لِيَتَسَنَّى التَّدَرُّجُ فِي الْعَطْفِ إِلَى الْأَبْعَدِ فِي الْحُكْمِ؛ لِأَنَّ أَشْيَاءَ الْأَرْضِ يَعْلَمُ كَثِيرًا مِنْهَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ، أَمَّا أَشْيَاءُ السَّمَاءِ؛ فَلَا يَعْلَمُ أَحَدٌ بَعْضَهَا فَضْلًا عَنْ علم جَمِيعهَا"[5]، ولأنَّها موضع نظر المخاطبين؛ لأنَّ أعمالهم فيها، ولأنَّها موضع الكسب والسَّعي والعمل، ثُمَّ إنَّ المقام مقامُ تخويفٍ وتحذيرٍ لمن كفر بآيات اللّه، والذين وقعوا في ذلك هم من يسكنون في الأرض التصاقًا، ويعيشون تحت السَّماء افتراشًا.

الإيـــمـــاءُ إلى الـوعـيـدِ بسبب الآثـــامِ الـتـي في الأرضِ فالتَّرقي إلى مصدره

(1) الرازيُّ، مفاتيح الغيب: 7/136 - 137.
(2) الرّاغب، تفسير الراغب: 2/412.
(3) القنُوجي، فتح البيان: 2/173.
(4) البيضاوي، أنوار التنزيل: 2/6.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/151.

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٦﴾ [آل عمران: 6]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

ربط إحاطة علم الله بكلّ شيء، بتصوير البشر في الأرحام وقيوميّة خالق الأنام

لَمَّا أخبر أَنَّهُ قَيُّومٌ وَقَائِمٌ بِمَصَالِحِ الْخَلْقِ، وَمَصَالِحُ الْخَلْقِ قِسْمَانِ: جِسْمَانِيَّةٌ وَرُوحَانِيَّةٌ؛ بيّن في هذه مَصَالِحَ الْخَلْقِ الْجِسْمَانِيَّةَ، وأَشْرَفُهَا تَعْدِيلُ الْبِنْيَةِ، وَتَسْوِيَةُ الْمِزَاجِ عَلَى أَحْسَنِ الصُّوَرِ وَأَكْمَلِ الْأَشْكَالِ، وَهُوَ الْمُرَادُ بِقَوْلِهِ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ﴾[1]، وبذلك تكون هذه الآية كالدّليل على القيُّوميَّة، لأنّه "وحده الّذي يخلقكم في أرحام أمهاتكم كما يشاء، من ذكر وأنثى، وحسن وقبيح، وشقي وسعيد، لا معبود بحق سواه، العزيز الذي لا يُغالَب، الحكيم في أمره وتدبيره"[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يُصَوِّرُكُمْ﴾: "التّصويرُ: جعل الشَّيء على صورةٍ، والصُّورة: هيئة يكون عليها الشّيء بالتّأليف، وأصلها مِن: صارَه، يَصُوره؛ إذا أماله، فهي صورَةٌ؛ لأنَّها مائلة إلى بِنْيَةٍ بالشَّبَهِ لها"[3]، "الصُّورَةُ: ما ينتقشُ به الأعيان، ويتميّز بها من غيرها، وذلك ضربان: أحدهما محسوسٌ يدركه الخاصَّة والعامَّة، بل يدركه الإنسان وكثير من الحيوان، كَصُورَةِ الإنسانِ والفرس، والحمار بالمعاينة، والثّاني: معقول يدركه الخاصّة دون العامّة، كالصُّورَةِ الَّتي اختصَّ الإنسان بها من العقل، والرَّويَّة، والمعاني الَّتي خصَّ بها شيءٌ بشيء، وإلى

(1) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 7/137.
(2) نخبة من أساتذة التّفسير، التّفسير الميسّر، ص: 50.
(3) الواحديّ، التّفسير البسيط: 5/30.

الصُّورَتَيْنِ أشار بقوله تعالى: ﴿يُصَوِّرُكُمْ فِي ٱلْأَرْحَامِ﴾"[1]، وقولنا (صوّره)، "جعل لَهُ صُورَة مجسّمة، وَفِي التَّنْزِيل الْعَزِيز ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ﴾، وَالشَّيْء أَو الشَّخْص رسمه على الْوَرق، أَو الْحَائِط، وَنَحْوهمَا بالقلم أَو الفرجون، أَو بِآلَة التَّصْوِير، وَالْأَمر وَصفه وَصفا يكْشف عَن جزئيّاته"[2].

2) ﴿ٱلْأَرْحَامِ﴾: مفردها الرَّحم، ويقصد به رحم المرأة، واستعير الرَّحم للقرابة؛ لكونهم خارجين من رحم واحد، يقال: رَحمٌ ورُحمٌ، قال تعالى: ﴿وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾﴾ [الكهف: 81]، والرَّحمة: رقَّةٌ تقتضي الإحسان إلى المرحوم، وهي منطويةٌ على معنيين: الرَّحمة والإحسان[3]، والأرحام: "هي منبت الولد ووعاؤه في البطن، ورحمت المرأة رحامة، ورحمت رحمًا، إذا اشتكت رحمها بعد الولادة، ومن المجاز: رحمه اللّه، وهو الرّحمن الرّحيم: الواسع الرّحمة. وبينهما رحم ورُحم، قال الهذليّ:

وَلَمْ يَكُ فَظًّا قَاطِعًا لِقَرَابَةٍ *** وَلَكِنْ وَصُولًا لِلْقَرَابَةِ ذَا رُحْمِ[4]

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

بيان قدرة الله على تصوير العباد، وهم أجنّة في الأرحام، في روعة وجمال وتمام

بيَّن في هذه الآية أنَّه سبحانه "هو وحده الّذي يصوِّركم في أرحام أمّهاتكم، كما يشاء، من ذكر وأنثى، وحسن وقبيح، وشقيٍّ وسعيد، لا معبود بحقٍّ سواه، العزيز الّذي لا يُغالَب، الحكيم في أمره وتدبيره"[5]، لا إله إلّا هو، ولا ربّ غيره، موجدًا من عدم، ومعطيًا في كرم، وهو العزيز الّذي لا شريك له، المتفرّد بالخلق والتّصوير، وهو الحكيم في التّقدير، والكافي خلقه في التّدبير، فلا يحمد غيره، ولا يعبد سواه[6].

(1) الرّاغب، المفردات: (صور).
(2) مجمع اللّغة العربيّة بالقاهرة، المعجم الوسيط: (صور).
(3) الرّاغب، المفردات: (رحم).
(4) الزّمخشري، أساس البلاغة: (رحم)
(5) نخبة من العلماء، التّفسير الميسر: 1/50.
(6) أسعد حومد، أيسر التّفاسير، ص: 300.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ الاستئنافِ في قولِه: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ﴾:

الدَّليل على بشريَّة عيسى عليه السلام

جاءَ قولُه تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ جملةً استئنافيةً؛ "وذلك لبيان بشريَّة عيسى عليه السلام؛ لأنَّ الله أخبر عن تصويره للبشر في أرحام الأمَّهات، وهذا أمر لا ينكره عاقل، ولا ينكر أنَّ عيسى وسائر البشر لا يقدرون عليه، ولا ينكر أنَّ عيسى عليه السلام من المصوَّرين في الأرحام، فهذه الآية تعظيم لله تعالى، وفي ضمنها الرَّدُّ على نصارى نجران"[1]، "وقد كان عيسى ممَّن صُوِّر في الأرحام، لا يدفعون ذلك، ولا ينكرونه، كما صُوِّر غيره من بني آدم، فكيف يكون إلهًا؟"[2].

ومن أغراض الاستئناف؛ "بيانُ صفة القيُّوميَّة، وذلك أنَّه خُصَّ من بَين شؤون الْقَيُّومِيَّةِ تَصْوِيرُ الْبَشَرِ؛ لِأَنَّهُ مِنْ أَعْجَبِ مَظَاهِرِ الْقُدْرَةِ؛ وَلِأَنَّ فِيهِ تَعْرِيضًا بِالرَّدِّ عَلَى النَّصَارَى فِي اعْتِقَادِهِمْ إِلَهِيَّةَ عِيسَى مِنْ أَجْلِ أَنَّ اللَّهَ صَوَّرَهُ بِكَيْفِيَّةٍ غَيْرِ مُعْتَادَةٍ، فَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّ الْكَيْفِيَّاتِ الْعَارِضَةَ لِلْمَوْجُودَاتِ كُلِّهَا مِنْ صُنْعِ اللَّهِ وَتَصْوِيرِهِ: سَوَاءٌ الْمُعْتَادُ، وَغَيْرُ الْمُعْتَادِ"[3].

دلالة الحَصْرِ بالإسنادِ إلى الضَّميرِ، وبالتَّعريفِ في قولِه: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ﴾:

دلالة الإسناد بالضَّمير في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ﴾ تفيد الحصر والقصر على الله تعالى، فلا يدَّعي أحد أنَّ له دخلًا فيها، وأكَّد ذلك بتعريف الجزأين، "حيث دلَّ عَلَى قَصْرِ صِفَةِ التَّصْوِيرِ عَلَيْهِ تَعَالَى، وَهُوَ قَصْرٌ حَقِيقِيٌّ؛ لِأَنَّهُ كَذَلِكَ فِي الْوَاقِعِ؛ إِذْ هُوَ مُكَوِّنُ أَسْبَابِ ذَلِكَ التَّصْوِيرِ وَهَذَا إِيمَاءٌ إِلَى كشف شبهة النَّصَارَى؛ إِذْ تَوَهَّمُوا أَنَّ تَخَلُّقَ عِيسَى بِدُونِ مَاءِ أَبٍ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُ غَيْرُ بَشَرٍ، وَأَنَّهُ إِلَهٌ وَجَهِلُوا أَنَّ التَّصْوِيرَ فِي الْأَرْحَامِ؛ وَإِنِ اخْتَلَفَتْ كَيْفِيَّاتُهُ؛ لَا يَخْرُجُ عَنْ كَوْنِهِ خَلْقًا لِمَا كَانَ مَعْدُومًا، فَكَيْفَ يَكُونُ ذَلِكَ الْمَخْلُوقُ الْمُصَوَّرُ فِي الرَّحِمِ إِلَهًا"[4].

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 1/400، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 4/7.

(2) القنّوجي، فتح البيان: 2/174.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/151.

(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/152.

نكتةُ التَّعبيرِ بالتصويرِ والمراد شَيْءٌ آخر:

تصويرُ المخلوقين في الأرحـام من أدلَّة التوحيد

ذُكِرَ التَّصويرُ في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ﴾، والمرادُ مجادلةُ وفدِ نصارى نجران في شَأْنِ عيسى عليه السلام، وما زعموه من ألوهيَّته، فكأنَّ القرآن يقول لهم: لمَّا كان عيسى مصوَّرًا في الرَّحم؛ فهو مخلوق لا خالق؛ إذْ مِنَ الْمَعْلُومِ بِالضَّرُورَةِ أَنَّهُ صُوِّرَ فِي الرَّحِمِ"[1]، وفي هذا رَدٌّ عَلَى مَنْ زَعَمَ أَنَّ عِيسَى إِلَهٌ.

إيثارُ صيغةِ المبالغةِ والمضارعِ في قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ﴾:

قولُه تعالى: ﴿يُصَوِّرُكُمْ﴾ "بِنَاءٌ لِلْمُبَالَغَةِ مِنْ: صَارَ يُصَوِّرُ؛ إِذَا أَمَالَ، وَثَنَى إِلَى حَالٍ، وَلَمَّا كَانَ التَّصْوِيرُ إِمَالَةً إِلَى حَالٍ، وَإِثْبَاتًا فِيهَا؛ جَاءَ بِنَاؤُهُ عَلَى الْمُبَالَغَةِ"[2]، ولمَّا كان الخلق والتَّصوير في الأرحام حدثًا مستمرًّا لا ينقطع؛ فكان المضارع الدالُّ على الاستمرار والتَّجدُّد هو المناسب.

الفرق في التَّعبيرِ بين ﴿يُصَوِّرُكُمْ﴾ و﴿وَصَوَّرَكُمْ﴾:

اخـتـلافُ زمـنِ الفعلِ بالنسبةِ لـلـمـخـلـوقِ لا بالنّسبة للخالقِ

لسائلٍ أن يسألَ عن سببِ التَّعبير بالماضي في بعض المواضعِ: ﴿وَصَوَّرَكُمْ﴾ [غافر: 64]، وعبَّر هنا بالمضارعِ الدَّالِّ على الاستقبال؟

والجواب: "أَنَّهُ لَا اعْتِبَارَ بِالْأَزْمِنَةِ فِي أَفْعَالِهِ، وَإِنَّمَا اسْتُعْمِلَتِ الْأَلْفَاظُ فِيهِ لِلدَّلَالَةِ عَلَى الْأَزْمِنَةِ بِحَسَبِ اللُّغَاتِ، وَأَيْضًا: فَصَوَّرَكُمْ، إِنَّمَا هُوَ عَلَى نِسْبَةِ التَّقْدِيرِ، وَإِنَّ فِعْلَهُ تَعَالَى فِي حكم ما قد فرغ مِنْهُ، وَقوله: ﴿يُصَوِّرُكُمْ﴾ عَلَى حَسَبِ مَا يَظْهَرُ لَنَا حَالًا فحالًا"[3].

سِرُّ التَّعبير عن تعلُّق التَّصوير بالمشيئة الإلهيَّة: ﴿كَيْفَ يَشَآءُ﴾:

مـشـيـئـةُ الـلـه تعالى لا تخضعُ لأسـبـابٍ بـل لإرادتـه الـتـي لا يُـحـيـطُ بكُنهِها البشرُ

في قَوْلِهِ تعالى: ﴿كَيْفَ يَشَآءُ﴾ "إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ ذَلِكَ يَكُونُ بِسَبَبٍ وَبِغَيْرِ سَبَبٍ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ مُتَعَلِّقٌ بِمَشِيئَتِهِ فَقَطْ"[4]، ومعنى تصويرِ الخلقِ

(1) أبو حيَّان، البحر المحيط: 3/19.
(2) أبو حيَّان، البحر المحيط: 3/7، وابن عطية، المحرر الوجيز: 1/400.
(3) الرَّاغب، تفسير الراغب: 2/411.
(4) أبو حيَّان، البحر المحيط: 3/20.

﴿كَيۡفَ يَشَآءُۚ﴾، أي: "يصوِّركم كائنين على مشيئته تعالى تابعين لها في قَبول الأحوالِ المتغايرة من كونكم نُطفًا ثم عَلَقًا ثم مُضَغًا غيرَ مخلَّقة ثمَّ مُخلَّقة، وفي الاتِّصاف بالصِّفات المختلفةِ من الذُّكورة والأنوثة والحُسن والقُبح وغيرِ ذلكَ منَ الصِّفاتِ، وفيه من الدّلالة على بطلان زعْم من زَعَم ربوبيَّةَ عيسى عليه السلام وهو من جملة أبناءِ النَّواسيتِ المتقلِّبين في هذه الأطوار على مشيئة الباري ﷻ وكمال ركاكة عقولهم مالا يخفى"[1].

غرضُ الاستفهامِ في قولِه: ﴿كَيۡفَ يَشَآءُ﴾:

خرجتْ ﴿كَيۡفَ﴾ عن غرضِها في الاستفهام عن الكيفيَّةِ والحالِ، فهي "دَالَّة على مجرَّد مَعْنَى الْكَيْفِيَّةِ، أَي: الْحَالَةِ، فَهِيَ هُنَا مُسْتَعْمَلَةٌ في أَصْلِهَا الْمَوْضُوعَةِ لَهُ في اللُّغَةِ؛ إِذْ لَا رَيْبَ في أَنَّ ﴿كَيْفَ﴾ مُشْتَمِلَةٌ عَلَى حُرُوفِ مَادَّةِ الْكَيْفِيَّةِ، وَالتَّكَيُّفِ، وَهُوَ الْحَالَةُ وَالْهَيْئَةُ"[2].

دلالة كيف على الكيفيَّةِ المجرَّدةِ لحظًا لأصلِها اللُّغويّ

حذفُ المفعولِ لظهورِ معناه إيجازًا واختزالًا:

حُذِفَ مفعولُ المشيئةِ في قولِه: ﴿كَيۡفَ يَشَآءُ﴾؛ "لِفَهْمِ الْمَعْنَى، التَّقْدِيرُ: كَيْفَ يَشَاءُ أَنْ يُصَوِّرَكُمْ"[3].

بلاغةُ التَّذييلِ في قولِه تعالى: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾:

ختمت الآية بقوله: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾؛ لأنَّ هذه الفاصلة تدلُّ على طلاقة القدرة في التَّصوير، فالصُّورة الَّتي صوَّرها اللّه للخلق في أرحام الأمَّهات لا يأتي من يعارض، ويقول: عندي صورة أخرى؛ لأنَّ الذي صوَّر عزيز لا يغلب، وحكيم في فعله؛ لأنَّ التَّصوير في الأرحام أمر لطيف ودقيق، وهذا يحتاج إلى عزَّة وحكمة.

تقريرُ التَّوحيدِ والقيُّوميَّة والحياة، للرَّدِّ على الزَّعمِ الباطلِ، والقولِ الآثمِ

وجاء التَّذييلُ بقولِه تعالى: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾؛

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 2/6.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/151 - 152.
(3) أبو حيَّان، البحر المحيط: 3/20.

"لِتَقْرِيرِ الْأَحْكَامِ الْمُتَقَدِّمَةِ"[1]، و"كرَّر قولَه: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾؛ لأنَّه لمَّا ذكر ما تقدَّم دليلًا على كون عيسى مخلوقًا، وكونه تعالى خالقًا؛ نبَّه بقوله: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أنْ لا معبود سواه، وأنَّه العزيز في نقمته، الحكيم في أمره، لا حاجة به إلى ولد، ولا حكمة تقتضي ذلك"[2]، "وَنَاسَبَ مَجِيئَهَا بَعْدَ الْوَصْفَيْنِ السَّابِقَيْنِ مِنَ الْعِلْمِ وَالْقُدْرَةِ؛ إِذْ مَنْ هَذَانِ الْوَصْفَانِ لَهُ؛ هُوَ الْمُتَّصِفُ بِالْإِلَهِيَّةِ لَا غَيْرُهُ"[3].

التَّعقيب على التَّصوير بالعزَّة والحكمة إشارةٌ إلى كمالِ القدرةِ

ذكرتِ الآيةُ وَصْفَي العزَّةِ والحكمةِ بعد ذكرِ تصوير الخلقِ "إشارةً إلى كمال القدرةِ"[4]، في وصف العزيز، وأمَّا الْحَكِيمُ: فهو "أخصُّ بما ذكر من التَّصوير"[5]، و"أَتَى بِوَصْفِ الْعِزَّةِ الدَّالَّةِ عَلَى عَدَمِ النَّظِيرِ، وَالْحِكْمَةِ الْمُوجِبَةِ لِتَصْوِيرِ الْأَشْيَاءِ عَلَى الْإِتْقَانِ التَّامِّ"[6].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/153.
(2) الرّاغب، تفسير الراغب: 2/412.
(3) أبو حيَّان، البحر المحيط: 3/21.
(4) ابن عادل، اللباب: 5/27.
(5) ابن عطية، المحرر الوجيز: 1/400.
(6) أبو حيَّان، البحر المحيط: 3/21.

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۖ وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٧﴾ [آل عمران: 7]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

ربط تفرّد الله بخلق الأجنّة، بالمحكم والمتشابه في الآيات المتلوّة

مناسبة هذه الآية لما قبلها أنَّه ذكر في الآية السَّابقة أنَّه قيُّوم، والقيُّوم هو القائم بمصالح الخلق، وهي قسمان: جسمانيَّة وروحانيَّة؛ فالجسمانيَّة: أشرفها تَعْدِيلُ الْبِنْيَةِ وَتَصْوِيرهَا عَلَى مَا يَشَاءُ مِنَ الْأَشْكَالِ الْحَسَنَةِ، وَهَذَا أَمْرٌ جسْمَانِيٌّ، وفي هذه الآية تكلَّم عن المصالح الرّوحانيَّة، وأشرفها العلم، وهو المراد في هذه الآية، وربط خلقه في الأرحام لعباده، بما أنزل لهم من كتابه، وما حواه من محكم ومتشابه، وهم يستفيدون من المحكم في الرّسوخ بالأثر، وينأون عن المتشابه لما ينتج عنه من ضرر، وما يعتوره من غرر.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ءَايَٰتٞ﴾: جمعٌ، مفرده: آيةٌ، وهي العلامة الظَّاهرة، وحقيقته لكلِّ شيء ظاهر، واشتُقَّت الآية إمَّا من: أي، فإنَّها هي الّتي تبيِّن أيًّا من أي، والصّحيح: أنَّها مشتقَّة من التَّأيِّي الّذي هو التّثبُّت والإقامة على الشَّيء، ويقال للبناء العالي: آية، نحو قوله تعالى: ﴿أَتَبۡنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةٗ تَعۡبَثُونَ ١٢٨﴾ [الشعراء: 128]، وتقال لكلِّ جملة من القرآن، دالَّة على حكم آية، سورةً كانت أو فصولًا أو فصلًا من سورة[1]، وجمع

(1) الراغب، المفردات: (آي).

آية: آي وآيات. والآية في القرآن الكريم كأنّها علامة شيء، ثمّ يخرج منها إلى غيرها، هكذا يقول أبو عبيدة.، ويقال: تأيّا بالمكان يتأيّا تأييا، إذا أقام به، وتأيّا في هذا الأمر تئيّة أي نظر[1].

2) ﴿مُّحۡكَمَٰتٞ﴾: قيل: "مَعْنَاهُ يُشبه بعضُها بَعْضًا، وَقد اخْتلف المفسِّرون في تَفْسِير قَوْله: ﴿وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞۖ﴾؛ فرُوي عَن ابْن عبّاس أَنّه قَالَ: المتشابهات الحروف المقطَّعة، وَمَا اشْتبهَ على اليَهود من هَذِه ونحوِها، وأنكر الأزهريّ صحّة ذلك، وذكر أنّ الفرّاء ذهب إِلَى مَا رُوِي عَن ابْن عبّاس، بينما رُوِي عَن الضّحّاك أَنّ الْمُحْكَمات: مَا لم يُنسَخ، والمتشابِهات: مَا قد نُسخ، وَقَالَ غَيره: الْمُتشابِهات هِيَ الْآيَات الَّتِي نَزلتْ فِي ذِكر الْقِيَامَة والبَعْث[2]، وعلى هذا؛ فالمراد بالمحكم ما يبيّن، واتَّفق تفسيره، فيقطع على مراد بعينه"[3]، "أحكمت عبارتها؛ بأنْ حفظت من الاحتمال"[4]، و"المحكمات: المفصَّلات المبيَّنات الثَّابتات الأحكام"[5].

3) ﴿أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ﴾: "تقال لكلِّ ما كان أصلًا لوجود شيء، أو تربيته أو إصلاحه، أو مبدئه، قال الخليل: كلُّ شيء ضُمَّ إليه سائر ما يليه يسمَّى أُمًّا، وقيل لفاتحة الكتاب: أمٌّ؛ لكونها مبدأ الكتاب[6]، وأُم الكِتَاب: " كُل آيَة محكمَة من آيَات الشَّرَائِع وَالْأَحْكَام والفرائض، وَجَاء فِي الحَدِيث: «إِنّ أُم الْكتاب هِيَ فَاتِحَة الْكتاب»، لِأَنَّهَا هِيَ المتقدّمة أَمَام كلّ سُورة فِي جَمِيع الصَّلَوَات، وابتدى بهَا فِي الْمُصحف فقدّمت، وَهِي الْقُرْآن الْعَظِيم"[7]، قَالَ سِيبَوَيْهِ: (إِنّ) أمُّ الْجَزَاء و(الألِفُ) أَمُّ الِاسْتِفْهَام و(إلّا) أمُّ الِاسْتِثْنَاء و(الْوَاو) أمُّ حُرُوف الْعَطف، يُرِيد أَنَّهَا أصُول هَذِه الْأَبْوَاب[8].

4) ﴿وَأُخَرُ﴾: جمع: أُخْرى، مؤنَّث آخر، ولا تُستعمل آخر إلّا من جنس المذكور، تقول: جاءني زيد ورجل آخر، ولا تقول: جاءني زيد وفرسٌ آخر، وقيل: أخر معدولة عن آخر،

(1) الرّاغب، المفردات: (آي).
(2) الأزهري، تهذيب اللّغة: (آي).
(3) النّيسابوريّ، إيجاز البيان: 1/179.
(4) الزّمخشري، الكشاف: 1/337، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 2/6، النّسفيّ، مدارك التّنزيل: 1/237.
(5) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 1/400.
(6) الراغب، المفردات: (أمّ).
(7) الأزهري، تهذيب اللّغة: (آي).
(8) الأزهري، تهذيب اللّغة: (آي).

"وَقد استعملوا أُخَرَ بِغَيْر ألفٍ وَلَام فَقَالُوا رجل آخَرُ، وَرِجَال أُخَرُ، وَفِي التَّنْزِيل: ﴿وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌۖ﴾ وَكَذَلِكَ أُخْرَى، وَكَانَ قِيَاس ذَلِك أَن يكون كَمَا تقدّم، قَالَ سِيبَوَيْهِ: سَأَلت الْخَلِيل عَن أُخَرَ فَقلت مَا بالُه لَا يَنْصرِف فِي معرفةٍ وَلَا نكرةٍ، قَالَ لِأَنّ أُخَرَ خَالَفت أخواتِها، وَأَصلهَا، وَإِنَّمَا هِيَ بمنْزِلة الطُّوَل والوُسَط والكُبَر، لَا يكُنَّ صفةً إِلَّا وفيهنَّ ألف ولامٌ، فتُوصَف بهنَّ المعرفةُ، أَلا ترى أَنَّك لَا تَقول نِسوةٌ صُغَرٌ، وَلَا هَؤُلَاءِ نِسْوةٌ وُسَطٌ، وَلَا هَؤُلَاءِ قومٌ أصاغِرُ، فَلَمَّا خَالَفت الأصلَ، وَجَاءَت صفة بِغَيْر ألفٍ ولام، تركُوا صرْفها، كَمَا تركُوا صَرْف لُكَعَ، حِين أَرَادوا يَا أَلْكَعُ، وفُسَقَ حِين أَرَادوا يَا فَاسِقُ"[1].

5) ﴿مُتَشَٰبِهَٰتٌۖ﴾: الشَّبه والشَّبيه: حقيقتها في المماثلة من جهة الكيفيَّة، كاللَّون والطَّعم، وكالعدالة والظُّلم، والشُّبهة: هي ألَّا يتميَّز أحد الشَّيئين من الآخر لما بَيْنَهُمَا من التَّشابه عينًا كان أو معنًى، والمتشابه من القرآن: ما أُشكل تفسيره لمشابهته لغيره: إمَّا من حيث اللَّفظ، أو من حيث المعنى[2]، "والمتشابه بخلاف المحكم، مثل: وقت السَّاعة وأشراطها، ومعرفة الصّغائر بأعيانها"[3]، "والمتشابهات: هي الَّتي فيها نظر، وتحتاج إلى تأويل، ويظهر فيها ببادئ النَّظر: إمَّا تعارض مع أخرى، أو مع العقل، إلى غير ذلك من أنواع التَّشابه، فهذا الشّبه الّذي من أجله توصف بـ ﴿مُتَشَٰبِهَٰتٌۖ﴾، إنّما هو بيَّنها وبيَّن المعاني الفاسدة الّتي يظنُّها أهل الزّيغ ومن لم يمعن النَّظر"[4]، و"محتملات لا يتَّضح مقصودها؛ لإجمالٍ، أو مخالفة ظاهر"[5]، و"لا تفهم معانيها، يعني: أنَّ لفظه يشبه لفظ غيره، ومعناه يخالف معناه"[6]، قال الكرمانيّ: "ما في الآية لا يمتنع كونها معدولة عن الألف واللّام، مع كونها وصفا لنكرة، لأنّ ذلك مقدّر من وجه وغير مقدّر من وجه"[7].

6) ﴿زَيۡغٞ﴾: من زَيَغَ، وهو أَصْلٌ يَدُلُّ عَلَى مَيْلِ الشَّيْءِ[8]، "الزَّيغ: الجور والميل عن

(1) ابن سيده، تهذيب اللّغة: 5/55.
(2) الراغب، المفردات: (شبه).
(3) النيسابوري، إيجاز البيان: 1/180.
(4) ابن عطية، المحرر الوجيز: 1/400.
(5) البيضاوي، أنوار التنزيل: 2/6، والزمخشري، الكشاف: 1/337 - 338.
(6) القنّوجي، فتح البيان: 2/175.
(7) الكفويّ، فتح البيان: 2/175.
(8) ابن فارس، مقاييس اللغة: (زيغ).

القصد، ويقال: زاغ يزيغ؛ إذا جار"[1]، "يعمُّ كلَّ طائفة من كافر وزنديق وجاهل صاحب بدعة"[2]، "عدول عن الحقِّ كالمبتدعة"[3]، وعَن أبي زيدٍ: تَزَيَّغَتِ المرأةُ تَزَيُّغًا، وتزيّقت تزيّقًا: إذا تَزَينتْ، وَقَالَ غَيره: زَاغَتِ الشَّمْس تَزيغ زيُوغًا، فَهِيَ زَائغةٌ: إذا مَالَتْ وزالت، وَقَالَ اللّه جلَّ وعزَّ: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡۚ﴾ [الصَّف: 5][4]، في حديث الدّعاء «لا تزغ قلبي»، أي لا تمله عن الإيمان. يقال زاغ عن الطّريق يزيغ إذا عدل عنه، ومنه حديث أبي بكر رضي الله عنه: «أخاف إن تركت شيئًا من أمره أن أزيغ»، أي أجور وأعدل عن الحقّ[5].

7) ﴿ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ﴾: "ومعنى ﴿ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ﴾، أي: يفعلون ذلك لطلب الفتنة، ولطلب التّأويل، والفتنة في اللُّغَةِ على ضروبٍ: فالضّرْب الّذي ابتغاه هؤلاءِ هو فَسَادُ ذَاتِ الْبَين في الدِّينِ والحرُوبِ"[6]، "والْفِتْنَة الاختبار بالنَّار والابتلاء، وفي التَّنْزِيل الْعَزِيز ﴿وَنَبۡلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلۡخَيۡرِ فِتۡنَةٗۖ﴾ [الأنبياء: 35]، والإعجاب بالشَّيْء والاستهتار بِهِ، والتّدلّه بالشَّيْء وَالِاضْطِرَاب وبلبلة الأفكار، وَفِي التَّنْزِيل الْعَزِيز ﴿فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ﴾، وَالْعَذَاب، وَفِي التَّنْزِيل الْعَزِيز ﴿ذُوقُواْ فِتۡنَتَكُمۡ هَٰذَا ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تَسۡتَعۡجِلُونَ ١٤﴾ [الذّاريات: 14]، والضّلال، وَفِي التَّنْزِيل الْعَزِيز ﴿وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتۡنَتَهُۥ فَلَن تَمۡلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗاۚ﴾ [المائدة: 41]، وفتنة الصَّدْر الوسواس[7].

8) ﴿تَأۡوِيلِهِۦۖ﴾: "التَّأويل من الأوَّل، أي: الرُّجوع إلى الأصل، ومنه: المَوْئِلُ للموضع الَّذي يرجع إليه، وذلك هو ردُّ الشّيء إلى الغاية المرادة منه، علمًا كان أو فعلًا: ففي العلم، نحو: ﴿وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ﴾، والفعل، نحو قوله تعالى: ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأۡوِيلَهُۥۚ يَوۡمَ يَأۡتِي تَأۡوِيلُهُۥ﴾ [الأعراف: 53]، أي: بيانه الّذي غايته المقصودة منه"[8]، و"التّأويل: هو مردُّ الكلام ومرجعه، والشّيء الّذي يقف عليه من المعاني، وهو من آل يؤول؛ إذا رجع"[9].

(1) الزَّجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 1/377.
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 1/402.
(3) البيضاوي، أنوار التنزيل: 2/6.
(4) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (زيغ).
(5) ابن الأثير، النّهاية: 2/324.
(6) الزَّجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 1/377 - 378.
(7) مجمع اللّغة العربيّة بالقاهرة، المعجم الوسيط: 2/673.
(8) الراغب، المفردات: (آل).
(9) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 1/402.

"وَالتَّأْوِيلُ يَكُونُ بِمَعْنَى: التَّفْسِيرِ، كَقَوْلِكَ: تَأْوِيلُ هَذِهِ الْكَلِمَةِ عَلَى كَذَا، وَيَكُونُ بِمَعْنَى: ما يؤول الْأَمْرُ إِلَيْهِ، وَاشْتِقَاقُهُ مِنْ آلَ الْأَمْرُ إِلَى كذا يؤول إِلَيْهِ، أَيْ: صَارَ، وَأَوَّلْتُهُ تَأْوِيلًا، أَيْ: صَيَّرْتُهُ"[1].

9) ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ﴾: من رَسَخَ، وهو أَصْلٌ يَدُلُّ عَلَى الثَّبَاتِ، وَيُقَالُ رَسَخَ: ثَبَتَ، وَكُلُّ رَاسِخٍ ثَابِتٌ[2]، "الرُّسوخ الثُّبوت في الشّيء، وأصله في الأجرام: أن يرسخ الجبل أو الشَّجر في الأرض"[3]، "ومعنى: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ﴾، أي: الثَّابتون، يقال: رسخ الشَّيءُ يَرْسَخُ رُسوخًا؛ إذا ثبت"[4]، فهم " الَّذِينَ تَمَكَّنُوا فِي عِلْمِ الْكِتَابِ، وَمَعْرِفَةِ مَحَامِلِهِ، وَقَامَ عِنْدَهُمْ مِنَ الْأَدِلَّةِ مَا أَرْشَدَهُمْ إِلَى مُرَادِ اللَّهِ تَعَالَى، بِحَيْثُ لَا تَرُوجُ عَلَيْهِمُ الشُّبَهُ"[5]، "وقال اللّيث: رجل راسخ في العلم: قد دخل فيه مدخلا ثابتا، والرّاسخون في كتاب الله جلّ وعزّ: هم الدّارسون، قال: ورسخ الشّيء رسوخا، إذا ثبت في موضعه، وأرسخته إرساخا، كالحبر يرسخ في الصّحيفة، والعلم يرسخ في قلب الإنسان"[6].

10) ﴿أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾: من لبَّ، وهو أَصْلٌ يَدُلُّ عَلَى لُزُومٍ وَثَبَاتٍ، وَعَلَى خُلُوصٍ وَجَوْدَةٍ، اللُّبُّ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ: خَالِصُهُ، وَمَا يُنْتَقَى مِنْهُ؛ وَلِذَلِكَ سُمِّيَ الْعَقْلُ: لُبًّا، وَرَجُلٌ لَبِيبٌ، أَيْ: عَاقِلٌ، وَخَالِصُ كُلِّ شَيْءٍ لُبَابُهُ[7]، الألباب جمع: لبٍّ، وهو العقل الخالص من الشَّوائب، ولبُّ كلِّ شيءٍ خالصه، سمِّي بذلك؛ لكونه خالص ما في الإنسان من قوَّةٍ، كاللُّباب من الشِّيء، وهو ما زكا من العقل، فهو أخصُّ منه، وكلُّ لبٍّ عقل، وليس كلُّ عقلٍ لبًّا؛ ولهذا علَّق الله تعالى الأحكام الَّتي لا تدركها إلَّا العقول الزَّكيَّة بأولي الألباب، فخاطبهم بها دون من عداهم؛ ولذلك أورد قوله تعالى: ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ بعد قوله: ﴿فَقَدۡ أُوتِيَ خَيۡرٗا كَثِيرٗاۗ﴾ [البقرة: 269][8]، و"لبٌّ: وهو العقل، وأُولُوا: جمع ذو"[9].

(1) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 4/15.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (رسخ).
(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 1/404.
(4) الزّجاج، معاني القرآن وإعرابه: 1/378.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/164.
(6) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (رسخ).
(7) ابن فارس، مقاييس اللّغة، (لبَّ).
(8) الرّاغب، المفردات، والسّمين، عمدة الحفاظ: (لبب).
(9) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 1/404.

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

"هو الَّذي أنزل عليك أيُّها النّبيُّ ﷺ القرآن، منه آيات واضحة الدِّلالة، لا لبس فيها، هي أصل الكتاب ومعظمه، وهي المرجع عند الاختلاف، ومنه آيات أُخر محتملة لأكثر من معنى، يلتبس معناها على أكثر النَّاس، فأمَّا الّذين في قلوبهم ميل عن الحقِّ؛ فيتركون المُحْكم، ويأخذون بالمتشابه المُحْتمل؛ يبتغون بذلك إثارة الشُّبهة، وإضلال النّاس، ويبتغون بذلك تأويلها بأهوائهم، على ما يوافق مذاهبهم الفاسدة، ولا يعلم حقيقة معاني هذه الآيات، وعاقبتها الّتي تؤول إليها إلَّا اللّه، والرَّاسخون في العلم المتمكِّنون منه، يقولون: آمنَّا بالقرآن كُلِّه؛ لأنَّه كُلُّهُ من عند ربِّنا، ويفسِّرون المتشابه بما أُحْكِم منه، وما يتذكَّر، ويتَّعظ إلّا أصحاب العقول السَّليمة"[1].

المُنزلُ من القرآن مُحكمٌ يأخذُ به الرّاسخُون، ومُتشابهٌ يتّبعهُ الزّائغون

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

لماذا لم تُعطف هذه الجملة على ما سبق؟

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ جملةٌ استئنافيَّةٌ غير معطوفة على ما سبق؛ للدَّلالة على: تحقيق إنزال اللّه للقرآنِ عليه والتَّوراة والإنجيل قبله، وعلى تأكيد مضْمُون قوله تعالى: ﴿نَزَّلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ﴾، وعلى التمهيد لقوله تعالى: ﴿مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ﴾؛ "لِأَنَّ الْآيَاتِ نَزَلَتْ فِي مُجَادَلَةِ وَفْدِ نَجْرَانَ، وَصُدِّرَتْ بِإِبْطَالِ عقيدتهم فِي إلهيَّة الْمَسِيح؛ فالإشارة إِلَى أَوْصَافِ الْإِلَهِ الْحَقَّة.

وتَوَجَّهَ الْكَلَامُ هُنَا إِلَى إِزَالَةِ شُبْهَتِهِمْ فِي شَأْنِ زَعْمِهِمُ اعْتِرَافَ نُصُوصِ الْقُرْآنِ بِإِلَهِيَّةِ الْمَسِيحِ؛ إِذْ وُصِفَ فِيهَا بِأَنَّهُ رُوحُ اللّه، وأنَّه يُحْيِي الْمَوْتَى، وَأَنَّهُ كَلِمَةُ اللّه، وَغَيْرُ ذَلِكَ، فَنُودِيَ عَلَيْهِمْ بِأَنَّ مَا تَعَلَّقُوا بِهِ تَعَلُّقَ اشْتِبَاهٍ وَسُوءِ تأويل"[2].

الكتب السَّماويَّة مصدرها واحد:

(1) جماعة من علماء التفسير، المختصر في تفسير القرآن الكريم: 1/50.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/153.

إيثارُ استعمالِ الاسمِ الموصول في: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ﴾:

ربـــطُ الآيـــاتِ بعضِها ببعضٍ يقـوِّي التَّـدبُّر، ويُـــعـــينُ على التَّفكُّر

آثرتِ الآيةُ الإتيانَ بالاسمِ الموصول في قولِه تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ للرَّبطِ بما ذُكرَ في أوّلِ السُّورةِ، فلمَّا "ذَكَرَ تَعَالَى أَوَّلَ السُّورَةِ: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ۝٢ نَزَّلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ﴾؛ ذَكَرَ هُنَا كَيۡفِيَّةَ الۡكِتَابِ، وَأَتَى بِالۡمَوۡصُولِ؛ إِذۡ فِي صِلَتِهِ حَوَالَةٌ[1] عَلَى التَّنۡزِيلِ السَّابِقِ، وَعَهۡدٌ فِيهِ"[2].

بلاغةُ القَصْرِ في قولِه: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ﴾:

القرآنُ نازلٌ من عند الله تعالى، لا مـفـتـرًى من عندِ غيره

جاءَ قولُه تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ جملةً اسميَّةً مفيدةً الحصرَ، فهي "قَصۡرُ صِفَةِ إِنۡزَالِ الۡقُرۡآنِ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى؛ لِتَكُونَ الۡجُمۡلَةُ - مَعَ كَوۡنِهَا تَأۡكِيدًا وَتَمۡهِيدًا - إِبۡطَالًا أَيۡضًا لِقَوۡلِ الۡمُشۡرِكِينَ: ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌۗ﴾ [النحل: 103]، وَقَوۡلِهِمۡ: ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٱكۡتَتَبَهَا فَهِيَ تُمۡلَىٰ عَلَيۡهِ بُكۡرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الفرقان: 5]"[3]، أي: هو المنزلُ فحسب، فليس لأحدٍ شأنٌ في القُرآنِ الذي تزعمون أنَّه من عند غيرِ اللّه تعالى، فهو منزلٌ لا مفترًى، ومن عند اللّه لا من عند غيرِه.

دلالة الألف واللّام في قوله: ﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾:

معنى الألفِ واللّام الكمالُ، أي: القرآنُ هو الكتابُ الذي كَمُلَ فاستحقَّ بهذا الاعتبارِ أنْ يُوصَفَ بأنَّه الكتاب، وفي ذلك إشارةٌ إلى هيمنةِ القرآن على الكتب السَّابقة، إذ هو الكتابُ الباقي مكتوبًا مدوَّنًا إلى يومِ القيامةِ، بخلافِ إرادةِ اللّه في الكتبِ السَّابقةِ.

علَّة التّقديم والتأخير في: ﴿أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ﴾:

مِنَّةُ الله بإنزال الكتابِ مستمرَّةٌ على أمَّةِ القرآنِ

لَمَّا كانَ القرآنُ هو الكتاب الكامل؛ شُرِّف النَّبيُّ باختصاصه به فقُدِّمَ "الظَّرفُ، وهو ﴿عَلَيۡكَ﴾؛ لما يفيده من الاختصاص"[4]،

(1) أي: شهادة.
(2) أبو حيَّان، البحر المحيط: 3/25.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/153.
(4) القنّوجي، فتح البيان: 2/175.

وللامتنانِ على النَّبيِّ ﷺ بأن أُنزِلَ عليه دون سِواه، وهو امتنانٌ على هذه الأمَّةِ تَبَعًا إلى يومِ القيامةِ.

الإنزالُ قريبٌ من معنى الوحي

اختيرَ فِعل ﴿أَنزَلَ﴾ لحملِه معنى: قَصْر إنزالِ القُرآنِ على اللّه تعالى، فهو المنزلُ دون سِواه؛ لأنَّ الإنزال يُرادف الوحي، ولا يكون إلَّا من اللّه تعالى، بخلاف آتاك الكتاب؛ فلا تؤدِّي معنى القصر[1]، وإنَّما يُحدِّدُ معنى القَصْرِ السِّياقُ.

توجيهُ الاسْتِعَارةِ في تسمية المُحكَمِ والمُتَشَابِهِ:

الإحكام واضحٌ مانعٌ من الاحتمالِ بخلافِ التَّشابه

سُمِّيَ واضحُ الدّلالةِ بالمحكم في قوله تعالى: ﴿مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ "على سَبيلِ الاسْتِعَارَةِ؛ لِأَنَّ في وُضُوحِ الدَّلَالَةِ مَنْعًا لِتَطَرُّقِ الاحْتِمَالَاتِ المُوجِبَةِ لِلتَّرَدُّدِ في المُرَاد"، وسمَّى خفيَّ الدّلالةِ بالمُتشابه في قوله تعالى: ﴿وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ﴾ "عَلَى طَرِيقَةِ الاسْتِعَارَةِ؛ لِأَنَّ تَطَرُّقَ الاحْتِمَالِ في مَعَاني الْكَلَامِ يُفْضِي إِلَى عَدَمِ تَعَيُّنِ أَحَدِ الاحْتِمَالَاتِ، وَذَلِكَ مِثْلُ تَشَابُهِ الذَّوَاتِ في عَدَمِ تَمْيِيزِ بَعْضِهَا مِنْ بَعْضٍ"[2].

المُتَشَابِه وَصْفٌ يُطلقُ على المعاني الغامضةِ، وإن لم تكنْ بسببِ الشَّبَهِ

قولُه تعالى: ﴿مُتَشَٰبِهَٰتٌ﴾ هو صفة لـ﴿وَأُخَرُ﴾، وعلى التَّحقيقِ فهو صِفةٌ للمحذوفِ، "أي: محتمِلاتٌ لمعانٍ متشابهة لا يمتاز بعضُها من بعض في استحقاق الإرادة بها، ولا يتَّضح الأمرُ إلا بالنّظر الدّقيق والتَّأمُّلِ الأنيق، فالتَّشابه في الحقيقة وصفٌ لتلك المعاني، وُصفت به الآياتُ على طريقة وصف الدَّالِّ بوصف المدلول، وقيل: لَمَّا كان من شأن الأمور المتشابهة أن يعجِزَ العقل عن التَّمييز بينها؛ سُمِّي كلُّ ما لا يهتدي إليه العقل متشابهًا، وإن لم يكن ذلك بسبب التشابه، كما أنَّ المُشكِل في الأصل ما دخل في أشكاله وأمثاله، ولم يُعلم بعينه، ثم أطلق على كلِّ غامض؛ وإن لم يكن غموضُه من تلك الجهة"[3].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/154.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/154.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 2/7 - 8.

سِرُّ إفراد ﴿أُمُّ﴾ دونَ جمعِها في قولِه: ﴿ءَايَٰتٌ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ﴾:

آياتُ القرآنِ في تكاملِها بمنزلةِ الآيةِ الواحدةِ

أفردَ النَّظم لفظَ أمّ في قولِه تعالى: ﴿ءَايَٰتٌ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ ولم يجمع مع أنَّه خبرٌ عن جمع وهو ﴿ءَايَٰتٌ﴾ "والقياس أمُّهات"[1]؛ "لِأَنَّ الْمَعْنَى: أَنَّ جَمِيعَ الْآيَاتِ بِمَنْزِلَةِ آيَةٍ وَاحِدَةٍ، فَأَفْرَدَ عَلَى الْمَعْنَى"[2]؛ "لأنَّ الآيات كلَّها في تكاملها واجتماعها كالآية الواحدة"[3]، "وَنَظِيرُهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَجَعَلۡنَا ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً﴾ [المؤمنون: 50]، وَلَمْ يَقُلْ: آيَتَيْنِ، وَإِنَّمَا قَالَ ذَلِكَ عَلَى مَعْنَى: أَنَّ مَجْمُوعَهُمَا آيَةٌ وَاحِدَةٌ، فَكَذَلِكَ هَاهُنَا"[4].

توجيه المتشابه اللَّفظيّ بين قولِه: ﴿هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ﴾، و﴿وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ ٣٩﴾ [الرعد: 39]:

بيانُ معنى (أُمّ الكتاب) معذوقٌ بسياقِه

السِّياقُ هو الذي يُحدِّدُ معانيَ الألفاظِ القرآنيَّة المفردةِ والتَّركيبيَّة، فورَدَ لفظُ ﴿أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ في آيتينِ مُختلفتَيْن، كانَ معناه في آلِ عمران "الْقُرْآنُ لَا مَحَالَةَ؛ لِأَنَّهُ الْمُتَحَدَّثُ عَنْهُ بِقَوْلِهِ: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ﴾، فَلَيْسَ قَوْلُهُ: ﴿أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ هُنَا بِمِثْلِ قَوْلِهِ: ﴿وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ ٣٩﴾ [الرعد: 39]"[5]، إذ سياقُ آيةِ الرَّعد تدلُّ على أنَّه اللَّوح المحفوظُ بدليلِ العنديَّةِ، ومثلُه قولُه تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ فِيٓ أُمِّ ٱلۡكِتَٰبِ لَدَيۡنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ ٤﴾ [الزخرف: 4].

ليس كلُّ ما صحَّ وصفُه بالجمعِ صحَّ وصفُه بالإفرادِ

"إِنْ قِيلَ: وَاحِدَةٌ مُتَشَابِهَاتٍ: مُتَشَابِهَةٌ، وَوَاحِدَةٌ أُخَرَ: أُخْرَى، وَالْوَاحِدُ هُنَا لَا يَصِحُّ أَنْ يُوصَفَ بِهَذَا الْوَاحِدِ، فَلَا يُقَالُ: أُخْرَى مُتَشَابِهَةٌ، إِلَّا أَنْ يَكُونَ بَعْضُ الْوَاحِدَةِ يُشْبِهُ بَعْضًا، وَلَيْسَ الْمَعْنَى عَلَى ذَلِكَ، وَإِنَّمَا الْمَعْنَى: أَنَّ كُلَّ آيَةٍ تُشْبِهُ آيَةً أُخْرَى، فَكَيْفَ صَحَّ وَصْفُ هَذَا الْجَمْعِ بِهَذَا الْجَمْعِ، وَلَمْ يُوصَفْ مُفْرَدُهُ بِمُفْرَدِهِ؟

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 2/6.
(2) العكبري، التبيان: 1/238.
(3) القنّوجي، فتح البيان: 2/175.
(4) الرازي، مفاتيح الغيب: 7/143، وأبو حيّان، البحر المحيط: 3/23.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/154.

قِيلَ: التَّشَابُهُ لَا يَكُونُ إِلَّا بَيْنَ اثْنَيْنِ، فَصَاعِدًا، فَإِذَا اجْتَمَعَتِ الْأَشْيَاءُ الْمُتَشَابِهَةُ؛ كَانَ كُلٌّ مِنْهَا مُشَابِهًا لِلْآخَرِ، فَلَمَّا لَمْ يَصِحَّ التَّشَابُهُ إِلَّا فِي حَالَةِ الِاجْتِمَاعِ؛ وَصَفَ الْجَمْعَ بِالْجَمْعِ؛ لِأَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْ مُفْرَدَاتِهِ يُشَابِهُ بَاقِيهَا؛ فَأَمَّا الْوَاحِدُ؛ فَلَا يَصِحُّ فِيهِ هَذَا الْمَعْنَى، وَنَظِيرُهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ﴾ [القصص: 15]، فَثَنَّى الضَّمِيرَ، وَإِنْ كَانَ لَا يُقَالُ فِي الْوَاحِدِ: يَقْتَتِلُ"(1).

نُكتةُ وصفِ القُرآنِ كلِّه بالمحكمِ والمُتشابه وبعضِه كذلك:

الإحكامُ والتَّشابُه للهِ تعالَى، وليسَ للعبادِ إلَّا الاجتهادُ والفَهْمُ

في هذه السُّورة وُصِف بعضُ القرآن بالمحكم وبعضُه بالمتشابه، بَيْنَما جاءت آيات تصفُ القرآنَ بأنَّه كلَّه محكمٌ: ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ﴾ [هود: 1]، وآيات أُخرى تصفه بأنَّه كلَّه متشابهٌ: ﴿كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا﴾ [الزمر: 23]، فكيف الجوابُ عن مثلِ هذا؟

وبمعرفةِ معنى المحكم والمتشابه في كلِّ سياقٍ يدفعُ توهمَ التَّعارضِ، إذِ اختَلَفَ "الْمُرَادُ بِالْإِحْكَامِ وَالتَّشَابُهِ فِي مَوَاضِعِهَا، بِحَسَبِ مَا تَقْتَضِيهِ الْمَقَامَاتُ"(2)، أمَّا قوله تعالى: ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ﴾ [هود: 1] بِمَعْنَى: "كَوْنِهِ كَامِلًا، وَلَفْظُهُ أَفْصَحُ، وَمَعْنَاهُ أَصَحُّ، لَا يُسَاوِيهِ فِي هَذَيْنِ الْوَصْفَيْنِ كَلَامٌ، وَجَاءَ وَصْفُهُ بِالتَّشَابُهِ بِقَوْلِهِ: ﴿كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا﴾ [الزمر: 23]، مَعْنَاهُ: يُشْبِهُ بَعْضُهُ بَعْضًا فِي الْجِنْسِ وَالتَّصْدِيقِ"(3).

وقد سبَقَ بيانُ معنى الإحكام والتَّشابه في بعض آياتِ القُرآنِ، ونُكتةُ ذلك بيانُ أنَّ الإحكام لله تعالى، فهو الذي يُحكِمُ آياتِه كُلَّ آياتٍ بحسبِها، وكذلك التَّشابه، فليس لأحدٍ أن يفترضَ معنى الإحكام بمعنًى محدَّدٍ للقرآنِ كلِّه، أو يفترضَ معنى التَّشابه بمعنًى بعينِه في القرآنِ كلِّه، فالعقلُ خاضعٌ لإرادة الله في كلامِه، وعليه أن يجتهدَ في مُرادِ مولاه سبحانه فيما أنزلَ وفيما أرادَ.

(1) العكبري، التبيان: 1/238.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/156.
(3) أبو حيَّان، البحر المحيط: 3/21.

بلاغةُ مقابلةِ تفصيلِ المتشابه مع إجمالِ المحكم:

التَّفصيلُ والإجمالُ باعتبارِ احتياجِ النَّاسِ إلى البيانِ

جاءَ ذكرُ المُتشابه مفصَّلًا "لِإِجْمَالٍ اقْتَضَاهُ الْكَلَامُ السَّابِقُ؛ لِأَنَّهُ لَمَّا قَسَّمَ الْكِتَابَ إِلَى مُحْكَمٍ وَمُتَشَابِهٍ - وَكَانَ ذَلِكَ التَّقْسِيمُ بِاعْتِبَارِ دَلَالَةِ الْأَلْفَاظِ عَلَى الْمَعَانِي - تَشَوَّفَتِ النَّفْسُ إِلَى مَعْرِفَةِ تَلَقِّي النَّاسِ لِلْمُتَشَابِهِ، أَمَّا الْمُحْكَمُ؛ فَتَلَقِّي النَّاسِ لَهُ عَلَى طَرِيقَةٍ وَاحِدَةٍ، فَلَا حَاجَةَ إِلَى تَفْصِيلٍ فِيهِ، وَاقْتَصَرَ فِي التَّفْصِيلِ عَلَى ذِكْرِ قِسْمٍ مِنْ أَقْسَامِهِ: وَهُوَ حَالُ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ كَيْفَ تَلَقِّيهِمْ لِلْمُتَشَابِهَاتِ؛ لِأَنَّ بَيَانَ هَذَا هُوَ الْأَهَمُّ فِي الْغَرَضِ الْمَسُوقِ لَهُ الْكَلَامُ، وَهُوَ كَشْفُ شُبْهَةِ الَّذِينَ غَرَّتْهُمُ الْمُتَشَابِهَاتُ، وَلَمْ يَهْتَدُوا إِلَى حَقِّ تَأْوِيلِهَا، وَيُعْرَفُ حَالُ قَسِيمِهِمْ، وَهُمُ الَّذِينَ لَا زَيْغَ فِي قُلُوبِهِمْ، بِطَرِيقِ الْمُقَابَلَةِ، ثُمَّ سَيُصَرِّحُ بِإِجْمَالٍ حَالَ الْمُهْتَدِينَ فِي تلقِّي متشابهات الْقُرْآنِ"[1].

سرُّ اختيارِ مفردةِ الزَّيغِ دون الميل:

الزَّيْغُ أَخَصُّ مِنَ الْمَيْلِ؛ لِأَنَّهُ مَيْلٌ مِنْ حَقٍّ إِلَى باطل

اختيرتْ مفردةُ الزَّيغِ في قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ﴾ دون المَيْلِ، لأنَّ الزيغ أخصُّ من مطلق الميل؛ فإنَّ الزيغ لا يقال إلَّا لما كان من حقٍّ إلى باطل[2]، والزيغُ: الميلُ عن الاستقامة إلى أحد الجانبين، وزاغَ وزالَ ومالَ: متقاربٌ، لكن (زاغ) لا يقال إلَّا فيما كان من حقٍّ إلى باطل[3]، "وَالزَّيْغُ: الْمَيْلُ وَالِانْحِرَافُ عَنِ الْمَقْصُودِ: ﴿مَا زَاغَ ٱلۡبَصَرُ﴾ [النجم: 17]، وَيُقَالُ: زَاغَتِ الشَّمْسُ، فَالزَّيْغُ أَخَصُّ مِنَ الْمَيْلِ؛ لِأَنَّهُ مَيْلٌ عَنِ الصَّوَابِ وَالْمَقْصُودِ"[4].

أهلُ الزَّيغِ من هذه الأمَّةِ والمحرِّفون من أهلِ الكتابِ وجهانِ لعملةٍ واحدة

فالذين يتَّبعونَ المتشابه هم الذين زاغَتْ قلوبُهم عن الصَّوابِ والحقِّ عن قَصْدٍ، فاتِّباعُهم للمُتشابه مقصودٌ لذاته عندَهم، ففيه مزيدُ حَذَرٍ من هؤلاءِ؛ لأنَّهم زاغوا عن الحقِّ إرادةً للباطلِ والهوى،

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/161.
(2) ابن عادل، اللباب: 5/35.
(3) الرّاغب، المفردات: (زيغ).
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/161.

وتأويل القرآنِ ليُصبح على مرادِهم، فهم إخوةُ المُحرِّفين من أهل الكتابِ، وعليه، فالذين يُقابلون المحرِّفين من أهلِ الكتابِ، هم الذين زاغتْ قلوبُهم من هذه الأمَّة، والقصدُ تحريفٌ لاتِّباعِ الهوى.

بلاغةُ المَجَازِ في قَوْلِه: ﴿فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ﴾:

الاتِّبَاعُ في قوله تعالى: ﴿فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ﴾ "مَجَازٌ عَنِ الْمُلَازَمَةِ وَالْمُعَاوَدَةِ، أَيْ: يَعْكُفُونَ عَلَى الْخَوْضِ فِي الْمُتَشَابِهِ، يُحْصُونَهُ، شُبِّهَتْ تِلْكَ الْمُلَازَمَةُ بِمُلَازَمَةِ التَّابِعِ مَتْبُوعَهُ"[1]، فالمتبوعُ هو المُتشابه، وهم لا يتَّبعون سِواه، أي: يتركون المحكمَ وراءَ ظهورِهم، فاتِّباعُهم للمُتشابه على ذلك هو من قبيلِ الإيمانِ ببعضِ الكتابِ والكُفرِ ببعضٍ، وهم لا يتَّبعون المُتشابه باعتبارِه قُرآنًا بل باعتبارِه محقِّقًا لهواهم، وعليه فهم يتَّبعونَ المُتشابه المُؤدِّي إلى الباطلِ ابتغاءَ الفتنةِ وابتغاءَ تأويلِه.

اتِّباعُ المُتشابه لا باعتبارِه قُرآنًا بل باعتبارِ البحثِ عن هوى الزَّائغين

فنُّ الجَمْعِ والتَّقسيمِ:

قوله تعالى: ﴿مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞۖ﴾ "جمعٌ، ثمَّ عقَّبه بقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ﴾، وبقوله تعالى: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ﴾، فهذا تقسيم وتفريق، كأنَّه يقول: وأمَّا الرَّاسخون في العلم"[2].

أثرُ الوظيفةِ النَّحويَّةِ في بيانِ مقصودِ الأفعال: في قولِه: ﴿ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ﴾:

قولُه تعالى: ﴿ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ﴾ مفعولٌ لأجله، أي: "طَلَبُ الشُّبُهَاتِ، وَاللَّبْسُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَتَّى يُفْسِدُوا ذَاتَ بَيْنِهِمْ، وَيَرُدُّوا النَّاسَ إِلَى زَيْغِهِمْ"[3]، و"أن يفتنوا النَّاس عن دينهم بالتشكيك والتلبيس، ومناقضةِ المُحكَمِ بالمُتشابه"[4]، وعليه فاتِّباعُ أهلِ الزَّيغِ لمُتشابه

الكشفُ عن تخطيطِ أهلِ الزَّيغِ في نشرِ الفتنةِ بين المؤمنين

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/161.
(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/348.
(3) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 4/15.
(4) البيضاوي، أنوار التنزيل: 2/6.

القُرآنِ هو من بابِ طلبِ الفتنةِ، ففيه فائدةٌ وهي أنَّ أهلَ الزَّيغِ لا تصدُرُ أفعالُهم عن غيرِ قَصدٍ، أو كيفما اتَّفقَ، بل هم حريصون على الأفعال ذات المقصودِ الرَّديءِ، والفتنةِ المستطير شرُّها.

نُكتةُ عَطْفِ قولِه تعالى: ﴿وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۖ﴾ على: ﴿ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ﴾:

عُطِفَ قولُه تعالى: ﴿وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۖ﴾ على: ﴿ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ﴾، وهو من قبيل عطفِ الوسيلةِ على الغايةِ، أي: عُطِفَ التَّأويلُ الذي هو وسيلةٌ وأداةٌ موصلةٌ إلى الفتنةِ على الفتنةِ نفسِها، فإنَّ طلبَ تأويلِ المُتشابِه وحدَه ليس مذمومًا، وإنَّما لَحِقَه الذَّمُّ لَمَّا كان أداةً للغاية التي يَسْعَوْنَ لها وهي الفتنةُ، فتقديمُ ذكرِ الفتنةِ على التَّأويلِ وجعلِه أداةً لها؛ هو تنبيهٌ على "أنَّ قصدَهم إلى إيقاعِ الفتنة قبل طلب تأويله، وهذا القصد باتِّفاق أهل العقول كلِّها مذموم"[1]، ولذلك كانت الأداةُ التي هي التَّأويل ليست تأويلًا على الحقيقةِ.

التَّأويلُ مذمومٌ إذا كان خادِمًا لغايةٍ مذمومةٍ

فالمُتشابه "لا سبيل إلى تبيُّنه منه، وإنَّما طلبُ الحقِّ يجب أن يكون بردِّه إلى المحكم وإلى الرَّسولِ وإلى أولي الأمر، حسب ما نبَّه عليه تعالى بقوله: ﴿وَلَوۡ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنۡهُمۡ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسۡتَنۢبِطُونَهُۥ مِنۡهُمۡۗ﴾ [النساء: 83]"[2]، "فمَحَلُّ الذَّمِّ أَنَّهُمْ يَطْلُبُونَ تَأْوِيلًا، لَيْسُوا أَهْلًا لَهُ، فَيُؤَوِّلُونَهُ بِمَا يُوَافِقُ أَهْوَاءَهُمْ، وَهَذَا دَيْدَنُ الْمَلَاحِدَةِ وَأَهْلِ الْأَهْوَاءِ الَّذِينَ يَتَعَمَّدُونَ حَمْلَ النَّاسِ عَلَى مُتَابَعَتِهِمْ تَكْثِيرًا لِسَوَادِهِمْ"[3].

اختلافُ العلماءِ في معنى الواوِ، في قوله: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ﴾:

اخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ في بيانِ معنى الواوِ في قولِه: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ﴾، على قَوْلين مشهُورَيْن؛ الأوَّل: أن تكونَ الواوُ استئنافيَّةً، الثَّاني: أن تكونَ عاطِفةً، وحصل احتدامٌ كبيرٌ، ونزاعٌ مشهورٌ

القَوْلُ بالاستئنافِ أَوْجَهُ، ويُحملُ عليه معنى القولِ بالعطفِ

(1) الرّاغب، تفسير الراغب: 2/428 - 429.
(2) الرّاغب، تفسير الراغب: 2/429.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/162.

واختلافٌ معروفٌ، وهو مبنيٌّ على تعيينِ معنى العِلمِ الذي في قولِه: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾، ومن هنا يتحدَّدُ اتِّجاهُ العلماءِ في بيانِ معنى الواوِ، فمن قالَ: إنَّ المقصودَ بالعلمِ هو العلمُ القطعيُّ الذي لا يجوزُ أن يعلمَه إلَّا اللّه، قال بأنَّ الواوَ استئنافيَّةٌ في قولِه: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾، أي: لا يتجاوزون أن يقولوا: آمنَّا بِه، فهم لا يعلمون ما يعلمُ اللّه تعالى من تأويلِه على الوجه القطعيِّ.

ومن قال بأنَّ المقصودَ بالعلمِ، هو العلمُ الذي أجاز اللّه لعبادِه معرفتَه والوصولَ إليه، من مُتشابِه القُرآنِ، ممَّن يردُّ المحكمَ إلى المُتشابِه، ولا يبغي بذلك الفتنةَ، بل يبغي رضوان اللّه تعالى، قال بأنَّ الواو عاطفةٌ.

والأوجَهُ أن نحمِلَها على الاستئنافِ ويُوجَّه كلامُ أهل العلمِ القائلين بالعطفِ، فإنَّ القَولَ بالاستئنافِ لا يُشرِكُ الرَّاسخين في العلمِ في حكمِ علمِ اللّه تعالى، فاللّه لا يبلغ مبلغَ علمِه أحدٌ من العالمين، مهما بلغَ رُسوخُه، وتوطَّدتْ أركانُه، ثمَّ إنَّ قولَ الرَّاسخين آمنَّا به، يدلُّ على علمِهم، فالمؤمن لا يُؤمنُ إلَّا عن علمٍ بما يُؤمنُ بِه، وبه يندفعُ الظَّنُّ بأنَّ القولَ بالاستئنافِ يجعل الرَّاسخين بمنزلةِ الجُهَّالِ.

وعليه فالقولُ بالاستئنافِ يجعلُ علمَ اللّه مستقلًّا متفرِّدًا بعلمِه، ولا يسلبُ عن الرَّاسخين علمَهم بالمُتشابِه، بل يُثبتُ لهم علمًا بقرينةِ قولِهم: آمنَّا به، والمطلوبُ من الرَّاسخين أن يُؤمنوا عن علمٍ، لا عن جهلٍ، ومن هنا كان مدحُهم والثَّناءُ عليهم، وهذا التَّوجيهُ أسلمُ وأمكنُ، ولا يدفعُ المقبولَ من القَوْلَين.

قال الرَّازيُّ: "وهذا القول أقيسُ في العربيَّة، وأشبه بظاهر الآية، ويدلُّ لهذا القول وجوه:

أحدها: أنه ذمّ طالب المتشابه بقوله: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ﴾.

الثاني: أنَّه مدح الرَّاسخين في العلم بأنَّهم ﴿يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾، وقال في أوَّل البقرة: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ [البقرة: 26]، فهؤلاء الرَّاسخون لو كانوا عالمين بتأويل المتشابه على التَّفصيل؛ لما كان لهم في الإيمان به مدحٌ؛ لأنَّ كلّ من عرف شَيئًا على سبيل التَّفصيلِ، فلا بدَّ، وأن يُؤمن به.

الثالث: لو كان قوله: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ﴾ معطوفًا؛ لصار قوله: ﴿يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ ابتداء، وهو بعيد عن الفصاحة، وكان الأولى أن يُقَالَ: وهم يقولون، أو يقال: ويقولون.

رابعًا: قوله: ﴿كُلٌّ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ﴾، معناه: أنَّهم آمنوا بما عرفوا تفصيله، وبما لا يعرفون تفصيله، ولو كانوا عالمين بالتفصيل في الكلِّ؛ لم يبق لهذا الكلامِ فائدة"[1].

فائِدةُ الوصفِ بالرُّسوخ:

وُصِفَ العلماءُ بالرُّسوخِ، وهذا يدلُّ على أنَّهُم "يعلمون أكثر من المحكم الَّذي يستوي في علمه جميع من يفهم كلام العرب، وفي أيِّ شيء هو رسوخهم؛ إذا لم يعلموا إلا ما يعلم الجميع، وما الرُّسوخ إلا المعرفة بتصاريف الكلام وموارد الأحكام، ومواقع المواعظ، وذلك كلُّه بقريحة معدَّة، فالمعنى: ﴿وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ﴾ على الاستيفاء إلى الله، والقوم الذين يعلمون منه ما يمكن أن يعلم، يقولون في جميعه: ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ﴾، وهذا القدر هو الذي تعاطى ابن عباس رضي الله عنه، وهو ترجمان القرآن، ولا يتأوَّل عليه أنَّه علم وقت الساعة وأمر الروح وما شاكله"[2].

الرُّسوخُ أمارةُ علمِ المُتشابِه، عن إيمانٍ تامٍّ وإسلامٍ كافٍ

بلاغةُ الاستعارة في قولِه: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ﴾:

قولُه تعالى: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ﴾ استعارةٌ، حيثُ "اسْتُعِيرَ الرُّسُوخُ لِكَمَالِ الْعَقْلِ وَالْعِلْمِ بِحَيْثُ لَا تُضَلِّلُهُ الشُّبَهُ، وَلَا تَتَطَرَّقُهُ الْأَخْطَاءُ غَالِبًا، وَشَاعَتْ هَذِهِ الِاسْتِعَارَةُ حَتَّى صَارَتْ كَالْحَقِيقَةِ، فَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ: الثَّابِتُونَ فِيهِ، الْعَارِفُونَ بِدَقَائِقِهِ، فَهُمْ يُحْسِنُونَ مَوَاقِعَ التَّأْوِيلِ، وَيَعْلَمُونَهُ"[3]، وهذا من بابِ التَّشبيه "برسوخ الشَّيء الثَّقيل في الأرض الخَوَّارة، وهو أبلغ من قوله: والثَّابتون في العلم"[4].

الرَّاسخونَ في العلمِ ثابتونَ على الحقِّ لا تميلُ بهمُ الأهواءُ ولا الآراءُ

(1) الرازي، مفاتيح الغيب: 7/147.
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 1/403.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/164.
(4) محمد علي جميل، صفوة التفاسير: 1/168.

تقديرُ حذفِ الضّميرِ في قولِه: ﴿كُلٌّ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ﴾:

قولُه: ﴿كُلٌّ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ﴾ "فيه ضمير عائد على كتاب اللّه، محكمِهِ ومتشابهِهِ، والتَّقدير: كلُّه من عند ربِّنا، وحذف الضّمير؛ لدلالة لفظ كلٍّ عليه؛ إذ هي لفظة تقتضي الإضافة"[1]، "أي: كلُّ واحد منهما، وهذا من تمام المقول المذكور قبله"[2].

دلالـةُ الألـفـاظِ على المحذوفاتِ يُغني عن ذكرِها

فائدةُ ذِكرِ ﴿عِندِ﴾ في قولِه تعالى: ﴿مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ﴾:

لسائلٍ أن يسألَ عن سرِّ إضافةِ ﴿عِندِ﴾ مع أنَّه لَوْ قَالَ: كُلٌّ مِنْ رَبِّنَا؛ كَانَ صَحِيحًا، فَمَا الْفَائِدَةُ فِي لَفْظِ عِنْدِ؟ والْجَوَابُ: من أوجهٍ:

أوَّلًا: "الْإِيمَانُ بِالْمُتَشَابِهِ يُحْتَاجُ فِيهِ إِلَى مَزِيدِ التَّأْكِيدِ، فَذَكَرَ كَلِمَةَ ﴿عِندِ﴾ لِمَزِيدِ التَّأْكِيدِ"[3].

ثانيًا: "أَضَافَ الْعِنْدِيَّةَ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿رَبِّنَاۗ﴾، لَا إِلَى غَيْرِهِ مِنْ أَسْمَائِهِ تَعَالَى؛ لِمَا فِي الْإِشْعَارِ بِلَفْظَةِ الرَّبِّ مِنَ النَّظَرِ فِي مَصْلَحَةِ عَبِيدِهِ، فَلَوْلَا أَنَّ فِي الْمُتَشَابِهِ مَصْلَحَةً؛ مَا أَنْزَلَهُ تَعَالَى، وَلَجَعَلَ كِتَابَهُ كُلَّهُ مُحْكَمًا"[4].

ثالثًا: "لِلدَّلَالَةِ عَلَى أَنَّ ﴿مِّنۡ﴾ هُنَا لِلِابْتِدَاءِ الْحَقِيقِيِّ دُونَ الْمَجَازِيِّ، أَيْ: هُوَ مُنَزَّلٌ مِنْ وَحْيِ اللَّهِ تَعَالَى وَكَلَامِهِ"[5].

تعليمُ المُتشابِهِ من رعايةِ اللهِ لعبادِه ودالٌّ على كمالِ حكمتِه

مناسبةُ التَّذييلِ في قولِه: ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾:

قولُه تعالى: ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ جاءَ بعد ذكرِ الرَّاسخين في العلم "مدحًا للرَّاسخين بجَوْدة الذِّهن وحسنِ النَّظر"[6]، وفيه "إشارةٌ إلى ما استعدُّوا به للاهتداء إلى تأويله، وهو تجرُّد العقل عن

العلماءُ يُمتدحونَ برسوخِهم في العلمِ، وبكونِهم من أولي الألبابِ

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 1/404، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 4/19.
(2) القنّوجي، فتح البيان: 2/190.
(3) الرازي، مفاتيح الغيب: 7/147.
(4) أبو حيَّان، البحر المحيط: 3/30 - 31.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/169.
(6) أبو السُّعود، إرشاد العقل السليم: 2/8.

غواشي الحسِّ"[1]، فالألباب: "العقول الخالصة، وهم الرَّاسخون في العلم، الواقفون عند متشابهه، العاملون بمحكمه بما أرشدهم اللّه إليه في هذه الآية"[2].

توجيه الحصرِ في قولِه تعالى: ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾:

الحصر لكمال التَّذكُّر، لا لنفيهِ عن سواهم

القَصْرُ في قولِه تعالى: ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ لا يُراد به أنَّ التَّذكُّرَ خاصٌّ بهم، بل هو من بابِ بيان كمالِ التَّذكُّرِ فهو الذي لا يكون إلَّا لأولي الألبابِ، أي: "﴿وَمَا يَذَّكَّرُ﴾ حقَّ التَّذكُّر"[3]، إلَّا أولو الألبابِ.

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 2/6، والزمخشري، الكشاف: 1/338.
(2) القنّوجي، فتح البيان: 2/190.
(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السليم: 2/8.

﴿رَبَّنَا لَا تُزِغۡ قُلُوبَنَا بَعۡدَ إِذۡ هَدَيۡتَنَا وَهَبۡ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةً إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ ٨﴾ [آل عمران: 8]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

المقارنة بين أهل الـزّيـغ وأهـل العلم، وربطها بالدّعاء بالحفظ من الزّيغ

"لـمَّا ذكر أهل الزّيغ، وذكر نقيضهم، وظهر ما بين الحالتين؛ عقَّب ذلك بأنْ علَّم عباده الدُّعاء إليه في ألَّا يكونوا من الطّائفة الذَّميمة الّتي ذكرت، وهي أهل الزّيغ"[1]، "وَاعْلَمْ أَنَّهُ تَعَالَى كَمَا حَكَى عَنِ الرَّاسِخِينَ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ: ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ﴾؛ حَكَى عَنْهُمْ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغۡ قُلُوبَنَا بَعۡدَ إِذۡ هَدَيۡتَنَا﴾"[2]، وخلاصة قولهم البليغ ذلك: "ربّنا لا تجعل قلوبنا تنحرف عن الحقّ، بعد إذ أرشدتنا إليه، وامنحنا اللهم رحمة من عندك بالتّوفيق والتّثبيت، إنّك أنت المانع المعطي"[3].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿قُلُوبَنَا﴾: الْقَلْبُ، هو قَلْبُ الْإِنْسَانِ وَغَيْرِهِ، سُمِّيَ لأَنَّهُ أَخْلَصُ شَيْءٍ فِيهِ وَأَرْفَعُهُ. وَخَالِصُ كُلِّ شَيْءٍ وَأَشْرَفُهُ قَلْبُهُ. وَيَقُولُونَ: عَرَبِيٌّ قَلْبٌ. قَالَ:

فَلَا تُكْثِرُوا فِيهَا الضَّجَاجَ فَإِنَّنِي *** تَخَيَّرْتُهَا مِنْهُمْ زُبَيْرِيَّةً قَلْبَا[4]

ويُعبَّر بالقلب عن المعاني الَّتي تختصُّ به من الرُّوح والعلم والشَّجاعة وغير ذلك، قال تعالى: ﴿وَبَلَغَتِ ٱلۡقُلُوبُ ٱلۡحَنَاجِرَ﴾ [الأحزاب: 10]، وسُمِّي قلب الإنسان قلبًا؛ لكثرة تقلُّبه[5]، و"القَلْب: الفؤاد، وقد يعبَّر به عن العقل، قال الفرّاء في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكۡرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلۡبٌ﴾ [ق: 37]: أي عقل"[6].

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 1/404.
(2) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 7/148، وابن عادل، اللباب: 5/41 - 42.
(3) لجنة من علماء الأزهر، المنتخب في تفسير القرآن الكريم، ص: 71.
(4) أحمد بن فارس، معجم مقاييس اللّغة: 5/17.
(5) الرّاغب، المفردات: (قلب).
(6) الجوهريّ، الصّحاح: (قلب).

2) ﴿وَهَبۡ﴾، ﴿ٱلۡوَهَّابُ﴾: وهب اللّه لك الشّيء، يهب هبة، وتواهبه النّاس بينهم، والموهوب: الولد، ويجوز أن يكون ما يوهب لك[1]، والهِبَةُ: أن تجعل ملكك لغيرك بغير عوض[2]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ﴾: هو كثير الهبة، أي: العطيَّة من غير استحقاقٍ عليه، بل هو تفضُّل منه على خلقه[3]، "ٱلۡوَهَّابُ: كثير الهبة"[4]. "والهبة: تمليك الشّيء غيره من غير ثمن"[5].

3) ﴿لَّدُنكَ﴾: ظرف، وهي لأوَّل غاية زمان أو مكان أو غيرهما من الذَّوات، وهي ليست مرادفة لعند، بل قد تكون بمعناها، وهي أخصُّ من عند[6]، ويقال: لدن العود والرّمح لدانة ولدونة، ورمح لدن، ورماح لدنٌ ولدانٌ، وقناة لدنةُ الكعوب. وسرنا لدن غدوة: من طلوع الشّمس إلى غروبها، وقال:

لَدُنْ غُدْوَةٍ حَتَّى أُلَاذَ بِخُفِّهَا *** بَقِيَّةَ مَنْقُوصٍ مِنَ الْظِلِّ قَالِصِ

ومن المجاز: لدنت أخلاقه، وهو لدن الخليقة: ليّن العريكة[7].

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

دعـاء المؤمنين بالوقاية، من الزّيغ المُردي بعد الهداية

بيَّنت الآية أنَّ الرّاسخين يدعون ربَّهم قائلين: ربَّنا لا تُمِل قلوبنا عن الحقِّ، بعد أن هديتنا إليه، وسَلِّمْنا ممَّا أصاب المنحرفين المائلين عن الحقِّ، وهب لنا رحمة واسعة من عندك، تهدي بها قلوبنا، وتعصمنا بها من الضّلال، إنَّك أنت الوهّاب كثير العطاء"[8]، وهي دعوة أن لا يصْرِف قلوبهم عن الإيمان به، بعد أن منّ عليهم بالهداية لدينه، وأن يمنحهم من فضله رحمة واسعة، تلفّهم بالألطاف، لأنّه هو الوهّاب الّذي يعطي من يشاء بغير حساب[9].

(1) الخليل، العين: (وهب).
(2) الرَّاغب، المفردات: (وهب).
(3) السَّمين، عمدة الحفاظ: (وهب).
(4) النسفي، مدارك التنزيل: 1/238.
(5) الرّاغب، تفسير الراغب: 2/432.
(6) الراغب، المفردات، لدن.
(7) الزّمخشريّ، أساس البلاغة: (لدن).
(8) جماعة من علماء التفسير، المختصر في تفسير القرآن الكريم: 1/50.
(9) نخبة من علماء التّفسير، التّفسير الميسّر، ص: 50.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

سرُّ اختيار الدُّعاء بلفظ الرُّبوبيَّة:

اختير لفظ الرُّبوبيَّة في قولِه تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا﴾؛ لأنَّهم يطلبون الدُّعاء بثبات الهداية في قلوبهم، والتفضُّل عليهم برحمته، وهذا من مقام الامتنان والإنعام، فيناسبه لفظ الرُّبوبيَّة، وعدلتِ الآيةُ عن ذكر القول إلى المَقُول؛ لإظهار حرص الرَّاسخين على قبول دعائهم، وللإيجاز المعهود في القرآن الكريم في مثل هذا المقام، والعناية بالمقول دون ذكر القول، يرسِّخ قيمة تربويَّة تتمثَّل في الاهتمام بالعمل دون الوقوف عند حدِّ القول فقط.

اكتمالُ الإيمانِ في القلب يوفِّقُ صاحبَه للدُّعاءِ الصَّادقِ

علَّة إضافة الزيغ إلى القلوب دون الهداية:

لسائلٍ أن يسألَ عن سرِّ إضافةِ الزَّيغِ إلى القلوبِ في قوله: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا﴾؟ والهدايةُ لجميع الذَّات في قولِه: ﴿بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾؟

والجواب: "أنَّ الزَّيغ معنويٌّ معلَّق بالذَّات؛ لأنَّه الأصل، فإذا زاغ القلب؛ زاغ الجميع، والهداية: قصدوا أن يخبروا بحصولها لجميع ذواتهم وحواسِّهم"[1]، وهناك جوابان آخران وهما: الأوَّل: "أنّ الزَّيغ واقع بهم، فأطلقوا أبعاده، ونفيه عن العضو الأخصِّ الذي هو سبب في عمومه في سائر البدن، والهداية في جميع البدن، فأخبروا بذلك رغبة في دوامها على ما هي عليه. الجواب الثاني: إنَّ الزَّيغ يحصل للقلب بأوَّل وهلة، والهداية إنَّما تحصل له غالبًا بعد تأمُّل ونظر واستدلال، فحصولها يشترك فيه القلب والسَّمع والبصر وغيرهم"[2].

سرُّ البَدْءِ بالدُّعاء بالحفظ من الزَّيغ على طلب الهبة:

ابتدأَ النَّظمُ بالدُّعاءِ بالحفظِ من الزَّيغ في قوله: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ﴾ على طلب الهبة في قولِه تعالى: ﴿وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً﴾، وسرُّ

من فقه المؤمنِ أن يحرِصَ على تطهيرِ قلبِه قبلَ اكتسابِ الصَّالحات

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/349 - 350.

(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/349 - 350، والبسيلي، التقييد الكبير: 457.

ذلك: أنَّ دفع الضّارِّ مقدّم على جلب المنفعة، وأنَّ دعاءهم "جاء على الأصل في تقديم دفع المؤلم على جلب الملائم"[1].

ولمَّا كان تطهير القلب عمَّا لا ينبغي مقدَّمًا على تنويره بما ينبغي؛ سألوا أوَّلًا: ألَّا يجعل قلوبهم مائلة عن الحقِّ إلى الأباطيل والعقائد الفاسدة، ثمَّ طلبوا بعد ذلك أن يُنَوِّر قلوبهم بأنوار المعرفة، وجوارحهم وأعضاءهم بزينة الطَّاعة، فقالوا: ﴿وَهَبۡ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةً﴾، وهي شاملة للإحسانِ الدُّنيويِّ والأخرويِّ[2].

فائدةُ إيثار الدُّعاء بلفظ الهبة في: ﴿ وَهَبۡ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةً ﴾:

آثر أولو الألبابِ الدُّعاءَ بلفظ الهبة دون العطيَّة؛ لأنَّ الهبة تكونُ عن تَفَضُّلٍ من الواهبِ، لا عن سبب من الموهوب، بخلاف العطيَّة؛ فهي عن مقابل، تقول: أعطاني؛ فأعطيته، ولذلك جاءَ في دعاء سيِّدنا إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبِّ هَبۡ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ١٠٠﴾ [الصافات: 100]، ودعا زكريَّا عليه السلام: ﴿فَهَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيّٗا ٥﴾ [مريم: 5]، فأُوثر لفظُ الهبةِ للاعترافِ بالفضلِ الإلهيِّ المحضِ.

الاعتـــــــرافُ بالفضْلِ الإلهيِّ المـــحـــضِ في الـدُّعـاءِ أرجـى للاستجابةِ

قال أبو حيَّان في سرِّ اختيار الهبة: "سَأَلُوا بِلَفْظِ الْهِبَةِ الْمُشْعِرَةِ بِالتَّفَضُّلِ وَالْإِحْسَانِ إِلَيْهِمْ مِنْ غَيْرِ سَبَبٍ وَلَا عَمَلٍ وَلَا مُعَاوَضَةٍ؛ لِأَنَّ الْهِبَةَ كَذَلِكَ تَكُونُ، وَخَصُّوهَا بِأَنَّهَا مِنْ عِنْدِهِ"[3].

وفِيه تعليمُ العبد ألَّا يلتفت إلى شيء من العمل، ويطلب العوض به، بل يرجو رجاء المفاليس الطَّالبين للتفضُّل والهبة لا العوض[4].

دلالةُ التَّقييدِ بقوله: ﴿مِن لَّدُنكَ﴾:

عبَّر بقوله: ﴿مِن لَّدُنكَ﴾ للدلالة على أنَّ الهبة على ضربين: هبة عن عوض، وهبة لا عن عوض، ونبَّه بقوله: ﴿لَّدُنكَ﴾ إلى أنَّ هذه

الرَّحـمَـةُ عـطَـاءٌ إلهيٌّ مَحْض

(1) البسيلي، التقييد الكبير: 458.
(2) السيوطي، قطف الأزهار: 1/563.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/32.
(4) الطيبي، فتوح الغيب: 4/30.

الهبة اعترافٌ أنَّه بتفضُّله يُدركُ ما يُدرك في الدُّنيا والآخرة، نحو قوله: ﴿وَمَا كُنَّا لِنَهۡتَدِيَ لَوۡلَآ أَنۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُۖ﴾ [الأعراف43] "[1]، "ولمَّا ثبت بالبرهان القاطع أنَّه لا رحيمَ إلّا هو؛ أكَّد ذلك بقوله: ﴿مِن لَّدُنكَ﴾؛ تنبيهًا للعقل على أنَّ المقصود لا يحصل إلّا منه"[2].

إيثارُ التَّعبير بقوله: ﴿مِن لَّدُنكَ﴾ دون (من عندك):

فقهُ الدُّعاءِ كامنٌ في استيثاقِ تحقُّقِ النِّهاياتِ

جيءَ بالظَّرفِ ﴿لَّدُنكَ﴾ في الآيةِ دون (عند): لدلالته على ابْتِدَاءِ الْغَايَةِ فِي زَمَانٍ أَوْ مَكَانٍ، وَقَلَّ أَنْ تُفَارِقَهُ: مِنْ[3]. فهو أخصُّ من (عند)؛ "لأنَّه يدلُّ على ابتداء نهاية، نحو أقمت عنده من لدن طلوع الشمس إلى غروبها، فيوضع (لدن) موضعَ نهاية الفعل، قال تعالى: ﴿فَلَا تُصَٰحِبۡنِيۖ قَدۡ بَلَغۡتَ مِن لَّدُنِّي عُذۡرٗا ٧٦﴾ [الكهف: 76]، وقوله: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةٗ﴾ [الكهف: 10]، فهؤلاءِ الدَّاعون نظروا إلى تحقُّقِ مطلوبهم، ابتداءً من وانتهاءً، ومن هنا كان اختيارُ هذا الظَّرفِ أبلغَ من غيره.

سرُّ تخصيصِ الرَّحمةِ بالذِّكرِ في قولِه: ﴿وَهَبۡ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةٗۚ﴾:

ذُكِرَت الرَّحمةُ والمرادُ لازِمُها وهو العطاء والنَّعيم والثَّواب

خصَّص الرَّحمة في قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ وَهَبۡ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةٗۚ ﴾ بالذِّكرِ؛ "لأنَّ مبدأها من الله تعالى، أَيْ: مِنْ عِنْدِكَ وَمِنْ قِبَلِكَ تَفَضُّلًا، لَا عَنْ سَبَبٍ مِنَّا وَلَا عَمَلٍ، وَفِي هَذَا اسْتِسْلَامٌ وَتَطَارُحٌ"[4]، و"لِأَنَّ تَيْسِيرَ أَسْبَابِهَا، وَتَكْوِينَ مُهَيِّئَاتِهَا، بِتَقْدِيرِ اللَّهِ؛ إِذْ لَوْ شَاءَ؛ لَكَانَ الْإِنْسَانُ مُعَرَّضًا لِنُزُولِ الْمَصَائِبِ وَالشُّرُورِ فِي كُلِّ لَمْحَةٍ، فَإِنَّهُ مَحْفُوفٌ بِمَوْجُودَاتٍ كَثِيرَةٍ، حَيَّةٍ وَغَيْرِ حَيَّةٍ، هُوَ تِلْقَاءَهَا فِي غَايَةِ الضَّعْفِ"[5].

والمرادُ بالرَّحمةِ النَّعيمُ الصَّادر عن الرَّحمة؛ "وَلَمَّا كَانَ الْمَسؤولُ صَادِرًا عَنِ الرَّحْمَةِ؛ صَحَّ أَنْ يَسْأَلُوا الرَّحْمَةَ إِجْرَاءً لِلسَّبَبِ مَجْرَى

(1) الرّاغب، تفسير الراغب: 2/434.
(2) ابن عادل، اللباب: 5/47.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/7.
(4) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 4/21.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/170.

الْمُسَبِّبِ، وَقِيلَ: مَعْنَى ﴿رَحْمَةً﴾: تَوْفِيقًا وَسَدَادًا وَتَثْبِيتًا لِمَا نَحْنُ عَلَيْهِ مِنَ الْإِيمَانِ وَالْهُدَى"[1].

نُكِّر لفظُ (رحمة) لإفادةِ العُمُومِ

وجاء لفظ ﴿رَحْمَةً﴾ مُنَكَّرًا؛ ليكون شاملًا لجميع أنواع الرَّحمة، فنور الإيمان والتَّوحيد والمعرفة: رحمة، وسهولة أسباب المعيشة في الدُّنيا: رحمة، وسهولة سكرات الموت: رحمة، إلى غير ذلك ممَّا ينعم به الإنسان في دنياه وفي أُخراه.

سرُّ تقديم الجارِّ والمجرور على المفعول به:

قدِّم الجارُّ والمجرورُ على المفعول به في قولِه تعالى: ﴿ وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ﴾؛ "لأنَّ تعدِّي الفعل إلى المفعول به أقوى من تعدِّيه إلى المجرور؛ ولأنَّ الأهمَّ المقصود حصول الهبة لهم"[2] منه تعالى، وقدِّم الجارُّ والظَّرفُ على المفعولِ به؛ لبيانِ أنَّهم يطلبونها منه، ويتقرّبون بذلك إليه.

ختمتِ الآيةُ بقوله (إنك أنت الوهاب) لأنَّه كالتَّعليلِ للسَّابقِ

خُتمتِ الآيةُ بقوله: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾؛ "لأنَّه كَالتَّعْلِيلِ لِقَوْلِهِمْ: وَهَبْ لَنَا، كَقَوْلِكَ: حُلَّ هَذَا الْمُشْكِلَ؛ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَالِمُ بِالْمُشْكِلَاتِ"[3]، فهي "تعليل للسُّؤال"[4].

بلاغةُ القصرِ في قوله: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾:

هبةُ المخلوقين تتلاشَى أمامَ هبة الله تعالى

دلَّ الْقَصْرُ فِي قَوْلِهِ: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾ على "الْمُبَالَغَةِ؛ لِأَجْلِ كَمَالِ الصِّفَةِ فِيهِ تَعَالَى؛ لِأَنَّ هِبَاتِ النَّاسِ بِالنِّسْبَةِ لِمَا أَفَاضَ اللهُ مِنَ الْخَيْرَاتِ شَيْءٌ لَا يُعْبَأُ بِهِ، وَفِي هَذِهِ الْجُمْلَةِ تَأْكِيد بِإِنَّ، وَبِالْجُمْلَةِ الِاسْمِيَّةِ، وَبِطَرِيقِ الْقَصْرِ"[5].

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/33.
(2) البسيلي، التقييد الكبير، 458.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/33.
(4) القنّوجي، فتح البيان: 2/191.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/171.

دلالة صيغة المبالغة في قوله: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ﴾:

اختار التَّعبير صيغة المبالغة ﴿ٱلۡوَهَّابُ﴾؛ إشارة إلى سعة كرمه ورحمته، كأنَّ العبد يقول: إلهي؛ هذا الَّذي طلبته منك في هذا الدُّعاء عظيم بالنِّسبة إليَّ، حقيرٌ بالنِّسبة إلى كمال كرمك، وغاية جودِك ورحمتك، فإنَّك أنت الوهَّاب"[1]، وفي هذا من البلاغة ردُّ العجز على الصَّدر.

(1) ابن عادل، اللباب: 5/47.

﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوۡمٖ لَّا رَيۡبَ فِيهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ ٩﴾ [آل عمران: 9]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

دعـــاء الـلـه بـالـوقـايـة من الزّيغ والفساد، والإقـرار بملكه للمصاير يوم الحساب

"لَمَّا سَأَلُوهُ تَعَالَى أَلَّا يُزِيغَ قُلُوبَهُمْ بَعْدَ الْهِدَايَةِ، وَكَانَتْ ثَمَرَةُ انْتِفَاءِ الزَّيْغِ وَالْهِدَايَةِ إِنَّمَا تَظْهَرُ فِي يَوْمِ الْقِيَامَةِ؛ أَخْبَرُوا أَنَّهُمْ مُوقِنُونَ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَالْبَعْثِ فِيهِ لِلْمُجَازَاةِ، وَأَنَّ اعْتِقَادَ صِحَّةِ الْوَعْدِ بِهِ هُوَ الَّذِي هَدَاهُمْ إِلَى سُؤَالِ أَلَّا يُزِيغَ قُلُوبَهُمْ"[1]، وَقد اسْتَحْضَرُوا عِنْدَ طَلَبِ الرَّحْمَةِ، الظَّرف الزّمانيّ الّذي سيكونون أَحْوَجَ مَا يَكُونُونَ إِلَى الرّحمة فيه، وَهُوَ يَوْم يكُونُ وجودُها سَبَبًا لِلْفَوْزِ الْأَبَدِيِّ في الآخرة، وحجبها سببا في الهلاك، فَأَعْقَبُوا بِذِكْرِ هَذَا الْيَوْمِ المهُول، دُعَاءَهُمْ عَلَى سَبِيلِ الْإِيجَازِ، بأن قَالُوا: وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً، وَخَاصَّةً يَوْمَ تَجَمُّعِ النَّاسِ في ذلك المحشر العظيم[2].

شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿جَامِعُ﴾: من الجمع، وهو ضمُّ شيء بتقريب بعضه إلى بعض، والمراد: إقرار بالبعث ليوم القيامة[3]، يجمعهم لحسابهم يوم البعث، والجامع: من أسماء اللّه الحسنى[4]، واليوم الآخر لا ينبغي لمؤمن أن يرتاب فيه، لأنّه وعد اللّه الّذي وعد به المتّقين، ونذيره الّذي أنذر به الجاحدين الضّالين، واللّه سبحانه وتعالى لَا يخلف الميعاد، في الدّنيا ولا يوم المعاد[5].

(1) أبو حيَّان، البحر المحيط: 3/33، والرّازيّ، مفاتيح الغيب: 7/150.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/171.
(3) ابن عطية، المحرّر الوجيز: 1/405.
(4) أبو جيب، القاموس الفقهيّ، ص: 66.
(5) أبوزهرة، زهرة التّفاسير: 2/1119.

2) ﴿لَّا رَيۡبَ﴾: من الرَّيب، وهو الشَّكُّ، والظَّنُّ، والتُّهمة، والرَّيب ما رابك من أمرٍ، ويقال: أرابني كذا، ورابني، فالرَّيب أن تتوهَّم بالشّيء أمرًا ما، فينكشف عمَّا تتوهَّمه، " يقال: را بني فلان، إذا علمت منه الرّيبة.وأرابني: أوهمني الرّيبة؛ وأنشد أبو زيد:

أَخُوكَ الَّذِي إِنْ رِبْتَهُ قَالَ إِنَّمَا أَرَبْتُ وَإِنْ لَايَنْتَهُ لَانَ جَانِبُهْ

وهذا قول أبي زيد.وفي الأخبار عن الأصمعيّ: رابني فلان يريبني، إذا رأيت منه ما يريبك وتكرهه"[1].

3) ﴿ٱلۡمِيعَادَ﴾: هو الوَعْدُ، ويكون في الخير والشَّرِّ، يقال: وَعَدْتُهُ بنفع وضرٍّ وَعْدًا ومَوْعِدًا ومِيعَادًا[2]، الْمِيعاد: مفعال من الوعد[3]، و(وَعَدَ): كَلِمَةٌ صَحِيحَةٌ تَدُلُّ عَلَى تَرْجِيَةٍ بِقَوْلٍ، يُقَالُ: وَعَدْتُهُ أَعِدُهُ وَعْدًا[4]، وَيَكُونُ ذَلِكَ بِخَيْرٍ وَشَرٍّ، فَأَمَّا الْوَعِيدُ فَلَا يَكُونُ إِلَّا بِشَرٍّ، يَقُولُونَ: أَوْعَدْتُهُ بِكَذَا، قَال الشّاعر:

وَإِنِّي وَإِنْ وَاعَدْتُهُ أَوْ وَعَدْتُهُ***لَمُخْلِفُ إِيعَادِي وَمُنْجِزُ مَوْعِدِي

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

الإقرار بأنّ الله جامع النّاس ليوم القيامة، بيقين لا يشُوبُه ريب

يبيِّن اللّه في هذه الآية بقيَّة دعاء الرَّاسخين في العلم، "لمَّا طلبوا من ربِّهم الصَّوْنَ عن الزَّيغ، وأن يخصَّهم بالهداية والرَّحمة، فكأنَّهم قالوا: ليس الغرض من هذا السُّؤال ما يتعلَّق بمصالح الدُّنيا؛ فإنَّها منقضية، وإنَّما الغرض الأعظم منه ما يتعلَّق بالآخرة؛ فإنَّا نعلم أنَّك جامع النَّاس للجزاء في يوم القيامة، ووعدك حقٌّ، فمن زاغ قلبه؛ بقي هناك في العذاب أبَدَ الآبادِ، ومن وفَّقتَه وهديتَه ورحمتَه؛ بقي هناك في السَّعادة والكرامة أبد الآباد"[5]، وذلك وعدٌ غير مكذوب.

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (ريب).
(2) الرّاغب، المفردات: (وعد).
(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 1/405.
(4) أحمد بن فارس، معجم مقاييس اللغة: (وعد).
(5) ابن عادل، اللّباب: 5/47، والرّازيّ، مفاتيح الغيب: 7/150.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

سِرُّ تَكرارِ لفظ ﴿رَبَّنَآ﴾ في الآيةِ اللَّاحقةِ:

الجَمْعُ بين دُعاءَي الدُّنيا والآخرةِ هو كمالُ المقصودِ

تكرَّر لفظ ﴿رَبَّنَآ﴾؛ لإظهار الخضوع التامِّ، والتذلُّل لله ربِّ العالمين، ولإظهار الحاجة إلى الله، والاستغاثة به في هول يوم القيامة، ولطلب الرحمة في موقف الحساب، وجاء هذا الدُّعاء بعد الدُّعاءِ السَّابقِ؛ ليبيِّن أنَّ الغرض الأصليَّ عند الرَّاسخين، موصولٌ بالآخرة؛ لأنَّها هي الأعظم.

التَّأكيدُ بلفظ ﴿إِنَّكَ﴾ في قوله: ﴿إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ﴾:

دلَّ التَّأكيد بقولِه: ﴿إِنَّكَ﴾ على إثبات البعث، وفي ذلك ردٌّ على الذين ينكرون البعث، وفيه إشارة إلى إبطال مزاعم نصارى نجران في ألوهيَّة عيسى عليه السلام؛ لأنَّ الذي له القدرة على الجمع بعد البعث والإحياء هو الله، وفيه إشارة إلى بشريَّة عيسى؛ لأنَّه داخل في الجمع يوم القيامة.

دلالة اختيار لفظ ﴿جَامِعُ﴾ دون غيره من الألفاظِ:

اختير وصف ﴿جَامِعُ﴾؛ لأنَّ الجمع إنَّما يكون بعد البعث والإحياء، فيضمن ذلك إيمانَهم بالبعث، ومعنى جامع، "أَيْ: بَاعِثُهُمْ وَمُحْيِيهِمْ بَعْدَ تَفَرُّقِهِمْ"[1].

نوع الإضافة في: ﴿جَامِعُ ٱلنَّاسِ﴾:

الإضافةُ في قَوْله تَعَالَى: ﴿جَامِعُ ٱلنَّاسِ﴾: "غَيْرُ مَحْضَةٍ؛ لِأَنَّهُ مُسْتَقْبَلٌ، وَالتَّقْدِيرُ: جَامِعُ النَّاسَ"[2]، "وهو من إضافة الفاعل إلى المفعول"[3].

دلالةُ الإيجازِ بحذفِ المضافِ في قولِه: ﴿جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوْمٍ﴾:

المبالغةُ في بيانِ شَأْنِ القيامةِ

لَمَّا كان جمع النَّاس يوم القيامةِ للحساب والجزاء لا لليوم؛ فكان

(1) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 4/21، والقنّوجي، فتح البيان: 2/192.
(2) العكبري، التبيان: 1/240.
(3) القنّوجي، فتح البيان: 2/192.

هناك تقدير محذوفٍ يُفهمُ من السِّياقِ، فحُذِف المضاف وأُقيمَ المضافُ إليه مقامه، وتقديرُ الكلام: "جَامِعُ النَّاسِ لِلْجَزَاءِ فِي يَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ، فَحُذِفَ؛ لِكَوْنِ الْمُرَادِ ظَاهِرًا"[1]، ودلالةُ ذلك المبالغةُ في بيانِ هول ذلك اليوم.

وجْهُ نفي الرَّيب عن يوم القيامة، وقد ارتاب فيه كثير من النَّاس: ﴿لَّا رَيْبَ فِيهِ﴾:

وجه نفي الرَّيب عن يوم القيامة في قولِه تعالى: ﴿لَّا رَيْبَ فِيهِ﴾؛ "أنَّه في نفسه حقٌّ لا ريب فيه، وإن وقع فيه ريب عند المكذِّبين به؛ فذلك لا يعتدُّ به؛ إذ هو خطأ منهم"[2]، "وَمَعْنَى: لَا رَيْبَ فِيهِ، لَا شَكَّ فِي وُجُودِهِ لِصِدْقِ مَنْ أَخْبَرَ بِهِ، وَإِنْ كَانَ يَقَعُ لِلْمُكَذِّبِ بِهِ رَيْبٌ؛ فَهُوَ بِحَالِ مَا لَا يَنْبَغِي أَنْ يَرْتَابَ فِيهِ"[3]، "وَنَفْوُهُ عَلَى طَرِيقَةِ نَفْيِ الْجِنْسِ لِعَدَمِ الِاعْتِدَادِ بِارْتِيَابِ الْمُرْتَابِينَ"[4].

النَّظرُ في ثبوتِ البعثِ باعتبارِه في نفسِه لا باعتبارِ تكذيبِ المكذِّبين

اتِّساعُ دلالةِ مَرْجع الهاءِ في قولِه: ﴿لَّا رَيْبَ فِيهِ﴾:

من جمال لغة القرآن: تحمُّل الضمير لأكثر من معنى، وذلك من خلال تدبُّرِ السِّياق، "فالْهَاءُ فِي ﴿فِيهِ﴾ تَعُودُ عَلَى الْيَوْمِ؛ وَإِنْ شِئْتَ عَلَى الْجَمْعِ، وَإِنْ شِئْتَ عَلَى الْحِسَابِ أَوِ الْعَرْضِ"[5].

إيثارُ التعبير بقولِه: ﴿لَّا رَيْبَ فِيهِۚ﴾ دون (لا شكَّ فيه):

نفتِ الآيةُ الرَّيبَ دون الشَّكِّ؛ لأنَّ الرَّيب يُمثِّل حالةً مرضيَّة تميل نحو الاتِّهام وظنِّ السُّوء، فالملاحظُ: أنَّ لفظ الرَّيب يأتي في سياق الحديث عن يوم القيامة، وأمر القيامة واضح لا لبس فيه، فلا يحتاج إلى دليل إلَّا عند ذوي القلوب المريضة، فما يقع منهم ماهو

(1) الرَّازيُّ، مفاتيح الغيب: 7/150.
(2) ابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 1/405.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/33.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/171.
(5) العكبري، التبيان: 1/240.

إلا حالة مرضيَّة تؤكِّد مرض قلوبهم وإنكارهم لوقوع البعث؛ لذلك كان التعبير بقوله: ﴿لَّا رَيۡبَ فِيهِۚ﴾ دون: لا شكَّ.

دلالة موقع الجملة في الدُّعاء:

قولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ﴾ "تعليل لمضمون ما قبلها، أي: إنَّ الوفاء بالوعد شأن الإله سبحانه، وخُلفُه يخالف الألوهيَّة، كما أنّها تنافيه"[1]، فهي "تَعْلِيلٌ لِنَفْيِ الرَّيْبِ، أَيْ: لِأَنَّ اللَّهَ وَعَدَ بِجَمْعِ النَّاسِ لَهُ، فَلَا يُخْلِفُ ذَلِكَ، وَالْمَعْنَى: إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ خَبَرَهُ"[2].

التَّذييل التَّعليليُّ دليلُ الإيمانِ والرَّدِّ على أهلِ البُهتان

بَراعةُ الفاصلةِ في قولِه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ﴾:

إن حُمِلَ قولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ﴾ على أنَّه من كلام الدَّاعين "يَكُونُ ذَلِكَ مِنْ بَابِ الِالْتِفَاتِ؛ إِذْ هُوَ خُرُوجٌ مِنْ خِطَابٍ إِلَى غَيْبَةٍ لِمَا فِي ذِكْرِهِ بِاسْمِهِ الْأَعْظَمِ مِنَ التَّفْخِيمِ وَالتَّعْظِيمِ وَالْهَيْبَةِ، وَكَأَنَّهُمْ لَمَّا وَالَوُا الدُّعَاءَ بِقَوْلِهِمْ: ﴿رَبَّنَآ﴾، أَخْبَرُوا عَنِ اللَّهِ تَعَالَى بِأَنَّهُ الْوَفِيُّ بِالْوَعْدِ"[3]، وهذا من لُطفِ الدُّعاءِ.

بلاغةُ الالتفاتِ لتفخيمِ اسمِ اللهِ الأعظمِ والتَّلذُّذِ بالنُّطقِ به

ويكون هذا من بابِ إظهارِ ما حقُّه الإضمار، فالأصلُ أن يكون النَّظمُ: إنَّه لا يُخلِفُ الميعادَ، لكن أتى بالإظهارِ؛ "لإبراز كمال التَّعظيم والإجلال النَّاشئ من ذكر اليوم المهيب الهائل"[4]، وأفاد هذا الإظهارُ كذلك احتمالًا آخر وهو أن يكونَ من كلامِ اللّه تعالى، فهو استئنافٌ، وإخبارٌ من اللّه تعالى، "لَا مِنْ كَلَامِ الرَّاسِخِينَ الدَّاعِينَ"[5]، ولو أضمرَ لما احتملَ إلَّا أن يكون من كلامِ الدَّاعين فحسب.

إظهارُ ما حقُّه الإضمارُ؛ للتَّعظيمِ

فائدةُ ﴿إِنَّ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ﴾:

دلّت أداةُ التَّوكيدِ ﴿إِنَّ﴾ على نفي إخلافِ الميعادِ عن اللّه تعالى،

(1) القنّوجي، فتح البيان: 2/192.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/171.
(3) أبو حيَّان، البحر المحيط: 3/34.
(4) القنّوجي، فتح البيان: 2/192.
(5) أبو حيَّان، البحر المحيط: 3/33.

والمعنى: إنَّ الإلهيَّة تنافي خلف الميعاد كقولك: إنَّ الجواد لا يخيب سائله"[1]، وفائدةُ التَّوكيدِ طلبُ الثباتِ في الاستمراريَّة في الدُّعاءِ، والبقاءُ في ميدان رجاءِ الاستجابةِ.

توجيه المتشابه اللَّفظيّ بين: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ﴾ و﴿إِنَّكَ لَا تُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ﴾:

مقامُ الهيبةِ يقتضي إظهارَ الاسمِ الجليل، وفي مَقامِ الطَّلب جاءَ بالضِّمير

جاء الدُّعاءُ في قولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ﴾ بالغَيْبَةِ، وفي آخر السّورة: ﴿إِنَّكَ لَا تُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ﴾ [آل عمران: 194] بالخطاب؛ "لأنَّ ما هنا متَّصلٌ بما قبْلَه، وهو قوله تعالى: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوۡمٖ لَّا رَيۡبَ فِيهِۚ﴾ اتِّصالًا لفظيًّا فقط، وما في آخرها متّصِلٌ بما قبْلَه، وهو قوله: ﴿رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ﴾ [آل عمران: 194] اتِّصالًا لفظيًّا ومعنويًّا؛ لتقدُّم لفظ الوعد"[2]، ثمَّ إنَّ "هذه الآية في مقام الهيبةِ، يعني: أنَّ الآية تقتضي الحشر والنشر؛ ليُنْتَصَف للمظلومين من الظّالمين، فكان ذكره باسمه الأعظم أوْلَى في هذا المقام، وفي تلك الآية مقام طلب العبدِ من ربِّه أن ينعم عليه بفضله، ويتجاوز عن سيِّئاته، إذْ لَمْ يَكُنِ المَقَامُ مَقَامَ الهيبةِ، فلا جرم قال: ﴿إِنَّكَ لَا تُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ ١٩٤﴾ [آل عمران: 194] "[3].

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/339.
(2) الأنصاريّ، فتح الرحمن: 1/80.
(3) ابن عادل، اللُّباب: 5/47، والرَّازيُّ، مفاتيح الغيب: 7/151.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغۡنِيَ عَنۡهُمۡ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗاۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ وَقُودُ ٱلنَّارِ ١٠﴾ [آل عمران: 10]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

العلاقة بين ضراعة المؤمنين إلى الله، ومصير الكفرة المنبتّين عن الله

بعد أن ذكر اللّه الرَّاسخين في العلم، أصحاب العقول والبصائر، وزكَّاهم لقوَّة إيمانهم، وشدَّة إخلاصهم، وكثرة تضرُّعهم إلى خالقهم - سبحانه - وبشَّرَهم بحسن العاقبة؛ ذمَّ الكافرين وتوعَّدهم بسوء المصير وشديد العقاب.

"ولمَّا تحقَّق أنَّ يوم الجمع كائن لا محالة؛ تحقَّق أنَّ من نتائجه - تحقيقًا لعزَّته سبحانه وتعالى وانتقامه من الكفرة - قولَه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾، أي: الَّذين يظنُّون لِسَتْرِهِمْ ما دلَّت عليه مرأى عقولهم أنَّهم يمتنعون مِن أَمْر اللّه؛ لأنَّهم يفعلون في عصيانه وعداوة أوليائه فِعْلَ مَن يريد المغالبة"[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿كَفَرُواْ﴾: الْكَافُ وَالْفَاءُ وَالرَّاءُ: أَصْلٌ صَحِيحٌ يَدُلُّ عَلَى مَعْنًى وَاحِدٍ، وَهُوَ السَّتْرُ وَالتَّغْطِيَةُ، يُقَالُ لِمَنْ غَطَّى دِرْعَهُ بِثَوْبٍ: قَدْ كَفَرَ دِرْعَهُ، ووُصِف اللَّيل بِالْكَافِرِ لستره الأشخاص، والزَّارع لستره البذر في الأرض، وكُفْرُ النِّعمة وكُفْرَانُهَا: سترها بترك أداء شكرها، قال تعالى: ﴿فَلَا كُفۡرَانَ لِسَعۡيِهِۦ﴾ [الأنبياء: 94]، وأعظم الكُفْرِ: جحود الوحدانيَّة أو الشَّريعة أو النُّبوَّة، والكُفْرَانُ في جحود النِّعمة أكثر استعمالًا، والكُفْرُ في الدِّين أكثر، وهو المقصود عند الإطلاق[2].

2) ﴿تُغۡنِيَ﴾: الْغِنَى فِي الْمَالِ، يُقَالُ: غَنِيَ يَغْنَى غِنًى، وَالْغَنَاءُ:

(1) البقاعي، نظم الدرر: 4/253.

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصَّل: (كفر).

بِفَتْحِ الْغَيْنِ مَعَ الْمَدِّ: الْكِفَايَةُ، يُقَالُ: لَا يُغْنِي فُلَانٌ غَنَاءَ فُلَانٍ، أَيْ: لَا يَكْفِي كِفَايَتَهُ، وَغَنِيَ عَنْ كَذَا، فَهُوَ غَانٍ، وَغَنِيَ الْقَوْمُ فِي دَارِهِمْ: أَقَامُوا، كَأَنَّهُمُ اسْتَغْنَوا بِهَا، ويقال: أَغْنَاني كذا، وأغْنَى عنه كذا؛ إذا كفاه، قال تعالى: ﴿مَآ أَغۡنَىٰ عَنِّي مَالِيَهۡۜ ٢٨﴾ [الحاقة: 28]، ﴿مَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُ مَالُهُۥ﴾ [المسد: 2]، ﴿لَن تُغۡنِيَ عَنۡهُمۡ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗاۖ﴾[1].

3) ﴿أَمۡوَٰلُهُمۡ﴾: الْمِيمُ وَالْوَاوُ وَاللَّامُ أصل واحد يَدُلُّ على الأثمان والنفقة التي تتيح الشراء وتتحصل من البيع أو الإرث أو أجر العمل، يقال: تَمَوَّلَ الرَّجُلُ: اتَّخَذَ مَالًا، وَمَالَ يَمَالُ: كَثُرَ مَالُهُ[2]، وأصله: (مَوْل)، قال الجوهريُّ: "تصغير المال: مُوَيْلٌ، ومالَ الرَّجلُ يمولُ ويَمال مَوْلًا ومؤولًا؛ إذا صار ذا مالٍ، وتَموَّل مثلُه، وموَّله غيرُه، ورجل مال، أي: كثير المال"[3]، وقد شاع أنَّ المَال سُمِّي بذلك؛ لأنَّه يميل بالإنسان إلى الباطل، كما روي عن سفيان الثَّوريِّ قال: كان يقال: إنَّما سمِّي المال؛ لأنَّه يميل بالنَّاس[4]، أو لأنَّه مال بالنَّاس عن طاعة الله[5] ﷻ.

وهو تعليل حسنٌ؛ لمناسبته التَّحذير من فتنة المال، وإن كان الأقرب إلى أصل الاشتقاق أن يكون المال من (مَوَلَ) لا من (ميَل)؛ لما سبق من تصغيره على (مُويل)، ولأنَّ المال سُمِّي بذلك؛ لأنَّه يُتَمَوَّل، ويُقْتنى، ويُتداوَل، وقد جعله الرَّاغب[6] من (ميَل)، ولكنَّ تعليله جِدُّ قريبٍ من الأصل؛ إذْ يقول: سمِّي المال مالًا؛ لأنَّه يميل من هذا إلى ذاك، ولذلك سمِّي عَرَضًا[7].

وقد نبَّه الإمام النَّووي على ذلك التَّعليل الطَّريف بقوله: "وهذه مناسبة في المعنى، وإلَّا فليس مشتقًّا من ذلك؛ فإنَّ عين المال واو، والإمالة من الميل ياء، ومن شروط الاشتقاق الاتِّفاق في الحروف الأصليَّة"[8]

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصَّل: (غني).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ميل)، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصَّل: (مول).
(3) الجوهري، الصحاح: (مول).
(4) الرازي، تفسير ابن أبي حاتم: 7/2364.
(5) الهمذاني، الكشكول: 1/200.
(6) الراغب، المفردات: (ميل).
(7) وهذا من كلام الصاحب بن عباد، وهو في التَّمثيل والمحاضرة، ص: 250.
(8) النووي، تهذيب الأسماء واللغات: (مول): 3/324.

وليس خطأً، فإنَّ هذا الاشتقاق الأكبر، وقد فعلوا مثله كثيرًا، كما في لفظ الصَّلاة وغيرها[1].

4) ﴿أَوْلَٰدُهُم﴾: الْوَاوُ وَاللَّامُ وَالدَّالُ: أَصْلٌ صَحِيحٌ، وَهُوَ دَلِيلُ النَّجْلِ وَالنَّسْلِ، ثُمَّ يُقَاسُ عَلَيْهِ غَيْرُهُ، مِنْ ذَلِكَ الْوَلَد، وَهُوَ لِلْوَاحِدِ وَالْجَمِيعِ، وَيُقَالُ لِلْوَاحِدِ: وُلْدٌ أَيْضًا، وَالْوَلِيدَةُ: الْأُنْثَى، وَالْجَمْعُ: وَلَائِدُ، وَتَوَلَّدَ الشَّيْءُ عَنِ الشَّيْءِ: حَصَلَ عَنْهُ، قال أبو الحسن: الوَلَدُ: الابن والابنة، والوُلْدُ: هُمُ الأهلُ والوَلَدُ[2].

5) ﴿شَيْـًٔا﴾: لفظ عامٌّ، يدلُّ على موجود أو كائن، والمعنى المحوريُّ: نتوء متميِّز صُلْب في ظاهر الشَّيءِ، و"الشَّيء: هو الكائن أو الجسم[3]، أو "الموجود" بعبارة الرَّاغب[4]، وبذا فهي صالحة أن يعبَّر بها عن أيِّ كائن، وبعبارة سيبويه: لفظ "يقع على كلِّ ما أُخبرَ عنه"[5].

6) ﴿وَقُودُ﴾: الْوَاوُ وَالْقَافُ وَالدَّالُ: كَلِمَةٌ تَدُلُّ عَلَى اشْتِعَالِ نَارٍ، وَقَدَتِ النَّارُ تَقِدُ وَاتَّقَدَتْ وَتَوَقَّدَتْ، وَأَوْقَدْتُهَا أَنَا، وَالْوَقُودُ: الْحَطَبُ، وَالْوُقُودُ: فِعْلُ النَّارِ؛ إِذَا وَقَدَتْ، وَالْوَقْدُ: نَفْسُ النَّارِ، وَوَقْدَةُ الصَّيْفِ: أَشَدُّهُ حَرًّا، والوَقُودُ يقال للحطب المجعول للوُقُودِ، ولما حصل من اللَّهب، قال تعالى: ﴿وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾ [البقرة: 24]، ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ﴾.

والمعنى المحوريُّ للفظ: (وقود): مادَّة حياة النَّار، أي: اشْتعالها، فالوَقُود هو مادَّة ذلك: ﴿ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ۝٥﴾ [البروج: 5]، واسْتَوْقَدْتُ النَّارَ: أَوْقَدْتُها، واسْتَوْقَدَتْ هي ﴿كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا﴾ [البقرة: 17]، أي: اجتهد في إيقادها، ﴿ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ﴾ [النُّور: 35].

ومن مجازه: ﴿كُلَّمَآ أَوْقَدُواْ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ﴾ [المائدة: 64]، "قَلْبٌ وَقَّاد كشدَّاد، ومُتَوَقِّد: مَاضٍ سريع، وتوقَّد الشَّيءُ: تلألأ "أخذًا من لمعان النَّار، وكلُّ ما في القرآن من التَّركيب هو بمعنى: إشعال النَّار.[6]

(1) السمين، عمدة الحفّاظ: (مول).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (ولد).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (شيأ).
(4) الراغب، المفردات: (شيأ)
(5) سيبويه، الكتاب: 1/22.
(6) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصَّل: (وقد).

7) ﴿ٱلنَّارِ﴾: النُّونُ وَالْوَاوُ وَالرَّاءُ: أَصْلٌ صَحِيحٌ يَدُلُّ عَلَى إِضَاءَةٍ وَاضْطِرَابٍ وَقِلَّةِ ثَبَاتٍ، مِنْهُ النُّورُ وَالنَّارُ، سُمِّيَا بِذَلِكَ مِنْ طَرِيقَةِ الْإِضَاءَةِ، وَلِأَنَّ ذَلِكَ يَكُونُ مُضْطَرِبًا سَرِيعَ الْحَرَكَةِ، وَتَنَوَّرْتُ النَّارَ: تَبَصَّرْتُهَا، قَالَ امْرُؤُ الْقَيْسِ:

تَنَوَّرْتُهَا مِنْ أَذْرِعَاتَ وَأَهْلُهَا *** بِيَثْرِبَ أَدْنَى دَارِهَا نَظَرٌ عَالِ[1]

والنَّارُ تقال للَّهيب الَّذي يبدو للحاسَّة، قال: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي تُورُونَ ۝٧١﴾ [الواقعة: 71]، وللحرارة المجرَّدة، ولنار جهنَّم المذكورة في قوله: ﴿ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ [الحج: 72]، ﴿نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ۝٦﴾ [الهمزة: 6]، وقد ذكر ذلك في غير موضع.[2].

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

لـن يغـني عن الكافر في عذاب النّار الأشدّ، ما حـازه من مـال، ومـا أنجب من ولد

هذا عرض لبعض ما يقع في يوم البعث، وما يلقى فيه الذين كفروا بالله وباليوم الآخر من نكال وبلاء، حيث يُدعُّون إلى نار جهنَّم دعًّا، فلا يغني عنهم في ردِّ هذا البلاء ما كان لهم من مال وبنين، ومن أهل وصديق، فإنَّ الذين جحدوا ما قد عرفوه من نبوَّة محمَّد ﷺ سواء كانوا من بني إسرائيل أم من كفَّار العرب؛ لن تنجيهم أموالهم الَّتي يبذلونها في جلب المنافع ودفع المضارِّ، ولا أولادهم الَّذين يتناصرون بهم في مهامِّ أمورهم، ويعوِّلون عليهم في الخطوب النَّازلة من عذاب الله شيئًا، وقد قصَّ القرآن قولهم: ﴿وَقَالُواْ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ۝٣٥﴾ [سبأ: 35]، فردَّ الله عليهم بقوله: ﴿وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ [سبأ: 37] وسيكونون يوم القيامة حطبًا لجهنَّم الَّتي تُسعَّر بهم.[3]

(1) البيت من بحر الطويل، وهو في ديوان امرئ القيس: ص 136.
(2) الراغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصَّل: (نور).
(3) المراغي، تفسير المراغي: 3/104.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

تلوين الخطاب في الآية الكريمة مع ما قبلها:

بيان كرامة المؤمنين الرّافعة، وإهانة الكافرين الضّافعة

في تلوين الخطاب من دعاء المؤمنين إلى الإخبار عن حال الكافرين؛ تصوير لمشهدين مختلفين، حيث كان الكلام السَّابق دعاءً نابعًا من قلوب المؤمنين، فأجراه اللّه على ألسنتهم، فلهجوا به موقنين بربِّهم، مستبشرين بكرمه، وكان الكلام في هذه الآية إخبارًا من اللّه تعالى عن أحوال الكافرين الَّذين استغنَوا بأموالهم وأولادِهم، وظنُّوا أنَّها تنفعهم وتدفع عنهم، ففرَّق بين الكلامَيْنِ؛ ليُعْلَم قدرُ الرَّاسخين في العلم الَّذين بلغوا من سعادتهم وفرحهم بما آتاهم اللّه من فضله أن دعوا ربَّهم، وأثنوا عليه، ونسبوا ما هم فيه من النَّعيم والعطايا إليه وحدَه، ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ۝٨﴾ [آل عمران: 8]، فانظر كيف سألوه رحمتَه المتضمِّنةَ حصولَ كلِّ خيرٍ واندفاعِ كلِّ شرٍّ، وتوسَّلوا إليه باسمه الوهَّاب؟

ويُعْلَم - من جهة أخرى - حالُ الكافرين الَّذين لم يُؤْذَن لهم بالكلام، والإخبار عن أنفسهم، لشدَّة ما هم فيه من العذاب، بل أخبرنا اللّه عنهم؛ لنشكرَه على نعمه الكثيرة، وآلائه العظيمة، وأعظمها نعمة الإسلام، فالحمد للّه على نعمة الإسلام، وكفى بها نعمة، ونعوذ باللّه من حال أهل النَّار.

بلاغة الفصل ودلالتها في الآية الكريمة:

الاستئناف ببيان حال الكافرين، بعد ذكر حال المؤمنين ودعائهم الضّارع

استئناف كلام ناشئ عن حكاية ما دعا به المؤمنون: من دوام الهداية، وسؤال الرَّحمة، وانتظار الفوز يوم القيامة، بذكر حال الكافرين في ذلك اليوم، على عادة القرآن في إرداف البشارة بالنِّذارة، وتعقيب دعاء المؤمنين، بذكر حال المشركين، جاءت الآية مستأنفة استئنافًا بيانيًّا لما قبلها، وهو ما يسمَّى بشبه كمال

الاتصال، وكأنها إجابة على سؤال يتعلَّق ببيان حال الكافرين بعد ذكر حال الرَّاسخين في العلم، ودعاء المؤمنين - ولا سيَّما - وقد ختم بجمع النَّاس في يوم القيامة لمجازاتهم، إن خيرًا فخيرٌ، وإن شرًّا فشرٌّ.

فهذه الآية وما قبلها في تقرير التَّوحيد سواءٌ كان ردًّا على نصارى نجران أم كان كلامًا مستقِلًّا؛ فإنَّ التَّوحيد لمَّا كان أهمَّ ركنٍ للإسلام؛ كان ممَّا تعرف البلاغة أن يبدأ بتقرير الحقِّ في نفسه، ثم يؤتى ببيان حال أهل المناكرة والجحود ومناشئ اغترارهم بالباطل، وأسباب استغنائهم عن ذلك الحقِّ أو اشتغالهم عنه، وأهمُّها الأموال والأولاد؛ فهي تنبئهم هنا بأنَّها لا تغني عنهم في ذلك اليوم الَّذي لا ريب فيه؛ إذْ يجمع اللّٰه فيه النَّاس، ويحاسبهم بما عملوا، بل ولا في أيام الدُّنيا؛ لأنَّ أهل الحقِّ لا بدَّ أن يغلبوهم على أمرهم، وما أحوجَ الكافرين إلى هذا التذكير.[1]

دلالة تصدير الآية بحرف التوكيد﴿إِنَّ﴾:

زَعْمُ الكافرين أنَّ كثرة أموالهم وأولادهم، مانعة لهم من العذاب، زيف وإفك

قد يكون ﴿إِنَّ﴾ لمجرَّد الاهتمام بتأكيد الخبر، دون ردٍّ لشكٍّ أو إنكار، فيزداد المؤمن إيمانًا، أو أنَّ الخطاب لهؤلاء الكافرين المعاصرين وقت نزول القرآن، أو خطابًا عامًّا لهم، سواء عاصروه أم لم يعاصروه، فيكون الخطاب موافقًا ما هم فيه من الادِّعاء والزَّعم بأنَّ أموالهم وأولادهم تكفيهم: ﴿وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ۝٣٥﴾ [سبأ: 35]، وهذا هو الظَّاهر؛ لذكر زعمهم في كتاب اللّٰه، ولأنّ في الآية أكثرَ من مؤكِّد.

نكتة العدول عن التَّعريف بـ (ال) إلى اسم الموصول:

جملة الصِّلة فعليَّة تدلُّ على التَّجدُّد والحدوث

الإتيان في ذكرهم بالتَّعريف بالموصول ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ فيه إشارة لطيفة إلى أنَّ الذَّمَّ الوارد في الآية لأفعالهم، لا لأشخاصهم،

(1) رضا، تفسير المنار: 3/190، 191.

واحتمال تغيُّر حالهم من الكفر إلى الإيمان؛ لأنَّ جملة الصِّلة فعليَّة تدلُّ على التَّجدُّد والحدوث، في حين أنَّ الاسم ﴿ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ يدلُّ على الثُّبوت والدَّوام، ونلحظ هذا عند المقابلة في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوۡلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَأَنَّ ٱلۡكَٰفِرِينَ لَا مَوۡلَىٰ لَهُمۡ ١١﴾ [محمد ﷺ: 11]، فقابل ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بـ﴿ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾، ولم يقابلهم بـ(الذين كفروا) كما ذكر ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ عند إرادة فعل الفتنة، في حين ذكر ﴿ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ عند ذكر الأشخاص في قوله تعالى: ﴿إِنۡ خِفۡتُمۡ أَن يَفۡتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْۚ إِنَّ ٱلۡكَٰفِرِينَ كَانُواْ لَكُمۡ عَدُوّٗا مُّبِينٗا ١٠١﴾ [النِّساء: 101] والتَّعريف بالموصول: إمَّا أن يكون لتعريف العهد مرادًا منه قومٌ معهودون من رؤوس الشِّرك وزعماء العناد، وإمَّا أن يكون الموصول لتعريف الجنس المفيد للاستغراق.

دلالة الجمع والتَّعريف في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾:

دلالة العموم المخصَّص بالقرينة في توجيه المعنى

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ صيغةٌ للجمع مع لام التَّعريف، وهي للاستغراق بظاهره، ثمَّ إنَّه لا نزاع في أنَّه ليس المراد منها هذا الظَّاهر؛ لأنَّ كثيرًا من الكفَّار أسلموا، فعلمنا أنَّ اللّٰه تعالى قد يتكلَّم بالعامِّ، ويكون مراده الخاصَّ؛ إمَّا لأجل أنَّ القرينة الدَّالَّة على أنَّ المراد من ذلك العموم ذلك الخصوص، كانت ظاهرة في زمن الرَّسول ﷺ فحسن ذلك لعدم التَّلبيس، وظهور المقصود، ومثاله: ما إذا كان للإنسان في البلد جمع مخصوص من الأعداء، فإذا قال: (إنَّ النَّاس يؤذونني)، فَهِم كلُّ أحد أنَّ مراده من النَّاس ذلك الجمع على التَّعيين، وإمَّا لأجل أنَّ التَّكلُّم بالعامِّ لإرادة الخاصِّ جائز؛ وإن لم يكن البيان مقرونًا به، عند من يُجَوِّز تأخير بيان التَّخصيص عن وقت الخطاب، وإذا ثبت ذلك؛ ظهر أنَّه لا يمكن التَّمسُّك بشيءٍ من صيغ العموم على القطع بالاستغراق؛ لاحتمال أنَّ المراد منها هو الخاصُّ، وكانت القرينة الدَّالَّة على ذلك ظاهرةً في زمن الرَّسول ﷺ فلا جرم حسُن ذلك[1].

(1) الرازي، مفاتيح الغيب: 2/283، 284.

المقصود بعبارة ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾، وعلاقته بالسِّياق:

بناء السّياق على إرادة عموم الكافرين، والغرض خصوص أهل الكتاب

والمراد بالَّذين كفروا: المشركون، وهذا وصفٌ غالبٌ عليهم في اصطلاح القرآن وقيل: الَّذين كفروا بنبوَّة محمدٍ ﷺ وأريد هنا قريظة والنَّضير وأهل نجران، ويرجِّح هذا بأنَّهم ذكِّروا بحال فرعون دون حال عادٍ وثمود، فإنَّ اليهود والنَّصارى أعلق بأخبار فرعون، كما أنَّ العرب أعلق بأخبار عاد وثمود، وأنَّ الردَّ على النَّصارى من أهمِّ أغراض هذه السُّورة، ويجوز أن يكون المراد جميعَ الكافرين: من المشركين، وأهل الكتابين، ويكون التذكير بفرعون؛ لأنَّ وعيد اليهود في هذه الآية أهمُّ[1].

التّعبير بالفعل الماضي ﴿كَفَرُواْ﴾ صلة للموصول:

دلالة تحقُّق الوقوع وتجدُّده وحدوثه

كثُر مجيء ﴿كَفَرُواْ﴾ بصيغة الماضي صلةً للموصول في القرآن الكريم[2]، ويدلُّ الفعل الماضي على تحقُّق الوقوع، كما يشير إلى تجدُّده وحدوثه، في حين قلَّ مجيء ﴿ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ﴾ [آل عمران: 21، النساء: 150] بالفعل المضارع؛ إذ إنَّه ورد مرَّتين فحسب؛ لأنَّه ورد في حالات خاصَّة، يصف طوائف مختلفة، ارتكبوا جرائم متعدِّدة، واحتيج الموصول إلى عطف أفعال مضارعة أخرى عليه، والموصول الَّذي يراد به الجماعة يصحُّ في العطف على صلته أن تكون الجمل المتعاطفة مع الصِّلة موزَّعةً على طوائف تلك الجماعة، في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقۡتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيۡرِ حَقّٖ وَيَقۡتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡقِسۡطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ٢١﴾ [آل عمران: 21]، وقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٖ وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٖ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ١٥٠﴾ [النِّساء: 150].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/171.

(2) ورد قوله: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ سبعًا وخمسين ومئة (157) مرة، في القرآن الكريم.

نكتة الإيجاز بالحذف في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾:

الإيجاز بالحذف للاختصار وإفادة العموم:

أي: القوم الَّذين كفروا بالله وبرسوله وبالكتاب المنزَّل على رسوله، فحذف المعمول؛ للاختصار وإفادة العموم، وللتَّرهيب من الكفر بجميع أنواعه، وللتَّنفير من الاتِّصاف بهذا الوصف؛ ولذا جيء بالفعل المتعدِّي في صورة اللَّازم؛ ليشير إلى أنَّ مُجرَّد الاتِّصاف به مذموم.

دلالة حرف النَّفي ﴿لَن﴾:

تأكيد النّفي بالأداة (لن)، وأثره في المعنى

قد أكَّد سبحانه عدم إغناء أموالهم ولا أولادهم عنهم شيئًا - في وقت هم في أشدِّ الحاجة إلى من يعينهم، ويدفع عنهم - بحرف ﴿لَن﴾ المفيد لتأكيد النَّفي[1].

العدول عن (لن تَنفَعَهُم) إلى ﴿لَن تُغْنِيَ﴾:

نفي الإغناء مع وجود أسبابه أبلغ في القهر وأوسع في الدّلالة

نفي الإغناء مع وجود أسبابه أبلغ في القهر، وأشدُّ في التَّنكيل؛ لأنَّهم يمتلكون سبب الإغناء (الأموال والأولاد)، وكم كانوا يدَّعُون أنَّهم أكثر أموالًا وأولادًا، وأنَّهم لن يُعذّبوا، فأثبت لهم سبب الإغناء، وعطَّله؛ ولذا أوثر لفظ ﴿تُغْنِيَ﴾ عن لفظ (تدفع)، أو (تنفع)، فقوله: ﴿لَن تُغْنِيَ﴾، أي: لن ينفع، ولن يدفع؛ وإن توافر لهم، وإنَّما سمِّي المال: غنًى؛ لأنَّه ينفع النَّاس، ويدفع عنهم الفقر والنَّوائب[2].

ولمَّا كان الظَّاهرُ من حال كثير المال أنَّه لا يَعْجِزُ عن شيء يريده من لذَّاته وسائر مطالبه؛ سُمِّي المال الكثير غِنًى، وكذلك لمَّا كان مَن قَلَّ ماله؛ عَجَز عن إرادته، سُمِّي قلَّة المال: فقرًا، فهو من جنس تسمية السَّبب باسم المسَبَّب، وإلَّا فحقيقة الغنى انتفاء الاحتياج، وحقيقة الفقر الاحتياج[3]، فهم مع ذلك أشدُّ فقرًا، وأعظم قهرًا.

(1) طنطاوي، التفسير الوسيط: 3/230.
(2) الثعلبي، الكشف والبيان: 3/18.
(3) الجرجاني، أسرار البلاغة، ص: 85.

ونفي الانتفاع قد يكون أنسب في مقام الحثِّ على موالاة المؤمنين، وعدم موالاة الكافرين؛ وإن كانوا أولادهم أو أقاربهم، كما في قوله تعالى: ﴿لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْۚ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝٣﴾ [الممتحنة: 3].

في حين أنَّ نفي الإغناء هنا أنسب؛ لدلالة هذا الفعل على الإجزاء والدَّفع، ولكونه مُؤْذِنًا بأنَّ هنالك شيئًا يُدفع ضرُّه، وتُكفى كلفتُه؛ فلذلك ذُكر مع هذا الفعل متعلَّق ثانٍ، وعُدِّي الفعل إليه بحرف ﴿مِّنَ﴾[1].

علَّة اختصاص الكافرين بعدم إغناء أموالهم وأولادهم عنهم من الله شيئًا:

المؤمنون ينتفعون بأموالهم وأولادهم عند الله الأجلّ

في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم﴾، اختُصَّ الكفَّار؛ لأنَّ المؤمنين تُغني عنهم أموالهم الَّتي ينفقونها في وجوه البِرِّ، فهم يجنون ثمرتها في الآخرة، وتنفعهم أولادهم في الآخرة، يسقونهم، ويكونون لهم حجابًا من النَّار، ويشفعون فيهم؛ إذا ماتوا صغارًا، وينفعونهم بالدُّعاء الصَّالح كبارًا، وكلُّ هذا ورد به الحديث الصَّحيح[2].

ما الّذي أفاد ذِكْرُ الأموال والأولاد؟

في الحوالك والمهالك، يفزع المرء لماله المحيز، وولده العزيز

وخصَّ الأموال والأولاد بالذِّكر؛ لأنَّ المرء عند الخطوب والنَّوائب في الدُّنيا يفزع إلى المال والولد، فهما أقرب الأمور الَّتي يفزع المرء إليها في دفع الخطوب، فبيَّن الله تعالى أنَّ صفة ذلك اليوم مخالفة لصفة الدُّنيا؛ لأنَّ أقرب الطُّرق إلى دفع المضارِّ إذا لم يتأتَّ في ذلك اليوم، فما عداه بالتعذُّر أولى، ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۝٨٨ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ۝٨٩﴾ [الشُّعراء: 88، 89]، ولأنَّ الكفَّار كانوا أكثر ما يكونون اغترارًا بالأموال والأولاد، وقد

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/171.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 3/40.

حكى القرآن غرورهم هذا بأموالهم وأولادهم في كثير من الآيات، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ نَحۡنُ أَكۡثَرُ أَمۡوَٰلٗا وَأَوۡلَٰدٗا وَمَا نَحۡنُ بِمُعَذَّبِينَ ٣٥﴾ [سبأ: 35][1].

ويقال: إنِّما ذكر الأموال والأولاد؛ لأنَّ أكثر النَّاس يدخلون النَّار، لأجل الأموال والأولاد، فأخبر الله تعالى أنَّه لا ينفعهم في الآخرة؛ لكيلا يُفني النَّاس أعمارهم، لأجل المال والولد، وإنِّما ذكر الله تعالى الكفَّار؛ لكي يعتبر بذلك المؤمنون[2].

سرُّ تقديم الأموال على الأولاد في السّياق:

المـــال آثـــر إلى النّفس، وأبلغ في باب مدافعة المحن، والتوقّي من الفتن

لمَّا كان المال في باب المدافعة والتَّقرُّب والفتنة أبلغ من الأولاد، قدَّم في هذه الآية، وقوله: ﴿وَمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُم بِٱلَّتِي تُقَرِّبُكُمۡ عِندَنَا زُلۡفَىٰٓ﴾ [سبأ: 37]، وقوله: ﴿إِنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞۚ﴾ [التَّغابن: 15]، وقوله: ﴿وَتَكَاثُرٞ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِۖ﴾ [الحديد: 20]، وفي قوله: ﴿يَوۡمَ لَا يَنفَعُ مَالٞ وَلَا بَنُونَ ٨٨﴾ [الشُّعراء: 88] بخلاف قوله تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلۡبَنِينَ وَٱلۡقَنَٰطِيرِ ٱلۡمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلۡفِضَّةِ وَٱلۡخَيۡلِ ٱلۡمُسَوَّمَةِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ وَٱلۡحَرۡثِۗ﴾، فإنَّه ذكر هنا حبَّ الشَّهوات، فقدَّم فيه النِّساء والبنين على ذكر الأموال[3].

نكتة وجود (لا) في عطف الأولاد على الأموال:

التَّرقِّي في نفي النَّفع من القويِّ إلى الأقوى، من بلاغة السّياق

قوله في نفي نفع الأولاد بعد نفي نفع الأموال: ﴿وَلَآ أَوۡلَٰدُهُم﴾ إشارة إلى أنَّ قوَّة النَّفع بمقتضى الفطرة والعادات الجارية في الأولاد أكثر؛ ولذا أكَّد النَّفي فيه بعد تأكيده أوَّلًا بتكرار ﴿وَلَآ﴾ كأنَّ نفي نفع الأموال أسهل قبولًا من نفي نفع الأولاد؛ ولذا زاده توكيدًا بعد توكيدٍ[4].

(1) طنطاوي، التفسير الوسيط: 3/230.
(2) السمرقندي، بحر العلوم: 1/196.
(3) أبو حيان، البحر المحيط: 3/34.
(4) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 2/1120.

فائدة ذكر الجارّ والمجرور على التّعظيم في قوله: ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾:

لـن يـنـوب عن رحـمـة الـلـه وطـاعـتـه، مـال وفـير، ولا ولـد أثير

أي: من عذابه شيئًا من الإغناء، وقيل: كلمة ﴿مِّنَ﴾ بمعنى: البدل، والمعنى بدل رحمة الله، أو بدل طاعته، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾ [يونس: 36]، أي: بدل الحقِّ، ومنه قوله ﷺ: «ولا ينفع ذا الجدِّ منك الجدُّ» أي لا ينفعه جدُّه بَدَلك، أي: بدل رحمتك، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ [سبأ: 37]، وأنت خبير بأنَّ احتمال سدِّ أموالهم وأولادهم مسدَّ رحمة الله تعالى أو طاعته، ممَّا لا يخطر ببال أحد حتَّى يتصدَّى لنفيه، والأوَّل الأليق بتفظيع حال الكفرة وتهويل أمرهم، والأنسب بما بعده من قوله تعالى: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ﴾[1].

أي: إنَّ أموالهم وأولادهم لن تكون بدلًا لهم من الله تعالى، تغنيهم عنه، فإنَّهم إذا تمادَوا على باطلهم؛ يُغلبون على أمرهم في الدُّنيا، ويُعَذَّبون في الآخرة[2].

سرُّ تخصيص اسم الجلالة بالذِّكر هنا دون غيره من الأسماء الحسنى:

اسـم الـجـلالـة علم على الذَّات العليَّة الشّان، وهـو الأنـسـب في مقام الكفر والإيمان

جميع الآيات الَّتي في هذا المعنى ذكرت اسم الجلالة (الله)، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔاۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١٦﴾﴾ [آل عمران: 116]، وقوله: ﴿إِنَّهُمْ لَن يُغْنُواْ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔاۚ﴾ [الجاثية: 19]، وقوله: ﴿لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔاۖ﴾ [المجادلة: 17]، وقوله: ﴿فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ [التحريم: 10]، فاسم الجلالة (الله) هو الأنسب هنا؛ لأنَّه علم على الذَّات العليَّة، وهو الاسم الَّذي تنعقد به الشَّهادة؛ للدُّخول في الإسلام، وهو هنا في مقام الإيمان والكفر،

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 2/10.
(2) رضا، تفسير المنار: 3/191.

وهؤلاء الكافرون قد جحدوا ألوهيَّته، كما أنَّه لا يسمَّى به أحد غيره، وما دونه صفات للّه، وهو يجمع صفات الجمال والجلال جميعًا.

دلالة قوله ﴿شَيۡـٔٗاۖ﴾ وسرُّ مجيئها نكرة:

مدلولُ العموم، تيئيسٌ من الإغناء على العموم

دلَّت كلمة ﴿شَيۡـٔٗاۖ﴾ بلفظها على نفي الإغناء، ولو كان يسيرًا، أو حقيرًا، ودلَّ تنكيرها ووقوعُها في سياق النَّفي على العموم وزيادة التيئيس من إغناء أموالهم، وأولادهم عنهم من اللّه أيَّ شيءٍ من دفع العذاب أو الانتفاع.

وانتصب قوله: ﴿شَيۡـٔٗاۖ﴾ على النِّيابة عن المفعول المطلق، أي: شيئًا من الغناء، وتنكيره للتَّحقير، أي: غناء ضعيفًا، بلَهَ الغَناء المُهِمَّ، ولا يجوز أن يكون مفعولًا به؛ لعدم استقامة معنى الفعل في التَّعدِّي[1].

وقوع الوعيد في الدُّنيا والآخرة، بقرينة معنويّة ظاهرة:

من كفر بمولاه، ذاق عذاب النّار في دنياه وأخراه

قوله تعالى: ﴿لَن تُغۡنِيَ عَنۡهُمۡ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗاۖ﴾ يحتمل أن يكون وعيدًا لهم بعذاب الآخرة، كما يحتمل الظَّاهر أنَّ هذا وعيد بعذاب الدُّنيا؛ لأنَّه شبِّه بأنَّه كدأب آل فرعون إلى قوله: ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمۡۗ﴾، وشأن المشبَّه به أن يكون معلومًا؛ ولأنَّه عُطف عليه عذابُ الآخرة في قوله: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ وَقُودُ ٱلنَّارِ﴾[2].

نكتة الوصل بالواو في قوله: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ وَقُودُ ٱلنَّارِ﴾:

تصعيدُ المعاني في السّياق، بالتّرقّي في تصوير ألوان التّعذيب والإحراق

أفادت الواو هنا: عطف الخبر بأنَّ هؤلاء الكافرين معذَّبون، وسيكونون حطبًا لجهنَّم، عطف هذا الخبر المؤلم على الجملة المنفيَّة قبلُ بحرف التَّأكيد ﴿لَن﴾، وفيه: على اعتبار أنَّ الوعيد بعذاب الآخرة تصعيدُ المعاني، والتَّرقِّي في الإخبار بالعذاب؛ لزيادة التَّنكيل، فإنَّ كمال العذاب على هؤلاء أن قد زال عنهم ما كانوا يحتمون به، وينتفعون به، ثمَّ اجتمعت عليهم جميع ألوان العذاب المؤلمة، والعياذ باللّه تعالى.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/171.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/171.

والعطف ظاهر على اعتداد أنَّ الجملة قبلها في وعيد الدُّنيا، وهذه في وعيد الآخرة بقرينة قوله في الآية الَّتي بعد هذه: ﴿سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ١٢﴾[1].

نكتة المجيء باسم الإشارة ﴿وَأُوْلَـٰٓئِكَ﴾ في الآية الكريمة:

الإشـــارة استحضار لهم في الأذهـــان، وإشعار بغلوِّهم في الكفران

وجيء بالإشارة في قوله: ﴿وَأُوْلَـٰٓئِكَ﴾ لاستحضارهم في الأذهان، حتَّى لكأنَّهم بحيث يشار إليهم، وللتَّنبيه على أنَّهم أحرياء بما سيأتي من الخبر، وهو قوله: ﴿هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ﴾، وكانت الإشارة للبعيد، للإشعار بغلوِّهم في الكفر، وانغماسهم فيه إلى منتهاه؛ ولذلك كانت العقوبة شديدة[2].

فائدة الضَّمير المنفصل في قوله: ﴿هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ﴾:

تـأكـيـد الـخـبـر والـدَّلالـة على الـحـصـر، من بلاغة السّياق

﴿هُمْ﴾: ضمير منفصل، وهو ضمير الفصل بين المبتدأ ﴿وَأُوْلَـٰٓئِكَ﴾ والخبر ﴿وَقُودُ ٱلنَّارِ﴾ مبنيٌّ على السُّكون لا محلَّ له من الإعراب، والغرض منه تأكيد الخبر والدَّلالة على حصرهم فيه، وكأنَّهم وحدهم حطب النَّار، ويجوز أن يكون ﴿هُمْ﴾ في محلِّ رفع مبتدأ ثان، خبره ما بعده، والمبتدأ الثَّاني وخبره خبر المبتدأ الأوَّل، والفرق بين المعنيين، أنَّ الخبر على الوجه الثَّاني يصير جملة اسميَّة ﴿هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ﴾ دالَّةً على الثُّبوت والدَّوام، وعلى الوجه الأوَّل دلَّ ضمير الفصل على تقوية الخبر وتوكيده.

سرُّ العدول عن (حطب النَّار) إلى ﴿وَقُودُ ٱلنَّارِ﴾:

فـائـدة الـعـدول بـالـلّـفـظ، أعـمُّ دلالـــةً، وأشـدّ إخافة

﴿وَقُودُ ٱلنَّارِ﴾: أعمُّ دلالةً، وأعظم تهويلًا، وأشدُّ تفظيعًا من حطب النَّار؛ إذ إنَّ الوَقود ما توقد به النَّار، وعلى قراءة (وُقود) بالضَّمِّ[3]، أي: فعلُ النَّار؛ إذا اتَّقدت، وهو مصدر، أي: أهل

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/171.
(2) طنطاوي، التفسير الوسيط: 2/38.
(3) هي قراءة شاذَّة، نسبت إلى الحسن وطلحة بن مصرف ومجاهد، كما ذكر ابن خالويه، في المختصر، ص: 19، وأبو حيان، في البحر المحيط: 2/388.

وُقُودِها، ففي لفظ ﴿وَقُودُ﴾ على القراءتين دليل على ملازمتهم لها، ودوامهم فيها.

والنَّار: اسم عامٌّ على ما أعدَّه اللّه للعذاب يوم القيامة، وهو الأنسب هنا لإضافة الوقود إليها، كما أنَّ الأنسب إضافة الحطب، أو الحصب - بالصَّاد المهملة - إلى جهنَّم؛ للدِّلالة على قعرها البعيد، فإنَّها سمِّيت بهذا الاسم؛ لأنَّها ذات جَهْمة وظلمة بسوادها وقعرها، والعرب تسمِّي البئر البعيدة القعْر: جِهنَّام[1]، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُواْ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾﴾ [الجن: 15]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾﴾ [الأنبياء: 98].

إيثار مجيء رأس الآية جملةً اسميَّةً، في قوله: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ﴾:

من مقاصد التّصدير بالجملة الإسميّة، تحقُّق الأمر وتقريره

أي: أولئك المتَّصفون بالكفر حطب النَّار، وحصبها الَّذي تُسَعَّرُ به، فإن أريد بيان حالهم عند التَّسعير؛ فإيثار الجملة الاسميَّة للدَّلالة على تحقُّق الأمر وتقرُّره، وإلَّا فهو للإيذان بأنَّ حقيقة حالهم ذلك، وأنَّ أحوالهم الظَّاهرة بمنزلة العدم، فهم حال كونهم في الدُّنيا وقودَ النَّار بأعيانهم، وفيه من الدِّلالة على كمال ملابستهم بالنَّار ما لا يخفى، وقد سبق أنَّ ﴿هُمْ﴾ يحتمل الابتداء، وأن يكون ضمير الفصل، والجملة إمَّا مستأنفة مقرِّرة لعدم الإغناء، أو معطوفة على خبر إنَّ، وأيًّا ما كان ففيها تعيين للعذاب الَّذي بيَّن أنَّ أموالهم وأولادهم لا تغني عنهم منه شيئًا[2].

توجيه المتشابه اللَّفظي:

وردت آية متشابهة مع هذه الآية في السُّورة نفسها في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔاۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١٦﴾﴾ [آل عمران: 116].

(1) ابن منظور، لسان العرب: (جهم).
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 2/10.

كما وردت آية ثالثة تشبههما، وهي قوله تعالى: ﴿لَّن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔاۖ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ١٧﴾ [المجادلة: 17].

فأمَّا هذه الأخيرة، فهي فريدة من حيث صدرُها؛ إذ إنَّها بدأت بالإخبار مباشرة دون ذكر ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾؛ لأنَّها خبر عن فريق من المنافقين قد ذكروا من قبل في قوله تعالى: ﴿۞أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْاْ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ١٤﴾ [المجادلة: 14].

وأمَّا آيتا سورة آل عمران؛ فإنَّهما متماثلتان في التَّركيب من ﴿إِنَّ﴾ واسمِها ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ وخبرِها ﴿لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔاۖ﴾، ومختلفتان في تَتِمَّة كلٍّ، حيث خُتمت الآية الأولى بقوله: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ ١٠﴾، في حين خُتمت الآية الأخرى بقوله: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ١١٦﴾ [آل عمران: 116]، ونكتة ذلك الاختلاف يرجع إلى الأسباب الآتية:

أوَّلًا: التَّرقِّي في المعاني، وتصعيد الوعيد؛ فقد اكتفى أوَّلًا بذكر العذاب الشَّديد في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ٤﴾ [آل عمران: 4]، "فكما بدأ خطاب التَّنزيل من أعلاه؛ نظم به ابتداء الكفر من أدناه"[1]، ثمَّ توعَّدهم بأنَّهم وقود النَّار، في قوله: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ﴾، ثمَّ صعَّد الوعيد والتَّهديد بقوله: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ١١٦﴾ [آل عمران: 116]، وفيه تفنُّنٌ في الكلام على عادة العرب.

ثانيًا: مناسبة الفاصلة في كلِّ السِّياق؛ فقد ناسبت الفاصلة ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ﴾ حال هؤلاء الكافرين الَّذين في قلوبهم زيغ، ويتَّبعون ما تشابه من الكتاب ابتغاء الفتنة، فكان الجزاء من جنس العمل؛ فكما كانوا يشعلون الفتنة في الدُّنيا؛ يكونون حطبًا للنَّار في الآخرة، والعياذ بالله.

كما ناسبت الفاصلة ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ١١٦﴾ [آل عمران: 116] حال الكافرين الَّذين يعرفون الحقَّ، ثم هم يجحدونه، والحكم الواقع على الَّذين كفروا هنا: عامٌّ، يشمل الكافرين جميعًا، وإن كان يتَّجه أوَّلَ ما يتَّجه إلى الكافرين من أهل الكتاب

(1) البقاعي، نظم الدرر: 2/11.

الذين تحدَّثتْ عنهم الآيات السَّابقة؛ لأنَّهم كفروا مع ما في أيديهم من هدى، وطرحوا ما معهم من إيمان: بخلاف الكافرين أصلًا؛ وإن كان الكفر هو الكفر، إلَّا أنَّ بعضه أشدُّ من بعض سوءًا، وأبغض وجهًا.

فهؤلاء الكافرون من أهل الكتاب، ومن غير أهل الكتاب، سيلقون جزاء كفرهم يوم القيامة، حيث يلقون في نار جهنَّم خالدين فيها أبدًا، وحيث لا يدفع عنهم هذا العذاب ما كان لهم في الدُّنيا من مال وولد؛ وإن ملأ وجه الأرض كثرةً وعددًا.[1]

ثالثًا: مقابلة قوله في عقاب الكافرين: ﴿وَأُوْلَـٰٓئِكَ أَصۡحَـٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ١١٦﴾ [آل عمران: 116] بما سبق من ثواب في حقِّ المؤمنين، جامعًا بين الزَّجر والتَّرغيب والوعد والوعيد، فلمَّا وصف من آمن بما تقدَّم من الصِّفات الحسنة؛ أتبعه تعالى بوعيد الكفار.

(1) عبد الكريم الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 2/563، 408.

﴿كَدَأۡبِ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمۡۗ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ١١﴾ [آل عمران: 11]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لمَّا ذكر حالَ الكافرين من عدم إغناء أموالِهم وأولادِهم عنهم من عذاب الله شيئًا، وأنَّهم حطبُ النَّار؛ ضربَ لهم مثلًا بآل فرعون، والَّذين مِن قبلهم، فَهُمْ أشْبَهُ النَّاس بهم، حيثُ إنَّهم لازموا الكُفر، وداوموا عليه، فعاقَبهم الله في الدُّنيا بسبب ذنوبهم، وتوعَّدهم بالعذاب في الآخرة، فلْيحذرِ الكافرون أن يُصيبَهم مثلُ ما أصابَ آلَ فرعون ومَن قبلَهم من العذاب.

الكفرة القدامى والجدد، لن يغني عنهم من عقاب الله مالٌ ولا ولد

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿كَدَأۡبِ﴾: الدَّالُ وَالْهَمْزَةُ وَالْبَاءُ: أَصْلٌ وَاحِدٌ يَدُلُّ عَلَى مُلَازَمَةٍ وَدَوَام، فَالدَّأْبُ: الْعَادَةُ وَالشَّأْنُ، قَالَ الْفَرَّاءُ: الدَّأْبُ، أَصْلُهُ مِنْ دَأَبْتُ، إِلَّا أَنَّ الْعَرَبَ حَوَّلَتْ مَعْنَاهُ إِلَى الشَّأْنِ، وَدَأَبَ الرَّجُلُ فِي عَمَلِهِ؛ إِذَا جَدَّ، وَأَدْأَبْتُهُ أَنَا إِدْآبًا، وَالدَّائِبَانِ: اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ، ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ دَآئِبَيۡنِۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ ٣٣ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلۡتُمُوهُۚ﴾ [إبراهيم: 33-34].

"الدُّؤوب: المُبالَغَة في السَّير، أَدْأب الرَّجُلُ الدّابَّة: أتعبها، الدّأب: السّوْق الشَّديدُ والطَّرْد، دأبَ في عمله: جدَّ وتَعِبَ، وكلُّ ما أَدَمْتَه؛ فقد أَدْأَبْتَه".

والمعنى المحوريُّ: الاستمرار في إتيان الشَّيء بجدٍّ لدفعٍ يمنع الفتور، كما في الاستعمالات المذكورة، ومنه "الدّأب بالفتح وبالتَّحريك: العادة الملازمة ﴿كَدَأۡبِ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾[1].

2) ﴿ءَالِ﴾: الآل: الشَّخص، والآل: عُمد الخيمة، وآلُ الرَّجل: أهله وعياله، كما في قوله تعالى: ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحٗا وَءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمۡرَٰنَ﴾ [آل عمران: 33]، وقد يتوسَّع،

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (دأب).

فيشمل الآلُ الأعوانَ والأنصارَ أو الجنود: ﴿وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ﴾ [البقرة: 50]، ثُمَّ القوم: ﴿وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ﴾ [الأعراف: 141][1].

3) ﴿فِرْعَوْنَ﴾: لقب يقال لملوك مصر القديمة[2]، اختلفوا في عربيَّة هذا اللَّفظ: فمنهم من قال بعربيَّته، وذهب إلى اشتقاقه من الفَرْعَنَة: الكِبْر والتَّجَبُّر، وفِرْعَوْنُ كُلِّ نَبِيٍّ: مَلِكُ دَهْره، قَالَ القَطامِيُّ:

وشُقَّ البَحْرُ عَنْ أَصحابِ مُوسَى*** وغُرِّقَتِ الفَراعِنَةُ الكِفارُ[3]

الكِفارُ: جَمْعُ كَافِرٍ كَصَاحِبٍ وَصِحَابٍ، وَفِرْعَوْنُ الَّذِي ذَكَرَهُ اللهُ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ مِنْ هَذَا، وإنما تَرَكَ صَرْفَهُ – في قَوْلِ بَعْضِهِمْ –؛ لأَنَّه لَا سَمِيَّ لَهُ، كإبليس فِيمَنْ أَخذه مِنْ أَبْلَسَ، قَالَ ابْنُ سِيدَهْ: وَعِنْدِي أَنَّ فِرْعَوْنَ هَذَا العَلَم أَعجميٌّ، وَلِذَلِكَ لَمْ يُصْرَفْ، الْجَوْهَرِيُّ: فِرْعَوْنُ لَقَبُ الْوَلِيدِ بْنِ مُصْعَبٍ مَلِكِ مِصْرَ، وكلُّ عاتٍ فِرْعَوْنٌ، والعُتاةُ: الْفَرَاعِنَةُ، وَقَدْ تَفَرْعَنَ، وَهُوَ ذُو فَرْعَنَة، أَي: دَهاء وتَكَبُّر[4]، والصَّواب أنَّه معرَّب، وفيه نقاش طويل، ليس هذا مجاله[5]، وقد ذكر العلَّامة ابنُ كثير طرفًا منه، ثم قال: وأيًّا ما كان؛ فعليه لعنةُ اللهِ.[6]

4) ﴿كَذَّبُواْ﴾ الْكَافُ وَالذَّالُ وَالْبَاءُ: أَصْلٌ صَحِيحٌ يَدُلُّ عَلَى خِلَافِ الصِّدْقِ، وَتَلْخِيصُهُ أَنَّهُ لَا يَبْلُغُ نِهَايَةَ الْكَلَامِ فِي الصِّدْقِ، مِنْ ذَلِكَ الْكَذِبُ خِلَافُ الصِّدْقِ، كَذَبَ كَذِبًا، وَكَذَّبْتُ فُلَانًا: نَسَبْتُهُ إِلَى الْكَذِبِ، وَأَكْذَبْتُهُ: وَجَدْتُهُ كَاذِبًا، يقال كَذَب الحرُّ: انكسر، والعينُ: خانها حِسُّها، والسَيْرُ: إذا لم يَجِدَّ. والمعنى المحوريُّ: نَقْص الحِدَّة والشدَّة الجارية في الشَّيء، أو المتوقَّعة منه كانكسار الحرِّ الجاري، ونَقْص حِسِّ العين، ومنه "الكَذِبُ من القول"؛ لأنَّه نَقْص، بل فَقْد للمتوقَّع من الكلام، بل لِما وُجد من أجله، وهو التَّعبير عن حقيقة ما في النَّفس ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ ۝٣﴾ [الزمر: 3][7].

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أول)، والراغب، المفردات: (آل)، جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (أول).

(2) فرعون كان لقبًا للملوك المتأخرين لمصر القديمة، لم يلقِّب المصريون حاكمَهم (فرعون) حتى الأسرة الثانية عشرة (1304 - 1554ق.م) الموسوعة العربية العالمية: 17/304.

(3) البيت من بحر الوافر، للقطامي التغلبي، وهو في ديوانه، ص: 345.

(4) ابن منظور، لسان العرب: (فرعن).

(5) للاستزادة يراجع: رؤوف أبو سعدة، العلم الأعجمي في القرآن مفسَّرًا بالقرآن من إعجاز القرآن: 2/33 - 49.

(6) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 1/161.

(7) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (كذب).

5) ﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾: المعنى المحوريُّ: بقاء الشَّيء في مكانه شاخصًا، أي: مجسَّمًا، علامةً لشيء، وأَصْلُ آيَةٍ: أَأْيَةٌ بِوَزْنِ أَعْيَة، مَهْمُوزٌ هَمْزَتَيْنِ، فَخُفِّفَتِ الْأَخِيرَةُ فَامْتَدَّتْ، والآية: هي العلامة الظَّاهرة، والصَّحيح أنَّها مشتقَّة من التَّأيِّي الَّذي هو التَّثبُّت، قال ابن منظور: "يقال: قد تأيَّيت، أي: تلبَّثت، وتحسَّبت"، والإقامة على الشَّيء.

يقال: تأيَّ، أي: ارفقْ، "والتَّأيِّي: التَّنظُّر والتُّؤدة، يقال: تأيَّا الرَّجل؛ إذا تأنَّى في الأمر"، أو من قولهم: أوى إليه، ومن كون الشَّيء المجسَّم الشَّاخص علامة على شيء كان كما سبق.

كثُر في القرآن الكريم لفظ (آية) بمعنى: علامة إعجازيَّة ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً﴾ [الأعراف: 73]، أي: علامة على صدق النَّبيِّ عليه السلام - سيِّدنا صالح هنا -، وأنَّه مرسل من عند الله، أو علامة لأمر من عند الله، وإن لم يكن من باب المعجزات: ﴿قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّىٓ ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا﴾ [آل عمران: 41]، أو علامة دالَّة على وجود الخالق وصُنعه في هذا الكون من مثل: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ [فصِّلت: 53][1] والمقصود بالآيات هنا ما جاء به الرُّسل من الكتب المنزَّلة والمعجزات.

6) ﴿فَأَخَذَهُمُ﴾: الْهَمْزَةُ وَالْخَاءُ وَالذَّالُ: أَصْلٌ وَاحِدٌ تَتَفَرَّعُ مِنْهُ فُرُوعٌ مُتَقَارِبَةٌ فِي الْمَعْنَى، أَمَّا (أَخَذَ)؛ فَالْأَصْلُ حَوْزُ الشَّيْءِ وَجَبْيُهُ وَجَمْعُهُ، تَقُولُ: أَخَذْتُ الشَّيْءَ آخُذُهُ أَخْذًا، قَالَ الْخَلِيلُ: هُوَ خِلَافُ الْعَطَاءِ، وَهُوَ التَّنَاوُلُ، نحو: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ﴾ [يوسف: 79]، وتارة بالقهر، نحو قوله تعالى: ﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ﴾ [هود: 67]، ﴿فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْءَاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ ﴿٢٥﴾﴾ [النَّازعات: 25]، وقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ﴾ [هود: 102]، ويعبَّر عن الأسير بالأخيذ والمأخوذ[2].

7) ﴿بِذُنُوبِهِمْ﴾: الذَّالُ وَالنُّونُ وَالْبَاءُ، أُصُولٌ ثَلَاثَةٌ: أَحَدُهَا: الْجُرْمُ، وَالْآخَرُ: مُؤَخَّرُ الشَّيْءِ، وَالثَّالِثُ: كَالْحَظِّ وَالنَّصِيبِ، وهو في الآية هنا بمعنى: " الإثم والجُرْم والمعصية"، والذَّنب في الأصل: الأخذ بذنَب الشَّيء، يقال: ذنبته: أصبت ذنَبه، ويستعمل في كلِّ فِعل

(1) الراغب، المفردات، جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (أيي).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصَّل: (أخذ).

يُستوخم عقباه اعتبارًا بذنَب الشَّيء، ولهذا يسمَّى الذَّنْب: تبعة، اعتبارًا لما يحصل من عاقبته؛ قال تعالى: ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمۡۗ﴾ [آل عمران: 11]، وقال: ﴿فَكُلًّا أَخَذۡنَا بِذَنۢبِهِۦۖ﴾ [العنكبوت: 40]، وقال: ﴿وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: 135][1].

8) ﴿شَدِيدُ﴾ الشِّينُ وَالدَّالُ: أَصْلٌ وَاحِدٌ يَدُلُّ عَلَى قُوَّةٍ فِي الشَّيْءِ، وَفُرُوعُهُ تَرْجِعُ إِلَيْهِ[2].

9) ﴿ٱلۡعِقَابِ﴾: الْعَيْنُ وَالْقَافُ وَالْبَاءُ: أَصْلَانِ صَحِيحَانِ: أَحَدُهُمَا: يَدُلُّ عَلَى تَأْخِيرِ شَيْءٍ وَإِتْيَانِهِ بَعْدَ غَيْرِهِ، وَالْأَصْلُ الْآخَرُ: يَدُلُّ عَلَى ارْتِفَاعٍ وَشِدَّةٍ وَصُعُوبَةٍ.

والعقوبة والمعاقبة والعقاب يختصُّ بالعذاب، قال ﷻ: ﴿فَحَقَّ عِقَابِ ١٤﴾ [ص: 14]، ﴿شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ١١﴾ [الحشر: 4]، ﴿وَإِنۡ عَاقَبۡتُمۡ فَعَاقِبُواْ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبۡتُم بِهِۦۖ﴾ [النَّحل: 126]، ﴿وَمَنۡ عَاقَبَ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ﴾ [الحج: 60]، والتعقيب: أن يأتي بشيء بعد آخر[3].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

هلاك الظالمين الفجرة، عبرة للفاسقين الكفرة

عادة هؤلاء الكافرين في تكذيب الحقِّ كعادة آل فرعون ومَن قبلَهم: من قوم نوح وقوم هود وقوم لوط وأمثالِهم، فكما أنَّ آل فرعون لم تُغنِ عنهم أموالهم ولا أولادهم، فأُخذوا في الدُّنيا، وعُذِّبوا في الآخرة، فكذلك هؤلاء، فجازاهم اللّٰه بسبب ذنوبهم، فأهلكهم، وَاللّٰه شديدٌ عقابُه، أليمٌ عذابُه.

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغة الفصل في الآية الكريمة:

دلالة الاستئناف البياني، على إيضاح ما في الآية من المعاني

جاءت الآية الكريمة ﴿كَدَأۡبِ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ﴾ دون عطف؛ لأنَّها استئناف بيانيٌّ لِما قبلها؛ فكأنَّه لمَّا ذكر عذابَ الكافرين سُئل: ما سببُ هذا العذاب؟ فأُجيب: حالُهم في الكفر والتَّكذيب واستحقاق العذاب كحال آل فرعون ومَن قبلَهم[4].

(1) الخليل، العين، ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (ذنب).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (شدد).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب، والراغب، المفردات: (عقب).
(4) الآلوسي، روح المعاني: 2/91.

إعراب حرف الكاف وأثره في المعنى:

ورود الكـــاف بمعنى مثل، وسيلة للإيضاح المفيد

الكاف اسم بمعنى: مِثْل، في محلِّ رفع على أنَّه خبر لمبتدأ محذوف، والتَّقدير: دأبُ هؤلاء كدأب مَن قبلهم، ولك أن تجعل الكاف حرفَ جرٍّ، فيكون الجارُّ والمجرور متعلِّقَين بمحذوفٍ خبر لذلك المبتدأ المحذوف، ويجوز نصبُ محلِّ الكاف ومدخولها على المفعوليَّة المطلقة أو الحال[1].

وقد جاءت الكاف وسيلةً للإيضاح، فقامت هي وما بعدها مقامَ المثال للقاعدة، وغيرُ خافٍ ما للمثل الَّذي يُضْرَب من التَّأثير والإقناع.

بيان التَّشبيه وبلاغته في قوله تعالى: ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾:

في قوله تعالى: ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ تشبيه، اختلف العلماء في بيانه، وأرى أنَّ تحرير محلِّ النِّزاع يتطلَّب بيان المقصود بالدَّأب أوَّلًا، ثُمَّ بيان المشبَّه ووجه الشَّبه بعد ذلك، وخلاصته كما يأتي:

معنى (الدَّأْب) ودلالته:

سبق بيان معناه من جهة المعاجم، والكلام هنا مختصر؛ ليناسب المقام، حيث بيانُ وجه الاستعمال حقيقةً أو مجازًا.

أولًا: المراد به حقيقةُ اللَّفظ، وهو أنَّ الدَّأَب هنا الاجتهاد، مأخوذ من قولهم: دأبْت في الأمر؛ إذا اجتهدت فيه، ومن أبرز معنى الجِدِّ والاجتهاد قوله: ﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا﴾ [يوسف: 47]، أي: بِجِدٍّ واجتهاد باستمرار.

وعليه يكون المعنى اجتهادهم في كفرهم وتظاهرهم على النَّبيِّ ﷺ كتظاهر آل فرعون على موسى عليه السلام أي: إنَّ اجتهادهم يحتمل أمرين:

(1) كاجتهادهم في نصرة الكفر على الإيمان.

(2) كاجتهادهم في الجحود والبهتان[2].

---

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 1/463.

(2) الماوردي، النكت والعيون: 1/372، الرازي، مفاتيح الغيب: 7/153، جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصَّل: (دأب).

ثانيًا: المراد بالدَّأْب الحالُ والشَّأنُ والعادة؛ لأنَّ من يستمرُّ في عمل أمدًا طويلًا يصير عادة من عاداته، وحالًا من أحواله، فهو من باب إطلاق الملزوم وإرادة اللَّازم، فهو مجاز مرسل، علاقته الملزوميَّة[1]، وعليه يكون المعنى أحدَ وجهين:

(1) كعادتهم في التَّكذيب بالحقِّ.

(2) كعادتهم في عقابهم على ذنوبهم، فيكون هذا الأخير من إضافة المصدر إلى مفعوله؛ لأنَّ المضاف إليه هنا ﴿ءَالِ فِرۡعَوۡنَ﴾ معاقَبون، في حين أنَّه - في غير هذا المعنى - مضاف إلى فاعله.

المشبَّه ودوره في السّياق:

ثلاثة أقوال: أحدها: أنَّهم مشركو قريش يوم بدر، كانوا في انتقام الله منهم لرسله والمؤمنين، كآل فرعون في انتقامه منهم لموسى وبني إسرائيل، فيكون هذا تذكيرًا للرَّسول ﷺ والمؤمنين بنعمة سبقت؛ لأنَّ هذه الآية نزلت بعد بدر استدعاءً لشكرهم عليها.

والقول الثاني: إنَّها عامَّة في الكافرين جميعًا، ولا سيَّما اليهود المنكرين لرسالته ﷺ كما سيأتي في سبب نزول قوله تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ سَتُغۡلَبُونَ وَتُحۡشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ﴾، وعليه يكون وعدًا بنعمةٍ مستقبَلة؛ لأنَّها نزلت قبل قتل يهود بني قينقاع، فحقَّق وعده، وجعله معجزًا لرسوله ﷺ.[2]

والقول الثالث: أن المشبَّه هو أنَّ أموالهم وأولادهم لا تنفعهم في إزالة العذاب، فكان التَّشبيه بآل فرعون حاصلًا في هذين الوجهين، والمعنى: أنَّكم قد عرفتم ما حلَّ بآل فرعون ومَن قبلَهم من المكذِّبين بالرُّسل من العذاب المعجَّل الَّذي عنده لم ينفعهم مال ولا ولد، بل صاروا مضطَّرِّين إلى ما نزل بهم، فكذلك حالكم أيُّها الكفَّار المكذِّبون بمحمَّد ﷺ في أنَّه ينزل بكم مثلُ ما نزل بالقوم تقدَّم أو تأخَّر، ولا تغني عنكم الأموال والأولاد[3].

---

(1) إطلاق اسم الملزوم على اللازم: مثال ذلك: دخلت الشَّمس من النَّافذة والمقصود نورها لا جرمها. فكلمة الشَّمس مجاز مرسل علاقته الملزومية، ولأنَّ المعنى الحقيقيَّ للشَّمس: هو جرمها، وجرمها ملزوم للمعنى المجازي الَّذي هو الضوء، والقرينة (دخلت). قاسم، علوم البلاغة: ص 222.

(2) الماوردي، النكت والعيون: 1/372.

(3) الرازي، مفاتيح الغيب: 7/154.

وجه الشَّبه وأثره في الكلام:

أوَّلًا: على أنَّ الدَّأْبَ بمعنى: الجدِّ والاجتهاد، يكون وجهُ الشَّبه: هو جِدُّ الفريقين واجتهادهما في التَّكذيب والكفر، أي: اجتهادهم في تكذيبهم بالنَّبيِّ محمَّد ﷺ وكفرهم بدينه كاجتهاد آل فرعون مع موسى عليه السلام ثمَّ إنَّا أهلكنا أولئك بذنوبهم، فكذا نهلك هؤلاء.

ثانيًا: على أنَّ الدَّأْبَ بمعنى: الحال والشَّأن والعادة، أي: حال هؤلاء في الكفر واستحقاق العذاب كحال آل فرعون[1]، يعني: أنَّ صنيع الكفَّار معك، كصنيع آل فرعون مع موسى[2].

العدول عن قوله (قوم فرعون) إلى قوله ﴿ءَالِ فِرۡعَوۡنَ﴾:

علّة إطلاق الآل على أشدِّ النَّاس اختصاصًا بالمضاف إليه

أريد بآل فرعون: فرعونُ وآلُه؛ لأنَّ الآل يُطلق على أشدِّ النَّاس اختصاصًا بالمضاف إليه، والاختصاص هنا: اختصاص في المتابعة والتَّواطؤ على الكفر، كقوله: ﴿أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ ٤٦﴾ [غافر: 46]، فلذكر الآل هنا من الخصوصيَّة ما ليس لذكر القوم؛ إذْ قوم الرَّجل قد يخالِفون، فلا يدلُّ الحكم المتعلِّق بهم على أنَّه مساوٍ لهم في الحكم، قال تعالى: ﴿أَلَا بُعۡدٗا لِّعَادٖ قَوۡمِ هُودٖ ٦٠﴾ [هود: 60]، وقال: ﴿وَإِذۡ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئۡتِ ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٠ قَوۡمَ فِرۡعَوۡنَۚ﴾ [الشعراء: 10-11][3].

نكتة ذكر آل فرعون، والعدول عن ذكر فرعون وحده:

ذكر آل فرعون، يدلّ على أنّهم السَّبب في طغيانه

إنَّ ذِكر آل فرعون يتضمَّن ذِكر فرعون؛ لأنَّه إذا كان العناد في التَّابع؛ فهو في المتبوع أشدُّ؛ وفوق ذلك فإنَّ آل فرعون وحاشيته ونصراءَه هم السَّبب في طغيانه، وهم الَّذين سهَّلوا له سبيل الطُّغيان، وضنُّوا بالموعظة في إبَّانها، وهم الَّذين حرَّضوه على

(1) الآلوسي، روح المعاني: 2/91.
(2) السمرقندي، بحر العلوم: 1/196.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/33.

الاستمرار في الشَّرِّ والإيغال فيه، فهم اتَّبعوه أوَّلًا، ثم حرَّضوه على الطُّغيان ثانيًا بمبالغتهم في مرضاته، واستحسان ما يفعل[1].

سرُّ تخصيص ﴿ءَالِ فِرۡعَوۡنَ﴾، وعطف عبارة ﴿وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ﴾:

ضرب المثل بآل فرعون، للعلم بهلاكهم، وقرب عهدهم بهم

تخصيص آل فرعون بالذِّكر - من بين بقيَّة الأمم - لأنَّ هلَكهم معلوم عند أهل الكتاب، بخلاف هلَك عادٍ وثمودَ، فهو عند العرب أشهر، ولأنَّ تحدِّي موسى إيَّاهم كان بآيات عظيمة، فما أغنتهم شيئًا تُجاه ضلالهم، ولأنَّهم كانوا أقرب الأمم عهدًا بزمان النَّبيِّ ﷺ فهو كقول شعيب: ﴿وَمَا قَوۡمُ لُوطٖ مِّنكُم بِبَعِيدٖ ٨٩﴾ [هود: 89]، وكقول الله تعالى للمشركين: ﴿وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٖ مُّقِيمٍ ٧٦﴾ [الحِجر: 76][2].

ولأنَّهم هم الَّذين حرَّضوه على الشُّرور والآثام والطُّغيان، فلقد حكى القرآن عنهم ذلك في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِ فِرۡعَوۡنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوۡمَهُۥ لِيُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبۡنَآءَهُمۡ وَنَسۡتَحۡيِۦ نِسَآءَهُمۡ وَإِنَّا فَوۡقَهُمۡ قَٰهِرُونَ ١٢٧﴾ [الأعراف: 127][3].

ولأنَّ فرعون كان أشدَّ الطُّغاة طغيانًا، وأكبرهم غرورًا وبطرًا، وأكثرهم استهانةً بقومه، واحتقارًا لعقولهم وكيانهم، ألم يقل لهم، كما قصَّ القرآن: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ ٢٤﴾ [النَّازعات: 24]، ألم يبلغ به غروره أن يقول لهم: ﴿أَلَيۡسَ لِي مُلۡكُ مِصۡرَ وَهَٰذِهِ ٱلۡأَنۡهَٰرُ تَجۡرِي مِن تَحۡتِيٓۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ٥١﴾ [الزُّخرُف: 51]، ألم يقل لوزيره: ﴿يَٰهَٰمَٰنُ ٱبۡنِ لِي صَرۡحٗا لَّعَلِّيٓ أَبۡلُغُ ٱلۡأَسۡبَٰبَ ٣٦ أَسۡبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبٗاۚ﴾ [غافر: 37]، ولقد وصف الله تعالى قوم فرعون بهوان الشَّخصيَّة، وتفاهة العقل، والخروج عن كلِّ مكرمة، فقال: ﴿فَٱسۡتَخَفَّ قَوۡمَهُۥ فَأَطَاعُوهُۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ ٥٤﴾ [الزُّخرُف: 54]؛ لأنَّ الأمَّة الَّتي تترك الظَّالم وبطانتَه يعيثون في الأرض فسادًا لا تستحقُّ الحياة، ولا يكون مصيرُها إلَّا إلى التَّعاسة والخُسران[4].

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 3/1122.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/175.
(3) طنطاوي، التفسير الوسيط: 2/40.
(4) طنطاوي، التفسير الوسيط: 2/40.

وآل فرعون من الفئات المشاركة والمساندة لحكم فرعون ونظامه، وقد لعبوا دورًا مُهِمًّا في ظهور شخصيَّة فرعون، ذلك أنَّهم اتَّصفوا بصفات جعلتهم أداة طيِّعة بيد فرعون، أهمُّها الكفر والتَّكذيب بآيات الله، حتى صاروا لظلمهم ومظاهرتهم للظَّالم الطَّاغي مَضربًا للمثل في صنيعهم ومشايعتهم لفرعون، يقول تعالى: ﴿كَدَأۡبِ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ﴾، فمن دأبهم وشأنهم وعادتهم الكفر بآيات الله والتَّكذيب، فكيف لا يكونون دعامة لحكم فرعون الكافر المكذِّب؟[1].

بلاغة الفصل في قوله: ﴿كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾:

الاستئناف البيانيّ، غايته إيضاح دأب آل فرعون

قوله: ﴿كَذَّبُواْ﴾ بيان لدأبهم، استئناف بيانيٌّ، تفسير لصنيعهم الباطل، ودأبهم على الفساد والضَّلال.

علَّة إضافة الآيات إلى ضمير العظمة في قوله: ﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾:

إضافة ضمير العظمة للآيات، من أقوى ما يتضمّنه اللّفظ من دلالات

في إضافتها إلى الله تعالى تعظيم لها، وتنبيه على قوَّة دلالتها على الحقِّ والخير، وأتى بضمير الفاعل المعظِّم نفسَه؛ لما في الآيات المُنَزَّلة من عظيم الدلائل والبراهين السَّاطعة، والحجج القاطعة على وحدانيَّة الله، وصدق الرُّسُل في التَّبليغ.

نكتة إيثار الضَّمير بين قوله: ﴿كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾، وقوله ﴿بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ [الأنفال: 52]:

ذكر المضمر والظّاهر، يستوعب معنى الرّسالات الثّلاث الطّواهر

جاء قوله: ﴿كَدَأۡبِ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ إخبارًا عن الله تعالى؛ فكان بناؤها على الآية الَّتي قبلها أولى، فاقتضى العدول عن اسم الجلالة إلى ضمير العظمة، كما كان في الآية الأخرى، فاقتضى بناؤها على الآية الَّتي قبلها العدول عن لفظ الإضمار إلى لفظ الإظهار، فجرى الخبر في هذه الآية على اللَّفظ الظَّاهر[2].

ولمَّا تقدَّم قبلها ذكر تنزيل الكتب الثَّلاثة، والإشارة إلى ما

(1) قاسم خضر، شخصية فرعون في القرآن، ص: 162.
(2) الإسكافي، درة التَّنزيل، ص: 356 - 371.

تضمَّنته من الهدى والفرقان؛ أتى على من كفر بصدِّه عنها وتكذيبه؛ ناسب ذلك قوله تعالى: ﴿كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾، ولمَّا لم يقع في سورة الأنفال من أوَّلها إلى الآية الأولى من الآيتين ذكْرُ شيء من الكتُب المنزَّلة، ولا ذكر إنزالها، وإنَّما تضمَّنت حال المسلمين مع معاصريهم من كفَّار العرب، ومعظم ذلك في قتالهم وحربهم؛ ناسب ذلك التَّعبير بالكفر، فقال تعالى: ﴿كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ [الأنفال: 52]، ثُمَّ لمَّا تلتها الآية الأخرى من غير طول بينهما وقع التَّعبير فيها بالتَّكذيب، فقال: ﴿كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ﴾ [الأنفال: 54]، وعدل عن لفظ ﴿كَفَرُواْ﴾؛ لثقل التَّكرُّر مع القرب، وليَحْصُلَ وَسْمُهم بالكفر والتَّكذيب[1].

نكتة التَّعبير بالأخذ في قوله: ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ﴾:

الأخـــذُ شـدَّة العـقـوبـة، بلا فكاك عنها، ولا مهرب منها

في التَّعبير بالأخذ إشارة إلى شدَّة العقوبة، فهو - سبحانه - قد أخذهم كما يؤخذ الأسير الَّذي لا يستطيع فكاكًا من آسِره، ولا يقدر على التَّخلُّص[2].

وعليه؛ فالأخذ في قوله: ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمۡۗ﴾ هو أخذ الانتقام في الدُّنيا كقوله: ﴿أَخَذۡنَٰهُم بَغۡتَةً فَإِذَا هُم مُّبۡلِسُونَ ٤٤﴾ [الأنعام: 44]؛ إذ الأصل أنَّ حال المشبَّه أظهر من حال المشبَّه به عند السَّامع[3].

بلاغة التَّصريح باسم الجلالة في قوله: ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ﴾:

ذكـــر صـفـة الألوهيَّة، دلالة عـلى تفريطهم في جـنـب ربّ البريّة

التَّصريح باسم الجلالة لإلقاء الهيبة في القلوب، ولإقامة الحجَّة عليهم بألوهيَّته المتضمِّنة معنى: العبادة، وقد ناوؤوه بكفرهم وتكذيبهم، فأخذهم اللّه الَّذي خاصموه، وتركوا عبادته، بل جحدوا به، وكذَّبوا بآياته.

فالَّذي حقَّت له العبادة، وعظمت منه النِّعمة؛ أخذهم بذنوبهم،

(1) ابن الزّبير، ملاك التأويل، ص: 78.
(2) الرازي، مفاتيح الغيب: 7/153، 154.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/174.

والله تعالى يعاقب الكفَّار عقوبة تشدُّ عليهم، ولا تخفَّف عنهم؛ لِما قدَّموا من العصيان ما استمرَّ مثله، ولم ينقل عنه قدم، ولا عقبه بعد الإصرار عليه ندم، فهذه فائدة العدول إلى لفظة ﴿ٱللَّهُ﴾ في قوله: ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ﴾ دون قوله: (فأخذناهم)[1].

سرُّ الالتفات من التكلُّم إلى الغيبة في قوله: ﴿كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ﴾:

الاحتجاج بأسلوب الالتفات على ما يستحقُّه جلَّ وعلا من العبوديَّة

لَمَّا كان أصل الكلام: هو الإخبار عن نفسه في قوله: ﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾؛ كَانَ الْقِيَاس فأخذناهم، لَكِن لَمَّا عدل فِي الْآيَة الأولى إِلَى قَوْله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ ٩﴾ [آل عمران: 9]؛ عدل فِي هَذِه الْآيَة أَيْضًا؛ لتَكون الْآيَات على مَنْهَج وَاحِد[2].

وعليه؛ فإنَّ ذكر اسم الجلالة الصَّريح التفاتٌ من التَّكلُّم إلى الغيبة، لما سبق من الاحتجاج به على ما يستحقُّه جلَّ وعلا من العبوديَّة المتضمِّنة في ألوهيَّته سبحانه، ولما فيه من اتِّصال الضَّمير، وتقديم المفعول به على الفاعل، وهو الضَّمير (هُم) من معنى المفاجأة والبغتة وشدَّة الغضب، وكيف لا؟ وقد جاءهم من الآيات ما فيه مدَّكر، ومن الأنباء ما فيه مزدجر، وإنَّها لأَخْذَةُ أَسفٍ.

دلالة الباء في قوله: ﴿بِذُنُوبِهِمۡۗ﴾:

الذنوب سبب استحقاق العذاب، ونيل أليم العقاب

الباء للسَّببيَّة، أي: أخذهم بسبب ما اجترحوه من ذنوب، أو الملابسة والمصاحبة، أي: أخذهم، وهم متلبِّسون بذنوبهم، دون أن يتوبوا منها، أو يقلعوا عنها، والجملة على الوجهين تدلُّ على كمال عدل الله تعالى؛ لأنَّه ما عاقبهم إلَّا لأنَّهم استحقُّوا ذلك، وأصل الذَّنْب: الأخذ بذَنَب الشَّيء، أي: بمؤخِّرته، ثُمَّ أطلق على الجريمة؛ لأنَّ مرتكبها يعاقَبُ بعدها[3].

(1) الإسكافي، درة التنزيل، ص: 361.
(2) الكرماني، توجيه متشابه القرآن: ص 88.
(3) طنطاوي، التفسير الوسيط: 2/41.

دلالة وضع المُظهر موضع المُضمر في قوله: ﴿وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾:

إيـــراد لـفـظ الجلالة ظاهرا، زيـــادة وعـيـد، وإقـامـة الحجَّة على كلّ عنيد

لَمَّا كان معنى قولنا: ﴿وَٱللَّهُ﴾ بمعنى: الإله، والإله مشتقٌّ من: أَلِهَ يَأْلَه، أي: عبَد يعبُد عبادة، فالإله: هو الَّذي حقَّت عبادته؛ لَمَّا عظمت نعمته، وكان العدول إلى اسم الجلالة - للاحتجاج بمعناه - فائدة لم تكن لتحصل؛ لو قال: (وهو شديد العقاب)[1]، وليرفع اللَّبس في عود الضَّمير إلى العذاب المفهوم من الأخذ.

بلاغة تذييل الآية وعلاقته بالسِّياق:

مهمّة التّذييل، تقرير المضمون الـوارد قبله في السّياق

قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾ تذييل مقرِّر لمضمون ما قبله من الأخذ وتكملة له، ناسب هذا التَّذييل ما جاء في الآية الكريمة من المثل المضروب للكافرين، من تشبيه حالهم في التَّكذيب، وما سيحلُّ بهم من العذاب، بحال آل فرعون ومن قبلهم، من التَّكذيب بالآيات والتَّنكيل بهم، فأظهر الاسم الجليل الشَّريف، ولم يُضمر؛ للتَّنبيه على زيادة العظمة في عذابهم لمزيد اجترائهم، واللّه تعالى الملك الَّذي لا كُفْءَ له في جبروته، ولا شيء يشبهه من نعوته، شديد العقاب لا يعجزه شيء[2].

توجيه المتشابه اللَّفظي:

جاءت آيتان أخريان تشابهتا مع قوله تعالى هنا: ﴿كَدَأۡبِ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمۡۗ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ١١﴾ [آل عمران: 11]، وهما متتاليتان، لم يَفصل بينهما سوى آية، وهو قوله تعالى في سورة الأنفال:

﴿كَدَأۡبِ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيّٞ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ٥٢﴾ [الأنفال: 52]، وقوله تعالى: ﴿كَدَأۡبِ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ فَأَهۡلَكۡنَٰهُم

(1) الإسكافي، درة التنزيل: ص 359.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 2/26، أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 2/11.

﴿بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَۚ وَكُلٌّ كَانُواْ ظَٰلِمِينَ ٥٤﴾ [الأنفال: 54]، تلك آيات ثلاث متشابهات، نكتفي بتوجيه ما لم يُذكَر في الإيضاح اللُّغويِّ والبلاغيِّ، فنقول:

في الآية الأولى: ﴿كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ ؛ لتعظيم الآيات، وتهويل جُرْمهم، ومناسبة السِّياق في ذكر التَّوراة والإنجيل والفرقان، وفي الآية الثَّانية: ﴿كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ [الأنفال: 52]؛ لمناسبة الصِّراع القائم حينئذٍ بين الكفَّار والمؤمنين، ولتقدُّم ذكر الملائكة والشَّيطان، وكلٌّ له فِعْلٌ، ولكن فعلَهم بأمر الله، فناسب إضافة الآيات إلى اسم الله؛ ليُعلم أنَّ الأمر له ﷻ، وأنَّه مُريهم الآيات، ولا فعل إلَّا له، وأنَّ الملائكة مسخَّرون بأمره، وفعلهم من خلقه، وتزيين الشَّيطان لهؤلاء الكفَّار إنَّما هو بقدر الله، وسابق مشيئته، وكلُّ ذلك خلقه وملكه، والآيات آياته، وله المثل الأعلى.

وفي الآية الثَّالثة: ﴿كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾ [الأنفال: 54]؛ ليجمع في وصفهم بين الكفر والتَّكذيب، وليجري مع ما تقدَّمه متَّصلًا به من ذكر النِّعم، فناسبه ذكر ملكيَّته سبحانه لهم بقوله: ﴿بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾ [الأنفال: 54]، فهو المحسن والمالك، ثم جرى القدر بما سبق لهم، فإيراد قوله: ﴿كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾ [الأنفال: 54] أوقع في نفوسهم وأشدُّ في تحسُّرهم وندامتهم، إذا شاهدوا الأمر؛ فعلموا أنَّه مالكهم، وأنَّه ابتدأهم بالنِّعم، فغيَّروا، فحصل من ذلك أنَّهم قابلوا نِعَم ربِّهم بالكفر مع بيان الأمر ووضوحه، ولو قيل: بآيات الله؛ لما أحرز هذا المعنى[1].

وسرُّ تكرار الآيتين من سورة الأنفال في موضعين لا يحجز بينهما إلَّا آية واحدة؛ لوجود نوعين مختلفين من العذاب فيهما، وإذا كان لم يكن تكرار؛ لأنَّه في الآية الأولى عقوبته إيَّاهم عند الموت، والبشارة الَّتي أتتهم بعذاب الحريق، وأنَّه فعل بهم ذلك كما فعله بآل فرعون، ومَن كان قبلهم من الكفَّار، ثمَّ ذكر في الثَّانية ما يفعله بهم من شدَّة عقابه بعد الموت كما فعله بآل فرعون، ومَن كان قبلهم من الكفَّار، وما أجرى عليه العادة في تعذيبه إيَّاهم بعد الموت في القبور وغيرها.

أو أنَّه أخبر في الأولى عمَّا عاقبهم به من العذاب الذي لم يملك النَّاس إيقاعه، ولم يُمكَّن بعضُهم من أن يفعل ببعض مثلَه، وهو ضربُ الملائكة وجوهَهم وأدبارَهم عند نزع

(1) ابن الزّبير، ملاك التأويل: ص 77 - 79.

أرواحهم، وإخبارُهم إيَّاهم بمصيرهم إلى عذابٍ يحرقهم، وفي الثَّانية أخبر عمَّا أنزله بهم من العذاب الَّذي مُكِّن النَّاسُ من فعل مثله، وهو الإهلاك والإغراق؛ لأنَّ ذلك ممَّا أقدر اللّه تعالى العبادَ عليه،

فالنَّوعان هما: العذاب الأوَّل من أحكام الآخرة بعد ظهور أشراط السَّاعة، والعذاب الثَّاني من أحكام عذاب الدُّنيا، والَّذي يبيِّن ذلك أنَّه قال في الآية الأولى من سورة الأنفال: ﴿كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ [الأنفال: 52]، فأخبر عن أعظم ما ارتكبوه، وهو الكفر، وذكر آيات اللّه وهو الاسم الَّذي يفيد استحقاق العبادة الَّتي هي مضادَّة الكفر، أي: أخذهم من أنعم عليهم؛ ليشكروا لمَّا عصوا، وكفروا بذنوبهم الَّتي ارتكبوها[1].

وأمَّا اختيار لفظة: ﴿كَفَرُواْ﴾ على لفظ: (كذبوا)؛ فلأنَّ الآية، وهي ﴿كَدَأۡبِ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ﴾، لمَّا أعيدت؛ دلَّت إعادتها على أنَّ المراد التَّأكيد لبيان قبح حالهم، فكان التَّصريح بالكفر أوقع، ولمَّا صرَّح بالكفر بعد التَّأكيد بالإعادة - لا جرم - أكَّد الكلام بعد ذلك، فقيل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيّٞ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ۝٥٢﴾ [الأنفال: 52][2].

وأمَّا الحكاية في ﴿فَأَهۡلَكۡنَٰهُم﴾ [الأنفال: 54]؛ فللتَّفنُّن في الكلام، ولئلَّا يخلو عمَّا هو أصل الكلام[3].

وفي الآية الثانية من الأنفال تفصيل عقابهم بإغراق آل فرعون وأخذ من عداهم بغير ذلك، وقال: ﴿فَأَهۡلَكۡنَٰهُم بِذُنُوبِهِمۡ﴾ [الأنفال: 54]؛ ليخالف قوله تعالى في الآية قبل: ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمۡۗ﴾ [الأنفال: 52]؛ لاستثقال لفظ التَّكرار فيما تقارب، ولما قصد من التَّفصيل، وقد ضمَّ الفريقين من المهلَكِين بذنوبهم والمغرَقين في قوله: ﴿وَكُلٌّ كَانُواْ ظَٰلِمِينَ ۝٥٤﴾ [الأنفال: 54][4].

قوله تعالى في الآية الأولى من الأنفال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيّٞ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ۝٥٢﴾ [الأنفال: 52] مقابل به قول الشَّيطان لمن قدَّم ذكره من الكفَّار: ﴿لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلۡيَوۡمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّي جَارٞ لَّكُمۡۖ﴾ [الأنفال: 48]، فقوبل قوله المضمحلُّ بإسناد القوَّة للّه - ﷻ - كما قال تعالى: ﴿وَلَوۡ

(1) الإسكافي، درة التنزيل، ص: 356 - 371.
(2) السكاكي، مفتاح العلوم: 1/589 - 591.
(3) السكاكي، مفتاح العلوم: 1/589 - 591.
(4) ابن الزبير، ملاك التأويل: ص 77 - 79.

يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِذۡ يَرَوۡنَ ٱلۡعَذَابَ أَنَّ ٱلۡقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعٗا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعَذَابِ ﴿١٦٥﴾ [البقرة: 165]، ولمَّا لم يرد في سورة آل عمران مثل هذا؛ وقع الاكتفاء بقوله: ﴿وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾.[1]

الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الدَّأب ولفظ العادة:

الدَّأب: العادة الَّتي عليها يدوم صاحبها، وهو أخصُّ من العادة، ومنه أدأب في سيره، ولذلك قال الفرَّاء: الدَّأب لزوم الحال الَّتي فيها[2].

والعَادة على ضَرْبَيْنِ: اخْتِيَار أَو اضطرار، فالاختيار: كتعوُّد النَّبيذ، وَمَا يجْرِي مجْرَاه، مِمَّا يكثر الْإِنْسَان فعله، فيعتاده، ويصعب عَلَيْهِ مُفَارقَته.

والاضطِّرار مثل: أكل الطَّعَام، وَشرب المَاء؛ لإقامة الْجَسَد، وَبَقَاء الرُّوح، وَمَا شاكل ذَلِك.

والدَّأْب لَا يكون إِلَّا اخْتِيَارًا، أَلا ترى أَنَّ الْعَادة فِي الْأكل وَالشَّرب المقيمَيْنِ للبدن لَا تُسَمَّى دأبًا[3].

الآل والقوم:

الْقَوْم: هم الرِّجَال الَّذين يقوم بَعضهم مَعَ بعض فِي الْأُمُور، وَلَا يَقع على النِّسَاء إِلَّا على وَجه التَّبع، كَمَا قال ﷻ: ﴿كَذَّبَتۡ قَوۡمُ نُوحٍ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿١٠٥﴾﴾ [الشعراء: 105]، وَالْمَرَاد الرِّجَال، وَالنِّسَاء تبع لَهُم، والشَّاهِد على مَا قُلْنَاهُ قَول زُهَيْر من الوافر:

وَمَا أَدْرِي وسوف إخال أَدْرِي *** أقوم آل حصن أم نسَاء؟

فَاخْرج النِّسَاء من الْقَوْم[4].

وكلُّ من يؤول إِلَى الرَّئيس فِي خَيرهمْ وشرِّهم، أَو يؤولون إِلَى خَيره وشرِّه؛ فَهُوَ الْآل، وَالْقَوْم أَعمُّ مِنْهُ؛ لِأَنَّ كلَّ من يقوم الرَّئيس بأمرهم، أَو يقومُونَ بِأَمْرِهِ؛ فَهُوَ الْقَوْم[5].

(1) ابن الزبير، ملاك التأويل: ص 77 - 79.
(2) الراغب، تفسير الراغب: 2/437.
(3) العسكري، الفروق اللغوية: ص 226.
(4) العسكري، الفروق اللغوية: ص 279.
(5) الكفوي، الكليَّات: (آل) ص 164.

الآل والأهل:

إنَّ الْأَهْل: يكون من جِهَة النَّسَب والاختصاص، فَمن جِهَة النَّسَب: قَوْلك: أهل الرَّجل لِقَرَابَتِهِ الأدنين، وَمن جِهَة الِاخْتِصَاص: قَوْلك: أهل الْبَصْرَة، وَأهل الْعلم، والآل خَاصَّة الرَّجل من جِهَة الْقَرَابَة أَو الصُّحْبَة، تَقول: آل الرَّجل لأَهله وَأَصْحَابه، وَلَا تَقول: آل الْبَصْرَة وَآل الْعلم، وَقَالُوا: آل فِرْعَوْن أَتبَاعه، وَكَذَلِكَ آل لوط[1].

العقاب والعذاب:

إنَّ الْعقَاب ينبىء عَن اسْتِحْقَاق، وَسمِّي بذلك؛ لِأَنَّ الْفَاعِل يسْتَحقُّهُ عقيب فعله، وَيجوز أَن يكون الْعَذَاب مُسْتَحقًّا وَغير مستحقٍّ، وأصل الْعقَاب: التُّلُوُّ: وَهُوَ تأدية الأَوَّل إِلَى الثَّاني، يُقَال: عَقبَ الثَّاني الأَوَّلَ؛ إِذا تلاه، وعقب اللَّيْل نَهَار، وَاللَّيْل النَّهَار هما عقيبان، وأعقبه بالغبطة حسرة؛ إِذا أبدله بهَا، وعقب باعتذار بعد إساءة[2].

العقاب: هو جزاء الشَّرِّ أو الذَّنب، والعذاب: هو تنفيذ العقاب، واللّٰه شديد العقاب على من أتى بأسباب العقاب: وهو الكفر والذُّنوب على اختلاف أنواعها وتعدُّد مراتبها[3].

إشارة إلى أنَّ شدَّة العقاب سببها شدَّة الجريمة وتعليم للنَّاس بأنَّ كلَّ فعل له جزاؤه، إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشرٌّ، وتقرير وتأكيد لمضمون ما قبلها[4].

(1) أبو هلال العسكري، الفروق اللغوية: ص 281.
(2) أبو هلال العسكري، الفروق اللغوية: ص 239.
(3) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 123.
(4) طنطاوي، التفسير الوسيط: 2/41.

﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ سَتُغۡلَبُونَ وَتُحۡشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ١٢﴾ [آل عمران: 12]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

العلاقة بين نماذج الهلاك للسّوابق، وبين مصير الكفرة اللّواحق

بعد أن أخبر بحال الكافرين، وعدم إغناء أموالهم وأولادهم عنهم من الله شيئًا، في الدُّنيا والآخرة، وأنَّهم حطب النَّار، وضرب لهم مثلًا يُشبههم، فحالهم كحال آل فرعون في التَّكذيب الصَّادر منهم والتَّعذيب الواقع عليهم، لمَّا ظهر ذلك جليًّا، وبان أنَّ هؤلاء الكافرين المكذِّبين مغلوبون صرَّح لنبيِّه ﷺ بذلك تشريفًا له وتكريمًا، ووعيدًا لهم وتهديدًا، فقال: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ سَتُغۡلَبُونَ وَتُحۡشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ١٢﴾.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿قُل﴾: أمر من القول، وهو مِنَ النُّطْقِ، يُقَالُ: قَالَ يَقُولُ قَوْلًا، وَالْمِقْوَلُ: اللِّسَانُ، والقَوْلُ يستعمل على أوجه: أظهرها أن يكون للمركَّب من الحروف المبرز بالنُّطق، مفردًا كان أو جملة[1].

2) ﴿سَتُغۡلَبُونَ﴾: من الغلبة، يَدُلُّ عَلَى قُوَّةٍ وَقَهْرٍ وَشِدَّةٍ، مِنْ ذَلِكَ: غَلَبَ الرَّجُلُ غَلْبًا وَغَلَبًا وَغَلَبَةً، قَالَ اللّه تَعَالَى: ﴿وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ٣﴾ [الرُّوم: 3]، وأصل غَلَبَتْ: أن تناول وتصيب غَلَبَ رقبته، والْأَغْلَبُ: الغليظ الرَّقبة، يقال: رجل أَغْلَبُ، وامرأة غَلْبَاءُ، وهضبة غَلْبَاءُ، كقولك: هضبة عنقاء ورقباء، أي: عظيمة العنق والرَّقبة[2].

3) ﴿وَتُحۡشَرُونَ﴾: من الحشر، وهو الْجَمْعُ مَعَ سَوْقٍ، وَكُلُّ جَمْعٍ حَشْرٌ، إخراج الجماعة عن مقرِّهم وإزعاجهم عنه إلى الحرب

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (قول).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (غلب).

ونحوها، وحَشر النَّاس يوم القيامة فيه أمور؛ لأنَّه يقع بَنشْرهم من قبورهم، وسَوْقهم إلى الموقف، وجمعهم فيه: ﴿وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ۝٤٧﴾ [الكهف: 47][1].

4) ﴿جَهَنَّمَ﴾: اسم من أسماء نار الآخرة - والعياذ بالله - ويقال للبئر: جَهَنَّم (بفتحتين فشدٌّ)، وجَهَنَّام (بتثليث الجيم والنُّون مشدَّدة): بعيدة القعر.

والمعنى المحوريُّ: بُعْد قَعْر الشَّيء وعُمق تجوُّفه مع تضامِّه على هذا التَّجوُّف، كالبئر الموصوفة، ومن هذا جَهَنَّم الَّتي يعذَّب فيها الكافرون - نعوذ بالله منها وممَّا يؤدِّي إليها - وقد سمَّاها الله - ﷻ - هاوية: ﴿فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ۝٩﴾ [القارعة: 9] "والهاوية: كُلُّ مَهْواةٍ لا يُدْرَك قعرُها"[2].

5) ﴿وَبِئْسَ﴾: كلمة تستعمل في جميع المذامِّ، من البؤس بالضَّمِّ: شدَّة الفقر، والبأساء: الجوع، والبائس: الرَّجل النَّازل به بليَّة أو عُدْم يُرْحَم لما به، وبَئِس كـ (تعب): اشتدَّت حاجته، والتَّباؤس: التفاقر، والمعنى المحوريُّ: هو: حِدَّةٌ أو جفافٌ يخالط الجوف أو الحوزة: كالفقر الشَّديد الَّذي عُبِّر عنه بالعُدْم، ومن هذا: بئِسَ، (ضِدُّ: نِعْمَ)، فهي تدلُّ على الشَّقاء والفراغ من الخير، كما أنَّ (نِعْمَ) ضدُّ ذلك، ﴿وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْۚ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ۝١٠٢﴾ [البقرة: 102][3].

6) ﴿ٱلْمِهَادُ﴾: الْمِيمُ وَالْهَاءُ وَالدَّالُ: كَلِمَةٌ تَدُلُّ عَلَى تَوْطِئَةٍ وَتَسْهِيلٍ لِلشَّيْءِ، وَمِنْهُ الْمَهْدُ، وَمَهَّدْتُ الْأَمْرَ: وَطَّأْتُهُ، وَتَمَهَّدَ: تَوَطَّأَ، وَالْمِهَادُ: الْوِطَاءُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ، ومنه المهاد: الفراش، وقد مَهَدَ الفِراشَ: بسطه ووطَّأه: ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ۝٤٤﴾ [الروم: 44]، أي: يُوَطِّئُون، ﴿فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُۖ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ۝٢٠٦﴾ [البقرة: 206][4].

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

إنـــذار الـكـفّـار بالغلبة والمصير إلى النّار، وبئس القرار

قل - أيُّها الرَّسول - لمشركي مكَّة واليهود وغيرهم الَّذين استهانوا بنصرك في بدر: ستُهزمون في الدُّنيا، وتجمعون سَوقًا إلى قعر النَّار المسمَّاة جهنَّم، وسيكون لكم في قعرها فراش، وبئس الفراش!

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (حشر).
(2) ابن منظور، لسان العرب، الراغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (جهنم).
(3) الراغب الأصفهاني، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (بأس).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصَّل: (مهد).

هذا، وقد استجاب النَّبيُّ ﷺ لأمر ربِّه، وجمع اليهود بعد بدر في سُوق بني قينقاع، فحذَّرهم أن ينزل بهم ما نزل بقريش، فقالوا: لا يغرنَّك أنَّك أصبتَ أغمارًا لا علم لهم بالحرب، لئن قاتلتنا؛ لعلمت أنَّا نحن النَّاس، فنزلت، وقد صدق الله وعده لهم بقتل قريظة وإجلاء بني النَّضير وفتح خيبر، وضرب الجِزية على مَن عداهم، وهو من دلائل النُّبوَّة[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغة الفصل لكمال الاتِّصال في السّياق:

تأكيد المضمون السّابق، تناسق وترابط بين الآيات

وهذا الكلام تأكيد لمضمون ما قبله، أي: قل - يا محمَّد ﷺ- لهؤلاء المغرورين بِحَوْلِهِمْ وقوَّتهم المعتزِّين بأموالهم وأولادهم: إنَّكم ستغلبون في الدُّنيا وتعذَّبون في الآخرة، وقد كان الكافرون يعتزُّون بأموالهم وأولادهم، فتوعَّدهم الله تعالى وبيَّن لهم أنَّ الأمر ليس بالكثرة والثَّروة، وإنَّما هو بيده سبحانه وتعالى.

وقد أنفذ الله وعيده الأوَّل في أولئك الكافرين، فغُلبوا في الدُّنيا، وقيل: إنَّ الخطاب لليهود، وقد غلبهم المسلمون، فقتلوا بني قريظة الخائنين، وأجلوا بني النَّضير المنافقين، وفتحوا خيبر، وقيل: هو للمشركين، وقد غلبهم المؤمنون يوم بدر، وأتمَّ الله نعمته بغَلَبِهم يوم الفتح، ولم تُغنِ عن الفريقين أموالهم ولا أولادهم، وسينفذ وعيده بهم في الآخرة، فيحشرون إلى جهنَّم، وبئس المهاد[2].

الاستئناف الابتدائيُّ ودلالته في الآية:

دلالة الانتقال من التَّخويف وضرب المثل، إلى التَّهديد والوعيد

استئناف ابتدائيٌّ؛ للانتقال من النِّذارة إلى التَّهديد، ومن ضرب المثل لهم بأحوال سلفهم في الكفر، إلى ضرب المثل لهم بسابق

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 2/7، نخبة من أساتذة التفسير، التفسير الميسَّر: 51.
(2) رضا، تفسير المنار: 391، 392.

أحوالهم المُؤْذِنة بأنَّ أمرهم صائر إلى زوال، وأنَّ أمر الإسلام ستندكُّ له صمُّ الجبال[1].

نكتة مخاطبة النَّبيِّ بقوله: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾:

لقد أمر الله تعالى نبيَّه ﷺ أن يتولَّى الرَّدَّ عليهم، وأن يواجههم بهذا الخطاب المشتمل على التَّهديد والوعيد؛ لأنَّهم كانوا يتفاخرون عليه بأموالهم وبقوَّتهم، فكان من المناسب أن يتولَّى ﷺ الرَّدَّ عليهم، وأن يخبرهم بأنَّ النَّصر سيكون له ولأصحابه، وأنَّ الدَّائرة ستدور عليهم[2].

السّياق تشريف للنَّبيِّ بالخطاب، وتهديد للكافرين بالهون والعذاب

سرُّ العدول عن ضمير (هم) إلى الاسم الظّاهر:

يحتمل أنَّ المراد بالَّذين كفروا المذكورون في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔاۖ﴾، فيجيء فيه ما تقدَّم، والعدول عن ضمير (هم) إلى الاسم الظَّاهر لاستقلال هذه النِّذارة، ولا يخلو من تبكيت لهم وتقريع.

الاسم الظاهر تخصيص للكافرين بالنِّذارة، مع زيادة تبكيتهم

والظَّاهر أنَّ المراد بهم المشركون خاصَّة، ولذلك أعيد الاسم الظَّاهر، ولم يُؤتَ بالضَّمير بقرينة قوله بعده: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِي فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَاۖ فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ ٱلْعَيْنِۚ﴾، وذلك ممَّا شاهده المشركون يوم بدر[3].

دلالة حرف السِّين في قوله: ﴿سَتُغْلَبُونَ﴾:

يدلُّ حرف السِّين على المستقبل القريب، ويشير هنا إلى إعجاز غيبيٍّ يُنَبَّأ به الرَّسول ﷺ ويؤمر من قِبَل ربِّه بتبليغه لهؤلاء الكافرين، وقد فعل النَّبيُّ ﷺ ذلك، كما جاء في سبب النُّزول، وهذه آية من الآيات الدَّالَّات على صدق النَّبيِّ ﷺ وعظيم إيمانه وثقته بربِّه.

إبراز الإعجاز الغيبيِّ، بدلالة الحرف الدّالّ على المستقبل

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/175.
(2) طنطاوي، التفسير الوسيط: 2/41.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/175.

سرُّ التَّعبير بالفعل المضارع في قوله: ﴿سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ﴾:

ما سيلقاه الكافرون، ممّا سوف يكون

يشير الفعل المضارع إلى استمرار الغلب، واستحضار الصُّورة المُهينة للكافرين حين يُحشرون إلى جهنَّم.

القراءات ودلالاتها:

قرأ حمزة والكسائيُّ وخلف ﴿سَيُغْلَبُونَ وَيُحْشَرُونَ﴾ بالياء فيهما، والباقون بالتَّاء المنقَّطة من فوق فيهما ﴿سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ﴾[1]، فمن قرأ بالياء المنقَّطة من تحت، فالمعنى: بلِّغهم أنَّهم سيغلبون، ويدلُّ على صحَّة الياء قوله تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَغْفِرُواْ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ﴾ [الجاثية: 14]، ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ﴾ [النور: 30]، ولم يقل: غضُّوا، ومن قرأ بالتَّاء؛ فللمخاطبة، ويدلُّ على حسن التَّاء قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ﴾ [آل عمران: 81] والفرق بين القراءتين من حيث المعنى أنَّ القراءة بالتَّاء: أمر بأن يخبرهم بما سيجري عليهم من الغلبة والحشر إلى جهنَّم، والقراءة بالياء: أمر بأن يحكي لهم[2].

بلاغة الإطناب في الآية:

وجيء في هذا التَّهديد بأطنب عبارة وأبلغها؛ لأنَّ المقام مقام إطناب لمزيد الموعظة، والتَّذكير بوصف يوم كان عليهم أن يعلموه[3].

قوَّة لفظ (جهنم) يدلُّ على شدَّة عذابها، وبُعد قعرها

إمساس الألفاظ أشباهَ المعاني[4]:

اصطفى القرآن من أسماء النَّار ما يُعبِّر عن المعنى المناسب للسِّياق، فآثر لفظ ﴿جَهَنَّمَ﴾ للوعيد في المواقف الَّتي يستعلي فيها

(1) ابن الجزري، النشر: 2/238.

(2) الرازي، مفاتيح الغيب: 7/153.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/175.

(4) هذا باب من الخصائص لابن جني، قال فيه: "اعلم أنَّ هذا موضع شريف لطيف، وقد نبَّه عليه الخليل وسيبويه، وتلقته الجماعة بالقبول له والاعتراف بصحَّته، ومن ذلك أنَّهم جعلوا تكرير العين في المثال دليلًا على تكرير الفعل، فقالوا: كسَّر وقطَّع وفتَّح وغلَّق، وذلك أنَّهم لما جعلوا الألفاظ دليلة المعاني، فأقوى اللَّفظ ينبغي أن يقابل به قوَّة الفعل". ابن جني، الخصائص: 2/154 - 157.

الكافرون، ويطغى فيها الظَّالمون، ونحو ذلك، وقد ورد في القرآن الكريم سبعًا وسبعين مرَّةً، منها قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٢٠٦﴾﴾ [البقرة: 206]، فانظر كيف توعَّد هذا الَّذي أخذته العِزَّة بالإثم بهذا الاسم المخيف ﴿جَهَنَّمَ﴾، وهكذا في سائر المواضع، ولن تعدم فيها هذا المعنى أو ما يحوم حوله.

وكانت ﴿جَهَنَّمَ﴾ بالذَّات لهؤلاء الكافرين؛ لأنَّهم زعموا أنَّهم أكثر أموالًا وأولادًا، وأنَّهم لن يُعَذَّبوا، فطغَوا، وبغَوا، وتكبَّروا على الله تعالى، فكان جزاؤهم في جهنَّم، والعياذ بالله.

ومن النَّاحية الصَّوتيَّة: فإنَّ الجيم تعبِّر عن هيكل غير مُصمت، والهاء عن فراغ جوفه، والنُّون عن امتداد ذلك الفراغ في الباطن، والميم عن تضامِّها واستوائها على ذلك بقيام هيكلها هكذا، أو بأن عمقها الشَّديد جدًّا يُبْرِز تضامَّ ظاهرها على جوفها أو على ما يُلقى فيها، ولا أظنُّنا - بعد استعمال اللَّفظ وصفًا للبِئْر وعَلَمًا ولقبًا، وبعد انطباق المقاييس الصَّوتيَّة العربيَّة على اللَّفظ - بحاجة إلى الإطالة في تزييف ادِّعاء تعريب اللَّفظ عن الفارسيَّة أو العبريَّة (كهنام)، بل نضيف تأكيدًا لأصالة عروبته أنَّ من الاستعمالات العربيَّة "كلَّ نار عظيمة في مهواة؛ فهي جَحيم، "والصِّلة الصوتيَّة بين الجحيم وجهنَّم واضحة، فالحاء والهاء أختان[1].

مجاورة الذَّمِّ الشَّديد، للخبر الأكيد، إيقان بتحقُّق وقوعه

عطف الإنشاء على الخبر في عطف: ﴿وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ على ﴿سَتُغْلَبُونَ﴾:

عطف ﴿وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ على ﴿سَتُغْلَبُونَ﴾ عطف الإنشاء على الخبر[2]، فعطف جملة الذَّمِّ على الخبر - بأنَّهم سيغلبون في الدُّنيا، ويحشرون في الآخرة سوقًا إلى النَّار - دليل على أنَّ ما بعد الخبر مثله، وإن كان في الظاهر إنشاءً، إشارة إلى تحقُّقه.

دلالة رأس الآية ﴿وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ على المراد:

وقوله: ﴿وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾، إمَّا من تمام ما يقال لهم، أو استئناف لتهويل شأن جهنَّم، وتفظيع حال أهلها[3]، وعلى كلٍّ ففيه مزيد تهكُّمٍ

(1) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (جهنم).
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/175.
(3) طنطاوي، التفسير الوسيط: 2/41.

تـهـويـل شـأن جهنَّم، وتفظيع حـــال أهـلـهـا، بتبشيع وصفها

بهؤلاء الكافرين؛ إذْ إنَّ (المهاد) في الأصل: فراش ليِّن، وهو المكان المهيَّأ للنَّوم، والتَّعبير عن جهنَّم بأنَّها: ﴿وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ﴾ لَا يخلو من تهكُّم بأولئك الكافرين، كما يقال: (تحيَّة بينهم ضربٌ وجيع)، وكقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقۡتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيۡرِ حَقّٖ وَيَقۡتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡقِسۡطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ٢١﴾ [آل عمران: 21].

﴿قَدۡ كَانَ لَكُمۡ ءَايَةٞ فِي فِئَتَيۡنِ ٱلۡتَقَتَاۖ فِئَةٞ تُقَٰتِلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخۡرَىٰ كَافِرَةٞ يَرَوۡنَهُم مِّثۡلَيۡهِمۡ رَأۡيَ ٱلۡعَيۡنِۚ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصۡرِهِۦ مَن يَشَآءُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبۡرَةٗ لِّأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ ١٣﴾ [آل عمران: 13]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

تقرير هذه الآية لمضمون سابقتها، بإعلان دحر الكفّار، وحشرهم إلى النّار

لمَّا قرَّرت الآية السَّابقة أنَّ الَّذين كفروا سيُغلَبون، ويُحشرون إلى جهنَّم، وكان المقصودُ بالحديث: هم اليهود الَّذين كانوا يرون أنفسهم أكثرَ عددًا، وأقوى عُدَّة، وأشدَّ شكيمة في الحرب؛ ضرب الله لهم مثلًا على صحَّة الكلام السَّابق: بنصره المسلمين المُستضعَفِين القليلي العدد والعُدَّة في غزوة بدرٍ على فئة الكفر الطَّاغية الباغية الَّتي كانت أكثر منهم عددًا، وأقوى شوكة، وأنزل الله نَصْرَهُ المبين، وأيَّد عباده المخلصين، وهكذا تكون نتائج الحروب حين يعتصم المسلمون بحبل الله تعالى، وتكون المعركة لرفع راية الحقِّ وإحقاق كلمة التَّوحيد دون أن تشوبها أغراضٌ دنيويَّة، من هنا قال جلَّ شأنه: ﴿قَدۡ كَانَ لَكُمۡ ءَايَةٞ فِي فِئَتَيۡنِ ٱلۡتَقَتَاۖ﴾، أي: إنَّ هذه الآية دليلٌ على صحَّة مضمون انهزام الَّذين كفروا وحشرهم في نار جهنَّم[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فِئَةٞ﴾: الفئة من النَّاس: الجماعة الَّتي يُفاءُ ويُرجَعُ إليها في وقت الشِّدَّة، قال الرَّاغب: "الفئة: الجماعةُ المتظاهِرةُ الَّتي يَرجعُ بعضُهم إلى بعضٍ في التَّعاضد"[2].

2) ﴿يُؤَيِّدُ﴾: أصل الفعل: آيَدْتُهُ مؤايدةً، وأيَّدتُهُ تأييدًا، بمعنى: قوَّيْتُهُ، والأَيْدُ: القُوَّة الشَّديدة، ومنه قوله تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلۡأَيۡدِۖ﴾ [ص: 17]، أي: الَّذي خَصَصْناه بالقوَّة[3].

(1) الرازي، مفاتيح الغيب: 7/155.
(2) الراغب، المفردات: (فيأ).
(3) الراغب، المفردات، والسمين، عمدة الحفاظ: (أيد)

3) ﴿لَعِبْرَةً﴾: أصل العِبرة مِن: عِبْر الوادي، وهو شاطئه وناحيته، ومِن: عَبَرَ الوادي والنَّهر، أي: قَطَعَه مِن عِبْره إلى عِبْره الثَّاني[1].

أي: نفذَ مِن أحد الجانبين إلى الآخر، والمرادُ بالعِبرة في هذا السِّياق: الاتِّعاظُ الَّذي يَعْبُرُ به العاقلُ المُتدبِّرُ في المسألة من منزلة الجهل إلى منزلة العلم تشبيهًا للمعقول بالمحسوس.

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

الفئة المؤمنة منصورة على الكافرة، بالله الأحد، ولا يُغني مِنه عُدَّة ولا عدد

هذه الآية الكريمة خطابٌ عامٌّ للَّذين كفروا، ويدخلُ في المخاطبين اليهودُ دخولًا أوَّليًّا؛ نظرًا لوجودهم في المدينة المنوَّرة، وتربُّصهم السُّوء بالنَّبيِّ ﷺ وأصحابه، وسبَبُ توجيه الخطاب لليهود أنَّهم كانوا يظنُّون أنفسهم في مَنَعَةٍ، وكانوا يعتدُّون بقُوَّتهم وأموالهم وأولادهم، فذكر اللّه تعالى لهم في هذه الآية أنَّه: قد كان لكم آيةٌ جليَّةٌ وعبرةٌ ظاهرةٌ وبرهانٌ ساطعٌ على الحقِّ الَّذي تحمله رسالةُ الإسلام، وعلى صدق نبوَّة محمَّد ﷺ وانظروا وتأمَّلوا بعين العقل في الحادثة الَّتي وقعت أمام أعيُنكم، حادثةِ بدرٍ: حيث التقى جيشُ المسلمين الفتيِّ الَّذي لا يتجاوز عدد أفراده ثلاثمئة وبضعة عشر مسلمًا، مع فريق الكفر المُدجَّج الَّذي كان عددهم تسعمئة وخمسين مقاتلًا، وكانوا ذوي عُدَّة وشوكة، ومع ذلك فإنَّ اللّه تبارك وتعالى نَصَرَ فئة المؤمنين الَّتي كانت تقاتل في سبيل اللّه، وأذلَّ وأخزى فئة الكفر الَّتي كانت تقاتل في سبيل الشَّيطان.

وممَّا أضعف اللّهُ ﷻ به فئةَ الكافرين أنَّه سبحانه كثَّر عدد المسلمين في أعينهم، حيث كان المشركون يَرَوْنَ المسلمين مِثْلَيْهم رَأيَ العين، أي: إنَّهم كانوا يَرَوْنهم يربون على ألف وتسعمئة مُقاتِل، فكان ذلك سببًا في الْفَتِّ في أفئدتهم وإلقاء الهلع في قلوبهم، فجَبُنُوا وفشلوا، وولَّوا الأدبار، وانقلبوا صاغرين مغلوبين.

(1) الزبيدي، تاج العروس: (عبر).

واعلموا أنَّ اللّٰه سبحانه يُقوِّي ويُؤيِّد بنصره من يشاء من عباده على وَفق حكمته ومشيئته، والعاقلُ الحصيفُ هو الَّذي بمثل هذه الأحداث يتَّعظ ويعتبر، ويرعوي وينزجر.

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

توكيد الجملة للاهتمام بمضمون الخبر:

حيثما التقى إيمانٌ صادقٌ وكُفرٌ بواحٌ؛ فالنَّصرُ للإيمان الصّراح

ابتداء الآية الكريمة بحرف التَّحقيق ﴿قَدْ﴾ يشير إلى قَسَم محذوف، وتقدير الكلام: وعزَّتي وجلالي قد كان لكم - أيُّها الكافرون المعادون لرسالة الإسلام - آيةٌ عظمى وحُجَّةٌ وُضْحى ودرسٌ بليغ في انتصار أهل الإيمان على قلَّتهم وضعفهم على أهل الكفر في غزوة بدر.

تقديمُ المُتَعَلَّق ﴿لَكُمْ﴾ في الآية:

يُحبُّ اللّٰه لعباده الإيمان، ولا يرضى لهم الكفران

في قوله تعالى: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ﴾، قُدِّمَ المُتَعلَّق ﴿لَكُمْ﴾ على اسم كان ﴿ءَايَةٌ﴾؛ إشارة إلى أنَّ هذه العلامة وهذا البرهان مسوقٌ خصِّيصًا للكافرين؛ ليعتبروا، وينزجروا، ويَرْعَوا عن كفرهم، ويعتنقوا عقيدة التَّوحيد الصَّحيحة السَّليمة، وفي الوقت نفسه: هذا التَّقديم مُسوِّغٌ لتذكير الفعل ﴿كَانَ﴾؛ لأنَّه فاصل بين ﴿كَانَ﴾ واسمها، وبعض النُّحاة يذهب إلى أنَّ تذكير الفعل مذهبٌ في التَّعبير معهود مع التَّأنيث المجازي.

دَلالةُ تنكيرِ لفظ ﴿ءَايَةٌ﴾:

ما يسوقه الله مثلا، يؤدّي مقصده بجدارة

دَلالتُها التَّعظيم، أي: تعظيمُ هذه الآيةِ الَّتي ساقَ بيانُ اللّٰهِ الآية كُلَّها لأجلها؛ فهي علامةٌ بيِّنةُ الوُضُوح

دلالة التَّعبير بالفئة في السّياق:

قال جلَّ شأنه: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا﴾: الفئةُ: هي الطَّائفة والمجموعة من النَّاس، سُمِّيَت فئة؛ لأنَّ عناصر هذه

المجموعة يفيءُ بعضهم إلى بعض، وينحاز بعضهم إلى بعض مُتناصرين متآزرين، وليس شيءٌ من هذه المعاني في الألفاظ الَّتي تقاربها في المعنى، مثل: الجماعة أو الفريق أو الطَّائفة أو الفوج، من هنا اختير لفظ (الفئة)؛ لبيان أنَّ كلَّ فئة من الفريقين كانت تضمُّ أفرادًا ينحاز، ويأوي بعضهم إلى بعض رغبة في النَّصر والظَّفر.

لفظ (الفئة) أنسبُ بمقام الحرب، وأليقُ بسياق القتال

والاستقراء القرآنيُّ يُؤيِّد هذا المذهب من الفهم حيث نجد أنَّ لفظ (الفئة) كثُرَ استعماله في القرآن الكريم في مشاهد القتال وأحداث الحروب.

قال تعالى: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ٢٤٩﴾ [البقرة: 249].

وقال جلَّ شأنه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ٤٥﴾ [الأنفال: 45].

وقال تبارك اسمه: ﴿وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ٤٣﴾ [الكهف: 43].

دلالة المضارع في الفعل ﴿تُقَٰتِلُ﴾:

أهل الإيمان عن نصرة الحقِّ لا يستنكفون، وهم في مواقفهم ثابتون

المضارع في قوله تعالى ﴿تُقَٰتِلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ إمَّا لحكاية الحال، أي: استحضار الحالة الغريبة العجيبة لهذه الفئة المؤمنة أو للدِّلالة على استمرار قتالها وتجدُّده في سبيل الله تعالى، وهذا دليلٌ على شرافتها وثباتها على الحقِّ، وفي ذلك ثناءٌ عظيم على الفئة وأفرادها.

بلاغة الاحتباك في وصف الفئتين:

يُميِّزُ المؤمنين القتالُ في سبيل الله، ويَسِمُ أهلَ الباطلِ كفرُهم بجلال الله

ذَكَرَ اللهُ تعالى مِن صفات الفئة المؤمنة: أنَّها تُقاتلُ في سبيل الله، وطوى ذِكْرَ صفة (مؤمنة) الَّذي دلَّ عليه ما يقابله، وهو قوله في المجموعة الثَّانية: ﴿وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ﴾.

وذكر في جهة الفئة الكافرة فقط صفة الكفر: ﴿وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ﴾،

ولم يذكر أنَّها تقاتل في سبيل الشِّيطان أو سبيل الطَّاغوت المصرَّح به في سورة النِّساء، وهو المعنى الَّذي يدلُّ عليه وصف الفئة المؤمنة بأنَّها ﴿تُقَٰتِلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، ويكون تقدير الكلام: قد كان لكم آيةٌ في فئتين التقتا: فئة أولى مؤمنة تقاتلُ في سبيل الله، وفئة أخرى كافرة تقاتل في سبيل الطَّاغوت، وهذا الحذف التَّقابلي يُطلِق عليه البلاغيُّون مصطلح الاحتباك، أي: أن يُحذَفَ من الطَّرف الأوَّل من الكلام ما يدلُّ عليه في الطَّرف الثَّاني، وأن يُحذف من الثَّاني ما يُذكَرُ في الطَّرف الأوَّل.

ولعلَّ من أسرار الاحتباك في هذه الآية الكريمة التَّنبيهَ إلى أنَّ أعلى مراتب الفئة المؤمنة أنَّها تقاتل في سبيل الله إشعارًا بأنَّ القتالَ في سبيل الله منحصرٌ في المؤمنين، فلا حاجة لذكرهم بل يُعدُّ ذِكرُهم إطنابًا، وأنَّ الفريق الثَّاني أذمُّ صفة وأشنعُ نعتٍ يُعرَفُ به أنَّه فريقٌ كافرٌ بالله تعالى، وكفى بهذا ذمًّا لهم وتشنيعًا لموقفهم[1].

نوع الرُّؤية ودلالتها في قوله تعالى: ﴿يَرَوْنَهُم﴾:

تكثيرُ عدد المسلمين في أعين المشركين جنديٌّ من جنود الله تعالى

لله جنود السَّموات والأرض، ومن جنوده في غزوة بدر أنَّه سبحانه كثَّرَ عدد المسلمين في أعين المشركين، فأصابهم الهلع، وتسلَّط عليهم الفزع، فانقلبوا مهزومين مغلوبين، ومعنى ﴿يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ﴾: أنَّ المشركين رأوا المسلمين مِثْلَيْ عدد المشركين، والرُّؤية في هذا السِّياق بصريَّة، والدَّليل على ذلك قوله تعالى: ﴿رَأْىَ ٱلْعَيْنِۚ﴾، أي: رأيَ المُعاينة والمُشاهدة، وليس ظنًّا وتخمينًا، كما ذهب إلى ذلك بعض أهل التَّفسير.

توفيق بين ﴿وَيُقَلِّلُكُمْ فِيٓ أَعْيُنِهِمْ﴾ [الأنفال: 44] وبين: ﴿يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ﴾:

تقليلُ عدد المقاتلين وتكثيرُهم، من جنود القويِّ المتعال

قد يقول قائل: ذَكَرَ سبحانه وتعالى في هذه الآية أنَّه كثَّرَ عدد المسلمين في أعين المشركين في قوله سبحانه: ﴿وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِۚ﴾، وذكر في سورة الأنفال أنَّه قلَّل عدد كلِّ فريق في أعين الفريق الثَّاني: ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِيٓ

(1) القونوي، حاشية القونوي على البيضاوي: 6/43.

﴿أَعۡيُنِكُمۡ قَلِيلٗا وَيُقَلِّلُكُمۡ فِيٓ أَعۡيُنِهِمۡ﴾ [الأنفال: 44]، فأيُّهُما وقع؟ وهل ثمَّة تناقضٌ بين الآيتين؟

الجواب: إنَّ الله تبارك وتعالى في سورة الأنفال قلَّلَ عددَ كلٍّ فريق في أعين الآخر؛ ليُقدِمَ الفريقان على المواجهة والقتال، وكان ذلك قُبَيل بَدْء المعركة، وجملة ﴿إِذِ ٱلۡتَقَيۡتُمۡ﴾ تشير إلى هذا المعنى، أمَّا رُؤية المشركين بأنَّ عدد المسلمين هو ضِعْفُ عدد المشركين؛ فقد كان أثناء المعركة وحين التحام الصَّفَّين، فكان ذلك سببًا لخَوَرِهم وانهزامهم النَّفسي وانقلابهم على أعقابهم مدحورين.

وفي ذلك قال أبو حيَّان الغرناطي: "ويحتملُ أن يكون الضَّميرُ المجرور عائدًا على الفئة الكافرة، أي: مثلي الفئة الكافرة، وهم أنفسُهم، فيكون الله تعالى قد أرى المشركين المؤمنين أضعافَ أنفس المؤمنين، أو أضعافَ الكافرين على قلَّة المؤمنين ليهابوهم ويجبُنوا عنهم.

وكانت تلك الرُّؤيةُ مَدَدًا من الله للمؤمنين، كما أمدَّهم تعالى بالملائكة، فإنْ كانت هذه وآيةُ الأنفال في قصَّة واحدة؛ فالجمعُ بين هذا التَّكثير وذاك التَّقليل باعتبار حالين: قُلِّلوا أوَّلًا في أعين الكفَّار حتى يجترِئُوا على مُلاقاة المؤمنين، وكُثِّروا حالة المُلاقاة حتَّى قُهِروا، وغُلِبوا، كقوله: ﴿وَقِفُوهُمۡۖ إِنَّهُم مَّسۡـُٔولُونَ ٢٤﴾ [الصَّافات: 24]، ﴿فَيَوۡمَئِذٖ لَّا يُسۡـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٞ وَلَا جَآنّٞ ٣٩﴾ [الرَّحمن: 39]"[1].

جِناسُ الاشْتقاقِ بين ﴿يَرَوۡنَهُم﴾ و﴿رَأۡيَ ٱلۡعَيۡنِ﴾:

يُقالُ: رأيتُ الشَّيءَ رَأيًا ورُؤيةً ورُؤيا، ثلاثةُ مصادر، إلَّا أنَّ الرُّؤيا أكثرُ ما تُستعمَلُ في المنام، و﴿رَأۡيَ ٱلۡعَيۡنِ﴾ مَصدَرٌ مُبيِّنٌ لنوعِ الرُّؤية؛ إذْ فِعْلُ (رَأَى) يَحْتَملُ البَصَرَ والقَلْب، وإضافتُه إلى العَيْنِ دليلٌ على

ما أراه الله لعباده، معجزة تبهر العقول

(1) أبو حيَّان، البحر المحيط: 5/217 - 218.

أنَّه يُستعمَلُ مَصْدرًا لرَأى القَلبيَّة؛ إذِ الرَّأيُ اسْمٌ للعَقْل، وتُشارِكُها فيها رَأى البَصَريَّة، بخلافِ الرُّؤيَةِ؛ فخاصَّةٌ بالبَصريَّة[1].

ولذلكَ فإنَّ مَوْردَها (أي: العَيْن) في سياقِ الآيةِ تابعٌ لقولِه: ﴿يَرَوْنَهُم﴾، أي: إنَّ ﴿رَأْىَ ٱلْعَيْنِ﴾ مصدرٌ مؤكِّدٌ لـ ﴿يَرَوْنَهُم﴾؛ إنْ كانتِ الرُّؤيةُ بَصَريَّة، أو مصدرٌ تشبيهيٌّ؛ إنْ كانتْ قلبيَّة[2]، أي: رؤيةٌ ظاهرةٌ مَكشوفةٌ جاريةٌ مجْرَى رُؤيةِ العَيْن[3].

والدَّليلُ على أنَّها رؤيةٌ بَصَريَّة أمْرانِ اثْنان:

الأوَّلُ: قولُه تعالى: ﴿رَأْىَ ٱلْعَيْنِ﴾.

والثَّاني: أنَّ رُؤيةَ القلبِ عِلْم، ومُحَالٌ أنْ يعلم الشَّيء شيئَيْن[4].

تقديمُ لفظِ الجلالةِ ﴿وَٱللَّهُ﴾ بتقديمِ الفاعلِ على الفِعْل في قولِه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ﴾:

تأييد الله لعباده، مدد ونصر وتمكين

جاءَ هذا التَّقديمُ الجليلُ للاسْمِ العظيم الجليلِ ﴿وَٱللَّهُ﴾ على الفعلِ ﴿يُؤَيِّدُ﴾؛ ليقصُرَ التَّأييدَ، ويَحصُرَ النَّصرَ باللهِ وحدَه دُون سواه، ولبيانِ أنَّ مكانةَ المُؤيَّدِ: وهم المسلمونَ بقيادةِ الرَّسول ﷺ، وعظمةَ المؤيَّدِ به: وهو فعلُ التَّأييدِ، ونتيجتُه: وهي النَّصر؛ من عظمةِ المؤيِّدِ: وهو اللهُ لا أحدَ سواه.

دَلالة المضارع في قوله ﴿يُؤَيِّدُ﴾:

تأييد الله مُتجدِّدٌ للمؤمنين، ولن يتخلَّى الله عن عباده الصَّادقين

صيغة المضارع في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ تشير إلى استمرار تأييد اللهِ تعالى وتجدُّد نصره لأهل الإيمان حين يستوفون شروط النَّصر الَّتي حدَّدها سبحانه وفق حكمته البالغة ومشيئته المطلقة وعلمه الأزليِّ.

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 3/178.
(2) أبو السُّعود، الإرشاد: 1/449.
(3) الزَّمخشري، الكشَّاف: 1/415.
(4) العكبري، الإملاء: 1/127.

تأكيد جملة التَّذييل: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبۡرَةٗ لِّأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾:

أولـو الأبـصـار والـنّـهـى، يـعـتـبرون بأحداث التَّاريخ ويتَّعظون بها

جاءت جملة ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبۡرَةٗ لِّأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾ مفصولة عمَّا سبق من حديث في ثوب حكمة ربَّانيَّة صحيحة المضمون، مستقلَّة بمعناها؛ ليَسْهُلَ ضربُ الأمثال بها، وتوظيفُها في المقام الخطابيِّ المناسب، وما أحوج المسلمين أن يعتبروا بآيات القرآن الكريم وأحداث التاريخ وقصص الأوَّلين!

ولهذا الغرض؛ جاءت مؤكَّدَةً بجملة من المؤكِّدات هي: ﴿إِنَّ﴾ واسميَّة الجملة واللَّام المزحلقة، وجاء فيها أيضًا تقديم الجارِّ والمجرور ﴿فِي ذَٰلِكَ﴾ على اسم إنَّ ﴿لَعِبۡرَةٗ﴾، وهذه كلُّها وسائل نحويَّة لتوكيد الكلام وتقريره.

اختيار ﴿ٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾ بدل (الألباب)، من بلاغة الخطاب:

الَّذين يبصرون الأحـــداث، يـكـونـون أكـثر اتِّعاظًا بها

لفظ ﴿ٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾ جمع: (بَصَر) بمعنى: آلة الإبصار، واختيار لفظ ﴿ٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾ دون الألفاظ المُقاربة له، مثل: الألباب أو العقول أو النُّهى، المرادُ منه: أنَّ أولي الأبصار الَّذين يرون هذه الأحداث بأعيُنهم هم الأكثر اتِّعاظًا والأكثر اعتبارًا بها، وليس الخبرُ كالمشاهدة.

وفي الوقت نفسه، يتناسبُ لفظ ﴿ٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾ مع فعل الرُّؤية في الآية نفسها ﴿يَرَوۡنَهُم﴾، ويُشيرُ من ناحية ثالثة إلى البصيرة الَّتي هي رؤية الأحداث والأشياء بنور القلب.

دَلالةُ اسْتعمالِ لفظ ﴿ءَايَةٞ﴾ في المَطْلَعِ ولفظ ﴿لَعِبۡرَةٗ﴾ في الخاتمة:

مـا بـين الآيـة والعبرة، تتعمّق الفكرة

الآيةُ مُقدِّمةٌ لحصولِ النَّتيجة، أو سَبَبٌ وعِلَّةٌ لحدوثِ المُسبَّب، والعِبْرةُ بالمآلاتِ والنَّتائج، وهي الفائدةُ المَرْجُوَّة والمُعوَّلُ عليها، وإلَّا فإنَّ قطعَ الأسبابِ عن مُسبَّباتِها والمقدِّماتِ عن نتائجِها يَتورَّعُ منه العقلاءُ من البَشر، فكيف بكلامِ ربِّ البشَرِ الَّذي لا يأتيهِ الباطلُ من بينِ يَدَيْه ولا مِنْ خَلْفِه؟

ولذلكَ أيضًا جاءتْ كلمةُ ﴿لَعِبْرَةً﴾ نكرةً للتَّعظيم، أي: عبرةٌ عظيمةٌ ومَوْعظةٌ جَسيمَة. وما بين الآيةِ العظيمةِ والعِبْرةِ العظيمةِ جاءَ العَرْضُ القرآنيُّ البيانيُّ الأخَّاذُ لذلكَ الحَدَثِ العظيم، والفَيْصَلِ الثَّمين، بإيجازٍ في العبارةِ ودِقَّةٍ في المَهارة، تَعجزُ عنه بلاغةُ البُلغاءِ وفَصاحةُ الفُصَحاء، وكيف لا، وهو كلامُ اللّه الَّذي لا يَعلُوه كلام، ولا يَدْنو منه أيُّ مقام؟

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الفئة، والفريق، والطائفة، والفوج، والزمرة:

حفلت اللُّغة العربيَّة بجملة من الألفاظ الدَّالَّة على المجموعات البشريَّة، مثل: الزُّمرة والفوج والطَّائفة والفريق والفئة، ومن المقرَّر في فقه اللُّغة العربيَّة أنَّه لا ترادفَ حقيقيًّا بين الكلمات، وإنَّما يوجد بينها تقاربٌ في المعاني والدَّلالات.

من هنا ذكر المُعجميُّون أنَّ الطَّائفة من النَّاس: جماعةٌ منهم، والطَّائفة من الشَّيء القطعةُ منه[1].

والزُّمرة: الجماعة النَّادرة المتخصِّصة في عمل دقيق ونادر، قال الخليل بن أحمد: "والزُّمرةُ فوجٌ من النَّاس، ويقال: جماعةٌ في تفرقة، بعض على أثر بعض"[2]، والحزب: جماعةٌ فيها غلظةٌ وشدَّةٌ تؤمن بهدف محدَّد تسعى إلى تحقيقه.

والفريق والفِرقةُ: يطلقُ هذا الاسم على الجماعة المتفرِّدة من النَّاس[3]، والفوج: جماعة تُشكَّلُ بسرعة للقيام بعمل مستعجل، والفئة: الجماعةُ المتظاهرةُ الَّتي يرجعُ بعضُهم إلى بعضٍ في التَّعاضد".[4]

ممَّا سبق، يتجلَّى أنَّ لفظ ﴿فِئَةٌ﴾ هو أولى الألفاظ وأليقُها بسياق الحرب وملابسات لقاء المتحاربين حيث يفيءُ كلُّ جنديٍّ إلى الفئة الَّتي تحميه، ويجد نُصرتها ومؤازرتها.

المِثْل والضِّعْف:

المِثْلُ: هو عبارةٌ عنِ المُشابهَةِ لغيرِه في معنًى من المعاني، أيِّ معنًى كان، وهو أعمُّ الألفاظِ الموضوعةِ للمُشابَهة، وذلكَ أنَّ النِّدَّ: يُقالُ فيما يُشارِكُ في الجَوْهَر فقط، والشِّبْهُ:

(1) الراغب، المفردات: (طوف).
(2) الخليل، العين: (زمر).
(3) الراغب، المفردات: (فرق).
(4) الراغب، المفردات: (فيأ).

يُقالُ فيما يُشارِكُ في الكيفيَّةِ فقط، والمُساوي: يُقالُ فيما يُشارِكُ في الكمِّيَّةِ فقط، والشَّكْلُ فيما يُشارِكُه في القَدْرِ والمساحةِ فقط، والمِثْلُ: عامٌّ في جميعِ ذلك[1].

والضِّعفُ: من الألفاظِ المُتضايِفَة الَّذي يَقْتضي وجودُ أحدِهما وجودَ الآخر، كالنِّصفِ والزَّوْج، وهو تركُّب قَدْرَيْن مُتساويَيْن، ويختصُّ بالعَدَد، فإذا قيلَ: أَضْعَفْتُ الشَّيءَ وضعَّفتُه، وضاعفتُه: ضَممتُ إليه مِثْلَه فصاعدًا.

والضِّعفُ: اسمٌ كالثِّنْي، فَضِعفُ الشَّيء هو الَّذي يُثَنِّيه، ومتى أُضيفَ إلى عَددٍ؛ اقْتضَى ذلكَ العددَ ومثْلَه، يُقالُ: ضِعْفُ العَشَرَة، وضِعفُ المئة، فذلكَ عشرونَ ومئتانِ بلا خِلاف.

وإذا قيلَ: أَعْطِه ضِعْفي واحد؛ فإنَّ ذلك اقْتضَى الواحدَ ومِثْلَيْه، وذلكَ ثلاثة؛ لأنَّ معناه الواحدُ واللَّذان يُزاوجانِه، وذلكَ ثلاثة، هذا إذا كان الضِّعفُ مُضافًا، فأمَّا إنْ لم يكنْ مُضافًا، كأنْ يُقال: الضِّعفَان؛ فإنَّ ذلك يجري مجرَى الزَّوْجَيْن في أنَّ كلَّ واحدٍ منهما يُزاوجُ الآخَر، فَيَقْتضِي ذلكَ اثْنَيْن؛ لأنَّ كلَّ واحدٍ منهما يُضاعِفُ الآخر، فلا يَخْرُجانِ عنِ الاثنَيْن بخلافِ ما إذا أُضيفَ الضِّعفانِ إلى واحدٍ فَيُثَلِّثُهما، نحو: ضِعْفي الواحد[2].

الأيد والقُوَّة:

الأيد: القوَّة الشَّديدة، وأيَّد فلان فلانًا: قوَّاه وبالغ في مؤازرته ومساندته، والقوَّة: لفظ عامٌّ يُستعملُ لمعانٍ متقاربة، قال الرَّاغب: "القوَّة تستعملُ تارة في معنى القُدرة، وتارة للتَّهيُّؤ الموجود في الشَّيء...ويستعمل في البدن تارة، وفي القلب أخرى، وفي المُعاوِن من خارج تارة، وفي القدرة الإلهيَّة تارة"[3].

من المعنى الكلِّيِّ للمادَّتين اللُّغويَّتين يتبيَّن: أنَّ لفظ (القوّة) عامٌّ يُستعمَل في مواضع مختلفة، والسِّياق هو الَّذي يُحدِّد معناه الدَّقيق، أمَّا لفظ (الأيْد)؛ فَيُرادُ به القوَّة الشَّديدة، وقد قال تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ﴾ [الذَّاريات: 47]، وأثنى سبحانه على عبده داود بأنَّه كان ذا أيد شديد: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْيْدِ﴾ [ص: 17]، وذكر أهل التَّفسير أنَّ اللّٰه تعالى وهَبَهُ قدرةً عجيبة على الصَّوم واستطاعة بدنيَّة غير معهودة حتَّى إنَّه ألان له الحديد.

(1) الرَّاغب، المفردات: (مثل)
(2) الرَّاغب، المفردات: (ضعف)
(3) الراغب، المفردات: (قوي).

وقد جاء لفظ ﴿يُؤَيِّدُ﴾ في الآية الكريمة في مكانه المناسب اللَّائق به مُفيدًا أنَّ اللّٰه تبارك وتعالى يُؤيِّدُ، ويُقوِّي فئة أهل الإيمان المخلصة الصَّادقة، ويبعث فيها همَّة عالية مُتوثِّبة ونشاطًا منقطع النَّظير وتَحَفُّزًا للتَّغلُّب على أهل الكفر، بينما لفظ (النَّصر) فإنَّه يفيد معنى الانتصار والظَّفر بشكلٍ عامٍّ، واللّٰه قادرٌ سبحانه أن ينصر عباده كيف يشاء ومتى يشاء وبما يشاء، ولكنَّ المراد في هذا السِّياق حِرْصُ البيان القرآنيِّ على تصوير تقوية جانب المؤمنين، أي: إنَّ النَّصر جاءهم بعدما قوَّاهم اللّٰه تعالى، وأيَّدهم، وجعلهم الطَّائفة المنصورة القويَّة المُهابة الجانب.

البصائر والأَبْصار:

البَصائرُ: جَمْعُ بصيرة، وهي تَكامُلُ العلمِ والمعرفةِ بالشَّيء[1].والبصيرةُ: البُرْهانُ، فهي تَدُلُّ على وُضوحِ الشَّيء[2].

الأَبْصارُ: جَمْعُ بَصَر، وهو اسْمٌ للرُّؤيةِ بالعَيْن الَّتي هي آلةُ البَصَر، وهي الحَدَقَة، ولهذا يُقالُ: إحْدَى عَيْنَيْهِ عَمْياء، ولا يُقالُ: أحدُ بَصَرَيْه أَعْمَى، وربَّما يَجْري البَصَرُ على العَيْن الصَّحيحة مَجازًا، ولا يَجْري على العَيْن العَمْياء، فيُدَلِّل هذا على أنَّه اسْمٌ للرُّؤيةِ على ما تقدَّم، ويُسمَّى العِلْمُ بالشَّيءِ إذا كانَ جَليًّا بَصَرًا، يُقالُ: لكَ فيه بَصَر، يُرادُ أنَّكَ تعلمُه كما يَراهُ غيرُك[3].

ويُقالُ: فلانٌ بَصير، ويُرادُ به مَعْنيان:

الأوَّلُ: وهو المُختَصُّ بأنَّه يُدرِكُ المُبصَرَ؛ إذا وُجِد، وأَصْلُه البَصَرُ: وهو صِحَّةُ الرُّؤية، ويُؤخَذُ منه صِفةُ مُبْصِرٍ بمعنى: رَأْي.

والثَّاني: البصيرُ بمعنَى: العالِم، يُقال منه: هو بَصيرٌ، وله به بَصَرٌ وبَصيرَة، أي: عِلْم[4]، ويُقالُ: بَصُرْتُ بالشَّيءِ؛ إذا صِرْت به بصيرًا عالِمًا، وأَبْصَرْتُه: إذا رأيته[5].

---

(1) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 102.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: 1/254.
(3) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 381.
(4) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 102.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: 1/254.

﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾﴾ [آل عمران: 14]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

في مناسبَةِ هذه الآية لِمَا قبلَهَا وجهانِ:

أحدُهما: أنَّ الله سبحانه لَمَّا ذكَر عاقبَةَ الْغُرُورِ بِالْمَالِ والوَلَدِ في قولِه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ ﴿١٠﴾﴾؛ ذَكَرَ هُنَا وَجْهَ هذا الغُرُورِ وسَبَبَهُ؛ تحذيرًا لِلنَّاسِ مِن أن تَسْتَعْبِدَ الشَّهوَاتُ أَنْفُسَهُمْ، وأن يَنْشَغِلُوا بِهَا عَنْ أمورِ الْآخِرَةِ[1].

والآخَرُ: لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى أنَّ النَّصرَ مِنْهُ سبحانه، يُؤَيِّدُ به مَن يشاءُ مِن عبادِهِ، وأنَّ في ذلك عبرةً وعِظَةً لِأَصْحَابِ الْبَصَائِرِ، فقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ﴾؛ ذَكَرَ في هذه الآية ما هُوَ بمنزلةِ البيانِ والشَّرْحِ لتلكَ العبرةِ والعِظَةِ، وهي أنَّهُ زُيِّنَ للنَّاسِ حُبُّ الشَّهوات الجسمانيَّة، واللَّذَّاتِ الدُّنيويَّة، ثُمَّ إنَّها زَائلةٌ فانيةٌ، تذهبُ لذَّاتُهَا وتبقَى تَبِعَاتُهَا، فينبغِي لأصحاب البصائرِ أن يُؤْثِرُوا الباقيَ على الفَاني[2].

شهوات الدّنيا متع أحلى من الرّضاب، والله عنده حسن المآب

شَرْحُ الْمُفْرَدَاتِ:

1) ﴿زُيِّنَ﴾: الزَّاي واليَاء والنُّون: تدور اشتقاقَاتُهَا على حُسْنِ الشَّيءِ وتحسينِهِ، ومِنْهُ: الزَّيْنُ ضدُّ الشَّيْنِ[3]، والتَّزيينُ: التَّحسينُ، ومنهُ

(1) الزُّحيلّي، التّفسير المنير: 3/164.
(2) الرَّازِيّ، مفاتيح الغيب: 7/159 - 160.
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (زين).

قولُ اللّه تعالى: ﴿زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ [النَّمل: 4]، أي: حسَّنَّاها بإنظَارِهِم وتركِ معاجَلَتِهم بالعقوبةِ عليهَا[1]، ومنه أيضًا قولُ اللّهِ تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ﴾، أي: حُسِّنَ لهم ذلكَ.

والزِّينَةُ بمعناهَا العامِّ ثلاثَةُ أصنافٍ[2]:

أحدها: نفسيٌّ، كالعلم والاعتِقَادِ الصَّحيح.

وثانيها: بدَنيٌّ، كالقُوَّةِ وطُولِ الْقَامَةِ والجمالِ.

وثالثُها: خَارِجيٌّ، كالْمَالِ والْجَاهِ.

ويُستعمَلُ التَّزْيِينُ استعمالًا خاصًّا على التَّحْسِين المُدْرَكِ بالحِسِّ دُونَ الْمُدْرَكِ بالعَقْلِ[3].

2) ﴿ٱلشَّهَوَٰتِ﴾: الشِّينُ والهاءُ والحرفُ المعتلُّ: تدورُ تصريفَاتُهَا على معنَى: الرَّغبةِ الحادَّةِ في مرغوبٍ بدنيٍّ بِسَبَبِ إحساسٍ بالخُلُوِّ مِنْهُ[4]، ثُمَّ عُمِّمَ ذلكَ في المرغوبِ البَدَنيِّ وغيرِهِ، ومنه استُعْمِلَتِ الشَّهْوَةُ في كلِّ ما تدعُو النَّفسُ إليهِ[5].

والشَّهوة - وجمعها: شهوات - استُعملت في القرآنِ الكريم في غير ما يُمْدَحُ، بخلاف الفِعْلِ مِنْهَا (اشْتَهَى)؛ فقد استُعمِلَ في غير ما يُذَمُّ، فمِنَ الأوَّل: قولُ اللّه تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ﴾، ومِنَ الثَّاني: قولُهُ سبحانه: ﴿وَهُمْ فِي مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ ١٠٢﴾[6] [الأنبياء: 102].

3) ﴿وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ﴾: القناطيرُ: جمعُ قنطارٍ، وقد جعلَهُ جماعةٌ مِنَ الرُّباعِيِّ، كالخَليل[7]، وأصلُ هذه المادَّةِ دالٌّ على تَخَطٍّ بِتَوَالٍ، أي: مرَّةً بعد مرَّةٍ، ومِنْهُ: القنطرةُ، وهي ما يُعْبَرُ به النَّهْرُ ونحوُهُ[8]، والقنطارُ مِنَ المالِ، والقَنْطَرَةُ مِنْهُ: المالُ الكثيرُ، سُمِّيَ بذلك؛ لأنَّ به عبورَ الحياةِ تشبيهًا له بالقَنْطَرَةِ[9].

(1) الجيمريّ، شمس العلوم: (زين).
(2) الرَّاغب، المفردات: (زين).
(3) الرَّاغب، تفسير الرَّاغب: 1/436.
(4) جبل، المعجم الاشتقاقيُّ المؤصَّل: (شهو، شهي).
(5) أبو حيَّان، البحر المحيط: 3/42.
(6) حسن عزّ الدّين الجمل، مخطوطة الجمل: 2/407.
(7) الخليل، العين: (قنطر).
(8) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصَّل: (قنطر).
(9) الرَّاغب، المفردات: (قطر).

4) ﴿ٱلۡمُسَوَّمَةِ﴾: الْوَاوُ وَالسِّينُ والْمِيمُ: تدورُ اشتقاقَاتُهَا على أثرٍ ومَعْلَم، ومنه: وَسَمْتُ الشَّيءَ، أي: أَثَّرْتُ فيه بِسِمَةٍ، ومنه سُمِّيَ موسِمُ الحجِّ بذلكَ؛ لكونِهَ مَعْلَمًا يجتَمِعُ إليه النَّاسُ، والوسامَةُ: الجَمَالُ[1]، وهو ضَرْبٌ مِنَ الْعَلَامَات.

ومِنْهُ قولُ اللهِ تَعَالَى: ﴿وَٱلۡخَيۡلِ ٱلۡمُسَوَّمَةِ﴾، أي: الْمُعْلَمَة، وفيه قلبٌ مكانيٌّ، والأصل: الْمُوَسَّمَة[2]، والمرادُ: "الْمُعْلَمة بالشِّيات الحسانِ الرَّائِعَةِ حُسْنًا مَن رآها؛ لأنَّ (التَّسْوِيم) في كلام العربِ: هو الْإِعْلَامُ، فالخيل الْحِسَانُ: مُعلَمةٌ بإعلامِ اللهِ إيَّاها بالحُسْنِ مِن أَلْوَانِها وشِيَاتِهَا وهَيْئَاتِهَا"[3].

5) ﴿مَتَٰعُ﴾: الميمُ والتَّاء والعَيْنُ: تدلُّ تصريفَاتُهَا على مَنْفَعةٍ وامتدادِ مُدَّةٍ في خيرٍ وقوَّةٍ وكمالِ حالٍ[4]، ومِنْهُ قولُ اللهِ تعالى: ﴿يُمَتِّعۡكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى﴾ [هود: 3] أي: يَبْسُط عَلَيْكُمْ مِنَ الدُّنيا، ويَرْزُقُكم مِنْ زينتِها، ويَنْسَأُ لَكُمْ في آجالكم إِلَى وقتِ وفاتِكُمْ ولَا يَسْتَأْصِلكم بعذابٍ[5].

ومِنْهُ: الْمَتَاع، وهو في الأَصْل: كلُّ شَيْءٍ يُنتفَع بِهِ، ويُتبلَّغ بِهِ، ويتزوَّدُ[6]، وهو المرادُ في قولِهِ سُبحانه: ﴿ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ﴾.

6) ﴿ٱلۡمَـَٔابِ﴾: الهمزةُ والواوُ والباءُ تدور اشتقاقَاتُهَا على معنى الرُّجوعِ[7]، تقول العربُ: آبَ الرَّجُلُ؛ إذا رجعَ[8]، ومنه الأوَّاب: وهو الرَّجَّاعُ الَّذي يرجع إلى التَّوبةِ وطاعةِ اللهِ تعالى[9].

والمآبُ: المَرْجِعُ[10]، ومِنْهُ قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلۡمَـَٔابِ﴾، وحُسْنُ المرجِعِ: الجنَّةُ[11].

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (وسم).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصَّل: (وسم).
(3) ابن جرير، جامع البيان: 6/254.
(4) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (متع). وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصَّل: (متع).
(5) ابن جرير، جامع البيان: 15/229. وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (متع).
(6) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة: (متع).
(7) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (أوب).
(8) الخليل، العين: (أوب).
(9) ابن الأنباريّ، الزَّاهر: 1/115.
(10) ابن قُتيبة، غريب القرآن، ص: 102.
(11) القِنَّوجيّ، فتح البيان: 2/200.

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

حُبِّبَ للنَّاس محبَّة ما يَشْتَهُون مِنَ النِّساء والبَنِين، والأموالِ الكثيرَةِ مِنَ الذَّهب والفِضَّة، والخَيْلِ الحِسَان، والأنعام مِنَ الضَّأنِ والمعزِ والبقر والإبل، والأرضِ المتَّخَذة لِلْغِرَاسِ والزِّراعة، ذلكَ زهرةُ الحياة الدُّنْيَا وزينَتُها الزَّائلةُ الفانيةُ، واللهُ سُبحانه عندَهُ حُسْنُ المَرْجِعِ والثَّواب، وَهُوَ الجنَّةُ[1].

حـبّ شـهـوات الـدّنـيـا زخـرف وتـزيـين، وجنّة الآخـــرة خـيرٌ للمتّقين

الإِيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

سَبَبُ فَصْلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ﴾ عَمَّا قَبْلَهُ:

فُصِلَ قولُهُ تعَالَى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ﴾ عمَّا قَبْلَهُ؛ لكونِه اسْتِئْنَافًا بيَانيًّا، وذلك أنَّ قولَه سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔاۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ﴾؛ قُصِدَ منه عِظَةُ المسلمينَ ألَّا يغترُّوا بأموالِهم وأولادِهم كحالِ الكافرينَ، فأورَثَ ذلك سؤالًا: ما سببُ هذَا الاغْتِرَارِ وما وَجْهُهُ؟ فجاء الجوابُ: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ﴾، مُبيِّنًا أنَّ سببَ الاغترار التَّحسينُ العارِضُ لِلْمَذكورَاتِ، فالكلامُ سيقَ بيانًا لحقارةِ شَأْنِ الحُظُوظِ الدُّنْيَوِيَّةِ بأنواعِهَا، وتوجيهُ رَغَبَاتِهم إلى ما عندَ اللهِ تعالى بعدَ بَيَانِ عدَمِ انتفاعِ الكافرينَ بها[2].

ربـطُ الْمَنْـهِـيَّـاتِ بِـأَسْـبَـابِـهَـا، مَـدْعَـاةٌ لنبذها واجْتِنَابِها

نُكْتَةُ بِنَاءِ الْفِعْلِ ﴿زُيِّنَ﴾ لِلْمَفْعُولِ:

بُنِيَ الْفِعْلُ ﴿زُيِّنَ﴾ لِمَا لَم يُسَمَّ فَاعِلُهُ، وقد اختُلِفَ في تعيينِ الفاعلِ على قولَيْنِ[3]:

أحدهما: أنَّ المُزيِّنَ هو اللهُ تعالَى، فيكونُ التَّزيينُ في قولِه: ﴿زُيِّنَ﴾ تزيينَ خَلْقٍ وإيجادٍ، وتهيئةٍ للانتفاعِ بهَا، وخَلْقِ الجِبِلَّةِ في النُّفوسِ على المَيْلِ إلى هذه الأشياءِ.

تَزْيِينُ الشَّهَوَاتِ نَـوْعَـانِ تَـزْيِـينُ خَـلْقٍ وَإِيـجَـادٍ، وَتَزْيِينُ وَسْوَسَةٍ وَفساد

(1) ابن جرير، جامع البيان: 6/243، 254. وطنطاوي، التَّفسير الوسيط: 2/50. ونخبة من العلماء، التَّفسير الميسّر، ص: 51.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 2/14. وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 3/178. والزُّحيليُّ، التَّفسير المنير: 3/164.
(3) القرطبيُّ، الجامع لأحكام القرآن: 4/28.

والآخَرُ: أنَّ المزُيِّنَ هو الشَّيطانُ، فيكون التَّزيينُ تزيينَ وَسْوَسةٍ وخديعةٍ، وتزيينَ تحصيلِهَا من غيرِ وجوهِهَا المشروعَةِ.

ولا مانِعَ مِن إرادَةِ المَعْنَيَيْنِ معًا، حملًا لِلْمُشْتَرَكِ على معْنَيَيْه - كَمَا هُوَ قولُ الجمهور[1] - فيكون التَّزيينُ في الآية تَزيينَ خَلْقٍ وإيجادٍ بالنِّسبة لله تعالى، وتزيينَ وسوسةٍ وخديعةٍ بالنِّسبةِ للشَّيطانِ، وعلى القول بعدَم جوازِ حمل المشتَرَكِ على معْنَيَيْه؛ يُجْعَلُ التَّزيينُ لِلْقَدْرِ الْمُشْتَرَكِ بينَهُمَا، وهو مُطلقُ الحَمْلِ على محبَّةِ الشَّهواتِ خلقًا وإيجادًا، أو خديعةً ووَسْوَسَةً[2]، ومآلُهُمَا واحدٌ.

ولِحَذْفِ الفاعلِ في بناءِ ﴿زُيِّنَ﴾ لِلْمَفْعُولِ ثلاثُ نِكَاتٍ:

إحداهَا: خفاءُ إدراكِهِ عن عموم المخاطَبين؛ لأنَّه لَمَّا جُهِلَ فاعلُ الدَّالِّ على الغرائزِ والطَّبائعِ عرفًا؛ كان الوَجْهُ إسنادَ أفعالِهِ لِلْمجهولِ، كما في قولهم: عُنِي بكذا، واضْطُرَّ إلى كذا، ولا سيَّما إذا جعلنا لَفْظَ التَّزْيين كنايةً عن لازِمِه: وهو الإغضاءُ عمَّا في المُزَيَّنِ مِنَ المساوئِ[3].

ثانيهَا: تعظيمُ الفاعلِ إذا كان المرادُ بالمُزيِّنِ هو الله تعالى، وتحقير الفاعلِ إذا كان المرادُ بالمُزيِّنِ الشَّيطانَ الرَّجيمَ[4].

ثالثُها: الإيماءُ إلى أنَّ محبَّة النَّاسِ لهذه المذكورَاتِ واشْتِهاءَهَا أمرٌ مَرْكُوزٌ في الطَّبيعةِ الإنسانيَّةِ مُنْذُ خلق اللهُ تعالى الإنسانَ في هذه الدُّنيا[5].

دِلَالَةُ اللَّامِ فِي لفظ ﴿لِلنَّاسِ﴾:

اللَّامُ في ﴿لِلنَّاسِ﴾ مِن قَول الله تعَالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ﴾ لِلْجِنْسِ المفيدِ استغراقَ أفرادِهِ المندرِجَةِ تحْتَهُ، فهو شاملٌ للأولياءِ والصَّالحينِ وغيرِهِم، إلَّا أنَّ غيرَ الصَّالحين يَسْتَرْسِلُونَ مع هذا التَّزيينِ فيتَّبعُونَه، أمَّا أهلُ الإيمان والصَّلاح فلا يتَّبعُونَ ذلك،

لَيْسَ الْمَذْمُومُ حُبَّ الشَّهَوَاتِ، إِنَّمَا اتِّبَاعُهَا عَلَى غَيْرِ الْوُجُوهِ المعلومات

(1) الشَّوكَانِيّ، إرشاد الفُحول، ص: 59 - 60.
(2) البسيلّي، التَّقييد الكبير، ص: 465.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنْوير: 3/180.
(4) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 4/269. وأبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 2/14.
(5) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 3/1132. وطنطاوي، التَّفسير الوسيط: 2/50.

ولا يَرِدُ على هذه الدِّلالَةِ أنَّ النِّساءَ من جملة النَّاسِ، ولم يُزَيَّنْ لَهُنَّ حبُّ الشَّهواتِ من النِّساءِ؛ لأنَّ اللَّفْظَ العامَّ قَدْ يَرِدُ مقرونًا بما يدلُّ على تخصيصِهِ[1].

تَكْرِيمُ اللهِ تَعَالَى لِأَهْلِ الْإِيمَانِ، بما يستحقّون من تبجيل وتفضيل

نُكْتَةُ تَعْلِيقِ التَّزْيِينِ بِالنَّاسِ:

عُلِّقَ التَّزيينُ بالنَّاسِ في قولِ اللهِ سبحانه: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ﴾ دونَ تعليقِهِ بالَّذينَ آمنوا؛ لأنَّ قولَه سُبحانه بعدُ: ﴿ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ يُومِئُ إلى أنَّ ما ذُكِرَ قَبْلُ ليس له عاقبةٌ حميدَةٌ، فنُزِّهَ أهلُ الإيمانِ عَنْ أَنْ يُخصُّوا بما قد يُتَوَهَّمُ مِنْهُ مَنْقَصَةٌ لهم.

تَزْيِينُ الْمُشْتَهَيَاتِ سَبَبٌ فِي حُبِّهَا وَافْتِتَانِ النَّاسِ بِهَا

بَلَاغَةُ الْإِيجَازِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ﴾:

في تعليقِ التَّزيينِ بالحُبِّ في قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ﴾ إجراءٌ للكلامِ على خلافِ ما يقتضيه الظَّاهِرُ؛ لأنَّ المُزَيَّنَ للنَّاس هو الشَّهواتُ نفسُهَا لا حُبُّها، فإنَّها إذا زُيِّنَتْ لهمُ المشتهَياتُ؛ أحبُّوهَا، وذلك أنَّ حُبَّ شيْءٍ مَا ينشَأُ عَنِ استحسَانِه، فقولُه تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ﴾، فيه إيجازُ قَصْرٍ؛ إذ الجملةُ أَغْنَتْ عَن أن يُقال: زُيِّنَ للنَّاسِ الشَّهَواتُ، فأحبُّوها.

ويحتَمِلُ أن يكون ﴿حُبُّ﴾ مِن قَوْلِه سُبْحَانَه: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ﴾ مصدرًا باقيًا على دِلالَتِهِ المصدريَّةِ أو مصْدَرًا مرادًا به اسمُ المفعولِ، فعلى الأوَّلِ يكون نائبًا عن مفعولٍ مطلقٍ يُرادُ به تبيينُ نوعِ التَّزيين، وأصلُ الكلام: زُيِّن للنَّاسِ الشَّهواتُ حُبًّا، فحُوِّلَ المصدرُ، وأضيفَ إلى نائبِ الفاعل، فصارَ هو النَّائبَ عَنِ الفاعل، كما جُعِلَ المصدرُ مفعولًا في قولِه تعالى: ﴿فَقَالَ إِنِّيٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي﴾ [ص: 32].

وعلى الوجهِ الآخَرِ: وهو أن يكونَ مصدرًا مرادًا به اسمُ المَفْعُولِ،

(1) البسيلّي، التَّقييد الكبير، ص: 466.

يكُون معنى قَوْلِه تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ﴾، أي: زُيِّنَ للنَّاسِ محبوبُ الشَّهواتِ، أي: الشَّهواتُ المحبوبَةُ[1].

بَرَاعَةُ الْكِنَايَةِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ﴾:

فِعْلُ التَّزيينِ في قَوْلِه تعَالَى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ﴾ يجوزُ أن يكون كنايةً عن لازِمِ معناهُ، وهو إقبالُ النَّفْسِ على ما في الشَّيْءِ المُزيَّنِ مِمَّا يُستحْسَنُ مع سَتْرِ ما فيه مِن الضَّرر، "فَعُبِّر عَن ذلك بالتَّزْيِين، أَيْ: تَحْسِين مَا لَيْسَ بخالِصِ الْحُسْنِ، فَإِنَّ مُشْتَهَيَاتِ النَّاس تَشْتَمِلُ علَى أمورٍ مُلَائمَةٍ مَقْبُولَة، وقد تَكُون في كَثِير مِنْهَا مضَارٌّ، أشدُّهَا أنَّها تَشْغَلُ عَنْ كمَالَاتٍ كثيرَةٍ؛ فَلِذَلِكَ كانت كالشَّيء المُزيَّنِ تُغَطَّى نقَائِصُه بالمُزَيِّنَاتِ"[2].

خَفَاءُ المَضَارِّ وَظُهُورُ المَحَاسِنِ مِنْ أَسْبَابِ انْسِيَاقِ النَّاسِ وَرَاءَ الأَشْيَاء

سِرُّ الْمَجَازِ الْمُرْسَلِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ﴾:

﴿ٱلشَّهَوَٰتِ﴾ مِن قَول اللّه تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ﴾، يجوز أن تكونَ من باب المَصْدَر المرادِ به اسمُ المفعُول، على طريقةِ المَجَازِ المرسَلِ، وعلاقَتُهُ: التَّعلُّقُ الاشتقاقيُّ؛ لأنَّ المذكوراتِ في قوله: ﴿مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ﴾ مشتهيَاتٌ لا شهواتٌ، إلَّا أنَّه أُطلِقَ عليها اسمُ الشَّهواتِ على جهةِ المبالغَةِ في شدَّة اشْتِهَائهَا ومحبَّتِهَا والحرصِ على الاستمتاعِ بها[3]، حتَّى كأنَّها نفسُ الشَّهواتِ[4]، والمقصودُ: أنَّهم يحبُّونَ هذه المشتَهيَاتِ، ويرَونَ أنَّ محبَّتَهَا أمرٌ حسنٌ لا غضاضةَ فيه ولا منقصةَ[5].

سرُّ ذَمِّ المُبَالَغَةِ فِي اتِّبَاعِ المُشْتَهَيَاتِ، وَالْحِرْصِ عَلَى الِاسْتِمْتَاعِ بِهَا

وفي التَّعبير عَنِ المشتهيَاتِ بالشَّهواتِ إيماءٌ إلى تَخْسِيسِهَا؛ لأنَّ الشَّهْوَةَ لا يُمْدَحُ مُتَّبِعُهَا، ولذا استُعملتِ الشَّهْوَةُ في القرآنِ الكريم في

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتّنوير: 3/179 - 180.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتّنوير: 3/180.
(3) الزَّمخشريّ، الكشَّاف: 1/342.
(4) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 2/14.
(5) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 3/1132.

غير ما يُمْدَحُ، بخلاف الفعل مِنْهَا، وهو (اشْتَهَى)، فإنَّهُ يُستعمَلُ في غير ما يُذَمُّ[1].

دِلَالَةُ حَرْفِ الْجَرِّ ﴿مِنَ﴾ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ﴾:

أَثَـــرُ مَـعَـانِي الْحُرُوفِ فِي فَهْمِ مقاصد الْكَلَامِ

حَرْفُ الجرِّ ﴿مِنَ﴾ في قَوْلِهِ تعَالَى: ﴿مِنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ بَيَانيَّةٌ، كالواردَة في قولِهِ تَعَالى: ﴿فَٱجْتَنِبُواْ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ﴾ [الحجّ: 30]، فكما أنَّ المرادَ: فاجتنبوا الأوثانَ الَّتي هي رجسٌ، كذلكَ قولُه: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ﴾، أي: زُيِّنَ للنَّاسِ حُبُّ الشَّهوات - بمعنى: الْمُشْتَهَيَات - الَّتي هي: النِّساءُ والبَنُونَ... إلى آخرِ المذكوراتِ[2].

نُكْتَةُ تَرْتِيبِ الْمُشْتَهَيَاتِ فِي الآية:

دلالـــة وضـع الْمُـشْـتَـهَـيَـات دَرَجَـــات، فِي شِـدَّةِ الِافْـتِـتَـانِ بِهَا

رُتِّبت الْمُشْتَهَيَاتُ في قولِ اللّه تعالى: ﴿حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ﴾ ترتيبًا بديعًا، فقدْ قُدِّم ذكرُ النِّساءِ على البَنينَ؛ لعراقَتِهِنَّ في معنى الشَّهْوَة، ولكَوْنِ الِالْتِذَاذِ بِهِنَّ أكثرَ والِاسْتِئْنَاسِ بِهِنَّ أكملَ، وحُبُّهُنَّ فطريٌّ مَرْكُوزٌ في الطَّبيعة البشريَّةِ، لا يختَلِفُ في ذلك إلَّا مَن فسدَتْ طباعُهُ.

ثُمَّ ذُكِرَ حُبُّ البنينَ بعد حُبِّ النِّساءِ؛ لكونِ البنينَ ثمرةَ الحُبِّ الأوَّلِ، وفي ذِكْرِهم عقيبَ النِّساءِ إشارةٌ إلى المقصد الدِّينيِّ من حبِّ النِّساء، وأنَّه ذريعةٌ إلى الإنجابِ وتكثيرِ سوادِ الْمُسْلِمينَ لا لذاتِهِ.

ثُمَّ ثُلِّثَ بذِكْرِ الأموالِ؛ لِما في المالِ من الفتنَةِ وحصول غالبِ الشَّهواتِ به، ولكونِ المرءِ يرتَكِبُ المخاطِرَ في تحصيلِهِ لِوَلَدِهِ، ولأنَّ حبَّ الإنسانِ الولدَ أعظمُ من حبِّهِ المالَ[3].

وفُرِّعَ على المالِ ذكرُ أصنافِ ما يُتَمَوَّلُ؛ فذُكِرَ الذَّهبُ والفضَّةُ،

(1) حسن عزّ الدّين الجمل، مخطوطة الجمل: 2/407.

(2) الرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 7/162.

(3) الرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 7/162. وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 2/19. وأبو حيَّان، البحر المحيط: 3/51. وأبو السّعود، إرشاد العقل السَّليم: 2/14. ومحمّد نووي الجاوِي، مراح لبيد: 1/115. وأبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 3/1134 - 1135.

وهي أصلُ الأموال، وبهما يُتَوَصَّلُ إلى سائر المرغوبَاتِ، ثمَّ ذُكِرَت الخيلُ المسوَّمَةُ: وهي من مُتَمَوَّلَاتِ الملوكِ، ثُمَّ الأنعامُ: ويتموَّلُهَا أهلُ الباديةِ، ثُمَّ الحرثُ: ويتموَّلُها أهلُ الأَرْيَافِ والقُرَى[1].

فتَرْتِيبُ المشتهياتِ بَدْءًا بالنِّساءِ، ثُمَّ البنِينَ، ثُمَّ الأموال على اختلاف أصنافِهَا؛ هو ترتيبٌ بحسب شدَّة الافتنَانِ بها، فكان في هذا التَّرتيب ضربٌ مِنَ التَّدَلِّي في إيرادِهَا.

بَلَاغَةُ الِاكْتِفَاءِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ﴾:

أهميّة الاستغناء بالإشارة؛ عن التّصريح بالعبارة

ذُكِر حُبُّ الرِّجالِ للنِّساءِ، ولم يُذكَرْ حبُّ النِّساءِ للرِّجالِ وافتِتَانُهُنَّ بهم؛ وذلك لنكتَتَيْنِ:

إحدَاهُمَا: أنَّ ذلك مِنْ بابِ الاكتفاءِ، وأنَّ ذِكْرَ حُبِّ الرِّجالِ للنِّساءِ فيه إشارةٌ إلى المحبَّة المتبادَلَة بَيْنَهُما، وما كان مستفادًا بالإشارةِ؛ فإنَّه يُستغنَى فيه عَنِ التَّصريح بالعبارَةِ، وإنَّما اكْتُفِيَ بذكر حبِّ الرَّجُلِ لوجوهٍ:

أحدها: أنَّ حُبَّهُ أوضحُ وأظهَرُ؛ لكونِهِ أشدَّ.

ثانيها: أنَّ حُبَّ الرَّجُل المرأةَ هو الَّذي يُؤدِّي إلى الفِتْنَةِ في مُجْمَلِ أحوالِهِ.

ثالثُهَا: كون الرَّجُلِ هو الطَّالِبَ، والمرأة مجيبة لا طالبة، ثُمَّ هي وإن سبَقَتْ بالحُبِّ في بعض الأحوال؛ فإنَّها تحاوِلُ بَعْثَ الطَّلَبِ في نفسِ مَنْ تُحِبُّ، فيؤولُ الأمرُ بِهَا إلى أن تصيرَ مطلوبةً[2].

والنُّكْتَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّه أُخْفِيَ افتتانُ النِّساء بالرِّجالِ سَتْرًا لَهُنَّ، كما أخفى اللهُ تعالى أمر حوَّاءَ عند ذكرِ معصيةِ آدمَ عليه السلام في قوله: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾ [طه: 121].

(1) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 4/36.
(2) محمّد أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 3/1135.

نُكْتَةُ الِاقْتِصَارِ عَلَى ذِكْرِ الْبَنِينَ دُونَ الْبَنَاتِ فِي الآية:

رَغْبَةُ النَّاسِ فِي الذُّكُورِ الشِّداد، لَا يناقض الْمَحَبَّةَ لِجميعِ الْأَوْلَادِ

نُصَّ على حبِّ البنين دونَ البناتِ في قَوْلِه تعَالَى: ﴿حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ﴾؛ لعدَمِ الاطِّرادِ في محبَّتِهِنَّ[1]، ولأنَّ حُبَّ الذَّكَر أكثَرُ من حبِّ الأنثَى عند كثيرٍ مِنَ النَّاسِ[2].

ويجوزُ في هذه الآية وجهانِ آخران:

أحدهما: أنَّه لم تُذكر البناتُ اكتفاءً بذِكْرِ البنين، والمعنى: حبُّ الشَّهوات من النِّساء والبنين والبناتِ، واقتُصِرَ على ذِكْرِ البنين لكونِ العرب يَرَوْنَ في كثرتهم نصرةً وفَخَارًا، ولأنَّ المقصودَ من الآيةِ ذكرُ كُلِّيَّاتِ المشتَهَياتِ، وذلك حاصِلٌ بذِكْرِ البَنِينَ.

والآخَرُ: أنَّ المرادَ بالبَنِينَ ما هو أعمُّ مِنَ الذُّكورِ؛ لأنَّ الابن يُطلَقُ على الذَّكر والأنثى مجازًا مرسلًا، بعلاقةِ التَّقييد والإطلاق؛ ووَجْهُ ذلك: أنَّ الابنَ في الأصل هو الوَلَدُ مقيَّدًا بالذُّكوريَّةِ، ثُمَّ أُطْلِقَ عن هذا القَيْدِ، فبَقِيَ دالًّا على الوَلَدِ الشَّاملِ للذَّكرِ والأنثى، فمحبَّةُ البنين في الآيةِ – على هذا الوجهِ – تشمَلُ الذُّكورَ والإناثَ؛ وذلك أنَّ "محبةَ الولَدِ بَعْدَ وِلَادَته أمرٌ فِطريٌّ لَا فرقَ بينَ ذكرٍ وأُنْثَى، وإن كان الكَثِيرُون يَرْغَبُون في الذُّكور دون الإناث، فإنَّ ذلك لَا ينفي المحبَّة الفطريَّة لأولَادِه جَمِيعًا، والعربُ أنفسُهُم كانوا يُحبُّون بناتِهم وإن كانوا لَا يَعْتَزُّون إلَّا بالبنين... فالأولادُ جميعًا ثمرَاتُ القلُوبِ وقُرَّةُ الأعين"[3].

بَرَاعَةُ الْكِنَايَةِ فِي قَوْلِهِ سُبْحَانَهُ: ﴿وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ﴾:

شِـــدَّةُ افْـتِـتَـانِ النَّاسِ بِالْأَمْوَالِ، من الفتن الثِّقال

في قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ﴾ كنايةٌ عن المالِ الكثيرِ[4]، ومن طريقة العرب إذا أرادُوا بيانَ الكثرةِ والمبالَغَة؛ أن يَصِفُوا الشَّيءَ بما يُشتقُّ مِنْهُ، فَقَوْلُهُ سُبحانه: ﴿وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ﴾،

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 2/14.
(2) الرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 7/162.
(3) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 3/1136.
(4) البسيلّي، التَّقييد الكبير، ص: 469.

أي: القناطيرُ المضاعفةُ الكثيرةُ المجموعُ بعضُهَا إلى بعضٍ قِنْطَارًا قنطارًا، وهذا كقولِ العَرَب: دَرَاهِمُ مُدَرْهَمَة[1].

والقناطيرُ في ذاتِهَا تعني: المالَ الكثيرَ، وبُولِغَ في كثرتِهَا بوصفِهَا بالمقنطَرَةِ، وفي هذا: دِلالةٌ على تَغَلْغُلِ حُبِّ المالِ في قُلُوب النَّاس، حتَّى إنَّهم لا يكتفونَ بالقِنطارِ والقَنَاطِير، حتَّى تَكُونَ مُقْنَطَرَةً، كما قال النَّبيُّ ﷺ: «لَوْ كَانَ لِابْنِ آدَمَ وَادِيَانِ مِنْ مَالٍ؛ لَابْتَغَى ثَالِثًا»[2].

وبَيْنَ ﴿وَٱلْقَنَٰطِيرِ﴾ و﴿ٱلْمُقَنطَرَةِ﴾ جِنَاسُ الاشْتِقَاقِ.

دِلَالَةُ مُرَاعَاةِ النَّظِيرِ فِي قَوْلِهِ سُبْحَانَهُ: ﴿مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ﴾:

الجمعُ بين الذَّهب والفضَّةِ في قَوْلِه تَعَالى: ﴿وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ﴾ فيه مراعاةُ النَّظيرِ؛ إذ كلٌّ مِنْهُما نقدٌ وثمَنٌ لِلْأَشيَاءِ، وفي الجمعِ بينَهُمَا إيماءٌ إلى شدَّةِ حُبِّ الإنسانِ للمَالِ، حيث إنَّه لم يَكْتَفِ بحُبِّهِ الذَّهبَ مع كفايَتِهِ وعظيمِ قِيمَتِهِ، حتَّى ضمَّ إلى ذلك الفِضَّةَ، رَغْبَةً منهُ في اسْتِيعَاب أصنافِ الأموالِ.

شِـــدَّةُ حُـبِّ الإِنْسَانِ لِلْمَالِ، غريزة لافكاك له منها

نُكْتَةُ الْمَجَازِ فِي قَوْلِهِ سُبْحَانَهُ: ﴿وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ﴾:

الحَرْثُ في قول الله تعالى: ﴿وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ﴾ هو الغِراسُ والزَّرعُ، وذلك أنَّ الحرثَ في الأصل مصدَرٌ يُرادُ به: إثارةُ الأرضِ ووضعُ البذْرِ فِيهَا وغَرسُهَا، وليس هذا المراد مِنَ الحرثِ في الآيَةِ، وإنَّما المرادُ الشَّجَرُ والنَّباتُ ونحوُهَما، فأُطْلِقَ السَّبَبُ، وأُرِيدَ المُسبَّبُ، فهو مِنْ باب المجاز المرسَلِ، بعلاقةِ السَّبَبِيَّة[3].

تَـعَـلُّـقُ الـنَّـاسِ بِمَا تُنْبِتُهُ الْأَرْضُ عَظِيمٌ منذ فجر التّاريخ

ويحتَمِلُ أن يكون الحَرْثُ مرادًا به المحروثُ، مجازًا مرسَلًا بعلاقة التَّعلُّقِ الاشتقاقيِّ، وإنَّما سُمِّيَ اسمُ المفعولِ بِالْمَصْدَرِ مبالَغَةً فيه وفي محبَّتِهِ.

(1) طنطاوِيّ، التَّفسير الوسيط: 2/48.
(2) البخاريّ، صحيح البخاري، الحديث رقم: (6436)، ومسلم، صحيح مسلم، الحديث رقم: (1048).
(3) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 3/1138.

سَبَبُ عَدَمِ ذِكْرِ اللِّبَاسِ فِي جُمْلَةِ الْمُشْتَهَيَاتِ مَعَ أَنَّهُ مِنْهَا:

الشَّهْوَةُ بِاللِّبَاسِ تَتَعَلَّقُ بِأَخَصِّهِ مِمَّا يَحْصُلُ بِهِ كَمَالُ الزِّينَةِ

عُدِّدتِ المشتهياتُ في قولِه سُبحانه: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ﴾، ولم يُذكَرِ اللِّباسُ مع أنَّ النَّاسَ تشتَهِيه، وفي ذلك ثلاثُ نِكَاتٍ[1]:

أحدها: أنَّ اللِّباسَ أمرٌ ضروريٌّ لكلِّ النَّاس، فلا تتعلَّقُ الشَّهْوَةُ إلَّا بأخصِّه، وهو ما يَحصُلُ به كمالُ الزِّينَةِ دونَ ما يحصُلُ به أصلُ السَّتْرِ.

ثانيهَا: أنَّ ذِكْرَ الأنعام والحرْثِ يُغْنِي عن ذِكْرِ اللِّباسِ، من جِهَةِ أنَّ مَلْبَسَ الإنسانِ يُؤْخذُ مِنْهُمَا.

ثالِثُهَا: أنَّ اللِّباسَ يُشْتَرَى بالنَّقد مِنَ الذَّهب والفِضَّةِ، فذكرُهُما مُغْنٍ عن التَّنصيص عَلَيْه.

بَرَاعَةُ أُسْلُوبِ التَّقْسِيمِ فِي تَعْدَادِ الْمُشْتَهَيَاتِ:

اسْتِيعَابُ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ لِأُصُولِ مُتَعِ الْحَيَاةِ

في قولِ اللّه تَعَالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ﴾ إشارةٌ إلى أنواع المُتَع جميعًا، ففي ذِكْرِ النِّساءِ إشعارٌ بمُتعة الصِّلَةِ بين الرَّجُلِ والمرأة، سواءٌ أكانت المُتعةُ جسديَّةً أم روحيَّةً، وفي ذلك إيماءٌ إلى الأسرةِ الَّتي هي قوامُ المجتمَع.

وفي ذِكْرِ البَنِين إشارةٌ إلى بقاء النَّوْعِ الإنسانيِّ والاعتزازِ بالقبائِلِ والعشَائِر.

وفي ذِكْرِ المال إيماءٌ إلى الحاجاتِ الإنسانيَّةِ الَّتي يُعَدُّ المالُ أساسًا لهَا.

وفي ذِكْرِ الخَيْلِ إشعارٌ بالجهاد في نُصرة الحقِّ، وأنَّه لا تُحْمَى الجماعةُ إلَّا بقوَّةِ السِّلاحِ.

(1) البسيلّي، التَّقييد الكبير، ص: 469. وأبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 3/1138.

وفي ذِكْرِ الْأَنْعَام والحَرْثِ إشارةٌ إلى أُصُولِ الْإِنْتَاجِ، ففي الآية أسلوب التَّقسيم؛ إذْ قَد استُوعِبَتْ مُتَعُ الحياةِ بِإيرادِ هذهِ الْأُمورِ، وهي أصولُهَا الدَّالَّةُ على ما سِوَاهَا[1].

نُكْتَةُ التَّعْبِيرِ بِاسْمِ الْإِشَارَةِ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾:

اسْمُ الإشَارَةِ ﴿ذَٰلِكَ﴾ مِن قَوْلِه تعَالَى: ﴿ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ دالٌّ على البُعْدِ، وهو يُشيرُ إلى المذكورِ مِنَ المشتهياتِ، وفي الإشَارة إليها بالْبُعْدِ إشعارٌ بخِسَّةِ إخلادِ النَّاسِ إليها؛ لكونِ الاسْتِرْسَالِ في اتِّبَاعِها تقطَعَهُم عنِ الدَّار الآخرةِ[2].

الْإِغْرَاقُ فِي تَتَبُّعِ الْمُشْتَهَيَاتِ تَقْطَعُ الْعَبْدَ عَنْ سَيْرِهِ إِلَى اللهِ تَعَالَى

سِرُّ الِاقْتِصَارِ عَلَى وَصْفِ هَذِهِ الْمُشْتَهَيَاتِ بِكَوْنِهَا مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا:

حَكَمَ اللهُ سُبحانه على المشتهياتِ المذكورةِ بأنَّها متاعُ الحياةِ الدُّنيا، فقال تعالَى: ﴿ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾، ولم يُذْكَر أنَّها متاعُ الآخرةِ، مع أنَّ من تزوَّج؛ ليكثِّرَ سوادَ المسلمين، أو أنفق مالَه في سبيل اللهِ تعالى، أو كسَبَ الخَيْلَ لِلْجهادِ؛ كلُّ ذلك من مُتَعِ الآخرةِ ووُصْلَةٌ صالحةٌ إليهَا؛ لأنَّ الحكمَ في الآية الكريمة بأنَّ هذه المُشْتَهَيَاتِ متاعُ الحياة الدُّنيا إنَّما هو من جهةِ التَّزيينِ والشَّهْوَةِ فحسبُ[3].

قَدْ تُجْعَلُ الْمُشْتَهَيَاتُ وصْلَةً إِلَى تَحْصِيلِ الثَّوَابِ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ

نُكْتَةُ تَقْدِيمِ الظَّرْفِ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ﴾:

قُدِّم الظَّرْفُ ﴿عِندَهُۥ﴾ من قَوْلِ اللهِ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ﴾، وأصلُ التَّركيب: حسنُ المآبِ عِنْدَهُ، والقصدُ مِنْهُ: تَشريفُ هذا المرجعِ وتعظِيمُهُ، والمرادُ به الجنَّةُ، ولا يُرادُ بهذا التَّقديمِ القصرُ؛ لأنَّ اللهَ تعالى عِنْدَهُ شرُّ المآبِ: وهو العقوبةُ بالنَّارِ[4].

جعل اللهُ تَعَالَى الْجَنَّةَ ثَوَابًا لِلْمُطِيعِ، وَالنَّارَ عِقَابًا لِلْعَاصِي

دِلَالَةُ التَّوْكِيدِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ﴾:

في قَوْلِ اللهِ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ﴾ توكيدٌ بِتَكْرَار

(1) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 3/1139.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 4/273.
(3) البسيلّي، التَّقييد الكبير، ص: 469.
(4) البسيلّي، التَّقييد الكبير، ص: 469.

التَّرْغِيبُ فِيمَا عِنْدَ اللهِ تَعَالَى مِنَ النَّعِيمِ المُمتعِ الدَّائِمِ

الإسنَادِ؛ لأنَّ عِنْديَّةَ حُسن المآبِ أُسنِدَتْ إلى الاسْمِ الأحسن ﴿وَٱللَّهُ﴾، وأُسندَت أيضًا إلى الضَّمير العائدِ إليهِ، وفي هذا مزيدُ توكيدٍ وتفخيمٍ وعنايةٍ بالتَّرغيب فيما عِنْدَ الله تعالى منَ النَّعيمِ الحسنِ الدَّائمِ[1].

دِلَالَةُ المَجَازِ المُرْسَلِ المُرَكَّبِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلۡمَـَٔابِ﴾:

تَوْجِيهُ العِبَادِ إِلَى الزُّهْدِ فِي المُشْتَهَيَاتِ الفَانِيَةِ، من مقاصد القرآن العالية

قولُ الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلۡمَـَٔابِ﴾ جملةٌ خبريَّةٌ، يُرادُ بها التَّحريضُ على استبدالِ ما عند الله تعالى مِن اللَّذَّاتِ الحقيقيَّةِ الدَّائمةِ بالشَّهواتِ النَّاقصةِ الزَّائلةِ[2].

وفِيهِ الإيماءُ إلى أنَّ ما ذُكِرَ من المُشْتَهَيَاتِ لا تَتَمَحَّضُ فيه العاقبةُ الحميدَةُ[3].

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الحَرْث وَالزَّرْع:

الفرقُ بينَهما: أنَّ الحرثَ: بذر الحَبِّ مِنَ الطَّعام في الأرض، بخلاف الزَّرع: فَهُوَ نَبْتُهُ إلى أَنْ يبلُغَ، فالحَرْثُ هو المبدأُ، والزَّرْعُ هُوَ المُنْتَهَى، ويدلُّ على ذلك قولُ اللهِ تعالى: ﴿أَفَرَءَيۡتُم مَّا تَحۡرُثُونَ ۝٦٣ ءَأَنتُمۡ تَزۡرَعُونَهُۥٓ أَمۡ نَحۡنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ۝٦٤﴾ [الواقعة: 63 - 64].

المآب وَالإِيَاب:

يُستعمل الإياب للدِّلالة على مطلق الرُّجوع، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيۡنَآ إِيَابَهُمۡ ۝٢٥ ثُمَّ إِنَّ عَلَيۡنَا حِسَابَهُم ۝٢٦﴾ [الغاشية: 25 - 26]، بخلاف المآب؛ فلا يُرادُ منه مطلَقُ الرُّجوع، بل هو المنقَلَبُ الَّذي يؤولُ إليه النَّاسُ: إمَّا إلى الجنَّةِ وإمَّا إلى النَّار، فمُنْقَلَبُ أهلِ الإيمانِ الجنَّةُ، كما قال سبحانه: ﴿وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلۡمَـَٔابِ ۝١٤﴾ [آل عمران: 14]، وقال

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 2/15.
(2) البيضاويّ، أنوار التَّنزيل: 2/8.
(3) إسماعيل حقّي، روح البيان: 2/10.

تعالى: ﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ۝٤٠﴾ [ص: 40]، ومُنْقَلَبُ أهل الكُفْرِ النَّارُ، كما قال ﷻ: ﴿هَٰذَاۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ ۝٥٥﴾ [ص: 55]، وقال ﷻ: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ۝٢١ لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا ۝٢٢﴾ [النَّبأ: 21 - 22].

ففي مآب أهل الجنَّة والنَّار معنَى الذَّاتِ؛ لدلالتِهِ على مكانَةِ كلٍّ مِنْهُم، فَضْلًا عن دلالَتِهِ على نهايةِ أعمالهم[1].

(1) الدّوري، دقائق الفروق اللغوية، ص: 269.

﴿۞ قُلۡ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيۡرٖ مِّن ذَٰلِكُمۡۖ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞ وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ ١٥﴾ [آل عمران: 15]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

المناسبة بين شهوات الدّنيا ومتعها، وبين ما عند الله في الجنان

أحَدها: أنَّ اللّه تعالى لمَّا ذكر أنَّ عِنْدَهُ حسنَ المآب، فقالَ: ﴿وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلۡمَـَٔابِ﴾؛ بيَّنَ سُبحانه هُنَا أنَّ ذلك المآبَ كما أنَّه حسنٌ في ذاتِهِ؛ فهو أحسنُ وأفضلُ من هذه الدُّنيا، فقال: ﴿قُلۡ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيۡرٖ مِّن ذَٰلِكُمۡۖ﴾.

ثَانِيهَا: أنَّ اللّه تعالى لَمَّا عدَّدَ المشتهياتِ في الدُّنيا؛ بيَّن في هذه الآيةِ أنَّ منافعَ الآخرةِ خيرٌ مِنْهَا، وأنَّ أمرَ العبدِ في الدُّنيا مهما كان حسنًا منتظِمًا؛ فإنَّ أمرَ الطَّائعينَ في الآخرةِ خيرٌ وأفضلُ[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿جَنَّٰتٞ﴾: الجيمُ والنُّون: أصلٌ يدُلُّ على السَّتْرِ، وَمِنْهُ: الجَنَّةُ في الدُّنيا، وهي الْبُسْتَان؛ لأنَّ الشَّجرَ بِوَرَقِهِ يَسْتُرُ، والجَنَّةُ في الآخرة: ثَوَابٌ مَسْتُورٌ عَنَّا الْيَوْمَ[2].

والجَنَّة: الحديقَةُ ذَات الشَّجَرِ وَالنَّخْل.

وفرَّقَ أَبُو عَليٍّ بينَ الحديقَةِ والجَنَّة: بأنَّ الجنَّةَ في كَلَام الْعَرَب لا تُسمَّى كَذَلِكَ إلَّا إذَا كان فِيهَا نَخِيلٌ وعِنَبٌ، فَإِن لَم يَكُنْ فِيهَا ذَلِكَ، وَكَانَت ذَاتَ شَجَرٍ؛ فَهِيَ حديقةٌ، وَلَيْسَت بجَنَّةٍ[3].

2) ﴿وَأَزۡوَٰجٞ﴾: الزَّاي والواوُ والجيمُ: تدلُّ تصاريفُهَا عَلَى مقارنَةِ

(1) الرَّازِيّ، مفاتيح الغيب: 7/164.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (جنن).
(3) ابن سِيده، المحكم: (جنن).

شيءٍ لشيءٍ[1]، أو على تداخُلٍ بَيْنَ شَيْءٍ وآخَرَ حَتَّى يَشْتَبِكَا، وَيَخْتَلِطَا، ويَرْتَبِطَا مَعًا، كالذَّكَرِ بِالْأُنْثَى، ولَا يُطْلَقُ على شيءٍ مَا أنَّه زَوْجٌ إلَّا إذا كان مرتبطًا بآخرَ ارتباطًا ماديًّا أو معنويًّا[2].

ومِنْهُ زَوْجُ المرأةِ: وهو بَعْلُها، وزَوجُ الرَّجُلِ: امرأتُه، ويُقال أيضًا: زوجَتُهُ، والجمع: أزواجٌ وزوجاتٌ، ومنه قولُ اللّه تعالى: ﴿وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ۝٥٤﴾ [الدُّخان: 54]، أي: قرنَّاهُمْ بِهِنَّ، وقولُهُ سُبحانه: ﴿۞ٱحْشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزْوَٰجَهُمْ﴾ [الصَّافَّات: 22]، أَيْ: وَقُرَنَاءَهُمْ[3].

3) ﴿مُّطَهَّرَةٌ﴾: الطَّاءُ والهاءُ والرَّاءُ: تدور اشتقاقَاتُهَا على معنَى النَّقاءِ وزوالِ الدَّنَسِ، ومنهُ التَّطَهُّرُ، وهو التَّنَزُّه عَنِ الذَّمِّ وعن كلِّ قبيحٍ[4].

والطَّهارَةُ نوعانِ: طهارَةُ جِسْمٍ، وطهَارَةُ نَفْسٍ[5]، فمن الأوَّلِ قولُ اللّه تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَٱطَّهَّرُواْ﴾ [المائدة: 6]، ومن الثَّاني قولُ اللّه سُبحانه: ﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ۝٨٢﴾ [الأعراف: 82].

والتَّطهُّر في قولِ اللّه تعالى: ﴿وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾ جامعٌ لمَعْنَيَي الطَّهارةِ الحسِّيَّةِ والمعنويَّة.

4) ﴿وَرِضْوَانٌ﴾: الرَّاء والضَّادُ والحرف المعتلُّ: تدلُّ تصريفَاتُهَا على ضدِّ السُّخْطِ[6]، وَرِضَا الْعَبْدِ عَنِ اللّهِ تعالى: ألَّا يَكْرَهَ مَا يَجْرِي بِهِ قَضَاؤُهُ، وَرِضَا اللّهِ سُبحانه عَنِ الْعَبْدِ: صفةٌ من صفاتِهِ اللَّائقة بجلالِهِ وعظَمَتِهِ، وسببُها: رؤيةُ اللّه تعالى لعبدِهِ مُؤْتَمِرًا لِأَمْرِهِ، ومُنْتَهِيًا عَن نهيهِ[7].

وَالرِّضوانُ - بِكَسْرِ الرَّاء وضمِّها - اسْمُ مُبَالَغَةٍ في مَعْنَى الرِّضَا[8]، فالرِّضوان: الرِّضا الكثيرُ، ولَمَّا كانَ أعظَمُ الرِّضَا هُوَ رِضَا اللّهِ تَعَالَى؛ خُصَّ لفظُ الرِّضْوَانِ الوارد في الْقُرْآنِ الكريم بِمَا كَانَ مِنَ اللّهِ سبحانه، ومنه قوله جلَّ وعلا: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾[9].

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (زوج).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصَّل: (زوج).
(3) الجوهريُّ، الصحاح: (زوج).
(4) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (طهر).
(5) الرَّاغب، المفردات: (طهر).
(6) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (رضي).
(7) الرَّاغب، المفردات: (رضي).
(8) المُنَاويّ، التَّوقيف: (رضي).
(9) الرَّاغب، المفردات: (رضي).

5) ﴿بَصِيرُۢ﴾: الباءُ والصَّادُ والرَّاءُ: تدلُّ أكثرُ اشتقاقاتِهَا على العِلْمِ بالشَّيءِ، يقال: هو بصيرٌ به، أي: عليمٌ[1]، ومِنْهُ إطلاقُ البصَرِ على الإدراكِ بالعَيْنِ والإدراكِ بقوَّةِ القَلْبِ؛ إذْ بِكِلَيْهِما يحصلُ العلمُ[2].

والبصيرُ: فعيلٌ بمعنَى: مُفْعِلٍ، مثلُ أليم بمعنى: مُؤلِم[3]، والبصيرُ مِنْ أَسْمَاءِ اللّٰه تعالى: الَّذِي أَحَاطَ بَصَرُهُ بِجَمِيعِ الْمُبْصَرَاتِ فِي أقطارِ الْأَرْضِ والسَّمَواتِ[4].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

متاع الجنّة خالص للمؤمنين، ومتعه لا تنغيص فيها ولا تبخيس

قُلْ - يا أيُّهَا الرَّسولُ ﷺ -: أَأُخْبِرُكُم وأُعْلِمُكُمْ بِخَيْرٍ وأَفْضَلَ لَكُمْ مِمَّا زُيِّن لكم في الدُّنيا حبُّ شَهْوَتِهِ الَّذي هُوَ متاع الحياة الدُّنيا؟ لِلَّذِينَ خَافُوا اللّٰه تعالَى، فَأَطَاعُوهُ بامتثال المأمورات واجتنابِ المنهيَّات؛ لهم جنَّاتٌ تَجْرِي مِن تحتِ قُصُورِها وأشجارِهَا الْأَنْهَارُ، خالدِينَ فِيهَا، ولَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَاتٌ مِنَ الأذَى الحسِّيِّ -كالحيض- والأذى المعنويِّ - كسُوءِ الخُلُق - ولَهُمْ أَعْظَمُ مِنْ ذَلِكَ: وهو رِضْوَانٌ مِنَ اللّٰهِ تعالى، واللّٰهُ سبحانَه مطَّلِع على سَرَائر خَلْقِهِ، عَالِمٌ بجميعِ أَحْوَالِهِمْ، وسَيُجَازِيهِمْ عَلَى ذَلِكَ[5].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

سَبَبُ فَصْلِ قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿۞قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ﴾ عَمَّا قَبْلَهُ:

انْحِطَاطُ رُتْبَةِ مُشْتَهَيَاتِ الدُّنْيَا عَنْ لَذَّاتِ الْآخِرَةِ

فُصِلَ قولُ اللّٰه تعالى: ﴿۞قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ﴾ عمَّا قبلُ؛ لوقوعِهِ استئنافًا بيانيًّا - وهو المعروفُ بشِبْهِ كمال الاتِّصال - وذلك لوُرُودِهِ جوابًا عن سُؤالٍ يُفْهَمُ ممَّا قبلَهُ؛ فإنَّ قولَه سبحانه: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ مسوقٌ مسَاقَ الغَضِّ

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (بصر).
(2) الرَّاغب، المفردات: (بصر).
(3) الزَّجَّاج، تفسير أسماء الله الحسنى، ص: 42.
(4) السّعديّ، تفسير أسماء الله الحسنى، ص: 174.
(5) ابن جرير، جامع البيان: 6/243 - 262. ونخبة من العلماء، التّفسير الميسّر، ص: 51.

والإنقاصِ من هذه الشَّهواتِ[1]، فكأنَّ المُتَلَقِّيَ سأل: إذا كانت هذه المذكوراتُ مِمَّا طُبِعَ النَّاسُ على حُبِّهَا والشَّغَفِ بها غُضَّ من رُتبَتِهَا، فما أعظَمُ من ذلك وأفضلُ؟ فجاء الجوابُ: ﴿۞قُلۡ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيۡرٖ مِّن ذَٰلِكُمۡۖ﴾.

نُكْتَةُ افْتِتَاحِ جُمْلَةِ الِاسْتِئْنَافِ ﴿۞قُلۡ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيۡرٖ مِّن ذَٰلِكُمۡۖ﴾ بِـ﴿قُلۡ﴾:

افْتُتِحت جملةُ الاستئنافِ ﴿قُلۡ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيۡرٖ مِّن ذَٰلِكُمۡۖ﴾ بفعل الأمر ﴿قُلۡ﴾ للاهتِمَامِ بالمَقُولِ، وتَنْبِيهِ المتلقِّينَ إِلَى أنَّ ما سَيُلْقَى عَلَيْهِمْ أَمْرٌ يَهُمُّهم[2].

والمخاطَبُ في ﴿قُلۡ﴾ هو النَّبِيُّ[3] ﷺ لكونِهِ مقدَّمَ الأمَّةِ وأشرفَهَا، وليكون توجيهُ الخطابِ إليه أبلغَ في ترغيب أهلِ الإيمان في الإقبالِ على ما يُحصِّلونَ به هذه اللَّذَّاتِ الأخرويَّةَ.

ولم يُنَصَّ علَى المقولِ لَهُمْ؛ قصدًا لإرادةِ العموم[4]؛ إذ إنَّ حذفَ المتعلَّق مؤذِنٌ بذلك، ويُقَوِّي إرادةَ العموم التَّعبيرُ بِضميرِ الجمع (كُمْ) من ﴿أَؤُنَبِّئُكُم﴾؛ ففيه أنَّه يَدْعُوهُم جَمِيعًا للاستِمَاعِ إِلَى مَا سَيُخْبِرُهُم بِهِ[5].

وفي هذا: دِلالةٌ على سعةِ رحمةِ اللّٰه تعالى وكرَمِهِ حيثُ فتَحَ بابَ الخيراتِ لمن رغِبَ في دخولِهِ والانتظامِ في سلْكِ أهل التَّقوَى.

دِلَالَةُ الِاسْتِفْهَامِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿۞قُلۡ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيۡرٖ مِّن ذَٰلِكُمۡۖ﴾:

الهمزة في ﴿أَؤُنَبِّئُكُم﴾ للاستفهام، والاستفهامُ هنا ليس على ظاهرِهِ من إرادةِ طلب علم بشيءٍ لم يكن معلومًا من قبلُ، وإنَّما خرجَ إلى معنَى التَّشويقِ[6]؛ لِتَتَشوَّفَ النُّفوسُ إلى معرفةِ ما شُوِّقت

وُلُـــوجُ بَـــابِ الْـــخَـــيْرَاتِ لِتَحْصِيلِ ثَوَابِهَا الْمَفْتُوحٌ لِعُمُومِ الْمَخلوقات

الْـــوَارِدُ بَـعْـدَ الطَّلَبِ أَعَـزُّ مِنَ الْمُنْسَاقِ بِلَا تَعَبٍ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 3/183.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 3/183. وطنطاوي، التَّفسير الوسيط: 2/51.
(3) إسماعيل حقّي، روح البيان: 2/10.
(4) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 2/15.
(5) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 3/1140.
(6) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 2/15. وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 3/184.

إليه، فيَرِدُ الإخبارُ على نفسٍ مُسْتَشْرِفَةٍ له متطَلِّعةٍ إليه، فيتمكَّن منها غايةَ التَّمكُّنِ؛ ولذا شاعَ عند أهل العلم قولُهم: الْوَارِدُ بَعْدَ الطَّلَبِ أَعَزُّ مِنَ الْمُنْسَاقِ بِلَا تَعَبٍ.وفي هذا التَّشويقِ: إيماءٌ إلى عظيم شأنِ هذا الخبرِ وجليلِ منزلَتِه.والنَّبَأُ: هُوَ الْخَبَرُ الْعَظِيمُ.ويُؤَيِّدُ هذا التَّعظيمَ: التَّعبيرُ عنه بلفظ الإنباء دونَ الإخبار؛ إذِ الإنباءُ: هو الإخبارُ عن أمرٍ عظيمٍ[1].

نُكْتَةُ تَنْكِيرِ ﴿بِخَيْرٍ﴾ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿۞قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ﴾:

نُكِّرَتْ كلمةُ ﴿بِخَيْرٍ﴾ من قَوْلِ اللّٰه تعالى: ﴿۞قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ﴾؛ لإرادةِ تفخيم شأنِه وتعظيم قدرِه وزيادةِ التَّشويقِ إليه[2]، وسوَّغَ هذا: ما في النَّكرةِ مِنَ الإبهامِ الصَّالحِ لإفادةِ التَّفخيم.

عَظَمَةُ مَا أَعَدَّهُ اللهُ تَعَالَى مِنَ النَّعِيمِ لِأَهْلِ التَّقْوَى

سِرُّ الِالْتِفَاتِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿۞قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ﴾:

في قولِه تعالى: ﴿۞قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ﴾ التفاتٌ من الغَيبةِ إلى الخطاب؛ وذلك أنَّه تقدَّم قولُه: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ﴾ والاسمُ الظَّاهرُ بمنزلَةِ الغائبِ، ثُمَّ الْتُفِتَ عن ذلك إلى الخِطَابِ في قوله: ﴿۞قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ﴾؛ حكايةً لِلَفْظِ ما يُقالُ لهم، وفيه أيضًا تقويةٌ وتشريفٌ لنُفوسِ تارِكِي اتِّباعِ الشَّهواتِ إيثارًا لما عندَ اللّٰه تعالى مِن حُسن المآبِ[3].

شَرَفُ الْمُتَرَفِّعِ عَنِ اتِّبَاعِ الشَّهَوَاتِ إِيثَارًا لِمَا عِنْدَ اللهِ مِنَ الْعطاءات

دِلَالَةُ اسْمِ الْإِشَارَةِ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿۞قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ﴾:

اسْمُ الْإِشَارَةِ ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ من قَوْلِ اللّٰه تعالى: ﴿۞قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ﴾ دالٌّ على البُعْدِ، وفي ذلك إيماءٌ إلى عظمةِ تلك الْمُشْتَهَيَاتِ عِنْدَ النَّاسِ، وقَرْنُ اسمِ الإشارةِ بميم الجمعِ زيادَةٌ في هذا التَّعظيم[4].

اللَّذَّاتُ الدُّنْيَوِيَّةُ مَهْمَا عَظُمَتْ عِنْدَ النَّاسِ؛ فَمَا عِنْدَ اللهِ تَعَالَى خَيْرٌ وَأَبْقَى.

(1) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 3/1140. وطنطاوي، التَّفسير الوسيط: 2/51.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السَّليم: 2/15. وأبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 3/1141.
(3) أبو حيَّان، البحر المحيط: 3/55.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 4/276.

وفي هَذا إشعارٌ بأنَّ عظمةَ ما عندَ اللّه تعَالى مِنَ الجَزَاء الْحَسَنِ لِأَهْلِ التَّقوَى يَفُوقُ ما يَخْطُرُ في قُلُوبِ الْعِبَادِ، فإنَّ تلك اللَّذَّاتِ الدُّنيويَّةَ مَهْمَا عَظُمَ شأنُهَا؛ فإنَّ ما عندَ اللّهِ تَعَالَى خيرٌ.

سَبَبُ فَصْلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ﴾ عَمَّا قَبْلَهُ:

فُصل قولُ اللّه تعالى: ﴿لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ﴾ عمَّا قبلَهُ؛ لوقوعِهِ استئنافًا بيانيًّا[1]، وذلك أنَّ قولَه سبحانه: ﴿۞قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ﴾ يَبْعَثُ في نفُوسِ المتَلقِّين لهُ سؤالًا، وهو: ما الَّذي خيرٌ مِنْ ذلكم؟ فجاء الجوابُ: ﴿لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ﴾.

أَثَـرُ الِاسْتِئْنَافِ الْبَيَانِيِّ فِي إِبْرَازِ مُتَابَعَةِ الْمُتَلَقِّي وَشَوْقِهِ

تَعْرِيفِ مُتَعَلَّقِ الْمُسْنَدِ بِالْمَوْصُولِيَّةِ فِي قَوْلِهِ: ﴿لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ﴾:

﴿لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ﴾ متعلَّق بخبرٍ محذوفٍ مقدَّم[2]، وعُرِّفَ بالْمَوْصُولِيَّةِ للإيماءِ إلى علَّةِ الجزاءِ الَّذي وُعِدُوا بِهِ، وهو تقواهُم للّهِ تعالى، وفي هذا تحريضٌ للنَّاسِ وحثٌّ لَهُمْ على التَّحلِّي بالتَّقوَى والاندراجِ في سِلْكِ أهلِهَا؛ ليحصُلَ لَهُمْ مِنَ الوَعْدِ مثلُ ما حصَلَ لِلْمتَّقينَ، وفي تقديمِ الخَبَرِ اهتمامٌ بشأنِ المُتَّقينَ وتشريفٌ لهم وتعظيمٌ لقدرِهِم ومَنْزِلَتِهم، وكونُ الصِّلَةِ فعلًا ماضيًا ﴿ٱتَّقَوْاْ﴾ إشعارٌ بتحقُّقِهم بالتَّقوَى ورُسُوخ قدَمِهم فيها.

تَقْوَى اللهِ تَعَالَى سَبَبٌ لِكُلِّ خَيْرٍ

نُكْتَةُ حَذْفِ مَفْعُولِ ﴿ٱتَّقَوْاْ﴾ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ﴾:

الفِعْلُ ﴿ٱتَّقَوْاْ﴾ متعدٍّ، وقد حُذف مفعولُهُ، وفي نكتةِ ذلك مسلكَانِ:

أحدُهما: أن يكون حذفُهُ مشعرًا بالعموم؛ إذ إنَّ حذفَ المعمولِ مؤذِنٌ بذلك، والمعنى: أنَّهم اتَّقوا كلَّ ما أُمِرُوا باتِّقائِهِ؛ وذلك بفعلِ الأوامر واجتناب النَّواهي.

والآخَرُ: أن يكون الفعلُ المتعدِّي نُزِّلَ منزلةَ اللَّازم، فلم يَحْتَج إلى مفعولٍ أصلًا، فمعنى: ﴿ٱتَّقَوْاْ﴾ الَّذين اتَّصفوا بالتَّقوى[3].

حَقِيقَةُ التَّقْوَى فِعْلُ الْأَوَامِرِ، وَاجْتِنَابُ النَّوَاهِي

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 4/276.
(2) الدّعَّاس، إعراب القرآن: 1/126.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 4/276.

وهما وجهانِ متآيِلَانِ؛ لأنَّ مَن فعَلَ الأوامرَ، واجتنب النَّواهِيَ مُتَّصفٌ بالتَّقوى متحقِّقٌ بها.

دِلَالَةُ التَّعْبِيرِ بِالِاسْمِ الْأَحْسَنِ (الرَّبِّ) مِنْ قَوْلِهِ: ﴿لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ﴾:

مِنْ مُقْتَضَيَاتِ رُبُوبِيَّةِ اللهِ تَعَالَى لِخَلْقِهِ إِحْسَانُهُ إِلَيْهِمْ

في اختيارِ الاسم الأحسن (الرَّبِّ) في قوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ﴾ تعظِيمٌ لِمَا لأهل التَّقْوَى في الآخرةِ، وترغيبٌ بِلَفْتِ القولِ إلى صفةِ الإحسانِ المقتضِيةِ تربيةَ الصَّدقاتِ وغيرِها مِنَ الأعمال الصَّالحة، فالرَّبُّ هُوَ المحسنُ إليهم بِلِبَاس التَّقوى الموجِبِ إيثارَهُم الآخرةَ على الدُّنيا[1].

وقُدِّمَ الظَّرْفُ ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ زيادةً في تعظيم شَأْنِ الجزاءِ المُعَدِّ لهم.

وإضافةُ الاسْمِ الأحسَنِ إلى الضَّمير الرَّاجعِ للمتَّقين تفخيمٌ لِمَكانَتِهم ورفعٌ لقَدْرِهِمْ، وإعلامٌ بأنَّ ما يلقونَهُ مِنَ الجزاء الحسنِ هو مِن إحسان ربِّهم سبحانه وتعالى بهم[2].

دِلَالَةُ جَمْعِ الْجَنَّاتِ وَتَنْكِيرِهَا فِي قَوْلِهِ: ﴿لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ﴾:

كَثْرَةُ الْجَنَّاتِ وَتَنَوُّعُهَا فِي الْآخِرَةِ؛ لِاخْتِلَافِ دَرَجَةِ الْمُتَّقِينَ

جُمِعَتِ الجَنَّاتُ في قوله ﷻ: ﴿لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ﴾ إشعارًا بتعدُّدِهَا وكثرَتِهَا؛ وذلك أنَّ الجنَّةَ في الآخرةِ مشتملةٌ على جِنَانٍ كثيرةٍ، ونُكِّرت ﴿جَنَّٰتٌ﴾ إيماءً إلى تنوُّعِهَا واختلافِهَا.

وكثرة الجنَّاتِ وتنوُّعُها هُوَ بِحَسَبِ دَرجاتِ أهل التَّقوى، فإنَّهم في رُتَبٍ متباينَةٍ حسَبَ تحقُّقِهم مِنْ كَمالَاتِ التَّقْوَى.

دِلَالَةُ وَصْفِ الْجَنَّاتِ فِي قَوْلِهِ: ﴿جَنَّٰتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾:

وُصِفَت الجنَّاتُ بكونِهَا ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ مدحًا لها، وتزيينًا لها في قلوبِ العبادِ؛ ليكونَ ذلك أدعَى للتَّزَيِّي بِزِيِّ التَّقوَى.

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 4/277.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 2/98.

ووجهُ المدحِ بالوصفِ: أنَّ أَحْسَنَ المياهِ هُوَ ما كَانَ جَارِيًا؛ لأنَّ ذلك يَقْتَضِي كونَه جَدِيدًا كلَّما اغْتُرِفَ، أَوِ اغتُسِلَ منهُ.

جَـمَـالُ مَـا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ الجنّة، ممّا لا عـينٌ رأت، ولا أذن سمعت

وَأَصْلُ الْجَرْيِ في كلامِ العربِ: شِدَّةُ سُرعةِ الْمَشْيِ، وإطلاقُهُ على سَيَلانِ الماءِ سَيْلًا متكرِّرًا مُتَعَاقِبًا: مَجازٌ[1]، وفي تخريجِهِ مَسْلَكَانِ:

أحدهما: أنَّه مجازٌ بِالاسْتِعَارَةِ، ووجهُهُ: أنَّه شُبِّهَ سيَلَانِ الماءِ سَيْلًا مُتَكَرِّرًا متعاقِبًا لشِدَّة سُرعة المشيِ؛ لجَامِعِ سُرعة الانْتِقَالِ والحركةِ في كلٍّ مِنْهُمَا، فيكونُ مِنَ الاستعارَةِ التَّصريحيَّة التَّبعيَّة.

والآخَرُ: أنَّه مجازٌ مُرسَلٌ بعلاقةِ الإطلاق والتَّقْيِيدِ، فأصلُ الجريِ: شدَّةُ سُرعة المشيِ، ثُمَّ أُطلِقَ عَنْ قَيْدِ المشيِ، واستعمِلَ في شِدَّة السُّرعةِ مطلقًا.

وهو على كِلَا الوَجْهَيْنِ أدخَلُ في مَدْحِ الماءِ الجاري؛ لِاقْتِضَائِهِ المُبَالغةَ في جِدَّتِهِ بشدَّةِ جَرْيِهِ.

دِلَالَةُ اللَّامِ فِي ﴿ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾:

اللَّامُ في ﴿ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ من قولِ اللّه تعالى: ﴿جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ لِتَعْرِيفِ الجِنْسِ[2]، فتَكُونُ في قوَّة النَّكرةِ.

أَنْـهَـارُ الْـجَـنَّـةِ نِعْمَةٌ مُسْتَقِلَّةٌ، يـتـنـعّـم بـهـا المتّقون

ويَحْتَمِلُ أن تكون اللَّامُ لِلْعَهْدِ التَّقديريِّ؛ وذلك أنَّه لَمَّا ذُكرتِ الجنَّاتُ؛ اسْتَحْضَرَ السَّامعُ لوازمَها ومقارنَاتِها، "فساغَ لِلْمُتَكَلِّم أن يُشير إلى ذلك المعهُودِ، فَجِيء باللَّام"[3]، ويَحْتَمِل أن تكون لِلْعَهْدِ الخارجيِّ، والإشارةُ فيه إلى قَولِ اللّه تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ﴾ [محمد ﷺ: 15][4].

ولَم تُضَفِ الأنهارُ إلى ضمير الجنَّاتِ بأَنْ يقال: (تَجْرِي مِن تحتِها

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/354.
(2) الزَّمخشريّ، الكشَّاف: 1/107.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/354 - 355.
(4) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 1/69. والآلوسّي، روح المعاني: 1/204.

أنهارُهَا)؛ لِما في الإضافة مِن كُلْفَةٍ في الكلام، ولِلتَّنْبيه على أَنَّ نعمةَ الأنهارِ مُسْتقِلَّةٌ، فيكون التَّمَتُّع بها تنعُّمًا مستقِلًّا لا تبعًا لِلْجَنَّاتِ[1].

ومالَ ابنُ عَاشُور إلى أنَّ تعريفَ الأنهار إنَّما هو لِلتَّفنُّنِ؛ لئلَّا يُعادَ التَّنكيرُ مرَّةً أخرَى بعد تنكيرِ ﴿جَنَّٰتٌ﴾[2].

بَلَاغَةُ الِاحْتِرَاسِ فِي قَوْلِهِ: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾:

قولُ اللّه تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ حالٌ منصوبَةٌ، جيءَ بها لِلاحتراسِ؛ دَفْعًا لِتوهُّم انقطاع النَّعيم المَذْكُورِ قبلُ، وسبَبُ هذا التَّوهُّم: ما جرت به العادةُ مِن انقطاع اللَّذَّات في الحياةِ الدُّنيا؛ فإنَّ العبدَ في الحياة الدُّنيا مهما كثرَتِ اللَّذَّاتُ عندهُ وعَظُمَتْ؛ فإنَّ استحضارَهُ زوالَهَا يُنغِّصُ عليه كمالَ الاستمتاعِ بها، فبيَّن اللّه سبحانه أنَّ ذلك مُنْتَفٍ في نعيم الجنَّةِ، وأنَّه نعيمٌ دائمٌ.

نَعِيمُ أَهْلِ الْجَنَّةِ دَائِمٌ، لَا يَتَنَغَّصُ بِاخْتِمَالِ انْقِطَاعِهِ

دِلَالَةُ وَصْفِ الْأَزْوَاجِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾:

وصفُ الأزواجِ بكونِها مُطَهَّرةً في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾ يُرادُ به مدحُهُنَّ في ذواتِهنَّ، وزيادَةٌ في تحريضِ الْعِبادِ على تحصيلِ الأوصافِ المرشِّحَةِ لدخولِ الجنَّةِ والتَّمتُّعِ بملاذِّهَا.

طَهَارَةُ الْأَزْوَاجِ الْكَامِلَةُ لَا تَكُونُ إِلَّا فِي الْجَنَّةِ

وفي العدُولِ عَنِ الوصفِ بالجمع (مُطَهَّرَات) إلى الوَصْفِ بالمفردِ ﴿مُّطَهَّرَةٌ﴾ إشعارٌ بأنَّهنَّ في أصلِ الطَّهارةِ كالنَّفْسِ الواحِدَةِ[3].

نُكْتَةُ تَنْكِيرِ ﴿وَرِضْوَٰنٌ﴾ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾:

نُكِّر ﴿وَرِضْوَٰنٌ﴾ مِن قول اللّه تعالى: ﴿وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ لإرادةِ التَّفخيمِ والتَّعظيم[4]، ويُقوِّي هذه الدِّلالةَ، ويُؤيِّدُهَا ثلاثةُ أوجهٍ:

أحدُهَا: بناءُ ﴿وَرِضْوَٰنٌ﴾ على الزِّنَة الدَّالَّةِ على الامتِلاءِ، كما

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/355.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/355.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 4/278.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السَّليم: 2/16.

تُشْعِرُ بذلك الألفُ والنُّونُ[1]؛ إذِ الرِّضوَانُ: اسْمُ مُبَالَغَةٍ في مَعْنَى الرِّضَا[2]، ولا سيَّمَا أنَّ في بنائِهِ زيادةً، والزِّيادَةُ في المبنَى تدلُّ على الزِّيادَةِ في المعنَى.

إِجْلَالُ اللهِ تَعَالَى رِضْوَانَهُ عَلَى عِبَادِهِ أَعْظَمُ مِنْ إِثَابَتِهِمْ بِالْجَنَّةِ

ثانيهَا: إبهامُ الرِّضوانِ ثُم بيانُ مَصْدَرِهِ وأنَّه ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾: فيه إشعارٌ بشَرَفِ هَذَا الرِّضَا؛ إذْ أُضِيفَ إلى الاسمِ الأحسَنِ[3].

ثالثُهَا: الإظهارُ في موضع الإضمار، وذلك أنَّ الظَّاهرَ أَنْ يَرِدَ النَّظْمُ القرآنيُّ: (وَرِضْوَانٌ مِنْهُ) أي: مِنْ ربِّهم، المذكور في قوله: ﴿لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾، ونكتةُ ذلك: ما في الاسم الأحسن ﴿ٱللَّهِ﴾ مِنَ الإيماء إلى تعظيمِ الرِّضوانِ، حيث إنَّ الاسمَ الأحسن ﴿ٱللَّهِ﴾ دالٌّ على صفاتِ الجلال والجمال والكمال[4].

وذكرُ رضوانِ اللّه تعالى بعد ذكر الجنَّة ونعيمِهَا تَرَقٍّ في ذكر ثوابِ اللّه سُبحانه الذي أعدَّهُ لأهل التَّقوى؛ فإنَّ إحلالَ اللّه تعالى رضوانَهُ بعبادِهِ أعظمُ من الجنَّة، كما قال رسولُ اللّه ﷺ: «إِنَّ اللّهَ يَقُولُ لِأَهْلِ الْجَنَّةِ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ فَيَقُولُونَ: لَبَّيْكَ رَبَّنَا وَسَعْدَيْكَ وَالْخَيْرُ فِي يَدَيْكَ فَيَقُولُ: هَلْ رَضِيتُمْ؟ فَيَقُولُونَ: وَمَا لَنَا لَا نَرْضَى؟ يَا رَبِّ وَقَدْ أَعْطَيْتَنَا مَا لَمْ تُعْطِ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، فَيَقُولُ: أَلَا أُعْطِيكُمْ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ؟ فَيَقُولُونَ: يَا رَبِّ وَأَيُّ شَيْءٍ أَفْضَلُ مِنْ ذَلِكَ؟ فَيَقُولُ: أُحِلُّ عَلَيْكُمْ رِضْوَانِي، فَلَا أَسْخَطُ عَلَيْكُمْ بَعْدَهُ أَبَدًا»[5].

تَوْجِيهُ الْمُتَشَابِهِ اللَّفْظِيِّ بَيْنَ قَوْلِهِ: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ وَقَوْلِهِ: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [التوبة: 72]:

أَقَلُّ الْقَلِيلِ مِنْ رِضْوَانِ اللهِ تَعَالَى أَعْظَمُ مِنَ الْجَنَّةِ وَأَكْبَرُ

ورد في آل عمران قوله تعالى: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾، وفي سورة

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 4/278.
(2) المُناويّ، التَّوقيف: (رضي).
(3) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 3/1141. وطنطاوي، التَّفسير الوسيط: 2/52.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 3/184.
(5) البخاريّ، صحيح البخاري، الحديث رقم: (6549)، ومسلم، صحيح مسلم، الحديث رقم: (2829).

التَّوبة قال الله سبحانه: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة: 72]، ووجهُ التَّغايُرِ بينَهُمَا: أنَّ آية آلِ عمرانَ بُدئت بقوله: ﴿ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ﴾، فكان السِّياقُ دائرًا على إظهار الفرق بين متاع الحياة الدُّنيا وبين ما عند الله تعالى مِنَ النَّعيم المقيم الدَّائم، فناسبَ ذلك العطفُ بالواوِ الدَّالَّةِ على مُطْلَقِ الجمعِ بين كُلِّ ما عند الله تعالى معَ قَطْعِ النَّظرِ عن الفرقِ بين نعيمٍ وآخرَ، فلم يُذكر لفظُ ﴿أَكْبَرُ﴾ [التوبة: 72].

بِخِلاف آية التَّوبة، فقد صُدِّرت بقوله تعالَى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: 72]، فلمَّا كان أقلُّ القليلِ من رضوانِ الله تعالى أكبر من جميعِ النِّعمِ الَّتِي تقدَّمتْهُ؛ ناسبَهُ عدمُ عطف ﴿وَرِضْوَٰنٌ﴾ [التوبة: 72] على ما سبقَهُ فلم يُنصَبْ، ورُفِعَ على الابتداءِ، ومِن ثَمَّ جاءَ قولُه سُبْحَانه: ﴿وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۚ﴾ [التوبة: 72][1].

بَلَاغَةُ التَّذْيِيلِ فِي قَوْلِه تَعَالَى: ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾:

ثَوَابُ اللهِ تَعَالَى لِأَهْلِ التَّقْوَى، يتفاوت بِحَسَبِ مَرَاتِبِهِمْ فِيهَا

قولُ الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ هي اعتراضٌ بين قوله: ﴿لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ﴾، وقوله بعدُ: ﴿ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾؛ سيقَ لبيانِ وعْدِ الله تعالى، والمعنى: أنَّه سبحانه عليمٌ بالَّذين اتَّقوا وبمراتبِهم في التَّقْوَى، وعِلْمُهُ بذلكَ يقتضِي مُجازَاتهم الجزاءَ الحسنَ[2].

وكونُ الجملةِ اعتراضًا هو بِالنَّظَرِ إلى ما قبلَهَا وما بعدهَا، وإذا نظرنَا إلى الآية باعتبارِهَا وحدةً متكاملةً؛ كانَ قولُه سبحانه: ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ تذييلًا، وقَدْ صُدِّرتْ جملةُ التَّذييلِ بِالاسْمِ الأحسن ﴿وَٱللَّهُ﴾ لنكتَتَيْنِ:

(1) سعد عبد العظيم، استدراك ما فات من بلاغة الآيات المتشابهات، ص: 294 - 295.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 3/184.

إحداهما: قَصْدُ اسْتِقْلَالِ الجُمْلَةِ؛ لتَكُونَ بمنزلةِ المَثَلِ، فيكون التَّذييلُ جاريًا مجرى المثلِ[1].

والأخرى: تَرْبِيَةُ المَهَابَةِ في قُلُوبِ المُتلقِّين للخطابِ الإلهيِّ، والإِشْعَارُ بِعَظَمَتِه سبحانه[2].

وفي ذِكْرِ الاسم الأحسن ﴿وَٱللَّهُ﴾ في قوله: ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ﴾ إظهارٌ في موقعِ الإِضْمَارِ؛ إذ مقتضَى الظَّاهر أَنْ يُقال: (وهو بصيرٌ بالعبادِ)، لكونِه سبقَ التَّصريحُ به قبلُ في قوله: ﴿وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِۗ﴾، ونكتةُ ذلك: بيانُ أنَّ جزاءَهُمْ إنَّما هو على قَدْرِ التَّقوَى التَّي عَلِمَهَا اللّه تعالى مِنْهُمْ؛ فهو سبحانه (اللّه) الَّذي له الحكمةُ البالغَةُ[3].

وتعديةُ الوصفِ ﴿بَصِيرُۢ﴾ بالباء في قولِه: ﴿بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ﴾ إشعارٌ بتضمُّنِه معنى: عليم.

تَوْجِيهُ المُتَشَابِهِ اللَّفْظِيِّ بَيْنَ قَوْلِهِ: ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ﴾ وَقَوْلِهِ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرُۢ﴾:

شِدَّةُ مُنَاسَبَةِ الْفَوَاصِلِ الْقُرْآنِيَّةِ لِمَضَامِينِ الآيات

وردَ ختامُ هذه الآية: ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ﴾، وجاء في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ﴾ [غافر: 44] مفصولًا عَمَّا قبلَهُ ومؤكَّدًا بـ ﴿إِنَّ﴾، ووجهُ المغايرةِ بينهُمَا: أنَّ الخطاب في آلِ عِمرانَ كان أكثرَ تعلُّقًا بالمؤمنينَ، وهم غيرُ شاكِّين ولا منكِرين، فنساب ذلك خلُوَّ الجملة مِنَ التَّوكيد؛ لعدم الحاجةِ إليه، ولمَّا كان قولُه: ﴿لِلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ جملةً خبريَّةً، وقولُهُ: ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ﴾ جملةً خبريَّةً أيضًا، وبينَهُمَا جهةٌ جامعةٌ: هي أنَّ المتكلِّمَ اللّه ﷻ؛ كانَ الوصلُ بالواو أنسبَ؛ لأنَّ بينَ الجملتَين توسُّطًا بين الكمالَيْن.

أمَّا آية غافرٍ؛ فقد صُدِّرت بقوله ﷻ: ﴿فَسَتَذۡكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمۡۚ وَأُفَوِّضُ أَمۡرِيٓ إِلَى ٱللَّهِۚ﴾، فلمَّا كان المخاطَبُونَ منكرينَ - لأنَّ الخطاب كان لفرعونَ وقومِهِ - ناسبَهُ التَّأكيدُ، فقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ﴾، ولمَّا كان المرادُ تعليلَ الحكمِ؛ كان الفصلُ متعيِّنًا، فلم تَرِدِ الواوُ في صدرِ الجملةِ[4].

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 3/184.
(2) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 3/1141.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 4/279.
(4) سعد عبد العظيم، استدراك ما فات من بلاغة الآيات المتشابهات، ص: 295.

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

النَّبأُ وَالْخَبَر:

ظاهر صنيع كثيرٍ مِن أصحاب المعجماتِ أنَّهما مترادِفَانِ[1]، ولعلَّه جَرْيٌ مِنْهُمْ على المسامحةِ؛ تقريبًا لِلْمَعَاني، بل إنَّ بعضَهم نصَّ على ترادُفِهِمَا[2].

وفرَّق بَيْنَهُمَا جماعةٌ مِن أهلِ العلم - وهو التَّحقيقُ - وذلك أنَّ النَّبأَ هو الخبرُ الَّذي له خَطْبٌ وشأنٌ، ومِنْهُ سُمِّي النَّبِيُّ نبيًّا؛ لأنَّه يوحَى إِلَيْهِ، والوحي: خَبَرٌ عظيمٌ له شأنٌ، بخلاف الخبرِ فهو أَعَمُّ: يُطْلَقُ على ما له شأنٌ وما ليس كذلك[3].

الْعِبَاد وَالْعَبِيد:

جاءت اللَّفْظَتانِ في القرآن الكريم جمعًا لكلمة (عبدٍ)، كما في قوله سبحانه: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ﴾ [البقرة: 186]، وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٨٢﴾﴾ [آل عمران: 182].

و(العبَادُ) جمعٌ للعبد بمعنى: العابد لربِّهِ جلَّ وعلا، و(العبيدُ) جمعٌ للعبدِ الرَّقيقِ المملوكِ، وقد أُضيفَ إلى اللّه سبحانه؛ لكونِهِ المالكَ الحقَّ لرقابِ النَّاسِ، وهو المستحقُّ للعبادةِ وحدهُ.

أمَّا لفظُ (العِبَاد)؛ فإنَّه لم يُستعمَل في الذِّكْرِ الحكيم إلَّا في العابدِينَ المُخْلِصِينَ، ورُوُدُه في مواضعَ منهُ مضافًا إلى غير اللّه تعالى؛ فلأنَّ المقصودَ التَّنبيه على المساواةِ بين العبيدِ المملوكِينَ ومَالِكِيهِم؛ إذِ الجميعُ عِبَادٌ للّه جلَّ وعلا، كما في قوله سبحانه: ﴿وَأَنكِحُواْ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّـٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ﴾ [النور: 32]، وفي هذا إيماءٌ إلى أنَّ الواجبَ أن يُعامَلَ العبيدُ المَمْلُوكُونَ معاملةَ غيرِهم من الأحرار؛ لِمَا يتَّصفُون به من صلاحٍ واستقامَةٍ على الشَّرْعِ المُنَزَّلِ[4].

---

(1) الخليل، العين: (خبر). والأزهريّ، تهذيب اللُّغة، والجوهريّ، الصّحاح، والفيروزأبادي، القاموس المحيط: (نبأ).

(2) الزَّبيدي، تاج العروس: (نبأ) و(خبر).

(3) أبو حيَّان، البحر المحيط: 8/227. وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 2/306. والشِّنقيطيّ، العذب النَّمير: 1/476، 2/104، 138، 607.

(4) محمَّد داود، معجم الفروق الدّلاليَّة، ص: 488 - 489.

﴿ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ١٦﴾ [آل عمران: 16]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

بعد أنْ ذكرَ تعالى أهلَ التّقوى في الآية السّابقة وما وعدَهُم اللّه به من الخيرِ؛ بيّن في هذه الآية دواعيَ استحقاقِهم مغفرتَه، وفسّر أحوال المُتّقين الموعودين بجنّاته؛ فَهُمْ أولئك المؤمنون المعترفون بالإيمان المُقرّون به وبدواعيه، ومع ذلك مُقرّون بِذُنُوبِهم، سائلون اللّه تعالى أن يغفرها لهم، وأنْ يَقِيَهُم شقاء العذابِ في النّار يوم القيامة[1].

ولمَّا أخبرَ سبحانَه بأنّه بَصِيرٌ بمَن يستحقُّ ما أَعدَّه له من الفوز أَتبعَه بذِكر سببِ استحقاقِهم ذلك من الأوصافِ تفضُّلًا منه عليهم بها، وبإيجاب ذلك على نفسه حثًّا لهم على التخلُّق بتلك الأوصاف.

ولمّا وَصَفَ تعالى قلوبَهم بالتّقوى وبَرَّأَهم من الاستغناءِ بشيءٍ من دونه وصفَ أدَبَهم في المَقال، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ١٦﴾.[2]

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَقِنَا﴾: فعل طلب من الوِقاية، وهي: دَفْعُ شَيْءٍ عن شيءٍ بغيرِه، وحفظُه ممّا يُؤذيه ويَضُرّه باتّخاذ حاجزٍ دونَه[3]، يقال: وَقَاهُ يَقِيْهِ وِقاية: حفِظَه وصانَه ومنَعه من الضَّرر والأذى، واتّقى الشيءَ: جعلَ بينَه وبينَه وِقاية[4].

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

بيَّن اللّهُ تبارَك وتعالَى في الآية الكريمةِ أحوالَ المتَّقين الَّذين يستحقُّون هذا النَّعيم،

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 1/411.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 4/279، بتصرّف يسير.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (وقى).
(4) الجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (وقى).

فذكَر أنهم هم الَّذين يتوسَّلون إلى اللّهِ تبارَك وتعالَى بإيمانِهم به أنْ يمُنَّ عليهم بمغفرةِ الذُّنوبِ، والوقايةِ من عذاب النَّارِ، وفي هذا الدُّعاء اعترافٌ بالذّنوب وإنابَةٌ إلى اللّه تعالى، فبدأ بالإيمان الذي هو رأسُ التّقوى، ورتَّبوا على ادّعائهم الإيمانَ سؤالَهُم المَغفرةَ والوِقايةَ من العذابِ، وجاءَ ترتيبُ الوِقايةِ لمجرّدِ الإيمانِ، فدَلّ على أنَّ المؤمنينَ يستحقّونَ المغفرةَ بإيمانهم، وخصّوا المسألةَ بأن يقيهم عذابَ النار؛ لأنَّ من زُحزح يومئذٍ عن النار فقد فازَ بالنجاةِ من عذاب اللّه وحسنِ مآبه[1].

وفي ترتيب الدّعاء على مجرَّدِ الإيمان دلالةٌ على كفايته في استحقاق المغفرةِ والوِقاية من النّار[2].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

أثرُ إعرابِ ﴿ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ﴾ في تجلية المعنى:

تعدُّدُ الأعاريبِ يُعطي القارِئَ احتمالاتٍ دلاليَّةً متنوِّعةً

الاسمُ الموصولُ في قولِه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ﴾ يَحْتَمِلُ الرّفعَ والنّصبَ والجرَّ، فالرّفعُ على أنّه مبتدأ محذوفُ الخبرِ، تقديرُه: الذين يقولون كذا مستجابٌ لهم، أو لهم ذلك الخيرُ المذكورُ.

أو على أنّه خبرُ مبتدأٍ محذوفٍ، كأنّه قيل: مَنْ هم هؤلاء المتقون؟ فقيل: الذينَ يقولون كَيْتَ وكَيْتَ.

والنّصبُ بإضمار أَعْني أو أمدحُ. والجَرُّ على أنّه نعتٌ للذين اتّقوا أو بدلٌ منه، أو نعتٌ للعباد أو بدلٌ منه، والمرادُ على الأخير: إعلامُهم بأنّه تعالى عالمٌ بمِقدار مشقَّتِهم في العبادة فهو يُجازِيهم عليها[3].

معنى القول في قولِه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ﴾ "الكلامُ المطابِقُ

(1) ابن جرير، جامع البيان: 6/264.
(2) إسماعيل حقي، روح البيان: 2/11.
(3) الرازي، مفاتيح الغيب: 7/165 - 166، والسمين، الدر المصون: 3/69، وأبو حيّان، البحر المحيط: 3/56 - 58، والآلوسي، روح المعاني: 2/99.

للواقعِ في الخبرِ، والجاري على فَرْطِ الرّغبة في الدّعاء في قَوْلِهِمْ: ﴿فَٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾ إلخ، وَإِنَّمَا يَجْرِي كَذَلِكَ إِذَا سَعَى الدَّاعِي فِي وَسَائِلِ الْإِجَابَةِ وَتَرَقَّبَهَا بِأَسْبَابِهَا الَّتِي تُرْشِدُ إِلَيْهَا التَّقْوَى، فَلَا يُجَازَى هَذَا الْجَزَاءَ مَنْ قَالَ ذَلِكَ بِفَمِهِ وَلَمْ يَعْمَلْ لَهُ"[1].

القولُ المقبولُ في الدُّعاءِ هو ما طابقَ قلبَ قائِلِه

سرُّ التَّعبيرِ بالاسم الموصولِ ومجيءِ صلته مضارِعًا:

عبَّر بالاسمِ الموصولِ ﴿ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ﴾ دون الاسمِ الظاهرِ، فلم يقل: القائلين، وذلك لمَزيدِ مَدْحهم، وأتى بصلةِ الموصولِ في قولِه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ﴾ فعلًا مضارِعًا ولم يأتِ بصيغةِ الماضِي كما أتى قولُه: ﴿لِلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ﴾ [آل عمران: 15]؛ لبيانِ أنَّ التَّقوى هي العنصرُ الثَّابتُ في القلبِ، وليفيد تجدُّدَ ذلك الدُّعاءِ واستمرارَه مع تجدُّدِ الأجيال المؤمنةِ، فيَصنَعُ صَنِيعَهُ فيهم بإرشادِهم إلى طلبِ المغفرةِ وحُسنِ الجَزَاء في الآخرةِ كما فُعِلَ فيمَنْ سَبَقهم.

التَّقوى هي العنصرُ الثَّابتُ للأقوالِ الصَّادقةِ المتُجدِّدة

بلاغة الإطناب بذكرِ ﴿إِنَّنَآ﴾:

في قولِ الدَّاعين: ﴿إِنَّنَآ﴾ تأكيدُ الكلامِ بمؤكِّدَيْن اثنين، وهما: (إنّ) وضميرُ المتكلِّمين (نا)، وهو من قَبيلِ الإطنَابِ، إذ لو حُذِفتْ من الكلامِ فقيل: (ربّنا آمنّا فاغفر لنا)؛ فُهِمَ المعنى المُرادُ، مع تحقُّق الإيجازِ اللَّفظيِّ، لكنّ الإطنابَ بذِكر ﴿إِنَّنَآ﴾ يُضفي على الدُّعاءِ معنًى لا يتحقَّقُ بدونِه، إذ يُوحي ذلك التَّأكيدُ سُمُوَّ الدُّعاء وصدقَ قائلِه، ويومِئُ بنوعِ رجاءٍ مُحاطٍ بالخشيةِ، ولإظهار أنّ إيمانَهم ناشئٌ من وُفور الرّغبة وكمالِ النّشاط[2]، بالإضافةِ إلى الإشارةِ إلى معنى التَّعليلِ[3]؛ فكأنَّهم قالوا: (لأنَّنا آمنا)، وهذه فائدةُ الإطنابِ، الذي مآلُه إيجازٌ معنويٌّ، وإن ظهرَ بأنَّه إطنابٌ لفظيٌّ.

الإيماءُ إلى صدقِ الدَّاعينَ، ورجائِهم المُحاطِ بالخشيةِ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/184.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 2/99.
(3) السيوطي، الإتقان: 2/406 - 407، ومعترك الأقران: 1/609 - 610.

ثمَّ إنَّ (إنَّ) أكَّدَتْ مضمونَ الجملةِ، فنابَتْ عن تكرير الجُملة مرّتين، وهي أوجَزُ من تكريرِها مرّتين، مع حُصُول الغَرَضِ من التّأكيدِ، مع أنّ التّوكيد بإنّ، والتّكريرَ ليسَا بمنزلةٍ واحدةٍ[1]، فعلمنَا أنَّ ما كانَ إطنابًا في الظَّاهرِ، هو إيجازٌ في المآلِ.

بلاغةُ التَّفريعِ وخُروج لفظِ الأمرِ إلى معنى الدّعاء:

ترتيبُ طلبِ المغفرةِ على الإيمانِ دليلُ صدقٍ وتعليمُ صادقين

لمّا ذَكرَ الإقرارَ بالإيمانِ وأكّدَهُ بمؤكّداتٍ عدَّة، وفرَّع على قولِه: ﴿رَبَّنَآ﴾ فعلَ الدّعاءِ ﴿فَٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾؛ الذي أفادَ ترتيبَ المغفرة على الإيمان؛ إذ إنّ من دواعي مغفرةِ الذّنوب الإيمانَ؛ فاقتضى التّفريعُ استطرادَ الدّاعين؛ فتوسّعوا بعد أن ذَكروا إيمانهم وأكّدوه في نُفوسهم وأقوالهم شَغَفًا وصِدقًا؛ ومن شأن التّفريع أنْ يزيدَ المُفرَّع عليه توكيدًا؛ فدعاؤهم هذا توكيدٌ لإيمانِهم وصدقِهم وقناعتِهم استحقاقَهم من اللّه تعالى تلك المغفرة[2].

وتفريعُ المغفرة على الإقرارِ بالإيمانِ دليلٌ على أنّه كافٍ في استحقاقِ المغفرةِ والاستعداد لها[3]، وقيل إنّ الفاء في قوله: ﴿فَٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾ للتّعليل؛ لأنّ الإيمانَ عِلّة الغُفران[4]، والأليقُ أن تكونَ تفريعيَّة، فإنَّ العبدَ لا يُعلِّل طلبَ مغفرتِه ليأخذها عدلًا، بل يلتمس المغفرةَ بالإيمانِ فضلًا.

بلاغةُ ترتيبِ طلبِ الوقايةِ على طلبِ المغفرة:

غفرُ الذُّنوبِ عن العبادِ أرجى وآكد في وقايتِهم من النَّار

ذكرَ الدَّاعون إيمانَهم باللّه تعالى توسُّلًا به، ثم طلبوا المغفرةَ من باب التَّخلية، فقولهم: ﴿فَٱغۡفِرۡ لَنَا﴾ متضمّنٌ إقرارَهُم بالذُّنوبِ، ثمَّ قالوا: ﴿وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾، وجيءَ بحرفِ الواوِ عطفًا على فعل ﴿فَٱغۡفِرۡ﴾، إذِ الوقايةُ من عذابِ النَّارِ تكونُ آكدَ عند مغفرةِ الذُّنوبِ،

(1) ابن يعيش، شرح المفصّل: 8/59، والسيوطي، الأشباه والنظائر: 1/29.
(2) ابن رشيق، العُمدة: 2/42.
(3) الكفويّ، الكُلّيات: 676 - 677، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 2/9.
(4) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 1/473.

وهو غايةُ المَقْصِدِ من المغفرة، وهو الوِقاية من عذاب النّار، وذلك كلُّه مقتضَى رضَا اللّه عنهم، ومجازاتِهم بالجنّة؛ فمَن وقاه اللّه من عذابِ النّار أكرمَه بدخول جنّته.

دلالة إضافة الجمع إلى المعرفة:

شِـدّة طمعِهم في مغفرة سائر الذّنوب صغيرِها وكبيرها

أُضيفتِ الذّنوبُ وهي جمعٌ في قولِه تعالى: ﴿ذُنُوبَنَا﴾ إلى ضمير المتكلّمين (نا) وهو معرفةٌ؛ لإفادةِ العمومَ، أي: اغفر لنا كلَّ ذنوبنا، فتشمَل الكبائرَ والصغائر[1]، وفي ذلك إجمالٌ في الدُّعاءِ، وهو فقهٌ روحي يرتاضه الدَّاعون، ويدلُّ على شدَّةِ طَمَعِهم في طلبِ المغفرةِ عن جميعِ الذُّنوب.

(1) البقاعي، نظم الدرر: 4/280، والآلوسي، روح المعاني: 2/99.

﴿ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلۡقَٰنِتِينَ وَٱلۡمُنفِقِينَ وَٱلۡمُسۡتَغۡفِرِينَ بِٱلۡأَسۡحَارِ ١٧﴾ [آل عمران: 17]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لما وَصف اللّه تقوى قلوبِهم باطنًا، ومَدَحَ المُتّقين بالتّزكية الإيمانيّة؛ تابعَ الوصفَ لهؤلاءِ المتّقينَ مبيّنًا الصّفات التي استحقّوا بها تلكَ الدّرجاتِ؛ فقال: ﴿ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلۡقَٰنِتِينَ وَٱلۡمُنفِقِينَ وَٱلۡمُسۡتَغۡفِرِينَ بِٱلۡأَسۡحَارِ ١٧﴾، وبيَّن أدبَ مقالِهم ظاهرًا، وصف أحوالَ أنفسِهم ليتطابق ظاهرُ أمرهم بمتوسّطه وباطنه، ووجْهُ النّظمِ أنّه مدحَ المؤمنينَ وأثنى عليهم، ثمَّ بيَّن أنَّ دلائلَ الإيمان ظاهرةٌ جليّةٌ[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَٱلۡقَٰنِتِينَ﴾: القُنوتُ الطّاعةُ، وما يترتّب عليها من انقيادٍ وخُضوعٍ ونحو ذلك، وقَنَتَتِ المرأة لزوجها: أطاعته، والقُنوت: الخُشوع، والقانت: القائم بجميع أمر اللّه تعالى، وقانتٌ للّه: مطيع خاشع، فالقُنوت: خُشوع وإقرار بالعبودية وقِيامٌ بالطّاعة[2].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

فصَّلَ اللّهُ تعالى خِصال التَّقْوى، فالآيةُ تَعدادٌ لصِفات الذين اتّقَوا، وهم الذين تتوافر فيهم هذه الصِّفاتُ جميعًا: الصَّابِرينَ في أداء الطّاعات وعلى تركِ المحظورات وعند المِحَنِ والشدائد، والصَّادِقِينَ في الأقوال والأفعال والنِّيَّات، والقانِتِينَ المُقيمين على الطّاعات، المواظبين عليها، والمُنفِقين ما تيسَّر على من تيسَّر بشروطه ومَصارفِه وُجوبًا ونَدْبًا، والمُستغفِرين في السَّحَر وهو سدسُ اللّيل الأخير قبلَ طُلوع الفجر، وخُصَّ هذا الوقتُ لأنّهم كانوا يُقدّمون قيامَ الليل حتّى إذا كان السّحرُ أخذوا في الدّعاء والاستغفار[3]. وللاستغفار بالأسحار آثارُه وأنواره؛ إذ السَّحر وقتُ النّوم والغَفلة[4].

(1) البقاعي، نظم الدرر: 4/281، أبو حيّان، البحر المحيط: 3/56 - 58، والنيسابوري، غرائب القرآن: 2/124 - 126.
(2) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (قنت).
(3) الزمخشري، الكشّاف: 1/343.
(4) ابن عطية، المحرر الوجيز: 1/41.

وتتفاوتُ درجاتُ المتَّصفين بهذه الأوصاف، فمنهم مَن فاقَ الصّبرُ عنده غيرَها، فسُمّوا بالصّابرين، ومنهم من كان الصّدقُ سِمَةً بارزة له؛ فسُمّوا بالصّادقين، وهكذا. فذَكر خمسًا من الصّفات العالية لأهلِ التَّقْوى، واكتفى بها عمَّا سواها؛ لأنّها تَجمع الخيرَ كلّه، ثمّ إنّها تتشعّب منها صِفاتٌ كثيرة فتشمَل كلَّ صِفات الخير.

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

توجيهُ الصِّفاتِ المذكورةِ دونَ غيرِها بالذِّكر:

ذِكْـــرُ أصـــولِ فضائلِ صفاتِ أهلِ الإيمان

ذُكرَ في قولِه تعالى: ﴿ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ﴾، أصولُ صفاتِ أهلِ الإيمانِ، فالصّبرُ مِلاكُ فعلِ الطّاعات وتركِ المعاصي، والصِّدقُ مِلاكُ الاستقامة وبثِّ الثِّقة بين أفراد الأمة، والقُنوت ملازَمةُ العباداتِ في أوقاتها وإتقانُها، وهو عبادةٌ نفسيّة جسديّة، والإنفاقُ أصل قيامِ الأمّة بكِفاية حاجة المحتاجين، والاستغفار بالأسحار الدّعاء والصّلاة المشتمِلة عليه في أواخر اللّيل، والغرضُ من ذكرِها هو بيانُ ما داومَ عليه أولئك المتَّقون من الأعمالِ الصَّالحة، فكانوا متَّقين مقبولًا دعاؤُهم.

نكتةُ تقييدِ الاستغفار بوقتٍ دون غيرِه من الصِّفات:

مَنِ استغفرَ اللهَ أوّلَ يومِه كان أبعدَ عن كلاليبِ الشَّهوات

جاءتِ الصِّفاتُ مطلقةً من القيودِ في قولِه تعالى: في قولِه تعالى: ﴿ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ﴾، فلم يقُل: الصَّابرين على الشَّدائد، والصَّادقين في أقوالِهم، والقانتين في اللَّيلِ، والمنفقين من أموالِهم، وذلك أنَّ الصَّبرَ بابُه واسعٌ، ومثله بقيَّة الصِّفات، بخلافِ الاستغفارِ ﴿وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ﴾، فقُيِّدَ بوقتِ الأسحارِ؛ وذلك لأنّ العبادةَ فيه أشدُّ إخلاصًا لما في ذلك الوقتِ من هدوءِ النّفوس، وصفاءِ السَّرائر، والتَّجرُّدِ عن الشّواغل، ولدلالته على

اهتمام صاحبِه بأمر آخرتِه[1]، ولأنَّ من يبدأُ يومَه باستغفارٍ كان أبعدَ عن مطالبِ الشُّبهات وكلاليبِ الشَّهوات.

بلاغة دخول الواو على الصِّفات المتعدِّدةِ لموصوفٍ واحدٍ:

تنزيلُ تعدُّدِ الصِّفات منزلةَ تعدُّدِ الذَّوات

دخلتِ الواوُ بين الصِّفاتِ في قولِه تعالى: ﴿ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلۡقَٰنِتِينَ وَٱلۡمُنفِقِينَ وَٱلۡمُسۡتَغۡفِرِينَ بِٱلۡأَسۡحَارِ ١٧﴾ لقطعِها عن الوصفيّة، مع أنّها صفاتٌ لموصوفٍ واحدٍ في اللّفظ متعدِّدٍ في المعنى تفخيمًا للموصوفِ، وإيذانًا باستقلالِ مدحِ كلِّ صفةٍ لموصوفها، ودلالةً على انفرادِهم بأنواع الكمالات، أو إشارةً إلى أنّ كلَّ واحدٍ منها يكفي في استحقاقِ المدحِ والثَّوابِ، وفي هذا إشارةٌ إلى كمال الموصوف في كلِّ صفةٍ منها، وإيذانٌ بأنّه منهم صابرٌ ومنهم صادقٌ، وهكذا جميع الصّفات، والمعنى أنّهم الجامعون لتلك الصّفات، ولتبايُنِ كلِّ صفةٍ عن الأخرى؛ إذ ليست كلُّها في معنًى واحدٍ، فينزَّل تغايُرُ الصّفاتِ وتبايُنُها منزلةَ تغايُرِ الذّواتِ، فكأنَّ كلَّ صفةٍ هي لموصوفٍ قائمٍ بذاتِه.

وجامِعُ ما ذَكره العلماء أنّ ذلك من قَبيل التّوسُّع في وصف أفراد الأمّة الإسلامية؛ فهي قد اشتملت برجالها ونسائها على هذه الصفات الإنسانيّة النّادرة[2].

بلاغة إيثارِ صيغة اسمِ الفاعل في تعدادِ الأوصافِ:

مقامُ تحدُّثِ المؤمنِ عن نفسِه، يختلفُ عن مقامِ إخبارِ الله عنها

عبَّر النَّظم في قولِه تعالى: ﴿رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا﴾، بصيغة الماضي، بينما ذُكِرَت الأوصافُ بصيغةِ اسْمِ الفاعل في قولِه تعالى: ﴿ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلۡقَٰنِتِينَ وَٱلۡمُنفِقِينَ وَٱلۡمُسۡتَغۡفِرِينَ﴾؛ فمايَزَ بين الموضعين، فلم يقل: ربّنا إنّنا مؤمنون، وفي ذلك بلاغةٌ تَكشِف عن

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/185.

(2) الزمخشري، الكشاف: 1/47، والنيسابوري، غرائب القرآن: 2/124 - 126، وأبو حيّان، البحر المحيط: 3/56 - 58، وإسماعيل حقّي، روح البيان: 2/11، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/185.

تناسُب الصيغة بالمعنى المستفاد منها، ففي ذكر الأوصاف بالاسميّة دلالةُ الثّبوتِ والرُّسوخ والتّكرار؛ فلا يوصف أحدُهم بواحدة من هذه الصّفات إلّا إن كانت هي دأبَه ومَحطَّ اهتمامِه ونشاطه، فهي صفةٌ راسخة فيه، فجاء الوصف بصيغة اسم الفاعل، أمّا ذكره الإيمانَ بصيغة الفعل ففيه دلالةُ الارتباط بالزّمن لتستدعيَ التّجدُّدَ والاستمرار[1]، بالإضافةِ إلى أنَّ ذكرَ الإيمانِ هو في حالِ صدورِه عنهم، وأمَّا بقيَّةُ الصِّفات فهي باعتبارِها إخبارًا من اللّه تعالى.

سرُّ الجمعِ بين طلبِ المغفرةِ والاستغفار بالأسحار:

التَّخليةُ قبل التَّحليةِ

لسائلٍ أنْ يسألَ عن سرِّ الجمعِ بينَ طلبِ المغفرةِ في قولِه تعالى: ﴿فَٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾، والإخبارِ عن الاستغفارِ في قولِه تعالى: ﴿وَٱلۡمُسۡتَغۡفِرِينَ بِٱلۡأَسۡحَارِ﴾، وذلك أنَّه لمّا رتّبُوا طلبَ المغفرَةِ على الإيمان وهو أصلُ التّقوَى، أخبَرَ عنهُم أنَّهُم مستغفرون بالأسحار؛ إذ لا يَرون اتِّصَافَهُم بهذه الأوصاف الشَّريفة مِمَّا يُسقِطُ عنهم طلبَ المغفرةِ، فهم يستغفرون ابتداءً على الدَّوام، ويطلبون المغفرةَ انتهاءً إن وقعتْ منهم ذنوبٌ، وهذا من التَّخليةِ قبل التَّحليةِ.

معنى الباءِ في قولِه: ﴿بِٱلۡأَسۡحَارِ﴾:

معنى الباء الرئيسُ هو الإلصاقُ، وما ذُكر لها من معانٍ أخرَ تَحمل هذا المعنى، فهو لا يُفارقها[2]، فالاستغفارُ عند تلك الفئةِ ملتصقٌ بالأسحار فكأنّهم لا يُفَوِّتون سحَرًا من اللَّيالي إلّا وكانوا فيه من المستغفرين، وما داموا مُداومين على هذه الصِّفةِ فهم فيها مستغفرون.

(1) الرازي، مفاتيح الغيب: 25/29.

(2) سيبويه، الكتاب: 4/217، وفاضل السامرائي، معاني النحو: 3/17.

﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلۡعِلۡمِ قَآئِمَۢا بِٱلۡقِسۡطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ١٨﴾ [آل عمران: 18]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا ذَكر اللّه صفاتِ المؤمنينَ ولم يَذكر العلمَ وأهلَه في شيء؛ ذَكره في هذه الآية، فَقَرَنَ شهادتَهم بشهادتِهِ سبحانَه، وجَمع أولي العلم والملائكةَ، وجعلَهم شهداءَ اللّه في الأرضِ على وحدانيّةِ اللّه؛ فبيّنَ أنَّ مكانَةَ أهلِ العلمِ أسمى من كلّ أصنافِ الخير المذكورة في الآية السَّابِقَةِ، وأنّ طلبَ العِلم أسمى أصولِ صفاتِ أهلِ الإيمانِ؛ لأنّ أهلَ العلمِ هم من يُدافعُ عن التّوحيدِ ويُقدّمُ الأدلَّة عليه[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿شَهِدَ﴾: الشّهادة: حضورٌ وعلْمٌ وإعلامٌ، فالحضور يَلزم منه علمٌ يترتَّب عليه إعلامٌ، ويترتّب على الإعلام حكمٌ. والمَشْهَدُ: مَجْمعُ النّاسِ، والجمعُ مَشاهدُ، والشَّهَادَةُ: خَبَرٌ قَاطِعٌ، والمُشاهَدةُ: المُعايَنةُ، وقَوْمٌ شُهُودٌ، أَي: حُضُورٌ[2].

ومعنى شهِد في الآية: أعْلَمَ، أو قَضَى، أو حَكَمَ، أو بَيّنَ، أو شهِد بإظهارِ صُنعِه[3].

2) ﴿بِٱلۡقِسۡطِۚ﴾: الْقَافُ وَالسِّينُ وَالطَّاءُ أَصْلٌ صَحِيحٌ يَدُلُّ عَلَى مَعْنَيَيْنِ مُتَضَادَّيْنِ وَالْبِنَاءُ وَاحِدٌ. فَالْقِسْطُ: الْعَدْلُ. وَيُقَالُ مِنْهُ أَقْسَطَ يُقْسِطُ، قَالَ اللّه تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ٤٢﴾ [المائدة: 42، الحجرات: 9، الممتحنة: 8]، وَالْقَسْطُ بِفَتْحِ الْقَافِ: الْجَوْرُ. وَالْقُسُوطُ: الْعُدُولُ عَنِ الْحَقِّ، يُقَالُ قَسَطَ، إِذَا جَارَ، يَقْسِطُ قَسْطًا. وَالْقَسَطُ: اعْوِجَاجٌ فِي الرِّجْلَيْنِ، وَهُوَ خِلَافُ الْفَحَجِ. والقِسْطُ، بكسر القاف، والإِقْساطُ: العدلُ في القِسمة والحُكم، والفعلُ منهما أَقسطَ بالألف، تقول: أَقسَطْتُ بينهم وإليهم، وتَقسَّطُوا بينهم الشيءَ: اقتسَموه بالتّسوية، فكلُّ مقدارٍ قِسطٌ في كلِّ شيءٍ، يُقال: أَقْسَطَ، أَي عَدَلَ، فهو مُقْسِطٌ، وَفِي أَسمائه تعالى الحُسنى المُقْسِطُ، وهو العادِلُ[4].

(1) الرازي، مفاتيح الغيب: 7/168، ومحمد علي جميل، صفوة التّفاسير: 1/172.

(2) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة: (شهد).

(3) ابن جرير، جامع البيان: 6/268، والراغب، تفسير الراغب: 2/464.

(4) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، والزبيدي، تاج العروس: (قسط).

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

شهِد اللّه وبيَّن وأَعلمَ تعالى عبادَه انفرادَه بالوحدانيّة، وأنّه هو الإله المعبود بحقٍّ دون سِواه، وذلك بما أقام من الآيات الشرعيّةِ والكونيّة الدّالّة على أُلوهيَّته، وشهِد على ذلك الملائكةُ بالإقرار بها، وشهِد أهلُ العلم على ذلك ببيانهم للتّوحيد والإيمان به ودعوتِهم إليه وإقامةِ الحُجَّة عليه، فشهِدوا على أعظمِ مشهودٍ به، وهو توحيدُ اللّه وقيامُه تعالى بالعدل في خلْقه وشرعه، لا إله إلا هو العزيز الذي لا يُغالبُه أحدٌ، ولا يمتنع عليه شيء أراده، الحكيمُ في خلْقه وتدبيرِه وتشريعِه[1].

ويُذكَرُ أنَّ سبب نزولِ الآية ما قاله محمد بن السَّائب الكَلْبيُّ: أنّه لمّا ظهر رسولُ اللّه ﷺ بالمدينة قدم عليه حَبْرَانِ من أحبار أهلِ الشّام، فلمّا أبصرا المدينةَ قال أحدُهما لصاحبِه: ما أشبهَ هذه المدينةَ بصفةِ مدينة النبيّ ﷺ الذي يَخرج في آخر الزّمان، فلمّا دخلا على النبيّ ﷺ عَرفاه بالصِّفة والنَّعت، فقالا: أنت محمدٌ؟ قال: نعم، قالا: وأنت أحمدُ؟ قال: نعم، قالا: إنّا نسألك عن شهادة فإنْ أنت أخبرتَنا بها آمنّا بك وصدّقْناك، فقال لهما رسولُ اللّه ﷺ: سَلاني، قَالا: أخبرْنا مَنْ أعظَمُ شهادَةً في كتابِ اللّه؟ فأنزلَ اللّه على نبيّهِ: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾، فأسلم الرّجلان وصدَّقا رسولَ اللّه ﷺ[2].

الإِيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

تناسُبُ الآية مع مطلَعِ السّورةِ وما بعدها:

قوله تعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلۡعِلۡمِ قَآئِمَۢا بِٱلۡقِسۡطِۚ﴾ استئنافٌ وتمهيد لقوله: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ﴾ فالشهادةُ هي أساسُ الإسلامِ، وإعلانُ هذا التّوحيد دينًا خالصًا للّه سبحانه، وفيه تعريض بالمشركين والنّصارى واليهود، وجميعِ الذين يَدينون بالتّوحيد، وإنْ تفاوَتوا في مراتب الإشراك،

التّوحيد هو محورُ سورة آل عمران

(1) محمد علي جميل، صفوة التّفاسير 1/173، جماعة من العلماء، المختصر في تفسير القرآن الكريم، ص: 52.

(2) السّمرقندي، بحر العلوم: 1/200، وابن الجوزي، زاد المسير: 1/361، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 4/41، والنيسابوري، غرائب القرآن: 2/124 - 126، وابن عادل، اللباب: 1/1005، والآلوسي، روح المعاني: 3/104.

وهذه الآية مرتبطةٌ بمطلع السورة؛ لأنّه يؤكِّد ما افتُتحتْ به السّورة من قوله: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ۝٢﴾ [آل عمران: 2][1].

سرُّ استعمالِ ﴿شَهِدَ﴾ مَجازًا لُغويًا:

تعدُّد الاحتمالات لمعنى الشَّهادة راجعٌ لقوَّةِ الاستعمالِ السِّياقيِّ والمعنى المجازيِّ

حقيقةُ الشّهادة خبرٌ يُصدَّق به خَبَرُ مُخْبِرٍ وقد يُكذَّب به خبرٌ آخر، فشأنُه أن يكون للتّصديق والتّكذيب في الحقوق، فلذلك أُطلقت الشّهادة مجازًا على الخبر الذي لا ينبغي أن يُشكّ فيه؛ وذلك على سبيل المجاز المرسَل بعلاقة التّلازُم، فشهادةُ اللّه في الآية تحقيقُه وحدانيّتَه بالدّلائل التي نَصَبها على ذلك، وشهادةُ الملائكة تحقيقُهم ذلك فيما بينهم، وتبليغُ بعضِهم ذلك إلى الرّسل، وشهادةُ أُولي العلم تحقيقُهم ذلك بالحُجج والأدلّة، فإطلاقُ الشّهادة على هذه الأخبار مجازٌ بعلاقة اللّزوم، أو: تشبيهُ الإخبارِ بالإخبار، أو أنّه تعالى شبّه ذلكَ في البيان والكَشف بشهادة الشّاهدِ[2].

وكلُّ واحد من الأمور المتقدمة يُسمّى شهادة، على نظير قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ۝٥٦﴾ [الأحزاب: 56] ومعلوم أنّ الصّلاة من اللّه غيرُ الصّلاة من الملائكة، ومن الملائكة غيرُ الصّلاة من النّاس، مع أنّه قد جمعهم في اللّفظ[3].

ويُمكن أن تكون شهادة اللّه بمعنى الدّلالةِ ونَصْبِ الأدلّة، وشهادةُ الملائكة وأُولي العلم بمعنى الإقرار، أو بمعنى إقرار الملائكة واحتجاج أُولي العلم، وفيه تَنْبيهٌ على استعمال شهِد في مَعانٍ مجازيّة، أو على استعمال شهِد في مَجاز أَعمَّ هو الإظهارُ، حتى يكون نَصْبُ الأدلّة والإقرارُ والاحتجاجُ من أفراد ذلك العامّ، بِناء على عموم المَجاز[4].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/186 - 187.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/186 - 187.
(3) الرازي، مفاتيح الغيب: 7/168 - 169.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/186 - 187.

ويمكن أنْ يكون شهِد بمعنى بيَّنَ وأقام الأدلّة، شُبّه إقامة الأدلّة على وحدانيّته، من إيجاد المخلوقات ونَصْبِ الأدلّة العقليّة، بشهادة الشاهد بتصديق الدَّعوى في البيان والكشف على طريق الاستعارة التَّبَعِيّة[1].

سِرُّ عَطْفِ الملائكةِ وأولي العِلْمِ في الشَّهادةِ على لفظِ الجلالةِ:

الشَّهادةُ قائمةٌ على أصلِ العلمِ، مع تفاوت العالمين بمضمون الشَّهادة

عُطفتْ شهادة الملائكةِ وأولي العلم على شهادته تعالى تعظيمًا لشهادتِهما، فإنَّ اشتراكهما في لفظٍ واحدٍ وهو ﴿شَهِدَ﴾ يُعطيهما جلالًا وتعظيمًا، ومشاركتُهما لله تعالى في الشهادة من حيثُ عُطِفا عليه لصِحّة نِسبةِ الإعلامِ، أو صِحّةِ نِسبةِ الإظهارِ والبيان، وإنِ اختلفتْ كيفيّةُ الإظهار والبيان من حيث إنّ إظهارَه تعالى بخلق الدلائل، وإظهارَ الملائكة بتقريرها للرُّسُل، والرُّسُلِ لأُولي العلم[2]، وتضمّنتْ شهادة الله على وحدانيّته قدرتَه في خلقه، على سبيل التّحدّي والإعجاز لمن ادَّعى الألوهيّة، أو ادَّعى شريكًا لله في خلقه ومُلكه.

دلالةُ حذف الخبر:

تكريم الله لملائكته وأُولي العلم إذْ جَمع شهادتَهم إلى شهادته على وحدانيّته سبحانَه

على إعراب ﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾ و﴿وَأُوْلُواْ ٱلۡعِلۡمِ﴾ مبتدأً، فإنَّ الخبرَ محذوفٌ لدلالةِ الكلامِ عليه؛ والمعنى: والملائكة وأُولو العلم يشهدون بذلك، أو شهداء[3]، وفي هذا الإعراب تكريمٌ للملائكة وأُولي العلم لتحقيق المكانة العالية عند الله التي تَضمَّنَها اتّحادُ شهادتهما مع شهادة الله تعالى، فكانت شهادتُهما كشهادة الواحد مناسبةً للتّوحيد، ثم إنّ فيها دلالةَ التّبعيّةِ والعبوديّةِ له سبحانَه، فهو موافقٌ في المعنى في إعراب اللَّفظين معطوفين على لفظ الجلالةِ.

توجيه المخصوصِ بالذِّكر:

خصَّتِ الآية الملائكةَ في السَّماءِ، وأولي العلمِ في الأرضِ بالذِّكر من بين سائرِ العبادِ؛ لبيانِ أن شهادةَ التَّوحيد إنَّما تصدُر عمّن

(1) الرازي، مفاتيح الغيب: 7/168، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 2/16.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 3/60.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 2/17.

يُعتدُّ به مِن خلقه ممّن أَطلعَهم على ما لم يُطلع عليه الإنسانَ من المَلَكِ والمَلَكُوت، ولا شاغلَ لهم من شهوة ولا حظٍّ ولا فُتور، والملائكة العبادُ المقرَّبون الذين ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۝٦﴾[1]، ثمّ عطف عليهم أُولي العلم، فهم شُهداءُ اللّه في الأرضِ، وهم المخوَّلون بالدَّعوةِ إلى عقيدةِ التَّوحيدِ على وجهِها الحقِّ، وسواهم تَبَعٌ لهم.

أولو العلمِ هم شُهداءِ الله في الأرضِ، وهم أصلُ الأمرِ ومنتهاه

سرُّ تقديمِ الملائكةِ على أُولي العلم:

قدَّمتِ الآيةُ شهادةَ الملائكةِ على شهادةِ أُولي العلم، مع أنّ شهادة أُولي العلم تقتضي البحثَ والاكتشاف والمثابَرة، ثمّ الإقرار، بَيْنَما شهادة الملائكة إقرارٌ فحَسْبُ، وسرُّ ذلك أنّه قدَّم الخاصَّ على العامِّ، والسّابقَ في العلم على اللّاحقَ فيه، ولأنَّ الملائكةَ هم الملأُ الأعلى، فعِلْمُهم كلُّه ضروريٌّ، بخلاف البشر فعلمُهم منه ما هو ضروريٌّ ومنه ما هو كسبيٌّ[2].

شهادةُ الملائكة تامّة وعلمُهم بشواهد اللّه أوسعُ، وفضلُهم في إيصال الرّسالات أكبر

بلاغةُ قولِه تعالى: ﴿قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِۚ﴾:

أوَّلًا: أوجُه الإعراب في قوله: ﴿قَآئِمًۢا﴾:

في إعراب قولِه تعالى: ﴿قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِۚ﴾ أوجهٌ:

الأوَّلُ: حالٌ من لفظ الجلالةِ، والتَّقديرُ: شَهِدَ اللّه قائمًا بالقسطِ، أو من الضَّمير ﴿هُوَ﴾، والتَّقدير: لا إلهَ إلّا هو قائمًا بالقسط، أو من ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ﴾؛ أي: حالَ كونِ كلِّ واحدٍ منهم قائمًا بالقسطِ في أداء هذه الشَّهادة.

الثَّاني: صفة المنفيّ، كأنّه قيل: لا إلهَ قائمًا بالقسط إلا هو[3]، وفيه معنى الاختصاصِ

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 2/43.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 3/60.
(3) الرازي، مفاتيح الغيب: 7/169.

الثَّالث: أن يكون نُصِبَ على المدح، أو على قطع الصّفة، والأصل: شَهِدَ اللّهُ القائمُ بالقسط[1]؛ فالشّهادة؛ قيامٌ بالقسط، والشّاهد بها قائمٌ بالقسط، ومعنى كونِه قائمًا بالقسطِ: قائمًا بالعدل في التّقسيم، يُجريه على سُنَنِ الاستقامة، ومُقيمًا للعدل فيما يَقسم من الأرزاق والآجال[2].

الإعـــــــرابُ الصَّحيح هو التَّابعُ للمعنى السَّليم وإن تعدَّدَ

وهذه الأعاريب الثَّلاثةُ تلتقي في صحَّةِ المعنى، فالحاليّة واضحةٌ من حيث إنَّ الشَّهادةَ بوحدانيَّةِ اللّه لا تكون إلَّا في هذه الحال، وكونُ ﴿قَآئِمًا﴾ صفةً فهي كذلك جليَّةٌ، وأمَّا النصبُ على المدح، فمن اتَّصف بهذه الصِّفة، وكانت حاله فالواجبُ فيه المَدْحُ والحَمْدُ.

ثانيًا: سرُّ إفرادِ لفظِ القيام في قوله: ﴿قَآئِمًا﴾ دون جمعِه:

أُفردَ لفظُ: ﴿قَآئِمًا﴾ ولم يُجمع فيُقال: (قائمين)؛ ليُفهمَ أنّه حالُ كلٍّ من المذكورين منفردًا، وليس حالَ المجموع بقيد الجمع، أو حالًا من الاسم الشريف، فيكون قد أُفرد إشارةً إلى أنّه ما وحّد اللّه سبحانَه وتعالى حقَّ توحيدِه غيره، لأنّه لا يُحيط به أحدٌ علمًا، وإنّما جاز إفراده بها لعدم اللَّبْس؛ أي تَفرَّدَ قائمًا، أو أُفرد القيامُ فاندرج مَنْ ذُكر مِن الملائكة وأُولي العلم في هذا القيام إفهامًا، كما اندرجوا في الشّهادة إفصاحًا[3].

ثالثًا: نكتةُ تأخيرِ قوله: ﴿قَآئِمًا بِٱلْقِسْطِۚ﴾:

علوّ رتبة الملائكة وأُولي العلم عند الله تعالى

تأخَّر ذكرُ ﴿قَآئِمًا بِٱلْقِسْطِۚ﴾ عن المعطوفَيْن، وهما الملائكةُ وأُولو العلم؛ للدّلالة على عُلوّ رتبتِهما عند اللّه تعالى، والمسارَعةِ إلى إقامة شهودِ التّوحيد اعتناءً بشأنه، ورفعًا لمحلِّه[4].

(1) الزمخشري، الكشاف: 1/343، 344، والرازي، مفاتيح الغيب: 7/169، 170، والسمين، الدر المصون: 3/75، 80.

(2) النيسابوري، غرائب القرآن: 2/127 - 128.

(3) البقاعي، نظم الدّرر: 2/43، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 9/2.

(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 2/17.

رابعًا: الاحتِراس في قوله: ﴿قَآئِمَۢا بِٱلۡقِسۡطِۚ﴾:

لمّا كانت الشّهادةُ محتملةً أن تكونَ على غَيْرِ وَجْهِ العَدلِ؛ نفى ذلك واحترَسَ بقولِه: ﴿قَآئِمَۢا﴾، وأُفرِدَ ليُفهمَ أنّه حالُ كلٍّ من المذكورين[1].

نكتةُ استعمال لفظِ: ﴿بِٱلۡقِسۡطِۚ﴾ دون غيرِه من الألفاظ:

يُطلق القِسط والقِسطاس على الميزان؛ لأنّه آلةٌ للعَدل في التّقسيم، قال تعالى: ﴿وَزِنُواْ بِٱلۡقِسۡطَاسِ ٱلۡمُسۡتَقِيمِۚ﴾ [الإسراء: 35]، وقال: ﴿وَنَضَعُ ٱلۡمَوَٰزِينَ ٱلۡقِسۡطَ لِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ [الأنبياء: 47]، وقد أقام اللّه القِسط في تكوين العَوالم على نُظُمها، وهذا ما يُطلق عليه اليوم بالميزان الكَونيّ، وصُورُه ممّا ذَكره العلماء لا تُعدُّ ولا تُحصى، وشواهدُه في القرآن الكريم واضحةٌ، من ذلك قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلۡمِيزَانَ ۝٧﴾ [الرحمن: 7]؛ أي وضع الميزان في تقدير بقاءِ الأنواع وإيداعِ أسبابِ المُدافَعة في نفوس الموجودات[2].

استعمالُ القسطِ بدلَ العدلِ لدلالته العلمية في تكوين العَوالم

وقد ناسب لفظُ ﴿بِٱلۡقِسۡطِۚ﴾ دون (العَدل) لأنّ العَدل عامّ، ويكون في الغالب مرتبطًا بشؤون حياة الناس، أمّا القِسط فهو واقعٌ في تقسيم ما تحتاجه المخلوقات كلُّها لتستمرَّ على ديمومتها؛ من أصغر شيء إلى أكبر شيء، فهو القَيُّومُ القائم بالقِسط عليها جميعًا[3]، وهذا معنى ﴿قَآئِمَۢا بِٱلۡقِسۡطِۚ﴾، فلو لم يكنْ سبحانَه كذلك لاستحالَ وجودُ الكونِ، وهؤلاء العلماءُ الذين يكتشفون هذا العلمَ الكونيَّ هم شهداءُ الأرض على عظيم هذا الخَلق ووحدانيّة الخالقِ سبحانَه.

استعمالُ القسطِ بدلَ المساواة لدلالته على إعطاءِ المخلوقاتِ حقَّها الأنسب

القِسط هو التقسيم بحسب ما تقتضيه الحاجةُ في خلق الكون، وهو معنى قوله تعالى ﴿إِنَّا كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَٰهُ بِقَدَرٖ ۝٤٩﴾ [القمر: 49]، وقولِه تعالى ﴿مِن كُلِّ شَيۡءٖ مَّوۡزُونٖ ۝١٩﴾ [الحجر: 19]، فالقِسط هو مراعاة

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 2/43.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/186 - 187.
(3) محمد باسل الطّائي، أوهام الإلحاد العلمي:. 185 - 187.

حاجاتِ الكون وأحواله بحسب ما قدّر لها سبحانَه أن تستقيم تلك المخلوقاتُ في انسجام وتوافُقٍ، فالتّقسيم بالقِسط إعطاءُ كلِّ خَلقٍ حقَّه مكانًا وزمانًا ومِقدارًا ودَيْمُومة، بحيث تتوافَقُ مفرداتُ الكون كلُّها.

أمّا المساواة فهي التّقسيم بالتّساوي، وليس على ما تقتضيه الحاجةُ والضرورة والأمثليّة في الخلق والكون والحياة.

أوجهُ تكرار قولِه: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ في الآية:

لبناءِ كلمة التوحيدِ الثّانيةِ على الأولى، توكيدًا وتحقيقًا واعتناءً

تكرَّر كلمةُ الإخلاص ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ بهذه الألفاظِ من مُفْتَتَح السّورة إلى هذه الآية أربعَ مرّات: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ۝٢﴾ [آل عمران: 2]، ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝٦﴾ [آل عمران: 6]، ثمّ في هذه الآية مرّتين، فجاء تكرار عمومًا؛ لبيان أنّ صِفاتِ تنزيهِ اللّهِ أشرفُ من صفاتِ تمجيدِه؛ إذ كان عامَّةُ صفاتِ التَّمجيدِ في ألفاظها مشارِكةً لأوصاف النّاس، يصِحُّ وصفُ العبادِ بها، ولأجْلِ ذلك فمعظم ما ورد من صفاته على لفظِ النّفي، نحو: ﴿لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ﴾ [البقرة: 255]، ثمّ إنّ أبلغ ما يُوصف به من التّنزيه ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾، وتكريرُها هنا لأوجهٍ:

أوَّلًا: لكونِ الجملةِ الثّانيةِ قطعًا للحكم؛ إذ قد يوصف بهما المخلوقُ.

ثانيًا: للتّأكيد ومَزيد الاعتناء بمعرفة أدلّةِ التّوحيدِ والحكم به بعد إقامةِ الحُجّة.

ثالثًا: ليُبنى عليها قولُه: ﴿ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾، فيُعلم أنّه الموصوفُ بهما.

رابعًا: لأنّ الثّانية في مرتبة القِسط الفِعليّ والأولى في مرتبة الشّهادةِ العلميّة؛ فاستوفَتِ الجملتان العلمَ والفعلَ، أي: أنَّ الأولى جرت مَجرى الشّهادة، والثانيَة جرت مَجرى الحكم بصِحّة ما شهِد به الشّهود، وفي ذلك حثُّ العباد على تكريرها.

خامسًا: أنّ الغرض من الإعادة أمرُ العباد بذكر هذه الكلمة ثانيًا على وَفْق تلك الشهادات الأُولى[1].

(1) الرازي، مفاتيح الغيب: 7/170 - 171، والراغب، تفسير الراغب: 2/466 - 467، والكرماني، أسرار التّكرار في القرآن الكريم، ص: 88، والبقاعي، نظم الدّرر: 2/43، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 2/17، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/186 - 187.

نكتةُ الحصرِ بالضمير في قوله: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ لا بالاسم الظّاهر:

قال تعالى ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ فأعاد بالضّمير ليكون الشّاهدُ والمشهودُ له واحدًا ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾، فأعاد الضّمير ﴿هُوَ﴾ لمعنى الوحدانيّة في الشّهادة[1].

بلاغةُ قَرْنِ وصفِ العزيز بالحكيمِ وتقديمِه عليه:

الإشـــارةُ إلى كـمـالِ الـقـدرةِ والـعِـلـمِ في سياقِ الانتصارِ للتَّوحيدِ

وحدانيَّتُه وقِيامه بالقِسط لا يَتِمُّ إلّا إذا كان عزيزًا حكيمًا، فهما الدّليلُ على ذلك؛ إذْ لا يَصِحُّ تَفَرُّدُ الإلهِ ولا قِيامُه بالقِسط دون الوصف بالعِزَّة الكاملةِ والحكمة الشّاملة، فالعزيزُ إشارة إلى كمال القُدرةِ، والحكيمُ إشارة إلى كمال العِلم، ولا تَتِمُّ القُدرة إلّا بالتَّفرُّد والاستقلال، ولا العدالةُ إلّا بالاطّلاع على المصالح والأحوال[2].

وهما صفتان مقرِّرتان لما وَصَف به ذاتَه من الوحدانيّة والعدل، فهو العزيزُ الذي لا يُغَالَبُ، الحكيمُ الذي لا يَجور في أفعاله، ولمَّا كانت الآيات كلُّها في الإيقاع بالكافرين قدَّم الوصفَ الملائم لذلك[3].

فنُّ التَّصديرِ:

في الفاصلةِ فنُّ التَّصديرِ، فمَجيءُ ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ بعد قوله: ﴿قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِۚ﴾ ردٌّ إلى الوحدانيّة التي تقتضي العِزّة، وردَّ ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ إلى العدل الذي هو القِسْط[4]، وهذا تناسُبٌ بين التّهليل والقِسْط من جِهةٍ و﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ من جِهة أخرى.

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 2/42.
(2) النيسابوري، غرائب القرآن: 2/127 - 128، والبقاعي، نظم الدّرر: 2/44.
(3) الزمخشري، الكشّاف: 1/344، وأبو حيان، البحر المحيط: 3/65، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 2/17.
(4) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 1/474.

﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ وَمَا ٱخۡتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۗ وَمَن يَكۡفُرۡ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ١٩﴾ [آل عمران: 19]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

هذا شُروعٌ في أوّل غرضٍ أُنزلت فيه هذه السّورة، وهو مُحاجّة نصارى نَجْرانَ، فهذا الاستئناف من مناسبات افتتاحِ السّورة بذكر تنزيلِ القرآن والتّوراة والإنجيل، ثمّ بتخصيص القرآنِ بالذّكر وتفضيلِه بأنّ هديَه يفوق هديَ الكتب قبلَه؛ لأنّه الفُرقان، ولمّا كان الكلامُ المتقدِّمُ مشتملًا على التّعريض باليهود والنّصارى الذين كذّبوا بالقرآن؛ ناسب أنْ يُنوّه بعد ذلك بالإسلام الذي جاء به القرآن، فقال: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ﴾، ثمّ عَطف ما بعدَه عليه[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱخۡتَلَفَ﴾: الخَلْفُ والخُلْفُ: بقاءُ شيء بعد ذهاب آخرَ يقوم مَقامه، أو بقاؤه وراءَه في ظهره، والاختلافُ: عدم الاجتماع على رأيٍ أو موقف أو حُكم واحد، كأنَّ كلَّ واحدٍ يذهب إلى ما جعله الآخرُ خَلْفه، ومنه إخلافُ الموعد: ذَهابُ الأمرِ الموعودِ به، أو ذَهابُ زمنِه والصَّيْرُورة إلى زمن بعدَه[2].

2) ﴿بَغۡيَۢا﴾: البَغْيُ طلبُ شَيْءٍ مع قوّة، والبَغْيُ: الظُّلْمُ والفساد، والبَغْيُ ههنا حسدٌ، وهو ظلمٌ وفسادٌ[3].

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

إنّ الدِّين المقبولَ عند الله هو الإسلامُ، الذي يُوجِبُ الانقيادَ لله وحدَه بالطّاعة والاستسلامَ له بالعُبودية، والإيمانَ بالرُّسل جميعًا وبمحمَّدٍ ﷺ الذي خَتم الله به

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/188.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (خلف).
(3) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة: (بغي)، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (بغو، بغي).

الرّسالاتِ، فلا يَقْبَلُ اللّهُ دينًا سوى الإسلام الذي أُرسل به، وما اختلف اليهودُ والنَّصارى في دينهم وافترقوا شِيَعًا وأحزابًا إلّا من بعدِ ما قامت عليهم الحُجّةُ بما جاءهم من العلم؛ حسدًا منهم وحِرْصًا على الدّنيا؛ فالاختلاف بعد إتيان الكتابِ أقبحُ وأفحش، إذ الكتاب ما نزل إلّا لهدايتهم، وسعادتِهم، ومَن يكفرْ بآيات اللّه المنزَّلة على رسوله ﷺ فإنّ اللّه سريع الحساب لمَن كفر به وكذّب رسلَه[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ الاستئنافِ البيانيّ:

قوله: ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ ﴾ جملة مستأنَفة مؤكّدة للأولى؛ لِبَيَانِ فَضِيلَةِ هَذَا الدِّينِ بِأَجْمَعِ عِبَارَةٍ وَأَوْجَزِهَا[2]، والدّين في اللّغة الجزاء، سُمّيت الطّاعة دينًا لأنّها سبب الجزاء[3]، على طريقة المجاز المرسَل بعلاقة السّببية؛ أي: لا دينَ مَرْضِيًّا للّه تعالى سِوى الإسلامِ، الذي هو التّوحيدُ والتزام الشّريعة.

في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ﴾ قصرٌ وحَصْرٌ وتقديمٌ وحَذْفٌ وتوكيدٌ:

الدّينُ المقبولُ عندَ اللهِ هو الإسلامُ

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ ﴾ صيغةُ حصرٍ، وهي تقتضي حصرَ المسندِ إليه الذي هو الدّينُ في المسندِ الذي هو الإسلامُ، على قاعدة الحصرِ بتعريفِ جزأي الجملة، والمعنى: لا دينَ إلّا الإسلام[4]. وقد أُكّد هذا الحصرُ بالحرف إنّ على قراءة الجمهور، وبأنّ على قراءة الكسائي، وفائدة التّوكيد أنّ قوله: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ توحيد، وقولَه: ﴿ قَآئِمَۢا بِٱلۡقِسۡطِۚ ﴾ عدلٌ، فإذا أردفَه قوله: إنّ الدّين عند اللّه الإسلام، فقد أذِن أنّ الإسلام هو توحيدٌ وعدل، وهو الدّين عند اللّه[5]. وفي العبارة حذفٌ، وتقدير المحذوف

(1) محمد علي جميل، صفوة التّفاسير: 1/173، وجماعة من العلماء، المختصر في التفسير، ص: 52.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/188.
(3) البقاعي، نظم الدّرر: 2/45.
(4) ابن عاشور، التحرير والتّنوير: 3/190، ومحمد علي جميل، صفوة التّفاسير: 1/175.
(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/67.

في قوله: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ﴾: إنّ الدّين المقبول أو النافع أو المقرَّر[1] عند الله هو الإسلامُ، وتوكيد الكلام بإنّ تحقيقٌ لما تضمنَّه من حصرِ حقيقة الدّين عند الله في الإسلام؛ أي الدّين الكامل، وهذا موضعُ الحذف إيجازًا.

فائدةُ تقديمِ: ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ على كلمةِ ﴿ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ﴾:

الدِّين عند الله هو الدِّين المُعتبرُ لا المعلوم فقط

قولُه: ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ وصفٌ للدّين، والعِنْدِيّةُ عِنْدِيَّةُ الاعتبارِ والاعتناءِ وليست عِنْدِيّةَ علْمٍ، فأفاد أنّ الدّين الصّحيح هو الإسلام، فيكون قصرًا للمسند إليه باعتبار قيدٍ فيه، لا في جميع اعتباراتِه[2]، قُدِّم ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ﴾ على ﴿ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ﴾؛ للاهتمام، ولبيان شرفِ الدّين وتخصيصِه بكونِه الدِّين الوحيد الذي أنزلَه الله تعالى للبشريّة، وهذا ما صرّحت به الأنبياء في القرآن الكريم، فقال الله تعالى حكايةً عن نوحٍ عليه السلام: ﴿وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ٧٢﴾ [يونس: 72]، وقال عن إبراهيمَ وإسماعيلَ: ﴿رَبَّنَا وَٱجۡعَلۡنَا مُسۡلِمَيۡنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةٗ مُّسۡلِمَةٗ لَّكَ﴾ [البقرة: 128]، وقال الله حكاية عن موسى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوۡمِ إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيۡهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسۡلِمِينَ ٨٤﴾ [يونس: 84]، وقال تعالى: ﴿قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشۡهَدۡ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ ٥٢﴾ [آل عمران: 52]. وغيرُها من الآيات التي تُحقّق قولَ الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ﴾.

معنى التَّعريفِ في كلمةِ ﴿ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ﴾:

التّعريف بلام الجِنس قد يفيد القصرَ تحقيقًا، كقولك: زيد الأمير، إذا لم يكن أميرٌ سواه، فالمعنى ليس دينٌ صحيحٌ غيرَ الإسلام؛ باعتبار الكمال عند الله فيكون القصر باعتبار سائرِ الأزمان والعصور؛ إذ لا أكملَ من هذا الدّين، وما تقدّمه من الأديان لم

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 2/45.
(2) القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة: 2/131.

يكن بالغًا غايةَ المراد من البشر في صلاح شؤونِهم؛ بل كان كلُّ دينٍ مضى مقتصِرًا على مِقدار الحاجة من أمّة معيّنة في زمن معيّن، وهذا المعنى مُفاده أعمُّ، وتعبيرُه عن حاصل صفةِ دينِ الإسلام تُجاهَ بقيّةِ الأديان الإلهيّة أَتمُّ[1].

نكتةُ وَصْفِ اليهودِ والنَّصارى بأهلِ الكتابِ:

التّشنيعُ والتّوبيخُ والتّقبيحُ للمُختلِفينَ من أَهْلِ الكِتَابِ

عبَّرتِ الآيةُ في قوله: ﴿وَمَا ٱخۡتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۗ﴾؛ بقوله: ﴿أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ والمُرادُ اليهودُ والنَّصارى، زيادةَ تشنيعٍ وتقبيح عليهم؛ فإنَّ الاختلافَ مع علمِهم بالكتاب في غاية القُبحِ والشَّناعة[2]، وفيه توبيخٌ لنَصارى نَجْرانَ[3].

فائدةُ حذفِ القَيْدِ المبيِّنِ للمُختلَفِ فيه في قولِه تعالى: ﴿وَمَا ٱخۡتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾:

الإسلامُ هو الدِّينُ الذي اختلفَ فيه أهلُ الباطلِ وتركوا الحقَّ بسببِه قصدًا

لم يُعيَّن المُختلفُ فيه في قولِه تعالى: ﴿وَمَا ٱخۡتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۗ﴾ وذلك لحملِ الكلام على العموم؛ لذلك اختُلِفَ في تعيينِه على أربعةِ أقوالٍ؛ أحدُها: دينُهم. والثَّاني: أمر عيسى. والثّالث: دين الإسلام، وقد عرفوا صحّته. والرّابع: نبوّتُه ﷺ، وقد عرفوا صفتَه.

والرَّاجحُ أنَّ المختلَفَ فيه هو الإسلامُ؛ لأنّه تعالى قرّر أنّ الدّين عنده هو الإسلام، ثمّ قال: ﴿وَمَا ٱخۡتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾، أي: في الإسلام حتَّى تنكَّبوه إلى غيره من الأديان[4]، ويدخلُ في معناه جميعُ الأقوالِ المذكورةِ؛ فإنَّهم لم يختلفُوا في دينِهم إلَّا بتركِ الإسلامِ الذي هو التَّوحيد، وكذلك في شأنِ عيسى عليه السلام.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/190.
(2) محمد علي جميل، صفوة التّفاسير: 1/175.
(3) ابن عطية، المحرّر الوجيز: 1/413.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/71.

ولأجل أنْ يَسمَحَ نظمُ الآية بهذه المعاني المتعدّدة مع وَجازةِ العِبارة حُذِف متعلّقُ الاختلاف في قوله: ﴿ٱخۡتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ ليشمَل كلَّ اختلاف منهم: من مخالفةِ بعضِهم بعضًا في الدّين الواحد، ومخالفةِ أهل كلِّ دينٍ لأهل الدّين الآخر، ومخالفتِهم للمسلمين في صِحّة الدّين[1]، وإنكارِهم رسالةَ الرّسول ﷺ، على الرّغم ممّا علِموه في كتابهم من صدق رسالتِه.

دلالةُ عطفِ جملةِ: ﴿وَمَا ٱخۡتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ على: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ﴾:

معرفةُ أسبابِ الاختلافِ تُعين على العلاجِ والحذرِ من الوقوعِ فيها

عُطِفَ قولُه: ﴿وَمَا ٱخۡتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ على قوله: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ﴾؛ للإخبار عن حال أهلِ الكتاب مِن سُوء تلقّيهم لدين الإسلام، ومن سُوء فهمِهم دينَهم، وجِيءَ بهذا الإخبارِ لبيانِ سببِ اختلافِهم، وهو دينُ الإسلام، وهو ما يترجم الحسدَ العقديَّ، والحقدَ الأخلاقيَّ، وثقافةَ الكراهيَّة تجاه الحقِّ وأهلِه.

وهذا أسلوبٌ عجيب في الإخبار عن حالهم إخبارًا يتضمّن بيانَ سببِه، وإبطالَ ما يَتراءى من غير ذلك من الأسباب، مع إظهارِ المقابَلة بين حالِ الدِّينِ الذي هم عليه يومئذٍ من الاختلاف، وبين سلامةِ الإسلام من ذلك، وذلك أنّ قوله: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ﴾ قد آذَنَ بأنّ غيره من الأديان باطلٌ، مع التَّنبيه على أنّ سبب البُطلان ما كان عليه أهلُ الكتاب يومئذٍ من اختلافهم وتغييرِهم، ومن جُملة ما بدّلوه الآياتُ الدّالّة على بعثته ﷺ، وفيه تنبيهٌ على أنّ الإسلام بعيدٌ عن مثل ما وقعوا فيه من التّحريف[2].

سرُّ استعمالِ الاستثناء المفرَّغ في أسلوبِ الحصر:

تضمّن قوله تعالى: ﴿وَمَا ٱخۡتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/197.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/197.

الاخـــتـــلافُ الحقيقيُّ بين أهـلِ الكتابِ وقعَ بعد مجيءِ الإسلام لا قبلَه

﴿ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ ﴾ استثناءً مفرَّغًا من أعمِّ الأحوال أو أعمِّ الأوقاتِ؛ أيْ وما اختلفوا في حالٍ من الأحوالِ أو في وقتٍ من الأوقات إلّا بعد أن علموا أنّه الحقُّ الذي لا مَحيدَ عنه أو بعد أن علموا حقيقةَ الأمرِ وتمكّنوا من العلم بها بالحُجج النّيّرة والآيات الباهرةِ.

وفيه من الدّلالة على ترامي حالِهم في الضّلالة ما لا مزيدَ عليه، فإنّ الاختلافَ بعد حصول تلك المرتبة لا يصدُر عن عاقل[1]، فالاستثناء المُفرَّغ يفيد القصر، وفائدتُه إثباتُ اختلافِ أهل الكتاب ونفيُه عمّن سواهم[2].

بمعنى آخرَ: إنّهم اختصّوا بصِفة الاختلاف هنا الموصوفة بقوله: ﴿ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۗ ﴾، والحقيقةُ أنّ ﴿إِلَّا﴾ سواء كانت في التّفريغ أو في غيره تفيد الاختصاصَ، ومعنى ﴿إِلَّا﴾ اللّازمِ لها الاختصاصُ بالشّيء دون غيرِه[3].

غير أنّ القصر في التّفريغ أعمُّ وأشمل، فلو قلتَ: حضر الرّجال إلّا خالدًا، فقد استثنيتَ حضورَ خالدٍ من الرّجال، وقد يكون في الحضور نساءٌ وأطفال، وكذلك في استثناء الآية فإنّه قد يكون بين عمومِ اليهود والنّصارى مَن هم غيرُ مشمولين في هذا القصر؛ لأنّهم لم يتوصّلوا إلى ما توصّل إليه أهلُ العلم منهم[4].

التـحـذيـر من الاخـــتـــلاف في أصـول الـدّيـن، وأخذُ العِبرة بما طـرأ عـلى أهـل الكتاب منه

بلاغةُ النَّظمِ في سعةِ المعاني:

جاءت الآيةُ على نظمٍ تتوسّع عنده معاني الاختلاف، وفائدة ذلك[5]:

التّنبيهُ على أنّ اختلاف أهلِ الكتاب حاصلٌ مع علمِهم بالحقّ، فهو تعريضٌ بأنّهم أساؤوا فهمَ الدّين، ولهذا استحقّوا التّوبيخ.

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 2/45.
(2) ابن يعيش، شرح المُفصّل: 2/87.
(3) فاضل السامرائي، معاني النحو: 2/215.
(4) فاضل السامرائي، معاني النحو: 2/215.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/197.

الإشارةُ إلى أنّ الاختلاف الحاصلَ بين أهل الكتاب نوعان؛ أحدهما: اختلافُ كلِّ أمّة مع الأخرى في صحّة دينِها، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ لَيۡسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيۡسَتِ ٱلۡيَهُودُ عَلَىٰ شَيۡءٖ﴾ [البقرة: 113]، الثّاني: اختلافُ كلِّ أمّة منهما فيما بينها وافتراقُها فِرَقًا متباينةَ المَنازِعِ، وأنّ اختلافهم ناشئٌ عن بغي بعضِهم على بعض، وأنّهم أجمعوا على مخالفة الإسلام والإعراضِ عنه بغيًا منهم وحسدًا.

بلاغةُ المجاز المرسل في قوله: ﴿جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ﴾:

إطلاقُ العِلْم وإرادةُ الآياتِ دليلُ وضوحِها وقطعيّتِها

معنى: ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ﴾ أي: من بعد ما جاءتْهم الدّلائلُ التي لو نظروا فيها لحصل لهم العلمُ، فأَطلق الكلَّ وأراد الجزءَ في قوله: ﴿جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ﴾، على سبيل المجاز المرسلِ، أي: عبَّر بالعلم وهو عامٌّ كليٌّ، المقصود منه التّوراة والإنجيل، أو النبيّ ﷺ، وأراد جزءًا منه وهو الآياتُ التي وردتْ في كُتبهم التي فيها نبوّتُه ﷺ، ودعوتُهم إلى الإيمان برسالته. ولو حمَلْنا العلمَ على الحقيقة، وهو الكتبُ السّماويّة كلّها، لصاروا معاندين، والعِناد على الجمع العظيم لا يصِحُّ، وهذه الآيةُ وردت في كلِّ أهل الكتاب وهم جمعٌ عظيم[1].

فائدةُ التَّعبيرِ بالمجازِ المرسلِ في قولِه: ﴿جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ﴾:

الإشارةُ إلى يُسرِ مجيءِ العلمِ لهم دون بذلِ جهدٍ أو بحث

ومجيءُ العلم هو الوحيُ الذي جاءت به رسلُهم وأنبياؤُهم، وآثر التَّعبيرَ بقولِه: ﴿جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ﴾ على طريقة المَجاز العقليّ؛ فالعلمُ لا يجيءُ ولكنْ يُؤتَى به؛ لأنّ كلمة ﴿جَآءَهُمُ﴾ مؤذِنةٌ بعلمٍ متلقًّى من اللّه تعالى وحيًا إلى رسلِهم عليهم السلام، أي: أنّ العلم الذي جاءهم كان من شأنه أنْ يصُدّهم عن الاختلاف، إلّا أنّهم أساؤوا فكانوا على خلاف مُرادِ اللّه من إرسال الهُدى.

(1) الرازي، مفاتيح الغيب: 7/172.

وفيه إشارةٌ إلى أنّ العلم اتّضح أمامَهم دون طلبٍ مسبقٍ منهم أو جهدٍ بذلوه لتحصيله، مع أنّ العلم يتحصَّل بالجُهد والبَذل، وفيها بيانُ فضلِ اللّه عليهم واختصاصُه بعلمه سبحانَه.

أثرُ معنى قوله: ﴿بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۗ﴾ في إعرابِها:

البغيُ دائرٌ شائع في أهلِ الكتابِ، وإنَّما كمُلَ عند مجيءِ العلمِ

معنى قولِه تعالى: ﴿ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۗ ﴾ أي: حسدًا بينهم وطلبًا للرئاسة، لا لشُبهةٍ وخَفاءٍ في الأمر[1]، والمعنى: وما اختلفوا بغيًا بينهم إلّا مِن بعد ما جاءهم العلم. وقيل: المعنى وما اختلفوا إلّا مِن بعد ما جاءهم العلم إلّا للبغي بينهم، فيكون هذا إخبارًا عن أنّهم إنّما اختلفوا للبغي، وهذا أجودُ من الأوّل؛ لأنّ الأوّل يوهم أنّهم اختلفوا بسبب ما جاءهم من العلم، والثاني يفيد أنّهم إنّما اختلفوا لأجل الحسد والبغي[2]، وعليه يكونُ إعرابُ ﴿بَغۡيَۢا﴾ على أنّه مفعولٌ لأجله هو الأوفقُ بالمعنى لا مصدرًا من طريق المعنى، فإنّ قوله: ﴿وَمَا ٱخۡتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ قائمٌ مَقامَ قوله: وما بغى الذين أوتوا الكتاب؛ فجعل بغيًا مصدرًا، والفرقُ بين المفعول له وبين المصدر أنّ المفعول له غرضٌ للفعل، وأمّا المصدرُ فهو المفعولُ المطلَق الذي أحدثه الفاعلُ[3]، وهو يدلُّ على أنَّ البغيَ مسلكٌ قديمٌ فيهم، وكمل ظهورُه عند مجيءِ العلمِ.

نكتةُ تأخير ﴿بَيۡنَهُمۡۗ﴾ على جملة: ﴿ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۗ ﴾:

صحَّةُ تعلُّقِ (بينهم) بجميع المتقدِّمِ

أُخِّر ﴿بَيۡنَهُمۡۗ﴾ عن جميعِ ما يصلُح للتَّعليقِ به؛ ليتنازعَه كلُّ من فعل ﴿ٱخۡتَلَفَ﴾ وفعلِ ﴿جَآءَهُمُ﴾، ولفظِ ﴿ٱلۡعِلۡمُ﴾، ولفظِ ﴿بَغۡيَۢا﴾، ومعنى التَّعلُّقِ بهذه الألفاظِ، أي: وما حصل الاختلافُ بينَهم،

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 2/10.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/78.
(3) الرازي، مفاتيح الغيب: 7/172، 17، وابن عطية، المحرّر الوجيز: 1/413.

وجاءهم العلمُ بينهم، فحصل البغيُ بينهم، أي: أنَّ الاختلافَ والمجيءَ والعلمَ والبغيَ كلَّ ذلك واقعٌ بَيْنَهم، إلَّا أنَّها أوضح ما تكون صراحةً في كونِ البغي بَيْنَهم، وتعلُّقها بالباقي إشارةً، ولهذا أخَّرها لتكونَ إشارةً لبعضِ الألفاظِ، وصراحةً لبعضِها الآخرِ.

بلاغة التّذييل في قوله: ﴿وَمَن يَكۡفُرۡ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾:

الوعيدُ بمعاقبةِ كلِّ كافرٍ تصريحٌ بليغٌ بمعاقبةِ مَـــنْ سَـبَـقَ الحديثُ عنهم

قولُه تعالى: ﴿وَمَن يَكۡفُرۡ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾ عامٌّ في كلِّ كافرٍ بآيات اللّه، فلا يختصُّ بالمختلفين من أهل الكتاب، لكنَّهم يدخلون في دلالتها دخولًا أوّليًّا، لمجيءِ الجملةِ الشّرطيّةِ بعد ذكرِهم، وجملةُ: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾ قائمةٌ مَقامَ جوابِ الشّرطِ المحذوف علّةً له؛ أي: ومن يكفر بآياته تعالى يُجازِه ويعاقبْه عن قريب فإنّه سريعُ الحساب؛ أي: يأتي حسابُه عن قريب، أو يَتِمُّ ذلك بسرعة.

وفي ترتيب العِقاب على مطلق الكفرِ بآياته تعالى، من غيرِ تعرُّضٍ لخصوصيّة حالِهم من كون كفرِهم بعد إيتاءِ الكتابِ وحصولِ الاطّلاع على ما فيه وكونِ ذلك للبغي؛ دلالةٌ على كمال شدّةِ عقابهم[1].

نكتةُ التّعبيرِ بالفعل المضارع في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَكۡفُرۡ﴾:

تـجـدُّدُ الآيـاتِ يلزمُ عنه تجدُّدُ الـكـفـرِ عـنـد الباغين المُكَذِّبين

آثرَتِ الآيةُ التَّعبيرَ بصيغةِ الفعلِ المضارعِ: ﴿وَمَن يَكۡفُرۡ﴾، ولم تقل: ومن كفر بآيات اللّه؛ لأنّ فيه دلالةَ التّجدُّدِ والاستمراريّةِ على الكفر، فالمُتحدَّثُ عنه مستمرٌّ على كفره، أي: يكفر بآياتِ اللّه ممّا يرى ويسمع من الآيات الدّالّة على إحاطته بالكمال سبحانَه، وقوفًا مع تلك الشُّبه وعَمًى عن الدّليل فاللّه مهلِكُه عاجلًا[2]، وفي التعبير بصيغة المضارعِ إشارةٌ إلى تجدُّدِ الكفر عند تجدُّدِ ظُهورِ الآياتِ.

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 2/45.
(2) البقاعي، نظم الدّرر: 2/44.

نكتةُ إظْهارِ ما حقُّه الإضمارُ في قوله: ﴿بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ﴾:

أُظْهِرَ الاسمُ الجليل في قوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ﴾ بعدَ قولِه: ﴿بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ﴾ بدلًا من إضمارِه وهو ما يقتضيه الظَّاهر؛ لتربية المهابةِ وإدخال الرَّوعة في النّفس؛ فإنَّ للاسمِ الجليلِ في سياقِ الوعيدِ أثرًا لا يخفى.

قوله تعالى: ﴿سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ بين الاستعمالِ العرفيِّ والكنائيِّ:

من بلاغة النَّظمِ القرآنيِّ تعدُّدُ الاحتمالِ مع إرادةِ الجميعِ

يحتملُ قولُه تعالى: ﴿سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ احتمالاتٍ عدَّةً: فهو محمولٌ على سرعةِ مجيءِ القيامةِ والحساب؛ إذ هي متيقَّنةُ الوقوعِ، فكلُّ آتٍ قريبٌ.

أو على إحاطته تعالى بكلِّ شيء علمًا، لا يحتاجُ معه إلى عدٍّ ولا فكرة.

أو على قربِ المجيءِ، والمعنى: الحسابُ قريبٌ، فيُجازيهم على كفرهم في الحياة الدّنيا بأيديهم وبأيدي المؤمنين، ثمّ يُنقلون إلى حسابه تعالى في الدّار الآخرة المقتضِي لعذابِ الكفرةِ.

أو تكون السّرعة على بابها[1].

وهذه المُحتمِلاتُ مُرادةٌ، فَذِكْرُ سرعةِ الحسابِ دليلٌ على يقينِ القيامةِ، وعلى إحاطتِه بكلِّ شيءٍ، وسرعةِ المجيءِ، ومعنى السُّرعةِ المعروفِ مرادٌ كذلك، وهذا من بليغِ الاستعمالِ.

(1) ابن عطية، المحرّر الوجيز: 1/413، والبقاعي، نظم الدّرر: 2/45.

﴿فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسْلَمْتُمْۚ فَإِنْ أَسْلَمُواْ فَقَدِ ٱهْتَدَواْۖ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِٱلْعِبَادِ ٢٠﴾ [آل عمران: 20]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

بعد أن بيّن فيما سبق الآياتِ العظيمةَ على وحدانيّته تعالى، وبيّن أنّ الدّين الحقّ عند الله هو الإسلام، وفضحَ اختلاف أهلِ الكتاب بعد أن علموا الحقَّ يقينًا، فخالفوه فاختلفوا فيما بينهم واختلفوا مع رسول الله ﷺ، وأنكروا رسالته بغيًا وعُدوانًا؛ لَقَّنَ سبحانَه نبيَّه في هذه الآية أسلوبَ محاجّة هؤلاء إنْ هم حاجّوه، فقال: قل لهم بعد أن جئتَهم بالبيّنات والحقِّ المبين وأقمتَ عليه البراهين: أسلمتُ وأقبلتُ على الله بعبادتي مخلصًا عمّا سِواه أنا ومن اتّبعني من المؤمنين[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿حَآجُّوكَ﴾ الحجُّ والحِجاج: شيءٌ صُلب أو مَتين لحماية ضعيفٍ، واحتجّ الشيءُ: صَلُبَ، وحِجَاج العين، بفتح الجيم وكسرها: عَظْمُ العين المحيط بالحدقة ليحميها، وحَجَّ البيتَ: قصده وزاره ودخل حَرَمه فاحتمى به، والحُجّة، بالضّم: الدَّليلُ والبُرهانُ، وهو أمرٌ أو دليل قويٌّ صُلْب للرّأي يحفظُه ويدعمه، والحُجَّةُ: وجهُ الظَّفَر عند الخُصومة، والجمعُ حُجَجٌ، والمُحاجَّة: أن يطلب كلُّ واحدٍ أن يَرُدَّ الآخر عن حُجَّتِهِ ومَحجَّتِهِ، واحتجّ على خصمه بحُجّة شهباءَ، وحاجَّ خصمَه فحجَّه: غلبه في الحُجَّةِ[2].

2) ﴿تَوَلَّوْاْ﴾: الوَلْيُ والتَّولِّي: قُرْبُ شيءٍ من شيءٍ ولزومُه تبعًا له، إقبالًا أو إدبارًا، وأكثرُ استعماله في الإقبال، ولا يدُلّ على الإعراضِ والإدبار والبعد إلَّا إذا عُدِّيَ بِـ (عن) أو دلَّ السّياق على ذلك، وتَوَلَّى عنه: أَعْرَضَ، وَوَلَّى هَارِبًا، وأدبَرَ، وقولُه: ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَاۖ﴾ [البقرة: 148] أي: مستقبلُها بوجهه[3]، والمعنى هنا: أعْرَضُوا.

(1) البقاعي، نظم الدرر: 4/296.

(2) الخليل، العين، والزمخشري، أساس البلاغة: (حجج)، وابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (حج)، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (حج، حجج).

(3) الخليل، العين: (لوى)، الجوهري، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (ولي).

3) ﴿ٱلۡبَلَٰغُۗ﴾: وصولُ الشّيء إلى حدٍّ أو غاية زمانًا أو مكانًا أو حالًا، وبلغ الشّيءُ يبلُغ بلوغًا: وصل حدَّه وغايته، وأبلغه هو وبلَّغه، وتبلَّغ بالشّيء: وصل به إلى مُراده، وبلَّغتُه تبليغًا الرسالةَ ونحوَها أوصلتُها، وفي هذا بَلاغٌ وتَبليغٌ: كفاية، وشيءٌ بالغٌ أي جيّد وصل الغايةَ فيه، والمُبالَغَةُ: أن تَبْلُغَ من العمل جهدَك، والبَلاغُ: ما أَبلغَك[1].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

فإنْ جادلَكَ -أيُّها الرسولُ ﷺ- أهلُ الكتابِ في التوحيد بعد أن أقمتَ الحُجَّة عليهم في شأن الدِّين، فلا تَلْتفت إلى أكاذيبهم، بل قل لهم: أنا عبدٌ لله قد استسلمتُ بكُلِّيتي لله، وأخلصتُ نفسي وعبادتي لله وحدَه، لم أجعل فيها لغيره شِرْكًا، فلا أعبد ولا أدعو إلهًا معه، أنا وأتباعي على ذلك، فنحنُ مستسلِمون منقادُون لأمر الله.

وقل لليهود والنّصارى والوثنيِّين من العرب: أأسلمتم أم أنتم باقون على كفركم؟ فقد أتاكم من البيّنات والدَّلائل ما يُوجب إسلامَكم، ومن شأن العاقلِ أنه إذا تبيَّن له الحقُّ أن يدخل فيه وأن يترك العِناد والمُكابرة، فإن أسلموا كما أسلمتم فقد نفعوا أنفسَهم بخروجهم من الضَّلال إلى الهُدى، وإن أعرضوا فلن يضُرُّوك ولا مَن اتّبعك شيئًا؛ إذ لم يكلفْكَ اللهُ هدايتَهم؛ لأنَّ الذي عليك إنَّما هو تبليغُ الناس ما أمرك الله بتبليغِه إيَّاهم، والله عالمٌ بجميع أحوالِهم فيجازيهم عليها[2].

❁ الإِيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ التّفريعِ في قولِه: ﴿فَإِنۡ حَآجُّوكَ﴾:

مـدارُ مُحاجَّةِ أهلِ الكتابِ على الإسلامِ

الفاءُ في قولِه: ﴿فَإِنۡ حَآجُّوكَ﴾ تفريعيَّةٌ على قوله: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ وَمَا ٱخۡتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ [آل عمران: 19]؛ إذ تأتي المُحاجّة في الدّين دليلًا على اختلافهم في رسالته ﷺ؛ وهم يحاجّون الرّسول ﷺ من بعد ما جاءهم العلمُ والدّليلُ الدّامغُ على صدق رسالتِه، فإنّ الإسلام دين قد أنكروه، واختلافُهم في أديانهم

(1) الخليل، العين، وابن سيده، المحكم، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (بلغ).
(2) الزمخشري، الكشاف: 1/375، ومحمد علي جميل، صفوة التّفاسير: 1/175.

يُفضي بهم إلى مُحاجّة الرسولِ في تبرير ما هم عليه من الدِّين، وأنّهم ليسوا على أقلَّ ممّا جاء به دين الإسلام[1]، فمحاجَّةُ النبيّ ﷺ وكلِّ من كان على سُنَّتِه من أمَّتِه متفرِّعةٌ على كونِ الدِّين عند اللّه الإسلام، واختلاف أهلِ الكتابِ في ذلك.

نكتةُ استعمالِ لفظِ المحاجَّة:

غلب استعمالُ المحاجَّة فيما كان باطلًا

المُحاجَّةُ مُفاعَلَةٌ من طَرَفَيْن، ومعناها المُخاصمة، وأكثرُ استعمالِ فعلِها في المخاصمة بالباطل، كما في قوله تعالى: ﴿وَحَآجَّهُۥ قَوۡمُهُۥۚ﴾ [الأنعام: 80]، وقولِه تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِي حَآجَّ إِبۡرَٰهِـۧمَ فِي رَبِّهِۦٓ﴾ [البقرة: 258]، فالمعنى: فإن خاصموك خِصامَ مكابرةٍ فقل أسلمتُ وجهي للّه[2].

دلالةُ صِيغةِ: ﴿حَآجُّوكَ﴾ على الاستمرارِ:

المرادُ بفعلِ الشّرط الماضي الدّالِّ على الاستقبال في قولِه: ﴿حَآجُّوكَ﴾ الاستمرارُ على المحاجّة؛ أي: فإن استمرّوا على محاجّتهم؛ فقل لهم قولًا فَصْلًا جامعًا للفَرْق بين دينك الذي أُرسلتَ به وبين ما هُم متديّنون به، فمعنى ﴿أَسۡلَمۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّهِ﴾: أَخلصتُ عبوديّتي له لا أُوَجِّه وجهيَ إلى غيره، فالمرادُ أنّ هذا كُنْهُ دينِ الإسلام، وتَبيَّن أنَّه الدّين الخالص، وأنّهم لا يُلْفُوْن تَدَيُّنَهم على هذا الوصفِ[3].

تعيينُ مَرْجعِ ضميرِ الجمع في قولِه: ﴿حَآجُّوكَ﴾:

تفسيرُ مرجعِ الضَّميرِ بالمقامِ والسِّياقِ سباقًا ولحاقًا

ضميرُ الجمعِ في قولِه: ﴿فَإِنۡ حَآجُّوكَ﴾ إمَّا أن يعودَ إلى غيرِ مذكورٍ في الكلام؛ فيُفهمُ من المَقام، وهو مَقامُ نزولِ السّورة، إذ نزلت في وفدِ نَجْرانَ وقد قدموا المدينة للمحاجّة، فتفسيرُ مرجعِ الضَّمير مقاميٌّ،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/200.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/200.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/202.

أو يعود على مذكورٍ وهم الذين أُوتوا الكتابَ، فتفسيرُ مرجعِ الضَّمير سياقيٌّ بالسِّباقِ، أو يعود على جميع الناس، لقوله بعدُ: ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡأُمِّيِّـۧنَ﴾، فتفسيرُ مرجعِ الضَّمير سياقيٌّ باللِّحاقِ[1]، والصَّحيحُ أنَّ مرجعَ الضَّميرِ يعودُ إليها جميعًا.

دلالةُ وضعِ المضمرِ موقعَ المُظهرِ:

وُضع المضمرُ، وهو واو الجماعة في قولِه تعالى: ﴿حَآجُّوكَ﴾ موضعَ المُظهر، فلم يذكر المقصودَ بالواو؛ ليدخل كلُّ خصوم الإسلام في حيّز هذه المُحاجّة، ولو ذُكر المظهر لوقف الكلام عندهم، فكان الإبلاغ في الآية أبلغَ للتّعميم.

المجازُ في قولِه تعالى: ﴿أَسۡلَمۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِۗ﴾:

التَّعبيرُ بالوجْهِ لأنَّـــه أشـــرفُ الأعضاءِ

إمَّا أن يكونَ قولُه: ﴿أَسۡلَمۡتُ وَجۡهِيَ﴾ مجازٌ مرسل علاقتُه الجزئيّة؛ إذ عبّر بالجزء وهو الوجه وأراد الكلَّ وهو الذّات[2]، وإنّما عبّر بالوجه عن النّفس لأنّه أشرف الأعضاءِ الظّاهرة ومظهرُ القُوى والحواسِّ، وبه معظمُ ما يقع به العبادةُ من السّجودِ والقراءة، وبه يحصُل التوجُّه لِلَّهِ، وهو بصمة الإنسان يتميّز به عن غيره، وإذا خضع الوجه فما سواه أخضعُ[3].

الإيمانُ كالوجهِ بالنِّسبةِ لبقيَّةِ الأعمالِ

أو يكون استعارةً تصريحيَّةً على أن يكونَ معنى ﴿وَجۡهِيَ﴾: ديني؛ لأنّ الإيمانَ كالوجهِ بين الأعمالِ، فشُبّه الإيمانُ بالوجهِ وحُذفَ المُشبّه، فصار استعارةً تصريحيّة، فالوجه هو الأصل[4].

فنُّ الإدماجِ في قولِه تعالى: ﴿أَسۡلَمۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِۗ﴾:

إذا أُريدَ بقولِه تعالى: ﴿أَسۡلَمۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِۗ﴾ المُتَارَكَةُ وَالإِعْرَاضُ عَنِ الْمُجَادَلَةِ؛ فتَكُونُ إِفَادَةُ قَطْعِ الْمُجَادَلَةِ بِجُمْلَةِ: ﴿أَسۡلَمۡتُ

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/71، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/200.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 3/78، ومحمد علي جميل، صفوة التّفاسير: 1/175، والمطعنيّ، بلاغة الاستفهام: 1/156.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/18، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/201.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/72.

وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِۗ﴾ وَقَوْلِهِ: ﴿ءَأَسْلَمْتُمْۚ﴾ دُونَ أَنْ يُقَالَ: فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ، ضَرْبًا مِنَ الْإِدْمَاجِ، إِذْ أَدْمَجَ فِي قَطْعِ الْمُجَادَلَةِ إِعَادَةَ الدَّعْوَةِ إِلَى الْإِسْلَامِ، بِإِظْهَارِ الْفَرْقِ بَيْنَ الدِّينَيْنِ.

وَالْقَصْدُ مِنْ ذَلِكَ الْحِرْصُ عَلَى اهْتِدَائِهِمْ، وَالْإِعْذَارُ إِلَيْهِمْ، وَعَلَى هَذَا الْوَجْهِ فَإِنَّ قَوْلَهُ: ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسْلَمْتُمْۚ﴾؟ خَارِجٌ عَنِ الْحَاجَةِ، وَإِنَّمَا هُوَ تَكَرُّرٌ لِلدَّعْوَةِ، أَيْ: اتْرُكْ مُحَاجَّتَهُمْ وَلَا تَتْرُكْ دَعْوَتَهُمْ[1].

بلاغة الكناية في ﴿لِّلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّـۧنَ﴾:

تسجيلُ صِفةِ إيتاءِ الكتابِ دون الاسمِ العَلَمِ توجيهٌ للعودةِ إلى الكُتبِ المنزَّلة

قولُه تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ﴾ كنايةٌ عن اليهود والنّصارى، وهي عن موصوف، ومن أَبلغيّة هذه الكناية التّوصُّلُ إلى ذكر إتيانِ الكتاب، وهو وصفٌ ممهِّد لحصول الإسلام، وإلّا كانت المخالَفة عظيمةً؛ لرفضِ الحقِّ وهم يعلمون صدقَه من كتبهم، أمّا لو قيل: اليهود والنّصارى لخلا المَقامُ من وصفهم بالعلم بالحقِّ الذي يرفُضونه، وفي ذلك مبالغة لإدانتهم والتّسجيل عليهم بالعناد[2].

تسجيلُ صِفةِ الأمـيَّـةِ دون المشركين للعمومِ والشُّمولِ

قوله: ﴿وَٱلْأُمِّيِّـۧنَ﴾ كنايةٌ أخرى عن موصوف، وهم الذين لم يسبق أن أتاهم كتاب من عند اللّه؛ ليشمَل الآخرين من غير أهلِ الكتاب عربًا وغيرَهم، ولو قيل للمشركين لوقف المعنى عند مشركي العرب؛ لأنّهم مَن وُصف بالمشركين ساعةَ نزولِ الآية، وهم مَن تتبادر الأذهان إليهم بهذا الوصف.

نكتةُ إيثارِ صيغةِ الماضي في قوله: ﴿ءَأَسْلَمْتُمْۚ﴾:

إيماءٌ إلى وجوبِ المسارعةِ في الإسلامِ

ذُكِرَ ﴿ءَأَسْلَمْتُمْۚ﴾ بصيغة الماضي بدل المضارع (أتُسلمون) إيماءٌ إلى أنّ هذا الوصفَ من حقّه أن يُسارَع إليه، ولا يُتَلَكّأ فيه،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/201، 202.

(2) المطعنيّ، بلاغة الاستفهام: 1/156.

فكأنّه يسأل عن أمر قد تحقّق لدى المُخاطَبين[1]، أو ممَّا يجبُ أن يتحقَّقُ دون مماطلةٍ، فيكونُ الاستفهامُ مستعمَلًا في الاستبطاء والتّحضيض[2]، كما في قوله تعالى: ﴿فَهَلۡ أَنتُم مُّنتَهُونَ ۝٩١﴾ [المائدة: 91] بعد ما ذكر الصّوارفَ عن الخمر والمَيسر، وفيه استقصارٌ وتعييرٌ بالمعانَدة وقِلّة الإنصاف؛ لأنّ المنصِفَ إذا تجلّت له الحُجّةُ لم يتوقّف إذعانُه للحقِّ، والمعانِد بعد تجلّي الحُجّة بينه وبين الإذعانِ مانعٌ، وكذلك في: هل فهمتها؟ توبيخٌ بالبّلادة وكلّة القريحة[3].

ويمكن أن يخرج الاستفهام عن معناه إلى معنى الأمر؛ أي: أسلِموا، بدليل قولِه بعده: ﴿فَإِنۡ أَسۡلَمُواْ فَقَدِ ٱهۡتَدَواْۖ﴾ فإن ضمَمْنا إليه الحثَّ كان حسنًا، أو إلى معنى التّهديد، أو التّقرير، أو التّوبيخ والتّقريع[4].

ولا مانعَ من أن يُحمل الاستفهامُ على الحقيقةِ إذ يُراد منه وقوفُ علمِ النّبيّ ﷺ على حالهم بعد أن ظهرت لهم الدّلالاتُ والقدوة الحسنة بإسلام النّبيّ ومن معه لله؛ أي: هل حدث منكم الإسلام؟[5].

كلمات جامعة لمعاني كُنْه الإسلام

وقوله: ﴿أَسۡلَمۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّهِ﴾ كلمةٌ جامعة لمعاني كُنْهِ الإسلام وروحِه وأصولِه أُلقيت إلى الناس ليتدبّروا مطاويَها فيهتدوا بها، ثمّ يزدادوا يقينًا وإيمانًا؛ إذ قد علمنا أنّ مجيء قوله: ﴿أَسۡلَمۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّهِ﴾ عقب قوله: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ﴾ [آل عمران: 19]، وقوله: ﴿ءَأَسۡلَمۡتُمۡۚ﴾ عقب قوله: ﴿فَإِنۡ حَآجُّوكَ﴾ مقصودٌ منه بيانُ جامعِ معاني الإسلام حتى تسهُلَ المجادَلة، وتُختَصرَ المقاوَلة، ويسهُلَ عَرضُ المتشكّكين أنفسَهم على هذه الحقيقة، ليعلموا ما هم عليه من الدّيانة.

حذفُ المفعول وإنزالُ الفعل المتعدّي منزلةَ الفعل اللاّزم:

بَيّنتْ كلمة ﴿ءَأَسۡلَمۡتُمۡۚ﴾ أنّ هذا الدّين يترجِم عن حقيقة اسمِه؛

(1) المطعنيّ، بلاغة الاستفهام: 1/156.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/201.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/73.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/78، والآلوسي، روح المعاني: 2/105، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/201، المطعنيّ، بلاغة الاستفهام: 1/156.
(5) المطعنيّ، بلاغة الاستفهام: 1/155.

فإنّ اسمه الإسلام، وهو مفيدٌ معنًى معروفًا في لغتهم يرجِع إلى التّسليم، وقد حُذف مفعولُه، ونُزِّل الفعلُ المتعدّي منزلةَ الفعل اللاّزم، فعلم أنّ المفعول حُذف لدلالة معنى الفاعل عليهِ، فكأنّه يقول: أسلمتُني، فبُيّن هنا هذا المفعولُ المحذوف من اسم الإسلام؛ لئلّا يقع فيه التباسٌ أو تأويلٌ لما لا يطابق المراد[1].

إنّ دين الإسلام يُترجم حقيقة اسمه وهو التسليم لله تعالى

ثم إنّ قوله: ﴿فَإِنْ أَسْلَمُواْ فَقَدِ ٱهْتَدَواْ﴾ معناه: فإن التزموا التحقّقَ بمعنى أسلمت وجهي لله فقد اهتدوا، وإن تولّوا وأعرضوا عن قولك لهم: أأسلمتم فليس عليك من إعراضهم تَبِعةٌ، وعبّر بصيغة الماضي المصحوب بـ (قد) الدّالّة على التّحقيق مبالغةً في الإخبار بوقوع الهُدى، والخروج من الظّلمة إلى النّور[2].

بلاغةُ الاستعارة في فعل الشّرط:

في قوله: ﴿وَّإِن تَوَلَّوْاْ﴾ استعارةٌ تصريحيّة وهي تَبَعيّة لأنّها حصلت في مُشتقٍّ، فقد استُعيرَ التّولّي، وهو الفِرارُ الحِسّي المصحوب بسرعة السّعي للإعراض القلبيّ عن الإسلام؛ مبالغةً في تصوّره، وإظهارًا للمعنويّ في صورة المُشاهَد المُحسِّ لشدّة كفرِهم بالإسلام، ونفورِهم عن الانقياد له[3].

المبالغةُ في تصوير المسارعةِ في الإعراضِ عن الإسلامِ

جواب الشّرط وإيجازُه البديع:

وقعَ قولُه: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ﴾ موقعَ جوابِ الشّرط، وهو في المعنى علّةُ الجواب، فوقوعُه موقعَ الجواب إيجازٌ بديع؛ أي: لا تحزن ولا تظنّنّ أنّ عدم اهتدائِهم كان لتقصير منك؛ إذ لم تُبعث إلّا للتّبليغ، لا لتحصيل اهتداءِ المبلَّغ إليهم، وقوله: ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِٱلْعِبَادِ﴾؛ أي: مطّلعٌ عليهم أتمَّ الاطّلاع، فهو الذي يتولّى جَزاءَهم وهو يعلم أنّك بلّغتَ ما أُمرت به، وفيه تهديدٌ ووعيد لأولئك المعاندين الذين لا يؤمنون.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/204.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/74.
(3) المطعنيّ، بلاغة الاستفهام: 1/156.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقۡتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيۡرِ حَقّٖ وَيَقۡتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡقِسۡطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ٢١﴾ [آل عمران: 21]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

بعد أن تَوَعَّدَ اللّٰهُ ﷻ الذين أعرضوا عن الإيمان من أهل الكتاب والمشركين بقوله: ﴿وَّإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا عَلَيۡكَ ٱلۡبَلَٰغُۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ ٢٠﴾ فَصّلَ في هذه الآية موجباتِ الوعيد، وفضح أفعالهم؛ ليبيِّن استحالةَ إيمانِ أمثال هؤلاء بما أنزل اللّٰه من الدّين القويم، وأنّ لهؤلاء عذابًا أليمًا يوم القيامة.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَأۡمُرُونَ﴾: الأَمْرُ: لفظٌ عامٌّ للأفعال والأقوالِ كلِّها، والجمع الأوامِرُ، وأمَرَهُ بكذا: طلب إليه فعلَه على وجه الاستعلاء، وآمَرَهُ بالمد: كثّرَه، والأَمِيرُ: ذو الأمر، وأمَّرَهُ تَأمِيرًا جعلَه أميرًا، وتأمَّر عليهم: تسلّط، وآمَرَهُ في كذا مُؤامَرَة: شاوَرَه، والائْتِمارُ والتَّآمُرُ: المشاوَرَة أو التّواصي، وقوله تعالى ﴿وَأۡتَمِرُواْ بَيۡنَكُم بِمَعۡرُوفٖۖ﴾ [الطّلاق: 6]؛ أي لِيَأمرْ بعضُكم بعضًا بالمعروف[1]. والمعنى هنا: يأمرون الناس أمرَ إرشادٍ ونصحٍ.

2) ﴿فَبَشِّرۡهُم﴾: البَشَرُ: انتشارٌ واسع على ظاهر الشّيء، كانتشار جلد البدن على ظاهره، والبَشَرُ: الإنسانُ لانتشاره على الأرض ﴿ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٞ تَنتَشِرُونَ ٢٠﴾ [الروم: 20]، أو لظهور جلدِه وخلوّه من الشّعر بخلاف الحيوانات، والبِشْرُ: الطَّلَاقة، وبَشَرْتُه بالأمر وبَشَّرْتُه، فبَشِرَ وأبْشَر واسْتَبشَر وتَبَشّر: فَرِحَ وسُرَّ وظهر ذلك على وجهه بانبساط أساريره، كما يعبّر عن قريب من ذلك بالبَشاشة وبسطِ الوجهِ؛ أي هو من الانتشار الظّاهري.

والبِشارةُ تكون بالخير والشّر، أو مختصّة بالخير، وهي في الشّرِّ تهكُّمٌ، والمباشَرةُ بين المرأة والرّجل: ملاقاة بَشَرةٍ ببَشَرة، وباشَرَ الأمرَ: وَلِيه بنفسه، كأنّه لعدم الواسطة يُماسُّه،

(1) الراغب، المفردات، والرّازي، مختار الّصحاح، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (أمر).

وتَبَاشِير الوجه وبِشْرُهُ: ما يبدو من سروره، وتَباشيرُ الصُّبْحِ: انتشارُ أوائلِه، والمُبَشِّراتُ: الرّياح تهبُّ بالسَّحاب والغَيْث[1]. والمعنى هنا: أخبرهم بما يسوؤهم على وجه التهكُّم بهم.

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

عدَّد اللّه في الآية الكريمة الأفعالَ الشَّنيعةَ لليهود، وما كانوا يفعلونه من الإفساد، فبدأ بأعظم أفعالهم تُجاهَ ربِّهم، وهي الكفرُ بآياته البيِّنة المُثبِتة لوحدانيَّته، ومنها جحدهم بالرسل الذين جاؤوهم بالهدى والحقِّ.

ثمّ بيَّن أفعالَهم تُجاهَ أنبيائِهم، وهي قتلُهم لهم عليهم السلام، ومن استهان بمقام النُّبوَّة بقتله بعضَ الأنبياء فكأنه قد قتل الأنبياء جميعًا، وكانوا حائمين حول قتلِ النبيِّ ﷺ؛ لولا أنْ عصَمهُ اللّه تعالى.

أمّا موقفُهم من مجتمعهم ومصلحيهم؛ فقتلُهم الذين يأمرون بالعدل مِن غير الأنبياء من مرشديهم ونُصحائهم، إذ الاعتداءُ عليهم بالقتلِ قرينُ الاعتداء على الأنبياء، وتكريرُ الفعل للإشعار بما بين القَتْلين من التّفاوُت، أو لاختلافه في الوقت.

فاستحقّوا بذلك كلِّه العقابَ من اللّه، بإخبارهم - على سبيل الاستهزاء بعقولهم - أنَّ بشارتهم التي يرتقبونها بسبب كفرهم ودعواهم الباطلة هي: العذابُ الأليم[2].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ استئنافِ الجملةِ القريبِ من المقابلةِ:

قولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ استئنافٌ لبيان بعضِ أحوال اليهود المنافية لإسلامِ الوجهِ للّه، فالمرادُ بهم خصوصُ اليهود، وهم قد عُرفوا بمضمون هذه الصِّفات في مواضعَ كثيرةٍ من القرآن، فجرى الجدال مع اليهود إثرَ النّصارى، كما جعلَهم جميعًا في خطاب واحد في قولِه: ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسۡلَمۡتُمۡۚ﴾[3]، وفي هذا الاستئنافِ مسلكٌ قريبٌ من المقابلةِ بين المعاني المتماثلة.

(1) الخليل، العين، والزّمخشري، أساس البلاغة، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (بشر).
(2) السمعاني، تفسير القرآن: 1/305، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم 2/20:.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/205.

دلالة الأفعال المضارعة:

قتلُ النَّبيين مستمرٌّ في كلِّ زمانٍ بقتلِ متَّبعيهم من العلماءِ الرَّبانيِّين

جِيءَ في هاتِه الصِّفات ﴿يَكۡفُرُونَ﴾ وَ﴿وَيَقۡتُلُونَ﴾ مرَّتين في قولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقۡتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيۡرِ حَقّٖ وَيَقۡتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأۡمُرُونَ﴾ بصيغة الفعل المضارعِ؛ لتدُلَّ على استحضار الحالة الفظيعة وتصويرِها كأنَّها مشاهدةٌ، ولدلالتها على التّجدُّد فيمن يُتابع أولئك الكفرة القتلة، فإنَّ من يكفرُ بآيات اللّه تعالى داخلٌ في مفهومِ الآيةِ، ومن يقتلُ أتباعَ الأنبياءِ الذين يأمرون النَّاسَ بالقسطِ فقد دخلَ في الوعيدِ، وفي الآيةِ إشارةٌ إلى محاولةِ قتلِ اليهودِ لرسولِ اللّه ﷺ، فقتلُ الأنبياءِ وأتباعِهم من العلماء العاملين في كل زمنٍ هو منهجُ اليهود، ومن تبِعَهم في ذلك.

بلاغةُ المجازِ المرسلِ في قولِه: ﴿يَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾:

بلاغةُ الإنكارِ على الكفرِ ببعضِ آيات الله تعالى

الكفرُ بآياتِ اللّه تعالى في قوله: ﴿يَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ إمَّا أن يكون كفرًا ببعضها، فهو على سبيل المجاز المرسلِ بعلاقة الكُلّيّة، أو يُجعل قوله: ﴿بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ مخصوصًا بما يَسبق إليه الفهمُ من القرآن والرّسول [1] ﷺ، فهو من إطلاقِ الكلِّ وإرادة البعضِ مجازًا مرسلًا، وتظهر بلاغة المجازِ المرسلِ بإبرازِ عنصرِ المبالغةِ، فإنَّ من يكفرُ بآيةٍ فقد كفرَ بالآيات كلِّها، كما أنَّ الكفرَ برسولٍ هو كفرٌ بجميعِ المرسلين.

بلاغةُ التّدلّي في ذكرِ أوصافِ اليهودِ الذين استحقّوا عذابَ الله:

قوله تعالى: ﴿يَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقۡتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيۡرِ حَقّٖ وَيَقۡتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡقِسۡطِ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ هذه ثلاثةُ أوصافٍ بُدئ فيها بالأعظم، وبما هو سببٌ للآخَر، فهو من قبيل التّدلّي:

فأولها: الكفرُ بآيات اللّه وهو أعظمُها، ونُقطة البَدْءِ، والمَلَمَحُ

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 3/75.

العقائديّ الذي سوَّل لهم القتلَ، وأدّى بهم إلى التّوسُّع في المعاصي، وهو أقوى الأسباب في عدم المُبالاة بما يقع من الأفعال القبيحة.

الكفرُ أعظمُ الذُّنوبِ، فقتلُ الأنبياءِ، فقتلُ أتباعِهم استمرارًا إلى يومِ الدِّينِ

وثانيها: قتلُ مَن أظهر آياتِ الله واستدلَّ بها وهم الأنبياءُ والرُّسل.

والثّالث: توسيعُ دائرةِ القتلِ لتشمَل أتباعَ الأنبياء من الناس الذين يأمرون بالقِسْط، وكلَّ مَن لديه رؤيةٌ شاملة للقِسْط يكون وكان دليلًا وموجِّهًا للناس، فيقتلونهم جميعًا فينحدرُ المجتمع كلُّه نحوَ الرّذائل والمعاصي والظّلم.

نكتةُ الإشارةِ إلى الأفعالِ المستقبليَّةِ:

تقبيحُ أوصافِ الكافرين والتّوعُّد بعقابِهم؛ للتّنفير منها والحملِ على التّحلّي بنقائضها

جاءت الآية وعيدًا لمن كان في زمنه ﷺ، لذلك جاءت الصِّلة بالمستقبل، ودخلت الفاء في خبر إنّ لأنّ الموصول فيه معنى الشّرط، ولمّا كانوا على طريقة أسلافِهم في ذلك نُسِبَ إليهم ذلك، ولأنّهم أرادوا قتلَه ﷺ، والله عصمه منهم، وقُتِل أتباعُه فأُطلق ذلك عليهم مجازًا؛ أي: مَن شأنُهم وإرادتُهم ذلك، فجاء الوعيدُ دالًّا على المستقبل كدلالته على الماضي، ويكون ذلك تشنيعًا لمن انتصب لعداوة رسولِ الله ﷺ؛ إذ هم سالكون في ذلك طريقة آبائِهم، والمعنى: إنّ آباءكم الذين تتمسّكون بدينهم كانوا على الحالة التي أنتم عالمون بها من الاتّصاف بهذه الأوصاف، فينبغي لكم أن تسلُكوا غيرَ طريقِهم، فإنّهم لم يكونوا على حقّ، فذَكر قبيحَ الأوصاف وتَوعَّد عليها بالعِقاب بما يُنَفّر عنها، ويَحمِلُ على التّحلّي بنقائضها[1].

توجيهُ القراءاتِ القرآنيَّة وأثره في سَعَةِ المعاني البلاغيّةِ في قولِه: ﴿وَيَقۡتُلُونَ﴾:

قرأ الحسن: (ويُقَتِّلون النبيّين) بالتّشديد، والتّشديد هنا للتّكثير بحسب المحلّ، وقرأ حمزة: ﴿وَيُقَٰتِلُونَ ٱلَّذِينَ يَأۡمُرُونَ﴾ وقرأ الأعمش:

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/75.

(وقاتَلوا الّذين)، وكذا هي في مصحف عبد اللّه بن مسعود، وفي هذا التّغايُر من المضارع إلى الماضي في القراءة الواحدة التفاتٌ فِعليٌّ، وقرأ أُبيّ: (ويقتلون النبيين والذين يأمرون)، ومَن غايَر بين الفعلين فمعناه واضحٌ إذا لم يُذكر أحدُهما على سبيل التّوكيد، ومن حذف اكتفى بذكر فعلٍ واحد لاشتراكهم في القتلِ، ومّن كرَّر الفعلَ فذلك على سبيل عطفِ الجمل، وإبرازِ كلِّ جملةٍ في صورة التّشنيع والتّفظيع، لأنّ كلّ جملة مستقلةٌ بنفسها، أو لاختلاف ترتُّبِ العذاب بالنّسبة على مَن وقع به الفعلُ، فقتلُ الأنبياء أعظمُ من قتل من يأمر بالقِسط من غير الأنبياء، فجُعل القتلُ بسبب اختلافِ مرتبتِه كأنّه فعلانِ مختلفان، وقيل: يحتمل أن يراد بأحد القَتْلينِ تفويتُ الرُّوح، وبالآخر الإهانةُ وإماتة الذِّكْرِ، فيكونان مختلفين، وتكون الثانية على سبيل المجاز[1].

بلاغة تكرير الفعل ﴿وَيَقۡتُلُونَ﴾:

قتلُ الأنبياءِ وأتباعِهم سنَّةٌ اجتماعيَّة إجراميَّةٌ في شياطين الإنسِ

تكريرُ الفعل في الآية للإشعار بما بين القَتْلينِ من التّفاوُت، أو باختلافهما في الوقت[2]، فقتلُ الأنبياء أشنعُ من قتل الذين يأمرون بالقِسْط من النّاس، وهو على العموم لبيان شَناعةِ ذلك الفعلِ وتكرارِه واعتيادِه واستحقاقِهم ما توعَّدهم اللّه به من العذاب يومَ القيامة.

وفي تَكرار الفعلِ ﴿وَيَقۡتُلُونَ﴾ دليلٌ على تَكرار الإثم بين الأجيال المتتابعة من اليهود، وفيه دلالةٌ كذلك على القَبول النّفسيّ للأجيال المتتابعة على قتل الأنبياءِ وقتلِ الذين يأمرون بالقِسْط من النّاس، وهذا أشنعُ وصفٍ يمكن أن يوصف به قومٌ، ومقصودُ الآيةِ الحذرُ من أولئك، وممَّن يواليهم ممَّن يرى فيهم النَّجاةَ الدُّنيويَّة.

احتمال إرادة المجاز في ﴿وَيَقۡتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾:

إذا أُريدَ بقولِه تعالى: ﴿وَيَقۡتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ النبيّ ﷺ، فالمرادُ بالقاتلين معاصروه لا آباؤهم، فيكون إطلاقُ قتلِ الأنبياء مجازًا؛

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 3/76.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم 2/20:.

لأنّهم لم يقتلوا النّبيّين، لكنّهم رضُوا ذلك ورامُوه، وأرادوا قتلَ رسولِ اللّه ﷺ، فصَدَقَ عليهم ذلك.

بلاغةُ الإطنابِ في قوله: ﴿بِغَيْرِ حَقٍّ﴾:

قوله: ﴿بِغَيْرِ حَقٍّ﴾: ظرفٌ مستقرٌّ في موضع الحالِ المؤكِّدة لمضمون جملةِ: ﴿وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾، وليس له مفهومٌ؛ لظهور عدمِ إرادةِ التّقييد والاحترازِ؛ فإنّه لا يُقتل نبيٌّ بحقٍّ، والتّقييدُ بقوله: ﴿بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ للإيذان بأنّه كان عندهم أيضًا بغير حقٍّ[1]، فقوله: ﴿بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ إطنابٌ، قُصد منه زيادةُ تقبيح فعلِهم، ولمّا كان قوله: ﴿وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ مُومِئًا إلى وجه بناءِ الخبر، وهو أنّهم إنّما قتلوهم لأنّهم يأمرون بالقِسْط؛ أي: بالحقِّ، فاكتُفِيَ بها في الدّلالة على الشّناعة، ولم يُحْتَج إلى زيادة التّشنيع، فلم يقل: ويقتلون الذين يأمرون بالقِسْط من النّاس بغير الحقّ[2]، أو أنّه اكتَفى بذكرها أوّلَ مرّة؛ إذ إنّه ذكرها مع الأنبياء ولم يكن لهم فيها رادعٌ، فمن الأَوْلى ألّا يكون لهم رادعٌ عن قتل هؤلاء.

توجيه المتشابِه اللّفظيّ:

تنكيرُ حق يُرادُ منه العمومُ، وتعريفُه يُرادُ منه المعهودُ

جاء تنكيرُ كلمة ﴿حَقٍّ﴾ هنا في قوله: ﴿بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ والتّعريفُ في سورة البقرة في قوله: ﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ [البقرة: 61]؛ لأنَّ الجملةَ هنا أُخرِجَت مُخرجَ الشّرطِ، وهو عامٌّ لا يتخصّص، فناسب أن يكون المنفيُّ بصيغة التّنكيرِ حتَّى يكون عامًّا، وفي سورة البقرة جاء ذلك في صُورة الخبرِ عن ناسٍ معهودين، وذلك قولُه: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ [البقرة: 61]، فناسب أن يأتي بصِيغة التّعريف لأنّ الحقَّ الذي كان يُستباح به قتلُ الأنفُسِ عندهم كان معروفًا، فالحقُّ الذي تُقتل به الأنفُسُ هناك معهودٌ معروفٌ بخلافه هنا، وقولُه: ﴿بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ حالٌ مؤكِّدة؛ إذ لا يقع قتلُ نبيٍّ إلّا بغير حقّ.

(1) الرّازي، مفاتيح الغيب: 2/535،، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/20.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/206.

سِرُّ تسميةِ الباعثِ على القتلِ حقًّا:

تسميةُ أهلِ الباطلِ إجرامٌ بغيرِ طائل

جاءَ وصفُ الباعثِ على قتلِ النَّبيِّين بالحقِّ، وذلك ليس لأنَّه حقٌّ، بل على ما يعدُّه القتلةُ حقًا، فهم يسنّون قتلَ أهلِ الحقِّ بقوانين إجراميَّة، ثم يزعمون أنَّها حقٌّ، فيقتلون النَّبيين وأتباعَهم بمخالفةِ هذه القوانين، فهؤلاء القاتلون يقتلون بهذه القوانين التي يزعمون أنَّها حقٌّ، وبغيرِها كذلك، فالآيةُ تُشيرُ إلى أنَّ قتلَ النَّبيِّين يكون بكفرٍ الذي زعموه حقًّا، وبكفرٍ من ورائه كفرٌ أي: بغير حقٍّ.

بلاغة الاحتراس في قوله: ﴿مِنَ ٱلنَّاسِ﴾:

منزلةُ الآمرين بالمعروفِ والنَّاهين عن المنكرِ تلي منزلةَ الأنبياءِ

قولُه تعالى: ﴿مِنَ ٱلنَّاسِ﴾؛ أي: من غير الأنبياء، وهذا احتراسٌ وهو من قبيل الإطنابِ؛ إذ لو قال: ويقتلون الذين يأمرون بالقِسْط، لكان مندرِجًا في ذلك الأنبياءُ لصِدق اللّفظِ عليهم، فجاء من النَّاس بمعنى: من غيرِ الأنبياء، قال الحسن: تدُلّ الآية على أنّ القائم بالأمر بالمعروف تلي منزلتُه في العِظَمِ منزلةَ الأنبياء[1].

بلاغة تضمين الموصول معنى الشّرط:

الفاء في قولِه: ﴿فَبَشِّرۡهُم﴾ فاءُ الجواب المستعملةُ في الشّرط، دَخَلَتْ على خبرِ إنَّ؛ لأنّ اسمَ إنَّ موصولٌ تضمَّنَ معنى الشّرطِ إشارةً إلى أنّه ليس المقصودُ قومًا معيّنين، بل كلُّ من يتَّصف بالصِّلة فجزاؤه أن يَعلم أنّ له عذابًا أليمًا.

بلاغة الاستعارة التّهكُّميّة في البِشارة:

في قوله (فبشّرهم بعذاب أليم) أنزل الإنذارَ منزلةَ البِشارة السّارّة

الأصل في البِشارة أن تكون في الخير؛ إذ حقيقةُ التّبشير الإخبارُ بما يُظهر السُّرور، وهو هنا مستعمَلٌ في ضِدّ حقيقتِه؛ إذ أُريد به الإخبارُ بحصول العذاب، وهو موجِبٌ لحزن المخبَرين، فهذا الاستعمالُ في الضِّدِّ مَعدُودٌ عند علماءِ البيان من الاستعارة، ويسمّونها تهكّميَّةً؛ لأنّ تشبيه الضِّدّ بضدّه لا يَرُوج في عقل أحدٍ إلّا

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/76.

على معنى التّهكّم والاستهزاء، فاستعمالُها في الشّرّ للتّهكّم؛ نَزّل الإنذارَ منزلةَ البِشارة السّارّة، أي: القائمُ لهم مَقامَ الخبر السّارّ هو العذابُ الأليم، وقيل: هو على معنى تأثُّرِ البَشَرة من ذلك، فلم يُؤخذ فيه قيدُ السُّرور؛ بل لُوحظ فيه معنى الاشتقاق[1].

التّناسُبُ بين الآيةِ وبين الآياتِ السَّابقةِ:

بين قوله في هذه الآية ﴿يَأۡمُرُونَ بِٱلۡقِسۡطِ﴾ وقوله ﴿قَآئِمَۢا بِٱلۡقِسۡطِۚ﴾ في الآية السابقة ارتباطٌ وتناسُبٌ واضحٌ وتواصُلٌ بالمعاني؛ إذ يفسّر بعضُها بعضًا، إذ أشار قوله: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلۡعِلۡمِ قَآئِمَۢا بِٱلۡقِسۡطِۚ﴾ على معنى أنّ القِسْط صِفةٌ للّه في كونه قيُّومَ السّموات والأرض، يقوم به اللّه تعالى، وشهادةُ الملائكة وأُولي العلم هي كذلك قائمةٌ بالقِسْط، يكون أولو العلم هم الأنبياءُ والعلماء من بعدهم يأمرون بالقِسْط، فإن قُوبلت الآيتان يكون المعنى أنّ اليهود يقتلون أولي العلم من الأنبياء والعلماء، وهم أهلُ الشّهادة في الأرض على وحدانيّة اللّه تعالى، وهؤلاء هم الذين يأمرون بالقِسْط من النّاس، وهم بهذه الأفعال الشّنيعة يكونون قد أعلنوا الحربَ على دين التّوحيد عمومًا، الذي هو دين اللّه، وعلى شهادته سبحانَه على نفسه: ﴿أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾، فقتلوا سُبلَ نشرِ هذه الشّهادة في الأرض وأرعبوا أهلَها، وفي ذلك تدميرٌ لموازين اللّه تعالى في الحياة، فيظهر الفسادُ الرّافضُ لقوانين التّوحيد في الأرض بما كسبت تلك الأيدي الآثمة، والتّجدُّدُ في هذه الأفعال واضحٌ منتشِرٌ في كلِّ زمان، ومن هنا فقد جاءت الأفعال مضارعيّةً فيها دلالةُ التّجدُّدِ والاستمرار.

(1) السكاكي، مفتاح العلوم: 375، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/333، الخطيب الموصلي، أولى ما قيل في آيات التّنزيل: 2/456، ومحمد علي جميل، صفوة التّفاسير: 1/175.

﴿أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَبِطَتۡ أَعۡمَـٰلُهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّـٰصِرِينَ ٢٢﴾ [آل عمران: 22]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لمّا ذكر اللّه تعالى في الآية السّابقة ما اقترفتْه أيادي اليهود مِن كفرهم بآيات اللّه، وقتلِهم الأنبياءَ بغير حقٍّ، وقتلِهم الذين يأمرون بالقِسْط من النّاس؛ بيّنَ في هذه الآية جزاءَهم على هذه الأفعال الشّنيعةِ وطبيعةَ خُسرانِهم، فمهما فعلوا من قُرُبات في الدّنيا، فهي خُسرانٌ عليهم في الدّنيا والآخرة، ولن ينصرَهم من عذاب اللّه ناصرٌ مهما فعلوا.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿حَبِطَتۡ﴾: الحَبَطُ وَجَعٌ يأخُذُ البعيرَ في بَطْنه من كَلأ يَسْتَوْبِلُه، أو كلأٌ تأكُله الماشيةُ وتُكْثِرُ منه حتى تنتفخَ لذلك بطونُها ولا يَخرج ما فيها فتهلِكَ، وفي الحديث: "وإنّه كُلَّما يُنْبِتُ الرَّبيعُ ما يَقْتُلُ حَبَطًا أوْ يُلِمُّ"[1]، وحَبِطَ عَمَلُه: فَسَدَ، وحَبِط عملُ الرّجل، بكسر الباء وفتحها: عَمِل عملًا صالحًا ثمّ أفسدَه بالشِّرك أو سوءِ النّيّة، وحبِطت الشّاةُ حَبَطًا: انتفخ بطنُها عن أكل الذَّرِق، وقيل: الحَبَطُ: الانتفاخ أينما كان من داء أو غيره، وحَبِطَ جلدُه: وَرِمَ، وفي التّنزيل: ﴿فَأَحۡبَطَ أَعۡمَـٰلَهُمۡ ٩﴾ [محمد ﷺ: 9][2]، ولعلّ دلالة حَبِطَ هي فسادُ الأعمال مع كثرتِها وزيادتِها.

2) ﴿نَّـٰصِرِينَ﴾: النَّصرُ الإمدادُ بما فيه زيادةٌ مناسبةٌ وقوّة، والنَّصْرُ والنُّصْرة: حُسنُ المَعونة، أو عَوْنُ المظلوم، ونَصَرَ الغَيْثُ البِلادَ: أرواها، والانتصارُ: الانتقام من الظّالم بعون المظلوم عليه، وفي التّنزيل: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلۡبَغۡيُ هُمۡ يَنتَصِرُونَ ٣٩﴾ [الشورى: 39]، ونصرْتُه على عدُوِّه ونصرْتُه منه نَصْرًا، أعنْتُه وقوَّيْتُه[3].

(1) رواه البخاري في صحيحه برقم: 2842.
(2) الخليل، العين، باب الحاء والطاء، وابن سيده، المحكم، والراغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (حبط).
(3) الخليل، العين، وابن سيده، المحكم، والفيومي، المصباح المنير، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (نصر).

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

بيّنَ اللّه تعالى مَصيرَ أولئك الذين اقترفوا أسوأَ ما يمكن أن تَطالَه يدُ بشرٍ في الدّنيا؛ من الكفر وجُرْمِه والقتْلِ وشناعتِه، فجاءهم الوعيدُ في هذه الآية لبيان مَصيرِهم في الدّارين بأنْ حَبِطَتْ أعمالُهم بإزالَةِ آثارِها النّافِعَةِ مِن ثَوابِ الآخِرَةِ ونَعيمِها، ومن حَياةٍ طَيِّبَةٍ في الدُّنْيا؛ لأنَّ العمل الصالح لا ينفعُ صاحبَه إلّا بسلامة العقيدة وصلاحِها، أمَّا هؤلاء فإنَّهم أَوغلوا في الفساد بقتل النَّبيِّين - إذ قَتْلُ نبيٍّ واحدٍ كقَتْلِهم جميعًا - وبقَتْلِ الذين يأمرون بالعَدْلِ والرُّشد، فلن يجدوا لهم يومَ القيامة ناصرًا من عذاب اللّه، ولا حاميًا يَدْفعُ عنهم من نِقْمته[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغة التّعبير باسم الإشارة للبعيدِ:

في اسم الإشارة من معنى البُعد في قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ﴾ للدّلالة على تَرامي أمرِهم في الضّلال وبُعدِ منزلتِهم في فظاعة الحال؛ وعلى تميُّزِهم بهذه الأفعال التي دلّت عليها صِلةُ الموصول أكملَ تمييزٍ، وللتّنبيه على أنّهم أحقّاءُ بما سيُخبَرُ به عنهم بعدَ اسمِ الإشارة؛ أي أولئك المتّصفون بتلك الصِّفاتِ القبيحة أو المبتَلَونَ بأسوأ الحالِ هم الذين بطَلتْ أعمالُهم التي عمِلُوها، ولم يبقَ لها أثرٌ في الدّارين؛ بل بقيَ لهم اللّعنةُ والخزيُ في الدّنيا، وعذابٌ أليم في الآخرة[2].

بلاغة الإخبار بالاسم الموصول دون الفعل:

جاءَ الخبرُ اسمًا موصولًا في قولِه تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ﴾؛ إذ هو أبلغُ من الخبر الفعليِّ، ولأنّ فيه نوعَ انحصارٍ، ولأنّ جعْل الفعلِ صِلةً يدُلُّ على كونها معلومةً للسّامع، معهودةً عنده، فإذا أخبرتَ بالموصول عن اسم استفاد المخاطَبُ أنّ ذلك الفعلَ المعهود المعلوم عنده هو منسوبٌ للمخبَر عنه بالموصول، بخلاف الإخبارِ بالفعل، فإنّك تُخبر المخاطَبَ بصدوده عمَّن أخبرتَ

الإخبارُ بحبوطِ الأعمالِ فيه تبكيتٌ وتحسيرٌ مؤلمٌ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/207.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/22، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/207.

به عنه، ولا يكون ذلك الفعلُ معلومًا عنده، فإنْ كان معلومًا عنده جعلتَه صِلةً، وأخبرتَ بالموصول عن الاسم[1]، فجيءَ بفعل ﴿حَبِطَتْ﴾ لبيانِ أنَّهم معلومون بهذه النَّتيجةِ، وهي أنَّ أعمالَهم قد حبطَتْ بعد أن قُبلَت، ففيه مزيدُ تبكيتٍ لهم، وتحسيرٍ واقعٍ عليهم.

بلاغةُ المجازِ بالحذفِ أو المجازِ المرسلِ في لفظِ الأعمال:

الأعمالُ في قوله: ﴿حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾، إمَّا أن يُرادَ بها الأعمالُ التي يتقرّبون بها إلى اللّه تعالى ويرجُون ثوابَها، بقرينة أصلِ المادّة ومَقام التّحذير؛ لأنّه لا يُتَصَوَّرُ إبطال الأعمال المذمومة، وما ذُكرت الأعمال في القرآن مع حَبِطَت إلّا غيرَ مقيّدةٍ بالصّالحات اكتفاءً بالقرينة[2]، فيكون في الآية حذفٌ، والتّقديرُ: الأعمال الصّالحة في نظرهم التي يتقرّبون بها إلى اللّه، أو يكون المرادُ بها بعضَ الأعمال، فتكون مجازًا مرسلًا علاقتُه الكُلّيّة؛ فقد أَطلق عمومَ الأعمالِ وأراد بعضَها، للمبالغةِ في بيانِ حبوطِها.

إطلاقُ الأعمالِ وإرادةُ بعضِها مبالغةٌ في بيانِ الحبوطِ

فائدةُ التّمثيلِ في قوله: ﴿حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ﴾:

حَبَطُ الأعمالِ إزالةُ آثارِها النّافعةِ من حياةٍ طيّبة في الدّنيا وثوابٍ ونعيم في الآخرة، وإطلاقُ الحَبَطِ على ذلك تمثيلٌ بحال الإبلِ التي يُصيبها الحَبَطُ، وهو انتفاخٌ في بطونها من كثرة الأكلِ يكون سببَ موتِها، في حين أكلتْ ما أكلتْ للالتذاذِ به[3]، فالتَّعبيرُ بالحبطِ دليلٌ على أنَّ ما يكون نافعًا تجب المحافظةُ عليه، كي لا يأتي ما يُفسِدُه ويجعله غيرَ معتدٍّ به.

وجوبُ المحافظةِ على الصَّالحاتِ، كي لا تفسدَ بالموبقاتِ

وقيل إنّ التّركيب في قوله: ﴿حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ﴾؛ مجازٌ عقليّ باعتبار أنّه قد أُسند فعلُ (حَبِطَ) إلى غير فاعلِه وهو ﴿أَعْمَٰلُهُمْ﴾[4].

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/78.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/333.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/207.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/78.

فنُّ الطِّباقِ بين لفظي الدُّنيا والآخرةِ:

بيـانُ شُـمُـولِ فسادِ الأعمالِ الصَّالحةِ ترهيبًا وتحذيرًا

بين لفظي ﴿ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ﴾ طِباقٌ يدُلُّ على الشّمول؛ فتشمَل جميعَ أعمالِهم، وكلَّ أحوالِهم، فلا يُحمَدون عليها في الدّنيا، ولا ثوابَ لهم في الآخرة، وأفاد الطِّباقُ معنًى جديدًا لذلك التّمثيل بين حالِ الإبلِ المريضة بهذا المرض الخطير الذي يؤدّي إلى قتلها، وبين أولئك الذين يقتلون الفضيلةَ، ويقتلون من يأمر بها وينشرها، فهم بقتلهم يتلذّذون كما يتلذّذ الجائعُ في إقباله على الطّعام، وهم بقتلهم يقتلون أنفسَهم وما يشعرون كما يقتل الجملُ نفسَه بكثرة الأكل، فهم يقتلون الحياةَ كلَّها، ووجهُ الشّبه بين الحالتين متعدِّدٌ[1].

بلاغة الجمع والمقابلة في ﴿مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ ودلالتُها على الشّمول:

مَجيءُ الجمعِ في ﴿مِّن نَّٰصِرِينَ﴾؛ لأنّه بإزاء شُفعاءِ المؤمنين من الملائكة والأنبياء وصالحي المؤمنين؛ أي: ليس لهم كأمثال هؤلاء، ومعنى انتفاءِ النَّاصرين انتفاءُ ما يترتّبُ على النّصر من المنافع والفوائد، وإذا انتفتْ من جمعٍ فانتفاؤها من واحد أَولى؛ أي: إذا كان جمعٌ لا ينصُر فأَحرى أنْ لا ينصُرَ واحدٌ، ولرعاية ما وقع في مقابلَته، لا لنفي تعدُّدِ الأنصارِ من كلِّ واحدٍ منهم، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ ٢٧٠﴾ [البقرة: 270] إذ تقدّم ذكرُ معصيتِهم بثلاثة أوصاف؛ فكان جزاؤهم ثلاثةَ أشياءَ ليقابَلَ كلُّ وصفٍ بمناسبه، فالكفرُ بآيات الله أعظمُ، والتّبشيرُ بالعذاب الأليم أعظمُ، وقابَلَ قتلَ الأنبياءِ بحُبوط العمل في الدّنيا الآخرة بالعقاب الدّائم، وقابَلَ قتلَ الآمرين بالقِسْط بانتفاء النّاصرين عنهم إذا حلَّ بهم العذابُ، كما لم يكن للآمرين بالقِسْط مَن ينصرهم حين حلَّ بهم قتلُ المعتدين، كذلك المعتدون لا ناصرَ لهم إذا حلّ بهم العذابُ[2].

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/78.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/77 - 78، والآلوسي، روح المعاني: 2/106.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [آل عمران: 23]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

بعد أن توعَّد سبحانه في الآية السَّابقة الّذين أوتوا الكتاب منَ اليهود على شناعة أفعالهم، وما اقترفته أيديهم، التفتَ إلى النّبيّ ﷺ؛ لبيان عجيب صنع ما يفعله معه فريقٌ منهم، وهم اليهود، وهو شاهد على أفعالهم، بعد أن حكى سبحانه أفعال أسلافهم، مِن قتلهمُ الأنبياء، وقتلهمُ الّذين يأمرون بالقسط منَ النّاس؛ فها هم إذا دُعوا إلى كتاب اللّه، ليحكم بينهم، يتولّون وهم معرضون، فما أعجب حالهم!

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أُوتُواْ﴾: أتى منَ الإتيان، وهو مجيءٌ بسهولة، بسبب تهيئة أو إزالة مانع، و(آتى) من الإيتاء؛ وهو الإعطاء، وخُصَّ دفع الصَّدقة في القرآن بالإيتاء، قال تعالى: ﴿وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [الأعراف: 156]، وقال سبحانه: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا﴾ [النساء: 54]، وقال: ﴿وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾﴾ [النساء: 163]، ومعنى ﴿أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾: أُعطَوهُ من غير جُهد منهم ولا عَناء.

2) ﴿نَصِيبًا﴾: النَّصبُ: إقامة شيءٍ في ارتفاعٍ واستِواءٍ، والنّصيب: القِسْم والحظُّ من كلِّ شيء؛ لأنّه يُعزَل، ويقام لصاحبه، ويرفع، والمعنى: أوتوا حظًّا وقِسْمًا منَ الكتاب[1].

3) ﴿لِيَحْكُمَ﴾: الحُكم: المَنع، أو: ضبطٌ يمنع التّسيّب والفساد، وَسُمِّيَتْ حَكَمَةُ الدَّابَّةِ لِأَنَّهَا تَمْنَعُهَا، والحاكم: مَن يمنع مِنَ الظّلم، ويُطلق الحُكمُ والحِكمة على العلم والفقه والقضاء بالعدل[2].

4) ﴿يَتَوَلَّىٰ﴾: الوَليُ والتَّولِّي: قُربُ شيءٍ مِن شَيءٍ ولُزُومُه تبعًا له، إقبالًا أو إدبارًا، وأكثر استعماله في الإقبال، كقوله تعالى: ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ [البقرة: 144]، ولا

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والجوهريّ، الصّحاح، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (نصب).

(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (حكم).

يدلّ على الإعراض والإدبار والبعد إلَّا إذا عُدِّيَ بِـ (عن)، أو دلّ السّياق على ذلك، يُقالُ: تَوَلَّى عنه، أي: أَعرَضَ. ووَلَّى هاربًا، أي: أدبَرَ، ومنه هذه الآية[1].

5) ﴿مُّعۡرِضُونَ﴾: العَرْضُ من كلّ شيء خلاف الطُّول، وفي استعمال العرب: اتّساع ما يواجه النّاظرَ منَ الشّيء الكثيف، والعرب تستعمل الطّول والعرض في الكثرة، يُقال: أطال في الكلام، وأعرض في الدّعاء، أي: أكثر. ويُقالُ: أَعرَض فُلانٌ، أي: ذهَب عرضًا وطُولًا. والإعرَاضُ عنِ الشّيء: الإدبارُ عنه بالعَرضِ. وأعرض بوجهه، وعن فلان: كأنّه انحرف عنه، ووَلَّاه عُرْضه، أي: جانبه، أو عارِضَه، أي: جانبَ وجهه لا مقدَّمه، أو: وَلَّى مُبدِيًا عَرضَهُ، وأَعرَضَ عن الأَمرِ، وعنِ الآيات، تشبيهًا بالإعراض الحسّيّ، قال تعالى: ﴿وَهُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِهَا مُعۡرِضُونَ ٣٢﴾ [الأنبياء: 32][2].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

أرأيت - أيُّها الرّسول ﷺ- أعجبَ من حال هؤلاء اليهود - وهم علماؤهم - الّذين آتاهم اللّهُ نَصِيبًا عَظِيمًا منَ التوراةِ فَلَمْ يَنْتَفِعُوا بذلِكَ، وقد علموا أنَّ ما جئتَ به هو الحقُّ، يُدعَونَ إلى ما جاء في القرآن ليَفْصل بينهم فيما اختلفوا فيه، فإن لم يُوافق أهواءَهم يَأْبَ كثير منهم حُكمَ اللّه؛ لأنَّ من عادتهم الإعراضَ عنِ الحقِّ، أو يُدعَونَ إلى كتابهم الّذي يزعمون أنّهم مؤمنون به، لكنّهم يتولّون بعد أن يأخذوا حظّهم منَ الوقت والتّفكير، وهم معرضون عنه بقلوبهم؛ لأنَّهم يعلمون أنَّ في كتابهم البشارةَ بنبوّته ﷺ، والحكمَ فيها قد خالف أهواءهم[3].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالة التّحوّل في الأسلوب منَ الخبر إلى الإنشاء:

صدر الآية استئناف ابتدائيّ للتّعجيب من حالة اليهود في شدّة ضلالهم[4]؛ وهو انتقال من أسلوب خبريّ عَدَّدَ خَزَايا اليهود من كفر، وإصرار على المعصية، وقتل للأنبياء وغير

(1) الجوهريّ، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللّغة، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (ولي).

(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والجوهريّ، الصّحاح، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (عرض).

(3) الشوكاني، فتح القدير: 1/376، ونخبة من العلماء، التّفسير الميسّر، ص: 53.

(4) الزّركشّي، البرهان: 4/151، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/208.

تنوّع أسلوب القرآن للتّنبيه على أحوال اليهود في عنادهم، وإصرارهم على الإعراض

ذلك؛ إلى أسلوب إنشائيّ مخاطبًا رسول الله ﷺ، مُستفهمًا عن عجائب الّذين أوتوا الكتاب.

الاستفهام في قوله ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ للتّقرير والتّعجيب:

إذا قُصِدَ بالاستفهام النّفي، وجاء معه أداة نفي عاد النّفي إثباتًا، وهذه قاعدة مطّردة، وهو هنا للتّقرير والتّعجيب، فالاستفهام لنفي الفعل، والمراد حصول الإقرار بالفعل، ليكون التّقرير على نفيه محرّضًا للمُخاطَب على الاعتراف به لأنّه لا يرضى أن يكون ممّن يجهله، ومثله قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا﴾ [الشّعراء: 18]، يعني: ربّيناك[1].

لمّا قال ﴿أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ دلّ على ظاهريّة الإيمان، وأنّ التزامهم لم يتجاوزِ الحروف والكلمات:

الذّكر في موضع الحذف، وبلاغة التّعريض

إنّ قوله: ﴿إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ من قبيل الذّكر في مَوضِع الحذف، فكان المَوضِع أن يُقال: (إليهم)، فأطنب في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾؛ ليدلّ على أنّ ضلالهم على علم، وفي ذلك تعريض بهم؛ لأنّ الّذي أوتوه منَ الكتاب هو قراءتُهم له بألسنتهم، وادّعاءُ الإيمان به، دون أن يكون له فيهم واعظ أو رادع.

تعدية فعل النّظر ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ بحرف ﴿إِلَى﴾:

في العبارة القرآنيّة إعلام بأحوال اليهود، وتعجيب من عنادهم، وصدّهم عن كتاب الله

الرؤية في قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ بصريّة لتعديتها بـ﴿إِلَى﴾ الّذي يتعدّى به فعل النّظر، أو: قلبيّة، وتكون ﴿إِلَى﴾ داخلة على المفعول الأوّل؛ لتأكيد اتّصال العلم بالمعلوم، وانتهائه المجازيّ إليه، ويكون المعنى: ألم تعلم؟ ألم ينته علمك إلى هؤلاء؟ ومعناه: اعرفهم. وقيل: ﴿۞أَلَمْ تَرَ﴾؛ بمعنى: ألم تُخبر؟ وهو سؤال فيه إعلام، أي: أعلن قصّتهم، وهي كلمة تقولها العرب عند التّعجّب منَ الشّيء، وعند تنبيه المُخاطَب، ومنها قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِمْ﴾ [البقرة: 243]؛ أي:

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/208، والمطعنيّ، التّفسير البلاغيّ: 1/157.

أَلَم تَعجَب بفعلهم، أَلَم يَنتَهِ شأنُهم إليك؟ وقال الرّاغبُ: إذا عُدِّي رَأَيت بـ (إلى) اقتضى معنى النَّظَر المُؤَدِّي للاعتبار[1].

التّعجيب بطريق الموصوليّة:

وقال: ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾، ولم يقلِ اليهود؛ إذ عرَّفَ المُتَحَدَّث عنهم بطريق الموصوليّة بـ ﴿ٱلَّذِينَ﴾، واسم الموصول هنا كـ (أل) العهديّة التي تُعرّف المفردات دون ذكرهم؛ وذلك للتّعجيب، ولأنّ في الصّلة ما يزيد التّعجيب من حالهم؛ لأنّ كونهم على علم منَ الكتاب قليل أو كثير من شأنه أن يصدّهم عمّا أخبرَ به عنهم، وتلين قلوبهم، ويُحَكِّمون كتاب الله، ناهيك عمّا في هذه الصّلة أيضًا من توهين علمهم بالكتاب، والكتاب: التّوراة، فالتّعريف للعهد، وهو الظّاهر، وقيل: للجنس، فعجّب بحالهم من طريقين[2].

لم يحملوا أمانة العلم، والعمل، والتّبليغ، فأحالوا أنفسهم بذلك إلى بهائم لا تستوعب التّكريم الإلهيّ في إيتاء الكتاب

العدول عنِ الاسم المعهود إلى غير المعهود مع تنوّع الكناية عنِ الكتاب:

الجدير بالاهتمام هنا أنّ القرآن يُطلِقُ عليهم ﴿أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ [نحو: آل عمران: 69] أو ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ [نحو: البقرة: 101]، فعدل هنا إلى قوله: ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾، فزاد عليها ﴿نَصِيبًا مِّنَ﴾؛ وواضح أنّ التّعبيرين مختلفان في المعنى؛ فقوله: ﴿أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾؛ الألف واللّام فيه للعهد، أي: الكتاب المعهود، وهو التّوراة والإنجيل، أمّا ﴿أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ فمعناه منَ الوحي. فـ (أل) فيه لتعريف الجنس؛ لأنّهم أوتوا بعض كلام الله، وهو التّوراة والإنجيل، فحرّفوه، ولم يؤتوا كلام الله كلّه، بدليل ما اشتمل عليه القرآن من حقائق الإيمان، والأحكام، والتّوجيهات، والقصص ممّا ليس له وجود في كتاب سماويّ قبله.

تعدّد معاني الكتاب المرادة في الآية، فهو القرآن أو التّوراة أو جنس الكتب السّماويّة

أو تكون (أل) للعهد، أي: أوتوا نصيبًا منَ التّوراة؛ لأنّها المُحرّفة، والمعنى: يُدْعَون إلى التّوراة الصّحيحة أو القرآن أو جنس الكتب

(1) ابن سيده، المحكم: (رأى)، والرّاغب، المفردات: (رأى)، والزّمخشريّ، الكشّاف: 1/515، والزّبيديّ، تاج العروس: (رأى)، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/209، وفاضل السّامرائيّ، معاني النّحو: 2/13.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/209، وفاضل السّامرائيّ، معاني النّحو: 1/112.

السّماويّة؛ للحكم بينهم بما فيها، والرّضى بها، وفيه تعريض بأنّهم لا يعلمون من كتابهم إلّا حظًّا يسيرًا، ويجوز أن يكون الكتاب الثّاني عين الكتاب الأوّل، وإنما غُيِّرَ اللّفظ تفنّنًا وتنويهًا بالمدعوّ إليه[1].

سرُّ العدول عن (آتيناهم) إلى ﴿أُوتُواْ﴾:

بناء الفعل للمفعول في ﴿أُوتُواْ﴾ هنا يشير إلى عدم قبولهم ما آتاهم اللّه من الكتاب؛ إمّا بإيمانهم ببعض الكتاب وكفرهم ببعض، وإمَّا بتحريفهم له، وكلُّ موضعٍ ذُكر في وصف الكتاب (آتينا) فهو أبلغ من كلِّ موضع ذُكر فيه ﴿أُوتُواْ﴾؛ لأنَّ ﴿أُوتُواْ﴾ قد يقال إذا أُوتي من لم يكن منه قَبول، و(آتيناهم) يقال فيمن كان منه قَبول.

وقد ورد قوله تعالى: ﴿ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ في ثمانية مواضع في القرآن الكريم، كلُّها تدل على قبولهم ما في الكتاب، كقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَتۡلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۗ وَمَن يَكۡفُرۡ بِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ١٢١﴾ [البقرة: 121].

المجاز في ذكر النّصيب منَ الكتاب:

ذكر النّصيب منَ الكتاب؛ لمقدرتهم على قراءته، وفهمه دون تطبيقه، ونشره، وتعليمه

إيثار التّعبير بنصيب منَ الكتاب هو مُقتضَى الحال في بلاغة الإعجاز، أي: أنّ ما لديهم من وحي ليس كافيًا في هدايتهم، ومع ذلك رفضوه، ولو قيل: أوتوا الكتاب لأعذرهم بأنّهم ليسوا في حاجة إلى غيره[2]، أو أنّ ﴿أُوتُواْ نَصِيبٗا مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ مجاز عمّا أخذوه من تلاوة الكتاب دون العمل به، فوصف حالة عدم الفهم وعدم التّوفيق، الّتي أحاطت بهم، وأحالتهم إلى كائنات لا قدرة لها على استيعاب ما في كتاب اللّه من أوامر، ونواهٍ، وأحكام، وفضائل، فهم قد أوتوا الكتاب لكنّهم لم يُؤتُوهُ حقّه، فكانت علاقتهم به كحمار يحمل الكتب والأسفار، فليس له منها إلّا جهد الحمل، ومشقّة الطّريق، فلم يُؤتُوهُ حقّه منَ العناية، والعبادة، والتّطبيق، والدّراسة لأحكامه، ونشره،

(1) ابن جرير، جامع البيان: 6/288، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 1/416، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 2/10، وأبو حيّان، البحر المحيط: 3/81، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/209 - 210.

(2) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ: 1/158.

وتعليمه، فكانوا كمن أوتي حروفه، ولم يؤتَ أحكامه وفضائله، فقال: ﴿أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾. وقوله: نصيبًا، أي: طرفًا، أي: ظاهر بعض الكتاب؛ إذ هم لم يحفظوه، ولم يعلموا جميع ما فيه[1].

دلالة التّنكير في قوله ﴿نَصِيبًا﴾:

تنكير النّصيب يحتمل التّعظيم والتّحقير، والسّياق يرجحّ أنّه للتّحقير والتّقليل والتّهوين من شأنهم وحالهم ممّا أخذوه منَ الكتاب[2]، وفي بناء ﴿أُوتُواْ﴾ لما لم يُسَمَّ فاعله دلالة على الإغلاق الّذي أصابهم بسبب عتوّهم وإعراضهم، قال الرّاغب: "وكلّ مَوضِع ذُكر في وصف الكتاب ﴿ءَاتَيۡنَا﴾ [البقرة: 53] فهو أبلغ من كلّ مَوضِع ذُكر فيه ﴿أُوتُواْ﴾؛ لأنّ ﴿أُوتُواْ﴾ قد يُقال فيمن لم يكن منه قبولٌ، و﴿ءَاتَيۡنَٰهُمُ﴾ [البقرة: 121] يُقال فيمن كان منهم قبولٌ"[3]، وكتابهم الخاصّ بهم نصيب من بقيّة الكتب، وما أخذوا من كتابهم نصيب منه، فإنّهم لو استوفوا حظّهم منه لما عدلوا في الحكم عنه، ولرضوا به، وكان في هذا التّعجيب أن يكون غيرهم يرضى بحكم كتابهم، ثمّ لا يرضون هم به[4].

الآية إنكار على علماء اليهود من أهل الكتاب، لمّا علموا منَ الحقّ فأخفوه، وأعرضوا

بلاغة الإظهار في مَوضِع الإضمار:

أظهر الاسم الأحسن ﴿ٱللَّهِ﴾ في قوله: ﴿كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾، ولم يقل: إلى كتابهم؛ احترازًا عمّا غيّروا وبدّلوا، ولأنّهم إنّما دعوا إلى كتاب اللّه الّذي أُنزل على موسى عليه السلام، لا إلى ما عساه أن يكون بأيديهم ممّا غيّروا، وفيه أيضًا إشارة إلى عظيم جرأتهم بتولّيهم عمّن له الإحاطة الكاملة[5].

للتّعجيب من حال أولئك الّذين يُدعون إلى كتاب الله، ثم يتولّون

قوله: ﴿بَيۡنَهُمۡ﴾ يحتمل أن يكونَ المتنازع فيه واقعًا بينهم هم، أي:

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/81.
(2) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 2/10، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/209.
(3) الرّاغب، المفردات: (أتى).
(4) الحراليّ، تراث أبي الحسن الْحَرَاليّ: 1/542.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 2/49.

بلاغة ذكر البينيّة في الحكم

بين من أسلم منهم، ومن لم يسلم، أو: بينهم وبين رسول الله ﷺ، فدعوا إلى التّوراة الّتي لا اختلاف في صحّتها عندهم، ليُحكم بين المحقّ والمبطل، فتولّى من لم يسلم منهم[1].

دلالة الأفعال المضارعة ﴿يُدْعَوْنَ﴾، ﴿لِيَحْكُمَ﴾، ﴿يَتَوَلَّىٰ﴾:

من إعجاز القرآن حكايته أسرار النّفس الإنسانيّة، وتجدّدها معَ الزمن

الأفعال المضارعة هي ﴿يُدْعَوْنَ﴾، ﴿لِيَحْكُمَ﴾، ﴿يَتَوَلَّىٰ﴾، وبناء ﴿يُدْعَوْنَ﴾ لما لم يُسَمَّ فاعله يدلّ على التّعميم، فمهما دُعوا إلى كتاب الله من أيّ داعٍ ليحكم بينهم فإنّهم يتولّون، والحكم واقع بينهم أنفسهم، وليس بينهم وبين المسلمين، ومع ذلك فهم مُعرضون عن كتابهم وعنِ الحُكم به، والمُضارع في قوله: ﴿لِيَحْكُمَ﴾ دليل جاهزيَّة الحُكم في الكتاب ووضوحه، ثمّ دليل تجدّد تلك الجاهزِيَّة في المستقبل، فهو كتاب الله، وارتباط هذا المعنى مع حرف التّراخي ﴿ثُمَّ﴾ في قوله: ﴿ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ﴾؛ لبيان رسوخ علمهم بكتاب الله، إذ أخذوا الزّمن الكافي لمعرفته، وفهمه، والتّدقيق فيه، لكنّهم بعد ذلك أعرضوا عنه.

وفي قوله: ﴿ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ﴾ استبعاد لتولّيهم مع علمهم بأنّ الرّجوع إليه واجب، والتّولّي مجاز عنِ النّفور والإباء، وأصله الإعراض والانصراف الحسّيّ، ونسب التّولّي إلى فريق منهم دون الجميع؛ لأنّ منهم من أسلم ولم يتولَّ[2]، وفعل المضارع ﴿يَتَوَلَّىٰ﴾ أفاد أيضًا ذلك التّجدّد كحال تولّيهم، فمع أنّ الحكم بالكتاب متجدّد الجهوزيّة في ﴿لِيَحْكُمَ﴾، فإنّ حالة التّولّي لديهم على تجدّد مستمرّ في ﴿يَتَوَلَّىٰ﴾.

وجملة ﴿وَهُم مُّعْرِضُونَ﴾ حال دالّة على تجدّد إعراضهم، المستفاد

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/81، 82.

(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 1/416، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 2/10، وأبو حيّان، البحر المحيط: 3/81، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/210.

منَ المضارع ﴿يَتَوَلَّىٰ﴾؛ كأنّهم وَلّوا كتاب الله عُرضهم وعارِضَهم، أي: جانبهم وجانبَ وجوههم، لا مقدّمهم[1]، وفي ذلك انسجام حالة التّجدّد بين الحال والأفعال المضارعة.

دلالة التّراخي في ﴿ثُمَّ﴾:

الله تعالى يمنح الإنسان وقته الكافي؛ للتّفكير والنّظر فيما يختاره بعد أن يتيح له فرص التّعلّم، والتّعرّف على الحقّ والباطل.

حِلْمُ الله مع غَنَائِه، وعناد البشر مع شدة فقرهم

يدلّ التّراخي في ﴿ثُمَّ﴾ على أنّ هؤلاء أخذوا وقتهم في النّظر والتّفكّر في الأمر، فلمّا رأوا نتائج الحُكم لا توافق أهواءهم وعداوتهم رسول الله ﷺ وإنكار رسالته؛ أعرضوا عنه؛ لأنّه كان موجودًا عندهم في التّوراة ذكر صفاته ﷺ تمامًا كما يرونها أمامهم فيه ﷺ، وفي إمهاله ما يدلّ على لددهم وتبلّدهم في ذلك بما يوقعه الله منَ المقت والتّحيّر على من دعي إلى حقّ فأباه. وفي صيغة يتفعّل ﴿يَتَوَلَّىٰ﴾ ما يناسب معنى ذلك في تكلّف التّولّي على انجذاب من بواطنهم لما عرفوه وكتموه.

و﴿ثُمَّ﴾ تدلّ على أنّ تولّيهم مستمرّ في أزمان كثيرة تبعد عن زمان الدّعوة، أي: أنّهم لا يرعوُون، بل يتولّون ثمّ يتولّون؛ لأنّ المرء قد يُعرِضُ غضبًا، أو لعظم مفاجأة بأمر غير المترقّب، ثمّ يثوب إليه رشده، ويراجع نفسه، فيرجع، وقد علم أنّ تولّيهم إثر الدّعوة دون تراخٍ حاصل بفحوى الخطاب، فدلّت ﴿ثُمَّ﴾ على التّراخي الزّمنيّ، فمهما طال بهم الزّمن، وتجدّدت أحوال حاجتهم إلى أحكام كتاب الله تولّوا عنه، وهم معرضون، ودلّت أيضًا على التّراخي الرّتبيّ الّذي أريد به تشنيع حالهم وتفظيعها بعد التّعجيب منها؛ إذْ كيف يتولّون إذا دعوا إلى كتابهم بعد أن أوتوا الكتاب، ونقلوه[2].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/210.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 2/49، 50، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/210.

سرُّ الجمع بين التَّولّي والإعراض وهما قريبان في المعنى:

التّوكيد بتَكرار المعنى، والدّلالة عن جهة توَلِّيهم وهـــو تَـعـمُّـد الإعراض

ذكر التّولّي والإعراض مع أنّهما قريبان في المعنى؛ لبيان طبائع الأنفس وخبيئاتها.

فالإعراض مؤكّدٌ للتّولّي، فهو حال من أحواله، يصف ذلك التّردّد والتّكلّف الّذي صار وصفًا لهم، فأصبح الإعراض عادتهم، وفي هذا تحذير لهذه الأمّة منَ الوقوع في مثل ذلك، أو مبينٌ لمعنى جديد، فالتّولّي عنِ الدّاعي، والإعراض عنِ المدعوّ إليه، أو التّولّي بالبدن والإعراض بالقلب، أو التّولّي من علمائهم والإعراض من أتباعهم[1].

الإشـــــارة إلى وجـود الدّليل على صحّة نبوّة رسول الله ﷺ عندهم

في الآية دليل على صحّة نبوّته ﷺ؛ لأنّهم لولا علمهم بما جاء في كتبهم من نعته وصحّة نبوّته لمَا أعرضوا، وتسارعوا إلى موافقة ما في كتبهم، حتّى يثبتوا بطلان دعواه[2].

(1) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 2/10، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 2/49 - 50.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/82.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامٗا مَّعۡدُودَٰتٖۖ وَغَرَّهُمۡ فِي دِينِهِم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ٢٤﴾ [آل عمران: 24]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

أسباب الجرأة على الله وارتكاب المعاصي

لَمَّا ذكر تعالى اجتراء اليهودِ على اللّه، وعدّد سبحانه بعض مخازيهم، علّل تلك الجرأة عليه، وذلك الإعراض عن كتابه؛ بأنّهم قالوا كذبًا وبهتانًا: لن تمسَّنا النَّار إلَّا أيّامًا قليلات معدودات، وتطاوَلَ الزّمانُ وهم على هذا الباطل، حتّى اطمأنُّوا إليه، وأقنعوا أنفسهم بهذا القولِ الذي رسَّخ اعتقادَهم له وهوَّنوا به الخطوبَ ولم يبالوا معه بارتكابِ المعاصي والذُّنوب، ولمَّا نسبوا ذلك إلى الكتاب، وجعلوه ديناً، بيَّن سبحانه أن تعمُّد كذبهم على اللّه، وتحريفهم دينهم؛ إنَّما كان بسبب غُرورهم، ولا صلة له بدين اللّه، ولا ارتباط له به[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تَمَسَّنَا﴾: المَسُّ: مخالطة دقيقة ذات أثَرٍ، وأكثر ما تكون بجَسّ الشَّيء باليد، والمسُّ كاللّمس، لكنَّ اللّمس يُقال لطلب الشّيء، وإن لم يوجد، والمَسُّ يُقال فيما يكون معه إدراكٌ، والمسُّ يقال فيما ينال الإنسان من أذىً أو مكروه، كقوله تعالى: ﴿مَّسَّتۡهُمُ ٱلۡبَأۡسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ﴾ [البقرة: 214]، وقوله: ﴿مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ﴾ [الأنبياء: 83]، وقوله: ﴿مَسَّنِيَ ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾ [ص: 41][2].

2) ﴿مَّعۡدُودَٰتٖۖ﴾: العَدُّ: إحصاءٌ ببيان الأفراد وضبطهم، ولو كثرت، والإِعدَادُ: إحضار الشّيء وتَهيئَته، والفرق بين العدّ والإحصاء

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 2/51 - 52، والآلوسي، روح المعاني: 2/107.

(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة (مسَّ)، والرّاغب، المفردات، وابن سيده، المحكم، وابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس: (مسس)، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (مس، مسمس).

أنّ العدَّ سَردُ بعض الأشياء تِلوَ بعضها الموجود منها، ولا يستلزم بلوغ آخر جنسها، والإحصاء: حَصرُ الشّيء عَدًّا ببلوغ آخر ما هو منه، قال ﷻ: ﴿إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ﴿٨٤﴾﴾ [مريم: 84]، يعني: أنّ الأنفاس تُحصى إحصاءً، ولها عددٌ مَعلوم، وقوله تعالى: ﴿جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ ﴿٢﴾﴾ [الهُمزة: 2]، أي: جعله ذا كثرة وعَدَد، أو: جعله عُدَّة للدّهر[1].

والمعنى هنا: أيامًا قليلة العدد.

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

عقيدة اليهود الفاسدة القائمة على الكذب والخداع

ذلك التَّولِّي والإعراضُ عنِ الحقِّ سببه اعتقادٌ فاسدٌ لدى هؤلاءِ اليهود؛ لأنَّهم كانوا يدَّعون بأنّهم لن يعذَّبوا إلّا أيامًا قليلة - وهي مدَّةُ عبادتِهم العجلَ - ثم يَدْخلون الجنةَ، وهذا الاعتقاد أدَّى إلى جرأتهم على اللّه، واستهانتهم بدينه، واستمرُّوا على دينهم الباطل الّذي خَدَعوا به أنفسهم، وهذه العقيدةُ عقيدةُ اليهودِ، وما هو إلَّا مجرَّد كذبٍ وافتراء من تلقاء أنفسهم افتَعَلُوه، ولم ينزل اللّه به سلطانًا[2].

الإِيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

التّعبير عنِ الاعتقاد بالقول:

وعبّر عنِ الاعتقاد بالقول ﴿قَالُواْ﴾؛ دلالة على أنّ هذا الاعتقاد المُعلَن لا دليل عليه؛ وأنّه مجرد قول مفترى، وهذه عقيدة اليهود[3].

سرُّ العدول عن ﴿مَّعْدُودَةً﴾ [البقرة: 80] إلى ﴿مَّعْدُودَٰتٍ﴾:

اختلاف القائلين، ومناسبة السياق

قال تعالى في سورة البقرة: ﴿وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾ [البقرة: 80]، وقال هنا: ﴿مَّعْدُودَٰتٍ﴾، الأيّام جمع قلّة، وَوُصِفَت بجمع السّلامة الّذي يفيد القلّة؛ لتأكيد القلّة، وللاحتراس من إرادة الكثرة بجمع القلّة على سبيل الاستعارة، قال الزّجّاج: ﴿مَّعْدُودَٰتٍ﴾

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عد)، وابن منظور، لسان العرب، والزَّبيديّ، تاج العروس، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (عدد).
(2) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 2/28، ونخبة من العلماء، التّفسير الميسّر، ص: 53.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/211.

يستعمل كثيراً في اللّغة للشّيءِ القليل، وكلّ عدد قَلَّ أو كَثُرَ فهو معدود، ولكنّ ﴿مَّعۡدُودَٰتٖۖ﴾ أدلّ على القلّة؛ لأنّ كلّ قليل يجمع بالألف والتّاء، نحو: دريهمات وجماعات[1].

وقال السيوطي: قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامٗا مَّعۡدُودَةٗۚ قُلۡ أَتَّخَذۡتُمۡ عِندَ ٱللَّهِ عَهۡدٗا فَلَن يُخۡلِفَ ٱللَّهُ عَهۡدَهُۥٓۖ أَمۡ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ٨٠﴾ [البقرة: 80]. وفي آل عمران: ﴿مَّعۡدُودَٰتٖۖ﴾. قال ابن جماعة: لأنَّ قائل ذلك فرقتان من اليهود إحداهما، قالت: إنّما نعذب بالنَّار سبعة أيام عدد أيام الدنيا، والأخرى قالت: إنَّما نعذَّب أربعين عدَّة أيام عبادة آبائهم العجل؛ فآية البقرة تحتمل قصد الفرقة الثانية حيث عبّر بجمع الكثرة، وآل عمران بالفرقة الأولى؛ حيث أتى بجمع القلَّة.

والظّاهر - كما ذكر السيوطي وغيره - أنّ القوم المذكورين هنا غير الّذين في سورة البقرة، ويرجحّ ذلك وصفهم هنا بقوله: ﴿أُوتُواْ نَصِيبٗا مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ على خلاف ما هناك، فإنّهم هناك ذكروا في سياق الحديث عن بني إسرائيل، ثمّ بيّن عقابهم فمايزهم بين مؤمن وكافر، فقال: ﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةٗ وَأَحَٰطَتۡ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٨١ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: 81 - 82]، وقد تكرّر ذكر ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبٗا مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ في سورة النّساء [النّساء: 44، 51]، كما قالوا: ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبٗا مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡجِبۡتِ وَٱلطَّٰغُوتِ﴾ [النّساء: 51]، فقال: ﴿يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡجِبۡتِ وَٱلطَّٰغُوتِ﴾، ولعلّ هذا أشنع ما وُصف به الكفّار في كتاب اللّه، فكان هؤلاء الّذين أوتوا نصيبًا منَ الكتاب إذا دعوا إلى كتاب اللّه ليحكم بينهم قالوا: لن تمسّنا النّار إلّا أيّامًا معدودات، وهو أقلّ القليل في اعتقادهم، بخلاف من قالوا: معدودة، وفي سورة البقرة ناقشهم في حجّتهم فقال: ﴿قُلۡ أَتَّخَذۡتُمۡ عِندَ ٱللَّهِ عَهۡدٗا فَلَن يُخۡلِفَ ٱللَّهُ عَهۡدَهُۥٓۖ﴾ [البقرة: 80]، وهنا: لم يناقشهم، بل سفّه ما قالوا بقوله: ﴿وَغَرَّهُمۡ فِي دِينِهِم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ﴾، فبيّن أنّ لهم دينًا خاصًّا، وتوعّدهم بالجمع يوم القيامة.

وعلى فرض أنَّ هؤلاء المذكورين هنا هم المذكورون هناك فإنّ السِّياق المذكور فيه ﴿أَيَّامٗا مَّعۡدُودَةٗۚ﴾ [البقرة: 80] قد ذكر فيه كثير من الجرائم والآثام، وكان على سبيل الإخبار عن كثرة

(1) الزّجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 1/275، وأبو حيّان، البحر المحيط: 3/83، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 2/50.

مخالفتهم، والسِّياق المذكور فيه ﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍۖ﴾ ذكر فيه جرائم لهم، ولكنَّها أقلّ، وكان على سبيل التعليل لانصرافهم عن الحقِّ وإعراضهم عنه؛ فكان ادعاؤهم في كلٍّ منسجمًا مع السياق؛ حيث إنَّ الإخبار يقتضي الكثرة، والتعليل لهذا الإعراض يقتضي القلَّة في زعمهم؛ فغرّهم ظنُّهم هذا ما اختلقوه من الكذب والبهتان.

الظرفيّة المجازيّة في قوله: ﴿فِي دِينِهِم﴾:

أي: وغرّهم ما افتَرَوه، وتَقَوَّلوه على الدّين، وأدخلوه فيه، من أنّ النّار لن تمسّهم إلّا أيّامًا قلائل، أو أنّ آباءهم الأنبياء يشفعون لهم، فلذلك أُتِيَ بـ ﴿فِي﴾ الدّالّة على الظرفيّة المجازيّة[1].

سرُّ تقديم الجارّ والمجرور في ﴿فِي دِينِهِم﴾:

الدّين عند اللّه واحد؛ وهو الإسلام، وكلّ الأنبياء كانوا على الإسلام.

وفي نسبة الدّين إليهم ﴿فِي دِينِهِم﴾ إشارة إلى ما أدخلوه منَ التّقوّلات في الدّين، ثمّ إنّه ذكر الدّين، ولم يذكرِ الكتاب؛ لأنّ ما افتروه أصبح عندهم عقيدةً ودينًا على خلاف الكتاب الّذي نبذوه وراء ظهورهم، وقدّم الجارّ والمجرور ﴿فِي دِينِهِم﴾؛ للاهتمام والاختصاص؛ إذ ما كان ليقع غرورهم وقوعًا جماعيًّا، كما وقع، لولا ما افتروه في دينهم.

وقوله: ﴿مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ﴾ الّذي افتروه هو قولهم: ﴿لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعۡدُودَٰتٍۖ﴾، أو: ﴿نَحۡنُ أَبۡنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥۚ﴾ [المائدة: 18]. أو: ﴿لَن يَدۡخُلَ ٱلۡجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰۗ﴾ [البقرة: 111]؛ أو: كلّ هذه الأقوال[2]، والواضح أنّ افتراءهم كان على صعيد مجتمع كاملٍ، نتج عنه الدّين المُحرّف الّذي نُسب إليهم، فقال: ﴿فِي دِينِهِم﴾،

لـلاهـتـمـام والاختصاص

ليس كلّ ما تتبنّاه الجماعة أو المجتمع صحيحًا؛ وذلك بسبب الكِبر والغُرور، والغُرور يؤدّي بصاحبه إلى ارتكاب الكبائر وأشنع الآثام

(1) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 2/11، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/211.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/83.

وقد أخبر اللّه تعالى أنّ الافتراء، وهو تعَمُّد الكذب، تسبّب عنه الغرور الّذي أوقعهم في الضّلال الدّائم؛ لأنّ المخالفة إذا لم تكن عن غرور فالإقلاع عنها مرجوٌّ، أمّا المغرور فلا يترقّب منه إقلاع، والغرور إخفاء الخدعة في صورة النّصيحة[1].

تعدّد التلوُّن في الخطاب بالتّنوّع الفعليّ:

في الآية تلوُّن في الأفعال، منَ الماضي إلى المضارع، ثمّ إلى الماضي، ثمّ إلى المضارع؛ وذلك يعكس تقلّبات الأفعال، والأنفس، والمجتمع الّذي اغترّ بكذبه في الدّين.

لمّا انتقل منَ الماضي ﴿قَالُواْ﴾ إلى الحاضر ﴿تَمَسَّنَا﴾ اتّضح أنّ قناعتهم بما قالوه كانت قديمة مرتكزة على عقيدة قديمة؛ فهم شعب اللّه المختار - بزعمهم - من بين شعوب الأرض كلّها على مدى الدّهر، واختار فعل المسّ دون فعل الإصابة أو الإحراق؛ ليدلّ على هوان ذلك العذاب، وأنّه مقتصر على حاسّة الجلد؛ أي: ما سيصيبهم منَ العذاب هو على قدر ما تصيب النّار جلودهم كما تصيب نار الدّنيا جلودهم، ثم يُدخلون الجنّة.

ثمّ انتقل منَ المضارع ﴿تَمَسَّنَا﴾ إلى الماضي ﴿وَغَرَّهُمْ﴾؛ فكان ذلك الاعتقاد في عدم مساس النّار لهم إلّا أيّامًا قلائل كفيلًا بغرورهم باللّه، وكفيلًا باقتناعهم، وتديّنهم بهذا الدّين الّذي هو جملة من وحي الشّياطين، وتزيينهم؛ إذ جعلوا أنفسهم في مقام عالٍ عند اللّه، وهم في الوقت ذاته يُعرضون عن حكمه سبحانه وعن كتابه.

وأخيرًا انتقل منَ الماضي ﴿وَغَرَّهُمْ﴾ إلى المضارع ﴿يَفْتَرُونَ﴾، فدلّ ذلك على أنّ الغرور قد أخذهم، فلا أمل لهم للخلاص منه، وما ذاك إلّا أنّه قد غُرس ذلك التّديّن في نفوسهم فصار عقيدة ودينًا بديلًا عنِ الحقِّ الّذي في الكتاب، وتأصّل ذلك الغرور؛ بسبب إصرارهم على افتراءاتهم وتجدُّدها؛ فالمضارع يدلّ على التّجدُّد مع الزّمن، والتّجدّدُ يقتضي التّنوّع أيضًا، واختلاق الحجج، والأفكار الجديدة الدّاعمة لذلك الغرور.

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/83، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 2/50، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/211.

﴿فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَٰهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [آل عمران: 25]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

القاعدة العامَّة في الجزاء أنَّ كُلَّ نَفْسٍ تُوَفَّى ما كَسَبَتْ يوم القيامة

لَمَّا ذكر تعالى ما آل إليه اليهود منَ التّحريف، والتّزييف في الدّين، والمعتقداتِ الباطلةِ، وحكى عنهم اغترارهم بما هم عليه من الجهل، بيَّن أنه سيجيء يوم يزول فيه ذلك الجهل، وينكشف فيه ذلك الغرور، وَرَدَّ عليهم سبحانه بما فيه وعيدٌ لهم، ودحضٌ لمزاعمهم، وغرورهم في دين اللّه، وذلك بذكر القاعدة العامَّة في الجزاء[1]، فبيّن أنَّ كلَّ نفس ستُوفَّى جزاءَ ما كسبت يوم القيامة، فلا ظلم فيه ولا محاباة لأحد.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿رَيْبَ﴾: الرَّيب والرِّيبَة: شكّ مع خوف، أو الشّكّ مع الظِّنّة والتُّهمة بما يُزعِجُ ويَسوءُ، رابني الأَمرُ يَرِيبُني: أدخل عليَّ شكًّا وخوفًا، قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١١٠﴾﴾ [هود: 110]. ورَيبُ الدّهر: صروفه وتقلُّباتُه، وسُمِّيَ ريبًا؛ لأنّ الإنسان أبدًا في ريب المنون من جهة وقته، لا من جهة كونه، لَمَا يتوهّم فيه منَ المكر من حيث تشكُّكه في وقتِ حُصوله[2].

والمعنى هنا: لا شكَّ في وقوعِه.

2) ﴿وَوُفِّيَتْ﴾: الوفاء والوفاة: إكمالُ الشّيء وإتمامه، أو: زيادة يبلغ بها الشّيءُ تمامَه. يقال: وَفَى يَفِي، ووَفَّى يُوَفِّي، وأَوفَى يُوفِي. وَفَّاهُ حقَّه: أي: أعطاه تامًّا وافيًا. واستَوفى حقَّه: أخذه تامًّا وافيًا.

(1) الرازي، مفاتيح الغيب: 7/180، والموصلّي، أولى ما قيل في آيات التّنزيل: 2/457.
(2) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (ريب).

وتَوَفَّاه اللّه، أي: قبض روحه، والتَّوَفِّي والوفاة: الموتُ، وهو استيفاء الأرواح ما كُتب لها في الدّنيا باستعادة اللّه تعالى إيّاها بعد استيفائها ذلك، وسُمِّي الموت وفاة؛ لأنَّ الحيّ لا يموت إلّا بعد أن يستوفيَ أجلَه ورزقَه. ووفَّى بدَيْنِه: أدّاه وسدَّده، ووفَّى بالوعد وَفاءً وأَوفى به: حافظ عليه، وعمل به، أتمَّه وأنجزه، والوفاء ضدُّ الغدر[1]. والمعنى هنا: وجُوزِيَتْ.

3) ﴿كَسَبَتْ﴾: الكَسْب: ابتغاءُ شيء، وطَلَبه، وإصابَته، ومنه: الكَسْب: طَلَبُ الرّزق، وأصله: جَمْع الشّيء، وتحصيلُه شيئًا بعد شيء بجُهدٍ ما أخذًا من حيث كان، ويكون في الخير والشّرّ، والسّياق يحدّد المقصود، وسياق هذه الآية في الوعيد[2].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

يحكي اللّه ما سيكون عليه حالُ اليهودِ وأحبارِهم من عذابٍ إذا جمعهم في يوم الجزاءِ ليحاسَبوا على سوءِ معتقدهم وشنيعِ أفعالهم في يوم لا شكَّ في وقوعه، وهو يوم القيامة، وأخذ كلُّ واحدٍ جزاءَ ما اكتسب منَ الحسنات والسّيّئات، وهم لا يظلمون شيئًا؛ إذ ظهر من أعمالِهم ما يبيِّنُ أنهم من أشدِّ الناسِ عذابًا.

وفي الآية تهديد لهم، ووعيد، وتخويف من مآلهم يوم القيامة[3].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغة الاستفهام في قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ﴾:

خرج إلى معنى التّعجيب، والتّهديد، والتّفظيع، والتّهويل

ما احتواه النّظم الحكيم في هذه الآية مراد به التّعجيب من حال اليهود وتكذيبهم في قولهم، وتهويل ما سيحلّ بهم، وتهديدهم وتهديد كلّ مَن حاربَ اللّه ورسولَهُ وكفرَ، فالاستفهام هنا مستعمل مجازًا في التّعجيب، والتّهديد، والتّهويل، والتّفظيع؛ إذ صاروا إلى عذابٍ سيدهمهم في قضاء يوم وجزائه، لا حِيلة لهم في دفعه أو الخلاص منه.

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، والزّبيديّ، تاج العروس، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (وفى).
(2) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والزّبيديّ، تاج العروس، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (كسب).
(3) السّمرقنديّ، بحر العلوم: 1/203، ونخبة من العلماء، التّفسير الميسّر، ص: 53.

والتّعبير بـ ﴿إِذَا﴾ لحتميّة يوم القيامة، و﴿لَّا رَيْبَ فِيهِ﴾ توكيد لمعنى ﴿إِذَا﴾، وهو تحقيق الوقوع[1].

سرُّ العدول عن (بعثناهم) إلى ﴿جَمَعْنَٰهُمْ﴾:

عدل عن (بعثناهم) إلى ﴿جَمَعْنَٰهُمْ﴾؛ لتفظيع حالهم من جهة، وللتَّوَسُّع في الدّلالة من جهة أخرى؛ فيحتمل الجمع حال البعث، أي: ركّبنَا أجسادَهُم من مكوّناتِها، وجمعنَا الأنفُسَ والأرواحَ إلى أجسادها، أي: جمعنا أجزاءَهم، ووفّيت كلّ نفس ما كسبت، فيكون عطفًا للخاصّ على العامّ، ويحتمل جمعنا الّذين يحملون هذا الفكر بعضهم إلى بعض يوم القيامة في صعيد واحد، ووفّيت كلّ نفس ما كسبت، فيكون عطفًا للعامّ على الخاصّ.

وفي التعبير بقوله: ﴿جَمَعْنَٰهُمْ﴾ دلالة على القهر، وإشارة إلى أنَّ جزاءهم من جنس عملهم، فقد دُعُوا من قبلُ؛ ليجتمعوا على كلمة سواء، ليؤمنوا بكتاب اللّه؛ ليحكم بينهم، فكان ردُّهم التولِّي والإعراض؛ فلمَّا رفضوا الاجتماع بالاختيار، عوقبوا بقهرهم على الجمع للحساب، وهم لا يُظلمون.

وقال: ﴿جَمَعْنَٰهُمْ﴾ بضمير العظمة، ولم يقل: جمعهم اللّه أو جُمعوا؛ لبيان القدرة على ذلك، وهيمنة القائل سبحانه، أي: أتينا بهم جميعًا، فلا مفرّ لأحدٍ منهم من ذلك الجَمع، فناسبَ ضميرُ الجمع فعلَ الجمع.

بلاغة الكناية في ﴿لِيَوْمٍ﴾:

اليوم مقدار نسبيّ، وهو بمعنى المُدّة والوقت

قوله: ﴿لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ﴾ كنايةٌ عن موصوفٍ، وهو يوم القيامة، ويوم القيامة مختلف عن أيّام الدّنيا في المدّة والمقدار والصّفات، وفائدةُ هذه الكناية الرّدّ على أفكارهم ومُعتقداتهم الّتي افتروها؛ إذِ انتقل من جمع الأيّام في ﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ﴾ إلى مفرد في ﴿لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ﴾؛ لبيان أنّ مقدار اليوم عند اللّه ليس كمقداره عند النّاس، فإذا كانَت مدّة عذابهم كما يدّعون ﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ﴾، وليست يومًا واحدًا، فكم سيكون تعدادُها عند اللّه؟!.

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/377، وأبو حيّان، البحر المحيط: 3/84، والآلوسّي، روح المعاني: 2/108، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/211، والمطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 1/159.

دلالة النّفي في قوله: ﴿لَّا رَيْبَ فِيهِ﴾:

متضمّن لبيان الأمر

النّفي متضمّن للطّلب، أي: لا ترتابوا فيه، أو على بابه، والمعنى: لا ريب فيه عند المؤمن، أو عند المُخبَرِ عنه، أو حين يجمَعُهم، وفي العبارة إشعارٌ بأنّهم الآن في ريبٍ من مجيء ذلك اليوم، أو أنَّهُم كما قالوا: في مأمَنٍ من عذاب ذلك اليوم، فيكونُ فيه تعريضٌ بهم[1].

وَوَصْفُ ﴿لِيَوْمٍ﴾ بأنّه ﴿لَّا رَيْبَ فِيهِ﴾؛ مُشعِرٌ بأنّهُم غير مطمئنّين في باطلهم، بمنزلة الّذي لم يكن له كتاب أصلًا، إذِ المقصود بالجمع الجزاء[2].

سرُّ العدول عن (ووفَّيناهم) أو (ووفّاهم الله) إلى ﴿وَوُفِّيَتْ﴾:

انتقل الخطاب منَ المتكلّم ﴿جَمَعْنَٰهُمْ﴾ إلى البناء لمَا لم يُسَمّ فاعله؛ لدلالة سرعة الحساب، وسهولة ذلك عليه، وأشار إلى أنّ الجزاء أمر متحقّق لا بدّ منه بصيغة الماضي في قوله: ﴿وَوُفِّيَتْ﴾، وأشار إلى سهولة ذلك عليه بالبناء لمَا لم يُسَمّ فاعله، وأشار إلى دناءة النّفوس، وضعفها بتأنيث الفعل[3].

دلالة العطف بـ (الواو) دون (ثمّ) في قوله: ﴿وَوُفِّيَتْ﴾:

من مات فقد قامت قيامته، ووفّي عمله

وهو الأَوْلى في مقام التّهديد والوعيد؛ ليُدلّل على أنّ كلّ إنسان رهين بما كسب، وأنّ حسابه موفًّى إليه لحظة موته، لذا أتبع ﴿جَمَعْنَٰهُمْ﴾ بـ ﴿وَوُفِّيَتْ﴾، وجعلهما في سياق واحد، بعد قوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ [آل عمران: 19]؛ ليكون بمثابة ردّ العجُز على الصّدر؛ لدلالته على سرعة إيفاء الأعمال.

بلاغة التّعبير بالنّفس في مجال الحساب والجزاء:

جاء الجزاء مخصوصًا بالنّفس، فهي الّتي توفّى ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/90.
(2) الحراليّ، تراث أبي الحسن الحِراليّ: 3/90.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 2/50.

نَفْسٍ﴾؛ لأنّ دأبها أن تَنفُسَ فتريد، وتختار، وتحبّ، وتكره، ولذلك اختصّ وعيدُ القرآنِ كلُّه بالنّفس في نفاستها[1].

دلالة التّعبير بـ ﴿مَّا﴾ في قوله تعالى: ﴿مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾:

لمّا كان الجزاءُ شاملًا للخير والشّرّ قال ﴿مَّا﴾، أي: جزاء كلّ ما كسبت، وراعى معنى ﴿كُلُّ﴾ للوفاء بالمعنى.

﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾، أي: لا يقع عليهم ظلم بزيادة ولا نقص[2].

بلاغة الحذف في الآية:

تقدير الآية: (فكيف إذا جمعناهم خاصّة ليوم لا ريب فيه، وجمعنا الأنفس كلّها، ووفّيت كلّ نفس ما كسبت، ووفّوا هم خاصّة ما كسبوا، وكلّ الأنفس لا تُظلَم، وهم لا يُظلمون)، ومن بلاغة ذكر المذكور، وحذف المحذوف؛ أنّه مايَزَ بين المُخاطبينَ منَ ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾، وهم طائفةٌ منَ اليهود، وبين النّاس جميعًا؛ لبيان فظاعة ما يقترفون من رفض رسالته ﷺ مع ما علموه منَ الحقّ في كُتُبهم، وردّ قبول الاحتكام إلى كتابهم لمَا علمُوه من تصديقه لرسالته ﷺ، ثمّ مايَزَ في توفيَة الجزاء للأنفُس كلِّها بما كسبت، وتَوفِيَتِهم هم حسابَهم على ما اقترفوه بما كسبوا، وأنّهم لا يُظلمون جميعًا، ورحمة اللّه على الأنفُس عظيمة دونهم؛ إذ بتمييزهم هذا عنِ النّاس بقوله: ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾، أي: يأخذون حقّهم تامًّا دون ظلم، ودون ما يصيب الأنفس من رحمته سبحانه من تجاوزٍ وتخفيفٍ.

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 2/51.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 2/51.

﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلۡمُلۡكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُۖ بِيَدِكَ ٱلۡخَيۡرُۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٢٦﴾ [آل عمران: 26]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لمَّا أخبر تعالى أنَّ الكُفَّار سيُغْلبون، وأنّه ليسَ لهم من ناصرين، كان حالُهم مقتضيًا أن يقولوا: كيفَ ونحنُ كثير، فيكف نُغْلَب؟ أم كيف لا يَنْصُر بعضُنا بعضًا، وفينا الملوك، والأمراء، والأكابر، والرؤساء، وعدوُّنا قليل وضعيف؟ فقال تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ﴾[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَتَنزِعُ﴾: النَّزْع: اقتلاعُ شيءٍ بجَذب قويٍّ له ممَّا يلتحم به، أو ينغمس فيه، فيفصله عنه، حسًّا كان أو معنى، ومن الحسيِّ قوله تعالى: ﴿نَزَّاعَةٗ لِّلشَّوَىٰ ١٦﴾ [المعارج: 16]، ومنَ الجذب المعنويّ تجريدًا ﴿وَتَنزِعُ ٱلۡمُلۡكَ مِمَّن تَشَآءُ﴾. والمنازعة في الخصومة: مجاذَبة؛ فكلّ واحد يريد أن يقتلع أمرًا من يد صاحبه، قال تعالى: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ﴾ [النساء: 59]، ﴿فَتَنَٰزَعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡ﴾ [طه: 62]، وسُمّي الشَّوق نَزَّاعًا ونزوعًا؛ لما تُصوّر في ذلك أنّ المحبوب ينزع قلب المحبّ منه، ونَزَع إلى الشّيء، اشتاقَ، ونَزَعَ عنه، كفَّ عنه. وقيل للغريب: نزيع؛ لكونه منزوعًا عن وطنه، أو لكونه نازعًا إليه، أي: مشتاقًا، والمعنى هنا: تَسْلُبُ[2].

2) ﴿وَتُعِزُّ﴾: العِزُّ والعَزُّ: شدَّةٌ وقُوَّةٌ وغَلَبَةٌ وقَهرٌ، أو: شدَّةُ تماسك الشّيء وصلابته التّامّة، والعِزَّة: الشّدّة والقوّة والامتناع، والعَزِيز: القويّ الشّديد الغالب الّذي لا يُغلَب ولا يُقهَر، والعِزُّ: خلاف الذُّلِّ. والعِزُّ والعِزَّة: الرِّفعَة والامتناع، وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٞ ٤١ لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ﴾ [فصّلت: 41 - 42]؛ أي: حُفِظَ، وعَزَّ من أن يَلحَقَه شيءٌ من الباطل من أي ناحية من نواحيه[3].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 2/52.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نزع)، والرّاغب، تفسير الرّاغب: 2/488، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (نزع).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عزّ)، وابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (عزز).

3) ﴿وَتُذِلُّ﴾: الذُّلُّ: اللِّين، والخضوع، والاستكانة، وأصله لين ورخاوة تؤدِّي إلى انخفاض الشّيء، فيقرب ويتيسّر التّعامل معه، كالطّريق المذلّل: أَذهَبَت كثرةُ وطِئه، والسّير فيه وُعُورَتَه. والذُّلّ: الرّفق والرّحمة، فإن قُصِدَ بغير إلجاءٍ قهريّ يُعجِز فهو خفض جناح، ولين جانب، ورفق، ورحمة، وضدّه الصّعوبة، ومنه قوله تعالى: ﴿وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ﴾ [الإسراء: 24]، وإن كان عن عجز ووقوع تحت قهر لا فَكاك منه فهو ذَهاب الشُّموخ، وهو ضعف كذلك؛ لأنّه رخاوة، وانخفاض، وعجز عنِ التّماسك، والارتفاع، وضدّه العزّ، ومنه ﴿وَتَرَىٰهُمۡ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ﴾ [الشّورى: 45]، فهو ذلّ قهر، وانخفاض، وضعف، وعدم تماسك[1].

والمعنى هنا: وتَجْعلُ المَهانةَ والخضوع والاستكانة.

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

قل أيُّها النّبيُّ ﷺ متوجّهًا إلى ربّك بالدُّعاء، ولكلِّ من يتأتّى له الخطاب من المؤمنين: يا اللّه، يا مَن لك الملك كلُّه مِلكًا وتصرّفًا، أنتَ الّذي تمنحُ المُلك، والمال، والتّمكين في الأرض مَن تشاء مِن خَلْقك، وتَسْلبُ المُلك بقوّة وشدّة ممّن تشاء من أيِّ مَخْلوق مهما بلغت سَعَة مُلْكه، وتهب العزّة في الدّنيا والآخرة مَن تشاء، وتجعل الذّلَّة على من تشاء، أنتَ وحدَك الذي تملكُ الخيرَ كلَّه، وتتصرفُ فيه حسَبَ إرادتك ومشيئتِك، إنّك وحدك على كلّ شيء قدير.

وفي الآية إثباتٌ لصفة اليد للّه تعالى على ما يليق به سبحانه وتعالى[2].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

تعدّدَت أساليب الخطاب في القرآن الكريم، وتنوّعَت بحسب المَواقِف ومُقتضَى الحال

ما كان في القرآن لإصلاحِ ما بين الخلق وربّهم، يجيء الخطاب فيه منَ اللّه تعالى إليهم مواجهَة، وما كان لإصلاح ما بين النّاس والنّبيّ ﷺ يجري اللّه الخطاب فيه على لسانه، فإذا قالوا قولًا يقصدون الرّسول به قال اللّه ﷻ: ﴿قُلِ﴾، أي: قل لهم.

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة (ذل)، وابن سيده، المحكم، وابن منظور، لسان العرب: (ذلل)، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (ذل، ذلذل).
(2) نخبة من العلماء، التّفسير الميسّر، ص: 53.

ولكون القرآن مَتْلُوًّا ثبتت فيه كلمة ﴿قُلِ﴾، ولعلوِّ منزلة هذه السّورة؛ كثُر الإقبالُ فيها بالخطاب على النّبيّ ﷺ[1].

بلاغة ذكر البيان والخاصّ بعد الإجمال والعموم معَ الإيجاز:

إطلاقُ (الملك) على جميع ما يؤتي الله عباده من فضله

في ﴿مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ﴾ عمومٌ يشمل جميع ما يؤتيه اللّهُ عبادَه من فضله، منَ النّبوّة، والسّلطان، والغلبة، والمال، والعبيد، وغير ذلك، وفيه كذلك جناسٌ، وإجمالٌ، وفي ﴿تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ﴾ وما بعده نوع تفصيل له، ومن بلاغة الإجمال بقاء عموم المعنى في المجمل، أي: مالِكَ المُلكِ كلّه بجميع معانيه، لا يملك أحد غيرك منه شيئًا، تَملِكُ جنس الملك، فتتصرف فيه تصرّف الملاّك فيما يملكون، من إعطائه، ومنعه، وتوزيعه، وتوسيعه، وتضييقه، وغير ذلك، فتعطي من شئت قسمًا منَ الملك، وتنزع ممّن شئت قسمًا منه، و﴿ٱلۡمُلۡكِ﴾ بضمِّ الميم نوعٌ منَ المِلكِ بكسرها، فالمِلكُ بالكسر جنس، والمُلكُ بالضّمّ نوع منه، وهو أعلى أنواعه[2].

دلالة التعبير بالإيتاء في قوله: ﴿تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ مَن تَشَآءُ﴾:

نَيلُ المُلك من الله وحده لمن يشاء

في التّعبير بالإيتاء إشعار بأنّه تنويل منَ اللّه من غير استحقاق بقوّة، وغلبة، ونحوهما، وفيه إشعار أيضًا بأنّ الملك يناله أهله، وغير أهله، وفي الآية معنى المناوبة، ودوران الملك بين خلقه[3].

الاستعارات التّمثيليّة في الآية الكريمة:

تضمَّنتِ الآية جملة منَ الاستعارات التّمثيليّة، كلّها تصلح أن تكون تمثيلًا لحالات يمرّ النّاس بأمثالها، فيذكرون قول اللّه تعالى هذا، وكأنّه قد نزل مُفسِّرًا لأحوالهم، وذلك من عظيم بلاغة

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 2/52.

(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 1/416، والزّمخشري، الكشّاف: 1/378، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 4/55، وأبو حيّان، البحر المحيط: 3/85، 86، والبقاعيّ، نظم الدّرر 2/52، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/213.

(3) أبو حيّان، البحر المحيط 3/90، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 2/52.

القرآن، ففي قوله تعالى: ﴿تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلۡمُلۡكَ مِمَّن تَشَآءُ﴾ استعارتان تمثيليّتان، تعطي منه ما تشاء مَن تشاء، وتستردّ منه ما تشاء ممّن تشاء، فالملك الأوّل في قوله: ﴿مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ﴾ عامٌّ؛ والمُلكان الآخران بعضان منه[1].

يُستعارُ النّزع لإزالة الصّفات والمعاني:

الـــدلالـــة على القهر والقوة

واستعير النّزع بما فيه من إزالة الجِرْم من مكانه بقوّة لإزالة الصّفات والمعاني على سبيل الاستعارة المكنيّة، كما قال تعالى: ﴿وَنَزَعۡنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنۡ غِلّٖ﴾ [الأعراف: 43] بتشبيه المعنى المتمكّن بالذّات المتّصلة بالمكان، وتشبيه إزالته بالنّزع، ومنه قوله هنا: ﴿وَتَنزِعُ ٱلۡمُلۡكَ﴾؛ أي: تزيل وصف الملك ممّن تشاء، وفي كلمة النّزع بما ينبئ عنه منَ البطش والقوّة ما يقابل معنى الإيتاء، وفي تقديم الإيتاء على النّزع إشارة إلى أنّ الدّاعيّ ينبغي أن يبدأ بالتّرغيب، وفي ذلك معنى التّفاؤل والخير[2].

الاستعارة التّمثيليّة في قوله: ﴿وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُۖ﴾:

وكذلك قوله ﴿وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُۖ﴾ في الدّنيا أو في الآخرة، أو فيهما معًا بالنّصر، والإدبار، والتّوفيق، والخذلان، والّذي يقع به العزّ والذّلّ مسكوت عنه[3]، وفيه إشارة إلى كثرة أسباب العزّ والذلّ، واختلاف أسبابهما عن معايير البشر؛ فقد يكون إيتاءُ الملك سببًا للذلّ، وقد يكون نزعُ الملك سببًا للعزّ؛ ولا غَرْوَ فقد يُصبح السَّلبُ عينَ العطاء، وقد يُمسي العطاءُ عينَ السَّلب، فكم من مُسْتدْرَجٍ بالإحسان إليه، وكم من مفتون بالثناء عليه، وكم من مغرورٍ بالستر عليه، كما قال الحسن البصري.

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/378، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 2/11.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 2/53، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/213.
(3) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 2/11، وأبو حيّان، البحر المحيط: 3/86.

الاستعارة التّمثيليّة في قوله: ﴿بِيَدِكَ ٱلۡخَيۡرُۖ﴾:

في قوله: ﴿بِيَدِكَ ٱلۡخَيۡرُۖ﴾ مجاز على طريقة الاستعارة التّمثيليّة؛ فهو تمثيل للتّصرف في الأمر؛ لأنّ المتصرّف يكون أقوى تصرّفه بوضع شيءٍ بيده.

وفي قوله: ﴿بِيَدِكَ ٱلۡخَيۡرُۖ﴾ مجازٌ آخر على أحد الأقوال؛ إذ إنّ اليد هنا بمعنى القدرة، فبقدرتك يقع الخير، فهو مجاز مُرسَل علاقته المُسببيّة، ويمكن اعتبار التّركيب: ﴿بِيَدِكَ ٱلۡخَيۡرُۖ﴾ كناية عنِ القدرة الشّاملة المطلقة، وقد جاء قوله: ﴿بِيَدِكَ ٱلۡخَيۡرُۖ﴾ توكيدًا لمَا قبله، فهو من قبيل ردّ العَجُزِ على الصّدر[1].

والمالك له التّصرّف المُطلَق فيما يملكه، فعبّر عن ذلك بقوله: ﴿بِيَدِكَ ٱلۡخَيۡرُۖ﴾، أي: تملك الخير كلّه والشّرّ كلّه، وتتصرّف فيهما متى تشاء، وكيف تشاء[2].

بلاغة الإطناب في الآية:

أتتِ الجمل في الآية تامّة دون حذف تقابليّ، مع إمكان الإيجاز بالحذف (احتباك) على خلاف الآية السّابقة في قوله: ﴿فَكَيۡفَ إِذَا جَمَعۡنَٰهُمۡ﴾، إذ كان بالإمكان أن تُوجز الآية فيُقال: (تؤتي المُلك مَن تشاء، وتذلّ مَن تشاء) على طريقة الاحتباك كسابقتها، فيُعلم المحذوف منها، ويكون المعنى واضحًا؛ وذلك لأنّ الآية السّابقة دار موضوعها حول الحساب والجزاء يوم القيامة، وهذا بعيد عن عموم النّاس، فاقتضى الحذف بالاحتباك إيجازًا، وهنا أتت حكايةً عن أحوال الدّنيا من إيتاء المُلك ونزعه، وهذا مدار الاهتمام عندهم، فجاءتِ الجملة تامّة دون حذف، ولأنّ كلّ واحد من هذه الأربعة منَ الإيتاء، والنّزع، والعزّ، والذّلّ آية وحدها، فكان التّنبيه بتعديدها أبلغ.

الإيجاز بالحذف، أو الاكتفاء في قوله: ﴿بِيَدِكَ ٱلۡخَيۡرُۖ﴾:

في الآية حَذفُ المعطوف، والاكتفاء بالمعطوف عليه، والتّقدير: بيدك الخَيرُ والشَّرُّ، نحو: تقيكم الحرَّ، أي والبرد. وحذف المعطوف جائز لفهم المعنى؛ إذ أحد الضِّدَّيْنِ يفهم منه الآخر، وهو تعالى قد

في الآية تعليمُ الله تعالى عبادَه الأدب في خطابه

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/213.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 2/55.

ذكر إيتاء الملك ونزعه، والإعزاز والإذلال، وذلك خير لناس وشرٌّ لآخرين، فلذلك كان التقدير: بيدك الخير والشر.

وفي ذلك تعليم لعباده الأدب في خطابه، وترغيب لهم في الإقبال عليه، والإعراض عمّا سواه، وتنبيه على أنّ الشّرّ أهل للإعراض عن كلّ شيء من أمره، حتّى عن مجرد ذكره، وإخطاره بالبال[1].

الخير والشّرُّ بين العباد أمرٌ نسبيّ، فما كان خيرًا لك قد يكون شرًّا لغيرك

لا يوجد شرّ محض إلّا ويتضمّن خيرًا، بخلاف الخير، ثمّ إنّ كلًّا منهما نسبيّ، فخير المؤمن يسوء الكافر فهو شرّ عليه، والعكس، قال تعالى: ﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُواْ بِهَا﴾ [آل عمران: 120][2].

بديع اللّفّ والنّشر في الآية:

من مقاصد الدّعاء تمجيد الله تعالى، وترديد كمال قدرته في الخلق والكون

ومن بديع اللّفّ والنّشر وغريبه ما ورد في هذه الآية؛ أن يذكر متعدّدان أو أكثر، ثمّ يذكر في نشر واحد ما يكون لكلّ من أفراد كلّ منهما، فقوله تعالى: ﴿تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ﴾ لفٌّ أوّل، وقوله: ﴿وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ﴾ لفٌّ ثانٍ، ونشرُ هذين اللّفّين في قوله ﴿بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ﴾ على تقدير بيدك الخير والشّرّ. ويرشّح هذا المعنى أنّه نبّه على أنّ الشّرّ أيضًا بيده بقوله: ﴿إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، فأفهم أنّ الشّرّ بيده بعد أن أعلمَ أنّ الخير بيده، وخاصّ به، وقرّر ذلك على أعمّ وجه بقوله معلّلًا: ﴿إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[3].

وفائدة هذا النّوع منَ اللّفّ والنّشر؛ بيان الامتزاج بين معاني اللّفّ الأوّل واللّفّ الثّاني، فإيتاء المُلك مناسبٌ للعزّ، ونزعه مناسبٌ للذّلّ؛ وقوله: ﴿بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ﴾ يشمل ذلك كلّه.

(1) أبو حيان الأندلسي، البحر المحيط: 3/87، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 2/55، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/213، 214.
(2) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 2/488، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 2/11.
(3) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 2/11، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 2/55.

بلاغة التّقديم:

وجاء الخير معرّفًا بـ (أل)؛ لعمومه، وشموله، واحتوائه الخير كلّه.

دلالتــه على الحصر

و(ال) في ﴿ٱلۡخَيۡرُۖ﴾؛ للاستغراق الدّالّ على العموم، وتقديم الخبر ﴿بِيَدِكَ﴾؛ للحصر، أي: بيدك وحدك، لا بيد أحد سواك، فلا خير إلّا وهو بيدك[1].

ذكر العامّ بعد الخاصّ كالتّذييل في قوله: ﴿إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾:

ختمتِ الآية بقوله: ﴿إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾، فذكر العامّ المندرج تحته الأوصاف السّابقة، وجمع كلّ خير وكلّ شرّ[2]. وفي الآية: تقديم شبه الجملة: ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ﴾، وتأخير ﴿قَدِيرٞ﴾؛ لدلالة إحاطة قدرته بكلّ شيء، ولم يقل: إنّك أنت على كلّ شيء قدير؛ لأنّ العلم بأنّ اللّه على كلّ شيء قدير لا يفتقر إلى تأكيد يقرّره[3].

بلاغة الطّباق بين: ﴿تُؤۡتِي﴾، و﴿تَنزِعُ﴾ و﴿وَتُعِزُّ﴾، و﴿وَتُذِلُّ﴾ و﴿ٱلۡخَيۡرُۖ﴾، و(الشّرّ):

يدلُّ على طلاقة القدرة؛ لتشمل كلَّ شيء

تعدّدت حالات طباق الإيجاب[4] في الآية الكريمة، ودلالة الطّباق فيها هو الشّمول في كلّ واحدة منها أو حالة من حالاتها، فالطّباق بين ﴿تُؤۡتِي﴾ و﴿وَتَنزِعُ﴾ يدلّ على شمول القدرة العطاء والمنع بين عباده؛ وبين ﴿وَتُعِزُّ﴾ و﴿وَتُذِلُّ﴾ يدلّ على شمول المواقف كلّها في حياة البشر والمخلوقات؛ وبين ﴿ٱلۡخَيۡرُۖ﴾ و(الشّرّ) المحذوف طباق ضمنيّ يدلّ على الأحوال كلّها خيرها وشرّها مهما تعدّدت، وتنوّعت.

سرُّ تكرار قوله: ﴿ٱلۡمُلۡكَ﴾ و﴿مَن تَشَآءُ﴾:

التّكرار في قوله: ﴿تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلۡمُلۡكَ مِمَّن تَشَآءُ﴾ دالّ على دوران الأمور، وتعاقبها، وحركتها، وتداولها

(1) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 8/185، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 2/55.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/87.
(3) ابن الأثير، المثل السّائر: 2/154.
(4) وهو ما لم يختلف فيه الضّدّان إيجابًا وسلبًا، وعلي الشّحود، الخلاصة في علوم البلاغة، ص: 57.

بين النّاس عزًّا وذلًّا، صعودًا وهبوطًا، عطاءً وأخذًا، وبين الأمم والحضارات هيمنةً وانكسارًا، صعودًا وانهيارًا.

التّناسب في معاني الألفاظ بين ﴿تُؤْتِي﴾ و﴿وَتُعِزُّ﴾، و﴿وَتَنزِعُ﴾ و﴿وَتُذِلُّ﴾:

تكرّر التّناسب في الآية الكريمة في حالتين؛ الأولى: بين ﴿تُؤْتِي﴾ و﴿وَتُعِزُّ﴾، والثّانية: بين و﴿وَتَنزِعُ﴾ و﴿وَتُذِلُّ﴾؛ فمن آتاه اللّه مُلكًا أعزّه به، ومن نزعه عنه أذلّه، والأفعال جميعها مُضارعة لما فيها من دلالة التّجدّد مع الزّمن.

﴿تُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِۖ وَتُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَتُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّۖ وَتَرۡزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ ٢٧﴾

[آل عمران: 27]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لمّا ظهر في الآية السّابقة افتراق النَّزْعِ والإيتاء، والإعزازِ والإذلال، وهما متداخلان متوالجان، العزُّ في الذّلِّ والذّلُّ في العزِّ، والإيتاءُ في النَّزع والنَّزع في الإيتاء، ذكر في هذه الآية توالج المفترقات المتقابلات منَ اللّيل والنّهار، والحيِّ والميِّت بعضها في بعض[1].

ومن وجه آخر جاء قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾؛ برهانًا على ما قبله من إيتاء الملك أو نزعه، أو الإعزاز أو الإذلال، وذلك ممَّا يخصُّ الحياة وتقلُّباتها على النّاس، فانتقل هنا إلى بيان قدرته على تقلُّبات الكون بين اللَّيل والنَّهار، والحيِّ والميِّت، ممِّا لم يدخل شيء منه تحت قدرة غيره، فجمعَ بذلك تفسيرَ الحياة في الآيةِ السَّابقة، وتفسيرَ الكون في هذه الآية، وجعلَهما في محطِّ قدرته وعنايته سبحانه.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تُولِجُ﴾: من ولَجَ يَلِجُ، فِعْلٌ يدُلُّ عَلَى دُخُولِ شَيْءٍ، فالولوجُ الدُّخولُ في مكان يُخفِي، ويَستُر ما به؛ لضيقه كقوله تعالى: ﴿وَلَا يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلۡجَمَلُ فِي سَمِّ ٱلۡخِيَاطِۚ﴾ [الأعراف: 40]، أو ظلامه كقوله تعالى: ﴿يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ﴾ [الحج: 61]، ووَلِيجةُ الرَّجُل: بِطانَتُه وخَاصَّتُه[2].

2) ﴿وَتُخۡرِجُ﴾: الخروج: نفاذ الشّيء ممَّا يَحُوطُه، وهو نقيض الدُّخول. وناقة مُختَرِجةٌ: خرجَت على خِلْقة الجمل. والخَرجُ والخَراجُ: ما يَخرُجُ منَ المال في السَّنة بقدرٍ معلوم، وسائرُ ما في القرآن من مفرداتِ التركيبِ فهو من معنى نفاذِ الشيء من أثناء كانت تَحُوطُه[3].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 2/56.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (ولج).
(3) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن سيده، المحكم، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (خرج).

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

اللهمَّ ومن أكبر الأدلة على قدرتكَ وعظمتكَ وحكمتكَ ورحمتكَ أنّك تُدخل اللّيل في النّهار، وتُدخل النّهار في اللّيل، فيطول هذا ويقصر ذاك، أو يختفي هذا ويظهر ذاك، وينشأ عن ذلك من الفصول والضِّياء والنُّور والشّمس والظِّلِّ والسّكونِ والانتشارِ، وتُخرج الحيَّ منَ الميّت الّذي لا حياة فيه، كإخراج الزَّرع منَ الحبِّ، والمؤمنِ منَ الكافر، وتُخرج الميّت منَ الحيّ، كالبيضةِ من الطائر وكالنَّوى من الشَّجر، وترزق مَن تشاء مِن خلقك بغير عَدٍّ ولا تَضْييقٍ ولا تَقْتِيرٍ[1].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

سرّ تقديم اللّيل والنّهار على الحيّ والميّت:

من رحمة الله أنْ خلق لنا قبل أن يخلقنا

قدّم اللّيل والنّهار على الحيّ والميّت هنا؛ لأنّ وجود الكون كان قبل وجود الحياة بكثير، ومثل ذلك قوله: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ [فصّلت: 53].

ذكر اللّيل والنّهار وتعاقبهما كأنموذج لملايين السّنن الكونيّة الّتي خلق الكون عليها

بيان لقدرته سبحانه وقيّوميّته على معاقبة اللّيل والنّهار، والموت والحياة، كقدرته معاقبة الذّلّ والعزّ، وإيتاء الملك ونزعه، فالآية دليل على سابقتها، وإيلاج اللّيل والنّهار: إدخال أحدهما في الآخر بالتّعقيب، أو بالزّيادة والنّقص، أو عبّر بالإيلاج عنِ العلوّ والتّغشية، أي: تولج اللّيل في النّهار فيغطيه النّهار، وتولج النّهار في اللّيل فيغطيه اللّيل، فصيرورة كلّ واحد منهما في زمان الآخر كالولوج فيه[2].

علاقة التكوير بإيلاج الليل في النهار، وإيلاج النهار في الليل:

التّكوير والإيلاج صورتان لحدث كونيّ واحد

وهذا المعنى متوافق مع قوله تعالى: ﴿يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ﴾ [الزّمر: 5] فيأخذ النّسق نفسه في الدّلالة على

(1) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 53، ونخبة من العلماء، التّفسير الميسّر، ص: 53.
(2) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 2/11 - 12، وأبو حيّان، البحر المحيط: 3/88، 89.

الحركة والدّوران على سطح كرويّ لتكرار الإيلاج بين اللّيل والنّهار على طريقة التّكوير، فالإيلاج يقتضي التّكوير؛ لأمرين:

الأوّل: ذكر التّكوير في آية الزّمر في وصف المشهد نفسه من تعاور اللّيل والنّهار، فقال: ﴿يُكَوِّرُ ٱلَّيۡلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيۡلِۖ﴾ [الزّمر: 5]، وهذا كما ذكرنا يقتضي سطحًا كرويًّا، يتحرّك عليه اللّيل والنّهار، ولتحدث عملية لفّ اللّيل على النّهار، والنّهار على اللّيل.

الثّاني: التّكرار مع المُخالفة في ذكر الإيلاج بين اللّيل والنّهار، وهذا يستدعي الدّوران؛ فهو سطح كرويّ، يدور عليه اللّيل والنّهار.

سرُّ ذكر إيلاج اللّيل في النّهار قبل ذكر إخراج الحيّ منَ الميّت:

فالتّعبير يدعو للتّأمل، فلولا دوران الأرض باستمرار، وتعاقب اللّيل والنّهار عليها لَمَا نشأتِ الحياة على سطح الأرض، ولمَا خرج الحيّ منَ الميّت، وهذا سرّ مناسبة ذكر تناوب الحياة بعدها.

إيلاج اللّيل في النّهار والعكس ضرورة كونيّة لنشأة الحياة

إيثار أفعال المضارع:

ودلالة فعل المضارع ﴿تُولِجُ﴾ في الآية هي دلالة الاستمرار والتّجدّد، فإيلاج اللّيل في النّهار، وإيلاج النّهار في اللّيل مستمرّ في كلّ وقت وحين، وجملة ﴿تُولِجُ ٱلَّيۡلَ﴾ بيان ثانٍ، وهو كتعداد الجُمل في مقام الاستدلال أوِ الامتنان، ولاستحضار حالة الإيلاج تبعًا لاستحضار آثارها؛ فإنّ حالة فعل اللّه في إيلاج اللّيل بالنّهار غير مشاهدة، وإنّما يُشاهد أثرها، وتجدّد الأثر يدلّ على تجدّد التّأثير، وهي حركة دؤوب لا تتوقّف، ولو للحظة واحدة وفق سنّة كونيّة شاملة منذ خلق اللّه السّماوات والأرض.

حركة اللّيل والنّهار كساعة كونيّة، تحسب على الإنسان لحظات حياته

بلاغة الجناس المعكوس:

فنّ الجناس المعكوس متحقّق في قوله تعالى: ﴿تُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِۖ﴾.

رسم صُورة تعاور اللّيل والنّهار، ودورانهما

وهذا النّوع منَ التّجنيس له حلاوة، وعليه رونق وطلاوة؛ إذ يربط بين أمرين، ويعقد بينهما أوثق الصّلات أو أشدّ ألوان النّفور.

ويحقّق فنّ الجناس المعكوس المتقابل هنا رسم الصّورة النّاشئة عن تعاور اللّيل والنّهار، ودورانهما على كوكب ذي سطح كرويّ، ثمّ ما يفترضه هذا الفنّ منَ الحركة الدّائريّة المنسجمة مع ذلك السّطح الكرويّ.

التّقابل وبلاغته:

وصف تعاقب اللّيل والنّهار في الآية مجرّدًا عن ذكر الأرض؛ ليشمل كلّ الكواكب

قوله: ﴿تُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِۖ﴾ حقّق التّقابل الّذي أبرز بدوره دلالة شمول كلّ الحالات الّتي يحصل فيها الإيلاج بين اللّيل والنّهار في سائر الأيّام.

وجاء اختيار حلقة اللّقاء بين اللّيل والنّهار بعيدًا عن ذكر الأرض أو أيّ كوكب آخر؛ ليدخل في وصف الآية الكريمة تلك المنظومات الكونيّة الّتي يتعاقب على سطح كلّ منها ليلٌ ونهارٌ، بدلالة الشّمول المتحقّقة منَ الوصف القرآنيّ المجيد.

وعلى الرّغم ممّا أدّاه فنّ الإيجاز في العبارة الكريمة إلّا أنّ التّكرار في ألفاظ العبارة يهيمن على السّياق، وهو لافت للانتباه، فاجتمع في الآية إيجاز بليغ، وتكرار كاشف، ففي قوله تعالى: ﴿تُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِۖ﴾ تكرَّرَت جميع كلمات هذه العبارة مثنًى مثنًى، وهي ﴿تُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ﴾ كتكرار مسار الحركة الدّائريّة، وأفاد هذا التّكرار لجميع كلمات العبارة القرآنيّة ما أفاده فنّ التّكرار في شمول تكرار حركة اللّيل والنّهار لسائر الكواكب.

بلاغة الاحتباك في الآية:

من جمال التّعبير القرآنيّ انسجام طبائع الموصوف بطبائع الكون

وفي الآية احتباك، وتقديره: تولج اللّيل في النّهار، وتُخرج النّهار منَ اللّيل، وتولج النّهار في اللّيل، وتُخرج اللّيل منَ النّهار، فالإيلاج والإخراج متعاكسان في وصف الظّواهر الكونيّة، ويُستفاد من هذا الاحتباك معانٍ كثيرة، أبرزها: الحركة، ورَدُّ العَجُزِ على الصَّدر.

في قوله: ﴿تُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِۖ﴾[1] دليلٌ آخر على تلك الحركة؛ إذِ انسجم الفنّ البلاغيّ معَ الظّاهرة الكونيّة نظمًا ووصفًا.

وهذا التّعبير يصوّر هذه الظّاهرة من خلال منظار آخر، ففي تلك اللّحظة الّتي يحدث إيلاج اللّيل في النّهار؛ يخرج في الوقت نفسه النّهار منَ اللّيل، هذا يحدث في نصف الكرة الأوّل، والعكسُ بالعكس بالنسبة إلى نصف الكرة الثّاني، وهكذا تستمر هذه الحركة بين اللّيل والنّهار في هذا الكون الفسيح.

بلاغة تقديم ﴿ٱلَّيۡلَ﴾ على ﴿ٱلنَّهَارِ﴾:

وتقديم اللّيل على النّهار متوافق مع الحقيقة الشّرعيّة والعلميّة؛ من أنّ اللّيل سابق النّهار في الأحكام الشّرعيّة، وأنّ اللّيل هو الأصل، والنّهار طارئ عليه، يحدثه ضوء الشّمس، وقد اطّرد تقديم اللّيل على النّهار في جميع آيّ القرآن الّتي تصف حركة اللّيل والنّهار، وتعاقبهما.

الاستعارة والرّمزية في قوله: ﴿تُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ﴾:

انسجام طبائع الكون مع التّاريخ يفسح المجال للتّدبّر في عظيم خلق الله وتقديره

حقيقة ﴿تُولِجُ﴾ بمعنى: تدخل، وهو هنا استعارة لتعاقب ضوء النّهار وظلمة اللّيل، فكأنّ أحدهما يدخل في الآخر، وفي هذا رمز إلى ما حدث في العالم من ظلمات الجهالة والإشراك، بعد أن كان النّاس على دين صحيح كدين موسى، وإلى ما حدث بظهور الإسلام من إبطال الضّلالات، ولذلك ابتُدئ بقوله: ﴿تُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ﴾، ليكون الانتهاء بقوله: ﴿وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِۖ﴾، فهو نظير التّعريض في قوله: ﴿تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ مَن تَشَآءُ﴾، والّذي دلّ على هذا الرّمز افتتاح الكلام بقوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ﴾[2].

التّفويف[3] في بديع الآية:

في قوله تعالى ﴿تُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِۖ﴾ مثال لفن

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/90.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/214.

(3) هو أن تأتي بمعانٍ متلائمة في جمل مستوية المقدار أو مقاربة، من قولهم: «ثوب مفوف» للذي على لون وفيه خطوط بيض. أحمد مطلوب، معجم المصطلحات البلاغيّة: 1/403.

التّفويف في الجمل المتوسطة؛ حيث إنَّ هاتين الجملتين قد حوتا معانيَ شتَّى من الإنعام، والخلق، والتدبير، والقدرة، والتسخير، والقهر، وغير ذلك من الفنون والأغراض، كلُّ فنٍّ في جملة من الكلام منفصلة عن أختها بالتجميع غالباً، مع تساوي الجملتين المركبتين في الوزنية.[1]

وهذا التَّساوي ليس شكلًا فحسب، بل إنَّه ليشير من طرفٍ خفيٍّ إلى عظيم قدرة الخالق جل وعلا وبديع صُنعه، ﴿لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ وَكُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ ٤٠﴾ [يس: 40]

﴿وَتُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَتُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّۖ﴾ بين الحقيقة والمجاز:

لمّا جعلَ المتعاقِبَينِ منَ اللّيل والنّهار متوالِجَين جعل المُتباطِنَين منَ الحيّ والميّت مخرجين، فما ظهر فيه الموتُ بَطنَت فيه الحياة، وما ظهرَت فيه الحياةُ بطن فيه الموت. فقال سبحانه: ﴿وَتُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ﴾ منَ النّبات والحيوان، ﴿وَتُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّۖ﴾ منهما حقيقة على رأي كثير منَ العلماء، أو مجازًا كإخراج المؤمن منَ الكافر، والكافر منَ المؤمن، أو إشارة إلى ظهور الهدى والمُلك في أمّة أمِّيَّةٍ، وظهور ضلال الكُفر في أهل الكتابين، وزوال الملك من خلفهم بعد أن كان شعار سلفهم، بقرينة افتتاح الكلام بقوله: ﴿مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ﴾، أو إشارة إلى الانتقال من طورٍ إلى طور، ومن حالة إلى حالة، والانتقال منَ النّطفة إلى الرّجولة إنّما هو تغيّر الحال، والإخراج مجاز عن تغيّر الحال، ومن تغيّر الحال أن يكون ميّتًا ثمّ يحيا، وحيًّا ثمّ يموت، أو يكون المعنى: وتخرج الحيّ ممّا لا تحلّه الحياة، وتخرج ما لا تحلّه الحياة منَ الحيّ[2].

بلاغة المطابقة والتّكميل في الآية:

استمرار التناوب بين الموت والحياة ودورانهما

وقد ترشَّحتِ المطابقةُ هنا بنوع من أنواع البديع، وهو (التّكميل) مبالغة بقوله: ﴿وَتَرۡزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾ المشحونة بقدرة اللّه سبحانه، فقد اجتمعت فيه المطابقة الحقيقيّة والعكس الّذي لا يدرك؛ لوجازته، وبلاغته، ومبالغة التّكميل الّتي لا تليق بغير قدرته،

(1) ابن أبي الإصبع، تحرير التّحبير: 1/262.

(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 1/418، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 2/12، وأبو حيّان، البحر المحيط: 3/89، البقاعيّ، نظم الدّرر: 2/56، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/215.

والمطابقة بين الموت والحياة تعكس العلاقة المتبادلة والاستمراريّة في التّناوب بينهما كالاستمرار، والتّناوب بين اللّيل والنّهار، ودورانهما، وتعاقبهما، وتقلّبهما[1].

بلاغة التّذييل في قوله تعالى: ﴿وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾:

إشارة إلى بشارة المسلمين بالعزّ والتمكين

بعد أن ذكر قدرته الباهرة، وحال اللّيل والنّهار في المعاقبة بينهما، وحال الحيّ والميّت في إخراج أحدهما منَ الآخر، عطف عليه رزقه بغير حساب؛ دلالة على أنّ من قَدِرَ على تلك الأفعال العظيمة المحيّرة للأفهام قادر أن يرزق مَن يشاء مِن عباده بغير حساب، فيكون قوله: ﴿وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ كالتّذييل لذلك كلّه. وفي هذا إيماء إلى بشارة المسلمين بما خُبِّئَ لهم من كنوز الفرس والرّوم وغيرهما[2].

الكناية في قوله: ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾:

العطاء الواسع المتّصل

وقوله تعالى: ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾، أي: بغير حساب منك؛ لأنّه تعالى لا يخاف أن تنتقص خزائنه، أو: بغير حسابٍ من أحد لك؛ لأنّه تعالى لا معقّب لأمره، أو: عطاءً واسعًا خارجًا عن حدّ العدّ والحساب[3].

ولمّا بدأ الآية سبحانه بالتّرغيب بما هو محطّ أحوال الأنفس من المُلك وأنواع الخير، ختمها بمثل ذلك ممّا لا يقوم المُلك، ولا يطيب العيش إلّا به؛ فقال: ﴿وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ﴾، قويًّا كان أو ضعيفًا، ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾؛ وهي كناية عنِ العطاء الواسع، المُتّصل من غير تضييق ولا عُسر، كما فعل بأوّل هذه الأمّة على ما كانوا فيه منَ القلّة والضّعف، فأباد بهم الأكاسرة والقياصرة وآتاهم كنوزهم[4].

(1) الحمويّ، خزانة الأدب: 1/160.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/379، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/215.
(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 1/418.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 2/57.

﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَلَيۡسَ مِنَ ٱللَّهِ فِي شَيۡءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ مِنۡهُمۡ تُقَىٰةٗۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلۡمَصِيرُ ٢٨﴾ [آل عمران: 28]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

بعد أن ذكر تعالى ما عليه اليهود، وأهل الكتاب عمومًا من معاندة الرّسول ﷺ ذكر ما يجب على المؤمنين من تعظيم اللّه تعالى، والثّناء عليه بالأفعال الّتي يختصُّ بها، وذكر ما يجب على المؤمن من معاملة الخلق.

ولمّا كانتِ الآيات السّابقة في الكفّار، نُهي المؤمنون عن موالاتهم، وأُمروا بالرَّغبة فيما عنده وعند أوليائه دون أعدائه، إذ هو تعالى مالك المُلك، فهذه كالنّتيجة لما تقدَّمها، وبعد ما بيّن لهم بَغْيَ المخالِفين وإعراضَهم، وأنّهم سفَّهوا الدِّين، نهى المؤمنين أن يتّخذوا الكفّار أولياء من دون المؤمنين؛ لأنَّ اتَّخاذهم أولياء، بعد ذلك يعَدُّ ضعفًا في الدِّين، وتصويبًا للمعتدين.

ولمَّا بان بهذه الآية أن لا شيء في يد غيره، واقتضى ذلك قَصْر الهمم عليه، وكان نصارى نجران يداومون على موالاة ملوك الرّوم لمحض الدّنيا مع العلم ببطلان ما هم عليه حذَّر المؤمنين من فِعلِ مثل ذلك؛ لأنّهم مؤمنون، وبعد أن بيَّن سبحانه إحاطة علمه بالكون كلّه، وذكر مسألتي اللّيل والنّهار، والحياةَ والموت، وتعلّقهما بتفسير الكون والحياة، وارتباطهما بأسرار الوجود، وأظهر جانب القدرة فيهما؛ التفتَ إلى ما تخفيه القلوب من أسرار الحبِّ والبُغض، والموالاة والمعاداةِ؛ فقال: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ﴾[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَوۡلِيَآءَ﴾: الوَلْيُ والتَّولِّي: قُربُ شيءٍ من شيءٍ ولُزُومُه تبعًا له، إقبالًا أو إدبارًا،

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/92، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 2/57، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/215.

وأكثر استعماله في الإقبال، كقوله تعالى: ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِۚ﴾ [البقرة: 144]، ومنه هذه الآية، ولا يدلُّ على الإعراض والإدبار والبعد إلَّا إذا عُدِّيَ بـ (عن)، أو دلّ السّياق على ذلك، يُقالُ: تَوَلَّى عنه، أي: أَعرَضَ. ووَلَّى هاربًا، أي: أدبر[1].

والمعنى هنا: أنصارًا.

2) ﴿تَتَّقُواْ﴾، ﴿تُقَىٰةً﴾: الوِقاية: دَفعُ شيءٍ عن شيءٍ بغيره، أو: حفظُ الشّيء ممَّا يؤذيه ويضرُّه؛ باتّخاذ حاجز دونه. وَقاه يَقيه وقاية: حفظه، وصانه، ومنعه منَ الضّرر والأذى. واتّقى الشّيء: جعل بينه وبينه وقاية[2].

وأصلُ تُقاة: (وُقَيَة) مصدرٌ على فُعَل من الوِقاية، ثم أُبْدلت الواوُ تاءً، ومثلُها تُخَمة وتُكَاة وتُجاه، وتَحَرَّكت الواوُ وانفتحَ ما قبلَها فَقُلِبت ألفاً، فصارَ اللفظُ ﴿تُقَىٰةً﴾، ووزنُها فُعَلة، ومجيءُ المصدرِ على فُعَل وفُعَلة قليلٌ، نحو: التُّخَمة والتُّهَمة والتُّؤَدة، والتَّقوى والتُّقاة والتَّقيَّة: الحَذَر[3].

3) ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ﴾: الحَذَرُ والحِذْرُ: التَّحرُّز والتَّيقُّظ، أو: تَوَتُّر مع احتراز وتيقُّظ بسبب خوف. ورجلٌ حَذِرٌ وحاذِرٌ: مُتَأَهِّبٌ مُعِدٌّ مُتيقِّظٌ شديدُ الحذر بسبب خوف أو فَزَع، كأنَّه يَحذَرُ أن يفاجأَ. و﴿حَذَرَ ٱلْمَوْتِۚ﴾ [البقرة: 19] أي: تحرُّزًا منَ الموت أو اتّقاءَه. ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥۗ﴾ [آل عمران: 28، 30]: يخوّفكم اللّه من نفسه أن تركبوا معاصيه، والأصل: ينبّهكم اللّه أن تتحرّزوا من عقابه بطاعته فيما أمر ونهى حيث المصير إليه؛ إذِ التّنبيه إلى التّحرّز ممّا يوجب العقوبة أنسب وأولى بالرّؤوف، بينما التّخويف يباعِدُ الرّأفة[4].

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

ينهى اللّه المؤمنين أن يتخِذوا الكافرين أولياءَ بالمحبَّة، والعَون، والنُّصرة والاستعانةِ من دون المؤمنين، ومَن يتولّهم فقد برئ منَ اللّه، واللّه بريءٌ منه؛ لأنَّ موالاةَ الكافرين لا تجتمعُ مع الإيمان، إذ الإيمانُ يأمر بموالاة اللّهِ وموالاةِ أوليائه المؤمنين، والموالاةُ الممنوعة

(1) الجوهريّ، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللّغة، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (ولي).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (وقى).
(3) عيّاض، مشارق الأنوار: (وقى)، والسمين، الدر المصون: 3/110.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن سيده، المحكم، وابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (حذر).

هي التي يكون فيها خِذلانٌ للدِّين، أو إيذاءٌ لأهله، أو إضاعةٌ لمصالحهم، وأمَّا ما عدا ذلك كالتجارة وغيرِها من ضروب المعاملات الدنيوية فلا تدخلُ في ذلك النَّهي؛ لأنها ليست معاملةً فيها أذىً للإسلام والمسلمين، إلّا أن تكونوا ضِعافًا خائفين، فقد رخَّص اللّه لكم في مهادنتهم اتّقاءً لشرّهم، حتّى تقوى شوكتُكم، ويحذّركم اللّه نفسه، وغضبه، وعقوبته، فاتّقوه، وخافوه، ولا تتعرضوا لسَخَطه بارتكاب المعاصي، وإلى اللّه وحده رجوعُ الخلائق للحساب والجزاء[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

فائدة النّهي، وترجيحه على النّفي:

النّهي عنِ اتّخاذ المؤمنين الكافرين أولياء إنّما هو فيما يظهره المرء، ولفظ الآية عامّ، وقد جاء النّهي عن ذلك مع وصف المنهيين بالإيمان، أمّا أن يتّخذ ذلك بقلبه ونيّته فلا يفعل ذلك مؤمن، والمحبّة في اللّه والبغض في اللّه أصل عظيم من أصول الدّين، وقرأ الجمهور: ﴿لَّا يَتَّخِذِ﴾ على النّهي. وقرأ الضّبيّ برفع الذّال على النّفي، والمراد به النّهي، فنُهُوا عن موالاتهم، وإظهار اللّطف لهم، والميل إليهم، والاستعانة بهم في الغزو، وسائر الأمور الدّينيّة؛ بسبب قرابة أو صداقة جاهليّة أو يد سابقة أو نحو ذلك، حتّى لا يكون حبّهم وبغضهم إلّا في اللّه، أو عن الاستعانة بهم في الغزو وسائر الأمور الدينية.[2]

دلالة لفظ ﴿ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ في الآية الكريمة:

دلَّ لفظ ﴿ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ هنا على ظاهر الكفر، مُعْلِنَ العداوة في الدِّين؛ حتَّى لا يؤخذ أحد بالظَّن، أو يُقْطعَ وَصْلُه بالتُّهَمَة، وقد شاع في اصطلاح القرآن إطلاق وصف الكفر والكافرين والّذين كفروا على الشّرك والمشركين، ولعلّ تعليق النّهي عنِ الاتّخاذ بالكافرين بهذا المعنى هنا؛ لأنّ المشركين هم الّذين كان بينهم وبين المهاجرين صلات، وأنساب، ومودّات، ومخالطات، فكانوا بِمَظِنّة الموالاة مع بعضهم، وقد علم كلّ سامع أنّ من يشابه المشركين في موقفه تجاه الإسلام يكون تولّي المؤمنين إيّاه كتولّيهم المشركين، وقد يكون

(1) السّمرقنديّ، بحر العلوم: 1/205، ورشيد رضا، المنار: 3/278، والسعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 53، ونخبة من العلماء، التّفسير الميسر، ص: 53.

(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 1/419، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 2/12، وأبو حيان، البحر المحيط: 3/91.

المراد بالكافرين جميع المخالفين في الدّين، مثل قوله: ﴿وَمَن يَكۡفُرۡ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾ [آل عمران: 19][1].

دلالة قوله تعالى: ﴿مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾:

قوله: ﴿مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ إشارة إلى أنّهم الأحقّاء بالموالاة، وأنّ في موالاتهم مندوحةً عن موالاة الكفرة، وقوله تعالى: ﴿مِن دُونِ﴾ عبارة عن كون الشّيء الّذي تضاف إليه (دُون) غائبًا متنحّيًا حقيرًا ليس منَ الأمر الأوّل في شيءٍ من صفاته العالية ودرجاته الرفيعة، وهو تقييد للنّهي بحسب الظّاهر؛ لبيان شناعة ما يقوم به من يفعل ذلك، فيُذكّره أنّه من جماعة المؤمنين، فلا يترك جماعتهم، ويشذّ باتّخاذ جماعة الكافرين أولياء، فيكون المنهيّ عنه اتّخاذهم أولياء، عندما يكون في تولّي الكافرين إضرار بالمؤمنين[2].

شخصية المؤمن تقتضي الوضوح، وتطرد النّفاق والتّقلّب بحسب المصالح والأهواء

وفي قوله: ﴿مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ إطناب؛ أفاد الإيغالَ في ضرورة الالتزام بجماعة المؤمنين، وهم الصّحابة رضي الله عنهم، ومن سار على هديهم من بعدهم، واقتدى بهم.

المبالغة في ترك الموالاة:

قوله تعالى: ﴿وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَلَيۡسَ مِنَ ٱللَّهِ فِي شَيۡءٍ﴾ يدلّ على المبالغة في ترك الموالاة؛ إذْ نفى عن متولّيهم أن يكون في شيء منَ اللّه، أي: فليس من ولاية اللّه في شيء، أو من دينه، أو من عبادته، أو من حزبه.

تكشف الآية الكريمة عن خطورة أمر الموالاة، فلا تكون إلّا للمؤمن

نفى ولاية اللّه عَمَّن اتّخذ عدوّه وليًّا؛ لأنّ الولايتين متنافيتان، والعرب تقول: أنت منّي وأنا منك، في معنى شدّة الاتصال حتّى كأنّ أحدهما جزء منَ الآخر، ويقولون في الانفصال والقطيعة: لستُ منك ولستَ منّي، وفي قوله: ﴿فِي شَيۡءٍ﴾ تصريح بعموم النّفي في

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/216.

(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 1/419، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 2/12.

جميع الأحوال؛ لرفع احتمال تأويل نفي الاتّصال بأغلب الأحوال، فتكون العبارة كناية للانقطاع عنِ الانتماء إلى الله، وهذا ينادي على أنّ المنهي عنه هنا ضرب من ضروب الكفر، وهو الحال الّتي كان عليها المنافقون، وكانوا يظنّون ترويجها على المؤمنين، ففضحهم الله تعالى، ولذلك قِيل: إنّ هذه الآية نزلت في المنافقين، والتّقدير: فمن تولّاهم، وكّل إليهم، وكان في عدادهم؛ لأنّه ليس منَ الرّاسخين في صفة الإيمان، وعطف عليه ترهيبًا قوله: ﴿فَلَيۡسَ مِنَ ٱللَّهِ فِي شَيۡءٍ﴾، ومفهومه أنّ من تمسّك بولاية المؤمنين فهو منَ الله في شيء[1].

الحذف في قوله تعالى: ﴿فَلَيۡسَ مِنَ ٱللَّهِ فِي شَيۡءٍ﴾:

دعوة المؤمن إلى النظر في جميع أعماله؛ لتكون كلُّها في رضا الله

قوله: ﴿فَلَيۡسَ مِنَ ٱللَّهِ فِي شَيۡءٍ﴾ معناه: في شيء مَرضيّ على الكمال والصّواب، وفائدة هذا الحذف؛ فسح المساحة للمؤمن أن يفكّر أيّ شيء يمكن أن يوصله بالله، فيكون معه في شيء؛ ومن تورّط في موالاة الكافرين من دون المؤمنين فتظهر له شناعة فعلته، ويتراجع إلى فعل الصّواب، وكأنّ الآية تقول له: إمّا أن توالي الله، وإمّا أن توالي الكافرين، فإن واليتَ الكافرين فلستَ منَ الله في شيء.[2]

الاستثناء والاحتراس في قوله: ﴿إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ مِنۡهُمۡ تُقَىٰةٗۗ﴾:

حـــالات نـــادرة تلك الّتي يقبلها الشّرع في موالاة غير المؤمنين

ولخطورة ذلك الفعل والتّهديد الّذي جاء معه، فقد استثنى حالة إظهار الموالاة للكافرين بشرط اتّقاء ضرّهم أو أذاهم، وجاء الاستثناء احتراسًا من إطلاق النّهي؛ لأنّ أصل القيود أن تكون للاحتراز. والاستثناء في ﴿إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ﴾ منقطع ناشئ عن جملة ﴿فَلَيۡسَ مِنَ ٱللَّهِ فِي شَيۡءٍ﴾؛ لأنّ الاتّقاء ليس ممّا تضمّنه اسم الإشارة، ولكنّه أشبه الولاية في المعاملة، فأباح الله إظهار اتّخاذهم

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/92، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 2/58 - 59، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/216 - 217.
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 1/419.

بشرط الاتّقاء، والاتّقاء: تجنّب المكروه، وقال: ﴿تَتَّقُواْ مِنۡهُمۡ﴾ دون: تتّقوهم؛ إمّا لأنّ الاتّقاء تَسَتُّرٌ فعدّي بـ (مِن) كما يعدّى فعل تستّر، وإمّا لتضمينه معنى تخافوا[1].

التّوكيد بالمفعول المطلق في قوله: ﴿تُقَىٰةٗۗ﴾:

وفائدة التّأكيد بالمفعول المطلق هنا الإشارة إلى تحقّق كون الحالة حالة تقيّة، وهذا مثل الحال الّتي كان عليها المستضعفون منَ المؤمنين ﴿إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ﴾ [النّحل: 106]. وكذلك يجب أن تكون التّقاة غير دائمة؛ لأنّها إذا طالت دخل الكفر في الذّراريّ.

تضييق حالة التقيّة والتحقُّق منها؛ حتى لا تستشري فتكون موالاة

وقرأ الجمهور ﴿تُقَىٰةٗۗ﴾، وقرأ يعقوب: ﴿تَقِيَّةً﴾ بفتح التّاء وشدّ الياء على وزن فعيلة، وذهب جمهور المفسّرين إلى أنّ معنى الآية: إلّا أن تخافوا منهم خوفًا، وهذا هو معنى التّقيّة[2]، وبين ﴿تَتَّقُواْ﴾ و﴿تُقَىٰةٗۗ﴾ جناس الاشتقاق.

الالتفات في قوله: ﴿إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ﴾:

في العبارة التفات؛ لأنّه خرج منَ الغيبة إلى الخطاب، ولو جاء على نظم الأوّل لقال: إلّا أن يتّقوا، وهذا النّوع في غاية الفصاحة؛ لأنّه لمّا نهى المؤمنين عن فعل ما لا يجوز جعل ذلك في اسم غائب، فلم يواجَهوا بالنّهي، ولمّا وقعتِ المسامحة والإذن في بعض ذلك، وجّهوا بذلك إيذانًا بلطف اللّه بهم، وتشريفًا بخطابه إيّاهم[3].

سرُّ الحمل على لفظ ﴿وَمَن﴾ مرة، وعلى معناه أخرى:

وفيه تنوّع آخر بديع؛ حيث انتقل مِن ﴿يَفۡعَلۡ﴾ بالإفراد؛ حملًا على لفظ ﴿وَمَن﴾، إلى الجمع ﴿تَتَّقُواْ﴾؛ حملًا على معنى الجمع؛ والسرُّ في ذلك أنَّه ذكر الإفراد في حالة الفعل بلا تقيّة، تقليلًا

الحمل على اللفظ للتقليل، وعلى المعنى للتكثير

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/93، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/220.
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 1/419، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/221.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/94.

له، وذكر الجمع في حالة الفعل مع التّقيّة، تكثيرًا وقبولًا، وهذا من رحمته سبحانه إذِ استثنى الكثير منَ القليل، فاستثنى حالة التّقيّة الّتي يضطر إليها المؤمنون أحيانًا في أحوالهم الحياتيّة.

بلاغة الكناية في قوله: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ﴾، وبلاغة الإيغال في التّحذير في ﴿نَفۡسَهُۥۗ﴾:

من شغل نفسه بالخير فقد أمن مِن أن تشغله بالباطل

﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥۗ﴾ التّحذير هنا كناية عن مجاوزة حدود اللّه، فلا تتعرّضوا لسخطه بمخالفة أحكامه، وموالاة أعدائه، وهو تهديد عظيم مشعر بتناهي النّهي في القبح، وذكر النّفس ليعلم أنّ المُحذّر منه عقاب يصدر منه تعالى، فلا يؤبه دونه بما يحذر منَ الكفرة[1]. وأطنب بذكر النّفس؛ إيغالًا في التّحذير من هذا الحال الّذي يمكن أن يأخذ صاحبه شيئًا فشيئًا؛ ليصبح في عداد الكافرين الّذين يحادّون اللّه ورسوله، فجاء التّحذير بهذه الشّدّة حرصًا على المؤمن؛ ليبقى في دائرة الإيمان مع جماعة المؤمنين، والآية وعيد وتنبيه ووعظ وتذكير بالآخرة، وقوله: ﴿نَفۡسَهُۥۗ﴾، أي: إيّاه، ويمكن أن تكون ﴿نَفۡسَهُۥۗ﴾ توكيدًا لتَكرار ذات الجلالة سبحانه، فذكر ﴿ٱللَّهُ﴾، وذكر ﴿نَفۡسَهُۥۗ﴾ سبحانه، وهذه مخاطبة على معهود ما يفهمه البشر؛ لأنّ الخطاب هنا للنّفس والدّواخل؛ لتحقيق التّناسب بين اللّفظ والمعنى العامّ لمن تذكّر، والوعيد لمن أعرض، والنّفس في مثل هذا راجعة إلى الذّات، أو في الكلام حذف مضاف، أي: ويحذّركم اللّه غضبه وعقابه، والعبارة تحذيرٌ منَ التّساهل في دعوى التّقيّة، واستمرارها، أو طول زمانها، وقد جعل التّحذير هنا من نفس اللّه، أي: ذاته؛ ليكون أعمّ في الأحوال؛ لأنّه لو قيل: يحذّركم اللّه غضبه؛ لتوهّم أنّ للّه رضا لا يضرّ معه تعمّد مخالفة أوامره[2]، وهذا إعذار، وموعظة، وتهديد بالعقاب على مخالفة ما نهاهم اللّه عنه.

(1) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 2/12.

(2) ابن عطية، المحرّر الوجيز: 1/420، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/221.

بلاغة الكناية ودلالة التعريض في قوله: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾:

كنـــايـــة عـن يـوم الـقـيـامـة، وتعريض بوعيد المعاندين

المؤمن مطمئنّ في حياته لإيمانه بصيرورة الآخرة، ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾، أي: إليه تصيرون وترجعون، فيجازيكم إن ارتكبتم موالاتهم بعد النّهي، وفي ذلك تهديد ووعيد شديد لمن خالف أمر اللّه؛ ولمْ يأبَهْ لآيات اللّه وحدوده. و﴿ٱلۡمَصِيرُ﴾: الرّجوع، كناية عن يوم القيامة، وأُريد به البعث بعد الموت، وهو لا يكون إلّا إلى اللّه، فالتّقديم في قوله: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ﴾؛ للاهتمام، وهذا تعريض بالوعيد أكّد به صريح التّهديد الّذي قبله، وفائدة الكناية بيان أن لا مفرّ من لقاء اللّه تعريضًا بهم وتهديدًا لأولئك المعارضين المُعاندين الرّافضين لكتاب اللّه ونبوّة رسوله ﷺ، وترغيبًا في الإيمان[1].

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/96، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/222.

﴿قُلۡ إِن تُخۡفُواْ مَا فِي صُدُورِكُمۡ أَوۡ تُبۡدُوهُ يَعۡلَمۡهُ ٱللَّهُۗ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٢٩﴾ [آل عمران: 29]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

بعد أن حذَّر اللّهُ المؤمنين من أن تنحرف بهم الظّروفُ في موالاة الكافرين، وتركِ أوامره، وحذَّرهم نفسه، ورخَّص حالةً ضيّقة سُمح فيها ظاهرُ الموالاة تقيّة في ظاهر العمل لا في القلب والباطن، اقتضى ذلك الالتفاتُ بالخطاب إلى العلم بأسرار الصّدور؛ لخطورة الأمر تحذيرًا شديدًا، وبيانُ أنّه لا يخفى على اللّه شيء من أعمالكم أو نواياكم، وأنَّ إخفاء الأمور أو إبداءَها سواءٌ عند اللّه تعالى، وستحاسبون على كلِّ ما تخفوه في صدوركم.

فالآية بيان لقوله تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥ﴾؛ وكأنّه قال: ويحذّركم نفسه؛ لأنّه متَّصِفٌ بعلم ذاتيٍّ محيط بالوجود كلِّه، وقدرةٍ ذاتيّة تعمُّ المقدورات بأسرها، فلا تجسروا على عصيانه؛ إذ ما من معصية إلّا وهو مطّلع عليها قادر على العقاب بها[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تُخۡفُواْ﴾: الخفاء: استتارُ الشّيءِ استتارًا غير تامٍّ، بحيث يظهر من وراء السّاتر ظهورًا ضعيفًا. والمُختفي: النَّبَّاش الّذي يستخرج أكفان الموتى؛ لأنّها مُسْتخفية تحتَ التّراب، ولأنّه يفعل ذلك خِفيَةً. والإخفاء ضدُّ الإبداء. والخَفَا بالقصر: الشّيء الخافي. وخَفِي الشّيءُ واختفى واستخفى وتخفَّى: استتر. وأخفيت الشّيء: سترته[2].

2) ﴿صُدُورِكُمۡ﴾: الصَّدر: أَعلى مُقَدَّم كُلِّ شيءٍ وأَوَّلُه، أو: مُقَدَّمُه أو أعلاه، وصَدْرُ الإنسان: أعلى شيء في مقدَّمِه. وصَدرُ القَناة: أعلاها. وصَدرُ الأمر: أوَّلُه، وأخذ الأمر بصَدْره: بأوّله، والأمور بصُدُورها. وهؤلاء صُدرة القوم: مُقدّموهم، وصَدَرَهُ: أَصَابَ صَدْرَهُ، ورجل مَصْدُورٌ: يشكو صَدْرَهُ[3]، ورجل مُصدِر: مُتِمٌّ للأمور[4].

(1) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 2/12.
(2) الخليل، العين، وابن منظور، لسان العرب: (خفي)، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (خفو، خفي).
(3) الخليل، العين، والراغب، المفردات، ابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (صدر).
(4) الزّمخشريّ، أساس البلاغة: (صدر).

3) ﴿تُبۡدُوهُ﴾: البُدُوُّ: بروزُ الشَّيءِ وظهوره. بدا الشّيءُ: ظهر. وبداوةُ الأمر: أوّل ما يبدو منه. وبَدا يَبدُو بُدُوًّا: ظهر؛ فهو بادٍ. وبدا إلى البادية بَدَاوةً فهو بادٍ أَيضًا. والبَدوُ خلافُ الحَضَر، والنِّسبة إلى البادية بَدَوِيٌّ على غير قياس. وبدا له في الأَمر: ظهر له ما لم يَظهَر أَوَّلًا، قال تعالى: ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمۡ يَكُونُواْ يَحۡتَسِبُونَ﴾ [الزّمر: 47].[1].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

قل يا أَيُّها النّبيُّ ﷺ للمؤمنين على سبيل الإرشادِ والتحذير: إنْ تكتموا ما استقرَّ في قلوبكم، ومنه موالاةُ الكافرين ونصرتُهم، أو تُظهروا ذلك لا يَخفَ على اللّه منه شيء، فإنَّ علمَه محيطٌ بكلِّ ما في السّموات وما في الأرض، وله القدرةُ التّامّة على كلِّ شيء.

وهذا التنويعُ في الخطاب من شأنه أن يربِّي المهابةَ في القلوب بما يحمل على شدّةِ تجنُّب ما نَهَى اللّه عنه، والإخلاصِ مع شدَّة الحِيطة فيما أَبَاح لهم منه للمصلحة، وذكر ذلك بصورة بيان عامٍّ على نهج القرآن[2].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

الانتقال منَ الإجمال إلى التّفصيل، ومنَ الخصوص إلى العموم:

فانتقل من خصوص خطاب المؤمنين من ذنب موالاة المؤمن للكافر في الآية السّابقة إلى العموم هنا في ذكر أنواع الذّنوب كلّها صغيرها وكبيرها، خفيّها وعلنها.

كما أنّه انتقل منَ التّحذير المجمل إلى ضربٍ من ضروب التّفصيل؛ وهو إشعار المقصودين باطّلاع اللّه على ما يخفونه في صدورهم منَ الأمر، فانتقل منَ التّحذير من موالاة الكافرين إلى جميع أنواع الذّنوب الكامنة في الصّدور والنّيّات، أو إلى جميع أنواع النّيّات والخبايا الّتي في الصّدور، صالحها وسيّئها.

دلالة المجاز المرسل في كلمة ﴿صُدُورِكُمۡ﴾:

ذكر الصّدور هنا، وأراد البواطن والضّمائر جريًا على معروف اللّغة من إضافة الخواطر النّفسيّة إلى الصّدر والقلب؛ لأنّ الانفعالات النّفسانيّة، وتردّدات التّفكر، ونيّات

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن سيده، المحكم، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (بدو).
(2) البقاعي، نظم الدّرر: 2/60، والسّمرقنديّ، بحر العلوم: 1/207، ونخبة من العلماء، التّفسير الميسّر، ص: 53.

النّفوس كلّها يشعر لها بحركات في الصّدور[1]، فهو مجاز مُرسَل علاقته الحاليّة؛ إذ ذكر المحلّ وأراد الحالّ فيه، والغرض من ذلك زيادة التَّرهيب؛ حتى لا يحملَ المخاطَب في صدره ما يكون وبالًا عليه، ومضاعفة التَّرغيب في تطهير الباطن؛ ليكون محِلًّا صالحًا للإيمان، ودافعًا لصالح الأعمال.

ذكر الصّدور، وأراد البواطن مجازًا باعتبار الحالّ فيه:

بلاغة الطّباق في الآية ودلالتها على الشّمول:

الطّباق بين الإخفاء والإبداء أفاد العموم والشّمول تعليمًا بسعة علم اللّه سبحانه؛ لأنّ مقام إثبات صفات اللّه تعالى يقتضي الإيضاح، فيكون المعنى أنّ اللّه تعالى يعلم كلّ شيء منَ الخلق والكون، فأفاد ذلك شمول أحوالكم كلّها، وشمول أسراركم كلّها، وكلّ ما يجول ببالكم، وخبايا صدوركم، وما تسرّون، وما تعلنون سواءً بسواءٍ.

الخالق سبحانه عالم بأسرار النّفس الّتي تخفى على صاحبها

التّرقّي منَ الإخفاء إلى الإبداء:

ولمّا كان حقيقة ما نهى عنه في الولاية والتّقاة أمرًا باطنًا يترتّب عليه فعل ظاهر، فوقع التّحذير فيه على الفعل، كرّر فيه التّحذير على ما وراء الفعل ممّا في الصّدور، ونبّه فيه على منال العلم خفية.

وكرّر في ختمه التّحذير؛ فإنّه قد يترك الشّيء فعلًا، ولا تترك النّفس الغيّة صغوًا ونزوعًا إليه في أوقات، ليتثنّى التّحذيران ترقّيًا منَ الظّاهر في الفعل إلى باطن الحماية في العلم خفية، كما تثنّى الأمران في الظّاهر والباطن.

أعلى درجات الوضوح أن يستوي ما يبديه الإنسان بخفايا نفسه

وكان في إجراء هذا الخطاب على لسان النّبيّ ﷺ حجّة عليهم بما أنّه بشر مثلهم يلزمهم الاقتداء به فيما لم يبادروا إلى أخذه منَ اللّه في خطابه الّذي عرض به نحوهم[2].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/222.
(2) البقاعي، نظم الدّرر: 2/60.

وقد أفاد هذا التّرقّي النّصح والإرشاد إلى أن يرقى المرء بنفسه فيكون ما يخفيه كالّذي يبديه، أو قريبًا من ذلك.

بلاغة الطّباق بين السّماوات والأرض:

ثمّ قال مريدًا التّعميم: ﴿وَيَعۡلَمُ﴾ جميع ﴿مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾، ولمّا كان الإنسان مطبوعًا على ظنّ أنّه إذا أخفى شيئًا في نفسه لا يعلمه غيره أكّد بإعادة الموصول فقال: ﴿وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ﴾ ظاهرًا كان أو باطنًا[1].

وبين ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ و﴿ٱلۡأَرۡضِۖ﴾ طباق حقيقيّ وضمنيّ، طباق العدد: هو طباق بين الجمع والفرد، وطباق الاتّجاه: هو طباق بين الأعلى والأسفل، وطباق الجزء والكلّ، أو طباق الصّغير والكبير: هو ذكر الجزء وهو ﴿ٱلۡأَرۡضِۖ﴾، والكلّ وهو ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾. وفي وجوه المطابقة هذه بين السّماوات والأرض؛ دلالة شمول علمه سبحانه بالكون كلّه.

سرُّ العدول عن (السماء) إلى ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾:

ذكرت (السماوات) مجموعة في القرآن الكريم تسعين ومئة مرة، وقوبلت بالأرض في سبع وثلاثين ومئة مرّة، في حين ذكرت (السماء) مفردة عشرين ومئة مرّة، وقوبلت بالأرض في خمس عشرة مرَّة، فالغالب مقابلة (السماوات) بصيغة الجمع بالأرض؛ إذ إنَّ نسبة مقابلة (السماء) مفردة بالأرض أقل من 6% من مجموع ذكر اللفظين (السماوات والسماء) في مقابلة الأرض، والسرُّ في ذلك أنَّ الجمع دالٌّ على السبع الطباق، لا على سماء الدنيا، ويأتي في سياق بيان قدرة الله تعالى، وسعة علمه، وعظيم ملكه، والتفكر والتدبُّر في قدرة الخالق ﷻ، في حين أنَّ دلالة المفرد (السماء) على السماء الدنيا، وما يتعلق بها من تسخير السّحاب، والرياح ونزول الماء، وقد يدلُّ المفرد على وحدانيَّة الخالق، وتناسق الخلق، ومن الآيات التي جمعت بين لفظي (السماوات والسماء) في مقابلة الأرض قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلۡفُلۡكِ ٱلَّتِي تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٖ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٖ وَتَصۡرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلۡمُسَخَّرِ بَيۡنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ١٦٤﴾ [البقرة: 164].

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 2/60.

فالعدول عن (السماء) إلى ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ هنا لما يأتي:

أوَّلًا: مناسبة الجمع لقوله: ﴿مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ﴾.

ثانيًا: مناسبة قدرة الله على كلِّ شيء، وقد ذكرت القدرة في السِّياق مرتين، مرَّة في فاصلة الآية، وأخرى في آية ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ﴾ ومن قدرته سبحانه خلقُ السماوات والأرض، وفيه تعريضٌ بضآلتهم أمام كونه الفسيح؛ لما فيه من الترقِّي من الأدنى إلى الأعلى، كما قال تعالى: ﴿لَخَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَكۡبَرُ مِنۡ خَلۡقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ۝٥٧﴾ [غافر: 57].

ثالثًا: مناسبة إيلاج الليل في النهار، وإيلاج النهار في الليل، وما بين الإيلاج وإخفاء ما في الصدور من تناسب؛ فذكر ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ بصيغة الجمع تشير إلى العالم العلوي المنظور منه وغير المنظور.

بلاغة التّذييل في قوله: ﴿وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾:

وجملة ﴿وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ معطوفة على جملة الشّرط فهي معمولة لفعل ﴿قُلۡ﴾، وليست معطوفة على جواب الشّرط؛ لأنّ علم الله بما في السّماوات وما في الأرض ثابت مطلقًا غير معلّق على إخفاء ما في نفوسهم وإبدائه، والجملة تذييل للتّعميم الواضح فيها، والخطاب للمؤمنين تبعًا لنهيه ألّا يتّخذ المؤمنون الكافرين[1].

التّرقّي منَ الصّدور إلى عموم السّماوات والأرض:

يستوي في علم الله خفايا الصّدور، وخفايا السّماوات والأرض

أدّى فنّ التّرقّي ذلك الانتقال المتناسق من محتوى الصّدور إلى محتوى السماوات والأرض، فيعلم سرّكم وعلنكم، وهو على كلِّ شيءٍ قديرٌ، فيقدر على عقوبتكم إن لم تنتهوا عمّا نهيتم عنه[2].

والقطعة القرآنيّة غزيرة المعاني في الجمع بين أمثلة الحياة والكون بأسلوب معجز مذهل، يجعل التّرابط بين الحياة والكون في تداخل عجيب؛ فمن فوائد التّرقّي منَ النّفس إلى السّماوات والأرض: أنّه

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/222.
(2) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 2/12.

كشف عن جانب من قدرته سبحانه وعلمه بخبايا النّفوس من جانب، مع علمه بأسرار الكون من جانب آخر، وما في ذلك من مقابلات الصّغير والعظيم ممّن خلق أمام قدرته سبحانه، وما فيه من بلاغة رد العجُز على الصّدر؛ فذكر الحياة والكون هنا بعد أن ذكر الكون والحياة قبل ذلك.

أظهر اسم الجلالة في مَوضِع الإضمار استقلالًا للجملة وتمثيلًا:

إفـــادة جمع الله بين العلم المطلق والقدرة المطلقة

أظهر اسم الجلالة ﴿وَٱللَّهُ﴾ دون ضميره، فلم يقل: وهو على كلّ شيء قدير، لتكون الجملة مستقلّة، فتجري مَجرَى المثل، فتكون على سبيل استعارة تمثيليّة، ثمّ لما في ذكر اسم اللّه منَ التّلذّذ والثّواب، وفي ذلك إعلام بأنّه مع العلم بكلّ شيء ذو قدرة على كلّ شيء، وهذا من التّهديد، فالمهدِّد لا يحول بينه وبين تحقيق وعيده إلّا أحد أمرين: الجهل بجريمة المجرم، أو العجز عنه، فلمّا أعلمهم بعموم علمه، وعموم قدرته، علموا أنّ اللّه لا يفلتهم من عقابه، وقدّم شبه الجملة ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ كدليل الإحاطة والشّمول الّذي تكرّر بعد ترسيخه في مجالات الطّباق الواردة في الآية[1].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/222.

﴿يَوۡمَ تَجِدُ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا عَمِلَتۡ مِنۡ خَيۡرٖ مُّحۡضَرٗا وَمَا عَمِلَتۡ مِن سُوٓءٖ تَوَدُّ لَوۡ أَنَّ بَيۡنَهَا وَبَيۡنَهُۥٓ أَمَدَۢا بَعِيدٗاۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥۗ وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلۡعِبَادِ ٣٠﴾ [آل عمران: 30]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا ذكر سبحانه في الآية السّابقة أنَّه يعلَمُ ما تُخفي الصُّدُورُ وما تُعلن، وبيَّن علمه الشَّامل وقدرته المطلقة، وكان ذلك الحديثُ يتضمَّنُ الإخبار بالجزاء على الأعمال الَّتي تصدُرُ من النَّاس جميعًا؛ بيَّن في هذه الآية الزَّمن الَّذي يُحاسِبُ فيه النَّاس، وهو يومُ القيامة الَّذي تجدُ فيه كلُّ نفس ما قدَّمت من عملٍ مُحضَرًا، وتُحاسَبُ على الصَّغير والكبير والنَّقير والقِطمير.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مُّحۡضَرٗا﴾: اسم مفعول من الفعل (أحضر)، والجذر (حَضَرَ) يدلُّ على إيرَادِ الشَّيْءِ، وَوُرُودِه وَمُشَاهَدَتِه، وحضر الشَّيء أو الأمر: أتى، جاء وتهيَّأ[1]. والمراد: يوم تجدُ كلُّ نفس عملها بارزًا حاضرًا مشاهَدًا بين أيديها في يوم القيامة.

2) ﴿أَمَدَۢا﴾: الجذرُ اللُّغويُّ للكلمة هو (مَدَي)، أو (أَمَدَ)، والأَمَدُ: مُنْتَهَى كلِّ شيءٍ وآخرُه[2]، والفَرْقُ بَيْنَهُ وبَيْنَ الأبَدِ: أنَّ الأبَدَ: مُدَّةٌ مِنَ الزَّمانِ غَيْرُ مَحْدُودَةٍ، والأمَدُ: مُدَّةٌ لَها حَدٌّ مَجْهُولٌ، والمُرادُ في الآية: بيانُ أنَّ كلَّ نفسٍ ترجو أن يكون بينها وبين عملها السَّيِّئ زمنٌ بعيدٌ أو مسافةٌ بعيدة لشدَّة ندمها على ما فعلت.

المَعْنَى الإجْمَالِيُّ:

يبيِّنُ اللّه في الآية هولَ اليَومِ الَّذي يُنفّذ فيه الوعيدُ، وهو يومُ الجزاء حينَ تجدُ كلُّ نفس من النُّفوس المكلَّفةِ ما عملت من عَمَلٍ يقرِّبُ إلى اللّه، ينتظرها موفَّرًا كاملًا مُشاهَدًا في الصُّحُفِ لتُجزى به، فتَنْعمَ به، وتُسرَّ بأمر اللّه تعالى، وما عملت من عملٍ سيِّئ يُسْخِطُ

(1) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة، والزمخشري، أساس البلاغة، أحمد مختار عمر، معجم اللغة العربية المعاصرة: (حضر).
(2) الخليل، العين: (مدي).

اللهَ؛ فإنَّها تجده في انتظارها أيضًا، فتتمنَّى لو أنَّ بينها وبين هذا العملِ - الَّذي أسْخَطَ اللهَ - زمنًا بعيدًا، ومسافةً بعيدة، حتَّى يتأخَّر تنفيذُ الجزاء؛ لعِظَم أسَفِها وشدَّةِ حُزنها، وما ينالُها من الإهانة والعذابِ في ذلك الموقف.

ثم أعاد تعالى تحذيرَنا نفسَه - رأفةً بنا ورحمةً - لئلَّا يطول علينا الأمدُ فتقسُوَ قلوبُنا، وليجمع لنا بين التَّرغيبِ الموجبِ للرَّجاء والعملِ الصَّالح، والتَّرهيبِ الموجبِ للخوف وتركِ الذُّنوب لنستعدَّ لذلك اليوم العصيب، ونجتهد في تقديم الطَّاعات والأعمال الصَّالحات، ثُمَّ ذكَّرنا سبحانه بكمالِ رأفته وواسع رحمته.

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

بديع التَّصدير في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ﴾:

التَّذكير بِعِظَمِ ذلك اليوم، وبيان أحوال النَّاس فيه

سبق الحديثُ عن يوم القيامة في قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [آل عمران: 25]، وهذه الآية قد صُدِّرت بلفظ (يوم)، وهذا التَّشابه في المطلعين نظمًا ومعنًى يُشيرُ إلى تكامل الآيتين: حيث إنَّ كلتيهما تُذكِّرُ بيوم القيامة، والمحاسبة على الأعمال فيه.

دلالة الكناية بـ﴿يَوْمَ﴾ عن (القيامة):

يومُ القيامة يومٌ عظيمٌ مُتفرِّدٌ بطوله ودوامه، ومُتميِّزٌ بأحداثه وأهواله

التَّكنيةُ عن القيامةِ باسم الزَّمان ﴿يَوْمَ﴾: الغرضُ منه الاهتمامُ بهذا اليوم، ولَفْتُ أنظار النَّاسِ إليه، فهو ليس يومًا كأيّام الدُّنيا الَّتي تنقضي بسرعة، بل هو يومُ الخلود والبقاء المستمرِّ، وهو يومُ الحساب والفصل بين الخلائق، ويومُ الثَّواب والعقاب؛ إذْ توزن فيه أعمال كلِّ العباد من أوَّل خلق آدم إلى آخر أيَّامهم، ولا يعلمُ مدَّة هذا اليوم إلَّا اللّه تعالى، علمًا أنَّ اللّه - تبارك وتعالى - قد قرَّر في محكم التَّنزيل أنَّ يومًا عنده كألف سنة ممَّا يعدُّ البشر فوق الأرض، وإنَّ يومًا كخمسين ألف سنة، قال تعالى: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ

سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾ [الحجّ: 47]، وقال جلَّ شأنه: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴿٤﴾﴾ [المعارج: 4].

بلاغة تقديمِ ظَرْفِ الزَّمانِ على عامله:

تعظيم شأن يوم القيامة؛ إذ هو الغرض المَسوقُ له الكلام

صُدِّرت الآية الكريمة بتقديم لفظ ﴿يَوْمَ﴾ عن سائر عناصر الجملة؛ إذ أصل نظم الكلام: تَوَدُّ كلُّ نفسٍ لو أنَّ بينها وبَيْنَ ما عَمِلَتْ من سوءٍ أمدًا بعيدًا، يَوْمَ تجد ما عملت من خير مُحْضَرًا، فَقُدِّمَ الظَّرف على عامله، وهو أسلوبٌ من أساليب العرب حيثُ يقدِّمون في كلامهم ما هم ببيانه أعنى، والمرادُ من هذا التَّقديم التَّنبيهُ إلى عظمة ذلك اليوم وضرورة الاهتمام به.

ويحتمل النَّظمُ أن يكون لفظ ﴿يَوْمَ﴾ معمولًا لقوله: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ [آل عمران: 28]، ويكون المعنى: ويُحذِّرُكم اللّٰه نفسه يومَ تجدُ كلَّ نفس ما عملت أمامها مُحضرًا، وهو رأيُ الزَّجَّاج، أمَّا ابنُ الأنباري؛ فيرى أنَّ العامل في الظَّرف هو لفظ ﴿ٱلْمَصِيرُ﴾ [آل عمران: 28]، ويكون التَّقدير: (وإليه المصيرُ يومَ تجد كلُّ نفس)، ويجوز أن يكون الظَّرفُ منقطعًا على إضمار فعل (اذكر) قلتُ: وكلُّ هذه الأقوال يتَّسعُ لها النَّظمُ الجليل[1].

دلالةُ إضافة ﴿كُلُّ﴾ إلى المفرد المُنَكَّرِ ﴿نَفْسٍ﴾:

إفادة الاستغراق لجنس النُّفوس، مع الإشعار بإيقاع الوَصْف على كلِّ فرد منها

﴿كُلُّ﴾: اسمٌ يفيد الاستغراقَ والإحاطة بالأفراد والأجزاء، وهو هنا يفيد استغراق جميع الأنفس، حيثُ لا تشذُّ نفسٌ عن المعنى الموصوف والمُتحَدَّث عنه، وقد جيء بلفظ ﴿كُلُّ﴾ متبوعًا بلفظ ﴿نَفْسٍ﴾ نكرة؛ ليُفيد النَّظمُ أنَّ كلَّ نفسٍ تجدُ على انفراد ما قدَّمت من أعمال، وتُحاسبُ منفردة وتتحمَّلُ مسؤوليَّة أعمالها منفردة، ولو قيل: (الأنفسُ كلُّها) لما أفهم هذا التَّعبيرُ المسؤوليَّة الفرديَّة مثل المعنى الواضح الجليِّ الَّذي جاء عليه النَّظم الجليل.

(1) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، تح: التركي: 5/98.

بلاغة المجاز العقليّ في توصيف دواخل الإنسان:

كـلُّ امـرئ بما كسب رهين

قوله: ﴿يَوۡمَ تَجِدُ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا عَمِلَتۡ﴾ فيه تشخيص للنَّفس وللعمل، فالنَّفس تعبيرٌ عن دواخل الإنسان، وقد جيء في الآية بالنَّفس، وما اختارته هي من الخير أو السُّوء، فذُكِرت النَّفسُ باعتبارها الشَّخصَ صاحبَ النَّفس الَّذي أفلح؛ إن زكَّاها، وخاب؛ إن دسَّاها، فالمعنى هنا يرتبط بِمَعْنَيَين مجازيَّين: أوَّلهما: أنَّه أطلق النَّفس، وأراد صاحب النّفس؛ لأنَّ النَّفس هي صاحبة القرار والاختيار، فالتَّعبيرُ من قبيل المجاز العقليِّ، علاقته الحاليَّة، وثانيهما: أطلق العمل على أنَّه من مُنجزات تلك النَّفس، وما اقترفت، وهذا من قبيل المجاز العقليِّ أيضًا.

دلالة استعارة لفظ ﴿مُّحۡضَرٗا﴾ في التَّعبير عن أثر الأعمال:

تـصـويـر جـزاء الأعـمـال في صـورة الـشَّيءِ المـشـهـود المُـحـضـر، فلا مجال للإنكار

الإحضارُ: جَعْلُ الشَّيْءِ حَاضِرًا، ويُطْلَقُ على الْإِعْدَادِ، وَمَا أَحْضَرَتْهُ النَّفس: هُوَ مَا أَسْلَفَتْهُ مِنَ الْأَعْمَالِ وقدَّمته، والعمل لا يمكن وجدانه يوم القيامة على الحقيقة، فلا بدَّ فيه من التَّأويل، فقد يكون وجُود العمل مُحْضَرًا، أي: مكتوبًا في الكتاب[1]، فتجد كلُّ نفسٍ صحائف أعمالها منشورة، وهو قوله تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا نَسۡتَنسِخُ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٢٩﴾ [الجاثية: 29]، وقوله: ﴿يَوۡمَ يَبۡعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعٗا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْۚ أَحۡصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُۚ﴾ [المجادلة: 6][2]، وحينَ يجدُ المرءُ صحائف أعماله ويقرأُ ما فيها، فإنَّه يستحضرُ الأعمال الَّتي عملها في الدُّنيا، ويتذكَّرُها، ويراها شاخصة حاضرة بين يديه، والتَّعبيرُ من قبيل المجاز اللُّغويِّ على طريقة الاستعارة التَّصريحيَّة، أي: إنَّه لَمَّا كَانَتِ الْأَعْمَالُ تَظْهَرُ آثَارُهَا مِنْ ثَوَابٍ وَعِقَابٍ يَوْمَئِذٍ؛ عُبِّرَ عَنْ ظُهُورِ آثارها بالإحضار لشبهه بِهِ، كَمَا يُحْضَرُ الزَّادُ لِلْمُسَافِرِ، فهو استعارة عن

(1) ابن الجوزي، زاد المسير: 1/273.
(2) الرّازي، مفاتيح الغيب: 8/14.

أثر ظهور الأعمال، فما عَمِلَتْ النُّفوس في الدُّنيا مِنْ خَيْرٍ - وإن كان مثقال ذرَّة - يكونُ مُحْضَرًا لديها مُشاهدًا في الصُّحف[1].

وقد يكون إحضار العمل بمعنى: وجود الجزاء عليه[2]، فيجد جزاء الأعمال، وعلى كلا الوجهين، فالتَّرغيبُ والتَّرهيبُ حاصلٌ[3].

سِرُّ إيثار التَّعبيرِ باسم المفعول ﴿مُّحْضَرًا﴾ بدل اسم الفاعل (حَاضِرًا):

في إحضار الأعمال أمام كاسبها تبكيتٌ وتهويل

في قوله تعالى: ﴿مُّحْضَرًا﴾، من التَّهويل ما ليس في (حاضِرًا)، فإنَّ الإحضار إنَّما يَتِمُّ فيما هو موجود غائب، والأعمال موجودة محفوظة عن البطلان، يُحْضِرُها اللّٰه تعالى لخلقه يوم القيامة، لا حافظ لها إلّا اللّٰه سبحانه[4].

فائدة اختلاف معنى الواو في قوله: ﴿وَمَا عَمِلَتْ﴾:

العطف للاشتراك في الحكم، والاستئناف للتَّفريق بَيْنَ الوعد والوعيد

الواوُ في قولِهِ: ﴿وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ﴾ فيه قولان:

الأوَّل: وهو قول أبي مسلم الأصفهانيِّ: الواوُ: واوُ العطفِ، فيكونُ قولُهُ: ﴿مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ﴾ مفعولًا للفعل ﴿تَجِدُ﴾، ﴿وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ﴾ معطوفٌ عليهِ، كأنَّهُ قيل: وما عملت من سوءٍ محضرًا[5]، فيكونُ الخبران موصولَين بالواو، ويكون التَّقدير: تجدُ ما عملت من خير، وتجدُ ما عملت من سوء[6].

والقول الثَّاني: أنَّ الواو للاستئناف النَّحوي، فلا تكون الآية دليلًا على القطع بوعيد المذنبين؛ لأنَّه نصَّ في جانب الثَّواب على كونه مُحضرًا، وأمَّا في جانب العقاب؛ فلم ينصَّ على الإحضار، بل ذكر أنَّهم يودُّون الفرار منه، والبعد عنه، وذلك يُومئُ إلى أنَّ جانب

(1) ابن عاشور: التَّحرير والتَّنوير: 30/151، الآلوسي: روح المعاني: 2/122.
(2) ابن الجوزي، زاد المسير: 1/273.
(3) الرّازي، مفاتيح الغيب: 8/14.
(4) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 30/151، الآلوسي: روح المعاني: 2/122.
(5) الراغب، تفسير الرّاغب: 2/515 - 516.
(6) الرّازي، مفاتيح الغيب: 8/15.

الوعد أولى بالوقوع من جانب الوعيد[1]، وهذا من عظيم كرم اللّٰه تعالى ورأفته بعباده، فناسب أن يُختم بقوله: ﴿وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلۡعِبَادِ﴾.

دلالة التَّمنِّي في قوله: ﴿تَوَدُّ لَوۡ أَنَّ بَيۡنَهَا وَبَيۡنَهُۥٓ أَمَدَۢا بَعِيدٗاۗ﴾:

الأمد: الغاية الَّتي ينتهي إليها، ونظيره قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰلَيۡتَ بَيۡنِي وَبَيۡنَكَ بُعۡدَ ٱلۡمَشۡرِقَيۡنِ فَبِئۡسَ ٱلۡقَرِينُ ٣٨﴾ [الزُّخرف: 38]، والمراد من هذا التَّمنِّي معلوم، سواء حُمِلَ لفظ الأمد على الزَّمان أو على المكان؛ إذ المقصود تمنِّي بُعده[2]، وقد خرج هذا التَّمنِّي إلى غرض التَّحسُّر المرافق له الَّذي يكشف عن تعقيد خلجات النَّفس في ذلك المشهد العظيم المُروِّع، فمهما كان ذلك السُّوء صغيرًا وحقيرًا - والذي يَدُلُّ عليه تنكير ﴿سُوٓءٖ﴾ - فإنَّ الموقف نفسه لا ينفكُّ عن تلك النَّفس: أنَّها تتمنَّى زوال أثر ذلك السُّوء عنها، وهي تعلم أن لا مناصَ إلى ذلك، فتلجأُ إلى تمنِّي خروجه عن دائرة الوجود الذِّهني، فتدفع به عنها إلى أمد بعيد؛ إذ يُرجى ألَّا تلقاه أبدًا، فَتَهدأ، وتَسْعَد بذلك.

في يوم القيامة، يتحسَّرُ المرءُ على السُّوء قليله وكثيره

سِرُّ الكناية الزَّمنيَّة في قوله: ﴿أَمَدَۢا بَعِيدٗاۗ﴾:

الأمد زمانيٌّ بقرينة ﴿يَوۡمَ﴾، والمقياس المُرشِّح لقوله: ﴿لَوۡ أَنَّ بَيۡنَهَا وَبَيۡنَهُۥٓ﴾ هو الزَّمن، أي: بين النَّفس وبين ذلك اليوم: ﴿أَمَدَۢا بَعِيدٗاۗ﴾، والمقصود لازمه، وهو عدم رؤيته لغاية هوله، وفي إسناد الوَدادة إلى كلِّ نفسٍ، سواءٌ كان لها عمل سيِّئ أم لا، بل كانت متمحِّضةً في الخير - من الدَّلالةِ عَلى كمالِ فظاعةِ ذلك اليوم، وهول مطلعِه ما لا يخفى[3]، وذكر أبو حيَّان النَّحوي: معنى ﴿أَمَدَۢا بَعِيدٗاۗ﴾: "غاية طويلة، وقيل: مقدار أجله، فدلَّ بذلك على الزَّمان الطَّويل"[4].

كلُّ النُّفوسِ ترغبُ عدم رؤية ذلك اليوم لفظاعته وهول مطلعِه

(1) الرّازي، مفاتيح الغيب: 8/15.
(2) الرّازي، مفاتيح الغيب: 8/16.
(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/24.
(4) أبو حيان، البحر المحيط: 3/102.

بلاغة المقابلة بين الخير والسُّوء:

كشف الفروق بين العمل الصَّالح والعمل السِّيِّئ للتَّذكير والاعتبار

في الآية الكريمة مقابلة رائعةٌ بين الخير وإحضاره، والسُّوء وتمنِّي بُعده، والضّمير في قوله: ﴿وَبَيْنَهُۥ﴾ يعود إلى ما عملت من السُّوء، ولعلَّ من فوائد هذه المقابلة: أنَّه لمَّا ذُكِرَ الخيرُ؛ لم يظهر فرح النَّفس به، وأنَّه لمّا ذُكِرَ السُّوء؛ أدار الاهتمام كلَّه نحوه، وقال: ﴿تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًا بَعِيدًا﴾، ودلالة ذلك: أنَّ السُّوء من الأعمال مهما صَغُرَ في ذلك الموقف؛ فإنَّه خِزْيٌ على صاحبه، وندامة، وسيكون يومها هو الشَّاغل الوحيد لها.

في يوم القيامة، النَّفسُ المحسنة تستعجلُ جزاء ما قدَّمت، والنَّفس المسيئة تنفرُ من السُّوء، وتودُّ بعده وعدم رؤيته

في العبارتين المتقابلتين: ﴿مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا﴾، و﴿مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًا بَعِيدًا﴾، يُلحَظ الانسجامُ بين النَّظم والمعنى، وكأنّ النَّظم يُصوِّرُ ذلك التَّقابل بانتظام الكلمات فضلًا عن معناها؛ إذ نلحظ أنَّ في قوله: ﴿خَيْرٍ مُّحْضَرًا﴾ ذلك الإيجاز في وصف الحدث في كلمتين متآخيتين لا يفصل بينهما لفظ أو حرف، فيدلُّ على الخفَّة والسُّرعة في طلب الجزاء على الخير واستعجال النَّفس لذلك، فجاء رصفُ الكلمتين تلبيةً لرغبتها، بينما نجد الطَّرف الآخر من المقابلة المتحدِّث عن جانب الأعمال السَّيِّئة، جاء فيه تفصيلٌ وإسهابٌ حيث جاءت الجملة في ثماني كلماتٍ إمعانًا في وصف حالة النَّفس، ثُمَّ إنَّه فَصَلَ بين ﴿سُوٓءٍ﴾ و﴿أَمَدًا بَعِيدًا﴾، بخمس كلمات من نظم الآية، ولا يخفى أنَّ هذا الفصل يُشيرُ إلى مدى رغبة النَّفس أن تكون المسافة بينها وبين عملها السَّيِّئ بعيدة جدًّا، وهذا من انسجام النَّظم مع المعنى في طرفي المقابلة.

تَجَدُّدُ الطَّلب للخير واستقرار النَّفس بحضوره، واستمرار الحسرة بالسُّوء بعد وقوعه

بلاغة التَّعاقُبِ والتَّناوب بين المضارع والماضي في الآية الكريمة:

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا﴾ عبَّر بالفعل المضارع ﴿تَجِدُ﴾، ثُمَّ بالماضي ﴿عَمِلَتْ﴾؛ ليدلَّ ذلك على تجدُّد الطَّلب لتلك الأعمال في النَّفس، ثُمَّ تستقرُّ، وتطمئنُّ لحضور

ما عملت من الخير، فتُطوى معه صفحة الهموم، وتبدأ الحياة المستقرَّة في جنان الخلد.

أمَّا في قوله: ﴿وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا﴾؛ فعبَّر بالفعل الماضي، ثمَّ المضارع في وصف حال النَّفس مع ما عملت من سوءٍ؛ إذ لم يكن في حسبانها شيء، فلمَّا أُحضِرَ عمل السُّوء؛ أورد على خاطرها اضطراب الحال، بل هي في اضطراب متجدِّد، فلا يهدأ لها بالٌ إلَّا أن تطمئنَّ أن يكون بينها وبين سوء أعمالها أمدٌ بعيدٌ لا ينقضي من الزَّمان أو المكان.

فائدة التَّحذير بعد الوعيد والتَّهديد:

الوعظ والزَّجر تأكيد للوعيد ومبالغة في التَّهديد

قوله: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾، أسلوبٌ من أساليب التَّحذير، ومخرجه الوعظ والزَّجر[1]؛ لتأكيد الوعيد[2]، ويجوز أن يكون الكلامُ تكريرًا للتَّحذير الأوَّل الوارد في قوله تعالى: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨﴾﴾ [آل عمران: 28]، لزيادة تقرير هذا المعنى، ويجوز أن يكون الأوَّلُ تحذيرًا من موالاة الكافرين، والثَّاني تحذيرًا من أن يجدوا يوم القيامة ما عملوا من سوء مُحْضَرًا[3].

سرُّ التَّذييل بذكر الرَّأفة بعد التَّحذير والوعيد:

التَّذكير بأنَّ التَّحذير لمصلحة العباد حالًا ومآلًا

قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ تذييلٌ جاء بعد التَّحذير على عادة النَّظم القرآنيِّ في الجمع بين التَّرغيب والتَّرهيب؛ حيث بَيَّن سبحانه أنَّه ذو مغفرة وذو عقاب أليم، لتُرجى رحمتُه، ويُخشى عذابُه[4].

---

(1) ابن حمدون، التذكرة الحمدونيَّة: 5/222.
(2) الرّازي، مفاتيح الغيب: 8/16.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/224.
(4) البيضاوي، أنوار التّنزيل: 2/13.

وذيَّلَ بِذِكْرِ الرَّأفة أيضًا للتَّذكير بأنَّ هذا التَّحذير هو لمصلحة المُحَذَّرين[1]، فأشار إلى أنَّه تعالى نهاهم، وحذَّرهم رأفةً بهم، والرّأفة هي أشدُّ الرَّحمة[2]، ومُراعاةً لصلاحهم، ومن آكد الرَّحمة والرَّأفة رأفتُه سبحانه بعباده المؤمنين، فكان المعنى: أنَّه لمَّا ذكر وعيد الكفَّار والفسَّاق؛ ذكر وعد أهل الطَّاعة، فقال: ﴿وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلۡعِبَادِ﴾، أي: كما هو منتقمٌ من الفسّاق، فهو رؤوف بالمطيعين والمحسنين[3].

بديعُ اللَّفِّ والنِّشرِ غيرِ المرتَّب:

حصر سوء العمل بين خيرين؛ ليُعْلم أنَّ رحمة الله تسبق غضبَه

في قوله تعالى: ﴿يَوۡمَ تَجِدُ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا عَمِلَتۡ مِنۡ خَيۡرٖ مُّحۡضَرٗا وَمَا عَمِلَتۡ مِن سُوٓءٖ﴾ لفٌّ يُصوِّر عملَ النَّفس خَيْرَه وشَرَّه، وقوله تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥۗ وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلۡعِبَادِ﴾ نشرٌ يتضمَّن تحذيرًا لعباده، ورأفةً منه سبحانه، فحذّرهم من ارتكاب المعاصي، بعد أن صوَّر المشهد وخطورته، وما قد أصاب الإنسان من رُعْبِ اللِّقاء بسيِّئاته، ثُمَّ أبان عن فائق رحمته سبحانه؛ تشجيعًا للخير من الأعمال، فكان اللَّفُّ بعكس النَّشر.

ومن فوائد اللّفِّ والنَّشر غير المُرتَّب أنَّه: حصر سوء العمل بين خيرين: خير العمل، وخير الرَّحمة والرَّأفة من الله تعالى، مِمَّا يبثُّ التَّفاؤل في نفوس المتلقِّين من المؤمنين، وليُعلم أنَّ رحمة الله - سبحانه - سابقةٌ وغالبةٌ على عذابه ونقمته.

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الأمد الغاية والمُدَّة، وقد تَنْحَصِرُ، والأبد المُدَّةُ المطلقة الَّتي لاحدَّ لها

الأبد والأمد:

الأمد: الغاية، تقول: بَلَغَ أَمَدَهُ، أي: غايتَه، والأمد والأبَد مُتقاربان لكنَّ الأبد عبارةٌ عن مُدَّةِ الزَّمان الَّتي لا حدَّ لها، ولا تَتَقَيَّد، يُقال:

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/224.
(2) المُبرِّد، الكامل: 2/105.
(3) الرّازي، مفاتيح الغيب: 8/16.

أبد الآبدين، مَعْنَاهُ: دهر الدَّاهرين، وعصر البَاقِينَ، أَي: يبقي مَا بَقِي دهر وداهِرٌ[1]، ولا يُقال: أَبَد كذا.

والأمد: مُدَّةٌ لها حدٌّ مجهول؛ إذا أُطْلِقَ، وقد ينحصر، فيُقال: أَمَدُ كذا، كما يُقال: زمن كذا، فالأمد: يُقال باعتبار الغاية[2].

(1) الراغب، المفردات، والسمين، عمدة الحفاظ: (أمد)، والكفويُّ: الكليات، ص: 32.

(2) المناويُّ، التَّوقيفُ على مُهِمَّاتِ التَّعاريفِ، ص: 61.

﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾﴾ [آل عمران: 31]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

بعد أن خُتمت الآية السَّابقة برأفة اللّه بعباده بقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾؛ انتقل الخطاب إلى التَّشويقِ بحبِّ اللّه، والاحتكام إلى شرعه، واتِّباعه، فبيّن للمخاطبين جميعهم أنَّ السَّبيل إلى ذلك لا يكون إلَّا باتِّباع نبيِّه ﷺ ولا سبيلَ غيرُه إلى حبِّ اللّه[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَٱتَّبِعُونِى﴾: الجذر (تَبع) أَصْلٌ وَاحِدٌ لَا يَشِذُّ عَنْهُ مِنَ الْبَابِ شَيْءٌ، وَهُوَ التُّلُوُّ وَالْقَفْوُ، يُقَالُ: تَبِعْتُ فُلَانًا؛ إِذَا تَلَوْتَهُ وَاتَّبَعْتَهُ، وَأَتْبَعْتُهُ؛ إِذَا لَحِقْتَهُ، وَالْأَصْلُ وَاحِدٌ.

والمعنى المحوريُّ: هو لُحُوق الشَّيء بمتقدِّم أو سابقٍ بلا فَصْل مع رقَّة ولين، وقد يكون الاتِّباع حسِّيًّا كمن يتَّبعُ خطوات وعلامات محدَّدة، وقد يكون معنويًّا مثل: اتَّبَع القرآنَ، أي: ائتمَّ به، وعَمِل بما فيه، كأنَّ القرآن أمَامه، وهو يَتْبعه، ويَتَهيَّأ بهيئته الَّتي يرسُمها، كقوله تعالى: ﴿ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [الأعراف: 3]، ﴿فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [البقرة: 38]، ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا﴾ [الجاثية: 18].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

يروى في سَبَب نزُول هَذِه الْآيَة ثلاثةُ أقوال:

صدق اتِّباع النَّبيِّ ﷺ من دعوى المحبَّة

أَحدها: أَنَّه خطاب للْيَهُود وَالنَّصَارَى من وَفد نَجْرَان، وَذَلِكَ أَنَّهم قَالُوا: ﴿نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾ [المائدة: 18]، فَنزل قَوْله: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾.

وَالثَّانِي: أَنَّه خطاب لمشركي قُرَيْش، فَإِنَّهُ رَآهُمْ يعْبدُونَ الْأَصْنَام، فَقَالَ لَهُم: خالفتم مِلَّة أبيكم إِبْرَاهِيم، فَقَالُوا: إِنَّمَا نعبدهم تقرُّبًا

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 4/332.

إِلَى اللّه، فَإِنَّا نحبُّه؛ فَنزل قَوْله تَعَالَى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾[1].

والثَّالث: أنَّ الخطابَ لأقوام كانوا على عهد النَّبيِّ ﷺ فعن الحسن قال: قال أقوام على عهد رسول اللّه ﷺ: يا محمَّد؛ إنَّا لنحبُّ ربَّنا، فأنزل اللّه - ﷻ - بذلك قرآنًا: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾، فجعل اللّه اتِّباع نبيِّه محمَّد ﷺ علمًا لحبِّه[2].

والمعنى: قل أيُّها الرَّسول لقومك ولجميع الناس: إن كنتم تحبُّون اللّه حقًّا؛ فاتَّبعوني، وآمنوا بي ظاهرًا وباطنًا؛ إذ السَّبيلُ الوحيدُ للوصول إلى حبِّ اللّه ورضاه: هو اتِّباعي، واتِّباعُ ما أُرسِلْتُ به من عند اللّه، وإنَّكم إن اتَّبعتموني؛ يُحْبِبكم اللّه، ويَمْحُ ذنوبكم، ويكنْ ذلك سببًا لمغفرة ذنوبكم؛ لأنَّ اللّه تعالى غفور لذنوب عباده، رحيمٌ بهم.

وهذه الآية الكريمة حاكمةٌ على كلِّ من ادَّعى محبَّةَ اللّه تعالى، وليس مُتَّبِعًا لنبيِّه محمَّد ﷺ حقَّ الاتِّباع، مطيعًا له في أمره ونهيه، فإنَّه كاذب في دعواه حتَّى يتابعَ الرَّسولَ ﷺ حقَّ الاتِّباع[3].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالة الشَّرط وجوابه:

اتِّباعُ الرَّسول هو معيارُ محبَّة الله تعالى

تعليق محبَّة اللّه إيَّاهم على ﴿فَٱتَّبِعُونِى﴾ ينتظم منه قياسٌ شرطيٌّ اقترانيٌّ، ويدلُّ على الحبِّ المزعوم؛ إذا لم يكن معه اتِّباع الرَّسول، فهو حبٌّ كاذب[4]، ولفظ الآية يعمُّ كلَّ من ادَّعى محبَّة اللّه[5]، فالطَّريق الموصل إلى رضاه تعالى إنَّما هو مستفاد من نبيِّه ﷺ فإنَّه هو المبيِّن عن اللّه تعالى؛ إذ لا يهتدي العقل إلى معرفة

(1) السّمعاني، تفسير السّمعاني: 1/310.
(2) رواه الطبري، جامع البيان: 3/155.
(3) السّمعاني، تفسير السّمعاني: 1/310، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 2/32، ونخبة من العلماء، التفسير الميسر، ص: 54.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/225.
(5) أبو حيان، البحر المحيط: 3/103.

أحكام اللّه في العبادات ولا في غيرها، بل رسوله ﷺ هو الموضِّح لذلك، فكان اتِّباعه فيما أتى به احتماءً لمن يحبُّ أن يعمل بطاعة اللّه تعالى[1].

ولمّا كان الخطاب - بحسب النُّزول - موجَّهًا إلى نصارى نجران أو بعض أحبار اليهود؛ فأمكن أن يكون بعدها لكلِّ أحدٍ يدَّعي محبَّة اللّه من المسلمين أو من غيرهم، فيقال له: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾، فيصير التَّعبير كالمثل السائر الَّذي يقال في مواقف مشابهة لما قيل فيه أصلًا، قال بعضُ الحكماءِ: "ليس الشَّأنُ أن تُحِبَّ، إنَّما الشَّأنُ أن تُحَبَّ"، وقال الحسنُ البصريُّ: "زعم قومٌ أنَّهم يحبُّون اللّه، فابتلاهم اللّه بهذه الآيةِ، فقال: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾"[2].

دلالة تكرارِ اسم الجَلالة ﴿ٱللَّهُ﴾ في مَقامي الحبِّ:

التَّلذُّذ بذكر اسم اللّه من أعظم دلالات الحبِّ للّه سبحانه

ادَّعى نصارى نجران أو بعض أحبار اليهود أنَّهم يحبُّون اللّه تعالى، وكانوا يظهرون الرَّغبة في أن يحبَّهم اللّه تعالى، فنزلت الآية فيهم، وورد ذكر الاسم الجليل ﴿ٱللَّهُ﴾ في قوله: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى﴾، ثُمَّ أتبعها بقوله: ﴿يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾، فتكرَّر ذكره في موضع الإضمار؛ لأنَّ اللّه هو المألوه الَّذي تألهه القلوب، وتتعلَّق به محبَّةً وتعظيمًا وإجلالًا وإنابةً[3]، وهو - سبحانه وتعالى - يحبُّ كلَّ من أطاعه.

ثم إنَّه ليس في متابعة الرَّسول إلَّا أنَّه دعاكم إلى طاعة اللّه تعالى وتعظيمه وترك تعظيم غيره، ومن أحبَّ اللّه؛ كان راغبًا فيه؛ لأنَّ المحبَّة توجب الإقبال بالكلِّيَّة على المحبوب والإعراض بالكلِّيَّة عن غير المحبوب[4]؛ لذا حَسُنَ التَّكرار تلذُّذًا بِذِكْرِ الاسم الجليل في مقام الحُبِّ وموجباته.

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 3/103.
(2) ابن كثير: تفسير ابن كثير: 2/32.
(3) ابن القيِّم، مدارج السالكين: 3/27.
(4) الرّازي، مفاتيح الغيب: 8/17.

جمال التَّذييل بقوله: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾:

الـسَّـعـي لتحصيل أسباب المغفرة والرَّحمة

قوله: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ لمن تحبَّب إليه بطاعته واتِّباع نبيِّه[1] -ﷺ- ولم يُذكر متعلَّق الصِّفتين؛ ليكون النَّاس ساعين في تحصيل أسباب المغفرة والرَّحمة[2]، فيكون معنى قوله: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، أي: لمن يتحبَّب إليه بطاعته، ويتقرّب إليه باتِّباع نبيِّه ﷺ فهو تذييلٌ مقرِّرٌ لمَا قبلَهُ، مع زيادة وعد الرَّحمةِ، ووضعُ الاسمِ الجليلِ موضعَ الضَّمير، للإشعار باستتباع وصفِ الألوهيَّة للمغفرة والرَّحمة[3].

(1) البيضاوي، أنوار التّنزيل: 2/13.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/228.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/25.

﴿قُلۡ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَۖ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٣٢﴾ [آل عمران: 32]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لمَّا نزل قوله: ﴿قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ﴾ الآية؛ قال عبد الله بن أُبيٍّ: إنَّ محمَّدًا يجعل طاعته كطاعة الله، ويأمرنا أنْ نُحبَّه، كما أحبَّت النَّصارى عيسى، فنزلت هذه الآية، وتحقيق الكلام في المناسبة أن يقال: إنَّ الآية الأولى لمَّا اقتضت وجوب متابعة الرَّسول ﷺ ثُمّ إنَّ المنافق ألقى شبهةً في الدِّين، وهي أنَّ محمَّدًا يدَّعي لنفسه ما يقوله النَّصارى في عيسى عليه السلام؛ ذكر الله تعالى هذه الآية إزالةً لتلك الشُّبهة، فقال: ﴿قُلۡ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَۖ﴾[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَطِيعُواْ﴾: (طَوَع) أَصْلٌ صَحِيحٌ وَاحِدٌ يَدُلُّ عَلَى الْإِصْحَابِ وَالِانْقِيَادِ، يُقَالُ: طَاعَهُ يَطُوعُهُ؛ إِذَا انْقَادَ مَعَهُ، وَمَضَى لِأَمْرِهِ، ومن مضَى في أمرك؛ فقد أطاعك، وإذا وافقك؛ فقد طاوعك.

وَالْعَرَبُ تَقُولُ: تَطَاوَعْ لِهَذَا الْأَمْرِ؛ حَتَّى تَسْتَطِيعَهُ، وناقةٌ طَوْعُ القِياد وطَوعَتُه وطَيِّعته: ليِّنته، لا تنازِعُ قائدَها.

والطَّاعة: اسمٌ لما يكون مصدره الإطاعة، وهو الانقياد، وكلُّ ما في القرآن من هذا التَّركيب هو بمعنى: اللِّين والانقياد، وما يؤخذ منهما: كالاستطاعة، والتَّطوُّع[2].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

بعد أن خاطب رسولُ الله ﷺ النّاسَ جميعًا، ويدخلُ في المخاطَبين قريشٌ وأهلُ الكتاب دخولًا أوَّليًّا، وطلبَ إليهم اتِّباعه شرطًا لحبِّ الله لهم؛ أكَّد أنَّ سبب الحُبِّ هو الطَّاعةُ

(1) الرّازي، مفاتيح الغيب: 8/17.

(2) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (طوع).

لله ورسوله، وأكَّده بالتَّكرار ليَقرن بها ضدَّه، فقال لهم: أطيعوا الله باتِّباع كتابه، وأطيعوا الرَّسول باتِّباع سُنَّته في حياته وبعد مماته، فإنْ هم أعرضوا عنك، وأصرُّوا على ما هم عليه مِن كفر وضلالٍ، فليسوا أهلًا لمحبَّةِ الله؛ فإنَّ الله لا يحبُّ الكافرين؛ لأنَّه تعالى إنَّما أوجب الثَّناءَ والمدحَ لمن أطاعه، وأوجبَ الذِّلَّةَ والإهانةَ لمن كفر، فالإعراضُ عن النَّبيِّ ﷺ هو سببُ الحرمانِ من حبِّ اللهِ، على طريقة القرآن وأسلوبه في تقرير الشَّيء بسَلْبِ ضدِّه[1].

الإعـــراضُ عن النَّبيِّ ﷺ سببُ الـحـرمـانِ من حبِّ اللهِ

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالة إيثار الإظهار على الإضمار:

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ﴾، أي: في جميع الأوامرِ والنَّواهي، فيدخلُ في ذلك الطَّاعة في أتباعِه ﷺ وإيثارُ الإظهار على الإضمار بطريق الالتفات؛ إذ ذكر في الآي السَّابقة قوله: ﴿فَٱتَّبِعُونِى﴾ بصيغة المُتكلِّم، وذُكِرَ هُنا: ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ﴾ بصيغة الغائب، فتحقَّقَ الالتفات، وأفاد تعيين حيثيَّة الإطاعة، والإشعار بعلّتها، فإنَّ الإطاعة المأمورَ بها سببُها أنَّه رسولُ الله، ولا ريبَ في أنَّ عنوان الرِّسالة من موجبات الإطاعةِ ودواعيها[2]، وفيه إشارة إلى ردِّ شبهة المنافق كأنَّه يقول: إنَّما أوجب الله تعالى عليكم مُتابعتي لا لِما يقول النَّصارى في عيسى، بل لكوني رسولَ الله[3]، فنبَّه في هذا الالتفات إلى مسألتين: أنَّ واجب إطاعتي كوني رسولًا من عند الله، وأنَّ عيسى كان رسولًا من قبلي، فبالغتُم فيه.

التَّـنـبـيـه على عنوان الرِّسالة المُوجِبِ للطَّاعة

دلالة الفعل ﴿تَوَلَّوْاْ﴾ بين صيغتي المضارع والماضي:

قوله: ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ﴾ يحتمل المضيَّ، والمضارعة، بمعنى: فإنْ تتولَّوا

(1) الرّازي، مفاتيح الغيب: 8/17، والموصلي، أولى ما قيل: 2/463، ونخبة من العلماء، التفسير الميسر، ص: 56.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/25.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 2/126.

المضارع من تمام ما يُقال لهم، والماضي توطئة للحُكْمِ عليهم

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾[1]، فصيغة المضارع تكون من تمام مقولِ القول، فهي صيغة المضارعِ المخاطَب، بحذف إحدى التَّاءين، وأصله: تتولَّوا، وفي صيغة المضارع معنى: التَّجدُّد، ممَّا يفيد اعتماد القول لمن يوافق قولُه وعملُه أقوالَ مَن نزلت فيهم الآية وأعمالَهم[2].

وإمّا كلام متفرِّعٌ عليه، مَسوقٌ من قِبَلِ الله تعالى؛ فهي صيغةُ الماضي الغائب، فالمعنى: فإن تولَّوا عمَّا أُمروا به من اتِّباعه وطاعته، فإنّ الله لا يحبُّ من كان كافرًا، فجعل من لم يتَّبعه، ولم يطعه كافرًا[3].

تقييد انتفاء المحبَّة مع وصف الكفر:

طاعة الله والرَّسول هي الفيصل بين الإيمان والكُفر

قوله: ﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ نفي للمحبَّة، وهو يستلزم بُغْضَهُ تعالى لهم وسُخْطَهُ عليهم، أي: لا يرضى عنهم، ولا يثني عليهم.

وإيثارُ الإظهارِ على الإضمار؛ لتعميم الحُكمِ لكلِّ الكفَرَة، والإشعار بعلَّته، فإنَّ سخطه تعالى عليهم؛ بسبب كفرهم، وفيه إيذان بأنَّ محبَّته ﷻ مخصوصة بالمؤمنين[4]؛ ولذا أُكِّدَ هذا الحكم بمؤكِّدَين: هما ﴿فَإِنَّ﴾ وتكرار الاسم الأحسن ﴿ٱللَّهَ﴾، مع ما في هذا الحكم المُؤَكَّد من التَّقريع والتَّرهيب.

فمن تولَّى عن الطَّاعة؛ فقد خرج عن دائرة التَّحبُّب إليه سبحانه، ومن لم يتحبَّب إليه بطاعته؛ فهو لا يحبُّه بإثابته، والكافر غير متحبَّب إليه بتولِّيه عنه، فمحال أن يحبَّه، فصار تقديره: إنَّكم إذا كفرتم بالإعراض عنه وعن رسوله؛ فإنَّه لا يحبُّكم، وفي ذلك إبطال دعواهم، حيث قالوا: ﴿نَحۡنُ أَبۡنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥۚ﴾[5]، وتقييد

(1) البيضاوي، أنوار التَّنزيل: 2/13.
(2) إسماعيل حَقّي، روح البيان: 2/23.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/104.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/25.
(5) الراغب، تفسير الرّاغب: 2/520 - 521.

انتفاء محبَّة الله بهذا الوصف - الَّذي هو الكفر - مُشعِرٌ بالعلِّيَّة، فالمؤمن العاصي لا يندرج في ذلك[1].

دلالة تكرار الاسم الأحسن المرَّة بعد الأخرى:

الإشـــارة إلى تعظيم محبَّة الله بعد الإشارة إلى تعظيم أمره

ذِكْرُ لفظ الجلالة في موضع الإضمار في قوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾، هو من قبيل التَّكرار الذي غرضُهُ التَّعظيمُ وتربيةُ المهابة، وجرى ذلك على عَادَة العَرَب، فَمن عَادَتهم: أَنَّهم إِذا عظَّموا شَيْئًا؛ كرَّروا ذِكره، وَأَنْشد سِيبَوَيْه في مثل ذَلِك قائلًا:

لا أرى المَوْتَ يَسْبِقُ المَوْتَ شَيْءٌ *** نغَّص المَوْتُ ذا الغِنى والفقيرا[2].

الفَذْلَكَةُ وبلاغتها في بناء الرَّوابط مع الآيات السَّابقة:

بـيـان جـمـال الإجـمـال بذكر المـوعـظـة بعد المُـحـاجـجـة والتَّرهيب

ذكرَ ابن عاشور أنَّ هذا التّعبير من قبيل الفذلكة[3] والإجمال في أسلوب القرآن في الموعظة، من مطلع آل عمران إلى هذه الآية، حيث ابتدأ بمحاجَجَة الكفَّار بقوله: ﴿فَإِنْ حَآجُّوكَ﴾ [آل عمران: 20] الآية، ثُمّ بترهيبٍ بغير استدلالٍ صريحٍ، ولكن بالإيماء إلى الدَّليل، وذلك قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ [آل عمران: 21]، ثُمَّ أمر بالقطيعة مع الكافرين في قوله: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ﴾ [آل عمران: 28]، ثُمَّ انتقل إلى طريقة التّرغيب في قوله: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ﴾، وختم بذكر عدم محبَّة الكافرين، فقال: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾؛ ردًّا للعَجُز على الصَّدرِ المُتقدِّم، في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ﴾ [آل عمران: 10] الآية، ليكون نفيُ المحبَّة عن جميع الكافرين نفيًا عن هؤلاء الكافرين المعيَّنين[4].

---

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/104.

(2) السّمعاني، تفسير السّمعاني: 1/311.

(3) الفذلكة: هي كلمة تأتي بمعنى: خلاصة أو مجمل ما قد ذكر بالتفصيل، وهي مشتقَّة من الفعل العربي (فَذْلَكَ) وهي من قول الحاسب، وإذا أجمل حسابه، فَذَلكَ كذا وكذا: إشارة إلى حاصل الحساب ونتيجته، قال الشِّهاب الخفاجي: الفذلكة: جملة عدد قد فُصِّلَ، وبجانب هذا الاستعمال الرياضياتي: فإنَّ الكلمة تستعمل للإشارة إلى المختصرات اللُّغويَّة عمومًا، وهو مستعمل كأحد فنون نسج الكلام وبلاغته، وقد تميَّز ابن عاشور في تفسيره بإيراد هذا الفنّ. الخَفاجي: عناية القاضي: 1/386، وابن عاشور: التَّحرير والتَّنوير: 2/228.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/229.

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحٗا وَءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمۡرَٰنَ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ٣٣ ﴾ [آل عمران: 33]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا بيَّن اللّه تعالى أنَّ الدِّين المرضيَّ عنده هو الإسلامُ والتَّوحيدُ، وأنَّ اختلاف أهل الكتابين فيه إنَّما هو للبغي والحسد، وأنَّ الفوز برضوانه ومغفرته ورحمته منوط باتِّباع الرَّسول ﷺ وطاعته؛ شرَعَ في تحقيق رسالته، وكونِه من أهل بيت النُّبوَّة القديمةِ[1]، فقال تعالى: ﴿*إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحٗا وَءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمۡرَٰنَ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، وبيّن أنَّ طاعة الرَّسول لاصطفائه على العالمين بالرِّسالة والدِّين.

ولمّا بيّن اللّه تعالى أنَّ محبَّته لا تتمُّ إلَّا بمتابعة الرُّسل؛ بيّن علوَّ درجات الرُّسل وشرفَ مناصبهم، فقال: ﴿*إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحٗا﴾ الآية[2].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱصۡطَفَىٰٓ﴾: جذر الكلمة هو: (صفو)، وصَفْوُ الشَّيْءِ بِالْفَتْحِ: خَالِصُهُ، وَحُكِيَ التَّثْلِيثُ، وَصَفَا صَفَاءً؛ إذَا خَلَصَ مِنَ الْكَدَرِ؛ فَهُوَ صَافٍ، وَصَفَّيْتُهُ مِنَ الْقَذَى تَصْفِيَةً: أَزَلْتُهُ عَنْهُ، وَأَصْفَيْتُهُ الْوُدَّ: أَخْلَصْتُهُ. والمعنى المحوريُّ: خلوُّ الشَّيء من الخُشونة والكَدر وما إليهما، كما في ملاسة الصَّفا، ونقاءِ ما يصفِّي من الكدورة والشَّوائب.

واصطفاه اللّه: اختاره واجتباه، كأنَّه أخذه؛ لأنَّه أصفَى جِنْسه أو أجوده، والمصطفى ﷺ صفوة اللّه من خلقه.

2) ﴿ءَادَمَ﴾: اسمُ أبي البَشَر عند جميع أهل الأديان، وهو عَلَمٌ عليه، وظاهر القرآن أنَّ اللّه أسماه بهذا الاسم[3]، ووزن آدم: أَفْعَل، وأصله: أَأْدم، فتحوَّلت الهمزة السَّاكنة ألفًا لانفتاح ما قبلها، مشتقٌّ من الأَدِيم، بِمَعْنَى: أَنَّهُ خُلِقَ مِنْ أَدِيمِ الْأَرْضِ، فيَكُونُ أَصْلُ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/25.
(2) الرّازي، مفاتيح الغيب: 8/18.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/229.

آدَمَ فِعْلًا سُمِّيَ بِهِ أَبُو الْبَشَرِ، ثُمَّ نُقِلَ مِنَ الْفِعْلِ؛ فَجُعِلَ اسْمًا لِلشَّخْصِ بِعَيْنِهِ، ويؤيِّده الحديث: «إنَّ اللّه تعالى خلقَ آدمَ من قبضةٍ قبضها من جميعِ الأرضِ، فجاءَ بنو آدمَ على قدرِ الأرضِ، فجاءَ منهم: الأحمرُ، والأبيضُ، والأسودُ، وبين ذلكَ، والسَّهلُ، والحَزنُ، والخبيثُ، والطَّيِّبُ»[1].

أو يكون على قول قُطْرب: آدم: أَفْعَلُ من الْأَدَمَةِ: وَهِيَ بَاطِنُ الْجِلْدِ، أو يكون مأخوذًا من الأُدْمةِ، وهي الخُلْطة، تقول: أدَمْت بين الشَّيئين؛ إذا خلطتَ بينهما، فسمِّي آدمُ: آدمَ؛ لأنَّه كان ماء وطينًا خُلطا جميعًا، ويقال في جمع: آدم: آدمون، وأوادم[2].

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

يُخبِرُ اللّه تعالى في هذه الآية الكريمة باختيار من اختاره من أوليائه وأصفيائه، فبدأ بذكر اصطفائه لآدم على سائر المخلوقاتِ، خلقَه بيده، ونفخَ فيه من روحه، وأسجدَ له ملائكته، وأسكنه جنَّتَه، وأعطاه من العلم والحِلمِ والفَضْل ما فاق به سائر المخلوقات.

واصطفى نوحًا عليه السلام فجعله أوَّلَ رسولٍ إلى أهل الأرض حين عُبِدت الأوثانُ، ووفَّقه إلى الصَّبر والاحتمال والشُّكر والدَّعوة إلى اللّه في جميع الأوقات، وأغرق الكافرين من قومه، وجعل ذُرِّيَّتَه هم الباقين، واختار آلَ إبراهيم، وهم أسرة إبراهيم الَّذي اختصَّه اللّه بخُلَّته، وجعله إمامًا للنَّاس، وجعلَ في ذرِّيَّته النُّبوَّةَ والكتاب.

ويَدْخل في آل إبراهيم جميعُ الأنبياء الذين بُعثوا من بعده؛ وفي مُقدِّمتهم نبيُّنا محمَّدٌ ﷺ الَّذي جمَع اللّهُ فيه من الكمال ما تفرَّق في غيره، وفاق ﷺ الأوَّلين والآخرين، فكان سيِّدَ المرسلين المصطفَيْنَ الأخيار، واختار اللّه آلَ عمران، وهو والدُ مريم بنت عمران؛ فهذه البيوت الَّتي ذكرها اللّه في هذه الآيةِ المباركة، هي صفوتُه من العالمين، وتسلْسَلَ الصَّلاحُ والتَّوفيقُ في ذرِّيَّاتهم[3].

(1) الترمذي، السنن، الحديث رقم: (2955)، وقال: حسن صحيح.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 1/513، والأنباري، الزّاهر: 1/384، وابن فارس، مقاييس اللغة: (أدم).
(3) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 54، والموصلي، أولى ما قيل: 2/463 - 464.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالة التَّعبير بالاصطفاء في تمثيل المعلوم بالمرئيِّ:

رُسـلُ اللـه وأنـبـيـاؤه هم صفوَتُه وخيرتُهُ من خلقه

اصطفاهم بمعنى: اختارهم، أي: جعلهم صفوة خلقه تمثيلًا بما يُشاهَد مِن الشَّيء الَّذي يُصفَّى، ويُنقَّى من الكدورة[1]؛ لأنّ العرب تمثِّل المعلوم بالشَّيء المرئيِّ، فإذا سمع السَّامع ذلك المعلوم؛ كان عنده بمنزلة ما يشاهد عيانًا، فنحن نُعاين الشَّيء الصَّافي النَّقيَّ من الكدر، فكذلك صفوة اللّه من خلقه.

ونظير هذه الآية قوله تعالى لموسى عليه السلام: ﴿إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي﴾ [الأعراف: 144]، وقال في إبراهيم وَإِسۡحَاقَ وَيَعۡقُوبَ: ﴿وَإِنَّهُمۡ عِندَنَا لَمِنَ ٱلۡمُصۡطَفَيۡنَ ٱلۡأَخۡيَارِ ٤٧﴾ [ص: 47][2].

فهذا من حسن البيان الَّذي يُمَثَّلُ فيه المعلوم بالمرئيِّ، فمثَّل به خلوص هؤلاء القوم من الفساد لما علم اللّه ذلك من حالهم؛ لأنَّهم كخلوص الصَّافي من شائب الأدناس.

التَّعبير بالكلِّ عن الجزء:

آلُ إبـراهـيـم هـم أبـنـاؤُه وأحفاده الذين اصطفاهم الله لحمل رسالاته

الآل: رهطُ الرَّجل وعشيرته، وآل إبراهيم: أبناؤه وأحفاده وأسباطه، والمقصود تفضيل فريق منهم، وهذا معنًى مجازيٌّ عقليٌّ: أراد الجزء، وذكر الكلَّ، وشمل آلُ إبراهيم الأنبياءَ من عَقِبه كموسى إلى خاتم الأنبياء والمرسلين محمَّد ﷺ.

لفظ (آل) كناية عن الأُسر التي اصطفى الله أبناءها للنُّبُوَّة:

بـيـان تـفـضـيـل أنساب الأنبياء وبـيـوتـهـم على غيرهم

أمَّا إن كان الـ (آل) هنا متعيّنًا للحمل على رهط الرَّجل وقرابته[3]، أو ما يمكن أنْ نقول عنهم: أسرة النُّبوَّة؛ فنقول بجواز ذهاب الـ (آل) إلى معنى الكناية عن تلك الأُسر الَّتي اصطفاها اللّه تعالى.

(1) ابن عادل، اللباب في علوم الكتاب، تح: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود والشيخ علي محمد معوض، دار الكتب العلمية، الطبعة: الأولى، بيروت - لبنان، 1419 هـ - 1998م: 5/162.

(2) ابن الجوزي، زاد المسير: 1/274، والرّازي، مفاتيح الغيب: 8/19.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/231.

وعليه يكون معنى الـ (آل) الَّتي وردت في العبارة القرآنيَّة الكريمة في قوله: ﴿وَءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمۡرَٰنَ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾؛ كناية عن البيوت الَّتي ضمّت أكثر من نبيٍّ أو رسول في أسرة واحدة، كما الحال مع ﴿وَءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ﴾: كناية عن الأسرة الَّتي ضمَّت إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب، و﴿وَءَالَ عِمۡرَٰنَ﴾: كناية عن الأسرة الَّتي ضمَّت مريم وعيسى وزكريَّا ثُمَّ يحيى - عليهم السلام - فقدّمت الآية قصَّة لأنموذج فذٍّ فريد لبيت ينشأ فيه الأنبياء، وألقت الضَّوء على بعض ملامح حياتهم وعلاقاتهم - عليهم السلام - وهذا ما أشار إليه صلى الله عليه وآله بقوله حين سُئل: من أكرم النَّاس؟ فقال: «الكَرِيمُ ابْنُ الكَرِيمِ ابْنِ الكَرِيمِ ابْنِ الكَرِيمِ: يوسف بْنُ يَعْقُوبَ بْنِ إِسْحَاقَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ»[1].

الجمال في أسلوب التَّخلُّص:

الانتقال من التَّمهيد المُقَرِّرِ للاصطفاء إلى قَصَصِ المُصْطَفين

ومن براعة التَّخلُّص في هذه الآية الكريمة[2]: الابتداء بنكتة اصطفاء الأنبياء جميعًا، من أوَّل الخلق إلى خاتم الأنبياء صلى الله عليه وآله في قوله: ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحٗا وَءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمۡرَٰنَ﴾ الآية، فوطَّأ بهذه الجملة إلى ذكر قصَّة آل عمران، وما اكتنفها من المعجزات والكرامات، ومنها مبدأ خلْقِ المسيح[3] عليه السلام.

جمال التَّوشيح[4] في الآية الكريمة:

ومن التَّوشيح قوله تعالى: ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحٗا وَءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمۡرَٰنَ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، فإنَّ معنى اصطفاء المَذْكُورين

(1) البخاري، صحيح البخاري، الحديث رقم: (3382).

(2) من الأمثلة الواضحة على فنِّ التخلُّص في كتاب الله قوله: ﴿نَحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ﴾، فإنَّه سبحانه أشار بقوله: أحسن القصص إلى قصَّة يوسف، والجملة توطئة لذكر القصَّة، مشيرًا إليها بهذه النُّكتة، من باب الوحي والرَّمز، وإنَّما كانت أحسن القصص بكون كلِّ قضيَّة منها كانت عاقبتها إلى خير، فإنَّ أوَّلها رميه في البئر، فكانت عاقبته السَّلامة، وبيع ليكون عبدًا، فاتُّخذ ولدًا، ومراودة امرأة العزيز له، فعصمه الله، ودخوله السِّجن، وخروجه ملكًا، وظفر إخوته به أوَّلاً، وظفر بهم آخرًا، وتطلُّعه إلى أخيه بنيامين، واجتماعه به، وعمى أبيه، وردُّ بصره، وفراقه له، ولأخيه واجتماعه بهما، وسجود أبويه وإخوته له تحقيقًا لرؤياه من قبل. ابن أبي الإصبع، تحرير التَّحبير، ص 438.

(3) ابن أبي الإصبع، تحرير التحبير، ص 438.

(4) التَّوشيح: "هو أن يكون معنى أوَّل الكلام يدلُّ على لفظ آخره، فيتنزَّل المعنى منزلة الوشاح، ويتنزَّل أوَّل الكلام وآخره منزلة العاتق والكشح اللَّذين يجول عليهما الوشاح،

فإنَّ السامع إذا فهم أنَّ الشاعر أراد المفاخرة برزانة الحصى، وعرف القافية والرويَّ، علم آخر البيت". المصدر: النويري، نهاية الأرب: 7/137.

تُعلَم منه الفَاصلة، فالاصطفاء يكون من الجنس، وجنس هؤلاء المصطفين، هو العالمون[1]؛ لأنَّ من لوازم اصطفاء شيء أن يكون مختارًا على جنسه، وجنس هؤلاء المصطفون العالمون[2].

مفهوم ﴿ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ بين الإطلاق والتَّقييد:

العالمون كنايةٌ عن عالمي زمانهم[3]، والاصطفاء مُطلقٌ في الآية ممَّا يحتمل التَّفصيل والتَّفريع، الأوَّل: أنَّ اللّٰه اصطفى مجموع الرُّسل أو جماعة الرُّسل على مطلق معنى العالمين، والمعنى الآخر: أنَّه تعالى اصطفى كلَّ فاضل منهم على أهل زمانه، فإنْ تعاصر الأنبياء؛ فهم كالواحد في أهل زمانهم.

وذكر ابن عاشور أنَّ معنى اصطفاء الأنبياء على العالمين: "اصطفاء المجموع على غيرهم، أو اصطفاء كلِّ فاضل منهم على أهل زمانه"[4].

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الآل والأهل:

الآل أخصُّ من الأهل، فإنَّ الآل يتناول الأخِصَّاء الَّذين يَجْرُون من الإنسان مجرى ذاته، ولهذا يقال لذات الإنسان ولخصائص عشيرته: الآل، ولم يتناول آلُ محمَّد ﷺ الكافرين من ذويه[5].

الآل أخصُّ؛ ومعناه خَاصَّة الرَّجل من جِهَة الْقَرَابَة أَو الصُّحْبَة

الْأَهْل: يكون من جِهَة النَّسَب والاختصاص، فَمن جِهَة النَّسَب قَوْلك: أهل الرَّجل لِقَرَابَتِهِ الأدْنَيْن، وَمن جِهَة الِاخْتِصَاص قَوْلك: أهل الْبَصْرَة وَأهل الْعلم، والآل: خَاصَّة الرَّجل من جِهَة الْقَرَابَة أَو الصُّحْبَة، تَقول: آل الرَّجل لأَهله وَأَصْحَابه، وَلَا تَقول: آل الْبَصْرَة

(1) ابن أبي الإصبع، تحرير التحبير، ص: 228. وأحمد البدوي: من بلاغة القرآن، ص 72.
(2) ابن معصوم، أنوار الربيع: 1/174.
(3) وهو قول جمهور المفسرين. القرطبيُّ: الجامع لأحكام القرآن: 4/63.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/231.
(5) الراغب، تفسير الرّاغب: 2/524.

وَآل الْعلم، وَقَالُوا: آل فِرْعَوْن: أَتبَاعه، وَكَذَلِكَ آل لوط، وَقَالَ الْمبرِّد: إذا صغَّرَتِ الْعَرَبُ الْآل؛ قَالَت: أهل، فَيدلُّ على أَنَّ أصل الآل: الْأَهْل، وَقَالَ بَعضهم: الْآل: عيدَان الْخَيْمَة وأعمدتها، وَآل الرَّجل مُشَبَّهُون بذلك؛ لأَنَّهم مُعْتَمَدُهُ[1].

وخصوصيَّة الآل تتناسب وسياق الآيات الكريمات، حيث إنَّ إضافتها إلى المصطفَيْنَ الأخيار؛ لبيان نوع العلاقة بين الآل والمضاف إليه، وهي النُّبوَّة والرِّسالة، وهي أرفع من البُنُوَّة والأُبُوَّة.

(1) العسكري، الفروق اللغويَّة، ص: 281.

﴿ذُرِّيَّةَۢ بَعۡضُهَا مِنۢ بَعۡضٖۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ٣٤﴾ [آل عمران: 34]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

تتعلَّق هذه الآية بما قبلها من وجهين: أحدهما: أنَّه لمَّا أمرهم تعالى باتِّباع نبيِّنا، وهم يُقرُّون بوجوب اتِّباع الَّذين ذكرهم من الأنبياء الَّذين اصطفاهم؛ بيّن أن جماعتهم - في كونهم متساوين في النُّبوَّة - سواء، وأنَّ الَّذي دلَّ على وجوب اتِّباع هؤلاء الأنبياء يدلُّ على وجوب اتِّباع سائرهم.

والثَّاني: أنَّه نبَّه إلى أنَّ اصطفاءه تعالى هؤلاء لكونهم مطيعين له، مستحقِّين لمحبَّته بذلك[1]؛ لذلك لزمت طاعة المُخاطبين لله وللرَّسول اقتداءً بهم.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ذُرِّيَّةَۢ﴾: جِذر هذه الكلمة هو (ذرأ) من ذرأ الله الخلق، فتُرك همزُه، وقيل: بل هو من ذَرْو الرِّيح، وأصله: ذُروية، وقيل: هي فُعْلِيَّة من الذَّرِّ، نحو: قُمْرِيَّة، ويُقال: ذُرِّيَّةٌ للواحد والجمع، ويقال للأصل والنَّسل، قال تعالى: ﴿وَءَايَةٞ لَّهُمۡ أَنَّا حَمَلۡنَا ذُرِّيَّتَهُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ﴾ [يس: 41] أي: إيَّاهم، ويُقال للنِّساء: الذَّراري[2]، و﴿ذُرِّيَّةَۢ﴾: هِيَ نَسْلُ الثَّقَلَيْنِ[3]، قال الزَّجَّاج: يُقال: ذرأ الله الخلق ذرْءًا؛ إذا خلقهم، وفي الحديث: «أعوذ بكلمات الله التَّامّات من شرِّ كلِّ ما خلق وذرأ وبرأ»[4].

2) ﴿بَعۡضُهَا﴾: جِذر هذه الكلمة هو (بعض)، بعض كلِّ شيء: طائفة منه، وبَعَّضْتُهُ تبعيضًا؛ إذا فرَّقْتَهُ أجزاء، وبعض: مذكَّر في الوجوه كلِّها، كقولك: هذه الدَّار متَّصل بعضُها ببعض، وبعض العرب يصل بـ (بعض)، كما يصل بـ (ما)، كقول الله ﷻ: ﴿فَبِمَا رَحۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: 159]، وكذلك ببعض في هذه الآية: ﴿وَإِن يَكُ صَادِقٗا يُصِبۡكُم بَعۡضُ ٱلَّذِي يَعِدُكُمۡۖ﴾ [غافر: 28][5].

(1) الراغب، تفسير الرّاغب: 2/525.
(2) الراغب، تفسير الرّاغب: 2/526.
(3) الرّازي، مختار الصحاح: (ذرأ).
(4) الطيبي، فتوح الغيب: 6/256. والحديث رواه الإمامُ أحمد في المسند: 3/419، وابن أبي شيبة في المصنف: 7/419.
(5) الخليل، العين: (بعض).

ويقال للرَّجل من القوم: من فعل كذا؟ فيقول: أحدُنا أو بعضنا؛ يريد نَفْسَه[1]. قَالَ ثَعْلَبٌ: أَجْمَعَ أَهْلُ النَّحْوِ عَلَى أَنَّ الْبَعْضَ شَيْءٌ مِنْ شَيْءٍ أَوْ مِنْ أَشْيَاءَ، وَبَعَّضْتُ الشَّيْءَ تَبْعِيضًا: جَعَلْتُهُ أَبْعَاضًا مُتَمَايِزَةً[2].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

هؤلاء الأنبياءُ والرُّسل - الَّذين اصطفاهم اللهُ - سِلْسلةُ طُهْرٍ متواصلة، حصل التَّناسبُ والتَّشابهُ بينهم في الخَلْق والأخلاقِ النَّبيلة، بعضُهم على إثر بعض، في الإخلاص لله وتوحيدِه والعملِ بوحيه، والله سميعٌ لأقوال عباده، عليمٌ بأفعالهم، يعلمُ مَنْ يستحقُّ الاصطفاءَ، فيصطفيه، ومَنْ لا يستحقُّ ذلك؛ فيخذلُه، ويُرْديه، وسيجازيهم على ذلك[3].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

سرُّ التَّعبير بلفظ ﴿ذُرِّيَّةً﴾:

مـــدح الآبـــاء والأبناء معًا

قوله: ﴿ذُرِّيَّةً﴾، أي: اصطفى ذرِّيَّة، وأصلها من: ذرأ، بمعنى: خلق، وقيل: من الذّرِّ؛ لأنَّ الله تعالى استخرجهم من ظهر آدم كالذَّرِّ، وإنَّما سُمِّي الآباء والأبناء ذرِّيَّة؛ لأنَّ الله خلق بعضهم من بعض، فالأبناء من ذرِّيَّة الآباء، والآباء من ذرِّيَّة آدم، وآدمُ عليه السلام ذرأه الله تعالى.

دلالة الحمل على اللَّفظ في عود الضَّمير في قوله: ﴿ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ﴾:

إشـــارة إلى كمال الذُّرِّيَّة، واصطفائها ممَّن ذرأها

عاد الضَّمير في قوله: ﴿بَعْضُهَا﴾ في قوله تعالى: ﴿ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ﴾ على لفظ الذُّرِّيَّة؛ لأنَّ لفظها مفرد مؤنَّث، وليس على

(1) الزمخشري، أساس البلاغة: (بعض).
(2) الفيومي، المصباح المنير: (بعض).
(3) السمرقندي، بحر العلوم: 1/208، والسعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 54، ونخبة من العلماء، التفسير الميسر، ص: 54.

معناها؛ إذ لو رجع إلى المعنى؛ لقال: (بعضهم)، والسِّرُّ في ذلك لفت الانتباه إلى كمال الذُّرِّيَّة، والإشارة إلى أنَّ اصطفاءها عائد إلى اختيار اللّه الَّذي ذرأها؛ ونصْبُها على البدل، أو الحال من الآلَين أو منهما ومن نوح، أي: إنَّهم ذرِّيَّة واحدة متشعِّبة بعضها من بعض[1]، والمعنى: اصطفى ذُرِّيَّة بعضها من بعض.

دلالة البعضيَّة بين المعنى الكنائيِّ والحقيقيِّ:

في معنى البعضيَّة في هذه الآية قولان:

تقديم الاتِّصال بالتَّناصُر والدِّين، على صلة التَّناسل

أحدهما: أنَّ بعضهم من بعض في التَّناصُر والدِّين، لا في التّناسل، فيكون المعنى مجازًا، وهو معنى قول ابن عباس وقتادة.

ويمكن أن يكون الاتِّصال بينهم اتِّصال العقيدة والتَّوحيد، ووحدة المصدر والرِّسالة، وذلك أبلغ، وهو ما يستدعي أيضًا طاعة الرَّسول؛ لأنَّ ما جاء به من الأحكام ومن الرِّسالة وما جاءت به الرُّسل إبراهيم وموسى وعيسى - عليهم السلام - مصدره واحد، وهو بالمجمل تأييد لهؤلاء الأنبياء ولكمال رسالتهم، فيكون معنى قوله: ﴿بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍۗ﴾ كناية عن الموالاة الدِّينيَّة، لقوله: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ﴾ [التوبة: 71]، وقوله: ﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍۚ﴾ [التوبة: 67][2].

الثَّاني: أنَّه في التّناسل، وهو على الحقيقة؛ لأنَّ جميعهم ذُرِّيَّة آدم، ثُمَّ ذُرِّيَّة نوح، ثُمَّ ذرِّيَّة إبراهيم[3].

دلالة ﴿مِنۢ﴾ في قوله: ﴿مِنۢ بَعْضٍۗ﴾:

بيان شدَّة الاتِّصال ووثاقته

حرف الجرِّ ﴿مِنۢ﴾ يشيرُ إلى شدَّة الاتِّصال بين هذه الذُّرِّيَّة، فـ ﴿مِنۢ﴾ للاتِّصال لا للتَّبعيض، أي: بين هذه الذُّرِّيَّة اتِّصال القرابة،

(1) البيضاوي، أنوار التّنزيل: 2/13.
(2) الراغب، تفسير الرّاغب: 2/527.
(3) الراغب، تفسير الرّاغب: 2/527، والرَّازي: مفاتيح الغيب: 8/201.

فكلٌّ بعض فيها هو متَّصل بالبعض الآخر، كما في قوله تعالى: ﴿فَلَيۡسَ مِنَ ٱللَّهِ فِي شَيۡءٍ﴾ [آل عمران: 28][1].

دلالة التَّذييل في قوله: ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾:

النُّبوَّة اصطفاء واختيار من الله الَّذي يَعْلَمُ حيث يجعلها

من معاني التَّذييل في قوله: ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾: سميعٌ بأقوال العباد وبأعمالهم، فله سبحانه أن يصطفي مِنهم مَنْ يشاء عَلى نهج قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥۗ﴾ [الأنعام: 124]، والجُملة بحسب المعنى تذييلٌ مقرِّرٌ لمضمونِ ما قبلَها[2].

وفيه وجه آخر للتَّذييل: هو أنَّ اليهود كانوا يقولون: نحن من وَلَد إبراهيم ومن آل عمران، فنحن أبناء الله وأحِبَّاؤه، والنَّصارى كانوا يقولون: المسيح ابن الله، فالله تعالى كأنَّه يقول: والله سميع لهذه الأقوال الباطلة، عليم بأغراضكم الفاسدة من هذه الأقوال، ويجازيكم عليها، فكان أوَّل الآية بيانًا لشرف الأنبياء والرُّسل، وآخرها تهديدًا لهؤلاء الكاذبين الَّذين يزعمون أنَّهم مستقرِّون على أديانهم[3].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/231.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/27.
(3) الرّازي، مفاتيح الغيب: 8/21.

﴿إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّيٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ٣٥﴾ [آل عمران: 35]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

بعد أن ذكر الله تعالى أنموذجًا من اصطفاء الأنبياء، وجعل آخر ذلك اصطفاء آل عمران، ناسبَ الحديث عن عيسى عليه السلام وبيان أنّه من جملة المُصطَفَين الأخيار الَّذين اصطفاهم الله لرسالته إلى البشر، وأوحى إليهم بشريعته، فبدأ بذكر عجائب إرهاصات نُبوَّته منذ أن نذرت امرأةُ عمران ابنتها مريم عليها السلام لبيت المقدس ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾، ونشأت تحت رعايته نشأةً صالحة، فكان يأتيها رزقها من عند الله، حتى تحقّقت المعجزةُ وولادة عيسى عليه السلام وما تبع ذلك من المعجزات العظيمة، فقد كانت حياتُه عليه السلام محفوفةً بالمعجزات حافلةً بالكرامات.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿نَذَرْتُ﴾: جذر الكلمة هو (نَذَرَ)، والنَّذْر: أن تُوجِب على نفسك ما ليس بواجب لحدوثِ أمر، يقال: نَذَرْتُ لله أمرًا، وجمعه: نُذُور، وقد نذر على نفسه ينذُرُ وينذِرُ نَذْرًا ونُذورًا، والنَّذيرةُ ما تعطيه، والنَّذيرة أيضًا: الابن يجعله أبواه قيِّمًا أو خادمًا لكنيسةٍ، وقد نذره، وفي التَّنزيل: ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا﴾، والنَّذيرُ: اسمُ الشَّيء الَّذي يُعطَى، ورُبَّما جَعَلَتِ اليهوديَّةُ وَلَدَها نَذيرًا للكنيسة، والجمع: النَّذائر.

والنَّذْر: اسمُ الإنذار، والنُّذُر: جماعة النَّذير، وتقول: أنذَرْتُهم، فنُذِروا، والتَّناذُر: إنذار بعضِهم بعضًا، والَّذي جاء في القرآن من هذا التَّركيب على وجهين: الأوَّل النَّذْر: إيجاب شيء على النَّفس، نحو قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ﴾، الثَّاني الإنذار: بمعنى: التَّحذير من مكروه سيقع[1].

2) ﴿مُحَرَّرًا﴾: جذر الكلمة هو (حرر)، والمحرَّر: الَّذي جُعل حرًّا خالصًا، يقال: حرَّرتُ

(1) الخليل، العين: وابن سيده، المحكم، والراغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (نذر).

العبد؛ إذا خلَّصته عن الرِّقِّ، وحرَّرتُ الكتاب؛ إذا أصلحته وخلَّصته، فلم تُبقِ فيه شيئًا من وجوه الغَلَط، ورجل حرٌّ؛ إذا كان خالصًا لنفسه، ليس لأحد عليه تعلُّق، والطِّين الحرُّ: الخالصُ عن الرَّمل والحجارة والحَمْأة والعيوب[1].

وَالحرُّ: مَا خَالَفَ الْعُبُودِيَّةَ، وَبَرِئَ مِنَ الْعَيْبِ وَالنَّقْصِ، خلافُ العَبْد، وَفِي التَّنْزِيل: ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّيٓ﴾، يُقَال: إِنَّهَا أَرَادَت أَنَّه خَادِم لَك، وَهُوَ حرٌّ[2]، حُرٌّ بَيِّنُ الحُرُورِيَّة والحُرِّيَّة، والحرار والحرارة: سحابة حُرَّة من كثرة المطر، والمُحَرَّرُ في بني إسرائيل: النَّذيرة، كانوا يجعلون الولد نذيرةً لخدمة الكنيسة ما عاشَ لا يَسَعُه تركه في دينهم، والحرُّ: فعل حَسَن في قول طَرَفة:

لا يكنْ حبُّكَ داءً قاتلًا *** ليس هذا منكِ ماويَّ بحُرّ

والحُرِّيَّةُ من النَّاس: خِيارُهم، والحُرُّ من كلِّ شيءٍ: أعتَقُه[3].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

تُبيِّنُ الآيةُ ما جَرى لمريمَ والدةِ عيسى، وكيف لَطَفَ اللّٰه بها في تربيتها ونشأتِها، فاذْكرْ - أيُّها الرَّسولُ - ما كان مِن أمر مريمَ وأمِّها وابنِها عيسى عليه السلام لتردَّ بذلك على من ادَّعَوا أُلوهيَّةَ عيسى أو بُنوَّته للّٰه سبحانه؛ إذ قالت امرأةُ عِمْران حين حَمَلت: يا ربِّ؛ إنِّي جعلتُ لك ما في بَطْني خالصًا لك، لخدمةِ (بيت المقدس)، فتقبَّل منِّي، إنَّك أنتَ وحدكَ السَّميعُ لدعائي، فلا يسمع أحدٌ قولي مثلك، العليمُ بنيَّتي، ولا يعلم أحدٌ نيَّتي مثلَ علمِكَ، فإن كان فيهما شيءٌ لا يصلح؛ فتجاوز عنه[4].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالة الاستئناف بالظَّرف:

فـ﴿إِذْ﴾ ظرف للمضيِّ في أصل وضعها[5]، وهو متعلِّق بما قبله، والتَّقدير: واللّٰه سميع

(1) الرّازي، مفاتيح الغيب: 8/23.
(2) ابن دريد، جمهرة اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة: (حرر).
(3) الخليل، كتاب العين: (حرر).
(4) البقاعي، نظم الدُّرر: 4/351، والسعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 54، ونخبة من العلماء، التفسير الميسر، ص: 54.
(5) فاضل السّامرّائي، معاني النحو: 3/177.

الاهتمام بالخبر تقرير للاصطفاء وبيان لكيفيَّته

عليم؛ إذ قالت امرأة عمران هذا القول[1]، فذِكْر قوله: ﴿وَٱللَّـهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ اقتضى الانتظار لسبب ذكر هاتين الصِّفتين للحقِّ تبارك وتعالى، فيأتي الجواب: ﴿إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ﴾[2]، وَيَجُوزُ أَن تتَعَلَّق بـ (اذكر) مَحْذُوفًا[3]، ويكون من باب توجيه التَّذكيرِ إلى الأوقات مع أنَّ المقصودَ تذكيرُ ما وقع فيها من الحوادث اهتمامًا بشأن تلك الأخبار والحوادث[4].

و﴿إِذْ﴾: واحدة من ظواهر القصَّة القرآنيَّة وخصائصها، وفائدة الَّذي يأتي بعد ﴿إِذْ﴾ تفصيل لجانب من القصَّة في لحظة زمنيَّة تتضمَّن قضيَّة مفصليَّة فارقة في القصَّة القرآنيَّة، فيكون بعد ﴿إِذْ﴾ حدث محوريٌّ يجلب النَّظر والتَّفكير إليه لأهميَّته، وأمثلتها في القرآن كثيرة، من ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: 29]، وقوله: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ﴾ [يوسف: 4]، وقوله: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُواْ بِي وَبِرَسُولِي﴾ [المائدة: 111]، وقوله: ﴿إِذْ أَنتُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [الأنفال: 42]، وقوله: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ﴾ [الأنفال: 11]، ففي كلِّ هذه المواضع - كما في أغلب مواضع ورودها في القصَّة القرآنيَّة - تحكي موضوعًا دقيقًا مفصّلًا يعدُّ هو الحدث الأهمَّ في القصَّة كلِّها، فتملأ العبارة بعد ﴿إِذْ﴾ مساحة القصّة في إيجاز معجز مذهل.

فائدة التَّعرُّض لوصف الرُّبوبيَّة مع الإضافة في مقام النَّذر:

الرَّغبة في استجابة الدُّعاء بصلاح المربوب

التَّعرُّضُ لوصفِ الرُّبوبيَّةِ للإنباء عن إفاضة ما فيه صلاحُ المربوبِ، و﴿لَكَ﴾: سيقت للتَّعليل، والمُراد لخدمة بيتك، وفي الإضافة إلى الضَّمير في ﴿لَكَ﴾ مع تقديمه على الموصول: ﴿مَا فِي بَطْنِي﴾؛

(1) ابن جرير، جامع البيان: 6/393.
(2) الرّازي، مفاتيح الغيب: 8/21.
(3) الآلوسي: روح المعاني: 2/138.
(4) أبو السُّعود: إرشاد العقل السليم 2/27.

لكمال الاعتناءِ به، ولتحريك سلسلة الإجابة، ولذلك قيل: إذا أراد العبدُ أن يُستجابَ له دعاؤه؛ فليدعُ الله بما يناسبه من أسمائه وصفاته، ولأجل هذا أُكِّدَ هذا الخبر بـ (إنَّ) لإبراز وفورِ الرَّغبة في مضمون النَّذر وقبوله[1].

سِرُّ التَّعبير عن الولد بـ﴿مَا﴾ بَدَلَ (من):

الدَّلالة على إبهام الولد وقصوره عن درجة العقلاء

فقوله: ﴿مَا فِي بَطْنِي﴾ أتى بـ﴿مَا﴾ الَّتي لغير العاقلِ؛ لأنَّ ما في بطنها مُبْهَمٌ أمرُه، والمُبْهَم أمره: يجوز أن يُعَبَّر عنه بـ"ما"، فعُبِّر عن الولد بـ﴿مَا﴾ لإبهام أمرِه وقصورِه عن درجة العقلاء[2].

دلالة التَّقييد بالحال في ﴿مُحَرَّرًا﴾:

بيانُ صِدْقِ التَّقرُّبِ إليه تعالى والإخلاص فيه

قولها: ﴿مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا﴾ على الحاليَّة من ﴿مَا﴾ الموصولة، وقيل: من ضميره في الصِّلة، والعامل معنى الاستقرار، فإنَّها في قوَّة ما استقرَّ في بطني، ولا يخفى أنَّ المراد تقييدُ فعلِها بالتَّحرير؛ ليحصُل به التَّقرُّبُ إليه تعالى، لا تقييد ما لا دخلَ لها فيه من الاستقرار في بطنها[3].

نكتة الدُّعاء بالقبول للنَّذر:

استدعاءٌ للولد وصلاحه

أي: ما نذرتُه، والتَّقبُّل: أخْذ الشَّيء على وجه الرِّضا، وهذا في الحقيقة استدعاءٌ للولد؛ إذ لا يُتصوَّر القَبولُ بدون تحقُّق المقبول، بل للولد الذَّكَرِ وقفًا له على الخدمة، فيكون المعنى: رَبِّ؛ إني نذرتُ لك ما في بطني، فاجعله ذَكَرًا.

ثُمَّ إنَّ امرأة عمران نذرت مطلقًا، إمَّا: لأنَّها بَنَت الأمر على التَّقدير، أو لأنَّها جعلت ذلك النَّذر وسيلة إلى طلب الذَّكر[4].

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/27، والآلوسي: روح المعاني 2/129.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/27، وابن عادل: اللباب في علوم الكتاب: 5/171.
(3) الرّازي، مفاتيح الغيب: 8/23.
(4) الرّازي، مفاتيح الغيب: 8/23، والآلوسي: روح المعاني 2/129.

تكرار التَّذييل بقصر صفتَي السَّمع والعلم على الله تعالى:

فـ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾، المعنى: إنَّك أنت السَّميع لتضرُّعي ودعائي ونداءي، العليم بما في ضميري وقلبي ونيَّتي[1]، ونبَّه بقوله: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾؛ ليناسب ذلك التَّضرُّع والدُّعاء، فإنَّك تسمع نذري، وتعلم حالي ونيَّتي، فتقبَّلْ منِّي[2]، ﴿ٱلسَّمِيعُ﴾: لجميع المسموعاتِ الَّتي من جُملتها تضرُّعي ودعائي، ﴿ٱلۡعَلِيمُ﴾ بكلِّ المعلومات الَّتي من زمرتها ما في ضميري لا غير، وهو تعليلٌ لاستدعاء القبول، وتأكيدُ الجملة بـ ﴿أَنتَ﴾ لعرض قوَّةِ يقينها بمضمونها، وقصرُ صفتَي السَّمعِ والعلم عليه تعالى؛ لعرض اختصاص دعائِها به تعالى، وانقطاعِ حبل رجائها عمَّا عداه بالكلِّيَّة مبالغةً في الضَّراعة والابتهال[3].

فقد قالت، كما قال سلفها إبراهيم وإسماعيل عليهما الصَّلاة والسَّلام: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلۡ مِنَّآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ١٢٧﴾ [البقرة: 127]، أي: فلا يسمع أحد قولي مثل سمعك[4]، ولا يعلم أحد نيَّتي مثل علمك.

(1) الرّازي، مفاتيح الغيب: 8/23.
(2) الرَّاغب، تفسير الرّاغب: 2/531.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/27.
(4) البِقاعيُّ: نظم الدُّرر: 4/351.

﴿فَلَمَّا وَضَعَتۡهَا قَالَتۡ رَبِّ إِنِّي وَضَعۡتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا وَضَعَتۡ وَلَيۡسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلۡأُنثَىٰۖ وَإِنِّي سَمَّيۡتُهَا مَرۡيَمَ وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ٣٦﴾ [آل عمران: 36]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

استكمال للقصَّة الَّتي بدأت بها الآية السّابقة؛ لتكشف عمّا آل إليه حالُ نذرِ أمِّ مريم؛ إذ طوت القصّة أشْهُرَ الحَمْلِ بالموهوب، وأتت بساعة الولادة، فلمّا وضعت الأمُّ المولودَ؛ علمت أنَّها أنثى، فحكت الآيةُ حالها: ﴿فَلَمَّا وَضَعَتۡهَا قَالَتۡ رَبِّ إِنِّي وَضَعۡتُهَآ أُنثَىٰ﴾، وكانت قد نوت تحريرَ ما في بطنها في خطابها لربِّها في الآية السّابقة: ﴿رَبِّ إِنِّي نَذَرۡتُ لَكَ مَا فِي بَطۡنِي مُحَرَّرٗا﴾؛ طلبًا لأنْ يكون جنينُها الَّذي في بطنها ولدًا، يخدمُ في بيت المقدس.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَضَعَتۡهَا﴾: جِذر الكلمة (وَضَع)، وهو أَصْلٌ وَاحِدٌ يَدُلُّ عَلَى الْخَفْضِ لِلشَّيْءِ وَحَطِّهِ، والمَوْضِعُ المكان، ووَضَعَ الشَّيءَ من يده يضعه وَضْعًا، ومَوْضِعًا، ومَوْضُوعًا أيضًا، والوَضِيعَةُ: واحدة الوَضَائِع، وهي أثقال القوم، يقال: أين خلَّفوا وضائعهم؟ ووَاضَعَه في الأمر، أي: وافقه فيه على شيء، ووَضَعَتِ المرأةُ وَضْعًا: ولدت[1]، والمعنى المحوريُّ: الهُوِيُّ بالشَّيء إلى مقرٍّ منخفض يثبت فيه (عن حيِّز عالٍ كان فيه)[2]، والوضع: الولادة، وقوله: ﴿رَبِّ إِنِّي وَضَعۡتُهَآ﴾، قال الحرالّي: من الوضع: وهو إلقاء الشَّيء المستثقل[3].

2) ﴿ٱلرَّجِيمِ﴾: جِذرُ الكلمة هو (رَجَم)، وأصل الرَّجم: الرَّمي بالرِّجام، أي: الحجارة[4]، والرُّجْمة بالضَّمِّ: واحد الرُّجَم، والرِّجَام: وهي حجارة ضخام، والشَّيطانُ الرَّجِيمُ: المطرود عن الخيرات، وعن منازل الملأ الأعلى، وفُسِّرت صفته هذه بالمرجوم:

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، وأبو بكر الرّازيّ، مختار الصحاح: (وضع).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصَّل: (وضع).
(3) البقاعي، نظم الدُّرر: 4/351.
(4) الراغب، تفسير الرَّاغب: 2/528. الزمخشري، أساس البلاغة: 1/341، وابن سيده، المحكم: (رجم).

بالكواكب، أي: شأنه وشأن قَبيلِه أن يُرْجموا بالكواكب، أو: رجيم ملعون مرجومٌ باللَّعنة مبعدٌ مطرود، وكلُّ (رجيم) في القرآن؛ فهو بهذا المعنى، ويستعار الرَّجم للرَّمي بالظَّنِّ، والكلام المقرِّع، والتَّوهُّم، وللشَّتم، والطَّرد، نحو قوله تعالى: ﴿رَجْمًا بِٱلْغَيْبِ﴾ [الكهف: 22]، وقوله تعالى: ﴿لَأَرْجُمَنَّكَ وَٱهْجُرْنِي مَلِيًّا ﴿٤٦﴾﴾ [مريم: 46]، أي: لأقولنَّ فيك ما تكره.

والمعنى المحوريُّ: ثِقْل عظيم يُثْقَل به الشَّيء بنحو الطَّرح والقذْف، كتلك الرُّجْمة، "ويتحقَّق عِظَم الإثقال بقوَّة قذف الشَّيء، ولو لم يكن عظيم الثِّقل في ذاته، كرجم الفرس الأرض بحوافره عند ما يجتهد في جَريه"، ومن هنا "الرّجْم: القتل، وإنَّما قيل للقتل: رَجْم؛ لأنَّهم كانوا إذا قتلوا رجلًا؛ رموه بالحجارة، حتى يقتلوه، وبه قيل في تفسير قول قوم نوح له: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ ﴿١١٦﴾﴾ [الشُّعراء: 116]، أي: بالحجارة، فكأنَّ الأمر هنا تهديد بالقتل، والرَّجمُ في القرآن: القتل، وقيل: المعنى: من المرجومين بالحجارة، والرَّجمُ: اسم لما يُرجَمُ به الشَّيء، والجميع الرُّجوم، وهي الحِجارةُ، والرُّجُومُ: الَّتي تُرمى بها الشّياطين، [1]، وقيل ذلك للنَّجم المنقضِّ، لقوله: ﴿وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ﴾ [الملك: 5][2].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

فلمَّا تمَّ حملُ امرأةِ عِمران، ووضعت مولودَها؛ قالت: ربِّ؛ إنِّي وضعتها أنثى، لا تصلحُ للخدمة في (بيت المقدس) والانقطاعِ للعبادةِ فيه؛ بسبب ما يعتريها ممَّا يعتري النِّساء، ففي كلامِها نوعُ عُذْرٍ من ربِّها، ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ﴾، وسوف يجعلُ اللّه لها شأنًا، وقالت: وليس الذَّكرُ الَّذي أردتُ للخدمة، كالأنثى في ذلك؛ لأنَّ الذَّكَر أقوى على الخدمة وأقْوَم بها، وإنِّي سمَّيتها مريم - وكلمة مريم معناها في لغتهم: العابدة، أو خادمُ الرّبِّ، فأرادت بهذه التَّسمية التَّقرُّب إلى اللّه والالتماس منه أن يعصمها، حتى يكون فعلها مطابقًا لاسمها - وإنِّي حصَّنتها بك هي وذريَّتها من الشَّيطانِ المطرودِ من رحمتك[3].

(1) ابن سيده، المحكم، والراغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (رجم).

(2) الراغب، تفسير الرّاغب: 2/528.

(3) السمرقندي، بحر العلوم: 1/208، والرّازي، مفاتيح الغيب: 8/24، ونخبة من العلماء، التفسير الميسر، ص: 54.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

علَّة تأنيث الضَّمير في قوله: ﴿فَلَمَّا وَضَعَتۡهَا﴾:

حـمـلـه عـلى المعنى في (ما) الـذي كـان أنثى في عِلْمِ الله

قوله: ﴿فَلَمَّا وَضَعَتۡهَا﴾، أي: فلمَّا وضعت النَّذيرةَ؛ ولذلك أنَّث، ولو كانت (الهاء) عائدة على﴿مَا﴾ الَّتي في قوله: ﴿إِنِّي نَذَرۡتُ لَكَ مَا فِي بَطۡنِي مُحَرَّرٗا﴾؛ لكان الكلام: فلمَّا وضعته؛ قالتْ: ربِّ إنِّي وضعته أنثى[1]، باعتبار أنَّ ما في بطنها هو الجنين الَّذي كان يُرتجى أن يكون ذكرًا، قال تعالى: ﴿هُوَ أَعۡلَمُ بِكُمۡ إِذۡ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ وَإِذۡ أَنتُمۡ أَجِنَّةٞ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡۖ﴾ [النَّجم: 32]، وذهب أبو حيَّان الأندلسيُّ إلى أنَّه أنَّث الضَّمير في ﴿وَضَعَتۡهَا﴾؛ حملًا على المعنى في ﴿مَا﴾؛ لأنَّ ما في بطنها كان أنثى في علم اللّٰه تعالى[2].

سرُّ تكرار عنوان الرُّبوبيَّة في مقام التَّحسُّرِ:

تَـذَكُّـرُ وصـف الإحـســان عـنـد الأحـزان اسـتـمـطـار للامتنان

وخاطبت امرأة عمران ربَّها على سبيل التَّحسُّرِ، وهو ما خرج إليه النِّداء، على ما فاتها من رجائها، وخلاف ما قدّرت؛ لأنَّها كانت ترجو أن تلد ذكرًا يصلح للخدمة، ولذلك نذرته محرّرًا[3].

فيصوِّر القرآن مشهد ذهولها في قوله: ﴿رَبِّ إِنِّي وَضَعۡتُهَآ أُنثَىٰ﴾، أي: تَحَسُّرًا ذاكرةً وصف الإحسان استمطارًا للامتنان[4].

بلاغَةُ المَجَازِ المُرسَلِ في اللَّفظِ المُرَكَّب:

يلزم من الإخبار بـضـدِّ المـرادِ المحبوبِ التَّحسُّرُ والـحـزنُ على الفائت

التَّركيب في قولها: ﴿رَبِّ إِنِّي وَضَعۡتُهَآ أُنثَىٰ﴾ - بما اشتمل عليه من الخصوصيَّات - يحكي ما تضمَّنَه كلامُها في لغتها من المعاني: وهي الرَّوعة والكراهية لولادتها أنثى، ومحاولتها مغالطة نفسها في الإذعان لهذا الواقع، ثُمَّ تحقيقها ذلك لنفسها وتطمينها بها، ثُمَّ انعكاس ذلك تحسُّرًا في نفسها، فلذلك أودع حكاية كلامها

(1) ابن جرير، جامع البيان: 6/333.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 3/116.
(3) أبو حيان، البحر المحيط: 3/116.
(4) البقاعي، نظم الدُّرر: 4/351.

خصوصيَّات من العربيَّة، تعبِّر عن معانٍ كثيرةٍ قصدتها في مناجاتها بلغتها[1]، وهذا من بلاغة القرآن ولغته في الإيجاز، فهي تشير بقرينة الحال إلى مشاعر التَّحسُّر الَّتي تشغل قلبها ساعتئذٍ[2].

ولمَّا استعملت هذا الخبر في الإنشاء؛ استعملته برمَّته على طريقة المجاز المرسل في اللَّفظ المركَّب[3]، ومعلوم أنَّ المركَّب يكون مجازًا بمجموعه لا بأجزائه ومفرداته[4]، والعلاقة بين المعنى الأصليِّ: وهو الإخبار، والمعنى المجازيِّ: وهو التَّحسُّر وإظهار الحُزْنِ: (اللُّزوم)؛ إذ يلزم من الإخبار بذهاب الشَّيء المحبوب المعلوم للجميع التَّحسُّر والحزن عليه، ويعكس هذا التَّحوُّل في الأسلوب من الخبر إلى الإنشاء ما يدور في النَّفس من تحوُّلات متسارعة، بين الطُّمأنينة الَّتي كانت تغمر النَّفس، إلى حالة الاضطراب والتَّساؤل، عمَّا يكتنف مستقبل هذه الأنثى الَّتي كانت ترتجيها ذكرًا.

فائدة تأنيث الضَّميرِ في ﴿وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ﴾:

المُسارعة إلى عَرْض ما دَهَمها من خيبة الرَّجاء

أُنِّث الضَّمير في ﴿وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ﴾ باعتبار ما دلَّت عليه الحال اللَّازمة في قولها أنثى؛ إذ بدون الحال لا يكون الكلام مفيدًا، فلذلك أُنِّث الضَّمير باعتبار تلك الحال[5]، فقولُه تعالى: ﴿أُنثَىٰ﴾ حالٌ مؤكِّدة من الضَّمير، أو بدلٌ منه، وتأنيثُه للمسارعة إلى عَرْض ما دَهَمها من خيبة الرَّجاء، وإنَّما قالته تحزُّنًا وتحسُّرًا على خيبة رجائِها وعكسِ تقديرِها؛ لما كانت ترجو أن تلدَ ذَكَرًا[6]، ولو كان النَّظم: (وضعت أنثى)؛ لما أظهر التَّعبير ذلك التَّحسُّر، ولَما كشف عن خيبة رجائها وحزنها.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/233.

(2) عبد الرحمن حبنَّكة، البلاغة العربية: 1/50.

(3) المجاز المرسل في اللَّفظ المركب: هو لفظ مركَّب يستعمل بهيئته التركيبيَّة في غير المعنى الَّذي وُضِعَتْ له صيغة جملته في اصطلاح التَّخاطب، لعلاقة غير المشابهة، مع قرينة مانعة من إرادة المعنى الأصلي، ويكون هذا المجاز في قسمين: القسم الأول: المركَّبات الخبرية، القسم الثَّاني: المركَّبات الإنشائيَّة، فقد تخرج عن دلالتها الخبرية أو الانشائية مجازًا للدَّلالة بها على معنًى آخر. ينظر: عبد الرحمن حبنَّكة، البلاغة العربية، ص: 679 - 683.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/232.

(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/233.

(6) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/28.

توجيه ما ورد من القراءات في ﴿وَضَعَتْ﴾ وبلاغتها:

الإخبار بعظيم شأن ما وضعتْ، وبيان أنّ ما يختاره الله الخيرُ كُلُّهُ

في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا وَضَعَتۡ﴾ بسكون التّاء الَّتي للتَّأنيث[1] على الإخبار من ربِّ العالمين، وهو تعظيمٌ من جهته تعالى لموضوعها، وتفخيمٌ لشأنه، وتجهيلٌ لها بقدره، أي: والله أعلم بالشَّيء الَّذي وضعته، وما علق به من عظائم الأمور، وجعلها وابنها آية للعالمين، وهي غافلة عن ذلك، والجملة على هذه القراءة اعتراضيَّة[2].

إظهارُ غاية الإجلال مع كمال الخضوع اعتذار إلى ربِّها وتسلية لقلبها

وفي قراءة ابن عامر، وشعبة عن عاصم، ويعقوب: بضمِّ التَّاء ﴿وَضَعْتُ﴾[3]، على ضمير المتكلِّمة امرأة عمران، مع الالتفات من الخطاب إلى الغَيبة؛ إظهارًا لغاية الإجلال، فيكون ذلك منها اعتذارًا إلى الله تعالَى؛ إذ أتت بمولودٍ لا يصلُح لما نذرته من السَّدانة، أو تسليةً لنفسها على معنى: لعلّ الله تعالى يجعل فيه سرًّا وحكمةً، ولعلَّ هذه الأنثى خيرٌ من الذَّكَر، فوجه الالتفات حينئذٍ ظاهر[4]، وعليه فاسم الجلالة التفات من الخطاب إلى الغَيْبة، فيكون قرينة لفظيَّة، على أنَّ الخبر مستعمل في التَّحسُّر[5].

فائدة لام العهد الخارجيّ الكنائيّ[6]:

المعهود أن يتولّى الذّكور خدمة دور العبادة لا الإناث

التَّعريف باللَّام في ﴿ٱلذَّكَرُ﴾ للإشارة إلى معهود بين المُخاطِب والمُخاطَب، وهي اللَّام الَّتي يتقدَّم لمدخولها ذِكْرٌ كنائيٌّ، أي: غير مصرَّح به مبهمٌ، تعيِّنه القرائن، وتسمّى حينئذٍ لام العهد الخارجيِّ

---

(1) وهي على قراءة نافع وابن كثير وأبي عمرو وحمزة والكسائيّ وحفص عن عاصم، ينظر: ابن مجاهد، السَّبعة: 204، وابن الجزري، النشر: 2/239.

(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 2/28.

(3) ابن مجاهد، السَّبعة: 204، وابن الجزري، النشر: 2/239.

(4) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/28.

(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/233.

(6) لام العهد الخارجي: هي التي يراد بمدخولها معينٌ في الخارج فردًا أو أكثر، وتعينَّ مدخولها، إمَّا: لتقدُّم ذكره صريحًا أو كناية، وإمَّا لتقدُّم العلم به سواء كان حاضرًا أم غير حاضر، فالذِّكر الصَّريح مثل: ﴿كَمَآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ رَسُولٗا ۝١٥ فَعَصَىٰ فِرۡعَوۡنُ ٱلرَّسُولَ﴾، والكنائيُّ مثل: ﴿وَلَيۡسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلۡأُنثَىٰۖ﴾، فإنَّ الذِّكر لم يتقدَّم ذكره صريحًا، بل كناية في قوله تعالى: ﴿نَذَرۡتُ لَكَ مَا فِي بَطۡنِي مُحَرَّرٗا﴾، فإن ﴿ما﴾ محتملة للذَّكر والأنثى، ولكن بانضمام قيد التَّحرير إليها صار مرادًا بها الذَّكر. ينظر: القزويني، الإيضاح: 2/29.

الكنائيّ[1]، ويسمّى بالعهد الذهنيِّ، وهو ما تقدَّمَ فيه ذكر المسنَد إليهِ تلويحًا، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا وَضَعَتۡهَا قَالَتۡ رَبِّ إِنِّي وَضَعۡتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا وَضَعَتۡ وَلَيۡسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلۡأُنثَىٰۖ﴾، فإنَّه لم يسبق ذِكْر ﴿ٱلذَّكَرُ﴾ صريحًا، وإنَّما أُشيرَ إليهِ في قوله تعالى: ﴿إِذۡ قَالَتِ ٱمۡرَأَتُ عِمۡرَٰنَ رَبِّ إِنِّي نَذَرۡتُ لَكَ مَا فِي بَطۡنِي مُحَرَّرٗا فَتَقَبَّلۡ مِنِّيٓۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ٣٥﴾، فإنَّ ﴿مَا﴾ يرادُ منه الذَّكَر؛ لأنَّه القابلُ لخدمةِ المسجدِ، وقد كانوا لا يُحرِّرون إلَّا الذُّكورَ، وهو المعنيُّ بـ ﴿مَا﴾، ويسمَّى: كنائيًّا[2]، وفائدة ذكر الذَّكَرِ: أنَّ فحوى الخطاب جميعه كان يدور حول قضيَّة الذّكَرِ المُحرّر لخدمة بيت المقدس، من هنا تظهر فائدة ما ذكرنا.

وقد تكون اللَّام مفيدة معنى الجنس والحقيقة، فتفيد عموم التَّفريق بين الجنسين مع التَّفاضل، كقولك: الرَّجل خير من المرأة، أي: جنس الرَّجل خير من جنس المرأة[3].

معنى التَّشبيه المنفيّ في قوله: ﴿وَلَيۡسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلۡأُنثَىٰۖ﴾:

خروج التَّشبيه إلى معنى الاعتذار، وبيان أنّ المَوْهوبَ خيرٌ من المطلوب

ونفي المشابهة بين الذَّكر والأنثى يُقصد به معنى: التَّفضيل في مثل هذا المقام، كقوله: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ [الأحزاب: 32][4]. ولذلك لا يتوخُّون أن يكون المشبَّه في مثله أضعف من المشبَّه به؛ إذ لم يبقَ للتَّشبيه أثر، ولذلك قيل هنا: وليس الذَّكر كالأنثى، ولو قيل: وليست الأنثى كالذَّكر لفهم المقصود.

ومن معاني نفي التَّشبيه ما يأتي:

الأوّل: تفضيل الذَّكر على الأنثى؛ لاعتبارات ذكرها الفخر الرَّازي نلخِّصها فيما يأتي: أحدها: في شرعهم أنَّه لا يجوز تحرير الذُّكور دون الإناث، والثَّاني: أنَّ الذَّكر يصحُّ أن يستمرَّ على خدمة موضع العبادة، ولا يصحُّ ذلك في الأنثى لمكان الحيض وسائر عوارض النُّسوان، والثَّالث: الذَّكر يصلح لقوَّته وشدَّته للخدمة دون الأنثى، فإنَّها ضعيفة لا تقوى على الخدمة، والرَّابع: أنَّ الذَّكر

(1) حامد عوني، المنهاج الواضح للبلاغة، ص: 119.
(2) عبد الرحمن حبنَّكة، البلاغة العربية: 1/441.
(3) أبو موسى، خصائص التراكيب، ص 210.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/234.

لا يلحقه عيب في الخدمة والاختلاط بالنَّاس، وليس كذلك الأنثى، والخامس: أنَّ الذّكر لا يلحقه من التُّهمة عند الاختلاط ما يلحق الأنثى، فهذه الوُجوهُ تقتضي فضلَ الذَّكر على الأنثى في هذا المعنى[1]، وفيها تأكيدُ الاعتذار ببيان أنَّ الذَّكر ليس كالأنثى في الفضيلة والمزيّة والصَّلاحِيَّةِ[2]، ومن هنا فقد خرج هذا التَّشبيه إلى معنى الاعتذار، قال السُّدِّيُّ: ظنَّت أنَّ ما في بطنها غلام، فلمَّا وضعت جارية؛ اعتذرت[3]، وجعلوا نفي المشابهة على بابه من نفي مشابهة المفضول للفاضل، وإلى هذا مال صاحب الكشَّاف، وتبعه صاحب المفتاح[4].

والقول الثَّاني: تفضيل الأنثى الموهوبة على الذَّكر المطلوب: فكأنَّما قيل لها: وليس الذَّكر الَّذي رغبت فيه بمساوٍ للأنثى الَّتي أعطيتها؛ لو كانت تعلم علوَّ شأن هاته الأنثى[5]، فكأنَّها قالت: الذَّكر مطلوبي، وهذه الأنثى موهوبة اللّه تعالى، وليس الذَّكر الَّذي يكون مطلوبي، كالأنثى الَّتي هي موهوبة للّه، وهذا الكلام يدلُّ على أنَّ تلك المرأة كانت مستغرقة في معرفة جلال اللّه، عالمة بأنّ ما يفعله الرَّبُّ بالعبد خير ممَّا يريده العبد لنفسه[6]، ولكن قدّم الذَّكَرَ هنا؛ لأنَّه هو المرجوُّ المأمول فهو أسبق إلى لفظ المتكلِّم[7].

دلالة الاعتراض بأكثر من جملة:

بيانُ أنّ مَنْ فَوَّضَ أمرَهُ إلى الله لا ينبغي أن يتعقَّبَ تدبيرَهُ

الاعتراض[8] بأكثر من جملة وقع أثناء الكلام، وكقوله تعالى: ﴿إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ﴾، فقوله: ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ﴾، وما بعده، اعتراض بأكثر من جملة[9].

(1) الرّازي، مفاتيح الغيب: 8/24.
(2) الرَّازي، مفاتيح الغيب: 8/24. وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/233.
(3) ابن الجوزي، زاد المسير: 1/276.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/233.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/233.
(6) الرّازي، مفاتيح الغيب: 8/24.
(7) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/234.
(8) الاعتراض: هو أن يؤتى أثناء الكلام، أو بين كلامين متَّصلين معنًى بجملة أو أكثر لا محلَّ لها من الإعراب، ولنكتة سوى دفع الإبهام، فخرج الاحتراس. ينظر: ابن معصوم، أنوار الرّبيع، ص: 386، حامد عوني، المنهاج الواضح للبلاغة: 2/145.
(9) حامد عوني، المنهاج الواضح للبلاغة: 2/145.

و قد جاء بين كلامين متَّصلين معنًى، فإنَّ قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا وَضَعَتۡ وَلَيۡسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلۡأُنثَىٰۖ﴾ ليس من قول أمِّ مريم، وإنَّما هو اعتراض من كلام الله سبحانه، والنُّكتة فيه تعظيم الموضوع وتجهيلها بقدر ما وهب لها منه، ومعناه: والله أعلم بالشِّيء الَّذي وضعت، وما علق به من عظائم الأمور، وجعلها وولدها آية للعالمين، وهي جاهلة بذلك لا علم لها به؛ ولذلك تحيّرت، وتحزَّنت، ثم زاده بيانًا وإيضاحًا بالجملة الثَّانية من الاعتراض، فقال: وليس الذَّكر الَّذي طلبت، كالأنثى الَّتي وهبت لها[1].

سبب الإعلام بالتَّسمية في قوله: ﴿وَإِنِّي سَمَّيۡتُهَا مَرۡيَمَ﴾:

التقرُّب إلى الله بوفاء نذرها كاملًا عينًا واسمًا

وقوله: ﴿وَإِنِّي سَمَّيۡتُهَا مَرۡيَمَ﴾، في تسميتها فَورَ وَضْعِها إشارةٌ إلى وُقوع النَّذْر المتقرَّبِ به إلى الله كامل الوجود اسمًا ورسْمًا، ومقصودها من هذا: الإخبار بالتَّسمية للتَّقرُّب إلى الله سبحانه وتعالى، وأن يكون فعلُها مطابقًا لمعنى اسمها، فإنَّ معنى مريم: خادم الرَّبِّ بلغتهم[2]، فَهِيَ وإن كانت غير صالحة لخدمة بيت المقدس؛ فذلك لا يمنع أن تكون من العابدات، وكأنَّها أرادت بهذه التَّسمية أن تطلب من الله تعالى أن يعصمها من آفات الدِّين والدُّنيا؛ لأنَّ المعنى: وإنِّي سمَّيت هذه البنت المولودة لي: عابدة الرَّبِّ[3].

وفائدة ذكر التّسمية أيضًا: أنَّ هذا الاسم في لغتهم اقتضى معنى التَّحرير[4]، وقيل: حَتَّى تعرف هَل وَقع ذَلِك الِاسْم بِرِضا الله تَعَالَى حَتَّى يُغيَّر أَو يُقرَّر[5]، والجملة عطف على ما قبلها ﴿إِنِّي وَضَعۡتُهَآ أُنثَىٰ﴾ من مقالها، وما بينهما اعتراض، وإنّما ذكرت ذلك لربِّها تقرُّبًا إليه، وطلبًا؛ لأن يعصمها، ويصلحها حتى يكون فعلها

(1) ابن معصوم، أنوار الرّبيع، ص: 386.
(2) حقق ذلك رؤوف أبو سعدة في كتابه: من إعجاز القرآن العلم الأعجمي في القرآن: 2/251 - 262.
(3) القنوجي: فتح البيان: 2/223، والهرري، حدائق الروح والريحان: 4/278.
(4) الراغب، تفسير الرّاغب: 2/530.
(5) أبو المظفّر السّمعاني، تفسير السّمعاني: 1/313.

مطابقًا لاسمها[1]، وإظهارُ أنَّها غيرُ راجعة عن نيَّتها؛ وإن كان ما وضعته أنثى، وأنَّها إن لم تكن خليقةً بسِدانة بيت المقدس؛ فلتكنْ من العابدات فيه[2].

فائدة المضارع في ﴿أُعِيذُهَا﴾:

مراقبة النَّفس تقتضي تجديد الاستعاذة بالله من الشَّيطان الرَّجيم

﴿وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ﴾ عطف على ﴿إِنِّي سَمَّيۡتُهَا﴾، وصيغةُ المضارع للدّلالة على الاستمرار والتَّجدُّد، أي: أُجيرُها بحفظك؛ إذ تحكي حالها، أنَّها ستكون في دوام على حال استعاذتها بك وذرِّيَّتها من الشَّيطان الرَّجيم؛ لما يُعلم من إلحاح الشَّيطان على العبد، ومراجعته على ارتكاب الآثام وتعاطي الذُّنوب، فاحتاج ذلك من العبد المراقبة لنفسه، وتجديد الاستعاذة بالله من الشَّيطان الرَّجيم، كما يبيِّن ذلك الموقف من أمِّ مريم أيضًا مقدار التَّواصل الرُّوحيِّ لبيت النُّبوَّة، والاتِّصال بالله تبارك وتعالى، وبراعة الدُّعاء والإنابة عندهم، وجلال مواقفهم.

بديع تلوين الخطاب بطريق الالتفات والجناس:

تصوير حالة الأمِّ بين مُراد نفسها، وقدر الله بها

من جميل بيان الآية ما فيها من تلوين في الخطاب: (من الغائب إلى المتكلِّم فإلى الغائب فإلى المُتكلِّم)، في وصف حالها، وهي تُفجأ بما وضعت، فقال: ﴿فَلَمَّا وَضَعَتۡهَا﴾ للغائب، ثُمَّ إلى المتكلِّم، فقال: ﴿رَبِّ إِنِّي وَضَعۡتُهَآ أُنثَىٰ﴾، ثُمّ التفت إلى الغائب، فقال: ﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا وَضَعَتۡ﴾، في كلمة واحدة هي ﴿وَضَعَتۡ﴾، كان الرَّابط فيها جناس الاشتقاق بين ﴿وَضَعَتۡهَا﴾ و﴿وَضَعۡتُهَآ﴾ و﴿وَضَعَتۡ﴾، ثُمَّ التفت إلى المُتكلِّم، فقال: ﴿وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا﴾، وهذا التّناوب في التَّحوُّل من الغائب إلى الحاضر في حالات متناوبة، تصوير عميق لحالة النَّفس وإرباك موقفها، وتقلُّبات ما كان يجول في خواطرها.

(1) البيضاوي، أنوار التّنزيل: 2/14.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/29.

ثُمّ نرصد بين قوله: ﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا وَضَعَتۡ﴾، وقوله: ﴿وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا﴾ تلوينًا من الغائب المتمثِّل في اسم الجلالة، والخطاب المتمثِّل في ﴿بِكَ﴾، والانتقال من الغائب المتمثِّل في ﴿وَضَعَتۡ﴾ إلى المتكلِّم في ﴿أُعِيذُهَا﴾: يضيف انطباعًا إلى حالة العودة إلى واقع الحال بعد اضطراب نفسيٍّ قصير، ثُمَّ الرِّضا بأمر الله وقضائه، ومحاولة التَّطابق والتَّوافق بين ما كان مرادًا وبين ما قدَّره الله تعالى، والعودة إلى الله في الدُّعاء والاستعاذة من الشَّيطان الرَّجيم.

فائدة تقديم الجارِّ والمجرور على المعطوف:

إبـــراز كـمـال العناية والأنس بجميل الرِّعاية

قوله: ﴿وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا﴾: ﴿وَذُرِّيَّتَهَا﴾عطف على الضَّمير، وتقديمُ الجارِّ والمجرورِ ﴿بِكَ﴾ عليهِ؛ لإبراز كمالِ العنايةِ والأنس بجميل الرِّعاية[1]، ومن جانب آخر: فإنَّه أخَّر ﴿وَذُرِّيَّتَهَا﴾، ولم يقل: أعيذها وذرِّيَّتها بك، فيدلُّ ذلك على حالة الاضطراب والخوف على الأنثى الَّتي كانت قد نُذرت، كما يُنذر الذَّكر؛ ليعمل محرَّرًا في بيت المقدس، ففي ذلك دلالة استعجال استحصال الحفظ من الله لها، وتأخير الاهتمام بذرِّيَّتها لما تراه الأمُّ من بُعد الزَّمن لحضور ذرِّيَّتها، وليُعلم أيضًا أنَّ صلاح ذرِّيَّتها آتٍ من صلاحها.

نكتة التَّذييل بذكر الاستعاذة بالله من الشَّيطان:

بيان الحاجة إلى الاستعاذة بالله في كلِّ الأحوال

وقوله: ﴿مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ المطرود، وأصل الرَّجم: الرَّمي بالحجارة، وعن النَّبيِّ ﷺ: «ما مِن بَني آدم مَوْلودٌ إلَّا يَمَسُّه الشَّيطانُ حِين يُولَد، فيَسْتَهِلُّ صارخًا مِن مَسِّ الشيطان، غير مريم وابنها»[2]، ومعناه: أنَّ الشَّيطان يطمع في إغواء كلِّ مولود يتأثَّر منه إلَّا مريم وابنها، فإنَّ الله تعالى عصمهما ببركة هذه الاستعاذة[3].

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/29.
(2) البخاري، الحديث رقم: (3431)، ومسلم، الحديث رقم: (2366).
(3) البيضاوي، أنوار التَّنزيل: 2/14.

فائدة تأكيد الإخبار بإنَّ في مواضع عديدة:

تكرَّرت ﴿إِنِّي﴾ مرّات عديدة، وذلك لزيادة التَّأكيد؛ لأنَّ حال كراهيتها يؤذن بأنَّها سَتُعْرِضُ عنها، فلا تشتغل بها، وكأنَّها أكَّدت هذا الخبر؛ إظهارًا للرِّضا بما قدَّر الله تعالى، ولذلك انتقلت إلى الدُّعاء لها الدّالِّ على الرِّضا والمحبَّة، وأكّدت جملة ﴿أُعِيذُهَا﴾، مع أنَّها مستعملة في إنشاء الدُّعاء؛ لأنَّ الخبر مُسْتَعْمَلٌ في الإنشاء برمَّته الَّتي كان عليها وقت الخبريَّة[1].

المؤمن راضٍ بقضاء الله تعالى، مُسلّمٌ بقدره

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الوضع والحطِّ:

قال الرَّاغب: والوضع أعمُّ من الحطِّ، ومنه الموضع، والوضيعة: الحطيطة[2].

فالحطُّ: فيه ضَغْطٌ بقوّة إلى أسفل، يُقال: حُطّ البعيرُ للمفعول: طَنِيَ، فالتزقت رئته بجنبه، (فالطّنَى: مرض يتمثَّل في هذا)، "المِحَطُّ والمِحَطَّة (آلة): حديدةٌ أو خَشبةٌ يُصْقَل بها الجِلْد حتَّى يلين وَيبرق، ويُنقَش بها الأديمُ، الحَطوط: الأكمة الصَّعبة الَّتي يندفع النَّازل منها بقوَّة كأنَّما ضُغط، واحتطَّ الرّحْلَ: وضعه، ومنه الحَطُّ: وضْع الأحمال عن الدَّوابِّ ونحو ذلك؛ إذْ هو إهباط لارتفاعها بنقل جِرْمها من أعلى إلى أسفل مطاوعة لضَغط ثقلها، وقوله تعالى: ﴿وَٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ سُجَّدٗا وَقُولُواْ حِطَّةٞ﴾ [البقرة: 58]، فُسِّرت بالحَطِّ: وَضْع الحِمل، أي: حُطَّ عَنَّا ذنوبنا[3].

فلا يتناسب الحطُّ مع الولادة، فضلًا عن كرامة المولود؛ ولذلك أوثر التَّعبير بالوضع؛ لما فيه من سعة الدَّلالة، ولما فيه من معنى إسقاطه من بطنها إلى الأرض، وتكريم المولود - ولو كان سِقْطًا - كما في قوله تعالى: ﴿يَوۡمَ تَرَوۡنَهَا تَذۡهَلُ كُلُّ مُرۡضِعَةٍ عَمَّآ أَرۡضَعَتۡ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمۡلٍ حَمۡلَهَا﴾ [الحج: 2].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/234.
(2) الراغب، المفردات (وضع)، والمناوي، التَّوقيف على مهمَّات التَّعاريف، ص: 338.
(3) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصَّل: (حطط).

﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيۡهَا زَكَرِيَّا ٱلۡمِحۡرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزۡقًا ۖ قَالَ يَٰمَرۡيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتۡ هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ ٣٧﴾ [آل عمران: 37]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

بعد الجملة الدُّعائيَّة الَّتي وردت في الآية السَّابقة بقول أمِّ مريم: ﴿وَإِنِّي سَمَّيۡتُهَا مَرۡيَمَ وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾، وفيها ما فيها من التّناسب بين اسم مريم، وبين نذْر ما في بطنها محرَّرًا، بيّن سبحانه في هذه الآية أنَّه قَبِلَ نَذْرَهَا، واستجاب دعاءَها؛ إذْ قال: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ﴾، أي: تقبَّل مريم من أمِّها، ورضي أن تكون محرّرة للانقطاع لعبادته وخدمة بيته.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَتَقَبَّلَهَا﴾: جذر الكلمة (قَبِلَ)، وهو يدُلُّ عَلَى مُوَاجَهَةِ الشَّيْءِ لِلشَّيْءِ، وَالْقِبْلَةُ سُمِّيَتْ قِبْلَةً؛ لإِقْبَالِ النَّاسِ عَلَيْهَا في صَلَاتِهِمْ، وَهِيَ مُقْبِلَةٌ عَلَيْهِمْ أَيْضًا، وَالْقَبِيلُ: الْكَفِيلُ؛ يُقَالُ: قَبِلَ بِهِ قَبَالَةً، وَذَلِكَ أَنَّهُ يُقْبِلُ عَلَى الشَّيْءِ يَضْمَنُهُ.

والمعنى المحوريُّ: مُقدَّم الشَّيء الَّذي يُتَّجَه إليه منه؛ لملاقاته أو النَّفاذ فيه، كأفواه الجَداول والوِدْيان والعُروق، ومن دخول الجَوْف أُخِذَ معنى الفعل (قَبِلَ)، كقَبول الهدية: أدخلها في حَوْزته، ومنه قوله تعالى هنا: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ﴾، وقوله: ﴿وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ﴾ [غافر: 3]، وكذلك يطَّردُ معنى كلِّ ما في القرآن من هذا الاشتقاق أو التركيب، فقوله: ﴿فَتَقَبَّلَهَا﴾، بمعنى: تكفَّل تربيتَها، أو: رضيَها، ولفظ التقبُّل يقتضيهما، قال الحسن: قَبوله إيَّاها أنَّه صانها عن كلِّ أذًى، ولمَّا كان تقبَّل وقَبِلَ يتقاربان، جَمَع بين التَّقبُّل والقَبول؛ تنبيهًا أنَّهُ جَمَعَ من الأمرين التَّقبُّل الَّذي يقتضي الرِّضا والإثابة، أو أنَّ القَبول من قولهم: فلانٌ عليه قبولٌ؛ إذا أحبَّه من رآه[1].

(1) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة: (قبل)، والراغب، تفسير الرّاغب: 2/531 - 2/532، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (قبل).

2) ﴿وَكَفَّلَهَا﴾: جِذر الكلمة (كَفَلَ): وهو يَدُلُّ عَلَى تَضَمُّنِ الشَّيْءِ لِلشَّيْءِ، والكفيلُ: الضَّامن للشّيء، كَفَلَ به يكفُلُ به كَفالةً، والكافِلُ: الَّذي يَكْفُلُ إنسانًا يعوله، ويُنفق عليه، وقوله تعالى: ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّاۖ﴾، أي: هو كَفَل مريم؛ لينفق عليها، حيث ساهموا على نفقتها حين مات أبواها، وأصل الكفالة: الضَّمُّ، ومنه قولهم: كَفَلَ فلان فلانًا؛ إذا ضمَّه إلى نفسه يموِّنه، ويصونه[1].

3) ﴿ٱلْمِحْرَابَ﴾: جِذر الكلمة (حَرَب)، والمعنى المحوريُّ له: هو سَلْبُ الشَّيءِ، أي: سَحْبُه وأخذُه بقوَّة، أو حِدَّة، والمحرابُ: مأوى الأسد، وهو زُبْيَةُ الأَسَدِ تكون في قمَّة الجبل، ومن ذلك كلِّه نفسِّر المحرابَ في قوله تعالى: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ﴾، ﴿وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّي فِي ٱلْمِحْرَابِ﴾ [آل عمران: 39]، ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ﴾ [مريم: 11]، ﴿إِذْ تَسَوَّرُواْ ٱلْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾﴾ [ص: 21]: بأنَّه خَلْوة مرتفعة (غُرْفة)، ينفردُ فيها الرَّجلُ أو المرأةُ عن النَّاس، فذاك هو الَّذي يتأتّى معه استعمال: دخل، وخرج، وتَسَوَّرَ، ومحرابُ المسجدِ اليومَ من ذلك؛ لأنَّه يَسْمح للإمام وحده بالتَّقدُّم أمام النَّاس، ويطلقُ المحرابُ على: صَدْر المجلس، والجمع: محاريب، وعلى الغُرْفة، وعلى القِبْلة، ومِحْرابُ المَسْجِد أَيضًا: صَدْرُه وأَشْرَفُ مَوْضِعٍ فِيهِ، ومَحارِيبُ بَنِي إسرائيلَ: مَسَاجِدُهم الَّتِي كَانُوا يَجلسون فِيهَا، ويَجْتَمِعُون فِيهَا لِلصَّلَاةِ.

ثم أطلق المحرابُ عند المسلمين على موضعٍ كشكل نصف قبَّة في طول قامةٍ ونصفٍ، يجعلُ بموضع القبلة؛ ليقفَ فيه الإمامُ للصَّلاة، وهو إطلاق مُوَلَّد.[2].

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

بعد أن رفعت امرأةُ عمران حاجتها إلى الله تعالى، استجابَ اللهُ دعاءَ امرأةِ عِمْرانَ، وقَبِل منها نَذْرها أحسنَ قَبول، وتقبَّل وليدتَها مريمَ قَبولًا مباركًا خَرَق به عادةَ قومِها، فرضيَ أن تكونَ مُحرَّرةً للعبادةِ وخدمةِ بيتِه كالذُّكور، مع كونها أنثى وفاءً بنَذْر الأمِّ التَّقيَّة، وتولَّى ابنتَها مريمَ بالرِّعاية فأنبتها نباتًا حسنًا، وصانَها من كلِّ سوء، ويسَّر الله لها زكريا

(1) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة، والنسفي، طِلبَة الطَّلَبَة: (كفل).

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن الأجدابي، كفاية المتحفّظ، ص: 170، وابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصَّل: (حرب)، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/237.

عليه السلام كافلًا وضامنًا لمصالحها، وراعيا لشؤونها، فأسكنها في مكان عبادته، وكان كلَّما دخلَ عليها في محراب عبادتها؛ وجد عندها رزقًا هنيئًا مُعَدًّا، قال: يا مريمُ مِن أين لكِ هذا الرِّزقُ الطَّيب؟ قالت: هو رزقٌ من عند الله، رزقني إيَّاه، وساقَه إليَّ بقدرته؛ إنَّ الله - بفضله وواسع جوده - يرزق مَن يشاء مِن خلقه رزقًا واسعًا عظيمًا لا يحدُّه حدٌّ، ولا تجري عليه الأعدادُ الَّتي تنتهي[1].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

فائدة التَّفريع في قوله: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا﴾:

الإيذان بسرعة إجابة الدَّاعي الموقن بكرم ربِّه وعونه

قوله: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾ تفريع على الدُّعاء مؤذن بسرعة الإجابة، ومعنى ﴿فَتَقَبَّلَهَا﴾: تقبَّل تحريرها لخدمة بيت المقدس، أي: أقام الله مريم مقامَ منقطعٍ لله تعالى، ولم يكن ذلك مشروعًا من قبل[2]، فرضي بها في النَّذر مكان الذَّكَرِ[3]، فتحقَّقت من هذا التَّفريع مسألتان: سرعة الإجابة، ومخالفة المعهود، وكان ذلك خاصًّا بمريم بنت عمران.

سرُّ العدول عن (قَبِلَها) إلى ﴿فَتَقَبَّلَهَا﴾:

بيان كمال الرِّضا وموافقته للعناية الذَّاتيَّة

التَّضعيف في ﴿فَتَقَبَّلَهَا﴾ بدل (قبلها)؛ للإيذان بجلالة شأن القبول من حيثُ (الكمُّ)، وكون المُتَقَبِّلِ هو ﴿رَبُّهَا﴾؛ لما فيه من حسن الرِّعاية وكرم الولاية، ودخول الباء على ﴿بِقَبُولٍ﴾؛ لتوكيد الصِّلة بين الفعل (تقبَّل)، ومصدره المُبيِّن لنوعه (قبول)[4]، وقيل: الباء زائدة مؤكَّدة لمضمون الجملة، والقَبول مصدرٌ مؤكِّد للفعل السَّابق، وأصل نظم الكلام: تقبَّلها قبولًا حسنًا، وإنَّما عدَلَ عن الظَّاهر؛ للإيذان

(1) السمرقندي، بحر العلوم: 1/207، وطنطاوي، التفسير الوسيط: 2/87، ونخبة من العلماء، التفسير الميسر، ص: 54.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/235.
(3) البيضاوي، أنوار التّنزيل: 2/14.
(4) المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 1/160 - 161.

بمقارنة التَّقبُّل لكمال الرِّضا، وموافقته للعناية الذَّاتيَّة، فإنَّ صيغة (التَّفَعُّلِ)، المرادُ بها في حقِّه تعالى ما يترتَّبُ عليها من كمال قوَّةِ الفعل وكثرتِه، وقيل: القَبولُ ما يقبل به الشَّيء، وهو اختصاصُه تعالى إيَّاها بإقامتها مُقام الذَّكَر في النَّذر، ولم تُقبلْ قبلها أنثى، أو بأن تسلَّمها من أمِّها عَقيبَ الولادة قبل أن تنشأ، وتصلُحَ للسِّدانة[1].

سرُّ العدول في المرّة الثَّانية عن التَّقبُّل إلى القبول:

إظهار العناية العظيمة في تربيتها ورعايتها منذ صغرها على حبِّ الله تعالى

وقوله: ﴿بِقَبُولٍ حَسَنٍ﴾، الباء فيه للتَّأكيد، وأصل نظم الكلام: فتقبَّلها قبولًا حسنًا، فأدخلت الباء على المفعول المطلق؛ ليصير كالآلة للتّقبُّل، على سبيل الجناس المغاير بين اللَّفظتين، فكأنَّه شيء ثانٍ، وهذا إظهارٌ للعناية بها في هذا القبول[2]، أو بوجه حسنٍ يُقْبَلُ به النَّذائر، وهو إقامتها مقام الذَّكر، أو تسلُّمها عَقِيبَ ولادتها، قبل أن تكبر، وتصلح للسّدانة[3].

دلالة استعارة الإنبات لمعنى الرِّعاية:

بيان كمال رعاية الله تعالى لها وتربيتها جسديًّا وروحيًّا

معناه: وأنبتها، فنبتت هي نباتًا حسنًا، قال ابن عبَّاس في قوله تعالى: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ﴾، أي: سلك بها طريق السُّعداء[4].

وممّا يشابه المعنى قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ نَبَاتٗا ١٧﴾ [نوح: 17]، والمعنى: رعاها، ونمَّاها تنمية جسديَّة وروحيَّة، فأمَّا الجسديَّة؛ فرعاها، وأنبتها على أحسن تقويم، وأنبتها كأحسن نبات، فرعى نبتها، كما يُرعى النَّبات، حتَّى يقوى عوده، وهي استعارة تصريحيَّة تبعيَّة، حيث أنشأها، كما ينشأ النّبات، وفائدة هذه الاستعارة: بيان حسن النَّشأة، فيكون ثمرها على أحسن ما يكون الثَّمر.

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/29.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/235.
(3) البيضاوي، أنوار التّنزيل: 2/14.
(4) الخازن، لباب التأويل: 1/340.

وأمَّا التَّربية الروحيَّة؛ فيكون قوله: ﴿وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا﴾، أي: ربَّاها تربية حسنة، وتقدير الكلام: أنبتها، فنبتت نباتًا[1]، فجيء بالجناس المغاير بين لفظتي النَّبات والإنبات؛ ليشمل الإنبات المعنى المجازيَّ الدَّالَّ على تربيتها الأخلاقيَّة والروحيَّة بما يُصلِحها في جميع أحوالها[2].

قال الزَّمخشريُّ: "نباتها مجاز عن التَّربية الحسنة العائدة عليها بما يصلحها في جميع أحوالها، كالصَّلاح والسَّداد والعفَّة والطَّاعة"[3]، وممَّا يدلُّ على هذا الإنبات قوله بعد ذلك: ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾، وكفالة زكريَّا لها، معناه: أن تعيش في كَنَف نبيٍّ.

وهذه العناية الإلهيَّة العظيمة الظَّاهرة من قوله: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾ إرهاص بأنَّه سيكون منها رسول، وسيكون خاتم رسل بني إسرائيل.

دلالة عطف الخاصِّ على العامِّ:

الدِّلالة على أنَّ كفالة العبد من تمام تقبُّل الله له

قوله: ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾ عطف الخاصَّ: وهي (الكفالة)، على العامِّ: وهو (التَّقبُّل)، وفي هذا العطف توطئة لما بعده[4]، وقيل: معنى التَّقبُّل والقبول، أي: التّكفُّل في التَّربية، والقيام بشأنها[5] على التّرتيب، وإنَّما قال: ﴿بِقَبُولٍ﴾ للجمع بين الأمرين، يعني: التّقبُّل الَّذي بمعنى: التَّكفُّل، والقبول الَّذي بمعنى: الرِّضا[6]، فيكون بذلك قد انتقل من الخَاصِّ إلى العامِّ.

وقد عرف هذا القبول بوحي من اللّه إلى زكريَّا بذلك، وأمره بأنْ يكفلها زكريَّا أعظم أحبارهم، وأنْ يوحى إليه بإقامتها بعد ذلك لخدمة المسجد[7].

(1) الراغب، تفسير الرّاغب: 2/532.
(2) البيضاوي، أنوار التّنزيل: 2/14.
(3) الزّمخشري، الكشّاف: 1/354.
(4) عبد العظيم المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 1/161.
(5) الخازن، لباب التأويل: 1/341.
(6) الخازن، لباب التأويل: 1/341.
(7) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/235.

ودلَّ قوله: ﴿وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّاۖ﴾: إنَّما كانت كفالتها بعد طفولتها، وحجَّة ذلك بوجهين: الأوَّل: أنَّه تعالى قال: ﴿وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾، ثُمَّ قال: ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّاۖ﴾، وهذا يوهم أنَّ تلك الكفالة بعد ذلك النَّبات الحسن، والثَّاني: أنَّه تعالى قال: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّاۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيۡهَا زَكَرِيَّا ٱلۡمِحۡرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزۡقًاۖ قَالَ يَٰمَرۡيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَاۖ قَالَتۡ هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ﴾، وهذا يدلُّ على أنَّها كانت قد فارقت الرِّضاع وقت تلك الكفالة، والجوابُ على القول الأوَّل: أنَّ الواو حرفُ عطف للجمع، لا توجب التَّرتيب، فلعلَّ الإنبات الحسن وكفالة زكريَّا حصلا معًا، وأمَّا الحجَّة الثَّانية؛ فلعلَّ دخوله عليها، وسؤاله منها هذا السُّؤال، إنَّما وقع في آخر زمان الكفالة[1].

تنوُّع الفوائد البلاغيَّة لـ ﴿كُلَّمَا﴾:

تفصيل ما أجمل من التَّقبُّل والقبول والإنبات

قوله: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيۡهَا زَكَرِيَّا ٱلۡمِحۡرَابَ﴾، كُلَّمَا: ظرف عَلى أنَّ (مَا) مصدريّةٌ والزَّمان محذوف، أي: كلَّ زمانِ دخولِه عليها، أو كلَّ وقتٍ دخل عليها فيه[2]، ومن فوائده البلاغيَّة في الآية الكريمة:

أوَّلًا: كون ﴿كُلَّمَا﴾ استئنافًا لتفصيل بعض ما أُجمل في التَّقبُّل الحسن من وجدان الرِّزق عند مريم.

ثانيًا: إفادتها الحصر؛ وأنَّ زكريَّا ما دخل على مريم إلَّا وجد عندها ما تحتاج من طعام وشراب[3]، والتَّقديرُ: كلَّ وقت دخول زكريَّا عليها وجد عندها رزقًا[4].

تكرار ذكر الرِّزق بعد ذِكْرِ الإنبات:

رِزقُ الله تعالى لمريم كرامةٌ لها وإرهاصٌ لدورها المرتقب

اختُلف في الرِّزق، فقيل: إنَّ زكريّا عليه السلام كان يجد عندها طعام الشِّتاء في الصَّيف، وطعام الصَّيف في الشِّتاء، ولم تكن على صلة

(1) الرّازي، مفاتيح الغيب: 8/26.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/30.
(3) المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 1/161.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/236.

بأناس أو خدم يأتونها بشيء، ولو كان أحدٌ يأتيها بالرِّزق غير زكريَّا من حيث لا يعلمه؛ لَمَا أعاد الله ذكره تعجُّبًا من أمرها[1].

دلالة الاستفهام في قوله: ﴿أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا﴾:

تخريج الاستفهام على معنى التَّعجيب

قوله: ﴿قَالَ يَٰمَرۡيَمُ﴾ استئناف بيانيٌّ مرتَّب على سؤال مقدّر: ماذا قال زكريَّا؟ فيأتي الجواب قوله: ﴿أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا﴾، وهو استفهام مشوب بالتَّعجيب، وهذا ما يقتضيه المقام[2]، و﴿أَنَّىٰ﴾ استفهام عن المكان، أي: من أين لك هذا؟ فلذلك كان جواب استفهامه قوله: ﴿مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ﴾[3]، فاستفهام زكريَّا مريم عن الرِّزق؛ لأنّه في غير إبَّانه ووقت أمثاله، قيل: كان عنبًا في فصل الشِّتاء[4]، وقيل: ﴿أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا﴾، لاستكثار ما يرى عندها، واعتبارُ السُّؤال عن المكان أصحُّ[5].

وإنَّما خاطبها عليها السلام بذلك، مع كونها بمعزلٍ من رتبة الخطاب؛ لما علم بما شاهده أنّها مؤيَّدةٌ من عند الله بالعلم والقدرة[6].

نكتة ذكر المسند إليه في الجواب:

تعظيم للرِّزق واعتراف بفضل الرَّازق

﴿قَالَتۡ﴾: استئناف لما قبله، كأنَّه قيل: فماذا صنعت مريمُ، وهي صغيرة لا قُدرةَ لها على فهم السُّؤال وردِّ الجواب؟ فقيل: ﴿قَالَتۡ هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ﴾، فلا تعجبْ، ولا تستبعد[7]، فقوله: ﴿هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ﴾، ولم يكتفِ بالقول: ﴿مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ﴾؛ لما في ذلك الرِّزق من شأن في حياة مريم، وحضوره في ذهنها[8]، فقالت: ﴿هُوَ﴾ إيغالًا في الشُّكر والعرفان لله تعالى.

(1) الراغب، تفسير الرّاغب: 2/533 - 534.
(2) المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 1/161.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/237.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/237.
(5) ابن الجوزي، زاد المسير: 1/278.
(6) البيضاوي، أنوار التَّنزيل: 2/15، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/30، والآلوسي، روح المعاني: 2/135.
(7) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/30.
(8) المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 1/161.

بلاغة حذف الجُمَل في القصَّة القرآنيَّة:

حـذفُ الجمل مـن الإيـجـاز المـفـضي إلى الإعجاز

دلَّ قوله: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا﴾ على كلام محذوف، أي: فكانت مريم ملازمة لخدمة بيت المقدس، وكانت تتعبَّد بمكان تتَّخذه بها محرابًا، وكان زكريَّا يتعهَّد تعبُّدها، فيرى كرامة لها أنَّ عندها ثمارًا في غير وقت وجود صنفها[1]، فهذه كلُّها جُمل محذوفة، وهذا من جميل النَّظم القرآنيِّ في القصَّة؛ إذْ لا يكاد السَّامع أو القارئ للنَّصِّ أن يُحسَّ بحذف هذا الكمِّ من الجمل؛ فقد أُجملت عبارات القصَّة بكلِّ هذه المعاني، وصوَّرتها تصويرًا خفيًّا في إيجازٍ مُعجز.

نكتة التَّعبير بالفعل المضارع في ﴿يَرْزُقُ﴾:

رزق الله واسع لا يَـنـفـدُ ولا يـغـيـض، بـل يتجدّدُ ويزيد

لمّا وصف رزق الله لمريم؛ قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ﴾ بصيغة المضارع الَّتي تفيد التَّجدُّد والاستمرار، فكان رزقه لها متجدِّدًا مستمرًّا متبدِّلًا متنوِّعًا، والتّنكير في الآية ﴿رِزْقًا﴾ أفاد ذلك التَّنوُّع، وتلك الكثرة، ومن جميل السُّؤال أو ما يمكن الوقوف عليه والاستفسار عنه: أين يذهب طعام أمسِ، أو الَّذي قبله ممَّا بقي منه؟ فدلالة المضارع أفادت التَّجدُّد المستمرَّ، في الرِّزق القادم من السَّماء، وإدارة هذه المائدة برعاية الله تعالى.

سِرُّ الكناية في قوله: ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾:

بيان كـثرة رزق الـلـه وتَـنَـوُّعِـهِ وعدمِ نفاده

الحساب في اللُّغة: التَّقتير والتَّضييق[2]، والحساب في قوله: ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ بمعنى: الحصر؛ لأنَّ الحساب يقتضي حصر الشَّيء المحسوب بحيث لا يزيد ولا ينقص، فالمعنى: أنَّ الله يرزق من يريد رزقه بما لا يُعرف مقداره؛ لأنَّه موكول إلى فضل الله[3]، فهو كناية عن الكثرة والتّنوُّع في الرِّزق، أي: بغير تقدير لكثرته، أو من غير

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/236.
(2) ابن الجوزي، زاد المسير: 1/278.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/237.

مسألة سألها على سبيل يناسب حصولها، وهذا كقوله: ﴿وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُۚ﴾ [الطَّلاق: 3][1]، فقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّـهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾، هذا يحتمل أن يكون من جملة كلام مريم، أو أن يكون من كلام الله سبحانه وتعالى.

تكرار مادّة (الرِّزق):

الحضور المكثّف لمـــادّة الـــرِّزق للتأكيد على أنّه رزقٌ حقيقيّ لا مجازي

تكرّرت كلمة الرِّزق أكثر من مرّة، فأتَتْ في قوله: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًاۖ﴾، وفي قوله: ﴿يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾؛ لاعتبار الحقيقة في الرِّزق لا المجاز، وأنَّه رزق يأتيها من عند الله دون وسائط بشريَّة.

دلالة التَّذييل بالعبارة الجارية مجرى التَّمثيل:

تقرير مضمون ما سبق وتأكيد حقيقة الرَّازقيَّة التي هي عنوان الرُّبوبيَّة

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ تذييلٌ مقرِّر ومؤكِّد لمضمون الكلام السَّابق، وتوكيد الخبر: بـ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾؛ ليُكافئ الدَّهشة والتَّعجيب في سؤال زكريَّا عليه السلام وتكرار الإسناد في الجملة: مرَّة إلى المسند إليه، وأخرى إلى الفاعل الضَّمير العائد على المسند إليه؛ لما مرَّ من مكافأة ما في السُّؤال من تعجيب ودهشة، ولأنّ مضمون الجملة حقيقة عظيمة، ومن حقِّ الحقائق العظيمة أنْ يُعبّر عنها بأسلوب فخم عظيم مثلها[2].

ولمَّا كانت هذه العبارة ردًّا على لسان مريم عليها السلام حين تحدَّثت عن الرِّزق الَّذي يأتيها من عند الله؛ أصبحت بعد ذلك تمثيلًا لكلِّ موقف، يُرى فيه عجيب رزق الله تعالى لعباده كثرة وتنويعًا، وإغداق النِّعم على عباده، فيقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

(1) الرّازي، مفاتيح الغيب: 8/28.
(2) المطعنيُّ، التفسير البلاغيُّ للاستفهام: 1/161.

﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ٣٨﴾ [آل عمران: 38]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لمّا عايشَ زَكَرِيَّا عليه السلام أَحْداثَ الأمورِ فيما رآه من أحوالِ مريمَ ابنةِ عمرانَ عليها السلام وهو ما أشارتْ إليه الآيةُ السابقةُ في قوله: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ٣٧﴾ [آل عمران: 37]، هنالك عَلِمَ عِلْمَ تذكُّرٍ؛ وتَجَدُّد اليَقِينُ عنده أنَّ اللّه سبحانه وتعالى في الإمكانِ أن يَخْرُقَ عادته لمن شاء بكلمته، ويُرزَقَه بولدٍ يَخلفُه ويكونُ له وليًّا، فتنبَّهَ إلى ما يَعْلَمُه حقَّ العِلْمِ؛ أنّه - سبحانَهُ - سَمِيعُ دعاءِ المُضطرّينَ، ومُجيبُ دعاءِ المُتوكّلينَ. وأنّ القادرَ على الإتْيانِ بالشّيء في غير أوانه، قادرٌ على الإتيانِ بالولدِ بعد فواتِ كلِّ الأسبابِ، فدعا ربَّه الذي عوَّده الإحسانَ: ﴿قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿لَّدُنكَ﴾: جذرُ الكلمةِ هو (لدن): بمعنى عندَ، ويقال: لَدُنْ، ولَدْ، ولُدْ، ولَدَى، ولَدُنْ أبلغُ من عند وأخصُّ، وتقولُ: وَقَفُوا له من لَدُنِ كذا إلى المَسجدِ، ونحوَ ذلك، إذا اتّصَلَ ما بين الشّيئَينِ، وكذلك في الزَّمان: من لَدُن طُلوعِ الشّمسِ إلى غُروبِها، قال:

فما زالَ مُهْري مَزجَرَ الكلبِ منهم*** لَدُن غُدْوةٍ حتى دنتْ لغُروبِ[2].

ولَدُنْ وَلَدَى ظَرْفَا مَكَان بِمَعْنَى: عِنْدَ، إلَّا أَنَّهُمَا لَا يُسْتَعْمَلَانِ إلَّا في الحَاضِرِ، يُقَالُ: لَدُنْهُ مَالٌ إذَا كَانَ حَاضِرًا، وَلَدَيْهِ مَالٌ كَذَلِكَ، وَجَاءَهُ مِنْ لَدُنَّا رَسُولٌ، أَيْ: مِنْ عِنْدِنَا، وَقَدْ يُسْتَعْمَلُ لَدَى فِي الزَّمَانِ، وفق المَعنى السِّياقيّ؛ كقوله تعالى: ﴿فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ٥﴾ [مريم: 5] يريدُ السّرعَةَ في الإجَابَةِ[3]، وقولِه تعالى: ﴿قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا ٧٦﴾ [الكهف: 76]،

(1) البقاعي، نظم الدرر: 4/363.
(2) الخليل، العَينْ، والراغب، المفردات: (لدن).
(3) الفيومي، المصباح المنير: (لدن).

واللَّدُنُ: اللَّيِّن من كُلِّ شيءٍ، ورُمْحٌ لَدْنٌ، والأُنثى لَدْنةٌ، والجمع: لِدَانٌ ولُدُنٌ، وامرأة لَدِنةٌ: ريّا الشّباب ناعمةٌ[1]. وسِرْنَا لَدُن غُدْوَةٍ: من طُلوعِ الشَّمسِ إلى غُرُوبِها، ومنَ المَجَاز: لَدُنَتْ أخلاقُه، وهو لَدِنُ الخليقةِ: لَيِّنُ العَريكةِ، وتَلَدَّنْتُ في حاجتي: تمكّنْتُ وتلدَّنْتُ بالمكان: أقمتُ، وتلدّنَتْ عليّ راحلَتي إذا لم تَمْشِ[2]، وقدِ اصطفَى القرآنُ الكريمُ (لَدُن) على (عندك)، لِما تدلُّ عليه منَ الوقتِ الحاضرِ طمعًا في جُودِ الكريمِ جلَّ وعزَّ.

2) ﴿ٱلسَّمِيعُ﴾: جذرُ الكلمة هو (سَمِع)، وأصلُ السَّمْع؛ سَمعُ الأصوات، ثم سُمّيتِ الأُذُنُ سمْعًا؛ لأنَّ السّمعَ بها يكون فيما بيننا، وهي المِسْمَعَةُ، والسَّمْعُ ما وقَرَ فيها من شيء تسمعُه. يقال: أساءَ سَمْعًا فأساءَ إجابةً، أي: لم يسمعْ حسنًا فأساءَ الجوابَ[3].

وسمّى الإجابَة سمعًا؛ لأنّها مع السّمعِ تكونُ في أكثر الأوقاتِ، والسّميعُ لا يقتضِي المسموعَ؛ لأنّ فعيلًا جُعلَ للمبالغةِ، وليس هو على مقتضَى فعل، والسَّميعُ من أسماء اللّه تعالى وهو لم يزلْ سميعًا، وسمعه تعالى نوعان:

أحدهما: سمعُه لجميع الأصوات الظاهرة والباطنة، الخفية والجلية، وإحاطته التامَّة بها.

والثاني: سمعُ الإجابة منه للسائلين والدَّاعين والعابدين فيصيبهم ويثيبهم[4].

والسّمعُ في القرآن على وجهين: الأوّل: سمعُ الصوت، قال اللّه: ﴿مَا كَانُواْ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ﴾ [هود: 20] أي: يُعرضُون عنِ الإيمانِ، ويَنصرفونَ عنه انصرافَ مَن لا يستطيعُ سمعَهُ. الثّاني: القَبولُ والإجابةُ، وهذا هو المَعنَى السِّياقي؛ قال اللّه: ﴿إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ أي: مُجيبُه، وأنت تقولُ لصاحبكَ: اسمعْ نَصيحتِي مع أنك تعلُم أنّه يَستجيبُها، وإنّما تُريدُ: اقبل، ونحوُه قولُك لمن تُجلُّه: سمعًا وطاعةً، أي: أقبَلُ ما تَقُولُ، وأطيعُك فيه، وقولُه تعالى: ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ﴾ [الأنفال: 23] أي: لسمّاهم سُمَعاءَ، ولم يُسمّهم صُمًّا بُكمًا[5].

(1) الخليل، العَينْ، وابن سيده، المحكم: (لدن).
(2) الزّمخشري، أساس البلاغة: (لدن).
(3) الخليل، العَينْ: (سمع).
(4) السعدي، تفسير أسماء الله الحسنى: 209.
(5) العسكري، الوجوه والنظائر، ص: 254.

وقد اصطفَى النَّظمُ الكريمُ السَّميعَ على المُجيبِ إلماعًا بما يَقتضيه السَّمعُ من سُرعةِ الإجابةِ.

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

عندما رأى زكريَّا ما أكرمَ اللهُ به مريمَ مِن رزقه وفضله، عند ذلك طمِعَ في الولدِ، - وكان آيسًا منْ ذلك؛ لِما أصابَهُ مِنَ الكِبَرِ هو وامرأتُه - توجَّه إلى ربه قائلًا: يا ربِّ أعطني من عندك ولدًا صالحًا مبارَكًا مُهذَّبًا، مُستويَ الخَلْقِ؛ لتكمُلَ النعمةُ الدينية والدنيوية بالذُّرية الطاهرة الأخلاق والآداب، إنك سميع الدُّعاء لمن دعاك، فأنتَ قادرٌ أن تَرزقَني الولدَ بعدَ هذا الكِبَرِ[1].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغة الفصل في الآية:

الآيـة استئنافٌ مسوقٌ لتحقيقِ ما خَطَر لزَكَرِيَّا عليه السلام من سوانحَ

قولُه: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ﴾ جملةٌ مستأنَفةٌ مَسوقةٌ لتحقيقِ ما خَطَر لزَكَرِيَّا عليه السلام من سوانحَ بعدَ التّحوُّلِ الفِكْريّ الطّارئِ عليه[2]. والقصّةُ مُستقلّةٌ، سِيقَتْ في تضاعيفِ حكايةِ مَريمَ، لِمَا بينهما من قُوّةِ الارتباطِ، والتّداخُلِ، مع ما في إيرادِها من تقريرٍ، وبيانٍ لاصطفَاء آل عِمْرَانَ؛ فإنّ فضائلَ بعضِ الأقرباءِ أدلّةٌ على فضائلِ الآخَرين منهم.

سرُّ كمالِ الاتّصالِ بين مَطلعِ الآيةِ الكريمةِ، وما قبلها

أفـاد التّفصيلُ في الدّعاءِ إثراءَ الـنّـصّ بَلاغيًّا بماتضمّنَهُ من تفصيلِ المطلوبِ المـرغـوبِ فيه بإرادة ذُريّة طيّبة

وقعتِ الجملةُ من قوله تعالى قبْلَها ﴿قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ موقعَ كمالِ الاتّصال؛ إذ كانت بمثابةِ عطفِ البيانِ؛ فبعدَ أن أجملَ في ذِكْرِ دُعاءِ زَكَرِيَّا فقال: ﴿دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ﴾ فَذَكَرَهُ مُجملًا؛ فسَّر ذلك الإجمالَ، وبيّنَ ما تضمّنَه الدّعاءُ،

(1) ابنُ الجوزيّ، زاد المسير: 1/278، والسعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 55، ونخبة من العلماء، التفسير الميسَّر، ص: 55.

(2) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 1/502.

وفصّلَ فيه القولَ فـ ﴿قَالَ رَبِّ هَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةٗ طَيِّبَةًۖ﴾؛ فكان محورُ دُعائِهِ أنْ يهبَ اللّه له الذُرّيّةَ الطّيّبةَ، وقد أفاد هذا التّفصيلُ في الدّعاءِ إثراءَ النّصِّ بَلاغيًّا بماتضمّنَهُ من تفصيلِ المطلوبِ المرغوبِ فيه فهو لايريدُ أيَّ ذُريّةٍ، لكنّه يريدُ ذُريّةً طيّبةً.

سر التّعبير بـ﴿هُنَالِكَ﴾، ووجه زيادة اللام فيه(1):

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿هُنَالِكَ﴾ يقعُ على الزّمانِ والمَكانِ، وإنْ كانَ المكانُ أمْلكَ لهُ[2]. فأَكْثَرُ مَا يَقَعُ (هُنَا) ظَرْفَ مَكَانٍ، وهو أَصْلُهَا[3]، وهو اسْمٌ يُشَارُ بِهِ لِلْمَكَانِ القَرِيبِ؛ نَحْوَ قوله: ﴿إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ٢٤﴾ [المائدة: 24]، و(هناك) في كلام العرب إشارةٌ إلى مكانٍ فيه بُعدٌ، فإنْ ألحقْتَهُ كافَ الخِطَاب دَلّ على المَكانِ البَعيد[4]. فتكون ﴿هُنَالِكَ﴾ أبلَغَ في الدَّلالةِ على البُعدِ[5]، ودخولُ اللَّامِ وَالكَافِ عليه جعلَه لِلْبَعِيدِ؛ نَحْوَ قوله: ﴿هُنَالِكَ ٱبۡتُلِيَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ [الأحزاب: 11]. وخلاصةُ القولِ أنّه في ذَلِكَ المَكَانِ دَعَا زَكَرِيَّا، والكَافُ حَرْفٌ لِلْخِطَابِ، وبها تَصِيرُ (هُنَا) لِلْمَكَانِ البَعِيدِ عَنْكَ، وَدَخَلَتِ اللَّامُ لِزِيَادَةِ البُعْدِ، وكُسِرَتْ عَلَى أَصْلِ التِقَاءِ السَّاكِنَيْنِ هي والأَلِفُ قَبْلَهَا، أو أنها كُسِرَتْ لِئَلَّا تَلْتَبِسَ بِلَامِ المِلْكِ[6].

دَأْبُ الصّالحينَ اغْتِنامُ الأوقاتِ الّتي يُتوقّعُ فيها إجابَةُ الدُّعاءِ

بلاغةُ الاستعارَةِ في زمانيّة الظَّرفِ:

تأتي ﴿هُنَالِكَ﴾ للزّمانِ على سبيلِ الاستعارةِ، فيُشَارُ بِهِ لِلزَّمَانِ اتِّسَاعًا، وخُرِّجَ عَلَيْهِ: ﴿هُنَالِكَ تَبۡلُواْ كُلُّ نَفۡسٖ مَّآ أَسۡلَفَتۡۚ﴾ [يونس: 30][7]، فيُرادُ بها ظرفُ الزّمانِ[8]، فقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿هُنَالِكَ﴾، أي: " في ذلك

مِـن دَواعِـــي إجابة الدّعاءِ أن يكونَ في أزمِنَةٍ، وأمـكـنَـةٍ لـها فضائلُ عندَ الله تعالى

(1) وقد ذُكِرتْ فائدتُه. أبو حيّان، البحر المحيط: 3/142.
(2) الزمخشري، الكشاف: 1/359.
(3) العكبري، التبيان: 1/256.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/107.
(5) ابن عطية، المحرّر الوجيز: 1/427.
(6) العكبري، التبيان: 1/256.
(7) السيوطي، الإتقان: 2/302، والسيوطي، معترك الأقران: 3/253.
(8) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/107.

المكان حيث هو قاعد عند مريم في المحراب، أو في ذلك الوقت فقد يُستعار (هنا)، و(ثَمَّ)، و(حيث) للزمان"[1]، فإنْ حملْناهُ على المكانِ فهو جائزٌ، أي في ذلك المكانِ الذي كان قائمًا فيه عند مَريمَ في المِحرابِ، وشاهَدَ تلك الكراماتِ دعَا ربَّهُ. وإنْ حملْناهُ على الزّمانِ فهو جائزٌ أيضًا، يعني في ذلك الوقتِ دعا ربَّه[2]. أو سأل فيه مَريمَ فأجابتْهُ بقولِها: ﴿هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِۖ﴾[3]. وفائدةُ المجازِ شُمولُ الزّمانِ والمكانِ؛ إذ إنّ كِلَيْهما جائزٌ ومُرادٌ، فزَكَرِيَّا عليه السلام حَالَ ما رأى ما يحدثُ لمريمَ منَ الكراماتِ الإلهيةِ دعَا ربَّه فاجتمعَ فضل الزّمانِ والمكانِ في ذلك المَوقفِ العظيمِ، والخلاصةُ أنّ كلَّ ذلك مرادٌ هنا؛ لأنَّ الوقتَ والزَّمانَ والمكانَ والحال كلَّه من دواعِي استجابةِ الدّعاءِ ومَظِنَّةِ قَبولِه، ولم يزلْ أهلُ الصّلاح يتوخَّوْنَ الأمكنةَ بما حدثَ فيها من خيْرٍ، والأزمنةُ الصّالحةُ كذلك، وما هي إلّا كالذّواتِ الصّالحةِ في أنّها مَحَالُّ تجلِّياتِ رضَا اللّه[4].

الدّعاءُ عِلمٌ لدُنّيّ يتجدّدُ ويتفعّلُ مع رُقيِّ الإنسانِ وسُموِّ رُوحِهِ في دَرجاتِ الإيمانِ والإحسانِ

وظهرتْ على زَكَرِيَّا كراماتُ هذه الكفالةِ، فتعلّمَ من مَكفولتِهِ أسلوبًا جديدًا في التّوسُّلِ واللُّجوءِ إليه - سبحانه - إذ يُكتنزُ في ﴿هُنَالِكَ﴾ دواعٍ لذلك الدّعاءِ في ذلك المكانِ وذلك الزّمانِ والحالِ؛ قال الحَرَالِّي: لمّا أشهدَهُ اللّه - سبحانه وتعالى - أنّه يَخرقُ عادتَه لمن شاء بكَلمتِهِ في حقِّ كفيلتِهِ في الظاهر، دعا ربَّهُ الذي عوّدَهُ بالإحسانِ أن يرزقَهُ ولدًا في غيرِ إبّانِه، كما رزقَ مريمَ رزقًا في غيرِ زمانِه، فوجبَ دعاؤُهُ[5].

بديع التناوب في التعبير عن التّوسُّلُ بالله تعالى بين: (الدّعاء) و(النّداء):

النِّداءُ عامٌّ يَحكي الحالَ الذي ألجأهُ إلى الدُّعاءِ، والدّعاءُ خاصٌّ مُتضمِّنٌ المقصودَ المرجُوَّ نفسَه

أطلقَ التّعبيرُ القرآنيُّ على التّوسُّلِ في موضعٍ دعاءً، وفي موضعٍ آخر نداءً، فقال في سورة مريمَ: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ۝٣﴾ [مريم: 3]. وقال هنا: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥۖ﴾. فسمّى اللّه سبحانه سؤالَ

(1) العكبري، التبيان: 1/256.
(2) الرازي، مفاتيح الغيب: 8/209.
(3) البَيضاويّ، أنوار التّنزيل: 2/15.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/238.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/66.

عبادِهِ له دعاءً، ونداءً[1]، والفَرقُ في المعنَى ظاهرٌ جليٌّ لمن تدبّرَ، وتسمِيتُه نداءً لا يخرجُ عن كونِه عبادةً. فـ ﴿ٱلدُّعَآءِ﴾ المذكورُ في آل عمران، سمّاه في سورة مريمَ ﴿نِدَآءً﴾ [مريم: 3]، وتفسيرُ النّداءِ فيها وصفٌ للحالِ بقولِه: ﴿رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلۡعَظۡمُ مِنِّي وَٱشۡتَعَلَ ٱلرَّأۡسُ شَيۡبٗا وَلَمۡ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيّٗا ۝٤ وَإِنِّي خِفۡتُ ٱلۡمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِي وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرٗا﴾ [مريم: 4، 5]، فشرحَ حالَه مُضمِّنًا ذلك توسُّلَه باللّه - سبحانه - أن يُغيّرَ حالَهُ، وهذا هو النّداءُ. ولعلَّ العلاقةَ بين الدُّعاءِ والنِّداءِ كالعلاقةِ بين الخاصِّ والعامِّ، فالنّداءُ هو حكايةُ الحالِ؛ يَحكِي الحالَ الذي ألجأَهُ إلى الدُّعاءِ؛ فالنِّداءُ عامٌّ والدّعاءُ خاصٌّ مُتضمِّنٌ المقصودَ المرجُوَّ نفسَه، أو أنَّ النّداءَ وصفٌ لحالٍ من أحوالِ الدُّعاءِ، والدُّعاءُ مُحتوَى النِّداءِ ومضمُونُه.

المعنَى المُكتنَزُ في قولِه: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ﴾:

أسـاليـبُ الـدُّعـاءِ تتنوّعُ بتنوُّعِ الأحوالِ والأشـخـاصِ، وخُـصـوصـيّـةِ الزّمانِ والمكانِ

لما رأى زكريا عليه السلام حالَ مريمَ في كرامتِها على اللّه، ومنزلتِها رغِبَ في أن يكون له ولدٌ[2]. تذكُّرًا لما عوَّدهُم اللّه - سبحانه وتعالى - عليه منَ الإكرامِ، وقولُه: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ﴾؛ أيْ في المكانِ نفسِه[3]، وحدثَ ذلك قبل أنْ يخرُجَ، فالتقى الزّمانُ مع المكانِ، مع الحالِ، ويُؤكّدُ ذلك الردُّ المباشرُ للملائكة: ﴿فَنَادَتۡهُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٞ يُصَلِّي فِي ٱلۡمِحۡرَابِ﴾؛ فجمع بين الزّمانِ والحالِ والمكانِ، والمحرابُ مكانُ مريمَ الذي كانت مقيمةً فيه؛ إذْ توجّهَ إلى اللّه بالصَّلاةِ والدُّعاءِ، فنادتْهُ الملائكةُ على الفَورِ كما يُعلنُ عنه استخدامُ الفاء الطاوية الزَّمنَ بين الدُّعاءِ واستجابتِه. فيكونُ معنى ﴿هُنَالِكَ﴾؛ أي: في ذلك الوقتِ والحالِ والمكانِ، وكلُّها عظيمةُ المِقدارِ[4].

النّفسُ المؤمنةُ ترتاحُ إلى تمجيدِ الذّاتِ الإلهيّةِ في خِطابٍ خاشعٍ

بلاغةُ التّحوّلِ في الآية منَ الأسلُوبِ الخَبَريِّ إلى الإنشائيِّ:

في قوله تعالى: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ﴾ انتقلَ الخطابُ منَ الأسلوبِ الخَبريِّ إلى الأسلوبِ الإنشائيِّ الذي جاء مَقولَ القولِ؛

(1) أبابطين، تأسيس التقديس، ص: 77.
(2) الزمخشري، الكشاف: 1/387.
(3) الرّاغبُ، تفسير الرّاغب: 2/535.
(4) البِقاعِيّ، نظم الدّرَر: 2/66.

لبيانِ تفصيلاتِ ذلك الدُّعاءِ، فقال: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾؛ فتضمّنَ الأسلوبُ الانشائيُّ النِّداءَ والأمرَ، اللّذين خرجَا إلى معنًى مَجازيٍّ واحدٍ هو الدّعاءُ.

بَلَاغةُ الالتِفَات منَ الغَائبِ إلى التّكلُّمِ مع التِّكرَارِ بينَهُمَا:

الالتفاتُ حيثُ جاء ضميرُ الغائبِ من قولِه: ﴿رَبَّهُۥ﴾ إلى ضميرِ التّكلّمِ في قولِه: ﴿رَبِّ﴾ فلمّا انتقلَ منَ الإجمالِ إلى التّفصيلِ التفتَ تبعًا لذلك منَ الغائبِ إلى المُتكلِّمِ ليتناسبَ حالُ الحُضورِ في اللِّسانِ والذِّهنِ، مع حضورِ القَلبِ في التّوسّلِ والدُّعاءِ، ومنْ ثَمَّ استحضارُ القُربِ منَ اللّه - تبارك وتعالى - لحظةَ الدُّعاءِ. وبين الكلمتَيْن: ﴿رَبَّهُۥ﴾ و﴿رَبِّ﴾ تكرارٌ؛ فائدتُه التّلذُّذُ بالذِّكر.

التفتَ منتقلًا منَ الإجمالِ إلى التّفصيلِ ليناسبَ حالَ الحضورِ في اللِّسانِ والذِّهنِ مع القَلبِ في الدُّعاءِ

سّرُّ التعبير بجملة ﴿مِن لَّدُنكَ﴾:

أطنبَ زَكَرِيَّا عليه السلام في الدّعاءِ طمعًا في حبِّ اللّه والتَّلذُّذِ في ذكرِه سبحانه فقال: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾؛ ولو قال: ربِّ هبْ لي ذُرّيةً طيّبةً؛ لتحقَّقَ المعنَى المُراد. فقال: ﴿مِن لَّدُنكَ﴾ رغبةً في زيادة ذكرِ اللّه، والتّوسُّلِ إليه سبحانه مع ما في ﴿لَّدُنكَ﴾ من دَلالةِ الحُضور، وطلبِ الإجابةِ السّريعةِ.

منْ مزايَا الدّعاءِ المُستجابِ الإطنابُ في ذكرِ اللّه تلذُّذًا، والثّناءُ عليه تضرُّعًا

خُصوصيّةُ هذا الدُّعاءِ تُوحي باسْتِدعاء الكرمِ الإلهيِّ الذي لا تحدُّهُ حدودُ السُّننِ الكَونيةِ في الخَلْقِ والتّكْوين؛ لأنَّه يعلمُ أنّ حالتَه ممّا بلغَ منَ الكِبَرِ وحالِ امرأتِه العَجوزِ العاقرِ تمنعانِ الإنجابَ الطَّبْعِي، وَفْقَ السُّنَنِ التي وضعَها اللّه تعالى في الخَلْقِ؛ فلمّا قال: ﴿مِن لَّدُنكَ﴾ أراد تجاوُزَ المُحدِّداتِ والموانعِ الطَّبْعيّةِ. فالفائدةُ في قولِه: ﴿مِن لَّدُنكَ﴾ هاهنا أنَّ حصولَ الولدِ في العُرفِ والعادةِ له أسبابٌ مخصوصةٌ، فلمّا طلبَ الولدَ مع فُقدانِ تلك الأسبابِ كان المعنَى: أريدُ منك إلهي أنْ تعزِلَ الأسبابَ في هذه الواقعةِ، وأن تُحدثَ هذا الولدَ

التعبير بـ (من لدنك) طلبٌ للولد بجَعْلِ المَمنوعِ منَ السُّننِ الكَونيةِ في الخَلْقِ والتَّدبيرِ مسموحًا

بمَحْضِ قُدْرتِكَ من غيرِ تَوسُّطِ شيءٍ من هذه الأسبابِ[1]. فقد سألَ اللّه تعالى بقُدرتِهِ على جَعْلِ المَمنوعِ منَ السُّننِ الكَونيةِ في الخَلْقِ والتَّدبيرِ مسموحًا، فدعاه وهو يعلمُ أنّه بحسب قانونِ الأسبابِ والمُسبّباتِ غيرِ مُؤهَّلٍ للإنجاب قطعًا، فسألَ اللّه بقُدرته. قال أبو زهرة: " ﴿مِن لَّدُنكَ﴾، أي: من عندك، أي السبب يكون من عندك لا من عندي، لأن الأسباب عندي قد زالت، ولم يعد إلّا سببٌ منك، وإلّا معجزةٌ تكون فيها المانح المعطي من غير أي علة أو ترتيب. والتعبير بـ ﴿لَّدُنكَ﴾ التي لا تكاد تستعمل في القرآن إلّا في جانب اللّه تعالى يفيد العندية العالية السّامية، لا العنديّة القريبة المقارنة، ولا العنديّة المقاربة"[2].

بلاغة المَجَازِ المُرسل في لفظ (الطيّب):

إطلاقُ الطيّبِ على الصَّالحِ منَ الذُّريّةِ زيادةَ معنًى بصلاحَ الخُلُق، والخَلْقِ معًا، والدّين والطبع معًا

لمّا رأى زَكَرِيَّا من أحوالِ مريمَ تلك العجائبَ، وكان به حاجةٌ إلى الولَدِ مع كِبَرِ سِنِّهِ ووَهَنِ من عظامِه، سأل ربَّه أن يهبَ له ذُرِّيَّةً طيّبةً، أي: صالحَةً، واستعمالُ الطيّبِ في الصّالحِ: كاستعمالِ الخبيثِ في ضدِّهِ، في نحو قولِه: ﴿ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ﴾ [النور: 26]، على أنّ في الطّيّب زيادةَ معنًى على الصّالح[3]؛ إذ تشملُ صلاحَ الخُلُق، والخَلْقِ معًا، وصلاحَ الدّين والطبع معًا، فكان جبلّةً طيّبةً وطبعًا صالحًا، يكون حَصانًا للدِّين والإيمان، فاستعمالُ الطّيّبِ لصلاح الذّريّة جاء على سبيل المَجازِ المُرسَلِ،، والعلاقةُ اللّزومُ؛ فالذّريّةُ الطيّبةُ هي التي يأتي منها أنواعُ الصّالحات في القولِ والعملِ والاعتقادِ، ويُرجى منها خيرُ الدّنيا والآخرة بحصول الآثارِ الصّالحةِ النّافعةِ، ومُشاهدةُ خوارقِ العادات خوّلتْ لزَكَرِيَّا الدّعاءَ بما هو منَ الخوارق، أو منَ المُستبْعَداتِ؛ لأنّه رأى نفسَه غيرَ بعيدٍ عن عنايةِ اللّه تعالى لا سيّما في زمنِ الفيض أو مكانِهِ؛ فسألَ الذّريةَ الطّيّبةَ؛ لأنّ ذلك طِلْبةُ أهلِ الخُصوصِ[4].

(1) الرّازي، مفاتيح الغيب: 21/481.
(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 3/1203.
(3) الراغب، تفسير الرّاغب: 2/535.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/238.

نكتة الدُّعاء بالعُمومِ لـ ﴿ذُرِّيَّةً﴾ وإرادة الخُصوص (الولد الذَّكر):

تـوافـقـتْ مُـعـجـزاتُ وكـرامـاتُ آل عمـران وأقـربـائِـهـم في الـذّريّـةِ وتـمـحـورتْ حولَها

المُلاحظُ أنّ مُعجزاتِ آل عمران وأقربائِهم كآل النّبيّ زَكَرِيَّا عليه السلام تمحورتْ حولَ الذُّريّة؛ فبدأتْ بكرامةِ أمِّ مريمَ بما وهبَ اللّه لها منَ الخيرِ؛ ومرّتْ قصّتُها، وهي تهَبُ ما في بطنها مُحرّرًا طلبًا للذِّكرِ، فوضعت أنثَى كان لها منَ الأثرِ الكبيرِ على تغييرِ مسارِ التّاريخِ الإنسانيِّ؛ فرُزقتْ بمريمَ عليها السلام التي ستكونُ في قابلِ الأيامِ أُمًّا لخاتمِ أنبياءِ بني إسرائيلَ، في مُعجزةٍ فريدةٍ من نوعِها؛ ثمّ بكرامةِ ما وهبَ اللّه لزَكَرِيَّا، ثمّ بكرامةِ مريمَ، وما سيُوهبُ لها، فهي كلُّها محطُّ الذّريّة، ثمّ إنّ يحيى بنَ زَكَرِيَّا، وعيسى بنَ مريمَ، لم يكن لهما ذرّيّةٌ. من هنا فقد سبقتِ الإشارةُ إلى الاهتمامِ بالذُّريّة، فقال تعالى: ﴿ذُرِّيَّةًۢ بَعۡضُهَا مِنۢ بَعۡضٖۗ﴾ [آل عمران: 34].

الذُّرية لفظٌ يقعُ عـلى الـواحـدِ، والجمعِ، والذَّكرِ والأُنـثـى، وهنا طلبَ الذَّكرَ

والذُّريةُ هنا الولدُ، وهو اسمُ جنسٍ، تقعُ على الواحدِ والجمعِ[1]، كما أنَّ الوليَّ يقعُ على اسم جنسٍ كذلك، من قولِه: ﴿فَهَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيّٗا ۝٥﴾ [مريم: 5]؛ وأرادَ فيه بالذّرية واحدًا، ودليلُ ذلك طلبُه وليًّا، ولم يطلُبْ أولياءَ[2]. فالذُّرية هي النّسلُ، وهو لفظٌ يقعُ على الواحدِ، والجمعِ، والذَّكرِ والأُنثى، وهنا طلبَ الذَّكرَ. مع أنّ فيه إشعارًا بكثرةٍ ونَسْلٍ باقٍ؛ فأُجيبَ بولدٍ فردٍ لمّا كان زمانَ انتهاءِ في ظهور كلمةِ الرُّوح، وبأنّه لا يَنْسلُ، فكان يحيى حَصورًا لغلبةِ الرُّوحانيةِ على إنسانيتِه[3]. لقوله في سورة مريمَ: ﴿فَهَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيّٗا ۝٥﴾؛ إذ حَصَرَ بها دُعاءَه على ولايتِه له، فكان حَصُورًا لا يَنسلُ، ولو كان دُعاؤُه كما وردَ في قولِه تعالى: ﴿ذُرِّيَّةًۢ بَعۡضُهَا مِنۢ بَعۡضٖۗ﴾ [آل عمران: 34] لتوالدَ ونسلَ.

(1) الزمخشري، الكشاف: 1/388.
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 1/427.
(3) البِقاعِيّ، نظم الدّرَر: 2/66.

بيانُ تأكيد الخبر في الفاصلة:

تحوّلَ الإنشاءُ في الفاصلة إلى خبرٍ مؤكَّدٍ بـ (إنّ) بقولِه: ﴿إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ وفائدةُ التأكيدِ هنا كاشفةٌ عن ثقةِ الدّاعي زكريّا عليه السلام بأنَّ دعاءَه مُجابٌ، وكأنّه يقرّرُ بلسانِه ما اطمأنَّ إليه قلبُه، فالحقُّ - سبحانه - ليس بحاجةٍ إلى توكيدٍ.

فائدة التوكيد تقرير اللسان ما اطمأنَّ إليه القلبُ من استجابة الدّعاء

بلاغة المَجاز في الفاصلة:

وسَمِيعٌ في قولِه تعالى: ﴿إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ بناءُ اسمِ فاعلٍ[1]، أي: إنّك مُجيبٌ لمن دعاك على الشَّرائط التي بها تُدْعَى[2]؛ فليس المرادُ منه أن يسمعَ صوتَ الدُّعاء فذلك معلومٌ، بلِ المرادُ منه أنْ يُجيبَ دُعاءَه ولا يُخيّبَ رجاءَه، فالسَّميعُ: بمعنى السَّامع. أراد مُجيبَ الدُّعاءِ[3]، وقد أجابَه الحقُّ تعالى فأرسل إليه الملائكةَ مُبشِّرةً، وهذا متأكّدٌ بما قال تعالى حكايةً عن زَكَرِيَّا عليه السلام في سورة مريمَ: ﴿وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ۝٤﴾ [مريم: 4][4]. أي: لم أكنْ غيرَ مُجابِ الدَّعوة، فكنتُ مُجابَ الدَّعوةِ. فسميعٌ بمعنى مُجيب، وهو مَجازٌ لُغويٌّ مُرسلٌ بعلاقةِ اللُّزوم بين السّمعِ والقُدرة على الإجابةِ، ويمكنُ أن يكونَ المعنى أنَّ قُدرتَك على الإجابةِ هي كقُدرتِك على سماع الدُّعاء، فيكونُ استعارةً لعلاقةِ المُماثَلةِ في القُدرة.

السّمع بمعنى القدرة على إجابة الدّعاء

وجه التعبير بصيغة المبالغة:

وصِيغةُ المبالغةِ في ﴿سَمِيعُ﴾ كشفتْ عن التّلهُّفِ والرّغبةِ في طلبِ إجابةِ دُعائه.. واستحصال الذّرّيّة ولدًا وليًّا له.

براعة التَّوشيحِ في الفاصلة:

ختمَ بالدُّعاء في قوله: ﴿إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ وبدأ به، على سبيلِ

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 1/427.
(2) الراغب، تفسير الرّاغب: 2/535.
(3) ابنُ الجوزيّ، زاد المسير: 1/278.
(4) الرّازي، مفاتيح الغيب: 8/207.

التّوشيحِ[1]، وهذا يُوحي للقارئ بمدَى اليقين الذي ملأ قلبَ زَكَرِيَّا - عليه السلام، وهو في موقفِ الدُّعاء ذاك، فبَدأ كلامَه بأسلوبِ الدُّعاء ﴿رَبِّ﴾ أي يا ربّ، وختمَها بكلمةِ ﴿ٱلدُّعَآءِ﴾، فقال: ﴿إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾.

في التوشيح بيانٌ لليقين الذي ملأ قلبَ زَكَرِيَّا عليه السلام، وهو في موقفِ الدُّعاء

بيانُ التّذييلِ في الفاصلة:

في قولِه: ﴿إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ تذييلٌ، فائدتُه: تحقّقُ المُرادِ من دُعاء زَكَرِيَّا، إذْ إنّ فحوى الآيةِ كلِّها، ومجموعَ ما أُريدَ فيها أن يُستجاب الدُّعاءُ، ويُوهَبَ الولدُ ليكونَ وليًّا لزَكَرِيَّا؛ ولذلك أُكِّدتْ بـ (إنّ) لتقوية معنَى التَّذييل للآيةِ الكريمةِ.

فائدة التذييل تحقّقُ المُرادِ من دُعاء زَكَرِيَّا بأن يُستجاب، ويُوهَب الولدُ

توجيه المتشابه اللفظي:

ورد لفظ ﴿سَمِيعُ﴾ مرّتين في القُرآن الكريم مُضافًا إلى ﴿ٱلدُّعَآءِ﴾؛ الأُولى: في دُعاء زَكَرِيَّا هنا ﴿إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾، والثّانيةُ في دُعاءِ إبراهيم عليه السلام في قولِه: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾﴾ [إبراهيم: 39]، والمُلاحَظُ أنّ كِلَا المَوضِعَيْن خاصٌّ بالدُّعاءِ حولَ الذّريّة ممّن لا يصلحُ للإنجابِ بحسَبِ السُّننِ الكونيّةِ في الخَلْقِ والإنجابِ، وفي هذا إيماءٌ بالعلاقةِ والصّلةِ بما ذُكر منَ اصطفاء آل إبراهيم بآل عمران كما ذكرتِ الآيةُ السّابقةُ في قولِه: ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [آل عمران: 33]، إذْ إنّ الأنبياءَ كلَّهم منَ المُصطفَيْن الأخيار. وزاد اللام في لفظ السَّميع في آية إبراهيم؛ لكونه ثناءً بعد إجابة الدّعاء، وتحقّق الوعد.

كِلَا المَوضِعَيْن خاصٌّ بالدُّعاءِ حولَ الذّريّة ممّن لا يصلحُ للإنجابِ بحسَبِ السُّننِ الكونيّةِ في الخَلْقِ والإنجابِ

(1) قال السيوطي في الإتقان: 1/355: وأمّا التوشيح: فهو أن يكون في أول الكلام ما يستلزم القافية.

المحتويات

الجزء الثاني 7

سورة البقرة 9

- [البقرة: 248] 10
- [البقرة: 249] 19
- [البقرة: 250] 40
- [البقرة: 251] 45
- [البقرة: 252] 53

الجزء الثالث 59

- [البقرة: 253] 60
- [البقرة: 254] 77
- [البقرة: 255] 86
- [البقرة: 256] 106
- [البقرة: 257] 117
- [البقرة: 258] 134
- [البقرة: 259] 149
- [البقرة: 260] 172
- [البقرة: 261] 190
- [البقرة: 262- 263] 206
- [البقرة: 264] 226
- [البقرة: 265] 242
- [البقرة: 266] 254
- [البقرة: 267] 269
- [البقرة: 268] 280
- [البقرة: 269] 287
- [البقرة: 270] 294
- [البقرة: 271] 301
- [البقرة: 272] 312
- [البقرة: 273] 322
- [البقرة: 274] 331
- [البقرة: 275] 339
- [البقرة: 276] 352
- [البقرة: 277] 358
- [البَقَرَة: 278- 279] 364
- [البقرة: 280] 371
- [البقرة: 281] 376
- [البقرة: 282] 381
- [البقرة: 283] 430
- [البقرة: 284] 446
- [البقرة: 285] 454
- [البقرة: 286] 468

سورة آل عمران 485

- [آل عمران: 1] 495
- [آل عمران: 2] 497
- [آل عمران: 3] 501
- [آل عمران: 4] 513
- [آل عمران: 5] 523
- [آل عمران: 6] 528
- [آل عمران: 7] 534
- [آل عمران: 8] 551
- [آل عمران: 9] 558
- [آل عمران: 10] 564
- [آل عمران: 11] 581
- [آل عمران: 12] 597
- [آل عمران: 13] 604
- [آل عمران: 14] 615
- [آل عمران: 15] 630
- [آل عمران: 16] 643
- [آل عمران: 17] 648
- [آل عمران: 18] 652
- [آل عمران: 19] 661
- [آل عمران: 20] 671
- [آل عمران: 21] 678

- [آل عمران: 22] 686
- [آل عمران: 23] 690
- [آل عمران: 24] 699
- [آل عمران: 25] 704
- [آل عمران: 26] 709
- [آل عمران: 27] 717
- [آل عمران: 28] 724
- [آل عمران: 29] 732
- [آل عمران: 30] 738
- [آل عمران: 31] 748
- [آل عمران: 32] 752
- [آل عمران: 33] 756
- [آل عمران: 34] 762
- [آل عمران: 35] 766
- [آل عمران: 36] 771
- [آل عمران: 37] 782
- [آل عمران: 38] 791

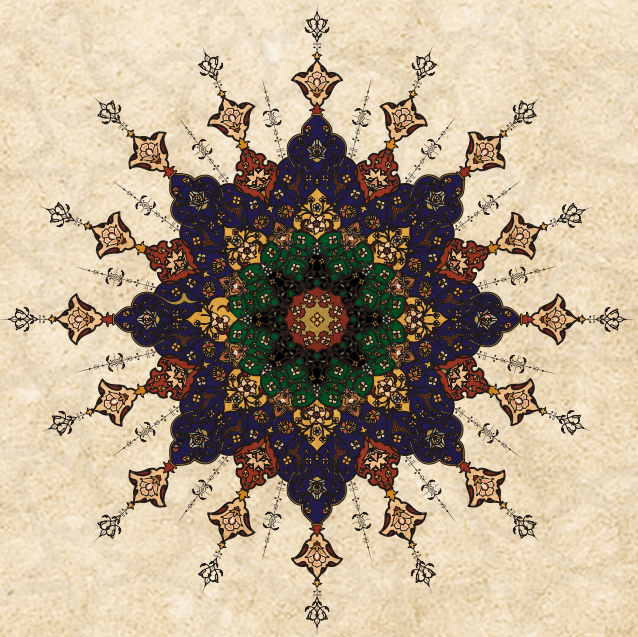

مجمع القرآن الكريم بالشارقة

موسوعة التفسير البلاغي

المُجَلَّدُ الخامِسُ

سورة آل عمران من الآية 39 إلى الآية 140

موسوعة التفسير البلاغي

Government of Sharjah حكومة الشارقة

مجمع القرآن الكريم بالشارقة

HOLY QURAN ACADEMY IN SHARJAH

موسوعة التفسير البلاغي

المُجَلَّدُ الخامِسُ

سورة آل عمران من الآية 39 إلى الآية 140

نُخْبَةٌ مِنْ عُلَماءِ مَجْمَعِ القُرْآنِ الكَرِيمِ بِالشّارِقَةِ

منشورات القاسمي
AL QASIMI PUBLICATIONS
20/23

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الخامس، سورة آل عمران من الآية 39 إلى الآية 140
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1444هـ - 2023م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2023م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: سورة آل عمران من الآية 39 إلى الآية 140 [إشراف مجمع القرآن الكريم،
قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2023.
مج. 5 ، 800 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-798-57-6
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 5 : سورة آل عمران من الآية 39 إلى الآية 140.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث ج- المستغانمي، امحمد صافي

الترقيم الدولي : 978-9948-798-57-6
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-1170694 بتاريخ 2023/03/14م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الجُزْءُ الثَّالِثُ

سُورَةُ آلِ عِمْرَانَ

﴿فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّي فِي ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٣٩﴾﴾ [آل عمران: 39]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

جاءتِ الآيةُ الكريمةُ مَعطوفةً بالفاءِ على ما قبْلَها دَلالةً على سُرعةِ الإجابةِ، فقد نادَتْهُ الملائكةُ فوْرَ دُعائِهِ أنّ اللّه تعالى قدِ استجابَ له وبشَّرتْهُ الملائكةُ بيحيى، وذاك أنَّ زَكَرِيَّا دعا ربَّه في المكانِ والزّمانِ نفسَيْهِما بعْدَ حِوارِ مريمَ، وهو مُستعجِبٌ مُستغرِبٌ ممّا آتاها اللّه منَ الكراماتِ والحَفاواتِ؛ فاستجابَ اللّه له من لحْظتِه ومكانِه فقال: ﴿وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّي فِي ٱلْمِحْرَابِ﴾، أي في المسجد، أو في موقف الإمام منه، أو في غرفة مريم[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَنَادَتْهُ﴾: جذرُ الكلمةِ هو (نَدِيَ): والنَّدَى على وُجُوهٍ: نَدَى الماء، ونَدَى الخيرِ، ونَدَى الشَّرِّ، ونَدَى الصَّوْت[2]. و(النّداءُ): رفعُ الصّوتِ، وهو المعنى السِّياقي هنا، وفلانٌ أنْدى صوتًا، أي أرفعُ، ودارُ النّدوةِ؛ لأنّهم كانوا ترتفعُ أصواتُهم بها، والمُنتدَى والنَّادِي مُجتمَعُ القومِ منه[3]. ونَدَى الصَّوْتِ: بُعْدُ هِمَّته ومذهبِه وصِحَّةُ جرْمه، قال:

بعيدُ نَدَى التَّغريدِ أَرفَعُ صَوْته *** سَحيلٌ وأدناه شَحيجٌ مُحَشرَجُ

ونادَاهُ أي دَعاه بأرفَعِ الصَّوت، و(النَّدَا) أَيْضًا بُعْدُ ذَهَابِ الصَّوْتِ، يُقَالُ: فُلَانٌ (أَنْدَى) صَوْتًا مِنْ فُلَانٍ إِذَا كَانَ بَعِيدَ الصَّوْتِ[4]. (نَادَاهُ مُنَادَاةً) و(نِدَاءً) صَاحَ بِهِ. و(نَادَاهُ) أَيْضًا جَالَسَهُ فِي النَّادِي. و(تَنَادَوْا) نَادَى بَعْضُهُمْ بَعْضًا، وَتَنَادَوْا أَيْ تَجَالَسُوا فِي النَّادِي.. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ﴿١٧﴾﴾ [العلق: 17] أَيْ عَشِيرَتَهُ، وَإِنَّمَا هُمْ أَهْلُ النَّادِي، وَالنَّادِي مَكَانُهُ

(1) الآلوسي، روح المعاني: 2/140.
(2) الخليل، العَينْ، والرّاغبُ، المفردات، والرازي، مختار الصّحاح: (ندي).
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/105.
(4) الخليل، العَينْ، والرازي، مختار الصّحاح: (ندي).

وَمَجْلِسُهُ فَسَمَّاهُ بِهِ. و(نَدَا) مِنَ الجُودِ، يُقَالُ: سَنَّ لِلنَّاسِ (النَّدَى فَنَدَوْا) وَبَابُهُ عَدَا. وَفُلَانٌ (نَدِيُّ) الكَفِّ أَيْ سَخِيٌّ. وهو (يَتَنَدَّى) عَلَى أَصْحَابِهِ أَيْ يَتَسَخَّى، وَلَا تَقُلْ: يُنَدِّي عَلَى أَصْحَابِهِ، و(نَدَى) الأَرْضِ (نَدَاوَتُهَا) وَبَلَلُهَا، وَأَرْضٌ (نَدِيَةٌ) عَلَى فَعِلَةٍ بِكَسْرِ العَيْنِ وَلَا تَقُلْ: نَدِيَّةٌ. وَقِيلَ: (النَّدَى) نَدَى النَّهَارِ وَالسَّدَى نَدَى اللَّيْلِ[1].

2) ﴿وَحَصُورًا﴾: جذرُ الكلمةِ هو (حَصَرَ)، أي عَيَّ فلم يَقْدِر على الكلام[2]. وحصرَ صدرُ المرءِ: أي ضاق عن أمرٍ حَصَرًا. والحُصْرُ: اعتِقالُ البَطْن حُصِرَ، وبه حُصْرٌ، وهو مَحْصُور. والحِصار: مَوضعٌ يُحْصَر فيه المَرءُ، حَصَروه حَصْرًا، وحاصَرُوه، والإحصارُ: أن يَحصُرَ الحاجَّ عن بُلوغ المَناسِك؛ مَرَضٌ أو عَدُوٌّ[3]، والحَصُور كالهَيُوب المُحجِم عنِ الشّيءِ[4]. والحَصُورُ: مَن لا إربةَ له في النِّساءِ[5]، وهو قادرٌ على ذلك، وهذا هو المعنى السِّياقيّ للآية في قوله: ﴿وَسَيِّدًا وَحَصُورًا﴾، والممنوعُ منهنَّ أو مَن لا يشتهِيهُنّ ولا يَقربُهُنّ. ثم استُعملَ لكلِّ مَن لا يُشاركُ في لعبٍ ولَهوٍ ومجانةٍ، قال الأخطلُ:

وشَارِبٍ مُرْبِحٍ بالكأْسِ نادَمَنِي *** لا بالحَصُورِ وَلا فِيها بِسَوَّارِ[6]

والحَصْرُ: المنعُ، والمرادُ: منوعًا نفسَه منَ ارتكاب ما يُعاب عليه[7].

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

فنادتِ الملائكةُ زكريَّا عليه السلام وهو واقف بين يدي الله في مكان صلاته يَدْعوه: بأنَّ الله يخبرك بخبر يسرُّك، وهو أنك ستُرزَق بولد اسمه يحيى، واشتُقَّ اسمُه منَ اسم الله تعالى، والله تعالى حيٌّ، فسمَّاه الله تعالى يحيى، وبأنَّ الله يُحييه، فيكون حيًّا عند الله أبدًا؛ لأنّه شهيد، وحالُ يحيى أنَّه يُصَدِّق بكلمة من الله - وهو عيسى بن مريم عليهما السلام؛ لأنه خُلِق خلقًا خاصًّا بكلمة من الله -، ويكون يحيى سيِّدًا في قومه، له المكانة والمنزلة

(1) الرّاغبُ، المفردات، والرازي، مختار الصّحاح: (ندي).
(2) الخليل، العَينْ، والأزهري، تهذيب اللغة: (حصر).
(3) الخليل، العَينْ، والزمخشري، أساس البلاغة: (حصر).
(4) الخليل، العَينْ: (حصر).
(5) الخليل، العَينْ، والمُطرّزيّ، المغرب في ترتيب المعرب: (حصر).
(6) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 1/502.
(7) الحجازي، التّفسير الواضح: 1/228.

العالية، وحصورًا لا يأتي الذنوب والشهوات الضارة، ويكون نبيًّا من الصالحين الذين بلغوا في الصَّلاح ذِرْوته[1].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ المَجازِ المُرسَلُ:

وجه المجاز في ذكر الجماعةِ وإرادةِ الفردِ تعظيمًا للمنادي جبريل عليه السلام

قولُه: ﴿فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ المُنادِي جبريل؛ وعبّر عنه باسم الجماعة تعظيمًا له؛ لأنّه رئيسُهم، ويجوزُ الإخبارُ عنه بالجَمْعِ؛ لاجتماعِ أصحابِه معه، فجبريلُ رئيسُ الملائكةِ وكلّما يُبعثُ يكونُ معه جمعٌ منهم[2]، وهو مجازٌ مُرسلٌ إذْ ذكرَ الكُلَّ وأراد أحدَهم وهو جبريلُ عليه السلام رئيسُ الملائكةِ، فالعلاقةُ الكُلّيّةُ، ﴿فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ أي من جِنسِهم كقولِهم: زيدٌ يركبُ الخَيلَ، فإنّ المُنادِي كان جبريلَ وحده، يؤكّده قراءة حمزة والكسائيّ وخلف: ﴿فَنَادِىٰهُ﴾ بالإمالةِ والتَّذكير[3]، فإفرادُ الفعلِ في قولِه: ﴿فَنَادِىٰهُ﴾ منسجمٌ مع اعتبارِ أنّ الملائكةَ هو جبريلُ - عليه السلام -، وإن المُنادِي كان جبريلَ وحدَه[4].

في إيثار جماعة الملائكة في النداء إيماءٌ بتأمينها في السّماء على الدّعاء

والملائكةُ هم أهلُ السّماءِ؛ وفي ذكْرِ جماعةِ الملائكةِ في النّداءِ إيماءٌ بتأمينِ أهلِ السّماءِ على دُعائِه، تَشبيهًا بجماعةٍ مُحبّةٍ له؛ قلوبُهم معه، يَرجُون تحقّقَ الدّعاءِ واستجابَتَه، فلمّا أجاب اللّه دعاءَه جاءتْه البُشرى منهم، فصوَّرتِ الآيةُ كأنّ أهلَ السّماءِ كلَّهم جاؤُوه بالبُشرى، وأفاد ذلك المعنى تَعريفُ الملائكةِ بـ (أل) الذي أفادَ التّعظيمَ. فظاهرُ اللّفظِ يدلُّ على أنّ النّداءَ كان منَ الملائكة جميعها، أو نادتْه ملائكةٌ كثيرةٌ ولا شكّ أنّ هذا في التّشريفِ أعظمُ، كما بعثَ تعالى ملائكةً إلى الرّسل تشريفًا.

(1) البغوي، معالم التنزيل: 1/348، ونخبة من العلماء، التفسير الميسَّر، ص: 55.
(2) الثّعلبي، الكشف والبيان: 3/51، والكرماني، مفاتيح الأغاني، ص: 128، والرازي، مفاتيح الغيب: 8/210.
(3) ابن الجزري، النشر في القراءات العشر: 2/239.
(4) البَيضاويّ، أنوار التّنزيل: 1/15.

النّداءُ: رفعُ الصوت، وفلان أنْدَى صوتًا، أي أرفعُ. فسمع زَكَرِيَّا أصواتَ الملائكة أو سمعَ صوتَ جبريلَ وهو يبشّرُ بقَبول الدُّعاءِ وحُصولِ الإجابةِ. وقد أوردَ أبو حيَّانَ الأندلسيُّ في مَعرضِ المُناداةِ معنى النَّدَى: المَطرُ، يقالُ منه نَدى يَندَى ندًى[1]، ولعلّ في ذلك جَلْبًا لمعنى الغَيثِ والإغاثةِ لزَكَرِيَّا الذي جاءتْ به الملائكةُ، فقد أغاثَتْهُ بالبُشرى وقَبولِ الدُّعاءِ، وإجابةِ النّداءِ.

فـي التعبير بالجماعةَ عن رئاستَها عِبرةٌ للنّاسِ بأنْ يجتمعُوا على الخَيرِ ويُطيعُوا أسيادَهم في طاعةِ الله

بلاغةُ التّفريعِ في قولِه: ﴿فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ﴾ ودلالة الفاء:

ومُقتضَى قولِه تعالى: ﴿هُنَالِكَ﴾ والتّفريعُ عليه بقوله: ﴿فَنَادَتْهُ﴾ أنّ المحرابَ محرابُ مريمَ، وقولُه: ﴿وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ﴾ بمعنى يدعُو في المحراب دعاءَه الّذي أرادَ منه هِبةَ الولدِ الوليِّ له.. فجاءته الاستجابةُ، وهو لا زالَ في حيّزِ دُعائِه؛ إذ نادتْهُ الملائكةُ على الفَورِ كما يُعلنُ عنه استخدامُ الفاء الطاويةِ الزَّمنَ بين الدُّعاءِ واستجابتِه[2]. فالفاءُ في قولِه: ﴿فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ﴾ للتَّعقيبِ، أي: استُجيبتْ دعوتُه للوقتِ[3].

وجه التفريع بالفاء الدّلالةُ على سُرعَةِ الإجابةِ

سرُّ التّعبير بالجّملة الحاليّة:

قولُه: ﴿وَهُوَ قَآئِمٌ﴾ جملةٌ حَاليّةٌ والمقصودُ من ذكرِها بيانُ سُرعةِ إجابتِه؛ لأنّ دعاءَه كان في صَلَاتِه[4]، أشعرَ بسريعِ الإجابةِ، ويُؤكِّد ذلك قولُه: ﴿فَنَادَتْهُ﴾ والفَاءُ للتّرتيب والتّعقيب، دونَ التّراخي. قال الحَرَالِّي: فيه إشعارٌ بسُرعةِ إجابتِه ولُزومِه معتَكَفَه وقُنوتِه في قيامِه، وأنَّ الغالبَ على صلاتِه القيامُ؛ لأنّ الصَّلاةَ قيامٌ، وسجودٌ يقابلُه، وركوعٌ متوسّطٌ، فذُكرتْ صلاتُه بالقيامِ

قُصِدَ إلى التّعبير بجملة الحال لترسيخ سرعةِ الإجابة المُعْلنِ عنها بالفاء

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/107.
(2) البِقاعِيّ، نظم الدّرَر: 2/66.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/238.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/239.

إشعارًا بأنَّ حكمَ القيامِ غالِبٌ عليها[1]، فيكون ﴿قَآئِمٌ﴾ على هذا المعنى مَجازًا.

علّة التّعبيرِ باسْمِ الفاعلِ ﴿قَآئِمٌ﴾:

التعبير باسْمِ الفاعلِ دليل المُلازمةِ لأمرِ الصَّلاةِ لله والثُّبوتِ عليها، وإقبالِه على الدُّعاءِ من غيرِ تأخيرٍ

المرادُ بالصَّلاة هنا الدُّعاءُ؛ لأنّه أجابَها وهو في الصَّلاة، كقولِه تعالى: ﴿وَلَا تَجۡهَرۡ بِصَلَاتِكَ﴾ [الاسراء: 110][2]؛ أي بدُعائِك. وعبّر عن لفظِ القيامِ في قولِه سبحانه: ﴿وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّي فِي ٱلۡمِحۡرَابِ﴾ باسْمِ الفاعلِ الدّالِّ على المُلازمةِ والثُّبوتِ على أمرِ الصَّلاةِ للّه - ﷻ - والقيامِ بين يَديْه. ومنْ أمرِ إقبالِه على الدُّعاءِ من غيرِ تأخيرٍ، وخضوعِه عليه السلام وإلحاحِه في الطّلبِ، بدليل ما جاء في سورة مريمَ في قولِه: ﴿إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ۝٣﴾ [مريم: 3]، وذكرنا أنّ النّداءَ يأتي تمهيدًا للدُّعاء، كما يَفعلُ المُحبُّ مع حبيبِه المُقبلِ عليه في قصْدِ خطابِ السّرِّ، الجامعِ بين شرفِ المُناجاةِ ولذاذةِ الانفرادِ بالخلوةِ.. وكانت حصيلةُ تلك اللّحظاتِ الفريدةِ أن تمتدَّ فيه وفي نَسْلِه شجرةُ النّبوّةِ والعلمِ والعملِ.

توجيه القراءةِ بـ﴿إِنَّ﴾ و﴿أَنَّ﴾:

وجهُ الجمعِ بين القراءتين أنّ تأكيدَ الكلامِ بـ (إنّ) مفتوحةً ومكسورةً تحقيقٌ للخبرِ

قرأ ابنُ عامر وحمزةُ ﴿إِنَّ﴾ بكسر الهمزة، والباقون بفتحِها[3]؛ أمّا الكسرُ فعلى إرادةِ القولِ، أو لأنّ النِّداءَ نوعٌ منَ القولِ، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ﴾ كأنه قال: نَادَتْهُ المَلائِكَةُ فقالتْ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ﴾ وما بعد القولِ حكايةٌ، وذكرَ الرّازي المعنَى: أنَّ اللّه يقولُ: فنادَتْهُ الملائكةُ بذلك، وأمّا الفتحُ فتقديرُه: فنادتْهُ الملائكةُ ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ﴾، أي: بأنّ اللّه يُبشّركَ[4]. وعلى كِلتا القراءتينِ فتأكيدُ الكلامِ بـ ﴿أَنَّ﴾

(1) الحراليّ، تراث أبي الحسن الحراليّ، ص: 587.
(2) الأنصاري، فتح الرّحمن، ص: 85 - 86.
(3) ابن الجزري، النشر في القراءات العشر: 2/239.
(4) الأخفش، معاني القرآن: 1/217، والبَيضاويّ، أنوار التّنزيل: 2/15، والرازي، مفاتيح الغيب: 8/210.

مفتوحةَ الهمزةِ ومكسورتَها لتحقيقِ الخبرِ؛ لأنّه لغرابتِه يُنَزَّلُ المُخبَرُ به منزلةَ المتردِّدِ الطّالبِ[1].

بَلاغَةُ المتشابه اللَّفظي:

إنّ الله تعالى هو المُبشِّرُ في الآيتين؛ سواء أكان بواسطةٍ أمْ بدونها

وقد وقعتِ المخالَفةُ في ذكرِ ما في آل عمران، وما وردَ في سورة مريمَ في الألفاظِ من وجوهٍ؛ الأوّلُ منها: أنّ اللّه تعالى صرّح في آل عمرانَ بأنّ المُناديَ هو الملائكةُ بقوله تعالى: ﴿فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّي فِي ٱلْمِحْرَابِ﴾، وفي سورة مريم بقوله: ﴿يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ ۝٧﴾؛ والأظهرُ أنّ المُناديَ في قوله: ﴿يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ﴾ [مريم: 7] هو اللّه تعالى، وعلى العُموم فإنّ اللّه تعالى هو المُبشِّرُ سواء أكان بواسطةٍ أمْ لا[2]، ولا منافاةَ بينهما[3]، ثمّ تفيدُ دَلالةُ الطّباق بين الجمع والإفراد: فتأتي البِشارةُ منَ الجمعِ في قوله: ﴿إِنَّا﴾ [مريم: 7] إلى الإفراد وعلامتُه الكاف في ﴿نُبَشِّرُكَ﴾ [مريم: 7] العائد على زَكَرِيَّا في كلا النّظْمَين؛ لبيانِ عظيمِ ما احتوتْهُ هذه البِشارةُ منَ الكرامةِ والهَيبةِ، وعظيمِ شأنِ زَكَرِيَّا وعظيمِ شأنِ المَوهوبِ يحيى عليهما السلام.

بيانُ المبالغةُ في التّضرّعِ، والمُشاكلةُ في دُعاءِ الله وخطابِ الملائكةِ:

وجهُ المبالغة في الدّعاء الثّناءُ على الله بما هو أهلٌ له

ومن دلائلِ مبالغةِ زَكَرِيَّا في التّضرّعِ ما يُفيدُه عدمُ مخاطبةِ المَلَكِ المُبشِّر له بيحيى والمُنادِي له، بملابسةِ أنّه المباشرُ بما يُعدُّ مندوحةً له لو فعل، وإيثارُه على ذلك مناجاةَ ربّه بالقول: ﴿رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِي عَاقِرٌ﴾، فإذا جاءَه الخطابُ منَ المَلَك ردَّ زَكَرِيَّا مخاطِبًا ربّه، مُتضرّعًا إليه مُسلِّمًا زمامَ أموره إلى مولاه وخالقه حين خاطبَه الملَك بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ﴾. وأمرُ امتثاله حين طلبَ من ربّه أن يجعلَ له آيةً ليتلقّى بها تلك النّعمةَ بالشُّكرِ حين

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/239.
(2) الشربيني، السّراج المُنير: 2/417.
(3) ابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 13/30.

حصولِها أو الوعدِ بها دونَ تأخيرٍ، حتى تظهرَ ظُهورًا معتادًا، وأمرُ ملازمتِه - أثناءَ كلِّ ذلك وقبْلَه وبعدَه - الثّناءَ على اللّه بما هو أهلٌ كما حكى القرآنُ عنه[1] قولَه: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾، وقولَه: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾﴾ [الأنبياء: 89]. فخطابُه كان مُباشرًا مُناديًا ربَّه داعيًا إيّاه، دونَ وَساطةِ المَلَكِ المُتحدِّثِ.

ذِكرُ لفظِ الجلالةِ ﴿ٱللَّهَ﴾ بعد لفظِ ﴿رَبِّ﴾:

قولُه: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ﴾؛ قال الحَرَالِّي: فذَكرَ الاسمَ الأعظمَ المحيطَ معناه بجميع معاني الأسماءِ، ولم يقل: (إنَّ رَبَّكَ)؛ لمّا كان أمرُ إجابتِه من وراءِ الحِكمةِ العاديةِ[2]، وهذه حالةٌ مطّردةٌ في القرآن الكريم أنّه كلّما وردَ لفظُ (ربّ) جاء بعده الاسمُ الأعظمُ (اللّه).

عقّب بذكر اسمه الأعظم بعد الربوبيّة؛ لأن أمر إجابتِه من وراءِ الحِكمةِ العاديةِ

وجهُ دَلالة التّسمية على صفةِ المُسمّى:

ومعنى ﴿يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ﴾؛ يُبشرك بمولودٍ يُسمّى يحيى، فعُلِمَ أنّ يحيى اسمٌ لا فعلٌ، بقرينةِ دُخول الباءِ عليه، وذَكرَ في سورة مريمَ: ﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ ﴿٧﴾﴾ [مريم: 7][3]. وفي قولِه: ﴿بِيَحْيَىٰ﴾ مُسمّى بصيغةِ الدّوامِ، مع أنّه كما قيل: قُتِل؛ إشعارًا بوفاءِ حقيقةِ الحياةِ الأُخرويّة فيه، فلا يَطرقُه طارقُ موتِ الظاهر؛ إذْ قُتل شَهيدًا[4].

العنايةُ بتسميةِ المَولُودِ سُنّةٌ نبويّةٌ؛ لأهميّة الاسم في مكنونِ شخصيّةِ الإنسانِ

وهو اسمٌ لا ينصرفُ؛ لأنّه إنْ كان أعجميًّا ففيه التَّعريفُ والعُجمةُ، وإن كان عربيًّا فالتّعريفُ ووزنُ الفعل، وسمّاه اللّه به قبْلَ أن يُولدَ، وفيه دَلالةُ الاسم على صفةِ المُسمّى، وهذا هو المَرجُوُّ، وإلّا فما العبرةُ من تسمية اللّه له بهذا الاسم. قال قتادةُ: سمّاه اللّه يحيى؛ لأنّه أحياهُ بالإيمان[5].

(1) دسوقي، من بلاغة القرآن، ص: 112.
(2) الحراليّ، تراث أبي الحسن الحراليّ، ص: 587.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/239.
(4) الحراليّ، تراث أبي الحسن الحراليّ، ص: 587.
(5) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 1/437.

تنوّعُ المَجازِ في قولِه: ﴿بِكَلِمَةٍ﴾:

أوّلًا: الكلمةُ بمعنى الكتابِ: التّوراة أو الإنجيل:

المُرادُ بـ ﴿بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أنها كتابٌ منَ اللّه، على سبيلِ المَجازِ؛ إذْ أطلقَ الكلمةَ المفرَدةَ، وأرادَ الكتابَ كلَّه الذي هو جملةٌ منَ الكلماتِ والمُفرداتِ، فأطلقَ الجُزءَ وأرادَ الكُلَّ، وفائدةُ هذا المَجازِ بيانُ أنّ الكتابَ كلَّه من عند اللّه. فهو وحدةٌ متماسكةٌ أساسُها التّوحيدُ للّه – تعالى. فيكونُ معنى قولِه: ﴿بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾، أي بكتابٍ منَ اللّه؛ وهو الإنجيلُ أو التّوراةُ؛ فأوقعَ المفردَ موقعَ الجمعِ، فـ (كلمة): اسمُ جنسٍ. وقيل: الكلمةُ هنا التّوراةُ، وأُطلق عليها الكلمةُ؛ لأنّ الكلمةَ تُطلقُ على الكلامِ[1].

فائدةُ المَجازِ بيانُ أنّ الكتابَ كلَّه من عند اللّه؛ فهو وحدةٌ متماسكةٌ أساسُها التّوحيدُ لله

ثانيًا: الكلمةُ بمعنى عيسى:

اختيارُ الجمهورِ: أنَّ المرادَ من قولِه ﴿بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ هو عيسى عليه السلام وسُمّي عيسى كلمةً في هذه الآية، وفي قولِه: ﴿إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ﴾ [النساء: 171]؛ لأنّه خُلقَ بكلمةِ اللّه، فلمّا كان تكوينُه بمحضِ قولِ اللّه: ﴿كُن﴾ [آل عمران: 47]، وبمحضِ تكوينِه وتخليقِه من غيرِ واسطةِ الأب، لا جرم سُمِّيَ كلمةً، كما يُسمّى المخلوقُ خَلقًا، والمُقدورُ قُدرةً، وهذا بابٌ مشهورٌ في اللُّغة[2]، وهذا من قَبيلِ المَجازِ المُرسَلِ بعلاقةِ المُسبّبيّةِ، وفي هذا المَجازِ الدَّلالةُ على الخُصوصيّةِ والتّفرّدِ في ولادةِ عيسى عليه السلام وكينُونتِه. وحُمل هذا الوجه على الاستعارة.

سُمّي عيسى كلمةً هنا؛ لأنّه خُلق بكلمةِ الله، وبمحضِ تكوينِه وتخليقِه من غيرِ واسطةِ الأب

ثالثًا: الكلمةُ بمعنى الكلامِ:

إنَّ عيسى عليه السلام تكلَّمَ في الطُّفوليةِ، وآتاه اللّه الكتابَ في زمانِ الطُّفوليةِ، فكان في كونِه مُتكلِّمًا بالغًا مبلغًا عظيمًا، فسُمّي كلمةً

تخصيصُ عيسى عليه السلام بالكلامِ مُشابهةً بآدم إذ علّمَهُ الأسماءَ كلَّها

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/240.
(2) الرازي، مفاتيح الغيب: 8/211.

بهذا التأويلِ.. وهذا أيضًا من قَبيل المَجازِ، إذْ أُطلق الاسمُ على الكلمة التي نطقَ بها؛ فهو مجازٌ مُرسلٌ بعلاقة المنطوقِ به، فأطلقَ المنطوقَ به، وأراد الناطقَ نفسَه.

رابعًا: المَجازُ في الكلمةِ لدَلالةِ إرشادِه إلى الحقائقِ:

كلامُه في المَهدِ يُوحي بأنّه مُعَلَّمٌ، وبمعرفةِ الحقائقِ الخافيةِ عنِ النّاسِ خبيرٌ

وسُمّي كلمةً؛ لأنّ الكلمةَ كما أنها تفيدُ المعانيَ والحقائقَ، كذلك عيسى كان يُرشِدُ إلى الحقائقِ والأسرارِ الإلهيةِ[1]، وهذا مجازٌ مرسلٌ علاقتُه الحاليّةُ، فأطلقَ الكلمةَ على عيسى وأراد حالَه وشدّةَ همَّتِه في إرشادِ النّاسِ إلى الحقائقِ، كوحدانيّةِ اللّه تعالى وقدرتِه في الخَلْقِ والتّقديرِ، وفائدةُ المجازِ أنه صوَّرَ عيسى عليه السلام وكأنّ همَّهُ كُلَّه مُنصَبٌّ على إيصالِ الرّسالةِ إلى النّاسِ وما كُلِّف به.

خامسًا: المَجازُ في الكلمةِ بمعنى البِشارة بِه في كُتُبِ الأنبياءِ:

ضمَّتِ الكُتبُ السّماويّةُ بِشاراتٍ بالأنبياءِ لزيادةِ إيمانٍ ويقينٍ وحفاوةٍ في الدِّينِ

وردتِ البِشارةُ بعيسى عليه السلام في كُتبِ الأنبياءِ الذين كانوا قبْلَه، فلما جاءَ قِيل: هذا هو تلك الكلمةُ، فسُمّي كلمةً بهذا التأويل، قالوا: ووجهُ المجازِ فيه أنَّ مَن أخبرَ عن حدوثِ أمرٍ فإذا حدثَ ذلك الأمرُ قال: قد جاءَ قولي وجاءَ كلامي؛ أي ما كنتُ أقولُ وأتكلّمُ به، ونظيرُه قولُه تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۝٦﴾ [غافر: 6]، وقال: ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٧١﴾ [الزمر: 71][2].

توجيه إمكان أنْ يُطلقَ الاسمُ على الحَقِيقَةِ:

قد يُسمّى الإنسانُ بـ (فضل اللّه) و(لُطف اللّه)، فكذا عيسى عليه السلام كان اسمُه العلَمُ: (كلمة اللّه)، و(روح اللّه)، ولكنْ يضعُفُ هذا الرَأيُ أمَام تفسيرِ قولِه تعالى: ﴿وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ [النساء: 171].

(1) الرازي، مفاتيح الغيب: 8/210.
(2) ابن عادل، اللباب في علوم الكتاب: 5/197.

بلاغة الاستعارة في قولِه: ﴿مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ﴾:

المراد بالكلمة عيسَى عليه السلام، وأجْرَى تعالى اسمَ (الكلمة) عليه لتقدُّمِ البِشارةِ بِه

وقولُه تعالى: ﴿مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ استعارةٌ؛ لأنّ المُرادَ بهذا القولِ عيسَى عليه السلام والعُلماءُ مختلفونَ في هذه اللّفظةِ، فمِنْ بعضِ ما قِيل في ذلك، أنّ بِشارةَ اللّه تعالى سبقتْ بالمسيح عليه السلام في الكُتُب المُتَقدِّمةِ، والنّذاراتِ السّالفةِ، فأجْرَى تعالى اسمَ (الكلمة) عليه لتقدُّمِ البِشارةِ بِه. والبِشارة إنّما تكونُ بالكلام[1].

وجه تخصيص يحيى بتصديق الكلمة:

وقد ضُمَّتْ إلى بِشارته بالابن بِشارةٌ بذريةٍ طيّبةٍ كما رجا زَكَرِيَّا، فقيل له: ﴿مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾، فمصدّقًا حالٌ من يحيى، أي: كاملُ التَّوفيقِ لا يتردّدُ في كلمةٍ تأتي من عند اللّه. وقد أُجملَ هذا الخبرُ لزَكَرِيَّا ليَعلمَ أنَّ حادثًا عظيمًا سيقعُ يكونُ ابنُه فيه مُصدِّقًا برسولٍ يجيء وهو عيسَى عليهما السلام[2]. فإن قلتَ: لمَ خصَّ (يحيى) عليه السلام بقولِه: ﴿مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ مع أنَّ كلَّ واحدٍ منَ المؤمنين مُصدِّقٌ بجميعِ كلماتِ اللّه تعالى؟ فالجواب: لأنّ معناه مُصدِّقًا بـ (عيسى) الذي كان وجودُه بكلمةٍ منَ اللّه تعالى وهو قولُه: كنْ من غيرِ أبٍ في الوجودِ أو المَرتبةِ، وكان تصديقُ يحيى لعيسى أصدَقَ من تصديقِ كلِّ أحدٍ به[3]، كحال الصّدّيق أبي بكر رضي الله عنه لرسولِ اللّه صلى الله عليه وسلم.

بيانُ التَّخصيص أنّ يحيى مصدّقٌ بـ (عيسى) الذي كـان وجـودُه بكلمةٍ منَ الله، ولكون تصديقِهِ أصـدَقَ من تصديقِ كلِّ أحدٍ به

براعة التّرقّي في تَعدادِ صفاتِ يحيى عليه السلام:

ذَكَرَ اللّه تعالى من صفات يحيى ثلاثًا[4]:

(1) الرّضي، تلخيص البيان، ص: 123.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/239.
(3) الأنصاري، فتح الرّحمن، ص: 85 - 86.
(4) الرازي، مفاتيح الغيب: 8/210.

الصِّفةُ الأُولى: وصفه بالتّصديق:

قولُه: ﴿مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾؛ وقد نُصبَ على الحال؛ لأنّه نكرةٌ، ويحيى معرفةٌ، والمعنى مصدّقًا بعيسى عليه السلام سُمّي بذلك لأنّه وُجد بأمرِه تعالى دونَ أبٍ، فشابَه البِدعياتِ التي هي عالَمُ الأمر، أو بكتابٍ مِن الله[1]. قال ابنُ عباس ومجاهدُ وقتادةُ والحسنُ والسّدي وغيرُهم: (الكلمةُ) هنا يراد بها عيسى ابن مريم[2]. فسّمّى الله تعالى عيسى كلمةً؛ إذْ صدرَ عن كلمةٍ منه تعالى لا بسببِ إنسانٍ آخرَ كعُرْفِ البشرِ.

المعنى مصدّقًا بعيسى عليه السلام، وسُمّي بذلك لأنّه وُجد بأمرِه تعالى دونَ أبٍ، وصدرَ عن كلمةٍ منه تعالى لا بسببِ إنسانٍ آخرَ كعُرْفِ البشرِ

الصّفةُ الثّانيةُ: وصفُه بالسيّدِ:

﴿وَسَيِّدًا﴾ يسودُ قومَه ويفُوقُهم في الشّرفِ وفي محامدِ الخصالِ حتى قدّمُوه على أنفسِهم، واعترفُوا له بالفَضلِ، وكان فائقًا للنّاس كلِّهم في أنه مَا هَمَّ بمعصيةٍ قطّ[3].

صفةُ السّيّدِ تحتملُ صفاتٍ عديدةً أهمُّها الحلمُ مع النّاسِ

ووصْفُه بالسيّد في قولُه: ﴿وَسَيِّدًا﴾ يشملُ جملةً منَ الخصال التي يُمكنُ أن تقع تحت مِظلّتِها، وقد أورد العلماءُ والمُفسّرون ذلك في تفاسيرِهم، فهو سيّد في الحِلمِ والعِلمِ والفقاهة والعبادةِ والورعِ، والتّقوى، والشّرف، وعدم غلبة الغضبُ[4]، ولِتحصيلِه الرئاسةَ الدّينيةَ فيه من صبَاه، فنشأ مُحترَمًا من جميع قومِه، قال تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ۝١٢ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةً﴾ [مريم: 12، 13][5].

الصّفةُ الثّالثةُ: (الحَصورُ) والمسائلُ البلاغيةُ فيه:

الحَصورُ الذي يكتم السرَّ ويحبِسُه، والمُبالِغُ في حبْسِ النَّفس عنِ

(1) البَيضاويّ، أنوار التّنزيل: 2/15.
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 1/429.
(3) البَيضاويّ، أنوار التّنزيل: 2/15، وأبو حيّان، البحر المحيط: 3/107.
(4) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 1/429.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/241.

الشّهواتِ والملاهِي[1]. وإنما سُمّي السّجنُ حصيرًا؛ لأنه يمنعُ منَ الخروجِ[2]. فالحصورُ: فعولٌ منَ الحَصْرِ، وهو للمبالغة من حاصَر، وهو الذي لا يأتي النّساءَ لا للعجْزِ؛ بل للعِفّةِ والزُّهدِ.

سببُ إتْباعِ صفةِ الحَصور بالسّيّد:

تندُرُ ثنائيّةُ (السّيّد الحَصور) ولذا فقد مدحَها الله ليحيى وذكرَها في القرآن الكريم

مع كون يحيى عليه السلام سيّدًا في قومه، وإمكانه أن يتخيّر أرقى النِّساءِ منزلةً وجمالًا إلّا أنّه أعرضَ عن ذلك، ومنعَ نفسَه تقرُّبًا إلى اللّه تعالى؛ فمدحَ اللّه تعالى هذا العملَ، ووصفَه سيّدًا حَصورًا، إذ لا يصلحُ ورودُ الحَصور مدحًا إلّا مع كونه سَيّدًا.. فحصَر يحيى حياتَه على عبادةِ اللّه تعالى.

بلاغة الاستعارةُ في معنى (الحَصور):

وجه الاستعارة عدمُ الدّخول في اللّعبِ واللّهوِ

وصفُ الحَصور إشارةٌ إلى الزُّهد التامِّ؛ فلمّا اجتمعا حصلتِ النّبوةُ بعد ذلك؛ لأنّه ليس بعدهما إلّا النّبوةُ[3]. والحَصورُ الذي لا يَقربُ النِّساءَ حصْرًا لنفسه، أي منعًا لها منَ الشّهواتِ، وقيل: هو الذي لا يدخلُ مع القومِ في الميسرِ، فاستُعيرَ لمن لا يدخلُ في اللّعبِ واللّهوِ[4]. ووسِّطتْ هذه الصّفةُ بين صفاتِ الكمالِ تأنيسا لزَكَرِيَّا، وتخفيفًا من وَحْشتِه لانقطاع نَسْلِه بعد يحيى[5].

تَعدادُ الخصالِ الكريمةِ لـ (يحيى):

تعداد الخصال بالواو إيذانٌ باستقلال كلّ واحدةٍ منها في شخصيّة يحيى

عطفُ ﴿وَسَيِّدًا﴾ على ﴿مُصَدِّقًا﴾، وعطفُ ﴿وَحَصُورًا﴾ وما بعدَه عليه، يُؤذنُ بتَعدادِ تلك الخصالِ العظيمةِ في يحيى، ومُغايرتِها لبعضِها؛ فلا توكيدَ معنويًّا في ذكرِها، وإنّما الاستقلاليّةُ واضحةٌ لكلّ واحدةٍ منها في شخصيّة يحيى - عليه السلام -؛ فكلُّ صفةٍ قائمةٌ بذاتِها.

(1) البَيضاويّ، أنوار التّنزيل: 2/15، الطيبي، فتوح الغيب: 4/98.
(2) الطيبي، فتوح الغيب: 4/98.
(3) الطيبي، فتوح الغيب: 8/213.
(4) الزمخشري، الكشّاف: 1/388.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/241.

سرّ الجمع بين النبوّة والصلاح في الفاصلة:

وجه الجمع أنّ للأنبياءَ قدرًا من الصّلاحِ لو انتقصَ لانْتفتِ النُّبوّةُ

مع أنّ منصبَ النّبوةِ أعلَى من صفة الصّلاحِ؛ فإنّه وُصِف بالصّلاحِ بعده بقوله: ﴿وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾[1]، على غرار قولِ سليمان عليه السلام بعد حصولِ النّبوةِ: ﴿وَأَدۡخِلۡنِي بِرَحۡمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ١٩﴾ [النمل: 19]. وتحقيقُ القولِ فيه: أنّ للأنبياءَ قدرًا منَ الصّلاحِ لو انتقصَ لانْتفتِ النُّبوّةُ، فذلك القدرُ بالنِّسبةِ إليهم يَجري مجرَى حفظِ الواجباتِ بالنّسبة إلينا، ثم بعدَ اشتراكِهم في ذلك القَدْرِ تتفاوتُ درجاتُهم في الزيادة على ذلك القَدْر، وكلُّ من كان أكثرَ نصيبًا منه كان أعلَى قدْرًا. فقولُ الزَّمَخْشري: "ناشئًا منَ الصالحين"، وعلى هذا ﴿مِّنَ﴾: للابتداءِ، وعلى قولِه: "أو كائنًا من جُملة الصالحين": للتَّبعيض[2]. وقولُ البَيضاوِيّ: ﴿وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ ناشئًا منهم أو كائنًا من عِدادِ من لم يأتِ كبيرةً ولا صغيرةً[3] والمعنيانِ لايتعارضانِ فأحدُهما من جهة النّشأةِ، وثانِيهما من جهة الاتِّصاف بالصَّلاح.

(1) الرّازي، مفاتح الغيب: 8/213.
(2) الطيبي، فتوح الغيب: 4/100.
(3) البَيضاويّ، أنوار التّنزيل: 2/15.

﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَقَدۡ بَلَغَنِيَ ٱلۡكِبَرُ وَٱمۡرَأَتِي عَاقِرٞۖ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ ٤٠﴾ [آل عمران: 40]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

وقعتِ الآيةُ الكريمةُ من سابقتِها موقعَ الجوابِ عن سؤالٍ، والمناسبةُ أنّ زَكَرِيَّا قد بشّرتْهُ الملائكةُ بقَبول دُعائِه، فهالَتْهُ قدرةُ اللّه في سرعةِ إجابةِ الدّعاءِ أوّلًا، ثمّ قدرتُه في الخَلْقِ والتّقديرِ، فتساءلَ: كيف يتمُّ هذا مع العوائقِ القائمةِ بشيخوختِه وعجْزِ امرأتِه العاقرِ؟ وهو تساؤلُ المُستشرفِ لإزاحةِ هذه العوائقِ لا اليائسِ منها، ولَيْسَ مِنَ الشَّكِّ في صِدْقِ الوَعْدِ، وهو كَقَوْلِ إبْراهِيمَ ﴿لِّيَطۡمَئِنَّ قَلۡبِي﴾ [البقرة: 260]، فَأُجيبَ بِأنَّ المُمْكِناتِ داخِلَةٌ تَحْتَ قُدْرَةِ اللّهِ تَعالى وإنْ عَزَّ وُقُوعُها في العادَةِ: ﴿كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ﴾[1].

شرحُ المُفرداتِ:

1) ﴿غُلَٰمٌ﴾: جذرُ الكلمةِ هو (غَلِمَ)؛ غَلِمَ يَغْلَمُ؛ أَصْلٌ صَحِيحٌ يَدُلُّ عَلَى حَدَاثَةٍ وَهَيْجِ شَهْوَةٍ، والمِغْلِيمُ يَستوي فيه الذّكرُ والأنثى، يقال: جاريةٌ مِغليمٌ. واغتَلَمَ الشّرابُ: صلُبَ واشتدَّ. والغُلامُ هو الطارُّ الشّاربِ. والغلامةُ: الجاريةُ، وَالْجَمْعُ غِلْمَةٌ وَغِلْمَانٌ، وَالْغَيْلَمُ: الْجَارِيَةُ الْحَدَثَةُ. وَالْغَيْلَمُ: الشَّابُّ، والولد غلامٌ من ولادته إلى أن يَحْتَلم. وهذا من باب التفاؤلِ، فأساسُ تسميته غلامًا هو اغتلامُه، أي بلوغه حالةَ الرغبة في الأنثى، ويقال: اغْتَلَمَ الْفَحْلُ غُلْمَةً: هَاجَ مِنْ شَهْوَةِ الضِّرَابِ[2].

2) ﴿بَلَغَنِيَ﴾: جِذرُ الكلمةِ هو (بَلَغَ)، بلغَ الشّيءُ يبلغُ بلوغًا: وصَلَ وانتهَى. وأبلغه هو، وبلَّغه.

وتبلّغَ بالشَّيء: وصلَ به إلى مُرادِه. وبلغَ مبلغَ فلان، ومبلغتُه. والبلاغُ: ما أبلغَك[3]. وفي التّنزيل: ﴿إِلَّا بَلَٰغٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦۚ﴾ [الجن: 23]، أي: لا أجدُ مَنجَى إلّا أن أبلّغَ ما أُرسلتُ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/242.

(2) الخليل، العَينْ، وابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المُفردَات: (غلم)، وأبو حيان، البحر المحيط: 6/141.

(3) ابن سيده، المحكم، والزّمخشري، أساس البلاغة: (بلغ).

به، ويقال: وَلِي فِي هَذَا بَلَاغٌ أَيْ كِفَايَةٌ. وبلغَ الغلامُ: احتلَمَ، كأنه بلغَ وقتَ الكتابِ عليه والتّكليفِ. وكذلك: بلغتِ الجاريةُ، ويقال: هُوَ أَحْمَقُ بِلْغٌ وَبَلْغٌ، أَيْ إِنَّهُ مَعَ حَمَاقَتِهِ يَبْلُغُ مَا يُرِيدُهُ. وَالْبُلْغَةُ مَا يُتَبَلَّغُ بِهِ مِنْ عَيْشٍ، كَأَنَّهُ يُرَادُ أَنَّهُ يَبْلُغُ رُتْبَةَ الْمُكْثِرِ إِذَا رَضِيَ وَقَنَعَ، وَكَذَلِكَ الْبَلَاغَةُ الَّتِي يُمْدَحُ بِهَا الْفَصِيحُ اللِّسَانِ؛ لِأَنَّهُ يَبْلُغُ بِهَا مَا يُرِيدُهُ، وتبالغَ الدّباغُ في الجلد: انتهى فيه. وبلغتِ النّخلةُ، وغيرُها من الشجر: حان إدراكُ ثمرِها[1].

3) ﴿عَاقِرٌ﴾: جذر الكلمة (عَقَرَ)، والعُقْر مصدرُ العاقر، وهي التي لا تَحْمِلُ، يقال: امرأةٌ عَاقِرٌ وبها عُقْرٌ، ونسْوَةٌ عَواقِرُ وعُقَّرٌ. وقد عَقَرَتْ تَعْقِر، (وعُقِرتْ) تُعْقَرُ أحسنُ؛ لأنَّ ذلك شَيْءٌ يَنْزِل بها وليس من فعلِها بنفسِها[2]. و(العاقر) من لا يُولدُ له، رجلاً كان أو امرأةً، مشتقٌّ من العُقر وهو القطعُ؛ لقطعهِ النّسلَ[3]، والعُقار الخمرُ؛ لكونه كالعاقرِ للعقْلِ، والمُعاقرةُ إدمانُ شُربِهِ[4].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

قال زكريا عليه السلام فرحًا متعجِّبًا - لَمَّا بشَّرته الملائكةُ بإجابةِ الدُّعاءِ وبالولدِ -: ربِّ أنَّى يكون لي غلامٌ مع أنَّ الشَّيْخوخةَ قد بلغت مني مَبْلَغَها؛ إذ كان في التِّسعين أو أكثرَ، وامرأتي عقيمٌ لا تَلِدُ، وكلٌّ واحدٍ من الأمرين مانعٌ من وجود الوَلَد، فكيف وقد اجتمعا؟ قال: كذلكَ يفعل اللّه ما يشاء من الأفعال العجيبةِ المخالفةِ للعادة، فكما أنَّه تعالى قَدَّر وجودَ الأولاد بالأسباب التي منها التَّناسلُ، فإذا أرادَ أنْ يوجدهم من غير ما سَببٍ فَعَلَ، فهو على كل شيء قدير، يفعل ما يشاء بحِكْمته وعِلْمه[5].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

فنّ السُّؤال والجواب[6]:

تكرّرَ فنُّ السُّؤالِ والجوابِ في القِطعةِ القرآنيّةِ في قولِه في السُّؤال: ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ﴾ وقوله في الجوابِ: ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ﴾. ومن فوائدِ هذا الفنِّ اختصارُ المشهدِ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن سيده، المحكم، والفيومي، المصباح المنير: (بلغ).
(2) الخليل، العَينْ، والراغب، المُفردَات: (عقر).
(3) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 1/502.
(4) الراغب، المُفردَات: (عقر).
(5) السّمرقندي، بحر العلوم: 1/211، والسعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 55، ونخبة من العلماء، التفسير الميسَّر، ص: 55.
(6) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/142.

ومُحتواه في جُملتَيْن مُتتاليتَيْن مُباشرتين، ففي هذا الفنِّ منَ الإيجاز والبيانِ ما فيه؛ إذ يُقدّمُ مشهدًا حِواريًّا حيًّا، وينقلُ المُتلقّي إلى لحظاتٍ زمنيّةٍ غابرةٍ لكنّها في القرآن تُعبّرُ عن لحظاتٍ مفصليّةٍ تَروي قصصَ الإيمان، وتُقدّمُ قيمَ الحياة والدّين.

أسلوبُ السُّؤالِ والجوابِ منهجٌ علميٌّ قيِّمٌ في توثيقِ الوقائعِ والعلومِ والأحداثِ

مناسبةُ ذكْرِ الغُلام بعد الحَصُور:

الغلامُ يُذكرُ في مَعرضِ الكِنايةِ عنِ القُوّةِ، فقال: ﴿غُلَٰمٌ﴾ في تعبيرِه به في سياقِ الحَصورِ دليلٌ على أنّه في غايةِ ما يكونُ من صحّةِ الجسمِ وقُوّتِه اللّازمِ من شدّةِ الدّاعيةِ إلى النِّكاحِ، وهو مع ذلك يَمنعُ نفسَه منه مَنعًا زائدًا على الحدِّ، فهو مُقبلٌ على العبادةِ بكلّيتِه ومُعرضٌ عن كلِّ ما يَشْغَلُ عنها جملةً لا سيّمَا النّكاحُ، بحيث يُظنُّ أنه لا إرْبَ له فيه، وهذا المُوافقُ للتَّعبيرِ الأوّلِ للحَصورِ في القاموسِ، وهو الذي يَنبغي ألّا يُعرَّجَ على غيرِه؛ لأنّه بناءُ مبالغةٍ من مُتعدٍّ، ولأنّه أمدحُ له عليه السلام ومهما دارَ الشَّيءُ على صفةِ الكمالِ في الأنبياءِ - عليهم السلام - وجبَ أن لا يُعدَلَ عنه، لذلك فهو إخبارٌ عن آخرِ أمْرِه الذي أدّتْ إليه عزيمتُه، وإن كان الجمعُ لكمالِ الوجودِ الإنسانيِّ بالنّكاحِ أكملَ كما وقع لنبيّنا (1) صلى الله عليه وسلم.

وجهُ ذكر الغلام الكنايةُ عن القوّة وتمام الصّحة الدّاعية إلى النكاح، وهو مع ذلك يَمنعُ نفسَه منه مَنعًا مبالغًا فيه

وذكرُ الغُلام في الآية جاء على لسان زَكَرِيَّا عليه السلام إذ يَكتنزُ قولُه: ﴿رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ﴾ تضمينَ معنًى آخرَ؛ فالغلامُ من غَلِمَ يَغْلَمُ؛ أي غُلِبَ شهوةً، وهذا المعنى مهمٌّ، وهو مدارُ سياقِ الآيةِ الكريمةِ؛ فقد اختارَ زَكَرِيَّا مرحلةً عُمريّةً مقصودةً فقال: ﴿غُلَٰمٌ﴾ ولم يقل: (وَلَدٌ)، لبيانِ قصدِ تغلّبِ شهوتِه، إذ ذُكرَ من صفاتِه أنّه حَصور، أي: غالبٌ على شهوتِه على عكسِ ما يكونُ عليه الغلمانُ عادةً؛ وفي ذلك كرامةٌ ليحيى.

يكتنز ذِكرُ الغلام تضمينَ معنى تغلّب الشّهوة، وهو أنسَبُ لمعنى المبالغة في الحَصور

(1) البِقاعِيّ، نظم الدّرَر: 2/77.

بيانُ تناسُبِ المعنَى بين: ﴿بَلَغَنِيَ ٱلۡكِبَرُ﴾ و﴿وَٱمۡرَأَتِي عَاقِرٞۖ﴾:

الآية تصفُ الحالَ الميئوسَ منه؛ وهو قولُه: ﴿بَلَغَنِيَ ٱلۡكِبَرُ﴾ إلى حدٍّ لا يُنجب فيه عادةً، ﴿وَٱمۡرَأَتِي عَاقِرٞۖ﴾؛ منَ العُقرِ وهو البلوغُ إلى حدِّ انقطاعِ النَّسلِ هرمًا؛ كذا قال، وآيةُ سورةِ مريمَ تدلُّ على أنَّ المعنى أنها لم تزلْ عَقيمًا، وعليه يدلُّ كلامُ أهلِ اللُّغة، العُقرةُ وتضمّ: العُقم، والعُقْرُ بضم العين وسكونِ القاف مصدرُ العاقر منَ النّساءِ وهي التي لا تحملُ من غيرِ داءٍ ولا كِبَرٍ[1]. فيكونُ كنايةً عن عدمِ الإنجاب أيضًا. وبين التّعبيرَيْن تناسُبٌ في المعنى والكنايةِ.

قُدراتُ البشرِ محدودةٌ تحكمُها الأحوالُ، وظواهرُ الحياةِ، وقدرةُ اللهِ مُطلقةٌ تفوقُ كلَّ توقُّعٍ

في التعبير بـ﴿بَلَغَنِيَ﴾ وهو جملة فعليّة دلالة على أنّ الكِبَر طرأ على زكريا بعد قوّة وفتوّة، بما يوحيه لفظ الفعل (بلغ)، وصيغته. وفي التّعبير عن امرأته بأنّها عاقرٌ بالجملة الاسمية ﴿وَٱمۡرَأَتِي عَاقِرٞۖ﴾ دلالة ثبوت الصفة فيها، وأنّها عاقرٌ منذ بلوغِها مبلغَ النّساءِ، ولم يطرأْ عليها عند الكِبَر[2].

من وجوهِ التّقابل تناسبُ صيغتي الجملتين بين الفعليّة والاسميّة

وجهُ الجمعِ بين النّقيضَين في التّقابُل:

التّقابُلُ بين قوله: ﴿يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ﴾ وهي كنايةٌ عنِ الإنجاب، وقوله: ﴿بَلَغَنِيَ ٱلۡكِبَرُ وَٱمۡرَأَتِي عَاقِرٞۖ﴾ وهي كنايةٌ عن عدمِ الإنجاب؛ يُظهرُ مدَى التّعجيبِ الذي أصاب زَكَرِيَّا عليه السلام لكنّه تعجيبٌ تحت مِظلّةِ اليقينِ التّامِّ، فجعلَه مُتضمّنًا لدعاءٍ خَفيٍّ؛ إذْ يكتنزُ قولُه: ﴿رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ﴾ تضمينَ دعاءٍ آخرَ؛ فقد سأل اللّه في هذا الاستفهام أن يمدَّ اللّه في عمرِه حتى يَرى ابنَه غُلامًا قويًّا، فلم يقلْ: أنّى يكونُ لي ولدٌ أو مولودٌ وذلك طلبًا في طُول العُمر، وأتبعَها قولَه: ﴿بَلَغَنِيَ ٱلۡكِبَرُ﴾ خشيةَ أنْ يموتَ قبْل أن يَرى ابنَه يحيى متّصِفًا بتلك الصِّفاتِ العظيمةِ العاليةِ التي بُشّرَ بها، كونُه؛ مُصدّقًا وسَيّدًا وَحصورًا ونَبيًّا منَ الصّالحين.

اجتماعُ النقيضين بيانٌ لمدَى التّعجيبِ الذي أصابَ زَكَرِيَّا عليه السلام

(1) البِقاعِيّ، نظم الدّرَر: 2/78.

(2) المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 1/163.

براعة دَفْع ما يُوقِعُ في الوَهْمِ:

اليقينُ بقُدرةِ اللهِ تعالى عبادةٌ خاصّةٌ تميّزَ بها الأنبياءُ والعلماءُ والصّالحونَ

في قَوْله تَعَالَى: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾ [آل عمران: 38]. دليلٌ عَلَى أَنَّ زَكَرِيَّا عليه السلام لَيْسَ عِنْدَهُ شَكٌّ في قُدْرَةِ اللَّهِ عَلَى أَنْ يرْزُقَهُ الوَلَدَ عَلَى مَا كَانَ مِنْهُ مِنْ كِبَرِ السِّنِّ، وَقَدْ جَاءَ هنا بمَا يُوهِمُ خِلَافَ ذَلِكَ وهو قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِي عَاقِرٌ﴾. والجَوَابُ عَنْ هَذَا بأمرين: الأول: أَنَّ اسْتِفْهَامَهُ اسْتِفْهَامُ اسْتِعْلَام وَاسْتِخْبَار؛ لِأَنَّهُ لَا يَدْرِي هَلِ اللّه يَأْتِيهِ بِالوَلَدِ مِنْ زَوْجِهِ العَجُوزِ؟ أَمْ يَأْمُرُهُ بِأَنْ يَتَزَوَّجَ شَابَّةً؟ أَوْ يَرُدُّهُمَا شَابَّيْنِ؟ الثاني: أَنَّهُ اسْتِفْهَامُ اسْتِعْظَامٍ وَتَعَجُّبٍ مِنْ كَمَالِ قُدْرَةِ اللَّهِ تَعَالَى[1].

علّة التّقديمِ والتّأخيرُ فيما بين المتشابه اللفظي:

وجه التقديم والتأخير مناسبةُ سباق الآية وسياقها

قَوْلُه: ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِي عَاقِرٌ﴾؛ قدَّمَ في هذه السُّورَة ذكرَ حالِه وما به من الكِبَر، وَأخّر ذكْرَ المَرْأَة، فقدّمَ نقصَ نفسِه، لكنّه قَالَ في سُورَة مَرْيَمَ: ﴿وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا ۝٨﴾، فَقدَّم ذكرَ المَرْأَة وذكَرَ أنّها عاقرٌ؛ لأنّ في سورة مَرْيَمَ قد تقدَّم ما كنَّى عن الكِبَرِ في آيةٍ سابقةٍ فقال: ﴿وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي﴾، وَتَأَخّر ذكرُ المَرْأَة في قَوْله ﴿وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِي وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا﴾ [مريم: 5]، ثمَّ أعَاد ذكرَهَا فَأَخَّر ذكرَ الكِبَر ليُوَافق ﴿عِتِيًّا ۝٨﴾ [مريم: 8] مَا بعده منَ الآيَات وَهِي ﴿سَوِيًّا ۝١٠﴾ [مريم: 10] و﴿وَعَشِيًّا ۝١١﴾ [مريم: 11] و﴿صَبِيًّا ۝١٢﴾ [مريم: 12][2].

بلاغة الاستفهامُ في الآية:

بيانُ الاستفهامِ التعجّبَ مِنْ كَمَالِ قُدْرَةِ اللَّهِ تَعَالَى، واسْتِعْظَامه

ذهبَ الطّبريّ وغيرُه إلى أن زَكَرِيَّا لمّا رأى حالَ نفسِه وحالَ امرأته وأنها ليستْ بحالِ نَسْلٍ سأل بقولِه: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ﴾

(1) الشنقيطي، دفع إيهام الاضطراب، ص: 39.
(2) الكرماني، البرهان في توجيه متشابه القرآن، ص: 89، والأنصاري، فتح الرّحمن، ص: 85 - 86.

عنِ الوجهِ الذي به يكونُ الغلامُ، و﴿أَنَّىٰ﴾ معناها كيفَ ومن أينَ[1]. والمرادُ بالاستفهام التّعجّبُ، قصَدَ منه تعرُّفَ إمكانِ الولدِ؛ لأنّه لمّا سأل الولدَ فقد تهيّأ لحصولِ ذلك، فلا يكونُ قولُه: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ﴾ إلّا تطلُّبًا لمعرفةِ كيفيةِ ذلك على وجهٍ يُحقّقُ له البِشارةَ، وليس منَ الشّكِّ في صِدقِ الوَعْدِ، فأُجيبَ بأنَّ المُمكناتِ داخلةٌ تحت قُدرةِ اللّه تعالى وإنْ عزَّ وُقوعُها في العادةِ[2]. فقال ذلك تعجُّبًا من قُدرةِ اللّه تعالى لا استبعادًا[3].

بيان الغرض من التّعجيب في الاستفهام:

و﴿أَنَّىٰ﴾ فيه؛ بمعنى كيفَ، أو بمعنى المَكَان، لتعذُّرِ عملِ المكانَيْنِ اللذَينِ هما سببُ التّناسُلِ؛ وهما الكِبَرُ والعُقرةُ، وهذا التّعجّبُ في مضمونِه الشُّكرُ على هذه المِنّةِ فهو كنايةٌ عنِ الشُّكر. وفيه تَعريضٌ بأنْ يكونَ الوَلدُ من زوجِهِ العاقِرِ، دون أن يؤمَرَ بتزوّجِ امرأةٍ أُخرى، وهذه كرامةٌ لامرأة زَكَرِيَّا[4]. فلا يتغيّر شيءٌ من حالِ زكريا، ويُوهبُ الولدُ الّذي طلبَ، فكان التّعجيبُ كنايةً عن شُكرِهِ البالغِ، الذي لم يتمكّنْ منَ التّعبيرِ عنه إلّا بأسلوبِ الاستفهامِ المُفعَمِ بالحيويّةِ، والفرحِ بما بُشِّر به.

فائدة التّعجّب الكنايةُ عنِ الشُّكر، والتّعريضُ بأنْ يكونَ الوَلدُ من زوجِهِ العاقِرِ

براعة الإطناب في السُّؤالِ:

السّؤالُ في قولِه: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ﴾ ليس على طريقِ استبعادِ التحقّق، بل استعظامًا للقُدرة واعتذارًا منه - ﷻ؛ لأنّه يعلمُ أنّ ربَّه قادرٌ على كلِّ شيءٍ، ولكنّ الذي ساقهُ إلى ذلك عِظمُ سرورِه وشدّةُ فرحه بإجابةِ دعوتِه، والتِذاذُهُ بسماعِ كلامِ ربّه[5]، فيكونُ

التّلذُّذُ بسماعِ كلامِ اللّه عندَ الأنبياءِ يُقابلهُ عند عُمومِ المؤمنين الموحّدين التّلذُّذُ باستشعار قَبُولِ الدّعاء وإجابتِه

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 1/431.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/242.
(3) الأنصاري، فتح الرّحمن، ص: 85 - 86.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/242.
(5) العاني، بيان المعاني: 5/339.

في الكلامِ إطنابٌ لسؤاله مع علْمِه بالجوابِ. وهذا معنى الالْتذاذِ بسماعِ كلامِ ربِّه.

براعةُ تكرارِ الاستفهام بمعنًى واحدٍ:

تكرّرَ استفهامُ زَكَرِيَّا في هذه القطعةِ القرآنيةِ؛ ففي آيةٍ سابقةٍ قال لمريم في سؤاله عنِ الرّزق: ﴿أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَاۖ﴾ [آل عمران: 37]، وهنا قال: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ﴾؟، والاستفهامان معناهُما واحدٌ؛ إذ تضمّنا التّعجيبَ عن خَرْقِ السُّنّنِ الكونيّةِ في الإيجادِ والخَلْقِ والتّكوينِ، فمعنى الاستفهام الأوّلِ هو السّؤالُ عن مصدرِ الرّزقِ الذي يجهلُه، والقُدرةِ التي أوجدتْهُ. ومعنى الاستفهامِ الثّاني كان سؤالًا عن كَينونةِ الغلامِ له مع انتفاءِ أسبابِ الإنجابِ مع اليقينِ التّامِّ بصدقِ البشارة بالغلام. فهو استفهامٌ حقيقيٌّ مشوبٌ بالتّعجُّبِ والدّهشةِ من طلاقةِ قُدرة اللّه تعالى في الخَلْقِ والتّقديرِ.

تضمّن الاستفهامان التّعجيبَ عن خَرْقِ السُّنّنِ الكونيّةِ في الإيجادِ والخَلْقِ والتّكوينِ

بَلاغةُ القَلْبِ في جملة: ﴿وَقَدْ بَلَغَنِيَ ٱلْكِبَرُ﴾:

قولُه: ﴿وَقَدْ بَلَغَنِيَ ٱلْكِبَرُ﴾ جاء على طريق القَلْبِ، وأصلُه: وقد بَلَغْتُ الكِبَرَ[1]، وفائدتُه إظهارُ تمكُّنِ الكِبَرِ منه، كأنّه يطلبُه حتى بلغَه كقولِه تعالى: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُواْ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ﴾ [النساء: 78][2]. كما تقول: (وَقَدْ بَلَغَنِي الجَهْدُ)؛ أي: أنَا في الجَهْدِ والكِبَرِ[3]. والعَرَبُ تصنعُ مثلَ هذا، فقولُه: ﴿بَلَغَنِيَ ٱلْكِبَرُ﴾؛ أي بلغتُهُ[4]، وعكسَ في سورة مريمَ فقال: ﴿وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا ۝٨﴾ [مريم: 8]، فما بلغَك فقد بلغتَهُ[5]، وهذا الأسلوبُ في التّشخيصِ يتضمّنُ المبالغةَ في الوصفِ؛ إذ يُمثّل تمكّنَ الكِبَرِ من زكريّا عليه السلام بأعلى درجاتِ الهيمنةِ، فلا يجدُ مَفَكًّا منه، ولا جَدوَى من إخفائِه أو معالجتِه.

فائدةُ القلبِ إظهارُ تمكُّنِ الكِبَرِ منه، كأنّه يطلبُه حتى بلغَه

(1) الزّركشّي، البرهان: 2/290.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/242.
(3) الأخفش، معاني القرآن: 1/169.
(4) ابن قتيبة، تأويل مشكل القرآن، ص: 123، وأبو عبيدة، مجاز القرآن، ص: 92.
(5) الشربيني، السّراج المُنير: 2/417.

بديعُ الاستعارةِ والتَّشخيصِ في قولِه: ﴿بَلَغَنِيَ ٱلۡكِبَرُ﴾:

بيانُ الاستعارة تشخيص الكِبرَ كأنّه رجلٌ يقصدُه حتّى بلغَه

وقولُه: ﴿وَقَدۡ بَلَغَنِيَ ٱلۡكِبَرُ﴾؛ استعارةٌ شخّص فيها الكِبرَ كأنّه رجلٌ يقصدُه، ويَسعى إلى اللِّحاقِ به، حتّى بلغَه، وأدركَهُ وهو على حالتِه تلك. وكأنّ الزّمانَ طريقٌ، والحوادثُ تتساوقُ فيه، فإذا التقَى حادثان فكأنّ كُلَّ واحدٍ منهما قد بلغَ صاحبَه، وحقيقةُ البُلوغِ في الأَجرَام أن ينتقلَ البالغُ إلى المبلوغِ إليه، وحَسُنَ في الآية: ﴿بَلَغَنِيَ ٱلۡكِبَرُ﴾ من حيث هي عبارةٌ واهِنٍ مُنفعلٍ، وبلغتُ: عبارةُ فاعلٍ مُستعلٍ[1]. قال أهلُ اللّغة: كلُّ شيءٍ صادفتَهُ وبلغتَهُ فقد صادفَكَ وبلغَك، وذلك إذا أمكنَ تصوّرُ الطّلبِ منَ الجانبين، فيجوز: بلغتُ الكبرَ، وبلغني الكبرُ؛ لأنّ الكِبَرَ كالشّيءِ الطّالبِ للإنسانِ فهو يأتيه بحدوثِه فيه، والإنسانُ أيضًا يأتيه بمرورِ العُمر عليه[2].

دلالة صيغة المُفاعلة في لفظ ﴿بَلَغَنِيَ﴾:

تُفيدُ المفاعلة في الفعل (بلغ) معنى المُخالطةَ بين الطّرفين، والتَّشخيص لـ (كِبَر)

من معاني صيغة (المفاعلة) في لفظ (بلغ) من قوله تعالى: ﴿وَقَدۡ بَلَغَنِيَ ٱلۡكِبَرُ﴾ التبادُلُ والمُشاركةُ منَ الطّرفين، وفي التَّعبير بـ ﴿بَلَغَنِيَ﴾ وهو جملةٌ فعليةٌ للدّلالةِ على أنّ الكِبَرَ طرأ عليه بعد قُوّةٍ وفتُوّةٍ. في حين يحاولُ هو فَوْتَه[3].

وقال تعالى هنا: ﴿وَقَدۡ بَلَغَنِيَ ٱلۡكِبَرُ وَٱمۡرَأَتِي عَاقِرٞۖ﴾ فذكرَ أوّلًا كِبرَ سنّه، ثمّ حالةَ امرأتِه العاقرِ، وفي سورة مريمَ قال: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرٗا وَقَدۡ بَلَغۡتُ مِنَ ٱلۡكِبَرِ عِتِيّٗا ٨﴾ [مريم: 8]، فعكَسَ إيرادَ الحالَيْن في الجُملة، ولا تعارُضَ، إذْ إنّ الواو لا تقتضي التّرتيبَ[4]. والمُغايرةُ في التّرتيبِ في المَوضعَيْن تدلُّ على التّعجّب من قُدرةِ اللّه، وكأنَّ النَّظمَ الكريمَ يَحكِي اندهاشَه عليه السلام وكأنّه يقولُ:

(1) ابن عطية، المحرّر الوجيز: 1/427.
(2) النيسابوري، غرائب القرآن: 2/155.
(3) أديب، عصمة القرآن، ص: 23.
(4) الشربيني، السّراج المُنير: 2/417.

ما أقدَرَك ياربّ؛ فاتَ السّببُ مني ومنَ امرأتي، وفاتَ منَ امرأتي ومني، ففُقدانُ الأسبابِ أحاطَ بنا منَ الجِهَتين.

أثرُ التَّعريفُ والتَّنكيرُ في توجيه المعنى:

أفاد التَّعبيرُ نفسُه في هذه الاية أنَّ الكِبَرَ هو السببُ الأظهرُ عند زَكَرِيَّا عليه السلام في عدم الإنجاب. فقد أسندَ إليه البلوغَ فقال: ﴿وَقَدْ بَلَغَنِيَ ٱلْكِبَرُ﴾، والمُلاحظُ أنّ ﴿ٱلْكِبَرُ﴾ جاءَ مُعرّفًا بـ (أل) و﴿عَاقِرٌ﴾ جاء نكرةً، فسلّطَ التّعجيبَ في سؤالِه على حالِ الكِبَرِ الذي قد بلغَه؛ وكمّلَ ذلك التّعجيبَ بتعجيبٍ آخرَ، فقال: ﴿وَٱمْرَأَتِي عَاقِرٌ﴾؛ إذ لو كان الأمرُ متعلِّقًا بعقْرِ امرأتِه فلا عجبَ في الأمر، إذ يمكنُه حينَها، أن يتزوّجَ غيرَها، فلا يكونُ في ذلك خرقٌ لنواميسِ الكونِ في الإنجابِ، أمَا إنّه يعلمُ ما قد بلغَه منَ الكِبَر ممّا تُحيلُ العادةُ أن يُنجبَ، وهو على حالِه الّتي بلغَها، فجاء ﴿ٱلْكِبَرُ﴾ معرفةً لبيان هذا الجانبِ منَ التَّعجيب، ونكّرَ ﴿عَاقِرٌ﴾ للتّقليل من شأنِه، وباعتباره أمرًا إضافيًّا إلى تعجيبِه من تلك البِشارةِ.

أفاد تعريفُ (الكِبر) وتنكيرُ (عاقِر) تسليطَ التّعجيب في سؤالِه على حالِ الكِبَرِ الذي قد بلغَه

إيثارُ لفظ (المَرأة) دون (الزّوجة):

ورد في دُعاءِ زَكَرِيَّا ربَّه قولُه: ﴿وَٱمْرَأَتِي عَاقِرٌ﴾. وقولُه: ﴿وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا﴾ [مريم: 5]. ولمّا استجابَ له ربُّه وحقّقتِ الزّوجيةُ حكمتَها، كانتِ الآيةُ: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ﴾ [الأنبياء: 90].

وبملْحَظٍ دقيقٍ من تقريرِ التّكامُلِ بين الزَّوجين، لم يستعملِ القرآنُ الكريمُ كلمةَ (زوجة) - وإن صحّتْ عربيةً - في الإفراد ولا في التّثنيةِ والجمعِ، بل هي زوجُه وهو زوجُها، وهما زوجان، وهنّ أزواجُهم وهم أزواجُهنّ،.. يطّرد ذلك حيثما وردتِ الكلمةُ في البيانِ القرآنيِّ[1]. وسببُ ذلك أنّ القرآنَ يذكرُ المرأةَ في المواضعِ

في مواضع فقدان مقوّمات الزّوجيّة يذكر المرأة، وفي مواضع استقامتها يذكر الزوج

(1) بنت الشاطئ، الإعجاز البياني، ص: 231.

التي تفقدُ فيها الحياةُ الزّوجيةُ بعضَ مقوِّماتها. سواء أكان ذلك من جانبِ الرّجل أم من جانبِ المرأة، ويُؤْثِرُ كلمةَ " الزّوج " متى استقامتْ تلك الحياةُ.

اختصاصُ عاقرٍ بعدمِ التّأنيثِ في صِيغةِ (فاعل):

ترك تأنيثِ لفظ (عـاقـر) لأنّـه وصـفٌ خـاصٌّ بالأنثى لم يُؤنّث

العاقرُ المرأةُ التي لا تلدُ؛ لأنها عقرتْ رحمَها؛ أي: قطَعَتْهُ. ولأنّه وصفٌ خاصٌّ بالأنثى لم يُؤنّثْ؛ كقولِهم: حائضٌ ونافسٌ ومُرضعٌ، ولكنّه يُؤَنَّثُ في غيرِ صيغةِ الفاعلِ، فمنه قولُهم: عَقرى دُعاءٌ على المرأة، وفي الحديثِ: «عَقْرَى حَلْقَى وكذلك نُفساء»[1]، وقال ابنُ عطيّة: و﴿عَاقِرٌ﴾ بناءُ فاعلٍ وهو على النَّسبِ، وليس بجارٍ على الفعلِ[2].

وجه افتتاح الفاصلة باسم الإشارة:

الاشـــــارةُ بـ (ذلـــك) إلى القدرة المُعجزة المُسْتَعْظَمة، أو إلى حالِ زَكَرِيَّا وحالِ امرأتِه

معنى الإشارة بـ (ذلك) في قوله: ﴿كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ﴾، أي: كهذه القدرةِ المُستغربةِ هي قدرةُ اللّه، وفي التّعبير باسمِ الاشارةِ الإشعارُ بفخامةِ المُشارِ إليه من كونِه إحدَى المُعجزاتِ. ففي الكلامِ حذفُ مضافٍ، والكلامُ تامٌّ في قوله: ﴿كَذَٰلِكَ﴾، وقولُهُ: ﴿ٱللَّهُ يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ﴾ شرحُ الإبهامِ الذي في (ذلك)، ويحتمل أن تكونَ الإشارةُ بـ (ذلك) إلى حالِ زَكَرِيَّا وحالِ امرأتِه، فقال: كما أنتما يكونُ لكما الغلامُ، والكلامُ تامٌّ على هذا التأويلِ في قولِه: ﴿كَذَٰلِكَ﴾.

الافتتاح باسم الإشـــارة دليـلٌ على بُعد تحقّق الفعل على غير الله تعالى

استأنف القول في جملة: ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ﴾ باسم الإشارة ﴿كَذَٰلِكَ﴾ الدّال على البعد، أي: مثلُ هذا الفعلِ الجليلِ البعيدِ الرُّتبةِ[3]. الذي تعجّبت منه ليس على اللّه ببعيد؛ لأنّه يفعل ما يشاء، فهو القادر.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/242، والحديث أخرجه البخاري، الحديث رقم: (1561).
(2) ابن عطية، المحرّر الوجيز: 1/427.
(3) البِقاعِيّ، نظم الدّرَر: 2/78.

التّشبيهُ والتَّوكيدُ والتّحقيقُ في قوله: ﴿كَذَٰلِكَ﴾:

قولُه تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ﴾، صورةٌ تشبيهيّةٌ؛ المُشبَّهُ به اسمُ إشارةٍ (ذلك)، والمُشبّهُ هو فعلُ اللّه؛ كلُّ ما يشاءُ منَ الأفعال، والتّقديرُ: مثلُ ذلك الفعلِ، والتّقديرُ في خَلْقِ الولد من عجوزَيْن تَنفي العادةُ إمكانَ إنجابِهما؛ مثل ذلك الفعلِ يفعلُ اللّه ما يشاء، وما يريدُ في طلاقةِ القُدْرة عليه يفعل اللّه كلَّ ما يُريدُ، وقولُه: ﴿كَذَٰلِكَ﴾: يكونُ أمرُ التَّشبيه فيها غيرَ ظاهرٍ، فيُحملُ معناها على التَّوكيد وإن صحَّ معها تقديرُ التَّشبيه. ويقدِّرُ بعضُ العلماء في مثلِ هذا التّركيبِ أنّ ﴿كَذَٰلِكَ﴾ خبرٌ لمبتدأ محذوفٍ تقديرُه: الأمرُ كذلك، والمرادُ هو ما أُخبرتَ به، لا ريْبَ فيه، ومن ﴿كَذَٰلِكَ﴾ هذه التي للتَّحقيقِ والتَّوكيد. ولعلّ السّرَّ في المَجيءِ بكاف التَّشبيه هنا هو بيانُ تمامِ المُطابقةِ بين الحقيقةِ الخارجيةِ، والحقيقةِ الكلاميةِ، أي: إنَّ ما يكونُ في الواقع يُطابِقُ ما دلَّ عليه الكلامُ، وتفيدُ ﴿كَذَٰلِكَ﴾ التَّحقيقَ إذا كَوّنتْ هي ومبتدؤُها جملةً مستقلّةً، كما في قولِه: ﴿كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ﴾، و﴿كَذَٰلِكَ﴾: هنا تُؤدِّي معنى قد، وربما جاءتْ إفادتُها للتَّحقيق، من كثرةِ مجيئِها لبيانِ التّطابُقِ؛ واستعمالُ ﴿كَذَٰلِكَ﴾ للتَّحقيقِ والتَّوكيدِ لا يقلُّ عنِ استخدامِها في التَّشبيهِ[1].

السّرُّ في المَجيءِ بكاف التَّشبيه هنا هو بيانُ تمامِ المُطابقةِ بين الحقيقةِ الخارجيةِ، والحقيقةِ الكلاميةِ

نكتة التعليل بـ (الفعل) في الفاصلة:

ولمّا كان استنباؤُه عنِ القوّةِ والكمالِ لا عنِ الخَلْق عبَّر - سبحانه - في تعليلِ ذلك بـ (الفعل) فقال: ﴿ٱللَّهُ يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ﴾؛ لأنّه المحيطُ بكلِّ شيءٍ قُدرةً وعِلمًا، فكأنه قيل: قد قرّتْ عينُه[2]، بخلافِ ما يأتي في قصّةِ مريمَ عليها السلام.

وجه التعليل بـ (الفعل) استنباؤُه عنِ القوّةِ والكمالِ لا عنِ الخَلْق

(1) البدويّ، من بلاغة القرآن، ص: 165.
(2) البِقاعِيّ، نظم الدّرَر: 2/78.

سرُّ التعبير بالجُملةِ الاسميّةِ في الفاصلة:

اسميّةُ جملة الفاصلة دليلُ الثُّبوتِ، فالأمرُ راسخٌ في قدَرِ الله سبحانه، ولا تغييرَ لكلماتِ الله في قضائِه وقَدَرِه سبحانه

أورد الفاصلة: ﴿كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ﴾ جملةً اسميةً، ولم يقل: (يفعل الله ما يشاء)، لكونها جملةً مبيّنةً مقرّرةً في النّفسِ وقوعَ هذا الأمرِ المُستغربِ[1]. وهي دالّةٌ على الثُّبوتِ، فالأمرُ راسخٌ في قدَرِ الله سبحانه، ولا تغييرَ لكلماتِ الله في قضائِه وقَدَرِه سبحانه، ولو كانتِ الجملةُ فعليةً لدلّتْ على التّجدُّدِ والاستمرارِ، فتكونُ تلك الحالةُ سنّةً كونيّةً ممكنةً للنّاس جميعًا، فلا يَمتنعُ الإنجابُ بسببِ بلوغِ الكِبَرِ، وحالةِ المرأةِ العاقرِ.

نكتة تقديم لفظ الجلالة ﴿ٱللَّهُ﴾:

دَلالةُ التقديمِ القَصْرُ؛ فالله مخصوصٌ بفعل مايشاءُ وحدَه

وقُدِّم لفظ الجلالة ﴿ٱللَّهُ﴾ على خبره الذي وقع جملةً فعليةً، ﴿يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ﴾ وفي ذلك دَلالةٌ على القَصْرِ؛ فالله مخصوصٌ بفعل مايشاءُ وحدَه.

(1) البِقاعِيّ، نظم الدّرَر: 1/427.

﴿قَالَ رَبِّ ٱجۡعَل لِّيٓ ءَايَةٗۖ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمۡزٗاۗ وَٱذۡكُر رَّبَّكَ كَثِيرٗا وَسَبِّحۡ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِبۡكَٰرِ ٤١﴾ [آل عمران: 41]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

جاءتْ الآيةُ تتضمَّنُ جوابًا عن سؤالٍ أثارتْهُ الجملةُ السّابقةُ: ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ ٤٠﴾، فجاءتْ هذه الآيةُ استكمالًا للحوارِ الذي بدأَ بين الملائكةِ وزَكَرِيَّا مُتضمّنًا السُّؤالَ والجوابَ، فزَكَرِيَّا عليه السلام يسألُ اللّه - تعالى، وجبريلُ عليه السلام يُجيبُ بما أوحاه اللّه وقدَّرَهُ، فلمَّا جاءتْه البُشرى بالولدِ على غير الأمرِ المُمكن، وأَخْبر بأنّ هذا من شأنِ اللّه فهو يفعلُ ما يشاء، وما تلك السُّننُ الكونيّةُ في الخَلْقِ إلّا من مشيئةِ اللّه تعالى، وتغييرُها يكونُ بمشيئتِه - سبحانه - ففَهِمَ زَكَرِيَّا فهمًا إجماليًّا أنّ هناك سُننًا أُخرى لا يعلمُها تقومُ بصدِّ الموانعِ، فطلب زَكَرِيَّا من ربِّه أن يُعطيَه آيةً على هذه المعجزةِ تكونُ شكرًا للّه - سبحانه - على ما أعطَى.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿رَمۡزٗاۗ﴾: جِذرُ الكلمةِ هو (رَمَز)؛ والرّمزُ باللّسان: الصّوتُ الخفيُّ. ويكونُ الرّمز: الإيماءَ بالحاجبِ بلا كلام، ويعبَّر عن كلِّ كلام كإشارة بالرّمز، وهذا هو المعنى السِّياقيّ، ومثلُه الهَمْسُ. ويقال للرّجل الوقيدِ: ارتمز. وقد يُقالُ للجاريةِ الغمّازةِ الهمّازةِ بعينها، واللّمّازةِ بفمها: رمّازة، ترمزُ بفَمِها، وتغمزُ بعينها. ويُقال: الرَّمْزُ: تحريكُ الشَّفَتين[1].

2) ﴿بِٱلۡعَشِيِّ﴾: جذرُ الكلمةِ هو (عَشَو)، و(عشيَ): العَشْو: إتيانُك نارًا ترجُو عندها خيرًا وهدًى. عَشَوْتُها أَعْشُوها عَشْوًا وعُشُوّا. قال الحُطيئةُ:

متى تأتِهِ تعشو إلى ضَوْءِ نارِه*** تَجِدْ خَيْرَ نارٍ عندها خيرُ مُوقِدِ

والعاشيةُ: كلُّ شيءٍ يعشو إلى ضوء نارٍ باللّيل كالفَراشِ وغيرِه، وكذلك الإبلُ العَوَاشي، قال:

وعاشيةٍ حوشٍ بطانٍ ذَعَرْتُها*** بضربِ قتيلٍ وَسْطَها يَتَسَيَّفُ

(1) الخليل، العَينْ، وابن سيده، المُحكم، والراغب، المُفردَات، والزمخشري، أساس البلاغة، وابن منظور، لسان العرب: (رمز).

تقول: لقيتُه في عَشْوةِ العَتَمَة، وعَشْوةِ السَّحَر. وأصلُه من عشواء اللّيل، والعشواءُ بمنزلة الظّلماء، وعَشْواء الليل ظُلمتُه[1]، من حين تزولُ الشّمسُ إلى أن تغيبَ[2]. قَالَ ابْنُ الأَنْبَارِيِّ: العَشِيَّةُ مُؤَنَّثَةٌ وَرُبَّمَا ذَكَّرَتْهَا العَرَبُ عَلَى مَعْنَى العَشِيِّ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: العَشِيَّةُ وَاحِدَةٌ جَمْعُهَا عَشِيٌّ[3]. وقَوْلُه ﷺ: «إِحْدَى صَلَاتَي العَشيّ» يُرِيد الظّهْر وَالعصر وَكَانُوا يصلّونَ الظّهْر بعَشيّ، والعَشيُّ مَا بعد زَوَال الشَّمْس إِلَى غُرُوبهَا، قَالَ البَاجِيّ: إذا فَاء الفيءُ ذِرَاعا فَهُوَ أوّلُ العشيّ وَذكر صَلَاةَ العشَاءِ وَالعشَاءِ الآخِرَة وَهِي العَتَمَةُ، وَقَالَ الخَلِيل: العشَاءُ عِنْد العَامَّة من غرُوب الشَّمْس إِلَى أَن يولّي صدرُ اللَّيْل، وَبَعْضُهمْ يَجعلُه إِلَى الفجْر، وقَالَ يَعْقُوب: العشَاءُ من صَلَاة المغرب إِلَى صَلَاة العِشَاء، وَالعشَاء آخرُ النَّهَار، وَالعشَاء أوّلُ الظلام يُقَال: أَتَيْتُك عشَاءً، وَقيل: إِنَّمَا قيل صَلَاةُ العِشَاء والعَشيّ لأجل إقبالِ الظلامِ؛ لِأَنَّهُ يُعشي البَصَرَ عَن الرُّؤْيَة[4].

﴿بِٱلۡعَشِيِّ﴾: مَا بعد زَوَال الشَّمْس إِلَى غُرُوبهَا.

3) ﴿وَٱلۡإِبۡكَٰرِ﴾: جذرُ الكلمةِ هو (بَكَر) بكسر الهمزة مصدرٌ لأبكر بمعنى بكّر، ثم استُعملَ اسمًا، وهو طلوعُ الشَّمسِ إلى وقتِ الضُّحى[5]. وأصلُه المبادرةُ لأوّلِ الشّيءِ، ومنه التَّبكيرُ وهو السّرعةُ، والباكورةُ وهو أوّلُ ما يبدُو منَ الثّمرِ، فالإبكارُ اقتطافُ زهرةِ النَّهار وهو أوّلُه[6].

بكّرَ المُسافرُ وأبْكَر وبَكّر وابتَكَر وتبَكّر: خرج في البُكرَةِ. قال ذُو الرُّمّة[7]:

خُوصٌ بَرى أَشْرَافَها التَّبَكُّرُ *** قَبْلَ انْصِداعِ العَيْنِ والتَّهَجُّرُ

وباكره: بكّر إليه. وتقول: المباكرةُ مباركةٌ. وأتيتُه باكرًا وبُكرةً وبُكرًا. ومنَ المجاز: بكّرَ بالصَّلاة: إذا صلاها في أوّلِ وقتِها[8].

(1) الخليل، العَينْ، والراغب، المُفردَات، والزمخشري، أساس البلاغة، وابن منظور، لسان العرب: (عشو).
(2) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 1/502.
(3) الفيومي، المصباح المنير: (عشي).
(4) الراغب، المُفردَات، وعياض، مشارق الأنوار، والفيومي، المصباح المنير: (عشي).
(5) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 1/502.
(6) البِقاعِيّ، نظم الدّرَر: 2/79.
(7) ديوان ذي الرّمة، ص: 202.
(8) الزّمخشري، أساس البلاغة: (بكر).

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

لَمَّا سمعَ زَكَرِيَّا عليه السلام هذه البِشارةَ طغتْ عليه - بمُقتضَى الطّبيعةِ البَشريّةِ - موجَةٌ من شدّةِ الحِرصِ على تحقُّقِ مأْرَبه في أمرٍ محبوبٍ، فسألَ ربَّه أنْ يَجْعل له علامةً يستدلُّ بها على وجود الولد منْه؛ ليحصلَ له السرور والاستبشار، فأجابه اللّهُ تعالى: علامتك التي طلبتها: ألّا تستطيعَ التحدُّثَ إلى الناس ثلاثةَ أيامٍ إلّا بإشارة إليهم بالشَّفتين أو الحاجبَين، أو الإيماءِ باليدِ والرّأسِ، مع أنك سويٌّ صحيحٌ، فامتَنَعَ من الكلام ثلاثةَ أيام، وفي هذه المدَّة أكثِرْ من ذكر ربِّك وشكره، وصلِّ له أواخر النهار وأوائله[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

بَلاغةُ الفصل في الآية:

وجه الفصل مجيء الآية على طريق المحاورة

قال ابن عاشور: "وإنما حذفوا العاطف في أمثاله كراهيةَ تكريرِ العاطف بتكرير أفعال القول؛ فإنّ المحاورة تقتضي الإعادة في الغالب فطَرَدُوا الباب فحذفُوا العاطف في الجميع، وهو كثير في التنزيل"[2].

سرُّ تحديد العددِ في قوله: ﴿ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ﴾:

من سُنّةِ المُصطفى ﷺ التّثليثُ في كلِّ شيءٍ، وفيه إشارةٌ إلى الانسجامِ بين التَّشريعاتِ السّماويةِ

المرادُ ثلاثةُ أيام بلياليها، يدلُّ على ذلك قولُه في سورة مريمَ: ﴿قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ۝١٠﴾ [مريم: 10]، وهذا يضعِّفُ تأويلَ مَن قال: أُمِرَ بالصّوم ثلاثةَ أيام، وكانوا لا يتكلّمون في صومِهم، والليالي تُبعد مشروعيةَ صومِها. وأهمّيةُ العددِ هنا تنسجم مع ما ورد في الإسلام؛ لأنّ منَ السُّنّةِ التّثليثَ في كلِّ شيء كما ذكر الفقهاءُ، وهذه إشارةٌ إلى الانسجامِ بين التَّشريعاتِ السّماويةِ.

(1) المَوصِلّي، أولى ما قيل: 2/468 - 469، ونخبة من العلماء، التفسير الميسر، ص: 55.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/401.

الإطلاقُ في تحديدِ أيّامِ الصّومِ:

وجـــه إطـــلاق الأيـــام الـثلاثة التخيير في منع التكليم في أيّ وقـــت، أو حين الخطاب

ولم يُعيّنْ ابتداءَ الأيّامِ الثّلاثةِ، بلْ أطلقَ فقال: ﴿ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ﴾، فإن كان ذلك بتكليفٍ فيُمكنُ أن يكون ذلك موكولًا إلى اختيارِه، يَمتنعُ من تكليمِ النّاس ثلاثةَ أيّام متى شاءَ، ويُمكنُ أن يكونَ ذلك من حينِ الخطابِ، وإنْ كان بمنْعٍ قهْريٍّ فيظهرُ أنّه من حينِ الخطابِ[1]، والأوْلَى أنّه من حينِ الخطابِ لما فيه من تعجيلِ الشُّكْرِ للّه، ومباشرةِ ما اختار اللّه له من آية الإنجابِ.

بلاغة المَجازُ في قولِه: ﴿ءَايَتُكَ﴾:

وجه المجاز الأمر بـالـتـزامِ الـذِّكْـرِ عـلى رأيِ أنّ حبْسةَ لسانِه كـان أمـرًا وجبَ فعلُه

الـ (آيةُ) الأُولى علامةٌ؛ و﴿ءَايَتُكَ﴾ الثّانيةُ، وفي قولِه: ﴿ءَايَةَۖ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ﴾ مجازٌ عنِ الأمر بالتزامِ الذِّكْرِ على رأيِ مَن قال: إنّ حبْسةَ لسانِه كان أمرًا وجبَ على زَكَرِيَّا فعلُه، وهو الأوْلَى والأليقُ بنبيّ، فكان يستطيعُ الكلامَ لكنّه أُمِرَ بالتزام عدمِ الكلامِ مع النّاسِ إلا رمزًا، فأمرَه بالامتناعِ منَ الكلامِ مع النّاسِ، أي: متى تمّتْ ثلاثةُ الأيام كان ذلك أمارةَ ابتداءِ الحَمْلِ. وتناسبتْ هذه الآيةُ، وهي حبسُ النَّفْسِ عنِ الكلامِ إلّا ذِكرًا، وتسبيحًا صفةَ ﴿وَحَصُورًا﴾ عند ابنِه يحيى، إذ حصَر نفسَه عن إتيانِ النّساءِ، وعدمِ انشغالِ النّفس بعروض الدّنيا؛ فتناسبتِ الآيتانِ وانسجمتا مَضْمونًا وغايةً.

بيانُ الاستثناء بين الاتّصالِ والانقطاعِ:

الإشـارةُ بالرّمز تُـــؤدِّي معنى الـكـلامِ، ممّا يَـســتـدعـي اعـتـبـارَهـا من صِنفِ الكلامِ

وقولُه: ﴿إِلَّا رَمْزًاۗ﴾ استثناءٌ متّصلٌ؛ إذ لما أدّى مُؤدَّى الكلامِ، وفُهِمَ منه ما يُفهم منه، سُمّي كلامًا. فقوله: ﴿إِلَّا رَمْزًاۗ﴾ دَلالةٌ على أنّ الإشارة تتنزّلُ منزلةَ الكلامِ، وذلك موجودٌ في كثيرٍ منَ السُّنّةِ. وفي الحديث: «أين اللّه»، فأشارتْ برأسها إلى السّماء، فقال:

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/139.

«أعتقها فإنها مؤمنة»[1]. فأجاز الإسلامَ بالإشارةِ[2]. فمَن أطلق الكلامَ في اللّغة على الإشارةِ الدالّةِ على ما في نفس المُشيرِ، فلا يبعدُ أن يكون هذا استثناءً متّصلًا على مذهبه. ويمكنُ أن يكونَ استثناءُ الرّمز منقطعًا؛ إذِ الرّمزُ لا يدخلُ تحت التّكليم، واختار ابنُ عطيةَ قولَه: والكلامُ المرادُ به في الآية إنّما هو النّطقُ باللّسان، لا الإعلامُ بما في النّفسِ، فحقيقةُ هذا الاستثناء أنّه منقطعٌ، وبدَأ به أوّلاً، فقال: استثناءُ الرّمزِ وهو استثناءٌ منقطعٌ. ثم قال: وذهبَ الفقهاءُ في الإشارةِ ونحوِها إلى أنّها في حُكم الكلامِ في الإيمانِ ونحوِها، فعلى هذا يجيءُ الاستثناءُ متّصلًا[3].

بلاغة المجاز في إطلاق الكلامِ على الفِعل في قوله: ﴿إِلَّا رَمۡزٗاۗ﴾:

في قولِه: ﴿قَالَ﴾؛ إرادةَ تعجيلِ البُشرى وتحقيقِ السّرّاءِ: ﴿رَبِّ ٱجۡعَل لِّيٓ ءَايَةٗۖ﴾؛ أي علامةً أعلمُ بها ذلك ﴿قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمۡزٗاۗ﴾؛ أي لا تَقدرُ على أن تكلّمَهم بكلامٍ دُنيويٍّ ﴿ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ﴾، ولما كان الكلامُ يُطلقُ على الفعل مجازًا استثْنَى منه قولَه: ﴿إِلَّا رَمۡزٗاۗ﴾ لتَخلُص هذه المُدّةُ للذِّكر شُكرًا على النِّعمةِ فاحمدْ ربَّك على ذلك. قال الحَرَالِّي: والرّمزُ تلطُّفٌ في الإفهام بإشارةِ تحرّكِ طرفٍ كاليد، واللّحظِ والشّفتين ونحوِها، والغَمزُ أشدُّ منه باليد ونحوِها[4].

الرّمزُ تلطُّفٌ في الإفهام بإشارةِ تحرّكِ طرفٍ كاليد، واللّحظِ والشّفتين ونحوِها

فنُّ الإشارةِ في قولِه: ﴿رَمۡزٗاۗ﴾:

في قولِه تعالى: ﴿رَمۡزٗاۗ﴾ فنُّ الإشارةِ، وفيه بيانُ جوازِ الإفهامِ بالإشارةِ، فهو دالٌّ على ما في نفْسِ البشرِ من خَلجاتٍ ومعانٍ[5]. والرّمزُ: الإشارةُ بالشّفةِ، والغمزُ بالعينِ والحاجبِ[6]، وهو دليلٌ

فنُّ الإشارةِ يَمتلكُ طاقةً كامنةً تُعطي القُدرةَ على التّفاهُمِ بأنواعِ الحركاتِ، وقد أصبحتْ عِلمًا تتداولُه مدارسُ البُكْم

(1) مسلم، حديث مسلم، الحديث رقم: (1227).
(2) الزمخشري، الكشاف: 1/361.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/140.
(4) البِقاعِيّ، نظم الدّرَر: 2/78.
(5) صافي، الجدول في إعراب القرآن: 3/172.
(6) الراغب، تفسير الرّاغب: 2/548.

أيضًا على أنّ الإشارةَ والرّمزَ من فُنون الكلامِ، وما يَحويه هذا الفنُّ من طاقةٍ كامنةٍ في إفهامِ النّاسِ.

التّناسُبُ المَعنويّ بين لفظي: ﴿ءَايَةً﴾ و﴿رَمۡزًا﴾:

جعل الله تعالى آيـة زكـريـا عليه السلام أن يتكلّمَ بالرّمزِ

قيلَ في قوله: ﴿ٱجۡعَل لِّيٓ ءَايَةً﴾ أنّه: طلبَ علامةً لوقتِ الحمْل، فمنعه تعالى من الكلام مع النّاس ﴿إِلَّا رَمۡزًا﴾، أي: إيماءً[1] وإشارةً؛ مع تمكّنِه من ذكرِ اللّه، فجعل آيتَه أن يتكلّمَ بالرّمزِ، فاقتربَ معنى ﴿ءَايَةً﴾ وهي المعجزةُ، من معناها الحقيقيّ؛ فكانتْ معجزةُ ولادةِ يحيى وكانت آيةَ البدايةِ لهذا الأمر، أي: إشارتُه أن يكلّمَ النّاسَ بالإشارةِ والرّمزِ، والتّناسُبُ كبيرٌ بين الآية على هذا المعنى، والرّمزِ؛ الذي هو فنُّ الإشارةِ.

توجيه مَعنَى الدُّعَاءِ في النِدَاء والأمر:

انسجامُ النّفسِ في الـدُّعـاءِ والـتّـضـرُّعِ إلى الـلـه لـهُ آثـارٌ مُهمّةٌ في حياةِ المؤمنِ

قولُه: ﴿قَالَ رَبِّ ٱجۡعَل لِّيٓ ءَايَةً﴾ أمرٌ خرجَ إلى معنى التّضرُّعِ والدُّعاءِ فأرادَ زَكَرِيَّا آيةً على وقتِ حصولِ ما بُشّرَ به، وهل هو قريبٌ أو بعيدٌ، فالآيةُ: هي العلامةُ الدّالّةُ على ابتداءِ حمْل زَوجه، آيةٌ تُحقّقُ كونَ الخطابِ الواردِ عليه، والأنبياءُ لا يَلتبسُ عليهم الخطابُ الواردُ عليهم منَ اللّه، ويعلَمُونَهُ بعلمٍ ضروريٍّ[2]، فقولُه: ﴿رَبِّ ٱجۡعَل لِّيٓ ءَايَةً﴾ أي: علامةٌ أعرفُ بها الكرمَ الإلهيَّ لأستقْبِلَه بالبَشاشةِ والشُّكرِ[3].

بَلاغةُ الأُسلوبِ الحكيمِ:

طلبَ زَكَرِيَّا آيةً على بِشارته بالولدِ، فأُعطيَ ذكرًا وتسبيحًا وشُكرًا؛ فيكونُ الجوابُ على هذا الوجهِ من قَبيل أسلوبِ الحكيمِ[4]؛

(1) الراغب، تفسير الرّاغب: 2/548.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/242.
(3) البَيضاويّ، أنوار التّنزيل: 2/16.
(4) أسلوب الحكيم: صرفُ كلامِ المتكلّم أو سؤالِ السائل عن المراد منه، وحملُه على ما هو أَولى بالقصد، أو إجابته على ما هو أولى بالقصد.

لأنه سأل آيةً فأُعطيَ غيرَها[1]. وهو الذّكر. وفي هذا التّوجيهِ دروسٌ عظيمةٌ؛ فذِكرُ اللّه تعالى كثيرًا، وتسبيحُه - سبحانه - بالعَشيّ والإبكارِ، يأتي للإنسانِ بالخيرِ العظيم، والآيةُ الأُولى هي العلامةُ، والثانيةُ الأمرُ بالتزامِ الذّكرِ؛ وهي مجازٌ هنا، كما بيّنّا آنفًا.

قد يسعى الإنسانُ إلى تحقيقِ ما يراه خيرًا له، ولو عَلِمَ ما في الذِّكر من الخير، لجَعلَه هدفًا وغايةً كُبرى في حياتِه

توجيه الاختلاف في تأويل منْعِ الكلامَ:

واختلفُوا في منْعِه الكلامَ على فريقين: الأوّلُ: أنّ امتناعَه عنِ الكلامِ كان لآفَةٍ نزلتْ به، فأخذَ اللّه عليه لسانَه فجعلَ لا يقدرُ على الكلامِ، آيةً بعد مُشافهةِ الملائكةِ له بالبِشارةِ. وكانت الآيةُ حبْسَ اللّسانِ لتَخلُصَ المدّةُ لذكرِ اللّه لا يَشغلُ لسانَه بغيرِه توفُّرًا منه على قضاءِ حقِّ تلك النِّعمةِ الجسيمةِ وشُكرِها، وإنّما خَصّ تكليمَ النّاسِ ليُعلمَه أنه يَحبسُ لِسانَه عنِ القُدرةِ على تكليمهم خاصّةً، مع إبقاءِ قُدرتِه على التّكلُّمِ بذكرِ اللّه، ولذلك قال: ﴿وَٱذۡكُر رَّبَّكَ كَثِيرٗا وَسَبِّحۡ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِبۡكَٰرِ﴾ يعني في أيّامِ عجْزِك عن تكليمِ النّاس[2].

حبْسُ اللّسانِ إلّا عن ذكرِ الله، أو قولِ الخيرِ تمرينٌ عظيمٌ لمن أرادَ تزكيةَ النّفسِ

الثاني: كان امتناعُه من ذاتِه أي لغيرِ آفةٍ، والمعنى: آيتُك أنْ تصيرَ مأمورًا بأن لا تكلّمَ الخَلْقَ، وأن تَشتغلَ بالذّكر شُكرًا على إعطاءِ هذه الموهبةِ، وإذا أُمرتَ بذلك فقد حصلَ المطلوبُ[3]. كأنّه لمّا طلبَ الآيةَ من أجلِ الشُّكرِ قيل له: آيتُك أن تحبسَ لسانَك، إلّا عن الشُّكر. وأحسنُ الجوابِ وأوقَعُه ما كان مُشتقًّا منَ السّؤال ومُنتزَعًا منه، ﴿إِلَّا رَمۡزٗاۗ﴾ إلّا إشارةً بيدٍ أو رأسٍ أو غيرِهما، وأصلُه التّحرّكُ، يقال ارتمز: إذا تحرّكَ، ومنه قيل للبحر: الراموز. وقرأ يحيى بن وثّاب: ﴿إِلَّا رُمُزٗاۗ﴾ بضمتين، جمع رموز كرسول ورسل. وقرئ (رَمَزًا) بفتحتين جمع رامز كخادم وخَدَم، وهو حالٌ منه ومن النّاسِ دفعةً[4].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/243.
(2) الزمخشري، الكشاف: 1/359، وأبو حيّان، البحر المحيط: 3/138.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/138.
(4) الزمخشري، الكشاف: 1/361.

خروجُ أمرِ الذّكر إلى معنى التّوجيهِ والإرشادِ:

معنى الذكر إثبات الإحاطة له تعالى بكلّ كمالٍ

في قولِه: ﴿وَٱذۡكُر رَّبَّكَ كَثِيرٗا وَسَبِّحۡ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِبۡكَٰرِ﴾: ﴿وَٱذۡكُر رَّبَّكَ﴾؛ أيْ بالحَمدِ وهو أنْ تُثبتَ له الإحاطةَ بكلّ كمالٍ ﴿كَثِيرٗا﴾ في الأيّامِ التي مُنعتَ فيها من كلامِ النّاسِ خصوصًا، وفي سائر أوقاتك عُمومًا ﴿وَسَبِّحۡ﴾؛ أي: أوقعِ التّسبيحَ المطلَقَ لربّك بأن تنفيَ عنه كلَّ نقصٍ ﴿بِٱلۡعَشِيِّ﴾؛ أي وقتَ العِشاءِ، و﴿وَٱلۡإِبۡكَٰرِ﴾ أوّلُ النّهار[1]. فالأمرُ على حقيقتِه في قولِه: ﴿وَٱذۡكُر﴾ و﴿وَسَبِّحۡ﴾ في حق زَكَرِيَّا عليه السلام لكنّه يخرجُ إلى التّوجيهِ والإرشادِ لعُمومِ النّاس، بيانًا لأهمّيّة الذّكرِ في حياةِ المسلمِ، وما فيه منَ الصِّلةِ مع اللّه تعالى، ومعيّته، وسكينة النّفس، وسعادة الدّار. وتوحيده سبحانه.

معنى أنَّ الذِّكْر لزَكَرِيَّا جاء إرشادًا للنَّاسِ جميعًا ليكون في حياتِهم سجيّةً

يُمكنُ أن يكون الذّكرُ في قوله ﴿وَٱذۡكُر رَّبَّكَ كَثِيرٗا﴾، هنا بالقلبِ؛ لأنّه مُنع منَ الكلامِ. ويُمكنُ أن يكونَ باللّسان؛ لأنّه مُنع منَ الكلامِ مع النّاسِ ولم يُمنعْ منَ الذِّكر. فالأمرُ بالشُّكرِ والذّكرِ المرادِ به: الذّكرُ بالقلب والصَّلاة إن كان قد سُلِبَ قوّةَ النُّطقِ، أو الذِّكرُ اللّساني إن كان قد نُهيَ عنها فقط[2].. وقال محمّدُ بنُ كعبٍ القُرَظي: لو رُخّص لأحدٍ في تركِ الذِّكرِ لرُخِّصَ لزَكَرِيَّا، وللرّجلِ في الحربِ. وقد قال تعالى: ﴿إِذَا لَقِيتُمۡ فِئَةٗ فَٱثۡبُتُواْ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا﴾ [الأنفال: 45] وأمَرَ بكثرةِ الذِّكر ليَكثُرَ ذكرُ اللّه له بنِعمِه وألطافِه، كما قال تعالى: ﴿فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ﴾ [البقرة: 152][3].

أذكارُ الصّباحِ والمساءِ مُهمّةٌ في حياة المُسلم، ومَنْ داوم عليها استرشدَ بأمرِ الله

بَلاغةُ وضعِ المُظهرِ موضعَ المُضمرِ:

في قولِه: ﴿رَّبَّكَ﴾ وضعٌ للمُظهَر موضعَ المُضمَر، فالسِّياقُ كان: واذكرْني كثيرًا، وفي ذلك استحضارُ عَظَمةِ اللّه في حياةِ النّاسِ،

(1) البقاعي، نظم الدرر: 2/79.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/243.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/141.

وتجديدُ استحضارِ عَظَمةِ الخالِقِ سبحانه، والإنابةِ إليه وتكرارِ ذكره وجعل العَشيّ والإبكار كمُرشدَين، يُذكّران بتسبيحِ اللّه وذكْرِه.

علّة التّأكيد في قوله: ﴿وَٱذۡكُر رَّبَّكَ كَثِيرٗا﴾:

قولُه: ﴿وَٱذۡكُر رَّبَّكَ كَثِيرٗا﴾ في أيامِ الحبْسةِ، وهو مؤكِّدٌ لما قبله مبيِّنٌ للغرضِ منه، وتقييدُ الأمرِ بالكثرةِ يدلُّ على أنه يفيدُ التّوكيدَ لا التّكرارَ[1]. أو قولُه: ﴿وَٱذۡكُر رَّبَّكَ كَثِيرٗا﴾، يعني في أيّامِ عَجْزكَ عن تكليمِ النّاس، وهي مِنَ الآياتِ الباهرةِ. وأنّ الأمرَ بالذّكر والتّسبيحِ ليس مُقيَّدًا بالزّمانِ الذي لا يُكلّمُ فيه النّاسَ[2]، وإنّما أُريدَ بالكثرة هنا الدّوامُ على الذّكرِ ما دام الإنسانُ حيًّا؛ فيكونُ الكثيرُ مجازًا عنِ الدّوام، والاستمرارِ فيه. ليعمَّ الأزمنةَ كلَّها.

الإكثارُ منَ الذّكر نعمةٌ عُظمى يُوفّقُ الله تعالى إليها من يحبُّ من عباده، وهي حفاوةٌ إلهيّةٌ لمن داومَ عليها

توجيه المَجاز في قوله: ﴿وَسَبِّحۡ﴾:

وقيل: معنى وسبّحْ؛ أي: وصلِّ، ومنه: كان يصلّي سُبحة الضّحى أربعًا، ﴿فَلَوۡلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُسَبِّحِينَ ١٤٣﴾ [الصافات: 143] على أحد الوجهين[3]. قال الزّجّاج: يقال: فرغتُ من سُبحتي، أي: من صلاتي. وسُمّيتِ الصَّلاةُ تسبيحًا، لأنّ التّسبيحَ تعظيمُ اللّه، وتبرئتُه منَ السُّوءِ، فالصَّلاةُ يوصفُ فيها بكلِّ ما يُبرّئُه منَ السُّوءِ[4]. وفائدةُ هذا المجازِ أنّ فترةَ الصَّلاةِ يكون فيها الإنسانُ المُتعبّدُ منقطعًا عن كلامِ النّاسِ ومخالطتِهم، وأرادَ منَ المجازِ أن تكونَ ساعاتُ وقتِك كلُّها على نهْجِ صلاتِك منقطعًا عن حديثِ النّاسِ ومحادثتِهم، وهذا المجازُ يُرشّحُ المعنى الذي ذهب إليه جمعٌ منَ المفسّرين: أنّ حبْسَ كلامِه كان بمحْضِ إرادته، فتكونُ ساعاتُ يومه كلُّها صلاةً.

فائدة المجازِ أن تكونَ ساعاتُ وقتِك كلُّها على نهْجِ صلاتِك منقطعًا عن حديثِ النّاسِ ومحادثتِهم

ويدلُّ على أنّ المرادَ بالتّسبيحِ الصَّلاةُ، ذكرُه العشيّ والإبكار،

(1) البَيضاويّ، أنوار التّنزيل: 2/16.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/139.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/141.
(4) ابنُ الجوزيّ، زاد المسير: 1/281.

فكأنه قال: اذكر ربَّك في جميع هذه الأيامِ والليالِي، وصلِّ طَرفَيِ النّهارِ[1].

علّة حذفُ معمولِ ﴿وَسَبِّحۡ﴾:

ومفعول: ﴿وَسَبِّحۡ﴾، محذوفٌ للعلم به؛ لأنّ قبْلَه: ﴿وَٱذۡكُر رَّبَّكَ كَثِيرٗا﴾، أي: وسبّح ربَّك. والباء في: بالعشيّ، ظرفيةٌ أي: في العشيّ. وفائدةُ حذفِه لجواز أن يكونَ التّسبيحُ على الحقيقةِ أو المجازِ، فيكونَ على الحقيقة مُفصِّلًا لما أُجمل قبْلَه، أو أن يكونَ مجازًا بمعنى الصَّلاةِ، كما ذكرنا آنفًا، فقد جمعَ بهذا الحذفِ والاكتفاءِ المَعنيين.

وجه الاستغناء بالمذكور للعلم بالمحذوف على الحقيقةِ أو المجازِ

الانتقالُ منَ العامِّ إلى الخاصِّ في الذّكرِ والتّسبيحِ:

في قولِه: ﴿وَٱذۡكُر رَّبَّكَ كَثِيرٗا وَسَبِّحۡ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِبۡكَٰرِ﴾ فقولُه: ﴿وَٱذۡكُر رَّبَّكَ كَثِيرٗا﴾ عامٌّ في الذّكر وكثرتِه في أوقات اليومِ واللّيلةِ، ثم أتبعَها بالتّوجيه إلى أوقاتٍ يختصُّ فيها تسبيحُ اللّه تعالى، فقال: ﴿وَسَبِّحۡ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِبۡكَٰرِ﴾ فانتقل منَ العامِّ إلى الخاصِّ على اعتبار أنّ الذِّكرَ والتّسبيحَ يشتركان بمعنى الذِّكر للّه تعالى، فقولُه: ﴿وَٱذۡكُر رَّبَّكَ كَثِيرٗا﴾ يعني عمومَ الذّكر في أحوالِ الإنسانِ كلِّها، سواءٌ ذكرُ اللّه في صلاةٍ، أو في غيرِ صلاةٍ، أمّا قولُه: ﴿وَسَبِّحۡ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِبۡكَٰرِ﴾، فهو الذّكرُ في الصَّلاة حصرًا؛ فانتقلَ الخطابُ من ذكر العامِّ إلى الخاصِّ.

التّنوّعُ في أحوالِ الذّكر لله تنسجمُ مع أحوالِ النّاسِ وظروفِهم وأبرزُ ما يحقّقُه الإنسانُ أن يكونَ لسانُه رطبًا بذكرِ الله

بلاغةُ الطِّباقِ في قولِه: ﴿بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِبۡكَٰرِ﴾:

بين كلمتَيْ ﴿بِٱلۡعَشِيِّ﴾ و﴿وَٱلۡإِبۡكَٰرِ﴾ طباقٌ؛ وهو منَ المُحسّناتِ البديعيةِ. وقولُه: ﴿بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِبۡكَٰرِ﴾ ولم يعنِ التّسبيحَ في طَرفَيِ النّهار فقط، بل أرادَ إدامةَ العبادةِ في هذه الأيامِ الثلاثةِ[2]. وهذا هو مفهومُ الشّمولِ الذي دلّ عليه الطّباقُ، وفي قولِه: ﴿بِٱلۡعَشِيِّ

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/142.
(2) الراغب، تفسير الراغب: 2/550.

﴿وَٱلۡإِبۡكَٰرِ﴾ تعبيرٌ عن زمانين متقابلَين، يكونان في أوّل النهار، وأوّلِ اللّيل على التّرتيب، وَسَبِّحْ بِالعَشِيِّ منَ الزّوال إلى الغروب. وقيل: منَ العصر أو الغروب إلى ذهاب صدر اللّيل. وَالإِبْكارُ من طلوع الفجرِ إلى الضُّحى. وقرئ بفتح الهمزة جمع بَكَر كسَحَر وأسحار[1]. وفيها دلالةُ شمولِ أوقاتِ اليومِ واللّيلةِ كلِّها، ثمّ فيها تنبيهٌ إلى أهمّيّة الذّكرِ في هذين الوَقْتين، وتسبيحِ اللّه فيهما.

لـــم يـعـنِ الـتّـسـبـيـحَ في طَـرفَي الـنّـهـار فـقـط، بـل أرادَ شُـمـولَ الأوقـات كـلِّـهـا، وإدامـةَ العبادةِ

بلاغة المَجاز في قولِه: ﴿بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِبۡكَٰرِ﴾:

﴿وَسَبِّحۡ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِبۡكَٰرِ﴾: أي: نزِّهِ اللّه عن سماتِ النّقصِ بالنّطقِ باللّسان بقولك: سبحان اللّه، والظاهرُ أنّه أمرٌ بتسبيح اللّه في هذين الوَقْتين: أوّلِ الفجر، ووقتِ مَيْلِ الشّمس للغروب، قاله مُجاهدٌ. وقال غيرُه: يحتملُ أن يكونَ أرادَ بالعشيّ اللّيلَ، وبالإبكار النّهارَ، فعبّر بجُزء كلٍّ واحد منهما عن جُملتِه، وهو مجازٌ حسنٌ[2]. وهذا يُرشّحُ دَلالةَ الشُّمول في الطّباق بين ﴿بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِبۡكَٰرِ﴾.

وجـــه الـمـجـاز احتمال التعبير بجزء كـلِّ واحد مـنـهـمـا عـن جُملتِه

التّناسُبُ والتّقابُلُ في قراءة (والأبكار):

وقرىء شاذًّا: (والأبكار)، بفتح الهمزة، وهو جمع (بَكَر) بفتح الباء والكاف، تقول: أتيتكَ بَكَرًا، وهو مما يُلتزم فيه الظرفيةُ إذا كان من يوم معيّن؛ ونظيره: سَحَر وأسحار، وجبل وأجبال. وهذه القراءة مناسبةٌ للعشيّ، على قول من جعله جمعَ عَشيةٍ؛ إذ يكون فيها تقابلٌ من حيث الجمعيةُ، وكذلك هي مناسبةٌ إذا كان العشيُّ مفردًا، وكانتِ الألفُ واللّامُ فيه للعموم، كقولِه: ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ۝٢﴾ [العصر: 2][3].

وأمّا على القراءة المتواترة: ﴿وَٱلۡإِبۡكَٰرِ﴾، بكسر الهمزة، فهو

(1) البَيضاويّ، أنوار التّنزيل: 2/16.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 3/141 - 142.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/142.

مصدر، فيكون قد قابل العشيّ الذي هو وقتٌ، بالمصدر، فيحتاج إلى حذف؛ أي: بالعشي ووقت الإبكار. والظاهر في: بالعشي والإبكار، أنّ الألفَ واللامَ فيهما للعُموم، ولا يراد به عشيٌّ تلك الثّلاثةِ الأيام ولا وقتُ الإبكار فيها. وهذا مناسبٌ لما يحقّقُ الطّباقَ أيضًا من فائدةِ الشُّمولِ.

بَلاغةُ اللّفِّ والنَّشرِ:

الزّمانُ وعاءُ الذِّكرِ، ودقائقُ السّاعةِ تذكّركَ بملءِ هذا الوعاءِ بذكْرِ الله

في الآيةِ الكريمةِ نلمحُ فنَّ اللّفِّ والنّشرِ، كونُه أحدَ فنونِ البديعِ في قولِه تعالى: ﴿ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ﴾، ثمّ قال: ﴿بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِبۡكَٰرِ﴾، فكان اللّفُّ في ذكر كلمة ﴿أَيَّامٍ﴾ طيًّا لساعاتِها وتناوُبِ اللّيل والنّهار عليها، والنَّشرُ في ذكر وقتين هما اللّيلُ والنّهار بحذافيرِهما، فقال: ﴿بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِبۡكَٰرِ﴾. وبَلاغةُ هذا الفنّ أنّه جعل منَ الزّمن وعاءً للدُّعاءِ والاستغفارِ والذّكرِ والعبادةِ، وجعلتِ الآيةُ من زَكَرِيَّا عليه السلام الأنموذجَ الأسمَى في التّلقّي والتَّطبيقِ؛ فكان قد ملأ وعاءَ الزّمان كلَّه بالذِّكرِ والتّسبيح، وخرجَ على قومه كما بيّنت آيةُ سورة مريمَ فقال لهم: ﴿أَن سَبِّحُواْ بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا ١١﴾ [مريم: 11] إرشادًا لهم وتوجيهًا، فكان منهم المُسبّحون والذّاكرون.

التّناظُرُ والتّعاكُسُ بين النّصّيْن في سُورتَيْ آلِ عمرانَ ومريمَ:

أولًا التّناظرُ بين الآيتين والاختلافُ في ذكْرِ اليومِ واللّيلةِ

قال هنا: ﴿ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمۡزٗاۗ﴾، وقال في سورة مريمَ: ﴿ثَلَٰثَ لَيَالٖ سَوِيّٗا ١٠﴾ [مريم: 10] والاختلافُ يدلُّ على أنّ الآيتين دلّتا على أنّ المرادَ ثلاثةُ أيام بلياليهنّ[1]. فقال ﴿لَيَالٖ﴾ [مريم: 10] دون ذكرِ يومٍ أو نهارٍ لبيان أهميّةِ الذّكرِ ليلًا، وذكرُ النّداءِ الخَفيّ الذي هو التوسّلُ قبل الدُّعاءِ، والخفاءُ ينسجمُ مع ذكرِ اللّيل ونداءِه فيه. وقال: ﴿ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمۡزٗاۗ﴾؛ فذكرَ الأيّامَ هنا؛ لأنه وقتُ الكلام مع النّاسِ فنبّه إلى أنَّ كلامَه معهم يكون رمزًا، يريدُ: أَنْ لا تُكَلِّمَ

(1) الشربيني، السّراج المُنير: 2/417.

النّاس إلاَّ رَمْزًا، والرّمزُ: الإيماءُ والإشارةُ[1] وفي هذا دليلٌ على أنّ في ذكرِ اليومِ أو اللّيلةِ غِنًى عن ذكرِ الآخَر عندَ الإطلاق[2].

ثانيًا اختلافُ معنى الأمْرِ (وسبح) في السُّورتين بين الحقيقةِ والمَجاز

طلبَ اللّه تعالى من زَكَرِيَّا عليه السلام ذكْرَ ربّه والتسبيحَ في سورة آل عمرانَ ﴿وَٱذۡكُر رَّبَّكَ كَثِيرٗا وَسَبِّحۡ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِبۡكَٰرِ﴾، أما في سورة مريمَ فزَكَرِيَّا عليه السلام هو الذي طلبَ من قومِه أن يُسبّحُوا اللّه بكرةً وعشيًّا ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ مِنَ ٱلۡمِحۡرَابِ فَأَوۡحَىٰٓ إِلَيۡهِمۡ أَن سَبِّحُواْ بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا ١١﴾ [مريم: 11] وتسبيحُ زَكَرِيَّا أدلُّ على شكرِه للّه تعالى من تسبيحِ قومِ زَكَرِيَّا. وقد روتْ كلُّ آيةٍ منَ السّورتين جانبًا منَ الحقيقةِ؛ إذ وقع التّسبيحُ على زَكَرِيَّا أمرًا مفروضًا عليه مضمونُه، أمّا أمرُ التّسبيح لقومِه فمِن قَبيل التّوجيهِ والإرشادِ والنّافلةِ، وفي هذا توجيهٌ إلى أهمّيّةِ الذّكرِ والتّسبيحِ في حياة المؤمنِ عمومًا؛ فقد وجّه زَكَرِيَّا قومَه، وأرشدَهم إلى كثرة التّسبيحِ لمَا وجد من خيرِ ذلك العملِ ورضاءِ اللّه تعالى المُعطِي لكلِّ خيرٍ.

ثالثًا العكسُ في التّقديمِ والتّأخيرِ لمانعِ الذّريّةِ في السُّورتين ومناسبةِ السّياقِ

قدّمَ زَكَرِيَّا عليه السلام مانعَ الذّريةِ في سورة آل عمرانَ من جهتِه على جهةِ امرأتِه ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَقَدۡ بَلَغَنِيَ ٱلۡكِبَرُ وَٱمۡرَأَتِي عَاقِرٞۖ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ﴾ وهذا ناسبَ أمرَه هو بالذّكرِ والتّسبيحِ، أما في سورة مريمَ فقدّمَ مانعَ الذّرية من امرأتِه على الموانعِ فيه ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرٗا وَقَدۡ بَلَغۡتُ مِنَ ٱلۡكِبَرِ عِتِيّٗا ٨﴾ [مريم: 11] وهذا ناسبَ الأمرَ لغيرِه بالتّسبيحِ.

نكّر لفظي ﴿بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا ١١﴾ [مريم: 11] في سورة مريمَ، وعرّفَهما في سورة آل عمرانَ بقولِه: ﴿بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِبۡكَٰرِ﴾، وتفسيرُ ذلك أنّ (أل) التّعريف تُفيدُ هنا العُمومَ لا الخُصوصَ، ودَلالةُ ﴿بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِبۡكَٰرِ﴾ على دوام الشُّكر أقوى من تنكيرِها، لذا ناسبَ مجيئُها في

(1) الأخفش، معاني القرآن: 1/217.
(2) الراغب، تفسير الرّاغب: 2/549.

آيةِ آل عمرانَ لعظيمِ البِشارةِ وما تستوجبُه من عظيم الشُّكرِ، ولأنّ الأمرَ واقعٌ على حقيقتِه، فيكونُ واجبُ التّسبيح على زَكَرِيَّا واقعًا، في حين نجدُ في سورة مريمَ أنّ الأمرَ قد خرجَ إلى معنًى مجازيٍّ هو التّوجيهُ والإرشادُ، فناسبَ التّنكيرُ في قولِه: ﴿بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا ١١﴾ [مريم: 11]؛ لأنه لا يتكلّم عن فرضٍ أو واجبٍ عليهم، وهذا على نقيضِ آيةِ آل عمرانَ.

رابعًا العكسُ في التّعريفِ والتّنكيرِ للعَشيِّ والإبكارِ بين السُّورتين

قدّم ﴿بِٱلۡعَشِيِّ﴾ على ﴿وَٱلۡإِبۡكَٰرِ﴾ في آيةِ آل عمرانِ فقال: ﴿وَسَبِّحۡ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِبۡكَٰرِ﴾، وعكس في آيةِ مريمَ بقولِه: ﴿بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا ١١﴾ [مريم: 11]؛ لكونه ذكرَ اللّيل في سورة مريمَ فقال: ﴿ثَلَٰثَ لَيَالٖ﴾؛ فقدّمَ ﴿بُكۡرَةٗ﴾ على ﴿وَعَشِيّٗا ١١﴾ [مريم: 11]، بقوله: ﴿أَن سَبِّحُواْ بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا ١١﴾ [مريم: 11]؛ لأن البكرةَ وقتُها من طلوعِ الفجرِ، فيتحقّقُ شمولُ اللّيل والنّهار في هذا التّوجيهِ، والعشيُّ وقتُها من صلاة الظّهر، فعندما ذكرَ اللّيلَ ناسبَ ذكرُ البُكرة؛ لأنها تأتي مباشرةً بعد اللّيل، ثم يأتي العَشيّ. أمّا في آل عمرانَ فقال: ﴿ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ﴾ فأتبعها بتقديمِ العَشيّ على الإبكار، فقدّم ما هو أدلُّ وأنسبُ على الشُّكرِ في الآيتين. وناسبَ ترشيحُ دَلالةِ الشُّمولِ في سياق الآيتين.

خامسًا العكسُ في ذكرِ العَشي والإبكار بين السُّورتين

﴿وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [آل عمران: 42]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا فرغَ اللهُ ذِكْرِ من قصّةِ زَكَرِيَّا - وكان قدِ استطردَ في قصّة مريمَ - رجعَ إلى قصّة مريمَ، على عادةِ العربِ في أساليبِها، إذ متى ذكروا شيئًا واستطردوا منه إلى غيرِه، عادُوا إلى الأوَّل إن كان لهم غرضٌ صحيحٌ في العَوْدِ إليه، فلما فرغَ ممّا للكافلِ من كرامةٍ بعد ما نوَّهَ بأمرِ المكفولةِ بيانًا لاستجابةِ الدُّعاء من أمّها لها أعاد الإشارةَ بذكرها، والإعلامَ بعَليّ قدْرِها فقال عاطفًا: واذكُرْ: ﴿وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱصْطَفَىٰكِ﴾: جذرُ الكلمةِ هو: (صَفَو)؛ والاصطفاءُ لغةً: تناولُ صَفْو الشّيءِ؛ كما أَنَّ الاختيارَ: تناولُ خَيرِه، والاجتباءَ تناولُ جِبايته، أَي: جُمْلَتِه. وأصلُ الصّفاءِ خُلوصُ الشّيءِ منَ الشّوبِ، ومنه الصّفا للحجارةِ الصّافيةِ، قال تعالى: ﴿۞إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: 158]، وصَفْوُ الشَّيْءِ بِالفَتْحِ خَالِصُهُ، صَفَاءً إِذَا خَلَصَ مِنْ الكَدَرِ فَهُوَ صَافٍ، وَصَفَّيْتُهُ مِنْ القَذَى تَصْفِيَةً أَزَلْتُهُ عَنْهُ، وَأَصْفَيْتُهُ بِالأَلِفِ آثَرْتُهُ، وَأَصْفَيْتُهُ الوُدَّ أَخْلَصْتُهُ، وَالصَّفِيُّ وَالصَّفِيَّةُ مَا يَصْطَفِيهِ الرَّئِيسُ لِنَفْسِهِ مِنَ المَغْنَمِ قَبْلَ القِسْمَةِ أَيْ يَخْتَارُهُ، واصطفاءُ اللهِ بعضَ عبادِه قد يكونُ بإيجادِه صافيًا عنِ الشَّوْبِ الموجودِ في غيرِه، وقد يكون باعتبارِه وحُكْمِه، وإن لم يتعرَّ ذلك منَ الأَوّل[2].

2) ﴿وَطَهَّرَكِ﴾: من طَهَر، أَصْلٌ وَاحِدٌ صَحِيحٌ يَدُلُّ عَلَى نَقَاءٍ وَزَوَالِ دَنَسٍ. وَمِنْ ذَلِكَ الطُّهْرُ، خِلَافُ الدَّنَسِ. وَالتَّطَهُّرُ: التَّنَزُّهُ عَنِ الذَّمِّ وَكُلِّ قَبِيحٍ. وَفُلَانٌ طَاهِرُ الثِّيَابِ، إِذَا لَمْ يُدَنَّسْ، وطَهَرَتِ المرأةُ وطَهُرَت - لغتان، فهي طاهرٌ، والطُّهْرُ: نَقيضُ الحَيْض.[3] والاطّهارُ:

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/146، والبِقاعِيّ، نظم الدّرَر: 2/79.
(2) الخليل، العَينْ، والراغب، المُفردَات: (صفو)، والفيروزابادي، بصائر ذوي التمييز: 2/177.
(3) الخليل، العَينْ، والزّمخشري، أساس البلاغة: (طهر).

الاغتِسالُ في قولِه تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَٱطَّهَّرُواْ﴾ [المائدة: 6]، وقولِه تعالى: ﴿رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ﴾ [التوبة: 108] يعني: الاستِنْجاءَ بالماء.(1).

والطّهارةُ ضربان؛ طهارةُ جسم وطهارةُ نفْسٍ، وحُملَ عليهما عامّةُ آياتِ القرآنِ الكريمِ، قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ﴾ [البقرة: 222]، فدلَّ باللَّفظين على أنّه لا يجوزُ وطؤهُنّ إلّا بعد الطّهارة والتّطهير(2) وهذا هو الأرقى.

والطُّهور بالضّمّ الطهارةُ، وبالفتح هو اسمُ ما يُتطهَّر به منَ الماء والصَّعيد، قال الله تعالى ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾﴾ [الفرقان: 48](3).

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

يُنوّهُ تعالى بفضيلةِ مريمَ وعلُوِّ قدرِها، وأنَّ الملائكة قالت لها إنَّ اللّهَ اختارَك لطاعته، وجمَّلك بالصّفاتِ الحميدةِ، والأفعالِ السّديدةِ التي امتازتْ بها مريمُ عن كثيرٍ منَ النّاس، إذ جُمع فيها ما لا يُجمعُ في غيرِها منَ الخير، ونزَّهكِ منَ الآفاتِ المُنقصةِ وعن كلِّ ما يُستكرَهُ، واختاركِ على سائر نساء العالمين في زمانك، أو هو تفضيلٌ مطلقٌ على نساءِ العالمين جميعًا، بأنْ جعلَها تلدُ نبيًّا من غير أن يمسَّها رجلٌ(4)

❁ الإِيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ المجازِ المُرسَلِ في قولِه: ﴿وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾:

فائدةُ المجاز أنّه أتى تكرارًا لنداءِ الملائكة لزَكَرِيَّا عليه السلام تعظيمًا

أطلقَ الملائكةَ في قوله: ﴿وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ والمرادُ جبريلُ؛ فهو من باب تسميةِ الخاصِّ باسم العامِّ تعظيمًا له؛ وهو منَ المجازِ المُرسل. وفائدةُ هذا الأسلوبِ أنّه أتى تكرارًا لنداءِ الملائكة لزَكَرِيَّا عليه السلام فجاء على نَسَقِه ونهْجِه وهو التّعظيم؛ إذ إنّ الذي ناداه جبريلُ عليه السلام ولكنّه عبّر عنه بجماعةِ الملائكةِ، وذُكر نداءُ مريمَ في القرآن أيضًا بصِيغة المفردِ التي تدلُّ على أنّ جبريلَ هو الذي ينادِيها من

(1) الخليل، العَينْ: (طهر).
(2) الراغب، المُفردَات: (طهر).
(3) النَّسَفيّ، طِلبَة الطَلَبة: (طهر).
(4) المَوصِلّي، أولى ما قيل: 2/470، والسّعديّ، تيسير الكريم الرحمن: 1/130.

ذلك قولُه تعالى: ﴿فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾﴾ [مريم: 24].

بيان فضائلُ مريمَ التي اصطفاها الله بها:

جماع الفضائل يُوجزها عنوانُ الاصطفاءِ، والتَّطهير

فضائلُها تندرجُ تحت عنوانِ الاصطفاءِ، ومنها: إتيانُ الملَكِ بفاكهةِ الجنَّة لأَجْلها، ونَيْلُها في الشّتاء فاكهةَ الصّيف، وولادتُها لِعيسى رُوحِ اللّه وكَلِمته من غير مَسِّ الّرجالِ؛ وبيانُ براءتها على لسان الطِّفل الرَّضيعِ، وتساقُطُ الرُّطَبِ الجنِيِّ عليها منَ النَّخل اليابسِ، وإجراءُ النَّهرِ السَّريّ من تحت قدمِها، وتفضيلُها على نساءِ العالَمين، وتطهيرُها من الحيْض والعيْبِ والعصيانِ، وتَكْفيلُها لزَكَرِيَّا شيخِ الأَنبياءِ، وقَبولُ الحقّ تعالى إيّاها بالإنعامِ والإحسانِ، وتربيتُها بفُنون الإكرامِ والامْتنانِ، وتكرارُ ذكرِها بالمدحِ في نصّ القرآن[1]، وتكليمُ الملائكة لمريمَ: فقد كلّموها شفاهًا كرامةً لها، ومن أنكرَ الكرامةَ زعمَ أنّ ذلك كانت مُعجزةً لزَكَرِيَّا أو إرهاصًا لنبوّةِ عيسى عليه السلام، فإنّ الإجماعَ على أنّه - سبحانه وتعالى - لم يَستنبئِ امرأةً لقولِه تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا﴾ [يوسف: 109]. وقيل ألهموها[2].

تعدّدُ أسماءِ مريمَ وأوصافِها في القرآن وجهٌ من أوجُهِ الدَّلالةِ على اصطفائِها

ذُكر في القرآن الكريم من أسماءِ مريمَ وأوصافِها وفضلها اثنا عشر تُبينُ عنها أَتمَّ البيان، فقد وَصفَ حملَها بالمُحرَّرِ ﴿مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا﴾ [آل عمران: 35]، ووصفَها بأنّها مُصْطَفاةٌ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ﴾، ومُطَهَّرَةٌ ﴿وَطَهَّرَكِ﴾، وقانتَةٌ ﴿وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ﴿١٢﴾﴾ [التحريم: 12]، وساجدةٌ وراكعةٌ ﴿وَٱسْجُدِي وَٱرْكَعِي﴾، ومُحصَنَةٌ ﴿ٱلَّتِيٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾ [الأنبياء: 91]، وآيةٌ ﴿وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩١﴾﴾ [الأنبياء: 91]، وأمٌّ وصدّيقة ﴿وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ﴾ [المائدة: 75]، ووَالِدَةٌ ﴿وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِي﴾ [مريم:

(1) الفيروزآبادي، بصائر ذوي التمييز: 6/109.
(2) البَيضاويّ، أنوار التّنزيل: 2/16.

32]، ومَرْيَمُ وبِنْتُ عِمْرانَ ﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ﴾ [التحريم: 12][1]، وذكرَها باسمِها (مريم) في مواضعَ منَ القرآن ﴿وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ﴾ [آل عمران: 36]، ﴿يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا﴾ [آل عمران: 37]، ﴿يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ﴾، ﴿يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ﴾، ﴿يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ﴾، ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾ [المائدة: 110]، ﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ [مريم: 34]، ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ﴾ [مريم: 16]، ﴿يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾﴾ [مريم: 27]، ﴿وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً﴾ [المؤمنون: 50][2].

دلالةُ الإطناب في تكرار لفظ الاصطفاء:

وجهُ الإطنابِ الانتقالُ مِن ذِكْر أمّ مريمَ إلى بيان اصطفاء مريمَ وتطهيرها

تكرّرَ لفظُ اصطفاك في قوله: ﴿ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ﴾ كما تكرّرَ لفظُ ﴿يَٰمَرْيَمُ﴾ وهذا من بابِ الإطنابِ، عطفًا على جملةِ إذ قالت امرأت عمران. وانتقالا من ذكر أمّ مريمَ إلى ذكر مريمَ نفسِها؛ إذ إنّ ما ذُكر فيما سبق من فضائلِ أمِّ مريمَ كان تمهيدًا لذكر مريمَ أمِّ النّبيّ عيسى عليه السلام وبيانٌ لاصطفائِها وتطهيرِها[3].

سرُّ تكرارِ لفظ الاصطفاء:

إعادة لفظ الاصطفاءِ لا يفيدُ توكيدًا، بل هو تكرارُ اصطفاءَيْنِ وذِكْرَيْنِ؛ لأنّهُ مَحَلٌّ طُلِبَ فِيهِ تَكْرَارُ الذِّكْرِ

تكرارُ لفظ ﴿ٱصْطَفَىٰكِ﴾ وليس تأكيدا؛ فقد يكون التّكريرُ غيرَ تأكيدٍ صناعةً، وإن كان مُفيدًا للتأكيدِ معنى[4]، وَمِنْهُ مَا وَقَعَ فِيهِ الفَصْلُ بَيْنَ المُكَرَّرَيْنِ، فَإِنَّ التَّأْكِيدَ لَا يَفْصِلُ بَيْنَهُ، وَبَيْنَ مُؤَكَّدِهِ نَحْوَ قولِه: ﴿ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ [الحشر: 18]، وَقَوْلِهِ: ﴿فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ ۖ وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ﴾ [البقرة: 198]، وفيها كذلك قولُه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ فَالآيَات مِنْ بَابِ التَّكْرِيرِ، لَا التَّأْكِيدِ اللَّفْظِيِّ

(1) الفيروزآبادي، بصائر ذوي التمييز: 6/109.
(2) الفيروزآبادي، بصائر ذوي التمييز: 6/110.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/243.
(4) السيوطي، معترك الأقران: 1/259.

الصِّنَاعِيِّ[1]، وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ اصْطِفَاءَيْنِ وَذِكْرَيْنِ، وهو الأَقْرَبُ في الذِّكْرِ؛ لِأَنَّهُ مَحَلٌّ طُلِبَ فِيهِ تَكْرَارُ الذِّكْرِ[2].

بلاغة التَّوشيحُ في قوله: ﴿ٱصۡطَفَىٰكِ﴾:

قولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصۡطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، وتكرّرَ فعلُ ﴿ٱصۡطَفَىٰكِ﴾؛ لأنّ الاصطفاءَ الأوّلَ اصطفاءٌ ذاتِي، وهو جعلُها منزّهةً زكيةً، والثّاني بمعنى التّفضيل على الغَيرِ، فلذلك لم يُعدَّ الأوّلُ إلى مُتعلّقٍ. وعُدّي الثاني[3]. وفي الآية ما يُعرفُ بفنِّ التّوشيحِ، وهو على غرارِ ما كان في قولِه: ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحٗا وَءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمۡرَٰنَ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ٣٣﴾ [آل عمران: 33]، وبيّنّا ذلك في محلِّه، وهنا كذلك، فلمّا ذكرَ اصطفاءَ مريمَ، عُلم أنّه سيذكر جهةَ المُقارنةِ والاصطفاءِ فختم الآيةَ بقولِه: ﴿عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾.

الاصطفاءُ الأوّلَ ذاتِـــيّ، وهـو جعلُها منزّهةً زكـيـةً، والـثّـاني بمعنى التّفضيل على الغَيرِ

وجهُ خروج نداءِ الاصطفاءِ إلى التّوطئةِ والتّأنيسِ:

وفي نداءِ الملائكة لها باسْمِها تأنيسٌ لها وتوطئةٌ لما تُلقيه إليها، ومعمولُ القول الجملةُ المؤكَّدةُ: بـ ﴿إِنَّ﴾، والظاهرُ مشافهةُ الملائكة لها بالقولِ؛ إذ رُوي أنهم كلّموها شفاهًا معجزةً لزَكَرِيَّا، أو إرهاصًا لنبوّةِ عيسى[4]. فهذا النّداءُ هو الأوّلُ وسيأتي نداءٌ آخر، وليكونَ الأوّلُ توطئةً للثاني؛ الذي سيكونُ بشرَى واصطفاءً لمريمَ بمولودِها الذي سيُخلقُ كخلْقِ آدمَ، فقولُه تعالى: ﴿يَٰمَرۡيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصۡطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾؛ مُكتَنَزٌ في التّلميحِ إلى أمرٍ عظيمٍ سيصيبُها، وسيجعلُ اللّه لها مكانةً لا تكونُ لواحدةٍ من نساءِ العالَمين.

نـداءُ الاصطفاءِ مُكتَنزٌ التّلميحَ إلى أمـرٍ عظيمٍ سـيـصـيـبُـهـا، ومكانةٍ ستنالُها

(1) السيوطي، الإتقان: 3/225.
(2) السيوطي، الإتقان: 3/13.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/244.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/146.

بلاغةُ الكناية في معنى الاصطفاءِ الثاني:

معنى الاصطفاءِ الثاني ولادةُ عيسى؛ لأنها بولادته حصلَ لها زيادةُ اصطفاءٍ وعلُوُّ منزلةٍ على الأكفاءِ

وُجِّهَ تكرارُ لفظ الاصطفاء على سبيل التّوكيدِ والمبالغةِ. وقيل: لا توكيدَ إذِ المرادُ بالاصطفاء الأوّلِ اصطفاءُ الولايةِ، وبالثاني اصطفاءُ ولادةِ عيسى؛ لأنها بولادته حصلَ لها زيادةُ اصطفاءٍ وعلُوُّ منزلةٍ على الأكفاءِ. ولم تُصرّحِ الملائكةُ بمضمون الاصطفاءِ الثّاني، فعُلم أنّ مكنونَه أمرٌ عظيمٌ، فوقعَ على سبيل الكنايةِ، فالاصطفاءُ الأوّل: اختيارٌ وعُمومٌ يدخل فيه صوالحُ منَ النّساء، والثاني: اصطفاءٌ على نساءِ العالَمين. وقيل: لمّا أطلقَ الاصطفاءَ الأوّلَ بَيَّن بالثاني أنها مُصطفاةٌ على النِّساء دونَ الرّجال. وهذا ما يُفرّقُ اصطفاءَها عنِ الأنبياء؛ قال تعالى: ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحٗا وَءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمۡرَٰنَ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ٣٣﴾ [آل عمران: 33] وقال الزمخشري: اصطفاكِ أوّلًا حين تقبّلكِ من أمّكِ وربّاكِ، واختصّكِ بالكرامةِ السّنيةِ، وطهّركِ ممّا يُستقذرُ منَ الأفعالِ، وممّا قذفَكِ به اليهودُ، واصطفاكِ آخرًا على نساءِ العالمين بأن وهبَ لكِ عيسَى من غيرِ أبٍ، ولم يكنْ ذلك لأحدٍ منَ النساءِ[1]. ويكونُ: نساءُ العالمين، على قولِه عامًّا، ويكونُ الأمرُ الذي اصطُفِيتِ به من أجلِه هو اختصاصها بولادةِ عيسى[2].

معنى الاصطفاءَيْن بين الخصوص والعموم:

المعنى الذي اصطُفيتِ لأجله مريمُ على نساء العالمين هو شيءٌ يخصُّها، فهو اصطفاءٌ خاصٌّ وسببُه خاصٌّ. ومعنى: ﴿نِسَآءِ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ أنّه خاصٌّ بنساءِ عالَم زمانِها، ولكنّ الاصطفاءَ إذ ذاك عامٌّ في شؤونها كلِّها، وظروفِ حياتِها، وما أكرمَها اللّه به من الحفاوةِ وآيةِ الولد وغيرِها ممّا ذُكر آنفًا، قاله ابنُ جريج.

وفي هذا الاصطفاءِ الثاني أربعةُ أقوال: أحدُها: أنه تأكيدٌ للأول. والثاني: أنّ الأولَ للعبادة، والثاني لولادةِ عيسَى عليه السلام. والثالث: أنّ الاصطفاءَ الأوّلَ اختيارٌ مبهمٌ، وعمومٌ يدخل

(1) الزّمخشري، الكشّاف: 1/389.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/146.

فيه صوالحُ منَ النّساء، فأعاد الاصطفاءَ لتفضيلها على نساء العالَمين.

والرابع: أنه لمّا أطلقَ الاصطفاءَ الأوّلَ، أبان بالثاني أنها مصطفاةٌ على النّساءِ دونَ الرّجالِ. قال ابنُ عباس، والحسنُ، وابنُ جريج: اصطفاها على عالَمي زمانِها. قال ابنُ الأنباري: وهذا قولُ الأكثرين[1].

بَلاغةُ فنِّ التّرقّي في قوله تعالى: ﴿ٱصۡطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصۡطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾:

الاصطفاء الأوّلُ اختيارٌ، ثم أعقبَه بتطهيرها منَ الذّنوبِ والآثامِ وما يقعُ فيه البشرُ. فأضاف ارتقاءً إلى اصطفائِها الأوّلِ؛ وهذه درجاتٌ لا يعلمُ منتهاها إلّا اللّهُ سبحانه وتعالى، وهي من تجلّياتِ الغيبِ على الخاصّةِ من عبادِه. وأمّا الاصطفاءُ الثاني وهو الدّرجةُ العليا إذ جعلَ اللّه تعالى مريمَ أمًّا لعيسَى عليه السلام. فكان ما سبَقَه منَ الدّرجاتِ إعدادًا صعودًا بها إلى أرقَى درجاتِ السُّلّمِ الاصطفائيّ، لتنالَ منزلةَ سيّدةِ بني إسرائيلَ، وأمِّ النّبيّ الذي شاء اللّه أن تكونَ ولادتُه آيةً عظيمةً للبشريّة كلِّها، فارتقت مريمُ بذلك إلى قمّةِ الاصطفاءِ، ووصلتْ إلى أعلى ما يُمكنُ أن تصلَ إليه امرأةٌ من نساءِ العالَمين لما امتازتْ بهذا الحدثِ الوحيدِ من نوعِه، الفريدِ في الزّمان كلِّه. وقد أدّى فنُّ التّرقّي مُقتضاهُ ومبتغاهُ وبلاغتَه في بيان ذلك التّدرّجِ اصطفاءً وتطهيرًا.

الاصطفاءُ متاحٌ لعباد اللّه جميعًا تَنقيةً وترقيةً، وتخليةً وتحليةً، وتطهيرًا وتزكيةً

توجيه العموم والخصوص في التفضيل:

وقولُه: ﴿عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، قيل: هو على العُموم، وقيل: عنى اللّاتي في زمانِها[2]. ونساءُ العالمين نساءُ زمانها، أو نساءُ سائرِ الأزمنة[3].

المرادُ بنساء العالمين نساءُ زمانها، أو نساءُ سائرِ الأزمنة

(1) ابنُ الجوزيّ، زاد المسير: 1/282.
(2) الراغب، تفسير الرّاغب: 2/555.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/244.

﴿يَٰمَرۡيَمُ ٱقۡنُتِي لِرَبِّكِ وَٱسۡجُدِي وَٱرۡكَعِي مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ٤٣﴾ [آل عمران: 43]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

ولمّا أخبرها - سبحانه وتعالى - بما اختصَّها به كرّرَ النّداءَ للإيذان بأنَّ المقصودَ بالخطاب ما يُراد بعدَه، وأنّ ما قبْله من تذكيرِ النِّعَم كان تمهيدًا لذكرِه، وترغيبًا في العملِ بمُوجبِه، كان في هذا منَ النّعمةِ العظيمةِ والمنحةِ الجسيمةِ ما يُوجبُ لها القيامَ بشُكرها، إذْ أمرها بالشُّكرِ فقال: ﴿يَٰمَرۡيَمُ ٱقۡنُتِي﴾ أي: أَخلصِي أفعالَكِ للعبادةِ ﴿لِرَبِّكِ﴾ الذي عوّدكِ الإحسانَ بأن ربّاكِ هذه التّربيةَ[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱقۡنُتِي﴾: جذرُ الكلمةِ هو (قَنَتَ): وقَنَتُوا للّه أي: أطاعُوه، ومنه القُنوتُ، أي: الطّاعةُ، وقانِتونَ، أي: مُطيعون. والقُنُوتُ: الدُّعاء في آخر الوترِ قائمًا، ومنه قولُه تعالى: ﴿وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ٢٣٨﴾ [البقرة 238]، وقولُه: ﴿أَمَّنۡ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ﴾ [الزمر: 9]، وهو الدُّعاءُ قيامًا هاهنا. وقَنَتَتِ المرأةُ لزوجها، أي: أطاعتْهُ[2]. والقُنُوتُ مَصْدَرٌ مِنْ بَابِ قَعَدَ: الدُّعَاءُ، وَيُطْلَقُ عَلَى القِيَامِ فِي الصَّلاة، وَمِنْهُ قَوْلُهُ ﷺ: «أَفْضَلُ الصَّلاة طُولُ القُنُوتِ»[3]، وَدُعَاءُ القُنُوتِ أَيْ: دُعَاءُ القِيَامِ، وَيُسَمَّى السُّكُوتُ فِي الصَّلاة قُنُوتًا، وَمِنْهُ قَوْلُه تَعَالَى: ﴿وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ٢٣٨﴾ [البقرة: 238][4].

والمعنى هنا: أَخْلِصي الطاعةَ وداومي عليها.

2) ﴿وَٱرۡكَعِي﴾: الجذر اللُّغوي للكلمة (رَكَعَ)، وركَعَ يركَعُ ركوعًا، وكلُّ شيءٍ ينكبُّ لوجهه فتمسُّ ركبتُه الأرضَ أو لا تمسُّها بعد أن يطأطئُ رأسَه فهو راكع. و(الرُّكُوع) الانْحِنَاءُ، قَالَ لَبِيدٌ:

(1) البِقاعِيّ، نظم الدّرَر: 2/79، والمَوصِلّي، أولى ما قيل: 2/470.
(2) الخليل، العَينْ: (قنت).
(3) رواه مسلم في صحيحه، الحديث رقم: (756).
(4) الفيومي، المصباح المنير: (قنت).

أُخَبِّرُ أَخْبارَ القرونِ التي مَضَتْ*** أَدِبُّ كأنِّي كُلَّما قُمْتُ راكِعُ[1].

أَيْ مُنْحَنٍ، وَمِنْهُ رُكُوعُ الصَّلاة، فكلُّ قومة من الصَّلاة ركعةٌ، وَيُقَالُ: رَكَعَ إذا صَلَّى، وَمِنْهُ: ﴿وَٱرْكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ۝٤٣﴾ [البقرة: 43]، وَأَمَّا قَوْلُه تَعَالَى: ﴿فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۝٢٤﴾ [ص: 24] فَمَعْنَاهُ سَاجِدًا شُكْرًا، وَرَكْعَةُ الصَّلاةِ مَعْرُوفَةٌ[2].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

يا مريم أخلصي العبادةَ وداومي على الطاعة لربِّك، وقومي في خشوع وتَواضع، واسجدي واركعي مع الراكعين، وكُوني مع العابدين والمُصلِّين؛ شكرًا لله على ما أولاكِ من نِعَمِه، فإنَّ ملازمة الطاعاتِ والصلوات من شأنها أن تحفظَ النِّعم وأن تزيدَ الإنسان قربًا وحبًّا من خالقه ﷻ، وخَصَّ السُّجُودَ والرُّكُوعَ لفضلِهما ودَلالتِهما على غايةِ الخضوعِ لله[3].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

النّداءُ ﴿يَٰمَرۡيَمُ﴾ خرج إلى معنًى مَجازيٍّ وهو التّعجّبُ:

وإعادةُ النّداءِ في قول الملائكة: ﴿يَٰمَرۡيَمُ ٱقۡنُتِي لِرَبِّكِ﴾؛ لقصدِ الإعجابِ بحالِها؛ لأنّ النّداءَ الأوّلَ كفى في تحصيلِ المقصودِ من إقبالِها لسماعِ كلامِ الملائكةِ، فكان النّداءُ الثاني مستعمَلًا في مجرّد التّنبيهِ الذي ينتقلُ منه إلى لازمِه، وهو التّنويهُ بهذه الحالةِ والإعجابُ بها[4]. ولا خلافَ أنّ المناديَ لها الملائكةُ الذين تقدّم ذكرُهم.

إنّ ما يُعطيه اللهُ مِنَ الكراماتِ للصّالحين يَستدعي تعجيبَ الملائكة؛ لأنّها الكائناتُ المراقِبةُ العارفةُ بمنازلِ هؤلاء الصّالحين

بلاغة التعبير بالقُنوت:

ذكر الحَسَنُ، وقَتَادَةُ أنّ المراد بالقنوت العبادةُ؛ وهذا من قبيل العامِّ، وأنّ ﴿وَٱسۡجُدِي وَٱرۡكَعِي﴾ من قبيل الخاصّ في العبادة. فإنّ قولَه: ﴿ٱقۡنُتِي لِرَبِّكِ وَٱسۡجُدِي وَٱرۡكَعِي﴾؛ هو من قبيل ذكر الخاصِّ بعد العامّ.

في معنى العبادة ذكرٌ للخاصِّ بعد العامّ

(1) الخليل، العَين: (ركع).
(2) المُطرِّزيّ، المغرب في ترتيب المُعرب: (ركع).
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/244، والسّعديّ، تيسير الكريم الرحمن: 1/130، ونخبة من العلماء، التفسير الميسر، ص: 55.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/244.

في معنى طولِ القيامِ في الصَّلاة طباقٌ، أو تناسبٌ

ذهب مجاهدٌ، وابنُ جريج، والربيعُ إلى أنّ القنوتَ: هو طولُ القيامِ في الصَّلاة، فيكونُ فيها طباقٌ، أو تناسبٌ مع قوله: ﴿وَٱسۡجُدِي وَٱرۡكَعِي﴾. فالطّباقُ لدواعي ذكرِ المُتضادَّيْن، وإن لم يكن طباقًا فهو من قَبيل التّناسُبِ، فقد ذُكرَ من أركان الصَّلاة القيامُ والرُّكُوعُ والسُّجُودُ.

في معنى الإخلاص والطّاعة علاقة التّدلّي مع ما يأتي بعدَها

قال ابنُ جبير: معنى القنوت: الإخلاصُ والطّاعةُ، فإذا كان القنوتُ بمعنى الإخلاص، وهي أعلى رتبةٍ في الإيمان والعبادةِ، فتكونُ علاقتُها التّدلّي مع ما يأتي بعدَها من قولِه: ﴿وَٱسۡجُدِي وَٱرۡكَعِي﴾. وهذه المعاني الأربعة ذكرها ابنُ الجَوزي في تفسيره[1].

بيان الكناية في ﴿ٱقۡنُتِي﴾:

وجه الكناية الدلالة على إخلاص الطاعة وإدامتِها

المرادُ بالقُنوتِ: إدامةُ الطاعة، وإخلاصُها لله تعالى كقولِه: ﴿أَمَّنۡ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ سَاجِدٗا وَقَآئِمٗا﴾.. وفي قولِه: لربك، إشارةٌ إلى تفرّدِه بالعبادة وتخصُّصِه بها، وهذا يفيدُ الانتقالَ إلى معنى طولِ القيامِ في الصَّلاة، والجمهورُ على ما قاله مجاهدٌ، وهو المناسبُ في المعنى لقوله: ﴿وَٱسۡجُدِي وَٱرۡكَعِي﴾.

سرّ تقديم لفظ السجود:

السُّجُودُ هو الهيئة التي أقربُ ما يكونُ فيها العبدُ إلى الله

أمَرَتِ الملائكةُ مريمَ في قوله: ﴿وَٱسۡجُدِي وَٱرۡكَعِي مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾؛ فِعلَ ثلاثةِ أشياءَ من هيئاتِ الصَّلاةِ، فإن أريد ظاهرُ الهيئاتِ، فهي معطوفةٌ بالواو، والواوُ لا ترتِّب[2]. وقيل قُدِّمَ السُّجُودُ؛ لأنّ السُّجُودَ لمّا كان الهيئةَ التي هي أقربُ ما يكونُ فيها العبدُ إلى الله قُدِّم، وإن كان متأخِّرًا في الفعل على الرُّكُوع، فيكونُ إذ ذاك التّقديمُ بالشّرف.

قولُه: ﴿يَٰمَرۡيَمُ ٱقۡنُتِي لِرَبِّكِ وَٱسۡجُدِي وَٱرۡكَعِي مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ أُمرَتْ بالصَّلاةِ في الجماعة بذكر أركانِها مبالغةً في المُحافظةِ عليها،

(1) ابنُ الجوزيّ، زاد المسير: 1/282.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/147.

وقُدّمَ السُّجُودُ على الرُّكُوع؛ إمّا لكونِه كذلك في شريعتِهم، أو للتّنبيه على أنّ الواو لا تُوجبُ التّرتيبَ، أو ليقترنَ اركعي بالراكعين للإيذان بأنّ من ليس في صلاتهم ركوعٌ ليسوا مُصلّين[1]. والقُنوتُ: إدامةُ الطّاعة صلاةً كانت أو غيرَها منَ العبادات، ولهذا قال: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ سَاجِدٗا وَقَآئِمٗا﴾، فجُعِلَ من جُملةِ القُنوتِ، وهاهنا قدّمَ السُّجُودَ أيضًا على القِيامِ[2].

قُدّمَ السُّجُودُ على الرُّكُوع؛ إمّا لكونِه كذلك في شريعتِهم، أو للتّنبيه على أنّ الواو لا تُوجبُ التّرتيبَ

ذكرَ الزَّمَخشريُّ توجيهًا آخرَ في تأخير الرُّكُوع عنِ السُّجُودِ، فقال: ويحتملُ أن يكونَ في زمانِها من كان يقومُ، ويسجدُ في صلاته ولا يركعُ، وفيه من يركعُ، فأُمرتْ بأن تركعَ مع الراكعين، ولا تكونَ مع من لا يركعُ[3]. فكأنّه قيل: لا تقتصِري على القيامِ والسُّجُودِ، بل أضيفي إلى ذلك الرُّكُوعَ.

يحتمل أن يكون الأمر بأن تركعَ مع الراكعين في زمانها

براعة الطّباق بين القنوتِ والسُّجُودِ:

قال ابنُ عطية: أُمرتْ مريمُ بفعلين ومَعْلَمَيْن من معالمِ الصَّلاة، وهما: طولُ القيامِ والسُّجُود، وبينهما طباقٌ؛ لجمع النّقيضَيْن من هيئاتِ الصَّلاةِ: طولُ القيامِ، ووضعُ الجبين على الأرض تعظيمًا للخالق. وخُصّا بالذّكر لشرفِهما في أركان الصَّلاةِ. وهذان يختصّان بصلاتِها منفردةً، وإلّا فمن يُصلّي وراء إمامٍ لا يُقال له: أطِلْ قيامك.

وجه الطّباق الجمعُ بين طولِ القيامِ والسُّجُودِ، وهما نقيضَان من هيئاتِ الصَّلاةِ

ثم أُمِرَتْ بعدُ بالصَّلاة في الجماعة، فقيل لها: واركعي مع الرّاكِعِين، وقُصدَ هنا معْلَمٌ آخر من معالِمِ الصَّلاة لئلّا يتكرّرَ لفظٌ. ونوّع في ذكر أركان الصَّلاةِ.

(1) البَيضاويّ، أنوار التّنزيل: 2/16.
(2) الراغب، تفسير الرّاغب: 2/556.
(3) الزّمخشري، الكشّاف: 1/389.

دَلالةُ ﴿مَعَ﴾ في قوله: ﴿مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾:

الـرُّكُـوعُ مـعَ الرّاكعين اجتمع فـيـه خـاصّـة النّاس لخاصّة العمل

في قولِه: ﴿مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾، تقتضي ﴿مَعَ﴾: الصُّحبةَ والاجتماعَ في إيقاع الرُّكُوعِ مع مَن يركعُ، فتكونُ مأمورةً بالصَّلاة في جماعةٍ، ويحتملُ أن يتجوّزَ في: ﴿مَعَ﴾، فتكونَ للموافقةِ للفعل فقط دون اجتماعٍ، أي: افعلي كفعلِهم، وإن لم تُوقعي الصَّلاةَ معهم، فإنها كانت تُصلّي في محرابِها[1].

دَلالةُ أفعالِ الأمرِ ﴿ٱقۡنُتِي﴾، و﴿وَٱسۡجُدِي﴾، و﴿وَٱرۡكَعِي﴾:

التّعبير بالأمر؛ لبلوغِ شُكر الله تـعـالى عـلى ما أولاها منَ الخير

هذه الأفعالُ دَلالتُها على حقيقتِها، فهي أوامرُ واجبةٌ على مريمَ، لبلوغِ شُكر اللّه تعالى على ما أولاها منَ الخير والفضلِ والحفاوةِ والاصطفاءِ، ثمّ إنّها يمكنُ أن تخرجَ إلى معنًى مَجازيٍّ لعُمومِ المؤمنين تَوجيهًا وإرشادًا، وإفصاحًا عن جانبٍ من سُبل الاصطفاءِ.

سرّ الجمع بصيغة ﴿ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ دون (الرّاكعاتِ):

في صيغة جمع المـذكّـر عـمـومٌ يشمل الـرّجـالَ والـنّـسـاءَ على سبيل التّغليبِ

وجاء التعبير بـ ﴿ٱلرَّٰكِعِينَ﴾، دونَ الراكعاتِ، مع أنّ الآيةَ السّابقةَ ذكرتِ الاصطفاءَ على نساء العالَمين؛ لأنّ هذا الجَمعَ أعمُّ؛ إذْ يشملُ الرّجالَ والنّساءَ على سبيل التّغليبِ، ولمناسبةِ أواخرِ الآياتِ قبلُ وبعدُ، ولأنّ الاقتدَاءَ بالرّجال أفضلُ، إنْ قلنا إنّها مأمورةٌ بصلاة الجماعةِ[2]. فقد شملَ التّعبيرُ المجتمعَ المؤمنَ كلَّه. وبقولِه: ﴿مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ إذنٌ لهَا بالصَّلاة مع الجَماعَة، وهذه خُصوصيّةٌ لها من بين نساءِ بني إسرائيلَ إظهارًا لمعنى ارتفاعِها عن بقية النّساءِ، واصطفائِها عليهم، ولذلك جيءَ في ﴿ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ بعلامةِ جمعِ التّذكيرِ[3]، ويُؤيّده أنها وُهبتْ لخدمةِ بيتِ العبادةِ، وكان ذلك ممنوعًا على النّساء في زمانِهم، لذا حزنتْ أمُّها لمّا وضعتْها أنثى.

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/149.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/149.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/244.

بيانُ المَجاز في معاني القُنوتِ والسُّجُودِ والرُّكُوعِ:

إطلاقُ الجُزءِ وإرادةُ الكُلِّ إيهامٌ لكماله فيه

قولُه: ﴿وَٱسۡجُدِى﴾ أراد بها الصَّلاةَ كلَّها، كقولِه تعالى: ﴿وَأَدۡبَٰرَ ٱلسُّجُودِ ۝٤٠﴾ [ق: 40]، وأراد بالرُّكُوع الخشوعَ والإخباتَ[1]، فذَكَرَ السُّجُودَ وأراد الصَّلاةَ على سبيل المَجاز المُرسَلِ، وعلاقتُه الجُزئيّةُ، إذ ذكر الجُزءَ وأراد الكُلَّ، ثم قيل لها: ﴿وَٱرۡكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾؛ أي ذكرَ القُنوتَ والسُّجُودَ أولًا، والقنوتُ: أن يذكرَ اللّه قائمًا، أو يركدَ في الصَّلاة، وأريد بهما الصَّلاةُ، فإنهم يُطلقون معظمَ الشّيء على الكلّ إيهامًا لكماله فيه، ثم أتى ببعضٍ آخرَ وهو الرُّكُوعُ، وأريد به تلك الحقيقةُ أيضًا على تلك الطريقة، وقيّدَه بفائدةٍ زائدةٍ ليُؤذنَ أنّ كماله إذا كان مُقيّدًا بها فهو منَ التّكرارِ المعنويّ لإناطةِ معنى زائدٍ، ولمّا كان الأمرُ للصّلاة أمرًا للمصلّي بصفتها، وهي أن يكون مع الجماعة لا نفسِها، قال: ولتكن صلاتك مع المُصلّين[2].

جناسُ الاشتقاقِ في قوله: ﴿وَٱرۡكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾:

فائدة الجناس الاندماجُ مع المصلّين الرّاكعين منَ المؤمنين

يُفيدُ جناسُ الاشتقاقِ هنا الاندماجَ مع المصلّين الرّاكعين منَ المؤمنين، وهذا ما نوّه إليه الزَّمَخشريّ في قولِه: " أو انظمي نفسَك في جملة المصلّين" وشرحَه الطّيبي بقولِه: " معناه: اتّصفي بصفةِ المُصلّين وكوني من زُمرتِهم وعِدادِهم، كقولِه تعالى: ﴿فَٱدۡخُلِى فِى عِبَٰدِى ۝٢٩﴾ [الفجر: 29]؛ أي: في جملة عبادي الصّالحين، وانْتظمِي في سِلْكِهم، وأمّا معنى الاختصاصِ في قولِه[3]: "ولا تكوني في عِداد غيرِهم"، فإنّ ما يُفيدُه معنى الكنايةِ، لأنّ الأسلوبَ من قَبيل قولِه: فلانٌ في عِداد العلماءِ، أي: له مساهمةٌ معهم في العلم، وأنَّ الوَصفَ كاللّقَب المشهودِ لَهُ، وللإيذان بأنَّ من ليس في صلاتِهِ ركوعٌ ليس منَ المُصلّين"[4].

(1) البَيضاويّ، أنوار التّنزيل: 2/16.
(2) الطيبي، فتوح الغيب: 4/105.
(3) أي: في قول الزمخشري.
(4) الطيبي، فتوح الغيب: 4/105.

بَلاغةُ اللَّفِ والنَّشر:

في قولِه: ﴿وَٱسۡجُدِي وَٱرۡكَعِي مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ فقولُه: اسجدي، واركعي لفٌّ، وقولِه: ﴿مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ نَشْرٌ بتقدير: مع الرّاكعين والسّاجدين، فحُذفتْ لعدم التّكرارِ ولتضمينِها بالرُّكُوع، والظّاهرُ أنّ المرادَ بالسُّجُود في هذا المقام ظاهرُه، وبالرُّكُوع الصَّلاةُ نفسُها، فكأنه قيل: واسجُدي مُصلّيةً، ولتكن صلاتُك مع المصلّين، أي: في جماعة، ولعلَّ من فوائدِ اللّفّ والنّشر هنا؛ المرادُ بإتباع قصّتِها لما مضى: التّنبيهُ على انخراطها في سلك ما مضى من أمرِ آدم ويحيى إفصاحًا، وإبراهيم في ابنيه إلاحةً في خرق العادة فيهم، على اعتبارِ أن تكونَ مع من سبقَها منَ الذين اصطفاهم اللّه، وتكون المعيّةُ مجازيّةً. وأنّ الصَّلاةَ عندهم تُطلَقُ على الدُّعاء وعلى فعل هو مجرّدُ السُّجُود، فإنْ ذُكر معه ما يدلُّ على وضع الوجهِ على الأرض فذاك حينئذٍ يُسمّى صلاةً، وإلاّ كان المرادُ به مطلقَ الانحناءِ للتّعظيم، وذلك موافقٌ للّغة، فالرُّكُوع في اللُّغة يُطلقُ على معانٍ منها الصَّلاةُ[1].

فائدة اللّفّ والنّشر التّنبيهُ على انخراطها في سلك ما مضى من أمرِ آدم ويحيى إفصاحًا، وإبراهيم في ابنيه إلاحةً في خرق العادة فيهم

التّدلّي في الأوامرِ (القُنوت والسُّجُود والرُّكُوع):

بعد أن رُسِمَ في الآيةِ السّابقةِ مُنحنى التّرقّي بقولِه تعالى: ﴿ٱصۡطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصۡطَفَىٰكِ﴾ في وصفِ شخصيّةِ مريمَ ترقيةً لها وإكرامًا وتعظيمًا لشأنها. نجدُ فنَّ التّدلّي في أمر العبادة تيسيرًا، فذكرَ الأوامرَ (اقنُتي، اسجُدي، اركعي) لمريمَ بالعبادةِ من أعلاها إلى أدناها؛ فقال: ﴿ٱقۡنُتِي لِرَبِّكِ وَٱسۡجُدِي وَٱرۡكَعِي مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ ولمّا قدّمَ الإخلاصَ الذي هو روحُ العبادة أتْبَعه أشرفَها فقال: ﴿وَٱسۡجُدِي﴾ فإنّ أقربَ ما يكونُ العبدُ من ربّه وهو ساجدٌ[2]. ودليلُ التّدلّي أنّه ختمَ الدّرجاتِ بقوله: ﴿مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ فانتقل منَ

في فنّ التدلّي تيسيرٌ للعبادة بذكرها من أعلاها إلى أدناها

(1) البِقاعِيّ، نظم الدّرَر: 2/82.
(2) البِقاعِيّ، نظم الدّرَر: 2/79.

الأعلى الذي هو القُنوت لله أي الإخلاصُ له - سبحانه - الذي لا يصحُّ طبعًا إلّا للخاصّة، إلى الأدنى منه؛ وهو مداومةُ السُّجُود، فانتقل من أخصِّ الأعمالِ إلى السُّجُودِ، الذي يُطيقُه جمعٌ منَ المؤمنين، ثم تدلّى إلى ما يفعلُه العامّةُ منَ المؤمنين، فقال: ﴿وَٱرۡكَعِي مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾.

قال الحَرَالِّي: وكان منَ اختصاص هذا الاصطفاءِ العليّ - أي الثاني - ما اختصّها منَ الخطاب بالرُّكُوع الذي لحقتْ به بهذه الأمّةِ الراكعة - يعني أمّة محمد ﷺ - التي أطْلَعَها الله سبحانه وتعالى من سرّ عظمتِه على ما لم يُطلعْ عليه أحدًا ممَّن سواها في قولِه: ﴿وَٱرۡكَعِي مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾؛ كما قال لبني إسرائيل عندَ الأمرِ بالملّةِ المحمديّةِ: ﴿وَٱرۡكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ۝٤٣﴾ [البقرة: 43] إلى ما يقعُ من كمالِ ما بُشِّرتْ به حيث يكلّمُ النّاسَ كهلًا في خاتمة اليومِ المُحمّدِي، ويكملُ له الوجودُ الإنساني[1]، وقُدّم السُّجُودُ؛ لأنه أَدْخَلُ في الشُّكرِ، والمقامُ هنا مقامُ شُكر[2].

وفي هذا التّعبيرِ إشارةٌ إلى أنّ للخواصّ من النّاس وظائفَ تعبُّديّةً تبدأ بأنفسِهم وتزكيتِها وتنقيتِها وتنتهي بالتَّواصل الاجتماعي والاندماجِ التّعبّدِيّ بالمجتمع، وهو على خلافِ الرَّهبانيّةِ التي تدلّ على اعتزالِ المُجتمع. فخرجتِ الأوامرُ هنا ﴿ٱقۡنُتِي﴾، ﴿وَٱسۡجُدِي﴾، ﴿وَٱرۡكَعِي مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ إلى رسم حياةٍ تعبّديّةٍ متكاملةٍ، تبدأ بالنّفس وخواصِّها وتنتهي بالامتزاجِ التّعبُّديّ مع المؤمنين.

مناسبةُ الخطابِ لما بعدَه:

قصدُ التأنيسِ مهَّد له بما يجلبُ إليها مسرَّةً، ويُوقنُها بأنها بمحلّ عنايةِ الله

وهذا الخطابُ مقدّمةٌ للخطاب الذي بعده وهو قولُه: ﴿يَٰمَرۡيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٖ مِّنۡهُ﴾لقصدِ تأنيسِها بالخبر المُوالي لأنّه لما كان حاصلُه يجلبُ لها حزنًا وسوءَ قَالَةٍ بين النّاس، مهَّد له بما يجلبُ إليها مسرَّةً، ويُوقنُها بأنها بمحلّ عنايةِ الله، فلا جرمَ أن تعلمَ بأنّ الله جاعلٌ لها مخرجًا وأنه لا يُخزيها أبدًا[3].

(1) البِقاعِيّ، نظم الدّرَر: 2/79.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/244.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/244.

﴿ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهِ إِلَيۡكَۚ وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ يُلۡقُونَ أَقۡلَٰمَهُمۡ أَيُّهُمۡ يَكۡفُلُ مَرۡيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ يَخۡتَصِمُونَ ٤٤﴾

[آل عمران: 44]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

بعدَ أن ذكرتِ الآياتِ السّابقةِ قصصَ من اصطفاهُم اللّه على العالَمين منَ الأنبياءِ وأهلِ الكراماتِ، وجَّه الأنظارَ هنا في هذه الآيةِ إلى عظيم شأنِ تلك الأخبار كونُها من غيْبِ اللّه الذي لا يعلمُهُ إلّا هو، فزاد تلك القصصَ العظيمةَ العجيبةَ عَظمةً وهيبةً وشأنًا؛ أنها غيبٌ يُوحيه اللّه تعالى لنبيّه محمد ﷺ فيصفُ المَشاهدَ الدقيقةَ فيها بكلِّ عنايةٍ وعِبْرة[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿نُوحِيهِ﴾: من وحَيَ، ويَدُلُّ عَلَى إِلْقَاءِ عِلْمٍ فِي إِخْفَاءٍ أَوْ غَيْرِهِ إِلَى غَيْرِكَ، والوحي: أصلُه الإشارةُ السريعة، ويقال للكتابة: وحي، إذ هي إشارةٌ ما، وقد يكونُ الوحيُ بالإلهام، كما يكونُ بضربٍ منَ الكلام، وعلى ذلك قولُه: ﴿وَإِذۡ أَوۡحَيۡتُ إِلَى ٱلۡحَوَارِيِّـۧنَ أَنۡ ءَامِنُواْ بِي وَبِرَسُولِي﴾ [المائدة: 111]، وقد يقال ذلك للوساوس نحوَ قولِه: ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِهِمۡ لِيُجَٰدِلُوكُمۡۖ﴾ [الأنعام: 121]، والإيحاء: إيقاع المعنى في القلب بطريقة خفية، وكلُّ ما في القرآن من التركيب هو من الوحي بأي من الطرق السابقة، والسياق يوضِّح الطريقةَ المرادة[2].

2) ﴿يَكۡفُلُ﴾: جذرُ الكلمة هو (كَفَلَ): الكَفلُ: ردف العجز، والجمع: أكفالٌ، والكِفْلُ: النّصيبُ، والكِفْلُ منَ الأجر، ومنَ الإثم: الضّعفُ، قال اللّه - ﷻ: ﴿يُؤۡتِكُمۡ كِفۡلَيۡنِ مِن رَّحۡمَتِهِۦ﴾ [الحديد: 28]، و﴿يَكُن لَّهُۥ كِفۡلٌ مِّنۡهَاۖ﴾ [النساء: 85]، ولا يقال: هذا كِفْلُ فلان حتى تكونَ قد هيّأتَ مثلَه لغيره كالنّصيب، فإذا أفردتَ فلا تقل: كِفْل ولا نصيبٌ. والكفيلُ: الضّامنُ للشّيء. كَفَلَ به يكفُلُ به كَفالةً. والكافِلُ: الذي يَكْفُلُ إنسانًا يعولُه ويُنفق عليه. وقولُه عزّ

(1) البقاعيُّ، نظم الدرر: 4/393.

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة (وحى)، والراغب، تفسير الرّاغب: 2/88، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل (وحي).

اسمَه: ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾ [آل عمران: 37]، أي هو كَفَل مريمَ ليُنفقَ عليها، حيث اقترعوا على نفقتِها حين مات أبواها[1]، فبقيتْ بلا كافل، وكِفْلُ الشّيطان: مركبُه، وأكفلتُه إيّاه وكفّلتُه، ﴿فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا﴾ [ص: 23]، ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾ [آل عمران: 37]، وهو كفيلٌ بنفسِه وبماله، وكفلَ عنه لغريمِه بالمال وتكفّل به، وهو كفل بيّنُ الكفولة: لا يثبتُ على ظهر الدابّة، وهو منَ الأكفال لا منَ الأحلاس[2]. كَفَلْتُ بِالمَالِ وَبِالنَّفْسِ كَفْلًا وَكُفُولًا أَيْضًا وَالِاسْمُ الكَفَالَةُ وكَفَلْتُهُ وَكَفَلْتُ بِهِ، وَعَنْهُ إِذَا تَحَمَّلْتُ بِهِ، قَالَ ابْنُ الأَنْبَارِيِّ: تَكَفَّلْتُ بِالمَالِ التَزَمْتُ بِهِ وَأَلزَمْتُهُ نَفْسِي[3].

3) ﴿يَخْتَصِمُونَ﴾: جذرُ الكلمة هو (خَصَمَ)، الخَصْم: واحدٌ وجميعٌ، قال الله ﷻ: ﴿۞وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُاْ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُواْ ٱلْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾﴾ [ص: 21] فجعلَه جمعًا؛ لأنّه سُمّي بالمصدر. وَفُلَان خصمي الذّكرُ وَالأُنْثَى وَالوَاحدُ، والجميعُ فِيهِ سَوَاء[4]. والخصمُ: المُخاصِمُ والمُخاصَمُ، وهما خصمان، أَي: كلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا خصَمَ صَاحبَه؛ لِأَنَّهُ يخاصمُه، وخَصيمُك: الّذي يُخاصِمكَ، وجمعُه: خُصَماء. والخُصومةُ: الاسمُ منَ التَّخاصُم والاختصام. يقال: اختصم القومُ وتخاصمُوا، وخاصم فلانٌ فلانًا، مُخَاصَمَةً وخِصامًا[5]. والخُصُومَةُ بالضَّمِّ: الجَدَل، وقَالَ الحَرَالِّي: الخِصامُ: القَولُ الَّذِي يُسمِعُ المُصِيخ وَيُولِجُ فِي صِماخِه مَا يَكُفُّه عَن زَعْمِه ودَعْواه[6].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

لَمَّا أتى نبيُّنا ﷺ بهذه الأخبارِ الغريبةِ المحرَّرةِ العجيبةِ التي لا يَعرفُ بعضَها على وجهها إلّا الحُذَّاقُ من علماءِ بني إسرائيلَ، فبيَّن الله بأنَّ الذي قصصناه عليك - أيها الرسول ﷺ - هو من أخبار الغيب التي أوحاها الله إليك؛ إذ لم تكن معهم حين اختلفوا في كفالة مريم أيُّهم أحقُّ بها وأَوْلى، ووقع بينهم الخِصَامُ، فأجْرَوْا القُرْعةَ بإلقاء أقلامهم التي كانوا يكتبون بها التوراةَ - واختاروها تبرُّكًا بها - في نهر الأردنِّ، فأيُّهم لم يَجْرِ قلمُه مع

(1) الخليل، العَينْ: (كفل).
(2) الخليل، العَينْ، الراغب، المُفردَات، والزمخشري، أساس البلاغة: (كفل).
(3) الفيومي، المصباح المُنير: (كفل).
(4) ابن دريد، جمهرة اللّغة: (خصم).
(5) الخليل، العَينْ: (خصم).
(6) الزَّبيدي، تاج العروس: (خصم).

الماء فله كفالتُها، "أو هي السِّهامُ من النُّشَّاب وهي القِداحُ، أو كانت القِداحُ من نُحاسٍ" فأصابت القُرْعَةُ زكريَّا عليه السلام نبيَّهم وأفضلَهم، ففاز بكفالتِها يحضنُها ويُربِّيها تنافسًا في أمرها لِمَا شرَّفها اللّه تعالى به[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

سرُّ الإشارةُ بـ ﴿ذَٰلِكَ﴾:

الإشـارة بذلك مـن قـبـيـل الإعجازِ الغَيبيّ في الـقـرآنِ الكريمِ

قولُه: ﴿ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهِ إِلَيۡكَۚ﴾؛ الإشارةُ إلى ما تقدّم من قصصِ امرأةِ عمرانَ، وبنتِها مريمَ، وزَكَرِيَّا، ويحيى، والمعنى: أنّ هذه القصصَ وصولُها إليك من جهة الوحي، إذْ لستَ ممّن دارسَ الكُتبَ، ولا صحبَ من يعرفُ ذلك، وهو من قومٍ أمّيين، لا صلةَ لهم بالوحي، فمدركُ ذلك إنما هو الوحيُ من عند اللّه كما قال في الآيةِ الأخرى، وقد ذكرَ قصّةِ أبْعدِ النّاسِ زمانًا من زمانه ﷺ وهو نوحٌ عليه السلام، واستوْفاها له في سورة هود أكثرَ ممّا استوْفاها في غيرها، فقال: ﴿تِلۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهَآ إِلَيۡكَۖ مَا كُنتَ تَعۡلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوۡمُكَ مِن قَبۡلِ هَٰذَاۖ﴾ [هود: 49]، وفي هذا دليلٌ على نبوّةِ رسولِ اللّه ﷺ إذْ أخبَرَ بغيوبٍ لم يطّلعْ عليها إلّا مَن شاهدها، أو: مَن قرأها في الكُتبِ السّابقةِ، أو: منْ أوحى اللّه إليه بها. وقد انتفى العيانُ والقراءةُ، فتعيّن الثالث، وهو الوحيُ منَ اللّه تعالى[2].

ومنَ الإعجاز النّبويّ أنّ تلك القصصَ صحّحتْ كثيرًا من مواضعِ الخطأ ممّا وردَ من أحداثها، وممّا رواه أهلُ الكتاب، فكانت دليلًا قاطعًا على صدقِ الرّسالة.

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 2/42، والبِقاعِيّ، نظم الدّرَر: 2/79، والآلوسي، روح المعاني: 2/152، ونخبة من العلماء، التفسير الميسَّر، ص: 55.

(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/149.

دَلالةُ المضارع على التّجدُّد:

فـائـدةُ المضارع اشـتـمـالـه ما تـقـدّم مـنَ القصص، والتي يُوحيها إليه في المستقبل

والكاف في ﴿ذَٰلِكَ﴾، و﴿إِلَيۡكَۚ﴾، خطابٌ للنّبي ﷺ والمعنى: شأنُنا أنّنا نوحي إليك الغيبَ، ونعلمُك به، ولذلك أتى بالمضارع، ويكونُ أكثرَ فائدةً من عَودِه على ﴿ذَٰلِكَ﴾ إذْ يشتملُ ما تقدّم منَ القصص، وغيرِها التي يُوحيها إليه في المستقبل، فتكونُ دَلالتُه واضحةً على التّجدُّدِ والاستمرارِ، ويكونُ إخبارًا بالحالةِ الدائمةِ؛ والمستعمل في هذا المعنى إنّما هو المضارع، وإذ يلزمُ من عَوده على ﴿ذَٰلِكَ﴾ أن يكونَ: نُوحيه، بمعنى: أوحيناه إليك؛ لأنّ الوحيَ به قد وقعَ وانفصلَ، فيكون أبعدَ في المجازِ منه إذا كان شاملًا لهذه القصص وغيرِها ممّا سيأتي.

دَلالةُ ﴿إِذۡ﴾ على ذكْرِ اللّحظةِ الزّمنيةِ في الغيبِ في القصّةِ القرآنيةِ:

(الـزّمَـنُ) عَـامِـلٌ نِـسـبِـيٌّ، وقَـد تُـكـتَـنَـزُ الـحَـيَـاةُ وتُـخْـتَـصَـرُ قِـيمَـتُـها في لحظَةٍ زَمنيَّةٍ تَستَوعِبُ حَدَثًا مِفصَلِيًّا يغيّرُ مجرى الحَيَاة تَمَامًا

قولُه: ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ يُلۡقُونَ أَقۡلَٰمَهُمۡ أَيُّهُمۡ يَكۡفُلُ مَرۡيَمَ﴾ هذا تقريرُ وتثبيتُ أنّ ما عَلِمَهُ من ذلك إنّما هو بِوَحيٍ منَ اللّه تعالى والمُعَلَّمُ به قصّتان: قصّةُ مريمَ، وقصّةُ زَكَرِيَّا؛ فنبّه على قصّة مريمَ، إذ هي المقصودةُ بالإخبار أوّلًا، وإنّما جاءت قصّةُ زَكَرِيَّا على سبيل الاستطرادِ، ولاندراجِ بعضِ قصّةِ زَكَرِيَّا في ذكرِ مَن يكفلُ، فما خَلَتْ من تنبيهٍ على قصّة.

والمضارع بعدَ: ﴿إِذۡ﴾، في معنى الماضي، أي: إذْ ألقَوْا أقلامَهم للاسْتِهام على مريمَ، والظّاهرُ أنها الأقلامُ التي للكتابة. وقيل: كانوا يكتبون بها التّوراةَ، فاختاروها للقُرعة تبرُّكًا بها. وقيل: الأقلامُ هنا الأزلامُ، وهي: القِداحُ، ومعنى الإلقاءِ هنا الرّميُ والطّرحُ، ولم يُذكرْ في الآية ما الذي ألقَوها فيه، ولا كيفيةَ حالِ الإلقاء، كيف خرج قلمُ زَكَرِيَّا. وقد ذكرْنَا فيما سبقَ شيئًا من ذلك عنِ المفسّرين، واللّه أعلَم بالصّحيح منها. وقال أبو مسلمٍ: كانتِ الأممُ يكتبون أسماءَهم

على سهامٍ عند المنازعةِ، فمن خرج له السّهمُ سُلِّم له الأمرُ، وهو شبيهٌ بأمرِ القِداح التي يتقاسمُ بها الجَزور[1].

تقديراتُ الحذْفِ في الآيةِ ﴿أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ﴾:

وارتفعَ ﴿أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ﴾ على الابتداءِ والخبرِ، وهوفي موضع نصبٍ، إمّا على الحكاية بقولٍ محذوفٍ، أي: يقولون أيّهم يكفل مريم، وإمّا بعلّة محذوفة أي: ليعلمُوا أيُّهم يكفلُ، وإمّا بحالٍ محذوفةٍ أي: ينظرون أيّهم يكفلُ، ودلّ على المحذوف: يُلقون أقلامَهم، وقد استُدلَّ بهذه الآية على إثباتِ القُرعةِ.

بين طيّاتِ القصّةِ أحداثٌ كثيرةٌ طُوِيَت، لا يعلمُها إلّا الله سبحانه

بلاغة المَجاز والإطناب في الاختِصَامُ:

قولُه: ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾؛ أي: بسببِ مريمَ، ويحتملُ أن يكونَ هذا الاختصامُ هو الاقتراعُ نفسُه، وأن يكونَ اختصامًا آخر بعدَه، فيكونَ ﴿إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ إطنابًا في وصف حالِهم، كيف يكونُ في تلك اللّحظاتِ التي تكشفُ عن شدّةِ رغبتِهم، وصدقِ دواخلِهم في كفالة مريمَ.

حالُ اختصامِهم مشهدٌ عظيمٌ، وموقفٌ مدحَهُ القرآنُ الكريمُ

بيانُ الكناية في الاختصامُ:

والمقصودُ من قوله: ﴿إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ شدّةُ رغبتِهم في التكفُّل بشأنها. والعاملُ في: ﴿إِذْ﴾، العاملُ في: ﴿لَدَيْهِمْ﴾، أو ﴿كُنتَ﴾ على قول أبي علي في: ﴿إِذْ يُلْقُونَ﴾، وكرّر جملةَ النّفي ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ﴾ تعجيبًا من حالِهم وشدّةِ رغبتهم في كفالة مريمَ. فيكونُ الاختصامُ كنايةً عن ذلك، فهم يختصمون طلبًا في كفالتِها، فكنّى بالاختصام عن شدّةِ الرّغبةِ.

وجه الكناية شدّةُ رغبتِهم في كفالة مريمَ

براعة الكناية في ﴿أَنبَآءِ ٱلْغَيْبِ﴾:

﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾ أي ما ذكرنا منَ القصص منَ الغيوب التي لم تعرفْها إلّا بالوحي[2]. والآيةُ بمنزلةِ التّذييلِ

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/151.
(2) البَيضاويّ، أنوار التّنزيل: 2/17.

لما ذُكِر من مطلعِ قولِه: ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحٗا﴾ [آل عمران: 33] إلى هذه الآية، فكانت أنباءُ الغيبِ هنا كنايةً عن قصصِ الأنبياء وحالاتِ الاصطفاء التي ذكرتها الآياتُ الكريمةُ، و﴿مِنۡ﴾ للتّبعيضِ، فيكونُ ذلك الذي ورد في سورة آل عمرانَ هو جزءًا من أنباء الغيبِ التي سنُوحِيها إليك.

سِـيَرُ الأنـبـيـاء مصابيحُ تُضيء دروبَ المؤمنين والعـامـلين إلى قيامِ السّاعةِ

نكتة ذكر الوحي تهكُّمًا بمُنكريه:

والمرادُ تقريرُ كونِه وحيًا على سبيل التّهكُّم بمُنكرِيه، فإنَّ طريقَ معرفةِ الوقائعِ المُشاهدَةُ والسّماعُ، وعدمُ السّماع معلومٌ لا شُبهةَ فيه عندهم، فبقي أن يكونَ الاتهامُ باحتمالِ العيانِ ولا يظنُّ به عاقلٌ[1].

قصصُ مَن كان قبلنا وردتْ في الـقـرآن دليـلًا عـلى الـوحـي وصدقِ الرّسالةِ المحمديّةِ

قولُه: ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ﴾ نفيٌ للمشاهدةِ أو مُقتضى الظّاهر أن يقال: ﴿ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ﴾ وما سمعتَ هذا النّبأ من أحدٍ، ولا قرأتَه في كتاب؛ لأنّ هذا متوهّم منه، فاحتيج إلى رفع التّوهّم، لا المشاهدةِ، فإنها منتفيةٌ لاشكّ في انتفائها، فلا يحتاجُ إليه، فنُفيت المشاهدةُ، وتُركَ رفعُ التّوهّم؛ لأنّ المرادَ من نفي المُشاهدةِ: إثباتُ الحُجّة والاحتجاجِ على أهل الكتابِ بطريقِ التّقسيمِ الحاصرِ، ولاشكّ أنّ عدمَ السماعِ والقراءةِ محقّقٌ عند اليهودِ، وقد علموا ذلك علمًا يقينيًّا لاشكّ فيه، وإنّما كانوا يُنكرون الوحيَ، فأريدَ إثباتُ المطلوب بطريقٍ بُرهانيٍّ، فقيل: طريقُ العلم فيما أنبأكم به، إمّا السّماعُ والقراءةُ، وإمّا الوحيُ والإلهامُ، وإمّا الحضورُ والمشاهدةُ، فالأوّلان مَنفيان عندكم، بقيَ الثالثُ، فنُفي تهكّمًا بهم، وإنما خصَّ هذه دون الأولى للتّهكم؛ لأنه لو نفى الأولى لم يكنْ منَ التّهكُّم في شيءٍ، لمجالِ الوَهْمِ فيه دونَه[2].

(1) البَيضاويّ، أنوار التّنزيل: 2/17.
(2) الطيبي، حاشية الطيبي: 4/106.

سرّ الفصل والوصل في ذكرِ الأنباء:

أنباءُ الغَيبِ في القرآن الكريم واحدةٌ من ركائزِ الإعجازِ الغَيبيّ فيه

وقد ورد ذكرُ الأنباءِ منَ الغيبِ التي تأتي بالوَحي في موضعَيْن مُنفصلَيْن من كتاب الله تعالى، فقال: ﴿ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهِ إِلَيۡكَۚ وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ يُلۡقُونَ أَقۡلَٰمَهُمۡ أَيُّهُمۡ يَكۡفُلُ مَرۡيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ يَخۡتَصِمُونَ﴾، و﴿تِلۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهَآ إِلَيۡكَۖ مَا كُنتَ تَعۡلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوۡمُكَ مِن قَبۡلِ هَٰذَاۖ﴾ [هود: 49]، و﴿ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهِ إِلَيۡكَۖ وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ أَجۡمَعُوٓاْ أَمۡرَهُمۡ وَهُمۡ يَمۡكُرُونَ ١٠٢﴾ [يوسف: 102].

وصلَ في حالة تذكير الأنباء، وفصَلَ في حالة تأنيث الأنباء؛ لأنّ التّذكيَر دلّ على النبأ الواحدِ، وهو قصّةُ مريمَ، وكفالتِها، نُوصلُ فيها، وفي حالة التأنيث قصدَ بها مجموعةَ الأنباء، ممّا ذُكر في قصص الأنبياء ففصل فيها.

علّةُ تكرار قولِه: ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ﴾:

الجملة الأولى توحي بالتّعجيبِ من حالهم، والثانية نفيٌ تضمّن مدحًا

تصويرٌ لحالِ من كان ينظرُ إليهم في ذلك الموقفِ العظيمِ الذي يُباهي به اللهُ عبادَه كونَهم يتسابقون في فعل الخيراتِ. ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ﴾ الأُولى تُوحي بالتّعجيبِ من حالهم، والثانية نفيٌ تضمّن مدحًا لأولئك الذين يختصمُون في فعل الخيرِ، ويتنازَعون عليه، فهي تكرارٌ وإطنابٌ لزيادةِ فائدة.

والجملةُ بمجموعِها تنبيهٌ على ما مضى وتمهيدٌ لما سيأتي، وجُعل هذا التّنبيهُ في نحوِ وسطِ هذا القصصِ ليكونَ السّامعُ على ذكرٍ ممّا مضى، ويُلقي السَّمعَ، وهو شهيدٌ لما بقيَ، وجعلَه بعد الافتتاح بقصّةِ مريمَ عليها السلام تنبيهًا على عِظم شأنِها، وأنّها المقصودةُ بالذّات للردّ على وفدِ نصارى نَجرانَ، وكأنه أتْبعَ التّنبيهَ ما كان في أوّل القصّةِ من اقتراعِهم بالأقلامِ واختصامِهم في كفالتِها لخفائِه على خواصِّ أهلِ الكتابِ[1].

(1) البِقاعِيّ، نظم الدّرَر: 2/87.

بَلاغةُ الكنايةِ في قولِه: ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ﴾:

فـائـدةُ هـذه الكنايةِ بيانُ عِلمِ الـلـه وحـفـظِـه لـلأحـداثِ، ولـحـظـاتِ حدوثها

قولُه: ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ﴾ إيماءٌ وكنايةٌ عن خُلُوِّ كُتبِهم عن بعضِ ذلك، وإلّا لقال: وما كنت تتلُو كتبَهم مثلَ: ﴿وَمَا كُنتَ تَتۡلُواْ مِن قَبۡلِهِۦ مِن كِتَٰبٖ﴾ [العنكبوت: 48] أي: إنك تُخبرُهم عن أحوالِهم كأنّك كنتَ لديهم[1]. ومثلُ ذلك قولُه: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلۡغَرۡبِيِّ إِذۡ قَضَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلۡأَمۡرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ٤٤﴾ [القصص: 44].. وفائدةُ هذه الكنايةِ بيانُ عِلمِ اللّه وحفظِه للأحداثِ، واللّحظاتِ الزّمنيّةِ التي حدث فيها هذا الفعلُ منهم أو هذا الإجراءُ، فاللّه تعالى يعلَمُه - سبحانه - كلَّه بدقائقِه، فهو رقيبُهم، وهو معهم إذ يُلقون أقلامَهم، فهو الشّاهدُ - سبحانه - وهو الخبيرُ بما حدث. والسّياقُ يحتمل حذفَ جُملةٍ؛ فمعنى قولِه: ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ﴾؛ أي ما كنتَ لديهم إذْ كنّا نحن شهودًا عليهم؛ ففائدةُ الجملةِ إثباتُ شهادةِ اللّه عليهم.

براعة الاستعارة في قولِه: ﴿أَقۡلَٰمَهُمۡ﴾:

وجه الاستعارة تشبيه القِداحِ بالأقلام؛ لفائدةِ العلمِ والكتابةِ بها

قولُه: ﴿أَقۡلَٰمَهُمۡ﴾، قال الزّجّاج: الأقلامُ ها هنا: القِداحُ، تُسمّى أقلامًا لشبَهِها بها، على سبيل الاستعارةِ، إذ سُمّي السّهمُ قلمًا لأنه يُقلمُ، أي: يُبْرَى، وكلُّ ما قطعتَ منه شيئًا فقد قلمْتَه، ومنه القلمُ الذي يُكتب به، جعلوا عليها علاماتٍ يعرفون بها من يكفلُ مريمَ على جهة القُرعةِ[2]. وسمّاها بالأقلام لفائدةِ العلمِ والكتابةِ بها؛ إذ هي كأقلامِهم التي يكتبون بها التّوراةَ؛ التي يجدون فيها وصفَك أيُّها النّبيُّ ﷺ، ويجدون فيها بعضَ ما أُوحي إليك من أنباء الغيبِ، فناسبَ ذكرُها هاهنا.

معنى الأقلامِ بين الحقيقةِ والمجازِ:

وفي الأقلام ثلاثُة أقوالٍ: أحدُها: أنّها التي يُكتبُ بها، فتكونُ هنا

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/245.
(2) الطيبي، فتوح الغيب: 4/107.

وجـه الحقيقة معنى الكتابة بها، ووجه المجاز كونها العِصِيّ والقِداح

على الحقيقةِ، قاله ابنُ عباس، وابنُ جبير، والسّدّي. والثاني: أنها العِصِيّ، فهي كالأقلام شبيهةٌ بها، فتكون استعارةً تصريحيّةً، كما بيّنّا آنفًا، قاله الرّبيع بنُ أنس. والثالث: أنها القِداحُ، فتكونُ الاقلامُ كنايةً عن القِداح لقرينة السّياق، وهو اختيارُ ابنِ قُتيبة، وكذلك قال الزّجّاج: هي قداحٌ جعلوا عليها علاماتٍ يعرفونَها على جهة القُرعة، ومنه القلمُ الذي يُكتب به؛ لأنه قُلِمَ مرّةً بعد مرّةٍ[1]. فقولُه: ﴿إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ﴾ ذُكر أنّها الأقلامُ التي يكتبون بها التّوراةَ كانوا يقترعون بها في المُشكلاتِ، تبرُّكًا بأن يكتبوا عليها أسماءَ المُقترعين أو أسماءَ الأشياء المُقترعِ عليها، وهذا المعنى على الحقيقة، والنّاسُ يَصيرون إلى القُرعة عند انعدام ما يرجّحُ الحقَّ، فكان أهلُ الجاهلية يستقسمون بالأزلامِ وجعلَ اليهودُ الاقتراعَ بالأقلامِ التي يَكتبون بها التّوراةَ في المدارس رجاءَ أن تكونَ بركتُها مُرشدةً إلى ما هو الخيرُ. هذا مع ما في مناسبةِ الأقلامِ للبِشارة بمن يعلّمُه الكتابَ، وليس هذا من شعارِ الإسلام، وليس لإعمال القُرعةِ في الإسلام إلا مواضعُ تمييزِ الحُقوق المتساويةِ من كلّ الجهاتِ، وتفصيلُه في الفقه[2].

تنازعُهم على كفالةِ مريمَ، يُوحي بعلاماتٍ ظهرتْ على مريمَ كانت موجودةً عندهم في التّوراة تُبشّرُ بنبيّ يظهرُ في زمانهم

وجه الكناية بالتّنازُع عنِ الحُبِّ والرّغبةِ في كَفَالَةِ مَريَمَ:

قولُه: ﴿إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ﴾؛ أي يرمُونَها ويطرحُونها للاقتراعِ على سبيل الكنايةِ أي: كنايةٌ عنِ القرعة[3]. وقولُه: ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ وهذه كنايةٌ عنِ الحبّ والرّغبةِ، والتّدافعِ في كفالة مريمَ عليها السلام.

وأشارت الآية إلى أنهم تنازعوا في كفالةِ مريمَ حين ولدتْها أمُّها، إذ كانت يتيمةً كما تقدّمَ، فحصلَ من هذا الامتنانِ إعلامٌ بأنّ كفالة

(1) ابنُ الجوزيّ، زاد المسير: 1/282.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/245.
(3) صافي، الجدول في إعراب القرآن: 3/179.

زَكَرِيَّا مريمَ كانت بعد الاستقْسَام، وفيه تنبيهٌ على تنافسِهم في كفالتِها[1]. فكان في هذه الآيةِ المُعترضةِ بين آيتَيْ نداءِ مريمَ أنّها استدْعتِ الماضي الذي يُوحي بخصوصيّةِ مريمَ عند الله، وعند الصّالحين منَ المؤمنين، الذين يكتبون التّوراةَ ويتعلّمُونها.. فناسبَ إثباتَ جهلِ اليهود، ورهبانِهم، بما يُوحيه الله تعالى إلى محمد ﷺ مع أنّهم أمّةٌ كان فيهم العلماءُ.. ومراجعُ العلمِ، فكانوا يُلقون أقلامَهم، التي هي علامةٌ على التّمسّك بكتابِ الله التّوراة، لكنّهم لا يعلمون كثيرًا ممّا نُوحيه إليك.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/245.

﴿إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [آل عمران: 45]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لمَّا ذكرَ تعالى قصّةَ ولادةِ يحيى عليه السلام من عجوزٍ عاقرٍ، وشيخٍ قد بلغ منَ الكِبَرِ عتيًا، كونُه شيئًا خارقًا للعادة، أعقبَها بما هو أبلغُ في خرقِ العاداتِ، فذكرَ قصّةَ ولادةِ المسيحِ عيسى ابنِ مريمَ من غير أبٍ، والغرضُ من ذكْرِ هذه القصّةِ الردُّ على النّصارى الذين ادّعوْا ألوهيةَ عيسى، فذكرَ ولادَتَه من مريمَ البتولِ ليدلَّ على بشريّتِه، وأعقبه بذكرِ ما أيّده به منَ المُعجزات ليشير إلى رسالتِه، وأنه أحدُ الرُّسلِ الكرامِ الذين أظهر اللّه على أيديهم خوارقَ العاداتِ، وليس له شيءٌ من أوصافِ الرّبوبيةِ.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَجِيهًا﴾: جذرُ الكلمة هو (وَجَهَ)؛ الواو والجيم والهاء: أصلٌ واحدٌ يدلُّ على مقابلةٍ لشيءٍ. والوجهُ مستقبِلٌ لكلِّ شيء. يقال وجَهَ الرجلُ، وغيرُه. وربما عبَّر عنِ الذات بالوجه. وتقول: وجهي إليك. وواجهتُ فلانًا: جعلت وجهي تلقاءَ وجهه، ومنَ الباب قولُهم: هو وجيهٌ بيّنُ الجاه. والوجهةُ: كلُّ موضع استقبلتَه. قال اللّه تعالى: ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ﴾ [البقرة: 148]. ووجهَّتُ الشّيء: جعلتُه على جهة. وأصلُ جهتِه وِجْهتُه. وتَوجّه الشّيخُ: ولَّى وأدبر، كأنَّه أقبلَ بوجهه على الآخر. ويقال للمُهر إذا خرجت يداه من الرّحم: وجيه. وفلانٌ وجهُ القوم، كقولهم: عينُهم ورأسُهم ونحو ذلك.[1]

قال ابنُ قتيبة: الوجيهُ ذو الجاه، يقال: وَجُهَ الرجلُ يُوَجَهُ وجاهةً، صار ذا قدْرٍ ورُتبةٍ. وقال ابنُ دريد: الوجيهُ المحبُّ المقبولُ. وقال الأخفشُ: الشّريفُ ذو القدْر والجاه. وقيل: الكريمُ على من يسأله، لأنه لا يردُّه لكرم وجهِه[2].

(1) ابن فارس، مقاييسُ اللّغة، والراغب، المُفردَات: (وجه).
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/154.

2) ﴿ٱلۡمُقَرَّبِينَ﴾: جِذرُ الكلمة هو (قَرُبَ)؛ القاف والراء والباء أصلٌ صحيحٌ يدلُّ على خلاف البُعد. يقال قرُب يقرُب قربًا. وفلانٌ ذو قرابتي، وهو من يقرُب منك رحمًا. والقُربة والقُربى: القَرابةُ. والقرابُ: مقاربةُ الأمر. وتقول: ما قربْتُ هذا الأمرَ ولا أقرَبُه، إذا لم تُشامَّه ولم تلتبسْ به. ومنَ الباب القَرَبُ، وهي ليلةُ ورود الإبلِ الماءَ؛ لتعجيلهم سوق الإبل عليه[1].

والقُرْبُ ضدّ البُعد، والاقترابُ الدُّنوّ، والتَقَرُّبُ: التّدنّي والتواصلُ بحقٍّ أو قَرابةٍ. والقُرْبانُ: ما تَقَرَّبْتَ به إلى الله تبتغي به قُرْبًا ووسيلةً. والقُرْبَى: حقُّ ذوي القرابة[2]. يقال: قَرُبْتُ منه أَقْرُبُ، وقَرَّبْتُهُ أُقَرِّبُهُ قُرْبًا وقُرْبَانًا، ويُستعمل ذلك في المكانِ، وفي الزمانِ، وفي النّسبةِ، وفي الحَظْوةِ، والرّعايةِ، والقُدرةِ[3].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

يخبر اللّه تعالى رسولَه الكريم: وما كنت - يا نبيَّ اللّه - هناك حين بشَّرتِ الملائكةُ مريمَ عليها السلام بأعظمِ بِشارة فقالت: يا مريمُ إنَّ اللّه يُبشِّرك بولدٍ يكون وجودُه بكلمة من اللّه، أي يقول له: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: 47]، فأرسلَ اللّه جبريلَ عليه السلام إلى مريمَ، فنفخَ في جَيْب قميصِها فولَجَت فيها تلكَ النفخةُ الذَّكية، فأنشأ اللّه منها تلكَ الروحَ الزَّكية، اسمُه المسيحُ عيسى بن مريم، والمسيحُ لقبه عليه السلام وهو له من الألقاب المشرِّفة؛ لأنه مُسِحَ بالبَرَكة واليُمن، له الجاهُ العظيمُ في الدنيا والآخرة، جعله اللّه أحدَ أولي العَزْم من المرسلين أصحابِ الشرائع الكبارِ والأتباع، ونشر اللّه له من الذِّكْر ما ملأ ما بين المشرق والمغرب، ومن سادات المقرَّبين عند اللّه يوم القيامة وأقربهم إليه[4].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغة التّكرير في قوله: ﴿إِذۡ قَالَتِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾:

﴿إِذۡ قَالَتِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾ الثّانية بدلٌ من ﴿إِذۡ قَالَتِ﴾ الأولى وما بينهما اعتراضٌ، أو من ﴿إِذۡ

(1) ابن فارس، مقاييسُ اللّغة: (قرب).
(2) الخليل، العَينُ: (قرب).
(3) الراغب، المُفردَات: (قرب).
(4) ابنُ الجوزيّ، زاد المسير: 1/282، والسعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 55، ونخبة من العلماء، التفسير الميسر، ص: 55.

قُصِدَ الى التَّكرير؛ لتكميل المَقولِ بعد الجُملِ المُعترضةِ

يَخْتَصِمُونَ﴾ على أنّ وقوعَ الاختصام والبِشارةِ في زمانٍ متّسعٍ، كقولك: لقيتُه سنةَ كذا[1]، أو أنّ الآيةَ بدلُ اشتمالٍ من جُملة: ﴿وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ﴾ قُصدَ منه التَّكريرُ لتكميل المَقولِ بعد الجُملِ المُعترضةِ. ولكونه بدلاً لم يُعطف على ﴿إِذْ قَالَتِ﴾ الأوّلِ[2].

التّصريحُ بذكر اسمِ الله تعالى وتكرارُه:

علّة التصريح باسمه الأعظم؛ لكون الآية تتمحور حول عظمة الله تعالى، وعلّة تكراره الزيادة في إيضاح هذا المرامِ

ولما كانت هذه القطعةُ تتمحورُ حول عظمة اللّه تعالى في خلقه وتقديرِه وتفرُّدِه - سبحانه - فقد ذكرَ اسمَ الذات الجامعَ لجميع الصّفاتِ فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ﴾ وكرّر هذا الاسمَ الشّريَف في هذا المقام زيادةً في إيضاح هذا المرام. وبِشارةُ اللّه أمرٌ لا ينبغي إلّا لأهل الاصطفاء، ولذلك جاء الاصطفاءُ والأمرُ بالقنوت، والشُّكرِ له سبحانه، ثم جاء التّبشيرُ منَ اللّه سبحانه.

توجيه القراءة لقوله: ﴿يُبَشِّرُكِ﴾ وتغيّرُ المعنى:

وقد قَرَأَ أصحابُ عبدِ اللّهِ خمسةَ أحرفٍ بالتّخفيفِ، وسائرُ القرآنِ بالتثقيلِ: ثنتان في آلِ عِمْرَانَ: ﴿يَبْشُرُكَ بِيَحْيَىٰ﴾، و﴿يَبْشُرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ﴾، وفي بني إِسْرَائِيلَ، وفي الكَهْفِ، وفي عسق، ويُفَسِّرونه على أنّ اللّه يَبْشُرُك أي يَسُرُّك بكذا وكذا، لا على التَّبْشيرِ[3].

حياةُ المسيح كانت محفوفةً بالمُعجزات بدأت إرهاصاتُ نبوّتِه في آل عمرانَ وانتهتْ بعديدٍ من معجزاتِ الحياةِ

كلّمه بقوله: ﴿حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ [يونس: 33] وقولِه: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ [هود: 119] وقولِه: ﴿وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ﴾ [فصلت: 25]، وقيل: سُمّي كلمةً؛ لكونه متكلّمًا في المهدِ، وخُصّ بذلك لفظُ الكلمة للمبالغة: كوصف الفاعل بالمصدر. وقال النظّام: جعل ذلك لقبًا له لا لمعنًى أشار إليه. وسُمّي مسيحًا، لأنه مُسِحَ بالبركة[4].

(1) البَيضاويّ، أنوار التّنزيل: 2/17.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/245.
(3) الفرّاء، كتاب في لغات القرآن، ص: 48.
(4) الراغب، تفسير الرّاغب: 2/562.

وقال الأصمّ: سُمّي عيسى كلمةً؛ لأنه تعالى خلق كلمةً، فجعل منها عيسى، كما خلق آدمَ من تراب، وسائرَ النّاس من نطفة، وهذا كما ترى، وقال الجاحظُ: وصفَه بذلك من حيث إنه تقدّم الإخبارُ به وبشارتُه في الكتبِ المُتقدّمة، وهذا كما سَمَّى وعده[1]. أو أنّه سُمّي كلمَةً لصدوره بكلمة: كُنْ، بلا أب، أو هو كلمةٌ منَ اللّه أي: منَ كلام اللّه. أو لأنّ اللّه يهدي بكلمته، أو لأنه جاء على وَفق كلمةِ جبريل، وهو: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ١٩﴾ [مريم: 19].

المجازُ في معنى ﴿ٱلۡمَسِيحُ﴾ والمبالغةُ في (فعيل):

قولُه: ﴿ٱلۡمَسِيحُ﴾: على وزن فعيل مجازٌ من ممسوح على وزن مفعول: مجازٌ مرسَلٌ علاقتُه الفاعليةُ، وسُمّي: المسيح، لأنه مُسح بالبركة، قاله الحسنُ، وسعيدُ، وشَمرُ، أو بالدُّهن الذي يُمسح به الأنبياءُ، خرج من بطن أمِّه ممسوحًا به، أو بالتَّطهير منَ الذّنوب، أو: بمسح جبريلَ له بجناحِه[2]. ويكونُ: فعيل، فيها بمعنى مفعول، والألف واللام في: المسيح؛ للغلبةِ. وقال ابنُ عباس: سُمّي بذلك لأنه كان لا يمسحُ بيده ذا عاهة إلّا برىءَ، فعلى هذا يكونُ: فعيل، مبنيًّا للمبالغة: كعليم، ويكونُ منَ الأمثلة التي حُولّت من فاعل إلى فعيل للمبالغة. وقيل: منَ المِساحة، وكان يجولُ في الأرض فكأنه كان يمسحُها.

الكلمة مدلولاتُها عظيمةٌ تشكّلت منها معاني الحياة وبدأ آدم مسيرتَه في تعلّم شيءٍ من جنسها

توجيه الإطناب بتَعداد ذكْرِ اللّقب والاسم والوصف:

التَّعدادُ لمفردَاتِ الاسمِ في قولِه: ﴿ٱسۡمُهُ ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ﴾، وهذِه ثلاثَةُ أشياءَ الاسمُ منها: عيسى، وأمّا المسيحُ والابن، فلقبٌ وصِفةٌ. ويتميّزُ عن سواه مجموعُ هذه الثّلاثةِ، ويظهر من كلامه أنّ اسمَه مجموعُ هذه الثّلاثةِ، فتكونُ الثّلاثةُ أخبارًا عن قولِه:

الاسمُ الوحيدُ في القرآن الذي نَتَجَ عن ثلاثةِ أجزاءَ قدّمَ منهجيّةً في التّعريفِ بأسماءِ الشّخصيّاتِ

(1) الراغب، تفسير الرّاغب: 2/561.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/152.

اسمُهُ، فلا يكونُ أحدُها على هذا مستقلًّا بالخبريّة. ونظيرُهُ في كون الشّيئين أو الأشياء في حكم شيءٍ واحدٍ.. قولُ الشاعر:

كيف أَصْبَحْتَ كيف أَمْسَيْتَ مِمَّا *** يَزْرَعُ الوُدَّ في فؤادِ الكريم[1]

أي: مجموعُ هذا ممّا يزرع الودَّ، فلمّا جازَ في المبتدأ أن يتعدّد دونَ حرفِ عطفٍ إذا كان المعنى على المجموع، كذلك يجوزُ في الخبر[2].

وأَمَّا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى﴾؛ فَإِنَّ الضَّمِيرَ فِيهِ عَائِدٌ إِلَى مَدْلُولِ الكَلِمَةِ، وَالْمُرَادُ بِالِاسْمِ الْمُسَمَّى فَالْمَعْنَى الْمُسَمَّى الْمُبَشَّرُ بِهِ المسيحُ بنُ مريم[3]. عبّر عنِ العلم واللّقبِ والوصفِ بالاسم؛ لأنّ لثلاثتها أثرًا في تمييز المُسمّى[4].

بيانُ إمكان التّقديم والتّأخير في الاسم:

وجه التقديم أنَّ لَقبَ المسيح أشهرُ من عيسى

ومن قال إنّ المسيح صفةٌ لعيسى، فيكونُ في الكلام تقديمٌ وتأخير تقديرُه: اسمُه عيسى المسيحُ؛ لأنّ الصّفةَ تابعةٌ لموصوفها، ولا يصحّ أن يكون المسيحُ في هذا التركيب صفةً؛ لأنّ المخبَرَ به على هذا اللّفظ، والمسيحُ من صفةِ المدلولِ، لا من صفة الدّالّ، إذ إنّ لفظَ عيسى ليس المسيحَ. قال ابنُ الأنباري: وإنما بدأ بلقبه؛ لأنّ المسيح أشهرُ من عيسى، لأنّه قلَّ أن يقع على سَميّ يشتبهُ، وهذا يدلّ على أنّ المسيحَ لقبٌ لا اسمٌ.

في قوله ابن مريمَ تكريمٌ له بولادته من أمٍّ اصطفاها اللّه مرّتين واصطفاها على نساء العالمين

براعة الكناية في قوله: ﴿ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾:

ولمّا وصفه بهذا الوصف الشّريفِ ذكرَ اسمَه فقال: ﴿عِيسَى﴾، وبيّنَ أنه يكون منها وحدها من غير ذكَرٍ بقوله: ﴿ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾، وذلك أنفى لما ضلّ به مَن ضلّ في أمرِه، وأوضحُ في تقرير مقصود السّورة. فمقتضى (الكلمة) ترشيحُ لمعنى الكناية عن ولادته من أمّ

(1) ابن جني، الخصائص 1/290.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/153 - 154.
(3) الزّركشّي، البرهان: 2/297.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/246.

دون أب، وقولُه: ﴿بِكَلِمَةٍ﴾ أي مبتدئةٌ ﴿مِّنْهُ﴾ من غير واسطة أبٍ هو من تسميةِ المُسبّبِ باسم السّببِ، والتعبيرُ بها أوفقُ لمقصودِ السّورة وأنفى لما يدّعيه المجادلون في أمره[1].

سرُّ التّفخيمِ في التّفسير بعد الإبهامِ:

فـي التفخيم تعظيمٌ لقدره وبيانٌ لفضله على يحيى عليه السلام

وفي تفخيمِ هذا الذِّكْر بجعلِه نفسَ الكلمة، وبإبهامه أوّلًا، ثم تفسيرِه، وقوله: ﴿ٱسْمُهُ﴾؛ في هذا تعظيمٌ لقدره وبيانٌ لفضله على يحيى عليه السلام إذ لم يجعلْ له في البِشارة به مثل هذا الذِّكْر، فَنَاسَبَ ذِكْرُهُ بعد ذِكْرِ يَحيَى.

وجهُ إطلاق اسمِ الكلمة على المتكلّم:

وصفُ عيسى بكلمةٍ مرادٌ به كلمةٌ خاصّةٌ مخالفةٌ للمُعتاد في تكوين الجنين

وَإِطْلَاقُ اسْمِ الكَلِمَةِ عَلَى المُتَكَلِّمِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ﴾ [يونس: 64] أَيْ: لِمُقْتَضَى عَذَابِ اللَّهِ و﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ تَجَوَّزَ بِالكَلِمَةِ عَنِ المَسِيحِ لِكَوْنِهِ تَكَوَّنَ بِهَا مِنْ غَيْرِ أَبٍ، بِدَلِيلِ قَوْلِهِ: ﴿وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾ وَلَا تَتَّصِفُ الكَلِمَةُ بِذَلِكَ[2].

ووصفُ عيسى بكلمةٍ مرادٌ به كلمةٌ خاصّةٌ مخالفةٌ للمُعتاد في تكوين الجنين، أي: بدون الأسباب المُعتادة. وقولُه: ﴿مِّنْهُ﴾ من للابتداء المجازيّ، أي: بدون واسطةِ أسبابِ النّسل المُعتادة، وقد دلّ على ذلك قولُه: ﴿إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا﴾ [البقرة: 117][3].

ثم أتمَّ لها البِشارةَ، بأوصافٍ جعلها أحوالًا دالّةً على أنه يظهرُ اتّصافُه بها حالَ الولادة تحقيقًا لظهور أثرِ الكلمة عليه فقال: ﴿وَجِيهًا﴾ قال الحَرَالِّي: صيغةُ مبالغةٍ ممّا منه الوجاهةُ، وأصل معناه: الوجه، وهو الملاحَظ المحتَرم بعلوٍّ ظاهرٍ فيه ﴿فِى ٱلدُّنْيَا﴾ ولما

(1) البِقاعِيّ، نظم الدّرَر: 2/88.
(2) الزّركشّي، البرُهان: 2/297.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/245 - 246.

كان ذلك قد لا يلازم الوجاهةَ بعدَ الموت قال: ﴿وَٱلۡأٓخِرَةِ﴾، ولما كانت الوجاهةُ ثمَّ مختلفةً ذَكَرَ أعلاها، عاطفًا بالواو إشارةً إلى تمكّنِه في الصفات، فقال: ﴿وَمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ﴾ أي: عند الله.

التّسميةُ منَ الله كنايةٌ عن العناية الإلهية للمُسَمَّى:

التّسميةُ منَ الله دليلُ الصّلاحِ، والرّعايةِ، والاستقامةِ للمُسَمّى

أَخْرَجَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ عَمْرِو بْنِ مُرَّةَ قَالَ: خَمْسَةٌ سُمُّوا قَبْلَ أَنْ يَكُونُوا: مُحَمَّدٌ ﴿وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِي ٱسۡمُهُۥٓ أَحۡمَدُۖ﴾ [الصف: 6] وَيَحْيَى: ﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسۡمُهُۥ يَحۡيَىٰ﴾ [مريم: 7]، وَعِيسَى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٖ مِّنۡهُ ٱسۡمُهُ ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ﴾، وَإِسْحَاقُ وَيَعْقُوبُ: ﴿فَبَشَّرۡنَٰهَا بِإِسۡحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسۡحَٰقَ يَعۡقُوبَ ٧١﴾ [هود: 71] قَالَ الرَّاغِبُ: وَخَصَّ لَفْظَ ﴿أَحۡمَدُۖ﴾ [الصف: 6] فِيمَا بَشَّرَ بِهِ عِيسَى، تَنْبِيهًا عَلَى أَنَّهُ أَحْمَدُ مِنْهُ وَمِنَ الذين قبْلَه[1].

أسماءُ عيسى عليه السلام وكناياتُه وصفاتُه في القرآن الكريمِ:

من وجاهتِه عليه السلام تخليدُ ذكرِه في مواضعَ عديدةٍ منَ القرآن الكريم

وعيسى اسمٌ أعجميٌّ غيرُ منصرف؛ للعُجمةِ والعَلَميّةِ، وقيل: اشتقاقُه من العَيَس وهو البَياضُ، والأَعْيَسُ: الجَمَلُ الأَبيض، وجمعُه عِيسٌ. قيل له عِيسَى لِبَياضِ لَونه، وقيل من العَوْس، وهو السّياسة، وأَصلُه عِوْسًا قُلبتِ الواوُ ياءً لكسرة ما قبلها، وقالوا عِيسا لأَنَّه ساسَ نفسَه بالطَّاعة، وقَلْبَه بالمحبّة، وأُمَّته بالدّعوة إلى ربّ العزَّة[2].

الكنايةُ في معنى الوجاهةِ في قولِه: ﴿وَجِيهٗا فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ﴾:

من وجاهتِه عليه السلام رفعُه إلى السّماء فمازج في حياته بينَ الدّنيا والآخرةِ

وتعدّدتْ معاني الوجاهةِ لعيسى في الدُّنيا والآخرة لدى المُفسّرين، وأقربُها أنّ وجاهةَ عيسى في الدنيا كنايةٌ عنِ النبوّة، ووجاهتُه في الآخرة كنايةٌ عن علوّ درجتِه. وقيل: في الدّنيا بإحياء الموتى وإبراءِ الأكمهِ والأبرص؛ وهي معجزةٌ من مُعجزات نبوّتِه، وفي الآخرة بالشّفاعة؛ وهي أيضًا منزلةُ نبوّته في الآخرة. وقيل: في الدّنيا كريمًا

(1) السيوطيّ، الإتقان: 4/78.
(2) الفيروزآباديّ، بصائر ذوي التّمييز: 6/111.

لا يُردُّ وجهُه، وفي الآخرة في عِلّيَة المُرسَلين. وقال الزَّمَخشريّ: الوجاهةُ في الدّنيا النّبوّةُ والتّقدّمُ على النّاس، وفي الآخرة الشّفاعةُ وعُلوُّ الدّرجةِ في الجنّةِ. وقال ابنُ عطيةَ: وجاهةُ عيسى في الدّنيا نبوّتُه وذكرُه ورفعُه، وفي الآخرة مكانتُه ونعيمُه وشفاعتُه[1].

الاستعارةُ والطّباقُ في قولِه: ﴿وَجِيهًا فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ﴾:

وجه الاستعارة إطلاقُ الوجه على أوّلِ الشّيء

والوجيهُ ذو الوجاهةِ وهي: التّقدُّم على الأمثالِ، والكرامةُ بين القومِ، وهي وصفٌ مشتقٌّ منَ الوجه للإنسان، وهو أفضلُ أعضائه الظاهرةِ منه، وأجمعُها لوسائل الإدراكِ وتصريفِ الأعمال، فأُطلقَ الوجهُ على أوّلِ الشّيء على طريقة الاستعارةِ[2] الشائعةِ فيقال: وجه النّهار لأوّل النّهار، قال تعالى: ﴿وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ ءَامِنُواْ بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَجۡهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكۡفُرُوٓاْ ءَاخِرَهُۥ﴾ [آل عمران: 72]

وقال الرَّبيعُ بنُ زيادٍ العبسيُّ:

مَن كان مَسْرورًا بمقتلِ مَالكٍ*** فليأْتِ نِسْوتَنا بوجهِ نهارٍ[3]

﴿وَجِيهًا فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ﴾ حالٌ مقدّرةٌ من كلمةٍ، وهي وإن كانت نكرةً لكنّها موصوفةٌ، وتذكيرُه للمعنى، والوجاهةُ في الدنيا النّبوةُ، وفي الآخرة الشّفاعةُ[4].

وقال الأعْشَى:

..... *** ولاح لهم وجهُ العَشيَّاتِ سَمْلَق

ويقولون: هو وجهُ القوم أي: سيّدُهم والمقدَّمُ بينهم. واشتقّ من هذا الاسمِ فعلُ وجُه بضم الجيم ككرُم، فجاء منه وجيهٌ: صفةً مشبّهةً، فوجيه النّاس المكرَّمُ بينهم، ومقبولُ الكلمةِ فيهم، قال تعالى في وصف موسى - عليه السلام: ﴿وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ٦٩﴾ [الأحزاب: 69][5].

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/154.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/246.
(3) السجستانّي، غريب القرآن، ص: 479، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/247.
(4) البَيضاويّ، أنوار التّنزيل: 2/17.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/247.

الكنايةُ في قولِه: ﴿وَمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ﴾:

وجه الكناية قربه من الله تعالى في السماء، وصحبتُهُ الملائكة

معناه مُقرَّبٌ منَ اللّه تعالى وقال الزَّمَخشريُّ: وكونُه ﴿وَمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ﴾، رُفِعَ إلى السماء، وصَحِبَتْهُ الملائكة[1]. فالعبارةُ كنايةٌ عن ذلك، قال تعالى: ﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيۡهِۚ﴾ [النساء: 158]، وقال قتادة: ﴿وَمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ﴾ عند اللّه يومَ القيامة. وقيل: منَ النّاس بالقَبول والإجابة، قاله الماوَرْديُّ. وليس فعلَ هنا من صيغ المبالغةِ؛ لأنّ التَّضعيفَ هنا للتّعدية[2].

﴿وَمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ﴾ معطوفٌ على قوله: وجيهًا، وتقديرُه: ومقرَّبًا من جملة المُقرّبين. قال تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ۝١٠ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡمُقَرَّبُونَ ۝١١﴾ [الواقعة: 10- 11]. أعْلَمَ تعالى أنَّ ثَمَّ مُقَرَّبين، وأنّ عيسى منهم. وجاءت هذه الحالُ هكذا؛ لأنّها مَن الفواصلِ، فلوْ جاء: ومقرَّبًا، لم تكن فاصلةً، وأيضًا فأعلمَ تعالى أنّ عيسى مقرّبٌ من جملة المُقرَّبين، والتّقريبُ صفةٌ جليلةٌ عظيمةٌ.

﴿وَمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ﴾ منَ اللّه، وقيل: إشارة إلى علُوِّ درجتِه في الجنّةِ، أو رفْعِه إلى السّماءِ وصُحبةِ الملائكةِ[3].

(1) الزمخشري، الكشاف: 1/277.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 3/236..
(3) البَيضاويّ، أنوار التّنزيل: 2/17.

﴿وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلۡمَهۡدِ وَكَهۡلٗا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ٤٦﴾ [آل عمران: 46]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الآيةُ تَتِمَّةٌ لبشارة الملائكة لمريم في أوصاف عيسى عليه السلام فبعد أن بشَّرتها الملائكة بوجاهته في الدُّنيا والآخرة، وأنَّه من المُقرَّبين؛ زادوها بشارة، فبيَّنوا لها هنا أحدَ أهمِّ الخوارق والمُعجزات التي سيجريها اللّه للموهوب، فقال: ﴿ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلۡمَهۡدِ وَكَهۡلٗا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلۡمَهۡدِ﴾: جذر الكلمة هو: (مهد)، والمَهْدُ: الموضِع يُهَيَّأُ؛ لينامَ فيه الصَّبيُّ في رضاعه[1]، وأصلُه: مصدرٌ سمِّيَ به، يُقَالُ: مهَّدتُ لنفسي - بتخفيف الهَاءِ وتشديدهَا - أي: وطأت، ويقال: أمهد الشيء: ارتفع[2]، والمِهادُ: اسمٌ أجمعُ من المَهْدِ، كالأرضِ جَعَلها اللّه مِهادًا للعِباد، وجَمْعُ المِهاد: مُهُدٌ، ومَهَّدْتُ لنفسي خيرًا، أي: هيَّأتُهُ، ووطَّأتُهُ[3]، ومن المجاز: مَهَّدَ الأمرَ: وَطَّأَهُ، وسوَّاه، ومهَّد العذر تمهيدًا، ومهَّد له منزلة سنيَّة، وما امتهد فلانٌ عندي مهد ذاك، أي: ما قدَّم وسيلةً فيما يطلبه، وماءٌ مُمَهَّدٌ: فاترٌ ليس ببارد ولا سخنٍ[4].

2) ﴿وَكَهۡلٗا﴾: جذرُ الكلمةِ هو: (كهل)، الكَهْلُ: مَن حَلَّ به الشَّيبُ[5]. والكَهْلُ: الذي وَخَطَهُ الشَّيْب، ورأيتَ له بَجَالةً (مَهابة ورفعة في المقام)[6]، ورجلٌ كَهْلٌ، وامرأة كهْلةٌ، وقلَّ: ما يُقال للمرأةِ كَهْلَة، إلَّا أن يقولوا: شَهْلَةٌ كَهْلةٌ، وهو من أربعة وثلاثين إلى إحدى وخمسين[7]، واكْتهلَتِ الرّوضةُ؛ إذا عمَّها نَوْرُها[8]. ومن المجاز: هو كافل أهله، وكاهلهم،

(1) الخليل، العَين: (مهد).
(2) أبو حيَّان، البحر المُحِيط: 3/156.
(3) الخليل، العَين: (مهد).
(4) الزَّمخشريُّ، أساس البَلاَغة: مادّة (مهد).
(5) القيعي، الأصلان في علوم القُرآن، ص: 223.
(6) الخليل، العَين: والرَّاغبُ، المفردات: وابن سيده، المحكم (كهل).
(7) ابن سيده، المحكم (كهل).
(8) الخليل، العَين: (كهل).

وهو الذي يعتمدونه، شبّه بالكاهل واحد: الكواهل، واكتهل النَّباتُ: تمَّ طوله وتكهَّل، ونبات كهل[1]، واكْتَهَلَ النَّباتُ أيضًا؛ إذا شارف اليبوسة مشارفة الْكَهْلِ الشَّيبَ، [2]، والخلاصة أنَّ الكهل بين الشَّاب والشَّيخ.

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

ومن آيات البِشارة بالمسيح عليه السلام ومن المعجزاتِ التي بشَّرتْ بها الملائكةُ مريمَ عليها السلام أنَّه يُكلِّمُ النَّاس وهو رضيعٌ - في المهد بكلام الأنبياء - قبل أوان الكلام؛ لإظهار طهارة أمِّه، مِمَّا رماها به أهلُ الفِرْية من القذف، وهو قوله: ﴿إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ۝٣٠﴾ [مريم: 30]، ويدعو النَّاسَ إلى الله وهو كبير قد اجتمعت قوَّته وكمُل شبابه بما أوحاه الله إليه، وهذا تكليم النبوَّة والدعوة والإرشاد، وهو معدودٌ من أهل الصَّلاحِ والفضلِ في قوله وعمله، وهي صفةٌ عامَّةٌ في الأنبياء، فلولا مقامهم العالي في الصَّلاح؛ لما استحقُّوا درجةَ النُّبوَّة[3].

❁ الإِيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالة التّعبير عن التكليم بالمضارع:

استحضار المعجزة للتأثير في المخاطبين في كلِّ زمنٍ للإقرار بقدرة الله

التّعبير بالمضارع في قوله تعالى: ﴿وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ﴾ يدلُّ على استحضار الحالة الماضية، وكأنَّ المعجزة حدثت الآن، وفي استحضار الحدث الماضي أثر بالغ في قدرة الله - عزَّ وعلا - على تحقيق ما يريد بغير الأسباب المعهودة، فكما قدر على خلق عيسى بلا أب، فهو على إنطاقه رضيعًا بكلام الأنبياء أقدر.

بلاغة المجاز المرسل في قوله: ﴿وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ﴾:

قوله: ﴿وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ﴾، أي: بعضَهم ممّن شهدوا الحدَث، وفيه مجازٌ مرسلٌ حيث ذكر الكلَّ، وأراد الجزء؛ فالعلاقة الكليَّة، وفي المجاز المرسل هنا: دلالة على قوَّة المعجزة وتأثيرها في الناس

(1) الزَّمخشريُّ، أساس البَلاَغة: (كهل).
(2) الراغب، المفردات، 727 - 728.
(3) الخازن، لباب التأويل: 1/348، ونخبة من العلماء، التفسير الميسَّر، ص: 56.

جميعًا، فكلُّ مَن آمن بالله أيقنَ بهذه المعجزة، وكلُّ المسلمين يؤمنون بهذه المعجزة؛ لأنَّهم خوطبوا بها في القرآن، كما خوطب بها أهل زمانها، فالتَّعبير بالمجاز دلَّ على قوَّة المعجزة وعظمة تأثيرها بأسلوب وجيز.

بيانُ التَّعبير الكنائيِّ في قوله: ﴿فِي ٱلۡمَهۡدِ﴾:

قوله: ﴿وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلۡمَهۡدِ﴾، أي: حال كونه في المهد، فالمهد مقرُّ الصَّبيِّ في رضاعه، وأصله: مصدر سمِّي به، وكما قال الحَرَالِّي: "هو موطن الهدوء والسُّكون المتحسَّس اللَّطيف الذي يكونُ بذلك السُّكون والهدوء قوامُهُ"[1].

سرُّ الطِّباق في لفظي: ﴿ٱلۡمَهۡدِ﴾، و﴿وَكَهۡلٗا﴾:

بين لفظي ﴿ٱلۡمَهۡدِ﴾ و﴿وَكَهۡلٗا﴾ في قوله: ﴿فِي ٱلۡمَهۡدِ وَكَهۡلٗا﴾ طباقٌ خفيٌّ، فالمهد كناية عن مرحلة الرّضاع، فهو يكلِّم النَّاس رضيعًا؛ إعجازًا، ويكلّمهم كهلًا؛ وحيًا، فهو المتكلّم عن الله في الحالين، والطِّباق هنا يتضمَّن أسرارًا غزيرة، وبدائع لطيفة، فذِكْر الطَّرفين يدلُّ على شمول الرِّعاية الإلهيَّة للمسيح عليه السلام في كلِّ أحواله، وفائدة الطِّباق ذِكر المرحلتين المبتدأ والمنتهى؛ تأكيدًا على ما بينهما من المراحل، وخصَّ تكليم عيسى عليه السلام بحالين: حال كونه في المهد، وحال كونه كَهلًا، مع أنَّه يتَكَلَّم فيما بين ذلك؛ لأنَّ لذينك الحالين مزيد اختصاص بتشريف الله إيَّاه، فأمَّا تكليمه النَّاس في المهد؛ فلأنَّه خارق عادة إرهاصًا لنبوءته، وأمَّا تكليمهم كَهلًا؛ فمراد به دعوته النَّاس إلى الشَّريعة[2].

وفي هذا الطِّباق دلالة على تغيُّر أحواله مع الزَّمن[3]، وهو إشارة إلى تقلُّبِ الأحوال عليه، وردٌّ على النَّصارى في دعواهم ألوهيَّته، وفي

لا يُقْصَدُ بالمعجزة الحاضرون وقت التكليم، بل يُقْصَدُ كلّ النّاس في كلِّ الأزمنة

العناية بالرضيع من صورها إمهاد مكانه، والعناية بمرقده، وتوفير الراحة له

وجه الطباق شمول الرِّعاية الإلهيَّة للمسيح عليه السلام كلَّ أحوالِه في البدء، والمنتهى

في الطِّباق إخبار عن تغيُّر أحواله، وتقلّب أطوار عمره، وفيه نفيٌ لألوهيته

(1) البقاعي، نظم الدرر: 4/398.
(2) ابنُ عَاشُور، التَّحرير والتَّنوير: 3/247.
(3) ابنُ عَاشُور، التَّحرير والتَّنوير: 1/282.

ذكر أحواله المختلفة المتنافية إرشادٌ إلى أنَّه بمعزل عن الألوهيَّة[1]، فذكر ذلك قبل أن يخلقه إعلامًا به أنَّه سيكتهل، فإذا أخبرتْ به مريم؛ عُلِمَ أنَّه من علم الغيب[2].

بلاغة التَّسوية بين المتعاطفين:

وجه التَّسوية بين المتعاطفين دفع التوهّم، وإزالة الاستغراب

في قوله تعالى: ﴿ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا ﴾ تسويةٌ بين المتعاطفين لدفع التوهّم، وإزالة الاستغراب. قال البيضاوي: " والمعنى تكلّمهم في الطفولة، والكهولة على سواء، والمعنى إلحاقُ حاله في الطفولية بحال الكهولية في كمال العقل والتَّكلُّم، وبه استدلّ على أنه سينزل فإنه رُفع قبل أن يكتهل"[3].

وفي قوله تعالى: ﴿وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا﴾، بشارة من اللَّه تعالى لمريم أنَّ عيسى يبقى إلى حال الكهولة، وقيل: إنَّ كَهلًا، أي: ينزل من السماءِ لقتل الدَّجَّال، وهو كهل[4]، وبشّرها بطول حياتها بقوله: ﴿وَكَهْلًا﴾، أي: بعد نزوله من السَّماء في آخر الزَّمان، ويكون كلامه في الحالتين - حال كونه طفلًا وكَهلًا - كلام الأنبياء من غير تفاوت[5].

وجه الاحتراس دفع توهّم ما أملته العادة من أنّ المتكلّم في المهد لا يعيش

وقال الزَّمخشريُّ: معناه: وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ في هاتين الحالتين كلام الأنبياء، من غير تفاوت بين حال الطفولة وحال الكهولة التي يستحكم فيها العقل، ويُنَبَّأ فيها الأنبياء[6].

فنُّ الاحتراس في ذِكر لفظ (الكهولة):

قال الزركشي: " وإنّما ذكر الكهولة مع أنّه لا إعجاز فيه لأنّه كان

(1) البَيضاويُّ، أنوَارُ التَّنزِيل: 2/17. أبو السِّعود، إرشاد العقل السَّلِيم: 2/37.
(2) أبو حيَّان، البحر المُحِيط: 3/156.
(3) البيضاويُّ، أنوَارُ التَّنزِيل: 2/149.
(4) الزَّجَّاج، معاني القُرآن: 1/412.
(5) البيضاويُّ، أنوَارُ التَّنزِيل: 2/17، والبِقَاعيُّ، نظم الدُّرر: 2/89.
(6) الزَّمخشريُّ، الكَشَّاف: 1/391.

في العادة أنّ من يتكلم في المهد أنّه لا يعيش ولا يتمادى به العمر فجُعل الاحتراس بقوله: ﴿وَكَهۡلٗا﴾"[1].

وجه إيثار لفظ (الكهل):

إيثار الكهولة؛ لأنها عُمْرُ استحكام العقل وجودة الرأي، وبشارة بأنّه سيعيشها

والكهل الحليم، لقوّة عقله وإدراكه وتجربته. ولذلك خُصَّ هذا السِّنِّ في الآية دون سائر العمر؛ لأنّه سنُّ استحكام العقل وجودة الرأي، وفي قوله: وكهلاً، تبشير بأنّه يعيش إلى سن الكهولة[2].

سرُّ القيد بالحال في الفاصلة:

دلّتِ الحال على صلاحه في كلِّ أحواله، وأكّدت أهميَّة صفة الصلاح في الأنبياء

صفة النُّبوَّة تتضمَّن كلَّ محاسن الأخلاق وأعلاها، غير أنَّ النظم الكريم نصَّ عليها هنا، إعلاءً لشأنها كما أنَّها مرتبطة برسالتهم اتِّصالًا وثيقًا؛ فرسالتهم الإصلاح، ﴿إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُۚ وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ﴾ [هود: 88].

وقوله: ﴿وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ حالٌ ثالثةٌ من ﴿وَيُكَلِّمُ﴾، وهذه الحال دالَّة على صلاحه في كلِّ أحواله، وفي ذلك تأكيد للبشارة، فهي محيطة بأمره شاملة لآخر عمره، كما كان مقارنًا لأوَّله.

(1) الزركشي، البرهان: 3/67.
(2) أبو حيَّان، البحر المُحيط: 2/483.

﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾﴾ [آل عمران: 47]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

وقعت الآية من سابقتها موقع شبه كمال الاتصال، حيث جاءت الآية الكريمة بمنزلة الجواب عن سؤال أثارته الآيةُ السابقة، وكأنَّها عليها السلام لمَّا سمعت ذلك؛ امتلأت تعجُّبًا من بشارتها بالولد من غير انعقاد الأسباب المعتادة، فكأنَّها تعجب من الكيفيَّة، فاستخفَّها ذلك التعجُّب إلى الاستعجال بالسُّؤال من قبل إكمال المقال بأن قالت: ﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ﴾[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَمْسَسْنِي﴾: جذر الكلمة هو: (مسس)، و(مسَّ): قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ﴾ [البقرة: 275]. قال الفرَّاء: المسُّ: الجنون، والعرب تقول: رجل ممسوس، والمسُّ: اللَّمس، ويقال: لا مِساس، ولا مَساس، ومن المجاز: مسَّه الكبر والمرض، ومسَّه العذاب، ومسَّه بالسَّوط، ومسَّ المرأة: جامَعَها، وماسَّها: أتاها، قال الله تعالى: ﴿وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ﴾ [البقرة: 237]، أي: من قبل أن تُجامعوهُنَّ[2].

2) ﴿بَشَرٌ﴾: جِذر الكلمة هو (بَشَرَ)، والبَشَر: الإنسانُ الواحد رجلًا كان أو امرأة، قال تعالى: ﴿أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا﴾ [المؤمنون: 47]، لا يُثَنَّى، ولا يُجمع، والبَشْرُ بجَزْم الشِّين: قَشْرُك البَشَرَة عن الجِلْد[3]، والجَمْع أبشار، والبَشَرة ظاهر أعلى جلدة الوَجه والرَّأس والجسد من الإنسان، وهي التي عليها الشعر، وقيل: هي الَّتي تلي اللَّحم[4]، ومن المجاز: فلانٌ

(1) البِقَاعيُّ، نظم الدُّرر: 4/400 والآلوسي، روح المعاني: 2/157.
(2) الأزهريُّ، تهذيب اللُّغة: (مسس).
(3) الخليل، العَين: (بشر).
(4) ابن سيده، المحكم (بشر).

مؤدم مُبشر، وما أحسن بشرة الأرض؛ وهي ما يخرج من نباتها، فيلبسها، وطلعت تباشير الصُّبح؛ وهي أوائله التي تبشِّر به، كأنَّها جمع تبشير، وهو مصدر: بشَّر، وفيه مخايل الرُّشد وتباشيره، ورأى النَّاس في النَّخل التَّباشير؛ وهي البواكير، وهبَّتِ المُبشِّرات؛ وهي الرِّياحُ التي تبشِّر بالغيث[1].

3) ﴿قَضَىٰٓ﴾: جِذْر الكلمة هو (قضي): قَضَى يَقضي قَضاءً وقَضيَّةً، أي: حكم، وقَضَى إليه عهدًا، معناه الوصيَّة، ومنه قوله تعالى: ﴿وَقَضَيۡنَآ إِلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ [الإسراء: 4]، وقوله: ﴿فَلَمَّا قَضَيۡنَا عَلَيۡهِ ٱلۡمَوۡتَ﴾، أي: حَكَمْنا عليه به، وانقَضَى الشيءُ، وتَقَضَّى، أي: فَنِي، وذهب[2]. وقَضيتُ بينَ الخَصمين، وَعَلَيهمَا: حَكَمتُ، وَقضيتُ وَطَرِي: بَلغتُهُ، وَنلتُهُ، وَقضيتُ الحاجةَ كَذلكَ، وَقضيتُ الحجَّ وَالدَّينَ: أَدَّيتُهُ، [3]، وقضى هنا، بمعنى: أراد.

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

لَمَّا أخبرت الملائكةُ مريمَ عليها السلام أنَّ الله يبشِّرها بالمسيح؛ نادتْ ربَّها، مستفهمةً - ليس شكًّا منها في قدرة الله تعالى - على طريق التَّعجُّب من هذا الأمر الخارقِ للعادةِ، وأنا لستُ بذاتِ زوجٍ ولا بَغِيٍّ؟ قال لها المَلَك: هذا الذي يحدث لكِ - من حدوث الولد من غير أب - ليس بمستبعَدٍ على الإلهِ القادر، الذي يوجِد ما يشاء من العَدَم، فإذا أراد إيجادَ شيءٍ فإنما يقول له: ﴿كُن﴾ [آل عمران: 47] فيكون، فهذا شأنه - سبحانه - في الخلقِ والتَّقدير، لَا يعسر عَلَيْهِ شَيْءٌ؛ ليبيِّنَ لعباده أنه الفعَّالُ لما يريدُ، وأنَّ ما شاء كان وما لم يَشَأْ لم يكن[4].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغة التصدير بالنداء:

في قوله تعالى: ﴿قَالَتۡ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٞ﴾ صدّرت مريمُ عليها السلام إجابتها بالنداء للربّ، وفيه معنى الاعتراف بالخلق والتكوين، وكمال الربوبية لله سبحانه وتعالى، فهو

(1) الزَّمخشريُّ، أساس البَلاَغة: (بشر).
(2) الخليل، العَين: (قضي).
(3) الراغب: تفسير الرَّاغب: 2/567.
(4) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 56، ونخبة من العلماء، التفسير الميسر، ص: 56.

تسليم بالقدرة الإلهية، وبأن خالق كل شيء لا يكبر عليه شيء، سبحانه وتعالى[1].

صدَّرت كلامها بنداء الربِّ اعترافًا بالخلق والتكوين، وكمال الربوبية لله تعالى

ذهب ابن عاشور إلى أنّ النِّداء للتحسُّر، وليس للخطاب: لأنَّ الَّذي كلَّمها هو الملكُ، وهي قد توجَّهَت إلى الله سبحانه[2]. فخرج النداء بهذا عن حقيقته إلى معنى مجازيٍّ، وهو التحسُّر؛ لما سيصيب سمعتها من ولد بلا أب، وهو شأن البشر.

التصديرُ بالنداء مجازٌ وجهُهُ التحسّر

بلاغة الاستفهام في الآية:

جاء الاستفهام هنا خارجًا عن حقيقته إلى المجاز، ومعناه هنا: التعجُّب والإنكار، والاستبعاد للحمل على حال بكارتها؛ لذا أُجيبَ عن تعجُّبها بجوابين قوله: ﴿قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ﴾ و﴿إِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[3]؛ إزالة للتعجُّب، وكان أحد الجوابين كافيًا إلَّا أنَّ ذلك مَليحٌ بلطف الله بعباده ورحمته بخلقه؛ لما خلقوا عليه من النَّقص والاعتبار بالظاهر دون السُّلوك إلى بواطن الأقدار وخوافيها، ويحتمل أن يكون على حقيقته، بمعنى: أنَّه يكون بتزوُّج أو غيره.

معنى الاستفهام على طريق المجاز التعجُّبُ من حملها، واستبعادُ ذلك

يدلُّ قوله تعالى: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٞ﴾ على بالغ عجبها، ويُومئ إلى ارتياعها الذي عبّرت عنه في سورة مريم: ﴿يَٰلَيۡتَنِي مِتُّ قَبۡلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسۡيٗا مَّنسِيّٗا ٢٣﴾ [مريم: 23]، و﴿أَنَّىٰ﴾ هنا بمعنى: (كيف)، أي: كيف يكون مِنّي ولدٌ ولم يمسسني بشر؟ أي: لم يكن مني ما يكون بين الرجل والمرأة مما يكون منه ولد! فالاستغرابُ في الكيفية، لَا في أصل القدرة الإلهية[4]. فهي عليها السلام قد قالت هذا؛ تعجُّبًا واستفهامًا، لا شكًّا وإنكارًا، على ما أشرنا إليه في قصَّة زكريا، وعلى هذا رأي

(أنّى) بمعنى كيف؛ فالاستغراب في الكيفية، لَا في أصل القدرة الإلهية

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 3/1224.
(2) ابنُ عَاشُور، التَّحرير والتَّنوير: 3/248.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/248.
(4) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 3/1224.

الجمهور: أنَّ الذي خاطبها كان جبريل، وكانت تظنُّه آدميًّا يريد بها سوءًا؛ ولهذا قالت: ﴿أَعُوذُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ مِنكَ﴾ [مريم: 18][1]، وعلى هذا المعنى يمكن أن يكون الإنكار باعتباره - في ظنِّها - آدميًّا لا مَلَكًا.

بلاغة القيد بالجملة الحاليَّة المتضمِّنة الكناية:

بيانُ وجهِ الاستغرابِ، وسببُهُ فقدُ السَّبب المعتاد، والكنايةُ أكَّدته

قوله: ﴿وَلَمۡ يَمۡسَسۡنِي بَشَرٞۖ﴾ جملة حاليَّة محقِّقة لما مرَّ من الاستفهام ومقوِّية له، وكأنَّها بمنزلة العلَّة في السُّؤال وإبداء التحسُّر، وجاءت الكناية في ﴿يَمۡسَسۡنِي بَشَرٞۖ﴾ كناية عن الطَّهارة والعفَّة بدليل عدم مسِّ أيِّ بشر لها، ويعظِّمه أنَّ الفاعل جاء منكَّرًا، للتَّعميم، كما أنَّ الكناية نفت كلَّ وجوه المسِّ حلالًا وحرامًا، والتَّعبير بالكناية في هذا المقام أبلغ من الحقيقة؛ إذ حقيقته: لم يجامعني بشر، وهو تعبير خادش للحياء، وفي الوقت ذاته ليس مانعًا من مقاربة الجماع، وكان يحتاج لقيد بالحلال أو لطول العبارة بقولنا: لم يجامعني بشرٌ، لا حلالًا، ولا حرامًا، فكانت الكناية أبلغ في البيان عن الطُّهر والعفَّة بأبلغِ طريقٍ وأوجزه.

مجازية المسّ اختلاطُ الرَّجل بالمرأة، وحقيقتُهُ عَدَمُ لَمْسِ الجسم

وتعبير القرآن عن اتصال الرجل بالمسيس في جملة ﴿وَلَمۡ يَمۡسَسۡنِي﴾ مجازٌ مشهور معروف، حتى يكاد يكون حقيقة عرفيّة في لغة القرآن الكريم؛ أو نقول: المسّ المراد به حقيقته، وهو أنها لم يلمسها رجل؛ لأنها متبتِّلة دائمًا منصرفة للعبادة لم يلمس جسمها رَجل من غير محارمها قَطُّ؛ وبذلك ينتفي بالأولى ما هو أبلغ من مجرَّد اللَّمس، فموضع العجب والسؤال هو أن يكون ولد من غير اتّصال رَجل بامرأة[2].

نكتة التَّناسب بين ﴿يَمۡسَسۡنِي﴾ و﴿بَشَرٞۖ﴾:

البَشَرَةُ: أعلى جِلْد الوَجْه والجَسَد من الإنسان، وهو البَشَر؛ إذا

(1) ابن الجوزي، زاد المَسِير: 3/243.

(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 3/1224.

اصطفاء الألفاظ له أثر بالغ في التأكيد على الطُّهر والعفَّة

جَمَعْتَه، وإذا عَنَيْتَ به اللّون والرِّقَّة، ومنه اشتُقَّتْ مباشرةُ الرجل المرأة؛ لتضَامِّ أبشارهما، ومباشرة الأَمْر: أن تحْضُرَهُ بنفسك[1]، ومن ذلك يظهر التَّناسب في اختيار اللفظتين في قوله: ﴿يَمْسَسْنِي بَشَرٌ﴾، لأنَّ المسَّ: هو مسكُ الشَّيءِ باليد[2]، أي: مباشرة الشيء، أو جَعْلُ بشرة اليد تلامسه، وقوله: ﴿بَشَرٌ﴾ من البشرة التي تباشر الشيء، فكان جامع الكلمتين: هو المباشرة، فيكون معنى: ﴿وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ﴾، أي: لم يحصل بيني وبين رجل مباشرة، كالذي يكون بين المرء وزوجه، وهذا ما يؤوِّلُ سبب اختيار بشر دون رجل، فالبشر: الإنسان والواحد والجميع والمذكر والمؤنث في ذلك سواء، وقد يثنَّى[3]، فالتناسب أعان على التَّأكيد على العفَّة والطُّهر.

نكتة الفصل في جواب الاستفهام:

وجه الفصل وقوع الجواب على طريق المحاورة المعبّر عنه بألفاظ القول

جملة ﴿قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ جواب الاستفهام وعُدل عن عطفها؛ لأنها جاءت على طريقة المحاورات كما تقدم في قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا﴾ [البقرة: 30] وما بعدها في سورة البقرة والقائل لها هو الله تعالى بطريق الوحي[4].

بيانُ التعبير باسم الإشارة:

عود (كذلكِ) إلى القدرة التي تتضمَّنها البشارة بالكلمة، أو إلى حال مريم

الإشارة بقوله: ﴿كَذَٰلِكِ﴾، يحتمل أن تكون إلى هذه القدرة التي تتضمَّنها البشارة بالكلمة في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ﴾، إلى قوله: ﴿وَكَهْلًا﴾، أي: مثل ذلك الخلق المذكور يخلق الله ما يشاء، ويحتمل أن تكون إلى حال مريم وبكارتها[5]، وكلٌّ ذلك هيَّأَ للجملة الثَّانية؛ إذ جاءت كعطف البيان لها.

(1) الخليل، العَين: (بشر).
(2) الأزهريُّ، تهذيب اللُّغة: 12/226.
(3) ابن سيده، المحكم: (بشر).
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/248.
(5) ابن عطيَّة، المحرَّر الوَجِيز: 1/436، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/248.

بلاغة تقديم المبتدأ على خبره الفعليّ:

في تقديم لفظ الجلالة تقوية للمعنى، وتوكيد بيان إزالة حالة العجب والاستغراب

جاء قوله: ﴿قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ﴾ في قوة الجواب للاستفهام السَّابق؛ لأنَّها عنه نشأت، وعليه ترتَّبت، وجاءت الجملة على نسق عجيب من البناء، فأصل التركيب: (اللّه يخلق ما يشاء كذلك)، فقد قدّم الخبر على المبتدأ، وقدّم المبتدأ على خبره الفعليِّ ﴿ٱللَّهُ﴾ والجملة الفعلية ﴿يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ﴾، وقد جاء الفعل مضارعًا؛ دلالة على التَّجدُّد والحدوث، وفاعله ضمير يعود على لفظ الجلالة، فكأنَّ الفعل أسند مرَّتين، وفي كلٍّ ذلك تقوية للمعنى وتوكيده في بيان أنَّه لا عجب مع قدرة القادر، فهو لا يفتقر لأسباب. قال ابن عاشور: "وتقديم اسم الجلالة على الفعل في قوله: ﴿ٱللَّهُ يَخۡلُقُ﴾؛ لإفادة تقوّي الحكم وتحقيق الخبر"[1].

نكتة التعبير عن الجمع بالمفرد:

تقديمُ مثال واحد سبيلٌ لسهولة الفهم لدى المتلقِّي

عبَّر بالمفرد في قوله تعالى: ﴿إِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ عن الجمع، فذكر ﴿أَمۡرٗا﴾، والمُراد جميع أمور الوجود، فإن أرادها؛ قال لها: كُن فيكون، وفائدة هذا الفنِّ تقديم مثال واحد بغية سهولة الفهم لدى المتلقِّي؛ وهو منهجيَّة قرآنيَّة مُطّردة.

وجه مناسبة جملتي جواب الاستفهام:

وقعت الجملة من سابقتها موقع كمال الاتصال بوصفها بيانًا للمشيئة، وفيه تأكيد لإزالة العَجَب والاستغراب

وقعت جملة ﴿إِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا﴾ من سابقتها موقع كمال الاتصال حيث جاءت بيانًا للمشيئة، وفي ذلك تأكيد لإزالة العجب والاستغراب، ويقوِّيه التعبير بـ﴿قَضَىٰٓ﴾ وهو هنا، بمعنى: أراد، والإرادة بيانٌ للمشيئة في الجملة السابقة.

بلاغة التعبير بجملة الشرط:

جاءت جملة الشرط ﴿إِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/248.

مصوغةً بأسلوب التعليق، واقترن جواب الشرط بالفاء، وبني على أسلوب القصر؛ تأكيدًا لسرعة حصول الجواب بمجرَّد الإرادة.

في الشرط هنا تأكيدٌ لسرعة حصول الجواب بمجرَّد الإرادة

قصديّة اختيار الفعل ﴿قَضَىٰٓ﴾:

عبَّر سبحانه عن الإيجاد بالفعل: ﴿قَضَىٰٓ﴾؛ إشارةً إلى أنّ إيجادَه للأشياء ليس إلَّا من قبيل الحُكم عليها بالوجود، فإذا حكمَ بالوجود في أمر نُفِّذَ حُكْمهُ، وحكمُهُ هو أن يقول: كن، فيترتّب على ذلك أن يكون[1].

إيجاد الباري للأشياء هو من قبيل الحكم عليها بالوجود

بديعُ صوغ الإجابة على طريق المطاوعة:

وبني على طريق المطاوعة ﴿كُن﴾، وهي كلمة دالّةٌ على التكوين بمحض قدرة الله تعالى عند إرادته خَلْقَ الشيء وإيجاده، وقد خلق المسيح بهذه الكلمة[2]. واقترن فعل المطاوعة بالفاء الدَّالَّة على سرعة الوقوع من غير مهلة، ويؤيِّد ذلك أن مدَّة حمل البتول الطاهرة قصيرة جدًّا، وكلُّ هذا يفيد تحقيق الأمر الذي ذُكر قبله، من غير تأخُّر ولا حاجة إلى سبب؛ وأنْ لا رادَّ له، وهو كقوله: ﴿وَمَآ أَمۡرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٞ كَلَمۡحِۭ بِٱلۡبَصَرِ ٥٠﴾ [القمر: 50]، أي: إنَّما نأمر مرَّة واحدة لا تثنية فيها، فيكون ذلك الشيء سريعًا كلمح البصر[3].

دلالة المطاوعة مع الاقتران بالفاء سرعة الاستجابة، والوقوع من غير مهلة

قال العمادي: " ﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن﴾ لا غيرُ. ﴿فَيَكُونُ﴾ من غير ريث وهو كما ترى تمثيلٌ لكمال قدرته تعالى وسهولةِ تَأَتِّي المقدورات حسبما تقتضيه مشيئتُه، وتصويرٌ لسرعة حدوثِها بما هو علم فيها؛ من طاعة المأمورِ المطيعِ للآمر القويّ وبيانٌ لأنه تعالى كما يقدِر على خلق الأشياءِ مُدرجاً بأسباب وموادَّ معتادةٍ يقدِر على خلقها دفعةً منْ غيرِ حاجةٍ إلى شيء من الأسباب والمواد"[4].

جملة المطاوعة تمثيلٌ لكمال قدرته تعالى وسهولةِ تأتّي المقدورات حسبما تقتضيه مشيئتُه

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 3/1225.
(2) القاسمي، محاسن التأويل: 2/319.
(3) القاسمي، محاسن التأويل: 2/319.
(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 2/38.

بلاغة الاستعارة التمثيليّة في الفاصلة:

جاء في تلخيص البيان في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ "استعارةٌ؛ لأنه ليس هناك شيء على الحقيقة يؤمر ولا قول يسمع. وإنما هذا القول عبارة عن تحقيق الإرادة وسرعة وجود المراد، من غير معاناة ولا مشقَّة، فهو إخبار عن نفاذ قدرته تعالى. فإذا أراد أمرًا كان لوقته، من غير أن يبطىء إيجاده، أو يتقاعس إنفاذه. وذلك بمنزلة قول أحدنا: (كُنْ) في خفّة اللفظ به، وسرعة التعبير عنه، من غير كلفة تلحقه، ولا مشقة تعترضه"[1].

في الاستعارة إخبار عن نفاذ قدرته تعالى، لتعلّقها به تعلُّقًا تنجيزيًّا

وتقرير هذه الاستعارة التمثيلية أنْ يُقال: شبَّه سرعة تأثير قدرته ونفاذها فيما يريده، بأمر المطاع للمطيع، في حصول المأمور به، من غير امتناع ولا توقُّف، وحينئذ فمعنى أن يقول له: كن، أن تتعلق به قدرته تعلُّقًا تنجيزيًّا؛ فإذا أراد شيئًا وُجِدَ من غير إبطاءٍ ولا تأخير[2].

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

ولد وغلام:

ذكر الولد هنا في قوله تعالى: ﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ﴾، وقال تعالى في سورة مريم: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾﴾ [مريم: 19].

وصفُ الحدث الواحد من مشاهد مختلفة يكمِّل بعضُها بعضًا

ما في سورة آل عمران حكايةُ معنى قول مريم عليها السلام وما في سورة مريم بِشارة المَلَك، فجاء اللفظُ المناسبُ مع البشارة بالبقاء، فلمَّا بشَّر مريمَ بعيسى؛ قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [آل عمران: 45]؛ فجاء ردُّها: ﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي

(1) الرضي، تلخيص البيان: 2/191.
(2) الصاوي، حاشية على تفسير الجلالين: ص 1580.

وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ﴾ وقد سبق بقوله: ﴿بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ﴾، والكلمة أعمُّ من (الغلام)، وقد جاء الاستفهام منها بكلمة ﴿وَلَدٌ﴾؛ لأنَّ الولد يُطلق على الذكر والأنثى، وولادة الولد هنا من غير مسٍّ بشر؛ أي من غير اجتماع الأسباب المعهودة للولادة من الأبوين، ولذلك كان الجواب لها من الله تعالى: ﴿قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ﴾، وأمَّا الذي في سورة مريم: ﴿قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ﴾ [مريم: 20]، فقولٌ ردَّت به من قبيل المشاكلة اللفظية على الرسول الذي ذكر لها الغلام في أثناء كلامه: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾﴾ [مريم: 19]، وليس سؤالاً منها لله تعالى، ولذلك أجاب الملك: ﴿قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ﴾ [مريم: 21]، والوجه الجامع بين الموضعين وصف البشارة من كلِّ وجهٍ؛ ابتداءً واستمرارًا.

يخلق، ويفعل، ويُنشئ، ويصنع:

التَّعبير بالخلق دلالـــة تـفـرُّد الخالق بالإبداع

عبَّر القرآن الكريم في جانب زكريا عليه السلام بقوله: ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿٤٠﴾﴾ [آل عمران: 40]، وهنا عبَّر بقوله: ﴿قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾؛ لأنَّهُ إيجادُ كائنٍ مِن غَيْرِ الأسْبابِ المُعْتادَةِ لِإيجادِ مِثْلِهِ، فَهو خَلْقٌ أُنُفٌ غَيْرُ ناشِئٍ عَنْ أسْبابِ إيجادِ النّاسِ، فَكانَ لِفِعْلِ "يَخْلُقُ" هُنا مَوْقِعٌ مُتَعَيِّنٌ، فَإنَّ الصّانِعَ إذا صَنَعَ شَيْئًا مِن مَوادَّ مُعْتادَةٍ وصَنْعَةٍ مُعْتادَةٍ، لا يَقُولُ خَلَقْتُ وإنَّما يَقُولُ صَنَعْتُ[1]. و"للإشارة إلى أنَّ إيجاد ولد من شيخين عجوزين، ليس كإيجاد ولدٍ من أمٍّ فقط بلا أب، فكان الخلق والإبداع أنسبَ بعيسى من يحيى؛ ولذلك عقَّبه ببيان كيفية الخلق، فقال: ﴿إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾﴾، والمراد بالأمر هنا الأمر التكوينيُّ، لا الأمر التكليفيُّ"[2]. قال الراغب: " فإن قيل: لم قال ها هنا: ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ وفي قصة زكريا: ﴿يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿٤٠﴾﴾ [آل عمران: 40]؟ قيل: لمّا كان الخلق أخصّ من الفعل خصّه[3]، بما هو إبداع"[4]؛ لكونه

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/249.
(2) حجازي: التفسير الواضح 1/88.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/248.
(4) الراغب، تفسير الراغب: 2/569.

إيجادًا لكائن من غير الأسباب المعتادة لإيجاد مثله، لذلك كان "الخلقُ المنبئُ عن الإحداثِ للمكوّن أنسبَ بهذا المقام لئلَّا يبقى لمبطلٍ شبهةٌ"[1].

الخلق إنشاءٌ على غير مثال سابق، والصُّنع يكون من موادّ معتادة

قال أبو زهرة: "وكلمة ﴿يَخْلُقُ﴾ غير (يُنشئ)؛ لأنّ الخلقَ إنشاءٌ على غير مثال سبق، فالتعبير بـ﴿يَخْلُقُ﴾ يفيد الإبداع، وأنه منهاج في التكوين يخالف منهاج غيره في التكوين"[2].

(1) القاسمي، محاسن التأويل: 2/319.
(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 3/1225.

﴿وَيُعَلِّمُهُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ ٤٨﴾ [آل عمران: 48]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الآية معطوفة على قوله: ﴿يُبَشِّرُكِ﴾ [آل عمران: 45]، والآية السَّابقة اعتراض بينهما، وفيه مسارعة إلى إجابتها عمّا شَغَل قلبها، وفيه لطفٌ من اللّه بأوليائه ورحمةٌ بعباده، فلمَّا أجابها إلى ما شَغل قلبها من العَجَب؛ عاد إلى إكمال البِشارة[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾: الجذر اللغوي للكلمة هو: (كتب)، وهو أَصْلٌ صَحِيحٌ وَاحِدٌ يَدُلُّ عَلَى جَمْعِ شَيْءٍ إِلَى شَيْءٍ، ويُقَالُ: كَتَبْتُ الْكِتَابَ أَكْتُبُهُ كَتْبًا، وَيَقُولُونَ: كَتَبْتُ الْبَغْلَةَ، إِذَا جَمَعْتُ شُفْرَيْ رَحِمِهَا بِحَلْقَةٍ، وكتَب الكتاب يكتُبه، واكتتبه لنفسه: انتسخه[2]، والكتابةُ ضمُّ الحروف بعضها إلى بعض بالخطِّ، وقد يقال ذلك: للمضموم بعضها إلى بعض باللفظ، فالأصل في الكتابة النَّظمُ بالخطّ، لكن يُستعار كُلُّ واحدٍ للآخر؛ ولهذا سُمِّيَ كلام اللّه؛ وإن لم يُكتب كتابًا[3]، وكلُّ ما هو من هذا التركيب في القرآن الكريم فهو من الكتابة بالمعنى المشهور، سوى ما أريد به كتب اللّه المنزلة، أو بمعنى الفرض، أو القضاء بأمر[4].

2) ﴿وَٱلۡحِكۡمَةَ﴾: الجذر اللغويُّ للكلمة هو: (حَكَم)، أَصْلٌ وَاحِدٌ، يدلُّ على الْمَنْعِ، وَالْحِكْمَةُ هَذَا قِيَاسُهَا؛ لِأَنَّهَا تَمْنَعُ مِنَ الْجَهْلِ، والحِكمةُ: مَرْجِعُها إلى العَدْل والعِلْم والحِلْم، ويقال: أَحْكَمَتْه التَّجارِبُ؛ إذا كانَ حكيمًا[5]، والكلمة من الْحِكْمَة الَّتِي جَاءَت فِي الْخَبَر: «الْحِكْمَة ضَالَّة الْمُؤمن»[6]، هي كلُّ كلمةٍ وَعَظَتْكَ، وَزَجَرَتْكَ، وَدَعَتْكَ إِلَى مَكْرمَة، أَو نَهَتْكَ عَن قَبِيح؛ فَهِيَ حِكْمَة[7].

(1) البقاعي، نظم الدرر: 4/401.
(2) الزمخشريُّ، أساس البَلاَغة: (كتب).
(3) الراغب، المفردات، (كتب).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل، (كتب).
(5) الخليل، العَين، وابن فارس، مقاييس اللغة: (حكم).
(6) رواه الترمذي، الحديث رقم: (2687)، وابن ماجه، الحديث رقم: (4169).
(7) ابن دريد، جمهرة اللُّغة: (حكم).

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

ومن عطايا اللّهِ ومواهبِه لعيسى عليه السلام ما يؤهِّله للنُّبوَّة، فهو يُعلِّمُه الكِتابةَ أو الكتبَ السَّماوية التي نزلت قبله، ويعلِّمه السَّداد في القول والفِعْل، ويُعلِّمه التَّوراة التي أنزلها على موسى عليه السلام، ويعلمه الإنجيل الذي سينزله رسالةً عليه، وذلك كلُّه مِمَّا أحاطه اللّهُ به من الحَفاوة، والمِنَّةِ العظيمة؛ ولزيادة إيناس أمِّه مريمَ بموهوبها الذي بشَّرتها الملائكةُ به[1].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

بيانُ الخلاف في وصل الآية وفصلها:

الظاهر في جملة ﴿وَيُعَلِّمُهُ﴾، أنّها معطوفة على جملة: ﴿وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلْمَهْدِ﴾ بعد انتهاء الاعتراض[2]. وأجاز الزمخشري[3] أن يكون: ﴿وَيُعَلِّمُهُ﴾ كلامًا مستأنفًا، واعترض أبو حيان بأنه عنى أنه استئناف إخبار، فثبوت الواو ينفيه؛ لأنها تقتضي العطف[4]. ووافق البسيلي الزمخشريَّ بقوله: " وقد ذكر غير واحد أنه يصح وقوع الواو في ابتداء الكلام من غير عطف، بل ذكر ابن التلمساني في باب القياس: أن الفاء يصح وقوعها في ابتداء الكلام. وقال القرافي في (شرح المحصول): نقل سيف الدين عن جماعة أن الواو ترِدُ للاستئناف. كقوله تعالى: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ﴾ [آل عمران: 7] "[5].

الجملة عطفٌ، ويجوز فيها الاستئناف حَمْلًا على مواطن أخرى

دلالة المضارع في ﴿وَيُعَلِّمُهُ﴾:

في دلالة المضارع على التجدُّد والحدوث؛ إشارةٌ إلى ضرورة السَّعي الدائب المستمرِّ في طلب العلم، وتحصيله والعمل به؛ وتتَّسق

التَّدرُّج في التَّعلُّم على مدى الحياة ضامنٌ لرسوخ العلم وتوافقه وانسجامه؛ إيمانًا وقناعةً وتطبيقًا

(1) ابن جرير، جامع البيان: 5/416، والآلوسي، روح المعاني: 2/159، ونخبة من العلماء، التفسير الميسر، ص: 56.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/249.
(3) الزمخشري، الكشاف: 1/364.
(4) أبو حيَّان، البحر المُحِيط: 3/159.
(5) البسيلي، التقييد الكبير: ص 543.

دلالة الفعل المضارع من خلال ذكر مراحل جريان الكلمة على لسان - عيسى عليه السلام - فقد كان يكلِّم النَّاس في المهد رضيعًا، وكهلًا نبيًّا مرسلًا، ثمَّ يكلِّم النَّاس كَهلًا منزَّلًا من السَّماء في آخر الزَّمان.

الالتفات من الغيبة إلى التكلُّم على قراءة: ﴿وَنُعَلِّمُهُ﴾:

الاهتمام بالعلم والتَّعلُّم وتعظيم قدره

قرأ نافع وعاصم وأبوجعفر ويعقوب: ﴿وَيُعَلِّمُهُ﴾ بالتحتيَّة، أي: يعلِّمه الله، وقرأه الباقون بنون العظمة[1]، وأمَّا بالنُّون؛ ففيه التفاتٌ وإيذانٌ بأنَّ هذه الكرامة مِن المِنَحِ التي توجب أن يعظَّم موليها[2]، وخرج من ضمير الغيبة إلى ضمير التكلُّم؛ لما في ذلك من الفخامة[3].

بلاغة إسناد فعل التعليم اليه تعالى:

الفعل من باب الإعلام، وهو خاصٌّ بالأنبياء

قوله تعالى: ﴿وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾، أي: يصيرّه عالمًا بذلك. وأطلق على الأنبياء، وجعل خاصا بهم دون العلم، فلم يقل: (ويَعْلَمُ)؛ لسببين: أحدهما: أن ذلك تشريف لهم واعتناء بهم؛ لأنَّ الإقبال بالتعليم للشخص؛ اعتناءٌ به. والثاني: أن هذا من باب العلم التكميلي؛ لأنَّ العلوم الضرورية لَا يحتاج فيها الإنسان إلى تعليم، فلو قيل: (ويَعْلَمُ) لدخل فيه الضروريُّ فيكون تحصيل الحاصل[4].

بلاغة تعدُّد المفاعيل وسرُّ ترتيبها:

تعدُّدُ الموهوب دليلُ المغايرة، فكلُّ عطاءٍ قائمٌ برأسه

إذا تعدَّدت العطايا الإلهيَّة؛ أبانت عن قدر المعطي، ومكانة الموهوب، وقد جاءت في قوله: ﴿ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾ متعددةً متعاطفةً؛ بيانًا للمغايرة؛ فمع كثرتها إلَّا أنَّ كلَّ عطاءٍ قائمٌ برأسه. وهو عليه السلام حريٌّ أن يُعطاها كلَّها.

وفي ترتيبها على هذا النحو إظهارٌ للعناية الإلهيَّة، والرِّعاية الرَّبَّانيَّة بأنبياء الله ورسله، واللَّام في ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ على الرَّاجح: لام

(1) ابن الجزري، النشر: 2/240.
(2) الطِّيبِي: فتوح الغيب: 4/110.
(3) أبو حيَّان، البحر المُحيط: 3/159.
(4) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/356.

الجنس، والمراد كلُّ الكتب المنزلة من قبل عيسى عليه السلام، ثم الكتاب الخاصُّ ببني إسرائيل، ثم الكتاب الخاصُّ بأمَّته، ويمكن أن يكون ﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾ كناية عن كتاب الخلق؛ لأنَّه كان يخلق من الطين كهيئة الطير فينفخ فيها فتكون طيراً بإذن الله.

وجه الترتيب التدرّج من العام إلى الخاص

والحكمة: العلم الصحيح الذي يبعث الإرادة إلى العمل النافع، ويقف بالعامل على الصراط المستقيم لما فيه من البصيرة وفقه الأحكام وأسرار المسائل[1]، وهي الفقه وقضاء النَّبيين[2]، والعلم بسننهم، وبما شرعوه من الدِّين، وبالصَّواب في القول والعمل وبالعقل وبأنواع العلم، فالحكمة أخصُّ من العلم، ﴿وَٱلتَّوۡرَىٰةَ﴾: كتاب موسى، و﴿وَٱلۡإِنجِيلَ﴾: ما أوحي إليه نفسه، وذِكر الإنجيل لمريم، وهو لم ينزل بعد؛ لأنَّه كان كتابًا مذكورًا عند الأنبياء والعلماء، وأنَّه سينزل[3].

وجه الترتيب الأوليّة، وسبق الحصول

قال البسيلي: " وقدّم ﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾؛ لأنّ أول ما يتعلّم الصغير الكتابة ثم الحكمة: وقدّم ﴿وَٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ﴾ على الرسالة؛ لأن كونه رسولًا لا ينافي بأن يكون قبل ذلك نبيًّا يُنَزَّلُ عليه ثم أرسل"[4].

وجهُ عطف التوراة والإنجيل على الكتاب:

وجه تخصيص التوراة والإنجيل بالذكر تفضيلُ الكتابين

وذكر الكتاب، ثم عطف عليه التوراة والإنجيل، وهما من جملة الكتاب؛ لأنّه عنى بالكتاب القراءة والكتابة، وعُلِّم تعليمًا إلهيًّا في حال الطفولة، وقيل: عنى بالكتاب كتب الله المنزلة، وخصَّص التوراة والإنجيل كتخصيص ذكر جبريل وميكائيل بعد الملائكة تفضيلًا لهم[5].

(1) رضا، تفسير المنار: 3/255.
(2) ابن الجوزي، زاد المَسِير: 1/284. والقاسميُّ، محاسن التأويل: 3/158.
(3) أبو حيَّان، البحر المُحِيط: 3/159.
(4) البسيلي: التقييد الكبير: ص 542 - 543.
(5) الراغب، تفسير الراغب: 2/572.

﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَنِّي قَدۡ جِئۡتُكُم بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ أَنِّيٓ أَخۡلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيۡرَۢا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ وَأُبۡرِئُ ٱلۡأَكۡمَهَ وَٱلۡأَبۡرَصَ وَأُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأۡكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ٤٩﴾ [آل عمران: 49]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا ذكر الكتابَ المنزَّل على عيسى عليه السلام في الآية السابقة؛ حَسُنَ ذِكْرُ الرِّسالة على القول بأن الرَّسول بمعنى: الرِّسالة، فقال بعد ما أفاد عظمتها بجعله ما مضى مقدِّمات لها: ﴿وَرَسُولًا﴾؛ فكأنَّ ما مضى من الآياتِ كانت تمهيدًا لهذه الرسالة، فلقد كانت الغاية الَّتي أُعِدَّ لأجلها[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿كَهَيۡـَٔةِ﴾: جذر الكلمة: (هَيَأ)، فهو مهيَّأ لكذا، ومتهيِّئ له، وهيَّأته، فتهيَّأ، وما أحسن هيئته، وهيئاتهم! ورجل هيِّئٌ: ذو هيئة[2]، الْهَيْئَةُ: هِيَ الْحَالَةُ الظَّاهِرَةُ لِلْمُتَهَيِّئِ لِلشَّيءِ، والحالة التي يكون عليها الشيء، محسوسةً كانت أو معقولة، لكن في المحسوس أكثر، وهاءَ للأمر كباعَ: أخذ له هيئتَه، ومن هذا أو من الشوق وهو أقرب: ﴿هَيۡتَ لَكَۚ﴾ [يوسف: 23] على قراءتها بضم التاء وكسر الهاء - مع الهمز أو التخفيف - أمَّا على القراءة بفتح الهاء والتاء بينهما ياء ساكنة فهي اسم فعل أمر بمعنى أَسْرِع، وهاءُ: كلمةٌ تستعمل عند المناولة، نُقِلت من طلب الاستعداد إلى طلب الأخذ، ومنه قوله تعالى: ﴿فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقۡرَءُواْ كِتَٰبِيَهۡ ١٩﴾ [الحاقة: 19][3].

2) ﴿وَأُبۡرِئُ﴾: جذر الكلمة هو: (برأ)، وله أَصْلَانِ يرْجِعُ إِلَيْهِمَا فُرُوعُ الْبَابِ: أَحَدُهُمَا

(1) البقاعي، نظم الدرر: 4/402.
(2) الزَّمخشريُّ، أساس البَلاَغة: (هيأ).
(3) الراغب، المفردات (هيأ)، وأبو حيان، البحر المحيط: 5/294، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (هيأ).

الْخَلْقُ، يُقَالُ: بَرَأَ اللهُ الْخَلْقَ يَبْرَؤُهُمْ بَرْءًا، وَالْبَارِئُ من أسماء اللَّهِ جَلَّ ثَنَاؤُهُ. قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ﴾ [الحشر: 24] وَالْأَصْلُ الْآخَرُ: التَّبَاعُدُ مِنَ الشَّيْءِ وَمُزَايَلَتُهُ، ومِنْ ذَلِكَ الْبُرْءُ وَهُوَ السَّلَامَةُ مِنَ السُّقْمِ، وبرَّأته: صحَّحت براءته، قال تعالى: ﴿فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْ﴾ [الأحزاب: 69]. واستبرأتُ أرضَ بني فلان: ما وجدت فيها ضالَّتي، واستبرأ من بوله؛ إذا استنزه، وفلان بارئ من عِلَّته[1]. والمعنى هنا: وأَشْفي.

3) ﴿ٱلْأَكْمَهَ﴾: جذر الكلمة هو: (كَمَه)، الأعمى، أو الذي ولد أعمى[2]، وفي (الأكمه) أربعة أقوال: أحدها: أنَّه الذي يُولد أعمى، والثاني: أنَّه الأعمى، والثالث: أنَّه الأعمش، والرابع: أنَّه الذي يبصر بالنهار، ولا يبصر بالليل[3]، ومن المجاز: هو في عمهٍ وكمهٍ: في ضلال وعمًى، وخرج يتعمَّه، ويتكمَّه، أي: يذهب متحيِّرًا ضالًّا، لا يدري أين يتوجَّه[4].

4) ﴿وَٱلْأَبْرَصَ﴾: جَذرُ الكلمة: هو (بَرَص)، أَصْلٌ وَاحِدٌ، وَهُوَ أَنْ يَكُونَ فِي الشَّيْءِ لُمْعَةٌ تُخَالِفُ سَائِرَ لَوْنِهِ، والبَرَصُ: داءٌ، والبَرَصُ: بَيَاض يَقع فِي الْجلد مَعْرُوف، وحيَّة برصاء: فِي جلدهَا لمع بَيَاض[5]، والأبرص المصاب بداء البرص، وهو داءٌ جلديٌّ له مظاهر متنوِّعة، ويقال: كانَ بيده بَرَص، قال تعالى: ﴿تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾ [طه: 22][6]، وأعرَاضُ البَرَصِ: بُقَعٌ بيضاء شديدة البَيَاض تظهر على الجلد، فإنْ كانت غائرة في الجلد؛ فهو البَرَصُ، وإن كانت مساوية لسطح الجلدِ؛ فهو البهاق، ثمَّ تنتشر على الجِلد، فربَّما عمَّت الجلد كلَّه حتى يصير أبيض[7].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

تبيِّن الآيةُ الكريمةُ المعجزاتِ النَّبويَّةَ الدالَّةَ على أنَّ - عيسى عليه السلام - رسولٌ إلى بني إسرائيل، وأنَّها آياتٌ حسِّيَّة - تدلُّ على أنَّه مرسل من الله - لا علامة واحدة، وهي كما أخبر، المعجزة الأُولى: أني أصنعُ لكم من الطين مثلَ شَكْلِ الطير، فأنفخ فيه فيكون طيرًا

(1) ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، وابن سيده، المُحكم، والراغب، المفردات، والزَّمخشري، أساس البَلاَغة: (برأ).
(2) الخليل، العَين: (كمه).
(3) ابنُ الجوزيِّ، زاد المَسِير: 1/284.
(4) الزَّمخشري، أساس البَلاَغة: (كمه).
(5) ابن دريد، جمهرة اللُّغة، وابن فارس، مقاييس اللغة: (برص).
(6) الخليل، العَين: (برص).
(7) ابنُ عَاشُور، التَّحريرُ والتَّنوير: 3/251.

حقيقيًّا بإذن الله، والمعجزة الثانية: وأَشفي من الأمراض المُزْمنة كمَن وُلِد أعمى، ومَن به بَرَص، والمعجزة الثالثة: وأُحيي مَن كان ميتًا بإذن الله، والمعجزة الرابعة: وأخبركم بما تأكلون وتدَّخرون في بيوتكم من طعامكم. إنَّ في هذه الأمور العظيمة التي ليست في قدرة البشر لدليلًا على أنِّي نبيُّ الله ورسوله، إن كنتم مصدِّقين حُججَ الله وآياتِه، مقرِّين بتوحيده[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغة الحذف في قوله: ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾:

الحذف تغزير للمعنى، وتكثير للوجوه

فتح الحذف بابًا من الوجوه وعلى كلِّ وَجْهٍ يَرِدُ معنًى، والمعاني كلُّها متعانقة، فالرسم واحد، والمعنى متعدِّد، ففي هذه الآية وجوه:

الأول: تقدير الآية: ويعلِّمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل، ويبعثه رَسُولًا إلى بني إسرائيل قائلًا: ﴿أَنِّي قَدۡ جِئۡتُكُم بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾، والحذف حسن؛ إذا لم يفضِ إلى الاشتباه. الثاني: قال الأخفش: إن شئت؛ جعلت (الواو) زائدة، والتقدير: ويعلِّمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل رَسُولًا إلى بني إسرائيل، قائلًا: ﴿أَنِّي قَدۡ جِئۡتُكُم بِـَٔايَةٖ﴾[2]، وقال الزجَّاج: تقديره: (وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ رَسُولًا)، وإنَّما أضمرنا ذلك لقوله: ﴿أَنِّي قَدۡ جِئۡتُكُم﴾، والمعنى: ويكلِّمهم رَسُولًا: بأنِّي قد جئتكم. الثالث: ويمكن أن يكون معطوفًا على قوله: ﴿وَكَهۡلٗا﴾، أي: وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ (طفلًا - وكَهلًا - ورَسُولًا) إلى بني إسرائيل؛ قاله ابن عطية[3]، والوجوه كلُّها تتكامل، وتتلاقى، وفي الحذف إيجازٌ واختصارٌ، وعنايةٌ بالمخاطب، وإلاحةٌ إلى تدبُّر المعاني.

لفظ ﴿وَرَسُولًا﴾ في هذا الموقع يحتمل: أن يكون وصفًا، بمعنى:

(1) نخبة من العلماء، التفسير الميسر، ص: 56.
(2) الرَّازي، مفاتيح الغَيب: 8/48.
(3) أبو حيَّان، البحر المُحيط: 3/161.

اسم المفعول، أو أن يكون مصدرًا؛ وبيان ذلك أنَّه يمكن أن يكون وصفًا، بمعنى: المُرسل على ظاهر ما يُفهم منه، أي: مرسلٌ إلى بني إسرائيل. أو هو مصدر، بمعنى: رِسَالة؛ إذ قد ثبت أنَّ رَسُولًا يكون، بمعنى: رسالةً، ومِمَّن جوَّزَ ذلك فيه هنا: الحوفيُّ وأبو البقاء، وقالا: هو معطوف على الكتاب، أي: ويعلِّمه رسالةً إلى بني إسرائيل، فتكون رسالة داخلةً فيما يعلِّمه الله لعيسى. وأجاز أبو البقاء في هذا الوجه أن يكون مصدرًا في موضع الحال[1].

وجه انتفاء لفظ الرسول في الجملة

علّة اختصاص بني إسرائيل بالذكر:

وذكرَ بني إسرائيل خاصّة مع أنَّ دعوته كانت تعمّ كل الذين عَلِموها من اليهود والرومان وغيرهم؛ حتى يجيء من السماء ما ينسخها أو يكملها برسالة عامة خالدة هي رسالة محمد بن عبد الله ﷺ؛ والسبب في اختصاص بني إسرائيل بالذكر أنهم هم الذين خرج عيسى من بينهم، فهو منهم، وقد كانوا يدَّعون أنهم أولى الناس بعلم الرسائل الإلهية، وكانت دعوته بينهم، وانبعثت منهم إلى غيرهم، فكان تخصيصُهم بالذِّكر، فيه إشارة إلى حقيقة واقعة وتوبيخ لهم؛ لأنهم أوتوا العلم برسالات الأنبياء، مع ذلك كفروا برسولٍ مبعوث منهم، أوتي بمعجزات لَا تجعل للعقل مساغًا لإنكار[2].

اختصَّ بني إسرائيل بالذِّكر لكون عيسى خرج من بينهم؛ وفيه توبيخ لهم

بلاغة التعبير بمقول القول على طريق التوكيد:

جاء قوله: ﴿أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ مشحونًا بالتوكيد، فأكِّد بـ (أنَّ) واسميَّة الجملة، و(قد) الداخلة على الماضي؛ ليفيد تخصيص الخبر به عليه السلام، وتأكيد تحقّقه بالتعبير عن المستقبل بالفعل الماضي فالظاهر أنَّ الحدث والمجيء بالآيات يُقصد به المستقبل على قول من قال: إنَّ ذلك كان كلامه في المهد، فيكون التعبير بالماضي

معجزاتُ الرُّسُل هي امتدادٌ لأحوالِ أقوامِهم ومَا هُم بَارِعُون فِيه؛ ليكون التَّحدِّي على أعلى درجاته

(1) أبو حيَّان، البحر المُحِيط: 3/160.

(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 3/1228.

مكان المستقبل مع إحاطته بالمؤكِّدات تحقيقًا لحصوله، ويؤكِّد هذا المعنى ما جاء في التَّعبير التفصيلي عن الآيات بصيغة المستقبل: ﴿أَنِّيٓ أَخۡلُقُ﴾.

فائدة حرف الباء في لفظ ﴿بِـَٔايَةٖ﴾:

معنى الباء اقتران المجيء بالآيات، وملابستها بها

قوله: ﴿بِـَٔايَةٖ﴾ متعلقةٌ بمحذوفٍ وقعَ حالاً من فاعل الفعلِ على أنها للملابسة، أي: مصاحبًا للآيات الدَّالَّة على صدقي في هذه الرسالة المعبَّر عنها بفعل ﴿جِئۡتُكُم﴾.

سرّ الإفراد، والتنوين في لفظ ﴿بِـَٔايَةٖ﴾:

إفراد (آية) تعبيرٌ عن وحدة الغرض، والتنوين للتفخيم والدلالة على تعدّدها وكثرتها

عبَّر بالمفرد ﴿بِـَٔايَةٖ﴾، وحقُّه أن يكون للجمع؛ لأنَّ المذكور آيات، لا آية واحدة؛ اعتبارًا بوحدة الغرض والمقصود من الآيات - وإن تعددت - إثبات وحدانية الله تعالى، وألوهيته. ورسّخ التنوينُ هذا الاعتبار؛ إذ أفادَ التفخيم، دون الوحدة لظهور تعدُّدها وكثرتها[1].

فائدة التعبير بـ﴿مِّن﴾:

أدّت (مِن) معنى كينونة الآية من الله تعالى، وملابسة المجيء بها

﴿مِّن﴾ في قولِه تعالَى: ﴿مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ لابتداء الغايةِ مجازا متعلقةٌ بمحذوف وقعَ صفةً لآيةٍ أي قد جئتُكم ملتبساً بآية عظيمةٍ كائنةٍ مّن رَّبّكُمْ أو أتيتكم بآية عظيمة كائنة منه تعالى[2].

سرّ إيثار لفظ الربوبية مضافًا إلى المخاطب:

إيثار لفظ الربوبيّة ليناسب حال الآيات المذكورة بعده، وتأكيد الامتثال لما سيأتي من الأوامر

التعبير بالرُّبوبيَّة ملائم حال المخاطبين، وملائم حال الآيات المذكورة بعد،، وقيَّد مجيء الآية بقوله: ﴿مِّن رَّبِّكُمۡ﴾؛ لما في التعرُّض لعنوان الربوبيَّة ﴿رَّبِّكُمۡ﴾ مع الإضافة إلى ضمير المخاطبين من تأكيد إيجاب الامتثال لما سيأتي من الأوامر، ومواجهة لقومه بضمير الحضور الواثق بالله وحده[3].

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 2/38.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 2/38.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 2/38، والآلوسيُّ، روح المَعَاني: 2/161.

بلاغة كمال الاتصال، ولطائف التراكيب في بسط المعجزة في قوله: ﴿أَنِّيٓ أَخۡلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيۡرَۢا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ﴾:

قوة المعجزة في كونها من الله، وعظمتها في الإذن منه؛ وهي لازمة لتأييد الرسل

وقعت الجملة من سابقتها موقع كمال الاتصال، فهي بمنزلة بدل الجزء من الكلِّ، وهي في التناسب تفصيل بعد إجمال، وفيه من تأكيد المعجزة ما فيه؛ حيث سبق ذكرها ضمنًا في الإجمال، ثم أفردت بالتفصيل، ثم إنَّ النَّصَّ تفصيلًا على كيفيَّة المعجزة فيه بيانٌ لقدرة الله على خلق الشيء بدون أسباب معتادة، فلقد اعتاد الناس على أنَّ الطيور من البيض لا بالتَّوالد، ثم بيّن تفرُّد الجنس الذي خلق منه الطير ﴿مِّنَ ٱلطِّينِ﴾، احترس في قوله: ﴿مِّنَ ٱلطِّينِ﴾؛ تقييدًا بأنَّه لا يوجد من العدم الصرف، بل ذكر المادة التي يشكِّل منها صورة[1]، والتعبير بالتشبيه كشف عن أنَّه ليس من الطريق الأصلي، ثم عطف قوله: ﴿فَأَنفُخُ فِيهِ﴾ بالفاء التي تدلُّ على عدم المهلة، ودخلت الفاء على ضمير المذكر؛ لتعود على الطير، وفي موضع آخر ذكره بضمير المؤنث، ﴿فَتَنفُخُ فِيهَا﴾ [المائدة: 110]؛ لتعود على الهيئة، فعاد النفخ مرَّة على المضاف وأخرى على المضاف إليه، استيفاء للمعجزة من طرفيها، ثم ذكر القيد ﴿بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ﴾؛ لإظهار العبودية، ونفي توهُّم المشاركة في خلق الكائنات.

وفي قوله: ﴿طَيۡرَۢا﴾ بلاغة عالية، فـ﴿طَيۡرَۢا﴾ هنا، معناه: حيًّا طائرًا، لكنَّه عبَّر بالاسم؛ ليسقط الزمن في الطيران، ويتَّجه للحدث في حدِّ ذاته؛ وفيه بيان لقدرة الله وإظهارٌ للمعجزة مع إيجاز بالغ؛ لذا قال: كن طائرًا بإذن الله، فخرج يطير بين كفِّيه.

والعجب في التناسب اللَّطيف بين مَن أُجريت على يده المعجزة، وبين الإعجاز في خلقه هو نفسه: ﴿فَنَفَخۡنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾ [التحريم:

(1) أبو حيَّان، البحر المُحِيط: 3/163.

12]، وقد فصَّل في هذه المعجزة تفصيلاً مبسوطًا؛ لكونها الأقهر، وكأنَّها المعجزة الكبرى، ورأس المعجزات في التأييد، والخلق: حقيقته تقدير شيء بقدر، ومنه خلق الأديم: تقديره بحسب ما يراد من قطعه قبل قطع القطعة منه، قال زهير[1]:

ولأَنْتَ تَفْري ما خَلَقْتَ وبعـ**ضُ القَوْمِ يَخْلُقُ ثمَّ لا يَفْري

يريد: تقدير الأديم قبل قطعه، والقطع: هو الفري، و(خلق) يستعمل مجازًا مشهورًا، أو مشتركًا في الإنشاء والإبداع على غير مثال ولا احتذاء، وفي الإنشاء على مثال يبدع، ويقدر، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ﴾ [الأعراف: 11]، فهو إبداع الشيء وإبرازه للوجود، والخَلْق هنا مستعمل في حقيقته، أي: أقدِّر لكم من الطين ﴿كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ﴾، وليس المراد به خلق الحيوان بدليل قوله: ﴿فَأَنفُخُ فِيهِ﴾[2].

فمعنى: أخلق: أقدِّر، وأهيِّئ، والخلق: إبراز العين من العدم الصرف إلى الوجود، وهذا لا يكون إلا لله تعالى، ويكون بمعنى: التقدير والتصوير؛ ولذلك يسمُّون صانع الأديم ونحوه: الخالق؛ لأنَّه يقدر، وأصله في الأجرام، وقد نقلوه إلى المعاني، قال تعالى: ﴿وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا﴾ [العنكبوت: 17]، ومِمَّا جاء الخلق فيه - بمعنى: التقدير - قوله تعالى: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾﴾ [المؤمنون: 14]، أي: المُقَدِّرين[3].

بلاغة الإيجاز في معجزتي الشفاء:

تخصيص هذين الأمرين - لبيان عجز الأطباء مع حذقهم - آيةٌ كبرى

في قوله تعالى: ﴿وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ﴾ أوجز القرآن ذكر هاتين المعجزتين، ووضعهما خاليين من القيد المذكور في المعجزة الأولى والرابعة، فاكتفى بإيقاع معنى القيد بالعطف؛ استدلالاً بما ذكر مع ما قبلهما، وما بعدهما، وقدّم أعجزهما للطبِّ أولًا؛ لكونه أظهر في الكشف عَنْ عَجْزِ ما حذقَهُ أَهْلُ زمانه، وأتبعه بما هو أقلُّ منه ظهورًا في الإعجاز.

(1) ابن طَبَاطِبَا، عِيَارُ الشِّعر: 177، والجرجاني، دلائل الإعجاز: 114.
(2) ابنُ عَاشُور، التَّحريرُ والتَّنوير: 3/250.
(3) أبو حيَّان، البحر المُحِيط: 3/163.

بلاغة تقييد معجزة الإحياء بالإذن:

الإحـيـاءُ فعلٌ إلـهـيٌّ خـارق عظيم ليس من جـنـس أفـعـال البشر

جاءت المعجزة في قوله تعالى: ﴿وَأُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ﴾ معطوفة على ما قبلها ﴿أَنِّيٓ أَخۡلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيۡرَۢا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ﴾، ولم تُبْنَ على البسط كالمعجزة الأولى، فلم تتضمَّن كيفيَّة الإحياء، كما تضمَّنت الأولى كيفيَّة الخلق؛ ولأنَّه إحياءٌ مِن موتٍ ذُكِرَ القَيْدُ ﴿بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ﴾، كما فعل في الأول؛ لأنَّه فعلٌ إلهيٌّ خارق عظيم ليس من جنس أفعال البشر، وكان إحياؤه بالدُّعاء، ولم يذكر هذا القيد مع معجزتي إبراء الأكمه والأبرص؛ لكون التطبيب من جنس أعمال البشر. قال الراغب: " إن قيل: لِمَ ذكر في الخلق وفي إحياء الموتى ﴿بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ﴾. ولم يُذكر في غيرهما؟ قيل: لكون هذين الفعلين إلهيّين، لم يجعل للمخلوقين إليهما سبيلًا. بخلاف النفخ والمداواة والإخبار ببعض الغيب، فقد جعل للإنسان كثيرًا من المداواة، وجعل لهم شيئًا من الإخبار بالغيب كالفِراسة"[1].

بلاغة تكرار إذن الله تعالى:

كرَّر قوله: ﴿بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ﴾ مبالغةً في دفع وَهْمِ مَنْ توهّم فيه اللَّاهوتية؛ فإحياءُ المَوْتى بِإِذْنِ اللَّهِ تعالى وحده لا باستقلالٍ منه[2]. فتكرارُ الإذن مبالغةٌ في نفي توهّم الألوهية فيه عليه السلام.

بلاغة المتشابه اللفظي:

التكرار في الآيتين يـنـاسـب شـدّة سياقها، وحال المخاطبين

كرر لفظه: ﴿بِإِذۡنِي﴾ [المائدة: 110] في المائدة أربع مرات، وهنا مرتين؛ لما كان في سورة المائدة في معرض تعداد النعم، والامتنان من الله تعالى على عيسى، فناسب تقييد الجمع فيها، بقوله: ﴿بِإِذۡنِي﴾ [المائدة: 110] إِظْهَارًا لعجز الْبشر وَلِأَن فعل العَبْد مَخْلُوق لله تَعَالَى، مع ما فيه من إشارة إلى توبيخ النصارى في زعمهم: ﴿ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ

(1) الراغب، تفسير الراغب: 2/574، وابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/358 - 359.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 2/39، القاسمي، محاسن التأويل: 2/320.

﴿ثَلَٰثَةٍ﴾ [المائدة: 73]، وأن عيسى ابن الله إلى غير ذلك، كما يقول: أحدنا لغيره ألم أفعل لك كذا؟ ألم أُعْطِك كذا؟ ويعدِّد عليه نعمًا ثم يقول: أفعلَ لك ذلك غيري؟ فإذا اعترف به العبد انقطعت حُجَّةُ مَن ظَنَّ خِلَافه، فأعلمَ الله أن تلك الأمور بإذنه، وكرَّر ذلك تأكيدًا لِدَفْع توهّمِ حولٍ أو قوّةٍ لغير الله، قال: وآية آل عمران إنما هي بشارةٌ لمريم، وإعلامٌ بما منح ابنها عيسى فقط؛ لأنَّ مَا فِي هَذِه السُّورَة كَلَام عِيسَى فَمَا يتَصَوَّر أَن يكون من فعل الْبشر أضافه إلى نَفْسِه[1].

بلاغة التّعبير عن الإنباء، والإدّخار بالمضارع:

وجاءت الأفعال في قوله: ﴿وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ﴾ بالفعل المضارع الدال على التجدُّد والحدوث؛ لبيان أنَّ ذلك لا يقع مرَّة واحدة، وإنَّما هو أمر متكرِّر متجدِّد، وحالةٌ دائمة[2]. تأمَّل: لو قيل: وأنبأتكم، لكن المضارع دالٌّ على التجدُّد والحدوث مع ما فيه من استحضار الحدث، وقل: مثل ذلك في ﴿تَأْكُلُونَ﴾، و﴿تَدَّخِرُونَ﴾، وجاء بالاسم الموصول (ما) مع الفعلين؛ ليتوصَّل به إلى ذكر الصِّلة؛ لكونها عين المعجزة.

التعبير بالمضارع؛ لبيان أنَّ ذلك لا يقع مرَّة واحدة، وإنَّما هو أمر متكرِّر متجدِّد

قصديّة التعبير بالبيوت دون الدُّور:

ثم قيَّد الفعلين بقوله: ﴿فِي بُيُوتِكُمْ﴾، ولم يقل: في دُوركم، ولا مساكنكم؛ لأنَّ البيوت آكد في الاستتار والخفاء، وفي كلٍّ ذلك تعظيم لمعجزة العلم بالغيب، ف البيوت آكد في الاستتار والخفاء، وهو يناسب معجزة العلم بالغيب.

بلاغة جُملتَي التذييل:

ظاهر جملة: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾، "أنَّها من كلام عيسى؛ لاحتفافها بكلامه من قبلها، ومن بعدها؛ حكاه

معنى التذييل في الجملتين التوبيخ، والتقريع

(1) الكرماني، البرهان في توجيه متشابه القرآن: ص 90، وابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/358.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/166.

الله عنه، وقيل: هو من كلام الله تعالى، استئناف؛ صيغته صيغة الخبر، ومعناه: التوبيخ والتقريع، وأُشير بذلك إلى ما تقدَّم من جعل الطِّين طائرًا، والإبراء والإحياء والإنباء"[1].

التّوكيد دليلُ قوّة المعجزة، واختصاصها بهم، مع احتمال معنى سفه عقولهم

وقد جاء التذييل في جملتين: الأولى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ﴾، والثانية: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾، والجملة الأولى جاءت مؤكَّدة بـ﴿إِنَّ﴾ واسميَّة الجملة، وتضمَّنت اسم إشارة للبعيد ﴿ذَٰلِكَ﴾؛ تعظيمًا لشأن المعجزات المذكورة، وختم بما بدأ به؛ إذ عبَّر في الأولى ﴿قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ﴾ مفردًا، وختم بما بدأ به ﴿لَآيَةً﴾؛ لكونها تحقِّق غرضًا واحدًا، فالغرض من المعجزات - مهما تعدَّدت - الوصول إلى الإيمان.

والجملة الثانية جاءت شرطيَّة، قُيِّد الفعلُ فيها بـ ﴿إِن﴾ الدَّالَّة على احتمال وقوع مدخولها، وحذف جواب الشرط، وتقديره: فاعتبروا، أو فآمِنوا، وفيه توبيخٌ لهم وتقريع؛ لكون الآيات قاهرةً للعقول، فجعل الإيمان معها محتملًا دلالةً على سفه العقول، كما أنَّ الأصل: إن كنتم تريدون الإيمان، لكنَّه عبَّر بالاسم؛ إلاحةً لقوَّة المعجزة التي إن تأمَّلها العقلُ المنصف؛ أنتجَتْ إيمانًا ثابتًا.

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(أبرئ) و(أشفي):

من خصائص المعجزات أن تتجاوز حدود الإمكانات والخبرات البشريَّة

في قوله تعالى: ﴿وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ﴾، والإبراء فيه معنى الاستنزاه من العلَّة وإذهاب هذه الأمراض الجلدية تمامًا، أمَّا الإشفاء فيكونُ باستعمال دواء بُغْية الإبراء، وشفاه ممَّا به: أبرأه، وشفاه، وأشفاه: طلب له الشِّفاء، واشفني عسلًا: اجعله لي شفاء، واستشفى: طلب الشفاء، واستشفى: نال الشفاء[2]، فكان عيسى عليه السلام

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/167.
(2) ابن سيده، المُحكم: 8/104.

يُبرئ الأكمه والأبرص بلا واسطة الدّواء، بل كان يمسح على العلَّة، فيُبرِئها، ولو استعمل مادَّةً؛ لسُمِّي ذلك إشفاءً من المرض أو العلَّة.

الإنباء والإخبار:

الإنباء إخبار عن أمر عظيم الشأن؛ موضوعًا أو شأنًا

عبَّر بالفعل ﴿وَأُنَبِّئُكُم﴾، ولم يقل: (أخبركم)؛ لأنَّ الأول يُستعمل في الأمور الخفية، فهو من عظائم الأمور، والثَّاني يُستعمل في معتاد الأخبار، قال تعالى: ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ۝١ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلۡعَظِيمِ ۝٢﴾ [النبأ: 1، 2]. فالإنباء: "الإخبار بالخبر العظيم، إما لموضوعه، وإما لعظم شأن الإخبار نفسه، والإخبار عن شيء من غير رؤيته، إخبار عظيم في ذات شأنه"[1].

(يأكل) و(يطْعَمُ):

من طبائع بني إسرائيل الحياتيَّة اهتمامهم بالجانب الاقتصادي، وما يستهلكون، وما يدَّخرون

قوله تعالى: ﴿وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأۡكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمۡۚ﴾؛ دلالة الأكل هنا: الأرزاق، والأُكل: الرِّزق، وَالْجمع: آكالٌ، وَمِنْه قيل للمَيِّت: انقَطَع أُكْله، وآكالُ الجُنْدِ، بمعنى: أرزاقهم، إنَّه لَحسَن الأكلة، وهَذَا الشيءُ مَأْكَلَة لَك، بِالْفَتْح، وَلَا يُقَال: مَأْكُلَة، والمَأْكُلة: مَا جُعل لَك من غَيْر أَن تُحاسَب بِهِ[2]، فيظهر من المعنى المعجمي للأكل أنَّه مِمَّا يدخل في قضايا الرِّزق وحسابه؛ ولهذا فقد أورد معها الادِّخار، فقال: ﴿بِمَا تَأۡكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ﴾، أي: بما تستهلكون من أرزاقكم، وما تحفظونه، فتدَّخرونه في بيوتكم، أمَّا الطعام؛ فالطَّعم: التَّذوُّق، طَعْم كُلِّ شيء: وهو ذوقه، وإنَّه ليَطْعم طعْمًا حَسَنًا، وهو حَسَنُ المَطعَم، كما تقول: حَسَنُ المَلْبَس، أي: طَعَامُهُ طيِّبٌ، ولباسُه جميل، وفلان حسن الطِّعْمَةِ كالجِلسة؛ لأنَّه ضَرْبٌ من الفعل، وليس بفَعْلَةٍ واحدة، وكلُّ ما يَسُدُّ جوعًا؛ فهو طَعام، قال

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 3/1231.
(2) ابن سيده، المُخصّص: 1/447.

تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُۥ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ﴾ [المائدة: 96][1]، فيظهر الفرق بين تأكلون، وتطعمون: أنَّ الأكل ما يُحسب اقتصاديًّا، أي: يمكن أن يكون أكل يوم أو أكل شهر؛ وهو ما تستهلكه الأسرة في تلك الفترة، أمَّا الطعام؛ فهو ما يتذوَّقه الإنسان ساعة أكله، ويستمتع به، ويسدُّ جوعَه منه.

(1) الخليل، العَين: (طعم) 2/25.

﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ۚ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۝٥٠﴾ [آل عمران: 50]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

كأنَّ المعنى: قد جئتكم بآية مصدِّقًا، فبعد أن عدّدَ سبحانه المعجزات التي جاء بها عيسى عليه السلام وفصَّل في ذِكرها، بيّن في هذه الآية أنَّ رسالته هي مصدِّقة للتوراة التي جاء بها موسى مبيِّنًا بعض ما جاء به من التشريعات، والتخفيف على بني إسرائيل بأن أحلَّ لهم بعض ما حرّم عليهم.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَمُصَدِّقًا﴾: جذر الكلمة هو: (صَدَق)، والصِّدْق: نَقيض الكذب، سُمِّيَ بذلِكَ لِقُوَّتِه في نَفْسِه، وَلِأَنَّ الْكَذِبَ لَا قُوَّةَ لَهُ، هُوَ بَاطِلٌ. وَأَصْلُ هَذَا مِنْ قَوْلِهِمْ شَيْءٌ صَدْقٌ، أَيْ صُلْبٌ. ويقال للرجل الجواد، والفرس الجواد: إنَّه لذو مَصْدَقٍ، أي: صادِقُ الحملة، وصَدَقْتَه: قلت له: صِدْقًا، وكذلك من الوعيد، إذا أوقعتهم؛ قلت: صَدَقْتُهم، وهذا رجل صِدقٍ، مضاف، بمعنى: نعم الرجل هو، وامرأة صِدْقٍ، وقوم صِدْقٍ، فإذا نَعَتَّه؛ قلت: هو الرجل الصَّدْقُ، وهي الصَّدْقَةُ، وقوم صَدْقُونَ، ونساء صَدْقاتٌ[1]، والصَّدقُ: الكامل من كُلِّ شيء، والصِّدِّيق: من يُصَدِّقُ بكلِّ أمر الله ونبيِّه، لا يتخالجُه شكٌّ في شيء[2].

والمعنى هنا: مؤمنًا بِأَنَّ جَمِيعَ ما في التوراة حِكْمَةٌ وصَوابٌ.

2) ﴿وَأَطِيعُونِ﴾: جذر الكلمة هو: (طَوَع)، الطَّوْعُ: الانقيادُ[3]، ويُضادُّه الكَرْهُ، قَالَ الله عز وجل: ﴿ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ [فصلت: 11][4]، وأطاع يطيع إطاعة، وأطاع الله: انقاد له، فعل ما

(1) الخليل، العَين، وابن فارس، مقاييس اللغة: (صدق).
(2) الخليل، العَين: (صدق).
(3) الزَّبيديُّ، تاج العروس: (طوع).
(4) الراغب، المفردات، الزَّبيدي، تَاجُ العَرُوس: (طوع).

أمره به، أذعن له، وخضع لإرادته وحكمه، وقوله تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ﴾ [النّساء: 80]، وقوله: ﴿وَيَقُولُونَ طَاعَةٞ﴾ [النّساء: 81]، وقوله: ﴿مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ حَمِيمٖ وَلَا شَفِيعٖ يُطَاعُ ١٨﴾ [غافر: 18].

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

صفات رسالة عيسى عليه السلام

تجلِّي الآيةُ الكريمةُ صفةَ رسالة عيسى عليه السلام بكونه مصدِّقًا لما تقدَّمه من التوراة المُنَزَّلة على موسى، مؤمنًا بما جاءَ فيها ومقرِّرًا لها، وممَّا جئتكم به التخفيفُ إذ أُحِلَّ لكم - بوحي من الله - بعضَ ما حُرِّم عليكم في شريعة موسى عليه السلام كلُحوم الإبلِ والشُّحوم؛ تخفيفًا من الله ورحمة بكم، وجئتكم بآياتٍ من ربكم تعلمون بها صِدْق رسالتي، وأعاد ذكر المعجزاتِ ليكون كلامُه ناجعًا في قلوبهم ومؤثِّرًا في طباعهم، فاتقوا الله ولا تخالفوا أمره، وأطيعوني فيما أبلغكم به عن الله[1].

الإِيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغة الوصل في الآية:

مُعجزات عيسى عليه السلام جاءت تصديقًا للتَّوراة

قوله: ﴿وَمُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ﴾ عطف؛ إمَّا على المضمر الذي تعلَّق به قوله: ﴿بِـَٔايَةٖ﴾، والمعنى: قد جئتكم محتجًّا أو متلبِّسًا بآية، ومصدِّقًا، وإمَّا أن يكون معطوفًا على ﴿وَرَسُولًا﴾ أي: وأرسلت رسولًا ومصدِّقًا، ويجوز أن يكون منصوبًا بفعل دلَّ عليه ﴿قَدۡ جِئۡتُكُم﴾، أي: وجئتكم مصدِّقًا، ومعنى تصديقه للتوراة: الإيمان بها؛ وإن كانت شريعته تخالف في أشياء، قال وهب بن منبه: كان يسبتُ، ويستقبلُ بيت المقدس[2]، وفي التَّصديق تثبيتٌ وتقرير، وكما قال الفخر الرازيُّ: وإنَّما حسن حذف هذه الألفاظ لدلالة الكلام عليها، وعلى كلِّ تقدير يَرِدُ معنًى، وكلُّها تتعانق، لا تتعاند.

(1) ابنُ الجوزيِّ، زاد المَسِير: 1/285، والرازي، مفاتيح الغيب: 8/63، ونخبة من العلماء، التفسير الميسر، ص: 56.

(2) أبو حيَّان، البحر المُحِيط: 3/167.

علَّة دخول اللَّام على المفعول:

المصدِّق في قوله: ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ﴾، المخبرُ بصِدق غيره، وأُدخلت اللّام على المفعول للتقوية؛ للدَّلالة على تصديقٍ مُثبت محقَّق، أي: مصدِّقًا تصديقًا، لا يشوبُه شكٌّ، ولا نِسبةٌ إلى خطأ.

دخول اللَّام على المفعول للتقوية، والدَّلالة على تصديقٍ مُثبت محقَّق لا شكّ فيه

بلاغة الاستعارة التمثيلية:

معنى قوله: ﴿لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ﴾ ما تقدَّم قبلي؛ لأنَّ المتقدِّم السَّابق يمشي بين يدي الجائي، فهو هنا تمثيل لحالة السَّبق؛ وإن كان بينه وبين نزول التوراة أزمنة طويلة؛ لأنَّها لمَّا اتَّصل العمل بها إلى مَجيئه، فكأنَّها لم تسبقه بزمن طويل، ويستعمل بين يديّ كذا في معنى: المشاهَد الحاضر[1]، والتمثيل هنا على سبيل الاستعارة التمثيليَّة، فهي استعارة هيئة لهيئة؛ نقلاً لغير المحسوس إلى المحسوس، وفيه تجسيد للمعنى، ومنها قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾ [البقرة: 255]، وقوله: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴿١١٠﴾﴾ [طه: 110].

وجه التّمثيل استعارة هيئة لهيئة؛ نقلاً لغير المحسوس إلى المحسوس

سرُّ اختصاص التوراة بالذِّكر:

سرَّ اختصاص التوراة بالذكر في قوله: ﴿مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾ بيانُ إرسال المسيح عليه السلام تقريرَ التوراة، وإزالةَ شبهات المنكرين وتحريفات الجاهلين.

من مهمات إرسال عيسى عليه السلام تقرير التوراة، وإزالة ما أثير عليها من شبهات

و﴿مِنَ﴾ في قوله: ﴿مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾ للتبعيض، لسبب ما أحدثوا عليه من التَّحريف؛ فإمَّا أن يكون المعنى: ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ﴾، أي: مُصحِّحًا لما حرَّفتموه من التَّوراة، أو أن يكون ﴿وَمُصَدِّقًا﴾، بمعنى: العمل برسالة موسى عليه السلام وهي التَّوراة الصحيحة التي علَّمني إيَّاها ربِّي؛ فيكون التَّصديق بإعادة إحياء ما اندثر من أحكامها بفعل ما حُرِّف، وبُدِّل، قال تعالى: ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ﴾ [المائدة: 41].

(1) ابنُ عَاشُور، التَّحريرُ والتَّنوير: 3/252.

بلاغة تأويل ما يبدو فيه التناقض:

في تحليل بعض ما حرَّمه الله عليهم؛ رعيٌ لحالهم في أزمنة مختلفة

الظاهر أنَّ هذه الجملة: ﴿وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعۡضَ ٱلَّذِي حُرِّمَ عَلَيۡكُمۡۚ﴾ مناقضة لما قبلها وهو قوله: ﴿وَمُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ﴾؛ لأنَّها صريحة في أنَّ عيسى عليه السلام جاء؛ ليحلَّ بعض الذي كان محرَّمًا عليهم في التوراة، وهذا يقتضي أن يكون حكمه بخلاف حكم التوراة، وهذا يناقض قوله: ﴿وَمُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيَّ﴾ والجوابُ: أنَّ في ذلك تنبيهًا على أنَّ النَّسخ لا ينافي التصديق؛ لأنَّ النَّسخ إعلام بتغيُّر الحكم، وانحصرت شريعة عيسى في إحياء أحكام التوراة وما تركوه فيها، وهو في هذا كغيره من أنبياء بني إسرائيل، وفي تحليل بعض ما حرَّمه الله عليهم؛ رعيًا لحالهم في أزمنة مختلفة، وبهذا كان رَسُولًا، والظاهر أنَّه لم يحرِّم عليهم ما حلَّل لهم[1]، والظاهر أنَّ المراد ما حرَّمه الله على اليهود عقوبة لهم، كما أبان عنه قوله تعالى: ﴿فَبِظُلۡمٖ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمۡنَا عَلَيۡهِمۡ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتۡ لَهُمۡ﴾ [النساء: 160]، وذلك مبنيٌّ على أنَّ النَّاسخ والمنسوخ، كلاهما حقٌّ وصدقٌ.

بلاغة العطف في جملة التحليل والتحريم:

الجملةُ آية من الله على نبوَّة عيسى؛ إذ جاء بالتخفيف فيما كان فيه تشديد

عطف قوله: ﴿وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعۡضَ ٱلَّذِي حُرِّمَ عَلَيۡكُمۡۚ﴾ على ﴿وَرَسُولًا﴾ وما بعده من الأحوال؛ لأنَّ الحال تشبه العلَّة؛ إذ هي قيد لعاملها، فإذا كان التقييد على معنى التعليل شابه المفعول لأجله، وشابه المجرور بلام التعليل؛ فصحَّ أن يعطف عليها مجرور بِلام التعليل، قاله ابن عاشور، ويمكن أن يكون التقدير: وجئتكم لأحلَّ، فيكون من باب عطف الجملة على الجملة، وهذا البناء - الذي يجعل التيسير علَّةً - آيةٌ من الله على نبوَّة عيسى؛ إذ جاء بالتيسير، والتّخفيف فيما كان فيه تشديد؛ وفي ذلك ترغيب للمدعوين.

(1) ابنُ عَاشُور، التَّحريرُ والتَّنوير: 3/252.

قصديّة تبعيض المحرَّم:

إيثار لفظ (بعض) مناسبٌ لطبيعة النَّسخ، في أنَّه يكون في بعض الأحكام

اصطفاء كلمة ﴿بَعۡضَ﴾ مفعولاً به متّسقٌ مع طبيعة النَّسخ، وأنَّه يكون في بعض الأحكام، وأنَّ فيه مطابقة الواقع ومراعاة الأحوال؛ وفي البسط في وصف المفعول باسم الموصول وصلته إظهار للتيسير، وكان يمكن أن يقال: بعض المحرَّم عليكم، لكنَّه بيان لعظم التيسير مع كونه واقعًا على البعض.

توجيه بناء الفعل ﴿حُرِّمَ﴾ للمفعول:

في البناء للمعلوم إطلاقٌ للحُرمة ولحدود اشتمالها

بني الفعل ﴿حُرِّمَ﴾ في قوله: ﴿وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعۡضَ ٱلَّذِي حُرِّمَ عَلَيۡكُمۡۚ﴾ للمفعول؛ ليشمل ما حرَّموه على أنفسهم ونسبوه إلى الله، وما حرَّمه الله عليهم عقوبة.

بديع المقابلة بين جملتَي التحليل والتحريم:

وجه المقابلة إظهار التخفيف عليهم بتخصيص النفع، وبيان ثقل الحرام

ومن بلاغة جملة ﴿وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعۡضَ ٱلَّذِي حُرِّمَ عَلَيۡكُمۡۚ﴾ اشتمالها على المقابلة بين قوله: ﴿وَلِأُحِلَّ لَكُم﴾ و﴿حُرِّمَ عَلَيۡكُمۡۚ﴾، وهي تظهر التخفيف والتيسير جليًّا واضحًا فبضدِّها تتميَّز الأشياء، وترى التخفيف واضحًا في حرفي الجرّ، ﴿لَكُم﴾ تخصيصًا بالنفع، و﴿عَلَيۡكُمۡۚ﴾ بيانًا لثقل التحريم وعلوِّه على النفس.

بلاغة التَّكرار في قوله: ﴿وَجِئۡتُكُم بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾:

استحضار الأدلَّة الدّامغة في المُحاجَجات بغية الإقناع هي منهجيَّة الأنبياء والدُّعاة من بعدهم

وقوله: ﴿وَجِئۡتُكُم بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ تأكيدٌ لقوله الأول: ﴿أَنِّي قَدۡ جِئۡتُكُم بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾. وإنَّمَا عطف بالواو؛ لأنَّهُ أريد أنْ يكون من جملة الأخبار المتقدِّمة، ويحصل التأكيد بمجرَّد تقدُّم مضمونه، فيكون لهذه الجملة اعتباران يجعلانها بمنزلة جملتين، وليُبْنى عليه التَّفريع في قوله: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾[1]. ويجوز أن يكون ﴿وَجِئۡتُكُم بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ كرِّرَت على سبيل التَّوكيد، أي: جئتكم

(1) ابنُ عَاشُور، التّحريرُ والتَّنوِير: 3/253 - 254.

بآية بعد أخرى، مِمَّا ذكرت لكم؛ من خلق الطَّير والإبراء والإحياء والإنباء بالخفيَّات، وبغيره من ولادتي من غير أبٍ، ومن كلامي في المهد، وسائر الآيات، وقوله: ﴿وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ تأكيدٌ لقوله الأولِ: ﴿أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾، وإنَّما عطف بالواو؛ لأنَّه أريد أن يكون من جملة الأخبار المتقدِّمة[1].

دلالة الفاء وفعلي الأمر في جملة الفاصلة:

جاءت الفاء في قوله: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ تفريعًا على ما مضى، أو أنَّها الفاء المفصحة عن شرط مقدَّر، إن آمنتم؛ فاتقوا، وفيه من الإيجاز ما فيه.

المقصود من المعجزات وإرسال الرسل تلبية أوامر الله وأوامر رسوله

وغاير النظم الحكيم بين الأمر في جنب الله والأمر في جنب المسيح عليه السلام فالأمر في جنب الله ﴿فَٱتَّقُواْ﴾، أي: اتقوا غضبه وسخطه وعذابه، وفيه من التحذير ما فيه، وفي جنب المسيح قال: ﴿وَأَطِيعُونِ﴾ والأصل: وأطيعوني، حذفت ياء المتكلم بعد نون الوقاية؛ مراعاةً للفواصل بين الآيات، وتحقيقًا للجَرْسِ والإيقاع الذي هو إحدى سمات القرآن وإعجازه، وهو نُصحٌ وإرشادٌ أَعْقَبَ التحذير، أي: وأطيعوني فيما دعوتكم إليه من تصديقي فيما أرسلني به إليكم[2]، فذكر الأمر المناسب لكلٍّ، وجاء خَتْمُ الآية مناسبًا للمعنى؛ إذ هو كالغاية من إرسال الرُّسل، وتأييدهم بالمعجزات القاهرات.

في حذف الياء بيانٌ لأدب الخطاب القرآنيّ مع الذّات الإلهيّة المقدّسة

في حذف ياء المتكلم من قوله ﴿وَأَطِيعُونِ﴾ نكتة بلاغيّة تظهر أدب الخطاب النبويّ مع الذّات الإلهيّة جلّ الله في عُلاه؛ إذ حذف ياء المتكلم من فعل طلب الطاعة المعبّر عنه بصيغة الأمر؛ تجنّبًا للتلميح بتوجّه طاعتهم إليه، وقصرها عليه؛ ذلك أنّهم قوم يؤوّلون الواضحات، ويحرّفون البينات، فكيف بالمظنونات!

(1) ابنُ عَاشُور، التّحريرُ والتَّنوير: 3/253.
(2) النَّسفيُّ، مدارك التَّنزِيل: 1/257.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ ٥١﴾ [آل عمران: 51]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

وقعت الآيةُ من سابقتها موقع التعليل للأمرين السابقين؛ فبعد أن ذَكَرَ لهم الآياتِ والمعجزات في الآيات السّابقة، ثمَّ أمرهم بتقوى الله وطاعته، بيّن لهم هنا أنَّ الله تعالى هو ربُّه وربُّهُم، وأنَّ عبادةَ الله هي الصِّراطُ المُستقيم الذي سار عليه المؤمنون المُتَّقون.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿صِرَٰطٞ﴾: جِذر الكلمة هو: (صرط وسرط)، الصِّرَاطُ، بالكَسْرِ: الطَّريقُ، قالَ اللّه تَعَالَى: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ٦﴾ [الفاتحة: 6][1]، والسَّرْط، منه الاستِراط: وهو سُرعة الابتلاع من غير مَضغ[2]، والسِّراط: السبيل الواضح، وقوله تعالى: ﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسۡتَقِيمٌ ٤١﴾ [الحجر: 41][3]، والمراد هنا السَّبيل الواضح.

2) ﴿مُّسۡتَقِيمٞ﴾: جِذر الكلمة هو: (قوم)، القِيمَةُ واحدة القِيَم، وقَوَّمَ السِّلعة تقويمًا، وأهلُ مكة يقولون: استقامَ السِّلعة، وهما بمعنًى واحد، والاستِقامةُ: الاعتدال، يقال: استقامَ له الأمر، وقوله تعالى: ﴿فَٱسۡتَقِيمُوٓاْ إِلَيۡهِ﴾ [فصلت: 6]، أي: في التوجُّه إليه دون الآلهة، وقوله تعالى: ﴿وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ ٥﴾ [البيّنة: 5]، إنَّما أنَّثه؛ لأنَّه أراد الملَّة الحنيفيَّة، والقَوَامُ بالفتح: العدل، قال الله تعالى: ﴿وَكَانَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ قَوَامٗا ٦٧﴾ [الفرقان: 67][4]، والمراد هنا: لا اعوجاج فيه.

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

بعد أن بيّن عيسى عليه السلام في الآيات السّابقةِ فضلَ الله عليه وعلى بني إسرائيل، بأنْ أرسلَ إليهم الرُّسلَ بآياتٍ مبيّنات، وأنزل عليهم التوراةَ والإنجيل، أقرَّ هنا بعبوديَّته لله،

(1) الزَّبيديُّ، تَاجُ العَرُوس: (صرط).
(2) الخليل، العَين: (سرط).
(3) ابن سيده، المُحكم: (سرط).
(4) الرَّازيُّ، الصِّحَاح: (قوم).

وأنَّه عبدٌ لله كما هم عبادٌ له سبحانه، وما دام الأمر كذلك فأنا وأنتم سواءٌ في العبودية والخضوع له، فتقتضي الرُّبوبيَّةُ عبادتَه سبحانه وحده، والعبادةُ لله هي الطريقُ الواضحُ الذي لا اعوجاجَ فيه، وهو الموصلُ إلى الله وإلى جنتِه، وما عدا ذلك فهي طرقٌ موصلةٌ إلى الجحيم[1].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغة الاحتراس في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ﴾:

قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمۡ﴾ إقرارٌ بالعُبودِيَّةِ ونَفيٌ للرُّبُوبِيَّةِ عن نَفسِهِ[2]؛ كي لا يُتوهَّمَ بعد ما رأوا من خوارق العادات التي يتكرَّرُ ظهورُهَا على يديه، من أنَّه إله يدعوهم إلى الإيمان به لذاته، لِمَا وصف عيسى نفسه بأفعال إلهيَّةٍ، وأتى على ما ذُكر، وكان قد قال: ﴿وَأَطِيعُونِ﴾؛ خطر له ما فعلته جماعة من النَّصارى، وهو اتّخاذهم إيَّاه معبودهم، فاحترس بقوله: ﴿رَبِّي وَرَبُّكُمۡ﴾، وقدَّم نفسه باعتباره أولى منهم بالعبادة والخضوع لله؛ فإنَّه قدوة لهم في تلك العبادة وذلك الإيمان، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمۡ﴾، ولم يقل: رَبُّنَا؛ ليكون أبعدَ من التأويل فيما ادَّعَوه، وأمر بأن يُعبَد الله وحده[3].

المعجزات مهما كانت قاهرة؛ لا تنفي مقام البشرية، بل تدلُّ على ربوبيَّة الله لرسله

وقد بُنيت الآية على التَّوكيد؛ لتنتج معنى: أنا وأنتم في العبوديَّة سواء.

وتكرار كلمة الرَّبِّ في قوله: ﴿رَبِّي وَرَبُّكُمۡ﴾، أبلغ في التزام العبودية من قوله: (ربنا).

فمقصوده بختم كلامه بقوله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمۡ﴾ إظهار الخضوع والاعتراف بالعبودية لكيلا يتقوَّلوا عليه الباطل فيقولون:

(1) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 56، وجماعة من العلماء، المختصر في تفسير القرآن الكريم، ص: 56.
(2) النَّسفيُّ، مدارك التَّنزيل: 1/257.
(3) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 2/581.

إنّه إله، وابن إله؛ لأن إقراره لله بالعبودية يمنع ما تدّعيه جهّال النّصارى عليه[1].

وقوله: ﴿فَٱعۡبُدُوهُۚ﴾ تفريع على الرُّبوبيَّة؛ فقد جعل قولَه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي﴾ تعليلًا، ثمَّ أصلًا للتفريع[2]، فتكون العبادة هي المقصد الرَّئيس، وهي الإجابة عن الكيفيَّة في تقوى الله وطاعة رسوله، وهذا إرشاد من الله للدُّعاة، فكلَّما كان الأمر معلَّلًا، والتَّكليفُ مسبَّبًا؛ كان ذلك أدعى لقبول الأمر والمسارعة إلى تنفيذه.

بلاغة المتشابه اللفظي:

ومن النظائر للآية في سورة مريم: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمۡ﴾ [مريم: 36]، وفي الزُّخرف: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ﴾ [الزخرف: 64] بزيادة ﴿هُوَ﴾؛ لأنَّ آيتَي آل عمران ومريم تقدَّمتهما الآيات الدَّالَّة على توحيد الرّبِّ تعالى وقدرته، وعبودية المسيح له، ما أغنى عن التّأكيد، وفي الزُّخرف: لم يتقدَّم مثل ذلك، فناسب توكيد انفراده بالرُّبوبيَّة وحده[3].

توكيد الآية بضمير الفصل لتقدّم الآيات الدَّالَّة على توحيد الرَّبِّ تعالى وقدرته، وعبودية المسيح له

بلاغة التَّشبيه التَّمثيليّ في الفاصلة:

وقعت جملة ﴿هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ﴾ موقع التذييل لما مضى، وجاءت على طريق التشبيه التمثيليِّ، فالحَقُّ الواضحُ صراطٌ مستقيمٌ، لا يضلُّ سالكه، ولا يتحيَّر[4].

الحَقُّ الواضحُ صراطٌ مستقيمٌ، لا يضلُّ سالكه، ولا يتحيَّر

وفائدة هذا التّشبيه: أنَّه تصوير لحال المُتلقّي، وهو سائر على الصراط المستقيم، ينعم بالأمان والسّكينة، وتحقيق الغاية في الدنيا والآخرة، وقد بنيت الجملة على نحوٍ خالٍ من التَّوكيدات؛ لإيراد معناها، حقيقة مسلَّمة، وأوردها في ثوب التمثيل، كأنَّها لوضوحها مشاهدة قريبة يشار إليها باسم الإشارة الدالِّ على القرب.

(1) الرازي، مفاتيح الغيب: 8/231.
(2) ابنُ عَاشُور، التَّحريرُ والتَّنوير: 3/253.
(3) الإسكافيُّ، درَّة التنزيل 1/361 وما بعدها. ابن جماعة، كشف المَعَاني: 129.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/253 - 254.

﴿۞ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنۡهُمُ ٱلۡكُفۡرَ قَالَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشۡهَدۡ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ ٥٢﴾ [آل عمران: 52]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

جاءت الآية الكريمة معطوفة بالفاء على محذوف، كأنَّه قيل: فلم ينتصحوا، ولم يعلنوا الإيمان، فلما أحسَّ - أي: بعد أن قدَّم الأدلَّة والبَراهينَ في الآيات السّابقةِ على صدق رسالَتِهِ، فبيّنَ لهم المعجزات الَّتي جرت على يديه، ثمَّ أمرهم بتقوى الله وعبادته - ذَكَرَ في هذه الآية أنَّ عيسى عَلِمَ منهم الإنكارَ عليه، والكفرَ برسالته، فقال: ﴿فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنۡهُمُ ٱلۡكُفۡرَ قَالَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ﴾[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَحَسَّ﴾: جذر الكلمة هو: (حسس)، وهو أَصْلَانِ: فَالْأَوَّلُ غَلَبَةُ الشَّيْءِ بِقَتْلٍ أَوْ غَيْرِهِ، وَالثَّانِي حِكَايَةُ صَوْتٍ عِنْدَ تَوَجُّعٍ وَشَبَهِهِ، فَالْأَوَّلُ الْحَسُّ: الْقَتْلُ، قَالَ اللّه تَعَالَى: ﴿إِذۡ تَحُسُّونَهُم بِإِذۡنِهِۦۖ﴾ [آل عمران: 152]، والثاني: العِلمُ، ومنه قَوْلُهُمْ أَحْسَسْتُ، أَيْ عَلِمْتُ بِالشَّيْءِ، قَالَ اللّه تَعَالَى: ﴿هَلۡ تُحِسُّ مِنۡهُم مِّنۡ أَحَدٍ﴾ [مريم: 98]، وَهَذَا مَحْمُولٌ عَلَى قَوْلِهِمْ قَتَلْتُ الشَّيْءَ عِلْمًا؛ فَقَدْ عَادَ إِلَى الْأَصْلِ الأول وهو القَتْلُ. وَيُقَالُ لِلْمَشَاعِرِ الْخَمْسِ الْحَوَاسُّ، وَهِيَ: اللَّمْسُ، وَالذَّوْقُ، وَالشَّمُّ، وَالسَّمْعُ، وَالْبَصَرُ. والمصدر الْحسُّ والحَسيس، وَقد قَالُوا: حَسِيت بالشَّيْء في هَذَا الْمَعْنى، وأحسَّتُ بِهِ، والآية من المعنى الثاني[2].

2) ﴿أَنصَارِيٓ﴾: جذر الكلمة هو: (نصر)، أَصْلٌ صَحِيحٌ يَدُلُّ عَلَى إِتْيَانِ خَيْرٍ وَإِيتَائِهِ. وَنَصَرَ اللّه الْمُسْلِمِينَ: آتَاهُمُ الظَّفَرَ عَلَى عَدُوِّهِمْ، يَنْصُرُهُمْ نَصْرًا. وَانْتَصَرَ: انْتَقَمَ، وَهُوَ مِنْهُ. وَأَمَّا الْإِتْيَانُ فَالْعَرَبُ تَقُولُ: نَصَرْتُ بَلَدَ كَذَا، إِذَا أَتَيْتَهُ، والنَّصرُ: عَوْنُ المظلوم، ورجل

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/254.

(2) ابن دريد، جمهرة اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللغة: (حسس).

ناصر من قوم نصار ونصر وأنصار[1]، والأنصارُ: جماعة النَّاصِر، وأنصار النَّبيِّ ﷺ أعوانُه، والنَّصيرُ والنَّاصِرُ واحدٌ، وقال اللّه تعالى: ﴿نِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ ۝٤٠﴾ [الأنفال: 40]، والنُّصْرة: حُسْنُ المَعُونة، وقال اللّه تعالى: ﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ﴾ [الحج: 15][2].

3) ﴿ٱلۡحَوَارِيُّونَ﴾: جذر الكلمة هو: (حور)، وله ثَلَاثَةُ أُصُولٍ: منها لَوْنٌ، وَالْآخَرُ الرُّجُوعُ، فَأَمَّا الْأَوَّلُ فَالْحَوَرُ: شِدَّةُ بَيَاضِ الْعَيْنِ فِي شِدَّةِ سَوَادِهَا، يُقال: حَوَّرتُه تحويرًا، أي: بَيَّضتُه، وامرأةٌ حَوارِيَّة، أي: بيضاء حضريَّة، وتَحْوِيرُ الثِّياب تبييضها، ومنه قيل لأصحاب عيسى، عليه السلام: الحَوَارِيُّون؛ لِأَنَّهُمْ كَانُوا يُحَوِّرُونَ الثِّيَابَ، أَيْ يُبَيِّضُونَهَا فكانوا قصَّارين[3]، يقال: فعل الحواريُّون كذا، ونصر الحواريُّون كذا، فلمَّا جرى على ألسنة النَّاس؛ سُمِّيَ كُلُّ ناصرٍ حواريًّا[4]. وقيل: الحَوَارِيُّ الناصر، قال النَّبيُّ، ﷺ: «لكلِّ نبيٍّ حَوَارِيٌّ وحَوارِيَّ الزُّبَيْر بنُ العوَّام»[5]، وَأَمَّا الرُّجُوعُ، فَيُقَالُ حَارَ، إِذَا رَجَعَ. قَالَ اللّه تَعَالَى: ﴿إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ۝١٤ بَلَىٰٓ﴾ [الانشقاق: 14-15] وَالْعَرَبُ تَقُولُ: "الْبَاطِلُ فِي حُورٍ" أَيْ رَجْعٍ وَنَقْصٍ[6].

والحواريُّونَ: لَقَبٌ لِأَصْحابِ عِيسى عليه السلام الَّذِينَ آمَنُوا بِهِ ولازَمُوهُ.

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

انتقل اللّه تعالى – في هذه الآية من البِشارة بعيسى – إلى ذِكْر خبره مع قومِه، وطوى خبرَ ولادته ونشأتِه؛ اكتفاءً بآيات البِشارة الدّالَّة عليها، فلمَّا استشعر عيسى منهم التصميمَ على الكفر، والاستمرارَ على الضَّلال، وظهر أنَّ تلك الآياتِ العظيمةَ لم تُجْدِ معهم نَفعًا، ولم تجدْ إلى هدايتهم سبيلًا، نادَى في أصحابه الخُلَّص: مَن يكون معي في نصرة دين اللّه؟ في موقفٍ فاصِلٍ بين الحَقِّ والباطل، والإيمانِ والكفر، فالمُخلصون أصفياءُ عيسى – المُنقادون للّهِ – أعلنوا نَصْرهم للّه، وأنهم أنصارُ دينِ اللّه والدَّاعون إليه:

(1) ابن سيده، المُحكم: (نصر).
(2) الخليل، العَين، وابن فارس، مقاييس اللغة: (نصر).
(3) الرَّازيُّ، مختار الصِّحاح: (حور).
(4) الخليل، العَين: (حور).
(5) ابن حِبَّان، صحيح ابن حِبَّان: 15/444. الحديث إسناده صحيح على شرط مسلم.
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (حور).

صدَّقنا بالله واتبعناكَ، واشهد - أنت يا عيسى - بأنَّا مستسلمون لله بالتوحيد والطاعة، فليس النَّصر خاصًّا بالقتال، بل يشمل الدَّعوة إلى الدِّين والعمل به[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغة التعبير بقوله ﴿۞فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنۡهُمُ ٱلۡكُفۡرَ﴾، وتكاتف الأساليب البلاغية في إثراء المعنى:

من طبائع الرُّسل ومزاياهم قدرتُهم على تحسُّس حال أقوامهم

قبل قوله: ﴿۞فَلَمَّآ أَحَسَّ﴾ محذوفٌ، يدلُّ عليه، وتقديره والمعنى: فجاء عيسى بني إسرائيل ورَسُولًا، فقال لهم ما تقدَّم ذكره، وأتى بالخوارق التي قالها، فكفروا به، وتمالؤوا على قتله وإذايته، فلمَّا أحسَّ عيسى منهم الكفر...[2]، فعبّر بأسلوبٍ يُفهم منه ذلك كلُّه دون النُّطق به أو تلفُّظه؛ إيجازًا في الكلمات وغزارة في المعاني.

كما أنَّ ﴿أَحَسَّ﴾ استعارة؛ إذ لا يُحَسُّ إلّا ما كان متجسِّدًا، والكفرُ ليس بمحسوس، وإنَّما يُعلم، ويُدرك كعلم ما يُدرك بالحواس[3]، وفي قوله: ﴿۞فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنۡهُمُ ٱلۡكُفۡرَ﴾، استعار الإحساس للعلم بالشيء؛ وهي استعارة تصريحيَّة تبعيّة، وأصلُ الإحساسِ الإدراكُ بإحدى الحواسِّ الخمس الظاهرة للعلم، أو هو مجاز مرسل عن ذلك، من باب ذِكْرِ الملزوم وإرادة اللَّازم؛ والدَّاعي لذلك أنَّ الكفر مِمَّا لا يحسُّ[4].

وقدّم الجارَّ والمجرور ﴿مِنۡهُمُ﴾، ولم يقل: أحسَّ عيسى الكفر منهم، مع أنَّ تركيز الكلام على قضيَّة الكفر، والكفر: هنا جحود نبوَّته وإنكار معجزاته، لكنَّه قدَّم ﴿مِنۡهُمُ﴾ على الكفر لبيان اختصاصهم واهتمامه بشأنهم، وبيان شدَّة الموقف معهم - وهم

(1) ابنُ عَاشُور، التَّحريرُ والتَّنوِير: 3/254، والموصليُّ، أولى ما قيل: 2/478، ونخبة من العلماء، التفسير الميسر، ص: 56.
(2) ابنُ عَاشُور، التَّحريرُ والتَّنوِير: 3/162.
(3) صافي، الجدول في إعراب القُرآن: 1/512.
(4) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 1/512.

يواجهون معجزاته بالجحود والنُّكران - وإبراز عتوِّهم ومكابرتِهم فيه مع العزيمة على قتلِه - عليه السلام - كما ينبئ عنه الإحساسُ، فإنَّه إنَّما يُستعمل في أمثالِ هذهِ المواقع عند كونِ مُتعلَّقِه أمرًا محذورًا مكروهًا، كما في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأۡسَنَآ إِذَا هُم مِّنۡهَا يَرۡكُضُونَ ١٢﴾ [الأنبياء: 12]، وكلمةُ (مِنْ) متعلِّقةٌ بـ﴿أَحَسَّ﴾، والضميرُ المجرورُ لبني إسرائيلَ، أي: ابتدأ الإحساسُ من جهتهم، وتقديمُ الجارِّ والمجرور على المفعول الصَّريح، لِمَا مَرَّ غيرَ مرّةٍ من الاعتناء بالمقدَّم والتشويق إلى المؤخَّر، وقيل: متعلقةٌ بمحذوفٍ وقعَ حالًا من الكفر[1].

بلاغة فنّ الحوار، في طلب الاستنصار:

عندما استشعر عيسى عليه السلام كُفْرَهم وإعراضَهم بعد ما شاهدوه من المعجزات الكبرى التي يعجز عن أداءِ واحدةٍ منها أحدٌ من النَّاس، فاستدعى مناصريه؛ لِتَحْدُثَ المفاصلة، ويُعرف كُلٌّ بموقفه، فقال: ﴿مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ﴾؟ قال الحواريُّون: ﴿نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾، وفائدة هذا الفنِّ الإحاطة بأبعاد القضيَّة من جانبين: السّائل والمُجيب؛ فيتحقَّق منه الإيجاز، مع غزارة المعنى ووُضوحه، فاختصر الموقف كلَّه بالسؤال والجواب، وبان أهل الحَقِّ من أهل الباطل.

والحواريُّ: صفوة الرجل وخاصته.[2].

فائدة الحوار الإحاطة بأبعاد القضيَّة من جانبي السّائل والمُجيب، فيتحقَّق منه الإيجاز، مع غزارة المعنى ووُضوحه

بلاغة تَكرار لفظ النُّصرة:

لَمَّا نادى عيسى عليه السلام بقوله: ﴿مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ﴾؟ جاء الجواب السَّريع من جانب الحواريّين: ﴿نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾، وكان بالإمكان أن يكون الجواب مقتصراً على: ﴿نَحۡنُ﴾، أو يكون: (نحن يا رسول الله)، ولكن تَكرار لفظ النُّصرة جاء توكيدًا للقناعة وإصرارًا على النُّصرة، ورغبة في الدِّفاع عن الدِّين الحق.

تَكرار لفظ النُّصرة توكيدٌ للقناعة وإصرارٌ على النُّصرة، ورغبةٌ في الدِّفاع عن الدِّين الحق

(1) أبو السِّعود، إرشاد العقل السَّليم: 2/41.
(2) أبو حيَّان، البحر المُحيط: 3/172.

بيانُ الإطناب في قوله: ﴿إِلَى ٱللَّهِۖ﴾:

غـايـةُ الإطـنـاب إثـــارةُ قـضـيَّـة الـتَّـوحـيـد، والإيـمـان بالله وحده

وفي قوله: ﴿ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ ﴾ لم يكتفِ بقوله: ﴿مَنۡ أَنصَارِيٓ﴾، وإنّما أردفه بقوله: ﴿إِلَى ٱللَّهِۖ﴾ وهنا إيغالٌ؛ لتذكيرهم بأنَّه مُرسل من عند الله، وأنَّ نصرته هي نصرة لله تعالى، فكان إطنابًا؛ غايتُه إثارة قضيَّة التَّوحيد والإيمان بالله وحده؛ ولهذا جاء جوابهم نحن أنصار الله، ولم يكن الجواب: نحن أنصارك، أو أنصارك إلى الله.

بلاغة التناوب في حروف الجرّ:

في تضمين (إلى) مـعـاني حـروف أُخـر سـعـةٌ في الدلالة، وثراءٌ في المعنى

في قوله: ﴿ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ ﴾ حذفٌ، فهو متعلِّقٌ بمحذوفٍ وقعَ حالًا من الياء، أي: مَنْ أنصاري متوجِّهًا إلى الله ملتجئًا إليه؟[1].

ومن عالي البلاغة هنا إيراد حرف جر، ويحتمل عدة معانٍ، وكلُّها معانٍ متعانقة، لها في السِّياق ما يؤازرها، فقد قيل: إنَّ ﴿إِلَى﴾ بمعنى: (في) أو (اللام) أو (مع)[2]، قال الزَّجَّاج: وإنَّما حَسُنت في موضع (مع)؛ لأنَّ (إلى) غاية، و(مع) تضُمُّ الشَّيء بالشَّيء[3] و(في)، أي: في سبيل الله.

وجاءت الجملة الثانية جوابًا لسؤال عيسى، ﴿قَالَ﴾ استئنافٌ مبنيٌّ على سؤال ينساق إليه الذِّهنُ، كأنّهُ قيل: فماذا قالوا في جوابِه عليه السلام؟ فقيلَ: ﴿قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ﴾[4]، وإنَّما جاء كذلك دلالة على سرعة جوابهم دون فاصل زمني؛ لذا سُمُّوا حواريين، كما نلحظ أنَّ الجواب جاء مشاكلًا للسُّؤال ﴿نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾، فلم يكن كالجوابات المعتادة؛ إذ الجواب يُكتفى فيه بـ ﴿نَحۡنُ﴾؛ فهو المسؤول

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السَّلِيم: 2/41.
(2) البيضاويُّ، أنوَارُ التَّنزيل: 2/19.
(3) ابن الجوزي، زاد المَسِير: 1/285.
(4) أبو السعود، إرشاد العقل السَّلِيم: 2/41.

عنه، لكنَّ النظم أشعرَ بولوعهم بالوصف، وتلذُّذِهم به؛ لذا جاء الجواب كذلك.

بلاغة الجمل الاستئنافية في التَّأكيد على تحقيق النُّصرة:

التعليل للنُّصرة بيان لأسباب حصولها

جاءت جملة: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشۡهَدۡ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ﴾ بمنزلة الاستئناف الجاري مجرى العلَّة لما قبله، كما ذكر الرازيُّ والآلوسيُّ وأبو حيَّان وغيرهم، فالإيمانُ دافعٌ للنُّصرة، ويزيد هذا المعنى بيانًا وضْعُ المُظهَر موضع المضمَر؛ فالظاهر أن يقال: آمنَّا به، ولكنَّه عَدَلَ عن ذلك تأكيدًا لإيمانهم؛ لما في التصريح بالاسم الجليل من جلال المعنى.

بلاغة عطف الإنشاء على الخبر في الفاصلة:

التوجّه لمخاطبته سبحانه من تحقّق الإيمان بالله؛ وفيه تأكيدٌ لتحقيق النصرة

وقوله: ﴿وَٱشۡهَدۡ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ﴾ إنشاءٌ، عُطِفَ على الخبر، ومسالكه معروفة، فلفظه إنشائيٌّ، ومعناه خبريٌّ، وكأنَّ المعنى: آمنَّا بالله، وأقررنا بأنَّنا مسلمون، ويحتمل أن يكون المخاطَب عيسى عليه السلام ويحتمل أن يكون المخاطَب هو الله - عزَّ وعلا - كأنَّ المعنى: واشهَد يا ربَّنا بأنَّا مسلمون، وهذا من تحقيق إيمانهم بالله أن يتَّجهوا لمخاطبته سبحانه، وفي كلٍّ هذا تأكيد لتحقيق النُّصرة، فالأمر العظيم إذا توفرت أسبابه؛ فإنَّ ذلك أدعى لتحقيقه وحصوله، كما نلحظ أنَّ الجملة الأولى جاءت فعليَّة إعلانًا عن تجديد الإيمان، والثانية جاءت اسميَّة مؤكِّدة للدلالة على استمرارهم في الثبات على الإسلام.

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(أحسَّ) و(عَلِمَ) أو (وَجَدَ):

ما يُكِنُّه أعداء الإيمان للرِّسالات السَّماوية من شرورٍ قد لا تُدرك أبعادها

لم يأتِ في النَّصِّ (علمَ منهم الكفر)، أو (وجد منهم الكفر)؛ لأنَّ ذلك إشعار بظهور الكفر صراحة منهم، وأنَّهم قد أعلنوه جهارًا، أو أنَّهم قد ارتكبوا أفعالًا وإيذاءً للرسول أو لأتباعه، ويبدو أنَّ ذلك لم يَحدث منه شيء، وإنَّما كان الأمر محفوفًا بالمكر والسرِّ، فقوله:

﴿أَحَسَّ﴾، فيه بيان استشعار النَّبيِّ عيسى عليه السلام بما عرَّفه اللّٰهُ ألهمه من المعرفة بحالهم، وبما تضمره نُفوسهم، كيف لا؟ وهو يُنبِّئهم بما يأكلون وما يدَّخرون في بُيوتهم، فجدير هُنا أن يُحِسَّ بما تضمره قُلوبهم من العداء للدعوة التي أتى بها... فَعَلِمَ منهم ما تُخبِّئُهُ قُلوبهم من مكر التَّنكيل بالرَّسالة، وأحسَّ بمكرهم؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ ۝٥٤﴾ [آل عمران: 54]. كما سيأتي في استكمال المشهد ووصفه؛ إذ كان الأمر محفوفًا بالمكر والإعداد لإنهاء أمر الدّعوة إلى اللّٰه سبحانه.

﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلۡتَ وَٱتَّبَعۡنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ٥٣﴾ [آل عمران: 53]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

التَّضرّعُ إلى الله والإيمان به وبرسله وكتبه؛ صِفةُ أهل التَّوحيد:

تعظيم الله والأدب معه، بعد الأدب مع عيسى عليه السلام

في الآية عَرْضٌ لحَالِ الحواريِّين على اللّه تعالى بعد عَرضِها على عيسى عليه السلام؛ استمطارًا لسحائب إجابة دعائهم، وقِيل: مُبالغة في إظهار أَمْرِهِم[1]. ولمّا أجاب الحواريّون رسولهم عيسى عليه السلام، قاصرين أنفسهم على نصرته، معلّلين ذلك بإيمانهم باللّه، وأشهدوا بانقيادهم أدبًا معه، ترقّوا إلى المرسِلِ سبحانه في خطابهم إعظامًا للأمر، وزيادة في التّأكيد، وتثبيتا لأنفسهم، واستعانة به سبحانه، مسقطين لأداة النّداء، استحضارًا لعظمته بالقرب لمزيد القدرة وترجّي منزلة أهل الحبّ، فقالوا: ﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلۡتَ﴾[2]، وحيث إنّ العقائد والأخبار والقصص، لا تتغيّر؛ وأنّ الّذي يتغيّر هو الأحكام الّتي تضبط حركة الحياة، في كلّ عصر ومصر، ومع تجدّد الدّين، بإرسال رسل تترى بعضها من بعد بعض، كان إعلان الحواريين هو إعلانًا للإيمان بما أُنزل سلفًا على عيسى ابن مريم من عقائد، وبما جاء به المسيح من أحكام وتشريعات[3].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿رَبَّنَآ﴾: أَصلُ الرَّبِّ: إِصْلَاحُ الشَّيْءِ، أو: لُزُومُ الشيء وَالقِيَامُ عَلَيْهِ وضَمُّ بَعضِهِ إلى بعض في تَجَمُّع وتَمَاسُك من أَجلِ الإصلاحِ

(1) الآلوسيُّ، روح المعاني: 2/170.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 4/418، والبقاعيّ أيضًا، دلالة البرهان القويم: 3/1042.
(3) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ (الخواطر): 3/1492.

أو الانتفاع[1]، ويطلق الرَّبُّ على المربّي، والمالك، والمدبِّر، والقيِّم، والمُنْعِم، والسَّيِّد، والمُصلِح[2]، "والرّبُّ في الأصل التّربيّةُ، وهُو إنشاءُ الشّيء حالًا فحالًا، إلى حدّ التّمام، يُقال: ربّه وربّاه وربّبه، وقيل: (لأنْ يَرُبَّنِي رجلٌ من قريش، أحبُّ إليّ منْ أنْ يَرُبَّني رجلٌ من هوازن)، فالرّبُّ مصدرٌ مستعارٌ للفاعل"[3]، والرَّبُّ عند الإطلاق هُوَ اللّه تبَارك وتَعالى، إذ تجتمع فيه كلّ هذه المعاني وغيرها[4].

2) ﴿ءَامَنَّا﴾: الإيمانُ: التَّصديق، وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤۡمِنٖ لَّنَا﴾ [يوسف: 17] أي: بمُصَدِّق[5]، ويعرّف بأنّه "إذعانُ النّفس للحقّ على سبيل التّصديق، وذلك باجتماع ثلاثة أشياء، تحقيق بالقلب، وإقرار باللّسان، وعملٌ بحسب ذلك بالجوارح ... ويقال لكلّ واحد من الاعتقاد والقول الصّدق، والعمل الصّالح، إيمانٌ"[6].

3) ﴿أَنزَلۡتَ﴾: النُّزُولُ في الأصل هو هبوطٌ وانحِطَاطٌ منْ عُلُوٍّ، يقال: نَزَلَ في مكان كذا: حَطَّ رَحْلَهُ فيه، وأَنْزَلَهُ غيرُهُ[7]، "ومن ذلك قوله تعالى: ﴿أَنزِلۡنِي مُنزَلٗا مُّبَارَكٗا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡمُنزِلِينَ ٢٩﴾ [المؤمنون: 29]، ونزل بكذا وأنزله بمعنى، وإنزال اللّه نعمه ونقمه على الخلق: إعطاؤهم إيّاها، وذلك إمّا بإنزال الشّيء نفسه كإنزال القرآن، وإمّا بإنزال أسبابه والهداية إليه، كإنزال الحديد واللّباس، ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبۡدِهِ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ [الكهف: 1]، و﴿وَأَنزَلۡنَا ٱلۡحَدِيدَ﴾ [الحديد: 25] "[8].

4) ﴿وَٱتَّبَعَنَا﴾: الاتبّاع: التُّلُوُّ وَالْقَفْوُ، يُقَال: تَبِعَ فلَانٌ فلَانًا واتَّبَعَهُ: قفا أثره، " وذلك تارة بالارتسام والائتمار، وعلى ذلك: ﴿فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٣٨﴾ [البقرة: 38]، وقوله: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ٢٠ ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسۡـَٔلُكُمۡ أَجۡرٗا وَهُم مُّهۡتَدُونَ

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ربّ)، جبل، المعجم الاشتقاقي: (ربب، ربرب).
(2) ابن منظور، لسان العرب، الزبيدي، تاج العروس: (ربب)، جبل، المعجم الاشتقاقي: (ربب - ربرب).
(3) الرّين، تفسير مفردات ألفاظ القرآن الكريم: (ربّ).
(4) الخليل، العين، الأزهري، تهذيب اللّغة: (ربّ)، ابن منظور، لسان العرب، الزّبيديّ، تاج العروس: (ربب)، جبل، المعجم الاشتقاقي: (ربب، ربرب).
(5) الخليل، العين، والجوهري، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (أمن).
(6) سميح عاطف الزّين، تفسير مفردات ألفاظ القرآن الكريم: (أمن).
(7) الخليل، العين، والجوهريّ، الصّحاح، ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نزل).
(8) الزّين، تفسير مفردات ألفاظ القرآن الكريم: (نزل).

﴿٢١﴾ [يس: 20- 21][1]. والاتِّباع: أَن يسيرَ الرَّجل وَأَنت تسير وَرَاءَه[2]، والمعنى واتّبعنا الرّسول عيسى ابن مريم، فاكتبنا مع الشّاهدين الّذين يشهدون لأنبيائك بالصّدق[3].

5) ﴿ٱلرَّسُولَ﴾: هو: المَبعوثُ الَّذِي يُتَابع أَخْبَار الَّذِي بَعثَه؛ مأْخوذٌ من قَوْلهم: جَاءَت الإبلُ رَسلًا، أَي: مُتتابِعَة في سَيرِها وانبِعاثِها، والرَّسْلُ والإرسالُ: الانْبِعَاثِ وَالامْتِدَادِ[4]، والرّسول يقال للواحد نحو قوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ [التّوبة: 128]، والجمع، نحو قوله: ﴿إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ١٦﴾ [الشّعراء: 16]، ويذكر أنّ رسول اللّه تارة يراد به الملائكة، كقوله: ﴿إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيْكَ﴾ [هود: 81]، وتارة يراد به الأنبياء، كقوله: ﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ [الأنعام: 48][5].

6) ﴿فَٱكْتُبْنَا﴾: أصل الكتب والكتابة جَمْعُ شَيْءٍ إِلَى شَيْءٍ وإلصاقُه بدقّة وقُوّةٍ، وسُمِّيت الكتابة كتابة لضمّ الحروف بعضها إلى بعضٍ، والأصلُ في الكتابة النَّظم بالخَطِّ، وفي المقال النَّظم باللَّفظ. ومعنى ﴿فَٱكْتُبْنَا﴾ أَثبتنا معهم وأدخلنا في زُمرتهم[6].

7) ﴿ٱلشَّٰهِدِينَ﴾: شَهِدَ: كلمة تَدُلُّ عَلَى حُضُورٍ وَعِلْمٍ وَإِعْلَامٍ، والمشاهدَةُ: المعاينةُ، وشَهِدَهُ شُهُودًا: أي حَضَرَه، فهو شَاهِدٌ، وقومٌ شُهودٌ، أي حُضورٌ[7].

الأنبياءُ وأتباعهم؛ صادقون في الإيمانِ، برآءُ من الشِّركِ

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

قال الحَواريُّونَ كذلك: رَبَّنا آمنَّا بما أَنزلتَ علَى أَلسِنَةِ رُسلِك كلّهم من الإنجيل وغيره، واتَّبعنا عيسى عليه السلام، فاجعلنا مع الشَّاهدين بالحقِّ الَّذين آمنوا بِكَ وبرُسُلِكَ[8].

(1) الزّين، تفسير مفردات ألفاظ القرآن الكريم: (نزل).
(2) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، الرَّاغب، مفردات ألفاظ القرآن: (تبع).
(3) الحجازيّ، التّفسير الواضح: 1/236.
(4) الأزهري، تهذيب اللُّغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، ابن منظور، لسان العرب: (رسل).
(5) الزّين، تفسير مفردات ألفاظ القرآن الكريم: (رسل).
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة، السَّمين، عُمدة الحفَّاظ، جبل، المعجم الاشتقاقي: (كتب).
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة، الجوهري، الصحاح، ابن منظور، لسان العرب، جبل، المعجم الاشتقاقي: (شهد).
(8) الرَّازي، مفاتيح الغيب: 8/235، جماعة من علماء التَّفسير، المختصر في تفسير القرآن الكريم، ص: 57.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

براعة الاستفتاح بلفظ ﴿رَبَّنَآ﴾ في المطلع:

صدّروا ضراعتهم إلى الله تعالى بالاعتراف الكامل بالرّبوبية، وفي الاعتراف بالربوبية إحساسٌ صادقٌ بجلال النِّعم، وتقديم شُكْر المنعِم[1]. ولذلك قالوا: ﴿رَبَّنَآ﴾ ولم يقولوا: (ربّ العِباد)؛ لأنّ الموضعَ موضعُ اعتراف وشكر، لا الإخبار عما عليه الشيء في نفسه، فلذلك خص ﴿رَبَّنَآ﴾[2].

إيثار لفظ الربّ، وإضافته إلى ضميرهم اعترافٌ بالشكر، لا إخبارًا عما عليه الشيء في نفسه

كمال الخضوع لله لَا يكون إلّا بالإيمان بالرّبوبية:

ثم الاعتراف بالرّبوبية الحقّ يطوي في أثنائه الاعتراف بالألوهيّة الحقّ؛ لأنّ كمال الخضوع لله لَا يكون إلّا بالإيمان بالربوبيّة، ووراء هذا كلّه الإفراد بالعبوديّة[3].

بلاغةُ حَذف حرف النِّداء، وذِكره:

لَمَّا خاطبَ المؤمنون نبيَّ الله تعالى بأدبٍ جَمٍّ، وتَعظيمٍ وتَبجيلٍ كاملين، ترقَّوا إلى خطاب مَن أَرسله، وهو الحقُّ سبحانه وتعالى؛ وإعظامًا للأمر، وزيادة في التَّأكيد فقالوا مُسقطين لأداة النِّداء؛ استحضارًا لعظمته بالقرب لمزيد القُدرة، وترجِّي منزلة الحُبِّ: ﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ﴾[4]. وهذا الأسلوب من النِّداء جاء ليُصوِّر معنى التَّضرُّع والمبالغة في عرض حالهم.

اختيار أسلوب الخطاب والنِّداءِ تربيةٌ وأدبٌ أتقنها الصَّالحون

على كَثْرَة ما نُودي الرَّبُّ تعالى في القرآن لم يأتِ مسبوقًا بحرف النِّداء إلَّا في مَوْضِعَيْنِ هما في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ۝٣٠﴾ [الفرقان: 30]، وفي قوله: ﴿وَقِيلِهِۦ يَٰرَبِّ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ ۝٨٨﴾ [الزُّخرف: 88]، والسِّر في إظهار حرف

ذِكر حرف النداء زيادة في الضَّراعة إلى الله واستجلاب رضاه

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 3/1238.
(2) الراغب، تفسير الراغب: 2/586.
(3) ابو زهرة، زهرة التفاسير: 3/1238.
(4) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 4/418.

النِّداء في هذين الموضعين التَّعبير عن حالة نفسيَّة أَلَمَّت بالرَّسول ﷺ، وقد أفرغ جهده في دعوة قومه وإنذارهم، فلم يزدهم ذلك إلَّا تماديًا في كُفرهم، فأطبق الهَمُّ على فؤاده، فذكر حرف النداء زيادة في الضَّراعة إلى اللّه واستجلاب رضاه[1].

المُوجبُ من تفرُّع الدُّعاء على دُعاءٍ آخر:

يَقْتَضِي التَّفريعُ زيادةَ فَضْلِ الشَّاهِدِينَ عَلَى فَضْلِ الْحَوَارِيِّينَ؛ لِأَنَّهُمْ هُمُ الْمَخْصُوصُونَ بِأَدَاءِ الشَّهَادَةِ

قوله: ﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا﴾ مِن كلام الْحواريِّينَ، ثمَّ فَرَّعُوا على ذلكَ الدُّعاء دُعاءً بأنْ يَجعلَهُمُ اللّه معَ الشَّاهدين، أَي مع الَّذينَ شَهدوا لِرُسُلِ اللّه بالتَّبليغ وبالصِّدْق[2]؛ وَهَذَا يَقْتَضِي أَنْ يَكُونَ لِلشَّاهِدِينَ فَضْلٌ يَزِيدُ عَلَى فَضْلِ الْحَوَارِيِّينَ؛ لِأَنَّهُمْ هُمُ الْمَخْصُوصُونَ بِأَدَاءِ الشَّهَادَةِ، قَالَ اللّه تَعَالَى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البَقَرَة: 143][3]. وإنَّما طلبوا شهادته بإسلامهم؛ تأكيدًا لإيمانهم؛ لأنّ الرُّسُل يشهدون يوم القيامة لقومهم وعليهم[4].

التَّصوير النَّفسي لحال الحواريِّين في الآية:

وصفُ الحالِ كمالُ الإيمان، وتمامُ الانقياد، وتشوّف إلى صحبة الشاهدين

صوَّرتِ الآيةُ حالَ الحواريين من خلال أُسلوب تأكيد الخبر باسميَّة الجملة ﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ﴾، وكذلك من خلال التَّشريك بالعَطف بين ﴿ءَامَنَّا﴾ ﴿وَٱتَّبَعْنَا﴾؛ لاتحاد الجملتين في الخبريَّة.

مواضع الإعمام في الآية:

جاء الإعمام في ثلاثة مواضع من الآية الكريمة:

الأوَّل: في قوله تعالى: ﴿بِمَآ أَنزَلْتَ﴾، نجد أنَّ (ما) الموصولة قد دَلَّت على العُموم، إذ بيَّنت عُمومَ إيمانهم بكلِّ ما أنزله اللّه ﷻ، من كُتبٍ سماويَّة وأحكامٍ شرعيَّة، وما فيها من حلالٍ وحرامٍ.

(1) بدوي، من بلاغة القرآن، ص: 131.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/256.
(3) الرَّازي، مفاتيح الغيب: 8/235.
(4) الطِّيبي، فتوح الغيب: 4/118.

والثَّاني: في قوله تعالى: ﴿وَٱتَّبَعۡنَا ٱلرَّسُولَ﴾ أي: عيسى، فحَذْفُ المتعلِّق مُشعرٌ بالتَّعميم، أي: اتَّبعناه في كلِّ ما يأتي به[1].

الإعمامُ إطلاقٌ لحقيقة الإيمان والإتّباع والشهادة، واستغراقٌ لتفاصيلها

والثَّالث: في قوله تعالى ﴿مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ للرَّسولِ بتبليغ الدَّعوة، وعلى قومه بما كان منهم من الكُفر والجُحود، فحذف معمول الشَّاهدين؛ ليعمَّ المشهود لهم والمشهود عليهم[2]. وفائدة الإعمام في الثلاثة إطلاقُ معاني أفعالها استغراقًا لتفصيلاتها.

سرّ تقديم الإيمان على الاتّباع:

أردف الإيمان بذكر الاتّباع في قوله: ﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلۡتَ وَٱتَّبَعۡنَا ٱلرَّسُولَ﴾؛ لأنّ العِلم الصحيح يستلزم العمل، والعِلم الذي لا أثر له في العمل يشبه أن يكون مجملًا وناقصًا لا يقينًا وإيمانًا، وكثيرًا ما يظنُّ الإنسان أنه عالم بشيء حتى إذا حاول العمل به لم يحسنه فيتبين له أنه كان مخطئًا في دعوى العلم. فالعلم بالشيء يظل مجملًا مبهمًا في النفس حتى يعمل به صاحبه فيكون بالعمل تفصيليا، فذكر الحواريين الأتباع بعد الإيمان يفيد أن إيمانهم كان في مرتبة اليقين التفصيلي الحاكم على النفس المصرّف لها في العمل[3].

ذكر الحواريون الاتّباع بعد الإيمان يفيد أنّ إيمانهم كان في مرتبة اليقين التفصيلي الحاكم على النفس المصرِّف لها في العمل

دلالةُ العَطف بالفاء في الفاصلة:

جاء طلب كتابتهم مع الشاهدين في قوله تعالى ﴿فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ معطوفًا بالفاء؛ وذلك لما تظهره الفاء من سرعة الكتابة دُونما تأخير؛ لأنَّهم آمنوا بما أنزل واتَّبعوا الرَّسول فجزاء ذلك السَّرعة في كتابتهم مع الشَّاهدين لسرعة استجابتهم، وهذا ترتيبٌ طَبعي، فالنَّفس تميلُ إلى استعجال الخير[4].

وجه العطف بالفاء طلبُهم سرعةَ كتابتِهم من الشاهدين

(1) القنوجي، فتحُ البيان: 2/245.
(2) رضا، تفسير المنار: 3/259.
(3) رضا، تفسير المنار: 3/259.
(4) اللحياني، الدُّعاء في القرآن الكريم، ص: 213.

بلاغة الكناية في لفظة الكتابة:

وجه الكناية تثبيتهم على الإيمان في الخاتمة، وانضمامهم إلى الصَّالحين

لفظ الكتابة في الآية كنايةٌ عن تثبيتهم على الإيمان في الخاتمة، والمُراد: اجعل ذلك وقَدِّرْهُ لنا في صحائف الأَزَل، أو أدخلنا في عداد أتباعهم، فهو كناية عن الانضمام إلى الصَّالحين[1].

في انتقاء لفظ الكتابة دليلٌ على شِدَّة حِرصهم أن يكونوا في عِداد الصَّالحين

وفي اختيار الفعل (اكتُبْ) بما فيه من معاني الإلصاق والتثبيت[2]، دلالة على شِدَّة حِرصهم أن يكونوا في عِداد الصَّالحين ومن جملتهم، وذلك بتثبيت أسمائهم معهم عن طريق الكتابة؛ لأنَّها وسيلة التَّوثيق في العهود والمكاتبات[3].فـ" الكتابة تقيّد وتضبط ما يحتاج إلى تحقيقه وعلمه في ثاني حال"[4].

بلاغة الاستعارة في لفظ الشّهادة:

فائدة الاستعارة تشريفهم بالشهادة، وترسيخ يقينهم

الشاهد: هو المخبر عن الشيء مشاهدة: إما حسًّا، أو عقلًا، مبينًا حكمه، وأنه استعير للشهادة في الأحكام، والشاهدون ها هنا هم الذين على طريقة من قال فيهم: ﴿لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [البقرة: 143][5]. وفي الاستعارة مزيدُ تشريفٍ لهم، وطمأنينة ويقين لهم وللمؤمنين.

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(الرَّبّ)، و(الإله)، ولفظ الجلالة (الله):

الرَّبُّ: هو الَّذي أنشَأَ الشَّيْءَ حالًا فحالًا إلى حَدِّ التَّمام، أو قامَ على إصلاحِ شُؤونِه وتَوَلَّى أمرَه بانتظام، وهو لا يُطْلَقُ غيرَ مُضافٍ إلَّا على اللّهِ تعالى، وإذا أُطلق على غيرِه أُضِيفَ، كربِّ الإبل ورَبِّ الدَّارِ؛ أي: مالكها، فالرَّبُّ سبحانه هو المُتكفِّل بالخلائق أجمعين، إيجادًا وإمدادًا ورعايةً، وغير ذلك[6].أمّا الإلهُ: فمن أسماء الأجناس،

(1) الخفاجي، عناية القاضي: 3/29.
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (كتب).
(3) اللّحياني، الدُّعاء في القرآن الكريم، ص: 314.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/495.
(5) الراغب، تفسير الراغب: 2/586.
(6) الرَّاغبُ، المفردات، ص: 336، ابن الأثير، النِّهاية: 2/179.

كالرَّجل والفَرَسِ، يقعُ على كلِّ معبودٍ بحقٍّ أو باطلٍ[1]، وهو الَّذي تألهُهُ القُلُوبُ محبَّةً، وإجلالًا، وإنابةً، وإكرامًا، وتعظيمًا، وذلًّا، وخضوعًا، وخوفًا، ورجاءً، وتَوكُّلًا[2]. وأمَّا لفظ الجلالة (اللّه) فمختصٌّ بالمَعبود بحقٍّ، لا يُطلق على غيرِه[3]. واختيار القرآن على لسان الحواريين ﴿رَبَّنَآ﴾ بدل (إِلَهَنَا) أو (اللّه) لاستدرار عطاء اللّه المفهوم من معنى الرّبوبيّة عامّة، والّذي دَعَوْا به خاصّة.

الإيمان والإسلام:

الإيمان: التّصديق، وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤۡمِنٖ لَّنَا﴾ [يوسف: 17] أي: بمُصَدِّق[4]، وهو العِبادات القلبيَّة، كالإيمان باللّه واليوم الآخر، والإخلاص للّه ومحبته سبحانه وتعالى، والتَّوبة من الذُّنوب، والخشوع في الصَّلاة. وأمَّا الإسلام فيُقَال: فلانٌ مُسْلِم، أي: مُنْقَادٌ لأمر اللّه، مُخلِص له العبادةَ، وهو مرتبط بالعبادات الظَّاهرة كقراءة القرآن، وأداء الصَّلاة، وحجِّ البيت، وغير ذلك[5]. واختيار القرآن على لسان الحواريين ﴿ءَامَنَّا﴾ بدل (أَسلَمنَا) لإخبارهم بما وقر في قلوبهم ممّا لا يطّلع عليه أحد، حتّى يجتمع لهم صلاح الباطن بإخبارهم مع صلاح الظّاهر بعملهم الظّاهر، "وَاخْتلف أهل الْعلم فِي الْإِيمَان وَالْإِسْلَام، قَالَ بَعضهم: هما وَاحِد، وَفرّق بَعضهم بَينهمَا. وَفِي بعض الْأَخْبَار عَن النَّبِي قَالَ: «الْإِسْلَام عَلَانيَة، وَالْإِيمَان فِي الْقلب»[6]، وَعَن الزّهريّ: الْإِسْلَام هُوَ الْكَلِمَة، وَالْإِيمَان الْعَمَل. وَفِي خبر جِبْرِيل - صلوَات اللّه عَلَيْهِ- حَيْثُ جَاءَ يسْأَل عَن الْإِسْلَام وَالْإِيمَان، وَفرق الرَّسُول بَينهمَا، فَجعل الْإِسْلَام هُوَ الْأَعْمَال الظَّاهِرَة، وَالْإِيمَان هُوَ التَّصْدِيق الْبَاطِن "[7].

(أنزلَ) و(نَزَّل):

الإنزال يأتي عامًّا في نقل الشَّيء من عُلوٍّ إلى سُفل[8]، أمَّا التَّنزيل فليس على إطلاقه؛

(1) الزَّمخشريُّ، الكشَّاف: 1/6.
(2) ابن القيِّم، مدارج السَّالكين: 1/417.
(3) الزَّمخشريُّ، الكشَّاف: 1/6.
(4) الخليل، العين: (أمن).
(5) الأزهري، تهذيب اللُّغة: (سلم).
(6) الإمام أحمد، المسند، الحديث رقم: (12716)، والألباني، ضعيف الجامع الصغير، الحديث رقم: (5088).
(7) ا السّمعانّي، تفسير القرآن: 5/230.
(8) المناوي، التَّوقيف، ص: 64.

إذ حقيقة التَّنزيل في اللُّغة هو ترتيب الشَّيء، ووضعه منزِلَه[1]. فالهمزة في الإنزال للتَّعدية، أمَّا التَّنزيل فالتَّضعيف فيه للتَّعدية؛ وزاد التَّضعيف معنى التَّكرير.

واختيار القرآن على لسان الحواريين ﴿أَنزَلۡتَ﴾، بدل (نَزَّلۡتَ)، ليشمل كُلَّ أنواع الإنزال، وصوره، وأزمانه، وأماكنه، بخلاف (نَزَّلۡتَ)، فيكون إيمانهم بكلِّ وحي الله المنزل.

الإلحاق والاتِّباع:

الاتِّباع: لحُوق الشيء بمتقدِّم أو سابقٍ بلا فصلٍ، مع رِقَّةٍ ولين. ومنه: تَبِعَ الشَّيءَ: سارَ في أَثَره. واتَّبعه وأتْبعه وتَتَبَّعه: قَفَاه، كأنَّما لَحِق أو التصقَ به، وتَطَلَّبه متَّبعًا له[2]. والإلحاق: إدراك الشَّيء شيئًا كان يَسبقه مُتَّصلًا بأثنائه؛ كالبلح الأخضر في النَّخلة بعد أن تُتَمِّر، والثَّمر بعد الثَّمر، وَأَلحاقُ الكتاب مُتَّصلة بأثنائه[3]، واختيار القرآن على لسان الحواريين ﴿وَٱتَّبَعۡنَا﴾ بدل (لَحقنا) أو (التقينا)، يدلّ على أنّ المتبوعَ أهلُ فضل وسبق، وأنّ التابع فيه لين ورِقَّةٌ وحسن خلق، وأنّ التّابع متّصل بالمتبوع، لا ينفصل عنه، وهذا لا يدلُّ عليه "لَحِقْنَا" أو "الْتَحَقْنَا".

الرَّسول والنَّبيّ:

أَن النَّبِيَّ لا يكون إِلَّا صَاحب مُعْجزَة، وَقد يكون الرَّسُول رَسُولًا لغير الله تعالى فلَا يكُون صَاحب مُعْجزَة. والنُّبوّة يغلب عليها الإضافة إلى النَّبِي، فَيُقَال: نبوَّة النَّبِي؛ لِأَنَّهُ يسْتَحقّ مِنها الصِّفة، والرِّسالة تُضَاف إِلَى الله؛ لِأَنَّهُ المُرْسِل بهَا؛ وَلِهَذَا قال: برسالاتي، وَلم يقل: بنبوّتي. والرِّسالة جملَة من البَيَان يحملهَا القائم بهَا ليؤدّيها إِلَى غَيره. والنُّبوّة تَكْلِيف القيام بالرِّسالة[4].واختيار القرآن على لسان الحواريين ﴿ٱلرَّسُولَ﴾ بدل (النّبيّ) في دعائهم الله تعالى يدلّ على تعظيمهم الله بنسبة الرّسول إلى المرسل في المعنى، إذ التّقدير: (واتّبعنا رسولك الّذي أرسلته)، ولهذا توجّهواْ بالخطاب إلى الله تعالى، بعد خطابهم عيسى عليه السلام.

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (نزل).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقي: (تبع).
(3) المصدر نفسه: (لحق).
(4) العسكريّ، الفروق اللُّغويَّة، ص: 289.

﴿وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ ٥٤﴾ [آل عمران: 54]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

إثبات صفة المكر لله تعالى على ما يليق بجلاله وكماله

مناسبة هذه الآية مُرتبط بمكر كُفَّار بني إسرائيل الَّذين أحسَّ عيسى مِنهمُ الكُفر وهمُّوا بقتله، وجمعوا جموعَهُم للفَتْكِ به، فأبطل اللّه مَكرَهُم، فلم ينجحوا فيما دبّروا[1].أو: لمّا ذكر اللّه تعالى أولياءَه أتبعهُمْ أعداءَهُ[2] على طريقة القرآن في ذكر المتقابلات، "وسمّي مكراً من باب المشاكلة، ولهذا قال ﴿وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ﴾، أي أقواهم مكرًا، بحيث جعل تدميرهم في تدبيرهم".

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَمَكَرُواْ﴾ ﴿وَمَكَرَ﴾: من المكر وهو السَّتْرُ، يُقال: مَكَرَ اللَّيلُ: أي أَظْلَمَ، وسَتَر بظلمته ما فيه، واشتقاقُه من المَكْر، وهو شجر ملتفٌّ، ينتج عن التفافه ظلمة، تخيَّلوا فيه أنَّ المكرَ يلتفُّ بالمكورِ به، ويشتمل عليه، ثم أُطْلِقَ المَكْرُ على الخُبْث والخِداع، ومعناه: اختزانٌ رَقِيقٌ أو لَطِيفٌ، ومنه المكر المعروف، وعرّفه الخليل بأنّه احتيال في خُفْيَةٍ، وابن سيده بأنّه خديعة واحتيال، والرّاغب بأنّه صَرْف الغَير عمّا يقصِده بحيلة.

والأوفق نظرًا إلى الاستعمالات الحسيّة، أنّ المكر: تَدْبِيرٌ يُخْفَى ويُخْتَزَن لأَحْداثٍ أو أُمور، لتقع في المستقبل على نحو ما، فاختزان هذه الخطوات المعَدَّة للمستقبل، هو المكر[3]، ومعنى خَيْرُ المَاكِرِينَ: أقواهم مَكْرًا، وأنفذُهم كيدًا، وأقدرُهُم على إيصال الأثر مِن حيثُ

(1) ابن عطيَّة، المُحرَّر الوجيز: 1/442، الرَّازي، مفاتيح الغيب: 8/231، وحجازي، التَّفسير الواضح: 1/236.
(2) البقاعيُّ، دلالة البرهان القويم: 3/1043.
(3) الرَّاغبُ، المفردات، جبل، المعجم الاشتقاقي: (مكر).

لَا يحتسب[1]، ومَكَرُ بني إسرائيل: أنّهم وكّلواْ به من يقتله غيلة، وَمَكْرُ اللَّهِ: أن رفع عيسى إلى السّماء، وألقى شَبَهَهُ على من أراد اغتياله حتّى قتل بدلا عنه، وظنّ القوم أنّهم قتلوه[2]، ومن اللّطائف، ما ذكره صاحب البحر المحيط، قال: سأل رجل الجنيد، فقال: كيف رضي اللّه سبحانه لنفسه المكر، وقد عاب به غيره؟ فقال: لا أدري ما تقول، ولكن أنشدني فلان الظّهرانيّ:

وَيَقْبُحُ مِنْ سِوَاكَ الْفِعْلُ عِنْدِي *** فَتَفْعَلُهُ فَيَحْسُنُ مِنْكَ ذَاكَا

ثمّ قال: قد أجبتك إن كنت تعقل[3].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

مَكْرُ الله بكفرة بني إسرائيل، رَدٌّ لِكَيْدِهِمْ في نُحُورِهِمْ

لقد مَكَرَ الكافرُونَ مِن بني إسرائيل، إذ سَعَواْ في قَتْلِ عيسى عليه السلام، فمَكَرَ اللّهُ بهم فتركهم في ضَلالهم، وألقى شَبَهَ عيسى عليه السلام على رَجُلٍ آخر، فنجاه من مكرهم، وتركهم في ضَلالهم، واللّه خيرُ الماكرين؛ لأنَّه لا أشدّ ولا أعظم ولا أخفى من مكرِه تعالى بأعدائه[4]، "فقد طفقوا يكيدون له ويمكرون، في تلفيق شيء يحاربون به دعوته، لكنّ اللّه أبطل كيدهم، فلم ينجحواْ، واللّهُ أحكم المدبِّرين وأقواهم"[5].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

تَنَوُّع الأساليب في كَشْفِ مَكْرِ بني إسرائيل:

دلالـةُ العَطْفِ والإضـمـار في قوله: (ومكروا)

هو عَطْفٌ عَلَى جُمْلَةِ ﴿فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنۡهُمُ ٱلۡكُفۡرَ﴾ [آل عمران: 52]، وهُم كفَّارُ بني إسرائيل الَّذين أحسَّ منهم الكُفْرَ والغَدْرَ والمَكْرَ[6].

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 2/43، والطِّيبي، فتوح الغيب: 4/118.
(2) الأبياري، الموسوعة القرآنية: 9/229.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط في التّفسير: 3/175.
(4) المجاشعي، النُّكت في القرآن الكريم، ص: 179، الرَّازي، مفاتيح الغيب: 8/238، جماعة من علماء التَّفسير، المختصر في تفسير القرآن، ص: 75.
(5) القطّان، تيسير التّفسير: 1/197.
(6) الطِّيبي، فتوح الغيب: 4/118، ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 3/256.

وأمَّا ضَمير ﴿وَمَكَرُواْ﴾ فعَائِدٌ إِلَى مَا عَادَ إِلَيْهِ ضَمِيرُ ﴿مِنْهُمُ﴾ [آل عمران: 52]، وَهُمُ الْيَهُودُ. وَقَدْ بَيَّنَ ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ﴾ [الصَّف: 14][1].

دَورُ المشاكلة في تَوسيع المعنى

مَكْرُ اليَهودِ هُوَ تَدْبيرُهم لِأَخْذِ الْمَسيحِ، وَسَعْيُهُمْ لَدَى وُلَاةِ الْأُمُورِ لِيُمَكِّنُوهُمْ مِنْ قَتْلِه. وَمَكْرُ اللَّهِ بِهِمْ هُوَ تَمْثِيلٌ لِإِبْطَالِ اللَّهِ تَعَالَى مَسَاعِيَهُمْ في حَالِ ظَنِّهِمْ أَنْ قَدْ نَجَحَتْ مَسَاعِيهِمْ، وَهُوَ هُنَا مُشَاكَلَةٌ[2]، كما جَازَ إِطْلَاقُ الْمَكْرِ عَلَى فِعْلِ اللَّهِ تَعَالَى دُونَ مُشَاكَلَةٍ، كَمَا في قَوْلِه: ﴿أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ ٱللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾﴾ [الأعراف: 99][3].

ترتيبُ المَكرِ على الشّرط:

علّة مكر الله تعالى مجازاتهم على مكرهم

ترتيبُ المكر على الشَّرط في الآيتين السّابقتين يُفهم منه أنَّهم لمَّا علموا إحساسه بمكرهم خافوا غائلته فأعملوا الحِيلةَ في قَتْلِه، ثمَّ إنَّ مَكرهمُ تلاشى واضْمَحَلَّ بقوله: ﴿وَمَكَرَ ٱللَّـهُ﴾، أي: المحيط بكلِّ شيءٍ قُدْرَةً وعِلمًا[4]. فقوله ﴿وَمَكَرَ ٱللَّـهُ﴾: "مجازاتهم على مكرهم سمّى ذلك مكرًا؛ لأن المجازاة لهم ناشئة عن المكر"[5].

بلاغة الجناس، وردُّ الفاصلة على الصدر:

الجناس والردّ أكسبا التعبير جمالًا وحسنًا، وأحدثا ميلًا للنفس نحو التشوّق والإصغاء

وقد وقعَ في هذا التَّرتيب جناس اشتقاقٍ، فقد جانس بين لفظي ﴿وَمَكَرُواْ﴾ و﴿ٱلْمَـٰكِرِينَ﴾، فَهُم أرادوا قتلَهُ فنجَّاه الله مِن شَرِّهم، والله أقوى مَكْرًا بحيث جعل تدميرهم في تدبيرهم. كما وقع فيه بين الكلمتين ردٌّ للعجز على الصدر؛ إذ وافقت كلمة ﴿ٱلْمَـٰكِرِينَ﴾ وهي آخر كلمة في الكلام أوّل كلمة في صدره وهي ﴿وَمَكَرُواْ﴾. وهذان

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 3/257.
(2) المشاكلة: ذكْرُ الشيَّء بلفظ غيره لوقوعه في صحبته.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 3/257.
(4) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 4/418.
(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/495.

أكسبا التعبير جمالًا وحسنًا، وأحدثا ميلًا للنفس نحو التشوّق والإصغاء إلى المَكْرين، وطبيعتهما.

لفظ (المكر) بين الحقيقة، والمجاز المرسل:

المكر على الحقيقة التدبيرُ فيما يضرُّ الخصمَ، وعلى المجازِ العقوبةُ

قال القزويني: " تجوّز بلفظ المكر عن عقوبته؛ لأنه سببها.

قيل: ويحتمل أن يكون مكر الله حقيقة؛ لأن المكر هو التدبير فيما يضرّ الخصم وهذا محقَّق من الله تعالى باستدراجه إيّاهم بنعمه مع ما أعدّ لهم من نقمة"[1]. ففي لفظ (المكر) مجازٌ مُرسل، ذَكَر السَّببَ (المكر) وأراد ما يتسبَّب عنه من (العقوبة)، فالعلاقةُ سَببيَّة[2]. ويحتمل أن يكونَ مَكر الله حقيقة؛ لأنَّ المكر هو التَّدبير فيما يضرُّ الخَصْم، وهذا مُحَقَّقٌ مِنَ الله تعالى باستدراجه إيَّاهم بنعمه مع ما أعدَّ لهم من نقمه[3]. وذهب ابنُ عطيَّة الى أنَّ الفعل الثَّاني من الله مجازٌ، وأن الأوَّل حقيقةٌ[4].

الدَّلالةُ القرآنيَّة للفظة (المَكر):

المَكْرُ على إطلاقه لا يُعدُّ سوءًا؛ فمكر الله خيرٌ محضٌ، وصِفَةُ عَدْلٍ وكَمالٍ

المكْر كما يظهر من عبارات القرآن: هو التَّدبير الَّذي يجتهد صاحبه في إخفائه عمَّن يمكر به؛ ولذا نُسب المكر إلى الله تعالى، ولا يمكن أن يكون عمل الله تعالى إلَّا خيرًا؛ ولذا ذَكَر المكرَ موصوفًا بالسُّوء في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ [فاطر: 43]، فدلَّ هذا على أن مُطلق المكر لا يُعدُّ سوءًا، فمَكْر الفجَّار لإيذاء الأبرار لَا يمكن أن يكون خيرًا، ومَكْر الله تعالى لإحباط تدبير الأشرار لَا يتصوَّر إلَّا أن يكون خيرًا[5]، فَإِنْ كَانَ فِي المَكْرِ قُبْحٌ فَمَكْرُ

(1) القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة: ص 257.
(2) د.قاسم، علوم البلاغة، ص: 218.
(3) الصَّعيدي، بغيةُ الإيضاح: 3/467.
(4) ابن عطيَّة، المُحرَّر الوجيز: 3/432، الزُّحيليُّ، التَّفسير المنير: 14/274.
(5) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 3/1240.

اللَّهِ خَيْرٌ مَحْضٌ، وَلَكَ عَلَى هَذَا الْوَجْهِ أَنْ تَجْعَلَ ﴿خَيْرُ﴾ في الآية بِمَعْنَى التَّفْضِيلِ وَبِدُونِهِ[1].

أو المرادُ بمَكْرِ اللّه: عقوبته؛ وأُضيف إلى اللّه لَمَّا كان عقوبةَ الذَّنْب، فإن العرب تُسمِّي العقوبة على أي جهة كانت باسم الذَّنب الذي وقعت عليه العُقوبة[2].

بلاغة اظهار اسم الله الأعظم:

وجه الإظهار زيادة العَظَمَة وتربية المهابة وتأكيد المعنى

أَظهر لفظ الجلالة، وكرّره في قوله: ﴿وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ﴾ ولم يُضمر؛ لزيادة العَظَمَة وتربية المهابة وتأكيد المعنى، فلم يَقُل: ومَكَرَ اللّه وهو خَيرُ الماكرين؛ لئلَّا يُفهم الإضمار خُصوصًا من جهة ما، فقال: ﴿وَٱللَّهُ﴾ الَّذي له هذا الاسم الشَّريف فلم يُشارِكْهُ فيه أحدٌ بوجهٍ[3].

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

المَكْر والكَيْد:

المَكْرُ: إعمالُ الخَديعة والاحتيال، في هدم بناءٍ ظاهرٍ كالدُّنيا، والكيدُ إعمال الخُدعة والاحتيال في هدم بناءٍ باطنٍ كالتَّديُّن والتَّخلُّق وغير ذلك، فالمكر خديعة حسّ، والكيد خديعة معنى[4]، والمكرُ مِثل الكيد في أَنَّه لَا يكون إِلَّا مَعَ تَدَبُّرٍ وفِكْرٍ، إِلَّا أَنَّ الكيد أقوى من المَكْر، وَالشَّاهِد أَنَّه يتَعَدَّى بِنَفسِه، وَالمَكْر يتَعَدَّى بِحرفٍ، فَيُقَالُ: كادَهُ يكيده، ومَكَرَ بِهِ، وَلَا يُقَال: مَكَرَهُ. وَالَّذِي يتَعَدَّى بِنَفسِه أَقوى[5]، وهذا يعبّر عنه قوله تعالى: ﴿وَقَدۡ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ فَلِلَّهِ ٱلۡمَكۡرُ جَمِيعٗاۖ﴾ [الرعد: 42] أي: مكره ينقض مكرهم ويمنعه، وكيده يفسخ كيدهم[6].

---

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 3/256.
(2) السَّمين، الدُّر المصون: 5/393.
(3) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 4/418.
(4) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 4/419.
(5) العسكري، الفروق اللُّغويَّة، ص: 259.
(6) الماتريديّ، (تأويلات أهل السّنة): 6/62.

﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِۖ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ۝٥٥﴾ [آل عمران: 55]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

رفعُ عيسى عليه السلام عنايةٌ مِن الله تعالى، وردٌّ لكيد الكافرين:

بيان مكر الله بهم

الآيةُ تحكي أَمر رَفْعِ المَسِيحِ وَإِخْفَائِهِ عَنْ أَنْظَارِ أَعْدَائِهِ، بعد أن قَدَّمَ الله تعالى في خِطَابِهِ إِعْلَامَهُ بِذَلِكَ اسْتِئْنَاسًا لَهُ، إِذْ لَمْ يَتِمَّ مَا يَرْغَبُهُ مِنْ هِدَايَةِ قَوْمِهِ، مَعَ الْعِلْمِ بِأَنَّهُ يُحِبُّ لِقَاءَ اللَّهِ وَتَبْشِيرًا لَهُ بِأَنَّ اللَّهَ مُظْهِرٌ دِينَهُ؛ لِأَنَّ غَايَةَ هَمِّ الرَّسُولِ هُوَ الْهُدَى وَإِبْلَاغُ الشَّرِيعَةِ[1]، وقد أحسّ عيسى من بني إسرائيل الكفر، والتّبييت، والتّآمر لقتله، فطمأن الله عيسى إلى نهاية المعركة[2]، وأنّ تلك سنّته في نصرة عباده، وحماية أوليائه الصّالحين.

وفي الآية بيان مكر الله تعالى بهم في الدّنيا والآخرة، وتفصيل ذلك إثر ذكر مكر الله بهم في الآية السّابقة، على سبيل الإجمال، وما ذكرت تفاصيله تفريعًا، كان أمعن في التّهديد، وأبلغ في الوعيد.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مُتَوَفِّيكَ﴾: وَفَى: كَلِمَةٌ تَدُلُّ عَلَى إِكْمَالٍ وَإِتْمَامٍ، أو تَدُلُّ عَلَى نُمُوٍّ وزيادةٍ، يبلغُ بها الشيء تَمَامَهُ، فالْوَفَاءُ: إِتْمَامُ الْعَهْدِ وَإِكْمَالُ الشَّرْطِ، وَتَوَفَّيْتُ الشَّيْءَ وَاسْتَوْفَيْتُهُ إِذَا أَخَذْتَهُ كُلَّهُ، حَتَّى لَمْ تَتْرُكْ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/257 - 258.
(2) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 3/1500.

مِنْهُ شَيْئًا، وَمِنْهُ يُقَالُ لِلْمَيِّتِ: تَوَفَّاهُ اللّه، لأنّه استوفى ما كتبه اللّه له في حياته[1]، وفي ﴿مُتَوَفِّيكَ﴾ أقوال: أحدها: قابِضُكَ برفعك من الأرض إلى السَّماء، غير وفاة موت. الثَّاني: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ﴾ وفاة نَوْمٍ؛ لأرفعك إلى السَّماء، أي: رفعه نائمًا. الثَّالث: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ﴾ وفاة موت. قيل: أماته ثلاث ساعات[2]، وفي التّفسير الكبير، ذكر الرّازيّ، بأنّه يلمح أنّ " التّوفّي أخذ الشّيء وافياً، ولمّا علم اللّه أنّ من النّاس من يخطر بباله أنّ الّذي رفعه اللّه هو روحه لا جسده، ذكر هذا الكلام، ليدلّ على أنّه ﷺ رفع بتمامه إلى السّماء بروحه وبجسده"[3]، وهو ما يشبه تعبير اللّه عن تأكيد وقوع الإسراء بالرّوح والجسد، لا بالرّوح وحدها، في قوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾ [الإسراء: 1]، إذ أنّ ذكر لفظ ﴿بِعَبْدِهِۦ﴾، يفيد أنّ الإسراء قد كان بهما معا، لا بالرّوح وحدها كما يدّعي بعض المنكرين للحادثة.

2) ﴿وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾: الرّفع: نَقْلُ الشَّيْءِ مِن سُفلٍ إلى عُلُوٍّ بجذبه مِن أعلى أو دفعه من أسفل[4]، وقوله: إِلَيَّ، إضافةُ تشريفٍ[5]، "والرّفع يكون تارة في الأجسام الموضوعة إذا أعليتها عن مقرّها، نحو: ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ ٱلطُّورَ﴾ [النّساء: 154]، وتارة في البناء إذا طوّلته ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ﴾ [البقرة: 127]، وتارة في الذِّكر إذا نوّهته، نحو قوله: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۝٤﴾ [الشّرح: 04]، وتارة في المنزلة إذا شرّفتها، نحو قوله: ﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ﴾ [الزّخرف: 32] "[6].

3) ﴿وَمُطَهِّرُكَ﴾: الطُّهْرُ: نَقَاءٌ وَزَوَالُ دَنَسٍ، أو: نقاء الشيء مما يُدَنِّسُهُ أو ممَّا يُتَأَذَّى به[7]، فطهَّر اللّه العظيمُ نَبِيَّهُ عيسى من دعاوي الكَفَرَة ومعاشرتهم القبيحة له[8]، ومعنى ﴿وَمُطَهِّرُكَ﴾: "أي مخرجك من جملتهم، ومنزّهك أن تفعل فعلهم، وعلى هذا: ﴿وَيُطَهِّرَكُمْ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، جبل، المعجم الاشتقاقي: (وفى).
(2) المجاشعي، النُّكت في القرآن، ص: 179 - 180.
(3) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 8/237.
(4) جبل، المعجم الاشتقاقي: (رفع).
(5) الرّاغبُ، المفردات: 2/418.
(6) سميح عاطف الزّين، تفسير مفردات ألفاظ القرآن الكريم، مادّة: (رفع).
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة، جبل، المعجم الاشتقاقي: (طهر).
(8) ابن عطيَّة، المُحرَّر الوجيز: 1/444.

تَطۡهِيرٗا ﴿٣٣﴾ [الأحزاب: 33] "[1]، وقوله تعالى: ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [الواقعة: 79]، تعني: "أنّه لا يبلغ حقائق معرفته إلّا من طهّر نفسه، وتنقّى من درن الفساد"[2].

4) ﴿وَجَاعِلُ﴾: الجعل: تحويل الشّيء إلى وضع أو هيئة معيّنة، وهو في القرآن يكون للتّحويل والتّهيئة على وضع، أو للخلق، وهو تحويل للهيئة بإنشاء هيئة جديدة[3]، والْجَعْلُ هنا بِمَعْنى الحُكم بالشَّيْء على الشَّيْء حَقًّا[4]، وجَعَل: أي صيّر، قال الله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامٗاۖ﴾ [البقرة، 124][5].

5) ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ﴾: الاتّباع: التُّلُوُّ وَالْقَفْوُ، يُقَال: تَبِعَ فلَانٌ فلَانًا واتَّبعه، وتَبِعَهُ واتَّبَعَهُ: قفاه[6]، وتارة يكون بالجِسم، نحو: تبعته في الطَّريق واتبعته فيها، وتارة بالامتثال، ومعناه في الآية الاتِّباع في الدِّين والشَّريعة، وهم المسلمون؛ لأنَّهم مُتبّعوه في أصل الإسلام، وإنِ اختلفتِ الشَّرائع[7].

6) ﴿فَوۡقَ﴾: الفَوْقُ والإِفَاقَةُ ونحوُهما: فراغٌ يعلو الشَّيْءَ أو عُلُوٌّ معَ فَرَاغٍ[8]، وهم الّذين مكروا بعيسى عليه السلام ومن تَبِعَهُم من اليهود والنّصارى، فإنَّ أهلَ الإسلام فوقهم ظاهرين بالعِزَّة والمَنَعة والحُجَّة[9].

7) ﴿مَرۡجِعُكُمۡ﴾: الرَّجْعُ والرُّجوعُ: تحوّلٌ عن اتِّجَاهٍ أو حَالٍ إلى عكسه بِعَوْدٍ أو رَدٍّ وتَكرارٍ[10]، والمرجع: موضع الرُّجوع، أي إلى حكمي وعدلي[11]، والمعنى في الآية إليّ معادكم ومصيركم يوم يؤوب النّاس إليّ، ويجتمعون في عرصات القيامة، لاستيفاء حسابهم وجزائهم، بدقّة وعدل وإنصاف.

---

(1) سميح عاطف الزّين، تفسير مفردات ألفاظ القرآن الكريم، مادّة: (طهر).
(2) الزّين، المرجع السّابق، مادّة: (طهر).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقي: (جعل).
(4) الكفوي، الكُلِّيّات، ص: 347.
(5) الجِمْبِرَيّ، شمس العلوم: 2/1115.
(6) الأزهري، تهذيب اللُّغة، ابن فارس، مقاييس اللّغة، الرَّاغبُ، المفردات: (تبع).
(7) أبو حيَّان، البحر المحيط: 3/177، السَّمين، عُمدة الحفَّاظ: 1/268.
(8) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (فوق).
(9) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 2/44.
(10) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (رجع).
(11) ابن عطيَّة، المُحرَّر الوجيز: 1/445، والسَّمين، عُمدة الحفَّاظ: 1/139.

8) ﴿فَأَحْكُمُ﴾: أصل الحكم المنع، أو: ضَبْطٌ يمنع من حدوث تسيّب أو خلل، ومن الضّبط ومنع التّسيّب الحُكْمُ: بمعنى القَضَاء، لأنّ القاضي يَضْبط أمر كلّ من الفريقين، مانعًا أن يدخل أيّ منهما على الآخر في حَقِّهِ، والحاكم: السّلطان هو من الضّبط العامّ[1]، والحكمُ مصدرُ حَكَمَ يَحكُمُ، ومعناهُ القَضاء بالشَّيء أن يكونَ كذا أو ليس كذا، فالْحُكْمُ فِيمَنْ كَفَرَ هُوَ أَنْ يُعَذِّبَه اللّه عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَأَمَّا الْحُكْمُ فِيمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ الصَّالِحَاتِ، فَهُوَ أَنْ يُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ[2].

9) ﴿تَخْتَلِفُونَ﴾: الاختلافُ: أَن يأخذَ كُلُّ واحدٍ طريقًا غَير طريقِ الآخر في حَالِهِ أو قَولِهِ، والاِخْتِلَافُ في الآية هُوَ أَنْ كَفَرَ قَوْمٌ وَآمَنَ آخَرُونَ[3].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

العنايةُ الإلهيّة بعيسى عليه السلام، بإكرامه وحفظه من مكر أعدائه:

مَكَرَ اللّه بالكافرين أيضًا حين قال مخاطبًا عيسى عليه السلام: يا عيسى، إنِّي قَابِضُك من غَير موتٍ، ورافعٌ بدَنَكَ وروحَكَ إليَّ، ومُنزِّهُك من رِجْس الَّذين كفروا بِكَ ومُبعِدُك عنهم، وجاعل الّذين اتَّبعوك على الدِّين الحقّ، ومنه الإيمان بمحمَّد صلى الله عليه وسلم، فوق الَّذين كفروا بك إلى يوم القيامة بالبُرهان والعِزَّةِ، ثمَّ إليَّ وحدي رجوعكم يوم القيامة، فأحكم بينكم بالحقِّ فيما كُنتم فيه تختلفون[4]، وهو تأكيدٌ منه تعالى على أنّه رافعُ المسيح إلى محلّ كرامته، ومنجيه من أعدائه الّذين قصدوا قتله، وجاعل المتّبعين له، الّذين لم ينحرفوا عن دينه، ظاهرين بالقوّة والسّلطان على الّذين لم يهتدوا بهديه إلى يوم القيامة، ثمّ يكون مصيرهم إليه في الآخرة، وبذلك يقضي بينهم فيما تنازعوا فيه[5]، من أمر الدّين، ممّا وقع فيه الاختلاف عبر التّاريخ، واللّه هو الّذي يملك الفصل في ذلك الخلاف، ويحدّد معالمه ومآلاته.

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (حكم).
(2) الرّازي، مفاتيح الغيب: 8/440، والسَّمين، عُمدة الحفّاظ: (حكم).
(3) الرَّاغبُ، المفردات، ص: 295، الرَّازي، مفاتيح الغيب: 8/440.
(4) الرَّازي، مفاتيح الغيب: 8/237، الآلوسيُّ، روح المعاني: 2/185، جماعة من العلماء، المختصر في تفسير القرآن، ص: 57.
(5) لجنة من علماء الأزهر، المنتخب في تفسير القرآن الكريم، ص: 79.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالةُ نداء العَين في قوله تعالى: ﴿يَٰعِيسَىٰٓ﴾:

نـــداء الـعـين إشعارٌ بالتَّحبب والـتَّـقـرُّب، وترقيقٌ للكلام مع نبيّهِ

نداء الله تعالى بعض أنبيائه ورسله بأسمائهم يُطلق عليه نداءُ العَين، وهو نداءٌ غرضه التَّعظيم والتَّشريف وعلوّ المنزلة والاسْتِئْنَاس، فإنَّ القرآنَ يُكَرِّم من يتوجَّه إليه بالنِّداء. وعندما ينادي عيسى باسمه المُجرَّد: ﴿يَٰعِيسَىٰٓ﴾، فهذا يُشعر بالتَّحبب والتَّقرُّب؛ وبما أنَّ المناسبة هنا مناسبة وفاةٍ فلا بدَّ أن يُرَقِّقَ الكلام معه، ففي هذا الموضع لا يحتاج إلى أن يذكُر أمَّه، كما في قوله: ﴿يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ﴾ [المائدة: 110، و112، و116][1].

نكتةُ توكيد جملة التَّوفّي، والرّفع:

التأكيدُ في مَقام التَّشريف يزيدُ المخاطَبَ تشريفًا

قَوْلُهُ: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ تأكيدٌ للخَبَر بـ (إنّ) واسميَّة الجُملة، وفائدته ترسيخ حصول فعل (التوفّي، والرّفع)، وإنه تعالى فاعله، فلا يشكّكنَّ أحدٌ، أو يكذّبَنَّ الخبرَ. وفيه مزيدُ تشريفٍ لعيسى عليه السلام؛ فـ" التأكيد في مقام التشريف يزيد المخاطب تشريفًا"[2].

قصديّة التعبير بلفظ التوفّي:

سعة معنى لفظ الـتـوفّي يناسب غموض طبيعة الاسـتـيـفـاء وطريقته

ظَاهِرُ مَعْنَى (التوفّي): الإماتَةُ، هَذَا هُوَ مَعْنَى هَذَا الْفِعْلِ في مَوَاقِعِ اسْتِعْمَالِهِ غالِبًا؛ لِأَنَّ أَصْلَ فِعْلِ تَوَفَّى الشَّيْءَ أَنَّهُ قَبَضَهُ تَامًّا وَاسْتَوْفَاهُ، وهو وجهٌ من وجوه تفسير اللفظة وغيرها من الوجوه كثيرٌ أوردها الرازي في تفسيره، وأشهرها الرّفع إلى السماء[3]. باختلاف ألفاظ التعبير عنه، فـ" يجوز أن يكون معنى ﴿مُتَوَفِّيكَ﴾: آخذك إليّ من غير أن يصلوا منك إلى محجم دم"[4]، أو"مستوفي أجلِك ومؤخِّرُك إلى أجلك المسمَّى عاصِماً لك من قتلهم أو قابضُك من الأرض، من: توفيتُ

(1) الزَّركشي، البرهان: 2/228، ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 3/258.
(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/362.
(3) الرازي، مفاتيح الغيب: 8/237 - 238.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 4/421.

مالي أومتوفيك نائماً"[1]. وذهب ابن عاشور إلى أنّ آيَةُ الْمَائِدَةِ: ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ﴾ [المائدة: 117]؛ تدُلُّ عَلَى أَنَّهُ قَدْ تُوُفِّيَ الْوَفَاةَ الْمَعْرُوفَةَ الَّتِي تَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَبَيْنَ عِلْمِ مَا يَقَعُ فِي الْأَرْضِ، ليرجِّحَ أَنَّهَا وَفَاةُ مَوْتٍ، ولا وجه لحمل الفعل على معنى النَّوْمِ، والرَّفْعِ[2].

وجه تفسير التوفّي على طريق التقديم والتأخير:

ترتيب الجملة أنّ التوفّي يكون بعد الرفع والإنزال في آخر الزمان

من وجوه تفسير لفظ (التوفّي) في قَوْلِهِ: ﴿مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾: التقديمُ والتأخيرُ، قالوا: إنّ قوله: ﴿وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ يقتضي أنّه رفعه حيًّا، والواو لا تقتضي الترتيب، ففي الجملة تقديم وتأخير، والمعنى: أني رافعك إليَّ ومطهّرك من الذين كفروا، ومتوفّيك بعد إنزالي إيّاك في الدُّنيا[3].

دلالة الاستعارة التَّصريحية في لفظ التوفّي:

وجه الاستعارة تشبيه النَّومَ بالوفاة بجامع السُّكون وعدم الحركة والإدراك

إِطْلَاق التَّوَفِّي على النَّوم في قوله: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ﴾ استعارةٌ، حيثُ شَبَّه النَّومَ بالوفاة بجامع السُّكون وعدم الحركة والإدراك في كلٍّ مِن النَّوم والوفاة، وحذَفَ المُشبَّه وهو النَّوم، وأبقى المُشبَّه به، وهو الوفاة على سبيل الاستعارة التَّصريحيَّة، وذلك على قول مَن فَسَّر التَّوَفِّي في الآية بالنوم، وفيه كناية إيمائية؛ وذلك لأنَّ عِصمة نبيّ الله مِن قتل الكفَّار من لوازم الموت حتف الأَنْف.

عِلَّة العُدول عَنْ لَفظ (عَاصِمُكَ) إلى ﴿مُتَوَفِّيكَ﴾:

كلامُ الله تعالى مظهرٌ من مظاهر عظيم قُدرَتِهِ في بيان رعايته لعبده عيسى وخِذلانه لأعدائه

عَبَّر بلفظ ﴿مُتَوَفِّيكَ﴾؛ ليؤذن بعِصمة خارقة للعادة خارجة ممَّا عليه المتعارف، فإنَّ رُوحَ الله لمَّا خاف مَعَرَّة الأعداء، وقَتْلَهُمْ إيَّاه قِيل له: لا تخف، فإنَّهم لن يقتلوك أبدًا ولن يصلوا إلى مُتمنّاهم[4]. فالعصمة منعٌ فَحَسْب، أمّا التوفّي فمنعٌ بفعلٍ مُعجِزٍ.

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 2/43.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 3/258.
(3) الرازي، مفاتيح الغيب: 8/238، وأبو حيَّان، البحر المحيط: 8/238.
(4) الطِّيبي، فتوح الغيب: 4/120.

بلاغة الكناية في لفظ التطهير:

إخراجُ عيسى مِن بين قومه سالماً هو تطهيرٌ من دَنَس الكافرين

لقد عَظَّمَ اللّه تعالى شَأْنَ عيسى بِلَفْظِ الرَّفْعِ إِلَيْهِ، كما أَخْبَرَ عَنْ مَعْنَى التَّخْلِيصِ بِلَفْظِ التَّطْهِيرِفي قوله: ﴿وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾؛ مُبالغةً في إِعْلَاءِ شَأْنِه، وَتَعْظِيم مَنْصِبِهِ عِنْدَه تَعَالَى[1]. وجَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا دَنَسًا وَنَجَسًا فَطَهَّرَهُ مِنْهُمْ، لِأَنَّ صُحْبَةَ الْأَشْرَارِ، وخِلْطَةَ الْفُجَّارِ تَتَنَزَّلُ مَنْزِلَةَ الدَّنَسِ في الثَّوْبِ، وَالْمَعْنَى: أَنَّهُ تَعَالَى يُخَلِّصُهُ مِنْهُمْ، فَكَنَّى عَنْ إِخْرَاجِهِ مِنْهُمْ وَتَخْلِيصِهِ بِالتَّطْهِيرِ[2]؛ فهو تطهيرٌ من كلّ رجسٍ معنويٍّ أو حسّيٍّ، ومن كلّ أذًى حسّيٍّ أو معنويٍّ[3].

إيثارُ لفظ التّطهير على التّخليص:

في لفظ التّطهير رفعةٌ للمخاطَب، وتعظيمُ شأنٍ

نقل أبو حيان عن أبي مسلم أنّه قال: " التَّخليص، والتَّطهير واحد، إلّا أنّ لفظ التّطهير فيه رفعة للمخاطب، كما أنَّ الشهود والحضور واحد، وفي الشهود رفعة. ولهذا ذكره اللّه في المؤمنين، وذكر الحضور والإحضار في الكافرين"[4].

سرُّ العدول إلى الإظهار دون الإضمار:

في الإظهار إِشَارَةٌ إِلَى عِلَّةِ الدَّنَسِ وَالنَّجَسِ؛ وَهُوَ الْكُفْرُ

وَأَتَى بِلَفْظِ الظَّاهِرِ لَا بِالضَّمِيرِ مُمَهَّدًا بالاسم الموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾ وَهُوَ: ﴿وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ ولم يقل: (منهم)؛ إِشَارَةً إِلَى عِلَّةِ الدَّنَسِ وَالنَّجَسِ؛ وَهُوَ الْكُفْرُ، وترسيخ بالموصول لكونه فيهم، كَمَا قَالَ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ [التوبة: 28]، وَكَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ: «إِنَّ الْمُؤْمِنَ لا يَنْجُسُ» ليجعل عِلَّةَ تَطْهِيرِهِ الْإِيمَانَ[5].

دلالةُ كاف الخطاب في لفظ: ﴿ٱتَّبَعُوكَ﴾:

الْكَافُ في قوله: ﴿وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ﴾ ضَمِيرُ عِيسَى عليه السلام،

(1) الرّازي، مفاتيح الغيب: 8/238.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/178.
(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 3/1245.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/178.
(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/178، الحديث رواه البخاري، الصحيح، الحديث رقم: (285)، ومسلم، صحيح مسلم، الحديث رقم: (371).

كَالْكَافِ السَّابِقَةِ فِي الآيَةِ. وَقِيلَ: هُوَ خِطَابٌ لِلنَّبِيِّ ﷺ، وَهُوَ مِنْ تَلْوِينِ الْخِطَابِ[1].

استحضارُ ضمير المخاطب من تلوين الخطاب

علّة التعبير بلفظ الفوقيَّة:

تحتمل لفظة ﴿فَوْقَ﴾ في قوله: ﴿فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ فوقيَّة الإدراك، والإيمان، والإخلاص؛ وذلك لأنَّ سبب الفوقيَّة هو الاتّباع، والمُسبّب من جنس السّبب، فالسّبب معنويٌّ روحيٌّ، فالفوقيَّة روحيَّة معنويَّة، وهو ما يُضعف فوقيَّة السيف والسِّنان، ويقويّ فوقيّة الحجة والبرهان[2]. وتحتمل فوقيّة الحجّة والسِّنان وهو ما رجّحه الزَّمخشري بقوله: "يَعلُونهم بالحُجَّة، وفي أكثر الأحوال بها، وبالسَّيف"[3]، فهي فوقيّة بالحجة، والبرهان، والعزة، والمنعة، والغلبة[4]. وذهب ابنُ عاشور إلى أنَّها فَوْقِيَّة دُنْيَوِيَّة بِدَلِيلِ قَوْلِهِ: ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾[5]. فإذا انحرف المنسوبون لعيسى، وظهر الفَساد فيهم بمعاصيهم، ومخالفتهم له، لم يُستنكر تخلُّف هذا الوعد الرَّباني الكريم لتَخلُّف شَرْطِه، وعندئذٍ لم يكن هناك مانعٌ من تسليط عدوهم عليهم؛ عقوبةً لهم وتذكيرًا.

الفوقيَّة روحيَّة معنويَّة بالإدراك، والإيمان، والإخلاص، والحجّة، والبرهان؛ وحسّية بالعزّة، والمنعة، والغلبة

فائدةُ حَذف مُتَعَلِّق الفعل ﴿كَفَرُواْ﴾:

أوجز في الخطاب بعدم ذكر مُتعلِّق الفعل ﴿كَفَرُواْ﴾؛ وذلك لِظُهُورِهِ، وتقديره: الَّذِينَ كَفَرُوا بِكَ وَهُمُ الْيَهُودُ؛ لِأَنَّ الْيَهُودَ مَا كَفَرُوا بِاللَّهِ بَلْ كَفَرُوا بِرِسَالَةِ عِيسَى؛ ولأَنَّ عِيسَى لَمْ يُبْعَثْ لِغَيْرِهِمْ، فَتَطْهِيرُهُ لَا يُظَنُّ أَنَّهُ تَطْهِيرٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ بِقَرِينَةِ السِّيَاقِ[6].

استغنى بالمذكور للإيجاز، ولظهور المعنى

(1) أبو حيَّان، البحر المحيط: 3/178.
(2) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 3/1245.
(3) الزَّمخشري، الكشاف: 1/367.
(4) أبو حيَّان، البحر المحيط: 3/179.
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 3/260.
(6) المصدر نفسه: 3/259.

دلالة الغاية في جعل الفوقيّة:

دلّت الغاية في قوله تعالى: ﴿وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِۖ﴾ على أنَّ الجَعْلَ هو المُقدَّرُ زمنُهُ في الظَّرف ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِۖ﴾، لا على مَعْنى أنَّ الجَعْلَ أو الفوقيَّةَ تنتهي حينئذٍ ويتخلَّص الكفرةُ من الذِّلَّة؛ بل على مَعْنى أنَّ المسلمين يعلُونَهم إلى تلك الغاية، فأمَّا بعدها فيفعل اللّه تعالى بهم ما يريد[1].

إنّ الجَعْلَ هو المُقدَّرُ زمنُهُ إلى يوم القيامة، ولا يعني هذا تخلّص الكفرة من الذلّة

بلاغةُ الالتفات في الآية:

وقع الالتفاتُ في الآية الكريمة من ضمير الغائب في قوله تعالى: ﴿فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾، إلى المخاطب في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾؛ ليدُلَّ على شِدَّة إرادة إيصال الثَّواب والعِقاب؛ لدلالة الخطاب على الاعتناء، فإنَّه أبلغ في التَّبشير والإنذار[2].

الالتفات إلى الخطاب أبلغُ في الاعتناء، والتَّبشير، والإنذار

الآية تُخاطب عيسى عليه السلام بوفاته ورفعه إلى السَّماء والتَّطهير من الكفَّار، لذلك كان الأَولَى أن يكون غَيْبًا، بَيْدَ أنَّ الموضوع يخصُّ الجميع ولا أحد يستطيع الفرار من المصير، فأتى الخطاب المباشر، لهذا تحوَّل الأسلوبُ من صيغة الغيبة إلى الخِطاب[3]، فعَدَل عن الغَيْبَة إلى الخطاب؛ لتَغليب الحاضر على الغائب، لمَّا دخل معه في المعنى، وهو محمَّد ﷺ. ووجه اتصال هذا الكلام بما قبله من المعنى: كأنَّه قيل: أمَّا الدُّنيا: فالحال فيها ما ذكرنا، وأمَّا الآخرة: فيقع فيها الحكم في اختلافكم في الدِّين وأمر عيسى[4].

الالتفات مناسَبةٌ للخطاب في السّياق غيبةً، وحضورًا

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 2/44.
(2) أبو حيَّان، البحر المحيط: 3/180، أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 2/44.
(3) مقري، النَّص القرآني وبلاغة الأداء، ص: 153.
(4) الواحدي، البسيط: 5/308.

الغرَض من تقديم الجار والمجرور:

تقدَّم الجار والمجرور ﴿إِلَيَّ﴾ من قوله تعالى: ﴿إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ﴾ للحصر المفيد تأكيد الوَعد والوَعيد[1].

دلالـة التقديم حَـصْـرُ المرجع إليـه، وتوكيد وعده ووعيده

دلالةُ الخِطاب في الفاصلة:

ورد التَّعبير بلَفْظَة: ﴿إِلَيَّ﴾، ولَفْظَة: ﴿فَأَحْكُمُ﴾ في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ﴾، بِضَمِيرِ الْمُتَكَلِّمِ؛ لِيُعْلَمَ أَنَّ الْحَاكِمَ هُنَاكَ مَنْ لَا تَخْفَى عَلَيْهِ خَافِيَةٌ في الأرض ولا في السَّماء، وَأَتَى بِالْحُكْمِ مُبْهَمًا، ثُمَّ فَصَّلَ الْمَحْكُومَ بَيْنَهُمْ - بحسب ما سياتي في الآية القادمة - إِلَى: كَافِرٍ وَمُؤْمِنٍ، وَذَكَرَ جَزَاءَ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ[2].

الخطاب بضمير المُتكلِّم دليلُ هيمنته سبحانه فهو الحَاكِمُ الذي لَا تَخْفَى عَلَيْهِ خَافِيَةٌ

وجْه التّعبير بضمائر المُخاطبين:

الظَّاهِرُ أَنَّ هَذِهِ الْجُمْلَةَ مِمَّا خَاطَبَ اللهُ بِها عِيسَى، وَأَنَّ ضَمِيرَ ﴿مَرْجِعُكُمْ﴾ وَمَا مَعَهُ مِنْ ضَمَائِرِ الْمُخَاطَبِينَ، عَائِدٌ إِلَى عِيسَى وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِهِ، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ خِطَابًا لِلنَّبِيِّ ﷺ وَالْمُسْلِمِينَ، فَتَكُونَ ﴿ثُمَّ﴾ لِلانْتِقَالِ مِنْ غَرَضٍ إِلَى غَرَضٍ، زِيَادَةً عَلَى التَّرَاخِي الرُّتْبِيِّ وَالتَّرَاخِي الزَّمَنِيِّ[3].

توجيه الكلام لعيسى عليه السلام وأتباعه، أو لِلنَّبِيِّ ﷺ وَالْمُسْلِمِينَ

التَّعبير بدلالة العُموم في قوله: ﴿مَرْجِعُكُمْ﴾:

القَصدُ من قوله: ﴿مَرْجِعُكُمْ﴾ الْإِخْبَارُ بِالْقِيَامَةِ وَالْحَشْرِ؛ فَلِذَلِكَ جَاءَ اللَّفْظُ عَامًّا مِنْ حَيْثُ الْأَمْرُ في نَفْسِهِ لَا يَخُصُّ عِيسَى وَحْدَهُ، فَخَاطَبَهُ كَمَا يُخَاطِبُ الْجَمَاعَةَ، إِذْ هُوَ منها، وَإِذْ هِيَ مُرَادَةٌ فِي الْمَعْنَى[4].

جَـاءَ اللَّـفْـظُ عَـامًّـا؛ لكون الْأَمْـر فِي نَفْسِهِ لَا يَخُصُّ عِيسَى وَحْدَهُ

فاعلية التَّناسب بين الصَّوت والدَّلالة:

في هذا الخطاب مَلْمحٌ دقيقٌ في ثلاثة مواضع مُتتالية للإظهار

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 2/44.
(2) أبو حيَّان، البحر المحيط: 3/180.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 3/260.
(4) ابن عطيَّة، المُحرَّر الوجيز: 1/445.

الدَّلالة الصَّوتيَّة للإظهار الشَّفوي تكشف عن رجوع الخَلْقِ كُلّهم إلى الله تعالى وحده

الشَّفَويِّ الأشدُّ إظهارًا، جاءَ على صُورةٍ واحدةٍ، وهو إظهار الميم السَّاكنة عن الفاء، وهذا التَّعبير يحمل بيانًا واضحًا وتأكيدًا جازمًا على معنى الآية، وهو رجوع الخَلْقِ كُلّهم إلى الله تعالى وحده، فيحكم بينهم بالعدل فيما اختلفوا فيه، ﴿وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرًاۗ وَلَا يَظۡلِمُ رَبُّكَ أَحَدٗا ٤٩﴾ [الكهف: 49].

بلاغة تقديم الجارّ والمجرور في الفاصلة:

في التّقديم اختصاصٌ، واهتمامٌ، وتشويقٌ، ورعايةٌ للفَاصِلَة

في قوله تعالى: ﴿فَأَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ فِيمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ﴾ قدَّمَ الجار والمجرور ﴿فِيهِ﴾ عَلى مُتعلّقِه ﴿تَخۡتَلِفُونَ﴾ للاهتمام بالمُقدَّم والتَّشويق للمُؤخَّر، ولاختصاص الله تعالى بذلك، وقصر الرّجوع إليه سبحانه وحده، أي: إليَّ وحدي، وليس إلى أحد غيري؛ إلى جانب رِعاية الفواصل[1].

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الوَفَاة والموت:

الموتُ عبارةٌ عن زوال القوَّة الحيوانيَّة، وإبانة الرُّوح عن الجسَد[2]، أمَّا الوفاة فهي أعمُّ مِنَ الموتِ، فهناك الوفاة الصُّغرى، وهي النَّوم، فإنْ نام الإنسانُ خرجت روحُه من جَسَده إلى أجلٍ مُسمًّى، فإن كُتب لها العودةُ عادت، وإلَّا فارقت جسدَها، ورحلت عنه إلى الأَبَدِ؛ مصداقًا لقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلۡأَنفُسَ حِينَ مَوۡتِهَا وَٱلَّتِي لَمۡ تَمُتۡ فِي مَنَامِهَاۖ فَيُمۡسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيۡهَا ٱلۡمَوۡتَ وَيُرۡسِلُ ٱلۡأُخۡرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّىۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ٤٢﴾ [الزمر: 42]، وكلُّ مُتَوَفًّى مَيِّتٌ، وليس كُلُّ مَيِّتٍ مُتَوفًّى. ولم يتحدث القرآن عن عيسى عليه السلام بالموتِ أبدًا، إنّما كان ذلك بالتَّوَفِّي ومشتقّاته، وفي ذلك دلالة على أنّه لم يمت، بل رُفع إلى السّماء في نوم أو يقظة، وبقي حيًّا، حياة تتناسب مع طبيعة السّماء، ثمّ ينزل في آخر الزّمان.

(1) الآلوسيُّ، روح المعاني: 2/176.
(2) السَّمين، عُمدة الحفّاظ: 4/123.

التَّطْهير والتَّخْلِيص:

التَّخْلِيصُ وَالتَّطْهِيرُ وَاحِدٌ، إِلَّا أَنَّ لَفْظَ التَّطْهِيرِ فِيهِ رِفْعَةٌ لِلْمُخَاطَبِ[1]، إذ التّطهير تخليص أو إبعاد عن النّجاسة الحسّية والمعنويّة، وَالتَّطْهِيرُ نأيٌ عن السّوء، وبُعدٌ عن الفواحش، وصفاء للباطن، وجمالٌ في الظّاهر، ومفاده أنَّ النّبوّة والرّسالة، إنّما أوجدها اللّه لإعطاء القدوة، بإلزام النّفس بمجافاة القبائح، وترك المفاسد والرّذائل، والتّخليص انفكاك عنها، لكنّ التّطهير مبالغة في التّخليص، بحيث لا يبقى من أثرها شيء، فيكون التّطهير المستعمل في الآية، وفي مواقع كثيرة من القرآن، مرادًا به التّنقيّة والتّجلية؛ وهو معنى أعمّ دلالة، وأقوى تعبيرًا.

(1) أبو حيَّان، البحر المحيط: 3/178.

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ۝٥٦ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٥٧﴾ [آل عمران: 56- 57]

❁ مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِمَا قَبْلَهُما:

تفصيل الجزاء والفصل بين المؤمنين والكافرين، فيما اختلفوا فيه:

لَمَّا قرّر الله تعالى رجعة البشر إليه في القيامة، والحكم بينهم فِيمَا كانوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ، بَيَّنَ مَا فِي ذَلِكَ الاخْتِلَافِ من تصادم بين الكفر والإيمان، بحيث كَفَرَ قَوْمٌ وَآمَنَ آخَرُونَ، وبيّن أنّ الْحُكْمَ فِيمَنْ كَفَرَ، أَنْ يُعَذِّبَهُ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَأنّ الْحُكْمُ فِيمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ الصَّالِحَاتِ، أَنْ يُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ[1]، وذلك مقتضى حكمة الله الجليلة، في العدل في الجزاء الوفاق، مقابل الإحسان في العمل، أو الانزلاق في مهاوي المعصية والزّلل، فيكافئ كُلًّا بحسب ما قدّمت يداه، لأنّه عدْلٌ كريمٌ، لا يظلم في حكمه أحدًا.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿كَفَرُواْ﴾: من الكفر، وَهُوَ السَّتْرُ وَالتَّغْطِيَةُ التّامّة الّتي لا يظهر معها شيءٌ من المغطّى، وهو نقيضُ الإيمان[2]، ونقيضُ الشّكر، سُمِّيَ بذلك لِأَنَّهُ تَغْطِيَةُ الْحَقِّ والنّعمة[3]، ويستحقُّ من يكفر أن يعذّب عذابًا أليمًا، ومن يؤمن أن يُوفّى أجره كاملًا غير منقوص، وبذلك يتناسب معنى اللّفظ مع غاية السّياق، في تصوير ما أعدّ الله لهؤلاء وأولئك.

2) ﴿فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا﴾: العذاب هو العُقوبة، وقد عذَّبْتُه تعذيبًا[4]، وقوله تعالى: ﴿فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾: أي يُعذِّبُهم في الدُّنيا بالقتل والسَّبي والجِزية والصَّغار، وفي

(1) الرَّازي، مفاتيح الغيب: 8/240.
(2) الخليل، العين، وابن فارس، المقاييس، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (كفر)،
(3) الزُّحيليُّ، التَّفسير المنير: 3/242.
(4) الجوهري، الصّحاح: (عذب).

الآخرة بعذاب النَّار[1]، والشّدة وصفٌ لحالتي العذاب الدّنيويّ والأخرويّ، وكلاهما مستحقّ وعادل، لأنّ اللّه ليس بظلّام للعبيد.

3) ﴿نَّٰصِرِينَ﴾: نَصَرَ المَظلومَ يَنْصُرهُ نَصْرًا، وَالِاسْم النُّصْرَة: إذا أَعَانَهُ على عَدُوِّه وشَدَّ مِنْهُ[2]، ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾، أي: ليس لهم من ينصرهم من عذاب اللّه أو يدفع عنهم عِقابهُ[3].

4) ﴿أُجُورَهُمۡۗ﴾: الأَجْرُ: الثَّوابُ، وَبَدَلُ المَنْفَعَةِ، وقَدْ أَجَرَه يَأْجُرُهُ إذا جَزاهُ وأَثابَهُ وأَعْطاهُ؛ وأَصْلُ الأَجْرِ الجَزاءُ على العَمَلِ، فَهُوَ ثَوَابُ الْأَعْمَالِ وجَزَاؤُهَا[4]، ولا يُستخدم الأَجرُ إلَّا في النَّفع.

5) ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾: أَصْلُ الظُّلْم: حَجْبُ ما يَنْبَغِي أو ما يُسْتَحَقُّ، بِمَنْعِهِ أو انْتِقَاصِه، والظُّلْمُ: وَضْعُ الشَّيْءِ في غَيْرِ مَوْضِعِهِ، بِالتَّصَرُّفِ في مِلْكِ الغَيْرِ ومُجَاوَزَةُ الحَدِّ، إذ في ذلك مَنْعُ صاحبِ الحقِّ حَقَّه، أو إِعطَاؤُه حقَّ غيرِه[5]، أو: أخذُكَ حقَّ غَيْرك[6]، وقوله: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، أي: لا يحب الّذين ظلموا وكفروا والَّذين أصبح الظُّلم صِفة ثابتة عندهم[7].

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

الكفرُ عاقِبتُه الخَيبةُ والخُسْرانُ، والإيمانُ جزاؤُه الجنَّة والرِّضوان:

فسأحْكُم بينكم فيما كنتم تختلفون فيه، من كتابٍ أنزلتُه، ورسولٍ بعثتُه ليخرجكم من الظُّلمات إلى النُّور، فاختلفتُم فيه، فمنكُم مَن آمنَ، ومِنكم من كَفَر، فأمَّا الَّذين كفروا فأعذِّبهم عذابًا شديدًا في الدُّنيا والآخرة، وأمَّا الَّذين آمَنُوا بِعيسى وصَدَّقوا نبوَّته، وما جاء به من عند اللّه، وعملوا الصَّالحات، بفعل الأوامر وترك النَّواهي، فيعطيهم

(1) القنوجي، فتح البيان: 2/252.
(2) الزَّبيدي، تاج العروس: (نصر).
(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 2/2.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أجر)، أبو حيَّان، البحر المحيط: 3/181، جبل، المعجم الاشتقاقي: (أجر).
(5) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (ظلم) بتصرف، والخليل، العين، ابن فارس، مقاييس اللغة، الزَّبيدي، تاج العروس: (ظلم).
(6) الخليل، العين: (ظلم).
(7) الزُّحيليّ، التَّفسير المنير: 3/242.

اللّه أجورهم كاملةً غير منقوصة، وقد جاء ذلك على طريقة الجَمْعِ والتَّقسيم[1]، ثمَّ أكَّد تعالى جزاء الكافرين فقال: ﴿وَٱللَّـهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ أي: يُعاقبهم ويجازيهم بما يستحقُّون، أوأنّه تعالى: لا يريدُ ظُلم الظَّالمين[2].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

وجه المقابلة بين الآيتين:

في التّقابل مزيدُ بيانٍ لأثر العقوبة، والثواب

بين قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّـٰصِرِينَ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ مقابلة لطيفة برّزت شدّة عذاب الكفّار، ومديد أجور المؤمنين؛ فالضدُّ يُظهر حُسْنه الضدُّ.

سرّ تقديم جَزاء الكُفَّار على جَزاء المؤمنين:

ناسبَ البدءُ بالكفار ما قبله تهديدًا، ووعيدًا، وإخبارًا بجزائهم

بدأ الحقُّ تبارك وتعالى أوَّلًا بذِكر الكفَّار؛ وذلك لأنَّ ما قبله مِن ذِكْرِ حُكْمِهِ تعالى بَيْنَهُم هو على سبيل التَّهديد والوعيد للكفَّار، والإخبار بجزائهم، فناسبَ البدء بهم؛ ولأنَّهم أقرب في الذِّكر بقوله: ﴿فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾، وبكون الكلام مع اليهود الذين كفروا بعيسى، وسَعَوا في قَتله، ثمَّ أتى ثانيًا بذِكر المؤمنين، وعلَّق هنا العذاب على مجرَّد الكُفر، وهناك على توفية الأجر على الإيمان وعمل الصَّالحات؛ تنبيهًا على درجة الكمال في الإيمان ودعاء إليها[3].

عِلَّة التَّعبير بالموصول:

فائدة الموصول بيان علّة العذاب

التَّعبير بالموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾ فيه إشارة إلى أنَّ سبب العذاب هو

(1) الطِّيبي، فتوح الغيب: 4/121، الزُّحيليُّ، التَّفسير المنير: 3/242.
(2) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 3/1247.
(3) أبو حيَّان، البحر المحيط: 3/181، والبقاعيُّ، نظم الدُّرر: 4/422.

كُفْرُهم، إذ يُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ خَاصًّا، أَيْ: كَفَرُوا بِكَ وَجَحَدُوا نُبُوَّتَكَ، وَالظَّاهِرُ الْعُمُومُ[1].

بيانُ معنى الوعيد في الآية:

وَقَوْلُهُ تعالى: ﴿فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ﴾ الْمَقْصُودُ مِنْ هَذَا الْوَعِيدِ هُوَ عَذَابُ الْآخِرَةِ؛ لِأَنَّهُ وَقَعَ فِي حَيِّزِ تَفْصِيلِ الضَّمَائِرِ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾، وَإِنَّمَا يَكُونُ ذَلِكَ فِي الْآخِرَةِ، فَذِكْرُ عَذَابِ الدُّنْيَا هُنَا إِدْمَاجٌ[2].وقال الطِّيبي: إنَّه عِبارة عن التَّأبيد ونفي الانقطاع، وأخذ الزّبدة من المجموع من غير اعتبار مفردات التَّركيب، كقوله تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾ [هود: 107][3].

بلاغة الجناس والطباق:

المحسّنان أكسَبا التعبير جمالًا، وأحدثا في النّفس شوقًا وترقّبًا

وفي قوله تعالى: ﴿فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ جناسُ اشتقاقٍ، وفي قوله: ﴿فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ﴾ طباقٌ بين الدُّنيا والآخرة، أكسبا التعبير بهاءً وجمالًا وحسنًا، وأحدثا ميلًا للنفس نحو التشوّق والترقّب إلى لحاظِ العذاب الشّديد في الدّنيا وفي الآخرة، وطبيعته.

صُور توكيد شِدَّة العذاب في الآية:

جماع التأكيدات في الإخبار عن شدّة العذاب يناسبُ سوءَ صنيعهم، وشنيعَ أفعالهم

أكَّد سبحانه وتعالى شِدَّة العذاب في قوله تعالى: ﴿فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ بعِدَّة تأكيدات: أوَّلها: بنسبة التَّعذيب إليه، وهو القويُّ القَهَّار الغالب على كلِّ شيءٍ، وفيه إشعارٌ بعدالة العَذاب عَدالة مُطلقة، وثانيها: بالتَّأكيد بالمصدر ﴿عَذَابًا﴾، وثالثها: بالوصف بالشِّدة، ورابعها: بعدم رجائه إنهاءه أو إزالته؛ إذ لَا يوجد لهم من ناصر؛ ولذا قال سبحانه: ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾، وهو نفيٌ عامٌّ مُؤكَّد مُستغرق، أي: ليس لهم مِنْ ناصرٍ أيًّا كان هذا النَّاصر، وأيًّا

(1) أبو البحر المحيط: 3/180.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 3/260.
(3) الطِّيبي، فتوح الغيب: 4/122.

كانت نُصرته، ولو كانت ضئيلة[1]. ووُصِفَ الْعَذَابُ بِالشِّدَّةِ لِتَضَاعُفِهِ وَازْدِيَادِهِ. وَقِيلَ: لِاخْتِلَافِ أَجْنَاسِهِ[2].

دلالة المقابلة والتوكيد في بناء الفاصلة:

بيانُ الفاصلة أنّهم ضعفاء مهما كَثُر مناصروهم

قابل ضمير الجمع ﴿لَهُم﴾ بجمع الاسم ﴿نَّٰصِرِينَ﴾، فلم يقل: ومَا لَهُم مِن نَاصِر. ومعناه: ليسَ لواحدٍ منهم ناصرٌ واحد[3]. وجاءت الفاصلة ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ لتوضِّح معنًى جديدًا، وهو أنَّهم ضعفاء، فمهما كَثُر مناصروهم فلن يدرؤوا عنهم العذاب، و﴿مِّن﴾ مَزِيدة لتأكيد الاستغراق[4].

بيانُ اختيار صفة الإيمان في حُكم الله على المؤمنين:

اختيارُ صِفة الإيمان لأمن اللَّبس، والإيضاح بصِدقِ النَّبي الخاتم

قال تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، ولم يقل: (وأمَّا الَّذين اتَّبعوكَ)؛ لئلَّا يلتبس الحال على أهل الكتاب، فيظنُّون أنَّ المُراد به نبيُّهم عيسى، وإن كان من اتَّبع النَّبيَّ محمَّدًا ﷺ منهم قدِ اتَّبعه في بشارته به، والأمر باتِّباعه، وفي هذا التَّعبير كذلك إيضاحٌ لأتباعه غاية الإيضاح بصِدقِ هذا النَّبي الخاتم، فليس لهم من سبيل إلَّا اتِّباعه[5].

بلاغةُ الالتفات في الآية:

الالتفاتُ في الخِطاب أبلغُ في البشارة، وأزجر في النّذارة، وتفنّن في الفصاحة

قَالَ تعالى: ﴿فَيُوَفِّيهِمْ﴾، بِالْيَاءِ عَلَى قِرَاءَةِ حفص ورويس[6]، وَذَلِكَ عَلَى سَبِيلِ الِالْتِفَاتِ، وَالْخُرُوجِ مِنْ ضَمِيرِ الْمُتَكَلِّمِ إِلَى ضَمِيرِ الْغَيْبَةِ لِلتَّنَوُّعِ فِي الْفَصَاحَةِ، وليكونَ ذلك أبلغَ في البشارة، وأزجرَ في النّذارة[7].

(1) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 3/1246.
(2) أبو حيَّان، البحر المحيط: 3/180.
(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/122، والبروسوي، روح البيان: 2/42.
(4) الشربيني، السراج المنير: 1/231.
(5) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 4/422.
(6) ابن الجزري، النشر: 2/240، والدمياطي، إتحاف فضلاء البشر، ص: 224.
(7) أبو حيَّان، البحر المحيط: 3/181.

توجيه قراءة الجمهور ﴿فَنُوَفِّيهِمْ﴾، بنون العظمة:

قَرَأَ الْجُمْهُورُ: ﴿فَنُوَفِّيهِمْ﴾[1]، بِالنُّونِ الدَّالَّةِ عَلَى الْمُتَكَلِّمِ الْمُعَظَّمِ شَأْنُهُ، وَلَمْ يَأْتِ بِالْهَمْزَةِ؛ لِيُخَالِفَ فِي الْإِخْبَارِ بَيْنَ النِّسْبَةِ الْإِسْنَادِيَّةِ فِيمَا يَفْعَلُهُ بِالْكَافِرِ وَبِالْمُؤْمِنِ، كَمَا خَالَفَ فِي الْفِعْلِ؛ وَلِأَنَّ الْمُؤْمِنَ الْعَامِلَ لِلصَّالِحَاتِ عَظِيمٌ عِنْدَ اللَّهِ، فَنَاسَبَهُ الْإِخْبَارُ عَنِ الْمَجَازِيِّ بِنُونِ الْعَظَمَةِ[2].

عِلَّة التَّعبير بلفظِ ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ في الآية:

أشعرَ لفظُ (الظالمين) بأنَّ كفرهم قد تعدّى الحُدود، وتجاوزها

قُصِدَ بإيراد لفظ الظُّلم في الآية الإشعارُ بأنَّهم بكفرهم مُتعدُّون مُتجاوزون عَنِ الحُدود، واضعون للكُفر مكان الشُّكر والإيمان، وجملة: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ تذييلٌ لما قبله مُقرّر لمضمونه[3].

صورة الاحتباك في الآية:

إثباتُ لازم المحبَّة للمؤمنين أبلغ في النعيم، وإثباتُ عدمها في الظَّالمين أَنْكَأُ في العذاب

هذه الآية الكريمة من الاحتباك، وأصلُ الآية: فنُوفِّيهم لأنَّا نُحبُّهم، واللّه يحبُّ المؤمنين، والَّذين ظلموا نحبط أعمالهم؛ لأنَّا لا نُحبُّهم، ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، فتَوفِيَة الأجْر أوَّلًا ينفيها ثانيًا، وإثبات الكراهة ثانيًا يثبت ضدّها أوَّلًا، وحقيقة الحال أنَّه أثبت للمؤمنين لازم المحبَّة المراد منها في حقِّ اللّه سبحانه وتعالى؛ لأنَّه أبلغ في النعيم، ولازم المراد من عدمها في الظَّالمين لأنَّه أَنْكَأُ في العذاب[4].

مناسبة الفاصلة للسِّياق:

في الفاصلة إثباتٌ بأنَّ الكُفر والظُّلم قرينان، وأنَّ الإيمان والعَدْلَ مُتلازمان

ذيَّل سبحانه وتعالى الآية بقوله: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾؛ لإعلان عدالته، ولإثبات أنَّ الكُفر والظُّلم قرينان، وأنَّ الإيمان والعَدْلَ مُتلازمان، ولبيان استحقاق الَّذين آمنوا وعملوا الصَّالحات لِمَا أُعطوا من ثوابٍ ونعيمٍ مُقيمٍ[5].

---

(1) ابن الجزري، النشر: 2/240، والدمياطي، إتحاف فضلاء البشر، ص: 224.

(2) ابن الجزري، النشر: 2/240.

(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 2/45.

(4) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 4/423.

(5) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 3/1247.

﴿ذَٰلِكَ نَتۡلُوهُ عَلَيۡكَ مِنَ ٱلۡأٓيَٰتِ وَٱلذِّكۡرِ ٱلۡحَكِيمِ ٥٨﴾ [آل عمران: 58]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

المشارُ إليه في كُلّ ما سَبق، تأكيد بأنّ المتلوّ من الآيات والذّكر حقّ:

في الآية إشارةٌ إلى كُلّ ما تقدَّم الخبر عنهم، آل عمران ومريم وعيسى والحواريين[1]، وقد ربطه بهذه الآية قائلًا لرسوله، بأنّ ذلك: "إنّما هو وحي من اللّه، ألقاه إليك على لسان جبريل، وهو من القرآن والحكمة، يبيّن وجوه العبر على من حاجّك من وفد نجران، ويهود بني إسرائيل الّذين كذّبوك"[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿نَتۡلُوهُ﴾: نَسْرُدُهُ وَنَذْكُرُهُ شَيْئًا بَعْدَ شَيْءٍ[3]، وتَلَا فلانٌ القرآن يتلُو تِلاوةً، وتَلَا الشَّيءَ: تَبِعَه تُلُوًّا، وكلُّ شيءٍ تَلَا شيئًا فهو تِلْوُه[4]، "والتّلاوة تختصّ بأتباع كتب اللّه المنزلة، تارة بالقراءة، وتارة بالاتّسام، لما فيها مِن أمرٍ ونهيٍ، وترغيب وترهيب، أو ما يتوهّم فيه ذلك، وهو أخصّ من القراءة، فكلُّ تلاوةٍ قراءةٌ، وليس كلُّ قراءةٍ تلاوةً، لا يقال تلوت رقعتك، وإنّما يقال في القرآن"[5].

2) ﴿وَٱلذِّكۡرِ﴾: قوّة الشّيء وصلابة مادّته، بحيث ينفذ في غيره ولا ينثني، والذَّكَرُ خلاف الأنثى، أصْلب وأخشن منها، ومن ذلك: الذِّكْر، بالكسر: الصّيت في الخَيْر، وهو به أنسب؛ لأنّ شهرةَ اسمِ شخصٍ أو عمله وجودٌ قويٌّ له، ونفاذ وانتشار أيضًا، ومن الذِّكْر باللّسان وأنّه قوّةُ وجودٍ وإعلانُ اسمٍ يتأتّى، والذِّكْر: الشّرف، قال: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكۡرٞ لَّكَ وَلِقَوۡمِكَۖ﴾ [الزّخرف: 44]، ﴿وَرَفَعۡنَا لَكَ ذِكۡرَكَ﴾ [الشّرح: 4]، ومن ذلك "ذِكْر الحقّ - بالكسر: وهو الصّكُّ (لحفظ الحقّ فيه ثابتًا قويًّا، لا يُجْحَد ولا ينسى)، والذِّكْر: الكتابُ الّذي

(1) الرّازي، مفاتيح الغيب: 8/242.
(2) أسعد حومد، أيسر التّفاسير، ص: 352.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/182.
(4) الخليل، العين: (تلو).
(5) الأبياريّ، الموسوعة القرآنيّة: 8/85.

فيه تفصيل الدّين، ووضع الملل، وبه سمّيت كتب اللّه لخلقه، قال: ﴿وَٱلذِّكۡرِ ٱلۡحَكِيمِ﴾[1].

3) ﴿ٱلۡحَكِيمِ﴾: الَّذي لا يدخلُ تدبيره خَللٌ ولا زَلَلٌ، هو المُحْكِمُ للأشياء، صُرف من (مُفْعل) إلى (فَعِيل)، فالذِّكر الْحَكِيم: الْقُرْآن؛ لِأَنَّهُ الْحَاكِم للنَّاس وَعَلَيْهِم، وَلِأَنَّهُ مُحكم لَا اخْتِلَاف فِيهِ ولا اضطراب[2]، معنى وصفه بالحكيم، أن آياته أحكمتْ، لأنّها أنزلت مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ، وَقد بُيِّنَ فِيهَا الأَمْرُ والنّهيُ والأمثال وأقاصيص الأمم السّالفة، وكانت مثقلة بالنّور والرّوعة والحكمة.

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

إشارةٌ إلى دلالة أنباء عيسى وآل عمران، على صدق رسالة نبيّ الزّمان:

ذلك الَّذي تقدَّم من خبر عيسى نتلوه عليك، وهو من الآيات الواضحات الدَّالة على صِدق نبوَّتك، وهو مِن الذِّكر الحكيم[3]، "نقصّه عليك متتابعًا، بعضَه تِلْوَ بعض، من غير أن يكون لك اطّلاعٌ سابقٌ عليه، فأنت لم تكن معاصرًا لهؤلاء الّذين ذكرنا لك قصصهم وأحوالهم، وهذا من أكبر الأدلّة، على صدقك فيما تبلّغه عن ربّك"[4].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالةُ البدء باسم الإشارة:

بدأ باسم الإشارة ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارةً إلى ما سلف من نبأ عيسى عليه السلام وما فيه من معنى البُعد؛ للدَّلالة على عِظم شَأْنِ المُشَارِ إليهِ وبُعْدِ منزلتِه وعلوّها ورفيع قدره في الشَّرف، وعلى كونه في ظهور

في الإشارة دليلٌ على عِظَمِ شَأْنِ المُشَارِ إليهِ وبُعْدِ منزلتِه وعُلُوِّها ورفيعِ قَـدْره في الشَّرف

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (ذكر).
(2) الواحدي، التَّفسير البسيط: 2/353، ومجمع اللُّغة العربيَّة، المعجم الوسيط: 1/190.
(3) حجازي، التَّفسير الواضح: 1/235.
(4) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 2/126..

الأمرِ ونباهةِ الشَّأن بمنزلة المشاهَد المعايَن[1]، أو الإشارة إلى كلّ القصص السابقة. وَتَذْكِيرُ اسْمِ الْإِشَارَةِ لِتَأْوِيلِ الْمُشَارِ إِلَيْهِ بالْكَلَام أَو بالمذكور[2].

الحِكمةُ من إضافَة التِّلاوة إلى نفسه تعالى:

جعلُ تلاوة المَلَكِ جاريةً مجرى تلاوته جلّ وعلا، تَشريفٌ عظيمٌ للمَلَكِ، وللنبيّ ﷺ

أَضَافَ تعالى التِّلاوة إلى نفسه في هذه الآية، وفي قوله: ﴿نَتْلُواْ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ﴾ [القصص: 3]، كما أضافَ القَصَصَ إلى نفسه فقال: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾ [يوسف: 3]، للدلالة على أنَّه تعالى جعلَ تلاوة المَلَكِ جارية مجرى تلاوته جلّ وعلا، وهذا تَشريفٌ عظيمٌ للمَلَكِ؛ وإنَّما حَسُن ذلك؛ لأنَّ تلاوة جبريل عليه السلام لمّا كان بأمره من غير تفاوت أصلًا أُضيف ذلك إليه سبحانه[3]. وفيه تشريفٌ للنبي ﷺ.

علَّة التَّعبير بصيغة الحال والاستقبال:

من عادات القرآن إحضارُ الصُّورة في أذهان المُستمعين، وكأنَّما يُشاهدونها الآن

عبَّر عن التلاوة بصيغة الاستقبال: ﴿نَتْلُوهُ﴾، ولم يَقُلْ (تَلَوناهُ)، مع أنَّ الفِعل قد وقَعَ في الزَّمن الماضي؛ وذلك لأنَّ القرآنَ يريدُ إحضار الصُّورة في أذهان المُستمعين؛ حتَّى كأنَّما يُشاهدونها الآن وسيُشاهدونها في كلّ وقت؛ اعتناءً بها[4]، وكذلك للدَّلالة على تجدُّد التِّلاوة حينًا بعد حينٍ في أوقات سَلفت وفي الحال والاستقبال.

وجه عطف الذِّكر الحكيم على الآيات:

جمع الآيات بالذِّكر الحكيم من وجوه إثبات رسالته ﷺ

يحتمل أن يكون المراد من ﴿ٱلْآيَٰتِ﴾: آيات القرآن ويحتمل أن يكون المراد منه أنه من العلامات الدّالة على ثبوت رسالته ﷺ، من المعجزات، والمستغربات، والغيوب. ويحتملُ ﴿وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ﴾ معنيين؛ الأول: القرآن، والآخر: اللّوح المحفوظ[5].

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 2/45، الرَّازي، مفاتيح الغيب: 8/242.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 3/26، البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 4/424-425.
(3) الرَّازي، مفاتيح الغيب: 8/24، أبو حيَّان، البحر المحيط: 3/182.
(4) الآلوسيُّ، روح المعاني: 2/178، أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 2/45.
(5) الزمخشري، الكشاف: 1/367، وأبو حيَّان، البحر المحيط: 3/182، ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 3/262.

بيانُ الاستعارة، أو المجاز العَقلي في لفظ (الحكيم):

وصـــف بصفة (الحكيم) مَـنْ هـو مِـنْ سببه وهو الله تعالى

أتى بصيغة المبالغة ﴿ٱلۡحَكِيمُ﴾ في الفاصلة، ووصف بصفة من هو من سببه وهو اللّه تعالى، أو: كأنَّه ينطق بالحِكمة لكثرة حِكَمِه، وحينئذٍ يكون استعماله لما صدر عنه ممَّا اشتمل على حكمته، إمَّا على وجه الاستعارة التَّبعية في لفظ الحكيم، أو المجاز العَقلي بأن أَسْنَدَ للذِّكر ما هو لسببه[1].

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الْقِرَاءَة والتِّلاوة:

أَن التِّلَاوَة لَا تكون إِلَّا لكلمتين فَصَاعِدًا، وَالْقِرَاءَة تكون للكلمة الْوَاحِدَة، وذلك أَنَّ أصلَ التِّلَاوَة اتِّبَاعُ الشَّيْءِ الشَّيْءَ، يُقَال: تلاه إِذا تبعه، فَتكون التِّلَاوَة فِي الْكَلِمَات يتبع بَعْضهَا بَعْضًا، وَلَا تكون فِي الْكَلِمَة الْوَاحِدَة إِذْ لَا يَصح فِيهَا التّلوّ[2]، فالتّلاوة تتابع القراءة لفظا وعملا.

الْعَالِم والحَكِيم:

أَنَّ الْحَكِيم على ثَلَاثَة أوجه، أَحدها: بِمَعْنَى الْمُحكم، مثل البديع بِمَعْنَى الْمُبْدع، وَالْآخر: بِمَعْنَى مُحْكَم، وَفِي الْقُرْآن: ﴿فِيهَا يُفۡرَقُ كُلُّ أَمۡرٍ حَكِيمٍ﴾ [الدّخان: 4]، أَي مُحكَم، وإذا وُصف اللّه تَعَالَى بالحِكمة من هَذَا الْوَجْه، كَانَ ذَلِك من صِفَات فعله. وَالثَّالِث: الْحَكِيم بِمَعْنَى الْعَالم بِأَحْكَام الْأُمُور، فالصِّفة بِهِ أخصُّ من الصِّفة بعالم، وَإِذا وصف اللّه بِهِ على هَذَا الْوَجْه فَهُوَ من صِفَات ذَاته[3]، فالعلم عامّ في كلّ معلوم، والحكمة علمٌ بها وفعلٌ لها.

(1) الرازي، مفاتيح الغيب: 8/242، وأبو حيّان، البحر المحيط: 3/182.
(2) العسكري، الفروق اللُّغويَّة، ص: 63، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (تلو، قرأ).
(3) العسكريّ، الفروق اللُّغويَّة، ص: 96.

﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٥٩﴾ [آل عمران: 59]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

مثل عيسى كمثل آدم، كلاهما خُلِقَ بالنَّفخة الإلهيّة المعجزة:

الـــرّدّ عـلى من زعـــم ألـوهـيّـة عـيسى واشـتـطّ فيه

جاءت الآية الكريمة حُجَّةً دالَّةً على بشريَّة عيسى عليه السلام، فالعُقولُ أَلِفَتْ أنَّ مجيءَ إنسانٍ إلى الدُّنيا، يكون باجتماع أَب وأُمّ، فلمَّا رأى بعضُهم أنَّ عيسى عليه السلام، قد جاء بغير أَبٍ، اهتزَّت عُقولهم، فبيَّن سبحانه، أَنَّ قدرته تتجاوز ما ألفناه من سُنن طبيعيَّة، بحيث يَخلُقُ إنسانًا مِن غير أَبٍ، ويسوقُ سبحانه مِثالًا على ذلك خلقه لآدم عليه السلام، من غير أَبٍ ولا أمٍّ[1]، ولمّا أكّد تعالى ظلمهم وبيّن فساد اعتقادهم فيما سبق من الآيات، بَيَّنَ في هذه الآية حكمته في أمر عيسى عليه السلام، الكاشف لما في ذلك، ممّا أُلْبِسَ عليهم، فقال: إنّ مثل عيسى كمثل آدم، في أن كُلًّا منهما خلق من غير أب، غير أنّ أمر آدم أعجب، فإنّه أوجده من غير أب ولا أم[2]، وأَجْمَعَ الْمُفَسِّرُونَ عَلَى أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ نزلت عند حضور وفد نَجْرَانَ، على الرَّسُولِ ﷺ، وَكَانَ مِنْ جُمْلَةِ شُبَهِهِمْ، أَنْ يَكُونَ أَبُو المسيح هُوَ اللّه تَعَالَى، فردّ عليهم، بأَنَّ آدَمَ مَا كَانَ لَهُ أَبٌ وَلَا أُمٌّ، وَلَمْ يَلْزَمْ أَنْ يَكُونَ ابْنًا لِلَّهِ تَعَالَى، فَكَذَا الْقَوْلُ فِي عِيسَى عليه السلام، والشّيءُ بالشّيء يُذكرُ[3].

شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿مَثَلَ﴾: عِبارةٌ عن قَولٍ في شَيءٍ، يُشبه قَولًا في شَيءٍ آخَر

(1) د. آمال أبو حسين، بعض الأبعاد التّربوية لعدد من الأمثال في القرآن الكريم، ص: 9.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 4/425.
(3) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 4/242.

بينهما تَنَاظُرٌ وتَشابُه؛ لتبيين أحدهما للآخر وتصوّره؛ ولذلك قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [العنكبوت: 43]، لأنَّه لابدَّ مِن تدبُّر المَثَل والمُمَثَّل له ومطابقة ما بينهما[1]، وضَرْبُ المَثَلِ مَلْمَحٌ بلاغيٌّ موجودٌ في القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الحشر: 21]، والمَثَلُ يقال على وجهين: أحدهما بمعنى المثل، نحو: ﴿۞مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ﴾ [الرّعد: 35]، والثّاني عبارة عن المشابهة لغيره في معنى من المعاني، أيّ معنى كان، وهو أعمّ الألفاظ الموضوعة للمشابهة، ندًّا أو شبهًا أو مساويًا أو شكلًا أو يكون مثلًا عامًّا في جميع ذلك، ولهذا لمّا أراد الله تعالى نفي الشّبيه من كلّ وجه، خصّه بالذّكر، فقال: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ [الشّورى: 11][2].

2) ﴿خَلَقَهُۥ﴾: من الخَلْق، وأَصْلُهُ التَّقديرُ المُستقيمُ، وتَهْيِئَة شيءٍ سَوِيٍّ، ويُستعملُ في إبداع الشّيء من غير أَصلٍ ولا احْتِذَاءٍ، قال تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [الأنعام: 1]، أي: أَبْدَعَهُما، بدلالة قوله: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ﴾ [البقرة: 117]، ويُستعمل في إيجاد الشَّيء مِن الشَّيء نحو: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ [النّساء: 1][3].

3) ﴿كُن فَيَكُونُ﴾: أصل الكون تَحَوُّلٌ من هيئة إلى هيئة، أو حدوث شيء[4]، و﴿كُن فَيَكُونُ﴾ كلاهما من الكون التَّامِّ، أي: أُحْدُثْ فَيَحْدُثُ، وليس المرادُ به حقيقةَ الأمرِ والامتثال، وإنَّما هو تمثيلٌ لسهولة تَأَتِّي المقدورات بحسَب تعلُّقِ مشيئتِه تعالى، وتصويرٌ لسرعة حدوثِها بما هو عَلَمٌ في الباب من طاعة المأمورِ المطيعِ للآمر المطاعِ[5]، وقال بعضهم: إذا كان في علمه السّابق الأزليّ أمرٌ، فأراد إظهاره قال له كن فيكون، قال القائل:

قَضَى قَبْلَ خَلْقِ الْخَلْقِ مَا هُوَ خَالِقٌ *** خَلَائِقَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ أُمُورُهَا

هَوَاهَا وَنَجْوَاهَا وَمُضْمَرُ قَلْبِهَا *** وَقَبْلَ الْهَوَى مَاذَا يَكُونُ ضَمِيرُهَا[6]

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، السَّمين، عُمدة الحفَّاظ (مثل).
(2) الزّين، تفسير مفردات ألفاظ القرآن الكريم، مادّة: (مثل).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغبُ، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (خلق).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (كون).
(5) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 1/151.
(6) التّستريّ، تفسير التّستريّ: 1/48.

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

الغرض من التَّشبيه إقامةُ الدَّليل والحُجَّة على المحاجّين:

إنَّ مَثَل خَلْقِ عيسى عليه السلام عند الله كمَثَل خَلْقِ آدم من تُراب، من غير أَبٍ ولا أُمٍّ، وإنَّما قال الله له: كُنْ بَشرًا فكان، كما أراد تعالى، فكيف يزعمون أنَّه إلهٌ بحُجَّة أنَّه خُلِق من غير أَبٍ، وهم يقرّون بأنَّ آدمَ بَشَرٌ، مع أنَّه خُلِق من غير أَبٍ ولا أُمٍّ؟![1]، "بل خلقتُه من تراب، ثمّ قلت له: ﴿كُن﴾، فكان من غير فحلٍ، ولا ذكر ولا أنثى، يقول: فليس خَلقي عيسى من أمّه من غير فحلٍ، بأعجبَ من خَلقي آدم من غير ذكر ولا أنثى، وأمري إذ أمرته أن يكون، فكان لحمًا، يقول: فكذلك خلقي عيسى: أمرتُه أن يكون، فكانَ"[2].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغة الإيجاز في الآية:

استغنى بالمذكور عن الخوض الطَّويل في كيفيَّة خَلْقِ آدم وعيسى عليهما السلام

يتجَلَّى الإيجاز في الآية بقَصْرِ اللَّفظ على المعنى المراد، فقد تكون الحقيقة هائلة لا تحيط بها العقول كما في الآية الكريمة، فالإيجاز البليغ فيها أغنى عن الخوض الطَّويل في كيفيَّة خَلْقِ آدم وعيسى عليهما السلام وبيان الأدلَّة التَّفصيليَّة في ذلك.

قوَّةُ التَّوكيد وأثر الكناية في الحُجَّة والإقناع:

في التوكيد مبالغةٌ في إيراد الحُجَّة، وفي الكناية بيانٌ لكمال إرادته وقُدرته

ومن أساليب الإقناع البلاغية استعمال أسلوب التَّأكيد، فقد أُكّد هذا المثل بالحرف ﴿إِنَّ﴾ مبالغةً في إيراد الحُجَّة، وتقوية لها باللَّفظ كما قويت بالمعنى، كذلك استعمل أسلوب الكناية الَّذي يُعدُّ من الأساليب المُقنعة والمؤثِّرة، فهو يأتي بالمعنى مصحوبًا بدليله، فقوله: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ كناية عن كمال إرادته وقُدرته، ونفاذ أمره في جميع خَلْقِه[3].

(1) المختصر في تفسير القرآن، ص: 57.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 6/468.
(3) السويكت، الأَمثالُ القرآنِيَّةُ، ص: 75.

سرّ تكرار كلمة ﴿مَثَلَ﴾:

فائدة تكرار لفظ (مثل) التأكيد والتوضيح

وردت كلمة ﴿مَثَلَ﴾ في هذه الآية مَرَّتين، وفي كِلَا الموضعين جاءت نكرةً مُضافة إلى عَلَم، فاكتسبتِ التَّعريف من هذه الإضافة، وبين هاتين الكلمتين جاء التَّشبيه وهو واقعٌ على أنَّ عيسى عليه السلام خُلق من غير أَبٍ كآدم عليه السلام مع وجود فرق بينهما كون آدم عليه السلام خُلِق من غير أُمٍّ أيضًا[1]، وجَعَلَ بعضُهم المَثَلَ هنا من ضرب الأمثال. وقال: العرب تضرب الأمثال لبيان ما خَفي معناه ودقَّ إيضاحه؛ لـمَّا خَفِيَ سِرُّ ولادة عيسى من غير أَبٍ، لأنَّه خالفَ المعروف، ضربَ الله المثل بآدم الَّذي استقرَّ في الأذهان[2]. فكرَّر لفظ ﴿مَثَلَ﴾ على سبيل التأكيد والتوضيح؛ إذ قد يراد بمثل الشيء في موضع الشيء نفسه[3].

بلاغة التَّعريف بالعَلميَّة في الآية:

من شأن العَلميَّة إحضار كلّ واحدٍ بعينه في ذهن السَّامع

ورَدَ التَّعريف بالعلميَّة في ثلاث كلمات هي: اسم الجلالة ﴿ٱللَّهِ﴾، و﴿عِيسَىٰ﴾، و﴿ءَادَمَ﴾. أمَّا اسم الجلالة ﴿ٱللَّهِ﴾ فهو في الأصل وصفٌ لذات الحقِّ بالأُلوهية الجامعة لجميع الأسماء الحسنى، والصِّفات العُلى، والمحيطة بجميع معاني اشتقاقاته العُظمى، فصار بغلبة استعماله فيه لعدم إمكان تحقُّق تلك المعاني في غيره علمًا له[4]، والتَّعريف بالعَلميَّة في ﴿عِيسَىٰ﴾ و﴿ءَادَمَ﴾ عليهما السلام؛ لأنَّ من شأن العَلميَّة إحضار كلّ واحدٍ بعينه في ذهن السَّامع؛ ولكلٍّ واحدٍ منهما عليهما السلام خَلْقُه العجيب، فعيسى عليه السلام خُلق من غير أَبٍ، وخَلق آدم عليه السلام أَعجب منه إذ خُلق من غير أبٍ ولا أُمٍّ؛ فتبارك الله أحسن الخالقين[5].

(1) السويكت، الأَمثالُ القرآنيَّةُ، ص: 95.
(2) أبو حيَّان، البحر المحيط: 3/184.
(3) أبو حيَّان، البحر المحيط: 7/111.
(4) الكفويُّ، الكُلِّيَّات، ص: 173 بتصرف يسير.
(5) السويكت، الأَمثالُ القرآنيَّةُ، ص: 95.

بلاغة التشبيه في الآية:

وجـه التَّشبيه الإقناع، وإثبات الحُجَّة، ودَفع الشُّبهة

من الأدوات البلاغيَّة الدَّاعمة لقُوَّة الإقناع في الآية الكريمة: استعمال أسلوب التَّشبيه، فقد شَبَّه الله خَلْقَ عيسى عليه السلام بخلق آدم عليه السلام الَّذي هو أعجب من خلقه، فإذا كان سبحانه قادرًا أن يخلُقه من تُرابٍ، والتُّرابُ ليس من جنس بدن الإنسان، أفلا يَقْدر أن يخلقَه من امرأة هي من جنس بدن الإنسان؟[1]. وتشبيه عيسى بآدم عليهما السلام من قبيل تشبيه الغريب بالأغرب؛ ليكون ذلك أقطع لحُجَّة الخصم، وأقوى دفعًا لشبهته[2]؛ إذ فيه" احتجاج على النّصارى الذين ألَّهُوا المسيح عيسى ابن مريم؛ لأنه خلق من غير أب، واعتبروه ابن الله!!، والاحتجاج من وجهين: أوّلهما: أنّه إذا كان خَلْقُ عيسى من غير أب مسوِّغًا في زعمهم لأن يكون إلهًا أو ابن إله، فأوْلَى بذلك ثمَّ أوْلى آدم؛ لأنه خُلق من غير أب ولا أم"[3].

بلاغة جملة تفسير التشبيه:

وجـــهُ جـملـة التّفسير بيانُ ما أُبهـم في المَثَل، وتـفـصـيـلُ ما أُجمِلَ فيه

في قوله تعالى: ﴿خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ﴾ تفسيرٌ لما أُبهم في المَثَل، وتفصيلٌ لما أُجمِلَ فيه، وتوضيحٌ للتَّمثيل ببيان وجهِ الشَّبهِ بينهما، وحَسْمٌ لمادة شُبَه الخصوم، فإنَّ إنكارَ خلقِ عيسى عليه السلام بلا أَب ممّن اعْتَرَف بخلق آدم عليه السلام بغير أبٍ وأمٍّ ممَّا لا يكاد يصحّ، والمعنى خَلَق قالَبَه مِن تُرَابٍ[4].

نكتة العدول عن لَفْظِ الطِّينِ إلى ذِكْرِ التُّراب:

لَمْ يَقُلِ الله تعالى في الآية: مِنْ طِينٍ، كَمَا أَخْبَرَ بِهِ سبحانه في غير موضع: ﴿إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ۝٧١﴾ [ص: 71]، إِنَّمَا عَدَلَ عَنِ الطِّينِ الَّذِي هُوَ مَجْمُوعُ الْمَاءِ وَالتُّرَابِ إِلَى ذِكْرِ مُجَرَّدِ التُّرَابِ لِمَعْنًى لَطِيفٍ؛

(1) ابن تيميَّة، دقائق التَّفسير: 1/320.
(2) إسماعيل، الأمثال القرآنيَّة، ص: 99.
(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 3/1249.
(4) الإيجي، جامع البيان: 1/254، أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 2/45، ابن عجيبة، البحر المديد: 1/361.

وَذَلِكَ أَنَّهُ أَدْنَى الْعُنْصُرَيْنِ وَأَكْثَفُهُمَا، لَمَّا كَانَ الْمَقْصُودُ مُقَابَلَةَ مَنِ ادَّعَى فِي الْمَسِيحِ الْأُلوهِيَّةَ، أَتَى بِمَا يُصَغِّرُ أَمْرَ خَلْقِهِ عِنْدَ مَنِ ادَّعَى ذَلِكَ؛ فَلِهَذَا كَانَ الْإِتْيَانُ بِلَفْظِ التُّرَابِ أَمَسَّ فِي الْمَعْنَى مِنْ غَيْرِهِ مِنَ الْعَنَاصِرِ، وَلَمَّا أَرَادَ سُبْحَانَهُ الِامْتِنَانَ عَلَى بَنِي إسرائيل أخبرهم أَنْ يَخْلُقَ لَهُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ تَعْظِيمًا لأمر ما يخلقه بإذنه؛ إذ كان الْمَطْلُوبُ الِاعْتِدَادَ عَلَيْهِمْ بِخَلْقِهِ لِيُعَظِّمُوا قَدْرَ النِّعْمَةِ بِهِ[1]. ورسّخ هذا المعنى مجيء كلمة ﴿تُرَابٍ﴾ نكرة[2].

أَتَى بِمَا يُصَغِّرُ أَمْرَ خَلْقِهِ عِنْدَ مَنِ ادَّعَى ذَلِكَ؛ لقصدِ مُقَابَلَةَ مَنِ ادَّعَى فِي الْمَسِيحِ الْأُلوهِيَّةَ

دلالةُ التَّعبير بالفعل المضارع ﴿فَيَكُونُ﴾:

من الأساليب البلاغيَّة الأخرى للإقناع في الآية التَّعبير بالفعل المضارع ﴿فَيَكُونُ﴾ مع أنَّ الحَدَثَ قد حصل وانتهى؛ وذلك لاستحضار صورة تكوينه كما وقعت، ولأنَّ اللّه تعالى أراد التَّمثيل لا الحصر، فجاء التَّعبير بالمضارع؛ ليفيد التَّجدّد والاستمرارية، فدلَّ بهذا التَّصريف على أنَّ اللّه تعالى فعَل ذلك في آدم من قَبْل، وفعَلَه بعد ذلك في المسيح، ويفعله سبحانه في أيّ خَلْق يشاء وَقْتَما شاء[3]

التعبير بالمضارع؛ لاستحضار صورة تكوينه كما وقعت، ولأنَّ الله تعالى أراد التَّمثيل لا الحصر

ومن جهة أخرى فصيغة المضارع في هذا المقام تنبئ عمّا كان، وتومئ إلى ما يكون بالنسبة لخلق اللّه تعالى المستمر في المستقبل كما كان في الماضي؛ وقد بيَّن سبحانه أن هذا هو الحقّ الثابت المستمر[4].

في المضارع إنباءٌ عمّا كان، وإيماءٌ إلى ما يكون

بلاغةُ الاستعارة التَّمثيليَّة:

﴿ثُمَّ﴾ في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾؛ لتراخي الإخبار لا لتراخي المُخبَرِ به[5]. وفي النصّ استعارةٌ تمثيليّة تخييلية؛ إذ شبَّه سُرعة تأثير قدرته تعالى ونفاذها في الأشياء بأمر المطاع من غير

(1) الزَّركشي، البرهان: 3/378، البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 4/425.
(2) ابن أبي أصبع، تحرير التحبير، ص: 194. 195، الزركشي، البرهان: 2/55، السويكت، الأمثالُ القرآنيَّةُ، ص: 96.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 3/264، البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 2/101، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 3/1250، وإسماعيل، الأمثال القرآنيَّة، ص: 76.
(4) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 3/1250.
(5) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 2/45.

وجه الاستعارة تشبيه سُرعة تأثير قدرته تعالى ونفاذها في الأشياء بأمر المطاع من غير توقُّف ولا امتناع

توقُّف ولا امتناع، فإذا أراد شيئًا وُجد من غير إبطاء ولا تأخير، وفي الآية تعبيرٌ عن الماضي بلفظ المستقبل استحضارًا لصورة تكوُّنه[1]. وهذا تمثيلٌ لتأثير قدرته تعالى فيما أراده بأمر الآمر المطاع للمأمور المطيع، في سرعة حصول المأمور به، من غير توقّف على شيء ما[2].

الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الْمَثَل والنَّظِير:

التَّمَاثُل يكون حَقِيقَةً فِي أخصِّ الْأَوْصَاف؛ وَهُوَ الذَّات

أَنَّ المَثَلَين مَا تكافآ في الذَّات، والنَّظير مَا قَابل نَظِيره في جنس أَفعاله، وَهُوَ مُتَمَكِّن مِنْهَا، كالنَّحوي نَظِير النَّحْوِيّ، وَإِن لم يكن لَهُ مثل كَلَامه فِي النَّحْو أَو كتبه فِيهِ، وَلَا يُقَال: النَّحْوِيّ مثل النَّحْوِيّ؛ لِأَنَّ التَّمَاثُل يكون حَقِيقَة فِي أخصِّ الْأَوْصَاف، وَهُوَ الذَّات، ولذا اختار القرآن المثل دون النّظير في الآية[3].

(1) الشربيني، السراج المنير: 3/367، والقاسمي، محاسن التأويل: 5/211، والهرري، حدائق الروح والريحان: 24/126.
(2) البروسوي، روح البيان: 7/441: الآلوسيُّ، روح المعاني: 12/55.
(3) العسكري، الفروق اللُّغويَّة، ص: 55.

﴿ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ ٦٠﴾ [آل عمران: 60]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الْخِطَابُ لِلنَّبِيِّ محمَّد ﷺ، والمراد أمَّته:

في الآية تثبيتٌ للنَّبيِّ ﷺ في أَمْرِ المَسيح عليه السلام، وفي حقيقته؛ إذ لا التفات إلى أيَّة مَقُولة أُخرى تُقال فيه، بعد القَوْلِ الحقِّ الَّذي قاله اللّه تعالى[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلۡحَقُّ﴾: نقيضُ الباطِل، وحقَّ الشَّيْء يَحِقُّ حَقًّا، بمعنى: ثَبَتَ ووَجَبَ[2]، والحقُّ هو الثَّابت اليقينيُّ الذي لَا مجال للشَّك فيه[3]، لأنه مُحْكَمٌ صَحِيحٌ مُتَمَكِّنٌ[4]، و﴿ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ أي: مَا قَصَصْنا عليك في شَأن عيسى وأُمِّه مريم هو الخَبر الحقّ، والقَولُ الصّدق، والأمرُ الثَّابت الَّذي لا شكَّ فيه[5].

والامتراء: افْتِعَالٌ من المرية، وهي الشَّك. امترى في الشَّيء: شَكَّ فيه، ومنه المِراء. ماريته، أي: جادلته وشاككته فيما يدّعيه[6].

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

والغرض من الآية وصفُ أهل الكتاب بأنَّهم قومٌ عادتهم المغالاة في الجَدَل، دون أن يكون غرضهم الحقّ، وقد أَمَرَ اللّه الرَّسولَ الأكرمَ بمجانبتهم ومجانفتهم، وألَّا يجاريهم في مجادلاتهم العقيمة، وقال

الحق من الله لا شكّ فيه، والامتراء لا طائل منه

(1) الخطيب، التَّفسير القرآني للقرآن: 2/482.
(2) الخليل، العين: (حق).
(3) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 3/1251.
(4) مقاييس اللغة، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (حق).
(5) الهرريُّ، حدائق الرَّوح والرَّيحان: 4/336.
(6) أبو حيَّان، البحر المحيط: 2/7، الأنباريُّ، الزَّاهر: 1/351.

له: "هذا الّذي أخبرناك عنه يا محمّد من شأن عيسى ومن شأن غيره، هو الحقّ الثّابت اليقينيّ الّذي لا مجال للشّكّ فيه، ومادام الأمر كذلك، فاثبت على ما أنت عليه من حقّ، ولا تكوننّ من الشّاكين في أيّ شيء ممّا أخبرناك به"[1]، واترك هؤلاء القوم، فلا فائدة تُرجى ممَّن عَمِيَتْ قُلُوبُهم، وانطمست بصائرهم.

وربّما كان الخطاب فيه لِكُلِّ مُكلَّفٍ؛ لأنَّ النَّبيّ ﷺ لا يُتصوَّر منه الشَّكّ ولا يليق به، وذلك لتحريك أريحيّته، فيزداد في الثّبات على اليقين، أو أنّ السّامع يتنبّه بهذا الخطاب على أنّه ﷺ مع جلالته الّتي لا تصل إليها الأماني، قد خوطب بمثله - أي الخِطاب - فما يظنّ بغيره؟! ففي ذلك ثبات له ﷺ ولطفٌ بغيره[2].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

تعدّد صور تأكيد ﴿ٱلۡحَقُّ﴾ في الآية:

بيانُ الحقّ الذي لا مجال للرّيب فيه يستوجبُ التوكيد

لقد أكَّد سبحانه وتعالى كونه الحقّ الَّذي لَا مجالَ للرَّيب فيه بثلاثة مؤكِّدات:

أوَّلُها: بتعريف كلمة الحقِّ بأل، فإنَّ مُؤدَّى ذلك أنّ خَلْقَ اللّهِ بإرادته المختارة على النَّحو الَّذي بيَّنه هو الحقّ وحده، ولا حقَّ سِواه. وأتى بوصف الرُّبوبيَّة وأضافه إلى الرَّسول ﷺ لتشريفه[3].

ثانيها: أنَّه بَيَّن أَن إثبات ذلك الحقّ هو مِن ربِّك الَّذي ذرأك وحفظك، وفي ذلك ما يدُلُّ على صِدق الإثبات صدقًا لَا ريبَ فيه.

ثالثها: أنَّه نهى عن الامتراء والشَّك في ذلك الحقّ، فقال سبحانه: ﴿فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ﴾ أي: أنَّه لَا مجال فيه للشَّك، أو للجدال والمراء المُثير للشَّك[4].

(1) طنطاويّ، الوسيط: 2/127.
(2) طنطاويّ، الوسيط: 2/128.
(3) الزُّحيليُّ، التَّفسير المنير: 3/264.
(4) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 3/1251.

ونهيه عن الامتراء - وجلَّ رسولُ اللَّه ﷺ أن يكون مُمتريًا - من باب التَّهييج لزيادة الثَّبات والطُّمأنينة، وأن يكون لطفًا لغيره[1].

دلالةُ الخِطاب في الآية:

الْخِطَابُ في الآية الكريمة موجَّه لِلنَّبِيِّ ﷺ، وَالْمَقْصُودُ التَّعْرِيضُ بِغَيْرِهِ، وَالْمُعَرَّضُ بِهِمْ هُنَا هُمُ النَّصَارَى الْمُمْتَرُونَ الَّذِينَ امتروا في الإلهية بِسَبَبِ أَنْ لَا أَب لعيسى[2]. ولو قيل: فلا تكن مُمتريًا لكانت هذه الدَّلالة أقلّ، ولو قيل: فلا تمترِ لكانت أقلّ، أو نهيُ النَّبي ﷺ عن الامتراء مع بُعدِه عنه على جهة الثَّبات والدَّوام على حاله[3].

الغرض من توجيه النَّهي إلى من لا يقع منه التَّنديد بمَن وقعَ من غيره

وفي هذا الأسلوب فائدتان، إحداهما: أنَّه ﷺ إذا سمع مثل هذا الخطاب تحرّك منه الأريحية فيزيد في الثَّبات على اليقين. وثانيهما: أنَّ السَّامع يتنبَّه بهذا الخطاب الفَظيع على أمرٍ عظيم فينزجر عمَّا يورث الامتراء؛ لأنَّه ﷺ بجلالته إذا خُوطب بمثله فما يُظَنُّ بغيره؟[4].

الفائدتان: زيادة الثبات على اليقين، والانزجار عمَّا يورث الامتراء

سرُّ التعبير بلفظ الرّبوبيّة، وإضافته:

التّعرّض لعنوان الربوبيّة في قوله تعالى: ﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾، مع إضافته إلى الرسول ﷺ زيادةٌ في تشريفه، ورفع مكانته، وإحاطته بعالي المنزلة، ورفيع المقام.

في إيثار لفظ الرّبوبيّة، وإضافته زيادةٌ في تشريفه، ورفع منزلته

توجيهُ المتشابِه اللَّفظيّ:

جاء في قوله تعالى هنا بالفعل: ﴿فَلَا تَكُن﴾، بلا نون التَّوكيد، وَجاء بنون توكيد في سورة البقرة في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ﴾ [البقرة: 147]؛ لِأَنّ مَا فِي سورة آل عمران جَاءَ على الأَصْل، وَلم يكن فِيهَا

بيانُ التَّشابه تناسبُ المطالع ايجابًا للتوكيد من عدمه

(1) الزَّمخشريُّ، الكشَّاف: 1/368.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 3/267.
(3) الرَّاغبُ، تفسير الرَّاغب: 2/603، ابن عطيَّة، المُحرَّر الوجيز: 1/447.
(4) الطِّيبي، فتوح الغيب: 4/128.

مَا أوجب إِدْخَالَ نون التَّوكيد فِي الْكَلِمَة، بِخِلَاف سُورَة الْبَقَرَة، فَإِنَّ فِيهَا فِي أَوَّل الْقِصَّة ﴿فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا﴾ [البقرة: 144] بنُون التَّوكيد، فَأوجب الازدواج إِدْخَال النُّون فِي الْكَلِمَة، فَيصير التَّقْدِير: فلنولينَّك قبْلَةً ترضاها فَلَا تكونَنَّ من الممترين، وَالْخِطابُ فِي الْآيَتَيْنِ للنَّبِي ﷺ؛ وَالْمُرَادُ بِهِ غَيره[1].

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

المرية والشَّكّ، والامتراء والرّيب:

المِرْيَة: التَّردُّد في الأمر، وهي أَخَصُّ من الشَّك، والرّيب: شكّ فيه تهمة واضطراب، فهو أخصّ من الشّكّ أيضًا، والامتراء والمماراة المُحاجَّةُ فيما فيه مِرْية، وأصلُه من مَرَيْتُ النَّاقة إذا مَسَحْتُ ضَرْعَها للحَلْب[2]، وقد قال القائل:

فَإِيَّاكَ إِيَّاكَ الْمِرَاءَ فَإِنَّهُ *** إِلَى الشَّرِّ دَعَّاءٌ وَلِلشَّرِّ جَالِبُ

فَفَرَّقَ بَيْنَ المِرْيةِ والشَّكِّ، وهذا كما تقدَّم له، الفرقُ بين الرَّيْبَ والشّكّ[3].

---

(1) الكرمانيُّ، البرهان في توجيه متشابه القرآن، ص: 91 - 92.

(2) العسكريّ، الفروق اللُّغويَّة، ص: 99، ابن عادل، اللُّباب: 3/54.

(3) وفي قول الرّاغب: أنّ المِرْيَة أخصُّ من الشّك، وتفريق بينهما، وأنشدَ الطّبريّ مستشهدًا على أنّ المترينَ الشاكُّون قولَ الأعشى:

تَدُرُّ عَلَى أَسْؤُقِ الْمُمْتَرِين *** نَ، رَكْضاً إِذَا مَا السَّرَابُ ارْجَحَنْ

قال: "وَهِمَ في ذلك لأنّ أبا عبيدةَ وغيرَه، قالوا: المترون في البيت هم الّذين يَمْرُون الخيلَ بأرجلِهم همزاً، لتجريَ كأنّهم يَتَحَلَّبون الجَرْيَ منها". ينظر: السّمين، الدّرّ المصون: 2/171.

﴿فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْاْ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦١﴾﴾ [آل عمران: 61]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

إلزام الحُجَّة على من أعرض عن الحقِّ بعد قيامها عليه:

الآية تفريع على قوله: ﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾؛ لما فيه من إيماءٍ، إلى أنَّ وَفْدَ نجران ممترون في هذا الّذي بَيَّن الله لهم في هذه الآيات، أي: فإنِ استمرُّواْ على محاجَّتهم إيَّاك مُكابرة في هذا الحقّ، أو في شأن عيسى فادْعُهم إلى المباهلة والملاعنة، وروى المفسّرون وأهلُ السّيرة، أنَّ وفد نجران لمّا دعاهم رسول الله ﷺ إلى الملاعنة، قال لهم العَاقِب: نلاعنه، فوالله لئن كان نبيًّا فلاعَنَنا لا نفلح أبدًا، ولا عقبنا من بعدنا، فلم يجيبوا إلى المباهلة، وعَدَلوا إلى المصالحة[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿حَآجَّكَ﴾: خَاصَمَكَ وجَادَلَكَ، وقَارَعَكَ الحُجَّةَ، والمُحاجَّةُ هي مُفاعَلةٌ، ولا تَقَع إلَّا مِن اثنين فصاعدًا[2]، وهي أن يطلب كلّ واحدٍ أن يردَّ الآخَرُ عن حُجَّته ومحجَّته[3]، والحجّة: البرهان. تقول حاجَّهُ فحجَّه أي غلبه بالحُجَّةِ، وفي المثل: "لَجَّ فَحَجَّ". وهو رجلٌ مِحْجاجٌ، أي جَدِلٌ. والتّحاجُّ: التّخاصُم[4].

2) ﴿مِنَ ٱلْعِلْمِ﴾: مِنْ: عَلِمَ يَعْلَمُ عِلْمًا، نقيض جهل. ورجل علّامة، وعلّام، وعليم، والله يحكي عن يوسف ﴿إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾﴾ [يوسف: 55][5]، "والعلم اليقين؛ يقال: عَلِمَ يَعْلَمُ، إذا تيقّن، وجاء بمعنى المعرفة أيضًا، كما جاءت بمعناه ضمن كلّ واحد معنى الآخر،

(1) الآلوسيُّ، روح المعاني: 2/180، ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 3/264 - 265.
(2) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 1/524.
(3) الرَّاغبُ، المفردات: (حج).
(4) الجوهريّ، الصّحاح: (حجج).
(5) الخليل، العين: (حجج).

لاشتراكهما في كون كلّ واحد مسبوقًا بالجهل، لأنّ العلم وإن حصل عن كسب فذلك الكسب مسبوق بالجهل، وفي التّنزيل ﴿مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلۡحَقِّۖ﴾ [المائدة: 83]، أي: علموا، وقال تعالى ﴿لَا تَعۡلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعۡلَمُهُمۡۚ﴾ [الأنفال: 60] أي لا تعرفونهم الله يعرفهم، وقال زهير:

وَأَعْلَمُ عِلْمَ الْيَوْمِ وَالْأَمْسِ قَبْلَهُ *** وَلَكِنَّنِي عَنْ عِلْمِ مَا فِي غَدٍ عَمِي[1]

ومعنى ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ﴾، أي: مِنَ البَيِّنات والأدلّة المُوجِبة للعِلْم، بأنَّ عيسى عبدُ الله ورسولُه[2].

3) ﴿تَعَالَوۡاْ﴾: هَلُمُّوا بالرَّأي والعزيمة. والمُراد: المجيء بالرَّأي والعزم، كما تقول: تعالَ نُفكِّر في هذه المسألة[3]. وأَصلُه طلبُ الإقبال إلى مكانٍ مُرتفع، ثمَّ توسّع فيه فاستُعمل في مجرَّد طلب المجيء[4]، وتَعالُوا: لغةٌ في تَعالَوْا، أُلقِيَتْ ضَمّةُ الواوِ على اللّام[5].

4) ﴿نَبۡتَهِلۡ﴾: مُشْتَقٌّ مِنَ الْبَهْلِ، وَهُوَ الدُّعَاءُ بِاللَّعْنِ، وَيُطْلَقُ عَلَى الاجْتِهَادِ والتَّضَرُّعِ فِي الدُّعَاءِ مُطْلَقًا؛ لِأَنَّ الدَّاعِيَ بِاللَّعْنِ يَجْتَهِدُ فِي دُعَائِهِ، وَالْمُرَادُ فِي الْآيَةِ: نتباهل بأن نقول: بهلةُ اللَّه: لعنته على الكاذب مِنَّا ومنكم[6].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

المباهلةُ درسٌ للأمَّة لإثبات الحقِّ أمام المكابرين:

فمَن جادَلَكَ، أيّها الرَّسولُ، من نصارى نجران في أمر عيسى، زاعمًا أنَّه ليس عبدًا لله من بعد ما جَاءك مِنَ العِلْم الصَّحيح في شأنه؛ فقل لهم: تعالوا نَدْعُ مَن عندنا مِن ذُرِّيَّةٍ ونساءٍ ورجالٍ، ومَن عندكم من ذُرِّيَّة ونساءٍ ورجالٍ؛ أي يتلاقى جمعُنا وجمعُكم، ثمَّ يُعلن كلُّ واحدٍ مِنَّا إيمانَه بما عنده، ونبتهل إلى الله ضارعين إليه، مُتَّجهين بقلوبنا نحوه، أن يجعلَ لعنته وطرده من رحمته على الكاذبين في دعواهم، المنحرفين في اعتقادهم،

(1) الفيّوميّ، المصباح المنير: (علم).
(2) الزَّمخشريُّ، الكشَّاف: 1/368، البيضاوي، أنوار التَّنزيل: 2/20.
(3) الطِّيبي، فتوح الغيب: 4/128، أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 2/46.
(4) الآلوسيُّ، روح المعاني: 2/180.
(5) الصّغانّي، الشّوارد، ص: 14.
(6) الطِّيبي، فتوح الغيب: 4/128، أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 2/46، ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 3/265، جبل، المعجم الاشتقاقي: (بهل).

وهذا المعنى هو ظاهر الآية؛ إذ فيه الدَّعوة الجماعيَّة من الفريقين؛ ليكون الجمع في مقابل الجمع، فيُعرَف المحقُّ من المبطِل[1].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالةُ الفاء في المطلع:

معنى الفاء الإفصاحُ عن شَرْطٍ مُقدَّر مغزاه بطلان غير ألوهيّة الله تعالى

الفاء في قوله: ﴿فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ﴾ فاءُ الإفصاح؛ إذ إنَّها تُفصح عن شَرْطٍ مُقدَّر؛ والمعنى إذا كانت هذه حقيقة السَّيد المسيح عليه السلام، وهذه إرادة الله تعالى في الخَلْقِ والتَّكوين، فكلُّ ما يُدَّعَى له من الألوهيَّة باطلٌ، ولا يُؤمن به أَحد[2].

بيان مُتعلّق الضَّمير في ﴿فِيهِ﴾:

تعدّد احتمال عود الضمير توسُّعٌ في الدلالة

الضَّمير في: ﴿فِيهِ﴾ يعود على عيسى عليه السلام؛ لأنَّ المنازعة كانت فيه؛ ولأنَّ تصدير الآية السَّابقة في قوله: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ﴾ وما بعده جاء من تمام أمره، وقيل: يعودُ على الحقِّ، وظاهرٌ من العُموم في كلِّ مَنْ يحاجّ في أمر عيسى. وقيل: المراد وفد نجران[3].

عِلَّة التَّعبير بلفظة ﴿ٱلْعِلْمِ﴾:

التعبير بلفظة (العلم) تلخيصٌ للدليل والحجّة

معنى قوله تعالى: ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ﴾: مِنَ البيِّنات المُوجبة للعِلْم، وإطلاق العِلْم عليها إمَّا حقيقيّ، لأنَّه نوعٌ منه، وإمَّا مجازٌ مُرسل بإطلاق المصدر على المفعول، أي: من بعد ما جاءك من المعلوم[4]. فاللَّام في ﴿ٱلْعِلْمِ﴾ للعَهْدِ، وهو تلخيصُ الدَّليل الموجب؛ لأنَّ عيسى مخلوقٌ من مخلوقاته، وليس بابن له، ولا تفاوت بينه وبين آدم المخلُوق من التُّراب المكون بكلمة التَّسخير، ويدلُّ على

(1) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 3/1252، نخبة من العلماء، المختصر في تفسير القرآن، ص: 57.
(2) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 3/1252.
(3) أبو حيَّان، البحر المحيط: 3/187.
(4) الآلوسيُّ، روح المعاني: 2/180.

أنَّ البَيِّنة الموجبة للعِلْم ذلك قوله تعالى: ﴿ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ﴾، يعني: إذا عاندوا للحقِّ بعد ذلك لم يبقَ إلَّا الدَّعوة إلى المُلاعنة وتعجيزهم بالمباهلة الَّتي تستأصلهم، فقوله: ﴿ٱلۡحَقُّ﴾ وقوله: ﴿ٱلۡعِلۡمِ﴾ مُعبِّران عن تلخيص الدَّليل[1].

دلالةُ التَّرتيب في الدّعوة:

تقديمُ الأعزّ على الأخصّ دليلُ إيمان ويقين بحفظ الله تعالى

وجهُ التّرتيب في قوله تعالى: ﴿نَدۡعُ أَبۡنَآءَنَا وَأَبۡنَآءَكُمۡ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمۡ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمۡ﴾ الآتي:

أوَّلًا: قدَّم ما يُدافع عنه ذوو الأحساب ويفدونه بنفوسهم، وقدَّم منه الأعزَّ الألصق بالأكباد وختم بالمدافع، وهذا التَّرتيب على سبيل التَّرقيّ إذا اعتبرتَ أنَّه قدَّم الفَرْعَ ثمَّ الأصلَ وبدأ بالأدنى وختم بالأعلى؛ وفائدة الجمع الإشارة إلى القطع بالوثوق أنهم على حَقٍّ[2].

ثانيًا: يقينه ﷺ في إحاطة حفظ الله تعالى بمن قدَّمهم على النَّفس في المباهلة، فقدَّمَ جانبه على جانب المخاطبين، مع رعاية الأصل في الصِّيغة فإنَّ غير المُتكلِّم تبعٌ له في الاسناد[3].

ثالثًا: اكتُفيَ بذِكر الأبناء دون البَنَاتِ؛ لظهور كونِهم أعزَّ منهنَّ؛ وأمَّا النِّساءُ فتعلُّقهن من جهة أخرى[4].

رابعًا: في قوله تعالى: ﴿وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمۡ﴾. فقد عنى بـ (الأَنفس): بَنِي العَمِّ، والعَرَبُ لا تستنكر أن تُخبر عن ابن العَم بأنَّه نفسُ ابن عمِّه، وقد قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ﴾ [الحجرات: 11]؛ أراد: إخوانكم في الدِّين، فأجرى الأُخوَّةَ في الدِّين مجرى الأُخوَّةِ في القرابةِ، وإذا وقعت النَّفس على البعيد في النَّسب، كان أجدر أن تقع على القريب في النَّسب والدِّين؛ وإنَّما قُلنا هذا، لأنَّ المُتكلِّم لا يقولُ: ادعوا فلانًا وفلانًا ونفسي؛ لأنَّه يكون حاضرًا[5].

(1) الطِّيبي، فتوح الغيب: 4/128.
(2) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 4/443، الشربيني، السِّراج المنير: 1/222، أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 2/46.
(3) الآلوسيُّ، روح المعاني: 2/180، أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 2/46.
(4) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 2/46.
(5) الواحدي، التَّفسير البسيط: 5/332.

عِلَّةُ ضَمِّ الأبناءِ والنِّساءِ إلى النَّفسِ:

ضَمَّ رسول الله ﷺ إلى النَّفسِ الأبناءَ والنِّساءَ؛ لأنَّه أتمّ وأكمل في الدَّلالة على ثقتِهِ بحاله، ويقينه بصدقهِ، وأشدّ نكايةً بالعَدوِّ، وأوفر إضرارًا به لو تمَّت المباهلة، وفي هذه القِصَّة أوضحُ دليلٍ على نُبوَّته ﷺ، وإلَّا لما امتنعوا عن مُباهلته، ودلالتها على فضل رسوله ﷺ وآله الأطهار ممَّا لا يمتري فيها مُؤمنٌ[1].

سبب الضمّ أنَّه أتمّ في الدَّلالة على ثقتِهِ بحاله، ويقينه بصدقهِ، وأشدّ نكايةً بالعَدوِّ

بلاغة التَّعبير في الفاصلة:

في قوله: ﴿فَنَجۡعَل لَّعۡنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾ مجازٌ عقليٌّ، إذ نسَب جَعْل اللَّعنة إليهم، لأنَّهم تسبَّبوا إليه بالابتهال والدُّعاء.

وجه المجاز العقلي نسبةُ جعلِ اللَّعنة إليهم لتسبُّبهم اليه بالابتهال

سرُّ كتابةِ اللَّعنة بالتاء المفتوحة:

كلُّ ما في كتاب الله تعالى من ذِكر (اللَّعنة) فهو بالهاء، إلَّا حرفين في آل عمران: ﴿فَنَجۡعَل لَّعۡنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾، وفي النُّور: ﴿وَٱلۡخَٰمِسَةُ أَنَّ لَعۡنَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾ [النور: 7][2]، ويبدو من سياق الآيات الَّتي جاءت فيها الكلمتان أنَّ (لَعْنَت) بالتَّاء المبسوطة تدلُّ على أنَّها لعنة خاصَّة لمواقف خاصَّة، و(لَعْنَة) بالتَّاء المربوطة تدلُّ على أنَّها لَعْنَة عامَّة، أو أنها لعنة مُمْتَدَّةٌ مَبْسُوطَةٌ تبسط ظلالها وتمتدُّ فتعمُّ صاحبَها لشدّة ظلمه ومجادلته في الباطل، والله تعالى أعلم.

في الرّسم القرآني إلماحٌ بلعنة خاصَّة لمواقف خاصَّة، ولَعْنَة عامَّة مبسوطة

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(أَتَى)، و(جَاء):

تشترك الصِّيغتان في دلالة القُدُوم والإقبال، غير أنَّ بينهما فُروقًا تتكشَّف عند تأمُّل السِّياق، إذ نجد (أَتَى) مُستعملة في الأمور الّتي يتوصَّل إليها بسهولة، أو تكون في سِياقٍ تنساب فيه المعاني

(1) الآلوسيُّ، روح المعاني: 2/181، ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 3/265.
(2) الأنباري، إيضاح الوقف والابتداء: 1/286.

بسهولةٍ، كقوله تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ﴾ [النّحل: 1]، وأمَّا المجيءُ فيأتي لِمَا فيه صُعوبة ومشَّقة، ولعلَّ ذلك يعود إلى لفظ كلٍّ من الفعلين، فـ (أَتَى) أخفُّ من (جَاء)، وممَّا يدلُّنا على ذلك أنَّ (أَتَى) يُؤخذ منهما الأزمنة الثَّلاثة: الماضي، والمضارع، والأمر، فنقول: أتى، ويأتي، وائتِ، وكلُّها وردت في القرآن، في حين وردت (جَاء) ملازمةً حالةً واحدةً، وهي أن تأتي بزمن الماضي فحسب، وكذلك هي في القرآن الكريم، ولم يأتِ منها مضارعٌ ولا أمرٌ؛ لثقلها فلا تجد في القرآن الكريم يجيء أو جِئْ، ولا يخفى ما فيها من الثِّقَل والصُّعوبة[1].

(تَعَالَ) و(هَلُمَّ):

تَعَالَ: بِفَتْح اللَّام: أَمر أَي: جِئْ، وَأَصله أَن يَقُوله من فِي الْمَكَان الْمُرْتَفع لمن فِي الْمَكَان المنخفض، ثمَّ كثر حَتَّى اسْتَوَى اسْتِعْمَاله فِي الْأَمْكِنَة، عالية كَانَت أَو سافلة، فَيكون من الْخَاصِّ الَّذِي جُعِلَ عَامًّا، وَاسْتُعْمِلَ فِي مَوضِعِ الْعَامِّ[2]، وأمّا هَلُمَّ: وَأَصْلُهَا هَلْ أَؤُمُّ، كَلَامُ مَنْ يُرِيدُ إِتْيَانَ الطَّعَام، ثُمَّ كَثُرَتْ حَتَّى تَكَلَّمَ بِهَا الدَّاعِي، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ مَعْنَاهَا هَلْ لَكَ فِي الطَّعَامِ أُمَّ، أَي اقْصِدْ[3]، قال هشام بن المغيرة:

هَلُمَّ إِلَى أُمَيَّةَ إِنَّ فِيهَا ***شِفَاءُ الوَارِيَاتِ مِنَ السَّقَامِ[4]

وآثر القرآن تعالوا على هَلُمَّ في هذه الآية للدّلالة على طلب العلوّ في صحّة الاعتقاد، والارتفاع عن حضيض الجدل الّذي لا دليل له.

اللَّعْن والبَهْل:

أَنَّ اللَّعْن هُوَ الدُّعَاء على الرَّجُل بالبُعْدِ، والبَهْلُ الاجْتِهَاد فِي اللَّعْنِ. قَالَ الْمبرِّد: بَهَلَهُ اللهُ، يُنْبِئُ عَن اجْتِهَاد الدَّاعِي عَلَيْهِ باللَّعن؛ وَلِهَذَا قيل للمُجتهد فِي الدُّعَاء: المُبتهل[5]، وآثر القرآن الابتهال على اللّعن في هذه الآية، للدّلالة على قوّة يقين رسول الله ﷺ في أنّه على الحقّ.

(1) الرَّاغبُ، المفردات، ص: 60، الدُّوري، دقائق الفروق البيانيَّة، ص: 229.
(2) الكفويُّ، الكُلِّيَّات، ص: 316.
(3) ابن فارس، المقاييس: (هلم).
(4) الخليل، العين: 8/300.
(5) العسكري، الفروق اللُّغويَّة، ص: 52.

الْجَعْل وَالْعَمَل:

أَنَّ الْعَمَل هُوَ إيجاد الأثر في الشَّيْء، والجَعْلُ تَغْيِيرٌ بإيجاد الْأَثر فِيهِ، وبِغَيْر ذَلِك، أَلَا ترى أَنَّك تَقول: جَعَلَ الطِّين خَزَفًا، وَجَعَلَ السَّاكِنَ مُتحرِّكًا، وَتقول: عَمل الطِّين خَزَفًا، وَلَا تَقول: عَمل السَّاكِن مُتحرِّكًا؛ لِأَنَّ الْحَرَكَة لَيست بأثر يُؤثّر بِهِ فِي الشَّيْء.[1]

(1) العسكري، الفروق اللُّغويَّة، ص: 136.

﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡقَصَصُ ٱلۡحَقُّۚ وَمَا مِنۡ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٦٢﴾ [آل عمران: 62]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

ما تكلَّمت به النَّصارى في شأن عيسى هو أكاذيبُ وتُرّهات لا تُوافقُ الواقِعَ:

في الآية إشارةٌ إلى ما تقدَّمَ ذِكرُه من الدَّلائل، ومِنَ الدُّعاء إلى المُباهَلةِ.

وما عُطِفَ على ذلك بالواو، هو اعتراضٌ لبيان ما اقتضاهُ قولُه: ﴿ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾ [آل عمران: 61]؛ لأنَّهم نَفَوْا أن يكونَ عيسى عَبدًا لله، وزعمُواْ أنَّه غُلِبَ، فإثباتُ أنَّه عبدٌ هو الحقُّ[1]، "وإنّه تعالى هو ذو العزّة الّذي لا يغالبه فيها أحد، والحكمةِ الّتي لا يساويه فيها أحد، حتّى يكون شريكًا له في ألوهيّته، أو نِدًّا في ربوبيَّتِه"[2].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلۡقَصَصُ﴾: القَصُّ والقَصَصُ: تَتَبُّعٌ وتَتَابُعٌ مع تَسويةٍ، وقولهم: قَصَّ أثرَه، أي تتبَّعه، وفي القرآن قال تعالى: ﴿فَٱرۡتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصٗا ٦٤﴾ [الكهف: 64]، ومن هذا الجذر: اقْتَصَصْتُ الحديثَ، بمعنى رويته على وجهه، والاسمُ القَصَصُ بالفتح؛ وُضِعَ موضع المصدر حتَّى صار أغلبَ عليه، والقِصَصُ - بالكسر -: جمعٌ للقصّة التّي تكتب[3]، والقَصَصُ: هو الخَبرُ المُشتَمِلُ على المعاني المُتتابعةِ، تقولُ: قَصَّ يَقُصُّ قَصًّا وقَصَصًا، إذا تتبَّعَ الأمرَ يُخبِرُ به شيئًا بعدَ شَيءٍ، وأصلُه: اتِّباعُ الأثرِ، يُقالُ: خرجَ فلانٌ قَصًّا وقَصَصًا في أَثَرِ فُلانٍ، وذلك إذا اقتَصَّ أثَرَه[4]، و﴿ٱلۡقَصَصُ ٱلۡحَقُّۚ﴾: خَبَرُ القرآنِ الصَّادق فيما أَخْبرَ به[5].

2) ﴿ٱلۡعَزِيزُ﴾: أصلُ العِزّة: تَماسُكُ الجِرْمِ الرَّخْوِ، حتّى يَبلغَ الشِّدَّةَ والصَّلابةَ التّامّةَ،

(1) الرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 8/250، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 3/266.
(2) القطّان، تيسير التّفسير: 1/200.
(3) الجوهريّ، الصّحاح: 3/1051.
(4) الخليل، العين: (قصص)، وابن فارس، مقاييس اللُّغة: (قصّ)، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ (قصص، قصقص).
(5) الواحديّ، الوسيط: 1/446.

والعِزَّةُ: الشِّدَّةُ والقُوَّةُ والغَلَبَةُ والقَهْرُ والامتناعُ، والعَزِيزُ: القَوِيُّ الشّديدُ الغالِبُ المُمتنعُ على مَنْ يريدُه بالقَهْرِ والغَلَبَةِ، وهو ذو العِزَّةِ الّذي لا يُغالبُه أحدٌ في مُلكِه[1]، والعزّة للّه تبارك وتعالى، واللّه العزيز لأنّه يُعِزّ من يشاء، ويُذِلّ من يشاء، وملك أعزّ: أي عزيز، قال الفرزدق:

إِنَّ الَّذِي سَمَكَ السَّمَاءَ بَنَى لَنَا *** بَيْتًا دَعَائِمُهُ أَعَزُّ وَأَطْوَلُ[2]

3) ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾: الحُكْمُ: المَنْعُ للإصلاحِ، والحَكِيمُ: المُتَّصِفُ بالحِكْمَةِ في قَولِه وفِعلِه[3]، الْحَكِيمُ: من صفات اللّه تعالى، يجوز أن يكون من صفاته لذاته بمعنى العالم، ويجوز أن يكون من صفات الفعل[4]، وفي لسان العرب عن ابن الأثير أنّ: "في أسماء اللّه تعالى الحكم والحكيم، وهما بمعنى الحاكم، وهو القاضي، فهو فعيل بمعنى فاعل، أو هو الّذي يُحكم الأشياء ويتقنها؛ فهو فعيل بمعنى مُفْعِلٌ"[5].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

تأكيدُ أنَّ ما أَخبرَ اللهُ بِهِ عن عيسى ابنِ مريمَ هو الحَقُّ لاريب فيه:

إنَّ هذا الّذي ذَكَرْنا لكَ مِنْ شأن عيسى عليه السلام هو الخَبرُ الحقُّ الّذي لا كَذِبَ فيه ولا شَكَّ، لأنّه القصص الثّابت الّذي لَا مجال فيه لإنكار مُنكِر، ولا لتشكيك متشكّك؛ فالمسيح عيسى عليه السلام ليس إلهًا ولا ابنَ إله، بل عَبْدُ اللّهِ ورسولُهُ[6]، ومَا مِن مَعبودٍ بحقٍّ إلَّا اللّهُ وحدَه، وإنَّ اللّه لهو العزيزُ الّذي قَهَرَ كلَّ شيءٍ، وخَضَعَ له كلُّ شيءٍ، الحكيمُ الّذي يَضَعُ الأشياءَ مواضعَها[7].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

تَعَدُّدُ صِيَغِ التَّوْكِيدِ فِي قَوْلِهِ: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ﴾:

إنَّ اللّه عز وجل أكَّدَ على صِدْقِ هذه القَصَصِ القرآنيَّةِ - بالنَّظَرِ إلى حال المُخاطَبِ - وتمامِ صِحَّتِها وتَحقُّقِ وقوعِها، فأَثْبَتَها بطريق المعرفةِ، وبإسنادِ الحقِّ إليها، فهي ليست

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرّاغبُ، المفردات: (عزّ)، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (عزز).
(2) الخليل، كتاب العين: (عزّ).
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (حكم).
(4) الحِمْيَرِيّ: شمس العلوم: (الحكيم).
(5) ابن منظور، لسان العرب: (حكم).
(6) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 3/1254.
(7) السَّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن: ص 133، ونخبة من علماء التفسير، المختصر في تفسير القرآن، ص: 58.

تَحْرِيكُ نُفُوسِ أَهْلِ الْبَاطِلِ لِتَلَمُّسِ الْحَقِّ وَطَلَبِهِ

مجرَّدَ خَيالاتٍ أو أَوهامٍ لا نَصيبَ لها مِن الحقيقةِ، بلْ هي الحقيقةُ نفسُها، ولم يَكتفِ السِّياقُ بتعريف المسند إليه بالإشارة ﴿هَٰذَا﴾ الدَّالِّ على تمييزِهِ أكملَ تمييزٍ؛ تعظيمًا لشأنِه، بلْ جاء بـ ﴿إِنَّ﴾ واللَّامِ المؤكِّدين، وضميرِ الفَصْلِ ﴿لَهُوَ﴾، وهو هنا مؤكِّدٌ، وحُلِّيَ خَبرُ ﴿إِنَّ﴾ باللَّامِ لإفادةِ القصرِ؛ ليكونَ مجموعُ ذلك تأكيدًا قويًّا لمضمونَ الجملة، وهي بهذا صيغةُ خبرٍ إنكاريٍّ[1].

وما ذاكَ إلَّا لزَعْزعةِ ثِقة أصحابِ المِلَلِ بدِينِهم؛ بعثًا لهم على تلمُّسِ الحقِّ وطلَبِهِ، فكأنَّ اللّٰه تعالى يقولُ لهم: إنَّ هذا هو القَصَصُ الحقُّ وحدَه، لا ما تَقُصُّه كُتُبُ أصحابِ المِلَلِ الأُخرى وعقائدهم.

دِلَالَةُ الْقَصْرِ فِي قَوْلِهِ: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ﴾:

خَبَرُ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ عَنْ عِيسَى عليه السلام هُوَ الْحَقُّ، وَمَا ادَّعَتْهُ النَّصَارَى فِيهِ مَحْضُ الْبَاطِلِ

في قوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ﴾ أسلوبُ قصرٍ؛ وذلك بتعريفِ المسند إليه ﴿هَٰذَا﴾ بالإشارة، وتعريف المسند ﴿ٱلْقَصَصُ﴾ باللَّام؛ وضمير الفصل ﴿لَهُوَ﴾ ليس دالًّا ههنا على القصر؛ لأنَّ شرط إفادتِهِ القصرَ أن يستقلَّ بكونِهِ طريقًا له، أمَّا إذا اقترنَ به ما يُفيد القصرَ؛ فإنَّه يكون مؤكِّدًا كما في هذه الآية.

والقَصرُ إضافيٌّ؛ وبيانُ ذلك: أنَّ المقصور في تعريفِ جزأيِ الجملةِ هو المعرَّف باللَّام - تقدَّمَ أو تأخَّر -؛ فيكون المعنى قصرَ القصصِ الحقِّ على نبأ عيسى عليه السلام المذكور قبلُ، مع وجودِ حقٍّ كثيرٍ في قصص القرآن الكريم عن غيره، إلَّا أنَّ القصرَ وقع إضافيًّا بالنِّسبة إلى ما زوَّره النَّصارى وافترَوه عن عيسى عليه السلام؛ من كونِهِ إلهًا أو ابنَ اللّٰهِ، سبحانَه وتعالى عمَّا يقولُ الظَّالمون عُلوًّا كبيرًا[2]، بل ذلك محضُ الباطلِ.

(1) أبو حيَّان، البحر المحيط: 3/190، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 3/267، وأبو سمعان، التّراكيب النّحوية، ص: 37.
(2) الدّريهم، سورة آل عمران دراسة بلاغيّة، ص: 128.

دلَالةُ الْقَصْرِ في قَوْلِهِ: ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُۚ﴾:

اللهُ تَعَالَى هُوَ وَحْدَهُ الْمَعْبُودُ الْحَقُّ

في قول اللّه تعالى: ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُۚ﴾ قصرُ الأُلوهيَّةِ الحقَّةِ على اللّه تعالى، وهو قصرٌ حقيقيٌّ تَحقيقيٌّ، فالألوهيَّةُ الحقَّةُ للّه تعالى لا تتعدَّاه إلى غيره، فلا يُصرَفُ شيءٌ من أفرادِ العبادة إلى غيرِهِ، وَصَرْفُ شيءٍ مِن ذلك لغيرِ اللّه تعالى شِركٌ مُحبِطٌ للعَملِ، وتَعَدٍّ على الذّاتِ العَلِيَّةِ[1].

دِلَالَةُ ﴿مِنْ﴾ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُۚ﴾:

مِنْ مَقَاصِدِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ تَقْرِيرُ التَّوْحِيدِ وَإِنْكَارُ الشِّرْكِ

الحروفُ الزَّائدةُ في القرآنِ الكريمِ زائدةٌ من حيثُ الإعرابُ فحسبُ، وإلَّا فهي تُفيدُ معنًى زائدًا على ما لو لم تكنْ موجودةً، وجاءت ﴿مِنْ﴾ في قوله: ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُۚ﴾؛ لتفيدَ الاستغراقَ نصًّا؛ إذِ الاستغراقُ يُفْهَمُ من إيرادِ ﴿إِلَٰهٍ﴾ نكرةً في سياق النَّفْيِ، إلَّا أنَّ هذا الاستغراقَ ظاهرٌ وليس نَصًّا، ولذا جيءَ بـ ﴿مِنْ﴾ لِتفيدَ الاستغراقَ نصًّا؛ للرَّدِّ على الثّنويّة والنَّصارى، وكلِّ مَنْ يدَّعي إلهًا غيرَ اللّهِ تعالى؛ فالجملةُ دالَّةٌ على التَّوحيد، ونفيِ الشَّريكِ بالتَّصريحِ ودَلالةِ المُطابقةِ[2].

نُكْتَةُ الْإِظْهَارِ فِي مَوْضِعِ الْإِضْمَارِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾:

الِاسْمُ الْأَحْسَنُ (اللّه) جَامِعٌ لِمَعَانِي الْكَمَالِ وَالْجَلَالِ وَالْجَمَالِ

جاءَ تَكرارُ اسمِ اللّهِ تعالى في قوله تعالى: ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ في سِياق التَّأكيدِ على تفرُّدِه تعالى بالألوهيَّةِ الحقَّةِ المُطلَقةِ، وقد وَرَدَ الاسم الأحسن ﴿ٱللَّهَ﴾ الثّاني مُظهَرًا في مَوضِعِ الإضمارِ؛ إذ كان مقتضى الظَّاهر أن يُقال: وإنَّه لهو العزيز الحكيم، ونكتةُ الإظهار في موضع الإضمار: تأكيد معنى

(1) الدّريهم، سورة آل عمران دراسة بلاغيّة، ص: 253.

(2) الواحديّ، البسيط: 5/326، وأبو السُّعود، إرشادُ العقل السَّليم: 2/47، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 2/267، والعثيمين، تفسير القرآن الكريم، (سورة آل عمران)، ص: 361.

الألوهيَّةِ، وتَربيةُ المَهابة؛ لما في الاسم الأحسن ﴿ٱللَّهُ﴾ من جمعِ معاني الكمال والجلال والجمال[1].

نُكْتَةُ تَأْكِيدِ قَوْلِهِ: ﴿لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ بِأَنْوَاعٍ مِنَ الْمُؤَكِّدَاتِ:

لَا يَكُونُ الْإِلَهُ الْحَقُّ إِلَّا عَزِيزًا حَكِيمًا

هذه الجملة - ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ - جملةٌ خبريَّةٌ مؤكَّدَةٌ بأربعةِ مؤكدات:

أولها: (إنّ) في قوله: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ﴾.

ثانيها: الْقَصْرُ؛ وذلك بتعريفِ جُزْأَيِ الجملةِ.

ثالثها: ضمير الفصل ﴿لَهُوَ﴾؛ فإنَّه يقوِّي القصرَ في الجملةِ إذا وُجِدَ طريقٌ لِلْقصرِ فيهَا - كما في هذهِ الآية -.

رابعها: اسمية الجملة؛ فإنَّها آكدُ مِنَ الفعليَّةِ؛ لِما تُفيده مِنَ الثَّبات والدَّوام.

وفي تأكيدِهَا هذا التَّأكيدَ إثباتُ ألوهيَّةِ الله تعالى، ونفي استحقاق غيرِهِ شيئًا من العبادة، ومن ذلك نَفْيُ أن يكون عيسى عليه السلام إلَهًا؛ فإنَّ النَّصارى زعمُوا أنَّ اليهودَ قتلوهُ، "وذلك ذِلَّةٌ وعَجْزٌ، لا يلتئمان مع الإلهيَّة، فكيف يكون إلهًا وهو غيرُ عزيزٍ، وهو محكومٌ عليه؟! وهو أيضًا إبطالٌ لإلهيَّته على اعتقادنا؛ لأنَّه كان محتاجًا لإنقاذهِ مِنْ أيدي الظَّالمين"[2].

دِلَالَةُ الْقَصْرِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾:

تَفْنِيدُ أُلُوهيَّةِ الْمَسِيحِ عليه السلام

في قول الله تعالى: ﴿لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ قصرُ العزَّة والحكمةِ على الله تعالى.

وطريقُ القصر: تعريفُ جزأَيِ الجملةِ، وهو قصر إضافيٌّ؛ إذ العزَّة والحكمةِ ثابتةٌ لغير الله تعالى على ما يليقُ بضعفِ حالِ

(1) الدّبل، البلاغة القرآنيَّة: 1/465.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 3/267.

المخلوقِ، وهما في حقِّ اللّٰه تعالى لا منتهَى لكمالِهِمَا، والمرادُ مِنَ القصرِ ههنا: إبطالُ ألوهيَّةِ المسيحِ [1] عليه السلام.

دلَالَةُ اقْتِرَانِ ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ بِـ ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ فِي الْفَاصِلَةِ:

اقْـتِرَانُ أَسْـمَـاءِ اللهِ تَعَالَى دَالٌّ عَلَى كَمَالٍ زَائِدٍ عَلَى مَا يُفيدُهُ كُلُّ اسْـمٍ مِنْهَا عَلَى سَبِيلِ الِانْفِرَادِ

اسما اللّٰهِ تعالى ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ يدلُّ كلُّ واحدٍ منهما على الكمال الخاصِّ الذي يقتضيهِ، وهو كمال العزَّة في اسم اللّٰه ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾، والحُكْمُ والحِكمَة في اسمه سبحانه ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾، والجمع بينهما دالٌّ على كمالٍ آخرَ وهو: أنَّ عزَّته سبحانه مقرونةٌ بالحكمة؛ فعزَّتُهُ لا تستلزمُ ظلمًا سوءَ فعلٍ، كما قد يكون من عزَّة المخلوقِ، وكذا حُكْمُه وحِكْمَتُهُ مقرونَان بالعزِّ الكامل، بخلاف الوصفَيْنِ في المخلوقِ؛ فيعتريهما ذلٌّ [2].

ويعْظُمُ معنى الصِّفاتِ المذكورة - العزَّة والحُكْمُ والحِكْمَة - في حقِّ اللّٰه تعالى؛ لدخولِ اللَّامِ المفيدَةِ استغراقَ الوصفِ، أي: هُوَ الجامِعُ لكُلِّ عِزَّةٍ وحِكمةٍ.

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 3/267.
(2) ابن عثيمين، القواعد المثلى، ص: 7 - 8.

﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِٱلۡمُفۡسِدِينَ ٦٣﴾ [آل عمران: 63]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

تَهديدُ من تَولَّى عَن دِيْنِ الله ﷻ:

الآيةُ عطفٌ على آية المُباهَلَة: ﴿فَقُلۡ تَعَالَوۡاْ نَدۡعُ أَبۡنَآءَنَا وَأَبۡنَآءَكُمۡ﴾ [آل عمران: 61]، وهذا تسجيلٌ عليهم إذ نكصُواْ عَنِ المُباهَلَةِ، وقد عُلِمَ بذلكَ أنَّهم قصَدُوا المُكابرةَ ولم يَتَطلَّبوا الحقَّ، لأنّهم يعلمون أنَّ مَنْ باهَلَ نبيًّا هَلَكَ؛ رُوي أنَّهم لمّا أَبَوُا المُباهَلَةَ قال لهم النَّبيُّ ﷺ: «فَإِنْ أَبَيْتُم فأَسلِمُواْ» فأَبَواْ، فقال: «فإِنْ أَبَيْتُم فأَعطُواْ الجِزْيَةَ عَن يدٍ» فأَبَوْاْ، فقال لهم: «فَإِنِّي أَنبذُ إِليكم على سَواءٍ»[1]، وهذه الآية وعيدٌ للّذين أبواْ أن يستمعواْ إلى صوت الحقّ، وأن يستجيبواْ لما يدعوهم الرّسول إليه من الهدى واليقين.. ووصفُهُم بالمُفسدين حكمٌ بالإدانة عليهم، ومن كانت تلك صفتُه، فالنّارُ أولى به، وبئس المصير[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تَوَلَّوۡاْ﴾: الوَلْيُ والتَّولِّي: قُرْبُ شَيءٍ مِن شَيْءٍ ولُزُومُه تَبَعًا له، إقبالًا أو إدبارًا؛ وأكثرُه في الإقبال، ولا يدلُّ على الإعراضِ والإدبارِ والبُعدِ إلَّا إذا عُدِّيَ بـ (عن)، أو دَلَّ السِّياقُ على ذلك، يُقالُ: تَوَلَّى عنه، أي: أَعْرَضَ، ووَلَّى هارِبًا، أي: أدبَرَ[3]، ومعنى ﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ﴾ في الآية: فَإِنْ أَعرضُوا عن التَّوحيدِ وقَبُولِ الحقِّ الّذي قُصَّ عليكَ بعد ما عايَنوا تلكَ الحُجَجَ المُنيرةَ والبراهينَ السَّاطِعَة؛ هذا على كون الفِعلِ ماضيًا، أوْ وإنْ تُعْرِضوا، على كونه مضارعًا حُذفت منه إحدى التَّاءَين، وأصلُه: تَتَوَلَّوا[4].

2) ﴿بِٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾: من الفساد، وهو خروج الشّيء عن الاعتدال، قليلًا كان الخروج أو كثيرًا، ويستعمل ذلك في النّفس والبدن والأشياء الخارجة عن الاستقامة، ومنه قوله تعالى: ﴿لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ﴾ [الأنبياء: 22]، وقوله: ﴿ظَهَرَ ٱلۡفَسَادُ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ﴾

(1) ابن عطيَّة، المُحرَّر الوجيز: 1/447، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 3/268.
(2) الخطيب، التفسير القرآنّي للقرآن: 2/485.
(3) الجوهريّ، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللُّغة، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: مادّة (ولي).
(4) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/47، والآلوسّي، رُوح المعاني: 2/183.

[الرّوم: 41]، وقوله: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَسَادَ ۝٢٠٥﴾ [البقرة: 205][1]، والفَسادُ: نَقيضُ الصَّلاحِ، وهو: ذَهَابُ نَفْعِ الشَّيءِ المقصودِ منه بتَلَفِه وهَلَاكِه، ومعنى ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾، أيْ: فإنَّ اللّه عالمٌ بالمُفسدينَ الّذين يعبدون غيرَ اللّه، ويَدْعون النَّاسَ إلى عِبادة غيرِ اللّه فيجازيهم على ذلك[2].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

كلُّ مَن تولَّى عَن دِين الله فهو مُفسِدٌ، ولو زَعَمَ الصَّلاح:

فإنْ أَعرضواْ عمّا جِئتَ به مِنْ وَحدانيَّةِ اللّهِ، ولم يَتْبَعوكَ، فاعلمْ أنَّ تَوَلِّيَهم وإعراضَهم ليس إلَّا على سبيل العِنادِ، وذلكَ مِنْ فسادهم، فاقطعْ كلامَكَ عنهم، وفوِّضْ أمرَهم إلى اللّه، فإنَّ اللّه عليمٌ بفسادِ المُفسدينَ، مُطَّلِعٌ على ما في قلوبِهم، قادرٌ على مُجازاتِهم، وسيُجازيهم على ذلك[3]، "فَإِنْ تَوَلَّوْا أي أعرضواْ عن قبول الحقّ الّذي قصّ عليك، بعد ما عاينواْ تلك الحجج النيّرة، فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ، أي بهم، فيجازيهم على إفسادهم، والتّعبير عنهم بذلك، إشارة إلى أنّهم بتولّيهم، مفسدُون اعتقادهم، واعتقاد غيرهم في اللّه تعالى"[4].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

نُكْتَةُ وَضْعِ الْمُظْهَرِ مَوْضِعَ الْمُضْمَرِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾:

التَّوَلِّي عَنِ الْحَقِّ إِلَـى الْبَاطِلِ إِفْسَادٌ وَإِضْلَالٌ

في قوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ إظهارٌ في مقام الإضمار؛ فإنَّ مقتضى الظَّاهر: فإنَّ اللّه عَليمٌ بهم، لقوله قبلُ: ﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ﴾، فأظهرَ في موضع الإضمار؛ لتَسجيلِ صِفةِ الفسادِ عليهم، فيكونُ في التَّوَلّي مُشاكلةُ اللَّفظِ والمعنى[5].

(1) الزّين، تفسير مفردات ألفاظ القرآن الكريم: (فسد).
(2) الخليل، العين، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (فسد).
(3) جماعة من علماء التفسير، المختصر في تفسير القرآن الكريم، ص: 58.
(4) القاسميّ، محاسن التّأويل: 2/331.
(5) السَّمين، الدُّرّ المصون: 3/230، و7/277، والدُّريهم، سورة آل عمران - دراسة بلاغيّة: ص 129.

والفعل ﴿تَوَلَّوۡاْ﴾ فعلٌ ماضٍ، ويجوزُ أن يكونَ مضارعًا دالًّا مُستقبَلًا، وأصلُه: تتولَّوا[1]، فحُذِفت إحدَى التَّاءَين تخفيفًا، وهذا الحذفُ يُسمَّى: اقتطاعًا، وهو ضربٌ من ضروبِ إيجازِ الحذفِ.

نُكْتَةُ وَضْعِ الْمُظْهَرِ مَوْضِعَ الْمُضْمَرِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾:

التَّولّي عَنْ دِينِ اللهِ تَعَالَى فَسَادٌ وَإِفْسَادٌ

أُكِّدَ الخبرُ في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ بـ (إنَّ)، واسميَّةِ الجُملةِ؛ فإنَّها آكدُ من الجملةِ الفعليَّةِ لما تدلُّ عليه من الثَّباتِ واللُّزوم.

وفيه إسنادُ علم اللّه تعالى بالمفسدين إلى الاسم الأحسن ﴿ٱللَّهَ﴾ دُون ضميرِه بقَصْدِ تَربيةِ المَهابةِ؛ ليَدُلَّ على أنَّ التَّولّيَ عن الحُجج، والإعراضَ عن التَّوحيد إفسادٌ للدِّينِ والاعتقادِ المُؤدِّي إلى فَسَاد النَّفْسِ، بل إلى فَساد العَالَم[2].

دِلَالَةُ حَذْفِ جَوَابِ الشَّرْطِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ﴾:

الْمُعْرِضُونَ عَنْ دِينِ اللهِ تَعَالَى مُسْتَحِقُّونَ التَّهْدِيدَ وَالْوَعِيدَ

جُملةُ ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ دالَّةٌ على جوابِ شَرْطٍ محذوفٍ، والمعنى: فإنَّ اللّه سيعاقبُهم؛ فالكلامُ مسوقٌ مساقَ الوعيد والتَّهديد، أو المعنى: فإنَّ اللّه عَليمٌ بهؤلاء المُجادِلين بغير حقٍّ، وبأنَّهم لا يُقْدِمون على مُباهلَتِكَ؛ لمعرفتهم بنُبوَّتِك وثُبوتِ رسالتكَ؛ والكلامُ مَسوقٌ لتَسليتِه ﷺ[3].

دَلَالَةُ اللَّامِ فِي ﴿بِٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾:

شُمُولُ الْخَاصِّ بِاللَّفْظِ الْعَامِّ يُحقِّقُ الْمَقْصُودَ وَمَا تَعَلَّقَ بِهِ عَلَى الدَّوَامِ

مِنْ ملامح تَركيبِ الآيةِ الكريمةِ انطباقُ الوصفِ على كلِّ مَن اتّصَفَ به؛ فإنَّ التَّصريح باسم (المفسدين) أَفاد العمومَ؛ فاللَّامُ فيه لاستغراقِ الأفرادِ، ويدخُلُ فيهم من جاءَ السِّياقُ فيهم دخولًا أوَّليًّا[4].

(1) النَّحَّاس، إعراب القرآن: 1/163، والسَّمين، الدُّرّ المصون: 3/230.
(2) البيضاويّ، أنوار التَّنزيل: 2/21.
(3) أبو السّعود، إرشادُ العقل السَّليم: 2/47، والآلوسّي، رُوح المعاني: 2/183.
(4) ابن عُثيمين، تفسير القرآن الكريم - سورة آل عمران: 1/367.

الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

العُثُوّ وَالفَساد:

أَنَّ العُثُوَّ كَثْرَةُ الفَسَادِ، وَأَصلُهُ من قَوْلِكَ: ضَبْعٌ عَثواءُ، إذا كَثُرَ الشَّعْرُ على وَجهها، وكَذَلِكَ الرَّجُل، وعاثَ يَعيثُ - لُغَةٌ -، وعَثَا يَعْثُو: أَفْصَحُ اللُّغتَين، وَمِنْه قَوْلُه ﷻ: ﴿وَلَا تَعْثَوْاْ فِي ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ۝٦٠﴾ [البقرة: 60][1]، والفساد بأنواعه هلكة للأمّة، وسبيلٌ إلى دمار مقدّراتها، وانتكاس شبابها اليانع، في حمأة الانحراف والضّلال، وهو ما يفضي لا محالة إلى دمار الحضارة، وتمزّق الفكر والمجتمع، ولذلك شنّع عليه القرآن، واعتبره من أسباب الدّمار والتّلاشي، وإنّما عبَّرَ القرآنُ بالمفسدين بَدَلَ العاثين على هذا الفَرْقِ؛ للدَّلالةِ على شُمول علمِ اللّه تعالى كلَّ المفسدين؛ قَلَّ فسادُهم أو كَثُرَ.

(1) العَسْكريّ، الفُروق اللُّغويَّة، ص: 213.

﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُولُواْ ٱشۡهَدُواْ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ ٦٤﴾ [آل عمران: 64](1)

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الـــرّبـــط بين الـــنّـــكـــوص عـــن المباهـلـة، والـــدّعـــوة إلى كلمة سواء بين الطّرفين

لـمَّا نَكَصَ النَّصَارى عَنِ الـمُباهلة، بَعْدَ أنْ أوردَ عليهم أنواعَ الحُجَج فانقطَعوا، فلم تَبْقَ لهم شُبْهَةٌ، وقَبِلُوا الصَّغَارَ والجِزْيَةَ، ولم يَبْقَ إلَّا إظهارُ النَّتيجة، فأَمَرَهُ أنْ يُكرِّرَ عليهم الإرشادَ بطريقٍ أَخَفَّ ممَّا مضى؛ بأنْ يُؤنِسَهم فيما يدعوهم إليه بالمؤاساة، فيدعوَ دعاءً يَشمَلُ الـمُحاجِّين مِنَ النَّصارى وغيرِهم ممَّن له كتابٌ من اليهود وغيرِهم، إلى الكلمة الّتي قامت البراهينُ على حَقِّيَّتها، ونَهَضَتِ الدَّلائلُ على صِدقِها؛ دعاءً لا أعدلَ منه، على وجهٍ يتضمَّنُ نفيَ ما قد يُتخيَّلُ مِن إرادة التَّفضُّل عليهم، والاختصاصِ بأمرٍ دونَهم؛ وذلك أنَّه بدأَ بمُباشَرَةِ ما دعاهم إليه، ورضيَ لهم ما رضيَ لنفسه، وما اجتمعت عليه الكتبُ، واتَّفقَت عليه الرُّسُلُ(2).

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾: حيثما ذَكَرَ اللهُ تعالى أهلَ الكِتَاب؛ فالمرادُ بالكِتابِ: التَّوراةُ أو الإنجيلُ، أو هما جميعًا، ونداؤهم بأَهلِ الكِتابِ فيه شَيءٌ مِنَ الـمَدحِ، وإقامةِ الحُجَّة عليهم(3)، وقد "ذَهَبَ جُمْهُورُ الْفُقَهَاءِ إِلَى أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ هُمْ: الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى بِفِرَقِهِمُ الْمُخْتَلِفَةِ،

(1) وسببُ نزولِ الآيةِ: أنَّه لمَّا قَدِمَ وفدُ نَجْرانَ المدينةَ، والتَقَوْا معَ اليهودِ، اختَصموا في إبراهيمَ ﷺ، فزعمتِ النَّصارى أنَّه كانَ نصرانيًّا، وهم على دِينه، وقالت اليهودُ: بل كانَ يهوديًّا، ونحن على دِينه، فقال لهم رسولُ الله ﷺ: «كِلَا الفَرِيقَيْنِ مِنْهُ بَرِيءٌ، بَلْ كَان حَنِيفًا مُسْلِمًا، وَأَنا عَلَى دِينِهِ»، ينظر: العُليميّ، فتح الرّحمن: 1/469.

(2) البقاعيُّ، نظمُ الدُّرر: 4/446 - 447.

(3) السَّمين، عُمدة الحفّاظ: 3/375.

وَتَوَسَّعَ الْحَنَفِيَّةُ فَقَالُواْ: إِنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ هُمْ: كُلّ مَنْ يُؤْمِنُ بِنَبِيٍّ وَيُقِرُّ بِكِتَابٍ؛ وَيَشْمَلُ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى، وَمَنْ آمَنَ بِزَبُورِ دَاوُدَ، وَصُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَشِيثٍ؛ وَذَلِكَ لأَنَّهُمْ يَعْتَقِدُونَ دِينًا سَمَاوِيًّا مُنَزَّلًا بِكِتَابٍ"[1].

2) ﴿تَعَالَوْاْ﴾: أصلُه من العُلُوِّ، وهو السُّمُوُّ وَالارْتِفاعُ في المَنزِلِ والمَنزِلَةِ، فكأنّه دعاءٌ ونداءٌ إلى ما فيه رِفعةٌ، أو: مِن التَّعالي، وهو السُّمُوُّ والعُلُوُّ بالارتفاع، من مَوْضِعٍ هابطٍ إلى مكانٍ عالٍ، ثمَّ كثُرَ استعمالُه حتَّى صارَ دالًّا على طلَب التَّوجُّهِ إلى حيثُ يُدعى إليه، وإنْ لم يكن انتقالًا مِن مكانٍ إلى مكانٍ، والمرادُ: تَعْيينُ ما دَعَوا إليه، والتَّوجُّهُ إلى النَّظَرِ فيه[2].

3) ﴿كَلِمَةٍ﴾: جمعها كَلِمات وكَلِم: لفظة واحدة، أو مجموعة ألفاظٍ دالّةٍ على معنًى وفي الحديث: «الْكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ صَدَقَةٌ»، ومنه قوله تعالى: ﴿تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ﴾، والمراد: شهادة أنْ لا إله إلّا اللّه[3]، وأصلُ اشتقاقِ الكَلامِ من الكَلِمِ، وهو: التَّأثيرُ، ومنه قيلَ للجُرْحِ: كَلْمٌ؛ لتأثيره في الجِلْدِ[4]، فالمعنى: هَلُمُّوا إلى كَلِمةٍ فيها إنصافٌ مِنْ بعضنا لبعضٍ، لا مَيْلَ فيها لأحدٍ على صاحبه[5].

4) ﴿سَوَآءٍ﴾: هو اسمٌ بمعنى الاستواء، نُعِتَ به كما يُنعَت بالمصادر مُبالغةً، ويُفسَّرُ بمعنى العَدْلِ والنَّصَفَةِ؛ لأنَّ ذلك مُستوٍ، ويُفَسَّرُ بمعنى الوَسَطِ، قال تعالى: ﴿فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِي سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ۝﴾ [الصَّافَّات: 55]، أيْ: في وَسطه، قال الزَّجّاجُ: ﴿سَوَآءٍ﴾ نعتٌ للكلمة، يريدُ: ذاتِ سَوَاءٍ، فعلى هذا قولُه: ﴿كَلِمَةٍ سَوَآءٍ﴾ أي: كلمةٍ عادلةٍ مُستقيمةٍ مُستويةٍ، فإذا آمنّا بها نحنُ وأنتم كنَّا على السَّواءِ والاستقامةِ[6]، "وكلُّ مُسْتَوٍ من أرضٍ ومكانٍ أو غير ذلك من شيء، فهو سواء؛ وَمِنْهُ قَوْلُ اللّه تعالى: ﴿قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ﴾، أي عدل ذات استواء"[7] قَالَ الشّاعر:

---

(1) الموسوعة الفقهية الكويتية: 7/140.

(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (علو)، والرّاغب، المفردات: (علا)، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (علو، علي)، والرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 8/252، والآلوسيّ، رُوح المعاني: 2/180.

(3) أحمد مختار عمر، معجم اللّغة العربيّة المعاصرة: 3/1954.

(4) السَّمين، عُمدة الحفّاظ: 3/422.

(5) الرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 8/252.

(6) الرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 8/252، وأبو حيَّان، البحر المحيط: 1/557، وأبو السُّعود، إرشادُ العقل السَّليم: 1/36.

(7) الخطّابي: غريب الحديث: 2/187.

فاضْرِبْ وُجُوهَ الغُدُرِ الأَعْدَاءِ *** حَتَّى يُجِيبُوكَ إِلَى السَّوَاءِ

5) ﴿بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾: مُستويةٍ بينَنا وبينَكم، لا يختلفُ فيها القرآنُ والتَّوراةُ والإنجيلُ[1]، ولا يختلفُ فيها الرُّسلُ، ويُفسِّرُها ما بعدَها: ﴿أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾[2].

6) ﴿أَرْبَابًا﴾: أَصلُ الرَّبِّ: إِصْلَاحُ الشَّيْءِ ولُزُومُهُ وَالقِيَامُ عَلَيْهِ، وضَمُّ بَعضِهِ إلى بعضٍ في تَجَمُّعٍ، وتَمَاسُكُهُ من أَجلِ الإصلاحِ أو الانتفاعِ[3]، والأربابُ: جمعُ رَبٍّ، وهو السَّيِّدُ المُربِّي المُطاعُ فيما يَأْمُرُ ويَنْهَى، أي: لا نتَّخذَهم أربابًا فنعتقدَ فيهم الأُلوهيَّةَ، ونعبدَهم على ذلك كعُزيرٍ وعيسى[4].

7) ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ﴾: أعرضوا عمَّا دعوتموهم إليه من التَّوحيد وتركِ الإشراك[5]؛ والتّولّي: الإعراض مطلقًا، ولا يلزمه الإدبار، فإنّ تولّي الرّسول عن ابن أمّ مكتوم لم يكن بالإدبار، والتّولّي بالإدبار قد يكون على حقيقته، كما في قوله تعالى: ﴿بَعْدَ أَن تُوَلُّواْ مُدْبِرِينَ ۝٥٧﴾ [الأنبياء: 57]، وقد يكون كنايةً عن الانهزام كما في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ۝٢٥﴾ [التّوبة: 25][6].

8) ﴿ٱشْهَدُواْ﴾: شَهِدَ: كلمةٌ تَدُلُّ عَلَى حُضُورٍ وَعِلْمٍ وَإِعْلَامٍ، والمشاهدَةُ: الحُضورُ والمُعاينةُ، وشَهِدَهُ شُهُودًا: حَضَرَه، وقومٌ شُهودٌ، أي حُضورٌ[7]، " والشّهادة خبرٌ قاطعٌ تقول منه: شهد الرّجل على كذا، وربّما قالوا شهد الرّجل، بسكون الهاء للتّخفيف؛ عن الأخفش. وقولهم: أشهَدُ بكذا؛ أي: أحلف "[8].

9) ﴿مُسْلِمُونَ﴾: أصلُ السِّلْمِ والإسْلامِ: الصِّحَّةُ وَالعافِيَةُ، أو: صِحَّةُ جِرْمِ الشّيءِ والْتِئامُ ظاهرِه في ذاته، ومنه الإسلامُ: الانقيادُ؛ لأنَّ فيه سَلامةَ الإنسانِ وعافيتَه بتَسليم نفسِه للّه[9]، ومعنى ﴿ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾: أي لزِمَتْكمُ الحُجَّةُ، فاشْهَدوا واعترِفوا بأنَّا مُسلمون دونَكم، وأنَّكم كافرون حيثُ تَوَلَّيتُم عن الحقِّ بعد ظُهورِه[10].

---

(1) الزَّمخشريُّ، الكشّاف: 1/371.
(2) الرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 8/251، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 2/21.
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (ربّ)، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (ربب - ربرب).
(4) أبو حيَّان، البحر المحيط: 3/195.
(5) أبو السُّعود، إرشادُ العقل السَّليم: 2/47.
(6) الكفويّ، الكليات، ص: 28.
(7) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والجوهريّ، الصّحاح، وابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (شهد).
(8) ابن منظور، لسان العرب: (شهد).
(9) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (سلم).
(10) الزَّمخشريُّ، الكشَّاف: 1/371، وأبو السُّعود، إرشادُ العقل السَّليم: 2/47.

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

الـدّعـوة إلى كلمة العدل والإنصاف في تصوّر رسالة الإسلام وعقيدته

قلْ أيَّها الرَّسولُ لهم: تعالَوا يا أهلَ الكِتَاب مِنَ اليَهودِ والنَّصارى، نَجتَمِعُ على كلمةٍ عَدْلٍ نَستوي فيها جميعًا[1]، طالبًا منهم أن يرتفعواْ من وهدة الباطل الّتي هم فيها واقعون، إلى كلمةٍ سواءٍ، كلمةِ عدلٍ ونَصَفٍ للفريقين، فريق النّبيّ وأصحابه، وفريق أهل الكتاب؛ من نصارى نجران ومن والاهم، ومفاد الكلمة السّواء أن يعبدواْ اللّه وحده دون شريك، وأن لا يتّخذ بعضُهم بعْضًا أربابًا من دون اللّه، فيفرض المتبوع على التّابع طاعته، ويُلزمه بالسّجود له تعظيمًا وتقديسًا، فإن أبواْ، فأَشْهِدْهُم بأنّك من المسلمين، ثابتًا لا تتحوّر، وملتزمًا لا تتغيّر[2].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

دَلَالَةُ النِّدَاءِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ﴾:

مِـنْ مَحَاسِنِ الْـكَـلَامِ تَنْبِيهُ الْمُخَاطَبِ قَبْلَ تَوْجِيهِ مُهِمَّاتِ الْأَوَامِرِ إِلَيْهِ

ابتدأتِ الآيةُ الكريمةُ بفعل الأَمرِ ﴿قُلْ﴾، وهو تكليفٌ متضمِّنٌ معنَى التَّشريفِ، وفيه إيماءٌ إلى أهميَّة ما سيُتلى بعد ذلك.

وجِيءَ بأداةِ النِّداء (يا) الّتي يُنَادَى بها البعيدُ بعدَ فعل الأمر ﴿قُلْ﴾؛ للإيماء إلى غَفْلَة المخاطبِين.

وميَّزتِ المنادَى الْإِضافَةُ في قوله: ﴿يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ﴾؛ لإعلام المخاطبِين أنَّهم مخصُوصونَ من بين النَّاس ومقصودون بالأمر، فيزدادوا انتباهًا لِمَا نُودُوا من أجلِه[3].

دَلالةُ التَّعْبِيرِ بِأَهْلِ الْكِتَابِ فِي قَوْلِهِ: ﴿يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ تَعَالَوْاْ﴾:

الْإِنْـصَـافُ وَلِـينُ الْـكَـلَامِ أَدْعَـى إِلَى اسْتِجَابَةِ مَا يُدْعَى الْمَرْءُ إِلَيْهِ

قوله: ﴿يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ﴾ يَعمُّ كلَّ مَنْ أُوتيَ كتابًا كما هو ظاهرُ اللَّفْظِ؛ إلَّا أنَّ الأقربَ هنا حَمْلُهُ على النَّصارى؛ لأنّه أوردَ في الآيات

(1) نخبة من علماء التفسير، المختصر في تفسير القرآن، ص: 58.
(2) الجزائريّ، أيسر التّفاسير: 1/327.
(3) سعاد زدام، أحمد بن بلّة، دلالة الأساليب الإنشائيّة في القرآن الكريم، ص: 121.

مِنَ الدَّلائل عليهم أوَّلًا، ثمَّ باهلَهم ثانيًا، فعَدَلَ في هذا المَقام إلى الكلام المبنيِّ على رعاية الإنصافِ، وتركِ المُجادَلَةِ، وطَلَبِ الإفحام والإلزام، ممّا يَدُلُّ عليه أنَّه خاطبَهم هنا بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾.

وهذا الاسمُ - أهل الكتاب - مِنْ أحسنِ الأَسماءِ وأكملِ الألقابِ، حيثُ جَعَلَهم أَهْلًا لكتابِ اللّهِ تعالى، فإنَّ هذا اللَّقَبَ يدلُّ على أنَّ قائلَه أرادَ المُبالغةَ في تعظيمِ المُخاطَبِ وفي تَطْييبِ قلبِه، وذلك إنَّما يُقالُ عند عُدولِ الإنسانِ مع خَصْمِه عن طريقةِ اللَّجاجِ والنِّزاعِ إلى طريقةِ طَلَبِ الإنصافِ[1]، وهذا أدْعَى إلى قبول ما يُدْعَى إليهِ.

دِلَالَةُ الْأَمْرِ فِي قَوْلِهِ: ﴿تَعَالَوۡاْ﴾:

اخْتِيَارُ اللَّفْظِ الْمُنَاسِبِ فِي الْحِوَارِ أُسْلُوبٌ دَعَوِيٌّ مُؤَثِّرٌ

الفعلُ ﴿تَعَالَوۡاْ﴾ مأخوذٌ مِن التَّعالي، وهو الارتفاعُ مِن مَوْضِعٍ هابطٍ مُستَفِلٍ إلى مكانٍ عالٍ، ثمَّ كثُر استعمالُه حتَّى صارَ دالًّا على طَلَبِ التَّوجُّهِ إلى حيثُ يُدعى إليه، والأمر ﴿تَعَالَوۡاْ﴾ دالٌّ على الالتماسِ، فقد جاءَ على سبيلِ التَّلطُّفِ، دونَ تَضرُّعٍ ولا استعلاءٍ، فكأنَّ كلمةَ ﴿تَعَالَوۡاْ﴾ في الآية الكريمةِ تَدعو أهلَ الكِتابِ دَعوةً كريمةً وَدُودَةً إلى أنْ يَرتَفِعوا إلى مَنزلةٍ عَقَدِيَّةٍ ساميةٍ، تُمكِّنُهم مِن توحيدِ اللّه تعالى[2]، وفيه إيماءٌ إلى أنَّ ما هم عليهِ من الدِّين ليس بشيءٍ.

بلاغةُ التَّعبيرِ بِلَفْظِ ﴿كَلِمَةٍ﴾ مُفْرَدَةً دُونَ جَمْعِهَا:

أَدِلَّةُ كَلِمَةِ التَّوْحِيدِ (لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ) وَشَوَاهِدُهَا مِمَّا يُسَهِّلُ قَبُولَهَا وَالْإِقْرَارَ بِمَضْمُونِهَا

عَبَّرَ في الآية الكريمة بالكلمةِ عَنِ الكلمات؛ لأنَّ الكلمةَ قد تُطلقُها العَربُ على الكلام، إمَّا لوضعِ المُفْرَدِ مَوضِعَ الجَمْعِ، وإمَّا لكون الكلماتِ مُرتبطةً بعضُها ببعضٍ، فصارت في قوَّة الكلمةِ الواحدةِ، إذا اختَلَّ جُزءٌ منها اختلَّتِ الكلمةُ؛ فكلمةُ التَّوحيدِ (لَا إِلَهَ إِلَّا اللّه)، كلماتٌ لا تَتِمُّ النِّسبةُ المقصودةُ فيها مِنْ حَصْرِ الألوهيَّةِ في اللّه إلَّا بمجموعِها[3].

(1) الرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 8/251 - 252، وأبو حيَّان، البحر المحيط: 3/193.
(2) الغول، الإعجاز اللُّغوي في سورة آل عمران، ص: 61، و271.
(3) أبو حيَّان، البحر المحيط: 3/194.

ويُمكنُ أن يكونَ في الآيةِ مجازٌ مُرسَلٌ، مِن بابِ إطلاقِ الجُزء، وهو الكلمةُ، وإرادَةِ الكُلِّ، وهو قولُه: ﴿أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ﴾.

والتَّحقيقُ أنَّ إطلاقَ (الكلمة) على اللَّفظِ المفردِ هو اصطلاحٌ نحويٌّ، أمَّا (الكلمةُ) في لسان العرب فتُطلَقُ على الكلام المفيدِ، وهو الاستعمالُ المطَّرد لها في الكتاب والسنَّةِ[1]، فاستعمالُ الكلمةِ في الآيةِ مرادًا بها كلمة التَّوحيد: لا إله إلَّا اللّه؛ استعمالٌ حقيقيٌّ جارٍ على طريقة العربِ، ولا يمنعُ أن يكون إفي فرادِهَا إشعارٌ بأنَّ المطلوبَ من أهل الكتابِ ليس أمرًا شاقًّا عليهم بحيث يصعبُ عليهم أن يُجيبُوا إليه، بل أدلَّتها وشواهد صحَّتها تُسهِّلُ قَبولَهَا.

بَلَاغَةُ التَّمْثِيلِ فِي قَوْلِهِ: ﴿كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا﴾:

الْعَدْلُ مَعَ الْخُصُومِ مَدْعَاةٌ لِرُجُوعِهِمْ إِلَى الْحَقِّ

قول اللّه تعالى: ﴿كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا﴾ خرجَ مخرجَ التَّمثيلِ؛ إذ جُعلتِ الكلمةُ المُجتَمَعُ عليها شبيهَةً بالمكانِ الذي يُرادُ الاجتماعُ عنده، تحقيقًا لمعنى الاستواءِ وإبرازًا له في قالبِ المحسوسِ.

وضميرُ: ﴿بَيۡنَنَا﴾ عائدٌ على معلوم من المَقام، وهو النَّبيُّ ﷺ والمسلمون، ولذا جاء بعدَه: ﴿فَقُولُواْ ٱشۡهَدُواْ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ﴾[2].

تَأْكِيدُ مَنْطُوقِ الْأَلْفَاظِ بِمَفْهُومِهَا وَلَازِمِهَا:

دِقَّةُ اخْتِيَارِ الْأَلْفَاظِ وَاتِّسَاقُهَا سِمَةٌ مُلازِمَةٌ لِلتَّرْكِيبِ الْقُرْآنِيِّ

الأفعالُ الّتي دخلت عليها أداةُ النَّفي ﴿أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾، ﴿وَلَا نُشۡرِكَ﴾، ﴿وَلَا يَتَّخِذَ﴾ مُنسجمةٌ مِنْ حيثُ المعنى، يُؤكِّدُ بعضُها بعضًا؛ إذِ اختصاصُ اللّهِ بالعِبادة يَتضمَّنُ نفيَ الاشتراكِ، ونفيَ الأربابِ من دون اللّه، ولكنَّ المَوضِعَ مَوضِعُ تأكيدٍ[3]، رعايةً لحقِّ التَّوحيدِ.

(1) ابن تيمية، الجواب الصحيح: 3/286.
(2) المصدرُ نفسُه: 3/269.
(3) أبو حيَّان، البحر المحيط: 3/196.

وفي قوله تعالى: ﴿أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ التَّعريضُ بالّذين عبدوا عيسَى[1] عليه السلام.

بَلَاغَةُ الْإِظْهَارِ فِي مَوْضِعِ الْإِضْمَارِ:

تَأْكِيدُ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ لِلْمَعَانِي الْجَلِيلَةِ

في قوله تعالى: ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِۚ﴾ إظهارٌ في مقام الإضمارِ؛ إذ صُرِّحَ بالاسم الأحسن ﴿ٱللَّهِۚ﴾ قبلُ في قوله: ﴿أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾، فكان مقتضى الظَّاهر أن يرد النَّظمُ: (ألَّا نعبدَ إلَّا اللّٰه ولا نشرك به شيئًا ولا يتَّخذ بعضُنا بعضًا أربابًا من دونِه)، ونكتة الإظهار: تَربيةُ المَهَابةِ بتَكرار الاسم الأحسن ﴿ٱللَّهِۚ﴾، وتأكيدُ معنى الألوهيَّة الذي تضمَّنَهُ، وترسيخُهُ في القلوبِ؛ لعظيمِ الحاجةِ إليه، لأنَّ المقامَ مقامٌ لِبيانِه.

دَلَالَةُ عَطْفِ ﴿وَلَا نُشۡرِكَ﴾ عَلَى مَا قَبْلُ:

الْعُبُودِيَّةُ للهِ تَعَالَى هِيَ غَايَةُ الْحُبِّ مَعَ غَايَةِ الْخُضُوعِ

أَفادَ عطفُ ﴿وَلَا نُشۡرِكَ﴾ على ما قبله، وكذا ﴿وَلَا يَتَّخِذَ﴾ التَّشريكَ في الحُكْمِ والإعرابِ والمعنى؛ لاتِّحاد الجُمَل في الخَبَريَّة[2]، وحسَّنَ العطفَ اشتراكُهَا في الفِعْلِيَّةِ، وما بينها من تناسُبٍ في المعنَى؛ لِاسْتِلْزَامِ كُلِّ فعلٍ لما بعدَهُ.

دَلَالَةُ تَنْكِيرِ ﴿شَيۡـٔٗا﴾ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا﴾:

الْعِبَادَةُ مَحْضُ حَقٍّ للهِ تَعَالَى

الضَّميرُ في ﴿بِهِۦ﴾ من قوله تعالى: ﴿وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا﴾ راجعٌ إلَى اللّٰه تعالى، و﴿شَيۡـٔٗا﴾: أعمُّ كلمةٍ في العربيّة، وقد جاءتْ نكرةً؛ أي: لا نَتَّخِذَ مَعَهُ مَن لا يَستحقُّ أن يكونَ رَبًّا، وليس عنده مُقوِّماتُ الألوهيَّةِ أو الرُّبوبيَّةِ؛ كعيسى عليه السلام، أو أَحدٍ مِن خَلْقِهِ، أو أيِّ شيءٍ مهما كان.

و﴿شَيۡـٔٗا﴾: يَحْتَمِلُ أنْ يكون مفعولًا به، ويحتملُ أن يكون مصدرًا، أي: شيئًا مِنَ الإشراك، وجاء النَّكرةُ في سياق النَّفْيِ لتفيدَ عمومَ ما

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 3/269.
(2) الدّبل، دليل البلاغة القرآنيَّة: 1/467.

يُتَّخذ من دون اللّه تعالى؛ إذِ العبادَةُ محضُ حقِّ اللّه تعالى، لا تُصرف لا لمَلَكٍ مقرَّبٍ ولا لنبيٍّ مرسَلٍ، بل إنَّ العموم في التَّنكيرِ يشمل عمومَ مُتعلِّقاتِ الفعل من مفعولٍ به ومصدرٍ وزمانٍ ومكانٍ وهيئةٍ[1].

دِلَالَةُ التَّعْبِيرِ بِصِيغَةِ الِافْتِعَالِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا﴾:

التَّوجُّهُ إِلَى غَيْرِ اللهِ تَعَالَى خِلَافُ مَا تَدْعُو إِلَيْهِ الْفِطْرَةُ.

لَمَّا كان التَّوجُّهُ إلى غير اللّه خِلافَ ما تَدْعُو إليه الفِطرةُ الأُولَى، عبَّر بصيغةِ الافتعالِ؛ للإيماءِ إلى أنَّ الشِّركَ لا تطاوِعُه الفطرة فيحتاجُ المرءُ إلى أن يتكلَّفَه تكلُّفًا شديدًا.

دَلَالَةُ الْبَعْضِيَّةِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا﴾:

الْبَشَرِيَّةُ تُنَافِي الْأُلُوهِيَّةَ.

في قول اللّه تعالى: ﴿وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا﴾ إيماءٌ إلى إبطال ألوهيَّة عيسى عليه السلام؛ فإنَّ البشريَّةَ المستفادةَ من ﴿بَعْضُنَا بَعْضًا﴾ تُنافي الألوهيَّةَ؛ إذْ كانَ مِثلُكَ استحالَ أن يكونَ إلهًا، واختصاصُ اللّه بالعِبادة يتضمَّن نفيَ الاشتراكِ، ونفيَ اتِّخاذِ الأربابِ من دون اللّه تعالى[2].

الْإِيجَازُ بِالْحَذْفِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾:

مِنْ طَرِيقَةِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ طَيُّ مَا دَلَّ السِّيَاقُ عَلَيْهِ.

في قول اللّه تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾ إيجازٌ بالحذفِ؛ إذ حُذِفَ متعلَّق التَّولِّي، والتَّقديرُ: فإن تولَّوا مُعرضين عن الحقِّ وعمَّا دُعُوا إليه، أو: فإنْ تَتَولَّوا عن الحقِّ الّذي أُمِرْتم به ﴿فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾[3].

بَرَاعَةُ الْمُبَالَغَةِ فِي التَّعْبِيرِ عَنِ الْعِلْمِ بِالشَّهَادَةِ:

إِخْرَاجُ الْمَعْقُولِ فِي قَالَبِ الْمَحْسُوسِ أَظْهَرُ فِي الْبَيَانِ

خَرَجَ التَّعبيرُ عن العلم بالشَّهادة على سَبيل المبالغةِ في قوله تعالى: ﴿ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾؛ وذلك لإخراجِ المعقولِ إلى حيِّز المشهودِ، وهو المُحضَرُ في الحِسِّ.وفي هذا تصريحٌ بمخالفتِهم ومخاطبتِهم ومواجهتِهم بذلك، وإشهادِهم فيه على معنى التَّوبيخ والتَّهديدِ، أي: ستَرَوْنَ أنتم أيُّها المُتَوَلُّون عاقبةَ تَولِّيكم كيفَ تكونُ[4].

(1) المصدر نفسه: 3/195.
(2) أبو حيَّان، البحر المحيط: 3/196.
(3) الدّبل، دليل البلاغة القرآنيَّة، ص: 467.
(4) ابن عطيَّة، المُحرَّر الوجيز: 1/449، وأبو حيَّان، البحر المحيط: 3/196، والطِّيبيّ، فُتُوح الغيب: 4/13.

الدَّعْوَةُ إِلَى اللهِ تَعَالَى قَائِمَةٌ عَلَى الْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَالْجِدَالِ بِالتِي هِيَ أَحْسَنُ

حُسْنُ التَّرَقِّي فِي الْحِجَاجِ:

في القِصَّة إرشادٌ وحُسْنُ تَدرُّجٍ في الحِجَاجِ والمُناظرةِ، فقد بيَّنَ أوَّلًا أحوالَ عيسى عليه السلام، وما تَعاورَ عليه من الأطوار المُنافيةِ للألوهيَّة، ثمَّ ذكرَ ما يَحُلُّ عُقْدَتَهم، ويزيحُ شُبْهتَهم، فلمَّا رأى عِنادَهم ولَجاجَهم دعاهم إلى المُباهلَة بنوعٍ من الإعجاز، ثمَّ لمّا أعرضُوا عنها وانقادوا بعضَ الانقيادِ؛ عادَ عليهم بالإرشادِ، وسَلَكَ طريقًا أسهلَ وألْزمَ، بأنْ دعاهم إلى ما وافقَ عليه عيسى والإنجيلُ وسائرُ الأنبياءِ والكتبِ، ثمَّ لمّا لم يُجْدِ ذلك فيهم أيضًا، وعَلِمَ أنَّ الآياتِ والنُّذُرَ لا تُغني عنهم؛ أَعْرَضَ عن ذلك، وقال: ﴿فَقُولُواْ ٱشۡهَدُواْ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ﴾[1].

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الأَخْذ والاتِّخاذ:

الاتِّخاذُ: افتعالٌ من الأَخْذِ، والأَخْذ والاتِّخاذ هو تحصيلُ الفعلِ للنَّفْس، أو: أخذُ الشَّيءِ لأمرٍ يَسْتَمرُّ فِيهِ، وتأتي للاجتهاد في أداءِ الفعل بالمبالغة فيه، ولتسمية الشَّيءِ والحُكم عليه بغير حقيقتِه، كاتّخاذِ الكفّارِ آلهةً من دون اللّه[2]. أمَّا الأَخْذُ فخِلافُ العطاءِ، وهو تَحصيلُ الشَّيءِ في الحَوْزَةِ بقوَّةٍ، كقوله تعالى: ﴿وَأَخَذَ بِرَأۡسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيۡهِۚ﴾ [الأعراف: 150][3]، والأخذ مصدر أخذتُ بيدي، ويستعار فيقال: أخذَهُ بلسانه؛ إذا تكلّم فيه بمكروه، وجاء بمعنى العذاب في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخۡذُ رَبِّكَ﴾ [هود: 102].

(1) البيضاويُّ، أنوار التَّنزيل: 2/21، وأبو السُّعود، إرشادُ العقل السَّليم: 2/47.
(2) العسكريّ، الفُروق اللُّغويَّة، ص: 138، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (نقم).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (أخذ).

﴿يَـٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَـٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوۡرَىٰةُ وَٱلۡإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ٦٥﴾ [آل عمران: 65]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

تَوبيخُ أهلِ الكِتَابِ في مُحاجَجَتِهِم في إبراهيمَ، بعد إبطال أُلوهيّةَ المسيحِ

أقامَ القرآنُ الحجَّةَ على النَّصارى في ادِّعائهم أُلوهيّةَ المسيحِ، ثمَّ دعا هنا اليهودَ والنَّصارى[1]، إلى أَصل الدِّين وروحه الّذي اتَّفقت عليه دعوةُ الأنبياء جميعًا، وهو توحيدُ اللّه وعبادتُه، والاقتداءُ بأبي الأنبياء إبراهيمَ عليه السلام؛ فمِلَّتُه ملَّةُ الإسلامِ، ولم يكن يهوديًّا ولا نصرانيًّا[2]، إنّ اليهود منكم ينسبون أنفسهم إلى موسى، والنّصارى منكم ينسبون أنفسهم إلى عيسى، وإبراهيم عليه السلام لا يمكن أن يكون يهوديًّا تابعًا لموسى كما يدّعي اليهود، فاليهوديّة ذاتها قد جاءت من بعد إبراهيم، والنّصارى لا يمكنهم الادّعاء بأنّ إبراهيم كان نصرانيّا تابعًا لعيسى، لأنّ النّصرانيّة قد جاءت من بعد إبراهيم عليه السلام، فلم المحاجّة إذن، والحقّ واضح، وحجّة القوم داحضة، لا يقبلها العقلُ، ولا يؤيّدها الواقع؟[3].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تُحَآجُّونَ﴾: الحِجُّ والحِجاجُ: شيءٌ صُلْبٌ أو مَتينٌ لحمايةِ ضعيفٍ، واحتجَّ الشّيءُ: صَلُبَ، وحِجَاجُ العَينِ: عَظْمُ العَينِ المحيطُ بالحَدقةِ يَحميها، حَجَّ البيتَ: قصدَه، زارَه ودخلَ حَرَمَه، فاحتمى به، والحُجّةُ، بالضَّمِّ: البرهانُ، أمرٌ أو دليلٌ قويٌّ صلبٌ للرّأي يَحفظُه ويَدعمُه[4]، والحُجَّةُ: وَجْهُ الظَّفَر عند الخُصومة، والجمعُ:

(1) في سبب نزولِ هذه الآية، قال ابنُ عبَّاسٍ (رضي الله عنهما): اجتمعتْ نَصارى نَجْرانَ وأَحبارُ يهودَ عند النَّبيِّ (ﷺ)، فتَنازعوا عنده، وفقالتِ الأحبارُ: ما كان إبراهيمُ إلَّا يهوديًّا، وقالت النَّصارى، ما كان إبراهيم إلَّا نصرانيًّا، فأنزل اللهُ الآية. ابن عطيَّة، المُحرَّر الوجيز: 1/450.

(2) القِنَّوجيّ، فتح البيان: 2/261، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 3/270، والزُّحيلّي، التَّفسير المنير: 3/252.

(3) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 3/1524.

(4) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (حج)، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (حج، حجحج).

حُجَجٌ، والمُحاجَّةُ: أنْ يَردَّ كلُّ واحدٍ عن حُجَّة الآخر ومحجَّتِهِ[1]، وَقَالَ بعضهم الْحجَّة هِيَ الاسْتقَامَة فِي النّظر والمضي فِيهِ، على سنَن مُسْتَقِيم، من رد الْفَرْع إِلَى الأَصْل[2]، وَهِي مَأْخُوذَة من المحجّة، وَهِي الطَّرِيق الْمُسْتَقيم، وقوله تعالى﴿تُحَآجُّونَ﴾: تَأْتُونَ بحُجَجٍ بَاطِلَةٍ غير مؤسّسة.

2) ﴿تَعْقِلُونَ﴾: العقل: نقيض الجهل، ويقال في استعمال العرب: عقل يعقل عقلًا فهو عاقل، وقولهم المعقول: ما تعقله في فؤادك، " ويقال: هو ما يفهم من العقل، وهو العقل واحد، كما تقول: عدمت معقولًا، أي ما يفهم منك من ذهنٍ أو عقل، قال دغفل:

فَقَدْ أَفَادَتْ لَهُمْ حِلْمًا وَمَوْعِظَةً *** لِمَنْ يَكُونُ لَهُ إِرْبٌ وَمَعْقُولُ[3]

والعَقْلُ: إِمْساكُ الشَّيْءِ وحَبْسُه في جوفٍ حَصينٍ، بحيثُ لا يَذهبُ أو يَضيعُ، ومنه العقل؛ لأنّه يُدْرِكُ ويَلْتَقِطُ ويَختزِنُ العلمَ بالشَّيءِ مباشرةً أو استنتاجًا[4]، و﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أي: هذا كلامٌ من لا يَعْقِلُ، إذِ العَقْلُ يَمنعُ من ذلك، ولا يُناسِبُ أن يكونَ مُوافقًا لهم، لا في العقائدِ ولا في الأحكام[5].

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

إبراهيم عليه السلام مرجع الدّيانات السّماويّة اللّاحقة، وليس تابعًا لها

يا أهلَ الكِتابِ لَا يُسَوَّغُ لكم المُحاجَّةُ في شأن دِينِ إبراهيم عليه السلام وشرعِه، مِن حيثُ إنَّه كانَ يهوديًّا أو كان نَصرانيًّا، ومِن حيثُ إنَّكم أَتْبَعُ النَّاس له، أو أبعدُ النَّاسِ عنه، ومن حيثُ ما جاء به وحقيقةُ دعوتِه؛ قائلًا لهم: "إنّ التّوراة والإنجيل ما جاءا إلّا من بعده، فكيف يكون يهوديًّا يدين بالتّوراة، قبل أن تجيء التّوراة، وكيف يكون نصرانيّا يدين بالإنجيل، قبل أن ينزل الإنجيل؟!؛ إنّ هذه محاجّةٌ واضحة البطلان"[6]، ولكنّ تحجّر العقول، وانطماس مدارك الأقوام من أهل الكتاب، جعلهم لا يعقلون.

(1) الخليل، العين (حجّ)، والرّاغب، المفردات: ص 219.
(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 70.
(3) الخليل، العين: 1/159.
(4) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (عقل).
(5) أبو حيَّان، البحر المحيط: 3/197.
(6) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 3/1261.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلَالَةُ الِافْتِتَاحِ بِأَدَاةِ النِّدَاءِ (يَا) فِي قَوْلِهِ: ﴿يَـٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَـٰبِ﴾:

نِدَاءُ أَهْلِ الْكِتَابِ نِدَاءٌ مَخْصُوصٌ؛ اسْتِرْعَاءً لِلْآذَانِ وَتَهْيِئَةً لِلسَّامِعِ

افتُتِحَتِ الآيةُ الكريمةُ بأداة النِّداء؛ استرعاءً للآذان وتهيئةً للسَّامع، ولا سيَّما أنَّه نداءٌ مخصوصٌ لطائفةٍ معيَّنةٍ، فقد تلاه مُنادًى مُضافٌ؛ تَمييزًا وتَعْيينًا لِلْفِئَةِ المُوجَّهِ إليها الخِطابُ، وهي فئةُ أَهلِ الكِتاب؛ لأنَّهم يعلمون ما في التَّوراة والإنجيل من أَمْرِ مُحمَّد ﷺ، وأَمْرِ الأحكام الّتي يُنكرونها[1].

تَوْضِيحُ الْخِطَابِ وَتَخْصِيصُهُ فِي قَوْلِهِ: ﴿يَـٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَـٰبِ﴾:

سُلُوكُ طَرِيقِ الْمُحَاجَّةِ لِرَدِّ الْمَقَالَاتِ الْبَاطِلَةِ

يجوز أن تكون هذه الجُملةُ مِنْ مَقُولِ القَولِ المأمورِ به الرَّسولُ ﷺ في قوله تعالى: ﴿قُلۡ يَـٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَـٰبِ تَعَالَوۡاْ﴾ [آل عمران: 64]، أي: قُلْ لَهُم: ﴿يَـٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَـٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ﴾، ويجوزُ أن تكونَ استئنافًا من كلام اللّه تعالى عَقِبَ أَمرِهِ الرَّسولَ بأنْ يقولَ: ﴿تَعَالَوۡاْ﴾، فيكون توجيهُ خطابٍ إلى أهل الكتاب مُباشرةً، وتكون الجُملةُ الأُولى من مَقولِ الرَّسول ﷺ دون هذه؛ لأنَّ الأُولى مِنْ شُؤون الدَّعوة، وهذه من طُرق المُحاجَّة، وفيها إبطالٌ لِقولِهم، وذلك في الدَّرجة الثَّانية مِنَ الدَّعوة، والجميعُ في النِّسبة إلى اللّه تعالى سواءٌ[2].

دلَالَةُ الِاسْتِفْهَامِ فِي قَوْلِهِ: ﴿لِمَ تُحَآجُّونَ﴾:

كَشْفُ زُورِ الْمُدَّعِينَ بِرَدِّ حُجَجِهِمُ الْبَاطِلَةِ

وردَ في الآية الكريمة استفهامان؛ أحدهما في قوله: ﴿لِمَ تُحَآجُّونَ﴾، والآخَرُ في قوله: ﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾، فأمَّا الأوَّلُ فقد جاء لغَرَض الإنكارِ والتَّسفيهِ والتَّعجُّبِ؛ لظهور بطلان الدَّعوى، وأمَّا الثَّاني في قوله: ﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾، فهو للتَّوبيخ والتَّجهيل؛ لأنَّ كمالَ العَقْلِ يَنْأى بصاحبه عن هذا الخَطَل[3].

---

(1) لاشين، المعاني الثَّانية في ضوء أساليب القرآن، ص: 328، وسعاد زدام، دلالة الأساليب الإنشائيَّة، ص: 122.

(2) ابنُ عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 3/270.

(3) الآلوسّي، رُوح المعاني: 2/187، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 3/272، والمطعنيّ، التَّفسير البلاغيُّ للاستفهام: 1/167.

تَعْلِيقُ الْأَحْكَامِ بِالذَّوَاتِ تَشْرِيفٌ لَهَا وتَكْرِيمٌ

دلَالَةُ الْحَذْفِ فِي قَوْلِهِ: ﴿فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ﴾:

في قول الله تعالى: ﴿لِمَ تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ﴾ حذفٌ؛ والتَّقديرُ: لِمَ تحاجُّونَ في شيءٍ مِنْ أحواله، وظاهرٌ أنَّ المُرادَ بذلك هنا دينُه، فيكون ما في الآية مِن تَعليق الحُكم بالذَّات، والمُرادُ حالٌ مِن أحوالِ الذَّات، ويتعيَّن ذلك مِنَ سياق الكلام[1]، والنُّكْتَةُ في الحذفِ: هو تشريفُ الذَّاتِ التي عُلِّقَ بها الحُكمُ ظاهرًا وتكريمُهَا.

الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ يُفَسِّرُ بَعْضُهُ بَعْضًا

نُكْتَةُ بِنَاءِ الْفِعْلِ ﴿أُنزِلَتِ﴾ لِمَا لَمْ يُسَمَّ فَاعِلُهُ:

من المتقرِّر أنَّ التَّوراةَ والإنجيلَ مُنزَّلةٌ مِن عند الله، وإنَّما جيءَ بالفعل ﴿أُنزِلَتِ﴾ مَبنيًّا للمفعولِ للعِلْم بالمُنَزِّل وهو الله تعالَى، وهذا نظيرُ قوله تعالى: ﴿وَخُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ ضَعِيفٗا ٢٨﴾ [النِّساء: 28]، فالخَالقُ هو الله تعالى، حُذِفَ للعِلْم به، ولمّا كان الضَّعفُ صِفةَ نقصٍ؛ بُنِي الفعلُ هنا للمفعولِ[2]، وكذا في بناءِ فعل الإنزال للعِلْم به، كما يدلُّ عليه أوَّلُ السُّورة في قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ﴾ [آل عمران: 3]؛ فإنَّ القرآن يفسِّرُ بعضُه بعضًا.

بُطْلَانُ دَعْوَى الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى فِي نِسْبَةِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَى دِينِهِمْ

دَلالةُ اللَّفِّ وَالنَّشْرِ فِي قَوْلِهِ: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوۡرَىٰةُ وَٱلۡإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ﴾:

في قول الله تعالى: ﴿ٱلتَّوۡرَىٰةُ وَٱلۡإِنجِيلُ﴾ نشْرٌ بعد اللفِّ في قوله: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾؛ إذ الكتابُ جنسٌ يشمل - في هذا السياق - التَّوراة والإنجيل، ثُمَّ وردَ تفصيلُه في قوله: ﴿ٱلتَّوۡرَىٰةُ وَٱلۡإِنجِيلُ﴾، فذِكرُ التَّوراةِ لإبطال قولِ اليهودِ، وذِكرُ الإنجيلِ لإبطال قولِ النَّصارى، وذِكرُ التَّوراةِ والإنجيلِ هنا لِقَصْدِ جَمْعِ الفريقَين في التَّخطئة، وإنْ كان المقصودُ أوّلًا هم النَّصارى الّذين مَساقُ الكلامِ معهم[3].

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 3/274.

(2) ابن عثيمين، تفسير القرآن الكريم، سورة آل عمران: 1/380.

(3) الرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 8/253، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 3/272.

دِلَالَةُ ﴿مِنۢ﴾ فِي قَوْلِهِ: ﴿مِنۢ بَعۡدِهِۦٓ﴾:

ضَـرُورَةُ الْعِلْمُ بِالتَّارِيخِ لِبَيَانِ الْحَقِّ وَرَدِّ الشُّبَهِ

لمّا كان إنزالُ كتابِ كُلٍّ مِنَ اليهود والنَّصارى غيرَ مستغرِقٍ للزَّمان الآتي بعدَه أدخلَ حرفَ الجرِّ ﴿مِنۢ﴾، فقالَ: ﴿مِنۢ بَعۡدِهِۦٓ﴾[1]؛ لإفادة هذا المعنى.

التَّعْرِيضُ بِنَفْيِ الْعَقْلِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾:

بَـيَـانُ أَهَـمِّـيَّـةِ الِاحْـتِـجَـاجِ الْعَقْلِيِّ

في قول الله تعالى: ﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ إشعارٌ بأهميَّةِ النَّظرِ والتَّأمُّلِ وإعمال العقلِ في الفِكْرِ؛ فإنَّ البرهانَ الّذي استعمله القرآنُ الكريم في بطلان دعوى اليهود والنصارى برهانٌ عقليٌّ، ولِذَا كان واضحًا خَتْمُ الآيةِ بقوله مُنكِرًا عليهم: ﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾، أي: هَبْ أنَّكم لَبَّسْتُم وادَّعيتم أنَّ ذلك في كتابكم زورًا وبهتانًا، وظَنَنْتُم أنَّ ذلك يَخفَى على مَن لا إلمامَ له بكتابكم، فكيف غَفَلْتُم عَنِ البرهان العَقليّ[2]؟! ففي قوله: ﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ تعريضٌ بعدم نظرِهم العقليِّ حتَّى كأنْ لا عقولَ لهم.

دِلَالَةُ الفَاءِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾:

مَـنْ حَـادَ عَـنْ مُـقْـتَـضَـيَـاتِ الْـعَـقْـلِ؛ كَـانَ بِـمَـنْـزِلَـةِ مَـنْ لَا عَقْلَ لَهُ

قول الله تعالى: ﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ نتيجةٌ لهذا الحكم الّذي يتحاجُّون فيه، وهو كون إبراهيم يهوديًّا أو نصرانيًّا؛ إذ إنَّ ذلك هو حكمُ مَنْ لا يَعْقِلُ! ولذلك كانت الفاءُ مفيدةً السَّببيَّةَ، وهو كون ما قَبْلَها سببًا لما بعدَها، فَتِلك الحالُ الّتي هم عليها مِنَ الغَرابة هي السَّبب في ذلك السُّؤالِ عن أَصل عَقلهم، وإدراكِهم لمعناها[3].

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الجِدال والحِجَاج والمِراء:

الفرقُ بينها أنَّ المطلوبَ بالحِجَاج هو ظُهُورُ الحُجَّة، والمطلوبَ

(1) البقاعيّ، نظمُ الدُّرر: 4/450.
(2) البقاعيّ، نظمُ الدُّرر: 4/450، والمطعنيّ، التَّفسير البلاغيُّ للاستفهام: 1/167.
(3) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 3/1262.

بالجدال: الرُّجوعُ عَنِ الرّأي، فإنَّ أصلَهُ مِنَ الجَدَلِ، وهو شِدَّة الفَتْلِ، أمَّا المِراءُ: فهو مُخاصَمَةٌ في الحقِّ بعد ظهوره[1]، وفي الفروق أنّ "المطلوب بالجدال: الرّجوع عن المذهب، فإنّ أصله من الجدل، وهو شدّة الفتل، ومنه الأجدل لشدّة قوّته من بين الجوارح، ويؤيّده قوله تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدۡ جَٰدَلۡتَنَا فَأَكۡثَرۡتَ جِدَٰلَنَا﴾ [هود: 32]، وقوله تعالى: ﴿وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾ [النّحل: 125]، وذلك أنّ دأب الأنبياء عليهم السلام كان رَدْعَ القوم عن المذاهب الباطلة، وإدخالهم في دين الله، ببذل القوّة والاجتهاد في إيراد الأدلة والحجج"[2]، ومنه فإنّ الجدال مقبول شريطة أن يكون بالّتي هي أحسن، وكذلك الحجاجُ العقليُّ مرضيٌّ، لِطِلَابِ الحقّ، مالم يكن مقرونًا بشبهة، فإنّه ينهى عنه آنئذٍ، وأمّا المراء فمذموم بكليّته.

الإنزال والتنزيل:

الإنزالُ يأتي عامًّا في نقل الشَّيء من عُلْوٍ إلى سُفْلٍ[3]، أمَّا التَّنزيلُ فهو ترتيبُ الشَّيء ووضعُه منزِلَه[4]، فالهمزةُ في الإنزال للتَّعدية، أمَّا التَّنزيلُ فليس التَّضعيف فيه للتَّعدية فحَسْبُ؛ وإنَّما أفاد التَّضعيفُ معنى التَّكرير، وقال في المخصّص: "وَقد يسْتَعْمل (نزَّل) في معنى التّكثير، فَأَما (أَنْزَل) و(نزَّل) بِمَعْنى واحدٍ غير التّكثير، فقولُه عز وجل: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوۡلَا نُزِّلَتۡ سُورَةٞۖ فَإِذَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ﴾ [محمد صلى الله عليه وسلم: 20]، وَقَالَ عز وجل: ﴿لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦۚ قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةٗ﴾ [الأنعام: 37]، فَهَذَا لغير التّكثير لِأَن آيَة وَاحِدَة لَا يَقع فِيهَا تَكْثِير الْإِنْزَال"[5].

(يَعْقِلُ) و(يَعْلَمُ):

الّذي يَعْقِلُ هو الّذي يَستطيعُ بعقله أنْ يَستنبطَ الأشياءَ، فإذا لم يكن لديه العَقلُ الاستنباطيُّ عَرفَ المسألةَ ممَّنْ يستنبطُها، وعليه فالعِلْمُ أَوسعُ دائرةً من العَقل؛ لأنَّ العَقلَ يَعلَمُ ما عَقِلَهُ، أَمَّا العِلْمُ فيَعلَمُ ما عَقلَهُ هو ومَا عَقلَهُ غَيرُه، فـ(يعلمون) أعمُّ مِنْ (يعقلون)[6]، ولا شكّ أنّ العقل والعلم لا ينفكّ أحدهما عن الآخر، إذ إنّ تمام العلم لا

(1) الرَّاغب، المفردات، ص: 189، والجرجاني، التَّعريفات: ص 74.
(2) العسكريّ، معجم الفروق اللّغويّة: ص 158.
(3) المناويّ، التّوقيف، ص: 64.
(4) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (نزل).
(5) ابن سيده المرسّي، المخصّص: 4/306.
(6) الشَّعراويّ، تفسير الشَّعراويّ، الخواطر: 19/11703.

يتأتّى ولا يتاح إلّا بتمام العقل، ولا يُتصوّر دور العقل وفعاليّته وإنتاجه وعبقريّته دون أن يتزوّد صاحبه بالعلم الّذي ينير له عقله، فما أروع العقل إذا تدرّع بسلطان العلم، وما أضلّه حين يتجرّد منه وتلُفّه غشاوة الجهل، ويغطّيه رانُ الضّلال، وقد أجرى أحد الشّعراء مناظرةً بديعةً بين العلم والعقل، قال فيها:

عِلْمُ العَلِيمِ وَعَقْلُ العَاقِلِ اخْتَلَفَا *** مَنْ ذَا الَّذِي مِنْهُمَا قَدْ أَحْرَزَ الشَّرَفَا

فَالعِلْمُ قَالَ أَنَا أَحْرَزْتُ غَايَتَهُ *** وَالْعَقْلُ قَالَ أَنَا الرَّحْمَنُ بِي عُرِفَا

فَأَوْمَأَ العِلْمُ إِيمَاءً وَقَالَ لَهُ *** بِأَيِّنَا اللهُ فِي تَنْزِيلِهِ اتَّصَفَا

فَبَانَ لِلْعَقْلِ أَنَّ العِلْمَ سَيِّدُهُ *** فَقَبَّلَ العَقْلُ رَأْسَ الْعِلْمِ وانْصَرَفَا[1]

(1) الأبيات من ملح العلم وطرائف الأدب، ولم نجدها منسوبة إلى قائل، في المصادر والمراجع الّتي بحوزتنا، ينظر: المهديّ: صيد الأفكار: 1/13.

﴿هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجۡتُمۡ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ٦٦﴾ [آل عمران: 66]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

إنكارُ المُحاجَّة وذَمُّها ممَّن ليس له عِلْمٌ

هناك مناسبة بين مضمون الآية السّابقة، حول محاججة أهل الكتاب في إبراهيم، الّذي عاش قبل نزول التّوراة والإنجيل، فجاءت هذه الآية الكريمة لتُنكرَ على من يُحاجُّ فيما لا علمَ له به، لأنَّ اليهود والنَّصارى تَحاجّواْ في الخليل إبراهيم، بلا أثارة من عِلم، ولا سند من تاريخ موثوق، ولو تحاجّوا فيما بأيديهم منه عِلمٌ؛ ممَّا يَتعلَّق بأديانهم الّتي شُرِعَت لهم إلى حينِ بعثة محمَّدٍ ﷺ، لكان أَولَى بهم، وإنَّما تَكَلَّمواْ فيما لا يعلمون، فأنكر الله عليهم ذلك، وأَمرَهم بردِّ ما لا عِلمَ لهم به، إلى عَالِمِ الغَيبِ والشَّهادةِ، الّذي يُحيط علمُه بالأمور، ولهذا قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿حَٰجَجۡتُمۡ﴾ أي: جادَلتُم، وخَاصَمتُم؛ ويُسَمَّى الجدالُ بِحُجَّةٍ أو شبهةٍ: حِجاجًا؛ لأنَّ صاحبَ الشُّبهةِ يُوهِمُ أنَّ معه حُجَّةً[2]، "تقول حاجَّهُ فحجَّه، أي غلبه بالحُجَّةِ، وفي المثل: (لَجَّ فَحَجَّ)، وهو رجلٌ مِحْجاجٌ، أي جَدِلٌ، والتّحاجُّ: التّخاصُم"[3]، والحُجّةُ: مَا دوفعَ بِهِ الخَصمُ، والجمعُ حُجَجٌ وحِجاجٌ، وحاجَّهُ مُحَاجَّةً وحِجاجًا: نازَعه الحُجّةَ، وحَجَّهُ يحُجُّهُ حَجًّا: غَلَبَهُ على حُجّته. وَفِي الحَدِيث «فَحَجَّ آدَمُ مُوسَى» "[4].

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 2/49.
(2) الواحديّ، التَّفسير البسيط: 5/337.
(3) الجوهريّ، الصّحاح: (حجج).
(4) ابن سيده، المحكم: (حجّ).

2) ﴿عِلۡمٌ﴾: أصلُ العلم أَثَرٌ بالشَّيْءِ يَتَمَيَّزُ بِهِ عَنْ غَيْرِهِ، وَقِيَاسُ العِلْمِ والعَلَمِ وَالعَلامَةِ واحدٌ، وَالدَّلِيلُ عَلَى ذلك قِراءةُ: (وإنه لَعَلَمٌ للساعة) [الزُّخرف: 61][1]، وَتَعَلَّمْتُ الشَّيْءَ، إِذَا أَخَذْتُ عِلْمَهُ[2]، ومعنى قوله: ﴿فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلۡمٌ﴾: ما وَجدوه في كُتبهم، وأَنزلَ عليهم بَيانَه وقِصَّتَهُ[3].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

ها أنتم، يا أهلَ الكِتَابِ، جادَلْتم النَّبيَّ ﷺ، فيما لكم به عِلْمٌ ما؛ وهو خبرُ عيسى -عليه السلام-، فَقامَت عليكمُ الحُجَّةُ بأنَّ منكم مَنْ غَلا في الإفراط إذ قال: إنَّه إلهٌ، ومِنكُم من غَلا في التَّفريط، إذ قال: إنَّه دَعِيٌّ كَذَّابٌ، ولم يكن عِلمُكُم القليلُ به عاصِمًا لكم من الخَطأ في الحُكم عليه، فَلِمَ تُحاجُّون فيما ليس لكم به عِلْمٌ، وهو كونُ إبراهيمَ يهوديًّا أو نصرانِيًّا! أليس الواجبُ عليكم أن تَتَّبِعوا فيه ما يُوحيه اللّه إلى عبده ونبيِّه[4] ﷺ، "إذْ كيف تجادلون في أمر إبراهيم، ولا ذِكْرَ لِدِينه وشريعته في كتبكم؟! من أين علمتم أنّه كان يهوديًّا أو نصرانيًّا؟! إنّ اللّه يعلم حقيقة ما تنازعتم فيه، أمّا أنتم فلا تعلمون من هذا شيئًا"[5].

اللـه أعلـم من كـلّ محـاجٍ مـارق، ليس له علمٌ بالحقائق

❁ الإِيضاحُ اللُّغَوِيُّ والبَلاغِيُّ:

دَلَالَاتُ التَّرْكِيبِ ﴿هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ﴾:

إنَّ الهاءَ المُكرَّرةَ في قوله تعالى: ﴿هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ هي هاءُ التَّنبيهِ، وتَكرارُها في مَوضعٍ واحدٍ إيماءٌ إلى غَرابة ما هم عليه،

مَا عَلَيْهِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى مُبَايِنٌ لِمَا يَقْتَضِيهِ النَّظَرُ الْعَقْلِيُّ

(1) قَرَأَ ابنُ عبَّاس وأبو هريرة وقَتَادة ومالك بن دينار والضَّحاك: (وإنه لَعَلَمٌ للساعة) بفتح العين واللَّام، أي: أمارةٌ وعلامةٌ. الثَّعلبيّ، الكشف والبيان: 23/472.

(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (علم).

(3) الواحديّ، البسيط: 5/337.

(4) رضا، تفسير المنار: 3/271.

(5) القطّان، تيسير التّفسير: 1/202.

ومجافاتِه لكلِّ تفكيرٍ ولكلِّ عَقلٍ، وإشارةٌ إلى طُول رُقادِهم أو شِدَّةِ عِنادِهم، وأصلُ الكلام في ﴿هَٰٓأَنتُمۡ﴾[1]: أنتم حاجَجْتُم، وإنَّما يَجيءُ مثلُ هذا التَّركيبِ في مَحَلِّ التَّعجُّبِ والتَّنبيهِ ونحوِ ذلكَ؛ ويُؤكَّدُ ذلك غالبًا باسم إشارةٍ بعدَه، فيقالُ: ها أنا ذا، وها أنتم أُولاءِ أو هؤلاءِ[2].

تَنْبِيهُ الْمُخَاطَبِ بِذِكْرِ مَا يَعْلَمُ عَلَى مَا لَا يَعْلَمُ

وَوَجْهُ التَّنبيهِ بـ ﴿هَٰٓأَنتُمۡ﴾ مع أنَّه لا يُنَبَّهُ الإنسانُ على نفسه، وإنَّما يُنبَّه على ما أَغفلَه: أَنَّ التَّنبيهَ وإنْ كان على ما أغفلَه مِنْ حاله؛ فإنَّه يُنبَّه بذِكر ما يَعْلَمُ على ما لا يعْلَمُ، فلذلك خرج التَّنبيهُ على النَّفْسِ؛ أي: على حالهَا[3].

وقوله: ﴿حَٰجَجۡتُمۡ﴾: خبرُ (أنتم) في قوله: ﴿هَٰٓأَنتُمۡ﴾، ويحتمل أن تكون جملةُ ﴿حَٰجَجۡتُمۡ﴾ حالًا هي محلُّ التَّعجيب، باعتبار ما عُطفَ عليها من قوله: ﴿فَلِمَ تُحَآجُّونَ﴾؛ لأنَّ الاستفهامَ فيه إنكاريٌّ، فمعناه: فلا تُحاجُّونَ.

ويحتَمِلُ أن يكون أصلُ (هَا) في ﴿هَٰٓأَنتُمۡ﴾ همزةَ استفهام، والأصلُ: (آنْتم) ممدودةً؛ إذِ العربُ تجعل مكانَ الهمزةِ هاءً، فعلى هذا التَّقديرِ؛ يكونُ استفهامًا قوله: ﴿هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ معناه: التَّعجيبُ منهم، والتَّوبيخُ لهم[4].

الشُّذُوذُ الْفِكْرِيُّ لِأَهْلِ الْكِتَابِ

وفي قوله: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ إشارةٌ إلى اليهودِ والنَّصارى الّذين قالوا في إبراهيمَ ما قالوا، وقد أُنزلتِ التَّوراةُ والإنجيلُ مِنْ بعده، فهي تَتَضَمَّنُ الأحوالَ الغَريبةَ الّتي كانت منهم، وأنَّها أدَّت إلى شُذُوذٍ عَقْلِيٍّ آخرَ[5].

(1) قرأ الجمهورُ: بإثبات ألف (ها) وبتحقيق همزة (أنتم)، وقرأ قالون وأبو عمرو وأبو جعفر: بإثبات الألف وتسهيل همزة (أنتم)، وقرأ ورش بحذف ألف (ها)، وبتسهيل همزة (أنتم)، وبإبدالها ألفًا مع المدّ، وقرأ قنبل بتحقيق الهمزة بألف وبغير ألف. يُنظر النَّشر: 2/400 - 404، وإتّحاف فضلاء البشر: 224، 225، ويُنظرُ توجيه هذه القراءات في: ابن خالويه، الحجّة في القراءات السَّبع، ص: 110، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 3/273.

(2) البقاعيّ، نظمُ الدُّرر: 4/450، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 3/270، وأبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 3/1263.

(3) الواحديّ، البسيط: 5/338.

(4) ابن الجَزَريّ، النَّشر: 1/401، والبقاعيّ، نظمُ الدُّرر: 4/451 - 452.

(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 3/270، وأبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 3/1263.

قَفْوُ الْإِنْسَانِ مَا لَيْسَ لَهُ بِهِ عِلْمٌ مِنْ أَسْبَابِ التَّرَدِّي الْعَقْلِيِّ

وقد ذَكَرَ الزَّمخشريُّ أنَّ بعضَ العُلماءِ يرى أنَّ ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ بمعنى (الَّذِينَ)، وأنَّ هذا يُفيدُ أنَّ الّذي أَدّى إلى تردِّيهم العَقْليِّ هو تكلُّمُهُمْ فيما يَعلمونَ وفيما لا يَعلمونَ[1].

دلَالَةُ نِسْبَةِ الْعِلْمِ إِلَى أَهْلِ الْكِتَابِ فِي قَوْلِهِ: ﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ﴾:

مِنَ الْمَهَالِكِ عَدَمُ عَمَلِ الْمَرْءِ بِعِلْمِهِ أَوِ ادِّعَاؤُهُ عِلْمَ مَا لَمْ يَعْلَمْهُ

ذهبَ الرَّازيُّ رحمه اللّه إلى احتمال أنَّ اللّه تعالى لم يَصِفْهُم بالعِلْم حقيقةً، وإنَّما أراد أنَّهم يَستَجيزُون محاجَّتَه فيما يدَّعون عِلْمَه، فكيف يُحاجُّونه فيما لا عِلمَ لهم به الْبتَّةَ؟! ثمَّ حَقَّقَ ذَلك بقوله: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ﴾ كيفَ كانت حالُ هذه الشَّرائع في المُخالفة والموافقة، ﴿وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ كيفيَّةَ تلك الأحوالِ[2]، فيكون قوله في مقطَعِ الآية ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ﴾ مبيِّنًا للمرادِ في قوله: ﴿فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ﴾.

دِلَالَةُ حَذْفِ مَفْعُولِ الْعِلْمِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾:

الْحِقْدُ وَالْحَسَدُ يَحُولَانِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَبَيْنَ الْعِلْمِ الصَّحِيحِ

خَتَمَ اللّهُ سبحانه وتعالى ببيانِ عِلْمِهِ تعالى المُؤكَّدِ، فقرَّرَ العِلْمَ المُطْلَقَ له، ونفَى عنهم العِلْمَ في هذا المقام، وقد قرَّر سبحانَه أنَّهم لَا يعلمون، فقال: ﴿وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾، فهم لا يَعلمون حالَ إبراهيمَ عليه السلام، ولا مَنْ هو أهلٌ للرِّسالة؛ وليس من شأنهم أَنْ يعلموا؛ لأنَّ أحقادَهم تَحُولُ بينَهم وبين أنْ يُدركوا الّذي عليه مَنْ يُخالفُهم، فإنَّه لَا شيءَ كالحِقْدِ والحَسَدِ يَحولُ بين المرءِ والإدراكِ السَّليمِ والعِلْمِ الصَّحيحِ[3].

قال أبو حيَّانَ: "وهذا استدعاءٌ لهم أَنْ يَسمعُوا، كما تقولُ لِمَنْ تُخبرُه بشيءٍ لا يعلَمُه: اسمَعْ؛ فإنِّي أَعلَمُ ما لا تَعْلَمْ[4]".

(1) أبو السُّعود، إرشادُ العقل السَّليم: 2/48، وأبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 3/1263.
(2) الرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 8/254.
(3) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 3/1263 - 1264.
(4) أبو حيَّان، البحر المحيط: 3/201.

وفي حذف مفعولِ العلم من الفعلينِ ﴿يَعْلَمُ﴾ و﴿تَعْلَمُونَ﴾ إيماءٌ إلى العموم؛ فهم لا يعلمونَ شيئًا على الحقيقةِ، وإن كان عندهم شيءٌ من العلمِ؛ فإنَّهما عندهم صورتُهُ الظَّاهرة لا حقيقتُهُ؛ لعدمِ جريانِهم وفق ما يقتضيه العلمُ من الانقيادِ إلى شرع اللّه تعالى وتصديق رسوله ﷺ واتِّباعه، وحذفُه من ﴿يَعْلَمُ﴾ إشارة إلى عموم علم اللّه تعالى؛ فلا تخفَى عليه خافيةٌ.

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

العِلْم والمَعرفة:

أنَّ المعرفةَ أخصُّ من العِلم؛ لأنَّها عِلمٌ بعَين الشَّيء مُفصّلًا عمَّا سِواه، والعِلمُ يكونُ مُجمَلًا ومُفصّلًا[1]، أو أنَّ المعرفةَ أخصُّ بالمَحسوسات والمعاني الجزئيّةِ، وأنَّ العِلمَ أخصُّ بالمعقولات والمعاني الكليَّةِ[2]؛ لذا عبَّرَ في الآية بلفظِ العِلمِ، وعَدَلَ عن لفظ المعرفةِ.

وفي الصّحاح، وفي كثير من أمهات اللّغة " أنّ العلم والمعرفة والشّعور كلّها بمعنًى واحدٍ، وأنّه يتعدّى بنفسه في المعنى الأوّل، وبالباء إذا استعمل بمعنى (شعر)، وهو قريب من كلام أكثر أهل اللّغة، والأكثر من المحقّقين يفرّقون بين الكلّ، والعلم عندهم أعلى الأوصاف؛ لأنّه الّذي أجازواْ إطلاقه على اللّه تعالى، ولم يقولواْ: (عارفٌ) في الأصحّ[3].

(1) العسكريّ، الفُروق اللُّغويَّة، ص: 107.
(2) التَّوحيديّ، المقابسات، ص: 272، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (عرف).
(3) الزَّبيديّ، تاج العروس (علم).

﴿مَا كَانَ إِبۡرَٰهِيمُ يَهُودِيّٗا وَلَا نَصۡرَانِيّٗا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفٗا مُّسۡلِمٗا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٦٧﴾ [آل عمران: 67]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

علم الله الواسع المحيط، ينفي وصف اليَهوديَّة والنَّصرانيَّة عن الخليل

لَمَّا وَبَّخَهُم اللّه على ما كان مِنْ جَهْلِهِم، ومحاججتهم في نسبة إبراهيم إلى اليهوديّة والنّصرانيّة، وأخبرهم أنّ السّابق لا ينسب - عقلًا - إلى اللّاحق، نَفَى سبحانه وتعالى عَن إبراهيمَ ﷺ ما ادَّعاه عَلَيْهِ كلٌّ مِنهم، طِبْقَ ما بَرهَنتْ عليه الآيةُ الأُولَى، وَنَفَى عنه كلَّ شِرْكٍ أيضًا، وأثبتَ أنَّه كانَ مَائلًا عن كلِّ باطِلٍ، مُنْقادًا مع الدَّليل إلى كلِّ حقٍّ[1]، "مقيمًا على محجّة الهدى الّتي أمر بلزومها، خاشعًا للّه، متذلّلَ القلب، مُذعنًا لما فرضَهُ اللّه عليه، وألزمه به، ولم يكن من المشركين"[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَهُودِيّٗا﴾: التَّهْوِيدُ: المَشْيُ الرُّوَيْدُ، هَوَّدَ: نَامَ، وَالهَوادَةُ: الحَالُ تُرْجَى مَعَها السَّلَامَةُ بَيْنَ القَوْمِ، وَالمُهَاوَدَةُ: المُوَادَعَةُ، فَأَمَّا اليَهُودُ: فَمِنْ هَادَ يَهُودُ، إِذَا تَابَ هَوْدًا، وَسُمُّوا بِهِ؛ لِأَنَّهُمْ تابُوا عَنْ عِبَادَةِ العِجْلِ[3]، وَفِي القُرْآنِ: ﴿إِنَّا هُدۡنَآ إِلَيۡكَۖ﴾ [الأعراف: 156]، أيْ: تُبْنا، بأنْ رَجَعْنا إلى طريقكَ في رِفقٍ ولِينٍ، قال أبو عبيدة: التَّهَوُّدُ: التّوبة والعمل الصّالح. ويقال أيضًا: هادَ وتَهَوَّدَ، إذا صار يهوديًّا. والهودُ: اليهودُ، وأرادوا باليهود اليهوديِّينَ، ولكنّهم حذفوا ياء الإضافة وعُرِّفَ الجَمْعُ بالأَلِف واللّام، ولولا ذلك لم يجُز دخول الألف واللّام

(1) البقاعيّ، نظمُ الدُّرر: 4/452.
(2) البقاعيّ، نظمُ الدُّرر: 4/452.
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (هود).

عليه، لأنّه معرفة مؤنّث، فجرى في كلامهم مجرى القبيلة، ولم يُجعل كالحيّ، وأنشد عليّ بن سليمان النّحويّ للأسود بن يعفر:

فَرَّتْ يَهُودُ وَأَسْلَمَتْ جِيرَانَهَا *** صَمِّي لِمَا فَعَلَتْ يَهُودُ صَمَامِ[1]

2) ﴿نَصۡرَانِيّٗا﴾: جمعه نصَارى: أصلُه من النُّصْرَة، وقيل: هُوَ نِسْبَةٌ إِلَى قَرْيَةٍ اسْمُها نَصْرَةُ، وَلهذا قِيلَ في الواحِد منهم نَصْرِيٌّ على القِياسِ، وَالنَّصَارى جَمْعُهُ، ثُمَّ أُطْلِقَ النَّصْرَانِيُّ على كُلِّ مَنْ تَعَبَّدَ بِهَذَا الدِّينِ[2]، ويجوزُ أن تكونَ نَصْرَان بمعنى مُناصِرٍ، كنَدْمان بمعنى مُنادِم[3]، وكلمة نصرانيّ استعملها اليهود وصفًا لليهوديّ الّذي نصر التّوراة والتزم بها، حتّى قبل ميلاد المسيح عليه السلام.

3) ﴿حَنِيفٗا﴾: الحَنِيفُ: مأخوذٌ مِنَ الحَنَفِ، وهو الاستقامةُ، وقيل: هو المَيلُ، ومِنه قيل للمَائِلِ الرِّجْلِ أَحْنَفُ، فالحَنيفُ من الاستقامة معناه: المُستقيمُ، ومن المَيل معناه: المائلُ عن معوجِّ الأديان إلى طريق الحقِّ[4]، قال الشّافعيّ: معنى حَنِيفًا: " مائلًا إلى الإسلام، ثابتًا عليه، والحنيف عند العرب: مَن كان على دِين إبراهيم عليه السلام، وأصل الحنَف: الميل والاعوجاج، ورجلٌ أحنفُ: ذو قَدَمٍ مُقبلةٍ بأصابعها على القَدَم الأُخرى، أو مائلًا عن الأديان الباطلة"[5].

4) ﴿مُّسۡلِمٗا﴾: أصلُ السِّلْم والإسلام: الصِّحَّةُ وَالعَافِيَة، أو: صِحَّةُ جِرْمِ الشَّيءِ والْتِئامُ ظاهره في ذاته، ومنه الإسلامُ: الانقيادُ، لأنَّ فيه سلامةَ الإنسان وعافيتَه بتسليم نفسه لله، يُقالُ: أَسْلَمَ الرَّجُلُ: انْقَادَ، والإسلامُ: إظهارُ الخُضوعِ والقَبولِ لِمَا أَتَى بِهِ رَسُولُ اللّه[6] صلى الله عليه وسلم، ومعنى ﴿مُّسۡلِمٗا﴾ في الآية: مُنْقادًا لله تعالى[7].

5) ﴿ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾: المُشْرِكُ: يُقَالُ: شَرِكْتُهُ في الأَمْرِ أَشْرَكُهُ شِرْكَةً، والاسمُ الشِّرْكُ، وشَارَكْتُهُ إِذَا صِرْت شَرِيكَهُ، وَقَدْ أَشْرَكَ بِاللَّهِ، فَهُوَ مُشْرِكٌ إذا جَعَلَ لَهُ

(1) الجوهريّ، الصّحاح: (هود)، ومعنى صمّي: اخرسي يا صمام.
(2) الفيّوميّ، المصباح المنير (نصر).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (نصر).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حنف)، وابن عطيّة، المُحرَّر الوجيز: 1/451.
(5) الشّافعي، مسند الإمام الشّافعيّ: 1/74.
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والزَّبيديُّ، تاج العروس، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (سلم).
(7) أبو السُّعود، إرشادُ العقل السَّليم: 2/48، والطِّيبيّ، فُتُوح الغيب: 4/138.

شَرِيكًا، والشِّرْكُ: الكُفْرُ[1]، "وفي الحديث «مَنْ حَلَفَ بغير اللّه فقد أَشْرك»[2]، حيث جعل ما لا يحلف به محلوفا به، كاسم اللّه الّذي يكون به القسم، ومنه «الطّيرة شرك، ولكن اللّه يذهبه بالتّوكّل»[3]، جعل التّطيّر شركا باللّه في اعتقاد جلب النّفع ودفع الضّرر، وليس الكفر باللّه؛ لأنّه لو كان كفرا لما ذهب بالتّوكّل" كما قال ابن الأثير[4]، وبذلك توسّع المدلول المعنويّ للّفظ، وكان منه الرّياء الّذي هو الشّرك الأصغر.

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

لم يكن إبراهيم على أيّة ملّة سوى الحنيفيّة السّمحة

ما كان إبراهيمُ عليه السلام على المِلَّة اليهوديَّة، ولا على النَّصرانيّة، ولكنْ كان مائلًا عَنِ الأديان الباطلة، مُنْقادًا للّه، مُوحِّدًا له تعالى، وما كان مشركًا به، كما يَزعمُ مُشركو العَرب أنَّهم على مِلَّته[5]، وهو بذلك يُعَلِّمُهُم: "أنّ إبراهيم عليه السلام بريءٌ من دينكم، وما كان إلّا حنيفًا مسلمًا، وَما كانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ كما لم يكن منكم. أو أراد بالمشركين اليهود والنّصارى، لا شِرَاكَهُم به عُزَيْرًا والمسيح"[6].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

بَيَانُ مَعْنَى الرِّثَاءِ فِي قَوْلِهِ: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا﴾:

مَكَانَةُ إِبْرَاهِيمَ الْعَظِيمَةُ بَيْنَ الْأَنْبِيَاءِ

في الآية الكريمة رِثاءٌ بيِّنٌ؛ إذ مَدحَ اللّه تعالى إبراهيمَ عليه السلام وأثنَى عليه بما كانَ فيهِ مِنَ المحاسن[7].

(1) ابن الأثير، النِّهاية: 2/446.

(2) رواه أحمد في مسنده، الحديث رقم: (6079)، وأبو داود في سننه، الحديث رقم: (3251)، والترمذي في جامعه، الحديث رقم: (1535)، وغيرهم.

(3) رواه البخاري في الأدب المفرد، الحديث رقم: (909)، وأحمد في مسنده، الحديث رقم: (3687) والترمذي في جامعه، الحديث رقم: (1614).

(4) ابن الأثير، النهاية: 2/467.

(5) نخبة من علماء التفسير، المختصر في تفسير القرآن الكريم: ص 58.

(6) الأبياريّ، الموسوعة القرآنيّة: 9/234.

(7) ليس بين الرِّثاءِ والمَدحِ فَرقٌ إلاَّ بخلطه بشيءٍ يدلُّ على أنَّ الممدوح ميت، مثل: «كان» وما يُشاكله. ابن رشيق، العمدة: 2/147.

بَلَاغَةُ طِبَاقِ السَّلْبِ فِي قَوْلِهِ: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا﴾:

بُطْلَانُ مَا عَلَيْهِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى مِنَ الدِّيَانَةِ

بينَ قولِه: ﴿مَا كَانَ﴾ وقوله: ﴿وَلَٰكِن كَانَ﴾ طباقُ سَلْبٍ؛ فقد نَفَى اللّٰه تعالى كَوْنَ إبراهيمَ يهوديًّا أو نصرانيًّا، ونفى كونَه مُشركًا، وأَثبتَ كونه حنيفًا مُسلمًا[1].

وفي نفيِ كونِه يهوديًّا أو نصرانيًّا تعريضٌ بأهل الكتاب؛ بأنَّ ما هم عليه من الدِّيانَةِ ليس بشيءٍ يُعتدُّ به، وفي إثباتِ كونه مسلمًا إشعارٌ بصحَّةِ ما عليه النَّبيُّ ﷺ وأصحابُهُ.

نُكْتَةُ الْبَدْءِ بِالنَّفْيِ قَبْلَ الْإِثْبَاتِ فِي قَوْلِهِ: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ﴾:

التَّخْلِيَةُ قَبْلَ التَّحْلِيَةِ

بدأتِ الآيةُ الكريمةُ بالنَّفي قبل الإثبات؛ بالإشارة إلى التَّخلية قبلَ التَّحليةِ، وهو ترتيبٌ مُوافقٌ للطَّبيعة؛ لأنَّك تُخلي الشَّيءَ ممَّا يَشينُه أوَّلًا، ثمَّ تُضيفُ ما يكونُ به الكَمالُ ثانيًا[2].

سِرُّ تَرْتِيبِ الْمَنْفِيَّاتِ فِي قَوْلِهِ: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا﴾:

تَنَوُّعُ الأَساليبُ وتَغَيُّرُ دَلالتُها تَبَعًا لتغيُّرِ السِّياقِ وحَاجَةِ المَقام

أَعْلَمَ اللّٰه تعالى براءةَ إبراهيمَ مِنْ هذه العقائد الباطلةِ، وبَدأَ بنفيِ اليهوديَّة؛ لنكتَتَيْن:

إحداهما: أنَّ شريعةَ اليهودِ أَقدَمُ مِن شريعة النَّصارى.

وثانيهما: أنَّ اليهودَ أشدُّ كفرًا من النَّصارَى، فبُدِئَ بنفيِ الأغلَظِ على سبيلِ التَّدَلِّي.

وكرَّر (لَا) في قوله: ﴿وَلَا نَصْرَانِيًّا﴾، لتأكيد نفيِ انتسابِهِ عن كلِّ واحدٍ مِنَ الطَّائفَتين[3].

وقد جاء ترتيبُ النَّفي على غاية الفصاحة؛ فقد نَفَى المِلَلَ نفسَهَا،

(1) الإندونيسّي، الشَّامل في بلاغة القرآن، ص: 171 - 172.
(2) التَّفسير المُحرَّر للقرآن الكريم: 1/273، وابنُ عُثيمين، تفسير القرآن الكريم - سورة آل عمران: 1/386.
(3) أبو حيَّان، البحر المحيط: 3/201.

وقَرَّرَ الحالَ الحسَنةَ، ثمَّ نفى نفيًا آخرَ؛ عرَّضَ فيه بتلك المِلَلِ؛ وأنَّ فيها فسادًا وهو الشِّركُ[1].

دَلَالَةُ الْقَصْرِ بِ﴿وَلَٰكِن﴾ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا﴾:

تَبْرِئَةُ إِبْرَاهِيمَ عليه السلام مِنَ الْيَهُودِيَّةِ وَالنَّصْرَانِيَّةِ وَإِثْبَاتُ حَنِيفِيَّةِ الْإِسْلَامِ دِينًا لَهُ

أفادَت ﴿وَلَٰكِن﴾ في الآية الكريمة الاستدراكَ، فبَعدَ أن نفَتْ عن إبراهيمَ عليه السلام اليهوديَّةَ والنَّصرانيَّةَ، جيءَ بـ ﴿وَلَٰكِن﴾ لإفادة حصرِ حالِهِ فيما يُوافقُ أُصولَ الإسلام، فقال تعالى: ﴿وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا﴾ مُعْلِمًا أنَّ الإسلام هو الحَنِيْفِيَّةُ، وهذا القَصْرُ قَصْرُ قَلْبٍ، وهو إضافيٌّ، أي: بالإضافة إلى ما ادُّعِيَ فيه من الانتساب إلى المِلَّتين المذكورَتَيْن، فالآيةُ في دِلالتِها على القصرِ نظيرُ قولِه تعالى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [الأحزاب: 40]، فالمشركون كانوا يَعتقدون فيه الأُبُوَّةَ لِزَيْدٍ، ونفيَ الرِّسالةِ، فقَلَبَ عليهم اللّه تعالى اعتقادَهم[2].

دَلَالَاتُ الْأَوْصَافِ الْمَوْصُوفِ بِهَا إِبْرَاهِيمُ عليه السلام:

تَوَارُدُ الْأَوْصَافِ الْحَمِيدَةِ لِإِبْرَاهِيمَ عليه السلام فِي آيَةٍ وَاحِدَةٍ تَأْكِيدٌ لِلْقَطِيعَةِ الْكَامِلَةِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْمُدَّعِينَ

ذَكَرَ اللّه سبحانه في وَصْفِ إبراهيم عليه السلام ثلاثةَ أوصافٍ، تَتَنَافَى كُلُّها غايةَ التَّنافي مع ما عند اليهود والنَّصارى، وهذه الأوصافُ هي كونُهُ: حَنِيفًا، ومُسْلمًا، ومَا كانَ مِنَ المُشركينَ.

فالوصف الأوَّلُ: وَصْفُه عليه السلام بأنَّه حَنِيْفٌ؛ فهو يَطلُبُ الحقَّ مُستقيمًا في طَلَبِه، وفيه بيانُ مُنافاةِ أخلاقِ اليَهود والنَّصارى لأخلاقه وهَدْيه.

والوصفُ الثَّاني: أنَّه مُسلمٌ، والإسلامُ هو الإخلاصُ للّه تعالى، والمَحبَّةُ والانقيادُ والانصرافُ إليه سبحانه وتعالى، حتّى لا يُعمرَ القلبُ بغير نوره، وهذا أيضًا وَصْفٌ مُنافٍ لِما كان عليه اليهود والنَّصارى، فإلههُمْ هَواهم، ومَحبَّتُهم لأنفسهم لَا

(1) ابن عطيَّة، المُحرَّر الوجيز: 1/451، وأبو حيَّان، البحر المحيط: 3/201.
(2) الدُّسوقيّ، حاشية على مختصر المعاني، ص 618، والدّريهم، سورة آل عمران دراسة بلاغيَّة، ص: 271.

لله تعالى، وإنَّما هي أعراضُ الدُّنيا أَرْكَسَت نُفُوسَهُم، وأَغلَقَت دون نورِ الله تعالى قُلوبَهم.

والوَصْفُ الثَّالثُ: وَصْفٌ منفيٌّ؛ وهو كونُهُ غيرَ مُشركٍ، وقد نفَى الله تعالى عن خَليلِهِ وَصْفَ الشِّركِ بهذه الصِّيغة الجامعةِ فقال: ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾، ولم يَقُلْ: (وَمَا كَانَ مُشركًا)؛ لأنَّها تَتضمَّنُ نفيَ الإشراكِ كُلِّه وشوائبِه عن إبراهيمَ عليه السلام[1].

دَلَالَةُ الْعَطْفِ بِالْوَاوِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾:

لَمْ يُبْقِ الْقُرْآنُ حُجَّةً لِمُدَّعٍ فِي أَمْرِ إِبْرَاهِيمَ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ إِلَّا فَنَّدَهَا

أفاد العطفُ قطعَ أملِ مُشْركي العَربِ كلِّهم في صِحَّة الانتسَابِ إلى مِلَّة إبراهيمَ، وفيه دفعُ توهُّم أنَّ القَصْرَ المستفادَ من قوله: ﴿وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا﴾ قَصْرٌ إضافيٌّ بالنِّسبة لليهوديَّة والنَّصرانيَّة فحسبُ دون غيرهم من طوائف الضَّلالِ؛ إذ كان العربُ يَزعمونَ أنَّهم على مِلَّةِ إبراهيمَ عليه السلام لكنَّهم مُشركون[2].

ومقتضى الظَّاهر أن يقال: وما كانَ مِنكُم، إلَّا أنَّه وَضَعَ المُظهَرَ مَوضعَ المُضمَرِ؛ للتَّعريض بأنَّهم مُشركون، فالجملةُ حينئذٍ تأكيدٌ لِما قبلَها[3]، وهي تذييلٌ غيرُ جارٍ مجرَى المثَلِ؛ لاحتياجِهَا إلى ما قبلَهَا في كشف تمامِ المرادِ منها.

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الكفْر والشّرك:

أَنَّ للكفْر خِصالًا كَثيرَةً، وكلُّ خصْلَةٍ مِنْهَا تُضَادُّ خَصْلَةً من الإيمَان؛ لِأَنَّ العَبْدَ إذا فعلَ خَصْلَةً من الكفْر فقد ضَيَّعَ خَصْلَةً من الإيمَانِ، والشِّرْكُ خَصْلَةٌ وَاحِدَةٌ، وَهُوَ إيجادُ آلِهَةٍ مَعَ الله أَو دونَ الله، واشتقاقُه يُنبئ عن هذا المعنى، ثمَّ كثُر حتَّى قيل لكلِّ كُفرٍ شركٌ،

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 3/275، وأبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 3/1266.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 3/276.
(3) أبو السُّعود، إرشادُ العقل السَّليم: 2/48، والآلوسّي، رُوح المعاني: 2/189.

على وَجه التَّعْظِيم لَهُ وَالمُبَالغَةِ في صِفتِه، وَأَصلُه كُفْرُ النِّعْمَةِ لتَضييعه حُقُوقَ اللّهِ، وَمَا يجبُ عليهِ من شكر نِعَمِه؛ فَهُوَ بِمَنْزِلَة الكافِر لها، ونقيضُ الشّرك في الحَقِيقَة الإِخْلاصُ، ثمَّ لمّا اسْتُعْمِلَ في كلِّ كُفْر، صَار نَقيضَ الإِيمَانِ.

ولا يجوز أَن يُطلقَ اسْم الكفْر إِلَّا لمن كَانَ بِمَنْزِلَة الجاحدِ لنِعَم اللّه، وَذَلِكَ لعِظَم مَا مَعَه من المعْصِيَة، وَهُوَ اسْمٌ شَرْعيٌّ، كَمَا أَنَّ الايمانَ اسْمٌ شَرْعيٌّ[1]، قال بعض المتأخّرين: "الكافر اسمٌ لمن لا إيمان له؛ فإنْ أَظْهَرَ الإيمانَ خُصَّ باسم المنافق، وإنْ أَظْهَرَ الكفرَ بعد الإسلام، خُصّ باسم المرتدّ، لرجوعه عن الإسلام، فإن قال بإلهين فصاعدًا خُصّ باسم المشرك"[2].

(1) العسكريّ، الفُروق اللُّغويَّة: ص 230.

(2) العسكريّ، الفُروق اللُّغويَّة: ص: 444.

﴿إِنَّ أَوۡلَى ٱلنَّاسِ بِإِبۡرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۗ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٦٨﴾ [آل عمران: 68]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

كـون إبـراهـيـم عـلـى مـلّـة الإسلام، يجعل أولى الـنّـاس به الـرّسـول وأهـل الإسلام

الآية استئنافٌ ناشئٌ عن نَفي اليهوديَّة والنَّصرانيَّة عن إبراهيمَ، فليس اليهودُ ولا النَّصارى ولا المشركون بأَوْلَى النَّاس به، وهذا يَدُلُّ على أنَّهم كانوا يقولون: نحنُ أَوْلَى بدينكم[1]، قال ابنُ عبَّاسٍ: قالت رؤساءُ اليهود: واللّه يا محمَّد، لقد علمتَ أنَّا أَوْلَى النَّاس بدِين إبراهيم مِنك ومِن غيرك، وإنَّه كان يهوديًّا، وما بك إلَّا الحسَدُ، فنَزلَتْ هذه الآية[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَوۡلَى﴾: اسمُ تفضيلٍ، أي: أشدُّ وَليًّا، أي: قُربًا، مُشتقٌّ مِن وَلِيَ، إذا صار وَلِيًّا[3]، ومعنى: أَوْلَى النَّاس: أَخَصُّهم به وأقربُهم منه، والمُرادُ رسولُ اللّه ﷺ[4].

2) ﴿ٱتَّبَعُوهُ﴾: الاتِّباعُ: اقتفاءُ الأَثَرِ، "يُقالُ: تَبِعَهُ واتَّبَعَه؛ التّابع: التّالي، ومنه التّتبع والمتابعة، والاتّباع، يتْبَعُه: يتلوه. تَبِعَهُ يتبعه تبعًا، والتّتبع: فِعْلُكَ شيئًا بَعْد شيء. تقول: تتبعتُ عِلمه، أي: اتبعتُ آثاره"[5]، فتارةً يكون بالجِسم، نحو: تَبِعتُه في الطَّريق واتَّبَعتُه فيها، وتارةً بالامتثال، ومثله: ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ﴾ [طه: 123][6]، ومعنى: ﴿لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ﴾ أي: اقتَدَوْا به، وعملوا مثلَه في الإيمانِ والطَّاعةِ.

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 3/276.
(2) أبو حيَّان، البحر المحيط: 3/202.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 3/276.
(4) الزَّمخشريُّ، الكشَّاف: 1/37، والنَّسفيّ، مدارك التَّنزيل: 1/264.
(5) الخليل، العين: 2/78.
(6) الرَّاغب، المفردات: ص 162.

3) ﴿ٱلنَّبِيُّ﴾: هو من النَّبْوَة، أي: الرِّفْعة، وسُمِّي نَبِيًّا لرِفْعة محلِّه عن سائر النَّاس المدلول عليه بقوله: ﴿وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ۝٥٧﴾ [مريم: 57]، فالنَّبِيُّ بغير الهمْز أبلغُ من النَّبِيء بالهمْز؛ لأنَّه ليس كلُّ مُنَبَّأٍ رفيعَ القَدْرِ والمَحلِّ، ولذلك قال ﷺ لمن قال: يا نَبِيءَ الله، فقال: «لَسْتُ بِنَبِيءِ الله ولكنْ نَبِيُّ اللهِ»[1]، لمّا رأى أنَّ الرَّجل خاطبَه بالهمز ليَغُضَّ منه، والنَّبْوَةُ والنَّبَاوَةُ: الارتفاعُ، ومنه قيل: نَبَا بفلان مكانُهُ[2].

4) ﴿وَلِيُّ﴾: الوَلِيُّ: كَونُ الشَّيء بجنب الآخر، ويُعتبر ذلك تارةً بالمكان، فيُقال له: الولايةُ، وتارةً بالنَّصر، فيقالُ له: الوَلاء والمُوالاة، لكنَّ الوَلاء على ضربين: باعتبار نِسبة الأعلى إلى الأسفل، وضربٍ باعتبار نِسبة الأسفل إلى الأعلى، ولهذا يُقالُ للخادم والمَخدوم: مَولًى ووَلِيٌّ؛ لأنَّ كُلَّ واحدٍ منهما يُوالي الآخرَ؛ الخادم بالطَّاعة والنَّصيحة، والمَخْدوم بالإشفاقِ والكِناية[3].

5) ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾: جمعُ مفرده المُؤمِن، وهُوَ المُصَدِّقُ بما يَجِبُ التَّصْدِيقُ بِهِ، والإيمانُ: التَّصديقُ، وعند كثيرٍ من أهل العِلْم: اعتقادٌ بالجَنان، وإقرارٌ باللِّسان، وعملٌ بالأركان[4]، وفي المخصّص أنّ: " (آمَن) وَزنه (أفْعَل)، وَلَا يكون فاعَل، قَالَ الْفَارِسِيّ: لَا تَخْلُو الْألف فِي (آمن) من أَن تكون زَائِدَة أَو منقلبة.. ثَبت أَنَّهَا منقلبة عَن الْهمزَة، وَإِنَّمَا انقلبت عَنْهَا أَلِفًا، لوقوعها سَاكِنَةً بعد حرفٍ مَفْتُوح، فَكَمَا أَنَّهَا إِذا خُفّفت فِي (راس وفاس وباس)، انقلبت أَلِفًا لسكونها وانفتاح مَا قبلهَا، كَذَلِك قلبت فِي نَحْو (آمَن)[5]، وقال الأزهريّ: أصل الإيمان الدّخول في صدق الأمانة الّتي ائتمنه اللّه تعالى عليها، فإن اعتقد التّصديق بقلبه كما صدّق بلسانه فقد أدّى"[6].

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

إنَّ أَحَقَّ النَّاسِ بالانْتساب إلى إبراهيمَ، همُ الّذين اتَّبعوا ما جاء به في زَمانه، وأَحقَّ

(1) الحاكم، المستدرك: 2/251.
(2) الرَّاغب، المفردات: ص 789.
(3) الرَّاغب، تفسير الرَّاغب: ص 532.
(4) السَّمين، عُمدة الحفّاظ: 1/125، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/27.
(5) ابن سيده، المخصّص، (الإيمان)
(6) الزَّبيدي، تاج العروس: (أمن).

النَّاسِ أيضًا بذلك هذا النَّبيُّ ﷺ، والّذين آمنوا به مِن هذه الأُمَّةِ، واللّهُ ناصرُ المؤمنينَ به وحافظُهم[1]، "فإنّهم أهل التّوحيد الخالص، وهو دين إبراهيم، واللّه يحبّ المؤمنين وينصرهم، لأنّهم أولياؤه، ويجازيهم بالحسنى وزيادة"[2]، وهم أتباع إبراهيم حقًّا وصدقًا، لأنّهم متّفقون معه في اعتقادهم الوحدانيّة، وإقرارهم بتفرّد اللّه بالألوهيّة، واللّه وليّ المؤمنين الصّادقين، وناصرهم في كلّ عصر وحين[3].

أحـــقّ الـنّـاس بإبراهيم وارثـوا حنيفيّته، من أمـــة الإســـلام المصطفاة

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دِلَالَةُ تَقْدِيمِ مَا حقُّه التَّأخيرُ فِي قَوْلِهِ: ﴿إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ﴾:

قُدِّمَ في الآية الكريمة ما كانَ ينبغي أن يكون خبرًا، وجَعَلَه هو المبتدأَ الّذي هو رُكن الجُملة الّذي يُسنَدُ إليه الخبرُ، فقال: ﴿إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ﴾، ولم يَقُلْ: إنَّ الَّذين اتَّبَعوه أَوْلَى به؛ لأجلِ أنْ يَحْكُمَ بأنَّ الأولويَّةَ لهؤلاء لا لِغَيْرِهم[4]، ولِمَا في تقديمِهِ من التَّشويقِ إلى الخبرِ، فيقع الخبرُ على نَفْسٍ مُسْتَشْرِفَةٍ فَيَتَمَكَّن مِنْهَا غايةَ التَّمكُّن.

الـنَّـبِـيُّ ﷺ وَالْمُـؤْمِـنُـونَ أَقْـرَبُ الـنَّـاسِ إِلَى إِبْـرَاهِـيـمَ وَأَخَصُّهُمْ بِهِ

دِلَالَةُ تَعدُّدِ صُوَرِ التَّأكيد فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ﴾:

إنَّ أشدَّ النَّاسِ ولايةً لإبراهيمَ وأجدرَهم بالاتِّصال به، لَلَّذين اتَّبَعوه، وهذا النَّبيُّ، والَّذينَ آمنوا بهذا النَّبيِّ، فَهُم أصنافٌ ثلاثةٌ؛ وقد أكَّدَ سبحانه اتِّصالَهم بإبراهيمَ بثلاثة مؤكِّدَاتٍ:

أوَّلُها: ﴿إِنَّ﴾، وهي مؤكِّدَةٌ للنِّسبةِ في الجُمَلِ الاسميَّة.

وثانيها: أفعل التَّفضيل ﴿أَوْلَى﴾.

وثالثُها: اللَّامُ المُزَحْلَقَةُ في قوله تعالى: ﴿لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ﴾.

تَصْحِيحُ نِسْبَةِ الِاتِّصَالِ بِخَلِيلِ اللـهِ إِبْـرَاهِـيـمَ عليه السلام

(1) نخبة من علماء التفسير، المختصر في تفسير القرآن الكريم: ص 58.
(2) لجنة من علماء الأزهر، المنتخب في تفسير القرآن الكريم: ص 81.
(3) وهبة الزّحيلي، التّفسير الوسيط: 1/201.
(4) ابن عثيمين، تفسير القرآن الكريم - سورة آل عمران: 1/390.

فَسياقُ الخبرِ على طريقة الخبر الإنكاريِّ مؤكَّدًا بهذه المؤكِّدَاتِ فيه تَصْحِيحُ نِسبةَ الاتِّصالِ بخليلِ اللّهِ إبراهيمَ عليه السلام، وَرَدُّ كلِّ ادِّعاءٍ مخالفٍ لهُ[1].

بَرَاعَةُ التَّضْمِينِ فِي قَوْلِهِ: ﴿إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ﴾:

الْأَوْلَوِيَّةُ دَرَجَاتٌ يَتَفَاضَلُ فِيهَا الخَلْقُ

قوله تعالى: ﴿أَوْلَى﴾ من قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ﴾ اسْمُ تَفْضِيلٍ؛ مِنَ الوَلْيِ وهو القُرْب، وَعُدِّيَ بالباءِ لِتَضَمُّنِهِ معنى الاتِّصَالِ، أَيْ: أَخَصُّ النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ وَأَقْرَبُهُمْ مِنْهُ.

وَمِنَ المُفَسِّرِينَ مَنْ جَعَلَ ﴿أَوْلَى﴾ هُنَا بِمَعْنَى (أَجْدَرَ)، فيُحْتاجُ معهُ إِلَى تَقْدِيرِ مُضَافٍ قَبْلَ قَوْلِهِ: ﴿بِإِبْرَٰهِيمَ﴾، أَيْ: بِدِينِ إِبْرَاهِيمَ[2].

فاستعمالُ ﴿أَوْلَى﴾ وتضمينُهُ معنَى الاتِّصالِ والاختصاصِ أدقُّ؛ لما فيه من تكثيرٍ للمعاني، ولِمَا فيه من الجمال الصَّوتِيِّ؛ إذ في قوله: ﴿أَوْلَى﴾، وقوله: ﴿وَلِيُّ﴾ جناسُ اشتقاقٍ[3].

دَلَالَةُ تَكْرَارِ اسْمِ (إبراهيم) فِي ثَلَاثِ آيَاتٍ مُتَعَاقِبَةٍ:

تَشْرِيفُ إِبْرَاهِيمَ عليه السلام وَبَيَانُ عَالِي مَكَانَتِهِ

تكرَّر اسمُ خليلِ اللّه إبراهيمَ عليه السلام في ثلاثةِ مواضعَ، وهي: ﴿لِمَ تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾، و﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا﴾، و﴿إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ﴾؛ وذلك تشريفًا وتنويهًا بشأنه، وإظهارًا لِعُلُوِّ مَقامِهِ[4].

دَلَالَةُ اسْمِ الْإِشَارَةِ ﴿وَهَٰذَا﴾ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ﴾:

وِحْدَةُ مَنْهَجِ النَّبِيِّ ﷺ مَعَ إِبْرَاهِيمَ عليه السلام

إنَّ في مجيءِ اسمِ الإشارةِ ﴿وَهَٰذَا﴾ وعَطفِه على ﴿لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ﴾ مَزيدَ تَميُّزٍ وتَعيينٍ واختصاصٍ، ومِن ثَمَّ قال: ﴿وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ﴾ خصوصًا[5]، وجيءَ بوصفِ النُّبُوَّةِ مدحًا لنبيِّنَا محمَّدٍ ﷺ.

(1) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 3/1266 - 1267.
(2) السَّمين، الدُّرّ المصون: 3/243، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 3/276.
(3) أبو حيَّان، البحر المحيط: 3/203.
(4) أبو حيَّان، البحر المحيط: 3/204.
(5) الطِّيبيّ، فُتُوح الغيب: 4/138.

واسمُ الإشارةِ ﴿وَهَٰذَا﴾ موضوعٌ في الأصلِ للقريبِ، واستعمالُهُ ههنا إشعارٌ بالقُرْبِ والتَّعظيمِ، والهاءُ فيه للتَّنبيهِ، فهو أَقربُ النَّاس لإبراهيمَ؛ إذْ هُوَ من ذُرِّيَّتِه، وعلى مِلَّتِهِ، وسَارٍ علَى منهجِه[1].

بَلَاغَةُ الْإِطْنَابِ فِي قَوْلِهِ: ﴿لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۗ﴾:

التَّنْوِيهُ بِعُلُوِّ رُتْبَةِ النَّبِيِّ ﷺ، وَبَيَانُ شَرَفِ أَهْلِ الْإِيمَانِ

في قوله تعالى: ﴿لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۗ﴾ إطنابٌ بعطفِ الخاصِّ على العامِّ، فقد ذُكِرَ النَّبيُّ ﷺ بعد ذِكْر من اتَّبعَ إبراهيم عليه السلام؛ وهو من جملةِ مُتَّبِعيهِ، وفي هذا تنبيهٌ بعلُوِّ الرُّتبةِ والفَضلِ.

وقُدِّمَ أتباعُ إبراهيمَ عليه السلام على النَّبيِّ ﷺ؛ لسَبْقِ الوجودِ زمانًا، وهو من جملةِ مسوِّغاتِ التَّقديم في الذِّكْرِ[2].

وكذا قولُه تعالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۗ﴾؛ فإنَّهُ معطوفٌ على ﴿لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ﴾ وهو إطنابٌ بذِكْرِ الخاصِّ بعد العامِّ؛ وخُصُّوا بالذِّكر تشريفًا وتكريمًا؛ فهو مِنْ باب: ﴿وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبۡرِيلَ وَمِيكَىٰلَ﴾ [البقرة: 98][3].

تَوْجِيهُ قِرَاءَةِ النَّصْبِ وَالْجَرِّ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ﴾:

فِي تَعَدُّدِ أَوْجُهِ الْقِرَاءَاتِ إِثْرَاءٌ لِلْمَعَانِي الْقُرْآنِيَّةِ

حكى الزَّمخشريُّ أنَّه قُرِئَ: (وهذا النَّبيّ) بالنَّصبِ والجَرِّ، فالنَّصبُ نسَقٌ على مفعول ﴿ٱتَّبَعُوهُ﴾، فيكونُ النَّبيُّ ﷺ قد اتَّبَعَه غيرُه كما اتَّبَعَ إبراهيمَ، والتَّقديرُ: للَّذين اتَّبعوا إبراهيمَ واتَّبعوا هذا النَّبيَّ، ويكون قولُه: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۗ﴾ نَسَقًا على قوله: ﴿لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ﴾.

والقراءة بجرّ كلمة: ﴿ٱلنَّبِيُّ﴾ في قوله: ﴿وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ﴾: نَسَقٌ على ﴿بِإِبۡرَٰهِيمَ﴾، أيْ: إنَّ أَولَى النَّاس بإبراهيمَ وبهذا النَّبيِّ للَّذين اتَّبَعوه، وفيه نظرٌ؛ من حيثُ إنَّه كان ينبغي أَنْ يُثَنَّى الضَّميرُ في ﴿ٱتَّبَعُوهُ﴾، فيقالُ: اتَّبعوهما، إلَّا أن يُقالَ: هو من باب: ﴿وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرۡضُوهُ﴾ [التَّوبة: 62][4].

(1) الهلال، تفسير القرآن الثرّي: 3/102.
(2) الزَّركشيّ، البرهان: 3/239، والإندونيسّي، الشَّامل في بلاغة القرآن: 1/172.
(3) الزَّمخشريُّ، الكشَّاف: 1/371، والسَّمين، الدُّرّ المصون: 3/243، والقِنَّوجيّ، فتح البيان: 2/263.
(4) ابن جبارة، الكامل في القراءات: ص 516، والزَّمخشريُّ، الكشَّاف: 1/371، والسَّمين، الدُّرّ المصون: 3/243.

دلَالَةُ تَخْصِيصِ ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾:

الْإِيمَانُ وَالتَّقْوَى سَبَبُ تَحْصِيلِ وِلَايَةِ اللهِ تَعَالَى

إنَّ تخصيصَ المؤمنين بالذِّكر جاء لِيُثْبِتَ الحكمَ في النَّبيِّ ﷺ بدِلالة النَّصِّ[1]، وليَعُمَّ الأنبياءَ كلَّهم وأتباعَهم من كلِّ شَريعةٍ، وفيه إعلامٌ بأنَّ الوصفَ الموجبَ للتَّقريب هو العراقةُ في الإيمان؛ ترغيبًا لِمَنْ لم يَبلُغْهُ في بلُوغِه[2].

وفي قولِه: ﴿وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ إظهارٌ في موضع الإضمار؛ إذ مقتضى الظَّاهرِ: والذين آمنوا واللّه وَلِيُّهم، ونكتة الإظهارِ: التَّصريحُ علَّةِ ولايةِ اللّه تعالى لهم، وفيه: وعدٌ لهم بالنَّصر في الدُّنيا، وبالفوز في الآخرة[3].

مُنَاسَبَةُ مَقْطَعِ الْآيَةِ لِمَطْلَعِهَا:

إِيـمَـانُ أَهْـلِ الْـكِـتَـابِ غَـيْرُ مُعْتَدٍّ بِـهِ بَعْدَ بِعْثَةِ النَّبِيِّ ﷺ

جاءت خاتمةُ الآية ﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ بعد قوله: ﴿ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا﴾؛ للتَّعريض بأنَّ الَّذين لم يكنْ إبراهيمُ منهم؛ ليسوا بمؤمنين الإيمانَ النَّافِعَ لهم[4].

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(أَتْبَعَ)، و(تَبِعَ)، و(اتَّبَعَ):

أَتْبَع: بِالتَّخْفِيفِ يتَعَدَّى إِلَى مفعولَين، وبالتَّشديد إِلَى وَاحِد، قيل: تَبع وَاتَّبع بِمَعْنى وَاحِد، وَهُوَ اللُّحوقُ، ﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ﴾ [يونس: 90]، أَي: لَحِقَهم أَو كَادَ، وأتبع القوم: سبقوه فلحقهم. يقال: تبعتهم فأتبعتهم أي: تلوتهم فلحقتهم. وقيل: أتبعه إذا تبعه يريد به شَرًّا؛ كما أتبع فرعون موسى. وهو تابعه وتبيعه، وهو له تَبَعٌ وهم له تَبَع، لأنه مصدر وهم أتباعه وتباعه[5].وَاتَّبعهُ: بِالتَّشْدِيدِ بِمَعْنى سَار خَلفه، وَقيلَ: أَتْبَع: بِقطع الألف، بِمَعْنى اللُّحوقِ والإدراكِ؛ وبوصلِها بِمَعْنى

(1) أبو السُّعود، إرشادُ العقل السَّليم: 2/48.
(2) البقاعيّ، نظمُ الدُّرر: 4/454.
(3) أبو حيَّان، البحر المحيط: 3/203.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 3/278.
(5) الزّمخشريّ، أساس البلاغة: 1/89.

اتَّبَعَ أَثَرَه، أدْرَكَهُ أَو لم يُدْرِكْهُ[1]، ومنه قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَتۡبَعَ سَبَبًا﴾ [الكهف: 89]..يقال: اتَّبَعه، بالوصل: إذا سار ولم يلحقه، وأَتْبَعَه، بالقطع، إذا لحقه، قال أبو عبيد: ومنه قول الله تعالى: ﴿فَأَتۡبَعُوهُم مُّشۡرِقِينَ ۝٦٠﴾ [الشّعراء: 60][2].

المُؤْمِن والمُسْلِم:

وَالمُؤْمِنُ: هُوَ المُصَدِّقُ بِمَا يَجِبُ التَّصْدِيقُ بِهِ، وَالمُسْلِمُ: المُنْقادُ إِلَى مُقْتَضَى الإِيمَانِ، وَلَا نَجَاةَ إِلَّا بِمَجْمُوعِ الأَمْرَيْنِ[3]، "وإنّ العرب إنّما عرفت المؤمن من الأمان والإيمان، وهو التّصديق، ثم زادت الشّريعة شرائط وأوصافًا بها سمّي المؤمن بالإطلاق مؤمنًا؛ وكذلك الإسلام والمسلم: إنّما عرفت منه إسلام الشّيء، ثمّ جاء في الشّرع من أوصافه ما جاء"[4].

(1) الرّاغب، المفردات: ص 163، والسّمين، عُمدة الحفّاظ: 1/255، والكَفَويّ، الكلّيّات: ص 35.
(2) الحِمْيَرِيّ، شمس العلوم: 2: 722.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير 8/27.
(4) الرّافعيّ، تاريخ آداب العرب: 1/137.

﴿وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ لَوۡ يُضِلُّونَكُمۡ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ وَمَا يَشۡعُرُونَ ٦٩﴾ [آل عمران: 69]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

المناسبة بين ضلال أهل الكتاب، وإضلالهم للمؤمنين بآخر كتاب

لَمَّا بَيَّنَ أنَّ مِنْ طَريقةِ أَهلِ الكتابِ العُدولَ عَنِ الحقِّ، والإعراضَ عَن قَبُول الحُجَّةِ؛ بَيَّن أنَّهم لا يَقتصرون على هذا القَدْرِ، بل يَجتهدون في إضلالِ مَن آمنَ بالرَّسول ﷺ بإلقاء الشُّبهاتِ، كقولهم: إنَّ محمَّدًا مُقِرٌّ بمُوسى وعيسى ويدَّعي لنفسِهِ النُّبوَّةَ، وأيضًا: إنَّ مُوسى عليه السلام أَخبَرَ في التَّوراة، بأنَّ شرعَه لا يزولُ، وأيضًا: القولُ بالنَّسْخِ يُفضي إلى البَدَاءِ، والغَرضُ مِنه تَنبيهُ المؤمنين على أن لا يَغتَرُّوا بكلام اليهودِ، ونظيرُه قولُه تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ لَوۡ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِكُمۡ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنۡ عِندِ أَنفُسِهِم﴾ [البقرة: 109]، وقولُه: ﴿وَدُّواْ لَوۡ تَكۡفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءٗ﴾ [النِّساء: 89][1]، نَزلتْ في اليَهود لمّا دَعَوا حُذيفةَ وعمَّارًا ومُعاذًا إلى اليهوديَّة[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَدَّت﴾: الوُدُّ: محبَّةُ الشَّيء، وتمنّي كونِه، وُيستعمَلُ في كلِّ واحدٍ مِنَ المعنيَين، على أنَّ التَّمنِّيَ يَتضمَّنُ معنى الوُدّ؛ لأنَّ التَّمنِّيَ هو تَشهِّي حصولَ ما تَوَدُّهُ[3].ويقال: " (وَدِدْتُ) لو تفعل كذا بالكسر (ودًّا) بالضّم والفتح، ووداًدا وودادة بالفتح فيهما، أي تمنّيت. ووددتُ لو أنّك تفعل كذا مثله، و(وددت) الرّجل بالكسر (وُدًّا) بالضّمّ أحببته. والوُدُّ - بضمّ الواو وفتحها وكسرها -: المودّة،

(1) الرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 8/255.
(2) البيضاويّ، أنوار التَّنزيل: 2/22، وأبو حيَّان، البحر المحيط: 3/204.
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (ود)، والرَّاغب، المفردات: (ودد).

وتقول بودّي أن يكون كذا"[1]، "وتودّد إليه تحبّب، وهو ودود أي محبّ؛ يستوي فيه الذّكر والأنثى"[2].

2) ﴿طَآئِفَةٌ﴾: الطَّائفةُ: في الأصلِ الجماعةُ مِنَ النَّاس، والقِطعةُ مِنَ الشَّيءِ[3]، وهي الفِرْقَة؛ سُمِّيَت بها لتصرُّفها في الإقبال والإدبار؛ كأنَّها تَطُوف[4]، وفي الصّحاح: " الطّائفة من الشّيء قطعةٌ منه، وقوله تعالى: ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٢﴾ [النّور: 2]، قال ابن عبّاس رضي الله عنهما: الواحد فما فوقه[5].

والمُرَادُ بِالطَّائِفَةِ بالآية الكريمة: جَمَاعَةٌ مِنْهُمْ مِنْ قُرَيْظَةَ وَالنَّضِيرِ وَقَيْنُقَاعَ، دَعَوْا عَمَّارَ بْنَ يَاسِرٍ، وَمُعَاذَ بْنَ جَبَلٍ، وَحُذَيْفَةَ بْنَ اليَمَانِ، إِلَى الرُّجُوعِ إِلَى الشِّرْك أو اليهوديَّة[6].

3) ﴿مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾: المُرَادُ بِأَهْلِ الْكِتَابِ هُنَا: اليَهُودُ خَاصَّةً دُونَ غَيْرِهِمْ[7].

4) ﴿يُضِلُّونَ﴾: "ضلّ الشّئ يضلّ ضلالًا، أي ضاع وهلَك، والاسم الضُّلُّ بالضّم، ومنه قولهم: هو ضُلُّ بن ضُلٍّ، إذا كانَ لا يُعْرفُ ولا يُعْرَفُ أبوه، وكذلك: هو الضّلالُ بن التّلالُ، والضّالّةُ: ما ضَلَّ من البهيمة؛ للذّكر والأنثى"[8]، والإِضْلالُ في كَلام العَرَب: ضِدُّ الهدايةِ والإرشادِ، يُقالُ أَضْلَلْتُ فُلانًا: إذا وجَّهته للضَّلال عن الطَّريق فلم تُرشدْهُ[9]،

5) ﴿يَشْعُرُونَ﴾ الشُّعورُ: إدراكُ الشّيء من وجهٍ يَدِقُّ ويَخْفى، مُشتقٌّ من الشَّعْرِ لدقَّته، وقيل: هو الإدراكُ بالحاسَّة، مُشتقٌّ من الشِّعار، وهو ثوبٌ يَلي الجسدَ، ومنه: مشاعرُ الإنسانِ، أيْ: حواسُّه الّتي يَشْعُرُ بها[10]، والتَّحقيقُ: أنَّ الشُّعورَ إدراكُ ما دَقَّ مِنْ حِسِّيٍّ وعَقْليٍّ، وقولُه: ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ أَيْ: ما يَعْلَمُونَ أَنَّ هَذَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَضُرُّ الْمُؤْمِنِينَ[11].

(1) الرّازيّ، مختار الصّحاح: (ودد).
(2) الفيّوميّ، المصباح المنير: (ودد).
(3) السَّمين، عُمدة الحفّاظ: 2/425.
(4) الواحديّ، البسيط: 5/341.
(5) الرّازيّ، مختار الصّحاح: (طوف).
(6) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 3/278.
(7) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 3/278.
(8) الجوهريّ، الصحاح(ضلل).
(9) الواحديّ، البسيط: 5/342.
(10) السَّمين، الدُّرّ المصون: 1/129.
(11) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 8/225.

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

دأبُ أهـــل الكتاب إضلال مخالفيهم بالزّيف والارتياب

تمنَّت طائفةٌ من الأحبار والرُّؤساء إيقاعَ الضَّلالِ بين المسلمين، وردَّهم عن دينهم إلى الكفر، بزَرْعِ الشُّبهاتِ ومُحاولةِ كَسْبِ بعض المسلمين بإدخالهم في دِينهم، ولكنَّهم فشلوا في ذلك، فهم لا يُضِلُّون إلَّا أنفسَهم، وما يَعودُ وَبالُ الإضلالِ إلّا عليهم، إذ شَغَلوها بما لا يُجدي، وعرّضوها لما يَضُرُّ، لأنَّ العذابَ يُضاعفُ لهم بِضَلالِهم وإضْلَالِهم، ويوقِعُهم في الإثم والمعصية، أو: وما يَقدِرون على إضلال المسلمين، وإنَّما يُضِلُّون أَمثالَهم مِن أَشياعِهم، وما يشعرون بذلك، وما يَفطَنون إلى سُوء حالِهم، وفي هذا نهايةُ الذَّمِّ والاحتقارِ لهم[1].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

دَلَالَةُ التَّمَنِّي فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾:

ثَبَاتُ المُؤْمِنِينَ الصَّادِقِينَ عَلَى الإِيمَانِ حَتَّى المَمَاتِ

الفعلُ (وَدَّ) بمعنى تَمَنَّى، والتَّمنّي يكون للصَّعبِ الحُدوثِ، إمَّا لاستحالتِه، أو لشدَّة صُعوبته[2]، وفي الآية جاءت للمُستحيل، فإضلالُ المؤمنين المُتوكِّلين على ربِّهم أمرٌ مُستحيلٌ[3]، وإنَّما يضلُّ من يضِلُّ بسببِ دسيسَةِ سوءٍ كانت في قلبِه[4]، أمَّا المؤمنون الصَّادقونَ فلن يُضيعَ اللّه تعالى إيمانَهم.

دِلَالَةُ ﴿مِّنْ﴾ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾:

الإِنْصَافُ مَنْهَجٌ قُرْآنِيٌّ عَظِيمٌ

جاءت ﴿مِّنْ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ لِلتَّبْعِيضِ، وَإِنَّما ذُكِرَ بَعْضُهُمْ دونَ أن يُعَمُّوا بالحُكْم؛ لِأَنَّ مِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَأَثْنَى اللّه عَلَيْهِمْ بِقَوْلِهِ: ﴿مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴿٦٦﴾﴾ [المائدة: 66]، و﴿مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ

(1) الزَّمخشريُّ، الكشَّاف: 1/372، وأبو حيَّان، البحر المحيط: 3/205، 206، والطِّيبيّ، فُتُوح الغيب: 4/139، والزُّحيليّ، التَّفسير المنير: 3/260.

(2) الرَّاغب، تفسير الرَّاغب: ص 449، وابن عقيلة، الزِّيادة والإحسان: 6/73.

(3) الزُّحيلّي، التَّفسير المنير: 3/260.

(4) ابن رجب، جامع العلوم والحكم، ص: 180.

ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ وَهُمۡ يَسۡجُدُونَ ﴿١١٣﴾﴾ [آل عمران: 113][1]، ولذا جعل جماعةٌ من أهل العلم المرادَ من ﴿وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ اليهودَ خاصَّةً؛ ولذلكَ عبَّر عنهم بطَائفَة مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ؛ لِئَلَّا يُتَوَهَّمَ أَنَّهُمْ أَهْلُ الكِتَابِ الَّذِينَ كانت المحاجّةُ معهم في الآياتِ السَّابِقَةِ[2].

ويَحْتَمِلُ أَنْ تكونَ ﴿مِّنۡ﴾ لِبَيَانِ الجِنْس، وتَكُونَ الطَّائِفَةُ جميعَ أَهلِ الكِتَاب[3].

وهذه الجملة ﴿وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ خبريَّةٌ، يُرادُ بها: تحذيرُ أهل الإيمانِ من مكايد أهل الكتاب، وحثُّهم على تمسُّكم بدينِهم.

دَلَالَةُ اسْتِعْمَالِ ﴿لَوْ﴾ فِي قَوْلِهِ: ﴿لَوۡ يُضِلُّونَكُمۡ﴾:

تَعَدُّدُ إِضْلَالِ أَهْلِ الإِيمَانِ الصَّادِقِ

قَالَ تعالى: ﴿لَوۡ يُضِلُّونَكُمۡ﴾ وَلَمْ يَقُلْ: أَنْ يُضِلُّوكُمْ؛ لِأَنَّ ﴿لَوْ﴾ المستعملةَ في التَّمنِّي؛ تُشْعِرُ بِعِزَّةِ المُتَمَنَّى وأنَّ الوصولَ إليه متعذِّرٌ، وَنَظِيرُهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَوَدُّ أَحَدُهُمۡ لَوۡ يُعَمَّرُ أَلۡفَ سَنَةٖ﴾ [البقرة: 96][4].

تَوْجِيهُ مَعْنَى الْإِضْلَالِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ﴾:

مِنْ أَسْبَابِ ثَرَاءِ المَعَانِي القُرْآنِيَّةِ تَعَدُّدُ مَعَانِي كَلِمَاتِهِ

إِنْ كان معنى الإضلال الإهلاكَ، فالمعنى: أنَّهم يُهلكون أنفسَهم وأشياعَهم؛ لاستحقاقهم بإيثارهم إهلاكَ المؤمنين سَخَطَ اللهِ تعالى وغضبَه.

وإنْ كان معناه الإخراجَ عن الدِّين؛ فذلكَ حاصلٌ لهم، بجَحْدِ نُبوَّةِ رسول الله ﷺ، وتَغييرِ صفتِه، وخرجوا عن مِلَّة موسى وعيسى.

وإنْ كان المعنى الإيقاعَ في الضَّلال؛ فذلكَ حاصلٌ لهم مع تمكُّنِهم من اتِّباع الهدى بإيضاح الحُجج، وإنزالِ الكتب وإرسال الرُّسلِ[5].

(1) الرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 8/225.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 3/278.
(3) الزَّمخشريُّ، الكشَّاف: 1/452، والبيضاويُّ، أنوار التَّنزيل: 2/22، والسَّمين، الدُّرّ المصون: 3/244.
(4) الرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 8/225.
(5) أبو حيَّان، البحر المحيط: 3/205، الآلوسّي، رُوح المعاني: 2/191.

وكلُّ هذه المعاني حقٌّ، وَلا تعارُضَ بينَها فيُحْمَلُ اللَّفْظُ عليها جميعًا، فهم أهلكوا أنفسَهم، وأخرجوها عن الدِّين الحقِّ، وأوقعوهَا في الضَّلالِ.

دَلَالَةُ الْجُمْلَةِ الْحَالِيَّةِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ﴾:

جِيءَ بالجملة الحاليَّة ﴿وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ﴾ للدَّلالة على كمال رسوخِ المخاطبِين، وثباتِهم على ما هُم عليه من الدِّينِ القويمِ[1].

وهي إمَّا على سبيل المجازِ المُرسَلِ، أو الاستعارةِ، أي: ما يَتخَّطاهُمُ الإضلالُ ولا يعودُ وبالُه إلَّا إليهم، لما يُضاعَفُ به عذابُهم. أو المرادُ بأنفسهم: أمثالُهم المُجانِسون لهم، فهو استعارةٌ أو تشبيهٌ بتقديرِ: أمثالِ أنفسِهم؛ إذ لم يتَهوَّدْ مُسْلِمٌ، ولله تعالى الْحَمْدُ[2].

وجِيءَ بالفعل المُضارع ﴿يُضِلُّونَ﴾ للدَّلالة على بشاعة ما يَوَدُّون، وتَدُلُّ على تَجَدُّدِ تمنِّي ردِّ أهل الإيمان إلى الكُفْر، وتَكرارِه واستمرارِه[3].

دَيْدَنُ أَهْلِ الضَّلالِ مُحَاوَلَةُ رَدِّ الْمُؤْمِنِينَ إِلَى الْكُفْرِ

دَلَالَةُ النَّفْيِ وَالِاسْتِثْنَاءِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ﴾:

في قوله تعالى: ﴿وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ﴾ أسلوبُ قصرٍ؛ حيثُ قُصِرَ الضَّلالُ عليهم وحدَهم، في سعيهم الّذي سَعوه لإضلال المؤمنين، وطريق القصر: النَّفي والاستثناء، وهي أقوى طرقِ القصرِ في الدِّلالة عليهِ، ولذا اختير هذا الطَّريقُ في كلمة التَّوحيد (لا إله إلَّا الله)، والقصر في الآية إضافيٌّ[4]، وفيه إشعارٌ بثباتِ المؤمنينَ على الهدايةِ.

مَنْ يَسْعَى إِلَى إِضْلَالِ الْمُؤْمِنِينَ سَيَعُودُ سَعْيُهُ وَبَالًا عَلَيْهِ

دَلالةُ العَطفِ بين الجملتَين: ﴿وَمَا يُضِلُّونَ﴾، و﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾:

وُصِلَ بين الجملتَين بالواو؛ لاتِّحادهما في الخبر المنفيِّ على

الْإِضْلَالُ جَرِيمَةٌ عِقَابُهَا عَلَى نَفْسِ مُرْتَكِبِهَا وَاقِعٌ لَا مَحَالَةَ

(1) أبو السُّعود، إرشادُ العقل السَّليم: 2/49.
(2) الآلوسّي، رُوح المعاني: 2/191، والعليميّ، فتح البيان: 2/264.
(3) الهلال، تفسير القرآن الثرّيّ: 3/103.
(4) الخطيب، التَّفسير القرآنّي للقرآن: 2/491.

إثباتِ الضَّلالِ، وعدمِ الشُّعورِ به لهذه الطَّائفةِ مِن أهلِ الكتاب[1]، واشتراكِهما في الفعليَّةِ، ونوعِ الفعل؛ إذْ كلاهُما مضارعٌ.

وفي نفي الشُّعور عنهم مبالغةٌ في ذَمِّهم[2]، وجاءت الصِّيغتان بالفِعل المضارع الدالِّ على استمرارهم في الإضلال والضَّلال بلا شعورٍ منهم.

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الجَمَاعَة والطَّائفة:

أَنَّ الطَّائِفَةَ في الأَصْل جَمَاعَةٌ من شَأْنها الطَّوافُ، وَيجوز أَن يكون أَصْلُهَا الجَمَاعَةَ الّتِي تَستوي بهَا حَلقَةٌ يُطَافُ عَلَيْهَا، ثُمَّ كَثُر ذَلِك حَتَّى سُمِّيت كُلُّ جمَاعَةٍ طَائِفَةً، قال تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَاۖ﴾ [الحُجرات: 9]، وَلَا خلافَ في أَنَّ اثْنَيْنِ إذا اقتتلا كَانَ حُكمُهمَا هَذَا الحُكمَ، وَرُوِيَ في قَوْله ﷻ: ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٢﴾ [النّور: 2]، أَنَّه أَرَادَ وَاحِدًا، وَقَالَ: يجوز قَبُولُ الوَاحِدِ بدَلَالَة قَوْله تَعَالَى: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ﴾، إِلَى أَن قَالَ: ﴿لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ۝١٢٢﴾ [التّوبة: 122]، أَي: لِيَحذروا، فَأوجبَ العَمَلَ في خبر الطَّائِفَةِ، وَقد تكونُ الطَّائِفَةُ وَاحِدًا[3].

الغَيّ والضَّلال:

الضَّلالُ: في مُقَابلَةِ الهُدى، والغَيُّ في مُقَابلَة الرُّشْدِ، تقولُ: ضَلَّ بَعِيري ورَحْلِي، وَلَا تَقول: غَوِيَ، وضَلَّ هُوَ عَنِّي، أَي: ذَهَب، وَكَذَا أَضَلَّنِي كَذَا، والضَّلالُ: أَن لَا يجدَ السَّالِكُ إِلَى مَقْصِدِه طَرِيقًا أصلًا، والغِوايةُ: أَن لَا يكونَ لَهُ إِلَى المَقْصِد طَرِيقٌ مُسْتَقِيمٌ[4].

(يَشْعُرُ) و(يَعْلَمُ):

فِعْلَا ﴿يَعْلَمُونَ﴾ و﴿يَشْعُرُونَ﴾ قد كَثُر دورانُهما في القُرآن، فنَجدُ أنَّه في الأمور الّتي يُرجعُ إلى العَقل وحدَه في الفَصل فيها يَستعملُ كلمةَ ﴿يَعْلَمُونَ﴾؛ لأنَّها صاحبةُ الحقِّ في

(1) الدّبل، دليل البلاغة القرآنيَّة: 1/472.
(2) أبو حيَّان، البحر المحيط: 3/206، والآلوسّي، رُوح المعاني: 2/191.
(3) العسكريّ، الفُروق اللُّغويَّة، ص: 278، والكَفَويّ، الكلّيّات، ص: 685.
(4) العسكريّ، الفُروق اللُّغويَّة: ص 214، والكفويّ، الكلّيّات: ص 576.

التَّعبير عنها، كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعۡدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ٧٥﴾ [البقرة: 75]، وأمَّا الأُمورُ الّتي يكون للحَواسّ مدخلٌ في شَأنها فيَستعملُ كلمةَ ﴿يَشۡعُرُونَ﴾[1]، كقوله تعالى: ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخۡدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ وَمَا يَشۡعُرُونَ ٩﴾ [البقرة: 9].

(1) أحمد ياسوف، جماليَّات المفردة القرآنيَّة: ص 321.

﴿يَـٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَـٰبِ لِمَ تَكۡفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمۡ تَشۡهَدُونَ ٧٠﴾

[آل عمران: 70]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

المناسبة بين إضلال أهل الكتاب لغيرهم، وبين وَعْظِهم بالكفّ عن ضلالهم

الْتِفَاتٌ إِلَى خِطَابِ اليَهُودِ[1]، لَمَّا بَيَّنَ حَالَ الطَّائِفَةِ الّتِي لَا تَشْعُرُ بِمَا فِي التَّوْرَاةِ مِنْ دَلَالَةِ نُبُوَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ، بَيَّنَ أَيْضًا حَالَ الطَّائِفَةِ العَارِفَةِ بذلك من أحبارهم[2]، فقال لهم: ﴿لِمَ تَكۡفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ﴾من القرآن المنزل وَأَنْتُمْ تعلمون يقينًا أنّه حقٌّ منزلٌ من عند اللّه تعالى؛ لورود ذكر مجيء الرّسول ﷺ في كتابكم الّذي بلّغكم ذلك بصريح العبارة[3].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَـٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَـٰبِ﴾: الكتابُ: التَّوراةُ، وجعلَهم أهلَه بحسَبِ زَعْمِهم ونَسبِهم، وإلَّا فأهلُه على الحقيقة هم المؤمنون[4]، أو سمَّاهم أهلَه؛ لنُزوله على النَّبيِّ الّذي هم مُتَّبعونه[5]، قوله: " ﴿يَـٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَـٰبِ﴾ يعني يا أهل التّوراة والإنجيل، وإنّما أضافهم إلى الكتاب.. على وجه التّعبير، يعني أنتم أهل الكتاب فلم لا تعملون بكتابكم؟؛ كقوله: يا عاقل لم لا تفعل كذا وكذا؟!، وإنّما تذكر العقل على معنى التّعيير أي إنّك لا تعمل عمل العقلاء"[6].

2) ﴿لِمَ تَكۡفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ﴾: أي لقد كَفَرْتم بآيات اللّه وبيّناتِه

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/279.
(2) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 8/255.
(3) ابن الخطيب، أوضح التّفاسير، ص: 68.
(4) ابن عطيَّة، المُحرَّر الوجيز: 1/480.
(5) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/387.
(6) وهذا شبيه في اللّوم والتّنبيه، بقوله تعالى: " ﴿يَـٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَـٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ عَلَىٰ فَتۡرَةٖ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُواْ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٖ وَلَا نَذِيرٖۖ فَقَدۡ جَآءَكُم بَشِيرٞ وَنَذِيرٞۗ﴾ [المائدة: 19]، ينظر: السّمرقنديّ، بحر العلوم: 1/380.

الّتي في التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ مِنْ وَصْفِ النَّبِيِّ ﷺ، وَالإِيمَانِ بِهِ، كَمَا بَيَّنَ فِي قَوْلِهِ: ﴿ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ﴾ [الأعراف: 157]، وأنتم تَعلمون صِدقَها[1].

3) ﴿وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ﴾: يقال: "شَهِد له بكذا شَهادةً، أي أدَّى ما عنده من الشّهادة، فهو شاهِدٌ، والجمع شهد، مثل صاحب وصحب، وسافر وسفر، وبعضهم ينكره. وجمع الشّهد شهودا وأشهاد، والشّهيد: الشّاهد، والجمع الشُّهَداءُ. وأَشْهَدْتُهُ على كذا فَشَهِدَ عليه، أي صار شاهِداً عليه"[2]، ومعنى العبارة في الآية، أي: والحالُ أنّكم تَشهدون أنَّها آياتُ اللّه، أو بالقرآن، وأنتم تَشهدُون نَعْتَه في الكتابَيْن، أو تَعلمون بالمعجزات أنَّه حَقٌّ[3].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

استنكار كفر أهل الكتاب بالآيات وهم يشهدون عظمتها

يا أهلَ التَّوراةِ والإنْجِيْلِ لِمَ تَجْحَدُونَ آياتِ اللّه الّتي أَنْزَلَها على رَسُلِهِ في كُتُبِهِمْ، وفيها أنَّ رسولَ اللّه ﷺ هو الرَّسُولُ المُنْتَظَرُ، وأنَّ مَا جاءَكُم به هو الحقُّ، وأنتم تَشهدُونَ بذَلكَ؟! ولكنَّكم تُنكرونَهُ[4]، وفي الآية إنكارٌ على كفر اليهود بآيات اللّه، وما فيها من براهين ودلالات قاطعة على نبوّة محمّد ﷺ ؛ خاصّة وأنّ كتبهم تشهد بصحّتها، وقد جاءت فيها البشارة ببعثته وصدقه، وبيّنت أوصافه، وهي أوصافٌ لا تنطبق على أحدٍ آخر غيره[5].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

دَلَالَةُ النِّدَاءِ فِي قَوْلِهِ: ﴿يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ﴾:

نداءُ الله تعالى لأهلِ الكتاب يتضمَّن توبيخًا لهم؛ لصدِّهم عن سبيل الله

وَجَّه اللّه سبحانه وتعالى بهذه الآية النِّداءَ إلى أَهْلِ الكتاب

(1) أبو حيَّان، البحر المحيط: 3/206، وأبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 3/1270.
(2) الجوهريّ، الصّحاح: 2/494.
(3) أبو السُّعود، إرشادُ العقل السَّليم: 2/49، والبروسويّ، رُوح البيان: 2/49.
(4) نخبة من أساتذة التَّفسير، الميسَّر في التَّفسير: ص 58.
(5) أسعد حومد، أيسر التّفاسير: ص 364.

يدعوهم إلى الإيمان، مُبيِّنًا لهم في صيغةِ استفهامٍ إنكاريٍّ تَوبيخِيٍّ أنَّ دَواعيَ الإيمانِ قائمةٌ، ودَواعيَ الكُفرِ غيرُ ثابتةٍ، ولذا يُستفهَمُ عنها، إنكارًا وتوبيخًا، وابتدأَهم بهذا النِّداء الكريم؛ إذ قال: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾، وفي هذا النِّداء إشارةٌ إلى أنَّ ما أُعْطَوْه كان يقتضي مسارعَتَهم إلى الإيمان، لَا أنْ يكفروا[1].

سَبَبُ تَخْصِيصِ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى بِكَوْنِهِمْ أَهْلَ كِتَابٍ:

نِسْبَةُ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى لِكُتُبِهِم احْتِجَاجٌ عَلَيْهِمْ بِهَا

جازَ أَنْ يُقالَ لليهود والنَّصارى: أهلُ الكتابِ، وهم لا يَعْمَلُون به، ولم يَجُزْ مثلُ ذلك في الوصف بـ (أَهلِ القُرآنِ)؛ والسَّببُ في ذلك أنَّ القُرآنَ اسمٌ خاصٌّ لِما أَنزل اللّٰه على رسول اللّٰه ﷺ، فأمَّا الكِتابُ فيجوزُ أن يُذهَبَ به إلى معنى: يا أهلَ الكتابِ المُحرَّفِ عن جِهته!، وفي نسبتهم إلى الكتابِ احتجاجٌ عليهم بالكتاب لإقرارهم به، كأنَّه قيلَ: يا من يُقِرُّ بأنَّه مِن أهل الكتاب؛ لِمَ تكفرونَ بآياتِ اللّٰه؟[2].

دَلَالَةُ الِاسْتِفْهَامِ فِي قَوْلِهِ: ﴿لِمَ تَكۡفُرُونَ﴾:

شَنَاعَةُ كُفْرِ أَهْلِ الْكِتَابِ مَعَ ظُهُورِ الْحُجَجِ وَالْبَرَاهِينِ عَلَى بُطْلَانِهِ

في الاستفهامِ الواردِ في قوله تعالى: ﴿لِمَ تَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ إثارةٌ لنفوس المخاطَبِينَ، وتوبيخٌ وإنكارٌ لهم؛ لأنَّه كَسُؤالِ التَّعجيزِ عن إقامة البرهان[3]، فالاستفهامُ جِيءَ به لإنكارِ الواقع الّذي وقَعَ منهم، وهو الكُفرُ مع قِيام أدلَّتِه، ولقد أكَّد اللّٰه سبحانه وتعالى الاستنكارَ بقوله تعالى: ﴿وَأَنتُمۡ تَشۡهَدُونَ﴾ أي: وأنتم تَعلمُون صِدَق الرَّسولِ عِلمًا يَقينيًّا كعِلمِ المُشاهدةِ والعِيان، بما أُخْبِرَ به في كتابكم[4].

بَلَاغَةُ الْحَذْفِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَأَنتُمۡ تَشۡهَدُونَ﴾:

حُذِفَ متعلَّقَ الشَّهادة في قوله تعالى: ﴿وَأَنتُمۡ تَشۡهَدُونَ﴾؛ وهو المشهودُ به؛ لأنَّ الكلامَ كانَ تَوبيخًا، والتَّقديرُ: وأنتم تَشهدُون بما

(1) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 3/1270.
(2) الواحديّ، البسيط: 5/454.
(3) الواحديّ، البسيط: 5/454.
(4) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 3/1270.

تَـنـاقُـضُ أَهْـلِ الْكِتَابِ فِي قَضَايَا الْإِيمَانِ وَالْكُفْرِ

عليكم فيه الحُجَّةُ، فحُذِفَ ذلك إيجازًا، مع الاستغناء عنه بالتَّوبيخ، والحجَّةُ عليهم هي: إقرارُهُم بالبِشارة له ﷺ، ثُمَّ كفروا به، والإقرارُ بِمِثْلِ آياتِه للأنبياء، ثُمَّ كُفرُهم بما جاء به ﷺ وجحدُهم لَهُ؛ فكانَ ذلك مناقَضَةً منهم[1]؛ لأنَّه إذا قِيل أقرَّ فلانٌ؛ احتملَ أنَّه تكلَّم بما يَلزمُ منه الإقرارُ، فأزيلَ الاحتمالُ بكونه شاهدًا على نفسه، أي: أقرَّ إقرارًا يُشبه شهادةَ مَن يَشهدُ على غيره بإثبات البيِّنةِ[2].

الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الأَهْل والآل:

"الأَهْلُ: يكون من جِهَة النّسَب والاختصاص، فَمن جِهَةِ النَّسَب قَوْلُكَ: أهلُ الرَّجل؛ لِقَرَابَتِه الأَدْنَين، وَمن جِهَة الاخْتِصَاص قَوْلُكَ: أهلُ البَصْرَة، وَأهلُ العِلم، وأهلُ الكتاب، والآلُ: خَاصَّةُ الرَّجُل من جِهَة القَرابَة أو الصُّحْبَة، تَقولُ: آلُ الرَّجل لأَهله وَأَصْحَابه، وَلَا تَقولُ: آلُ البَصْرَةِ وَآلُ العِلم وآلُ الكتاب، وَقَالُوا: آلُ فِرْعَوْن أَتبَاع، وَكَذَلِكَ آلُ لوط"[3]، "فالآل ينْطَلق على ذَات الشَّيْء وَقد قيل ذَلِك في قَوْله (اللهمَّ صلّ على آل مُحَمَّد، وعَلى آل إِبْرَاهِيم)، وَيكون الْآل أهل بَيته الأدنين[4].

الكفْر والإلحاد:

أَنَّ الكفْرَ اسْمٌ يَقعُ على ضُروبٍ مِنَ الذُّنُوب؛ فَمِنْهَا الشِّركُ بِاللَّه، وَمِنْها جَحْدُ النُّبوَّةِ، وَمِنْهَا استحلالُ ما حَرَّمَ اللّه؛ وَهُوَ رَاجعٌ إِلَى جَحْدِ النُّبُوَّة وَغير ذَلِك مِمَّا يطولُ الكَلَام فِيهِ، وأصلُه التَّغطيةُ.

والإلحادُ: مَيْلٌ عن الحَقِّ في اعتقادٍ أو عملٍ؛ وأكثرُ إطلاقِه في الاعتقاد، وأصلُ الإلحاد: الميلُ، وَمِنْه سُمِّيَ اللَّحْدُ؛ لِأَنَّهُ يُحْفرُ فِي جَانب القَبْر[5].

(1) الواحديّ، البسيط: 5/346.
(2) السّيوطيّ، نواهد الأبكار: 2/278، والطِّيبيّ، فُتُوح الغيب: 2/560.
(3) العسكريّ، الفُروق اللُّغويَّة، ص: 281، والكفويّ، الكلّيَّات، ص: 210.
(4) العسكريّ، الفُروق اللُّغويَّة، ص: 281، والكفويّ، الكلّيَّات، ص: 210.
(5) العسكريّ، الفُروق اللُّغويَّة، ص: 228.

الآية والعَلَامَة والدَّلَالَة:

أَنَّ الآيَةَ هِيَ العَلامَةُ الثَّابِتَةُ، من قَوْلكَ: تَأَيَّيْتُ بِالمَكانِ إذا تَحبَّست بِهِ وَتثبّتّ، والدَّلَالَة على الشَّيْء: مَا يُمكنُ كلُّ نَاظر فيها أَن يسْتَدلَّ بها عليهِ، كالعالَم لمّا كَانَ دَلالَةً على الخَالِق كَانَ دَالًّا عليهِ لكلِّ مُستَدلٍّ بِه.وعلامةُ الشَّيْء: مَا يُعرفُ بِهِ المُعلَّمُ لَهُ، وَمنْ شَاركهُ في مَعْرفَتِه دون كلّ وَاحِدٍ، كالحَجَرِ تَجْعَلهُ عَلامَةً لدَفينٍ تَدفِنُه، فَيكونُ دلَالَةً لَكَ دون غَيْرِكَ، وَلَا يُمكنُ غَيْرك أَنْ يسْتَدلّ بِهِ عليهِ، إلَّا إذا وافقتَه على ذَلِك؛ كالتَّصفيق تَجْعَلهُ عَلامَةً لَمجيءِ زيدٍ، فَلَا يكونُ ذلك دَلَالَةً إلَّا لمَنْ يُوافقكَ عليهِ، ثمَّ يجوزُ أَن تُزيلَ عَلامَة الشَّيْءِ بينَك وَبَين صَاحبكَ، فَتَخرجُ مِنْ أَن تكونَ عَلامَةً لَهُ، وَلَا يَجوزُ أَن تَخرجَ الدّلَالَةُ على الشَّيْء مِنْ أَن تكونَ دَلَالَةً عليهِ، فالعَلامَةُ تكون بِالوَضْعِ، وَالدَّلَالَةُ بالاقْتضاء[1].

الشَّهادَة والعِلْم والإقرار:

أَنَّ الشَّهَادَة أخصُّ من العِلْم، وَالشَّاهِدُ نَقيضُ الغَائِبِ في المعنى، والشَّهادةُ عِلمٌ يَتناولُ المَوجُودَ، وَالعِلمُ يتَنَاوَل المَوجُودَ والمعدومَ[2]. والإقْرارُ: هُوَ إثْباتُ الشَّيْءِ بِاللِّسَانِ أَو بِالقَلْبِ أَو بهما، وإبقاءُ الأَمر على حاله، وَالإقْرارُ بِالتَّوْحِيدِ وَمَا يجْرِي مجْراه لا يُغني بِاللِّسانِ مَا لم يُضامَّهُ الإقْرَارُ بِالقَلْبِ، ويُضادَّه الإنْكارُ[3].

(1) العسكريّ، الفُروق اللُّغويَّة، ص: 71.
(2) العسكريّ، الفُروق اللُّغويَّة، ص: 95 - 96.
(3) الكفوي، الكليَّات، ص: 160.

﴿يَـٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَـٰبِ لِمَ تَلۡبِسُونَ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَـٰطِلِ وَتَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٧١﴾ [آل عمران: 71]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

المناسبة بين شبهات أهل الكتاب، والتّنديد بالتّلبيس وكتمان الحقّ

بَعْدَ أَنْ كَشَفَت الآياتُ السَّابقة عَنْ بعض النَّوايا السَّيئة الَّتي يعيشُ فيها فَريقٌ من أهلِ الكتاب؛ وذَلكَ مِن محاولاتِهم أَن يُفسِدوا على المَسلمينَ دِينهم، بما يُلقون مِن شُبُهات يحيكُونَها مِنْ خِيُوطِ البُهتَانِ والضَّلالِ، مِنْ أَجلِ إِضلَالِ المُسلِمينَ وإِبعَادِهِم عَنْ دِينِهِمْ، جَاءَتْ هذه الآية مُخاطبَةً أهلَ الكِتَابِ تَقُولُ لَهُم: يا مَنْ مَنَّ اللّه عَليكم بِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِهِ، فيه هدًى ونُور، لماذا تُلبِسُونَ هذا النُّور ثَوْبَ الظَّلام، وتُلبسُونَ الحقَّ ثَوْبَ الباطِل، وذلك عَمْدًا، وليس عَن جَهلٍ مِنكُم، بل وأنتم تعلَمُون !![1]، قائلًا "لم تخلطون الحقّ الّذى جاء به الأنبياء ونزلت به الكتب بما جئتم به من شبهات واهية، وتأويلات باطلة، ولا تذيعون الحقّ صريحاً واضحاً بعيداً عن التّخليط، وأنتم تعرفون أنّ عقاب اللّه على مثل هذا الفعل عظيم؟"[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَـٰٓأَهۡلَ﴾: (يا) لِنِدَاءِ البَعِيدِ حَقِيْقَةً أو حُكمًا، ومنه قول الدَّاعي: "يَا اللّه"، وقد يُنَادَى بِها القَرِيبُ إذا كانَ سَاهِيًا أو غَافِلًا، تَنزيلًا لهما مَنزِلَةَ البَعِيدِ، وَقَدْ يُنَادَى بِهَا القَرِيبُ الَّذي ليسَ بِسَاهٍ ولا غَافِلٍ، إذا كانَ الخِطَابُ المُرَتَّبُ على النِّداء في مَحَلِّ الاعتِنَاءِ بشَأنِ المُنَادَى إلى غير ذلك مِنَ المعاني[3]، وقالَ ابنُ هِشَام: "وهي

(1) الخطيب، التَّفسير القرآني للقرآن: 1/492.
(2) لجنة من علماء الأزهر، المنتخب في تفسير القرآن الكريم، ص: 82.
(3) الزركشي، البرهان: 4/445.

أَكثَر أَحرُف النِّداء استعمالًا؛ ولهذا لا يُقَدَّر عِندَ الحَذفِ سِواهَا، ولا يُنادى اسم اللّه إلَّا بها"[1]، وفي لفظ (أهل): يقولُ الرَّاغب: "أَهلُ الرَّجُلِ مَنْ يَجمعهُ وإيَّاهم نَسَبٌ أو دِيْنٌ، أو مَا يَجرِي مجراهُما منْ صِناعَةٍ وبَيتٍ وبَلَدٍ وأَهْلُ الرَّجُلِ مَنْ يَجْمَعُهُ وإيَّاهُم مَسْكَنٌ واحدٌ، ثمَّ تَجوَّز به فقيل: أهلُ الرَّجلِ مَنْ يَجمعُهُ وإيَّاهُم نَسَبٌ"[2].

2) ﴿ٱلْكِتَٰبِ﴾: في الأَصلِ مَصدَرٌ، ثمَّ سُمِّيَ المكتُوبُ فيه كِتابًا، وهو اسمٌ للصَّحيفَةِ مع المكتوب فيه، قال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [النّساء: 153]، يعني صحيفةً فيها كتابة[3]، "ويطلق الكتاب على المُنزل، وعلى ما يكتبه الشّخص ويرسله، قال أبو عمرو: سمعتُ أعرابيًّا يمانيًّا يقول: فلان لغوب جاءته كتابي فاحتقرها، فقلت: أتقول جاءته كتابي؟!، فقال: أليس بصحيفة؟"[4].

3) ﴿تَلْبِسُونَ﴾: فَسَّر الكثيرون كلمة ﴿تَلْبِسُونَ﴾ بمعنى تَخلِطُونَ، وهي في المُؤَدَّى كذلك، ولكن لا بدَّ أن يُلاحظ معنى السَّتر واللِّباس في الكَلِمة؛ ذَلك بأنَّهم جاؤوا إلى الحقِّ المبين فألبسوه ثوبَ الباطل ليُسْتَبْهَم؛ ولقد قال الأصفهانيّ في هذا المعنى: "أَصْلُ اللَّبْسِ: سَترُ الشَّيء، ويُقال ذلك في المعاني، يُقال: لَبَسْتُ عليه أمره. قال تعالى: ﴿وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ۝٩﴾ [الأنعام: 9] "[5].

4) ﴿ٱلْحَقَّ﴾: أَصْلُ الحَقِّ المُطابَقة والموافقة، كمُطابقة رِجْلِ الباب في حقِّه، "والمُراد بحقّه عَقب البَاب"، وهذا دَليلٌ على دَورانِهِ على استقامَة، ويقول الجرجانيّ عن الحقِّ: "الثَّابتُ الَّذي لا يَجُوزُ إنكَارُه، وفي اصطلاح أهل المعاني: "الحُكم المطابق للواقع في الأَقوال والعَقائد، والأديان والمذاهب، باعتبار اشْتِمَالها على ذَلِكَ"[6].ويقولُ الرَّاغب: "ويُطلَق الحَقُّ على أوجه: الأوَّل: لِمُوجِد الشَّيء بحسب ما تَقْتَضِيهِ الحِكمَةُ؛ ولهذا أُطلِقَ على اللّه تعالى: هو الحقُّ".الثَّاني: يُقَال للمُوجد بحسب مُقتَضى الحِكمَة، ولهذا يُقال: فِعْلُ اللّه تعالى كُلُّه

(1) ابن هشام، مغني اللّبيب: 2/373.
(2) الراغب: المفردات، مادّة: (أهل).
(3) المصدر نفسه: (كتب).
(4) الفيّوميّ، المصباح المنير: (كتب).
(5) الرّاغب: المفردات، ص: 735، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 3/1270.
(6) الجرجاني، التعريفات، ص: 142.

حَقٌّ.الثَّالث: في الاعتقاد للشَّيء المُطَابق لِمَا عليه ذَلكَ الشَّيء في نفسِه، كقولنا: اعتقادُ فُلان في البَعث، والثَّواب، والعِقاب، والجنَّة، والنَّار حَقٌّ، قال تعالى: ﴿فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَا ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ ٱلۡحَقِّ بِإِذۡنِهِۦۗ﴾ [البقرة: 213]. الرَّابع: للفعلِ والقَولِ الوَاقِع بحسب ما يَجبُ، وبِقَدْرِ ما يجبُ، وفي الوَقْتِ الَّذي يَجبُ كقولنا: فِعْلُكَ حقٌّ، وقَولُكَ حَقٌّ[1].

5) ﴿بِٱلۡبَٰطِلِ﴾: نَقِيضُ الحقِّ، وهو مَا لَا ثَبَاتَ لَهُ عِندَ الفَحصِ عَنهُ، قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلۡبَٰطِلُ﴾ [الحج: 62][2]، "والجمع أَباطيلُ على غير قياس، كأنهم جمعوا إبطيلًا، وقد بطل الشئ يَبْطُلُ بُطْلاً وَبُطولاً وبُطْلاناً، وأَبْطَلَهُ غيره. ويقال: ذهب دمُه بُطْلاً، أي هَدراً. والبَطَلُ: الشجاعُ، والمرأة بَطَلَةٌ. وقد بَطُلَ الرجل بالضم يَبْطُلُ بُطولَةً وبَطَالةً، أي صار شجاعًا"[3]، "وَسُمِّيَ الشَّيْطَانُ الْبَاطِلَ لِأَنَّهُ لَا حَقِيقَةَ لِأَفْعَالِهِ، وَكُلُّ شَيْءٍ مِنْهُ فَلَا مَرْجُوعَ لَهُ وَلَا مُعَوَّلَ عَلَيْهِ"[4].

6) ﴿وَتَكۡتُمُونَ﴾: الكِتمَانُ: سَترُ الحَديث، يُقال: كَتَمْتُهُ كَتْمًا وكِتْمَانًا[5]، يَدُلُّ عَلَى إِخْفَاءٍ وَسَتْرٍ. مِنْ ذَلِكَ كَتَمْتُ الْحَدِيثَ كَتْمًا وَكِتْمَانًا، قَالَ اللّه تَعَالَى: ﴿وَلَا يَكۡتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثٗا ٤٢﴾ [النّساء: 42][6]، وقال اللّيث: "الكتمان: نقيض الإعلان، وناقةٌ كتوم، وهي الّتي لا ترغو إذا ركبت"[7]، وكتمانُ الحَقِّ يحتمل أن يُرادَ به كِتمانهم تصديقَ محمَّد ﷺ، ويُحتمل أن يُراد به كتمانهم ما في التَّوراة من الأَحكام الَّتي أماتوها وعوّضوها بأعمال أَحْبارهم وآثار تأويلاتهم، وهم يعلمونها ولا يعملون بها[8].

7) ﴿تَعۡلَمُونَ﴾: العِلْمُ: "إدراكُ الشَّيء بحَقيقَتِه، وهو يَشمل ذاتَ الشَّيء، والحُكمَ على الشَّيء بوجودِ شيءٍ هو له، أو نَفي شيءٍ هو مَنفيٌّ عنه"[9]؛ ولذلكَ قالَ الجُرجَانيُّ عنه: "الاعتقاد الجَازِم المُطابق للواقع"[10].

---

(1) الرَّاغب، المفردات: (حق).
(2) المصدر نفسه: (بطل).
(3) الجوهريّ، الصّحاح: (بطل).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (بطل).
(5) الراغب، المفردات، ص: 702.
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (علم).
(7) الأزهريّ، : تهذيب اللّغة: 10/90.
(8) السمين، عُمدةُ الحفاظ: 1/439، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/279.
(9) الراغب، المفردات: (علم).
(10) الجرجاني، التعريفات، ص: 155.

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

أهل الكتاب بين حـالي الـضّـلال والإضلال

يا أهلَ الكِتَاب لم تخلِطون الحقَّ الَّذي أُنزل في كُتبكم بالباطل مِن عندكم، وتُخفونَ ما فيها مِنَ الحقِّ والهُدى، ومِنه صِحَّةُ نُبوَّة محمَّد ﷺ، وأَنتم تَعلمُون الحقَّ مِن الباطل، والهُدى مِنَ الضَّلال[1]؟!. فهو سبحانه ينكر على اليهود كفرهم، وخلطهم الحقّ - الذي جاء به الأنبياء، ونزلت به الكتب - بالشّبهات الواهية، والتّأويلات الباطلة، وعدم إذاعتهم الحقّ صريحًا واضحًا، بعيدًا عن التّخليط، وهم يعلمون أنّ عقاب اللّه عظيم على مثل هذه الأعمال[2]، يؤكّدُ هذا ما ذكره الرّازيُّ بقوله: "كانت لعلماءِ اليهود والنّصارى حِرفتان: إحداهما: أنَّهم كانوا يكفُرون بمحمَّدٍ ﷺ، مع أنَّهم كانوا يَعلَمُون بقلوبهم أنَّه رسولُ حقٍّ من عند اللّه، واللّه تعالى نهاهم عن هذه الفعلة في الآية [آل عمران: 70]. وثانيتهما: أنَّهم كانواْ يجتهِدُون في إلقاء الشُّبهات، وفي إخفاء الدَّلائل والبيِّنات، واللّه تعالى نهاهم عن ذلك في الآية [آل عمران: 71]؛ فالمقامُ الأَوَّل مقامُ الغِوايةِ والضَّلالة، والمقامُ الثَّاني مقامُ الإغواء والإضلال[3].

الإِيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

من مقاصد النِّداءِ التَّنبيهُ؛ وإعادتُه توبيخٌ وإنكارٌ:

كَتْمُ الْحَقِّ أَوْ لَبْسُهُ بِالْبَاطِلِ يَسْتَحِقُّ صَاحِبُهُ عَلَيْهِ التَّوْبِيخَ وَالْإِنْكَارَ

صدَّر النِّداءَ هنا بـ ﴿يَـٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَـٰبِ﴾ زيادةً في التَّوبيخ، وكلُّ تَوبيخٍ لهم يُعدُّ قليلًا مهما تكاثَر وترادفَتْ عِباراته، والاستفهام في قولهِ ﴿لِمَ تَلۡبِسُونَ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَـٰطِلِ﴾ إنكاريٌّ؛ لإنكار ما وقع منهم؛ ذلك بأنَّهم لبسوا وخلطوا الحقَّ بالباطلِ، وكَتمُوا الحقَّ الَّذي يشهدُ لمحمّدٍ ﷺ بالصِّدق وهم يعلمون به، فكان الاستفهامُ للتَّوبيخ على هذا الَّذي وقع منهم[4].

(1) جماعة من العلماء، المختصر في تفسير القرآن الكريم، ص: 59.
(2) أسعد حومد، أيسر التّفاسير، ص: 365.
(3) الرازي، مفاتيح الغيب: 8/256.
(4) ابنُ عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 3/279، وأبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 3/1270.

وفيه إيجازٌ بحذف ألف (ما) الاستفهامية؛ للفرق بين الاستفهامية والخبرية[1]؛ وهذا النَّوْعُ مِنَ الحذف يُسمَّى: اقتطاعًا.

علَّة تَكرار النِّداء بـ ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾:

شَنَاعَةُ الْبَاطِلِ تَسْتَدْعِي شِدَّةَ التَّوْبِيخِ

تكرَّرت جُملةُ النِّداء في الآية الكَريمَة لقَصدِ تَسْجِيلِ بَاطِلِهِم، وتَوبيخِهِمْ على هذا المَوقِف مِن نُبوَّة نَبيِّنَا ﷺ.

دلالةُ اختِيَار جُملَة (أهل الكتاب) دُونَ غَيرها:

الْجُرْمُ يَتَعَاظَمُ بِحَسَبِ فَاعِلِهِ

واختِيرَ النِّداءُ ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ دُون غيره، مثل: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ [البقرة: 40]؛ لما فيه من تَأْنِيبٍ لضَمائِرِهم، وجَلدٍ لظُهورِهم على هذا الموقف مِنَ الكُفرِ والتَّلبيس، فكأنَّه يقول: يَا أَهْلَ الكِتابِ إذا وَقَعَ الكُفرُ وتَلبِيسُ الحقِّ بالباطل مِن غيركُم فلا يَجوزُ مِنكُم؛ لأنَّكم أهلُ كتابٍ، كما تقول: يا أهلَ القُرآن؛ مُنكرًا لِمَن وقَع في مَعصية.

وفي التَّعبير بـ ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ دُونَ: يا أهلَ التَّوراة والإنجيل: إلزامٌ لهم بالإيمانِ بالقرآن الكريم؛ لأنَّ صِفَةَ الكتاب مُشتَرَكةٌ بَينَهَا، فإذا آمَنُوا بالتَّوراة لأنَّها كتاب، والإنجيل لأنَّه كتابٌ؛ فالقرآن أيضًا كتابٌ، وَجِهة الإنزال والتَّسمية واحدةٌ، فلِمَ يَلبِسُونَ الحقَّ بالباطِلِ ويَكتُمونَهُ.

وفيه أيضًا أنَّ القُرآن لم يسلُبهم الانتسابَ للكتابِ مع وقوع التَّحريف والتَّبديلِ فيه؛ بناءً على دعواهُمْ ذلك، وأيضًا لصحَّةِ أصلِهِ.

سِرُّ التَّعبير بالنِّداء مِن غير ﴿قُلۡ﴾:

تَوَدُّدُ اللهِ تَعَالَى لِعِبَادِهِ مَعَ إِيغَالِهِمْ فِي الْعِصْيَانِ رَغْبَةً فِي تَوْبَتِهِمْ

جاءَ التَّعبيرُ ههنا بالنِّداء من غير ﴿قُلۡ﴾، بخلافِ ما تقدَّم من قوله تعالى: ﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ﴾ [آل عمران: 64] الآية، وخلافًا لما سيأتي في قوله تعالى: ﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: 99]؛ وذلك لأنَّ الَّذي يُنادي عَليهم

(1) الإندونيسي، الشَّامل في بلاغة القرآن: 1/176.

هو اللّه سبحانه وتعالى مُباشرةً مِنْ غَير واسطة؛ ليُقرِّبهم مِنه ليُؤمِنُوا بالرَّسول ﷺ؛ وفي هذا حَثٌّ لهم على تَركِ الجُحُود والإنكار.

وكَون النِّداء منه سبحانه وتعالى مُباشَرَةً فيه لَمسٌ لقُلوبهم القَاسِيَة، وإيقاظٌ لغَفلَتِهم، ودلَالةٌ على رَحمَةِ الرَّحمن الرَّحيم، فلَمْ يَطْردهُم لعلَّهم يؤوبُون إلى رُشدِهم ويتوقَّفون عن إلقاءِ الشُّبهات.

التَّكاملُ الدَّلالي لِلْقِراءاتِ القرآنيَّةِ

تَوْجِيهُ الْقِراءاتِ في قَوْلِهِ: ﴿تَلْبِسُونَ﴾:

قَرأَ يحيى بن وثَّاب شاذًّا: (تَلْبَسُونَ) - بفتح الباء - مُضارعُ لَبِسَ الثَّوبَ، فجعلَ الحقَّ كأنَّه ثوبٌ لَبِسُوه، والباءُ في ﴿بِٱلْبَٰطِلِ﴾ على هذه القراءة للحال؛ أي: مَصحُوبًا بالباطل. وقرأ أبو مجلز شذوذًا: (تُلَبِّسونَ) - بضَمِّ التَّاء وكَسْرِ الباء المُشدَّدة -، والتَّشديدُ هنا للتَّكثير. وقرأ عُبيد بن عُمير شُذوذًا أيضًا: (لمَ تَلْبِسُوا) و(وتكتموا) بحذف النُّون فيهما للجَزم، قالوا: ولا وجهَ له إلَّا مَا ذَهب إليه مَنْ شَذَّ مِنَ النُّحاة في إلحاق (لمَ) بـ (لَمْ) في عمل الجزم، والثَّابت في لسان العرب: أنَّ (لمَ) لا يُجْزَمُ مَا بعدها، ولم يذهب أحدٌ مِنَ النَّحويين إلى أنَّ: (لمَ) تجري مجرى (لَمْ) في الجزم، إلَّا ما ذَكَرَهُ أهلُ التَّفسير هنا، وإنَّما هذا من باب حذف النُّون حالةَ الرفع في لغة بعض العرب، كما في قول الرَّاجز:

أبيتُ أسرِي وَتَبيتِي تدلُكي *** شَعرَكِ بالعَنبَرِ وَالمِسكِ الذَّكِي[1]

سُؤالُ اللهِ تَعالَى غَيْرُ المُقْتَرِنِ بِالْجَوَابِ دَلِيلٌ عَلَى التَّحريم

عِلَّة الفِعل في سُؤال الله تعالى في قولِهِ: ﴿لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ﴾:

وقع سُؤَالُهُ سبحانه عن عِلَّة الفعل في آياتٍ عِدَّة من القرآن الكريم، كقوله: ﴿لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ﴾ [آل عمران: 99]، وقوله تعالى: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ﴾ [ص: 75]، وقوله تعالى: ﴿لِمَ تَقُولُونَ

(1) أبو حيَّان، البحر المحيط: 3/209، والآلوسي، روح المعاني: 2/192، والهرري، حدائق الرَّوح والرَّيحان: 4/361.

مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٢﴾ [الصف: 2]، وسؤاله مَا لَمْ يَقْتَرِنْ بِهِ جَوَابٌ عَنِ السُّؤَالِ؛ فإذا قُرِنَ بِهِ جَوَابٌ كَانَ بِحَسبِ جَوَابِهِ، فَهَذَا وَنَحوُهُ يَدُلُّ عَلَى المَنعِ مِنَ الفِعلِ وَدلَالَتُهُ عَلَى التَّحرِيمِ أَطرَدُ مِنْ دَلَالَتِهِ عَلَى مُجَرَّدِ الكَرَاهَةِ[1].

دِلالةُ اللَّام فِي ﴿ٱلۡحَقَّ﴾ وَ﴿بِٱلۡبَٰطِلِ﴾ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لِمَ تَلۡبِسُونَ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ وَتَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ﴾:

إِضْـــلَالُ أَهْـلِ الْكِتَابِ لِأَتْبَاعِهِمْ قَصْدًا

لَبْسُ الحقِّ بالباطل تَلبيسُ دِينِهِم بما أَدخلوا فيه من الأكاذيب والخُرافات والتَّأويلاتِ الباطلة، حتَّى ارتفعت الثِّقة بجميعه، و(الباءُ) للحال، أي: مصحوبًا بالباطل[2].

واللَّام في ﴿ٱلۡحَقَّ﴾ لِلْعَهْدِ العلميِّ؛ إِذْ إِنَّهُ حقٌّ معهودٌ مِمَّا عَرَفُوهُ مِن الكِتَابِ المُنْزَلِ عَلَيْهِم.

وكذا اللَّامُ في ﴿بِٱلۡبَٰطِلِ﴾؛ فإنَّه لِلْعَهْد العلميِّ أيضًا؛ لأنَّهم يعرفُونَ ما افتَرَوْهُ وأحدثُوهُ مِنَ الباطلِ.

وكتمانُ الحقِّ يَحْتَمِلُ أن يُراد به كِتمانهم تصديق محمَّد ﷺ، ويَحْتَمِل أن يُرادَ به كتمانهم ما في التَّوراة من الأحكام الَّتي أماتوها وعوَّضوها بأعمال أحبارهم وآثار تأويلاتهم، وهم يعلمونها ولا يعملون بها[3]، ولا تعارُضَ بين المعنيين؛ إِذْ كلُّ ما سبقَ قد كَتَموهُ.

نُكْتَةُ التَّعبيرِ بالْفِعْلِ الْمُضارِعِ دُونَ المَاضِي فِي قَوْلِهِ: ﴿تَلۡبِسُونَ﴾، ﴿وَتَكۡتُمُونَ﴾:

لَـبْـسُ الْـحَـقِّ بِـالْـبَـاطِـلِ دَأْبُ أَهْـلِ الْـكِـتَـابِ وَعَادَتُهُمْ

اختيارُ الفعلِ المضارعِ في مخالفاتِ أهل الكتاب: ﴿تَلۡبِسُونَ﴾، ﴿وَتَكۡتُمُونَ﴾ فيه إشعارٌ بأنَّ هذه الجرائم دأبُهم وعادتُهم، يغدونَ فيها ويروحُون، ويتقلَّبون فيها حالًا إثرَ حالٍ، ولو عُبِّرَ عنها بالفعل الماضي لَاحْتَمَلَ اقترافُهم لها ثُمَّ توبتُهم منها[4].

(1) الزَّركشي، البرهان: 2/11.
(2) أبو حيَّان، البحر المحيط: 3/270، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 3/279.
(3) الرازي، مفاتيح الغيب: 8/256 - 257، وابن عاشور، التحرير والتَّنوير: 3/279.
(4) المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 1/168.

الْإِظْهَارُ فِي مَوْضِعِ الْإِضْمَارِ فِي قَوْلِهِ: ﴿لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ﴾:

شَنَاعَةُ كِتْمَانِ الْحَقِّ

﴿ٱلْحَقَّ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ﴾ يحتمل أن يكون غير ﴿ٱلْحَقَّ﴾ الأوَّل المذكور في قوله: ﴿لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ﴾، فالأوَّل: القرآنُ وصِفةُ النَّبيِّ ﷺ، والثَّاني: الرِّسالة.

ويَحتملُ أن يكونَ الثَّاني هو الأوَّلَ، فيكون مِن وضع الظَّاهر مَوضع المُضمر[1]، ونكتتُه: زيادةُ تقبيحِ كِتمان الحقِّ.

وفي الآية طِباقُ إيجابٍ بين الحقِّ والبَاطِل، وهو مُشعِرٌ بزيادةِ تشنيعٍ للباطلِ.

و(الباءُ) في قوله: ﴿لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ﴾ للإلصاقِ، كقولِك: خَلَطتُ الماءَ باللبن، أي: لمَ تَخْلِطون الحقَّ بالباطِلِ[2].

دِلَالَةُ ذِكْرِ كِتْمَانِ الْحَقِّ بَعْدَ ذِكْرِ لَبْسِهِ بِالْبَاطِلِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ﴾:

كَشْفُ خَوَافِي بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي إِضْلَالِ النَّاسِ

جُمِعَ بين قوله تعالى: ﴿لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ﴾، وقوله: ﴿وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ﴾، مع أنَّه قَدْ يُظَنُّ أنَّ أحدَهما مُغْنٍ عن الآخر، أو أنَّهما بمعنًى واحدٍ، والحقُّ أنَّ الأمر ليس كذلك، وبيانُ ذلك: أنَّ المتأمِّلَ في أخلاقِ بني إسرائيل يجدُ أنَّ الآيةَ مُجتمعة تكشف خَوَافِيَهم في إضلال النَّاس؛ فعلماءُ بني إسرائيل كان لهم مَسلكان في إضلالِ النَّاس: فمَن بَلَغَتْهُ دلائلُ الحقّ، فإضلالُه يكونُ بتشويشِ تلك الدَّلائل وإلباسها عليه، ومن هنا يأتي النَّهي عن إلباس الحقّ بالبَاطل، ومَن لم تبلغه دلائلُ الحقِّ؛ فإضلالُه يكون بكَتْم هذه الدَّلائل وإخفائها عنه كلِّيَّةً؛ ولهذا جاء النَّهي عن كتمان الحقِّ ثانيًا، ولمّا كانَ كِلا الأَمرين وَاقعٌ مِن علماء بني إسرائيل؛ جمع القرآنُ بينَهما.

(1) الرازي، مفاتيح الغيب: 8/257، وابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/371.

(2) السمين، الدر المصون: 1/320.

تَوْجِيهُ الْمُتَشَابِهِ اللَّفظيّ بَيْنَ قَوْلِهِ: ﴿لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ﴾ وَقَوْلِهِ: ﴿وَلَا تَلْبِسُواْ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ﴾ [البقرة: 42]:

الْـــوَاقِـــعُ فِي الْمُـخَـالَـفَـةِ مُسْتَحِقٌّ التَّوْبِيخَ

قال الله تعالى: ﴿لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٧١﴾، وجاء في سورة البقرة: ﴿وَلَا تَلْبِسُواْ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُواْ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٤٢﴾ [البقرة: 42]، ووجه المغايرة بينهما: أنَّ النَّهيَ في سُورة البَقرة كان مِن الله تعالى لبني إسرائيل بألّا يقعُوا في تلبيس الحقّ بالباطل ولا يكتمُوا الحقَّ؛ لذا يمكنُ أن يكون النَّهيُ في الغالب قبلَ الوقوع في الشَّيء أو مع وقوعه، أمَّا هنا فالأمرُ واقعٌ لكونِهم خالفُوا المنهيَّ، ووقعوا فيما حذّرهُم اللهُ تعالى منه، ولذا جاء أسلوبُ الاستفهامِ على جهةِ التَّوبيخِ لهم.

ومِنَ اللَّطائف أنَّ سورة البقرة سابقةٌ في ترتيب المصحف على سورة آل عمران لتَتَناسَب مع النَّهي، وأمَّا سورة آل عمران فجاءت في ترتيبِها بعد البقرة؛ لتُثبت وقوعَهم في النَّهي. فسبحان مَنْ هذا كلامُهُ.

دِلَالَةُ الْفَاصِلَةِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾:

قوله تعالى: ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ جُملةٌ حاليَّةٌ مِن (الواو) في ﴿وَتَكْتُمُونَ﴾؛ وليس المرادُ منها تقييدَ الذمِّ بحال علمِهم، بل لبيانِ الواقعِ أنَّهم يعلمونَ ذلك فيقبُحُ بهم كتمانُهُ، فإيرادُ هذه الجملةِ الحاليَّةِ لزيادة تقبيحِ حالِهِمْ؛ إذِ الجاهلُ قَدْ يُعذَرُ.

ومُتعلَّقُ العِلمِ محذوف: إمَّا اقتصارًا وإمَّا اختصارًا؛ أي: وأنتم تعلمونَ الحقَّ من الباطل، أو نُبوَّة محمَّدٍ ونحوُ ذلك[1]، ويحتمل أن يكون قد نُزِّلَ الفعلُ المتعدِّي ﴿تَعْلَمُونَ﴾ منزلةَ اللَّازمِ، والمرادُ: نسبتُهم إلى العِلم؛ وفيه إنصافُ القرآنِ لعلمائهم بوصفِهم به، وإزراءٌ بحالهم؛ حيث كانَ عليهم أن يَعْمَلُوا بمقتضى هذا العلمِ.

(1) الراغب، تفسير الرّاغب: 1/172، والسَّمين، الدُّر المصون: 1/324، و3/248.

تَوْجِيهُ الْمُتَشَابِهِ اللَّفظيّ بَيْنَ قَوْلِهِ: ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ وَقَوْلِهِ: ﴿وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: 66] و﴿وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ [آل عمران: 70]:

قال الله تعالى ههنا: ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾، وقال فيما قبلُ: ﴿وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾﴾ [آل عمران: 66]، ووجه المغايرةِ بينهما: أنَّ الَّذي نُفِيَ عنهم هُوَ ما ادَّعَوْه مِن كَونِ إبراهيم يهوديًّا أو نصرانيًّا، وليس ذلك في كتابهم.

وما أُثْبِتَ لهم ههنا؛ قَدْ وقفُوا عليه من كتابهم مِن أَمر النَّبيِّ ﷺ، إلَّا أنَّهم جحَدُوه، وهذا غايةُ الذَّم؛ إذ جَحَدُوا مَا عَلِمُوا، وادَّعوا مَا جَهِلُوا[1].

وجاء في الآية قبلُ: ﴿وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٧٠﴾﴾ [آل عمران: 70] بذكر لفظ الشَّهادة دون العلم؛ لأنَّ الكلامَ في موضع الشَّهادة على بعض آيات الله، بخلاف هذا الموضع؛ فالكلامُ عنِ الحقِّ وهو أَعَمُّ؛ ولذا اختِيرَ لفظُ الشَّهادة هناك؛ لأنَّها أخصُّ من العِلمِ.

جَحَدُ أَهْلِ الْكِتَابِ لِمَا عَلِمُوهُ، وَدَعْوَاهُمْ مَا جَهِلُوهُ

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

اللَّبْس والخَلْط:

الَّذي يقرأ في أغلب كُتب أهل التَّفسير يَجد عدم التَّفريق بينهما، ويرى أنَّهما مُترادفان، مثل الطَّبري والآلوسي وغيرهما، بينما نَجد بعض المعاجم اللُّغوية تفرِّق بينهما، ومن ذلك ما قاله الرَّاغب في مادّة (لَبِسَ). يقول: "لَبِسَ الثَّوب - استَتَرَ به ... وجعل اللِّباس لكلِّ ما يُغطي الإنسانَ من قبيح... فجُعِلَ كُلٌّ من الزَّوجين لباسًا للآخر، قال تعالى: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾ [البقرة: 187]، وعليه فالمادّةُ تدورُ حولَ المداخلة والتَّغطية، وأصلُ مادّة (خَلَطَ) في اللُّغة، يدورُ حول الامتزاجِ والتَّداخلِ والضَّم والاشتراك؛ يُقال: خلط الشَّيء بغيره خلطًا فاختلطَ: امتزجَ.

وعلى هذا فالخَلْطُ يستعمل في الحِسّيِّ والمعنويِّ، تقول: خَلَطتُ الأمرين ولبستهما

(1) الراغب، تفسير الرَّاغب: 2/171.

وخلطتُ النَّوعين من المتاع، ولا يُقال لبستهما. واللّبس يُستعمل في المعنويات مثل الحقِّ والباطل، وما يجري مجراهُما. إذن كلمتا اللَّبس والخَلط يشتركان في معنًى عامٍّ وهو التَّداخل، إلَّا أنَّ كلًا منهما تميّز عن الآخر، وذلك فيما يأتي:

أوّلًا: أنّ الخَلطَ يكون في الحسِّيَّات والمعنويات، واللّبس يكونُ في المعنويَّات، وثانيًا: أنّ الخَلط يكون بين مُختلطين، ولا بدّ أن يكونا باقيين حالَ اختلاطهما، واللّبس بين مُتشابهات في الصِّفات يتعذَّر معه التَّمييز، وانطلاقًا من ذلك يردُ سؤالٌ: لماذا آثر القرآنُ التَّعبيرَ باللّبسِ هنا دون الخَلطِ؟؛ لأنَّ اللّبس كما سبق هو خلطٌ بين مُتشابهات في الصِّفات، يتعذَّر معه التَّمييز، ولما كان الحقُّ والباطل من الوضوح بمكان، احتاجَ أهلُ الباطلِ في ترويج باطلهم إلى إلباسِهِ في صورة الحقِّ؛ بحيث يتعذَّر تمييزُه؛ بغرض الإيهام والتَّضليل، وأيضًا في الإشارة إلى مادّة (كَتَمَ) أنّ" كُلُّ ما في القرآن من هذا التَّركيب، فهو حَبْسُ الكلام عمَّا في القلب مِن شهادة أو عِلم أو فِكر"[1]، وهذا ما ينطبقُ تمامًا على اليهودِ في تعاملهم مع القُرآن، ونُبوَّة نبيِّنا ﷺ؛ لذا أغلبُ آياتِ الكتم في القرآن في شأن اليهودِ.

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (كتم).

﴿وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ ءَامِنُواْ بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَجۡهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكۡفُرُوٓاْ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ٧٢﴾ [آل عمران: 72]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

العلاقة بين التّلبيس والتّدليس في تعامل أهل الكتاب مع الإسلام

لما ذَكَرَ اللّهُ تعالى عنهم أنَّهم يُلبسون الحقَّ بالبَاطلِ، أَردفَ ذَلكَ بتبيان نوعٍ من أنواع تلبيساتهم - وهو المذكورُ في هذه الآية - أنَّ طائفةً مِنَ أحبارِ اليَهودِ ذهبت إلى خَديعة المسلمين بهذا المَنزع، فقالواْ: آمنواْ بالَّذي أُنزل على محمَّد ﷺ وأصحابه صَدْرَ النَّهار، ثُمَّ اكفرواْ به آخرَ النَّهار، وعند ذلك يقولُ بعض المسلمين: مَا بالُ هؤلاء كانواْ مَعنا ثمَّ انصرفُواْ عنَّا؟ مَا ذلك إلَّا لأَنَّهم انكَشفت لهُم حقيقةٌ في الأمر فيَشكُّون، ولعلَّهُم يرجعون عن الإيمانِ بمحمَّد عليه السلام [1]، وتلك خدعة ماكرة، تؤكّد ضلوع اليهود في التّآمر والختل والخداع، كما كان ديدنهم منذ القديم، ولا يزالون عليه إلى يومنا هذا.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿طَّآئِفَةٌ﴾: جمعُ طَائِفٍ، وهو الَّذي يَطوفُ، وذَلك اعتبارًا بطَوافِهم بالبيتِ وغَيرِهِ مِنْ مُتَعَبّداتِهم، ولِطَوافِهم في أَسفَارِهم، ثُمَّ سُمِّي كلُّ جَمعٍ طائفة[2].

"(الطّائفة) من الشّيء قطعة منه. وقوله تعالى: ﴿وَلۡيَشۡهَدۡ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٢﴾ [النّور: 2]، قال ابن عبّاس رضي الله عنهما: الواحد فما فوقه"[3]، وفي الحديث: «لا تزال طائفة من أمتّي على الحقّ»، قال إسحاق ابن راهويه: الطّائفة دون الألف، وسيبلغ هذا الأمر إلى

(1) ابن عطيَّة، المُحرَّر الوجيز: 1/453، والرَّازي، مفاتيح الغيب: 8/257. (بتصرُّف)
(2) الراغب، تفسير الرّاغب: 2/625، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (طوف)، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/50.
(3) الرّازيّ، : مختار الصّحاح، ص: 193.

أن يكون عدد المتمسّكين بما كان عليه رسول اللّه ﷺ وأصحابه ألفا، يعني بذلك أن لا يعجبهم كثرة أهل الباطل[1].

2) ﴿وَجۡهَ ٱلنَّهَارِ﴾: أَصلُ الوَجهِ الجَارِحَةُ، قال تعالى: ﴿فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ﴾ [المائدة: 6]، ولمّا كان الوجهُ أوَّلَ ما يَستقبلُك، وأشرفَ ما في ظاهر البدنِ، استُعمل في مستقبل كلّ شيءٍ وأشرفِه ومبدئِه[2]، وَيُقَالُ: أَتيتُه بوَجهِ نهارٍ، وشَبابِ نهارٍ، وصَدرِ نهارٍ، أَي: فِي أَوَّله؛ وَمِنْهُ قَوْلُهُ:

مَنْ كَانَ مَسرورًا بمَقْتَلِ مالِكٍ***فليأْتِ نِسوَتَنَا بوَجهِ نهارِ[3]

3) ﴿وَٱكۡفُرُوٓاْ ءَاخِرَهُۥ﴾: أي اكفرُوا آخرَ النَّهار، وأظهرُوه مكايدةً[4]، فالمعنى: " أنّهم جاؤوا إلى محمّد ﷺ أوّل النّهار، ورجعوا من عنده، وقالوا للسّفلة: هو حقّ فاتّبعوه، ثمّ قالوا: حتّى ننظر في التّوراة، ثمّ رجعوا في آخر النّهار. فقالوا: قد نظرنا في التّوراة، فليس هو إياّه؛ يعنون أنّه ليس بحقّ"[5].

4) ﴿يَرۡجِعُونَ﴾: رَجَعَ يَرْجِعُ رُجُوعًا، إِذَا عَادَ، أي: يَعُودون إلى دينكم وما أنتم عليه[6].

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

محاولة زعزعة عقيدة المسلمين، بالإيمان في الصّباح، والكفر بالعشيّ

"اقترحت طائفة من اليهود: هم عبد اللّه بن الصّيف، عدس بن زيد، والحارث بن عوف، على إخوانهم اليهود، أن يكيدواْ للمسلمين، ويلبسواْ عليهم أمرهم، وذلك بأن يؤمن فريق من اليهود بالإسلام أوّل النّهار ﴿وَجۡهَ ٱلنَّهَارِ﴾، ثمّ يعودون فيرتدّون عنه في آخر النّهار، ليظنّ الجهلة من المسلمين، أنّهم إنّما ردّهم إلى دينهم اطّلاعهم على نقيصة وعيب في دين الإسلام، فيرتدّون هم أيضًا"[7]، وذلك

(1) الرّازيّ، مختار الصّحاح، ص: 193.
(2) الراغب، المفردات: (وجه)
(3) الواحدي، التفسير البسيط: 5/349، وابن منظور، لسان العرب: (وجه).
(4) أبو السعود، إرشاد العقل السّليم: 2/49، ورضا، تفسير المنار: 3/277.
(5) السّمرقنديّ، بحر العلوم: 1/223.
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (رجع)، والسّمين، الدّر المصون: 3/250.
(7) أسعد حومد، أيسر التّفاسير، ص: 366.

طمعًا في زلزلة عقيدة المسلمين، وزرع البلبلة في صفوفهم، لَعلَّهم يشكُّون في دينهم ويقولون: ما رَجَعُواْ - وهم أَهلُ كتابٍ وعِلمٍ - إلَّا لأَمْرٍ قد تَبيَّن لهم؛ فيرجعون برجُوعِهم[1].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

نُكْتَةُ اخْتِيَارِ لَفْظِ ﴿طَّآئِفَةٌ﴾ وَسِرُّ تَكْرَارِه:

الإِنْصَافُ مَنْهَجٌ قُرْآنِيٌّ

هذه الآية مِن سورة آل عمران، صدرُها نزلَ في شأن نصارى نجران، فغالبُ الحديث في السُّورة عنهم، يُؤكِّد ذلك ما ذكره الآلوسيّ عن سفيان: "كُلُّ شيءٍ في آل عمران مِنْ ذِكر أهل الكتابِ فهو في النَّصارى"[2].

وهذا القَولُ يُحملُ على الغالبِ، وإلَّا فهناك آياتٌ عديدةٌ تَخُصُّ اليهود، ومنها هذه الآية ﴿وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُواْ﴾.

وعَلَيْه؛ فاختيارُ وصفِ طائفةٍ فيه فائدتان:

- الأُولى: عدمُ تعميم الحُكم على أهل الكتاب جميعًا.
- الأخرى: قَصْرُ هذا السُّلوك على اليهود دون النَّصارى.

ويُؤكِّد ذلك مَا وردَ أنَّ الَّذي فَعَلَ ذَلك هُم بعضُ رُؤساء اليهود، مثل كعب بن الأشرف، ومالك بن الصَّيف.

اجْتِمَاعُ أَهْلِ الْبَاطِلِ عَلَى الْكَيْدِ لِلْإِسْلَامِ وَالْمُسْلِمِينَ

أمَّا عَنْ سِرِّ تكرار مجيءِ لفظ ﴿طَّآئِفَةٌ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [آل عمران: 69] وفي هذه الآية ﴿وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُواْ﴾؛ ففيه إشارةٌ إلى وجود أكثر من طائفة في المكايدة للإسلام والمسلمين، وكُلّ طائفة تقوم بعملٍ خاصٍّ بهَا، وهذا ظاهرٌ من سياق الآيتين؛ يُؤكد ذلك عطف هذه الجملة ﴿وَقَالَت طَّآئِفَةٌ﴾ على قوله تعالى: ﴿وَدَّت طَّآئِفَةٌ﴾ [آل عمران: 69]، والعَطف يقتضى

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/373.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 3/198.

المغايرة، وعلى ذَلك فالطَّائفة السَّابقة غَير هذه الطَّائفة، فالطَّائفة الأُولى سعَتْ إلى الإضلالِ بالمُجاهرةِ، وهذه الطَّائفة سعَتْ إلَيهِ بالمُخادعة[1].

أمَّا المقول لهم فمحذُوف، فيحتمل أَن يكون بعض هذه الطَّائفة لبعض، ويحتمل أن يكون المقول لهم ليسوا من هذه الطَّائفة[2]:

نُكْتَةُ وَضْعِ الْمُظْهَرِ مَوْضِعَ الْمُضْمَرِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾:

شِـدَّةُ عَـدَاوَةِ الْـيَـهُـودِ لِلْمُسْلِمِينَ

قال الله تعالى: ﴿وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾، وكان مقتضى الظَّاهر أن يَرِدَ النَّظمُ القرآنيُّ: (وقالت طائفة منهم)؛ وذلك لتقدُّم ذكرهم صريحًا في قوله تعالى قبلُ: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ﴾، وهذا من وضع الظَّاهرِ موضع الضَّمير، ونكتةُ ذلك: أنَّ المقامَ هنا مقامُ تسجيلِ عَداوة اليهود للمسلمين، وتربُّصهم بهم، والقرآنُ هنا يريد أن يُعلِّمنا عند وقوع الجريمة أنَّهُ لا بدَّ من تعيينِ فاعلها، وإلَّا فإنَّ الشّيوعُ يُضعف الدَّليل؛ ولذلك كان التَّعبير بالظَّاهر لِتَعيين الفاعلِ، وهم علماؤهم ورؤساؤهم.

وفيه أيضًا: زيادةُ تَوبيخِهم على ما صدَر منهم، إذْ ذلك غَيرُ لائقٍ بمن ينتَسِبُ إلى كتابٍ مُنَزَّلٍ يحملُ الهدايةَ والنُّور، ولا سيّما العلماء؛ كلُّ ذلك يتأتَّى مِن الاسم الظَّاهر دُونَ الضَّمير.

مِـنْ طُـرُقِ أَهْـلِ الْـبَـاطِـلِ إِثَـارَةُ الشُّبَهِ وَالشُّكُوكِ فِي قُـلُـوبِ الضُّعَفَاءِ

وممَّا يُفيده التَّعبيرُ بالاسم الظَّاهر ﴿أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ في نِظام الجرائم: أنَّ فيه إشارةً إلى علمائهم؛ لأنَّ أمرَ التَّشكيك، وتأويل الآيات على غير وجهها الصَّحيح لا يتأتَّى إلَّا مِن عُلمائهم، ثُمَّ إنَّ المسلك الآخر - وهو المذكور في هذه الآية - هو في خطورته أشدُّ من الأوَّل وأصعبُ في كشفِهِ؛ لأنَّهم يقولون: ﴿ءَامِنُواْ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/280.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 3/211.

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾؛ فإذا امتثال المقولُ لهم هذا بأن يُظهروا إسلامَهم أوَّلَ النَّهارِ؛ فلا يَشكُّ أحدٌ أنَّهم مُؤمنون، والواقع غير ذلك؛ لأنَّهم يُعلنون الإسلام حينًا وبعد ذلك يكفرون، وفي هذا من إحداثِ الاضطرابِ بين المسلمين، وإثارة الشُّكوكِ في قلوب الضُّعفاء الَّذين لم تَرسَخ أقدامُهم بعد في طريق الإيمان.

وفيه تحذيرُ القرآن الكريم لأهل الإيمان ممَّا يُشبه هذه الحالَ، كما يُفعل الآن من تجنيد أناسٍ يندسُّون بين أهل الإسلام؛ حتَّى يُظنَّ أنَّهم منهم، وهم في الأصل مُرسلُونَ للكيدِ منهم.

دِلَالَةُ الأَمْرِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ءَامِنُواْ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾:

وظيفَةُ القِيادَة السَّيئة

قَوله تعالى: ﴿ءَامِنُواْ﴾ فعل أَمر، وهو جارٍ على الأصلِ مِن صُدُوره مِن الأعلى إلى الأَدنَى، وفيه إيماءٌ إلى أنَّ مُؤامرات اليهود ضِدَّ المسلمين مُنَظَّمةٌ ومُتعمَّدةٌ، فتَصدر مِنْ رُؤسائهم إلى العوامِّ منهم.

سِرُّ التَّعْبِيرِ بِالِاسْمِ الْمَوْصُول وَصِلَتِهِ فِي قَوْلِهِ: ﴿بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ﴾:

التَّمْويه سُلُوكٌ نَفْسيٌّ لِلْيَهُودِ

جاءَ التَّعبيرُ بالاسم الموصول في قوله: ﴿بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ﴾ لقصد الإبهام؛ إذْ لو أرادوا الوضوحَ لقالوا: آمنوا بالقُرآن؛ لأَن التَّعبير بالقُرآن صريحٌ في أمر الإيمان، وهم لم يقصدوا ذلك، ولم يعترفوا به، فاختاروا العِبارة الَّتي تحتمل أكثر من وَجه في الدّلالة؛ لِيُلَبِّسوا على المسلمين ما يُبَيِّتون، ويُؤيِّدُ سلوكهم سبيلَ التَّمويه اختيارُ ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾؛ فلم يُصَرِّحوا بالمؤمنين أو بأصحاب رَسول الله ﷺ، بل قالوا: ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾؛ إذ هذه الجُملةُ لها أكثر من دلالة في المراد؛ فكان الإبهامُ مَقصدًا لهم؛ لتشكيكِ قلوب الَّذين دخلوا في الإسلام حديثًا، ومازال إيمانُهم لم يرسخ في قُلوبهم رُسوخَ إيمان السَّابقين؛ فيتأثَّرون بحِيَلهم.

بَلَاغَةُ الِاسْتِعَارَةِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ءَامِنُواْ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ﴾:

الَّذي اتَّفق عليه أهلُ الكتاب في هذه الآية هو أن يبدؤُوا ضُحًى فيُسلِمُوا، ثُمَّ يكفروا في المساء، هذا ظاهرُ اللَّفظ، ولكن يبدو للمُتأمِّل أنَّهم يريدون أن يُسلِموا حينًا مِن الزَّمان حتَّى يُوثَقَ بهم ويُطْمَأَنَّ إليهم، ثمَّ يكفرون من بعد ذلك، على ألّا يستغرق إظهارُهم الإسلام إلَّا أمدًا يستطيعون فيه جَلْبَ الثِّقة إليهم؛ ويكونُ حينئذٍ التَّعبير كُلّه من قبيل الاستعارة التَّمثيلية، سِيقت لتُصوِّر حالهم الَّتي اتَّفقوا عليها، وهي أنَّهم يُظهرون الإيمانَ ثمَّ يكفرون بعد أمدٍ قَصيرٍ، فالاستعارةُ لتصوير سُرعة الرُّجوع وإظهار الكُفر، وتؤكّدُ التَّعاقب بين إظهار الكفر وإظهار الإسلام، كما يتَعاقب ظهورُ آخر النَّهارِ بعد أوَّله[1].

التَّنَبُّهُ والحَذَرُ مِنَ اليهود لأنَّهم أَهلُ كَيْدٍ وَخَدِيْعَةٍ

دِلَالَةُ التَّعبير بـ ﴿أُنزِلَ﴾ فِي قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿ءَامِنُواْ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ﴾:

جِيء بالفعلِ ﴿أُنزِلَ﴾ بناءً على ما يقوله المؤمنون، وإلَّا فإنَّ اليهودَ يُكَذِّبون، ولا يُصَدِّقون أنَّ اللّٰه تعالى أَنزلَ شيئًا على المؤمنين، وظاهرُ الآية دالٌّ على وقوع أمرِ بعضِهم بعضًا أَن يقولوا ذلك، وأمَّا امتثال الأَمر من المأمور؛ فمسكوتٌ عن بيان وقوعهِ وعدمه[2].

اعْتِرَافُ اليهودِ بِالْحَقَائِقِ أحيانًا لَا يَسْتَلْزِمُ إِيمَانَهُم بِهَا، بَلْ ذَلِكَ جُزْءٌ مِنْ مُؤَامَرَاتِهِم

دِلَالَةُ الصِّلَةِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾:

قول اللّٰه تعالى: ﴿ءَامِنُواْ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ يحتمل أنَّ هذا القول مِن لَفظِ الحكاية بأن يكونَ اليهود قالوا: آمنوا بالَّذي أُنزل على أَتباع محمَّدٍ، فَحَوَّلَهُ اللّٰه تعالى، فقال: ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾؛ تنويهًا بِصِدْقِ إيمانهم.

الْإِيمَانُ بِاللهِ مَنْزِلَةٌ عَظِيمَةٌ، مَنِ اتَّصفَ بِهِ أعزَّه اللهُ وهابَهُ عَدوُّه

(1) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 3/1273.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 2/192.

ويحتمل أنَّه مِنَ المَحكيِّ بأن يكونَ اليهودُ أَطلقوا هذه الصِّفة على أتباع محمَّدٍ؛ إذ صارت عَلَمًا بالغلبة عليهم[1].

نُكْتَةُ الِاسْتِعَارَةِ والْإِضَافَةِ فِي قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿وَجۡهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكۡفُرُوٓاْ ءَاخِرَهُۥ﴾:

التَّعْبِيرُ بِالْوَجْهِ فِي مُستقبلِ كُلِّ شَيْءٍ وَأَشْرَفِه وَمَبْدَئِه؛ لأنَّه فِي الْإِنْسَانِ أَشْرَفُ مَا فِيهِ

مِنَ المعلوم أنَّ وَجْهَ الإنسان هو أَفضلُ أعضائه الظَّاهرة منه، وأَجمعُها لوسائل الإدراك وتصريف الأَعمال، والمراد بـ ﴿وَجۡهَ ٱلنَّهَارِ﴾: أوَّلُهُ، ولم يقل: رَأس النَّهار؛ لأنَّ الوَجْهَ والرَّأس وإن اشتركا في كونهما أوَّلَ الشَّيء، فإنَّ في الوَجهِ زِيادة فائدةٍ، وهي أنَّ به صحَّةَ المواجهة، ومنه تُعرف حقيقة الشَّيءِ، فَأُطْلِقَ الوَجْهُ على أوَّل الشَّيء؛ على طريقة الاستعارة التَّصريحيَّةِ.

والإضافة في قوله: ﴿وَجۡهَ ٱلنَّهَارِ﴾ وقوله: ﴿ءَاخِرَهُۥ﴾ يُرادُ بهَا التَّخصيص، واختيرَ أوَّلُ النَّهار لإظهار الإيمان؛ لكونِهِ وقتَ اجتماعِهم بالمؤمنين يراؤُونهم، واختيرَ آخرُه للكفر؛ لكونِهِ وقتَ خلوتهم بأمثالهم مِن الكفَّار[2].

نُكتَةٌ دَقِيقَةٌ فِي اخْتِيَار ﴿وَجۡهَ ٱلنَّهَارِ﴾:

شُيُوعُ النِّفَاقِ فِي أَوْقَاتِ قُوَّةِ أَهْلِ الْإِيمَانِ

وَجْهُ النَّهار تعبيرٌ دقيقٌ يُؤمئُ إلى معنًى خطيرٍ في سُلُوك اليهود؛ فلا يُتَصوَّر أن يُحمل الأَمرُ على ظاهره؛ بمعنى أنْ يُؤمنوا صباحًا ويكفروا مساءً، ولو كان ذلك مُرادًا لجاء التَّعبيرُ بأوَّل النَّهار، ويكون ذلك مُقابلًا لآخره؛ لكنَّ اختيارَ ﴿وَجۡهَ ٱلنَّهَارِ﴾ وهو علامةٌ على شِدَّة الضَّوء، وطُلُوعِ الشَّمس؛ فالأمورُ ظاهرةٌ وواضحةٌ، وفي ذلك إيماءٌ إلى قُوَّة المسلمين؛ فكأنَّ المعنى: آمنوا بالَّذي أُنزل على الذين آمنوا في وقت قوَّتهم وانتصارهم كما في غزوة بدرٍ، واكفرُوا آخرَه عند ضَعفِ المسلمين؛ لأنَّ الرُّؤية في آخر النَّهار لا تكون بالقوَّةِ نفسِهَا

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 3/280.

(2) أبو حيَّان، البحر المحيط: 3/218، والإندونيسي، الشَّامل في بلاغة القرآن: 1/173.

الَّتي تكون في وَجْهِهِ، وهذا يُومئُ إلى ما حدث في غزوة أُحُد من جَرحٍ وقتلٍ وانكسارٍ للمسلمين؛ إذ التَّعبيرُ بوجه النَّهار وآخره يُشير إلى مرحلةِ القُوَّة والضَّعف؛ يُقوِّي هذا أنَّهم عبَّروا مع وجه النَّهار بالإيمان، ومع آخره بالكُفر دُون النِّفاق.

وبين ﴿ءَامِنُواْ﴾ و﴿وَٱكۡفُرُوٓاْ﴾: طباق الإيجاب، وبين ﴿وَجۡهَ﴾ و﴿ءَاخِرَهُۥ﴾ إيهامُ التَّضادِّ؛ لأنَّ ضدَّ الآخرِ: الأوَّلُ، ومجموع ذلك يُعطِي أنَّ الآيةَ من باب المقابلَةِ.

سِرُّ اختيارِ (لَعَلَّ) فِي قَوْلِهِ: ﴿لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ﴾:

هذا الاختِيَارُ لَه دلالةٌ لغويَّةٌ وسُلُوكيَّةٌ؛ فاللُّغويَّة: الرَّجاء، أمَّا السُّلوكية؛ فتَتَمثَّل في أنَّهم يَطمعُون في تشكيك المُسلمين في دِينهم، وأن يَعودوا إلى وثنيتهم، وغاب عنهم أنَّ ذلك يُخالف طبيعةً بشريَّة مفادُها أن مَنْ عرفَ الحقَّ لا يَرجِع عنه، والمسلمون على حقٍّ؛ فدينُهم حقٌّ، وكتابُهم حقٌّ، ورسُولُهم حقٌّ؛ فكيف يرجعون عن ذلك؟!

مِـن عَـلامـاتِ الْحَقِّ أَلَّا يَرْجِعَ عَنْهُ مَنْ عَرَفَهُ

ولذلك فَطِنَ إلى هذه الحقيقة (هرقلُ) مَلِكُ الرُّوم؛ (لَمَّا ذهب أبو سفيان إليه ليَسْتَعْدِيَه على النَّبي ﷺ وأَصْحابِه؛ سأله: هَلْ يَرْتَدُّ أَحَدٌ مِنْهُمْ سَخْطَةً لِدِينِهِ بَعْدَ أَنْ يَدْخُلَ فِيهِ؟ فقال أبو سفيان: لا؛ فقال (هرقلُ): وَكَذَلِكَ الإِيمَانُ حِينَ تُخَالِطُ بَشَاشَتُهُ القُلُوب)[1].

هكذا فَطن (هرقلُ) إلى هذه الحقيقة، وهم لم يفطِنُوا إليها؛ لأنَّ الحِقد أعمَى قلوبهم، وأفقدَهم عُقولهم؛ إذ لا يُعقل أن يَترُك الإنسان السَّوي الحقَّ بعد معرفته عُمُومًا؛ فكيف بالقرآن وهو الكتاب الحقّ؟!

نُكْتَةُ التَّعْبِيرِ بالفِعْلِ ﴿يَرۡجِعُونَ﴾ دون (يُرَدُّون):

اختِيرَ التَّعبير بـ ﴿يَرۡجِعُونَ﴾؛ لأنَّ الرُّجوعَ فيه معنى العَودة دُون إكراه؛ بخلاف الرَّد فقد يكونُ فيه إكراهٌ؛ لذا كان التَّعبيرُ بالرُّجوع

مُبَالَغَةُ الْيَهُودِ فِـي تَـعْـمِـيَـةِ كَيْدِهِمْ

(1) رواه البخاري في صحيحه، الحديث رقم: (7)، ومسلم في صحيحه، الحديث رقم: (1773).

هنا هو المناسبَ لخداعهم، وفيه أيضًا المبالغةُ في تَعْمِيَةِ كيدهِم؛ فالتَّعبير بـ ﴿يَرْجِعُونَ﴾ يُخفي أمرَهم؛ بخلاف ما لو وقع التَّعبير بلفظٍ فيه إكراهٌ؛ فإنَّ أمرَهم ينكشفُ، وسرَّهم يفتضِحُ.

بَلَاغَةُ الْمَجَازِ الْمُرْسَلِ فِي قَوْلِهِ: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾:

رِدَّةُ المُسْلِمِينَ عَن دِينِ اللهِ القَوِيمِ هَدَفٌ يَهودِيٌّ خَبِيثٌ لا يَنقَطِعُ

في قوله تعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ بيانٌ لمقصدهم؛ وهو رجاءُ أن يرجعَ بعضُ المؤمنين إلى الكفر بعد الإيمان، ولكنَّهم عبَّروا عن بعضهم وأرادُوا بذلك الجميعَ على جهة المجاز المرسل بعلاقة العموميَّةِ؛ إذ لا يمكن أن يَرْجِعُوا جميعًا، بَلِ الَّذي يُرجى رُجوعه مِن المسلمين هو الضَّعيف غيرُ القويِّ في دينه، غير المُطمئن في يقينه، إلَّا أنَّ كفر هذا الفريق بعد إيمان يُحدث اضطرابًا في جماعة المسلمين، وحيث جرى الشَّكُّ في الجماعة؛ كان وراءه التَّفرّق ثُمَّ الفشل الذَّريع[1].

والتَّعبيرُ بـ ﴿يَرْجِعُونَ﴾ بصيغة الفعلِ المضارعِ إشعارٌ بأنَّهم لا يطمعُون رجوعَهم عن دينهم دفعةً واحدةً؛ لعدم إمكان ذلك، وإنَّما يكون ذلك شيئًا فشيئًا، كلَّما رجعت طائفةٌ تلَتْهَا أخرَى، فيكون في مجموعِ ذلك معنَى التَّجدُّدِ.

ومُتعلِّق الرُّجوع محذوف، والتَّقدير: يرجعون عن دينهم[2].

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الجَمَاعَة والطَّائفة والفرقة:

الطَّائفة: الجماعة، وسُمِّيت بذلك لأنَّه تُسوَّى بها حلقةٌ يُطاف حَولها، والطَّائفة تُطْلَق على الواحد فما فوق، يُؤكِّد هذا قول مجاهد: الطَّائفةُ واحدٌ إلى الأَلْفِ[3].

(1) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 3/1273.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 3/211.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 3/199.

أمَّا الجماعةُ فهي تُشير إلى الكَثْرَة، والفِرْقَة أكثر من الطَّائفة، قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ﴾ [التوبة: 122]، فالطَّائفة مأخوذة مِن الفِرقة، وعليه فالقُرآن مُنصف في حُكمه، فلَمْ يسند هذه الفِعلة النَّكراء إلى كلِّ اليهود، بأن يقول: وقالت جماعةٌ، أو يسندها لأغلَبهم بأن يقول: وقالت فرقةٌ، بل قال: ﴿وَقَالَت طَّآئِفَةٌ﴾؛ لأنَّ الَّذين قالواْ ذلك عددٌ قليلٌ مِن رُؤساء اليهود وأحبارهم.

الإنزَال والتَّنزِيل:

الإنزَال: هُوَ نقل الشَّيْء من أَعلَى إِلَى أَسفَل، وَهُوَ إِنَّمَا يلحق المعَاني بتوسّط لُحُوقه الذّوات الحاملة لَهَا، وَيُسْتَعمل فِي الدَّفعيّ (أي دفعة واحدة)؛ لِأَنَّ (أَفْعَلْتُهُ) يكونُ لإيقاع الفِعْل دفْعَة وَاحِدَة. والتَّنزيل: يستَعملُ في التَّدريجي؛ لِأَنَّ (فَعَّلْتُهُ) يكون لإيقاع الفِعل شَيئًا فَشَيئًا. وَقوله تعالى: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً﴾ [الفرقان: 32]، بِمَعْنى أنزل كـ (خَبَّر) بِمَعْنى (أَخْبَرَ) فَلَا تَدَافُع. وَقيل: الإنزَال بِوَاسِطَة جِبرِيل، والتَّنزيل بِلَا وَاسِطَة[1]. وخلاصةُ القَول في التَّفريق بينَ الإنزال والتَّنزيل أن الفِعلَ (أنزل) يُشير إلى الإنزال جُملةً واحدةً، بخلاف (نزّل) فيُشير إلى التَّنجيم والتَّكثير غالبًا، وهذا يكون بحسب القَرينة والمقام، وعلى هذا فقولُ طائفة من اليهود: ﴿ءَامِنُواْ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ﴾ دون (بالَّذي نُزِّل) يخدم هدفهم في المكر بالمسلمين؛ لأنَّ الفِعْل (أنزل) يُشيرُ إلى الإنزال جُملة كما سبق، وهم لا يُريدون التَّفصيل في أمر المُنزَّل؛ لأنَّ الَّذي يبحث عن التَّفصيل، يبحثُ عن الحقيقة، وهم عنها مُبعدون.

الرُّجُوع والإياب:

الإياب هُوَ الرُّجُوع إِلَى مُنتَهى المَقْصد، وَالرُّجُوعُ يكون لذَلِك وَلغيره، أَلا ترى أَنَّه يُقَال: رَجَعَ إِلَى بعض الطَّرِيق، وَلَا يُقَال: آبَ إِلَى بعض الطَّرِيق، وَلَكِن يُقَال إِن حصل فِي المنزل؛ وَلِهَذَا قَالَ أهل اللُّغَة: التَّأويب أَن يمضِي الرّجل فِي حَاجته، ثمَّ يعودُ فَيثبت فِي منزلِه، وَقَالَ أَبُو حَاتم رَحمَه الله: التَّأويبُ أن يسيرَ النَّهَارَ أجمعَ؛ ليَكُونَ عِند اللَّيْل فِي منزلِه؛ وَلِهَذَا قَالَ تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ۝٢٥﴾ [الغاشية: 25]، كَأَنّ القِيَامَة مُنْتَهى قصدهم؛ لأَنَّهم لَا منزلَة

(1) الكفوي، الكليات، ص: 196.

بعْدهَا، وهو وعد اللّه لهم في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمۡ وَحُسۡنُ مَـَٔابٖ ٢٩﴾ [الرّعد: 29]، هو الرّجوع والإياب الى اللّه نفسه، لا إلى ما سواه، يدلّ عليه قوله: ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا ٣٩﴾ [النّبأ: 39][1].

الإنابَة والرُّجوع:

الرُّجوعُ عامٌ في الطَّاعةِ والمَعصيةِ، بخلاف الإنابة، فهي الرُّجُوع إِلَى الطَّاعَة، فَلَا يُقَال لمن رَجَعَ إِلَى مَعصِية: إِنَّه أنابَ، والمُنيبُ اسْمُ مَدحٍ كالمؤمن والمُتَّقي[2]، وفيه تأويلات: أقربها إلى لفظ الرّجوع، أنّه المُقبل بتوبته، كما قال قتادة، ويستشهد عليه بقول الشّاعر:

أَنَابَ إِلَى قَوْلِي فَأَصْبَحْتُ مُرْصِدًا *** له بِالمُكَافَاةِ المُنِيبَةِ وَالشُّكْرِ[3]

(1) اسماعيل حقّي، روح البيان: 4/375.

(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 302 - 303.

(3) الماورديّ، النّكت والعيون: 4/435.

﴿وَلَا تُؤۡمِنُوٓاْ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمۡ قُلۡ إِنَّ ٱلۡهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ أَن يُؤۡتَىٰٓ أَحَدٞ مِّثۡلَ مَآ أُوتِيتُمۡ أَوۡ يُحَآجُّوكُمۡ عِندَ رَبِّكُمۡۗ قُلۡ إِنَّ ٱلۡفَضۡلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ ٧٣﴾ [آل عمران: 73]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

المناسبة بين إيمانهم الزّائف، ودعوتهم لتكذيب من خالف التّوراة

للآية مناسبة بما قبلها، ذلك أنّ المفسّرين اتّفقواْ على أنَّ هذا بقيةَ كلام اليهود، وفيه وجهان: الأوَّل: ولا تصدِّقوا إلَّا نبيًّا يُقرِّر شرائعَ التَّوراة، فأمَّا من جاء بتغيير شيءٍ من أحكام التَّوراة فلا تصدِّقوه، وهذا هو مذهبُ اليهود إلى اليوم، والثَّاني: أنَّه ذُكِر قبل هذه الآية قوله: ﴿ءَامِنُواْ بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَجۡهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكۡفُرُوٓاْ ءَاخِرَهُۥ﴾ [آل عمران: 72]. ثُمَّ قال في هذه الآية: ﴿وَلَا تُؤۡمِنُوٓاْ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمۡ﴾؛ أي: لا تأتوا بذلك الإيمان إلَّا لأجل من تَبِعَ دِينَكُم[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تُؤۡمِنُوٓاْ﴾: الإيمانُ: هُوَ مَصدَرُ آمَنَ يُؤْمِنُ إيمَانًا، فَهُوَ مُؤمِنٌ. واتَّفق أَهلُ العِلمِ مِنَ اللُّغَويّين وَغَيرِهِمْ، أَن الإيمانَ مَعنَاهُ التَّصدِيقُ[2]، وقوله ﴿وَلَا تُؤۡمِنُوٓاْ﴾: أي لا تُقِرُّوا بتصديقٍ قلبيّ، وتثقوا بأحدٍ إذا لم يكن يهوديًّا أو نصرانيًّا[3]، "وهذا مبنيّ على أنّهم كانواْ ينكرون جواز بعثة نبيّ من العرب بألسنتهم، مكابرة وعنادًا للنّبيّ ﷺ لا اعتقادًا، وأنّهم كانواْ لا يُصرّحون باعتقادهم المستكنّ في أنفسهم إلّا لمن آمنواْ له من قومهم، لما هم عليه من المكر والمخادعة"[4].

2) ﴿تَبِعَ﴾: الاتِّباع: هُوَ التُّلُوُّ وَالقَفْوُ. يُقَالُ تَبِعْتُ فُلَانًا إِذَا تَلَوْتَهُ

(1) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 8/259.
(2) ابن منظور، لسان العرب: (أمن).
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السّليم: 2/49، واسماعيل حقّي، روح البيان: 2/50.
(4) رضا، تفسير المنار: 3/276.

وَاتَّبَعْتَهُ. وَأَتْبَعْتُهُ إِذَا لَحِقْتَهُ[1]. و﴿إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ﴾: أي اقْتَفَى مِلَّتكم وأَهلَ دِينكُم، أَوْ لا تُظهِروا إيمانَكم وجهَ النَّهار إلَّا لمن كان على دِينكم من قَبْلُ، فإنَّ رُجوعَهم أرجى وأَهمُّ[2].

3) ﴿ٱلْهُدَىٰ﴾: خِلَافُ الضَّلَالَةِ. وهو الرّشادُ والدَّلالةُ، يؤنَّث ويذكَّر. يقال: هَداهُ اللّه للدِّين هدًى. وهَدَيْتُهُ الطّريق والبيت هِدايَةً، أي عرَّفْتُهُ[3]، وقوله: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ﴾، أَيْ: إِنَّ الْبَيَانَ الْحَقَّ بَيَانُ اللَّهِ[4].

4) ﴿يُؤْتَىٰٓ﴾: الإيتَاءُ: الإِعْطاءُ. آتَى يُؤَاتِي إِيتَاءً وآتاهُ إِيتاءً، أَي: أَعطاه. وَيُقَالُ: لِفُلَانٍ أَتْوٌ، أَي: عَطاءٌ. وآتَاه الشَّيءَ، أَي: أَعطاه إِيَّاه[5]، وفي هذه الآية، بَيَّنَ أَنْ لَا يُؤْتَى أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ، عَلَى تَقْدِيرِ: (لَا)، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّواْ﴾ [النّساء: 176]، أي: لئلّا تضلُّوا"[6].

5) ﴿يُحَآجُّوكُمْ﴾: من الحجّة، وأصله من حجّ إذا قصد، لأن المتحاجّين كلّ واحد منهما يقصد غلبة الآخر[7]، والمحاججة وَجهُ الظَّفَر عند الخُصومة. والفِعل حاجَجْتُه فَحَجَجْتُه. واحتَجَجْتُ عليه بكذا. وجمع الحُجَّة: حُجَجٌ. والحِجاج المصدر[8].

6) ﴿ٱلْفَضْلَ﴾: الفَضْلُ: الزِّيَادَةُ وَالخَيْرُ. وَالإِفضَالُ: الإِحسَانُ. وَرَجُلٌ مُفْضِلٌ. وَيُقَالُ: فَضَلَ الشَّيْءُ يَفْضُلُ، وَرُبَّمَا قَالُوا فَضِلَ يَفْضُلُ، وَهِيَ نَادِرَةٌ. وَأَمَّا الْمُتَفَضِّلُ فَالْمُدَّعِي لِلفَضْلِ عَلَى أَضرَابِهِ وَأَقرَانِهِ. قَالَ اللّه تَعَالَى: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ﴾ [المؤمنون: 24][9]. ومعنى الفضل في الآية: الهداية والتَّوفيق.

7) ﴿وَٰسِعٌ﴾ الوُسْعُ: الغِنَى، وَاللّه الوَاسِعُ أَي الغَنِيُّ. وَالوُسْعُ: الجِدَةُ وَالطَّاقَةُ. وَهُوَ يُنْفِقُ عَلَى قَدرِ وُسْعِهِ. وَقَالَ تَعَالَى فِي السَّعَةِ: ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ﴾ [الطّلاق: 7][10]. و﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾، أي: ذو سَعَةٍ يَتَفَضَّلُ على من يشاء، عَليمٌ بمن هو أهله[11].

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والراغب، المفردات: (تبع).
(2) البيضاوي، أنوار التَّنزيل: 2/23، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/49.
(3) الجوهري، الصّحاح: (هدى)، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (هدي).
(4) الشّوكانّي، فتح القدير: 1/403.
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (أتى).
(6) الشّوكانّي، فتح القدير: 1/403.
(7) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 1/169.
(8) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة: (حج).
(9) ابن فارس، مقاييس اللغة: (فضل).
(10) ابن فارس، مقاييس اللغة: (وسع).
(11) القنوجي، فتح البيان: 2/267.

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

دعـوة اليـهـود لمقاطعة الإسلام ونبذه

هذه الآية تتمَّةٌ لقولهم السَّابق في المكر والخَديعة؛ فقالوا أيضًا: ولا تُؤمنوا وتتَّبعوا إلَّا لمن كان تابعًا لِدينكُم، ثمَّ أمرَ اللّه رسولَه بالرَّد على أولئك الضَّالين؛ قُلْ أيَّها الرَّسولُ: إنَّ الهدى إلى الحقِّ هو هدى اللّه تعالى، لا ما أَنتم عليه مِنْ تَكذيبٍ وعِنادٍ، مَخَافَةَ أن يُؤتَى أَحدٌ مِنَ الفَضل مِثل ما أُوتيتُم، أو مَخافة أن يُحاجُّوكم عِند ربِّكم إنْ أَقْرَرْتُم بما أُنزلَ عَليهم، وقُل لهم إنَّ الفَضل بيدِ اللّه يُؤتيه مَن يشاء مِن عِباده، لا يَقتصر فضله على أُمَّةٍ دُونَ أُمَّةٍ، واللّه واسعُ الفَضلِ عَليمٌ بِمَن يَستَحِقُّهُ[1]، يَسَعُ بعلمه وعطائه جميع مخلوقاته، ممّن يستحق فضله ونعمه[2].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

دِلَالَةُ إِيرَادِ النَّهْيِ بَعدَ الأَمرِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَلَا تُؤْمِنُوٓاْ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمۡ﴾:

شِـــدَّةُ حِـقْـدِ الـيَـهـودِ عَـلَى الْإِسْلَامِ وَأَهْلِهِ

في الآية السَّابقة أَمْرانِ مِنْ قَادَتهم في قوله تعالى: ﴿ءَامِنُواْ بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَجۡهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكۡفُرُوٓاْ ءَاخِرَهُۥ﴾ الآية، وهما دالَّانِ على المرادِ بمجموعِهِمَا، فأَمَرُوهُم بالإيمان نِفاقًا، ثمَّ التَّصريحِ بالكفرِ، وأمَّا بقاؤهم على دينِهم وتمسُّكهم به فلا يدلُّ عليه مجموع الأَمرين، ولذا انتقلوا من الأمر إلى النَّهي عن طريق الحصرِ والقصرِ، فقالوا: ﴿وَلَا تُؤْمِنُوٓاْ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمۡ﴾، وفي هذا تصويرٌ واضحٌ للحِقد الدَّفين في قُلُوب اليهود وقادَتهم للقَضاء على الإسلام ورسولِ الإسلام.

تعليلُ النَّهيِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تُؤْمِنُوٓاْ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمۡ﴾:

أَسَـاسُ عَـلَاقَـةِ الْيَهُودِ بِالرِّسَالَةِ الإِلهيّةِ الْعَدَاءُ وَتَزْيِيفُ الْحَقَائِقِ

الكلامُ لطائفة من اليهود، قَصَدُوا به الاحتراس؛ لئلَّا يُفْهَمَ من قولهم: ﴿ءَامِنُواْ بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَجۡهَ ٱلنَّهَارِ﴾ أنَّه إيمان

(1) جماعة من العلماء، المختصر في تفسير القرآن، ص: 59.
(2) نخبة من أساتذة التّفسير، التّفسير الميسّر، ص: 59.

حقّ، فالمعنى: ولا تؤمنوا إيمانًا حقًّا إلَّا لمن تَبِعَ دينكم، فأمَّا محمَّدٌ فلا تُؤمنوا به؛ لأنَّه لم يتَّبع دينَكم، فهذا تعليلُ للنَّهي[1].

سِرُّ اخْتِيَارِ الْفِعْلِ: ﴿وَلَا تُؤْمِنُوٓاْ﴾ دُونَ (ولا تُصَدِّقُوا):

حَـيَـاةُ الْـيَـهُـودِ حَيَاةُ خَوْفٍ وَقَلَقٍ

اليهودُ يَشعرون دائمًا بالخَوفِ والقَلَقِ؛ فلا يَأمَنُون غيرهم، لذلك هم أوَّل من سَنَّ خُلُقَ النِّفاق، وذَكَرَ القُرآن الكريم صُوَرًا لذلك، منها ما هو مَذكُور في الآية السَّابقة في قوله تعالى: ﴿وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ ءَامِنُواْ بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَجۡهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكۡفُرُوٓاْ ءَاخِرَهُۥ﴾ الآية، وغيرها مِن الآيات، وهنا أَكمَلوا هذه الصُّورة النِّفاقيَّة بوصيتهم لأتباعهم بألَّا يُؤْمِنُوا ولَا يَأْمَنُوا إلَّا لمن كان على دينهم، وهذا ظاهرٌ في اختيار الفعل ﴿وَلَا تُؤۡمِنُوٓاْ﴾ دون (وَلَا تُصَدِّقُوا)؛ إيماءً إلى أصلِ اشتقاق الفعل ﴿وَلَا تُؤۡمِنُوٓاْ﴾ مِن مَادة (أمِنَ) وهو ضِدّ الخَوف؛ فأفادَ ذلك أنَّهم في خَوفٍ ورُعب إلَّا لمن كان على شاكلتهم.

دِلَالَةُ تَضْمِينِ فِعْلِ الْإِيمَانِ مَعْنَى الْإِقْرَارِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَلَا تُؤۡمِنُوٓاْ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمۡ﴾:

سَـعَـةُ دِلَالَاتِ الْـقُـرْآنِ الْـكَـرِيمِ عَلَى الْمَعَانِي

(الإيمانُ) لا يتعدَّى إلى مفعولين فلا يجوز أيضًا أن يَتعَلَّقَ بجارَّيْنِ، وقد تعلَّق بالجارِّ المحذوف من قوله: ﴿أَن يُؤۡتَىٰٓ﴾ فلا يتعلَّق باللَّام من قوله: ﴿لِمَن﴾، إلَّا أن يُحمَل (الإيمان) على معنى الإقرار على جهةِ التَّضمين، فيتعلَّق بجارَّين، ويكون المعنى: ولا تقرُّوا بأنْ يؤتَى أحدٌ مثلَ ما أوتيتم، إلّا لِمَن تبع دينكم؛ كما تقول: (أَقْرَرْتُ لِزيدٍ بأَلْف)، فتَكون اللَّامُ مُتعلِّقَةً بالمعنى، ولا تكون صِلَةً على حَدِّ ﴿رَدِفَ لَكُم﴾ [النمل: 72]، و﴿إِن كُنتُمۡ لِلرُّءۡيَا تَعۡبُرُونَ ٤٣﴾ [يوسف: 43][2].

فيكون فعل الإيمانِ دالًّا على التَّصديقِ بالمطابقة، وعلى الأمن

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/280.

(2) الواحدي، التفسير البسيط: 5/351.

بدلالة الإيماء إلى أصلِ الاشتقاقِ، وعلى الإقرارِ بقرينَةِ تعلُّقِهِ بحرْفَي جَرٍّ، وهذا من دقائقِ القرآن الكريم وسعةِ دلالاتِه على المعاني.

دِلَالَةُ اللَّامِ فِي ﴿لِمَن﴾ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَلَا تُؤْمِنُوٓاْ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمۡ﴾:

اتَّفق المُفسِّرون على أنَّ هذا الكلام بقيّة كلام اليهود، وفيه ووجهان:

حِقْدُ الْيَهُودِ عَلَى الْمُسْلِمِينَ وَعَصَبِيَّتُهُمُ الْبَاطِلَةُ لِدِينِهِمْ

أحدهما: أنَّ المعنى: ولا تُصدِّقوا إلَّا نَبِيًّا يُقَرِّرُ شَرائع التَّوراة، فأمَّا مَن جاء بتغيير شيء من أحكام التَّوراة فلا تُصدِّقوه، وهذا هو مذهب اليهود إلى اليوم، وعلى هذا التَّفسير تكون (اللَّام) في قوله: ﴿لِمَن تَبِعَ دِينَكُمۡ﴾ صِلةً مؤكِّدةً، فإنَّه يُقال: صَدَّقتُ فلانًا، ولا يُقال: صَدَّقْتُ لِفُلانٍ، وكون هذه اللَّام صِلةً زائدةً جائزٌ، كقوله تعالى: ﴿رَدِفَ لَكُم﴾ [النَّمل: 72]؛ والمعنى: رَدِفَكم، وأنشد ابن الأنباري على هذا:

ما كنتُ أَخدَعُ للخليلِ بِخُلَّةٍ***حتى يكونَ لِيَ الخليلُ خَدوعا

قال: أراد: ما كنت أَخدَعُ الخليلَ؛ فزاد اللَّام.

والآخرُ: أنَّه ذُكر قبل هذه الآية قوله: ﴿ءَامِنُواْ بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَجۡهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكۡفُرُوٓاْ ءَاخِرَهُۥ﴾، ثُمَّ قال في هذه الآية: ﴿وَلَا تُؤْمِنُوٓاْ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمۡ﴾، أي: لا تأتُوا بذلك الإيمان إلَّا لأجل من تَبِعَ دينَكم[1].

وكلا المعنيينِ حقٌّ في ذاتِهِ لا تعارُضَ بينَهُمَا في المعنَى وإن اختلفَا في التَّخريجِ.

سِرُّ اخْتِيَارِ الْفِعْلِ ﴿تَبِعَ﴾ دُونَ (اتَّبَعَ):

سَطْوَةُ الْقِيَادَةِ دَلِيلٌ عَلَى ضَعْفِ الْأَتْبَاعِ

في اختيار لفظ (تَبِعَ) في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُؤْمِنُوٓاْ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمۡ﴾ إشعارٌ بضعف الأَتْبَاعِ؛ لأنَّ الفعل (تَبِعَ) يحمل معنًى دقيقًا يُفضي إلى الانقياد والاستسلام للقيادة من غير إعمالِ عَقْلٍ وفِكْرٍ،

(1) الواحدي، التفسير البسيط: 5/351، والرازي، مفاتيح الغيب: 8/259.

وهذا منهجٌ يتَّبعه رُؤساء اليهود لفرض سيطرتهم على أتباعهم، وفي اللُّغة يُقال: "تَبِعَهُ واتّبعه: قَفَا أثره، وذلك تارةً بالجسم، وتارةً بالارتِسَام والائتِمارِ، ومنه التَّبيع؛ خُصَّ بِوَلَد البَقَر إذا تَبِع أمَّهُ"[1].

وعلى ذلك فهم يُريدون مِن أتباعهم التَّسليم والانقياد في كُلِّ خطواتهم، ولم يَقل: اتَّبَعَ؛ لأنّه على وَزن (افْتَعَلَ)، وهذه الصِّيغة تدلُّ على التَّكلُّفِ والمَشقّة، وهذا غير مُرادٍ لهم.

زَعْمُ الْيَهُودِ أَنَّ مَا هُمْ عَلَيْهِ هُوَ الدِّينُ لَا دِينَ غَيْرُهُ

سِرُّ اخْتِيَارِ التَّعْبِيرِ بِ﴿دِينَكُمْ﴾ دُونَ (شَرِيعَتَكُم):

لَمَّا كانت الشَّرائع مختلفةً والدِّينُ واحدٌ، كما قال النَّبِيُّ ﷺ: «الْأَنْبِيَاءُ إِخْوَةٌ مِنْ عَلَّاتٍ، وَأُمَّهَاتُهُمْ شَتَّى، وَدِينُهُمْ وَاحِدٌ»[2]؛ كان في تعبيرِ اليهود بالدِّين دون الشَّريعةِ تعريضٌ منهم بأنَّ المسلمينَ ليسوا على دينٍ ذي بالٍ؛ إذ الدِّين واحدٌ، وهو الذي هم عليه في زعمهم، وهذا منهم في غاية المكابرةِ والعِنادِ؛ لادِّعائهم أنَّ دينَهم أفضلُ دِينٍ؛ بل لا دِينَ غيرُه.

مِنْ طُرُقِ الرُّؤَسَاءِ فِي إِضْلَالِ الْخَلْقِ إِثَارَةُ عَوَاطِفِ الْأَتْبَاعِ

نُكْتَةُ إِضَافَةِ (دِين) إِلَى كَافِ الْخِطَابِ فِي: ﴿دِينَكُمْ﴾:

في إضافة الدِّين إلى ضمير الخطابِ في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُؤْمِنُوٓاْ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ﴾ استثارةٌ لِحَمِيَّتِهم تجاه دينهم؛ وهو سُلوكٌ ظاهرٌ في مواقف اليهود في إثارة عَواطف أتباعهم تجاه أيّ قضية، يُؤيِّدُ ذلك ما ذكره الرَّازيُّ في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَا تُؤْمِنُوٓاْ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ﴾ الآية، فقد قال: "ولا تأتوا بذلك الإيمان إلَّا لأجل من تَبِعَ دِينَكُم؛ فإنَّ مَقصُود كُلّ واحدٍ حفظُ أتباعه وأشياعه على مُتابعته"[3].

(1) الراغب الأصفهاني، المفردات: (تبع).
(2) البخاري، الحديث رقم: (3443).
(3) الرازي، مفاتيح الغيب: 4/307.

دِلَالَةُ الْقَصْرِ فِي قَوْلِهِ: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ﴾:

قول الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ﴾ اعتراضٌ بين الفعل ومتعلَّقِه، وهو من كلامِ الله تعالى، أُمِرَ النَّبيُّ ﷺ أَن يقوله لهم؛ وهو كناية عن استبعاد حصول اهتدائهم، وأنَّ الله لم يوفِّقهم للاهتداء؛ فمحاولتُه هداية النَّاس لا يحصلُ منه المطلوبُ، إذَا لم يُقدِّره الله، فالقصر - بتعريف جزأي الجملةِ - حقيقي؛ لأنَّ ما لم يُقدِّره الله فهو صورة الهدى وليس بهُدًى، وهو مقابل قولهم: ﴿ءَامِنُواْ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ﴾، و﴿وَلَا تُؤْمِنُوٓاْ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ﴾، إذ أرادوا صورة الإيمان، وما هو بإيمان، وفي هذا الجواب إظهار الاستغناء عن مُتابعتهم[1].

الْـهُـدَى هُـوَ الطَّرِيقُ الَّذِي شَرَعَهُ اللهُ تَعَالَى، وَمَا عَدَاهُ فَضَلالٌ وَرَدًى وَهَلاكٌ

دِلَالَةُ اللَّامِ فِي ﴿ٱلْهُدَىٰ﴾ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ﴾:

في معنى الهُدَى، هنا قولان:

أَحدهما: ما أوتِيَه المؤمنون من التَّصديق برسول الله ﷺ.

والآخَر: التَّوفيق والدِّلالة إلى الخير حتَّى يُسلِمَ أو يثبتَ على الإسلام[2].

وكلاهما داخل في مسمَّى الهُدَى؛ فتُحمل اللَّامُ في ﴿ٱلْهُدَىٰ﴾ على معنَى العهدِ العلميِّ، وهو الهُدَى إلى الدِّين الحقِّ، ويدخل فيه الهدايةُ إلى أصل الدِّين، والهدايةُ إلى تفاصيلِه.

الْهِدَايَةُ تَشْمَلُ لُزُومَ دِينِ الْإِسْلَامِ، وَجَمِيعَ تَفَاصِيلِهِ الدِّينِيَّةِ عِلْمًا وَعَمَلًا

سِرُّ مَجِيءِ ﴿قُلْ﴾ فِي الْجُمْلَةِ الِاعْتِرَاضِيَّةِ: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ﴾:

أثناءَ ذكر هذه المؤامرات اليهوديَّة مِن زُعماء اليهود أَمْرًا ونَهيًا لأتباعهم، مع استثارة عواطفهم، كُلّ ذلك من أجل القضاءِ على الإسلام ونبيِّه ﷺ؛ يخرج صوت النُّور لتبديد الظَّلام؛ حيثُ يقول الله تعالى لرسوله ﷺ: (قُلْ لَهم إنَّ الهُدى هدى الله)، فالله تعالى يُسمِعُهُم صوتَ رَسولِه ﷺ الَّذي يُحاولون كَتْمَهُ وإخفاءَهُ، وفيه إيماءٌ

عِنَايَةُ اللهِ تَعَالَى بِنَبِيِّهِ ﷺ

(1) الراغب، تفسير الراغب: 2/641، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/281.

(2) أبو حيَّان، البحر المحيط: 3/217.

إلى كمال عِناية اللّه سبحانه بنبيِّه ﷺ، وتأكيدُ صدقِ نُبوَّته، وأنَّها باصطفاءٍ منَ اللّه تعالى له، وأنَّ كيدَهم لا ينفعُ.

نُكْتَةُ إِيرَادِ الْجُمْلَةِ الِاعْتِرَاضِيَّةِ ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ﴾:

وَظِيفَةُ الشَّرَائِعِ الْإِلٰهِيَّةِ الْهِدَايَةُ

المكرُ والخِداعُ والكَيْدُ ليس من خصائص الشَّرائع الإلهيَّة، بل خصائصُها هدايةُ البَشَر، والعملُ على بيان أسبابه، أمَّا ما يفعلُه اليهودُ مِن المَكر والخَديعة والتَّلبيس؛ فليس من شأن الدِّين الصَّحيح الَّذي أنزلَه اللّه على مُوسى عليه السلام؛ لذا جاءَ القرآنُ بهذه الجُملة: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ﴾ اعتراضيَّةً بين قولهم: لا تُظهروا إيمانكم بأن يُؤتَى أحدٌ مثلما أُوتيتم إلَّا لأهل دينكم دون غيركم، والغَرضُ من ذَلك هو منعُ النَّاس من الهداية إلى العلم؛ فجاءت هذه الجُملة لتبيِّن لهم أنَّ الكَيْدَ والخديعةَ لا يمنعان هدايةَ اللّه تعالى لمن أراد هدايته؛ فهو صاحبُ الهداية وحده.

تَوْجِيهُ الْمُتَشَابِهِ اللَّفْظِيِّ فِي التَّقْدِيمِ وَالتَّأْخِيرِ:

دِقَّةُ النَّظْمِ الْقُرْآنِيِّ فِي مَوَاقِعِ الْكَلِمِ تَقْدِيمًا وَتَأْخِيرًا

قال تعالى في سورة البقرة: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾﴾ [البقرة: 120].

وقال تعالى في سورة الأنعام: ﴿قُلْ أَنَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾﴾ [الأنعام: 71].

وقال تعالى في سورة آل عمران: ﴿وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَا تُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٧٣﴾﴾.

فأنتَ ترى أنَّه في الآيتين الأُولَيَيْنِ قدَّم ﴿هُدَى ٱللَّهِ﴾، وجاء بضميرِ الفَصْلِ، وفي الثَّالثة قدَّم ﴿ٱلْهُدَىٰ﴾، ولم يأتِ بضمير الفَصْلِ.

ولعلَّ السَّبب أنَّ الآيتين الأُولَيَيْنِ في أصل ما يَتَدَيَّنُ به النَّاسُ؛ فالآية الأُولَى في اليهوديَّة والنَّصرانيَّة، والثَّانية في الشِّرك، فناسب الرَّد بتقديم ﴿هُدَى ٱللَّهِ﴾ وهو الإسلام، فكأنَّه قال لهم: إنَّ هدى الله - أي: الإسلام - هو الهُدَى الكاملُ الصَّحيحُ التَّامّ لهدايتكم وما أنتم عليه، فناسبَ تقديمُه، وحصْرُ الهداية عليه، قال الزَّمخشريّ: "يعني أنَّ هدى الله الَّذي هو الإسلام، هو الهدى بالحقِّ، والَّذي يصحُّ أن يُسمَّى هُدًى، وهو الهدى كُلُّه ليس وراءه هدًى، وما تدعون إلى اتِّباعه ما هو بهدًى، إنَّما هو هَوًى، ألَا ترى إلى قوله تعالى: ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم﴾ [البقرة: 120]؛ أي: أقوالهم الَّتي هي أهواءٌ وبدعٌ"[1].

والإتيانُ بضمير الفَصل كان توكيدًا لهذا المعنى، وناسب هذا التَّوكيد والقَصر زيادة ﴿مِنَ﴾ [البقرة: 120] في الآية الأُولى، وزيادة اللَّام في ﴿لِنُسْلِمَ﴾ [الأنعام: 71] في الثَّانية؛ تقويةً لهذا المعنى.

أمَّا الآية الثَّالثة؛ فليست في الموازنة بين ما يَتَدَيَّنُ به النَّاس، وإنَّما هي ردٌّ على تصرُّفٍ ومكْرٍ سيِّئَيْنِ؛ إذ قالت طائفةٌ مِن أهلِ الكتاب آمنوا بما أُنزل على محمَّد وجهَ النَّهار واكفرُوا آخرَه، وقُولوا نحنُ آمنَّا به ظَنًّا بأنَّه حقٌّ، ولكن استبان لنا أنَّه باطلٌ، فرجعنا عنه إلى ديننا الَّذي هو الحقُّ، لعلَّهم يرجعون عن دينهم، فنزلت الآية رَدًّا على مكرهم وكيدهم وادِّعائهم الهدى، فقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ﴾؛ أي: أنَّ الهدى أن يهديكم الله إلى الدِّين الصَّحيح وإلى الحقِّ، وليس الهدى أن تعلموا مثل هذا المكرِ والتَّبييت، فالهدى أن يشرحَ الله صدورَكم لقَبُول الحقِّ، ويفتح قلوبكم للخير، وليس الهدى ما تُبيِّتُون وما تنوُون، فناسب هذا أن يقول: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ﴾، وهو ردٌّ على تصرّفهم وزعمهم، وتبيانٌ للهدى الصَّحيح، قال الزَّمخشريُّ في هذه الآية: "معناه أنَّ الهدى هدى الله، مَن شاء أن يلطف به حتَّى يُسلم، أو يزيد ثباته على الإسلام، كان ذلك، ولم ينفع كيدُكم وحيلُكم وزيُّكم تصديقكم عن المسلمين والمشركين"[2].

(1) الزمخشري، الكشاف: 1/183.

(2) الزمخشري، الكشاف: 1/374، والطيبي، فتوح الغيب: 4/143، والسامرائي، معاني النحو: 1/52.

تَوْجِيهُ القِرَاءَاتِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ﴾:

تنوُّع القِرَاءاتِ القرآنيَّة يُكسِبُ التَّفسيرَ خُصُوبةً وثراءً في المعَاني

قرأ ابنُ كثير ﴿ءَأَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ﴾ بهمزتينِ على وجه الاستفهام[1]، والمراد بالاستفهام: الإنكار، أي: لا يُعطى أحدٌ مثل ما أعطيتم، وهو مُتَّصل بقوله تعالى: ﴿وَلَا تُؤْمِنُوٓاْ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ﴾، ويكون قوله: ﴿إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ﴾ خبرًا اعتُرِضَ في وسط الكلام ولم يُغيِّر من المعنى شيئًا، وإذا حمل الكلام على هذا؛ كان قوله: ﴿أَن يُؤْتَىٰٓ﴾ منَ الحكاية عَنِ اليهود، والمعنَى: لا تصدقوا أن يُعطى أحدٌ مِثلَ ما أُعطيتم.

وقرأ غيرُ ابنِ كثيرٍ بهمزةٍ واحدة على الخبر، والمعنَى: ولا تُؤمنوا إلَّا لمن تبع دينكم، ولا تؤمنوا أن يُعطى أحد مِثلَ ما أُعطيتم[2].

سِرُّ اخْتِيَارِ ﴿أَحَدٌ﴾ دُونَ (واحِد) فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ﴾:

حِرْصُ اليَهُودِ عَلَى إِخْفَاءِ الْحَقِّ عَنِ الْخَلْقِ

يَحرصُ اليهود دائمًا على ادِّعاءِ التَّفوُّق على بقيَّة النَّاس، وأنَّهم أفضَل من غيرهم؛ لذلك زرعوا في أتباعهم أنَّه لا يُؤتى أحدٌ مِن البَشَر ولا أُمَّة من الأُمم مثل ما أُوتوا مِن النُّبوة والاصطفاء؛ ويظهر ذلك في اختيار لفظ ﴿أَحَدٌ﴾ دون (وَاحِد)؛ لأنَّ لفظ (واحد) اسم لِمُفتتح العدد، ويأتي بعده اثنان وثلاثةٌ... وهكذا؛ أمَّا ﴿أَحَدٌ﴾ فينقطع معه العدد، فلا يأتي بعده عدد آخر، وفي هذا إيماءٌ إلى أنَّهم يرون أنَّ الاصطفاءَ والتَّكريم لهم لا لغيرهم، حتّى يسهُلَ عليهم سَلْبُ اعتقادِ وجود النُّبوَّة في غير بني إسرائيل.

دِلَالَةُ قَوْلِهِ: ﴿أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ﴾:

مِنَ السُّلوكيَّات المعروفة لدى اليهود أنَّهم لا يُقرُّون بالحقِّ، ولا يعترفون به؛ بل يجحدُونه بالكتمان، كما وردَ ذلك في آياتٍ كثيرة،

(1) ابن الجزري، النشر: 1/366.

(2) ابن زنجلة، حجة القراءات، ص: 165 - 166.

فرؤساؤُهم يعملونَ على تعليم أتباعهم هذا المسلَك - في أمرٍ نبَّه عليه نبيُّنا ﷺ - بألَّا يقرّوا أو يعترفوا بالبشارات الدَّالة في كتبهم على نُبوَّته ﷺ خوفًا من إقامة الحُجَّة عليهم بما هو موجود في كُتبهم، وعبَّر القُرآن عن ذلك بقوله: ﴿أَوۡ يُحَآجُّوكُمۡ عِندَ رَبِّكُمۡۗ﴾، ومعلومٌ أنَّ أقوى الأَدِلَّة في إثبات أي قضية: الإقرار من الخَصم أو مِن كُتبه.

خَوْفُ الْيَهُودِ مِن إِقَامَةِ الحُجَّةِ عَلَيْهِمْ

دِلَالَةُ الْإِضَافَةِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى ﴿عِندَ رَبِّكُمۡۗ﴾:

﴿عِندَ رَبِّكُمۡۗ﴾ من قول الله تعالى: ﴿أَوۡ يُحَآجُّوكُمۡ عِندَ رَبِّكُمۡۗ﴾ يَحتَمِلُ في معناهُ وجهين:

شَرَفُ الِانْتِسَابِ إِلَى الرَّبِّ ﷻ

أحدهما: أنَّ ذلك في الآخرة.

والآخرُ: عند كُتبِ ربِّكم الشَّاهدة عليكم ولكم.

إضافةُ ذَلك إلى الرَّب يُرادُ به التَّشريفُ والتَّفخيمُ، والمعنى: أو يحاجّوكم عند الحقِّ.

وعلى هذين المعنيين تدورُ تفاسير الآية، فيحمل كلّ منها على ما يناسب من هذين المعنيين[1].

فائِدَةُ تَخْصِيصِ الْفَضْلِ بِاللهِ تَعَالَى، وَدِلَالَةُ اللَّامِ فِي ﴿ٱلۡفَضۡلَ﴾ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡفَضۡلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۗ﴾:

جيءَ بقول الله تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡفَضۡلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۗ﴾ توكيدًا لمعنى قوله تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ﴾، وفي ذلك تكذيبٌ لِلْيَهُودِ حيث قالوا: شَريعةُ موسى مُؤَبَّدة، ولن يُؤتيَ اللهُ أحدًا مثل ما أُوتي بنو إسرائيل مِنَ النُّبوة، فالفَضل هو بيد الله تعالى يعطيه من أراد، فاختصاصُه بالفضل من شاء، إنَّما سببه الإرادة حسبما تقتضيه حكمتُهُ سبحانه.

الْفَضَائِلُ وَالْعَطَايَا بِيَدِ اللهِ تَعَالَى يُؤْتِيهَا مَنْ يَشَاءُ

(1) أبو حيَّان، البحر المحيط: 3/217.

وقد فُسِّر الفَضلُ هنا بالنُّبوة، وهو تفسيرٌ بأشرف أفراده[1]، وإلَّا فإنَّ الأظهرَ أن تكون اللَّامُ في ﴿ٱلْفَضْلَ﴾ لاستغراق الجِنْسِ، فتشمَلُ كلَّ فضلٍ.

عِلَّةُ التَّوكِيدِ بِـ ﴿إِنَّ﴾ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾

لَا تُعْطَى الْفَضَائِلُ بِحَسَبِ أَهْوَاءِ النَّاسِ وَرَغَبَاتِهِمْ

تأكيدُ الكلام بـ ﴿إِنَّ﴾ في قوله: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ﴾ جيء بها لتنزيلهم مَنزلةَ مَن يُنكر أنَّ الفَضل بيد الله، ومن يتوهَّمُ أنَّ الفَضلَ تَبَعٌ لشهواتهم.

وجملة: ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ معطوفةٌ على جُملة ﴿إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ﴾، أي: أنَّ الفضل بيد الله وهو لا يخفى عليه من هو أهلٌ لِنَوَال فَضلِه[2].

دِلَالَةُ التَّأكِيدِ بِجُمْلَةِ: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ﴾:

لَا حَجْرَ عَلَى فَضْلِ اللهِ تَعَالَى

ما يَفعَلُه اليهود مِن الكِتمان والخِداع هدفُه ألَّا يُعطى أحدٌ مثل ما أُوتوا، ويكون الفَضل مقصورًا عليهم، ولا يكون في غيرهم، وهم بذلك يُسيئون الأدَبَ مع الله تعالى؛ لذا جاءَ الرَّد مِن الله على لسان رسوله - ﷺ -: قُلْ لهم قولًا يحمل كلَّ تأكيدٍ دفعًا لجحودهم، وإنكارهم: إنَّ الفَضل بيده سبحانه لا ينازعه أحدٌ؛ فيُؤتي النُّبوَّة مَن شاء.

سِرُّ اخْتِيَارِ لَفْظِ ﴿ٱلْفَضْلَ﴾ فِي قَوْلِهِ: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ﴾:

تَفْضِيلُ أُمَّةِ الْإِسْلَامِ عَلَى سَائِرِ الْأُمَمِ

الفَضْلُ يحمل معنى الزِّيادة في العَطاء، وفي ذلك إشارةٌ إلى زيادة الفَضْلِ لهذه الأُمَّة على سائر الأُمم، وذلك من وجوه:

أحدها: أنَّ هذا الدِّين هو الدِّين الخاتم، ورسولُه الرَّسول الخاتم ﷺ.

(1) المصدر نفسه: 3/218.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/283.

ثانيها: هيمنةُ هذا الدِّين على كُلِّ ما سبقه.

ثالثها: عالَمِيَّتُه لِكُلِّ البَشَر، بخلاف ما سبقه فهو مخصُوصٌ بالقوم الَّذين أُرسل إليهم الرَّسول؛ أمَّا رسولنا ﷺ فهو رسولٌ للعالمين.

لذلك كان التَّعبير بـ﴿ٱلۡفَضۡلَ﴾ الَّذي يحمل الزِّيادة في كُلِّ شيء ردًّا على مكر اليهود، ودعواهم أنَّهم أصحاب الرِّسالات فقط دُون غيرهم، وكأنَّهم أوقفوا عطاء السَّماء عندهم؛ لكنَّ ردَّ القرآن عليهم بأنَّ عطاءَ اللّٰه تعالى مُتجدِّدٌ ولا يوقفه أحدٌ؛ دلَّ على ذلك الفعل المضارع ﴿يُؤۡتِيهِ﴾ الَّذي يُفيد تجدّدَ حدوث العَطاء، وهذا ظاهرٌ في اصطفاء اللّٰه تعالى لهذه الأُمَّة ولرَسُولِها ولكتابه.

مُناسبةُ الْفَاصِلَةِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ﴾ لِلسِّياقِ:

إِثْبَاتُ الأَسْمَاءِ للّٰهِ تَعَالَى دَالٌّ عَلَى ثُبُوتِ الاِسْمِ، وَالصِّفَةِ التِي تَضَمَّنَهَا الاِسْمُ، وَثُبُوتِ حُكْمِهَا وَمُقْتَضَاهَا.

خُتِمَت الآيةُ بقول اللّٰه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ﴾، وجِيءَ بهذه الصِّفاتِ تَنبيهًا على أنَّه إذا كان واسعًا وعالمًا؛ فإنَّ ذلك يقتضي أن يُوسِّع على عباده، وعِلمُه يقتضي ألَّا يحرمَ رحمتَه مستحقّها، وفضلُه يقتضي أن يتجاوز العدلَ إلى الفضل، وهو أن يفضلَ على غير مُستحقِّيه، وإلَّا لم يكن فضلٌ عظيمٌ[1]، قال ابنُ عاشور: "وأحسبُ أنَّ وصفَ اللّٰه بصِفة ﴿وَٰسِعٌ﴾ في العربيَّة مِنْ مُبتكراتِ القُرآن"[2].

❁ الفُرُوقُ الْمُعْجَمِيَّةُ:

الإيمان والتَّصديق:

النَّاظر في أغلب كتبِ اللُّغة والتَّفسير يجد أنّ أصحابَها لا يفرّقون بينهما، ولكنّ بلاغة القرآن تقتضي التَّفريقَ بينهما، وذلك من عدّة وجوهٍ: أوّلها: أنّ المادَّة اللُّغويّة لمادّة (أَمِنَ) تدورُ حول طمأنينة النَّفس، وزوال الخوفِ، ومنه الأمان الَّذي يُطلق على الحالة الَّتي يكونُ عليها الإنسانُ في الأَمْن، ويُطلق على ما يُؤتمن عليه، ومنه قوله تعالى: ﴿وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمۡ﴾

(1) الراغب، تفسير الرّاغب: 2/649.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/284، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 3/1277.

[الأنفال: 27] الآية[1]، وأمَّا المادَّة اللُّغويَّة للصِّدق فتدورُ حول مُطابقةِ القول الضَّميرَ، والمُخبَرَ عنه معًا[2].

ثانيًا: التَّصديقُ أعمُّ من الإيمان؛ لأنَّ التَّصديق يدخلُ في الأمور الدُّنيويَّة والغَيبيَّة، بخلاف الإيمان فإنَّه يُطلَق على الشَّريعة الَّتي جاء بها نبيِّنا ﷺ، وعلى كلِّ مَن دخل شريعتَه مُقرًّا بالله ورسوله؛ فيقال له: مُؤمن، كما يُقال لكلِّ واحدٍ من الاعتقاد والقول الصِّدق والعمل الصَّالح: إيمان، وهذا من الشَّريعة، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمۡۚ﴾ الآية، أي: صلاتَكم.

ثالثًا: الإيمانُ يُقابِلُه الكُفْرُ، والتَّصديق يُقابله التَّكذيب.

رابعًا: الإيمانُ لا يُستعمل إلَّا في الإخبار عَن الغَيبيَّات، وهذا واضحٌ في كثير من الآيات، ومنها: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ﴾ [البقرة: 3] الآية؛ بخلاف الصِّدق فيقال في المُشَاهَد، لذلك يقول للشُّهود: صدّقناهم، ولا يُقال: أَمَّنَّا لهم.

وخلاصةُ القَول: إنَّ الاستعمال القُرآنيّ لكلمتي الإيمان والتَّصديق يجعلهما مُتقاربين لا مُترادفين؛ حيثُ يشتركان في معنًى عامّ هو التَّصديق؛ بينما الإيمان يختصُّ بالغيب دون المُشَاهَدة، وأيضًا يختصُّ بزوال الخَوف، وفيه زيادة على الصِّدق بالمُوالاة والانقياد.

الدِّين والملَّة:

يقول الرَّاغب: المِلَّة كالدِّين، وهو اسمٌ لما شَرَّع الله تعالى لعباده على لسان الأنبياء ليتوصَّلوا به إلى جوار الله، والفَرقُ بينها وبين الدِّين أنَّ المِلَّة لا تُضافُ إلَّا إلى النَّبي الَّذي تُسند إليه، ومِن ذلك قوله تعالى: ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ﴾ [الحجّ: 78]، وقوله: ﴿وَٱتَّبَعۡتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ﴾ يوسف: 38] الآية، ولا تُضاف إلى الله تعالى، ولا إلى آحاد أمَّة النَّبيِّ، ولا تُستعمل إلَّا في جُملة الشَّرائع دون آحادها؛ فلا يُقال مِلَّة الله، ولا يقال مِلَّتي، ومِلَّة زيد أمَّا الدِّين إذا أُطلق فهو الطَّاعة العامَّة الَّتي يُجازى عليها بالثَّواب، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ﴾ [آل عمران: 19]؛ أمَّا إذا قُيِّد فتختلف دلالتُه حسب السِّياق الَّذي ورد فيه مثل: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾ [الفاتحة: 4]، فهو بمعنى الجزاءِ والحِساب.

(1) الرَّاغب، المفردات: (أمن).
(2) المصدر نفسه: (صدق).

الإيتاء والإعطاء:

والإيتاء: أقوى من الإعطَاء؛ إذْ لا مُطَاوع لَهُ، يُقَال: آتَاني فَأَخذته، وَفِي الإعطَاء يُقَال: أَعْطَاني فعطوت؛ وَمَا لَهُ مُطَاوع أَضعَف في إِثْبَات مَفعُوله مِمَّا لَا مُطَاوع لَهُ، وَلِأَنَّ الإيتاء في أَكثر مَوَاضِع القُرْآن فِيمَا لَهُ ثباتٌ وقَرارٌ، كالحكمة والسَّبع المثاني، وَالملك الَّذي لا يُؤْتى إِلَّا لذِي قُوَّة[1]، والإعطاءُ: قد يكونُ للشَّيء القليلِ، قال تعالى: ﴿وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ ۝٣٤﴾ [النجم: 34]، وأيضًا لم يَرِدِ العَطاءُ دالًّا على الشَّيء الكثير إلَّا مُقيَّدًا بما يدلُّ على الكَثرة، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ۝٢٠﴾ [الإسراء: 20]، الآية؛ فإضافة العَطاءِ إلى اللّه، ونفي الحَظر عنه، يفيدُ كَثرةَ هذا العَطاء، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١﴾ [الكوثر: 1]، وقوله: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ۝٥﴾ [الضحى: 5]، ومن الفُروق أيضًا أنَّ الإعطاء يتوقَّف على القبول، بينما الإيتاء لا يتوقَّف على القبول؛ لذلك أُمِرَ المسلمون بإيتاء الزَّكاة في كثيرٍ من آياتِ القُرآن، وأيضًا أنّ الإيتاءَ يكونُ عَن طيب قَلْبٍ، بخلاف الإعطاء فقد يكونُ عن كُرهٍ؛ ولذلك آثر القرآنُ في إخراج الزَّكاة التَّعبيرَ بالإيتاء؛ لأنَّ المؤمن يُخرج الزَّكاة عن طِيبِ نَفسٍ، بينما إعطاءُ الجزية لا يحمل هذا المعنى؛ لأنَّ الذِّمِّي لا يعطي الجزيةَ راضيًا.

وَاحِد، وأَحَد:

(وَاحِد): اسم لمُفتَتح العَدَد، ويأتي بعده اثنان وثلاثة؛ أمَّا (أَحد) فينقطع معه العَدَد فلا يأتي بعده عددٌ؛ إذًا هو نفي لما يُذكر معه مِن العَدد؛ ولذلك لا يُوصف بالأحدية إلَّا اللّه، قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ [الإخلاص: 1]، " وَفِي (أحد) فَائِدَة لَيست في وَاحِد، لِأَنَّك إذا قلت: (لَا يقوم لزيد وَاحِد)، جَازَ أَن يقوم لَهُ اثْنَان وأكثر، وإذا قلت: (لَا يقوم لَهُ أحد) نفيتَ الْكلّ، وَهَذَا إنّما يكون في النَّفْي خَاصَّة، وَأمّا في الإيجاب فَلَا يكون فِيهِ ذَلِك الْمَعْنى، و(أحد) إذا كَانَ بِمَعْنى وَاحِد وَقع في الإيجاب تَقول: (مَرَّ بنَا أَحَدٌ)[2].

المُحاجَّة والمُجادَلَة والحِوار:

وهذا يقتضي ذِكر معنى كُلّ منهم حتَّى يتبيَّن لنا الفَرق: (فَالمحاجَّة): أن يطلبَ كلُّ

(1) الكفويّ، الكليّات، ص: 212.
(2) الكفويّ، الكليّات، ص: 212.

واحدٍ منهما أن يردَّ الآخر عن حُجَّته ومَحجَّته[1]، ومِن ذلك قوله تعالى: ﴿وَحَآجَّهُۥ قَوۡمُهُۥۚ﴾ [الأنعام: 80]، ويقول الجرجانيّ: "الحُجَّة ما دلَّ به على صِحَّة الدَّعوى"[2]؛ أمَّا الجِدال فهو دَفعُ المرءِ خصمَه عن إفساد قَوله بحُجَّة أو شُبهَة، أو يقصدُ به تصحيح كلامه، وهو بذلك يُشير إلى الخُصومة، وقال الرَّاغب: "والجِدال: المفاوضةُ على سبيل المُنازعة والمُغالبة، وأصلُه من جَدلتُ الحبل: أحكمتُ فَتلَهُ، وسُمِّي بذلك لأنَّ كلَّ واحدٍ من المتجادلين يفتلُ الآخرَ عن رأيه"[3]، ومن خلال النَّظر في الاستخدام القرآنيّ لهذين اللَّفظين، تجدُ فوارقَ دقيقةً بينهما، مع اشتراكهما في معنًى عامّ، هو مُراجعة الكلام، ولكن لكلِّ لفظٍ ما يُميّزه، فالجدال يَقومُ على المُغالبة؛ فكلٌّ من المتجادلين يَبذلُ جُهدَه ليغلب الآخر، ولذلك يقول الحكيم التّرمذي: "المُجَادلة: المُكاسرة، والجدل: الكسرُ؛ وذلك لأنَّ كلَّ واحدٍ من المتجادلين يريد كَسْرَ حُجَّة صاحبه، ليقهره لما يريد".

والمجادلةُ في القُرآن على نوعين: جدلٌ مذمُوم، وهو ما يجُرُّ إلى المُغَاضبة، ومنه قوله تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدۡ جَٰدَلۡتَنَا فَأَكۡثَرۡتَ جِدَٰلَنَا﴾ [هود: 32]، وجدل محمودٌ: وهو مُراجعة الكلام بِهَدفِ الإقناع والوصُول إلى الحقِّ، قال تعالى: ﴿وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾ [النّحل: 125]، إذن المُجادلة تتميَّز بالشِّدة والقَصد إلى غَلَبَةِ الخَصم وقَهره؛ أمَّا المُحاجَّة فتقومُ على محاولة كلّ واحدٍ التَّغلب على خصمه، بما يقدِّمه من الحُجج والبراهين لنُصرة رأيه؛ ومنه قوله تعالى: ﴿وَحَآجَّهُۥ قَوۡمُهُۥۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدۡ هَدَىٰنِۚ﴾ [الأنعام: 80]، ومنه قوله: ﴿أَوۡ يُحَآجُّوكُمۡ عِندَ رَبِّكُمۡۗ﴾ [آل عمران: 73]؛ وبذلك تتميَّز المُحاجَّة بتقديم الحُجج والبراهين بعيدًا عن التَّصلُّب والتَّعصُّب؛ وممَّا يتناسبُ ذِكره في هذا المقام (المحاوَرة)؛ لأنَّها تَقوم على مُراجعة الكلام أيضًا، لكنَّها بعيدة عن الشِّدَّة والخُصومة[4] وبذلك يتَّضح للقارئ الكريم دِقَّة النّظم القرآنيّ في أداء المعنى المُراد[5].

---

(1) الرّاغب، المفردات: (حج).

(2) الجرجانّي، التّعريفات، ص: 82.

(3) الرّاغب، المفردات: (جدل).

(4) الرّاغب، المفردات: (جدل).

(5) وممَّا يُؤكِّد ذلك ما ورد في سورة الكهف، في قِصَّة أصحاب الجنَّتين من جوار بينهما صوّره القُرآن بقوله: ﴿فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكۡثَرُ مِنكَ مَالٗا وَأَعَزُّ نَفَرٗا﴾ [الكهف: 34]، وكان الرَّدُّ مِن صاحبه محاورًا بقوله: ﴿قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرۡتَ بِٱلَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٖ﴾ [الكهف: 37] الآية، وفهذا من باب النَّصيحةِ له، وهي لا تحملُ شِدَّة ولا خُصُومة.

الجِدَال والحِجَاج:

الفَرْقُ بينهما أنَّ المطلوب بالحِجَاج هو ظهور الحُجَّة، والمطلوب بالجدال: الرُّجوع عن المذهب، فإنَّ أَصلَهُ من الجَدَلِ، وهو شِدَّة الفَتلِ، ومنه الأجدل لشِدَّة قُوَّتِهِ من بين الجوارح، ويُؤيِّده قوله تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدۡ جَٰدَلۡتَنَا فَأَكۡثَرۡتَ جِدَٰلَنَا﴾ [هود: 32]، وقوله تعالى: ﴿وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾ [النحل: 125]؛ وذلك أن دأبَ الأنبياءِ - عليهم السلام - كان رَدعَ القَوم عن المذاهب الباطلة، وإدخالهم في دين الله ببذل القُوَّة والاجتهاد في إيراد الأدلّة والحُجج. هذا وقد يرادُ بالجدال مُطلقُ المخاصمة، ومنه قوله تعالى: ﴿هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلۡتُمۡ عَنۡهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ [النساء: 109][1].

الفضل والإحسان:

إنَّ الإحسَانَ قد يكون وَاجِبًا وَغير وَاجِب، وَالفضلُ لا يكونُ وَاجِبًا على أحدٍ، وَإِنَّمَا هُو مَا يتفضَّل بِهِ من غير سَبَبٍ يُوجِبهُ[2]، والله تعالى يمنح العفو والمغفرة لعباده المؤمنين في الآخرة، فإن فاتتهم الشّفاعات والكفّارات، وفاتهم محض الفضل والإحسان، عُذّبوا على قدر خطيئاتهم، ثمّ أُخرجوا من النّار، وأُدخلوا الجنّة"[3].

الجَواد والوَاسِع:

إنَّ الوَاسِعَ مُبالغَةٌ فِي الوَصف بالجُود، وَالشَّاهِد أَنَّه نقيض قَوْلهم للبخيل: ضَيِّقٌ مُبالغَةً فِي الوَصْف بالبخل، وَهَذَا فِي أَوصَاف الحقِّ مجَازٌ؛ لِأَنَّ المُرَاد أَنَّ عطاءه كثيرٌ، وَقَالَ بَعضهم: هُوَ فِي صِفَات الله تَعَالَى بِمَعْنى أَنّه المُحِيط بالأشياء عِلمًا مِن قَوله تَعَالَى: ﴿وَسِعَ كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمًا ٩٨﴾ [طه: 98]، فهو "الجواد الواسع الفضل، الجزيل العطاء الّذي ما من شيء إلّا عنده خزائنه، وما من نعمة بخلقه فمنه وحده، لا شريك له"[4]، وله وَجهٌ آخرُ فِي اللُّغة، وهُو أَن يكون مأخوذًا من الوُسع، وهو قدر مَا تسع لَهُ القُوَّة، وَهُوَ بِمَنزِلَة الطَّاقَة، وَهُو نِهَايَة مَقدُورِ القَادِر، فَلَا يَصحُّ ذَلِك فِي الله تَعَالَى[5].

(1) العسكري، معجم الفروق اللغوية، ص: 158.
(2) العسكري، معجم الفروق اللغوية، ص: 194.
(3) رضا، تفسير المنار: 3/220 (بتصرّف).
(4) الزّحيلّي، التّفسير المنير: 6/251.
(5) المصدر نفسه، ص: 174.

﴿يَخۡتَصُّ بِرَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ٧٤﴾ [آل عمران: 74]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الـرّد عـلى مكر اليهود، بتأكيد أنّما أوتيه النّبيّ ﷺ، هو فيضُ رحمةٍ وفضل

بعد ردّه على كيد اليهود الماكر، وتأكيده أنّ الهدى هدى الله، وأنّه يؤتي فضله من يشاء، جيءَ بالآيةِ الكريمة تعريضًا مِن الله - تَعالى ذِكْرُهُ - بأَهلِ الكتاب؛ أنَّ الَّذي آتى نَبيَّه محمَّدًا ﷺ والمؤمنين به من الهداية، تَفضُّلٌ مِنه، وأنَّ نِعَمَه لا تُدرك بالأماني، ولكنَّها مواهبُ مِنه يختصُّ بها من يشاءُ من خَلْقِهِ[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَخۡتَصُّ﴾: يقال: خصّه بالشّيء، ويقال: اختصّ فلان بالأمر وتخصّص له، إذا انفرد، وخصّ غيره واختصّه ببرّه، ويقال: فلانٌ مُخِصٌّ بفلان، أي خاصّ به وله به خصيّة؛ فأمّا قول أبي زبيد:

إِنَّ امْرأً خَصَّنِي عَمْدًا مَوَدّتَهُ ***عَلَى التَّنَائِي، لَعِنْدِي غَيْرُ مَكْفُورِ

فهو إمّا يريد: (خصّني بمودّته)، فحذف الحرف وأوصل الفعل، وقد يجوز أن يريد (خصّني لمودّته إيّاي)، قال ابن سيده: وإنّما وجهناه على هذين الوجهين، لأنّا لم نسمع في الكلام (خصصته) متعديّة إلى مفعولين"[2]. التَّخصيصُ، والاختصاصُ، والخُصوصيَّة، والتَّخصُّص: تَفرُّد بعض الشَّيء بما لا يشاركُه فيه الجملة، وقد خَصَّهُ بكذا يَخُصّه، واختصّه يختصّه، قال: ﴿يَخۡتَصُّ بِرَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۗ﴾، يُريدُ: اختصَّك وتَفضَّل عليك وعلى أُمَّتِك، بدينه ورحمته[3].

(1) ابن جرير، جامع البيان: 2/471، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/653.
(2) ابن منظور، لسان العرب: 7/25.
(3) الواحديّ، التّفسير البسيط: 5/360، والرّاغب، المفردات: (خصّ).

2) ﴿بِرَحۡمَتِهِۦ﴾: الرَّحمَةُ مِنَ اللّه إنعامٌ وإفضالٌ، ومِن الآدميِّين رِقَّة وتَعطُّف، والرَّحْمَةُ منطويةٌ على معنيين: الرِّقّة والإحسان، فركَّز تعالى في طبائع النَّاس الرِّقَّةَ، وتفرَّد بالإحسان، فصَار كما أنَّ لفظ الرَّحِم من الرَّحمة، فمعناه الموجود في النَّاس من المعنى الموجود للّه تعالى، فتناسَب معناهما تناسبَ لفظيهما[1]، والرَّحمةُ هنا عامَّة بجميع أنواعها، أو النُّبوةُ والحكمةُ والنُّصرةُ، اخْتُصَّ بها محمَّدٌ ﷺ[2].

3) ﴿مَن يَشَآءُۗ﴾: المشيئة: أصلُها مِن شيءٍ، والشَّيءُ اسمٌ للموجود، والمَشيئةُ قصدٌ إلى اتِّخاذ الشَّيء، ثُمَّ يُقال: شاءَ اللّه كَذا، أي: أَوجدَهُ بعد أن لم يكن موجودًا؛ فالمشيئةُ مِن اللّه تعالى إيجادُهُ، ومِن النَّاس الإصابةُ. وقال تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ [الإنسان: 30]: تنبيهٌ أنَّ مشيئَتَهم مُرتَّبة على مشيئة اللّه، فلا فِعل يَستقلُّ به العبد[3]، والإنسان لا يعمل خيرًا إلّا بتوفيق اللّه، إذا أراد اللّه أن يهيّئ له الأسباب، ويفتح له الأبواب، لتحقيق ذلك ونواله، ولا يفعل شرًّا إلّا بخذلان اللّه له، فيوكل إلى نفسه، ويحجب عنه التّوفيق، لقوله تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢٩﴾ [التّكوير: 29][4].

4) ﴿ٱلۡفَضۡلِ﴾: الزِّيَادَةُ وَالخَيرُ. وَالإِفْضَالُ: الإِحْسَانُ. وَرَجُلٌ مُفْضِلٌ. وَيُقَالُ: فَضَلَ الشَّيءُ يَفْضُلُ، وَرُبَّمَا قَالُوا فَضِلَ يَفْضُلُ، وَهِيَ نَادِرَةٌ[5]. والفَضْلُ في الإعطاء: الزِّيادة على المستحقِّ الَّذي هو العدل، وهو المعبّر عنه بالإحسان في قوله: ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ﴾ [النّحل: 90]، وهو من الأسماء المتضايفة، كالكثير والقليل، والكبير والصّغير[6].

5) ﴿ٱلۡعَظِيمِ﴾: نقيضُ الحَقِير، وَمُعظَمُ الشَّيْءِ: أَكْثَرُهُ، في أَسمَاءِ اللَّهِ تَعَالَى (العَظِيمُ) هُوَ الَّذِي جاوَزَ قدْرُه وجلَّ عَنْ حُدُود العقول حَتَّى لَا تُتَصَوَّر الإحاطةُ بكُنْهه وحَقِيقته. والعِظَمُ فِي صِفاتِ الأَجْسام: كِبَرُ الطُّول والعرضِ والعُمْق. وَاللّه تعالى جلَّ قَدْرُه عَنْ ذَلِكَ[7]. ووصف فضله في الآية بالعِظَم، فقال: ﴿ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾؛ لأنَّه غير مُشبهه في

(1) الرّاغب، المفردات: (رحم).
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 1/546.
(3) الراغب، تفسير الرّاغب: 1/518، والسّمين، عمدة الحفاظ: 2/306.
(4) الواحديّ، الوسيط: 4/432.
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (فضل).
(6) الراغب، تفسير الرّاغب: 2/648، و2/649، و1/179.
(7) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن الأثير، النّهاية: (عظم).

عِظَم موقعه ممّن أفضله عليه فضلٌ من إفضال خلقه، ولا يقاربه في جلالةِ خطره ولا يُدانيه[1].

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

عطاء الله ورحمته، فضلٌ يختصُّ به من يشاء من عباده

اللّهُ تعالى يَختصُّ برحمته من يشاءُ من خلقه، فيتفضَّل عليه بالهداية والنُّبوة وأنواع العَطاء، واللّه ذو الفَضل العظيم الَّذي لا حدَّ له[2]، "والاختصاص النّوعي لبعض الرّحمات، لَا يعارضه عمومُ الفضل على خَلقه، ولا عظمة هذا الفضل"[3].

الإِيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

دِلَالَةُ قَوْلِهِ: ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۗ﴾ **بَعْدَ قَوْلِهِ:** ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُۗ﴾:

لَا مُنْتَهَى لِإِكْرَامِ اللهِ تَعَالَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ

قد يظهر باديَ الرَّأي أنَّ المعنى في قوله تعالى: ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ هو المذكورُ في الآية المتقدِّمةِ عليها: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ٧٣﴾، ولكنَّ دِقَّةَ النَّظم القُرآني وتكاملَه الدِّلالي تردُّ على ذلك، فقد جيءَ بقوله تعالى: ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ تأكيدًا لما تقدَّم.

والفرق بين هذه الآية وبين ما قبلها: أنَّ ﴿ٱلْفَضْلَ﴾ عبارةٌ عن الزِّيادة، ثمَّ إنَّ الزِّيادة من جِنس المزيد عليه، فبَيَّن بقوله: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ﴾ أنَّه قادرٌ على أن يُؤتي بعض عباده مِثل ما آتاهم من المناصب العالية ويزيد عليها من جِنسها، ثُمَّ قال: ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۗ﴾، والرَّحمةُ المضافةُ إلى اللّه سبحانه أمرٌ أعلى من ذلك الفَضل، فإنَّ هذه الرَّحمة ربَّما بلغت في الشَّرف وعُلوِّ الرُّتبة

(1) ابن جرير، جامع البيان: 6/518.
(2) جماعة من العلماء، المختصر في تفسير القرآن الكريم، ص: 59.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 3/1278.

إلى أن لا تكونَ من جنس ما آتاهم، بل تكون أعلى وأَجَلّ مِن أَنْ تُقاس إلى ذلك، ويحصل من مجموع الآيتين أنَّه لا نهاية لمراتبِ إعزاز الله وإكرامه لعباده، وأنَّ قصرَ إنعامه وإكرامه على مراتب مُعيَّنة، وعلى أشخاص مُعيَّنين: جهلٌ بكمال الله في القُدرة والحكمة[1].

دِلَالَةُ التَّعْبِيرِ بِالْفِعْلِ ﴿يَخْتَصُّ﴾ مَادَّةً وَصِيغَةً فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾:

رَحْمَةُ اللهِ تَعَالَى لِعِبَادِهِ اخْتِيَارٌ وَاخْتِصَاصٌ

التَّعبيرُ بالفعل المضارع ﴿يَخْتَصُّ﴾ جيءَ به للدَّلالة على التَّجدّد والاستمرار، والرّحمة هنا مثل الخير المنزَّل على رسول الله ﷺ والمؤمنين؛ وذلك إدماج للامتنان عليهم بأنَّ ما نزلَ عليهم هو رحمةٌ بهم، ومعنى الاختصاص جعلُها لأحد دون غيره؛ لأنَّ أصلَ الاختصاص والتَّخصيص راجعٌ إلى هذا المعنى؛ وهو جعلُ الحكم خاصًّا غير عامّ، سواء خصَّ واحدًا أو أكثر[2].

ويحتمل أن يكون ﴿يَخْتَصُّ﴾ هنا لازمًا بمعنى: ينفردُ، أو مُتعدِّيًا بمعنى: يُفْرِدُ؛ إذ الفِعل يأتي كذلك، يقال: اختصَّ زيدٌ بكذا، واخْتَصَصْتُه به، ولا يتعيَّن هنا تعدّيه؛ إذ يصحُّ: والله يفردُ برحمته من يشاءُ، فيكونُ ﴿مَن﴾ فاعلًا، وهو (افْتَعَلَ) مِن: خصصت زيدًا بكذا، فإذا كان لازمًا، كان لفعل الفاعل بنفسه نحو: اضطرَرتُ، وإذا كان مُتعدِّيًا، كان مُوافقًا لفعل المجرَّد نحو: كسبَ زيدٌ مالًا، واكتسبَ زيدٌ مالًا[3].

نُكْتَةُ التَّعْبِيرِ بِالْمَشِيئَةِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾:

النُّبُوَّةُ اصْطِفَاءٌ مِنَ اللهِ تَعَالَى

بيَّن الله تعالى أنَّه سبحانه يختصُّ برحمته مَنْ عَلِمَ أنَّه حقيقٌ بها، ولا سيّما الرَّحمة المراد منها النُّبوة، فإنَّ الله يختصُّ بها مَن خَلَقَه قابلًا لها، فهو يخلقُه على صفاءِ سريرةٍ وسلامة فطرة

(1) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 8/262، والطّيبيّ، فتوح الغيب: 4/144.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتنوير: 1/653.
(3) أبو حيَّان، البحر المحيط: 1/546.

صالحة لتلقِّي الوحي شيئًا فشيئًا؛ لذلك لم تكن النُّبوةُ حاصلةً بالاكتساب، ولمّا كانت الاستعداداتُ لمراتب الرّحمة من النُّبوة فما دونها غير بادية للنَّاس؛ طوى بساطَ تفصيلها لتعذّره، وَوَكَلَهَا إلى مشيئتِهِ الّتي لا تتعلَّق إلَّا بما علمَهُ واقتضَتهُ حكمتُه سبحانه؛ رفقًا بأفهام المخاطَبين[1].

بَلَاغَةُ تَصْدِيرِ الْجُمْلَةِ بِالِاسْمِ الْأَحْسَنِ ﴿وَٱللَّهُ﴾ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾:

سَعَةُ رَحْمَةِ اللهِ تَعَالَى وَغَزَارَةُ عَطَائِهِ

تصديرُ الجملةِ بالاسم الأحسن ﴿وَٱللَّهُ﴾ فيه إيذانٌ بفخامة الأمر[2]، ودفعٌ لتوهُّم مَن يظنُّ أنَّ اختصاص بعضهم لضيق الرَّحمة عن العموم، فقال: ﴿وَٱللَّهُ﴾ الَّذي كلُّ شيء دونه، فلا ينقصُ ما عنده ﴿ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾، وفيه تعيظمٌ لِما ذُكِرَ مِنَ النِّعم، مُشيرًا بذلك كُلِّه إلى التَّمكُّن من الإعطاءِ باختيارِهِ وغزارة فضلِه، وإلى القُدرة على الإنجاءِ من حبائل المكر بسَعَةِ عِلمه[3].

سِرُّ التَّعبير بـ ﴿ذُو﴾ دون (صَاحِب) في قوله تعالى ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾:

اللهُ تَعَالَى ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ يَتَفَضَّلُ بِهِ عَلَى مَنْ شَاءَ مِنْ خَلْقِهِ

الوصفُ بـ(ذُو) أَشرفُ عند أهل المعاني من الوصف بـ(صاحب)؛ لأنَّهم ذكروا أنَّ (ذُو) لا تكونُ إلَّا مضافةً لاسم، فمدلولها أشرفُ؛ ولذلك جاء ذو رعين، وذو يَزَن، وذو الكلاع، ولم يَسْمَعُوا بصاحب رعين، ولا صاحب يزن ونحوها. وامتنع أن يُقال في الصحابي أبي سعيد أو جابر: ذو رسول الله ﷺ، وجاز أن يُقال: صاحب رسول الله ﷺ[4]، فناسب مجيءُ الوصف في الآية بـ ﴿ذُو﴾؛ لإضافته إلى صِفَةٍ عظيمة، والمعنى: ذو فضلٍ يتفضَّل به على من أحبَّ وشاءَ مِن خلقه[5].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/654.
(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 4/459 - 460.
(3) الزحيلي، التفسير المنير: 1/254.
(4) أبو حيَّان، البحر المحيط: 1/546.
(5) ابن جرير، جامع البيان: 6/518.

وممَّا يُؤكِّد الفَرْقَ بين (ذُو) و(صَاحِب) ما ورد في القُرآن في حقِّ سيِّدنا يُونس عليه السلام، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبٗا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ﴾ [الأنبياء: 87] الآية، وفي قوله سبحانه: ﴿وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلۡحُوتِ إِذۡ نَادَىٰ وَهُوَ مَكۡظُومٞ ٤٨﴾ [القلم: 48] الآية؛ فعُدِلَ في موضع عن التَّعبير بـ (صاحب)، فقال: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ﴾، ولم يَقُل (صَاحِب الحُوتِ).

دِلَالَةُ التَّعْبِيرِ بِـ ﴿ٱلۡفَضۡلِ﴾ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾:

قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ تذييلٌ؛ لأنَّ الفَضلَ يشملُ إعطاءَ الخير والمعاملةَ بالرَّحمة، وهو تَنبيهٌ على أنَّ واجبَ مُريد الخير التَّعرّضُ لفضل الله تعالى والرّغبةُ إليه في أن يتجلَّى عليه بصفة الفضل والرَّحمة، فيتخلَّى العبدُ عن المعاصي والخبائث، ويتحلَّى بالفضائل والطَّاعات عسى أن يحبّه ربُّه[1]، وفي الحديث الصَّحيح «تَعَرَّفْ إِلَى اللهِ فِي الرَّخَاءِ؛ يَعرِفْكَ فِي الشِّدَّةِ»[2].

التَّخَلِّي عَنِ الرَّذَائِلِ وَالتَّحَلِّي بِالْفَضَائِلِ طَرِيقٌ لِاسْتِنْزَالِ الْفَضْلِ الْجَزِيلِ مِنَ اللهِ تَعَالَى

نُكْتَةُ وَضْعِ الْمُظْهَرِ مَوْضِعَ الْمُضْمَرِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾:

جاء التَّعبيرُ بالاسم الظَّاهر (الله) في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾، وكان مقتضى الظَّاهرِ الإتيانُ بالضَّمير؛ لتقدُّم ذكر مرجِعِه، فيكون: (يختصُّ برحمتِه من يشاء وهو ذو الفضل العظيم)، إلَّا أنَّه وُضِع المُظهَر موضعَ المُضمَر؛ إظهارًا للمهابةِ بالتَّصريح بالاسم الأحسن ﴿وَٱللَّهُ﴾، وتَنبيهًا على أنَّ تخصيصَ بعض النَّاس بالرَّحمة الخاصّة - وهي النُّبُوَّةُ - دون بعضٍ ملائمٌ لمقام الأُلوهيَّة؛ بخلاف الرَّحمة العامَّة؛ فهي للعُمُوم، فيُنَاسبُهَا اسم الله تعالى (الرَّبِّ).

اصْطِفَاءُ الْأَنْبِيَاءِ مِنْ مُقْتَضَيَاتِ الِاسْمِ الْأَحْسَنِ (الله)

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/654.

(2) رواه أحمد في المسند، الحديث رقم: (2803)، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع الصغير: (برقم: 2961).

تَوْجِيهُ الْمُتَشَابِهِ اللَّفْظِيِّ فِي تَعْرِيفِ الْفَضْلِ وَتَنْكِيرِهِ بَيْنَ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ **وَقَوْلِهِ:** ﴿وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ١٧٤﴾ [آل عمران: 174]:

فَضْلُ الله تَعَالَى خَاصٌّ وَعَامٌّ

جاء في آواخر سورة آل عمران قولُه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ١٧٤﴾ [آل عمران: 174]، بتنكير كلمةِ ﴿فَضْلٍ﴾، وتبِعَهَا في التَّنكير كلمةُ ﴿عَظِيمٍ﴾؛ لوقوعِهَا نعتًا لنكرةٍ، بخلاف قوله تعالى هنا: ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ فقد وردَا معرَّفين.

ووجه ذلك: أنَّه لما كان المقصودُ بالرَّحمة هنا النُّبُوَّة والرِّسالة التي اختصَّ اللّٰه بها نَبيَّه ﷺ؛ ناسبه تعريفُ الفَضلِ والوصفِ التَّابعِ له؛ وذلك للخُصُوص، بخلاف الموضع الأخير؛ فهو في موضع العُمُوم؛ لمجيئِه في سياق تَوابِع أحداث غَزوَة أُحُد، والفَضل فيها عامٌّ للرَّسولِ ﷺ وللمُؤمنين.

سِرُّ وَصفِ الْفَضْلِ بِالْعَظَمَةِ دُونَ الْكِبَرِ:

فَضْلُ اللهِ تَعَالَى عَظِيمٌ وَكَبِيرٌ

الوصفُ إذا كان بلفظ العظيم؛ فإنَّه يكون مُتَّصلَ الإسناد بالاسم الأحسن (اللّٰه)، وعندما تكون الإشارة إلى فضلٍ من اللّٰه تعالى بغير إسنادٍ مُباشر؛ فإنَّ الوصف يكون بالكِبَر، ومنه قولُ اللّٰه تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ٣٢﴾ [فاطر: 32].

وإذا كان الشَّيء واسعًا لا حدَّ له كما في الرَّحمة الَّتي قال عنها ربُّنا: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ۚ﴾ [الأعراف: 156]، فإنَّ وصف الفَضل يكون بالعظمَةِ، وإذا كان الفَضْلُ محدودًا يُوصف؛ فإنَّه يوصَفُ بالكِبَرِ؛ ولذا كان المناسب هنا الوصف بالعَظَمَةِ؛ للتَّصريح بالرَّحمة في الآيةِ.ومجموع الوصفين دالٌّ على أنَّ فضل اللّٰه تعالى عظيمٌ وكبيرٌ.

مِنْ عَادَاتِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ فِي ذِكْرِ اخْتِصَاصِ الْفَضْلِ بِهِ:

الـــــرَّدُّ عَـــلَى حَـسَـدِ الْـيَـهُـودِ لِأَهْـلِ الْإِسْـلَامِ وَعِدَائِهِمْ لَهُمْ

النَّاظر في هذه الآية، وهي قوله تعالى: ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ يجد أنَّ معناها يَرِدُ في الرَّد على حَسَدِ

اليهود للمُسلمين؛ ففي سُورة البقرة يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ وَلَا ٱلۡمُشۡرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيۡكُم مِّنۡ خَيۡرٖ مِّن رَّبِّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَخۡتَصُّ بِرَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ١٠٥﴾ [البقرة: 105].

وجاءت هنا في سورة آل عمران بعد مواقف اليهودِ المعاندة والمعاديةِ للإسلام والمسلمين، وجاءت أيضًا في سورة الحديد، في قوله تعالى: ﴿لِّئَلَّا يَعۡلَمَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ أَلَّا يَقۡدِرُونَ عَلَىٰ شَيۡءٖ مِّن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلۡفَضۡلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ٢٩﴾ [الحديد: 29]؛ وفيه تنبيهٌ لأهل الإسلام أن يَستَشعِروا هذه النِّعمة وأن يُحافظوا عليها؛ إذِ اليهودُ لا يريدون لهم الفلاحَ ولا النَّجاحَ.

الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الانفِرَاد والاختِصَاص:

الاختِصَاص انفِرَادُ بعض الأَشيَاء بِمَعنًى دون غَيره، كالانفراد بِالعلم وَالمُلك، والانفرادُ تَصْحِيحُ النَّفس وَغير النَّفس، وَلَيسَ كَذَلِك الاختِصَاص؛ لِأَنَّهُ نقيض الاشتِرَاك، والانفرادُ نقيضُ الازدواج، والخاصّةُ تحتَمل الإِضَافَة وغير الإضافة؛ لِأَنَّهَا نقيضُ العَامَّة، فَلَا يكون الاختِصَاص إِلَّا على الإضافة؛ لِأَنَّهُ اختِصَاص بِكَذَا دون كَذَا[1].

النِّعْمَة والرَّحْمَة والرِّقة والرَّأفة:

إنَّ الرَّحْمَةَ الإنعامُ على المُحْتَاج إِلَيه، وَلَيسَ كَذَلِك النِّعمَة؛ لِأَنَّك إِذا أَنْعَمت بِمَال تعطيه إِيَّاه فقد أَنْعَمت، وَلَا تَقول إِنَّك رَحِمتَه، والرِّقّة والغلظَةُ يكونَانِ فِي القلب وَغَيره خِلقةً، وَالرَّحْمَةُ فِعل الرَّاحم، وَالنَّاس يَقُولُونَ: رَقَّ لَهُ فرحمه، يجعَلُونَ الرّقة سَبَبَ الرَّحمَة. والرَّأفةُ: أبلغُ من الرَّحمَة؛ وَلِهَذَا قَالَ أَبُو عُبَيدَة: "إِنَّ قَوْله ﴿رَءُوفٞ رَّحِيمٞ ١١٧﴾ [التَّوبة: 117]: تَقدِيمًا وتأخيرًا، أَرَادَ أَنَّ التَّوكيد يكون فِي الأبلغ فِي المَعْنى، فَإِذا تقدَّم الأبلغ فِي اللَّفْظ كَانَ المَعنَى مُؤَخرًا[2].

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 140، والكفويّ، الكلّيات، ص: 59.
(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 195، و196.

المَشِيئَة، والإِرَادَة، والعَزْم:

"المشيئة والإرادة هي صفة فعل كلّ فاعل يفعله على الاختيار، نحو أن يقال: شاء فعل كذا، أو أراد أمر كذا، ولا يجوز أن يقال: أمر نفسه بكذا، أو نهى نفسه عن كذا"[1]، ثمّ إنَّ الإِرَادَةَ تكونُ لما يتراخَى وقتُه وَلما لم يتراخَ، والمشيئة لما لم يتراخَ، وَالشَّاهِد أَنَّك تَقول: فعلتُ كَذَا شَاءَ أَو أَبى، فيقابلُ بهَا إباه؛ وَذَلِكَ يكون عِنْد محاولة الفِعْلِ، وَكَذَلِكَ مَشِيئَته إِنَّمَا تكون بَدَلًا من ذَلِك فِي حَاله. والعَزْمُ: إِرَادَةٌ يقطعُ بهَا المريدُ رويّتَه في الإِقْدَام على الفِعْل أَو الإحجام عَنهُ، وَيخْتَصُّ بِإِرَادَة المريد لفعل نَفسه؛ لِأَنَّهُ لَا يجوزُ أَن يعزم على فعل غَيره[2].

العَظِيم والكَبِير:

إنَّ العظيمَ قد يكونُ من جِهة الكَثرة ومن غير جهة الكَثرة؛ ولذلك جاز أن يُوصف اللّه تعالى بأنَّه عظيمٌ، وإن لم يُوصف بأنَّه كثيرٌ، وقد يعظُم الشّيءُ من جهة الجنس ومن جهة التَّضاعف[3]. والعظيمُ إذا استعمل في الأعيان فأصله: أن يُقال في الأجزاءِ المتَّصلة، والكثيرُ يُقال في المنفصلة، ثمَّ قد يُقال في المنفصل عظيمٌ، نحو: جيشٌ عظيمٌ، ومالٌ عظيمٌ، وذلك في معنَى الكَثيرِ[4].

(1) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنة: 4/400.
(2) المصدر نفسه، ص: 124، والراغب تفسير الرّاغب: 1/518 - 519.
(3) العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 183.
(4) الرّاغب، المفردات: (عظم)، والكفويّ، الكليّات، ص: 631.

﴿۞ وَمِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ مَنۡ إِن تَأۡمَنۡهُ بِقِنطَارٖ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيۡكَ وَمِنۡهُم مَّنۡ إِن تَأۡمَنۡهُ بِدِينَارٖ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيۡكَ إِلَّا مَا دُمۡتَ عَلَيۡهِ قَآئِمٗاۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُواْ لَيۡسَ عَلَيۡنَا فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٞ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ٧٥﴾ [آل عمران: 75]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الرّبط بين قبح أحـوال اليهود في الاعتقاد، وفي معاملة العباد

تتعلَّقُ هذه الآية بما قَبْلَهَا من وجهين: الأوَّل: أنَّه تعالى حكى عن أهل الكتابِ في الآية المتقدِّمة أنَّهم ادَّعوا أنَّهم أُوتواْ من المناصب الدِّينية ما لم يُؤْتَ أحدٌ غيرهم مثله، ثُمَّ إنَّه تعالى بيَّن أنَّ الخيانةَ مُستقبحةٌ عند جميع أَرباب الأديان، وهم مُصِرُّون عليها، فدلَّ هذا على كذبهم، والثَّاني: أنَّه تعالى لما حكى عنهم في الآية المتقدِّمة قبائحَ أحوالهم فيما يتعلَّق بالأديان، وهو أنَّهم قالواْ: ﴿وَلَا تُؤۡمِنُوٓاْ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمۡ﴾، حكى في هذه الآية بعضَ قبائح أحوالهم، فيما يتعلَّق بمعاملة النَّاس، وهو إصرارهم على الخيانة والظُّلم، وأخذ أموال النَّاس في القليل[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تَأۡمَنۡهُ﴾: قال ابن فارس: الهمزة والميم والنون أصلان متقاربان؛ أحدهما الأَمَانَةُ: الَّتِي هِيَ ضِدُّ الخِيَانَةِ، وَمَعنَاهَا سُكُونُ القَلْبِ، وَالآخَرُ التَّصْدِيقُ. وَالمَعْنَيَانِ مُتَدَانِيَانِ. قَالَ الخَلِيلُ: الأَمَنَةُ مِنَ الأَمْنِ. وَالأَمَانُ إِعْطَاءُ الأَمَنَةِ[2]. يُقَالُ: أَمِنْتُ الرَّجُلَ أَمْنًا وَأَمَنَةً وَأَمَانًا، وَآمَنَنِي يُؤْمِنُنِي إِيمَانًا. وَالعَرَبُ تَقُولُ: رَجُلٌ أُمَّانٌ: إِذَا كَانَ

(1) الرّازي، مفاتيح الغيب: 8/262.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أمن).

أَمِينًا[1]، وقَرَنَ القرآنُ الوفاءَ بالأمانة بالوفاء بالعهد، في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِأَمَٰنَٰتِهِمۡ وَعَهۡدِهِمۡ رَٰعُونَ ۝٨﴾ [المؤمنون: 8]، ووردت بالجمع، "لأنّها تكون متنوّعة، من حيث هي في الأموال، وفي الأسرار فيما بين العبد وربّه، فيما أَمَرَهُ ونهاه عنه، قال الحسن: الدّين كلّه أمانة"[2]، والأمانةُ في هذه الآية هي الوديعةُ من (المال)، أو الأمانةُ بالمعاملة، وأنتَ غير مُتمكِّن مِن الَّذي تَأْمَنُهُ، هل يردُّ الأمانةَ أم لا، بقوله تعالى على لسان يعقوب: ﴿هَلۡ ءَامَنُكُمۡ عَلَيۡهِ﴾ [يوسف: 64]، و(على) تدلُّ على التَّمكُّن[3].

2) ﴿بِقِنطَارٖ﴾: القِنْطارُ: مِعْيارٌ. قَالَ أَبُو عُبَيدَةَ: "القَنَاطير: وَاحِدُهَا قِنْطار، وَلَا تَجِد العَرَبَ تَعرِف وَزْنه، وَلَا وَاحِدَ للقِنطار مِنْ لَفظه. وَقَالَ ثَعْلَبٌ: المَعمولُ عَلَيه عِندَ العَرَب الأكْثر أَنَّهُ أَرْبَعَةُ آلَاف دِينَار، فَإِذَا قَالُوا: (قَنَاطِيرُ مُقَنْطَرة)، فَهِيَ اثْنَا عَشَرَ أَلْفَ دِينَارٍ"[4]. وهُوَ من المَال مِقْدَار مَا فِيهِ عبور الحَيَاة تَشبيها بالقنطرة، وَذَلِكَ غير مَحدُود القدر في نَفسه، وَإِنَّمَا هُوَ بِحَسب الإِضَافَة كالغنى، فَرُبَّ إِنسَانٍ يَستَغنِي بِالقَلِيلِ، وَآخرَ لَا يَستَغنِي بالكثير، وَمن هُنَا وَقع الاختِلَاف في حَدّه كَمَا في حدّ الغِنَى[5].

3) ﴿يُؤَدِّهِۦٓ﴾: أَدَّى، الهَمْزَةُ وَالدَّالُ وَاليَاءُ أَصْلٌ وَاحِدٌ، وَهُوَ إِيصَالُ الشَّيْءِ إِلَى الشَّيْءِ أَوْ وُصُولُهُ إِلَيهِ مِنْ تِلْقَاءِ نَفسِهِ، قَالَ الخَلِيلُ: "أَدَّى فُلَانٌ يُؤَدِّي مَا عَلَيْهِ أَدَاءً وَتَأْدِيَةً. وَتَقُولُ فُلَانٌ آدَى لِلأَمَانَةِ مِنْكَ. وَأَنْشَدَ غَيْرُهُ:

أَدَّى إِلَى هِنْدٍ تَحِيَّاتِهَا***وَقَالَ هَذَا مِنْ وَدَاعِي بِكْرِ"[6]

4) ﴿بِدِينَارٍ﴾: أَصلُه دِنَّارٌ، بِالتَّشْدِيدِ، بِدَلِيلِ قَولِهِم: دَنانِير ودُنَيْنِير، فَقُلِبَتْ إِحدى النُّونَيْنِ يَاءً؛ لئَلَّا يَلْتَبِسَ بِالمَصَادِرِ الَّتِي تَجِيءُ عَلَى فِعَّالٍ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا كِذَّابٗا ۝٢٨﴾ [النبأ: 28]؛ إِلَّا أَن يكون بالهاء فيخرج عَلَى أَصله، مِثْلَ الصِّنَّارَةِ والدِّنَّامَة؛ لأَنَّه أَمن الآنَ مِنَ الالتِبَاسِ؛ وَلِذَلِكَ جُمِعَ عَلَى دَنَانِيرَ، وَمِثْلُهُ قِيراط ودِيباج، وأَصله دِبَّاجٌ. قَالَ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: 8/262.
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 5/369.
(3) هلال، تفسير القرآن الثريّ، تفسير الآية: 75.
(4) ابن الأثير، النّهاية، وابن منظور، لسان العرب، (قنطر).
(5) الكفوي، الكليّات، ص: 733.
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (أديّ).

أَبو مَنصُورٍ: "دِينَارٌ وَقِيرَاطٌ وَدِيبَاجٌ أَصلها أَعجمية، غَيرَ أَن العَرَبَ تَكَلَّمَتْ بِهَا قَدِيمًا فَصَارَتْ عَرَبِيَّةً"[1].

5) ﴿مَا دُمْتَ﴾: أصلُ الدَّوام السُّكون، يُقال: دامَ الماء، أي: سَكَنَ، ومنه: دَامَ الشَّيءُ: إذا امتدَّ عليه الزَّمانُ، قال تعالى: ﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ﴾ [المائدة: 117]، ﴿إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا﴾ [آل عمران: 75][2]، يُقَالُ دَامَ الشَّيْءُ يَدُومُ، إِذَا سَكَنَ. وَالْمَاءُ الدَّائِمُ: السَّاكِنُ، «وَنَهَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ يُبَالَ فِي الْمَاءِ الدَّائِمِ، ثُمَّ يُتَوَضَّأَ مِنْهُ».. وَيُقَالُ أَدَمْتُ الْقِدْرَ إِدَامَةً، إِذَا سَكَّنْتَ غَلَيَانَهَا بِالْمَاءِ. قَالَ الْجَعْدِيُّ:

تَفُورُ عَلَيْنَا قِدْرُهُمْ فَنُدِيمُهَا***وَنَفْثَؤُهَا عَنَّا إِذَا حَمْيُهَا غَلَا[3]

6) ﴿عَلَيْهِ قَآئِمًا﴾: أي: ثابتًا على طلبه، مُواظِبًا مُلازِمًا، فالقيامُ عليه يعني المطالبة به، والقاعدُ عنه يعني: غير المطالب به[4]. و﴿إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا﴾؛ أي: دائمًا ثابتًا في اقتضائك له، ومطالبتك إيَّاه[5].

7) ﴿ٱلْأُمِّيِّـۧنَ﴾: الأُمِّيُّ: الَّذِي لَا يَكتُبُ، قَالَ الزَّجَّاجُ: الأُمِّيُّ الَّذِي عَلَى خِلْقَة الأُمَّة لَمْ يَتَعَلَّم الكِتاب، فَهُوَ عَلَى جِبِلَّته، وَفِي التَّنْزِيلِ العَزِيزِ: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ﴾ [البقرة: 78]؛ لأَنَّ الكِتابة هِيَ مُكْتَسَبَةٌ، فكأَنَّه نُسِب إِلَى مَا يُولد عَلَيه؛ أَي: عَلَى مَا وَلَدَته أُمُّهُ عَلَيه، وقِيلَ لِلعَرَبِ الأُمِّيُّون؛ لأَنّ الكِتابةَ كَانَتْ فِيهِم عَزِيزةً أَو عَدِيمة[6].

8) ﴿سَبِيلُ﴾: السَّبيلُ: الطَّرِيقُ الَّذي فيه سُهولة، وجمعُهُ سُبُلٌ، ويستعمل السَّبِيلُ لكلّ ما يتوصّل به إلى شيءٍ خيرًا كان أو شرًّا[7]، وهُوَ أغلب وقوعًا في الخَيْر، وَلَا يكَاد اسْمُ الطَّرِيق يُرَاد إِلَّا مقترنًا بِوَصْفٍ أَو إِضَافَة تخلّصه، لذَلِك قال الله تعالى: ﴿قُلْ هَـٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ﴾ [يوسف: 108] فأنّث، وقال: ﴿وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾ [الأعراف: 146] فذكّر، وسَبَّلَ ضيعتَه، أي جعلَها في سَبيلِ الله، وقوله تعالى: ﴿يَـٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾﴾ [الفرقان: 27] أي

(1) ابن منظور، لسان العرب، والزَّبيدي، تاج العروس: (دنر)
(2) الراغب، المفردات: (دوم).
(3) الجوهري، الصحاح (فثأ)، والأزهري، تهذيب اللغة (فثا).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (دوم).
(5) الواحديّ، التفسير البسيط: 5/367.
(6) الأزهري، تهذيب اللغة: (أمّ)، وابن منظور، لسان العرب، والزَّبيدي، تاج العروس (أمم).
(7) الراغب، المفردات: (سبل).

سبباً ووُصْلَةً[1]، والسّبيل أَيضًا: الحُجَّة: ﴿وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴿١٤١﴾﴾ [النّساء: 141][2]، والسَّبيلُ في الآية بمعنى: العِتابِ والمؤاخذة؛ أي: لَا يتطرّق علينا عتابٌ وذمٌّ، في شأن الأمِّيين، يعنون الّذين ليسوا من أهل الكتاب[3].

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

أغلب أهل الكتاب خائن للأمانة، ومتأوّل في حلّها بالباطل

يخبر تعالى عن حال أهل الكتاب في معاملاتهم، من حيث الوفاء والخيانة في الأموال، فأخبر أنّ منهم الخائن والأمين[4]، إذْ مِنْ أَهلِ الكتاب مَنْ إنْ تأمنه على مالٍ كَثيرٍ، يُؤدِّ إليك ما ائتمنته عليه، ومنهم منْ إن تَسْتأمِنه على مالٍ قليلٍ، لا يؤدّي إليك ما ائتمنته عليه، إلَّا إنْ ظَللتَ تُلحُّ عليه بالمطالبة والتَّقاضي؛ ذلك مِن أَجلِ قولهم الفَاسد: ليس علينا في العَرَب (الأميّين)، وأكل أموالهم إِثْمٌ؛ لأنَّ اللّه أباحها لنا، يقولون هذا الكذب وهم يعلمون افتراءهم على اللّه[5]، فجمعوا بين أكل الحرام واعتقاد حِلّه، وكان هذا الإدّعاءُ كذبًا على المنّان، ما أنزل اللّه به من سلطان[6].

الإِيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

تَخْصِيصُ أَهْلِ الْكِتَابِ دُونَ غَيْرِهِمْ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾:

اسْتِخْلَالُ الْيَهُودِ خِيَانَةَ الْمُسْلِمِينَ

تخصيصُ أهل الكتاب بذلك، مع أنَّ غيرهم فيهم الأمينُ والخائنُ أيضًا؛ وذلك باعتبار واقعة الحال؛ إذْ سببُ نزول الآية أنَّ عبد اللّه بن سَلّام أُودع أَلْفًا ومائتيْ أُوقيّةً مِنَ الذَّهب، فأدَّى الأمانةَ فيها، وفنحاص بن عازوراء أُودِعَ دينارًا فخانه.

(1) الجوهريّ، الصّحاح: 5/1724.
(2) الكفوي، الكليات، ص: 512.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 2/50، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 3/1281.
(4) السّعدي، تيسير الكريم الرّحمن: 1/135.
(5) جماعة من العلماء، المختصر في التفسير، ص: 59.
(6) السعدي، تيسير الكريم الرّحمن: 1/135.

وخُصِّصَ أهلُ الكتاب بالذِّكرِ ههنا أيضًا؛ لكون خيانَتِهم للمسلمين تكون عنِ استحلالٍ، بدليلِ آخر الآية، بخلاف خيانة المُسلم المسلمَ[1].

دِلَالَةُ ﴿وَمِنۡ﴾ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ﴾:

إنْصَافُ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ لِلْمُخَالِفِينَ وَالْخُصُومِ

﴿وَمِنۡ﴾ في قول الله تعالى: ﴿وَمِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ للتَّبعيضِ، وفي استعمال هذا الدِّلالةِ ههنا إشعارٌ بإنصافِ القرآن وعدله مع المخالفينَ والخصوم؛ فلم يحكُم عليهم حكمًا واحدًا، بل ذكر أنَّ منهم فَريقًا أمينًا فيما يُؤتمن عليه ولو كان قنطارًا، وآخر غير مؤتمن ولو كان دينارًا، وهذا مِن محاسنِ هذا الدِّين أنَّه يُنصِف صاحبَ الحقِّ ولو كان خصمًا.

فاليهودُ الَّذين كانوا يواجهون الأُمَّة المسلمة بكلّ أنواع المكرِ والخِداع والفَساد يُنصِفُ القرآنُ بعضًا منهم ويصفُه بالأمانة، ويَذْكر خيانةَ بعضٍ منهم؛ تحذيرًا منهم ومن مَسْلَكِهم، كلُّ هذا أفادتْهُ ﴿وَمِنۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ﴾.

القِيمَةُ الدِّلَالِيَّةُ لِلَفْظِ: ﴿تَأۡمَنۡهُ﴾، وَ﴿يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيۡكَ﴾:

جَوَازُ التَّعَامُلِ مَعَ أَهْلِ الْكِتَابِ مَا لَمْ يَقْتَرِنْ ذَلِكَ بِمُحَرَّمٍ

في اختيار لفظ ﴿تَأۡمَنۡهُ﴾، و﴿يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيۡكَ﴾ وما فيها مِنْ ضمائر؛ يُفهم منه حريَّة التَّعامل والكسب واتِّخاذ الصَّنائع الَّتي يتميَّزون ما دام أنَّ ذلكَ في حَيِّزِ الحلال، وليس محرَّمًا على المسلمين.

عِلَّةُ تَقْدِيمِ الْمُسْنَدِ عَلَى الْمُسْنَدِ إِلَيْهِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَمِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ مَنۡ إِن تَأۡمَنۡهُ بِقِنطَارٖ يُؤَدِّهِۦٓ﴾:

هذه الآية تَعَرَّضَتْ لقسمين من اليهود؛ لتُبَيِّن شِدَّة العَجب مِن صنيعهم عن طريق تقديم المُسند على المُسند إليه، فالقسم الأوَّل: تكمن شِدَّة العَجَب فيه مِن قُوَّة أمانته مع إمكان الخيانة، ووجود العُذر له في عادة أهل دينه، والقسم الآخر: للتَّعجيب مِن

(1) الطيبي، فتوح الغيب: 4/147، والأنصاري، فتح الرحمن، ص: 92، والجمل، الفتوحات الإلهية: 1/440.

أن تكونَ الخيانة خُلُقًا لمن يتَّبع كتابًا مِنْ كُتُبِ الله، ثُمَّ زَادَ القِسْمَ الثَّاني عَجَبًا إلى عَجَبِهِ: الإيجازُ بالحذف في قوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْنَا فِي ٱلْأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٌ﴾، على تقدير: ليس علينا في أكل أموال الأُمِّيينَ سَبيل[1].

انْقِسَامُ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَى أَمِينٍ وخَائِنٍ يَسْتَوجِبُ الْحَذَرَ فِي التَّعَامُلِ مَعَهُمْ

وفيه طباقُ السّلب بين ﴿يُؤَدِّهِۦٓ﴾ و﴿لَّا يُؤَدِّهِۦٓ﴾، والضّدُّ أكثرُ إظهارًا لحسنِ ضدِّهِ، ففيه إيضاحٌ لمكانةِ أداءِ الأمانةِ بذكْرِ ضدِّهَا.

كما استنبطَ الإمامُ القُرطبي رحمه الله دِلالةً أُخرى من هذا الحذف، وهو نفي تَعديل أهل الكتاب، خلافًا لمن ذهب إلى ذلك، وعلى تقدير الحذف يقول: "فكيف يُعَدَّلُ من يعتقد استباحةَ أموالنا وحريمنا بغير حرج عليه؟! ولو كان ذلك كافيًا في تعديلهم؛ لسُمِعَتْ شهاداتهم على المسلمين"[2].

عِلَّة تَعْدِيَة ﴿تَأْمَنْهُ﴾ بِالْبَاءِ فِي قَوْلِهِ: ﴿تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ﴾:

اخْتِلَافُ دِلَالَاتِ الْأَفْعَالِ بِاخْتِلَافِ الْحَرْفِ الْمُعَدَّى بِهَا

ذهب بعضُ العلماء إلى أنّ (الباء) في قوله تعالى: ﴿بِقِنطَارٍ﴾ بمعنى (على)، بدليل قوله تعالى: ﴿قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ﴾ [يوسف: 64].

والحقُّ أنَّ المعنى مختلفٌ، فقولك: (أَمنتُه به) يختلف عن قولك: (أَمنتُه عليه)، فقولك: (لا آمنُه عليك)، معناه: لا آمنه أن يحيفَ عليك أو يهجمَ عليك أو يتعدَّى عليك، وما إلى ذلك، ففيه معنى الاستعلاءِ والتَّسلط والعُدوان، وأمَّا قولك: (لا آمنُه بدرهم)، فمعناه: لا آمنُه مِنْ أن يتصرَّف به، أو يَعبث به؛ لأنَّ (على) تفيدُ الاستعلاء، و(الباء) تفيدُ الإلصاق، والمعنى: أنَّه لا يَلتصقُ أَمْنُه بدِرهم، بل ستفارقه أمانتُه ويتصرَّف به.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/285.

(2) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 4/118، وأبو سمعان، التراكيب النحوية، ص: 117.

فأمنُه عليه تستعملُ للاعتداء، وأمنُه به تستعمل للتَّصرّف؛ تقول: لا آمنُ عليك الذِّئاب، ولا آمنُ عليكَ غوائلَ الطَّريق، ولا تقول: لا آمن بك الذِّئاب.

ولذلك استعمل القرآن هذا الأسلوب (أمنُه عليه) مع الأفرادِ، واستعمل (أمنُه به) مع الأموال، فقال: ﴿قَالُواْ يَـٰٓأَبَانَا مَالَكَ لَا تَأۡمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ [يوسف: 11]، وقال: ﴿قَالَ هَلۡ ءَامَنُكُمۡ عَلَيۡهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمۡ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبۡلُ﴾ [يوسف: 64]، وقال في الأموال: ﴿وَمِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَـٰبِ مَنۡ إِن تَأۡمَنۡهُ بِقِنطَارٖ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيۡكَ وَمِنۡهُم مَّنۡ إِن تَأۡمَنۡهُ بِدِينَارٖ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيۡكَ﴾ [آل عمران: 75]؛ لأنَّ في الأُولى معنى العُدوان، وفي الثَّانية معنى التَّصرف، وإن كان يجوز أن يُقال: (لَا آمنُه على هذا المال)، بمعنى التَّسلط عليه والاستحواذ.

ويحتمل أن يكون معنى قولك: أمنتُك بدينار، أي: وثقتُ بك فيه، وقولك: (أمنتُكَ عليه)، أي: جعلتك أمينًا عليه، وحافظًا له[1].

دِلَالَةُ التَّعْبِيرِ بِـ﴿بِقِنطَارٖ﴾ وبِـ﴿بِدِينَارٖ﴾:

ذِكْرُ القِنْطَارِ والدِّينارِ مِثَالٌ يُقَاسُ عَلَيْهِ مَا شَابَهَهُمَا كَثْرَةً أَوْ قِلَّةً

عَبَّرَ عَن الكثرة بالقنطار مِنَ الذَّهب، ولم يذكر كونه مِنَ الذَّهب؛ لأنَّه مفهوم مِنَ السِّياق؛ لأَنَّ الدِّينار لَا يكون إلَّا مِنَ الذَّهب، فلا بدَّ أن يكون القنطارُ الّذي يكون في يَدِ الأمين مِنَ الذَّهب[2].

والمرادُ مِن ذِكر القنطار والدِّينار - ههنا - العدد الكثير والعدد القليل، يَعني: أنَّ فيهم من هو في غاية الأمانة، حتَّى إنَّه لو اؤتمن على الأموال الكثيرة؛ لأدَّى الأمانة فيها، ومنهم من هو في غاية الخيانة، حتَّى إنَّه لو اؤتمن على الشَّيء القليل؛ فإنَّه يُجَوِّز فيه الخيانة، ونظيره قوله تعالى: ﴿وَإِنۡ أَرَدتُّمُ ٱسۡتِبۡدَالَ زَوۡجٖ مَّكَانَ زَوۡجٖ وَءَاتَيۡتُمۡ إِحۡدَىٰهُنَّ قِنطَارٗا فَلَا تَأۡخُذُواْ مِنۡهُ شَيۡـًٔا﴾ [النساء: 20][3].

(1) الواحدي، التفسير البسيط: 5/361، والرازي، مفاتيح الغيب: 8/263، والبروسوي، روح البيان: 2/51، والسَّامرائي، معاني النَّحو: 3/24 - 25.

(2) تفسير ابن عرفة: 1/373، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 3/1279.

(3) الرازي، مفاتيح الغيب: 8/263، والزَّركشي، البرهان: 2/20.

دِلَالَةُ الِاسْتِثْنَاءِ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا﴾:

يجوزُ أن يكونَ استثناءً مُفرَّغًا من أوقات يدلُّ عليها مَوقع ﴿مَا﴾، والتَّقدير: لا يُؤدِّهِ إليك في جميع الأزمان إلَّا زمانًا تدوم عليه فيهِ قائمًا، فيكون ما بعد ﴿إِلَّا﴾ نَصْبًا على الظَّرف، ويجوزُ أن يكون مُفرَّغًا مِن مصادرَ يدلُّ عليها معنى ﴿مَا﴾ المصدريَّة، فيكون ما بعده منصوبًا على الحال؛ لأنَّ المصدرَ يقعُ حالًا[1].

فِي تَنَوُّعِ الدِّلَالَاتِ النَّحْوِيَّةِ إِثْرَاءٌ لِلْمَعَانِي الْقُرْآنِيَّةِ

عِلَّةُ تَقْدِيمِ الْجَارِّ وَالْمَجْرُورِ عَلَى مُتَعَلِّقِهِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿عَلَيْهِ قَآئِمًا﴾:

قُدِّم الْجَارُّ وَالْمَجْرُورُ عَلَى مُتعلِّقه في قولِه: ﴿عَلَيْهِ قَآئِمًا﴾؛ بقصد الاهتمام، ففي تقديمه معنى الإلحاح؛ أي: إذا لم يكن قِيامُك عليه على جهةِ الإلحاح؛ لا يُؤدِّي إليكَ أمانتَك[2].

المماطلةُ وأكلُ حقوق العِباد بالباطل مِن أشدِّ أنواع الظُّلم

دِلَالَةُ الِاسْتِعْلَاءِ فِي ﴿عَلَيْهِ﴾، وَ﴿عَلَيْنَا﴾ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لَيْسَ عَلَيْنَا فِي ٱلْأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٌ﴾:

الاستعلاءُ في الموضع الأوَّل ﴿مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا﴾ واضحُ الدِّلالة؛ إذ قيام صاحبِ الحقِّ بحجَّته تجعلُه مُستعليًا، وكأنَّه واقفٌ على رأس خَصْمِه، يشيرُ له بما يُثْبِتُ صِحَّةَ دعواه، فليس له إلَّا الإذعانُ وَالتَّسليمُ.

صَاحِبُ الحقِّ الْمَالِكُ مَا يُثْبِتُ حَقَّهِ وصِحَّةَ دَعْوَاهُ مُسْتَعْلٍ عَلَى خَصْمِهِ بِالْحُجَّةِ

أمَّا الموضعُ الثَّاني؛ فيَحْتَاج إلى تأمُّل وتدبُّر، وذلك أنَّ قوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْنَا فِي ٱلْأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٌ﴾ فيه نفيٌ للاستعلاء الَّذي جاء معناه في الموضع الأوَّل؛ فلما كان صاحبُ الحقِّ يملك الحُجَّة على إثبات حقِّه وصِحَّة دعواه، كان مُستعليًا بذلك على خَصمِه، فإن لم يكن مالكًا لتلك الحُجَّة وذلك البرهان؛ فإنَّه حينئذٍ لن يكون مُستعليًا على ذلك الكتابيّ، ولن يعترفَ له بحقٍّ في ذمَّته؛ لأنَّه يزعمُ ويقول: ﴿لَيْسَ عَلَيْنَا فِي ٱلْأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٌ﴾، فالمسلمُ فهم هذا الخطابَ الرَّبانيّ الَّذي يتضمَّن هذه المعاني السَّامية، حَرَصَ كلَّ الحِرْص في التَّعامل

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السَّليم: 2/50، والآلوسي، روح المعاني: 2/195، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 3/287.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 3/287.

مع أهل الكتاب، فلا يزال قائمًا بحجَّته عليهم مُتمكِّنًا مِن حقوقه تجاههم[1].

بَلَاغَةُ الْمَجَازِ فِي التَّعْبِيرِ بِالْقِيَامِ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا﴾:

أُطْلِقَ القيامُ هنا على الحِرْصِ والمواظبة؛ كقوله تعالى: ﴿قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِۚ﴾ [آل عمران: 18]؛ أي: لا يفعلُ إلَّا العَدلَ، وعُدِّي ﴿قَآئِمًا﴾ بحرف (عَلى)؛ لأنَّ القيام مجازٌ يُرادُ به الإلحاح والتَّرداد؛ فتعديتُه بحرفِ الاستعلاء قرينةٌ وتجريدٌ للاستعارة[2]، وفي التَّعبير عن الإلحاح والتَّرداد بالقيام إبرازٌ للمعاني في قالبِ المحسوس، وهو أقربُ إلى تصوُّر الذِّهْنِ وتعَقُّله.

تَقْرِيبُ الْمَعَانِي بِإِبْرَازِهَا فِي قَالَبِ الْمَحْسُوسَاتِ

عِلَّةُ تَعْرِيفِ الْمُسندِ إِلَيْهِ بِالْإِشَارَةِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لَيْسَ﴾:

مجيءُ المسندِ إليهِ معرَّفًا باسم الإشارة؛ فيه دِلالَةٌ على بُلوغِ أهل الكِتاب مُنتهى الشَّرِ والفَسَاد، وذلك أنَّ منهم مَنْ إن تأمنه بدينارٍ لا يُؤدِّه إليك؛ وإنَّما أُشير إليه بـ ﴿ذَٰلِكَ﴾؛ لِكَمَال العناية بتمييزِهِ أتمَّ تمييزٍ؛ لاختصاصه بهذا الشَّأن العجيب[3].

سُلُوكُ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ مَسَالِكَ مُتَنَوِّعَةً فِي التَّنْبِيهِ على خَطَرِ الْيَهُودِ

دِلَالَةُ الجَمْعِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿بِأَنَّهُمْ قَالُواْ﴾:

ضميرُ الجَمعِ في قوله: ﴿بِأَنَّهُمْ قَالُواْ﴾ عائدٌ على ﴿مَّنْ﴾ في ﴿مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ﴾، وإنَّما جُمِعَ حَمْلًا عَلَى المعنَى، والباء في ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ للسَّببية، أي: بسببِ قولهم: ﴿لَيْسَ عَلَيْنَا فِي ٱلْأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٌ﴾؛ أي: ليس علينا فيما أصبناه من أموالِ العربِ عتابٌ وذمٌّ[4].

الْمُسْلِمُ وَمَا يَمْلِكُهُ مَطْمَعٌ لِلْيَهُودِ

ومِن أَسرارِ اختيار الضَّمير (هُمْ) في قوله ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ﴾ مع أنَّ السِّياق للمُفرد؛ لأنَّ القَضِيَّة هنا عامَّة، فتشمل كلَّ طوائف أهل الكتابِ، سَواء أكانوا من العُلماء أم من الرُّؤساء أم من غيرهم، فكُلُّهم على هذا المسلك.

(1) الجهني، أثر دلالات حروف المعاني الجارة في التفسير، ص: 232.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/287.
(3) المصدر نفسه، والدبل، دليل البلاغة القرآنية: 1/478.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 2/195.

سِرُّ اخْتِيَارِ النَّفْيِ بـ ﴿لَيْسَ﴾ فِي قَوْلِهِ: ﴿لَيْسَ عَلَيْنَا فِي ٱلْأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٌ﴾:

شِدَّةُ تَمَسُّكِ الْخَائِنِينَ بِبَاطِلِهِمْ وَجَحْدِهِمْ مَا عَلَيْهِمْ مِنَ الْحُقُوقِ

اختِيرَ النَّفيُ بـ ﴿لَيْسَ﴾؛ لأنَّها أبلغ في النَّفي مِن (مَا) النَّافية مثلًا؛ إذْ ﴿لَيْسَ﴾ مُتَمَحِّضَة في الدِّلالةِ على النَّفي، فلا يوجدُ معنًى آخرُ لهَا غيره، بخلاف (مَا)؛ فإنَّها ليست مُتَمَحِّضَة في النَّفي؛ لذلك لما أرادَ اللّه نَفْيَ مُماثلة غيرِهِ له؛ قال: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ﴾ [الشورى: 11].

فاستعمالُ الْخَائِنين النَّفيَ بـ ﴿لَيْسَ﴾ إِشْعَارٌ بِشِدَّةِ تمسُّكِهم بِبَاطِلِهم، ومبالغتِهم في جَحْدِ كُلِّ حقٍّ عليهم.

سَبَبُ وَصْلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ﴾ بِمَا قَبْلُ:

الْقَوْلُ عَلَى اللهِ تَعَالَى بِغَيْرِ عِلْمٍ مِنْ أَشْنَعِ الْبَاطِلِ

وُصِلَ قولُه تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ﴾ بما قبلُ وهو قوله سبحانه: ﴿قَالُواْ لَيْسَ عَلَيْنَا﴾؛ لما بينهما من التَّوسُّطِ بين الكمالين؛ فالجملتان متَّفقتانِ في الخبريَّةِ، وبينهما تناسبٌ ظاهرٌ من وجهين:

أحدهما: أنَّ كلًّا منهما جملةٌ فعليَّةٌ.

والآخر: اشتراكُهما في المسندِ، وهو القولُ، والجملةُ الثَّانيةُ تصريحٌ من اللّه تعالى بذمِّهم وشناعةِ جُرْمهم؛ حيث إنَّهم لم يخونُوا الأماناتِ مُسْتَشْعِرينَ مخالفتَهم، بل نسبوا صحَّة ما هم عليه من الخيانَةِ إلى أحكام اللّه تعالى، وهذا في غاية الجراءَةِ على الباطلِ.

دِلَالَةُ حَرْفِ الْجَرِّ ﴿فِي﴾ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فِي ٱلْأُمِّيِّـۧنَ﴾:

حرفُ الجرِّ ﴿فِي﴾ من قوله: ﴿لَيْسَ عَلَيْنَا فِي ٱلْأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٌ﴾ يُرادُ بها التَّعليل؛ وإذ قد كان التَّعليلُ لا يتعلَّق بالذَّوات، تَعيَّن تقديرُ مضافٍ مجرورٍ بحرف ﴿فِي﴾، والتَّقدير: ليس علينَا في معاملة الأُمِّيِّين[1]، وإمعانًا منهم في باطِلِهم لم يقولوا: (ليس علينا في المسلمين سبيل)، بل وَصَفُوهُم بوصفٍ مُشْعِرٍ بالنَّقصِ والتَّحقيرِ؛ فسلبُوهم

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/288.

حقَّهم، واحتقرُوهم في قدرِهم، فأرادوا التَّطاوُلَ بما أُوتوه من معرفة القراءة والكتابة من قبلهم، أو أرادوا: الأُمِّيين بمعرفة التَّوراة؛ أي الجاهلين؛ كنايةً عن كونهم ليسوا من أتباع دين موسى[1] عليه السلام؛ فهم لا يرون للعَربِ دينًا ولا رَسُولًا؛ فالدِّين لهم والرَّسُول عندهم فقط، وفيه إيجازٌ بالحذفِ؛ أي: ليس علينا في أَكل أَموالِ الأُمِّيِّين سَبيلٌ.

مِنْ جَرَائِمِ أَهْلِ الْكِتَابِ سَلْبُ حُقُوقِ الْمُسْلِمِينَ، ثُمَّ اخْتِقَارُهُمْ لَهُمْ

ووصفُ هؤلاءِ المسلمين بالأمّيِّين مخالفٌ لوصف الله تعالى العربَ بالأمِّيِّينَ؛ فإنَّه واردٌ في مقام الامتنانِ عليهم؛ حيث نَقَلَهم من هذا الوصفِ إلى وصفٍ آخرَ بإرسالِ الرَّسول ﷺ إليهم.

الْقِيمَةُ الدِّلَالِيَّةُ لِكَلِمَةِ ﴿سَبِيلٌ﴾ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالُواْ لَيۡسَ عَلَيۡنَا فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٞ﴾:

السَّبيلُ في قوله تعالى: ﴿قَالُواْ لَيۡسَ عَلَيۡنَا فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٞ﴾ طريقُ المؤاخذة، ثمَّ أُطلق السَّبيل في كلام العرب مجازًا مشهورًا على المؤاخذة، كما في قوله تعالى: ﴿مَا عَلَى ٱلۡمُحۡسِنِينَ مِن سَبِيلٖۚ﴾ [التوبة: 91] وقوله سبحانه: ﴿۞ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسۡتَـٔۡذِنُونَكَ﴾ [التوبة: 93]، وربّما عَبَّر عنه العربُ بالطَّريق، قال حميد بن ثور:

إِعْجَابُ أَهْلِ الْكِتَابِ بِأَنْفُسِهِمْ وَازْدِرَاؤُهُمْ لِغَيْرِهِمْ

وَهَلْ أَنَا إِنْ عَلَّلْتُ نَفْسِي بِسَرْحَةٍ***مِنَ السَّرْحِ مَوْجُودٌ عَلَيَّ طَرِيقُ

فائدةُ التَّعْبِيرِ بِالْفِعْلِ الْمُضَارِعِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾:

في هذه قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾ ردٌّ على أهل الكتاب بأنَّ ما قالوه مِن أنَّه ليس عليهم في الأمِّيين سبيل كلامٌ لَا أصلَ له في شرعِهم، فهو ليس دينًا، وإذا كانوا قد قالوه على الله تعالى فقد كذَبوا عليه سبحانه.

الِافْتِرَاءُ عَلَى اللهِ تَعَالَى مِنْ دَأْبِ الْيَهُودِ

وقد ذَكر الله سبحانه وتعالى ذلك في قضية عامَّة تدلُّ على أنَّ

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 3/1281، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/288.

مِن شأنهم أن يقولوا الكذب على الله ﷻ، وهم يعلمون أنَّه كذبٌ؛ فقد كذَبوا فادَّعوا أنَّهم أبناءُ الله وأحبّاؤه، وكذَبوا فادَّعوا أنَّ إبراهيم كان يهوديًّا، وكذَبوا فادَّعوا أنَّه لا نبيَّ إلَّا من بني إسرائيل، فكان الكذب على الله تعالى شأنًا من شؤونِهم؛ ولذلك عُبِّر بالفعل المضارعِ، أي: أنَّ شأنهم أن يقولوا الكذبَ على الله، قالوه في الماضي، ويقولونه في الحاضر، وسيقولونه في المستقبل[1].

وفي الآية تضمينٌ، فقد ضُمِّن الفعل ﴿وَيَقُولُونَ﴾ معنى: يفترُون، وتعلّقَ به الجارُّ والمجرور ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾[2].

بلاغةُ التّقديم في قوله ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾:

قُدِّم المسندُ إليه ﴿وَهُمْ﴾ على الفعل؛ بقصد التَّوكيدِ، لأنَّ في تأخير المسندِ الفعليِّ تكرارًا للإسناد؛ وذلك بإسناد الفعل ﴿يَعْلَمُونَ﴾ إلى الضَّمير ﴿وَهُمْ﴾ الرَّاجع إليهم، وإسنادُ فعل العلم إلى واو الجماعة، وتكرَارُ النِّسبة من طرائق توكيد الكلام عند العرب.

وجيءَ بالمسندِ بصيغة الفعل المضارع؛ لإفادةِ التَّجدُّدِ الاستمراريِّ.

الِافْتِرَاءُ وَالْكَذِبُ مِنَ الْعَالِمِ أَشَدُّ إِثْمًا وَجُرْمًا مِنِ افْتِرَاءِ الْجَاهِلِ

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الأداء، والإيتاء، والإعطاء:

الأداءُ: دَفْعُ الحقّ دفعةً وتوفيتُه، كأداء الخَرَاجِ والجِزيةِ وأَداءِ الأَمَانةِ، قال الله تعالى: ﴿فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ﴾ [البقرة: 283]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾ [النّساء: 58]، وأصلُ ذلك من الأَدَاةِ[3]، وأَدَّى دَيْنَه تأْديَةً، أي قضاه. والاسم الأَداءُ. وهو آدى للأمانة منك، بمدّ الألف. وتأَدَّى إليه الخبر، أي انتهى. ويقال: اسْتأداهُ مالاً، إذا صادره واستخرجه منه. والإداوة: المَطْهَرَةُ، والجمع الأَداوَى،

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 3/1282.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 2/195.
(3) الراغب، المفردات: (أدى).

مثل المطايا[1]، وأمّا الإيتاءُ: فهو أقوى من الإعْطَاء؛ إذْ لَا مُطَاوع لَهُ، يُقَال: آتَاني فَأَخَذته، وَفي الإعْطَاء يُقَال: أَعْطَاني فعَطَوتُ؛ وَمَا لَهُ مُطَاوع أَضْعَف في إثْبَات مَفْعُوله مِمَّا لَا مُطَاوع لَهُ؛ وَلأَنَّ الإيتاءَ في أَكثر مَوَاضِع القُرْآن فِيمَا لَهُ ثباتٌ وقَرَارٌ؛ كالحكمةِ والسَّبع المثاني، وَالمُلْك الَّذِي لَا يُؤْتى إلَّا لذِي قُوَّة.

والإعطاءُ: فِيمَا ينتَقل مِنهُ بعد قَضَاء الحَاجة مِنهُ، كإعطاء كلّ شَيْءٍ خلقه، لتكرّر حُدُوث ذَلِك باعْتِبَار الموجودات، وَإعْطَاء الكَوْثَر للانتقال مِنهُ إلَى مَا هُوَ أعظم مِنهُ، وَكَذَا ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ۝٥﴾ [الضّحى: 5]، للتكرّر إلَى أَن يرضى كلَّ الرِّضَا[2].

الصِّراط، والطَّرِيق، والسَّبِيل:

السَّبِيلُ: هُوَ أغلبُ وقوعًا فِي الخَير، وَلَا يكَادُ اسمُ الطَّرِيق يَرِدُ إلَّا مقترنًا بِوَصف أَو إضَافَة تخلّصه لذَلِك، والسَّبيل وَالطَّرِيق يُذكَّران ويُؤَنَّثان، والصِّراطُ كَذَلِك، إلَّا أَنَّ الطَّرِيقَ هُو كلُّ مَا يطرقُهُ طَارقٌ، مُعْتَادًا كَانَ أَو غير مُعْتَادٍ، والسَّبيل من الطُّرق مَا هُوَ مُعْتَاد السّلوك، والصِّراطُ من السَّبِيل مَا لَا التواءَ فِيهِ وَلَا اعوجاجَ، بل يكونُ على سَبِيل القَصْد، فَهُوَ أخصُّ مِنْهَا. والسَّبيل أَيضًا: الحُجَّة؛ قال تعالى: ﴿وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ۝١٤١﴾ [النّساء: 141][3]

(1) الجوهريّ، الصّحاح: 6/2266.

(2) الكفويّ، الكليّات، ص: 212.

(3) العسكري، الفروق اللّغويّة، ص: 298، والكفويّ، الكليّات، ص: 512 - 513.

﴿بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ٧٦﴾ [آل عمران: 76]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

العلاقة بين التّأكيد على الوفاء، وإخلال بعض بني إسرائيل بالأمانة

تجسيدًا لمضمون الآية السّابقة، الّتي صنّفت النّاس إلى قسمين: مُؤدٍّ للأمانة ومماطلٍ فيها، وتفنيدًا لادّعاء اليهود أنْ لا سبيل لهم في الأميّين، جاءت هذه الآيةُ دالَّةً على تعظيمِ أَمر الوفاء بالعَهد، والدّعوة للحفاظ عليه والالتزام بأدائه، وذلك لأنَّ الطَّاعاتِ محصورةً في أمرين: التَّعظيم لأمر الله، والشَّفقة على خلق الله، فالوفاءُ بالعَهد مُشتملٌ عليهما معًا؛ لأنَّ ذلك سَببٌ لمنفعة الخلق، فهو شفقةٌ على خَلْقِ الله، ولمّا أمرَ اللهُ به، كان الوفاءُ به تعظيمًا لأمر الله، فثبتَ أنَّ العِبارةَ مُشتملةٌ على جميع أنواع الطَّاعات، والوفاء بالعَهد كما يمكن في حقِّ الغير، يُمكن أيضًا في حقِّ النَّفس؛ لأنَّ الوافي بعهد النَّفس، هو الآتي بالطَّاعات والتَّاركُ للمُحرَّمات؛ لأنَّه عند ذلك تفوزُ النَّفس بالثَّواب، وتبعدُ عن العِقاب[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَوْفَىٰ﴾: وَفَى الرّجل يَفِي وفاءً، وأوفى يُوفي إيفاءً، لغتان فصيحتان. قال الشّاعر:

وَفَاءً مَا مَعِيَّة مِنْ أَبِيهِ***لِمَنْ أَوْفَى بِعَهْدٍ أَوْ بِعَقْدِ[2]

ووَفَى: كَلِمَةٌ تَدُلُّ عَلَى إِكمَالٍ وَإِتمَام. مِنهُ الوَفَاءُ: إِتمَامُ العَهْدِ وَإِكمَالُ الشَّرطِ. وَوَفَى: أَوْفَى، فَهُوَ وَفِيٌّ. وَيَقُولُونَ: أَوفَيْتُكَ الشَّيءَ، إِذَا قَضَيتَهُ إِيَّاهُ وَافِيًا. وَتَوَفَّيْتُ الشَّيءَ وَاسْتَوفَيتُهُ؛ إِذَا أَخَذتَهُ كُلَّهُ حَتَّى لَم تَترُكْ مِنهُ شَيئًا. وَمِنهُ يُقَالُ لِلمَيِّتِ: تَوَفَّاهُ اللهُ[3]. و﴿أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ﴾ أي: التزمَ بالوفاءِ بعهدِهِ، ويكون ذلك فِيمَا بَينه وَبَين الله استقامةً وحُسْنَ طويّةٍ، وما بَينه

(1) الرّازي، مفاتيح الغيب: 8/265.
(2) ابن دريد، جمهرة اللّغة: 1/244.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (وفى).

وَبَين النَّاس معاملةً وسيرةً سويّةٍ، كما يلتزم التّقوى المنصوص عليها مع الوفاء المذكور؛ بالنّأي عَن نقض الْعَهْد بالخيانة، وَالصّدق في أدائه للْأَمَانَة.

2) ﴿بِعَهۡدِهِۦٓ﴾: العَهدُ: الوَصِيَّةُ والتَّقَدُّمُ إلى صاحبكَ بشيءٍ، ومنه اشتُقَّ العَهدُ الّذي يُكتب لِلوُلاةِ، ويُجمَعُ على عُهودٍ. وقد عَهِدَ إليه يَعهَدُ عَهدًا والعَهدُ: المَوثِق وجمعُه عُهُود. و﴿أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦٓ﴾، أي: لم يَخُنْ[1]، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلۡمِيثَٰقَ ٢٠﴾ [الرّعد: 20]، وفي العربيّة؛ الوأيُ: هو الوعد الّذي يوثقه الرّجل على نفسه، والعهد الّذي يقطعه، ويعزم على الوفاء به، وأنشد أبو عبيد:

وَمَا خُنْتُ ذَا عَهْدٍ وَأَيْتُ بِعَهْدِهِ***وَلَمْ أَحْرِمِ الْمُضْطَرَّ، إِذْ جَاءَ قَانِعَا[2]

3) ﴿وَٱتَّقَىٰ﴾: اتَّقى كانَ في الأصلِ اوْتقى، والتَّاءُ فِيها تاءُ الافتِعالِ، فأُدْغِمت الواوُ في التَّاءِ وشُدِّدَتْ فقيلَ: اتّقى، ثمَّ حَذَفُواْ أَلِفَ الوَصل وَالوَاو الَّتِي انْقَلَبَتْ تَاء، فقيلَ: تَقى يَتّقي بمعنَى اسْتَقْبل الشّيءَ وتَوَقّاهُ، وَإِذا قَالُواْ: اتَّقَى يَتَّقي، فالمَعنَى أنَّه صارَ تَقِيًّا، ويقالُ في الأوَّل تَقى يَتّقي ويَتَقَى، وقولهُ ﷻ: ﴿هُوَ أَهۡلُ ٱلتَّقۡوَىٰ وَأَهۡلُ ٱلۡمَغۡفِرَةِ ٥٦﴾ [المدّثر: 56]؛ أَي: هُوَ أهلُ أَن يُتَّقَى عِقابُه، وأهلُ أَن يُعمَلَ بِمَا يُؤَدِّي إِلَى مَغفِرَتِه[3].

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

إنَّ الَّذي يَنالُ مَحبَّةَ اللّه ورضَاه سبحانه وتعالى، لا بدَّ أن يتحقَّقَ فيه وصفَان: أوَّلهما: الوفاءُ بالعَهدِ، فكلُّ ما يلتزمُه مِنْ عُهود، سواء أَكانَ موضُوعها أمرًا ماديًّا كأداء الأمانات، أم كان الموضوعُ أمرًا معنويًّا كالقيام بحقٍّ من الحقوق الوفاءُ به يستوجبُ رضا اللّه سبحانه، وكلُّ غَدرٍ يكون فيه إبعادٌ عن رِضوان اللّه سبحانه ومحبَّته، ويدخلُ في العهودِ ما أودعه اللّه سبحانه، قَلبَ كُلِّ إنسانٍ مِنْ إدراكٍ للحقِّ، وفهم له وإدراكٍ لمعنى الدَّليل، فإذا لم يُذعن له ويعلنه لَا يكون مُوفيًا للعَهد، الوصفُ الثَّاني المستوجبُ لرضا اللّه ومحبَّته:

لا ينال رضا الله ومحبّته إلّا المُوفون بالعهد من المتّقين

(1) عبد الله بن عبّاس، تنوير المقباس، ص: 50.

(2) ابن منظور، لسان العرب: 15/377.

(3) الجوهري، الصّحاح: (وقى)، والزَّبيدي، تاج العروس: (وقي).

هو التَّقوى، بأن يَشعُرَ بحقّ الغيرِ عليه، ويؤمنَ به، ويجعلَ بينه وبين الاعتداء أيًّا كان نوعُه وقايةً[1].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دِلَالَةُ ﴿بَلَىٰٓ﴾ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿بَلَىٰٓ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ﴾:

تَعْمِيمُ الْجَوَابِ تَوْفِيرٌ لِلْمَعْنَى وَقَصْدٌ فِي اللَّفْظِ

﴿بَلَىٰٓ﴾ حَرفُ جَوابٍ، وهو مختصٌّ بإبطال النَّفي، فهو هنا لإبطال قولهم: ﴿لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٌ﴾، وهو غير مختصٍّ بجواب الاستفهام المنفي، بل يُجاب بهِ عند قصد الإبطال، وأكثر مواقِعِه في جواب الاستفهام المنفي، وَجِيء في الجواب بحكمٍ عامٍّ ليشمل المقصودَ وغيره؛ توفيرًا للمعنى، وقصدًا في اللَّفظ[2].

أَثَرُ الْوَقْفِ وَالِاسْتِئْنَافِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿بَلَىٰٓ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ﴾:

الْوَفَاءُ بِالْعُهُودِ مِنْ أَسْبَابِ مَحَبَّةِ اللهِ تَعَالَى لِعِبَادِهِ

جاءت ﴿بَلَىٰٓ﴾ في الآية على وجهين:

أحدهما: أنَّه لمُجرَّد نفي ما قبله، وهو قوله: ﴿لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٌ﴾، فقال اللّه تعالى رادًّا عليهم: بلى عليهم سبيلٌ في ذلك، وهذا اختيار الزَّجاج، قال: وعندي وقفُ التَّمام على ﴿بَلَىٰٓ﴾، وبعده استئنافٌ.

والآخَر: أنَّ ﴿بَلَىٰٓ﴾ كلمةٌ تُذْكَرُ ابتداءً لكلامٍ آخر يُذْكَرُ بعده؛ وذلك لأنَّ قولهم: ليس علينا فيما نفعلُ جناحٌ، قائمٌ مقامَ قولهم: نَحنُ أحبَّاء اللّه تعالى، فَذَكَرَ اللّه تعالى أنَّ أهلَ الوفاء بالعَهد والتُّقى همُ الَّذين يُحبُّهم اللّه تعالى لا غيرهم، وعلى هذا الوجه؛ فإنَّه لا يَحْسُنُ الوقَف على ﴿بَلَىٰٓ﴾[3].

دِلَالَةُ اللَّفِّ والنَّشْرِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿بَلَىٰٓ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ﴾:

قول اللّه تعالى: ﴿بَلَىٰٓ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ﴾ يحتملُ أن يكون من

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 3/1284.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/289.

(3) الواحدي، التفسير البسيط: 5/369، والرازي، مفاتيح الغيب: 8/264 - 265.

اللَّفِّ والنَّشر غير المرتَّبِ، فقوله: ﴿بَلَىٰٓ﴾ راجعٌ لـ ﴿وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ﴾، و﴿مَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ﴾ راجعٌ لقولهم ﴿لَيۡسَ عَلَيۡنَا فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٞ﴾[1]، وفي مخالفة النَّشْر لترتيب اللَّفِّ من شدِّ الذِّهْنِ ولَفْتِ انتباهِهِ ما يستلزِمُ معه إعمال الفِكْرِ والتَّأمُّلِ.

مِنْ طَرَائِقِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ فِي شَدِّ انْتِبَاهِ الْمُتَلَقِّي إِخْرَاجُ الْكَلَامِ عَلَى خِلَافِ مُقْتَضَى الظَّاهِرِ

دِلَالَةُ (الْبَاءِ) فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿بِعَهۡدِهِۦ﴾:

الْبَاءُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿بِعَهۡدِهِۦ﴾ للملاصقةِ، وأفادت هذه الدِّلالةُ التَّذكيرَ بالعهدِ المقطوعِ عليه في التَّوراة الَّذي لاصقَهُ فلا انفِكاكَ منه، فأصبحَ لازمًا له، تَترتَّب عليه آثارُه ويُحاسَبُ عليه، فإذا عَلِمَ المُخاطَب ذلك؛ عادَ إلى رُشده وعَهدِه ودخلَ الإسلامَ[2].

التَّذْكِيرُ بِالْعَهْدِ مَظِنَّةُ الرُّجُوعِ إِلَيْهِ

سِرُّ اخْتِيَارِ لَفْظِ (العَهْدِ) دُونَ غَيْرِهِ:

إنَّ العَهدَ أخفُّ في الالتزام مِن العَقْدِ والميثاق، فكان ذلك من باب التَّخفيف عليهم، والتَّحبيب لهم، لعلَّهم يَستجيبُونَ لِلْوَفاء بعهد الله تعالى، فالله تعالى يُريدُ أن يُيسِّرَ عليهم الوفاءَ بالالتزام، لكنَّهم أَبَوا.

تَيْسِيرُ اللهِ تَعَالَى سُبُلَ التَّوْبَةِ لِعِبَادِهِ

وفيه أيضًا إشارةٌ إلى مُخاطبة نفوسهم بما يُحبُّون، فالتَّوراةُ عند اليهود تُسَمَّى: عَهْدًا، ولَمَّا أُضيف الإنجيلُ إلى التَّوراة سُمِّي عهدًا قديمًا وجديدًا، وفي هذا إعجاز للقُرآن الكريم؛ لإخبارِهِ بغَيبٍ لم يَطَّلع عليه إلَّا عُلماؤُهم.

تَعْيِينُ مَرْجِعِ الضَّمِيرِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿بِعَهۡدِهِۦ﴾:

قوله تعالى: ﴿مَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ﴾ جملةٌ مستأنفةٌ مُقرِّرةٌ للجُملة الَّتي سدّت ﴿بَلَىٰٓ﴾ مَسدَّها، والضَّميرُ في ﴿بِعَهۡدِهِۦ﴾ عائدٌ على ﴿مَنۡ﴾، ويحتمِلُ عودُهُ على الله تعالى.

أَعْظَمُ عَهْدٍ أُخِذَ عَلَى أَهْلِ الْكِتَابِ هُوَ الْإِيمَانُ بِالنَّبِيِّ مُحَمَّدٍ ﷺ

ويدخلُ في الوفاء بالعَهد العَهدُ الأعظم؛ ممَّا أُخِذَ عليهم في

(1) تفسير ابن عرفة: 1/374.

(2) الجهني، أثر دلالات حروف المعاني الجارة في التفسير، ص: 152.

كتابهم مِن الإيمان برسول الله ﷺ، سواء أُضيف العَهدُ إلى ﴿مَنۡ﴾، أو إلى ﴿ٱللَّهِ﴾ في الآية السابقة، والشَّرائط للجُملة الخبريَّة أو الجزائيَّة بـ﴿مَنۡ﴾ هو العموم الَّذي في ﴿ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ ، أو ما قبله؛ أي: فَرْدٌ مِنْ أَفْرَادِهِ.

ويحتملُ أن يكون الخبر محذوفًا؛ لدِلالة المعنى عليه، والتَّقدير: يُحِبُّهُ اللهُ[1].

فَائِدَةُ قَوْلِهِ: ﴿وَٱتَّقَىٰ﴾ بَعْدَ قَوْلِهِ: ﴿مَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ﴾:

الْحَثُّ عَلَى تَقْوَى اللهِ تَعَالَى وَالِالْتِزَامِ بِحُدُودِهِ

في إيراد قوله سبحانه: ﴿وَٱتَّقَىٰ﴾ بعد قوله تعالى: ﴿مَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ﴾ ثلاثة أوجه[2]:

أوَّلُها: أنْ تُجعَلَ التَّقوى لفظًا عامًّا.

ثانيهما: أن تُجعل التَّقوى لفظًا خاصًّا، فيكون من عطفِ الخاصِّ على العامِّ.

ثالثها: أن يكون من عطفِ السَّبب على المسبَّب؛ لأنَّ المرادَ اتِّقاءُ الله تعالى بالوفاء بعهدِهِ.

وعلى الوجه الثَّاني؛ فإنَّ فيه رفعًا لشأن التَّقوى حيث ذُكرت مرَّتين؛ مرَّةً على جهةِ الانفرادِ، وأخرى على سبيل الاندراج في العهدِ، فإنَّ من جملة العهدِ تركَ المناهي وفعلَ الأوامرِ.

دِلَالَةُ وَضْعِ الظَّاهِرِ مَوْضِعَ المُضْمَرِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾:

مِنْ فَوَائِدِ الْإِظْهَارِ مَوْضِعَ الْإِضْمَارِ التَّنبيهُ، والتَّعليلُ، والتَّعميمُ

في قول الله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ وجهان:

أحدهما: إمَّا أن يكون من وضعِ الظَّاهر موضع المُضمر، والمعنى: فإنّ الله يحبُّهم.

(1) أبو حيَّان، البحر المحيط: 3/225، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 2/24، والطِّيبي، فتوح الغيب: 4/149.

(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/374. الرَّاغب، تفسير الراغب: 2/658.

والآخر: أن يكون المرادُ جنسَ المتَّقين، فيتناول التَّقيَّ الَّذي لم تُوضع تحتَ يدِه أمانة[1].

وفي الإظهارِ موضعَ الإضمارِ على الوجهِ الأوَّلِ فوائد:

أوَّلها: تَنْبِيهُ المُخاطب؛ ووجهُ ذلك أنَّ الكلام إذا كان على نسقٍ واحدٍ لم يكن فيه ما يستدعي الانتباه؛ فإذا تَغيَّر الأسلوبُ وجاء الاسمُ مُظهرًا موضع الإضمارِ؛ فإنَّ المتلقِّي يكمُلُ انتبَاهُهُ.

ثانيهَا: أنَّ في الإظهار موضعَ الإضمارِ تعليلًا لِلْحُكْم الذي جاء فيه الإظهارُ؛ فلو جاء النَّظمُ القرآنيُّ: (فإنَّ الله يحبُّهم)؛ لم يكن فيه إظهار العِلّة كقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾؛ لأنَّه إذا قال: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾؛ أفاد أنَّ علَّةِ محبَّةِ الله لهم هو تقواهم إيَّاه، فإنَّك إذا قُلتَ: جاءني يزيدُ الظَّريف فأكرمتُه، لم يقتضِ صريحُ اللَّفظ أنَّ إكرامك إيَّاه لظرفه.

وفيهِ إيماءٌ إلى أنَّ الله تعالى لا يحبُّ اليهود بوجهٍ، وبيانه: أنَّ الله يُحبُّ المُتَّقين، والذي لا يوفي بعهده فليس بِمُتَّقٍ، واليهود غيرُ مُوفين؛ فدلَّ على أنَّ الله تعالى لا يُحبُّهم[2].

ثالثها: أنَّهُ يُفيد التَّعميم؛ أي: كلّ من يَعمّه هذا المُظهَر، كقوله تعالى: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٩٨﴾﴾ [البقرة: 98]، ولم يقل: (فإنَّ الله عدُوٌّ لَهُ)؛ لأجل أن يشملَ كلَّ كافرٍ، سواءٌ أكان كُفرُهُ بهذه العداوة أم بغيرها، فيكونُ في هذا تعميمٌ لِلْحُكْم[3].

عِلّةُ التَّعْبِيرِ بِالتَّقوى دُونَ غَيْرِهَا:

أَسَـــاسُ التَّقْوَى الْعَمَلُ بِالْمَأْمُورَاتِ وَاجْتِنَابُ الْمَنْهِيَّاتِ

جاء التَّعبير بالتَّقوى في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾؛ لأنَّ التَّقوى أساسُها العَمَلُ بالمأمورات واجتناب المنهيَّات، وما سَبق مِن الآيات يُشيرُ إلى وقُوع اليهود في قبائح دينيَّة، وخيانة ماليَّة مِن بعضِهم، وهذا يعني الوقوعَ في المنهيَّات؛ ولذا أثنَى على المتَّقين؛ إذِ التَّقوى مانعةٌ من الوقوع في المحظوراتِ بِأنواعها كلِّهَا.

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/374، والقنوجي، فتح البيان: 2/269.

(2) الراغب، تفسير الراغب: 2/658.

(3) ابن عثيمين، تفسير القرآن الكريم - سورة آل عمران: 1/429 - 430.

الْـحَـضُّ عَـلَى التَّقْوَى وَشَـرَفُ أَهْلِهَا

دِلَالَةُ اللَّامِ فِي ﴿ٱلْمُتَّقِينَ﴾ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾:

جِيءَ بلفظ: ﴿ٱلْمُتَّقِينَ﴾ معرَّفًا باللَّام الجنسيَّة؛ حضًّا على التَّقوى، وتشريفًا لأهلهَا[1]؛ وبين لفظي: ﴿وَٱتَّقَىٰ﴾ و﴿ٱلْمُتَّقِينَ﴾ جناسُ الاشتقاقِ[2]؛ ليُضْفِي على السِّياقِ وَقْعًا ورونقًا لطيفًا.

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

أَوْفَى ووَفَّى:

تَدُور المادّةُ اللُّغويّة (وَفَى) حولَ الإكمال والتَّمام، وهو إتمامُ العَهدِ وإكمالِ الشَّرْطِ، يقال: أَوفَيْتُكَ الشَّيءَ واستَوفَيتُه إذا أخذته كاملًا حتَّى لم تترك منه شيئًا، ويُقال في التَّأدية والعَطاء: أوفيته حقَّه ووفَّيتُه أجرَه: أعطيتُه إيَّاه وافيًا[3]، إذن لفظ (أوفى) للعهدِ والكَيْلِ والوَزْنِ، و(وَفَّى) للتّأدية والعطاء. فمن استعمالات (أَوْفَى) في العَهدِ قوله تعالى: ﴿وَأَوْفُواْ بِعَهْدِيٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ [البقرة: 40]، وقوله: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ﴾ [آل عمران: 76]. وفي الكَيل والميزان قوله تعالى: ﴿وَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ﴾ [الأنعام: 152]، ومن استعمالات (وَفَّى) في التَّأدية والعَطاء قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَٰلَهُمْۚ﴾ [هود: 111]، وقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْۗ﴾ [آل عمران: 57].

ومن الفُروق أيضًا أنَّ (وَفَّى) بالتَّضعيف أبلغُ من (أَوْفَى)؛ لأنَّ (فَعَّل) يدلُّ على التَّقصِّي والتَّدرّج شيئًا فشيئًا، والَّذي يُفعل مُدرَّجًا يكون أَتقَنَ وأكملَ؛ لذلك نَجِدُ القرآنَ في حديثه عن جزاء الصَّابرين، يقول: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ۝١٠﴾ [الزمر: 10]، فعبَّر بالتَّضعيف للمُبالغة في الإكرام، وإعطاء الأجر بغير

(1) أبو حيَّان، البحر المحيط: 3/225.
(2) الزُّحيلي، التَّفسير المنير: 3/264.
(3) ينظر في هذه المعاني: ابن فارس، مَقاييس اللُّغة، وابن منظور، لسان العرب، والأزهري، تهذيب اللّغة: (وفى).

حِسَاب، وأيضًا مدح سيّدنا إبراهيم عليه السلام بقوله: ﴿وَإِبۡرَٰهِيمَ ٱلَّذِي وَفَّىٰٓ ٣٧﴾ [النّجم: 37] بكلِّ ما كُلِّف به على وجه الكمال والتَّمام، ومعلومٌ أنَّ التَّكاليفَ لم تكن في آنٍ واحدٍ.

العَقْد والعَهْد والميثاق:

أَصلُ العَقْدِ في اللُّغة، نَقِيضُ الحَلِّ، واستُعير لمعنى توكيد اليَمِين والعَهدِ، فالعَقْدُ أشدُّ العُهُود توكيدًا، أمَّا العَهدُ في اللُّغة: الإقرارُ بالمحافظة على الشّيءِ، وقالوا تَعَهَّدَ الشَّيءَ وتَعَاهَدَهُ: حافَظ عليه، والميثاقُ في اللُّغة: حَبْلٌ أو قَيْدٌ يُشَدُّ به الأَسِير، ثُمَّ أُطلقَ على العَهد المحكم، من باب شِدَّة الالتزام، وبذلك يكونُ الميثاق أعلاها، ويليه العَقْد، ثمَّ العَهد المُعبَّر عنه بالمُحافظة والالتزام، والقرآن الكريم في استعمالاته لهذه الألفاظ يُؤكِّد هذه الدَّلالات، فقال في العُقُود: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ﴾ [المائدة: 1]، والمُراد بها التَّكاليفُ الشَّرعيَّة وغيرها من الالتزامات الماليَّة، ووصَفَ اليمينَ المؤكّدَ بالعَقد، قال تعالى: ﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغۡوِ فِيٓ أَيۡمَٰنِكُمۡ﴾ [البقرة: 225]، وأمَّا الميثاقُ فقد ورد ذِكره في عهد الله إلى أنبيائِه، ولشِدَّة أمر هذا العَهد وقوَّته سمَّاه ميثاقًا، قال تعالى: ﴿وَإِذۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [آل عمران: 81] الآية، وَوَرَدَ في المعاهداتِ والمصالحاتِ بين النَّاس، قال تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوۡمِۭ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُم مِّيثَٰقٌ﴾ [النّساء: 90]، وفي المعاشرةِ الزَّوجيّةِ قال تعالى: ﴿وَكَيۡفَ تَأۡخُذُونَهُۥ وَقَدۡ أَفۡضَىٰ بَعۡضُكُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ﴾ [النّساء: 21] الآية، أمَّا العَهدُ فوردَ في آياتٍ عديدةٍ مِنها قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلۡمِيثَٰقَ ٢٠﴾ [الرّعد: 20]، وقوله تعالى: ﴿وَأَوۡفُواْ بِٱلۡعَهۡدِۖ إِنَّ ٱلۡعَهۡدَ كَانَ مَسۡـُٔولٗا ٣٤﴾ [الإسراء: 34]، والغرضُ في كلِّ ذلك المحافظةُ والالتزام.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشۡتَرُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ وَأَيۡمَٰنِهِمۡ ثَمَنٗا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيۡهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ٧٧﴾ [آل عمران: 77]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الـرّبـط بين الوعيد بالعذاب والـغـضـب، وبين ممارسات اليهود المنحرفة

إنَّ في تَعلُّق هذه الآية بما قَبلها وجوهًا، الأوَّل: أنَّه تعالى لما وصَفَ اليهودَ بالخيانة في أموال النَّاس، ومِن المعلوم أنَّ الخيانةَ في أموال النَّاس لا تتماشى إلَّا بالأيمانِ الكاذبة، لا جَرَمَ ذَكَر عقيبَ تلك الآية هذه الآيةَ المشتملةَ على وعيدِ مَنْ يُقْدِم على الأيمان الكاذبة. والثَّاني: أنَّه تعالى لَمَّا حَكَى عنهم أنَّهم: ﴿وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾، ولا شكَّ أنَّ عهد الله على كُلِّ مُكلَّف ألَّا يكذبَ على الله ولا يخونَ في دينه، لا جرمَ ذَكَرَ هذا الوعيد عقيبَ ذلك. والثَّالث: أنَّه تعالى ذَكَرَ في الآية السَّابقة خيانتَهم في أموال النَّاس، ثُمَّ ذَكَر في هذه الآية خيانتَهُم في عهدِ الله وخيانتَهم في تعظيم أسمائه، حين يحلِفُون بها كَذِبًا[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَشۡتَرُونَ﴾: قَوْلُهُم: شَرَيْتُ الشَّيءَ وَاشْتَرَيْتُهُ، إِذَا أَخَذتَهُ مِنْ صَاحِبِهِ بِثَمَنِه. وَرُبَّمَا قَالُوا: شَرَيْتُ: إِذَا بِعتَ. قَالَ اللّه تَعالَى: ﴿وَشَرَوۡهُ بِثَمَنِۭ بَخۡسٖ﴾ [يوسف: 20]. وَمِمَّا يَدُلُّ عَلَى المُمَاثَلَةِ قَولُهُم: (هَذَا شَرْوَى هَذَا)، أَيْ مِثْلُهُ. و(فُلَانٌ شَرْوَى فُلَانٍ)، ومعنى ﴿يَشۡتَرُونَ﴾ في الآية: أي: يستبدِلُون ويأخُذون[2].

(1) ومِنَ العلماءِ مَنْ قال: هذه الآيةُ ابتداءُ كلامٍ مُستقلٍّ بنفسه، في المنع عن الأيمان الكاذبة، وذلك لأنَّ اللَّفظ عامٌّ، والرِّوايات الكثيرة دَلَّت على أنَّها إنَّما نزلت في أقوام أقدموا على الأَيْمان الكاذبة، وإذا كان كذلك وجبَ اعتقادُ كون هذا الوعيد عامًّا، في حقِّ كلِّ مَن يفعل هذا الفِعلَ، وأنَّه غير مخصوصٍ باليهودِ، ينظر: الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 8/265.

(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (شرىَ)، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 2/51.

2) ﴿بِعَهۡدِ ٱللَّهِ﴾: العَهدُ كُلُّ مَا عُوهِدَ اللّه عَلَيه، وكلُّ مَا بَينَ العبادِ مِنَ المواثِيقِ، فَهُوَ عَهدٌ. وَكَذَلِكَ كلُّ مَا أَمَرَ اللّه بِهِ فِي هَذِهِ الآيَاتِ ونَهى عَنْهُ[1].

3) ﴿ثَمَنٗا﴾: الثَّمَنُ: مَا تَسْتَحِقُّ بِهِ الشَّيءَ، والثَّمَنُ: ثَمَنُ البَيعِ، وثمَنُ كُلِّ شَيءٍ قِيمَتُه، وَشَيْءٌ ثَمِينٌ، أَي: مرتفعُ الثَّمَن، و﴿ثَمَنٗا قَلِيلًا﴾، أي: شيئًا يسيرًا مِن حُطَام الدُّنيا[2].

4) ﴿لَا خَلَٰقَ﴾: الخَلاقُ: النَّصيبُ مِنَ الحَظِّ الصَّالح. وهذا رَجُلٌ ليس له خَلاقٌ، أي: ليسَ له رَغبةٌ في الخير، فَالمَعْنَى لَا نَصِيبَ لَهُم فِي خَيرِ الآخِرَةِ وَنَعِيمِهَا[3].

5) ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ﴾: المَقْصُودُ بَيَانُ شِدَّةِ سُخْطِ اللَّهِ عَلَيهِم؛ لأَنَّ مَنْ مَنَعَ غَيْرَهُ كَلَامَهُ فِي الدُّنْيَا، فَإِنَّمَا ذَلِكَ بِسُخطِ اللَّهِ عَلَيْهِ[4].

6) ﴿يُزَكِّيهِمۡ﴾: يُقَالُ الطَّهَارَةُ زَكَاةُ المَالِ، وسُمِّيَتْ زَكَاةً لِأَنَّهَا طَهَارَةٌ. قَالُوا: وَحُجَّةُ ذَلِكَ قَولُهُ جَلَّ ثَنَاؤُهُ: ﴿خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ تُطَهِّرُهُمۡ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبة: 103]. وَالأَصْلُ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ رَاجِعٌ إِلَى هَذَينِ المَعْنَيَيْنِ، وهُمَا النَّمَاءُ والطَّهارة. ومعنى ﴿وَلَا يُزَكِّيهِمۡ﴾: لَا يُثْنِي عَلَيهِم أَو لَا يُنَمِّي أَعمَالَهُم، أَوْ لَا يُطَهِّرُهُمْ مِنَ الذُّنُوبِ[5].

7) ﴿وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾: أي: شديدُ الألمِ والإيجاعِ، يخلصُ ألمُهُ إلى قلوبهم على ما فعلُوه من المعاصي[6].

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

تشديد الوعيد بالعذاب الشّديد، لناكثي العهود

إنَّ اللّه تَوَعّدَ النَّاكثين للعهد، المُخلفين للوعدِ، بالحرمان مِنَ النَّعيم، وبالعذاب الأليم، وبأنَّهم يكونُون في غضبِ اللّه؛ بحيثُ لا تُرجى لهم رحمةٌ، ولا يسمعُون منه - تعالى - كلمةَ عفوٍ ولا مغفرةٍ، ولم يتوعّدِ اللّه تعالى مُرتكبي الكبائر مِن الزُّناة وشاربي الخَمر، ولاعبي المَيسِر، وعاقّي الوالدين، بما توعّدَ به ناكثي العهودِ، وخائني

(1) ابن منظور، لسان العرب: (عهد).
(2) المصدر نفسه: (ثمن).
(3) الخليل، العين: (خلق)، والرازي، مفاتيح الغيب: 8/266.
(4) الرازي، مفاتيح الغيب: 8/267.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (زكى)، وأبو حيان، البحر المحيط: 3/226.
(6) الهرري، حدائق الروح والريحان: 3/106.

الأماناتِ؛ لأنَّ مفاسدَهُما أعظمُ من جميع المفاسدِ الَّتي لأجلها حُرِّمت تلك الجَرائم[1].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

سِرُّ التَّعْبِيرِ بِـ: ﴿يَشْتَرُونَ﴾ دُونَ (يَسْتَبْدِلُونَ):

زُهْدُ أَهْلِ الْكِتَابِ فِي الدِّينِ وَشِدَّةُ تَعَلُّقِهِمْ بِالدُّنْيَا

حقيقةُ الاشترَاء: الاستبدالُ، وكُلُّ اشتراءٍ استبدالٌ، وليس كُلُّ استبدالٍ اشتراءً، ووضعُ الاشتراءِ موضعَ الاستبدال ههنا؛ لكونِه أدلَّ على الرَّغبة، وذلك أنَّ المشتريَ الشَّيءَ مُحتاجٌ إليه راغبٌ فيه، فهو أبلغُ مِن لفظ الأَصل مع ما فيه من حُسن التَّصرف في الكلام[2].

ويُضافُ إلى ذلك الإيماءُ إلى حِرصِهم الشَّديدِ على هذا السُّلوك النَّفعي؛ لأنَّ المُشتري عادةً تكون رغبتُه شديدة فيما يَشتري، ويزهدُ فيما يدفعُه، فاستعمال الاشتراءِ دالٌّ على زُهدهم في الدِّين، وحِرصِهم على الحياة الدُّنيا وزخارفِها، وهو يُشيرُ - أيضًا - إلى أنَّهم يجعلونَ القِيم والدِّين سلعةً تُباع وتُشترى.

والتَّعبير بالفعل المضارع ﴿يَشْتَرُونَ﴾ دالٌّ على تَكرار هذا السُّلوك منهم، إلى حدٍّ أنَّه صارَ طَبْعًا لهم.

بَلَاغَةُ الِاسْتِعَارَةِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ﴾:

تَهْدِيدُ مَنْ بَاعَ دِينَهُ بِمَتَاعٍ مِنَ الدُّنْيَا قَلِيلٍ

ابتدأت الآيةُ بتأكيد الخبر بـ ﴿إِنَّ﴾، واسميَّة الجملة للتَّأكيد على ثبوت ما سيُذكر في الآية؛ وقد عُبِّرَ عن نَقْضِ العَهْدِ مع الله تعالى (بالشِّراء) على طريق الاستعارة التَّصريحيَّةِ، واستُعِير لفظُ الشِّراء للاستبدال؛ أي: أنّهم يستبدلون بما عاهدُوا عليه وبما حلَفُوا به من الأيمان متاعَ الدُّنيا، وأُرِيدَ بذلك تحريفُهم للتَّوراة وتبديلُ ما ورد فيها[3].

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 3/1284، والهرري، حدائق الروح والريحان: 4/383.
(2) الواحدي، التفسير البسيط: 2/176.
(3) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 1/543.

وَالثَّمَنُ القَلِيلُ: مَتَاعُ الدُّنيَا مِنَ الرّشوة وحبِّ الرِّئاسَةِ وَنَحوِ ذَلِكَ، وَالظَّاهِرُ أَنَّهَا فِي أَهلِ الكِتَابِ؛ لِمَا احْتَفَّ بِهَا مِنَ الآيَاتِ الَّتِي قَبلَهَا وَالآيَاتِ الَّتِي بعدَها[1].

دِلَالَةُ (الْبَاءِ) فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿بِعَهۡدِ ٱللَّهِ﴾:

حُـرُوفُ الْمَعَانِي لَـهَـا دِلَالَاتٌ خَـاصَّـةٌ تُضْفِي مَعَانِيَ مَقْصُودَةً عَلَى الْأَلْفَاظِ

ألمحَ ابنُ كثير رحمه الله إلى أنَّ هذه (الباء) جاءت بمعنى المقابلة والعِوض، وهي الدَّاخلة على المتروك[2]، وعبَّر عن ذلك بلفظة (الأَثْمَان)[3]، قَالَ الفَرَّاءُ فِي قَولِهِ ﷻ: ﴿وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗاۚ﴾ [البقرة: 41]: "كُلُّ مَا كَانَ فِي القُرآنِ مِنْ هَذَا الَّذِي قَدْ نُصِب فِيهِ الثَّمَنُ، وأُدخلت البَاءُ فِي المَبِيع أَو المُشتَرَى؛ فإِنَّ ذَلِكَ أَكثر مَا يأْتي فِي الشَّيئين لَا يَكُونَانِ ثَمَنًا مَعلُومًا، مِثْلَ الدَّنَانِيرِ وَالدَّرَاهِمِ، فَمِنْ ذَلِكَ: اشْتَرَيتُ ثَوْبًا بِكِسَاءٍ، أَيُّهما شِئتَ تَجْعَلُهُ ثَمَنًا لِصَاحِبِهِ؛ لأَنَّه لَيسَ مِنَ الأَثمان، وَمَا كَانَ لَيسَ مِنَ الأَثمان مِثْل الرَّقِيق والدُّور وجميعِ العُرُوضِ؛ فَهُوَ عَلَى هَذَا، فَإِذَا جِئتَ إِلَى الدَّرَاهِمِ وَالدَّنَانِيرِ، وَضَعتَ (البَاءَ) فِي الثَّمَن، كَمَا قَالَ فِي سُورَةِ يُوسُفَ: ﴿وَشَرَوۡهُ بِثَمَنِۭ بَخۡسٖ دَرَاهِمَ﴾؛ لأَنَّ الدَّرَاهِمَ ثَمَنٌ أَبدًا، و(البَاءُ) إِنَّمَا تَدخُلُ فِي الأَثمانِ، وكذلك قوله: ﴿لَا يَشۡتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنٗا قَلِيلًاۚ﴾ [آل عمران: 199]، واشْتَرَوُا الحَياةَ الدُّنْيا بِالآخِرَةِ والعَذابَ بِالمَغفِرَةِ؛ فأَدْخِلِ (الباءَ) فِي أَيِّ هَذَيْنِ شِئْتَ حَتَّى تَصِيرَ إِلَى الدَّرَاهِمِ وَالدَّنَانِيرِ؛ فَإِنَّكَ تُدْخِل (البَاءَ) فِيهِنَّ مَعَ العُرُوضِ، فَإِذَا اشْتَرَيتَ أَحدَ هَذَينِ - يَعنِي الدَّنانيرَ وَالدَّرَاهِمَ بِصَاحِبِهِ - أَدخلت (البَاءَ) فِي أَيّهما شِئتَ؛ لأَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنهُمَا فِي هَذَا المَوضِعِ مَبِيعٌ وثَمَنٌ"[4].

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 3/226.
(2) الجمل، الفتوحات الإلهية: 1/442.
(3) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 2/53.
(4) ابن منظور، لسان العرب: (ثمن).

سِرُّ التَّعْبِيرِ بِالْعَهْدِ فِي قَوْلِهِ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشۡتَرُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ﴾:

دَعْـــوَةُ أَهْـلِ الْـكِـتَـابِ إِلَى الْإِيمَانِ بِالنَّبِيِّ ﷺ

في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشۡتَرُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ﴾ إشارةٌ إلى العَهدِ المأخوذِ على أنبيائهم وأتباعهم بالإيمانِ بالنَّبيِّ ﷺ، وهو الواردُ في قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيۡتُكُم مِّن كِتَٰبٖ وَحِكۡمَةٖ ثُمَّ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مُّصَدِّقٞ لِّمَا مَعَكُمۡ لَتُؤۡمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥۚ﴾ [آل عمران: 81] الآية.

وفي التَّعبير بالعَهْدِ دعوةٌ إلى الإيمان بالنَّبيِّ ﷺ؛ لأنَّ العهدَ يُعبَّرُ به عنِ التَّوراة والإنْجيل، وفيهما البشارةُ بالنَّبيِّ ﷺ.

دِلَالَةُ الْإِضَافَةِ فِي قَوْلِهِ: ﴿بِعَهۡدِ ٱللَّهِ﴾:

تَـكْـثِـيرُ الْـمَـعَـانِي الْـقُـرْآنِـيَّـةِ فِي الْأَلْفَاظِ الْمُحْتَمَلَةِ

جيءَ بالإضَافَةُ في قوله: ﴿بِعَهۡدِ ٱللَّهِ﴾ إمَّا لِلفَاعِلِ وَإِمَّا لِلمَفعُولِ؛ أَي: بِعَهدِ اللهِ إيَّاهُ من الإيمان بالرَّسُولِ الَّذي بُعِثَ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُم، وَبِأَيمَانِهِمُ الَّتِي حَلَفُوهَا لَنُؤمِنَنَّ بِهِ وَلَنَنصُرَنَّهُ، أَو بما عُوهِدَ عليه اللهُ[1]، وهما معنيانِ متكامِلَانِ لا تعارُضَ بينَهُمَا، وفي حمل اللَّفظ عليهمَا معًا إثراءٌ للنَّصِّ القرآنيِّ.

سِرُّ وَصْفِ الثَّمَنِ بِالْقِلَّةِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَيۡمَٰنِهِمۡ ثَمَنٗا قَلِيلًا﴾:

ذَمُّ اللهِ تَعَالَى مَنْ تَوَصَّلَ إِلَى نَفْعٍ عَاجِلٍ بِإِضَاعَةِ عَهْدِهِ

الأَيمَانُ هِيَ الحَلِفُ الَّتِي يُؤَكِّدُ بِهَا الإِنسَانُ خَبَرَهُ مِنْ وَعدٍ أَو وَعِيدٍ، أَو إِنكَارٍ أَو إِثبَاتٍ[2]، ولا يُرادُ بـ ﴿ثَمَنٗا قَلِيلًا﴾ القِلَّةُ المُعتبرةُ بإضافة بعض الأثمانِ إلى بعض، بل ذلك باعتبارِ منافع الدُّنيا بمنافعِ الآخرة؛ فذمَّ اللهُ تعالى مَن توصَّل إلى نَفْعٍ عاجلٍ بإضاعةِ عهدِ الله.

ولكون الوفاءِ سببًا لعامَّة الصَّلاح[3]، ولِأَنَّ كُلَّ ثَمَنٍ لَهَا لَا يَكُونُ إِلَّا قَلِيلًا؛ فَصَارَ نَفيُ الثَّمَنِ القَلِيلِ نَفيًا لِكُلِّ ثَمَنٍ[4].

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 3/226.
(2) الرازي، مفاتيح الغيب: 8/266.
(3) الراغب، تفسير الراغب: 2/659.
(4) الزركشي، البرهان: 3/397.

فَائِدَةُ تَعْرِيفِ الْمُسْنَدِ إِلَيْهِ بِاسْمِ الْإِشَارَةِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمْ﴾:

انْحِطَاطُ مَنْزِلَةِ أَهْلِ الْكِتَابِ فِي الشَّرِّ وَالْفَسَادِ

تعريفُ المسنَدِ إليهِ باسم الإشارة ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ﴾ فيه إشعارٌ ببُعدِ أَهلِ الكتاب وانحطاطِ مَنزلتهم في الشَّر والفَسَاد والخُسران[1]، وهمُ الَّذين اشتَرَوا بعهدِ اللّه تعالى وأيمانهم ثمنًا قليلًا[2].

دِلَالَةُ التَّعْبِيرِ بِنَفْيِ الْخَلَاقِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمْ﴾:

النَّاسُ فِي الْآخِرَةِ فَرِيقَانِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ

قول اللّه تعالى: ﴿لَا خَلَٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ معناه: لَا نَصِيبَ لَهُم مِنَ الخَيرِ، فقد نَفى نَصِيب الخَيرِ عَنهُم[3].

وجاء التَّعبيرُ القُرآنيُّ بنفي الخَلاقِ عنهم للدّلالةِ على أنّ تعاطيَ هذا الفِعل جُرمٌ كبيرٌ ليس لفاعله حظٌّ من الخير في الآخرة، وإذا انتَفَى حظُّه من الخَير ثبتَ له الشَّرُ والعِقابُ؛ لأنَّ النَّاسَ في الآخرةِ فريقانِ: فريقٌ في الجنَّة وفريقٌ في السَّعير، فإذا انتفى الخيرُ والجزاءُ الحسنُ لهم؛ ثبتَ لهم بالضَّرورةِ الشرُّ وعذاب النَّار.

تَعَدُّدُ الْكِنَايَاتِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾:

عِظَمُ جَزَاءِ مَنِ اشْتَرَى بِعَهْدِ اللهِ تَعَالَى ثَمَنًا قَلِيلًا

في هذه الآية ذكرُ أربعةِ أنواعٍ من الجزاءِ تنالُ الذين اشتَرَوا بعهدِ اللّه وأيمانِهم ثمنًا قليلًا:

أوَّلها: أنَّ اللّه لَا يُكلّمُهُم، وهو كنايةٌ عن سخطِ اللّه تعالى عليهم وعدم محبَّتِه لهم؛ لأنَّ المُحبَّ مُقبلٌ على حَبيبِه مُتحدِّثًا إليه، ومَن فَقَدَ مَحبَّةَ اللّه فَقَد فَقَدَ مَعنى الوجودِ - كما يفيده حذفُ المتعلِّق من التَّعميم -، أو أنَّ المعنَى: لا يُكلِّمهم اللّه بما يسرُّهم[4]، وجاز أن يكونَ

(1) الدبل، دليل البلاغة القرآنية: 1/481.
(2) ابن عثيمين، تفسير القرآن الكريم - سورة آل عمران: 1/440.
(3) أبو حيان، البحر المحيط: 3/226.
(4) القنوجي، فتح البيان: 2/270.

إسماعُ الله ﷻ أولياءَهُ كلامَهُ بغير سفير، خصوصيَّةً يَخُصُّ بها أولياءَه، فهو لا يُكلِّم هؤلاء أَصْلًا، وتكونُ محاسبتُهُم بكلامِ الملائكة[1].

وثانيها: أنَّه لَا يَنظرُ إليهم يوم القِيامةِ ولا يرعاهم؛ لأنَّهم إذا فَقَدُوا النَّظرَ إليهم منه سبحانه؛ فَقَدُوا كلاءَتَه وحِمايتَه، فعدمُ النَّظر إليهم كنايةٌ عن عدم حمايته لهم من العِقابِ، وأنَّه لا يُنْزِلُ بهم نعيمًا[2].

وثالثُها: أنَّه لَا يُزكِّيهم، وذلك كنايةٌ عن عدم رضَاه سبحانه؛ لأنَّ مَن يرضَى عن شَخصٍ يُزكِّيه ويُطريه ويُثني عليه.

ورابِعُهَا: وهو نتيجةُ ما سبقَ من بُغْضِ الله تعالى لهم وسَخَطِهِ عليهم، ومَنعِ حمايته؛ هو أنَّ لهم عذابًا مُؤلمًا[3].

تَوْجِيهُ الْمُتَشَابِهِ اللَّفْظِيِّ بَيْنَ قَوْلِهِ: ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ وَقَوْلِهِ: ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾:

كُلَّمَا زَادَ الْجُرْمُ؛ قَـوِيَـتْ مَـعَـهُ الْمُؤَاخَذَةُ

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا أُوْلَـٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾﴾ [البقرة: 174]، وقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَـٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُوْلَـٰٓئِكَ لَا خَلَـٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٧﴾﴾.

فقد زادَ في آل عمران: ﴿وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ﴾ بخلاف البقرة، وفي ذلك ثلاثُ نكاتٍ:

أولاها: أنَّ آيةَ البقرة في الَّذين يكتِمُون ما أنزلَ اللهُ ويشترُون بكتمانِهم هذا ثمنًا قليلًا، وأمَّا آيةُ آل عمران؛ فليست في هذا الصِّنْفِ، بل في الَّذين يشتَرُون بعهدِ الله وأَيْمَانِهم ثَمنًا قليلًا، وهو

(1) الواحدي، التفسير البسيط: 5/373.

(2) الطيبي، فتوح الغيب: 4/152.

(3) الزمخشري، الكشاف: 1/376، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 3/1285، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/290.

ذنبٌ أكبرُ وأعظمُ من مُجرَّد الكتمان؛ إذ هُم لم يكتُمُوا الحقَّ فحسب؛ بل غيَّروه وأقسَمُوا على ذلك، واشتَرَوا به ثمنًا قَليلًا؛ فتجاوَزُوا الكتمان إلى تقويةِ الباطلِ، فلمَّا زادوا في الذَّنْبِ؛ زادَهم اللهُ عُقوبةً، فقال: ﴿وَلَا يَنظُرُ إِلَيۡهِمۡ﴾.

وثانيهَا: أنَّ السِّياق في آل عمران في الوفاءِ بعهد الله، فقد قال قبل هذه الآية: ﴿بَلَىٰۚ مَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾، وليس الأمرُ كذلك في البقرة، فَقَدْ سَبق هذه الآيةَ الكلامُ على المَيتةَ والدّمَ ونحوها، قال: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحۡمَ ٱلۡخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيۡرِ ٱللَّهِۖ﴾ [البقرة: 173].

فلمَّا كان المقامُ في آل عمران هو الكلامَ على عهدِ الله تعالى؛ ناسبَ ذلك تشديدَ العُقوبةِ على مُضَيِّعِيهِ أكثر ممَّا في البقرة؛ لأنَّ السِّياق يقتضيه، فما أَجَلَّ هذا الكلامَ وأعظمَه![1].

وثالثُهَا: أنَّ في سورةِ البقرةِ نَفْيَ الكلام يومَ القيامة؛ لأنَّ الكلام فيها عنِ الكِتمان، وهو عدم إظهار كلام الله تعالى المُنَزَّل في التَّوراة، فناسبَه حرمانُ اللهِ تعالى لهم مِن الكلام يومَ القيامة؛ أمَّا آية سورة آل عمران؛ فهي في الوفاءِ بالعهد، وأبرزُ ما في المتعاهِدين أن ينظرَ كلٌّ منهما إلى الآخر نظرةَ احترامٍ وتقدير، فلمَّا خالفُوا ذلك ولم يحترِمُوا العَهدَ؛ طلبًا للحصولِ على مكانةٍ دنيويَّةٍ بالاستِعلاءِ على الآخرين؛ ناسبَهُ الاستهانةُ بهم، والسّخطُ عليهم بعدم نَظَر الله لَهم يوم القِيامة جزاءً وفاقًا.

دِلَالَةُ مَجِيءِ الْمُسْنَدِ إِلَيْهِ اسْمًا مَوْصُولًا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشۡتَرُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ﴾:

مَـــن شـابَـهَ الْمُخَالِفِينَ فِي صِفَاتِهِمْ؛ فَهُوَ لَاحِقٌ بِهِمْ فِي جَزَائِهِمْ

ورد الوعيدُ السَّابقُ المتضمِّنُ أنواعًا من الوعيدِ عَقِبَ مجيءِ المسند إليه اسمًا موصولًا: إيذانًا بأنَّ مَن شابَهَهُم في هذه الصِّفات فهو لاحِقٌ بهم، حتَّى ظنَّ بعضُ السَّلف أنَّ هذه الآية نزلت فيمن حَلَف يمينًا باطلةً[2]، ففي تعريف المسند إليه بالموصوليَّةِ إيماءٌ إلى علَّةِ بناءِ الخبرِ.

(1) الإسكافي، درة التنزيل، ص: 325، والسامرائي، فاضل، التعبير القرآني، ص: 123 - 124.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/290.

فَائِدَةُ إِيرَادِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا يُزَكِّيهِمْ﴾ بَعْدَ قَوْلِهِ: ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾:

لَا ثَنَاءَ وَلَا طَهَارَةَ لِمَنْ يَشْتَرِي بِعَهْدِ اللهِ تَعَالَى ثَمَنًا قَلِيلًا

وَرَدَ قولُه: ﴿وَلَا يُزَكِّيهِمْ﴾ بعد قوله ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ للإشعار بأنَّ هؤلاء المشترين بعهدِ اللّه وأيمانهم ثمنًا قليلًا لا يزكّيهم اللّه في الدُّنيا، بل يُظهرُ عُوارَهم ويفضَحُهم فيها حتّى يعرفَهُم العبادُ، ويعرفوا سقوطَ عدالتهم وزوالَ زَكَائِهم، وكذا لا يزكّيهم اللّه يومَ القيامة، فلا يقبلُ منهم صرفًا ولا عدلًا[1].

ويُضافُ إلى ذلك أنَّ مادةَ (التَّزكية) تَدُورُ حول الطَّهارةِ والثَّناءِ، فلا ذِكرَ لهم على جهةِ الثَّناءِ، ولا تزكيةَ لهم بتطهيرِهم مِن الذُّنوب، بسبب ما قدَّمتْ أيديهم، ولبئس ما قدَّمت من خِيانةٍ في الدِّين، وخِيانةٍ في المالِ عندَ بعضِهم.

دِلَالَةُ خَتْمِ الْآيَةِ بِقَوْلِهِ: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾:

تَأْكِيدُ الْعَذَابِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ

الجملة في قول اللّه تعالى: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ جملةٌ خبريَّةٌ، ووردت اسميَّةً تأكيدًا لمضمونِ الخبرِ، وفيها تقديمٌ لمتعلّق الخبر؛ لإرادة القصرِ، أي: أنَّ المذكورينَ مخصوصونَ بالعذابِ الأليمِ، وهو قصرٌ غيرُ حقيقيٍّ؛ وإنَّما خرج مخرج التَّهويل والتَّعظيم لعذاب هؤلاءِ، حيث إنَّ عذاب غيرهم بالنِّسبة لهم كَلَا عذابٍ، وفيه دِلالةٌ على أنَّ عذابَهم مُستحَقٌ لهم بِسبب ما ارتكَبُوه من جرائمَ وقبائحَ.

وجاء وصف العذاب بصيغة (فَعِيل) بمعنى: مُفْعِل، أي: مُؤلِم؛ للدَّلالة على المبالغة في الصِّفة[2]، ووردَ نكرةً؛ لتَذْهَبَ النَّفسُ فيه كلَّ مَذهبٍ؛ فلا يَعلَمُ قَدرَ شدَّته وفظاعَتِهِ إلَّا اللّه تعالى.

(1) ابن عثيمين، تفسير القرآن الكريم - سورة آل عمران: 1/446.
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 1/460، والدبل، دليل البلاغة القرآنية: 1/481.

الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

شَرَى واشْتَرَى:

النَّاظر في كتب اللُّغة لمادّة (شَرَى)، يجد أنَّها تدُّل على المُماثلة أخذًا وعطاءً، ويصدقُ ذلك على البَيع والشِّراءِ، فقد استُعمِل كلٌّ منهما مكانَ الآخر، لكنَّ أسلوبَ القرآن الكريم ميَّزَ بين دلالةِ الفعلين، فجعل الفِعلَ (شَرَى) في معنى باع الشَّيءَ وأخذَ الثَّمن ماديًّا ومعنويًّا؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ﴾ [يوسف: 20] الآية، ومنه قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: 207] الآية، أمَّا الفعل (اشْتَرَى) فجاء بمعنى الشِّراء، ومنه قوله تعالى: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَـٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ﴾ [البقرة: 16]، ومنه قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ﴾ [يوسف: 21].

إذن كلُّ فِعل مِن الفِعلين له دلالةٌ تُميِّزه عن الآخر.

الشِّراء والبَيع:

البَيْعُ: ضدّ الشِّرَاء، والبَيْع: الشِّرَاء أَيْضا، وَقد بَاعه الشَّيْء وَبَاعه مِنْهُ بيعا فيهمَا، قَالَ الشّاعر:

إِذَا الثُّرَيَّا طَلَعَتْ عِشاء *** فَبِعْ لِرَاعِي غَنَمٍ كِسَاءَ[1]

قيل: إنَّ كلَّ شِراءٍ بيعٌ، وليس كُلّ بيعٍ شِراءً؛ وذلك يختلفُ بالاعتقاد في الثَّمن والمُثَمِّن، ولهذا قيل: بعتُ واشتريتُ مِن الأضداد، فعلى هذا كأنَّه جَعَلَ الثَّمن مُصوَّرًا بصورة البيع؛ فلهذا قيل ذلك، وقد دلَّ على ذلك في موضع آخر: ﴿لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ [آل عمران: 199][2].

العِوَض والثَّمن:

إنَّ الثَّمنَ يُستَعملُ في مَا كَانَ عينًا أَو وَرقًا، والعِوضُ يكون من ذَلِك وَمن غَيره، الْعِوَض مَا تُعُقِّبَ بِهِ الشَّيْء على جِهَة المثامنة؛ وَتقول: هَذَا الدِّرْهَم عوض من خاتمك، وَهَذَا الدِّينَار عوض من ثَوْبك، وَلِهَذَا يُسمى مَا يُعْطي الله الْأَطْفَال على إيلامه إيَّاهُم إعواضا[3]، تَقول: أَعْطَيت ثمن السّلعَة عينًا أَو وَرقًا، وَأعْطيت عوضهَا من ذَلِك أَو من العِوَض، وَإِذا قيل الثَّمنُ من غير العَين وَالوَرق، فَهُوَ التَّشْبِيه[4]،

(1) ابن سيده، المحكم: 2/262.
(2) الراغب، تفسير الرّاغب: 5/482.
(3) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 237.
(4) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 238.

القَسَم والحَلِف واليَمِين:

النَّاظرُ في كتبِ اللُّغةِ لا يجدُ فرقًا بينها؛ بل يعُدُّون ذلك من قَبيل المترادفِ، مع أنَّه لا ترادفَ بينهما؛ فالمادَّة اللُّغويَّة للقَسَم تدلُّ على إفراز النَّصيبِ، وهذا يتأتَّى مِن دلالة القَسَم، حيثُ ينقسمُ النَّاس إلى مُصَدِّق ومُكَذِّب، بخلاف الحَلْف فهو من الحِلف والتَّحالف.والنَّاظر في آياتِ القرآن الكريم، يجدُ استعمالاتِ القَسَم تأتي للأَيْمَانِ الصَّادقةِ، بخلافِ الحَلِف فيأتي مع الأَيْمَان الكاذبةِ؛ يُؤكِّد ذلك ورودُ لفظ القَسَم في جانب المولى - سبحانه وتعالى - مثل قوله: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ ۝١﴾ [القيامة: 1]، وقوله: ﴿۞فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ۝٧٥﴾ [الواقعة: 75]، إلى غير ذلك من الآياتِ، بخلافِ الحَلِف فإنَّه يَرِدُ في جانبِ المنافقين، قال تعالى: ﴿يَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُواْ وَلَقَدۡ قَالُواْ كَلِمَةَ ٱلۡكُفۡرِ﴾ [التّوبة: 74]، وقوله تعالى: ﴿يَوۡمَ يَبۡعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعٗا فَيَحۡلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحۡلِفُونَ لَكُمۡ وَيَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ عَلَىٰ شَيۡءٍۚ أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلۡكَٰذِبُونَ ۝١٨﴾ [المجادلة: 18] إلى غير ذلك من الآياتِ.وممَّا يُؤكِّد أنَّ القَسَم هو اليمينُ الصَّادقُ، ما وردَ في سورةِ المائدة في قوله تعالى: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغۡوِ فِيٓ أَيۡمَٰنِكُمۡ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلۡأَيۡمَٰنَۖ فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ إِطۡعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ مِنۡ أَوۡسَطِ مَا تُطۡعِمُونَ أَهۡلِيكُمۡ أَوۡ كِسۡوَتُهُمۡ أَوۡ تَحۡرِيرُ رَقَبَةٖۖ فَمَن لَّمۡ يَجِدۡ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٖۚ ذَٰلِكَ كَفَّٰرَةُ أَيۡمَٰنِكُمۡ إِذَا حَلَفۡتُمۡۚ وَٱحۡفَظُوٓاْ أَيۡمَٰنَكُمۡۚ﴾ [المائدة: 89]، فوصفَ اليمينَ إذا كان غيرَ صادقٍ ولم يتحقَّق بالحَلِف، وجعل له هذه الكفَّارات.

الكَلَام والتَّكليم:

إنَّ التَّكليمَ تَعليقُ الكَلَام بالمخاطَب، فَهُوَ أخصُّ من الكَلَام؛ وَذَلِكَ أَنَّه لَيسَ كُلُّ كَلَام خَطَابًا للغَير، فَإِذا جعلت الكَلَام في مَوضِع المصدر، فَلَا فرق بَينه وَبَين التَّكليم؛ وَذَلِكَ أَنَّ قَولَك: كَلّمتُهُ كلامًا، وكلَّمتُه تكليمًا سَوَاء، وَأَمَّا قَوْلنَا: فلَانٌ يُخَاطب نَفسَه ويُكلِّم نَفسَه، فمجازٌ وتشبيهٌ بِمن يكلّمها سَوَاء، وَأَمَّا قولنَا: فلَانٌ يُخَاطبُ نَفسَه ويُكلِّم نَفسَه، فمجازٌ وتشبيهٌ بِمن يُكلِّم غَيره؛ وَلِهَذَا قُلنَا: إِنَّ القَدِيم لَو كَانَ مُتكلِّما في مَا لم يزل، لَكَانَ ذَلِك صفةَ نقصٍ؛ لِأَنَّهُ كَانَ تَكَلَّمَ وَلَا مُكَلَّم، وَكَانَ كَلَامه أَيْضا يكونُ إخبارًا عَمَّا لم يُوجد فَيكون كذبًا[1].

(1) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 35.

﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [آل عمران: 78]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

المناسبة بين تبشيع المتاجرة بالكتاب المنزل، وليّ الألسنة بتحريفه

تناولت الآيةُ السَّابقة مُتاجَرة جماعةٍ من علماء اليهود، بما عندهم مِنَ العلم، وبيعه بثمنٍ قليل، وتَحذير الله لهم مِن عواقب ذلك الفِعل؛ لإبراز صورة العقاب الشَّديد على هذا السُّلوك، وجاءت هذه الآية لتُبيِّن سلوك فريقٍ آخر من علماء اليهود في تلاوتهم لكتابهم (التَّوراة)، وَوصْفهم في القُرآن، بأنَّهم يلوون ألسنتهم بهذا الكتاب، فيتْلُونه تلاوةً تلوكه أَلسنَتهم، وتلتوي بها شِفاههم، فلا تخرج الكلمات إلَّا مُتآكلة مُتكسِّرة، يختلِطُ بعضها ببعضٍ، فلا يُدرى مَدلولها، ولا يُهتدى إلى وجه الحقِّ فيها، وينسبون ذلك زُورًا وكذبًا إلى الله تعالى، وهم يعلمون أنَّهم يكذبون[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿لَفَرِيقًا﴾: الفِرْقُ والفِرْقَةُ والفَرِيقُ: الطَّائِفةُ مِنَ الشَّيءِ المُتَفَرِّق. والفِرقةُ: طائِفةٌ مِنَ النَّاس، والفَريقُ أكثر منه[2]. وقال الرَّاغب: الفَريقُ: الجَماعة المُتفرّقة عَن آخَرين[3]، وفي تاج العروس عن حواشي عبد الحكيم: " أنّ الفريق يجيءُ بمعنى الطّائفة، وبمعنى الرّجل الواحد، وفي اللّسان: الفرقة، والفرق، والفريق: الطّائفة من الشّيء المتفرّق. وقال ابن برّي: الفريق من النّاس وغيرهم: فرقة منه، والفريق: المُفارق، قال جرير:

(1) الخطيب، التّفسير القرآنّي للقرآن: 2/504.
(2) ابن منظور، لسان العرب: (فرق).
(3) الرّاغب، المفردات: (فرق).

أَتَجْمَعُ قَوْلًا بِالْعِرَاقِ فَرِيقُهُ *** وَمِنْهُ بِأَطْلَالِ الْأَرَاكِ فَرِيقُ[1]

والمُراد بالفريق في الآية بعض علماء اليهود الَّذين كانواْ حول المدينة.

2) ﴿يَلْوُونَ﴾: يُقال: لَوَى رَأسَهُ وعُنُقَهُ ولَواهُما - مُخَفَّفًا ومُشَدَّدًا - وقد قُرِئَ بهما. وأصلُ اللَّيّ الفَتل، والمعنى: يُقلِّبونَ ألسنتهم بالتّحريف والزِّيادة[2]، و"اللّيُّ هُنَا: المَيل عَن صَحِيح وجوهه، إِلَى سوء تَأْوِيله، مَأْخُوذ من اللّيّ في الشَّهَادَة وَهُوَ المَيل؛ قَالَه ابْن قُتَيْبَة"[3]، وفي كليّات الكفويّ: "﴿يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ﴾: يفتلونها أي: يصرفونها عند القراءة، عن المنزل إلى المحرّف"[4].

3) ﴿أَلْسِنَتَهُم﴾: اللِّسانُ مَعروفٌ، وهو مُذَكَّرٌ والجَمعُ ألسُنٌ، فإذا كَثُرَ فهي الألسِنَةُ. ويُقالُ لَسَنتُهُ، إذا أَخَذتَهُ بلسانِكَ، والمَلسُونُ: الكَذَّابُ. وهذا مُشتَقٌّ مِنَ اللِّسان؛ لأنَّهُ إذا عُرِفَ بذلك لُسِنَ، أي: تَكَلَّمَت فيه الألسِنَةُ[5]، واللِّسانُ: اللُّغةُ، قال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ﴾ [مريم: 97]، وقال تعالى: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ۝١٩٥﴾ [الشّعراء: 195]، وقال تعالى: ﴿وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ﴾ [الرّوم: 22]، والمُراد اختلاف اللُّغات واختلاف النَّغمات، فكلُّ إنسانٍ له نَغمةٌ مخصُوصة يُميِّزها السَّمع[6].

4) ﴿لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾: الحِسبانُ: مِنَ الظَّنِّ، حَسِبَ يَحْسِبُ ويَحْسَبُ حِسبانًا[7]، وقال الفرّاء: حسبت الشّيء: ظننتُهُ أَحْسَبُهُ وأَحْسِبُه، والكسر أجودُ اللّغتين[8]، ومعنى ﴿لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾، أي: لتظنُّوا أنّه مِنَ التَّوراة، فالكتاب هنا غير الأوَّل، وأراد أنَّهم يغيِّرون التَّوراة إذا أظهرواْ لكم الاحتجاجَ بالتَّوراة، وإذا احتججتُم عليهم بالشَّيء مِن نعتِ محمَّدٍ مُضافًا إلى التَّوراة، وهذا تزويرٌ منهم، فلا تَقبَلوا ذلك منهم[9].

5) ﴿ٱلْكَذِبَ﴾: الكَذِبُ مَعروفٌ، وهو الكِذَابُ، خِلافِ الصِّدقِ. وتَلخِيصُهُ أنّهُ لا يَبلُغُ

(1) الزَّبيديّ: تاج العروس: (فرق).
(2) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 107، وهذه قراءة شاذَّة.
(3) عيّاض، مشارق الأنوار: 1/366.
(4) الكفويّ، الكليّات، ص: 988.
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (لسن).
(6) الرّاغب، المفردات: (لسن).
(7) ابن عبّاد، المحيط: (حسب).
(8) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (حسب).
(9) النّسفيّ، التّيسير في التّفسير: 4/121.

نِهايةَ الكلام في الصِّدق. وكَذَّبتُ فُلانًا: نَسَبتُهُ إلى الكَذِب، وأكذَبتُهُ: وَجَدتُهُ كاذبًا[1]، "ويقول الرّجل للرّجل: (لَا مَكْذَبَة)، أي لا أكذبك، وقرئ: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ﴾[2] [الأنعام: 33]، أي لا يقولون إنّك كذّاب، و﴿يُكْذِبُونَكَ﴾[3] [الأنعام: 33] أي لا يصادفُونك كاذبًا[4]، ومن أمثالهم: (المَعَاذِرُ مَكَاذِبُ)، أي لا بدّ أن تختلط بالكذب، ولا تنفكُّ عنه[5].

6) ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾: العِلمُ: إدراكُ الشَّيءِ بحَقيقَتِه، أي: هُم يُدرِكونَ أنَّهم يقولون الكذب على الله تعالى[6]، قال صاحب جامع البيان: "يعني بذلك: أنّهم يتعمّدون قِيلَ الكذبِ على الله، والشّهادةَ عليه بالباطل، والإلحاقَ بكتاب الله ما ليس منه، طلبًا للرّياسة، والخسيسِ من حُطام الدّنيا"[7].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

إنَّ مِنَ اليهود لَطائفةٌ يَحْرِفونَ ألسِنَتَهُم بذِكر ما ليس من التَّوراة المُنزَّلة من عند الله، لتَظنُّوا أنَّهم يقرؤون التَّوراة، وما هو مِنَ التَّوراة، بل هو مِن كذِبهم وافترائهم على الله، ويقولون: ما نَقرَؤُه مُنزَّلٌ من عند الله، وليس هو من عند الله، ويقولون على الله الكَذِبَ وهم يعلمون كَذِبهم على الله ورسله[8].

لَيِّ الألسنة بالكتاب المحرّف، لا يبرّر كذبَ أهل الكتاب على الله

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

سِرُّ عَطْفِ هَذِهِ الْآيَةِ عَلَى مَا قَبْلَهَا:

عُطِفَ قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ﴾ على ما قبلَه ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ﴾؛ لما بينهما من التَّوسُّطِ بين الكمالَيْنِ؛ إذِ الجملتان خبريَّتانِ، وبينهما تناسبٌ لفظيٌّ وآخرُ

مَوْقِفُ اليهودِ مِنَ الإسلام واحدٌ وَإِنِ اخْتَلَفَتْ طُرُقُهُمْ

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (كذب).
(2) وهي قراءة العشرة عدا نافعا والكسائيّ، ابن الجزري، النشر: 2/258.
(3) وهي قراءة نافع والكسائيّ، ابن الجزري، النشر: 2/257.
(4) ابن دريد، جمهرة اللّغة: 1/305.
(5) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: 2/187.
(6) الرّاغب، المفردات: (علم).
(7) ابن جرير، جامع البيان: 6/536.
(8) جماعة من علماء التَّفسير، المختصر في تفسير القرآن الكريم، ص: 60.

معنويٌّ، فالتَّناسبُ اللَّفْظِيُّ اشتراكهما في الاسميَّةِ، والمعنويُّ اتِّفاقُهما في المُتَحَدَّثِ عنه؛ إذِ الآية السَّابقة في شأن اليهود، وهذه أيضًا في شأنهم، فالمُتحَدَّثُ عنه واحدٌ؛ وهم جماعةُ اليهود وإن تعدَّدت طُرقهم.

دِلَالَةُ التَّوْكِيدِ وَالتَّخْصِيصِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا﴾:

شَنَاعَةُ تَحْرِيفِ كُتُبِ اللهِ تَعَالَى

أُكِّدَ قول الله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ﴾ بِعَدَدٍ مِنَ التَّأكيدات؛ وهي: ﴿وَإِنَّ﴾، واسميَّةُ الجُملة، واللَّامُ المزحلقة، وتقديم ما حقّه التَّأخير، وأُكِّد بهذه الألوان من المؤكِّدَاتِ؛ لِشناعةَ صنيعِهم وبشاعَتِهِ، حتَّى إنَّ النُّفوسَ تستبعدُ وقوعَهُ.

والضَّمير في ﴿مِنْهُمْ﴾ يَعودُ على أهل الكِتاب؛ لأنَّ سياقَ الآيات واحدٌ، فأفاد الضَّمير هنا التَّأكيد على وحدة القصَّة والسِّياق[1].

ولـمَّا نَسب اللهُ تعالى هؤلاء القَوم إلى الكذب عُمومًا؛ نَبَّه على نوع خاصّ منه هو أكذب الكَذب، فقال: ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا﴾، أي: جُبِلُوا على الفُرقَةِ، فهم لا يزالون يَسعَونَ في التَّفريق[2]، وهذا مِن عَدلِ اللّه في كتابه الكريم في حُكمِه على الطَّوائف، فلا يُعمِّم الحكم عليها، ولكن يَخُصُّ بالذِّكر الَّذين ارتكبوا ابتداءً كِبرَ الشَّرِّ، ولهذا نَسَب التَّحريفَ ابتداءً إلى طائفةٍ منهم، وإنْ كان الضَّلالُ شاملًا[3].

دِلَالَةُ (مِنْ) فِي قَوْلِهِ: ﴿مِنْهُمْ لَفَرِيقًا﴾:

إِنْصَافُ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ لِأَهْلِ الْكِتَابِ

(مِنْ) في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا﴾ تُفيد التَّبعيضَ، ففيه إشعارٌ بأنَّ هذا الصَّنيعَ المَذموم مخصوصٌ ببعض اليهود لا كلِّهم، وهذا من إنصافِ القرآن الكريم مع خصومِهِ.

(1) ابن عثيمين، تفسير القرآن الكريم: 1/447.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 4/464.
(3) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 3/1286.

دلَالَةُ لَفْظ (الفريق) بَعْدَ ذِكْرِ (مِن) التَّبْعِيضِيَّةِ دونَ (الطَّائفة):

اللِّيّ بالألسنة سِمَةُ أكثر اليهود

لَمَّا كانت (من) دالَّةً على التَّبعيضِ، وكانَ ذلك مُحْتَمِلًا لأن يكون ليُّ الألسنةِ في تحريف الكتاب واقعًا من أكثرهم أو من أقلِّهم؛ لصِدْقِ التَّبعيضِ على الوَجْهَيْنِ؛ جاءَ التَّعبير بذكر الفريقِ دون الطَّائفةِ؛ للإشعارِ بأنَّ اللَّيّ واقِعٌ من أكثرهم، لا مِنْ قلَّةٍ مِنهم، وذلك لأنَّ كلمة (الفريق) دالَّةٌ على عددٍ أكثر مما تدلُّ عليه (الطَّائفة)، يُؤكِّد ذلك قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ﴾ [التوبة: 122]؛ فالطَّائفةُ جزءٌ مِنَ الفريق.

وفي اختيار لفظ (الفريق) إيماءٌ إلى المعنَى الذي دلَّ عليه أصلُ الاشتقاقِ من التَّفريق، وهذا مَسلك من مسالكهم المذمُومة في تفريق كلمة المسلمين، واللَّامُ الدَّاخلةُ على لفظ ﴿لَفَرِيقًا﴾ من قوله: ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا﴾ تُؤكِّد قَصدَ فِعْلِهم.

سِرُّ تَقْدِيمِ الْجَارِّ وَالْمَجْرُورِ ﴿مِنْهُمْ﴾:

شِدَّةُ انْحِرَافِ عُلَمَاءِ الْيَهُودِ

قُدِّم الجارُّ والمجرور في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا﴾ تَشْنِيعًا عليهم، وإبرازًا لسُلوكهم في التَّعامل مع التَّوراة بعدم تقديسها، بل يَلْوُون ألسنتهم بها، وهذا لا يتأتَّى إلَّا من عُلمائهم، فَهُم الَّذين يقدرون على هذا اللَّون مِنَ التَّحريف الأدائيّ.

نُكْتَةُ التَّعْبِيرِ بِالْمُضْمَرِ ﴿مِنْهُمْ﴾ دُونَ (مِنَ الْيَهُودِ):

ذِلَّةُ الْمُحَرِّفِينَ كُتُبَ اللهِ الْمُفْتَرِينَ الْكَذِبَ عَلَيْهِ

عُبِّر بالمُضمَر في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا﴾ دُون الاسم الظَّاهرِ؛ إذلالًا لهم، وتهوينًا من شأنهم، وإظهارًا لعدم الاكتراث بهم، فهم ليسوا أهلًا للذِّكْر، وهذا شأنُ المفترِينَ، فقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾﴾ [الأعراف: 152].

دِلَالَاتُ صُورَةِ الْفِعْلِ ﴿يَلْوُونَ﴾ فِي الرَّسْمِ:

كُتِبَ هذا الفعل بواوٍ واحدة في رسم المصحف، وأُلحقت الواو

الثَّانية في ضبطِهِ واوًا صغيرة، والأَصل أن تُكتب بواوين (يَلْوُون)، وقد وجَّه عُلماء الرَّسم حَذْفَ الواو بأوجهٍ؛ مِنْهَا: أنَّ ذلك للاكتفاء بإحداهما عن الأخرى، أو لقصد التَّخفيفِ، أو لكراهة اجتماع صورتين مُتَّفقتين في الشَّكل.

سُلُوكُ الْيَهُودِ طُرُقًا مُتَنَوِّعَةً لِلْوُصُولِ إِلَى تَحْرِيفِ كِتَابِهِمْ

ويمكن أن يُضاف إلى ذلك أنَّ الحذفَ يُشير إلى معنًى في سُلوكهم هذا؛ هو محاولة إسقاط بعض المُبشِّرات بنبُوَّته ﷺ؛ لأنَّ الحذف معناه في اللُّغة: الإسقاط، وهذا هدفهم، وفي الحذفِ أيضًا إشارةٌ إلى السُّرعة؛ فهم يسرعون في نُطق الكلام لئلَّا يُفهمَ المُرادُ منه، وبذلك يَتِمُّ لهم ما يرُومُونَهُ من التَّلبيسِ على مَن يسمعهم.

فَائِدَةُ التَّعْبِيرِ بِالفِعْلِ المُضَارِعِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَلْوُونَ﴾ و﴿يَقُولُونَ﴾:

جَرَاءَةُ الْيَهُودِ فِي تَحَرِّيهِمُ الْكَذِبَ وَافْتِرَائِهِمْ عَلَى اللهِ تَعَالَى

التَّعبير بالفعل المضارع في هذين الفعلين ﴿يَلْوُونَ﴾ و﴿يَقُولُونَ﴾ مُشعرٌ بتجدُّدِ لَيِّهم وتحريفِهم كلَّما سنحت لهم الفُرصة، وتجدُّدِ افترائهم الكذبَ على اللّه تعالى، وأنَّ ذلك دَأْبُهم وعادتُهُم[1].

سِرُّ التَّعْبِيرِ بِـ ﴿يَلْوُونَ﴾ دُونَ مُرَادِفَاتِهَا:

التَّحْرِيفُ وَالتَّبْدِيلُ أَمَارَةُ ضَعْفِ حُجَّةِ أَعْدَاءِ الْإِسْلَامِ

اللَّيّ في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ﴾ يحتمل أن يكون حقيقةً؛ بمعنى: تَحريف اللِّسان عن طريق حَرفٍ من حروف الهجاء إلى طريق حَرفٍ آخرَ يُقاربه؛ لتعطي الكلمة في أُذُن السَّامع صوتَ كلمةٍ أخرى، وذلك مَذمومٌ، فعبَّر اللّه تعالى عَن قِراءَتِهم ذلكَ الكتابَ الباطِلَ بلَيِّ اللِّسان ذَمًّا لهم وعَيبًا، وهو كناية عَنِ الخلط والتَّبديل الَّذي هو لازمُ اللَّبس والاشتباه[2]، ولم يُعَبِّر عنها بالتَّحريف؛ لأنَّه يكون بتبديل المعاني من جهة اشتباه الألفاظ واشتراكهما، وتشعّب التَّأويلات فيها، بخلاف التَّبديل المَحض؛ فليس بِلَيٍّ، يُؤكِّد ذلك ما نقله الرَّازيّ عن القَفَّال في معنى اللَّيّ أنَّهم

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 4/465، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/292.
(2) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 4/153.

يَعْمِدُونَ إلى اللَّفظة فيحرِّفونها في حركات الإعراب تحريفًا يتغيَّر به المعنى، وهذا ما فعله اليهود في الآيات الدَّالّة على نُبوَّة سيِّدنا محمَّد ﷺ في التَّوراة[1].

وممَّا يُؤكِّد ذلك أنَّ المادَّة اللُّغويّة للفِعل ﴿يَلْوُونَ﴾ في كلِّ إطلاقاتها تدُلُّ على سُلوكٍ سيّئٍ، فهي بمعنى عَطفِ الشَّيء وردِّه عن الاستقامة إلى الاعوجاج، ومنه قولهم: الْتَوَى فلانٌ عليَّ؛ إذا غيّر أخلاقه عن الاستواء إلى ضِدِّه، ولوى لسانَه عن كذا: إذا غيَّره، وهذه المعاني تصدُقُ على فعل اليهود؛ لأنَّهم يقصدون معنًى رئيسًا؛ هو عدم الإقرار بنُبوَّة نبيِّنا ﷺ، فاستعملوا كلَّ الأساليب المادِّيّة والمعنويَّة من أجل ذلك، وهذا ما يحمله البناء اللُّغويّ للفِعل ﴿يَلْوُونَ﴾.

ويحتمل أن يكون اللَّيّ هنا مَجازًا عن صَرف المعنى إلى معنى آخر، كقولهم: لَوَى الحُجَّةَ، أي: ألْقى بها على غير وجهها، وهو تحريفُ الكَلِم عن مواضعه، بالتَّأويلات الباطلة، والأقيسة الفَاسدة، والموضُوعات الكاذبة، وينسبون ذلك إلى الله تعالى.

نُكْتَةُ نِسْبَةِ اللَّيِّ إِلَى الْأَلْسِنَةِ فِي قَوْلِهِ: ﴿يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم﴾:

أفادَتْ نسبةُ اللَّيِّ إلى الألْسِنةِ معنًى مُهمًّا؛ هو تخصيص نوع اللَّيّ بأنَّه كلاميٌّ في اللَّفظ أو المعنى؛ لأنَّ اللَّيّ يُستعمل أيضًا في ليِّ العُنق، ومعناه: الاستكبار، وهو سُلوك آخر لليهود، لكنَّ السِّياق هنا في أمر الكلام لفظًا ومعنًى، بدليل قوله: ﴿بِٱلْكِتَٰبِ﴾ وهو التَّوراة، وجاء ذلك بيِّنًا في سورة النِّساء في حديث القرآن عَنِ اليهود في قوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَٰعِنَا لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ﴾ [النّساء: 46]، وهذا واضحٌ في تكسير الكلام عند أدائه حتَّى يَحْمِلَ أكثر من معنًى، وهذا ظاهرٌ في: ﴿وَرَٰعِنَا﴾؛ إذ يَحْتَمِلُ أن يكونَ مِن الرُّعونة، أو مِن رَعي الغَنم يقصدون: راعينا، وأيضًا قولهم في السَّلام على رسول الله ﷺ: (السَّامُ عليك) بإسقاط اللَّام بدلًا من (السَّلام عليك)، والمعنى الَّذي يريدونه: الموت؛ قبَّحهم الله في كلِّ زمانٍ ومكانٍ.

حِرْصُ الْيَهُودِ عَلَى إِخْفَاءِ مُرَادِهِمْ مِنَ الْكَلَامِ جُبْنًا مِنْهُمْ وَخَوَرًا

(1) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 8/268.

عِلَّةُ التَّعْبِيرِ عَنِ التَّوْرَاةِ بِالْكِتَابِ:

انْكِشَافُ أَمْرِ الْيَهُودِ فِي تَحْرِيفِهِمْ كِتَابَهُمْ

عُبِّر عَنِ التَّوراة بالكتاب في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ﴾ إشارةً إلى أنَّ هذا العملَ منهم مفضوحٌ؛ لأنَّ التَّوراة مكتوبةٌ، ولها أصلٌ سماويّ لا يجوز التَّحريف فيها بأيِّ صورة مِن صور التَّحريف، ويمكن أن يكون المُراد المكتوب، واللّيُّ فيه أصعب؛ لتعدُّد نُسَخه.

دِلَالَةُ اللَّامِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾:

لَا يَلْتَبِسُ كَلَامُ اللهِ تَعَالَى بِكَلَامِ غَيْرِهِ إِلَّا عَلَى ضَعِيفِ الْعَقْلِ نَاقِصِ الْفِطْرَةِ

اللَّام في قوله: ﴿لِتَحْسَبُوهُ﴾ للتَّعليل، أي: أنَّهم يَفعلون هذا ليُوهِموا النَّاس أنَّه من عند الله تعالى[1]، ولمَّا كان كلامُ الله سبحانه وتعالى له مِنَ الحلاوة والجلالة بحيث لا يلتبس بغيره إلَّا على ضعيفِ العقل ناقصِ الفِطرة؛ عَبَّر بالحسْبَان؛ تَنفيرًا عن السَّماع منهم، وتَنبيهًا على بُعد ما يَسمَعه الإنسان من غيره، فقال: ﴿لِتَحْسَبُوهُ﴾، أي: الَّذي لَوى به اللِّسان فحَرَّف مِنَ الكتاب المُنزَّل من عند الله تعالى[2].

سِرُّ التَّعْبِيرِ بِالحسْبَانِ دُونَ الظَّنِّ:

حِرْصُ الْيَهُودِ عَلَى تَعْمِيَةِ أَمْرِهِمْ وَإِخْفَاءِ جَرَائِمِهِمْ

عادةً ما يُفسَّر الحسبان بالظَّنِّ، إلَّا أنَّنا إذا نظرنا إلى الأصل اللُّغويّ؛ نجد أنّ مادّة (حَسِبَ) لها معنًى يختلف عن مادّة (ظَنَّ)، فأصلُ الحساب استعمال العَدَد، قال تعالى: ﴿لِتَعْلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَۚ﴾ [يونس: 5]، والحسبانُ: أن يُحكَمَ لأحد النَّقيضين من غير أن يخطُر الآخر بباله فيحسِبُه ويَعقِدُ عليه الأُصبُع، ويكون بغرض أن يعتريه فيه شكٌّ، وأمَّا الظَّنّ فهو اسم لما يحصُل عن أمَارة، متى قويَت أدَّت إلى العِلم، ومتى ضَعُفَت جدًّا لم تتجاوز حدَّ الوهم[3]،

(1) ابن عثيمين، تفسير القرآن الكريم: 1/449.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 4/465.
(3) الراغب، المفردات: (حسب)، (ظن).

وقال الزَّركشيُّ: أصلُ الظَّنِّ للاعتقاد الرَّاجح، وقد يأتي بمعنى اليقين؛ لأنَّ الظَّنَّ فيه طَرَفٌ مِنَ اليقين[1].

فالدّلالة اللُّغوية لكُلٍّ منهما تفترق عن الأُخرى، وإن كان بينهما قُربٌ في المعنى؛ ولذلك نجد أنَّ استعمال ﴿لِتَحۡسَبُوهُ﴾ هنا دون (لتظنُّوه) له دلالة في توظيف ما يريده اليهود من لَيِّ ألسنتهم في التَّوراة أمام المسلمين؛ فلا يَرِدُ بخاطرهم أنَّه كَذِبٌ وتَضليلٌ، ويصدّقونهم في قولهم، بخلاف الظَّنّ فيُعطي قدرًا من الشَّكِّ في أقوالهم، وهم لا يريدون ذلك.

وممَّا يُؤكِّد محاولتَهُمُ التَّعميةَ على المسلمين: أنَّ اللّه تعالى هو الَّذي تولَّى نفيَ ادِّعاءاتهم بقوله: ﴿وَمَا هُوَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾.

دِلَالَةُ تَكْرَارِ ﴿ٱلۡكِتَٰبِ﴾ فِي الْآيَةِ:

تَعَدُّدُ مَقَاصِدِ التَّكْرَارِ بِحَسَبِ مَقَامَاتِ الْكَلَامِ

تكرَّرَت كلمةُ الكِتاب في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنۡهُمۡ لَفَرِيقٗا يَلۡوُۥنَ أَلۡسِنَتَهُم بِٱلۡكِتَٰبِ لِتَحۡسَبُوهُ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ ثلاثَ مرَّات بدلالاتٍ مُختلفة؛ إذ ليس التّكرار بمقصور على التَّعظيم، بل مقامه كُلّ مقام يُراد منه تسجيل انتساب الفعل إلى صاحب الاسم المُكَرَّر[2]. فالكتابُ الأوَّلُ: ما كتبوه بأيديهم، وهو المذكور في قوله: ﴿فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ يَكۡتُبُونَ ٱلۡكِتَٰبَ بِأَيۡدِيهِمۡ﴾ [البقرة: 79]، والكتابُ الثَّاني: التَّوراةُ، والثّالثُ: جنس كُتُب اللّهِ تعالى، أي: ما هو مِن شيءٍ مِن كُتب اللّه تعالى وكلامه[3].

وفي تكرار لفظ ﴿ٱلۡكِتَٰبِ﴾ أسلوبُ التَّرديدِ؛ وهو تَكرار اللَّفْظِ متعلِّقًا بِغَيْرِ ما تعلَّق به أوَّلًا.

عِلَّةُ تَكْرَارِ الِاسْمِ الْأَحْسَنِ ﴿ٱللَّهِ﴾ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَيَقُولُونَ هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ﴾:

تَكْرَارُ الْأَلْفَاظِ مُشْعِرٌ بِأَهَمِّيَّتِهَا وَعَظَمَتِهَا

تَكرارُ الاسم الأحسن ﴿ٱللَّهِ﴾ يُرادُ به الاهتمام والتَّعظيمُ، وذلك يَجُرُّ إلى الاهتمامِ بالخبرِ المُتعلِّق به[4].

(1) الزّركشّي، البرهان: 4/156.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/120.
(3) الراغب، المفردات: (كتب)، والسُّيوطيّ، الإتقان: 3/228.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/292.

سِرُّ تَكْرَارِ النَّفْيِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ وَقَوْلِهِ: ﴿وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾:

تَنَوُّعُ طُرُقِ الرَّدِّ عَلَى الْمُبْطِلِينَ

في قوله تعالى: ﴿وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ ردٌّ عليهم في إخبارهم بالكَذب، وتأكيدٌ للنَّفْيِ الوارِدِ في قوله: ﴿وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾؛ حيث نَفَى أوَّلًا نفيًا أخصّ؛ وذلك أنَّ التَّعليلَ كان للأخصّ، ونَفَى هنا نَفيًا أعمَّ؛ إذِ الدَّعوى منهم كانت أعَمَّ؛ لأنَّ كَونَه مِن عند الله تعالى أعمُّ مِن أن تكونَ في التَّوراة أو غيرها[1].

نُكْتَةُ الْإِظْهَارِ فِي مَوْضِعِ الْإِضْمَارِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ ﴿وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾:

عِظَمُ جُرْمِ الْيَهُودِ فِي الْكَذِبِ عَلَى اللهِ تَعَالَى

في قول الله تعالى: ﴿لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾ إظهارٌ في مقامِ الإضمار؛ فقد أُظْهِرَ لفظ ﴿ٱلْكِتَٰبِ﴾، وكذا الاسم الأحسن ﴿ٱللَّهِ﴾ في محلِّ إضمارهما؛ إذ قال: ﴿وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾، وكان مقتضى الظَّاهرِ: (وما هو منه)، وقال سبحانه: ﴿وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾، وكان مقتضى الظَّاهر: (وما هو مِن عِندِهِ)، وقال ﷻ: ﴿وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾، ومقتضى الظَّاهر: (ويقولون عليه)؛ وذلك لقصد تهويل ما أَقدَموا عليه وبيانِ جراءتِهِمْ بِالافتراءِ على الله تعالى والقول عليه بلا علمٍ[2].

فَائِدَةُ التَّعْبِيرِ بِـ: ﴿مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ بَعْدَ قَوْلِهِ: ﴿مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾:

مَسَالِكُ الْيَهُودِ فِي الافْتِرَاءِ وَالْكَذِبِ مُتَعَدِّدَةٌ

تظهر فائدة التَّعبير بـ ﴿مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ بعد قوله: ﴿مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ في بيان مَسالكهم وطرقهم في صناعة الافتراء والكذب، فقد جاء القول الأوَّل تعريضًا، والآخر تَصريحًا منهم بالكذب، أي: يَكذِبونَ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/52، والقسم العلمي بمؤسّسة الدّرر السّنيَّة، التّفسير المُحرَّر: 2/318.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/288.

تَعريضًا وتصريحًا، أو تلاوةً وتأويلًا؛ وفي هذا دِلالة على أنَّ إيهام الكَذب قبيحٌ كالتَّصريح[1].

الْفَرْقُ بَيْنَ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾، **وَقَوْلِهِ:** ﴿وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾:

كَذِبُ الْيَهُودِ عَلَى اللهِ تَعَالَى كَذِبًا خَاصًّا وعَامًّا

ذكر الرَّازيُّ أنَّ مِنَ النَّاس مَن ذهب إلى أنَّه لا فَرقَ بين الجملتين، وإنَّما كُرِّرَ هذا الكلام بلفظَين مُختلِفَين لقصدِ التَّأكيد، أمَّا المُحقِّقون فقد قالوا: إنَّ المُغايرةَ حاصلةٌ؛ وذلك لأنَّه ليس كُلّ ما لم يكن في الكتاب؛ لم يكن مِن عند الله تعالى، فإنَّ الحُكم الشَّرعيّ قد ثَبَتَ تارَةً بالكتاب، وتارَةً بالسُّنَّة، وتارَةً بالإجماع، وتارَةً بالقياس والكُلُّ من عند الله[2]، وكذا في شريعة أهل الكتابِ قد يثبتُ عندهم من الشَّرْعِ ما لم يُذكَر في كتابهم وإنَّما بلَّغهم به أنبياؤُهُمْ عن الله تعالى، فيكون اليهود المذكورونَ في الآيةِ قد افترَوُا الكذبَ على الله تعالى افتراءً خاصًّا بتحريفِ كتابهم، وكذبًا عامًّا في تحريف عموم الشَّرْعِ، فيكون ضربًا من ذكر العامِّ بعد الخاصِّ.

دِلَالَةُ التَّعْبِيرِ بِقَوْلِهِ: ﴿وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾:

مُبَالَغَةُ الْيَهُودِ فِي التَّحْرِيفِ

دلَّ قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ على أنَّ اليهود لم يكتفوا في مَسْلَكِهم هذا بالتَّورية والتَّعريض في أنّ المُحَرَّف نازلٌ من عند الله تعالى، بل تجرأوا على الله فعَبَّروا بطريقة التَّصريح مَع ما ذُكِرَ مِنَ اللَّيِّ والتَّحريف.

والجملة تأكيدٌ للنَّفي الَّذي قبلها، وليس الغَرض التَّأكيد فقط، وإلَّا لما توجَّه العطف، بلْ فيه زيادةُ التَّشنيع أيضًا بأنَّهم لم يكتفوا بذلك التَّعريض حتَّى ارتكبوا هذا التَّصريح؛ لشدَّةِ جراءَتِهم على الله تعالى، وبهذا حصلت المغايرة المُقتضية للعَطف[3].

(1) الطِّيبيّ، فتوح الغيب: 4/153 - 154.
(2) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 8/268.
(3) الآلوسّي، روح المعاني: 2/19، والقنوجيّ، فتح البيان: 2/271.

سِرُّ ذِكْرِ الْمُسْنَدِ إِلَيْهِ وَتَعْرِيفِهِ بِالضَّمِيرِ ﴿هُوَ﴾ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾:

كَـذِبُ الْيَـهُـودِ وَإِصْرَارُهُمْ عَلَى ذَلِكَ

ذُكِرَ المسندُ إليه في قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ وعُرِّفَ بالضَّمير ﴿هُوَ﴾ لإفادةِ إصرارهُم على ما يَدَّعُون مع عِلمِهم بأنّهم يَكذِبونَ ويَفترونَ، وذِكرُه في نفي ادِّعائهم تأكيدٌ لِهذا النَّفي، وبيان أنَّه مُنصبٌّ على كلامِهم، لا على أصل الكتاب، قال الزَّمخشريّ في قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ تأكيدٌ لقوله: ﴿لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ وزيادةُ تَشنيعٍ عليهم، وتَسجيل بالكذب، ودليل على أنَّهم لا يعرِّضون، ولا يُوَرُّون، وإنَّما يُصرِّحونَ بأنَّه في التَّوراة هكذا، وقد أنزلَه اللّه تعالى على موسى عليه السلام كذلك؛ لفرط جراءتهم على اللّه تعالى، وقَساوة قُلوبِهم، ويَأسهم مِنَ الآخرة"[1].

دِلَالَةُ تَقْدِيمِ الْمُسْنَدِ إِلَيْهِ عَلَى الْخَبَرِ الْفِعْلِيِّ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾:

كَـذِبُ عُـلَـمَـاءِ الْـيَـهُـودِ عَـلَى اللهِ تَـعَـالَى مَعَ عِلْمِهِمْ بِكَذِبِهِمْ

يرى عبد القاهر الجرجانيُّ أنَّ تَقديمَ المُحَدَّث عنه يفيد تنبيهَهُ، ويقتضي تأكيد الخبر وتحقيقه[2]، وأنّنا إذا تَأمَّلنا وجدنا هذا الضَّرب مِنَ الكلام يَجيء في كُلِّ مَقام يحتاجُ إلى تأكيد الخَبر وتَقويَته، ففي قوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ صِيغَ الخبر في الآية كما ترى؛ لأنَّ الَّذي يَكذب لا يَعترف بأنَّه يَكذِب، فَضلًا عن أنْ يَعترِفَ بأنَّه يَعلَم أنَّه كاذب، ومن هنا كان سياقُ العبارة سياقَ إنكارٍ، فاحتيجَ إلى هذا القَدر مِنَ التَّوكيد، والبلاغيُّون يقولونَ: إنَّ هذا الأسلوب يأتي فيما سَبَقَ فيه إنكارٌ مُنكِر، ويَذكرونَ هذه الآية شاهدًا على ذلك[3].

ووجه التَّأكيد في تقديم المسند إليه على الخبر الفعلي أنَّ فيه تكرارَ النّسبة مرَّتين؛ ففي قوله: ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ إسنادُ العلمِ إلى

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/377، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 3/1287.
(2) الجرجانّي، دلائل الإعجاز، ص: 123.
(3) السُّبكّي، عروس الأفراح: 1/237، والصَّعيديّ، بغية الإيضاح: 1/114، وأبو موسى، خصائص التّراكيب، ص: 332.

الضَّمير ﴿وَهُمْ﴾، وإسنادُ العلم إلى واو الجماعة الرَّاجعةِ إلى ما رجع إليه الضَّميرُ، فكان فيه تكرارٌ للنِّسبة، وهذا منشأ التَّوكيدِ، ونُكْتَتُهُ ههنا: أنَّهم لمَّا كانوا يَحْرِفون ألسنتهم بذكرِ ما ليس مِنَ التَّوراة المُنَزَّلة مِن عند الله، ليظنُّوا أنَّهم يقرؤون التَّوراة، وما هو مِنَ التَّوراة، بل هو مِن كَذِبِهِم وافترائهم على الله؛ اقتضى واقع حالهم سَوقَ الكلام لهم بطريقةٍ فيها تقويةٌ وتأكيد، فجاء في الجملة تقديم المسند إليه على المسند الفعليّ، مع ما في تأخير المُسند مِن داعٍ جماليٍّ في اللَّفظ، وهو مراعاة التَّناظر في رؤوس الآي.

والفعلُ ﴿يَعْلَمُونَ﴾ مُتَعَدٍّ، وحُذِفَ مفعولُه اختصارًا؛ لأنَّ ما قَبلَهُ يدُلُّ عليه، أي: وهُم يَعلَمون أنَّهم يَكذِبون.

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الفريق والطَّائفة:

بين الفريق والطَّائفة فرقٌ من وجهين: أحدهما: أنَّ لفظ (الفريق) دالٌّ على عددٍ أكثر ممّا تدلُّ عليه (الطَّائفة)، كما دلَّ على ذلك قول الله تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ﴾ [التّوبة: 122]؛ فالطَّائفةُ جزءٌ مِنَ الفريق. والآخر: أنَّ الطَّائفةَ في الأصل الجَماعة الَّتي من شأنها الطَّوْفُ في البلاد للسَّفر، ويجوز أن يكون أصلها الجَماعة الَّتي تستوي بها حَلقة يُطاف عليها، ثمَّ كثُر ذلك حتَّى سُمِّيت كلُّ جماعةٍ طائفة، والفريق ما يُفارق جمهورها في الحلَبة فيخرج منها، وهم الجماعة المُتفرِّقة عن آخرين، والجماعة تقع على ذلك جميعِه[1].

الزُّور، والكَذب، والبُهتان:

قد تتعدَّد الألفاظ الّتي يُظنُّ فيها التَّرادف للمعنى الواحد، ويظنُّ البعض أنَّها تصلح في أداء المعنى المطلوب؛ فإن جاز ذلك في اللُّغة، فلا يجوز في لُغة القرآن؛ لما فيها من دِقَّة الأداء وإحكام المعنى، ومن هذا النَّوع: الكذب الَّذي هو مُخالفة الخبر للواقع أو الاعتقاد، فقد جاءت له بعض الألفاظ المُترادفة، بحسب رأي مَن يقولون بوقوع التَّرادف، فمنها الزُّور، والبُهتان، والافتراء، والاختلاق، والإفك، وكلّها تشترك في الحقل الدّلاليّ للفظ الكذب؛ إلَّا أنَّه بالبحث والتَّدقيق، تبيَّن أنَّ كلَّ لفظ له ما يميِّزه، فالزُّور أصلُه في

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 278 - 279، والراغب، المفردات: (فرق).

اللُّغة التَّحسين، من قولهم: زَوَّرتُ الشَّيء، أي: حسَّنتُه وسوَّيتُه، ومن معانيه أيضًا: الميلُ والانحراف، قال تعالى: ﴿تَّزَٰوَرُ عَن كَهۡفِهِمۡ﴾ [الكهف: 17]، أي: تنحرفُ وتميل، وهذه المعاني تتحقَّق في الكذب المُزَوَّر؛ لأنَّ الكاذب يحرِص فيه على تزيين قوله، وتوفير الأسباب الّتي تُقوِّيه وتُؤكِّده حتَّى يظهر في صورة مُؤثِّرة ينتج عنها الانحراف بالحقِّ عن جهته، والميل به عن الصَّواب، وهذا واضحٌ في استعمالات القرآن الكريم في أمر الظّهار، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمۡۖ إِنۡ أُمَّهَٰتُهُمۡ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔي وَلَدۡنَهُمۡۚ وَإِنَّهُمۡ لَيَقُولُونَ مُنكَرٗا مِّنَ ٱلۡقَوۡلِ وَزُورٗاۚ﴾ [المجادلة: 2]، فسمَّى القرآنُ قولهم زورًا؛ لأنَّهم جعلوا حُرمة أزواجهم عليهم كحُرمة أُمَّهاتهم، فهم بذلك مالواْ عن الصَّواب، وانحرفواْ عن الحقِّ، وألبسواْ القَبيح ثوبًا حسنًا زورًا، ومن ذلك أيضًا قوله: ﴿وَٱجۡتَنِبُواْ قَوۡلَ ٱلزُّورِ ٣٠﴾ [الحجّ: 30]

أمَّا البُهتان فهو كذبٌ فاضحٌ يعمَد صاحبه إلى بهتِ إنسانٍ وفضحِه، وقد جاء لفظُه في القرآن مُرادًا به الكذب الَّذي يمَسُّ الأعراض، ويستهدف فضيحة الأبرياء، فمن ذلك ما فعله المنافقون في حقِّ أمِّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها، المُبَرَّأة من فوق سبع سماوات، قال تعالى: ﴿وَلَوۡلَآ إِذۡ سَمِعۡتُمُوهُ قُلۡتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبۡحَٰنَكَ هَٰذَا بُهۡتَٰنٌ عَظِيمٞ ١٦﴾ [النّور: 16]، وممَّا جاء في هذا أيضًا ما قاله اليهود في حقِّ السَّيدة مريم، حيث رموها بالفَاحشة حين خرجت عليهم تحمل وليدها، فذمَّهم القرآن بقوله: ﴿وَبِكُفۡرِهِمۡ وَقَوۡلِهِمۡ عَلَىٰ مَرۡيَمَ بُهۡتَٰنًا عَظِيمٗا ١٥٦﴾ [النّساء: 156]. إذًا كلُّ لفظٍ ممّا سبق، له ما يميِّزه، وإن اشتركواْ جميعًا في معنى الكذب، لكن هناك كذبٌ مُزخرف القول، ينخدع به البعض، وهناك كذب مفضوحٌ يهدف إلى فضح صاحبه، والكذب عنوان للكلِّ، وهذا ما فعله اليهود في دعواهم في ليِّ ألسنتهم في الكتاب، فلم يكتفوا باللَّيّ الَّذي قد ينطوي على البعض بل تجرَّؤُواْ وأعلنوا الكذب الصُّراح، ففضحهم الله فيما فعلوه.

ويُؤكد ذلك ما ذَكره أبو هلال العسكريّ بقوله: " إنَّ الزُّورَ هو الكَذِب الَّذي قد سُوِّيَ وحُسِّنَ في الظَّاهِر، ليحسب أنَّه صِدقٌ، وهو من قولك: زَوَّرتُ الشَّيءَ إذا سَوَّيته وحَسَّنته، وأمَّا البُهتَان، فهو مُواجهة الإنسان بما لم يُحِبّهُ، وقد بَهته"(1).

(1) العسكريّ، الفروق اللُّغويّة، ص: 47.

﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [آل عمران: 79]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

ربط بين انحراف أباطيل أهل الكتاب، وفساد مزاعمهم في عيسى وألوهيّته

لـمَّا بيَّن في الآية السَّابقة بعض طبائع علماء أهل الكتاب، من التَّحريف وليِّ اللِّسان بالكلام، جاءت هذه الآية بمثال تطبيقيٍّ يُبيّن ما يَفعلُونه من التَّحريف والتَّبديل واللَّيّ، وذلك بزعمهم أنَّ عيسى عليه السلام، كان يَدّعي الأُلوهيَّة، وأنَّه كان يأمر قومه بعبادته، فنفى الله ذلك عنه[1]، "ما ينبغي لأحدٍ من البشر أن يُنزِّل الله عليه كتابه ويجعله حكمًا بين خلقه، ويختاره نبيًّا، ثمّ يقول للنّاس: اعبدوني من دون الله، ولكن يقول: كونواْ حكماء فقهاء علماء؛ بما كنتم تُعَلِّمونه غيركم من وحي الله تعالى، وبما تدرسونه منه حفظًا وعلمًا وفقهًا"[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿لِبَشَرٍ﴾: البَشَر: الإنسانُ الواحِدُ رَجلًا كان أم امرأةً، هو بَشَرٌ، وهي بَشَرٌ، وهما بَشَرٌ، وهُم بَشَرٌ، لا يُثَنَّى ولا يُجمع، قال الشَّاعر:

(1) يُؤكِّد ما ذُكر في سبب نزول هذه الآية، ما ذكره ابنُ كَثير في تفسيره عن ابن عبَّاس: أنَّ أبا رَافع اليهوديّ والسَّيّد مِن نصارى نجران قالا: يا محمَّد (أتريد أن نَعبدَك)؟ فقال رسولُ الله ﷺ: «مَعاذَ اللَّهِ أَن يُعبَدَ غَيرُ اللَّهِ أو نَأْمُرَ بِعِبادَةِ غَيرِ اللَّهِ، ما بِذَلِكَ بَعَثَنِي، ولا بِذَلِكَ أَمَرَنِي» فأنزلَ اللهُ تعالى هذه الآيةَ، الواحديّ، أسباب نزول القرآن، ص: 223، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/293، وقد وَرَدَ ذلك في أسباب النُّزول للواحديّ، وذكرها ابنُ عاشور في تفسيره، وهذا ما يتناسب مع السِّياق، وقيل: أنَّ الآية نَزَلَت لأنَّ رجلًا قال: يا رسولَ الله نُسَلِّمُ عليكَ كما يُسَلِّمُ بَعضُنا على بَعضٍ أفلا نَسجُد لك؟ قال: «لَا ينبغي أَن يَسجُد لأحدٍ مِن دُون الله، ولكن أَكرِمُوا نَبِيَّكُم واعرفُوا الحقَّ لأَهلِهِ» الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/377 - 378.

(2) نخبة من أساتذة التّفسير، التّفسير الميسّر، ص: 60.

مُعاوِيَ، إِنَّنا بَشَرٌ فأَسْجِحْ *** فَلَسْنَا بالْجِبَالِ وَلَا الْحَدِيدَا[1]

والبَشَرَةُ ظاهرُ جِلدِ الإنسان، ومِنه باشَرَ الرَّجلُ المرأةَ، وذلك إفضاؤُهُ ببَشَرَته إلى بشرتها. وسُمِّيَ البَشَرُ بَشَرًا لظهورهم[2].

2) ﴿يُؤْتِيهِ ٱللَّهُ﴾: الإيتاءُ بالمدِّ يُستعملُ في الإعطاء وفي الإتيان بالشَّيء، تقولُ: آتَى يُؤتِي إيتَاءً[3]. وفي الكشَّاف: اشتَهَرَ الإيتاءُ في معنى الإعطاء، وأصلُه الإحضارُ[4].

وذكر الرَّاغبُ أنَّ الإيتاءَ في القرآن مَخصوصٌ بدَفع الصَّدقَة[5]؛ وليس كذلك، فقد ورد في غيره: كقوله تعالى: ﴿يُؤْتِيهِ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ﴾، أي: يُعطيَه اللّه كتابَه وحيًا إليه، و﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ [مريم: 12]، و﴿وَءَاتَيْنَٰهُمَا ٱلْكِتَٰبَ﴾ [الصَّافات: 117]، إلَّا أن يكونَ قَصَد المَصدَر فقط[6].

3) ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾: الكِتابُ في الأصل مَصدَرٌ، ثُمَّ سُمِّي المكتوب فيه كتابًا، وهو اسمٌ للصَّحيفة مع المكتوب فيه، وفي قوله: ﴿يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [النّساء: 153] فإنَّه يعني صحيفة فيها كتابةٌ، وهو اسمُ جنس؛ (القرآنُ، التَّوراة، الإنجيل، أو الزَّبور)[7].

4) ﴿وَٱلْحُكْمَ﴾: وهو المَنعُ مِنَ الظُّلم، وسُمِّيَت حَكَمَةُ الدَّابَّةِ لأنّها تَمنَعُها، يُقالُ: حَكَمتُ الدَّابَّةَ وأحكَمتُها[8]، قال اللَّيث: الحَكَمُ: اللّه تبارك وتعالى، وهو أحكم الحاكمين، وهو الحكيم له الحكم، قال: والحُكْمُ: العلمُ والفقهُ، ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ﴿١٢﴾﴾ [مريم: 12]، أي

(1) البيت للشّاعر عقيبة بن هبيرة الأسديّ، قاله لمعاوية بن أبي سفيان (رضي الله عنه) في أبيات، وجه الاستشهاد بالبيت أنّ (الحَدِيدَا) منصوبٌ عطفاً على محلّ الجبال المجرورة لفظاً، وهذا البيت ممّا أخطأ فيه سيبويه، وكان عقيبة وفد على معاوية، ودفع إليه رقعة فيها أبيات مطلعها:

مُعاوِيَ، إِنَّنا بَشَرٌ فأَسْجِحْ *** فَلَسْنَا بالْجِبَالِ وَلَا الْحَدِيدَا

فدعاه معاوية فقال له: ما أجرأك عليّ ؟ قال: نصحتك إذ غشُّوك، وصدقتك إذ كذبُوك. فقال معاوية: ما أظنّك إلّا صادقًا. انظر: سيبويه، الكتاب: 1/34، 375، 448، والإنصاف في مسائل الخلاف: 1/33، ولسان العرب: (غمز).

(2) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (بشر).

(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (أتي).

(4) الزّمخشريّ، الكشَّاف: 4/198.

(5) الرّاغب، المفردات: (أتى)، والسّمين، عمدة الحفّاظ: (أتي).

(6) الزَّبيديّ، تاج العروس: (أتى).

(7) الجوهريّ، الصّحاح، والرّاغب، المفردات: (كتب).

(8) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حكم).

عِلمًا وفقهًا، هذا ليحيى بن زكريا.[1]. والحكمةُ هذا قياسُها، لأنّها تَمنَعُ مِنَ الجهل[2]، ومَرجِعُها إلى العَدل والعِلم والحِلم. ويُقال: أحكَمَتهُ التّجارِبُ إذا كان حكيمًا[3].

5) ﴿وَٱلنُّبُوَّةَ﴾: النَّبيُّ: العَلَم مِن أعلام الأرض الَّتي يُهتدَى بها، ومنه اشتقاقُ النّبيِّ لأنّه أرفع خَلقِ اللَّهِ، وذلك لأنّه يُهتدَى به، وهو الَّذي أنبأ عَنِ الله، فتُرِك هَمزُهُ، والنَّبيّ بغير الهمز أبلغ من النّبيء؛ لأنَّه ليس كلّ مُنبّأٍ رفيع القدر والمحلّ، وممَّا يُؤكِّد ذلك أنَّ لفظ النَّبيّ، مأخوذٌ من النَّبوة والنَّبَاوَةِ، وهي الارتفاعُ مِنَ الأرض، لارتفاع قَدْره، ولأنَّه شُرِّف على سائر الخَلق، فأصله غَيرُ الهَمزِ، وهو فَعِيل بمعنى مَفعول، والجَمعُ أنبياء[4]، والنُّبُوَّةُ: سِفارَةٌ بين الله وبين ذوي العُقول من عِباده، لإزاحة عِلَلِهم في أمر مَعادِهم ومَعاشِهم[5].

6) ﴿عِبَادًا﴾: والعبادُ جمعٌ، مُفردُهُ عَبدٌ، وهو مأخوذٌ مِن مادّة (عَبَدَ)، أي: تَذَلَّلَ، يُقال: عَبَّد الطَّريق، أي: ذلّله، والعُبوديَّة: إظهارُ التَّذلُّل، والعِبادة أبلغُ مِنها؛ لأنَّها غايةُ التَّذلُّل، ولا يستحقُّها إلَّا مَن له غاية الإفضال، وهو الله تعالى، والعَبد يُقال باعتبار الإيجاد، وذلك ليس إلَّا لله، وإيَّاه قصد بقوله: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدًا ٩٣﴾ [مريم: 93]، وهو عبدٌ بالعِبادة والخِدمة، والنَّاس في هذا ضربان: عبدٌ لله مُخلِصٌ، وهذا ما ورد ذِكره في كثيرٍ من آيات القرآن، قال تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَآ أَيُّوبَ﴾ [ص: 41]، وقوله: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡفُرۡقَانَ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦ﴾ [الفرقان: 01]، إلى غير ذلك من الآيات، وعبدٌ للدُّنيا وأغراضها[6]، وهو المقصود بقوله ﷺ: «تَعِسَ عَبدُ الدِّرهَم، وتَعِسَ عَبدُ الدِّينار»[7].

7) ﴿رَبَّٰنِيِّـۧنَ﴾: الرَّبُّ، هو الله تبارك وتعالى، هو رَبُّ كلِّ شَيءٍ، أي: مَالِكه، وله الرُّبوبيَّة على جميع الخَلق لا شريك له. ويُقال: فلانٌ رَبُّ هذا الشَّيء، أي: مِلْكه له. ولا يُقال: الرَّبّ بالألف واللَّام لغير الله[8]، والرَّبّانيُّ منسوبٌ إلى الرَّبِّ، وهو الكاملُ في العِلم والعمل،

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (حكم).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حكم).
(3) الخليل، العين: (حكم).
(4) ابن منظور، لسان العرب: (نبأ).
(5) الرّاغب، المفردات: (نبأ).
(6) الرّاغب، المفردات: (عبد).
(7) صحيح البخاري، الحديث رقم: (2730)، ورقم: (6071).
(8) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (رب).

الشَّديدُ التَّمسكِ بطاعة اللّه ﷻ ودينه[1]، و"المراد به عالمٌ زاهدٌ، والضّم والكسر على هذا مخالف للقياس، والفتح موافق له، وبها قُرئ، وقيل الضمّ والكسر منسوب إلى الرّبّة بالضّم والكسر؛ لغتان فيه، بمعنى الجماعة؛ وياء النّسبة للمبالغة كاحمريّ، ومن قال: معناه الكثير العلم، من ربا يربو، فقد أخطأ؛ لاختلاف المادّتين"[2].

8) ﴿تَدْرُسُونَ﴾: دَرَسَ الشّيء، والرَّسمُ يَدرُسُ دُروسًا، بالضَّمِّ: عَفا. ودَرَسَتهُ الرِّيحُ دَرسًا: مَحَته، إذا تَكَرَّرَت عليه فعَفَّته[3]. ودَرَستُ العِلمَ: تَنَاوَلتُ أثرَه بالحفظ، ولمَّا كان تناول ذلك بمداومَة القراءة عُبِّر عَن إدامةِ القِراءة بالدَّرس، قال تعالى: ﴿وَدَرَسُواْ مَا فِيهِۗ﴾ [الأعراف: 169]، وقال: ﴿بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾[4].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

لا يَنبَغي لِبشرٍ آتاهُ اللّهُ ما آتاه مِنَ النِّعم أن يَقولَ للنَّاس اعبدوني مِن دُون اللّه، ولكن يدعوهم إلى أن يكونوا ربَّانيِّين، أي: مُقبِلِينَ على طاعة اللّه تعالى وعبادَته وحده بجدٍّ ونشاطٍ وإخلاصٍ، بسببِ كونكم تُعَلِّمونَ غيرَكُمُ الكتابَ الَّذي أنزلَه اللّه لهداية النَّاس وبسبب كَونِكُم دارسينَ له، أي: قارئين له بتمهُّلٍ وتدبُّرٍ[5].

لا يمكن أن يصطفي الله المسيح للرّسالة، فيدّعي الألوهيّة من دون الله

❁ الإِيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

دِلَالَةُ أُسْلُوبِ النَّفْيِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ﴾:

المَقصودُ مِن مَوضِع الشَّاهد مِنَ الآيةِ الكريمة أنَّه يَنفي عنه الكَونَ، والمُرادُ نَفي الخبر، وذلك على قِسمَين:

إِبْطَالُ فِرْيَةِ بَعْضِ أَهْلِ الْكِتَابِ

(1) أبو السُّعود، إرشاد العَقل السَّليم: 2/52.
(2) الخفاجيّ، عِنَايةُ القَاضي: 3/69.
(3) الزّبيديّ، تاج العروس: (درس)
(4) الأصفهانّي، المفردات: (درس).
(5) طنطاوي، التّفسير الوسيط: 2/160.

أحدُهُما: أن يكونَ الانتفاءُ مِن حيث العَقل، ويُعَبَّر عنه بالنَّفي التَّامّ، ومثاله قوله: ﴿مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآۗ﴾ [النّمل: 60]، ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًاۗ﴾ [آل عمران: 145].

والآخر: أن يكونَ الانتفاء فيه على سبيل الانتفاء، ويُعبَّر عَنه بالنَّفي غير التَّامِّ، ومثاله قول أبي بكر الصِّديق رضي الله عنه: «مَا كَانَ لِابْنِ أَبِي قُحَافَةَ أَنْ يُصَلِّيَ بَيْنَ يَدَيْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ»[1].

ومُدرَكُ القِسمين إنَّما يُعرَفُ بسياق الكلام الَّذي النَّفيُ فيه، وهذه الآيةُ مِنَ القِسمِ الأوَّلِ؛ لأنَّا نَعلَمُ أنَّ اللّه لا يُعطي الكَذَبَةَ والمُدَّعِينَ النُّبُوَّة، وفي هذه الآية دلالةٌ على عِصمَة الأنبياء[2] عليهم السلام.

تَعْيِينُ الْمَنْفِيِّ بِقَوْلِهِ: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُواْ عِبَادًا لِّي مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾:

قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ﴾ استعمال قرآنيّ يُفيدُ نفيَ الشَّأن وعدمَ اتِّفاق هذا المعنى الَّذي ادَّعاه اليهود والنَّصارى مع الحقيقة المفروضة في الرُّسُل، وقد قالوا: إنَّ كلمة ﴿مَا كَانَ﴾ في هذا المقام وما يُشبهه هُوَ في معنى (مَا يَنْبَغِي)، وذلك مثل قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍۖ سُبْحَٰنَهُۥۚ﴾ [مريم: 35]، والنَّفي في هذا النَّص القرآنيّ مُنصَبٌّ على اجتماع الرِّسالة مع القَول الَّذي يكذبون به على أنبياء اللّه، والمعنى: لا ينبغي لبَشر أن يُخاطبه اللّه تعالى، ويعطيه الحُكم والنُّبوّة أن يقول للنَّاس: كونوا عبادًا لي من دون اللّه، فليس النَّفي بالبداهة مُنصبًّا على إيتاء اللّه الكتاب والحُكم والنُّبوّة، بل هو مُنصَبٌّ على المعطوف، وهو أن يكون منه – مع ما آتاه اللّه – ذلك الادِّعاء، فيدعو النَّاس إلى عبادته[3].

تَنْزِيهُ اللهِ تَعَالَى أَنْبِيَاءَهُ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَنِ الْمَزَاعِمِ الَّتِي نَسَبَهَا إِلَيْهِمْ أَهْلُ الْكِتَابِ

(1) رواه البخاري في صحيحه، الحديث رقم: (684)، ومسلم في صحيحه، الحديث رقم: (421).
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/229 - 230، وابن عادل، اللُّباب في علوم الكتاب: 5/345، ورضا، تفسير المنار: 3/285، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 3/1289.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 3/1289.

دِلَالَةُ اللَّامِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ﴾:

المُبَالَغَةُ فِي النَّفْيِ مُلَائِمَةٌ لِقُبْحِ ادِّعَاءِ أَهْلِ الْكِتَابِ

في قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ﴾ إيجازٌ بالحذف، ومبالغةٌ في نفي استحقاق أيِّ أحدٍ لذلك القَول، فاللَّام فيه للاستحقاق، وأصلُ هذا التَّركيب في الكلام: ما كان فُلانٌ فاعِلًا كذا، فلمَّا أُريدَتِ المُبالغةُ في النَّفي عُدِلَ عَن نَفي الفعلِ إلى نَفي المصدر الدَّالّ على الجنسِ، وجُعِلَ نَفيُ الجنسِ عَنِ الشَّخص بوساطة نَفي الاستحقاق؛ إذ لا طريقةَ لحَملِ اسم ذاتٍ على اسم ذاتٍ إلَّا بوساطة بعض الحروف، فصار التَّركيب: ما كان له أن يَفعَلَ، ويُقالُ أيضًا: ليس له أن يَفعَلَ، وهذه اللَّام أصل لام الجُحود الَّتي في نحو: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ﴾ [الأنفال: 33]، فتراكيبُ لامِ الجُحودِ كُلّها مِن قبيل قَلب مثل هذا التَّركيب لِقَصد المُبالغة في النَّفي، بحيثُ يُنفَى أن يكونَ وجودُ المُسنَدِ إليه مَجعولًا لأجل فِعل كذا، أي: فهو بريءٌ منه بأصل الخِلقة؛ ولذلك سُمِّيَت جُحودًا[1].

سِرُّ التَّعْبِيرِ بِالْبَشَرِ بَدَلًا مِنَ النَّبِيِّ فِي قَوْلِهِ: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ﴾:

صِدْقُ الْأَنْبِيَاءِ عليهم السلام وَبَدِيعُ حِكْمَةِ اللهِ تَعَالَى فِي اصْطِفَائِهِمْ

جاء التَّعبيرُ بلفظ ﴿لِبَشَرٍ﴾ بَدَلًا مِن (نَبِيٍّ) في قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ﴾؛ للإشارة إلى أنَّ النَّبيَّ بشرٌ مِنَ البشرِ، وأنَّه إذا جازَ على البشرِ الكَذِبُ والافتراءُ على اللهِ وعَلَى النَّاسِ، فإنَّ النَّبيَّ - وهو بشرٌ - لا يكونُ مِنه أبدًا الكَذِب والافتراء على الله أو على النَّاس، وإلَّا كان ذلك اتِّهامًا لله ﷻ حيثُ اصطفى واختار مَن يحمل رسالَته، ويؤدّي أمانتَه، ثمَّ لم يكن من هذا المُصطفى المختار إلَّا أن زَيَّف الرِّسالة وخانَ الأمانة! وبَدَلًا من أن يكون داعيًا لله، هاديًا إليه؛ تحوَّل إلى داعيةٍ لِنفسِه، قائدًا النَّاسَ إلى الهلاك والضَّلال! وتعالى اللهُ عن ذلك عُلُوًّا كبيرًا، وإنَّه لن يَرضى أسوأُ الحُكّام وأَجهلُ الأمراء

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/293 - 3/294.

أن يُنسب إليه مِثلُ هذا العَجز وسُوء التَّقدير في اختيار أعوانه وسُفرائه، فكيف بأحكم الحاكمين اللّه ربّ العالمين؟![1]، وفي هذا بيانٌ لِعلَّة الحُكم؛ فإنَّ البشريّة مُنافيةٌ للأمرِ الَّذي أسنده الكَفرةُ إلى أولئكَ الكِرام عليهم الصَّلاة والسَّلام[2].

نُكْتَةُ التَّعْبِيرِ بِالْفِعْلِ ﴿يُؤْتِيَهُ﴾ دُونَ (يُعْطِيَهُ):

عُبِّر بالإيتاء في قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾؛ لأنَّ الإيتاء لا يكون إلَّا في الشَّيء العظيم، مثل القرآن والمُلك والحُكم والنبوَّةِ، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾﴾ [الحِجر: 87]، وقال سبحانه: ﴿تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ﴾ [آل عمران: 26]، وقال ﷻ في حقِّ داود عليه السلام: ﴿وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ﴾ [البقرة: 251]، كلُّ هذه المعاني تكون مع الإيتاء الَّذي ليس للعَبد فيه دخلٌ ولا اجتهاد، إنَّما هو فضلٌ خالص للّه تعالى على من يختاره لرسالته، كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا﴾ [الحجّ: 75]، وقال لموسى عليه السلام: ﴿إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى﴾ [الأعراف: 144].

النُّبُوَّةُ فَضْلٌ خَالِصٌ مِنَ اللهِ تَعَالَى لِمَنِ اصْطَفَاهُ

أمَّا الإعطاء؛ فهو فِعلٌ له مقابل، أعطاني فأعطيته، ويكون في الشّيء القليل، قال تعالى: ﴿وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ ﴿٣٤﴾﴾ [النجم: 34]، وقد يَردُ العطاء مُفيدًا للكثرة كما في قوله: ﴿وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾﴾ [الإسراء: 20]، وقد يَرد العطاء كُرهًا كما في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [التّوبة: 29].

ولذلك كلِّه آثر القرآن الكريمُ التَّعبيرَ بفعل الإيتاء؛ لأنَّ السِّياق هنا في المعاني العظيمة.

(1) الخطيب، التّفسير القرآني للقرآن: 2/506.

(2) أبو السّعود، إرشاد العَقل السّليم: 2/52، والبروسوي، روح البيان: 2/54، والآلوسّي، روح المعاني: 2/199.

وفي التَّعبير بصيغة المضارع في قوله: ﴿أَن يُؤۡتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحُكۡمَ وَٱلنُّبُوَّةَ﴾ استحضارٌ لصورة الإيتاء، وكأنَّك تراه ينزل من السَّماء على الأنبياء، والاستحضار لهذه الصُّورة أدعى إلى الأدب مع اللّه تعالى، فلا يُتَصوَّر نزول الوحي على نبيٍّ من أنبياء اللّه، ثمَّ يطلب من أتباعه أن يعبدوه من دون اللّه.

سِرُّ إِسْنَادِ الْفِعْلِ ﴿يُؤۡتِيَهُ﴾ إِلَى الِاسْمِ الْأَحْسَنِ ﴿ٱللَّهُ﴾:

إسنادُ الفعل ﴿يُؤۡتِيَهُ﴾ إِلَى الِاسْمِ الْأَحْسَنِ ﴿ٱللَّهُ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَن يُؤۡتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحُكۡمَ وَٱلنُّبُوَّةَ﴾ يُشير إلى أنّ هذا الإيتاء تكليفٌ في البلاغ عنِ اللّه تعالى؛ لأنَّ الإيتاء على نوعين؛ إيتاءُ ربوبيَّة بما فيه من أسباب النِّعم والتَّربية لجميع الخَلْقِ، وإيتاءُ أُلوهيَّةٍ؛ وهو التَّكليف بأنواعه كلِّهَا، ومنه تكليف اللّه تعالى لأنبيائه عليهم السلام.

إِيتَاءُ اللهِ تَعَالَى الْخَلْقَ نَوْعَانِ إِيتَاءٌ بِمُقْتَضَى رُبُوبِيَّتِهِ، وَإِيتَاءٌ بِمُقْتَضَى أُلُوهِيَّتِهِ

عِلَّةُ التَّعْبِيرِ بِالْحُكْمِ دُونَ الْحِكْمَةِ:

عُبِّر بالحُكم دون الحكمةِ؛ لأنَّ الحكمَ أعمُّ، فهما وإن اشتركا في أصل المادَّةِ اللُّغويَّة وهي: (حَكَمَ) بمعنى المنع، إلَّا أنَّ الحِكمة أخصُّ من الحُكم؛ فالأصل في الحُكم وجود الحكمة، بخلاف الحكمةِ فلا يلزم فيها الحُكمُ.

افْتِقَارُ الْحُكْمِ إِلَى الْحِكْمَةِ

سِرُّ تَقْدِيمِ ﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾ عَلَى ﴿وَٱلۡحُكۡمَ﴾ وَ﴿وَٱلنُّبُوَّةَ﴾:

قُدِّم ذِكر الكِتاب، والمرادُ به الكتاب السَّماويّ؛ للإشارة إلى مقام الرِّسالة؛ إذْ لو قدّم الحُكم - وهو بمعنى العِلم -؛ لكان ذلك عامًّا للأنبياء والأولياء والحكماء، يُؤكد هذا أنَّ اللّه أعطى العِلم خلقًا كثيرًا، كملوك بني إسرائيل، فقال تعالى: ﴿وَزَادَهُۥ بَسۡطَةٗ فِي ٱلۡعِلۡمِ وَٱلۡجِسۡمِۖ﴾ [البقرة: 247]، وأعطى الحِكمة لـ (لُقمان) وهو ليس نبيًّا، ولمَّا كان المقامُ في آية آل عمرانَ خاصًا بالرِّسالة، كان التَّقديم للكتابِ، وذكرُ الحُكمِ هو من باب الإعداد والتَّهيئة النَّفسيّة والعقليَّة، ثمَّ بعد ذلك تأتي مرحلة إعلان النُّبوّة للبلاغ عن اللّه إلى الخلق.

الْإِعْدَادُ وَالتَّهْيِئَةُ لِتَحَمُّلِ الْمَهَامِّ مَنْهَجٌ قُرْآنِيٌّ

ومن الإشارة أيضًا في هذا التَّرتيب: أنَّ الكتابة في مبناها اللُّغويّ تدُلُّ على الضَّمّ، وفي هذا إشارة إلى ضمِّ العَبد المُختار للرِّسالة إلى مَوكِب الأنبياء، وأمَّا الحُكمُ فَأصلُه المنع، ويشير هنا إلى عِصمة الرَّسول من الوقوع في الخطأ.

ولمَّا كانت مادَّة النُّبوَّة دالَّةً على الارتفاع؛ جاء ذكرها للإعلان عن عُلُو قَدرِ النَّبيِّ، وعظيم مكانته وَإمامته لأتباعه.

وفي هذا التَّترتيبِ ملحظٌ آخرُ؛ وهو أنّ الكتاب السَّماويّ يَنزلُ أوَّلًا، ثمّ يَحُصُل في عَقلِ النَّبيّ فَهمُ ذلك الكتاب، وإليه الإشارةُ بالحُكم؛ فإنَّ أهلَ اللُّغةِ والتَّفسيرِ اتَّفقوا على أنَّ هذا الحُكمَ هو العِلمُ، قال تعالى: ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحُكۡمَ صَبِيّٗا﴾ [مريم: 12]، يعني: العِلمَ والفَهمَ، ثمَّ إذا حصلَ فَهمُ الكتاب؛ بلَّغَ ذلك إلى الخَلق، وهو النُّبُوَّةُ، فما أحسنَ هذا التَّرتيبَ![1].

سِرُّ التَّعْبِيرِ بِـ﴿وَٱلنُّبُوَّةَ﴾ دُونَ (الرِّسَالَةِ):

النُّبُوَّةُ أَعَمُّ مِنَ الرِّسَالَةِ

عُبِّر بالنُّبوَّة دون الرِّسالة في قوله تعالى: ﴿أَن يُؤۡتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحُكۡمَ وَٱلنُّبُوَّةَ﴾؛ لأنَّ مقام النُّبوَّة أعمُّ، والرِّسالة أخصُّ، والمناسب في تبرئة ساحة الأنبياء والرُّسل: التَّعبيرُ بالعموم ﴿وَٱلنُّبُوَّةَ﴾، بخلاف التَّعبير بالرِّسالة؛ فقد يُتَوهَّم وجودُ مَا ينافي العِصمةَ للأنبياءِ.

دِلَالَةُ الْعَطْفِ بِـ﴿ثُمَّ﴾ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ﴾:

الْكَلَامُ إِذَا طَابَقَ نَظْمُهُ نِظَامَهُ حَازَ الْجَزَالَةَ بِحَذَافِيرِهَا

جِيءَ بِحرف العطف ﴿ثُمَّ﴾ وهو للمهلة في قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤۡتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحُكۡمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُواْ عِبَادٗا لِّي مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾؛ لقصدِ تَعظيم هذا القولِ، وإذا انتَفى هذا القولُ بعد المُهلَةِ؛ كان انتِفاؤُهُ من دونها أوْلى وأحْرى، أي: إنَّ هذا

(1) الرّازي، مفاتيح الغيب: 8/271، وأبو حيَّان، البحر المحيط: 3/230، وابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/375، والبروسوي، روح البيان: 2/54، والقنّوجيّ، فتح البيان: 2/272.

الإيتاءَ العظيمَ لا يُجامِعُ هذا القول، وإن كان بعد مُهلَةٍ مِن هذا الإنعام العظيم[1].

فهو إشعارٌ بالتَّفاوت العظيم بين ما أعطاهُ اللّه تعالى لأنبيائهِ مِن نِعَم، وهذا القولِ المُنكَر الَّذي نَفاه سبحانه عنهم، وهو أن يقولوا للنَّاسِ: اجعلوا عِبادَتَكم لنا ولا تَجعَلوها للّه تعالى، ثمَّ بَيَّنَ سبحانه ما يَصحُّ للأنبياءِ أن يَقولوه للنَّاس[2].

تَوْجِيهُ الْقِرَاءَاتِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ﴾:

القراءةُ المتواترةُ: ﴿ثُمَّ يَقُولَ﴾ بفتحِ اللَّام، ويُروَى عن أبي عمرو - في غير ما تواترَ عنه - ضمُّهَا، وهي قراءة شاذَّة، أمَّا النَّصبُ؛ فهو على تقدير: لا تجتمع النُّبوَّة وهذا القول، والعامل فيه ﴿أَن﴾ وهو معطوف عليه، بمعنى: ثمَّ أن يَقولَ، وأمَّا الرَّفع؛ فهو على الاستئناف[3].

الْجَمْعُ بَيْنَ رِفْعَةِ النُّبُوَّةِ وَنَقِيضِهَا مُحَالٌ

سَبَبُ إِيثَارِ التَّعْبِيرِ بِلَفْظِ ﴿لِلنَّاسِ﴾ دُونَ (البَشَر) فِي قَوْلِهِ: ﴿ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ﴾:

آثر التَّعبير بلفظ النَّاسِ دونَ البَشَر؛ لكون البشَرِ استُعْمِلَ في خصوص بني آدمَ، بخلاف النَّاس؛ فإنَّ التَّحقيقَ صلاحيتُها للإنس والجنِّ معًا، فنُفِيتَ هذه الفرية عن الأنبياءِ نفيًا عامًّا، فلم يقولوهَا لَا لإنسيٍّ ولا لجِنِّيٍّ.

لَفْظُ (للناس) شَامِلٌ لِلْإِنْسِ وَالْجِنِّ

تقديمُ ما حَقُّهُ التَّأخير في قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ﴾:

النَّفيُ في قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ﴾ واقعٌ غير مَوقِعه؛ لأنَّ التَّأويل: ما كان لبشرٍ يُؤتيه اللّه الكتابَ والحُكمَ والنُّبوَّةَ، وقوله

(1) أبو حيَّان، البحر المحيط: 3/230، والآلوسّي، روح المعاني: 2/199، وابن عادل، اللُّباب في علوم الكتاب: 5/345.
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 1/461، وطنطاوي، التّفسير الوسيط: 2/159.
(3) الأزهريّ، معاني القراءات: 1/265، وأبو حيّان، البحر المحيط: 3/231، والرّازيّ، مفاتيح الغيب: 8/271.

إتْقَانُ كَلَامِ اللهِ تَعَالَى فِي وَضْعِ كُلِّ حَرْفٍ وَكَلِمَةٍ مَوْضِعَهُمَا اللَّائِقَ بِهِمَا

تعالى: ﴿يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ﴾ صفةٌ للنَّكرة على تأويل: ما كان لبشرٍ يكون بهذه الحال أن يقولَ للنَّاس: كُونوا عبادًا لي من دون اللّه، فالمَنفيُّ: (أَنْ يقولَ لِلنَّاس)، فلمَّا وَقَعَتْ ﴿أَن﴾ في غيرِ مَوقِعها؛ نُسِقَ عليها بـ ﴿ثُمَّ﴾، ففي الآية تقديمُ حرفٍ حقُّهُ أن يُؤَخَّرَ، ومِثله مِن تقديم ما وجَبَ أن يُؤخَّر في النَّظم قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ﴾ [الفتح: 25]، ومعناهُ: ولولا أن تطؤُوا رجالًا مُؤمنين ونساءً مُؤمناتٍ لم تَعلَموهم؛ أي: لم تعرفوهم[1].

سِرُّ التَّعْبِيرِ بِقَوْلِهِ: ﴿عِبَادًا﴾ دُونَ (عَبِيدًا):

دِقَّةُ النَّظْمِ الْقُرْآنِ الْقُرْآنِيِّ فِي انْتِقَاءِ جُمُوعِ الْأَلْفَاظِ

لفظةُ الْعبادِ جمعُ عبدٍ، وجيء بهذه اللَّفظة في سياقِ التَّرفيع والدّلالة على الطَّاعة دُونَ أن يَقترِنَ بها معنى التَّحقيرِ وتَصغيرِ الشَّأنِ، كقوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ [الزمر: 53]، وقول عيسى عليه السلام في معنى الشَّفاعة والتَّعريض: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾ [المائدة: 118]، وأمّا العَبيدُ فيُستَعمَلُ في التَّحقير، ومنه قولُ حمزة بن عبد المطَّلب: (وهل أنتُم إلَّا عبيدٌ لأبي)، وكذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾﴾ [فُصّلت: 46]؛ لأنَّه مقامُ إعلامٍ بقلَّةِ انتصارِهم ومَقدِرتِهم، وأنَّه تعالى ليس بظلَّام لهم[2].

فقوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُواْ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ لأنَّ المقامَ مقامُ طاعةٍ.

دِلَالَةُ الْإِضْمَارِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَٰكِن كُونُواْ رَبَّٰنِيِّـۧنَ﴾:

حَذْفُ اللَّفْظِ إِذَا كَانَ فِي الْكَلَامِ مَا يَدُلُّ عَلَيْهِ

في قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن كُونُواْ رَبَّٰنِيِّـۧنَ﴾ إضمارٌ، والتَّقدير: ولكنْ يقولُ لهم كونوا ربَّانيِّين؛ فأضمَرَ القولَ على مذهب العرب في جواز الإضمار إذا كان في الكلام ما يدُلُّ عليه، ونظيره قوله تعالى:

(1) الواحديّ، التّفسير البسيط: 5/379.

(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 1/461، وأبو حيّان، البحر المحيط: 3/230.

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسۡوَدَّتۡ وُجُوهُهُمۡ أَكَفَرۡتُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡ﴾ [آل عمران: 106]، أي: فيُقالُ لهم ذلك[1].

بَلَاغَةُ الْقَصْرِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَٰكِن كُونُواْ رَبَّٰنِيِّـۧنَ﴾:

تَبْرِئَةُ الْأَنْبِيَاءِ مِنْ دَعْوَى ادِّعَائِهِمُ الْأُلُوهِيَّةِ

في قوله تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤۡتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحُكۡمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُواْ عِبَادٗا لِّي مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُواْ رَبَّٰنِيِّـۧنَ ﴾ قصرٌ بالعطف بـ ﴿وَلَٰكِن﴾، فقد قَصَرَ مقالة الأنبياء على أمرهم الناسَ بأن يكونوا ربَّانيين، وهو قصرٌ إضافيٌّ؛ لأنَّ الأنبياءَ يقولون للنَّاسِ غيرَ هذا؛ من أمرهم بالخير ونهيهم عن الشَّرِّ، إلَّا أنَّه أوثِرَ أسلوبُ القصر ههنا لتأكيد تبرئة الأنبياء من دَعْوَى ادِّعائهم الألوهيَّةَ.

سِرُّ اخْتِيَارِ لَفْظِ ﴿ رَبَّٰنِيِّـۧنَ﴾ دُونَ (الْعُلَمَاءِ):

الرَّبَّانِيُّونَ هُمُ الْعُلَمَاءُ الْحُكَمَاءُ الْحُلَمَاءُ، الْمُعَلِّمُونَ لِلنَّاسِ، وَالْمُرَبُّونَ بِصِغَارِ الْعِلْمِ قَبْلَ كِبَارِهِ، الْعَامِلُونَ بِذَلِكَ

فسَّر جماعةٌ من أهل التَّفسير لفظَ ﴿رَبَّٰنِيِّـۧنَ﴾ بالعُلماء والفقهاء، ولكنّ القُرآن آثر لفظ ﴿رَبَّٰنِيِّـۧنَ﴾ دونهما؛ لأنَّ العُلماء على قِسمين؛ منهم العالم المحصِّلُ عِلمًا - أيًّا كان ذلك العلمُ -، ومنهم العَالم الرَّبّانيّ، والمُراد به: الّذي تخصَّصَ بالعِلم الرَّبّانيّ المنسوب إلى الرَّبّ؛ لذلك عرَّفه بعض أهل العلم بأنَّه: المعلِّمُ الخيرَ، ومن يَسُوسُ النّاس ويُعَرِّفهم أُمور دينهم كما أراد اللّه تعالى، وفي هذا: إشارة إلى ذَمِّ علماء أهل الكتاب؛ لأنَّ عِلمهم لم يصل بهم إلى الرّبَّانيّة الّتي هي سبب السَّعادة في الدُّنيا والآخرة.

سِرُّ التَّعْبِيرِ بِقَوْلِهِ ﴿تُعَلِّمُونَ﴾ دُونَ (تُعَرِّفُونَ):

الْعِلْمُ بَابُ الْوُصُولِ إِلَى الرَّبَّانِيَّةِ

مَن لم يتعلَّم لم يحقِّق الرَّبّانيّة كاملةً؛ لأنَّه لم يُدرِك حقيقةَ الشَّيء، ووقف عند ظواهر الأشياء وآثارها، وهذه معرفة ناقصة؛ لذلك فرَّق العُلماء بين العِلم والمعرفة، فقالوا: العِلم: إدراك الشَّيء

(1) الواحديّ، التّفسير البسيط: 5/379، والرّازيّ، مفاتيح الغيب: 8/271، وأبو حيّان، البحر المحيط: 3/231، وابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 5/347، والآلوسيّ، روح المعاني: 2/200.

على حقيقته، أو هو ملَكَة يقتدر بها على إدراك الكُلِّيَّات والجزئيّات، ولذلك خصَّ الله بها الإنسان دُون سائر الأجناس من حيوانٍ ونباتٍ وجمادٍ، والعِلم نقيضُ الجَهل.

أمَّا المعرفة؛ فهي إدراكٌ لآثار الشَّيء، وضِدّها: الإنكار، فالمعرفة تُستَعمل - غالبًا - في العِلم القاصر المُتوصَّل إليه بتدبّر آثاره دون إدراك ذاته؛ لذلك استعُملَتِ المعرفة فيما يظهر أثره، كما قال تعالى عن الفُقراء الَّذين يتعفَّفُون: ﴿تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ﴾ [البقرة: 273]، وقال في حقِّ المجرمين: ﴿يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ﴾ [الرّحمن: 41]، فالسِّيماء: علامةٌ يتوصَّل بها إليهم بخلاف العلم، فهو في ذات الشَّيء وحقيقته، والآيات في هذا المقام كثيرة[1].

وبناءً على ما تقدَّمَ؛ آثَر القُرآن الكريم هنا العِلم الَّذي هو إدراكُ الشَّيء على حقيقته؛ لأنَّ الرَّبّانيّة تحتاج إلى بذل الجُهد في الوصول، وهذا مقام العِلم تعلُّمًا وتعليمًا، أمَّا المعرفة فلا تفي بالمُراد في ذلك.

دِلَالَةُ الْبَاءِ فِي ﴿بِمَا﴾، وَنُكْتَةُ تَكْرَارِ ﴿بِمَا كُنتُمْ﴾ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾:

لَا نَجَاحَ لِلْعَمَلِ إِلَّا بِالْعِلْمِ، وَلَا ثَمَرَةَ لِلْعِلْمِ إِلَّا بِالْعَمَلِ

الباءُ في قوله: ﴿بِمَا كُنتُمْ﴾ سَببيَّةٌ مُتَعلِّقَةٌ بـ﴿كُونُواْ﴾، أي: كونوا كذلك بسبب مُثابرَتِكُم على تَعليمكم الكتابَ ودِراستكم له، والمطلوبُ أن لا ينفكَّ العِلم عِن العمل؛ إذ لا يعتدُّ بأحدهما دُونَ الآخر.

وكذلك تَتعلَّق بـ﴿رَبَّٰنِيِّـۧنَ﴾؛ لأنَّ فيه معنى الفعل.

ويحتَمِلُ أن تكون متعلِّقةً بمحذوفٍ على أنَّها صفة لـ﴿رَبَّٰنِيِّـۧنَ﴾، و(مَا) مصدريَّة، فتكونُ معَ الفعل بتأويل المصدر، أي: بسبب كَوْنِكم عالِمينَ[2].

وتَكرار ﴿بِمَا كُنتُمْ﴾ في الآية جِيءَ بهِ للإيذان باستقلال كلٍّ مِن استمرار التَّعليم واستمرار القراءة بالفَضل وتحصيل الرَّبّانيَّة[3].

(1) الدوري، دقائق الفروق اللُّغويّة، ص: 190.

(2) التّفسير البسيط: 5/383 - 384، وابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 5/349، والآلوسّي، روح المعاني: 2/200.

(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/52.

تَوْجِيهُ الْقِرَاءَاتِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾:

لِلْعِلْمِ مَرَاحِلُ؛ هِيَ التَّعَلُّمُ وَالتَّعْلِيمُ وَالْمُدَارَسَةُ

قرأ نافع وابن كثير وأبو عَمرو ﴿تَعْلَمُونَ﴾[1] على أنَّه فعلٌ مُضارِعٌ مِنْ (عَلِمَ)، ويَنْصِبُ مَفعولًا واحدًا؛ وهو الكتاب، ووَجه تخفيف اللَّام: حَمْلُهُ على ما بعده من قوله: ﴿وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾؛ فإنَّه غيرُ مشدَّدٍ؛ إذ لم يقل: (تُدَرِّسُونَ)، حيثُ حَملَ الفعلين على مَعنًى واحِدٍ.

وقرأ الكوفيُّون وابن عامر ﴿تُعَلِّمُونَ﴾[2]مِنَ التَّعليم على أنَّه مُضارع (عَلَّم)، قال مَكِّيّ بن أبي طالب: "فالتَّشديد أبلغ؛ لأنَّه يدُلُّ على العِلم والتَّعليم، والتَّخفيف إنَّما يدُلُّ على العِلم فقط، فالتَّعليم أبلَغ وأمدَح"[3]، ووجهُ كونِه أبلغَ وأمدحَ: أنَّهم لا يُعَلِّمون إلَّا وقد عَلِموا هُم، ولا يكونُ العَالِمُ عالِمًا حتَّى يَعمَلَ بعِلمِهِ، فأحَدُ عَمَلِهِ تَعليمُهُ غيرَهُ[4].

إذَنْ؛ قراءة ﴿تَعْلَمُونَ﴾ بالتَّخفيف تشير إلى التَّعلُّم، وقراءة التَّشديد ﴿تُعَلِّمُونَ﴾ تشير إلى التَّعليم، وقوله ﴿تَدْرُسُونَ﴾ يشير إلى المُدارسة، وهذه مراحل التَّعليم، فالقراءات متكاملةُ المعاني والدِّلالات.

سِرُّ التَّعْبِيرِ بِالْفِعْلِ الْمُضَارِعِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾:

تَحْصِيلُ الْعِلْمِ لَا نِهَايَةَ لَهُ وَلَا حَدَّ

جِيءَ بخَبرِ (كانَ) مُضارعًا ﴿تُعَلِّمُونَ﴾ ﴿تَدْرُسُونَ﴾؛ لإفادة استمرارِ القراءة والعلم والدّراسة من دون انقطاع؛ لأنّ الإنسان يعيش عمره بين هذه المراحل.

(1) ابن الجزري، النشر: 2/240.
(2) ابن الجزري، النشر: 2/240.
(3) الفارسّي، الحجّة للقرّاء السّبعة: 3/61، ومكّيّ بن أبي طالب، الكشف: 1/350، والرّازيّ، مفاتيح الغيب: 8/271.
(4) ابن خالويه، إعراب القراءات السَّبع، ص: 72.

وممَّا يُؤكِّد ذلك أنَّهم يقولون: دَرَسْتُ الكتابَ، ودرست العِلم، أي: تناولتُ أثرَه بالحفظ، ولمَّا كان ذلك لا يتأتَّى إلَّا بمداومة القراءة؛ عُبِّر عن إدامة القراءة بالدَّرس، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَيۡنَٰهُم مِّن كُتُبٖ يَدۡرُسُونَهَاۖ﴾ [سبأ: 44]، وقال تعالى: ﴿وَدَرَسُواْ مَا فِيهِۗ﴾ [الأعراف: 169].

نُكْتَةُ تَقْدِيمِ التَّعْلِيمِ عَلَى الدِّرَاسَةِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿بِمَا كُنتُمۡ تُعَلِّمُونَ ٱلۡكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمۡ تَدۡرُسُونَ﴾:

وُجُـوبُ قِـرَاءَةِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ وَتَدَبُّرِهِ

جيءَ بالتَّعليم مُقدَّمًا على الدِّراسة في قول الله تعالى: ﴿بِمَا كُنتُمۡ تُعَلِّمُونَ ٱلۡكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمۡ تَدۡرُسُونَ﴾؛ لأنَّ التَّعليمَ مُوصِّلٌ إليها، فهو الباب الّذي يلج منه العالِم إلى المُدارسة، وعَطفُ التَّدارس على القراءة دليلٌ على أنَّ الدِّراسةَ أخصُّ مِنْ مطلقِ القراءة؛ إذِ الدِّراسة: قراءة بإعادة وتَكْرِيرٍ؛ فإنَّ مادة (درس) في لسانِ العرب تدور حول معنى التَّأثُّر من تكرُّرِ عملٍ يعمل في أمثاله، ومنه قولهم: دَرَسَتِ الرِّيحُ رَسْمَ الدَّار؛ إذا عَفَتْهُ وأَبْلَتْهُ، ويقال: مَنْزِلٌ دارِس، وطَرِيقٌ دارِسٌ؛ أي: الذي لا يَتَبَيَّنُ، ومن هذا الباب قولهم: دَرَسَ الكتابَ؛ إذَا قَرَأَهُ بِتَمَهُّلٍ لِحِفْظِهِ أو تَدَبُّرِه، ومادَّةُ (دَرَسَ) تَستلزمُ التَّمكُّنَ مِنَ المفعول؛ فلذلك صارَ دَرْسُ الكتاب مجازًا في فَهمه وإتقانه، ولذلك عَطَفَ في هذه الآية ﴿وَبِمَا كُنتُمۡ تَدۡرُسُونَ﴾ على ﴿بِمَا كُنتُمۡ تُعَلِّمُونَ ٱلۡكِتَٰبَ﴾، وسَمُّوا بيتَ قراءة اليهود مِدرَاسًا، ويَجِيءُ على وَزنِ الفِعَالَةِ دِرَاسَةٌ، وهي زِنَةٌ تَدُلُّ على مُعالجة الفعل، مثل: الكتابة والقراءة، إلحاقًا لذلك بمصادر الصِّناعات كالتِّجارة والخياطة[1].

وفي كُلِّ هذا إيماءٌ إلى أنَّ الواجبَ في الكتُبِ التي يُنْزِلُهَا الله تعالى على الأنبياءِ أن تُقرأَ وتُتَدَبَّرَ.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/295 - 296.

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

البشر والنَّاس:

"إنّ قولَنا (البَشَر) يَقتضي حُسْنَ الهيئَة، وذلك أنَّه مُشتقٌّ مِنَ البشارَة، وهي حُسْنُ الهيئة، يُقالُ: رَجُلٌ بَشيرٌ وامرأةٌ بَشيرةٌ، إذا كان حسَنَ الهيئة، فسُمِّي النَّاس بشرًا؛ لأنَّهم أحسَن الحيوان هيئةً، ويَجوزُ أن يُقال: إنَّ قولَنا بَشَر، يقتَضِي الظُّهور، وسُمُّوا بشرًا؛ لظُهور شأنِهم، ومنه قِيلَ لظاهر الجلد: بَشَرَة"[1]، وَمِنْهُ بَاشَرَ الرَّجُلُ الْمَرْأَةَ، وَذَلِكَ إِفْضَاؤُهُ بِبَشَرَتِهِ إِلَى بَشَرَتِهَا. وَسُمِّيَ الْبَشَرُ بَشَرًا لِظُهُورِهِمْ. وَالْبَشِيرُ الْحَسَنُ الْوَجْهِ. وَالْبَشَارَةُ، الْجَمَالُ. قَالَ الْأَعْشَى:

وَرَأَتْ بِأَنَّ الشَّيْبَ جَا *** نَبَهُ الْبَشَاشَةُ وَالْبَشَارَهْ[2]

وقولنا: النَّاس، يَقتضي النّوس وهو الحَرَكة[3]، "وأصل النّاس: أناس، إلّا أنّ الألف حذفت من الأناس، فصارت: ناسًا، وسُمّي ذو نواس، لذؤابتين كانتا عليه تتحرّكان[4]، والنَّاس جمعٌ، والبَشَر واحدٌ[5].

الإيتاء والإعطاء:

الإيتاءُ أقوى مِنَ الإعطاءِ في إثبات مفعوله؛ لأنَّ الإعطاءَ له مُطاوِعٌ بخلاف الإيتاء، تقولُ: أعطاني فعطوت، ولا يُقالُ: آتَاني فَأتيت، وإنَّما يقالُ: آتَاني فأَخَذتُ. والفعلُ الَّذي له مُطاوِعٌ أضعَفُ في إثبات مفعوله، ممَّا لا مُطاوِعَ له؛ لأنَّك تقولُ: قَطَعتُه فانقطعَ، فيدُلُّ على أنَّ فعلَ الفاعلِ كان مَوقوفًا على قبول المَحلِّ، لولاه ما ثَبَتَ المفعول، ولهذا لا يصحُّ قَطَعتُه فما انقَطَعَ، ولا يصحُّ فيما لا مُطاوعَ له ذلك؛ ودليل ذلك في مَواضِعَ مِنَ القرآن، قال تعالى: ﴿تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ﴾ [آل عمران: 26]؛ لأنَّ المُلكَ شيءٌ عظيمٌ، لا يُعطاهُ إلَّا مَن له قُوَّةٌ؛ وقال: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١﴾ [الكوثر: 1]؛ لأنَّه موردٌ في المَوقفِ مُرتَحَلٌ عنه إلى الجنَّة. وذهب الزَّبيديّ إلى أنَّ الإعطاءَ أقوى مِنَ الإيتاءِ؛ ولذا خصَّ في دفع الصَّدَقات الإيتاءَ،

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 276، والرّاغب، المفردات: (بشر).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: 1/251.
(3) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 176، والرّاغب، المفردات: (بشر).
(4) الخليل: كتاب العين: 7/303.
(5) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 176، والرّاغب، المفردات: (بشر).

ليكونَ ذلك بسهولة من غير تَطَلُّع إلى ما يَدفَعه، وتأمَّل سائِرَ ما ورد في القرآنِ، تَجِد معنى ذلك فيه، والكوثر لمَّا كان عظيمًا شأنُه غير داخلٍ في حِيطَةِ قُدرَةٍ بشريَّةٍ، استُعمِل الإعطاءُ فيه، وكلامُ الأئمَّة وسياقُهم في الإيتاء لا يُخالِفُ ما ذكرنا[1].

الحِكمَة والحُكم:

الحِكمَة: هِيَ العدل والعلم، والحكم والنّبوّة، والقُرآن والإنجيل: وَوضع الشَّيء في مَوضِعه، وصواب الأمر وسداده، وأفعال الله كذلك؛ لأنَّهُ يتَصَرَّف بمُقتضى الملك فيفعل ما يشاء، وَافق غَرَض العباد أم لا[2].

والحُكمُ أعمُّ مِنَ الحكمة، فكلُّ حكمةٍ حُكمٌ، وليس كلُّ حُكمٍ حكمةً، فإنَّ الحُكمَ أن يُقضى بشيءٍ على شيءٍ، فيقول: هو كذا أو ليس بكذا. ومعنى الحُكم في الآية القضاءُ والفصلُ بين النَّاس[3].

الرّسول والنّبيّ:

في الفرق بين الرّسول والنّبيّ أمورٌ: أحدُها: أنَّ الرَّسولَ مِنَ الأنبياءِ مَن جَمَعَ إلى المُعجزةِ الكتابَ المُنزَّلَ عليه، والنّبيُّ غيرُ الرَّسولِ؛ مَن لم يَنزِلْ عليه كتابٌ، وإنَّما أُمِرَ أن يَدعُوَ إلى كتابِ مَن قَبلَهُ. والآخر: أنَّ مَن كان صاحبَ المُعجزةِ وصاحبَ الكتابِ ونَسَخَ شَرعَ مَن قَبلَهُ فهو الرَّسولُ، ومَن لم يَكن مُستجمعًا لهذه الخصالِ فهو النَّبيُّ غيرُ الرَّسول[4].

العباد والعَبيد:

العبادُ جمعُ عَبدٍ كالعَبيدِ، وجَمعُ عَبدٍ لا يُقصَدُ معه التَّحقيرُ، والعَبيدُ يُقصَدُ منه، ولذلك قال تعالى: ﴿يَٰعِبَادِىَ﴾ [العنكبوت: 56] بخلاف جَمعه على عبيدٍ، كقولهم: هُم عَبيدُ العصا، وقال حمزةُ بنُ المُطلِّب: هل أنتُم إلَّا عَبيدٌ لأبي. ومنه قول الله تعالى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلۡعَبِيدِ ۝٤٦﴾ [فُصِّلت: 46]؛ لأنَّه مكانُ تشفيقٍ وإعلام بقلّة مقدرتهم، وأنَّه تعالى ليس بظلَّامٍ لهم مع ذلك، ولمَّا كانت لفظةُ العباد تقتضي الطَّاعةَ لم تقع هنا[5].

(1) الزَّبيديّ، تاج العروس، مادّة: (أتى).
(2) الكفويّ، الكليّات، ص: 382.
(3) الرّاغب، المفردات: (حكم).
(4) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 3/1310، والرّازيّ، مفاتيح الغيب: 23/236.
(5) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 1/461، وأبو حيّان، البحر المحيط: 3/231، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/294.

وممَّا يقتضي ذكره في هذا المقام بيان الفَرق بين عباد وعَبِيد، وذلك من خلال استعمال القرآن الكريم لهاتين اللَّفظتين، حيث يُعبّر بالعباد عمَّن هم عباد للّه تعالى، ومن اختاروا أن يدخلوا تحت مظلَّة العُبوديّة طوعًا من غير إكراه، فهم راضون بكلّ ما يجرى عليهم من ربّهم، لا يخالفونه في أيّ أمر يجريه عليهم، أمَّا العَبيد فقد وَرَدَ ذِكرهم فيمن شَردوا عن طريق الهداية، واختاروا طريقًا غير طريق اللّه ربّ العالمين.

إذًا بين العباد والعَبيد عُمومٌ وخُصوص مِن وجه، إذ إنّ العَبيد قد تُطلق على عبيد اللّه وعبيد النَّاس، بينما يختصُّ إطلاق لفظ العباد بمن كانوا عبيدًا للّه تعالى فحسب.

ولذلك كلُّ الخَلْق عبيدٌ للّه، المؤمن والكافر؛ فالكافر مثلًا لا يستطيع أن يتمرَّد على الموت، فهو مَقهورٌ تحت المظلَّة الإلهيَّة، أمَّا المؤمن فهو مؤمنٌ بتقدير اللّه له فيرضى بقدر اللّه فيه، فهو بذلك انتقل من مرحلة العبيد إلى مرحلة العباد.

وممَّا يُؤكد الفَرق بينهما ما ذَكَره محمّد أمين الخضريّ في هذا المقام: أنَّ الانتقال في (عِباد) من الكسرة إلى الفتحة، ثمَّ إلى الاستطالة بالألف الرَّامزة إلى الرِّفعة وانتصاب القامة يُشير إلى أنَّ الانتساب إلى اللّه تعالى بعبادته ينقل الإنسان من وهدة الرَّذيلة، والخنوع للنِّد من البشر إلى سُمُوِّ النَّفس، والوجه في حضرة المعبود.

والانتقال في (عَبيد) من الفتحة إلى الكسرة، والاستطالة بالياء، يُوحي بانكسار النَّفس واستغراقها في الذّلّ ومهانتها باستعباد النَّاس[1].

الرّبّانيّون والأحبار:

ذكرَ ابنُ الجوزيِّ الفرقَ بينهما، وقال: فيه قولان: أحدُهما: لا فَرق، والكُلُّ عُلماء. وقد رُوي عن مُجاهد أنَّه قال: الرَّبّانيُّون: الفُقهاءُ العُلماءُ، وهم فوق الأحبار. وقال السُّدِّي: الرَّبّانيُّون: العُلماءُ، والأحبارُ: القُرَّاءُ. وقال ابنُ زَيد: الرَّبّانيُّون: الولاةُ، والأحبار: العُلماء، وقِيلَ: الرَّبّانيُّون: عُلماءُ النَّصارى، والأحبارُ: عُلماءُ اليهود[2].

(1) الخضري، الإعجاز البيانّي في صيغ الألفاظ، ص: 173.

(2) ابن الجوزيّ، زاد المسير: 1/552.

التّلقين والتّعليم:

إنّ التَّلقين يكونُ في الكلام فقط، والتَّعليم يكونُ في الكلام وغيره، تقولُ: لقَّنَهُ الشِّعرَ وغيرَهُ، ولا يُقالُ: لقَّنَهُ التِّجارةَ والنِّجارةَ والخياطةَ، كما يُقالُ: علَّمَهُ في جميع ذلكَ، ومن جهة أخرى؛ فإنَّ التَّعليم يكونُ في المرَّة الواحدة، والتَّلقين لا يكون إلَّا في المرَّات. كما أنَّ التَّلقين هو مُشافهتك غيرك بالتَّعليم، وإلقاء القَول إليه ليأخُذَه عنكَ، ووضع الحروف مَواضِعها، والتَّعليم لا يقتضي ذلك؛ ولهذا لا يُقال: إنَّ اللّه يُلقِّنُ العَبدَ، كما يُقالُ: إنَّ اللّه يُعلّمه[1]، قال تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ ۝٤﴾ [الرّحمن: 3 - 4]، ولم يقل لقّنه البيان.

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 82.

﴿وَلَا يَأۡمُرَكُمۡ أَن تَتَّخِذُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرۡبَابًاۚ أَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡكُفۡرِ بَعۡدَ إِذۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ ٨٠﴾ [آل عمران: 80]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

المناسبة بين ضلال تأليه عيسى خاصّة، وتأليه الملائكة والنّبيئين عامّة

مازال الحديث موصولًا في التَّحذير مِن عبادةِ غير اللّه، سواء كان السَّببُ في نزولها سُلوكَ اليهود، وهو الأظهر، أم جهلًا مِن بعض المسلمين، لذلك بالغ في تعظيمِ النَّبيّ ﷺ، أو استئذانه في تلك المبالغة[1]، "وما كان لأحد منهم أن يأمركم باتّخاذ الملائكة والنّبيين أربابًا، تعبدونهم من دون اللّه، أَيُعْقَلُ - أيّها النّاس - أن يأمركم بالكفر باللّه بعد انقيادكم لأمره؟"[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَأۡمُرَكُمۡ﴾ الأمرُ: نقيضُ النَّهي، والأمرُ واحدٌ مِن أمور النَّاس[3]، "ويقال في الأمر منه (أؤمر) بالهمزة و(مُرْ) بلا همز، قال اللّه تعالى: ﴿وَأۡمُرۡ أَهۡلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ﴾ [طه: 132]، ويقال: أَمَر اللّه تعالى القومَ: أي كثَّرهم، وعلى ذلك فسّر الحسن قوله تعالى: ﴿أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا﴾ [الإسراء: 16]، أي كثّرناهم، وقيل: هو من الأمر، أي أمرناهم بالطّاعة ففسقوا، كما يقال: أمرتك فعصيتني، ليس المعنى: أمرتك بمعصيتي، لكن معناه: أمرتك بطاعتي فعصيتني"[4].

2) ﴿تَتَّخِذُواْ﴾: الاتِّخاذُ: الاعتمادُ هاهنا، مِنْ تَخِذَ يَتخَذُ تَخَذًا، وتَخِذتُ مالًا، أي: كَسَبتُه، أُلزِمَتِ التّاءُ كأنَّها أصليَّة، وأصلُهُ افتِعال

(1) ابن جرير، جامع البيان: 6/547، والنّسفيّ، التّيسير في التّفسير: 4/125.
(2) نخبة من أساتذة التّفسير، التّفسير الميسّر، ص: 60.
(3) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (أمر).
(4) الحِفيرِيّ، شمس العلوم: 1/326.

مِنَ الأخذِ، والأخذُ: حَوزُ الشَّيء[1]، "واتَّخَذه: عمله، وقولُه ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ ٱلۡعِجۡلَ﴾ [الأعراف: 152]، أَرَادَ: اتَّخذوه إِلَهًا، فَحذف الثَّاني، لِأَنّ الاتِّخاذ دليلٌ عَلَيْهِ، وَحكى سِيبَوَيْه: اسْتَخذ فلانٌ أرْضًا، حذفت إِحْدَى التَّاءَيْنِ، وقَالَ ابْن جني: يجوز أَن يكون أصله: اتْتَخَذ، أبدلوا من التَّاء الأولى سينًا (اسْتخذوا)، فَلَمَّا كَانَت السِّين وَالتَّاء مهموسين جَازَ إِبْدَال كلٍّ وَاحِدَة مِنْهُمَا من أُختها[2].

3) ﴿ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ﴾: المَلَكُ، مُحَرَّكَةً: واحِدُ الملائكة، والملائك يكونُ واحدًا وجَمعًا، وإنَّ أصلَه مألَك بتقديمِ الهمزَةِ من الألُوك، ثمَّ قُلِبَت، وقُدِّمَت اللَّامُ، فقيل: ملأَك، ثمَّ تُرِكَت هَمزَتُه لكثرة الاستِعمالِ، فقيلَ: مَلَكٌ، فلمَّا جَمَعوه رَدُّوها إليه، فقالُوا: ملائكةٌ وملائِكُ أيضًا. والملائكة عبادُ اللّه العاملون بأمر اللّه[3].

4) ﴿بِٱلۡكُفۡرِ﴾: الكُفرُ: ضِدُّ الإيمان، سُمِّيَ لأنّه تَغطيَةُ الحَقِّ. وكذلك كُفرَانُ النِّعمة: جُحودُها وسَترُها، وسُمِّيَ الكافِرُ الشَّرعيُّ كافرًا؛ لأنَّه سَتَر الحَقَّ وغَطَّى عليه، وسُمِّي اللَّيل كافرًا؛ لستره الأشياءَ بظلامِه[4].

5) ﴿مُّسۡلِمُونَ﴾: الإسلامُ والاستِسلامُ: الانقيادُ. والإسلامُ مِنَ الشّريعة: إظهار الخُضوع وإظهار الشَّريعة والتزامُ ما أتى به النَّبيُّ ﷺ، يُقالُ: فُلانٌ مُسلِمٌ، وفيه قولانِ: أحدهما هو المُستَسلِمُ لأمر اللّه، والآخر هو المُخلِصُ للّه العبادةَ، مِن قَولِهم: سَلَّمَ الشَّيءَ لفُلانٍ، أي: خَلَّصَهُ، وسَلِمَ له الشّيءُ، أي: خَلَصَ له[5].

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

ما كان لبشرٍ ولا يَنبغي له - كذلك - أنْ يأمرَكُم أنْ تتَّخذواْ الملائكةَ والنَّبيِّين أربابًا تَعبُدونَهُم مِن دُون اللّه، أيجوزُ منه أن يأمرَكُم بالكفر باللّه، بعد انقيادكم إليه، واستِسلامكم له؟![6]، لأنّه إن أمرهم بعبادة غير اللّه، يكون قد أمرهم بالكفر، وهو إنّما

(1) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 4/375، والفيروز آبادي، القاموس المحيط، (باب الذّال، فصل الجيم).
(2) ابن سيده، المحكم: (تخذ).
(3) الجوهريّ، الصّحاح، والزَّبيديّ، تاج العروس: (ملك).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والسَّمين، عُمدة الحفّاظ: (كفر).
(5) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (سلم).
(6) جماعة من علماء التَّفسير، المختصر في تفسير القرآن الكريم، ص: 60.

بعثه اللّه لدعوتهم إلى الإسلام الخالص من الشّوائب، وكلّ ما يمكن أن يقوله للنّاس أن يكونوا ربّانيين مخلصين للّه، في عبادته وتقواه، هُداةً إليه بما يعلمون من كتبه المنزلة على رسله، ومنهم عيسى [1] عليه السلام.

ليس لبشرٍ أن يأمر النّاس باتّخاذ الملائكة والنّبيين أربابًا

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دِلَالَةُ ﴿وَلَا﴾ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَأْمُرَكُمْ﴾:

تأتي (لا) لتَأكيدِ مَعْنَى النَّفي الشَّائع في الاستعمالِ، ولا سيّما عِندَ طُول العَهد وتَخلُّل الفَصل، فمعنى قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْمُرَكُمْ﴾: ما كان لبشرٍ أن يُؤتيهُ اللّه تعالى ذلكَ ويُرسله للدَّعوة إلى اختِصاصه بالعبادة وتَرك الأنداد، ثمَّ يأمر النَّاس بأن يكونوا عبادًا له، ويأمُرَكم أن تتَّخذوا الملائكةَ والنَّبيِّينَ أربابًا، فهو كقولك: ما كان لِزيدٍ أن أكرمَهُ ثمَّ يُهينَني ولا يَستَخفَّ بي.

تَبرئةُ اللهِ تَعَالَى لِأَنْبِيَائِهِ مِنَ الْمَزَاعِمِ الْبَاطِلَةِ دِفَاعٌ عَنِ الرِّسَالَةِ السَّامِيَةِ الَّتي يَحْمِلُونَهَا

وتأتي (لا) أيضًا للنّفي، على أنَّ السّياق واردٌ في نَهْيِهِ ﷺ عَن عبادة الملائكةِ والمسيحِ وعُزَيْر عليهما السلام، فلمَّا قيل له: أنتَّخذكَ ربًّا؟ قيل لهم: (ما كان لبشرٍ أنْ يتَّخذَهُ اللّه تعالى نبيًّا ثمَّ يأمر النَّاس بعبادته وينهاهم عَن عبادة الملائكة والأنبياء)، مع أنَّ مَن يُريد أن يَستَعْبِدَ شخصًا يقول له: ينبغي أن تَعبُدَ أمثالي وأَكْفَائِي، وعلى هذا يكون المقصودُ مِن نفيِ الأمر: النَّهيَ، وإنْ كان أعمَّ منه؛ لكونه أَمسَّ بالمقصود وأَوفقَ للواقع[2].

والفعلُ المُستَكِنُّ في ﴿وَلَا يَأْمُرَكُمْ﴾ راجعٌ لِلْبَشَرِ على الوجه الأوَّل، وعلى الثَّاني راجعٌ لرَسُولِ اللّه ﷺ أو للبشر[3].

(1) دروزة، التّفسير الحديث: 7/177.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/378، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 2/25، والآلوسّي، روح المعاني: 2/200.
(3) الهمذانّي، المنتخب الفريد، : 2/80.

دِلَالَةُ الِالْتِفَاتِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَأْمُرَكُمْ﴾:

الْـقَـصْـدُ مِـنْ خِـطَـابِ الـلـهِ تَعَالَى لِلْمُذْنِبِينَ إِقَـامَـةُ الْحُجَّةِ عَلَيْهِمْ

في قوله: ﴿وَلَا يَأْمُرَكُمْ﴾ التفاتٌ مِن طريقةِ الغَيبةِ إلى الخطابِ الواردِ قوله: ﴿ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُواْ عِبَادًا لِّي مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: 79]؛ إذ مقتضى الظَّاهر أن يُقال: (ولا يأمرهُم أن يتَّخذوا)، إلَّا أنَّهُ عُدِلَ عن الغَيْبَة إلى الخطاب؛ فالمُواجَهُ بالخطاب هُمُ الّذين زعموا أنَّ عيسى عليه السلام قال لهم: ﴿كُونُواْ عِبَادًا لِّي مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾[1]، ونكتة الالتفاتِ إلى الخطابِ: "هو الإمساكُ بِمَخانِق علماء أهل الكتاب، وهم مُتَلبِّسون بهذا الضَّلال الذي هُم فيه، يَطْعَمُون مِنْهُ ويُطْعِمُون أتباعَهم مِن هذا الزَّاد الفاسدِ الذي يُهْلِكُ مَن يتناولُه ويتزوّد منه"[2].

بَلَاغَةُ الْمُشَاكَلَةِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَلَا يَأْمُرَكُمْ﴾:

تَبْرِئَةُ اللهِ تَعَالَى لِأَنْبِيَائِهِ دَلِيلٌ عَلَى غَيْرَتِهِ ﷻ عَلَيْهِمْ

التَّعبيرُ بـ ﴿وَلَا يَأْمُرَكُمْ﴾ مُشاكلةٌ لقوله: ﴿ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ﴾؛ لأنَّهم زَعَموا أنَّ المسيح قال: إنَّهُ ابن الله، فلمَّا نُفِيَ أنَّه يقول ذلك نُفِيَ ما هو مِثْلُهُ؛ وهو أن يأمرَهم باتِّخاذِ الملائكةِ أربابًا، أو لأنَّهم لمَّا كانوا يدَّعونَ التَّمسُّكَ بالدِّين كان سائرُ أحوالِهم مَحمولةً على أنَّهم تَلقَّوها منه، أو لأنَّ المسيحَ لم يَنْهَهُم عَن ذلك في نفس الأمر؛ إذ هذا ممَّا لا يَخطُرُ بالبال أن تَتلبَّسَ به أمَّةٌ مُتَدَيِّنَةٌ، فاقتَصَرَ - في الرَّدِّ على الأمَّةِ - على أنَّ أنبياءَهم لم يأمُرُوهم به؛ ولذلك عقَّبَ بالاستفهام الإنكاريِّ، وبالظَّرف المُفيد مزيدَ الإنكارِ على ارتكابهم هذه الحالة، وهي قوله: ﴿أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾[3].

أَثَرُ الْقِرَاءَاتِ فِي تَوْسِيعِ الْمَعْنَى فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَأْمُرَكُمْ﴾:

قُرِئَ قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْمُرَكُمْ﴾ بالرَّفع والنَّصب[4]؛ فوجه

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/297.
(2) الخطيب، التفسير القرآنّي للقرآن: 2/507.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/296.
(4) ابن الجزري، النشر: 2/240.

أَهَمِّيَّةُ الْقِرَاءَاتِ فِي تَفْسِيرِ كِتَابِ اللهِ الْعَزِيزِ

النَّصب: أنَّه معطوفٌ على ﴿يُؤْتِيَهُ﴾ من قوله: ﴿أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ﴾. ووجهُ الرَّفْعِ: أنَّه استأنفَ الكلامَ مُبتَدِئًا، ويُؤَيِّدُهُ ما ورد في قراءة عبد الله بن مسعود: (وَلَنْ يَأْمُرَكُمْ)[1]، فَلمّا فَقَدَ النَّاصِبَ في ﴿وَلَا يَأْمُرَكُمْ﴾ عاد إلى إعراب ما وجب لَهُ بالأصالةِ وهو الرَّفْعُ.

سِرُّ التَّعْبِيرِ بِنَفْيِ الْأَمْرِ دُونَ التَّصْرِيحِ بِالنَّهْيِ:

دِقَّةُ التَّعْبِيرِ الْقُرْآنِيِّ فِي رَدِّ الدَّعَاوَى وَإِبْطَالِهَا

عُبِّر بنفي الأمر في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْمُرَكُمْ﴾ دون النَّهي بأن يَرِدَ النَّظمُ (وَيَنْهَاكُمْ أن تتَّخذوا)؛ وذلك باعتبار دَعْوَاهُم وتقوُّلِهم على الرُّسل، كما قال ابن عاشور: "ولعلَّ التَّعبير بقوله: ﴿وَلَا يَأْمُرَكُمْ﴾ مشاكلة لقوله: ﴿ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ﴾؛ لأنَّهم زعموا أنَّ المسيحَ قال: إنّه ابن الله؛ فلمَّا نفى أن يقول ذلك نفى ما هو مثله، وهو أن يأمرهم باتِّخاذ الملائكة أربابًا"[2].

نُكْتَةُ التَّعْبِيرِ بِالِاتِّخَاذِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرْبَابًا﴾:

عِبَادَةُ غَيْرِ اللهِ تَعَالَى خِلَافُ الْفِطْرَةِ الَّتِي فَطَرَ اللهُ الْخَلْقَ عَلَيْهَا

المُلاحظ في تعبير القرآن عن مواقف المشركين في اتِّخاذ الآلهة من الأصنام والأوثان، وعبادة الملائكة والعجل أنْ يَرِدَ التَّعبيرُ عنها بالفعل من مادَّة الاتِّخاذِ، وصيغة الافتعالِ تدُلُّ على التَّكلُّف في الفعل، وبذل الجهد؛ وذلك أنّ ما يفعله المشركون خلافُ الفطرة، والعمل على خلاف الفطرة الّتي فطر النَّاس عليها يَحتاج إلى مزيد جهدٍ لِلْإِقْنَاع والتّأثير.

فَائِدَةُ التَّخْصِيصِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرْبَابًا﴾:

سببُ تخصيصِ الملائكة والنّبيّين بالذّكر في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرْبَابًا﴾ أنَّ الَّذين وُصِفوا مِن

(1) ابن خالويه، الحجة، ص: 111.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/296.

أهلِ الكِتابِ بعبادة غير اللّه تعالى لم يُحكَ عنهم إلَّا عبادةُ الملائكة وعبادةُ المسيح وعُزَيرٍ، فلهذا المعنى خصَّهما بالذِّكر[1]، أو أنَّ فيه تنبيهًا بالأعلى عن الأدنى؛ فإذا لم يجُز عبادةُ هؤلاءِ مع رفيع مكانتهم وعظيم شأنهم، فعبادةُ غيرهم أَوْلَى بالتَّحريمِ والنَّهي.

الْمَلَائِكَةُ وَالْأَنْبِيَاءُ هُمْ أَشْرَافُ الْعِبَادِ الْخُلَّصِ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ

نُكْتَةُ تَقْدِيمِ الْمَلَائِكَةِ عَلَى النَّبِيِّينَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرۡبَابًاۗ ﴾:

قُدِّم ذكر الملائكةُ على النَّبيِّين في قوله تعالى: ﴿ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرۡبَابًاۗ ﴾ للتّحذيرِ مِن اتِّخاذِ أندادٍ مِن دون اللّه؛ لأنَّ احتمال اتِّخاذ الملائكة أربابًا أَدخَل إلى النُّفوس؛ لاختلاف طبيعتهم عَن طبيعة البشر.

اخْتِلَافُ خِلْقَةِ الْمَلَائِكَةِ عَنْ خِلْقَةِ الْبَشَرِ مَظِنَّةٌ لِعِبَادَتِهِمْ

سِرُّ اخْتِيَارِ التَّعْبِيرِ بِ﴿وَٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ دُونَ (الْمُرْسَلِين):

عبَّر بـ ﴿وَٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ دُون المرسلينَ؛ لأنَّ كلَّ رسول نبيٌّ، وليس كُلُّ نبيٍّ رسولًا، فلو قِيلَ في هذا السِّياقِ: (والمُرسَلِينَ)؛ لوَقَعَ في الوَهم أنَّ المحظورَ هو اتِّخاذ الرُّسل أربابًا، أمَّا النَّبيُّون فلا؛ لأنَّ التَّحذيرَ لم يَشملهم فَدُفِعَ هذا التَّوهم بذكرِ ﴿وَٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾؛ لأنَّه يَشملُ الرُّسلَ والنَّبيِّينَ جميعًا[2].

سَدُّ الشَّرْعِ جَمِيعَ طُرُقِ الشِّرْكِ

سِرُّ التَّعْبِيرِ بِقَوْلِهِ ﴿ أَرۡبَابًاۗ ﴾ دُونَ (آلِهَة):

عُبِّر بالأرباب دون الآلهة في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرۡبَابًاۗ﴾؛ بناءً على زعمهم لِاعْتِقَادِهِم فِيهَا، وتنفيرًا من اتِّخاذهم آلهةً؛ إذ الإقرار بانفراد اللّه تعالى بالرُّبوبيَّةِ عامٌّ لجميع الخلق إلَّا من كابَرَ، فكان ذكرُ الرُّبوبيَّةِ أكثرَ تنفيرًا من عبادةِ المذكورينَ في الآية.

الْمُبَالَغَةُ فِي التَّنْفِيرِ مِنَ الشِّرْكِ وَأَسْبَابِهِ

(1) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 8/273، والخازن، لباب التّأويل: 1/263.

(2) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 1/169.

دِلَالَةُ الِاسْتِفْهَامِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾:

الأمرُ بالكفرِ مُنكَرٌ على كُلِّ حَالٍ

الاستفهامُ في قوله تعالى: ﴿أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ يُرادُ به الإنكار؛ أي: لا يفعل ذلك، فهو مَجازٌ مرسلٌ مركَّبٌ، ولم يجرِ الاستفهامُ على حقيقتِه؛ لصُدُوره عَنِ اللّه ﷻ، وإنَّما جازَ أن يُنقَلَ إلى الإنكار؛ لأنَّه ممَّا أقَرَّ به المُخاطَبُ، وظهر افتضاحُهُ، وبانَ سُقوطه؛ فهو ممَّا لا يُخفَى فسادُه؛ فلذلك جاءَ الكلامُ على السُّؤال، وإنْ لم يكن معناه تَعَرُّف الجواب[1].

وهذا الاستفهام بعد كونهم مسلمينَ أفحشُ وأقبحُ، إذِ الأمرُ بالكفر على كلّ حالٍ مُنكَرٌ، ومعناهُ: أنَّه لا يأْمُرُ بكُفرٍ؛ لا بعدَ الإسلام ولا قَبلَهُ، سواءٌ كان الآمرُ اللّه تعالَى أم الَّذي استَنبَأَهُ اللّه سبحانه[2].

تَعْيِينُ الْمُخَاطَبِ بِقَوْلِهِ: ﴿أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾:

الإِسْلَامُ هُوَ الِاسْتِسْلَامُ للهِ تَعَالَى بِالتَّوْحِيدِ

في الآية دلالةٌ على أنَّ المُخاطَبِينَ كانوا مُسلِمِينَ، وذلك لقوله تعالى: ﴿أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ فهو يقتضي أنَّهم كانوا مُسلِمينَ، والخطابُ للنَّصارى وليسَ دِينُهُم مما يُطلَقُ عليه أنَّه إسلامٌ، وإنَّما أُرِيدَ بالإِسلام هنا الإيمانُ، أي: غَير مُشرِكِينَ، بقرينة قوله: ﴿بِٱلْكُفْرِ﴾. ويحتمِلُ أن يكونَ الخطابُ للمُسلمِينَ بناءً على ظاهر قوله: ﴿إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾؛ لأنَّ اليهودَ والنَّصارى لم يُوصَفوا بأنَّهم مُسلِمون في القرآن[3].

دِلَالَةُ الظَّرْفِ ﴿بَعْدَ﴾ فِي قَوْلِهِ: ﴿بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾:

﴿بَعْدَ﴾ من قول اللّه تعالى: ﴿بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ ظرفُ زَمان، أفادَ مَزيدًا من الإنكارِ على ارتكابِهِم هذهِ الحالةِ، ويَنْتَصِب

(1) الواحديّ، التّفسير البسيط: 5/388، والرّازيّ، مفاتيح الغيب: 8/273، وابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/376.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/234.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/235، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/297.

﴿بِٱلۡكُفۡرِ﴾ أو: بـ ﴿يَأۡمُرُكُمۡ﴾، و: ﴿إِذۡ﴾ مضافةٌ إلى الجملة الاسميّة، وأُضيف إليها: ﴿بَعۡدَ﴾، ولا يُضافُ إليها إلَّا ظرفُ زمان.

الْعَوْدُ إِلَى الْكُفْرِ بَعْدَ الْإِسْلَامِ أَمْرٌ مَذْمُومٌ وَمُحَرَّمٌ شَرْعًا

وجملة ﴿أَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ تضمَّنت زيادةً في تَقبيح الأمر بالكُفر بَعد تحقيق الإسلام وثُبوته في قلوب المُخاطَبين، وهذا الثّبوت دُلَّ عليه بالجملة الاسميّة[1].

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/235، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/296، والمطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 1/169.

﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾﴾ [آل عمران: 81]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

المناسبة بين عهد الله للنّبيّين، وما كان من اليهود من قُبح القول والفعل

لمَّا حكى الله تعالى عن أهل الكتابِ قبائحَ أقوالهم وأفعالهم، وكان ممَّا ذَكَرَ من قبائحهم اشترَاءَهم بآيات الله ثمنًا قليلًا، وذكر ما يترتّب على ما يَؤولُ أمرُهم إليه في الآخرة، وبيَّن أنّ منهم مَن بدَّلَ في كتابه وغَيَّرَ وَصفَ رسول الله ﷺ، فجاءت هذه الآية لتُقِيمَ الحجَّةَ على أهل الكتاب وغيرهم ممّن أنكر نُبُوَّتَهُ ودينَهُ، فذكر أخذَ الميثاق على أنبيائهم بالإيمان برسول الله ﷺ، والتَّصديق له، والقيام بنُصرَته، وإقرارهم بذلك، وشهادَتهم على أنفسهم، وشهادته تعالى عليهم بذلك، وهذا العهدُ مذكورٌ في كُتُبهم، وشاهدٌ بذلك أنبياؤُهم[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَخَذَ﴾: الأصلُ فيه حَوزُ الشَّيءِ وجَبيُهُ وجَمعُهُ، تَقولُ: أَخَذتُ الشَّيءَ آخُذُهُ أخذًا، وهو خلاف العطاء، وهو التَّناول[2].

2) ﴿مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾: الميثاقُ: العَهدُ، والجمعُ المواثيقُ على الأصل، والمَوثِقُ: الميثاقُ. والمواثَقَةُ: المُعاهدةُ. ومنه قوله تعالى: ﴿وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِى وَاثَقَكُم بِهِۦٓ﴾ [المائدة: 7]. وأوثَقَهُ في الوَثاق، أي: شدَّهُ[3].

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/235.
(2) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (أخذ).
(3) الخليل، العين، وابن عبّاد، المحيط، والجوهريّ، الصّحاح: (وثق).

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾، أي: أخذ العهد عليهم بأن يؤمنواْ بمحمّد ﷺ، وأخذ العهد بمعنى الاستحلاف. وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [يوسف: 66]، أي: ميثاقا، جمعه مواثيق على الأصل، ومياثيق على اللّفظ، ومياثق في ضرورة الشّعر. وأنشد الفرّاء لعيّاض بن درّة الطّائي:

حِمًى لَا يَحِلُّ الدَّهْرَ إِلَّا بِإِذْنِنَا وَلَا نَسْأَلُ الْأَقْوَامَ عَقْدَ الْمَيَاثِقِ[1].

وأمّا لفظ ﴿ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾، فجمع (نبي) والنبي مأخوذ من العُلُوّ؛ لشرفه، فالنَّبيّ أرفعُ خَلقِ اللّه. والنَّبيُّ بغير الهمز أبلغُ من النَّبِيء بالهمز؛ لأنَّه ليس كلّ مُنَبَّإٍ رفيعَ القَدر والمحلِّ[2].

3) ﴿ءَاتَيْتُكُم﴾: الإيتاءُ: الإعطاء. آتَى يؤتي إِيتَاءً وآتاهُ إِيتاءً، أي: أعطاه. ويُقالُ: لفلانٍ أَتْوٌ، أي: عَطاء. وآتَاه الشَّيء، أي: أعطاه إيَّاه. وفي التَّنزيل العزيز: ﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ [النّمل: 23]؛ أراد وأُوتيَت مِن كلِّ شَيءٍ شَيئًا[3]، "وفي الكشّاف: اشتهر الإيتاء في معنى الإعطاء، وأصله الإحضار، وقال شيخنا: وذكر الرّاغب أنّ الإيتاء مخصوص بدفع الصّدقة؛ قال: وليس كذلك، فقد ورد في غيره: كـ ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ﴾ [مريم: 12]، ﴿وَءَاتَيْنَٰهُمَا ٱلْكِتَٰبَ﴾ [الصافات: 117]، إلّا أن يكون قصد المصدر فقط"[4].

4) ﴿كِتَٰبٍ﴾: الكَتبُ: ضمُّ أديمٍ إلى أديم بالخياطة، يُقال: كَتَبتُ السِّقاء، وفي التَّعارفِ ضمُّ الحروف بعضها إلى بعض بالخطِّ، وقد يُقالُ ذلك للمَضمُوم بعضها إلى بعضٍ باللَّفظ، فالأصلُ في الكتابة النَّظم بالخطّ، لكنْ يُستعارُ كلُّ واحد للآخر، والكتاب في الأصل مصدرٌ، ثمّ سُمِّي المكتوب فيه كتابًا، ويكون اسمًا للصّحيفة مع المكتوب فيه، قال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [النّساء: 153]، فإنَّه يعني صحيفةً فيها كتابةٌ[5].

5) ﴿وَحِكْمَةٍ﴾: الحُكمُ المَنعُ مِنَ الظُّلم. وسُمِّيَت حَكَمَةُ الدَّابَّة؛ لأنّها تَمنعُها، يُقالُ: حَكَمتُ الدَّابَّة وأحكَمتُها. ويُقالُ: حَكَمتُ السَّفِيهَ وأحكَمتُهُ، إذا أَخَذتَ على يديهِ. والحكمةُ

(1) الزَّبيديّ، : تاج العروس: (وثق).
(2) الرّاغب، المفردات: (نبي)، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (نبو).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (أتي).
(4) الزَّبيدي، تاج العروس: (أتى).
(5) الرّاغب، المفردات: (كتب).

هذا قياسُها، لأنّها تَمنَعُ مِنَ الجهل. وتقولُ: حَكَّمتُ فلانًا تَحكيمًا منعتُهُ عمَّا يُريد[1].، والحِكمة: إصابة الحقّ بالعلم والعقل

6) ﴿جَآءَكُمۡ رَسُولٌ﴾: جاءَ يَجيءُ ومَجِيئًا، والمجيءُ كالإتيان، لكنِ المجيءُ أعمُّ؛ لأنَّ الإتيانَ مجيءٌ بسهولة، والمَجِيءُ يُقال اعتبارًا بالحُصُول، ويُقال: جاءَ في الأعيان والمعاني، ولمَا يكون مجيئُه بذاته وبأمره، ولمَن قصد مكانًا أو عملًا أو زمانًا، قال اللّه ﷻ: ﴿وَجَآءَ مِنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ رَجُلٞ يَسۡعَىٰ﴾ [يس: 20][2]، وقوله ﴿رَسُولٌ﴾: أصل الرِّسْلِ: الانبعاث على التُّؤدة، ويُقال ناقة رِسْلَةٌ: سهلة السَّير، وإبلٌ مراسيل: مُنبعثةً انبعاثًا سهلًا، ومنه الرَّسُولُ المُنبعِث، وتُصُوِّرَ منه تارةً الرِّفق، فقيل: على رِسلك، إذا أمرته بالرّفق، وتارةً الانبعاثُ فاشتُقّ منه الرّسول. وجمع الرّسول رُسُلٌ. ورُسُلُ اللّه تارةً يُراد بها الملائكة، وتارةً يُراد بها الأنبياء[3]، والرّسول: بمعنى الرّسالة، يؤنّث ويذكّر، وتذكيره معلوم على نحو اللّفظ المشروح، وهو الرّسالة والمرسل، على نحو قول كثيّر عزّة:

لَقَدْ كَذَبَ الوَاشُونَ مَا بُحْتُ عِنْدَهُمْ بِسِرٍّ، وَلَا أَرْسَلْتُهُمْ بِرَسُولِ[4]

7) ﴿مُّصَدِّقٞ﴾: الصِّدق: نَقيضُ الكذبِ، صَدَقَ يَصدُقُ صَدقًا وصِدقًا وتَصداقًا. صَدَّقَهُ: قَبِل قَولَه. وصدَقَه الحَدِيثَ: أَنبأَه بالصِّدق؛ قال الأعشى:

.....*** فصدَقتُها وكَذَبتُها والمَرءُ يَنفَعُه كِذابُهْ[5]

ورجلٌ صَدُوقٌ: أبلغُ مِنَ الصَّادق، والصِّدِّيقُ: المُصَدِّقُ. وفي التَّنزيل: ﴿وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٞ﴾ [المائدة: 75]، أي: مُبالغةٌ في الصِّدق والتَّصديق على النَّسَب، أي: ذَاتُ تَصديق[6].

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حكم).
(2) الرّاغب، المفردات: (جاء).
(3) الرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (رسل).
(4) ابن منظور، لسان العرب: (رسل).
(5) البيت منسوب إلى الأعشى، وقد وردت في الدّيوان قصيدة بنفس الوزن والرويّ، ولكن لا يوجد فيها البيت، وهي في مدح رجل من كندة، اسمه ربعة بن حيوة، ومطلعها:

أَضْرَمْتَ حَبْلَكَ مِنْ لَمِـ *** سَ الْيَوْمَ أَمْ طَالَ اجْتِنَابُهْ

والبيت مذكور في شرح ديوان المتنبي للعكبريّ: 1/3، وفي تحسين القبيح وتقبيح الحسن لأبي منصور الثّعالبيّ، ص: 23، وفي تاج العروس للزبيدي: 6/26، وفي المحكم، لابن سيده: 6/189، وفي المخصّص له أيضا: 1/291.
(6) لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس: (صدق).

8) ﴿لَتُؤۡمِنُنَّ بِهِۦ﴾: الإيمان: التَّصديقُ نفسُه، وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤۡمِنٖ لَّنَا﴾ [يوسف: 17]، أي: بمُصَدِّق. ويُقال: لكلِّ واحد من الاعتقاد والقَول الصِّدق، والعمل الصَّالح: إيمان. قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمۡۚ﴾ [البقرة: 143][1]

9) ﴿وَلَتَنصُرُنَّهُۥۚ﴾: النَّصر: إعانة المَظلوم؛ نصَره على عَدُوِّهِ ينصُره، ونصَره ينصُره نصرًا[2]، قال ابن عبّاس: "ما بعث الله نبيّاً من الأنبياء إلّا أخذ عليه الميثاق لئن بعث الله محمّداً وهو حيّ ليؤمننَّ به ولينصُرَنّه، وأمرَهُ أن يأخذ الميثاق على أمّته".

10) ﴿ءَأَقۡرَرۡتُمۡ﴾: الإقرارُ: إثباتُ الشَّيء، قال تعالى: ﴿وَنُقِرُّ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى﴾ [الحج: 5]، وقد يكون ذلك إثباتًا، إمَّا بالقلب، وإمَّا باللِّسان، وإمّا بهما، ويُضادُّ الإقرارَ الإنكارُ، وأمَّا الجُحودُ فإنَّما يُقال فيما يُنكَرُ باللِّسان دُون القَلبِ، قال: ﴿ثُمَّ أَقۡرَرۡتُمۡ وَأَنتُمۡ تَشۡهَدُونَ﴾ [البقرة: 84][3].

11) ﴿إِصۡرِيۖ﴾: الإِصرُ والأَصرُ: الثِّقلُ. والعَهدُ المُؤَكَّدُ الَّذي يُثبِّط ناقِضَه عَنِ الثَّواب والخَيراتِ. والجَميعُ آصارٌ[4]، "وانّما سمّي الْكتاب إصرًا، لأَنّ الإصر: الْعَهْد، قَالَ الله جلّ وَعزّ: ﴿وَأَخَذۡتُمۡ عَلَىٰ ذَٰلِكُمۡ إِصۡرِيۖ﴾ أَي: عهدي، وَفي الْكتاب مَا يَأْخُذهُ الْمُتَبَايعَانِ من الْعَهْد ويشترطانه، وَيجوز أَن يكون سُمّي إصْرا، لِأَنَّهُ يأصر إلى الْحقّ، أي: يعْطف إليه، مثل يأظر، وَمِنْه يُقَال: مَا بيني وَبَينه آصرة، أَي: عاطفة رحم ولا مودّة"[5].

12) ﴿فَٱشۡهَدُواْ﴾: الشُّهودُ والشَّهادةُ: الحضور مَعَ المُشاهدة، إمَّا بالبصر، وإمّا بالبصيرةِ، وقد يُقالُ للحضُور: مُفردًا، قال الله تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ [السّجدة: 6]، لكن الشُّهود بالحضور المُجرَّد أَولَى، والشَّهادة مع المُشاهدة أَولَى. والشَّاهدُ العَالِمُ الَّذي يُبَيِّنُ ما عَلِمَه[6]، والشَّهادة: قول صادر عن عِلم حصل بمشاهدة بصيرةٍ أو بصر.

(1) الخليل، العين، والرّاغب، المفردات: (أمن)
(2) ابن منظور، لسان العرب: (نصر).
(3) الخليل، العين، والرّاغب، المفردات: (قر).
(4) ابن عباد، المحيط، والجوهريّ، الصّحاح، والرّاغب، المفردات: (أصر).
(5) ابن قتيبة، غريب الحديث: 2/509.
(6) الرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (شهد).

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

عـهـد الـلـه في أزله للنّبيّين، أن يقرّوا بالإيمان بآخر المرسلين

أخذَ اللّه العَهد على النَّبيين واحدًا واحدًا، فيما ندبهم له، وفيما دعاهم إليه، وهو أن تتوحَّد في مجال الجهاد رايتهم، وألّا ينسخ بعضهم بعضًا أو ينعزل بعضهم عن بعض، فإذا جاءهم رسولٌ مصدّقٌ لما معهم، كان على كلِّ نبيٍّ أن يصدِّقه، ويؤمن به، وينصره فيما يدعو إليه؛ لأنّ نصرة هذا الرّسول نصرةٌ لهم جميعًا[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

تَعْيِينُ المَعْطُوفِ عَلَيْهِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾:

تَضْيِيعُ أَهْلِ الْكِتَابِ لِمِيثَاقِ اللهِ تَعَالَى

عُطِفَ قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ﴾ على ﴿وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ﴾ [آل عمران: 80]، أي: ما أمرَكم الأنبياءُ بشيءٍ ممَّا تقوَّلتُم عليهم، وقد أمرُوكم بغير ذلك فأضعتُمُوهُ حين أخذَ اللّه ميثاقَهم لِيُبَلِّغُوهُ إليكم، فالمعطوفُ هو ظرفُ (إذ) وما تعلَّقَ به.

ويجوزُ أن يتعلَّقَ ﴿وَإِذْ﴾ بقوله: ﴿ءَأَقْرَرْتُمْ﴾ مُقدَّمًا عليه، ويَصِحُّ أن تُجعَلَ ﴿وَإِذْ﴾ بمعنى زمان غير ظرفٍ، والتّقدير: واذكُر إذ أخذ اللّه ميثاق النَّبيّين، فالمقصود: الحكاية عن ذلك الزَّمان وما معه، فيكونُ ﴿قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ﴾ معطوفًا بحذف العاطف[2].

دِلَالَةُ إِسْنَادِ أَخْذِ الْمِيثَاقِ إِلَى اللهِ تَعَالَى فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾:

شَـرَفُ الْمِيثَاقِ الَّذِي أَخَذَهُ اللهُ تَعَالَى عَلَى النَّبِيِّينَ

عُبِّر عَن حُصول الميثاق بالأخذ في قول اللّه تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ إظهارًا له وتَمكينًا منه تَمكُّن الآخذ من المأخوذ، وزِيدَ هذا التَّمكُّن قوَّة وشرفًا بإسناد الأخذ إلى الاسم الأحسن وما يدلُّ من صفات الجلال والجمال والكمال، ثمَّ زِيدَ

(1) الخطيب، التّفسير القرآنّي للقرآن: 1/509.

(2) الواحديّ، التّفسير البسيط: 5/338، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 1/463، وأبو حيّان، البحر المحيط: 3/235، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/289.

شرفًا بأنَّ المُعْطَى لهذا العَهدِ هُمُ النَّبيُّون، وهم أكرمُ البَشَرِ عند اللّه تعالى.

واختيرتْ صيغة جمع ﴿ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ - وهو جمع سلامةٍ - للدِّلالةِ على الشَّرف، وعُلُوِّ المكانة، ولمَّا كانتِ المواثيق والعُهود والعُقود يُطلَبُ فيها سلامة كُلّ أطرافها مِنَ العُيوب القادِحَة في الأهليّة؛ كان اختيار جمع السَّلامة مُشيرًا إلى هذه المعاني في الأنبياء جميعًا.

نُكْتَةُ التَّعْبِيرِ بِالْفِعْلِ ﴿أَخَذَ﴾ مَعَ الْمِيثَاقِ:

عَظَمَةُ الْمِيثَاقِ وَوُجُوبُ التَّمَسُّكِ بِهِ

النَّاظر في استخدام مادَّة (أخذ) في القرآن يجد أنَّها تُستعمل في الأمور العِظام، مثل: الهلاك والانتقام والعِقاب ونحو ذلك، وتُستعمل أيضًا في باب الالتزام بالعهد والتَّمسك به، وهذا ظاهرٌ في آيات القرآن الكريم؛ ففي القَهر والعَذاب قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾﴾ [هود: 102]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾﴾ [الأعراف: 130]، وقوله تعالى: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ﴾ [العنكبوت: 40]، وفي الالتزام بالعَهد والتَّمسك به قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ [الأعراف: 172]، ومع بني إسرائيل قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [البقرة: 83]، وهذا ذُكِرَ في مَواضِع كثيرة، وهنا جاء في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾.

فهذه المادّة تُستعمل في دلالة الالتزام والتَّمسك بالعَهد، وهذا هو المُراد في هذه الآية؛ لأنَّ الأخذ في اللُّغة حوزُ الشَّيء وتحصيلُه، وفي هذا تبرئة لساحة الأنبياء، فكأنَّهم هم الّذين حَرَصوا على هذا الميثاق والالتزام به، وما وقع من مُعارضات إنَّما كانت من أقوامهم.

الرَّدُّ عَلَى أَهْلِ الْكِتَابِ فِي إِنْكَارِ نُبُوَّةِ النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ ﷺ

سِرُّ اخْتِيَارِ الْفِعْلِ ﴿أَخَذَ﴾ بِصِيغَةِ الْمَاضِي:

عُبِّر بالفعل الماضي ﴿أَخَذَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ

﴿ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ للدّلالة على تحقُّق الوقوع، بمعنى أنَّ هذا الميثاق، وما يتضمَّنُه من الإيمان بالنَّبيّ ﷺ، ونصرته، والإقرار بذلك؛ أمرٌ قدَّره الله أزلًا، وفي ذلك ردٌّ على أهل الكتاب الَّذين يُنكرون نبُوَّته ﷺ.

تَوْجِيهُ المُتَشَابِهِ اللَّفْظِيِّ بَيْنَ قَوْلِهِ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ﴾ وَقَوْلِهِ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ﴾:

الإِعْلَامُ بِعُلُوِّ قَدْرِ النَّبِيِّ ﷺ

أُسنِدَ الأخذ إلى الاسم الأحسن ﴿ٱللَّهُ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾؛ لأنَّ هذا الميثاق تكليفيٌّ، على الأنبياءِ جميعًا الالتزامُ والوفاء به؛ لذا أُضْفِيَ عليه المهابة والجلال بإسناده إلى الاسم الأحسن ﴿ٱللَّهُ﴾، وفي هذا إعلاءٌ لقَدره ﷺ، بخلاف آية الأعراف؛ وهي قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ [الأعراف: 172] فهو في أمر الرُّبوبيّة، وهو مقام الإنعام؛ لذا جاء الإسناد لاسم الله (الرَّبّ)؛ إذ هو دالٌّ على التَّفضُّل والإنعام على خلقه، مع ملاحظة أنَّه لم يُصرَّحْ بلفظ الميثاق في الآية.

عِلَّةُ اخْتِيَارِ لَفْظِ (المِيثَاقِ) دُونَ (العَهْدِ):

قُوَّةُ دِلَالَةِ المِيثَاقِ عَلَى لُزُومِ التَّمَسُّكِ بِهِ

اختِير لفظُ الميثاق في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ دون العهد؛ لأنَّ الميثاق في دلالة الالتزام أقوى من العَهد والعَقد؛ لذلك استعمله القرآن الكريم في الزَّواج وسمَّاه ميثاقًا غليظًا، وفي تشريعات بني إسرائيل قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [البقرة: 83]، وفي الحفاظ على حرمة الدّماء والأوطان قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ﴾ [البقرة: 85]؛ ولذا اختيرَ لفظُ الميثاق لِلْإِيمَان بالنَّبيّ ﷺ ولِنصرته من جميع الأنبياء وأقوامهم.

نُكْتَةُ تَنْكِيرِ ﴿رَسُولٌ﴾ من قول الله تعالى: ﴿ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ﴾:

عُلُوُّ مَنْزِلَةِ النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ ﷺ

نُكِّر ﴿رَسُولٌ﴾ من قول الله تعالى: ﴿ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ

لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ﴾ مع أنَّ المرادَ به معيَّنٌ وهو نبيُّنَا محمَّد ﷺ؛ وذلك إيماءٌ إلى تعظيم قدره وتفخيم مكانتِهِ ورِفعة شأنه ﷺ.

بَلَاغَةُ الْحَذْفِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم﴾:

الْمِيثَاقُ الَّذِي أَخَذَهُ اللهُ تَعَالَى مُلْزِمٌ لِأَتْبَاعِ الْأَنْبِيَاءِ

في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ إيجازُ حذفٍ، وذلك على رأي من يقول: إنَّ الميثاق أُخذَ على أُمم الأنبياء ﷺ، فيكون قد حُذفَ المضاف وأُقِيمَ المضاف إليه مقامه، فيكون التَّقدير: وإذ أخذ اللّه مِيثاقَ أُمم النَّبيِّين أو أتباعهم.

وكذلك يتعيَّنُ تقدير محذوفٍ آخر في هذا النَّظم الكريم في قوله: ﴿لَمَآ ءَاتَيْتُكُم﴾، والتَّقدير: وإذ أخَذَ اللّه ميثاقَ النَّبيِّين لتُبَلِّغُنَّ النَّاس ما آتَيتُكُم مِنَ كتاب وحكمة؛ وذلك لدلالة الكلام عليه؛ لأنَّ لامَ القسم إنَّما تقعُ على الفعل، فلمَّا دَلَّت هذه اللَّام على هذا الفعل؛ حُذِفَ اختصارًا، وهذا من بديع الإيجاز[1].

نُكْتَةُ تَخْصِيصِ ﴿ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ بِالذِّكْرِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ مَعَ أَنَّ الْمُرَادَ أُمَمُهُمْ:

تَعَدُّدُ الْمَعَانِي إِثْرَاءٌ لِلنَّصِّ الْقُرْآنِيِّ

اختُلِفَ في علَّةِ تخصيص النَّبيِّين بالذِّكرِ في قول اللّه تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ مع أنَّ المرادَ أُمَمُهُمْ، وذلك على أقوال:

أحدها: أنَّ المعنى على ظاهره، فإذا كان هذا حُكم الأنبياء ﷺ؛ كانَتِ الأممُ بذلك أَوْلَى وأَحرَى، فيكون هذا من التَّنبيه بالأعلى عن الأدنى.

ثانيها: أنَّ معناه أخذُ الميثاق مِنَ النَّبيين وأمَمِهم، واستُغنيَ بذِكر النَّبيِّين عَن ذِكر أُمَمِهم، فيكون هذا من باب الاكتفاء؛ وهو أن يستدعيَ المقامُ ذكرَ شيئينِ فيُكتفى بأحدهما عن الآخر.

(1) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 8/277، والدّريهم، سورة آل عمران دراسة بلاغيّة: 1/192.

ثالثها: أنَّ إضافةَ الميثاق إلى النَّبيّين إضافةٌ إلى الفاعل، والمعنى: وإذ أخَذَ اللّه الميثاقَ الَّذي وثَّقه الأنبياءُ على أممهم.

رَابِعُها: أنَّ المرادَ أولادُ النَّبيّين على حَذف المضاف، وهم بنو إسرائيل: وسَمَّاهم نَبيّين تهكُّمًا بهم؛ لأنَّهم كانوا يقولون: نحن أَوْلَى بالنُّبوَّة مِن محمَّد ﷺ؛ لأنَّا أهلُ الكتابِ، والنَّبيُّون كانوا منَّا[1].

التَّكَامُلُ الدِّلَالِيُّ لِلْقِرَاءَاتِ الْقُرْآنِيَّةِ

تَوْجِيهُ الْقِرَاءَاتِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَمَآ ءَاتَيۡتُكُم﴾:

قوله تعالى: ﴿لَمَآ﴾ يُقرَأ بكسرِ اللَّام - وهي قراءة حمزةَ -، وفَتحِها - وهي قراءة الباقين -[2]؛ فوجه كسرِهَا: كونُهَا حرفًا جارًّا، وتكون (مَا) موصولةً بمعنى الَّذي، والمعنى: لِلَّذي آتيتُكم، ووجْهُ الفَتْحِ: كونُهَا لامَ تأكيدٍ، وتكونُ (مَا) صِلَةً، كقوله: ﴿فَبِمَا رَحۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: 159]، أو تكون اللَّامُ لام القسمِ و(ما) بعدها شرطيَّة، وجوابها: ﴿لَتُؤۡمِنُنَّ بِهِۦ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ءَاتَيۡتُكُم﴾؛ يُقرَأ بالنُّون والألف ﴿ءَاتَيۡنَٰكُم﴾، وبالتَّاء من غير ألف ﴿ءَاتَيۡتُكُم﴾[3]، فوجهُ الأوَّلِ وهو من قرأ ﴿ءَاتَيۡنَٰكُم﴾: أنَّ اللّه تعالى أخبر عَن نفسه بنون العظمَةِ، ووجهُ الآخر وهو من قرأ ﴿ءَاتَيۡتُكُم﴾: أنَّه أُتِيَ بالكلام على ما يُوجِبه الإخبار عَنِ المتكلِّم إذا أُخبر بفعله عَن نَفسه، فهذا نظيرُ قوله تعالى: ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَا﴾ [الحج: 45]، فقد قرأها بالنُّونِ الجمهورُ، وقرأ أبو عمرو ويعقوب ﴿أَهۡلَكۡتُهَا﴾ بالتَّاء، والخَبران باللَّفظين عنِ اللّه[4] ﷻ.

أَثَرُ الْقِرَاءَاتِ الْقُرْآنِيَّةِ فِي ثَرَاءِ الْمَعْنَى

بَلَاغَةُ الِالْتِفَاتِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ءَاتَيۡتُكُم﴾، و﴿ءَاتَيۡنَٰكُم﴾:

تعدّدتِ القراءات في قوله تعالى: ﴿ءَاتَيۡتُكُم﴾، أو ﴿ءَاتَيۡنَٰكُم﴾ على النَّحو المتقدِّم بيانُهُ، وعلى كلتا القراءتين الْتِفاتَانِ.

(1) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 2/682، وابن عرفة: تفسير ابن عرفة: 1/377، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/53.
(2) ابن الجزري، النشر: 2/241.
(3) ابن الجزري، النشر: 2/241.
(4) ابن الجزري، النشر: 2/327.

أحدهما: الالتفاتُ مِنَ الغَيبة إلى التَّكلُّم في قوله: (آتينا) أو (آتَيْتُ)؛ وذلك للتَّصريحِ بالاسم الأحسن (اللّه) في قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ﴾، والاسمُ الظَّاهرُ يجري مجرى الغائبِ.

والآخر: الالتفاتُ من الغَيبَة إلى الخطاب في استعمال ضمير الخطابِ (كُمْ) من قوله: ﴿ءَاتَيْنَٰكُم﴾ أو ﴿ءَاتَيْتُكُم﴾؛ وذلك للتَّصريح بالاسمِ الظَّاهرِ؛ وهو ﴿ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾.

لو جرى على مُقتَضى تقدُّم الاسم الأحسن ﴿ٱللَّهُ﴾ و﴿ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾؛ لكان النَّظْمُ القرآنيُّ: وإذ أخَذَ اللّه ميثاقَ النَّبيِّين لما آتاهُم مِن كتاب.

وذهب بعض أهل العلم إلى أنَّ مثلَ هذا لا يدخُلُ تحت مسمَّى الالتفات، وإنَّما هو حكايةُ الحالِ، كقولِكَ: حلَف زيدٌ ليَفعَلَنَّ ولأَفعَلَنَّ؛ فالغَيبة مراعاة لتَقَدُّم الاسم الظَّاهر، والتَّكلُّم حكاية لكلام الحَالف، والآيةُ الكريمة من هذا[1].

نُكْتَةُ التَّعْبِيرِ بِالْإِيتَاءِ دُونَ الْإِعْطَاءِ فِي قوله: ﴿لَمَآ ءَاتَيْتُكُم﴾:

عِـظَـمُ شَـأْنِ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ

جاء التَّعبير بالإيتاء في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ﴾؛ لأنَّ الإيتاء لا يكون إلَّا في الشَّيء العظيم، مثل القرآن والمُلك والحُكم والنبوَّةِ، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾﴾ [الحجر: 87]، وقال سبحانه: ﴿تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ﴾ [آل عمران: 26]، وقال ﷻ في حقِّ داود عليه السلام: ﴿وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ﴾ [البقرة: 251]، كلُّ هذه المعاني تكون مع الإيتاء الَّذي ليس للعَبد فيه دخلٌ ولا اجتهاد، إنَّما هو فضلٌ خالص للّه تعالى على من يختاره لرسالته، كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا﴾ [الحج: 75]، وقال لموسى عليه السلام: ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي﴾ [الأعراف: 144].

أمَّا الإعطاء؛ فهو فِعلٌ له مقابل، أعطاني فأعطيته، ويكون في الشَّيء القليل، قال تعالى: ﴿وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ ﴿٣٤﴾﴾ [النجم: 34]،

(1) السّمين، الدُّرّ المصون: 3/293، وابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/378.

وقد يَردُ العطاء مُفيدًا للكثرة كما في قوله: ﴿وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحۡظُورًا ٢٠﴾ [الإسراء: 20]، وقد يَرد العطاء كُرهًا كما في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ ٢٩﴾ [التّوبة: 29].

ولذا آثرَ القرآن الكريمُ التَّعبيرَ بفعل الإيتاء؛ لأنَّ المقام هنا يتعلَّق بالكتاب والحكمة، وهما من الأمور العِظَام.

سِرُّ تَقْدِيمُ الْكِتَابِ عَلَى الْحِكْمَةِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَمَآ ءَاتَيۡتُكُم مِّن كِتَٰبٖ وَحِكۡمَةٖ﴾:

تَعَلُّقُ الْحِكْمَةِ بِالْكِتَابِ مِنْ جِهَةِ الْفَهْمِ وَمَعْرِفَةِ الْأَحْكَامِ

النَّاظرُ في آيات القرآن الكريم يجدُ أنَّ الحكمةَ تُذكَرُ بعد الكتاب، كما في قول الله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُزَكِّيهِمۡۚ﴾ [البقرة: 129]، وقال تعالى: ﴿لَقَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ بَعَثَ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ﴾ [آل عمران: 164]، إلى غير ذلك من الآيات، فقد جاءتِ الحكمة بعد الكتاب؛ وذلك لتعلُّقِهَا به من جهةِ فهمه، ومعرفةِ أحكامه، وما فيه من عِظات وعِبَر.

عِلَّةُ التَّعْبِيرِ بِالْفِعْلِ ﴿جَآءَكُمۡ﴾ دُونَ (أَتَاكُمْ):

مَشَقَّةُ الْعُدُولِ عَنِ الْإِلْفِ

ذهبَ بعضُ العلماء إلى التَّفريق بين (جاء) و(أتى)، فقد قال الزَّركشيّ: إنَّ (جاء) تُقال في الجواهر والأعيان، و(أتى) في المعاني والأزمان[1]، وأيضًا إنّ (أتى) أخفُّ من (جاء)[2]؛ لذلك يمكن القول: إنّ التَّعبير بالمجيء في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مُّصَدِّقٞ لِّمَا مَعَكُمۡ لَتُؤۡمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥۚ﴾ مُناسب لحال أمم الأنبياء في اتّباع النَّبيّ ﷺ، إذ إنّهم أَلفوا اتِّباع أنبيائهم وكتبهم، فكانت دعوتهم للإيمان بالنَّبيّ ﷺ وتَرْكِ ما أَلِفوه أمرًا شاقًّا عليهم، وهذا ما يشير إليه لفظُ المجيء.

(1) هذا الفرقُ يردُّه مواضعُ من القرآن الكريم.
(2) الزركشي، البرهان: 4/80.

نُكْتَةُ التَّعْبِيرِ بِلَفْظِ ﴿رَسُولٌ﴾ فِي قَوْلِهِ: ﴿ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ﴾:

هَيْمَنَةُ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ عَلَى الْكُتُبِ السَّابِقَةِ

عُبِّر بلفظ ﴿رَسُولٌ﴾ في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ﴾ مع أنَّ السِّياقَ في ذكر النَّبيِّين؛ وذلك للإشارة إلى عُلُوِّ مكانة الرَّسول ﷺ؛ لأنَّ مقام الرّسالة أعلى من مقام النُّبوَّة، وفيه إشارةٌ إلى أنَّ الكتاب المُنْزَلَ عليه كتابٌ مستقلٌّ مُهَيمِنٌ على الكُتب السَّابقة، وليس تابعًا لها.

فَائِدَةُ وَصْفِ الرَّسُولِ بِكَوْنِهِ مُصَدِّقًا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ﴾:

اتِّفَاقُ الْكُتُبِ الْإِلَهِيَّةِ فِي التَّوْحِيدِ وَالنُّبُوَّاتِ وَأُصُولِ الشَّرَائِعِ

وصف النَّبيِّ ﷺ بقوله تعالى: ﴿مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ﴾ يُشْعِرُ أنَّ ما جاءَ به الرَّسول ﷺ موافقٌ لأصلِ التَّوراة والإنجيل قبل تحريفِهِمَا، ولا يَرِدُ على هذا أنَّ هذه الكُتُبَ تخالفُ تشريعاتُهَا تشريعاتِ القرآن الكريم؛ لأنَّ المُرادَ بالموافقة: الموافقةُ في التَّوحيد، والنُّبُوَّات، وأصول الشَّرائع، بخلاف تفاصيل الأحكام.

وأيضًا؛ فإنَّ المُرادَ بقوله: ﴿ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ﴾ هو محمَّدٌ ﷺ، والمُرادُ بكونه مُصدِّقًا لما معهم: كونُ وَصْفِهِ وكَيفيَّةِ أحوالِهِ مذكورَيْنِ في التَّوراة والإنجيل، فلمَّا ظهر على أحوالٍ مُطابقةٍ لِما كان مَذكورًا في تلك الكتب؛ كانَ نفسُ مجيئِهِ تصديقًا لِما كان معهم، فهذا هو المُرادُ بكونِه مُصدِّقًا لما معهم[1].

دِلَالَةُ الْمَعِيَّةِ فِي قَوْلِهِ: ﴿لِّمَا مَعَكُمْ﴾:

الْعَوَامُّ تَابِعُونَ لِعُلَمَائِهِمْ

دَلَّت المعيَّة في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ﴾ على أنَّ سياق الكلام عن علماء أهل الكتاب؛ لأنَّهم هم مَنْ يصطحبُ العِلم بحيث تصحُّ معيَّتُهم له، بخلاف العَوامِّ منهم، فهم تَبَعٌ لعلمائهم.

(1) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 8/277.

عَـالَمِـيَّـةُ دِيـنِ الْإِسْلَامِ؛ لِكَوْنِهِ خَاتِمَ الرِّسَالَاتِ

دِلَالَةُ التَّعْبِيرِ بِالْفِعْلِ الْمُضَارِعِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ﴾:

التَّعبير بالفعل المضارع ﴿لَتُؤْمِنُنَّ﴾ و﴿وَلَتَنصُرُنَّهُۥ﴾ في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ﴾ يشير إلى دوام الإقرارِ والتَّصديق بنبوَّته ﷺ وبشرعه، فليس الأمر مقصورًا على زمانٍ دون زمانٍ أو مكانٍ دون مكانٍ، فكلُّ أتباع الأنبياء عليهم أن يؤمنوا به ﷺ، وفي هذا إشارة إلى عالميَّة دين الإسلامِ وأنَّه خاتم الرِّسالات.

طَرِيقُ الدَّعْوَةِ شَاقٌّ لِوُجُودِ الْمُعَارِضِ الْمُعَانِدِ

دِلَالَةُ التَّعْبِيرِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَتَنصُرُنَّهُۥ﴾:

التَّعبير بالنَّصْرِ في قول الله تعالى: ﴿ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ﴾ إشارةٌ إلى وجود من يُخالف النَّبيّ ﷺ في قبول دعوته، بل ويُعانده ويحاربه، فيُطلَبُ عندئذٍ نُصْرَتُهُ ﷺ.

دِقَّةُ اسْتِعْمَالِ الْحُرُوفِ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، فَضْلًا عَمَّا فَوْقَ ذَلِكَ

عِلَّةُ الْوَصْلِ وَالْفَصْلِ فِي قَوْلِهِ: ﴿قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾:

وَقَعَ الوَصل بين ﴿ءَأَقْرَرْتُمْ﴾ و﴿أَخَذْتُمْ﴾؛ لما بينهما من التَّوسُّطِ بين الكمالين؛ لاتِّحادهما في الإنشائيَّة؛ لأنَّ قولَه: ﴿أَخَذْتُمْ﴾ واقعٌ في حيِّزِ الاستفهامِ، وبين الجملتين تناسبٌ في اللَّفْظِ والمعنى، فأمَّا اللَّفْظُ فكلتاهما جملةٌ فعليَّةٌ، وأمَّا المعنى فكلتا الجملتين استفهامٌ عن التزامِ ما وَجبَ عليهم شرعًا.

ووصلُ قوله: ﴿وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ بالواو؛ لكون الجملةِ حاليَّةً، فالواوُ واوُ الحالِ.

وأمَّا الفَصلُ؛ فوقعَ بين قوله تعالى: ﴿قَالُوٓا۟﴾ وما قبلها؛ لِوقوعِها جوابًا عن سُؤالٍ نشأ عمَّا سَبَقَ، كأنَّه قيل: فماذا قالوا؟ فجاء الجوابُ، قالوا: أقرَرنا[1]، فبين الجملتينِ: شبه كمالِ الاتِّصالِ.

(1) الدّبل، دليل البلاغة القرآنيّة: 1/484.

دِلَالَةُ التَّعْبِيرِ بِالْإِقْرَارِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ﴾:

الْمُبَالَغَةُ فِي أَخْذِ الْمِيثَاقِ لِلْإِيمَانِ بِالنَّبِيِّ ﷺ

في قوله تعالى: ﴿قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ﴾ بلغ معنى الإقرار مَبلغًا رَفيعًا؛ إذ صُرِّحَ بفعل الإقرار، ثُمَّ أُخذ الميثاق على هذا الإقرار، ثمَّ بشهادتهم عليه، وخِتامًا بشهادة اللّه رَبِّ العالمِين على ما شَهِدوا به على أنفسهم، وبذلك يَنعَقِد لهذا الإقرار ما لم يَنعَقِد لغيره مِنَ التَّأكيد والتَّقرير.

ولم تكتفِ الآية بجملة المُؤكِّدات والمُقرّرات الّتي تَلَتِ الاستفهام، بل سَبقَته بمزيدٍ منها، كالميثاق الأوَّل، وهو في حُكم القَسَم، واللَّام في: ﴿لَمَآ ءَاتَيْتُكُم﴾ وهي مُوطِّئَةٌ للقسم، واللَّام في ﴿لَتُؤْمِنُنَّ﴾ في جواب القَسَم[1].

فَائِدَةُ التَّوْكِيدِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ﴾:

تَلَازُمُ الْإِيمَانِ بِالنَّبِيِّ ﷺ وَنُصْرَتِهِ

أُكِّد الفعلان في قوله تعالى: ﴿لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ﴾ بلام التَّوكيد ونُون التوكيد الثَّقيلة؛ تعظيمًا لشأن الإيمان بالنبي ﷺ ونصرته، وأنَّه لا يُستغنَى بأحدهما عن الآخر، فلا بدّ مع الإيمان به نصرتُهُ، ومع النُّصْرَةِ الإيمانُ به؛ إذ النُّصرة إذا كانت حميَّةً لقبيلةٍ عاريةً عن الإيمان به غيرُ نافعةٍ لصاحبها.

تَعْيِينُ الْمَقْصُودِ بِالْإِقْرَارِ فِي قَوْلِهِ: ﴿قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ﴾:

عُلُوُّ قَدْرِ النَّبِيِّ ﷺ

اختُلِفَ فِيمَن وُجِّهَ إليه الاستفهام بقوله: ﴿قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ﴾ بناءً على من أُخذ منهم الميثاق؛ فإذا كان من النّبيّين فهم المُقِرُّون بذلك الميثاق، وفي هذا دِلالةٌ على عُلُوِّ قَدرِهِ ﷺ، وإن كان الإقرار من الأُمم؛ فإنَّ المعنى: أنّ الأنبياء طلبوا مِن أقوامهم الإقرارَ بهذا الميثاق، وفي هذا أيضًا دِلالةٌ على شرف النَّبيّ ﷺ.

(1) أبو سمعان، التّراكيب النّحويّة، ص: 68.

فَائِدَةُ ذِكْرِ الْأَخْذِ بَعْدَ الْإِقْرَارِ:

الْإِقْرَارُ النَّافِعُ مَا اقْتَرَنَ بِهِ الِانْقِيَادُ بِالطَّاعَةِ

جاءَ ذِكرُ الأخذِ بعد ذكرِ الإقرار في قوله تعالى: ﴿قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ﴾؛ للدّلالة على القَبُول؛ لأنَّ الإقرار دالٌّ على القَبول القَلبيّ، وقد لا يكون فيه التزامٌ بما يقتضيه هذا الإقرار، فأراد القرآن أن يَجمع الإقرارَ القلبيّ والعملَ بما يُوجبُهُ الإقرارُ؛ فجاء بقوله ﴿وَأَخَذْتُمْ﴾؛ فإنَّه بمعنى القَبولِ والإذعانِ والانقياد بالطَّاعةِ، قال تعالى: ﴿وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾ [البقرة: 48]، أي: يُقبل، وقوله تعالى: ﴿وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ [التّوبة: 104]، أي: يقبلها.

دِلَالَةُ الْجَمْعِ فِي قَوْلِهِ: ﴿قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى﴾:

أَصْـــلُ دَعْـــوَةِ الْأَنْبِيَاءِ وَاحِدَةٌ

المتأمِّلُ في هذه الآية يجد فيها صورةَ استحضارِ الأنبياء جميعًا في مَشهدٍ واحدٍ، وهم يُقرُّون بالميثاق المأخوذ عليهم بالإيمان بالرَّسول ﷺ ونصرته، حتَّى كأنَّ الجوابَ كان منهم جماعيًّا ﴿قَالُوٓاْ أَقْرَرْنَا﴾.

فَمَوكِب الرِّسالات واحدٌ، لا تخالُفَ بينها ولا تعانُدَ ولا تعارُض، وكلُّهم يدعو إلى الاستسلام للّه بالتَّوحيدِ، والانقياد له بالطَّاعة، والبراءة من الشِّرْكِ وأهله.

نُكْتَةِ التَّعْبِيرِ عَنِ الْعَهْدِ بِالْإِصْرِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى﴾:

الْجَنَّةُ مَحْفُوفَةٌ بِالْمَكَارِهِ

أصلُ الإصرِ: هو ما يلحق الإنسانَ مِن أجلِ الِالْتِزَامِ بِهِ، فعُبِّرَ عن العهد بالإصر في قوله تعالى: ﴿وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى﴾ لما فيه من المشقَّةِ.

سِرُّ التَّعْبِيرِ بِاسْمِ الْإِشَارَةِ ﴿ذَٰلِكُمْ﴾:

تَعْظِيمُ عَهْدِ اللهِ تَعَالَى وَتَفْخِيمُهُ

اسم الإشارة ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى﴾ موضوعٌ في الأصلِ للإشارة إلى البعيد، وفي استعماله مع الإصر - وهو العهدُ - إشعارٌ بعظمَتِه ومبالغةٌ في تفخيمه.

بَلَاغَةُ الِاكْتِفَاءِ فِي قَوْلِهِ: ﴿قَالُوٓاْ أَقۡرَرۡنَاۚ﴾:

الإِنْقِيَادُ وَالْتِزَامُ الْعَهْدِ مِنْ لَوَازِمِ الْإِقْرَارِ

في قوله تعالى: ﴿وَأَخَذۡتُمۡ عَلَىٰ ذَٰلِكُمۡ إِصۡرِيۖ﴾ إيجازٌ بالحذف، والمحذوفُ هنا جملةٌ، حُذِفَت لدلالة ما تَقَدَّمَ عليها؛ إذ التَّقدير: أَقرَرنَا وأَخَذنَا إِصرَكَ على ذلك كلِّه[1]، وهذا الحذفُ على سبيل الاكتفاءِ، واسْتُغْنِيَ بالإقرار عن التَّصريح بأخذ الإصر وهو العهد؛ لأنَّ الأوَّلَ ملزومٌ للآخر، فالأصل فيمن يُقرُّ أن ينقادَ ويلتزمَ العهدَ.

دِلَالَةُ الْأَمْرِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَٱشۡهَدُواْ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾:

تَأْكِيدُ الشَّهَادَةِ وَتَعْظِيمُهَا أَمَارَةٌ عَلَى أَهَمِّيَّةِ الْمَشْهُودِ عَلَيْهِ

قال الرَّاغب: معنى: ﴿فَٱشۡهَدُواْ﴾: اعلَموا؛ فإنَّ الشَّهادةَ وَقت التَّحَمُّل هو العِلمُ، ووَقت الإقامة هو الإخبار[2].

وذكر ابنُ عطيَّة أنَّ ﴿فَٱشۡهَدُواْ﴾ يَحتمل مَعنيين:

أحدهما: فاشهَدوا على أمَمِكُم المؤمِنِين بكم، وعلى أنفُسِكُم بالتزام هذا العهد.

والآخر: بُثُّوا الأمرَ عند أُمَمِكم واشهدُوا به.

فالقولُ الأوَّل: إيداعُ الشَّهادةِ واستِحفاظُها، والقولُ الآخر: هو الأمرُ بأدائِها، وهذا توكيدٌ عليهم، وتَحذيرٌ مِنَ الرُّجوع إذا عَلِموا بشهادة اللّٰه وشهادة بعضهم على بعض[3].

وفي قوله: ﴿فَٱشۡهَدُواْ﴾ ﴿ٱلشَّٰهِدِينَ﴾، جناسُ اشتقاقٍ أفاد التَّوكيدَ وتقويةَ الإلزام، ويحتَمِلُ تخريجُهُ على ردِّ العجُزِ على الصَّدْرِ أيضًا، ولا تنافيَ بينَ الأسلوبَيْن؛ لما عُلِمَ من أنَّ النِّكاتِ البلاغيَّةَ تتوارَدُ ولا تتزاحَمُ.

دِلَالَةُ الْمَعِيَّةِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَٱشۡهَدُواْ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾:

التَّحْذِيرُ مِنْ كَتْمِ الشَّهَادَةِ أَوْ تَحْرِيفِهَا

قوله تعالى: ﴿وَأَنَا۠ مَعَكُم﴾ تَشريفٌ للقائم بالشَّهادة[4]، والمعنى: وأنا أيضًا على إقراركم ذلك وشهادتكم شاهدٌ.

(1) الدّريهم، سورة آل عمران دراسة بلاغيّة: 1/192.
(2) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 2/684.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/380، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 1/466، والطّيبيّ، فتوح الغيب: 4/166.
(4) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/378.

وإدخالُ (مع) على المُخاطَبين؛ لكونِهم المُباشِرين للشَّهادة حقيقةً، وفي ذلكَ تأكيدٌ وتحذيرٌ[1].

مُنَاسَبَةُ خَتْمِ الْآيَةِ بِقَوْلِهِ: ﴿فَٱشْهَدُواْ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾:

تَعْلِيمُ اللهِ تَعَالَى النَّاسَ الشَّهَادَةَ فِي مُعَامَلَاتِهِمْ

اختُتِمَتِ الآيةُ بخاتمةٍ بديعةٍ اشتَمَلَت على التَّوكيد وتَقويَة الإلزام، ممَّا يدُلُّ على مكانةِ النَّبيّ ﷺ عند ربِّه حتَّى أخذَ على تلك الأمم هذه المواثيق المُغلّظة، وأشهَدَ نفسَه وغيرَه عليها سبحانه وتعالى.

وإشْهَاد اللّه تعالى الخَلْقَ يُرادُ بهِ تعليمُ النَّاس هذا الأدبَ في مُعاملاتِهم، فهو مع غِنَاهُ عَن هذا الأمرِ - لكونه لا تخفى عليه خافية - إلَّا أنَّه يُشْهِدُ، وفيه إشعارٌ بأهمية الشَّهادَةِ في حفظِ الحقوق؛ إذ إنَّ مِن جملة أسباب ضياعِهَا تَرْكَ هذا الأدب مِنَ المعاملات.

وفي كَوْنِ الشُّهودِ في الآيةِ يُرادُ بهم أممُ النَّبيِّين يُدلُّ على إقامةِ الحُجَّة على أنفُسهم[2].

سِرُّ التَّعْبِيرِ بِالْجَمْعِ ﴿ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾:

تَعَدُّدُ الشُّهُودِ دَلِيلٌ عَلَى عُلُوِّ الْمَشْهُودِ لَهُ

جاء التَّعبير في إثباتِ الشَّهادة لنُبُوَّة النَّبيّ ﷺ بأسلوب الجمع في قوله: ﴿وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾؛ لأنّ الملائكة شهدت لرسول اللّه ﷺ بالنُّبوَّة، والأرضُ شَهِدَت له كذلك، الجنُّ أيضًا شَهِدَت بذلك؛ فكلُّ الأجناس شَهِدَت، وفوق ذلك شَهِدَ اللّه سبحانه وتعالى على رسالة خليلِه ﷺ.

الفُرُوقُ الْمُعْجَمِيَّةُ:

الأخذ والتّناول:

التناولُ "يَقتضي أَخْذَ شَيءٍ يُستَعمل في أمرٍ مِنَ الأمور، ولهذا لا يُستَعمَل (تناول) في فعل اللّه تعالى، فيُقالُ: تناول زيدًا، كما

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/54، والطّيبيّ، فتوح الغيب: 4/166.

(2) الدّريهم، سورة آل عمران دراسة بلاغيّة: 1/192.

تقول: أخذ زيدًا، وقال الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾، ولم يُقَل: تناولها. وقيل: التَّناول أَخذُ القليل المَقصود إليه، ولهذا لا يُقال: تناولت كذا من غير قَصدٍ إليه، ويُقال: أَخَذتُه من غير قَصدٍ"[1].

العهد والميثاق:

الميثاقُ توكيدُ العَهد، مِن قولك: أوثَقتُ الشَّيء إذا أحكَمتُ شَدّهُ، وقال بَعضُهم: العَهدُ يكون حالًا مِنَ المُتعاهدين، والميثاقُ يكونُ مِن أحَدهما[2]، وفي كتاب الأفعال لابن القطّاع، أنّ الفطرة"هي الإقرار بالله، وهو العهد والميثاق الّذي أخذه تعالى عليهم، حين أخرجهم من صلب آدم، أمثال الذّرّ، وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى"[3].

الإقرار والاعتراف:

الإقرارُ إخبارٌ عَن شيءٍ ماضٍ، أمَّا الاعتراف فمثل الإقرار، إلَّا أنَّه يقتضي تَعريفَ صاحِبه الغَير، أنَّه قد التزمَ ما اعترفَ به، وأصلُهُ مِنَ المَعرفة، وأصلُ الإقرار مِنَ التَّقرير وهو تحصِيل ما لم يُصرّح به القَول؛ ولهذا اختار أصحابُ الشُّروط: أقَرَّ به، ولم يختاروا: اعترف به[4]، قال الكفويّ في معنى قوله تعالى: ﴿أَلَسۡتُ بِرَبِّكُمۡۖ﴾ [الأعراف: 172]: "ومن معاني الاستفهام التّقرير: أي حمل المخاطب على الإقرار والاعتراف، بأمر قد استقرّ عنده، وحقيقة استفهام التّقرير إنكار، والإنكار نفيٌ، وقد دخل على النّفي، ونفي النّفي إثباتٌ"[5]، ويسمّى استفهاما تقريريّا.

الإقرار والشّهادة:

الشَّهادةُ إقرارٌ معَ العِلم وثبات اليقين، والإقرارُ قد يَنفَكُّ مِن ذلك؛ ولهذا كذَّب الله تعالى الكفَّار في قولهم: ﴿قَالُواْ نَشۡهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِۗ﴾ [المنافقون: 1]، ولو قالوا: نُقِرُّ إنَّك لَرسولُ الله لم يكذبوا[6].

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 139.
(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 57.
(3) ابن القَطَّاع، كتاب الأفعال: 2/457.
(4) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 48.
(5) الكفويّ، الكليات، ص: 98.
(6) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 1/249.

العلم والشّهادة:

الشّهادةُ "خبَرٌ قاطع. تقول منه: شَهِد الرّجل على كذا، وربّما قالوا شَهْدَ الرَجُلُ، بسكون الهاء للتّخفيف، عن الأخفش، وقولهم: اشهد بكذا، أي احلف"[1]، والشّهادة أخصُّ مِنَ العِلم، وذلك أنَّها بوجود الأشياء لا مِن قِبل غَيرها، والشَّاهدُ نقيضُ الغائِب في المعنى؛ ولذا سُمِّي ما يُدرَك بالحَواسّ ويُعلَم ضَرورَةً شاهدًا، وسُمِّي ما يُعلَم بشَيء غيره وهو الدّلالة، غائبًا كالحياة والقُدرَة، وسُمِّيَ القديم شاهدًا لكلِّ نجوى؛ لأنَّهُ يَعلم الموجودات جميعها بذاتِهِ، فالشَّهادة عِلمٌ يتناول الموجود، والعِلم يتناوَل الموجود والمعدوم[2].

(1) الجوهريّ، الصّحاح: 2/494.

(2) العسكريّ، الفروقُ اللّغويّة، ص: 95 - 96.

﴿فَمَن تَوَلَّىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ٨٢﴾ [آل عمران: 82]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا أقرّ الأنبياء في الآية السَّابقة الإقرار، وأمر أتباعهم أن يُؤمنوا، وينصروا النَّبيّ الخَاتم ﷺ، جاءت هذه الآية لتُبيِّن أنَّ بعض أتباع الأنبياء لم يُوفوا بهذا الميثاق الَّذي أُخذ عليهم، ووصفتهم بالفسق لخُروجهم عن منهج ربّهم، ومنهج أنبيائهم، بعدم الإيمان بالدّين الجديد، فاستحقّواْ هذا الوعيد الشّديد.

العلاقة بين إقرار السّابقين بنبوّة الختام، والتّنديد بمن أنكر العهد من الأنام

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تَوَلَّىٰ﴾: التَّوَلِّي يكون بمعنى: الإعراض، ويكون بمعنى: الاتِّباع؛ قال الله تعالى: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوۡاْ يَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ﴾ [محمد ﷺ: 38]، أي: تُعرضوا عَنِ الإسلام. وأمَّا قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡۗ﴾ [المائدة: 51]، معناه: مَن يَتَّبِعهُم ويَنصُرهُم[1].

2) ﴿ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾: الفِسقُ هو الخُروج عَنِ الطَّاعة، وهو" التّرك لأمر الله، وفسق يفسق فسقًا وفسوقًا، وكذلك الميل إلى المعصية، كما فسق إبليس عن أمر ربه"[2]، تقول العرب: فَسَقَتِ الرُّطَبَةُ عن قِشرها: إذا خَرَجَت. وهو أعمُّ مِنَ الكفر. والفِسقُ يقعُ بالقليل مِنَ الذُّنوب وبالكثير، لكن تُعورفَ فيما كان كثيرًا[3].

المَعْنَى الإجْمَالِيُّ:

يؤكّد السّياق الموجز البليغ لهذه الآية أنّ مَن تخلّى بعد وُرود الكتب، وتجلّي الآيات، ورسوّ الأحكام، عن العهد والميثاق، واتّخذ

لا يتخلّى عن العهد وينقض الميثاق، إلّا الجاحدون الفسّاق

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (ولي).
(2) الخليل، كتاب العين: (فسق).
(3) الزَّبيديّ، تاج العروس: (فسق).

الدِّين وسيلةً للتّفريق والشّقاق، ولم يؤمن بالنّبي الخاتم المصدّق لمن سبقه، ولم ينصره؛ فأولئك هُمُ الخارجون عَنِ الإيمان، والمنسلخون من طاعة الرّحمن[1].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

دِلَالَةُ الْفَاءِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾:

إِقْرَارُ الأُمَمِ مُلْزِمٌ لِأَبْنَائِهَا عَلَى تَعَاقُبِ الزَّمَنِ

(مَنْ) في قوله تعالى: ﴿فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ شرطيَّةٌ؛ والفعلُ الماضي يَنقَلِبُ معناه إلى المُستقبلِ في الشَّرط والجَزاء، وإنَّما جازَ وقُوع الماضي مَوقِع المُستَقبل في الجَزاء؛ لأنَّ حَرفَ الجَزاء لَمَّا كان يعمل في الفعل؛ قَوِيَ على نَقلِه مِن مَعنى المُضِيِّ إلى الاستقبال، وذلك إشارة إلى أَخذِ الميثاق، فالوعيدُ شامِلٌ لمن تقدَّم في الأمم قبل بعثة النَّبيِّ ﷺ، ولمن سيأتي بعدَه إلى أن يَرِثَ اللّٰه الأرضَ ومَن عليها.

ودخلَتِ الفاءُ في (أُولئك)؛ لأنَّه جوابُ شَرط؛ وإنَّما تَدخُل الفاءُ في جواب الشَّرط؛ لأنَّ الثَّاني يجبُ بوجود الأوَّل بلا فَصلٍ؛ كقولك: إنْ تَأْتِني فَلَكَ دِرهمٌ، فوجوب الدِّرهم بالإتيان عقيبَه بلا فصل؛ فلذلك جاء بالفاء[2].

سِرُّ التَّعْبِيرِ بِالتَّوَلِّي دُونَ الْإِعْرَاضِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾:

التَّوَلِّي أَعَمُّ مِنَ الْإِعْرَاضِ

عُبِّر بالتَّولّي في قول اللّٰه تعالى: ﴿فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ دون الإعراض؛ لأنَّ التَّولِّي قد يكون بالجسم، وقد يكون بترك الإصغاء والائتمار، وهذا هو المناسب للسِّياق، حيث سبق أَمْرُهُم بالإيمان والنُّصرة، إلَّا أنَّ بعضًا منهم لم يُصغِ لهذا الأمر ولم يأتمر به، بخلاف الإعراض؛ فإنَّ معناه: أظهر عُرضَه، أي: ناحيته، وإذا قيل: أعرض عنّي، فمعناه: ولّى مُبديًا عُرضَه.

(1) الخازن، لُباب التّأويل: 1/265، وكذلك أسعد حومد، أيسر التّفاسير، ص: 376.

(2) الواحديّ، التّفسير البسيط: 5/402 - 403، والرّاغب، تفسير الرّاغب: 2/685، والجمل، الفتوحات الإلهيّة: 1/447.

نُكْتَةِ عَدَمِ اقْتِرَانِ الظَّرْفِ بِجَارٍّ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿تَوَلَّىٰ بَعْدَ﴾:

تَحْرِيضُ الْمُخَالِفِينَ عَلَى الرُّجُوعِ إِلَى الْحَقِّ

من الملاحظ أنَّ الظَّرف ﴿بَعْدَ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ لم يقترن بحرفِ جرٍّ؛ وذلك لبيان أنَّ المستحقَّ لغاية الذَّمّ إنَّما هو من اتَّصل تولّيه بالموتِ، وهذا المعنى لا يُستفاد إلا بإسقاط حرف الجرّ[1]، ففيه: تحريضٌ لهم على التَّوبة والرُّجوع إلى الحقِّ قبل أن يَفْجَأَهمُ الموتُ.

سِرُّ التَّعْبِيرِ بِاسْمَيِ الْإِشَارَةِ: ﴿فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾:

الْمُتَوَلِّي عَنْ مِيثَاقِ اللهِ تَعَالَى النَّاقِضُ لَهُ حَقِيقٌ بِوَصْفِ الْفِسْقِ

الإشارةُ في ﴿ذَٰلِكَ﴾ - من قول الله تعالى ﴿فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ - للميثاق، واختيرَ اسمُ الإشارةِ الدالُّ على البُعْدِ؛ لتَفخيم الْمِيثَاقِ وتعظيمِه.

والإشارةُ في ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ لـ ﴿فَمَن﴾، وجُمِعَ باعتبار المعنى، كما أنَّ الإفرادَ في ﴿تَوَلَّىٰ﴾ باعتبار اللَّفظ، واسمُ الإشارةِ (أولئك) الدَّالُّ على البُعدِ إشعارٌ بتَرامِي أمرِهم في السُّوء وتَماديهم فيه، وبُعدِ مَنزلَتِهم في الشَّرِ والفسادِ، أي: فأُولئك الـمُتَوَلُّونَ الـمُتَّصِفونَ بالصِّفات القبيحة.

فتعريف المسند إليه بالإشارة ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ تنبيهٌ إلى أنَّ الـمُسندَ إليه جَدِيرٌ بالوَصفِ الـمَذكور وهو الفِسقُ؛ وذلك لِتَولِّيه وإعراضه ونَقضه للميثاق الَّذي عاهدَ اللّه عليه.

وقدِ استُفيدَ مِن هذا الأسلوب، وهو تعريف المسندِ إليه باسم الإشارة وتعريف المسند باللَّام: القصرُ والحصرُ؛ لتعريفِ جزأيِ الجملةِ.

وضميرُ الفصل ﴿هُمُ﴾ يُرادُ به توكيدُ القصرِ لا إنشاؤُهُ؛ لأنَّ ضمير الفصلِ مؤكِّدٌ للجملة إذا وُجِدَ طريقٌ آخرُ للقصرِ، وذلك

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 4/471.

لقصدِ المبالغةِ؛ إذْ إنَّ فسقَهُم في هذه الحال أشدُّ فسقًا؛ فجعل غيره من الفِسق كالعَدَم[1].

عِلَّةُ تَوَالِي الْمُؤَكِّدَاتِ فِي الْآيَةِ:

المُبَالَغَةُ فِي التَّأْكِيدِ تَنْوِيهٌ بِالْمُؤَكَّدِ وَتَعْظِيمٌ لِشَأْنِهِ

تَوالَتِ المُؤكِّدات في بناء الآية الكريمة، فقد أُكِّدَ فِسقُهُم باسم الإشارة الدالِّ على البُعْد، وبتعريف الطَّرفَين الَّذي يُفِيدُ انحِصارَ الفِسق فيهم، وأُكِّد أيضًا بضمير الفَصل الَّذي يُفيدُ تقويةَ التَّخصيصِ[2].

سِرُّ اخْتِيَارِ لَفْظَةِ ﴿ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ فَاصِلَةً لِلْآيَةِ:

خُطُورَةُ الْفِسْقِ، وَهُوَ عَلَى دَرَجَاتٍ مُتَبَايِنَةٍ

لـمَّا كان الفِسقُ هو الخُروجَ عَن أمر اللّٰه تعالى وطاعته، وكان بين أدنى مَنزلةٍ وأقصاها بَونٌ بعيد؛ صار له مَنازِل كثيرة، فيُطلق تارةً على الذَّنب الصَّغير، نحو قوله: ﴿وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌۚ وَإِن تَفۡعَلُواْ فَإِنَّهُۥ فُسُوقُۢ بِكُمۡۗ﴾ [البقرة: 282]، وتارَةً على الكُفر والشِّرك، نحو: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤۡمِنٗا كَمَن كَانَ فَاسِقٗاۚ لَّا يَسۡتَوُۥنَ﴾ [السّجدة: 18]، وقوله: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُواْ فَمَأۡوَىٰهُمُ ٱلنَّارُۖ﴾ [السّجدة: 20]، وعلى هذا جاءَ استعمالُ الفاسِقينَ هاهنا[3].

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

التَّولِّي والإعراض:

التَّولِّي: الإعرَاضُ مُطلقًا ولا يلزَمُه الإدبار، فإنَّ تولِّي الرَّسول ﷺ عن ابن أمِّ مَكتوم لم يكن بالإدبار، والتَّولِّي بالإدبار قد يكون على حقيقته كما في قوله تعالى: ﴿بَعۡدَ أَن تُوَلُّواْ مُدۡبِرِينَ﴾ [الأنبياء: 57]، وقد يكون كناية عَن الانهزام كما في قوله تعالى: ﴿وَضَاقَتۡ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/54، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/300، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 3/1297، والدّريهم، سورة آل عمران دراسة بلاغيّة: 1/275.

(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 3/1297.

(3) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 2/685.

عَلَيۡكُمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ ثُمَّ وَلَّيۡتُم مُّدۡبِرِينَ﴾ [التّوبة: 25]. والتَّولّي: قد يكونُ لحاجةٍ تدعو إلى الانصراف مع ثُبوت العقد، والإعراض: الانصراف عَن الشَّيء بالقَلبِ، قال بَعضهم: المُعرِضُ والمُتولِّيّ يشتركان في ترك السُّلوك، إلَّا أنَّ المُعرِض أسوأ حالًا؛ لأنّ المُتَوَلي متى نَدِمَ سهل عليه الرُّجوع، والمُعرِض يحتاج إلى طلب جديد، وغايةُ الذَّمّ الجَمع بينهما[1].

الفِسق والخُروج:

الفِسقُ: الخروجُ عن طَاعَةِ اللّه، كما قالَ تعالى: ﴿فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلۡجِنِّ فَفَسَقَ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِۦٓۗ﴾ [الكهف: 50] أي: خَرجَ عن طَاعة رّبه، والخروجُ عن طاعة اللّه قد يكون خروجًا أعظم، وهو الخُروج المُخرج عن دين الإسلام، وقد يكون خُروجًا دون خروجٍ، وهو الفِسق بارتكاب كبيرة؛ ولأجل هذا المعنى، كان الفِسق يُطلق في القرآن على الخروج عن طاعة اللّه، بمعناه الأعظم، وهو الكفر باللّه كقوله: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ [البقرة: 26][2].

الفِسق والفُجور:

الفِسقُ هو الخُروج مِن طاعة اللّه بكبيرة، والفُجور الانبعاث في المعاصي، والتَّوسع فيها[3]، وأهل اللّغة والتّفسير يرون أنّ الفسق انسلاخ يخرج به صاحبه من ستر اللّه، وينأى عن مرضاته، لينغمس في معامع الضّلال، ويسقط في مهاوي الابتذال، بينما الفجور إيغالٌ في المُتَع المحرّمة السّاقطة، بلا رقيب من ضمير، ولا خشية من مصير، وكلا الصّفتين مسلكٌ إلى النّار، وبِئْسَ القرار.

(1) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 2/484، والكفويّ، الكليّات، ص: 28.
(2) الشّنقيطيّ، العَذبُ النَّمِير: 4/284.
(3) الشّنقيطيّ، العَذبُ النَّمِير: 231.

﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾ [آل عمران: 83]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

المناسبة بين أخذ الميثاق من النّبيّين، وكون الدّين لله ربّ العالمين

لَمَّا ذَكرَ في الآية السَّابقة أخذ الميثاق على الأنبياء، وما أَمروا به أُممَهم، وطلبوا منهم الإيمان والنُّصرة للنَّبيّ ﷺ، بيَّن هنا أنّ مَن خرج عن ذلك، ولم يلتزم بهذا الميثاق، حكم القرآن عليه بالفِسق؛ لأنَّهم تولَّوا وأعرضوا عن هذا الدِّين، وصاروا يبغون دينًا غير دين الله.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَبْغُونَ﴾: البُغيةُ: مصدر الابتغاء، وبَغَيتُ الشّيء أبغيه بُغاء. والأصل الأوّل: ابتغيتُه: طَلَبتُه، وبَغَيتُ الشَّيءَ أبغِيه: إذا طَلَبتَهُ أكثر ما يجب، والبُغيَةُ والبِغيَةُ الحاجَةُ، ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ﴾[1]. وَالْأَصْلُ الثَّانِي: قَوْلُهُمْ بَغَى الْجُرْحُ: إِذَا تَرَامَى إِلَى فَسَادٍ، ثُمَّ يُشْتَقُّ مِنْ هَذَا مَا بَعْدَهُ. فَالْبَغِيُّ الْفَاجِرَةُ، تَقُولُ بَغَتْ تَبْغِي بِغَاءً، وَهِيَ بَغِيٌّ. وَمِنْهُ أَنْ يَبْغِيَ الْإِنْسَانُ عَلَى آخَرَ. وَمِنْهُ بَغْيُ الْمَطَرِ، وَهُوَ شِدَّتُهُ وَمُعْظَمُهُ. وَإِذَا كَانَ ذَا بَغْيٍ فَلَا بُدَّ أَنْ يَقَعَ مِنْهُ فَسَادٌ[2].

2) ﴿أَسْلَمَ﴾: أسلَمَ الشَّيء إليه: دَفَعَهُ إليه (كُلَّه أو سالمًا)، وقريبٌ مِنه معنى الانقياد؛ لأنَّه تَسليم نَفْس، ومعنى: ﴿وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، أي: استسلم طوعًا عند أخذ الميثاق، أو عند الدَّعوة أو بالإقرار بالخَالِقيَّة. وبهذا المعنى كُل صيغة ﴿أَسْلَمَ﴾ ماضيها ومضارعها وأمرها ومصدرها واسم الفاعل منها[3].

(1) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (بغي).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات: (بغي).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (سلم)، (طوع).

3) ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾: السَّماءُ يُقالُ لكُلِّ ما ارتفع وعلا قد سَما يَسمو. وكلُّ سقفٍ فهو سماءٌ، وكلُّ ما علاكَ فأظَلَّكَ، والسَّماءُ الَّتي تُظِلُّ الأرضَ أُنثى عند العرب؛ لأنّها جمعُ سَماءةٍ، وإذا ذُكِّرَت عَنَوْا به السّقفَ. ومنه قول اللّه تعالى: ﴿ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرُۢ بِهِۦۚ﴾ [المزّمّل: 18]؛ ولم يقُلْ مُنفطرة[1].

4) ﴿وَٱلۡأَرۡضِ﴾: كلُّ شيءٍ يَسفُلُ ويُقابلُ السَّماءَ، يُقالُ لأعلى الفرس: سماءٌ، ولقوائِمِهِ أرضٌ. قال:

وَأَحْمَرَ كَالدِّيبَاجِ أَمَّا سَمَاؤُهُ *** فَرَيَّا وأَمَّا أَرْضُهُ فَمَحُولُ[2]

والأرضُ: الَّتي نحن عليها، وتُجمَعُ أرَضِينَ، ولم تَجِئ في كتاب اللّه مَجموعَةً. فهذا هو الأصلُ، ثُمَّ يَتَفَرَّعُ منه قولُهُم أرضٌ أَرِيضَةٌ، وذلك إذا كانت لَيِّنَةً طَيِّبَةً[3].

5) ﴿طَوۡعٗا﴾: "طاعَ يَطوعُ طَوْعًا فهو طائِعٌ. والطَّوْعُ: نقيضُ الكَرْه، تَقولُ: لَتَفعَلَنَّهُ طَوعًا أو كَرهًا. طائعًا أو كارِهًا، وطاعَ له إذا انقادَ لَهُ. إذا مضى في أمرِكَ فقد أطاعَكَ، وإذا وافَقَكَ فقد طاوعَكَ"[4]، يقولون طاع له وأطاعه، ولا يقولون طاعه كما يقولون أطاعه. وأنشد:

وَقُلتُ لِلْقَلْبِ دَعِ اتِّبَاعَهَا *** فَطَاعَ لِي وَطَالَمَا أَطَاعَهَا[5]

6) ﴿وَكَرۡهٗا﴾: الكاف والرَّاء والهاء أصلٌ صحيحٌ واحدٌ، يدُلُّ على خلاف الرِّضا والمحبَّة. يُقالُ: كَرِهتُ الشَّيءَ أَكرَهُهُ كَرهًا. والكُرهُ الاسمُ. ويُقالُ: بَلِ الكُرهُ: المشقَّةُ، والكَرهُ: أنْ تُكَلَّفَ الشَّيءَ فَتَعمَلَهُ كارهًا[6]، وقال الرّاغب: " المشقّة التي تنال الإنسان من خارج فيما يحمل عليه بِإِكْرَاهٍ، والكُرْهُ: ما يناله من ذاته وهو يعافه، وذلك على ضربين: أحدهما: ما يُعاف من حيث الطّبع. والثّاني: ما يُعاف من حيث العقل أو الشّرع، ولهذا يصحّ أن يقول

(1) الخليل، العين: (سمو)، وابن منظور، لسان العرب: (سما).

(2) قوله: (فَمَحُولُ) وردت بالضّم أيضًا (فَمُحُولُ)، والبيت لطفيل الغنويّ، يصف فرسًا، وقد ورد في الدّلائل في غريب الحديث للسّرقسطيّ: 1/166، والصّحاح للجوهريّ: 6/2382، ومقاييس اللّغة، لأحمد بن فارس: 1/80، وأساس البلاغة، للزّمخشريّ: 1/476، ولسان العرب: 14/399، وتاج العروس للزبيدي: 38/303.

(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (طعو).

(4) الخليل، العين: (طوع).

(5) ابن دريد، جمهرة اللغة: (طوع).

(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (كره).

الإنسان في الشّيء الواحد: إنّي أريده وأَكْرَهُهُ، بمعنى أنّي أريده من حيث الطّبع، وأكرهه من حيث العقل أو الشّرع"[1].

7) ﴿يُرْجَعُونَ﴾: الرُّجوعُ: العَودُ إلى ما كان منه البدء أو تقدير البدء مكانًا كان أم فِعلًا، أو قَولًا، وبذاته كان رُجوعه، أو بجُزء مِن أجزائه، أو بفعل مِن أفعاله. فالرُّجوعُ: العَودُ، والرَّجعُ: الإعادَة[2]، "وفي التنزيل ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ ۝٨﴾ [العلق: 8]، وفيه ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾ [المائدة: 48]، أي رجوعكم، حكاه سيبويه، فيما جاء من المصادر التي من (فَعَلَ يَفْعِلُ) بالكسر، ولا يجوز أن يكون اسم المكان، لأنَّه قد تعدَّى بإلى، وانتصب عنه الحال، واسم المكان لا يتعدَّى، ولا ينصب حالاً"[3].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

توجّه الآية استفهامًا إنكاريًّا لأولئك البُعداء فتقول: أَيَتَوَلَّون بعد هذا البيان، فَيبغونَ غير دينِ الله الَّذي هو الإسلام؟! ولله خضع مَن في السَّموات والأرض، وقد خَضَعواْ له بالكليّة، وانقادواْ لتَصرُّفه بالتَّكوين والإيجاد هنا، إذ هو المُتصرِّف فيهم، وهُمُ الخاضِعون له، فكُلُّ ما يَحِلُّ بالنَّاس، إن كان عَن رضًا فَهم طائِعونَ، وإن كان عن غير رضًا فَهم كارِهون، وإلى الله المَرجِعُ والمآبُ[4].

أيبتغى غير دين الله، وله خضعت الأملاك، وسجدت الأفلاك

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

لَا يُمْكِنُ لِمَنِ اسْتَبَانَتْ لَهُ الْحُجَجُ وَالْبَرَاهِينُ أَنْ يَقْبَلَ دِينًا غَيْرَ دِينِ اللهِ تَعَالَى

دِلَالَةُ الِاسْتِفْهَامِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ﴾:

الهمزةُ في قوله تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ﴾ للاستفهام، والمرادُ: التَّوبيخ والتَّحذير، واستِنكارُ أن يَفعلوا ذلك، أو هُوَ تقريرُ أنَّهُم يَفعلونه، ومَوضِعُ الهمزة هو لفظةُ ﴿يَبْغُونَ﴾ تقديرُهُ: أيَبغُونَ

(1) الرّاغب، المفردات: (كره).
(2) الزَّبيديّ، تاج العروس: (رجع).
(3) القيسّي، إيضاح شواهد الإيضاح: 1/433.
(4) الحجازيّ، التّفسير الواضح: 2/249.

غير دين اللّه؟ لأنَّ الاستفهامَ إنَّما يكونُ عَنِ الأفعال والحوادث، إلَّا أنَّه تعالى قَدَّمَ المفعولَ الَّذي هو (غير) من قوله تعالى: ﴿أَفَغَيۡرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبۡغُونَ﴾ على فعله؛ لأنّه أهمُّ مِن حيثُ إنَّ الإنكارَ الَّذي هو معنى الهمزة مُتَوَجِّهٌ إلى المعبود الباطل، وأمَّا الفاءُ فلِعطفِ جملةٍ على جملةٍ، والتَّقديرُ: فأُولئك هُمُ الفاسِقونَ، فغيرَ دينِ اللّه يبغون[1].

دِلَالَةُ (الْفَاءِ) فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَفَغَيۡرَ﴾:

لِلْفَاءِ في قوله تعالى: ﴿أَفَغَيۡرَ﴾ وجهان:

أحدُهما: أن تكونَ عاطفةً جملةً على جملةٍ، والمعنى: فأُولئك هُمُ الفاسقون فَغيرَ دينِ اللّهِ يَبغونَ، ثمّ تَوَسَّطتِ الهمزَةُ بينهما.

والآخر: أن يُعطَفَ على محذوفٍ تقديرُهُ: أيتولَّون فَغيرَ دينِ اللّه يبغونَ[2].

فالفاءُ هنا للتَّرتيب والتَّعقيب، وهي مُؤَخَّرةٌ عن تقديم؛ لأنَّ الاستفهام له الصَّدارةُ، والمعنى: أنَّه تَرتَّبَ على كُفرهم بمُحمَّد ﷺ أَنْ وُجِّهَ إليهم ذلك الاستفهامُ الإنكاريّ؛ توبيخًا لهم على ما فَعَلوا وما أنكَروا، وما ضلُّوا وأضلُّوا[3].

الْكُفْرُ بِمُحَمَّدٍ ﷺ جَرِيمَةٌ عَظِيمَةٌ

سِرُّ التَّعْبِيرِ بِـ﴿أَفَغَيۡرَ﴾ دُونَ مُرَادِفَاتِهِ:

جاء التَّعبير في قول اللّه تعالى: ﴿أَفَغَيۡرَ دِينِ ٱللَّهِ﴾ بلفظ (غير)، دون (الخلاف)، فلم يقل: أَخِلافَ دينِ اللّه، لأنَّ الخِلافَين أخصُّ من الغَيْرَيْن؛ إذِ الغَيرَان يَصدُقانِ على المِثلَين والخِلافَين؛ والاستفهام هَهُنا على سَبيل الإنكار، وهو معنى النَّفي، ونَفي الأعَمّ يَستَلزِمُ نَفيَ الأخَصّ، كما قالوا: ﴿فَلَمَّآ أَضَآءَتۡ مَا حَوۡلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمۡ﴾ [البقرة: 17][4].

جَمَالُ الدِّقَّةِ فِي اخْتِيَارِ اللَّفْظِ الْقُرْآنِيِّ

(1) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 8/279، والخازن، لُباب التّأويل: 1/265، وابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 5/366، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/300.

(2) السَّمين، الدُّرّ المصون: 3/296.

(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 3/1297.

(4) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/378.

مِنْ مَقَاصِدِ التَّقْدِيمِ وَالتَّأخِيرِ فِي بِنَاءِ الْجُمْلَةِ لَفْتُ النَّظَرِ إِلَى جُزْءٍ مُهِمّ مِنْهَا

غَرَضُ تَقْدِيمِ الْمَفْعُولِ بِهِ عَلَى عَامِلِهِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ﴾:

نُصِب (غَيْرَ) من قوله تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ﴾ على أنّه مفعولُ ﴿يَبْغُونَ﴾، وقُدِّم المفعول به على فعله؛ لأنّه أهمُّ من حيثُ الإنكار - الَّذي دلَّتْ عليه همزة الاستفهام -؛ لتوجُّهِهِ إلى المعبود بالباطل[1].

ويرى أبو حيَّان أنَّ الإنكار الَّذي هو معنى الهمزة لا يتوجَّهُ إلى الذَّوات، إنّما يتوجَّهُ إلى الأفعال الَّتي تَتعلَّقُ بها، فالَّذي أُنكِرَ إنّما هو الابتِغاءُ الَّذي مُتَعَلِّقُهُ (غَيرَ دينِ الله)، وجاءَ تقديمُ المفعول هنا من باب الاتِّساع، ولشبهَ ﴿يَبْغُونَ﴾ بالفاصلة بآخر الفعل[2].

غَالِبُ اسْتِعْمَالَاتِ (الْبَغْيِ) فِي مَعْنَى الذَّمِّ وَالْإِنْكَارِ

دِلَالَةُ التَّعْبِيرِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَبْغُونَ﴾:

البَغي: طلب تجاوز الاقتصاد فيما يُتحرَّى، تجاوزَه أَم لم يتجاوزْه، وهو على ضربين:

أحدهما: محمودٌ؛ وهو تجاوزُ العدل إلى الإحسان، والفرض إلى التَّطوع.

والآخر مذموم: وهو تجاوزُ الحقّ إلى الباطل[3].

والنَّاظر في آيات القرآن الكريم يجد أكثر استعمالات الفِعل ﴿يَبْغُونَ﴾ في مَوضِع الذَّمّ، ومن ذلك هذه الآية وهي قوله: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ﴾، حيث ورد فيها الفعل ﴿يَبْغُونَ﴾ الَّذي يحمل التَّجاوز من أتباع الأنبياء؛ إذْ تجاوزوا الحقَّ إلى الباطل، وهذا الفعل منهم مُتجدِّدٌ مستمرٌّ، يبحثون عنه في كلِّ وقتٍ ويتحرَّوْنَهُ، كما دلَّ عليه التَّعبيرُ بصيغة المضارعِ ﴿يَبْغُونَ﴾.

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/380، والسّبكّي، عروس الأفراح: 1/384، والسّيوطيّ، نواهد الأبكار: 1/224.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/246، والسَّمين، الدّرّ المصون: 3/296. عضيمة، دراسات لأسلوب القرآن الكريم: 9/171.
(3) الرّاغب، المفردات: (بغي).

تَوْجِيهُ الْقِرَاءَاتِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَبْغُونَ﴾:

مُخَالَفَةُ الْأُمَمِ السَّابِقَةِ لِلْعَهْدِ فِيهِ عِظَةٌ وَعِبْرَةٌ لِمَنْ بَعْدَهُمْ

قرأَ الجمهورُ ﴿يَبْغُونَ﴾ بتاء الخطاب[1]، فهو كلامٌ موجَّهٌ لأهل الكتاب جارٍ على طريقة الخطاب في قوله آنفًا: ﴿وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ﴾، وقرأ أبو عمرو وحَفصٌ ويعقُوبُ بياء الغيبة ﴿يَبْغُونَ﴾[2]؛ على أنَّهُ التفاتٌ مِنَ الخطاب إلى الغيبة، إعراضًا عَن مُخاطَبَتِهم إلى مُخاطبة المُسلمينَ بالتَّعجيب مِن أهل الكتاب.

وهذا تفريعٌ لذِكر أحوال خَلَفِ أُولئكَ الأمم كيف اتَّبَعوا غيرَ ما أخِذَ عليهمُ العهدُ به، والاستفهامُ حينئذٍ للتَّعجيب[3].

نُكْتَةُ الْإِضَافَةِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ﴾:

دِينُ اللهِ وَاحِدٌ وَهُوَ الْإِسْلَامُ

في قوله تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ﴾ إشارةٌ إلى أنَّ دينَ اللّٰه واحدٌ لا يتجزَّأ، فمَن كفر ببعضه فقد كفر بهِ كُلِّه، وأنَّ حقيقةَ هذا الدِّين تَتَجَلَّى في كلِّ ما جاء به الرُّسل، فَدينُ اللّٰه هو الإسلامُ؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران: 19]، وإضافتهُ إلى اللّٰه في قوله: ﴿دِينِ ٱللَّهِ﴾، يُرادُ به تشريفُهُ على غيره ممَّا يتَّخذه النَّاسُ دينًا؛ لأنّه تعالى هو الَّذي شَرَعَهُ وتَعَبَّدَ به الخَلق، أو لأنَّ غيره يومئذٍ قد نُسِخَ بما هو دينُ اللّٰهِ تعالَى[4].

سِرُّ تَقْدِيمِ الْجَارِّ وَالْمَجْرُورِ عَلَى الْفِعْلِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ﴾:

عَظَمَةُ اللهِ تَعَالَى بِخُضُوعِ جَمِيعِ الْخَلْقِ لَهُ

تقديم الجارّ والمَجرور ﴿وَلَهُۥٓ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ﴾ لإفادَةِ الاختصاص، أي: أسلَمَ له وحدَهُ لا لأحد سواهُ، فقد خَضَعَ وأخلَصَ كُلُّ مَن في السَّماوات والأرض مِن عُقلاء، وهو قصرٌ حقيقيٌّ[5].

---

(1) ابن الجزري، النشر: 2/241.

(2) ابن الجزري، النشر: 2/241.

(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/246، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/301.

(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/245، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/301، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 3/1297.

(5) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 3/1298.

سرُّ التَّعْبِيرِ بِلَفْظِ ﴿أَسْلَمَ﴾ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ﴾:

الْإِسْـــلَامُ هُـوَ الِانْـقِـيَـادُ لِأَمْـرِ اللهِ تَعَالَى وَنَهْيِهِ انْقِيَادًا تَامًّا

﴿أَسْلَمَ﴾ في هذا السِّياق القُرآنيّ الكريم، تعني أنَّه خَضَعَ وسُخِّرَ، وقُهِرَ على أن يُنفِّذَ، ولكنَّ الحقَّ سُبحانه قال عَنِ السَّماء والأرض: ﴿قَالَتَآ أَتَيۡنَا طَآئِعِينَ ١١﴾ [فُصّلت: 11]، إذِ المألوفُ أن تخضعَ السَّماءُ والأرضُ لأمر اللّه تعالى، ولـمَّا ﴿قَالَتَآ أَتَيۡنَا طَآئِعِينَ ١١﴾ [فُصّلت: 11]؛ كانتَا السَّماء مُسْلِمَتَيْنِ للّه تعالى، فإلى اللّه كُلّ مَرجِع، فالإنسان - مُؤمنًا كان أو كافرًا - سيعودُ إلى اللّه حَتمًا[1].

كما جاء ذِكرُ (الإسلام) في النَّظم القرآنيّ كثيرًا؛ إذ أتى بلفظ﴿أَسْلَمَ﴾ كما في هذه الآية، و﴿مُسْلِمُونَ﴾ كما في قوله تعالى: ﴿وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ١٣٣﴾ [البقرة: 133]، و(الإسلام) كما في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ﴾ [آل عمران: 85]. ومجيئُهُ في قوله: ﴿وَلَهُۥٓ أَسۡلَمَ﴾ لكونِهِ في حَيِّز الـميثاق الـمأخوذ بمتابعة الرَّسول ﷺ الـمُصَدَّق؛ حثًّا على تمام الانقياد له[2]، كما قال ابن عبَّاسٍ رضي الله عنهما: أَسلَمَ كُلُّهُم في أخذ الـميثاق[3].

دِلَالَةُ ﴿مَن﴾ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾:

جَـمِـيعُ الْـخَـلْـقِ مُـــقِـــرُّونَ بِعُبُودِيَّتِهِمْ للهِ، وَإِنْ كَـانَ فِيهِمْ مَـنْ أَشْـــرَكَ فِي عِبَادَتِهِ

جيءَ بـ ﴿مَن﴾ في قوله تعالى: ﴿مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ وهي دالَّةٌ على العاقل؛ تَغليبًا لجانب العُقلاء؛ لأنَّنا لو قِسنَا مَن في السَّماوات والأرض؛ لكان أكثرُهم العُقلاءَ، أو هو على الخصوص؛ بمعنى أنَّه في ذكر المؤمنين مِنْهُم دُون غيرهم.

قال أبو العالية ومجاهد: كلّهم أقرَّ بالعبوديَّة للّه تعالى، وإن كان فيهم مَن أشركَ في العبادة؛ قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَهُمۡ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۖ﴾ [الزّخرف: 87]، وقال ابن عبَّاسٍ رضي الله عنهما: أَسلَمَ كُلُّهُم في أخذ الميثاق[4].

(1) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 8/1588.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 4/475، والدّريهم، سورة آل عمران دراسة بلاغيّة: 1/240.
(3) النّسفيّ، التّيسير في التّفسير: 4/133.
(4) النّسفيّ، التّيسير في التّفسير: 4/133، وابن عثيمين، تفسير القرآن الكريم: 1/467، والدّرّة، تفسير القرآن الكريم: 2/157.

سِرُّ جَمْعِ السَّمَاوَاتِ وَإِفْرَادِ الْأَرْضِ:

السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ مُعْجِزَتَانِ عَظِيمَتَانِ تَشْهَدَانِ عَلَى قُدْرَةِ الْخَالِقِ سُبْحَانَهُ:

في قول الله تعالى: ﴿وَلَهُۥٓ أَسۡلَمَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ جمعٌ للسَّماوات وإفرادٌ للأرض، فأمَّا جَمْعُ السَّماوات؛ ففيه إيماءٌ إلى مِلكيَّةِ كلِّ دقائقها، وكلِّ سُنَنِهَا وقوانينِهَا، فهو سبحانه الذي يغيِّرُ فيها ويُبدِّلُ، وأمَّا إفرادُ الأرض مع جمع السَّماوات؛ ففيه إشارةٌ إلى وحدتِهَا في الجملة بالنِّسبة لعالم السَّماوات وإن كانت الأرضُ طبقاتٍ، وفيه إشعارٌ بأنَّ الأرضَ شيءٌ صغيرٌ بجانبِ السَّماوات وما فيها[1].

عِلَّةُ تَقْدِيمِ السَّمَاوَاتِ عَلَى الْأَرْضِ فِي قَوْلِهِ: ﴿مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾:

السَّماءُ أعظمُ مِنَ الأرض، وفي كلِّ شيءٍ له سبحانه آية

قُدِّمت السماوات على الأرض في هذه الآية وفي مواضعَ كثيرةٍ من آي القرآن الكريم لنكاتٍ:

أحدها: أنَّ الآيةَ فيها أعظمُ من الأرض؛ حيثُ إنَّهما كثيرًا ما تُذكران في سياق آيات الله تعالى الدَّالَّة على عظمتِهِ وربوبيَّتِهِ وألوهيَّته، ومعلومٌ أنَّ الآياتِ في السَّماوات أعظمُ منها في الأرض؛ لسعتها وعظمها، وما فيها من الكواكب السَّيَّارة، واستغنائها عن عُمُدٍ تُقِلُّها أو عِلاقة ترفعُها[2].

ثانيها: أنَّ تقديم السَّماوات على الأرض هُوَ تقديمُ تشريفٍ؛ إذ السَّماءُ مُتَعَبَّدُ الملائكة، والأرض وإنْ كان فيها الأنبياء؛ إلَّا أنَّ فيها الأشرارَ والمفسدينَ.

ثالثها: أنَّها قُدِّمت في الذِّكرِ لتقدُّمِ وجودِها على وجود الأرض. وأنَّ السَّماوات على هذه الهيئة مُقدَّمة على الأرض الكائنة على هذه الهيئة الموجودة؛ لأنَّه تعالى قال: ﴿ءَأَنتُمۡ أَشَدُّ خَلۡقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُۚ بَنَىٰهَا ٢٧ رَفَعَ سَمۡكَهَا فَسَوَّىٰهَا ٢٨ وَأَغۡطَشَ لَيۡلَهَا وَأَخۡرَجَ ضُحَىٰهَا ٢٩ وَٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ٣٠﴾ [النَّازعات: 27 - 30]، فإنَّه صريحٌ في أنَّ بسْطَ الأرضِ مُؤَخَّرٌ عن تَسوية السَّماء[3].

---

(1) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 2/935.

(2) لاشين، صفاء الكلمة، ص: 214 - 215.

(3) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 8/192.

دِلَالَةُ الْجَمْعِ بَيْنَ ﴿طَوْعًا﴾ وَ﴿وَكَرْهًا﴾ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَلَهُۥٓ أَسۡلَمَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ طَوۡعًا وَكَرۡهًا﴾:

الطَّاعَةُ للهِ تَعَالَى شَرَفٌ وَارْتِقَاءٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ

في الجمع بين ﴿طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ طباقُ إيجابٍ، وتقديمُ ﴿طَوْعًا﴾ على ﴿وَكَرْهًا﴾ لِمَا فيه مِنْ فَضلِ الانقياد الإراديّ على الَّذي لا إرادةَ للمُنقَاد فيه؛ إذْ في قوله: ﴿طَوْعًا﴾ دلالةٌ على الأعمال الصَّالحة الَّتي فيها للإنسان إرادَة، أمَّا ﴿وَكَرْهًا﴾ فهو خُضوعُ الخَلقِ لسُنن اللّه تعالى فيهم، كالمرَض، والصِّحَّة، والفَقر، والغِنَى، والإحياء، والإماتَة، أي: أنَّ الخَلقَ كلَّهُم مَقهورونَ للّه تعالى بهذا الاعتبارِ، ولذا عُطِفَ بـ (الواو) دُون (أو)[1].

دِلَالَةُ حَرْفِ الْجَرِّ (إِلَى) فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِلَيۡهِ يُرۡجَعُونَ﴾:

الرُّجُوعُ إِلَى اللهِ تَعَالَى أَمْرٌ حَتْمِيٌّ

جاء التَّعبير بحرف الجَرِّ (إلى) في قولِه تعالى: ﴿وَإِلَيۡهِ يُرۡجَعُونَ﴾؛ لِمَا فيه مِنَ الدّلالة على انتهاء الغاية إلى اللّه ﷻ لكُلِّ المخلوقات في السَّموات والأرض، وفي التَّعبير بذلك مِن إثارة حِسّ المُخاطَب ما يَجعله يتفكَّر في تلك الغاية والمصير؛ ممَّا يُحرِّك في نفسه الرَّغبة في الرُّجوع إلى اللّه تعالى والإنابة إليه والرَّغبة فيما عنده[2].

مُنَاسَبَةُ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِلَيۡهِ يُرۡجَعُونَ﴾:

لَا مَفَرَّ مِنْ حُكْمِ اللهِ تَعَالَى

أُسندَ الفعلُ (رَجَعَ) المُتعدِّي لِما لم يُسمَّ فاعله في قوله تعالى: ﴿وَإِلَيۡهِ يُرۡجَعُونَ﴾؛ لِظهور فاعله، أي: يُرجِعُكم اللّه تعالى بعد الموت وعند القيامة.

ومناسبةُ ذِكرِ هذا عَقِبَ التَّوبيخ والتَّحذير: أنَّ الرَّبَّ الَّذي لا مَفَرَّ مِن حُكمِه لا يَجوزُ للعاقل أن يَعدِلَ عن دينٍ أَمرَهُ به، وحَقُّهُ أن يُسلِمَ إليه نَفسَهُ مُختارًا قبل أن يُسلِمَهَا اضطرارًا؛ وقد دلَّ قولُه: ﴿وَإِلَيۡهِ يُرۡجَعُونَ﴾ على المُراد مِن قوله: ﴿وَكَرۡهًا﴾[3].

(1) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 1/175.
(2) الجهنيّ، أثر دلالات حروف المعاني الجارّة في التّفسير، ص: 124.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/301.

تَوْجِيهُ الْقِرَاءَاتِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾:

مِنْ رَكَائِزِ الْبَيَانِ الْقُرْآنِيِّ تَعَدُّدُ الْقِرَاءَاتِ فِيهِ

قرأ حَفصٌ ويعقوبُ بالياء الدَّالَّة على الغيبَةِ، فقرأ حفصٌ ﴿يُرْجَعُونَ﴾، وقرأ يعقوب: ﴿يَرْجِعُونَ﴾[1]، فيحتمل أن يكونَ عائدًا على مَن أَسلَمَ، ويحتمل أن يكونَ عائدًا على غير ضمير ﴿يَبْغُونَ﴾، فيكونُ ذلك التفاتًا على قراءة مَن قرأ: ﴿تَبْغُونَ﴾ بالتَّاء؛ إذ يكونُ قدِ انتقلَ مِن خِطابٍ إلى غَيبةٍ.

وقرأ باقي العشرة: بالتَّاء﴿تُرْجَعُونَ﴾، فإنْ عاد الضَّميرُ على ﴿مَن﴾؛ كان التفاتًا، أو على ضمير ﴿تَبْغُونَ﴾؛ كان التِفاتًا على قراءة مَنْ قرأ: ﴿يَبْغُونَ﴾ بالياء، أو يكونُ قدِ انتقلَ مِن غَيبةٍ إلى خطابٍ[2].

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الدِّين والمِلَّة:

المِلَّةُ: اسمٌ لما شَرَّعَهُ اللّهُ تعالى لعباده على لسان أنبيائه، لِيتَوصَّلواْ به إلى آجلِ ثوابِهِ. والدِّينُ مِلَّةٌ، لكنَّ المِلَّةَ تُقال باعتبار دعاء اللّه وإنزال كتبه، والدِّين باعتبار طاعة العباد له بإجابة دُعائه، والانقياد لأمره، والشَّيء الواحد قد يُسمَّى باسمين على اعتبارين، ثمَّ تُقال المِلَّةُ والدِّين، لِمَا لم يكن مِن قِبَلِ اللّه على التَّقييد، كقولك: مِلَّةُ مَزدكَ وغيره[3]، وفي الفروق اللّغويّة: "أَنه يُقَال فلَان حسن الدّين، وَلَا يُقَال حسن الْمِلَّة، وَإِنَّمَا يُقَال هُوَ من أهل الْمِلَّة، وَيُقَال لخلاف الذِّمِّيّ الملّيّ، نسب إِلَى جملَة الشَّرِيعَة، فَلَا يُقَال لَهُ دينيّ، وَتقول دينِي دين الْمَلَائِكَة، وَلَا تَقول ملّتي مِلَّة الْمَلَائِكَة، لِأَنّ الْمِلَّة اسْم للشّرائع مَعَ الْإِقْرَار بِاللَّه، وَالدّين مَا يذهب إليه الإنسان ويعتقد أَنّه يقرّبهُ إِلَى اللّه، وَإِن لم يكن فِيهِ شرائع، مثل دين أهل الشّرك، وكلّ مِلَّة دين، وَلَيْسَ كلّ دين مِلَّة"[4]، وذكر الشّريف الجرجانيّ في التّعريفات أنّ الدِّين والملّة: متّحدات بالذّات، ومختلفان بالاعتبار؛ فإنّ الشّريعة من حيث

(1) ابن الجزري، النشر: 2/241.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/248.
(3) الراغب، تفسير الرّاغب: 1/306، وكذلك المفردات: (ملل)، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/149.
(4) العسكريّ: الفروق اللّغويّة، ص: 220.

إنّها تطاع، تسمّى: دينًا، ومن حيث إنّها تُجمع تسمّى: ملّة... وقيل: الفرق بين الدّين، والملّة: أنّ الدّين منسوب إلى الله تعالى، والملّة منسوبة إلى الرّسول ﷺ [1].

الإسلام والإيمان:

الْإِيمَان هُوَ الْإِقْرَار والتّصديق بالقلب، والإسلام هو العمل بالجوارح، قال أبو حنيفة في الفقه الأكبر: "والاسلام هُوَ التَّسْلِيم والانقياد لأوامر الله تَعَالَى، فَمن طَرِيق اللُّغَة فرّق بَين الْإِسْلَام وَالْإِيمَان وَلَكِن لَا يكون إِيمَان بِلَا اسلام، وَلَا يُوجد إِسْلَام بِلَا إِيمَان، وهما كالظّهر مَعَ الْبَطن، وَالدِّين اسْم وَاقع على الْإِيمَان وَالْإِسْلَام والشّرائع كلّهَا"[2]، وقد تعدّدَت آراءُ العلماءِ في بيان معنَيَيْهما، وذلك على اختلاف تخصّصاتهم العلميَّة، فحاصلُ معنى الإيمان هو: حُصولُ الاعتقاد بما يجبُ اعتقادُهُ، وحاصل معنى الإسلام: إظهارُ المرء أنَّه أَسلَمَ لاتِّباع الدِّين ودعوة الرَّسول[3].

الطّوع والاستطاعة:

الاستطَاعةُ: استفعَال، مِنَ الطَّوع، وهو خلافُ الكُره، وذلك أنَّ الفعلَ يقعُ بها طوعًا، ولا يجوزُ أن يُسمَّى الله مُستَطيعًا؛ لأنَّه من قولك: انطاعَ له الفعل بعد أن لم يكن كذلك، وهذا لا يجوزُ على الله. والطَّوعُ بمعنى: الانقياد؛ والانقيادُ بمعنى: الذُّلّ، يُقالُ: طاعَ له طَوْعًا وأطاعَهُ إطاعَةً: إذا انقادَ لهُ. والطَّاعةُ الانقيادُ لِمَن يعتقدُ تَعظيمَه[4]، ويقولون: "اشتُقّت الاستطاعة من الطّوع، ويقال: تَطاوَعْ لهذا الأمر حتّى تستطيعه، وتطوّع: تكلّف استطاعته، وقد تطوّع لك طوعًا، إذا انقاد، والعرب تحذف التّاء من استطاع، فتقول: اسْطاع يَسْطِيعُ بفتح الياء، ومنهم من يضمّ الياء، فيقول: يُسطِيعُ، مثل يُهريقُ، والتّطوع: ما تبرّعتَ به، ممّا لا يلزمك فريضته"[5].

(1) الجرجانّي، : كتاب التّعريفات، ص: 105.
(2) أبو حنيفة، الفقه الأكبر، ص: 57.
(3) عبّاس، التّفسير والمفسّرون: 3/346 - 348.
(4) العسكريّ، الوجوه والنّظائر، ص: 65.
(5) الخليل، العين: 2/210.

﴿قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾﴾ [آل عمران: 84]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا نَزَّه اللهُ تعالى الأنبياءَ - عليهمُ الصَّلاة والسَّلام - عَنِ الدَّعوة إلى شيءٍ غيرِ الله تعالى في قولِه سُبحانه: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [آل عمران: 79]، ثُمَّ هدَّد مَن تولَّى عن دعوتهم الحقَّةِ في قوله ﷻ: ﴿فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [آل عمران: 82]؛ فكان السَّامع حريًّا بأنْ يقول: أنا مقبلٌ على ما دعا إليْهِ الأنبياءُ مِنَ الحقِّ، غيرُ متولٍّ عنه، فمَا أقولُ ومَا أفعَلُ؟ فقال سُبحانه مخاطبًا رأسَ السَّامعين والمقدَّمَ فيهم؛ لِيَكُونَ ذلكَ أَجْدَرَ لِامتثالِهِم: ﴿قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَٱلْأَسْبَاطِ﴾: السِّين والباء والطَّاء: تدلُّ اشْتِقَاقَاتُها على امتدادِ الشَّيءِ، ومِنْهُ قولُهم: شعرٌ سَبْطٌ وسَبِطٌ؛ إذا اسْتَرْسَلَ، ولم يَكُن جَعْدًا[2]، والسِّبْطُ: الرَّهْطُ وَالْقَبِيلَةُ، وجمعُهُ: أَسْبَاطٌ[3]، والسِّبط مِن بَنِي إسرائيلَ بمنزلةِ القَبِيلةِ مِن قبائِلِ العَرَب[4].

والأسباطُ في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ﴾ أَوْلَادُ يعقوبَ، وهُمُ اثْنَا عشر سِبْطًا، كلُّ سِبْطٍ قَبِيلَةٌ[5].

2) ﴿أُوتِيَ﴾: الْهَمْزَةُ والتَّاء والحرف المعتلُّ: تدورُ تصاريفُها على وصولٍ أو تقدُّمٍ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 4/473.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (سبط).
(3) الحِميَرِيّ، شمس العلوم: (سبط).
(4) الخليل، العين، وأبو حيَّان، تحفة الأريب: (سبط).
(5) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة: (سبط).

وحضورٍ إلَى محلٍّ بِتَهْيِئَةٍ أو قُوَّةٍ تُزِيل ما يعوقُ، ومِنْهُ قولُهم: آتى إلَيه الشَّيءَ، أي: ساقَه ودَفعَهُ، فجعله يأتِي إلَيْهِ، وآتى فلانًا شيئًا: أعطاه إيَّاه[1]، فالإيتاءُ: الإعطاءُ[2]، وهو المرادُ بقولِه تعالى: ﴿وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ﴾.

3) ﴿نُفَرِّقُ﴾: الفاء والرَّاء والقافُ: تدلُّ اشتقاقاتُها على تَمْيِيزٍ بين شيئين[3]، ومِنْهُ سُمِّيَ القرآنُ الكريم: فُرْقَانًا؛ لأنَّه يُمَيِّزُ بين الحقِّ والباطلِ[4]، وسُمِّيَ عُمَرُ - رضي الله عنه - الفاروقَ لذلكَ[5].

والفِعْلُ: فَرَقَ، وإذا أُريدتِ المبالغَةُ ضُعِّفت عَيْنُهُ، فقيل: فَرَّقَ، ومصدرُهُ: التَّفريقُ، ومِنْهُ قولُ اللّه تعالى: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ﴾، أي: لا نُميِّزُ بين أحدٍ مِنَ الرُّسلِ: بأن نُؤْمِنَ بهذا، ونَكْفُرَ بذاك.

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

قل - يا أيُّها الرَّسول ﷺ - لأهلِ الكتاب الَّذين جادلُوك بالباطل: صدَّقنا باللّهِ تعالَى، وأَقْرَرْنا به إقرارًا يَستلزم القبولَ والإذعانَ، فلا ربَّ لنا غيرُه، ولا معبودَ لنَا سِواهُ، وآمنَّا بالوحيِ الَّذي أَنْزَلَه اللّهُ علينَا، والوحيِ الَّذي أنزلهُ على الأنبياءِ قبلَنَا: إبراهيمَ وإسماعيلَ وإسحاقَ ويعقوبَ عليهم السلام والوحيِ الَّذي أنزلَه على الأسبَاطِ: وهمُ الأنبياءُ الَّذين كانُوا في قبائلِ بَنِي إسرائيلَ الاِثْنَتَيْ عَشْرَةَ مِن ولد يعقُوبَ، وما أوتِيَهُ مُوسَى عليه السلام مِنَ التَّوراة، وما أُوتِيَهُ عِيسَى عليه السلام مِنَ الإنجيل، وما أنزله اللّهُ تعالى على أنبيائه، نُؤمِنُ بذلك كلِّه، ولا نُفَرِّق بين أحدٍ مِنْهُم: بأَنْ نُؤمنَ ببعضٍ، ونكفرَ ببعضٍ، ونحنُ للّه تعالى وحدَه مُسْتَسْلِمُون بالتَّوحيد، مُنقادُون بالطَّاعة[6].

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (أتو/أتى).
(2) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة: (أتى).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (فرق).
(4) ابن دُريد، جمهرة اللّغة: (فرق).
(5) ابن سِيده، المخصَّص: 3/409.
(6) ابن جرير، جامع البيان: 6/569 - 570. والنَّسفِي، مدارك التَّنزيل: 1/271. والطَّنطاوي، التَّفسير الوسيط: 2/168. ونخبة من العلماء، التّفسير الميسّر، ص: 61.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

سَبَبُ فَصْلِ قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾ عَمَّا قَبْلَهُ:

المُوَحِّدُ للهِ تَعَالَى المُنْقَادُ لِشَرْعِهِ يُعْلِنُ إِيمَانَهُ، وَيَجْهَرُ بِهِ

فُصِلَ قولُ اللّهِ تعالى: ﴿قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾ عمَّا قبلُ؛ لِما بينَهما مِن شِبه كمَال الاتِّصالِ، فالجملةُ واردةٌ على طريقةِ الاسْتِئْنَافِ البيانيِّ؛ إذْ هي جوابٌ عن سؤالٍ يُفْهَمُ مِنَ الأُولَى، وذلك أنَّ اللّه تعالى لمَّا نزَّه أنبياءَهُ عَنِ الدَّعوة إلى غيرِه، وهدَّد مَن تولَّى عن دعوتِهم؛ أورثَ ذلك سؤالًا في نفوسِ المُتَلَقِّين المُذْعِنِينَ للشَّرعِ المنقادِين لهُ: نحن مُقْبِلُونَ على دَعوة الأنبياءِ - عليهم السلام - غيرُ معرضِين عنها، فما نَقُول وما نَفْعَل؟ فجاء الجوابُ بـ ﴿قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾ خطابًا لمقدَّم المُنْقَادِينَ للشَّرعِ؛ لِيَكُونَ أَحْرَى لامتِثَالِهم[1].

تَعْيِينُ المَأْمُورِ بِقَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ ءَامَنَّا﴾:

الأُمَّـةُ مَـأْمُـورَةٌ بِالِائْتِسَاءِ بِالنَّبِيِّ ﷺ

المأمورُ في قولِ اللّه تعالى: ﴿قُلْ ءَامَنَّا﴾ يحتملُ وَجْهَيْنِ[2]:

أحدُهما: أن يكون النَّبيَّ محمَّدًا ﷺ وهذا فيه مسلكَانِ:

أوَّلُهما: أنْ يكُونَ هو وأمَّتُهُ مأمورينَ، وقولهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ ءَامَنَّا﴾ على تَقْدِير: قُل يا محمَّدُ أنتَ وأُمَّتُك: آمَنَّا، وإنَّما حُذِفَ المعطوفُ؛ لفَهْمِ المعنَى، وبقرينَةِ جمع الضَّمير في قوله بعدُ: ﴿ءَامَنَّا﴾.

والآخرُ: أنَّ المأمورَ هُو النَّبيُّ محمّدٌ ﷺ وحدَهُ، وإنَّما جيءَ بضمير الجمعِ في ﴿ءَامَنَّا﴾؛ تعظيمًا لَهُ وتبجيلًا.

والوَجْهُ الآخرُ: أن يكونَ المأمورُ مَن تقدَّمَ مِن أهلِ الكتابِ، والتَّقدير: قُل لَهُمْ قُولُوا: آمنَّا،

وكونُ المخاطَبِ هو النَّبيَّ ﷺ وحدَهُ أَوْلَى؛ لِافْتِقَارِ القولِ بغيرِه إلى التَّقديرِ، وهو خلافُ الأصلِ، وخُوطِبَ ﷺ بهذا؛ ليقولَ ذلكَ بِمَسْمَعٍ مِنَ النَّاسِ كلِّهم: مُسلِمِهم وكافِرِهم[3].

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 4/473.

(2) ابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 1/467. وابن عادل، اللُّباب في علوم الكتاب: 5/369.

(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 3/302.

وخُصَّ النَّبيُّ ﷺ بتوجيهِ الخطابِ إليه؛ لكونِهِ رأسَ السَّامعينَ والمقدَّمَ فيهِمْ، فيكونُ ذلك أجدرَ لامتثالِهِمْ[1].

فالأُمَّةُ وإن لم تدخلِ ابتداءً في الخطاب بـ ﴿قُلْ﴾، إلَّا أنَّها داخلةٌ بدليلٍ آخرَ: وهو كونُها مأمورةً بِالائْتِسَاءِ به ﷺ.

نُكْتَةُ الْجَمْعِ فِي ﴿ءَامَنَّا﴾ بَعْدَ الْإِفْرَادِ فِي ﴿قُلْ﴾:

جَلَالَةُ قَدْرِ النَّبِيِّ ﷺ وَرَفِيعُ مَنْزِلَتِهِ

جُمِعَ الضَّميرُ في قوله: ﴿ءَامَنَّا﴾ بعدَ إِفْرَادِهِ في قوله: ﴿قُلْ﴾؛ لإظهار جَلالةِ قَدْرِ النَّبيِّ ﷺ ورفعةِ منزلَتِهِ؛ إذْ أُمِرَ أن يتكلَّمَ عن نفسِه على دَيْدَنِ الملوكِ وطريقتِهِم بأسلوب الجمعِ تعظيمًا[2]، ويؤيِّدُهُ: إفرادُ الضَّمير قبلُ في ﴿قُلْ﴾، فإنَّه تشريفٌ له ﷺ وإيذانٌ بأنَّه أصلٌ في ذلكَ، كما في قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾[3] [الطَّلاق: 1].

سِرُّ تَقْدِيمِ الْإِيمَانِ بِاللهِ تَعَالَى عَلَى غَيْرِهِ:

الْإِيمَانُ بِاللهِ تَعَالَى أَصْلُ كُلِّ خَيْرٍ

قُدِّم ذكرُ الإيمانِ باللهِ تعالَى على الإيمانِ بالأنبياءِ؛ لأنَّ الإيمانَ باللهِ سُبحانه أصلُ الإيمان بالنُّبُوَّةِ، وثنَّى بذِكْرِ الإيمانِ بما أُنْزِلَ عَلَيْهِ ﷺ؛ لكونِ كُتُبِ الأنبياءِ السَّابقين دخلَها التَّحريفُ والتَّبديلُ، فلَم يَكُن ثَمَّ سبيلٌ إلى معرفةِ حالِهَا إلَّا بما أَنْزَلَهُ اللهُ تعالى على نبيِّه محمَّد ﷺ فكان ما أُنْزِلَ عَلَيْهِ كَالأصلِ لِما أُنْزِلَ عَلى غَيْرِهِ مِنَ الأنبياءِ قبلَهُ؛ ولِذَا قدَّمَهُ وإنْ كَانَ إنزالُهُ مُتأخِّرًا عَنْهُم زَمَنًا، وثَلَّثَ بذِكْرِ جُملةٍ مِنَ الأنبياءِ، وخَصَّ المذكورِينَ؛ لأنَّهم الَّذين يُقِرُّ أهلُ الكِتَابِ بِوُجُودِهم، ولَا يَخْتَلِفُونَ في نُبُوَّتهم[4].

وفِي تقديمِ الإيمانِ بِاللهِ تعالى عَلَى الإيمَانِ بِمَا جاءت به رُسلُهُ:

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 4/473.
(2) إسماعيل حقّي، روح البيان: 2/58. والقاسميّ، محاسن التَّأويل: 2/345.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السَّليم: 2/54.
(4) الرَّازي، مفاتيح الغيب: 8/281. والقِنَّوجِيّ، فتح البيان: 2/277.

تقديمٌ لِلسَّبَب على المسبَّب، والمقدِّمَة على النَّتيجة؛ لإظهَارِ شرفِ النَّتيجَةِ في نفسِهَا، وأنَّها مَقْصُودةٌ لذاتِهَا لا تابعةٌ لغيرهَا؛ إذْ ما أَنْزَلَهُ اللّه تعالى على رُسُلِهِ يتضمَّنُ لُبَّ الشَّريعةِ وأُسَّهَا[1].

نُكْتَةُ التَّعْرِيفِ بِالْمَوْصُولِيَّةِ:

تَفْخِيمُ شَأْنِ الْوَحْيِ الْمُنْزَلِ

جيءَ بالاسْمِ الموصولِ ﴿وَمَآ﴾ من قولِه تعالى: ﴿وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾؛ لإفادةِ التَّفخيمِ والتَّعظيم، وذلك لِمَا في الاسْمِ المَوْصُول مِنَ الإبهامِ الصَّالحِ لهذه الدِّلالَة، فالآيةُ دالَّةٌ على تعظيمِ الوحيِ المُنْزَلِ على النَّبيِّ ﷺ والوحيِ المُنْزَلِ علَى غَيرِهِ مِنَ الأنبياءِ، وزِيدَ الْوَحْيُ الْمُنْزَلُ عَلَى نبيِّنا ﷺ إشادَةً به؛ تعظيمًا لَهُ بذِكْرِهِ مقدَّمًا، إذِ لِلْمقدَّمِ مزيدُ عنايةٍ.

سِرُّ بِنَاءِ الْفِعْلِ ﴿أُنزِلَ﴾ لِمَا لَمْ يُسَمَّ فَاعِلُهُ:

عَظَمَةُ مُنْزِلِ الْوَحْيِ ﷻ

والمُنْزِلُ في قولِه: ﴿أُنزِلَ﴾ هو اللّه تعالى، وبُنِيَ الفعلُ ﴿أُنزِلَ﴾ من قولِ اللّه سُبحانَهُ: ﴿وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ لِما لَمْ يُسَمَّ فاعلُهُ؛ لِلْعِلْمِ بهِ ولكونِه متعيِّنًا، تَعْظِيمًا لِلْمُنْزِلِ ﷻ.

وفي تعظيمِ المُنْزِلِ تعظيمٌ للمُنْزَلِ - وهو الوحيُ - وتعظيمٌ للمُنْزَلِ عَلَيْهِم، وهُمُ الأنبيَاءُ عليهِمُ الصَّلاةُ والسَّلامُ.

دِلَالَةُ حَرْفِ (عَلَى) فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾:

عُلُوُّ قَدْرِ النَّبِيِّ ﷺ

حرفُ الجرِّ (عَلَى) مِن قولِ اللّه تعالى: ﴿وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾ دالٌّ على الاستعلاءِ، ووجهُهُ هَهُنا: أنَّ الكلامَ في الوحْيِ المُنْزَلِ، والإنزالُ يكُونُ مِن فوقٍ[2].

وفيه أيضًا: تشريفٌ للنَّبيِّ ﷺ وإظهارٌ لعظيمِ مَنْزِلَتِه، وذلك أنَّ الخطابَ كان واصلًا إِلَيْهِ مِنَ اللّه تعالى بِلَا واسطةٍ بشريَّةٍ، فكانَ التَّعبيرُ بِحَرْفِ الجرِّ (عَلَى) المختصِّ بالعُلُوِّ مناسبًا لهذا المقامِ[3].

(1) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 3/1299.
(2) الزَّمخشريّ، الكشَّاف: 1/381. وابن عادل، اللُّباب في علوم الكتاب: 5/369.
(3) الرَّاغب، تفسير الرَّاغب: 2/689.

نُكْتَةُ تَكْرَارِ الْمَوْصُولِ ﴿وَمَآ﴾ وَالْفِعْلِ ﴿أُنزِلَ﴾ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾:

بَعْضُ أَوْجُهِ الْمُغَايَرَةِ بَيْنَ الْمُنْزَلِ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ وَالْمُنْزَلِ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ عليهم السلام

كُرِّرَ الموصولُ ﴿وَمَآ﴾ والفعلُ ﴿أُنزِلَ﴾، وكان يتأتَّى أن يَرِدَ النَّظمُ القرآنيُّ: (آمنَّا باللّه وما أُنْزِلَ علينا وعلَى إبْرَاهِيم)، وذلك لِلْإيمَاءِ إلى المُغَايَرةِ بينَ المُنْزَلَيْنِ[1]، وذلكَ مِن أَوْجُهٍ، مِنْهَا:

أوَّلًا: أنَّ المُنْزَلَ على النَّبِيِّ ﷺ مَحْفُوظٌ لا يتطرَّق إليه تبديلٌ ولا تحريفٌ، بخلاف المُنْزَلِ على غيرِهِ مِنَ الأنبياءِ، فقد دخلَهُ التَّبديلُ والتَّغييرُ.

ثَانِيًا: أنَّ المُنْزَلَ على النَّبِيِّ ﷺ حاكمٌ ومُهَيْمِنٌ على المُنْزَلِ قبلُ، كمَا قالَ اللّه تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة: 48].

ثالثًا: أنَّ ما نزلَ على الأنبياءِ - عليهم السلام - نزلَ على كلِّ واحدٍ منهم جملةً واحدةً، والمُنْزَل على النَّبِيِّ ﷺ له إنْزَالَانِ: إنزالٌ جُمْلِيٌّ إلى السَّماءِ الدُّنيا، ثُمَّ تلاهُ إنزالٌ بحسبِ الوقائعِ والأَحْدَاثِ.

سِرُّ تَخْصِيصِ جُمْلَةٍ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ بِالذِّكْرِ دُونَ غَيْرِهِمْ:

إِقْرَارُ أَهْلِ الْكِتَابِ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى أَنْبِيَاءِ بَنِي إِسْرَائِيلَ يَسْتَلْزِمُ إِيمَانَهُمْ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ

خُصَّ هؤلاءِ الأنبياءُ بالذِّكْرِ؛ لأنَّ الآيةَ في سياقِ الكلامِ عَن أهلِ الكتابِ، وَأهلُ الكتاب يقرُّونَ بوجُودِ هؤلاء الأنبياءِ، ولَم يختلفوا في نُبُوَّتِهِمْ[2].

ولم يُذْكَر غيرُهم؛ لأنَّ الكلامَ في لَوْمِ أهلِ الكتاب وتوبيخِهم، وهُمْ لا يدَّعُونَ إيمانًا وعملًا بِكُتُبِ غيرِ المَذْكُورين.

نُكْتَةُ التَّعْبِيرِ بِالْإِيتَاءِ دُونَ الْإِنْزَالِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ﴾:

جاءَ التَّعبير بالإيتاءِ مع نَبِيَّي اللّهِ تعالى مُوسَى وعِيسَى عليهما السلام في

(1) الهرريّ، حدائق الرّوح والرَّيحان: 2/320.
(2) القِنَّوجيّ، فتح البيان: 2/277.

دِقَّـــةُ الْـبَـيَـانِ الْـــقُـــرْآنِيِّ فِي اخْـتِـيَـارِ اللَّـفْـظِ الْمُنَاسِبِ لِسِيَاقِهِ

قوله سبحانه: ﴿وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ﴾، ووقع التَّعبيرُ بالْإِنْزَال معَ الأنبياءِ المذكورينَ قَبْلُ في قولهِ ﷻ: ﴿وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ﴾، ونكتةُ ذلكَ: أنَّ لفظَ الْإِنْزَالِ صريحٌ في الدِّلالَةِ على انتقالٍ مِن فوقُ إلى تحت، بخلاف لفظ الإيتاءِ؛ فإنَّه محتمِلٌ لكونِه مِنَ اليَمِين أو الفَوْقِ وعكسهمَا، وأُوثِرَ لفظُ الإيتاءِ مع مُوسَى وعِيسَى عليهما السلام؛ لأنَّ النَّصارى: مؤمنون بما أُنْزِلَ على عيسَى عليه السلام، واليهودَ: مؤمنونَ بما أُنْزِلَ على مُوسى عليه السلام، فلمَّا كان كذلك لم يُحْتَجْ معهم إلى لفظٍ ينصُّ على ربَّانِيَّةِ مصدر كُتُبِهِمْ، بل عُدِلَ عَن لفظٍ آخرَ، وهو الإيتاءُ، بخلاف حالِهم مع ما أُنْزِلَ على النَّبيِّ محمَّد ﷺ وعلى إبراهِيمَ ومَن ذُكرَ بعدُ؛ فإنَّهم غيرُ مُتَّبعين لَه، بل إنَّ طائفةً مِنْهُم يزعمونَ أنَّهم تلقَّوْهُ مِنَ الكُهَّانِ، فلمَّا كان الأمرُ كذلك؛ جيءَ باللَّفْظِ الصَّريحِ الدَّالِّ على نُزولِهِ مِن فوقُ إلى تحت؛ قطعًا لهذا الشَّكِّ والاحتمال[1].

نُكْتَةُ الْإِطْنَابِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ﴾:

تَفَاضُلُ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ

عُطِفَ قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَٱلنَّبِيُّونَ﴾ على ﴿مُوسَىٰ﴾ مِن قَوْلِه: ﴿وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ﴾، وهُو مِنَ الإطنابِ بذِكْرِ العامِّ بعدَ الخاصِّ[2]؛ لأنَّ مُوسَى وعِيسَى عليهما السلام مِن جملةِ الأنبياءِ، وفيهِ إيماءٌ إلى مَزِيد عنايةٍ بالأنبيَاءِ المذكورةِ أسماؤُهُم؛ لأنَّهم ذُكروا بطريقَيْنِ: إحداهما: بالتَّصريح بِخُصُوصِ أسمَائِهم، والأخرى: ذِكرُهم باسمٍ عامٍّ يَنْدَرِجُونَ تحتَهُ.

دِلَالَةُ التَّعْبِيرِ بِاسْمِ اللهِ تَعَالَى (الرَّبِّ) فِي قَوْلِهِ سُبْحَانَهُ: ﴿وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ﴾:

سَعَةُ إِحْسَانِ اللهِ تَعَالَى بِالْعِبَادِ

عُبِّر باسْمِ اللّه تعالى (الرَّبِّ) في قوله سُبْحَانه: ﴿وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ﴾؛ لِما في هذَا الاسْمِ الكَرِيم مِنَ الدِّلالَةِ على إحسانِهِ سُبحانه

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/174.
(2) الزّحيلّي، التَّفسير المنير: 3/283.

وتعالى إلى أنبيائِهِ خاصَّةً بإنزالِهِ وحيَهُ إليهم واصطفائِهم لهذه المنزلةِ الرَّفيعة، وإحسانِه تعالى إلى عُمُوم العبادِ بإرسالِ الرُّسُلِ إِلَيْهِم؛ لِهِدَايتِهم لِمَا فيهِ صَلاحُ دُنياهم وأُخْرَاهُم[1].

وفي إضافَةِ اسْمِ الرَّبِّ إلى الضَّمير الرَّاجِعِ إلى الأنبياءِ مِنَ اللُّطْفِ ما لا يخفَى، وفيهِ تعظيمٌ وتَشْرِيفٌ لِلْمُضَافِ إليه[2].

سَبَبُ فَصْلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ﴾ عَمَّا قَبْلُ:

وُجُوبُ الْإِيمَانِ بِالْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ جَمِيعًا

فُصِلَ قولُ اللهِ تعالى: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ﴾ عَمَّا قَبْلُ؛ لِما بينَهما مِن شبه كمال الاتِّصالِ، وهو المسمَّى: الاستئنافَ البيانيَّ، وذلك أنَّ هذه الجملةَ ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ﴾ واردةٌ جوابًا عَن سؤالٍ يُفْهَمُ ممَّا سبقَ، ووجهُ ذلكَ: أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا أمرَ نبيَّهُ ﷺ - والمؤمنون يتأسَّوْنَ به - بإعْلَانِ إيمانه بالمُنْزَلِ عَلَيْهِ، والمُنْزَلِ على الأنبياءِ من قَبْلِهِ، ومِن جُمْلَتِهم: مُوسَى وعِيسَى عليهما السلام وكانَ السِّياقُ في الكلامِ عَن أهل الكتابِ وهُم مُؤْمِنُونَ بِهَذَيْنِ النَّبِيَّيْن: اليَهُودُ بِمُوسَى عليه السلام، والنَّصارَى بِعِيسَى عليه السلام؛ قَدْ يُظَنُّ أنَّه لا فرقَ بينَ أهلِ الإسلام وبينَ اليَهُودِ والنَّصارَى؛ إذِ الجميعُ يُؤمِنُ بالأنبياءِ في الجملةِ، فأثار ذلكَ سُؤالًا في نفوسِ المتلقِّين: ما الفرقُ بينَنَا وبينهُم؟ فجاء الجوابُ في قوله: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ﴾؛ تنبيهًا على المحلِّ الَّذي كَفَر به اليهودُ والنَّصارى[3]، فهو تعريضٌ بِهِمْ؛ لكونِهم يُؤمنونَ ببعضٍ، ويكفرونَ ببعضٍ، ويحملُهم حبُّ نبيِّهم على مُعاداةِ غيرِه[4].

وفي قوله: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ﴾ محذوفٌ، دلَّ عَلَيْهِ لَفْظُ ﴿بَيْنَ﴾؛ لاقتضائِهِ شَيْئَيْنِ فأكثرَ، والتَّقديرُ: لَا نُفَرِّق بينَ أحدٍ وآخَرَ.[5].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 4/474.
(2) الآلوسّي، روح المعاني: 2/207.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 4/474.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 3/302.
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/740، 3/302.

دِلَالَةُ تَقْدِيمِ الْجَارِّ وَالْمَجْرُورِ ﴿لَهُۥ﴾ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾:

قُدِّمَ الجارُّ والمجرورُ ﴿لَهُۥ﴾ مِن قول الله تعالى: ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾، وأصلُ الكلامِ: ونَحْنُ مُسْلِمُونَ له، وفي ذلك نُكْتَتَانِ:

وُجُوبُ إِخْلَاصِ الْإِسْلَامِ لِلهِ تَعَالَى

إحداهما: إفادةُ القصرِ، فإنَّ تقديمَ ما حقُّه التَّأخيرُ مفيدٌ لذلك، والمعنَى: أَسْلَمْنَا أنفسَنا للهِ تعالى لا نَجْعَلُ له شريكًا، وإسلامُنا خالصٌ لهُ سُبْحَانَهُ، لا غرضَ آخرَ لنَا مِن رِيَاءٍ أو سُمعة أو طلبِ مالٍ أو رئاسةٍ[1].

وهذا تعريضٌ بإيمانِ أهلِ الكتاب؛ فإنَّهم بِمَعْزِلٍ عَنْ هذَا الإخلاصِ[2].

والأخرى: أنَّ في هذا التَّقديم مراعاةً للتَّناسُبِ الصَّوتِيِّ بين فواصلِ الآيِ قبلَهَا وبعدها، فإنَّ قبلَهَا قول الله تعالى: ﴿وَلَهُۥٓ أَسۡلَمَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا وَإِلَيۡهِ يُرۡجَعُونَ ٨٣﴾ [آل عمران: 83]، وبعدها قوله سُبحانه: ﴿وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٨٥﴾.

وقولهُ ﷻ: ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ جملةٌ مؤكَّدَةٌ، وذَلِكَ بإيرادِهَا اسميَّةً؛ إذِ الجملةُ الاسميَّةُ آكدُ مِنَ الفعليَّةِ، وفي هذا إشعارٌ بأهميَّةِ الإخلاصِ ووجوبِهِ.

بَرَاعَةُ الْخَتْمِ فِي الْآيَةِ:

إِذَا افْتَرَقَ لَفْظُ الْإِسْلَامِ وَالْإِيمَانِ؛ شَمَلَ كُلٌّ مِنْهُمَا الْآخَرَ

اخْتُتِمَتِ الآيةُ بالإسلام في قوله: ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾، وكانت قَدِ افْتُتِحَت بالإيمانِ في قوله: ﴿قُلۡ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾، وفي ذلكَ ما يُسمِّيه البلاغيُّون: تشابُهَ الأطرافِ، وهو أن يُختمَ الكلامُ بِمَا يتناسَبُ مع أوَّلِهِ في المعنَى[3]، ووجهُ التَّناسُبِ ظاهرٌ، مِن جهةِ الاقترانِ بينَ

(1) الرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 8/282.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السَّليم: 2/55.
(3) الصَّعيديّ، بغية الإيضاح: 4/584.

الْإِسْلَامِ والإيمانِ شرعًا، وتلازُمِهمَا، وشمولِ أحدهما الآخرَ عندَ انْفِرَادِهِ بالذِّكْرِ.

وخُتِمَ بالإسلامِ؛ لِكَونِهِ الثَّمَرَة والغايةَ مِن كلِّ دينٍ أُرسِلَ به نَبِيٌّ مِنَ الأنبياء[1].

تَوْجِيهُ الْمُتَشَابِهِ اللَّفْظِيِّ بَيْنَ قَوْلِهِ: ﴿وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ **وَقَوْلِهِ:** ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا﴾:

إِيرَادُ الدَّلِيلِ عَلَى كَوْنِ النَّبِيِّ ﷺ مُصَدِّقًا لِلْكُتُبِ قَبْلَهُ

قالَ اللهُ تعالى: ﴿قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾﴾، وقال في سُورة البقَرة: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾﴾ [البقرة: 136]، والفرقُ بينَهما مِن ثلاثَةِ أَوْجُهٍ:

أَوَّلُها: في سُورة آل عمران: ﴿قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾، وفي سُورة البقرة: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾ [البقرة: 136]، ووجهُ التَّغايُرِ بينهما: أنَّ سياقَ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ في أَخْذِ الْمِيثَاق، فَقَدْ قَالَ تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ﴾ [آل عمران: 81]، فعيَّنَهُ في هذا الخطاب؛ ليَظْهَرَ تصديقُهُ لِما جاءَ به الأنبياءُ قبلَهُ، بخلاف آية البقرةِ، فإنَّه وردَ قبلَها قولُه تعالى: ﴿وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُواْ﴾ [البقرة: 135]، بذِكْرِ كيدِ اليهودِ ومَكْرِهِم بالْمُسْلِمينَ، فناسبَ قولَهم: ﴿كُونُواْ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُواْ﴾ [البقرة: 135] أن يَرِدَ النَّظمُ القرآنيُّ فيها: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾؛ تثبيتًا لأهل الإسلَامِ عَلَى لُزُومِ الْإِسْلَامِ والتَّمسُّكِ به[2].

(1) الهرريّ، حدائق الرَّوح والرَّيحان: 4/584.

(2) ابن الزُّبير، مِلاك التَّأويل: 1/52. ومنى النَّصر، بلاغة التَّشابُه اللَّفظي في سورة آل عمران، ص: 1387.

إنْـزَالُ الْـقُـرْآنِ الْـكَـرِيـمِ لَـهُ اعْتِبَارَانِ إِنْـزَالٌ بِاعْتِبَارِ الْمَبْدَأِ، وَإِنْـزَالٌ بِاعْتِبَارِ الِانْتِهَاءِ

ثانيهَا: في سُورة آل عمرانَ: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ﴾، وفي سورةِ الْبَقَرَةِ: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ﴾ [البقرة: 136]، فخُصَّتِ سورةُ البقرةِ بِحَرْفِ الجرِّ (إلَى)، وخُصَّت آلُ عمران بحَرْفِ الجرِّ (على)؛ لأنَّ (إلَى) لِلانْتِهاءِ إلى الشَّيءِ من أيِّ جهةٍ كانت، بخلاف (علَى) فهي خاصَّةٌ بالفوقيَّةِ، ولذا استُعملَت ﴿إِلَىٰٓ﴾ [البقرة: 136] في آية البقرَةِ لِتَصْدِيرِها بخطَابِ الْمُسْلِمِين ﴿قُولُوٓاْ﴾ [البقرة: 136]؛ لأنَّ الوحيَ يأتِيهم مِنَ النَّبيِّ ﷺ على وجهِ الانتهاءِ، بِخِلَافِ مَا في سُورَةِ البقَرَةِ، فقد أُوثِرَ فيها حرفُ الجرِّ (عَلَى)؛ لأنَّ الخطابَ فيها بـ ﴿قُلۡ﴾ كان للنَّبيِّ ﷺ والوحي ينزِلُ عَلَيْهِ مِنَ السَّماءِ[1].

وردَّ هذا الزَّمخشريُّ والرَّازيُّ وذكرا أنَّه تعسُّفٌ[2]، واعترضَا عَلَيْهِ بِنَحْوِ قولِ اللّه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ﴾ [البقرة: 4]، وقولِه سُبحانه: ﴿ءَامِنُواْ بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [آل عمران: 72].

والأَوْلَى أن يُحْمَلَ ذلك على التَّفَنُّنِ في التَّعبير؛ إذِ الفرقُ بينَ الْمُعَدَّى بـ (عَلَى) والمعدَّى بـ (إلَى) إنَّما هُوَ بِالاعْتِبَار، فإنِ اعتُبِرَ مبدؤُهُ؛ عُدِّيَ بـ (عَلَى)؛ لأنَّه فوقانيٌّ، وإنِ اعتُبِرَ انتهاؤُهُ إلَى مَن هُو لهُ؛ عُدِّيَ بِـ (إلَى)، ويُلاحَظُ أحدُ الاعْتِبَارَين تارةً والآخرُ تارةً أخرى؛ تفنُّنًا في الْعِبَارَة[3].

صِيَـانَـةُ مَـقَـامِ النَّبِيِّ ﷺ

ثَالِثُهَا: في سُورة آلِ عِمْرَان: ﴿وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ﴾، وفي سُورَةِ الْبَقَرَة: ﴿وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ﴾ [البقرة: 136]، ووجهُ الخُلْفِ بينَهما: أنَّ سُورة البقرةِ لَمَّا كانَتْ في سياقِ ذِكْرِ الرُّسلِ والمؤمنينَ؛ ناسبَهُ تأكيدُ ذِكْرِ الْإِنْزَالِ

(1) الرَّاغب، تفسير الرَّاغب: 2/689.
(2) الزَّمخشريُّ، الكشَّاف: 1/381. والرَّازيُّ، مفاتيح الغيب: 8/282.
(3) الآلوسّي، روح المعاني: 2/207.

علَى النَّبيِّين؛ لأنَّ المؤمنينَ لا يُفرِّقون بينَ أحدٍ مِنْهُمْ، وفرَّقَ غيرُهُم، فسجَّل إيمانَهم بجميع الرُّسُلِ؛ تثبيتًا لاعتقادِهم، فقال: ﴿وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ﴾، وأمَّا سورةُ آل عمرانَ؛ فالخطابُ أصالةً للنَّبيِّ ﷺ بقرينَةِ تصديرِ الآية بـ ﴿قُلۡ﴾، فناسبَه تركُ التَّوكيدِ؛ لتنزُّهِهِ ﷺ حالًا ومقامًا عَنِ التَّفريقِ بينَ أحدٍ مِنَ المُرسَلِينَ[1].

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(أَنْزَلَ) و(نَزَّلَ):

مَصْدَرُ الفعل (أَنْزَلَ): الإنزَالُ، ومصدرُ الفعلِ (نَزَّلَ): التَّنْزِيلُ، وبينَهما فرقٌ مِنْ جهةِ أنَّ التَّنزيلَ يكونُ لِمَا يقعُ مُفرَّقًا أو تَدْرِيجيًّا، والإنزالَ يُطْلَقُ على ما ينزِلُ دفعةً واحِدَة[2]، وهذا معنَى قولِ جماعةٍ مِن أهلِ الْعِلْمِ: التَّنزيلُ تَدْرِيجيٌّ، والْإِنْزَال دَفْعِيٌّ.

ولَا يُعترَضُ على هَذَا الفرقِ بِأنَّه جاءَ التَّعبيرُ عَنِ القُرآنِ الكريمِ بالفِعْلَيْنِ معًا، لأنَّنا نَدْفَعُ هَذَا الاعْتِرَاضَ بِأنَّ لِلْقُرْآنِ الكريمِ نُزولَيْنِ[3]:

أَحَدهُما: نزولٌ دَفْعِيٌّ إلى السَّماءِ الدُّنْيَا.

والآخَر: نُزولٌ تدريجِيٌّ بحَسَبِ الوقَائِعِ والحَوَادِثِ.

الْإِيتَاءُ وَالْإِعْطَاءُ:

الْإِيتَاءُ والإعطاءُ بمعنًى واحدٍ في ظاهرِ صَنيعِ كثيرٍ مِنْ أصْحَابِ المُعْجَماتِ[4]، وفرَّق آخرونَ بينَهُما: بأنَّ في الإعطاءِ دليلًا عَلَى التَّمَلُّكِ بخِلَافِ الإيتَاءِ[5]، وأمَّا في الاسْتِعْمَالِ القرآنيِّ للَّفظَتَيْنِ؛ فإنَّ بينَهُمَا فرقًا مِن وَجْهَيْنِ[6]:

أحدهما: لَم يُستعمل الإيتاءُ إلَّا لِلشَّيْءِ الكَثِيرِ والعَظِيمِ الشَّأْنِ: كالقرآنِ الكريمِ، والمُلْكِ، والحِكْمَةِ، والرَّحمة، ومثلُ ذَلِكَ: الزَّكاةُ؛ لِعَظِيمِ نَفْعِهَا.

بينَما يَكُونُ الإعطاءُ لِلشَّيْءِ الْقَلِيل، ولم يَرِد دالًّا على الشَّيء الكثير إلَّا مقيَّدًا بِما يدلُّ

(1) ابن الزُّبير، مِلاك التَّأويل: 1/53. وابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/379.

(2) السّمين، عمدة الحفّاظ: 4/164، والعسكريّ، الفروق اللُّغويّة، ص: 79. والشّهاب، عناية القاضي: 1/3، 3/2.

(3) أبو شامة، المرشد الوجيز، ص: 17. والسّيوطيّ، الإتقان: 1/146.

(4) الخليل، العين، والجوهريّ، الصحاح: (أتى). وابن فارس، مقاييس اللّغة: (أتي).

(5) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 87.

(6) داود، معجم الفروق الدّلاليّة، ص: 27 - 29.

على الكَثْرَةِ، كقولِهِ تعالى: ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ۝١﴾ [الكوثر: 1]، وقوله: ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنۡ عَطَآءِ رَبِّكَۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحۡظُورًا ۝٢٠﴾ [الإسراء: 20].

ثَانِيهِمَا: أنَّ الإيتاءَ إذا صدَرَ مِنَ العَبْدِ؛ يكُون عَنْ طِيبِ نَفْسٍ، بخلاف الإعطَاءِ فَهُوَ أعَمُّ، فيكون عَنْ طِيب نَفْسٍ، كما في قَوْلِهِ تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥﴾ [الليل: 5]، ويكُونُ عُنْ كُرْهٍ، كَما في قَوْلِه: ﴿حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ ۝٢٩﴾ [التوبة: 29].

﴿وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٨٥﴾ [آل عمران: 85]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا أمرَ اللّهُ تعالَى بِإِظْهَارِ الْإِيمَانِ في قوله: ﴿قُلۡ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا﴾، وكانَ ذَلِكَ هُو الإذعان الَّذي هُو الإسلامُ؛ قال بعدَها مُحذِّرًا مِنَ الرِّدَّة عَنْهُ: ﴿ وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ ﴾[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَبۡتَغِ﴾: الباءُ والغينُ والياءُ: تدلُّ علَى مَعْنَيَيْنِ كُلِّيَّيْنِ: أحدهما: طَلَبُ الشَّيْءِ، والآخرُ: ضَرْبٌ مِنَ الْفَسَادِ، ومِنَ الأوَّلِ: بَغَيْتُ الشَّيْءَ، أَيْ: طَلَبْتُهُ، وَالْبُغْيَةُ: الْحَاجَةُ[2]، وهي الطِّلْبَةُ.

والابْتِغاءُ: الاجْتِهادُ في الطَّلَبِ، ويُحْمَدُ، أو يُذمُّ بِحَسَبِ مَا يُطْلَبُ[3].

2) ﴿دِينٗا﴾: الدَّال والياءُ والنُّون: تدلُّ اشتقاقاتُها على معنَى اللُّزوم، ثُمَّ يأتي في العربيَّةِ على أَوْجُهٍ تَرْجِعُ كلُّهَا إلى شيءٍ يَلْزَمُ الإنسانَ، أو يَلْزَمُهُ الإنسانُ[4]، وأَرْجَعَ ابنُ فارسٍ هذهِ المادَّةَ إلى جِنْسٍ مِنَ الانقيادِ والذُّلِّ[5]، وهذا والَّذي قَبلَهُ مُتَلَازِمَانِ.

وَوَرَدَ الدِّين في القرآنِ الكَرِيمِ على أَوْجُهٍ، بَلَغَ بها ابنُ الْجَوْزِيِّ إلى أَحَدَ عَشَرَ وجْهًا[6].

والدِّينُ في قولِ اللّه تعالى: ﴿ وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا﴾ هُوَ ما عَلَيْهِ المرءُ مِنْ عقائدَ وأعمالٍ ناشِئَةٍ عَنِ الْعَقِيدَةِ.

3) ﴿ٱلۡأٓخِرَةِ﴾: الهَمْزَةُ والخاءُ والرَّاءُ: تَدُورُ تصاريفُها على ما يُضادُّ التَّقدُّمَ، ومِنْهُ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 4/473.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (بغي).
(3) الرَّاغب، المفردات: (بغي).
(4) العسكريُّ، الوجوه والنظائر، ص: 217.
(5) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (دين).
(6) ابنُ الجوزي، نُزهة الأعين النَّواظر، ص: 297 - 299.

قولُه: هذا الآخِرُ وهذهِ الآخِرَةُ، وهما عكسُ المتقدِّمِ والمتقدِّمَةِ، ويُطْلَق الآخِرُ علَى الأبعَدِ والغائبِ[1].

والآخرةُ: نَقِيضُ الدُّنيا، وسُمِّيَت الدُّنيا بهذا؛ لأنَّها دَنَتْ، أي: قرُبَت، وتأخَّرَت الآخِرةُ[2]، وسُمِّيت الآخرةُ بذلكَ؛ لِكَوْنِها آخرَ المنازِلِ، فَلا انْتِقَالَ عَنْهَا إلى دارٍ أُخْرَى[3]، وأمَّا انْتِقَالُ الخَلْقِ إلى الجنَّةِ أو إلَى النَّارِ؛ فإنَّ ذلكَ مِن أحوَالِ الآخرَةِ.

4) ﴿ٱلْخَٰسِرِينَ﴾: الخاء والسِّين والرَّاء: أصلٌ يدلُّ على النَّقص[4]، وجعلَه ابنُ دُرَيْدٍ وغيرُهُ دالًّا على الضَّلالِ، ثُمَّ استُعْمِلَ في غيرِهِ، كَخُسْرَان التَّاجر[5]، والأوَّلُ أَدَقُّ؛ لئلَّا يُدَّعى في معنَى لفظٍ المجازُ معَ إمكان الحَمْلِ على الحقيقةِ.

ويُطْلَقُ الخُسرانُ على الْهَلَاكِ[6]؛ لأنَّ في الهلاكِ نَقْصًا مَا.

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

ومَنْ يَطْلُب دينًا غيرَ دِينِ الإسلام - الَّذي هُو الاسْتِسْلَامُ للهِ بالتَّوحيد والانقيادُ لَهُ بالطَّاعة، والإيمانُ بالنَّبيِّ الخاتمِ محمَّدٍ ﷺ - فعمَلُهُ مردودٌ غيرُ مقبُولٍ، وهُو في الآخرةِ مِنَ الْبَاخِسِينَ أنفسَهم حظوظَها مِن رَحْمَةِ اللهِ[7] ﷻ.

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

دِلَالَةُ الِافْتِعَالِ فِي ﴿يَبْتَغِ﴾ مِنْ قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا﴾:

مَصْدَرُ الفعلِ ﴿يَبْتَغِ﴾: الابتغاءُ على زِنَةِ الِافْتِعَالِ، وهذه الصِّيغةُ تدلُّ على معانٍ، مِنْهَا: الاجتهادُ في الطَّلَبِ والتَّكلُّفُ فِيهِ، وفي اختيارِ هَذا البناءِ في قوله: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا﴾ إيمَاء إلى أنَّ ما

كُلُّ مَا خَالَفَ دِينَ الْإِسْلَامِ؛ فَهُوَ خِلَافُ الْفِطْرَةِ

(1) الخليل، العين: (أخر).
(2) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة: (دنا).
(3) الشِّنقيطيّ، أضواء البيان: 2/370.
(4) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (خسر).
(5) ابن دُريد، جمهرة اللُّغة: (خسر). وابن سِيدَه، المحكم: (خسر).
(6) الجوهريّ، الصحاح: (خسر).
(7) ابن جرير، جامع البيان: 6/570. والسّعديّ، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 137. ونخبة من العلماء، التّفسير الميسّر، ص: 61.

عدَا دينَ الإسلامِ دِينٌ مخالفٌ لِلْفِطْرَةِ غيرُ ملائمٍ لَها، بحيثُ مَن أرادَهُ؛ تكلَّفَه علَى نفسِهِ[1].

بَلَاغَةُ الْإِظْهَارِ فِي مَوْضِعِ الْإِضْمَارِ فِي قَوْلِهِ: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا ﴾:

إِقَامَةُ الْحُجَّةِ عَلَى أَهْلِ الْكِتَابِ وَغَيْرِهِمْ

في قول اللّه تعالى: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا ﴾ إظهارٌ في مَوْضِعِ الْإِضْمَار[2]؛ لأنَّ مَا تقدَّم مِن قولِ اللّه تعالى: ﴿قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾ هو أصلُ دينِ الإسلامِ الَّذي جاءَ به نبيُّنَا محمَّدٌ ﷺ بدليلِ خَتْمِ الآية بذِكْرِ الإسلامِ في قوله: ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾؛ فكان مُقْتَضَى الظَّاهرِ أن يَرِدَ النَّظمُ القُرآنيُّ: ومَن يبتغ غيرَهُ، أي: غيرَ ما ذُكِرَ مِن أصول الإسلامِ، وعُدِلَ عَن ذلك إلى التَّصريحِ بالإسلامِ، فَقال سُبحانه: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا﴾؛ إقامةً للحجَّةِ على أهلِ الكتابِ وغيرِهِم؛ إذِ الآيةُ الَّتي قبلُ فيها إعلانٌ عنِ التزامِ دينِ الإسلامِ، مِن غيرِ التَّصريحِ بمآلِ مَن خالفَهُ، وحادَ عَنْهُ، فجاءت هذه الآيةُ قاطعةً لطَمَعِ انتفاعِ أحدٍ بِسُلُوكِهِ غيرَ دِينِ الْإِسْلَامِ.

سِرُّ تَكْرَارِ مَادَّةِ الْإِسْلَامِ فِي سِيَاقِ هَذِهِ الْآيَاتِ:

تَحْرِيضُ جَمِيعِ الْأُمَمِ عَلَى اتِّبَاعِ شَرِيعَةِ الْإِسْلَامِ

تكرَّر إيرادُ مادَّة الإسلامِ في سياق هذه الآيات الكريمةِ، فقالَ تَعَالى: ﴿أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: 80]، وقال سُبحانه: ﴿ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ [آل عمران: 83]، وقال ﷻ: ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾، وقال ﷻ في هذه الآيَة: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾، وكُرِّرت هذه المادَّةُ؛ لكونِهَا في حيِّزِ الميثاقِ المأخوذ على الأنبياءِ السَّابقِين بِمُتَابعة النَّبيِّ ﷺ؛ حثًّا لَهُم ولأممِهم مِنْ بعدِهم على تمام الانقيادِ لهُ واتِّباعِ شريعتِهِ والدُّخولِ في مِلَّتِهِ[3].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 4/475.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 4/475.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 4/475.

دِلَالَةُ الْفَاءِ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾:

الفاءُ في قَوْلِه سُبحانه: ﴿فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ رابطةٌ للشَّرْطِ، وفي ذلك: إشعارٌ بأنَّ ما بعدهَا نتيجةٌ لِمَا قبلَهَا، وفي هذا الرَّبطِ إيذانٌ بأنَّ سَبَبَ هذا الجزاءِ - وهو ابتغاءُ غيرِ دِينِ الإسلامِ - ممَّا يُرجَى زَوالُهُ؛ لأنَّه مِنَ العوارضِ الَّتِي تعرِضُ لِلْعَبدِ، كما وقع مِنَ الرِّدَّة في خلافة أبي بكرٍ الصِّدِّيقِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَقَدْ رجعَ إلى الإسلامِ أكثرُ مَنِ ارتدَّ، وحَسُنَ إِسْلَامُهم[1].

الـــرِّدَّةُ مِـنَ الْـعَـوَارِضِ الَّتِي يُـرْجَـى زَوَالُـهَـا بِرُجُوعِ أَصْحَابِهَا إِلَى الْإِسْلَامِ

نُكْتَةُ بِنَاءِ الْفِعْلِ ﴿يُقْبَلَ﴾ لِلْمَفْعُولِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾:

بُنِيَ الفعلُ ﴿يُقْبَلَ﴾ مِن قَوْلِه سُبْحَانَه: ﴿فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ لِما لم يُسمَّ فاعلُه؛ لِلْعِلْمِ بالفَاعِلِ، وهو اللَّه سُبْحَانَه وتَعَالَى، وفي حذفِهِ إشعارٌ بإهانَةِ مَنِ ابتغَى دينًا غيرَ دينِ الإسلامِ، فإنَّ الفعلَ (يقبل) وردَ في القرآن الكريم مَبْنِيًّا لِلْفَاعِلِ في مقامِ المدحِ والثَّناءِ، ومبنيًّا للمفعولِ في مقامِ العُقُوبةِ والإهانةِ، فالأوَّلُ: جاءَ في مَوْضِعَيْنِ في قولِه سُبحانه: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ﴾ [التَّوبة: 104]، وقولِه تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ﴾ [الشُّورى: 25]، ووردَ الآخرُ في أربعة مواضعَ: في قَوْلِه تعالى: ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾ [البقرة: 48]، وقولِه جلَّ وعلا: ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٌ﴾ [البقرة: 123]، وقَوْلِه سُبحانه: ﴿فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ﴾، ورَابعها هذه الآية الكريمة مِن سُورةِ آلِ عِمْرَان: ﴿فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾، وكلُّها دالَّةٌ علَى هذَا المعنَى؛ لإيرادِها في مَقامِ الإهانةِ والتَّحقيرِ.

حَقَارَةُ شَأْنِ مَنِ ابْتَغَى دِينًا غَيْرَ دِينِ الْإِسْلَامِ

دِلَالَةُ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾:

جاءَ قولُ اللَّهِ تعالى: ﴿وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ بعدَ بيانِ أنَّه لا يُقْبَلُ مِنْهُمْ في الآخرةِ؛ زيادةً في التَّصريحِ بحِرْمَان الثَّوابِ[2]

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 4/475.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 4/475.

حِرْمَانُ الْمُتَدَيِّنِ بِغَيْرِ دِينِ الْإِسْلَامِ الثَّوَابَ، وَثُبُوتُ الْعِقَابِ لَهُ

وثبوتِ العقابِ لهم، فإنَّ قولَه سُبحانه: ﴿وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ﴾ قد يُتوهَّمُ مِنْهُ أنَّ مبتغِيَ ذلك لا يُقْبَلُ مِنْهُ تديُّنُهُ المخصوصُ، وقد ينجُو بأعمالٍ أخرى، فدُفِعَ هذا التَّوهُّمُ ببيانِ أنَّ مآلَهُ في الآخرةِ الخُسرَانُ، فقولُه: ﴿وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ جارٍ مجرَى الاحْتِرَاسِ.

سِرُّ التَّعْبِيرِ بِـ ﴿مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ بَدَلًا مِنْ (خَاسِر):

الْمُتَدَيِّنُ بِغَيْرِ دِينِ الْإِسْلَامِ مُتَوَغِّلٌ فِي الْفَسَادِ الِاعْتِقَادِيِّ، وَاقِعٌ فِي أَشْنَعِ خَسَارَةٍ

جاءَ التَّعبيرُ بقَوْلِه تعالى: ﴿وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾، وهو أبلغُ مِنَ التَّعبير بـ (خاسرٍ) بأَنْ يَرِدَ النَّظمُ: (فهو في الآخِرَةِ خاسرٌ)، ووجهُ ذلكَ أنَّ قولَه: ﴿مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ يُفيدُ جعلَ مَن ابتغى دينًا غيرَ دِينِ الْإِسْلَامِ غريقًا في الخسَارةِ، وهذا كقَوْلِهم: فلانٌ مِنَ العَالِمين، فإنَّه أبلغُ مِن قَوْلِهم: فلانٌ عالمٌ؛ لأنَّه بالأوَّلِ جعلهُ غريقًا في العلمِ متأصِّلًا فيه أبًا عَن جدٍّ[1]، فقولُه سبحانه: ﴿مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ دالٌّ على أنَّ المتديِّنَ بغير دِين الإسلامِ متوغِّلٌ في الفسادِ الاعتقاديِّ، مستحقٌّ أعظمَ العقوبةِ، واقعٌ في أشنَعِ خسارةٍ وأقبحِهَا.

نُكْتَةُ حَذْفِ مُتَعَلِّقِ الْخُسْرَانِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾:

الْمُعْرِضُ عَنِ الْإِسْلَامِ فَاقِدٌ النَّفْعَ

في حَذْفِ متعلَّق الخُسرَانِ مِن قَوْلِ اللّٰه تعَالَى: ﴿وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ ثلاثةُ مَسَالِكَ:

أحدُهَا: أن يُقدَّرَ بخاصٍّ، والمعنى: مِن الخَاسِرين أَنْفُسَهُم، فصاروا في النَّار، وخسرُوا أهْلِيهم مِنَ الْحُورِ العِين[2].

ثانِيهَا: أَلَّا يُقدَّر شيءٌ بعينِه، فيَكُون في حَذْفِ المتعلَّق إِشْعَارٌ بالعموم، فمعنى: ﴿وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ أي: مِنَ الَّذين وَقَعُوا فِي الْخُسْرَانِ مُطْلَقًا مِن غَيْرِ تَقْيِيدٍ لهُ؛ لِقَصْدِ الشُّيُوعِ[3].

(1) الآلوسي، روح المعاني: 1/236، 2/207.
(2) ابن أبي زمَنِين، تفسير القرآن العزيز: 1/301.
(3) الزَّمخشريّ، الكشَّاف: 1/381.

ثالثُها: أَنْ يَكُونَ ﴿مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ منزَّلًا مَنْزِلَةَ اللَّازِم، والمعنى: هُو من جُمْلَةِ الْوَاقِعِين في الْخُسْرَان[1]، واستظهرَ هذا الطِّيبيُّ، وقال: "لأنَّ المرادَ أنَّ المُعْرِضَ عن الإسلام فاقدٌ النَّفْعَ؛ لإبطاله الْفِطْرَةَ السَّليمةَ، والنَّفْعَ الحقيقيَّ الَّذي هو دِينُ التَّوحيد"[2].

سِرُّ تَعْلِيقِ الرَّدِّ والْخُسْرَانِ بِالِابْتِغَاءِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا﴾:

شَنَاعَةُ الرُّكُونِ إِلَى دِينٍ غَيْرِ دِينِ الْإِسْلَامِ

رُتِّب عَدمُ القبولِ والخسرانُ على مجرَّد الطَّلَب والابْتِغاء في قَوْلِه تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾؛ للدِّلالة على أنَّ هذا الجزاءَ المُخْزِيَ هُوَ في حقِّ مَن ابتغَى دينًا غيرَ دِينِ الْإِسْلَام، فكَيْفَ بِحَالِ مَن تدَيَّنَ بِغَيْرِ الْإِسْلَام، وَاطْمَأَنَّ بذلك؟ فإنَّ جزاءَهُ وعقوبتَهُ أشدُّ وأفظَعُ وأقبحُ[3].

بَلَاغَةُ الِاسْتِعَارَةِ فِي قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾:

عِظَمُ خَسَارَةِ مَنِ اتَّبَعَ غَيْرَ دِينِ الْإِسْلَامِ

أَصْلُ الخُسْرَانِ: النَّقْصُ، وغالبُ استعمالِه في التِّجارَة، حتَّى قال بعضُ أهلِ العلم: إنَّه لا يُسْتَعْمَلُ حقيقةً إلَّا فيهَا[4]، وبناءً عَلَيْه فاستعمالُ الخُسْرَان في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾ مِنَ الاستعارةِ التَّصريحيَّة؛ حيثُ شُبِّهَ تَضْييعُ الزَّمَانِ في الدُّنيا باتِّباع غيرِ دِينِ الإسلام بالَّذي خَسِرَ في تجارَتِه، وما يَسْتَلْزِمُ ذلك مِنَ الْعِقَابِ على الصَّفقاتِ الخاسِرَة، وهذَا أدلُّ على بيانِ عظيمِ غَبْنِهم، وأوقَعُ في تَوْبِيخِهم وتَأْنِيبِهم[5].

نُكْتَةُ تَقْدِيمِ ﴿فِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ مِنْ قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾:

أَعْظَمُ الْخَسَارَةِ الْخَسَارَةُ فِي الْآخِرَةِ

قُدِّم ﴿فِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ من قَوْلِ الله تعالى: ﴿وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ

(1) الآلوسّي، روح المعاني: 2/207.
(2) الطِّيبيّ، فتوح الغيب: 4/171.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السَّليم: 2/55.
(4) الخفاجيّ، عناية القاضي: 2/107.
(5) أبو حيَّان، البحر المحيط: 3/250.

ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾؛ لإرادةِ الاهتمامِ لا القصرِ، فإنَّ مَنِ ابْتَغَى غيرَ الإسلامِ دينًا خاسرٌ في الدُّنيَا؛ وَلَوْ أُوتِيَ مِنْهَا ما أُوتِيَ، ولكنَّ الخسارةَ الكبرَى هي الْخَسَارةُ في الآخرَةِ، كَمَا قالَ اللّٰه تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَأَهۡلِيهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ﴾ [الزُّمر: 15]، وقال سُبْحَانَه: ﴿إِنَّ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَأَهۡلِيهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ﴾ [الشُّورَى: 45].

﴿كَيۡفَ يَهۡدِي ٱللَّهُ قَوۡمٗا كَفَرُواْ بَعۡدَ إِيمَٰنِهِمۡ وَشَهِدُوٓاْ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقّٞ وَجَآءَهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٨٦ أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمۡ أَنَّ عَلَيۡهِمۡ لَعۡنَةَ ٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ ٨٧ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ ٨٨ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ وَأَصۡلَحُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ٨٩﴾

[آل عمران: 86 - 89]

مُناسَبَةُ الآياتِ لِمَا قَبْلَها:

في مناسبَةِ هذه الآياتِ لِمَا قبلهَا وَجْهَانِ:

أحدُهُما: أنَّ اللّه تعالى لَمَّا عظَّمَ شأنَ الإسلامِ والإيمَانِ في قَوْلِه: ﴿وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٨٥﴾؛ أكَّدَ ذلك التَّعظيم بِبَيَانِ وعيدِ مَن عدَلَ عَنِ الإسلامِ تاركًا إيَّاهُ، فقال: ﴿كَيۡفَ يَهۡدِي ٱللَّهُ قَوۡمٗا كَفَرُواْ﴾[1].

والآخَرُ: أنَّ اللّه سُبْحَانَه لَمَّا أخبرَ بخسرانِ مَنِ ارْتَدَّ عَنِ الإسلامِ؛ شرعَ يُوردُ الأدلَّةَ عَلَى اسْتِحْقَاقِهِ ذَلِكَ، فقالَ تَعَالَى: ﴿كَيۡفَ يَهۡدِي ٱللَّهُ قَوۡمٗا كَفَرُواْ﴾[2].

شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

1) ﴿يَهۡدِي﴾: الْهَاء والدَّالُ والحرفُ المعتلُّ: تدلُّ كثيرٌ مِن تصريفاتِهَا على معنَى التَّقدُّمِ للإرشادِ، ومِنْهُ قولُهم: هَدَيْتُهُ الطَّريقَ، أي: تقدَّمْتُهُ لأُرْشِدَهُ، ومِنْهُ الهُدَى: ضدُّ الضَّلالَةِ[3].

والهدايةُ في الشَّرعِ نوعَانِ: هدايةُ إرشَادٍ ودِلالَةٍ، وهدايةُ توفيقٍ وإلهام[4]، والمنفيُّ في قَوْلِ اللّه تَعَالَى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ هُو هدايةُ التَّوفيقِ، وإلَّا فإنَّ هدايةَ الإرشَادِ والدِّلالَةِ حَاصِلَةٌ لَهُم، وبِهَا تَقُوم الحُجَّةُ عَلَيْهِم.

(1) الرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 84/283.
(2) البِقاعيّ، نظم الدّرر: 4/476.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (هدي).
(4) البرَّاك، شرح العقيدة الطَّحاويَّة، ص: 79.

2) ﴿قَوْمًا﴾: القاف والواو والميمُ: تدلُّ اشتقاقاتُهَا على معنَيَيْنِ كُلِّيَّيْنِ؛ أحدهما: جَماعةُ نَاسٍ، والآخرُ: انتصابٌ أو عَزْمٌ[1].

وَالْقَوْمُ عند جمعٍ مِن علماء العربيَّةِ: اسْمٌ يشمَلُ الرِّجَالَ وَالنِّسَاء[2].

وخصَّهُ آخرونَ بالرِّجَالِ؛ إذ لفظُ (القَوْم) في الأصل: مَصْدَرٌ وُصِفَ به، ثُمَّ غلب على الرِّجالِ دون النِّساء؛ لكَوْنِهم قوَّامِينَ عليهِنَّ بالأمور الَّتي لَيْسَ لهنَّ أن يقُمْنَ بها[3]، ويُؤَيِّدُ هذا: أنَّ لفظَ (القوم) يُقابَلُ بلفظ (النِّساءِ)، كما في قوله تعالى: ﴿لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ﴾ [الحجرات: 11].

وإذا ذُكِرَ القومُ على جِهَةِ الانفرادِ دَخَلَ فيهِ النِّساءُ، ليسَ بِمُقْتَضَى الوضْعِ، وإنَّما على سَبِيل التَّبَع، كما في قَوْلِ اللهِ تعَالَى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

3) ﴿كَفَرُواْ﴾: الكافُ والفاءُ والرَّاءُ: تدلُّ تصاريفُها على السَّتْرِ والتَّغطيةِ والجَحْدِ[4]، ومِنهُ سُمِّي الكَافرُ كافرًا؛ لِأَنَّهُ يستُرُ نعمةَ اللهِ عَلَيْهِ وجاحدٌ لَهَا بِكُفْرِهِ، ويُقال: كفَرَ البذرَ، إذا زرَعَهُ؛ لأنَّه بزراعتِهِ يُغطِّيه[5].

وكلُّ الألفاظِ المشتقَّةِ مِنَ الكُفْرِ راجعةٌ إلى معنى السَّتْرِ، ومِنْهُ: اللَّيلُ، والبَحْر، والسَّحابُ المُظْلِم، والزَّارِعُ، والزَّرْعُ، فَإِنَّ الجميعَ يُسمَّى: كافرًا[6].

ويُطْلَقُ الكُفرُ في الشَّرعِ على ما يُقابلُ: الإيمانَ، وما يُقابلُ: الشُّكْرَ، فَمِنَ الأوَّل: ﴿كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُواْ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ﴾، ومنَ الثَّاني: ﴿وَٱشْكُرُواْ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾﴾ [البقرة: 152][7].

والأصل في الكُفْرِ شَرْعًا أنَّهُ: عدمُ الإيمانِ باللهِ تعالَى ورسلِهِ، ويَسْتَوِي في ذَلِكَ: فِيمَا إِذَا كَانَ الحامل على ذَلِكَ التَّكْذيب، أو الشَّكّ والرَّيب، أو الإعراض حسدًا أو كِبْرًا أو اتِّباعًا لبعض الأهواءِ الصَّارفَةِ عَنِ اتِّباع الرِّسالة معَ اسْتِيقَان صِدْقِ الرُّسُل[8].

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (قوم).
(2) ابن دُريد، جمهرة اللُّغة: (قوم).
(3) ابن الأثير، النِّهاية: (قوم).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (كفر).
(5) عِياض، مشارق الأنوار: (كفر). وابن مالك، إكمال الإعلام: 2/546.
(6) الكَفَوِي، الكلِّيَّات: (كفر).
(7) ابن الجوزي، نزهة الأعين النَّواظر، ص: 516 - 517.
(8) ابن تيميَّة، مجموع الفتاوى: 12/335.

4) ﴿وَشَهِدُوٓاْ﴾: الشِّين والهاء والدَّال: لا يَخْرُجُ شيءٌ مِن تصاريفها عن مَعْنَى: الحُضُور والعِلْم والإِعْلَام، ومِن ذلك الشَّهادةُ، فهي جامعة لِلْمَعَانِي الثَّلاثَةِ المَذْكُورة[1]، ومِنْهُ: الشَّاهِدُ، وهو المُخْبِرُ عَنْ عِيَانٍ بحقٍّ لغيرِهِ على آخَرَ[2].

وقولُ اللّه تعالى: ﴿وَشَهِدُوٓاْ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ﴾ أي: عَلِمُوا، وأقرُّوا أنَّ محمَّدًا ﷺ رسولُ اللّهِ إلى خَلْقِه حقًّا[3].

5) ﴿ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾: الباء والياءُ والنُّون: تدلُّ تصاريفُها على بُعْدِ شَيْءٍ وانكشافِهِ[4]، ومِنَ الانكشافِ قولُهم: بانَ الشَّيءُ؛ إذا اتَّضَحَ[5]، وتبيَّنَ؛ إذا ظَهَر[6].

والبيِّنَةُ: الدِّلالة الواضحةُ، عَقْليَّةً كانَت أو حسِّيَّةً[7]، والبيِّناتُ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾ معناها: الْحُجَجُ الواضحَةُ مِن عندِ اللّهِ تعالى[8].

6) ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾: الظَّاء واللَّام والميم: تدور اشتقاقاتُه على حَجْبِ ما يَنْبَغِي أو مَا يُسْتَحقُّ، أي: منعُه أوِ انْتِقَاصُه[9].

وَمِنْهُ الظَّلَامُ؛ لحجبِهِ الرُّؤْيَة، والأرضُ المظلومةُ: الَّتي لَم يَنَلْها المطرُ[10].

والظُّلم: وَضْعُ الشَّيْء فِي غَيْرِ مَوْضِعه المُخْتَصِّ به، إمَّا بنُقْصَانٍ أو بِزِيَادَةٍ، وإمَّا بِعُدُولٍ عَنْ وَقْته أو مكَانِه[11].

والظُّلمُ في قولِهِ تَعَالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ هو الشِّرْكُ والكفرُ، وسُمِّي الشِّرْكُ ظُلْمًا؛ لأنَّه وَضْعُ العبادةِ في غيرِ مَنْ خَلَقَ[12]، وسُمِّيَ الكفرُ ظلمًا؛ لأنَّهُ وَضْعُ الْكُفْرِ مَوْضِعَ الإيمانِ[13].

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (شهد).
(2) الجرجانّي، التَّعريفات، ص: 129.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 6/576.
(4) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (بين).
(5) الجوهريّ، الصحاح: (بين).
(6) الزَّبيديّ، تاج العروس: (بين).
(7) الرَّاغب، المفردات: (بين).
(8) ابن جرير، جامع البيان: 6/576.
(9) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصَّل: (ظلم).
(10) الأزهريّ، تهذيب اللّغة والزَّبيديّ، تاج العروس: (ظلم).
(11) ابن سِيده، المحكم، والرَّاغب، المفرداتُ: (ظلم).
(12) الشِّنقيطيّ، العذب النَّمير: 1/82.
(13) العُلَيميُّ، فتح الرَّحمن: 1/478.

7) ﴿جَزَآؤُهُمۡ﴾: الجيم والزَّاي والياءُ: تدلُّ اشتقاقاتُها على قيامِ شيءٍ مَقَامَ غيرِهِ ومُكَافَأَتِهِ إيَّاهُ[1]، ومِنْهُ قولُهم: جَزَى عنِّي هذا الْأَمْرَ، أَيْ: قَضَاهُ[2].

والجزاءُ: مَا فيهِ الْكِفَايَةُ مِنَ الْمُقَابلة، إن خَيْرًا فخيرٌ، وإنْ شرًّا فشَرٌّ[3]، ومنه قولُ اللّه تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمۡ أَنَّ عَلَيۡهِمۡ لَعۡنَةَ ٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ﴾؛ فهو بِمَعْنَى: المقابلةِ عَلَى الشَّرِّ بالْعِقَابِ[4].

8) ﴿لَعۡنَةَ﴾: اللَّامُ والعينُ والنُّونُ: تدلُّ على نَفْيٍ أَوْ طَردٍ وإبعادٍ مِنَ الحيِّزِ بتَخْوِيفٍ وذعْرٍ؛ لعدم قَبُول القُربِ[5].

وقولُ القائلِ: لَعَنَهُ اللّه، يُريدُ: طَردَه اللّهُ عَنْهُ، وبَاعَدَهُ مِنْهُ، ونحوَ ذلك[6].

واللَّعْنَةُ في العُرْفِ الشَّرعِيِّ: الطَّردُ والإبعادُ عَن رحمةِ اللّهِ تعالى[7]، وهي المرادُ في قولِ اللّهِ تَعَالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمۡ أَنَّ عَلَيۡهِمۡ لَعۡنَةَ ٱللَّهِ﴾.

9) ﴿خَٰلِدِينَ﴾: الخَاءُ واللَّامُ والدَّالُ: تدلُّ تَصْرِيفَاتُها على الثَّبات والْمُلَازَمَةِ[8]، وَمِنْهُ الْخُلْدُ والخلودُ، بمعنَى: البَقَاء والدَّوام، وهو في الأَصْلِ: الْمُكْثُ الطَّويل، ولا يلزَمُ مِنْهُ الدَّوامُ؛ ولذا يُقَيَّدُ في مواضِعَ بِـ ﴿أَبَدٗا﴾ [نحو: النساء: 57] لإرادَةِ التَّمْيِيز لا التَّأْكِيد[9].

وخُلُودُ الكُفَّارِ في النَّارِ مقطوعٌ به، وذَلِكَ مُسْتَفَادٌ مِن أدلَّةٍ أُخْرَى كثيرةٍ، مِنْهَا ما وَرَدَ في القُرآن الكَريم مقيَّدًا خُلُودُهم في النَّارِ بالتَّأْبِيدِ، كقَوْلِه تعالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: 39]، وكهذه الآية: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ﴾.

10) ﴿يُنظَرُونَ﴾:النُّون والظَّاءُ والرَّاءُ: تدورُ تصريفاتُهَا على تأمُّلِ الشَّيءِ ومعايَنَتِهِ،

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (جزي).
(2) الجوهريّ، الصّحاح: (جزي).
(3) الرَّاغب، المفردات: (جزا).
(4) ابن الهائم، التِّبيان: (جزا).
(5) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصَّل: (لعن).
(6) ابن قُتيبة، غريب القرآن، ص: 27.
(7) الشِّنقيطيّ، العذب النَّمير: 5/626.
(8) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (خلد).
(9) ابن القيّم، شفاء العليل، ص: 257. وابن عثيمين، شرح العقيدة الواسطيَّة: 1/265.

وَمِنْهُ قولُهم: نظرتُ إلى الشَّيءِ، أي: عايَنْتُهُ، ونظرتُهُ، أي: انْتَظَرْتُهُ، كَأَنَّكَ تَنْظُرُ إلَى الوَقْتِ الَّذي يَأْتِي فِيهِ[1].

وأَنْظَرْتُهُ: أَخَّرْتُهُ[2]، والإنظارُ: الإمهالُ، ومِنْهُ قولُ اللّهِ تعالى: ﴿وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾[3].

11) ﴿تَابُواْ﴾: التَّاء والواوُ والبَاءُ: تدلُّ تصاريفُها على معنَى الرُّجوعِ، تَقُولُ: تابَ مِنْ ذَنْبِه، أي: رجع عَنْهُ[4]، وتاب إلى اللّهِ تعالَى: عادَ إِلَيْهِ بالطَّاعَةِ بعدَ المَعْصِيَةِ، وتابَ اللّه سُبحانه على العبد: رجع إِلَيْهِ بالمغفرة[5]، وهو المعنى المرادُ مِن قَوْلِ اللّهِ تَعالَى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ﴾.

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

كَيْفَ يُوَفِّق اللّه تعالى لِلْإيمانِ بهِ وبِرَسُولِهِ قَومًا جَحَدُوا نُبُوَّةَ محمَّد ﷺ بعدَ تَصْدِيقِهم إيَّاه، وإقرَارِهم بِمَا جاءَهم بهِ مِن عندِ رَبِّه، وقد جاءَتهمُ الحُجَجُ والأدلَّةُ بصحَّة ذلك؟ واللّه سبحانه لا يُوَفِّق لِلْحَقِّ الجماعةَ الظَّالِمِينَ الَّذين اخْتَارُوا الكفرَ عَلَى الإيمانِ.

أُولئك الظالمُونَ الَّذينَ عدَلُوا عَنِ الإيمانِ، واختارُوا الكُفْرَ؛ جزاؤُهم أَنْ يَحِلَّ بهم مِنَ اللّه تعالى الإقصاءُ والإبْعَادُ، ومِنَ الملائكةِ والنَّاسِ الدُّعاءُ بما يسوؤُهم مِنَ العقابِ، فَهُمْ مَطْرُودُون مِن رحمة اللّهِ تعالَى، وَيَخْلُدُون في نار جهنَّمَ، لا يُرفَعُ عنهم شيءٌ مِنَ العذابِ، فيستريحُوا، ولا يُؤَخَّرُ عنهم لاعتذارٍ يعتذرونَ به، إلَّا مَن رجعَ إلى اللّه تعالى تائبًا من كفرِهِ وظُلْمِه، وأصلحَ ما أفسدَهُ، فإنَّ اللّه تعالى يَسْتُرُ ذنبَه الَّذي كان مِنْهُ مِنَ الرِّدَّةِ، ويتركُ عقوبتَهُ عَلَيْهِ، ويَرْحَمُه بواسِعِ رَحْمَتِهِ[6].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

دِلَالَةُ الِاسْتِفْهَامِ فِي قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿كَيۡفَ يَهۡدِي ٱللَّهُ قَوۡمٗا كَفَرُواْ بَعۡدَ إِيمَٰنِهِمۡ﴾:

الِاسْتِفْهَامُ في قولِ اللّه تعالى: ﴿كَيۡفَ يَهۡدِي ٱللَّهُ قَوۡمٗا كَفَرُواْ بَعۡدَ إِيمَٰنِهِمۡ﴾ يَحتمِلُ أحدَ معنَيَيْنِ:

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (نظر).
(2) الرَّاغب، المفردات: (نظر).
(3) الحِمْيَرِيّ، شمس العلوم: (نظر).
(4) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (توب).
(5) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة: (توب).
(6) ابن جرير، جامع البيان: 6/576 - 578. ونخبة من العلماء، التّفسير الميسّر، ص: 61.

اسْتِيلَاءُ الْهَوَى عَلَى الْقُلُوبِ مَظِنَّةُ دَوَامِ الِانْحِرَافِ

أوَّلهما: أن يكونَ مرادًا به النَّفْيُ والإنكارُ، والمعنى: لا يَهْدِي اللهُ تعالَى قومًا كفَرُوا بعدَ إيمانِهِمْ، فهو نظيرُ قولِ اللهِ تعالى: ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ﴾ [التوبة: 7]، أي: لا يكونُ لَهُمْ عهدٌ[1].

والآخرُ: أن يَكُونَ مرادًا به الاسْتِبْعَاد، أي: يُسْتَبْعَدُ أن يهديَ اللهُ تعالى الحائدَ عَنِ الحقِّ بَعْدَ مَا وَضُحَ لَهُ، وهو مُنْهَمِكٌ في الضَّلالِ، بَعِيدٌ عَنِ الرَّشادِ[2].

واحتمَلَ الوَجْهَيْنِ جماعةٌ، منهمُ ابنُ عاشور، فقد قال: "استفهامٌ إنكاريٌّ، والمقصُودُ: إنكَارُ أن تَحْصُلَ لَهُمْ هدايةٌ خاصَّةٌ... ويجوزُ أن يكُونَ الِاسْتِفْهَامُ مستعملًا في الِاسْتِبْعَادِ"[3].

ويُمْكِنُ حَمْلُ الاستفهامِ في الآية على المعنَيَيْنِ معًا، ويختلِفُ ذلك بِاخْتِلَافِ أفرادِ الكافرينَ بَعْدَ الإيمانِ مِنْ جِهَةِ درجةِ استيلاءِ الهَوى على قُلُوبِهِم قوَّةً وضعفًا.

وَوُرودُ النَّفْيِ أوِ الاستبعادِ بـ ﴿كَيْفَ﴾ - وهي لسُؤَالِ الحالِ - أعمُّ وأبلغُ من وُرُودِ ذلك بالهمزةِ بِأَنْ يَرِدَ النَّظْمُ القرآنيُّ: (أَيَهْدِي اللهُ قومًا كفروا بعدَ إيمانِهم)، ووجهُ كونِ الأوَّلِ أَعَمَّ: أنَّ الاستفهامَ بالهمزةِ مُطلقٌ في الشَّيءِ، بخلاف الاستفهامِ بـ ﴿كَيْفَ﴾؛ فإنَّه عامٌّ في جميع أحوال الشَّيءِ، ودِلَالةُ العامِّ أقوى مِنْ دِلَالة المطلق؛ لأنَّ العامَّ يتناولُ جميعَ أفرادِهِ دفعةً واحدة، فالهمزةُ - لَو وقَعَ الاستفهامُ بِها - تدلُّ على نفيِ هدايةِ اللهِ تعالى لَهُمْ أوِ استبعادِ ذلك في حالةٍ ما، بخلاف ﴿كَيْفَ﴾؛ فإنَّها تدلُّ على نَفْيِ ذلكَ أو استبعادِهِ في جميعِ الْأَحْوَالِ.

وأمَّا كونُ الاستفهامِ بـ ﴿كَيْفَ﴾ أبلغَ؛ فلأنَّهُ نُفِيَ أن يكونَ لَهُمْ حالٌ يَهْدِيهم اللهُ تعالى فِيهَا، وقد تقرَّرَ أنَّ كلَّ مَوْجُودٍ لا ينفكُّ عَن حالٍ وصِفَةٍ عندَ وجودِه، ويَسْتَحِيلُ وجودُهُ بغيرِ صِفَةٍ مِنَ الصِّفات، فكان ذلك إنكارًا لِوُجُودِ الهدايةِ بالطَّريق البُرْهَانِيِّ[4].

(1) الرَّاغب، تفسير الرَّاغب: 2/698. والقرطبيُّ، الجامع لأحكام القرآن: 4/129.
(2) البيضاويُّ، أنوار التَّنزيل: 2/26.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 3/303.
(4) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/87، 380. والمطعنيّ، التَّفسير البلاغي للاستفهام: 1/174.

دِلَالَةُ تَنْكِيرِ ﴿قَوْمًا﴾ مِنْ قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُواْ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ﴾:

حَقَارَةُ الْمُرْتَدِّ حَيْثُ تَرَكَ النَّفِيسَ وَأَخَذَ الْخَسِيسَ

نُكِّر ﴿قَوْمًا﴾ مِنْ قَوْلِ اللهِ سُبحانه: ﴿كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُواْ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ﴾ لإرادةِ تحقيرِ مَن ارتدَّ بعد إسلامِه، حيثُ عرفَ النَّفيسَ وخَبَرَهُ، ثُمَّ عدَلَ عَنْهُ إلى الخَسيسِ.

وفي التَّنكير أيضًا: معنَى العُمُومِ؛ إذِ النَّكِرَةُ في سياقِ الاِسْتِفْهَامِ تَقْتَضِيه.

فَائِدَةُ إِسْقَاطِ حَرْفِ الْجَرِّ (مِنْ) فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُواْ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ﴾:

اسْتِحْقَاقُ كَمَالِ الذَّمِّ وَالتَّوْبِيخِ عَلَى الِاسْتِمْرَارِ فِي الْكُفْرِ

قال اللهُ تعالى: ﴿بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ﴾ دون: (مِنْ بعد إيمانِهم)؛ لبيانِ أنَّ المرادَ بكمال الذَّمِّ والتَّوبيخِ هو مَن كَفَرَ، ثُمَّ استمرَّ كفرُهُ إلى المَوْتِ[1].

بَلَاغَةُ الطِّبَاقِ فِي قَوْلِهِ: ﴿كَفَرُواْ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ﴾:

شَنَاعَةُ كُفْرِ الْمُرْتَدِّينَ

بَيْنَ ﴿كَفَرُواْ﴾ و﴿إِيمَٰنِهِمْ﴾ مِن قَوْلِ اللهِ تعالى: ﴿كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُواْ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ﴾ طباقُ إيجابٍ، وفيه إبرازٌ لشناعةِ كُفْرِهِم، وزيادةٌ في الحطِّ مِنْ قدرهم؛ إذ كما أنَّ الضِّدَّ يُظهرُ حسنَهُ الضِّدُّ، فإنَّ الضّدَّ -أيضًا- يُظْهِرُ قُبْحَهُ الضِّدُّ؛ إذ هُما طرفانِ مُتَقابِلانِ مُتَلَازِمَانِ.

نُكْتَةُ التَّوْكِيدِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَشَهِدُوٓاْ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ﴾:

خُطُورَةُ رَدِّ الْحَقِّ بَعْدَ تَبَيُّنِهِ

أُكِّدَ الخبرُ في قولِ اللهِ تعالى: ﴿وَشَهِدُوٓاْ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ﴾؛ لبيانِ عَدْلِ اللهِ تعالى في حِرمانِهم فضْلَهُ؛ لأنَّهم كَفَرُوا بحقٍّ تجلَّت لهم أدلَّتُهُ وبراهينُهُ، ولَم يَرْتَابُوا فيه، ثُمَّ عَدَلُوا عَنْهُ إلى الكُفْرِ، فهُمُ الظَّالمونَ لأنفسِهم، الْحَقِيقُونَ بالضَّلالِ[2].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 4/476.
(2) المطعنِيّ، التَّفسير البلاغي للاستفهام: 1/174.

مَنْ أَخْرَجَ النَّصَّ عَنْ سِيَاقِهِ؛ فَقَدْ غَلِطَ فِي نَظَرِهِ، وَغَالَطَ فِي مُنَاظَرَتِهِ

دِلَالَةُ اللَّامِ فِي ﴿ٱلرَّسُولَ﴾ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿وَشَهِدُوٓاْ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ﴾:

اللَّامُ في ﴿ٱلرَّسُولَ﴾ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿وَشَهِدُوٓاْ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ﴾ لِلْعَهْدِ الْعِلْمِيِّ، والمرادُ به: محمَّدٌ ﷺ، وهو قولُ الْجُمْهُورِ، وسياقُ الآياتِ دالٌّ على ذَلِكَ دِلالةً بيِّنَةً.

ويحتَمِلُ أن تكُونَ اللَّامُ لبيانِ الحقيقةِ، مرادًا به: الرِّسالَةُ، وهو وإن كان أعمَّ مِن سابقِهِ؛ لشمولِه النَّبيَّ محمَّدًا ﷺ وغيرَهُ مِنَ المُرسلِينَ، إلَّا أنَّ السِّياقَ لا يُؤيِّدُهُ، ولِذَا استبعَدَهُ أَبُو حيَّانَ[1].

الْوَصْفُ بِالْمَصْدَرِ يُرَادُ بِهِ الْمُبَالَغَةُ فِي اسْتِحْقَاقِ الْوَصْفِ لِلْمَوْصُوفِ

وَصْفُ ﴿ٱلرَّسُولَ﴾ بِالْمَصْدَرِ ﴿حَقٌّ﴾ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَشَهِدُوٓاْ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ﴾:

جاءَ الإخبار عن ﴿ٱلرَّسُولَ﴾ بـ ﴿حَقٌّ﴾ في قوله سبحانه: ﴿وَشَهِدُوٓاْ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ﴾، والخبرُ وصفٌ في المعنَى، ووقعَ الوصفُ بالمصدر ﴿حَقٌّ﴾؛ لقصد المبالغَةِ في شدَّةِ معرفتِهِم بثبوت الرِّسالة لنبيِّنَا محمَّد ﷺ وذلك مُقْتَضٍ شناعَةَ ارتدَادِهم عن هذا الحقِّ الَّذي عرفُوهُ يقينًا.

قُوَّةُ الْحُجَجِ الَّتِي نَصَبَهَا اللهُ تَعَالَى لِلْعِبَادِ

بَرَاعَةُ الْمَجَازِ الْعَقْلِيِّ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾:

في قولِ الله تعالى: ﴿وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾ مجازٌ عقليٌّ، عَلاقتُهُ المفعوليَّةُ؛ لأنَّ الله سُبحانه هو الَّذي آتَاهُم البيِّنَاتِ، ونُكْتَةُ المجازِ ههنا: إبرازُ قُوَّةِ البيِّناتِ وشدَّةِ وضوحِهَا وعظيم نفْعِهَا حتَّى كأنَّها جاءتْهُم بنفسِهَا، وهي سَاعِيَةٌ مِطْواعَةٌ، إلَّا أنَّهم عَمُوا عَنْهَا، وصَمُّوا[2].

وفي جَمْعِ ﴿ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾ إشعارٌ بكثرَتِهَا، فهي واضحةٌ في دِلالَتِها، كثيرةٌ في عَدَدِهَا.

(1) أبو حيَّان، البحر المحيط: 3/252.

(2) المطعنِيّ، التَّفسير البلاغي للاستفهام: 1/174.

بَلَاغَةُ التَّذْيِيلِ فِي قَوْلِهِ سُبْحَانَهُ: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾:

مَنْعُ أَفْضَالِ اللهِ تَعَالَى عَنِ الظَّلَمَةِ

قولُ اللّهِ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ تذييلٌ جارٍ مجرَى المثَلِ؛ لاستقلالِهِ بالمعنَى وعدمِ افتقارِهِ لِما قبلَهُ في فَهْمِ أصلِ المُرادِ مِنْهُ، وهو مقرِّرٌ لقولِهِ سُبحانه قبلُ: ﴿كَيۡفَ يَهۡدِي ٱللَّهُ قَوۡمٗا كَفَرُواْ بَعۡدَ إِيمَٰنِهِمۡ﴾، والمرادُ: بيانُ مَنْعِ أفضالِ اللّهِ تعالى عَنِ الظَّلَمَةِ جميعِهِم، لا المَذْكُورِينَ وحدَهُم، فعَمَّ بَعْدَ أن خَصَّ، وفي الآيةِ "إشارةٌ إلى أنَّ الظُّلْمَ يُحْدِثُ في نَفْسِ الظَّالِمِ ظُلمةً شديدةً لَا يَنْفَعُ معَهَا ضَوْءٌ، فَتُغْلِقُ كلَّ الأبوابِ التي يَنْفُذُ مِنْهَا النُّورُ إلى مَوْضِعِ الْإِدْرَاكِ"[1].

وقولُهُ ﷻ: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ مجازٌ مرسَلٌ مركَّبٌ؛ إذِ الجملةُ خبريَّةٌ يُرادُ بها الوعيدُ والتَّهديدُ[2].

دِلَالَةُ التَّأْكِيدِ فِي قَوْلِهِ سُبْحَانَهُ: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾:

التَّحْذِيرُ مِنْ سُلُوكِ سَبِيلِ الظَّالِمِينَ

أُكِّدَت جملةُ التَّذييل بمؤكِّدَين:

أحدهما: ورودها اسميَّةً، فإنَّ الجملةَ الاسميَّةَ آكدُ مِنَ الفعليَّةِ، لِدلالَتِهَا على الثُّبوتِ وَالاستمرارِ بقرينَةِ الوعيدِ.

والآخر: تَقَدُّم المُسْنَدِ إليه عَلَى المُسْنَدِ الفِعْلِيِّ؛ إذْ فيهِ تَكرارُ النِّسْبَةِ مرَّتين: إحداهما في نِسْبَةِ الهدايةِ إلى الاسْمِ الأحسَنِ (اللّه)، والأُخْرَى في نِسْبَتِهَا في الضَّمير المُسْتَتِرِ في ﴿يَهۡدِي﴾ العائدِ إلى اللّهِ تعالى أيضًا، وتَكرارُ النِّسبةِ مِنْ مُقوِّياتِ الأخبارِ.

وفي هَذَا مَزِيدُ تحذيرٍ وتهديدٍ مِن سُلُوكِ سبيل الظَّلَمَةِ؛ لِئلَّا تنالَهُم عقوبةُ اللّهِ تعالى بِمَنْعِهِم هدَايَتَهُ.

(1) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 3/1306.

(2) المطعنِيّ، التَّفسير البلاغي للاستفهام: 1/174.

دِلَالَةُ اللَّامِ فِي ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾:

التَّحْذِيرُ مِنْ مُطْلَقِ الظُّلْمِ

اللَّامُ في ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ من قَوْلِه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ دالَّةٌ على الْكَمَالِ، أي: أنَّ اللَّه تعالى لا يَهدي القومَ الغَارِقِين في الظُّلْمِ الكامِلِينَ فيه[1].

ويَحْتَمِلُ أن تَكُون اللَّامُ لاستغراقِ أفرادِ الجنسِ، فيكون مجازًا مرسلًا بعلاقةِ العموميَّة؛ إذْ أُطْلِقَ العُمومُ وأُريد به الخُصُوصُ، والمرادُ: الظَّالِمُونَ الَّذين قدَّر اللَّه تعالى موتَهم عليهِ[2]، وعُبِّرَ بالعامِّ قصدًا إلى التَّحذيرِ مِن مطلَقِ الظُّلْمِ.

ولا منافاةَ بين الدِّلالَتين، والمعنى: أنَّ اللَّه تعالى لا يهدِي الظَّالِمين الغارقينَ في الظُّلْمِ، ممَّن قدَّر اللَّه تعالى موتَهم على ذلكَ.

سِرُّ التَّعْبِيرِ بِاسْمِ الْإِشَارَةِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمۡ﴾:

فِي تَعْلِيقِ الْعُقُوبَةِ عَلَى الْأَوْصَافِ دُونَ الْأَشْخَاصِ تَنْفِيرُ الْعِبَادِ مِنَ الِاتِّصَافِ بِهَا

أُوثِرَ اسمُ الإشارةِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ من قَوْلِ اللَّه تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمۡ أَنَّ عَلَيۡهِمۡ لَعۡنَةَ ٱللَّهِ﴾ وهو دالٌّ على البَعيدِ لِلْإيمَاءِ إِلَى أنَّهم بُغَضَاءُ بُعَدَاءُ في الشَّرِّ، والإشارةُ راجعةٌ إلى المَذْكُورِينَ باعْتِبَارِ اتِّصافِهم بما ذُكِرَ مِنَ الصِّفاتِ الشَّنيعةِ والخِلالِ القبيحَةِ المُميِّزة لَهُمْ عمَّن عدَاهُمْ أكملَ تَمْيِيزٍ وأوضَحَهُ، بِحَيْثُ صَارُوا كأنَّهم حاضرُونَ مُشَاهَدُون عَلَى مَا هُم عَلَيْهِ، وَمَا في ذلِكَ مِن مَعْنَى الْبُعْدِ المُؤْذِنِ بِبُعْدِ مكانتِهم في الشَّرِّ وسُوءِ الْحَالِ، وفي ذلكَ تنفيرٌ لِلْعِبَادِ مِن سلوكِ هذا المَسْلَكِ الرَّدِيءِ[3].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 4/477.

(2) ابن عطيَّةَ، المحرّر الوجيز: 1/468.

(3) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/380. والبقاعي، نظم الدُّرر: 4/477. وأبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 2/56. وأبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 3/1307.

دِلَالَةُ التَّأْكِيدِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمۡ أَنَّ عَلَيۡهِمۡ لَعۡنَةَ ٱللَّهِ﴾:

في قَوْلِه سبحانه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمۡ أَنَّ عَلَيۡهِمۡ لَعۡنَةَ ٱللَّهِ﴾ مؤكِّدَانِ:

أحدُهَا: ﴿أَنَّ﴾، فإنَّها مؤكِّدَةٌ لِلْجُمَلِ الاسميَّةِ، كـ (إنَّ) على المُخْتَارِ.

والآخَرُ: اسميَّةُ الجملةِ، فإنَّها آكدُ مِنَ الجملةِ الفعليَّةِ لِدِلَالتِهَا على الثُّبُوتِ واللُّزومِ.

وفي هذا تَأْكِيدُ جزائِهم وعُقُوبَتِهم زيادةً في الوَعِيدِ والتَّهديدِ، وإمعانًا في التَّنْفِيرِ مِن مَسْلَكِ هؤلاءِ.

زِيَادَةُ الْوَعِيدِ وَالتَّهْدِيدِ رَاجِعٌ إِلَى شَنَاعَةِ الْجُرْمِ

نُكْتَةُ التَّقْدِيمِ فِي قَوْلِهِ: ﴿أَنَّ عَلَيۡهِمۡ لَعۡنَةَ ٱللَّهِ﴾:

في قولِه تعالى: ﴿أَنَّ عَلَيۡهِمۡ لَعۡنَةَ ٱللَّهِ﴾ تقديمُ متعلَّقِ خبرِ ﴿أَنَّ﴾ على اسمِهَا، وذلكَ مفيدٌ القَصْرَ والحصرَ، أي: قصر اللَّعنةِ عَلَيْهِم، وهو مِن قَصْرِ الصِّفة على الموصوف قصرًا حقيقيًّا ادِّعائيًّا؛ إذِ اللَّعْنَةُ نُسِبَتْ إلى غير المَذْكُورِينَ ههنا في مواضعَ متعدِّدَةٍ من القرآن الكريم، ونُكْتَةُ هذَا القصرِ الادِّعائيِّ: الإشعارُ بِعِظَمِ اللَّعْنَةِ المتوجِّهة إلى هؤلاءِ، حتَّى كأنَّ اللَّعنةَ الحالَّةَ بغيرِهم غير موجودةٍ مقارنةً بِلَعْنَتِهِمْ.

عِظَمُ اللَّعْنَةِ الْحَالَّةِ عَلَى الْمُرْتَدِّينَ

ويُقَوِّي دِلالةَ تعظيمِ اللَّعنةِ إضافتُهَا إلى الاسْمِ الأحسَنِ ﴿ٱللَّهِ﴾ في قوله: ﴿لَعۡنَةَ ٱللَّهِ﴾، فإنَّ الإضافةَ دالَّةٌ ههنا على تعظيمِ المضافِ.

دِلَالَةُ اللَّامِ فِي ﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ﴾ وَ﴿وَٱلنَّاسِ﴾ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَنَّ عَلَيۡهِمۡ لَعۡنَةَ ٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ﴾:

اللَّامُ في ﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ﴾ و﴿وَٱلنَّاسِ﴾ مِن قَوْلِ اللهِ تعالى: ﴿أَنَّ عَلَيۡهِمۡ لَعۡنَةَ ٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ﴾ لِلاسْتِغْرَاقِ الحقيقيِّ المُقْتَضِي شُمُولَ أفرادِهِ المندرجَةِ تحتَهُ؛ ولذا أُكِّدَ بـ ﴿أَجۡمَعِينَ﴾.

لَعْنُ الْكَافِرِ الْمُبْطِلِ يَشْمَلُهُ - وَإِنْ لَمْ يَعْلَمْ - لِكَوْنِهِ أَحَدَ الْمُبْطِلِينَ

والشُّمولُ في الملائكةِ ظاهرٌ، وأمَّا في النَّاسِ؛ فجميعُهم يلعَنُونَ المُبْطِلَ والكافِرَ، حتَّى إنَّ الواحدَ مِنَ الكُفَّارِ يلعَنُ نفسَهُ؛ لأنَّه إذا لعن

الكافرَ - وكان هُو في علم اللّهِ تعالى كافرًا - يكونُ قد لَعَنَ نفسَهُ، وهُوَ لا يعلَمُ[1].

تَعْيِينُ مَرْجِعِ الضَّمِيرِ فِي ﴿فِيهَا﴾ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾:

قَـــدْ يَـــرْجِـــعُ الضَّمِيرُ عَلَى غَيْرِ مَـذْكُـورٍ اكْـتِـفَـاءً بِـدِلَالَـةِ السِّيَاقِ عَلَيْهِ

الضَّميرُ في ﴿فِيهَا﴾ من قَوْلِ اللّه تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ يَحْتَمِلُ رجوعُهُ إلى اللَّعْنَةِ أو العقوبةِ أو النَّارِ، ورجوعُهُ إلى الأخيرِ أظهَرُ؛ للتَّصريح بالمرجعِ في آيٍ مِنَ القُرآن الكريم، كقَوْلِهِ تعالى: ﴿إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ [النساء: 169]، وقوله: ﴿قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ﴾ [الأنعام: 128]، وقَوْلِه: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُواْ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ۝١٠٦ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ [هود: 106 - 107]، فكذلكَ في هذهِ الآيَةِ يرجعُ الضَّميرُ إلى النَّار، وإنْ لم يَجْرِ لها ذِكْرٌ؛ اكتفاءً بدلالَةِ المعنى، كما يُفهم مَرْجِعُ الضَّمير في قولهِ تَعَالَى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۝٢٦﴾ [الرَّحمن: 26] بأنَّها الأرضُ، وإنْ لَمْ يَجْرِ لها ذِكْرٌ[2].

دِلَالَةُ قَوْلِهِ: ﴿وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ بَعْدَ قَوْلِهِ: ﴿لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾:

أَبَـدِيَّـةُ الْـعَـذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ

لَمَّا قالَ اللّهُ تعالى: ﴿لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾، وكان المُعذَّبُ على شيءٍ رُبَّمَا اسْتَمْهَل زمنًا مَا ليرجعَ عَن ذلك الشَّيءِ أو يَعْتذِرَ؛ نفَى اللّه تعالى ذلك بقولِه: ﴿وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾، فكانت هذه الْجُمْلَةُ بِمَنْزِلَةِ الاحْتِرَاسِ؛ لِدَفْعِ هَذَا التَّوهُّم.

نُكْتَةُ ذِكْرِ الْمُسْنَدِ إِلَيْهِ ﴿هُمْ﴾ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾:

لَا يُرْفَعُ الْعَذَابُ عَنِ الْكَافِرِينَ وَلَا يُخَفَّفُ

ذُكِرَ المسنَدُ إِلَيْهِ ﴿هُمْ﴾ من قَوْلِ اللّه تعالى: ﴿لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾، ولو حُذِفَ بأَنْ يَرِدَ النَّظمُ القرآنيُّ: (لا يُخفَّف عَنْهُم العَذَابُ ولا يُنْظَرُونَ)؛ لأدَّى أصلَ المعنَى، إلَّا أنَّهُ ذُكِرَ المسنَدُ إليه ﴿هُمْ﴾ قصدًا إلى زيادةِ التَّقريرِ والإيضاحِ، وذلكَ كَمَن

(1) الرَّازيُّ، مفاتيح الغيب: 8/285. والبقاعي، نظم الدُّرر: 4/477.
(2) ابن عطيّة، المحرَّر الوجيز: 1/469. والآلوسي، روح المعاني: 2/209.

يُمْسِكُ بِمُجْرِمٍ عاثَ في الأرضِ فَسَادًا، فيُقال على رُؤُوسِ الأشهادِ: هذا الَّذي قَتَلَ، هذا الَّذي سَرَقَ، هذا الَّذي أَفْسَدَ.

وفي تقديمِ الْمُسْنَدِ إِلَيْهِ علَى الْمُسْنَدِ الفعليِّ تأكيدٌ للنِّسبةِ؛ إِذْ تكَرَّرت مرَّتين: إحداهُمَا في نِسْبَةِ فِعْلِ الْإِنْظَارِ إلى ضَمِيرِ ﴿هُمْ﴾، والأخرى في نسبتِهِ إلى واوِ الجماعةِ، فكان ذلكَ مُفيدًا تأكيدًا بعدَ تقريرٍ؛ مُبَالغةً في نَفْيِ إِمْهَالِ الكَفَرَةِ الْمُقْتَضِي عدمَ تخفيفِ العذابِ عَنْهُم فَضْلًا عَن رَفْعِه.

دِلَالَةُ ﴿مِنۢ﴾ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ﴾:

مِن معاني (مِنْ) الابتداءُ، وهي كذلكَ في قولِه تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ﴾، فإنَّها تدلُّ على المُبَادرةِ إلى التَّوبةِ في أوَّلِ أزمنَةِ البَعديَّةِ[1]، كما في قَوْلِهِ سبحانه: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوۡبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٖ﴾ [النِّساء: 17].

وُجُوبُ الْمُسَارَعَةِ إِلَى التَّوْبَةِ

حَذْفُ مُتَعَلَّقِ الْفِعْلِ ﴿وَأَصۡلَحُواْ﴾ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ وَأَصۡلَحُواْ﴾:

الفعلُ (أصلح) مِنْ قَوْلِ اللّٰه تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ وَأَصۡلَحُواْ﴾ مُتَعَدٍّ لم يُذْكَر مفعولُهُ؛ لدِلالَةِ السِّياقِ عليه، ولإرادةِ العمومِ، والتَّقدير: أصلحُوا جميعَ مَا أَفْسَدُوه.

وُجُوبُ إِصْلَاحِ الْعَبْدِ لِمَا أَفْسَدَ

ويَحْتَمِلُ أن يكونَ الفِعْلُ المتعدِّي نُزِّلَ منزلةَ اللَّازم، فيكون معنى ﴿وَأَصۡلَحُواْ﴾: دخلُوا في الصَّلاحِ[2]، وهذا أبلغُ؛ لأنَّه يكونُ كالْوَارِدِ في قولِ اللّٰهِ تعالى: ﴿وَأَصۡلِحۡ لِي فِي ذُرِّيَّتِيٓۖ﴾[3] [الأحقاف: 15].

دِلَالَةُ الْفَاءِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾:

الفاءُ في قولِه سُبحانه: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ فصيحةٌ[4]، وهي

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/381.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 2/209.
(3) الطِّيبي، فتوح الغيب: 4/174.
(4) الدّعّاس، إعراب القرآن: 1/148.

الدَّاخلةُ على جَوَابِ شَرْطٍ مقدَّر، والتَّقديرُ: إنْ تابوا وأَصْلَحُوا؛ يُغْفَرْ لَهمْ، فإنَّ اللّه غفورٌ رحيمٌ[1].

مِنْ آثَارِ مَغْفِرَةِ اللّهِ تَعَالَى وَرَحْمَتِهِ قَبُولُ تَوْبَةِ الْعِبَادِ

وفي قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ إقامةُ السَّبَبِ مُقَام مُسَبَّبِه، والمعنى: فإنَّ اللّه يتوبُ عَلَيْهِم؛ لأنَّه غفورٌ رحيمٌ، فمغفرتُهُ ورحمتُهُ سببان في قبولِ التَّوبةِ مِن عبادِهِ[2].

سِرُّ تَعْرِيفِ الْمُسْنَدِ إِلَيْهِ بِالْعَلَمِيَّةِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾:

عِظَمُ أَثَرِ الصِّفَاتِ الْمُتَعَدِّيَةِ عَلَى الْعِبَادِ

جاءَ المسندُ إليهِ ﴿ٱللَّهَ﴾ معرَّفًا بالعلميَّةِ في قولِهِ سُبحانه: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾؛ لِلْإيماءِ إلى عظَمَةِ المغفرةِ والرَّحمةِ الصَّادرَتَيْنِ مِنْهُ ﷻ؛ إذِ الاسمُ الأحسن ﴿ٱللَّهَ﴾ جامعٌ لصِفَاتِ الجلالِ والجمَالِ والكمالِ، وذلك مُشْعِرٌ بعظمَةِ أوصافِهِ وأفعالِهِ، وعظَمَةِ أثرِهَا على العبادِ.

بَلَاغَةُ التَّذْيِيلِ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾:

مِنْ عَادَاتِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ الْجَمْعُ بَيْنَ التَّرْغِيبِ وَالتَّرْهِيبِ

وردَ قولُ اللّهِ تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ تذييلًا للآيةِ، وهو تذييلٌ جارٍ مجرى المثلِ؛ لاستقلالِهِ بالإفادةِ دونَ احتياجٍ إلى ما قبلَهُ في معرفةِ أصلِ المرادِ مِنْهُ.

ونُكْتَةُ التَّذييل: تأكيدُ مضمونِ ما قبلَهُ، وفيه: الدِّلالَةُ عَلَى عظيم رحمةِ اللّه تعالى ومغفرتِهِ، حيث فتحَ بابَ التَّوبة لمُريدِهَا، فقال بعدَ أَنْ أَعْظَمَ الوعيدَ والتَّهديدَ: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾؛ لئلَّا يَقْنَطَ العبادُ مِن رحمتِهِ، وليجمَعَ بينَ التَّرهيبِ والتَّرغيب كما هي عادَةُ القرآنِ الكريم[3].

تَوْجِيهُ الْمُتَشَابِهِ اللَّفْظِيِّ فِي الْآيَاتِ الْكَرِيمَةِ:

وردَ في هذه الآياتِ جملةٌ مِنَ المتشابِهِ اللَّفْظِيِّ:

(1) الرَّاغب، تفسير الرَّاغب: 2/705.
(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/381.
(3) طنطاوي، التَّفسير الوسيط: 2/174.

إطْـلَاقُ وَصْـفِ الْإِسْـلَامِ عَـلَى أَحَدٍ؛ لَا يَسْتَلْزِمُ إطْـلَاقَ وَصْـفِ الْإِيمَانِ عَلَيْهِ

أَوَّلُهَا: بينَ قولِ اللّه تعالى: ﴿كَفَرُواْ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ﴾، وقولِه سُبحانه: ﴿وَكَفَرُواْ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ﴾ [التوبة: 74].

قال اللّه تعالى: ﴿كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُواْ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ﴾، وقال في موضعٍ آخر: ﴿وَلَقَدْ قَالُواْ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُواْ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ﴾ [التَّوبة: 74]، فعُبِّر في الأوَّلِ بالإيمَان، وفي الآخَرِ بالإسلام، ووجهُ التَّغايُرِ بينَهُمَا: اختلافُ الحالِ؛ وذلك أنَّ آيةَ آلِ عِمْرَانَ نَزَلَتْ في رجلٍ مِنَ الأنصار أَسْلَمَ، ثُمَّ ارتدَّ، ولَحِقَ بالشِّرْكِ، ثُمَّ نَدِمَ، فأرسَلَ إلى قومِه: أَرْسِلُوا إلى رسُول اللّهِ ﷺ: هل مِن توبةٍ؟ فَأنزل اللّه تعالى: ﴿كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُواْ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ﴾ ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، فأَرْسَلَ إِلَيْهِ قومُه، فَأَسْلَمَ[1]، وَلَمْ يَكُنْ حال إسلامه أَوَّلًا مِمَّنْ عُرِفَ بِنِفَاقٍ، ولَا أَنَّه أَبْطَنَ شيئًا خلافَ مَا يَظْهَرُ مِنْهُ مِنَ الإسلام، فكانَتْ هذه الحالُ مِنْهُ حالَ إيمانٍ، فنَاسبَ حالُه وصفَه بالْإِيمَانِ في قوله: ﴿كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُواْ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ﴾.

بخلاف آيةِ التَّوبةِ؛ فإنَّها نزلَتْ فيمَنْ أَظْهَرَ إسلامَهُ نفاقًا، وقد اختُلِفَ في تعيينِه: أَهُوَ الجُلَاسُ ابنُ سُويدِ بنِ الصّامتِ أَمْ عَبْدُ اللّه بنُ أُبَيِّ بن سَلُول؟[2] وكلاهُمَا ممَّن عُرِفَ بالنِّفاقِ، إلَّا أنَّ جماعةً ذكروا حُسْنَ إسلام الجُلَاسِ بعدُ[3]، فجاء التَّعبير بـ ﴿وَكَفَرُواْ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ﴾ [التوبة: 74] مُنَاسبًا لِلْحَالِ؛ إذِ الإسلامُ يُطْلَقُ على الانْقِيَاد في الظَّاهر، وقد لَا يَكُونُ الموصوفُ به ممَّا وافقَ ظاهرُهُ باطنَهُ، كمَا قال اللّه تعالى: ﴿۞قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّاۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْۖ﴾ [الحجرات: 14][4].

(1) ابن جرير، جامع البيان: 6/572 - 753. والوادِعيّ، الصَّحيح المسند من أسباب النُّزول، ص: 45.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 14/365.
(3) ابن حجر، الإصابة في تمييز الصّحابة: 1/599.
(4) ابن الزّبير، مِلاك التَّأويل: 1/88، ومُنَى النَّصر، بلاغة التّشابه اللَّفظيّ في سورة آل عمران، ص: 1390.

أَعْظَمُ الظُّلْمِ أَنْ يَظْلِمَ الْعَبْدُ نَفْسَهُ بِالشِّرْكِ

ثَانِيهَا: بينَ قولِ اللّهِ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، وقولِهِ سبحانه: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ١٠٨﴾ [المائدة: 108]، وقولِهِ ﷻ: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٢٦٤﴾ [البقرة: 264].

قال اللّه تعالى: ﴿كَيۡفَ يَهۡدِي ٱللَّهُ قَوۡمٗا كَفَرُواْ بَعۡدَ إِيمَٰنِهِمۡ وَشَهِدُوٓاْ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقّٞ وَجَآءَهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٨٦﴾، وقال في موضع آخر: ﴿قُلۡ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ وَإِخۡوَٰنُكُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ وَعَشِيرَتُكُمۡ وَأَمۡوَٰلٌ ٱقۡتَرَفۡتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٞ تَخۡشَوۡنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرۡضَوۡنَهَآ أَحَبَّ إِلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٖ فِي سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ٢٤﴾ [التَّوبة: 24]، وقال أيضًا: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٞ فِي ٱلۡكُفۡرِۖ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُحِلُّونَهُۥ عَامٗا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامٗا لِّيُوَاطِـُٔواْ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّواْ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُۚ زُيِّنَ لَهُمۡ سُوٓءُ أَعۡمَٰلِهِمۡۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٣٧﴾ [التوبة: 37]، ووجهُ اختلافِ هذه الآيِ في تذييلاتِهَا[1]: أنَّ آيةَ آل عمران صُدِّرت بقول اللّه تعالى: ﴿كَيۡفَ يَهۡدِي ٱللَّهُ قَوۡمٗا كَفَرُواْ بَعۡدَ إِيمَٰنِهِمۡ﴾، وكان مقتضى الظَّاهرِ: (واللّه لا يهدي القومَ الكافرينَ)؛ لتقدُّمِ ذكر الكُفْرِ صريحًا، إلَّا أنَّه عُدِلَ عن ذلك إلى ذِكْرِ الظُّلْمِ؛ لكون الكفرِ ظلمًا للنَّفس لِمَا يترتَّبُ عليهِ مِن إيرادِهَا المَهَالِكَ، فكانَ مِنَ الأنسبِ التَّعبيرُ بالظُّلْمِ، لإيقاعِ المسَبَّبِ موقعَ السَّبَبِ مُبالغةً في التَّعجُّبِ مِنْهُ، فَقَالَ ﷻ: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

وأمَّا آيةُ التَّوبة الأولى؛ فصُدِّرت بقولِهِ تَعَالى: ﴿قُلۡ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ﴾، فلمَّا كان هؤلاءِ القومُ فَسَقُوا، وخرجُوا عمَّا يَجِبُ أن يُتقيَّدَ بِهِ وهُوَ طاعةُ اللّهِ تعالَى والحبُّ فيهِ؛ نَاسبه التَّعبيرُ بالفسقِ، فقال سبحانه: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ١٠٨﴾ [المائدة: 108].

وأمَّا آيةُ التَّوبةِ الثَّانيةُ، فبُدِئَتْ بِقَوْلِه ﷻ: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٞ

(1) سعد عبد العظيم، استدراك ما فات من بلاغة الآيات المتشابهات، ص: 317.

﴿فِي ٱلۡكُفۡرِۖ﴾، فلمَّا كان هؤلاءِ قد أَوْغَلُوا في الكُفْرِ بِمَا ارتكبُوه مِنَ النَّسيءِ؛ ناسبَ ذِكْرُ الكفْرِ في فاصلةِ الآية، فقال جلَّ وعلا: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٢٦٤﴾ [البقرة: 264].

ثَالِثُهَا: بينَ قولِه ﷻ: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ وَأَصۡلَحُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾، وقولِه: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَبَيَّنُواْ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيۡهِمۡ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ١٦٠﴾ [البقرة: 160].

والاختلافُ بَيْنَ الآيَتَيْنِ فِي ثلاثَةِ مواضعَ:

التَّوْبَةُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ مِنْ مُكَفِّرَاتِ الذُّنُوبِ

أحدها: أنَّ آية البقرة ذُكرَ فيها التَّوبةُ والإصلاحُ والتَّبيينُ، وآيةَ آل عمران لم يُذْكَر فيها التَّبيينُ، ووجهُ ذلكَ: أنَّ التَّوبةَ والعملَ الصَّالحَ مِن جملةِ ما يُكفِّرُ الذُّنوبَ، كما قالَ اللهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ﴾ [هود: 114]، فاقتُصِرَ عليهما في آية آل عِمْرَان، وأمَّا آيةُ البقرةِ؛ فقد كان مِن ذَنْبِ الأَحْبَارِ ما ذكَرَهُ اللهُ عَنْهُم في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلۡهُدَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِي ٱلۡكِتَٰبِ﴾ [البقرة: 159]، فَكَتَمُوا النَّاسَ ما يدلُّ على نبوَّةِ محمَّدٍ ﷺ فصار مِن تمام تَوْبَتِهم أن يُبيِّنُوا للنَّاسِ ما كَتَمُوهُم إيَّاهُ، ولم يَكُن مثلُ هذا الكتمانِ في آية آل عمرانِ، فاقتُصِرَ على ذِكْرِ التَّوبة والإصلاح[1].

ثَانِيهَا: قولُه تعالى في آلِ عِمْرَان: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ وَأَصۡلَحُواْ﴾، وقولهُ سُبحانه في البقرَةِ: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ﴾ [البقرة: 160]؛ وذلك أنَّ اللهَ تَعَالى وَصَفَ في آل عمرانَ قَوْمًا كان مِنْهُمْ إيمانٌ سابقٌ، ثُمَّ ارتدُّوا، واسْتَبْدَلُوا الكفرَ بالإيمانِ، فقال تعالَى: ﴿مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ﴾، ولَمَّا لَمْ يَكُنْ في القومِ المتحَدَّثِ عَنْهُم في آية البقرة كُفْرٌ بعدَ إيمانٍ متقدِّمٍ؛ اسْتُغْنِيَ عَنْ ذِكْرِ ﴿مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ﴾[2].

(1) الرَّاغب، تفسير الرَّاغب: 2/700 - 701.
(2) الرَّاغب، تفسير الرَّاغب: 2/703 - 704.

المَغْفِرَةُ تَتَضَمَّنُ التَّوْبَةَ، وَالتَّوْبَةُ تَسْتَلْزِمُ المَغْفِرَةَ

ثالِثُهَا: قوله في آل عمران: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، وقولهُ في البقرة: ﴿وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: 160]، ووجهُ ذلك: أنَّ المغفرةَ تتضمَّنُ التَّوبةَ، والتَّوبةَ تستلزِمُ المغفرةَ، فكان اسمهُ سبحانه التَّوَّابُ أخصَّ، واسمُهُ الغفورُ أعمَّ، وكذا ما يُقابِلُهُ من الذَّنبِ المذكورِ في كلِّ موضعٍ، فقد ذُكِر في آل عمران الكفرُ، وهو ضلالٌ وانحرافٌ، وفي البقرة ذُكِر الضَّلالُ والإضلالُ، وهو أخصُّ، فناسبَهُ الاسم الأخصُّ، وهو التَّوَّاب، وناسبَ الأوَّلَ الاسمُ الأعمُّ[1].

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الْجَزَاءُ وَالثَّوَابُ:

تدلُّ مادَّةُ الثَّواب - الثَّاءُ والواوُ والباءُ - على العَود والرُّجوعِ، وَالمرادُ به: مَا يعود على الْإِنْسَان من جَزَاء عملهِ[2].

وأمَّا الجزاءُ؛ فأصله: الغَناءُ والكفايةُ، ويُرادُ به: الكفاية مِنَ المُقَابلة: إن خيرًا فخير، وإن شرًّا؛ فشرٌّ[3].

والفَرْقُ بينَهُمَا[4]: أنَّ الثَّوابَ يُستعمل في الجزاء بالخَيْرِ غالِبًا، واستعمالُهُ في الشَّرِّ أقلُّ، وأمَّا الجزاءُ؛ فهو المقابلة على الخَيْرِ بالثَّواب وعلى الشَّرِّ بالعقاب.

فيشتركَانِ في استعمالِهما لِلْخَيْرِ والشَّرِّ، ويَفْتَرِقانِ مِن وَجْهَيْنِ:

أحدهما: في غَلَبَةِ هذَا الاستعمالِ؛ إذِ الغالبُ في الثَّواب مجيئُهُ في الخير، وأمَّا الجزاءُ؛ فهُو مستوِي الطَّرفينِ في الخير والشَّرِّ.

والآخرُ: أنَّ الثَّواب أخصُّ مِنَ الجزاء مِن جهة: أنَّهُ لا يُسْتَعْمَلُ

(1) الرَّاغب، تفسير الرَّاغب: 2/702 - 703.
(2) عياض، مشارق الأنوار: (ثوب).
(3) الرَّاغب، المفردات: (جزا).
(4) محمَّد داود، معجم الفروق الدّلالية، ص: 46 - 48. والدُّوري، دقائق الفروق اللُّغويَّة، ص: 164 - 166.

في المَنَافع المادِّيَّة أو الدُّنيويَّة، بخلاف الجزاء؛ فإنَّه يَقَعُ على المنافع الدُّنيَوِيَّة والمنافع الأُخْرَوِيَّة.

النَّاسُ وَالإِنْسُ:

بَيْنَ النَّاس والإنس: عُمومٌ وخُصُوصٌ مطلقٌ؛ إذِ النَّاسُ أعمُّ مِنَ الإنس، وذلك أنَّ النَّاسَ في أصحِّ قولَيْ أهل العلم تشمَلُ الجنَّ والإنسَ، ويدُلُّ على ذلك الاشتقاقُ اللُّغَويُّ؛ فَإِنَّ اشتقاقَ (النَّاس) مِنَ النَّوْسِ بمعنَى: الحركةِ، والحركةُ كما هي موجودةٌ في الإنسِ موجودةٌ في الجنِّ أيضًا، ويؤيِّدُهُ ما صحَّ عَنْ عبد اللهِ بنِ مسعودٍ رضي الله عنه أنَّه قال في تفسيرِ قولِ اللهِ تعَالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحۡذُورٗا ٥٧﴾ [الإسراء: 57]: «كَانَ نَاسٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعْبُدُونَ نَاسًا مِنَ الْجِنِّ، فَأَسْلَمَ الجِنُّ، وَتَمَسَّكَ هَؤُلَاءِ بِدِينِهِمْ»[1]، فسمَّى الجنَّ: ناسًا.

أمَّا الإنسُ؛ فهُم خُصُوصُ بَنِي آدمَ، وسُمُّوا بذلك؛ لأنَّهم يُؤْنَسُون، أي: يُبْصَرُونَ، مِن آنسَ الشَّيءَ؛ إذَا أَبْصرَه، ومِنْهُ قولُ اللهِ تعالى حكايةً عَنْ مُوسى عليه السلام أنَّه قال: ﴿إِذۡ رَءَا نَارٗا فَقَالَ لِأَهۡلِهِ ٱمۡكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا﴾ [طه: 10]، أي: أَبْصَرْتُها[2]، بخلاف الجنِّ فسُمُّوا جنًّا لاجْتِنَانِهِمْ، أي: اسْتِتَارِهِمْ عَنِ الأعيُنِ[3].

الْمَغْفِرَةُ وَالرَّحْمَةُ:

الفرقُ بينَهما مِن أربعةِ أوجهٍ:

أوَّلُها: أنَّ أصلَ الغَفْرِ في اللُّغة: السَّتْرُ[4]، وأصلَ الرَّحْمَةِ: الرِّقَّة والعَطْفُ[5].

ثَانِيهَا: أنَّ أحدهما سبَبٌ في الآخَرِ، ومال ابنُ عرفةَ إلى أنَّ الرَّحمة سببٌ في المغفرة؛ لأنَّ الرِّقَّةَ والعطفَ توجِبُ عادةً سَتْرَ الزَّلَلِ[6]، إلَّا أنَّ ظاهر القرآنِ الكريم عكسُه، وهو كونُ المغفرة سببًا في الرَّحمة، كما قال اللهُ تعالى: ﴿لَوۡلَا تَسۡتَغۡفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ٤٦﴾ [النمل: 46].

(1) البخاري، الصحيح، الحديث رقم: (4714).
(2) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 235.
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (جن).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (غفر).
(5) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (رحم).
(6) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/435، 2/258.

ثَالِثُهَا: أنَّ المغفرة والرَّحمةَ إذا جُمِعَا في محلٍّ واحدٍ؛ انصرفَتِ المغفرةُ لسَتْرِ ما مضى مِنَ الذُّنوبِ، والرَّحمةُ لِلْعِصْمة مِنْهَا فيما يُستقبَلُ[1]، إذا كان ذلكَ جزاءً في الدُّنيا؛ لأنَّ الآخرةَ لا يُتصوَّرُ فيها ذنوبٌ حتَّى يُحتاج إلى الْعِصْمَةِ مِنْهَا.

رَابِعُهَا: أنَّ المغفرةَ فِيهَا زَوَالُ المَكْرُوه مِن آثار الذُّنوب، والرَّحمةَ فيها تحصيلُ الْمَطْلُوبِ[2].

(1) ابن عثيمين، شرح ثلاثة الأصول وأدلَّتها، ص: 19.

(2) ابن عثيمين، تفسير الفاتحة والبقرة: 3/66.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعۡدَ إِيمَٰنِهِمۡ ثُمَّ ٱزۡدَادُواْ كُفۡرٗا لَّن تُقۡبَلَ تَوۡبَتُهُمۡ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ ٩٠﴾ [آل عمران: 90]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا رَغَّبَ اللّه تعالى في التَّوْبَةِ بقوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ وَأَصۡلَحُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾؛ رَهَّبَ مِنَ التَّواني عَنْهَا، فقَالَ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعۡدَ إِيمَٰنِهِمۡ ثُمَّ ٱزۡدَادُواْ كُفۡرٗا لَّن تُقۡبَلَ تَوۡبَتُهُمۡ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ﴾[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱزۡدَادُواْ﴾: الزَّايُ والياءُ والدَّالُ: يدلُّ عَلَى الفضْلِ[2]، ومنهُ الزِّيادَةُ، وهي: أَن يَنْضَمَّ إلى ما عَلَيْهِ الشَّيْءُ في نَفْسِه شيءٌ آخر، وتُطلق الزِّيادَةُ تنبيهًا على أنَّ الشَّيءَ قد بلغَ الغايةَ، ومِنْهُ قولُه تعالى: ﴿ثُمَّ ٱزۡدَادُواْ كُفۡرٗا﴾[3].

2) ﴿ٱلضَّآلُّونَ﴾: الضَّادُ واللَّامُ: تدلُّ تصريفاتُهما على ضياعِ الشَّيء وذهابِهِ في غيرِ حقِّه[4]، وَمِنْهُ الضَّلال: ضِدُّ الهدَى، يُقَال: ضَلَّ في الأمر؛ إذا لم يَهْتَدِ لَهُ[5]، ورَجُلٌ مُضَلَّلٌ: لَا يُوفَّقُ لِخَيْرٍ[6]، ويوصَفُ الإنسانُ بالضَّلالِ، فيُقَالُ: هُوَ ضالٌّ، أمَّا الضَّالَّةُ؛ فَلِلْبَهِيمةِ، وهو الحيوانُ الضَّائعُ[7].

والضَّالُّ ضَرْبَانِ[8]:

أَحَدُهما: مَن سلَك طريقَ الضَّلالةِ عَنْ عَمْدٍ، كمَا قالَ تَعَالَى: ﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ٩٢ فَنُزُلٞ مِّنۡ حَمِيمٖ ٩٣﴾ [الواقعة: 92 - 93].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 4/478.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (زيد).
(3) الرَّاغب، المفردات: (زاد).
(4) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (ضل).
(5) ابن دُرَيْد، جمهرة اللُّغَة: (ضلل).
(6) الأزهريُّ، تهذيب اللُّغَة: (ضل).
(7) الفيُّوميّ، المصباح المنير: (ضلل).
(8) أبو عُبيد الهرويّ، الغَرِيبَيْن: (ضل).

والآخَر: مَن سَلَك طريقَ الضَّلالةِ عَنْ غير عَمْدٍ، ومنهُ قولُ اللّهِ تعالى حكايَةً عَن مُوسَى عليه السلام أنَّهُ قالَ: ﴿قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الشعراء: 20].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

إنَّ الذينَ كَفَرُوا بعدَ إيمَانِهم، واسْتَمَرُّوا علَى كُفْرِهِمْ مُتَمَادِينَ في الغَيِّ والضَّلالِ إِلَى المَمَاتِ؛ لَن تُقبل لَهُم توبةٌ عِنْدَ حُضُورِ المَوْتِ، وأُولئكَ هُمُ الَّذين ضلُّوا سبيلَ الحقِّ، فأخطَؤُوا منهجَه[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

سَبَبُ فَصْلِ قَوْلِهِ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ﴾ عَمَّا قَبْلُ:

أَثَرُ الاِسْتِئْنَافِ الْبَيَانِيِّ فِي إِبْرَازِ مُتَابَعَةِ الْمُتَلَقِّي وَشَوْقِهِ

فُصِلَ قولُ اللّهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ﴾ عمَّا قبلَهُ؛ لأنَّ بينَهُما شبهَ كمالِ الاتِّصالِ، وهو المُسَمَّى: الاستئنافَ البيانيَّ؛ وذلك لوقوعِ الآيةِ جوابًا عَن سُؤَالٍ يُفْهَمُ من قَوْلِه: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، وما حالُ الذين اسْتَمَرُّوا علَى الكُفْرِ، وأوغَلُوا فيهِ؟ فجاء الجوابُ في قَوْلِ اللّهِ سُبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ ثُمَّ ٱزْدَادُواْ كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ﴾.

سِرُّ تَعْرِيفِ الْمُسْنَدِ إِلَيْهِ بِالْمَوْصُولِيَّةِ فِي قَوْلِهِ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾:

التَّحْذِيرُ مِنَ الْكُفْرِ وَأَسْبَابِهِ، وَتَهْدِيدُ أَهْلِهِ وَأَصْحَابِهِ

عُرِّفَ المسنَدُ إِلَيْهِ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ بالموصوليَّة في قولِه تَعَالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ ثُمَّ ٱزْدَادُواْ كُفْرًا﴾؛ لِلْإِيمَاء إلى نَوْعِ الخَبَرِ المَحْكُوم بهِ على المُسْنَدِ إِلَيْهِ، وأنَّهُ من جِنْسِ الْعُقوبَة، وفيهِ الْإِشْعَارُ بوَجْهِ بِنَاءِ الخبرِ، وأنَّ الجزاءَ المذكورَ في قوله: ﴿لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ﴾ مُسَبَّبٌ عَنِ الْكُفْرِ والْإِيغَالِ فِيهِ، وفي هذَا تحذيرٌ مِنَ الكُفْرِ وأسبَابِه، وتهديدٌ لأهلِه وأصحابِه.

(1) ابن جرير، جامع البيان: 6/578 - 583. والسّعديّ، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 137. ونخبة من العلماء، التّفسير الميسّر، ص: 61.

دِلَالَةُ اللَّامِ فِي ﴿ٱلَّذِينَ﴾ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾:

الْإِصْـــرَارُ عَـلَى الْكُفْرِ وَمُدَافَعَةُ الْـحَـقِّ أَقْـبَـحُ دَرَكَاتِ الْكُفْرِ

اللَّامُ في الاسْمِ المَوْصُولِ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ مِن قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ فيهَا وجهانِ:

أحدُهما: أن تَكُونَ اللَّامُ لِلْعَهدِ، والمقصودُ: اليهودُ الَّذين كَفَرُوا بِعِيسَى عليه السلام والإنجيلِ بعدَ أَنْ آمَنُوا بِمُوسَى عليه السلام والتَّوارةِ، ثُمَّ ازْدَادُوا كفرًا؛ إذْ كفَرُوا بمحمَّدٍ ﷺ والقرآنِ، ويحتَمِلُ أَنْ يكونَ المرادُ: أهلَ الْكِتَابِ جَمِيعًا، "آمَنُوا برَسُولِ اللهِ ﷺ قبلَ مَبْعَثِه، ثُمَّ كفَرُوا به بعدَ مَبْعَثِه، ثُمَّ ازدادوا كُفْرًا بإِصْرَارِهم على ذلك، وطعنِهم في نُبُوَّته في كُلِّ وقت، وعداوَتِهم لَه، ونَقْضِهم لعُهُودِهم وصَدِّهم النَّاسَ عَن طريق الحقِّ، وسُخريَّتِهم بآياتِ اللهِ"[1].

والوجهُ الآخَرُ: أَنْ تَكون اللَّامُ لِلْجِنْسِ الدالِّ على العُموم، فهي تشمَلُ كلَّ مَن آمَنَ، ثُمَّ ارتدَّ، وازدَاد كفرًا بِمُدافَعَتِهِ الحقَّ وإصرارِهِ على الكفرِ والعنادِ[2].

والوجهُ الثَّاني أشمَلُ مِن سابقِهِ؛ لاندراجِ الأوَّلِ فيه.

نُكْتَةُ الْإِضَافَةِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ﴾:

شَنَاعَةُ حَالِ مَنِ اسْتَبْدَلَ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ

الإضافة في قولِه: ﴿بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ﴾ يُرادُ بها تحقيقُ وقُوعِ الإيمانِ منهم، فإثباتُ كفرِهم بَعْدَهُ زيادةٌ في تشنيعِ حالهم وتفظيعِ أَمْرِهم[3].

دِلَالَةُ حَرْفِ الْعَطْفِ ﴿ثُمَّ﴾ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ ٱزْدَادُواْ كُفْرًا﴾:

فَـظَـاعَـةُ الْـكُـفْرِ وَشَنَاعَتُهُ بَلَغَتِ الْغَايَةَ، فَكَيْفَ بِـالْإِيـغَـالِ فِيهِ وَالِازْدِيَادِ مِنْهُ؟

﴿ثُمَّ﴾ مِن قولِه تعالى: ﴿ثُمَّ ٱزْدَادُواْ كُفْرًا﴾ دالَّةٌ على التَّراخِي - كما هو الأصلُ فيها- وذلك أنَّ الكُفْرَ لَمَّا كان لفظاعَتِهِ وشناعتِهِ جديرًا بالنَّفرة عَنْهُ؛ نبَّه اللهُ تعالى على ذلك باستبعادِ إيقاعِهِ،

(1) طنطاوي، التَّفسير الوسيط: 2/176.
(2) طنطاوي، التَّفسير الوسيط: 2/176.
(3) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/381.

فكيف بالإيغالِ فيه والازديادِ مِنْهُ، فعُبِّرَ عَنْ ذلك بأداةِ العطف المفيدةِ التَّراخِيَ، فقالَ سُبحانه: ﴿ثُمَّ ٱزۡدَادُواْ كُفۡرٗا﴾[1].

دِلَالَةُ صِيغَةِ الِافْتِعَالِ ﴿ٱزۡدَادُواْ﴾ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ ٱزۡدَادُواْ كُفۡرٗا﴾:

الإِيغَالُ فِي الْكُفْرِ أَمَارَةُ انْتِكَاسِ الْفِطْرَةِ

الفعلُ ﴿ٱزۡدَادُواْ﴾ من قَوْلِه تعالى: ﴿ثُمَّ ٱزۡدَادُواْ كُفۡرٗا﴾ على زِنَة (افْتَعلُوا) مِنَ الزِّيادَةِ، والدَّالُ الأولَى بدلٌ من تاءِ الافتعالِ[2]، وهذه الزِّنَةُ تدلُّ على ضَرْبٍ مِنَ التَّكلُّفِ، فهؤلاء المذكورُونَ لم يَكتَفُوا بالكُفْرِ، بل تكلَّفوا، واجتهَدُوا في الازديادِ منْهُ والإيغالِ فيه؛ لانتكاسِ فِطَرِهِمْ وارْتِكَاسِ عقولِهم.

نُكْتَةُ الْعُدُولِ عَنِ الْفَاعِلِ إِلَى التَّمْيِيزِ فِي قَوْلِهِ: ﴿ثُمَّ ٱزۡدَادُواْ كُفۡرٗا﴾:

لُزُومُ اللَّفْظِ حَالًا خَاصَّةً بِاعْتِبَارِ النَّحْوِ لَا يُنَافِي قَصْدَ نِكَاتٍ بَلَاغِيَّةٍ مِنْهُ

﴿كُفۡرٗا﴾ من قوله سبحانه: ﴿ثُمَّ ٱزۡدَادُواْ كُفۡرٗا﴾ تَمْيِيزٌ محوَّلٌ عنِ الفاعل، والأصلُ: ازدادَ كُفْرُهم[3]، والقصدُ مِن تحويلِ الفاعلِ إلى التَّمييزِ: المبالغةُ وإفادةُ الشُّمول لجميعِ مَا فِيها، حيثُ جعلَ ذَوَاتِهم أنفسَها كفرًا، ثمَّ هُوَ يزيدُ، والزَّائدُ حقيقةً: إنَّما هو ما اشْتَمَلَتْ عليهِ ذَوَاتُهم مِن معنَى الكفرِ.

وتَنْكِيرُ ﴿كُفۡرٗا﴾ يُرادُ به التَّعظيمُ وزيادةُ المبالغةِ، وكونُ التَّمييزِ ملازِمًا التَّنْكِيرَ بحسب الصِّناعةِ النَّحويَّةِ لا ينافي إفادتَهُ المبالغةَ أو التَّعظيمَ؛ إذْ تقرَّر في القواعدِ: أنَّ كونَ أمرٍ مَا لازمًا بحسب القاعدة النَّحويَّةِ لا ينافي قصدَ إفادةِ ما يَقْتَضِيهِ المقامُ[4].

سِرُّ بِنَاءِ الْفِعْلِ ﴿تُقۡبَلَ﴾ لِلْمَفْعُولِ فِي قَوْلِهِ: ﴿لَّن تُقۡبَلَ تَوۡبَتُهُمۡ﴾:

حَقَارَةُ الْمُرْتَدِّ عِنْدَ اللهِ تَعَالَى

بُنِيَ الفعلُ ﴿تُقۡبَلَ﴾ لِمَا لم يُسَمَّ فاعلهُ لِلْعِلْمِ به، وهو اللهُ ﷻ؛ إذْ هو سُبحانه الَّذي لَهُ الأَمْرُ في قَبُولِ التَّوبةِ أو عَدَمِ قبولِهَا، كما قالَ سُبحانه: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ﴾ [غافر: 3]، وقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 4/478.
(2) أبو حيَّان، البحر المحيط: 3/253.
(3) أبو حيَّان، البحر المحيط: 3/253. والآلوسي، روح المعاني: 2/209.
(4) الخفاجي، عناية القاضي: 6/229.

يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ﴾ [الشُّورى: 25]، وفي حذفِ الفاعِلِ مِنْ قَوْلِهِ تعالى: ﴿لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ﴾ إيماءٌ إلى تحقيرِ مَن كَفَرَ بَعْدَ إيمانِهِ، ثُمَّ ازداد كفرًا؛ إذْ إنَّ الفعلَ (يقبل) يأتِي في القرآن الكريم مَبْنِيًّا للفاعلِ في مَقامِ المدحِ والثَّناءِ، ومبنيًّا لِلْمَفْعُولِ في مقامِ الذمِّ والتَّحقير.

نُكْتَةُ تَرْكِ الْفَاءِ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ﴾:

جاءَ قولُ اللّهِ تعالى: ﴿لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ﴾ دونَ واوٍ، فلم يَرِدْ: (فلن تُقبَل توبتُهم)؛ إشعارًا بأنَّ ما فَعَلُوه إنَّما هو لكونِهم مهيَّئين لِلْكُفْرِ مِنْ أصلِ الطَّبْعِ والجِبِلَّةِ، فلا يَتُوبُونَ توبةً صحيحةً نافعةً[1].

خَتْمُ اللهِ تَعَالَى عَلَى قُلُوبِ الْمُتَوَغِّلِينَ فِي الْكُفْرِ

بَرَاعَةُ الْكِنَايَةِ فِي قَوْلِهِ: ﴿لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ﴾:

قولُ اللّهِ تعالى: ﴿لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ﴾ كِنَايةٌ عن موتِهم على الكفرِ؛ لأنَّ الَّذي لا تُقبَلُ توبتُهُ هو الَّذي يموتُ على الْكُفْرِ، ونُكْتَةُ الكِنايَةِ: تغليظُ شأنِ هذَا الصِّنْفِ مِنَ الكَفَرةِ، وإبرازُ حالِهِمْ في صورةِ الآيِسِينَ مِنْ رَحْمَةِ اللّه تعالى، وَهِيَ أشدُّ الأحوالِ وأشنَعُهَا[2].

مَنْ مَاتَ عَلَى الْكُفْرِ؛ فَهُوَ آيِسٌ مِنْ رَحْمَةِ اللهِ تَعَالَى

دِلَالَةُ قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ﴾:

قولُ اللّهِ تَعَالَى: ﴿لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ﴾ يحتَمِلُ أن يكون على ظاهرِهِ، بمعنَى: أنَّه تَصْدُرُ مِنْهُمْ توبَةٌ، إلَّا أنَّها غيرُ مُسْتَكْمِلَةِ الشُّروطَ، فلم تُقْبَلْ؛ إمَّا لكونِهَا قولًا مجرَّدًا، أَو لكونِهَا فَلَتَاتٍ نَفْسِيَّةً تصدُرُ منهم حالَ الكَرْبِ أَوِ الشِّدَّة، ثُمَّ يعُودُون لِمَا كَانُوا عَلَيْهِ قبلُ، أو لكونِهَا توبةً عندَ حضورِ الموتِ؛ فإنَّ هذه التَّوبةَ لا تُقبَلُ[3]، كما قال النَّبيُّ ﷺ: «إِنَّ اللّه يَقْبَلُ تَوْبَةَ العَبْدِ مَا لَمْ يُغَرْغِرْ»[4].

تُقْبَلُ تَوْبَةُ الْعَبْدِ مَا لَمْ تَصِلْ رُوحُهُ الْحُلْقُومَ

ويَحْتَمِلُ أنَّ قولَ اللّهِ تَعَالَى: ﴿لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ﴾ يُرادُ به عدمُ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 4/479.

(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/382 - 383. والرّازيّ، مفاتيح الغيب: 8/286.

(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 3/1311.

(4) رواه أحمد في مسنده، حديث رقم: (6160)، والتّرمذيُّ في جامعه، حديث رقم: (3537)، وابن ماجه في سننه، حديث رقم: (4253)، وحسَّنه الألباني في صحيح الجامع، حديث رقم: (1903).

وقوعِ التَّوبةِ مِنْهُمْ أصلًا، فضلًا عَن عدَمِ قَبولِهَا، والمعنى: لن تُقبلَ توبتُهم؛ لعدَمِ صُدُورِ التَّوبةِ مِنْهُمْ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ﴾ [البقرة: 48]، أي: لا شَفَاعَةَ لهَا أصلًا، فتُقبل[1].

والوَجْهَانِ مُتَآيِلَانِ، لا تَعَارُضَ بَيْنَهُمَا مِنْ حَيْثُ المؤدَّى[2].

دِلَالَةُ اسْمِ الْإِشَارَةِ ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ﴾:

الْكُفْرُ وَالِازْدِيَادُ مِنْهُ غَايَةُ الضَّلَالِ وَالِانْحِرَافِ

الإشارَةُ بـ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ في قَول اللّهِ تعالى: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ﴾ إلى المذكورِينَ قبلُ باعتبارِ أوصافِهم: مِنَ الكُفْرِ بعدَ الإيمان، والازديادِ في الكُفْرِ والتوغُّلِ فيه؛ للإشعارِ بأنَّ تلكَ الصِّفاتِ هي سببُ بلوغِهم في الضَّلالِ غايتَهُ[3].

وفي التَّعبير باسْمِ الإشارَةِ إيماءٌ إلى أنَّهم متميِّزُونَ بِضَلَالِهم أكملَ تمييزٍ وأَبْيَنَهُ، وهذا أبلغُ في ذمِّهِمْ، وزادَهُ ذمًّا مَا في اسمِ الإشارة ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ من مَعْنَى البُعْدِ المفيدِ بُعْدَ منزلتِهم في الضَّلالِ، وأنَّهم متوغِّلُونَ فيه لِلْغَايةِ.

بَلَاغَةُ الْقَصْرِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ﴾:

الضَّلَالُ مَرَاتِبُ وَدَرَكَاتٌ

في قولِ اللّهِ سُبحانَهُ: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ﴾ أسلوبُ قصرٍ، وهو من قصر الصِّفَةِ علَى الموصوف، وطريقُه: تعريفُ جُزْأَيِ الإسناد: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ و﴿ٱلضَّآلُّونَ﴾، ففيهِ قصرُ الضَّلالِ على أولئك المَذْكُورِينَ؛ لأنَّ المقصُورَ بتعريفِ طرفَي الإسنادِ هُوَ المُعرَّفُ باللَّامِ، سواءٌ أكان مقدَّمًا أَمْ مؤخَّرًا.

وهذا القصرُ ادِّعائيٌّ؛ إذْ إنَّ ظاهرَ قولِه تعالى: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ﴾ يَقْتَضِي نفيَ كونِ غيرهم ضالًّا، وليس الأمرُ كذلكَ: فإنَّ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 3/304.
(2) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 3/1311.
(3) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 3/1312.

كلَّ كافرٍ ضالٌّ، سواءٌ أَكَفَرَ بَعْدَ إيمانٍ أم كانَ كافرًا أصليًّا[1]، فدلَّ هذا على أنَّ القصرَ ادِّعائيٌّ وليس حقيقيًّا تحقيقيًّا، والمعنى: أنَّهم هُمُ الضَّالُّونَ البالغونَ في الضَّلالِ غايتَهُ، حتَّى كأنَّ ضلالَ غيرِهم بالنِّسبةِ إلى ضلالِهِمْ لَيْسَ بشيءٍ.

ويُؤَيِّدُهُ أنَّ اللَّامَ في ﴿ٱلضَّآلُّونَ﴾ تدلُّ على الكمَالِ، أي: هُمُ الكاملونَ في الضَّلالِ، الغَارِقُون فيهِ[2].

دِلَالَةُ ضَمِيرِ الْفَصْلِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ﴾:

لَا تَوْبَةَ لِمَنْ مَاتَ عَلَى الْكُفْرِ

ضميرُ الفصلِ ﴿هُمُ﴾ في قولِ اللّه تعالى: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ﴾ لا يُرادُ به دِلالتُهُ على القصرِ، وإنَّما المرادُ به تأكيدهُ وتقويَتُهُ؛ لأنَّ القصرَ مستفادٌ مِن تعريفِ طَرَفَي الإسنادِ.

وأُكِّدَتِ الجملةُ بإيرَادِهَا اسميَّةً[3]؛ لأنَّ الجملةَ الاسميَّةَ آكدُ مِنَ الفعليَّةِ، وأدلُّ على الثُّبوت واللُّزوم، ففيه إيماءٌ إلى استمرارِ المذكورين في ضَلَالِهم حتَّى يُدْرِكَهم الموتُ وهُم عَلَى ذَلِكَ، فيتحقَّقُ فيهم قولُ اللّهِ تَعَالَى قَبْلُ: ﴿لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ﴾.

تَوْجِيهُ الْمُتَشَابِهِ اللَّفْظِيِّ بَيْنَ قَوْلِهِ: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ﴾، وَقَوْلِهِ: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُعْتَدُونَ﴾، وَقَوْلِهِ: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾، وَقَوْلِهِ: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾، وَقَوْلِهِ: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾:

تَنَاسُبُ مَقَاطِعِ الْآيَاتِ الْقُرْآنِيَّةِ مَعَ مَطَالِعِهَا

قالَ اللّهُ تَعَالَى هَهُنَا: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ ثُمَّ ٱزْدَادُواْ كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ﴾، وقال سبحانَه: ﴿كَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا فَٱسْتَمْتَعُواْ بِخَلَٰقِهِمْ فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓاْ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٦٩﴾﴾ [التَّوبة: 69]، وقوله جلَّ وعلا:

(1) الرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 8/286.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 4/479. والآلوسي، روح المعاني: 2/210. وطنطاويّ، التَّفسير الوسيط: 2/177.
(3) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 3/1311 - 1312.

﴿إِنَّمَا يَفۡتَرِي ٱلۡكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰذِبُونَ ١٠٥﴾ [النَّحل: 105]، وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ثُمَّ لَمۡ يَأۡتُواْ بِأَرۡبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجۡلِدُوهُمۡ ثَمَٰنِينَ جَلۡدَةٗ وَلَا تَقۡبَلُواْ لَهُمۡ شَهَٰدَةً أَبَدٗاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ٤﴾ [النُّور: 4]، ووجهُ التَّغايُرِ بين خواتيم الآياتِ الكريمَاتِ[1]: أنَّ آيةَ آلِ عمران كان الحديثُ فيها عمَّنِ ارتدُّوا عن إيمانِهم، وأنَّ التَّوبة لا تصدرُ مِنْهُم، وإن صَدَرَتْ؛ فَلَنْ يقبلَهَا اللّه تعالى منهم، إذْ هي توبةٌ غيرُ معتبرةٍ شرعًا لِعَدَمِ استيفاءِ شُرُوطِهَا، ومَن لَمْ يقبلِ اللّه تعالى توبتَهُ؛ فَلَن يكُونَ له مِنَ الهدايةِ شيءٌ، وذلك يقتضي الضَّلالَ والرُّسوخَ فيه؛ وَلِذَا خُتمتِ الآيةُ بقَوْلِهِ سبحانه: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ﴾.

وأمَّا آيةُ التَّوبةِ الأولى؛ فقد صُدِّرت بقوله تعالى: ﴿لَا يَرۡقُبُونَ فِي مُؤۡمِنٍ إِلّٗا وَلَا ذِمَّةٗۚ﴾ [التوبة: 10]، وتقدَّم ذلك قولُهُ ﷻ: ﴿ٱشۡتَرَوۡاْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنٗا قَلِيلٗا فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِهِۦٓۚ﴾ [التَّوبة: 9]، فكان سياقُ الآياتِ في الصَّدِّ عن سَبِيلِ اللّهِ تعالى، وهذا الصَّدُّ تجاوزٌ لِلْحدِّ في الظُّلْمِ وانتهاك الحُرُماتِ، فناسبَهُ أن تُخْتَمَ الآية بقولِهِ تعالى: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُعۡتَدُونَ ١٠﴾ [التوبة: 10].

وأمَّا آيةُ التَّوبةِ الثَّانيةُ، فإنَّه لَمَّا تقدَّمها قولُه تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ﴾ [التوبة: 69]، وكان ذلك خسرانًا عظيمًا ما بعدَهُ خُسْرَانٌ؛ ناسبَهُ خَتْمُ الآيةِ بِقَوْلِهِ: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ٦٩﴾ [التوبة: 69].

وأمَّا آية النَّحل؛ فقد بُدِئَتْ بِقَولِهِ: ﴿إِنَّمَا يَفۡتَرِي ٱلۡكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِۖ﴾ [النحل: 105]، ولَمَّا كان مَن افترى علَى اللّه تعالى الكذبَ قد بلغَ الغايةَ فيه، فصَار كأنَّ الكذِبَ مختصٌّ به؛ ناسبَهُ خَتْمُ الآيةِ بقولِه: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰذِبُونَ ١٠٥﴾ [النحل: 105].

وأمَّا آية النُّور؛ فهي مصدَّرةٌ بقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ثُمَّ لَمۡ يَأۡتُواْ بِأَرۡبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجۡلِدُوهُمۡ ثَمَٰنِينَ جَلۡدَةٗ وَلَا تَقۡبَلُواْ لَهُمۡ شَهَٰدَةً أَبَدٗاۚ﴾ [النور: 4]، ولَمَّا كان سببُ ذلك أنَّهم خَرَجُوا عَن حدِّ الشَّرعِ في أنَّ ثبوتَ الزِّنَا لا يكونُ إلَّا بأربعةِ شهودٍ؛ ناسب ذلك أَن تُختمَ بذِكْرِ الْفِسْقِ، فَقَالَ سُبْحَانه: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ٤﴾ [النور: 4].

(1) سعد عبد العظيم، استدراك ما فات من بلاغة الآيات المتشابهات، ص: 318 - 319.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٞ فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡ أَحَدِهِم مِّلۡءُ ٱلۡأَرۡضِ ذَهَبٗا وَلَوِ ٱفۡتَدَىٰ بِهِۦٓۗ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ٩١﴾ [آل عمران: 91]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

فِي مُنَاسَبَةِ الآيةِ لِمَا قبلَهَا وجهانِ:

أحدهما: أنَّ اللّه تعالى لَمَّا ذكَرَ عدمَ قبولِ التَّوبة ممَّن كَفَر بعدَ إيمانِه، ثُمَّ ازداد كفرًا؛ تشوَّف السَّامعُ إلى مآلهم في الآخرةِ، فقالَ سبحانَهُ مبيِّنًا لَهُمْ أنَّ سبَبَ عدمِ قبولِ تَوْبَتِهم هو تفويتُ محلِّهَا بإيغَالِهم في الْكُفْرِ وتمَادِيهم عَلَيْه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٞ فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡ أَحَدِهِم مِّلۡءُ ٱلۡأَرۡضِ ذَهَبٗا وَلَوِ ٱفۡتَدَىٰ بِهِۦٓۗ﴾[1].

والآخَرُ: أنَّ الكفَّارَ ثلاثةُ أقسام:

أوَّلُهَا: مَن يَتُوبُ عَنِ الكُفْرِ توبةً صحيحةً مقبولةً، وقد ذَكَرَهُ اللّهُ تعَالَى فِي قَوْلِه: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ وَأَصۡلَحُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾.

ثَانِيهَا: مَن يتُوبُ عَنِ الْكُفْرِ تَوْبَةً فاسدةً غيرَ مُسْتَوْفِيَةٍ الشُّروطَ، وهو الَّذي ذكَرَهُ اللّهُ سُبْحَانَه في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعۡدَ إِيمَٰنِهِمۡ ثُمَّ ٱزۡدَادُواْ كُفۡرٗا لَّن تُقۡبَلَ تَوۡبَتُهُمۡ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ﴾. ثالثُهَا: مَن يَمُوتُ على الكُفْرِ من غَيْرِ توبةٍ أصلًا، وهو المذكُورُ في هذهِ الآية: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٞ فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡ أَحَدِهِم مِّلۡءُ ٱلۡأَرۡضِ ذَهَبٗا وَلَوِ ٱفۡتَدَىٰ بِهِۦٓۗ﴾.

فلمَّا ذَكَرَ اللّهُ تعالى في الآيَتَيْنِ المتقدِّمتَيْنِ الصِّنفَيْنِ الأوَّلَيْنِ؛ تَمَّمَ القسمةَ في هذه الآية بذِكْرِ الصِّنْفِ الثَّالثِ[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مِّلۡءُ﴾: الْمِيمُ واللَّامُ والهمزةُ: تدلُّ على تجمُّعِ شيءٍ في ظَرْفٍ حتَّى لا يَبْقَى

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 4/479 - 480.

(2) الرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 8/287.

فِي الظَّرف فراغٌ[1]، وَمِنْهُ قولُ اللهِ تعالى: ﴿مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا﴾ أي: مِقْدَارُ مَا يَمْلَؤُهَا مِنَ الذَّهَبِ[2].

2) ﴿ٱفْتَدَىٰ﴾: الفاءُ والدَّالُ والياءُ: تدلُّ كثيرٌ مِن اشتقاقاتِهَا على جَعْلِ شَيْءٍ مكانَ شيءٍ آخرَ حمايةً لَهُ، ومِنْهُ قولُهم: فَدَيْتُهُ، أي: حَمَيْتُهُ بنفسِي أو بشيءٍ يُعَوِّضُ عَنْهُ[3]، وَافْتَدَى بمعنى: بَذَلَ ذَلِكَ عَن نَفْسِهِ، ومِنْهُ الفديةُ في الشَّرعِ: وهي مَا يَقِي بِهِ الْإِنْسَانُ نفسَه مِن مالٍ يَبْذُلُهُ في عبادةٍ قصَّر فيها[4]، وأصلُ الفِديةِ: بَذْلُ شَيْءٍ احترَاسًا مِن أذًى، ومِنْهُ: فِدَاءُ الأسيرِ[5].

وقولُهُ سُبْحَانَهُ: ﴿وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ﴾، أي: جعلَ مِلْءَ الأرضِ ذَهَبًا فِدْيةً لهُ للنَّجاة مِنَ النَّار.

3) ﴿نَّٰصِرِينَ﴾: النُّون والصَّاد والرَّاء: تدُورُ تَصَاريفُها على إِتْيَانِ خَيْرٍ وإيتائِه، ومِنْهُ: نَصْرُ اللهِ تعالى لِلْمُسْلِمِينَ: وهو إيتاؤُهم الظَّفَرَ على عدوِّهم[6]، والنُّصْرَةُ: حُسْنُ المعونةِ[7]، وتأتِي بِمَعْنَى: التَّنْجِيَةِ والتَّخليصِ[8]، والنَّاصرُ: المُعِينُ.

ومعنَى قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾: ما لَهُمْ مِن مُخلِّصينَ مُنْقِذِينَ.

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

إنَّ الَّذين كَفَرُوا، وجَحَدُوا نبوَّةَ محمّدٍ ﷺ وماتُوا على الكُفْرِ باللهِ تَعَالَى ورَسُولِهِ ﷺ فلن يُقبَل في الآخرة - مِمَّن كانَتْ هذه صِفتَه - جَزَاءٌ ولا رِشْوةٌ على تَرْكِ عقُوبَتِهِ على كُفْرِه، ولا جُعْلٌ على العفوِ عَنْهُ، ولَو كان لَهُ مِنَ الذَّهب قَدْرُ ما يَمْلَأُ الأرضَ مِن مَشْرِقِهَا إلى مَغْرِبِهَا، أولئكَ لَهُم عذابٌ مُوجِعٌ، وما لَهُم مِن أحدٍ يُنْجيهِمْ مِن عَذَابِ اللهِ تَعَالَى[9].

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصَّل: (ملأ).
(2) الهرويّ، الغريبين: (ملأ).
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (فدي).
(4) الرَّاغب، المفردات: (فدى).
(5) الرَّاغب، تفسير الرَّاغب: 2/708.
(6) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (نصر).
(7) الخليل، العيْن: (نصر).
(8) الزَّبيديّ، تاج العروس: (نصر).
(9) ابن جرير، جامع البيان: 6/584 - 585. والسّعديّ، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 137. ونخبة من العلماء، التّفسير الميسّر، ص: 61.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

سَبَبُ فَصْلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٞ﴾ عَمَّا قَبْلَهُ:

أَثَـرُ الِاسْتِئْنَافِ الْبَيَانِيِّ فِي إِظْهَارِ مُتَابَعَةِ الْمُتَلَقِّي وَشَوْقِهِ

في فَصْل قولِ الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٞ﴾ عمَّا قبلَهُ وجهانِ[1]:

أحدهما: أنْ يكونَ بينَهُما شِبْهُ كَمال الاتِّصالِ، وهو المعروفُ بالاسْتِئْنَافِ البيانيِّ، وذلك أنَّه لَمَّا ذُكِرَ حُكْمُ فريقٍ مِنَ الكفَّار الَّذين يتُوبُونَ توبةً صحيحةً، ثُمَّ أُعْقِبَ بذِكْرِ طائفةٍ تابُوا توبةً فاسدةً؛ بعثَ ذلكَ في نفسِ المتَلَقِّي سؤالًا، وهو: مَا حُكْمُ مَن لم يَتُبْ مِنْهُم حتَّى ماتَ؟ فجاء الجوابُ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٞ﴾.

والآخَرُ: أنْ يكون بينَهما كمالُ الاتِّصالِ، وذلك إذا حُمِلَ قولُ الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعۡدَ إِيمَٰنِهِمۡ ثُمَّ ٱزۡدَادُواْ كُفۡرٗا﴾ على أنَّ المرادَ به: الكُفَّارُ الَّذين ماتُوا على الكُفْرِ، فيكون قولهُ سُبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٞ﴾ بمنزلةِ التَّأكيدِ اللَّفْظِيِّ للآيةِ قبلَهَا، وإنَّما أُعيدَت ليُبْنَى عَلَيْهَا قولُهُ بعدُ: ﴿فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡ أَحَدِهِم مِّلۡءُ ٱلۡأَرۡضِ ذَهَبٗا وَلَوِ ٱفۡتَدَىٰ بِهِۦٓۗ﴾.

نُكْتَةُ تَعْرِيفِ الْمُسْنَدِ إِلَيْهِ بِالْمَوْصُولِيَّةِ فِي قَوْلِهِ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾:

التَّحْذِيرُ مِنَ التَّلَبُّسِ بِالْكُفْرِ مُطْلَقًا

عُرِّفَ المسنَدُ إِلَيْهِ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ بالموصوليَّة في قولِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٞ﴾؛ إيماءً إلى نَوْعِ الخبرِ المحكومِ به على المسنَدِ إِلَيْهِ، وأنَّه مِن جِنْسِ الإهانَةِ والعقوبةِ، وفيهِ إعلامٌ بعِلَّةِ استحقاقِهم الجزاءَ المذكورَ في قوله: ﴿فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡ أَحَدِهِم مِّلۡءُ ٱلۡأَرۡضِ ذَهَبٗا وَلَوِ ٱفۡتَدَىٰ بِهِۦٓۗ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ٩١﴾، وأنَّ هذه العقوبةَ مُسَبَّبَةٌ عَنْ كُفْرِهم وموتِهم على ذلك.

(1) الرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 8/287. وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 3/305.

وفي هذا تَحْذِيرٌ مِنَ التَّلبُّسِ بالْكُفْرِ مطلقًا؛ خشيةَ أن يُخْتَمَ لِلْعبْدِ بهِ، إذْ لَا يَدْرِي مَتَى يُفَاجِئُهُ أجلُهُ.

دِلَالَةُ اللَّامِ فِي ﴿ٱلَّذِينَ﴾ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾:

اللَّامُ في الاسْمِ الْمَوْصُول ﴿ٱلَّذِينَ﴾ مِن قَوْلِ اللّه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ يُرادُ بها الْجِنْسُ المفيدُ العُمومَ[1]، فهي شَامِلَةٌ لكلِّ مَن كفرَ، وماتَ علَى الْكُفْرِ مِنْ أهلِ كُلِّ مِلَّةٍ: يَهُودِهَا ونَصَارَاها ومَجُوسِها وغيرِهم[2].

مَـنْ مَـاتَ عَـلَى الْكُفْرِ؛ فَهُوَ مِنْ أَهْـلِ الـنَّـارِ، أَيًّا كَانَتْ مِلَّتُهُ

بَلَاغَةُ التَّقْسِيمِ فِي الْآيَاتِ الْكَرِيمَاتِ:

ذَكَرَ اللّه تعالى في قَوْلِهِ: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ﴾ إلى قولهِ سُبْحَانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ أقسامَ الكُفَّارِ مُسْتَوْفَاةً[3]، وذلكَ أنَّ القسمةَ العقليَّةَ تقتضِي أنَّ الكفَّار باعتبارِ التَّوبةِ قِسْمَانِ:

الْكُفَّارُ بِالنَّظَرِ إِلَى التَّوْبَةِ ثَلَاثَةُ أَقْسَامٍ لَا رَابِعَ لَهَا

أحدهما: مَن لا تَصْدُرُ مِنْهُ توبةٌ أصلًا، وهذا هُوَ المَذْكُورُ في قَوْلِهِ ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾.

والآخَرُ: مَنْ تَصْدُرُ مِنْهُمْ توبةٌ، وهذا الْقِسْمُ صِنْفَانِ:

الأوَّلُ: مَنْ تكُونُ توبتُهُ صحيحةً مقبولةً، وهو المذكُورُ في قولِه ﷻ: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

والآخرُ: مَن تَكُونُ توبتُهُ فاسدةً غيرَ مقبُولةٍ، وهو المذكورُ في قولِه تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ ثُمَّ ٱزْدَادُواْ كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ﴾.

فاستوعَبتِ الآياتُ أقسامَ الكُفَّارِ كُلَّهَا، وهذا الأسلوبُ هو المعرُوفُ بالتَّقسيمِ؛ إذْ حقيقَتُهُ: استِيفَاءُ أقسَامِ الشَّيءِ بالذِّكْرِ[4]، ونُكتتهُ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 3/305.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 6/584.
(3) الرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 8/287.
(4) الصَّعيديّ، بُغية الإيضاح: 4/608.

ههنا: التَّرغيبُ في التَّوبةِ النَّصوحِ، والتَّرهيب مِنَ التَّوبةِ الكاذبةِ الفاسدةِ أو الاِسْتِمْرَارِ في الْكُفْرِ مِن غَيْرِ توبةٍ أصلًا.

نُكْتَةُ إِيرَادِ الْحَالِ ﴿وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ جُمْلَةً فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾:

دِقَّــةُ التَّعْـبِيرِ الْقُرْآنِيِّ فِي انْتِقَاءِ الْأَسَالِيبِ

وردَتِ الحالُ ﴿وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ جملةً، ولم تَرِدْ مفردةً بأن يُقال: (وماتوا كُفَّارًا)؛ للإيماءِ إلى أنَّ الكفرَ حالُهم المستقِرَّةُ قبلَ الموتِ[1]، بخلاف ما لَوْ قِيل: (وماتوا كُفَّارًا)؛ فإنَّه يحتَمِلُ أنَّه حصلَ مِنْهُمْ إيمانٌ مَا، إلَّا أنَّهُ عِنْدَمَا جاءَهُم الموتُ رآهم كُفَّارًا، فكان العُدُولُ عَنِ الحالِ المفردةِ - مع أنَّها أخصَرُ - إلى الحالِ الواقعةِ جملةً؛ لِلْإِشْعَارِ بِهَذَا المعنى المتقدِّمِ، وهو أنَّهم غَارِقُونَ في الكفرِ، مستمرُّون فِيهِ، حتَّى صارَ طَبْعًا لَهُمْ.

دِلَالَةُ الْفَاءِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم﴾:

عَــدَمَ قَـبُـولِ الْـفِـدْيَـةِ مِـمَّـنْ مَاتَ عَلَى الْكُفْرِ مَقْطُوعٌ بِهِ

الفاءُ في قولِهِ تَعَالَى: ﴿فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم﴾ مشعرةٌ بأنَّ الكلامَ مبنِيٌّ على الشَّرط والجزاءِ، وأنَّ عَدَمَ قَبُولِ الْفِدْيةِ مُعَلَّلٌ بالموتِ علَى الْكُفْرِ[2].

ودخَلَتِ الفاءُ ههنا دُونَ قولِهِ قبلُ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ ثُمَّ ٱزْدَادُواْ كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ﴾؛ للإيماءِ بقوَّة السَّبَبِيَّةِ، وظهورِهَا في الآية الثَّانيةِ دونَ الأولى[3]، ووجهُ ذلك: "أنَّ المرتدَّ قَد يُرْجَى مِنْهُ الرُّجوعُ إِلَى الإيمانِ، فَلَا يتَرَتَّب عليهِ عَدَمُ قبولِ التَّوبة، بخلافِ الْمَائِتِ على الكُفْرِ؛ فإنَّ عدمَ قَبُول الفِدْيةِ مُتَرَتِّبٌ على المَوْتِ حالةَ الكفرِ لا مَحَالةَ"[4].

(1) فاضل السَّامرّائي، معاني النحو: 2/303، 306.
(2) الرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 8/287.
(3) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/382.
(4) الطِّيبي، فتوح الغيب: 4/175.

دِلَالَةُ بِنَاءِ الْفِعْلِ لِلْمَفْعُولِ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم﴾:

شَنَاعَةُ الِاجْتِرَاءِ عَلَى الْكُفْرِ

بُنِيَ الفعلُ ﴿يُقْبَلَ﴾ لِمَا لم يُسَمَّ فَاعِلُهُ لِلْعِلْمِ بِهِ، وهو اللّه ﷻ، وللإيماء إلى ذمِّهم وتحقيرهم بسبب شناعةِ فِعْلِهم الَّذي هو الجراءَةُ على الكُفْرِ، ثُمَّ الاستمرارُ عليه حتَّى الموتِ[1].

بَرَاعَةُ أُسْلُوبِ الْبَحْثِ فِي قَوْلِهِ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ﴾:

قُوَّةُ الِاسْتِدْلَالِ الْعَقْلِيِّ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ

في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ ثُمَّ ٱزْدَادُواْ كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ ۝٩٠ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ۝٩١﴾ أسلوبُ البَحْثِ - وهو الذي يُسمِّيه طائفةٌ مِنَ البلاغيِّين بالمذهب الكلاميِّ - وذلك أنَّ قولَهُ سُبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ ثُمَّ ٱزْدَادُواْ كُفْرًا﴾ ﴿فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ﴾ في قوَّة المقدِّمتَيْنِ والنَّتيجةِ لَهُما، فكأنَّه قال: الَّذين كفروا بعد إيمانهم، ثُمَّ ازدادوا كفرًا يموتُونَ كفَّارًا، وكلُّ مَن كفرَ، ومَاتَ كافرًا؛ لَنْ تُقْبَل منه الفِدْيَةُ مطلقًا ولو بِمِلْءِ الأرض ذهبًا[2].

بَلَاغَةُ الْكِنَايَةِ فِي قَوْلِهِ سُبْحَانَهُ: ﴿فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا﴾:

الْكُفَّارُ آيِسُونَ مِنْ تَخْلِيصِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ عَذَابِ اللهِ تَعَالَى

نفيُ قَبُول الافتداءِ في قَوْلِهِ تعالى: ﴿فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا﴾ لا يقتضي أنَّ الكافرَ يَمْلِك يومَ القيامةِ ما يفتدِي به؛ إذْ هُوَ لا يَمْلِكُ فِيهِ شيئًا، وإنَّما الآيةُ خَرَجَتْ مَخْرَجَ الفَرْضِ والتَّقدير، فذِكْرُ الذَّهبِ كنايةٌ عَنْ أعزِّ الأشياءِ وأثمَنِهَا وأنْفَسِهَا[3]، وكونُهُ مِلْءَ الأرضِ كِنَايةٌ عَنِ الْكَثْرَةِ الْكَاثِرَةِ، فمعنى الآيةِ: لو أنَّ الكافرَ قَدرَ على أنفسِ الأشياءِ بالغًا بِهَا في الْكَثْرَةِ غايَتَهَا، وقدرَ على بذلِهِ؛ فإنَّه

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 4/480.
(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/382.
(3) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 2/178.

لا يُمْكِنُهُ بذلك أن يُخَلِّص نفسَهُ مِنْ عَذَابِ اللّٰهِ تعالى، فهو كِنَايَةٌ عَن كَوْنِهم آيِسِينَ مِن تَخْلِيصِ أَنْفُسِهِم مِن عِقَابِ اللّٰه تعالى وعَذَابِه[1].

دِلَالَةُ ﴿وَلَوِ﴾ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَوِ ٱفۡتَدَىٰ بِهِۦٓۗ﴾:

﴿وَلَوِ﴾ في قولِه تعالى: ﴿وَلَوِ ٱفۡتَدَىٰ بِهِۦٓۗ﴾ تُومِئُ إلى أنَّ ما قبلهَا واردٌ على وجهِ الاستِقْصَاءِ، وأنَّ ما بعدها جيءَ به تنصيصًا على حالٍ قد يُظَنُّ عَدَمُ اندراجِهَا فيما قبلهَا، وهذا كَقَوْلِ اللّٰهِ تعالى: ﴿وَيُؤۡثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ وَلَوۡ كَانَ بِهِمۡ خَصَاصَةٞۚ﴾ [الحشر: 9]، فإنَّ وجودَ الخصاصة مظنَّةٌ لتَرْكِ الإيثارِ، فنُصَّ عليها لِلْإِعْلَامِ بأنَّ إيثارَهُم عامٌّ في جميع الأحوالِ، وكذا قَوْلُهُ: ﴿وَلَوِ ٱفۡتَدَىٰ بِهِۦٓۗ﴾، فإنَّه لمَّا كان قَبُول الفديةِ واجبًا عندَ أهلِ الكتاب؛ قد يُظَنُّ أنَّ بذلَ واحدٍ مِنْهُمْ ملءَ الأرض ذهبًا على جهةِ الافتداءِ مخالفٌ لبذْلِهِ ذلكَ على غير سبيلِ الافتداءِ، فنَصَّ عليه بقَوْلِه: ﴿وَلَوِ ٱفۡتَدَىٰ بِهِۦٓۗ﴾، والمعنى: لا يُقْبَلُ من أَحَدِهم مَا يَمْلَأُ الأرضَ ذهبًا على أيِّ حالٍ مِنَ الأحوالِ، ولَوْ عَلَى حالِ الافْتِدَاءِ[2].

نَفْيُ قَبُولِ الْفِدَاءِ نَفْيًا عَامًّا فِي كُلِّ الْأَحْوَالِ

سَبَبُ فَصْلِ قَوْلِهِ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ عَمَّا قَبْلَهُ:

فُصِلَ قولُه تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ عمَّا قبلُ؛ لوقوعِه استئنافًا بيانيًّا، فإنَّ قولَه سُبْحَانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٞ فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡ أَحَدِهِم مِّلۡءُ ٱلۡأَرۡضِ ذَهَبٗا وَلَوِ ٱفۡتَدَىٰ بِهِۦٓۗ﴾ أَوْرَثَ سُؤالًا في نَفْسِ السَّامعِ، وهو أنَّه إذَا كَانَ لا يُقبَلُ مِنْهُم فِدَاءٌ مُطْلَقًا، فمَا الَّذي يحِلُّ بِهِمْ؟ فجاءَ الجَوَابُ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾[3].

عَـــدَمُ قَـبُـولِ الْفِدَاءِ مِنَ الْكُفَّارِ يَسْتَلْزِمُ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ

نُكْتَةُ اسْمِ الْإِشَارَةِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ فِي قَوْلِهِ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾:

الإشارَةُ بـ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ في قَوْلِ اللّٰهِ سُبحانه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ إلى المذكورِينَ قَبْلُ باعتبارِ اتِّصافهم بالأوصافِ الشَّنيعةِ

الْـكُـفْـرُ بِـاللّٰـهِ تَـعَـالَى أَعْـظَـمُ أَسْبَابِ الْعَذَابِ

(1) إسماعيل حقّي، روح البيان: 2/61.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 4/481.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 4/481.

المذكورةِ، وفيهِ إيذَانٌ بأنَّ تلكَ الصِّفاتِ هِيَ سببُ حُلُول العذابِ الأليمِ بهم[1].

وفي التَّعْبِير باسم الإشارة الدَّالِّ على البُعْدِ: إعلامٌ بانْحِطَاطِ منزلَتِهم وبُعْدِهم مِن رَحْمَةِ اللّه تعالى[2].

نُكْتَةُ تَقْدِيمِ الْجَارِّ وَالْمَجْرُورِ فِي قَوْلِهِ: ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾:

شِدَّةُ الْعَذَابِ الْوَاقِعِ عَلَى أَهْلِ الْكُفْرِ

قُدِّمَ الجارُّ والمجرورُ في قوله سُبحانه: ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾؛ لإرادةِ القصرِ، وفيه: قصرُ العذابِ الأليم على المَذْكُورِينَ، وَهُوَ قصرُ صفةٍ على موصوفٍ قصرًا ادِّعائيًّا، ونكتَتُهُ: الإيماءُ إلى شدَّةِ هذا العذابِ الَّذي يُلاقُونَهُ، حتَّى كأنَّ العذابَ الذي ينالُ غيرَهُم ليس بِشَيْءٍ بالنِّسبةِ إلى مَا يلاقُونَه هُمْ.

بَلَاغَةُ الِاحْتِرَاسِ فِي قَوْلِهِ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾:

تَيْئِيسُ أَهْلِ الْكُفْرِ مِنْ كُلِّ خَيْرٍ

لَمَّا ذَكَرَ اللّه تعالى أنَّه لا يُقبل ممَّن ماتَ على الكفر فديةٌ مطلقًا، قد يُتوَهَّمُ أنَّه رُبَّمَا عُفِيَ عنه تكرُّمًا وتفضُّلًا، فدُفِعَ هذا الوَهمُ بقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، وفي هذه الجملة أيضًا: مبالغةٌ في التَّحذيرِ من سلوكِ مسلَكِ الكُفْرِ[3].

وفي العدُولِ مِن صيغةِ (مُفْعِلٍ) إلى (فعِيل) في قولهِ تعالى: ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾؛ إشعارٌ بشدَّةِ هذا العذاب، وذلك لِمَا في صيغة (فَعيل) مِنَ المبالغةِ[4].

وتنكِيرُ ﴿عَذَابٌ﴾ دالٌّ على عَظَمَتِهِ وفخامَتِهِ.

دِلَالَةُ ﴿مِّن﴾ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾:

نَفْيُ كُلِّ وُجُوهِ الِاسْتِنْقَاذِ لِأَهْلِ الْكُفْرِ

﴿مِّن﴾ في قولِه تعالى: ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ يُرادُ بهَا التَّنصيصُ على العمومِ، وذلك أنَّ ﴿نَّٰصِرِينَ﴾ نكرةٌ في سياقِ النَّفْيِ، وهي دالَّةٌ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السَّليم: 2/57.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 4/481.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 2/211.
(4) أبو حيَّان، البحر المحيط: 3/259.

على العموم دِلالةً ظاهرةً، وذِكْرُ ﴿مِنْ﴾ قبلَها يَنقلُ الدِّلالةَ من كونِهَا ظاهرةً في العموم إلى كونِهَا نصًّا فيه، والنُّكتةُ في ذلك: الإغراقُ في نفيِ النَّاصرينَ، فيكون قَدِ انتفَى عنهم كلُّ وجهٍ مِنْ وُجُوهِ الاسْتِنْقَاذِ[1].

دِلَالَةُ جَمْعِ ﴿نَّٰصِرِينَ﴾ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾:

لَا نَجَاةَ لِلْكُفَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ

لِجَمْعِ ﴿نَّٰصِرِينَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ نكاتٌ:

إحداها: المبالغةُ في نفي نجاتِهِمْ، ولو اجتمَعَ في مُزاولةِ ذلك جماعاتٌ كثيرَةٌ.

وثانيها: أنَّ فيه إيماءً إلى أنَّ كلَّ واحدٍ مِنْهُمْ لا ناصرَ له؛ لأنَّ (هُمْ) ضميرُ جمعٍ، وقابلَهُ ﴿نَّٰصِرِينَ﴾ وهو جمعٌ، والقاعدة: أنَّ مقابلةَ الجَمْعِ بالجمع تقتضي القسمة آحادًا، والمعنى: كلُّ واحدٍ لا ناصرَ له[2].

وثالثها: مراعاةُ التَّناسُبِ الصَّوتِيِّ لفواصلِ الآي[3]؛ فإنَّ الإفرادَ ههنا لو كانَ (وَمَا لَهُم مِن ناصرٍ) يُذهِبُ بِرَونَقِ التِّلاوَةِ.

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

نَاصِرُونَ وأَنْصَارٌ:

وردَ هذانِ الجمعانِ في مواضعَ مِنَ القرآن الكريم، والفرقُ بينَهما:

أنَّ صيغةَ (أنصار) جمعٌ لـ (نصير)، كشريفٍ وأشرافٍ، فـ (أنصار) جمعٌ لصيغةِ المبالغةِ المُفيدةِ ثبوتَ الصِّفةِ لِلْمَوْصُوف معَ المبالغةِ فيها؛ ولذا أُطْلِقَ على أهلِ المدينة النَّبويَّةِ الَّذين نصَروا رسولَ الله ﷺ.

وأمَّا صيغةُ ﴿نَّٰصِرِينَ﴾؛ فجمعُ (نَاصِر)، وهو اسمُ فاعلٍ دالٌّ على إثباتِ الصِّفة لِلْمَوْصُوف من غيرِ دلالَةٍ على المُبَالغةِ فيها؛ ولذا جاءَ في أكثر مواضعِهِ لنفي النُّصرةِ عنِ الظَّلَمَةِ، فنُفِيَ عنهم النَّصْرُ المجرَّدُ[4].

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 4/481. وأبو السّعود، إرشاد العقل السَّليم: 2/57.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السَّليم: 2/57.

(3) ابن عادل، اللُّباب: 5/385. والقِنَّوجيّ، فتح البيان: 2/282.

(4) محمَّد داود، معجم الفروق الدّلاليَّةِ، ص: 497.

﴿لَن تَنَالُواْ ٱلۡبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيۡءٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٞ ٩٢﴾ [آل عمران: 92]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

صدّ الكافرين عن القبول، وحثّ المؤمنين على سبل الإنفاق المقبول

لَمَّا أخبر الله تعالى في الآية السَّابقة، أنَّه لا يقبل ممَّن مات على الكفر شيئًا أنفقه في الدُّنيا، ولو كان ملْءَ الأرض ذهبًا، حضَّ المؤمنين في هذه الآية على الصَّدَقة، مبيِّنًا أنَّهم لن يُدركوا البرَّ حتّى ينفقواْ ممَّا يحبُّونه، وأنَّه تعالى يقبل منهم القليلَ والكثير، وكما ذكر الآلوسيُّ: أنَّه "كلام مستأنف؛ لبيان ما ينفع المؤمنين، ويقبل منهم إثر بيان ما لا ينفع الكفَّار، ولا يقبل منهم"[1]، وفي الآية دليل "على عدم إيمانهم بشحّ نفوسهم، وبخلهم بالإنفاق في الخير، والإنفاق لعمري أكبر دليل على صدق الإيمان، وإنّهم لن يصلوا إلى البرّ، ولن يكونوا بارّين بالله، إلّا إذا أنفقوا ما يحبّون من كريم ما يملكون"[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلۡبِرَّ﴾: البرّ: خلاف العقوق، والمبرّة مثله. تقول: بررت والدي بالكسر، أبرّه برّا، فأنا برّ به وبارّ. وجمع البَرّ أبرار، وجمع البارّ البررة. وفلان يبرّ خالقه ويتبرّره، أي يطيعه، والأمّ برة بولدها. وبرّ فلان في يمينه، أي صدق[3]، وهو أيضا التّوسُّع في فعل الخير، وأصله من البَرِّ الَّذي هو خلاف البحر؛ لِمَا فيه من معنى السَّعة، وهو يُنسب لله تعالى تارة، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ٢٨﴾ [الطّور: 28]، أي: الواسعُ الثَّوابِ، وإلى العبد تارة، فيقال: بَرَّ العبدُ ربَّه،

(1) الآلوسّي، روح المعاني: 2/213.
(2) الحجازي، التّفسير الواضح: 1/252.
(3) الجوهريّ، الصّحاح: (برر).

أي: أطاعه، وبِرُّ الوالدين هو: التّوسُّع في الإحسان إليهما، ويقال: بَرَّ فلان في قوله؛ إذا صدق؛ لكون الصِّدق بعضَ الخير المتوسَّع فيه[1]. واختُلِف في المراد به هنا، فقيل: الجنَّة، فيكون التَّقدير: ثواب البرِّ، وقيل: الخيرُ كلُّه، وقيل: الصِّدق، وقيل: المراد لن تنالوا برَّ الله بكم، أي: لُطفَه ورحمته[2].

2) ﴿حَتَّىٰ تُنفِقُواْ﴾: قال الزّجاج: "كلّ ما تقرب به إلى الله ﷻ، من عمل خير، فهو إنفاق"[3]، وفِي حَدِيث النَّبِي ﷺ، أَنّه دَعَا بِلَالًا بِتَمْر، فَجعل يَجِيء بِهِ قبصًا قبصًا، فَقَالَ رَسُول الله ﷺ: "أَنْفق بِلَال وَلَا تخش من ذِي الْعَرْش إقلالا""[4]، ويقال: أنفق الرّجل، إذا افتقر، ومنه قوله جلّ وعزّ: ﴿إِذَا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِۚ﴾ [الإسراء: 100][5]، وَالنَّفقَة: مَا أنفق، وَالْجمع: نفاق، حكى اللّحياني: نفدت نفاق الْقَوْم، ونفقاتهم.. وَأَنْفق المَال: صرفه. وَفِي التَّنْزِيل: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾ [يس: 47]، أَي: أَنْفقُوا فِي سَبِيل الله وأطعموا وتصدّقوا[6].

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

لا ينال البرّ المرضيّ، إلّا كلّ منفق مؤثر سخيّ

لن تدركوا - أيُّها المؤمنون - ثواب البِرِّ، حتّى تنفقوا ممَّا تحبُّونه من أموالكم وغيرها ممّا رُزِقْتُموه، وأيُّ شيءٍ تنفقونه قليلًا أو كثيرًا؛ فإنَّ الله يعلمه، وهو تعالى يجازيكم به، وهذه الآية خطاب عامّ لجميع المؤمنين، فلا قيمة لإنفاق في وجوه الخير، ما لم يستند إلى قاعدة الإيمان الصّحيح، وأرضيّة الدّين القويم، وسبب نزول هذه الآية وقائع طيبة من إنفاق صحابة رسول الله، تصدق أبو طلحة الأنصاري بأكرم أمواله[7].

(1) الرَّاغب، المفردات: (بر)، والهرَويُّ، الغريبين: (برر).
(2) المهدويُّ، التّحصيل: 2/94، وأبو حيَّان، البحر المحيط: 3/260.
(3) ابن منظور، لسان العرب: (برر).
(4) الطبرانّي، المعجم الكبير: 1/342، وذكره ابن قتيبة: غريب الحديث: 1/412، وذكره أبو نعيم، حلية الأولياء: 6/274.
(5) ابن فارس، مجمل اللّغة: (نفق).
(6) ابن سيده، المحكم: (نفق).
(7) الزّحيلّي، التّفسير الوسيط: 1/213.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ الالتفاتِ في قولِه تعالى: ﴿لَن تَنَالُواْ﴾:

استجلاب عنايةِ المؤمنين لإعلامهم بما ينفعهم، ويُقبَل منهم

قوله تعالى: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلۡبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ﴾ إلى آخر الآية، خاطب اللّه تعالى المؤمنين بعد ما أخبر في الآية السَّابقة بصيغة الغَيبة أنَّه لا يقبل سبحانه ما ينفقه الكافرون؛ ولو كان ملء الأرض ذهبًا، وفي هذا الانتقال من خطاب الغيبة للكافرين إلى خطاب الحضور للمؤمنين التفاتٌ يفيد استجلاب عناية المخاطَبين لمعرفة ما ينفعهم، ويُقبَل منهم من الإنفاق في سبيل اللّه[1].

نكتةُ الاستئنافِ بالجملةِ المعترضةِ في قولِه تعالى: ﴿لَن تَنَالُواْ﴾:

أمَّةُ الإسلامِ تتميَّزُ عن غيرِها من الأممِ بالإنفاقِ ممَّا تُحبُّ

قوله تعالى: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلۡبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيۡءٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٞ ٩٢﴾: استئنافٌ وقع معترضًا بين الآية السَّابقة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٞ﴾ [آل عمران: 91] والآية التَّالية: ﴿كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلّٗا لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾، ونكتةُ الاعتراض؛ هي: أنَّ بيان وسائل البِرِّ جاء مجيءَ ما لا يُترقَّب، فإنَّ سِباقَه ولِحاقَه يتعلَّق بأهل الكتاب وإقامة الحُجَّة عليهم، وهو ما يجعله غايةً في الإفادة[2]، ففيه تنبيهٌ على أنَّ ما يُميِّزُ هذه الأمَّةَ هو الإنفاقُ ممَّا يحبون، وقد جاء النَّفي بـ﴿لَن﴾ المفيدة تأكيد النَّفي في المستقبل لزيادة التَّحريض على الإنفاق من المحبوب.

شرائع الإسلام تدور على مِحْوَر البِرِّ

افْتِتَاحُ الْكَلَامِ بِبَيَانِ بَعْضِ وَسَائِلِ الْبِرِّ إِيذَانٌ بِأَنَّ شَرَائِعَ الْإِسْلَامِ تَدُورُ عَلَى مِحْوَرِ الْبِرِّ، وَأَنَّ الْبِرَّ مَعْنًى نَفْسَانِيٌّ عَظِيمٌ لَا يَخْرِمُ حَقِيقَتَهُ إِلَّا مَا يُفْضِي إِلَى نَقْضِ أَصْلٍ مِنْ أُصُولِ الِاسْتِقَامَةِ النَّفْسَانِيَّةِ. فَالْمَقْصُودُ مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ أَمْرَانِ: أَوَّلُهُمَا التَّحْرِيضُ عَلَى الْإِنْفَاقِ وَالتَّنْوِيهُ بِأَنَّهُ مِنَ الْبِرِّ، وَثَانِيهِمَا التَّنْوِيهُ بِالْبِرِّ الَّذِي الْإِنْفَاقُ خَصْلَةٌ مِنْ خِصَالِهِ[3].

(1) الرَّاغب، تفسير الرَّاغب: 2/722.
(2) السُّيوطيُّ، شرح عقود الجمان، ص: 76، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/5.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/5.

سرُّ عدمِ تعيينِ المخاطَب في قولِه: ﴿تَنَالُواْ﴾ و﴿تُنفِقُواْ﴾:

مخاطبةُ المؤمنين بـدونِ تصريحٍ باسمِهم إلهابٌ وتهييجٌ لنيلِ البرِّ

لم يعيَّن المخاطَب في قوله تعالى: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ﴾ فلم يُقل مثلًا: لن تنالوا البِرَّ أيُّها المؤمنون، أو: يا أيُّها الذين آمنوا لن تنالوا البرَّ؛ وذلك لأنَّ المقصود به هم المؤمنون؛ إذ الأصلُ في الخطاب القرآنيِّ أن يكون لهم؛ إذا لم يتقدَّم قبله ما يعيِّنُ المقصود به[1]، وعدمُ تعيين المقصودِ بالخطابِ تصريحٌ بأنَّه لا يستحقُّ مضمونَه إلَّا أولئك المؤمنون حقًّا، ففيه مزيد ثناءٍ بالغٍ، ومدحٍ فائقِ الحُسن، لما تضمَّنه من الإلهاب والتَّهييجِ.

معنى التَّعريف في لفظ: ﴿ٱلْبِرَّ﴾:

البِرُّ جنسٌ من أفعال كثيرة

أكثرُ المفسِّرين على أنَّ التعريف في: ﴿ٱلْبِرَّ﴾ للجنس، وهي تفيد أنَّ البِرَّ جنسٌ شاملٌ لأفعالٍ كثيرةٍ، منها أن ينفق المؤمن القادر على الإنفاق من كريم ما لديه من المال وغيره، ودون هذا الإنفاق لا يتحقَّق له حقيقة البِرِّ[2].

بلاغة التّعبير بـ: ﴿حَتَّىٰ﴾ دون غيرِها من الألفاظِ:

الطَّريق إلى البِرِّ مليءٌ بخصال الخير، وغايته هي الإنفاق من المحبوب

وأتى بـ ﴿حَتَّىٰ﴾ - وهي غائيَّة - في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ تُنفِقُواْ﴾ دون غيرِها من الألفاظِ، لإفادتِها أنَّه ثَمَّ طريق إلى البِرِّ نهايتُه هي إنفاق المؤمن ممَّا يحبُّ، وقبل هذه النِّهاية توجد مسافات معنويَّة تتضمَّنُ سائر خصال البِرِّ الَّتي لا تتحصَّل حقيقة البِرِّ إلَّا ببلوغها واكتسابها، ولو قيل مثلًا: (إلَّا أن تنفقوا)؛ لأوهم أن تحصيل البِرِّ متوقِّف على الإنفاق، فحسب، وهو ما يُظهِر بلاغةَ ﴿حَتَّىٰ﴾ في هذا الموضع[3].

وفي جعل الإنفاق ممَّا يحبُّ المؤمن غايةً لِنَيْلِ البرِّ دليلٌ على أنَّه لا

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/5.
(2) الآلوسيُّ، روح المعاني: 2/213، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/5.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/6.

يبلغُه إلَّا من تحقَّق بسائر الخصال الكريمة، حتى يصل إلى غايتها في طريق بلوغه الإنفاق ممَّا يحبُّ؛ لأنَّ المرءَ إذا أنفق ممَّا يحبُّه؛ فقد آثرَ عليه الوصولَ إلى محبوب أشرف منه، ويلزم من ذلك إيمانه بالآخرة وطلبُه لسعادتها، وهو ما يقتضي إيمانه باللّه تعالى والانقياد لأوامره ونواهيه، ممَّا يدلُّ على أنَّ الإنفاق من المحبوب هو عنوان لغيره من سائر الطَّاعات[1].

الإنفاق من المحبوب عنوانٌ لسائر الطَّاعات

وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ تُنفِقُواْ﴾ لا يلزم منه بمفهوم المخالفة أنَّ الفقير الذي لم ينفق مما يحبُّه قطُّ لن ينال البِرَّ؛ إذِ الخطاب في الآية خارج مخرج الحثِّ على الإنفاق، فلا مفهومَ مخالَفةٍ له، وهو مقيَّد بالإمكان؛ وإن لم يُنصَّ على تقييده به، وإطلاقه إنَّما هو للمبالَغة في التَّرغيب في الإنفاق[2].

الكلام في الآية خَرَجَ مخرجَ الحثِّ على الإنفاق، فلا مفهوم له

معنى: ﴿مِمَّا تُحِبُّونَۚ﴾ بينَ الحقيقةِ والمجازِ:

اختلف المفسِّرون في المراد بقوله تعالى: ﴿مِمَّا تُحِبُّونَۚ﴾، فقيل: هو المال، وقيل: نفائس الأموال، والإنفاق على هذين القولين إنفاق حقيقيٌّ.

الإنفاق حقيقةٌ في المال، مجازٌ فيما سواه ممَّا يحبُّه الإنسان

وقيل: إنَّ ﴿مِمَّا تُحِبُّونَۚ﴾ عامٌّ في كل ما يحبُّه الإنسان من ماله وجاهه وجميع ما يحبُّه حتى نفسِه الَّتي بين جنبيه، والإنفاق على هذا المعنى إنفاق مجازيٌّ؛ لأنَّ المقصود به هو مُطلَق البَذْل[3].

بلاغة الكنايةِ عن الجزاءِ بجواب الشَّرطِ ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ﴾:

وقع قولُه تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ﴾ جوابًا للشَّرط لقولِه: ﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيۡءٖ﴾ مع أنَّ علم اللّه تعالى بما ينفقه العباد غيرُ متعلِّق بالشَّرط؛ لوقوعه في كلِّ حال، ولذلك فوائد:

(1) الرّازي، مفاتيح الغيب: 8/288.
(2) الزركشيُّ، تشنيف المسامع: 1/358، والآلوسيُّ، روح المعاني: 2/213.
(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السليم: 2/57، والآلوسيُّ، روح المعاني: 2/213.

لَمَّا قام الإخبارُ بعلمه تعالى بما يُنفقُه العبادُ مقامَ الجزاءِ عليه والإثابة به؛ حسُن وقوعه جوابًا للشَّرط، وكان الإخبار عن الجزاء به عن طريق الكناية أبلغَ من التَّصريح[1]، فإذا كان الإخبارُ بعلمِ اللّه تعالى ينالُ به المؤمنون الجزاءَ العظيمَ، فكيف بالتَّصريحِ به؟!

علمُ الله بإنفاقِ المؤمنين كنايةٌ عن جزائه

في وقوع قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ﴾ جوابًا للشَّرط فائدة لا توجد في النَّصِّ على المجازاة، كأن يقال: فإنِّي مجازيكم أو نحو ما ذُكر؛ ذلك أنَّ إخباره تعالى بأنَّه عليم بما يُنفقه المرء يتضمَّن الترغيب في إنفاق نفائس النَّفقات وجيِّدِها، والترهيب من إنفاق خسيسها ورديئها، كما يتضمَّن أيضًا التَّرغيب في الإخلاص في الإنفاق، والتَّرهيب من الرِّياء به[2].

الحثُّ على إنفاقِ الجيِّد ونبذِ الرَّديءِ

الحثُّ على إخفاء الصَّدقات؛ ذلك أنَّ علم اللّه تعالى بها يكفي المؤمن المنفق عن علم من سواه ممَّن لا يعطي عطاءه، ولا يجزي جزاءه، وفي حديث السَّبعة الذين يظلُّهم اللّه في ظلِّه: "ورجل تصدَّق بصدقة فأخفاها، حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه"[3].

عِلمُ اللهِ بالإنفاقِ غايةُ المؤمنِ الصَّادقِ وفيها الكفايةُ البالغة

بلاغة التذييل في: ﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيۡءٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ﴾:

قوله تعالى: ﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيۡءٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ﴾ تذييل[4] يفيد تعميم أنواع الإنفاق، وأنَّه تعالى يعلم ما ينفقه المرء؛ وإن كان من كرائم أمواله أم أخسِّها، وكذا يعلم مقاصد المنفِقين ومنطلَقات إنفاقهم[5]، ولم يقل مثلًا: وما تنفقوا من خير؛ يُثِبْكُم عليه؛ لتخليص الإنفاق من الرِّياء والتَّستُّر به؛ ليكون الإخلاص ومراقبة اللّه عنوان الإنفاق، كما ذكر الجواب كذلك على هذا الوجه، وبعنوان الألوهيَّة

علم الله محيط بأنواع الإنفاق ومقاصد المنفقين

(1) الرَّاغب، تفسير الرَّاغب: 2/715، والرّازي، مفاتيح الغيب: 8/290.
(2) الرّازي، مفاتيح الغيب: 8/290، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السليم: 2/58.
(3) صحيح البخاري، الحديث رقم: (1357)، ويُنظر: الآلوسيُّ، روح المعاني: 2/215.
(4) وهو تعقيب جملة بجملة تحتوي على معناها للتَّأكيد، يُنظر: السِّيوطيُّ، شرح عقود الجمان، ص: 74.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/7.

تربية للمهابة، وإعلاء لقدر الجزاء، فإنَّ العليم بالعمل لا يعلم ثوابه سواه.

بلاغة تقديم الجارِّ والمجرورِ في قولِه: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ﴾:

الاهتمامُ بالمنفَقِ والتَّشويقُ إلى معرفةِ الخبرِ

قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ﴾ جاء فيه متعلِّق الخبر - وهو ﴿بِهِۦ﴾ - مقدَّمًا على الخبر، والأصل أن يقال في غير القرآن: فإنَّ اللّٰه عليم به، وتقديم المتعلِّق هنا يدُلُّ على الاهتمام به إظهارًا؛ لأنَّ اللّٰه تعالى عليم بما ينفقه العبد من جميع وجوهه[1]، وفيه تشويقٌ إلى معرفة الخبرِ؛ فإنَّ المتلقِّي ينتظرُ سماعَ خبرٍ يخصُّ النَّفقةَ ويتشوّقُ إليه؛ فيأتي ﴿عَلِيمٌ﴾؛ للإخبارِ بحال هذه النَّفقاتِ.

التَّقديم هو الأليق بفواصل السُّورة

كما أنَّ تقديم المتعلِّق في: ﴿بِهِۦ عَلِيمٌ﴾ جاء مراعيًا لفواصل السُّورة، فإنّها جميعًا قد جاءت بحرف قبله واو أو ياء مدِّيَّتان، كما في نحو: ﴿هُمُ ٱلضَّآلُّونَ﴾ [آل عمران: 90]، و﴿مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ [آل عمران: 91]، و﴿كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾، و﴿هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾، فجاء تقديم العامل مناسبًا لما قبله وما بعده من رؤوس الآي[2]، ومراعاةُ الفواصلِ تابعةٌ للمعنى لا مستقلَّةٌ بنفسِها، فجمالُ الصَّوت في القرآنِ رديفُ جمالِ المعنى.

(1) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 5/2.
(2) الآلوسيُّ، روح المعاني: 2/215.

الجُزْءُ الرَّابِعُ

﴿۞ كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسۡرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦ مِن قَبۡلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوۡرَىٰةُۚ قُلۡ فَأۡتُواْ بِٱلتَّوۡرَىٰةِ فَٱتۡلُوهَآ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٩٣﴾ [آل عمران: 93]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

عـــودة لـــذمّ الـــيـــهـــود، وتـبـيـان بعض مـخـالـفـاتـهـم ومـنـاقـشـتـهـم عليها

لَمَّا أخبر اللّه تعالى في الآية السَّابقة أنَّ المرء لا ينال البِرَّ إلَّا بالإنفاق ممَّا يحبُّ؛ ذكر في هذه الآية نوعًا من التقرُّب إلى اللّه تعالى بترك ما يحبُّه الإنسان، وذلك أنَّ يعقوب عليه السلام مرِض، فنذر - إن شفاه اللّه تعالى - أن يحرِّم على نفسِه أحبَّ الطَّعام إليه تقرُّبًا إلى اللّه تعالى، فشفاه اللّه تعالى، ففعل ذلك[1]، وفي هذه الآية وما يليها عَودٌ إلى ذمِّ اليهود، وتعديد ما ارتكبوه ممَّا تضمَّنته الآيات السَّابقة[2].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿كَانَ حِلًّا﴾: أي: حلالًا، وهو مصدَر نُعِت به؛ ولذا يلزم التّذكير والإفراد دائمًا، نحو: ﴿وَطَعَامُكُمۡ حِلٌّ لَّهُمۡ﴾ [المائدة: 5]، و﴿لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمۡ﴾ [الممتحنة: 10]. وأصل الحَلِّ هو: حلُّ العُقدة، ثم استُعير؛ لكون الشّيء حلالًا، لما فيه من معنى الإباحة والسَّعة، ويقال: حلَّ الشيءُ حِلًّا وحلالًا، كما يقال: حَرُم حِرْمًا وحَرامًا[3]، "والحلّ: الحلال. ومنه قولهم: هذا لك حلّ وبلّ. وقال بعض أهل اللّغة: بل إتباع، وقال آخرون: البلّ: المباح لغة حميريّة"[4].

2) ﴿إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾: "هو يعقوب بن إسحاق، سمّي بهذا الاسم لأنّه

(1) أبو حيَّان، البحر المحيط: 3/262.
(2) الرَّاغب، تفسير الرَّاغب: 2/721.
(3) الرَّاغب، المفردات: (حل)، والبيضاويُّ، أنوار التنزيل: 2/28.
(4) ابن دريد، جمهرة اللّغة: (حلل).

ولد مع عيصو في بطن واحد، ولد عيصو قبله، ويعقوب متعلّق بعقبه، خرجا معا، فعيصو أبو الرّوم، ويعقوب جدّ اليهود"[1]، "وسمّي يعقوب إسرإل بذلك، ولما عرّب قيل إسرائيل؛ قال ابن الكلبيّ: كل اسم في العرب آخره (إل) أو (إيل) فهو مضاف إلى اللّه ﷻ كشرحبيل وشراحيل وشهميل، وهو كقولك عبد اللّه وعبيد اللّه، وهذا ليس بقويّ، إذ لو كان كذلك لصرف جبريل وما أشبهه، والإلّ: الرّبوبيّة. والأُلّ، بالضّمّ: الأوّل في بعض اللّغات وليس من لفظ الأوّل"[2]، و"قيل: معناه عبد اللّه، لأنّ (إيل) اسم من أسماء اللّه بالسّريانيّة؛ وقيل صفوة اللّه، وقيل سرّ اللّه؛ أو لأنّه انطلق إلى حاله، خشية أن يقتله أخوه عيصو، فكان يسري بالليل ويكمن بالنّهار، وقصته مسطورة في بعض كتب الأحاديث"[3].

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

محاججة اليهود بنصوص التّوراة الّتي لم تحرّم ما حرّمه يعقوب على نفسه

كلُّ المطعومات الطيِّبة كانت حلالًا لبني إسرائيل قبل نزول التَّوراة، ولم يُحرَّم عليهم منها شيءٌ، لا كما زعم اليهود من أنَّ الطَّعام المحرَّم عليهم كان محرَّمًا على نوح وإبراهيم وسائر الأنبياء، مدَّعين أنَّ ذلك في التّوراة، ومفاد ذلك أنّ اليهود اعترضوا على استباحة المسلمين بعض الأطعمة، كلحوم الإبل وألبانها، بدعوى أنّ ذلك حرّمته شريعة إبراهيم، فردّ سياق الآية دعواهم، ببيان أن ما حرّمه يعقوب على نفسه، إنّما كان لسبب يختصّ به، فاتّبعه بنو إسرائيل في ذلك التّحريم، ولتأكيد ذلك طلب منهم أن يأتوا من التّوراة، بدليل يثبت أنّ شريعة إبراهيم تحرّم ذلك إن كانوا صادقين، فعجزوا وأفحموا، وانقلبوا صاغرين[4].

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (عقب).
(2) ابن منظور، لسان العرب، (أل).
(3) الكفويّ، الكليات، (اس).
(4) لجنة من علماء الأزهر، المنتخب في تفسير القرآن الكريم، ص: 85.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالة تقديم المسند إليه في: ﴿كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا﴾:

تقويةُ حكمِ حِلِّ جميعِ المطعومات، والتَّشويقُ إلى معرفتِه

قوله تعالى: ﴿كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ قُدِّم فيه المسنَد إليه: وهو ﴿كُلُّ ٱلطَّعَامِ﴾، على المُسند: وهو ﴿كَانَ﴾، وكان يمكن أن يقال في غير القرآن: كان كلُّ الطَّعام حِلًّا لبني إسرائيل، وفائدة هذا التقديم تقويةُ حكم حِلِّ جميع المطعومات في أوَّل الأمر لبني إسرائيل، والاهتمام بالتنصيص على ذلك؛ لأنَّ التقديم يقتضي تكرُّرَ المسنَد إليه مرَّتين: مرَّة لفظًا، ومرَّة تقديرًا؛ لأنَّ التقدير: كلُّ الطَّعام كان هو حلًّا لبني إسرائيل[1]، والتَّشويقُ، إذ قولُه تعالى: ﴿كُلُّ ٱلطَّعَامِ﴾ يُثيرُ في الذِّهن معرفة ما يتعلَّق بهذا العمومِ في الطَّعامِ؛ فجاءَ المسندُ مجيبًا عمَّا ثارَ في ذهن المتلقِّي.

دلالة اسميَّة الجملة في: ﴿كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا﴾:

تأكيد الخطاب والـــردُّ على المنكرين من اليهود

إيثار الجملة الاسميَّة على الفعليَّة في قولِه تعالى: ﴿كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ هو المناسِب لحال المقصودين بالخطاب - وهم اليهود -، فجاء الرَّدُّ عليهم بصيغة الخبر الإنكاريِّ، وبيَّن تعالى أنَّ المحرَّمَ عليهم هو ما حرَّمه يعقوب على نفسِه، وذلك قبل نزولِ التَّوارةِ، بدليلِ أنَّ الأنبياءَ قبلَه لم يكن محرَّمًا عندهم ما حرَّم يعقوبُ على نفسِه، وكذلك الأمر في التَّوراةِ، ولذلك طالبَهم بالإتيانِ بالتَّوراةِ وتلاوتِها: ﴿قُلۡ فَأۡتُواْ بِٱلتَّوۡرَىٰةِ فَٱتۡلُوهَآ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٩٣﴾؛ لإثباتِ بطلانِ زَعْمِهم.

دلالة تخصيص التَّحريم بإسرائيل عليه السلام:

استجلاب بني إسرائيل إلى ما ينفعهم

قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسۡرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦ﴾ خُصَّ فيه إسرائيل - أي: يعقوب عليه السلام - بالذِّكر لَمَّا كانت الآية في سياق إقامةِ الحُجَّة

(1) الإسفراييني، الأطول: 1/382.

على بني إسرائيل، واستجلابِهم إلى ما ينفعهم من اتِّباع النَّبيِّ ﷺ بعد أن ضلُّوا، وسعَوْا في إضلال غيرِهم من المؤمنين[1].

فائدةُ التقييد بـ ﴿مِن﴾ في قولِه: ﴿مِن قَبۡلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوۡرَىٰةُۚ﴾:

قُيِّدَ التَّحريمُ في قوله تعالى: ﴿مِن قَبۡلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوۡرَىٰةُۚ﴾، بحرفِ ﴿مِن﴾ إذ هي متعلِّقة بـ: ﴿حَرَّمَ﴾[2]؛ فهو تقييدٌ لتحريمِ يعقوب لحومَ الإبلِ وألبانَها على نفسِه ببعضِ الزَّمن، وهو ما كان بين شفائه ووفائه بما نذره من تحريمهما عليه - تقرُّبًا إلى الله تعالى - كما دلَّت عليه الآثار[3]، ولو قيل: قبلَ أن تنزَّل التوراة؛ لربَّما فُهم منه أنَّ التَّحريم كان مستغرقًا لجميع الزَّمن السَّابق لنزول التَّوراة[4].

دفعُ وهْمِ أنَّ التَّحريمَ كان غيرَ مختصٍّ ببعضِ الزَّمنِ

سرُّ التَّعبيرِ بالمضارعِ في قولِه: ﴿تُنَزَّلَ ٱلتَّوۡرَىٰةُۚ﴾:

جاء لفظُ ﴿تُنَزَّلَ﴾ بصيغة المضارع في قولِه تعالى: ﴿مِن قَبۡلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوۡرَىٰةُۚ﴾؛ وذلك ليدلَّ على تجدُّدِ نزول التوراة وحدوثه، وذلك بالنِّسبة إلى الزَّمن الَّذي كانت فيه كلُّ الأطعمة حلالًا لبني إسرائيل، إلا ما حرَّمه يعقوب عليه السلام على نفسه وتَبِعَه بنوه، فإنَّ نزول التَّوراة كان بعد ذلك بمدَّة طويلة[5]؛ فأفادت هذه الصِّيغةُ حدوثَ نزولِ التَّوراةِ لا نزولَها، ولو قال: من قبل نزول التَّوراة؛ لفُهِمَ أنَّهم على علمٍ بنزولِها.

إفادة تجدُّد نزول التوراة بالنِّسبة إلى زمن يعقوب عليه السلام وبنيه

بلاغةُ الأمر في قولِه تعالى: ﴿فَأۡتُواْ بِٱلتَّوۡرَىٰةِ﴾:

قوله تعالى: ﴿فَأۡتُواْ بِٱلتَّوۡرَىٰةِ﴾ الأمر فيه ليس على حقيقته، بل هو لتعجيز اليهود وإقامة الحجَّة عليهم، فإنَّه تعالى لَمَّا عَلِم أنَّهم لا يأتون إذا استدلُّوا بها على الحقِّ؛ أمر نبيَّه ﷺ أن يأمرهم بالإتيان

إقامةُ الحجَّةِ على اليهودِ بطلبِ الإتيانِ بما يُثبِتُ كذبَهم

(1) البقاعيُّ، نظم الدرر: 5/2.
(2) وهو قول العُكبَريِّ وغيره، وردَّه أبو حيَّان، وجعل ﴿مِن﴾ متعلِّقة بـ: ﴿كَانَ حِلّٗا لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾، يُنظر: أبو حيَّان، البحر المحيط: 3/265.
(3) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 2/74.
(4) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 5/3.
(5) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 5/3.

بالتَّوراة على سبيل التعجيز لهم، وقد روي أنَّهم بُهِتوا، ولم يجسُروا على الإتيان بالتَّوراة كما أُمروا، وهذا من دلائل نبوَّة النَّبيِّ ﷺ[1].

توجيهُ وضعِ الظَّاهر موضع المضمرِ في قولِه: ﴿فَأْتُواْ بِٱلتَّوْرَىٰةِ﴾:

مقتضى البلاغةِ الإظهارُ؛ لانقطاع الكلام عمَّا قبله

أظهرَ النَّظمُ لفظَ التَّوراةِ في قولِه تعالى: ﴿فَأْتُواْ بِٱلتَّوْرَىٰةِ﴾ ولم يُضمرْ ذكرَها مع أنَّه تقدَّم ذكرُها، فلم يَقُل تعالى: فأتوا بها؛ وإنَّما كان الإظهار أبلغَ من الإضمار؛ لأنَّ الكلامَ في هذا الموضعِ منقطعٌ عمَّا قبله؛ إذ هو خطابٌ أُمِر النَّبيُّ ﷺ بتوجيهه لليهود، وما قبله كان حكايةً عن حالهم قبل نزول التَّوراة[2].

دلالة الشَّرْط في: ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾:

في اشتراط الصِّدق على الكذوب استهزاء به

حُذِفَ جوابُ الشَّرطِ في قولِه تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ الذي يدلُّ عليه ما قبله من قوله تعالى: ﴿فَأْتُواْ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ﴾، والتَّقدير: إنْ كنتُم صادقين؛ فأتوا بالتوراة، فاتلوها؛ وذلك لانتفاءِ قدرتهم تمامًا، فحذفها من النَّصِّ مشاكلة؛ لانتفاء حصوله في الواقع، ولَمَّا كان كذبهم فيما ادَّعوه في هذه الآيات وفي غيره معلومًا؛ كان في قوله تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ استهزاءٌ وتهكُّم بهم؛ إذ جُعل الصِّدق ممَّا يمكن أن يتَّصفوا به، وهو كقولك لأحد الجُبناء: إن كنت شجاعًا؛ فالقَني[3]، ومعلومٌ أنَّ اللِّقاءَ ممتنعٌ من جهتِه.

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 1/473، وأبو حيَّان، البحر المحيط: 3/265، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/9.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السليم: 2/59.
(3) أبو حيَّان، البحر المحيط: 3/265.

﴿فَمَنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٩٤﴾ [آل عمران: 94]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا أمر الله نبيَّه ﷺ في الآية السَّابقة، أن يتحدَّى اليهود بأن يحكِّموا بينه وبينهم التّوراة؛ لينتصروا لما ادَّعوه من وجود تحريم ما حرَّمه يعقوب على نفسه في التَّوراة، وأنَّه حرُم عليهم بنصِّها، فلمَّا تحدَّاهم النَّبيُّ ﷺ بذلك عجِزوا عنه، وانقطعت حُجَّتهم، فذكر الله في هذه الآية أنَّ من يفتري هذه الفرية منهم، بعد هذا البيان الظَّاهر هم الظّالمون؛ لتعمُّدهم الكذب عليه تعالى[1].

من عاد إلى الضّلال بعد ثبوت الحجّة بالتّوراة، فأولئك هم الظّالمون

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱفۡتَرَىٰ﴾: فعل ماضٍ من الافتراء، وهو مرادف للاختلاق، أي: افتعال الكذب الَّذي لا أصل له، وجميع ما جاء منه في القرآن؛ فهو بهذا المعنى، وهو مأخوذ من الفَرْيِ، أي: التصنيع والتَّخْليق، ومنه قولهم: فَرَى المزادةَ - أي: القِرْبةَ - إذا خلَقَها، وصَنَعها[2].

2) ﴿ٱلظَّٰلِمُونَ﴾: مفرده ظالم، معناه في كلامهم: الّذي يضع الأشياء في غير مواضعها، واحتجّوا بقول ابن مقبل:

عَادَ الأَذِلَّةُ فِي دَارٍ وَكَانَ بِهَا *** هُرْتُ الشَّقَاشِقِ ظَلَّامُونَ لِلْجُزُرِ[3]

"ويقال: (من أشبه أباه فما ظلم)، وفي المثل: (من استرعى الذّئب فقد ظلم)، والظّلامة والظّليمة والمظلمة: ما تطلبه عند الظّالم، وهو اسم ما أخذ منك. وتظلمني فلان، أي ظلمني مالي،

(1) الرَّاغب، تفسير الرَّاغب: 2/721، وأبو حيَّان، البحر المحيط: 3/262.
(2) الرَّاغب، تفسير الرَّاغب: 2/423، والفيروزابادي، القاموس المحيط: (فرى).
(3) الأنباريّ، الزّاهر: 1/116.

وتظلّم منه، أي اشتكى ظلمه، وتظالم القوم. وظلمت فلانا تظليما، إذا نسبته إلى الظّلم"[1].

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

الظّالمون من يفترون على الله الكذب، بعد بطلان الادّعاء

فمن كذب على اللّه تعالى، بنسبة حكم شرعيٍّ إليه بعد وضوح الحجَّة، فأولئك لا محالة هم الظَّالمون لأنفسهم بالكفر، ولغيرِهم بالإغواء والإضلال، ذلك أنّ عجزهم عن التّحدّي ثابت متيقّن، وعليه فإنّ من سوّلت له نفسه أن يختلق الكذب على اللّه، بعد ذلك، فهم المستمرّون على الظّلم المتّصفون به حقّا[2].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالةُ الجَمْعِ بين الكذبِ والافتراءِ في قولِه: ﴿ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ﴾:

كَذِبُ اليهودِ المُفْتَرى على الله أعظمُ أنواعِ الكذبِ

جاءَ الكذبُ في قوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ﴾ مؤكِّدًا الافتراءَ الَّذي هو افتعالُ الكذبِ الَّذي لا أصلَ له، وفي الجمع بينهما أيضًا بيانٌ لنوع الكذب الَّذي كذَبوه على اللّه تعالى، وأنَّه أعظم أنواع الكذب؛ إذ هو اختراع قصَّة لا أصل لها مُطلقًا، وهو غايةٌ في الظُّلم، كما قال تعالى: ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ [الأنعام: 21][3]، ففي الجمع بينهما تبشيع لصنيع اليهود وزيادة تقبيح له، وبخاصَّة أنَّ الكذب جاء معرَّفًا، كأنَّ افتراءهم هو الكذب كلُّه، بخلافِ ما لو قيل: فمن افترى على اللّه كذبًا.

فائدةُ تقييدِ الافتراءِ بِ كونِه: ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾:

ذكرُ الاسمِ العظيمِ بيانٌ لعِظَمِ جُرمِ المفتري، وقُبحِ صنيعِه

في تقييدِ افتراءِ الكذبِ - بكونه على اللّه تعالى، واستعمال لفظ الجلالة خاصَّةً - بيانٌ لفداحةِ الخطأ، وعِظم الجُرم ممَّن ارتكبَ ذلك في حقِّ اللّه تعالى؛ إذ إنَّه قد اختلق كذبًا لا أصلَ له على الملك

(1) الجوهريّ، الصّحاح: (ظلم).
(2) لجنة من علماء الأزهر، المنتخب في تفسير القرآن الكريم، ص: 86.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/10.

الأعظم، الَّذي يعلمُ السرَّ وأخفى، ويقدر على المجازاة على هذا الافتراء، فأفاد هذا التقييدُ بهذه الكيفيَّة كمالَ قبح مرتكِب هذا الإثم العظيم[1].

دلالة إثبات الجارِّ في ﴿مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ﴾:

الإشـــارة إلى تحريم الكذب في كلِّ زمان

أُثبِتَ الجارُّ في ﴿مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ﴾؛ للدّلالة على أنَّ الكلامَ خارجٌ مخرج التَّحذير من افتراء الكذب على اللّه تعالى بعد ظهور الحقِّ ووضوحه، فلا مفهوم مخالفة للكلام هنا؛ فإنَّ الكذب منهيٌّ عنه في أيِّ زمنٍ كان، سواءٌ أكان بعد نزول هذه الآيات أم قبله[2].

فائدةُ ذكرِ البعديَّة في قولِه: ﴿مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ﴾:

افـتراء الـكـذب بـعـد ظـهـور الـحـقِّ هـو في القبح غاية، وفي الوقاحة نهاية

قُيِّد افتراءُ الكذبِ بكونِه: ﴿مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ﴾ أي: بعد بيانِ القرآنِ الشَّافي، وبعد دحضِ شُبَه اليهود، مع أنَّ الكذب على اللّه تعالى مذمومٌ في كلِّ وقت وكلِّ حال، وفائدةُ هذا التقييد: الدّلالةُ على كمالِ قبح من كذب بعد هذا البيان، وأنّه في أسفلِ دركاتِ الوقاحة[3]، وبيانُ أنَّ من وقعَ منه الافتراءُ بعد الوضوحِ الشَّديد قد بلغَ الغايةَ في الإصرارِ على الكفرِ والعنادِ على الضَّلالِ البعيد.

بلاغةُ استعمالِ اسمِ الإشارةِ للبعيدِ في: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾:

تمكُّنُ المُفتري في الضَّلالِ البعيدِ

جيءَ باسمِ الإشارةِ الخاصِّ بالبعيدِ في قولِه تعالى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾؛ إعلامًا ببُعد منزلة المجترئ المفتري على اللّه - بعد ظهور الحقِّ - في الضَّلال والطُّغيان[4].

دلالة القصر الإضافيّ ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾:

قوله تعالى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ جيءَ بضمير الفصل ﴿هُمُ﴾ المفيدِ لقصر المسنَد على المسند إليه؛ للدَّلالة على أنَّ الإصرار

(1) الرَّاغب، تفسير الرَّاغب: 2/723، والبقاعيُّ، نظم الدُّرر: 5/3.
(2) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 5/3.
(3) الآلوسيُّ، روح المعاني: 2/220.
(4) أبو السُّعود، إرشاد العقل السليم: 2/59.

بيانُ علَّةِ العذابِ أبلغُ من ذكرِه، وأشدُّ في تهويلِه

على الافتراء على الله تعالى هو غاية الظُّلم، حتَّى كأنَّه لا ظالمَ إلا مقترفُ هذا الفعل الشنيع؛ لتعمُّده الكذب على من لا تخفى عليه خافية في الأرض، ولا في السَّماء[1]، وهو نوع من القصر الإضافيِّ[2] ولم يذكر الجواب المرتقب، فلم يقل: فأولئك لهم أشدُّ العذاب مثلًا، وإنَّما جاء بسبب استحقاق أشدِّ العذاب، وهو الظُّلم المبالغ فيه، كما يدلُّ عليه أسلوب القصر بتعريف الطَّرفين، فجاء بعلِّيّة استحقاق أشدِّ العذاب، وهو أَبْلَغُ من التَّعبير بنوع العذاب.

(1) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 5/3.

(2) وهو ما يكون التَّخصيص فيه بالإضافة إلى شيء آخر، نحو قولك: زيد هو العالم، لمن قال: زيد وعمرو عالمان، يُنظر: الدمنهوريُّ، حلية اللُّبِّ المصون، ص: 89.

﴿قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُۗ فَٱتَّبِعُواْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٩٥﴾ [آل عمران: 95]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الإخبار عن ملّة إبراهيم، وعلاقته ببطلان دعاوى اليهود الضّالّين

لَمَّا ذكر الله تعالى في الآية السَّابقة، كذب اليهود فيما ادَّعوه، بعد أن تحدَّاهم أن يثبتوا ذلك من التَّوراة؛ أمَرَ الله نبيَّه ﷺ، أن يقول لهم: صدق الله، أي: فيما أخبر به عن ملَّة إبراهيم وبنيه عليهم السلام، ومنهم يعقوب، وأنَّهم كانوا جميعًا على ملَّة الإسلام الَّتي عليها النَّبي ﷺ والمؤمنون معه.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ﴾: قال الرّاغب: "الملّة هي: الدّين، وهو اسم لما شرع الله تعالى لعباده على لسان الأنبياء ليتوصّلوا به إلى جوار الله، غير أنّ الملّة لا تستعمل إلّا في جملة الشّرائع دون آحادها، ولا تضاف إلّا إلى النّبيّ، تسند إليه نحو: ﴿فَٱتَّبِعُواْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًاۖ﴾، ولا تكاد توجد مضافة إلى الله ولا إلى آحاد أمّة النّبيّ، فلا يقال: ملّة الله، ولا ملّتي، ولا ملّة زيد كما يقال: دين الله، وديني، دين زيد"[1].

2) ﴿حَنِيفًاۖ﴾: اسم فاعل من الحَنَف، وهو الاستقامة، أو الميل عن الضَّلال إليها، ومن الثَّاني قيل للمائل الرِّجْلِ: أحنف، وقيل: بل قيل له ذلك؛ تفاؤلًا باستقامة رِجْلِه، أي: على المعنى الأوّل، "ويقال: سمّي الأحنف بن قيس به، لحنف كان في رجله، وقالت حاضنة الأحنف:

وَاللهِ لَوْلَا حَنَفٌ بِرِجْلِهِ ***مَا كَانَ فِي فِتْيَانِكُمْ كَمِثْلِهِ

والسّيوف الحنفيّة تنسب إليه، لأنّه أوّل من عملها، أي: أمر

(1) الرّاغب، المفردات: (ملل).

باتّخاذها، وهو في القياس: سيف أحنفيّ"[1]. والمراد بها في الآية: مستقيمًا على ما شرعه اللّه تعالى، أو مائلًا عن الأديان الباطلة إلى الدِّين الحقِّ[2]."والحنيف في قولٍ: المسلم الّذي يستقبل قبلة البيت الحرام على ملّة إبراهيم حنيفا مسلما. والقول الآخر: الحنيف كلّ من أسلم في أمر اللّه، فلم يلتو في شيء منهُ[3]، "وقال الأخفش: الحنيف المسلم، وكان في الجاهليّة يقال لمن اختتن وحجّ البيت حنيف؛ لأنّ العرب لم تتمسّك في الجاهليّة بشيء من دين إبراهيم، غير الختان وحجّ البيت، فكلّ من اختتن وحجّ قيل له حنيف، فلما جاء الإسلام عادت الحنيفيّة، فالحنيف المسلم"[4].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

الدّعوة إلى اتّباع ملّة إبراهيم الدّاعيةِ إلى الحنيفيّة، والنّائيةِ عن الشّرك

قلْ – أيُّها النّبيُّ ﷺ – لليهود: ظهر صدق اللّه تعالى فيما أخبر به من أن كلَّ الطَّعام كان حلالًا لبني إسرائيل إلَّا ما حرَّم إسرائيل على نفسه، وفي جميع ما أخبر على لسان نبيِّه ﷺ، فاتَّبعوا دين إبراهيم، فقد كان مائلًا عن الأديان كلِّها إلى دين الإسلام، ولم يكن من المشركين، " أي اتّبعوا منهاجه وشرعته وطريقته، وقد كان طريقه هو طريق الفطرة السّليمة، ولذلك وصفه بقوله ﴿حَنِيفًا﴾، أي متّجها إلى الحقّ لَا ينحرف عنه إلى غيره، ولا يسلك غير سبيل المؤمنين، يجيب داعي الحقّ إذا دعي إليه"[5].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

سرُّ التَّعبيرِ بصدق الله تعالى لا بكذبِ اليهودِ:

آثرتِ الآيةُ التَّعبير عن كذبِ اليهودِ بقوله تعالى: ﴿قُلْ صَدَقَ

(1) الخليل، العين: (حنف).
(2) الرّاغب، المفردات: (حنف)، والزَّبيديُّ، تاج العروس: (حنف).
(3) الخليل، العين: (حنف).
(4) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (حنف).
(5) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 3/1319.

بيانُ الغايةِ في إظهارِ الحقِّ، والتَّعريضِ بالكاذبين

﴿ٱللَّهُۗ﴾ دون الإخبار المباشرِ؛ فلم يُقل: قل كذب اليهود، وذلك لبيانِ أنَّ قوله هو الصِّدق، وفي إخباره بذلك بعد ما تقدَّم من تحدِّي اليهود وذمٍّ من يفتري على الله الكذب تعريضٌ بكذب اليهود في دعواهم: بأن ما حُرِّم عليهم إنَّما كان محرَّمًا على الأنبياء من قبل؛ إذ الحكمُ بصدق أحد الخبرين المتنافيَين؛ يلزم منه كذبُ الخبر الآخر، والمعنى: صدق الله فيما أخبر به، وأنزله في كتبه، وكذبتم أيُّها المدَّعون[1].

فائدةُ التَّعبير بالاسم العظيم:

التَّصريحُ بأنَّه الحقُّ، والتَّعريضُ بمن خالفَه

في إسناد الصِّدق إلى الله تعالى بلفظ الجلالة في قوله تعالى: ﴿قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُۗ﴾ إسباغ الجلال على الخطاب، وتربية المهابة في قلوب المخاطبين؛ لما يقتضيه الاسم العظيم من معاني الكمال والعِزَّة، فهو أولى من غيره من الأسماء - كالرَّبِّ والخالق - في هذا المحلِّ، فالمعنى: صدق الله الملك الذي له الكمال كلُّه في ما أخبر[2]، ولبيانِ أنَّ الله هو الذي أنزل التَّوراةَ، وأرسل الرسلَ، فهو صاحبُ القولِ الحقِّ، والكلامِ الصِّدقِ.

دلالة الفاء في: ﴿فَٱتَّبِعُواْ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ﴾:

مقتضى تصديقِ الله هو اتِّباع رسله

الفاء في قوله تعالى: ﴿فَٱتَّبِعُواْ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ﴾: للتَّفريع والسَّببية، فجُعل ظهور صدق الله تعالى أصلًا وسببًا لِمَا بعده من الأمر باتِّباع ملَّة إبراهيم عليه السلام وهي نفسها ملَّة سيِّدنا محمَّد ﷺ فكأنَّه قيل: ما دام قد ظهر لكم صدق الله؛ فعليكم - أيُّها المخاطبون من أهل الكتاب - أن تتَّبعوا ما أنزله على أنبيائه؛ فإنَّ اتِّباع الصِّدق منجاةٌ من الخطر[3].

(1) الزَّمخشريُّ، الكشَّاف: 1/386، والبيضاويُّ، أنوار التَّنزيل: 2/28.
(2) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 5/4.
(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السليم: 2/59، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/11.

بلاغةُ الإطنابِ في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾:

التَّعريضُ بمن تركَ اتِّباعَ الأنبياءِ وأطاعَ الأحبارَ من دونِ الله

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ إطنابٌ؛ فهو تذييلٌ متضمِّن لما تقدَّم ذكره من حنيفيَّة إبراهيم عليه السلام، وهي استقامته على دين الله تعالى، أو ميله عن جميع الأديان إلى دين الله، فهو توكيد لهذه الحنيفيَّة بذكر رأس الأمر فيها، وهو توحيد الله تعالى، ونبذُ الشِّرك به[1]، وفيه تعريضٌ باليهودِ الذين خرجوا عن ملَّته عليه السلام، ووقعوا في الشِّركِ التَّشريعيِّ، باتِّباعِ أحبارِهم وتركِ أنبيائهم، فاتَّخذَ بعضهم بعضًا أربابًا من دون الله، كما قال تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: 31]، فكأنَّه قيل لهم: إنَّ دينكم ليس هو دين إبراهيم كما تزعمون؛ إذ إنَّ إبراهيم لم يكن مشركًا، بينما أنتم مشركون بتقليدكم أحبارَكم الَّذين يدعونكم إلى ضدِّ ما يدعوكم إليه الله تعالى[2].

(1) الآلوسيُّ، روح المعاني: 2/221، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/11.
(2) الرَّاغب، تفسير الرَّاغب: 2/742، وأبو حيَّان، البحر المحيط: 3/266.

﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾﴾ [آل عمران: 96]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الرّبط بين اتّباع ملّة إبراهيم، وتعظيم البيت الجدير بالتّعظيم

لَمَّا أمر اللّه تعالى اليهود في الآية السَّابقة أن يتَّبعوا ملّة إبراهيم -عليه السلام- وهي ما عليه النَّبيُّ ﷺ والمؤمنون معه، وكان من ملَّتِه تعظيمُ بيت اللّه الحرام؛ ناسبَ ذلك ذكرُ البيت الحرام وفضله وحرمته، وخاصَّةً بعد أن عاب اليهود على المسلمين التّوجُّه إليه في صلاتهم[1]، "والدّعوة إلى الإيمان بملّة إبراهيم، هي لإيضاح أنّ جوهر الإيمان، لا يحتمل الخلاف، فركْبُ الإيمان والرّسل والأنبياء، هو ركبٌ واحد"[2].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَوَّلَ بَيْتٍ﴾: "لفظ (أوّل) في اللّغة، على الحقيقة: ابتداء الشّيء، قيل: وجائز أن يكون المبتدأ له آخر، وجائز ألا يكون له آخر، فالواحد أوّل العدد، والعدد غير متناهٍ؛ ونعيم الجنّة له أوّل، وهو غير منقطع، فجائز أن يكون قول اللّه تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ﴾، هو البيت الّذي لم يكن الحجّ إلى غيره"[3]، وذكر أهل اللّغة في اشتقاق (الأوّل)وهو منسوب إلى سيبويه: إنّه (أفعل)، من: آل يؤول؛ و(أولى) فعلى منه، فكأنّه (أوّل) في الأصل: أأول، فقلبت الهمزة الثّانية واوا، وأدغمت في الواو الأخرى، فقيل: أوّل[4].

2) ﴿وُضِعَ﴾: فعل ماضٍ مبنيٌّ للمفعول، من الوَضعِ، أي: بُنِي،

(1) الآلوسيُّ، روح المعاني: 2/221.
(2) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 3/1622.
(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (أوّل).
(4) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (أوّل).

وأُسِّس، وأصل الوضع يدلُّ على خفض الشَّيء وحطِّه، ومنه سمِّي المكان موضعًا، وقيل: هو أعمُّ من الحطِّ؛ لإطلاقه على الخلق والإيجاد، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ۝١٠﴾ [الرحمن: 10]، وعلى إبراز الشَّيءِ، نحو: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ [الكهف: 49][1].

3) ﴿بِبَكَّةَ﴾: اختلف العلماء في بكَّة على عدَّة أقوال، أشهرها ما يلي[2]: الأوَّل: أنَّها مكَّة نفسُها، أبدلت ميمُها باءً، وإبدال الباء من الميم وعكسه، كثير عند العرب، نحو: لازم ولازب، وراتب وراتم، وغيرهما، وقيل: هي مكَّة، لكن ليست باؤها بدلًا من ميم، بل هي من البَكِّ؛ لأنَّها تبُكُّ أعناق الجبابرة، أي: تدُقُّها. والثَّاني: أنَّه اسم للمسجد الحرام. والثَّالث: أنَّه اسم لمكان البيت الحرام، فيقال له خصوصًا: بكَّة، ويقال لما خرج عن موضع الطَّواف: مكَّة، ويدلُّ عليه أنَّ التَّباكَّ هو الازدحام، وهو يكون في الطَّواف، أو هو من التَّباكي؛ لأنَّ النَّاس يتباكَون فيه. والرَّابع: أنَّ معناها: البلدة باللُّغة الكِلْدانيَّة، لغةِ إبراهيم عليه السلام نحو: بعلبكَّ، أي: بلدة بعل، ويكون واضعه هو إبراهيم، بنيَّة أن يكون بلدًا لولده إسماعيل عليهما السلام.

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

أوّل بيت للعبادة في الأســـاس، هو الّـذي بمكّة موضوعًا للنّاس

إنَّ أوَّل بيت أُقيم لعبادة الله هو البيت الحرام الَّذي بمكَّة، وهو بيت مبارك، كثيرُ المنافع الدّينيَّة والدّنيويَّة، فيه هداية للنَّاس جميعًا، و"هو قبلة المسلمين في الصّلاة والدّعاء، وإليه تتّجه أنظارهم، وتهفو قلوبهم، أوّل بيت وضع معبدا للنّاس، وأسس لذكر الله فيه، وهذه الأوليّة في الزّمان، يلزمها الأوليّة في الشّرف والمكانة"[3].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ توكيدِ الكلامِ في قولِه: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ﴾:

قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ﴾ أُكِّدت فيه النِّسبة بتوكيدَين، هما: إنَّ، واللَّام، ولهذا التَّوكيدِ توجيهان:

الأوّل: أنَّه لمَّا عاب اليهود على المسلمين استقبال البيت الحرام

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرَّاغب، المفردات: (وضع).
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 1/474، وأبو حيَّان، البحر المحيط: 3/259، والتَّحرير والتَّنوير: 4/12.
(3) الحجازيّ، التّفسير الواضح، ص: 256.

في الصَّلاة - بعد أن كانوا يستقبلون المسجد الأقصى - ردَّ الله تعالى عليهم عيبَهم؛ بتأكيد أنَّ البيت الحرام هو أوَّل بيت وُضِع للنَّاس، وأنَّه من شعائر إبراهيم عليه السلام الَّتي كفر اليهود بتركها[1]، فهو ردٌّ عليهم وإلقامُهم الحجرَ، إذ إنَّ الأوليَّة أصلٌ متبوعٌ لا تابعٌ، وحسُنَ التَّوكيدُ لبيانِ ما يجولُ في نفوسِ المُنكرين والمُتشكِّكين.

الأولـيَّـةُ أصـلٌ متبوعٌ لا تابعٌ؛ ومَنْ عَكسَ فقد انتكَسَ

الثَّاني: إنَّ التَّأكيد في الآية إنَّما هو لمجرَّد الاهتمام، وأنَّ ﴿إِنَّ﴾ وما بعدها واقعة موقعَ التَّعليل للأمر الإلهيِّ المتقدِّم في قوله تعالى: ﴿فَٱتَّبِعُواْ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ﴾، فـ ﴿إِنَّ﴾هنا: كفاء التَّفريع من حيث إفادتُها للرَّبط بين الجملتين[2]، "وَبَيَانُ وَجْهِ التَّعْلِيلِ أَنَّ هَذَا الْبَيْتَ لَمَّا كَانَ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلْهُدَى وَإِعْلَانِ تَوْحِيدِ اللَّهِ لِيَكُونَ عَلَمًا مَشْهُودًا بِالْحِسِّ عَلَى مَعْنَى الْوَحْدَانِيَّةِ وَنَفْيِ الْإِشْرَاكِ، فَقَدْ كَانَ جَامِعًا لِدَلَائِلِ الْحَنِيفِيَّةِ، فَإِذَا ثَبَتَ لَهُ شَرَفُ الْأَوَّلِيَّةِ وَدَوَامُ الْحُرْمَةِ عَلَى مَمَرِّ الْعُصُورِ، دُونَ غَيْرِهِ مِنَ الْهَيَاكِلِ الدِّينِيَّةِ الَّتِي نَشَأَتْ بعده، وَهُوَ مائل، كَانَ ذَلِكَ دَلَالَةً إِلَهِيَّةً عَلَى أَنَّهُ بِمَحَلِّ الْعِنَايَةِ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى، فَدَلَّ عَلَى أَنَّ الدِّينَ الَّذِي قَارَنَ إِقَامَتَهُ هُوَ الدِّينُ الْمُرَادُ لله، وَهَذَا يؤول إِلَى مَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ﴾ [آل عمران: 19]"[3].

الاهتمامُ بأوليَّةِ البيتِ وجعله تعليلًا لاتِّباعِ إبراهيم

توجيهُ المخصوصِ بذكرِ الأوَّليَّة في قوله: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيۡتٖ وُضِعَ لِلنَّاسِ﴾:

في قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيۡتٖ وُضِعَ لِلنَّاسِ﴾ فُضِّل البيت الحرام بكونه أوَّل بيتٍ أُسِّس لعبادة الله؛ لأنَّ مواضع العبادة؛ وإن كانت سواءً من جهة العبادة نفسها إلا أنَّها تتفاضل بطول الزَّمن المتعبَّد لله فيها، وكذلك بنسبتها لواضعها وبانيها، وحُسْن قصده فيها، وقد جمع البيت الحرامُ كلَّ هذه المزايا[4].

الأولـيَّـةُ تـدلُّ عـلى الـرُّسـوخِ والأصـالـةِ والفضْلِ

(1) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 5/5.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/11.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/11 - 12.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/15.

دلالةُ البناءِ للمفعولِ في: ﴿وُضِعَ لِلنَّاسِ﴾:

الإشـارةُ إلى أنَّ وضعَ البيتِ كان قبـل إبـراهيـم عليه السلام

جاء فعلُ ﴿وُضِعَ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ﴾ مبنيًّا للمفعول، ولم يُسمَّ الفاعلُ الذي وضعَ البيتَ، إشارةً إلى أنَّ البيت الحرام قد وُضع قبل إبراهيم عليه السلام وأنَّ الَّذي قام إبراهيم به هو رفعُ القواعد[1].

كما أنَّ في حذف الفاعل وبناء ﴿وُضِعَ﴾ للمفعول أيضًا إشعارًا بإجلال واضع البيت وتعظيمِه؛ إذ الفاعل قد يُحذف من الكلام تعظيمًا له وتبجيلًا[2].

فائدةُ التعريفِ بالموصوليَّةِ في قولِه: ﴿لَلَّذِى بِبَكَّةَ﴾:

تعظيمُ البيتِ وتفخيمُه وتضمينُ الموصولِ معنى الإشارةِ

قوله تعالى: ﴿لَلَّذِى بِبَكَّةَ﴾ عُرِّف فيه البيت الحرام بالموصوليَّة، وتُرِك غيره من الأسماء كالكعبة الذي صار علَمًا بالغلَبة عليه، ووجه ذلك أنَّ التعريف بالموصوليَّة أقرب في تعيين البيت الحرام للسَّامعين؛ إذ لم يكن في مكَّة عند نزول الآية بيت للعبادة غيرَ البيت الحرام، أمَّا الكعبة؛ فقد أُطلقت في الجاهليَّة على غير البيت الحرام، كالكعبة اليمانيَّة والكعبة الشاميَّة اللتين بناهما بعض العرب الجاهليِّين قبل الإسلام[3].

كما أنَّ التعريف بالموصوليَّة أفاد تفخيم المعرَّف بالصِّلة، وهو البيت؛ إذ قد اكتُفي في تعيينه بأنَّه هو الَّذي بمكَّة، وهي أشرف البقاع يومئذ[4]، وكذلك أفاد الاسمُ الموصولُ معنى الإشارةِ، فكأنَّه قيل: ذلك الذي تعرفونه ببكةَ، فهو المعروفُ في أذهانِكم وعلمِكم ورأتْه عيونُكُم.

(1) أبو حيَّان، البحر المحيط: 3/268، والبقاعيُّ، نظم الدرر: 5/6.
(2) الطيبيُّ، فتوح الغيب: 4/186.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/13.
(4) أبو السُّعود، إرشاد العقل السليم: 2/60.

دلالة اختيار لفظ بكَّة دون غيرها من الألفاظِ:

مناسبة الاسم الأول لمكَّة عند ذكر أوَّليَّة بناء البيت

في اختيارِ هذا الاسمِ في خصوصِ هذا السِّياقِ وهو التَّصريحُ بالأوليَّةِ، إشارةٌ إلى أن (بكة) هو الاسم الأوَّلُ لهذا البيت، ويظهر أنَّ لاتحادِّ الباء والميم في المخرجِ، وسهولَةِ جريانِ الميم على الألسنِ؛ أصبحت مكة، وفيه إعجاز غيبيٌّ في الإشارةِ إلى الاسمِ القديمِ لهذا البيتِ، ومن بابِ الاستئناس فإنَّ (بكَّة) في اللُّغة الكِلْدانيَّة - لغة إبراهيم عليه السلام - تعني: البلدة، كما في حكاية القرآن عن النَّبيِّ ﷺ: ﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ﴾ [النمل: 91]، وعن إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا﴾ [إبراهيم: 35][1].

نكتةُ المجازِ بالحذف في قولِه: ﴿وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ﴾:

من حادَ عن البيتِ حادَ عن الهدايةِ وسقطَ في الغوايةِ

في وصف البيت الحرام بأنَّه ﴿وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ مجاز؛ إذ جُعِل البيت لما يتضمَّنه من آيات بيِّنات وهدًى للناس، كأنَّه هو الهدى نفسه، فـ: ﴿وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ﴾، أي: ذا هدًى، فهو مجاز بالحذف، نحو: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ [يوسف: 82]، أي: أهلَها[2]، ونكتتُه أنَّ من حادَ عنه في القبلةِ واتِّباعِ مِلَّةِ من رفعَ قواعدَه فهو الضَّالُّ المُفصِحُ عن ضلالتِه، والمُبيِّنُ لآفةِ خسارتِه.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/13.
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 1/475.

﴿فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبۡرَٰهِيمَۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنٗاۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلۡبَيۡتِ مَنِ ٱسۡتَطَاعَ إِلَيۡهِ سَبِيلٗاۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٩٧﴾ [آل عمران: 97]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الرّبط بين أوّليّة المسجد الحرام، واتّخاذه موضعًا لأداء الحجّ لله

بعد أن أخبر الله تعالى في الآية السَّابقة، أنَّ البيت الحرام هو أوَّل بيت وُضِع للنَّاس، وأنَّه مبارك وهدًى للعالمين، ذكر في هذه الآية بعض العلامات الواضحات في هذا البيت، من وجود مقام إبراهيم به، وأَمْنِ من دخلَه، وغيرهما من الآيات، ثمّ ذكر وجوب حجِّه على من استطاع إليه سبيلًا، وذكر مجاهد أنّ المسلمين واليهود تفاخروا، فقالت اليهود: بيت المقدس أفضل وأعظم من الكعبة، لأنّه مهاجر الأنبياء، وفي الأرض المقدّسة، وقال المسلمون: بل الكعبة أفضل، فأنزل الله تعالى هذه الآية والآية الّتي قبلها، إبرازًا للحقيقة، ووضعًا للأمور في نصابها، وتأكيدًا أنّ المسجد الحرام سابق في الأوّليّة والأفضليّة[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مَّقَامُ إِبۡرَٰهِيمَۖ﴾: مقام اسم مكان من قامَ، واختلف في المراد بـ قوله: ﴿مَّقَامُ إِبۡرَٰهِيمَۖ﴾: فقيل: هو الحجر المعروف، وهو الأظهر، وقيل: هو البيت الحرام كلُّه؛ لأنَّ إبراهيم بناه، وقام في جميع أنحائه، وقيل: مكَّة كلُّها مقام إبراهيم[2]، (وَالْمَقَامُ) بِالْفَتْحِ مَوْضِعُ الْقِيَامِ (وَمِنْهُ) مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَهُوَ الْحَجَرُ الَّذِي فِيهِ أَثَرُ قَدَمَيْهِ وَهُوَ مَوْضِعُهُ أَيْضًا (وَأَمَّا الْمُقَامُ) بِالضَّمِّ فَمَوْضِعُ الْإِقَامَةِ وَقَامَتْ عَلَيْهِ الدَّابَّةُ، كَلَّتْ حَتَّى وَقَفَتْ فَلَمْ تَبْرَحْ مَكَانَهَا[3].

(1) الزّحيلّي، التّفسير الوسيط: 1/217.
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 1/476.
(3) المُطَرِّزِيّ، المغرب: (قوم).

2) ﴿حِجُّ ٱلۡبَيۡتِ﴾: الحِجُّ والحَجُّ مصدر: حجَّ فلانٌ؛ إذا قصَدَ مكانًا للزِّيارة، ثم صار حقيقة شرعيَّة، بمعنى: قصدِ زيارة البيت الحرام على وجه مخصوص، وكسرُ الحاء وفتحها فيه لغتان، وقيل: الحَجُّ - بالفتح - هو المصدر، والحِجُّ - بالكسر - هو الاسم، وبكسر الحاء قرأ حفصٌ وحمزة والكسائيُّ وخلف وأبو جعفر، وبفتحها قرأ باقي العشرة[1].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

علامات تشريف البيت الحرام، بالحجّ به لله، وإبراز قدسيّة المقام

في بيت اللّه الحرام علامات واضحات على شرفه وفضله، منها مقام إبراهيم - وهو الحجَر الذي كان يقوم عليه عند بناء البيت - ومنها أمن مَن دخله استجابةً لدعوة إبراهيم: ﴿رَبِّ ٱجۡعَلۡ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا﴾ [البقرة: 126]، "وحجّ هذا البيت واجب على المستطيع من النّاس، ومن أبى وتمرّد على أمر اللّه، وجحد دينه، فالخسران عائد عليه، وإنّ اللّه غنيٌّ عن هذا العاصي، وعن النّاس كلّهم[2].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالة الفَصْل في قولِه: ﴿فِيهِ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ﴾:

الاستئنافُ للتَّنبيه على ما في البيتِ من المناقبِ والمزايا

قوله تعالى: ﴿فِيهِ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ﴾ اسْتِئْنَافُ ثَنَاءٍ عَلَى هَذَا الْبَيْتِ بِمَا حَفَّ بِهِ مِنَ الْمَنَاقِبِ وَالْمَزَايَا فَغُيِّرَ الْأُسْلُوبُ لِلِاهْتِمَامِ، فأتتِ الجملةُ مستأنفةً غيرَ موصولةٍ بما قبلَها مع مَا بَيْنَهُما من الاتِّصال، وإنَّما فُصِلت عمَّا قبلها، ولم تُعطَف عليه بالواو؛ لئلَّا يُتوهَّم أنَّ الواو فيها هي واو الحال، فيلتبس المعنى على السَّامع، فكان الفصل هو الأفصحَ؛ دفعًا للَّبس[3].

(1) الرَّاغب، المفردات: (حج)، والبيضاويُّ، أنوار التّنزيل: 2/29، وابن الجزريّ، النّشر: 2/241.
(2) لجنة من علماء الأزهر، المنتخب في تفسير القرآن الكريم، ص: 86.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/13.

دلالة استعمالِ الظرفِ في قولِه: ﴿فِيهِ ءَايَٰتٌ﴾:

الآيـاتُ راسخةٌ ومتمكِّنةٌ من البيتِ

الظَّرفيَّة في قوله تعالى: ﴿فِيهِ ءَايَٰتٌ﴾ مجازيَّة؛ لأنَّ الآيات المذكورة كمقام إبراهيم وأمان من دخل البيت الحرام ليست موجودةً داخل البيت، أي: بين جُدرانه، لكن لَمَّا كان البيت وُضع للناس بحرَمه وفضائله؛ ساغ إطلاق أنَّ الآياتِ فيه؛ تجوُّزًا[1]، وأفاد معنى المبالغة والتَّصويرِ، فكأنَّ الآيات قائمةٌ فيه، تمكُّنًا ورسوخًا.

علَّةُ وَصْفِ الآياتِ بالبيِّنات:

ظهورُ الآياتِ للنَّاسِ يجعلُه بيِّنةً

وَصفَ اللّٰه تعالى الآيات بأنّها بيِّناتٌ في قوله تعالى: ﴿ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ﴾؛ لأنّها ظاهرة في عِلْم المخاطَبين، وأظهر ذلك ما يسَّرَه اللّٰه تعالى لأهل الحرم وزائريه من الأمن والمنافع الدِّينيَّة والدُّنيويَّة، ممَّا كان متَّفَقًا عليه بين العرب من قبل ظهور الإسلام[2].

نكتةُ بيانِ الجمعِ بالمفردِ في قولِه: ﴿ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ﴾:

قيل في قوله تعالى: ﴿مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ﴾ بأنَّه خبرُ مبتدأٍ محذوفٍ، وقيل: عطف بيان[3]، أمّا على إعرابِه خبرًا لمبتدأٍ محذوفٍ ففيه مجازٌ بحذف المسنَدِ إليه، تقديره: هو مقام إبراهيم، وهو كحذفِ المبتدأ مع نعم وبئس وما جرى مجراهما، ومنه قول العرب: رمية من غير رامٍ، أي: هي رمية[4].

تضمينُ آيةِ المقامِ آياتٍ عدَّةً

وعلى إعرابه عطفَ بيانٍ؛ فيُسأل عن سرِّ بيان الجمع في قوله: ﴿ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ﴾ بالمفرد في قولِه: ﴿مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ﴾؟ والجواب: أنَّه لكون مقام إبراهيم بمنزلة آيات متعدِّدة؛ لقوَّة دلالته على قدرة اللّٰه تعالى ونبوَّة إبراهيم عليه السلام، أو لاشتماله على عدَّة آيات كأثرِ القَدَمِ

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 1/475.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/17.
(3) السَّمين، الدُّرُّ المصون: 3/317 - 320.
(4) الدَّمنهوريُّ، حلية اللُّبِّ المصون، ص: 49، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/17.

في الصَّخرة الصَّمَّاء، وإلانةِ بعض الصَّخر دون بعضه، وإبقائه دون غيره من معجزات الأنبياء، وحفظِه مع كثرة أعدائه من المشركين وأهل الكتاب[1].

الإنشاء بلفظ الخبر في: ﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا﴾:

الوعيد الضِّمنيُّ يقتضي الأمـانَ لِدَاخِلِ البيتِ

ذهب كثير من العلماء إلى أنَّ قوله تعالى: ﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا﴾ أمرٌ جاءَ في صيغة الخبر، ومعناه: ومن دخله؛ فأمِّنوه بأمان الله، وجاء الأمر هنا بصيغة الطَّلب حملًا للمخاطَبين على فعل المطلوب منهم، كقوله تعالى: ﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ۚ﴾ [البقرة: 233][2]، وهذا الإخبارُ يقتضي الوعيدَ لمن خوَّف من هو داخلَ الحرمِ بنوعِ أذى، ومنه أُخِذَت دلالةُ الأمرِ.

دلالة الإشارةِ في قوله تعالى: ﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا﴾:

أهلُ مكَّة آمنون أمانًا أصيلًا لا يكونُ لغيرِهم

وقوله تعالى: ﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا﴾ فيه امتنان بأمان من دخل البيت الحرام وأهل مكَّة من النَّهب والغارات الَّتي كانت شائعة في جزيرة العرب قبل الإسلام، ويُفهَم من هذا الامتنان بقياس الأَولى الامتنانُ على أهل مكَّة بأمانهم دون سائر العرب يومئذٍ، كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ۚ﴾ [العنكبوت: 67][3].

سببُ عطفِ قولِهِ: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ على السَّابقِ:

حجُّ البيتِ حالٌ لازمةٌ له إلى يومِ القيامةِ

قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ وُصِلت هذه الجملة بما قبلها بعطفها عليه بالواو، وَالتَّقْدِيرُ: مُبَارَكًا وَهُدًى، وَوَاجِبًا حَجُّهُ، فَهُوَ عَطْفٌ عَلَى الْأَحْوَالِ. ووجه ذلك أنَّ الحكم بإيجاب الحجِّ فيه تنويه بشأن البيت الحرام، وكون حجِّه حقًّا لله على النَّاس، فناسب ذلك

(1) الزَّمخشريُّ، الكشَّاف: 1/387.
(2) الثعلبيُّ، الكشف والبيان: 9/18.
(3) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 5/8.

ما قبله من الامتنان بأمن داخله واشتماله على الآيات البيِّنات، فحسُن وصلُه به[1].

الحجُّ عبادة عظيمة حريٌّ التَّنويه بها في سياقِ الرَّدِّ على أهل الكتابِ:

وفي حديث القرآن عن الحجِّ - بعد الرَّدِّ على أهل الكتاب، وبيان مخالفتهم لملَّة إبراهيم، قبل أن يعود الكلام إلى الرَّدِّ عليهم وإقامة الحجَّة عليهم - دلالةٌ على الشَّأن العظيم والخطب الجليل لهذه العبادة الَّتي اقتضَتْ مناسبةُ ذكرِ بعض متعلِّقاتها التَّنويهَ بشأنها، والتنبيهَ على فرضيَّتِها على جميع النَّاس[2].

نكتةُ التَّعبيرِ بالاسمِ العظيم في: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾:

مقتضى الحجِّ تحقيقُ الألوهيَّة وتعظيمُ الرُّبوبيّة

عُبِّر بلفظ الجلالة خاصَّة دون سائر أسماء الله تعالى وصفاته في قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ﴾؛ لِمَا تفيده هذه الجملة من وجوب زيارة البيت الحرام على النَّاس زيارة مخصوصة، خاضعين مستسلمين لله تعالى، فكان لفظ الجلالة أنسب من غيره لما يدلُّ عليه من عِزَّة الألوهيَّة وكبرياء الربوبيَّة، فكأنَّه قيل: وللملك - الَّذي له الأمرُ كلُّه - على النَّاس أن يحُجُّوا البيت[3].

دلالة تقديم الخبر: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾:

الحجُّ عبادة تختصُّ بالله تعالى

قُدِّم الخبر على المبتدأ في قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ﴾؛ للدَّلالة على تخصيص الخبر به وقصره عليه، فأفاد ذلك أنَّ الحجَّ عبادة لا تختصُّ إلَّا بمعبود جامع للكمالات كلِّها، وهو الله تعالى[4]، وفي ذلك تنبيهٌ على ما كان في الجاهليّة من الحجِّ لغيرِ الله تعالى.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/21.
(2) الآلوسيُّ، روح المعاني: 2/230.
(3) الرّازي، مفاتيح الغيب: 8/306، والبقاعيُّ، نظم الدُّرر: 5/8.
(4) الطِّيبيُّ، فتوح الغيب: 4/192.

معنى اللّام في قوله: ﴿وَلِلَّهِ﴾:

الحج عبادة مستحقَّة لله في ذمَّة جميع الناس

لام الجرِّ في قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ للاستحقاق، كما في قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾ [الفاتحة: 2]، وفيها دلالةٌ على أنَّ الحجَّ عبادة مستحقَّة لله تعالى في ذمَّة جميع الناس ممَّن يستطيع الحجَّ[1].

سرُّ التَّعبير بحرف الجرِّ ﴿عَلَى﴾ في: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾:

الحجُّ فرض من الله العليِّ القاهر

يؤكِّد حرفُ الجرِّ ﴿عَلَى﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ الدَّلالة على وجوب الحقِّ، وذلك لِمَا يدلُّ عليه ﴿عَلَى﴾ في هذا السِّياق من معنى الاستعلاء والقهْر[2]؛ ليكون النَّاس أكثرَ طواعيةً للأمر القاهر من الله تعالى، الذي استحقَّ من النَّاسِ جميعًا هذه العبادة.

دلالة وضع الاسم الظَّاهِر موضعَ الضَّمير في ﴿عَلَى ٱلنَّاسِ﴾:

الإشعار بعِلِّيَّة وجوب الحجِّ

أُقيم الاسم الظَّاهر في قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ مُقام الضَّمير، فلم يقل تعالى: ولله عليكم أو نحو ذلك؛ وذلك لأمرين:

الأوّل: الاسم الظَّاهر هنا مشعِر بعلِّيَّة وجوب الحجِّ، لأنَّ المخاطَبين بفرَضيَّتِهِ ناسٌ، أي: عبيد لربِّهم، مفتقرون إلى طاعته ورضاه، سواء عرفوا الحكمة من هذه العبادة أم لا[3].

الحجُّ فريضة على جميع النَّاس لا العربِ وحدَهم

الثَّاني: الدّلالةُ على شمول فرضِ الحجِّ جميعَ النَّاس، فهو غير خاصٍّ بالمخاطبين بالقرآن أصالة من الصَّحابة أو العرب وحدهم، وإنَّما هو فرض عامٌّ على النَّاس على اختلاف ألسنتهم وألوانهم[4].

سرُّ ذكر البيتِ في قولِه: ﴿حِجُّ ٱلْبَيْتِ﴾:

في قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ﴾ وُضع الاسمُ الظَّاهر

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/22.
(2) الرّازي، مفاتيح الغيب: 8/306.
(3) الرّازي، مفاتيح الغيب: 8/306، والآلوسيُّ، روح المعاني: 2/230.
(4) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 5/8.

التَّنويه بذكر البيت الحرام

وهو ﴿ٱلۡبَيۡتِ﴾ ولم يقل: ولله على الناس الحجُّ، للتَّنويه بذكر البيت الحرام وتفخيمه، وإشارة إلى أنَّ هذا البيت حريٌّ بالحكم المتعلِّق به من قصدِه بالحجِّ وتحمُّلِ المشاقِّ لأجل زيارته[1].

دلالة التَّعبير بالجملة الاسميَّة في: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلۡبَيۡتِ﴾:

الحجُّ حقٌّ ثابتٌ لله في رقاب النَّاس

في الجملة الاسميَّة بقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلۡبَيۡتِ﴾ دلالة على ثبوت فرض الحَجِّ ودوام هذا الحقِّ لله في رقاب النَّاس، بحيث لا يخرجون من عُهدته إلَّا بأدائه، وذلك لِمَا تدلُّ عليه الجملة الاسميَّة من الثُّبوت والدَّوام[2]، ولما في القصر بطريق التَّقديم من تمكين المعنى وتقويته.

فائدةُ البدلِ في قولِه: ﴿مَنِ ٱسۡتَطَاعَ إِلَيۡهِ سَبِيلٗاۚ﴾:

تعيينُ صفةِ مَن يجب عليه الحجُّ، وتبيينُهُ بعد إجماله

أُبدل الاسم الموصول ﴿مَنِ﴾ في قوله تعالى: ﴿مَنِ ٱسۡتَطَاعَ إِلَيۡهِ سَبِيلٗاۚ﴾ من ﴿ٱلنَّاسِ﴾، وفي هذا الإبدال أدلَّة عدَّة على تشديد أمر الحجِّ وتأكيد العناية به: فمنها تثنية ذكر المراد بتكرير من يجب عليه الحجُّ مرَّتين: مرَّة بلفظ ﴿ٱلنَّاسِ﴾ ومرَّة بلفظ ﴿مَنِ ٱسۡتَطَاعَ إِلَيۡهِ سَبِيلٗاۚ﴾، ومنها ما يقتضيه هذا البيان بعد الإجمال الَّذي في ﴿ٱلنَّاسِ﴾ من ذكر المراد بصورتين مختلفتين[3].

تخصيص الحجِّ بالمستطيع مما يقتضي الشُّكر

وفي هذا الإبدال حملٌ للمخاطَبين بعبادة الحجِّ على شكر الله تعالى لما يدلُّ عليه التَّخصيص بـ ﴿مَنِ ٱسۡتَطَاعَ إِلَيۡهِ سَبِيلٗاۚ﴾ بعد التَّعميم الَّذي في ﴿ٱلنَّاسِ﴾ من تخفيف الحكم وتيسيره[4].

دلالة تقديم المتعلِّق في قولِه: ﴿مَنِ ٱسۡتَطَاعَ إِلَيۡهِ سَبِيلٗاۚ﴾:

قدِّم المتعلِّق - وهو ﴿إِلَيۡهِ﴾ - على المتعلَّق به، وهو ﴿سَبِيلٗاۚ﴾ في

(1) الطِّيبيُّ، فتوح الغيب: 4/193، والبقاعيُّ، نظم الدُّرر: 5/9.
(2) البيضاويُّ، أنوار التَّنزيل: 2/30، والآلوسيُّ، روح المعاني: 2/230.
(3) الرّازي، مفاتيح الغيب: 8/306، وأبو حيَّان، البحر المحيط: 3/274.
(4) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 5/9.

تقديم المتعلِّقِ دليـــلٌ على الاهتمامِ بشأنه

قوله تعالى: ﴿مَنِ ٱسۡتَطَاعَ إِلَيۡهِ سَبِيلٗاۚ﴾، ومقتضى الظَّاهر أن يقال: من استطاع سبيلاً إليه، وفي هذا التَّقديم دلالة على الاهتمام بشأن المتعلِّق لما يتضمَّنه من معنى الإيصال والإفضاء، وهو كقوله تعالى: ﴿فَهَلۡ إِلَىٰ خُرُوجٖ مِّن سَبِيلٖ ١١﴾ [غافر: 11][1].

بلاغةُ استعارةِ السَّبيل عن كُلفةِ الحجِّ:

الـقـدرةُ الـتَّـامّـةُ هي شرطُ الحجِّ

وفي التَّعبير بالسَّبيل في قوله تعالى: ﴿مَنِ ٱسۡتَطَاعَ إِلَيۡهِ سَبِيلٗاۚ﴾ استعارة، إذ السَّبيل في اللُّغة هو الطَّريق، وعُبِّرَ به هنا عمَّا يَتمكَّن به المكلَّف بالحجِّ منه من الزَّاد والرَّاحلة، وسائر شروط صحَّة الحجِّ، فشُبِّهت هذه الشُّروط بالطَّريق الذي لا يوصَل إلى الحجِّ إلَّا بعبوره، والسُّلوك مِن مَجَازِهِ إليه[2].

سرُّ العدولِ عن ذكر عدمِ الحجِّ إلى: ﴿وَمَن كَفَرَ﴾:

ترْك الحجِّ جملةً هو كُفرانٌ يَصدُرُ عن الكَفَرة

غلَّظ اللّٰه تعالى في قوله تعالى: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ أمر ترْكِ الحجِّ، وشدَّد على تاركه تشديدًا عظيمًا، فقال: ﴿وَمَن كَفَرَ﴾ بدل: ومن لم يحجَّ؛ لأنَّ ترْك الحجِّ بالكُلِّيَّة إنَّما هو من فعل الكفَرة، فذُكر الكفر هنا تشبيهًا بصنيع تارك الحجِّ بأنَّه كصنيع من لا يؤمن باللّٰه ورسله وفضيلةِ حَرَمِه، وفي هذا توكيد لفرضيَّة الحجِّ يضاف إلى التَّوكيدات السَّابقة واللَّاحقة، ومثله في التَّغليظ ما روي عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال: "من لم يحبسْه مرضٌ، أو حاجةٌ ظاهرةٌ، أو سُلطانٌ جائرٌ - ولم يحُجَّ - فليَمُتْ: إن شاء يهوديًّا أو نَصرانيًّا"[3][4].

وقيل: إنَّ اللّٰه تعالى سمَّى ترْك الحجِّ كفرًا، لكنَّه كُفْر دون كفر، فهو كُفر بالنِّعمة، لا كفرٌ مُخرِج من الدِّين.

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السليم: 2/61.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/22.
(3) رواه البيهقيُّ في السُّنن الكبرى: 9/227، الحديث رقم: (8733)، عن أبي أمامة مرفوعًا، وإسناده ضعيف.
(4) البيضاويُّ، أنوار التَّنزيل: 2/30، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السليم: 2/62.

وقيل: إنَّ الكفر في الآية على ظاهره، والمراد به هو الكفر بالإسلام، وفائدة ذكره هي التَّعريض بالمشركين بأنَّ حجَّهم الذي كانوا يحجُّونه في الجاهليَّة غير مقبول عند الله، وأنَّ المقبول عنده تعالى: هو حجُّ المؤمنين والموحِّدين[1].

دلالةُ التَّذييل في قولِه: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾:

الله غنيٌّ عن عبادةِ العالمين، ونفعُ الحجِّ يعود على العبادِ

في ذكر استغناء الله تعالى عن جميع العالمين في قولِه: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ بعد التَّنصيص على فريضة الحجِّ توكيد لكونِ الحجِّ من مقتضيات الإيمان، وأنَّ مباشِرَه مستأهلٌ رضا الله تعالى وثوابه، أمَّا تاركه؛ فإنَّه تعالى غير مكترثٍ به، وكفى بذلك إيذانًا بالسُّخط والغضب[2]، لاسيَّما أنَّ تفريعَ الاستغناءِ كان عن ترك الحجِّ جملةً مع عدمِ الإيمانِ.

وفي ذكر الله تعالى غناه عن جميع العالمين في هذا الموضع إشارة إلى أنَّ أمرَ الله عبادَه بالحجِّ: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ﴾ ليس لحاجة به - جلَّ وعلا - بل لأنَّ منفعة الحجِّ الدُّنيويَّة والأخرويَّة، للحاجِّ نفسه، واستغناء الله تعالى عن الخلق كامل شامل لجميع الوجوه، وليس هو مفتقرًا لحجِّ أحد ولا عبادته[3].

دلالة وضع الظَّاهر موضع الضَّمير في: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾:

التَّنبيهُ بالأعمِّ على الأخصِّ في سياقِ الذَّمِّ أشدُّ في الذَّمِّ

في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ جاءَ الاسمُ الظَّاهر موضعَ الضَّميرِ، فلم يقل تعالى: (غنيٌّ عنه)؛ للدّلالةِ على العموم؛ فذكرُ استغنائه تعالى عن جميعِ العالمين أدلُّ في السُّخط على تارك الحجِّ من ذكر استغنائه عنه وحدَه، حتَّى إنَّه أسقط ذكر تارك الحجِّ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/24.
(2) الآلوسيُّ، روح المعاني: 2/230، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/24.
(3) الرَّاغب، تفسير الرَّاغب: 2/745.

تمامًا، إسقاطًا له من درجة الاعتبار، واستهجانًا لذكره، وفي هذا دليل على شدَّة غضبه تعالى على تارك الحجِّ[1].

تقديرُ جوابِ الشَّرطِ لقولِه تعالى: ﴿وَمَن كَفَرَ﴾:

قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ لما كان يُفهم منه بطريق الكناية سخط الله تعالى على من كفر؛ صحَّ أن يقع جوابًا للشَّرط، وقيل: الجملة دليل جواب الشَّرط، لا الجواب نفسه[2].

من المحسِّنات البديعيَّة في الآية:

الاحتباك في إثبات فرض الحجِّ وذكر كُفر من جحده

في الآية احتباك[3]؛ فلمَّا أثبَتَ فرض الحجِّ في قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ﴾ دلَّ على كُفر مَن أنكره، وقوله تعالى: ﴿وَمَن كَفَرَ﴾ دلَّ على إيمان من حجَّ، فحُذِف من الجملة الأولى ما أُثبت نظيره في الثَّانية، ومن الثَّانية ما أُثبت نظيره في الأُولى[4].

(1) الزَّمخشريُّ، الكشَّاف: 1/390، وابن عطية، المحرر الوجيز: 1/480، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السليم: 2/62.

(2) الآلوسيُّ، روح المعاني: 2/229.

(3) وهو أن تُذكر جملتان متقابلتان، ويُحذف في الأولى منهما ما ثبت نظيره في الثَّانية، وفي الثَّانية ما ثبت نظيره في الأولى، يُنظر: السِّيوطي، شرح عقود الجمان، ص: 133

(4) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 5/10.

﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعۡمَلُونَ ٩٨﴾ [آل عمران: 98]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

بعد إقامة الحجّة على اليهود، جاء السّؤال عن دواعي الكفر بعد ذلك

بعد أن أقام اللّه تعالى الحُجَّة على اليهود في الآيات السَّابقة في أمر نبوَّة النَّبيِّ ﷺ، وأبطل شُبَهَهم واحدةً تلو الأخرى، عقلًا وسمعًا؛ أمَرَ نبيَّه ﷺ أن يسألهم سؤالًا إنكاريًّا توبيخيًّا، عن إصرارهم على الكفر بآيات اللّه، مع أنَّه شهيد عليهم، عليم بهم، فقال لهم: "يا أهل الكتاب لا وجه لكفركم، فلأيّ سبب تكفرون بدلائل اللّه الدّالّة على نبوّة محمّد وصدقه، واللّه مطّلع على أعمالكم ومجازيكم عليها."[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿شَهِيدٌ﴾: الشّهيد من أسماء اللّه ﷻ، فهو الأمين في شهادته، وقيل هو الّذي لا يغيب عنه شيء[2]، وفي القرآن: ﴿قُلۡ أَيُّ شَيۡءٍ أَكۡبَرُ شَهَٰدَةٗۖ قُلِ ٱللَّهُۖ شَهِيدُۢ بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡۚ﴾ [الأنعام: 19]، ومعناه: " واللّهُ شهيدٌ بيني وبينكم في كلّ اختلاف بيننا وبينكم، في التّوحيد، وإثبات الرّسالة، والبعث، وكلّ شيء"[3]، "وأمّا الشّهيد، فقال ابن قتيبة: هو بمعنى الشّاهد، وقال الخطابيّ: هو الّذي لا يغيب عنه شيء، كأنّه الحاضر الشّاهد"[4]، وفي قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعۡمَلُونَ﴾: "تهديد لهم، ووعيد بسوء المصير، جزاء أعمالهم المنكرة، وكفرهم العناديّ.. وذلك كلّه واقع في علم اللّه، الّذي لا تخفى عليه خافية"[5].

(1) لجنة من علماء الأزهر، المنتخب في تفسير القرآن الكريم: 5/10.
(2) الأزهري، الزّاهر في غريب ألفاظ الشافعيّ، ص: 92.
(3) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنة: 4/40.
(4) ابن الجوزيّ، زاد المسير: 1/309.
(5) الخطيب، التّفسير القرآنّي: 2/537.

2) ﴿مَا تَعۡمَلُونَ﴾: قال ابن عبّاس: يريد أنّه حاضر لأعمالكم، ومعنى الآية: أن اللّه تعالى وبّخهم على كفرهم، وأخبر أنّه لا ينفعهم الاستمرار به، لأنّه شهيد على أعمالهم[1]، والمعنى: لم تكفرون بآيات اللّهِ الّتي دلّتكم على صدق محمّد ﷺ والحال أنّ اللّهَ شهيد على أعمالكم فمجازيكم عليها، وهذه الحال توجب أن لا تجسروا على الكفر بآياته"[2]، وعبارة: ﴿وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعۡمَلُونَ﴾، جملة حاليّة فيها تهديد ووعيد[3].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

توبيخ اليهود على كفرهم بالبيّنات الواضحة، وإحاطة علم الله بالأسرار المخبّأة

قل لهم أيُّها النَّبيُّ: يا أهل الكتاب لِمَ تجحدون - بما في كتابكم وغيره - من البراهين الواضحة على صدق النَّبيِّ ﷺ، مع أنَّ اللّه تعالى مطَّلِع على أعمالكم، ومحيطٌ بها علمًا؟ "فلم تعاندون الحقّ وتكفرون بآيات اللّه السّمعيّة والعقليّة الدّالة على صدقي فيما أبلّغه عن ربّي، والحال أنّ اللّه مطّلع عليكم، وعالم علم المعاين المشاهد لأعمالكم الظّاهرة والخفيّة، وسيجازيكم عليها بما تستحقّونه من عقاب أليم"[4].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

الفرق بين: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ و﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾:

الخطابُ الإلهيُّ المباشرُ يدلُّ على ترجيح كفَّةِ اللِّين

أمر اللّه تعالى نبيَّه ﷺ في قوله تعالى: ﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ بخطاب أهل الكتاب، وقد خاطبهم اللّه تعالى في مواضع أخرى مباشرة دون أمرِ النبيِّ ﷺ بقولِه: ﴿قُلۡ﴾، كقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمۡ تَشۡهَدُونَ ٧٠﴾ [آل عمران: 70]، وفي

(1) الواحديّ، الوسيط: 1/471.
(2) الزمّخشريّ، الكشّاف: 1/392.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/279.
(4) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 2/194.

مجيء الخطاب بـ ﴿قُلۡ﴾ - كما في هذه الآية، والَّتي تليها - دلالة على إعراضه ﷻ عن المخاطَبين، وإشارة إلى كونهم غير مستأهلين خطابَهُ تعالى، وهو المناسب في هذا الموضع؛ لأنَّه تعالى بعد أن أتمَّ البراهين على نبوَّة النَّبيِّ ﷺ وأحكم الدَّلائل على صدق دعوته، لم يبادر المخاطَبون بهذه الدَّلائل والبيِّنات من أهل الكتاب إلى الإذعان لدين الإسلام، بل زادوا في طغيانهم، وحاولوا إيقاع الفتنة بين المسلمين، فاستحقُّوا ألَّا يُقبِل الله تعالى عليهم بلذيذ خطابه دون واسطة[1]، لاسيَّما بعد خطابِهم المباشر، فهذا التَّدرُّجُ في الخطابِ يدلُّ على أنَّ للين وقتًا، وللإعراضِ وقتًا آخر.

دلالة (يا) التَّنبيه مع الخطاب بالواسطة:

إضافةُ معنى البُعدِ فوق بُعدِ الخطاب بالواسطة

في إثبات (يا) التَّنبيه في قولِه: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ مع تقدُّم ﴿قُلۡ﴾ إشارة إلى بُعدِ المخاطبين من أهل الكتاب عن الحضرة الإلهيَّة، وذلك لكون (يا) النِّداء تُستعمل في نداء البعيد، فكان في إثباتها بعدٌ فوق البعد المستفاد من الخطاب بالواسطة في ﴿قُلۡ﴾[2].

دلالة تخصيص أهلِ الكتاب بالخطابِ:

كُفر العالم بصحَّة الإسلام أقوى من كُفر غيره

في تخصيص الله تعالى أهل الكتاب - في هذه الآية والَّتي تليها - بالخطاب دليل على أنَّ كفرهم أقبح من كفر غيرهم ممَّن لم يبلُغه وصفُ النَّبيِّ ﷺ ولم يطَّلع على صدق نبوَّته ﷺ ففي خطاب الله تعالى لهم بأهليَّة الكتاب المقتضية للإيمان به، وبما يصدِّقه تقبيح لحالهم من التكذيب به وبنبيِّه ﷺ[3]، فوصفُهم بأهلِ الكتابِ حجَّةٌ عليهم، فلمّا أعرضوا عن مقتضاها زادهم تقبيحًا وتشنيعًا.

وفي خطاب اليهود والنَّصارى المعاندين للنَّبيِّ ﷺ بـ (أهل

(1) أبو حيَّان، البحر المحيط: 3/280.
(2) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 5/10.
(3) البيضاويُّ، أنوار التنزيل: 2/30، والآلوسيُّ، روح المعاني: 2/231.

الكتاب) تنزُّل معهم، ومشيٌ على مصطلَحهم في التَّسمية، فكأنَّه قيل لهم: أيُّها المدَّعون للعلم واتِّباع الوحي؛ لأنَّ أهل الكتاب حقًّا هم المؤمنون بالله تعالى وبجميع أنبيائه وكُتبه[1].

خطابُ أهلِ الكتابِ بهذا الاسمِ بِعَدِّهِ الغالِبَ عليهم

وقد يكون إثبات أهليَّة الكتاب لليهود والنَّصارى المعانِدين لدين الإسلام من باب التهكُّم عليهم وذمِّهم على كفرهم بالنَّبيِّ ﷺ وهذا كما لو قيل لمنتسبٍ إلى الدِّين مُفسدٍ في الأرض: يا صاحب الدِّين، لِمَ تفعلُ هذا[2]؟

إضافةُ الكتابِ لمَنْ لا يعملُ به يدلُّ على التَّهكُّم

دلالة تعميم خطاب أهل الكتاب في الآية:

وفي تعميم الخطاب في الآية ومناداة جميع أهل الكتاب واستنكار كفرهم بآيات الله - وإن كان بعضهم قد دخل في دين الإسلام ككعب الأحبار وغيره - مبالَغة في زجرهم وتوبيخهم على عدم إيمانهم بالنَّبيِّ ﷺ فكأنَّه لمَّا كان دخول بعضهم إلى الإسلام - وقت نزول الآية - نادرًا لم يُعتدَّ بهذا النَّادر، وأُجرِي الخطاب على الجميع[3].

تعميم الخطاب مبالَغةٌ في الزَّجْر وزيادة في التَّوبيخ

غرضُ الاستفهامِ في قولِه: ﴿لِمَ تَكۡفُرُونَ﴾ للإنكار التَّوبيخيِّ:

الاستفهام في قولِه تعالى في خطابه لأهل الكتاب: ﴿لِمَ تَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ ليس على بابه، إنَّما هو للإنكار على كُفر المخاطَبين بآيات الله ومعجزاته الظَّاهرة، ومعناه: لا ينبغي أن تكفروا بآيات الله تعالى[4].

وفي الاستفهام معنًى آخر وهو التَّعجيز؛ إذ لا يمكن تقديم سبب كفر المرء بالله تعالى وآياته، وخاصَّة إذا كان يعرف الحقَّ كحال المخاطَبين بهذه الآيات، فكأنَّ المعنى: هاتوا العذر عن كفركم؛ إن كنتم تقدرون على ذلك[5].

معنى التَّعجيزِ وإقامةِ الحجةِ حاضرٌ في الاستفهام

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 1/480.
(2) أبو حيَّان، البحر المحيط: 3/280.
(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السليم: 2/64.
(4) الرَّاغب، تفسير الرَّاغب: 2/747.
(5) الآلوسيُّ، روح المعاني: 2/231.

دلالة ختم الآية بذكر شهادة الله على الأعمال:

مـجـاهـرةُ أهـل الـكـتـاب بـكـفـرهـم؛ يناسبُها شهادةُ الله عليهم

قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعۡمَلُونَ﴾ لَمَّا كان كفر أهل الكتاب ظاهرًا؛ كان ذكره تعالى للشَّهادة على ما يعملونه هو الأنسب في هذا الموضع، وفي هذا وعيد وتهديد لهم؛ إذ شهوده تعالى على أعمال العباد يوجب عليهم ألَّا يجسُروا على الكفر به، فإنَّهم إن فعلوا؛ تعرَّضوا لغضب اللّٰه وعذابه[1].

دلالة استعمالِ لفظِ الجلالةِ بدلًا من ضمير التَّكلُّم في قولِه: ﴿وَٱللَّهُ شَهِيدٌ﴾:

إيقاعُ المهابة في نفوس المخاطَبين وتهويلُ الخطب

قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ شَهِيدٌ﴾ استعمل فيه الاسم العظيم ظاهرًا وغيبةً، فلم يُعدل عنه إلى ضمير التَّكلُّم، فلم يقل تعالى: (وأنا شهيد)، ذلك أنَّ استعمالَ الاسمِ العظيمِ فيه إفادةٌ لتهويلِ خطب الكفر به، وإيقاع المهابة في قلوب الكافرين من التعرُّض لغضب اللّٰه تعالى الكامل في ألوهيَّته ووحدانيَّته[2]، مع ما فيه من العدول عن التَّكلُّم إلى الغيبةِ التي تُرشِّح معنى إيقاعِ المهابةِ.

دلالة صيغة المبالغة في ﴿شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعۡمَلُونَ﴾:

الإخبارُ بشهادةِ الله على أعمالِ الـكـفـرةِ وعـيـدٌ وتهديدٌ

وفي مجيء صفة الشهادة على صيغة المبالغة في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعۡمَلُونَ﴾ إشارة إلى علمه تعالى الشَّامل الكامل لجميع أفعال أهل الكتاب ومعاندتهم لنبيِّه ﷺ والمبالَغة هنا بحسب ما تتعلَّق به الشَّهادة، لا الشَّهادة نفسها؛ لأنَّ صفات اللّٰه تعالى لا تتفاوت من حيث هي زيادة أو نقص[3]، وفي الإخبارِ بشهادته تعالى على أعمالِهم دليلٌ على التَّهديدِ والوعيدِ.

(1) الزَّمخشريُّ، الكشَّاف: 1/392، والرّازي، مفاتيح الغيب: 8/308.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السليم: 2/63.
(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/63.

﴿قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٩﴾﴾

[آل عمران: 99]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

أمـرٌ بتوبيخهم عـلى الإضـلال، إثـرَ توبيخِهم على الضّلال

لَمَّا أنكر اللّه تعالى على اليهود في الآية السَّابقة كفرَهم وضلالهم في أنفسهم، وقد سعوا في إضلال المؤمنين؛ أنكر اللّه تعالى عليهم ذلك في هذه الآية؛ لجمعهم بذلك بين الضَّلال والإضلال، والكُفر والتَّكفير[1]، وقال لهم: كيف سوّلت لكم أنفسكم محاولة صرف مَن آمن باللّه ورسوله، عن سبيل اللّه القويمة، وتصويرها معوجّة، افتراء على اللّه العظيم، ودينه المستقيم، وأنتم تعلمون أنّها حقّ صراح لا ريب فيه، ولا ريب أنّ ضلالكم وتضليلكم، لا يخفى على اللّه، وما هو بغافل عنه،، وسوف يجازيكم بعدله ما تستحقّونه من جزاء[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تَصُدُّونَ﴾: مضارع صدَّ فلانٌ غيره؛ إذا صرَفَه، ومنعه، وصدَّ يجيء متعدِّيًا: كما في الآية، ويكون معناه: صرف الآخر ومنعُه، ويجيء لازمًا: كما في قوله تعالى: ﴿يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾﴾ [النّساء: 61] ويكون معناه: الانصراف والامتناع عن الشَّيء[3]، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾﴾ [الزّخرف: 57]، "أي يضجّون ويعلون أصواتهم، سرورًا بأنّهم ظفروا على زعمهم بتناقض، فيعرضون به عن إجابة دعائك، يقال: صدّ عنه صدوداً:

(1) أبو حيَّان، البحر المحيط: 3/279، والبقاعيُّ، نظم الدُّرر: 5/11.
(2) لجنة من علماء الأزهر، المنتخب في تفسير القرآن الكريم: 5/11.
(3) أبو حيَّان، البحر المحيط: 3/279.

أعرض، وصدّ يصُدّ ويصِدّ: ضجّ، قاله في القاموس، فلذلك قال ابن الجوزيّ: معناهما جميعا، أي قراءة ضمّ الصّاد وقراءة كسرها، يضجّون، ويجوز أن يكون معنى المضمومة: يعرضون، قال ابن برجان: والكسر أعلى القراءتين"[1].

2) ﴿تَبْغُونَهَا﴾: مضارع بغيتُ الشّيءَ؛ إذا طلبتُه، ويقال: ابغِني كذا، أي: اطلبْه لي، فالمعنى: تطلبون لها العِوَج، وقيل: إنَّ (بغيت) هو طلب التَّجاوز في الشّيء، وهو على ضَربين: محمود: وهو تجاوز العدل إلى الإحسان، والفرض إلى النَّافلة، ومذموم: وهو تجاوز الحقِّ إلى الباطل، وهو المقصود في الآية؛ ولذا قُيِّد في قوله تعالى: ﴿وَيَبْغُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّۚ﴾ [الشّورى: 42][2] قوله: ﴿تَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾، يعني: تبغون لها عوجًا، والهاء والألف اللّتان في قوله: ﴿تَبْغُونَهَا﴾، عائدتان على(السّبيل)، وأنّثها لتأنيث (السّبيل)، ومعنى قوله: (تبغون لها عوجًا)، من قول الشّاعر، وهو سحيم عبد بني الحسحاس:

بَغَاكَ، وَمَا تَبْغِيهِ حَتَّى وَجَدْتَهُ ***كَأَنَّكَ قَدْ وَاعَدْتَهُ أَمْسِ مَوْعِدَا

يعني: طلبك وما تطلبه، يقال: (اِبْغِنِي كَذَا)، يراد: ابتغه لي، فإذا أرادوا أعِنِّي على طلبه وابتغه معي، قالوا: (أَبْغِنِي) بفتح الألف[3].

3) ﴿عِوَجًا﴾: العِوج والعَوج: هو ميل الشِّيءِ، وهو يكون بكسر العين؛ إذا كان معنويًّا، كالميل في الآراء والأدلَّةِ ونحوها، ومنه قوله تعالى: ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ﴾ [الزّمر: 28]، وبفتحها؛ إذا كان حسِّيًّا، كميل الجدار والعصا، إلَّا الأرض، فإنَّه يقال: فيها عِوج: بكسر العين، ومنه قوله تعالى: ﴿لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ۝١٠٧﴾ [طه: 107]، وقيل: العِوج – بالكسر– يكون في الدِّين وما يكثُر فيه العِوج كالأرض، وبالفتح في غيرهما[4]، والمعنى في قوله: ﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ [الأعراف: 45]: "أي الّذين كانوا في الدّنيا يمنعون النّاس عن اتّباع دين اللّه، ويبغون أن تكون السّبيل معوجّة غير مستقيمة، حتّى لا يتبعها أحد".

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر، 17/455.
(2) الرّاغب، المفردات: (بغى).
(3) ابن جرير، جامع البيان: 6/53.
(4) الأزهريُّ، تهذيب اللّغة: (عوج)، وابن عطية، المحرر الوجيز: 1/481.

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

سؤال استنكاريٌّ عن الصّدود والاعوجاج، مع شهود الصّدق، ورقابة الحقّ

قل لهم أيُّها النَّبيُّ: يا أهل الكتاب لمَ تصرِفون النّاس عن سبيل اللّه تعالى، وهو سبيل النّور والحقّ، وهو الصّراط المستقيم الّذي يوصل إلى رضاه سبحانه، ويحقّق ما جاء به نبيُّه ﷺ، تريدون بذلك أن تكون سبيل اللّه معوجَّة، ملتوية غير واضحة ولا بيّنة، في أعين المهتدين، وأنتم شهداء على أنَّ هذا الدِّين هو الحقُّ، وقد قابلتم ذلك بالجحود عن علم، والإيغال في الكفرعن إصرار، والصّدّ عن سبيل اللّه عن مكر وخداع، وليس اللّه بغافل عن عملكم هذا، من الكفر بالإسلام، والسّعي إلى تكفير النَّاس به، وسيجازيكم عليه جزاء وفاقًا..

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

سبب الفصل بين الخطابَين:

الفصل يدلُّ على استقلال المفصول بالقَصد

لم يُعطف قوله تعالى: ﴿قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ﴾ على الخطاب السَّابق - مع ما بينهما من الاتِّصال -؛ للدّلالة على استقلال كلِّ خطاب بالقصد، وأنَّ كِلا الأمرين الواقعَين في حيِّزهما مستحقٌّ - على انفراده واستقلاله - لاستتباع اللَّوم والتَّقْريع[1].

دلالة تكرير الخطاب في سياقٍ واحدٍ:

تقريعُ المخاطَبين مرَّةً على الكُفر ومرَّةً على الصَّدِّ عن سبيلِ الله

كرَّر اللّه تعالى خطاب أهل الكتاب بواسطة نبيِّه ﷺ في قوله تعالى: ﴿قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ﴾، فوائد عدَّة:

أوَّلًا: الاستنكارُ عليهم في صدِّهم عن سبيله تعالى، وفي تكرار الخطاب والاستفهام مبالغةٌ في تقريعهم، ونفي العذر عنهم[2].

ثانيًا: الدّلالة على استقلال كلٍّ من الكفر بآيات اللّه تعالى والصَّدِّ عن سبيله باللَّوم والتَّوبيخ عليه، وحريٌّ باستجلاب عذاب

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/25.
(2) البيضاويُّ، أنوار التنزيل: 2/30.

اللّه وعقابه؛ إذ لو قيل: لمَ تكفرون بآيات اللّه، وتصدُّون عن سبيل اللّه لربَّما تُوهِّمَ أنَّ التَّوبيخ على مجموع الأمرين، لا على كلٍّ واحد منهما[1].

ثالثًا: الخطاب بأهلِ الكتاب إشارةٌ إلى أنَّ عمل المخاطَبين هو غاية في القبح؛ إذ إنَّ هذا العنوان كما يقتضي الإيمان بما هو مصدِّق له يستدعي التَّرغيب في اتِّباعه والدَّعوة إليه، فصدُّهم عنه وعن سبيله هو غايةٌ في القبح والظُّلم[2].

تكرار الخطاب أدعى إلى صدِّ المخاطَبين عن ضلالهم

وقيل: إنَّ تكرار الخطاب بعنوان أهليَّة الكتاب فيه تلطُّفٌ في صرف المخاطَبين من أهل الكتاب عمَّا هم عليه من الضَّلال والإضلال؛ لما فيه من التذكير بما ينبغي أن يكونوا عليه من الإيمان باللّه تعالى وجميع رسله وكتبه[3].

استعارةُ السَّبيلِ للأدلَّةِ الموصلة إلى دين الإسلام:

أهلُ الكتابِ هم قُطَّاعُ الطَّريق الموصلةِ إلى الإسلامِ

في قوله تعالى: استفهام إنكاريٌّ توبيخيٌّ ﴿لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، واستعارة مكنيَّة: حيث شُبِّهت الأدلَّة الموصلة إلى دين الإسلام بالمجاز المستعمَل حقيقة في الطَّريق، وحُذف المشبَّه وأقيم المشبَّه به مكانَه، وفي هذه الاستعارة تنبيه على أنَّ بعض النَّاس قد يقف عقبة في طريق طلب الهداية، فيقوم مقام قاطع الطَّريق بما يورده عليه في طريق هدايته من قواطعِ الشَّهوات والشُّبُهات[4].

دلالة تقديم المتعلِّق في قولِه: ﴿لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ﴾:

غرضُ التَّقديم تسليطُ استنكارِ الصَّدِّ عن سبيلِ الله

في قوله تعالى: ﴿لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ﴾ قُدِّمَ المتعلِّقُ – وهو ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ – على المفعول به، وهو ﴿مَنْ ءَامَنَ﴾، ومقتضى الظَّاهر: لمَ تصدُّون من آمن عن سبيل اللّه، وتقديم المتعلِّق

(1) الآلوسيُّ، روح المعاني: 2/232.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السليم: 2/63.
(3) الرّازي، مفاتيح الغيب: 8/308.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/26.

هنا يدلُّ على الاهتمام به، والإشارة إلى أهميَّته في الخطاب[1]، إذ المُستنكَرُ هو صَدُّهُم عن سبيلِ الله تعالى، فغرضُ التَّقديم تسليطُ الإنكار على صدِّهم عن سبيلِ الله تعالى.

توبيخ المخاطَبين لصدِّهم عن سبيلٍ هي لله

دلالة إقامة الظَّاهر مُقام المضمَر في قولِه: ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾:

وفي قوله تعالى: ﴿لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ إقامة للاسم الظَّاهر - وهو ﴿ٱللَّهِ﴾ - مقام الضَّمير، ولو قيل في غير القرآن: عن سبيلي؛ لصحَّ ذلك، وفي إيراد الاسم العظيم في هذا الموضع إنكار على المخاطَبين من أهل الكتاب وتقريع شديد لهم؛ إذ الأحرى بهم بدلًا من الصَّدِّ عن سبيل الله تعالى - المختصِّ بجميع صفات الكمال والجلال - أن يتَّبعوا هذه السَّبيل، ويرغِّبوا النَّاس فيها[2].

بلاغة الاستخدام في ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ و﴿تَبۡغُونَهَا عِوَجٗا﴾:

سبيل الله مستقيمة، وسُبل الكافرين مُعْوَجَّةٌ

وفي قوله تعالى: ﴿تَبۡغُونَهَا عِوَجٗا﴾ نوع من المحسِّنات البديعيَّة المعنويَّة، وهو الاستخدام[3]: حيثُ سبق ذكر السَّبيل في قوله تعالى: ﴿لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ مرادًا بها السَّبيل المستقيمة، ثمَّ أُعيد الضَّمير في: ﴿تَبۡغُونَهَا عِوَجٗا﴾ على السَّبيل التي يريدها الصَّادُّون عن سبيل الله من أهل الكتاب، وهي ما هم عليه من الدِّين بعد نسخه وتحريفه[4].

دلالة الجملة الحاليَّة: ﴿وَأَنتُمۡ شُهَدَآءُۗ﴾:

المقابلة بين الشهادتين في الآيتين شهادةِ الله، وشهادةِ أهل الكتاب

جاءَ قوله تعالى: ﴿وَأَنتُمۡ شُهَدَآءُۗ﴾ جملةً حاليَّةً مقابلةً للجملة الحاليَّة في الآية المتقدِّمة من قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعۡمَلُونَ﴾، وفي هذا نوع من المحسِّن البديعيِّ المعنويِّ، حيث قُوبل بين

(1) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 5/11.
(2) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 5/11.
(3) ويُقصد به: إطلاق لفظ مشترك بين معنيين مرادًا به أحدهما، ثم إعادة الضمير عليه مرادًا به المعنى الآخر، يُنظر: السِّيوطيُّ، شرح عقود الجمان، ص: 116.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/27.

الحالين، وشهادة الله ﷻ ليست كشهادتهم إلا من حيث الاسم، وإلا فهو تعالى الشهيد المحيط بكلِّ شيء علمًا، ومثلهما في المقابَلة قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمۡ إِنَّمَا نَحۡنُ مُسۡتَهۡزِءُونَ ١٤ ٱللَّهُ يَسۡتَهۡزِئُ بِهِمۡ﴾ [البقرة: 14 - 15][1].

بلاغة ختم الآية بقوله تعالى: ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾:

في ختام الآية تذييلٌ متضمِّنٌ التَّهديدَ والوعيدَ

قوله تعالى: ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾ ختم الله تعالى به هذه الآية مع أنَّه قد تقدَّم في الآية السَّابقة قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعۡمَلُونَ﴾؛ توكيدًا لإحاطته بجميع ما يعمله الصادُّون عن سبيله تعالى، ولما كان صدُّهم عن سبيل الله بطريق الخُفية والمكر هدَّدهم سبحانه بإحاطة علمه بكلِّ شيء، وعدم غفلته عمَّا يعملون سرًّا أو جهرًا، وهو في التَّهديد والوعيد كقول السيِّد لعبدِه، وقد أنكر عليه: لا يخفى عليَّ ما أنت عليه، ولست غافلاً عن أمرك[2].

نفيُ الغفلةِ احتراسٌ لأنَّ الشَّاهد على الشَّيء قد يغفل عنه

وفي نفي الغفلة عن الله تعالى تنزيه له جلَّ وعلا عن الغفلة عن عظيم الأمور ودقيقها؛ لأنَّ سواه تعالى من الشُّهداء قد تقع منه الغفلة، فنزَّه تعالى نفسه عنها - لَمَّا كانت حال هؤلاء الصَّادِّين عن سبيله حال من يعتقد ذلك - ونبَّه على اطِّلاعه على خفيِّ مكرهم في الصَّدِّ عن سبيله تعالى[3].

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

العِوَج والعَوج:

العِوج بالكسر ميل معنويٌّ، وبالفتح ميل حسِّيٌّ

العِوَج في قوله تعالى: ﴿تَبۡغُونَهَا عِوَجًا﴾ هو بكسر العين، ولا يصحُّ فتحها لغة؛ إذ العِوَج بالكسر خاصٌّ بالأمور المعنويَّة كالدِّين والكلام والعمل، فهو كناية عن عدم الاستقامة فيها، والحيدِ بها عن الطَّريق القويم.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/27.
(2) الرّازي، مفاتيح الغيب: 8/308، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/64.
(3) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 5/13، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/27.

أمَّا العَوج بفتح العين؛ فهو خاصٌّ بالأمور الحسِّيَّة كالحائط والجذع ونحوهما ممَّا يُدرك ميله بالحسِّ، ولا يُحتاج فيه إلى التأمُّل، وقوله تعالى في وصف الأرض يوم القيامة: ﴿لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ۝١٠٧﴾ [طه: 107] هو استثناء من هذه القاعدة، فلا يُقاس عليه[1].

(1) الزَّجَّاج، معاني القرآن: 2/354، وأبو حيَّان، البحر المحيط: 3/260.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَـٰبَ يَرُدُّوكُم بَعۡدَ إِيمَـٰنِكُمۡ كَـٰفِرِينَ ١٠٠﴾ [آل عمران: 100]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

ربط التّوبيخ على الضّلال، بالتّحذير من طاعة أهل الزّيغ والإضلال

بعد أن خاطب اللّه تعالى أهل الكتاب في الآيتين السَّابقتين، موبِّخًا إيَّاهم على ضلالهم بعد إقامة الحجَّة عليهم، وسعيهم في إضلال غيرهم؛ وجَّه اللّه تعالى في هذه الآية الخطاب إلى المؤمنين، محذِّرًا إيَّاهم من طاعة أهل الكتاب والافتتان بهم، وأنَّ مآل ذلك هو عودتهم في الكفر بعد إذ نجَّاهم اللّه منه[1]، "والكفر يوجب الهلاك في الدّنيا، بوقوع العداوة والبغضاء، وهيجان الفتنة والحرب وسفك الدّماء، وفي الآخرة النّار، وبئس القرار"[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَرِيقًا﴾: يعني طائفة مِنْكُمْ، وقيل: "يعني بالفريق الصّنف، الّذين كفروا، أي إن قلّدتموهم ردّوكم كافرين"[3]، والفرقة الجماعة المتفرّدة من النّاس، قال تعالى: ﴿فَلَوۡلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرۡقَةٖ مِّنۡهُمۡ طَآئِفَةٞ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ﴾ [التّوبة: 122]، والفريق الجماعة المتفرّدة عن آخرين، قال تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنۡهُمۡ لَفَرِيقٗا يَلۡوُۥنَ أَلۡسِنَتَهُم بِٱلۡكِتَـٰبِ لِتَحۡسَبُوهُ مِنَ ٱلۡكِتَـٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلۡكِتَـٰبِ﴾ [آل عمران: 78]، وفرّقت بين الشّيئين فصلت بينهما، سواء كان ذلك بفصل يدركه البصر، أو بفصل تدركه البصيرة، قال تعالى: ﴿فَٱفۡرُقۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَـٰسِقِينَ ٢٥﴾ [المائدة: 25]، وقال: ﴿فَٱلۡفَـٰرِقَـٰتِ فَرۡقٗا ٤﴾ [المرسلات: 04][4].

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/64.
(2) القِنَّوجي، فتحُ البيان: 2/299.
(3) الزّجاج، معاني القرآن وإعرابه: 1/448.
(4) الزّين، تفسير ألفاظ القرآن الكريم: (فرق).

2) ﴿يَرُدُّوكُم﴾: من الرّدّ، وهو صرف الشّيء بذاته، أو بحالة من أحواله، يقال رددته فارتدّ، قال تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا﴾ [يوسف: 96]، ومن الرّدّ بالذّات، قوله: ﴿وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ﴾ [الأنعام: 28]، وقوله: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ﴾ [الإسراء: 6]، ومن الرّدّة إلى حالة كان عليها، قوله: ﴿إِن تُطِيعُواْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾﴾ [آل عمران: 149]، وقوله تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم﴾ [البقرة: 109]، أي يرجعونكم إلى حال الكفر، بعد أن فارقتموه، وعلى ذلك قوله تعالى من هذه الآية: ﴿يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ﴾[1].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

يحذِّر الله تعالى المؤمنين في هذه الآية، مصدِّرًا ذلك بالنِّداء، أنْ: يا أيُّها المؤمنون؛ إن تطيعوا طائفة من أهل الكتاب - ممَّن يحسدونكم على ما أنتم فيه من الهدى - فيما يأمرونكم به، ويقولونه لكم؛ يؤُلّ بكم ذلك إلى الكفر بعد أن نجَّاكم الله منه، وهداكم للإيمان." فلا تأتمنوهم على دينكم، ولا تنتصحوهم على أنفسكم، فإنّهم الأعداءُ الحسَدَة الضُّلّال، كيف تأتمنون قومًا كفروا بكتابهم، وقتلوا رُسلهم، وتحيَّروا في دينهم، وعجزوا عَنْ أنفسهم؟ أولئك والله هم أهل التُّهَمة والعداوة!"[2].

اتّباع أقاويل أهل الكتاب البَيِّنَةِ البُطْلانِ، تفضي إلى الرّدّة والزّيغ والهوان

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ خطابِ المؤمنين بغير واسطة في قولِه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾:

لم يصدَّر النِّداء بـ: (قل) في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ

(1) الزّين، تفسير ألفاظ القرآن الكريم: (ردّ).

(2) ابن جرير، جامع البيان: 6/60.

يتحقَّقُ التَّمايُزُ بين المُخاطَبين في اختلافِ صيغِ خطابِهم

﴿إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا﴾ كما في الآيتين السَّابقتين في مخاطبة أهل الكتاب، وفي هذا إظهار لجلالة قدر المؤمنين عند الله تعالى وإشعار بأنَّهم الأحقَّاء بمخاطبة الله، وتكليمه لهم دون واسطة (قل)؛ وإن كان البلاغ في الحالين هو على لسان النَّبيِّ[1] ﷺ.

بلاغة استعمال ﴿إِن﴾ دون (إذا) في قولِه: ﴿إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا﴾:

المؤمنُ يُستبعدُ عنه طاعةُ أهل الكتابِ

جاء النَّهي عن طاعة فريق من الذين أوتوا الكتاب في قولِه تعالى: ﴿إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا﴾ بصيغة الشَّرط بأداة ﴿إِن﴾ دون (إذا)، وفي استعمال هذه الصِّيغة بهذه الأداةِ دلالةٌ على أنَّ هذه الطَّاعة لم تقع بعدُ، وأنَّها ممَّا يُستبعَد وقوع مثله من الَّذين آمنوا[2].

فائدةُ تخصيص التَّحذيرِ من طاعةِ فريقٍ من أهل الكتابِ:

التَّنبيه على خطورةِ طاعةِ الكثيرِ بالقليلِ

في قوله تعالى: ﴿إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ﴾ خصَّ الله تعالى التَّحذير من طاعة أهل الكتاب بفريق منهم، وفي اقتصار التَّحذيرِ من طاعةِ فريقٍ مبالغةٌ في التَّحذير من طاعة أهل الكتاب، وأمرٌ باجتنابِ مصاحبتهم بالكليَّة؛ كأنَّه قيل: لا تُطيعوا الذين أوتوا الكتاب، ولو فريقًا منهم[3]، أو يكون التَّحذيرُ من طاعةِ القليل للتَّنبيه على خطورةِ طاعة الكثيرِ.

الإشـــارةُ إلى خطورةِ الافتراق في الدِّين

وفي استعمال لفظ فريق إشارةٌ إلى التَّحذير من التفرُّق في الدِّين إلى شيع وأحزاب متناحرة، وهو الحال الَّذي ينتهي إليه من اتَّبَع فِرَق أهل الكتاب فيما يَدْعُونَ إليه، كما قال تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ﴾ [آل عمران: 103][4].

(1) البيضاويُّ، أنوار التَّنزيل: 2/31.
(2) أبو حيَّان، البحر المحيط: 3/281.
(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السليم: 2/64.
(4) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 5/13.

بلاغة حذف متعلّق الفعل: ﴿إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا﴾:

النَّهيُ عن طاعةِ أهـلِ الكتـابِ يعُمُّ أمورَ الدِّين كلَّها

في قوله تعالى: ﴿إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ﴾ لم يُذكر متعلِّق الفعل ﴿تُطِيعُواْ﴾ فلم يخصَّص النَّهي عن طاعة هذا الفريق في أمر دون أمر من أمور الدِّين، بل أُطلق النَّهي عن طاعتهم، ولم يقيَّد بقيد، وفي هذا تعميم للنَّهي، ومبالغة في التَّحذير في هذه الطَّاعة في أيِّ أمر كان يتعلَّق بالدِّين والعقيدة[1].

بلاغةُ الاستعارةِ في قولِه: ﴿يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ﴾:

تصويرُ قُبحِ حالِ المردودِ عن دينِه كافرًا

اُسْتُعيرَ لفظُ (الرَّدِّ) في قوله تعالى: ﴿يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ﴾ الَّذي هو بمعنى: الصَّرف والإرجاع؛ للتَّعبير عن تغيُّر الحال من الإيمان إلى الكفر، وفي هذه الاستعارة تشبيه بليغ لحال الرَّاجع مِن الإيمان إلى الكفر بحال المصروف والمردود عن الطَّريق المستقيم[2].

دلالة الظَّرفِ في قولِه تعالى: ﴿بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾:

بيانُ حِرْصِ أهلِ الكتابِ على غِوايةِ المؤمنين

قوله تعالى: ﴿يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ﴾ ﴿بَعْدَ﴾ للظرفيَّة ولتوسيطِها بين المفعولَيْن في: ﴿بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾ فائدةٌ معنويَّةٌ، وهي إظهارُ كمالِ شناعةِ الكُفْر، والإشارةُ إلى بُعد وقوعِه في قلوبِ المؤمنين الرَّاسخ إيمانُهم، ولو قيل: يردُّوكم كافرين؛ لكان الكلام تامًّا من جهة اللَّفظ؛ لاستحالة الرَّدِّ إلى الكفر دون إيمان سابق[3]، لكنَّ النَّظمَ القرآنيَّ جاءَ على أدقِّ بيانٍ، وفيه فائدةٌ أخرى وهي بيانُ حرصِ أهل الكتابِ على ردِّ المؤمنين بعد إيمانِهم كافرين.

الـرِّدَّةُ تفويتٌ لـلـنِّـعـمـة واسـتـحـقـاقٌ للنِّقمة

وفي الظَّرفيَّة: ﴿بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾ فائدة أخرى، وهي توضيح النِّعمة العظيمة الَّتي تفوت المخاطَبين؛ لو أطاعوا أهلَ الكتاب، حتى ردُّوهم إلى الكفر، وهي نعمة الإيمان باللّه تعالى وتصديق نبيِّه ﷺ[4].

(1) الآلوسيُّ، روح المعاني: 2/233.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/28.
(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السليم: 2/64.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/28.

فائدةُ إسقاط الجارِّ في ﴿بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡ﴾:

استغراقُ الزَّمن التَّالي للإيمان تقبيحٌ للكفر بعده

وفي قوله تعالى: ﴿بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡ﴾ أُسقط الجارُّ، فلم يَقُلْ: من بعدِ إيمانكم، وفي هذا زيادة في تقبيح الحال المنهيِّ عنها من الارتداد إلى الكفر بعد الإيمان، وذلك باستغراق الزَّمن الَّذي بعد الإيمان كُلِّه، حتى كأنَّ العائد إلى الكفر بعد الإيمان غريقٌ في صفة الكفر، نسأل اللّٰه العافية[1].

(1) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 5/13.

﴿وَكَيۡفَ تَكۡفُرُونَ وَأَنتُمۡ تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمۡ رَسُولُهُۥۗ وَمَن يَعۡتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدۡ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ١٠١﴾

[آل عمران: 101]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا حذَّرَ اللّٰه تعالى في الآيةِ السَّابقةِ عبادَه المؤمنينَ من أنْ يُطيعوا طائفةً من أهلِ الكتابِ، حتَّى لا يَرُدُّوهم إلى الكُفرِ بعدَ الإيمان؛ جاءَ بيانُ اللّٰهِ تعالى في هذه الآيةِ الكريمةِ ليبيِّن أنَّه لا يُمكنُ للمؤمنين أنْ يعُودوا للكُفْرِ، وَوَحْيُ اللّٰهِ بالقرآنِ يَنزِلُ على رسولِه ﷺ الَّذي هو فيهم يعلِّمُهم ويُربِّيهم، وأنَّ السَّبيل إلى الحفاظِ على الإيمانِ هو الاعتصامُ باللّٰهِ، فهو الهدايةُ الحقُّ إلى الصِّراطِ الحقِّ.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تَكۡفُرُونَ﴾: "الكُفْرُ: سَتْرُ الشَّيء، وَوُصِفَ اللَّيلُ بالكافرِ؛ لسَتْرِه الأشْخاص، والزُّرَّاعُ؛ لِسَتْرِهمُ البِذْرَ في الأرض، وليس ذلكَ باسْمٍ لهما، وأعْظمُ الكُفْرِ: جُحودُ الوحدانيَّةِ أوِ الشَّريعةِ أوِ النُّبوَّة"[1].

وهو المرادُ هنا في الآيةِ، فهو سَتْرُ الإيمانِ الَّذي هو فِطْرةُ اللّٰهِ الَّتي فَطَرَ النَّاسَ عليها، وتغطيتُه بالكُفْر.

2) ﴿يَعۡتَصِم﴾: "عَصَمَ: العَيْنُ والصَّادُ والميمُ: أصلٌ واحدٌ صحيحٌ يَدُلُّ على إمْساكٍ ومَنْعٍ ومُلازَمة، والمعنَى في ذلكَ كُلِّه معنًى واحدٌ.

ومن ذلكَ العِصْمةُ: أنْ يَعْصِمَ اللّٰه تعالى عَبْدَه من سُوْءٍ يَقعُ فيه، واعْتصمَ العَبدُ باللّٰهِ تعالى: إذا امْتَنَع.

واسْتعصَمَ: الْتجأ، وتقولُ العربُ: أعْصمتُ فُلانًا، أي: هَيَّأتُ له شيئًا يَعْتصِمُ بما نالَتْهُ يَدُه، أي: يَلتَجِىءُ، ويتمسَّكُ به"[2].

(1) الرَّاغب، المفردات: (كفر).

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عصم).

وإيرادُ هذا الفعلِ في الآيةِ في موقعِ فعل الشَّرط يعني: أنَّ من يتمسَّكْ، ويلازمْ دينَ اللّه، ويمتنعْ به عن غيرِه من الأديانِ والأباطيل البشريَّة؛ فقد هُدِيَ حقًّا إلى صراطِ اللّهِ المستقيم.

3) ﴿هُدِىَ﴾: هَدَيَ: الهاءُ والدَّالُ والحَرْف المُعتلُّ، أصْلان: أحدُهما: التَّقدُّمُ للإرْشاد، والآخَرُ: بَعْثَةٌ لطفٍ، والمرادُ به: الهَدِيَّةُ.

والَّذي يَعْنينا في هذا المقامِ الأصلُ الأوَّلُ، وهو قولُهم: هَدَيتُه الطَّريق هِدايَةً، أي: تقدَّمتُه لأُرشِدَه، وكلُّ مُتقدِّمٍ لذلكَ هادٍ.

ويَتفرَّعُ من هذا المعنى: الهُدَى: وهو خِلافُ الضَّلالَة، تقولُ: هديتُه هدًى، وهو المعنَى المرادُ في سياقِ الآية الكريمة[1].

4) ﴿صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾: "صَرَطَ: الصَّادُ والرَّاءُ والطَّاءُ، وهو من بابِ الإبدالِ (سَرَطَ): وهو الطَّريق"[2].

❁ المَعْنَى الإجْمَاليُّ:

يَستبعدُ بيانُ اللّه تعالى عن المؤمنينَ الكُفْر، وآياتُ اللّهِ تَنْزِلُ على رسولِه ﷺ ليلًا ونهارًا، وهو ﷺ لا يَألُو جهدًا في تلاوتِها عليهم وإبْلاغِهم إيَّاها وبَيانِها لهم، ومع هذا فالاعْتصامُ باللّهِ والتَّوكُّلُ عليه، هو العُمدةُ في الهدايةِ إلى الطَّريقِ السَّديد الَّذي لا تيهَ فيه ولا اعْوِجاج[3].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

استحالةُ عَوْد الصّحابة إلى الكفر بعد أن أنقذهم الله تعالى منه

الاسْتفهامُ، والجملةُ الحاليَّةُ، وأثرُهما في تَجليةِ المعنَى:

قولُه تعالى: ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ﴾: الواو هنا يمكن أن تكون عاطفة من عطف القصَّة على القصَّة؛ لأنَّ الآيات تتحدَّث عن أهل الكتاب وما يتعلَّق بهم من أحكام، وتحذِّر المؤمنين من مسايرتهم والتَّعامل

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (هدي).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (صرط).
(3) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 1/340.

معهم، ويمكن أن تكون استئنافيَّة؛ لأنَّها شرعت بأحكام جديدة، فضلًا عن احتمالها أن تكون واوًا حاليَّة على معنى: إن تطيعوهم؛ يردُّوكم كافرين، والحال أنَّه: كيف تفعلون ذلك، وأنتم تتلى عليكم آياته؟ والاستفهام إنكاريٌّ تعجُّبيٌّ مُستَعمَلٌ في إنكارِ الوقوع أي: الاسْتبعادُ لِكيفيَّة كُفرِهم نَفْيًا له.

ويحملُ توجيهُ الإنكارِ والاسْتبعادِ مع الفعلِ ﴿تَكۡفُرُونَ﴾ إلى كيفيَّة الكُفْرِ من المبالغَةِ ما ليسَ في توجيهِه إلى نَفْسِه، بأنْ يُقال: أَتَكفُرونَ؟ لأنَّ كلَّ موجودٍ لا بُدَّ أنْ يكونَ وجودُه على حالٍ من الأحْوال، فإذا أَنكرَ، ونَفَى جميعَ أحوالِ وجودِه؛ فقدِ انْتفَى وجودُه بالكُليَّةِ على الطَّريق البُرهانيِّ[1].

التّعبير بالمضارع لإحضار صورة الكفر الشّنيعة

والتَّعبير بالفعليَّة في ﴿تَكۡفُرُونَ﴾ دلَّ على استحضار هذه الصُّورة البشعة من جهة، ودلَّ على التَّجدُّد الاستمراريِّ لحالة الكفر فيهم من جهة أُخرى.

تلاوة القرآن مانعةٌ من الكفر مُثبّتةٌ للإيمان

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَنتُمۡ تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ﴾ الواوُ هنا: حاليَّة، والجملةُ بعدَها وقعتْ حالًا من ضميرِ المُخاطَبين في ﴿تَكۡفُرُونَ﴾، مُؤكِّدةً للإنكارِ والاسْتبعاد؛ لأنَّ كُلًّا من تلاوةِ آياتِ اللّه وإقامةِ الرَّسولِ ﷺ فيهم وازِعٌ لهم عن الكُفْر، وأيُّ وازعٍ، فالآيات الَّتي تُتْلَى هي القرآنُ وهداياتُه، وهذه التِّلاوةُ صيغتْ بالفعلِ المبنيِّ للمجهولِ ﴿تُتۡلَىٰ﴾؛ لأنَّ المرادَ فعلُ التِّلاوةِ وأثرُها على أصحابها، وليس مَنْ قامَ بها.

وجود رسول الله ﷺ في الأمّة أمانٌ لها

وجملةُ ﴿وَفِيكُمۡ رَسُولُهُۥۗ﴾ الَّتي أعطتْ في الحرف (في) معنَى الظَّرفيَّة المكانيَّة الحقيقيَّة لإقامةِ رسولِ اللّه ﷺ بين أظْهُرِهم، وهي مَنْقبَةٌ عظيمةٌ، ومِنَّةٌ جَليلةٌ، ومع تلكَ الآياتِ وهذه الإقامةِ لشخصِ الرَّسولِ ﷺ بينَهم كيف يُتَصوَّرُ أن يَتسَلَّلَ الكفرُ إلى تلكَ القُلوبِ

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السليم: 1/524.

المؤمنة الطَّاهرةِ الزَّكيَّة الَّتي زكَّاها اللّهُ تعالى بقولِه: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ تَرَىٰهُمۡ رُكَّعٗا سُجَّدٗا يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗاۖ سِيمَاهُمۡ فِي وُجُوهِهِم مِّنۡ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ﴾ [الفتح: 29].

ولذلكَ أتى بيانُ اللّهِ بالضَّمير المنْفصل ﴿وَأَنتُمۡ﴾ مخاطبًا الصَّحابةَ ﷺ لأنَّهم هُمُ المَعنِيُّون، وأكَّدهُ بقولِه: ﴿عَلَيۡكُمۡ﴾، وفي الإعادةِ إفادَة، وخاصَّةً في هذا المقام، وهذه كُلُّها من الشُّؤونِ الدَّاعيةِ إلى الإيمان، الرَّادعةِ عن الكُفْر.

موقع جملة ﴿وَفِيكُمۡ رَسُولُهُۥۗ﴾ وبلاغة القصر في التَّقديم:

قولُه تعالى: ﴿وَفِيكُمۡ رَسُولُهُۥۗ﴾ الواو: عاطفة، والجملة معطوفةٌ عليها داخلةٌ في حُكْمِها، وعَدَمُ إسْنادِ التِّلاوةِ إلى رسولِ اللّهِ ﷺ للإيْذانِ باسْتقلالِ كُلٍّ منهُما في الباب[1].

الإيمانُ برسول الله والعيش في كنفه ومع سنّته أمانٌ وحصنٌ من التّردّي في هاوية الكفر

وتقديمُ ما حقُّه التَّأخيرُ في قولِه: ﴿وَفِيكُمۡ رَسُولُهُۥۗ﴾ إفادةُ بلاغَةِ القصْرِ الظَّرفيَّة، أي: فيكم وليس في غيركم.

وفي الآيةِ دَلالةٌ قويَّةٌ على مكانةِ الصَّحابةِ ﷺ وعِظَم قَدْرِهم، ذلك أنَّ بيانَ اللّهِ ذَكَرَ وازِعَيْن لهم يَمْنعانِهمْ عن مُواقعةِ الضَّلال، وهما: تلاوةُ القرآنِ وسماعُه، وصُحبتُهم لرسولِ اللّهِ ﷺ في المَنْشَطِ والمَكْرَه والسَّفَرِ والحَضَر وفي جميع الأحوال، ولَئِنْ قضَى رسولُ اللّهِ ﷺ إلى جِوارِ ربِّهِ سُبحانه وتعالى، فإنَّ القرآنَ الَّذي أَنْزلَه اللّه عليه لم يَمْضِ، بل هو باقٍ بكلماتِه وآياتِه وهداياتِه وأحكامِه إلى قيامِ السَّاعة، وهذه دلائل قويَّةٌ لإسنادِ الآياتِ إلى لفظِ الجلالة ﴿ٱللَّهِ﴾ دون الضَّمير، وفيه كذلكَ من المهابة بمقامِ الألوهيَّة ما فيه.

أفادَ السِّياقُ ضرورةَ الاعتصامِ بدينِ اللهِ تعالى، لتحقيقِ الاستقامةِ على طريقِ الهداية

الشَّرطُ، والتَّحقيقُ، والتَّنوينُ والاستعارة، وأثرُ ذلكَ في توضيحِ المعنَى:

جُملةُ: ﴿وَمَن يَعۡتَصِم﴾ الواو: إمَّا أن تكون عاطفة حكمًا جديدًا على ما تقدَّمها، وإمَّا أن تكون حاليَّة، أي: وكيف تكفرون باللّه،

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السليم: 1/524.

والحال أنَّ من يعتصم به؛ فقد هُدي إلى صراط مستقيم؟ والجملة شرطيَّة: فعلها الاعتصام، وجوابها الهداية.

والاعْتصامُ: التَّمسُّك، أي: مَنْ يتمسَّكْ ويَلتزِمْ بدينِ اللّٰهِ؛ فلا يَخْشَى الضَّلال، فالاعْتصامُ هنا اسْتعارةٌ للتَّمسُّك، حيث شبَّه التَّمسُّك بالاعتصام بجامع الملازمة وعدم المفارقة، وحذف المُشبَّه على سبيل الاستعارة التَّصريحيَّة، وفي هذا تحفيزٌ لجماعةِ المؤمنين إلى يومِ الدِّين أنْ يَلتزموا دينَ اللّٰهِ الحقِّ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَقَدْ هُدِىَ﴾الفاء: رابطة لجواب الشرط بمحذوف، أي: جزاؤه أو حكمه أنَّه قد هُدي إلى صراط مستقيم، و(فقد) تفيدُ التَّحقيق، فكأنَّ الهُدَى قد حَصَلَ، واسْتقرَّ في قلبِ صاحبِه بما أفادَه الفعلُ المبنيُّ للمجهول ﴿هُدِىَ﴾، وبناء الفعل للمجهول؛ لأنَّ الفاعل معروف، والدَّعوة هنا للانشغال بالفعل عن الفاعل.

وقولُهُ تعالى: ﴿إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ مُوْحٍ بالطَّريقِ الصَّحيحِ الَّذي لا يَنحرِفُ بمَنْ سلَكَهُ، وجاءَ تنكيرُ ﴿صِرَٰطٍ﴾وتنوينُه؛ لِتفخيمِ شأنِه واسْتغراقِه لكلِّ صراطٍ وُصِفَ بهذا الوصف، وَوَصْفُه بالاسْتقامةِ للتَّصريح بالرَّدِّ على الَّذين يَبْغونَ له عِوَجًا[1].

وفي هذا الوصفِ ترغيبٌ وشَحْذٌ لِلْهِمَمِ على ضرورةِ الاسْتقامةِ والسَّيْرِ قُدُمًا في طريقِ الحقِّ، وعَدَمِ التَّعْويلِ على المثبِّطاتِ والمُحبِطات، وسواءٌ أكانتْ من داخلِ النَّفْسِ البشريَّة أمْ من خارجِها من شياطينِ الإنسِ والجنِّ.

بلاغة الاستعارة في ذكر الصِّراط المستقيم:

في التَّعبير عن الهداية للإيمان أو الإسلام بالصِّراط المستقيم استعارة تصريحيَّة، حيث حذف المُشبَّه: وهو الإسلام أو الإيمان، وذكر المشبَّه به: بجامع الإيصال إلى الحقِّ، وفي وصف هذا الحقِّ بالاستقامة استعارة أخرى بجامع انتفاء العوج في كليهما.

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الاعْتصام والتَّمسُّك:

قولُهُ تعالى: ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ﴾.

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السليم: 1/525.

جاء في المعاجم عن التَّمسُّك: "إمساكُ الشَّيءِ: التَّعلُّقُ به وحفظُه، قالَ تعالى: ﴿وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ﴾ [الحج: 65]، أي: يحفظُها.

واسْتَمْسَكتُ بالشَّيء؛ إذا تحرَّيتُ الإمساك، قالَ تعالى: ﴿فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ﴾ [الزُّخرف: 43]، ويُقالُ: تَمَسّكْتُ به، ومَسَكْتُ به، قالَ تعالى: ﴿وَلَا تُمْسِكُواْ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ﴾ [الممتحنة: 10]، ويُقالُ: أَمْسَكْتُ عنه كذا، أي: منعتُه، قالَ تعالى: ﴿هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦٓ﴾ [الزُّمر: 38]"[1].

وبالنَّظرِ إلى ما تقدَّمَ في معنَى (الاعْتصام) يظهرُ أنَّه أوْلى بالسِّياق من معنَى (التَّمسُّك)؛ لأنَّ في (الاعْتصام) معنَى الالْتجاء، وتَهْييءِ شيءٍ يكونُ سببًا للاعْتصام، والامْتناعِ عن غيرِه.

وهذا هو الَّذي يُفيدُه سياق الآيةِ الكريمة، فالاعتصامُ باللهِ: يكونُ بالتزامِ دينهِ وشريعتِه، والامْتناعِ عمَّا سِواهُما.

(1) الرَّاغب، المفردات: (مسك).

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ١٠٢﴾ [آل عمران: 102]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا اسْتبعدَ بيانُ اللّهِ على المؤمنين عَوْدتَهم إلى الكُفْر، وحثَّهم على الاعْتصامِ بدينِ اللّهِ والثَّباتِ عليه، انْتقلَ السِّياقُ في هذه الآيةِ الكريمةِ لتحريضِهمْ على تمامِ التَّقْوى والحرصِ عليها حتَّى المَوت.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾، وَقَيَ: وقَيْتُ الشَّيءَ أَقيه وقايةً ووِقاءً، قالَ تعالى: ﴿فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ﴾ [الإنسان: 11]، والتُّقاةُ: اسمُ مصدرِ (اتَّقى)، وأصلُهُ: وُقَيَةٌ، ثُمَّ وُقاةٌ، ثُمَّ أُبدلت الواوُ تاءً تَبَعًا لإبدالِها في الافْتعالِ إبْدالًا قَصَدُوا منه الإدْغام، كما قالَ تعالى: ﴿إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ مِنۡهُمۡ تُقَىٰةٗ﴾ [آل عمران: 28].

والوِقايةُ: حِفْظُ الشَّيءِ ممَّا يُؤذيهِ ويَضُرُّه.

والتَّقْوَى: جَعْلُ النَّفْسِ في وِقايةٍ ممَّا يُخاف، ثمَّ يُسمَّى الخوفُ تارةً: تَقْوَى، والتَّقْوى: خوفًا حسبَ تسميةِ الشَّيءِ بمُقتضِيه، والمُقْتضِي بمُقْتضاه.

وصارَت التَّقْوى في تَعارُفِ الشَّرْع: حفظُ النَّفْس عمَّا يُؤثِم، وذلكَ بتركِ المَحظورِ واسْتفراغِ الوُسْعِ في القيامِ بالواجبِ وتركِ بعضِ المُباحات، قالَ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ﴾ [النَّحل: 128][1].

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

يأمرُ اللّهُ تعالى عبادَه المؤمنينَ بتمامِ التَّقوى، والحِرْصِ على أن يَزدادوا صَلاحًا ورُسوخًا في إيمانِهم وتَقواهم، حتَّى إذا جاءهُمُ الموت؛ كانوا على تمامِ دينِ الإسلامِ غيرَ مفارقينَ له.

(1) الرّاغب، المفردات، ص: 881.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

النِّداءُ، والأمرُ، وأثرُهما في توضيح المعنَى:

أفـــادَ نَـظْـمُ السِّياق مكانةَ المنادَى وأهمِّيَّةَ المنَادَى به، وهو ضـرورةُ الـتزامِ تمامِ التَّقْوى

في قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾: تقدَّم القول في دلالات قوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا﴾ مرَّات عديدة، وما تحويه من دلالات التَّوكيد والعناية، فـ(يا) عند المحقِّقين: لنداء البعيد، وإذا نودي فيها القريب؛ فإمَّا لعلوِّ منزلة المنادي أو المنادى، أو لغفلة المنادى وإرادة تنبيهه، و(أي) وصلة لنداء المُعرَّف بـ(أل) وما يأتي بعدها من الأسماء يُعرب بدلًا منها، و(ها) للتَّنبيه، وهذه الجملة لا تأتي إلَّا في القضايا المهمَّة الَّتي تسترعي الاهتمام والعناية، وقولُهُ تعالى: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ أمرٌ بتَقْوَى اللّه، والأمرُ يَقْتضي الوُجوب بحسب ظاهره، وقد يُراد به الدَّوام والاستزادة، وهو مُتعلِّقٌ بقولِه الآتي: ﴿حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾؛ فليس أيُّ تَقْوى باتِّباع المأمورات واجْتنابِ المنهيَّات، بل المرادُ اسْتفراغُ كاملِ الوُسْعِ في القيامِ بالواجبِ والاجْتنابِ عن المَحارِم، وهو ما رُوِيَ عن عبدِ اللّهِ بنِ مسعود رضي الله عنه في تفسيرِه لقولِه تعالى: ﴿حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾، قال: "أنْ يُطاعَ فلا يُعصَى، وأنْ يُذْكرَ فلا يُنسَى، وأنْ يُشكَرَ فلا يُكْفَر"[1].

وقدْ وردَ أنَّ هاتِه الآيةَ منسوخةٌ بقولِه تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ [التَّغابن: 16]؛ لأنَّ هاتِه الآيةَ دلَّتْ على تَقْوى كاملة، كما فسَّرَها ابنُ مسعود رضي الله عنه والآيةُ الثَّانيةُ ذكرتِ الاسْتطاعةَ، وهي تختلفُ من مسلم لآخَر.

ولكنَّ الاسْتطاعةَ هي القُدرة، والتَّقْوى مقدورةٌ للنَّاس، ثمَّ إنَّ الأمرَ بتقوى اللّهِ لا يُنسَخ، فالحقُّ أنَّ هذا بيانٌ لا نَسْخ، ولكنْ شاعَ عندَ المتقدِّمينَ إطلاقُ النَّسخِ على ما يَشمَلُ البَيان، فالآية محكمةٌ لا نَسْخَ فيها[2].

(1) وهو حديثٌ صحيح الإسناد موقوفٌ على ابن مسعود رضي الله عنه وهو الأَظْهر، ينظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 1/340 - 341، ورواه الحاكم بلفظه مرفوعًا، ثمَّ قال: صحيح على شرط الشَّيخين، وافقه الذَّهبي، ينظر: الحاكم، المستدرك: 2/323.

(2) وهو قول جمهور العلماء، ينظر: الزَّجَّاج، معاني القرآن: 1/449، والواحدي، الوسيط: 1/472.

المستَثْنَى، والمجازُ، والجملةُ الحاليَّة، وأثرُ ذلك في تجليةِ المعنَى وإثْرائه:

أفـــادَ نـظـمُ السِّياقِ بأركانِه ضرورةَ التَّمسُّكِ بـالإسـلامِ حتَّى الوفاة عليه

قولُه تعالى: ﴿وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ عطف إنشاء على إنشاء، فهو نَهْيٌ عن أنْ يموتوا على حالةٍ في الدِّينِ إلَّا على حالِ الإسلام، فمَحَطُّ النَّهْيِ هو القَيْدُ، وهو المسْتثنَى منه المحذوف، والمسْتثنَى، وهو جملةُ الحال؛ لأنَّها اسْتثناءٌ من أحوال، وهذا المركَّبُ هنا مُستعمَلٌ في غيرِ معناه، وهو مجازٌ تَمْثيليٌّ[1]، علاقتُه اللُّزوم، فالنَّهيُ عن الموتِ على غيرِ الإسلامِ يَسْتلزِمُ النَّهيَ عن مفارقةِ الإسلامِ في سائرِ أحيانِ الحياة، ولو كانَ المرادُ به معناهُ الأصْليَّ؛ لكانَ تَرْخيصًا في مفارقةِ الإسلامِ إلَّا عندَ حضورِ الموت، وهو معنًى جِدُّ فاسِد[2].

وهو كذلكَ اسْتثناءٌ مُفرَّغٌ[3] من جميع الأحوال، وقد أفادَ القَصْر، أي: لا تموتُنَّ على حالٍ من الأحوال إلَّا حالَ تحقُّقِ إسلامِكم وثَباتِكم عليه، كما تُنبِئُ عنه الجملةُ الاسْميَّةُ ﴿وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾، ولو قيلَ: إلَّا مُسلمينَ؛ لم يُفِدْ بفائدتِها، والعاملُ في الحالِ ما قبلَ ﴿إِلَّا﴾ بعد النَّقْض، وجاءَ توجيهُ النَّهْيِ إلى الموتِ؛ للمُبالغةِ في النَّهْيِ عن قَيْدِه المذكور، فإنَّ النَّهيَ عن المقَيَّدِ نهيٌ عن القَيْدِ ورفعٌ له من أصلِه بالكُلِّيّة، مُفيدٌ لما لا يُفيدُه النَّهيُ عن نَفْسِ القَيْد، ومثالُ ذلك: لو أنَّ أحدًا قالَ لصاحبِه: لا تُصَلِّ إلَّا وأنتَ خاشعٌ؛ يُفيدُ من المبالغةِ في إيجابِ الخُشوعِ في الصَّلاةِ مالا يُفيدُه قولُه له: لا تَتْرُكِ الخُشوعَ في الصَّلاة؛ لما أنَّ هذا نَهْيٌ عن تَرْكِ الخُشوعِ فقط، وذاكَ نَهْيٌ عنه

(1) هو تركيبٌ اسْتُعمِلَ في غير ما وُضع له لعلاقة المشابهة مع قرينةٍ مانعةٍ من إرادة معناه الأصلّي، كما في بيان ما جاءت الآية الكريمة بصدده، حيث أُريدَ به التَّمثيل، وليس معناه الحقيقي الأصلي، ينظر: محمد أحمد قاسم، علوم البلاغة، ص: 212.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/30 - 31.

(3) وهو ما لم يُذكرْ فيه المسْتَثْنَى منه، كقوله تعالى: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝٢٥﴾ [الأنعام: 25]، ولا يكونُ هذا الاستثناءُ عند أكثرِ النُّحاة إلاَّ في الموجب، وهو المسبوقُ بنَفْي، أو نهي، أو اسْتفهام، نحو: (ما حضَر إلَّا سالمٌ)، وكقولِه تعالى: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝٢٥﴾ [الأنعام: 25]، وقولِه سبحانه: ﴿هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ [الأنبياء: 3]، والنَّهي كما في الآية الَّتي معنا في المتن، ويجوزُ التَّفريغ في موجب مؤوَّل بالنَّفي، كما قال تعالى: ﴿فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ۝٥٠﴾ [الفرقان: 50]، والاستثناء المفرَّغ يُفيد القَصْر، كما في آية المتن، وكما يُقال: (ما حَضَر إلَّا خالدٌ)، فقد نَفَى القائلُ الحضورَ كلَّه إلَّا حضورَ خالد، فاضل السَّامرائي، معاني النَّحو: 2/248 - 249.

وعمَّا يُقارِنُه، ومُفيدٌ لكونِ الخُشوع هو العُمْدةُ في الصَّلاة، وأنَّ الصَّلاةَ بدونِه حقُّها ألَّا تُفعَل.

وفي ذاكَ النَّهْي: ﴿وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ نَوْعُ تحذيرٍ عمَّا وراءَ الموتِ[1].

وفي توجيهِ الخطابِ بالنَّهْيِ معَ نونِ التَّوكيدِ الثَّقيلةِ ﴿وَلَا تَمُوتُنَّ﴾ مزيدُ تأكيدٍ وعنايةٍ بهذا النَّهيِ، وما تضمَّنه من الأمرِ بالتزامِ الإسلامِ في جميعِ الأحوال.

وزادَ هذا التَّأكيدَ تأكيدٌ آخرُ، وهو إبْرازُ الضَّميرِ المنفصلِ لجماعةِ المخَاطبينَ بقولِه: ﴿وَأَنتُم﴾ ولأنَّهم هُمُ الْمُعَوَّلُ عليهم في سياقِ ما وردتِ الآيةُ بشَأْنِه.

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السليم: 1/526.

﴿وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ كُنتُمۡ أَعۡدَآءٗ فَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم بِنِعۡمَتِهِۦٓ إِخۡوَٰنٗا وَكُنتُمۡ عَلَىٰ شَفَا حُفۡرَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنۡهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ١٠٣﴾ [آل عمران: 103]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا أمرَ اللّهُ تعالى في الآيةِ السَّابقةِ عبادَه المؤمنينَ بتمامِ التَّقْوى؛ جاءَ بيانُ اللّهِ تعالى في هذه الآيةِ الكريمةِ ليدُلَّ المؤمنينَ على بعضِ سُبُلِ تحقيقِ التَّقْوى: بالاعتصامِ بدينِ اللّه، وعَدَمِ التَّفرُّق، وتَذكُّرِ نعمةِ اللّهِ عليهم بتأليفِ قلوبِهم على الأُخُوَّةِ الإيمانيَّة، وإنقاذِهم من الكفرِ المُسَبِّب لدخول النَّار، وهذه كلُّها آياتٌ مُوجبةٌ للهداية بأمرِ اللّهِ ورحمتِه.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿بِحَبۡلِ ٱللَّهِ﴾: الحَبْلُ معروفٌ، قالَ ﷻ: ﴿فِي جِيدِهَا حَبۡلٞ مِّن مَّسَدِۭ ٥﴾ [المسد: 5]، وشُبِّه به من حيثُ الهَيْئَةُ حَبْلُ الوريدِ وحَبْلُ العاتِق، والحَبْلُ: المستطيلُ من الرَّمل، واسْتعيرَ للوَصْلِ، ولكلِّ ما يُتوصَّلُ به إلى شيء، ومنه قولُه ﷻ في الآيةِ الَّتي معنا: ﴿وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا﴾، فَحَبْلُه سُبحانه وتعالى هو الَّذي معه التَّوصُّلُ به إليه من القرآنِ والعقل، وغيرِ ذلكَ ممَّا إذا اعْتَصمَ به العبدُ؛ أدَّاه إلى مرضاةِ اللّه.

ويُقالُ للعَهْد: حَبْلٌ، ويمكنُ أنْ يَصدُقَ هذا المعنَى على قولِه تعالى: ﴿وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ﴾[1]، فعهدُ اللّهِ يجب أنْ يُوفَّى بعبادةِ اللّه وحدَه دونَ سواه، والتزامِ دينِه وقرآنِه وسُنَّةِ نبيِّه ﷺ، قالَ ﷻ: ﴿أَلَمۡ أَعۡهَدۡ إِلَيۡكُمۡ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعۡبُدُواْ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ﴾ [يس: 60]، وقالَ ﷻ: ﴿وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيۡهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤۡتِيهِ أَجۡرًا عَظِيمٗا ١٠﴾ [الفتح: 10].

2) ﴿فَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِكُمۡ﴾: الإلْفُ: اجْتماعٌ معَ الْتِئام، وهو المرادُ هنا في الآية، يُقالُ: ألَّفتُ بينَهم، ومنه: الأُلْفَةُ، ويُقالُ للمَألوف: إِلْفٌ وأَلِيف، وبمعنَى الإلفِ يكونُ المؤَلَّفُ: وهو

(1) الرَّاغب، المفردات: (حبل).

ما جُمِعَ من أجزاء مُختلفة، ورُتِّبَ ترتيبًا قُدِّم فيه ما حقُّهُ أنْ يُقدَّم، وأُخِّرَ فيه ما حقُّهُ أنْ يُؤخَّر، ومنه: الكتابُ المؤلَّف، أي: الَّذي جُمعتْ كلماتُه في السُّطور، وضُمَّ بعضُها إلى بعض، وجُمعتْ كذلكَ المعلوماتُ فيه، فقُدِّمَ منها ما حقُّه التَّقديم، وأُخِّرَ منها ما حقُّه التَّأخير[1].

3) ﴿شَفَا حُفْرَةٍ﴾: شَفَا البِئْرِ وغَيْرِها: حرفُه، ويُضرَبُ به المثلُ في القُربِ من الهَلاك، كما في الآيةِ الَّتي معنا في قولِه تعالى: ﴿وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ﴾، وأَشْفَى فلانٌ على الهَلاك، أي: حصَلَ على شَفاه، ومنه اسْتُعيرَ قولُهم: ما بقيَ من كذا إلَّا شَفًا، أي: قليلٌ كَشَفَا البِئْر.

وتَثنيةُ شَفَا: شَفَوَان، وجمعُه أشْفاء، ومنه سُمِّيَ الشِّفاءُ من المرَض، أي: موافاةُ شَفَا السَّلامة، أي: قُربُها، وصارَ اسْمًا للبُرْء[2].

4) ﴿فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا﴾: الإنْقاذُ: التَّخليصُ من وَرْطَة، وأَيُّ وَرْطةٍ أشَدُّ وَطْئًا وعذابًا من النَّار؟ كما في الآيةِ الَّتي معنا في قولِه تعالى: ﴿وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا﴾.

والنَّقْذُ: ما أَنْقَذْتَه، وفَرَسٌ نَقيذٌ: مأخوذٌ من قومٍ آخرينَ، كأنَّه أُنقِذَ منهم، وجمعُه: نَقَائِذ[3].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

لَمَّا أمرَ اللهُ عبادَه المؤمنينَ في الآيةِ السَّابقةِ بتمام التَّقوى والثَّباتِ حتَّى الممات، جاءَ البيانُ الإلهيُّ في هذه الآية، يأمرُ اللهُ فيه عبادَه المؤمنين بوجوبِ التَّمسُّكِ بدينِه واجْتماعِ الكلمةِ عليه، ويذكِّرُهم بنِعَمٍ ربَّانيَّةٍ جليلةٍ تَواردتْ عليهم، وهي تأليفُ قلوبِهم على الأُخُوَّةِ الإيمانيَّة بعدَ أنْ كانتْ مُتعاديةً مُتنافِرة، ولولا هذه النِّعمةُ الإيمانيَّةُ الرَّبَّانيَّةُ؛ لكانوا على وَشْكِ الوُقوعِ في النَّارِ يومَ القيامة، وهذه النِّعمُ آياتٌ بيِّناتٌ ساقَها اللهُ إليهم هدايةً لهم، وإنْقاذًا لهم من مصيرٍ مَشْؤومٍ كانَ ينتظرُهم.

(1) الرَّاغب، المفردات: (ألف).
(2) الرَّاغب، المفردات: (شفا).
(3) الرَّاغب، المفردات: (نقذ).

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

الاسْتعارةُ، وأثرُها في إثراءِ المعنَى:

أفـــادتِ الاسْتعارةُ تقويةَ معنَى الاعْتصامِ بـديـنِ الـلـهِ واجْتماعِ الأُمَّةِ عليه

قولُه تعالى: ﴿وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ﴾.

هذا القولُ منه سُبحانَه وتعالى في وجوبِ الاعْتصامِ بحبلِهِ تعالى تمثيلٌ لاسْتظهارِه به ووُثوقِه بحمايتِه بامْتساكِ المُتدلِّي من مكانٍ مُرتفعٍ بحبلٍ وثيقٍ، يأمَنُ انْقطاعه من غيرِ اعْتبارِ مجازٍ في المُفرَدات.

والحبلُ: اسْتعارةٌ لعهدِه والاعْتصامِ لوُثوقِه بالعَهْد، أوْ أنْ يكونَ تَرْشيحًا لاسْتعارةِ الحبلِ[1] بما يناسبُه، فهي استعارة تصريحيَّة حُذف فيها المُشبَّه: وهو العهد، وذُكر فيها المُشبَّه به: وهو الحبل، والمعنَى: واجْتَمِعوا على اسْتعانتِكم باللهِ وَوُثوقِكم به، ولا تَفرَّقوا عنه، أوْ: واجْتمِعُوا على التَّمسُّكِ بعهدِه إلى عبادِه، وهو الإيمانُ والطَّاعة، أوْ بكتابِه[2] لقولِ النَّبيِّ ﷺ: "إنِّي تاركٌ فيكم كتابَ اللهِ، هو حَبْلُ اللهِ: مَنْ اتَّبعَهُ؛ كان على الهُدَى، ومَنْ تركَهُ؛ كان على الضَّلالة"[3].

وقولُه: ﴿جَمِيعٗا﴾ حالٌ من فاعلِ ﴿وَٱعۡتَصِمُواْ﴾، أي: مُجتمعِينَ في الاعْتصام، وهنا يَتجلَّى تمامُ البلاغة، حيثُ لم يرِدِ الأمر بالاعْتصامِ لكلِّ مُسلمٍ في حالِ انْفرادِه اعْتصامًا بهذا الدِّين؛ بل أرادَ الأمرَ باعْتصامِ الأُمَّةِ جميعِها، ويَحْصُلُ في ضِمْنِ ذلكَ أمرُ كلِّ واحدٍ بالتَّمسُّكِ بهذا الدِّين، فالكلامُ أمرٌ لهم بأن يكونُوا على هاتِه الهيئة.

---

(1) الاسْتعارةُ المرشَّحة، أو الاسْتعارةُ التَّرْشيحيَّة: وهي أقوى أنواع الاستعارة وأكثُرها مبالغة، ولأنَّ الاستعارةَ فيها تقوم على تناسي التَّشبيه، وذكر ما يُلائم المشبَّه به، وهو (اللَّفظُ المستعار) الَّذي يساعد على تناسي التَّشبيه، وأصلُ التَّرشيح في الاصطلاح: هو أن يُذكرَ في الكلام ما يُناسبُ المشبَّه به، وهو المستعارُ في أسلوب الاستعارة، والتَّرشيحُ وصفٌ عارضٌ للاستعارة، ولا يدخل في عناصرها الأوَّليَّة المكوِّنة لها، وهو ليس بلازم فيها، وإنَّما رُشِّحَ، وليقوِّيَ الصُّورة البلاغيَّة، ينظر: ابن حِجَّة، خزانة الأدب، ص: 49، والزَّركشي، البرهان: 3/428.

(2) الزَّمخشري، الكشَّاف: 1/450.

(3) مسلم، صحيح مسلم، الحديث رقم: (2408).

وسواء أكانتِ الاسْتعارةُ اسْتعارةَ الاعْتصامِ للتَّوثيق بالدِّين وعُهودِه، وعدمِ الانْفصالِ عنه، أم اسْتعارةَ الحَبْلِ للدِّين والعُهودِ المَبنيَّةِ عليه؛ فإنَّ كلًّا من الاسْتعارتَيْنِ ترشيحٌ للأُخْرَى؛ لأنَّ مبنَى التَّرشيحِ على اعْتبارِ تقويةِ التَّشبيهِ في نَفْسِ السَّامع، وذلكَ يحصُلُ له بمجرَّد سماعِ لَفْظِ ما هو من مُلائماتِ المُستعار، بِقَطْعِ النَّظَرِ عن كَوْنِ ذلكَ الملائمِ مُعتبرَة فيه استعارة أُخْرى؛ إذْ لا يَزيدُهُ ذلكَ الاعْتبارُ إلَّا قُوَّة.

وقولُه تعالى: ﴿وَلَا تَفَرَّقُواْۚ﴾، الأصلُ: (تتفرَّقوا) وهو تأكيدٌ لمضمون: اعْتصِموا جميعًا، ويمكنُ أنْ يكونَ ذا دَلالةٍ على طلبِ الاتِّحادِ في الدِّين، وهو الإسلام، كما قالَ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ﴾ [آل عمران: 19]، وفي الآيةِ دليلٌ على أنَّ الأمرَ بالشَّيء يَستلزِمُ النَّهيَ عن ضدِّه[1].

وجوهُ الإعراب، وأثرُها في جلاءِ المعنَى وإثْرائِه:

أفادتْ وجوهُ الإعرابِ عِظَمَ مِنَّةِ اللهِ على المؤمنينَ في إخراجِهم من دَرَكِ الشَّقاءِ وظلامِه إلى نعيمِ الإيمانِ ونورِه

قولُهُ تعالى: ﴿وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ﴾ تصويرٌ لحالِهمُ الَّتي كانوا عليها؛ لِيحصُلَ من اسْتفظاعِها انْكشافُ فائدةِ الحالةِ الَّتي أُمِروا بأنْ يكونوا عليها، وهي الاعْتصامُ جميعًا بجامعةِ الإسلامِ الَّذي كان سببَ نجاتِهم من تلكَ الحالةِ المُزريةِ من التَّفرُّقِ والعَداوةِ، وفي ضِمْنِ ذلكَ تذكيرٌ بأعظمِ نعمةٍ مَنَّ اللهُ عليهم بها، الَّتي كانت الأساسَ الَّذي بُنِيَتْ عليه جميعُ النِّعمِ المُتواليةِ عليهم، ألَا وهو دينُ الإسلام، وفي ذلكَ تحريضٌ لهم على إجابةِ داعي اللهِ لهم، بالاتِّفاقِ والالْتفافِ حولَه والسَّيْرِ على مَنْهجِه وسُنَّتِه، كما قالَ تعالى: ﴿يَٰقَوۡمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ﴾ [الأحقاف: 31]، وهذه المِنَّةُ والتَّذكيرُ بها، ليس خاصًّا بالصَّحابةِ رضي الله عنهم بل هو مُستمِرٌّ لسائرِ المسلمينَ إلى يومِ الدِّين، فلو لم يكن ذلكَ كذلكَ؛ لبقيتِ العداوةُ في الأجيالِ المُتعاقبة، ولَبقيَ المصيرُ على شَفَا حُفْرةٍ من النَّار[2].

وقولُه تعالى: ﴿نِعۡمَتَ ٱللَّهِ﴾: في إسْنادِ النِّعمةِ إلى اللهِ تشريفٌ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/31 - 32.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/32.

لها وللمُنْعَم عليهم، وزادَ هذا المعنَى قُوّةً ذكرُ الاسْمِ الظَّاهرِ للفظِ الجلالة ﴿ٱللَّهِ﴾ ودونَ إعادتِه بالضَّمير، وهو مصدرٌ مُضافٌ إلى الفاعل، وقولُه: ﴿عَلَيْكُمْ﴾ مُتعلِّقٌ به أو بمحذوفٍ وقع حالًا منه.

وقولُه: ﴿إِذْ كُنتُمْ﴾ ظرفٌ للنِّعمة، أو للاسْتقرارِ في ﴿عَلَيْكُمْ﴾؛ إذا جُعِلَ حالًا، أي: اذْكروا إنعامَه عليكم، أوِ اذْكروا إنعامَهُ مُسْتقِرًّا عليكم حالَ كونِكم ﴿أَعْدَآءً﴾ في الجاهليَّة، والظَّرفيَّةُ مُعتبَرٌ فيها التَّعقيبُ من قولِه: ﴿فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ﴾؛ إذِ النِّعمةُ لم تكنْ عندَ العَداوة، ولكنْ عندَ حصولِ التَّأليفِ عَقِبَ تلكَ العَداوة.

قولُه تعالى: ﴿فَأَصْبَحْتُم﴾، فيها وجهان:

الأوَّلُ: أنْ تكونَ ناقصة، وعلى هذا يجوزُ أنْ يكونَ خبرُها ﴿بِنِعْمَتِهِۦٓ﴾، فيكونَ المعنى: فأصبحتُم في نعمتِه، أوْ مُتلبِّسينَ بنعمتِه، أو مَشْمولينَ بنعمتِه.

و﴿إِخْوَٰنًا﴾ على هذا حالٌ يعملُ فيها (أصبحَ) أو ما يتعلَّق به الجارُّ، ويجوزُ أن يكونَ ﴿إِخْوَٰنًا﴾ خبرَ (أصْبحَ)، ويكونَ الجارُّ هنا حالًا يعملُ فيه (أَصْبحَ)، أو حالًا من ﴿إِخْوَٰنًا﴾؛ لأنَّه صفةٌ له قُدِّمتْ عليه، وأنْ يكونَ مُتعلِّقًا بـ (أصبحَ)؛ لأنَّ (أصبحَ) النَّاقصةَ تعملُ في الجارِّ، ويجوزُ أن يتعلَّق بـ ﴿إِخْوَٰنًا﴾؛ لأنَّ التَّقدير: تَـآخَيْـتُم بنعمتِه.

الوجهُ الثَّاني: أنْ تكونَ تامَّة، ويكونُ الكلامُ في ﴿بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا﴾ قريبًا من الكلامِ في النَّاقصة[1].

وقولُه: ﴿بِنِعْمَتِهِۦٓ﴾ الباءُ فيه للملابَسة، بمعنى: (معَ)، أي: أصبحتُم إخوانًا مُصاحبينَ نعمةً من اللّه، وهي نعمةُ الأُخُوَّةِ الإيمانيَّة.

الاستعارةُ، والإشارةُ، وأثرُهما في تجليةِ المعنَى وإثْرائه:

هذا القولُ عطفٌ على قولِه: ﴿كُنتُمْ أَعْدَآءً﴾، فهو نعمةٌ أُخْرَى، وهي نعمةُ الإنْقاذِ من النَّار، وقولُه: ﴿شَفَا حُفْرَةٍ﴾ هنا تمثيلٌ لحالهم في الجاهليَّة حيثُ كانوا على وَشكِ الهلاك، واخْتيارُ الحالةِ المُشبَّهِ بها هنا؛ لأنَّ النَّارَ أشدُّ المهلِكاتِ إهلاكًا، وأسرعُها إنْهاءً، ومناسبةُ

أفـــادَ نـظـمُ السِّياق رحمةَ اللـهِ الواسعةَ عـلى المؤمـنينَ وجـليـلَ نعمهِ عليهم

(1) العكبري، التبيان: 1/145.

حَمْلِ الآيةِ على هذا التَّمثيلِ لمقابلةِ النِّعمتَيْنِ المحسُوستَيْنِ اللَّتَيْنِ امْتنَّ اللهُ بهما عليهم، وهما: نعمةُ الأُخُوَّةِ بعدَ العداوة، ونعمةُ السَّلامةِ بعدَ الخَطَر.

ويمكنُ أنْ يُرادَ بالنَّارِ هنا: نارُ جهنَّم، فعندئذٍ يكونُ قولُهُ: ﴿شَفَا حُفْرَةٍ﴾ مُستعارًا للاقْترابِ اسْتعارةَ المحسوسِ للمعقول[1]، والنَّارُ حقيقة.

ويمكنُ أنْ يكونَ المعنَى الأوّلُ أظهرَ؛ لأنَّ قوله: ﴿حُفْرَةٍ﴾ لا يُعطي دَلالة قويَّة لمصداقيَّةِ ذاكَ العالَم العظيم - وهو جهنَّم - الَّذي أُعِدَّ للعذاب[2].

ولكنْ يمكنُ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿حُفْرَةٍ﴾ تقريبًا لأَذْهانِهم بما يَطولُهُ تَصوُّرُهم، ويقعُ تحتَ أبصارِهم، فيكونُ حملُ المعنى المرادِ على الوجهَيْنِ السَّابقَيْنِ أوْلى؛ إذْ لا تَعارُضَ بينَهما حِينَئذٍ.

"وقولُه: ﴿مِّنَ ٱلنَّارِ﴾ صفةٌ لـ ﴿حُفْرَةٍ﴾، و﴿مِّنَ﴾ للتَّبعيض، والضَّميرُ في ﴿مِّنْهَا﴾ للنَّارِ أو للحُفرةِ أو للشَّفا"[3].

"والتَّأنيثُ للمضاف إليه، أو لأنَّه بمعنَى: الشَّفَة؛ لأنَّ شَفا البئرِ وشِفَّتَها جانبها، كالجانبِ والجانِبَة، وأصلُه: شَفَوَ، قُلبَتِ الواوُ ألفًا في المذكَّر، وحُذِفتْ في المؤنَّث.

وقولُهُ تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ إشارةٌ إلى مصدرِ الفعلِ الَّذي بعدَه، وما فيه من معنَى البُعدِ للإيذانِ بعُلُوِّ درجةِ المُشارِ إليهم وبُعْدِ مَنْزِلته في الفَضْل، وكمالِ تَميُّزِه به عمَّا عداه، وانْتظامِه بسببِه في سِلْكِ الأمورِ المُشَاهَدَة.

والكافُ في ﴿كَذَٰلِكَ﴾ مُقْحَمَةٌ لتأكيدِ ما أفادَه اسمُ الإشارةِ من الفَخامَة، ومَحَلُّها النَّصبُ على أنَّها صفةٌ لمصدرٍ محذوف، أي: مثلُ ذلكَ التَّبيينُ الواضِح"[4]، ويمكن أن تكون الكاف للتَّشبيه على تقدير، أي: يفعل ذلك كما يبيِّن آياته.

---

(1) الاستعارة: تعليقُ العبارة على غير ما وضعت له في أصل اللُّغة على جهة النقل للإنابة، ويمكن كذلك بيانها بأنَّها جعلُ الشيَّءِ الشيَّءَ لأجل المبالغة في التَّشبيه، ولمَّا كان مبنَى الاستعارة على التَّشبيه، فهي تتنوَّعُ إلى خمسةِ أنواع، تنوَّع التَّشبيه إليها: ومن هذه الأنواع ما ورد مُبيَّنًا في المتن، وهو استعارةُ محسوسٍ لمعقول على الوجهِ الَّذي ذكر فيه، ومن أمثلة ما يقوِّي جلاء هذا النَّوع قولُه تعالى: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ﴾ [الأنبياء: 18]، فأصلُ اسْتعمالِ القَذْفِ والدَّمغِ في الأجسام، ثمَّ اسْتعيرَ القذفُ لإيراد الحقِّ على الباطل، والدَّمغُ لإذهاب الباطل، فالمستعارُ منه حِسِّيٌّ، والمستعارُ له عقليٌّ، ينظر: السَّكاكي، مفتاح العلوم: 1/493، 500.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/34 - 35.

(3) العكبري، الإملاء: 1/145.

(4) أبو السُّعود، إرشاد العقل السليم: 1/527.

وقولُه تعالى: ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ﴾ البيانُ هنا بمعنَى: الإظهارِ والإيْضاح، والآياتُ يجوزُ أن يُرادَ بها النِّعمُ الواردةُ في الآيةِ على وجهِ الخُصوص، أوِ النِّعمُ على وجه العُموم.

ويجوزُ أن يُرادَ بها دلائلُ عنايتِه تعالى بهم وإنارةِ عقولِهم وقلوبِهم بأنوارِ المعارفِ الإلهيَّة، وأن يرادَ بها آياتُ القرآنِ، فإنَّه غايةٌ في الإفصاحِ عن المَقاصِد، وإبلاغِ المعاني إلى الأذْهان، وإضافة الهداية إلى اللّه إضافة تشريف.

وقولُهُ تعالى: ﴿لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ﴾ طلبًا لثباتِكم على الهدَى الَّذي وفقكم اللّهُ إليه، وازديادِكم فيه[1]، والجملة استئناف بيانيٌّ؛ لأنَّها جملة تعليليَّة، جواب عن سؤال مقدَّر: لم يفعل هذا؟ لعلَّكم تهتدون.

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الحَبْل والعَهْد:

دَلالـةُ الحَبْلِ أوسعُ وأشْملُ من دَلالةِ العَهْد

عند قوله تعالى: ﴿بِحَبۡلِ ٱللَّهِ﴾: "العَهْدُ: حفظُ الشَّيءِ ومراعاتُه حالًا بعدَ حال، قالَ تعالى: ﴿وَأَوۡفُواْ بِٱلۡعَهۡدِۖ إِنَّ ٱلۡعَهۡدَ كَانَ مَسۡـُٔولٗا ٣٤﴾ [الإسراء: 34]، أي: أَوْفُوا بحفظِ الأَيْمان.

ويُقالُ: عَهِدَ فُلانٌ إلى فُلانٍ يَعْهَدُ، أي: أَلْقى إليه العَهْدَ، وأَوْصاهُ بحفظِه، كما قالَ تعالى: ﴿وَلَقَدۡ عَهِدۡنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ﴾ [طه: 115]»[2].

وبالنَّظَرِ فيما تقدَّمَ من بيانِ معنَى (الحَبْل) في شَرْحُ المُفْرَداتِ: يظهرُ أنَّ (الحَبْلَ) أَوْفَى بالسِّياق من (العَهْد) ذلك أنَّ الحبلَ هو ما يُتوصَّل به إلى اللّهِ تعالى من القرآنِ والعقلِ وكلِّ عملٍ يُفْضي إلى مرضاةِ اللّه، والوفاءُ بالعَهْدِ: هو أحدُ الأسبابِ والسُّبُلِ المُوصِلَةِ إلى مَرْضاةِ اللّه.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/36.
(2) الرَّاغب، المفردات: (عهد).

كلمةُ (شَفَا) تُستَخدَمُ لكلِّ ما يُوافي الشَّيءَ، ويُقارِبُ الوُلوج فيه، وليس كذلكَ كلمةُ (حَرْف)

شفا وحَرْف:

عند قوله تعالى: ﴿شَفَا حُفْرَةٍ﴾: "حَرْفُ الشَّيءِ: طَرَفُهُ، وجمعُهُ: أَحْرُفٌ وحُروفٌ، يُقالُ: حَرْفُ السَّيْف، وحَرْفُ السَّفينة، وحَرْفُ الجَبَل، وحُروفُ الهِجاء: أَطْرافُ الكَلِمة"[1].

أمَّا كلمة ﴿شَفَا﴾؛ فهي - مع ما تَعنيه من إفادةِ معنَى حَرْفِ الشَّيء وطَرَفِه - تُفيد الإشرافَ على دخولِ الشَّيءِ أوِ الوقوعِ فيه، فَشَفَا المرَضِ: موافاةُ شَفَا السَّلامةِ منه، أي: قُربُها، ومنه سُمِّي الشِّفاءُ من المرض، وصار اسْمًا للبُرْء.

(أَلَّفَ) و(جَمَعَ):

"الجَمْعُ: ضَمُّ الشَّيءِ بتقريبِ بَعْضِه من بَعْض، يُقالُ: جَمَعْتُه، فاجْتَمع، قالَ تعالى: ﴿جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ ۝٢﴾ [الهُمَزة: 2]»[2]، وأمَّا أَلَّفَ؛ فهي من الإِلْف: وهو اجْتماعٌ مع الْتِئام، أي: مع وُجودِ الأُلْفَةِ"[3].

وهذا المعنَى يُناسبُ سياقَ الآيةِ، فإنَّ ما خلقَه اللّٰه تعالى في قُلوبِ المؤمنين من الأُلفةِ والمحبّة، لا يُعبَّرُ عنه بمجَرَّدِ الجَمْعِ أو الاجْتماع.

فليس كُلُّ جَمْعٍ أَوِ اجْتماعٍ قائمًا على معنَى الأُلفة والمحبَّة.

(أَنْقَذَكم) و(خَلَّصَكم) و(نَجَّاكم):

"يُقالُ: خلَّصْتُه فَخَلَصَ، وهو إزالُ الشَّوْبِ من الشَّيءِ بعدَ أنْ كانَ فيه، فيُقالُ عنه: الخالِصُ، وأمَّا لو لم يكنْ فيه شَوْبٌ؛ فيُسمَّى الصَّافي"[4].

وأمَّا النَّجاءُ؛ فالانْفصالُ من الشَّيء، ومنه: نَجا فُلانٌ من فُلانٍ، وأَنْجيْتُه ونَجَّيْتُه، قالَ تعالى: ﴿وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [النَّمل: 53]."[5].

(1) الرَّاغب، المفردات: (حرف).
(2) الرَّاغب، المفردات: (جمع).
(3) الرَّاغب، المفردات: (ألف).
(4) الرَّاغب، المفردات: (خلص).
(5) الرَّاغب، المفردات: (نجو).

وتقدَّمَ معنَى (الإنقاذ) في شرحِ المفردات، وتبيَّن أنَّه: التَّخليصُ من وَرْطَة.

وسياقُ النَّصِّ القرآنيِّ يُخبرُنا عن إنقاذِ اللهِ تعالى للمؤمنينَ من النَّارِ بعدَ أنْ هَداهمْ للإيمان، وأيُّ وَرْطةٍ أشدُّ وَبالًا وإهلاكًا من النَّار؟ والعياذُ باللهِ منها.

وهذا المعنَى لا يَتوافرُ في كَلِمتي (خلَّصكم) و(نجَّاكم)، على وَجْه اللُّزوم، كما في معنَى (أَنْقذَكم)، فقد يكونُ، وقد لا يكون.

﴿وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ١٠٤﴾ [آل عمران: 104]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمّا توجَّهَ بيانُ اللّهِ تعالى في الآيةِ السَّابقةِ بالتَّربيةِ الرَّبَّانيَّةِ القُرآنيَّةِ لجماعةِ المؤمنينَ بوجوبِ الاعْتصامِ بدينِ اللّه، ونَبْذِ التَّفرقة، وشُكرِ اللّهِ على نعمِه عليهم؛ خَلُصَ ذاكَ الأمرُ ببناءِ مجتمعٍ إيمانيٍّ، ومن ضِمنِه فئةٌ مؤمنةٌ بارَّةٌ عالمةٌ، توجَّه الأمرُ إليها في هذه الآيةِ بحملِ مهمَّةٍ عظيمةٍ هي القيامُ بالأمرِ بالمعروفِ والنَّهيِ عن المنكر، وأخبرَنا اللّهُ ﷻ بأَنَّ هؤلاءِ همُ المفلحون.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أُمَّةٞ﴾: أمَّ: الهمزةُ والميمُ المشدَّدَة أصلٌ واحد، والأُمَّةُ: الدِّين، قالَ اللّهُ تعالى: ﴿إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ﴾ [الزُّخرف: 22].

وكذلكَ كلُّ مَنْ كانَ على دينٍ حقٍّ مُخالِفٍ لسائرِ الأديان؛ فهو أُمَّة، وكلُّ قومٍ نُسِبوا إلى شيءٍ، وأُضيفُوا إليه؛ فهم أُمَّة، وكُلُّ جيلٍ من النَّاس أُمَّةٌ على حِدَة.

وتأتي الأُمَّةُ بمعنى: الإمامِ الَّذي يُهتدَى به، وهو سببُ الاجْتماع، كما قالَ تعالى: ﴿إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةٗ﴾، وقد تكونُ الأُمَّةُ جماعة من العلماء، وهو المعنَى المرادُ في الآية الَّتي معنا: ﴿وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ﴾[1].

2) ﴿بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾: المعروفُ: اسْمٌ لكلِّ فِعْلٍ يُعرَفُ بالعقلِ أو بالشَّرْعِ حُسْنُه.

3) ﴿ٱلۡمُنكَرِۚ﴾: ما يُنْكَرُ بهما، وهو المعنَى المرادُ في الآيةِ الَّتي معنا.

ولهذا قيلَ للاقْتصادِ في الْجُود: مَعْروفٌ؛ لَمَّا كانَ ذلكَ مُسْتحْسَنًا في العقولِ وبالشَّرع، كما قالَ تعالى: ﴿وَمَن كَانَ فَقِيرٗا فَلۡيَأۡكُلۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ﴾ [النِّساء: 6]»[2].

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أم).
(2) الرَّاغب، المفردات: (عرف).

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

يأمرُ اللهُ تعالى نبيَّه محمَّدًا ﷺ وأُمَّته أنْ تتولَّى جماعةٌ من العلماءِ منهم من أهلِ الفِقْه والفَهْم دَعْوةَ النَّاسِ إلى الخَيْر، ومن أَخَصِّه الأمرُ بكلِّ فعلٍ يُعرَفُ بالشَّرْعِ والعقلِ حُسْنُه، والنَّهيُ عن كلِّ فعلٍ يُنكَرُ بهما، مُخبرًا سُبحانَه وتعالى أنَّ أولئكَ الآمرينَ بالمعروفِ والنَّاهينَ عن المنكرِ هُمُ المفلحونَ عندَ اللهِ ﷻ.

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

العَطْفُ، والوجوبُ، وأثرُهما في توضيحِ المعنَى:

أفادَ العطفُ والوجوبُ ضرورةَ قيامِ جماعةٍ من علماءِ الأُمَّةِ بدعوةِ النَّاسِ إلى الخَيْر

قوله تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ﴾: مُفرَّعٌ عن الكلامِ السَّابق، ولذلكَ كان حَرِيًّا بأن يُعطفَ بالفاءِ، ولو عُطِفَ بها؛ لكانَ أسلوبًا عربيًّا سائغًا، إلَّا أنَّه عُدِلَ عن العطفِ بالفاءِ؛ تنبيهًا على أنَّ مضمونَ هذا الكلامِ مقصودٌ لذاتِه، بحيثُ لو لم يَسبِقْه الكلامُ السَّابقُ؛ لكانَ حَرِيًّا بأن يُؤمَرَ به، فلا يكونُ مَذْكورًا لأَجْلِ التَّفرُّعِ عن غيرِه والتَّبَع.

وصيغةُ ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ﴾ صيغةُ وُجوب؛ لأنَّها أَصْرَحُ في الأمرِ من صيغةِ (افْعلُوا)، ولأنَّها أصلُها، فإذا كانَ الأمرُ بالمعروفِ والنَّهيُ عنِ المنكَرِ غيرَ معلومٍ بينَهم من قبلِ نزولِ هذه الآية، فالأمرُ لتشريعِ الوُجوب.

وإذا كانَ ذلكَ حاصلًا بينَهم من قبلُ، كما يدلُّ عليه قولُه تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ [آل عمران: 110]، فالأمرُ لتأكيدِ ما كانوا يفعلونَه، بل فيه زيادةُ الأمرِ بالدَّعوةِ إلى الخَيْر، وهي أعمُّ من الأمرِ بالمعروفِ والنَّهيِ عن المنكر، وهو فردٌ من أفرادِها، أُفرِدَ لمزيدِ مَزِيَّتِه، وعظيمِ أَثَرِه، وقد كانَ الوجوبُ مُقرَّرًا من قبلُ بآياتٍ أُخْرى، مثلِ قولِه تعالى: ﴿وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ ۝٣﴾ [العصر: 3]، فالأمرُ

لتأكيدِ الوُجوبِ أيضًا للدَّلالةِ على الدَّوامِ والثَّباتِ عليه، كما في قولِه تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ﴾ [النِّساء: 136][1].

قولُه تعالى: ﴿وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ يَدۡعُونَ﴾، ﴿وَلۡتَكُن﴾ فيها وَجْهان:

الأوَّلُ: أنْ تكونَ تامَّةً، و(مِن) تبعيضيَّةٌ متعلِّقةٌ بالأمرِ أو بمحذوفٍ، على أن تكون صفةً لأمَّةٍ قُدِّمَ عليها، فصارَ حالًا من الفاعلِ، وهو ﴿أُمَّةٞ﴾، و﴿يَدۡعُونَ﴾ صفتُها، أي: لتوجَدْ منكم أُمَّةٌ داعيةٌ إلى الخَيْر.

والثَّاني: أنْ تكونَ النَّاقصة، و﴿أُمَّةٞ﴾ اسْمُها، و﴿يَدۡعُونَ﴾ خبرُها، أي: لتكُنْ منكم أُمَّةٌ داعينَ إلى الخَيْر[2].

وأيًّا ما كانَ من الوَجهَيْن؛ فتوجيهُ الخطابِ إلى الكُلِّ مع إسْنادِ الدَّعوةِ إلى البعضِ لتحقيقِ معنَى فَرْضيَّتِها على الكفايةِ، وأنَّها واجبةٌ على الكُلِّ لكنْ بحيث إنْ أقامَها البعضُ؛ سقطتْ عنِ الباقِين، ولو أخَلَّ بها الكُلُّ؛ أثِموا جميعًا لا بحيث يتحتَّم على الكُلِّ إقامتُها على ما يُنبِئُ عنه قولُهُ ﷻ: ﴿وَمَا كَانَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةٗۚ فَلَوۡلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرۡقَةٖ مِّنۡهُمۡ طَآئِفَةٞ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوۡمَهُمۡ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ لَعَلَّهُمۡ يَحۡذَرُونَ ١٢٢﴾ [التَّوبة: 122]، ولأنَّها من عَظَائِم الأمور وعَزائِمها الَّتي لا يتولَّاها إلَّا العلماءُ بأحكامِه تعالى ومراتبِ الإحسانِ وكيفيَّةِ إقامتِها، فإنَّ مَنْ لا يعلمُها يُوشِكُ أنْ يَأمُرَ بمُنكَرٍ، ويَنْهَى عن مَعْروف، ويَغلُظَ في مَقامِ اللِّين، ويَلينَ في مَقَامِ الغِلظَة، ويُنكِرَ على مَنْ لا يَزيدُه الإنكارُ إلَّا التَّماديَ والإصْرار.

ويمكنُ أنْ تكونَ (مِن) بيانيَّة، وقد قُدِّم البيانُ على المبيَّن، فيكونُ ما صَدَقُ الأمَّةِ نفسُ الصَّحابة، وهم أهلُ العصرِ الأوَّل، كما في قولِه تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنۡهُم مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا عَظِيمَۢا ٢٩﴾ [الفتح: 29]، والأمرُ من (كانَ) النَّاقصة، والمعنَى عندئذٍ: كُونُوا أُمَّةً تَدْعونَ إلى الخَير.

ولا يَقْتضي ذلكَ أنْ تكونَ الدَّعوةُ فرضَ عَيْن، فإنَّ الجهادَ من فُروضِ الكِفايةِ معَ ثُبوتِه بالخطابِ العامِّ، والدُّعاءُ إلى الخير عبارةٌ عن الدُّعاءِ إلى ما فيه صلاحٌ دينيٌّ أوْ دُنيويٌّ.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/36 - 37.

(2) العكبري، التبيان: 1/145.

عَطْفُ الخاصِّ على العامِّ، وحذفُ المفعول، والإشارةُ، والقَصْرُ، وَأَثَرُ ذلكَ كلِّه في تَجْليةِ المعنَى وإثْرائه:

أفـــادَ نـظـمُ السِّياقِ بأركانِه إظـهـارَ فضيلةِ الأمـرِ بالمعروفِ والـنَّـهـيِ عـن المـنـكـر، وأنَّ الـفلاحَ كـلَّه لمن قامَ بهما

قولُه تعالى: ﴿وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾: عَطَفَ بيانُ اللهِ الأمرَ بالمعروفِ والنَّهيَ عن المنكرِ على ما سبَقه مع انْدراجِهما فيه من بابِ عَطْفِ الخاصِّ على العامِّ؛ لإظهارِ فَضْلِهما وعُلُوِّهما على سائرِ الخَيْرات، وحَذْفُ المفعولِ الصَّريحِ من الأفعالِ الثَّلاثةِ: إمَّا للإيْذانِ بظهورِه، أي: يَدْعونَ النَّاسَ، ويأمُرونَهم، ويَنْهَوْنَهم، وإمَّا القَصْدُ إلى إيجادِ نَفْسِ الفعل، أي: يفعلونَ الدُّعاءَ إلى الخَيرِ والأمرَ بالمعروفِ والنَّهيَ عنِ المنكر[1].

والمعروفُ: هو ما يُعْرَفُ عند أهلِ الشَّرائع، فهو ما حسَّنه الشَّرعُ، ودعا إليه، وهو مجازٌ في المقبولِ المرضيِّ به؛ لأنَّ الشَّيءَ إذا كانَ معروفًا؛ كانَ مألوفًا للنُّفوسِ مَقْبولًا عندَها مَرْضيًّا به.

والْمُنكَرُ مجازٌ في المكروه، والكُرْهُ لازمٌ للإنكار، وهو ما أنكرَهُ الشَّرعُ، وكَرِهَه، ويُسمَّى غيرُ المألوفِ: نَكِرةً من هذا الباب.

والتَّعريفُ في (الخيرِ، والمعروفِ، والمنكَر) تعريفُ الاسْتغراق، فيُفيدُ العمومَ في كلِّ ما أنْهَاهُ إلينا الشَّرْعُ وعلَّمنا إيَّاه.

والمعروفُ والمنكرُ - إنْ كانا ضروريَّيْنِ - كانَ لكلِّ مُسلم أنْ يأمرَ ويَنْهى فيهما، وإنْ كانَا نظريَّيْنِ؛ فإنَّما يقومُ بالأمرِ والنَّهي فيهما أهلُ العلم وذَوُو الاختصاص[2].

قولُه تعالى: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ معطوفةٌ على صفاتِ ﴿أُمَّةٞ﴾، وهي الَّتي تضمَّنَتْها جُمَلُ ﴿يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ﴾، و﴿يَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ﴾، والتَّقدير: وهم مُفلِحون؛ لأنَّ الفلاحَ لَمَّا كان مُسَبَّبًا على تلكَ الصِّفات الثَّلاثِ؛ جُعِلَ بمنزلةِ صِفةٍ لهم.

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السليم: 1/528 - 529.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/40.

ويجوزُ جَعْلُ جُملةِ ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ حالًا من ﴿أُمَّةٌ﴾؛ إذِ الواوُ للحال.

وهذه الجُملةُ القرآنيَّةُ زَفَّتِ البِشارةَ بالفلاحِ الكاملِ لمن تمثَّل تلكَ الصِّفاتِ الثَّلاث.

وكانَ مُقتَضَى الظَّاهرِ فصل جُملةِ ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ عمَّا قبلَها بدونِ عَطْفٍ، مثلَ: فَصْلِ جُملةِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْۖ﴾ [البقرة: 5] لكنَّ هذه عُطِفتْ هنا، أو جاءتْ حالًا؛ لأنَّ مَضمونَها جزاء عن الجُمَلِ الَّتي قَبلَها، فهي أَجْدَرُ بأنْ تُلحَقَ بها.

ومُفادُ هذه الجملةِ قصْرُ صفةِ الفلاحِ عليهم[1].

"وضميرُ الفَصْلِ ﴿هُمُ﴾ يَفْصِلُ بينَ الخبرِ وصفتِه، ويُؤكِّدُ النِّسبةَ، ويُفيدُ اخْتصاصَ المُسنَدِ بالمُسنَدِ إليه، أو هو مبتدأٌ خبرُه ﴿ٱلْمُفْلِحُونَ﴾، والجملةُ خبرٌ لـ ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ﴾، وتعريفُ ﴿ٱلْمُفْلِحُونَ﴾: إمَّا للعَهْد، أو للإشارةِ إلى ما يَعرِفُه كلُّ أحدٍ من حقيقةِ المفلحين"[2]، والإشارة بـ ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ للبعد المعنويِّ، وليس الحسِّي لرفعة درجتهم وعلوِّ منزلتهم، وذكرها هنا لمزيد تقرير العناية بهم.

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الأُمَّة والجَماعة:

قولُهُ تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ﴾: الجماعةُ: مجموعةٌ من النَّاسِ انْضمَّ بعضُهم إلى بعضٍ من (الجَمْعِ)، وهو ضمُّ الشَّيءِ بتَقْريبِ بعضِه من بعض، يُقالُ: جمعتُه، فاجْتَمَع، قالَ تعالى: ﴿يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ﴾ [سبأ: 26]، وهي كذلكَ من (الاجْتماع)، قالَ تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ﴾ [الإسراء: 88].

وقولُهم: يومُ الجُمُعَةِ؛ لاجْتماع النَّاسِ فيه للصَّلاة، قالَ تعالى: ﴿إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الجُمعة: 9][3].

والأُمَّةُ: قومٌ أو جماعةٌ نُسِبُوا إلى شيءٍ وأُضيفُوا إليه، وهي كذلك: كلُّ مَنْ كانَ على دينٍ حقٍّ مخالِفٍ لسائرِ الأدْيَان، فاجْتماعُ الجماعةِ يكونُ على أمرٍ ذي بالٍ، وخاصَّةً ما كان على دينٍ إلهيٍّ حقٍّ، كدينِ الإسلام، وأَوْلى النَّاس بهذا الأمرِ هُمُ العُلَماء.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/40، 42.

(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السليم: 1/529.

(3) الرَّاغب، المفردات: (جمع).

ولذلكَ استخدمَ البيانُ الإلهيُّ كلمةَ ﴿أُمَّةٌ﴾، ويُمثِّلُها العلماء؛ لأنَّهم همُ الَّذين يَتولَّوْنَ أمرَ الدَّعوةِ إلى الخَيْر، والأمرَ بالمعروفِ، والنَّهيَ عن المُنكر.

وليس أيُّ جماعةٍ تجتمعُ على وَجْهِ العمومِ، لا تملكُ العلمَ والفَهْمَ للقيامِ بهذه المهمَّة الكبيرة.

﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخۡتَلَفُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ١٠٥﴾ [آل عمران: 105]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا أمرَ اللهُ سُبحانَه وتعالى طائفةً منَ المؤمنينَ بالدَّعوةِ إلى الخيرِ والأمرِ بالمعروفِ والنَّهيِ عن المنكر؛ جاءَ سياقُ هذه الآيةِ الكريمةِ مُحذِّرًا المؤمنينَ من التَّفرُّقِ والاخْتلافِ، كما حَصَلَ معَ الَّذينَ من قبلِهم بعدَ إنزالِ الكُتُبِ عليهم وإرسالِ الرُّسُل.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَٱخۡتَلَفُواْ﴾: "خَلَفَ: الخاءُ واللَّامُ والفاءُ أُصولٌ ثلاثةٌ، الأوَّلُ: أنْ يَجيءَ شيءٌ يقومُ مُقامَه، والثَّاني: خِلافُ قُدَّام، والثَّالثُ: التَّغيُّر، والاخْتلافُ من الأصلِ الأوَّل، يُقالُ: اختلفَ النَّاسُ في كذا، والنَّاسُ خِلْفةٌ، أي: مُختلِفون، فكلُّ واحدٍ منهم يُنَحِّي قولَ صاحبِه، ويُقيمُ نَفْسَه مُقامَ الَّذي نَحَّاه"[1]، وهذا هو المرادُ في الآيةِ الكريمة.

2) ﴿ٱلۡبَيِّنَٰتُۚ﴾: "(بَيْنَ) الباءُ والياءُ والنُّونُ أصلٌ واحد، وهو بُعْدُ الشَّيءِ وانْكشافُه.

وبانَ الشَّيءُ وأبانَ؛ إذا اتَّضَحَ وانْكشفَ، وفلانٌ أَبْيَنُ من فُلان، أي: أوضحُ كلامًا منه"[2].

فالبيِّناتُ هي الدَّلائلُ الواضحات، والبيِّناتُ تضمُّ دعوةَ الأنبياءِ والرُّسُل، وشرائعَ اللهِ ومعجزاتِه، فكلُّها واضحةٌ جَليَّةٌ.

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

حَريٌّ بالمؤمنينَ - وفي طليعتِهم صحابة رسولِ اللهِ ﷺ - ألَّا يَتَّبعوا سَنَنَ أهلِ الكتابِ من التَّفرُّقِ والاخْتلافِ من بعد ما جاءَتْهُمُ الدَّلائلُ القاطعةُ على صدقِ أنبيائهم ورُسُلهم في دعوتِهم إلى الله، والَّذين ينتظرُهم عذابٌ عظيمٌ يومَ القيامة؛ لذا فقد جاءَ النَّهيُ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (خلف).

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بين).

الإلهيُّ لعامَّة المؤمنين ألَّا يَقعُوا في مَغَبَّةِ ما وقعَ فيه مَنْ كان قبلَهم، فيصيبَهم ما أصابَهم، فالعاقلُ الحَصيفُ من أخذَ الدُّروسَ من غيرِه، فاتَّعظَ واسْتفاد.

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

النَّهيُ، والصِّلةُ، والتَّأكيدُ، والقصْرُ، وأثرُها جميعُها في تجليةِ المعنَى وإثْرائه:

أفادَ السِّياقُ القُرآنيُّ بأركانِه ضرورةَ اجتماعِ الكلمةِ على الدِّينِ الحقِّ، ونبذِ الاخْتلافِ المؤدِّي للتِّفرقةِ وشَتاتِ الأمر

قولُه تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخۡتَلَفُواْ﴾ العطف هنا من عطف القصَّة على القصَّة، أو عطف الإنشاء على الإنشاء، وهو نهيٌ للمؤمنينَ - وفي مُقدَّمَتِهم صحابةُ رسولِ اللهِ ﷺ - أنْ يتفرَّقوا ويَختلِفُوا؛ كما اليهودُ والنَّصارى كلٌّ منهما تفرَّقَ فِرَقًا، واخْتلَفُوا باسْتخراجِ التَّأويلاتِ الزَّائفة[1]، وكَتْمِ الآياتِ النَّاطقةِ وتحريفِها بما أَخْلَدوا إليه من حُطامِ الدُّنيا الفانية.

ويمكنُ أنْ يتوجّه النَّهيُ إلى المتصدِّينَ للدَّعوةِ أصالةً وإلى أعقابِهم تَبَعًا، ويَجوزُ تَعميمُ الموصولِ ﴿كَٱلَّذِينَ﴾ للمختلِفينَ من الأمُمِ السَّالفةِ المُشارِ إليهم بقولِه ﷻ: ﴿وَمَا ٱخۡتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۖ﴾ [البقرة: 213].

وذلكَ من بعدِ ما جاءَهم من الدَّلائلِ المانعةِ من الافْتراقِ والاخْتلاف.

وقدَّمَ بيانُ اللهِ الافْتراقَ على الاخْتلافِ للإيْذانِ بأنَّ الاخْتلافَ علَّةُ التَّفرُّقِ، وهذا من المُفاداتِ الحاصلةِ من ترتيبِ الكلامِ وذكرِ الأشياءِ مع مُقارناتِها.

وفي هذا البيانِ الرَّبَّانيِّ إشارةٌ إلى أنَّ الاخْتلافَ المذمومَ الَّذي يؤدِّي إلى الافْتراق: هو الاخْتلافُ في أُصولِ الدِّينِ الَّذي يُفْضي إلى تكفيرِ أو تَفْسيقِ بعضِ الأُمَّةِ بعضًا، دونَ الاخْتلافِ في الفُروعِ المبنيَّةِ

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 3/257.

على اخْتلافِ مصالحِ الأُمَّةِ في الأقْطارِ والأَعْصار، وهو المعبَّرُ عنه بالاجْتهاد[1]، "وإنَّما حذَفَ التَّاء؛ لأنَّ تأنيثَ البيِّنةِ غيرُ حقيقيٍّ، ولأنَّها بمعنَى الدَّليل"[2].

وذِكْرُ ﴿ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾ إيذانٌ بأنَّ اللّٰه تعالى لم يَدَعْ أُمَّةً من الأُمَم إلَّا وأرسلَ إليها المعجزاتِ مع الأنبياءِ والرُّسُل، وأنزلَ عليها البيِّنات في الكُتُب؛ ولذلكَ كانتِ البيِّناتُ دلائلَ واضحات، فيها عِصْمةٌ من الوقوعِ في الاخْتلافِ؛ لو قُيِّضتْ لها الأفهامُ، وجُنِّدتْ لها المقاصِدُ الحَسَنةُ للوصولِ إلى الحقِّ والتَّمسُّكِ به.

ولَمَّا لم يُراعِ أهلُ الكتابِ هذه وتلكَ، فاخْتلفوا، وتفرّقوا، فضلُّوا، وأضَلُّوا، وهم: إمَّا أنَّهم غَلُوا في دينِهم، أو اتَّبعوا أهواءَ قومٍ قبلَهم ضلُّوا وأَضلُّوا عن سواءِ السَّبيل، كما قالَ تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُواْ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓاْ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّواْ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيرًا وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٧٧﴾﴾ [المائدة: 77].

وفي هذا تحذيرٌ، وأيُّ تحذيرٍ؟! للصَّحابةِ الكرام رضي الله عنهم وللأجيالِ المؤمنةِ بعدَهم؛ حتّى لا يَقعُوا فيما وقعَ فيه أهلُ الكتابِ، فيختَلِفُوا، ويتفرَّقوا، فيفشَلُوا، وتذهبَ قُوَّتُهم، ويَخْسَروا دينَهم، فيتسلَّطَ عليهم أعداؤهم، ويُصبِحوا عبيدًا لهم بعد أن كانوا عليهم قادةً وسادةً، كما قالَ تعالى: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ [الأنفال: 46].

قولُه تعالى: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ مُقابِلَ قولِه في الفريقِ الآخَر: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾﴾ [آل عمران: 104].

"وقولُه: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارةٌ إلى المذكورينَ باعْتبارِ اتِّصافهم بما في حَيِّزِ الصِّلة، وقولُه: ﴿لَهُمْ﴾ خبرُه، أو خبر العذاب، وذكر اسم الإشارة هنا لمزيد النَّعي عليهم، والإشارة لهم بالبُعد لإنزال البُعد المعنويِّ منزلة البُعد الحسِّيِّ لتماديهم وبعدهم في الضَّلال.

وقولُه: ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ مُرتفِعٌ بالظَّرفِ على الفاعليَّةِ لاعْتمادِه على المبتدأ، أوْ مبتدأٌ والظَّرفُ خبرُه، والجملةُ ﴿لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ خبرٌ للمبتدأ ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ﴾"[3].

وفي هذه التَّعريفاتِ من الإشارةِ والضَّمير، ثمَّ تقديمِ شِبْهِ الجُملةِ ﴿لَهُمْ﴾ تأكيدٌ ومبالغةٌ وقَصْرٌ، وفي كلِّ ذلكَ تهديدٌ ووعيدٌ للمتَفرِّقين وتشديدٌ في تهديد المُشَبِّهينَ بهم.

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السليم: 1/530.
(2) العكبري، التبيان: 1/145.
(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السليم: 1/530.

الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الاخْتلاف والتَّنازع:

"التَّنازعُ والمُنازَعَةُ: المُجاذَبَة، ويُعبَّرُ بهما عن المخاصَمة والمجادَلَة، قالَ تعالى: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾"[1].

حالُ المختلفينَ على ما هو معناه هو الَّذي يُفْضي إلى التَّفرُّق، وليس مجرَّد التَّنازع

والاخْتلافُ - كما تقدَّمَ في شرحِ المفرداتِ - ليس مجرَّدَ مُخاصمةٍ ومُجاذَبةٍ، كما هو معنَى التَّنازع، بل هو تَنحيةُ كلِّ خَصْم لقولِ صاحبِه، وإقامةُ نفسِه مُقامَه الَّذي نحَّاه، وهذا هو دَيْدَنُ المختَلِفين، ولذلكَ كانَ اسْتخدامُ السِّياقِ القُرآنيِّ لفعلِ (اخْتلفُوا) أنسبَ من الفعلِ (تَنازَعوا).

البيِّنات والدَّلائل:

"الدَّلالةُ: ما يُتوَصَّلُ به إلى معرفةِ الشَّيء، كدَلالةِ الألفاظِ على المعنَى، ودَلالةِ الإشارات والرُّموز والكتابة، والعُقودِ في الحساب، وسواءٌ أكانَ ذاكَ بقَصْدٍ ممَّن يجعلُه دَلالة، أم لم يكنْ بقَصْد، قالَ تعالى: ﴿مَا دَلَّهُمۡ عَلَىٰ مَوۡتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلۡأَرۡضِ﴾ [سَبَأ: 14]"[2].

وهذه الدَّلائلُ قد تكونُ واضحةً، وقد لا تكون.

أمَّا البيِّناتُ؛ فهي الدَّلائلُ الواضحات، تُوصِلُ إلى مَدْلُولِها بقُوَّة؛ ولذلكَ جاءَ سياقُ النَّصِّ القُرآنيِّ بذكرِها دون غيرِها من المفردات.

وهذه هي دعوةُ الأنبياءِ والرُّسُلِ، وشرائعُ اللّهِ تعالى فيها كلُّ الوُضوحِ والبَيان، وهذا ما حَدَا ببيانِ اللّهِ تعالى إلى اسْتخدامِها في سِياقِه.

(1) الرَّاغب، المفردات: (نزع).
(2) الرَّاغب، المفردات: (دل).

﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ١٠٦﴾ [آل عمران: 106]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمّا حذَّرَ اللّهُ المؤمنينَ من الوقوعِ في مَغبَّةِ التَّفرُّقِ والاخْتلافِ، كما وقعَ من أهلِ الكتابِ وغيرِهم؛ جاءتْ هذه الآيةُ الكريمةُ لتُبيِّنَ حالَ وُجوهِ الفريقيْنِ من أهلِ الإيمانِ وأهلِ الكُفرِ يومَ القيامةِ وصِفتهم، بادئًا بالفريقِ الثَّاني.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ﴾: "ذَوَقَ: الذَّالُ والواوُ والقافُ: أَصْلٌ واحدٌ، وهو اخْتبارُ الشَّيءِ من جهةِ تَطَعُّمٍ، ثمَّ يُشتَقُّ منه مجازًا، فيُقالُ: ذُقْتُ المأكولَ أَذوقُهُ ذَوْقًا، وذُقْتُ ما عندَ فلانٍ: اخْتبرتُه، ويُقالُ: كلُّ ما نزَلَ بإنسانٍ من مكروهٍ؛ فقدْ ذاقَه، ويُقالُ: ذاقَ القَوْسَ؛ إذا نَظرَ ما مِقْدارُ إعطائِها؟ وكيفَ قُوَّتُها؟"[1].

وهكذا هنا ذوقُ العذاب، هو من بابِ المجاز، وأيُّ مكروهٍ أَشَدُّ وَطْئًا من العذابِ الَّذي سيذوقُه الكفَّارُ يومَ القيامة؟!

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

هذه الآيةُ الكريمةُ إخبارٌ من اللّهِ سُبحانَه وتعالى عن حالِ فريقي الإيمانِ والكُفْرِ يومَ القيامةِ بذِكْرِ بياضِ وُجوهِ المؤمنينَ، وسَوادِ وُجوهِ الكافرين الَّذين سيذوقونَ عذابَ النَّار.

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

وجوهُ الإعراب، والأخذُ بظاهرِ النَّص، وأثرُ ذلكَ في تجليةِ المعنَى:

في قولِه تعالى: ﴿يَوْمَ﴾ وَجْهان جائزان:

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ذوق).

الأوَّلُ: أنْ يكونَ منصوبًا على أنَّه ظرفٌ للاسْتقرارِ في قولِه تعالى: ﴿لَهُمۡ عَذَابٌ﴾، أي: لثبوتِ العذابِ العظيمِ لهم، أي: لهم عذابٌ كائنٌ أوْ مُستقِرٌّ.

الثَّاني: أنْ يكونَ مفعولًا لِمُضْمَرٍ، خُوطِبَ به المؤمنونَ تحذيرًا لهم عن عاقبةِ التَّفرُّقِ بعدَ مجيءِ البيِّنات، وترغيبًا في الاتِّفاق على التَّمسُّكِ بالدِّين، أي: اذكُروا يومَ تبيَضُّ وُجوه.

وجُملةُ: ﴿تَبۡيَضُّ وُجُوهٞ﴾ صفةٌ لـ ﴿يَوۡمَ﴾ على تقدير: تبيَضُّ فيه وُجوهٌ، وتسودُّ فيه وُجوه.

وبياضُ الوجوهِ وسوادُها: كنايتانِ عن ظهورِ بهجة السُّرور، وكآبةِ الخوف فيه[1].

ويمكنُ أن يكون البياض والسَّوادُ حقيقيَّين، يُوسَمُ بهما المؤمنُ والكافرُ يومَ القيامة، وهما بياضٌ وسوادٌ خاصَّان؛ يعني أنَّهما يُناسبانِ أحوالَ الآخرة، ولا داعيَ لصرفهِ عن حقيقته، وهو الأصلُ في حَمْلِ النُّصوصِ على ظاهرِها إلَّا إذا دَلَّ دليلٌ على خلافِه، ولا دَليل.

بلاغة تنكير ﴿وُجُوهٞ﴾:

وتنكير ﴿وُجُوهٞ﴾ في الموضعين: إمَّا للتكثير أو التَّعميم في الموضعين، وإمَّا للتَّعظيم مع ﴿ٱبۡيَضَّتۡ﴾، والتحقير مع ﴿ٱسۡوَدَّتۡ﴾.

النَّشرُ، والاستفهامُ، والمجازُ، وأثرُ ذلكَ في تجليةِ المعنَى:

في قولِه تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسۡوَدَّتۡ وُجُوهُهُمۡ أَكَفَرۡتُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡ فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ﴾: هذا البيانُ الكريمُ تفصيلٌ لأحوالِ الفريقَيْن بعدَ الإشارةِ إليهما إجمالًا، وهو جارٍ فيه بطريقِ النَّشْرِ المعكوس، حيث بدأَ بذكرِ الفريقِ الثَّاني، ثمَّ الأوَّلِ على عكسِ ما تقدَّم، وهو من أساليبِ البلاغةِ الضَّافية، والمقامُ هنا مُقامُ

أفادَ السِّياقُ القرآنيُّ حقيقةَ بياضِ الوجوه وسوادِها يومَ القيامة، وضرورةَ الاستعدادِ لذلكَ اليوم

أفادَ نظمُ السِّياقِ القرآنيِّ التَّحذيرَ من التَّشبُّه بالكافرينَ والتَّعجيبَ من حالِهم

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السليم: 1/530 - 531.

التَّحذيرِ عن التَّشبُّه بهم معَ ما فيه من الجمعِ بين الإجمالِ والتَّفصيلِ والإفْضاءِ إلى خَتْمِ الكلامِ بحُسْنِ حالِ المؤمنين، كما بُدِىء بذلكَ عندَ الإجمال[1].

والفاء عاطفة تعقيبيَّة، و﴿فَأَمَّا﴾ للتَّوكيد والتَّفصيل، وفي هذا الأسلوبِ تَشْريفٌ لذلكَ اليومِ بذكرِ بياضِ وُجوهِ المؤمنينَ الَّذي هو شِعارُ أهلِ النَّعيم، فهو يومُ ظُهورِ رحمةِ اللّٰهِ ونعمتِه وفرحِ المؤمنينَ به، كما قالَ تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ﴾ [يونس: 58]، ورحمةُ اللّٰهِ سبقتْ غضبَه ﷻ.

وفي ذكرِ سِمَةِ أهلِ النَّعيم عَقِبَ وعيدِ العذابِ حَسْرةٌ على أهلِ العذاب، إذْ يعلمُ السَّامعُ أنَّ لهم عذابًا عظيمًا في يومٍ فيه نعيمٌ عظيم، فيزدادُ ثُبورًا على ثُبور، ثم قُدِّمَ في التَّفصيلِ ذِكْرُ سِمَةِ أهلِ العذابِ تعجيلًا بمُسَاءَتِهم.

وقولُه تعالى: ﴿أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾ هو على إرادةِ القول، وهو ما يُسمَّى بِمَقُولِ القَوْل؛ أي: فيُقالُ لهم ذلك.

والاسْتفهامُ لا يَصْدُرُ إلَّا من مُسْتَفْهِمٍ، وذلكَ القولُ هو جوابُ ﴿فَأَمَّا﴾؛ ولذلكَ لم تَدْخُلِ الفاءُ على ﴿أَكَفَرْتُم﴾ ليَظهر أنْ ليس هو الجوابُ، وأنَّ الجوابَ حُذِف بِرُمَّته[2].

وقائلُ هذا القولِ مجهول؛ إذْ لم يتقدَّمْ ما يَدُلُّ عليه، فيُحتملُ أنَّ القائلَ هم أهلُ المَحْشَر لهم، وهُمُ الَّذين عَرفوهم في الدُّنيا مؤمنين، ثمَّ رَأَوْهم، وعليهم سِمَةُ الكُفر، وهُمُ المنافقون أوِ المرتدُّون أَوْ مَنْ أحْدَثُوا في الدِّين ما ليس منه، أوْ هم أهلُ الكتابِ كفروا برسولِ اللّٰهِ ﷺ بعدَ إيمانِ أسلافهم، أو إيمانِ أنفسِهم به قبلَ مَبعَثِه ﷺ، والأَوْلى حَملُهُ على جميعِ من تقدَّم.

والْمُستفهِمُ سلَفُهم من قومِهم أو رسولِهم، فالاسْتفهامُ على حقيقتِه، وهو اسْتفهامُ تَوْبيخيٌّ لهم وتعجُّبيٌّ من حالِهم[3]، ويمكن أن يكون الاستفهام إنكاريًّا توبيخيًّا والقائل لهم ملائكة العذاب.

وقولُه تعالى: ﴿فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ﴾، أي: العذابَ المعهودَ الموصوفَ بالعِظَمِ للدَّلالةِ على

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السليم: 1/531.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/45.
(3) الزَّمخشري، الكشَّاف: 1/453 - 454.

أنَّ الأمرَ بذَوْقِ العذابِ على طريقةِ الإهانةِ مُترتِّبٌ على كُفرِهمُ المذكور، وذَوْقُ العذابِ مجازٌ للإحْساس[1]، حيث إنَّه استعارة تصريحيَّة شبَّه فيها إصابة العذاب لهم ودخولهم فيه بالذَّوق بجامع التَّمكُّن في الإحساس، أو شبَّه العذاب بالطَّعام الَّذي من شأنه أن يُذاق، فحذف المُشبَّه به، وترك شيئًا من لوازمه، وأسنده إلى العذاب على سبيل الاستعارة المكنيَّة التَّخييليَّة.

وقولُه تعالى: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ صريحٌ في أنَّ نَفْسَ الذَّوْقِ مُعلَّلٌ بذلك.

ووردَ الجمعُ بين صيغتي الماضي والمستقبل، للدَّلالة على اسْتمرارِ كُفرِهم، أو على مُضيِّه في الدُّنيا[2].

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الذَّوق والإحْساس:

قولُه تعالى: ﴿فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ﴾: " الإحْساسُ: هو الشُّعورُ بالشَّيء، والإحْساسُ به، وكلُّ ما شَعَرتَ به فقدْ أَحْسَستَه، ومعناه: أَدْرَكْتَه بحسِّك، كما في قولِه تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأْسَنَآ﴾ [الأنبياء: 12]، وقولِه سُبحانه: ﴿فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ [يوسف: 87]، أي: تعرَّفوا بإحْساسِكُم"[3].

والذَّوْقُ: هو إدراكُ الطُّعوم، واخْتبارُ الشَّيءِ من جهةِ التَّطعُّم.

حتَّى أنَّه اسْتُعمِلَ في بابِ المأكولاتِ وذوْقِها من بابِ المجاز، وكذلكَ اسْتُعمِلَ - كما هنا - مَجازًا في الإحْساسِ بالعذاب، مع الإطلاقِ الَّذي يُفيدُ فيما يَقِلُّ تناوُلُه، وفيما يَكثُر، فَخُصَّ بالذِّكرِ هنا لِيَعُمَّ الأَمْرَيْن، ولذلك كثُر اسْتعمالُه في العذابِ في آياتٍ عديدة، ومنها الآيةُ الَّتي معنا.

ثمَّ إنَّ الإحْساسَ أَثَرٌ للذَّوْق، وليسَ هو الذَّوْق، واسْتعمالُ الأصْلِ أَصْلٌ دونَ اسْتعمالِ فَرْعِه أوْ أَثَرِه.

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: 2/364.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السليم: 1/531.
(3) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 23.

والْمَقامُ هنا مُقامُ تَهكُّمٍ وتَبْكيتٍ للكافرينَ الَّذين كذَّبوا دعوةَ الرُّسُل، وصَدُّوا عن سبيل اللّه، وسَدَروا في غَيِّهم، والَّذين اسودَّتْ وجوهُهم - كما سَوَّدوا صحائفَ أعمالِهم - فَلْيذُوقوا العذابَ، كما كانوا يَذوقونَ الطَّعام، وشَتَّانَ بين هذا وذاك.

ولذلكَ كُلِّه كانَ استخدامُ البيانِ الإلهيِّ للفعلِ ﴿فَذُوقُواْ﴾ أَوْقَعَ أَثَرًا، وأَقْوى دَلالةً من أيِّ فعلٍ يتعلَّقُ بمُجرَّدِ الإحْساس أو غَيرِه.

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبۡيَضَّتۡ وُجُوهُهُمۡ فَفِي رَحۡمَةِ ٱللَّهِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ١٠٧﴾ [آل عمران: 107]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمّا بيَّن اللّهُ سُبحانه وتعالى في الآيةِ السَّابقةِ صفةَ وُجوهِ المؤمنينَ والكافرينَ، وابتدأ الحديثَ عنِ الكافرينَ ومآلِهم؛ جاءَ بيانُ اللّهِ في هذه الآيةِ الكريمةِ بذكرِ فريقِ المؤمنين أصحابِ الوُجوهِ البيضاءِ الَّذينَ يتنعّمونَ برحمةِ اللّهِ وخُلودِهم فيها.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿رَحۡمَةِ ٱللَّهِۖ﴾: الرَّحمةُ: رِقَّةٌ تَقْتضي الإحسانَ إلى المَرحوم، وقدْ تُستعمَلُ تارةً في الرِّقَّةِ المجرَّدة، وتارةً في الإحسانِ المجرَّدِ عن الرِّقَّة، نحو: رَحِمَ اللّهُ فُلانًا، وإذا وُصِفَ به الباري سُبحانَه وتعالى؛ فليسَ يُرادُ به إلَّا الإحسانُ المجرَّدُ دونَ الرِّقَّة، وعلى هذا فالرَّحمةُ من اللّهِ إنْعامٌ وإفْضال، ومن الآدميِّين رِقَّة وتَعَطُّف.

وبهذا المعنَى وردَ قولُ الرَّسول ﷺ ذاكرًا عن ربِّه سُبحانه وتعالى: "أنَّه لَمَّا خلقَ اللّهُ الرَّحِمَ؛ قالَ اللّه: أنا اللّهُ، وأنا الرَّحمن، خلقتُ الرَّحِم، وشَقَقْتُ لها مِن اسْمي، فمَنْ وَصَلها؛ وصلتُه، ومَنْ قطعَها؛ قَطَعتُه"[1].

فالرّحمةُ مُنطويةٌ على معنَيَيْن: الرِّقةِ والإحْسان، فركزَ اللّهُ في طبائعِ النَّاسِ الرِّقَّة، وتفرَّدَ بالإحْسان، فصارَ لما أنَّ لفظَ الرَّحِم من الرَّحمة، فمعناهُ: الموجودُ في النَّاسِ من المعنَى الموجودِ للّه تعالى، فتناسبَ معناهُما تَناسُبَ لفظَيْهِما.

والرَّحمنُ والرَّحيم: لا يُطلقُ الرَّحمنُ إلَّا على اللّهِ تعالى، من حيثُ إنَّ معناه لا يصحُّ إلَّا له؛ إذْ هو الَّذي وسعَ كلَّ شيءٍ رَحْمة، والرَّحيمُ يُستعمَلُ في غيرِه، وهو الَّذي كثُرتْ رحمتُه.

واللّهُ هو رحمنُ الدُّنيا، ورحيم الآخرة، وذلكَ أنَّ إحسانَه يعُمُّ المؤمنينَ والكافرين، وفي الآخرةِ يختصُّ بالمؤمنين، وعلى هذا قال ﷻ: ﴿وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖۚ فَسَأَكۡتُبُهَا لِلَّذِينَ

(1) أبو داود، السُّنن: الحديث رقم: (1694)، والحاكم، المستدرك: 4/157، وصحَّحه.

يَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: 156]؛ تنبيهًا أنَّها في الدُّنيا عامَّةٌ للمؤمنين والكافرين، وفي الآخرة مختصَّةٌ بالمؤمنين.

ولذلك لا توجَدُ كلمةٌ يمكنُ أنْ تَحُلَّ مَحَلَّها، أوْ تكونَ مرادفةً لها بتمامِ معناها، وخاصَّة في سياقِ الآية الكريمة[1].

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

يُخبِرُ اللّهُ تعالى في جليلِ الآيةِ الكريمةِ أنَّ المؤمنينَ الَّذين بيَّضَ اللّهُ وُجوهَهم هم في رحمةِ اللّه خَالدون، وهذا الخُلود في رحمته، هو خلودٌ في أجْلَى تجلِّياتِ رحمتِه، وهي الجنَّة.

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

تفصيلُ ما أُجمِلَ، والصِّلةُ، وتقديمُ ما حقُّه التَّأخيرُ، وأَثَرُ ذلكَ كلِّه في تجليةِ المعنَى وإثْرائه:

أفـــادَ نَـظْـمُ السِّياقِ القُرآنيِّ بيانَ صفةِ وُجوهِ المـؤمـنـينَ يـومَ القيامة، والمصيرِ السَّعيدِ الَّذي ينتظرُهم

عبَّر بيانُ اللّهِ تعالى عنِ الجنَّةِ والنَّعيمِ المخلَّدِ بالرَّحمةِ؛ تَنْبيهًا على أنَّ المؤمنَ وإنِ اسْتغرقَ عُمُرَهُ في طاعةِ اللّهِ تعالى، ولم يرتكبْ معصيَةً قطُّ؛ فإنَّه لا يدخُلُ الجنّة إلَّا برحمتِه سُبحانه وتعالى[2].

وجاءَ قولُه: ﴿وَأَمَّا﴾ تتمَّة تفصيلِ ما أُجْملَ في صَدْرِ الآيةِ السَّابقة، وانْتَهى بذكرِ أصحابِ الوُجوهِ البيضاءِ بعدَ حديثِه عن أصحابِ الوُجوهِ السَّوداء؛ تَشْويقًا للسُّؤالِ عنهم، وكأنَّ قائلًا يقولُ: عَلِمْنا حالَ الَّذين اسْودَّتْ وُجوهُهم، فما بالُ الَّذين ابيضَّتْ وجوهُهم؟ فجاءتْ صلةُ الموصولِ بالجوابِ الشَّافي الكَافي.

وفي هذا ما فيه كذلكَ من شَحْذِ الهِمَمِ للتّسابقِ في مَيْدانِ الأعمالِ المُفضيةِ لِنَيْلِ أعظمِ جائزةٍ من اللّهِ تعالى، وهي الجنَّة.

(1) الرَّاغب، المفردات: (رحم).
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السليم: 1/531.

الموقع البياني لقوله: ﴿هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾:

جاءَ قولُه تعالى: ﴿هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ اسْتئنافًا وقعَ جوابًا عن سؤالٍ نشأَ من السِّياقِ، وهو تتمَّةٌ للسُّؤالِ السَّابق، كأنَّه قيل: كيفَ يكونونَ في الجنَّة؟ فجاء الجوابُ مُصَدَّرًا بالضَّمير المنفَصِلِ ﴿هُمْ﴾ معَ تقديمِ شِبْهِ الجملةِ قَصْرًا وتأكيدًا لخلُودِهم في الجنَّة لا يَظعنُونَ عنها، ولا يموتون.

﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّۗ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَٰلَمِينَ ١٠٨﴾ [آل عمران: 108]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا أخبرَنا بيانُ اللهِ تعالى في الآيةِ السَّابقةِ بحالِ أهلِ الإيمان ومصيرِهم؛ جاءَ سياقُ هذه الآيةِ الكريمةِ مُنْبِئًا فيها اللهُ تعالى رسولَه ﷺ بأنَّ هذه الآياتِ القرآنيَّةَ المباركةَ الَّتي حَملتْ في جَعبَتِها وَصْفَ وجوهِ المؤمنينَ والكافرين، هي حقٌّ لا مِريةَ فيه، واللهُ تعالى لا يَظلِمُ أحدًا من عبادِه.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ءَايَٰتُ ٱللَّهِ﴾: "أيي: الهمزةُ والياءُ والياءُ: أَصْلٌ واحدٌ، وهو النَّظَر، والآيةُ: العلامةُ، وهذه آيةٌ مَأْيَاةٌ، كقولكَ: عَلامةٌ مَعْلَمَةٌ، وأَصْلُ آيةٍ: أَأْيَةٌ، بوزنِ أَعْيَةٍ، مَهموزٌ هَمزَتَيْن، فَخُفِّفتِ الأخيرةُ فامْتدّت، وآيةُ الرَّجُلِ: شخصُه، يُقالُ: خرجَ القومُ بآيتِهم، أي: بجماعتِهم.

ومنهُ: آيةُ القرآن؛ لأنَّها جَماعةُ حُروف، والجمعُ: آيٌ، وإِياةُ الشَّمْسِ ضَوْؤها، وهو من ذَاكَ؛ لأنَّه كالعلامةِ لها"[1].

2) ﴿نَتْلُوهَا﴾: "تلو: التَّاءُ واللَّامُ والواوُ: أصلٌ واحدٌ، وهو الإتْباع، يُقالُ: تَلَوْتُهُ؛ إذا تَبِعْتُه، ومنه تلاوةُ القرآن؛ لأنَّه يُتْبِعُ آيةً بعدَ آية"[2].

3) ﴿ظُلْمًا﴾: ظَلَمَ: الظَّاءُ واللَّامُ والميمُ: أَصْلانِ صَحيحان، أحدُهما: خلافُ الضِّياءِ والنُّور، والآخَرُ: وَضْعُ الشَّيءِ في غير مَوْضعِهِ تَعدِّيًا.

والأَصْلُ الثَّاني: هو الَّذي يَعنينا في هذا المقام، وإنْ كان ثمَّةَ رابطٌ بينَهما، فالظُّلمُ ظلامٌ ليس فيه نورٌ؛ ولو تبصَّرَ الإنسانُ بنورِ العدلِ ما وقعَ في الظُّلم.

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أيي).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (تلو).

فالأصلُ الثَّاني: ظَلَمَهُ يَظلِمُهُ ظُلْمًا، والأصْلُ فيه: وَضْعُ الشَّيءِ في غيرِ مَوْضعِه، والظُّلامةُ: ما تَطْلبُه من مَظْلِمَتِكَ عندَ الظَّالم.

ويُقالُ: ظَلمْتُ فلانًا: نسبتُه إلى الظُّلم، وظَلمتُ فُلانًا: فاظَّلمَ وانْظَلمَ؛ إذا احْتملَ الظُّلم[1].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

يُخبرُنا بيانُ اللّهِ تعالى أنَّ تلكَ الآياتِ القرآنيَّةَ السَّابقةَ الَّتي تحدَّثتْ عن صفةِ وُجوهِ المؤمنينَ والكافرينَ ومصيرِ كلٍّ فريقٍ منهما، الَّتي نزلَ بها جبريلُ عليه السلام على قلبِ رسولِ اللّهِ ﷺ هي حَقٌّ وصِدْق؛ لأنَّها إخبارٌ من اللّه تعالى، ولا أحدَ أَصْدَقُ من اللّهِ قيلًا ولا حديثًا، وهي عَدْلٌ لا تَشوبُها شائبةُ أيِّ ظُلْم، ذلكَ أنَّ اللّه جل جلاله عادلٌ في أحكامِه وأفعالِه وتدبيرِه وجزائِه وحسابِه لعبادِه، حاشا أن يَظلمَ أحدًا، وهو الَّذي يأمرُ بالعَدْلِ، ويَنْهى عن الظُّلم عز وجل.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

الإشارةُ، ووجوهُ الإعراب، والتَّعريضُ، وأثرُ ذلكَ كُلِّه في تجليةِ المعنَى وإثْرائه:

قولُه تعالى: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا﴾ الإشارةُ في قولِه: ﴿تِلْكَ﴾ إلى الآياتِ المشتَمِلةِ على تنعيم الأَبْرارِ وتعذيبِ الكُفَّار، والإشارةُ للبعدِ في ﴿تِلْكَ﴾ للإيْذانِ بعُلُوِّ شأنِها وسُموِّ مكانتِها في الشَّرف، وكيف لا تكونُ، وقد أضيفتْ مع آياتِها إلى لفظِ الجلالةِ ﴿ٱللَّهِ﴾، وهي آياتُه، وهو الَّذي أَنْزَلها جل جلاله؟

أفـــادَ نـظـمُ الـسِّـيـاق عُـلُـوَّ مكانةِ آياتِ الله المُـنَـزَّلـة عليه، وتنزيهَ اللهِ عن الظُّلم

و﴿تِلْكَ﴾ مبتدأ، وقولُه تعالى: ﴿ءَايَٰتُ ٱللَّهِ﴾ خبرُه، وقولُه تعالى: ﴿نَتْلُوهَا﴾ جُملةٌ حاليَّةٌ من الآياتِ، والعاملُ فيها معنَى الإشارة، أو هي الخبرُ، و﴿ءَايَٰتُ ٱللَّهِ﴾ بَدَلٌ من اسْمِ الإشارة.

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ظلم).

والالْتفاتُ إلى التَّكلُّم بنونِ العَظَمةِ في ﴿نَتْلُوهَا﴾ مع كونِ التِّلاوة على لسانِ جبريل عليه السلام لإبرازِ كمالِ العنايةِ بالتِّلاوة.

وقولُه تعالى: ﴿عَلَيْكَ﴾ مُتعلِّقٌ بـ ﴿نَتْلُوهَا﴾[1]، وتقديمُه على (الحقِّ) لإبرازِ مكانةِ المَتْلُوِّ عليه، ومزيدِ شرفِه، وهو رسولُ اللّهِ ﷺ.

معنى الباء في قوله: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾وموقع شبه الجملة من الإعراب:

"وقولُه تعالى: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ الباءُ للمُلابَسَة، وهي مُلابسةُ الإخبارِ للمُخْبَرِ عنه، أي: لما في نَفْسِ الأمرِ والواقع"[2].

وقولُه تعالى: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾: حالٌ مؤكَّدةٌ من فاعلِ ﴿نَتْلُوهَا﴾ أوْ من مفعولِه، أي: مُلْتبِسين، أو التِّلاوةُ مُلْتبِسةٌ بالحقِّ والعَدْل، ليس في حُكمِها شائبةُ جَوْرٍ بنقصِ ثوابِ المُحْسِن، أو بزيادَةِ عقابِ المُسيء، أوْ بالعقابِ من غيرِ جُرم، بل كلُّ ذلكَ مُوفًّى لهم حَسْبَ اسْتحقاقِهم بأعمالِهم بِمُوجِبِ الوَعْدِ والوعيد.

الدَّلالات البلاغيَّة في قوله: ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَٰلَمِينَ﴾:

قولُه تعالى: ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَٰلَمِينَ ١٠٨﴾ تَذْييلٌ مُقرِّرٌ لمضمونِ ما قبلَه على أَبْلَغِ وَجْهٍ وآكَدِه، فإنَّ تنكيرَ الظُّلم، وتوجيهَ النَّفْيِ إلى إرادتِه بصيغةِ المضارعِ ﴿يُرِيدُ﴾ دونَ نَفْسِه، وتعليقَ الحكمِ بآحادِ الجمعِ المعروف، فالواو قد تكون عاطفة، وقد تكون حاليَّة، أي: نتلوها عليك بالحقِّ، والحال أنَّ اللّه لا يريد ظلمًا للعباد، والتَّعبير بالمضارع في فعل الإرادة للتَّجدُّد الاستمراريِّ، ودلَّ هذا التركيب على التَّخصيص، حيث تقدَّم النَّفي على المسند إليه والمسند الفعليِّ ممَّا يدلُّ على تقوية الحكم وتوكيده، لكنَّ القرينة المعنويَّة هنا تنفي أن يكون غير اللّه لا يريد ظلمًا للعباد، فدلَّ هذا التَّركيب بوجود هذه القرينة على أنَّ اللّه عزَّ شأنه وحده فقط من لا يريد ظلمًا للعباد، كما هو مقرَّر في علم المعاني.

والالْتفات إلى الاسْمِ الجليلِ ﴿ٱللَّهُ﴾ إشعار بعلَّةِ الحكم وبيان لكمالِ تَنَزُّهِه ﷻ عن الظُّلم بما لا مَزيدَ عليه، أي: ما يُريدُ فردًا من أفرادِ الظُّلمِ لِفَرْدٍ من أَفْرادِ العالمينَ في وقْتٍ

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السليم: 1/533.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/47.

من الأوقات فضلًا عن أنْ يظلمَهم، إذ كيفَ يظلمُهم، وهو لا يحبُّ الظَّالمين ولا يَهديهم، كما قالَ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٥٧﴾ [آل عمران: 57]، ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٨٦﴾ [آل عمران: 86]؟ بل يدعو عليهم: ﴿فَبُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٤١﴾ [المؤمنون: 41].

والفعلُ المضارعُ ﴿يُرِيدُ﴾ يُفيدُ الاسْتمرارَ في الإثبات، ويُفيدُه كذلكَ في النَّفْي بحسبِ المقام.

والجملةُ الاسْميَّةُ تدُلُّ على دوامِ الثُّبوت، وعندَ دُخولِ حرفِ النَّفْيِ عليها تدُلُّ على دوامِ الانْتفاءِ لا على انْتفاءِ الدَّوام.

وسياقُ الجملةِ القرآنيَّةِ وسَبْكُهُ على النَّحْوِ المذكور، فيه نوعُ إيْماءٍ إلى التَّعريضِ بأنَّ الكَفَرَةَ هُمُ الظَّالمون، ظلموا أَنْفُسَهم بتعريضِها للعذابِ الخالد، كما في قولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ ٱلنَّاسَ شَيۡـٔٗا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ۝٤٤﴾ [يونس: 44][1].

وكذلك تنكيرُ ﴿ظُلۡمٗا﴾ في سياقِ النَّفْيِ يَدُلُّ على انْتفاء جِنْسِ الظُّلم عن أن تتعلَّق به إرادةُ اللّه تعالى، فكلُّ ما يُعدُّ ظُلمًا في مجالِ العقولِ السَّليمةِ مُنتفٍ أنَ يكونَ مرادَ اللّه سُبحانه وتعالى[2].

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الآيات والدَّلائل والبيِّنات:

كلمةُ (البينات) "تَعْني: الكشفَ عن الشَّيء، وشرحَ ما هو مُجْمَل أوْ مُبْهم من الكلام"[3].

وكلمةُ (الدَّلائل) "تعني: التَّدليلَ على الشَّيءِ والتَّسْديدَ إليه ليُعلَم، وهي متعلِّقةٌ بالأقوال، وتُفيد الظَّنَّ"[4].

وأمَّا كلمةُ (الآيات)؛ "فهي العلامةُ الظَّاهرة، وتكون سببًا لإدراكِ أمرٍ آخَر، لا يَتمُّ إدراكُهُ إلَّا بوجودِها"[5].

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السليم: 1/532.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/47.
(3) الرَّاغب، المفردات: (بين).
(4) العسكري، الفروق اللغوية: 97.
(5) الرَّاغب، المفردات: (أي).

وممَّا سبقَ بيانُه يتَّضح: أنَّ اسْتخدامَ البيانِ الإلهيِّ لكلمةِ (الآيات) أقومُ قيلًا فيما سيقتْ من أجلِه في حديثِ القرآنِ هنا في هذه الآيةِ الكريمةِ الَّتي تُخبرُنا عن علامةٍ ظاهرةٍ بيِّنةٍ في وُجوهِ المؤمنينَ ووُجوهِ الكافرينَ يومَ القيامة، فوجوهُ المؤمنينَ بيضاءُ نقيَّة، انعكستْ عليها إشراقاتُ الإيمانِ ونورُه المبين، فتمَّ الإدراكُ بأنَّه هو السَّبب، بينما وجوهُ الكافرينَ سَوداءُ مُظلمةٌ، كسوادِ الكُفرِ وظلامِه الَّذي رانَ على قلوبِ أصحابِه، فأدركْنا أنَّه السَّبب، وهو أمرٌ ليس فيه شرحٌ لمجمَلٍ أو مُبْهمٍ، كما هو معنَى (البيِّنات)، ولا هو أمرٌ يُفيدُ الظَّنَّ، كما هو معنَى (الدَّلائل).

فكانَ لا بُدَّ من إيراد الآياتِ في السِّياق، فهي البَلْسَمُ الشَّافي الكافي لإدراكِ حقيقةِ الإيمانِ وحقيقةِ الكفر، وعلامةِ كلٍّ منهما على أصحابه.

التِّلاوة والقِراءة:

"الفرقُ بينَهما: هو أنَّ التِّلاوةَ لا تكونُ إلَّا لكلمتَينِ فصاعدًا، والقراءةُ تكونُ للكلمةِ الواحدة، يُقالُ: قرأَ فلانٌ اسْمَه، ولا يُقالُ: تَلَا اسْمَه، وذلكَ أنَّ أصلَ التِّلاوةِ إتْباعُ الشَّيءِ الشَّيءَ، يُقالُ: تَلاهُ؛ إذا تبعَه، فتكونُ التِّلاوةُ في الكلماتِ يتبَعُ بعضُها بعضًا، ولا تكونُ في الكلمةِ الواحدة؛ إذْ لا يَصِحُّ فيها التُّلُوُّ"[1].

" وكذلكَ التِّلاوةُ تختصُّ باتِّباعِ كُتُبِ اللهِ المُنزَّلة، تارةً بالقراءةِ وتارةً بالارْتسام؛ لما فيها من أمرٍ ونَهْيٍ وترغيبٍ وترهيب، أو ما يُتوهّمُ فيه ذلك، وهي أخصُّ من القراءة، فكلُّ تلاوةٍ قراءة، وليس كلُّ قراءةٍ تلاوةً"[2].

ونَخْلُصُ من بيانِ هذه الفروقِ إلى أمرٍ واضح، جلَّى لنا فيه سياقُ النَّصِّ القرآنيِّ أحقيَّةَ استخدامِه للفعلِ (نَتْلو) بَدَلَ الفعل (نَقْرأ).

(1) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 140.
(2) الرَّاغب، المفردات: (تلو).

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ ١٠٩﴾ [آل عمران: 109]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا نفَى اللّهُ تعالى الظُّلمَ عنه في الآيةِ السَّابقةِ؛ وصلَه بذكرِ اتِّساعِ قدرتِه وملكِه، وأنَّ أفعالَهُ محضُ حكمةٍ وعدلٍ، ولِتكونَ هذهِ الآيةُ كالحجَّةِ والدَّليلِ على قولِه: ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: 108]؛ لِأَنَّهُ إِذَا كانَ لهُ ما في السَّموات وَما في الْأَرْضِ؛ فهوَ يرِيدُ صلاحَ حالِهِمْ، وَلَا حاجَةَ لهُ بِإِضْرارِهِمْ إِلَّا لِلْجزاءِ عَلَى أَفْعالِهِمْ[1].

وأيضًا لَمّا أَمرَاللّهُ المؤمنينَ بالإقبالِ عليهِ، ونهاهُمْ عنِ الإعراضِ عنهُ، ربَّما أَوقعَ في وهمٍ أنَّهُ غيرُ قادرٍ على ضبطِهم، أو مُحتاجٌ إلى ربطِهم؛ أَزالَ ذلكَ بهذه الآية، دالًّا على أنَّه غنيٌّ عن الظُّلم، وأنَّ كلَّ ما في السَّماوات وما في الأرضِ ملكٌ لهُ، فهوَ سُبحانَهُ غنيٌّ عنْ كلِّ شيءٍ، وقادرٌ على كلِّ شَيءٍ[2]، والمناسباتُ لا تتزاحَمُ.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَلِلَّهِ﴾: اللّه عَلَمٌ على الذَّات العليَّة، الْهَمْزَةُ وَاللَّامُ وَالْهَاءُ: أَصْلٌ وَاحِدٌ، وَهُوَ التَّعَبُّدُ؛ فَالْإِلَهُ اللّهُ تَعَالَى، وَسُمِّيَ بِذَلِكَ؛ لِأَنَّهُ مَعْبُودٌ، وَيُقَالُ: تَأَلَّهَ الرَّجُلُ؛ إِذَا تَعَبَّدَ، قيل: أصله إله: فحذفت همزته، وأدخل عليها الألف واللّام، فخصَّ بالباري تعالى، ولتخصُّصِه به قال تعالى: ﴿هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا ٦٥﴾ [مريم: 65]، وإله: جعلوه اسمًا لكلِّ معبود لهم، وكذا اللّات، وسمُّوا الشمس إِلَاهَة؛ لاتِّخاذهم إيَّاها معبودًا، وأَلَهَ فلان يَأْلَهُ: عبد، وقيل: تَأَلَّهَ، فالإله على هذا هو المعبود.

هذا، وقد قال فريق من العلماء: إنَّ اسم الجلالة (اللّه) ليس من الأسماء الَّتي يجوز اشتقاقُ فعل منها، كما يجوز في الرَّحمن الرَّحيم، أي: أنَّه غير مشتقٍّ، وقال فريق آخر: إنَّ أصله الإلاه، وحُذفت الهمزة، كما حُذفت من (النَّاس)، وأصله: الأناس.

(1) المهدوي، التحصيل: 2/105، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/47.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 5/23 - 24.

والله ﷻ لا يَحاط بكُنْه حقيقته أحدٌ، بيده كلُّ شيء: العالم كلُّه ممَّا هو أدقُّ من الذَّرَّة إلى ما هو أعظمُ من كلِّ مجرَّة؛ عِلمًا وملكًا وإيجادًا وتصريفًا وإفناءً، وأستغفر الله من قصور العبارة.[1].

2) ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾: مفردها: السَّماء، من سما يسمو سُمُوًّا؛ إذا علا وارتفع، السِّينُ وَالْمِيمُ وَالْوَاوُ: أَصْلٌ يَدُلُّ عَلَى الْعُلُوِّ، يُقَالُ: سَمَوْتَ؛ إِذَا عَلَوْتَ، وَسَمَا بَصَرُهُ: عَلَا، وَسَمَا لِي شَخْصٌ: ارْتَفَعَ حَتَّى اسْتَثْبَتُّهُ، وَسَمَا الْفَحْلُ: سَطَا عَلَى شَوْلِهِ سَمَاوَةً، وَسَمَاوَةُ الْهِلَالِ وَكُلِّ شَيْءٍ: شَخْصُهُ، وَالْجَمْعُ سَمَاوٌ، وَالْعَرَبُ تُسَمِّي السَّحَابَ: سَمَاءً، وَالْمَطَرَ: سَمَاءً، فَإِذَا أُرِيدَ بِهِ الْمَطَرُ؛ جُمِعَ عَلَى سُمِيٍّ، وَالسَّمَاءَةُ: الشَّخْصُ، وَالسَّمَاءُ: سَقْفُ الْبَيْتِ، وَكُلُّ عَالٍ مُطِلٍّ: سَمَاءٌ، حَتَّى يُقَالَ لِظَهْرِ الْفَرَسِ: سَمَاءٌ.

المعنى المحوريُّ: ارتفاع الشَّيء أو شخوصه ملتئمًا ظاهره وأعلاه على ما تحته، كالسَّماء الملتئمة، وكالسَّقف فوقنا، وكسقف البيت عليه، وأعلى الفرس دونه بدنه وقوائمه: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٖ﴾ [الذَّاريات: 47]، كما قال تعالى: ﴿وَٱلسَّقۡفِ ٱلۡمَرۡفُوعِ ۝٥﴾ [الطور: 5]، ﴿وَجَعَلۡنَا ٱلسَّمَآءَ سَقۡفٗا مَّحۡفُوظٗاۖ﴾ [الأنبياء: 32][2].

3) ﴿ٱلۡأَرۡضِ﴾: كُلُّ شَيْءٍ يَسْفُلُ، وَيُقَابِلُ السَّمَاءَ، يُقَالُ لِأَعْلَى الْفَرَسِ: سَمَاءٌ، وَلِقَوَائِمِهِ أَرْضٌ، قَالَ فِي وصف فرس:

وَأَحْمَرَ كَالدِّيبَاجِ أَمَّا سَمَاؤُهُ *** فَرَيَّا وَأَمَّا أَرْضُهُ فَمُحُولُ[3]

سَمَاؤُهُ: أَعَالِيهِ، وَأَرْضُهُ: قَوَائِمُهُ، وَالْأَرْضُ: الَّتِي نَحْنُ عَلَيْهَا، وَتُجْمَعُ: أَرَضِينَ، وَلَمْ تَجِئْ فِي كِتَابِ اللَّهِ مَجْمُوعَةً، وهو الجِرْم المقابل للسَّماء.

والمعنى المحوريُّ: كثافة الجرم مع غِنَى باطنه بلطيف تقوم به وعليه الأشياء: كهذه الأرض الَّتي نحن عليها، فهي كثيفة الجرم، وتحمل كلَّ ما عليها، وغنيَّة الباطن بما ينبت النَّبات، وهذا ملحوظ في الاستعمالات المعبِّرة عن هذا التَّركيب، والَّذي ورد في القرآن

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أَلَه)، والراغب، المفردات: (أله)، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصَّل: (أله).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سمو)، والراغب، المفردات: (سمو)، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصَّل: (سمو).
(3) هذا البيت من الطويل، ينسب إلى طفيل الغنوي، وهو في ملحقات شعره، ص: 62، يصف فرسًا أحمر وشبَّهه بالديباج في حسن لونه وملاسة جلده.

الكريم من هذا التركيب لفظ: ﴿ٱلْأَرْضِ﴾ هذه الَّتي نعيش عليها، أو بقعة خاصَّة منها، يُعيِّنها السِّياق، عدا ﴿وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ﴾ [الزُّمر: 74] فالسِّياق يجزم بأنَّها أرض الجنَّة[1].

4) ﴿تُرْجَعُ﴾: الرَّاءُ وَالْجِيمُ وَالْعَيْنُ: أَصْلٌ كَبِيرٌ مُطَّرِدٌ مُنْقَاسٌ، يَدُلُّ عَلَى رَدٍّ وَتَكْرَارٍ، تَقُولُ: رَجَعَ يَرْجِعُ رُجُوعًا؛ إِذَا عَادَ، والرُّجوع: العود إلى ما كان منه البَدء، أو تقدير البَدء مكانًا كان أو فعلًا، أو قولًا، وبذاته كان رجوعه، أو بجزء من أجزائه، أو بفعل من أفعاله، فالرُّجوع: العود، والرَّجع: الإعادة، والرَّجعة في الطَّلاق، وفي العود إلى الدُّنيا بعد الممات[2].

والمعنى المحوريُّ: تحوُّلٌ عن الاتِّجاه أو الحال إلى عكسه - كما يتردَّد الماء في الغدير؛ لأنَّه محتبس فيه لا يسترسل بعيدًا، وكما يتحوَّل الماء الصَّافي العذب المُزْوي إلى عَرَقٍ كريه الرِّيح، والطعامُ إلى نَجْو، فهاتان صورتان للمعنى.

وكلُّ ما في القرآن من التَّركيب؛ فهو بمعنى: الرُّجوع والعود، مع اختلاف الصُّور أحيانًا[3].

5) ﴿ٱلْأُمُورُ﴾: جَمعُ أمرٍ، بمعنى: (الحادثة) و(الشَّأن) و(الحال)، والمعنى المحوريُّ: نفاذ مع علُوٍّ وراءه جمع بشدَّة، وهذا المعنى: هو صورة من الجرَيان المأخوذ من النَّفاذ في المعنى المحوريِّ[4]، ويُرادُ بالأمر هنا: الشَّأنُ، وهو لفظٌ عامٌّ للأفعالِ والأقوالِ والذَّواتِ والصِّفاتِ كلِّها، وقد يأتي (الأمر) بمعنى: المصدر من (أمر)، كما في: ﴿وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾﴾ [الكهف: 69]، وجمعه: أوامر، وإذا أُسْنِد (الأمر) إلى المولى ﷻ؛ فإنه يفسَّر بالقضاء، وبالتَّصريف والتَّدبير.

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

للهِ تعالى وحدَهُ ملكُ ما في السَّماواتِ وما في الأرضِ، خَلْقًا وأَمرًا، وَإليهِ تعالى وحدَهُ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أرض)، والراغب، المفردات: (أرض)، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصَّل: (أرض).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (رجع)، والراغب، المفردات: (رجع)، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصَّل: (رجع).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصَّل: (رجع).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أمر)، والراغب، المفردات (أمر)، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصَّل: (أمر).

مصيرُ جميعِ المخلوقاتِ، ومِنْ ذلكَ رجوعُ النَّاسِ إليهِ يومَ القيامةِ، فَيُجازي كُلًّا مِنهمْ على قَدْرِ استحقاقِهِ.

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

مناسبة التَّعبيرِ بالجملةِ الاسميَّةِ:

ثبوت ملكِ الله لما في السَّموات وما في الأرض مطلقًا

جاءتِ الجملةُ الاسميَّةُ لإفادةِ ثبوتِ ملكِ اللهِ لِمَا في السَّمواتِ وما في الأَرضِ مِنْ غيرِ قيدٍ للزَّمنِ؛ لِيشمَلَ زمنَ الخَلقِ وما بعدَهُ مُطلقًا.

سرُّ العدول عن اسم الموصول (مَن) إلى ﴿مَا﴾:

للدَّلالةِ على العمومِ، ولإظهارِ ضَعفِ العقلاءِ في مقامِ بيانِ عظمَةِ الله

جاءَ الاسمُ الموصولُ للدَّلالةِ على العمومِ، وعَدلَ عَنْ (مَنْ) إلى ﴿مَا﴾ الدَّالَّةِ على مخلوقاتِهِ؛ لِأَنَّ نفيَ المِلكِ يستلزمُ الحاجةَ، فنُزِّلَ العاقلُ منزلةَ غيرِهِ على التَّغليبِ؛ لاقتضاءِ السِّياقِ ولِكثرةِ غيرِ العاقِلِ، ويحتمل أنْ يكونَ العُدولُ إلى إيرادِ (ما) لِإظهارِ ضَعفِ العقلاءِ في مقامِ بيانِ عظمَتِهِ سُبحانَهُ وتعالى[1]، كما أنَّ في التّعبيرِ بـ (ما) إشارةً إلى الذَّواتِ والأَوصافِ والأحوالِ.

بلاغةُ تقديمِ المسنَدِ على المسنَدِ إليهِ:

مقامُ تعظيمِ اللهِ يقتضي التَّخصيصَ والاهتمامَ

لمّا كانتِ اللَّامُ في قولِه تعالى: ﴿وَلِلَّهِ﴾ دالَّةً على الملكِ أَفادَ تقديمُ المسندِ ﴿وَلِلَّهِ﴾ تخصيصَ ملكِ ما في السَّمواتِ وما في الأَرضِ باللهِ تعالى، وحصرَهُ بِهِ سُبحانَهُ وتَعالَى، كمَا دلَّ تقديمُ ﴿وَلِلَّهِ﴾ على العِنايةِ بالاسمِ الجليلِ والاهتمامِ به؛ لأَنَّ المقامَ مقامُ تعظيمِ.

نكتة تكرير ﴿مَا﴾:

اختصاص الملك بالله على الاجتماعِ وعلى التَّفرُّقِ

أَعادَ الاسمَ الموصولَ ﴿مَا﴾ لِتأكيدِ مُلكِ اللهِ تعالى لِجميعِ ما في الأَرضِ؛ لِمَا قدْ يَتوهَّمُ النَّاسُ بسببِ تدبيرِهم في الأرضِ ومعاشِهم فيها أَنَّهم قدْ يملكونَ شيئًا، ولِيكونَ مُلكُ ما في السَّمواتِ وما في

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 2/70.

الأَرضِ مُختصًّا باللّهِ تعالى على الاجتماعِ بينهما وعلى التَّفرُّقِ، تقريرًا لِمقامِ الألوهيَّةِ وتأكيدًا له.

بديعُ الطِّباقِ:

لِـلإشـارةِ إلى الإحاطةِ

جاءَ الطِّباق في الآيةِ بذكرِ السَّمواتِ والأرضِ؛ لِلإشارةِ إلى الإحاطةِ، وقدَّمَ لفظَ السَّمواتِ على لفظِ الأرضِ، كَما هي عادةُ القرآنِ؛ لِبيانِ شرفِها وعلُوِّ منزلتِها، وإيرادُ لفظِ السَّموات بصيغةِ الجمعِ، وإفرادُ لفظِ الأرضِ؛ لِعظمةِ أمرِ السَّماءِ وخفاءِ ما فيها.

سببُ عطفِ قولِه: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ﴾ على ما قبلَهُ:

مجازاةُ كلِّ واحدٍ مِـنَ المحسنينَ والمسيئينَ بِما وعـدَ الـلـهُ لـهُ وأَوعدَ

لمّا أثبتَ اللّهُ تعالى ملكَهُ لِجميعِ المخلوقاتِ الَّتي في السَّمواتِ وفي الأَرضِ نَسَقَ عليه الإعلام برجوعِ الأُمورِ كلِّها إليه تعالى في الدُّنيا والآخرةِ؛ لِتقريرِ الجملةِ الأولى، بمعنى إثباتِ الملكِ للّهِ تعالى، وَللتَّعريضِ بِما تستلزمُهُ الجملةُ من المجازاةِ يومَ القيامةِ، أي: فيجازي كلَّ واحدٍ مِنَ المحسنينَ والمسيئينَ بِما وعدَ لهُ، وأَوعدَ، ففي الجملة بشارةٌ للمؤمنينَ وتهديدٌ وإنذارٌ للكافرينَ، وأيضًا في الجملةِ الأولى إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّهُ سبْحانَهُ هوَ الْأَوَّلُ، وفي الثَّانية إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّهُ هُوَ الآخر، وذلك يدلُّ على إِحاطَةِ حكمِهِ وَتَصرُّفِهِ وَتَدْبيرِهِ بِأَوَّلِهِمْ وَآخِرِهِمْ، وَأَنَّ الْأَسبابَ مُنْتَسِبَةٌ إِلَيْهِ، وَأَنَّ الْحاجاتِ مُنقَطِعَةٌ عِندَهُ[1].

دلالةُ حرف الجرِّ ﴿وَإِلَى﴾:

كـلُّ المخلوقاتِ تـعـودُ إلى اللّه تعالى

لمّا كانتْ ﴿وَإِلَى﴾ لِانتهاءِ الغايةِ، و(الـ) في ﴿ٱلۡأُمُورُ﴾ لِاستغراقِ كلِّ شأنٍ أو حالٍ مِمَّا لاينفكُّ عنه مخلوقٌ؛ دلَّتْ على عودِ كلِّ المخلوقاتِ وشؤونِها ذاتًا وأَحوالًا إلى اللّهِ تعالى.

بلاغةُ تقديمِ الجارِّ والمجرور ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ﴾:

قدَّمَ الجارَّ والمجرورَ الَّذي هو مُتعلَّقُ الفعلِ ﴿تُرۡجَعُ﴾؛ لِلتَّخصيصِ،

(1) الرّازي، مفاتيح الغيب: 8/323.

أَي: إليه لا إلى غيرِهِ ترجَعُ الأمورُ، كما يفيدُ التَّقديم الاعتناءَ بالاسم الجليلِ والاهتمامَ بهِ أيضًا؛ لِتقريرِ المعنى، فإنَّهُ إذا دخلَ القلبَ أوَّلًا؛ استقرَّ وثبت، ولاسيَّما أنَّهُ جاءَ لِدفعِ وَهمِ مَا يكونُ عَلَيْهِ مُلُوكُ الدُّنْيَا مِنْ رجوعِ أُمُورِ النَّاسِ إِلَيْهِمْ[1].

للتَّخصيص، وإفادة الاعتناء بالاسم الجليل

نُكتةُ العدولِ عن الإضمارِ إلى الإظهارِ:

كرَّرَ اسمَ الجلالةِ (اللَّه) بدونِ إِضْمَارٍ معَ قربِ ذكرِالاسمِ الجليلِ؛ لِأَنَّ المقامَ مقامُ إحضارٍ لاسمِ الجلالةِ بعينِهِ في ذهنِ السَّامعِ للتَّأثيرِ فيهِ؛ لِأَنَّ اسمَ العلَمِ (اللَّه) مختصٌّ بالمعبودِ الحقِّ، لايُطلَقُ على غيرِهِ[2]، كما أَنَّ المقامَ مقامُ تعظيمِ اسمِ الجلالةِ، وهو أَفْخمُ وأَعظَمُ وَأَوضحُ، فذكرَ الاسمَ الجليلَ لِزيادةِ التَّقريرِ والتَّأكيدِ، وأيضًا لِلْقَصْدِ إِلَى أَنْ تَكونَ كُلُّ جملَةٍ مُستقلَّةَ الدَّلَالةِ بِنفسِهَا، غَيرَ مُتَوقِّفَةٍ عَلَى غيرِهَا، حَتَّى تَصلُحَ لِأَنْ يُتَمَثَّلَ بِهَا، وَتَسْتَحْضِرَهَا النُّفُوسُ، وَتَحْفَظَهَا الْأَسْمَاعُ، فكلُّ اسمٍ في جملةٍ في مقامِ استقلالِها بنفسِها؛ لِتكونَ الآيةُ مُضَمَّنةً جملتَي تذييلٍ، فهذِهِ الجملةُ يَنْدَرِجُ في ضِمْنِهَا جَمِيعُ أَحْوَالِ الْعِبَادِ مُنْذُ خُلِقُوا إِلَى يَوْمِ التَّنَادِ، وَمِنْ هَذَا الْيَوْمِ إِلَى الْفَصْلِ بَيْنَ الْعِبَادِ[3].

تكرارُ اسمِ الجلالةِ للتَّأثيرِ في السَّامعِ ولِتقريرِ المعنى وتعميمِه

نكتةُ التَّعبيرِ بكلمةِ ﴿تُرْجَعُ﴾:

لَمَّا كانَ الرُّجوعُ إلى الشَّيءِ يكونُ بعدَ الذَّهابِ عنه، والحالُ أنَّ الأمورَ باقيةٌ بيدِ اللهِ وفي قبضتِهِ، فَيُقالُ فَلِمَ قال ذلك؟ والجوابُ: أنَّهُ لَمَّا كانَ بعضُ الخلقِ في الدُّنيا قدْ يملكُ في الظَّاهرِ، ويقومُ بالتَّدبيرِ؛ ذكرَ الرُّجوعَ على معنى: ظهورِ رجوعِ الأمورِ كلِّها إلى اللهِ يومَ القيامةِ[4].

رجوعُ الأمورِ بمعنى ظهورِ رجوعِها

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 2/346.
(2) التفتازاني، المطول، ص: 215 - 216.
(3) السكاكي، مفتاح العلوم، ص: 181، ومكي بن أبي طالب، الهداية: 2/1093، وأبو حيان، البحر المحيط: 2/346، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/48.
(4) البروسوي، روح البيان: 2/78.

سببُ إيثارِ ذكرِ الفعلِ المبنيِّ لِلمفعول:

فقالِ: ﴿تُرۡجَعُ﴾ للإيجازِ في الكلامِ؛ لأنَّ السِّياقَ دالٌّ على الفاعل، وهو اللّٰه تعالى، ولمَّا كان رجوع أمور العباد جميعًا لا اختيار فيه لأحدٍ سواه؛ بُني الفعل للمفعول، فلا رادَّ لقضائه، ولا معقِّب لحكمه، وقد قرأ ابنُ عامرٍ وحمزةُ والكسائيُّ وخلفٌ ويعقوبُ: ﴿تُرۡجَعُ﴾ بفتح التَّاء وكسر الجيم، وقرأ الباقون: بضمِّ التَّاءِ وفتحِ الجيم[1]، وقد جمعت الكلمة القراءتين؛ للدَّلالة على رجوع جميع الأمور إليه، سواء أكان للناس فيها اختيار في الظاهر، أم لم يكن.

دلالةُ (الـ) في ﴿ٱلۡأُمُورُ﴾:

دلالةُ الاستغراق على عمومِ الأمور

أفادتْ (الـ) الاستغراقَ؛ لِيُقصَدَ بالأمورِ العمومَ، ففيهِ بيانُ عظمةِ اللّٰهِ تعالى، وهو الواسعُ، حيث كانتْ جميعُ الأمورِ صغيرِها وكبيرِها تُرجَعُ إليهِ، وجاءَ بصيغةِ جمعِ الكَثرةِ لِتنوُّعِ الأمورِ؛ لِتشمَلَ جميعَ الأقوالِ والأفعالِ والذَّواتِ والصِّفاتِ الَّتي في السَّمواتِ والَّتي في الأَرضِ.

دلالةُ حذفِ المعمولِ في قوله: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ﴾:

لإفادةِ العمومِ

لم يُقَيَّد زمنُ إرجاعِ الأمور، فحَذفَ المتعلَّقَ؛ لِإفادةِ العموم، والمعنى إلى اللّٰهِ تُرجَعُ الأُمورُ في الدُّنيا والآخرةِ[2]، ففي الدُّنيا بِما يستشعرُهُ المؤمنونَ، وفي الآخرةِ بما هو ظاهِرٌ للمؤمنينَ والكافرينَ.

(1) الداني، جامع البيان: 3/988، وابن الجزري، النشر: 2/209 - 241.
(2) ابن الخطيب، أوضح التفاسير: 1/74.

﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۗ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿١١٠﴾﴾ [آل عمران: 110]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى كَمَالَ حَالِ الْأَشْقِيَاءِ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ﴾ [آل عمران: 106]، وَكَمَالَ حَالِ السُّعَدَاءِ فِي قولِهِ: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ﴾ [آل عمران: 107]؛ نَبَّهَ عَلَى مَا هُوَ السَّبَبُ لِوَعِيدِ الْأَشْقِيَاءِ بقوله: ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ [آل عمران: 108]، يَعْنِي: أَنَّهُمْ إِنَّمَا اسْتَحَقُّوا ذَلِكَ بِأَفْعَالِهِمُ الْقَبِيحَةِ، ثُمَّ نَبَّهَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ عَلَى مَا هُوَ السَّبَبُ لِوَعْدِ السُّعَدَاءِ بِقَوْلِهِ: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾، أَيْ: تِلْكَ السَّعَادَاتُ وَالْكَمَالَاتُ وَالْكَرَامَاتُ إِنَّمَا فَازُوا بِهَا فِي الْآخِرَةِ؛ لِأَنَّهُمْ كَانُوا فِي الدُّنْيَا خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿خَيْرَ﴾: اسمُ تفضيلٍ من: خَيِرَ، وأَصلُه: أَخيرُ، ومثلُهُ (شَرٌّ) على معنى: الضِّدِّ؛ إذا جاءَ اسمَ تفضيلٍ، وحُذِفَتِ الهمزةُ لِكثرةِ الاستعمالِ ولِلتَّخفيفِ، والخيرُ كلُّ نفعٍ مستحسَنٍ أَو ما يَرغَبُ فيه كلُّ النَّاسِ، كالعقلِ مثلًا، والعدلِ، والفضلِ، والشَّيءِ النَّافعِ، وقولُه تعالى: ﴿خَيْرَ أُمَّةٍ﴾ بمعنى: أَكثرِ الأُممِ خَيرًا ونفعًا للنَّاسِ[2].

2) ﴿أُمَّةٍ﴾: كُلُّ شَيْءٍ يُضَمُّ إِلَيْهِ مَا سِوَاهُ مِمَّا يَلِيهِ؛ فَإِنَّ الْعَرَبَ تُسَمِّي ذَلِكَ الشَّيْءَ أُمًّا، فيأتي بمعنى: الْأَصْلِ وَالْمَرْجِعِ وَالْجَمَاعَةِ وَالدِّينِ، وتطلقُ الأمَّةُ على كلِّ جماعة يجمعها قصدٌ واحدٌ مِنْ نَسَبٍ أَوْ مَوْطِنٍ أَوْ دِينٍ، أو مكانٍ أو زمانٍ أَوْ مَجْمُوعِ ذَلِكَ، وَيَتَعَيَّنُ مَا يَجْمَعُهَا بِالْإِضَافَةِ أَوِ الْوَصْفِ، كَقَوْلِهِمْ: أُمَّةُ الْعَرَبِ وأمَّة الإسلام وأمَّة مؤمنةٌ[3]، والمرادُ بالأمَّةِ في الآيةِ أُمَّةُ رسولِ اللهِ محمَّدٍ ﷺ أو الصَّحابةُ في الْعَصْرِ النَّبَوِيِّ[4].

(1) الرّازي، مفاتيح الغيب: 8/323.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (خيّر).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (أمم)، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/37.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/48.

3) ﴿بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾: يدلُّ معنى (عَرَفَ) على تميُّزٍ أَعلى الشَّيءِ أَو ظاهرِه، بِملمَحٍ يدلُّ عليهِ أَو على أَمرٍ فيه، كَعُرْفِ الدِّيكِ، ومنهُ المعروفُ؛ لِأَنَّهُ شَيءٌ جارٍ مألوفٌ متميِّزٌ مقبولٌ يَعْرِفُه كلُّ أحدٍ، وصارَ اسمًا لِكُلِّ خَصلةٍ حسنةٍ ترتضيها العقولُ وتطمئِنُّ إليها النُّفوسُ[1].

4) ﴿ٱلۡمُنكَرِ﴾: المعنى المحوريُّ: تغطيةٌ لمادَّة حادَّة أو غريبة، كالَّذي في الخُرَاج والحُوَلاء من القيح والصَّديد، والأصل هو الدَّم وحده، وكما يُحْتَمَى في داخل الحصن مع قوَّة الحصن، وهو مُنكَر - بفتح الكاف - وذو نكراء: داهٍ (والفطنة والدَّهاء حدَّة في الذِّهن)، ونَكُر الأمر، ككَرُم: صَعُب واشتدَّ، والإِنْكَارُ: ضِدُّ العِرْفَانِ، والنَّكِرة ضدُّ المعرفة غيرُ المعروف، كالمغَطَّى المستتر مجهول، وَنَكرَ الشَّيْءَ وَأَنْكَرَهُ: لَمْ يَقْبَلْهُ قَلْبُهُ، وَلَمْ يَعْتَرِفْ بِهِ لِسَانُهُ، والمُنْكَرُ: كُلُّ ما قبَّحه الشَّرع وحرَّمه وكَرِهَهُ، فهو مُنكَر: ﴿وَتَأۡتُونَ فِي نَادِيكُمُ ٱلۡمُنكَرَۖ﴾ [العنكبوت: 29][2].

5) ﴿ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾: المعنى المحوريُّ للفِسْق: خروج الشَّيء عن غلافه (حَدِّه) أو حَيِّزه لحِدَّةٍ أو فساد، فَكلُّ شيءٍ خرجَ عنْ حدِّه؛ فقدْ فَسَقَ، ويأتي في القرآنِ بمعنى: الخُروجِ عن حُدودِ الشَّرعِ، فالفاسق: الخارج عن الحقِّ، والخارج من طاعة اللّٰه تعالى، فتارةً يكون ذلك بكفر، وتارةً يكون بعصيان غير الكفر، وأنَّ من كان مؤمنًا وفسق بمعصية دون الكفر؛ فإنَّه فاسقٌ بفسقه مؤمنٌ بإيمانه، أي: لم يخرج بفسقه عن الإيمان، ولا بلغ حدَّ الكفر، ومن أمثلة الفسق: ما ذكره اللّٰه تعالى في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهۡدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقۡطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ [البقرة: 27]على اعْتِدَادِ اسمِ الموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾ في مَطلع الآيةِ صفةً للفاسقين[3].

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

أَنتمْ - يا أُمَّةَ محمَّدٍ ﷺ - خَيرٌ مِنْ كُلِّ الأُمم الَّتي أُظهرَتْ للنَّاسِ لِأَجلِهم ومصلحتِهمْ؛ لأنَّكم تأْمرونَ بالمعروفِ، وهوَ ما عُرِفَ حُسنُهُ شَرعًا وَعقلًا، وتنهَونَ عنِ المُنكَرِ، وَهوَ ما عُرِفَ قبحُهُ شَرعًا وَعقْلًا، وَتُصدِّقونَ باللّٰهِ تصديقًا جازِمًا يُؤَيِّدُهُ العملُ، وَلَوْ آمنَ أَهلُ

(1) الراغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (عرف).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (نكر).
(3) الراغب، المفردات، الفيومي، المصباح المنير: (فسق)، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصَّل: (فسق).

الكتابِ مِنَ اليهودِ والنَّصارى برسولِ اللّٰهِ محمَّدٍ ﷺ وما جاءَهمْ بهِ منْ عندِ اللّٰهِ كَما آمنتمْ؛ لَكانَ خيرًا لَهمْ في الدُّنيا وَالآخرةِ، مِنهمُ المؤمنونَ المُصدِّقونَ برسالةِ رسولِ اللّٰهِ محمَّدٍ ﷺ العاملونَ بِها، وهمْ قليلٌ، وَأكثرُهمُ الخارجونَ عنْ دينِ اللّٰهِ وطاعتِهِ.

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالةُ (كان) بينَ النُّقصانِ والتَّمام:

دوامُ الاتِّصافِ بالخيريَّةِ لِأمَّةِ النَّبيِّ محمَّدٍ ﷺ

تحتملُ (كانَ) أنْ تكونَ فِعلًا ماضِيًا ناقِصًا، وهو الظَّاهرُ، فتكونَ على قصدِ التَّمدُّحِ والثَّناءِ؛ لِإظهارِ نعمةِ اللّٰهِ على المؤمنينَ؛ لِيُفيدَ اختيارَ اللّٰهِ لهم فيما ذكرهُ مِنْ أوصافِهمْ بينَ الأُممِ السَّابقةِ، فكأنَّ المعنى: قَضيتُ، وقدَّرتُ أَنْ تكونوا خيرَ أمَّةٍ أُخرجَتْ للنَّاسِ، وأفادتْ (كانَ) خيريَّتَهم فيما مضَى، ولا تدلُّ على انقطاعٍ سابقٍ أَو لاحِقٍ، كما أَنَّ مجيئَها بقصدِ التَّمدُّحِ والثَّناءِ دلَّ على إفادتِها الدَّوامَ، والسِّياقُ يقوِّيهِ، وَهوَ ما ذهبَ إليهِ كثيرٌ مِنَ المفسِّرينَ[1]، فعدلَ عنْ قولِه: (أَنتمْ) إلى ﴿كُنتُمْ﴾؛ لِتأكيدِ خيريَّتِهم؛ لِأنَّ المُتقدِّمَ مستصحَبٌ، وليسَ الآنِفُ متقدِّمًا[2].

وتحتملُ أن تكون تامَّةً، بمعنى: وجدتم وخلقتم حالَ كونكم خيرَ أمَّةٍ أخرجت للنَّاس، وأفاد مجيء الكلام على طريقة الإخبار التَّحْرِيضَ عَلَى الِانْقِيَادِ والاتِّصاف بالصِّفاتِ المذكورة[3].

﴿كُنتُمْ﴾ بين تخصيص الخطاب وتعميمه:

خيريَّةُ الأمَّةِ المسلمةِ في أوَّلِها وآخرِها

لمّا قال: ﴿كُنتُمْ﴾ بتاء الخطابِ؛ احتملَ الكلامُ أن يكون لكلِّ أمَّة سيدنا محمَّدٍ ﷺ أي: الْجَمَاعَةُ الْمَوْصُوفُونَ بِالْإِيمَانِ بِهِ وَالْإِقْرَارِ بِنُبُوَّتِهِ، فالأصل في الخطابِ أن يكونَ لمعيَّن، وهم الصَّحابة

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 1/489، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 2/33، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 2/70.
(2) الماوردي، النكت والعيون: 1/416.
(3) الزمخشري، الكشاف: 1/400، والرّازي، مفاتيح الغيب: 8/324، وأبو حيان، البحر المحيط: 3/299.

رضوان اللّه عليهم ولكنَّه قصدَ به عمومَ الأمَّة بالشَّرطِ المذكور[1]، وجاء بصيغة الخطابِ تكريمًا للصَّحابة وتشريفًا لهم، لدخولِهم في الخطابِ دخولًا أوَّليًّا، واحتمل الخطابُ أن يكونَ خاصًّا بِمن آمن بالنَّبيِّ ﷺ في ابتداء الإِسلام، ويدخلُ مَنِ اتَّبَعَهُمْ في حُكْمِهِمْ لَا مَحَالَةَ[2].

نكتةُ إضافة اسمِ التَّفضيل إلى النَّكرة:

الصَّحَابَةُ أَفْضَلُ أُمَّـةٍ مِـنَ الأُمَـمِ مَعَ رَسُولِهَا

أصابتْ هذهِ الإضافةُ مَحَزَّ البلاغةِ في الإيجاز، وبيانِ المُرادِ، فأفادتْ تخصيصَ الخيريَّةِ بأُمَّةِ سيِّدِنا محمَّدٍ ﷺ ولكي يفيدَ أنَّ المخاطبينَ بعضٌ مِنَ الأمَّةِ أضافَ ﴿خَيْرَ﴾ إلى ﴿أُمَّةٍ﴾، ولمّا كانَ لفظُ ﴿أُمَّةٍ﴾ نكرةً؛ دلَّ على أنَّ المرادَ منه الجِنسُ، ويقتضي الاستغراقَ[3]، والمعنى: كنتُمْ خيرًا مِنْ كُلِّ الأُمم المخرَجةِ للنَّاسِ؛ إذا أُفردوا أمَّةً أمَّةً، وإذا اجتمعوا، ففيه ثناءٌ ما بعدَهُ ثناءٌ، وهذا الثَّناءُ مقترنٌ بكونِ الرَّسول محمَّدٍ ﷺ أفضلَ الرُّسُلِ، ولايدلُّ على هذا المعنى إلَّا هذا التَّركيبُ معَ وجازتِه وحُسنِ تأليفِه، وأَشارَ النُّحاةُ إلى هذا المعنى، كما في قولهم: (أَنتَ أَفرَهُ رجُلٍ في النَّاسِ) فمعناه: أنتَ أَفرَهُ مِنْ كُلِّ رجلٍ؛ إذا أُفردوا رَجُلًا رَجُلًا[4].

سببُ إيثار التَّعبير بصيغةِ المبني للمفعولِ:

مناسبةُ الكلامِ لسياقِ الخطابِ

جاء الفعل ﴿أُخْرِجَتْ﴾ على صيغة المبني للمفعول؛ للعلم بأنَّ اللّه هو مخرجُها، فَحُذِفَ لِلْعِلْمِ بِهِ إيجازًا في الكلام، وراعى ضمير الغيبة، فقال: ﴿أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾؛ ليعودَ الضَّميرُ إلى ﴿أُمَّةٍ﴾، ولم يُراعِ ضميرَ الخطابِ؛ لِيقولَ: (أُخْرِجْتُم للنَّاسِ)، معَ أنَّ كليهما عربيٌّ فصيحٌ؛ لِتُنَاسِبَ الجملةُ الْخِطَابَ فِي ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ﴾ مَعَ

(1) الزجاج، معاني القرآن وإعرابه: 1/456، والرّازي، مفاتيح الغيب: 8/325، أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 2/71.
(2) الراغب، تفسير الراغب: 2/791، ورضا، تفسير المنار: 4/50.
(3) ابن عطية، المحرر الوجيز: 1/489، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/50.
(4) ابن السراج، الأصول في النحو: 1/222.

الْخِطَابِ فِي ﴿تَأْمُرُونَ﴾ وَمَا بَعْدَهُ[1]، ولتكونَ وصفًا لـ ﴿أُمَّةٍ﴾؛ لِتتناسَقَ مَعَ الفوائدِ المذكورةِ في نُكتَةِ إضافةِ اسم التَّفضيلِ إلى النَّكرةِ، ولو قال: (أُخْرِجْتُمْ للنَّاسِ)؛ لَكانتِ الجملةُ وصفًا لـ ﴿خَيْرَ﴾، وينتفي معنى العمومِ المراد في الآيةِ وغيره.

دلالةُ كلمةِ ﴿أُخْرِجَتْ﴾:

أُمَّـةُ الإسـلامِ ظهرتْ للنَّاسِ لِـنـفْـعِـهِـمْ ولِمَصلَحَتِهِمْ

الإخراجُ هنا بمعنَى: الظُّهورِ والبُروزِ، أو هو مَجَازٌ في الْإِظْهَارِ؛ لأنَّه لازمٌ للخروج[2]، وعُبِّرَ بـ ﴿أُخْرِجَتْ﴾ دون (أُظهرت)؛ للإشارة إلى أنَّ النَّاس كانوا في موضعٍ تائهينَ فيهِ ضائعين، فأُخرجَتْ هذهِ الأمَّةُ لهم، وفيه إيذانٌ بأنَّ الغلبةَ لهم[3]، كما أفادَ التَّعبيرُ أنَّ الخيريَّةَ في هذهِ الأمَّةِ، وظهرتْ هذهِ الخيريَّةُ، وبرزتْ، فانتفعَ النَّاسُ منها، فخروجُها للنَّاس"لأجلهم ومصلحتِهم"[4]، ففي التَّعبيرِ ثناءٌ آخر غيرُ ثناءِ الوصفِ بالخيريَّةِ، وفيهِ معنى البِشارةِ بالخُروجِ.

بلاغةُ الكلامِ بينَ الاستئنافِ البيانيِّ والحاليَّةِ:

خـيريَّـةُ الأمَّـةِ في الاتِّـصـافِ بـالأوصـافِ المذكورةِ

تحتملُ جملةُ ﴿تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ ومانُسقَ عليها في قولِهِ: ﴿وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ أَنْ تكونَ استئنافًا بيانيًّا[5]؛ لِتشويقِ المتلقِّي، ولِتكثيرِ المعنى بتقليلِ اللَّفظِ، فَبعدَ أَنْ ذكرَ خيريَّتهم، استدعى الكلامُ سؤالًا، فكأنَّ سائلًا سألَ عن سَبَبِ استحقاقِهِمْ أَنْ يكونوا ﴿خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾؟ فأغنى السَّائلَ عن السُّؤالِ، وأَجابَ بذكرِ أوصافِهم[6]، فأفادَ الاستئنافُ البيانيُّ بيانَ سببِ تلكَ الخيريَّةِ.

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 3/301.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 3/301، والقونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 6/271، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/50.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 5/24.
(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 2/70.
(5) الزمخشري، الكشاف: 1/400، والرّازي، مفاتيح الغيب: 8/325.
(6) السكاكي، مفتاح العلوم، التفتازاني، المطول، ص: 448.

وتحتملُ أنْ تكونَ حالًا[1]؛ لبيانِ اقترانِ هذهِ الأوصافِ بالحُكمِ بالخيريَّة؛ ليُفيدَ أنَّ هذهِ الأوصافَ هي السَّببُ المناسِبُ للحُكمِ بالخيريَّةِ، فدلَّتِ الحَالُ على اقترانِ هذهِ الأوصافِ بهمْ وعدمِ مفارقتها لهمْ، معَ قيامِها مقامَ سببِ الحُكمِ بالخيريَّةِ، فالحالُ على معنَى التَّعليلِ[2].

فعلى كلا الاحتمالين تكونُ هذهِ الأوصافُ بيانًا لِسببِ الحكمِ بالخيريَّةِ على أمَّةِ سيِّدنا محمَّدٍ ﷺ وأجازَ بعضُ المُفسِّرينَ أنْ تكونَ جملةُ ﴿تَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾، وَما نُسِقَ عليها: خبرًا ثانيًا لـ ﴿كُنتُمۡ﴾[3]؛ لِيُفيدَ الخبرُ اقترانَ الأوصافِ بهمْ مثلَ اقترانِ الخَيريَّةِ.

سبب اجتماع الأوصاف:

جاء بهذه الأوصاف ﴿تَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَتَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَتُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِۗ﴾؛ ليدلَّ على أنَّهم استحقُّوا الخيريَّة بهذه الأوصاف، ولأنَّها بمجموعِها لم تحصل لأمَّةٍ غيرِهم[4]، ولمّا كانت هذه الأوصاف في مقامِ التعليل بالخيرية؛ أفادت أنَّ كمالَ الخيريَّة في كمالِ الاتِّصاف بهذه الأوصاف؛ لأنَّ الوصفَ - إذا أطلق - يُقصد به كماله، فالأمَّة تقوى بقوَّة هذه الأوصاف فيها، وتضعف بضعفها فيها.

مجموعُ هذهِ الأوصافِ لم تحصل لغيرِ أمَّةِ سيِّدنا مُحمَّدٍ ﷺ

نكتةُ التَّعبيرِ بصيغةِ المضارعِ:

وردتِ الأفعالُ ﴿تَأۡمُرُونَ﴾، ﴿وَتَنۡهَوۡنَ﴾، ﴿وَتُؤۡمِنُونَ﴾ بصيغةِ المضارعِ للدَّلالةِ على تجدُّدِ معاني هذهِ الأفعالِ على قصدِ الاستمرارِ حالًا فَحالًا[5].

(1) الراغب، تفسير الراغب: 2/793، وابن عطية، المحرر الوجيز: 1/489.
(2) الرّازي، مفاتيح الغيب: 8/325، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/50.
(3) البيضاوي، أنوار التنزيل: 2/33.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 5/24.
(5) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 2/71.

الأمـرُ بالمعروفِ والنَّهيُ عن المنكَرِ وصفانِ لازمانِ لِلمؤمنينَ

بلاغةُ حذفِ المفعولِ معَ الفعلين ﴿تَأۡمُرُونَ﴾ ﴿وَتَنۡهَوۡنَ﴾:

أصلُ الكلامِ: تأمرونَ النَّاسَ بالمعروفِ، وتنهونَهم عنِ المُنْكَرِ[1]، فحُذِفَ المفعولُ لإفادةِ إثباتِ الفعلِ للفاعلِ، بتنزيلِ الفعلِ المتعدِّي منزلةَ اللَّازمِ؛ لإثباتِ اتِّصافِ أَهلِ الخيريَّةِ بهذين الوَصفَين، وَكأنَّهما صاراَ وصفَينِ لازمَينِ للمؤْمنينَ، أَو حُذِفَ لإفادةِ التَّعميمِ معَ دلالةِ سياقِ الكلامِ على المفعولِ معَ الاختصارِ، فلو قالَ: (تأمرونَ النَّاسَ بالمعروفِ، وتنهونَ النَّاسَ عن المُنكَرِ)؛ أَمكنَ أنْ يُستفادَ العمومُ مِنْ صيغةِ (النَّاسِ)، لكنَّهُ يُفوِّتُ الاختصارَ، ويُضعِفُ النَّظمَ[2].

بلاغة التَّلوين في الخطاب في الآية الكريمة:

في قوله تعالى: ﴿كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ﴾ التفات من الخطاب في ﴿كُنتُمۡ﴾ إلى الغيبة في ﴿أُخۡرِجَتۡ﴾، أي: هي، ولو سار على نسق واحد؛ لقال: (أُخْرِجتُم)، وفائدته: الإشارة إلى اصطفائهم من بين الأمم جميعها؛ فإنَّ الالتفات من الخطاب إلى الغيبة يُذكِّرهم بحالهم قبل الاصطفاء من الغياب وعدم الظُّهور.

ثمّ انتقل من الغيبة إلى الخطاب في قوله: ﴿تَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَتَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَتُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِۗ﴾، وفائدته: الإيذان بتعليل كونهم خير أمَّة، ولبيان تكليفهم بذلك علانيةً، فما كان مؤدِّيًا إلى بلوغ خيريَّتهم لابدَّ من فرضيَّته عليهم، وعليهم أن يحقِّقوه واقعًا.

دلالةُ (ال) في المعروفِ والمنكرِ:

تفيدُ (الـ) استغراقَ جميعِ أَنواعِ المعروفِ وجميع أَنواعِ المنكَرِ، وفيه إشارة إلى ذيوع كلٍّ منهما، وشيوع حقيقتهما في جميع الأمم، وعند النَّاس جميعًا، وثِقَلُ رسالة التَّبليغ في هذه الأمَّة على قدر منزلتها العظيمة عند اللّه تعالى.

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 3/301.

(2) عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص: 156، والتّفتازاني، المطول، ص: 369.

نُكتةُ تقديمِ الأمرِ بالمعروفِ على النَّهي عنِ المُنْكَرِ:

الأمـرُ بالمعروفِ يقتضي النَّهيَ عن المنكرِ

قُدِّمَ الأمرُ بالمعروفِ؛ لأنَّهُ الأصلُ، ولِعمومِ معناه، فإنَّهُ يقتضي النَّهيَ عن المنكَرِ، فإنَّ النَّهيَ عن المنكَرِ جزءٌ من الأمرِ بالمعروفِ، فيكونُ مِنْ عطفِ الخاصِّ على العامِّ؛ لِبيانِ الاهتمامِ به، والتَّأكيدِ عليه.

وللتَّأكيد على رسالة الأمَّة الإيجابيَّة في إيصال هذه الخيريَّة، وتلك المزايا الدينيَّة إلى النَّاس جميعًا إلى يوم القيامة، وللإشارة إلى الجانب العمليِّ المنتظر منها أفرادًا وجماعات؛ فإنَّ العمل بالمعروف أعظم أنواع الأمر بالمعروف؛ ولذا قالوا: "فِعْلُ رجلٍ في ألف رجل خيرٌ من قول ألف رجل لرجل"، أي: إنَّ الفعل أقوى في الدَّعوة والأمر بالمعروف من الكلام.

ومِن ثَمَّ فإنَّ تقديم الأمر بالمعروف على النَّهي عن المنكر؛ لأنَّه في مقام مدح الأمَّة الإسلاميَّة، وذكر ضوابط الخيريَّة، ولا يقال: إنَّ فيه مخالفة لقاعدة: (درء المفاسد مقدَّم على جلب المصالح)؛ لأنَّ هذه الأخيرة إذا تعارضت مفسدة ومصلحة، وكانت المفسدة غالبة أو مساوية للمصلحة، فيقدَّم دفع المفسدة على جلب المصلحة.

سببُ تقديمِ الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ عَلَى الْإِيمَانِ بِاللهِ:

وذلك لِنكاتٍ هي:

خـصـوصـيَّـة الاتِّصاف بالأمرِ بالمعروف والنَّهي عـن المنكـر بعدَ الإيمان بالله

لمّا كانَ الْإِيمَانُ بِاللهِ أَمْرًا مُشْتَرَكًا فِيهِ بَيْنَ جَمِيعِ الْأُمَمِ الْمُحِقَّةِ، كانَ للأمرِ بالمعروفِ والنَّهي عن المنكَرِ خَصوصيَّةٌ زائدةٌ مؤثِّرةٌ في الخَيريَّة بعدَ الإيمانِ باللّه، فقُدِّمَ ما خُصُّوا به على ما يقعُ الاشتراكُ فيه[1].

لمّا كانَ (الْأَمْرُ وَالنَّهْيُ) مَحْمُودَين فِي عُرْفِ جَمِيعِ النَّاسِ، وَلَمَّا

(1) الرّازي، مفاتيح الغيب: 8/326.

الأمـرُ بالمعروفِ والنَّهيُ عن المنكرِ وصفٌ متَّفَقٌ على حُسنِهِ

كَانَ الْكَلَامُ فِي خَيْرِيَّةِ هَذِهِ الْأُمَّةِ عَلَى جَمِيعِ الْأُمَمِ؛ قَدَّمَ الْوَصْفَ الْمُتَّفَقَ عَلَى حُسْنِهِ.

الإيمانُ الصحيح يؤتي ثماره

لِلتَّعْرِيضِ بِأَهْلِ الْكِتَابِ الَّذِينَ كَانُوا يَدَّعُونَ الْإِيمَانَ، وكانوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ، فَقَدَّمَ ذِكْرَ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ؛ لِأَنَّهُمْ لَا مَجَالَ لَهُمْ فِي دَعْوَى مُشَارَكَةِ الْمُؤْمِنِينَ فِيهِ، وَأَخَّرَ ذِكْرَ الْإِيمَانِ الَّذِي يَدَّعُونَهُ لِيُرَتِّبَ عَلَيْهِ بَيَانَ أَنَّهُ إِيمَانٌ غَيْرُ صَحِيحٍ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَأْتِ بِثَمَرِ الْإِيمَانِ الصَّحِيحِ[1].

تقديمُ ما اقتضاهُ السِّياقُ على ما يستحقُّ التَّقديمَ في الأمرِ نفسِه

لمّا كانَ الأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكرِ الأهمَّ في هذا المقام المسوق، للتَّنويه بفضيلتهما، وكانَ إيمانُهم أمرًا ثابتًا محقَّقًا، ومقامُ الكلامِ في الحثِّ على الأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر - قدَّمَ ما اقتضاه السِّياقُ على ما في الأمر نفسه[2]، وإنَّه لَمَحَزُّ البلاغةِ في اعتباراتِ المقامِ.

بديعُ الطِّباقِ:

إذْ وردَ الطِّباقُ في الفعلِ والاسمِ في قولِه: ﴿تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾، وقوله: ﴿وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ لِاستغراقِ الأمرينِ، أَي: فعلِ المعروفِ وتركِ المنكَرِ.

نُكتةُ الاقتصارِ على الإيمانِ باللهِ:

شرفُ صحبةِ رسولِ اللهِ ﷺ في استحقاقِ الخَيريَّةِ

فلم يقلْ: (وتؤمنون باللهِ وبرسولِه)؛ لِلإشارةِ إلى أنَّ الإيمانَ بنبوَّةِ سيدِنا محمَّدٍ ﷺ مِنْ ضَرُورَةِ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ[3]، وأيضًا للإشعارِ بأنَّهمُ استحَقُّوا هذهِ الخيريَّة بمعيَّتِهم لِرسولِ اللهِ واتِّباعِهِمْ لهُ، فالخِطابُ يشملُ رسولَ اللهِ بعدِّه أنَّهُ إمامُ الأمَّةِ ونبيُّها، فلو قالَ: (وبرسولِه)؛ لَأفادَ أنَّهُمُ استَحَقُّوا هذهِ الخيريَّة بذواتِهم وأَوصافِهم مِنْ غيرِ صُحبةٍ لِرسولِ اللهِ ولا اتِّباعٍ لَهُ.

(1) رضا، تفسير المنار: 4/52.
(2) ابن عاشور: التحرير والتنوير: 4/50.
(3) الرّازي، مفاتيح الغيب: 8/326.

فوائدُ التَّعبيرِ بالشَّرطِ ﴿وَلَوۡ ءَامَنَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾:

حصولُ الخيرِ بحصولِ الإيمان

لمّا كانتْ ﴿وَلَوۡ﴾ تفيدُ انتفاءَ حصولِ الجزاءِ لِلقطعِ بانتفاءِ حصولِ الشَّرطِ؛ دلَّتْ على أنَّ انتفاءَ حصولِ الخيرِ لَهمْ بِسببِ انتفاءِ الإيمانِ عنهمْ، فمَا حصلوا عليه في هذهِ الدُّنيا من المالِ والجاهِ والمتاعِ، ليسَ بخيرٍ لِقُربِ زوالِه، ولأنَّهم لنْ ينتفعُوا بهِ يومَ القيامةِ، ودلَّت أيضًا باقترانِها بالشَّرطِ في قولِه: ﴿ءَامَنَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ على ارتباطِ وجودِ الخيرِ بوجودِ الإيمانِ[1].

انتفاء فائدةِ الإيمانِ دونَ الإيمانِ برسولِ الله ﷺ

أفادَ الشَّرطُ توبيخ أهل الكتاب على عدم إيمانهم بنبوَّة سيِّدنا محمَّد ﷺ فأفادَ أنَّ إيمانهم باللّٰه لايصحُّ دون الإيمانِ برسول اللّٰه محمَّد ﷺ وجاء التَّوبيخُ مَقْرُونًا بِنُصْحِهِ تَعَالَى لَهُمْ: أَنْ لَوْ آمَنُوا؛ لَنَجَّوا أَنْفُسَهُمْ من عذاب اللّٰه[2].

فيه تعريض بأهلِ الكتابِ من اليهودِ وغيرِهم بِأَنَّهُمْ مُتَرَدِّدُونَ في اتِّباعِ الإسلام، مع إمكانِ تحصيلِهم على هذا الفضلِ لقربه منهم[3].

سببُ إيثارِ الإطلاقِ على التَّقييدِ في قوله: ﴿وَلَوۡ ءَامَنَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾:

الإيمانُ النَّافعُ هو الإيمانُ التامُّ

لَمْ يَقُلْ: (لَوْ آمَنُوا بِاللّٰهِ)، بَلْ أَطْلَقَ؛ لِيَدُلَّ عَلَى أَنَّ إِيمَانَهُمْ بِكُلِّ مَا يُؤْمِنُونَ بِهِ غَيْرُ صَحِيحٍ، وليفيدَ أنَّهم مطالبون بالإيمانِ بكلِّ ما آمنَ به المؤمنون في عهدِ نزولِ القرآن، على معنى: ولو آمنوا الْإِيمَانَ التَّامَّ النَّافِعَ[4].

إيثارُ التَّعبيرِ بـ ﴿أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾:

لِتعميمِ الكلامِ في اليهودِ والنَّصارى ممَّنْ لم يؤمنوا كما يأتي، وإنْ كانَ السِّياقُ في ذكرِ اليهودِ، ولِتوبيخِهم على كفرِهمْ وفسقِهم، فإنَّ مقتضَى كونِهم أَهلَ الكتابِ أنْ يكونوا مؤمنينَ لا فاسقينَ.

---

(1) التّفتازاني، المطوّل، ص: 336.

(2) أبو حيان، البحر المحيط: 3/302.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/52.

(4) أبو حيان، البحر المحيط: 3/302، ورضا، تفسير المنار: 4/53.

دلالةُ الضَّميرِ المستَتِرِ في قولِهِ: ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾:

تقديرُ الكلامِ: (لكان الإيمانُ خيرًا لَهُمْ)، فعادَ الضَّميرُ في (كانَ) على المصدرِ المفهومِ من الفعلِ (آمن)، فأتَى بالضَّميرِ؛ للإيجازِ في الكلامِ، ولإفادةِ أنَّ الإيمانَ الَّذي يكونُ خيرًا لَهم هو الَّذي يكونُ في الفعلِ (آمنوا)؛ حثًّا على الاهتمامِ بالأفعالِ، وليسَ في ما كانوا يدَّعونَهُ من الإيمانِ بالقولِ، ومثلُهُ قولُه تعالى: ﴿ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰ﴾ [المائدة: 8]، أي: العدلُ الَّذي يكونُ في الفعلِ ﴿ٱعۡدِلُواْ﴾ هو الأقربُ لِلتَّقوى.

دلالةُ مجيءِ ﴿خَيْرًا﴾ نكرةً:

الإيمانُ سببٌ لكلِّ خيرٍ

لمّا أفادتْ ﴿وَلَوْ﴾ معنَى النَّفي، وجاءتْ كلمةُ ﴿خَيْرًا﴾ في سياقِها؛ دلَّتِ النَّكرةُ على العمومِ، بمعنى: لو آمَنَ أهلُ الكتابِ؛ لَحصلوا على كلِّ أَنواعِ الخيرِ، وأكَّدَ هذا باقترانِ الجزاءِ باللَّامِ المؤكِّدةِ لِمضمونِ الجزاءِ، وجاء الإجمالُ في وَجْه كَوْنِ الْإِيمَانِ خَيْرًا لَهُمْ؛ لِتَذْهَبَ نُفُوسُهُمْ كُلَّ مَذْهَبٍ فِي الرَّجَاءِ وَالْإِشْفَاقِ؛ توبيخًا لهم على عدمِ الإيمانِ وتحضيضًا - لغير المؤمنين منهم الحاضرين وقت التَّنزيلِ وما بعدَه - على المبادرةِ إلى الإيمانِ والإسراعِ إليهِ[1].

سَبَبُ اقترانِ الجارِّ والمجرورِ ﴿لَّهُمْ﴾ بالكلامِ:

لِتخصيصِ الخيرِ لهم؛ إمعانًا في توبيخِهم على عدمِ إيمانِهم، ولِلإشارةِ إلى أنَّهم كانوا يحرصُونَ على أَنْ يكونَ الخيرُ لهم خاصّةً مِنْ دونِ النَّاسِ.

دلالة تقديمِ الجار والمجرور ﴿مِّنْهُمُ﴾:

ليسَ في تقديمِ الجارِّ والمجرورِ ﴿مِّنْهُمُ﴾ تخصيصٌ، فليسَ المعنى: منهم فقط المؤمنونَ، ولا يوجدُ من غيرِهم، بل جاءَ التَّقديمُ اهتمامًا بِشأنِ المؤمنينِ منهمْ وتشريفًا لَهُمْ؛ كما أفادَ تأكيدَ المعنى وتقريرًا له.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/53.

قولُه تعالى: ﴿مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ بينَ الاحتراسِ والاستئنافِ البيانيِّ:

دفـــعُ تـوهُّـم نـفـيِ الإيـمـانِ عن جميعِ أهلِ الكتابِ

يحتملُ أَنْ يكونَ الكلامُ لِلاحتراسِ[1]، فإنَّهُ لمَّا نفَى اللهُ تعالى إيمانَ أَهلِ الكتابِ في قولِه: ﴿وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم﴾، ممَّا قدْ يُتَوَهَّمُ بهِ نفيُ الإيمانِ عن جميعِ أَهلِ الكتابِ، ولكي يدفَعَ هذا الوَهمَ أَعقبَهُ بقولِه: ﴿مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾؛ لِإفادةِ الاحتراسِ عن توهُّمِ خلافِ المقصودِ، كما أنَّ في الاحتراسِ إطنابًا وتكثيرًا لِلمعنى؛ لإفادتِه معنًى جديدًا[2]، وهو قلَّةُ المؤمنينَ وكثرةُ الفاسقينَ مِنْ أهلِ الكتابِ.

كَما يحتملُ أَنْ يكونَ استئنافًا بيانيًّا عن السَّببِ الخاصِّ؛ فجاءَ الاستئنافُ لإغناءِ السَّامعِ عن السُّؤالِ، ولتكثيرِ المعنى بتقليلِ اللَّفظِ؛ فإنَّهُ لَمَّا نفَى الإيمانَ عنهم بجملةِ الشَّرطِ؛ اقتضى الكلامُ سؤالًا، لِتردُّدِ المخاطَبِ في الأمرِ، كأنَّهُ قيلَ: هلْ منهم مَنْ آمنَ، أَو كلُّهم على الكُفرِ؟ فقيلَ لدفعِ التَّردُّدِ بصيغةِ التَّأكيدِ بتقديمِ الجارِّ والمجرورِ: بعضُهمُ المؤمنونَ وهُمْ القِلَّةُ، وأَكثرُهمُ الفاسقونَ[3].

دلالةُ حرفِ الجرِّ في قولِه: ﴿مِّنْهُمُ﴾:

أفـادَ التبعيضُ قلَّةَ المؤمنين من أهلِ الكتابِ

دلَّ حرفُ الجرِّ (مِن) على التَّبعيضِ، والمعنى: بعضُهُمْ المؤمنونَ، ولمَّا كانتِ البَعضيَّةُ تحتملُ أَنْ تكونَ نِصفًا أو أقلَّ أو أَكثرَ؛ دفعَ توهُّمَ أَنْ يكونَ المؤمنونَ هُمُ الأَكثرَ، فقالَ: ﴿وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾، فأفادَ التَّبعيضُ القلَّةَ.

بديعُ الطِّباقِ في الآيةِ:

لَمَّا كانَ لفظُ (مِنْ) دالًّا على القلَّةِ بدلالةِ السِّياقِ - كما تقدَّمَ -

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/53.
(2) السبكي، عروس الأفراح: 1/614.
(3) التفتازاني، المطول، ص: 447 - 448.

النَّاسُ صنفانِ مؤمنٌ وكافرٌ

وكانَ لفظُ ﴿وَأَكۡثَرُهُمُ﴾ معنًى مُقابلًا؛ أَفادَ هذا التَّقابُلُ في المعنيينِ المتضادَّينِ وقوعَ الطِّباقِ في الآيةِ، ومثلُهُ التَّضادُ بينَ لفظِ ﴿ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ و﴿ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾؛ لِتضمُّنِ الفاسقينَ هنا معنَى الكافرينَ وزيادة.

وأَفادَ الطِّباقُ في الموضعَينِ نفيَ وجودِ قسمٍ ثالثٍ للمتضادَّينِ، كما أنَّ فيه تحسينَ المعنَى؛ لِتبادُرِ المقابلِ إلى ذهنِ المتلقِّي عندَ ذكرِ اللَّفظِ الأَوَّلِ، فيكونُ ذكرُ اللَّفظِ الثَّاني بمنزلةِ تأْكيدِ معنى الأوَّل وتقريرِه.

إيثارُ الوصفِ بالفسقِ دونَ الكُفرِ:

الكافر الفاسق أشدُّ ذمًّا من الكافرِ غيرِ الفاسقِ

لَمَّا كانَ الْوَصْفُ يُذْكَرُ لِلْمُبَالَغَةِ؛ عدلَ عَنْ أَنْ يقولَ: (مِنهُمُ الْمُؤمنونَ وَأَكثرُهُمُ الْكافرونَ)؛ لأَنَّ الْكَافِرَ قَدْ يَكُونُ عَدْلًا في دِينِهِ، فالكافرُ الفاسقُ أشدُّ ذمًّا من الكافرِ غيرِ الفاسقِ، فالْمُسْلِمون لَا يَقْبَلُونَهُ لِكُفْرِهِ، وَالْكُفَّارُ لَا يَقْبَلُونَهُ لِكَوْنِهِ فَاسِقًا فِيمَا بَيْنَهُمْ؛ فأشعرَ الكلامُ بأنَّ أكثرَهُمْ فَاسِقُونَ في أَدْيَانِهِمْ، فَلَيْسُوا مِمَّنْ يَجِبُ الِاقْتِدَاءُ بِهِمُ البَتَّةَ عِنْدَ أيِّ واحدٍ مِنَ الْعُقَلَاءِ[1].

دلالة (الـ) في ﴿ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾، ﴿ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾:

في الآيةِ إشارةٌ غيبيَّةٌ دالَّةٌ على إعجازِ القرآنِ

(الـ): في الموضعَينِ موصولةٌ، والمعنى: مِنهُمُ الَّذينَ يؤمنونَ الإيمانَ المعهودَ، وأكثرُهُمُ الَّذينَ يفسقون؛ لِمَا في اعتبارِ الوصفِ من مبالغةٍ في المدحِ لِلمؤمنينَ منهم، ومِن مبالغةٍ في الذَّمِّ للفاسقين.

كما أفادَت (الـ) تلبُّسَهم بالفعلِ، تلبُّسَ المؤمنِ بالإيمانِ والفاسقِ بالفِسقِ، تقريرًا لإثباتِ الإيمانِ والفسقِ لكلِّ طائفةٍ.

ويحتملُ اسمُ الفاعلِ ﴿ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ أَنْ يكونَ على معنى المستقبلِ، أي: منهم مَنْ سيؤمِنُ، فيكونُ في الكلامِ إشارةٌ مِنَ الإخبارِ بالمغيبِ، مِنْ أَنَّهُ سَيَقَعُ مِنْ بَعْضِهِمُ الْإِيمَانُ، وَلَا يَسْتَمِرُّونَ كُلُّهُمْ عَلَى الْكُفْرِ[2].

(1) الرّازي، مفاتيح الغيب: 8/327.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 3/302.

وتحتملُ أنْ تكونَ (الـ) لِاستغراقِ الوصفِ؛ لِتدلَّ على المبالغةِ والْكَمَالِ فِي الْوَصْفَيْنِ؛ لِتفيدَ (الـ) كمالَ المدحِ وكمالَ الذَّمِّ[1].

وذهب الرَّازيُّ إلى أنَّ (الـ) في ﴿ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ للعهد، ويُقصَدُ بها عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَلَامٍ وَرَهْطُهُ مِنَ الْيَهُودِ، وَالنَّجَاشِيُّ وَرَهْطُهُ مِنَ النَّصَارَى[2].

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 3/302.

(2) الرّازي، مفاتيح الغيب: 8/327.

﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى ۖ وَإِن يُقَٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١١١﴾﴾ [آل عمران: 111]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا رَغَّبَ اللهُ تعالى المُؤْمِنِينَ على الثَّباتِ في إيمَانِهِمْ، وَتَرْكِ الالْتِفَاتِ إِلَى أَقْوَالِ الْكُفَّارِ وَأَفْعَالِهِمْ؛ رَغَّبَهُمْ فِيهِ مِنْ وَجْهٍ آخَرَ، وَهُوَ أَنَّهُمْ لَا قُدْرَةَ لَهُمْ عَلَى الْإِضْرَارِ بِالْمُسْلِمِينَ إِلَّا بِالْقَلِيلِ مِنَ الْقَوْلِ الَّذِي لَا عِبْرَةَ بِهِ، وَلَوْ أَنَّهُمْ قَاتَلُوا الْمُسْلِمِينَ؛ صَارُوا مُنْهَزِمِينَ مَخْذُولِينَ، وَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ؛ لَمْ يَجِبِ الالْتِفَاتُ إِلَى أَقْوَالِهِمْ وَأَفْعَالِهِمْ[1].

وأيضًا لَمَّا أخبرَ اللهُ تعالى أَنَّ أَكثرَ أَهلِ الكتابِ هُمُ الفاسقونَ الخارجونَ عنِ الطَّاعةِ والانقيادِ، فقد يُتَوَهَّمُ أَنَّهمْ قادرونَ على الإضرارِ بالمؤمنينَ، فإنَّ مخالفةَ الأَكثرِ قاصمةٌ، فَخفَّفَ اللهُ تعالى عنْ أَوليائِهِ المؤمنينَ، وطمأَنَهمْ بقولِه: ﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى﴾؛ لِيُعلِمَ أَنَّهمْ غيرُ قادرينَ على مواجهةِ المُؤمنينَ، وَهَذَا يَخْتَصُّ بِالْيَهُودِ، فَإِنَّهُمْ كَانُوا مُنْتَشِرِينَ حِيَالَ الْمَدِينَةِ، أَمَّا النَّصَارَى؛ فَلَا مُلَابَسَةَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْمُسْلِمِينَ حَتَّى يَخْشَوْهُمْ[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَضُرُّوكُمْ﴾: الضُّرُّ ضِدُّ النَّفعِ، وهو سُوءُ الحالِ لِنقصٍ في أَمرٍ نفسيٍّ، كَالعلمِ والعِفَّةِ، أَو جَسديٍّ لِفقدِ جارحةٍ مثلًا، ومنهُ رجلٌ ضريرٌ لِفقدِ البصرِ، أَو حالةٍ ظاهرةٍ، فيها مقاساةٌ مِنْ فَقرٍ أو قلَّةِ مالٍ وجاهٍ أَو شِدَّةِ حالٍ، والضَّرَّاءُ النَّقصُ في الأَموالِ والأَنفُسِ، وضَرَّ فُلانٌ فُلانًا؛ إذا سبَّبَ له نَقصًا أَو ضيقًا نفسيًّا أَو جسَديًّا أَو في حالةٍ مِنْ أَحوالِه[3].

2) ﴿أَذًى﴾: هو ما يَصِلُ إلى كلِّ ذي حياةٍ مِنْ تنفيرٍ أو قلقٍ: إمَّا في نفسِه أو جسمِه أو تبعاتِه دُنيويًّا كانَ أو أخرويًّا، والإيذاءُ قدْ يكونُ مَعْنويًّا بالقولِ المؤلمِ المتكَرِّهِ، وقدْ يكونُ

(1) الرّازي، مفاتيح الغيب: 8/328.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 5/27، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/54.
(3) الأزهري، تهذيب اللغة، والراغب، المفردات: (ضرر).

حسِّيًّا بالضَّربِ غيرِ المُبَرِّحِ ونحوِهِ، ولمَّا كانَ الأَذَى يُقالُ في المكروهِ اليَسيرِ الشَّرِّ الخفيفِ؛ كانَ أَهونَ مِنَ الضَّررِ، فالأذى: هو الْأَلَمُ الْخَفِيفُ الَّذي يكون بالقولِ[1].

3) ﴿يُوَلُّوكُمُ﴾: التَّولِّي يكونُ بمعنَى: الإقبالِ والاتِّباعِ، وبمعنَى: الإعراضِ، فإذا اقترنَ بـ (إلى) لفظًا أَو تقديرًا؛ فَهوَ بمعنى: الإقبالِ، وإذا اقترنَ بـ (عنْ) لفظًا أَو تقديرًا؛ فهوَ بمعنَى: الإعراضِ، والسِّياقُ يبيِّنُ ذلكَ غالبًا، وقدْ يكونُ الإعراضُ بالجسمِ، وقدْ يكونُ بتركِ الإصغاءِ والائتمارِ، ووَلَّاهُ دُبُرَهُ؛ إذا انْهَزَمَ[2].

4) ﴿ٱلْأَدْبَارَ﴾: جمعُ دُبُرٍ، وهو خلافُ القُبُلِ، والإدبارُ خلافُ الإقبالِ، ويُقالُ: اجْعَل هَذَا الْأَمرَ دُبُرَ أُذُنِكَ، أَيْ: خلفَ أُذُنِكَ، وتدابَرَ الْقَوْمُ؛ إذا تقاطَعوا، وتعادَوا، وَلَا يُقَالُ هذا إِلَّا فِي بني الْأَبِ خَاصَّةً، وكلُّ متأخِّرٍ دابِرٌ، وأَدبَرَ: أَعرضَ، وولَّى دُبُرَهُ[3].

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

هؤلاءِ الفاسقونَ مِنْ أَهلِ الكتابِ والَّذينَ قُصِدَ بهمُ اليهودُ: لَنْ يضرُّوكُمْ - أيُّها المؤمنونَ - في دينِكُمْ ولا في أَنفسِكُمْ، إلا أذًى يسيرًا يُؤذي أَسماعَكُمْ مِنَ الشِّركِ والكُفرِ والطَّعنِ في الدِّينِ أَو غيرِ ذلكَ، إنْ هم قاتلوكم؛ فَسينهزمونَ مولِّينَ أَدبارَهمْ، ولا ينتصرونَ عليكم؛ ما دُمتمْ متمسِّكينَ بدينِكم.

وهذهِ الآيةُ مِنَ المغيَّباتِ الَّتي وافقَها الواقعُ؛ إذْ كان ذلكَ حالَ قريظةَ والنَّضيرِ وبني قَينُقاعٍ ويهودِ خيبرَ[4].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ أسلوبِ القصرِ:

جاءَ بأُسلوبِ القصرِ بالنَّفيِ والاستثناءِ الَّذي يُسْلَكُ معَ مخاطَبٍ مُعتقِدٍ الخطأَ، ويُصِرُّ عليه[5]، فأُخرِجَ الكلامُ على خلافِ مقتضَى الظَّاهرِ، فإنَّهُ لمَّا كانَ أكثرُ أهلِ الكتابِ فاسقينَ،

(1) الأزهري، تهذيب اللغة، والزبيدي، تاج العروس، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (أذى)، وابن قتيبة، غريب القرآن، ص:108.
(2) الأزهري، تهذيب اللغة، والراغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (ولي).
(3) ابن دريد، جمهرة اللغة، والأزهري، تهذيب اللغة: (دبر).
(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 8/326، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 2/33، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/54.
(5) السكاكي، مفتاح العلوم، ص: 294.

والفِسقُ مدخلٌ لإلحاقِ الضَّررِ بالنَّاسِ، حتَّى لا يَتوهَّمَ المؤمنونَ قدرةَ أهلِ الكتابِ على الإضرارِ بهمْ، ولِكَي لا يعتقدوا خطأً هذا الأمرَ جاءَ بأُسلوبِ القصرِ بالنَّفيِ والاستثناءِ، وَهذا الأُسلوبُ أَبلغُ في نَفيِ الضُّرِّ وإثباتِ الأَذى الخفيفِ مِنْ أَساليبِ القَصرِ الأُخرى.

لا قدرةَ لأهلِ الكتابِ على الإضرارِ بالمؤمنين إلَّا أذًى خفيفًا

دلالةُ الاستثناءِ بينَ الاتِّصالِ والانقطاعِ:

لَمَّا كانَ الخلافُ في المعنَى اللُّغويِّ لِلَّفظِ ﴿أَذًى﴾ حول دخوله مِنْ جِنسِ الضُّرِّ أَم ليس مِنْ جنسِهِ؛ فقد احتملَ الاستثناءُ أَنْ يكونَ منقطِعًا[1]، وتكونُ ﴿إِلَّآ﴾ بمعنَى: لكنْ، والأَذى ليس مِنَ الضُّرِّ؛ لأنَّ الضُّرَّ لايكونُ إلَّا شَديدًا، والأذى يكونُ هيِّنًا، كأنْ يكونَ الأذى باللِّسانِ، مثلَ: الوعيدِ والبُهتِ وإسماعِهِمُ الكُفرَ، والمعنى: لنْ يضرُّوكم بقتالٍ وغَلَبَةٍ، ولكنْ بكلمةِ أَذًى ونحوِها[2].

البشارةُ للمؤمنينَ بالأَمنِ لهمْ عنْ ضَررِ أهلِ الكتابِ بالغلبةِ والاستئصالِ

واحتملَ أَنْ يكونَ استثناءً متَّصلًا؛ لِيكونَ الأذى مِنْ جنسِ الضُّرِّ، ولكنَّهُ يكونُ ضررًا خفيفًا يسيرًا، فهو أَدنى الضَّررِ؛ لِأَنَّ الأذى هو الأمرُ المؤلِمُ الَّذي يُقصَدُ إماطتُهُ[3]، والمعنى: لنْ يصيبَكمْ منهُمْ ضَرَرٌ في الأَبدانِ ولا في الأموالِ، وإنَّما هو أَذًى بالأَلسنةِ[4]، وفي هذا الإخبارِ بالاستثناءِ ثلاثُ فوائِدَ[5]:

إحداها: أَنْ يَلحَظَ المؤمنونَ الكافرينَ بعينِ الاحتقارِ والتَّصغيرِ، حتَّى لا يَصدُّوا أَحَدًا عن دينِهِ، ولا يشغلوه عنْ عبادةِ ربِّهِ.

الثَّانية: بشارةٌ لرسولِ اللَّهِ ﷺ وللمؤمنينَ، بالأَمنِ لهمْ عنْ ضَرَرِ المشركينَ بالغلبةِ والاستئصالِ إلَّا أذًى باللِّسانِ، ففيه إشارةٌ إلى الغيب في المستقبلِ.

(1) ابن جرير، جامع البيان: 7/109، ومكي بن أبي طالب، الهداية: 2/1095.
(2) السمين، الدر المصون: 2/252.
(3) الحراليّ، تراث أبي الحسن الحراليّ: 1/244، وابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/641.
(4) ابن عطية، المحرر الوجيز: 1/401، والرّازي، مفاتيح الغيب: 8/327.
(5) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 2/456، والزمخشري، الكشاف: 1/490، وابن عطية، المحرر الوجيز: 1/401، والنسفي، مدارك التنزيل: 1/238.

الثَّالثة: تثبيتُ مَنْ أَسلَمَ مِنْ أهلِ الكتابِ.

نُكتةُ مجيءِ ﴿أَذًى﴾ نكرةً:

أَفادَ التَّنكيرُ التّقليلَ، على معنى: أَنَّهُ قدْ يصيبُ المؤمنينَ أذًى قليلٌ يسيرٌ منهمْ[1].

نُكتَةُ مجيءِ أَداةِ الشَّرطِ ﴿وَإِن﴾:

عبَّرَ بـ (إن) دونَ (إذا)؛ واقترنتْ أداةُ الشَّرطِ بالفعلِ المضارعِ الدَّالِّ على الحالِ والاستقبالِ، ولم تقترنْ أداةُ الشَّرطِ بالفعلِ الماضي الدَّالِّ على التَّحقُّقِ، فلم يقلْ: (إنْ قاتلوكُمْ)؛ لِلدَّلالةِ على الإخبارِ عن الارتيابِ في أَنْ يقاتلوا المؤمنينَ، والشَّكِّ فيهِ، وأَنَّ قتالَهم المؤمنينَ نادرُ الوقوعِ لعدمِ رغبتِهم فيهِ[2].

الإخبارُ عن الارتيابِ في رغبةِ أهلِ الكتابِ قتالَ المؤمنينَ

بلاغةُ الكنايةِ في الآيةِ:

جاءَ الكلامُ على التَّعريضِ بالكنايةِ؛ إذْ ذكرَ اللَّازمَ: وهو ﴿يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ﴾؛ لِينتقلَ المخاطَبُ إلى لازمٍ آخرَ: هو الإعراضُ، ثمَّ الملزومُ: وهوَ الانهزامُ؛ لِأَنَّ المنهزمَ يحوِّلُ ظهرَهُ إلى جهةِ الطَّالبِ هَرَبًا إلى مَلْجأٍ وموئِلٍ يَئِلُ إليهِ منهُ؛ خوفًا على نفسِهِ، والطَّالبُ في أَثَرِهِ، فدُبُرُ المطلوبِ حينئذٍ يكونُ محاذيَ وجهِ الطَّالبِ الهازمِ كنايةً عن انهزامِهم[3]، وأفادت الكنايةُ بالانتقالِ منَ اللَّازمِ إلى الملزومِ تصويرَ ذلَّةِ المنهزمين ومهانتِهم، وهمْ يُولُّونَ أَدبارَهمْ.

سببُ ذكرِ المفعولِ في قولِهِ: ﴿يُوَلُّوكُمُ﴾:

فلم يقلْ: (وإنْ يقاتلوكُمْ يولُّوا الأَدبارَ)، فصرَّحَ بالمفعولِ؛ استصغارًا لِشأنِ أهلِ الكتابِ وإظهارًا لِذلّتهم أمامَ المؤمنينَ المخاطبينَ؛ لِمَا يقتضيه مقامُ الكلامِ، وتقويةً لِعزيمةِ المؤمنينَ؛ إنْ قاتلَهمُ الأَعداءُ.

---

(1) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 6/273.

(2) السكاكي، مفتاح العلوم، ص: 240، والتفتازاني، المطول، ص: 318.

(3) ابن جرير، جامع البيان: 7/109، والسكاكي، مفتاح العلوم، ص: 402.

نُكتَةُ التَّعبيرِ بقولِهِ: ﴿ٱلۡأَدۡبَارَ﴾:

التَّعبيرُ بالأدبار تخسيسٌ للفارِّ وإهـــانـــةٌ له وأبلغُ في معنى الانهزامِ

لَمَّا كانَ التَّولِّي هو عنْ إدبارٍ؛ أفادَ مجيءُ ﴿ٱلۡأَدۡبَارَ﴾ معنى التَّأكيدِ لِلتَّولِّي، وأَفادَ معنى الانهزامِ المقرونِ بالذُّلِّ والجُبنِ، وخُصَّ الْأَدْبارُ بالذِّكرِ دونَ الظُّهورِ تخسيسًا للفارِّ وإهانةً لَهُ، وَلِأَنَّ ذَلِكَ أَبْلَغُ فِي الِانْهِزَامِ وَالْهَرَبِ[1]، والآيةُ معجزةٌ للنَّبيِّ محمَّدٍ ﷺ لأنَّ كلَّ مَنْ قاتلَه من اليهودِ ولَّى دبرَهُ[2].

دلالة الشَّرطِ والجزاء في الكلامِ:

لمّا كان الجزاء يقع بوقوعِ الشَّرطِ من غير مهلةٍ دلَّ الكلامُ على أنَّهم بِنَفْسِ مَا تَقَعُ الْمُقَابَلَةُ يُولُّون الْأَدْبَارَ، فَلَيْسُوا مِمَّنْ يُغْلَبُ، وَيُقْتَلُ، وَهُوَ مُقْبِلٌ عَلَى قرنِهِ غَيْرُ مُدْبِرٍ عَنْهُ[3]؛ إشعارًا بِجبنِهم وحبِّهم للدُّنيا.

سرُّ العدول عن الجزم إلى الرَّفع في قوله: ﴿ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾:

جاءَ الفعلُ مرفوعًا، فلمْ ينسقْهُ على ﴿يُوَلُّوكُمُ﴾، ولوْ نَسَقَهُ؛ لَكانَ مجزومًا، ولَكانَ نفيُ النَّصرِ مقيَّدًا بمقاتلتِهم، أي: (إنْ يقاتلوكُمْ لا يُنْصَروا)، فلمَّا جاءَ الفعلُ مرفوعًا؛ كانَ نفيُ النَّصرِ وعدًا مطلقًا، وهو المقصودُ، فعدلَ بهِ عنْ حُكمِ الجزاءِ إلى حكمِ الإخبارِ ابتداءً، كأنَّهُ قال: ثُمَّ شأنُهم وقصَّتُهم الَّتي أُخبرُكم عنها، وأُبشِّرُكم بها بعدَ التَّوليةِ أنَّهم مخذولونَ منتفٍ عنهم النَّصرُ والقوَّةُ لا ينهضونَ بعدَها بجَناحٍ، ولا يستقيمُ لهم أَمرٌ[4].

دلالةُ التَّراخي الكائن في ﴿ثُمَّ﴾:

أَشارَ حرفُ التَّرتيبِ والتَّراخي ﴿ثُمَّ﴾ إلى التَّرتيبِ في الإخبارِ، فجاء الفعل ﴿لَا يُنصَرُونَ﴾ مرفوعًا، ولمْ ينسِقْهُ على الفعلِ المجزوم ﴿يُوَلُّوكُمُ﴾؛ لِئَلَّا يكونَ مُقَيَّدًا بِمُقَاتَلَتِهِمْ كَتَوْلِيَةِ الْأَدْبَارِ، فتكونُ جملةُ ﴿لَا يُنصَرُونَ﴾ معطوفةً على جملةِ الشَّرطِ والجَزاءِ، فعدلَ به عنْ حُكمِ الجزاءِ إلى حُكمِ الإخبارِ، كَأَنَّهُ قالَ: أُخْبِرُكُمْ أَنَّهُمْ: إنْ يقاتلوكُمْ؛ يولُّوكُمُ الأَدبارَ،

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 1/490، وأبو حيان، البحر المحيط: 3/304، والبقاعي، نظم الدرر: 5/28.
(2) المهدوي، التحصيل: 2/106.
(3) أبو حيان، البحر المحيط: 3/304.
(4) الزمخشري، الكشاف: 1/401.

ثُمَّ أُخبرُكم أنَّهمْ لَا يُنْصَرُونَ عَلَيْكُمْ قَطُّ؛ مَا دَامُوا عَلَى فِسْقِهِمْ، وَدُمْتُمْ عَلَى خَيْرِيَّتِكُمْ: تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ، وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ، فأفادتْ ﴿ثُمَّ﴾ التَّرتيبَ على سبيلِ التَّرقِّي في أَمرين:

أحدِهما: التَّرقِّي في وعدِ المؤمنين؛ إذْ وعدَهم بِتوليةِ عدوِّهِمُ الأَدبارَ، ثُمَّ ترقَّى في وعدِهمْ بدخولِ ﴿ثُمَّ﴾ الَّتي لِتراخي الرُّتبةِ، كأنَّهُ قال: ههنا أَمرٌ أَعلى في الامتنانِ، وهو أنَّهم لا ينصرونَ البتَّةَ، مهما واتَتْهمُ الإمكاناتُ، ومهما أُغدِقَتْ عليهمُ المُساعداتُ[1].

الثَّاني: الإشارةُ إلى عظيم رتبةِ خُذلانِ اليهودِ؛ لأَنَّ الإخبارَ بتسليطِ الخُذلانِ عليهم أعظمُ من الإخبارِ بتوليتِهمُ الْأَدبارَ[2].

بلاغةُ الاحتراسِ في قولِه: ﴿ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾:

ولمَّا كانَ الَّذي يتولَّى دُبُرَهُ قدْ تعودُ لهُ كَرَّةٌ بعدَ فَرَّةٍ؛ جاءَ قولُه تعالى: ﴿ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾ لِلاحْتراسِ، أيْ: يولُّوكُمُ الْأَدبارَ تولية مُنهزمينَ، لا تولية متحرِّفينَ لِقتالٍ أَو متحيِّزينَ إلى فِئَةٍ، أو متأمِّلينَ في أَمرٍ[3]، ولكي لايُتَوَهَّم أنَّ توليتَهمُ الأَدبارَ قد يكونُ لِمرَّةٍ واحدةٍ على اعتبارِ أنَّ الشَّرطَ والجَزاءَ يصدُقُ ولو بِمرَّة؛ لأنَّه لم يدلَّ على الدَّوام والاستمرارِ، أَعقبَهُ بقولِه: ﴿ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾؛ لإفادة أنَّ هذهِ البِشارةَ دائمةٌ، وأنْ لا ناصرَ لهم منْ غيرِهم أبدًا، وإن طالَ المدى؛ مادامَ المؤمنون متَّصفين بالخيريَّةِ.

البِشارة بأنَّهم لايُنْصَرونَ دائمًا، مادامَ المؤمنون متَّصِفين بالخيريَّةِ

نكتَةُ التَّعبيرِ بصيغةِ المبنيِّ للمعلومِ في قولِهِ: ﴿لَا يُنصَرُونَ﴾:

أَفادَ حذفُ الفاعلِ العمومَ، والمعنَى: ثُمَّ لا يكونُ لهمْ نصرٌ مِنْ أَحدٍ، ولمَّا جاءَ الفعلُ مضارعًا؛ دلَّ على استمرارِ تجدُّدِ نفيِ النَّصرِ عنهم حالًا فحالًا، وهوَ يقتضي التَّأبيدَ، سواءٌ قاتَلوكُم أَم قاتلوا غيرَكم.

(1) الرّازي، مفاتيح الغيب: 8/328، والبقاعي، نظم الدرر: 5/28، ودرويش، إعراب القرآن: 2/25.
(2) الرّازي، مفاتيح الغيب: 8/328، وابن المنيّر، الانتصاف: 1/401، ودرويش، إعراب القرآن: 2/25.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/54.

﴿ضُرِبَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيۡنَ مَا ثُقِفُوٓاْ إِلَّا بِحَبۡلٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبۡلٖ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَسۡكَنَةُۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَانُواْ يَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقۡتُلُونَ ٱلۡأَنۢبِيَآءَ بِغَيۡرِ حَقّٖۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ١١٢﴾ [آل عمران: 112]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا بَيَّنَ اللّه تعالى أَنَّهُمْ: إنْ قَاتَلُوا؛ رَجَعُوا مَخْذُولِينَ غَيْرَ مَنْصُورِينَ؛ ذَكَرَ أَنَّهُمْ - مَعَ ذَلِكَ - قَدْ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ[1].

وأيضًا لَمَّا أَخبرَ عنهم سُبحانَه وتَعالى بِذُلِّ توليةِ الأَدبارِ عندَ القتالِ ونفيِ نصرِهمْ؛ أَتبعَهُ الإخبارَ: بأنَّ ذلَّهم عامٌّ في جميعِ الأَحوالِ والأَمكنةِ والأَزمنةِ إلَّا بعهدٍ منَ اللّهِ وعهدٍ منَ النَّاسِ، وأنَّ المسكنَةَ غيرُ مفارقةٍ لَهم إلى آخرِ الدَّهرِ معاملةً منهُ لَهم بضدِّ ما أَرادوا، فَعوَّضهمْ عنِ الحِرصِ على الرِّئاسةِ إلزامَهُمُ الذِّلَّةَ، وعنِ الإخلادِ إلى المالِ إسكانَهُمُ المسكَنةَ[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلذِّلَّةُ﴾: الذِّلُّ ضدُّ الصُّعوبةِ، فيَدُلُّ عَلَى الْخُضُوعِ، وَالِاسْتِكَانَةِ، وَاللِّينِ والرِّفق، وَمنه ذَلَّت الدَّابَّةُ ذِلًّا: سَهُلَتْ، وَانْقَادَتْ، فَهِيَ ذَلُولٌ، ويقابلهُ العزُّ، فما كانَ منْ جهةِ الإنسانِ نفسِه لِنفسِهِ؛ فهوَ محمودٌ، وما كانَ منْ جهةِ غيرِهِ؛ فهو بمعنَى: الضَّعفِ والصَّغارِ والهوانِ[3].

والمعنى المحوريُّ: نقص ارتفاع الشَّيء، فيقرب، ويتيسَّر التَّعامل معه: كالطَّريق الموطوء، أَذْهَبَتْ كثرةُ وطِئه - أي: السَّير فيه - وُعُورَتَه (نتوءات من صخر أو أحجار أو مَدَر جافٍّ أو رمل وعثٍ)[4]، ومعنَى (الذِّلّةِ) في الآيةِ: كلُّ ما تَتَحقَّقُ بهِ الذِّلَّةُ من الصَّغارِ والهَوانِ والانقيادِ كُرهًا والقتلِ والأَسرِ[5].

(1) الرّازي، مفاتيح الغيب: 8/328.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 5/28.
(3) ابن دريد، جمهرة اللغة، والراغب، المفردات: (ذلل).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصَّل: (ذلل).
(5) ابن جرير، جامع البيان: 2/136، والرّازي، مفاتيح الغيب: 8/329.

2) ﴿ثُقِفُوٓاْ﴾: أصلُه: ثَقِفَ، ويدلُّ على تمكُّنٍ يُبْلَغُ به أتقنُ أحوالِ الشَّيءِ وأحكمُها، ومَنْ تمكَّنَ مِنْ شيءٍ أشدَّ التمَكُّنِ ضابِطًا لِمَا يَحْوِيه قَائِمًا بِهِ؛ فقد ثَقِفَهُ، وَمِنْهُ رَجُلٌ ثَقِيفٌ: سَرِيعُ الْأَخْذِ لِأَقْرَانِهِ، فيُطلقُ الثّقَفُ على الظَّفَرِ بالشَّيءِ والتَّمكُّنِ منه مغلوبًا بعدَ الطَّلبِ والتَّتبُّعِ[1]، و﴿ثُقِفُوٓاْ﴾ في الآية بمعنَى: ظَفِرْتُم بهمْ مَغلوبينَ متَمَكِّنًا منهمْ[2].

3) ﴿بِحَبۡلٖ﴾: الحبلُ يدلُّ على امتدادِ الشَّيءِ، وأَصلُهُ في اللُّغةِ: هو السَّببُ الَّذي يُتوصَّلُ به إلى البُغيةِ، وقدِ اسْتُعيرَ للوصلِ، ولِكلِّ ما يُتوصَّلُ به إلى الشَّيءِ، وحبلُ اللّٰهِ هو الَّذي معهُ التَّوصُّلُ بهِ إليهِ سُبحانَهُ، مِنَ القرآنِ والعقلِ وغيرِ ذلكَ، كما يقالُ لِلْعَهدِ: حبلٌ[3].

4) ﴿وَبَآءُو﴾: أصلُه: بَوَأَ، ويدلُّ على معنى الرُّجوعِ إِلَى الشَّيْءِ، ومنه باءَ إلى الشَّيءِ: رجَعَ إليهِ، والباءَةُ والمباءَةُ: منزلُ الْقَوْمِ حيثُ يَتَبوَّؤونَ مِنْ قِبَلِ وادٍ أَو سَنَدِ جَبَلٍ؛ ليكونَ مرجعًا مُكافئًا لهم، وبَوَّأْتُهُ منزلًا، بمعنى: أنزلتهُ، ثُمَّ استعملتِ الكلمةُ لمعنى الإقامةِ على الشَّيءِ؛ لِيكونَ مكافئًا لِصاحبِهِ.

﴿وَبَآءُو بِغَضَبٖ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ يحتملُ أنْ يكونَ بمعنى: رجَعَ بغضبِ اللّٰهِ، وأنْ يكونَ بمعنى: حلَّ مكانًا يقيمُ فيه مكافئًا له، بسببِ عملِه مُلتبِسًا بغضبِ اللّٰهِ، أي: عقوبتِهِ[4]، و﴿وَبَآءُو﴾ يُستعمَلُ في الشَّرِّ غالبًا[5].

5) ﴿ٱلۡمَسۡكَنَةُۚ﴾: يدلُّ معنى السُّكونِ عَلَى ضدِّ الحركةِ والاضْطِرَابِ، ومنهُ السَّكِينَةُ، وَهُوَ الْوَقَارُ، وسَكَنَ الشَّيءُ؛ إِذَا ذَهَبَتْ حَرَكَتُهُ، واسْتَكانَ؛ إذا خَضَعَ؛ لِقِلَّةِ الحيلةِ والعجزِ، والمسكنةُ تدلُّ على معانٍ بحسبِ السِّياقِ هي: القرارُ في موضعٍ والخضوعُ وفقرُ النَّفسِ والحرصُ وَالْحَالُ السَّيِّئَةُ[6].

6) ﴿يَعۡتَدُونَ﴾: يَدُلُّ معنى الاعتداءِ عَلَى تَجَاوُزٍ فِي الشَّيْءِ وَتَقَدُّمٍ لِمَا يَنْبَغِي أَنْ يُقْتَصَرَ عَلَيْهِ، والعُدُوُّ: هو التَّجاوز ومنافاة الالتئام، يُقَال: تعدِّيت الحقَّ واعتديت، وعَدَوته أي:

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (ثقف).
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/92.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: 1/217.
(4) الأزهري: تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (بوأ).
(5) الرّازي، مفاتيح الغيب: 3/354.
(6) الراغب، تفسير الراغب: 2/799، وابن منظور، لسان العرب، جبل، المعجم الاشتقاقي: (سكن).

جاوزته، والعاديُّ: الظَّالم، والاعتداء والتَّعدِّي والعُدْوان، بمعنى: التَّجاوز على حقِّ الآخر إلى الظُّلم[1].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

جعلَ اللّه الهوانَ والصَّغارَ وصفًا لا يفارقُ اليهودَ، فهمْ أَذلَّاءُ محتقَرونَ حيثُما وُجدوا، وفي جميعِ أَحوالِهم، إلَّا بعهدِ الإسلامِ أَو ما قرَّرتْه الشَّريعةُ؛ إذا دخلوا في حكمِها مِنَ المساواةِ في الحقوقِ والقضاءِ، وتحريمِ الإيذاءِ، وعهدٍ منَ النَّاسِ، وهو ما تقتضيه المشاركةُ في المعيشةِ مِن احْتياجِهم إليكم، واحتياجِكم إليهم فى بعضِ الأمورِ، وصاروا مستحِقِّينَ غضبَ اللّهِ مستوجبينَ سُخطَهُ، وأَحاطتْ بِهِمُ المَسكنَةُ والصَّغارُ، واستحقاقُهُمْ للغضبِ الإلهيِّ بسببِ كُفرِهمْ باللّهِ، وقتلِهِمُ النَّبيِّينَ ظُلمًا وعُدوانًا، وما جَرَّأَهم على ذلكَ إلَّا سبقُ المعاصي، واعتداؤُهم على حدودِ اللّهِ[2].

❁ الإِيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ الاستعارةِ في قولِهِ: ﴿ضُرِبَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلذِّلَّةُ﴾:

تمكُّنُ الذِّلَّة في اليهودِ وإحاطتِها بهم أَينَما ثُقِفُوا

جاء الكلامُ على طريقةِ الاستعارةِ التَّبعيَّةِ المكنيَّةِ؛ إذْ شبَّهَ تثبيتَ الذِّلَّةِ عليهمْ بضربِ القُبَّةِ الثَّابتةِ على المضروبِ عليهِ، بمعنَى: أحاطتْ بهِمُ الذِّلَّةُ بإحكامٍ، واشتملتْ عليهمْ، فلا مخرَجَ منها، وهيَ مقتصِرَةٌ عليهم لا تَتَجاوزُهُمْ، وَوَجْهُ الشَّبهِ الإحاطةُ والشُّمولُ، فالمستعارُ منهُ: ضربُ الخَيمةِ وما شاكلَها، وهوَ أَمرٌ حسِّيٌّ، والفعلُ المستعارُ هو: ﴿ضُرِبَتۡ﴾، والمُستعار لهُ: التَّثبيتُ، وهوَ أَمرٌ عقليٌّ، فالاستعارةُ تصريحيَّةٌ تبعيَّةٌ، معنى الكنايةِ: عنْ كونِ الذِّلَّةِ ملصقَةً بهِمْ ثابتةً غيرَ مفارقَةٍ لَهمْ محيطةً بهمْ كإحاطةِ القُبَّةِ بِمَنْ ضُرِبَتْ عليه[3]، وذكرَ حرفَ الاستعلاءِ (على)؛ لإفادةِ تمكُّنِ الذِّلَّةِ عليهمْ، واستيعابِها لَهم، وفي التَّعبيرِ بِضربِ الذِّلَّةِ عليهم إشعارٌ بِعِزِّ الإيمانِ وأَهلِهِ.

(1) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة: (عدَوَ).
(2) المراغي، تفسير المراغي: 4/32.
(3) البيضاوي، أنوار التنزيل: 2/33، والخفاجي، عناية القاضي: 2/169، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/55.

إيثارُ التَّعبيرِ بصيغةِ الماضي في قوله: ﴿ضُرِبَتۡ﴾:

القطعُ بوقوعِ الذِّلَّةِ على اليهودِ ودوامِها

لمَّا كان الشَّرطُ على معنى المستقبلِ؛ أفادَ أنَّ الضَّربَ - الواقعَ جوابًا للشَّرطِ - على معنى المستقبلِ؛ لإفادة الدَّوامِ؛ كلَّما تحقَّقَ الشَّرطُ، وجيءَ بالفعلِ بصيغةِ الماضي لإفادةِ القطعِ بوقوعِ ضربِ الذِّلَّةِ عليهم، والمعنَى: ضُرِبَتۡ عَلَيۡهِمُ الذِّلَّةُ، وَحَيۡثُمَا ظُفِرَ بِهِمۡ في المستقبلِ؛ تُضۡرَب عَلَيۡهِم[1].

بلاغةُ الشَّرطِ في قوله: ﴿أَيۡنَ مَا ثُقِفُوٓاْ﴾:

تأكيدُ ضربِ الذِّلَّةِ وتقريرُهُ

تحتملُ جملةُ الشَّرطِ أَنۡ تكونَ محذوفةَ الجوابِ، كما هو مذهبُ نحَّاةِ البصرةِ، وتحتملُ أنۡ تكونَ جملةُ ﴿ضُرِبَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلذِّلَّةُ﴾ هي الجوابَ، كما هو مذهبُ نحَّاةِ الكوفةِ.

وعلى القولِ الأَوَّلِ؛ فقد سُلِكَ في الشَّرط حذفُ جوابِهِ؛ لِدلالةِ ما قبلَهُ عليهِ في قوله تعالى: ﴿ضُرِبَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلذِّلَّةُ﴾، والمَعنى التَّقديريُّ: (ضُرِبَتۡ عليهمُ الذِّلَّةُ، أَينما ثُقِفُوا؛ ضُرِبَتۡ عليهمُ الذِّلَّةُ) فالكلامُ على تقديرِ تَكرارِ ضربِ الذِّلَّةِ عليهم؛ إذۡ ذُكِرَ أوَّلًا، وقرَّرَهُ، بصيغةِ الماضي، ثُمَّ جاءَ بالشَّرطِ؛ لِيفيدَ ضَربَ الذِّلَّةِ في المستقبل كذلك؛ لِأَنَّ الشَّرطَ على معنَى المستقبلِ كَمَا تقدَّمَ، ولمَّا كانَ الشَّرطُ يقتضي جوابًا؛ قُدِّرَ ما ذُكرَ أوَّلًا، فأفادَ تكرارَ ضربِ الذِّلّةِ عليهم، في الماضي والمستقبلِ؛ لِيفيدَ التَّكرارُ تقريرَ الأمرِ وتأكيدَهُ وعمومَهُ.

وعلى القولِ الثَّاني: يكونُ قوله: ﴿ضُرِبَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلذِّلَّةُ﴾ هو الشَّرطَ، فلا تكرارَ في الفعلِ، ولكنَّ تقديمَ فعلِ الشَّرطِ على جوابِهِ لا يخلو مِنۡ تأكيدِ ضَربِ الذِّلَّةِ وتقريرِهِ كذلكَ، فيكون المآلُ واحدًا على التَّقديرينِ، وإنۡ كانَ الأبلغُ التَّقديرَ الأوَّلَ.

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 3/305.

دلالة أداة الشرط (أَيْنَمَا):

ضربُ الذِّلَّةِ على اليهودِ في عمومِ الأماكن وعمومِ الأحوالِ

تفيد (أَيْنَما) عمومَ الشَّرطِ في الأمكنة، والمعنى: ضُربَتْ عليهمُ الذِّلَّةُ في أيِّ مكانٍ تثقفونَهم، ولمّا كانَ عمومُ الأمكنةِ يستلزمُ عمومَ الأحوالِ؛ أفادَ ضربَ الذِّلَّةِ عليهم في جميعِ الأماكنِ الَّتي تثقفونَهم فيها، وفي عامَّةِ الأَحوالِ[1].

مناسبةُ التَّعبيرِ بكلمةِ ﴿ثُقِفُوٓاْ﴾:

ضربُ الذِّلَّةِ عامٌّ لكلِّ مَنْ يظفرُ باليهودِ

لَمَّا كانَ اليهودُ معروفين بخداعِهم وتفلُّتِهم؛ كانتْ كلمةُ ﴿ثُقِفُوٓاْ﴾ هي المناسبةَ للمقامِ؛ لِمَا في الكلمةِ مِنْ معنى الوجودِ عَلَى وجهِ الْأَخذِ والغلَبَةِ والظَّفَرِ بهم والتَّمكُّنِ منهم مقهورين بعد الطَّلبِ والتَّتبُّعِ، و﴿ثُقِفُوٓاْ﴾ في الْأَصْلِ بمعنى: أُخِذُوا في الْحَرْبِ، وجاءت هنا على معنى: عموم الأمكنةِ، وجاءَ الفعلُ على صيغةِ المبنيِّ للمفعولِ؛ لِلإشعارِ بأنَّ ضربَ الذِّلَّةِ ليس مختَصًّا بأَنْ يجدَهمُ المؤمنونَ، بل هو عامٌّ لكلِّ مَنْ يثقفهم، كما أنَّ في الكلمة إشعارًا بمدحِ مَنْ يثْقَفُهُم بأنَّهُ حاذِقٌ فَطِنٌ، لتمرُّسِهم في الخداعِ.

دلالةُ الاستثناءِ بينَ الاتِّصالِ والانقطاعِ:

التَّمسُّكُ بعهدِ اللهِ وعهدِ النَّاسِ عزٌّ في الحياةِ

في قوله: ﴿إِلَّا بِحَبۡلٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبۡلٖ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾، يحتملُ الاستثناءُ أنْ يكونَ متَّصِلًا، فيكون التَّمسُّك بعهدِ اللّه وعهد النَّاس مخرجًا لهم من الذِّلَّة إلى العزِّ في الحقوقِ والمعاشِ، وإليه ذهب الزَّمخشريُّ.

ويحتملُ أنْ يكونَ منقطِعًا، فتكونَ الذِّلَّةُ ملصقَةً بهم مطلقًا، لا يخرجونَ منها، وإن تمسَّكوا بعهدِ اللّهِ وعهدِ النَّاسِ؛ لِلُصوقِ ذلِّ الكُفرِ بهمْ[2].

(1) الزمخشري، الكشاف: 1/401، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 2/33.

(2) ابن جرير، جامع البيان: 7/71، والرّازي، مفاتيح الغيب: 8/160، والزمخشري، الكشاف: 1/401، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 2/72، ورضا، تفسير المنار: 4/55.

دلالةُ العطفِ على المُغايَرَة:

مغايرةُ حبلِ اللهِ لِحبلِ النَّاسِ

لَمَّا عطفَ ﴿وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ على ﴿بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾؛ أفادَ مغايرةَ العهدين: فأفادَ ﴿بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ العهدَ الَّذي قَرَّرَتْهُ شَرِيعَةُ الإسلامِ لَهُمْ؛ إِذَا دَخَلُوا في حُكْمِ المؤمنينَ مِنَ الْمُسَاوَاةِ في الْحُقُوقِ وَالْقَضَاءِ وَتَحْرِيمِ إِيذَائِهِمْ وَهَضْمِ شَيْءٍ مِنْ حُقُوقِهِمْ، وَأفادَ ﴿وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ العهدَ الَّذي تَقْتَضِيهِ الْمُشَارَكَةُ في الْمَعِيشَةِ من الحاجةِ في أمورِ الحياةِ والمعاملةِ[1].

دلالةُ حرفِ العطفِ (الواو):

وجوبُ اجتماعِ العهدينِ لِلخروجِ مِنَ الذِّلَّةِ

الظَّاهرُ أَنَّ الواوَ لِلتَّشريكِ في الحكمِ، كما هو الأصلُ فيها، فتفيدُ وجوبَ اجتماعِ العهدينِ؛ لِيتحقَّقَ لهم الخروج مِنَ الذِّلَّةِ إلى العزِّ، وتحتملُ أنْ تكونَ بمعنى: (أَو) على معنَى: أَنَّ الذِّلَّةَ مضروبةٌ عليهم في جميعِ الأَحوالِ، إِلَّا في إِحدى حالتينِ:

الأُولى: التزامُهم بعهدٍ مِنَ اللّهِ.

والثانية: التزامُهم بعهدٍ مِنَ النَّاسِ[2].

دلالةُ (ال) في قولِهِ: ﴿ٱلنَّاسِ﴾:

المؤمنونَ هُمُ النَّاسُ لِكمالِهِمْ في إِنسانيَّتِهم

تدلُّ (الـ) على الاستغراقِ، بمعنَى: عمومِ النَّاسِ؛ لِيشمَلَ العهدَ مِنَ المسلمينَ وغيرِهِمْ، بشرطِ موافقتِهِ لِذلكَ الحبلِ الَّذي مِنَ اللّهِ سبحانَهُ وتعالى، وقد يكونُ منه لجوؤُهم إلى قوَّةٍ غالبةٍ في الأرضِ مِنْ غيرِ المسلمينَ يستظلُّونَ بحمايتِهِمْ، ويستمدُّونَ منهمُ العَونَ والقوَّةَ، كما هو شأنُهم في هذا الزَّمانِ.

وذهبَ بعضُ المفسِّرينَ إلى أنَّ ﴿ٱلنَّاسِ﴾ هنا عامٌّ مخصوصٌ؛ إِذْ قُصِدَ بِهِ خصوصُ المسلمينَ؛ لِلإشارةِ إلى أنَّ المؤمنينَ هُمُ النَّاسُ لِكمالِهِمْ في إِنسانيَّتِهم بما يتَّصفونَ به من أوصافِ الإيمانِ[3].

---

(1) رضا، تفسير المنار: 4/56.

(2) الراغب، تفسير الراغب: 2/800، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 2/33، ولجنة من علماء الأزهر، التفسير الوسيط: 2/638.

(3) البقاعي، نظم الدرر: 5/29، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/240، والقونوي، حاشية على البيضاوي: 7/276.

دلالةُ التَّنكيرِ في قولِهِ: ﴿وَحَبۡلٖ﴾:

أَفادَ تنكيرُ ﴿وَحَبۡلٖ﴾ تعظيمَهُ وتفخيمَهُ، فأَيُّ عهدٍ يصدرُ منَ اللّٰهِ مأخوذٌ مِنْ كتابِه وشريعتِهِ، أو عهدٍ يصدرُ منَ النَّاسِ في معاملاتِهم وحقوقِهم، لَهُ مقامُ التَّعظيم، ويقتضي الالتزامَ بِهِ، ولمْ يقلْ: (حبلِ اللّٰهِ) بالإضافةِ، فيكون مُختَصًّا بِهِ؛ لأَنَّهُ ذكرَ حبلين.

نُكتَةُ التَّقييدِ بقولِهِ: ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾:

لَمَّا جاءَ الحبلُ متعلِّقًا بقوله: ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ زادَهُ تعظيمًا وتفخيمًا، لِما تفيدُهُ ﴿مِّنَ﴾ الابتدائيَّة من معنى: صدورِهِ مِنَ اللّٰهِ؛ لِلإشعارِ بتدلِّيهِ مِنْ عُلُوٍّ، فهو سببٌ لِلمنعِ مِنَ السُّقوطِ والخذلانِ.

الحبلُ سببٌ للمنعِ من السُّقوطِ والخُذلانِ

ولَمَّا كانوا بحاجةٍ إلى الاطمئنانِ على تجارتِهم وَشؤونِ حياتِهم؛ علَّقَ الحبلَ الثَّاني بـ ﴿مِّنَ﴾ كذلكَ؛ لِلإشارةِ إلى ابتداءِ صدورِهِ منَ النَّاسِ الَّذين يأخذون العهد منهم وعلوِّهم عليهم، وقُدِّم حبلُ اللّٰه على حبلِ النَّاسِ؛ لِلاهتمامِ بِهِ والعنايةِ بشأنِهِ، فهو أَولى بالالتزامِ.

بلاغةُ الاستعارةِ في قولِه: ﴿بِحَبۡلٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبۡلٖ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾:

الحبلُ: مستعارٌ لِلعهدِ[1]، وذكرَ الحبْلَ دونَ غيرِه؛ لِأَنَّه لَمَّا كانَ الحبلُ لِمَا يمتدُّ، وكانَ مشدودًا غيرَ قابلٍ للقطع غالبًا، وهو سببٌ للوصلِ؛ شبَّهَ العهدَ بالحبلِ بجامعِ الارتباطِ والقوَّةِ والامتدادِ، فالنَّاس يَرْتَبِطُونَ بِالْعُهُودِ، كَمَا يَقَعُ الِارْتِبَاطُ الْحِسِّيُّ بِالْحِبَالِ.

دلالةُ الحبلِ على الارتباطِ باللهِ وبالنَّاسِ وَالمنعِ مِنَ السُّقوطِ

وأفادتِ الاستعارةُ كذلكَ الإيجازَ في الكلامِ، وإقامةَ الدَّليلِ على وجوبِ التَّمسُّكِ بالعَهدِ بسببِ الإشعارِ بِأَنَّه يفيدُ الارتباطَ باللّٰهِ وبالنَّاسِ وَيمنعُ مِنَ السُّقوطِ.

دلالةُ الجملةِ الحاليَّةِ ﴿وَبَآءُو﴾:

لَمَّا كانَ الذُّلُّ؛ رُبّما كانَ معَ الرِّضَا، ولو مِنْ وجهٍ قال:

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/56.

﴿وَبَآءُو﴾؛ لِيفيدَ اقترانَ ذلِّهمْ بهمْ بِما استحقُّوهُ مِنْ غضبٍ منَ اللّهِ الملكِ الأَعظمِ.

اجتماعُ الذُّلِّ وغضبِ اللهِ على اليهودِ

بلاغةُ الاستعارةِ التَّهكُّميَّةِ في قوله: ﴿وَبَآءُو﴾:

جاء الكلام على طريقةِ الاستعارةِ التَّهَكُّميَّةِ[1]، وبيانُه أنَّه لمّا أفادتْ كلمةُ ﴿وَبَآءُو﴾ معنى: الرُّجوعِ بالخَيبةِ والشَّرِّ والنُّزولِ في المنزلِ المُكافئ؛ دلَّتِ الاستعارةُ على خَيبتِهمْ وخسرانِهم في رجوعِهم إلى المنزلِ المُكافئ لهمْ، ولكنَّهُ منزلٌ ملتبِسٌ بغضبٍ عظيمٍ منَ اللّهِ، فاستحقُّوه بعدَ أنْ ظنُّوا الفوزَ والفلاحَ في ما هم فيه؛ لتكونَ الخيبةُ أشدَّ على ما تفيدُه الاستعارةُ التَّهكُّميَّة.

دلالةُ تنكيرِ ﴿بِغَضَبٍ﴾:

التَّنكيرُ لِتهويلِ غضبِ اللهِ وتفخيمِه

أفادَ التَّنكيرُ تعظيمَ الغضبِ وتفخيمَهُ، ثُمَّ لمَّا قالَ: ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾؛ دلَّ على ابتداءِ صدورِهِ مِنَ اللّهِ؛ للإشعارِ بزيادةِ تهويلِه بأنَّهُ مِنَ اللّهِ، وليسَ مِنْ غيرِه، وأنَّ هذا الغضبَ أعظمُ الغضبِ وأشدُّهُ؛ لاقترانِه بذكرِ الاسمِ الجليلِ ﴿ٱللَّهِ﴾.

بلاغةُ الاستعارةِ في قوله: ﴿وَضُرِبَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَسۡكَنَةُۚ﴾:

الاستعارة كنايةٌ عنْ كونِ الحاجةِ ملصَقَةً بهم لا تفارقُهم

جاء الكلامُ على الاستعارةِ التَّصريحيَّةِ التَّبعيَّةِ على وفقِ ما تقدَّمَ في بيانِ قولِه: ﴿ضُرِبَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلذِّلَّةُ﴾، فالاستعارة كنايةٌ عنْ كونِ الحاجةِ ملصَقَةً بهم لا تفارقُهم متمكِّنةً منهم، محيطةً بهم على الاستيعاب، كإحاطةِ القبَّةِ بِمَنْ ضُرِبَتْ عليه، وفي التَّعبيرِ بضربِ المسكنةِ عليهم إشعارٌ بغِنَى أهلِ الإيمان وعزِّهم.

مناسبةُ الوصلِ في قوله: ﴿وَضُرِبَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَسۡكَنَةُۚ﴾:

اجتماعُ الذُّلِّ، والبوءِ بغضبٍ من اللهِ، والمسكنةِ إعراقٌ في الذُّلِّ

ولمَّا كانَ ضربُ الذِّلَّةِ والبوءُ بغضبٍ منَ اللّهِ قد يصحبُهُما اليَسارُ والتَّنَعُّمُ والاكتفاءُ؛ ضربَت عليهمُ المسْكَنَةُ، فهي ملصَقَة بهم لا تفارقُهُمْ؛ لِيكونوا بهذهِ الأوصافِ أعرقَ شيءٍ في الذُّلِّ[2].

(1) الراغب، المفردات، ص: 159.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 5/29.

نُكتةُ الإطلاقِ في ضربِ المسكنَةِ:

الحاجةُ إلى الآخرِ وضَعفُ الحالِ وفقرُ النَّفسِ لاتفارقُ اليهودَ البتَّةَ

فلمْ يستثنِ هنا، كما استثنَى في ضربِ الذِّلَّةِ عليهم؛ للإشارةِ إلى أنَّ الحاجةَ إلى الآخرِ وضَعفَ الحالِ وفقرَ النَّفسِ لاتفارقُ اليهودَ البتَّةَ، فلا يدفعونَ عنْ أنفسِهم شَرًّا يوقِعُهُ بهِ خصومُهمْ مِنْ غيرِ استعانةٍ بغيرِهم.

بلاغةُ الاستئنافِ البيانيِّ في قولِه: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَانُواْ﴾:

الاستئنافُ البيانيُّ؛ لتشويقِ المتلقِّي، ولِتكثيرِ المعنى بتقليلِ اللَّفظِ

جاءَ الكلامُ على طريقةِ الاستئنافِ البيانيِّ؛ لتشويقِ المتلقِّي، ولِتكثيرِ المعنى بتقليلِ اللَّفظِ؛ لِيتضمَّنَ الكلامُ إيجازًا، فبعدَ أنْ ذكرَ ما حَكَمَ بهِ عليهم من إلزامِهم ما ذُكِرَ، وهوَ أمرٌ عظيمٌ مثيرٌ، اشتملَ الكلامُ على سؤالٍ عن سببِ استحقاقِهم ذلك؟ فأغنى السَّائلَ عن السُّؤالِ، وأجاب بذكر سبب الحكم المقنِع، وهو كفرُهمْ بآياتِ اللهِ وقتلُهمُ الأنبياءَ بغيرِ حقٍّ.

نُكتةُ التَّعبيرِ باسمِ الإشارةِ ﴿ذَٰلِكَ﴾:

مناسبةُ السَّببِ لهولِ المسبَّبِ

أفادَ التَّعبيرُ بـ ﴿ذَٰلِكَ﴾ هولَ ما أُلزِمُوا بهِ، ولِلإيجازِ في ذكرِ اجتماعِ ذواتِهم وأوصافِهمُ المذكورةِ، ولمّا أفادَ اسمُ الإشارةِ هولَ ما حصلوا عليه؛ ناسبَ أنْ يكونَ السَّببُ عظيمًا مهولًا كذلكَ.

نِكاتٌ بلاغيَّةٌ في قولِه: ﴿بِأَنَّهُمۡ كَانُواْ يَكۡفُرُونَ﴾:

الباءُ سببيَّةٌ، وتُشعرُ بمعنَى: المُلابَسةِ، بِمَعنَى: بِسببِ كُفرِهمْ ومُلابَسَتِهمْ لَهذا الكفرِ.

أفادتْ (أنَّ) تأكيدَ كُفرِهم وتقريرَهُ واستمرارَهم عليهِ.

ولمّا كانتِ الباءُ سببيَّةً؛ كانَ المعنى: (بسببِ كفرِهم)، ولمْ يعبِّر بِهِ معَ أنَّهُ أخصَرُ مِنْ ﴿بِأَنَّهُمۡ كَانُواْ يَكۡفُرُونَ﴾ لِمَا في هذا التَّركيبِ مِنَ الدَّلالةِ على أنَّهم جَمعوا بينَ الثَّباتِ على أَصلِ الكُفرِ بآياتِ اللهِ والدَّوامِ عليهِ وما تجدَّدَ منه؛ بسببِ اقترانِ الفعلِ المضارعِ ﴿يَكۡفُرُونَ﴾ بـ (كانَ)[1]، ومثلُهُ الكلامُ على قولِه: ﴿وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ﴾.

(1) الخفاجي، عناية القاضي: 2/169.

دلالةُ الفعلِ المضارعِ ﴿يَكۡفُرُونَ﴾ و﴿وَيَقۡتُلُونَ﴾ و﴿يَعۡتَدُونَ﴾:

استمرارُ اليهودِ في الكفرِ والاعتداءِ

والتَّعبيرُ بصيغةِ المضارعِ في ﴿يَكۡفُرُونَ﴾ و﴿وَيَقۡتُلُونَ﴾ و﴿يَعۡتَدُونَ﴾، للدَّلالةِ على تجدُّدِ هذهِ الأفعالِ منهم باستمرارٍ، ولاستحضارِ قبيحِ صُنعِهم، بتصويرِ الفعلِ في صورةِ الحالِ، ولمّا انقطعتِ النُّبوَّةُ بموتِ رسولِ اللّٰهِ؛ دلَّ على استمرارِهم في الكفرِ والاعتداءِ.

مناسبةُ إسنادِ قتلِ الأنبياءِ لِأهلِ الكتابِ:

الرِّضا بالكفرِ والقتلِ والاعتداءِ في مقامِ الفاعلِ لها

وأسندَ قتلَ الأنبياءِ إليهم معَ أنَّهُ فعلُ أسلافِهم لِرضاهم بِهِ، كما أنَّ التَّحريف كان فعل أحبارهم لرضاهم به، واستمرارهم عليه عزمًا أو فعلًا، ولِلإشارةِ إلى أنَّهم كانوا يريدونَ قتلَ النَّبيِّ محمَّدٍ ﷺ لوصفِهم بقتلِ الأنبياءِ على سبيلِ التَّجدُّدِ في وقت تنزيلِ القرآن.

دلالةُ الحالِ في قوله: ﴿بِغَيۡرِ حَقّٖ﴾:

إفادةُ الحالِ تأكيدَ بطلانِ قتلِ الأنبياءِ، وأنَّه مسبَّبٌ عن عصيانِهم

أفادَ مجيءُ الحالِ ﴿بِغَيۡرِ حَقّٖ﴾ أنَّ قتلَ الأنبياءِ لم يكنْ حقًّا بِحسبِ اعتقادِهم أيضًا، فيكونُ زيادةً في ذمِّهم والتَّشنيعِ عليهم؛ لِلإشارةِ إلى أنَّ قتلَهمُ الأنبياءَ مسبَّبٌ عنْ عصيانِهم واتِّباعِهمُ الهَوى، وليس عن اعتقادِهم أحقِّيَّةَ فعلِهم[1].

وأيضًا لمّا كانَ قتلُ الأنبياءِ لايكونُ إلَّا بغيرِ حقٍّ؛ أفادَ الحال تأكيدَ كونِهِ بغيرِ حقٍّ والمبالغة فيه، وصرَّح بالحالِ؛ لِتشنيعِ فعلِهم وتقبيحِهِ، وجاءَ بكلمةِ ﴿بِغَيۡرِ﴾ المفيدةِ معنى المغايرةِ بينَ أمرينِ، فلمَّا كانَ قتلُهمُ الأنبياءَ بغيرِ حقٍّ أفادَ أنَّهُ بالباطلِ؛ تأكيدًا وتقريرًا لكونِهِ بغيرِ حَقٍّ.

دلالة مجيء ﴿حَقّٖ﴾ نكرة:

إفادةُ التَّنكيرِ معنى العمومِ

لمّا كانَ مجيءُ النَّكرةِ في سياقِ النَّفيِ مُفيدًا العُمومَ؛ دلَّ على نفيِ كلِّ أنواعِ الحقِّ في قتلهم الأنبياء.

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 2/33، والقونوي، حاشية على البيضاوي: 6/277.

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ﴾ بينَ الاستئنافِ البيانيِّ والبَدَلِ:

تنوُّعُ البيانِ سعةٌ في البلاغةِ وتكثيرٌ للمعنى

يحتملُ أنْ يكونَ الكلامُ استئنافًا بيانيًّا؛ لِيكونَ جوابَ سؤالٍ مقدَّر تقديره: لِمَ كفروا، واستمرُّوا على كُفرِهم وقتلِهمُ الأنبياءَ؟ فذكرَ السَّببَ العامَّ لِلحكم عليهم بِما ذُكِرَ؛ تشويقًا لِلمتلقِّي وإيجازًا في الكلامِ بحذفِ السُّؤالِ المقدَّرِ، فيكونُ ذكر ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشعارًا بسببِ الكفرِ وقتلِ الأنبياءِ، فيكونُ مِنْ بابِ ذكرِ علَّةِ العلَّةِ، وهي في المآلِ علَّةٌ لضربِ الذِّلَّةِ وما نُسِقَ عليها.

ويحتملُ أَنْ يكونَ بدلَ اشتمالٍ من قوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَانُواْ﴾؛ لِكمالِ الاتِّصالِ بينهما؛ لِيفيدَ مجموعُ البدلَينِ إيضاحَ سببِ ضربِ الذِّلَّةِ والبَوءِ بغضبِ اللهِ وضربِ المسكنَةِ، فيكونُ السَّببُ واحدًا على جهةِ التَّركيبِ مِنْ سببينِ زيادةً في البيانِ، وتنوُّعُ البيانِ سعةٌ في البلاغةِ وتكثيرٌ للمعنى.

نُكتَةُ مجيءِ ﴿عَصَواْ﴾ بصيغةِ الماضي:

الإصرارُ على الصَّغائرِ يُفضي إلى مباشرةِ الكبائرِ

فقد جاءتِ الأفعالُ ﴿يَكۡفُرُونَ﴾، ﴿وَيَقۡتُلُونَ﴾، ﴿يَعۡتَدُونَ﴾ بصيغةِ المضارعِ، وعبَّرَ عن العصيانِ بصيغةِ الماضي؛ لِإفادةِ سبقِ عصيانِهمْ كلَّ ما فعلوه، وأنَّهم بسببِ عصيانِهم اعتدَوا، وكفروا، وقتلوا الأنبياءَ بغيرِ حَقٍّ؛ لِلإشارةِ إلى عدمِ الاستهانةِ بالمعصيةِ، فإنَّ الإصرارَ على الصَّغائرِ يُفضي إلى مباشرةِ الكبائرِ، والاستمرارَ على الكبائرِ يؤدِّي إلى الكُفرِ.

مناسبةُ حذفِ متعلَّقِ ﴿يَعۡتَدُونَ﴾:

الاعتداءُ وصفٌ لازمٌ لليهودِ

فَلَمْ يقُلْ: يعتدونَ على الأنبياءِ أَوْ على الكُتُبِ أَو على المؤمنينَ، فَحذفَ المتعلَّقَ؛ لِإفادةِ عمومِ الاعتداءِ، وأنَّ الاعتداءَ صارَ وصفًا لازمًا لهم.

المتشابه اللَّفظي:

1 - ذكر اللّه تعالى هنا ﴿ٱلۡأَنۢبِيَآءَ﴾ بصيغة جمع التكسير؛ ليفيد التَّكثير نعيًا عليهم وتفظيعًا لشأنهم، فذكر في الموضعين، أعني: في البقرة وفي أوَّل السُّورة ما ينبىء عن القلَّة مع أنَّ ذلك موافق لما بعده من جموع السَّلامة كالَّذين والصَّابئين وغيرهما، ثُمَّ تدرَّج إلى ما هو نصٌّ في الكثرة في الموضعين الآخرين نعيًا عليهم وتفظيعًا لشأنهم، ولمثل هذا عرَّف الحقَّ في البقرة إشارة إلى الحقِّ الَّذي أذن اللّه أن تقتل النَّفس به، وهو قوله: ﴿وَلَا تَقۡتُلُواْ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۚ﴾ [الأنعام: 151]، ثم نكَّر في المواضع الباقية، أي: بغير سبب ولا شبهة، فالقتل كان بسبب عصيانهم واتِّباعهم الهوى لا بحسب معتقدهم وتديُّنهم[1].

2 - جاء لفظ ﴿حَقٍّۚ﴾ هنا نكرة، وجاء في سورة أخرى (معرفة)؛ لأنَّه لمَّا كانت آية آل عمران الَّتي ذكر فيها ﴿بِغَيۡرِ حَقٍّۚ﴾ في اليهود الَّذين كانوا في عصر تنزيل القرآن، وتكاثرت الأدلَّة على تماديهم في الكفر من بعد ما تبيَّن لهم الحقُّ؛ كان الأنسب أن يعبَّر عنهم أنَّهم ارتكبوه بغير شبهة ولا سبب يمكن التَّعلُّق به، فقوله تعالى: ﴿بِغَيۡرِ حَقٍّۚ﴾، كأنَّه مرادف لما لو قيل: بغير سبب ولا شبهة، وذلك أوغل في ذمِّهم وسوء حالهم؛ لأنَّهم لا يمكنهم في مرتكبهم تعلُّق بشيء البتَّة ولا أدنى شبهة، ولمَّا كانت الأولى في سورة البقرة إنَّما هي في سلفهم فيمن كان في عصر موسى عليه السلام جاء قوله: ﴿بِغَيۡرِ حَقٍّۚ﴾ إشارة إلى الحقِّ الَّذي أذن اللّه أن تقتل النَّفس به، وهو قوله: ﴿وَلَا تَقۡتُلُواْ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۚ﴾ [الأنعام: 151]، أي: بغير وجه الحقِّ المبيح للقتل، فالألف واللَّام للعهد في المسوَّغ المتقرَّر في شريعتهم، فقد افترق مقصد الآيتين، فاختلف التَّعبير في اللَّفظين[2].

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الذُّلّ (بكسر الذَّال وضمِّها) والذِّلَّة:

لم يُفَرِّق المعجميُّون بين الذُّلِّ والذِّلَّة؛ فالذُّلُّ: ضِدُّ الْعِزِّ، وَهَذِهِ مُقَابَلَةٌ فِي التَّضَادِّ صَحِيحَةٌ، تَدُلُّ عَلَى الْحِكْمَةِ الَّتِي خُصَّتْ بِهَا الْعَرَبُ دُونَ سَائِرِ الْأُمَمِ؛ لِأَنَّ الْعِزَّ مِنَ الْعَزَازِ،

(1) النيسابوري، غرائب القرآن: 2/238.
(2) ابن الزبير، ملاك التأويل: 1/42.

وَهِيَ الْأَرْضُ الصُّلْبَةُ الشَّدِيدَةُ، وَالذُّلُّ خِلَافُ الصُّعُوبَةِ، وَحُكِيَ عَنْ بَعْضِهِمْ أَنَّهُ قَالَ: "بَعْضُ الذِّلِّ - بِكَسْرِ الذَّالِ - أَبْقَى لِلْأَهْلِ وَالْمَالِ"، يُقَالُ مِنْ هَذَا: دَابَّةٌ ذَلُولٌ، بَيِّنُ الذُّلِّ[1].

وقد علَّق ابن جني - رحمه الله - تعليقًا لطيفًا على قراءة ﴿وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ﴾ [الإسراء: 24] بكسر الذَّال[2]، حيث قال: "الذِّلُّ في الدَّابة: ضدُّ الصُّعوبة، والذُّلُّ للإنسان، وهو ضدُّ العزِّ، وكأنَّهم اختاروا للفصل بينهما الضَّمَّة للإنسان والكسرة للدَّابَّة؛ لأنَّ ما يَلحق الإنسانَ أكبر قدرًا ممَّا يلحق الدَّابَّة، واختاروا الضَّمَّة لقوَّتها للإنسان، والكسرة لضعفها للدَّابَّة، ولا تستنكر مثلَ هذا، ولا تنبُ عنه؛ فإنَّه من عَرَفَ؛ أَنِسَ، ومن جَهِلَ؛ استوحش"[3].

قُلْتُ: ومن ثَمَّ فإنَّهم زادوا التَّاء في مكسور الذَّال؛ ولم يزيدوها في مضمومها؛ لأنَّ وصفَ الإنسان به للمبالغة في الانقياد المصحوب بالقهر، ثُمَّ لحقته تاء المبالغة للتَّأكيد، فقالوا: (الذِّلَّة)، كما زادوها فيما دلَّ على المبالغة في نحو: (علَّامة، وفهَّامة، ونسَّابة) ونحو: راويَة ونابغة، ودِحْيَة بكسر الأوَّل، وأصلها: (دِحْي)، فِعْل بمعنى: فاعل، وفي الآخر تاء المبالغة، وهو من دَحْي الإبل وغيرها، أي: ساقها، ورجلٌ مجْذامة، أي: قاطعٌ للأمر، فاشتملت صفة (الذِّلَّة) على شكلين من المبالغة: الأوَّل: جعل ما للدَّابَّة من الذُّلِّ بكسر الذَّال للإنسان، والآخر: إلحاق تاء المبالغة في الصِّفة، وخُصَّت (الذِّلَّة) باليهود في القرآن الكريم في موضعيها:

الموضع الأول: قوله تعالى: ﴿وَضُرِبَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلۡمَسۡكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٖ مِّنَ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَانُواْ يَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقۡتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ٦١﴾ [البقرة: 61].

والموضع الآخر: قوله تعالى: ﴿ضُرِبَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيۡنَ مَا ثُقِفُوٓاْ إِلَّا بِحَبۡلٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبۡلٖ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَسۡكَنَةُۚ﴾.

الذِّلَّة والمَسْكَنَة:

لمّا كانتِ الذِّلَّةُ منَ الهوانِ والصَّغارِ بعدَ عِزٍّ كانَ عليهِ؛ كانتِ الذِّلَّةُ هيَ الحالةَ التي

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ذلل).

(2) نسبت إلى أبي بكر عن عاصم في رواية غير مشهورة، وابن عباس وعروة بن الزبير في جماعة غيرهما: (جَنَاحَ الذِّلِّ)، كما في الفراء، معاني القرآن: 2/122، وابن خالويه، المختصر، ص: 76.

(3) ابن جني، المحتسب: 2/18.

تَعْتَرِي الشَّخْصَ مِنْ سَلْبِ غَيْرِهِ لِحَقِّهِ وَهُوَ يَتَمَنَّاهُ، فَمَنْشَؤُهَا وَسَبَبُهَا غَيْرُهُ لَا نَفْسُهُ، ولمّا كانتِ المسْكنةُ مِنْ سُكونِ النَّفسِ وخضوعِها وفقرِها كانتِ الْمَسْكَنَةُ حَالَةً لِلشَّخْصِ مَنْشَؤُهَا اسْتِصْغَارُهُ لِنَفْسِهِ حَتَّى لَا يَدَّعِيَ لَهُ حَقًّا[1].

الذِّلَّة وَالصَّغَار:

الذِّلَّة عن عجز ووقوع تحت قهرٍ، لا فكاك منه، فهو ذهاب الشُّموخ، وهو ضَعف كذلك؛ لأنَّه رخاوة ونسيبٌ وعجزٌ عن التَّماسك.

والصَّاغر: الصَّغير قدره، والراضي بالذُّلِّ والضَّيم، قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ ٢٩﴾ [التَّوبة: 29]، والصَّغار هُوَ الِاعْتِرَاف بالذُّلِّ وَالْإِقْرَار بِهِ، إِظْهَارُ صِغَر الشَّأْن، وَفِي الْقُرْآن: ﴿سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ﴾ [الأنعام: 124]؛ وَذَلِكَ أَنَّ العصاة بِالآخِرَة مُقِرُّون بالذُّلِّ معترفون بِهِ، وَيجوز أَن يكون ذليلٌ لَا يعْتَرف بالذُّلِّ[2].

وأُوثر لفظ ﴿ٱلذِّلَّةُ﴾؛ لأنَّه أعمُّ، ولمناسبة الضَّرْب في قوله: ﴿ضُرِبَتۡ﴾، كأنَّ المعنى: نُصِبَتْ عليهم وحازتهم، وهو من ضرْب الخيمة، كما قال الرَّاغب[3].

(1) ابن دريد، جمهرة اللغة: 1/18، والعسكري، الفروق اللغوية، ص: 249، ورضا، تفسير المنار: 4/57.
(2) العسكري، الفروق اللغويَّة: 249.
(3) الراغب، المفردات: (ضرب).

﴿۞ لَيۡسُواْ سَوَآءٗۗ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ أُمَّةٞ قَآئِمَةٞ يَتۡلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ وَهُمۡ يَسۡجُدُونَ ١١٣ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ١١٤﴾ [آل عمران: 113 - 114]

❁ مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِمَا قَبْلَهُما:

لمّا حكمَ اللّهُ تعالى على أكثرِ أَهلِ الكتابِ بأنَّهمْ فاسقونَ، وذكرَ أَوصافَهمْ وعقوبتَهمْ في الآيةِ السَّابقةِ؛ جاءتْ هذهِ الآيةُ لإنصافِ طائفةِ المؤمنينِ منهم بذكرِ محاسنِهم وأَوصافِهم وثوابِهم، بعدَ أَنْ أجملَ الكلامَ عليهم في قولِهِ: ﴿مِّنۡهُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾[1]، كما أنَّ في الآيةِ استمالةً وحثًّا لِسائرِ أهل الكتاب على أَنْ يكونوا مثلَ هذهِ الطَّائفةِ المؤمنةِ.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿سَوَآءٗۗ﴾: يدلُّ معنى سَوِيَ: على اسْتِقَامَةٍ وَاعْتِدَالٍ بَيْنَ شَيْئَيْنِ، وهو مأخوذٌ من التَّساوي، وسواءُ الطَّريقِ: وسطُهُ المعتدلُ لِتساوي طرفَيهِ، وَالسِّيُّ: المِثْلُ، وسِيَّانِ: مِثْلَانِ؛ ولهذا يقالُ: فلانٌ وفلانٌ سواءٌ، أي: متساويانِ، وسواءٌ مصدرٌ، فيستعملُ للواحدِ والمثنَّى والجمعِ، فيقالُ: هما سواءٌ، وهم سواءٌ، وليسوا سواءً بمعنى: ليسوا متساويين في الصَّلاح والفساد، وفي الخيرِ والشَّرِّ[2].

2) ﴿أُمَّةٞ﴾: المعنى المحوريُّ: تَضَامُّ شيءٍ أو أشياء متجانسة، أي: لحاق بعضها ببعض في حيِّز يحيط بظاهرها بلطف، كما تضمُّ تلك الجلدةُ الرَّقيقة مادّةَ المخِّ (أُمِّ الرأس)، وكما تتضامُّ القامة، ومن لُطفها تكوينُها صورة متكاملة، وأُمَّة الطَّريق: مساحةٌ واسعة متَّصلة متكاملة أيضًا، وكذا تجمُّع النجوم في المَجَرَّة (أُمِّ النُّجوم)، وقد قال علماء اللُّغة: "كلُّ شيء ينضمُّ إليه سائرُ ما يليه؛ فإنَّ العرب تُسمِّي ذلك الشَّيء أُمًّا، والأُمُّ لكلِّ شيء: هو

(1) البقاعي، نظم الدرر: 5/31، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 5/31

(2) الأزهري، تهذيب اللغة، والراغب، المفردات: (سَوِيَ)، وابن جرير، جامع البيان: 7/118.

المَجمَعُ والمَضَمُّ"، ومنه "الأُمُّ: الوالدة؛ "لأنَّ أولادها يرتبطون بها، وهي أصلهم ومَجْمَعُهم (كانوا في بطنها)، ﴿وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ۝٢٨﴾ [مريم: 28]، الأمُّ: الوالدة، وجمعها، ثم هناك ﴿أُمَّ ٱلْقُرَىٰ﴾ [الأنعام: 92]، وهي مكَّة: سُمِّيت بهذا؛ لأنَّها منشأ الدِّين، ولدَحْو الأرض منها، ولأنَّها وسط الأرض، ولكونها قبلة وموضعًا للحجِّ، ومكان أوَّل بيت وضع للنَّاس، والمعنى: ولتنذر أهلَ أمِّ القرى ومن حولها، وهم سائر أهل الأرض، والأُمَّة: القَرْن الجيل من النَّاس (جماعة كبيرة متَّحدو الجنس أو زمن الوجود معًا)، ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾ [البقرة: 128][1]. والمرادُ بالأمَّةِ في هذه الآيةِ جماعةٌ منْ أهلِ الكتابِ[2].

3) ﴿قَآئِمَةٌ﴾: يدلُّ معنى القيامِ: على الاستقامةِ والثَّباتِ عليها، ومنه قولُهم: أَقَمْتُ العودَ، فَقامَ، أي: استقامَ، والقيامُ بالشَّيءِ: مراعاتُهُ وحفظُهُ وإصلاحُهُ؛ ليكونَ مستقيمًا ثابتًا.

والمعنى المحوريُّ: انتصاب الشَّيء إلى أعلى ثابتًا، كقامة الإنسان، وقيامه، وثبات الدَّابَّة، والماء في مكانه، ومن الانتصاب يؤخذ معنى النُّهوض بالشَّيء و(تفعيله - كما يقال الآن) وأمَّةٌ قائمةٌ، بمعنى: مواظبة على أمرِ اللّهِ مستقيمة فيه[3].

4) ﴿يَتْلُونَ﴾: يدلُّ التُّلُوُّ على معنى: اتِّباعِ الشَّيءِ ما يَسْبِقُهُ لُحوقًا به مِن خَلفِه، وتلاوةُ كتابِ اللّهِ: فيها إتباعُ اللَّفظِ للَّفظِ، والتِّلاوةُ: تختَصُّ باتِّباع كُتُبِ اللّهِ المُنَزَّلةِ اتِّباعًا أو قراءَةً أوعَرْضَ المَحْفُوظِ عَنْ ظَهْرِ قَلْبٍ، وتكون بصوتٍ[4].

5) ﴿ءَانَآءَ﴾: جمْعٌ، مُفْرَدُهُ: إِنْيٌ وإِنًى وأَنًى، وأَصْلُهُ: ساعةٌ من الزَّمانِ، وآناء اللَّيلِ: ساعاتُهُ[5]، والإناءُ: ذاك الَّذي يُرْتَفَقُ به (ظَرْفًا لماء أو طبيخ)، وأَنَى النَّباتُ، كبَكى: حانَ وأدْرَك، وأَنَّيتُ الطَّعامَ في النَّار: أَطَلْت مُكْثه فيها".

والمعنى المحوريُّ: تهيُّؤ الشَّيء وصلوح حاله لما يراد به، كالنَّبات المذكور، والظُّروف

(1) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصَّل: (أمم).
(2) الراغب، تفسير الراغب: 2/803.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (قوم)، وابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 108، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصَّل: (قوم).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي، تلَوَ.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (أنَى)، وابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 283.

المذكورة تهيِّئُ الطَّعام للتَّناول ﴿ وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِـَٔانِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ ﴾ [الإنسان: 15] (جمع إناء)، ومن الظَّرف المكانيِّ استُعْمِل في الزمانيِّ، أي: مدَّة البقاء إلى أوان الاستعمال، أي: حين صُلُوحه لذلك[1].

6) ﴿وَيُسَٰرِعُونَ﴾: السُّرْعَةُ: ضِدُّ البُطءِ، وكلُّ ما في القرآنِ ممَّا جاءَ مِنْ مادَّةِ هذهِ الكلمةِ هو مِنَ السُّرعةِ ضدِّ البطءِ، وأَسْرَعَ: طَلَبَ ذَلِكَ مِنْ نَفْسِهِ، وتَكَلَّفه، كأَنَّه أَسرَعَ المشي، أَي: عَجَّله، وصيغةُ يُسارِعُ مِنْ سَارَعَ على وزنِ: فاعَلَ، على معنَى: المبالغةِ في السُّرعةِ[2].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

ليسَ أهلُ الكتابِ متساوينَ في حالِهمْ وأوصافِهم، بلْ منهمْ طائفةٌ مستقيمةٌ على دينِ اللّهِ، قائمةٌ بأمرِ اللّهِ ونهيِهِ، يتلونَ القرآنَ باللَّيلِ، وهمْ يصلُّونَ متهجِّدينَ، ويؤمنونَ باللّهِ وباليومِ الآخرِ، ويقومونَ بإرشادِ غيرِهم إلى ما ينبغي بأَمرِهم بكلِّ معروفٍ، أَو بمنعِهمْ عمَّا لا يَنبغي بنهيِهِمْ عنْ كلِّ منكَرٍ، ويبادرونَ إلى فعلِ الخيراتِ، وأُولئكَ منْ عبادِ اللّهِ الصَّالحينَ.

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

نُكتَةُ النَّفيِ بـ (لَيْسَ):

إفادة (لَيْسَ) النَّفي من غيرِ قيدٍ للزَّمنِ

لَمَّا كانتْ (ليسَ) لِنفيِ مضمونِ الجملةِ مطلقًا منْ غيرِ قيدٍ للزَّمنِ[3]، أَفادَ الكلامُ نفيَ تساوي أَهلِ الكتابِ بينَ فريقِ المؤمنينَ وفريقِ الفاسقينَ مُطلَقًا؛ ليشملَ الماضي والحاضرَ والمستقبلَ.

سرُّ العدول عن (متساوين) إلى ﴿سَوَآءً﴾ في حيِّز النَّفي:

نفي السَّواء غير نفي الاستواء، فالسَّواء مصدر بمعنى: استواء

(1) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصَّل: (أنو - أنى).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب، جبل، المعجم الاشتقاقي: (سرع).
(3) الإستراباذي، شرح الكافية: 4/193.

ظاهر الشَّيء أو سطحِه بسبب امتلاء وسطِه وباطنِه، والاستواء يعبِّر عن استقامة الظَّاهر واستوائه بغضِّ النَّظَر عن أصله أو وسطه، ومن ثمَّ فإنَّ نفي السَّواء نفي للمصدر، أي: نفي لاستوائهم في أصل الصِّفات والأحوال، هذا في نفي السَّواء المُعَرَّف.

نفي عموم أصلِ الاتِّصافِ بالقبائِحِ المذكورةِ، لا نفي المساواةِ في مراتِبِ الاتِّصافِ بها

وأمَّا نفي كونهم سواءً (بالتَّنكير)، فإنَّ النَّكرة في سياق النَّفي تفيد العموم، أي: نفي عموم تساويهم في أصل الصِّفات والأحوال بينَ المؤمنينَ والفاسقينَ منْ أهلِ الكتابِ، وليس المقصود أنَّهم متَّفقون في أصل الاتِّصاف بها، ومختلفون في مراتب هذه الصِّفات، أو درجاتها، وهذا من إنصاف القرآن الكريم للآخر عمومًا، ولأهل الكتاب خاصَّةً.

وهذا سرُّ العدول عن (ليسوا متساوين) إلى ﴿لَيۡسُواْ سَوَآءٗۗ﴾؛ إذ إنَّ نفي التَّساوي لا ينفي تساويهم في أصل الصِّفات، بقدر ما يؤكِّد على نفي تساويهم في مراتبها ودرجاتها.

والمعنى: ليسَ جميعُ أهلِ الكتابِ متشاركينَ في الاتِّصافِ بِمَا ذُكرَ من القبائِحِ والابتلاءِ، بما يترتَّبُ عليها منَ العقوباتِ[1].

دلالة الوقف القرآنيّ:

ليسَ المؤمنونَ والكافرونَ مِنْ أهلِ الكتابِ سَواءً

وردَ الوقفُ القرآنيُّ على قولِه تعالى: ﴿سَوَآءٗۗ﴾؛ لِيفيدَ تمامَ الإسنادِ[2]، ولِتكونَ جملةُ ﴿مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ أُمَّةٞ﴾ ابتداءً استئنافيًّا بيانيًّا كما يأتي.

بلاغة الاستئناف البيانيّ في قوله: ﴿مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ أُمَّةٞ﴾:

لمّا قالَ اللّهُ تعالى: ﴿لَيۡسُواْ سَوَآءٗۗ﴾؛ فكانَ ممَّا يُحرِّكُ السَّامعينَ، ويشوِّقُهم أَنْ يَعرفوا سببَ نفيِ التَّساوي بينَ الفريقينِ، فاشتملَ الكلامُ على سؤالٍ، تقديرُهُ: لِمَ كانوا ليسوا متساوينَ؟ لِيقعَ قولُه

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 2/73.

(2) الأنباري، إيضاح الوقف والابتداء: 2/582، والمهدوي، التّحصيل: 2/112.

تعالى: ﴿مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ﴾ إلى آخر الكلام جوابًا للسُّؤالِ الَّذي هو مقتضَى الحالِ؛ لِيكونَ استئنافًا مبيِّنًا لِكيفيَّةِ عدمِ تساويهمْ ومُزيلًا لِما فيه من الإبهامِ مع الإيجازِ في الكلامِ[1].

تشويقُ المخاطبين لإزالةِ الإبهامِ في الكلامِ

ويحتملُ أَنْ يكونَ ﴿مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ﴾ وما بعدَه توضيحًا لِمَا أُجمِلَ قبلَهُ، وتفسيرًا لهُ مِنْ حيثُ إنَّ نفيَ التَّسويةِ بينَ الفريقينِ، فيه إجمالٌ يقتضي بيانَ صفاتِ كلِّ فريقٍ وإيضاحَ أَحوالِهم[2].

بلاغةُ وضعِ الظَّاهرِ موضِعَ المُضمَرِ:

وضعَ ﴿أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ موضعَ الضَّميرِ العائدِ إليهم، فلَمْ يقُلْ: (مِنهمْ أمَّةٌ قائِمَةٌ)؛ لِفوائد، هي[3]:

الوصفُ بأهلِ الكتابِ يقتضي أنْ يكونوا صالحينَ

1- لِيَكُون هذَا الثَّنَاءُ شَامِلًا لِصَالِحِي الْيَهُودِ، وَصَالِحِي النَّصَارَى، فَلَا يُخْتَصُّ بِصَالِحِي الْيَهُودِ.

2- لِتحقيقِ ما بهِ الاشتراكُ بينَ الفريقينِ، وهو كونُهما مِنْ أَهلِ الكتابِ.

3- لِلإيذانِ بأنَّ تلكَ الأمَّةَ ممَّنْ أوتي نصيبًا وافرًا مِنَ الكتابِ لا مِنْ أَراذِلِهمْ.

4- لِلإشعارِ بأنَّ كونَهم مِنْ أَهلِ الكتابِ يقتضي أَنْ يكونوا مؤمنينَ صالحينَ لا فاسقينَ، ففي الإظهارِ مدحٌ لِلصَّالحينَ وتوبيخٌ لِلفاسقينَ منهمْ.

المجازُ المُرسَلُ في قولِه: ﴿أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾:

حثُّ أهلِ الكتابِ على أنْ يقتدوا بِمَنْ آمنَ منهمْ برسولِ اللهِ ﷺ

وإطلاقُ اسمِ أَهلِ الكتابِ عليهم، وهم قدْ أَسلموا، منْ بابِ المجازِ المرسَلِ، باعتبارِ ما كانَ، أَي: كانوا مِنْ أهلِ الكتابِ[4]، وجاءَ على طريقةِ المجازِ المرسَلِ باعتبارِ ماكانَ؛ لِيكونَ على معنى الحثِّ والتَّحضيضِ؛ ليحتذي أهلُ الكتابِ حذوَهم، وَيتَّصِفوا بصِفاتِهمْ.

(1) الزمخشري، الكشاف: 1/402، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 2/73.
(2) السكاكي، مفتاح العلوم، ص: 262، 267.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 2/72، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/57.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/57.

بلاغةُ الاكتفاءِ بذكرِ أحدِ الضِّدَّين:

ذكـرُ المؤمنين وأوصافِهم يُغني عن ذكرِ الفاسقينَ وأوصافِهم

لمّا قال: ﴿لَيۡسُواْ سَوَآءٗۗ﴾؛ أفادَ أنَّهم ليسوا أمَّةً واحدة، ولمّا أتى بـ ﴿مِّنۡ﴾ الَّتي للتَّبعيض في قوله: ﴿مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ أُمَّةٞ قَآئِمَةٞ﴾، كانَ الظَّاهرُ أنْ يأتيَ بالقَسيمِ الآخرِ؛ لِتمامِ الكلامِ بأن يُقَالَ: وَمِنْهُمْ أُمَّةٌ مَذْمُومَةٌ، أو ما في هذا المعنى، إلَّا أنَّهُ حذفَ ذِكْرَ الْأُمَّةِ الْمَذْمُومَةِ؛ لأَنَّ ذِكْرَ أَحَدِ الضِّدَّيْنِ يُغْنِي عَنْ ذِكْرِ الضِّدِّ الْآخَرِ، فَذِكْرُ أَحَدِهِمَا يَسْتَقِلُّ بِإِفَادَةِ الْعِلْمِ بِهِمَا[1]، فَلَا جَرَمَ يَحْسُنُ إِهْمَالُ الضِّدِّ الْآخَرِ إِلَّا لاعتبارٍ مناسِبٍ، وأهملَ المذمومةَ؛ لأنَّ السِّياق في بيانِ مدحِ الأمَّةِ القائمةِ بأمرِ اللّٰه الحافظةِ له، وأَيضًا للإشعارِ بأنَّهم إذا غابُوا؛ لمْ يُذكَرُوا، وإذا حضَرُوا؛ لم يُعرَفُوا، فلا يُؤبَهُ لهمْ.

بلاغة المجاز في قوله تعالى: ﴿قَآئِمَةٞ﴾:

الأمَّـة المحمودة ثابتةٌ على أمرِ اللـه مداومةٌ عليه

في التَّعبيرِ بـ ﴿قَآئِمَةٞ﴾ مجازٌ عن اعتدالِ الأمَّةِ المذكورةِ على أَمرِ اللّٰهِ وعملِها بدينِها عَلَى الْوَجْهِ الْحَقِّ وثباتِها ودوامِها عليه، بقرينةِ السِّياقِ، فذكَرَ اللَّازمَ: وهو ﴿قَآئِمَةٞ﴾، وَأرادَ الملزومَ: وهو (الثَّباتُ والدَّوامُ)، ومنهُ قامَ على الأمرِ: دامَ وثبتَ، ويُقَالُ: سُوقٌ قَائِمَةٌ وَشَرِيعَةٌ قَائِمَةٌ، أي: ثابتة دائمة[2].

سببُ إيثارِ التَّعبيرِ بـ ﴿يَتۡلُونَ﴾:

عبَّر بـ ﴿يَتۡلُونَ﴾؛ لِمَا في التِّلاوةِ مِن معنَى الإلقاءِ بصوتٍ مع حُسنِ تَنغيمٍ، وقراءةٍ واضحةٍ بيِّنةٍ تتوالى كلماتُها[3]، فجاءَ بصيغةِ المضارعِ؛ لِتصويرِ حالتِهمْ، وهمْ يتلونَ آياتِ اللّٰهِ.

نكتة إسناد الفعل إلى واو الجماعة في قوله: ﴿يَتۡلُونَ﴾:

جاءَ الفعلُ ﴿يَتۡلُونَ﴾ مسندًا إلى واوِ الجماعةِ؛ لِلإشعارِ بأنَّ حكمَ

(1) الرّازي، مفاتيح الغيب: 8/331.
(2) الزمخشري، أساس البلاغة: (قوم)، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/112.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 2/409، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 1/337.

تلاوةِ آياتِ اللهِ آناءَ اللَّيلِ وهمْ يصلُّونَ؛ إنَّما هو على المجموعِ، لا على كلِّ فردٍ منهم؛ إذْ بعضُ النَّاسِ يقومُ أوَّلَ اللَّيلِ، وبعضُهم آخره، وبعضُهم بعدَ هَجعةٍ، ثُمَّ يعودُ إلى نومِهِ، فيأتي مِنْ مجموعِ ذلكَ في المُدُنِ والجماعاتِ عبارةُ ﴿ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ﴾ بالقيام، وهكذا كانَ صدرُ هذهِ الأمَّةِ[1].

نُكتَةُ مجيءِ ﴿وَهُمۡ يَسۡجُدُونَ﴾ حالًا بعدَ نعتِ التِّلاوةِ:

كـثرةُ السُّجودِ أدلُّ على حسنِ صورةِ الإيمانِ

لمّا كانتِ الصَّلاةُ مشتملةً على تلاوةِ آياتِ اللهِ؛ كانَ التَّصريحُ بتلاوتِهم آياتِ اللهِ في الصَّلاةِ أدلَّ على كمالِ الخضوعِ، فجاءَ بجملةِ النَّعتِ ﴿يَتۡلُونَ﴾؛ ليفيدَ الثُّبوتَ، ثُمَّ أعقبَهُ بجملةِ الحالِ؛ ليصوِّرَ حالَهم في السُّجودِ؛ لأنَّهُ أبينُ لِمَا يفعلونَ، وأدلُّ على حُسنِ صورةِ أمرِهمْ[2].

دلالةُ الواوِ في قوله: ﴿وَهُمۡ يَسۡجُدُونَ﴾:

أفادت الواوُ الحاليَّة معنى: يتلونَ آياتِ اللهِ آناءَ اللَّيلِ مُصَلِّينَ، وأفادَ الإسنادُ تقوِّي إثباتِ السُّجودِ لَهم وتأكيدِهِ بمجيءِ المسنَدِ فعلًا متحمِّلًا لِضميرٍ يعودُ على المُسنَدِ إليهِ، فيكونُ بمنزلة تكرارِ الإسنادِ؛ لإفادةِ تحقيقِ سجودِهم؛ اهتمامًا بشأنِه وتعظيمًا له، وجاءَ بصيغةِ الفعلِ المضارعِ؛ لِلدَّلالةِ على استمرارِهِ حَالًا فَحَالًا[3].

بلاغةُ المجازِ المُرسَلِ:

تتابعُ النِّكاتِ البلاغيَّةِ في (يسجدون)

عبَّر بـ﴿يَسۡجُدُونَ﴾ عن الصَّلاةِ؛ لِيكونَ مِنْ بابِ ذكرِ الجُزءِ وإرادةِ الكلِّ على طريقةِ المجازِ المرسَلِ، وذكرَ هنا السُّجودَ دونَ غيرِهِ منْ أجزاءِ الصَّلاةِ كالرُّكوعِ مثلًا لنكاتٍ هي[4]:

1- لِمناسبةِ السُّجودِ لِمَا فيه من الرِّقَّةِ والتَّذلُّلِ لِتلاوةِ آياتِ اللهِ آناءَ اللَّيلِ.

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 1/493.
(2) الزمخشري، الكشاف: 1/402، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/58.
(3) السكاكي، مفتاح العلوم، ص: 221.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/58.

2- فيهِ بيانُ حسنِ صورةِ السُّجودِ.

3- للإشارةِ إلى طولِ سجودِهم وكثرتِه؛ فإنَّ مَنْ أكثرَ مِنْ شَيءٍ؛ اشْتُهِرَ بذلكَ الشَّيءِ، وَوُصِفَ بهِ.

4- فيهِ إشعارٌ بالحثِّ على طولِ السُّجودِ في صلاةِ التَّهجُّدِ؛ لورودِه في مقامِ التَّمدُّحِ والثَّناء.

5- فكانَ التَّعبيرُ - بما ذُكِرَ - أبلغَ مِنْ أَنْ يُقالَ: وهم يَتَهَجَّدون.

نُكتَةُ تقديمِ نعتِ التِّلاوةِ على نعتِ الإيمانِ بالله:

تعظيمُ شأنِ تلاوةِ القرآنِ

لِزيادةِ تحقيقِ المخالفةِ معَ الفاسقينَ منْ أهلِ الكتابِ، ولِتفرُّدِهم بخصيصَةِ تلاوةِ آياتِ اللّه، ولتعظيمِ شأنِها، ولِتوضيحِ نفيِ المساواةِ بينهم وبينَ الَّذين وُصِفوا آنفًا بالكفرِ بها[1].

بلاغةُ الاستعارةِ في قولِهِ: ﴿وَيُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِۖ﴾:

المتَّقون مستقرُّون في الخيراتِ ملازمونَ لَها

شبَّهَ مسارعةَ المؤمنينَ منْ أهلِ الكتابِ في الخيرِ وشدَّةِ إقبالِهم عليهِ وجَوَلانِهم فيهِ بنشاطٍ وقُوَّةٍ معَ حرصِهم عليه بإسراعِ الماشي في مكانٍ محدَّدٍ، وإيثارُ كلمةِ ﴿فِي﴾ على ما وقع في قولِه تعالى: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ﴾؛ لِلدَّلَالَةِ عَلَى أَنَّ الْإِسْرَاعَ مَجَازٌ على طريقة الاستعارة التَّبعيَّة بِمَعْنَى: التَّوَغُّلِ، فَيَكُونُ الحرفُ ﴿فِي﴾ قَرِينَةَ الْمَجَازِ، كَقَوْلِهِمْ: أَسْرَعَ الشَّيْبُ في رَأْسِ فُلَانٍ، فَجَعَلَ الخيراتِ بِمَنْزِلَةِ الظَّرْفِ، وَجَعَلَ مسارعتهم في الخيراتِ وَشِدَّةَ استقرارِهم فيها بِمَنْزِلَةِ جَوَلَانِ الشَّيْءِ فِي الظَّرْفِ جَوَلَانًا بِنَشَاطٍ وَسُرْعَةٍ؛ لِبيانِ استقرارِهم وملازمتِهم لِلخَيراتِ ملازمةَ المظروفِ للظَّرفِ، فهمْ يتقلَّبونَ فيها وفي مراتبِها، ويُسارعونَ فيها متَى وجدوا لِذلكَ فُرصَةً؛ لِفَرطِ رغبتِهمْ في الخيراتِ لا أنَّهم خارجُون عنها منتهونَ إليها[2].

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 2/73.

(2) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 6/280، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 2/74.

وَنَظِيرُ هذهِ الاستعارةِ قَوْلُهُ تعالى: ﴿يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡإِثۡمِ﴾ [المائدة: 62]، وَقَوْلُهُ: ﴿نُسَارِعُ لَهُمۡ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ﴾ [المؤمنون: 56]، وقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ﴾ [المؤمنون: 61].

نُكتةُ تتابعِ الصِّفاتِ:

التَّعريضُ بذمِّ مَنْ لم يتَّصف بهذهِ الصِّفاتِ من اليهودِ

قدْ يُقالُ: لِمَ وصفَ اللّٰهُ تعالى المؤمنينَ مِنْ أَهلِ الكتابِ بهذهِ الصِّفاتِ دونَ غيرِها؟ والجوابُ: أنَّه وصفَهمْ بخصائِصَ ما كانتْ في اليهودِ من تلاوةِ آياتِ اللّٰهِ باللَّيلِ مصلِّينَ وساجدينَ، ومن الإيمانِ باللّٰهِ؛ لِأنَّ إيمانَهم بهِ كلا إيمانَ؛ لِإشراكِهمْ به عُزيْرًا، وكفرِهمْ ببعضِ الكتبِ والرُّسلِ دونَ بعضٍ، ومِنَ الإيمانِ باليومِ الآخِرِ؛ لِأنَّهم يصفونَهُ بخلافِ صفتِهِ، ومِنَ الأمرِ بالمعروفِ والنَّهيِ عنِ المنكَرِ؛ لِأنَّهم كانوا مُداهنينَ، ومِنَ المُسارعةِ في الخَيراتِ؛ لِأنَّهمْ كانوا مُتباطِئينَ عنها غيرَ راغبينَ فيها[1]، ففي ذكرِ هذهِ الصِّفاتِ تعريضٌ بذمِّ مَنْ لم يتَّصف بهذهِ الصِّفاتِ من اليهودِ.

فوائدُ دلاليَّةٌ في تركيبِ ﴿وَيُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِۖ﴾:

أفاد هذا التركيبُ ثمانيةَ معانٍ مجتمعة:

أبـــوابُ الـخـيرِ كـثـيرةٌ وسبلُه متنوِّعَةٌ

الأوّل: في الكلامِ تعريضٌ بتباطؤِ اليهودِ في فعلِ الخيراتِ بل بمبادرتِهم إلى الشُّرورِ[2].

الثاني: آثرَ اختيارَ الفعل ﴿وَيُسَٰرِعُونَ﴾؛ لِما تدلُّ عليه الكلمةُ من الإشعار بِفرطِ رغبتهم في فعل الخيرات؛ لأنَّ من رغب في الأمر؛ سارع في تولِّيه والقيام به، وآثر الفور على التَّراخي[3].

العجلة مذمومة والسُّرعة في الخير محمودة

الثالث: واختارَ لفظَ المسارعةِ، ولم يعبِّرْ بالعجلةِ؛ لِأنَّ السُّرعةَ هي التَّقدُّمُ فيما يجوزُ أنْ يُتَقدَّمَ فيه، وهي محمودةٌ، وضدُّها الإبطاءُ،

(1) الزمخشري، الكشاف: 1/403.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 2/74.
(3) الزمخشري، الكشاف: 1/403.

وهو مذمومٌ، والعجلةُ التَّقدُّمُ فيما لا ينبغي أنْ يُتَقَدَّمَ فيه، وهي مذمومةٌ، وضدُّها الأناةُ، وهي محمودةٌ[1].

الرابع: لمّا كانتْ صيغةُ (سارعَ) على وزن (فاعلَ)؛ أفادت أنَّهم طَلَبُوا ذَلِكَ مِنْ أنفُسِهم، وتَكَلَّفُوه؛ لِيفوزوا بغنيمةِ الخَيراتِ.

الخامس: أفادتْ صيغةُ (فاعَلَ) معنى: المبالغةِ في المسارعةِ في الخيرات، فليستِ الصِّيغةُ على معنى: المغالبةِ ولا المشاركةِ[2].

السادس: كما دلَّتْ صيغةُ المضارَعَةِ على تجدُّدِ حالِهم في التَّسارُعِ في الخيرات، فبعدَ أَنْ تأصَّلَ الخيرُ فيهم؛ يُسارعونَ في إِظْهَارِ آثَارِهِ عِنْدَ أَدْنَى مُنَاسَبَةٍ وَفِي كُلِّ فُرْصَةٍ، فيحدثُ منهمْ في كلِّ وقتٍ أشياءُ تزيدُ في دخولِهم في الخيراتِ.

مدح الاجتماعِ على الطَّاعة

السابع: وجاءتِ الصِّيغةُ متَّصلةً بضميرِ الجمعِ (الواو)؛ لإفادةِ المدحِ على الاجتماعِ على الطَّاعة.

الثامن: أفادَ مجيءُ ﴿ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ بصيغةِ الجمعِ المُعرَّفِ بـ (الـ) الَّتي للاستغراقِ الإشعارَ بِسَعَةِ الخيراتِ وتنوُّعِها وتكثُّرِها؛ ولِتشملَ الأفعالَ اللَّازمةَ المقتصرةَ على صاحبِها والمتعَدِّيةَ إلى الآخرينَ، فهمْ يسارعونَ في كلِّ الخيراتِ المتيسِّرة ويتقلَّبون فيها، فأبوابُ الخيرِ كثيرةٌ وسُبُلُهُ متَنَوِّعَةٌ.

دلالةُ اسمِ الإشارةِ ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ﴾:

في التَّعبيرِ باسمِ الإشارةِ ثلاثُ فوائدَ[3]:

الأوّل: فيه إشارةٌ إلى الأمَّةِ باعتبارِ اتِّصافِهم بما فُصِّلَ من النُّعوتِ الجليلةِ، ففيه إيجازٌ في الكلامِ.

الثاني: لمّا كانَ اسمُ الإشارةِ فيهِ معنى البُعدِ؛ أوحى بعُلُوِّ درجتِهم وسُمُوِّ طبقتِهم في الفضلِ.

(1) الزمخشري، الكشاف: 1/403.
(2) القونوي، حاشية القونوي على تفسير البيضاوي: 7/462.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 2/74.

الثالث: آثرَهُ على الضَّمير، فلم يقل: (وهم من الصَّالحينَ) لِلإشعارِ بعلَّةِ الحُكم والمدحِ، أي: أُولئكَ المنعوتونَ بالصَّلاحِ بسببِ اتِّصافِهم بتلكَ الصِّفاتِ الممدوحةِ.

مناسبةُ مجيءِ الأوصافِ في آيتين:

الأصلُ في قبولِ أَفعالِ الخيرِ هو الإيمانُ

لمّا كانَ قوله تعالى: ﴿يَتْلُونَ﴾ و﴿يُؤْمِنُونَ﴾ صفتينِ لأُمَّة[1]؛ كانَ ذكرُ الوصفِ الأوَّلِ؛ لِبيانِ خَصوصِيَّةِ هذهِ الطَّائفةِ مِنْ أَهلِ الكتابِ، فقدَّمَهُ لِهذا السَّببِ، ثُمَّ ردَّ على ذكرِ الإيمانِ وجعلَه بدايةَ آيةٍ؛ لِبيانِ أنَّ الأصلَ في كلِّ ما يفعلونَهُ مِنْ أَفعالِ الخيرِ وقبولِها: هو الإيمانُ باللهِ وبرسولِهِ وباليومِ الآخِرِ.

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

التِّلَاوَة وَالْقِرَاءَة:

التِّلَاوَة: لَا تكون فِي الْكَلِمَة الْوَاحِدَة، وَالْقِرَاءَة: تكون فِيهَا، تَقول: قَرَأَ فلَان اسْمه، وَلَا تَقول: تَلا اسْمه؛ وَذَلِكَ أَنَّ أصل التِّلَاوَة من قَوْلك: تَلا الشَّيْءُ الشَّيْءَ يتلوه؛ إذا تبعه، فَإِذا لم تكن الْكَلِمَة تتبع أُخْتهَا، لم تسْتَعْمل فِيهَا التِّلَاوَة، وتستعمل فِيهَا الْقِرَاءَة؛ لِأَنَّ القراءة اسْم لجِنْس هَذَا الْفِعْل، فالتِّلَاوَة: لَا تكون إِلَّا لكلمتين فَصَاعِدًا، وَالْقِرَاءَة: تكون للكلمة الْوَاحِدَة، التِّلَاوَة فِي الْكَلِمَات: يتبع بَعْضهَا بَعْضًا[2].

فالتِّلاوة أنسب للسِّياق؛ إذ إنَّها وردت في مقام الثَّناء والمدح لعبادة فريق من أهل الكتاب، ومتابعتهم تلاوة آيات الله آناء اللَّيل بخشوع وخضوع.

(1) الزمخشري، الكشاف: 1/402.

(2) أبو هلال العسكري، الفروق اللغويَّة، ص: 27، 63.

﴿وَمَا يَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَلَن يُكۡفَرُوهُۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلۡمُتَّقِينَ ١١٥﴾

[آل عمران: 115]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا كانَ التَّقديرُ: فما فَعلوا مِنْ خيرٍ؛ فهوَ بعلمِ اللهِ سُبحانَهُ وتعالى، يشكرُهُ لَهمْ؛ عَطَفَ عليه قولَه تعالى: ﴿وَمَا يَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَلَن يُكۡفَرُوهُۗ﴾، كما أَنَّها تَذْييلٌ لِلْجُمَلِ الْمُفْتَتَحَةِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ أُمَّةٞ قَآئِمَةٞ﴾ [آل عمران: 113] إِلَى قَوْلِهِ: ﴿مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾[1].

شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿يَفۡعَلُواْ﴾: من (فَعَل)، الْفَاءُ والْعَيْنُ وَاللَّامُ: أَصْلٌ صَحِيحٌ يَدُلُّ عَلَى إِحْدَاثِ شَيْءٍ مِنْ عَمَلٍ وَغَيْرِهِ، مِنْ ذَلِكَ: فَعَلْتُ كَذَا أَفْعَلُهُ فَعْلًا، وَكَانَتْ مِنْ فُلَانٍ فَعْلَةٌ حَسَنَةٌ أَوْ قَبِيحَةٌ، وَالْفِعَالُ: جَمْعُ فِعْلٍ، وَالْفَعَالُ، بِفَتْحِ الْفَاءِ: الْكَرَمُ وَمَا يُفْعَلُ مِنْ حَسَنٍ، والفعل عامٌّ لما كان بإجادة أو غير إجادة، ولما كان بعلم أو غير علم، وقصد أو غير قصد، ولما كان من الإنسان والحيوان والجمادات، والعمل مثله، والصُّنع أخصُّ منهما[2].

2) ﴿خَيۡرٖ﴾: الْخَاءُ وَالْيَاءُ وَالرَّاءُ، أَصْلُهُ: الْعَطْفُ وَالْمَيْلُ، ثُمَّ يُحْمَلُ عَلَيْهِ، فَالْخَيْرُ: خِلَافُ الشَّرِّ؛ لِأَنَّ كُلَّ أَحَدٍ يَمِيلُ إِلَيْهِ، وَيَعْطِفُ عَلَى صَاحِبِهِ، وَالْخِيرَةُ: الْخِيَارُ، وَالْخِيرُ: الْكَرَمُ، وَالِاسْتِخَارَةُ: أَنْ تَسْأَلَ خَيْرَ الْأَمْرَيْنِ لَكَ، وَكُلُّ هَذَا مِنَ الِاسْتِخَارَةِ، وَهِيَ الِاسْتِعْطَافُ، وَيُقَالُ: اسْتَخَرْتُهُ، قَالُوا: وَهُوَ مِنَ اسْتِخَارَةِ الضَّبُعِ، وَهُوَ أَنْ تَجْعَلَ خَشَبَةً فِي ثُقْبَةِ بَيْتِهَا حَتَّى تَخْرُجَ مِنْ مَكَانٍ إِلَى آخَرَ، وَقَالَ الْهُذَلِيُّ:

لَعَلَّكَ إِمَّا أُمُّ عَمْرٍو تَبَدَّلَتْ***سِوَاكَ خَلِيلًا شَاتِمِي تَسْتَخِيرُهَا

ثُمَّ يُصَرَّفُ الْكَلَامُ، فَيُقَالُ: رَجُلٌ خَيِّرٌ، وَامْرَأَةٌ خَيِّرَةٌ: فَاضِلَةٌ، وَقَوْمٌ خِيَارٌ وَأَخْيَارٌ فِي صَلَاحِهَا، والخير: ما يرغب فيه الكلُّ، كالعقل مثلًا، والعدل، والفضل، والشَّيء النافع،

(1) البقاعي، نظم الدرر: 3/55، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/59.

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (فعل).

وضدُّه: الشَّرُّ، وقوله تعالى: ﴿إِن تَرَكَ خَيْرًا﴾ [البقرة: 180]، أي: مالًا، وقال بعض العلماء: لا يقال للمال: خير حتَّى يكون كثيرًا، ومن مكان طيِّب[1]، والخير في سياق الآية عامٌّ، يشمل كلَّ عملٍ صالحٍ نافعٍ.

3) ﴿يُكۡفَرُوهُۗ﴾: الكفرُ بمعنَى: السَّترِ والتَّغطية، وكُفْرُ النِّعمة وكُفْرَانُهَا: سترُها بتركِ أَداءِ شُكرِها، وأعظمُ الكُفْرِ جُحودُ الوحدانيَّةِ أَوِ الشَّريعةِ أَوِ النُّبوَّةِ[2]، ومعنى ﴿فَلَن يُكۡفَرُوهُۗ﴾، أَيْ: لَنْ يُمْنَعُوا ثَوَابَهُ وَجَزَاءَهُ[3].

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

وأيُّ فعلٍ تفعلُه هذهِ الأمَّةُ المؤمنةُ قلَّ أَو كَثُرَ مِنْ أَعمالِ الخيرِ، فَلَنْ يُضَيِّعَ اللهُ ثوابَ عملِهم ذلكَ، ولَنْ يَنقصَهُ، ولكنَّهم يُشكرونَ على ما فعلُوا مِنْ ذلكَ، فَيُجزِل لَهُمُ الثَّوابَ فيهِ، واللهُ عليمٌ بالمتَّقينَ الَّذينَ يفعلونَ الخيراتِ، ويبتعدونَ عنِ المُنكراتِ.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالةُ الشَّرطِ وجوابه:

لَمَّا كانَ الشَّرطُ بمنزلةِ السَّببِ للجزاءِ؛ جاءتِ الفَاءُ مقترنةً بالجزاءِ؛ لِيكونَ فعلُ أَيِّ خيرٍ قلَّ أو كثرَ سَببًا لِنيلِ الثَّوابِ بتمامِهِ، ولَمَّا كانَ وقوعُ الجزاءِ مقترنًا بوقوعِ الشَّرطِ؛ أفادَ الكلامُ أنَّ نيلَ الثَّوابِ واقعٌ بوقوعِ فعلِ الخيرِ على معنَى ثباتِه عندَ اللهِ وتقريرِهِ.

دلالة (ما) الشَّرطيَّة:

لايضيعُ جزاءُ أيِّ فعلٍ مِنْ أفعالِ الخيرِ

أفادت (ما) العمومَ، بمعنى: (أيَّ فعلٍ يفعلون مِنْ أَفعالِ الخيرِ، سواءٌ أكانَ قليلًا أم كثيرًا، قاصرًا على صاحبِه أم متعدِّيًا إلى غيره؛ فلن يضيِّعَهُ اللهُ تعالى).

نكتةُ التَّقييدِ بقوله: ﴿مِنۡ خَيۡرٍ﴾:

لَمَّا كانَ الحالُ مقيِّدًا لِعاملِهِ؛ أفادَ ﴿مِنۡ خَيۡرٍ﴾ تقييدَ ﴿يَفۡعَلُواْ﴾،

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (خير).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (كفر).
(3) الرّازي، مفاتيح الغيب: 8/335، وابن الهائم، التبيان، ص: 127.

بِمعنَى: الفعل الَّذي هو موضعُ الثَّناءِ، والَّذي لا يَضيعُ أَجرُهُ عندَ اللّهِ: هو الَّذي يكونُ مقترِنًا بالخيرِ غيرَ منفَكٍّ عنهُ.

دلالةُ النَّكرةِ في سياقِ الشَّرطِ:

تفيد العموم

لفظ الخير من أعمِّ الألفاظ، فهي دالَّة على كلِّ ما يُحبُّه اللّه - تبارك وتعالى - ويرضاه، سواء كان ذلك يسيرًا أم جليلًا عظيمًا، فكيف إذا كانَ لفظُ ﴿خَيْرٍ﴾ نكرةً في سياقِ الشَّرطِ؟

إنَّه يفيد العمومَ، فيكونُ أعمَّ مِنْ قولنا: وما يفعلوا من الخير، ودخول (مِن) تأكيد لهذا العموم، فهو أبلغ من قولنا: وما يفعلوا خيرًا، فكلُّ ما يصدر عنهم من خيرٍ قلَّ أو كثُر، من أنواع البِرِّ والمعروف المتعلِّقة: بالقلب أو اللِّسان أو الجوارح من أنواع الطَّاعات، ثابت لهم، ومحفوظ لهم، لن يضيع عند اللّه، ولن يذهب سُدًى، فالوزن عند اللّه تبارك وتعالى بمثاقيل الذَّرِّ: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨﴾ [الزلزلة: 7 - 8].

مناسبةُ ذكرِ الخيرِ دونَ الشَّرِّ:

كُلُّ مَا يُفْعَلُ مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ؛ يَتَرَتَّبُ عَلَيْهِ مَوْعُودُهُ

اقْتَصَرَ عَلَى قَوْلِهِ: ﴿مِنْ خَيْرٍ﴾، وَلَمْ يَتَعَرَّضْ لِذِكْرِ الشَّرِّ؛ لِأَنَّ المقامَ مقامُ ثناءٍ عليهم وتمدُّحٍ وعَطْفٍ وَتَرَحُّمٍ، فلا يناسبُه اقترانُ الشَّرِّ بالخيرِ في هذا الموضعِ، وَمَعْلُومٌ أَنَّ كُلَّ مَا يُفْعَلُ مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ؛ يَتَرَتَّبُ عَلَيْهِ مَوْعُودُهُ[1].

سرُّ العدول عن (شيء) إلى ﴿خَيْرٍ﴾ مع ﴿يَفْعَلُواْ﴾:

لبيان جنس الفعل، وتوجيه فاعله إليه

نلحظ في آيات القرآن الكريم كلِّها اقترانَ تعلُّق ﴿مِنْ خَيْرٍ﴾ بالفعل ﴿تَفْعَلُواْ﴾، ومنه قوله: ﴿وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۖ﴾ [البقرة: 197]، وقوله: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ۖ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 3/313.

وَمَا تَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٞ ﴿٢١٥﴾ [البقرة: 215]، وقوله: ﴿وَمَا تَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِهِۦ عَلِيمٗا ﴿١٢٧﴾ [النساء: 127]، ومنه الآية الَّتي معنا.

والسِّرُّ في ذلك بيان جنس الفعل، وتوجيه فاعله إليه، والحضُّ على فعله، وهو في ذلك يحتمل الوعد لفاعله، والوعيد لتاركه.

فلمَّا دلَّ الفعل ﴿تَفۡعَلُواْ﴾ على عموم الفعل؛ احتيج إلى تخصيص ذلك الفعل، فناسب ذكر لفظ ﴿خَيۡرٖ﴾.

كما نلحظ اقترانَ تعلُّق ﴿مِن شَيۡءٖ﴾ بالفعل ﴿تُنفِقُواْ﴾، ومنه قوله: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلۡبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيۡءٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٞ ﴿٩٢﴾ [آل عمران: 92]، وقوله: ﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيۡءٖ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيۡكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تُظۡلَمُونَ ﴿٦٠﴾ [الأنفال: 60]، وقوله: ﴿وَمَآ أَنفَقۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَهُوَ يُخۡلِفُهُۥۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٣٩﴾ [سبأ: 39].

والسِّرُّ في ذلك بيان عموم الإنفاق، لا في المال وحده، فكلمة ﴿شَيۡءٖ﴾ أنسب للسِّياق؛ لأنَّها وإن كانت عامَّة، لكنَّها مخصَّصة بالإنفاق.

ولذا لم يتعلَّق ﴿مِن شَيۡءٖ﴾ بالفعل ﴿تَفۡعَلُواْ﴾؛ لأنَّ ﴿تَفۡعَلُواْ﴾ عامٌّ في كلِّ فعل، و﴿شَيۡءٖ﴾ لفظ عامٌّ أيضًا، والمقام للمدح، فناسب ذكر لفظ ﴿خَيۡرٖ﴾، وهذه نكتة العدول.

في حين تعلَّق ﴿مِنۡ خَيۡرٖ﴾ بالفعل ﴿تُنفِقُواْ﴾ في ثلاثة مواضع: وردت في آيتين متتاليتين في قوله تعالى: ﴿لَّيۡسَ عَلَيۡكَ هُدَىٰهُمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُۗ وَمَا تُنفِقُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَلِأَنفُسِكُمۡۚ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ ٱللَّهِۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِنۡ خَيۡرٖ يُوَفَّ إِلَيۡكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تُظۡلَمُونَ ﴿٢٧٢﴾ لِلۡفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحۡصِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسۡتَطِيعُونَ ضَرۡبٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ يَحۡسَبُهُمُ ٱلۡجَاهِلُ أَغۡنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعۡرِفُهُم بِسِيمَٰهُمۡ لَا يَسۡـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلۡحَافٗاۗ وَمَا تُنفِقُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢٧٣﴾ [البقرة: 272، 273]، وهو في مقام الحضِّ على إنفاق الصَّدقات، وخطاب أمَّة النَّبيِّ محمَّدٍ ﷺ فناسب الجمع بين ﴿تُنفِقُواْ﴾ و﴿خَيۡرٖ﴾ لمناسبة المقام.

مناسبةُ التَّعبيرِ بـ ﴿فَلَن﴾:

تفيدُ ﴿فَلَن﴾ تأكيدَ النَّفيِ وتقويتَهُ، على معنى: لَنْ يضيعَ ثوابُهم البتَّةَ[1]، وساقَ الجزاءَ

(1) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 6/282، وابن التمجيد، حاشية على تفسير البيضاوي: 6/282.

على أُسلوبِ التَّأكيدِ؛ لِدفعِ وَهْمِ ما يلوحُ عندَ الكُفَّارِ الجُهَّالِ مِنْ أنَّ ثوابَهم قد يَضيعُ أو ينقُصُ.

تأكيدُ نفي ضياعِ ثوابِ المؤمنين

مجازُ التَّعبيرِ بـ ﴿يُكۡفَرُوهُۗ﴾:

لمّا كانَ تركُ الإثابةِ على التَّمامِ في مقابلةِ الإحسانِ يلزمُهُ الكُفرانُ، كما أنَّ الشُّكرَ يلزمُهُ توفيةُ الثَّوابِ؛ عبَّرَ بنفيِ الكُفرانِ عنْ توفيةِ الإثابةِ، فيكونُ مِنْ بابِ ذكرِ اللَّازمِ، وهو ﴿فَلَن يُكۡفَرُوهُۗ﴾، وإرادةِ الملزومِ، وهوَ (توفيةُ الإثابةِ).

إيصالُ الجزاءِ على الإحسانِ شكرٌ ومنعُه كُفْرٌ

أوْ يقالُ: لَمَّا كانَ إيصَالُ الْجَزَاءِ شُكْرًا؛ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ١٥٨﴾ [البَقَرَة: 158]، سَمَّى مَنْعَهُ: كُفْرًا، وأيضًا لمّا كانَ الْكُفْرُ فِي اللُّغَةِ هُوَ السَّتْرَ؛ سُمِّيَ مَنْعُ الْجَزَاءِ: كُفْرًا، لِأَنَّهُ بِمَنْزِلَةِ الْجَحْدِ وَالسَّتْرِ[1].

مناسبة التَّضمين في قوله: ﴿يُكۡفَرُوهُۗ﴾:

ضمَّنَ الفعلَ (كَفَرَ) معنى: المنعِ والحِرمانِ؛ لِأنَّ (كَفَرَ) يتعدَّى إلى مفعولٍ واحدٍ، وقدْ جاءَ متعدِّيًا إلى مفعولينِ، ولمّا كانَ التَّضمينُ على معنى: إرادةِ الفعلينِ المضمَّنِ والمضمِّنِ؛ كانَ المعنَى على تضمينِ مدلولينِ، أي: فلنْ يُسْتَرَ عنهم فعلُ الخيرِ؛ لِلإشعارِ بأنَّهم سيرونَهُ أمامَهم، فيزدادون فرحًا وسرورًا، ولن يُحرموا ثوابَهُ.

المؤمنونَ لنْ يُستَرَ عنهمْ فعلُ الخَيرِ يومَ القيامةِ، ولنْ يُحرمَوا ثوابَهُ

مناسبةُ التَّعبيرِ بصيغةِ المبنيِّ للمَفعولِ ﴿يُكۡفَرُوهُۗ﴾:

لإفادةِ أمورٍ: هيَ تنزيهُ اللهِ تعالى عن إسنادِ الكفرانِ إليه، والأدب معه، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّا لَا نَدۡرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ أَرَادَ بِهِمۡ رَبُّهُمۡ رَشَدٗا ١٠﴾ [الجن: 10]، وفيه كنايةٌ عنْ حُسنِ الجزاءِ، وجري على سَنَنِ الكبرياءِ والعَظَمَةِ[2].

الأدب مع الله تعالى في تنزيهِه عن إسنادِ الكفرانِ إليهِ

(1) الرّازي، مفاتيح الغيب: 8/335.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 2/74، وابن التمجيد، حاشية على تفسير البيضاوي: 6/282، والقنوجي، فتح البيان: 2/317.

بلاغة الالتفات في تنوّع القراءات:

وردت في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَلَن يُكۡفَرُوهُۗ﴾ قراءتان: الأولى: بالياء على الخبر ﴿يَفۡعَلُواْ﴾، ﴿يُكۡفَرُوهُۗ﴾، والأخرى: بالتَّاء على الخطاب ﴿تَفۡعَلُواْ﴾ ﴿تُكۡفَرُوهُ﴾[1]، فعلى قراءة الياء: يكون الكلامُ على نسقٍ واحدٍ لاتِّصالِه بما قبلَه مِنْ ذِكْرِ مُؤْمِنِي أَهْلِ الْكِتَابِ، لجريانِ الأفعالِ على صيغة الغيبةِ: ﴿يَتۡلُونَ﴾ و﴿يَسۡجُدُونَ﴾ و﴿يُؤۡمِنُونَ﴾ و﴿وَيَأۡمُرُونَ﴾ و﴿وَيَنۡهَوۡنَ﴾ و﴿وَيُسَٰرِعُونَ﴾.

وعلى قراءة التَّاء: هو على الالتفاتِ لتلوينِ الخطابِ وللعدولِ به؛ ليكونَ أحسن تطريةً لنشاطِ السَّامعِ، وأكثرَ إيقاظًا للإصغاءِ إلى الكلامِ؛ ليجدَ السَّمعُ من نفسِه محرِّكًا لزيادةِ الإقبالِ عليه، فيكونُ من جريانِ الكلامِ على خلافِ مقتضى الظَّاهر.

فإمَّا أن يكون التفاتًا إلى قولِه: ﴿أُمَّةٞ قَآئِمَةٞ﴾، فإنَّه لَمَّا وَصَفَ أهلَ الكتابِ بِأَوْصَافٍ حميدةٍ؛ أَقْبَلَ عَلَيْهِمْ تَأْنِيسًا لَهُمْ وَاسْتِعْطَافًا عَلَيْهِمْ، فَخَاطَبَهُمْ بِأَنَّ مَا تَفْعَلُونَ مِنَ الْخَيْرِ، فَلَا تُمْنَعُونَ ثَوَابَهُ، وتؤيِّده قراءة من قرأ بالياء، وتخييرُ أبي عمرو القراءة بين التَّاء والياء.

وإمَّا أن يكون التفاتًا إلى ذكرِ المؤمنين من أمَّة الإسلام؛ ليكونَ عائدًا إلى قوله: ﴿كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ﴾، فتكونَ الجملةُ تذييليَّةً لقصدِ التَّعميم، ومثلُه قولُه تعالى: ﴿وَمَا تَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ يَعۡلَمۡهُ ٱللَّهُۗ﴾ [البقرة: 197]، فإنَّ حقَّ الخطاب، وإنْ كانَ لمعيَّنٍ؛ لكنَّه قُصِدَ به هنا العمومُ بقرينةِ المقام؛ ليدخلَ فيه الصَّالحونَ الحاضرونَ واللَّاحقونَ، ويدخلَ فيه السَّابقونَ كذلكَ بِقَرِينَةِ العمومِ ومَقَامِ الِامْتِنَانِ، وَوُقُوعِهِ عَقِبَ ذِكْرِ صفاتِ أهلِ الكتابِ[2].

بلاغةُ وضعِ الظَّاهرِ موضِعَ المُضمَرِ:

في قوله: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلۡمُتَّقِينَ﴾، إذا كانَ المرادُ من المتَّقينَ الأمَّةَ المعهودةَ؛ كانَ العدولُ عنِ الضَّميرِ العائدِ إليهم إلى الاسمِ الظَّاهرِ لِنكاتٍ بلاغيَّةٍ، هي[3]:

(1) القراءتان متواترتان، وحيث قرأ حَمْزَةُ وَالْكِسَائِيُّ وَحَفْصٌ عَن عَاصِم قوله تعالى بِالْيَاءِ، وقرأ ابْنُ كثيرٍ وَنَافِعٌ وَعَاصِمٌ فِي رِوَايَة أبي بكر وَابْن عَامر بِالتَّاءِ، وكَانَ أَبُو عَمْرو يقرأُ على التّخيير بينَ الْيَاءِ والتَّاءِ، ينظر: ابن مجاهد، السبعة، ص: 215، وابن الجزري، النشر: 2/241.

(2) الراغب، تفسير الراغب: 2/810، والسكاكي، مفتاح العلوم، ص: 180، وأبو حيّان، البحر المحيط: 3/313، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/59.

(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 2/74.

1 – في التَّعبيرِ بالمتَّقين مدحٌ لَهم.

2 – فيهِ تعيينٌ لعُنوانِ تعلُّقِ علمِ اللّٰهِ بِهِمْ.

3– فيهِ إشعارٌ بمناطِ إثابتِهِمْ، وهوَ التَّقوى المنطوي على الخصائِصِ السَّالفةِ.

وإذا كانَ المرادُ مِنَ المُتّقينَ الجنسَ لإفادةِ العمومِ، فهمْ يندرجونَ تحتَ حُكمِهِ اندارجًا أَوَّلِيًّا، وتكونُ الجملةُ تذييليَّةً.

حسنُ التَّذييلِ في قوله: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلۡمُتَّقِينَ﴾:

أفادتْ جملةُ التَّذييلِ معانيَ، هي[1]:

الفائزُ عندَ اللهِ هوَ أهلُ التَّقوى

الأوّل: إجراءُ جملةِ التَّذييلِ مجرى الدَّليلِ لِجزائِهم على أَفعالِهِمْ، وعدمِ حرمانِهِمْ مِنَ الثَّوابِ، فالعليمُ بالمتَّقينَ يستدعي توفيةَ أُجورِهم – لا محالةَ – وَأَلَّا يُضَيِّعَ ثوابَهمْ.

الثاني: إثباتُ أنَّ أفعالَهمْ هي مِنْ أفعالِ المُتَّقينَ.

الثالث: الإشعارُ بأنَّ التَّقوى مبدأُ الخيرِ وحسن العملِ، وأَنَّ الفائِزَ عندَ اللّٰهِ هو أَهلُ التَّقوى.

الرابع: لمّا كانَ اللّٰهُ تعالى عالمًا بكلِّ شَيءٍ؛ كانَ تخصيصُ علمِهِ بالمتَّقينَ كنايةً عنِ الإثابةِ، فيكونُ بشارةً لهم بِجَزيلِ الثَّوَابِ وَدَلَالَةً عَلَى أَنَّهُ لَا يَفُوزُ عِنْدَهُ إِلَّا أَهْلُ التَّقوى.

الخامس: لِتجريَ جملةُ التَّذييلِ مجرى المثَلِ لِعمومِ معناها وكُلِّيَّتِهِ.

(1) الرّازي، مفاتيح الغيب: 8/335، القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 6/283.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغۡنِيَ عَنۡهُمۡ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗاۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ١١٦﴾ [آل عمران: 116]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الآيةُ استئنافٌ للانتقال إلى ذكر وعيد المشركين، ومصير مَنْ أصرَّ على الكفر من أهل الكتاب مناسبة لِمَا سبق من ذكر وعد الذين آمنوا منهم بهذا القرآن في قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ ءَامَنَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۚ مِّنۡهُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَأَكۡثَرُهُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ١١٠﴾ [آل عمران: 110]؛ فعرَّج هنا على بيان كفر هذه الفئة الضَّالّة منهم؛ فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغۡنِيَ عَنۡهُمۡ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗاۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تُغۡنِيَ﴾: جذر الكلمة هو (غَنِيَ)، أَصْلَانِ صَحِيحَانِ، أَحَدُهُمَا يَدُلُّ عَلَى الْكِفَايَةِ، يُقَالُ: غَنِيَ يَغْنَى غِنًى، وَالْغَنَاءُ بِفَتْحِ الْغَيْنِ مَعَ الْمَدِّ: الْكِفَايَةُ. يُقَالُ: لَا يُغْنِي فُلَانٌ غَنَاءَ فُلَانٍ، أَيْ لَا يَكْفِي كِفَايَتَهُ؛ والغِنَى، مقصور، في المال. واستغنى الرَّجل: أصاب غِنىً. والغُنْيَةُ: اسمٌ من الاستغناء، والغنيُّ: ذو الوفر. والغانيةُ: الشابّةُ المُتَزَوِّجة. يقال: غَنِيَتْ بزَوْجها[2]، وأغنى فلانٌ في الحرب غناءً حسنًا. وأغنى عني فلان غناءً؛ أي كَفَّى في الدَّفع. قال تعالى: ﴿وَمَا يُغۡنِي عَنۡهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ ١١﴾ [الليل: 11]، وأغناني الحلال عن الحرام. وتقولُ للشّيء إذا فَنِي: كأَنْ لَم يَغْنَ بالأَمْسِ، أي: كأنْ لَم يكن، وغَنُوا في ديارهم ثمّ فَنُوا، وخَربت مبانيهم: ﴿كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَآۗ﴾ [هود: 95][3]. ومن الغِنَى: عدمُ الحاجات، وليس ذلك إلا لله تعالى، هو المذكورُ فيه قوله: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ٦٤﴾ [الحج: 64]، وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ١٥﴾ [فاطر: 15]. ومنه: قلّةُ الحاجات، وهو المشارُ إليه بقوله: ﴿وَوَجَدَكَ عَآئِلٗا فَأَغۡنَىٰ ٨﴾ [الضحى: 8][4].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/60.
(2) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة: (غني).
(3) الزّمخشريّ، أساس البلاغة: (غني).
(4) الراغب، المفردات: (غني).

والمعنى هنا: لَنْ تَدْفَعَ.

2) ﴿أَصْحَٰبُ﴾: جذر الكلمة هو (صَحِب)، أَصْلٌ وَاحِدٌ يَدُلُّ عَلَى مُقَارَنَةِ شَيْءٍ وَمُقَارَبَتِهِ، وَكُلُّ شَيْءٍ لَاءَمَ شَيْئًا فَقَدِ اسْتَصْحَبَهُ؛ والصّاحِبُ: الملازمُ إنسانا كان أو حيوانا، أو مكانا، أو زمانا، ويجمعُ على الصَّحْب، والصُّحبان، والصُحْبة، والصِّحاب. والأَصحابُ: جماعة الصَّحْبِ. ويستعملُ الصاحبُ في الاقتران الدائم مثل قوله تعالى: ﴿كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ﴾ [القلم: 48]؛ إذ صار يُعرف به، وكذلك (أصحاب الجنة)، (أصحاب النار) وما بمعنييهما، وكذا أصحاب (السبت)، و(الأعراف)، (مدين)، (الأيكة) ونحوها؛ لأنها صارت ملازمة لهم كأنها كناياتٌ عنهم، أو صاروا ملازمين لها كأنهم أهلوها ومُلَّاكها[1].

3) ﴿خَٰلِدُونَ﴾: جذر الكلمة هو (خَلَدَ)؛ والخُلْدُ في الأصل بمعنى: الثَّباتِ والمُلازمةِ[2]، والخُلودُ اصطلاحًا: هو: تبرِّي الشَّيءِ منَ اعتراض الفساد، وبقاؤُه على الحالة الَّتي هو عليها، وكلُّ ما يتباطأُ عنه التَّغييرُ والفسادُ؛ تصفُه العربُ بالخلود، وأصلُ المُخلَّد: الذي يبقى مدَّةً طويلةً[3]..

والمعنى هنا: الملازمون للنّار، لا يخرجون منها.

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

يخبر تعالى أنَّ الذين كفروا من اليهودِ وكُلِّ مَن كَفَرَ بما يَجِبُ الإيمانُ بِهِ لَنْ تَدْفَعَ عنهم قوَّتُهم العَصَبيَّةُ - وخَصَّ الأَوْلادَ؛ لِأَنَّهم أَحَبُّ القَرابَةِ وأَرْجاهم لِدَفْعِ النوائبِ - ولا قوَّتُهم الماليَّةُ التي يعتزُّون بها ويُفاخِرون، أيَّ شيءٍ ممَّا سينالهم من عذاب اللّه في الدنيا إذا نزل بهم شدَّة أو مرضٌ مُهْلِكٌ، ولا في الآخرة عند نزول العذاب، ولا تجدي عليهم شيئًا من ثواب اللّه، وسجَّل عليهم القرآن أنَّهم أصحابُ النارِ الباقون فيها لا يَخْرجون منها ولا يُفارقونها[4].

(1) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة، وابن سيده، المُحكم، والراغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (صحب).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (خلد).
(3) الراغب، المفردات: (خلد).
(4) السّمرقنديّ، بحر العلوم: 1/196، ورضا، تفسير المنار: 4/62، والموصلّي، أولى ما قيل: 2/529.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

نُكْتَةُ إِيرَادِ الْمُسْنَدِ إِلَيْهِ اسْمًا مَوْصُولًا فِي قَوْلِهِ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾:

شَنَاعَةُ الْكُفْرِ بِاللهِ تَعَالَى وَرُسُلِهِ

جيءَ بالمسندَ إليه اسمًا موصولًا مع صلَتِه، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ دون الوصف؛ إذْ لم يقل: (إنّ الكافرين)، وذلك لِمَا في هذا الفعلِ - وهو الكفر - مِن الشَّناعة والبشاعةِ، وفيه إيماءٌ إلى سبب بناءِ الخبرِ؛ وهو كفرُهم، فهذا الفعل الشَّنيعُ منهم - وهو الكفر - هو الذي أَوْدَى بِهِم إلى أسوأِ مَصيرٍ يومَ القيامةِ.

وفي كونِ صلةِ الموصولِ فعلًا ماضيًا إشعارٌ بأنَّ كفرهم متحقِّقٌ، وأنَّهم ثَبَتُوا وأصرُّوا عليه.

واللَّامُ في الاسم الموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾ للجنسِ تُفيدُ استغراقَ أفرادِه، وقد ذكر الخَازِنُ احتمالَ كونِ الآية عامّةً في جميع الكفّارِ؛ لأنّ اللّفظ عامٌّ، ولا دليلَ يُوجِبُ التّخصيص، فوجب إجراءُ اللّفظ على عمومِه[1].

ويَحْتمِلُ أن تكون اللَّامُ في الموصول عهديَّةً، والمرادُ بهم طائفةٌ مِنَ اليهودِ الذين كانُوا معاصرينَ لرسول اللّه ﷺ، ولذا قال ابن عباس في هذه الآيةِ: يُريد بني قريظة وبني النّضير، وكانوا يَفْخَرُون بأموالِهم وأبنائِهم[2].

ولخّص الآلُوسيُّ القولَيْنِ بقوله: "والمراد مِنَ الموصولِ؛ إمَّا سائر الكفّار فإنّهم فَاخَرُوا بالأموالِ والأولاد: ﴿وَقَالُواْ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ۝٣٥﴾ [سبأ: 35]؛ فَرَدّ اللّه تعالى عَلَيْهِم بذلك، وإمَّا بنُو قُرَيْظَة وبنُو النّضِير؛ إذْ كانت مُعَالَجَتُهم بالأموالِ والأولاد"[3].

(1) الخازن، لباب التأويل: 1/288.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/368.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 2/251.

والقولانِ متآيلَانِ؛ لأنَّ القولَ بجنسيَّةِ اللَّامِ شاملٌ القولَ بعهديَّتِهَا؛ لأنَّ أفرادَ العهدِ بعضُ أفرادِ العموم، والقول بعهديَّةِ اللَّامِ لا يقصُرُ الحكمَ على المخصوصِينَ بالذِّكرِ؛ لأنَّ الحكمَ مُعَلَّلٌ بالكُفْرِ، فكلُّ كافرٍ هو مثلُهم في المآلِ.

بَلَاغَةُ الْمَجَازِ فِي قَوْلِهِ: ﴿لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم﴾:

لَا نَجَاةَ لِلْكَافِرِينَ بِوَجْهٍ مِنَ الْوُجُوهِ مِنْ عَذَابِ اللهِ تَعَالَى

مَعْنى (أغنى عنهُ): دفَعَ عنهُ ومنَعَه؛ فالمراد مِنَ الإغناءِ: الدَّفْعُ[1]، تقول العربُ: أغنى عنهُ، إذَا دفعَ عَنْهُ ضررًا؛ لولاه لنَزَلَ بِهِ؛ فَذُكِرَ في قول اللّه تعالى: ﴿لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم﴾ الفاعلُ وأُرِيدَ الفعلُ على سَبيلِ المجاز.

وثَمَّ وجهٌ آخَرُ للمجازِ فيها، وذلك أنّه قد جُمِعَتِ الأموال والأولاد في الدّفعِ عنهم، فصارت الأموالُ كرجل عاجز، يُضاف إلى عجز أولاده، لا يستطيعون الدّفع عن صاحبهم، فيكون هذا من قبيلِ الاستعارةِ المكنيَّةِ؛ إذْ طُوِيَ ذكرُ المشبَّهِ بهِ، وأُشيرَ إليه بلازمٍ من لوازِمِهِ وهو الإغْنَاءُ، وهذا المعنى المجازيُّ وردَ تمثيلًا في قولِ اللّه تعالى: ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٦٦﴾﴾ [البقرة: 266]، والمعنى المُراد من هذه الأمثلة أنّهم لَن تَدْفَع عنهم يوم القيامة أموالُهم التي عوّلوا عليها في المهمّات ولا من هو أرجى من ذلك وأعظم عندهم - وهم أولادهم - مِنْ عذاب اللّه تعالى لهم شيئًا يسيرًا منه[2].

ويجُوز أن يكُونَ قولُه: ﴿لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ﴾ مِنَ الغَناء بمعنى الكفاية، والمعنى: لا تغني عنهم نوعًا من أنواع الغناء، أو لا تغني غنَاءً مَا[3].

(1) القاسميّ، محاسن التأويل: 2/391، والآلوسي، روح المعاني: 2/252.
(2) الآلوسّي، روح المعاني: 2/252.
(3) رضا، تفسير المنار: 4/62.

سِرُّ تَقْدِيمِ الْجَارِّ وَالْمَجْرُورِ ﴿عَنْهُمْ﴾ فِي قَوْلِهِ: ﴿لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ﴾:

انْتِفَاعُ أَهْلِ الْإِيمَانِ بِإِنْفَاقِ أَمْوَالِهِمْ وَعَمَلِ أَوْلَادِهِمْ

قُدِّم الجارُّ والمجرور ﴿عَنْهُمْ﴾ هنا للقصر والاختصاص، فإنَّ نفيَ الإغناءِ مختصٌّ بالذين كفرُوا؛ إذ أهل الإيمان الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله تعالى ينفعُهم ثوابُ ذلك الإنفاق، ويضاعفهُ الله سبحانه لهم أضعافًا كثيرة.

وكذا ينتفعُونَ بعملِ الخيرِ الذي يعملُهُ أولادُهم؛ لأنَّه من جملةِ كَسْبِهم[1]، كما قال رسولُ الله ﷺ: "إِنَّ أَوْلَادَكُمْ مِنْ كَسْبِكُمْ"[2].

التَّنَاسُبُ بَيْنَ الْغِنَى وَالْأَمْوَالِ فِي قَوْلِهِ: ﴿لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ﴾:

الْغِنَى عِنْدَ الْإِطْلَاقِ بَيْنَ النَّاسِ هُوَ غِنَى الْمَالِ، وَجَاءَ الشَّرْعُ بِبَيَانِ أَنَّ أَعْظَمَ الْغِنَى غِنَى النَّفْسِ

وردت لفظة ﴿أَمْوَالُهُمْ﴾ قريبةٌ من جهةِ دِلالَتِهَا من لفظة ﴿تُغْنِيَ﴾، وقُدّم ذِكْرُ الأموالِ على الأولادِ؛ لئلَّا يُقْطَعَ هذا التَّناسُبُ بينَ الغِنَى والأموالِ؛ فإنّ الغِنَى ينصَرِفُ عادةً إلى الغِنَى في الأموال، ومنه قول العرب: استغنى الرّجلُ، أي: أصاب غِنَى المال لا الأولاد[3]، ولا يخفى دورُ المال في تسيير حركة الحياة والتّنافس وموازنات الاقتصاد؛ فإنّها تعتمد اعتمادًا أصليًّا على الأموال.

والمراد بالأموال في قوله: ﴿لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ﴾ جميع نفقات الكفّار في الدّنيا وصدقاتهم، كما قاله مجاهدٌ[4]، وهو مستفادٌ من الإضافةِ؛ إذ الجمع المضافُ مفيدٌ العُمومَ.

وفي جمع الأموال والأولاد إيماءٌ إلى الكثرةِ، وأنَّهم - ولو كَثُرُوا عَدَدًا - لن يُغْنُوا عن الكفَّار شيئًا.

---

(1) ابن عثيمين، فتح ذي الجلال والإكرام: 4/404.

(2) رواه أحمد في مسنده، الحديث رقم: (25296)، والترمذي في جامعه، الحديث رقم: (1358)، وابن ماجه في سننه، الحديث رقم: (2290)، وصحّحه الألباني في إرواء الغليل، الحديث رقم: (1626).

(3) الخليل، العين: (غني).

(4) الثعلبي، الكشف والبيان: 3/133.

نُكْتَةُ تَكْرِيرِ حَرْفِ النَّفْيِ وَسِرُّ تَخْصِيصِ الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ بِالذِّكْرِ فِي قَوْلِهِ: ﴿لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ﴾:

لَا يَنْفَعُ الْكُفَّارَ شَيْءٌ فِي الْآخِرَةِ

كُرِّرَ حرفُ النّفي مع المعطوف في قوله: ﴿وَلَآ أَوْلَٰدُهُم﴾؛ لتأكيد عدم إغناء أولادِهم عنهم، دفعًا لِتوهُّم ما هُو معروفٌ في العادةِ مِن أنَّ الأولاد لا يَتقاصَرُونَ عنِ الذّبّ عن آبائهم[1].

ووجهُ تخصيصِ الأموال والأولاد: أنّ أنفعَ الجماداتِ الأموالُ، وأنفعَ الحيواناتِ الأولادُ، وَبيّن اللّه تعالى أنّ الكافر لا ينتفع بهما ألبتة في الآخرة، وذلك دالٌّ على عدم انتفاعِه بسائر الأشياء بطريقِ الأَوْلَى، ونظيرُ هذا قوله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۝٨٨ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ۝٨٩﴾ [الشعراء: 88، 89]، وقوله: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا﴾ [البقرة: 48] الآية، وقوله: ﴿فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ﴾ [آل عمران: 91][2].

دِلَالَةُ حَرْفِ الْجَرِّ (مِنْ) فِي قَوْلِهِ تَعَالَى ﴿لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾:

فِي تَعَدُّدِ مَعَانِي الْحُرُوفِ إِغْنَاءُ الْمَعَانِي الْقُرْآنِيَّةِ

الجارُّ والمجرور ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ متعلّقانِ بـ ﴿لَن تُغْنِيَ﴾، على اعتبار أنَّ ﴿مِّنَ﴾ ابتدائية؛ والمعنى: لا تُغني عنهم غَناءً صادرًا من اللّه تعالى بالعَفْوِ عَن كُفْرِهم، و﴿مِّنَ﴾ التِي لابتداء الغاية هي في قول الْمُبَرِّد بمعنى: (عند)[3]، فقول اللّه تعالى: ﴿لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ معناها: عند اللّه[4]، وجعله أبو عبيدةَ مثل قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ۝٤﴾ [قريش: 4]، وقال: معناه (عندَ جُوعٍ) و(عندَ خَوْفٍ)[5].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/60.
(2) الرّازي، التَّفسير الكبير: 8/336.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/60.
(4) ابن المنذر، تفسير ابن المنذر: 1/135.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/60.

وقال الزمخشري: قوله: ﴿مِّنَ﴾ في قوله ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾، مثله في قوله: ﴿إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغۡنِي مِنَ ٱلۡحَقِّ شَيۡـًٔا﴾ [يونس: 36]؛ والمعنى: لن تغني عنهم من رحمة الله، أو من طاعة الله شيئا، أي: بدل رحمته وطاعته، وبدل الحق. ومنه: "وَلَا يَنْفَعُ ذَا الْجَدِّ مِنْكَ الْجَدُّ"؛ أي: لا ينفعُه جَدُّه وحظُّه مِنَ الدُّنيا بذلك، أي: بدل طاعتك وعبادتك وما عندك، وفي معناه قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُم بِٱلَّتِي تُقَرِّبُكُمۡ عِندَنَا زُلۡفَىٰٓ﴾ [سبأ: 37][1].

وفي إثباتِ معنى البدليّة لـ ﴿مِّنَ﴾ خلافٌ، وقد استدل مَنْ أثبتَهُ بقوله تعالى: ﴿أَرَضِيتُم بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِۚ﴾ [التّوبة: 38]، أي: بدلَ الآخرة، وبقوله: ﴿وَلَوۡ نَشَآءُ لَجَعَلۡنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةٗ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَخۡلُفُونَ ٦٠﴾ [الزّخرف: 60]؛ أي: لجعلنا بَدَلَكُم.

يَجُوزُ أَن تكونَ ﴿مِّنَ﴾ تبعيضيَّةً؛ بناءً على أنَّ ﴿شَيۡـًٔاۖ﴾ منصوبٌ على المصدريَّةِ، كقولكَ: ضربتُ زيدًا شيئًا منَ الضَّربِ، ويَكُون ﴿مِّنَ ٱللَّهِۚ﴾ في موضعِ الحال مِن ﴿شَيۡـًٔاۖ﴾.

فتلَخَّص في معنى ﴿مِّنَ﴾ أقوالٌ؛ أنَّها لابتداءِ الغاية، وهو قول المبرِّد والكلبيِّ، أو أنَّها بمعنى: (عند)، وهو قول أبي عُبَيْدَة، أو تكونُ بَدَلِيَّةً، وهو قول الزّمخشريِّ، أو تكون لِلتّبعيضِ، وهو ما اختاره أبُو حيّانَ[2].

فَائِدَةُ تَخْصِيصِ الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ بِالذِّكْرِ فِي قَوْلِهِ: ﴿لَن تُغۡنِيَ عَنۡهُمۡ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔاۖ﴾:

لِلْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ خَصِيصَةٌ عِنْدَ النَّاسِ؛ تَكَاثُرًا وَتَبَاهِيًا

قال الله تعالى: ﴿لَن تُغۡنِيَ عَنۡهُمۡ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔاۖ﴾ أي: التي أَعْرَضُوا عنِ الحقِّ لأجلِها، فَبَيَّنَ اللّه تعالى وجهَ غُرُورهم بها تحذيرًا مِن جعلِها آلةً للاغترارِ وتَرْكِ الحقّ، وتذكيرًا بِأنّه لا يَنْبَغِي أَن تَشْغَلَ أحدًا عَنِ الآخرة[3].

قال ابن عطيّة: "وخصَّ اللّهُ تعالى الأموالَ والأولادَ بالذِّكْرِ؛ لِوُجُوهٍ، منها: أنّها زينة الحياة الدُّنيا، وعُظْمُ مَا تجري إليه الآمالُ، ومِنْهَا: أنّها أَلْصَقُ النّصرةِ بالإنسان وأيسرُها، ومنها: أنَّ الكفَّار

(1) الزمخشري، الكشاف: 1/339 - 340.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/35.
(3) رضا، تفسير المنار: 3/195.

يَفْخَرُون بالآخرةِ لا هِمَّةَ لهم إلَّا فيها هِي عندهم غايةُ المرء وبِهَا كانوا يَفْخَرُون على المؤمنين، فذكَرَ اللّه أنَّ هذين اللَّذَيْن هما بهَذِه الأوصَافِ لا غَنَاء فِيهما مِن عِقَاب اللّه في الآخِرَة، فإذا لَم تُغْنِ هذه؛ فغَيْرُها مِنَ الأمور البعيدةِ أَحْرَى أن لَا يُغْنِي"[1].

نُكْتَةُ جَمْعِ الْأَوْلَادِ إِلَى الْأَمْوَالِ، وَسِرُّ تَقْدِيمِ الْأَمْوَالِ عَلَى الْأَوْلَادِ فِي قَوْلِهِ: ﴿لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم﴾:

قَطْعُ طَمَعِ الْكَافِرِينَ فِي أَنْ يَنَالَهُمْ شَيْءٌ مِنَ النَّفْعِ

ذُكِرَت الأموال والأولاد في قوله: ﴿لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔاۖ﴾؛ لأنّ الغَنَاء في مُتَعارَف النّاس يكُون بالمال والولَد، فَالمالُ يَدْفَعُ به المرءُ عَن نفسه في فِدَاءٍ أو نَحْوِه، والولدُ يُدَافِعُون عَن أَبيهم بالنّصر[2]، وجُمِعَا معًا لأنَّ الإنسانَ يَدْفَعُ عَن نفسه تارةً بِفِدَاءِ المَالِ، وتارةً بِالِاسْتِعَانَة بالأولَاد[3]، فقُطِعَ - بِجَمْعِهِما - طَمَعُ أَهلِ الْكُفْرِ في أَنْ ينَالَهُم شيءٌ مِنَ النَّفْعِ.

ولَمَّا كان المالُ في بابِ المُدَافعةِ والتّقرُّب والفِتْنَة أبلغَ مِنَ الأولادِ، قُدِّمَ في هذه الآيةِ؛ اهْتِمَامًا بِهِ، وذِكْرًا لِمَا يتوهَّمُ العبدُ أنَّه يُغْنِي عنه عَلَى جِهَة التَّدَلِّي، ومن نظائر هذه الآيةِ قولُه سبحانه: ﴿وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ﴾ [سبأ: 37]، وقولُه تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [الأنفال: 28]، وفي قوله: ﴿وَتَكَاثُرٌ فِي ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِۖ﴾ [الحديد: 20]، وقوله ﷻ: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۝٨٨﴾ [الشّعراء: 88]، وهذا بِخِلَافِ قولِه تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ﴾ [آل عمران: 14]؛ فإنَّه ذُكِرَ هُنَا حُبُّ الشَّهوات، فَقُدِّم فيهِ النِّساء والبنُون على ذِكْرِ الأموال[4].

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 1/494.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/60.
(3) الخازن، لباب التأويل: 1/288، والبغويّ، معالم التّنزيل: 1/497.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/34.

فكان حاصلُ ما سبق: أنَّ الأموالَ قُدِّمَتْ في مقامِ الْإِغْنَاءِ والمُدافعةِ عَن صَاحِبِهَا، وقُدّمَ الأولادُ في سياقِ شَهوات الدُّنيا وزِينَتِهَا؛ وذلك لأنّ النّساءَ والأولادَ أكبرُ أثرًا في النّفسِ وتَزْيِينِ التَّكاثُرِ والتّفاخُرِ بينَ النّاس، وأنَّ الأموالَ أَجْدَرُ في الْإِغْنَاء.

وفي ذِكْرِ الأموالِ والأولادِ ههنا إيماءٌ إلى أنَّه لا ينبغي أن يمنعَ أحدًا عن الحقِّ شيءٌ من ذلك؛ لأنّ المغرور إنّما يصدُّه عنِ اتِّباع الحقّ أو النّظر في دليله الاستغناءُ بما هو فيهِ مِنَ النّعم؛ وأعظمُها الأموالُ والأولاد، فالذي يَرى نفسَه مستغنيًا بمثل ذلك؛ قلّما يوجِّه نظرَه إلى طلب الحقّ، أو يُصْغِي إلى الدّاعي إليه[1].

بَلَاغَةُ إِيجَازِ الْحَذْفِ فِي قَوْلِهِ: ﴿مِّنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗاۖ﴾:

تَذْكِيرُ الْعِبَادِ بِأَفْضَالِ اللهِ تَعَالَى تَرْغِيبًا، وَبَطْشِهِ وَقُوَّتِهِ تَرْهِيبًا

في قوله: ﴿لَن تُغۡنِيَ عَنۡهُمۡ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗاۖ﴾ إيجازٌ بالحذفِ، والتَّقدير: لن تُغنِيَ عنهم مِنْ عذابِ اللّه شيئًا[2]، والمرادُ: عذابُه الدّنيويّ والأخرويّ.

ونكتةُ هذا المجازِ: التّذكيرُ باللّهِ تعالَى وبأَفْضَاله عليهم؛ لعلَّهم يَرْعَوُونَ ويرجعونَ عن غيِّهم، وفيه إدخالُ المهابةِ بذكر الاسم الأحسن (اللّه) المتضمِّنِ صفاتِ الجلالِ والكمالِ؛ تهديدًا لَهُمْ وتخويفًا مِنْ عذابِهِ وبطشِهِ بِهِمْ.

نُكْتَةُ تَنْكِيرِ ﴿شَيۡـٔٗاۖ﴾ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَن تُغۡنِيَ عَنۡهُمۡ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗاۖ﴾:

عَدَمُ انْتِفَاعِ الْكُفَّارِ فِي الْآخِرَةِ بِشَيْءٍ مِنَ الْمَالِ وَالْوَلَدِ

نُصب (شَيْئًا) من قول اللّه تعالى: ﴿لَن تُغۡنِيَ عَنۡهُمۡ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗاۖ﴾ على المفعوليَّةِ المطلقَةِ لِفعْلِ ﴿تُغۡنِيَ﴾، والمعنى: لَنْ تغنيَ عنهم شَيئًا مِنَ الْغَنَاء.

(1) رضا، تفسير المنار: 4/62.
(2) الزّحيلّي، المُنير: 3/158.

وتنكير ﴿شَيۡـٔٗاۖ﴾ يُرادُ به التّقليلُ، أي لن تنفعهم أيَّ نفعٍ ولَو كانَ قليلًا[1]، اجتثاثًا لآمالِهم من جذورِهَا.

نُكْتَةُ وَصْلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ﴾ بِمَا قَبْلَهَا:

سُوءُ عَاقِبَةِ أَهْلِ الْكُفْرِ فِي الْآخِرَةِ

عُطِفَ قولُهُ: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ﴾ على قوله قبلُ: ﴿لَن تُغۡنِيَ عَنۡهُمۡ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُم﴾، وهذا العطفُ على خلافِ الغالب في نظائرِهَا أَنْ يكُونَ مِنْ غيرِ عطف، والنُّكْتَةُ في العطفِ: القصدُ إلَى أَن تَكُونَ الجملةُ مُنْصَبًّا عليها التّأكيدُ بحرف (إنَّ)، فَيَكْمُلُ لها مِن أدلَّة تحقيق مَضْمُونِها خمسةُ أدلّةٍ؛ هي: التّأكيد بـ (إنَّ)، ومَوقع اسم الإشَارَة، وَالْإِخْبَارُ عنهُم بأنَّهم أصحابُ النَّار، وَضَمِيرُ الفصلِ، وَوَصْفُ ﴿خَٰلِدُونَ﴾[2]؛ مبالغةً في بَيَانِ سُوءِ عَاقِبَتِهم وَقُبْحِ مَآلِهم في الآخِرَةِ.

سِرُّ اسْتِعْمَالِ اسْمِ الْإِشَارَةِ ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ﴾:

انْحِطَاطُ رُتْبَةِ الْكَافِرِينَ بِاللهِ تَعَالَى وَبُعْدُهُمْ عَنْهُ

اسم الإشارة ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ في قَوْلِه: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ - وهو دالٌّ على البُعْدِ - فيه إيماءٌ إلى انحطاطِ رُتْبَتِهم، وَبُعْدِهم عَنِ اللهِ تعالَى، وَتَبَاعُدِهِمْ مِمَّا أَنْزَلَهُ من الشَّرعِ.

بَلَاغَةُ الْقَصْرِ فِي قوله: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ﴾:

خُلُودُ الْكُفَّارِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ

وفي التَّعبير بالجملة الاسميَّة في قولِه: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ﴾ دلالةٌ علَى ثُبُوتِ هذا الوصفِ وتحقُّقه ولزُومه لَهُمْ[3].

وفي الجملةِ تعريفٌ لطَرَفَي الإسنادِ: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ وهو معرَّف بالإشارة، و﴿أَصۡحَٰبُ﴾ وهو معرَّفٌ بالإضافةِ إلى ما فيه اللَّام، وهذا التَّعريفُ لطَرَفَي الإسناد مُفيدٌ القصرَ والحصرَ، والمقصورُ في مثلِ هذا التَّركيب هو ما دخلت عليه اللَّامُ، تقدَّمَ ذلك أو تأخَّر، وهو هنا: ﴿أَصۡحَٰبُ﴾ فإنَّها لمَّا أضيفت إلى ما فيه اللَّامُ؛ كانت بمنزلَتِهِ

(1) الزّحيلّي، التفسير المنير: 3/158.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/60.
(3) الزّحيلّي، التفسير المنير: 3/158.

ورُتبتِهِ، وحاصلُ معنى القصر: أنَّ فيه قصرَ أصحاب النَّار على الذين كفرُوا، وهو قصرٌ ادِّعائيٌّ؛ لأنَّ النَّار يدخُلُها عصاةُ الموحِّدين ثُمَّ يخرجون منها، ونكتةُ القصر: التَّنبيه على أنَّ الكفَّارَ هُمُ الأحقَّاءُ بالنَّار؛ إذْ هم خالدُونَ فيها، لا يخرجُونَ مِنْهَا أبدًا.

دِلَالَةُ الْإِضَافَةِ وَالْكِنَايَةِ فِي قَوْلِهِ: ﴿أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ﴾:

حَقَارَةُ الْكُفَّارِ وَلُزُومُهُمُ النَّارَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لُزُومًا مُؤَبَّدًا

جُعِلَ الكفَّارُ أصحابًا للنَّار في قولِه تعالى: ﴿أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ﴾؛ لأنَّهم مِن أهلِها الذين لا يَخْرُجُون مِنْهَا ولا يُفَارِقُونَها، كصاحب الرّجلِ الذي لا يُفَارِقُه، وقرينِهِ الذي لا يُزَايِلُه، ويُقَوِّيه قولُه بعدُ: ﴿هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾[1].

والإضافة في ﴿أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ﴾ إضافةُ تَخْصِيصٍ، وهي مقتضِيةٌ ثبوتَ ذلك لهم ودوامه[2]؛ إذ معنى ﴿أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ﴾ أنَّهم مُلَازِمُوهَا[3]، فيَكون قوله: ﴿أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ﴾ كنايةً عَنِ المُلازمةِ ودوامِ الخلودِ فيهَا.

وفي الإضافةِ أيضًا تحقيرٌ للمضافِ وهم (الأصحاب) المُشارُ بهم إلى الذين كفرُوا.

نُكْتَةُ ذِكْرِ الْمُسْنَدِ إِلَيْهِ ﴿هُمْ﴾ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾:

الْمُبَالَغَةُ فِي تَوَعُّدِ الْكُفَّارِ وَتَهْدِيدِهِمْ دَالٌّ عَلَى عِظَمِ جَرَائِمِهِمْ

ذُكِرَ المُسْنَدُ إِلَيْهِ ﴿هُمْ﴾ مِن قَوْلِ اللّٰه تعالى: ﴿هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾، ولَوْ حُذِفَ بأَنْ يَرِدَ النَّظمُ القرآنيُّ: (أُولَئِكَ أصحابُ النَّارِ فِيهَا خَالِدُونَ)؛ لأدَّى أَصْلَ المعنَى، إلَّا أنَّهُ ذُكِرَ المُسْنَدُ إِلَيْهِ ﴿هُمْ﴾ قصدًا إِلَى زيادةِ التَّقريرِ والإيضاحِ، وذلكَ كَمَن يُمْسِكُ بِمُجْرِمٍ عاثَ في الأرضِ فَسَادًا، فيُقال على رُؤُوسِ الأشهادِ: هذا الذي قَتَلَ، هذا الذي سَرَقَ، هذا الذي أَفْسَدَ.

(1) الثّعلبي، الكشف والبيان: 3/133.
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 1/494.
(3) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 1/494.

وتقديم الجارِّ والمجرور ﴿فِيهَا﴾ يُفيد القصرَ والاختصاصَ، والمرادُ: تخصيصُ خلودِهم في النَّارِ، زيادةً في وعيدِهم وتهديدهم وأنَّ خلودَهم في النَّار لا يتحَوَّلُون عنْهَا إلى غيرِها.

وفي التَّقديم ملْحظٌ لفظيٌّ وهو التَّناسبُ الصَّوتيُّ لرؤوسِ الآيِ[1].

دِلَالَةُ اسْمِيَّةِ الْجُمْلَةِ فِي قَوْلِهِ: ﴿هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾، وَسَبَبُ فَصْلِهَا عَمَّا قَبْلَهَا:

الجملةُ الاسميَّةُ في قولِه: ﴿هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ مُؤذِنَةٌ بدوام الوصفِ المذكورِ وثبوتِهِ[2]، وأنَّ خلودَهُمْ أبديٌّ كما دلَّت عليه أدلَّةٌ متكاثرةٌ من الكتابِ والسنَّةِ.

الجَزاء يوم القيامة حتميّ، ثُمّ يُختم بالخُلود

وقولُه: ﴿هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ وردَ تأكيدًا وتقريرًا للجملة قبلَه وهِيَ قولُه: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ﴾، ولذا فُصلَت عنْهَا؛ لما بينَهما من كمال الاتِّصالِ.

ويحتَمِلُ أن يكون بين الجملتينِ: شبهُ كمال الاتِّصال، وهو المعروف بالاستئنافِ البيانيِّ؛ فيكون قوله: ﴿هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ واردًا جوابًا عن سؤالٍ يُفْهَمُ من الجملة التي قبلَهُ، وذلك أنَّ قوله تعالى: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ﴾ يبعث في نفس المتلَقِّي سؤالًا؛ وهو: هل كونُهم أصحابًا للنَّار يقتضي خلودَهُمْ فيها؟ فجاء الجواب: ﴿هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾.

بَلَاغَةُ أُسْلُوبِ التَّرَقِّي فِي قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغۡنِيَ عَنۡهُمۡ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُم﴾ ﴿خَٰلِدُونَ﴾:

تضمنت الآية الكريمة مراحل التّرقّي في وصف ما يُصِيب الذين كفروا؛ فجعل أولى المراحلِ: حرمانَهُمْ ممّا كانوا يتمتّعون به في الدّنيا؛ فقال: ﴿لَن تُغۡنِيَ عَنۡهُمۡ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗاۖ﴾، ثمّ

عَذَابُ الْكُفَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَنْوَاعٌ، بَعْضُهَا أَشَدُّ مِنْ بَعْضٍ

(1) الآلوسي، روح المعاني: 2/252.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 2/252.

عقّب وسجّل عليهم صُحْبَتَهُمْ لِلنّار يوم القيامةِ بقوله: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ﴾، ثُمَّ خَتَم بِأَشْنَعِ ما يُصِيبُ الخلقَ يومَ القيامة؛ وهو الخلودُ في النَّار، فقال: ﴿هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾.

وفائدة هذا الأسلوب البديعيّ: التَّدرُّجُ في التّرهيبِ مِن هَوْلِ ما يُصِيب الذين كفروا يومَ القيامةِ، وهو أوقَعُ في النُّفوسِ، حيث تتلقَّى النَّفسُ تهديدًا شديدًا، حتَّى إذا ظَنَّت أنَّ هذا آخرُ شيءٍ - مع شدَّتِه - يُصادِفُهَا وعيدٌ آخرُ أشدُّ.

﴿مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَثَلِ رِيحٖ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتۡ حَرۡثَ قَوۡمٖ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَأَهۡلَكَتۡهُۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنۡ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ١١٧﴾ [آل عمران: 117]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا ذكر اللّٰهُ شيئًا من أحوال المؤمنين، ذكر شيئًا من أحوال الكافرين ليتَّضح الفرقُ بين القبيلين، وبعد أن ذكر أموالهم وأولادهم وأنّها لن تُغني عنهم من اللّٰه شيئًا، وضَّح هنا الأمر بمثال مُشاهد في الحياة لإقناع المُتلقِّين أنَّ أموال هؤلاء في الحياة الدُّنيا لن تغني شيئًا فهي ﴿كَمَثَلِ رِيحٖ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتۡ حَرۡثَ قَوۡمٖ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَأَهۡلَكَتۡهُۚ﴾؛ فقد أهلكوها في حياتهم الدّنيا بإنفاقها في غير ما أمر اللّٰه تعالى.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿صِرٌّ﴾: جِذر الكلمة هو (صَرَّ): بمعنى الشَّدِّ، والارتفاع، والبَرْدِ، والصوتِ، ومنه الإِصرارُ: العَزْمُ على شيءٍ لا يُهَمُّ بالإقلاع عنه، والإصرارُ على الذَّنب. وصَرُّ الأذنين: ضمٌّ وشَدٌّ لهما يمنع انتشارهما، كما يُصِرُّ الحمار أذنيه. والصِّرُّ: البَرْد الذي يضربُ كلَّ شيءٍ ويَحُسُّه، ويجعل الأشياء تتقبَّض وتتجمَّد، ومنه قوله تعالى: ﴿فِيهَا صِرٌّ﴾. وصَرَّ الجُنْدبُ صريرًا، وكلُّ صَوْتٍ شِبْهُ ذلك فهو صرير إذا امتدَّ، فاذا كانَ فيه تخفيفٌ وتَرجيع في إعادةٍ ضُوعِفَ؛ كقولك: صَرْصَرَ الأخطَبُ صَرْصَرَةً. وريحٌ صَرْصَرٌ: ذات صِرٍّ، وقوله: ﴿وَأَمَّا عَادٞ فَأُهۡلِكُواْ بِرِيحٖ صَرۡصَرٍ عَاتِيَةٖ ٦﴾ [الحاقة: 6]، ويقال: ذاتُ صَوْتٍ، والصَّرْصَرُ نَعْتٌ لها من البَرْدِ. وصَرَّ البابُ، وصَرَّتِ الآذانَ اذا سَمِعتَ لها صَوْتًا ودَوِيًّا. والصَّرَّةُ: شِدَّة الصِّياح، وتقول: جاءَ في صَرَّةٍ[1].

2) ﴿أَصَابَتۡ﴾: جِذر الكلمة هو (صَوَب)، أَصْلٌ صَحِيحٌ يَدُلُّ عَلَى نُزُولِ شَيْءٍ وَاسْتِقْرَارِهِ قَرَارَهُ. مِنْ ذَلِكَ الصَّوَابُ فِي الْقَوْلِ وَالْفِعْلِ، كَأَنَّهُ أَمْرٌ نَازِلٌ مُسْتَقِرٌّ قَرَارَهُ، والقاصد إذا

(1) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة، وابن سيده، المُحكم، والزّمخشريّ، أساس البلاغة، والسمين، عمدة الحفاظ: (صرر).

أدرك المقصود بحسب ما يقصده يقال أصاب كذا؛ أي وجد ما طلب، والمُصيبة أصلها في الرَّمية ثم اختُصَّت بالنّائبة، نحو: قوله: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ﴾ [آل عمران: 165]، وقوله: ﴿فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصۡرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُۖ﴾ [النّور: 43]. وصابَ السّهم، لغة في أصَابَ، وفي المثل: (مع الخواطئ سهم صائِبٌ)؛ و(الصَّوْبُ) لغة في الصّواب والصَّواب ضد الخطأ[1].

والمعنى هنا: نَزَلت وهبَّت.

3) ﴿حَرۡثَ﴾: جذر الكلمة هو (حَرَث): أَصْلَانِ مُتَفَاوِتَانِ في المعنى: أَحَدُهُمَا الْجَمْعُ وَالْكَسْبُ، وَالثَّاني أَنْ يُهْزَلَ الشَّيْءُ. فَالْأَوَّلُ الْحَرْثُ، وَهُوَ الْكَسْبُ وَالْجَمْعُ، وَبِهِ سُمِّي الرَّجُلُ حَارِثًا؛ لتصوُّر معنى الكسبِ منه، والثاني: الإهْزالُ يُقَالُ: حَرَثَ نَاقَتَهُ: هَزَلَهَا؛ و: أَحْرَثَهَا أَيْضًا. وَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُ الْأَنْصَارِ لَمَّا قَالَ لَهُمْ مُعَاوِيَةُ: "مَا فَعَلَتْ نَوَاضِحُكُمْ؟" قَالُوا: "أَحْرَثْنَاهَا يَوْمَ بَدْرٍ". والحَرْث: قَذْفُك الحَبَّ في الأرض، والحَرْث والحِراثة: العملُ في الأرض زرعًا كان أو غَرْسًا؛ لأنه يسبقه إثارةُ الأرض، قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيۡتُم مَّا تَحۡرُثُونَ ٦٣ ءَأَنتُمۡ تَزۡرَعُونَهُۥٓ أَمۡ نَحۡنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ٦٤﴾ [الواقعة: 63، 64]، والحرث: الزَّرْع لأنه يخرج من الأرض بذلك: ﴿كَمَثَلِ رِيحٖ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتۡ حَرۡثَ قَوۡمٖ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَأَهۡلَكَتۡهُۚ﴾، وكلُّ ﴿حَرۡثَ﴾ في القرآن فهو بهذا المعنى، وأمَّا قوله: ﴿نِسَآؤُكُمۡ حَرۡثٞ لَّكُمۡ﴾ [البقرة: 223] فهذا على سبيلِ التمثيل؛ لأنهنَّ مُزْدرع بذور الرجال. ويُسْتَعْمَلُ ﴿حَرۡثَ﴾ في ثَمَراتِ الأعْمالِ ونَتائِجِها بِطَرِيقِ الاسْتِعارَةِ المَبْنِيَّةِ عَلى تَشْبِيهِها بالغِلالِ الحاصِلَةِ مِنَ البُذُورِ، كقوله: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلۡأٓخِرَةِ نَزِدۡ لَهُۥ فِي حَرۡثِهِۦۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلدُّنۡيَا نُؤۡتِهِۦ مِنۡهَا وَمَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ٢٠﴾ [الشورى: 20][2].

4) ﴿فَأَهۡلَكَتۡهُۚ﴾: جذر الكلمة هو (هَلَكَ): الهُلْكُ: الهَلاكُ. والاهْتِلاكُ: رَمْيُ الإنسان نَفسَهُ في تَهلُكةٍ. والتَّهْلُكَةُ: كلُّ شيءٍ يصيرُ عاقبتُه إلى الهَلاكِ. والقَطاةُ تَهْتَلِكُ من خَوْفِ البازيِّ؛ أي: ترمي نفسَها في المَهالِك. وقومٌ هلكَى وهالكون. وقد استعمل القرآنُ الكريمُ لفظَ الهَلَاك في الموت المعتاد بلا أخذ عذاب، كما في قوله: ﴿إِنِ ٱمۡرُؤٌاْ هَلَكَ﴾ [النساء: 176]،

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، والرّازي، مختار الصّحاح: (صوب).

(2) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة، وابن سيده، المُحكم، والراغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (حرث)، وينظر: أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/29.

وكذا ما في يوسف: [الآية: 85]، والقصص: [الآية: 88] ويس: [الآية: 31]، والجاثية: [الآية: 24]، والملك: [الآية: 28]، كما استعمله في إنفاد المالِ إنفاقًا لا بتدمير في: ﴿يَقُولُ أَهۡلَكۡتُ مَالٗا لُّبَدًا ٦﴾ [البلد: 6]، وفي سائر المواضع في معنى الإفناء الذي فيه مؤاخذة، كما هنا[1].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

يضربُ اللّهُ مثلًا لما ينفقُه الكفارُ من أموالهم التي فتنَتهم وشغَلَتهم عن الحقِّ، ويصدون بها عن سبيل اللّه، ويستعينون بها على إطفاء نور اللّه، بأنها تَبْطلُ وتضمحلُّ، كمن زَرَع زرعًا يرجو نتيجتَه ويؤمِّل إدراك ريعِه، فبينما هو كذلك إذ أصابتْه ريحٌ فيها بَرْدٌ شديدٌ مُحرِقٌ، فأهلكت زرَعه، ولم يحصل له إلا التعبُ والعناءُ وزيادة الأسفِ، فكذلك هؤلاءِ الكفارُ لم تنفعْهم أموالُهم وقت حاجتهم إليها، بعد ما كانوا يرجون من عائدها نفعًا، فالكفر أبطل ثوابَ أعمالِهم التي يرجونها، واللّه لم يظلمهم - تعالى عن ذلك، إيماءً إلى أنَّ الإنسان هو الذي يُولِّدُ المصائب لنفسه، بمعاكسته لسنن اللّه، والشّرائع كلُّها منطبقة على السُّنن - وإنما ظلموا أنفسهم؛ بسبب كفرهم به وتكذيبهم رسله، ومنعِ حقّ اللّه[2].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

سَبَبُ فَصْلِ قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ عَمَّا قَبْلَهُ:

أَعْظَمُ مَوَانِعِ قَبُولِ النَّفَقَةِ فِي الْخَيْرِ الْكُفْرُ بِاللهِ تَعَالَى

فُصِلَ قولُ اللّه تعالى: ﴿مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ عمَّا قبلَه؛ لوقوعِه استئنافًا بيانيًّا، وذلك أنَّ قوله سبحانه: ﴿لَن تُغۡنِيَ عَنۡهُمۡ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗاۖ﴾ يُثيرُ سؤالًا عن مآلِ إنفاقِهم في الحياة الدُّنيا في وجوهِ الخير؛ مِن إطعامِ الطَّعام، وإغاثة المَلْهُوف، وبَذْلِ الدِّياتِ عنِ القَتْلَى، فجاء الجواب: ﴿مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَثَلِ رِيحٖ فِيهَا صِرٌّ﴾[3].

(1) الخليل، العين، والراغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (هلك).

(2) الثّعلبي، الكشف والبيان: 3/132، والسعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 65، والموصلّي، أولى ما قيل: 2/529.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/61.

ويحتَمِلُ أن يكون بين الجملتين كمالُ الاتِّصالِ؛ وذلك لأنَّ قولَه: ﴿مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ﴾ بمنزِلَةِ البيانِ لِقَوْلِهِ: ﴿لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم﴾[1]، فما يُنْفِقُون مِنَ الأموال في هذه الحياةِ بأساليبهم المختلفة في مُعادَاةِ اللّهِ تعالَى ورَسُولِهِ؛ تالفٌ هالكٌ، سَيُصِيبهُ مِنَ الفناءِ ما أصاب الحرثَ الذي أصابته الرِّيحُ الصِّرّ فأهلكته، وهكذا فلَنْ تُغْنِيَ عَنْهُم أموالُهم ولا أولادُهم مِن اللّهِ شيئًا.

نُكْتَةُ إِيرَادِ اسْمِ الْإِشَارَةِ فِي قَوْلِهِ: ﴿هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾:

حَقَارَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي جَنْبِ الْآخِرَةِ

في التَّصريح باسْمِ الْإِشَارَة ﴿هَٰذِهِ﴾ من قَوْلِه تَعَالَى: ﴿هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ إطنابٌ؛ لإمكانِ حذفِهِ مع بقاءِ أصلِ المعنى، بأن يَرِدَ النَّظمُ القرآنيُّ: (مثل ما يُنفقون في الحياة الدُّنيا)، وفي إيرادِ الاسم اسم الإشارةِ نُكْتَتانِ:

إحداهما: الإيماءُ إلى حقارة الدُّنيا بالإشارة إليها باللَّفْظِ الدَّالِّ على القُرْبِ.

والأخرى: الإشعارُ بأنّ نفقاتِهم يَذْهَبُ أثرُهَا في هذه الحياةِ الدُّنيا، فَلَا يَتعدّاها إِلَى الآخرَةِ بحصولِ الأجرِ لهم فيهَا، فَفِي الإتيانِ باسم الإشارة ﴿هَٰذِهِ﴾ حصرُ مَرْدُوداتِ الْإِنْفَاقِ ونَفْعِه، ودَفْعِه عَن صاحبه، وأنَّهُ لا يَكُون إلّا في هذه الحياة الدّنيَا.

بَلَاغَةُ التَّشْبِيهِ التَّمْثِيلِيِّ فِي قَوْلِهِ: ﴿مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ﴾:

تَتَرَاكَبُ الصُّوَرُ الدُّنْيَوِيَّةُ زِينَةً وَغُرُورًا، وَلَكِنَّهَا تَبْقَى عَاجِزَةً أَمَامَ حَقِيقَةِ الزَّوَالِ

في معنَى الصِّرِّ الواردِ في قول اللّه تعالى: ﴿كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ﴾ وجهان:

أحدهما - وهو قول أكثر المفسرين، وأهل اللّغة -: أنّ الصِّرَّ البردُ الشَّديد، وبه قال ابنُ عباس وغيرهُ.

والآخَرُ: أنّ الصِّرَّ هو السّموم الحارّة التي تَقْتُلُ، وهو روايةٌ عن ابنِ عباس، وبه قال ابنُ الأنباري مِن علماءِ اللُّغة.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/62.

وعلى كلا الوَجْهَيْنِ يجري التَّشبيهُ ويَلْتَئِم معناهُ، ويحصلُ مقصودُهُ منه؛ لأنّها سواءٌ أكان في الرِّيح بردٌ شديدٌ؛ فهي مُهْلِكَة، أو حرٌّ؛ فهي مهلكة أيضًا.

وقوله: ﴿أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ﴾؛ أي زرعَهُمْ، وقوله: ﴿ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾؛ أي بالكفر والمعاصي ومنعِ حقِّ اللّه فيه، وقوله: ﴿فَأَهْلَكَتْهُ﴾ أي: فأهلكت الرّيحُ الزّرعَ، والآيةُ تمثيلٌ لنفقات الكُفّار في ذهابها وقتَ الحاجة إليها، كمثل زرع أصابتْهُ ريحٌ باردة فأهلكته، أو نارٌ فأحرقته؛ فلم ينتفعْ بِهِ أصحابُه[1].

والغرضُ: تشبيهُ ما أنفقوا وإبطال ثوابِه، وعدم الانتفاع بالحرث الذي هلك بالريح، فشبَّهه بالرّيح المهلكة للحرث.

والتّشبيه: مركّبٌ؛ وهو ما حصلت فيه المشابهة بين ما هو المقصودُ من الجملتين، وإن لم تحصل المشابهة بين أجزاء الجملتين، وهو المسمَّى عند البلاغيِّين بالتَّشبيه التَّمثيليِّ.

ومن التّشبيه: ما حصلت فيه المشابهة بين المقصودِ مِنَ الجُمْلَتَين وبينَ أجزاءِ كلّ واحدة مِنْهُما؛ فإنْ جَعَلْنَا هذا المَثَلَ مِن هذا القسم؛ ففيه وجهانِ:

أحدهما: أن يكونَ التّقديرُ: مَثَلُ الكُفْرِ في إهلاك ما ينفقون، كمثل الرِّيح المُهْلِكَةِ الْحَرْثَ[2].

والوجه الآخَرُ: مَثَلُ ما ينفقون كمثلِ مَهْلَكِ الرّيح وهُوَ الحَرْثُ، والمقصودُ مِن ضَرْبِ هذا المَثَلِ هُو تشبيهُ ما ينفقون بِشَيْءٍ يَذْهَبُ بالكلِّيَّة ولا يَبْقَى مِنْهُ شَيْء[3]، عقوبةً لَهُمْ؛ لأنّ الإهلاكَ عن سخط أشدُّ.

وعلى القول بتركيبِ التَّشبيه؛ ففيهِ تشبيهُ مَا أَنْفَقُوه وبَذَلوه، ثُمَّ ضاعَ عليهم ثوابُهُ؛ بحَرْثِ زُرَّاعٍ ضَرَبَتْهُ صِرٌّ فاسْتَأْصَلَتْهُ ولم يبقَ لَهُم فيه منفعَةٌ مَا، وكذلك هؤلاءِ لا ينتفعُونَ بما أنفقوهُ في الدّنيا ولا في الآخرَةِ، وهُوَ مِن التّشبيه المركّب، ولذلك لم يُعْتَنَ بإيلاءِ كَلِمَةِ التّشبيه لِلرّيح دُونَ الحرث[4].

(1) الخازن، لباب التأويل: 1/408.
(2) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 2/34، والزّمخشري، الكشّاف: 1/434، والخازن، لباب التأويل: 1/408.
(3) الزّمخشري، الكشّاف: 1/434، والخازن، لباب التأويل: 1/408.
(4) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 2/34.

وقد ضَرَب اللّهُ تعالى مثلًا لأعمالِهم المتعلِّقَة بالأموالِ؛ فشبّه هيئةَ إنفاقِهم المُعْجِبِ ظاهرُها، المخيِّبِ آخرُها، حين يُحْبِطُها الكفرُ، بهيئة زرعٍ أصابَتْهُ ريحٌ باردة فأهلكته، وهو تشبيهُ معقولٍ بمَحسوس[1].

قال الزّمخشريّ: "شبّه ما كانوا يُنفقونه مِن أموالِهم في المَكَارم والمفاخِرِ وكَسْبِ الثّناء وحُسْنِ الذِّكْرِ بينَ النَّاس، لا يَبْتَغُون به وجهَ اللّهِ، بالزّرع الذي حسَّهُ البردُ فصارَ حُطامًا، أو هُوَ ما يتقرّبون بهِ إلى اللّه مَعَ كُفْرِهم"[2]، وقال ابن عطية: "معناه: المثالُ القائمُ في النّفوس مِن إنفاقهم الذي يَعُدُّونه قُرْبَةً وحِسْبَةً وتحنُّثًا، ومِن حَبْطِهِ يومَ القيامة وكَوْنِه هَباءً منثورًا وذهابِهِ، كالمثالِ القَائِمِ في النُّفُوسِ مِن زَرْعِ قومٍ نَبَتَ واخضرّ وقَوِيَ الأملُ فيه، فهبّت عليه ريحٌ صِرٌّ مُحْرِقةٌ، فأهلكته"[3].

نُكْتَةُ تَقْدِيمِ الرِّيحِ وَصِفَاتِهَا عَلَى الْحَرْثِ فِي صُورَةِ الْمُشَبَّه بِهِ فِي قَوْلِهِ: ﴿كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ﴾:

الْفُجَاءَةُ فِي الرِّيحِ أُنْمُوذَجٌ عَلَى الْفُجَاءَةِ فِي زَوَالِ النِّعَمِ فِي الدُّنْيَا

اشتملَتْ صُورَةُ المُشَبّهِ بِهِ على عنَاصِر عدّةٍ، مِنْهَا: (الرِّيح)، وَ(الصِّرّ)، وَ(الْإِصَابَة)، و(الْحَرْثُ)، و﴿قَوْمٍ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾، ومِن مقتضيات هذا التّشبيهِ أَنْ يُقدّم الحرثُ على الرّيح ومتعلِّقاتها؛ كالصِّرّ والإصابة؛ وكان يُتَوَقَّعُ أن يُقال: كَمَثَلِ حرثٍ أصابَتْهُ ريحٌ؛ لأنّه يُشبِّهُ ما يُنفقون بالحرث.

وفائدةُ هذَا التّقديم والتّأخير بينَ عناصر المشبّه بِه: هو بيانُ أنّها - أي: الرّيح - حاضرةٌ لِأَخْذِ كُلِّ ما سيُلقى في هذه الأرضِ، فَنَفَقاتُهُم كالشَّيءِ الذي تَأْخُذُهُ الرّيحُ قبلَ أن تَسْتَقِرَّ في الأرضِ.

وتَقْدِيمُ الرّيحِ هُنَا لِلِاخْتِصَاص[4].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/61.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/434.
(3) ابن عطية، المحرر الوجيز: 1/495.
(4) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/434.

بَلَاغَةُ الِاحْتِبَاكِ فِي قَوْلِهِ: ﴿مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ﴾:

إِنْفَاقُ الكُفَّارِ أَمْوَالَهُمْ لَا يُعْقِبُهُمْ غَيْرَ الْخَسَارَةِ وَالتَّعَبِ

وقعَ التّشبيهُ في الآيةِ بين أربعَةِ أشياء: اثنينِ مقابل اثنين، وذُكِرَ واحِدٌ مِنَ المُشَبَّهَيْنِ وتُرِكَ ذِكْرُ الآخر، ثمّ ذُكِرَ أحَدُ الشّيئين المُشبّه بِهِمَا ممَّا لا يُقابلُ المشبَّهَ المذكورَ أوَّلًا، وتُرِكَ ذِكْرُ الآخر، ودلَّ المذكُورَانِ عَلَى المَتْرُوكَيْنِ[1]، وهذا اختيار ابنِ عطيَّة، وقال: وهذه غايةُ البلاغة والإعجاز[2].

وهذا الحذفُ مِن قَبِيل الاحتباكِ وهو المسمَّى: الحذفَ المقابَلِيَّ أو حذفَ التَّقابُلِ، وأكّد ذلك ما ذكره البقاعيّ في قوله: "ومَثَلُ إنْفَاقِهم لهُ في كونهِ ضَرَّهم ولم يَنْفَعْهم، مَثَلُ الرّيح في كونها ضرّتِ الزّرع ولم تَنْفَعْهُ، فلمّا كانت الرّيحُ الموصوفةُ أمرًا مشاهدًا جليًّا؛ جُعِلَتْ في إهلاكها مثلًا لضياع إنْفَاقِهم الذي هو أمرٌ معنويٌّ خفيّ، ولمّا كان الزّرعُ المحترق أمرًا محسوسًا؛ جُعِل فيما حصل له بعد التّعب مِنَ العطب مثالًا لأمرٍ معقولٍ، وهو أموالُهم في كون إنفاقهم إيّاها لم يُورِثْهم شيئًا غير الخسارة والتَّعب، فالمَثَلَانِ: ضَيَاعُ الزَّرعِ والإنفاقُ، وضياعُ الزَّرع أظهر؛ فَهُوَ مَثَلٌ لِضَيَاع الإنفاق؛ لأنَّه أخفى، وقد بانَ أنَّ الآية مِنَ الاحتباك؛ حُذِفَ أولًا مَثَلُ الإنفاقِ لِدِلَالَةِ الرّيح عليه، وثانيًا الحرثُ؛ لدِلَالَةِ مَا يُنفق عليه"[3].

بَلَاغَةُ الْمَجَازِ الْمُرْسَلِ فِي قَوْلِهِ: ﴿مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾:

الْإِنْفَاقُ فِي وُجُوهِ الْبِرِّ مِنْ أَعْظَمِ أَعْمَالِ الْخَيْرِ

قول الله تعالى: ﴿مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ يحتَمِلُ أن يكونَ واردًا على طريقة المجاز المرسلِ، بعلاقة الجزئيَّة؛ إذْ ذُكِرَ الإنفاقُ، والمرادُ عمومُ أعمال الخيرِ، فإنَّ الكفَّار لا ينتفعونَ في الآخرةِ بشيءٍ من أعمالهم التي عملُوها في الدُّنيا، وإنَّما نُصَّ على

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 1/495، وأبو حيّان، البحر المحيط: 3/314.
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 1/495.
(3) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 2/140.

خصوص الإنفاقِ؛ لتعدِّي نفعِهِ وظهورِ أثرِه في الحياةِ، وفكِّ الكُرَبِ بهِ، وإذا كان هذا ممَّا لا ينفعُهم في الآخرةِ فغيرُه أَوْلَى وأحرَى.

دِلَالَةُ الِالْتِفَاتِ فِي قِرَاءَةِ مَنْ قَرَأَ بِالْخِطَابِ فِي (تُنْفِقُونَ):

زِيَـادَةُ التَّوْبِيخِ وَالتَّقْرِيعِ بِضَرْبِ الْأَمْثَالِ

قرأ ابن هرمز والأعرج (تنفقون) بالتّاء، ففيه التفاتٌ من الغَيبةِ إلى الخطاب؛ إذ تقدَّمه قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغۡنِيَ عَنۡهُمۡ أَمۡوَٰلُهُمۡ﴾ وهو أسلوبُ غَيْبَةٍ، فجاء بعدَهُ - في قراءةِ مَن ذُكر -: (تُنْفقونَ) على إرادةِ المذكورين قبلُ وهم الذين كفرُوا، وهو خِطابٌ، ونكتةُ العدول عن الغَيبة إلى الخطابِ زيادةُ التَّرهيبِ والتَّوبيخِ، والتَّسجيلُ عليهم بما يؤولُ إليه أمرُهم؛ إذ إخراجُ ذلك في صورةِ الخطاب أبلغُ.

دِلَالَةُ الْمَجَازِ فِي قَوْلِهِ: ﴿فِيهَا صِرٌّ﴾:

أصـوات الـرّيـح تؤثر في النّفوس وتـحـدث رهبة وشدّتها وبردها تهلك الحرث

في قولِه: ﴿فِيهَا صِرٌّ﴾ دلالةٌ على شِدَّةِ بَرْدِ هذه الرِّيح، حتَّى كأنَّ جِنْسَ الصِّرِّ مظروفٌ فيها، وهي تَحْمِلُهُ إلى الحَرْث[1]، ويحتَمِلُ أن تكونَ الظرفيةُ مجازًا؛ بأنْ جُعِل الموصوفُ ظرفًا للصِّفة[2].

وارتفاعُ (صِرٌّ) على أنّه فاعل بالمَجْرُور قبله؛ إذْ قَدِ اعتُمِدَ لأنَّه وقَعَ صِفَةً للرّيح، فإنْ كان الصِّرُّ البَردَ - وهو قول ابنِ عبَّاس وجماعةٍ-، أو صوتَ لهيبِ النّارِ أو صوتَ الرِّيح الشَّديدة؛ فظاهرُ كونِ ذلك في الرّيح[3]، فأفادَ وَصْفُ شدّةِ البَرْدِ أو الصّوت دلالةً على سُرعة هذه الرّيح واقتلاعِها لِلزُّروع.

وَإِنْ أُريدَ الصَّوْتُ؛ فهو على سبيل المجاز المُرْسَل، إذْ ذُكِرَ المُسبَّبُ، وأُرِيد السّببُ، وهو سرعة الرّيح، والعلاقة المُسبّبيّة.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/61.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/315، والسّمين، الدرّ المصون: 3/360.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/315.

دِلَالَةُ (صِرٌّ) فِي قَوْلِهِ: ﴿فِيهَا صِرٌّ﴾:

فِـــي تَـــعَـــدُّدِ الِاحْـــتِـــمَـــالَاتِ إِغْـنَـاءُ المَـعَـانِي وَتَكْثِيرُهَا

في الصرّ ثلاثةُ أقوالٍ:

أحدها: أنّه البرد، وهذا قول الأكثرين.

والثاني: أنّه النّار، وهو مرويٌّ عن ابنِ عبَّاس، قال ابن الأنباريِّ: "وإنّما وُصِفَت النّار بأنّها صِرّ؛ لِتَصْوِيتِها عندَ الِالْتِهَابِ".

والثَّالث: أنَّ الصرّ: التّصويتُ والحركةُ مِنَ الحَصَى والحِجَارة، ومنه قولهم: صَرِيرُ النّعلِ، ذَكَرَ هذا ابنُ الأنباريِّ[1].

والصِّرُّ: البَرْدُ الشّديد المُميت لكلِّ زرع أو ورق، يهبُّ عليه فيتركه كالمُحْتَرِقِ، ولم يُعْرَف في كلام العرب إطلاق الصِّرِّ على الرّيح الشّديد البَرِدِ، وإنّما الصِّرُّ اسمُ البَرد[2]، وأمّا الصَّرصَر فهو الرّيح الشّديدة، وقد تكون باردةً.

وجوّز الزَّمخشريُّ في الكشّاف أَن يكون الصِّرُّ هنا اسمًا لِلرِّيح الْبَارِدَةِ، وجعَلَهُ مُرَادِفًا لِلصَّرصر[3]، وهذا الشَّائِعُ: أن يُطلَقَ على الرِّيحِ البَارِدَةِ كالصّرصر، فهو في الأصلِ مَصْدَرٌ نُعِتَ بِهِ، على جهةِ المبالغةِ، كقولك: بَرْدٌ بَارِدٌ[4].

وإن كان الصِّرُّ صفةً لِلرّيح كالصَّرْصَر، فيكون التَّقدير: فِيهَا قِرَّةٌ صِرٌّ، كما تقول: بَرْدٌ بَارِدٌ، فَحُذِف الموصوفُ وقامتِ الصِّفةُ مَقَامَه[5].

ولا مانع من إرادةِ المعاني الثَّلاثة كلّها؛ فتكون النَّارُ باردةً شديدةَ الصَّوتِ، ويكونُ أثرُها شبيهًا بأثرِ النَّارِ.

(1) ابن الجوزي، زاد المسير: 1/317.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/61.
(3) الزّمخشري، الكشّاف: 1/433.
(4) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 2/34.
(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/315، والسّمين، الدرّ المصون: 3/360.

بَرَاعَةُ الْمَجَازِ الْمُرْسَلِ فِي قَوْلِهِ: ﴿أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ﴾:

بُطْلَانُ أَعْمَالِ الْكُفَّارِ مِنْ أَصْلِهَا

الحَرْثُ في الأصلِ: مَصْدَرُ حَرَثَ الأرضَ؛ إذا شقّها بآلَةٍ لِيَزْرَعَ فِيهَا أو يَغْرِسَ، وأُطْلِقَ هذا المصدَرُ عَلَى المحرُوثِ، فصار يُطلق على الجنّات والحوائطِ وحقُولِ الزّرع[1]، فهو مصدر بمعنَى اسم المَفْعُولِ، فقوله: ﴿حَرْثَ قَوْمٍ﴾ أي: محروثَ قَوْمٍ، والمعنى: أصابتِ الرِّيحُ أرضًا مَحْرُوثَةً، والمرادُ: أصابت زَرْعَ حَرْثٍ[2].

فَـ (الحَرْثُ) هُنَا: مَجَازٌ، علاقتُهُ التَّعلُّقُ الاشتقاقيُّ؛ بإطلاق المصدَرِ وإرادة اسم المفعول، ونكتَتُهُ: المبالغةُ في بيان إهلاك هذه الرِّيح، حتَّى كأنَّها أهلكتِ الحرثَ نفسَهُ لا مجرَّد المحروثِ، وفيه إيماءٌ إلى حبوط أعمال الذين كفرُوا، وأنَّها باطلةٌ من أصلِهَا.

ويحتَمِلُ أن يكونَ قوله: ﴿حَرْثَ قَوْمٍ﴾ مجازًا باعتبار ما كانَ، فالزَّرع احتاج الى أرض محروثَةٍ، فذُكِرَ المَحْرُوثُ مِنَ الأرض، وأُرِيدَتِ الزّروعُ المخضرّة، وفيه: إيماءٌ إلى أنَّ الرِّيحَ الصِّرّ قد أعادَتْهُ إِلَى ما قَد كانَ عَلَيْهِ قبلَ الزّرع، وكأنّما لم يَكُنْ فِي الْأَصْلِ، وَلَمْ يَغْنَ بِالْأَمْسِ.

بَلَاغَةُ الْإِدْمَاجِ فِي قَوْلِهِ: ﴿قَوْمٍ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾:

قُبْحُ الظُّلْمِ وَشِدَّةُ عُقُوبَةِ أَهْلِهِ

في قول الله تعالى: ﴿قَوْمٍ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ إدماجٌ في ثنايَا التّمثيل، وهو يُكْسِبُ التّمثيلَ تَفْظِيعًا وتشويهًا وهُوَ ليس جُزْءًا مِنَ الهَيْئَةِ المشبَّهِ بها، وقَدْ يَذْكُرُ البُلَغَاءُ معَ المُشبّهِ بِهِ صفاتٍ لا يَقْصِدُون مِنْهَا غير التّحسينِ أو التّقبيح، وكذا في قوله: ﴿قَوْمٍ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾، إذْ ليس هذا التَّركيبُ مِن أصلِ التّشبيهِ.

والسَّامعون عالِمُون بأنّ عِقابَ الأقوامِ الذين ظَلَمُوا أنفسَهُم غايةٌ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/183.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/61.

في الشّدّة، فذِكْرُ وَصْفِهم بِظُلْم أَنْفُسِهم تذكيرٌ للسَّامِعِين بِذَلِكَ علَى سَبِيل المَوْعِظَةِ[1]، فَيَكُونُ ذلكَ مِن قَبِيلِ الْإِدْمَاجِ.

بَلَاغَةُ التَّرَقِّي فِي وَصْفِ الرِّيحِ:

قوله: ﴿أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ﴾ في موضعِ جرٍّ نعتٌ لِـ ﴿رِيحٍ﴾، وفي ذلك تَرَقٍّ في الوصفِ؛ إذْ بدأ أوَّلًا بقوله: ﴿كَمَثَلِ رِيحٍ﴾؛ والرّيح لا تُستعمَلُ غالبًا إلَّا في العذابِ، ثمّ انتقل إلى الوصفِ بالمَجْرُورِ، فقال: ﴿فِيهَا صِرٌّ﴾، ثمّ بالوصفِ بالجملةِ فقال: ﴿أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ﴾.

التَّرَقِّي فِي ذِكْرِ الْجَزَاءِ الْأَشَدِّ فَالْأَشَدِّ أَوْقَعُ فِي الْقَلْبِ وَأَدْخَلُ فِي التَّرْهِيبِ

وفائدةُ ذلكَ: بيانُ عظيمِ ما فَعَلَتْهُ الرّيحُ بالزّرعِ، في التَّدرُّجِ بذِكْرِ العاقبةِ السَّيئةِ لهم.

بَلَاغَةُ الِاسْتِعَارَةِ فِي قَوْلِهِ: ﴿أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ﴾:

الإِصَابَةُ رَمْيُ السّهم إلى الهَدَفِ فَيُصِيبه، وقولُهم: صابَ السّهمُ؛ هُوَ لُغَةٌ في أَصَابَ، والصَّوْبُ لغةٌ في الصّواب، وهو ضدُّ الخطَأِ[2]، فهذه الرّيحُ لم تُخطئ هذا الزّرعَ وأَتَتْ عليه بِقَصْدٍ، وكأنَّ راميًا يرمي السّهم، فيصيب الهدف، فكذلك هذه الرّيح، قد أُرْسِلَت بِقُدْرَةِ اللّهِ تعالى إلى هَدَفِها، وهذا على سَبِيل الاستعارَةِ، فقد شُبِّهت الرِّيحُ بالسَّهْمِ الذي من شأنِهِ الإصابةُ، فحُذِفَ المشبَّه به ورُمِزَ إليه بشيءٍ من لوازمِهِ وهو الإصابةِ، على طريق الاستعارة المكنيَّةِ.

أَقْدَارُ اللهِ تَعَالَى وَاقِعَةٌ لَا تُخْطِئُ مَنْ وُكِّلَتْ بِهِ

ويحتَمِلُ أن تكون الاستعارةُ تصريحيَّةً في تشبيه إهلاكِ الرِّيحِ الزَّرْعَ بإهلاكِ السَّهْمِ الغرضَ الذي يُصيبُهُ، فحُذفَ المشبَّهُ وصُرِّحَ بالمشبَّهِ به وهو الإصابة.

والوجهان في إجراءِ الاستعارةِ متآيِلَانِ.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/62.
(2) الرّازي، مختار الصّحاح: (صوب).

سِيَاقُ الْكَلَامِ مُعَيِّنٌ لِلْمَعَانِي الْمُحْتَمِلَةِ، فَلَا يَنْبَغِي إِغْفَالُهُ

دِلَالَةُ حَذْفِ مُتَعَلَّقِ الظُّلْمِ فِي قَوْلِهِ: ﴿ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ﴾:

حُذِفَ متعلّق الظُّلْمِ في قولِه: ﴿ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ﴾، وفي تعيينِهِ قولان:

أحدهما: ظلَمُوهَا بالكُفْرِ والمَعَاصِي، ومنع حقِّ اللّه تعالى، فَكَنّى عَنِ المعاصِي بِظُلْمِ النّفس؛ لأنَّ وبالَ الكفرِ وما ذُكرَ معه راجعٌ إلى النَّفْسِ.

والآخرُ: ظلمُوا أنفسَهُم بِأَنْ زَرَعُوا في غيرِ وَقْتِ الزّرع[1]؛ أي: وضعوا أفعالَ الفلاحةِ في غيرِ مَوْضِعِها مِن وقت أو هيئة عمَلٍ.

والأوَّلُ أقوَى لوجهين:

أحدهما: أنَّ ظلمَ النَّفس في عُرْفِ الشَّرع يُرادُ به ظلمُها بالكفر فما دونَهُ، فينبغي حَمْلُ ما وردَ على هذا المعنَى إلَّا لدليلٍ قويٍّ صارفٍ.

والآخَرُ: أنَّ حملَهُ على معنَى ظلمِهم أنفسَهُم بالزِّراعةِ في غير إبَّانِهَا لا يتناسَبُ مع التَّهديد الذي سيق المثلُ من أجلِه؛ لأنَّ عادةَ من يفعل ذلك لا يَجْنِي عَمَلُهُ شيئًا ذَا بالٍ، فما الذي تكون الرِّيحُ قد أهلكتْهُ؟!

الْعُقُوبَةُ الصَّادِرَةُ عَنْ سُخْطٍ تَكُونُ أَشَدَّ وَأَبْلَغَ

بَرَاعَةُ الْإِطْنَابِ بِالتَّتْمِيمِ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَأَهۡلَكَتۡهُۚ﴾:

في ﴿فَأَهۡلَكَتۡهُۚ﴾ من قوله تعالى: ﴿مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَثَلِ رِيحٖ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتۡ حَرۡثَ قَوۡمٖ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَأَهۡلَكَتۡهُۚ﴾ إطنابٌ بالتَّتْميم، فهو تَتْميمٌ لِلْمَقْصُود مِنَ التّمثيل بما يُفيده مِنَ المبالغة؛ لأنّ الإهلاكَ مشعِرٌ بالسّخط، والعقوبة عن سُخْطٍ أبلغُ وأشدُّ[2].

تَجَدُّدُ الظُّلْمِ وَتَنَوُّعُهُ إِصْرَارٌ عَلَى ظُلْمِ النَّفْسِ وَإِذْلَالِهَا

دِلَالَةُ الِالْتِفَاتِ فِي صِيَغِ الْأَفْعَالِ بَيْنَ ﴿ظَلَمُوٓاْ﴾ و﴿يَظۡلِمُونَ﴾:

وفي قوله تعالى: ﴿أَصَابَتۡ حَرۡثَ قَوۡمٖ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَأَهۡلَكَتۡهُۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنۡ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾ الْتِفَاتٌ في صيَغِ الأفعالِ،

(1) ابن الجوزي، زاد المسير: 1/317.

(2) الخفاجي، حاشية على تفسير البيضاوي: 1/401 - 402.

وذلك بين قولِه: ﴿ظَلَمَهُمُ﴾ بصيغةِ الفعل الماضي وقولِه: ﴿يَظْلِمُونَ﴾ بصيغة الفعل المضارع.

ونكتةُ الالتِفَاتِ إلى المُضارع: الدِّلالَةُ على التّجدّد والاستمرارِ؛ لبَيَانِ ما هُم فيه مِنَ الإصْرَارِ على الظُّلْم، فالذي أصابهم من العقوبَةِ كان بسببِ ظُلْمِهم أنفسَهم، وإصْرَارِهم على ذلكَ، وتجدُّدِه فيهم واستمرارِهِم عليه بِمَنْعِ حقّ اللّهِ تعالى فيه.

وهذا مثل ضربه اللّه لإبطالِ أعمالِهم في الآخرة[1].

دِلَالَةُ جِنَاسِ الِاشْتِقَاقِ بَيْنَ: ﴿ظَلَمُوٓاْ﴾ و﴿ظَلَمَهُمُ﴾ و﴿يَظْلِمُونَ﴾:

قوله: ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ﴾ جوَّز الزَّمخشريّ وغيره أن يَعُودَ الضّمير على المُنْفِقين، أي: ما ظلمَهُم بأَنْ لَم تُقْبَلْ نفقَاتُهم، وأَن يَعُودَ على أصحابِ الْحَرْثِ، أي: ما ظلمَهُم بإهْلَاك حَرْثِهم، ﴿وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ بارتكاب المعاصي، واختار ابن عطيَّة الأوَّلَ؛ وليس هو للقوم ذوي الحرث، لأنّهم لم يذكروا ليرد عليهم، ولا لِيُبَيِّنَ ظلمهم، وأيضًا قوله: ﴿وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ يدلّ على فعل الحال في حاضرين[2].

وَبَـــالُ الـظُّـلْـمِ رَاجِـــعٌ عَـــلَى الظَّالِمِ، وَالْجَزَاءُ مِـــنْ جِـــنْـــسِ الْعَمَلِ

وكلا المعنيَيْنِ في نفسِهِ حقٌّ؛ فاللّهُ سبحانه لم يَظْلِمْ أحدًا منهم، لا المُنْفِقين ولا أصحابَ الحرثِ.

وبين ﴿ظَلَمُوٓاْ﴾ و﴿ظَلَمَهُمُ﴾ و﴿يَظْلِمُونَ﴾ جناسُ الاشْتِقَاقِ، ونُكْتَتُهُ: التَّنبيهُ على الظُّلْم وبيانُ عاقبتِهِ الوخِيمَةِ، وَأنّهُ مِحْوَرُ مَا حلّ بِهِم مِنَ الهلاكِ والدّمار، وأَنّ ما بُذل مِنَ الجُهْدِ والوقْتِ والمَالِ في الحَرْثِ والزّرع، قد ذهب كلّه بسبب ظُلْمِهم، وأنّ ظُلْمَهُمْ عائدٌ على أَنْفُسِهم، جزاءً لهم من جنسِ فعلِهم.

(1) ابن الجوزي، زاد المسير: 1/317.

(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 1/496.

وقوله: ﴿وَلَٰكِنۡ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾ فيه حذفٌ، والتَّقدير: (يَظۡلِمُونَهَا هُمۡ)، وحَسَّنَ حذفَ هذَا الضَّمِير العلمُ بهِ، وكونُ ذَلِكَ واقعًا فاصلةً للآية، فلو صرّح به لزال التَّناسُبُ الصَّوتِيُّ بين الآي[1].

نُكْتَةُ تَكْرَارِ النَّفْسِ فِي قَوْلِهِ: ﴿ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ﴾، ﴿وَلَٰكِنۡ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾:

في تكرار ذِكْرِ النَّفس في قولِهِ تعالى: ﴿ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَأَهۡلَكَتۡهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنۡ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾؛ لِبَيَانِ أنَّها لُبُّ الموضوعِ وأُسُّهُ الذي تَنَاوَلَتْهُ الآيَةُ الكريمة، إذْ ذلك يُومِئُ إلى أنَّ النَّفسَ عليها مدارُ الصَّلاحِ والفسادِ، وأنَّ إصلاحَهَا هو المَنْجَى ممّا قد يؤدّي إلى الدّمار والهلاك في الدّنيا والآخرة.

النَّفْسُ هِيَ مَدَارُ الصَّلَاحِ وَالْفَسَادِ، وَإِصْلَاحُهَا مَكْمَنُ النَّجَاةِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ

تَوْجِيهُ الْمُتَشَابِهِ اللَّفْظِيِّ بَيْنَ قَوْلِهِ: ﴿وَلَٰكِنۡ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾ وَقَوْلِهِ: ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ٥٧﴾ [البقرة: 57]:

الضَّمائر في قولِه تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنۡ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾ راجعةٌ إلى الذين كفروا، والمعنى: أنّ اللّه لم يَظۡلِمۡهُم حينَ لم يَتقبّل نفقاتِهم - وفي الضَّمير الأوَّلِ وجهٌ آخرُ تقدَّم ذكرُه قريبًا -؛ بَل هُمُ الذين تسبَّبوا في ذلك إذْ لَم يُؤمنوا؛ لأنَّ اللّه تعالَى جعلَ الإيمانَ شرطًا في قَبُول الأعمال، فلمّا أَعۡلَمَهُم بذلك وأَنۡذَرَهُم؛ لَم يَكُنۡ عقابُه بعدَ ذلكَ ظُلۡمًا لهم.

وفيه إيذانٌ بأنَّ اللّهَ تعالَى لا يُخَالِفُ وَعۡدَهُ مِنۡ نَفۡيِ الظُّلم عن نفسه[2].

التَّارِيخُ حَافِلٌ بِالشَّوَاهِدِ عَلَى مَصَارِعِ الظَّالِمِينَ، وَلَا يَزَالُ ظُلْمُ النَّفْسِ يَتَجَدَّدُ فِي أَفْرَادٍ مِنْ بَنِي آدَمَ دُونَ اعْتِبَارٍ بِمَنْ سَبَقَ

وقد ورد قولُه تعالى: ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ٥٧﴾ [البقرة: 57]، في مواضع عديدة من كتاب اللّه تعالى هي: ﴿وَظَلَّلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡغَمَامَ وَأَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰۖ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ٥٧﴾ [البقرة: 57]، وقوله: ﴿وَظَلَّلۡنَا

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/316.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/62.

عَلَيۡهِمُ ٱلۡغَمَٰمَ وَأَنزَلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰۖ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ١٦٠﴾ [الأعراف: 160]، وقوله: ﴿أَلَمۡ يَأۡتِهِمۡ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَ وَقَوۡمِ إِبۡرَٰهِيمَ وَأَصۡحَٰبِ مَدۡيَنَ وَٱلۡمُؤۡتَفِكَٰتِۚ أَتَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ٧٠﴾ [التّوبة: 70]، وقوله: ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَوۡ يَأۡتِيَ أَمۡرُ رَبِّكَۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ٣٣﴾ [النّحل: 33]، وقوله: ﴿فَكُلًّا أَخَذۡنَا بِذَنۢبِهِۦۖ فَمِنۡهُم مَّنۡ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِ حَاصِبٗا وَمِنۡهُم مَّنۡ أَخَذَتۡهُ ٱلصَّيۡحَةُ وَمِنۡهُم مَّنۡ خَسَفۡنَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ وَمِنۡهُم مَّنۡ أَغۡرَقۡنَاۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ٤٠﴾ [العنكبوت: 40]، وقوله: ﴿أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗ وَأَثَارُواْ ٱلۡأَرۡضَ وَعَمَرُوهَآ أَكۡثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ٩﴾ [الرّوم: 9]، وقد جاءت في جميع هذه الآيات حكاية عن الأمم السّابقة، عن أقوام أتاهم العذاب، فأخذهم الله بذنوبهم، وانتهى الأمر.

أمّا قولُه تعالى: ﴿وَلَٰكِنۡ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ١١٧﴾؛ فإنّه لم يَرِد إلَّا في هذا الموضع مِن كِتَابِ الله تعالى؛ لِبَيَانِ احْتِمَال أن يَتُوبَ بعضُ هؤلاءِ عَن ظُلْمِهِم أنفسَهم فيتوب الله تعالى عليهم، ويَزُول ظُلْمُهم.

دِلَالَةُ أُسْلُوبِ الْعَكْسِ بَيْنَ قَوْلِهِ: ﴿ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ﴾ وَقَوْلِهِ: ﴿أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾:

الإِغْـــرَاقُ فِي الظُّلْمِ مُوجِبٌ أَشَدَّ الْعُقُوبَاتِ

قُدِّمَ الظُّلْمُ في قولِهِ: ﴿ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ﴾ ثُمّ ذُكِرَت الأنفسُ، ثُمّ عُكِسَ ذلك القولُ في خِتَامِ الآيةِ في قوله: ﴿أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾، فَقُدِّمت الأنفُسُ ثُمَّ أعقبَهَا ذكرُ الظُّلْم، ونُكْتَتُه: أنّهُ حَصَرَ الأَنْفُسَ بَيْنَ فِعْلَي الظُّلْم؛ وجُعِلَ الأوّلُ مَاضِيًا ﴿ظَلَمُوٓاْ﴾؛ لِبَيَان ثباتِهم على الظُّلْم ورسوخِه فيهم، وخُتِمَ بالفِعْلِ المضارعِ ﴿يَظۡلِمُونَ﴾؛ لِدلَالَةِ تجدُّدِ الظُّلْم واسْتِمْرَارِهم عليه، وهذا مشعِرٌ باستحقاقِهم العقوبةَ؛ لتجذُّرِ الظُّلْمِ فيهم ماضيًا وحاضرًا.

نُكْتَةُ تَقْدِيمِ الْمَفْعُولِ عَلَى عَامِلِهِ فِي قَوْلِهِ: ﴿أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾:

قُدِّم المفعول ﴿أَنفُسَهُمۡ﴾ على عامله ﴿يَظۡلِمُونَ﴾؛ لقصدِ الاختِصَاصِ،

وَبَـالُ الظُّلْمِ يَـرْجِـعُ عَـلَى صَاحِبِهِ خَيْبَةً وَخَسَارًا

ولِبَيَانِ شنَاعَةِ ما يَفْعَلُونَهُ بأنفسهم، فإنّهم بِمَا يَفْعَلُونَهُ إنّما يَخْتَصّونَ أَنْفُسَهُم بالظُّلم، ووبالُ ظُلْمِهم راجِعٌ إليهِم.

والضَّمير في ﴿أَنفُسَهُمْ﴾ لِلْمُنْفِقينَ، علَى مَعْنَى: وما ظلمَهُمُ اللّهُ بِأَنْ لَم يَقْبَل نفقَاتِهم، ولكنَّهم ظلموا أنفسَهُم إذْ لَم يَأْتُوا بِهَا مُسْتَحِقَّةً لِلْقَبُول، أو لأصحَابِ الْحَرْثِ الذين ظَلَمُوا أنفسَهم، أي: وما ظلمَهُمُ اللّهُ بإِهْلَاكِ حَرْثِهِم، ولَكِنْ ظَلَمُوا أنفسَهم بارْتِكَابِ ما اسْتَحَقُّوا به العقوبةَ[1].

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الريح والرياح:

قال الرَّاغب: "والرِّيح: معروفٌ، وهي فيما قيل: الهواءُ المتحرِّكُ، وعامَّةُ المواضع الَّتي ذكر اللّه تعالى فيها إرسالَ الرِّيح بلفظ الواحد؛ فعبارةٌ عنِ العذاب، وكلُّ موضع ذُكر فيه بلفظ الجمع؛ فعبارةٌ عنِ الرَّحمة"[2]، ويرادُ بها هنا: ريحُ العذاب الَّتي تدمِّرُ، وتُهلكُ. وأفرد (ريحًا)؛ لأنّها مختصة بالعذاب، كما في قوله: ﴿بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ رِيحٌ﴾ [الأحقاف: 24]، وقوله: ﴿وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا﴾ [الرّوم: 51]، وقوله: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا﴾ [القمر: 19]، وقوله: ﴿ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ۝٤١﴾ [الذّاريات: 41]. كما أن الجمع مختص بالرّحمة؛ فقال: ﴿أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ﴾ [الروم: 46]. وقال: ﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ﴾ [الحجر: 22]، وقوله: ﴿يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا﴾ [الأعراف: 57]. ولذلك روي: "اللهُمَّ اجْعَلْهَا رَحْمَةً وَلَا تَجْعَلْهَا عَذَابًا، اللهُمَّ اجْعَلْهَا رِيَاحًا وَلَا تَجْعَلْهَا رِيحًا"[3].

وهذا التفريقُ كلُّه مبني على الأغلبِ في القراءات، واعتبارا بالأغلب من الآيات، نحو: ﴿ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ﴾ [الروم: 46] و﴿ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ

(1) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 2/34.

(2) الراغب، المفردات: (روح)، وينظر: الآلوسي، روح المعاني: 2/252.

(3) الطبراني، المعجم الكبير، الحديث رقم: (11533).

﴿٤١﴾ [الذّاريات: 41]؛ إذ جاءت في القرآن مجموعة مع الرحمة، مفردة مع العذاب، إلا في يونس في قوله تعالى: ﴿وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾ [يونس: 22]، لكن هناك قراءاتٌ في الموضع الواحد يأتي بها الإفراد والجمع؛ لذلك يقالُ في التفريق بين استعمال لفظي الرياح والريح أنَّ من وحَّد الريح، فلأنه اسم جنس يدلُّ على القليل والكثير، ومن جَمَع فلاختلاف الجهاتِ التي تهب منها الرياح[1].

(1) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 2/198.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمۡ لَا يَأۡلُونَكُمۡ خَبَالٗا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمۡ قَدۡ بَدَتِ ٱلۡبَغۡضَآءُ مِنۡ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَمَا تُخۡفِي صُدُورُهُمۡ أَكۡبَرُۚ قَدۡ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡقِلُونَ ١١٨﴾ [آل عمران: 118]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لما شرحَ تعالى أحوالَ المؤمنين والكافرين شرعَ في تحذير المؤمنين في هذه الآية عن مخالطة الكافرين[1]، فحذَّر المؤمنين من اعتمادهم على هؤلاء، وشرح لهم حالتهم وكشفَ أستار النُّفوس المريضة وما يضمرونه للمؤمنين.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿بِطَانَةً﴾: جذر الكلمة هو: (بَطَن)؛ البَطْنُ في كلّ شيءٍ خلافُ الظَّهر، كبَطْنِ الأَرْضِ وظَهْرِها، والمعنى المحوري هو: التعبير عن الجوف الدَّاخلي للشيء حيث يَخْفَى فيه ما يدخل إليه، وكالباطِنِ والظّاهر، وكالبِطانةِ والظِّهارة، يعني: باطن الثَّوب وظاهِره، قال الله ﷻ: ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشِۭ بَطَآئِنُهَا مِنۡ إِسۡتَبۡرَقٖۚ﴾ [الرحمن: 54]، ولحافٌ مبطون ومُبَطَّنٌ. وبَطْنُ الرّاحةِ وظَهْر الكَفِّ، وبِطانةُ الرَّجل: وَليجَتُهُ من القَوْم الّذين يُداخِلُهم ويُداخِلُونه في دُخْلة أَمْرِهم. وبِطانتُه: سَرِيرتُه. وكذلك يقال: أَهْل بِطانته، والنِّعمةُ الباطنة: الّتي قد خصّتْ، والظّاهِرةُ: الّتي عمّت، قال الله تعالى: ﴿وَأَسۡبَغَ عَلَيۡكُمۡ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةٗ وَبَاطِنَةٗۗ﴾ [لقمان: 20]. وأفرشني فلَان بطن أمره وظهره، أَي: سره وعلانيته. وَالْبَاطِن: خلاف الظَّاهِر[2].

والمعنى هنا: مقربين يعرفون دخائلَ أمورِكم.

2) ﴿يَأۡلُونَكُمۡ﴾: جذر الكلمة هو: (أَلَا)؛ ألَا فلانٌ في عمله: قصَّر وأبطأ، ويستعمل

(1) الرّازي، مفاتيح الغيب: 8/339.

(2) الخليل، العين، وابن دريد، جمهرة اللغة، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (بطن).

عادةً مسبوقًا بأداة نفي كالآية الكريمة. ويقال: إني لا آلوكَ نُصْحًا، أي: لا أفتُر ولا أقصِّر. والأَلْوُ من الأضداد؛ ألَا يألو إذا فتَر وضَعُف، وألَا يألو إذا اجتَهد[1].

والمعنى هنا: لا يُقَصِّرون في.

3) ﴿خَبَالًا﴾: جذر الكلمة هو: (خَبِل): أَصْلٌ وَاحِدٌ يَدُلُّ عَلَى فَسَادِ الْأَعْضَاءِ، والعقول، والأفعال، ويُسْتَعْمَلُ بِمَعْنى الشَّرِّ والفَسادِ مُطْلَقًا. فَالْخَبَلُ: الْجُنُونُ. ويقال: خَبَلٌ وخَبْلٌ وخَبَال، ويقال: خَبَلَهُ وخَبَّلَهُ فهو خَابِل، والجمع الخُبَّل، ورجل مُخَبَّل، يُقَالُ اخْتَبَلَهُ الْجِنُّ. وَالْجِنِّيُّ خَابِلٌ. وَيُقَالُ خُبِلَتْ يَدُهُ، إِذَا قُطِعَتْ وَأُفْسِدَتْ، ودَهرٌ خَبِلٌ: مُلْتَوٍ على أهله، لا يَرَوْنَ فيه سُرورًا. وقال ﷻ: ﴿مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا﴾ [التوبة: 47][2].

والمعنى هنا: في الفَسادِ والشَّرِّ.

4) ﴿عَنِتُّمْ﴾: جذر الكلمة هو: (عَنِت)؛ العَنَتُ: إدخالُ المشقّةِ على إنسانٍ. عَنِتَ فلانٌ، أي: لَقِيَ مشقّة. وتَعَنَّتُّه تَعَنُّتًا، أي: سألتُه عن شيءٍ أردتُ به اللَّبْسَ عليه والمشقَّة. والعظم المجبورُ يصيبه شيءٌ فيُعْنِتُه إعناتًا. وَأَعْنَتَهُ: أوقعه في الهلكة. وفي التنزيل: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ﴾ [البقرة: 220]، وقع فلان في العنت أي فيما شَقَّ عليه. وَأَعْنَتَهُ: هاضه. وأَعْنَتَ الطبيبُ المريضَ إذا لم يرفق به فضرَّه[3].

والمعنى هنا: مَشَقَّتَكم.

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

ينهى اللّه تعالى المؤمنين أن يتّخذوا المنافقين من أهل الكتاب وغيرِهم أولياءَ من دون المؤمنين، يُطْلعونهم على أسرارهم، فهؤلاء لا يَفْتُرون عن إفسادِ حالِكم ولا يُقصِّرون في إفشالِكم، وهم يفرحُون بما يصيبُكم من ضررٍ ومكروهٍ، وهم يتطلَّعُون بلهفةٍ إلى هلاكِكم وتلفِكم، قد ظهر لكم منهم الكذبُ والشَّتمُ ومخالفةُ دينِكم بفلتاتِ لسانِهم، مع الحرص والمبالغة في ضبط أنفسهم، وما يُخفون في صدورهم من العداوةِ لكم أكبرُ وأعظمُ ممَّا

(1) الأزهري، تهذيب اللغة، والزَّبيدي، تاج العروس، وأحمد مختار عمر، معجم اللغة العربية المعاصرة: (ألا).
(2) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة، وابن سيده، المحكم، والزّمخشريّ، أساس البلاغة، والزّبيدي، تاج العروس: (خبل).
(3) الخليل، العين، وابن سيده، المحكم: (عنت).

يبدو لكم، قد بيَّنَّا لكم البراهينَ والحُجَجَ التي فيها مصالحُكم الدينيةُ والدنيوية؛ لتتعظوا وتحذروا، إن كنتم تعقلون عن الله مواعظه وأمره ونهيه، وهو ختامٌ بما يزيد أهلَ الإيمانِ في التَّحذير والانتباه، وفي التَّفرقةِ بين الصديق والعدوِّ[1].

عن عبد الله بن عباس - رضي الله عنهما -؛ قال: كان رجالٌ من المسلمين يواصلون رجالاً من اليهود، لِمَا كان بينهم من الجوار والحِلْف في الجاهلية؛ فأنزل الله - عز وجل - فيهم؛ فنهاهم عن مباطنتهم تخوُّفَ الفتنةِ عليهم منهم؛ فأنزل: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَـٰبِ كُلِّهِۦ﴾[2].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دِلَالَةُ النَّهْيِ فِي قَوْلِهِ: ﴿لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ﴾:

فِي امْتِثَالِ نَوَاهِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ فَلَاحُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ

قوله: ﴿لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً﴾؛ أي لا تستعينوا بأصْفِيَاء مِن غير ملّتكم، وقوله: ﴿مِّن دُونِكُمْ﴾ في موضع الصّفة لبطانة، وقدَّرَه الزّمخشريّ: مِن دُونِ أبناء جِنْسِكُم، وهُمُ المُسلمون.

ويَحْتَمِلُ أن تكون ﴿مِّن﴾ متعلِّقةً بقوله: ﴿لَا تَتَّخِذُواْ﴾، أو أن تكونَ ﴿مِّن﴾ زائدةً، أي: بطانةً دُونَكُم، والمعنى: أنّهم نُهُوا أن يَتَّخِذُوا أَصْفِيَاءَ مِن غير المؤمنِين.

ودَلّ هذا النَّهْيُ علَى المَنْعِ مِن اسْتِكْتَابِ أهلِ الذّمّة وتَصْرِيفِهم في البَيْعِ والشّراء والاسْتِبَانَةِ إليهم، وقد عتَبَ عُمَرُ بن الخطَّاب رضي الله عنه علَى أَبِي مُوسَى رضي الله عنه اسْتِكْتَابَهُ ذميًّا، وتلا عليه هذه الآيةَ، وقَد قِيلَ لِعُمَرَ بن الخطَّاب رضي الله عنه في كاتبٍ مُجِيدٍ مِنْ نصارى الحِيرَة: ألَا يَكْتُب عَنْكَ؟ فقال: إذَنْ أَتَّخِذ بطانةً من دونِ المؤمنينَ[3].

وهذا النَّهْيُ على بابِهِ في الدِّلالةِ على الإلزامِ بالتَّرْكِ، وفيه

(1) ابن الجوزي، زاد المسير: 1/318، والسعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 65، والموصلّي، أولى ما قيل: 2/530، ونخبة من العلماء، التفسير الميسر، ص: 65.

(2) ابن جرير، جامع البيان: 4/40.

(3) ابن جزي، التسهيل: 1/163، وأبو حيّان، البحر المحيط: 3/316.

معنَى النُّصْحِ والإرشادِ أيضًا؛ لما في ذلك من تحقيق المصالِحِ في الدُّنيَا والآخرةِ.

بَلَاغَةُ الِاسْتِعَارَةِ فِي قَوْلِهِ: ﴿لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ﴾:

وُجُـــوبُ تَـخَـيُّرِ الْمُسْلِمِ بِطَانَةَ الْخَيْرِ

بِطَانَةُ الرَّجُلِ: خَصِيصُهُ وصَفِيُّه الذي يُفْضِي إليه ثقةً به، وفي قوله تعالى: ﴿لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ﴾ شُبِّه ببِطَانَة الثَّوب، كما تقول العربُ: فُلَانٌ شِعَارِي، وعن النَّبِيِّ ﷺ: "الْأَنْصَارُ شِعَارٌ، وَالنَّاسُ دِثَارٌ"[1].

وقوله: ﴿مِّن دُونِكُمْ﴾ أي: مِن دُونِ أَبْنَاءِ جِنْسِكُم؛ وهُمُ الْمُسْلِمُون، ويجوز تعلُّقه بـ ﴿لَا تَتَّخِذُواْ﴾، وبـ ﴿بِطَانَةً﴾ على الوَصْفِ؛ أَيْ: بطانَةً كائِنَةً مِن دُونِكم مجاوِزَةً لَكُمْ[2].

وفيه تشبيهُ الأولياءِ بِالْبِطَانَةِ؛ فَذُكِرَ الْمُشبَّهُ به، وهو البِطَانة، وحُذِفَ الْمُشبّه، وهُمُ الْأَوْلِيَاءُ؛ فَهِيَ استعارةٌ تَصْرِيحيَّةٌ؛ وأصلُها مِنْ بِطَانَة الثّوب، كما في قَوْلِهم: لَبِسْتُ فلانًا، إذَا اخْتَصَصْته، وفلانٌ شِعَارِي ودِثَارِي[3]، وقوله: ﴿مِّن دُونِكُمْ﴾ هُوَ قَرِينَةُ الِاسْتِعَارةِ، وقولُه بعدُ: ﴿لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا﴾ مِنْ مُتَمّمات الاستعارةِ، وهي راجعةٌ على الْمُشَبّهِ المَحْذُوفِ - (الأولياءِ) -، فَتَكُونُ الاستِعَارَةُ مجرّدَةً.

ولفظ (دُون) مِن قولِه: ﴿مِّن دُونِكُمْ﴾ يَقْتَضِي فيما أضيف إليه أنّه معدومٌ مِن القصّة التي فيها الكلامُ، فشبّه الأخِلّاءُ بما يَلِي بطنَ الإنسان من ثوبه[4]، ومِن هذا المعنى قولُ النَّبِيِّ ﷺ: "مَا اسْتُخْلِفَ خَلِيفَةٌ إِلَّا لَهُ بِطَانَتَانِ: بِطَانَةٌ تَأْمُرُهُ بِالخَيْرِ وَتَحُضُّهُ عَلَيْهِ، وَبِطَانَةٌ تَأْمُرُهُ بِالشَّرِّ وَتَحُضُّهُ عَلَيْهِ، وَالمَعْصُومُ مَنْ عَصَمَ اللهُ"[5].

(1) رواه البخاري في صحيحه، الحديث رقم: (4330)، ومسلم في صحيحه، الحديث رقم: (1061).
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/406.
(3) الأبياري، الموسوعة القرآنيّة: 8/58.
(4) ابن عطية، المحرر الوجيز: 1/496.
(5) رواه البخاري في صحيحه، الحديث رقم: (6611).

مِنَ السِّيَاسَةِ الشَّرْعِيَّةِ التَّنَبُّهُ إِلَى حَقِيقَةِ مَنْ حَوْلَ الْمُسْلِمِينَ

بَرَاعَةُ الْمَجَازِ الْمُرْسَلِ فِي قَوْلِهِ: ﴿مِّن دُونِكُمْ﴾:

يجوزُ في (مِنْ) من قَوْلِه: ﴿مِّن دُونِكُمْ﴾ أَنْ تَكُونَ زَائِدَةً، و(دُونَ) اسْمَ مَكانٍ بمعنَى: حَوْلَكُم، وهُو مجَازٌ مرسلٌ، علاقتُه: المحلّيَّة؛ إِذْ ذُكِر المَكَانُ وأُرِيدَ الحالُّون فيهِ، ونُكْتَةُ المجاز: تنبيهُ المؤمنين إلى حقيقةِ مَنْ حَوْلَهُم، مِمَّنْ ليسوا مِن ملّتهم، إذ إنَّ دأبهم أنْ يكيدوا لَهم المكايد، ومِن نظائرِ هذه الآية قولُه تعالى: ﴿وَلَمْ يَتَّخِذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً﴾ [التوبة: 16]. ثمّ إنّ مَن كان مباينًا لِغَيْرِه في المكانِ فَهُوَ مغايرٌ له، فجعل لفظ (دُون) مُسْتَعْمَلًا في مَعْنَى (غَيْر)[1].

مِنْ مَحَاسِنِ الشَّرِيعَةِ قَرْنُ الْأَحْكَامِ بِعِلَلِهَا وَحِكَمِهَا

نُكْتَةُ تَأْكِيدِ الذَّمِّ بِمَا يُشْبِهُ الْمَدْحَ فِي قَوْلِهِ: ﴿لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا﴾:

قوله: ﴿لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا﴾ لا يقصرون في خبالكم، والأَلْوُ: التَّقْصِيرُ والتَّرْكُ، وفِعْلُهُ: أَلَا يَألو، وقد يتوسَّعون في هذا الفعل فيُعدّى إلى مَفْعُولَين، لأنّهم ضَمَّنُوه معنى المَنْعِ فيما يرغب فيه المَفْعُول، فقالوا: لا آلوك جهدًا، كما قالوا: لا أدّخرُك نُصحًا، فشاع ذلك الاستعمالُ حتَّى صار التّضمينُ مَنْسِيًّا، فلذلك تعدّى إلى ما يدلّ على الشّرِّ، كما يُعدَّى إلى ما يدلُّ على الخير، فقال هنا: ﴿لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا﴾؛ أي لا يقصّرون في خَبَالِكُم، وليس المُراد: لا يمنعونكم، لأنّ الخَبالَ لا يُرْغَب فيه ولا يُسأل[2]، فجاءَ النّفي على معنى أسلوبِ تأكيدِ الذّمِّ بما يُشْبِهُ المَدْحَ، وفائدته: المُبَالَغَةُ في التَّحذيرِ مِن اتِّخاذِ أمثالِ هؤلاء أولياءَ مِن دُونِ المُؤْمِنِين؛ ببيانِ عِلَّةِ النَّهْيِ المتقدِّم.

الْفِطْنَةُ مِمَّا تُضْمَنُ بِهِ مَصَالِحُ النَّاسِ

دِلَالَةُ التَّهَكُّمِ فِي قَوْلِهِ: ﴿لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا﴾:

أصلُ الْخَبالِ: اختلالُ الأمرِ وفسادُه، ومنهُ سُمِّيَ فسادُ العقلِ: خبَالًا، وكذا فسادُ الأعضاء.

(1) الرّازي، مفاتيح الغيب: 8/340.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/64.

ويحتمل أنّه اسْتُعْمِلَ (الخَبال) في هذهِ الآيَةِ على سَبيل التّهكّم بالبِطانة؛ لأنّ شأن البِطَانَةِ أن يَسْعَوْا إلى ما فيه خيرُ مَن اسْتَبْطَنَهُم، فلمّا كان هؤلاء بضِدّ ذلكَ عُبِّرَ عَن سَعْيِهِم بالضُّرِّ، بالفِعْلِ الذي مِن شأنه أن يُسْتَعْمَلَ في السَّعْيِ بالخَيْرِ[1].

نُكْتَةُ الطِّبَاقِ الضِّمْنِيِّ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ﴾:

قوله: ﴿وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ﴾، أي ودّوا عَنَتَكُم، والعنَتُ: شدّة الضّرر والمشقّة، وأصلهُ: انْهِيَاضُ العَظْمِ بعدَ جَبْرِه، والوُدُّ: المحبَّة، فمعنى: ﴿وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ﴾ تمنّوا أن يَضُرُّوكم في دينِكم ودُنْيَاكُم أشدّ الضّرر وأَبْلَغَه[2]، أو: رَغِبُوا فيما يُعْنِتُكم[3].

تَحَرِّي بِطَانَةِ السُّوءِ مَحَالَّ الشَّرِّ وَالضَّرَرِ لِلْإِيقَاعِ بِالْمُسْلِمِينَ

وقولُه: ﴿وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ﴾ أي: وَدُّوا الذي لا تودّونه، فيكون في الآية طِبَاقٌ ضِمْنِيٌّ؛ لأنَّ العَنَتَ لا يُوَدُّ، وفي هذا شدَّةُ المبالغة في التَّحذيرِ من بطانَةِ السُّوءِ، حيث إنَّهم يتحرَّونَ مواطِنَ الشَّرِّ والضَّرر للإيقاعِ بأهل الإسلام.

نُكْتَةُ تَعْدَادِ صِفَاتِ بِطَانَةِ السُّوءِ:

لَمَّا كشَفَ اللهُ تعالى دَخَائِلَ مَن حولَ المُسْلِمين مِن أهل الكتاب أتَمَّ كَشْفٍ؛ جاء موقعُ التَّحذيرِ مِن فَرِيقٍ مِنْهُمْ، والتَّحذيرُ مِنَ الاغترارِ بهم، والنَّهيُ عن الإلقاءِ إليهم بالمودَّة، وهؤلاءِ هُم المُنَافِقُون، وذلك لِلْإِخْبَارِ عَنْهُم بقوله: ﴿وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا﴾، وأكثرُهم مِنَ اليهود، دُون الذين كانُوا مُشْرِكِين مِنَ الأَوْسِ والخَزْرَجِ، وهذا موقعُ الاستِئْنَاجِ في صِنَاعَة الخَطَابَة بعدَ ذِكْرِ التَّمْهِيدَات والإِقْنَاعَات، وحقُّه: الاسْتِئْنَافُ الابْتِدَائِيُّ كمَا هُنا[4].

بَيَانُ صِفَاتِ بِطَانَةِ السُّوءِ إِشْعَارٌ بِمَا يَنْبَغِي أَنْ تَكُونَ عَلَيْهِ بِطَانَةُ الْخَيْرِ مِنَ الْأَوْصَافِ

وقوله: ﴿لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا﴾ جملةٌ جاءَتْ بيانًا لِحَالِ البِطَانَةِ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/64.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/406.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/64.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/62 - 63.

الكَافِرَةِ، وَهِيَ والجملُ التي بعدها سِيقَتْ لتنفيرِ المؤمنين عَنِ اتّخاذهم بطانةً مِنْ دُونهم، ثمّ نبَّهَ على أشياء مِمَّا هُمْ عليهِ مِن ابتغاءِ الغَوائِلِ لِلْمُؤمنين، ووَدَادَةِ مشقَّتِهم، وظهور بغضِهم.

والتَّقييدُ بالوصفِ أو بالحال يُؤْذِنُ بجَوَازِ الاتِّخَاذِ عندَ انْتِفَائِهِمَا[1]، ولذا فُصِّلَ في تَعداد الأوصافِ؛ لبيانِ أنَّها مقصودةٌ في الحكم، ومؤثِّرةٌ فيه، وإظهارًا للحكمةِ مِنَ النَّهي، وإيماءً إلى ما يَنْبَغِي أَنْ تَكُونَ عَلَيْهِ البِطَانةُ؛ من كونِها مسلمةً، ناصحةً، ترغَبُ فيما يرغَبُ فيه أهلُ الإسلامِ عادةً من مصالحِ الدُّنيا والآخرة، مُظهِرةٌ للوُدِّ في المقالِ والفِعالِ.

دِلَالَةُ حَذْفِ حَرْفِ الْعَطْفِ (الْوَاو) فِي تَعْدَادِ صِفَاتِ الْبِطَانَةِ:

حرف العطفِ (الواو) مشعِرٌ بالمغايرةِ، فمتى وُجِدَ آذنَ ذلك بالتَّغاير بين الجملتَيْنِ، ومتَى حُذِفَ الواوُ كان إعلامًا بِاتِّصال الجُملةِ الثَّانيةِ بالأولى، والتحَامِها بها، حتَّى كأنّها إحدى متعلقاتها[2].

ومِنْ ذلكَ قولُه تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾، فإنّ التّقدير: وَوَدُّوا ما عَنِتُّم، وقَدْ بَدَتِ البَغْضَاءُ مِن أفواههم، فلمّا حُذِفَت هذه الواوُ؛ كان الكلامُ مَعَ حَذْفِهَا أدخلَ في الإعجاز، وأحسنَ في الاِخْتِصَارِ والإيجاز، وأبلغَ في تأليفه ونظمه، وأحلى في سياقه وعذوبة طعمه[3]، وفيه إيذَانٌ بأنَّ من شأنِ بطانَةِ السُّوءِ أن تجتَمِعَ فيها هذه الصِّفاتُ، لا تكاد تنفكُّ واحدةٌ عنهم.

دِلَالَةُ التّرقّي فِي قَوْلِهِ: ﴿لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ﴾:

الفرق بين قولِه: ﴿لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا﴾ وبينَ قولِه: ﴿وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ﴾ في المعنى من وُجُوهٍ:

تَتَكَامَلُ الصِّفَاتُ فِي بِنَاءِ نُفُوسٍ مُسْتَقِرَّةٍ عَلَى الْخَيْرِ أَوْ مُتَهافِتةٍ عَلَى الظُّلْمِ وَالْعُدْوَانِ

حِرْصُ أَهْلِ الشَّرِّ وَالْفَسَادِ عَلَى إِلْحَاقِ مَا اسْتَطَاعُوا مِنَ الضَّرَرِ بِأَهْلِ الْإِسْلَامِ

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/316 - 317.
(2) العلوي، الطّراز: 2/60.
(3) العلوي، الطّراز: 2/60.

أحدها: لا يُقصِّرون في إفسادِ دينِكُم، فإن عَجَزوا عنه ودُّوا إِلْقَاءَكُم في أشدِّ أنواع الضُّرِّ.

ثَانِيها: لا يُقصِّرون في إِفْسَادِ أُمُورِكم في الدُّنيا، فإِذَا عَجَزُوا عَنْهُ، لم يَزُلْ عن قلوبِهِمْ حُبُّ إعناتِكُم.

ثالثُها: لا يُقصِّرون في إفساد أمورِكُم، فإنْ لم يفعَلوا ذلك لِمَانِعٍ من خارجٍ، فحُبُّ ذلك غيرُ زائلٍ عن قلوبِهِم[1].

وفي هذا إيماءٌ إلى أنَّ أهل الشَّر والفسادِ يَبْذُلُونَ في سبيل إلحاق الضَّرَر بأهلِ الْإِسْلَامِ مَا اسْتَطَاعُوا، فإنْ عجَزُوا عن ذَلِكَ؛ بقيَ حبُّ إيقاعِ الضَّرَرِ قَائمًا في قلُوبهم، مُتَحيِّنين بِذَلِكَ الْفُرَصَ لِإِنْفَاذِهِ.

وَجْهُ نَصْبِ ﴿خَبَالًا﴾ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا﴾:

التَّوْجِيهُ النَّحْوِيُّ لِآيِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ يُثْمِرُ مَعَانِيَ مُتَنَوِّعَةً لَا مُتَضَارِبَةً

قولُه تعالى: ﴿لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا﴾ من قولهم: ألَا في الأمر يَألُو؛ إذا قصَّرَ فيه، ثُمَّ استُعْمِلَ مُعَدًّى إلى مفعولين في قَوْلِهِم: لا آلُوك نُصْحًا، ولا آلوك جُهْدًا، على إرادةِ التَّضْمِين، والمعنى: لا أَمْنَعُكَ نُصْحًا ولا أَنْقِصُكَهُ[2].

ويتعدَّى الفعلُ (أَلَا) إلى مفعولٍ واحدٍ بحَرْفِ الْجَرِّ، تقول: ما أَلَوْتُ في الأمر، أي: ما قصَّرتُ فيه.

ويحتَمِلُ أن يكون قوله: ﴿خَبَالًا﴾ قد انتصب على التَّمييز المنقولِ من المفعول، كقوله تعالى: ﴿وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا﴾ [القمر: 12]؛ والتّقدير: لَا يَأْلُونَ خَبَالَكُم، أي: في خبالكم، فكان أصلُ هذا المفعولِ حرف الجرِّ.

ويجوزُ أَن يكون انتصابُه على نزع الخافضِ، والتّقدير: لا يَأْلُونَكُم في تَخْبِيلِكُم، أو يكونَ انتصابُه على أنّه مصدرٌ في موضع الحال،

(1) الرّازي، مفاتح الغيب: 8/341.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/406.

قال ابن عطية: "معناه: لا يقصِّرونَ لكم فيما فيه الفساد عليكم، فعلى هذا يكون قد تعدَّى للضَّميرِ على إسقاط (اللّام)، ولِلْخَبَالِ على إسقاط (في)"[1].

وكلُّ هذه التَّوجيهاتِ تُؤدِّي معنًى متقاربًا، ولا تعارُضَ بينَهَا ولا تضارُبَ.

دِلَالَةُ الْأَفْعَالِ الْمَاضِيَةِ: ﴿وَدُّواْ﴾ و﴿عَنِتُّمْ﴾ و﴿بَدَتِ﴾:

الاِسْتِمْرَارُ فِي أَفْعَالِ الشَّرِّ يُورِثُ رُسُوخَهَا وَثَبَاتَهَا فِي النُّفُوسِ

الأفعَالُ: ﴿وَدُّواْ﴾ و﴿عَنِتُّمْ﴾ و﴿بَدَتِ﴾: أفعالٌ ماضيةٌ، وقد دلّت على رُسُوخِ هذهِ الصِّفاتِ عندَ أصحابِها، فقد أبانَتْ عنْ مودَّتِهم لِمَا يَضُرُّ بالمُؤْمِنين، وأوضحَتْ حالَ إبدائِهمُ البَغضاءَ جليًّا، فهذه الأوصافُ لبطانةِ السُّوءِ ليست أوصافًا عارضةً يُرجَى زوالُها وانكشافُها، وإنَّما هي متجذِّرةٌ فيهم، وهم متحقِّقُونَ بها غايةَ التَّحقُّقِ.

بَلَاغَةُ الِاسْتِعَارَةِ فِي قَوْلِهِ: ﴿قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ﴾:

الْكَلِمَاتُ الْمَقَالِيَّةُ تَنِمُّ عَنِ الْخَفَايَا الْقَلْبِيَّةِ

البَغضاء: أشدُّ البُغضِ، فالبُغض مع البَغضاء كالضُّرِّ مع الضَّرَّاء[2]، وجاءَ التَّعبير عنهم في قوله تعالَى: ﴿قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ﴾؛ لكونِهم لا يتمالكون مع ضبطهم أنفُسَهُم، وتَحَامُلِهم عليها: أَنْ يَنْفَلِتَ مِن ألسِنَتِهم مَا يُعلَم به بغضُهُم لِلْمُسْلِمين[3]، وهذا دالٌّ على شدَّةِ حنَقِهم على المسلمين وكراهِيَتِهم لهم.

ومَعْنَى قوله: ﴿قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ﴾: ظَهَرَتْ مِن فَلَتَاتِ أَقْوَالِهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ﴾ [محمد: 30]، فعبّر بالبَغْضَاءِ عَن أدلَّتِهَا[4]، وفي هذا التَّعبير مجازٌ مرسَلٌ، علاقتُهُ اللَّازِمِيَّةُ؛ إذْ أُطلقَ اللَّازِمُ وهو البغضاء القلبيَّةُ، وأُريد الملزومُ

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/317.
(2) الرّازي، مفاتح الغيب: 8/341.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/406.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/64.

وهو أدلَّتُها المقاليَّةُ، ونكتةُ المجاز: الإشعارُ بشدَّة البغضاء التي في قلوبِهم، حتَّى كأنَّ الظَّاهرَ منها هو عينُ البغضاءِ لا مجرَّدُ أدلَّتها.

فقوله تعالى: ﴿قَدۡ بَدَتِ ٱلۡبَغۡضَآءُ مِنۡ أَفۡوَٰهِهِمۡ﴾ يعني: الأقوال، فَهم فوق المُتَستِّر الذي تبدُو البَغْضَاءُ مِنْ عَيْنَيْهِ.

وقدْ خَصّ اللّهُ تعالى الأفواهَ بالذِّكر دُونَ الأَلْسِنةِ؛ إشارةً إلى شَدَقِهم وثَرْثَرَتِهم في أقوالِهم هذه[1].

دِلَالَةُ الْمُقَابَلَةِ فِي قَوْلِهِ: ﴿قَدۡ بَدَتِ ٱلۡبَغۡضَآءُ مِنۡ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَمَا تُخۡفِي صُدُورُهُمۡ أَكۡبَرُۚ﴾:

أَهْلُ الْبَاطِلِ يُعَادُونَ أَهْلَ الْحَقِّ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا

لمّا ذكَرَ اللّهُ تعالى ما انْطَوَوْا عليهِ مِن وِدَادِهم عَنَتَ المُؤْمِنِين، وهو إخبارٌ عن فِعْلٍ قلبيّ؛ ذَكَرَ مَا أَنْتَجَهُ ذلك الفعلُ القلبيُّ مِن الفعلِ الظَّاهرِ، وهو بُدُوُّ البُغض مِنْهُم للمؤمنين في أقوالهم، فجمعوا بذلكَ بَيْنَ كراهَةِ القُلُوب وبذاءَةِ الألسُن[2]، ثمَّ ذكَر أنَّ ما أَبْطَنُوهُ مِنَ الشَّرِّ والإيذاءِ للمؤمنين والبُغْضِ لهم أَعْظَمُ مِمَّا ظهر مِنْهُمْ، فقال: ﴿وَمَا تُخۡفِي صُدُورُهُمۡ أَكۡبَرُۚ﴾، وقابل البُدُوَّ بالإخفاءِ، والأفواهَ - المُنبئةَ بالظَّاهرِ - بالصُّدور - المشعِرَةِ بالباطن -؛ زيادةً في البيانِ؛ فإنَّ الضدَّ يُظْهِرُ قيمةَ ضدِّه حسنًا أو قبحًا.

بَلَاغَةُ الْمَجَازِ الْمُرْسَلِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَمَا تُخۡفِي صُدُورُهُمۡ أَكۡبَرُۚ﴾:

بُغْضُ أَهْلِ الشَّرِّ وَالْفَسَادِ لِأَهْلِ الْخَيْرِ وَالصَّلَاحِ مَلَأَ جَمِيعَ قُلُوبِهِمْ

قوله: ﴿وَمَا تُخۡفِي صُدُورُهُمۡ أَكۡبَرُۚ﴾ أي: قلوبهم التِي في الصُّدور؛ فإنَّ القلوبَ هي محلُّ البغضاءِ، فهو مجازٌ مرسَلٌ، علاقتُهُ المحليَّةِ؛ إذْ أُطلق المحلُّ وهو الصدر، وأُريد الحالُّ فيه وهو القلب، ونكتَةُ المجاز: الدِّلالةُ على شدَّة البغضاء، حتَّى كأنَّ قلوبهم لم تستوعِبْهَا فانتقلتْ إلى أجزاء مجاورةٍ له.

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 1/496.

(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/317 - 318.

مُنَاسَبَةُ الْفَاصِلَةِ ﴿تَعْقِلُونَ﴾ لِمَضْمُونِ الْآيَةِ:

تَرْبِيَةُ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ عَلَى إِعْمَالِ الْفِكْرِ وَالِاسْتِدْلَالِ

قوله: ﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْآيَٰتِۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾، أي: الآياتُ الدَّالَّة على وجوب الإخلاص في الدّين، ومُوالاةِ المُؤْمِنِينَ، ومُعَادَاةِ الكفّار[1]، أو أنَّ المرادَ: بيَّنَّا لكم الأدلَّةَ الدَّالَّةَ على سُوءِ نَوَايَا هذهِ الْبِطَانَةِ، فلَم يَزَلِ القُرآن يُربِّي هذه الأمَّة على إعمالِ الفِكْرِ، والاسْتِدْلال، وتَعَرُّف المسبَّبَات مِن أسبابها في سائر أحوالِها؛ فِي التَّشريعِ والمُعاملة، ليُنشِئَهَا أمّةَ علمٍ وفطنةٍ.

ولَمَّا كانتْ هَذِهِ الآياتُ آياتِ فراسَةٍ وتوسُّم؛ قال: ﴿إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾، ولم يَقُل: إنْ كُنْتُم تَعْلَمُون أو تَفْقَهُون؛ لأنَّ العقل أعَمُّ مِنَ العلمِ والفِقْه.

وجملة ﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْآيَٰتِۖ﴾ مستأنفة[2] استئنافًا بيانيًّا؛ لوقوعِهَا جوابًا عن سؤالٍ يُفْهَمُ ممَّا قبلَهَا؛ وذلك أنَّ اللّه تعالى فصَّل في صفاتِ بطانةِ السُّوءِ، فأورثَ ذلك سؤالًا في نفس المتَلَقِّي؛ وهو: لِمَ فُصِّلَ في ذِكْرِ أوصافِ هؤلاءِ، فجاء الجواب: ﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْآيَٰتِۖ﴾.

دِلَالَةُ حَذْفِ مَفْعُولِ ﴿تَعْقِلُونَ﴾ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾:

مِنَ الْحِكْمَةِ فِي الْإِقْنَاعِ اتِّبَاعُ أُسْلُوبِ سَوْقِ الْمَعْلُومِ مَسَاقَ غَيْرِهِ

﴿تَعْقِلُونَ﴾ من قولِ اللّهِ تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ فعلٌ متعدٍّ، ومفعولُه محذوفٌ، والتَّقدير: تعقِلُونَ مَا بيَّن لَكُمْ، فَعَمِلْتُم به.

ويحتمِلُ أن يكون قد نُزِّلَ الفعلُ المتعدِّي منزلةَ اللَّازِمِ، والمعنى: إنْ كُنْتُم عُقَلَاءَ.

وفي هذا سوقُ المعلوم مساق غيرِه - وهو المسمَّى في غير القرآن: تجاهُلَ العارفِ -؛ لأنَّ اللّه سُبْحانه قَد عَلِمَ أنَّهم عُقَلَاءُ، لَكِنْ عُلِّقَ الشَّرطُ على هذا النَّحْوِ لِهَزِّ النُّفُوسِ وبعثِهَا على الامتثالِ[3]، كقَوْلِكَ:

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/406.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/65.
(3) ابن عطية، المحرر الوجيز: 1/496.

إِنْ كُنْتَ رَجُلًا فَافْعَل كذا، قال ابن جرير: "معناهُ: إنْ كنتُم تعقلُون عن اللّه أمرَهُ ونهيَهُ، وقيل: ﴿إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾، فلا تُصَافُوهُم، بل عاملوهم معاملة الأعداء، وقيل: معنى ﴿إِن﴾ مَعْنَى (إذ)؛ أي: إذ كنتم عقلاء"[1].

الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

المعانتة والمُعاندة:

قوله: ﴿وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ﴾ قال ابن جرير: "فإنه يعني: ودُّوا عنَتَكم، يقول: يتمنَّون لكم العنَتَ والشرَّ في دينكم وما يسوءكم ولا يسرُّكم"[2]. وقال الراغب: المعانتة كالمُعاندة، لكن المعانتة أبلغ؛ لأنَّها مُعاندة فيها خوفٌ وهلاك، ولهذا يُقال: عنَتَ فلانٌ؛ إذا وقع في أمرٍ يُخافُ منه التّلف. والمعانتَةُ أن تتحرَّى مع المُمانَعَةِ المَشَقَّةَ. والعَنِيدُ المُعجَبُ بما عندَهُ، والمُعاند المُباهي بما عندهُ[3]. فـ(العنت) فيه معنى المشقة والتّلف على خلاف (العند) الذي فيه معنى الإصرار والتّباهي.

أفواههم وألسنتهم:

الأفواه جمع الفَم، والفَم أصله فَوْهٌ، يقال: فَوْهٌ وأفواهٌ، ويقال رجل مفوَّهٌ إذا أجاد القول، وأفْوَهُ إذا كان واسعَ الفَم، فثبت أنَّ أصل الفم (فَوْهٌ) بوزن سَوْط، ثم حذفت الهاء تخفيفًا، ثم أقيم (الميم) مقام (الواو)؛ لأنّهُما حرفان شفويان[4].

قوله: ﴿قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ﴾؛ أي لا يكتفون ببغضكم بقلوبهم حتى يصرِّحوا بذلك بأفواههم. وذكر الأفواه دون الألسنة؛ إشعارًا بأنَّ ما تلفَّظُوا به يملأ أفواههم، كما يقال: كلمةٌ تملأ الفم، إذا تشدَّقَ به. وقيل: المعنى لا يتمالكون مع ضبطهم أنفسهم وتحاملهم عليها أن ينفلت من ألسنتهم ما يُعلمُ به بغضُهم للمسلمين[5]. والألسنة تدلُّ على اللّغات أكثر من دلالتها على الكلام؛ قال تعالى: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ۝١٩٥﴾ [الشّعراء: 195]، وقال: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ﴾ [الرّوم: 22].

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/318.
(2) جامع البيان: 5/709.
(3) الراغب، المفردات: (عند).
(4) الرّازي، مفاتيح الغيب: 8/341.
(5) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/434، وأبو حيّان، البحر المحيط: 3/317، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 2/76، والقاسمي، محاسن التأويل: 2/394.

﴿هَٰٓأَنتُمۡ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمۡ وَلَا يُحِبُّونَكُمۡ وَتُؤۡمِنُونَ بِٱلۡكِتَٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمۡ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوۡاْ عَضُّواْ عَلَيۡكُمُ ٱلۡأَنَامِلَ مِنَ ٱلۡغَيۡظِۚ قُلۡ مُوتُواْ بِغَيۡظِكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ١١٩﴾ [آل عمران: 119]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

بعد أن نهى اللهُ تعالى المؤمنين عن اتّخاذ الكافرين أولياءَ من دونهم، وكشفَ عن حقائق نفوس الكافرين والمنافقين وما يخفونه في صدورهم، عرَّجَ هنا لبيان حالهم معهم، إذ لا ينبغي أن يكون المؤمنُ على هذه الحال وهذه الشَّاكلة من الهَوَان، فقال: ﴿هَٰٓأَنتُمۡ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمۡ وَلَا يُحِبُّونَكُمۡ وَتُؤۡمِنُونَ بِٱلۡكِتَٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمۡ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوۡاْ عَضُّواْ عَلَيۡكُمُ ٱلۡأَنَامِلَ مِنَ ٱلۡغَيۡظِۚ قُلۡ مُوتُواْ بِغَيۡظِكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾، فأنكر عليهم ذلك بعد أنْ أمَرَهم بترك ولايتِهم.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿خَلَوۡاْ﴾: جذر الكلمة (خَلَوَ)؛ خَلاَ يَخْلُو خَلاءً فهو خالٍ، وهو يَدُلُّ عَلَى تَعَرِّي الشَّيْءِ مِنَ الشَّيْءِ. والخَلاءُ من الأرضِ: قرارٌ خالٍ لا شيء فيه. والرَّجل يخلو خَلْوةً. وخَلَا فلانٌ بفلان: صار معه في خَلَاءٍ، وخَلَا إليه: انتهى إليه في خلوة، وفلانٌ خَلا لفلانٍ؛ أي خادعه[1]..

2) ﴿ٱلۡأَنَامِلَ﴾: جِذر الكلمة هو (نَمَل)؛ أصلُ النّملِ: يدلُّ على تجمُّع شيءٍ، وصِغَرٍ، وخفَّةٍ[2]. والأناملُ جمع: أنمُلة، وهي: طرفُ الإصبَعِ[3]، والأَنْمُلَةُ: المَفصِل الأعلى الذّي فيه الظُّفْرُ من الإصْبَع. ورجلٌ مُؤَنمَلٌ الأصابع؛ أي: غليظ أطرافها. ويقال له: نَمِلٌ، نعت له في الغِلَظ[4].

(1) الخليل، العين، وابن دريد، جمهرة اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، والفيومي، المصباح المُنير: (خلو).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نمل).
(3) الراغب، المفردات: (نمل).
(4) الخليل، العين: (نمل).

3) ﴿ٱلۡغَيۡظِۚ﴾: جذر الكلمة هو (غَيَظ)؛ يقال: غِظْتُه أَغيظُه غَيظًا، ويَدُلُّ عَلَى كَرْبٍ يَلْحَقُ الْإِنْسَانَ مِنْ غَيْرِهِ، والتَّغَيُّظُ: الاغتياظ. والغيظ الغضب مطلقًا، أو: غضبٌ كامنٌ للعاجز، أو أشدُّه، أو سَوْرتُه وأوَّلُه، وهو الحرارةُ التي يجدها الإنسان من فوران دم قلبه[1].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

ينبِّهُ اللهُ المؤمنين لأخذِ الحذر من هؤلاء المنافقين من أهل الكتاب، مبيِّنًا شدَّةَ عداوتِهم للمسلمين، فها هو ذا الدَّليلُ الواضحُ على خطئكم في محبتهم، فأنتم تحبونهم وتحسِنون إليهم، وهم لا يحبُّونكم ويحمِلون لكم العداوةَ والبغضاء، وأنتم تؤمنون بالكتبِ المنزَّلة كلِّها ومنها كتابهم، وهم لا يؤمنون بكتابكم، فكيف تحبُّونهم؟ وإذا لقُوكم قالوا -نِفاقًا-: آمنَّا وصدَّقْنا، وإذا خلا بعضُهم إلى بعض بدا عليهم الغمُّ والحزنُ، فعَضُّوا أطرافَ أصابعِهم من شدَّة الغضب؛ لِمَا يرون من أُلْفةِ المسلمين واجتماعِ كلمتهم، وإعزازِ الإسلام، وإذلالِهم به. قل لهم -أيها الرسول-: موتوا بشدَّة غضبكم، وهو دعاءٌ عليهم بدوامِ الغيظ، وزيادتِه بتضاعف قوَّةِ الإسلام وأهلِه، ولا يزالون معذَّبين به حتى يموتوا، فيتنقلوا من عذاب الدنيا إلى عذاب الآخرة. إنَّ اللهَ مُطَّلِع على ما تخفي الصدور، وسيجازي كُلًّا على ما قَدَّم مِن خير أو شر[2].

❁ الإِيضاحُ اللُّغَوِيُّ والبَلاغِيُّ:

دِلَالَةُ المَجَازِ المُرْسَلِ المُرَكَّبِ فِي قَوْلِهِ: ﴿هَٰٓأَنتُمۡ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمۡ وَلَا يُحِبُّونَكُمۡ﴾:

صَفَاءُ سَرِيرَةِ أَهْلِ الْإِسْلَامِ وَقُبْحُ ضَمَائِرِ أَهْلِ الْكُفْرِ

لمّا كانَ التّعجيب في الآية من مَجْمُوعِ الحَالَيْنِ؛ قال الله تعالى: ﴿هَٰٓأَنتُمۡ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمۡ وَلَا يُحِبُّونَكُمۡ﴾؛ فالعجبُ من محبَّة المؤمنين إيّاهم في حالِ بُغْضِهم لِلْمُؤْمِنين، ولا يُذْكَر بعدَ اسْم الإشارة جملةٌ في هذا التّركيبِ إلَّا والقصدُ منهُ التَّعجُّبُ مِن مَضْمُون تلكَ الْجُمْلَة.

وجملةُ ﴿وَلَا يُحِبُّونَكُمۡ﴾ حالٌ مِنَ الضَّمير المرفوعِ في قَوْلِه:

(1) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، والزّمخشريّ، أساس البلاغة، والزّبيدي، تاج العروس: (غيظ).
(2) السّمرقندي، بحر العلوم: 1/242، والبيضاوي، أنوار التّنزيل: 2/35، والسعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 65، ونخبة من العلماء، التفسير الميسر، ص: 65.

﴿تُحِبُّونَهُمْ﴾؛ لأن محلَّ التَّعجيب هو مَجْمُوعُ الْحَالَين[1]، أي: هُمْ لا يُحِبُّونَكُم والحَالُ أنَّكُم تُؤْمِنُون بِكِتَابِهم، وهُم معَ ذَلِكَ يُبْغِضُونَكُم، فَمَا بَالُكُم تُحِبّونَهُم، وهُم لَا يُؤْمِنُونَ بِشَيْءٍ مِن كِتَابِكُم.

وفي هذا تَوْبِيخٌ شديد بأنّهم في بَاطِلِهم أصلَبُ مِنْكُم في حَقِّكم، ونظيره قول الله تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ [النساء: 104]، فقوله: ﴿هَٰٓأَنتُمْ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ﴾ مجازٌ مرسَلٌ مركَّبٌ؛ إذْ هي جملةٌ خبريَّةٌ أُريدَ بها التَّعجيبُ مع التَّوبيخِ والتَّغليظِ، أو التَّعجيب والتَّنبيه.

وذكَر ابنُ عَاشُورٍ أنّه ليس في هذا التّعجيب شيءٌ مِنَ التّغليظ أوِ التّوبيخ، ولكنّه إيقَاظٌ وتنبيهٌ، ولذلك عَقَّبَهُ بقوله: ﴿وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ﴾؛ فإنَّه بمنزلةِ العذر لِلْمُؤْمِنين في اسْتِبْطَانِهم أهلَ الكتابِ بعدَ إيمان المؤمنين؛ لأنّ المؤمنين لمّا آمنوا بجَميع رُسُل الله وكتُبِهم، كانُوا يَنْسِبُون أهلَ الكتاب إلى هُدًى ذهَبَ زَمَانُه، وأدخلوا فيه التَّحريف، بخِلَافِ أهلِ الكتاب؛ إذ كانوا يَرْمُقُون المسلمين بعَيْنِ الازْدِرَاءِ والضّلالة، واتّبَاعِ مَا لَيْسَ بحَقٍّ[2].

بَلَاغَةُ الِاكْتِفَاءِ فِي قَوْلِهِ: ﴿هَٰٓأَنتُمْ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ﴾:

شَأْنُ الْمَحَبَّةِ أَنْ تَجْلِبَ الْمَحَبَّةَ، إِلَّا إِذَا اخْتَلَفَتِ الْمَقَاصِدُ وَالْأَخْلَاقُ

قوله: ﴿هَٰٓأَنتُمْ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ﴾؛ استئناف ابتدائيٌّ، قُصِدَ منه المُقابلةُ بين خُلُق الفريقَيْن، فالمؤمنون يحبّون أهلَ الكتاب، وأهلُ الكتاب يُبْغِضُونَهُم، والشّأنُ أنَّ المحبّة تَجْلِبُ المحبّة إلَّا إذا اخْتَلَفَتِ المقاصِدُ والأخلاق[3]، وفيه طباقُ سَلْبٍ بين ﴿تُحِبُّونَهُمْ﴾ و﴿وَلَا يُحِبُّونَكُمْ﴾.

وقوله: ﴿وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ﴾؛ أي تؤمنون بكتابكم وبما مضى من الكُتُب قبل ذلكَ، وحُذف موقفُهم من كتاب المسلمين، والتَّقدير: تؤمنون بالكتاب كلّه، وهم يكفرون بكتابكم، فكنتُم أحقَّ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/65.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/65 - 66.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/65.

بالبَغْضَاءِ لَهُمْ مِنْهُم لَكم[1]، ولم يُذكَر كُفرهم بالكتابِ لبلوغِهِ في الشَّناعةِ مبلغًا عظيمًا.

دِلَالَةُ قَوْلِهِ: ﴿هَٰٓأَنتُمۡ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمۡ﴾:

(هَا) من قوله: ﴿هَٰٓأَنتُمۡ﴾ للتَّنْبِيه، و(أَنْتُمْ) مبتدأ، وجملة ﴿تُحِبُّونَهُمۡ﴾ خبرُه، و(أُولاءِ) يحتَمِلُ أن يكون منادى، أو يكون في محلِّ نصبٍ على الاختصاص[2]، وهما وجهان متقاربَانِ دِلاليًّا، وفيهما مزيدُ عنايةٍ وتنبيهٍ لما سيُذْكَرُ بعدُ.

فِي تَخْصِيصِ الْخِطَابِ مَزِيدُ اعْتِنَاءٍ وَتَنْبِيهٍ

دِلَالَةُ اللَّامِ فِي ﴿بِٱلۡكِتَٰبِ﴾ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿وَتُؤۡمِنُونَ بِٱلۡكِتَٰبِ﴾:

اللَّام في ﴿بِٱلۡكِتَٰبِ﴾ من قوله: ﴿وَتُؤۡمِنُونَ بِٱلۡكِتَٰبِ﴾ لِلْجِنْسِ، وأُكِّد بِصِيغَةِ الْمُفْرَدِ (كلّه) مُرَاعَاةً لِلَفْظِهِ ﴿بِٱلۡكِتَٰبِ﴾[3].

وذُكِرتِ الكُتُبُ في قوله: ﴿وَتُؤۡمِنُونَ بِٱلۡكِتَٰبِ كُلِّهِۦ﴾ بِصِيغَةِ المُفرد؛ للدِّلالةِ على تَوافُقِهَا واتِّحادِ مَصْدَرِهَا، وأنّها متناسبةٌ منسجمَةٌ في مقاصدِهَا الرَّئيسَة الكُلِّيَّة؛ مِن التّوحيدِ والإيمانِ وأركانه، وإسلام الوجهِ للّهِ سبحانه، فمَن آمنَ بواحدٍ مِنْ هذه الكُتب؛ لَزِمَهُ أن يُؤْمِنَ بِجَمِيعِهَا[4].

اتِّفَاقُ كُتُبِ اللهِ تَعَالَى فِي أُصُولِ الْعَقَائِدِ وَكُلِّيَّاتِ الدِّيَانَةِ

وقولهُ تعالى: ﴿وَتُؤۡمِنُونَ بِٱلۡكِتَٰبِ كُلِّهِۦ﴾ أُوِّلَ على إضمار مبتدأ، فتؤولُ الجملةُ اسميّةً، أي: ولا يُحِبُّونكم وأنتم تُؤْمِنُونَ بالكِتَاب كُلِّه[5].

بَلَاغَةُ التَّوْرِيَةِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَإِذَا لَقُوكُمۡ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا﴾:

وقوله: ﴿وَإِذَا لَقُوكُمۡ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا﴾؛ هذا الإخبار جَرى على مُنَازَعَتِهم في التَّوْرِيَة والسّتر والخُبث؛ إذْ لَمْ يَذْكُرُوا متعلّق الإيمان، ولكنّهم يُوهِمُونَ المؤمنين بهذا اللّفظ أنّهم مؤمنُونَ الإيمانَ المعهودَ عند أهل الإسلَام.

الْمُرَاوَغَةُ فِي قَضَايَا الْإِيمَانِ كُفْرٌ مُلَوَّثٌ بِخُبْثِ النُّفُوسِ

(1) النّوَيري، نهاية الأرب: 16/381.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 2/255.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/66.
(4) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/435، وأبو حيّان، البحر المحيط: 3/319، والسّمين، الدرّ المصون: 3/372.
(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/319.

وقوله: ﴿وَإِذَا لَقُوكُمْ﴾؛ أي منافقو اليهود قالُوا نفاقًا: ﴿ءَامَنَّا﴾ أي: برسالة مُحَمَّد، وهذا المعنى القريب إلى أذهانِ السّامعين، فيفهمون منهم أنّهم قد آمنوا فعلًا، والمعنى البعيدُ وهو قصدهم والمُراد عندهم هنا: (آمنّا بكتابنا ولم نؤمن بكتابكم)، ويرشّح هذه التّورية قوله: ﴿وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِۚ﴾؛ أي: "عضُّوا لأجل غَمِّهم منكم أطرافَ الأصابع مِن شدَّة الغَضَب؛ أي: فَإِذَا رَجَعُوا إلى بَعْضِهم أَظْهَرُوا شدّة العداوَةِ على المُؤْمِنِينَ حتَّى تَبْلُغَ تِلْكَ الشِّدَّةُ إلى عضِّ الأنامل"[1].

ويحتَمِلُ أن التَّوريَةَ في قولِه: ﴿وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا﴾، وأنَّهم قالوا ذلك مُدَّعين أنَّهم يُؤمنونَ الإيمانَ الكاملَ، بدليلِ حذفِ متعلّق الفعل المؤذِن بالعمومِ، وأنَّ مقالتَهم هذه جاريةٌ على طريقتِهم في الكذبِ والتَّضليلِ.

دِلَالَةُ جِنَاسِ الِاشْتِقَاقِ بَيْنَ ﴿وَتُؤْمِنُونَ﴾ و﴿ءَامَنَّا﴾:

ادِّعَـاءُ الْمُنَـافِقِ الْإِيمَانَ وَرُكُونُهُ إِلَى الْكُفْرِ وَأَهْلِهِ سِمَةٌ مُتَأَصِّلَةٌ فِي الْمُنَافِقِينَ

قوله: ﴿وَتُؤْمِنُونَ﴾ عائدةٌ على المؤمنينَ أَنْفُسِهم، وَهُوَ فعلٌ مُضارِعٌ يُفِيدُ معنى التّجدُّدِ والِاسْتِمْرَارِ، وهُوَ مُنَاسِبٌ لِحَالِ الْمُؤْمِنِينَ، وقولُه: ﴿ءَامَنَّا﴾ فعلٌ مَاضٍ راجعٌ إِلَى الكَافِرِين أَوِ المُنافقين.

وبَيْنَ ﴿وَتُؤْمِنُونَ﴾ و﴿ءَامَنَّا﴾ جِنَاسُ الِاشْتِقَاقِ، وفائدتُهُ: بَيَانُ أُسْلُوبِهم فِي تَقْلِيد المؤمنين والتّظاهُرِ بأنّهُم مِنْهُمْ.

دِلَالَةُ الْمَجَازِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَإِذَا خَلَوْاْ﴾:

كَيْدُ الْمُنَافِقِينَ فِي مَجَالِسِهِمْ بِأَهْلِ الْإِيمَانِ

قولُه: ﴿وَإِذَا خَلَوْاْ﴾، أي: خَلَا بعضُهم ببَعْضٍ وانْفَرَدُوا دُونكم، والمقصودُ: خَلَتْ مَجَالِسُهُمْ منكم، فَأُسْنِدَ الخُلُوُّ إليهم على سَبِيلِ الْمَجَازِ[2]، وَفَائِدَتُهُ: الكَشْفُ عمّا آلَ بِهِمُ الْحَالُ، أنّهم يَعَضُّون الأنامل

(1) الجاوي البنتني، مراح لبيد: 1/149.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/320.

مِنَ الغَيْظِ على أهل الإيمان مَا دَامُوا لَيسَ مَعَهُمْ، والتَّعبيرُ بالمجازِ ﴿وَإِذَا خَلَوْاْ﴾ أخصرُ من لو قيل: خلت مجالسُهم مِنكُم.

بَلَاغَةُ الْكِنَايَةِ فِي قَوْلِهِ: ﴿عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِۚ﴾:

قوله: ﴿وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا﴾، أي: نفاقًا وتَغريرًا أو توريَةً وتَعْمِيةً، ﴿وَإِذَا خَلَوْاْ﴾ أي: خلا بعضُهم ببَعْضٍ، ﴿عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ﴾ أي: أطرافَ الأصابعِ، ﴿مِنَ ٱلْغَيْظِۚ﴾؛ أي: بسببِ شدّة الغضَبِ لِمَا يَرَوْنَ مِن ائْتِلَافِ المُؤْمِنِين واجتماع كَلِمَتِهم[1]، فـ ﴿مِنَ﴾ سبَبِيَّةٌ.

إِذَا اضْطَرَبَ بَاطِنُ الْإِنْسَانِ صَدَرَ عَنْهُ مَا يُنَاسِبُ اهْتِيَاجَهُ

والعَضُّ: شدُّ الشَّيءِ بالأسنَانِ، وعضُّ الأنامِلِ: كنايةٌ عَنْ شدّة الغَيْظِ والتّحسّر، وإنْ لَم يَكُنْ عضُّ الأنامِلِ واقعًا حسًّا، لأنَّ المعنى اللَّازمَ في الكنايةِ لا يَتَعيَّنُ قصدُهُ، فالكناية بعضِّ الأنامل عن شدَّة الغَيْظِ والتحسُّرِ هو بِحَسَب المُتعَارَفِ، وذلك أنَّ الإنسانَ إذَا اضْطَرَب باطنُه مِنَ الانْفِعَالِ؛ صَدَرَتْ عَنْهُ أفعالٌ تُنَاسِبُ ذلكَ الانفعالَ[2]، فهي هيئةٌ في بَدَنِ الْإِنْسَان تَتْبَعُ هَيْئَةَ النّفسِ الغاضِبَةِ، كما أنّ ضَرْبَ اليدِ علَى الْيَدِ يَتْبَعُ هيئةَ النّفس المتلهِّفة على فَائِتٍ قَرِيب الفَوْتِ، وكما أنَّ قَرْع السِّنّ هيئة تَتْبَع هيئة النّفس النَّادمة، إلى غير ذلك من عَدِّ الحصَى والخطِّ في الأرضِ لِلْمَهْمُوم ونَحْوِه[3].

وفي التَّعبير بالكناية دلالة على الصِّفةِ المرادِ إثباتُها، مقرونةً بدليلِهَا، مصوَّرةً بصورةٍ يستحضِرُهَا الفكرُ والخيالُ.

بَرَاعَةُ التَّمْثِيلِ فِي قَوْلِهِ: ﴿عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِۚ﴾:

يَحْتَمِلُ أن يكُونَ قَوْلُ اللهِ تعالى: ﴿عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِۚ﴾ من مجاز التَّمثيلِ، عُبِّر بذلك عن شدَّة الغَيْظِ، والتَّأسُّف على ما يَفُوتُهم مِن إذَايَة المؤمنينَ.

امْتِلَاءُ بَوَاطِنِ الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ بِالْحِقْدِ وَالْبُغْضِ وَالْحَسَدِ لِأَهْلِ الْإِيمَانِ

(1) الشّربيني، السّراج المُنير: 1/242.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/66.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/320.

ونبَّه تعالى بهذهِ الآية على أنَّ مَن كان بهذه الأوصافِ مِنْ بُغْضِ المُؤْمِنِين، والكُفْرِ بالقُرآن، والرِّياءِ بِإِظْهَارِ ما لا تَنْطَوِي عَلَيْهِ بَواطِنُهُم، حريٌّ بِأَنْ لا يُتَّخذ صَدِيقًا[1].

دِلَالَةُ الْأَمْرِ فِي قَوْلِهِ: ﴿مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْۗ﴾:

ظاهرُ قولِه تعالى: ﴿قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْۗ﴾ أنّ النَّبيَّ ﷺ أُمِرَ بِأَنْ يقولَ لَهُمْ ذَلِكَ، و﴿مُوتُواْ﴾ صيغةُ أمرٍ، ومعناها الدُّعاء؛ فقد أَذِنَ اللهُ تعالَى لِنَبِيِّه ﷺ أَنْ يَدْعُوَ عليهم لَمَّا يَئِسَ مِن إِيمَانِهم، ولَهُ أَنْ يَدْعُوَ مُوَاجَهَةً.

مِنْ سُبُلِ جِهَادِ الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ جِهَادُهُمْ بِالْكَلِمَةِ

ويحتَمِلُ أنَّ المأمورَ هو النَّبيُّ ﷺ وأُمَّتُهُ أَنْ يُوَاجِهُوهُمْ بِهَذا، وَعَلَى هَذَا الوجهِ؛ فالأمر يُرادُ به التَّقْرِيعُ والتَّوبيخُ، كما أفادَهُ ابنُ عطيَّة[2].

ويحتَمِلُ أن يكون ﴿قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْۗ﴾ في صورة الأمر، ومعناه الخبر[3]، ويكون المرادُ به التَّوبيخ والتَّقريع أيضًا.

وحملُ الخطاب في ﴿قُلْ﴾ على إرادة النَّبيِّ ﷺ جارٍ على الأصلِ في إرادةِ التَّعيينِ بالخطاب، وإذا حُمِلَ على أنَّ المراد به هو وأُمَّتُهُ؛ كان الخطاب خارجًا عن الأصلِ في إرادةِ التَّعيينِ قصدًا إلى العُمُومِ.

دِلَالَةُ الْبَاءِ فِي قَوْلِهِ: ﴿قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْۗ﴾:

الْبَاءُ في قَوْلِهِ: ﴿بِغَيْظِكُمْۗ﴾ دالَّةٌ على الْحَالِ، أي: تَمُوتُونَ وَمَعَكُم الغَيْظُ، وهو على جهة الذَّمِّ على قَبِيحِ عَمَلِهم[4].

قُوَّةُ الْإِسْلَامِ وَعِزَّةُ أَهْلِهِ مِنْ أَكْبَرِ مَا يَغِيظُ أَعْدَاءَ الْحَقِّ

وقال الزَّمَخْشَرِيُّ: هُوَ دعاءٌ عَلَيْهِمْ بأن يَزْدَادَ غَيْظُهُم حتَّى يَهْلَكُوا به، والمرادُ بِزِيَادَةِ الغَيْظ: مَا يَغِيظُهم مِنْ قُوَّةِ الْإِسْلَام وعِزَّة أَهْلِهِ، وما لهم في ذلك مِنَ الذُّلِّ والخِزْيِ والتَّبارِ[5]، ويَكُونُ مَا قالَهُ

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/321.
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 1/496.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/321.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/321.
(5) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/434.

الزَّمخْشَرِيُّ يُشْبِهُ قولَهم: مُتْ بِدَائِكَ، أي: أَبْقَى اللهُ داءَكَ حتَّى تمُوتَ بِهِ. وأوردَ أبو حيَّانَ على هذا أنَّه يمتنِعُ أن يكون أَمْرًا جازمًا، لأنّه لو كان أمرًا؛ لماتُوا من فَوْرِهم، ولَيْسَ هُوَ بِدُعَاءٍ؛ لأنّه لو أمَرَ اللهُ تعالَى نبيَّهُ ﷺ بالدُّعاء لَمَاتُوا جَمِيعُهُم على هذه الصِّفة؛ إذْ دَعْوَتُهُ ﷺ لَا تُرَدُّ، والواقعُ أنَّه قد آمَنَ مِنْهُمْ بَعْدَ هذهِ الْآيَةِ كثيرٌ[1]، فدلَّ هذا على أنَّ الكلام سيقَ مساقَ الذَّمِّ والتَّوبيخِ على عملهم القبيحِ.

دِلَالَةُ الْفِعْلِ ﴿قُلْ﴾ فِي: ﴿قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْۗ﴾:

يَحْتَمِلُ أَنْ لا يُرادَ بقَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْۗ﴾ الأمر بالقولِ المسموعِ، وإنَّما المرادُ: حدِّثْ نفسَكَ بذلك؛ والقصدُ منه: الأمرُ بطِيبِ النَّفْسِ وقوَّةِ الرَّجاءِ والاستبشار بوعدِ اللهِ تعالى أن يهلكَ أعداءُ الإسْلَامِ غيظًا بِإِعْزَازِ الْإِسْلَامِ وإِذْلَالِهِم بِهِ[2].

الِاسْتِبْشَارُ بِوَعْدِ اللهِ تَعَالَى وَرَجَاءُ نَصْرِهِ مِمَّا تَطِيبُ بِهِ النَّفْسُ

خُرُوجُ الْخِطَابِ عَنْ إِرَادَةِ الْمُعَيَّنِينَ فِي قَوْلِهِ: ﴿قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْۗ﴾:

قوله: ﴿قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْۗ﴾ لا يُرادُ به مُخَاطَبُون مُعَيَّنون؛ لأنَّه دعاءٌ عَلَى الذين يعضُّون الأنامل مِنَ الغَيْظِ، وهُم يَفْعَلُونَ ذَلِكَ إذَا خَلَوْا، وقد لا يتأَتَّى مُشَافَهَتُهُم بالدُّعاء على التَّعيين، ولكنَّهُ كلامٌ قُصِدَ إِسْمَاعُهُ لِكلّ مَن يَعْلم مِن نَفْسِهِ الاتِّصافَ بالغَيْظِ عَلَى المُسْلِمِين، فهو مِنَ الْخِطَابِ الذي يُقْصَدُ بِهِ عُمُومُ كلِّ مُخاطَبٍ كالواردِ في قولِهِ: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُواْ رُءُوسِهِمْ﴾ [السجدة: 12][3]، فهو وإن وردَ في مَجْمُوعَةٍ مَخْصُوصَةٍ كانَتْ عَلَى هَذهِ الحالِ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، إلَّا أنَّ المرادَ كلّ قومٍ يتّصفُونَ بِذَلِكَ على تطاوُلِ الزَّمَنِ وتتابُعِهِ.

مِنْ جَلَالِ خِطَابِ الْقُرآنِ الْكَرِيمِ وَجَمَالِهِ صَلَاحِيَتُهُ لِكُلِّ زَمَانٍ يُقْرَأُ فِيهِ

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/321.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/407.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/67.

نُكْتَةُ التَّكْرَارِ فِي قَوْلِهِ: ﴿مِنَ ٱلْغَيْظِۚ﴾ و﴿بِغَيْظِكُمْۗ﴾:

التَّكْرَارُ يَشُدُّ الذِّهْنَ إِلَى الِاهْتِمَامِ بِالْمَعَانِي

تكرّرت مادَّةُ (الغَيظ) في هذهِ الآيَةِ الكَرِيمَةِ؛ اهْتِمَامًا بِكشف الحالِ السَّيِّئَةِ التي اعْتَرَتْ هَؤُلَاء، فظَهَرَتْ في أَفْعَالِهِم وحَرَكَاتِهِم وتَصَرّفَاتِهِم وأَقْوَالِهِم، وفَضَحًا لِمَا طَفَحَ مِمَّا في صُدُورِهِم مِنَ الغَيْظِ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ، فَقَدْ بَدَا وظَهَرَ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ، ومَا تُخْفِي صُدُورُهُم أَكْبَرُ وأعظَمُ.

دِلَالَةُ الْكِنَايَةِ فِي قَوْلِهِ: ﴿بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾:

سَعَةُ عِلْمِ اللهِ تَعَالَى وَإِحَاطَتُهُ بِظَوَاهِرِ الْعَبْدِ وَبَوَاطِنِهِ

(الذّات) لَفْظٌ مُشْتَرَكٌ، والمرادُ هنا: تأنيث (ذي) الذي بِمَعْنَى صَاحِبٍ، فأصلهُ هُنَا: عَلِيمٌ بِالْمُضْمَرَاتِ ذَوَاتِ الصُّدُور، ثمَّ حُذِفَ الموصوفُ، وأُقِيمَت الصِّفةُ مُقَامَهُ.

ومَعْنَى صَاحِبَةِ الصُّدُور: المُلازمةُ لَهُ، التِي لا تنفكُّ عنه؛ كما تقول: فلان صاحبُ فلان، ومنهُ: أصحابُ الجنَّةِ وأصحَابُ النَّارِ[1]، فَهِيَ كِنَايَةٌ عَنْ مَوْصُوفٍ، وَهِيَ الأَسْرَارُ التِي مَنْشَؤُها ومحلُّها فِيهِ.

بَلَاغَةُ التَّذْيِيلِ فِي قَوْلِهِ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾:

عِلْمُ اللهِ تَعَالَى بِالسِّرِّ وَأَخْفَى

قَوْلُه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ يَجُوزُ أَن يَكُونَ مِن جُمْلَةِ مَقُولِ القولِ، والمعنى: أَخْبِرْهُم بِمَا يُسِرُّونه مِن عَضِّهِمُ الأناملَ غيظًا إذا خَلَوْا، وقُل لَهُمْ: إنَّ اللّه عليمٌ بِمَا هُوَ أَخْفَى مِمَّا تُسِرّونَهُ بَيْنَكُم، وهو مُضْمَرَاتُ الصُّدُور، فلا تظنُّوا أنَّ شيئًا مِن أسراركم يَخْفَى عَلَيْه.

ويَحْتَمِلُ أَن لا يكون قولُه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ مِنْ جُمْلَةِ مَقُولِ القول، فيَكُونُ تَذْيِيلًا لِمَا قَبْلَهُ مِن ذِكْرِ طبَائع الكُفّار، وما يُسرّونه وما يُعلنونه من الغلّ والحقد على المُسلمين، فهو سُبْحَانَهُ يَعْلَم السِّرّ وأَخْفَى وما تُكِنّهُ صدُورُهم، والمعنَى: قُل لَهُمْ ذَلِكَ، ولا تَتَعَجَّبْ مِن

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/322.

إطْلَاعِي إيَّاك على مَا يُسِرُّون، فإنّي أعلَمُ مَا هُو أَخْفَى مِن ذلك، وهو مُضْمَرَاتُ صُدُورِهِم لَمْ يُظْهِرُوه بألسِنَتِهم[1]، فَالْجُمْلَةُ تَذْيِيلٌ لقولِه: ﴿عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِۚ﴾، ومَا بَيْنَهُمَا كالِاعْتِرَاضِ[2]، وهو تذييلٌ جارٍ مجرى المثَلِ؛ لاستقلالِهِ بالإفادَةِ وعدمِ افتقَارِهِ إلى ما قبلَهُ في الكشفِ عن أصلِ معناهُ.

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الغيظ والغضب:

ميَّز ابن دريد بين (الغيظ) و(الغضب)؛ فقال: الغيظ أشدُّ من الغضب. وقال أيضًا: (الغيظ) سَوْرَةُ الغضب وأوّله، و(الغيظ) هو الكمين، و(الغضب) هو الظاهر. أو (الغضب) للقادر و(الغيظ) للعاجز. (غاظه) يغيظه غيظًا، وهو غائظ، وذلك مغيظ[3]. فقال الله في الآية: ﴿مِنَ ٱلْغَيْظِۚ﴾؛ لبيان عجزهم، وعادةً عضُّ الأنامل يكون من الغيظ لا من الغضب، وفيه بشارة للمؤمنين أنَّ هؤلاء الذين قصدوا ضررَكم لا يضرُّون إلا أنفسهم، وأنَّ غيظهم لا يقدرون على تنفيذه[4]، ولأن الغضب يكون مصحوبًا بالقوَّة، ونفادِ الصَّبرِ والبطش.

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/321 - 322.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/67.
(3) الزبيدي، تاج العروس: (غيظ).
(4) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 65.

﴿إِن تَمۡسَسۡكُمۡ حَسَنَةٞ تَسُؤۡهُمۡ وَإِن تُصِبۡكُمۡ سَيِّئَةٞ يَفۡرَحُواْ بِهَاۖ وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمۡ كَيۡدُهُمۡ شَيۡـًٔاۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ ١٢٠﴾ [آل عمران: 120]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الآيةُ استمرار لبيانِ صفات وأحوال أولئك الذين نهى اللّه المؤمنين، أن يتَّخذوهم أولياءَ من دون المؤمنين، فبعدَ أنْ كشفَ خبايا نفوسِهم، وما يخفونه في صدورهم من الحِقد على أهلِ الإيمان، قدَّم هُنا صورةً من المقابلة بين الحالين؛ حال المؤمنين تُجاههم، وحالهم تُجاه المؤمنين، فقال: ﴿إِن تَمۡسَسۡكُمۡ حَسَنَةٞ تَسُؤۡهُمۡ وَإِن تُصِبۡكُمۡ سَيِّئَةٞ يَفۡرَحُواْ بِهَاۖ وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمۡ كَيۡدُهُمۡ شَيۡـًٔاۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ﴾؛ لتُختَمَ الآيةُ بدلائل إحاطةِ اللّه بأحوالِ النَّاس.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تَمۡسَسۡكُمۡ﴾: جذر الكلمة هو (مَسَس)؛ والمسُّ وضعُ اليد على الجسم كاللَّمس، وهو في الأصل: جسُّ الشَّيء باليد، والمسُّ يقال فيما يكونُ معه إدراكٌ بحاسَّة اللَّمس، ويُستخدم للخير أو للشرِّ، ويُكنَّى به عنِ النِّكاح والجنون. ويقال: لا مِساس ولا مَساس، أَي لا أَمَسُّ ولا أُمسُّ. وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِي يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مِنَ ٱلۡمَسِّۚ﴾ [البقرة: 275]، أَي من الجنون، يقال: به مَسٌّ، وقد مُسَّ فهو ممسوس. وقوله تعالى: ﴿ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ ٤٨﴾ [القمر: 48]، جَعَل للمسِّ مَذَاقًا؛ كما يقال: كيف وجدتَ طعم الضرب؟ ويقال: وجدت مسَّ الحُمَّى، أَي: أَوَّل ما نالني منها. ويقال: مسَّه الكبر والمرض، ومسَّه العذاب، ومسَّه بالسّوط.[1].

2) ﴿تَسُؤۡهُمۡ﴾: جذر الكلمة هو (سَوَأَ)؛ وساء الشّيءُ: قَبُح فهو سيّءٌ، والسُّوء: اسم جامعٌ للآفات والدَّاء، ونعتٌ لكلِّ شيء رديءٍ. وتقول: ساء ما فعل فلان صنيعًا. والمعنى المحوريُّ: عيبٌ أو قبحٌ أو فسادٌ أو مرضٌ يخالط ظاهرَ الشيء أو باطنَه، كالبَرَص والمرَض، وفسادِ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المُفردات، والزّمخشريّ، أساس البلاغة، وابن سيده، المُحكم، والفيروزابادي، بصائر ذوي التمييز: (مسس).

العمل، ومن ذلك: السَوْأَةُ: فَرْجُ الرجل أو المرأة؛ لأنَّ الفطر السليمةَ تستقبحُ ظهورَها، قال تعالى: ﴿فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا﴾ [طه: 121]، و(سَاءَهُ) ضِدُّ سَرَّهُ. وَقُرِئَ: ﴿عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ﴾ [الفتح: 6]، بِالضَّمِّ[1]؛ أَي الْهَزِيمَةُ وَالشَّرُّ، وقَوْله تَعَالَى: ﴿مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾ [طه: 22]؛ أي مِنْ غَيْرِ بَرَصٍ. وكلُّ ما ورد في القرآن الكريم من: (ساء)، و(ساءت) فهي بمعنى (قبُح)، وكذلك (أَسَاءَ)، و(أسأتم) و(أساءوا) هنَّ بمعنى ارتكابِ القبيح من الأعمال دينيًّا. ويتلوَّنُ المعنى قليلًا لكن في نطاق القُبْح، مثل: ﴿تَسُؤْكُمْ﴾ ﴿تَسُؤْهُمْ﴾ بمعنى: تَشِنْكم، تَحْزُنْهم، و﴿لِيَسُـٔـُواْ وُجُوهَكُمْ﴾ [الإسراء: 7]، أي: يَشِينونها بما يوقعون بكم، و﴿سِيٓءَ بِهِمْ﴾ [هود: 77، العنكبوت: 33] حَرِج صدرُ لوطٍ عليه السلام وتوجَّسَ العارَ والمهانة؛ خشيةَ ارتكابِ قومه الفاحشةَ مع ضيوفه[2].

3) ﴿كَيْدُهُمْ﴾: جذر الكلمة هو (كَيَد)؛ الكَيْد: في اللُّغة يدلُّ على معالجةٍ لشيءٍ بشدَّة، والكَيْدُ من المكيدة، وهو ضربٌ منَ الاحتيال، وقد يكونُ مذمومًا، وقد يكونُ ممدوحًا، ويُستعملُ في المذموم أكثر. فالذي يَكيدُ يدبِّر ويمكُرُ ولا يُظْهِرُ كيدَه حتى يأتيَ الوقتُ، ويتمُّ التدبيرُ على ما أراد، ويكونُ عجيبًا شديدًا، وكلُّ ما في القرآن من الكَيْدِ فهو بمعنى التدبيرِ المحكمِ الشديدِ وتنفيذِه[3].

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

ومن تَناهِي عداوةِ هؤلاء المنافقين من أهلِ الكتاب، وحسدِهم لكم، وسوءِ طويَّتِهم تُجاهَكم أنَّكم - أيها المؤمنون - إن نَزَل بكم أمرٌ حسنٌ مِن نصرٍ وغنيمةٍ ظهرَتْ عليهم الكآبةُ والحزنُ، فيحسدونَكم على أدنى ما نالَكم من خيرٍ ومنفعةٍ، وإن وقعَ بكم مكروهٌ من هزيمةٍ أو نقصٍ في الأموال والأنفس والثمراتِ فَرِحوا وشَمِتوا بما أصابَكم، وإن تصبروا على ما أصابَكم وعلى عداوتِهم، وتتقوا اللّه فيما أمركم به ونهاكم عنه، ومنه عدمُ اتِّخاذهم أولياءَ، لا يضرُّكم أذى مكرِهم وما يدبِّرونه لكم من المكايد؛ بفضل اللّه وحفظِه الموعودِ للصَّابرين والمتَّقين. واللّهُ محيطٌ بجميعِ ما يعملُ هؤلاءِ الكفارُ من الفساد، واقفٌ على دقائقه وغالبٌ على أمره، وسيجازيهم على ذلك[4].

(1) وهي قراءة ابن كثير وأبي عمرو، ينظر: ابن الجزري، النشر: 2/280.

(2) الخليل، العين، والزّمخشريّ، أساس البلاغة، والرّازي، مختار الصّحاح، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (سوأ).

(3) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، والزّمخشريّ، أساس البلاغة، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (كيد).

(4) ابن الجوزيّ، زاد المسير: 1/319، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 2/35، والموصلّي، أولى ما قيل: 2/531، ونخبة من العلماء، التفسير الميسر، ص: 65.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

مَحَبَّةُ وُقُوعِ الضَّرَرِ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ شَأْنُ الْمُنَافِقِينَ

دِلَالَةُ الِاسْتِعَارَةِ فِي قَوْلِهِ: ﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُواْ بِهَا﴾:

زاد اللّه تعالى كشفًا لما في صُدُورهم بقوله: ﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ﴾ أي: تُصِبْكُم حسنةٌ، والمسُّ: الإصابة، ولا يختصُّ أحدُهُما بالخَيْرِ، والآخر بالشَّرِّ، فالتَّعبير بأحَدِهما في جانب الحَسَنَةِ، وبالآخَرِ في جانِبِ السَّيِّئة: تفنُّنٌ في التَّعبير[1].

والمسّ مستعارٌ لِمَعْنَى الإصابة[2]، فكان المعنى واحدًا، ألَا ترَى إلى قوله: ﴿إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُواْ قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا مِن قَبْلُ﴾ [التّوبة: 50]، وقوله: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ [النّساء: 79]، وقوله: ﴿إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾﴾ [المعارج: 20 - 21][3].

وقال ابنُ عَطِيَّة: "ذكر اللّه تعالى المسَّ في الحسَنَةِ لِيُبَيِّن أنّ بِأَدْنَى طُرُوءِ الحسنة تقَعُ المساءَةُ بِنُفُوسِ هؤلاء المُبْغِضين، ثُمَّ عادَلَ ذلك في السّيِّئَةِ بِلَفْظِ الإصابَةِ، وهِيَ عِبَارَةٌ عَنِ التّمكُّن؛ لأنّ الشّيء المُصِيبَ لِشَيْءٍ هو مُتَمَكِّن مِنْهُ أو فيه، فدلّ هذا النّوعُ البَلِيغُ على شِدَّةِ العداوَةِ؛ إذْ هُوَ حِقْدٌ لا يَذْهَبُ عندَ نُزُول الشّدائد، بَل يَفْرَحُون بنُزُول الشّدائد بالمُؤْمِنين"[4].

وذكر أَبُو حَيَّان أنّ في قوله: ﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُواْ بِهَا﴾ استعارةً، فشُبِّه حصولُهما بالمسِّ والإصابَةِ، وليس هُوَ من باب تشبيهِ المَعْقُولِ بالمَحْسُوس، بل هو من بابِ الاِسْتِعَارَةِ التَّصْرِيحِيَّةِ[5]؛ إذْ حُذِفَ المُشَبَّهانِ وصُرِّحَ بالمشبَّهِ بهما.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/68.
(2) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 2/35، والزّمخشريّ، الكشّاف: 1/407.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/407.
(4) ابن عطية، المحرر الوجيز: 1/496.
(5) أبو حيان، البحر المُحيط: 3/324.

نُكْتَةُ الِاسْتِعَارَةِ فِي التَّعْبِيرِ بِالْحَسَنَةِ وَالسَّيِّئَةِ:

شِدَّةُ حَنَقِ أَهْلِ الْبَاطِلِ عَلَى أَهْلِ الْحَقِّ

(الْحَسَنَةُ) وَ(السَّيِّئَة) في قوله تعالى: ﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُواْ بِهَاۖ﴾ يُرادُ بهما: ما يَحْسُنُ عِنْدَ صَاحِبِها أَوْ يَسُوءُ، ولَيْسَ الْمُرَاد بِهِمَا هنا المعهودَ في خطاب الشَّرعِ[1]، فَاسْتُعِيرَتَا لِلدِّلالةِ على النَّصْرِ أَوِ الْخِذْلَانِ ونحوِهمَا؛ تنبيهًا على أثرِهمَا، وأنَّ منشأَ كَراهةِ أهل الباطِلِ إنَّما هو حصولُ الحُسْنِ في نفُوس المؤمنينَ أيًّا كان سبَبه.

دِلَالَةُ الْمُقَابَلَةِ فِي قَوْلِهِ: ﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُواْ بِهَاۖ﴾:

ازْدِيَادُ فَرَحِ الْمُبْطِلِينَ بِازْدِيَادِ الضَّرَرِ الْوَاقِعِ عَلَى أَهْلِ الْإِسْلَامِ

الْحَسَنَةُ في قوله تعالى: ﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُواْ بِهَاۖ﴾: مَا يَسُرُّ مِن رخَاءٍ وخِصْبٍ ونُصْرَةٍ وغَنِيمَةٍ، ونَحْوِ ذلكَ مِنَ المنافِعِ، والسَّيِّئَةُ ضِدّ ذلك[2]، وقد بيّن اللّه تعالى بِذَلِكَ فَرْطَ عدَاوتِهِم فَيَسُوؤُهُم مَا نال المؤمنين مِنَ الخَير، ويَفْرَحُون بِمَا يُصِيبُهم مِنَ الشِّدَّة[3]، وقَابَلَ الْحَسَنَةَ بالسَّيِّئَة، والمساءَةَ بالفَرَحِ؛ وهي مقابلةٌ بَدِيعَةٌ.

وعُبِّر في جانب السَّيِّئَةِ بالإصابة ﴿وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ﴾، ولم يَرِدِ النَّظْمُ القرآنيُّ بـ: (تَمْسَسْكُمْ)؛ لِيَكْشِفَ عَن عَمِيقِ غِلّ نُفُوسِهِم؛ فَإِنّهم يُسَاؤُونَ مَعَ أَدْنَى حَسَنةٍ وأقلِّهَا، ويَفْرحُون معَ مَا يُصِيبُهُم مِن ضُرٍّ، ويَزْدَادُ فَرَحُهُم بِذَلِكَ.

نُكْتَةُ تَنْكِيرِ الْحَسَنَةِ وَالسَّيِّئَةِ فِي قَوْلِهِ: ﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُواْ بِهَاۖ﴾:

نُكِّر لفظُ ﴿حَسَنَةٌ﴾ و﴿سَيِّئَةٌ﴾ في قولِهِ تعَالى: ﴿إِن تَمْسَسْكُمْ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/68.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/407.
(3) أبو حيان، البحر المُحيط: 3/322.

مِـــنْ طُـــرُقِ التَّـفْـسِيرِ عِـنْـدَ السَّلَفِ تَفْسِيرُ الْأَلْـفَـاظِ بِالْمِثَالِ الْمُـنْـدَرِجِ تَحْتَ عُمُومِهَا

﴿حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُواْ بِهَا﴾ لإفادةِ العموم؛ لأنَّهما نَكِرَتانِ في سياق الشّرط، والعمومُ ههنا بدَليٌّ لا شموليٌّ؛ لتعذُّر اجتماع كلِّ حسنةٍ في فردٍ أو أفرادٍ، ومثلُ ذلك يُقال في السَّيِّئَة.

ولَمْ تَرِد اللَّفْظَتانِ معرفَتَيْن؛ لئلَّا يُوهِمَ ذلك التَّعيينَ بِالْعَهْد، أو يوهِمَ العمومَ الشّموليَّ بحَمْلِ اللَّام على الجِنْس.

وقد تنوَّعت عباراتُ المفسّرين في مَعْنَى الحَسَنَةِ والسّيّئة؛ فقال قتادةُ وغيرُهُ: الحسنَةُ بِظُهُورِكُم عَلَى العَدُوّ، والغَنِيمَةِ مِنْهُم، والتّتابع بالدُّخول في دينِكم، وخِصْبِ معَاشِكم، والسّيئةُ بِإِخْفَاقِ سَرِيَّةٍ مِنْكُم، أو إصابةِ عُدُوٍّ مِنْكُم، أو اختلافٍ بينَكُم، وقال الْحَسَنُ: الحسنةُ الْأُلْفَةُ واجتمَاعُ الكَلِمَةِ، والسّيِّئَةُ إصابَةُ العَدُوّ واخْتِلَافُ الْكَلِمَة، وقال ابنُ قُتَيْبَةَ: الحسنَةُ النِّعمة، والسّيئة المُصِيبَةُ، وهذه الأقوالُ هِيَ عَلَى سَبِيلِ التّمثيلِ لا التّعيين[1]، كما هو المعْرُوف مِن طَرِيقَة السَّلف في التَّفسير؛ فإنَّهم يُفَسِّرُون بالمثالِ في كثيرٍ مِن آيِ القُرْآنِ الْكَرِيم.

دِلَالَةُ نَفْيِ الضُّرِّ دُونَ نَفْيِ الْأَذَى فِي قَوْلِهِ: ﴿لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾:

إِذَا انْتَفَى الضَّرَرُ الْأَعْظَمُ؛ كَانَ انْتِفَاءُ الْأَخَفِّ مِنْهُ هَيِّنًا

أَرْشَدَ اللّهُ تعالَى المُؤْمِنينَ في قوله: ﴿وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ﴾ إلى كَيْفِيَّة تلَقِّي أَذَى العَدُوِّ؛ بِأَنْ يَتَلَقَّوْهُ بالصَّبْرِ والحَذَرِ، وعُبِّرَ عَنِ الحَذَرِ بالاتِّقاء، أي: اتِّقاء كَيْدِهم وخِدَاعِهم، وقوله: ﴿لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾، أي: بِذَلِكَ يَنْتَفِي الضُّرُّ كلّه؛ لأنّه أثبت في أوَّل الآي أنَّهُم لا يَضُرُّون المؤمنين إلَّا أذًى، وَالأذَى: ضُرٌّ خَفِيف، فلمّا انتفى الضّرُّ الأعظَمُ الذي يُحْتَاجُ في دَفْعِه إلى شَدِيد مُقَاوَمَةٍ؛ مِنْ قِتَالٍ وحِرَاسَةٍ وإنْفَاقٍ؛ كانَ انْتِفَاءُ ما بَقِيَ مِنَ الضُّرّ هيّنًا، وذلكَ بالصّبر عَلَى الْأَذَى، وقِلَّة الاكْتِرَاث بِهِ، معَ الحَذَرِ مِنْهُمْ أَنْ يَتَوَسَّلوا بذلك الأذَى إِلَى مَا يُوصِلُ ضُرًّا عَظِيمًا[2]، وقد قال رَسُولُ اللّهِ ﷺ: "لَا أَحَدَ أَصْبَرُ

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/322.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/68.

عَلَى أَذًى يَسْمَعُهُ مِنَ اللهِ ﷻ، إِنَّهُ يُشْرَكُ بِهِ، وَيُجْعَلُ لَهُ الْوَلَدُ، ثُمَّ هُوَ يُعَافِيهِمْ وَيَرْزُقُهُمْ"[1].

دِلَالَةُ حَذْفِ مُتَعَلَّقِ الصَّبْرِ وَالتَّقْوَى فِي قَوْلِهِ: ﴿وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ﴾:

تَكَامُلُ الصَّبْرِ وَالتَّقْوَى فِي دَفْعِ الضَّرَرِ

قال ابنُ عبَّاسٍ في قولِه تَعَالى: ﴿وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا﴾: وإنْ تَصْبِرُوا على أذاهُم، وتتّقوا اللّه، ولا تَقْنَطُوا، ولا تَسْأَمُوا أذاهُم وإن تَكَرّر، وقال مُقاتِلٌ: وإن تَصْبِرُوا على أمرِ اللّه، وتتّقوا مُبَاطَنَتَهُم، وذُكِرَ في تعيينِ متعلّق الْفِعْلَين - الصَّبْرِ والتَّقْوَى - غيرُ هذين القولين.

ولَمْ يُذْكر متعلَّق الصّبر ولا مُتَعَلَّق التّقوى، ولكنّ الصّبرَ لَمَّا كان حَبْسَ النَّفْسِ على الْمَكْرُوهِ، والتّقوى اتِّخَاذَ الْوِقَايَةِ؛ حَسُنَ أن يُقَدَّرَ المحذوفُ مِن جِنْسِ مَا دلّ عليه لَفْظُ الصَّبر ولَفْظُ التّقوى.

وفي هذا تَبْشِيرٌ لِلْمُؤْمِنين، وتَثْبِيتٌ لِنُفُوسِهم، وإرشَادٌ إِلَى الاسْتِعَانَةِ عَلَى كَيْدِ العدوِّ بالصَّبْرِ وَالتَّقْوَى[2].

دِلَالَةُ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾:

إِحَاطَةُ اللهِ تَعَالَى بِالْخَلْقِ عِلْمًا وَقُدْرَةً

قوله: ﴿بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾؛ إذا قَصَرْنَا الإحاطَةَ على المَعْنَى الحسِّيِّ؛ كان في الآية اسْتِعَارَةٌ، إذْ قد شُبِّهَ شمولُ علم اللّه تعالى وقُدْرَته عَلَيْهِمْ بإحاطة المُحِيط بما أحاطَ بِهِ، على طريقةِ الاسْتِعَارَةِ التَّصريحِيَّة التَّبعيَّة، والجامع بين المَعْنَيَيْن: استِحَالَةُ الفَوْتِ في كِلَيهما.

وهذا القولُ قَد يكُون ظاهرُ مَعْنَاهُ مقبولًا، إلَّا أنَّهُ يُشْكِلُ عَلَيْهِ حَمْلُ وصفٍ مِن أوصَافِ اللّهِ تَعَالَى على الاسْتِعَارَةِ - وهي ضربٌ مِنَ المجَاز -، مع اتِّفاق كلمة السَّلَفِ على عدم جَوَازِ إِجْرَاء شيءٍ مِن ذلكَ عَلَى الْمَجَازِ[3].

---

(1) رواه البخاري في صحيحه، الحديث رقم: (6099)، ومسلم في صحيحه، الحديث رقم: (2804) واللَّفْظُ له.

(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/323.

(3) ابن عبد البرِّ، التَّمهيد: 7/145.

ولا مانعَ مِن حملِ الإحاطة على مَعَانٍ أوسعَ، فتشمل الإحاطةَ الحسِّيَّةَ، وإحاطةَ العلم والقدرة، كما ذَكَرَهُ أهلُ العلم تَفْسِيرًا لِاسْمِ اللّه (المحيط)، وخُرُوجًا مِن حمل اللَّفْظِ على شيءٍ يتعلَّق بالمجاز[1].

دِلَالَةُ تَقْدِيمِ مَا حَقُّهُ التَّأْخِيرُ فِي قَوْلِهِ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ﴾:

قُدِّم الجارُّ والمَجْرُورُ ﴿بِمَا يَعۡمَلُونَ﴾ على متعلَّقِهِمَا ﴿مُحِيطٞ﴾؛ لقَصْدِ الاهْتِمَام بِمَا يُقَدِّمُونه مِنَ الأعمالِ التي تَسْتَحِقُّ العقوبةَ، وَاللّه عليمٌ بأعْمَال النّاس جميعًا صالِحِها وسيِّئِها، لَكِن اخْتُصَّت هنا أعمالُ المُنَافِقِين والكُفّار؛ لِمَا فِيهَا مِن السُّوءِ والشَّرِّ والفسادِ.

عِلْمُ اللهِ تَعَالَى بِأَعْمَالِ الْعِبَادِ يَقْتَضِي الْعُقُوبَةَ عَلَى سَيِّئِهَا وَالْإِثَابَةَ عَلَى حُسْنِهَا

والجملةُ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ﴾ خبريَّةٌ يُرادُ بها التَّحذير والتَّهديدُ، فهي مجازٌ مرسلٌ مركَّبٌ.

تَوْجِيهُ الْقِرَاءَاتِ فِي قَوْلِهِ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ﴾:

القراءة ﴿يَعۡمَلُونَ﴾ مِنْ قَوْلِه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ﴾ بالياء؛ وهي على معنَى الوعيد والتَّهديد، فإنَّه إذا كان محيطًا بهم علمًا وقدرةً؛ فهو أقدرُ على عُقوبتِهم علَى قبيحِ أفعالهم.

التَّكَامُلُ الدِّلَالِيُّ لِلْقِرَاءَاتِ الْقُرْآنِيَّةِ

وقرأ الحسنُ بْنُ أَبِي الْحَسَنِ بالتَّاءِ (تَعْمَلُونَ)[2]؛ وهو على الالتفاتِ من الغَيْبَةِ إلى الخطابِ، وهو خطابٌ للكفَّارِ، ونكتَتُهُ: المبالغةُ في التَّهديد وإدْخَالُ المهابَةِ على قلوبِهم، ويحتَمِلُ أن يكون على إضْمَارِ (قُلْ)، والتَّقدير: قُل لَهُمْ يَا مُحَمَّدُ، أو أنَّهُ خِطَابٌ لِلْمُؤمنِين تَضَمّن تَوَعُّدَهُمْ في اتِّخاذ بِطَانَةٍ مِنَ الكفّار[3].

بَلَاغَةُ اللَّفِّ وَالنَّشْرِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِن تَمۡسَسۡكُمۡ حَسَنَةٞ تَسُؤۡهُمۡ وَإِن تُصِبۡكُمۡ سَيِّئَةٞ يَفۡرَحُواْ بِهَاۖ وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ﴾:

في الآية الكريمةِ لفٌّ ونشرٌ، فقوله تعالى: ﴿إِن تَمۡسَسۡكُمۡ حَسَنَةٞ

(1) القحطانيّ، شرح أسماء الله الحسنى، ص: 96 - 97.

(2) وهي قراءة شاذة، ينظر: الدمياطي، إتحاف فضلاء البشر: 228.

(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/323.

مِـــنْ أَعْـظَـمِ الْأَسْبَابِ الْمُعِينَةِ عَلَى تَقْوَى اللهِ تَعَالَى الصَّبْرُ

تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُواْ بِهَاۖ﴾ لَفٌّ أو طَيٌّ، وجاء النّشرُ على عكسِه، وذلك في قوله: ﴿وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ﴾، أي تَصْبِرُوا على السَّيِّئَةِ التِي أَصَابَتْكُم، وتتّقوا اللّه في الحَسَنَةِ التِي مَسَّتْكُم؛ ﴿لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔاۗ﴾، لأنّهم في كلا الحَالَيْنِ يَكِيدُونَ لَكُم، فلا يضرّكم كيدُهم شيئًا معَ صَبْرِكُم على البَلْوَى وتَقْوَى اللّه فيما أَصَابَكُم مِنَ الخَيْرِ.

وقُدِّمت الحسنَةُ في اللَّفِّ؛ لكونِهَا من مَحْبُوباتِ النُّفوس، وجاءَ النَّشْرُ على غير ترتيبِ اللَّفِّ؛ إظهارًا لأهمِّيَّةِ الصَّبْرِ، لكونِهِ سببًا في تحصيلِ التَّقْوَى.

﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَٰعِدَ لِلْقِتَالِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ١٢١﴾ [آل عمران: 121]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا نهى اللّه تعالى المؤمنين عن اتخاذ بطانةٍ من الكفَّارِ، ووعدَهم أنَّهم إن صبروا واتَّقَوْا فلا يضرُّهم كيدُهم شيئًا، ذكَّرهم هنا بحالةِ ما جَرى يومَ أُحُدٍ لعبد اللّه بن أبَيِّ بنِ سَلُولٍ حين انخَذَلَ عن رسول اللّه ﷺ وجَيْشِ المسلمين، واتَّبعه - في الانخذال في المسير لغزوة أُحُد - ثلاثُمئةِ رجلٍ من المنافقين، وهذا من أوضحِ مظاهرِ كيد المخالفين في الدِّين، من المنافقين، ولَمَّا كان شأنُ المنافقين من اليهود وأهلِ يثرب واحدًا، ودخيلتُهما سواء، وكانوا يعملون على ما تدبِّرُهُ اليهودُ، جمعَ اللّه مكايدَ الفريقين بذكر غزوة أحد، وكان نزولُ هذه السُّورة عَقِب غزوةِ أحد. فهذه الآيةُ وما بعدها تشيرُ إلى وقعةِ أُحُدٍ الكائنةِ في شَوَّال سنةَ ثلاثٍ من الهجرة، وفيها نزلت هذه الآيات[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿غَدَوْتَ﴾: جِذر الكلمة هو: (غدي) و(غدو)؛ وغَدْوَة في سَبِيل اللّه أَو رَوْحَة، الغَدوة بِفَتْح الْعين من أول النَّهَار إِلَى الزَّوَال والرَّوحة بعْدهَا، وَهَذَا يدلُّ على فرق مَا بَينهمَا، والغَدوة هُنَا السّير فِي الْغَدَاة، والغُدوة بِالضَّمِّ من الصُّبْح إِلَى طُلُوع الشَّمْس، وَقد اسْتعْمل الغُدوُّ والرّواح فِي جَمِيع النَّهَار، وغَدا ويغدو بِمَعْنى سَار بِالْغُدُوِّ. والْغُدُوُّ: الذَّهَابُ غُدْوَةً ثُمَّ عَمَّ فِي كلِّ مسيرٍ، وَمِنْهُ الْحَدِيث الشريف: "واغْدُ يا أُنَيْسُ إلى امْرَأَةِ هذا، فَإِنِ اعْتَرَفَتْ فارْجُمْها ..."[2]، أي: اذهب. والغَدْوةُ والغَدَاةُ من أوّل النّهار، وقُوبل في القرآن: الغُدوُّ بالآصال، وقوبل الغَداةُ بالعشيّ. والغدوُّ هنا مطلقُ الخروج، ليس المرادُ به الخروجَ في أول النهار؛ لأنَّ النبي ﷺ وأصحابَه لم يخرجوا إلا بعدما صَلَّوا الجمعةَ[3].

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/326، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/70.

(2) رواه البخاري في صحيحه، الحديث رقم: (2314).

(3) الراغب، المفردات، والسّبتي، مشارق الأنوار، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (غدا)، (غدو)، وينظر: السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 65.

2) ﴿تُبَوِّئُ﴾: جِذر الكلمة هو: (بوأ)؛ تَبَوّأَ منزلًا، نزله، وبَوَّأَ له منزلًا، وبَوَّأَهُ منزلًا، هيأه ومكّن له فيه والبَوَاءُ بالفتح والمدِّ السَّواء، يقال: دم فلان بَواء لدمِ فلان، إذا كان كفؤا له. وجاء في القرآن الكريم من استعمالات هذا الجِذر صيغتان: "باء كقوله: ﴿كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٖ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: 162] و﴿وَبَآءُو بِغَضَبٖ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: 112] رجعوا به وكذا باءَ بإثمه، والصيغة القرآنية الأخرى من هذا الجذر هي "بوَّأ" بمعنى الإقرار في مكان مهيَّأ مناسب، كقوله: ﴿وَبَوَّأَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [الأعراف: 74]. أي: وأنزلكم في الأرض تتخذون فيها مساكن[1].

3) ﴿مَقَٰعِدَ﴾: جِذر الكلمة هو: (قَعَدَ)؛ القُعود يقابل القيام، والقَعْدةُ: المَرَّةُ الواحدة. والقَعَد: القَوْمُ الذين لا ديوان لهم. والمَقْعد مكان القُعود، قال تعالى: ﴿فِي مَقۡعَدِ صِدۡقٍ عِندَ مَلِيكٖ مُّقۡتَدِرِۭ ۝٥٥﴾ [القمر: 55]، ويُعبَّر عن المُتكاسل بالقاعد، نحو قوله: ﴿لَّا يَسۡتَوِي ٱلۡقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ غَيۡرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ وَٱلۡمُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [النساء: 95]. وقوله: ﴿مَقَٰعِدَ لِلۡقِتَالِۚ﴾؛ كناية عن المعركة التي بها المُستقرُّ، فهي مقاماتٌ وليست مجالسَ؛ أخذًا من الانتصابِ مع قوَّة الثباتِ، كأنهم راسخون في الأرض[2].

تنزلهم وترتبهم كل في مقعده اللائق به.

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

كمالُ علمِ النبيِّ ﷺ ورأيــــه، وســـدادُ نَـظَـرِه وعلوُّ همَّتِه

واذْكُر - أيُّها الرسولُ ﷺ - حينَ خَرَجْتَ من بيتِكَ لابسًا عُدَّةَ الحربِ، سائرًا لملاقاةِ جُمُوعِ المشركين، تنظِّمُ صفوفَ أصحابِك، وتُنْزِل كلَّ واحدٍ في مَنزله اللائق به في ساحةِ المعركة؛ للقاء المشركين في غزوة (أُحُد). واللّه سميعٌ لجميعِ المَسْموعات، وما يقولُه المؤمنون والمنافقون وما يتكلَّم به كلٌّ بحسَبِ ما في قَلْبِه، عليمٌ بنيَّاتِكم وأفعالِكم، فيجازيكم عليها أتمَّ الجزاءِ وأوفاه[3].

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّازي، مختار الصّحاح، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (بوأ).
(2) الخليل، العين، والراغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (قعد).
(3) ابن الجوزيّ، زاد المسير: 1/319، والموصلّي، أولى ما قيل: 2/532 - 533، والسعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 65، ونخبة من العلماء، التفسير الميسَّر، ص: 65.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

الِالْتِفَاتُ فِي صِيَغِ الْأَفْعَالِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾:

في قوله: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ التفاتٌ في صيغ الأفعال؛ فقد التُفِتَ من الفعل الماضي ﴿غَدَوْتَ﴾ إلَى الفعلِ المُضَارِعِ ﴿تُبَوِّئُ﴾، وعُبِّرَ عن الغُدُوِّ بالفعل الماضي؛ لأنه خروجٌ حصل دفعةً واحدةً وانقضى، بخلافِ قوله: ﴿تُبَوِّئُ﴾ وهو بمعنى إنزال المؤمنين مراكزَ يقِفُون فيها؛ فهو يحتاج إلى معالجةٍ واتِّساعٍ في الزَّمَنِ، ولذا وقع التَّعبيرُ عنه بالفعل المُضارِعِ المفيدِ للتَّجدُّدِ وامتدادِ الزَّمَنِ.

وَ(إِذْ) مدخل إلى الظَّرف الزّمنِيِّ لِلْقصّة، آتٍ كما أتَتْ نظَائِرُه في أوائلِ الآيِ والقَصَصِ القرآنيّة، وعطف الآية ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ هو مِنْ عَطْفِ جملة على جملةٍ، وقِصَّةٍ على قِصَّةٍ، وهو انتقالٌ اقْتِضَابِيٌّ، والتَّقدير: وَاذْكُرْ إِذْ غدَوْتَ[1].

دِلَالَةُ التَّقْدِيمِ وَالتَّأْخِيرِ فِي سِيَاقِ الْقِصَّةِ:

في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ ﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾﴾ تقديمٌ وتأخيرٌ، والتَّقدير: (ولَقَدْ نصركم اللّه بِبَدْر وَإِذْ غَدَوْتَ مِن أَهْلِكَ...)، وذلك اهتِمَامًا بسياقِ القِصَّة وترابُطِهَا، قبل الانتقالِ إلى التَّذكيرِ بمنَّةِ اللّه تعالى عليهم في بدرٍ ونصرِ اللّه سبحانه لهم.

دِلَالَةُ التَّعْبِيرِ بِالْمَقَاعِدِ دُونَ الْمَوَاقِفِ فِي قَوْلِهِ: ﴿مَقَٰعِدَ لِلْقِتَالِ﴾:

ذُكِرَتِ المَقَاعِدُ في قوله تعالى: ﴿تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَٰعِدَ لِلْقِتَالِ﴾ وأُرِيدَتِ المواقفُ والمواطنُ؛ لجامع الثّبات فيه، فقد قال الرّاغبُ: "وقوله: ﴿مَقَٰعِدَ لِلْقِتَالِ﴾ كنايةٌ عَنِ المَعْرَكَةِ التي بها المُستقرُّ"[2].

حِرْصُ النَّبِيِّ ﷺ عَلَى أَصْحَابِهِ فِي مُخْتَلِفِ الْأَحْوَالِ

نصر المؤمنين أنموذج واقع للمواجهة والقتال في موقعة قادمة

كُلُّ كَلِمَةٍ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ حَالَّةٌ فِي مَحَلِّهَا اللَّائِقِ بِهَا، لَا يُجْزِئُ عَنْهَا غَيْرُهَا

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/70.

(2) الراغب، المفردات: (قعد).

ومَقَاعِدُ: جمع مَقْعَدٍ، وهو مكانُ القعودِ، والمعنى: مواطنُ ومواقفُ، وقدِ استُعْمِلَ المقعَدُ والمَقامُ في معنى المكانِ، ومِنْهُ: ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ﴾ [القمر: 55]، و﴿قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ﴾ [النمل: 39].

وقال الزَّمخشريُّ: "وقدِ اتُّسِعَ في قَعَدَ وقام، حتَّى أُجْرِيَا مُجْرَى صَارَ"[1]، أمَّا إجراءُ قَعَدَ مُجْرَى صارَ؛ فإنَّمَا جاء في لفظةٍ واحدةٍ، وهي شاذّة لا تتعَدَّى، وهي في قولهم: شَحَذَ شَفْرَتَهُ حتَّى قَعَدَتْ كَأَنَّها حِرْبَةٌ، أَيْ: صارَت[2].

واختِيرَ لفظُ القعود دون القيام؛ لما في القعود من الدِّلالةِ على الثَّبات، وهو الأنسبُ لسياق الجهادِ، تفاؤلًا بتثبيت اللّه تعالى أقدام أهل الإيمان في مواجهة أهل الكفر، قال ابن عطية: "لفظة (القعود) أدلُّ على (الثّبوت)، ولا سيّما أنَّ الرّماة إنّما كانوا قعودًا، وكذلك كانت صفوفُ المسلمين أوَّلًا، والمبارزة والسَّرَعَانُ يَجُولُون، وجمعَ المقاعد؛ لأنّه عيَّنَ لهم مواقفَ يكُونُون فيها، كالمَيْمَنَةِ والمَيْسَرَةِ، والقَلْبِ، والشّاقة، وبيّن لكُلِّ فريق منهم مَوْضِعَهُم الذي يقفُونَ فِيهِ[3].

بَلَاغَةُ التَّذْيِيلِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾:

قوله: ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾، أيْ: سَمِيعٌ لِأَقْوَالِكُمْ، عليمٌ بِنِيّاتِكُمْ.

فجاءَ هذانِ الاسمانِ هُنَا؛ لأنَّ في ابتداءِ هذه الغَزْوَةِ مُشَاوَرَةً ومُجَاوَبَةً بأقوالٍ مُخْتَلِفَةٍ، وانْطِوَاء على نيّات مُضْطَربة حسبَما تضمَّنَتْهُ قصّةُ غزْوَةِ أُحُدٍ[4]، فبيَّنَ سبحانه بهذا التَّذييلِ أنَّه سبحانَهُ مُطَّلِعٌ على ما كانَ يَجْرِي بَيْنَ المُؤْمِنِين وبينَ النَّبِيِّ ﷺ مِن مُشَاوَرَاتٍ ومَا اسْتَقَرَّ عليهِ رَأْيُ أكثرِهِم، وَأنَّه تعالَى عَلِيمٌ بِخَفَايَا القُلُوب، فهو يَعْلَمُ ما تَهِمُّ به قلوبُ المُؤْمِنِين، وما تُوَسْوِسُ بِهِ قُلُوبُ المُنَافِقِين، ومَا يَبُثُّونَهُ مِنْ رُوحِ الذُّعْرِ والهَلَعِ في نُفُوسِ المُؤْمِنِينَ، وهذا التَّذييلُ ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ جارٍ مجرى المَثَلِ؛ لاستقلالِهِ بالإفادةِ وعدم توقُّفِ فهم أصل معناهُ على ما قبلَهُ.

إِحَاطَةُ سَمْعِ اللّهِ تَعَالَى وَعِلْمِهِ بِجَمِيعِ أَحْوَالِ الْعِبَادِ

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/409.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/326.
(3) ابن عطية، المحرر الوجيز: 1/497.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/328.

﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ١٢٢﴾ [آل عمران: 122]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

ذِكْرُ شيءٍ من مشاعر الخوف الَّتي اعْتَرَتْ بعض المؤمنين بعد إمضاء قرار القتال والاستعداد له

لَمَّا صوَّرت الآية السَّابقة حال النَّبيِّ ﷺ في ميدان القتال، وهو يُرَتِّبُ الجُند، ويَخُصُّ كلَّ طائفة بمكان، ويُعَيِّنُ مَوْضِعَ كلِّ فريقٍ من المعركة، وبَيَّنَت أنَّ اللّه سَمِيعٌ لما نطقت به ألسنتهم، عَلِيمٌ بما تخفيه صدورهم تربيةً للرَّهبة في قلوب المؤمنين ووعيدًا للمُنافقين؛ ذكر سبحانه ما راوَدَ قلوب بعض المؤمنين من ضَعْفٍ وفَشَلٍ، عندما رأوا زعيم المُنافقين ابن سَلولٍ يَنْخَذِلُ بِثُلُثِ الجيش، فقال تعالى: ﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا﴾[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿هَمَّت﴾: أَرادَت، ولم تَفْعَلْ، والهَمُّ: مَبْدأُ الإرادة، والهِمَّةُ والهَمَّةُ: ما هَمَّ من أَمْرٍ ليُفعلَ، فالهمُّ هو بداية الإرادة للفعل، وَالْفِعْلُ مِنْهُ هَمَّ يَهُمُّ، تَقُولُ الْعَرَبُ: هَمَمْتُ وَهَمْتُ، فيَحْذِفُونَ أَحَدَ الْمُضَعَّفَيْنِ، كَمَا قَالُوا: ظَلَلْتُ وظَلْتُ، وأصلُ الهمِّ: يدُلُّ على ذوبانٍ وجَرَيانٍ ودَبيب، والهمُّ أيضًا: الحُزْن الَّذي يُذيب صاحبَه، وهو الَّذي يقع في النَّفس؛ لأنَّه قد يُؤثِّر في نفس الإنسان كما يُؤَثِّر الحزن، وأَوَّلُ مَا يَمُرُّ الْأَمْرُ بِالْقَلْبِ يُسَمَّى: خَاطِرًا، فَإِذَا تَرَدَّدَ؛ صَارَ حديث نفس، فإذا تَرَجَّحَ فِعْلُهُ؛ صَارَ هَمًّا، فَإِذَا قَوِيَ، وَاشْتَدَّ؛ صَارَ عَزْمًا، فَإِذَا قَوِيَ العَزْمُ، وَاشْتَدَّ؛ حَصَلَ الْفِعْلُ أَوِ الْقَوْلُ، والهمُّ الَّذي كان من الطَّائفتين هو حديث نفس لم يصل إلى مرحلة العزم[2].

(1) الطنطاوي، التَّفسير الوسيط: 2/246.

(2) الرَّاغب، المفردات، وابن فارس، مقاييس اللغة: (همَّ)، والفيروزآبادي، بصائر ذوي التّمييز: 5/345.

2) ﴿أَن تَفْشَلَا﴾: تَجْبُنا وتَضْعُفا، والفشل: ضعف القلب وخَوَرُ الجَنَان مع جُبن، يُقال: فَشِلَ الرَّجُلُ فَشَلًا، فَهُوَ فَشِلٌ: كَسِلَ وضعُف وتراخَى وجَبُن، والفشل: يكون في الرَّأي، بمعنى: العجز والحيرة، وفي البدن، بمعنى: الإعياء وعدم النُّهوض، وفي الحرب، بمعنى: الجُبْنِ والخَوَرِ[1].

3) ﴿وَلِيُّهُمَا﴾: الوليُّ: هو الَّذي يتولَّى الأمر بالعناية والرِّعاية والنُّصرة والتَّأييد، وأصل الولاية يدلُّ على القُرْبِ، والوِلاية: النُّصرة، والوَلاية: تولِّي الأمر، ويُستعمل لفظ الوليِّ للقُرب من حيث المكان، ومن حيث النِّسبة، ومن حيث الدِّين، ومن حيث الصَّداقة والنُّصرة والاعتقاد، ومَعْنَى الْوِلَايَةِ هُنَا: التَّثْبِيتُ وَالنَّصْرُ، فَلَا يَنْبَغِي لَهُمَا أَنْ يَفْشَلَا، فاللَّهُ وَلِيُّهُما، أَيْ: نَاصِرُهُمَا عَلَى ذَلِكَ الْهَمِّ الشَّيْطَانِيِّ[2].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

اذكر - أيُّها النَّبيُّ ﷺ - ما وقع لفرقتين من المؤمنين من بني سَلِمَة، وبني حارثة، حين ضَعُفُوا، وهَمُّوا بالرُّجوع حين رجع المنافقون خوفًا من لقاء العدو، ولكنَّ الله عصمهم، وحَفِظَهُمْ، وصَرَفَهُمْ عمَّا هَمُّوا به، فثبتوا، ومَضَوْا للقتال؛ لأنَّه مُتَوَلِّي أَمْرِهِما بالعِصْمَةِ والتَّوفيق، وعلى الله وحده فليعتمد المؤمنون في كلِّ أحوالهم[3].

ضَعُفَ بعض المؤمنين بِسَبَبِ تثبيط المنافقين، ولكنَّ الله ناصرٌ أولياءه وحافظُهُم من كيد أعدائهم

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالة الفَصْلِ بين الجملتين بالظَّرف على سبيل البَدَلِيَّة:

فالظَّرف ﴿إِذْ﴾ من قوله تعالى: ﴿إِذْ هَمَّت﴾ بدل كُلٍّ من ﴿إِذْ﴾

(1) الرّاغب، المفردات: (فشل)، وابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 109، والقِنَّوْجيُّ، فَتْحُ البَيانِ: 2/324.
(2) الرّاغب، المفردات، وابن فارس، مقاييس اللغة: (ولي).
(3) لجنة من علماء الأزهر، المنتخب في تفسير القرآن الكريم، ص: 90، ونخبة من أساتذة التفسير، التفسير الميسر، ص: 66.

بيان المقصود من التَّذكير بيوم أحد وما وَقَعَ فيه من أحداث عِبْرَةً للمؤمنين وتَثْبيتًا لهم

الأولى من قوله: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ﴾ [آل عمران: 121][1] مُبَيِّنٌ لما هو المقصود بالتَّذكير[2] السَّابق، أي: اذكر ذلك الوقت، وهو يوم أحد إذ غدوت، واذكر لهم أيضًا وقت أن همَّت طائفتان منكم - يا معشر المؤمنين - أن تفشلا، وتَضْعُفا، وتَجْبُنا عن القتال في وقت الشَّديدة والكريهة[3]،

فمن المعلوم أنَّ (إذ) الظرفيَّة في غاية الإبهام[4]، وإضافتها إلى الجملة الفعليَّة رفع إبهامها، وحدَّد الوقت المراد منها، وهذا راجع إلى العامل فيها، فيجوز - مع ما سَبَقَ - أن تكون ﴿إِذْ﴾ ظرفًا لـ ﴿تُبَوِّئُ﴾ أَيْ: كَانَ ﷺ يَتَّخِذُ الْمُعَسْكَرَ لِلْمُؤْمِنِينَ، وَيُنْزِلُ كُلَّ طَائِفَةٍ مِنْهُمْ مَنْزِلًا، فِي وَقْتٍ هَمَّتْ فِيهِ طَائِفَتَانِ مِنْهُمْ بِالْفَشَلِ؛ افْتِتَانًا بِكَيْدِ الْمُنَافِقِينَ الَّذِينَ رَجَعُوا مِنَ الْعَسْكَرِ[5]، أو ظَرْفًا لـ ﴿غَدَوْتَ﴾؛ لأنَّ الوقت واحدٌ وقع في بعض الغُدُوِّ، أو لـــ ﴿سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾، ويكون المعنى: والله سميع عليم، حين همَّت طائفتان منكم أن تَفْشلا[6]، وليس المُراد تقييدَ كَوْنِهِ سميعًا عليمًا بذلك الوقت[7]، لأنَّه تَعَالَى: سميع عليم أزلًا، وإنَّما تعلَّق به هُنا باعْتِبَار التَّعلُّقِ الحادِثِ، وهو الَّذي يترتَّب عليه الْجَزَاء[8]، وعلى كلِّ هذه التَّقديرات فقد جيء بالفصل هُنا؛ لكمال الاتِّصال بين الجملتين في المعنى[9]، واتِّحادهما وامتزاجهما في وصف أحداثِ ذلك اليوم العصيب، وفي هذا تَذْكِيرٌ للمؤمنين بما وقع فيه حتَّى يعتبروا، ويعتصموا

(1) الدعاس، إعراب القرآن: 1/158.
(2) أَبو السُّعودِ، إرْشادُ العَقْلِ السَّليمِ: 2/78، والبروسوي، روحُ البَيان: 2/89.
(3) الطنطاوي، التَّفسير الوسيط: 2/247.
(4) السهيلي، نتائج الفكر، ص: 136.
(5) رضا، تَفْسيرُ المنار: 4/90.
(6) ابن جرير، جامع البيان: 7/165.
(7) الآلوسيُّ، روحُ المعاني: 2/258.
(8) القونويّ، حاشيةُ القونويِّ على البَيْضاويِّ: 6/300.
(9) الدّبل، دليل البلاغة القرآنيّة: 1/533.

بحبل الله جميعًا، ولا يَتَفَرَّقُوا[1]، ويَثِقوا بموعُوده ونَصره، ولا يَتَّخذوا المنافقين والمُخَذِّلينَ بِطانَةً.

سِرُّ التَّعبير بالهَمِّ دون العَزْمِ:

بيان أنَّ الهَمَّ ترجيح من غير عزم، فلا مُؤَاخَذَةَ به

الهَمُّ قد يُراد به العزم، وقد يُراد به الفِكْرُ، وقد يُراد به حديث النَّفس، وقد يُراد به ما يَظْهَرُ من القول الدَّالِّ على قوَّة العَدُوِّ وكثرة عَدَدِهِ ووفور عُدَدِهِ؛ لأنَّ أيَّ شيء ظهر من هذا الجنس صَحَّ أن يُوصف من ظَهَرَ ذَلِكَ منه بأنَّهُ هَمَّ بأن يفشل من حيث ظهر منه ما يُوجِبُ ضَعْفَ القلب، فكان قوله: ﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا﴾ لا يَدُلُّ على أنَّ معصيةً وقعت مِنْهُما، وأيضًا، فبتقدير أن يُقال: إنَّ ذلك معصيةٌ لكنَّها من باب الصَّغائر لا من باب الكبائر، بدليل قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾، فإنَّ ذلك الهَمَّ لو كان عزيمة؛ لكان من باب الكبائر، ولما بقيت ولاية الله لَهُما[2].

فالهَمُّ هُنا: حديثُ النَّفس من غير أن يصير عزيمة[3]، فالنَّفس عند الشَّدائدِ لا تخلو من بعض الهَلَعِ، ثُمَّ يَرُدُّها صاحبُها إلى الثَّبات والصَّبر ويُوَطِّنُها على احتمال المكروه، فَتَثْبُتُ، وتستقرُّ، كما قال عمرو بن الإطنابة:

أَقُولُ لَهَا إِذَا جَشَأَتْ وَجَاشَتْ *** مَكَانَكِ تُحْمَدِي أَوْ تَسْتَرِيحِي[4]

وهذا الهمُّ الواقع من المؤمنين غَيْرُ مؤاخذٍ به؛ إذ ليس بعزيمة، إنَّما هو ترجيح من غير عَزْمٍ[5].

---

(1) الطنطاوي، التَّفسير الوسيط: 2/246.

(2) الرّازي، مفاتيح الغيب: 8/347.

(3) الراغب، تفسير الراغب: 2/837.

(4) البيت من بحر الوافر، من مقطوعة للشاعر عمرو بن الإطنابة، والإطنابة اسم أمه، وهو عمرو بن زيد مناة، يخاطب الشاعر نفسه، ويقول لها: اثبتي عند الخوف في المعركة، ومعنى جشأت: ارتَفَعَتْ من حُزْنٍ أو فَزَع، يُرِيد تَطَلَّعت، ونَهَضَتْ جَزَعًا وكَراهَة، ينظر: ابن جنِّي، الخصائص: 3/37، والأزهريُّ، تهذيب اللُّغة، وابن الأثير، النِّهاية، (جَشَأ)، ومحمَّد شُرَّاب، شرح الشَّواهد الشِّعريَّة: 1/251.

(5) أَبو حَيّانَ، البَحْرُ المُحيطُ: 3/328.

فائدة التَّنكيرِ وعدم التَّعيين عند ذِكْرِ مَنْ وقع منه الهَمُّ:

السَّتر عليهما وعَدَمُ فضحهما رحمةً ولُطفًا من الله بعباده المؤمنين

في ﴿طَّآئِفَتَانِ﴾ إشارة لطيفة إلى الكِناية عمَّن يَقَع منه ما لا يُناسِب والسَّتْر عليه، إذ لم يُعيِّن الطائفتين بأنفسهما، ولا صرَّح بمَن هما منه من القبائل سَترًا عليهما[1].

ولم يذكر القرآن الكريم اسم هاتين الجماعتين اللَّتين همَّتا هذا الهمَّ السَّيِّئ؛ لأنَّ رحمة الله تَدارَكَتْهُما، فلم يقع منهما ما يَسُوء، وكان من تمام رحمة الله ولُطْفِهِ بهما أن سَتَرَ عليهما هذا الهم الَّذي همَّتا به[2].

فالحكمة من تنكيرِ ﴿طَّآئِفَتَانِ﴾ وطيِّ ذكرهما: هو السَّتْرُ عليهما إضافة إلى تأليفهما والرَّحمة الظَّاهرة بهما.

وقولُه تعالى: ﴿طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا﴾ متعلِّقٌ بـ ﴿هَمَّت﴾، والباءُ محذوفةٌ، أي: بأنْ تفشلا، أي: أنْ تَجْبُنا وتَضْعُفا[3].

العِلَّة في ذِكْرِ الصِّفة (الهَمُّ بِالفَشَلِ) وإشهارِها بعد تنكير الموصوف والسَّتْرِ عليه:

العتاب والتَّأديب اللَّطيف من الله لعباده المؤمنين وتذكيرهم بنعمه عليهم

وفي ذكر صفتهما وإشهارهما - وهي الهمُّ بالفشل - عتاب وتأديب لطيف لهاتين الطَّائفتين حتى يَنْأَيا - هما ومَن في حكمهما من المؤمنين - عن مقاربة ذلك بَلْهَ التَّلبُّس به، وهذا المعنى يفيده نظم الآية الَّتي وُجِّه فيها صريح الخطاب إلى المؤمنين في قوله: ﴿طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ﴾، فهُما مِنْكُم، وليْسا من غيركم، أيُّها المؤمنون.

كما أنَّ في ذِكْرِ هذه الصِّفة توطئةً لذكر نعمة الله عليهما، حيث حَفِظَهُما الله بحفظه، وتَداركهما بولايته؛ ممَّا جعل الأمر يؤول مَنْقَبةً لهما، فقد ظفرتا بولاية الله لَهُمَا، حتى قال بعضهم من فرط الاستبشار

(1) أبو حَيّانَ، البَحْرُ المُحيطُ: 3/329.
(2) الخطيب، التفسير القرآني: 2/570.
(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 1/546.

بما حصل لهم من الشَّرف بثناء اللَّه، وإنزاله فيهم آية ناطقة بصِحّة الولاية: "ما يسرُّنا أنَّا لم نَهُمَّ بالَّذي هممنا به، وقد أخبرنا اللَّه أنَّه وليُّنا"[1]، فكانت تلك الهَمَّةُ غير المؤاخذ بها سببًا لنزولهما[2].

دلالة الاعتراض بعد ذكر الصِّفة:

بيان كمال عناية اللـه ولطفه بعباده المؤمنين في نفي الفشل عنهم ورفع منزلتهم

فجملةُ ﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَاۗ﴾ اعتراضٌ، ويجوزُ أنْ تكونَ حالًا من فاعل ﴿هَمَّت﴾ أو من ضميرِه في ﴿تَفۡشَلَآ﴾، وهي مفيدةٌ لاستبعادِ فشلِهما مع كونِهما في ولاية اللَّه تعالى[3].

فقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَاۗ﴾، أي: عاصمهما من اتباع تلك الخطرة[4]، فقد هَمَّتْ بَنُو سَلِمَةَ وَبَنُو حَارِثَةَ من المُسلمين بالانخذال، ثُمَّ عَصَمَهُمُ اللَّهُ، لأنَّه ﴿وَلِيُّهُمَاۗ﴾، أَيْ: نَاصِرُهُمَا عَلَى ذَلِكَ الْهَمِّ الشَّيْطَانِيِّ الَّذِي لَوْ صَارَ عَزْمًا؛ لَكَانَ سَبَبَ شَقَائِهِمَا، فَلِعِنَايَةِ اللَّهِ بِهِمَا بَرَّأَهُمَا اللَّهُ مِنْ فِعْلِ مَا هَمَّتَا بِهِ[5]، فاللَّه سبحانه وتعالى يَلطُف بالمؤمن حتى يُثبِّته على الحقِّ[6]، وعليه حَسُن تنزيل الآية على الاحتباك، ويكون أصل النَّظم: واللَّه وليُّهما لتوكُّلِهما وإيمانهما، فلم يمكن الفشل فيهما[7].

كما أنَّ وقوع الولاية خبرًا عن الاسم الأحسن ﴿وَٱللَّهُ﴾، مع إضافة الخبر إلى هاتين الطَّائفتين، فيه تكريم لعباده المؤمنين، حيث أعلت الإضافة هنا شأن المضاف إليه، فاكتسب من المضاف مكانًا وشأنًا، فرفعهما شرفًا وعزًّا[8].

---

(1) ابن جرير، جامع البيان: 7/166.
(2) الزَّمَخْشَرِيُّ، الكَشَّاف: 1/410، وأَبو حَيّانَ، البَحْرُ المُحيطُ: 3/329، والخنين، النظم القرآني، ص: 97.
(3) أَبو السُّعودِ، إرْشادُ العَقْلِ السَّليمِ: 2/79.
(4) القونويّ، حاشيةُ القونويِّ على البَيْضاويِّ: 6/301.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/70.
(6) ابن عثيمين، تفسير ابن عثيمين (سورة آل عمران): 2/122.
(7) السَّمِيْن، الدُّرُّ المَصونُ: 2/204، والبِقاعيُّ، نَظْمُ الدُّرَرِ: 5/49.
(8) الخنين، النظم القرآني، ص: 97.

السِّرُّ في تقديم الجارِّ والمجرور:

إفـــادة الاخـتـصـاص والاعتناء وقصر التَّوكُّل على الله تعالى

وقوله: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ﴾ جارٌّ ومجرور مُتعلِّق بقوله: ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ﴾ قُدِّم عليه للاختصاص، أي: عليه وَحْدَهُ لا على غَيْرِهِ، فليتوكَّلِ المؤمنون، فَقَصَرَ التَّوكُّل المذكور على الله تعالى وحده دون ما عداه لا على سبيل الاستقلال، ولا على سبيل الاشتراك، وقُدِّم أيضًا للاعتناءِ بمن يُتوكَّل عليه[1]، وقد أشار جَلَّ ذِكْرُهُ إلى الوصف الَّذي يقتضي ذلك، وهو الإيمان في قوله: ﴿ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾؛ لأنَّ من آمن بالله لايكون اتِّكالُه إلَّا عليه[2]، هذا إلى جانب مراعاة الفاصلة وقصر المَوْصُوف عَلَى الصِّفَة[3]، فمعنى القصر مُسْتَفَادٌ من تقديم المُتَعَلَّقِ عَلَى الفعل[4].

الحكمة من إظهار الاسم الأحسن:

الـتَّـبرُّك بـذكـره سبحانه وتعالى وتَـعـلـيـلُ الأمـر بالتَّوكُّل عليه

فإظهار الاسم الأحسن في موضع الإضمار، والنَّصُّ عليه بلفظ الألوهيَّة دون ماسواه؛ لكون القلوب قاطبة تَأْلَهُهُ، وتَتَعَلَّقُ به، وتطمئنُّ إلى ذكره، فكيف بقلوب المؤمنين؟ فلا شَكَّ أنَّ إظهار ذِكْرِ الله أمامها أدعى إلى أَنْ يُثْمِرَ فيها يَقينًا وتَقْوى، وبخاصَّة أنَّ المقام مقام تَوَكُّل واعتماد[5].

فإظهارُ الاسمِ الجليلِ ﴿ٱللَّهِ﴾ للتَّبرُّك والتَّعليل؛ لأنَّ الأُلوهيَّة من مُوجِبات التَّوكُّلِ عليه تعالى[6].

دلالة اللَّام في ﴿ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ مع حَذْفِ مُتَعَلَّقِ الفعل ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ﴾:

واللَّامُ في ﴿ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ للجِنْس، فيدخلُ فيه الطَّائفتان دخولًا أوليًّا، وسائر المؤمنين بشكل عامٍّ في ذلك الزَّمن وغَيْرِهِ من الأزمان،

(1) أَبو حَيّانَ، البَحْرُ المُحيطُ: 3/329.
(2) ابن عادل، اللباب في علوم الكتاب: 5/512، وأَبو حَيّانَ، البَحْرُ المُحيطُ: 3/329.
(3) القونويّ، حاشيةُ القونويِّ على البَيْضاويِّ: 6/302.
(4) القونويّ، حاشيةُ القونويِّ على البَيْضاويِّ: 6/302.
(5) الخنين، النظم القرآني، ص: 98.
(6) أَبو السُّعودِ، إِرْشادُ العَقْلِ السَّليمِ: 2/79.

وفيه إشعارٌ بأنَّ وصْفَ الإيمان من دَواعي التَّوكُّلِ وموجباتِه[1]، وحُذِفَ مُتعلَّق التَّوكُّل لإفادة العموم، أي: لِيَتَوكَّلوا عليه سُبْحانه في جميع أمورهم جليلها وحقيرها سَهْلِهَا وحَزْنِها[2].

الأمـــرُ لعموم المؤمنين بالتَّوكُّل على الله في كلِّ الأحوال

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الهَمّ والعزم:

فَرَّق أهل العلم بين الهَمِّ والعزم بفروق كثيرة، فَقالوا: إنَّ الهمَّ: بَدْءُ الإرادة، والعزمَ: مُنتهاها[3]، وقالوا: الهَمُّ في باب المعصية: هو الميل الغريزيُّ أو الميل الطَّبْعيُّ، فإنْ صَرَفَهُ عنه وازع التَّقوى؛ كُتِبَ له به حسنة؛ لقول الرَّسول ﷺ: "وَإِنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ، فَلَمْ يَعْمَلْهَا؛ كَتَبَهَا اللهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً"[4]، بينما يعاقب بالعزم على المعصية؛ لقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٢٥﴾ [الحج: 25].

الـهَـمُّ اجتماع الـنَّـفـس على الأمـر والإزمـاع عليه، والعزم هو القصد على إمضائه

وعليه يكون كلٌّ من الهَمِّ والعزم من مراتب القصد، فإنَّ أوَّل مَا يَمُرُّ الْأَمْرُ بِالْقَلْبِ يُسَمَّى: خَاطِرًا، فَإِذَا تَرَدَّدَ؛ صَارَ حديث نفس، فإذ تَرَجَّح فِعْلُهُ؛ صَارَ هَمًّا، فَإِذَا قَوِيَ، وَاشْتَدَّ؛ صَارَ عَزْمًا، فَإِذَا قَوِيَ الْعَزْمُ، وَاشْتَدَّ؛ حَصَلَ الْفِعْلُ أَوِ الْقَوْلُ[5]، وقد جمعها بعضهم في قوله:

مَرَاتِبُ القَصْدِ خَمْسٌ: هَاجِسٌ ذَكروا *** وَخَاطِرٌ فَحَديثُ النَّفْسِ فَاسْتَمِعَا
يَلِيهِ هَمٌّ فَعَزْمٌ كُلُّها رُفِعَتْ *** سِوى الأَخيرِ فَفيهِ الأَخْذُ قَدْ وَقَعا[6].

فالهَمُّ فوق الإرادة دون العزم؛ لأنَّ العزم عَقْدُ القَلْبِ على إمضاء الأمر، مِنْ: عَزَمْتُ الأمر، وعَزَمْتُ عليه، قال تعالى: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: 159]، فالعزم هو تصميم القلب على الشَّيءِ، والنَّفاذُ فيه بقصد ثابت[7].

---

(1) أَبو السُّعودِ، إرْشادُ العَقْلِ السَّليمِ: 2/79.
(2) الآلوسيُّ، روحُ المعاني: 2/259.
(3) الفيروزابادي، بصائر ذوي التّمييز: 5/345، والكفوي، الكليات، ص: 961.
(4) رواه مسلم، الحديث رقم: (131).
(5) أبو حيان، البحر المحيط: 3/325.
(6) القِنَّوْجيُّ، فَتْحُ البَيانِ: 2/160، والجمل، حاشية الجمل على الجلالين: 1/360.
(7) الكفوي، الكليات، ص: 961، والراغب، المفردات: (عزم).

وقد يأتي الهَمُّ بمعنى: العزم على الفعل، كقوله تعالى: ﴿إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ﴾ [المائدة: 11]، أي: صمَّموا النِّيَّة، وعزموا عليه، فَيُرادف العزم، ويأتي بمعنى: خطور الشَّيءِ في البال، وإن لم يقع العَزْمُ عليه، كقوله تعالى: ﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾[1].

الوَليّ والنَّصير:

الولِيُّ: هو المُعينُ الَّذي تَرْكَنُ إِلَيْهِ، وتَعْتَمِدُ عَلَيْهِ، وتَحْتَمي بِهِ عِنْدَ الشِّدَّةِ والرَّخاءِ، وفي السَّرَّاءِ والضَّرَّاءِ[2]، والولاية أصلها: الحبُّ، فلا موالاة إلا بحبٍّ، كما أنَّ العداوة أصلها: البغض، واللّه وليُّ الذين آمنوا، وهم أولياؤه، فهم يوالونه بمحبَّتهم له[3]، وهو يواليهم بمحبَّته لهم، أَمَّا النَصيرُ: فَهُوَ على وَزْنِ (فَعيلٍ)، والمَقْصودُ مِنْهُ اسْمُ الفاعِلِ (ناصِرٌ)، والنَّاصِرُ: هُوَ الَّذي يُعينُ غَيْرَهُ ويُقَوّيه[4]، والنَّصيرُ في حَقِّ اللّهِ تَعالى: المَوْثوقُ مِنْهُ بِأَلّا يُسْلِمَ وَلِيَّهُ، ولَا يَخْذُلَهُ، بَلْ يَنْصُره، ويُعينهُ، ويُسَدِّدهُ، وقَدْ سَمَّى اللّه تَبارَكَ وتَعالى نَفْسَهُ باسْمِ النَّصيرِ، فَقالَ: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرًا ﴿٤٥﴾﴾ [النِّساء: 45]، واللّه ﷻ هُوَ النَّصيرُ الَّذي يَنْصُرُ عِبادَهُ المُؤْمِنينَ ويُعينُهُمْ، قال تَعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الرُّومُ: 47][5].

الـوِلَايَـةُ تَـكونُ بِـإِخْـلاصِ المَـوَدَّةِ، والنَّصْرُ يَـكونُ بِالمَعونَةِ والتَّقْوِيةِ

(1) العَسْكَرِيُّ، الفُروقُ اللُّغَويّةُ، ص: 356.
(2) العَسْكَرِيُّ، الفُروقُ اللُّغَويّةُ، ص: 284.
(3) ابْنُ القَيِّم، الجواب الكافي، ص: 229.
(4) العَسْكَرِيُّ، الفُروقُ اللُّغَويّةُ، ص: 189.
(5) القحطاني، شَرْحُ أَسْماءِ اللهِ الحُسْنى: 222 - 223.

﴿وَلَقَدۡ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدۡرٖ وَأَنتُمۡ أَذِلَّةٞۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ١٢٣﴾ [آل عمران: 123]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

ذِكْـرُ نصر الله لأوليائه المؤمنين بعد ذِكْرِ هَمِّهم بالفشل جـزَّاءَ تخذيل المنافقين لهم

لمَّا ذكر الله تعالى حال المؤمنين في يوم أحد، وما جرى عليهم من المُصيبة بسبب تخذيل المنافقين؛ أَدخل فيها تذكيرَهم بنصره، ونِعْمَتِهِ عليهم يوم بدر؛ ليكونوا شاكرين لربِّهم، ولِيُخَفِّفَ هَذا ذاك، فقال: ﴿وَلَقَدۡ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدۡرٖ وَأَنتُمۡ أَذِلَّةٞۖ﴾[1]، فذكَر هُنا مِثالًا تحقَّقت فيه للمُؤمنين أسبابُ النَّصر بثباتهم وصِدْقِ تَوَكُّلِهِمْ على الله، فَنَصَرهم الله تعالى بِفَضْلِهِ[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿نَصَرَكُمُ﴾: النَّصر العَوْنُ، ونَصَرَ اللهُ المُسلمينَ: آتاهم الظَّفَرَ وأعانهم على عدوِّهم، يَنْصُرهم نَصْرًا، وأصلُ النَّصر: إتيانُ خيرٍ وإيتاؤه[3].

2) ﴿بِبَدۡرٖ﴾: بَدْرٌ اسم لماء بين مكَّة والمدينة، كان في مَوضِع الوَقْعَةِ المشهورة بين المسلمين بقيادة رسول الله ﷺ وبين مُشْركي مكَّة، فسمِّيت الوَقْعَةُ به، وقيل: إنَّه بئر لرجل من جهينة، يُقال له: بدر بن يخلد بن النَّضر بن كنانة، وقيل: اسم للمَوضِع، وقيل: اسم للوادي الَّذي به[4].

3) ﴿أَذِلَّةٞۖ﴾: الذِّلَّة: الضَّعف، يُقال: ذَلَّ الرَّجل؛ إذا ضَعُفَ وَهَانَ،

(1) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 973.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 6/5.
(3) الرّاغب، المفردات، وابن فارس، مقاييس اللغة: (نصر).
(4) السمعاني، الأنساب: 2/111، والحموي، معجم البلدان: 1/357.

فَهُوَ ذَلِيلٌ، وأصل الذُّلِّ: الخضوعُ والاستكانةُ واللِّين، والذُّلُّ: ضدُّ العِزِّ، والمعنى هُنا: ضُعفاءُ قليلون مَقْهُورون[1].

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

تذكير الله المؤمنين بنعمة النَّصر في غزوة بدر، وهم قليلو العدد والعدَّة، وتوجيههم لشكر هذه النِّعمة

ولقد نصركم اللّه - أيُّها المؤمنون - على المشركين في معركة بدر، وأنتم مستضعفون، وذلك لِقِلَّةِ عددكم وعتادكم، فخافوا اللّه بِفِعْلِ أوامره، واجتناب نواهيه لعلَّكم تشكرون نِعَمَهُ عَلَيْكُمْ[2].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالة الاستئناف بعد ذكر الأحداث الواقعة يوم أحد:

التَّنويه بشأن الصَّبرِ والتَّقوى في كونهما من عوامل النَّصر على الأعداء

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ جملةٌ مُستأنَفةٌ، سِيقتْ لإيجاب الصَّبرِ والتَّقوى بتذكير ما ترتَّب عليهما من النَّصر إثرَ تذكيرِ ما ترتّب على عدمهما من الضَّرر[3]، فمع قِلَّة عدد المؤمنين وعُدَدِهِمْ يوم بدر إلَّا أنَّهم تَغَلَّبُوا على المشركين بِسَبَبِ صَبْرِهم ويَقينهم وصدق تَوَكُّلهم على ربِّهم.

فاستحضار حادثة غزوة بدر للتَّذكير يَسْتَدْعي قوَّة في أداء المعنى، ولَفْتًا للنُّفوس والقلوب إلى أهميَّة ذلك الحدث؛ ليكون المؤمن على ذكر بمزيَّة التَّوكُّل[4]، فهذه الجملة المُستأنفة سيقت لتصبيرهم بتذكير ما يترتَّب على الصَّبر والتَّوكُّل من النَّصر[5].

نزع شوائب التَّردُّد والشَّكِّ من قلوب المؤمنين وتطمين قلوبهم

سِرُّ تَعَدُّدِ المُؤَكِّدات في الإخبار عن النَّصر المُحَقَّق:

فلمَّا كان الحديث عن الهمِّ بالفشل الَّذي صدر من فريق من المؤمنين في الآية السَّابقة، ربَّما أَوْقَعَ في نفوس البعض شيئًا من القلق والخوف؛

(1) الرّاغب، المفردات، وابن فارس، مقاييس اللغة: (ذلّ).
(2) لجنة من علماء الأزهر، المنتخب في تفسير القرآن الكريم، ص: 90، ونخبة من أساتذة التفسير، التفسير الميسر، ص: 66.
(3) أَبو السُّعودِ، إرْشادُ العَقْلِ السَّليمِ: 24/79.
(4) الخنين، النظم القرآني، ص: 100.
(5) القِنَّوْجيُّ، فَتْحُ البَيانِ: 2/324.

كان إخراج المعنى على هذا النَّحو من التَّأكيد باللَّام والقَسَم[1]، و﴿وَلَقَدْ﴾ مع الفعل الماضي ﴿نَصَرَكُمُ﴾ الَّذي يُفيد تَحَقُّق وقوع الفعل مع ما يحمله معناه من البُشرى والتَّفاؤُل نَزعًا لكلِّ شائبة تتعلَّق بالنُّفوس من التَّردُّد والشَّكِّ، مع ما تحمله هذه المؤكِّدات من الامتنان[2].

دلالات إظهار الاسم الجليل مرَّة أخرى بعد ذِكْرِهِ قريبًا:

بيان تمام الوفاء بنسبة الفضل إلى صاحبه إيذانًا بشكره والتَّسبيح بحمده

إظهار لفظ الجلالة وذكره باسمه دون ضميره مع تقدُّم ذكره في فاصلة الآية السَّابقة؛ لأنَّ الجملة في قوَّة القسم بدخول (الواو) و(اللَّام) و(قد) على رأس الآية، فلا بدَّ عندئذٍ من إسناد الفعل إلى فاعله صراحةً، ونسبة الفضل إلى صاحبه؛ لأنَّ ذلك من تمام الوفاء له، إيذانًا بشكره والتَّسبيح بحمده، فهو وحده الَّذي سخَّر جميع عوامل النَّصر يوم بدر، ويَسَّرها، وعدَّد أَضْرُبَها، وكثَّر أنواعها: ما بين مَطَرٍ هاطل، وملائكة تَنْزِلُ، وعدوٍّ يرتعب، فحريٌّ إذًا بأن يُسْنَدَ فِعْلُ النَّصر إليه، ويُنَصَّ عليه، بأحبِّ أسمائه إليه، وأعظمها لديه، وهو اسمه الأعظم الفخم المفخَّم (اللّٰه) الَّذي إذا ذُكر؛ لم ينقدح في القلب غيره، ولم يلتفت العقل إلى سواه[3].

فلمَّا كان شأن النَّصر شأنًا عظيمًا دالًّا على تَفَرُّده بالتَّدبير؛ أظهر اسمه الأعظم في موضع كان من الممكن أن يُضمر فيه.

دلالة الكناية في التَّعبير عن الضَّعف بِجمعِ القِلَّةِ بلفظة ﴿أَذِلَّةٌ﴾:

استحضار حال المخاطبين حال قِلَّةِ عددهم وضعف عُدَدِهِمْ

قوله تعالى: ﴿وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ استحضار لحالهم عبر ضمير المخاطب، والجملة واقعة حالًا من مفعول ﴿نَصَرَكُمُ﴾، أي: نصركم، وحالكم ما ذُكر، ولفظة ﴿أَذِلَّةٌ﴾ جمع قلَّة، واحدها: ذليل، وهنا يرد سؤال، مضمونه: معلوم أنَّ المقام مقام خطاب للمؤمنين، فكيف

(1) لأنَّ اللَّام واقعة في جواب قسم محذوف، يُنظر: الدَّرويش، إعراب القرآن وبيانه: 2/46.
(2) الدّبل، دليل البلاغة القرآنيّة: 1/534.
(3) الخنين، النظم القرآني، ص: 100.

يُخبر عنهم بالذِّلَّة والله تعالى قد حكى حالهم، فقال لهم: ﴿وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ١٣٩﴾ [آل عمران: 139]، وقال أيضًا: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [المنافقون: 8]، فما سِرُّ ذلك؟ فيُجاب عنه بأنَّ السِّرّ في جمعه جمع قلَّة للإشعار باتِّصافهم حينئذٍ بوصفي القِلَّةِ والذِّلَةِ، أي: قلَّة العدد وضعف الحال، وقلَّة السَّلاح والمال، وعدم القدرة على مقاومة العدوِّ، ومعنى الذُّلِّ: الضَّعف عن المقاومة، فيكون هذا الذُّلُّ - وهو الضَّعف في العدد والعُدد - وقْتيًّا انقضى بوقته، وارتفع بزوال زمنه، ثُمَّ انضمَّت إلى عزّة الإيمان عزّةُ الشَّوكة والسِّلاح بعد غزوة بدر الكبرى الَّتي انبنى عليها مجد الإسلام وظهر سنامه[1]، وقدْ شكَّل الطِّباق بين لفظتي ﴿أَذِلَّةٌ﴾ و﴿نَصَرَكُمُ﴾ هذه الصُّورة الجليَّة للحال الَّتي كان عليها المسلمون أوَّل الأمر، ثُمَّ كيف تغيَّر حالهم؟ فأصبحوا بنصر الله أعزَّة ظاهرين، ففي الكلام كناية عن قِلَّةِ عددهم وعُدَّتِهم، وما كان بهم من ضعف الحال، وذلك أنَّهم خرجوا على النَّواضح يَعْتَقِبُ النَّفر منهم على البعير الواحد، وما كان معهم إلَّا فرس واحد[2].

وقد يُحمل الكلام على الحقيقة، ويكون المُراد أنَّهم كانوا أَذِلَّةً في زعم المشركين واعتقادهم لأجل قِلَّةِ عددهم وسلاحهم، وهو مثل ما ذكر الله من قول المنافقين أنَّهم قالوا: ﴿لَيُخۡرِجَنَّ ٱلۡأَعَزُّ مِنۡهَا ٱلۡأَذَلَّۚ﴾ [المنافقون: 8]، وعلى ذلك فيكون وصفهم بالذِّلَّة من باب حِكاية حالهم في نَظَرِ من حَوْلَهُم من الكفَّار، ومُجاراةً لظنِّهم، وليس ذلك حُكْمًا دائمًا عليهم، فتبقى عزَّتهم المعنويَّة والحسيَّة ظاهرة غير مَرُومَةٍ، تَدُلُّ عليها الآيات المذكورة، ويكون في الكلام تعريضٌ بأنَّ انهزام يوم أُحُد لا يَفُلُّ حِدَّة المسلمين؛ لأنَّهم صاروا أعزَّةً، والحرب سِجالٌ[3].

ومِمَّنْ جمع بين التَّأويلين المذكورين في عبارة تَلُوح منها البلاغة: عَبْدُ الكريم الخَطيب حيْث قال: والذِّلَّة الَّتي وصف القرآن بها المسلمين هنا ليست ذلَّة نفسيَّة، ولا ضعفًا قلبيًّا، وإنَّما هي ذلَّة حاجة وعوز، وقلَّة في المال والرِّجال، بحيث يخفُّ ميزان أصحابها في أعين

(1) الرّازي، مفاتيح الغيب: 8/348، والآلوسيُّ، روحُ المعاني: 2/259.

(2) أَبو السُّعودِ، إرْشادُ العَقْلِ السَّليمِ: 2/79، ودرويش، الجدول: 4/299، والنّواضح: البعير الّذي يُستقى عليه، الجوهريّ، الصّحاح: (نضح).

(3) الرّازي، مفاتيح الغيب: 8/348، وأَبو حَيّانَ، البَحْرُ المُحيطُ: 3/330، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/72.

النَّاس، حين ينظرون إلى ظاهرهم هذا، فوصْف المؤمنين بالذِّلَّة هنا، إنَّما هو وصْف للحال الظَّاهر منهم للنَّاس، أمَّا في حقيقة أنفسهم؛ فهم - من إيمانهم بالله، وثقتهم فيه، وتوكُّلهم عليه واستعلائهم على حاجات الجسد، ومتاع الحياة - في عزَّة عزيزة، تستخفُّ بكلِّ قوى المادَّة وعتوِّها"[1].

دلالة ترتيب الأمر بالتَّقوى على الإخبار بالنَّصر بطريق الإيجاز:

الإيـــذان بـأنَّ النَّـصر المذكور كـــان بسبب التَّقوى

وفي قوله: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾، تقديره: فإذا علمتُم ذلك؛ فاتَّقوا الله، كما اتَّقيتم يومئذٍ، فحَذْفُ الشَّرط مع أداته وذكرُ الجواب: فيه إيجاز أغنى السِّياق عن ذكره، وفي ترتيب الأمر بالتَّقوى على الإخبار بالنَّصر: إيذان بأنَّ نصرهم المذكور كان بسبب تقواهم[2]؛ فكانوا مأمورين بالتَّقوى ابتداء وانتهاء.

دلالة التَّفريع بذكر الشُّكر بعد ذكر النِّعمة:

بيـان أنَّ شُـكْـرَ الـنِّـعَـم يـكـون بملازمة التَّقوى

فالفاء للتَّفريع، والمعنى: بهذا النَّصر الذي نصركم الله يَجِبُ عليكم أن تتَّقوا الله، وقد أظهر الاسم الأحسن في هذا المقام؛ لأنَّه مَناطُ الأمر بالتَّقوى، فهو واهب النِّعم، ورافع النِّقم، وصاحب الأمر والنَّهي، وهو المرتجى في الرَّخاء واللَّأواء، كما أنَّ الله تعالى لمَّا ذكَّرهم بتلك المنَّة العظيمة؛ ذكَّرهم بأنَّها سبب للشُّكر، فأمرهم بالشُّكر بملازمة التَّقوى، فاستحقَّت هذه النِّعمة الكبرى الشُّكر من المؤمنين بملازمة التَّقوى، والشُّكرُ مَجْلَبَة للنِّعَم مَدْفَعَة لِلنِّقَم، كما قال تعالى: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: 7]، ومن الشُّكر على ذلك النَّصر أن يثبتوا في قتال العدوِّ، وامتثال أمر النَّبيِّ[3] ﷺ.

دلالة التَّعبير بالشُّكر بين الحقيقة والمجاز:

وقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾، أي: لعلَّكم تشكرون بتقواكم ما أنعم

(1) الخطيب، التَّفسير القرآني للقرآن: 2/574.
(2) أبو السُّعودِ، إرْشادُ العَقْلِ السَّليمِ: 2/79، والدّبل، دليل البلاغة القرآنيّة: 1/534.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/72. وابن عثيمين، تفسير ابن عثيمين (سورة آل عمران): 2/125.

وضـع الشُّكر موضع الإنعام في كونه سَبَبًا له

به عليكم من نُصْرَتِهِ، فيكون الشُّكْرُ على النِّعمة الَّتي أنجزها لهم في بدر، أو لعلَّ اللّه يُنْعِمُ عليكم نِعْمَةً أخرى تشكرونها، فَوَضع الشُّكر مَوضِع الإنعام؛ لأنَّه سَبَبٌ لَهُ[1]، فيكون الرَّجاء في الإنعام المُقْتَضي الشُّكرَ، ويكون التَّعبير بالشُّكْرِ عن الإنعام من التَّعبير باللَّازم، وهو مجازٌ مُرسَلٌ علاقته السَّببيَّة، فإنَّ الشُّكر سبب في نيل النِّعمة من اللّه سبحانه[2].

نكتة التَّعبير بـ ﴿لَعَلَّكُمْ﴾ في مقام الشُّكر:

بيان عـزَّة مقام الشُّكـر وعلـوِّ منزلته

في التَّعبير بـ (لعلّ) المفيدةِ للتَّرجِّي دلالة على عِزّةِ الوصول إلى مقامات التَّقوى ومقام الشَّاكرين، ويدلُّ على هذا قوله تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ۝١٣﴾ [سبأ: 13].

دلالات ضمير الخطاب في الآية الكريمة:

تـمـكـين غـرض الـخـطـاب في نفوس المؤمنين تحقيقًا للتَّقوى وتعزيزًا لليقين

فضمير الخطاب الأوَّل هو الَّذي وُجِّهَ من خلاله الأمرُ بالتَّقوى في قوله: ﴿فَٱتَّقُواْ﴾، وقُصِدَ به المؤمنون، فهم المقصودون بفعل التَّقوى واستشعارِها، وضمير الخطاب الثَّاني هو الواقع اسمًا لحرف التَّرجِّي (لعلّ) الَّذي يُفيدُ أنَّ فِعْلَ التَّقوى منكم - أيُّها المؤمنون - يُرجى منه أن يكون سُلَّمًا لكم يُفْضي بكم إلى مقام الشَّاكرين للّه تعالى على نعمه، ومنها نَصْرُكُمْ في بدر، فيكون مُؤْذِنًا بِتَفَتُّح أبواب النَّصر عليكم؛ إذا سلكتم ذلكم السَّبيل القويم، وضمير الخطاب الثَّالث هو الواقع فاعلًا للفعل المضارع: ﴿تَشْكُرُونَ﴾، فَفِعْلُ الشُّكْرِ هُنا مُسْنَدٌ إلى المخاطبين، وهم المؤمنون، واخْتِير الفعل المضارع؛ ليكون مُسندًا هو دون غيره من الأفعال؛ لكون صيغة المضارع تُفيد التَّجدُّد والحدوث في حاضر الزَّمان وفي مستقبل الأيَّام، وبذلك يكون الشُّكر مطلوبًا فِعْلُهُ في سائر الأوقات، ويتَأَكَّدُ أمره عند تجدُّد

(1) الرّازي، مفاتيح الغيب: 8/349، وابن عطية، المحرر الوجيز: 3/219.
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 3/219، والدّبل، دليل البلاغة القرآنيّة: 1/535.

أسبابه وحدوث دواعيه، وهذا ما يُفيده الأمر بالتَّقوى الموجَّه إلى المؤمنين الشَّاكرين - عَقِيْبَ ذِكْرِ نصرهم في بدر - حتَّى يرتفعوا إلى منزلة الشَّاكرين، فكان الشُّكر علامة على التَّقوى وثمرة لها، فمن وصل إليه، وتَلَبَّس به؛ فقد اتَّقى، ومن لا؛ فلا، وهذا ما يُفيده النَّظم القرآنيُّ الكريم لمن تأمَّله، وأنعم النَّظر في دقائقه[1].

الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الذُّلّ والمهانة:

الذُّلُّ: نقيض العزِّ، وأصل هذه المادة يدلُّ على الخُضوع والاستكانة واللِّين، يقال: ذلَّ يذِلُّ ذُلًّا وذِلَّة وذَلالة ومَذلَّة؛ إذا ضَعُف وهان، وتذلَّل له، أي: خضع[2]، الذِّلَّة: خضوع في النَّفس، واستكانة من جرَّاء العجز عن الدَّفع[3]، فهي ضعف عن المقاومة[4]، ومن الذُّلِّ ما هو محمودٌ، كالذُّلِّ لله سبحانه وتعالى، وهذا الذُّلُّ عنوان العِزِّ والشَّرف والنَّصر في الدُّنيا والآخرة، وكالذُّلِّ للوالدَيْن، قال تعالى: ﴿وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرۡحَمۡهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرٗا ٢٤﴾ [الإسراء: 24]، ومتى كان الذُّلُّ من جهة الإنسان نَفْسِهِ لنفسه؛ فمحمود، نحو قوله تعالى: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [المائدة: 54]، وهو بمعنى: التَّراحم والتَّواضع والعطف والإشفاق[5]، ومنه ما هو مذموم: وهو التَّذلُّل لغير الله على وجه الهوان والضَّعف والصَّغار والانكسار.

الذُّلُّ خضوع واستكانة في عجز، وقد يكون محمودًا، وفي المهانة معنى الاحتقار

أمَّا المهانة؛ فهي الاِطِّراح إذلالًا واحتقارًا[6]، ونقيضها الإكرام، يُقال: أهانه يُهينُه إهانة: استخفَّه[7]، وقد تكون بمعنى: الضَّعف،

(1) الخنين، النظم القرآني، ص: 102.
(2) الفيروزآبادي، القاموس المحيط، وابن فارس، مقاييس اللغة: (خضع).
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 9/119.
(4) العسكري، الفروق اللغوية: 251.
(5) ابن القيِّم، مدارج السَّالكين: 2/310، وابن جرير، جامع البيان: 10/421.
(6) المناوي، التوقيف، ص: 67.
(7) الكفويُّ، الكليات، ص: 211.

ومنه قوله تعالى: ﴿مِن سُلَٰلَةٖ مِّن مَّآءٖ مَّهِينٖ ٨﴾ [السَّجدة: 8]، أي: ضعيف، فيكون مأخوذًا من تهوين القدر، وأنْ يجعل هذا الأمر صَغيرًا لا يُبالى به، والاستهانة تكون من النَّظير للنَّظير[1].

فَكِلَا المصطلحين يَدُلُّ على الضَّعف إلَّا أنَّ في الإهانة معنى الاحتقار، ولا تُطْلَقُ إلَّا في مَعْرِضِ الذَّمِّ، بخلاف الذُّلِّ؛ فَمِنْهُ المحمود ومنه المذموم.

الشُّكر والحمد:

الحمد أعمُّ مُتَعَلَّقًا وأخصُّ آلةً، والشُّكرُ أخصُّ مُتَعَلَّقًا وأعمُّ آلةً

اختلف العلماء في بيان الفَرْقِ بين الحمد والشُّكر، فقد عدَّ بعضهم: أنَّ الحمد هو الشُّكر[2]، لكنَّ الصَّحيح أنَّ الحمد مُغاير للشُّكر، وذلك أنَّ بينهما عمومًا وخصوصًا من جهتين: فالحمد يعمُّ الشُّكر وغيره[3]، وهو الثَّناء على الجميل الاختياريِّ من نعمة أو غيرها[4]، فالحَمْد يكون في مقابِلِ النِّعمةِ، ويكون ابتداءً، قال الأزهريُّ: "الحمدُ قَدْ يكون شُكْرًا للصَّنِيعة، وَيكون ابْتِدَاءً للثَّناء عَلَى الرَّجُلِ"[5]، بل قد يُحَمْدُ على المُصيبَةِ، وذلك في حَمْدِ اللّٰهِ تعالَى؛ إذْ يكون عَلَى كلِّ حالٍ، فالحَمْد أعمُّ متعلَّقًا مِن الشُّكر.

أمَّا الشُّكر؛ فهو عِرْفانُ الإحْسانِ ونَشْرُه، وَلا يَكُونُ إلَّا عن يَدٍ[6]، فهو مقابلة النِّعمة بالثَّناء[7].

أمَّا من جهة الآلةِ؛ فالحَمْدُ يكون باللِّسان والقلبِ دُون الجوارحِ[8]،

(1) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 523.

(2) الأزهري، تهذيب اللغة: (حمد)، وذكر بِهرام الدَّمِيريّ في تحبير المختصر: 1/62 أنه ظاهر قول سيبويه، وهو ظاهر كلام ابن جرير في تفسيره: 1/138.

(3) الجوهري، الصحاح: (حمد)، وذهَب الخطابيُّ إلى أنَّ الشّكرَ أعمُّ مُطْلقًا مِنَ الحمد، فقال: "الحمد نوعٌ، والشُّكر جِنْس، فكلُّ حَمْدٍ شُكْرٌ، وليس كُلُّ شُكْرٍ حمدًا"، الأزهري، تهذيب اللغة: (حمد).

(4) البيضاوي، أنوار التنزيل: 1/27.

(5) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة: (حمد).

(6) الفيروزابادي، القاموس المحيط: (شكر).

(7) الرّاغب، المفردات: (حمد).

(8) ابنُ سِيدَهْ، المُخصَّص: 5/231 - 232.

بخلاف الشُّكْرِ؛ فَإِنَّه يكون بالقلب واللِّسان والجوارح، كما قال الله سبحانه: ﴿ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗاۚ﴾ [سَبَأ: 13]، فتقرَّر من هذا أَنَّ الشُّكْرَ أعمُّ مِنْ جهة الآلَةِ، فالحمد: أعمُّ مُتَعَلَّقًا وأخصُّ آلةً، والشُّكْرُ: أخصُّ مُتَعَلَّقًا وأعمُّ آلةً[1].

(1) العسكريِّ، الفروق اللُّغوية، (ص202)، والتَّهَانَوِي، كشّاف اصطلاحات الفنون والعلوم: 1/541، وحافظ حكمي، معارج القبول: 1/72.

﴿إِذۡ تَقُولُ لِلۡمُؤۡمِنِينَ أَلَن يَكۡفِيَكُمۡ أَن يُمِدَّكُمۡ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ١٢٤ بَلَىٰٓۚ إِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأۡتُوكُم مِّن فَوۡرِهِمۡ هَٰذَا يُمۡدِدۡكُمۡ رَبُّكُم بِخَمۡسَةِ ءَالَٰفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ١٢٥﴾ [آل عمران: 124 - 125]

مُناسَبَةُ الآيَتيْنِ لِمَا قَبْلَهُما:

بيان موعود الله تعالى لعباده المؤمنين بالإعانة والمدد بعد حثِّهم على التَّقوى والشُّكر

لَمَّا اشتملت هذه القصَّة على المصيبة التي سيقصُّ الله كثيرًا منها؛ كان أنسب من قصِّها وبيان ما اتَّفق لها - لوعْظ من يأتي - البداءة بتذكير من باشرها بما وعدهم الله به على لسان نبيِّه ﷺ قبل وقوع القتال، فقال: ﴿إِذۡ تَقُولُ لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾[1]، فذكَّرهم سبحانه بما كان يوجِّهه إليهم النَّبيُّ ﷺ من توجيهات سامية، وإرشاداتٍ نافعة، وبشاراتٍ متتابعة[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَكۡفِيَكُمۡ﴾: الكفاية مِقْدَارُ سدِّ الخَلَّة، والقيام بالأمر وبلوغ المراد منه، يُقال: كفاك الشَّيءُ يَكفِيك، وقد كَفَى كِفاية؛ إذا قام بالأمر، وأصل (كفى): يدُلُّ على الحَسْب الَّذي لا مُستَزَادَ فيه[3].

2) ﴿يُمِدَّكُمۡ﴾: الإمداد: إعطاءُ الشَّيء حالًا بعد حال، يقال: مَدَدْتُ الشَّيْءَ أَمُدُّهُ مَدًّا، أَيْ: زَادَ فِيهِ، وَوَاصَلَهُ، وكلُّ ما كان منه بطريق التَّقويةِ والإعانةِ، يقال فيه: أمَدَّه، وأصل (مدَّ): جرُّ شَيْءٍ فِي طُولٍ، وَاتِّصَال شَيْءٍ بِشَيْءٍ فِي اسْتِطَالَةٍ، فما كان بطريق الزِّيادة؛

(1) البِقاعيُّ، نَظْمُ الدُّرَرِ: 5/55 - 56.
(2) طنطاوي، التفسير الوسيط: 2/248.
(3) الرّاغب، المفردات، والسمين، عمدة الحفاظ: (كفي)،

يُقال فيه: مدَّه مدًّا، والإمداد: إعانة الجيش بالجيش، والمعنى هنا: يساعدكم، ويعينكم، ويقوِّيكم ﴿رَبُّكُم﴾ على عدوِّكم[1].

3) ﴿مِّن فَوْرِهِمْ﴾، أي: مِن وجْهِهم أو مِن ساعتِهم، أو مِن غضَبهم وهيجانهم وشدَّة تحرُّكهم، يُقال: فار فائرُه؛ إذا غضِب، والفور عكسه التَّراخي، وهو بمعنى: سرعة الإتيان، وأصْل الفَوْر: الغليان وابتداءُ الأمْر قبل سكونه، فيُؤخَذ فيه، ويُوصَل بآخَرَ، يُقال: فَعلَه مِن فَوْره، أي: في بَدْءِ أمْره، قبل أن يَسكُن، والمعنى هنا، أي: من وقتهم وساعتهم[2].

4) ﴿مُسَوِّمِينَ﴾، أي: مُعلِّمين لأنفسِهم أو لخيولِهم بعَلامةِ الحَرب، مأخوذٌ من التَّسويم الَّذي هو إظهار سيما الشَّيء، وهي علامته الَّتي تُعلِّم الفارسَ نفْسَه[3].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

اذكر - أيُّها النَّبيُّ ﷺ - حين قلتَ للمؤمنين مثبِّتًا لهم في معركة بدر بعدما سمعوا بمَدَدٍ يأتي للمشركين: ألن يكفيكم أن يعينكم الله بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين منه سبحانه لتقويتكم في قتالكم؟ بلى، يكفيكم ذلك الإمداد، ولكم بشارة بعون آخر من الله؛ إن صبرتم على القتال، واتَّقيتم الله، وجاء المدد إلى أعدائكم من ساعتهم مسرعين إليكم، يظنُّون أنَّهم يستأصلونكم، فإنَّ ربَّكم سيعينكم بخمسة آلاف من الملائكة معلِّمين أنفسهم وخيولهم بعلامة ظاهرة[4].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

سِرُّ مجي الظَّرف المتعلِّق بأوَّل الآية السَّابقة ﴿نَصَرَكُمُ﴾ بعد الأمر بالتَّقوى ﴿فَٱتَّقُواْ﴾:

إظهار كمال العناية بشأن التَّقوى في كونها سببًا للنَّصر

(إذ): ظرف بمعنى: حين، والعامل فيه فعل مُضمَر، أي: اذكر حين تقول، ويجوز أيضًا أن تكون بدلًا من قوله: ﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ﴾[5]،

(1) الرّاغب، المفردات، وابن فارس، معجم مقاييس اللغة: (مد).
(2) المصطفوي، التحقيق في كلمات القرآن: 9/155، والسجستاني، غريب القرآن، ص: 359، وابن فارس، مقاييس اللغة: (فور).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (سوم)، وابن الجوزي، تذكرة الأريب، ص: 50.
(4) لجنة من علماء الأزهر، المنتخب في تفسير القرآن الكريم، ص: 91، ونخبة من أساتذة التفسير، التفسير الميسر، ص: 66.
(5) السّمين، الدّرّ المصون: 3/384.

والعامل في ﴿إِذْ﴾ هو الفعل ﴿نَصَرَكُمُ﴾ وعلى ذلك فالمقالة المحكيَّة عن النَّبيِّ - ﷺ - وماتلاها كانت في غزوة بدر، وهذا هو الَّذي عليه جمهور المفسِّرين[1]، ومع أنَّ (إِذْ) ظرفٌ لـ(نَصَرَكُمْ) إلا أنَّه قُدِّم عليه الأمر بالتَّقوى؛ لإظهارِ كمالِ العِنايةِ به[2].

سِرُّ تنويع الخطاب من خطاب الجمع إلى مُخاطبة المفرد:

تخصيصُ النَّبيِّ ﷺ بـلـذيـذ الخطاب تشريفًا وتكريمًا

ضمير المخاطب في قوله: ﴿إِذْ تَقُولُ﴾ موجَّه مباشرة إلى شخص الرَّسول الكريم ﷺ بتَخصيصِه ﷺ؛ تشريفًا وإيذانًا بأنَّ وقوعَ النَّصرِ كان ببِشارتِه ﷺ، بذلك المدد من اللّه ﷻ، فكان هذا تلوينًا للخطاب ونقلًا له من أسلوب خطاب المؤمنين الَّذي انتهت به الآية المتقدِّمة ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ إلى أسلوب خطاب الرَّسول وحده على سبيل التَّخصيص والتَّشريف الَّذي هو عين التَّكريم من الكريم جَلّ عزُّه وثناؤه[3].

بلاغة العُدول عن التَّعبير بِفِعْلٍ مَضى وانقَضَى إلى فِعْلٍ مُضارع:

استحضار صورة الحال الماضية في هيئة المشاهدة الحاضرة

إنَّ هَذِهِ الَّتي وقعت أحداثها، ومضى زمانها، قد حُكِيت بالفعل المضارع، وصُرِف النَّظر عن التَّعبير عنها بالفعل الماضي، مع أنَّه هو المناسب في الظَّاهر لكون الحدث قد مضى؛ يُفَسِّرُ لنَا مَشْهَدُهَا أَنَّ طبيعة الفعل المضارع هي الَّتي تفي بغرض النَّظم، وتأتي عليه، والمرادُ به الوقتُ الممتدُّ الَّذي وقع فيه ما ذكر بعده، وما طُوِيَ ذكرُه تعويلًا على شهادة الحالِ ممَّا يتعلَّق به وجودُ النَّصرِ فصيغةُ المضارع ﴿تَقُولُ﴾ جاءت لحكايةِ الحالِ الماضيةِ لاستحضار صورتِها، أي: نصركم وقت قولك (للمؤمنين) حين أَظْهَروا العَجْزَ عن المقاتَلة[4]، ولهذا أوثر المضارع دون غيره.

(1) وهو اختيار ابن جرير وابن كثير وأَبي حَيّانَ وأَبي السُّعودِ، وغيرهم
(2) أَبو السُّعودِ، إِرْشادُ العَقْلِ السَّليمِ: 2/79 - 80.
(3) أَبو السُّعودِ، إِرْشادُ العَقْلِ السَّليمِ: 2/79، والخنين، النظم القرآني: 104.
(4) أَبو السُّعودِ، إِرْشادُ العَقْلِ السَّليمِ: 2/80.

نكتة تخصيص وقت البشارة بالإمداد بالذِّكر في مقام الامتنان:

كونه وقت ظهور المعجزة وتمام النِّعمة

وَخُصَّ هَذَا الْوَقْتُ بِالذِّكْرِ؛ لِأَنَّهُ كَانَ وَقْتَ ظُهُورِ هَذِهِ الْمُعْجِزَةِ، وَهَذِهِ النِّعْمَةِ، فَكَانَ جَدِيرًا بِالتَّذْكِيرِ وَالِامْتِنَانِ[1].

دلالة الألف واللَّام في ﴿لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ المخاطبين بهذا الوصف الجليل:

مدح لتلك الثُّلَّة المؤمنة الصَّابرة وثناءٌ عليهم بوصف الإيمان المُوجِبِ لرضا الرَّحمن

الألف واللَّام في ﴿لِلْمُؤْمِنِينَ﴾: قُصِد بهما التَّعريف الحضوريُّ؛ فالمؤمنون الَّذين وجِّه إِلَيْهِمْ ذلك القول؛ هم الَّذين حضروا غزوة بدر، وليس كلَّ المؤمنين زمنَ النَّبيِّ ﷺ فإنَّ منهم من كان في المدينة من الرِّجال والنِّساء، لم يخرجوا لملاقاة العير مع النَّبيِّ ﷺ لكونهم لم يستنفروا، أو لكون الخروج لم يقصد به القتال في البداية، ولكنَّه آل إليه في النِّهاية[2]، وفي هذا الوصف مدح وثناء لتلك الطليعة من طلائع الصَّادقين الَّذين غرسوا بإيمانهم وصبرهم وثباتهم نواة الجهاد والفداء لهذا الدِّين، وأحاطوا بيضة الإسلام بسور منيع وحصن حصين في تلك الغزوة المباركة العظيمة، فكانت فاتحة غزوات أهل الإسلام.

دلالة دخول همزة الاستفهام على أداة النَّفي:

تشريف المؤمنين بإثبات كفايتهم بهذا العدد وتقريرها والإشعار بحالهم يوم المعركة

الغرض البلاغي من دخول الهمزة في الجملة وإيقاعها على حرف النَّفي (لن): هو إنكار عدم كفاية الإمداد بذلك العدد من الملائكة المذكور في الآية، والكفاية تكون بسدِّ الخَلَّةِ وبلوغ المراد في الأمر، وإيقاع الكفاية على المؤمنين - مع مخاطبتهم بذلك في معرض الإنكار - فيه تشريف ظاهر للمؤمنين، حيث كفُّوا شَرَّ الأعداء، والَّذي كفاهم هو ربُّهم سبحانه وتعالى، وورود أداة النَّفي (لن) الَّتي تفيد توكيد النَّفي، وتسليطها على فعل الكفاية؛ للإشعارِ بأنَّهم كانوا يوم بدر لضعفهم وقلَّتِهم وقوَّةِ العدوِّ وكثرتهم[3]، كالآيسين من كفايةِ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/72.
(2) الخنين، النظم القرآني: 104.
(3) أَبو السُّعودِ، إِرْشادُ العَقْلِ السَّليمِ: 2/80.

هذا المدد من الملائكة، فأَوقَع الاستفهامَ التَّقريريَّ على ذلك؛ ليكون تَلْقِينًا لمَن يُخالِج نَفْسه اليأسُ من كفاية ذلك العدد من الملائكة، بأنْ يُصرِّح بما في نفْسه، والمقصود من ذلك لازمُه، وهذا إثباتُ أنَّ ذلك العدد كافٍ[1].

دلالة إضافة الإمداد إلى عنوان الرُّبوبيَّة:

تشريف المؤمنين بحُسن النَّظر لهم واللُّطف بهم

وإسناد الإمداد إلى الرَّبِّ تبارك وتعالى من باب إسناد الفضل إلى صاحبه، والتَّعرُّض لعنوان الرُّبوبيَّة فيه إشارة إلى أنَّ هذا المدد رأفة بكم وإصلاح لشأنكم، ولهذا جاء إضافة الرَّبِّ إلى ضمير المؤمنين على سبيل مخاطبتهم بلغة الرَّحمة، ففي هذه الإضافة إظهار لمزيد العناية بهم، وإفصاح عن علَّة إمدادهم، وهي كونه ربًّا لهم، يرحمهم وقت ضعفهم، فيزيد من قوَّتهم بمدده وجنده، وهذه نهاية التَّشريف، وغاية الكرامة في الحياة الدُّنيا، وفي الآخرة؛ ففيه إشعارٌ بحُسْنِ النَّظر لهم، واللُّطف بهم[2].

سِرُّ التَّكثير بِذِكْرِ العدد مع جمع لفظة الملائكة:

تسكين قلوب المؤمنين وطمأنتهم وتبشيرهم بالنَّصر

إِنَّما كَانَتِ الْفَائِدَةُ فِي كَثْرَةِ الْمَلَائِكَةِ؛ لِتَسْكِينِ قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ، وَلِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى جَعَلَ أُولَئِكَ الْمَلَائِكَةَ مُجَاهِدِينَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، فَكُلُّ عَسْكَرٍ صَبَرَ وَاحْتَسَبَ؛ تَأْتِيهِمُ الْمَلَائِكَةُ، وَيُقَاتِلُونَ مَعَهُمْ[3].

كما أنَّ إيراد اسم العلم ﴿ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ بصيغة الجمع في سياق خطاب المؤمنين، ومساءلتهم على لسان نبيِّهم قبيل بداية غزوة بدر الكبرى، والغرض من ذلك كلِّه: هو طمأنة قلوب المؤمنين، وتبشيرهم بنصر الله؛ لأنَّ المدد حاصل من ربِّهم، ونوع هذا المدد هم الملائكة، وهم من هم غلظة وشدَّة على أعداء الله؛ ولذلك فلا

(1) الرّازي، مفاتيح الغيب: 8/353، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/73.
(2) أَبو حَيّانَ، البَحْرُ المُحيطُ: 3/334، والخنين، النظم القرآني: 105.
(3) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 4/194.

جرم بأن يذهب عن أصحاب النَّبيِّ ﷺ الرَّوع، وتسكن نفوسهم إلى ربِّهم، وتتعلَّق قلوبهم به، وتأتمر بأمر نبيِّه[1].

نُكتة وَصْفِ الملائكة بالتَّنزُّل:

إلـقـاء المهـابـة على مَكانة المَدَدِ المـلائـكيِّ وكـثرة عدده

ولفظة ﴿مُنزَلِينَ﴾ وصف لثلاثة آلاف، أو هي حال من الملائكة، وعلى كلا الاحتمالين؛ فإنَّ فائدتها ظاهرة، وهي إلقاء المهابة على هذا المدد بكونه غير عاديٍّ ولامألوف، بل هو مدد له مكانته وقيمته، مما يجعل الممدودين به في ثقة وأمان من أيِّ عدوٍّ كان؛ للدَّلالة على أنهم يَنزِلون إلى الأرض في مَوقِع القتال عِنايةً بالمسلمين[2]، وقرئ ﴿مُنَزَّلِينَ﴾ بتشديد الزاي[3]، وعلى هذه القراءة يكون المعنى: إفادة كثرتهم، أو التَّدرُّج في نزولهم[4].

نكتة الجواب بـ ﴿بَلَىٰٓ﴾ بعد الاستفهام التَّقريريِّ:

إبـطـال الـنَّـفي وإثـبـات كـون العدد كافيًا

فلأجل كون الاستفهام السَّابق تقريريًّا غير حقيقيٍّ كان جوابه بـ ﴿بَلَىٰٓ﴾ إِبْطَالًا لِلنَّفْيِ، وَإِثْبَاتًا لِكَوْنِ ذَلِكَ الْعَدَدِ كَافِيًا، وَهُوَ مِنْ تَمَامِ مَقَالَةِ النَّبِيِّ ﷺ لِلْمُؤْمِنِينَ[5].

فقوله تعالى: ﴿بَلَىٰٓ﴾ إيجاب لما بعد ﴿أَلَن﴾ بمعنى: بلى يكفيكم الإمداد بهم، فأوجب الكفاية[6] من حيث كان الأمر بيِّنًا في نفسه بأنَّ الملائكة كافية، فبادر المتكلِّم إلى الجواب؛ ليبني ما يستأنف من قوله عليه، فقال: ﴿بَلَىٰٓ﴾ ، وهي جواب المقرِّرين، وهذا يحسن في الأمور البَيِّنَةِ الَّتي لا محيد في جوابها، ونحوه قوله تعالى: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً قُلِ ٱللَّهُ﴾[7] [الأنعام: 19].

---

(1) الخنين، النظم القرآني: 104.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/74.

(3) قَرَأَ ابْنُ عَامِرٍ بِتَشْدِيدِ الزَّايِ، وقَرَأَ الْبَاقُونَ بِتَخْفِيفِهَا، ينظر: ابن الجزري، النَّشر: 2/242.

(4) البيضاوي، أنوار التنزيل: 2/37، وأبو السُّعودِ، إرْشادُ العَقْلِ السَّليمِ: 2/80، والخنين، النظم القرآني، ص: 104.

(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/73.

(6) الزَّمَخْشَرِيُّ، الكَشَّاف: 1/411.

(7) ابن عطية، المحرر الوجيز: 1/503.

سِرُّ مُخاطبة المؤمنين بصيغة المضارعة:

التَّنويه بالتَّحلِّي بـــالأوصـــاف الجالبة للنَّصر والمدد

فمخاطبة المؤمنين عبر ضمائر الخطاب من خلال صيغة الفعل المضارع، فكأنَّما قيل لهم: إنَّ تحلِّيكم بالصَّبر والتَّقوى ومفاجأة العدوِّ لكم، وأنتم على هذه الحالة، لايضرُّكم، فإنَّ مدد ربِّكم لكم يستتبع هذه الأحوال[1].

فقد رَتَّبَ تَعَالَى عَلَى مَجْمُوعِ: الصَّبْرِ وَالتَّقْوَى وَإِتْيَانِ الْعَدَدِ مِنْ فَوْرِهِمْ إِمْدَادَهُ تَعَالَى الْمُؤْمِنِينَ بِأَكْثَرَ مِنَ الْعَدَدِ السَّابِقِ، وَعَلَّقَهُ عَلَى وُجُودِهَا، بِحَيْثُ لَا يَتَأَخَّرُ نُزُولُ الْمَلَائِكَةِ عَنْ تَحَلِّيهِمْ بِثَلَاثَةِ أَوْصَافٍ[2].

دلالة الفور وإضافته إلى كفَّار قريش:

تـصـويـر شـدَّة ارتـبـاط الـفـور واختصاصه بهم وتـأكـيـد سرعـة إتيانهم

الفَوْر: العجَلةُ والسُّرعة، ومنه: (فارَت القِدْر) اشتدَّ غَلَيانها، وسارع ما فيها إلى الخروج، يقال: فارَ يفُور فَوْرًا، ويُعَبَّر به عن الغضب والحِدَّة؛ لأنَّ الغَضْبانَ يسارع إلى البطش بمَنْ يغضب عليه، فالفور في الأصل مصدرٌ، ثم يُعَبَّر به عن الحالة الَّتي لا رَيْثَ فيها ولا تعريج عن شيء سواها[3]، وهذا المعنى اللُّغويُّ له ارتباط شديد بالمعنى القرآنيِّ المعبَّر عنه، فإنَّ مَنْ بقي من قريش في مكَّة قد عزموا على حزم أمرهم، والخروج من فورهم نصرة لقومهم في بدر بقيادة: كرز بن جابر المحاربيِّ، فشقَّ ذلك على المسلمين؛ لأنَّ هذا مدد للعدوِّ، وزيادة قوَّة إلى قوَّتهم، والمسلمون قلَّة في عددهم وعدَّتهم، فجاء وعد ربِّهم جلَّ وعلا غوثًا لهم، وشدًّا لمآزرهم في ساعة هم أحوج ما يكونون لذلك، فلفظ فَوْرِهِمْ فيه تأكيدٌ لسرعةِ إتيانِهم وإمدادِهم[4]، وإضافة الفور إلى ضمير الغيبة العائد على كفَّار قريش؛ لإفادة شدَّة اختصاص الفور بهم،

(1) الخنين، النظم القرآني: 106.
(2) أبو حيَّان، البحر المحيط: 3/334.
(3) السَّمين، الدُّرُّ المَصونُ: 3/387.
(4) أبو السُّعودِ، إرْشادُ العَقْلِ السَّليمِ: 2/80.

أي: شدَّة اتِّصافهم به، حتَّى صار يعرف بأنَّه فورهم، ومن هذا القبيل قولهم: خرج من فوره[1].

سِرُّ الكناية بالفور على العجلة:

فاسم الإشارة ﴿هَٰذَا﴾ كناية على كونه عاجلًا، فكان ذكره تنبيهًا إلى هذا الفور، ونصًّا عليه، وتنزيلًا له منزلة المشاهد القريب[2].

التَّنبيه إلى الفور وتنزيله منزلة المشاهد

دلالة اقتران لفظ(الفور) وعطفها على ذكر الصَّبر والتَّقوى:

ونظمُ إتيانِهم بسرعة في سلك شرطَي الإمداد المستتبِعَيْن له وجودًا وعدمًا - أعني: الصَّبرَ والتَّقوى - مع تحقق الإمدادِ - لا محالةَ - سواءٌ أسرعوا أم أبطؤوا؛ لتحقيق سرعة الإمداد لا لتحقيق أصلِه، أو لبيانِ تحقُّقِه على أيِّ حال فُرِضَ على أبلغ وجهٍ وآكَدِه بتعليقه بأبعدِ التَّقاديرِ؛ ليُعلم تحقُّقُه على سائرها بالطَّريق الأَوْلى؛ فإنَّ هجومَ الأعداءِ وإتيانَهم بسرعة من مظانِّ عدمِ لُحوق المددِ عادةً، فعُلِّق به تحققُ الإمدادِ إيذانًا بأنَّه حيث تحقَّقَ مع ما ينافيه عادةً، فلأَنْ يتحقَّقَ بدونه أولى وأحرى، كما إذا أردتَ وصفَ درعٍ بغاية الحَصانة، تقول: إن لبستَها، وبارزتَ بها الأعداءَ، فضربوك بأيدٍ شدادٍ وسيوفٍ حِدادٍ؛ لم تتأثَّرْ منها قطعًا[3]، هذا فضلًا عن التَّأكيد الأقصى بأهميَّة الصَّبر والتَّقوى بذكرهما، والنَّصُّ على ضرورة وجودهما حتى يترتَّب عليه النَّصر والمدد، وفي ذلك إشارة إلى توجيه الاهتمام الكامل بتحقيق الشَّرط حتى يتحقَّق المشروط[4].

تحقيق سرعة الإمـــداد مع الفور، وحصوله لا محالة بفور الكفَّار أو دونه

دلالة إظهار اسم الرَّبِّ مرَّة أخرى مع تكرار ذكر الملائكة وزيادة عددهم:

ففي إظهار اسم الرَّبِّ وإضافته إلى ضمير المخاطبين المتوجَّه إلى المؤمنين، وإسناده إلى المدد الثَّاني، تأكيد الإشعار بحسن النَّظر

تأكيد تشريف المؤمنين بحُسن النَّظر لهم واللُّطف بهم وتهدئة روعهم

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/76، والخنين، النظم القرآني: 107.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/76.
(3) أبو السُّعودِ، إرْشادُ العَقْلِ السَّليمِ: 2/80.
(4) الخنين، النظم القرآني، ص: 108.

لهم، واللُّطف بهم[1]، كما أنَّ فيه تشريفًا وتكريمًا لهم، وأمَّا زيادة عدد المدد إلى خمسة آلاف، فقد قصد منه تأكيد تهدئة روعهم، وزيادة طمأنة قلوبهم، وسوق عاجل البشرى بنصرهم على عدوِّهم المتكالب عليهم، وإظهار اسم الملائكة مرة أخرى وعدم الاكتفاء بذكرهم في الآية السَّابقة لمزيد الاعتناء بأهمِّيَّتهم، ولكونهم مددًا غير عاديٍّ ولاجارٍ في عرف البشر[2].

الحكمة من تدرُّج ذكر المدد بين سورتي الأنفال وآل عمران:

بيان التَّدرُّج في المـــدد بحسب العدد

حيث ورد في سورة الأنفال ذكر قصة غزوة بدر، وأخبر تعالى فيها عن المدد بألف من الملائكة، فقال: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ۝٩﴾ [الأنفال: 9]، بينما أخبر في سورة آل عمران عن المدد بثلاثة آلاف، ثمَّ الزِّيادة إلى خمسة آلاف، والْأَعْدَاد الْمَذْكُورَة هُنَا مُنَاسِبَةٌ لجَيْش الْعَدُوِّ؛ لِأَنَّ جَيْشَ الْعَدُوِّ يَوْمَ بَدْرٍ كَانَ أَلْفًا؛ فَوَعَدَهُمُ اللَّهُ بِمَدَدِ أَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَة، فَلَمَّا خَشُوا أَنْ يَلْحَقَ بِالْعَدُوِّ مَدَدٌ مِنْ كُرْزٍ الْمُحَارِبِيِّ؛ وَعَدَهُمُ اللَّهُ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ، أَيْ: بِجَيْشٍ لَهُ قَلْبٌ وَمَيْمَنَةٌ وَمَيْسَرَةٌ، كُلُّ رُكْنٍ مِنْهَا أَلْفٌ، وَلَمَّا لَمْ تَنْقَشِعْ خَشْيَتُهُمْ مِنْ إِمْدَادِ الْمُشْرِكِينَ لِأَعْدَائِهِمْ؛ وَعَدَهُمُ اللَّهُ بِخَمْسَةِ آلَافٍ، وَهُوَ جَيْشٌ عَظِيمٌ لَهُ قَلْبٌ وَمَيْمَنَةٌ وَمَيْسَرَةٌ وَمُقَدِّمَةٌ وَسَاقَةٌ، وَذَلِكَ هُوَ الْخَمِيسُ، وَهُوَ أَعْظَمُ تَرْكِيبًا وَجَعَلَ كُلَّ رُكْنٍ مِنْهُ مُسَاوِيًا لِجَيْشِ العدوِّ كلِّه[3].

سِرُّ الكناية عن الشِّدَّة بالتَّسويم:

بيان قـوَّة المدد الملائكيِّ وعدم خُلوص المقاتلين إليه

﴿مُسَوِّمِينَ﴾[4]: مُشْتَقٌّ مِنَ السُّومَةِ، وَهِيَ الْعَلَامَةُ، وَتُطْلَقُ السُّومَةُ عَلَى عَلَامَةٍ يَجْعَلُهَا الْبَطَلُ لِنَفْسِهِ فِي الْحَرْبِ مِنْ صُوفٍ أَوْ

(1) أَبو حَيّانَ، البَحْرُ المُحيطُ: 3/334، والخنين، النظم القرآني، ص: 105.
(2) الخنين، النظم القرآني، ص: 108.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/76 - 77.
(4) وَقد اخْتَلَف القراء فِي: (مُسَوِّمِين) فَقَرَأَ ابْنُ كَثِيرٍ، والْبَصْرِيَّانِ، وعَاصِمٌ بِكَسرِ الْوَاوِ، وقَرَأَ الْبَاقُونَ بِفَتْحِهَا، ينظر: ابن الجزري، النشر: 2/242.

رِيشٍ مُلَوَّنٍ، يَجْعَلُهَا عَلَى رَأْسِهِ أَوْ عَلَى رَأْسِ فَرَسِهِ، يَرْمُزُ بِهَا إِلَى أَنَّهُ لَا يَتَّقِي أَنْ يَعْرِفَهُ أَعْدَاؤُهُ، فَيُسَدِّدُوا إِلَيْهِ سِهَامَهُمْ، أَوْ يَحْمِلُوا عَلَيْهِ بِسُيُوفِهِمْ، فَهُوَ يَرْمُزُ بِهَا إِلَى أَنَّهُ وَاثِقٌ بِحِمَايَتِهِ نَفْسَهُ بِشَجَاعَتِهِ، وَصِدْقِ لِقَائِهِ، وَأَنَّهُ لَا يَعْبَأُ بِغَيْرِهِ مِنَ الْعَدُوِّ وَوَصْفُ الْمَلَائِكَةِ بِذَلِكَ كِنَايَةٌ عَلَى كَوْنِهِمْ شِدَادًا[1].

الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

المدد والإمداد:

الإمداد: ما كان على جهة القوَّة والإعانة، يُقال فيه: أَمَدَّهُ إمدادًا، وما كان على جهة الزِّيادة، يُقال: مَدَّه مَدًّا، ومنه قوله تعالى: ﴿وَٱلۡبَحۡرُ يَمُدُّهُۥ﴾ [لقمان: 27][2]، وأكثر ما يكون المَدُّ في الشَّرِّ والإمداد في الخير، يدلُّ عليه قوله تعالى: ﴿وَيَمُدُّهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ١٥﴾ [البقرة: 15]، وقوله: ﴿وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلۡعَذَابِ مَدّٗا ٧٩﴾ [مريم: 79]، والإمداد يكون في الخير: ﴿أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلۡفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُرۡدِفِينَ ٩﴾ [الأنفال: 9]، وقال: ﴿وَأَمۡدَدۡنَٰكُم بِأَمۡوَٰلٖ وَبَنِينَ﴾ [الإسراء: 26][3].

أكثر ما يكون المدُّ في الشَّرِّ، وأكثر ما يكون الإمداد في الخير

المجيء والإتْيان:

الْإِتْيَانُ: مَجِيءٌ بِسُهُولَةٍ، وَالْمَجِيءُ: كَالْإِتْيَانِ، لَكِنَّ الْمَجِيءَ أَعَمُّ[4]، فَالإتيان: هُوَ الْأَعَمُّ وَالْأَشْمَلُ، وَهُوَ الْبِدَايَةُ، فَإِذَا اكْتَمَلَ، وَبَلَغَ مَقْصِدَهُ مِنْ مَكَانٍ أَوْ زَمَانٍ أَوْ شَخْصٍ؛ أَصْبَحَ مَجِيئًا، فَالْمَجِيءُ: هُوَ إِتْيَانٌ مُحَقَّقٌ بَعِيدٌ عَنْ عَوَامِلِ النَّقْصِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿قَالُوٓاْ أُوذِينَا مِن قَبۡلِ أَن تَأۡتِيَنَا وَمِنۢ بَعۡدِ مَا جِئۡتَنَاۚ﴾ [الأعراف: 129]، فَالإتيانُ: بِدَايَةُ الْمَجِيءِ زَمَانِيًّا أَوْ مَكَانِيًّا، وَقَدْ لَا يَتِمُّ، فَلَا يَكُونُ مَجِيئًا، أَمَّا الْمَجِيءُ؛ فَهُوَ إِتْيَانٌ مُحَقَّقٌ

الْإِتْيَانُ مَجِيءٌ بِسُهُولَةٍ، والْمَجِيءُ أَعَمُّ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/76.
(2) الرّاغب، المفردات، وابن فارس، مقاييس اللغة: (مد)، والهرري، حدائق الرُّوح والرَّيحان: 5/108.
(3) الثعلبي، الكشف والبيان: 3/143، والبغويُّ، معالم التنزيل: 1/502.
(4) الرَّاغِبُ، المفردات: (أتى).

قَرِيبٌ زَمَانِيًّا وَمَكَانِيًّا[1]، فَكُلُّ مَجِيءٍ إِتْيَانٌ، ولَيْسَ كُلُّ إِتْيَانٍ مَجِيئًا، أَمَّا فِي بَابِ الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ؛ فَمَنْ تَكَلَّمَ عَنْ صِفَةِ الْمَجِيءِ وَالْإِتْيَانِ مِنْ مُحَقِّقِي أَهْلِ السُّنَّةِ[2]؛ يَجْعَلُهُمَا بِمَعْنًى وَاحِدٍ، وَيُسْتَدَلُّ لَهُمَا بِالْأَدِلَّةِ نَفْسِهَا دُونَ تَفْرِيقٍ، فَالْفَرْقُ السَّابِقُ غَيْرُ وَارِدٍ هُنَا فِي بَابِ الصِّفَاتِ، فَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ﴾ [الأنعام: 158]، كقوله تعالى: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾ [الفجر: 22].

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيُّ المؤصَّل: (جيأ).

(2) ابن تيمية، مجموع الفتاوى: 5/458، وابن قيم الجوزيَّة، الصواعق المرسلة: 3/1099.

﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ ۗ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾ لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُوا۟ خَآئِبِينَ ﴿١٢٧﴾﴾ [آل عمران: 126 - 127]

مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِمَا قَبْلَهُما:

توضيح الغاية من المدد بعد ذِكْرِهِ وذكر أسبابه

لَمَّا كان ذِكْرُ الملائكة والتَّدرُّج في ذكر العَدَدِ سببًا لأنْ تَتَعَلَّقَ النُّفوس بالأسباب؛ قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ﴾؛ فَوضَّح الغَايَةَ مِنَ المدَدِ، وجَلَّى لَهُمْ حَقيقَةَ النَّصْرِ والظَّفَرِ ومَصْدَرَهُ.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿بُشْرَىٰ﴾: البشرى اسم من البشارة، وهي الإخبار بما يسرُّ، ولا يقع في الشَّرِّ إلَّا على سبيل التَّهكُّم، فإذا أطلقت؛ فالبشارة بالخير، والنِّذارة بغيره، وقيل: تستعمل في الخير والشَّرِّ؛ لأنَّ البشارة: خبر يتغيَّر له البشر، وأصلُ البُشرى: ظهورُ الشَّيءِ مع حُسنٍ وجمالٍ، وذلك يكون في الشَّرِّ، كما يكون في الخير، والمعنى هنا: خَبَرٌ بِحُصُولِ مَا فِيهِ نَفْعٌ وَمَسَرَّةٌ لِلْمُخْبَرِ بِهِ[1].

2) ﴿وَلِتَطْمَئِنَّ﴾: الطُّمأنينة والاطمئنان: سكون بعد انزعاج، يقال: اطْمَأَنَّ الرَّجل اطمِئنانًا وطمَأنينَةً، أي: سكن، وأصل طمن: يدلُّ على السُّكون، واطمأنَّ إليه: سكن إليه، ووثق به، والنَّفْسُ المُطْمَئِنَّةُ: الَّتِي اطْمَأَنَّتْ بالإيمانِ، وأَخْبَتَتْ لربِّها، وَرجل فِيه تَطَامُنٌ، أَي: سكونٌ ووقارٌ[2].

3) ﴿لِيَقْطَعَ طَرَفًا﴾: أي: ليُهلك جماعة أو طائفة منهم، والطَّرَفُ:

(1) الخليل، العَينْ، والأَزْهَرِيُّ، تَهْذيبُ اللُّغَةِ، وابْنُ عَبَّادٍ، المُحيطُ: (بشر).
(2) الجوهري، الصِّحاح، والزَّمخشري، أساس البلاغة، والزبيدي تاج العروس: (طمن).

الطَّائفةُ مِنَ النَّاسِ، وأصْل القطع: الفَصْل، وإبانةُ شيءٍ من شيء، وطرَف الشَّيء: جانِبُه، وأصْله: حدُّ الشَّيءِ وحَرْفه[1].

4) ﴿يَكۡبِتَهُمۡ﴾: يَصرَعهم لوجوهِهم، ويُهلِكهم، والكَبْتُ: الصَّرْعُ، يقال: كَبَتَه يَكْبِته كَبْتًا، وكَبَتَهُ اللّٰه لوجهِه، أي: صرعَه لوجهِه، وَيُقَال: يكبتهم، يغيظهم، ويحزنهم، وأصل الكَبْت: الْإِذْلَال وَالصَّرْف عَنِ الشَّيْءِ، يُقَالُ: كَبَتَ اللّٰه الْعَدُوَّ يَكْبِتُهُ؛ إِذَا صَرَفَهُ، وَأَذَلَّهُ، يُصِيبهُمْ بِغَمٍّ وَكَمَدٍ، فيصرعهم، أو يصرفهم[2].

5) ﴿فَيَنقَلِبُواْ﴾: فيَنهزِموا مُنقطِعي الآمال، والانقلابُ: الانصرافُ، ورجوعُ القَهْقَرى، وقلبُ الشَّيءِ: تصريفُه وصرْفُه عن وجْهٍ إلى وجه[3].

5) ﴿خَآئِبِينَ﴾: محرومين، يدُلُّ فعل (خيب) في أصل اللُّغة على عدم فائدةٍ وحرمان، والخَيْبَةُ: هي بمعنى: الحرمان والخُسران، فوت الطَّلب، يُقال: خاب يخيب؛ إذا حُرِم، ولم ينل ما طَلب، والمعنى هُنا: لم يدركوا ما طلبوا[4].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

الإمداد والنَّصر بُشرى من الله للمؤمنين، وإهلاك للكافرين

وما جعل اللّٰه هذا العون، وهذا الإمداد بالملائكة إلَّا خبرًا سارًّا لكم، ولتسكن قلوبكم به، وتطيب بوعد اللّٰه لكم، وما النَّصر إلَّا من عند اللّٰه العزيز الَّذي لا يُغالبه أحد، الحكيم في تدبيره وفعله، وهذا النَّصر الَّذي تحقَّق لكم في غزوة بدر أراد به أن يُهلك طائفة من الَّذين كفروا بالقتل، ويخزي طائفة أخرى، ويغيظهم بهزيمتهم، فيرجعوا بفشل وذلٍّ وعارٍ[5].

(1) الرَّاغِبُ، المُفْرداتُ، وابن منظور، لسان العرب: (طرف)
(2) الرَّاغِبُ، المُفْرداتُ، وابن فارس، مقاييس اللغة: (كبت).
(3) الرَّاغِبُ، المفردات: (قلب) والكفوي، الكليات، ص: 993.
(4) الرَّاغِبُ، المفردات: (خاب)، والسمين، عمدة الحفاظ: (خيب).
(5) لجنة من علماء الأزهر، المنتخب في تفسير القرآن الكريم، ص: 91، ونخبة من أساتذة التفسير، التفسير الميسر، ص: 66.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

أثر تنوُّع معاني (الواو) في سياق الكلام وما يستدعيه النِّظام:

بيان أنَّ النَّصر حاصل بفضلٍ من الله ولو فقدت أسبابه وأماراته

فقد قيل: إنَّ الكلام في قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ﴾ مبتدأ غير داخل في حيِّز القول، مَسوق من جنابه تعالى؛ لبيان أنَّ الأسباب الظَّاهرة بمعزل عنِ التَّأثير، وأنَّ حقيقة النَّصر مُختصٌّ به ﷻ، ليثق به المؤمنون، ولا يقنطوا منه عند فقدان أسبابه وأماراته، وهو معطوف على فعل مُقدَّر ينسحب عليه الكلام، ويستدعيه النِّظام، فكأنَّه قيل عقيب قوله تعالى: ﴿يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَفٍ مِّنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾﴾، فأمدَّكم بهم، وما جعله الله إلَّا بشرى[1].

بيان تعدُّد نعم الله على عباده المؤمنين وتنوُّعها تذكيرًا بفضل الله ومنَّته عليهم

يَجُوزُ أَنْ تَكُونَ جُمْلَةُ ﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ﴾ في مَوْضِعِ الْحَالِ مِن اسْمِ الْجَلَالَةِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ﴾، وَالْمَعْنَى: لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ حِينَ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ مَا وَعَدَكَ اللَّهُ بِهِ، فِي حَالِ أَنَّ اللَّهَ مَا جَعَلَ ذَلِكَ الْوَعْدَ إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ، وَإِلَّا فَإِنَّهُ وَعَدَكُمُ النَّصْرَ، كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ﴾ [الأنفال: 7]، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الْوَاوُ لِلْعَطْفِ عَطْفَ الْإِخْبَارِ عَلَى التَّذْكِيرِ وَالِامْتِنَانِ[2].

سِرُّ عَوْدِ ضمير الغيبة على الإمداد المُتقدِّم:

استحضار الإمداد في أذهان المؤمنين

الضَّمير في قوله: ﴿وَمَا جَعَلَهُ﴾ هو للإمداد، أو للوعد بالإمداد أو للنَّصر، والأوْلى جعله للإمداد، فإنَّ الإخبار بوقوع النَّصر على الإطلاق، وتذكير وقته، وحكاية الوعد بوقوعه على وجه مخصوص، هو الإمداد بالملائكة مرَّة بعد أخرى[3].

ولكون الإمداد قد ذُكر مرَّتين، وكون الملائكة وأعدادهم ونصرهم للمؤمنين قائمًا عليه، أصبح أصلًا في ذلك جديرًا بأن يشار إليه،

(1) أبو السُّعودِ، إرْشادُ العَقْلِ السَّليمِ: 2/81.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/77.
(3) أبو السُّعودِ، إرْشادُ العَقْلِ السَّليمِ: 2/81.

وفائدة إرجاع الضَّميرين إليه استحضاره في أذهان المؤمنين في معرض مخاطبتهم، وذكر منَّة الله عليهم بالنَّصر ومقدِّماته[1].

العناية بالمخاطبين والتَّنويه بهم

إظهار الاسم الجليل في مقام البشارة:

إِظْهَارُ اسْمِ الْجَلَالَةِ فِي مَقَامِ الْإِضْمَارِ لِلتَّنْوِيهِ بِهَذِهِ الْعِنَايَةِ مِنَ اللَّهِ بِهِمْ، خصوصًا أَنَّ الْخِطَابَ لِلنَّبِيِّ ﷺ وَالْمُسْلِمِينَ[2].

بلاغة القصر بالاستثناء في الإخبار عن البشرى وطمأنة القلوب:

تبيان سبب الإمداد تعجيلًا للبشارة وتطمينًا للنُّفوس

الْبُشْرَى: اسْمٌ لِمَصْدَرِ بَشَّرَ كَالرُّجْعَى، وَالْبُشْرَى: خَبَرٌ بِحُصُولِ مَا فِيهِ نَفْعٌ وَمَسَرَّةٌ لِلْمُخْبَرِ بِهِ فإنَّ الله لمَّا وعدهم بالنَّصر أيقنوا به فكان في تبيين سببه، وهو الإمداد بالملائكة طَمْأنة لنفوسهم؛ لأنَّ النُّفوس تركن إلى الصُّوَر المألوفة[3]، قال هنا قاصرًا للأمر عليه: ﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ﴾[4].

فالاستثناء في قوله: ﴿إِلَّا بُشْرَىٰ﴾ مفرَّغ، والاستثناء المفرَّغ من أعمِّ العلل، أي: ما جعل الله إمدادكم بإنزال الملائكة لشيء من الأشياء إلَّا للبشارة لكم بأنَّكم ستنتصرون على أعدائكم[5]، وطمأنة القلوب، وأسلوب القصر هنا إضافيٌّ، وهو قصر صفة على موصوف، حيث قصر الموصوف، وهو الإمداد على البشارة، ففي القصر هنا نفيٌ لجميع الغايات، وإثباتٌ لغاية البشارة الَّتي تطمئن النُّفوس المؤمنة، وتسكن عند سماعها.

فأفاد أسلوب القصر قوَّة في التَّعبير؛ لأنَّ في النَّفي مع الاستثناء من قوَّة الدَّلالة ما ليس في غيره.

ولَمَّا كان السِّياق العام هو سياق غزوة أحد، وقد كثر فيه

(1) الخنين، النظم القرآني، ص: 111.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/77.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/78.
(4) البِقاعيُّ، نَظْمُ الدُّرَرِ5/58.
(5) طنطاوي، التفسير الوسيط: 2/253.

المصاب، وكان سياق غزوة بدر سياقًا تابعًا؛ جيء بالمتعلَّق ﴿لَكُمْ﴾ لتخصيصه بهم، وتقوية الحكم، فتزيد النُّفوس اطمئنانًا إذا هي أخذت بأسباب النَّصر، كما حصل في بدر، كما أنَّ السِّياق سياق مُواساة ومسح على القلوب بعد المصاب[1].

فصرَّح أنَّ البُشرى إليهم مع ظهورِ ذلك؛ للدَّلالةِ على تَكرمةِ اللّٰه تعالى إيَّاهم بأنْ بشَّرهم بُشرى لأجْلهم[2].

السِّرُّ في تقديم البُشرى على الطُّمأنينة:

بيان أنَّ الطُّمأنينة أثر من آثار البُشرى

تقديم البُشرى على الطُّمأنينة؛ لكون الأخيرة قائمة على البشارة ناتجة عنها، فإنَّ الملحوظ في طباع الخائف أنَّ قلبه يضطربُ، ويَقْلَقُ، ولا يهدأُ له بال، حتَّى تُساق البُشرى إليه، فالبُشرى رسولُ الطُّمأنينة إلى القلب ومفتاحها؛ ولهذا قُدِّمت عليها، والتَّوجُّه بهذه البشرى للمؤمنين وذِكْرُهُمْ عبر ضمير الخطاب تَشْريف لهم، وإيذان باستحقاقهم لها، وفيه إشعارٌ بأنَّهم مُحتاجون إلى ذلك غير مُسْتغنينَ عنه[3].

دلالة التَّذييل بذكر النَّصر بطريق القصر:

غرس الاعتماد على الله في قلوب المؤمنين، وتفويض أمورهم إليه

قوله تعالى: ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ تذييل جارٍ مجرى المثل جاء لتقرير مضمون ما قبله أي: إنَّ كلَّ نصر هو من عند اللّٰه، لا من الملائكة[4]، فالمقصود من الآية الكريمة: غرس الاعتماد على اللّٰه في قلوب المؤمنين، وتفويض أمورهم إليه، وبيان أنَّ النَّصر إنَّما هو من عند اللّٰه وحده، وليس من الملائكة، أو من غيرهم؛ لأنَّ الملائكة أو غيرهم أسباب عاديَّة بمعزل عن التَّأثير، إلَّا إذا أراد اللّٰه ذلك، فهو الخالق للأسباب والمسبِّبات؛ حتَّى يعلم علم اليقين أنَّ ما كان هو

(1) فاضل السامرائي، التعبير القرآني، ص: 71.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/78.
(3) أبو السُّعودِ، إرْشادُ العَقْلِ السَّليمِ: 2/81.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/78.

من اللّه تعالى، وهو النَّصر، ومقدِّماته الَّتي هيَّأها اللّه تعالى بين يدي عباده: من قذف الرُّعب في قلوب الأعداء، وإنزال الملائكة من السَّماء وسواها ممَّا حصل في بدر، فكلُّ ذلك من اللّه تعالى وحده، ولا يملكه أحد سواه؛ ولهذا فلا ينبغي أن تركن نفس المؤمن إلَّا إليه، ولا تعتمد إلَّا عليه، وهذا أصل من أصول العقيدة[1].

ويمكن أن يقال: إنَّ هذا القصر جيء به للاحتراز من وقوع الشَّكِّ في أنَّ النَّصر من ذلك المدد الملائكيِّ، فطرد ذلك بأقوى أسلوب بلاغيٍّ لائق، وهو القصر بما وإلَّا، فيكون بهذا الاعتبار من قبيل قصر القلب: الَّذي فيه ردٌّ على من يتوهَّم أنَّ النَّصر من عند الملائكة المنزلين، فأشار بالقصر إلى لزوم إفراده بالتوكُّل، يقول ابن جرير: "وما ظفركم؛ إن ظفرتم بعدوِّكم إلَّا بعون اللّه، لا من قِبَل المدد الَّذي يأتيكم من الملائكة، يقول: فعلى اللّه فتوكَّلوا، وبه فاستعينوا، لا بالجموع وكثرة العدد، فإنَّ نصركم إن كان؛ إنَّما يكون باللّه وبعونه، ومعكم من ملائكته خمسة آلاف، فإنَّه إلى أن يكون ذلك بعون اللّه وبتقويته إيَّاكم على عدوِّكم، وإن كان معكم من البشر جموع كثيرة أخرى، فاتَّقوا اللّه، واصبروا"[2].

بيان أنَّ النَّصر بيد العزيز النَّاصر لمن يشاء، الحكيم العالم بمن يستحقُّ النَّصر

دلالة ختم التَّذييل بوصف العزَّة والحكمة للرَّبِّ الجليل:

ذُكِرَ وصفا العَزِيزِ الحكِيمِ هُنا؛ لأنَّهما أَوْلى بالذِّكر في هذا المقام؛ لأنَّ العزيزَ يَنصُر مَن يُريد نصره، والحكيم يَعْلَمُ مَن يَستحِقُّ نصرَه، وكيف يُعطاه[3].

بلاغة اختلاف النَّظم في المتشابه اللَّفظي بين سورتي آل عمران والأنفال:

فقد وردتْ في سورةِ الأنفال آيةٌ أُخرى مشابهةٌ لهذه الآيةِ الَّتي في آل عمران، وهي قولُه تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْۚ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ١٠﴾ [الأنفال: 10]، لكن جاءَ التعبيرانِ فيهما بعضُ الاختلاف، ففي هذه الآية

(1) الخنين، النظم القرآني، ص: 111. بتصرف.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 7/190.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/78.

قال: ﴿بُشۡرَىٰ لَكُمۡ﴾، بينما في آيةِ الأنفالِ لم يذكُر الجارَّ والمجرور لَكُمۡ، وفي هذه الآية قال: ﴿قُلُوبُكُم بِهِۦۗ﴾، فأخَّر الجارَّ والمجرور بِهِ، بينما قدَّمه في الأنفال، فقال: ﴿بِهِۦ قُلُوبُكُمۡۚ﴾، وفي هذه الآية قال: ﴿وَمَا ٱلنَّصۡرُ إِلَّا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ ١٢٦﴾، وقال في سورةِ الأنفال: ﴿وَمَا ٱلنَّصۡرُ إِلَّا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ١٠﴾ [الأنفال: 10]، ومن الحِكَم في هذا التغايُرِ ما يأتي[1]:

أوَّلًا: ذكر الجار والمجرور ﴿لَكُمۡ﴾ وحذفه:

ففي آية آل عمران تقدّمها الإخبار عن عدوِّهم ﴿وَيَأۡتُوكُم مِّن فَوۡرِهِمۡ﴾، فاختلط ذكر المؤمنين والكافرين، فجُرِّدت البشارة للمؤمنين، وجيء بضمير خطابهم متَّصلًا بلام الاستحقاق ﴿لَكُمۡ﴾، أمَّا آية الأنفال؛ فلم يتقدَّمها إلَّا ذكر المؤمنين، كما وردت في قوله: ﴿وَإِذۡ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحۡدَى ٱلطَّآئِفَتَيۡنِ أَنَّهَا لَكُمۡ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيۡرَ ذَاتِ ٱلشَّوۡكَةِ تَكُونُ لَكُمۡ﴾ [الأنفال: 10]، فلم تذكر اكتفاء بما سبق[2]، فـ ﴿لَكُمۡ﴾ في آل عمران جاءت على الأصل في الذِّكر، والثَّانية قد تقدَّمتها ﴿لَكُمۡ﴾، فأغنت عن إعادتها بلفظها ومعناها، وهي قوله: ﴿إِذۡ تَسۡتَغِيثُونَ رَبَّكُمۡ فَٱسۡتَجَابَ لَكُمۡ﴾، فلمَّا قال: ﴿فَٱسۡتَجَابَ لَكُمۡ﴾؛ علم أنَّه جعل البشرى لهم، فأغنت لكم الأولى بلفظها ومعناها عن الثَّانية[3]، كما أنَّ في ذكرها زيادة في المنَّة، كقوله: ﴿أَلَمۡ نَشۡرَحۡ لَكَ صَدۡرَكَ ١﴾ [الشرح: 1]؛ لأنّ سياقها الامتنان بنعمة النَّصر مع القلَّة والضَّعف، أمَّا آية الأنفال؛ فمسوقة للعتاب لكراهية الخروج إلى بدر في أوَّل الأمر، فجُرِّدت من ﴿لَكُمۡ﴾؛ إذ كانت للنَّبيِّ، ومن لم يتردَّد من المؤمنين[4]، مع مراعاة مناسبة الإيجاز والإطناب في كلٍّ من الآيتين[5].

ثانيًا: تقديم القلوب على ﴿بِهِۦ﴾ وتأخيرها عنه:

أمَّا التأخير في آية آل عمران؛ فهو على الأصل، وأمَّا تقديم ﴿بِهِۦ﴾ في الأنفال؛ فلمراعاة الحالة النَّفسيَّة للمخاطبين، والهاء عائدة على المدد، وهو الأهمُّ عندهم، فإنَّ

(1) الإسكافي، درة التنزيل: 1/389 - 395، الكرماني، البرهان، ص: 92، وابن الزُّبير، ملاك التأويل: 1/89 - 90.
(2) ابن الزُّبير، ملاك التأويل: 1/89.
(3) الإسكافي، درة التنزيل: 1/389، والأنصاري، فتح الرحمن ص: 72، والكرماني، البرهان، ص: 92.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/78.
(5) أبو حيان، البحر المحيط: 4/460.

المعتمد بتحقيقه عند المخاطبين إنَّما هو الإمداد بالملائكة[1]؛ لأنَّها نزلت في غزوة بدر، والدِّماء لم تجفَّ بعد، فالخطاب فيها مؤسَّس، رُوعي فيها مقتضى الحال، وآية آل عمران تذكير بحكاية حال مضت؛ إذ هي مدنيَّة متأخِّرة في النُّزول عن غزوة بدر، وفرق بين ما يؤسَّس وما يحكى؛ لذلك جاء التَّعبير فيها على الأصل[2]، ثُمَّ إنَّه خصَّ البشرى بهم في آل عمران، وقدَّم ﴿قُلُوبُكُم﴾ على الإمداد، فقال: ﴿وَلِتَطۡمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦۗ﴾ للمواساة والطَّمأنة؛ إذ المقام مقام مسح للقلوب ومواساة وطمأنة، فجاء ذكر القلوب في موضعه، ولم يتقدَّم المتعلَّق؛ لأنَّ المقام مقام تسكين القلوب، وجبر للمصيبة، فكان تعلُّق الفاعل بفعله أشدَّ من الإشارة إلى المدد[3]، قال تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ١٣٩ إِن يَمۡسَسۡكُمۡ قَرۡحٞ فَقَدۡ مَسَّ ٱلۡقَوۡمَ قَرۡحٞ مِّثۡلُهُۥۚ﴾ [آل عمران: 139، 140]، أمَّا آية الأنفال؛ فالمقام في ذكر موقعة بدر، وانتصارهم فيها، ودور الإمداد السَّماوي في هذا النَّصر؛ لذلك قدَّم ﴿بِهِۦ﴾ على القلوب، ولمعنى الاختصاص أيضًا، أي: قلوبكم لا قلوب غيركم، وفيه تعريض بما اعتراهم من الوجل من الطَّائفة ذات الشَّوكة[4]، وأيضًا لمزاوجة ﴿قُلُوبُكُم﴾ مع ﴿لَكُمۡ﴾[5].

ثالثًا: تعريف الفاصلة وتنكيرها مع التَّوكيد في ﴿ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ﴾ و﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ﴾:

سورة الأنفال تقدّمتها وعودٌ جليلة: ﴿وَإِذۡ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحۡدَى ٱلطَّآئِفَتَيۡنِ أَنَّهَا لَكُمۡ﴾، ﴿وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقۡطَعَ دَابِرَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٧ لِيُحِقَّ ٱلۡحَقَّ وَيُبۡطِلَ ٱلۡبَٰطِلَ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ٨﴾ [الأنفال: 7- 8]، فهذه وعود لم يتقدَّم إفصاح بمثلها في آية آل عمران، فناسبها تأكيد الوصفين العظيمين من أفعاله، وناسب آية آل عمران ورودهما تابعتين دون تأكيد[6]، كما أنَّ التَّقرير والتَّأكيد في آية الأنفال لازمان في ذلك الموقف الَّذي كان يقفه المسلمون في قلَّتهم، إزاء الجيش القويِّ الزَّاحف عليهم، فإذا جاءتهم البشرى بنصر اللّه، محمولة بما وعدهم على لسان نبيِّه، ثم أُتبعت هذه البشرى بالتَّذكير بعزَّة اللّه وحكمته في

(1) ابن الزُّبير، درة التنزيل ص: 38، والأنصاري، فتح الرحمن ص: 72.
(2) المطعني، خصائص التعبير القرآني: 2/169.
(3) الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص: 429.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 9/276.
(5) الكرماني، البرهان، ص: 92.
(6) ابن الزُّبير، ملاك التأويل: 1/89، والكرماني، البرهان، ص: 92.

هذا الأسلوب المؤكَّد: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝١٠﴾ [الأنفال: 10]، كان لذلك وقعه في القلوب وأثره في النُّفوس، أمَّا في آية آل عمران، فالشَّأن مختلف؛ لأنَّها حديث عن أمر وقع، رأى منه المسلمون رأي العين كيف كانت عزَّة الله، وكيف كانت حكمته، فيكفي هنا أن يُذكر الله وعزته وحكمته ﴿ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ دون توكيد؛ إذ كان يعيش المسلمون مع الحدث الواقع الَّذي هو أثر من آثار عزَّة الله وحكمته[1].

دلالة لام التَّعليل على مُتعلَّقها:

تعليل القصر السَّابق، وإثبات العزَّة والحكمة لله ﷻ في أفعاله وتشريعاته

فقد اختلف أهل العلم في متعلَّق لام التَّعليل[2] في قوله تعالى: ﴿لِيَقْطَعَ طَرَفًا﴾، وَالَّذِي يَظْهَرُ أَنْ تَتَعَلَّقَ بِأَقْرَبِ مَذْكُورٍ، وهو: العامل في ﴿عِندِ ٱللَّهِ﴾، وَهُوَ خَبَرُ الْمُبْتَدَأِ، كَأَنَّ التَّقْدِيرَ: وَمَا النَّصْرُ إِلَّا كَائِنٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، لَا مِنْ عِنْدِ غَيْرِهِ، لِأَحَدِ أَمْرَيْنِ: إِمَّا قَطْعُ طَرَفٍ مِنَ الْكُفَّارِ بِقَتْلٍ وَأَسْرٍ، وَإِمَّا بِخِزْيٍ وَانْقِلَابٍ بِخَيْبَةٍ، وَتَكُونُ الْأَلِفُ وَاللَّامُ فِي النَّصْرِ لَيْسَتْ لِلْعَهْدِ فِي نَصْرٍ مَخْصُوصٍ، بَلْ هِيَ لِلْعُمُومِ، أَيْ: لَا يَكُونُ نَصْرٌ، أَيْ: نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ لِلْمُسْلِمِينَ عَلَى الْكُفَّارِ إِلَّا لأحد أمرين[3]، وفي هذا التَّعليل إثباتُ الحِكمة لله ﷻ في أفعاله وتشريعاته؛ لأنَّ اللَّام للتَّعليل، والتَّعليلُ هو الحكمة[4].

دلالة تخصيص قطع الطَّرف:

الدَّلالة على التَّوهين والإزالة بتنقيص الشَّيء

القطع في قوله: ﴿لِيَقْطَعَ﴾ هو الاستئصال والإهلاك، والطَّرف، قصد به الطَّائفة أو الجماعة، وتخصيص قطع الطَّرف من حيث إنَّ تنقيص طرف الشَّيء يتوصَّل به إلى توهينه وإزالته[5].

(1) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 2/578.
(2) على سبعة أوجه حرَّرها السَّمين، يُنظر الدّرّ المصون: 3/390.
(3) أبو حيَّان، البحر المحيط: 3/337.
(4) ابن عثيمين، تفسير ابن عثيمين، (سورة آل عمران): 2/113.
(5) الرَّاغب، المفردات: (طرف).

بلاغة استعارة لفظة ﴿طَرَفًا﴾ لطائفة من أشراف المشركين وكبرائهم:

بيان أنَّ الأطراف منازل الأشراف وأنَّ في إهلاكهم توهينًا لأتباعهم

يطلق الطَّرَف في الحقيقة على النَّاحية الَّتي هي مُنتهى المكان، وتسمية المقتولين طرفًا؛ لكونهم هم الَّذين كانوا يلون المؤمنين، فقتلوا، وفي ذلك يقول تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَـٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ [التوبة: 123]، والطَّرَف: هو جانب الشَّيء، وأخذه من أطرافه أسهل من أخذه من وسطه، والمقصود بالطَّرَف: أشراف المشركين وكبراؤهم، فلكونهم أشرافًا في أقوامهم، فقد تقدَّموهم، والأطراف منازل الأشراف، كما يقال، فكانوا أطرافهم ممَّا يلي المؤمنين، فوقع عليهم القطع المهلك، وهكذا كان في بدر، فقد قتل من صناديدهم سبعون، وأُسر آخرون مِثْلُهم من أتباعهم الَّذين لحقهم الخزي والمذلَّة بالأسر[1]، فالطَّرَف مُستعار هنا لأشراف المشركين، أي: ليقطع من جسم الشِّرك أهمَّ أعضائه، فيستأصل صناديد الَّذين كفروا[2]، فيضعف بذلك أتباعهم، ويعودوا بالذُّلِّ والخزي.

دلالة تنكير لفظة ﴿طَرَفًا﴾ في هذا المقام:

التَّفخيم لهذا الطَّرف المُمَثِّل في أشراف النَّاس وزعمائهم

ولا يخفى أن تنكير ﴿طَرَفًا﴾ قصد منه التَّفخيم، فهم طائفة غير عاديَّة بل من رؤوس القوم ومن كبار زعمائهم[3].

دلالة التَّبعيض بـ ﴿مِّنَ﴾ في القطع:

الإشـــارة إلى الحكمة في سُنَّة التَّدافع في هذه الدُّنيا

فقال: ﴿لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾، وليس كلَّ الَّذين كفَروا؛ لأنَّ مِن حِكمة اللّه أنْ يبقى الإيمانُ والكفر متصارعَينِ دائمًا؛ حتى يَتبيَّن المؤمنُ الخالصُ من غيره[4].

(1) الآلوسيُّ، روحُ المعاني: 2/264.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/78 - 79.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/78 - 79، والخنين، النظم القرآني:، ص: 115.
(4) ابن عثيمين، تفسير ابن عثيمين، (سورة آل عمران): 2/113.

فائدة التَّعبير بالموصول وصلته في وصف الكفار:

التَّنفير من الكفر وأهله وتجاهل أهـل الـكـفـر ونَبْذِهِمْ

اسم الموصول من أنواع المعارف، ويُؤتى به لأغراض بلاغيَّة دقيقة، منها: أنْ تُضَمَّنَ الصِّلَةُ العلَّة الَّتي يُبنى عليها الحكم بحيث يكون ما في حيِّز الصِّلة أصلًا وأساسًا ينبني عليه المعنى المذكور قبلها، فقد وقع القطع والهلاك على الكفَّار؛ لكونهم مقيمين على هذه الصِّفة، حيث قال تعالى: ﴿لِيَقۡطَعَ طَرَفٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾، فالعلَّة في قطع أولئك الأطراف هو كفرهم ومشاقتهم للّه ورسوله، كما بيَّن ذلك سبحانه في الأنفال، حيث قال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ١٣﴾ [الأنفال: 13]، وفي التَّعبير بالموصول تجاهلُ أولئك الأقوام وطيُّ ذكرهم، وكذا التَّنفير من تلك العلَّة الَّتي أهلكوا بسببها، وهي كفرهم وعدم استجابتهم لدعوة الرَّسول[1] ﷺ.

دلالة التَّعبير عن القطع والكبت بصيغة المضارع مع كونهما وقعا في الماضي:

استحضار صورة النَّصر العظيم في ذهن السَّامع

فهذا القطع والكبت قد مضيا يوم بدر قبل نزول هذه الآية بنحو سنتين، فالتَّعبير عنهما بصيغة المضارع؛ لقصد استحضار الحالة العجيبة في ذلك النَّصر المبين العزيز النَّظير[2]، وفيه أيضًا إشعار بأنَّ اللّه جلَّ ثناؤه الَّذي فعل ذلك بهم في بدر في ذلك الزَّمان قادر على أن يفعله بهم وبأمثالهم في أيِّ وقت كان[3].

سِرُّ التَّناسب بين ذكر الكبت والانقلاب بالخيبة:

بيان أنَّ نتيجة الـكـبـت هـو الرُّجوع بالخيبة والخسارة

فقوله: ﴿يَكۡبِتَهُمۡ﴾: يَصرَعهم لوجوهِهم، ويُهلِكهم، وَيُقَال: ﴿يَكۡبِتَهُمۡ﴾: يغيظهم، ويحزنهم، ويُصِيبهُمْ بِغَمٍّ وَكَمَدٍ، والأصل الجامع لمعاني الكبت: هو الْإِذْلَال وَالصَّرْف عَنِ الشَّيْءِ، يُقَالُ: كَبَتَ

(1) الخنين، النظم القرآني، ص: 116.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/79.
(3) الخنين، النظم القرآني، ص: 117.

اللَّهُ الْعَدُوَّ يَكْبِتُهُ؛ إِذَا صَرَفَهُ وَأَذَلَّهُ[1]، وهذا بعينه هو الَّذي وقع للكفَّار بسبب محادَّتهم لله ورسوله، وهذا هو السَّبب الجالب للكبت المستوجب له، كما قرَّره الله تعالى في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ كُبِتُواْ كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ وَقَدۡ أَنزَلۡنَآ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖۚ وَلِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٞ مُّهِينٞ ۝٥﴾ [المجادلة: 5]، وما حصل في بدر صورة واحدة من صور تلك السُّنَّة الماضية، ونتيجة الكبت معروفة، وهي الرجوع بالخيبة والنَّدامة، ولهذا ناسب أن تكون فاصلة الآية: ﴿فَيَنقَلِبُواْ خَآئِبِينَ﴾[2].

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الطُّمأنينة والسَّكينة:

الطمأنينة نهاية السَّكينة

الطُّمأنينة: هي السُّكون بعد الانزعاج[3]، يُقال: اطمأنَّ الشَّيء؛ إذا سكن، وطمأنتُه؛ إذا سكَّنْتُه، والطُّمأْنينة: سكون أَمْن فيه استراحة أُنس، والسَّكينة: صَولة تورث خُمود الهيبة أحيانًا[4].

فالسَّكينة تكون حينًا بعد حين، والطُّمأْنينة لا تفارق صاحبها[5]، ومن ثَمَّ تكون الطُّمأنينة موجب السَّكينة وأثرًا من آثارها، وكأنَّها نهاية السِّكينة[6].

وعليه فإنَّ الطُّمَأْنِينة والسَّكِينة كلٌّ منهما تستلزم الأُخرى، لكن استلزام الطُّمَأْنينة للسَّكينة أَقوى من العكس، والطُّمأنينة على درجات: أعلاها طُمَأْنينة القلب بذكر الله[7]، ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ۝٢٨﴾ [الرعد: 28].

(1) الرَّاغِبُ، المُفْرداتُ، وابن فارس، مقاييس اللغة: (كبت).
(2) الخنين، النظم القرآني، ص: 117
(3) الرَّاغِبُ، المفردات: (طمن).
(4) الهروي، منازل السائرين، ص: 85.
(5) الفيروزآبادي، بصائر ذوي التمييز: 3/517.
(6) ابن القيِّم، مدارج السَّالكين: 2/481.
(7) الفيروزآبادي، بصائر ذوي التمييز: 3/517.

الخيبة واليأس:

الْخَيْبَةُ: هِيَ الْحِرْمَانُ، وَالْفَرْقُ بَيْنَ الْخَيْبَةِ وَبَيْنَ الْيَأْسِ: أَنَّ الْخَيْبَةَ لَا تَكُونُ إِلَّا بَعْدَ التَّوَقُّعِ والأمل؛ لأنَّها امتناع نيل ما أمل، والخائب المنقطع عمَّا أمل[1]، وَأَمَّا الْيَأْسُ؛ فَإِنَّهُ قَدْ يَكُونُ بَعْدَ التَّوَقُّعِ والأمل وَقَبْلَهُ، فَنَقِيضُ الْيَأْسِ الرَّجَاءُ، ونقيض الخيبة الظَّفر[2].

الخيبة حرمان بعد توقُّع، واليأس يكون قبل التوقُّع وبعده

(1) العسكريُّ، الفروق اللغويَّة، ص: 435.

(2) الرّازي، مفاتيح الغيب: 8/355.

﴿لَيۡسَ لَكَ مِنَ ٱلۡأَمۡرِ شَيۡءٌ أَوۡ يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡ أَوۡ يُعَذِّبَهُمۡ فَإِنَّهُمۡ ظَٰلِمُونَ ١٢٨﴾ [آل عمران: 128]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

تحقيق عدم تأثير المنصورين بعد تحقيق عدم تأثير النَّاصرين

لمَّا ذكر اللّٰه سبحانه وتعالى أنَّ مظاهر النَّصر القَطْعُ والكبْت، وكان من مظانِّ أن يكونَ فيه لرسول اللّٰه ﷺ ولسائر مُباشري القتالِ مَدْخَلٌ فيه على وجه الاستقلال، قال مُبَيِّنًا أنَّ الأمر كلَّه للّٰه، فيتولَّى هو عذابهم، أو التَّوبة عليهم: ﴿لَيۡسَ لَكَ مِنَ ٱلۡأَمۡرِ شَيۡءٌ﴾، لتحقيق أن لا تأثير للمنصورين، وهم المؤمنون، إثرَ بيانِ أن لا تأثيرَ للنَّاصرين، وهم المدد الملائكيُّ[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡ﴾: يقبل توبتهم، ويرجع بهم من المعصية إلى الطَّاعة، وأصل التَّوبة يدلُّ على الرُّجُوعِ، يُقَالُ: تَابَ مِنْ ذَنْبِهِ، أَيْ: رَجَعَ عَنْهُ، يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً وَمَتَابًا، فَهُوَ تَائِبٌ، والتَّوبة من اللّٰه على عباده: الرُّجوع بهم من المعصية إلى الطَّاعة، والتَّوبة من العبد: ترك الذَّنب على أجمل الوجوه، وهو أبلغ وجوه الاعتذار، والتَّوبة من اللّٰه على عبده قبولها منه، والتَّائب: يقال لباذل التَّوبة ولقابلها، فالعبد تائب إلى اللّٰه، واللّٰه تائب على عبده، والمعنى هنا: يرجع بهم من المعصية إلى الطَّاعة، فيسلموا[2].

2) ﴿أَوۡ يُعَذِّبَهُمۡ﴾: العذاب: هو الإيجاع الشَّديد، وأصله من المنع، وسمِّيت العقوبة والإيلام: عذابًا باعتبار منعها من معاودة ما عوقب عليه، وقيل: أصل العذاب: الضَّرب، ثمّ استعير ذلك في كلِّ شدَّةٍ، ومنه النَّكال والعقوبة[3].

(1) أبو السُّعودِ، إرْشادُ العَقْلِ السَّليمِ: 2/82، والبِقاعيُّ، نَظْمُ الدُّرَر: 5/60.
(2) الرَّاغِبُ، المُفْرداتُ، وابن فارس، مقاييس اللغة: (توب).
(3) الرَّاغِبُ، المفردات: (عذب)، وحسن المصطفوي، التَّحقيق في كلمات القرآن: 8/68.

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

ليس لك من التَّصرُّف - أيُّها الرَّسول ﷺ - في أمر عبادي شيء، بل الأمر للّه، فاصبر إلى أن يقضي اللّه بينكم، أو يوفِّقهم للتَّوبة، فيسلموا، أو يستمرُّوا على كفرهم، فيعذِّبهم، فإنَّهم ظالمون مستحقُّون العذاب[1].

ليس للمخلوقين من التَّصرُّف في أمر الله في شيء، فالخلق خلقه والأمر أمره

الإِيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالة الاعتراض بين المعطوفات:

وقوله تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ﴾ جملة معترضة وقعت وسطًا بين المعطوف عليه المتعلَّق بالعاجل، وهو القطع والكبت، والمعطوف المتعلَّق بالآجل، وهو أمر توبة اللّه عليهم أو تعذيبهم، ومن أغراض هذا الاعتراض: كشف الأمر في حقيقة ما حصل من النَّصر يوم بدر: بأنَّه لا تأثير للمنصورين في ذلك، وهم المؤمنون بعد بيان أن لا تأثير للمدد، وهم الملائكة في النَّصر بدليل قوله تعالى: ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ﴾.

بيان أنَّ النَّصر حاصل بمحض فضل من الله، فلا تأثير لغيره فيه عاجلًا أو آجلًا

فَالنَّصْرُ حَصَلَ بِمَحْضِ فَضْلِ اللَّهِ عَلَى الْمُسْلِمِينَ، ويؤيِّد ذلك قوله تعالى في سورة الأنفال: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ۚ وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾﴾ [الأنفال: 17]، فخُصَّ الاعتراضُ بموقعه؛ لأنَّ ما قبله من القطع والكبْتِ من مظانِّ أن يكونَ فيه لرسول اللّه ﷺ ولسائر مُباشري القتالِ مدخَلٌ في الجملة[2].

بديع الالتفات بتوجيه الخطاب لرسول الله ﷺ وتخصيصه به:

إنَّما خوطب الرَّسول ﷺ بالنَّفي التفاتًا إليه على سبيل التَّكريم

بيان أنَّ الشَّأن إذا لم يكن للنَّبيِّ ﷺ فإنَّ غيره من باب أولى

(1) لجنة من علماء الأزهر، المنتخب في تفسير القرآن الكريم، ص: 91، ونخبة من أساتذة التفسير، التفسير الميسر، ص: 66.

(2) أبو السُّعودِ، إرْشادُ العَقْلِ السَّليمِ: 2/82، والآلوسيُّ، روحُ المعاني: 2/264، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/79.

له، فقد كُفِيَ أَمْرهُم بالعزيز الحكيم، هذا من وجه، كما أنَّ في الالتفات تبيانًا له وللمؤمنين بأنَّ ذلك الشَّأن إذا لم يكن للنَّبيِّ ﷺ فإنَّ غيره من باب أولى ألَّا يكون له فيه افتراض أو اعتراض[1]، واللَّام في ﴿لَكَ﴾ لام الملك، أي: لا يملك ذلك أنت ولا غيرك.

دلالة اللَّام في لفظة ﴿ٱلْأَمْرِ﴾ المنفيّ:

بيان أنَّ جميع الأمور بيد الله تعالى وحده

فلفظ ﴿ٱلْأَمْرِ﴾ في الآية معناه: الشَّأن، و(أل) فيه للعهد، أي: من الشَّأن الَّذي عرفتموه، وهو النَّصر، وقد يحمل ﴿ٱلْأَمْرِ﴾ في الآية بأنَّه الشَّأن بشكل عام، ويدخل فيه النَّصر دخولًا أوَّليًّا، ويندرج فيه ما ذُكِرَ في الآية من القطع أو الكبت أو التَّوبة أو التَّعذيب، فكلُّ ذلك ليس للنَّبي ﷺ ولا لغيره فيه شيء، بل إنَّ الشَّأن في ذلك وفي غيره لله تعالى، كما قال سبحانه: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ﴾ [آل عمران: 154]، (أل) في ﴿ٱلْأَمْرِ﴾ لاستغراق أجناسه، فإنَّ ذلك موكول إلى الله وحده[2].

سِرُّ إدراج ذكر التَّوبة والتَّعذيب في معرض ذكر عِلَلَ النَّصر وغاياته:

بيان أنَّ تحقُّق التَّوبة فرع معرفتهم بالدِّين بعد ظهوره وانتصاره، وأنَّ التَّعذيب فرع جحودهم بعد ذلك

نظمُ التّوبةِ والتَّعذيبِ المذكورَيْن في سلك العلَّة الغائبة للنَّصر المترتِّبةِ عليه في الوجود من حيث إنَّ قبولَ توبتِهم فرْعُ تحقُّقِها النَّاشئ من علمهم بأحقيَّة الإسلامِ بسبب غَلَبَةِ أهلِه المترتِّبةِ على النَّصر، وأنَّ تعذيبَهم بالعذاب المذكورِ مترتِّبٌ على إصرارهم على الكفر بعد تبيُّنِ الحقِّ على الوجه المذكورِ، كما ينبئ عن ذلك قوله تعالى في سورة الأنفال: ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ﴾ [الأنفال: 42][3].

دلالة التَّنكير في لفظة شيء:

ولا يخفى أنَّ تنكير ﴿شَيْءٌ﴾، ونظمها في سياق النَّفي يفيد

(1) أبو السُّعودِ، إرْشادُ العَقْلِ السَّليمِ: 2/82، والآلوسيُّ، روحُ المعاني: 2/264.
(2) الخنين، النظم القرآني، ص: 117.
(3) الآلوسيُّ، روحُ المعاني: 2/266.

العموم؛ ويدخل في ذلك صغائر الأمور وكبائرها، دقيقها وجليلها، فإنَّ من كمال العقيدة وتمام الأدب مع الله ﷻ إسناد الأمور إلى الله تعالى، والرِّضا بما قضى فيها سواء أجاء على ما يتمنَّى العبد أم على خلاف أمنيته، وذلك كلُّه بعد فعل الأسباب المطلوبة في كلِّ أمر على حسبه[1].

إفادة العموم لجميع الأمور دقيقها وجليلها

السِّرُّ في تعدُّد التَّأكيدات في الحكم عليهم بالظُّلم:

لمَّا ذكر تعذيبهم؛ ناسب أن يختم الآية بعلَّة ذلك التَّعذيب، فقال: ﴿فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾، فأكّد استحقاقهم للعذاب وظُلْمَهُمْ بعدَّة مؤكِّدات، منها: الجملة الاسميَّة، وهذا يفيد أنَّ ظلمهم ثابت مستقرٌّ مرئيٌّ مشاهد لا مجال لتأويله أو تحمُّله، وإدخال (إِنَّ) المُثَقَّلَةِ لتأكيد الظُّلم الذي تضمَّنته الجملة، وإيقاع التَّوكيد على ضميرهم، وتخصيصهم به وإسناده إليهم، وفي ذلك زيادة تمحُّضهم في الظُّلم وانتصابهم له، مع الإخبار عن ذلك الظُّلم بصيغة اسم الفاعل، وهو من أقوى صيغ التَّعبير؛ تنبيهًا إلى أنَّ ظلمهم وتعدِّيهم قد بلغ مبلغًا لا يمكن السُّكوت عنه، فالعذاب إذا وقع عليهم؛ كان جزاء وفاقًا، فالله سبحانه وتعالى لا يُعذِّب إلَّا بذنب؛ لقوله: ﴿فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾، والظَّالم مُستحِقٌّ لأنْ يُنكِّل الله به؛ لأنَّ الله سبحانه وتعالى لا يُحِبُّ الظُّلم[2].

تعليل تعذيبهم بجمع دلائل الظُّلم الموجبة لذلك

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الأمر والشَّأن:

جاء (الأمر) بمعنى: الوعد، ومنه قوله تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ [النَّحل: 1]، وجاء الأمر في القرآن بمعنى: الدِّين، ومنه قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ [التَّوبة: 48]، يعني: دين الله الإسلام، ويجيء أيضًا بمعنى: الشَّأن والفعل، ومنه قوله تعالى:

الأمر أعمُّ من الشَّأن، والشَّأن ما عَظُمَ من الأمور

(1) الخنين، النظم القرآني، ص: 118.

(2) ابن عثيمين، تفسير ابن عثيمين (سورة آل عمران): 2/118، والخنين، النظم القرآني، ص: 119.

﴿وَمَآ أَمۡرُ فِرۡعَوۡنَ بِرَشِيدٖ ٩٧﴾ [هود: 97]، أي: وما فعل فرعون وشأنه برشيد، ويجيء بمعنى: الحساب، ومنه قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ﴾ [إبراهيم: 22]، ولا يقتصر لفظ (الأمر) في القرآن على المعاني السَّابقة، بل قد يأتي على معانٍ أُخر، يحدِّدها السِّياق والموضوع، أمَّا الشَّأن؛ فهو الأمر الَّذي يتَّفق، ويصلح، فلا يقال إلَّا فيما يعظم من الأحوال والأمور، فهو أمر مهمٌّ، له آثارُه البعيدة، ويؤيِّده قوله تعالى: ﴿يَسۡـَٔلُهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ كُلَّ يَوۡمٍ هُوَ فِي شَأۡنٖ ٢٩﴾ [الرحمن: 29][1].

(1) الرَّاغِبُ، المُفْرداتُ، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (شأن)، والعسكريُّ، الفروق اللُّغويَّة، ص: 291.

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ يَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ١٢٩﴾ [آل عمران: 129]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

بيان تمام الملك لله بعد بيان تمام الأمر له

لَمَّا كان التَّقدير: بل الأمر له سُبحانه وحده عَطَفَ عليه قوله: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ مبيِّنًا قدرته على ما قدَّم من فعله بهم على وجهٍ أعمَّ[1]، فلما قدَّم ﴿لَيۡسَ لَكَ مِنَ ٱلۡأَمۡرِ شَيۡءٌ﴾؛ بيَّن هنا أنَّ الأمور إنَّما هي لمن له الملك[2]، فبيَّن في هذه الآية الحُجَّة السَّاطعة في ذلك، وهي ملكه سبحانه للأشياء، فذلك يقتضي أن يفعل في ملكه ما يشاء، لا اعتراض عليه، ولا مُعقِّب لحكمه، يفعل ذلك لحكمة يُقدِّرها بحسب مشيئته سبحانه[3].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَغۡفِرُ﴾: الغفر: السَّتر، تَقول: غفرت كَذَا؛ إذا سترته، وَمِنْه قيل لجُنَّة الرَّأس: مغفر؛ لِأَنَّهُ يغْفر الرَّأس، وأصل الغفْر: السَّتر والتَّغطية، وَغفر اللّه ذنوبَه، أَي: سَترها، وَلم يَفْضَحهُ بهَا على رُؤُوس المَلأ[4].

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

للّه وحده ما في السَّماوات وما في الأرض خَلْقًا ومُلكًا وتدبيرًا، يغفر الذُّنوب لمن يشاء من عباده برحمته، ويُعذِّب من يشاء بعدله، واللّه غفور لمن تاب من عباده، رحيم بهم[5].

(1) البِقاعيُّ، نَظْمُ الدُّرَرِ: 5/61.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 3/339.
(3) ابن عطية، المحرر الوجيز: 1/506.
(4) الأزهري، تهذيب اللغة، والرَّاغِبُ، المفردات: (غفر)، وابن قتيبة، غريب الحديث: 1/212.
(5) لجنة من علماء الأزهر، المنتخب في تفسير القرآن الكريم، ص: 91، ونخبة من أساتذة التفسير، التفسير الميسر، ص: 66.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالة الاستئناف بعد ذكر التَّوبة والتَّعذيب:

تفصيل وبيان لما أجمل في الاعتراض المتقدِّم

فقوله: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۚ﴾: كلامٌ مستأنفٌ سيق لبيان اختصاصِ ملكوتِ كلِّ الكائناتِ به ﷻ إثرَ بيانِ اختصاصِ طرَفٍ من ذلك به سبحانه؛ تقريرًا لما سبق وتكملةً له[1]، وهو تَذْيِيلٌ لِقَوْلِهِ: ﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ﴾ مُشِيرٌ إِلَى أَنَّ هَذَيْنِ الْحَالين على التَّوْزِيع بَيْنَ الْمُشْرِكِينَ، فلَمَّا كَانَ مَظِنَّةَ التَّطَلُّعِ لِمَعْرِفَةِ تَخْصِيصِ فَرِيقٍ دُونَ فَرِيقٍ، أَوْ تَعْمِيمِ الْعَذَابِ؛ ذَيَّلَهُ بِالْحِوَالَةِ عَلَى إِجْمَالِ حَضْرَةِ الْإِطْلَاقِ الْإِلَهِيَّةِ؛ لِأَنَّ أَسْرَارَ تَخْصِيصِ كُلِّ أَحَدٍ بِمَا يُعَيَّنُ لَهُ، أَسْرَارٌ خَفِيَّةٌ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا اللَّهُ تَعَالَى[2].

فهذه الآية تفصيل وبيان لما أجمل في الاعتراض المتقدِّم في الآية السابقة: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾، وهي أيضًا تعليل لذلك الاعتراض المتضمِّن اختصاص الله ﷻ بالشَّأن كلِّه، فلمَّا قدَّم ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾؛ بيَّن أنَّ الأمور إنَّما هي لمن له الملك، فجاء بهذه الجملة مؤكِّدة للجملة السَّابقة[3].

معنى اللَّامِ في الاسم الأحسن ﴿وَلِلَّهِ﴾:

إفادةُ الملك والاختصاصِ تأكيدًا للجملة السَّابقة

واللَّام في الاسم الأحسن للملكِ والاختصاصِ، فهُوَ الْمُنْشِئُ الْخَالِقُ، فَصِفَةُ الْمُلْكِ تَدُلُّ عَلَى الْقُدْرَةِ الْبَاهِرَةِ[4]، فالخلق كلُّهم عبيده وإماؤُه، وهو خالقُهم ورازقُهم، وحكمُه نافذٌ فيهم، وفي كلِّ شيءٍ دلالةُ ربوبيَّته ووحدانيَّته، وهو وحدَه المُستَحِقُّ للعبادةِ؛ لأنَّه المالكُ المدبِّرُ لكلِّ ما في السَّماوات وما في الأرض[5].

(1) أبو السُّعودِ، إرْشادُ العَقْلِ السَّليم: 2/84.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/84.
(3) أبو حيَّان، البحر المحيط: 3/339.
(4) أبو حَيّانَ، البَحْرُ المُحيطُ: 2/750.
(5) الماورديُّ، النُّكت والعيون: 1/360.

وقد أكدَّ معنى الاختصاصِ بتقديمِ الجارِّ والمجرور ﴿وَلِلَّهِ﴾ الَّذي يُفيد القصر[1]، فَهِيَ للّه خَلْقًا ومُلْكًا[2]، لا لغيره أصلًا، لا استقلالًا ولا اشتراكًا، وَأَكَّدَهُ أيضا بالتَّكْرَارِ في قَوْلِهِ: ﴿وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۚ﴾ فكَرَّرَ: ﴿مَا﴾ تفصيلًا وتَنْبِيهًا وَتَوْكِيدًا[3]، وبالطِّباق بَيْنَ لَفْظَتَي ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ و﴿ٱلْأَرْضِۚ﴾.

إظهار الاسم الجليل في مقام البيان والتَّعليل:

مناسبة إظهار الاسم الجليل لذكر أعظم المخلوقات

وإظهار علميَّة الاسم الأحسن دون ضميره؛ لأنَّ المقام يقتضيه، فقد ذكر في الآية العقلاء وغيرهم، وبرز اسم السَّماوات مجموعة ممَّا يزيد في عظمتها، وكذا الأرض، وما يعيش على ظهرها، فالمقام مقام ذكر المخلوقات العظيمة، فناسب ذكر الخالق العظيم - جلَّ اسمه - بأعظم أسمائه وأعرفها، وهو لفظ الجلالة الَّذي كلُّ المخلوقات تألهه، وترنو إليه، وتخرُّ ساجدة لعظمته، وفي ذلك أيضًا تربية للمهابة في قلوب العباد[4].

دلالةُ التَّغليبِ في استعمالِ الأدواتِ:

استعمالُ (ما) الَّتي لغير العاقِلِ تَغْليبًا في وصف المخلوقات

جَاءَ بِلَفْظِ: ﴿مَا﴾ الموصوليَّة تَغْلِيبًا لِمَا لَا يَعْقِلُ عَلَى مَنْ يَعْقِلُ؛ لِأَنَّ الْغَالِبَ فِيمَا حَوَتْهُ، إِنَّمَا هُوَ جَمَادٌ وَحَيَوَانٌ، لَا يَعْقِلُ، وَأَجْنَاسُ ذَلِكَ كَثِيرَةٌ، وَأَمَّا الْعَاقِلُ؛ فَأَجْنَاسُهُ قَلِيلَةٌ؛ إِذْ هِيَ ثَلَاثَةٌ: إِنْسٌ وَجِنٌّ وَمَلَائِكَةٌ[5]، وانفراد اللّه بذلك، فكلمةُ ﴿مَا﴾ من صيغ العُمُوم شاملةٌ للعقلاء أيضًا تغليبًا، أي: له مَا فِيهِمَا مِنَ الموجوداتِ خَلْقًا ومُلكًا لا مدخَلَ فيه لأحد أصلًا، فله الأمرُ كلُّه[6].

(1) أَبو السُّعودِ، إِرْشادُ العَقْلِ السَّليمِ: 2/84.
(2) البَيْضاويُّ، أَنْوارُ التَّنْزيلِ: 1/165، والقونْويُّ، حاشيةُ القونْويِّ: 5/494.
(3) أَبو حَيّانَ، البَحْرُ المُحيطُ: 2/767.
(4) الخنين، النظم القرآني، ص: 120.
(5) أَبو حَيّانَ، البَحْرُ المُحيطُ: 2/750، وابن عطية، المحرر الوجيز: 1/389.
(6) أَبو السُّعودِ، إِرْشادُ العَقْلِ السَّليمِ: 2/84.

واستعمال ﴿فِي﴾ الظرفيَّة وإدخالها في السَّماوات والأرض للإشعار بأنَّ السَّماوات والأرض ظرف لتلك المخلوقات، وأنَّه لم يعد شيء منها خارجًا عنها؛ ولذلك فجميعها في ملك اللّه وتحت مشيئته[1].

توجيه المخصوصِ بالذِّكرِ:

عمومُ ملكِ الله لكلِّ ما يظنُّ الإنسانُ قدرتَه على تملُّكِه

وَخَصَّ السَّماوات وَالْأَرْض بالذِّكر من بَيْنِ المخلوقات؛ لِأَنَّهَا أَعْظَمُ مَا يُرَى مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ، وَقَدَّمَ السَّماوات لِعِظَمِهَا[2]، ولأنَّها تعمُّ كلَّ ما فيه مَظِنَّةُ تملُّكٍ للإنسانِ.

دلالة الفصل بعد ذكر الملك:

بيان أنَّ تصرُّفاته تعالى على وفق مشيئته

وفصل جملة: ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ﴾ عمَّا قبلها؛ لكونها وقعت جوابًا عن سؤال ناشئ عن الجملة السَّابقة، فإنَّه لما قيل: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۚ﴾ استفهم عن شأن مَنْ هذه صفته، فقيل: ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ﴾، فأتى بهذه الجملة موضِّحة أنَّ تصرُّفاته تعالى على وفق مشيئته[3]، يفعل في ملكه ما يشاء، فلا رادَّ لقضائه ولا معقِّب لحكمه.

بديع عطف التَّعذيب على المغفرة في صورة المطابقة:

بيان اتِّحادهما في المصدر الجامع بينهما

أمَّا قرن جملة التَّعذيب بجملة المغفرة وعطفها عليها؛ فلما بينهما من المغايرة، فالمغفرة على الضِّدِّ من العذاب، ولكنَّ الجامع بينهما: هو اتِّحاد المسند إليه، وهو اللّه سبحانه، بالإضافة إلى مراعاة المطابقة بين لفظتي ﴿يَغْفِرُ﴾ و﴿وَيُعَذِّبُ﴾ الَّتي أعطت المعنى قوَّة وجمالًا لوقوع كِلْتَيْهِما من الرَّبِّ العظيم القادر الَّذي يفعل في ملكه مايشاء، ويحكم مايريد، ولذلك حسن العاطف هنا[4].

(1) الخنين، النظم القرآني، ص: 121.
(2) أَبو حَيّانَ، البَحْرُ المُحيطُ: 2/750.
(3) أَبو حَيّانَ، البَحْرُ المُحيط: 3/339.
(4) الخنين، النظم القرآني، ص: 121.

سِرُّ اختيار (مَنْ) دون (ما) في مقام المغفرة والتَّعذيب:

اختصاص المغفرة والتَّعذيب بالعقلاء

وإيثار لفظة (مَنْ) في قوله تعالى: ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۚ﴾ في الموضعين دون (ما) لاختصاص المغفرة والتَّعذيب بالعقلاء، فهم الَّذين يجري في حقِّهم ذلك[1].

تقديم فعل المغفرة على فعل التَّعذيب:

بيان تناسب كلٍّ منها في الذِّكر مع ماسبقه، والإشعار بأسبقيَّة رحمة الله على عذابه

قدَّم ذكر المغفرة على التَّعذيب للتَّناسب مع الآية السَّابقة حيث قُدِّمت التَّوبة على التَّعذيب في قوله: ﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ﴾، فلمَّا تقدَّم قوله: ﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ﴾؛ ناسب البداءة بالغفران والإرداف بالعذاب، ولم يشترط في الغُفران هذه التَّوبة؛ إذ يغفر تعالى لمن يشاء من تائب وغير تائب ماعدا ما استثناه تعالى من الشِّرك[2]، وقُدِّمت المغفرة بالذِّكر أيضًا للإشعار بأنَّ رحمته سبحانه قد سبقت عذابه، وأنَّها قد وسعت كلَّ شيء[3].

توجيه المُتشابه اللَّفظي في تقديم العذاب على المغفرة في الآية الأربعين من هذه السُّورة:

بيان أنَّ عذاب السَّارق والسَّارقة واقع في الدُّنيا جزاء على فعلهما

فقد سبق موضع آخر في هذه السُّورة الكريمة، قُدِّم فيه ذكرُ العذاب على المغفرة، وهو قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝٤٠﴾ [المائدة: 40]، وتوجيه ذلك أنَّه تَقَدَّمها حَدِيثٌ عن حكم الحِرَابَةِ في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِي ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوْ يُصَلَّبُوٓاْ﴾ [المائدة: 33]، وفي حُكْمِ السَّارق والسَّارقة: ﴿فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا﴾ [المائدة: 38]، كان من المُلائم تقديمُ العذاب على المغفرة في هذا السِّياق؛ لأنَّ عذاب السَّارق

(1) أبو السُّعودِ، إرْشادُ العَقْلِ السَّليمِ: 2/84.
(2) أبو حَيّانَ، البَحْرُ المُحيطُ: 3/339.
(3) الخنين، النظم القرآني، ص: 121.

والسَّارقة يقع في الدُّنيا جَزَاءً على فِعْلِهما، ثُمَّ ذَكَرَ المغفرة لهما؛ إن تابا[1].

دلالة التَّذييل بذكر وصف المغفرة والرَّحمة وتأكيده:

تقرير مضمون ما قبله من الاعتناء بشأن الرَّحمة إطماعًا في التَّوبة ودعوة إلى سلوك مسالك الرَّحمة

قوله: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ تذييلٌ مُقرِّرٌ لمضمونِ قولِه تعالى: ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ﴾، وقد أكَّد هذا التَّقرير بعدَّة مؤكِّدات، منها: إظهار لفظ الجلالة مرَّة أخرى، واسميَّة الجملة، ومجيء صيغة ﴿غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ على وزني: فعول وفعيل، المفيدَيْن المبالغةَ بالوصف المذكور[2]، وفي تخصيصِ التَّذييلِ بهذين الوصفين دون قرينةٍ اعتناءٌ بشأن المغفرةِ والرَّحمة[3]، في حين أنَّ جانب العذاب قد تُرك، وسُكت عنه، واكتفي بما تقدَّم، وفي ذلك إطماع بالإسلام لمن ضلَّ وجانب الهدى، كما أنَّ فيه حدودًا للفسَّاق وسوقًا لهم إلى أبواب التَّوبة والإنابة قبل أن تُغلق دونهم، ولات ساعة مندم[4].

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

العفْو والمغفرة:

الغفران ينبئ عن السَّتر، والعفو ينبئ عن المحو، وهو أبلغ

العفو: إسقاط العذاب وترك العقاب على الذَّنب، فكلُّ من اسْتحقَّ عُقُوبَة، فَتَرَكْتَهَا؛ فقد عَفَوْتَ عنه[5]، والمغفرة: تغطية الذَّنب، وسَتْرُهُ بإيجاب المثوبة صونًا له عن عذاب الخِزْيِ والفَضيحَةِ، ولا يسْتَحقُّ الغفران إِلَّا الْمُؤمنُ الْمُسْتَحِقُّ للثَّواب، وَالعَفْوُ قد يكون قبل العقُوبَة، وَقد يكون بعْدهَا، بِخِلَاف الغُفْرانِ: فَإِنَّهُ لَا يكون مَعَه عُقُوبَة الْبَتَّةَ، وَلَا يُوصف بِالعَفو إِلَّا الْقَادِرُ على ضِدّهِ[6].

(1) ابْنُ الزُّبَيْرِ، ملاكُ التَّأْويلِ: 1/74، والكرماني، أسرار التَّكرار في القرآن، ص: 87.
(2) الدّبل، دليل البلاغة القرآنيّة: 1/542.
(3) أَبو السُّعودِ، إِرْشادُ العَقْلِ السَّليمِ: 2/84، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/83.
(4) الخنين، النظم القرآني، ص: 122.
(5) الكَفَوِيُّ، الكُلِّياتُ، ص: 598.
(6) العَسْكَرِيُّ، الفُروقُ اللُّغَويَةُ، ص: 235، والكَفَوِيُّ، الكُلِّياتُ، ص: 632.

فالغفران: ينبئ عن السَّتر، والعفو: ينبئ عن المحو، وهو أَبْلَغُ من السَّتْرِ، لأَنَّ السَّتر للشَّيءِ قد يحصل مع إبقاءِ أصله، بخلاف المحو؛ فإنَّه يُزالُ جُمْلَةً ورَأْسًا[1].

العَذاب والعِقاب:

العِقَاب: يُنْبِئُ عَنِ اسْتِحقاقٍ، وَسُمِّيَ بِذلِكَ؛ لِأَنَّ الفاعِلَ يَسْتَحِقُّهُ عَقِيْبَ فِعْلِه، وَيَجوزُ أَنْ يَكونَ العَذابُ مُسْتَحَقًّا وغَيْرَ مُسْتَحَقٍّ، فَالْعِقابُ يَقْتَضي بِظاهِرِهِ الجَزاءَ عَلى فِعْلَةِ المُعَاقَبِ عَقِبَ فِعْلِهِ، والعَذابُ لَيْسَ كَذلِكَ، فَبَيْنَهُما عُمومٌ وخُصوصٌ[2].

العِقَاب يُنْبِئُ عَنِ اسْتِحقاقٍ، والعذاب لا يقتضي ذلك

(1) الغَزالي، المَقْصَدُ الأَسْنى، ص: 140.
(2) العَسْكَرِيُّ، الفُروقُ اللُّغَوِيَّةُ، ص: 364.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضۡعَٰفٗا مُّضَٰعَفَةٗۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ١٣٠ وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِيٓ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ ١٣١ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ١٣٢﴾ [آل عمران: 130 - 132]

مُناسَبَةُ الآيَاتِ لِمَا قَبْلَها:

الأمـــر بتقوى الله في الأموال وطـاعـتـه في جميع الأحوال، بعد ذكر تقواه في الـجـهـاد والصَّبر والقتال

وجْهُ الاتِّصالِ بين هذه الآياتِ وما قَبْلَها: أنَّ ما قَبْلَها في بيانِ أنَّ الله نصَرَ المؤمنين، وهم أذلَّةٌ، وأنَّهم إنَّما نُصِروا بتقوى اللهِ وامتثالِ الأمْرِ والنَّهي؛ ولذلك خُذِلوا في أُحُدٍ عند المخالفةِ والطَّمعِ في الغنيمةِ، فحثَّهم اللهُ تعالى في هذه الآيةِ على بَذْلِ المالِ في سبيلِ اللهِ، كالدِّفاعِ عن المِلَّةِ والأُمَّة، والتَّنفيرِ عن الطَّمع فيه، وشرُّه أكْلُ الرِّبا أضعافًا مُضاعفةً؛ لذا ذُكِر في أوَّلِ الكلامِ في هذه الغزوةِ شيءٌ يتعلَّقُ بالمالِ وإنفاقِه، وفي آخِرِها شيءٌ يَتعلَّقُ بذلك[1]، وأيضًا فإنَّه لَمَّا تقدَّم وعْدُ الله تعالى للمؤمنين، بأنَّهم إنْ صبَروا، واتَّقوا؛ نَصَرهم على أعدائِهم، فكأنَّ النُّفوسَ اشتاقتْ إلى معرفةِ خِصالِ التَّقوى الَّتي يَحصُل بها النَّصرُ والفلاحُ والسَّعادة، فذكَر اللهُ في هذه الآياتِ أهمَّ خِصالِ التَّقوى الَّتي إذا قام العبدُ بها؛ فقيامُه بغيرها من باب أَوْلى وأَحْرى، فنهاهم أوَّلًا عن أكْلِ الرِّبا أضعافًا مُضاعَفة، ثم توالتْ بعد ذلك الأوامرُ الأخرى الَّتي مَن امتَثَلها، فإنَّه يُحقِّق التَّقوى[2]، فناسَب اعتراضَ هذه الجملةِ هنا أنَّه تعالى وعَدَ المؤمنين بالنَّصرِ والإمدادِ مَقرونًا بالصَّبرِ والتَّقوى، فبدأَ بالأهمِّ منها، وهو: ما كانوا يَتعاطَوْنه من أكْلِ الأموالِ بالباطلِ، وأمَر بالتَّقوى، ثُمَّ بالطَّاعة[3].

(1) رضا، تَفْسيرُ المنارِ: 4/101.
(2) السِّعْدي، تَيْسيرُ الكَريمِ الرَّحْمنِ، ص: 148.
(3) أَبو حَيّانَ، البَحْرُ المُحيطُ: 3/340.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلرِّبَوٰٓاْ﴾: أَصْلُ الرِّبا: الزِّيادة، يُقالُ: رَبا يَرْبو، ومِنْهُ قَوْلُه تعالى: ﴿ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡ﴾ [الحج: 5]، أَيْ: زادَتْ، وانْتَفَخَتْ، وكلُّ شَيْءٍ ارْتَفَعَ، أَوْ زادَ؛ فَقَدْ رَبَا،[1] ومعناه في الشَّرع: أَنْ يُعْطِيَ المَدِينُ مَالًا لِدائِنِهِ زائِدًا عَلَى قَدْرِ الدَّيْنِ لِأَجْلِ الانْتِظارِ، فَإِذا حَلَّ الأَجَلُ، وَلَمْ يَدْفَعْ؛ زادَ في الدَّيْنِ[2].

2) ﴿أَضۡعَٰفٗا مُّضَٰعَفَةٗۖ﴾: الضِّعف: زيادة الشَّيء بمثل، وأصل الضِّعف يدُلُّ على أن يزاد الشَّيءُ مِثلَه، يقال: أضعفت الشَّيءَ إضعافًا، وضعَّفتُهُ تضعيفًا، وضاعَفتُهُ مُضاعَفة، وهو أن يُزادَ على أصل الشَّيء، فيُجعلَ مثلين أو أكثر، وضَعَفْتُ القومَ أَضْعُفُهُمْ ضَعْفًا؛ إذا كَثَّرْتُهُمْ[3].

3) ﴿تُفۡلِحُونَ﴾: تفوزون وتظفرون بالبغية، من الفلاح: وهو الفَوْزُ بِمَا يُغتبَطُ به، وفِيهِ صلاحُ الحالِ، ويقال: أفلح؛ إذا أدرك مطلوبَهُ، ويأتي الفلاح بمعنى: البقاء في الخَيْرِ، وأصل فلح: يدلُّ على فَوْزٍ وَبَقَاءٍ، فالْفَلَاح: هو الفوزُ وإدراكُ الخَيْرِ، ثُمَّ البقاءُ فِيه، فالفلاحُ: اسمٌ جامعٌ لخَيْرَيِ الدُّنيا والآخرة؛ ولذا جعَلَ الرَّاغبُ الفلاحَ ضَرْبَيْنِ: دنيويًّا وأُخْرَوِيًّا[4].

4) ﴿أُعِدَّتۡ﴾: أَعْتَدَ الشَّيءَ: أعَدَّه، وَأَصْلُهُ: أَعدَدَ، أُبْدِلَتِ الدَّالُ تاءً[5]، والعَتادُ والعُدَّةُ: ادِّخارُ الشَّيءِ قَبْلَ الحاجَةِ إِلَيْهِ، كالإِعْدادِ[6]، وأَصْلُ (عَتَدَ): يَدُلُّ على حُضورٍ وقُرْبٍ[7]، والمعْنى هُنا: هُيِّئَت[8].

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

يا أيُّها الَّذين صدَّقوا اللّه ورسوله، وعملوا بشرعه؛ تجنَّبوا أخذ الرِّبا زيادة مضاعفة على رؤوس أموالكم الَّتي أقرضتموها، كما يفعل أهل الجاهليَّة، واتَّقوا اللّه بامتثال أوامره

(1) ابْنُ قُتَيْبَةَ، غَريبُ القُرْآنِ ص: 297، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (ربو، ربى).
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/79.
(3) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة: (ضعف).
(4) ابن دُريد، جمهرة اللُّغة، وابن فارس، مقاييس اللغة: (فلح).
(5) ابْنُ سِيدَه، المُحْكَمُ، (العين والدال والتاء).
(6) الرَّاغِبُ، المُفْرداتُ، (عَتَدَ)، والمَناويُّ، التَّوقيفُ، ص: 236.
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عَتَدَ).
(8) الرَّاغِبُ، المُفْرداتُ: (عَتَدَ)، والسَّمِيْن، عُمْدَةُ الحُفَّاظِ: (عتد).

النَّهي عما حرَّم الله، والأمر بالطَّاعة له ولرسوله؛ لأنَّها عنوان التَّقوى وسبب الرَّحمة وسبيل النَّجاة

واجتناب نواهيه؛ لتفوزوا في الدُّنيا والآخرة، واجعلوا لأنفسكم وقاية بينكم وبين النَّار الَّتي هُيِّئت للكافرين، وأطيعوا اللَّه والرَّسول في كلِّ أمر ونهي؛ لتُرحموا في الدُّنيا والآخرة[1].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

تَصْديرُ خطاب المؤمنين بالنِّداء:

العِنايَةُ والاهْتمامُ بصفَةِ الإيمانِ الحامِلَةِ على امتثال الأَمْرِ واجْتنابِ النَّهيِ

لِأَنَّ النِّدَاءَ لِلتَّنْبِيهِ، وَلَا يُنَبَّهُ إِلَّا عَلَى شَيْءٍ مهمٍّ، وإِذَا وُجِّهَ الْخِطَابُ إلى الْمُؤْمِنِينَ؛ فَإِنَّ فِيهِ فَوَائِدَ: أَوَّلاً: الْإِغْرَاءُ وَالْحَثُّ، كَأَنَّهُ يُنَادِيهِمْ بِصِفَةِ إِيمَانِهِم الَّذِي يَحْمِلُهُمْ عَلَى امْتِثَالِ الْأَمْرِ وَاجْتِنَابِ النَّهْيِ، وَأَنَّ الِالْتِزَامَ بِهَذَا مِنْ مُقْتَضَيَاتِ الْإِيمَانِ، فَالْكَلَامُ خَاصٌّ بكم - يَا أَيُّهَا المؤمنون - فَتَنَبَّهُوا أَن تشُوبَ دِينَكُمْ شَائِبَةٌ، وَأَنَّ الْمُخَالَفَةَ فِيهِ مِمَّا ينقص الْإِيمَان[2]، ففيه إشعارٌ بأنَّ من مُقتضَى الإيمان وتصديقه تَرْكَ الرِّبا[3].

فَصُدِّرَ الْكَلَامُ بِحَرْفِ النِّدَاءِ وَالتَّنْبِيهِ لِلْمُبَالَغَةِ فِي حَمْلِهِمْ عَلَى الْعَمَلِ بِمُوجِبِ النَّهْيِ[4]؛ وَلِذَا قَالَ الصَّحَابِيُّ الْجَلِيلُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ رضي الله عنه: "إِذَا سَمِعْتَ اللَّهَ يَقُولُ: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا؛ فَأَرْعِهَا سَمْعَكَ، فَإِنَّهُ خَيْرٌ يَأْمُرُ بِهِ، أَوْ شَرٌّ يَنْهَى عَنْهُ"[5]، ففي تصدير الخِطاب في شأنِه بالنِّداء تعظيمٌ لشأنِ الرِّبا وبيانُ خَطرِه[6].

بيان تحقُّق إيمانهم الدَّاعي إلى امتثال الأوامر واجتناب النَّواهي

سِرُّ التَّعبير عن إيمانهم بالفعل الماضي:

فاختيار صيغة الفعل الماضي ﴿ءَامَنُواْ﴾؛ لإفادة تحقُّق الإيمان وثبوته لهم، وفي ذلك ما يحثُّهم على حسن التَّلقِّي والتَّنفيذ بالابتعاد عن الرِّبا، وبتقوى اللَّه[7] ﷻ.

(1) لجنة من علماء الأزهر، المنتخب في تفسير القرآن الكريم، ص: 91، ونخبة من أساتذة التفسير، التفسير الميسر، ص: 66.
(2) ابْنُ عُثَيمين، تَفْسيرُ ابْنِ عُثَيْمين: 3/410.
(3) القاسمي، محاسن التأويل: 2/410.
(4) أَبو السُّعودِ، إِرْشادُ العَقْلِ السَّليمِ: 01/699.
(5) أخرجه أحمد ابن حنبل، الزُّهد، ص: 130، وجوَّد أحمد شاكر إسناده، ينظر: أحمد محمَّد شاكر، عمدة التَّفسير: 1/619.
(6) ابن عثيمين، تفسير ابن عثيمين: (سورة آل عمران): 2/159.
(7) الدّبل، دليل البلاغة القرآنيّة: 1/526 - 527.

دَلالَةُ المجاز في التَّعْبيرِ بالأكل عن التَّعاطي:

المبالغة في التَّشْنيعِ عَلَيْهِمْ وتَبْشيعِ حالِهِمْ

قوله تعالى: ﴿لَا تَأْكُلُواْ﴾ مجاز مرسل، قُصِدَ بِهِ التَّشْنيعُ على المُرابينَ بِلَفْظَةِ الأَكْلِ الدَّالَّةِ على الجَشَعِ، فَمَعْنى ﴿لَا تَأْكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ﴾، أَيْ: لا تكتسبوا الرِّبا، ولاتتَعاطَوْهُ، فعَبَّرَ عَنْ مُعَامَلَةِ الرِّبَا وَأَخْذِهِ: بِالْأَكْلِ؛ لِأَنَّ الْأَكْلَ غَالِبُ مَا يُنْتَفَعُ بِهِ فِيهِ، فَيُصْرَفُ في المَأْكولِ غالِبًا، فَأُقيمَ هذا البَعْضُ مِنْ تَوابِعِ الكَسْبِ مقامَ الكَسْبِ كُلِّهِ[1].

ولِأَنَّ الرِّبا - أَيْضًا - شائِعٌ في المطْعوماتِ، وهُوَ زِيادَةٌ في الأَجَلِ، بِأَنْ يُباعَ مَطْعومٌ بِمَطْعومٍ، بِأَكْثَرَ مِنْهُ مِنْ جِنْسِهِ[2]، فَيَكونُ الأَكْلُ هُنا عَلى ظَاهِرِهِ مِنْ خُصُوصِ الأَكْلِ[3].

فسمَّى أَخْذَ الرِّبَا أكلًا في قوله: ﴿لَا تَأْكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ﴾؛ لأنَّه يؤولُ إليه، فهذا مِن بابِ تسميةِ الشَّيء بما يؤول إليه[4].

فهذِهِ الصُّورَة مِنْ قَبيلِ المَجازِ المُرْسَلِ بِعَلاقَةِ اللُّزُومِ، حَيْثُ عَبَّرَ عَنْ أَخْذِ الرِّبا بِالأَكْلِ؛ لِأَنَّ مُعْظَمَ المَقْصودِ مِنَ المالِ الرِّبويِّ الأَكْلُ، وهُوَ أَشْهَرُ لَوازِمِهِ ومَصارِفِهِ عِنْدَ النَّاسِ[5]، كَما عَبَّرَ بِالأَكْلِ هُنا لِمَا فيه مِنْ فَناءِ المادَّةِ المَأْكولَةِ وإِخْفائِها عَنِ العُيُونِ نِهائِيًّا، فَجَعَلَ اللهُ تَعالى المَالَ الرِّبويَّ كَالطَّعامِ يَلْتَهِمُهُ الظَّالِمُ؛ لِيُبَيِّنَ شِدَّةَ حِرْصِهِ على أَخْذِهِ دُونَ تَرْكِ شَيءٍ مِنْهُ ودُونَ إِرْجاعِهِ إِلى أَصْحابِهِ، فَإِنَّ الطَّعامَ قَبْلَ أَنْ يَأْكُلَهُ المَرْءُ يُمْكِنُ إِعادَتُهُ إِلى أَهْلِهِ، وإِذا ما أَكَلَهُ؛ فَقَدْ قَرَّرَ عَدَمَ إِرْجاعِهِ، وكَذلِكُمْ آكِلُ الرِّبا.

وقَدْ جاءَتْ لَفْظَةُ الأَكْلِ مُقْتَرِنَةً بِالمالِ في مَواضِعَ كَثيرَةٍ مِنَ القُرْآنِ الكَريمِ؛ لِأَنَّ الأَكْلَ أَقْوى مَقاصِدِ الإِنْسانِ في المالِ، ثُمَّ صارَ

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 1/371، والبَيْضاويُّ، أَنْوارُ التَّنْزيل: 1/162.
(2) أَبو السُّعودِ، إِرْشادُ العَقْلِ السَّليمِ: 1/412، والبَيْضاويُّ، أَنْوارُ التَّنْزيل: 1/162.
(3) أَبو حَيّانَ، البَحْرُ المُحيطُ: 2/704.
(4) أَبو حَيّانَ، البَحْرُ المُحيطُ: 3/342.
(5) أَبو حَيّانَ، البَحْرُ المُحيطُ: 3/610، والقِنَّوْجيُّ، فَتْحُ البَيان: 3/93.

حَقِيقَةً عُرْفِيَّةً، فَقالُوا: أَكَلَ مالَ النَّاس، قالَ تَعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ﴾ [البَقَرَة: 188]، وقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ﴾ [النِّساء: 10][1].

فهذا المَجاز أَفادَ تَشْنيعَ التَّصَرُّفِ في أَمْوالِ النَّاسِ في غَيْرِ وَجْهِ حَقٍّ، وهو اسْتِيلَاء ظُلْم، وَهذا مَجَازٌ صارَ كالْحَقِيقَةِ[2]، في ظُهُورِهِ وكَثْرَتِهِ وشَنَاعَةِ حالِ فاعِلِهِ.

تحذير المسلمين من ربا الجاهليَّة، وتشنيع سلوك طريق أهله

دلالة وصف الرِّبا المنهيِّ عنه في كونه أضعافًا مُضاعفة:

ليس القيد بالوصْف هنا هو مَصَبَّ النَّهي عن أكْلِ الرِّبا؛ حتى يَتوهَّم مُتوهِّم أنَّه إنْ كان دون الضِّعفِ؛ لم يكن حرامًا، لأنَّ الحال واردةٌ لحكاية الواقع، فهذه الآية نزلت في ربا الجاهليَّة، قال سعيد بن جبير: كان الرَّجل يكون له على الرَّجل المال، فإذا حلَّ الأجل؛ فيقول: أخِّر عنِّي، وأزيدك على مالك، فتلك الأضعاف المضاعفة[3]، فلا تُفيد مفهومًا؛ لأنَّ شرطَ استفادة المفهوم من القيود ألَّا يكون القيدُ الملفوظُ به جرى لحكاية الواقع، فلا يَقتصِر التَّحريمُ بهذه الآية على الرِّبا البالغ أضعافًا كثيرة[4]، وليس معنى الكلام أنَّ الربا لا ينهى عنه إلَّا إذا كان أضعافًا مضاعفة، وإنَّما تَضمَّن النَّهيُ عن الرِّبا التَّوبيخَ بما كانوا عليه في الجاهليَّة من تضعيفِه، وإلَّا فإنَّ أكْل الرِّبا مَنهيٌّ عنه قليلًا كان أو كثيرًا، لكنَّ الآية نزلتْ على سببٍ، وهو فِعْلهم ذلك، فهو تشنيع عليهم[5]، فالنَّهي هنا لمراعاة ما كانوا عليه من العادة، توبيخًا لهم بذلك[6].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/79.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 5/23.
(3) ابن الجوزيّ، زاد المسير: 1/325.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/86.
(5) الزركشي، البرهان: 3/401.
(6) أبو السُّعودِ، إرْشادُ العَقْلِ السَّليمِ: 2/84.

دلالة وصف الأضعاف بالمضاعفة بطريق التَّجْنيس:

تأكيد شناعة فعلهم وقبحه

فقوله: ﴿أَضْعَٰفًا﴾ هو جَمْع ضِعْف، وهو جمعُ قِلَّة، ولَمَّا كان جَمْعَ قِلَّة، والمقصودُ الكثرة؛ أَتْبعه بما يدلُّ على ذلك، وهو الوصف بقوله: مُضَاعَفَةً[1]، وهو جناس اشتقاق جاء صِفَةً لِلْأَضْعَافِ، أَيْ: هِيَ أَضْعَافٌ يَدْخُلُهَا التَّضْعِيفُ، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا دَايَنُوا أَحَدًا إِلَى أَجَلٍ؛ دَايَنُوهُ بِزِيَادَةٍ، وَمَتَى أَعْسَرَ عِنْدَ الْأَجَلِ، أَوْ رَامَ التَّأْخِيرَ؛ زَادَ مِثْلَ تِلْكَ الزِّيَادَةِ، فَيَصِيرُ الضِّعْفُ ضِعْفًا، وَيَزِيدُ، وَهَكَذَا، فَيَصْدُقُ بِصُورَةِ أَنْ يَجْعَلُوا الدَّيْنَ مُضَاعَفًا بِمِثْلِهِ إِلَى الْأَجَلِ[2]، وكان الرَّجُل منهم إذا بلَغ الدَّين مَحلَّه؛ يقول: إمَّا أنْ تَقْضي حقِّي، أو تُربي، وأزيدَ في الأَجلِ، فاستَغرَق بالشَّيء الطَّفيف مال المديون[3]، فدلَّت هذه العبارة المؤكَّدة على شنعة فعلهم وقبحه[4].

﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾: ظَاهِرُهُ التَّعَلُّقُ بِالْجُمْلَةِ الْأَخِيرَةِ، وَهِيَ قَوْلُهُ: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾؛ لِأَنَّ تَقْوَى اللَّهِ هُوَ إِجْمَاعُ الْخَيْرِ مِنِ امْتِثَالِ الْأَوَامِرِ، وَاجْتِنَابِ النَّوَاهِي، فَعَلَّقَ التَّقْوَى بِرَجَاءِ الْفَلَاحِ، وَهُوَ الظَّفَرُ بِالْبُغْيَةِ.

التَّذييل بالأمر بالتَّقوى والتَّرجية في الفلاح:

بيان أنَّ الرَّجاء والطَّمع في الفلاح سبيل المتَّقين

لَمَّا نَهَاهُمْ عَنْ أَمْرٍ صَعْبٍ عَلَيْهِمْ فِرَاقُهُ، وَهُوَ الرِّبَا؛ أَمَرَ بِتَقْوَى اللَّهِ؛ إِذْ هِيَ الْحَامِلَةُ عَلَى مُخَالَفَةِ مَا تَعَوَّدَهُ الْمَرْءُ مِمَّا نَهَى الشَّرْعُ عَنْهُ، ثُمَّ ذَكَرَ أَنَّ التَّقْوَى سَبَبٌ لِرَجَاءِ الْفَلَاحِ، وَهُوَ الْفَوْزُ، وَأَمَرَ بِهَا مُطْلَقًا لَا مُقَيَّدًا بِفِعْلِ الرِّبَا؛ لِأَنَّهُ لَمَّا نَهَى عَنِ الرِّبَا؛ كَانَ الْمُؤْمِنُونَ أَسْرَعَ شَيْءٍ لِطَوَاعِيَةِ اللَّهِ تَعَالَى، فَلَمْ يَأْتِ: وَاتَّقُوا اللَّهَ فِي أَكْلِ الرِّبَا، بَلْ أُمِرُوا بِالتَّقْوَى، لَا بِالنِّسْبَةِ إِلَى شَيْءٍ خَاصٍّ مَنَعُوهُ مِنْ جهة الشَّريعة[5]، ولَعَلَّ

(1) أَبو حَيّانَ، البَحْرُ المُحيطُ: 3/340.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/85.
(3) الزمخشري، الكشَّاف: 1/414، والبَيْضاويُّ، أَنْوارُ التَّنْزيل: 2/38، والقاسمي، محاسن التأويل: 2/410.
(4) ابن عطية، المحرر الوجيز: 1/507.
(5) أَبو حَيّانَ، البَحْرُ المُحيطُ: 3/340.

كَلِمَةَ لعلَّكم لِلتَّرْجِيَةِ، فَإِنَّ الْإِنْسَانَ قَلَّمَا يَخْلُو في أَدَاءِ الْفَرِيضَةِ مِنْ تَقْصِيرٍ[1]، ويكون التَّقدير: افعلوا ذلك على الرَّجاء منكم والطَّمع[2] في الفلاح.

ولا يخفى أنَّ اقتران الرَّجاء بالتَّخويف يفيد أنَّ العبد ينبغي أن يكون بين الرَّجاء والخوف، فهما جناحاه اللَّذان يطير بهما إلى حظائر القدس[3].

دلالة تعريف لفظة ﴿ٱلنَّارَ﴾ باللَّام والصِّلة:

بيان ما استقرَّ في نفوس النَّاس من معرفة للنَّار المتوعَّد بها

اللَّام في ﴿ٱلنَّارَ﴾ من قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ﴾ لِلْعَهْدِ الْعِلْمِيِّ، وذلك أنَّ كثيرًا من آياتِ النَّار نَزَلَت بِمَكَّةَ الْمُكَرَّمةِ، فاستقرَّ ذلك المعنى في نفوس الْمُتَلَقِّينَ، فإذا عُرِّفَتْ باللَّام؛ انْصَرَفَ الذِّهْنُ إلى تلك النَّارِ المعروفةِ قبلُ، لا إلى كلِّ نَارٍ، كما أنَّ تَعْرِيف النَّارِ بِهَذِهِ الصِّلَةِ، يُشْعِرُ بِأَنَّهُ قَدْ شَاعَ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ هَذَا الْوَصْفُ لِلنَّارِ بِمَا فِي الْقُرْآنِ مِنْ نَحْوِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾ [التَّحْرِيم: 6]، وَقَوْلِهِ: ﴿وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿٩١﴾﴾ [الشُّعَرَاء: 91] الْآيَةَ[4].

والتَّعريف بالموصول هنا لتعظيم الزَّجر؛ لأنَّ المؤمنين الَّذين أُمروا بترك المعاصي والإقلاع عنها، والبعد عن سبيلها، إذا علموا أنَّهم متى فارقوا التَّقوى، وارتكسوا في حمأة المعاصي؛ أدخلوا تلك النَّار المهولة المرعبة المعدَّة للكافرين، وقد علموا من النُّصوص الَّتي تقرع آذانهم عظمتها وعظمة ما فيها من أنواع النَّكال؛ كان انزجارهم عن المعاصي أتمَّ.

هذه الآية تقوية لرجاء المؤمنين رحمة من الله تعالى؛ لأنَّه قال: ﴿أُعِدَّتْ لِلْكَـٰفِرِينَ﴾، فجعلها معدَّة للكافرين دون المؤمنين[5].

(1) الرّازي، مفاتيح الغيب: 23/254.
(2) القِنَّوْجيُّ، فَتْحُ البَيانِ: 1/103.
(3) الآلوسيُّ، روحُ المعاني: 2/270.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/88.
(5) الخازن، لباب التأويل: 1/296.

سرُّ بناء الفعل للمفعول في وصف النَّار:

المبالغة في الإنذار زيادة في التَّرهيب والتَّنفير

بِناءُ فِعل ﴿أُعِدَّتْ﴾ للمَفعولِ؛ لزيادةِ التَّرهيبِ والمُبالَغةِ في الإنذار[1]، وفيه تنفيرٌ من النَّار وما يُوقِع فيها، بأنَّها معدودةٌ للكافرين، وتحذيرُ المسلمين من مشاركتِهم؛ إذ المسلمون لا يَرْضَون بمشاركةِ الكافرين؛ لأنَّ الإسلامَ الحقَّ يُوجِب كراهيةَ ما ينشأ عن الكُفْر، وذاك تعريضٌ واضح في الوعيد على أخْذ الرِّبا، ومقابل هذا التَّنفير: التَّرغيب في قوله: ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾﴾ [آل عمران: 133][2].

فائدة التَّعبير بالفعل الماضي:

إثبات خلق النَّار وأنَّها موجودة الآن

وفي قوله: ﴿أُعِدَّتْ﴾ إخبارٌ عن الماضي، فلا بدَّ أن يكون قد دخَل ذلك الشَّيءُ في الوجود، فالنَّار مخلوقةٌ وموجودة الآن[3].

فائدة عطف طاعة الرَّسول ﷺ على طاعة الله سبحانه وتعالى:

بيان أنَّ طاعة النَّبيِّ ﷺ طاعة لله تعالى

فَإِنَّ طَاعَةَ الرَّسُولِ طَاعَةُ اللَّهِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: 80]، فإنَّ طاعة الله مع معصية رسوله ليست بطاعة[4]، فذِكْرُ الرَّسُولِ زِيَادَةٌ فِي التَّبْيِينِ وَالتَّأْكِيدِ وَالتَّعْرِيفِ بِأَنَّ طَاعَتَهُ طاعة الله، وفي قرن طاعة الرَّسول صلوات الله عليه بطاعة الله تشريفًا لنبيِّه[5] لقدره وهَذِهِ الْآيَةُ هِيَ ابْتِدَاءُ الْمُعَاتَبَةِ فِي أَمْرِ أُحُدٍ، وَانْهِزَامِ مَنْ فَرَّ، وَزَوَالِ الرُّمَاةِ مِنْ مَرْكَزِهِمْ، وَقِيلَ: صِيغَتُهَا الْأَمْرُ، وَمَعْنَاهَا: الْعَتْبُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ فِيمَا جَرَى مِنْهُمْ مِنْ أَكْلِ الرِّبَا، وَالْمُخَالَفَةِ يَوْمَ أُحُدٍ[6].

---

(1) الدبل، دليل البلاغة القرآنية، ص: 542.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/88.
(3) الرّازي، مفاتيح الغيب: 9/364.
(4) الخازن: لباب التأويل: 1/296.
(5) القشيري، لطائف الإشارات: 1/277.
(6) أبو حيَّان، البحر المحيط: 3/341.

دلالة العطف بالوعد بعد الوعيد:

التَّنبيه إلى عادة القرآن الكريم في ذكر الوعد بعد الوعيد تنشيطًا للنُّفوس

فـ ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾، أي: لكي تُرحموا ولا تتعذَّبوا؛ إذا أطعتم الله ورسوله، فلَمَّا ذَكَرَ الْوَعِيدَ؛ ذَكَرَ الْوَعْدَ بَعْدَهُ عَلَى مَا هُوَ الْعَادَةُ الْمُسْتَمِرَّةُ فِي الْقُرْآنِ[1]؛ تنشيطًا للنُّفوس للنُّهوض بامتثال الأوامر كما نهضت لاجتناب النَّواهي والزَّواجز، فأتبع الوعيد بالوعد ترهيبًا عن المخالفة، وترغيبًا في الطَّاعة، وإيرادُ لَعَلَّ في الموضعين للإشعار بعزَّة منالِ الفلاحِ والرَّحمة[2].

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الطَّاعة والعبادة:

الطَّاعة مُطلقُ الانقياد، والعبادة الخضوع لله تعالى محبَّة وتعظيمًا

الطَّاعة: الانقياد، وهي الفعلُ الواقعُ على حسب ما أراده المريدُ، يُقال: طاعه يطوعه؛ إذا انقاد معه، ومضى لأَمْرِه، وأكثرُ ما تقال في الائتمار لما أُمِرَ، والارتسام فيما رُسِمَ، وتكون للخالق والمخلوق[3].

والعبادة: هي غاية الذُّلِّ والخضوع مع المحبَّة والتَّعظيم، ولا تُسْتَحَقُّ إلَّا بغاية الإنعام، ولهذا لا يجوز أن يُعْبَدَ غيرُ الله تعالى، ولا تكون العبادة إلَّا مع المعرفة بالمعبود، ولا تكون إلَّا للخالق، قال تعالى: ﴿أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ۝٣﴾ [نوح: 3]، فَجَعَلَ الْعِبَادَةَ وَالتَّقْوَى لِلَّهِ وَحْدَهُ، وَجَعَلَ الطَّاعَةَ لِلرَّسُولِ[4].

فالطَّاعة: هي مجرَّد الموافقة للأمر، وهي أعمُّ من العبادة؛ لأنَّ العبادة غلب استعمالها في تعظيم الله غاية التَّعظيم[5].

---

(1) الرّازي، مفاتيح الغيب: 9/364.
(2) أَبو السُّعودِ، إِرْشادُ العَقْلِ السَّليمِ: 2/85.
(3) الرَّاغِبُ، المُفْرداتُ، وابن فارس، مقاييس اللغة: (طوع)، والعَسْكَرِيُّ، الفُروقُ اللُّغَوِيَّةُ، ص: 221.
(4) ابْنُ تَيْمِيَّةَ، مَجْموعُ الفَتاوى: 3/108.
(5) الكَفَوِيُّ، الكُلِّياتُ، ص: 583.

﴿۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ١٣٣﴾ [آل عمران133]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

فضل المسارعة إلى مغفرة الله وجنَّته

بعد أن حذَّر اللّه من الرِّبا الّذي هو مؤذنٌ بحرب من اللّه ورسوله، ونَهى عَمّا يمنَعُ النَّصْرَ؛ بِالنَّهْيِ عَنِ الرِّبا المُرادِ بِالنَّهْيِ عَنْهُ الصَّرْفُ عَنْ مُطْلَقِ الإقْبالِ عَلى الدُّنْيا، وأمر بالتَّقوى التي هي سلاحٌ في مقاومة الأعداء؛ أمرَ اللّه المؤمنين بالمسارعة إلى مغفرة منه تعالى، وإلى جنَّة عرضها السَّماوات والأرض، أعدَّها اللّه للمتَّقين من عباده[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَسَارِعُوٓاْ﴾: جذر الكلمة (سَرُعَ)، وهو أَصْلٌ صَحِيحٌ يَدُلُّ عَلَى خِلَافِ الْبُطْءِ، فالسُّرعة في أصل اللُّغة: خلاف البطء، أو ضدُّهُ، وتستعمل في الأجسام، والأفعال، يقال: سَرُعَ، فهو سَرِيعٌ، وأَسْرَعَ فهو مُسْرِعٌ، وأَسْرَعُوا، وكلُّ ما في القرآن من التركيب هو بمعنى السرعة التي ضدُّ البطء[2]. ويمكن بيان معنى المسارعة بأنَّها: المبادرة لإدراك مطلوب، خوف فوات شيء، كالموت ونحوه، بحيث لا يَشْغَله شيءٌ عن الشَّيء المطلوب له.

2) ﴿مَغۡفِرَةٖ﴾: جذر الكلمة (غَفَرَ)، والغَفْر في أصل اللغة بمعنى: السَّتر والتَّغطية، وهو: إلباس ما يصونه عن الدَّنس، ومغفرة اللّه هي: أن يصونَ العبدَ من أن يمسَّه العذابُ، وكلُّ ما جاء في القرآن من التركيب هو من مغفرة الذنوب، وأمَّا قوله: ﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 5/70.

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (سرع).

﴿يَغْفِرُواْ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ﴾ [الجاثية: 14] فهو التجافي عن الذنب في الظاهر، وإن لم يُتجافَ عنه في الباطن، وإنما أدَبُ الإسلامِ هنا هو أن نَغْفِر لهم طاعةً للّه تعالى، دون أن نلقيَ إليهم بالمودَّة[1].

3) ﴿أُعِدَّتْ﴾: جذر الكلمة (عَدَدَ)، وهو لَا يَخْلُو إمَّا أن يكون مِنَ الْعَدِّ الَّذِي هُوَ الْإِحْصَاءُ، وإمَّا مِنَ الْإِعْدَادِ الَّذِي هُوَ تَهْيِئَةُ الشَّيْءِ، وَإِلَى هَذَيْنِ الْمَعْنَيَيْنِ تَرْجِعُ فُرُوعُ معاني الجذر كُلِّه، وكلُّ ما في القرآن من الفعل (أَعَدَّ) مسندًا للفاعل أو للمفعول، وكلمة (عُدَّة) فهو من الإعداد بمعنى: الإحضار والتهيئَة، وجعلِ الشيء متاحًا، ومنه الآية الكريمة. وما عدا ذلك من مفردات هذا التركيب القرآنية فهو من معنى العَدِّ، الذي هو بيانُ كمِّ الشيء، كقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ ۝٢﴾ [الهمزة: 2][2].

4) ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾: جذر الكلمة (وَقَيَ)، وتدلُّ على دفع شيء عن شيء بغيره، وكلمة التقوى في اللُّغة تفيدُ ما يقي الشَّيء والحفظَ والصِّيانة، وللتَّقوى في الاصطلاح الشَّرعيِّ تعريفات كثيرة، كلُّها تدور على ترك ما نهى اللّه عنه، وهي صفة في النفس تحمل الإنسان على فعل ما أمر اللّه تعالى، والامتناع عما نهى عنه، ويتمُّ ذلك بترك بعض المباحات، بحيثُ إنَّ المتَّقيَ هو الذي يقي نفسه أن يتعاطى ما تُوُعِّد عليه بعقوبة من فعل أو ترك[3].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

بادروا، وسابقوا إلى فعل الخيرات، والتَّقرُّب إلى اللّه بأنواع الطَّاعات؛ لتنالوا مغفرة عظيمة من اللّه سبحانه، وتدخلوا جنَّةً سَعَتها السَّماواتُ والأرضُ - وخصَّ تعالى العَرْضَ بالذِّكر، ليكون أبلغَ في الدَّلالة على عظمها واتساع طولها، لأنه إذا كان عرضها كهذا، فإنَّ العقل يذهبُ كل مذهب في تصور طولها، هيَّأها اللّه للمتَّقين من عباده[4].

عن عطاء: أنَّ المسلمين قالوا للنبي ﷺ: بنو إسرائيل كانوا أكرم على اللّه منا؛ كانوا

(1) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (غفر).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، والسمين، عمدة الحفاظ، وجبل، المعجم الاشتقاقي (عدد).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (وقي)، والجرجاني، التعريفات، ص: 65، والمناوي، التوقيف، ص: 106، وأبو حيان، البحر المحيط: 1/64.
(4) طنطاوي، التفسير الوسيط: 2/261، ونخبة من العلماء، التفسير الميسر، ص: 67.

إذا أذنب أحدهم أصبحت كفارة ذنبه في عتبة بابه مكتوبة: اجدع أذنك، افعل كذا، فسكت النبي ﷺ؛ فنزل: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ﴾؛ فقال النبي ﷺ: "ألا أدلكم؟ ألا أخبركم بخير من ذلكم؟"؛ فقرأ هذه الآيات[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغة الوصل في الآية:

مـــآلُ الأمـــرِ بالمُسارعة إلى المغفرة والجنّة؛ الأمـرُ بالأعمال الصالحة

والواو في قوله: ﴿وَسَارِعُوٓاْ﴾ هي واو العطف، والجملة معطوفة على قوله: ﴿وَأَطِيعُواْ﴾ [آل عمران: 132]. ووجه جواز عطف الجملة على جملة الأمر بالطاعة؛ كون الأمر بالمسارعة إلى المغفرة والجنة يؤول إلى الأمر بالأعمال الصالحة، فالعطف - وهو قراءة الجمهور بحسب ما سيأتي بيانه - في هذه الآية يُنْبِئنا بأنّه يجوز الفصل والوصل في بعض الجمل باعتبارين[2].

بلاغة الفصل في قراءة حذف واو العطف:

وجـــهُ تـــركِ العطف كمالُ الاتّـــصـــال؛ لأن طـاعـة الله والرسول مـسـارعـة إلى المغفرة والجنة

قرأ نافع وابن عامر وأبوجعفر: ﴿سَارِعُوٓاْ﴾ بغير واو، وهي كذلك في مصاحف أهل المدينة والشَّام، وقرأ باقي العشرة بالواو؛ على أنّه عطْف جملة على جملة، أمَّا من ترك الواو؛ فلأنَّ الجملة الثَّانية مُتَلَبِّسَةٌ بالأولى، مستغنية بذلك عن العطف بالواو[3]، أي: أنَّ المسارعة إلى المغفرة مُتَضَمَّنَة في الطَّاعة، فترك العطف لكمال الاتّصال للبدليّة أو التَّوكيد.

من هنا فإنّ وجهَ قراءة ترك الواو الاستئنافُ، أي: بادروا وأقبلوا؛ بتنزيل جملة ﴿سَارِعُوٓاْ﴾ منزلة البيان، أو بدل الاشتمال، لجملة:

(1) ابن جرير، جامع البيان: 2/62، وابن حجر، العجاب: 2/754.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/88.
(3) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/4، وابن الجزري، النشر: 2/242، ولِسَوْقِها مساق آية سورة الحديد، فإنها ﴿سَابِقُوٓاْ﴾ [الحديد: 21] من غير واو.

﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ﴾ [آل عمران: 132]؛ لأن طاعةَ الله والرسول مسارعةٌ إلى المغفرة والجنة فلذلك فُصِلتْ[1]. فكأنّ قوله: ﴿سَارِعُوٓاْ﴾، وقوله: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ﴾ [آل عمران: 132] جُعِلا كالشّيء الواحد؛ فأُسْقطَ العاطفُ، ولقُرب كل واحد منها من الآخر في المعنى[2].

قراءة ترك الواو تنزيلُ الجملة منزلة جواب سؤال مقدَّر

وتوجّهُ قراءة نافع وابن عامر وأبوجعفر بحذف الواو على تنزيل الجملة منزلة جواب سؤال مقدَّر: كأنَّ سائلًا سأل، فقال: كيف نطيع الله والرسول طاعة توجب لنا رحمة الله كرمًا منه وفضلًا؟ فأجيب: ﴿سَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ الآية.

بلاغة الإيجاز بالحذف:

الموجبُ للمغفرة فعلُ المأمورات ومجانبةُ المنهيّات

عَدَلَ إلى الحذف في الكلام مستغنيًا بالمذكور، والمعنى: وسارعوا إلى ما يوجب مغفرة من ربكم. ولا شك أن الموجب للمغفرة ليس إلا فعل المأمورات وترك المنهيات، فكان هذا أمرًا بالمسارعة إلى إتيان المأمورات واجتناب المنهيات[3].

سرُّ التعبير بصيغة المفاعلة ﴿وَسَارِعُوٓاْ﴾:

تدلُّ صيغة المفاعلة على المبالغة والتَّكثير، فتفيد المبالغة في الإسراع

وصيغة: ﴿وَسَارِعُوٓاْ﴾ صيغة مفاعلة، وتدلُّ على المشاركة، وهي تعني: اشتراك طرفي المفاعلة في معنى الفاعليَّة، فيكون البادئ: فاعلًا صريحًا، والثَّاني: مفعولًا صريحًا، ويجيء العكس ضمنًا، أي: أنَّ الغرض من ألف المفاعلة: اقتسام الفاعليَّة والمفعوليَّة في اللَّفظ، والاشتراك فيهما من حيث المعنى، كما أنَّها تدلُّ على المبالغة والتَّكثير، فتفيد "المبالغة في طلب الإسراع، والعرب تأتي بما يدلُّ في الوضع على تكرر الفعل وهم يريدون التأكيد والمبالغة دون التكرير"[4].

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 2/85، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/88.
(2) الرّازي، مفاتيح الغيب: 9/364.
(3) الرّازي، مفاتيح الغيب: 9/365.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/89.

إيثارُ لفظ ﴿وَسَارِعُوٓاْ﴾ على لفظ (أَسرِعوا)؛ إلماحٌ بالتَّنافس بين الناس:

وآثرَ التعبير بـ ﴿وَسَارِعُوٓاْ﴾، دون: (وأَسرِعوا)، وكأنَّ النَّاس يُسرع كلُّ واحد منهم؛ ليصل قبل غيره، فإنَّ مسابقة النَّاس، والتَّنافس بينهم في فعل الخير أمر مشروع، وهو يحفِّز النَّاس على السُّرعة في فعل الخير.

التَّعبير بالمسارعة بين المجاز والحقيقة:

وجـه المجاز المبادرة والحرص على المنافسة، ووجه الحقيقة سرعة الامتثال

السُّرعة المشتقُّ منها ﴿وَسَارِعُوٓاْ﴾ مجازٌ في الحرص والمنافسة إلى عمل الطَّاعات الَّتي هي سبب المغفرة والجنَّة، والفور إلى عمل الطاعات التي هي سبب المغفرة والجنة، أو ذكر المغفرة وهي المسبب، وأراد التوبة وهي السبب في المغفرة؛ فهو مجاز مرسل علاقته المسببية. ويجوز أن تكون السرعة حقيقة، وهي سرعة الخروج إلى الجهاد عند النفير كقوله ﷺ في الحديث: "وإذا استنفرتم فانفروا"[1].

علّة إيثار المسارعة على المسابقة:

المُسارعةُ تقبلُ التَّشارك والتَّواطؤ والاتِّفاق، ولا تستلزمُ مضمارًا بخلاف المُسابقة

الظَّاهر بداهة أنَّ الأمر بكلٍّ من (المُسارعة)، و(المُسابقة) استحثاثٌ على الهمّة الفاعلة المؤثِّرة حرثًا وإنتاجًا، بيْد أنَّ (المُسارعة) تقبل التَّشارك والتَّواطؤ والاتِّفاق، أمّا (المُسابقة)؛ فلا تقبل، والأولى لا تستشعرُ مضمارًا ولا تستلزمه، بخلاف الثَّانية.

نكتة الاقتصار على لفظ المغفرة:

وقوله: ﴿إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ﴾، أي: ما يؤدِّي إلى مغفرة. وفي المراد بالمغفرة أقوال، وهي: الإخلاص، أو أداء الفرائض، أو الإسلام، أو التكبيرة الأولى من الصَّلاة، أو الطَّاعة، أو الهجرة، أو الجهاد، أو الصَّلوات

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/88، والإندونيسي، الشامل في بلاغة القرآن: 194، والحديث عند البخاري برقم: (2783).

إيثارُ المغفرة مراعاةٌ لمعناها في جميع الخصال من أركان وواجبات، ومأمورات

الخمس[1]. والظَّاهر أنَّ من اقتصر على خصلة راعى معنى لها في جميع الخصال من أركان وواجبات، ومأمورات إمَّا أنَّها شرط في صحَّتها أو قبولها، أوْ أنَّها دالَّة عليها باعتبار أنَّها مقدمِّة لها تستدعيها تالية، أو خاتمة لها تقتضيها متقدِّمة، أو كواسطة العقد منها، فتستصحب ما قبلها وما بعدها.

فائدةُ تنكير لفظي: المغفرة، والجنّة:

في تنكير لفظي المغفرة، والجنّة، تعظيمٌ للشأن، وبيانٌ للفخامة

في قوله تعالى: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ﴾، ذكرَ لفظ المغفرة منكّرًا، والمراد منه المغفرة العظيمة المتناهية في العظيم وذلك هو المغفرة الحاصلة بسبب الإسلام[2]. وتنكير لفظ الجنَّة؛ لبيان فخامة شأنها[3].

نكتة إيثار لفظ (المغفرة) على (الغفران):

التعبيرُ بـ(المغفرة) دون (الغفران) من باب التنبيه بالأدنى على الأعلى

عدل عن استعمال المصدر الدّال على التكثير (غُفران) على وزن (فُعلان) فلم يقل: (إلى غفران من ربكم)؛ وآثر جنس المغفرة المفرد، ليعمَّ قليل السيئات وكثيرها، فهو من باب التنبيه بالأدنى على الأعلى؛ لأنهم إذا أمروا بالمسارعة إلى تحصيل قليل المغفرة فهو مأمور بالمسارعة إلى ما يجعل كثيرها من باب أحرى[4].

سرُّ اصطفاء لفظ الرُّبوبيَّة دون الألوهيّة:

وصفُ الربوبيّة عنوانُ اللُّطف، والتَّكريم، والرعاية

التَّعرض لعنوان الرُّبوبيَّة بقوله: ﴿مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ مع إضافته إلى ضمير المخاطبين؛ لإظهار مزيد من اللُّطف بهم[5]، والتَّكريم لهم، والرعاية.

توجيهُ عطف الجنَّة على المغفرة:

جمع تعالى بين المغفرة والجنَّة في قوله تعالى: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ

(1) ابن الجوزي، زاد المسير: 1/415.
(2) الرّازي، مفاتيح الغيب: 9/365.
(3) الدبل، دليل البلاغة القرآنية: 1/545.
(4) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/410.
(5) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 2/85.

﴿مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ﴾، للإشعار بالتَّغاير بينهما؛ لأنَّ المغفرة: هي إزالة العقاب، والجنَّة: هي حصول الثواب، فجمع بينهما للإشعار بأنَّه لا بدَّ للمكلَّف من تحصيل الأمرين، فكما تجب المسارعة إلى المغفرة فكذلك تجب المسارعة إلى الجنة[1].

علّة الجمع بين الجنّة والمغفرة الإشعارُ بوجوب تحصيل المكلَّف للأمرين

نكتة تقديم المغفرة على الجنّة:

وتقديمُ ذكر المغفرة على ذكر الجنَّة؛ لأنَّ التَّخلية مقدَّمة على التَّحلية[2]. وهو من تقديم السَّبب على مآلهِ، فإنّ مؤدّى غفران ربّ العزّة جلّ وعزَّ جنّةٌ عرضها السماوات والأرض أعدّت للمتقين.

من عادات القرآن تقديم التَّخلية على التَّحلية

براعة اصطفاء لفظ (العرض) وصفًا للجنّة:

قُصِدَ إلى اصطفاء لفظ (العرض)؛ " للمبالغة في وصف سعة الجنة وذلك؛ لأنه لا شيء عندنا أعرض منهما ونظيره قوله: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾ [هود: 107] فإن أطول الأشياء بقاء عندنا هو السماوات والأرض، فخوطبنا على وفق ما عرفناه، فكذا هاهنا"[3]. جار على طريقة العرب في تمثيل شدة الاتساع. وليس المراد حقيقة عرض السماوات والأرض[4].

بيانُ الوصف بالعَرْض المبالغة في وصف سعة الجنّة

لما كان من الظاهر أنّ الطول يكون أوسع من العرض عبّرَ بالأدنى حالا استعظامًا؛ باستحضار شأن الأعظم، واستظهاره. وكأنّ لسان الحال: إذا كان العرض هكذا فكيف بالطول؟! ونظيره قوله: ﴿بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ﴾ [الرحمن: 54] وإنما ذكر البطائن لأن من المعلوم أنها تكون أقل حالا من الظهارة، فإذا كانت البطانة هكذا فكيف الظهارة؟ فكذا هاهنا[5].

عبّرَ بـ (العَرْض) وهو الأدنى حالا استعظامًا؛ باستحضار شأن الأعظم

(1) الرّازي، مفاتيح الغيب: 9/365، والقنوجي، فتح البيان: 2/331.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 2/85.
(3) الرّازي، مفاتيح الغيب: 9/365.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/89.
(5) الرّازي، مفاتيح الغيب: 9/366.

في الوصف بالعَرْض وجهُ كنايةٍ لازمها السّعة، والرّحابة، والبسطة

ليس المراد بالعرض هاهنا ما هو خلاف الطول، بل هو عبارة عن السعة كما تقول العرب: بلاد عريضة، ويقال هذه دعوى عريضة، أي واسعة عظيمة، فإنَّ من عادة العرب التَّعبير عن الشَّيء الواسع بالعريض، كقوله تعالى: ﴿فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ ۝٥١﴾ [فصلت: 51]. والأصل فيه أن ما اتسع عرضه لم يضق، وما ضاق عرضه دق، فجعل العرض كناية عن السعة"[1]. والرّحابة، والبسطة، وعِظم المساحة؛ فهي غاية في السعة لا يعلمها إلا اللّه تعالى.

في الوصف بالعَرْض تشبيه بليغ؛ دليله آية سورة الحديد

فأما وصف الجنة بأن عرضها السماوات فمعلوم أن ذلك ليس بحقيقة لأن نفس السماوات لا تكون عرضا للجنة، فالمراد كعرض السماوات والأرض وهاهنا سؤالات[2]. ووصف الجنة بأن عرضها السماوات والأرض على طريقة التشبيه البليغ، بدليل التصريح بحرف التشبيه في نظيرتها في آية سورة الحديد: ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا كَعَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [الحديد: 21][3]. وعن ابن عباس رضي الله عنهما كسبع سماواتٍ وسبعِ أرضينَ لو وُصل بعضُها ببعض[4].

في الوصف بالعَرْض فنُّ التنكيت

جاء في الجدول: " اشتملت هذه الآية الكريمة على فن جليل القدر وهو التنكيت في التشبيه، وحدّه أن يقصد المتكلم إلى شيء بالذكر دون غيره مما يسد مسده لأجل نكتة، وإذا وقع في التشبيه فقد بلغ الغاية، وهو هنا في قوله تعالى ﴿عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ﴾ والمراد كعرض السماوات والأرض والعرض أقصر الامتدادين، وفي ذكره دون ذكر الطول مبالغة، وزاد في المبالغة بحذف أداة التشبيه وتقدير المضاف"[5].

(1) الرّازي، مفاتيح الغيب: 9/366.
(2) الرّازي، مفاتيح الغيب: 9/365، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 2/38.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/89.
(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 2/85.
(5) الصافي، الجدول: 4/310، والتنكيت: هو أن يقصد المتكلّم إلى كلمة أو كلامٍ بالذكر دون غيره ممّا يسُدُّ مَسَدَّه، لأجل نُكْتَةٍ في المذكور تُرَجِّحُ مجيئه على سواه.

بلاغة التَّعبير بالمبني للمفعول:

بناء الفعل (أَعَدَّ) في قوله تعالى: ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾؛ لطيِّه وبيان انقضائه، والمبنيُّ للمفعول أو لنائب الفاعل، أو لِما لم يُسمَّ فاعله هو: لتجاوز ذكر أفراد ما أُعِدَّ فيها من النَّعيم، فإنَّه من كثرته ورفاهيته لا يوصف حسنًا وإمتاعًا، وإغناء وإرواءً، وإكرامًا وإعظامًا، وإلطافًا وإيرافًا، وقد أتحف الله به إتحافًا فسمَّاه: ﴿نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ۝٣٢﴾ [فصلت: 32].

مفعوليّة البناء؛ لتجاوز ذكر أفراد ما أُعِدَّ فيها من النَّعيم، فإنَّه من كثرته ورفاهيته لا يوصف حسنًا وخيريّة

بلاغة تخصيص المتقين بأهليّة الجنّة:

التَّعريف في المتَّقين؛ للجنس، وتخصيصهم بالذِّكر؛ تشريفٌ لهم؛ فهم أهل الجنّة المنعّمين بوارف خيراتها، ومديد نعمها.

تخصيص المتَّقين بالذِّكر تشريفٌ لهم

بلاغة الفصل بالاستئناف في الفاصلة:

جملة: ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ استئناف بياني؛ لأن ذكر الجنة عقب ذكر النار الموصوفة بأنها أعدت للكافرين يثير في نفوس السامعين أن يتعرفوا مَنِ الذين أعدت لهم: فإن أريد بالمتقين أكمل ما يتحقق فيه التقوى، فإعدادها لهم لأنهم أهلها الذين لا يلجون النار أصلا فضلا من الله تعالى وعدلا، فيكون مقابل قوله: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِيٓ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ۝١٣١﴾ [آل عمران: 131]، ويكون عصاة المؤمنين غير التائبين قد أخذوا بحظ من الدارين، لمشابهة حالهم حال الفريقين عدلا من الله وفضلا، وبمقدار الاقتراب من أحدهما يكون الأخذ بنصيب منه، وأريد المتقون في الجملة فالإعداد لهم باعتبار أنهم مقدرون من أهلها في العاقبة[1].

فائدة الاستئناف إثارة الشوق لمعرفة الذين أعدّت لهم

بيانُ المتشابه اللفظي:

من المتشابه مع هذه الآية ما ورد في سورة الحديد قوله تعالى:

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/90.

التشابه والاختلاف بين آيتي السورتين

﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا كَعَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ أُعِدَّتۡ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ٢١﴾ [الحديد: 21].

وقد تعرَّض ابن الزُّبير الغرناطيُّ في كتابه (ملاك التَّأويل) لأوجه الاختلاف بين الآيتين على النحو الآتي:

مناسبة اختيار الفعلين في الموضعين مراعاة الترتيب

إنّ المسارعة إلى الشَّيء تكون قبل مسابقته، فقال: "فلمَّا كانت المسارعة والمسابقة على ما ذكر؛ ورد المتقدِّم في التَّرتيب أوَّلًا، والمتأخِّر ثانيًا؛ مراعاة للتَّرتيب"[1]. وهو الذي يتأيَّد بالمعقول، كما تأيَّد بالمنقول: فإنَّ التوجيه بالمسارعة هو للكافَّة والتَّوجيه للمسابقة هو لأولئك المسارعين، فيكون بعده؛ إذ جرَّدهم أوّلًا له، ومرَّنهم عليه، ثم دعاهم؛ ليسابقوا، فهذا دليل ثانٍ.

ناسب جمع السّماء التشبيه البليغ، وناسب إفراده التشبيه بالأداة

وجاء بلفظ ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ جمعا في سورة آل عمران، وبلفظ ﴿ٱلسَّمَآءِ﴾ [الحديد: 21] مفردًا في سورة الحديد؛ فإنَّه في سورة آل عمران أبلغ، فالمبالغة في التَّشبيه تكون بحذف المضاف، أو بجعل الشَّيء نفس الشَّيء، أمَّا في سورة الحديد؛ فجاء التَّشبيه بأداة التَّشبيه، وهي الكاف، فليس فيه من المبالغة ما في سورة آل عمران، قال الغرناطيُّ: "فلمَّا تضمَّنت آية آل عمران من قصد المبالغة من هذه الجهات والقرائن التي ذكرنا ما لم تتضمَّن آية الحديد؛ ناسب ذلك جعل العرض نفس السَّماوات والأرض من غير إفصاح بالمضاف المقدَّر الذي لا بدَّ منه عند بيان المعنى على ما تقدَّم، ولمَّا لم يقصد في آية الحديد ذلك؛ أفصح فيها بما يعطي معنى: مثل، وهي كاف التَّشبيه، وورد كلٌّ على ما يناسب، ويلائم"[2].

وغاير في المعدِّ لهم الأجرُ في الآيتين ففي سورة آل عمران ختم

(1) ابن الزبير، ملاك التأويل: 1/122.
(2) ابن الزبير، ملاك التأويل: 1/124.

بـ ﴿أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ﴾، أمَّا في سورة الحديد فختم بـ ﴿أُعِدَّتۡ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ﴾ [الحديد: 21]؛ لأنّ مقام المتَّقين أعلى رتبة من مقام الذين آمنوا بالله ورسله، فالمتَّقون بلغوا درجة إيمانيَّة عالية جعلتهم من صفوة خلق الله؛ ولذلك كانت التَّقوى شعار المؤمنين، ووصيَّة الله للخلق أجمعين، أوصى بها عباده من النَّبيِّين والأولياء والصَّالحين.

وجه المغايرة في فاصلة الآيتين بيان علوّ رتبة المتقين

وأمَّا التنويه بالمعدِّ لهم في الآيتين؛ إذ اختير لهم تسميتهم ﴿لِلۡمُتَّقِينَ﴾ في الأوَّل، ممَّا غلَّب على الحسبان أن يكونوا أرقى عملًا، وأزكى مِن التعبير بـ (الّذين آمنوا بالله ورسله)؛ فإنَّ هذا يدفعه صحَّة النَّصِّ ودقَّة التّأويل، فأمّا صحَّة النَّصِّ؛ فقد خُتِمَت الآيات الأولى الآمرة بالمسارعة بقوله: ﴿وَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ﴾، فناسبه ذكر ما انتهوا إليه من مراتب، فيها التَّرقِّي في ميدان العمل: تَخْلِيَة وتَحْلِيَة، وتَنْقِيَةً وتَزْكِيَةً، وصلاح سريرة، وإخلاص نجْوى، وتزوُّدًا للآخرة، وخير الزَّاد التّقوى، وقد خُتِمَت الآية الثَّانية الحاضَّة على المسابقة بالتَّلويح بفضل الله: ﴿يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ٢١﴾ [الحديد: 21]، ولا شكَّ أنَّ المعاملة بالفضل فوق المعاملة بالعدل؛ لأنَّ الفضل محْض إكرام وإنعام، واصطفاء واجتباء، وذلك يحمِل، وأصحابُه الخلاصة والرَّحيق والصَّفوة، وفيهم - بحكم المسابقة - منْ يدخلون الجنَّة بغير حساب، فكان الأوْفق له، والألْيق به، أن يكون جاريًا على سنن التَّرقِّي في العطاء، والإكرام والاحتفاء.

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

المُسارعة، والعجلة:

المسارعة مبادرةٌ لإدراك مطلوب، والعجلة هي طلب الشَّيء وتحرِّيه قبل أوانه

المسارعة هي: المبادرة لإدراك مطلوب؛ خوف فوات شيء، كالموت ونحوه، بحيث لا يشغله شيء عن الشَّيء المطلوب له، وهي أمر محمود. والعجلة هي: طلب الشَّيء وتحرِّيه قبل أوانه[1]، وهي

(1) الراغب، المفردات: (عجل).

مذمومة؛ لأنَّ السُّرعة هي: التَّقدم فيما يجوز أن يتقدَّم فيه، وهو محمود، أمَّا العجلة؛ فهي التَّقدُّم فيما لا ينبغي أن يتقدَّم فيه، وهي مذمومة، وضدُّها: الأناة، وهي محمودة[1].

المُسارعة مخصوصة بفرط الرغبة فيما يتعلق بالدين

وقال الرازي: "السرعة مخصوصة بأن يقدم ما ينبغي تقديمه، والعجلة مخصوصة بأن يقدم ما لا ينبغي تقديمه، فالمُسارعة مخصوصة بفَرْط الرغبة فيما يتعلق بالدين، لأن من رغب في الأمر، آثر الفور على التراخي، قال تعالى: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ وأيضا العجلة ليست مذمومة على الإطلاق بدليل قوله تعالى: ﴿وَعَجِلۡتُ إِلَيۡكَ رَبِّ لِتَرۡضَىٰ ٨٤﴾ [طه: 84]"[2].

(1) الآلوسي، روح المعاني: 2/250.
(2) الرّازي، مفاتيح الغيب: 8/334.

﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٣٤﴾ [آل عمران: 134]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الشروع في بيان صفات المتَّقين

بعد التَّمهيد للآيات بالأمر بطاعة الله والرَّسول، ثمَّ الحثِّ على المسارعة إلى مغفرة من الله وجنَّةٍ عرضها السَّماوات والأرض أُعدَّت للمتَّقين، شرع في بيان صفات المتَّقين الذين أعدَّت لهم تلك الجنَّة - وهي صفات بارزة - شروعًا يدعو إليه حال الصِّراع مع الأعداء، وهي: الإنفاق في السَّرَّاء والضَّرَّاء، وكظم الغيْظ، والعفو عن النَّاس، وأنَّ من اتَّصف بتلك الصِّفات، فهو من أهل الإحسان، والله يحبُّ المحسنين. قال الرازيُّ: "اعلم أنَّه تعالى لمَّا بيَّن أنَّ الجنَّة معدَّة للمتقين؛ ذكر صفات المتَّقين حتَّى يتمكَّن الإنسان من اكتساب الجنَّة بواسطة اكتساب تلك الصِّفات"[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يُنفِقُونَ﴾: الإنفاقُ في أصل اللُّغة: يفيد معنى المضيِّ والنَّفاد، ومنه نَفَقَ البيعُ؛ إذا نفِد، واصطلاحًا بمعنى: بذلُ المال وصرفه، والإِنْفَاقُ قد يكون في المَالِ أو بغَيْرِه، وقد يكون واجبًا أو تطوُّعًا، وفي الحديث: "إِنَّكَ لَنْ تُنْفِقَ نَفَقَةً تَبْتَغِي بِهَا وَجْهَ اللَّهِ إِلَّا أُجِرْتَ عَلَيْهَا، حَتَّى مَا تَجْعَلُ فِي فَمِ امْرَأَتِكَ"[2].

وما في القرآن من هذا التركيب - عدا النَّفَق: السَرَب في بطن الأرض - فإنَّ الفعل، (أنفق) وما تصرَّف منه، وكلمة (نفقة)، (نفقات) كلُّ ذلك بمعنى إخراج مالٍ أو غيرِه ممَّا يُملكُ من الحَوْزة،

(1) الرّازي، مفاتيح الغيب: 8/334.
(2) البخاري، صحيح البخاري، الحديث رقم: (56).

وأمَّا الفعل (نافق) وما تصرَّف منه فهو بمعنى إظهار الإسلام مع إبطان الكفر، والمنافق يخالف قولُه فعلَه، وسرُّه علانيتَه[1].

2) ﴿ٱلسَّرَّآءِ﴾: جذر الكلمة (سرَّ)، وهو إِخْفَاءُ الشَّيْءِ، وأخِذ مِنْهُ السُّرُورُ؛ لِأَنَّهُ أَمْرٌ خَالٍ مِنَ الْحُزْنِ، الحالة التي تسرُّ مأخوذة من السُّرور، وهو: ارتياحٌ في القلب عند حصول نفع، أو توقُّعه، أو اندفاع ضرٍّ[2]، وفسَّره الرَّاغب بأنَّه ما ينكتم من الفرح[3]، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَقَّىٰهُمۡ نَضۡرَةٗ وَسُرُورٗا ١١﴾ [الإنسان: 11]، أي: نضرة في الوجوه، وسرورًا في القلوب. وقال في أهل النار: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فِيٓ أَهۡلِهِۦ مَسۡرُورًا ١٣﴾ [الانشقاق: 13]، تنبيهًا على أنَّ سُرُورَ الآخرة يضادُّ سرور الدُّنيا، وسمِّيَ السَّرِيرُ الذي يجلس عليه أخذًا من السُّرور؛ إذ كان ذلك لأُولي النِّعمة، وجمعه أَسِرَّةٌ، وسُرُرٌ، قال تعالى: ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٖ مَّصۡفُوفَةٖۖ﴾ [الطور: 20]، ﴿فِيهَا سُرُرٞ مَّرۡفُوعَةٞ ١٣﴾ [الغاشية: 13].

3) ﴿وَٱلضَّرَّآءِ﴾: جذر الكلمة (ضَرَر)، ألحقَ به أذًى أو مكروهًا، وكذا ضرَّ به، وأضرَّه، وبه، وضارَّه، من الحالة التي تضرُّ، وهو في أصل اللُّغة: ضدُّ النَّفع،، وهو بمعنى: الشدَّةِ وسوءِ الحال، إمَّا في نفسه؛ لقلَّة العلم والفضل والعفَّة، وإمَّا في بَدَنه؛ لعدم جارحة ونقص، وإمَّا في حالة ظاهرة؛ من قلَّة مال وجاه[4].

4) ﴿وَٱلۡكَٰظِمِينَ﴾: الكظم، بمعنى: الحبس، قال ابن فارس: "الكاف والظَّاء والميم: أصل صحيح يدلُّ على معنًى واحد، وهو الإمساك والجمع للشَّيء، من ذلك الكظم: اجتراع الغيظ، والإمساك عن إبدائه، وكأنَّه يجمعه الكاظم في جوفه"[5]، وذكر السَّمين الحلبيُّ أنَّ الكظم معناه: أن يحبس غيظه، وهو قادر على الإيقاع بعدوِّه[6]، ومنه الحديث: "مَن كَظَمَ غَيظًا وهو قادِرٌ على أنْ يُنْفِذَه، دَعاهُ اللهُ على رُؤوسِ الخَلائقِ حتى يُخَيِّرَه مِن أيِّ الحُورِ شاءَ"[7].

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، والسّمين، عمدة الحفاظ، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (نفق).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، وإبراهيم أنيس وآخرون، المعجم الوسيط: (سرر).
(3) الراغب، المفردات (سرر).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (ضر).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (كظم).
(6) السمين، عمدة الحفاظ: (كظم).
(7) الحديث رواه أبو داود، برقم: (4777)، والترمذي، الحديث رقم: (2021)، وابن ماجه، الحديث رقم: (4186)، وأحمد، الحديث رقم: (15637) واللفظ له.

5) ﴿ٱلۡغَيۡظَ﴾: يدلُّ معنى الغيظ في أصل اللُّغة على كَرْب يلحق الإنسان من غيره[1]، وهو: أشدُّ أنواع الغضب، والغضب: هيجان في الطَّبع، قال الرَّاغب: " الغَيْظُ: أشدُّ غضب، وهو الحرارة التي يجدها الإنسان من فَوَرَان دم قلبه"[2]، فالغيظ أخصُّ من الغضب، فكلُّ غيظ غضب، وليس كلُّ غضب غيظًا[3].

6) ﴿وَٱلۡعَافِينَ﴾: أصل العفو في اللُّغة هو: الكفُّ عمَّا لا يحلُّ له، ولا يجمل به، والتَّرْكُ وَالإِسْقَاطُ[4]، ومعناه اصطلاحًا: السَّمَاحُ وَالصَّفْحُ وَعَدَمُ المُعَاقَبَةِ، والقصد لإزالة الذَّنب، يقال: عفوت عنه؛ إذا قصدت إزالة ذنبه[5]، وَسُمِّيَ السَّمَاحُ وَالصَّفْحُ عَفْوًا؛ لِإِسْقَاطِ العُقُوبَةِ عَلَى صَاحِبِها وَمَحْوِهَا عَنْهُ. والمعنى: التَّاركين عقوبة من استحقَّ المؤاخذة والعقاب، وزاد البعض؛ إذا لم يكن في ذلك إخلال بالدِّين[6].

7) ﴿يُحِبُّ﴾: ذكر ابن فارس أنَّ لكلمة المحبَّة ثَلَاثَةَ أُصُول، وهي: اللُّزُومُ، وَالثَّبَاتُ، وَالْحَبَّةُ مِنَ الشَّيْءِ ذِي الْحَبِّ، وَوَصْفُ الْقِصَرِ[7]، إلا أنَّ كلمة المحبَّة هي: بمعنى الميل إلى الشَّيء الموافق، وأصله الثَّبات واللُّزوم، وفسَّرها الرَّاغب بقوله: "إرادة ما تراه، أو تظنُّه خيرًا". والمَحَبَّةُ: المَيْلُ إلى الشَّيْءِ السَّارِّ، وهي اسْمٌ للحُبِّ، والحُبُّ: الوِدادُ، ونَقِيضُه: البُغْض، يُقال: تَحَبَّبَ إليه، أيْ: تَوَدَّدَ إليه. وهي هنا صِفَةٌ للّه ﷻ، ويُراد بها: صِفَةٌ فِعْلِيَّةٌ اخْتِيارِيَّةٌ ثابِتَةٌ للّهِ ﷻ على المعنى اللائق به سُبْحَانَهُ؛ فهو يُحِبُّ ويُحَبُّ[8].

8) ﴿ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾: الإحسان أصله: الحُسْنُ: وهو عبارة عن كلِّ مبهج مرغوب فيه، وهو بمعنى: النقاء بخروج الخشن أو الغليظ، والإحسان: يقال على وجهين: أحدهما: الإنعام على الآخرين، يقال: أحسن إلى فلان، والثاني: إحسان في فعله، وذلك؛ إذا علم علمًا حسنًا، أو عمل عملًا حسنًا[9]. وكلُّ ما جاء في القرآنِ من هذا التركيبِ فأصلُه من

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (غيظ).
(2) الراغب: المفردات: 1/109.
(3) السَّمين، عمدة الحفَّاظ، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (غيظ).
(4) الفيروزابادي، القاموس المحيط: (عف).
(5) الراغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (عفو).
(6) الآلوسي، روح المعاني: 2/273.
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حب).
(8) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن سيده، المحكم، والراغب: المفردات: (حب)، والجامي، الصفات الإلهية، ص: 276.
(9) الراغب، المفردات (حسن).

النَّقاء الظَّاهريِّ والباطني، ويفسَّر بالطيِّب المستحلَى، أو المستحبِّ صورةً كان، أو مُقامًا، أو قولًا، أو عملًا، أو أداءً، أو تصرفًا، ومعاملة مع الناس[1].

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

المتَّقون: هم الذين يبذلون أموالهم في حالتي اليسر والعسر، ويمسكون أنفسهم من الانتقام من غيرهم، ويتجاوزون عمَّن ظلمهم، والله يحبُّ المحسنين المتَّصفين بمثل هذه الأخلاق.

الإِيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغة الافتتاح بذكر الإنفاق:

الإنفاق أشقُّ شيء على النّفس وأدله على الإخلاص

وافتتح بذكر الإنفاق في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾؛ "لأنه أشقّ شيء على النّفس وأدله على الإخلاص، ولأنه كان في ذلك الوقت أعظم الأعمال للحاجة إليه في مجاهدة العدو ومواساة فقراء المسلمين"[2].

بدأ وصف المتقين بالإنفاق مقابلته بالرّبا الذي نهي عنه في الآية السابقة

(أحدهما) مقابلته بالرّبا الذي نهي عنه في الآية السابقة؛ فإن الربا هو استغلال الغني حاجة المعوز وأكل ماله بلا مقابل، والصّدقة إعانة له وإطعامه ما لا يستحقه فهي ضدّ الرّبا، ولم يرد في القرآن ذكر الرّبا إلا وقُبِّحَ، ومدحتْ معه الزكاة والصَّدقة كما قال في سورة الروم: ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَاْ فِيٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُواْ عِندَ ٱللَّهِۖ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٖ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ ٣٩﴾ [الروم: 39] وفي سورة البقرة: ﴿يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِي ٱلصَّدَقَٰتِۗ﴾ [البقرة: 276].

إنّ الإنفاق في السّراء والضّراء أدلّ على التقوى

إنّ الإنفاق في السّراء والضّراء أقوى في الدلالة على التّقوى، وأشقّ على النفوس، وأنفع للبشر من سائر الصفات والأعمال،

(1) جبل، المعجم الاشتقاقي: (حسن).
(2) الزمخشري، الكشاف: 1/415.

فإنّ المال عزيز على النفس؛ لأنه الآلة لجلب المنافع والملذّات، ودفع المضار والمؤلمات، وبذله في طرق الخير والمنافع[1].

سرُّ التّعبير بالاسم الموصول:

وجه التّعريف بالاسم الموصول تعليل الاستحقاق بالمغفرة والجنَّة

بعد الحديث عن الجنَّة ذكرَ أهلها، بيَّن أنَّ من صفاتهم الإنفاق وكظم الغيظ والعفو عن النَّاس، وجاء التَّعريف بالاسم الموصول في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾؛ لتعليل استحقاقهم المغفرة والجنَّة التي أعدَّها الله للمتَّقين، أي: علَّة إدراجهم في سلك المتَّقين.

نكتة تخصيص الإنفاق في السَّراء والضَّرَّاء:

ملازمة الإنفاق في هذين الحالين تدلُّ على أنَّ محبَّة نفع الآخرين قد صارت لهم خُلقًا

الإنفاق في السَّرَّاء والضَّرَّاء، أي: في حالتي الفرح والحزن، قال ابن عاشور: "وكأنَّ الجمعَ بينهما هنا؛ لأنَّ السَّرَّاء فيها ملهاة عن الفكرة في شأن غيرهم، والضَّرَّاء فيها ملهاة وقلَّة موجدة، فملازمة الإنفاق في هذين الحالين تدلُّ على أنَّ محبَّة نفع الآخرين بالمال الذي هو عزيز على النَّفس، قد صارت لهم خُلقًا، لا يحجبهم عنه حاجب، ولا ينشأ ذلك إلا عن نفس طاهرة"[2].

بلاغة الطباق في لفظي السّراء، والضّراء:

في الطباق تجلية لأحوال الإنسان وتقلُّبِه في دول الأيَّام بما يكون تذكرة له

الإنفاق في السَّرَّاء والضَّرَّاء، أي: في اليسر والعسر، وهو طباقٌ، وفيه جناس لاحق؛ لأن الحرفين المختلفين غير متقاربي المخرج. و﴿ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾ حالتان يتقلَّب فيها الإنسان في جميع الأحوال، أي: أنَّهم رغبوا في المعاملة مع الله، وأنفقوا أموالهم تقرُّبًا إليه سبحانه، فلم يبطرهم الرَّخاء، فينسيهم فضل الله ورحمته، ولم تمنعهم الشِّدَّة، وما يضرُّهم، فيبخلوا بما أعطاهم الله سبحانه[3] ووصف المتقين بالإنفاق في السراء والضراء على طريق الطباق؛

(1) رضا، تفسير المنار: 4/109.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/91.
(3) ابن الجوزي، زاد المسير: 9/366.

أدلُّ على التقوى لمشقّته على النفوس، وأظهر لنا قيمة الطِّباق بين اللَّفظين المتضادَّين بالوصفين؛ تجليةَ أحوال الإنسان، وتقلُّبَه في دول الأيَّام بما يكون تذكرةً له، مانعة من الرُّكون إلى ما تؤثره حالة من الحالات العارضة؛ ليؤدِّي واجب عبادة الله في الوقت الّذي يكون متلبِّسًا به، كالشُّكر في السَّرَّاء، والصَّبر في الضَّرَّاء، وابتغاء مرضاة الله على كلِّ أحيانه وأحواله.

بلاغة المقابلة في لفظي السّرّاء والضرّاء:

اختير اللفظان المختلفا التقابل ليدلّ كلُّ واحدٍ على مُقابِله

في لفظي السّرّاء والضرّاء في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾ " إشارةٌ إلى حالي السّعة والضّيق، كاليسر والعسر، وإلى حالي السرور والاغتمام، وقد فُسر بهما. واللفظ يتناولهما، فإن السراء يقابلها الغم، والضراء يقابلها النفع، فأخذ اللفظان المختلفا التقابل ليدل كل واحد على مقابله، وهذا من دقائق إيجازات البلاغة، فمن نظر إلى معنى السراء قال السرور والغم، ومن نظر إلى معنى الضراء قال النفع والضر"[1].

بلاغة صيغة المضارع ﴿يُنفِقُونَ﴾:

في المضارعيّة استحضارٌ للمشهد، وبيانٌ لتجدد الإنفاق

والتَّعبير بصيغة المضارع في ﴿يُنفِقُونَ﴾؛ استحضارٌ لصورة المشهد، وبيان لتجدُّدِ إنفاقهم في كلِّ حال. فحيثما كان الإنفاق أمرًا متجدِّدًا؛ عبَّر عنه بما يفيد الحدوث والتَّجدُّد من بناء[2].

بيانُ الإيجاز بحذف مفعول ينفقون:

دلالة حذف المفعول شمول كلِّ ما يصلُح للإنفاق

وحذف مفعول ينفقون؛ ليتناولَ كلَّ ما يصلُح للإنفاق أو متروكٌ بالكلية كما في قولك يُعطي ويمنَع[3].

بيانُ صيغة اسم الفاعل ﴿وَٱلْكَٰظِمِينَ﴾:

العدول إلى صيغة الفاعل؛ للدَّلالة على ثبوت صفة الكظم بهم،

(1) الراغب، تفسير الراغب: 2/586.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 2/85.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 2/85.

ودوامها فيهم، وأنّ الكظم فيهم هو بمنزلة الحاصل الثابت المستقِرّ. أمَّا الإنفاق؛ فحيثما كان أمرًا متجدِّدًا؛ عبَّر عنه بما يفيد الحدوث والتَّجدُّد[1]. ويفيد التَّهيُّؤ للتحلِّي بذلك الخلق كلَّ حين، ولبذله لمن ساقته أقداره إليه، لدلالة اسم الفاعل على الاستقبال، وأنَّهم ربُّوا أنفسهم عليه، واستعدُّوا له.

أفـــاد اسـم الفاعل الدَّلالة على ثبوت صفة الكظم بهم، ودوامها فيهم

حُسن اختيار لفظ الغيظ دون الغضب:

الغَيْظُ في قوله: ﴿وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ﴾ هو أشدُّ أنواع الغضب، والغضب: هيجان في الطَّبع، قال الرَّاغب: "الغَيْظُ: أشدُّ غضب، وهو الحرارة التي يجدها الإنسان من فَوَرَان دم قلبه"[2]. فالغيظ أخصُّ من الغضب، فكلُّ غيظ غضب، وليس كلُّ غضب غيظًا[3]. فـ" كظم الغيظ: إمساكه وإخفاؤه حتى لا يظهر عليه، وهو مأخوذ من: كَظَمَ القِرْبَة؛ إذا ملأها، وأمسك فمها، قال المبرِّدُ: فهو تمثيل للإمساك مع الامتلاء، ولا شكَّ أنَّ أقوى القوى تأثيرًا على النَّفس القوَّة الغاضبة، فتشتهي إظهار آثار الغضب، فإذا استطاع إمساك مظاهرها مع الامتلاء منها؛ دلَّ ذلك على عزيمة راسخة في النَّفس، وقهر الإرادة للشَّهوة، وهذا من أكبر قوى الأخلاق الفاضلة"[4].

الـغـيـظُ أخـصُّ مـن الـغـضـب بـوصـفـه أشـدَّ أنواعه

توجيه مصدريّة لفظ ﴿ٱلۡغَيۡظَ﴾:

و﴿ٱلۡغَيۡظَ﴾: مفعول به لاسم الفاعل ﴿وَٱلۡكَٰظِمِينَ﴾، وجاء التَّعبير به بصيغة المصدر؛ لإفادة المبالغة؛ لما يفيده المصدر من قوة الحدث.

التّعبير بالمصدر قصدٌ إلى المبالغة

بلاغة الاستعارة في جملة كظم الغيظ:

في قوله تعالى: ﴿وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ﴾ استعارةٌ؛ إذ شبّه امتناعهم

فـي الاستـعـارة بـيـانٌ لـشـدّة منعهم الغيظ بتشبيهه بربط الـسّـقـاء لمنع خروج مافيه

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 2/85.
(2) الراغب، المفردات: (غيظ).
(3) السَّمين، عمدة الحفَّاظ: (غيظ).
(4) ابن عاشور: التحرير والتنوير: 4/91.

من إنفاذ الغيظ برباط من خيطٍ على سقاءٍ ليمنعه من خروج ما فيه، فأصل الكظم ملءُ السّقاء ماءًا ثم الشدُّ على فمه بكظامه[1].

توجيه التّعبير عن العفو باسم الفاعل:

التعبير باسم الفاعل يفيد تمكُّن الصِّفة من الموصوف حتى أصبحت اسمًا له

العفو هو: القصد لإزالة الذَّنب، ومعناه هنا، أي: التَّاركين عقوبة من استحقَّ المؤاخذة والعقاب؛ إذا لم يكن في ذلك إخلال بالدِّين[2]. والتَّعبير بصيغة اسم الفاعل في قوله: ﴿وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ﴾ دون الفعل؛ لأنَّ العفو أشبه بالكظم منه بالامتلاء[3]، كما يفيد تمكُّن الصِّفة من الموصوف حتى أصبحت اسمًا له؛ فوصف العفو ثابتٌ فيهم، دائمٌ، مستقرٌّ.

علّة الجمع بين صفتي التَّقوى والإحسان:

وجهُ الجمع بين الإحسان والتَّقوى؛ بيانُ وجوب تحقُّقهما

جُمع بين صفتي الإحسان والتَّقوى؛ لبيان وجوب تحقُّق هذين الوصفين لنيل المغفرة والجنَّة الموعودة، فالتَّقوى باعتبار الأصل وصف لترك المنكرات، والإحسان – من حيث دلالته على معنى: "أنْ تعبد اللّه كأنَّك تراه، فإنْ لمْ تكنْ تراه؛ فإنَّه يراك"[4] وبمراقبة اللّه وحده وابتغاء وجهه بالعمل – يخلص إلى أنه وصف لفعل الخيرات.

بيان التعبير بالجملة الاسمية:

اسميّة جملة الفاصلة ترسيخ لمحبّة الله للمحسنين

وجيء بالجملة الاسميَّة في قوله: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ لإفادة العموم، وثبات محبّة اللّه تعالى، ودوامها.

بلاغة الجمع بين المضارع، واسم الفاعل في الفاصلة:

ونصَّصَ على الحبّ، لأنَّه يبلِّغُ منازلَ لا يبلِّغُها العمل، وأمَّا صيغة المضارعة؛ فللإغراء الدّائم لبلوغ رتبة الإحسان وأنَّ الدّخول في سلْكه والانتظام في أهله ممكن، وأنّ استقبال أهل هذه المنزلة دائم

(1) الإندونيسي، الشامل في بلاغة القرآن: 194.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 2/273.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 2/273.
(4) أخرجه البخاري، حديث رقم: 50، ومسلم، حديث رقم: 9.

لا ينقطع، مستمرٌّ لا يتوقَّف. وأردف دلالة الدوام والاستمرار في حب المحسنين ببيان العليّة من خلال صيغة الفاعليّة، وجمع الذكور الدّالين في هذا الموضع على العموم، ورسوخ صفة الإحسان فيهم، وثباتها صنيعًا ملازمًا لهم.

دوام الحبّ الإلهيّ، برسوخ صفة الإحسان، ودوامها

وجه التعبير بلفظ المحسنين:

قال أبو السعود: "عبَّر عنهم بالمحسنين إيذانًا بأنَّ النُّعوتَ المعدودةَ من باب الإحسانِ، الذي هو الإتيانُ بالأعمال على الوجه اللائقِ الذي هو حسنُها الوصفيُّ المستلزِمُ لحسنها الذاتيِّ"

إيثارُ لفظ المحسنين إشارةٌ إلى أنّ حُسْنَ الأعمال الوصفيَّ مستلزِمٌ حُسنَها الذاتيَّ

دلالة (أل) التعريف في لفظ ﴿ٱلْمُحْسِنِينَ﴾:

الواو استئنافيَّة، و﴿ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ في قوله: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ من الإحسان، والمحسنون هم الذين أحسنوا مع الله: في العبادة، ومع الخلق: في المعاملة. وأل التعريف في ﴿ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ يجوز أن تكون للجنس، فيدخل فيه كلُّ محسن من هؤلاء وغيرهم، ويجوز أن تكون للعهد، فيخصُّ بهؤلاء المذكورين في الآية، والأوَّل أولى، أي: أن تكون للجنس، فيدخل فيه المذكورون في الآية، ويدخل فيه غيرهم، قال أبو السعود: " اللَّام: إمَّا للجنس؛ وهم داخلون فيه دخولًا أوَّليًّا، وإمَّا للعهد"[1].

يجوز في أل الجنسيّة، فيدخل فيه كلُّ محسن من هؤلاء وغيرهم، ويجوز فيها العهديّة، فيخصُّ المذكورين في الآية

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

العفو والصَّفح والمغفرة، والحلم:

أصل المغفرة، بمعنى: السَّتر والتَّغطية، فهي تفيد معنى: إخفاء الذَّنب وعدم المؤاخذة به، مع بقاء أثره. أمَّا العفو؛ فهو ترك معاقبة من يستحقُّ، وذلك بإزالة أثر الذَّنب، فالعفو من الله تعالى: هو التَّجاوز عن الذُّنوب وعَنِ العقاب عليها، والعفو من العباد بعدم ذكرها وتناسيها.

المغفرة إخفاء الذَّنب وعدم المؤاخذة به، والعفو تركُ معاقبة من يستحقُّ، وذلك بإزالة أثر الذَّنب

(1) أبو السعود، تفسير أبي السعود: 2/86.

أمَّا الصَّفح؛ فهو أن يُعْطيَ الصافحُ المذنبَ صفحة وجهه إعراضًا، ولازمه ترك التَّثريب والتَّأنيب على ما صُفِح عنه لأجله، فالعفو: ترك عقوبةِ المذنب، والصَّفحُ - على قول الرّاغب - تركُ التَّثريب، وهو أبلغ من العفو؛ وقد يعفو الانسان ولا يصفح، وعلى قول البيضاوي: العفو ترك عقوبةِ المُذنب، والصفحُ: ترك لومه.

ويدل عليه قوله تعالى: ﴿فَٱعۡفُواْ وَٱصۡفَحُواْ﴾ [البقرة: 109]؛ ترقيًا في الأمر بمكارم الأخلاق من الحسن إلى الأحسن، ومن الفاضل إلى الأفضل[1].

والصّفْحُ: هو التّجاوُزُ عن ذَنْبِ المُذْنِبِ ومُسامَحَتُهُ، والإعْراضُ عن إساءَتِهِ بإزالَةِ أَثَرِ الذّنْبِ مِن النّفْسِ كالبُغْضِ وحُبِّ الانْتِقامِ ونحوِ ذلك، وتَرْكِ عُقُوبَتِهِ بِقَوْلٍ كاللّوْمِ والعِتابِ، أو بِفِعْلٍ كالضّرْبِ ونَحْوِهِ. والصّفْحُ قِسْمانِ: مَحْمودٌ، وهو الصّفْحُ عن المُخْطِئِ إن كان في العَفْوِ عنه مَصْلَحَةٌ، ومنه: الصَّفْحُ عن عَثَراتِ الإخوانِ، وتَرْكُ تَأنيبِهِم عليها. مَذْمومٌ، وهو الصَّفْحُ في غَيْرِ مَحَلِّهِ؛ فلا يَصْفَحُ حيث اقْتَضَى المَقامُ العُقُوبَةَ، كعُقُوبَةِ المُعْتَدِينَ الظَّالِمِينَ الذين لا يَنْفَعُ فِيهِم إلّا العُقُوبَة[2].

"والفرق بين الحلم والعفو، أن الحلم راجع إلى حال الإنسان في نفسه، والعفو إلى ما بينه وبين غيره، وإن كان قلَّما ينفك أحدهما عن الآخر"[3].

الحلم راجع إلى حال الإنسان في نفسه، والعفو إلى ما بينه وبين غيره

المحبَّة والمودَّة والخلَّة:

المحبَّة: تعني الميل إلى الشَّيء الموافق، ويقترب من معناها: المودَّة والخُلَّة. وقد استعمل القرآن لفظ المودَّة، وهو أعمق من لفظ المحبَّة،

(1) الراغب، المفردات: (صفح)، والعسكري، الفروق اللغوية: 362.
(2) الخليل، العين (صفح)، والكفوي، الكليات، ص: 562، والمناوي، التوقيف، ص: 217، وابن القيم، بدائع الفوائد: 1/168.
(3) الراغب، تفسير الراغب: 3/861.

فهو يعني: محبَّة الشَّيء مع تمنِّي كونه، ويستعمل في كلِّ واحدٍ من المعنيين، على أنَّ التمنِّي يتضمَّن معنى الودِّ؛ لأنَّ التمنِّي هو تشهِّي حصول ما تودُّه[1].

ومن ألفاظ المحبَّة: لفظ الخُلَّة، وذلك إذا بلغت المحبَّة أن تخلَّلت في نفس المحبِّ، وخالطت جميع أجزاء جسده، وخلا لَهُ صاحبُهُ حتَّى أفرده بالمحبَّة، فيكون قد بلغ مرتبة الخُلَّة، وقد اتَّخذ الله إبراهيم خليلًا، وسمِّي: خليل الرحمن، فقال تعالى: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبۡرَٰهِيمَ خَلِيلٗا ١٢٥﴾ [النساء: 125]، أن جعله صفوةً له، وخصَّه بمعجزاته، والخُلة من العبد كمالُ المحبة المستلزمة منه كمالَ العبودية لله، ومن الرب - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - كمالُ الربوبية لعباده الذين يحبُّهم، ويحبونه، وهذه صفة فعْل للرَّحْمن الرّحيم، لا تُتَأَوَّل، ولا يُتكلَّم فيها بكيْف، ويؤمَن بها، وتقرُّ كسائر ما قال الله عن نفسه؛ إيمانًا بالله، كما جاء عن الله على مراد الله، وإيمانًا بالله كما جاء عن رسول الله على مراد رسول الله[2].

(1) الراغب، المفردات: (ودد).

(2) ابن تيمية، رسالة العبودية، ص: 24، وابن القيم، روضة المحبين، ص: 47، والقنوجي، فتح البيان: 3/250.

﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ١٣٥﴾ [آل عمران: 135]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

ندبُ اللهِ إلى المسارعة للتوبة والاستغفار

بعد أن ذكرت الآيةُ السابقةُ أنَّ من صفات المتقين الإنفاقَ في السَّرَّاء والضَّرَّاء وكظمَ الغيظ والعفوَ عن الناس؛ ذكرت هذه الآيةُ أنَّ من صفات المتَّقين - أيضًا - أنَّهم إذا وقعوا في معصية تذكَّرُوا مباشرة أوامر الله سبحانه، فاستغفروا لذنوبهم، ولم يُصِرُّوا على خطئهم، فسارعوا إلى التَّوبة والاستغفار؛ لأنَّ المُذْنِبَ إذا تابَ عَنِ الذَّنْبِ صارَ حالُهُ كَحالِ مَن لَمْ يُذْنِبْ قَطُّ في اسْتِحْقاقِ المَنزِلَةِ والكَرامَةِ عِنْدَ اللَّهِ، ولَمَّا نَدَبَ تَعالى في الآيَةِ الأُولى إلى الإحْسانِ إلى الغَيْرِ، نَدَبَ في هَذِهِ الآيَةِ إلى الإحْسانِ إلى النَّفْسِ، فَإنَّ المُذْنِبَ العاصِيَ إذا تابَ، كانَتْ تِلْكَ التَّوْبَةُ إحْسانًا مِنهُ إلى نَفْسِهِ[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَٰحِشَةً﴾: الفاء والحاء والشِّين: كلمةٌ تدلُّ على قبحٍ في شيء وشَناعة، ومن ذلك: الفحش والفحشاء والفاحشة، يقولون: كلُّ شيء جاوز قدره، فهو فاحش، ولا يكون ذلك إلَّا فيما يُتكرَّه، وأفحش الرجلُ؛ إذا قال الفحش[2]، والفاحشة: ما عظم قبحه من الأفعال والأقوال، وكثيرًا ما تَرِدُ بمعنى الزِّنى، وأصله: مجاوزة الحدِّ في السُّوء، ويمكن أن تطلق على غيره، كالبخيل ونحوه؛ لأنَّ نفس

(1) الرّازي، مفاتيح الغيب: 9/368.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (فحش).

البخيل مشحونةٌ بمشاعر حادَّةٍ قبيحةٍ نحو الآخرين[1] وإذا ورد معنى الفاحشة بأنَّه الذَّنب الكبير؛ فإنَّ ظلم النَّفس: هو الذَّنب الصَّغير.

2) ﴿ظَلَمُوٓاْ﴾: الظُّلْمُ عند أهل اللُّغة وعند كثير من العلماء: هو وضع الشَّيء في غير موضعه المختصِّ به؛[2] إمّا بنقصان أو بزيادة، وإمَّا بعدول عن وقته أو مكانه، والظُّلْمُ: يقال في مجاوزة الحقِّ الذي يجري مجرى نقطة الدَّائرة، ويقال فيما يكثر، وفيما يقلُّ من التَّجاوز؛ ولهذا يستعمل في الذَّنب الكبير، وفي الذَّنب الصَّغير[3].

3) ﴿ذَكَرُواْ﴾: الذِّكر: خلاف النِّسيان[4]، وهو هيئة للنَّفس بها يمكن للإنسان أن يحفظ ما يقتضيه من المعرفة، وهو كالحفظ، إلَّا أنَّ الحفظ يقال؛ اعتبارًا بإحرازه، والذِّكر يقال؛ اعتبارًا باستحضاره، وتارة يقال لحضور الشَّيء: القلب أو القول؛ ولذلك قيل: الذِّكْر ذِكْرَان: ذِكْرٌ بالقلب، وذِكْرٌ باللسان، ومن ذِكْر القلب ذكرٌ من نسيان، وذِكْرٌ لا عن نسيان، بل عن إدامة حفظ[5].

ومعنى ﴿ذَكَرُواْ ٱللَّهَ﴾: أيْ: تَذَكَّرُوا حَقَّهُ العَظِيمَ ووَعِيدَهُ، أوْ ذَكَرُوا العَرْضَ عَلَيْهِ، أوْ سُؤالَهُ عَنِ الذَّنْبِ يَوْمَ القِيامَةِ أوْ نَهْيِهِ أوْ غُفْرانِهِ، أو ذَكَرُوا جَمالَهُ فاسْتَحْيَوْا، وجَلالَهُ فَهابُوا، أو ذَكَرُوا ذاتَهُ المُقَدَّسَةَ عَنْ جَمِيعِ القَبائِحِ وأحَبُّوا التَّقَرُّبَ إلَيْهِ بِالمُناسِبَةِ لَهُ بِالتَّطْهِيرِ مِنَ الذَّمائِمِ[6].

4) ﴿فَٱسْتَغْفَرُواْ﴾: الاستغفار هو: طلب المغفرة، في اللغة، بمعنى: السَّتر[7]، وهو يستعمل في ستر الذُّنوب وعدم المؤاخذة بها، وطلب الاستغفار بعدم المؤاخذة عن الذَّنب لا يصدر إلَّا عن ندامة ونيَّة الإقلاع عن الذَّنب، وعدم العودة إليه؛ لذلك كان الاستغفار في مصطلح، بمعنى: التَّوبة[8]، وإلَّا لم يكن له معنًى أن يستغفروا ولا نيَّة للإقلاع، ولا ندم على ما فرط منه.

(1) الراغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل (فحش).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ظلم).
(3) الراغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل (ظلم).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ذكر).
(5) الراغب، المفردات: (ذكر).
(6) الآلوسي، روح المعاني: 2/275.
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (غفر).
(8) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/92.

5) ﴿لِذُنُوبِهِمۡ﴾: كلمة الذَّنب، بمعنى: المعصية، وأصله: الأخذ بذَنَبِ الشَّيء، أي: مؤخَّرته، وصار يستخدم في كلِّ فعل يستوخم عاقبته، ولأصل هذه الكلمة في اللُّغة عدَّة معانٍ[1]، وذكر الرَّاغب: أنَّ الذَّنب يستخدم لما يستوخم عقباه؛ اعتبارًا بذنب الشَّيء، وكلُّ ما في القرآن من هذا التركيب فهو (ذَنْب) وجمعه (ذُنوب)، بمعنى الإثم والجُرْم والمعصية[2].

6) ﴿وَلَمۡ يُصِرُّواْ﴾: الإصرار من الصَّرِّ، وهو الشَّدُّ، ومعناه: العزم على الشَّيء والثَّبات عليه،[3] وذكر الراغب: أنَّه التعقُّد في الذنب، والتشدُّد فيه، والامتناع عن الإقلاع عنه[4]، وفي معنى الإصرار: ذكر ابن الجوزيِّ أنَّ للمفسِّرين ثلاثة أقوال: الأوَّل: مواقعة الذنب عند الاهتمام به، والثَّاني: أنَّه الثُّبوت عليه من غير استغفار، والثَّالث: ترك الاستغفار منه[5]، والأولى بالاعتبار في معنى الإصرار هو: الإقامة على الذَّنب من غير استغفار، فإنَّ الاستغفار يمحو الذَّنب.

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

يذكر اللّٰه اعتذارَ المحسنين لربِّهم من جِناياتهم وذُنوبهم، وهم الذين إذا ارتكبوا ذنبًا كبيرًا، أو ظلموا أنفسهم بارتكاب ما دونه؛ ذكروا وعدَ اللّٰه ووعيدَه، فلجؤوا إلى ربِّهم تائبين، طالبين ستر ذنوبهم، وعدم مؤاخذتهم بها، مع إقلاعهم عنها وندمهم عليها؛ فإنَّه لا يغفر الذُّنوب إلَّا اللّٰه، ولم يُصِرُّوا على ذنوبهم، وهم يعلمون أنَّهم مذنبون، وأنَّ اللّٰه يغفر الذنوب جميعًا[6].

❁ الإِيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغة الوصل في الآية:

قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ﴾ مرفوع على الابتداء، أو معطوف على ما قبله من صفات المتَّقين،

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ذنب)
(2) الراغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل (ذنب).
(3) السمين، عمدة الحفاظ: (صرر).
(4) الراغب، المفردات: (ص).
(5) ابن الجوزي، زاد المسير: 1/417.
(6) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 67، ونخبة من العلماء، التفسير الميسر، ص: 67.

والعطف هو الأولى؛ لدلالة السِّياق عليه، أي: إذا فعلوا ذنبًا كبيرًا أو صغيرًا؛ ولإنزال التَّغاير في الصّفات منزلة التَّغاير في الذَّات، وهو أبلغ من تركه؛ لأنَّ العطف يوهم التَّغاير.

أوثـرَ العطف لدلالة السِّياق عليه؛ ولإنزال التَّغاير في الصّفات منزلة التَّغاير في الذَّات

بيان عطف الظُّلم على الذَّنب:

وفي عطف ﴿ظَلَمُوٓاْ﴾ على ﴿فَٰحِشَةً﴾ في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ﴾ من عطف العام على الخاص[1]؛ تدرّجًا في الخطاب؛ مراعاةً لحال المخاطب، وطبيعته البشريّة.

عطف العام على الخاص تدرّجٌ في الخطاب

وجه إفراد الفاحشة وتنكيرها:

إفرادُ لفظ الفاحشة من عموم المعاصي؛ للتَّنبيه على قبحها، وتنكيرُها؛ لتهويل شأنها تحذيرًا منها[2]. واستغراقًا لأنواعها، وتعبيرًا عن عمومها.

الإفـرادُ تنبيهٌ عـلى قبحها، وتـنـكـيرُها؛ تـهـويـلٌ منها وتـحـذيـرٌ، واستغراقٌ

الفرق بين الفاحشة وبين ظلم النفس:

فرّقوا بين الفاحشة وبين ظلم النفس من وجوه: الأول: الفاحشة ما يكون فعله كاملا في القبح، وظلم النفس: هو أيّ ذنب كان مما يؤاخذ الإنسان به. والثاني: أن الفاحشة هي الكبيرة، وظلم النفس. هي الصغيرة، الثالث: الفاحشة: هي الزنا، وظلم النفس: هي القبلة واللمسة والنظرة، وهذا على قول من حمل الآية على السبب الذي رويناه، ولأنه تعالى سمى الزنا فاحشة، فقال تعالى: ﴿وَلَا تَقۡرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً﴾ [الإسراء: 32][3].

الفـاحـشـة من كبائر الذنوب، وظـلـم الـنّـفس من صغائرها

بلاغة الإيجاز في قوله: ﴿ذَكَرُواْ ٱللَّهَ﴾:

معنى: ﴿ذَكَرُواْ ٱللَّهَ﴾، أي: بألسنتهم عند الذُّنوب، أو استحضروه بقلوبهم، فتذكَّرُوا حقَّه العظيم وجلاله الموجب للخشية والحياء، أو

أوجـزَ مستغنيًا بالمذكور ليجمع معنيي الدعاء بـالـلـسـان، واسـتـحـضـار القلب

(1) المطعني، بلاغة الاستفهام في القرآن الكريم: 1/181.
(2) المطعني، بلاغة الاستفهام في القرآن الكريم: 1/181.
(3) الزمخشري، الكشاف: 1/416، والرّازي، مفاتيح الغيب: 9/368.

ذكروا وعيده وعقابه[1]، لكنَّ اعتبار أنَّ ذكرهم بالقلب هو الأولى والأنسب؛ لأنَّه الذي يتفرَّع عنه طلب المغفرة[2]. وهذا فيه إيجاز بالحذف؛ ليجمع المعنيين، ويحثّ على التوجّهين.

نكتة العطف بالفاء في: ﴿فَٱسۡتَغۡفَرُواْ﴾:

في العطف بالفاء؛ حثٌّ على سرعة التوبة، وبيانُ فضلِ الاستغفار

والفاء في قوله: ﴿فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ﴾؛ للدَّلالة على أنَّ ذكرَه تعالى مستتبعٌ للاستغفار لا محالة[3]، وأنّ قوام الذكر الاستغفارُ، وفي العطف بالفاء؛ حثٌّ على سرعة التوبة، والرجوع إلى الله.

بلاغة الاستفهام:

دلالة الاستفهام إنكار ونفي؛ لتوهُّم الوقوع عند من يقع عنده هذا التَّوهُّم

الاستفهام في قوله: ﴿وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ هو للإنكار والنَّفي، والتَّعريف للجنس، أي: لا يغفرُ جنسَ الذُّنوبِ كبيرها وصغيرها أحدٌ إلَّا الله. ودلالة الاستفهام على النَّفي بهذه الصِّيغة أبلغُ وأقوى؛ لإيذانه بأنَّ كلَّ أحدٍ ممَّن له حظٌّ من الخطاب يعرِف ذلك الانتفاءَ، فيسارعُ إلى الجواب به، والمرادُ به: وصفُه سبحانه بغاية سَعةِ الرَّحمةِ وعمومِ المغفرةِ[4].

وهذا الإنكار أوالنَّفي، لا لإنكار الواقع ونفيه، ولا لإنكار الوقوع، ولكنَّه إنكار ونفي؛ لتوهُّم الوقوع عند من يقع عنده هذا التَّوهُّم؛ إذ لا أحد من النَّاس يدَّعي غفران الذنوب[5].

فائدة صيغة المضارع تجدُّد المغفرة من الله، ودوامها

فائدة التعبير عن المغفرة بالمضارع:

وصيغة المضارع ﴿يَغۡفِرُ﴾ في قوله: ﴿وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾؛ للدلالة على تجدُّد المغفرة من الله، ودوامها لمن يُقبلُ عليه بها.

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 2/86.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/92.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 2/86.
(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 2/86.
(5) المطعني، بلاغة الاستفهام في القرآن الكريم: 1/181.

بلاغة إظهار لفظ الذُّنوب في موقع الإضمار:

في إظهار لفظ الذنوب، مطامنةٌ، وتعريضٌ، وأنَّه تعالى لا يتعاظمه غفرانُ ذنبٍ

أظهر لفظ الذُّنوب في موضع الإضمار، فلم يقل: ومن يغفرها، عناية بشأنها[1]، ولمطامنة العبد أنَّها لو بلغت عنان السماء، ثمَّ لقي اللّه لا يشرك به شيئًا للقِيَهُ اللّه بِقُرابها مغفرة، ولبيان أنَّ اللّه لا يبالي بها بالة؛ رفْعًا للإصر عن عبده، وأنَّه لا يتعاظمه ذنب أن يغفره، وهذا كالأوَّل دائر في فلكه، وفي الآية تعريض بمن يدَّعون مثل ذلك من رجال الكهنوت وعلماء النصرانية، ولو أنَّه أضمر هنا لم يلزم أن يكون معنيًّا به جميع المتقدم ذكره مما جمعته الآية في بيانها المعجز: ﴿فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ﴾؛ إذ جائز أن يحمل على أحدهما منفردًا، وليقابل استغفارهم منها مظهرة ذلك الاستغفار النَّاشئ عن ذكرهم اللّه، بغفرها لهم مظهرة؛ ليكون لهم كمال الإجابة وحصول المأمول على نحو ما دعوا به دون خفاء؛ ولأنَّهم أظهروها ذكرًا أمامه خائفين وَجِلين، فكان من إفاضة الأمن عليهم أن يذكرها لهم مغفرة، والقرآن مليء بالأسرار.

سرُّ تأخير نفي الإصرار على الاستغفار:

العناية بالمسارعة للاستغفار وعدم الإصرار على الذَّنب

أعقبَ ﴿وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾. أي: ولم يقيموا على ذنوبهم غير مستغفرين، والواو في قوله: ﴿وَلَمۡ يُصِرُّواْ﴾ عاطفة أو حاليَّة، فتكون عاطفة على الاستغفار، أي: فاستغفروا، ولم يصرُّوا، وفيه تأخيرٌ لذكر عدم الإصرار على الاستغفار، علمًا أنَّ عدم الإصرار ينبغي أن يكون متقدِّمًا في الرُّتبة؛ وذلك لإظهار الاعتناءِ بشأن الاستغفارِ واستحقاقِه للمسارعة إليه عَقيبَ ذكرِه تعالى.[2].

حاليّة الواو بيانٌ لعلمهم بقبح المعصية، وأنَّ لهم ربًّا يغفرها

أو أنَّ الواو حاليَّة، أي: غيرَ مقيمين، وجملة: ﴿وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾ جملة حاليَّة، أي: عالمون بقبحه، وأنَّها معصية، وأنَّ لهم ربًّا يغفرها[3].

(1) الدبل، دليل البلاغة القرآنية: 1/547.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 2/87.
(3) القنوجي، فتح البيان: 2/335.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغۡفِرَةٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَجَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ ١٣٦﴾ [آل عمران: 136]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

ذكر الجزاء بعد الحثّ على المسارعة إلى الاستغفار ترغيب، وتكريم

بعد أن بدأت الآيات الثَّلاثة التي قبل هذه الآية بالدَّعوة إلى المسارعة إلى مغفرة الله، وجنَّةٍ أعدَّها الله للمتَّقين الموصوفين: بالإنفاق في السَّرَّاء والضَّرَّاء، وكظم الغيظ، والعفو عن النَّاس، والذين إن وقع منهم ذنب أو خطأ؛ سارعوا إلى الاستغفار، ولم يصرُّوا على معصية، أعْلَمَ اللهُ بِجَزائِهِمُ الَّذِي سارَعُوا إلَيْهِ مِنَ المَغْفِرَةِ؛ والجَنَّةِ؛ مُشِيرًا إلَيْهِمْ بِأداةِ البُعْدِ؛ تَعْظِيمًا لِشَأْنِهِمْ، فهؤلاء جزاؤهم مغفرة من ربِّهم، وجنَّاتٌ تجري من تحتها الأنهار، وهم فيها خالدون متنعِّمون[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿جَزَآؤُهُم﴾: الجزاء في الأصل، يدلُّ على قِيَامِ الشَّيْءِ مَقَامَ غَيْرِهِ وَمُكَافَأَتِه إيَّاهُ[2]، ومعناه: المكافأةُ على الشيء، بعامَّة في الخير والشر، ويَصْدُق في الثواب والعقاب، ويطلق على ما فيه الكفايةُ من المقابلة، إن خيرًا؛ فخير، وإن شرًّا؛ فشرٌّ، يقال: جزيته كذا وبكذا، قال تعالى: ﴿فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلۡحُسۡنَىٰۖ﴾ [الكهف: 88]، ومنه الجِزيةُ: ﴿حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ﴾ [التوبة: 29]، وهي المال الذي يؤخذ من أهل الذمَّة مقابلَ حمايتهم، وتوفير الخدمات المجتمعية لهم[3].

2) ﴿وَجَنَّٰتٞ﴾: جمع، مفردها: جنَّة، وأصلها: جنَّ، بمعنى: ستر الشَّيء عن الحاسَّة، ومنه قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيۡهِ ٱلَّيۡلُ﴾ [الأنعام:

(1) البقاعي، نظم الدرر: 5/75.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (جزي).
(3) الراغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل (جزى).

76]، أي: ستره، وغطَّاه بظلامه، ومن ذلك: الجِنُّ والجِنَّة، وهم نوع من المخلوقات لا تراهم الأعين البشريَّة، والجَنَّة: الحديقة ذات الأشجار، سمِّيت بذلك؛ لأنَّ كثافة فروع الشجر المرفوعة فيها تَجُنُّ، أي تُظِلُّ وتستر من يسير أثناءها، وتستر الأرض وتغطِّيها[1].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

أولئك المتَّصفون بتلك الصِّفاتِ الحميدةِ والخصالِ المجيدة، ثوابُهم أن يستر الله ذنوبهم، ويتجاوز عنها، ولهم في الآخرة جنَّاتٌ تجري من تحتها الأنهار، مقيمين فيها أبدًا، فيها النعيمُ المقيمُ، والبهجةُ والبهاءُ، والخيرُ والسرورُ، ونِعمَ أجرُ العاملين المغفرةُ والجنَّة[2].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغة الفصل في الآية:

في العدول إلى الفصل في قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغۡفِرَةٞ مِّن رَّبِّهِمۡ﴾ استئناف للتَّوبة بسداد عملهم، من الاستغفار وقبول الله منهم.

تفخيم أمر المغفرة من الله تعالى

بلاغة التَّعبير باسم الإشارة:

في التَّعبير عنهم باسم الإشارة التي للبعيد ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾؛ للإشعار ببعد منزلتهم، وتعظيمها، وعلوِّ طبقتهم في الفضل عند الله تعالى[3].

في الإشارة تفخيم أمر المغفرة من الله تعالى

بديع التّعبير عن الخبر بالجملة الاسميّة:

الجزاء في الأصل بمعنى: الكفاية، ومعناه: ما فيه الكفاية من المقابلة، إن خيرًا؛ فخير، وإن شرًّا؛ فشرٌّ[4]. وخبر: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ جملة:

اسميّة الجملة ثباتٌ لجزاء المغفرة، وتصريحٌ بتحقّقها

(1) الراغب، المفردات، والسمين، عمدة الحفاظ، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (جنن).
(2) نخبة من العلماء، التفسير الميسر، ص: 67.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 2/87.
(4) الراغب، المفردات: (جزا).

﴿جَزَآؤُهُم مَّغۡفِرَةٞ﴾، وهو يفيد التَّأكيد؛ لمجيء الخبر جملة اسميَّة، وفي اسميّة الجملة ثباتٌ لجزاء المغفرة، وتصريحٌ بتحقّقها

تنكير لفظ مغفرة منوّنةً:

وجه التنكير إفادةُ التَّعميم، والتَّفخيم

تنوين ﴿مَّغۡفِرَةٞ﴾ مفيد للتَّعميم، والتَّفخيم وهو اللائق بمديد مغفرة الله تعالى، وواسع رحماته، وعظيم عفوه.

نكتة إضافة لفظ الربّ إليهم:

علّة الإضافة التشريفُ، وكمال الرِّعاية، والعناية، والتكريم

وإضافة كلمة (ربِّ) إليهم، فقال: ﴿مِّن رَّبِّهِمۡ﴾؛ للتَّشريف والتَّكريم، قال أبو السُّعود: " والتَّعرُّض لعنوان الرُّبوبيَّة مع الإضافة إلى ضميرهم، للإشعار بعلَّة الحكم والتَّشريف"[1]. وقد انطوى في ذلك الدَّلالة على مزيد العناية وكمال الرِّعاية وحسن التَّوفيق وشُمُول الألطاف الإلهيَّة المبلِّغة هذا المبلغ من الفوز والاحتفاء.

براعة تفخيم أمر الجنَّة:

جمع الجنَّات، تشويقُ النَّفس إلى حقيقتها، وحثٌّ على صالح الأعمال الموصلة إليها

الواو في قوله: ﴿وَجَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ﴾ عاطفة على قوله: ﴿مَّغۡفِرَةٞ﴾، و﴿وَجَنَّٰتٞ﴾ جمعٌ، مفردها: جنَّة، وسُمِّيت بذلك؛ لأنَّ الشَّجر يستر الأرض، ويغطِّيها[2]؛ وعلّة استحضارها جمعًا تشويقُ النَّفس إلى التورُّد فيها، والاستمتاع بها، والظّفر بالخلود فيها؛ لأنَّه من أكبر المحثِّثات على العمل الصّالح والصّبر على مكارهه ومشاقِّه.

بلاغة المجاز العقلي في صورة جريان الأنهار:

التعبير بجريان الأنهار دون مائها تفخيم لشأن الجنّة

في قوله تعالى: ﴿وَجَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ﴾ مجاز عقلي، حيث أُسند الفعل الى غير فاعله الحقيقي، فالجاري هو الماء وأسند إلى الأنهار بعلاقة مكانية[3]. والتعبير بجريان الأنهار

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 2/87.
(2) السمين، عمدة الحفاظ: (جنن).
(3) الإندونيسي، الشامل في بلاغة القرآن: 195.

دون مائها تفخيم لشأن الجنّة بكسرها سِياقَ المعهود من الحقائق، والمألوف من التصوّرات.

براعة استحضار صورة الخلود في جناته:

استحضار صورة الجنّة العجيبة، والبشارة بدوام الخلود فيضٌ من عطاءات الخالق سبحانه

جملة ﴿وَجَنَّٰتٌ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ﴾ صفة لجنَّات، وصيغة المضارع ﴿تَجۡرِي﴾؛ لاستحضار صورتها العجيبة، وكأنها مشاهدةٌ؛ بدوام جريان الأنهار فيها دونما انقطاع. والخلود: هو تبرِّي الشَّيء من اعتراض الفساد، وبقاؤه على الحالة التي هو عليها، والخلود في الجنَّة: بقاء الأشياء على الحالة التي عليها، من غير نقصٍ يعتري نعيمَها، وملاذَّها، وحُسنَها، وروْحَها[1]. وعبر عنه باسم الفاعل للدلالة على رسوخ صفة الخلود فيهم، بدوام مكثهم في جناته منعّمين، مكرّمين بما لا عين رأت، ولا أذنٌ سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

بلاغة اختيار لفظ الأجر للجزاء:

في التعبير بالأجر مزيد التَّرغيب في الطَّاعات والزَّجر عن المعاصي

(نِعْمَ): كلمة تستعمل في المدح، بإزاء (بئس) في الذمِّ[2]. وفي قوله: ﴿وَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ﴾ تعبيرٌ عن المغفرة والجنَّات بالأجر المشعر بأنَّهما يُستحقَّان بمقابلة العمل، وإن كان بطريق التفضُّل لمزيد التَّرغيب في الطَّاعات والزَّجر عن المعاصي[3]، وذكر ابن عاشور حكمة تسميته: أجرًا؛ لأنَّه كان عن وعد للعامل بما عمل[4].

وفي لفظ الأجر تأكيد معنويٌّ للخلود في النّعيم المقيم

وفيه تأكيد معنويٌّ للخلود في النّعيم المقيم؛ لأنَّه إذا كان أجرًا؛ لم يكن لأحد عدل أن يمنعهم منه، فيبقى لهم بإزاء بقائهم فيه، وهو تطييب بذكر الامتنان المُحثِّث على مزيد من الشكران والعرفان والإقبال على الطَّاعات دون توانٍ.

---

(1) الراغب، المفردات: (خلد).
(2) الراغب، المفردات: (نعم).
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 2/87.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/95.

فائدة التعريف في لفظ ﴿ٱلۡعَٰمِلِينَ﴾:

التَّعريف للعهد على أنّه نعم الأجر للعامل، ويحتمل كونه لبيان كمالهم

والتَّعريف في العَامِلِينَ للعهد، أي: ونعم أجر العاملين هذا الجزاء، بمعنى: إذا كان لأصناف العاملين أجور، كما هو متعارف، فهذا نعم الأجر للعامل[1]، ويحتمل كونه لبيان كمالهم، أي: العاملين الكُمَّل بتخلِّيهم عن الرذائل وتحلِّيهم بالفضائل على وفق الأمر والنَّهْي والاهتداء.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/95.

﴿قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِكُمۡ سُنَنٞ فَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ١٣٧﴾ [آل عمران: 137]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

تسلية المؤمنين بيوم أُحد بالاعتبار بأحوال الأمم الماضية

ضرب القرآن الكريم المثلَ فيما حصل للأمم الماضية من أحوال المطيعين والعاصين، بالتمهيد لإعادة الكلام على ما كان يوم أحد، وما بينهما استطرادٌ، وهذا مقدَّمة التَّسلية والبشارة الآتيتين، ابتدئت هذه المقدَّمة بحقيقة تاريخية، وهي الاعتبار بأحوال الأمم الماضية[1]. قال الرَّازيُّ: " اعلم أنَّ الله تعالى لمَّا وعد على الطَّاعة، والتَّوبة من المعصية الغفرانَ والجنَّاتِ، أتبعه بذكر ما يحملهم على فعل الطَّاعة وعلى التَّوبة من المعصية، وهو تأمُّل أحوال القرون الخالية من المطيعين والعاصين"[2].

في مشاهدة مصارع الماضين الأشدّ خلقًا، والأقوى هممًا، والأكثر عددًا مبلغُ الاعتبار، ومنتهى العظة

قال البقاعيُّ: " ولمَّا فرغ من بيان الزَّلل الذي وقع لهم به الخلل، والتَّرهيب ممَّا يوقع فيه، والتَّرغيب فيما ينجِّي منه في تلك الأساليب التي هي أحلى من رائق الزُّلال، ولذيذِ الوصال، بعد طول المطال، أخذ يشجِّعهم على الجهاد لذوي الفَساد، فبدأ بالسَّبب الأقوى، وهو الأمر بمشاهدة مصارعِ مَن مضى من المكذِّبين برؤية ديارهم وتتبُّع آثارِهم، مع أنَّهم كانوا أشدَّ خَلْقًا وأقوى هِممًا وأكثر عَددًا وأحكم عُدَدًا"[3].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿خَلَتۡ﴾، بمعنى: مضت، وانقرضت، وأصل الخلوِّ في اللُّغة:

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/95.
(2) الرّازي: مفاتيح الغيب: 9/369.
(3) البقاعي: نظم الدرر: 5/76.

يدلُّ على تعرِّي شيء عن شيء، والمكان الخالي: هو المنفرد عمَّن فيه، فالخُلُوُّ بمعنى: الانفراد[1]، ويستعمل أيضًا في الزَّمان، بمعنى: المضيِّ؛ لأنَّ ما مضى انفرد عن الوجود، وخلا عنه[2].

2) ﴿سُنَنٌ﴾: السُّنَّة في أصل اللُّغة بمعنى: الطَّريقة، ويشير أصلها إلى: جريان الشَّيء واطِّراده في سهولة، واشتُقَّ منها السُّنَّة بمعنى: السِّيرة، والمراد بالسُّنن: ما سنَّهُ اللّه في الأمم الماضية من وقائعه، أي: قد خلت من قبلُ في غير زمانكم وقائعُ سنَّها اللّه في الأمم المكذِّبة بالهلاك والاستئصال، لأجل مخالفتهم الأنبياء، فالسُّنَّة بمعنى: الطَّريقة، والجمع سنن، والمعنى: وسنَّة اللّه، أي: طريقة شرائعه، وسنَّة النَّبيِّ ﷺ: طريقته التي كان يتحرَّاها[3].

3) ﴿فَٱنظُرُواْ﴾: النَّظر في اللغة هو: تأمُّل الشيء ومعاينته، وذكر الرَّاغب أنَّ النَّظَر: تَقْلِيبُ البَصَرِ والبصيرةِ لإدرَاكِ الشَّيءِ ورؤيَتِهِ، وقد يُرادُ به التَّأَمُّلُ والفَحْصُ، وقد يراد به المعرفةُ الحاصلةُ بعد الفَحْصِ، وهو الرَّوِيَّةُ، يقال: نَظَرْتَ، فلم تَنْظُرْ، أي: لم تَتَأَمَّلْ، ولم تَتَرَوَّ[4]. والمعنى: فتأمَّلوا، وتفكَّروا، والنَّظر هو: تقليب البصر والبصيرة لإدراك الشَّيء ورؤيته.

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

لَمَّا ابتُلي المؤمنون بما نزل بهم يوم أحدٍ؛ أَخْبرَ تعالى عبادَه المؤمنين وسلَّاهم، بأنه قد مَضَى قبلهم أجيالٌ وأممٌ كثيرة ابتُلِي المؤمنون منهم بقتال الكافرين، فكانت العاقبةُ لهم، فسيروا في الأرض معتبرين بما آل إليه أمرُ أولئك المكذِّبين باللّه وبرسله؛ إذ قد خَوت ديارُهم، وتبيَّن لكلِّ أحد خسرانُهم، وذهب عزُّهم وملكُهم، وزال بذَخُهم وفخرُهم[5].

(1) ابن فارس، معجم مقاييس اللغة: (خلو).
(2) القنوجي، فتح البيان: 2/337.
(3) السَّمين، عمدة الحفَّاظ، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (سنن).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (نظر).
(5) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 67، ونخبة من العلماء، التفسير الميسر، ص: 67.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغة الفصل في الآية:

وجه الاستئناف تسليةُ المؤمنين، والتمهيدُ لإعادة الكلام اعتبارًا وعظةً

قوله تعالى: ﴿قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِكُمۡ سُنَنٞ﴾ استئنافٌ فيه تسلية للمؤمنين عما أصابهم من الحزن والكآبة، وتمهيدٌ لإعادة الكلام على ما كان يوم أحد. عظةً، واعتبارًا ما حصل فيها.

بلاغة افتتاح الآية بـ ﴿قَدۡ﴾:

في تحقيقيّة (قد) بيانٌ لسنّة الله في زوال الظّالمين، وأنَّ العاقبة للمتّقين

وحرف ﴿قَدۡ﴾ في قوله: ﴿قَدۡ خَلَتۡ﴾ يفيد التَّحقيق؛ إذا دخل على الفعل الماضي، وهي في الجملة الفعليَّة المجاب بها القسم، مثل: إنَّ، واللام في الاسميَّة المجاب بها في إفادة التَّوكيد. وجيء بحرف ﴿قَدۡ﴾ الدالِّ على تأكيد الخبر، تنزيلًا لهم منزلة من ينكر ذلك، لمَّا ظهر عليهم من انكسار الخواطر من جرَّاء الهزيمة الحاصلة لهم من المشركين، مع أنَّهم يقاتلون لنصر دين الله، وبعد أن ذاقوا حلاوة النَّصر يوم بدر، فبيَّن الله لهم أنَّه جعل سنَّة هذا العالم أن تكون الأحوال فيه سجالًا ومداولةً، وذكَّرهم بأحوال الأمم الماضية[1].

بلاغة التَّعبير في الحثِّ على السَّير في الأرض:

دلالة السَّير في الأرض دون قراءة الكتب للاعتبار بالأمم الماضية

جملة ﴿فَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ١٣٧﴾ معطوفة على ما قبلها، والتَّسبيب في هذه الألفاظ ظاهر، أي: سبب الأمر بالسَّير؛ لينظروا نظر اعتبار خُلُوَّ من قبلكم من الأمم وطرائقهم، ويمكن أن تكون الفاء للشَّرط؛ لأنَّ المعنى: إن شككتم؛ فسيروا[2]، والأولى: هو القول الأوَّل؛ لظهور المعنى ومناسبة السِّياق. والسَّيْر: هو المضيُّ في الأرض؛ إمَّا سيرٌ على الأرض بالأقدام، أو سيرٌ في إجالة الفكر بالاعتبار؛ فيكون المعنى: سيروا بأقدامكم أو بأفهامكم.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/96.
(2) السمين، الدر المصون: 3/400.

بلاغة المجاز المرسل في جملة السير في الأرض:

الأمـــر بالسير هنا مجاز عن التفكر، وهو من تشبيه المعقول بالمحسوس

في قوله تعالى: ﴿فَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ﴾ مجاز مرسل باعتبار ما يؤول إليه أمر السير؛ لإن الأمر بالسير والنظر وإن كان خاصا بالمؤمنين لكن العمل بموجبه غير مختص بواحد دون واحد ففيه حمل للمكذبين أيضا على أن ينظروا في عواقب من قبلهم من أهل التكذيب ويعتبروا. وهذا من قبيل المجاز المرسل والعلاقة في هذا المجاز ما يؤول إليه أمر السير في الأرض من التفكّر، فهو من تشبيه المعقول بالمحسوس[1].

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

النَّظر وغيره من ألفاظ الرُّؤية:

استخدم القرآنُ في ألفاظ الرُّؤية البصرَ والنَّظرَ والرُّؤيةَ ونحوها، وإليك بيانَها؛ ليتَّضح بالتَّحديد معنى النَّظر خلالَ موازنتها بما يرادفها من ألفاظ.

فالنَّظر - كما سبق - هو: "تَقْلِيبُ البَصَرِ والبصيرةِ لإدرَاكِ الشَّيءِ ورؤيَتِهِ، وقد يُرادُ به التَّأَمُّلُ والفَحْصُ، وقد يراد به المعرفةُ الحاصلةُ بعد الفَحْصِ، وهو الرَّوِيَّةُ، يقال: نَظَرْتَ، فلم تَنْظُرْ، أي: لم تَتَأَمَّلْ، ولم تَتَرَوّ"[2]، ومما يشبه النظر في المعنى:

أولاً: البصر:

البصر: اسم للرُّؤية، وقد يُطلق على العين مجازًا؛ بوصفها أداةَ الإبصار، ويسمَّى العلم بالشَّيء - إذا كان جليًّا - بصرًا[3]، وذكر الرَّاغب الأصفهانيُّ أنَّ البصر يقال للجارحة النَّاظرة، وللقوَّة التي فيها، ويقال لقوة القلب المدركة: بصيرة وبصر، وجمعُ البصر: أبْصار، وجمع البصيرة: بصائرُ[4].

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 3/351، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 2/88، وصافي، الجدول: 4/316.
(2) الراغب، المفردات: (نظر).
(3) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 65.
(4) الراغب، المفردات: (بصر).

ثانيًا: الرُّؤية:

الرُّؤية: هي معاينة المرئيِّ وتمييزُه، سواء كان بالبصر - وهو الأصل في الاستعمال - أو بالقلب، والرؤية البصريَّة تحتاج إلى مفعول واحد، فإذا عُدِّي فعل النَّظر بـ (إلى)؛ اقتضى معنى النَّظر المؤدِّي إلى الاعتبار، أمَّا الرُّؤية القلبيَّة؛ فتتعدَّى لأكثر من مفعول، وتقتضي معنى العلم، ولعلَّه يفيد معنى الظنِّ، وعدَّ أبو هلال العسكريُّ أنَّ الرُّؤيةَ في اللُّغة على ثلاثة أوجه: أحدها: العلم، والثَّاني: بمعنى الظَّنِّ، واستعمال الرُّؤية في هذين الوجهين مجازٌ، أمَّا الوجه الثَّالث؛ فهو رؤية العين، وهي حقيقة[1]، أمَّا الرَّاغب الأصفهانيُّ، فعدَّ الرُّؤية أضربًا، بحسب قوى النَّفس: الأوَّل: الحاسَّة وما يجري مجراها، والثَّاني: بالوهم والتَّخيُّل، والثَّالث: بالتَّفكُّر، والرَّابع: بالعقل[2].

ثالثًا: الطَّرْف:

الطَّرْفُ: يَدُلُّ عَلَى حَدِّ الشَّيْءِ وَحَرْفِهِ، أي: جانب الشَّيء، ومن ذلك قَوْلُهُمْ: عَيْنٌ مَطْرُوفَةٌ؛ وَذَلِكَ أَنْ يُصِيبَهَا طَرَفُ شَيْءٍ ثَوْبٍ أَوْ غَيْرِهِ فَتَغْرَوْرِقَ دَمْعًا، ويَدُلُّ الطَّرْفُ - أيضًا - عَلَى حَرَكَةٍ فِي العينِ، وَهُوَ تَحْرِيكُ الْجُفُونِ فِي النَّظَرِ. هَذَا هُوَ الْأَصْلُ ثُمَّ يُسَمُّونَ الْعَيْنَ الطَّرْفَ مَجَازًا، ويعبَّر به عن النَّظر؛ إذ كان تحريكُ الجفن لازمَه النَّظر[3]، وطَرف بَصَرَه، بمعنى: أطبق أحدَ جَفْنَيه على الآخر، فالجفن غطاء العينِ فهو كالنهاية المتدلية، وإطباق الجفن إيقاف للنظر كالإنهاء أيضًا. والطَّرْف: العين الباصرة، ومنه قوله: ﴿لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ﴾ [إبراهيم: 43]، أي: لا ترجع إليهم أبصارُهم من شدَّة النظر، فهي شاخصة النظر[4]. وقالوا: الطوارف: العيون، كقوله تعالى: ﴿وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ ۝٤٨﴾ [الصافات: 48]، أي: يقصرن نظرهنَّ على من هُيِّئْنَ له، ولا تجد منهنَّ أيَّ نظرة ولو جانبيَّة لغير أزواجهنَّ.

رابعًا: اللَّمح:

واللَّمح: هو النَّظر بسرعة، أي: الرُّؤية الخاطفة، يقال: لمحته في مكان كذا، أي: رأيته رؤية خاطفة، وعدَّ الرَّاغب أنَّ اللَّمح بمعنى: الوضوح، فقال: "اللَّمح: لمعان البرق، ورأيته

(1) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 75.
(2) الراغب، المفردات: (رأى).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (طرف).
(4) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 9/377، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (طرف).

لمحة البرق، ويقال: لأرينَّك لمحًا باصرًا، أي: أمرًا واضحًا"[1]، إلَّا أنَّ اعتبار اللَّمح هو النَّظرة السَّريعة أولى، ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَمۡرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٞ كَلَمۡحِۭ بِٱلۡبَصَرِ ۝٥٠﴾ [القمر: 50]، أي: السَّاعة أو جميع الأمور كلمحة واحدة سريعة، كلمح البصر في سرعته.

(1) الراغب، المفردات: 1/647.

﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ١٣٨﴾ [آل عمران: 138]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الخير في الاعتبار بمصير الأمم الماضية

هذه الآية تذييل لما سبق من وجوب المسارعة إلى مغفرةٍ من الله وجنَّة عرضها السَّماوات والأرض، وأنَّ في ذلك الفلاح والنَّجاح، وأنَّ الأمم السَّابقة التي كذَّبت رسلها قد أهلكها الله سبحانه وتعالى، وأنَّ على الإنسان أن يعتبر بذلك، وفي هذا الأمر بيان وهدًى وموعظة للمتَّقين الذين يعتبرون بما حصل لتلك الأمم، وما يجب عليهم أن يتمسَّكوا به.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿بَيَانٌ﴾، البيان هو: الإيضاح[1]، يقال: بان واستبان وتبيَّن، والبيِّنة: هي الدَّلالة الواضحة، عقليَّة كانت أو حسِّيَّة، فالبيان هو الكشف عن الشَّيء، وهو أعمُّ من النُّطق؛ لأنَّ النُّطق مختصٌّ بالإنسان، ويسمَّى ما بُيِّن به: بياناً[2].

2) ﴿وَهُدًى﴾: أصل معنى الهداية هو: التَّقدُّم للإرشاد، كقَوْلهمْ: هَدَيْتُهُ الطَّرِيقَ هِدَايَةً، أَيْ تَقَدَّمْتُهُ لِأُرْشِدَهُ. وَكُلُّ مُتَقَدِّمٍ لِذَلِكَ هَادٍ؛ لأنه يَقْدُم القومَ نحو وجهتِهم ليدلَّهم[3] وذكر الرَّاغب أنَّها: دلالة بلطف، وخُصَّ ما كان دلالة بهَدَيت، وما كان إعطاء بأَهديت، يُقَالُ: أَهْدَيْتُ أُهْدِي إِهْدَاءً.

وما كان منه في جانب البشر فهو بمعنى الإرشادِ والبَيانِ والدَّلالةِ بلُطْفٍ إلى ما يُوصِلُ إلى المَطْلوبِ، كقوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بين).
(2) الراغب، المفردات: (بان).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (هدي).

صِرَٰطٍ مُّسۡتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾﴾ [الشورى: 52]، وما كان من الله تعالى فهو الدلالة والتوفيق كقوله: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴿٦﴾﴾ [الفاتحة: 6]، و﴿وَقَدۡ هَدَىٰنَا سُبُلَنَاۚ﴾ [إبراهيم: 12]: دلَّنا عليها ووفَّقنا إليها[1].

3) ﴿وَمَوۡعِظَةٌ﴾: الوعظ في اللغة، بمعنى: التخويف[2]، والموعظة من الوعظ، وهو: زجر مقترن بتخويف[3]، وذلك أنَّ المتَّقين هم الذين ينزجرون عمَّا في ذلك من النَّواهي، ويتجنَّبون ما نُهُوا عنه.

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

هذا الذي أوضحتُ لكم وعرَّفتكموه من تذكيري للمؤمنين، وتعريفِهم حدودَ الله، وحضِّهم على لزوم طاعتِه والصبرِ على جهادِ أعدائِه وأعدائهم، أو هذا القرآنُ بيانٌ وإرشادٌ إلى طريق الحق، وهذه الموعظةُ في وجوب التمثُّل بالتَّقوى، والنَّظر في عواقب الأمم الماضية التي أُهْلِكت، تذكيرٌ وموعظة للمؤمنين المتَّقين الذين يخشَوْن ربَّهم، وهذه الموعظةُ لهم؛ لأنَّهم المنتفعون بها دون غيرهم[4].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغة الفصل في الآية:

قوله تعالى: ﴿هَٰذَا بَيَانٞ لِّلنَّاسِ وَهُدٗى وَمَوۡعِظَةٞ لِّلۡمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾﴾ "تذييل يعمُّ المخاطبين الحاضرين ومن يجيء بعدهم من الأجيال"[5]. وفيه: "حثّهم على النظر في سوء عواقب المكذبين قبلهم والاعتبار بما يعاينون من آثار هلاكهم"[6].

عـــــدل إلى الفصل تذييلا يعمُّ المخاطبين وخالفيهم، ليحثّهم على الاعتبار بسوء عواقب المكذبين

(1) الراغب، المفردات: (هدي)، والجرجاني، التعريفات، ص: 277، والمناوي، التوقيف، ص: 343، والكفوي، الكليات، ص: 952، والسَّفَّاريني، لوامع الأنوار: 1/50، والحَكَمي، معارج القبول: 1/75.

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (وعظ).

(3) الراغب، المفردات: (وعظ).

(4) ابن جرير، جامع البيان: 6/74، ونخبة من العلماء، التفسير الميسَّر، ص: 67.

(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/97.

(6) الزمخشري، الكشاف: 1/418.

بلاغة التَّعبير باسم الإشارة للقريب:

والتَّعبير باسم الإشارة القريب ﴿هَٰذَا﴾؛ لبيان قرب المتحدَّث عنه، ووضوحه. وهو" يعني القرآن وقيل هو اسم إشارة إلى ما تقدم من أمره ونهيه ووعده ووعيده"[1]. فهو إشارة " إما إلى ما تقدّم بتأويل المذكور، وإما إلى حاضر في الذهن عند تلاوة الآية وهو القرآن"[2]..

في التعبير باسم الإشـــارة بيـانٌ لقرب المتحدَّث عنه، ووضوحه

توجيه التَّعريف في ﴿لِّلنَّاسِ﴾:

التَّعريف في ﴿لِّلنَّاسِ﴾ للعهد أو للجنس، فإن كان للعهد؛ فيكون البيان لمكذِّبي عصر النُّبُوَّة الأخيرة الخاتمة وحدهم دون المتقدِّمين زمانًا عليهم، أمَّا الهدى والموعظة؛ فهي للمؤمنين، وإن كان للجنس، فيكون البيان لجميع النَّاس: مؤمنهم وكافرهم، أمَّا الهدى والموعظة؛ فهي للمتَّقين وحدهم[3].

عهديّة التعريف تـخـصـيـص البيان بمكذّبي عـصـر الـنُّـبُـوَّة، وجنسيّته بيان لجميع النَّاس

بلاغة تقديم البيان للنَّاس:

قُدّم (البيانُ للناس) بوصفه بيانًا للمكذِّبين - في توجيه عهديّة اللام في الناس - مع أنَّه غيرُ مَسوق له على كونه هدًى وموعظةً للمتَّقين مع أنَّه المقصودُ بالسِّياق؛ لأنَّ أوَّل ما يترتَّب على مشاهدة آثارِ هلاكِ أسلافِهم ظهورُ حالِ أخلافِهم[4].

أوَّل ما يترتَّب عـلى مشاهدة آثـــارِ هـلاكِ الأسلافِ ظهورُ حالِ الأخلافِ

نكتة تخصيص البيان للنَّاس:

تخصيصُ البيانِ للنَّاس مع شموله للمتَّقين - أيضًا - لما أنَّ المرادَ به مجرَّدُ البيانِ العاري عن الهدى والعظةِ، والاقتصار عليهما في جانب المتَّقين مع ترتُّبهما على البيان؛ لما أنَّهما المقصِدُ الأصليُّ[5].

تخصيص البيان لـلـنَّـاس؛ لأنَّ المـرادَ بـه مجرَّدُ البيانِ العاري عـــن الـهـدى والعظةِ

(1) الخازن، لباب التأويل: 1/424.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/97.
(3) القنوجي، فتح البيان: 2/338.
(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 2/88.
(5) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 2/88.

أنزل القرآنُ بيانًا للعامّة والخاصّة، ولهذا قال: ﴿لِّلنَّاسِ﴾؛ لأنه ما من ذي فكرة استمع إليه إلا حصل منه بيان ما[1].

إيثارُ لفظ (للناس)؛ لأنه تعالى جعل القرآن بيانًا للعامّة والخاصّة

سرُّ تخصيص المتَّقين بالهدى، والموعظة:

الموعظة من الوعظ، وهو: زجرٌ مقترنٌ بتخويف[2]. والمتَّقون هم الذين ينزجرون عمَّا في ذلك من النَّواهي، ويتجنَّبون ما نهوا عنه، فينتفعون بها؛ لذلك خصَّهم تعالى بالموعظة؛ لأنَّهم أهلٌ لذلك، وفي ذلك تشريف لهم. وكذا الأمر مع الهدى، وهما في حق غير المتقين كالمعدومة.

خصَّ الله تعالى المتَّقين بالهدى، والموعظة تشريفًا؛ ولأنَّهم المنتفعون بهما

إنّ قوله تعالى: ﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ﴾ كلامٌ عامٌّ ثم قوله: قوله تعالى: ﴿وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ مخصوص بالمتقين؛ لأن الهدى اسم للدلالة بشرط كونها موصلة إلى البغية، ولا شك أن هذا المعنى لا يحصل إلا في حق المتقين[3]. وجعله هدى مبالغة؛ لأنه أثره ومنه جاء[4].

البيانُ قول عامٌّ، والهدى والموعظة مخصوصتان بالمتقين

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

البيان، والهدى، والموعظة:

البيان جنس تحته نوعان: الكلام الهادي إلى ما ينبغي في الدين وهو الهدى، والكلام الزاجر عما لا ينبغي في الدين وهو الموعظة.

أي هما وجهان: الأول: أن البيان هو الدلالة التي تفيد إزالة الشبهة بعد أن كانت الشبهة حاصلة، فالفرق أنَّ البيان عام في أي معنى كان.

وأما الهدى فهو بيان لطريق الرشد؛ ليُسْلك دون طريق الغَيِّ.

(1) الراغب، تفسير الراغب: 3/872.
(2) الراغب، المفردات، وعظ.
(3) الرّازي، مفاتيح الغيب: 9/371.
(4) الخفاجي، حاشية على البيضاوي: 2/99.

وأما الموعظة فهي الكلام الذي يفيد الزَّجر عما لا ينبغي في طريق الدين[1]. فالهدى يقال باعتبار معرفة الشريعة وسلوك طرقها إلى ثواب اللّه تعالى، والوعظ يقال باعتبار معرفة الثواب والعقاب[2].

البيانُ دلالةٌ عامّة، والهدى دلالةٌ مفضية إلى الاهتداء

الوجه الثاني: أن البيان هو الدلالة، وأما الهدى فهو الدلالة بشرط كونها مفضية إلى الاهتداء[3].

(1) الرّازي، مفاتيح الغيب: 9/370.
(2) الراغب، تفسير الراغب: 3/872.
(3) الرّازي، مفاتيح الغيب: 9/370.

﴿وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ١٣٩﴾

[آل عمران: 139]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لا ينبغي أن تكون الهزائم سببًا للضَّعف

لمَّا أمر اللّه المؤمنين بالمسارعة؛ وأتبعها علَّتها ونتيجتها؛ نهاهم عمَّا يعوقُ عنها؛ من قبل الوَهْن؛ الذي عَرضَ لهم عند رؤيتِهم الموتَ[1]، وبعد الإشارة إلى أنَّ سنَّة اللّه في الأمم الماضية الكافرة المكذِّبين لرسلهم، نهايتُهم إلى الهلاك؛ وإن حصل لهم شيء من النَّصر والظَّفر على المؤمنين، إلَّا أنَّ المؤمنين بثباتهم واعتمادِهم على اللّه ينتصرون على أعدائهم.

فلا ينبغي أن يكون ما حصل لهم يوم أحد سببًا لضعفهم وانهزامهم، إنَّما كان ذلك درسًا لإعادة صفِّهم وتجديد إيمانهم باللّه تعالى.

قال الرَّازيُّ: "اعلم أنَّ الذي قدَّمه من قوله: ﴿قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِكُمۡ سُنَنٞ﴾ [آل عمران: 137] وقوله: ﴿هَٰذَا بَيَانٞ لِّلنَّاسِ﴾ [آل عمران: 138] كالمقدِّمة لقوله: ﴿وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ﴾ كأنَّه قال: إذا بحثتم عن أحوال القرون الماضية؛ علمتم أنَّ أهل الباطل؛ وإن اتَّفقت لهم الصَّولة، لكن كان مآل الأمر إلى الضَّعف والفتور، وصارت دولةُ أهل الحقِّ عالية، وصولةُ أهل الباطل مندرسة، فلا ينبغي أن تصير صولةُ الكفَّار عليكم يومَ أحدٍ سببًا لضعف قلبكم ولجُبنكم وعَجْزكم، بل يجب أن يَقْوى قلبُكم، فإنَّ الاستعلاء سيحصل لكم، والقوَّةَ والدَّوْلة راجعةٌ إليكم"[2].

(1) البقاعي، نظم الدرر: 5/77.

(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 9/371.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَلَا تَهِنُواْ﴾، الوهن بمعنى: الضَّعف[1]، وذكر الرَّاغب أنَّه ضعف من حيث الخَلْق أو الخُلُق[2]، وهو هنا مجازٌ في خَوَر العزيمة وضعف الإرادة، وانقلاب الرجاء يأسًا، والشَّجاعة جبنًا، واليقين شكًّا؛ ولذلك نهوا عنه[3].

2) ﴿وَلَا تَحْزَنُواْ﴾: الأصل اللُّغوي للحزن: من الحَزَن، وهو: خشونة الشَّيء وشدَّة فيه[4]، والحُزْنُ مأخوذ منه، وهو: شدَّة الأسف البالغة حدَّ الكآبة والانكسار[5].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

ولا تضعفوا - أيُّها المؤمنون - ولا تحزنوا على ما أصابكم يوم أحد، فأنتم الغالبون لعدوِّكم، وأنتم الأعلون، بعون الله ورجائكم نصرَه؛ إن كنتم مؤمنين بالله ووعده لعباده المتَّقين.

ويشير سبب النزول إلى موضوع الآية؛ إذ رُوي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: انهزم أصحابُ رسول الله ﷺ يوم أحد، فبينما هم كذلك؛ إذ أقبل خالد بن الوليد بخيل المشركين يريد أن يعلوَ عليهم الجبل، فقال النَّبيُّ ﷺ: (اللهمَّ، لا يَعلُونَ علينا، اللهمَّ، لا قوَّةَ لنا إلَّا بكَ، اللهمَّ، ليس يعبدك بهذه البلدة غير هؤلاء النَّفر)، فأنزل الله تعالى هذه الآيات، وثاب نفر من المسلمين رماة، فصعدوا الجبل، ورموا خيل المشركين حتَّى هزموهم، فذلك قوله: ﴿وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ﴾[6].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغة التَّعبير بالوهن على طريق المجاز:

الوَهَنُ في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ﴾: الضَّعف، وأصله ضعف الذات، وهو هنا مجازٌ في خور العزيمة وضعف الإرادة وانقلاب الرجاء يأسا، والشجاعة

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (وهن).
(2) الراغب، المفردات، وهن.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/98.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حزن).
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/98.
(6) ابن جرير، جامع البيان: 2/67، والواحدي، أسباب النزول، ص: 117.

نـفـيُ الـوهـن والـحـزن تقويةٌ لعزائم المؤمنين وتـسـلـيـتـهـم؛ لتجاوز ما نالهم يوم أحد

جبنا، واليقين شكا، ولذلك نهوا عنه. وأما الحزن فهو شدة الأسف البالغة حد الكآبة والانكسار، فالنهي عن الوهن والحزن في الحقيقة نهي عن سببهما وهو الاعتقاد[1]؛ لأنّ الحزن ليس اختيارًا، حتى يُنْهَى عنه، لكنَّه نهي عن تعاطي ما يورِّث الحزن، فيروِّض نفسه على تحمُّل الصِّعاب، وكيفيَّة التَّعامل مع أسباب الحزن ومسبِّباته. وفي ذلك عزاء وتسلية؛ لما نالهم يوم أحد من القتل والجراح، وحثَّهم على قتال عدوِّهم، ونهاهم عن العجز والفشل، والمعنى: لا تضعفوا عن الجهاد، ولا تحزنوا على من قُتل منكم؛ لأنَّه في جنان الخلد[2].

في الـقـصـر بيانُ انفرادهم بـاسـتـحـقـاق العلوّ؛ فلا عاليَ مثلهم، بسبب إيمانهم

بلاغة التَّعبير عن العَلِيَّة بأسلوب القصر:

وجملة ﴿وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ﴾ جملة اسميَّةٌ، وخبرها معرفة يفيد القصر، أي: أنَّ المسلمين هم الذين يستحقُّون هذا العلوَّ، وهو قصر إضافيٌّ، كأنَّه لا عالي مثلهم، بسبب إيمانهم.

دلالة جملة العليّة بين الحاليّة، والاستئناف، والعطف:

في الـحـالـيّـة تـصـريـحٌ بالوعد والنَّصر والغلبة، بعد الإشعار به فيما سبق

قوله تعالى: ﴿وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ﴾ جملةٌ حاليَّةٌ، أي: والحال أنَّكم الأعلون الغالبون، دون عدوِّكم، فإنَّ مصير أمرهم إلى الدَّمار، بحسب ما شاهدتم من أحوال أسلافهم، فهو تصريح بالوعد والنَّصر والغلبة، بعد الإشعار به فيما سبق.

في الاستئناف إطلاقٌ لعليّتهم سواء وهنوا أو لَا

ورجّح ابن عرفة أنَّ جملة ﴿وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ﴾ استئنافٌ؛ لأنهم لم ينهوا عن الوهن في هذه الحالة بل مطلقا، فهم الأعلون أيضا مطلقا سواء وهنوا أو لَا[3].

ويحتمل أن تكون الواو للعطف، والجملة معطوفة على

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/98.
(2) القنوجي، فتح البيان: 2/338.
(3) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/416.

ما قبلها. وهذه بشارة لهم بالنصر المستقبل، فالعلو هنا علو مجازي وهو علو المنزلة[1].

العلوُّ هنا علوٌّ مجازيٌّ وهو علوُّ المنزلة، وفيه بشارة لهم بالنصر مستقبلا

بلاغة إيراد الفاصلة جملةَ شرطٍ:

جواب الشَّرط في قوله: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ محذوف دلَّ عليه ما قبله، أي: إن كنتم مؤمنين؛ فلا تهنوا، ولا تحزنوا، وإن كنتم مؤمنين؛ فأنتم الأعلون، وقد صدق الله وعده، فإنَّ النَّبيَّ ﷺ بعد وقعة أحد، ظفر بعدوِّه في جميع وقعاته[2]، وفي ذلك ترغيب لهم في الثبات، وتقويةٌ لعزائمهم. قال ابن عاشور: "والتعليق بالشرط في قوله: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ قُصد به تهييج غيرتهم على الإيمان؛ إذ قد علم الله أنهم مؤمنون، ولكنهم لما لاح عليهم الوهن والحزن من الغلبة، كانوا بمنزلة من ضعف يقينه فقيل لهم: إن علمتم من أنفسكم الإيمان"[3].

في جملة الشّرط ترغيبٌ لهم في الثَّبات، وتهييج غيرتهم على الإيمان

فائدة ﴿إِن﴾ في جملة الفاصلة:

قال ابن عرفة: " فإنْ قلت: هلّا قيل: أو كنتم مؤمنين؟، قلت: إنما عبر بـ ﴿إِن﴾ تهييجًا على الاتّصاف بالإيمان ولاسيما أنها تعريض بالمنافقين فهم داخلون فيها"[4]. فمجيء إن الشرطية التي من شأنها عدم تحقيق شرطها؛ إتمامٌ لهذا المقصد[5].

قُصِدَ التّعبير بـ (إن) للتهييج على الاتّصاف بالإيمان، والتعريض بالمنافقين

في قوله تعالى: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ تنزيل الماضي المتحقق منزلة المستقبل غير المتحقق لإثارة همّتهم الدينية فلا يضعفون؛ وذلك لأنّ (إنْ) تقتضي أنْ يكون ما بعدها مستقبلا[6].

فائدة (إنْ) تنزيل الماضي المتحقق منزلة المستقبل

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/98.
(2) القنوجي، فتح البيان: 2/338.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/99.
(4) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/416.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/99.
(6) الإندونيسي، الشامل في بلاغة القرآن: 195.

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الحُزْن والهَمّ والبَثّ:

أولاً: الحُزن: من الحَزَن، وهو: خشونة الشَّيء وشدَّة فيه[1]، والحُزْنُ مأخوذ منه، وهو: شدَّةُ الأسف البالغة حدَّ الكآبة والانكسار، والشعورُ بقسوةِ الأمر وشدتِه وخشونتِه[2]، وفسَّره الرَّاغب: بأنَّه خشونة في النَّفس، لما يلحقها من الغمِّ، وأصله من الأرض الحَزنة، أي: الخشنة، فالحَزَن هو الصَّعب، ويضادُّه: السَّهل، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْزَنُواْ﴾ فليس ذلك بنهيٍ عن تحصيل الحزن، فالحُزْن ليس يحصلُ بالاختيار، ولكنَّ النهيَ في الحقيقة إنَّما هو عن تعاطي ما يورثُ الحزن واكتسابَه[3].

ثانيًا: الهمُّ: وهو أشدُّ من الحزن، فهو الحزن الذي يذيب الإنسان، والجمع: هموم، وأهمَّه الأمر؛ إذا أقلقه، وأحزنه، ذكر ابن فارس أنَّ الهاء والميم: أصل صحيح يدلُّ على ذوب وجريان ودبيب وما أشبه ذلك، ثمَّ يقاس عليه، ومنه قول العرب: همَّني الشَّيء: أذابني، وأمَّا الهمُّ الذي هو الحزن؛ فمن هذا القياس؛ لأنَّه كأنَّه لشدَّته يهُمُّ، أي: يذيب[4]، ويطلق على انزعاج القلب من توقُّع مكروهٍ، وما يَشْغَلُ بَالَ الإنسان، ويُؤَرِّقُ فِكْرَهُ[5]. ومنه حديث أَنَس بْن مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَقُولُ: "اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الهَمِّ، والحَزَنِ"[6].

ثالثًا: البثُّ: وأصله تفريق الشَّيء وإظهاره[7]، كبثِّ الرِّيح التُّراب، وبثّ النَّفس ما انطوت عليه من الغمِّ، وحقيقة البث في اللغة: ما يَرِدُ على الإنسان من الأشياء المهلكة التي لا يتهيأ له أن يخفيها. وهو من بثثته، أي فرّقته، فسُمِّيت المصيبة بثًّا مجازًا[8]، ومنه قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [يوسف: 86]، فالبثُّ هو للحزن الذي لا يقدر

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حزن).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (حزن).
(3) الراغب، المفردات: (حزن).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (همّ).
(5) الراغب، المفردات: (همم)، وابن حجر، فتح الباري: 11/323، والجرجاني، التعريفات، ص: 257، والكفوي، الكليات، ص: 961.
(6) البخاري، الحديث رقم: (6369)، ومسلم، الحديث رقم: (2706).
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بثّ).
(8) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 9/251.

الإنسان على إخفائه؛ لذلك قيل: إنَّ الإنسان إذا قدَرَ على كتم ما نزل به من المصائب؛ كان ذلك حُزنًا وهمًّا، وإن لم يقدر على كتمه، وذكره لغيره؛ كان ذلك بثًّا، فالبثُّ هو أعظم الحزن وأصعبه، وهو حزْنٌ مبثوث، فكأنَّه قال: إنَّما أشكو حزني العظيم - وهو البثُّ وما دونه من الحزن القليل - إلى الله، لا إلى غيره من النَّاس، ولا إليكم، فالبثُّ الحزنُ الشديد المجتمع في النفس الذي يضطر صاحبُه من شدَّته إلى أن يُفْضِي به إلى غيره[1].

(1) القنوجي، فتح البيان: 6/389، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (بثث).

﴿إِن يَمۡسَسۡكُمۡ قَرۡحٞ فَقَدۡ مَسَّ ٱلۡقَوۡمَ قَرۡحٞ مِّثۡلُهُۥۚ وَتِلۡكَ ٱلۡأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيۡنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمۡ شُهَدَآءَۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٤٠﴾ [آل عمران: 140]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

التَّخفيف على المسلمين بما أصابهم يوم أحد

بعد أن بيَّن الله سبحانه سنَّته في هلاك الظَّالمين ونصر المؤمنين، وأنَّ في ذلك بيانًا لجميع النَّاس، وفيه هدًى وموعظة للمتَّقين، ثمَّ أمرهم ألَّا يضعفوا، ولا يحزنوا على ما أصابهم، فهم الأعلون؛ إن كان لهم النَّصر أو الشَّهادة.

بيَّن - أيضًا - أنَّ ما حصل لهم من الهزيمة يومَ أحدٍ، إنَّما هو درسٌ؛ ليجدِّد فيه إيمانَ المؤمنين وثقتَهم بالله، وهذه الأيام والوقائع دُوَلٌ بين النَّاس، جعله الله لحكمة معيَّنة، وليس ذلك عقابًا للمؤمنين؛ بل ليميِّز المؤمنَ الصَّادق من غيره، ويكرمَ بعضهم بنيل الشَّهادة حبًّا لهم، والله لا يحبُّ الظَّالمين.

قال الرَّازيُّ: "واعلم أنَّ هذا من تمام قوله: ﴿وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ﴾، فبيَّن تعالى أنَّ الذي يصيبهم من القَرْحِ لا يجب أن يُزيلَ جدَّهم واجتهادهم في جهاد العدوِّ؛ لأنَّه كما أصابهم ذلك، فقد أصاب عدوَّهم مثله قبل ذلك، فإذا كانوا مع باطلهم وسوء عاقبتهم؛ لم يفتُروا لأجل ذلك في الحرب، فبألَّا يَلْحقكم الفتور مع حسن العاقبة والتمسُّك بالحقِّ أولى"[1].

وقال البقاعيُّ: "ولمَّا نهاهم عمَّا تقدَّم، وبشَّرهم؛ سلَّاهم، وبصَّرهم بقوله: ﴿إِن يَمۡسَسۡكُمۡ قَرۡحٞ﴾ أي: مصيبة"[2].

(1) الرّازي، مفاتيح الغيب: 9/371.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 5/78.

وقال ابن عاشور: "تسلية عمَّا أصاب المسلمين يوم أحد من الهزيمة، بأنَّ ذلك غير عجيب في الحرب؛ إذ لا يخلو جيش من أن يُغْلَبَ في بعض مواقع الحرب، وقد سبق أنَّ العدوَّ غُلِبَ"[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَمْسَسْكُمْ﴾: عدَّ ابن فارس أنَّ المسَّ واللَّمس بمعنًى واحد، فقال: " اللَّام والميمُ والسِّين: أصل واحد يدلُّ على تطلُّب شيء، ومسيسه أيضًا، تقول: تلمَّست الشَّيء؛ إذا تطلَّبته بيدك"[2]، وذكر الرَّاغب: أنَّ المسَّ كاللَّمس، لكنَّ اللَّمس قد يقال لطلب الشَّيء؛ وإن لم يوجد، والمسُّ يقال فيما يكون معه إدراك بحاسَّة اللَّمس[3].

والمَعْنى: إنْ أصابَ الكفارُ مِنكم.

2) ﴿قَرْحٌ﴾: ذكر ابن فارس أنَّ القَرْح يدلُّ عَلَى أَلَمٍ بِجِرَاحٍ أَوْ مَا أَشْبَهَهَا، وهو ما يخرج به من قروح تؤلمه[4]، وذكر الرَّاغب أنَّ القَرح - بفتح القاف - هو: الأثر من الجراحة من شيء يصيبه من خارج، والقُرح - بضمِّ القاف - هو: أثر الجرح من داخل، كالبَثرة ونحوها، وقد يقال: القَرح بالفتح؛ للجراحة، والقُرح بالضمِّ؛ للألم، ويطلق على كلِّ ما جَرح الجلدَ من عَضٍّ سِلاحٍ وغيرِه[5].

3) ﴿ٱلْقَوْمَ﴾: ذكر السَّمين الحلبيُّ أنَّ لفظ القوم من القيام، سمِّي القوم بذلك؛ لقيامهم بمهمَّات الأمور، وهم في الأصل جماعةُ الناس عامةً، كأنه اسمٌ جمعُ قائم، وهم مظاهِرون مُقَوُّون لمن هو منهم، ولفظ القوم يطلق في الأصل على جماعة الرِّجال دون النِّساء؛ ولذلك قال تعالى: ﴿لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ﴾ [الحجرات: 11]، فهي في الأصل للرِّجال، وتكون النِّساء تبعًا لهم[6].

4) ﴿ٱلْأَيَّامُ﴾: ذكر ابن فارس أنَّ لفظ اليوم هو الواحد من الأيَّام، ثمَّ يستعيرونه في

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/99.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (لمس)، وينظر: (مس).
(3) الراغب، المفردات، مسس.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قرح).
(5) الراغب، المفردات، والفيروآبادي، بصائر ذوي التمييز: (قرح).
(6) الراغب، المفردات، والسمين، عمدة الحفاظ، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (قوم).

الأمر العظيم[1]، وذكر الرَّاغب أنَّ اليوم يعبَّر به عن وقت طلوع الشمس إلى غروبها، وقد يعبَّر به عن مدَّة من الزَّمان، أيَّ مدة كانت، وذكر صاحب المعجم الاشتقاقي أنَّه ورد استعمال لفظ يوم في القرآن الكريم بمعانٍ متعدِّدة، وهي: الأوَّل: يوم معيَّن بشكل ما. الثَّاني: زمن صدور الكلام أو نزوله، بمعنى: الوقت الحاضر. الثَّالث: ظرف معيَّن. الرَّابع: مجرَّد حينٍ ما. الخامس: حقبة من حال معيَّنة لقوم معيَّنين. السَّادس: التَّعبير عن مُدَدٍ يعلمها اللّه تعالى. السَّابع: مدَّة يذكر اللّه ﷻ مقدارها. الثَّامن: يوم القيامة. والأولى أن يقال: إنَّ أصل اليوم هو المعروف بشروق الشمس وغروبها، فقد يراد به المدَّة الزَّمنيَّة، وقد يراد به ما يقع في تلك المدَّة الزَّمنيَّة من وقائع وأحداث[2].

5) ﴿نُدَاوِلُهَا﴾، أي: نقلِّبها ونصرِّفها، وأصل المداولة: يدلُّ على تحوُّل شيء من مكان إلى مكان[3]، والدَّوْلة: هي الكرَّة، ويقال: تداولته الأيدي: إذا انتقل من واحد إلى آخر، ويقال: الدُّنيا دُوَلٌ، أي: تنقَّل من قوم إلى آخرين، ثمَّ منهم إلى غيرهم[4].

6) ﴿لَا يُحِبُّ﴾: أصل كلمة المحبَّة: (حَبَبَ)، وهي في اللُّغة تعني: الثَّبات واللُّزوم، فالحبُّ والمحبَّة: اشتقاقهما من أحبَّه؛ إذا لزمه[5]، المحبَّة هي: بمعنى الميل إلى الشَّيء الموافق، وأصله الثَّبات واللُّزوم، وفسَّرها الرَّاغب بقوله: "إرادة ما تراه، أو تظنُّه خيرًا". والمَحَبَّةُ: المَيْلُ إلى الشَّيْءِ السّارِّ، وهي اسْمٌ للحُبِّ، والحُبُّ: الوِدادُ، ونَقِيضُه: البُغْض، يُقال: تَحَبَّبَ إليه، أيْ: تَوَدَّدَ إليه. وهي هنا صِفَةٌ للّه ﷻ، ويُراد بها: صِفَةٌ فِعْلِيَّةٌ اخْتِيارِيَّةٌ ثابِتَةٌ للّهِ ﷻ على المعنى اللائق به سُبْحَانَهُ؛ فهو يُحِبُّ ويُحَبُّ[6].

7) ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾: الظلمُ: الجَوْرُ ومُجاوَزَةُ الحَدِّ، يُقال: ظَلَمَهُ، يَظْلِمُهُ، ظُلْمًا ومَظْلِمَةً، أيْ: جارَ عَلَيْهِ. وأَصْلُه: وَضْعُ الشَّيْءِ في غَيْرِ مَوْضِعِهِ، كَقَوْلِهم: ظَلَمَ الأَرْضَ: إذا حَفَرَها في غَيْرِ مَوْضِعِ حَفْرِها. ومِن مَعانِيه أيضًا: التَّعَدِّي والحَيْفُ، وهو وضع الشَّيء في غير موضعه المختصِّ به، إمَّا بنقصان أو بزيادة، وإمَّا بعدول عن وقته أو مكانه، وأيُّ تجاوز للحدِّ يعدُّ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (يوم).
(2) الراغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (يوم).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (دول).
(4) القنوجي، فتح البيان: 2/340.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حب).
(6) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن سيده، المحكم، والراغب: المفردات: (حب)، والجامي، الصفات الإلهية، ص: 276.

ظلمًا، وأعظمُ الظلمِ أن يوضعَ المخلوقُ في منزلة الخالق، ويجعلَ شريكاً له في الربوبية، أو الألوهية[1].

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

تسلية المؤمنين بما وقع لهم يوم أُحدٍ

سلَّى اللّٰهُ المؤمنين بما حَصل لهم من الهزيمة الظاهرة في معركة أُحدٍ، وبيَّن الحِكمَ العظيمةَ المترتبة على ذلك، فقال: إن أصابتكم - أيها المؤمنون - جِراحٌ أو قتلٌ في غزوة (أُحد) فحزنتم لذلك، فقد أصابَ المشركين جِراحٌ وقتلٌ مثلَ ذلك في غزوة (بدر). وتلك الأيامُ يُصَرِّفها اللّٰه بين الناس، نصر مرة وهزيمة أخرى؛ لما في ذلك من الحِكمة، حتى يظهرَ ما علمه اللّٰه في الأزل؛ ليميز اللّٰهُ المؤمنَ الصادقَ مِن غيره، ويُظهرَ المؤمنين من المنافقين، ويُكْرِمَ أقوامًا منكم بالشهادة. واللّٰه لا يحب الذين ظلموا أنفسهم، وقعدوا عن القتال في سبيله[2].

الإِيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

بيانُ استعمال ﴿إِن﴾ المطلع:

التعبير بـ (إن)؛ لتنزيل الواقع المتحقق منزلة المستقبل غير المتحقق

في قوله تعالى: ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ﴾ استعمال ﴿إِن﴾ بما تدلّ عليه من؛ لتنزيل الواقع المتحقق منزلة المستقبل غير المتحقق، وذلك تهوينا للمس ليسهل انتزاع أثره من نفوس المؤمنين، فحين أريد بيان قلة أثره جعله بمنزلة المشكوك في وقوعه كأنه لا أثر له وفائدته استئصال أثر تلك الهزيمة في أُحدٍ من نفوس المؤمنين[3].

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (ظلم)، والجرجاني التعريفات، ص: 114، وابن تيمية، مجموع الفتاوى: 18/145، وابن القيم، الصواعق المرسلة: 1/221.

(2) القنوجي، فتح البيان: 2/340، والسعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 67، ونخبة من العلماء، التفسير الميسر، ص: 67.

(3) ابن جزي، التسهيل: 1/150.

بلاغة الاستعارة في التَّعبير بالمسّ:

المسُّ: يقال فيما يكون معه إدراك بحاسَّة اللَّمس، وكنِّي به عن النِّكاح، وعن الجنون، ويقال في كلِّ ما ينال الإنسان من أذًى[1]، ومنه قوله تعالى: ﴿مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ﴾ [البقرة: 214]، أي: الأمراض والأسقام والمصائب والنَّوائب[2].

فالمسُّ حقيقته: وضع اليد على الجسم، واستعير للإصابة، أو لأدنى إصابة، ويستخدم المسُّ للخير أو للشَّرِّ،[3].

حقيقة المسِّ وضع اليد على الجسم، واستعير ههنا للإصابة

نكتة الشَّرط بـ ﴿إن﴾ في جملة المسّ:

وجواب الشَّرط محذوف، أي: فلا تحزنوا. ومجيء حرف الشَّرط ﴿إن﴾ في: ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ﴾؛ المفيدة للتَّشكيك أو تقليل الحدوث، ألمحت بأنّه ليس بالضَّرورة أن يصيبهم القرح.

مجيء حرف الشَّرط (إنْ) المفيد للتَّشكيك أو تقليل الحدوث، ألمح بأنّه ليس بالضَّرورة أن يصيبهم القرح

سرّ التراتب في التعبير عن المسّ بصيغتي المضارع، والماضي:

اختيار صيغة المضارع في ﴿يَمْسَسْكُمْ﴾؛ لتجدُّد حدوثه واستحضار الصُّورة، وكأنّها مشاهدة. في حين عبَّر بصيغة الماضي للقوم؛ لبيان تحقُّق الإصابة فيمن قبلهم، ولم يمنعهم ذلك من المسَّ.

أفاد التراتب إمكان تجدُّد الإصابة بالقرح، بتحقق حصوله لمن قبلهم

علّة تنكير لفظ القرح:

أفاد تنكير لفظ القرح في قوله تعالى: ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ﴾ العموم؛ فيدخل فيه جميع محتملاته، ووجوه تأويله.

أفاد التنكير شمول وجوه تفسيره، ومحتملاته

وجهُ القراءتين في ﴿قَرْحٌ﴾:

وقد وردت القراءة بضمِّ القاف وفتحها في القراءات[4]، وذلك للجمع بين المعنيين، أو هما لغتان. ذكر الرَّاغب أنَّه بفتح القاف:

(1) ابن جزي، التسهيل: 1/150.
(2) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 1/175.
(3) النسفي، مدارك التنزيل: 3/468.
(4) قرأ حمزة والكسائي وشعبة عن عاصم بضم القاف، وقرأ الباقون بفتحها، ينظر: النَّشر: 2/242.

الأثر من الجراحة من شيء يصيبه من خارج، وبضمِّه: أثر الجرح من داخل، كالبثرة ونحوها، وقد يقال: القَرح بالفتح للجراحة، والقُرح بالضم: للألم[1]. وعدَّ ابن عاشور القَرْحَ - بفتح القاف - في لغة قريش: هو الجرح، وبضمِّها في لغة غيرهم، وقال: " وهو هنا مستعمل في غير حقيقته، بل هو استعارة للهزيمة التي أصابتهم، فإنَّ الهزيمة تُشَبَّه بالثُّلمة وبالانكسار، فشُبِّهَتْ هنا بالقَرح حين يصيب الجسد، ولا يصحُّ أن يراد به الحقيقة؛ لأنَّ الجراح التي تصيب الجيش لا يُعبأ بها؛ إذا كان معها النَّصر، فلا شكَّ أنَّ التَّسلية وقعت عمَّا أصابهم من الهزيمة"[2].

القَرح هنا استعارة للهزيمة التي أصابتهم، فإنَّ الهزيمة تُشَبَّه بالثُّلمة وبالانكسار

نكتة العدول إلى إظهار لفظ (القرح):

وأظهر لفظ: ﴿قَرْحٌ﴾ في موضع إضمار، فقال: ﴿فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ﴾، ولم يقل: فقد مسَّ القوم مثله، وذلك للاعتناء بشأن الفاعل[3]. بإرادة التَّسلية لهم والتّسرية عنهم، والمعنى الكامن: أنّهم تجاوزوه بعدم الإخلاد إلى الوهن، أو الركون إلى الحزن، فكما تجاوزه أعداؤكم المكنيّ عنهم بالقوم إيثارًا لداعي الانتهاب، وتجاوزوه أنتم إيثارًا للاحتساب والانتصاب.

ترك الإضمار للاعتناء بشأن الفاعل بإرادة التَّسلية لهم والتّسرية عنهم

وجه التَّعريف في لفظ ﴿ٱلْقَوْمَ﴾:

التعريف في القوم للعهد المفيد للتَّخصيص، ويراد بهم: مشركو مكَّة ومن معهم، وذلك لتصوير ما أصابهم من قبل. وفيه من الحقائق التَّاريخيَّة أنَّ كفّار قريش حرَّموا النِّياحة على قتلى (بدر) حتى يثأروا لهم، فكانت الكلمة في ذلك للرِّجال دون النِّساء، فكان أصدق تعبير يُلْمِحُ إلى ذلك هو ذكر ﴿ٱلْقَوْمَ﴾.

عهديّة تعريف القوم لإفادة التَّخصيص بمشركي مكّة

(1) الراغب، المفردات: (قرح)، والسَّمين، عمدة الحفَّاظ: (قرح).
(2) ابن عاشور: التحرير والتنوير4/99.
(3) الدبل، دليل البلاغة القرآنية: 1/551.

دلالة التعبير باسم الإشارة ﴿وَتِلۡكَ﴾:

الإشـــارة هنا بمنزلة ضمير الشأن لقصد الاهتمام بالخبر

والإشارة بـ ﴿وَتِلۡكَ﴾ إلى ما سيذكرُ بعدُ، فالإشارة هنا بمنزلة ضمير الشأن لقصد الاهتمام بالخبر وهذا الخبر مكنّى به عن تعليل للجواب المحذوف المدلول عليه بجملة: ﴿فَقَدۡ مَسَّ ٱلۡقَوۡمَ قَرۡحٞ مِّثۡلُهُۥۚ﴾[1].

سرّ التعبير عن المداولة بصيغة المضارع:

المضارعيّة إيذان بأنّ المداولة سنّة مسلوكة فيما بين الأمم قاطبة، سابقتها ولاحقتها

وقوله: ﴿نُدَاوِلُهَا﴾، أي: نقلِّبها ونصرِّفها، وأصل المداولة: المعاودة، والدَّوْلة: هي الكرَّة[2]، وصيغة المضارع بقوله: ﴿نُدَاوِلُهَا﴾؛ للدَّلالة على التجدُّد والاستمرار، وللإيذان بأنَّ تلك المداولة سنَّة مسلوكة فيما بين الأمم قاطبة، سابقتها ولاحقتها، وفيه ضربٌ من التَّسلية[3]. وللدُّعاء وللتأمُّل المستغرق في مدى ما يصل إليه العلم والفكر في استقراء ذلك في الزَّمن كلِّه، فإنَّها حقيقة ثابتة لم تنخرم، ولم تتخلَّف.

وجهُ المجاز في لفظ التّداول:

بيانُ المجاز جعلُ الغير يتداولون الشأن بينهم من غير أن يكون للفاعل حظٌّ من الفعل، ولكن له الحظ في الجعل

التداول في الأصل تفاعل من (دال)، ويكون ذلك في الأشياء والكلام، يقال: كلام مُداولٌ، ثم استعملوا داولت الشيء مجازا، إذا جعلت غيرك يتداولونه، وقرينة هذا الاستعمال أن تقول: بينهم. فالفاعل في هذا الإطلاق لا حظ له من الفعل، ولكن له الحظ في الجعل[4].

بلاغة الوصل في جملة عِلْمِ الله:

جملة: ﴿وَلِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ عطفٌ على جملة ﴿وَتِلۡكَ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/100.
(2) القنوجي، فتح البيان: 2/340.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 2/89.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/100.

مضمون هذه الجملة علّة ثانية لجواب الشرط المحذوف

﴿ٱلۡأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيۡنَ ٱلنَّاسِ﴾، فمضمون هذه علة ثانية لجواب الشرط المحذوف المدلول عليه بقوله: ﴿فَقَدۡ مَسَّ ٱلۡقَوۡمَ قَرۡحٞ مِّثۡلُهُۥۚ﴾ وعلمُ الله بأنهم مؤمنون متحقِّقٌ من قبل أن يمسهم القرح[1].

وجه إطلاق لفظ علم الله على المعلوم:

المراد بـ(علم الله) تمييز قويّ الإيمان من ضعيفه، أو تحقق جزاء الله تعالى فيهم

الواو في قوله تعالى: ﴿وَلِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمۡ شُهَدَآءَۗ﴾ عاطفة على المعلَّل به المحذوف، واللَّام للتَّعليل، أي: فعلنا ذلك؛ ليتَّعظوا، وليعلمَ اللّهُ الَّذين آمنوا، وتقديرها: نداولها بينكم؛ ليكون لكم من المصالح ما لا يخطر ببالكم.

وذكر الزمخشري في بيان المقصود بـ(علم اللّه) وجهين: أحدهما أن يراد تمييز قويّ الإيمان من ضعيفه؛ فيتميّز الخبيثُ من الطيّب، ويكون هذا من قبيل التمثيل، أي فعل اللّه تعالى ذلك فعل من يريد أن يعلم من الثابت على الإيمان منكم من غير الثابت، والوجه الثاني: أنْ يكون علم اللّه الذي ثبت بالواقعة هو علم الجزاء، أي: يتحقق فيهم جزاء اللّه تعالى. ويبدو أنّ المؤدى في الأقوال كلها واحد وهو أن يظهر صادقو الإيمان وينكشف نفاق المنافقين، ويعلن بذلك للناس علم اللّه تعالى المكنون[2].

وجه عطف جملة اتّخاذ الشهداء:

الجملة عطفٌ على العلّة السَّابقة بوصفها علَّةً من علل الهزيمة

وقوله: ﴿وَيَتَّخِذَ مِنكُمۡ شُهَدَآءَۗ﴾، أي: ويكرم ناسًا منكم بالشَّهادة، وهم شهداء أحد، وهو عطف على العلَّة السَّابقة، وجَعْلُ القتل في ذلك اليوم الذي هو سبب اتِّخاذ القتلى شهداء علَّةً من علل الهزيمة؛ لأنَّ كثرة القتل هي التي أوقعت الهزيمة[3].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/101.
(2) الزمخشري، الكشاف: 1/419، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 3/1424.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/104.

علّة اختيار لفظ الاتِّخاذ:

وفي التَّعبير عن تقدير الشَّهادة بالاتِّخاذ المنبئ عن الاصطفاء والتَّقريب من تشريفهم وتفخيم شأنهم ما لا يخفى، ولذلك قوبل بقوله: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٤٠﴾ أي: الكافرين، بمعنى: فقتلاكم في الجنَّة، وقتلاهم في النَّار[1].

في إيثار لفظ الاختيار المُنبئ عن الاصطفاء للشُّهداء تشريفٌ لهم وتفخيمُ شأنٍ

وجه نفي المحبّة بالمضارع المنفيّ:

تعني المحبّة باللُّغة: الثَّبات واللُّزوم، فالحبُّ والمحبَّة اشتقاقهما من أحبَّه؛ إذا لزمه[2]. وصيغة المضارع المنفي ﴿لَا يُحِبُّ﴾ في قوله: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾؛ للدَّلالة على تجدُّد نفي محبَّة اللّه لهم.

صيغة المضارع المنفي؛ للدَّلالة على تجدُّد نفي محبَّة الله لهم

بلاغة الكناية والتعريض في نفي المحبّة:

وعبَّر عن عدم محبَّته لجميع الظَّالمين؛ للإشعار بعلَّة ذلك، ويندرج فيهم مشركو مكَّة اندراجًا أوَّليًّا. ونفي المحبَّة كنايةٌ عن بغضهم، وفيه تعريضٌ بمحبَّة مقابليهم[3].

نفي المحبَّة كناية عن بغضهم، وفيه تعريض بمحبَّة مقابليهم

نكتة إظهار لفظ الظَّالمين في موقع الإضمار:

وإظهار لفظ الظَّالمين؛ لبيان العلَّة العامَّة في نفي المحبَّة لهم، وليشمل الأمر جميع الظَّالمين؛ تنفيرًا عن الظُّلم، وبيانًا لسوء مغبَّته وقبح عاقبته. والمراد بالظَّالمين في هذه الآية: مشركو مكَّة، فهم الذين يتحدَّث عنهم.

إظهار لفظ الظَّالمين؛ لبيان العلَّة العامَّة في نفي المحبَّة؛ تنفيرًا عن الظُّلم، وبيانًا لسوء عاقبته

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

المسّ واللَّمس:

لفظ المسِّ مثلُ اللَّمس، بمعنى أنهما متقاربان في المعنى، إلَّا أنَّهما يختلفان حقيقةً، فاللَّمس: إدراكٌ بظاهر البشرة، ويعبَّر به عن

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 2/90.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حب).
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 2/90.

الطَّلب، وأصله ما كان باليد؛ لأنَّ اليد أداة اللَّمس، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ﴾ [الأنعام: 7]، فاللَّمس: لا يكون إلَّا باليد، لكنَّه ذكرها هنا لزيادة التَّعيين، ويَكُونُ بِأَيِّ مَوْضِعٍ كَانَ مِن الْبَشَرَةِ، وَالْمَسُّ يَخْتَصُّ بِبَطْنِ الْكَفِّ.

ويطلق اللَّمسُ على عموم الطلب، كما ورد في الحديث: "يا رسولَ اللّهِ، إنّ امرأتي لا تَرُدُّ يدَ لامِسٍ"[1]، ومَعْناهُ الرِّيبةُ، وأنَّها مُطاوِعةٌ لِمَن أرادَها في الفاحِشةِ لا تَرُدُّ يَدَهُ، أو أنَّها تُعطِي من مالِ زَوجِها مَنْ يَطلُبُ منها.

ويوجَّه الفرق في عموم الألفاظ القرآنية - في أكثر ما ورد في القرآن الكريم - بأنَّ المسَّ يكون في المخالطة الدقيقة القوية الأثر، إذ استعمل في الإصابة بمكروه، كقوله: ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ﴾ [آل عمران: 140]، وبمعنى: إيقاع الضُّرِّ ونحوه كالعذاب، والنَّفْحة منه، والنار، والسوء، والشَّرِّ، والضُّرِّ، والطائف الشيطاني، واللُّغوب، والنَصَب[2].

(1) أخرجه من طرق أبو داود في سننه، الحديث رقم: (2049)، والنسائي في الصغرى، الحديث رقم: (3465)، باختلاف يسير من حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 2/111، والسيوطي، الأشباه والنظائر، 515، والزبيدي، تاج العروس، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (مسس).

المحتويات

الجزء الثالث 7

سورة آل عمران 9

- [آل عمران: 39] 10
- [آل عمران: 40] 23
- [آل عمران: 41] 35
- [آل عمران: 42] 49
- [آل عمران: 43] 56
- [آل عمران: 44] 64
- [آل عمران: 45] 74
- [آل عمران: 46] 83
- [آل عمران: 47] 88
- [آل عمران: 48] 98
- [آل عمران: 49] 102
- [آل عمران: 50] 114
- [آل عمران: 51] 120
- [آل عمران: 52] 123
- [آل عمران: 53] 130
- [آل عمران: 54] 139
- [آل عمران: 55] 144
- [آل عمران: 56- 57] 156
- [آل عمران: 58] 162
- [آل عمران: 59] 166
- [آل عمران: 60] 173
- [آل عمران: 61] 177
- [آل عمران: 62] 184
- [آل عمران: 63] 190
- [آل عمران: 64] 194
- [آل عمران: 65] 203
- [آل عمران: 66] 210
- [آل عمران: 67] 215
- [آل عمران: 68] 222
- [آل عمران: 69] 229
- [آل عمران: 70] 236
- [آل عمران: 71] 241
- [آل عمران: 72] 252
- [آل عمران: 73] 263
- [آل عمران: 74] 280
- [آل عمران: 75] 289
- [آل عمران: 76] 302
- [آل عمران: 77] 310
- [آل عمران: 78] 321
- [آل عمران: 79] 335
- [آل عمران: 80] 354
- [آل عمران: 81] 362
- [آل عمران: 82] 381
- [آل عمران: 83] 386
- [آل عمران: 84] 397
- [آل عمران: 85] 410
- [آل عمران: 86 - 89] 417
- [آل عمران: 90] 437
- [آل عمران: 91] 445
- [آل عمران: 92] 454

الجزء الرابع **461**

- [آل عمران: 93] 462
- [آل عمران: 94] 467
- [آل عمران: 95] 471
- [آل عمران: 96] 475
- [آل عمران: 97] 480
- [آل عمران: 98] 490
- [آل عمران: 99] 495
- [آل عمران: 100] 502
- [آل عمران: 101] 507
- [آل عمران: 102] 513
- [آل عمران: 103] 517

- [آل عمران: 104] 526
- [آل عمران: 105] 532
- [آل عمران: 106] 536
- [آل عمران: 107] 541
- [آل عمران: 108] 544
- [آل عمران: 109] 549
- [آل عمران: 110] 556
- [آل عمران: 111] 570
- [آل عمران: 112] 576
- [آل عمران: 113 - 114] 590
- [آل عمران: 115] 601
- [آل عمران: 116] 608
- [آل عمران: 117] 621
- [آل عمران: 118] 638
- [آل عمران: 119] 650
- [آل عمران: 120] 660
- [آل عمران: 121] 668
- [آل عمران: 122] 672
- [آل عمران: 123] 681
- [آل عمران: 124 - 125] 690
- [آل عمران: 126 - 127] 701
- [آل عمران: 128] 714
- [آل عمران: 129] 719
- [آل عمران: 130 - 132] 726
- [آل عمران133] 735
- [آل عمران: 134] 747
- [آل عمران: 135] 758
- [آل عمران: 136] 764
- [آل عمران: 137] 769
- [آل عمران: 138] 775
- [آل عمران: 139] 780
- [آل عمران: 140] 786

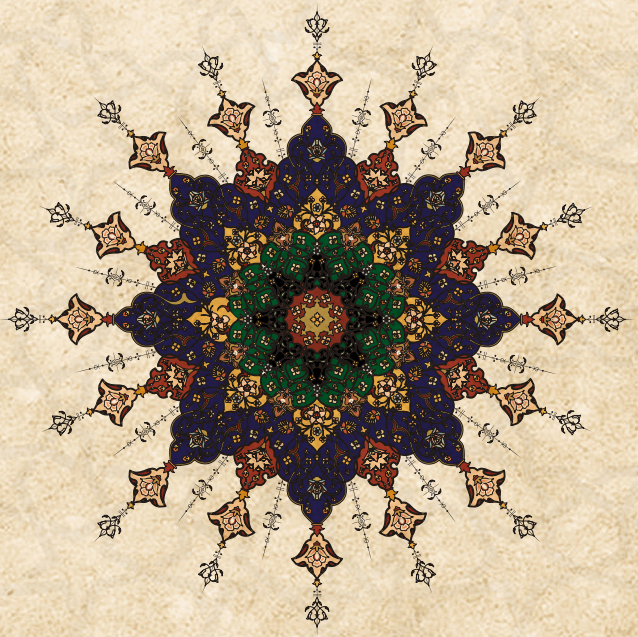

مجمع القرآن الكريم بالشارقة

موسوعة التفسير البلاغي

المُجَلَّدُ السَّادِسَ

سورة آل عمران من الآية 141 إلى الآية 23 من سورة النساء

مَوْسُوعَةُ التَّفْسِيرِ البَلَاغِيِّ

حكومة الشارقة
Government of Sharjah
مجمع القرآن الكريم بالشارقة
HOLY QURAN ACADEMY IN SHARJAH

موسوعة التفسير البلاغي

المُجَلَّدُ السَّادِسَ

سورة آل عمران من الآية 141 إلى الآية 23 من سورة النساء

نُخْبَةٌ مِنْ عُلَماءِ مَجْمَعِ القُرْآنِ الكَرِيمِ بِالشّارِقَةِ

منشورات القاسمي
AL QASIMI PUBLICATIONS
2023

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد السادس، سورة آل عمران من الآية 141 إلى الآية 23 من سورة النساء
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1444هـ - 2023م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2023م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: سورة آل عمران من الآية 141 إلى الآية 23 من سورة النساء [إشراف مجمع
القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2023.
مج. 6 ، 804 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-798-58-3
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 6 : سورة آل عمران من الآية 141 إلى الآية 23 من سورة النساء.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث ج- المستغانمي، امحمد صافي

الترقيم الدولي : 978-9948-798-58-3
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-2475776 بتاريخ 2023/03/15م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الجُزْءُ الرَّابِعُ

سُورَةُ آلِ عِمْرَانَ

﴿وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَمۡحَقَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ١٤١﴾ [آل عمران 141]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

المناسبة بين مظاهر البلاء الممحّصة للمؤمنين، والماحقة للكافرين

بعد أن سلَّاهم في الآية السَّابقة بما حصل لهم من الهزيمة، ناسَب أن يُبيِّن لهم الحِكمةَ مِن هذه الهزيمة[1]، حيث جعل القرح المؤلم الّذي أصاب المؤمنين ذا فائدتين مباشرتين: إحداهما أنّه تمحيصٌ للمؤمنين من أعراض الدّنيا وأدرانها، ومن أهل القلوب الفارغة من الإيمان، والمليئة بزيغ الشّيطان؛ من النّفاق والافتتان؛ فلا تصغي إليهم الآذان، ولا تركن إليهم العقول والأذهان.

وثانيهما أنّه مَحْقٌ لأهل الجحود والكفران، فينقص أوار الكفر، وتتلاشى قوّته وسطوته، وبذلك يصبح القرحُ سبيلًا إلى النّصر، والامتحانُ وسيلةً لتثبيت الإيقان[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَلِيُمَحِّصَ﴾: أي: ليُطهِّر، ويَختبر، ويُنقِّي؛ والتَّمحيصُ: الابتلاءُ والاختبارُ، وأصلُ المحْص: تخليصُ الشَّيءِ، وتنقيتُه ممَّا فيه من عَيب[3]، وعلى الوجهين - التّطهير والاختبارُ - يفسّر قول اللّه تعالى: ﴿وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ في الآية[4]، والتّمحيص: التّنقيص، يقال: مَحَّصَ اللّهُ عنك ذنوبك، أي نَقصَها، فسمّى اللّه ما أصاب المسلمين من بلاء تمحيصًا، لأنّه يُنقص به ذنوبهم، وهو المأثور عن ابن عرفة[5].

(1) السريح، التناسب بين الآيات، دار الحضارة، ط1، 2022م: 1/505.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 3/424.
(3) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 112، وابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات: (محص).
(4) نشوان الحِميري، شمس العلوم: (التّمحيص).
(5) الفيروزآبادي، بصائر ذوي التّمييز: 4/4986.

2) ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾: الإيمان: الإقرارُ بالشَّيء عن تصديقٍ به، وضِدُّه: الكُفر، يُقال: آمن به إيمانًا: صدَّقه. وأصله الدُّخول في صِدق الأمانة الَّتي ائتمنه الله تعالى عليها[1]، وتمحيص الّذين آمنوا: اختبار مدى صدق إيمانهم، لمعرفة من هو صادق الإيمان ممّن في إيمانه لبس، أو في اعتقاده شُبهة، فلا يعروه بلاء حتّى يضطرب إيمانه، ويذهل عن يقينه بربّه، لكنّ المؤمن على الحقيقة، لا تحرّكه العواصف، ولا تزحزحه القواصف.

3) ﴿وَيَمۡحَقَ﴾: يُهلك ويُنقص، وأصل المَحْق: النُّقصانُ، أو نقصانُ الشّيءِ قليلًا قليلًا[2]، ومَحَقَهُ الله فانمحق وامتحق: أي ذهبَ خيرُه وبَركته ونقصَ، قال الشّاعر:

يَزْدَادُ حَتَّى إِذَا مَا تَمَّ أَعْقَبَهُ***كَرُّ الْجَدِيدَيْنِ نَقْصًا ثُمَّ يَنْمَحِقُ[3]

وقد استعمل السّياق هذا اللّفظ، لما فيه من قوّة الدّلالة على الإزالة، وما في المحق من تأثير.

قال الأصمعيّ: يقال جاء فلان في ماحقِ الصّيف، أي: في شدّة حرّ[4]، فكلّ ما اشتدّ حتّى أزال وأثّر، فهو ماحق، وقد كان التّمحيص من الله محقًا للكافرين.

4) ﴿ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾: الكُفْرُ: نَقِيضُ الإيمانِ، ويأْتي الكُفْرُ بمعنى الإنْكارِ والجُحودِ، فيُقال: كَفَرَ بالنِعْمَةِ، أيْ: أَنْكَرَها وجَحَدَها. وأَصْلُ الكُفْرِ: السّتْرُ والتّغْطِيَةُ، ومنه سُمِّيَ غَيْرُ المُؤْمِنِ كافِرًا؛ لأنّهُ غَطّى الحَقّ والإيمانَ[5]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّا بِكُلِّ كَٰفِرُونَ ۝٤٨﴾ [القصص: 48] أي جاحدون. وقوله تعالى: ﴿فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورٗا ۝٩٩﴾ [الإسراء: 99]، قال الأخفش: هو جمع كُفُرٍ، مثل بُرُدٍ وبُرُودٍ[6]، وقد سلّط الله المحق على الكافرين، وأصل التّمحيق محو الآثار، وهو الّذي يحصل للكافرين، باستئصال وجودهم المعنويّ، مقابل التّمحيص للمؤمنين الّذي يُطهَّرون به ويثبتون.

(1) الخليل، العين، والأزهريّ، وتهذيب اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (أمن).
(2) الرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (محق).
(3) الخليل، كتاب العين: (محق)، والنويري، نهاية الأرب: 1/8، وعزاه لابن بحر.
(4) السّرقسطيّ، الدلائل في غريب الحديث: 2/764.
(5) الأزهري، وتهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (كفر).
(6) الرّازي، مختار الصّحاح: (كفر).

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

قرح الهزيمة الأليمة، تمحيص للمؤمنين، ومحق للكافرين

عبّر سيّاق الآية عن الهزيمة الَّتي وقعت في غزوة أُحُد، وقد كانت بمثابة القرح المُؤلم، الّذي محّص اللّه به المؤمنين فطهّر قلوبهم من الكدر، ومحا ما تركته الهزيمة من ضرر، ونقّى المؤمنين من الذّنوب، وأماط عنهم العيوب، وأظهر أهل النّفاق المندسّين في الصّفوف، وأهلك الكافرين، وأزاح ما يمثّلونه من خطر، وأبطل ما لديهم من تأثيروأثر، والآية تشير إلى مسلك الاستفادة من الهزيمة، باعتبارها تمحيصًا لأهل الإيمان، ومحقًا لأهل الضّلالة والكفران، فتكون الهزيمة سبيلًا للنّصر، ومسلكاً لإعلاء كلمة اللّه جلّ في علاه[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالة اللّام في قوله تعالى: ﴿وَلِيُمَحِّصَ﴾:

اللَّامُ للتَّعليلِ، وتكريرُها للمغايرةِ في العلَّةِ، على معنى أنَّ كلَّ واحدٍ منهما يستحقُّ أنْ يكونَ علَّةً قائمةً برأسِه؛ لِأنّه في هذهِ الآية في مقامِ ابتداءِ غرضٍ أصليٍّ يتأسَّسُ عليه غرضٌ فرعيٌّ، كالآيةِ الأُولى: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ﴾ [آل عمران: 140][2]، وأفادَ التّكريرُ تأكيدَ التّمحيصِ لأهميّتهِ، كما أنَّ وقوعَ الفصلِ بينهما بالاعتراضِ زادَهُ حسنًا، ولمّا لمْ تلحقِ اللَّامُ الفعلَ ﴿وَيَمْحَقَ﴾ أشعرَ بأنَّ التّمحيصَ هو الأهمُّ، ولهذا قُدِّمَ.

بلاغةُ المقابلةِ في قولِه تعالى: ﴿وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾:

تمحيصُ المؤمنِ بمحْقِ الكافِرِ

يحتملُ العطفُ بواوِ التّشريكِ في الحكمِ أنْ يكونَ على معنى افتراقِ الفعلين، وعلى معنى اجتماعِهما، فأمّا إذا كانَ على الافتراقِ، فالمقابلةُ على معنى أنَّ المداولةَ بينَ المؤمنينَ والكافرينَ إنْ حصلَ فيها الغَلَبةُ للكافرينَ على المؤمنينَ كانَ المرادُ تمحيصَ

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 3/1425.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/91.

ذنوبِ المؤمنينَ، وإنْ كانتِ الغَلَبةُ للمُؤمنينَ على هؤلاءِ الكافرينَ كانَ المرادُ محقَ آثارِ الكافرينَ ومحوَهُم، فقابلَ تمحيصَ المؤمنينَ بمحقِ الكافرين؛ لأنَّ تمحيصَ هؤلاءِ بتصفيةِ ذنوبِهم نظيرُ مَحقِ أُولئكَ بإهلاكِ أنفسِهم، وأمّا إذا كانَ العطفُ على الاجتماعِ، فالمقابلةُ بمعنى اقترانِ حصولِ تصفيةِ ذنوبِ المؤمنينَ بمحقِ الكافرينَ في وقتِ الجهادِ في سبيلِ اللّهِ ومسِّ القرحِ، فيكونُ فَضِيلَةً فِي جَانِبِ الْمُؤْمِنِينَ، وَرَزِيَّةً فِي جَانِبِ الْكَافِرِينَ في الوقتِ نفسِه[1].

التَّكاملُ الدِّلالي بينَ كلمتي: ﴿وَلِيُمَحِّصَ﴾ و﴿وَيَمْحَقَ﴾:

التَّمحيص للمؤمنين والمحقُ للكافرين

جاءَ الفِعلانِ بصيغةِ المضارعِ؛ لِيدلَّا على استمرارِ وقوعِ فعلِ التَّمحيصِ للمؤمنينِ والمحقِ للكافرينَ وكفرِهم، وكلا التَّعبيرين (التَّمحيص والمَحق) يتضمَّنانِ معنى الإزالةِ؛ إلَّا أنَّ في الأوَّلِ إزالةَ الآثارِ وإزاحةَ الأوضارِ بتخليصِ المؤمنينَ منها، وفي الثَّاني إزالةَ العَينِ وإهلاكَ النَّفْسِ بالتَّنقيصِ شيئًا فشيئًا، وقدّم المحصَ على المحقِ لأهميّتِه إذْ كانَ نفعًا أخرويًّا[2].

بلاغةُ الاستعارةِ في قولِهِ: ﴿وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ﴾، ﴿وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾:

في استعمالِ الفعلينِ (يُمَحِّصَ، يَمْحَقَ) مجازٌ بالاستعارة[3]، إذْ شبّهَ تنقيةَ المؤمنينِ مِنَ الذُّنوبِ بتمحيصِ الذَّهبِ بالنَّارِ؛ لِتخليصِه ممّا يشوبُه منَ العيوبِ والشَّوائبِ، على سبيلِ الاستعارةِ التَّصريحيَّةِ التَّبعيَّةِ؛ لِلإشعارِ بأنَّ الذُّنوبَ بمثابةِ العيوبِ والشَّوائبِ الَّتي ينبغي أنْ يُنَقَّى المؤمنُ منها، كما يُنَقَّى المعدنُ الأصيلُ؛ وكفى صفاءً وتنقيةً للمؤمنين إذا كانَ اللّهُ هو الذي يمحّصُهم.

ومثلُه في نوعِ الاستعارةِ قولُه تعالى ﴿وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ إذ

(1) الرّازي، مفاتيح الغيب: 9/375، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 2/40، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/104.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 3/356، والآلوسّي، روح المعاني: 2/284، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/10.
(3) الزمخشري، أساس البلاغة: 2/195 - 196، وأبو حيان، البحر المحيط: 3/357.

شبّهَ إزالةَ الكافرين شيئًا فشيئًا بمحقِ الشَّيء الماديِّ، ومنه إمحاقُ الهلالِ إذا امّحقَ ضوءُهُ فلم يُرَ، على معنى تناقِصِهم شيئًا فشيئًا إلى أنْ يَهلكوا.

نكتة التعبير بالاسم الموصول وصلتِه ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾:

أفادَ التّعبيرُ بالاسم الموصولِ وصلتِه أنَّ الذُّنوبَ قد تصيبُ مَنْ يفعلُ أفعالَ الإيمانِ، وأنَّ تمحيصَ الذين آمنوا مِنَ الذُّنوبِ مَدحٌ لهمْ وليسَ ذمًّا.

بلاغةُ إظهار الاسم الجليل في موضع الإضمار في قوله تعالى: ﴿وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾:

تسليةُ المؤمنين بـذكـر الاسـم الجليل (الله)

أظهر الاسم الجليل في موضع الإضمار؛ لمناسبة المقامِ، أي لِإحضارِه في ذهنِ السامعِ ابتداءً؛ بطريق الإظهار ليتميّز الاسم الجليل عمّن عداه، فيتقرَّر المعنى، وفيه تسليَةٌ للمؤمنين، ولِإظهار تعظيمِ الاسمِ الجليلِ، ولِمزيد الاعتناء بشأنِ التّمحيص[1].

دلالة التَّعبير بلفظ ﴿ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾:

كلمة ﴿ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ في الآية عامٌّ، أُريد به الخصوصُ؛ فالمرادُ بهم هنا طائفةٌ مخصوصة، وهم الذين حارَبوا رسولَ الله ﷺ؛ لأنَّه تعالى لم يَمْحَقْ كلَّ كافر، بل كثيرٌ منهم باقٍ على كُفرِه[2].

مناسبة تكثيرِ العلل وترتيبها في الذِكرِ:

ذكر أربعةَ عللٍ، هي قوله تعالى ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ﴾ وعلّة تمحيص المؤمنين ومحق الكافرين؛ لِلإيذانِ بعظمِ المداولةِ الذي تنشأ منهُ هذهِ العللُ، ولِلإشعارِ بأنَّ المصلحةَ فيما فعلَ ليست بواحدةٍ؛ لِيسلِّيَهم عمَّا جرى عليهم، ولِيبصرَهم أنَّ العبدَ يسوءُهُ ما يجري عليه من المصائب، ولا يشعرُ أنّ للّهِ في ذلك

(1) السكاكي، مفتاح العلوم، ص: 180، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/91.
(2) الرّازي، مفاتيح الغيب: 9/375، وأبو حيّان، البحر المحيط: 3/356.

مِنَ المصالح ما هو غافلٌ عنهُ، وقدّم العلل الثلاث الأولى في الذكر باعتبار كونِها على المؤمنين؛ لأنها المحتاجةُ إلى البيان، ولما فيها من نفعٍ أخروي[1].

الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

التَّمحيص والابتلاء:

يختلف التَّمحيص عن الابتلاء، في أنَّ الابتلاء هو: اختبارالعبد لإظهار حقيقة أمره، وإخراج خبيئة داخله، ويتضمَّن أمرين: الأوَّل: تعريف حاله والوقوف على ما يخْفى من أمره، والثَّاني: ظهور جودته ورداءته، وقد يُقصد به أحد الأمرين، أو كلاهما؛ لكن لو نسب الابتلاء إلى اللّه؛ فلا يراد منه إلَّا ظهور جودته ورداءته، فإنَّ اللّه يعلم حقيقة أمره[2]، أمَّا التَّمحيص؛ فهو: التَّنقية والتَّخلُّص من العيوب، يقال: محصت الذّهب بالنّار، إذا نقي من شوائبه، فاستعمال القرآن للفظ التّمحيص، دون لفظ الابتلاء، آثر في المعنى المراد من هذا السّياق، إذ يراد به معنى النّقص من الذّنوب، ويراد به التّطهير من العلائق، وفي كليهما فائدة للمؤمنين الممحّصين، تدلّ على مقامهم عند اللّه الّذي آثرهم بالتّمحيص، دون سواهم من الكفرة الممحوقين.

المحق والسَّحق:

فالمحق ذهاب الخير من الشّيء أو الشّخص، وذهاب بركته ونقصانه، ومحقه يمحقه محقا، أي أبطله ومحاه. وتمحّق الشّئ وامتحق[3]، وَقَالَ أَبُو عَمْرٍو: الْإِمْحَاقُ أَنْ يَهْلِكَ كَمِحَاقِ الْهِلَالِ، لأنّ الهلال بعد أن يصير بدرًا كاملًا، يتناقص حتّى يصير محاقًا ذاويًا رقيقًا[4]، فالمحق هو: تنقيص الشَّيء قليلًا قليلًا، أو يذهب هو بالكلِّيَّة على نحو ما قدَّمنا، والسَّحق هو: تفتيت الشَّيء حتّى يَبْلى، فيقال: سحقه؛ إذا جعله باليًا[5] إذا سحقت الشّيء أسحقه سحقًا، إذا دققته، وأسحق الرّجل إسحاقًا إذا بعد، وقال قوم: بل هذا فعل يتعدّى: أسحقه اللّه إسحاقًا، مثل قولهم: أبعده اللّه إبعادًا[6]، والسّياق في هذه الآية آثر استعمال

(1) الزمخشري، الكشاف: 1/420، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/91، والآلوسّي، روح المعاني: 2/284.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/91، والآلوسّي، روح المعاني: 2/284.
(3) الجوهريّ، الصّحاح: (محق).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (محق).
(5) السَّمين، عمدة الحفّاظ: (محق).
(6) ابن دريد: جمهرة اللّغة: (سحق).

لفظ (يمحق) لا لفظ (يسحق)، لأنّ المراد تصوير بشاعة مصير الكافرين، وأنّ المراد محقهم، بما يحمله اللّفظ من دلالة.

المحق والمحو:

المَحقُ يكون في الأشياء ولا يكون للشَّيء الواحد[1]، وإذهاب الشَّيء إزالته وجعله ذاهبًا؛ أي لا وجود له[2]. وأمَّا الفرق بين المحق والمحو: فالمحق الإذهاب بالكليّة بقوّة وسطوة[3]. والمحو: إزالة الأثر[4]، والمحو لكلّ شيء يذهب أثره. تقول: أنا أمحوه وأمحاه. وطيء تقول: محيته محيًا ومحوًا، وامَّحى الشّيء يمَّحي امِّحاء[5]، ولم يُستعمل المحو، لأنّ القصد ليس إزالة الأثر فقط، بل محقهم بالكليّة.

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 486.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/74.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 4/134.
(4) الرّاغب، المفردات: (طمس).
(5) الخليل، العين: (محو).

﴿أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا يَعۡلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمۡ وَيَعۡلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٤٢﴾ [آل عمران: 142]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

نيل الدّنيا بالاختبار والتّمحيص، ونيل الآخرة بالجهاد والمصابرة

لَمَّا أرشدَ اللّه تعالى المؤمنين في الآياتِ السَّابقة إلى أنَّه لا يَنبغي لهم أن يَضعُفوا أو يَحزنوا، وبَيَّن لهم حِكمةَ ما أصابهم يومَ أُحد، وأنَّه منطبِقٌ على سُنَّته في مداولة الأيَّام بين النّاس، وأنّ أسبابها الموجبة، منها تمحيص أهل الحقِّ بالشَّدائد، بتربيتهم على الصِّفات الّتي تؤهّلهم للسّعادةِ في الدُّنيا، بيَّن في هذه الآيةِ أنَّ سعادةَ الآخِرة، لا تُنالُ إلَّا بالجهادِ والصَّبر[1]، إذْ إنّ سلعة اللّه غالية، وسلعة اللّه هي الجنّة العاليّة، ومَنْ طَلَبَ الحَسْنَاءَ لَمْ يُغْلِهِ المَهْرُ.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿حَسِبۡتُمۡ﴾: من الحُسبان بمعنى: الظَّنِّ. ذَكَرَ السَّمين الحلبيُّ أنَّ المشهور في الحسبان أنَّه يرادف الظَّنَّ في أحد وجهيّه، وهو الغالب[2]، وهو المعنى الذي عليه الآية، وقال الرَّاغب: " والحسبان أن يُحكَم لأحد النَّقيضين من غير أن يخطر الآخر بباله، فيحسبه، ويقاربه الظنُّ، لكنَّ الظنَّ أن يخطر النَّقيضان، فيغلِّب أحدهما على الآخر"[3]، ويقول السّياق: إنّ اعتقاده دخول الجنّة دون تضحية، ودون مغامرة ولا مصابرة، نوع من الغرور، وإيراده لفظ ﴿حَسِبۡتُمۡ﴾ في معرض الاستفهام عن ظنّ ليس بواقع في ذاته، لأنّه لاينال الجنّة من لم يدفع مهرها؛ من نفسه بالجهاد، ومن عزمه بالصّبر، فهو

(1) رضا، تفسير المنار: 4/127.
(2) السَّمين، عمدة الحفّاظ: (حسب).
(3) الرَّاغب: المفردات، ص: 234.

واهِمٌ في ذلك، والّذي سوف يقع هو العكس، وهو أنّ من يجاهد ويصبر ينالها استحقاقا، ويدخلها جزاءً وفاقًا.

2) ﴿أَن تَدۡخُلُواْ﴾: الدُّخول: النُّفُوذُ في الشّيْءِ، وأَصْلُهُ: الوُلُوجُ، وضِدُّهُ: الخُرُوجُ، وهو ما عليه معنى الآية الكريمة، وَيَأْتِي الدُّخُولُ بِمَعْنَى الابْتِدَاءِ، تَقولُ: دَخَلَ في الأَمْرِ: إذا بَدَأَ وأَخَذَ فيهِ، وَمِنْ مَعاني الدُّخُولِ فِي اللُّغَةِ أَيْضًا: الوُرودُ، والاخْتِلاطُ والاقْتِحامُ[1]، ودخول الجنّة مطمح كلّ مؤمن، طائعًا كان أم عاصيًا، وحيث إنّ لفظ الدّخول هو المقصود من كلّ راغب في الجنّة، فقد استعمله السّياق بصورة مباشرة، وبالتّصريح لا بالتّلميح.

3) ﴿ٱلۡجَنَّةَ﴾: البُسْتَانُ، ويُقالُ: هي النَّخل الطِّوالُ، وكُلُّ شَجَرٍ مُتكاثف يَستر بعضه بعضًا فهو جَنَّة، وقِيل: لا تكونُ في كلام العَرب جنَّة إلَّا وفيها نخلٌ وعِنب، وإلَّا فهي حديقةٌ. والجَمْعُ: جَنَّات وجِنَان[2]، الجنّة أهمّ ما ترنو له الأنفس، وتشتاقه الأعين، لما فيه من فسحة وجمال ومتعة، ومن هنا كان الإغراء بها، باعتبارها أعلى المطالب، وأفضل ما به يتنافس المتنافسون، واللّفظ يوحي بالتفاف أشجارها، وسترها ما وراءها، لتزيد بها المتعة، ويهنأ بها الدّاخل إليها.

4) ﴿وَلَمَّا يَعۡلَمِ﴾: العِلْمُ: المَعْرِفَةُ، يُقال: عَلِمْتُ الشّيْءَ، أَعْلَمُهُ، عِلْمًا، أيْ: عَرَفْتُهُ، وهو ما عليه معنى الآية الكريمة. وضِدُّه: الجَهْلُ. ويأْتي العِلْمُ بمعنى الإِتْقانِ والإِحْكام، يُقال: عَلِمَ الأَمْرَ وتَعَلَّمَه، أيْ: أَتْقَنَهُ. ومِن مَعانيه: الإِدْراكُ والاعْتِقادُ والتّصْدِيقُ والظّنُّ[3]، ومعنى العبارة في السّياق: " أي ولما يقع ذلك منكم فيعلمه، فإنّه لو وقع لعلمه، فجازاكم عليه بالجنّة، فيكون الجزاء على الواقع المعلوم، لا على مجرّد العلم، فإنّ اللّه لا يجزي العبد على مجرّد علمه فيه، دون أن يقع معلومه"[4].

5) ﴿ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ﴾: الجِهادُ: المُبالَغة واسْتِفْراغ ما في الوُسْع والطّاقة مِنْ قَوْلٍ أو فعْلٍ، وهو معنى المقصود بالآية الكريمة، يُقال: جاهَدَ يُجاهِدُ: إذا بَذَلَ طاقَتَهُ في تَحْصِيلِ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن سيده، المحكم، والجوهريّ، الصحاح: (دخَل).
(2) الخليل، العين، وابن عباد، المحيط في اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، والزَّبيدي، تاج العروس: (جنن).
(3) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (علم)، والجرجانّي، التّعريفات، ص: 155.
(4) المعنى المذكور أفاده ابن قيّم الجوزيّة، ينظر: جمال الدّين القاسميّ، محاسن التّأويل: 2/420.

شَيْءٍ ما، ويُقال: جَهَدَ الرَّجُلُ، وجاهَدَ في الشَّيْءِ، أيْ: جَدَّ فِيهِ وبالَغَ. مَأْخُوذٌ مِن الجَهْدِ، وهو المَشَقَّةُ، وقيل: المُبالغةُ والغاية. أو مِن الجُهْدِ وهو: الوُسْعُ والطّاقَةُ[1].

6) ﴿ٱلصَّٰبِرِينَ﴾: الصَّبْرُ: الحَبْسُ والكَفُّ في ضِيق، وَمِنْه قيل: فُلانٌ صُبر، إذا أُمْسِك وحُبِسَ للقَتْلِ، فالصَّبْرُ: حَبْسُ النَّفْسِ عَن الجَزَعِ، وحَبْسُ اللّسَانِ عَن الشَّكْوَى، وحبْسُ الجوارِحِ عَن التَّشْوِيشِ. وقال الحَرِيرِيّ: الصَّبْرُ: أَن لَا يَفْرِقَ بينَ حَالِ النِّعْمَةِ وحالِ المِحْنَةِ، مَعَ سكونِ الخاطِرِ فيهمَا[2]، ومعنى اللّفظ في الآية، أي ليظهر للنّاس صبركم على المشاقّ في أمر دينكم، كما هو معلوم عند اللّه[3]، وبالصّبر تُنَالُ الجنّة، ويوفّى الصّابرون أجرهم بغير حساب.

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

إنكار على من ظنّ أنّه يدخل الجنّة، دون مجاهدة ولا مصابرة

يؤكّد السّياق في هذه الآية، أنّ ظنّهم دخول الجنّة، دون أن يتبيّن المجاهد الغيور، من المتقاعس المغرور، ويعلم الصّابر الثّابت، من الجازع المتهافت، هو ظنّ باطل، وزعم كاذب، إذ طريق الجنّة محفوف بالمكاره، ولن ينالها أحدٌ إلّا بالشّدائد والقتال، حينما يظهر اللّه بعلمه الأزليّ، أنَّ منكم مجاهدين في سبيله، أشدَّاء على أعدائكم الألدَّاء[4]، وأنّ هناك صابرين على لأواء الحياة، وطوارئ الأزمات.

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالة التَّعبير بـ (أم) في قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ﴾:

الجنَّة لا تُدرك بالتمنِّي

(أم) هنا منقطعة بمعنى (بل) الانتقالية، ولمّا كانت (أم) المنقطعة دالةً على أنَّ ما بعدها في حكم المظنون لا المتيقّن، واقترن

(1) ابن سيده، المحكم، وابن الأثير، النهاية، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (جهد).
(2) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، والزَّبيدي، تاج العروس: (صبر).
(3) العاني، بيان المعاني: 5/411.
(4) نخبة من أساتذة التفسير، التفسير الميسر، ص: 68.

هذا بمجيء الفعل ﴿حَسِبْتُمْ﴾ المقرّر للظَّنِّ وكانت همزة الاستفهام للإنكار، أفاد التّعبيرُ بـ (أم) الانتقال من تسلية المؤمنين إلى معاتبتهم على ما وقع منهم من المخالفة في غزوة أحد على سبيلِ الإنكار المؤكَّد على ظنّهم الذي تقرّر في أنفسهم، من أنّهم يدخلون الجنة من غيرِ جهادٍ في سبيلِ الله ومن غيرِ صبرٍ عليه، فالاستفهام الإنكاري على معنى النّهي للتبكيت على انتفاء جهادِهم وصبرِهم في الحربِ، وتقدير الكلام بعد الإضراب الانتقالي: لَا تَحْسَبُوا أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمْ يَقَعْ مِنْكُمُ الْجِهَادُ ولا الصبرُ عليه[1].

وأجاز بعض المفسرين أن تكون (أَمْ) هنا متّصلة للمُعادلة، ويكون المعنى: أعلمتم أنَّ لله تعالى سننًا في النَّصر والهزيمة، وأنَّ الأيَّام دُوَل، وأنَّ الوصول إلى السُّنة يحتاج إلى إيمان وجهاد وصبر، أم حسِبتم وظننتم أنَّكم تدخلون الجنَّة من غير مجاهدة واستشهاد؟[2]!.

نكتةُ التَّعبير بـ (لمَّا):

أفاد التّعبيرُ بـ (لمّا) ثلاثة أمور، هي تأكيدُ النّفي وتقريرُه، ونفيُ الجهادِ فيما مضى وفي الحالِ، والإيذانُ بوقوعِه في المستقبل القريب، وفي هذا إشارة إلى أنَّ المخاطبين سيُسارعون في تلافي ما هم فيه من قُصور، ولمّا كانت الواو في قوله (ويعلم الصابرين) على معنى المعيّة أفادت أن ما ذُكِرَ من معنى (لمّا) يجري في الفعلين على معنى اجتماعِهما.

دلالةُ الكناية في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾:

نفي العِلم في جانب الحق تعالى هو نفي المعلوم

لمّا كان الله تعالى لا يعزب عن علمه شيء لعموم تعلُّق علمِه بكلِّ المعلومات، كان نفي علمِه سبحانه وتعالى بشيء لازمًا لنفيِ ذلك الشيءِ وجودًا وحقيقةً، فكان نفي علمِه تعالى بمجاهدتهم وصبرهم نفيًا لوجودِهما، مع الإيذان بقرب حصولِهما في

(1) الزمخشري، الكشاف: 1/420، والرّازي، مفاتيح الغيب: 9/375، وابن يعيش، شرح المفصل: 8/98.

(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/420، وأبو حيّان، البحر المحيط: 3/359، وأبو السّعود، وإرشاد العقل السليم: 2/91، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/105، وطنطاويّ، التفسير الوسيط: 2/277.

المستقبل، فهي كناية على طريق البرهانِ العقلي[1]، وهذه الكناية اللَّطيفة تنبيهٌ على فضل اللّه تعالى العَظيم عليهم في أنْ كتب لهم الجهاد في سابق علمه، وأجراه على أيديهم كسبًا لهم وسعيًا.

دلالةُ تكرير الفِعل ﴿يَعۡلَمِ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا يَعۡلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمۡ وَيَعۡلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾:

تَكريرُ الفِعل ﴿يَعۡلَمِ﴾ في الآية الكريمة؛ لاختلافِ متعلَّق الفعل[2]، إذ تعلّق في الأوّل بالذين جاهدوا وفي الثاني بالصابرين، كما أفاد التكريرُ تقريرَ نفي كونهم صابرين في الجهاد، لأهميّته وعِظمِ شأنِه.

مناسبة العطف في قوله ﴿وَيَعۡلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾:

لمّا جاء الفعل في قولِه ﴿وَيَعۡلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾، منصوبًا كانت الواو بمعنى معَ، والمرادُ طلبُ حصولِ الفعلين معًا على الاجتماعِ لا على الانفراد، بمعنى اقتران الصبر بالجهاد وعدم انفكاكِه عنه، فلا جهادَ من غيرِ صبرٍ مقترنٍ به، والْمُرَادُ أَنَّ دُخُولَ الْجَنَّةِ وَتَرْكَ الْمُصَابَرَةِ عَلَى الْجِهَادِ مِمَّا لَا يَجْتَمِعَانِ ولهذا قدّم الجهادَ على الصبر، ولو قدّمَ الصبرَ على الجهاد في هذا السياق لكان المعنى لا صبرَ من غيرِ جهادٍ مقترنٍ به، وهو خلاف المراد والواقع، ومعنى الآية: أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَالْحَالُ أَنَّهُ لَمْ يَتَحَقَّقْ مِنْكُمُ الْجَمْعُ بَيْنَ الْجِهَادِ وَالصَّبْرِ[3].

مناسبة المخالفة في التّعبير في قوله ﴿جَٰهَدُواْ﴾، ﴿ٱلصَّٰبِرِينَ﴾:

عبَّر بالفعلِ ﴿جَٰهَدُواْ﴾ صلة للموصولِ وسيلةً لمدحِ ذواتِهم بالتَّعريضِ بتعظيمِ شأنِ فعلِ الجهادِ، ولإفادةِ أنَّه ليس على الدوامِ والثبوت، وعبَّر باسم الفاعِل ﴿ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ في مقام الصَّبر؛ إشعارًا بأنَّ الصَّبرَ ينبغي أن يكون وصفًا ثابتًا للمؤمنِ جاهدَ أم لم يُجاهد، كما أنّ فيها رعايةً للفاصلةِ[4].

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السليم: 2/91، والقونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 6/337.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/381.
(3) الراغب، تفسير الراغب: 3/887، ورضا، تفسير المنار: 4/129.
(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 2/91، والآلوسي: روح المعاني: 2/285.

المتشابه اللَّفظي:

في القرآن الكريم ثلاث آياتٍ موضُوعها واحد، وهو الحثُّ على الجهاد، والصَّبر عند البلاء، بيد أنَّها اختلفت فيما بينها في بعض الألفاظ، وهي على النَّحو الآتي:

الآية الأُولى: قوله تعالى: ﴿أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا يَأۡتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِكُمۖ مَّسَّتۡهُمُ ٱلۡبَأۡسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلۡزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصۡرُ ٱللَّهِۗ أَلَآ إِنَّ نَصۡرَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ ٢١٤﴾ [البقرة: 214].

الآية الثانية: قوله تعالى: ﴿أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا يَعۡلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمۡ وَيَعۡلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٤٢﴾ [آل عمران: 142].

الآية الثالثة: قوله ﷻ: ﴿أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تُتۡرَكُواْ وَلَمَّا يَعۡلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمۡ وَلَمۡ يَتَّخِذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَلِيجَةٗۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ١٦﴾ [التوبة: 16].

ففي آيتي البقرة وآل عمران قال سبحانه: ﴿أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ﴾، وفي سورة براءة قال: ﴿أَن تُتۡرَكُواْ﴾، وفي البقرة قال: ﴿وَلَمَّا يَأۡتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِكُمۖ﴾، وفي آل عمران وبراءة قال: ﴿وَلَمَّا يَعۡلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمۡ﴾، وفي آل عمران قال: ﴿وَيَعۡلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٤٢﴾، وفي براءة قال: ﴿وَلَمۡ يَتَّخِذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَلِيجَةٗۚ﴾، فما هو وجه الاختلاف اللَّفظي بين هذه الآيات الثَّلاث؟

والجوابُ الإجمالي أن يُقال: مردّ الاختلاف يعود إلى اختلاف المقامِ الذي سيقت فيه الآيات.

وبيانه: أنَّ آية البقرة واردة على ما تقدّمها من خِطاب المؤمنين على العموم في قوله سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ﴾ [البقرة: 208]، ثمَّ لمّا بيّن لهم أحوال مَن تقدمهم من الأُمم، عرّفهم أنَّه لا بدَّ مِن الابتلاء والاختبار، فجاءت الآية تسليةً لهم لِتحمّل المشقّة، فقال: ﴿أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا يَأۡتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِكُمۖ مَّسَّتۡهُمُ ٱلۡبَأۡسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلۡزِلُواْ﴾ [البقرة: 214]، فآية البقرة لم يقع فيها تخصيص بغير المؤمنين، لا من جهة اللَّفظ، ولا من جهة المعنى، فناسبها الإطناب، وذكر حال من تقدَّم من الأُمم في ابتلائهم.

وأمَّا آية آل عمران فخاطب بها أهل أحد خاصَّة؛ تسلية فيما أصابهم، وخصَّ فيها ذكر الجهاد والصَّبر، وما جرى يوم أحد، فهي تتحدَّث عن واقعة مخصوصة، فهذا وجه ما انفردت به، واختصت به عن آية البقرة، فقال سبحانه: ﴿أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا يَعۡلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمۡ وَيَعۡلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾.

أمَّا آية براءة فقد جاءت خطابًا للمُؤمنين الَّذين شهدوا فتح مكة، وإعلامًا لهم بأنَّهم لا يكمل إيمانهم إلَّا بمُطابقة ظواهرهم بواطنهم، للتّحذير من الاتّصاف بصفة النفاق فأعلمهم أنَّه لا بدَّ من ابتلائهم واختبارهم؛ لتخلص أحوالهم، وتمتاز من أحوال المنافقين، وأنَّهم لن يتركوا دون ابتلاء واختبار[1].

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الحُسبان، والظَّنّ، والزَّعم:

الظَّن ضَربٌ من الاعتقاد، وقد يكون حُسبان ليس باعتقاد، وأَصل الحسبان من الحساب، ثمَّ كثُر حتى سُمِّي الظَّن حُسبانًا على جهة التَّوسع وصار كالحقيقة بعد كَثْرة الاستعمال[2]. وفرَّق أبوهلال العسكريّ بين الحُسبان والزَّعم، بأنَّ الحُسبان لا يكون إلَّا باطلًا، والزَّعم قد يكون حقًّا، وقد يكون باطلًا[3]. وما قاله أبو هلال فيه نظر؛ فالحُسبان قد يكون فيما ليس باطلًا كما في آيتي النَّمل: ﴿بَلۡ هُمۡ فِي شَكّٖ مِّنۡهَاۖ﴾ [النمل: 66]، وفي سورة الإنسان: ﴿حَسِبۡتَهُمۡ لُؤۡلُؤٗا﴾ [الإنسان: 19]؛ فالغالب أن يكون الزَّعم والحُسبان فيما هو باطل، والحُسبان توهّم كون الشَّيء على صفة ليس عليها، والزَّعم "حكاية قول يكون مظنَّة للكذب"[4]. والظَّن ترجيح طرفي الشَّك[5]، ولذلك كان استعمال السّياق للفظ ﴿أَمۡ حَسِبۡتُمۡ﴾، دون اللّفظين الآخرين، إيذانًا بأنّ ما حسبوه يخالف الواقع، ويجانف الحقّ، إذ إنّ دخول الجنّة لا يكون بالأماني الكاذبة، دون عمل ولا صبر ولا التزام.

(1) الإسكافّي، درّة التّنزيل: 1/335 - 338، والغرناطيّ، ملاك التّأويل: 1/64 - 66.
(2) العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 343.
(3) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 185.
(4) الرّاغب، المفردات، ص: 380.
(5) سعد بن عبد العظيم، موسوعة الفروق القرآنيّة: 2/705.

العِلْم والمعرفَة:

عِرْفان الشّيءِ خِلاَف الجَهْل بِهِ، عَرَفه يَعْرِفه عِرْفاناً ومَعْرِفة، ورجُلٌ عَرُوفٌ وعَرِيفٌ وعارِفٌ، وقد أنْشد سِيبَوَيْهِ:

أوَ كُلّما وَرَدتْ عُكاظَ قَبِيلَةٌ***بَعَثُوا إلَيَّ عَرِيفَهُم يَتَوَسَّمُ[1]

والمعرِفَةُ أخصُّ مِنَ العِلْم؛ لأنَّها عِلْمٌ بَعَينِ الشَّيءِ مُفَصّلًا عمَّا سِواهُ، والعِلْمُ يَكُونُ مُجمَلًا ومُفَصلًا، فكُلُّ مَعرِفةٍ عِلْمٌ وليس كُلُّ عِلْم مَعْرِفَةً، وذلك أنَّ لَفْظَ المعرِفَة يُفيدُ تَمييز المَعلُوم مِن غَيره، ولَفظُ العِلْم لا يُفيد ذَلكَ إلَّا بِضربٍ آخر مِنَ التَّخصيص في ذِكْرِ المعلوم، والشَّاهد قَول أهل اللُّغة: إنَّ العِلْمَ يتعدَّى إلى مَفعولَين ليس لكَ الاقتصار على أَحدِهما إلَّا أن يكونَ بمعنى المَعرفة، ولا تنافي بَيْنَ تَفسيرِ العِلْم بالمعرفةِ والمعرفة بالعِلْم، وبَيْنَ أن يكُونَ لكُلٍّ مِنهُما مع ذَلكَ معنًى يختَصُّ بهِ، وإنَّما المقصودُ اشتراكهما في المفهوم الإجماليّ المُستَنِد إلى ثُبوتِ معنًى في النَّفس، هو حقيقةُ العِلْم والمعرفةِ، وكما يقول الإمام ابنُ حَزْم – رحمه الله –: فالعِلْمُ والمعرفةُ اسْمان واقِعَان على معنًى واحد، وهو اعتقادُ الشَّيء على ما هو عليه وتيقُّنه وارتفاع الشُّكوك عنه[2]، وقد استعمل السّياق في هذه الآية عبارة ﴿وَلَمَّا يَعۡلَمِ ٱللَّهُ﴾، بلفظ العلم، والله عليم، "يقال: الله تعالى عالم ولا يقال عارف، إذ ليس إدراكه تعالى استدلاليًّا ولا مسبوقًا بالعدم، ولا قابلًا للذّهول، والنّسبة بين المعرفة والعلم بهذين المعنيين، هي العموم مطلقًا، هكذا في حواشي المطوّل في تعريف علم المعاني"[3]، وقد كان استعمال لفظ العلم في مكانه المناسب، فهو متعلّق بعلم الله، والله يوصف بالعلم، فيقول القرآن: ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا ٢٦﴾ [الجنّ: 26]، ولم يقل: عارف الغيب، فكان ذلك دليلًا على انسجام اللّفظ مع الدّلالة والاستعمال.

(1) ابن سيده، المخصّص: 1/257، والجوهري، الصحاح: (عرف)، والبيت لطريف العنبري.
(2) العسكريّ، الفروق اللُّغويّة، ص: 80، وابن حزم، الفصل في الملل والأهواء والنّحل: 5/68.
(3) التّهانويّ، موسوعة كشّاف اصطلاحات الفنون والعلوم: 2/1584.

﴿وَلَقَدۡ كُنتُمۡ تَمَنَّوۡنَ ٱلۡمَوۡتَ مِن قَبۡلِ أَن تَلۡقَوۡهُ فَقَدۡ رَأَيۡتُمُوهُ وَأَنتُمۡ تَنظُرُونَ ١٤٣﴾ [آل عمران: 143]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

عِظَةٌ من الله وملام، لمن تمنّوا الموت في الحرب، ولم يثبتوا في الصّدام

ربطٌ بين الأماني بدخول الجنّة، والأماني بلقاء العدوّ في القتال قبل معركة أحد، وعتابٌ رقيقٌ للمُؤمنين المتخلّين عن مواقعهم، بعد أن لاحت بوارق النَّصر، ولمن ترك القِتال بعد أن بانت الهزيمة في جانب المسلمين، فلقد كان كثيرٌ من المسلمين الَّذين شهدوا أحدًا، ولم يكونوا قد شهدوا بدرًا، يأسفون على أن فاتهم حظُّهم من الجهاد في معركة بدر، والشّهادة في سبيل الله، فكان هذا العِتاب الرَّقيق من الله سبحانه وتعالى لهم[1]، بالإنكار "على من ظنّ أنّه يدخل الجنّة دون أن يُبتلى بشدائد التّكاليف الّتي يحصل بها الفرق بين الصّابر المخلص في دينه، وبين غيره"[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تَمَنَّوۡنَ﴾: التَّمنِّي: الأصل اللُّغوي يدلُّ على معنيين: الأوَّل بمعنى: القطع، والثَّاني يدلُّ على اصطناع الخير[3]، أمَّا في الاصطلاح؛ فقد ذكر الرَّاغب أنَّ التَّمنِّي بمعنى: تقدير شيء في النَّفس وتصويره فيها، وذلك قد يكون عن تخمين وظنٍّ، ويكون عن رَويَّة وبناء على أصل، لكن لمَّا كان أكثره عن تخمين؛ صار الكذب له أملك، فأكثرُ التَّمنِّي: تصوُّر ما لا حقيقة له[4]، قوله تعالى: ﴿وَمِنۡهُمۡ أُمِّيُّونَ لَا يَعۡلَمُونَ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ﴾ [البقرة: 78]. قال مجاهد: معناه إلّا

(1) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 2/604 - 605.
(2) الشّنقيطيّ، أضواء البيان: 1/209.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (مني).
(4) الرَّاغب، المفردات، ص: 779 - 780.

كذبًا[1]؛ ووردت كلمة (أمنيّة) في المعاجم بتشديد الياء، في قوله تعالى: ﴿إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ﴾ [الحجّ: 52]، وقد ذكرتها بعض المعاجم الحديثة بالتّخفيف[2]، واللّفظ يؤدّي الدّلالة تماما، فطالما تتمنّون الموت في سبيل الله قبل نشوب القتال. وقد تحقّقت أمنيتهم ونشب القتال، ولاقى بعضهم الموت، فليس في هذا أمر مفاجىء لهم"[3].

2) ﴿تَلۡقَوۡهُ﴾: اللِّقاء بمعنى: المقابلة، ذكر ابن فارس أنَّ معنى اللِّقاء، هو: الملاقاة، وتوافي الاثنين متقابلَين[4]، وذكر الرَّاغب أنَّه مقابلة الشَّيء ومصادفته معًا، وقد يعبَّر عن كلٍّ واحد منهما، ويكون اللِّقاء بالحسِّ وبالبصر وبالبصيرة[5]، ومعنى هذا اللّفظ في سياقه: ﴿مِن قَبۡلِ أَن تَلۡقَوۡهُ﴾ أي من قبل أن تذوقوا شدّته وألمه، فالموت من عظائم المصائب في نفس الإنسان، أو في من يحبّ، وخصوصًا الموت في المعارك، حيث الجراح والدّماء، ومعالجته لا يرغب فيها البشر عادة، ولكنّ المرء يلقاها رغم أنفه، قال تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡمَوۡتَ ٱلَّذِي تَفِرُّونَ مِنۡهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمۡۖ﴾ [الجمعة: 8].

3) ﴿رَأَيۡتُمُوهُ﴾: الرُّؤْيَةُ: النَّظَرُ بالعَيْنِ وبالقَلْبِ، وعليه معنى الرّؤية في الآية، يُقال: رأيتُه، رُؤْيَةً ورَأْيًا: إذا أبصَرْتَهُ، ويُقال: رأَيْتُه بعَيْني رُؤيَةً، ورأَيْتُه رَأْيَ العين، أي: حَيْثُ يَقَعُ البَصَرُ عليه. والرُّؤيَةُ أيضًا: إدْراكُ المَرْئِيِّ[6]، ومعنى اللّفظ في السّياق: ﴿فَقَدۡ رَأَيۡتُمُوهُ﴾ أي رأيتم أسبابه؛ في الجهاد يوم أُحد[7]، وهو ذاته الموت الّذي كنتم تتشوّفون إليه، ثمّ أنتم هؤلاء تجبنون.

4) ﴿تَنظُرُونَ﴾: النَّظَرُ: المُشاهَدَةُ بِالعَيْنِ، والنَّظَرُ: البَصَرُ، ويأْتي بـ معنى الفِكْرِ والتَّأَمُّلِ، يُقال: نَظَرْتُ في كَلامِهِ، أيْ: فَكَّرْتُ وَتَأَمَّلْتُ، هو المعنى في الآية. والنَّظَرُ أيضًا: الانْتِظارُ والارْتِقابُ، يُقال: نَظَرْتُهُ، أي: انْتَظَرْتُ حُضُورَهُ. ومِنْ مَعانِيه أيضًا: الاخْتِيَارُ، والبَحْثُ. وجَمْعُه: أَنْظارٌ ونَظَراتٌ[8]، والمعنى: " فقد رأيتم الموت حين قتل

(1) الزّبيديّ، تاج العروس: (منى).
(2) أحمد مختار عمر، معجم الصّواب اللّغويّ: (مني).
(3) دروزة، التّفسير الحديث: 7/238.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (لقي).
(5) الرّاغب، المفردات، ص: 745.
(6) الخليل، العين، والأزهريّ، وتهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، وابن سيده، المحكم: (رأى).
(7) محمد عبد اللّطيف بن الخطيب، أوضح التّفاسير، ص: 79.
(8) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة، وابن سيده، المحكم، وابن منظور، لسان العرب، والزَّبيدي، تاج العروس: (نظر).

إخوانكم بين أيديكم وأنتم تنظرون"[1]، ورؤية من يموتون أمام النّاظر، دليل قاطع، وعبرة لا تنقطع، وقد قالت العرب: (ما راءٍ كمن سمعا).

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

يُذكِّرهم اللّه تعالى أنَّهم كانوا يَتمنَّون مواجهةَ أعدائهم، ويَطمعون في بلوغِ مرتبةِ الشَّهادةِ بالموتِ في سبيلِ اللّه، وهاهم رأَوا بأعينهم يومَ أُحُد ما كانوا تمنَّوه، فلمَ لمْ يَثبُتوا ويَصبِروا حتَّى ينالوا ما كانوا يَطمعون إليه؟ والآية تحمل نوعا من العتاب في حقّ من انهزم يوم التقت الصّفوف، وجالت السّيوف، في تلك المعركة الكبرى.

كان ينبغي لمن تمنّى الموت من قبل أن يثبت عند اللّقاء ولا يتزلزل

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

تتابع التأكيدات في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ﴾:

تتابعت ثلاثة مُؤكِّدات هي: القسَم المقدَّر، واللَّام الواقعة في جوابه، و(قد).

الحذرُ من الغرورِ بحديثِ النَّفس والتَّمنِّي

ومناسبة ورود هذه المؤكّدات مع أنّهم مقرّون بما ذكرَ في الآيةِ هي أنّه لما كانت أفعالُ الذين انهزموا في معركةِ أحدٍ خلافَ ما كانوا يتمنّونَهُ مِنْ لقاءِ العدوِّ في الحربِ نزَّلهم منزلةَ المنكرِ لِتمنّي لقاءِ العدوِّ، فاقتضى المقامُ مجيءَ الكلامِ على خلافِ مقتضى الظّاهر[2]، كما أفاد التّاكيد دفع المجاز؛ بمعنى: كنتم تتمنون الموت بلقاء العدوِّ في الحربِ على الحقيقة.

دلالة دخول (كان) على الفعل المضارع في قوله تعالى: ﴿كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ﴾:

في دخول (كان) على الفعل المضارع ﴿تَمَنَّوْنَ﴾ دلالة على اعتياد الأَمر في الماضي ووقوعه بصورة مُتكرِّرة، أي كانوا مُستمرِّين على

الماضي المستمر يتحقق بدخول كان على الفعل المضارع

(1) لجنة من علماء الأزهر، المنتخب، ص: 93.
(2) السكاكي، مفتاح العلوم، ص: 171.

ذلك التمني؛ ليفيد تقريرهُ، وأفاد حذف تاء المضارعة تخفيفًا صوتيًّا مناسبًا لسياق الألفاظ المتآلفة[1].

دلالة التَّمني في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ كُنتُمۡ تَمَنَّوۡنَ ٱلۡمَوۡتَ﴾:

لا يَنبغي للإنسان أن يتمنَّى المكروه

قد يكون المتمنَّى قريبا، وقد يكون بعيداً ممكنًا، وقد يكونُ غيرَ ممكنٍ، وهو هنا على سبيل الإمكان لقرينةِ السياقِ، ويحتمل أنَّ الصحابة كانوا يعدّون لقاء العدو قريبًا ويحتمل أنّهم كانوا يعدّونه بعيدًا، وعلى كلا الاحتمالين فإنّهم عبّروا بالتّمني للإشعارِ بأنّ الموتَ بالشهادة في سبيل اللّه معشوقٌ لنفوسهم لإعلاء كلمة الإسلام، ولم يعبّروا بالتّرجي وإن كان متوقَّع الوقوع؛ لأنَّه قد لا يكون معشوقًا لها، فناسب التّعبير بالتّمنّي وصف حالِهم[2].

دلالة قوله تعالى ﴿تَمَنَّوۡنَ ٱلۡمَوۡتَ﴾:

لمّا دلَّ السياق على أنَّ الكلام في الحرب أفاد أنَّ المرادَ بتمنّي الموت هو تمنّي الموت بالشهادة، إذ تمنّي الموت بدونِ الشّهادة ليس بممدوح، وبهذه القرينة حملَ الكلامُ على المجاز المرسل[3].

بلاغة المجاز المرسل في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ كُنتُمۡ تَمَنَّوۡنَ ٱلۡمَوۡتَ﴾:

في الآية الكريمة مجاز مُرسل علاقته السَّببية، فقد ذَكر المسبّبَ وهو الموت بالشهادةِ الذي لا يُلقى ولا يُرى، وأراد السبب وهو الحربُ أو لقاء العدوِّ وما فيهما من أهوال وشدائد، وهي حال في ضمنها في الأغلب الموت، ولا يتمناها إلا من طابت نفسه بالموت، فصار الموت كأنه المتمنَّى؛ تَنْزِيلًا لِغَايَةِ التَّمَنِّي مَنْزِلَةَ مَبْدَئِهِ[4].

(1) السامرائي، معاني النحو: 3/319.
(2) االسكاكي، مفتاح العلوم، ص: 303، والسبكي، عروس الأفراح: 1/420 - 421.
(3) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 6/340.
(4) ابن عطية، المحرر الوجيز: 1/515، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/108.

دلالة التَّعبير في قوله تعالى: ﴿مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ﴾:

جوازُ توبيخ من لم يعرف قدراته وإمكانياته

في هذا التّعبير فوائد لغوية وبلاغيّة هي[1]:

1) لمّا كان تمنّي الموت فيه شدّة وهول عظيمان بيّن أنّ سبب إقدامِهم عليه هو أنّهم لم يشاهدوه ولم يعاينوا مصاعبه وتبعاتِه.

2) أشعر قوله ﴿مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ﴾ أنَّ تمنّيَهم الموت ابتدأ من قبل ملاقاتِه واستمرَّ بدلالة (كنتم تمنَّون)، وانتهى بملاقاتِه.

3) في التعبيرِ تعريضٌ بِأَنَّهُمْ تَمَنَّوْا أَمْرًا مَعَ الْإِغْضَاءِ عَنْ شِدَّتِهِ عَلَيْهِمْ، فَتَمَنِّيهِمْ إِيَّاهُ كَتَمَنِّي شَيْءٍ قَدْ جَهِلُوا مَا فِيهِ مِنَ الْمَصَائِبِ

دلالة الفاء في قوله تعالى: ﴿فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ﴾:

الفاء هنا هي الفصيحة، فهي تفصح عن شرط مُقدَّر دلَّ عليه صدر الكلام، والتّقدير: إن كنتم صادقين في تمنِّيكم الموت فقد رأيتموه وعاينتموه[2].

علّة إيثار الرُّؤية على الملاقاة في قوله تعالى: ﴿أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ﴾:

لمّا كانت الملاقاةُ قد تكون برؤيةٍ أو من غيرِ رؤيةٍ، أكّدَ لقاءَهم الموتَ وقرَّره؛ لِلمُبالغة في مشاهدتهم له[3].

مناسبةُ تقييد الرُّؤية بالنَّظر في قوله تعالى: ﴿فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾:

تقييد الرُّؤية بالنَّظر للمبالغة والتَّوكيد

أفادت الجملة الحالية ﴿وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾، اقترانَ رؤيتهم بالنّظر، فالحال على معنى التّأكيد، لدفعِ المجازِ وتقريرِ الحقيقة، والمعنى رأيتموه معاينين له، وهذا على حدِّ قولك: رأيته وليس في عيني عِلَّة، أي رأيته رؤية حقيقية لا خفاء ولا التباس[4].

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 2/92، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/108.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 2/92، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/108، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 3/1430.

(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 2/92، والآلوسي، روح المعاني: 2/286.

(4) الآلوسي، روح المعاني: 2/286، وطنطاوي، التفسير الوسيط: 2/280، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 3/1430، والسامرائي، معاني النحو: 3/311.

دلالة التَّعبير بالفعل المضارع في قوله تعالى: ﴿وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾:

التَّعبير بالمضارع ﴿تَنظُرُونَ﴾ يفيد تّصوير حالتهم وهم ينظرون إلى الموت، واستحضار تلك الصورة باستمرار[1].

سِرُّ التَّعبير بقوله تعالى: ﴿وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾:

الجمع بين الرُّؤية البصريَّة والقلبيَّة بفعل الرؤية

لمّا كان النظر متردِّدًا بين المحسوس الذي منه الإبصار، والنظر المعقول الذي منه البصيرة، وكان البصر لا يستعمل إلا في البصر بالعين[2] عبّر بقوله تعالى ﴿وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ دون: (وأنتم تُبصرون)، للإشعار بأن المعنى تنظرون بعيونكم، وببصيرتِكم ليكون النّظر على أتمِّ معناه وأكملِه.

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

التَّمني والتَّرجّي:

لفظ التَّمني غير لفظ التَّرجي، وقد فرّق النّحاة بين التّمنّي والتّرجّي، فذكروا أنّ التّمنّي يكون في الممكن والممتنع، والتّرجّي يكون في الممكن فقط[3]، ومنه قول الشّاعر:

لَيْتَ الْشَّبَابَ هُوَ الرَّجِيعُ عَلَى الْفَتَى *** وَالْشَّيْبُ كَانَ هُوَ البَدِئُ الْأَوَّلُ[4]

وعلّة استعمال التَّمني في الممكن والمحال، واختصاص التَّرجي بالممكن؛ لأنَّ ماهية التَّمني محبَّة حصُول الشَّيء، سواء كنت تنتظره وترتقب حصوله أو لا، والتَّرجّي: ارتقاب شيء لا وثوق بحصوله، فيدخل فيه الطّمع والإشفاق[5]، "ويقال: إنّ التّمنّي والتّرجّي والنّداء والقسم، ليس فيه طلب بل هو تنبيه، ولا بدع في تسميته إنشاء[6]، وقد استعمل السّياق في هذه الآية التّمنّي بقوله: ﴿وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ﴾، والموت المُتمنّى بحالة

(1) طنطاوي، التفسير الوسيط: 2/280.

(2) الراغب، تفسير الراغب: 1/188.

(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 9/258.

(4) السّمين، الدّرّ المصون: 9/483.

(5) الكفوي، الكليات، ص: 468، والأحمد نكري، دستور العلماء: 1/196، والآلوسي، روح المعاني: 1/188، وعظيمة، دراسات لأسلوب القرآن الكريم: 2/703.

(6) الكفوي، الكليات، ص: 468، والأحمد نكري، دستور العلماء: 1/196، والآلوسي، روح المعاني: 1/188، وعظيمة، دراسات لأسلوب القرآن الكريم: 2/703.

الشّهادة ممكن الوقوع، وقد حصل على الشّهادة ملايين من البشر، عبر تاريخ الأمّة الإسلاميّة، ولكنّ هؤلاء المذكورين في الآية، رأواْ المُتمنّى في معركة أُحُد ماثلا أمامهم، غير أنّهم لاذواْ بالفرار.

اللِّقاء والاجتماع:

اللِّقاء: هو الاجتماع على وجه المقارنة، والاتّصال، والاجتماع قد يكون على غير المقارنة والاتصال، فلا يكون لقاء، كاجتماع القوم في الدَّار، وإن لم يكن هناك اتِّصال. ويدلُّ عليه قوله تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا﴾ [البقرة: 14]، فإنَّ المراد حين المواجهة والتَّحدث، وقوله: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِمِثۡلِ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ﴾ [الإسراء: 88]، الآية، فإنَّ المراد اتِّفاقهم وتعاضدهم، سواء كان ذلك مع مشافهة أم لا، كما هو ظاهر[1]، وفي الآية استعمل لفظ ﴿تَلۡقَوۡهُ﴾، والضميرُ في (تَلْقَوه) فيه وجهان، أظهرُهما: عَوْدُه على الموت، والثّاني: عَوْدُه على العدوِّ، وإنْ لم يَجْرِ له ذِكْرٌ لدلالةِ الحالِ عليه[2]، والأوّل آثر في المعنى لدلالة السّياق السّابق عليه، وهو معبّر عن ذلك ببلاغة ووضوح.

النَّظَر والرُّؤية:

النَّظر المقرون بحرف (إلى) ليس اسمًا للرُّؤية، بل لمقدمة الرُّؤية، وهي تقليب الحدقة نحو المرئي التماسا لرؤيته، ونظر العين بالنِّسبة إلى الرّؤية كنظر القلب بالنّسبة إلى المعرفة، وكالإصغاء بالنّسبة إلى السَّماع، فكما أنَّ نظر القلب مقدّمة للمعرفة، والإصغاء مقدّمة للسَّماع، فكذا نظر العين مقدّمة للرُّؤية، قالوا: والَّذي يدلُّ على أنَّ النَّظر ليس اسما للرُّؤية وجوه منها: الأوَّل: قوله تعالى: ﴿وَتَرَىٰهُمۡ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ وَهُمۡ لَا يُبۡصِرُونَ ١٩٨﴾ [الأعراف: 198]، أثبت النَّظر حال عدم الرُّؤية، فدلَّ على أنَّ النَّظر غير الرؤية. والثَّاني: أنَّ النَّظر يوصف بما لا توصف به الرُّؤية، يُقال: نظر إليه نظرًا شزرًا، ونظر غضبان، ونظر راضٍ، وكلّ ذلك لأجل أن حركة الحدقة تدلُّ على هذه الأحوال، ولا توصف الرُّؤية بشيء من ذلك، فلا يقال: رآه شزرا، ورآه رؤية غضبان، أو رؤية راض. والثَّالث: يُقال: انظر إليه حتّى تراه، ونظرت إليه فرأيته، وهذا يفيد كون الرُّؤية غاية للنَّظر، وذلك يوجب الفرق

(1) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 467.

(2) السّمين، الدّرّ المصون: 3/412.

بين النَّظر والرُّؤية. والرَّابع: يُقال: دُور فلان متناظرة، أي مُتقابلة، فمُسمَّى النَّظر حاصل هاهنا، ومُسمَّى الرُّؤية غير حاصل[1]، وقد استعمل السّياق اللّفظين معا، في قوله تعالى: ﴿فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ من هذه الآية قيد التّفسير، قال الحرّاليّ: "وأوّل موقع العين على الصّورة نظر، ومعرفة خبرتها الحسيّة بصر، ونفوذه إلى حقيقتها رؤية، فالبصر متوسّط بين النّظر والرّؤية"[2]، فقد كان منهم نظر لرحى الحرب الدّائرة على سفح جبل أحد، فلمّا خبروا المكان، وعاشوا الأحداث، وشعرواً برهبة الموت، وداخَلَهم الخوف، كان تعبير اللّه بليغًا، حيث قال: ﴿وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾، فكانت منهم الرّؤية آنئذٍ.

(1) الرّازي، مفاتيح الغيب: 30/730، وابن عادل، اللباب في علوم الكتاب: 19/566.
(2) المناويّ، التّوقيف: 1/326.

﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾﴾ [آل عمران: 144]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

العلاقة بين عتاب الفارّين من الموت، وعتاب المفتونين بإشاعة موت النّبيّ ﷺ

بعد الحديث عن فريقٍ من المؤمنين تحمَّسوا للقاء العدوِّ؛ فحصلت لهم هزيمة غير متوقَّعة؛ فعاتبهم اللّه على أنَّهم لم يثبتوا، ثمّ عاتبهم أيضًا على تزلزلهم جرّاء خبر مقتل النّبيّ ﷺ، مؤكّدا بأنّه لا ينبغي أن يصرفهم ذلك عن دين اللّه تعالى، وأنَّ موت الرُّسل أمرٌ طبيعيٌّ، وسنَّةٌ إلهيَّةٌ، فلا تنتهي شرائعهم بموتهم، إن ماتوا على فرشهم، أو قتلوا في معارك طاحنة، فالأمر في الحالين سيّان، ولا يجب من أجل ذلك النّكوص عن الإيمان.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿رَسُولٌ﴾: الرّسُولُ: المُرْسَلُ، أي: حامِلُ الرِّسالَةِ لِيُبَلِّغَها، يُقال: أَرْسَلْتُ رَسولًا، أيْ: بَعَثْتُهُ بِرِسالَةٍ يُؤَدِّيها، وهو ما عليه معنى الآية، ويأْتي بِمعنى المُتابِعِ، يُقال: جاءَت الإبِلُ رَسْلًا، أيْ: مُتَتابِعَةً. ومِنْ مَعانِيهِ: المَبْعوثُ إلى الغَيْرِ. ويُطْلَق أيضًا على الرِّسالَةِ نَفْسِها. والجَمعُ: أرسُلٌ ورُسُلٌ ورُسَلاءُ[1]، واستعمال لفظ (رسول) في إطار الاستثناء المفرّغ، يؤكّد بشريّة الرّسول الّذي تطرأ عليه العوارض، كما تطرأ على كافّة البشر، ومنها الموت الّذي يغشاه لا محالة، حين يحين أجله، قال تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الزّمر: 30]، وقوله أيضا: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ ۖ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [الأنبياء: 34].

(1) ابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس: (رسل).

2) ﴿قَدۡ خَلَتۡ﴾: الخُلُوُّ: المضيّ، وهو ما عليه الآية، وقوله تعالى: (وَإِنۡ مِنۡ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ) أي مضى وأرسل في الزّمان الغابر، واستعمل اللّفظ بهذا المعنى للدّلالة على انصرام الأمم، منذ القدم، قال تعالى: ﴿قَالَ ٱدۡخُلُواْ فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِكُم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ فِي ٱلنَّارِۖ﴾ [الأعراف: 38]، وكون الرّسل خلت من قبله، إشارة إلى أنّه الخاتم، وأنّه آخر من أرسل إلى البشر.

3) ﴿مَّاتَ أَوۡ قُتِلَ﴾: اللّفظان من حقل دلاليّ واحد، ولذلك جمعناهما في الشّرح، فالموت في أصل اللُّغة يدلُّ على ذهاب القوَّة من الشَّيء[1]، وهو أنواع، ومنه الموت خلاف الحياة[2]، ويطلق غالبًا على زوال الرُّوح عن الجسد، وهو قدر اللّه المقدور على كلّ نفس منفوسة، خلقها اللّه من عدم بقدرته، وأوجدها من عُدْم بقيّوميّته، وفرض عليها قانون الموت العامّ، لقوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۗ﴾ [الأنبياء: 35]، وقال زهير بن أبي سلمى:

وَمَنۡ هابَ أَسبابَ المَنايا يَنَلۡنَهُ***وَلَو رَامَ أَسۡبَابَ السَّماءِ بِسُلَّمِ[3]

أمّا لفظ ﴿قُتِلَ﴾، فمن القَتْل: وهو الإماتَةُ، وإزْهاقُ الرُّوح، يُقَالُ: قَتَلَ الحَيَوَانَ، يَقْتُلُهُ، قَتْلًا: إذا أَمَاتَهُ بـ سِلاحٍ ونَحْوِهِ، وَرَجُلٌ قَتِيلٌ، أيْ: فارَقَتْ رُوحُهُ بَدَنَهُ بِفِعْلِ فاعِلٍ، وامْرَأَةٌ قَتِيلٌ. والجَمْعُ: قَتْلى[4]، واستعمال اللّفظين لحكمة السّياق القرآنيّ وبلاغته، إذ الموت حتف الأنف أو القتل بوسيلة أو شخص، هما السّبيلان لمفارقة الحياة الدّنيا، وذكرهما معًا آكد في الاحتمال باعتبار المخاطبة للبشر، أمّا الأصل فإنّ النّبيّ ﷺ تعرّض لعدّة محاولات قتل، ومكائد اغتيال، ولكنّ اللّه وقاه، لأنّه عصمه من النّاس، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ﴾ [المائدة: 67].

4) ﴿ٱنقَلَبۡتُمۡ﴾: الانقلاب: العودة، أو الرُّجوع إلى حالة غير الحالة التي كانوا عليها سابقاً. ولو عادوا إلى ما كانوا عليه من قبل؛ لقال: رجعتم فالانقلاب هو غير الرُّجوع[5]،

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (موت).
(2) الرّاغب، المفردات، ص: 781.
(3) الزَّوْزَنّي، شرح المعلّقات السّبع، ص: 150.
(4) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، والجوهريّ، الصّحاح: (قتل).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة، والسَّمين، عمدة الحفَّاظ: (قلب).

ولذلك استعمل لفظ ﴿ٱنقَلَبۡتُمۡ﴾، بإيراد احتمال رجوعهم إلى الكفر بعد الإيمان، وهم يعودون إلى الرّدّة، وهي حالة أقبح من الكفر، ولذا كان استعمال الانقلاب هنا أدقّ وأبلغ.

5) ﴿أَعۡقَٰبِكُمۡۚ﴾: العَقِبُ - بِفَتْحِ العَيْنِ مَعَ كَسْرِ القَافِ وَسُكُونِهَا -: مُؤَخَّرُ القَدَمِ الذي يُمْسِكُ شِرَاكَ النَّعْلِ مِنْ خَلْفٍ، وتُؤَنِّثُهُ العَرَبُ، وَتُجْمَعُ عَلَى أَعْقَابٍ وَأَعْقُبٍ، وعَقِبُ الرَّجُلِ: وَلَدُهُ وَوَلَدُ وَلَدِهِ البَاقُونَ مِنْ بَعْدِهِ وقَوْلُهم: لا عَقِبَ لَهُ: أَيْ لَمْ يَبْقَ لَهُ وَلَدٌ ذَكَرٌ[1]، وقوله: ﴿ٱنقَلَبۡتُمۡ عَلَىٰٓ أَعۡقَٰبِكُمۡۚ﴾، أي: رجعتم كفّارا بعد الرّدّة بمعنى (ارتددتم إلى الكفر).

6) ﴿فَلَن يَضُرَّ﴾: الضّر: المَكْرُوهُ وَالأَذَى، وضَرَّ فُلانًا ضُرًّا وضَرَرًا إِذَا أَلْحَقَ بِهِ مَكْرُوهًا أَوْ أَذًى، وَيُطْلَقُ الضَّرَرُ عَلَى سُوءِ الحَالِ مِنْ مَرَضٍ أَوْ فَقْرٍ وَنَحْوِهِ، وَأَصْلُ الضَّرَرِ: النُّقْصَانُ يَدْخُلُ فِي الشَّيْءِ، يُقَالُ: دَخَلَ عَلَيْهِ ضَرَرٌ فِي مَالِهِ، وَضِدُّ الضَّرَرِ: النَّفْعُ وَالسَّعَةُ، وَمِنْ مَعَانِي الضَّرَرِ أَيْضًا: الضِّيقُ والحَرَجُ والهُزَالُ والنُّقْصَانُ[2].

7) ﴿شَيۡـٔٗاۚ﴾: الشَّيْءُ: كُلُّ مَوْجودٍ إِمّا حِسًّا كالأَجْسامِ، أو مَعْنًى كالأَقْوالِ، وهو يَقَعُ على كُلِّ ما أُخْبِرَ عنه، وقيل: إِنَّهُ مَصْدَرٌ بِـ مَعنى اسمِ المَفعولِ أي الأَمْرُ المَشِيءُ الّذي يتَعَلَّقُ بِهِ القَصْدُ، ويُطلَقُ ويُراد به: الجُزْءُ الصَّغِيرُ، والجمعُ: أَشْياء[3]، وهذا اللّفظ لا يفيد الدّلالة إلّا ضمن السّياق، واستعماله منكّرا يؤكّد أنّ الضّر لا يرقى ليمسّ الذّات الإلهيّة المنزّهة عن كلّ عرض أو نقص،

إنّما يقع الضّرر على من كفر، فاللّه تعالى غنيّ عن ذلك، وسيقيم ملّته، وينصر دينه، ويعزّ عباده الصّالحين لا محالة.

8) ﴿وَسَيَجۡزِي﴾، ﴿ٱلشَّٰكِرِينَ﴾، المعنى مرتبط في اللّفظين ببعضه، فالجَزاء: العِوَضُ والمُكافَأَةُ، يُقال: جَزَيْتُهُ على عَمَلِهِ، أَيْ: كافَأْتُهُ. وهوما فيه الكفاية من المقابلة، إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشرّ[4]، وأمّا لفظ ﴿ٱلشَّٰكِرِينَ﴾، فمن الشُّكر، وهو: تصوُّر النِّعمة وإظهارها، وهو في أصل اللُّغة بمعنى: ظهور أثر الغذاء في أبدان الحيوان، وهو يعني:

(1) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، والجوهريّ، الصّحاح: (عقب).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والجوهريّ، الصّحاح، وابن منظور، لسان العرب: (ضرر).
(3) الرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، والزّبيدي، تاج العروس: (شيأ).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، والزّبيديّ، تاج العروس: (جزا).

الامتلاء، فذكر ابن فارس أنَّ للشُّكر أصولًا أربعة، ذكر منها: الامتلاء، وذكر الرَّاغب أنَّ الشُّكر هو الامتلاء من ذكر المُنعِم عليه[1]، ومعنى هذه العبارة أنّه تعالى سيثيب الثّابتين على الحقّ، والصّابرين على شدائد الدّنيا، والشّاكرين نعماءه في السّرّاء والضّرّاء، بنصره ورضوانه في الدّنيا بالتّمكين، وفي الآخرة بالفوز المبين[2].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

التّأكيد على أنّ موت الرّسول لا يؤثّر على الدّعوة، ولا يزيد المؤمنين إلّا ثباتا

الآية تتضمّن نداء، مفاده أنّ محمَّدًا ﷺ، ليس إلَّا رسولًا، من جنس الرُّسل السّابقين، وقد ماتواْ أو قتلواْ، وهو مثلهم يبلِّغ رسالة ربّه، أفإن مات بانقضاء أجله، أو قُتل -كما أشاع الأعداء - رجعتم عن دينكم، وتركتم ما جاء به نبيُّكم؟ ومن يرجع عن دينه؛ فلن يضرَّ اللّه شيئًا، إنَّما يضرُّ نفسه، أمَّا من ثبت على الإيمان، وشكر ربَّه على نعمة الإسلام؛ فإنَّ اللّه يجزيه أحسن الجزاء، في الدّنيا بالتّمكين، وفي الآخرة بأن يجعله من الفائزين[3].

❁ الإِيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

سر التَّعبير بأسلوب القصر في قوله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ﴾:

في الجملة قصرُ إفراد بمعنى تخصيصِ سيّدنا محمّد ﷺ بوصف الرسالة غيرَ جامعٍ بينَها وبين التبرّؤِ من الموتِ، لكنَّ الصحابة لمّا كانوا يعدّون موتَه أمرًا عظيمًا نزِّلَ استعظامهم موته منزلة إنكارِهم الموتَ له، فاستعمل له طريق النَّفي والاستثناء، والاعتبار المناسب الذي سُلِك بسببه هذا الأسلوب هو الإشعار بعظمِ هذا الأمر في نفوس الصَّحابة وشدّةِ حرصهم على بقائه ﷺ فيما بينهم حتّى كأنَّه لايخطرُ موته في البال. ويحتمل أن يكون قصرَ قلبٍ، فالصّحابة لم يكونوا يجهلون رسالة النبيِّ إلا أنَّه نُزِّل استعظامُهم

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرَّاغب، المفردات: (شكر).
(2) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 2/284.
(3) أبو حيان، البحر المحيط: 3/262 - 263، و566، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/110، وطنطاوي، التّفسير الوسيط: 2/284.

له على الموتِ تنزيلَ من يجهل رسالته، فمن استبعد موته فكأنَّه استبعدَ رسالته وكونَه إنسانًا، لأنَّ كلَّ رسول لا بدَّ من موته، والمعنى على قصرِ القلبِ، (وما محمَّد إلا رسول، لا إله)، فنزِّل استعظامُهم هلاكَه منزلةَ دعوى ألوهيَّته؛ لأنَّ البقاءَ يخصُّ الإله[1].

مناسبةُ مجيء قولِه تعالى ﴿قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِ ٱلرُّسُلُۚ﴾:

هذه الجملة صفة لقولِه (رسول) لبيان خلوِّ الرُّسلِ من قبلِه، ليكون على طريقة الاستدلالِ بذكر النظّائر ليقتنعَ الإنسانُ بما سمع، إذْ تَدُلُّ عَلَى تَسَاوِي كُلِّ الرُّسُلِ فِي الْخَلْقِ وَالْمَوْتِ، فَهَذَا الرَّسُولُ هُوَ مِثْلُهُمْ فِي ذَلِكَ[2]، وليكونَ الكلامُ تمهيدًا لقولِه ﴿أَفَإِيْن مَّاتَ أَوۡ قُتِلَ ٱنقَلَبۡتُمۡ عَلَىٰٓ أَعۡقَٰبِكُمۡۚ﴾، ولهذا جاءت جملةُ الشّرطِ مقترنةً بالفاء الدالَّة على أنَّ ما قبلَها سببٌ لما بعدَها

نكتةُ التَّعريف في كلمة ﴿ٱلرُّسُلُۚ﴾ في قوله تعالى: ﴿قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِ ٱلرُّسُلُۚ﴾:

إثباتُ ختمِ الرّسالات برسول الله محمدٍ ﷺ

(أل) في قوله ﴿ٱلرُّسُلُۚ﴾ جنسيَّةٌ؛ فتفيد العمومَ وإذا كان الرُّسلُ كلُّهم قد خَلَوْا من قبله، لزِمَ مِن ذلك أنْ يكونَ هو آخِرَهم وخاتمهم، كما يُؤخذُ منه تَفخيمُ شأنِ الرُّسل، والتَّنويهُ بهم على شأنهم ووصفهم هو تبليغُ رسالة اللّهِ تعالى[3].

دلالةُ الاستفهام في قوله تعالى: ﴿أَفَإِيْن مَّاتَ أَوۡ قُتِلَ ٱنقَلَبۡتُمۡ عَلَىٰٓ أَعۡقَٰبِكُمۡۚ﴾:

همزةُ الاستفهام في ﴿أَفَإِيْن﴾ للإنكار، والفاءُ للسببيَّة، وهذا يؤكِّدُ ما اقتضتْه جملةُ القصر، من التعريضِ بالإنكارِ عليهم في اعتقادِهم خلافَ مضمونِ جُملة القصر؛ فقد حصَل الإنكارُ عليهم مرَّتين: إحداهما بالتَّعريضِ المستفادِ من جُملة القصر، والأُخرى بالتَّصريحِ الواقِع في هذه الجُملة[4].

(1) السكاكي، مفتاح العلوم، ص: 289، والتَّفتازاني، المطول، ص: 397، والإسفراييني، الأطول: 1/559.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 3/368، وابن عثيمين، تفسير ابن عثيمين: 2/242.
(3) أبو حيان، البحر المحيط: 3/363، وابن عثيمين، تفسير ابن عثيمين: 2/242.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/112.

دلالة التّعبيرِ بـ (إن) الشرطية:

لمّا كانت (إن) تستعمل في المشكوكِ في وقوعِه وكان الموت حتمًا مقطوعًا في وقوعِه، دلَّ على أنَّ المرادَ في الشّرطِ تحديدُ الوقتِ بوقوعِ الموتِ؛ لأنَّ غير المجزوم بوقته نظير غير المجزوم بوقوعه من جهة خفاء زمن وقوعه، أي لمَّا كان مجهول الوقت ساغ دخولُ (إنْ) في الكلام[1]، أو يقال عبّر بأداة الشّرط (إنْ) الَّتي تقتضي الشَّكَّ، مع علمهم به البتَّة؛ لِتنزيلِ المخاطبينَ منزلةَ المتردِّدين فيه، فيكون التّعبير بها على خلافِ مقتضى الظّاهر؛ لمناسبةِ المقامِ أي باعتبار حال السَّامع[2].

مناسبة الجمعِ بين الموت والقتل في قوله تعالى: ﴿مَّاتَ أَوْ قُتِلَ﴾:

لمّا فارقَ بين الموت والقتلِ أفادَ التّعبير أنّه كما أنَّ الموتَ لا يوجب الرُّجوعَ عن دينه ﷺ فكذا القتل لايوجب الرُّجوعَ عن دينِه، فعطف القتل على الموت لمناسبة سياقِ الكلام، ولكونه مجوَّزًا عند المخاطبين[3].

سِرُّ تقديم الموت على القتل في قوله تعالى: ﴿مَّاتَ أَوْ قُتِلَ﴾:

المشترك بين جميع الرُّسل عليهم السلام هو الخُلُوّ بالموت دون القتل

قدّم الموت على القتلِ مع أنَّ تقدير القَتْل هو الَّذي ثارت منه الفِتنة، وعظم فيه أمر المحنة؛ لأنَّ الوصف الجامع بينَ رسولِ اللّه ﷺ والرُّسل عليهم السلام هو الخُلُوّ بالموت دون القتل[4]، كما أنَّ في التّقديم إشعارًا بأنَّ رسول اللّه يموت ولن يُقتلَ.

دلالة (أو):

تفيد (أو) التخيير بين الأمرين، وهي هنا على معنى التَّسوية بمعونة المقام، والْمُرَادُ أَنَّهُ سَوَاءٌ وَقَعَ هَذَا أَوْ ذَاكَ فَلَا تَأْثِيرَ لَهُ فِي ضَعْفِ الدِّينِ وَوُجُوبِ الِارْتِدَادِ[5].

(1) الزمخشري، المفصل، ص: 440، والسبكي، عروس الأفراح: 1/323.
(2) القنوجي، فتح البيان: 2/345.
(3) الزمخشري، الكشاف: 1/423، والرّازي، مفاتيح الغيب: 9/377، وأبو حيَّان، البحر المحيط: 3/381.
(4) الزمخشري، الكشاف: 1/423، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 2/93.
(5) الرّازي، مفاتيح الغيب: 9/377.

بلاغة التّعبير بين الاستعارة والكناية في قوله تعالى: ﴿ٱنقَلَبۡتُمۡ عَلَىٰٓ أَعۡقَٰبِكُمۡۚ﴾:

تصوير المعنويّ المعقول في صورة الماديّ المحسوس

في الآية الكريمة إمَّا استعارة تمثيليَّة، حيث شبَّه من يرجع عن دينه بمن يمشي إلى الخلف القهقرى، ومن يرجع إلى الارتياب بالرَّاجع على الأعقاب، وهذا تصوير فني بديع بطريقة الاستعارة التَّمثيليَّة. وسِرُّها البلاغي تصوير المعنوي المعقول في صورة المادي المحسوس لإظهار كمال بشاعته وقُبحه. أو كناية عن صفة التَّردي المهلك مع قرن الدَّعوى بالدَّليل. وعلى كلٍّ فإنَّ التَّنفير ممَّا حدث لا ينفك عن التَّصوير البلاغي أيًّا كان نوعه[1].

براعة التّمثيل في قوله ﴿ٱنقَلَبۡتُمۡ عَلَىٰٓ أَعۡقَٰبِكُمۡۚ﴾:

هذا التّعبير من قبيل المثل؛ يُضرب على سبيلِ الذَّمِّ لمن رجع عن الشَّيء بعد الإقبال عليه، فيجعل ذلك مثلًا لكلِّ تاركٍ أمرًا وآخذٍ آخرَ غيره، إذا انصرف عمَّا كان مقبلًا عليهِ، ورجعَ إلى الذي كان له تاركًا فأخذه[2].

دلالة العدول في قوله تعالى: ﴿أَفَإِيْن مَّاتَ أَوۡ قُتِلَ ٱنقَلَبۡتُمۡ عَلَىٰٓ أَعۡقَٰبِكُمۡۚ﴾:

في الآية الكريمة عدول عن المستقبل إلى الماضي؛ لإبراز غير الحاصل في معرض الحاصل.

براعة التّعبير في قوله: ﴿وَمَن يَنقَلِبۡ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗاۗ﴾:

في التّعبير بهذه الجملة الشّرطية فوائد لغوية وبلاغية هي[3]:

1) العدول بالخطاب في الآية الكريمة من الحضور إلى الغيبة، وصرفه عن الماضي إلى المستقبل - فيه ما فيه من لُطف الله، ورحمته وإحسانه، بل ورضاه عن المسلمين الَّذين شهدوا أُحدًا، وشمولهم جميعًا بهذا الصَّفح الجميل، والرضوان العظيم.

(1) المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 1/185، وجعفر شرف الدين، الموسوعة القرآنية: 2/103.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 3/163، ورضا، تفسير المنار: 4/133.
(3) الراغب، تفسير الرّاغب: 3/892، والرّازي، مفاتيح الغيب: 9/377، وأبو حيان، البحر المحيط: 3/364، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/113، والخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 2/606.

2) أفاد اسم الشّرط (مَن) العمومَ ليشمل كلَّ عاقلٍ.

3) تضمّن الكلام تعريضًا، فإنَّه لمّا كان الانقلاب على العقب ارتدادًا عن الدّين، وهو وصف لفاعلِه، عرَّضَ بنفي الضرِّ عن اللّه تعالى بتأكيدَ الوعيدِ، ففيه تعريضٌ بأنَّهم لا يضرُّون إلَّا أنفسهم

4) لمّا وقعَ لفظ (شيئًا) في سياق النّفي في قوله تعالى: ﴿فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗاۚ﴾، أفاد العمومَ ليشملَ نفيَ كلِّ ما يطلقُ عليه ضررٌ قليلًا أو كثيرًا، وعبَّر بالشيء لإطلاقِه على كلِّ ما له وجودٌ؛ لتقريرِ نفي أيِّ ضرٍّ عن اللّه تعالى.

5) فيها استعارة تمثيليّة، وتقدّم بيانُها

6) لمّا كان اسم الشَّرط على معنى العموم أفادَ أَنَّ كُلَّ مَنِ ينقَلبَ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَا يَضُرُّ إِلَّا نَفْسَهُ، وَلَا يَلْحَقُ مِنْ ذَلِكَ شَيْءٌ لِلَّهِ تَعَالَى ولا لدينِه، وقرّر هذا المعنى بمجيء (لن) التي تفيد تأكيد نفي المستقبل، لِأَنَّهُ تَعَالَى لَا يَجُوزُ عَلَيْهِ مَضَارُّ الْعَبْدِ، فهي جملةٌ تذييليّة تقع في موقعِ المثلِ لعمومِها وكلّيَّتِها

7) لمّا تضمَّن قوله تعالى ﴿فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗاۚ﴾، معنى فلا يضرّ إلا نفسَه وكان الجزاء على معنى اقترانِ وقوعِه بوقوعِ بالشّرط دلَّ على لحاقِ الضّرر به بمجرّدِ ارتدادِه واستمرارِه معه بما تدلُّ عليه صيغة المضارع ﴿يَضُرَّ﴾.

حسنُ التَّذييل في قولِه تعالى ﴿وَسَيَجۡزِي ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾:

فيه فوائد لغوية وبلاغيّة، هي:

1) براعة الإيجاز بالحذف، فإنَّ تعلُّق هذه الجملة بما قبلَها مبنيٌّ على كلامٍ محذوف دلَّ عليه المذكور، وتقديره ومن لم ينقلب على عقبيه وأحسن يجزِه اللّه، وسيجزي اللّه الشّاكرين.

2) جاء التَّعبير بالفعل المضارع المقرون بالسِّين ليدل على تأكيد قُرب الجزاء الحسَن واستمراره للمؤمنين الشَّاكرين.

3) في التّعبير مناسبة حسنة بإتّباعِ الوعيدِ بالوَعْد[1].

فضل الله على عباده الشاكرين دائم لا ينقطع

(1) الرّازي، مفاتيح الغيب: 9/377.

4) إظهارُ الاسمِ الجليلِ (اللّه) في موقِعِ الإضمار جاء لإبرازِ مزيدِ الاعتناءِ بشأن جزائِهم[1].

الشُّكر في مقام البلاء صبرٌ وزيادةٌ

5) وعبَّر بالشّاكرين دون الصَّابرين؛ لِإنَّ الشُّكر في هذا المقام هو أعلى درجات الصَّبر؛ وذلك لأنَّهم احتملوا البلاء وثبتوا وأحسنوا فكانوا في مقامِ الشَّاكرين على نعمة الإسلام بفعلِهم، ففيه إشعارٌ بأنَّ الإحسانَ في موضعِ الثَّباتِ عندَ الابتلاء هو شكر، ولذا قال تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ١٣﴾ [سبأ: 13][2].

6) فيه إشارة إلى أنَّ الشُّكرَ مطلوب دائمًا.

7) لمّا أبهم الجزاء ولم يعيّنه دلَّ على فخامتِه وعظمتِه وعمومِه بحيث يقصر عنه البيان.

8) في تصدير الفعل بالسين دلالة على قرب حصولِهم على الجزاء الذي وعدهم اللّهُ به.

9) أفادت (أل) الاستغراق لكلِّ من يشكر اللّه على نعمِه.

10) لمّا علَّق الجزاء بالمشتقِّ دلَّ على أنَّ سبب الجزاء الذي سيجازي به اللّه تعالى هو شكرُه على نعمِه

الجزاءُ على قدرِ الشُّكر؛ قِلَّةً وكثرةً وحسنًا

11) لم يَذكُر اللّه تعالى نوعَ جزائِهم؛ ليدلَّ على كثرتِه وعَظمتِه، ولاسيَّما مع اقترانِه بالاسم الجليل، وليُعلِمَ أنَّ الجزاءَ على قدْرِ الشُّكر؛ قِلَّةً وكثرةً وحُسنًا[3].

12) هذه الجملة تذييليَّة، فتفيد العمومَ بمعناها، فتكون كالمثلِ الذي يضرب بينَ النّاس لعمومِها وكلّيَّتِها.

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 2/94.
(2) الزمخشري، الكشاف: 1/423، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 2/41.
(3) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 151.

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(خَلَتْ) و(مَضَتْ):

الخالي يقتضي خُلُوّ المكان منه، وسواء خلا منه بالغَيبة أو بالعدم، وهو يستعمل في الزّمان والمكان، لكن لمّا تصوّر في الزّمان المضيّ، فسّر أهل اللّغة: خلا الزّمان، بقولهم: مضى الزّمان وذهب، "وَخَلَتِ الدَّارُ وَغَيْرُهَا تَخْلُو، وَالْخَلِيُّ: الْخَالِي مِنَ الْغَمِّ، وَامْرَأَةٌ خَلِيَّةٌ: كِنَايَةٌ عَنِ الطَّلَاقِ، لِأَنَّهَا إِذَا طُلِّقَتْ فَقَدْ خَلَتْ عَنْ بَعْلِهَا. وَيُقَالُ خَلَا لِيَ الشَّيْءُ وَأَخْلَى، قَالَ الشّاعر:

أَعَاذِلُ هَلْ يَأْتِي الْقَبَائِلَ حَظُّهَا *** مِنَ الْمَوْتِ أَمْ أَخْلَى لَنَا الْمَوْتُ وَحْدَنَا[1]

وهذا يدلّ على أنّ خلا أخصّ من مضى، والخالي ما بَعُدَ زمنُ مُضيّه، وسبب اختصاص الآية بهذا التَّعبير، أنَّ الرُّسل كانت قبل النَّبي محمَّد ﷺ، قد بعد زمانهم بعدًا شديدًا، وخلا مكانهم منهم[2]، ولهذا فالتّعبير بقوله تعالى: ﴿قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِ ٱلرُّسُلُۚ﴾، آثر من قوله: (قَدۡ مَضَتۡ مِنۡ قَبۡلِهِ الرُّسُلُ)، لبعد الزّمان بينهم وبين نبيّ الختام، عليه السلام.

الموت والقَتْل والوفاة:

أَصل القَتْل: إزالة الرُّوح عن الجسَد كالموت، لكن إذا اعتُبر بفعل المتولِّي لذلك، يُقال قتل، وإذا اعتبر بفوت الحياة، قيل: موت (وفوت). والموت ينفي الحياة مع سلامة البنية، ولابدَّ في القَتْل مِن انتقاص البنية[3]. أمّا الموت فهو: مفارقة الرُّوح للجسد، وهو أنواع: الأوَّل: ما هو بإزاء القوَّة النَّامية الموجودة في الإنسان وغيره. والثَّاني: زوال القوَّة الحاسَّة. والثَّالث: زوال القوَّة العاقلة: وهي الجهالة. والرَّابع: الحزن المكدِّر للحياة. والخامس: المنام[4]. والمراد به هنا: إزالة الرُّوح عن الجسد. وأمَّا الوفاة؛ فيقال استوفيته؛ إذا أخذته وافيًا[5]؛ لذلك فقد تكون الوفاة بمعنى: الموت الَّذي هو إزالة الرُّوح عن الجسد، وقد تعني: استرداد الشَّيء وافيًا، وعند أهل السّنة "المقتول ميّتٌ بأجله، أي

(1) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة: (خَلَوَ)، والبيت لمعن بن أوس المزني.
(2) العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 210، والرّاغب، المفردات: (خلا)، وسعد بن عبد العظيم، موسوعة الفروق القرآنيّة: 2/782.
(3) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 420، والرّاغب، المفردات: (قتل)، والكفويّ، الكليات، ص: 729.
(4) الرّاغب، المفردات: (موت).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (وفى).

بالوقت المقدّر لموته، ولو لم يُقتل لجاز أن يمُوت في ذلك الوقت، وأن لا يمُوت، لأنّه لا قطع ولا يقين بامتداد العمر، ولا بالموت بدل القتل، فلا قطع بالموت والحياة لو لم يقتل"[1]، واستعمال السّياق القرآنيّ في هذه الآية للفظي ﴿مَّاتَ أَوۡ قُتِلَ﴾، يحدّد صورتي الاحتمال المفترضتين، في نهاية حياة الرّسول الأكرم، ولم يستعمل الوفاة، رغم أنّه استعملها في مواطن أخر من القرآن، كقوله تعالى: ﴿قُلۡ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلۡمَوۡتِ ٱلَّذِي وُكِّلَ بِكُمۡ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ تُرۡجَعُونَ ١١﴾ [السّجدة: 11]، وقوله لعيسى عليه السلام: ﴿يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ﴾ [آل عمران: 55]، مع مراعاة الخلاف في معنى الوفاة الّتي ذكرها الله عز وجل في هذه الآية، وهل هي وفاة نوم أم وفاة موت ؟ وأيًّا كان التّأويل، فإنّ كلّ لفظ استعمله القرآن من هذه الألفاظ الثّلاثة، (الموتِ والقَتْلِ والوفاة)، كان بليغا في موضعه، مؤدّيا للمطلوب في سياقه، ولا يغني لفظ عن لفظ منها، في سوق المعنى المراد وتوجيهه، وذلك من بلاغة القرآن الّتي لا تدانيها بلاغة البشر.

الرَّسول والنَّبيّ:

الرَّسولُ مَن أُوحي إليه شرعٌ جديد، وأمَّا النَّبيّ فمن بُعث على تقرير شرع من قبله، وقيل: الرَّسول أخصُّ من النَّبيّ؛ لأنَّ كلَّ رسول نبيٌّ، وليس كلُّ نبيّ رسولًا، وقيل: الرَّسول الَّذي معه كتاب الأنبياء، والنَّبي الَّذي ينبئ عن الله وإن لم يكن معه كتاب[2]، وخلاصة الفرق بين الرّسول والنّبيّ أمور، أهمّها: أنّ الرّسول من الأنبياء من جمع إلى المعجزة الكتاب المنزل عليه، والنّبيّ غير الرّسول من لم ينزل عليه كتاب، وأنّ من نسخ شرع من قبله، فهو الرّسول، وغيره النّبيّ فقط، وأنّ من جاءه المَلَكُ ظاهرًا، وأمره بدعوة الخلق فهو الرّسول، ومن سواه ممّن لم يعط ذلك فهو النّبي الّذي لايسمّى رسولًا[3]، وبين النّبوّة والرّسالة وشائج صلة، وروابط وصل، فالرّسول هو الّذي يحمل تنزّلات الوحي، ونورانيّة الإشراق، ويكلّف بمهمّة البلاغ عن الله، والسّياق هنا يبرز السّؤال الاستنكاريّ عن انقلابهم على الأعقاب، وزهدهم فيما تنزّل من الكتاب، والمنطلق هو تأكيد رساليّة الرّسول في قوله: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ﴾، ولم يذكر أنّه نبيّ، لغلبة المهمّة المنوطة به عليه،

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (وفى).
(2) العسكري، الفروق اللّغويّة، ص: 351، والجرجانّي، التّعريفات، ص: 110، والرّاغب، المفردات: (نبى)، والكفويّ، الكليّات، ص: 900.
(3) الزّجاج، معاني القرآن وإعرابه: 3/434.

وكونه عند الهزيمة، وزلزلة العقيدة، متلبّسًا بحرب سببها البلاغ الرّساليّ، وغايتها الرّد على تأبّي الكفّار على قبول البشارة والإنذار،، ولم يكن التّصادم مع شرذمة المشركين الكفرة، ومن لفّ لفّهم من اليهود والمنافقين الفجرة، متعلّقًا بخلاف مع النّبيّ في خصوصيّاته، ممّا يقتضي النّبوّة فقط، ولكنّه متعلّق بالصّراع العقائديّ المحتدم، بين المعسكرين، لأسباب معلنة وخفيّة، شعارها استئصال الإسلام، وتصفيّة الرّسول المبلّغ، حتّى لا يصل صدى الدّين الجديد، إلى مختلف القبائل، وسائر الأمصار والأقطار، وقد أبصروه ينتشر ذلك الانتشار العظيم، كما تنتشر النّار في الهشيم، فكان استعمال اللّفظ موحيا بكلّ ذلك، ومعبّرا عنه ببلاغة وبيان.

الانقلاب، والارتداد، والرُّجوع، والعود:

الانقلاب بمعنى: تغيير الشَّيء من حال إلى حال، والرّدُّ هو: الرُّجوع في الطَّريق الّذي جاء منه، وأمَّا الرُّجوع؛ فهو بمعنى: العود إلى ما كان منه البدء، وأمَّا العَوْد؛ فهو: الرُّجوع إلى الشَّيء بعد الانصراف عنه (مطلقًا): العود إلى ما كان عليه قبل ما دخل فيه، ومنه الآية الكريمة: ﴿بَلۡ ظَنَنتُمۡ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهۡلِيهِمۡ أَبَدٗا﴾ [الفتح: 12]، ومعناه بحسب ما يميّزه من نعت أو حال؛ مدحًا أو ذمًّا: فمن الأوّل: ﴿فَٱنقَلَبُواْ بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٖ لَّمۡ يَمۡسَسۡهُمۡ سُوٓءٞ﴾ [آل عمران: 174]، ومنه: ﴿وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ مَسۡرُورٗا ٩﴾ [الانشقاق: 9]، والآيتان تنتظمان حالَي الدُّنيا والآخرة، ومن الثَّاني قوله: ﴿فَيَنقَلِبُواْ خَٰٓئِبِينَ ١٢٧﴾ [آل عمران: 127]، وقوله: ﴿فَغُلِبُواْ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُواْ صَٰغِرِينَ ١١٩﴾ [الأعراف: 119]، وقد يكفي الأسلوب من النَّعت والحال، في الدّلالة على المراد منه، ويغني غناءهما في الدّلالة على مآل مرغوب أو مرهوب، كما في قوله: ﴿وَسَيَعۡلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَيَّ مُنقَلَبٖ يَنقَلِبُونَ ٢٢٧﴾ [الشعراء: 227]، فلهجة التّهديد لائحة عليه، بادية منه، ظاهرة فيه، وقد اختير هنا ذكر الانقلاب على العقب دالًّا على معنى الإصغاء للفتنة والتلبُّث في الحيرة، فهو أليق بالمقام، وأوفق للمرام، وأسعد بالمعنى المراد في النّظر الخاصّ والعامّ، وما أحسن دلالته على عدم التَّبصُّر، والعجلة عن التّدبُّر في العاقبة، والبدار إلى متابعة الهوى دون رويَّة؛ إذ هو رجوع القهقرى دون تبصُّر بموضوع العَوْد، ولا بمكان الخَطْو، وذلك فيه فعل الخطأ مع تعلُّق النَّظر، وإدامته بمعاينة الصّواب، ومجامعته ومواقعته للَّحظة،

وهذا من فريد أسلوب القرآن يميّزه من (العَوْد)؛ فإنَّه يعني في جملة معناه التَّراجع والصَّيرورة، وليس مقام الخاطرة الطّارئ الّذي نزلت فيه، مُنَجَّمة تحكيه آية آل عمران التّي مَعَنَا هنا، وعن (الرَّدِّ) الَّذي فيه شَوْب الإكراه، وأنّ ذلك بفعل فاعل خارج يلْوي الباحث ويثنيه عن وجهته، فليس ذلك ممّا نحن فيه، وهكذا يمضي البلاغ القرآنيُّ في جميع وجوهه مشبعًا ممتعًا جميع ما تعلّق بالمقام من علوم النِّذارة والبشارة، والتّأريخ للواقع، ونقل الخبر الصّادق بدوافعه وغاياته، وخفقات قلوب أفراده وأحاسيسهم ومشاعرهم، وحقيقة ما جرى دون تزيُّد، فضلًا عن عمله التأّثيريِّ الرّائع، وتوجيهه القويم العليم، في الإصلاح والتَّقويم، والتّهذيب والتّعليم، وهو بعدُ، أسلوبٌ أدبيٌّ راقٍ لا يجرح، ولا يحرج، ولا يصِمُ، ولا يعيب، بل يلمس شفا قلب الخاطئ والمصيب، ويداعب روح كلٍّ، ويرفرف عليها، وينعشها مجدِّدًا فيها حياة الرُّوح على حدٍّ سواء، وسبحان من هذا كلامه. فأمَّا الردُّ فهو: صرف الشَّيء بذاته أو بحالة من أحواله، وهو بمعنى: الرُّجوع في الطَّريق الّذي جاء منه[1]. وأمَّا الرُّجوع؛ فأصله العَوْدُ، وهو بمعنى: العود إلى ما كان منه البدء، مكانًا كان أو فعلًا، وبذاته كان رجوعه أو بجزء من أجزائه، أو بفعل من أفعاله. وأمَّا العَوْد؛ فهو: الرُّجوع إلى الشَّيء بعد الانصراف عنه: إمَّا انصرافًا بالذَّات أو بالقول، أو بالقول والعزيمة[2].

الأَجْر، والثَّواب والجَزاء:

الأَجْرُ: الجَزَاء على العَمَل كَالإِجَارَةِ، وَقَالَ بَعضهم: الأجر وَالأُجْرَة يُقَال فِيمَا كَانَ عقدًا وَمَا يجْرِي مجْرى العَقْد، وَلَا يُقَال إِلَّا في النَّفْع، وأمَّا الفرق بين الأجر والثَّواب: فالأجر يكون قبل الفِعل المأجور عليه، لأنَّ الثَّواب لا يكون إلَّا بعد العمل، هذا على أنَّ الأجر لا يستحقّ له إلَّا بعد العَمل كالثَّواب إلَّا أَن الاستعمال يجري بما ذكرناه، وأيضًا فإنَّ الثَّواب قد شُهر في الجزاء على الحسنات، والأجر يُقال في هذا المعنى، ويُقال على معنى الأجرة الَّتي هي من طريق المثامنة بأدنى الأثمان، وفيها معنى المعاوضة بالانتفاع[3]، والجَزَاء: يُقَال فِيمَا كَانَ عَن عقد وَعَن غير عقد، وَيُقَال فِي النَّافع والضَّارّ،

(1) الرّاغب، المفردات: (رجع).

(2) السَّمين، عمدة الحفاظ: (عود).

(3) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 17، والكفويّ، الكليات، ص: 48.

" وجزاه اللّه خيرًا أَي أثابه وكافأه، وجزيت فلَانًا وجازيته على فعله مثله، قَالَ الْهَرَوِيّ: فَإِن أردْت معنى الْكِفَايَة، قلت جزا اللّه عنّي وأجزاه، وَإِلَى هَذَا ذهب آخَرُونَ، وَإِنّ جَزَا وأَجْزَا بِمَعْنى مُتَقَارب"[1]، وواضح أنّ سياق الآية ورد فيه لفظ (الجزاء)، في قوله تعالى: ﴿وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾، وقد نسب الجزاء على نفسه، ومن أعطاه اللّه، أفاض عليه من عطاه، وعلى قدر علوّ المقام يكون الإغداق بالإكرام، واللّه لا نهاية لنعمائه، كما لا نهاية لكماله.

الحَمْد والشُّكر:

الشُّكر هو الاعتراف بالنِّعمة على جهة التَّعظيم للمُنعِم، والحَمد الذِّكر بالجميل على جهة التَّعظيم المذكور به أيضًا ويصحّ على النِّعمة وغير النِّعمة، والشّكر لا يصحّ إلَّا على النِّعمة، ونقيض الحمد الذَّم إلَّا على إساءة، ويُقال الحمد للّه على الإطلاق، ولا يجوز أن يُطلق إلَّا للّه، لأنَّ كلَّ إحسان فهو منه في الفعل أو التَّسبيب[2]. زِد على ذلك أنَّ الحمد وهو خاصّ باللّه يكون على النِّعم الخاصّة والعامّة، كخلق السَّماوات والأرض، وجعل الظُّلمات والنُّور، وإنزال القرآن، والشُّكر يكون على النِّعم الخاصَّة بالنَّاس وبالأفراد[3]، وقد ذكروا أنّ الحمد للّه قد يُنطق به في موضع الشّكر، وأنّ الشّكر قد يوضع موضعَ الحمد، لأنّ ذلك لو لم يكن كذلك، لما جاز أن يُقال (الحمد للّه شكرًا)، لأنّ الشّكر لو لم يكن بمعنى الحمد، كان خطأ أن يُصَدَّرَ من الحمد غيرُ معناه وغير لفظه[4]، وفي الحديث: "الحمدُ رأسُ الشُّكر، فمنْ لمْ يحمد اللّه لمْ يشكُرْه"[5]، وفرّقوا بينهما من حيث إنّ "الشّكر أعمّ من جهة أنواعه وأسبابه، وأخصّ من جهة متعلّقاته، والحمد أعمّ من جهة المتعلّقات وأخصّ من جهة الأسباب"، والّذي يركن إليه في المعنى الملموح في الشّكر، أنّ فعل الشّكران عادة ما يكون بالقلب، حين يخضع ويستكين، وباللّسان حين يثني ويقرّ، وحين يمتنّ ويعترف، وبالجوارح الأخرى، عندما تطيع عن طواعيّة، وتنقاد عن رضا لا عن إجبار، ومتعلّقه ذات

(1) عيّاض، مشارق الأنوار: 1/147.
(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 301، و302.
(3) سعد بن عبد العظيم، موسوعة الفروق القرآنيّة: 2/740.
(4) ابن جرير، جامع البيان: 1/138.
(5) الحديث رواه التّرمذي في نوادر الأصول، (الأصل 154)، وكذلك البيهقيّ في شعب الإيمان، (الباب: 33).

المنعم المعظّم لذاته وجلاله، دون أوصافه الذّاتيّة، أي أنّه تعالى يحمد على فواضله من الإحسان الغامر، والعطاء الفيّاض، من عوارف الإحسان، وسوانح الإنعام، فلا يشكر اللّه على حياته وسمعه وبصره وعلمه وقدرته وهيمنته، ولكن يحمد بها، وأمّا االشّكر فيكون على الإحسان والإنعام، وعليه فكلّ ما يتعلّق به الشّكر يتعلّق به الحمد، وليس كلّ ما يتعلّق به الحمد يتعلّق به الشّكر، والمعهود أنّ الحمد يقع باللّسان، وأنّ الشّكران يقع بالأركان[1].

(1) الزّبيديّ، تاج العروس: 12/226.

﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًاۗ وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْـَٔاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَاۚ وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ ١٤٥﴾ [آل عمران: 145]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الإرجاف بموت الرّسول المختار، لا يمنع الدّعوة، ولا تصاريف الأقدار

بعد أن بيَّن في الآية السَّابقة، أنَّ من سنَّة اللّه في الرُّسل أنّهم معرّضون للموت، بمن فيهم رسول اللّه المصطفى، وأنَّ موت أحدهم ليس مسوِّغًا لترك الجهاد، دفاعًا عن هذا الدِّين،، لذلك جاءت هذه الآية تتمَّة لما سبق؛ لتنصح النّاس أنّه ينبغي للمؤمن أنْ لا يتقاعس عن الدِّفاع عن الإسلام، لأنّ الشَّجاعة والبسالة والإقدام، في ميدان الوغى، لا تقرّب الموت؛ ولأنّ النّكوص والتّولّي يوم الزّحف، لايصرفه ولا يؤخّره، إذ الموت أجلٌ مفروضٌ محتوم، وميقاتٌ محدّدٌ معلوم، فكلُّ سلامة قدرٌ، وكلُّ منيّة بقضاء، وليست الأمراض المستعصيّة، ولا الحوادث المتواليّة، إلّا ملابسات تطرأ، وأسبابًا مجازيَّة تحدث؛ لكنّ الأصل الحقيق بالإلتفات، هو حلول الأجل الّذي به تحين الوفاة.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ﴾: النَّفْسُ: الرُّوحُ، يُقال: خَرَجَتْ نَفْسُ فُلانٍ، أيْ: رُوحُهُ. وأَصْلُ الكلمة مِن التَّنْفِيسِ، وهو: الخُروجُ مِن الجَوْفِ. وتُطْلَقُ النَّفْسُ على الدّم؛ لأنَّهُ أَساسُ الحَياةِ، أو لأنّ الرُّوحَ تَخْرُجُ بِخُروجِهِ، يُقَال: سالَتْ نَفْسُهُ، أيْ: دَمُهُ. ومِن مَعانِيها أيضًا: الجَسَدُ والحسَدُ والذّاتُ والحَقِيقَةُ والعِزّةُ والهِمّةُ[1]، وَالنَّفْسُ قِوَامُهَا بِالنَّفَسِ. قَال الشّاعر:

(1) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (نفس).

تَبِيتُ الثَّلَاثُ السُّودُ وَهِيَ مُنَاخَةٌ عَلَى نَفَسٍ مِنْ مَاءِ مَاوِيَّةَ الْعَذْبِ[1].

وقوله تعالى ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي﴾ [المائدة: 116]، أي تَعْلَمُ ما أُضْمِرُ ﴿وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَۚ﴾ [المائدة: 116]، أي لا أعلمُ ما في حقيقتك ولا ما عندَك عِلْمُه، فالتَّأْويل: تعْلَم ما أعْلَمُ ولا أعلمُ ما تعْلَمُ[2]، والنّفس البشريّة المسمّاة روحا، هي سرّ اللّه المودع في الهيكل البشريّ المسوّى من الطّين، وهي جوهر وجود الإنسان، قال الشّاعر أبو الفتح البستيّ:

يا خادِمَ الجِسم كمْ تشقى بخِدْمَتهِ *** لِتطلُبَ الرَّبحَ في ما فيه خُسْرانُ

أقبِلْ على النَّفسِ فاستكمِلْ فضائلَها *** فأنتَ بالنَّفسِ لا بالجِسمِ إنسانُ[3]

واللّفظ هاهنا ﴿لِنَفْسٍ﴾ يعطي دلالة على أنّ موت النّفس أيًّا كانت، لا يتأتّى إلّا بمشيئة اللّه، وهو تعبير عن منهج القرآن في تصويب الملمح العقديّ عند المؤمنين، وخصوصًا عند الأزمات الكبرى، فجاء الاستثناء والنّفي، يبرزان المنحى التّأصيليّ للإيمان، بأنّ اللّه يحرّك الأقدار بحكمة عليا، لا تندُّ عنها نفسٌ مهما دنت أو علت بها الرّتب، ومهما كانت من الدّهماء أو من النّخب، مع وضوح معنى اللّفظ، وفصاحة المبنى، والبلاغ عن مدلوله، المواتي لمضمون الآية.

2) ﴿إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾: الإذْنُ: مَصْدَرُ أَذِنَ، يَأْذَنُ، وأصْلُه: رَفْعُ المَنْعِ، وإطلاقُ الفِعْلِ، والإباحَةُ، يُقالُ: أَذِنْتُ لَهُ في شَيْءٍ، أيْ: أطْلَقْتُ له فِعْلَهُ. ويُطْلَقُ الإذْنُ على الإعْلام، ومِنه الأذان: وهو الإعْلامُ بِدخولِ الوقتِ، وأَذِنْتُ بِالشَّيْءِ: عَلِمْتُ بِهِ. والإسْتِئْذانُ: طَلَبُ الإذْنِ[4]، اللّفظ يوحي بهيمنة اللّه وسلطانه على ملكوته، وتدبيره لمقادير الحياة والموت، ممّا يعجز عنه البشر، ولا يطيقون له حملا، فكلّ الأنفس لا يحين أوان موتها إلّا بأمره سبحانه وتعالى، أو أمر من يقبض الرُّوح روحه من الملائكة، وهذه حقيقة علميّة، وعقيدة دينيّة، وظاهرة كونيّة، لا يتأخّر عنها بشر، فهي سنّة اللّه الّتي لا تنقض، وقانونه الّذي لا مفرّ منه ولا مهرب، والّذين يعاجلون الأقدار بالانتحار، إذا التقت إرادة اللّه مع السّبب المتّخذ،

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نفس).

(2) ابن سيده، المحكم: (نفس).

(3) أَبُو الفَتح البُسْتي، قصيدة عنوان الحكم، ص: 36.

(4) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، والزَّبيديّ، تاج العروس: (أذن).

فإنّ المنتحر يموت بما سلّط على نفسه، وإن كان في قدر اللّه أن يعيش، هبّت ريّاح حظّه، وحملت إليه نسائم الحياة، فأنقذته الأقدار، وفشل ما كان يعزم عليه من انتحار، وماذاك إلّا بإذن اللّه الواحد القهّار[1].

3) ﴿كِتَٰبًا﴾: الكِتابُ: اسمٌ لما كُتِبَ مجموعًا، وكتَبَ الشَّيءَ، أي: خَطَّه. ومِنْ معاني الكتاب: الصَّحِيفة، والدّواة، والقَدَر وهو ما عليه المعنى في الآية، والفَرض، كما يُطلق على المنزل، وعلى ما يكتبه الشَّخص ويرسله[2]، والمعنى أنّ لفظ (كتابًا) في الآية مصدر مؤكّد، وتقديره: (كتب كتابًا)، ومن اعتقد بمقادير اللّه، السّائرة فوق ماتضمّنه الكتاب الّذي يحوي قدر صاحبه، ويتجلّى فيه ما رسمته الأقدار، ليبرز من عالم الغيب، إلى عالم الشّهادة، فيترسّخ اليقين بأنّ الموت بقدر، لا يتقدّم ولا يتأخّر، وقد قيل:

أيَّ يَوْمَيَّ مِنَ المَوْتِ أَفِرّ *** يَوْمَ لَا قُدِّرَ أَمْ يَوْمَ قُدِرْ

يَوْمَ لَا قُدِّرَ لَا أَرْهَبُهُ *** وَمِنَ الْمَقْدُورِ لَا يَنْجُو الْحَذِرْ[3]

4) ﴿مُّؤَجَّلًا﴾: التَّأْجِيلُ: مَصْدَرٌ مَأْخُوذٌ مِن الفعلِ أَجِلَ الشَّيْءُ، يُقال: أَجَّلْتُهُ تَأْجِيلًا: جَعَلْتُ له أَجَلًا. وأَجَلُ الشَّيْءِ: مُدَّتُهُ ووَقْتُهُ الذي يَحُلُّ فِيهِ. وخِلافُه: العاجِلِ. والتَّأجِيلُ: تَعْيِينُ وَقْتٍ مُحدَّدٍ في المُسْتَقْبَلِ لِأَداءِ حَقٍّ أو فِعْلِ شَيْءٍ. وجَمْعُهُ: آجالٌ[4]، ومؤجّلًا بمعنى مؤقّتًا، لا يتقدّم ولا يتأخّر عن موعده المدقّق، بأمر اللّه المحقّق، والهزيمة لا تدفع الموت والثّبات لا يقطع الحياة[5].

5) ﴿وَمَن يُرِدْ﴾: الرَّوْدُ: التّردّد في طلبِ الشَّيء برفق، يُقال: رَادَ وارْتَادَ. والإِرَادَةُ منقولة من رَادَ يَرُودُ: إذا سَعى في طلبِ شيءٍ، والإِرَادَةُ في الأصل: قُوَّة مُركَّبة مِنْ شَهوةٍ وحَاجةٍ وأَملٍ، وجعل اسمًا لنُزوع النَّفس إلى الشَّيءِ مع الحُكم فيه بأنَّه يَنبغي أن يفعل، أَوْ لَا يفعل، ثمَّ يُستعمل مرّة في المَبدأ، وهو: نزوع النَّفس إلى الشَّيء، وتارةً في المُنتهى،

(1) الشّعراوي، تفسير الشّعراويّ: 3/1801.

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والجوهريّ، الصّحاح، والزَّبيديّ، تاج العروس: (كتب).

(3) ابن عبد ربّه، العقد الفريد: 6/124.

(4) ابن سيده، المحكم، وابن فارس، مقاييس اللغة، والجوهريّ، الصّحاح، وابن منظور، لسان العرب: (أجل).

(5) الشّربينيّ، السّراج المنير: 1/253.

وهو الحُكم فيه بأنَّه ينبغي أن يُفعل أو لا يُفعل[1]، ومعنى اللّفظ في السّياق: " من يرد بعمله وطاعته الدّنيا ويعمل لها، نؤته منها ما يكون جزاء لعمله، والمعنى نؤته منها ما نشاء على ما قدّرناه له"[2]، والإرادة نيّة وعزيمة ومبادرة، تتّصل فيها المشاعر المشبوبة بالإيمان، بمتطلّبات الهداية، ومأمورات العناية، والنّاس في توجّههم التعبّدي بين طِلَاب إحدى الدّارين، إمّا الدّنيا وإمّا الآخرة، وعلى قدر النيّة يكون الأجر من المعطي، لأنّه يبلو السّرائر، وبها يؤتي.

6) ﴿نُؤۡتِهِۦ﴾: الإيتاءُ بالمدِّ يُسْتَعْملُ في الإعْطاءِ، وَفي الإتْيانِ بالشَّيءِ، تَقُولُ: آتَى يُؤْتِي إيتَاءً. وَفي الكشَّافِ: اشْتَهَرَ الإيتاءُ في مَعْنى الإعْطاءِ، وأَصْلُه الإحْضارُ. وذَكَرَ الرَّاغبُ أنَّ الإيتاءَ مَخْصوصٌ بدَفْعِ الصَّدقَةِ؛ وليسَ كَذَلِكَ، فقد وَرَدَ في غيرِهِ: كقوله تعالى: ﴿يُؤۡتِيهِ ٱللَّهُ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ [آل عمران: 79]، أي: يُعطيَه اللّه كتابَه وحيًا إليه، و﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحُكۡمَ صَبِيّٗا ١٢﴾ [مريم: 12]، و﴿وَءَاتَيۡنَٰهُمَا ٱلۡكِتَٰبَ﴾ [الصّافات: 117]، إلَّا أَنْ يكونَ قَصَد المَصْدَر فَقَط[3].

7) ﴿ثَوَابَ﴾: مَصْدَرُ: أَثَابَهُ يُثِيْبُهُ إِثَابَةً وَثَوَابًا، وَمَعْنَاهُ: الجَزَاءُ عَلَى العَمَلِ، يُقَالُ: أَعْطَيْتُ فلَانًا ثَوَابَهُ أَيْ: جَزَاءَ مَا عَمِلَ، وَالثَّوَابُ مِنَ اللّه ﷻ: الجَزَاءُ عَلى مَا عَمِلْتَهُ مِنْ خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ، وَهُوَ أَيْضًا: مَا يَرْجِعُ عَلَى المُحْسِنِ مِنْ إِحْسَانِهِ، وَعَلى المُسِيْءِ مِنْ إِسَاءَتِهِ[4]، والمراد بثواب الدّنيا في الآية: الغنيمة ونحوها، نزلت في الّذين تركوا مركز المراقبة، وطلبوا الغنيمة، واللّفظ يعمّ كلّ متاع الدّنيا ممّا تطلبه الأنفس وتشتهيه، وإن كان السّبب الّذي نزلت فيه الآية خاصًّا، ويقابله ثواب الآخرة، وهو الجنّة، وذلك أيضا عامّ في كلّ عمل نؤته من ثوابها، ويضاعف أجره أضعافاً كثيرة[5].

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

يُبيِّن اللّه تعالى أنَّه ما كان لنَفْسٍ أن تموتَ إلَّا بإذن اللّه، وذلك إذا جاء أجلُها الَّذي

(1) الخليل، العين، والراغب، المفردات: (رود).
(2) الخازن، لباب التّأويل: 1/306.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرَّاغب، المفردات: (أتي)، والزَّمخشري، الكشَّاف: 4/198، والسَّمين، عُمدة الحفاظ، والزَّبيدي، تاج العروس: (أتي).
(4) ابن دريد، وجمهرة اللغة، والأزهريّ، تهذيب اللغة، وابن سيده، المحكم: (ثوب).
(5) القِنَّوجي، فتحُ البيان: 2/347.

كتَبه اللّه لها، ثم أَخبر تعالى أنَّه يُؤتي النَّاسَ من ثواب الدُّنيا والآخرة ما عَلَقتْ به إرادتُهم؛ وانعقدت عليه نياتهم، فمَن يُردْ ثوابَ الدُّنيا بعملِه، يُؤتِه منها، ومَن يُرِدْ به ثوابَ الآخِرة، يُؤتِه منها، ولكلّ منهما سنن تتّبع، وطرق تسلك، والمؤمن يطلب الحسنيين، واللّه يعطيه كلّ مطلوبه أو بعضه، بحسب سنن اللّه وتدبيره لنظم الحياة، وسيُثيب اللّه تعالى الشَّاكرين، فيعطيهم من فضله الواسع، بقدر شكرانهم له، والتزامهم بمراده[1].

الموت قدر محتوم، وعلى قدر المقاصد والنّوايا، تكون عند الله العطايا

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالة التَّعبير بقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ﴾:

جيء في هذا الحكم بصيغة الجحود؛ للمبالغة في انتفاء أن يكون موت قبل الأجل لتوجّه النّفي إلى الكون عمومًا ثمَّ إلى الموتِ خصوصًا[2].

بلاغة الاستثناء في قوله تعالى: ﴿إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾:

في الجملة الكريمة استثناء مُفرَّغٌ من أعمِّ الأسباب، أي: وما كان الموت حاصلًا لنفس من النُّفوس بسبب من الأسباب إلَّا بمشيئة الحقِّ سبحانه وتعالى، على أن الإذن مجاز فيها؛ لكونها من لوازمه، أو إلا بإذنه سبحانه وتعالى لملك الموت في قبض روحها[3].

الموت والحياة بيد الله وحده

بلاغة أسلوب القصر بقوله: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾:

أفاد القَصْر في الآية الكريمة التَّأكيد بألَّا يموت أحدٌ قبل بلوغ أجله، وخاصَّة في المعارك، وهو قصر حقيقيٌّ، وجاء القصر بطريقِ النَّفي والاستثناء، لتنزيل المنهزمين من المعركة الفارّين من الموتِ منزلة من ينكر أن النّفس لن تموت إلّا بإذن اللّه، كما أفاد

لا موت لأحد من خلق الله إلا بأجل مكتوب

(1) المراغي، تفسير المراغيّ: 4/90.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/114.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السليم: 2/94، والبروسويّ، روح البيان: 2/105، والآلوسّي، روح المعاني: 2/294، والقنّوجي، فتح البيان: 2/346، ورضا، تفسير المنار: 4/137.

القصرُ تأكيد مضمونِ الجملةِ، ولازم ذلك تحريضهم على القتال، وتحميسهم للجهاد في سبيل الله، ودفع شُبَه الوهن والتَّخاذل عنهم، بما يستلزم استدامة الحميّة للحقِّ، والغَيْرة على الدِّين، وتوقُّد جذوة الثَّأر له من خصومه الشانئين والكائدين في قلب المؤمن.

بلاغة المجاز في قوله ﴿إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾:

في الجملة مجاز مُرسل وذلك بإطلاق الإذْن على المشيئة، أي: إلَّا بمشيئة الله؛ لأنَّ الغالب أنَّ الإذن في الشَّيء لا يقع إلَّا بمشيئة الآذِن، والملازمة بين المشيئة والإذن مُصحِّحة للمجاز[1].

الإذن في الشَّيء لا يقع إلَّا بمشيئة الآذِن

بلاغة المجاز بإسناد الموت إلى النَّفس اختيارًا:

وظاهر التَّركيب في قوله: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ﴾ يدلُّ على أنَّ الموت من الأفعال التي يُقدم عليها اختيارًا، فقد شاع: ما كان لزيد أن يفعل كذا، فيما إذا كان ذلك الفعل اختياريًّا، لكنَّ الظَّاهر هنا متروك بأن يجعل ذلك من باب التَّمثيل بأنَّ صور الموت بالنِّسبة إلى النُّفوس بصورة الفعل الاختياريِّ الذي لا يقدم عليه إلَّا بإذن[2]، ويمكن أن يراد بالإذن (حقيقته)، والمراد: إذنه لملك الموت بقبض الأرواح، لكنَّ القول بأنَّه تمثيل أو مجاز أولى، وهو أعمُّ، ويندرج فيه القول الثَّاني.

أو هو تعبير بالموت عن طلبه، والإلقاء بالنّفس في مظانِّه، وهي المواقع القتالية من مقدِّمة وساقة ومؤخِّرة واستطلاع وحراسة وغيرها، فيكون مجازًا مرسلًا، علاقته الملابسة، وثمرته التَّنويه: بأنّ الموت المقصود هنا: وهو الاستشهاد في سبيل الله، محْض اصطفاء وإنعام، وتوفيق وإكرام، فمهما استبسل المجاهد، وحرص عليها حرص خالد؛ فإنّ الحرص على الموت موهبة للحياة، كما أُثِر عن الحكيم المنطيق أبي بكر الصديق رضي الله عنه.

(1) الآلوسي، روح المعاني: 2/289، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 3/1435.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 2/289.

دلالة التَّعبير في قوله تعالى: ﴿كِتَٰبٗا مُّؤَجَّلٗاۗ﴾:

لكلِّ عُمْر أجَل
ولكلِّ أجلٍ قدَر

جاء المصدرُ مؤكِّدًا، أي كتب اللّه الموتَ كتابًا مُؤجَّلًا، أي مُؤقَّتًا بوقت معلوم لا يتقدَّم ولا يتأخَّر، ويحتمل أن يكون المصدر مع صفتِه مؤكِّدًا لمضمون قولِه تعالى ﴿وَمَا كَانَ لِنَفۡسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾، أي يُؤكِّد معنى ﴿إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾؛ لأنَّ قوله: ﴿بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾ يُفيد أنَّ له وقتًا قد يكون قريبًا، وقد يكون بعيدًا[1].

مناسبةُ التّعبير في قوله تعالى: ﴿وَمَن يُرِدۡ ثَوَابَ ٱلدُّنۡيَا نُؤۡتِهِۦ مِنۡهَا وَمَن يُرِدۡ ثَوَابَ ٱلۡأٓخِرَةِ نُؤۡتِهِۦ مِنۡهَاۚ﴾:

في الآية فوائد لغوية وبلاغية، هي[2]:

1. أفادت (مَن) الشّرطية في الموضعين العموم، فيكون المعنى عامًّا يشمل جميع من ينطبق عليه الوصف، ويندرج فيه أهل موقعة أُحد اندراجًا أوَّليًّا.

2. التَّعريض بالَّذين تركوا موقعهم في غزوة أُحد؛ طلبًا للغنيمة، ومدحٌ لمن ثبتوا مع النَّبيِّ ﷺ في ميدان المعركة.

3. بديعُ الطِّباق بين ثواب الدُّنيا، وثواب الآخرة، لإفادة المقارنة على سبيل الإيضاح والبيانِ وتركِ الاختيار للمخاطبين.

4. أَنَّثَ (الضَّمير) في ﴿مِنۡهَا﴾، وهو في المعنى راجع إلى الثَّواب؛ للإشعارِ بأنَّ ثوابَ الدُّنيا، هو: الدُّنيا، وثوابَ الآخرة، هو: الآخرة، فرجوع الضّمير إلى المضاف إليه إيذان بأنَّ المضاف ملتبس به غيرُ منفكٍّ عنه، ويقول القائل: (اللَّهم ارزقني الآخرة)؛ وهو يريد: ثوابَها.

5. فيها التفات لطيف لخروجِ الكلامِ مِن الغيبةِ إلى التكلُّم بنون العَظمةِ، ليكونَ على خلاف ما يترقَّبه السَّامعُ؛ لتنبيه المخاطَب على ما ينبغي تأكيد الإصغاء إليه؛ لأهميّته وللاعتناء بشأنِه، كما أنَّ فيه تطريةً لنشاطِ السَّامعِ لحسنِ الكلامِ.

---

(1) الزمخشري، الكشاف: 1/424، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 2/41، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/115.

(2) الزمخشري، الكشاف: 1/424، والواحدي، التفسير الوسيط: 6/45، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 2/94، والقنُّوجي، فتح البيان: 2/347.

حسن التّذييل في قولِه ﴿وَسَنَجۡزِي ٱلشَّٰكِرِينَ﴾:

لمّا خيَّر اللّه عباده في إرادة ثواب الدّنيا وثوابِ الآخرة بيَّن أنّه سبحانه سيجزي الذين يريدون ثواب الآخرة، وَفِيهِ إِشَارَةٌ إِلَى معانٍ هي[1]:

1. لاتكرارَ في جملة التَّذييل مع التي سبقتها في قوله تعالى ﴿وَسَيَجۡزِي ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾، فالجملة الأولى ذكر فيها الشّاكرين على نعمة الثبات في المعركة وعدم الارتداد عن الإسلام والتي في هذه الآية عامَّةٌ لكلِّ النّاس، فذكر الشّاكرين على نعمة إرادتهم ثواب الآخرة.
2. إنَّ اللّه تعالى يُنَعِّمُهُمْ بِنَعِيمِ الدُّنْيَا، وَلَا يُقْصِرُهُمْ عَلَى نَعِيمِ الْآخِرَةِ
3. لمّا كان الشُّكر على مقابلِ النِّعمة دلَّ على أنّهم يشكرون اللّه على إرادتهم ثواب الآخرة.
4. فيه إشارة إلى أنَّ الشُّكرَ مطلوب على نعمةِ الهدايةِ
5. لمّا أبهم الجزاء ولم يعيّنه دلَّ على فخامتِه وعظمتِه وعمومِه بحيث يقصر عنه البيان.
6. وفي اقتران السين بالفعل دلالة على قرب حصولِ الجزاء، ففيه إشارة إلى تنعّمهم بنعيمِ الدنيا والآخرة لرغبتِهم في ثواب الآخرة وطلبهم لها.

وبعضُ ما تقدّم في فوائد حسنِ التَّذييل في الآية السابقة يأتي هنا، وهو واضحٌ.

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الرُّوح والنَّفس:

الرُّوح جَوهَرٌ لطيفٌ حاملٌ قوَّة الحياة والحسِّ والحرَكةِ الإراديَّة، وهي أَمْرٌ مِن اللّه تعالى، تَعجز العُقولُ عن إدراك كنهه، كما قال تعالى: ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي﴾ [الإسراء: 85]. والنَّفس هي ما يجمع بينَ الرَّوح والبَدَن، وتُطلق على القُوَّة الدَّاعية إلى البِرّ والشَّر. والرُّوح: التَّنفُّس، وقد أراح الإنسان إذا تنَفَّس[2]، وقد لاقت هذه المسألة

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 3/367، والطيبي، فتوح الغيب: 4/291، والآلوسي، روح المعاني: 2/292، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/114.

(2) الراغب، المفردات: (روح)، وسعد بن عبد العظيم، موسوعة الفروق القرآنية: 2/748.

اهتماما كبيرا، وكتبت فيها مصنّفات، وذكرت فيها نقاشات، و"نطقتِ الشّريعةُ بقَبْضِ الرُّوح والنَّفْس، وقد قال تعالى: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي﴾ [الإسراء: 85]، والظّاهرُ أنَّ الخَوْضَ في هذا كُلِّهِ عَنَاءٌ، وإنْ كَان قَد تعرَّضَ للقَوْلِ في هذا ونحوه أئمةٌ، ذَكَرَ الثّعلبيُّ عن ابن عبّاس أنّه قال: (في ابن آدم نَفْسٌ ورُوحٌ، بَيْنَهُمَا مِثْلُ شُعَاعِ الشَّمْسِ، فالنَّفْسُ هِيَ الَّتي بها العَقْلُ والتّمييزُ، والرُّوحُ هي الّتي بها النَّفَسُ والتَّحَرُّكُ، فإذا نام العَبْدُ قَبَضَ اللّهُ تعالى نَفْسَهُ ولم يَقْبِضْ رُوحَه)[1]، وقد أفاض السّيوطيّ في حاشيّته على البيضاويّ معلّقا وشارحا لما أورده الغزاليّ في كتابه: (الانتصار لما في الإحياء من الأسرار)، في مشابهة أجزاء العالم لأجزاء الإنسان، والّذي قال فيه: "ولا يناقض ما ذكرناه هنا من التّفرقة بين الرّوح والنّفس، قولنا في الإحياء: إنّهما شيء واحد؛ لأنّ لها معنى يسمّى بالرّوح تارة، وبالنّفس أخرى، وبغير ذلك"[2]، وقال الشّهاب الخفاجيّ: "أراد بالنّفس ما به العقل والتّمييز، وبالرّوح ما به النّفس والحركة، فإذا نام العبد قبض اللّه نفسه، ولم يقبض روحه"[3].

الإيتَاء والإعْطَاء:

الإيتاءُ أَقْوَى مِنَ الإعْطاءِ في إثْباتِ مفْعولِه؛ لأنَّ الإعْطاءَ لَهُ مُطاوِعٌ بخِلافِ الإيْتاءِ، تقولُ: أَعْطاني فعطوت، وَلَا يقالُ: آتَاني فَأتيت، وإنَّما يقالُ آتَاني فأَخَذْتُ. والفِعْلُ الَّذي لَهُ مُطاوِعٌ أَضْعَفُ في إثْباتِ مَفْعولِه ممَّا لَا مُطاوِعَ لَهُ؛ لأنَّك تقولُ: قَطَعْته فانْقَطَعَ، فيدلُّ على أَنَّ فِعْلَ الفاعِلِ كانَ مَوْقوفًا على قبولِ المَحلِّ، لولاه مَا ثَبَتَ المَفْعُولُ، وَلِهَذَا لَا يصحُّ قَطَعْته فَمَا انْقَطَعَ، وَلَا يصحُّ فيمَا لَا مُطاوِعَ لَهُ ذَلِك؛ ودليل ذلك في مَواضِع مِنَ القُرْآنِ، قالَ تعالى: ﴿تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ مَن تَشَآءُ﴾ [آل عمران: 26]؛ لأنَّ المُلْكَ شيءٌ عَظيمٌ لَا يُعْطاهُ إلَّا مَنْ لَهُ قُوَّةٌ؛ وقالَ: ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ۝١﴾ [الكوثر: 1]؛ لأنَّه مورود في المَوْقفِ مُرْتَحِل عَنهُ إلَى الجنَّة. وذهب الزَّبيدي إلى أنَّ الإعْطاءَ أَقْوَى مِنَ الإيتاءِ؛ وَلذَا خَصَّ في دفْعِ الصَّدَقاتِ الإيتاءَ ليكونَ ذلِكَ بسُهولَةٍ من غَيْرِ تَطَلُّعٍ إلَى مَا يَدْفَعه، وتَأَمَّل سائِرَ مَا وَرَدَ في القُرْآنِ تَجِدْ مَعْنَى ذلِكَ فِيهِ، والكَوْثَرُ لَمَّا كانَ عَظِيمًا شَأْنُهُ غَيْر داخِلٍ في حِيطَةِ قُدْرَةٍ بَشَرِيَّةٍ اسْتُعْمِل الإعْطاءُ

(1) ذكره ابن عطيّة في تفسيره: 4/534، والسّيوطي في الدُّرّ المنثور: 5/616، وعزاه لابن المنذر، وابن أبي حاتم، نقلاً عن الثّعالبيّ، الجواهر الحسان: 5/93.

(2) السّيوطيّ، نواهد الأبكار: 1/184.

(3) الخفاجيّ، عِنَايةُ القَاضِي: 7/340.

فِيهِ. وكَلامُ الأئمَّة وسِياقُهم فِي الإيتاءِ لَا يُخالِفُ مَا ذَكَرْنا[1]، وخلاصة القول فيهما، أنّ الإعطاء دليل التّملك دون الإيتاء، وهو قول النّيسابوريّ، ومن حيث إنّ الإيتاء: أقوى من الإعطاء، لأنّ الإيتاء في مواضع وروده في القرآن الكريم، عادة ما يرد فيما له ثبات وقرار، ويضربُ لذلك مثلٌ، بما ذكر القرآن أنّه يؤتى، كالحكمة في قوله تعالى: ﴿يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة: 269]، والسّبع المثاني، في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾﴾ [الحجر: 87]، والملك الّذي لا يؤتى إلّا لذي قوّة، في قوله تعالى: ﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ﴾ [يوسف: 101][2]، والإعطاء: "فيما ينتقل منه بعد قضاء الحاجة منه، كإعطاء كلّ شيء خلقه، لتكرّر حدوث ذلك، باعتبار الموجودات، وإعطاء الكوثر، للانتقال منه إلى ما هو أعظم منه، وكذا ﴿يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ﴿٥﴾﴾ [الضحى: 5] للتّكرّر إلى أن يرضى كلّ الرّضا"[3]، وهو دليل على دقّة إيراد اللّفظ النّفيس، ووضعه في الموضع الملائم لمؤدّاه، والمناسب لصيغته وموسيقاه.

(1) الزَّبيديُّ، تاج العروس: (أتي).
(2) الكفويّ، الكليّات، ص: 212.
(3) الكفويّ، الكليات، ص: 212.

﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٞ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسۡتَكَانُواْۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٤٦﴾ [آل عمران: 146]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

المناسبة بين ذكر الموت وثواب الدّارين، وبين تضحيات أنصار الأنبياء السّابقين

ارتبط ما ورد في الآية السّابقة، بالتّأكيد على أنّ الأنفس بيد اللّه، وأنّ الآجال قدره ومراده، وذلك بما تضمّنته هذه الآية الكريمة، من تنويه بأنصار الأنبياء السّابقين وحوارييهم، من الّذين لم يدّخروا وسعا في المبادرة، لشدّ عضد أنبيائهم، ومواجهة أعداء اللّه في زمانهم، بما يملكون من جهد وقوّة، وفي ذلك تسليّة للمسلمين، وتسرية عن القلوب المنكسرة بالهزيمة، في أحداث معركة أحد الأليمة، وهو مثال على الثّبات في المعترك، وتحمّل الأذى والإصابة في سبيل اللّه، من غير وهن مُرْدٍ، ولا ضعف مُخْزٍ، ولا استكانة مُوبِقَة، وفي النّموذج المطروق، عبرة لمن أصابهم القرح، فجبُنَتْ قلوبهم، وانكسرت نفوسهم، وخارت عزائمهم، رجاء أنْ يدركوا أنّ الحرب سِجَالٌ، وأنّ الأيّام دُوَلٌ، وأنّ النّصر مع الصّبر، وأنّ اللّه يحبّ الصّابرين.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَكَأَيِّن﴾: أَيْ كثيرٌ من الأنبياء، وكأيّ بِمعنى كم من نبيّ، وكم بمعنى الكثرة، وتعمل عمل رُبَّ في معنى القِلَّة، وفي كأَيٍّ ثلاث لغات: كأَيٍّ بوزن كَعَيِّنْ، والأصل أيٌّ أدخلت عليها كافُ التَّشبيه، وكائِنْ بوزن كاعِنْ، واللُّغةُ الثَّالثةُ كايِنْ بِوزنِ ماينْ، لا همز فيه[1]، ولفظ (كَأَيِّنْ)

(1) ابن منظور، لسان العرب: (كين)، وابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 113، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/116 - 117.

بمعنى كم في الاستفهام والخبر، وهي مركّبة من الكاف الدّالة على التّشبيه، ومن لفظ (أيّ) الدّالة على الاستفهام، "وقد حدث فيها بعد التّركيب معنى التّكثير المفهوم من (كَمْ) الخبريّة، ولا تتعلّقان بشيء، لأنّهما صارتا بمنزلة كلمة واحدة، وأنَّ آخرَها نون هي من نفس الكلمة لا تنوينٌ[1]، ولذلك رأى أبو حيّان أن تكون (كأيّن) كلمة بسيطة غير مركّبة"، قال درويش: "ولم أجد من يؤيّده وإن كان رأيه جميلًا سهلًا"[2]، ونظرا لوجاهة رأي أبي حيّان، فقد أدرجناها في المفردات الّتي تستحقّ أن تشرح، فقد يشتبه على بعض النّاس معناها، وتلتبس عليهم دلالتها، خصوصا وأنّ بعض اللّغويين يوردها مع الأدوات النّحويّة، باعتبار أجزاء التّركيب، لا باعتبارها كلمة بسيطة..

2) ﴿مِّن نَّبِيٍّ﴾: النَّبيُّ: المخبر عن الله تعالى، فعيل من النَّبأ، وهو: الخَبَر والعِلْم، والإنباء: الإخبار والإعلام عن الشّيء قبل وقت ظهوره، وقيل: أصلُ النَّبيّ مِن النُّبوة والنُّبُوء، وهو: العلوّ والارتفاع، أي: ارتفع. والنَّبيءُ والنَّبيّ: العالي المرتفع، ومنه سُمِّي النَّبيُّ نبيًّا؛ لإخباره عن الله، ولرفعة قدره في الدُّنيا والآخرة. وجمعه: أنبياء[3]، وكلُّ نَبيٍّ شاهد على أمّته، والأنبياء المشار إليهم هنا في قوله: ﴿مِّن نَّبِيٍّ﴾، هم أنبياء بني إسرائيل، ممّن قادواْ الجيوش، وقاتلواْ في سبيل الله، ونموذجهم الأكبر، داوود وسليمان وغيرهم، وكان آخر من قاد الجيوش، وأدار المعارك، بتسديد ربّانيّ، وتدعيم بملائكة السّماء، وعبقريّة في القيّادة لا تبارى، هو سيّد الخلق، محمّد الرّسول القائد، وقد كان قائدا للأمّة في الحسّ والمعنى، وقد قاتل معه أصحابه، كما فعل الرّبيون مع أنبيائهم قديما.

3) ﴿رِبِّيُّونَ﴾: الرِّبيِّون: جمع رِبِّيٌّ، وهو المتَّبع لشريعة الرَّبِّ، مثل الرَّبَّانيِّ،[4] وهو منسوب إلى لفظ الرَّبِّ بمعنى: التَّربية، وذلك أنَّ العلماء يرُبُّون العلم، أي: يصلحونه، ويتعلَّمونه، ثمّ يرُبُّون به النَّاس، فيعلِّمونه، كما تعلَّموا[5]. وذكر أبو السُّعود أنَّ كلمة (رِبِّيٌّ) نسبة إلى الرَّبِّ كالرَّبَّانيِّ، وقيل: هو منسوب إلى الربَّة، وهي الجماعة، أي: كثير من

(1) السّمين، الدّر المصون: 3/426.
(2) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 2/67.
(3) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (نبو).
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/118.
(5) السَّمين، عمدة الحفَّاظ: (ربب).

الأنبياء قاتل معه لإعلاء كلمة الله وإعزاز دينه، علماء أتقياء، أو عابدون، أو جماعات كثيرة[1]، والنِّسبة إلى الرَّبِّ هي الأولى، ففيها امتداح لمن ينبغي أن يكون التأسِّي بهم، أو رِبِّيُّونَ: أي: جماعاتٌ كثيرة، مُفْردها رِبِّيٌّ، والرِّبِّيونَ: الأُلوف، وأَصْلُه من الرِّبَّة، وهي: الجماعةُ، كأنَّ الرِّبِّيَّ نُسِب إليها، والرَّاءُ وَالبَاءُ يَدُلُّ عَلَى ضَمّ الشَّيْءِ لِلشَّيْءِ، ومنه الرَّبَبُ، وَهُوَ المَاءُ الكَثِيرُ، وقيل الرِّبِّيون مَنْسُوبُونَ إلى الرَّبِّ، وهُم العُلَماءُ الأَتقياءُ الصُّبُر، فالرِّبِّيُّ كالرَّبانيُّ[2]، وخلاصة أوصاف الرّبانيين أنّهم صفوة من الفقهاء، من أولي القوّة والبأس، والفاهمين سبل الحرب، والمقتنعين بدورهم في الذّب عن بيضة الدّين، وعن حمى الله الّذي ائتمن عليه المؤمنين، وهم بذلك أتباع للنّبيّ الّذي يقودهم، ومعنى آخر أنّه يمكن أن ينصرف معنى اللّفظ إلى أنّ منهجهم ربّانيّ، مربوط بوحي السّماء، وبربوبيّة الله الّذي أرسل النّبيّ وأنزل الكتاب، فهم ﴿رِبِّيُّونَ﴾ مثل قولنا في زماننا عمّن وصفوا بما سلف من صفات، إنّهم (ربّانيون)[3].

4) ﴿وَمَا ٱسْتَكَانُواْ﴾: أي: ما خشَعوا وما ذَلُّوا، وما خَضعوا للعدوِّ، ومنه أُخذ المستكين، وأصلُ الاستكانة: إظهارُ الضَّعْف، واسْتَكانَ الرَّجُلُ: خَضَعَ وذَلّ، يُقَالُ أَكانَه اللَّهُ يُكِينُه إِكَانَةً أَي أَخضعه حَتَّى اسْتَكان وأَدخل عَلَيْهِ مِنَ الذُّلِّ مَا أَكانه[4]. ﴿فَمَا وَهَنُواْ﴾، ﴿وَمَا ضَعُفُواْ﴾ ﴿وَمَا ٱسْتَكَانُواْ﴾، الوهن: ضعف من حيث الخَلْق أو الخُلُق[5]، وفي عمدة الحفَّاظ: أنَّه ضعف ورقٌّ[6]، أمَّا الضَّعف؛ فهو خلاف القوَّة، وقد يكون في النَّفس أو في البدن أو في الحال[7]، والاستكانة إمّا من السُّكون، وهو ثبوت الشَّيء بعد تحرُّك، وأصله: (استكون) فنقلت الفتحة الى الكاف، ثمّ قلبت الواو ألفا، ووزنه افتعل[8]، وإمّا مِنَ الكَوْنِ فَوَزْنُهُ (استفعل) وألفه منقلبة عن واو، والسِّين مزيدة للتَّأكيد كأنَّه طَلَبَ من نفسه أن يكون

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السليم: 2/95.

(2) الرَّاغب، المفردات، والسَّمين، عمدة الحفَّاظ، وابن منظور، لسان العرب، والزَّبيديُّ، تاج العروس: (ربب)، وابن فارس، مقاييس اللغة: (رب)، وابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 113.

(3) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 3/1806.

(4) الأزهريُّ، تهذيب اللُّغة، وابن منظور، لسان العرب: (كين)، وابن قتيبة الدِّينَوَريُّ، غريب القرآن، ص: 113، 299.

(5) الرَّاغب، المفردات، ص: 887.

(6) السَّمين، عمدة الحفَّاظ: (وهن).

(7) الرَّاغب، المفردات، ص: 506 - 507.

(8) الرَّاغب، المفردات، ص: 506 - 507.

لمن قهره[1]، ومعنى ﴿ٱسۡتَكَانُواْۗ﴾ في السّياق، ضعفوا وذلوا والاستكانة الانكسار والوهن، وعدم الاستكانة مؤشّر على الشّهامة وعلوّ النّفس، ومتانة الدّين، والغيرة عليه.

5) ﴿أَصَابَهُمۡ﴾: الوُصُولُ وَبُلُوغُ الغَايَةِ، وَالمُصِيبُ: البَالِغُ غَايَتَهُ، وَضِدُّ الإِصَابَةِ: الخَطَأُ، وَتَأْتِي الإِصَابَةُ بِمَعْنَى: أَخْذِ الشَّيْءِ وَالحُصُولِ عَلَيْهِ، وَأَصْلُ الإِصَابَةِ مِنَ الصَّوْبِ وَهُوَ القَصْدُ، وَمِنْ مَعَانِي الإِصَابَةِ أَيْضًا: الإِدْرَاكُ والإِمالَةُ والنَّجَاحُ والإِيجَادُ[2].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

توجيه المؤمنين إلى الصَّبر عند القتال، أُسوة بأتباع الرُّسل المخلصين

كم من نبيٍّ من الأنبياء السَّابقين، قاتل معه نخبٌ أثيرة كثيرةٌ، من أتباعه الصّادقين، وحواريّيه المخلصين، فما تقاعسواْ عن الجهاد، ولا تثاقلواْ عن الجلاد، رغم ما أصابهم من جروح وقروح، وما حلّ بهم من قتل وتنكيل، بل احتسبواْ ذلك في سبيل اللّه، وما تأخّرواْ عن قتال العدوِّ، ولا خضعواْ له، ولا باعوا دنياهم بالدّين، بل صبرواْ وثبتواْ، واللّه يحبّ الصَّابرين، ويجازيهم في الدّنيا والآخرة[3].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

مناسبةُ تقديم ذِكر المحاسن الفعليَّة على القوليَّة:

تقديم ذِكر الأفعال على الأقوال للأهمية

قدّمَ ذِكر المحاسن الفِعليَّة في قوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيّٖ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٞ﴾ [آل عمران: 146]، على المحاسن القوليَّة في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ قَوۡلَهُمۡ إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا﴾ [آل عمران: 147]؛ للاهتمام بها وللتنبيه على أنَّ ثباتهم وقوّتهم في الدّين وكونهم ربّانيين منشأ

(1) الخفاجيُّ: عناية القاضي: 3/69.
(2) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، والجوهري، الصحاح: (صوب).
(3) لجنة من علماء الأزهر، المنتخب في تفسير القرآن الكريم، ص: 94، ونخبة من أساتذة التفسير، التفسير الميسر، ص: 68، وجماعة من علماء التَّفسير، المُختصر في تفسير القرآن الكريم، ص: 68.

المحاسن القوليَّة في طلب المغفرة وتثبيت الأَقدَام والنَّصر[1]. وأيضا جاءت المحاسن الفعلية على طريق نفي لِلإشعار بأنَّ الأصل في قتال الكافرين هو الجدُّ في العزيمة والقوّة في الإقدامِ والعزّة والظُّهور على العدوِّ.

مناسبة الوصل بالواو في الآية:

لمّا ذكر الله تعالى الذين وهنوا وضعفوا من المؤمنين في غزوة أحد ناسب أن يقوّي عزمهم بضربِ المثل للمؤمنين بمن سلف من صالحي الأمم من الذين قاتلوا الكفّار مع أنبيائهم، فإنَّ في ذكر النّظير تقويةً للعزائم ورفعًا للهمم، ولمّا مثّل بذكر وصف النبوّة وذكر أوصاف الربيين الذين معه دلَّ على أنّ الأولى لهم أن يكونوا أثبت من الربيين وأشدَّ عزيمة منهم في قتال العدوِّ؛ لأنَّ صاحبهم متّصف بوصف الرسالة، والرسول أعلى مرتبةً من النبيِّ، فسِيقت الآيةُ لتبكيتِ المنهزمين الَّذين لم يستَنُّوا بسُنن الرَّبانيين المجاهدين مع الرُّسل عليهم السلام مع أنَّهم أَولَى بذلك حيث كانوا خير أمَّة أُخرجت للنَّاس

دلالةُ التَّعبير بلفظ ﴿وَكَأَيِّن﴾ في قوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ﴾:

التأسّي بمَن مضَى من صالحِي الأُمم السَّابقة

﴿وَكَأَيِّن﴾ في الكلامِ بمنزلة (كم) الخبرية في إفادة تكثير عدد تمييز مجرورِها، غير أنَّ دلالتها على التكثير أوسع من دلالة (كم) وهي تفيد مع التّكثير تأكيده وتعظيم ما سيقت له وتفخيمه[2]، فأفادت ﴿وَكَأَيِّن﴾ تكثير عدد الجماعات من كلِّ نبيٍّ قاتل معه ربّيون كثير، وتصديرها في الكلام يؤذن بعظم أوصافِ الربّيين المذكورة.

التَّكامل الدَّلالي للقراءات في قوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن﴾:

قراءة: ﴿وَكَأَيِّن﴾ لنافع وأبي عمرو وابن عامر وعاصم وحمزة والكسائيِّ من السَّبع، ويعقوب وخلف من بقيّة العشر، وقرأ ابن كثير وأبو جعفر، والأوَّل من السَّبع والثَّاني من بقيَّة العشر: ﴿وَكَآيِن﴾ بألف بعد الكاف همزة مكسورة بعده، إلَّا أنَّ ابن كثير قرأ بتحقيق الهمزة،

(1) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 6/351.

(2) ابن يعيش، شرح المفصل: 3/182، والسامرائي، معاني النحو: 2/342.

على حين قرأ أبو جعفر بتسهيلها مع المدِّ والقصر[1]، أمّا (كائن)؛ فمعناها المثبت عند النُّحاة وكبار المفسِّرين: هو معنى كم الخبرية المفيدة التكثير مثل (كأيّن) غير أنَّ دلالتها على التكثير أوسع من دلالة (كم)؛ ولذا قالوا في معناها: إنَّه (كم وكم) تكثيرًا؛ مراعاة لأصل معنى: إفادة زيادة المبنى زيادة المعنى، كما هي القاعدة المعروفة، وأمّا التَّسهيل وأثره في المعنى مع المدِّ اعتبارًا بالأصل؛ فإنّ المُسَهَّل: أصله محقَّق، فالاعتداد بالأصل يقتضي إجراء الفرع مُجْراه، فكان المدُّ، وأمَّا القصر؛ فاعتدادٌ بالعارض، وهو ذهاب الهمز بالتَّسهيل، فذهب داعي المدِّ من حيث إنَّه روعي فيه عند تحقيق الهمز بعد ما بين المخرجين مخرج الكاف عن مخرج الهمزة، هو ما يستوعب بُعْدَ ما بيْن أقصى اللِّسان وأقصى الحلق، وهذا الّذي يقوله علماء الصّوتيَّات لا يصادر على معنى: أنَّ التَّسهيل ضربٌ من الإخفاء، وهو النُّطق بالهمزة بحالة بين الهمز وبين الحرف الذي منه أُشكلت، وإذ هو الكسر هنا، فذلكم النُّطق بالهمزة بحالة بينها وبين الياء، وذلك الخفاء إيحاء تعبيريٌّ تصويريٌّ ينسحب على المعنى يوسِّع دلالته، ويعمِّق مغزاه، وكأنَّه يقول: إنّ كثرة ذلك الّذي تضمَّنته الآية أمثلة ووقائع وأسماء، قد علمه من علمه، وغاب عمّن غاب عنه عن غير تقصير في تحصيل؛ لأنّ خفاءه موغل في الزمن، بعيد في الماضي السحيق بعدًا يُشعِرُ به المدُّ مع التَّسهيل، بيْد أنَّه الخفاء والبُعْد الَّذي لا يمنع أصل العلم به وحصول الخبر الصّادق الثَّابت عنه، وهو فوق ذلك توسُّع في إشاعة التّحدي وإذاعته وإفاضة المعجزة ونشرها بإجرائه على ألسنة العرب كافة، من حيث إنَّ التسهيل إحدى لغات القبائل العربية والأمصار ولهجاتها الفصيحة ذات الدلالات البعيدة المفيدة.

دلالة التَّنكير في لفظ ﴿نَّبِيّ﴾:

أفادَ التَّنكير في لفظة ﴿نَّبِيّ﴾ التَّعظيم، وهو اللّائق لوصفِ النبوَّةِ[2]، ليكون مناسبًا للسياق الوارد على معنى التكثير والتّفخيم الذي أفادته ﴿وَكَأَيِّن﴾، فذكر لفظَ ﴿نَّبِيّ﴾، لتكون التسلية أعظم للنّبي ﷺ وللصّحابةِ بذكر ما هو طبق ما وقع في غزوة أحدٍ[3].

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 1/519، وابن الجزري، النشر: 2/242.
(2) الآلوسيُّ: روح المعاني: 2/296.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 5/86.

القراءات القرآنية:

تعدّد القراءات وتوسّع المعنى

قرأ نافعٌ وابنُ كثير وأبو عمرٍو ويعقوب بضمِّ القاف وكسر التَّاء من غير ألف ﴿قُتِلَ﴾، وقرأ ابن عامر، وعاصم ابن أبي النُّجود وحمزة والكسائيُّ وأبو جعفر يزيد بن القعقاع وخلف البزّار بفتح القاف والتَّاء وألف بينهما ﴿قَٰتَلَ﴾[1]، ولكلٍّ قراءة معنًى[2]:

1) فمن قرأ بالبناء للمفعول: ﴿قُتِلَ﴾؛ فيحتمل المعنى وجهين: الأوَّل: أن يكون المسند إليه هو الضّمير العائد إلى (نبي)، والمعنى أنَّ النبي قُتِلَ، ويكون (معه ربّيون كثير) حالًا على الأرجح، والمعنى أنَّ النبيَّ قُتِل فما وهن الربّيون الكثير لما أصابهم في سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا، ووجه حسنِ هذا التّوجيه على هذه القراءة أنّها مناسبةٌ للواقعة، وذلك أن المؤمنين إنما تخاذلوا لما قيل قُتِلَ محمَّدٌ، فضرب المثلَ بنبيٍّ قُتِلَ.

الثاني: أن يكون المسند إليه هو (ربّيون)، والمعنى، كثيرٌ من الأنبياء قُتِل ربّيون كثير كانوا معهم، فما وهنَ الباقون منهم وما ضعفوا وما استكانوا. ووجه حسن هذا التّوجيه على هذهِ القراءة أنَّ السّياقَ واردٌ في معاتبةِ الذين انهزموا يوم أُحُد، وعذلِهم على تركِهم القتال، بعدَ ما سمعوا الصائح يصيح: "إنَّ محمدًا قد قتل" فأخبرهم عما كان من فعل كثير من أتباع الأنبياء قبلهم، وقال لهم: هلا فعلتم كما كان يفعل أتباعُ الأنبياء، وقد ورد عن الحسن وسعيد بن جبير أنّه لَمْ يُقْتَلْ نَبِيٌّ فِي حَرْبٍ قَطُّ.

ووجه حسن هذه القراءة على التّوجيهين معًا، أن (قُتِلَ) يَظْهَرُ فيها المَدْحُ أكثرَ من (قاتلَ)، وَهِيَ أَبْلَغُ فِي مَقْصُودِ الْخِطَابِ، لِأَنَّهَا نَصٌّ فِي وُقُوعِ الْقَتْلِ، وَيَسْتَلْزِمُ القتلُ حصولَ الْمُقَاتَلَةِ، وأمّا (قَاتَلَ) فلَا تَدُلُّ عَلَى الْقَتْلِ، إِذْ لَا يَلْزَمُ مِنَ الْمُقَاتَلَةِ وُجُودُ الْقَتْلِ، فقَدْ تَكُونُ مُقَاتَلَةٌ وَلَا يَقَعُ قَتْلٌ، ويكون المراد على هذه القراءة الحثّ على الثباتِ عند قتالِ العدوِّ

2) أمَّا من قرأ ﴿قَٰتَلَ﴾؛ فالمعنى: له وجهان كذلك: الأول أن يكون الفاعل الضّمير العائد على ﴿نَّبِيّ﴾ والمعنى وكم من نبيٍّ قاتل والحال معهم ربّيون كثير، والثاني: أن

(1) ابن الجزري، النشر: 2/242.

(2) ابن جرير، جامع البيان: 7/264، وابن جنّي، المحتسب: 1/173، وابن عطية، المحرر الوجيز: 1/520، والرّازي، مفاتيح الغيب: 9/380، والنيسابوري: غرائب القرآن: 2/273، وأبو حيّان، البحر المحيط: 3/370.

يكون الفاعل هو ﴿رِبِّيُّونَ﴾ والتّقدير، وكم من نبيٍّ قاتل معه العددُ الكثيرُ من أصحابه، فأصابهم من عدوِّهم قَرْحٌ فما وهنوا؛ لأنَّ الَّذي أصابهم إنَّما هو في سبيل اللّه، فكذلك ينبغي أن تفعلوا يا أمَّة محمَّد.

ووجه حسن هذه القراءة على التّوجيهين معًا أَنها أعم في المدح؛ لأنَّه يدخل فيها من قُتِلَ ومن بَقِي، ويكون الغرضُ على هذه القراءة ترغيب الذين كانوا مع النبي ﷺ في القتال.

ورجّح ابن جنّي إسناد الفعل في القراءتين إلى ﴿رِبِّيُّونَ﴾ وأيّده ابن عطيّة؛ لما دلَّ عليه السياق من معنى التّكثير الدالِّ على كثرةِ الأشخاصِ؛ بدلالة ﴿وَكَأَيِّن﴾ و﴿رِبِّيُّونَ﴾ و﴿كَثِيرٌ﴾، فيكون القتل أو المقاتلة منسوبًا للربّيين، كما أنَّ السياق جارٍ في عتاب المنهزمين ليذكَرهم بحال الثابتين مع الأنبياء من قبل.

نُكتة المجاز المرسل في قوله: ﴿قُتِلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ﴾:

التَّنبيهُ على الاقتداء بِسِيَرِ الصَّابرين وأحوالهم

على قراءةِ من قرأ بالفعلِ المبني للمفعول ﴿قُتِلَ﴾ إذا كانَ مُسندًا إلى ﴿رِبِّيُّونَ﴾، فالمعنى وكأين من نبي قُتِلَ ربيون كانوا معه، وبَقِيَ على دينه رِبِّيُّون كثير فما ضعف الباقون ولا استكانوا بقتل من قُتِلَ من إخوانهم بل مضوا على جهاد عدوِّهم فينبغي لكم أن تكونوا كذلك[1]، فالمقتول هو بعض الرّبّيين وليس جميعَهم، فيكون التّعبيرُ بـ ﴿رِبِّيُّونَ﴾ على طريقة المجازِ المُرْسلِ بعلاقةِ العمومِ، من بابِ ذكر العامّ وإرادة الخاصِّ.

دلالة إيثار الظَّرف (مع) مع تقديمه على ﴿رِبِّيُّونَ﴾:

رفعة منزلة القتال في سبيل الله وبيان أصالة الأنبياء فيه

قدّم الظّرف ﴿مَعَهُۥ﴾ للاهتمام بالمعيَّة؛ للتنبيه عَلَى أصالة النَّبيّ في القتال، في كونه قائدًا متبوعا، وهو اللَّائق بأنبياء اللّه عليهم السلام، وعلى

(1) زاده: حاشية على البيضاويّ: 3/186.

توجيه أن يكون ﴿رِبِّيُّونَ﴾ فاعلًا يفيدُ تقديم الظّرف أيضا العناية بالفاعل لا التّخصيصِ[1].

دلالة النِّسْبَةِ في لفظة ﴿رِبِّيُّونَ﴾:

تأييد الله لأنبيائه ورسله تكون بالصَّالحين المُخلِصين من النَّاس

فالرِّبِّيُّ يحتمل أنّه منسوبٌ إلى الرَّبِّ كالرَّباني وكسرُ الرَّاءِ من تغييرات النَّسَبِ، فهُم العُلَماءُ الأَتقياءُ العارفون بربّهم والعابدون له، ويكون الرِّبِّيُّ كالرَّبانيّ، وهو الظّاهر، ويدل على هذا المعنى اقترانُهم بذكرِ النَّبيّ، ويحتمل أنّه منسوبٌ إلى الرِّبَّة، وهي الجماعة الكثيرة فتكون النِّسبة للمُبَالَغَة للكثرةِ كأحمري، وماداموا مع الأنبياء فهم أتقياء، فالمعنى على كلا الاحتمالين قريب، فكثيرٌ من الأنبياء قاتلَ معه لإعلاء كلمةِ اللّه وإعزاز دينِه علماءُ عابدون أو جماعاتٌ كثيرة أتقياء فثبتوا على دينهم[2].

نكتةُ وصفِ الجمعِ ﴿رِبِّيُّونَ﴾ بصيغةِ المفرد ﴿كَثِيرٌ﴾:

يأتي لفظ (كثير وقليل) ويعامل موصوفهما معاملة لفظ شيء أو عدد، فيكون المعنى هو الجمع والصّيغة صيغة المفرد، ولم يذكر لفظ الجمع في الصِّفة ﴿كَثِيرٌ﴾ ليناسب جمعَ الموصوف ﴿رِبِّيُّونَ﴾؛ لمناسبةٍ في الدَّلالة على أنَّ الرِّبِّيِّين في ثباتهم كانوا على قلب رجل واحد، فكأنَّ الكلَّ في واحد، فهذا من أثر إفراد الصِّفة في اللَّفظ، وقد يكون مثل ذلك لإفرادها في الرَّسم، والمعنى على الجمع، وذلك إعجاز لا يُعْهد في غير القرآن العظيم وسبحانه من هذا كلامه[3].

بديع مُراعاة النَّظير في وصف ﴿رِبِّيُّونَ﴾ بـ ﴿كَثِيرٌ﴾:

وصْفُ الرِّبِّيين بأنّهم ﴿كَثِيرٌ﴾ من باب مُراعاة النَّظير الذي دل عليه لفظ ﴿وَكَأَيِّن﴾ المفيد للتَّكثير، فإنَّ كثرة الأنبياء وتَتَابُعَهُم يدلّان على كثرة من يؤمن منهم ويَتَّبِعُهم.

(1) القونويُّ: حاشية القونويِّ على البيضاويِّ: 6/347.

(2) ابن منظور، لسان العرب، والزَّبيديُّ، تاج العروس: (ربب)، وأبو السُّعود: إرشاد العقل السليم: 2/95، والقونويُّ: حاشية القونويِّ على البيضاويِّ: 6/348.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/118.

دلالة الفاء في قوله ﴿فَمَا وَهَنُواْ﴾:

أفادت الفاء أمرين أحدهما الإشعارُ بتوقُّعِ الوهن من القتال على العموم، والثاني ترتُّبَ نفي الوهن وما بعده عن الربّيين على قتالِهم مع نبيّهم، وفيه إيذانٌ بأنَّ وجود النبيِّ معهم كان سببًا في نفي الوهنِ عنهم، ففيه تأكيد التّعريض بالصحابة الذين انهزموا يومَ أحدٍ ولم يثبتوا في القتال مع أنَّهم كانوا مع رسولِ اللّهِ ﷺ.

مناسبة تقييد الوهن في قوله ﴿فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾:

ورد القيدُ ﴿لِمَآ أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ في مقام علّة نفي الوهن عنهم، وقوله ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ حالٌ في مقامِ التّعليلِ، فإن كونَ ذلك في سبيله ﷻ مما يقوِّي قلوبَهم ويُزيلُ وهنَهم[1]، ولمّا كان المعطوفان ﴿وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسْتَكَانُواْ﴾ مشتركين في الحكم مع المعطوف عليه بقيدِه، كان الكلامُ على نيَّةِ تكرارِ القيدِ والتّقديرُ (وما ضعفوا لما أصابهم في سبيل اللّه وما استكانوا لما أصابهم في سبيل اللّه)، أو يقال إنَّه حذف من المعطوف الأول والثاني لدلالة ما ذكر في المعطوف عليه، إيجازًا في الكلام وللاهتمامِ بشأنِ نفي الوهن الذي ينبى عليه ما بعده[2]، وهذا القيد يجري في الآية التالية كذلك، فكون ما أصابهم في سبيل اللّه هو علّة قولهم المذكور.

نُكتة ترتيب المعطوفاتِ: (الوَهَنُ والضَّعْفُ والاستكانة):

ترتيبُها في الذِّكر على وفقِ ترتيبها في الحصول

لمّا كان العطفُ يقتضي المغايرة بين المعاطيف دلَّ على أن الوهن والضعف والاستكانة متغايرة في المعنى، فالمعاني على التّأسيس لا التّأكيدِ، ومِن اللَّطائف: ترتيبُ هذه الثلاثةِ في الذِّكر على حسَب ترتيبِها في الحُصولِ ترتيبًا تلازميًّا تصاعديًّا؛ فإنَّه إذا فترتِ العزيمةُ والاجتهادُ في الإقدامِ في الحربِ، ضعفت القوّة وفَشِلت الأعضاءُ، وجاء الاستسلامُ، فتظهر المذلَّةُ والخضوعُ للعدوِّ[3]، فالوهن أشدُّها، ويليه الضَّعف، ويليه الاستكانة فَنَفَى أوَّلًا الأبلغ ثُمَّ ما دونه ثُمَّ ما دونه؛ لأنَّ نفي الأخصِّ لا يستلزم نَفْيَ الأَعَمِّ[4].

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 2/95.
(2) ابن عرفة: تفسير ابن عرفة: 1/426، والبِقاعيُّ: نظم الدُّرر: 5/87.
(3) ابن عاشور: التَّحرير والتَّنوير: 4/118 - 119.
(4) البسيليُّ التَّقييد الكبير ص: 580.

بلاغة التّعريض في هذه الآية:

في الآية تعريض بما أصاب المسلمين يومَ أحدٍ من الوهن والانكسار عند الإرجاف بقتل رسول اللّه ﷺ، وبضعفهم عند ذلك عن مجاهدة المشركين واستكانتهم لهم، والغرض من هذا التّعريض تشجيع المؤمنين على القتال وحثّهم على الاجتهاد والثبات عند قتال الكفار، فإنّه إذا كان أصحاب الأنبياء السّالفين قد ثبتوا وصبروا عند حلول المصائب أو موت المتبوع وما وهنوا وما ضعفوا وما استكانوا، فالأولى للمسلمين أن يتّصفوا بصفاتِهم أو يزيدون[1].

في جملة التّذييل فوائد لغويّة وبلاغيّة في قولِه تعالى ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ هي[2]:

حسن التّذييل

تأكّد مضمون الجملة وتقوّى حكمها بمجيئها اسميّةً مخبرًا عنها بقوله ﴿يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾، والمعنى تحقيق محبّة اللّه للصّابرين، لبيان اصطفائهم للإكرام بمحبَّة اللّه تعالى.

وفي الجملةِ إظهارٌ في موضع الإضمار؛ فلم يقل (واللّه يحبّهم) للثناء عليهم بالوصفِ الأحسن الذي هو ملاك الأمر، كما أنَّ التّعبيرَ بالاسم المشتقِّ مشعرٌ بعلَّة الحُكْمِ، والمعنى اللّه يحبّهم لاتّصافهم بالصبر.

ومجيء الفعل ﴿يُحِبُّ﴾ بصيغة المضارع للدلالة على أنَّ حبَّ اللّه للصّابرين يستمرُّ بتجدّد أثره فيهم حالًا فحالًا

وتحتمل (أل) في الصابرين أن تكون عهديَّةً، فيكون المرادُ المذكورين في سياق الآيات، كما تحتمل أن تكون جنسيَّةً، فتفيد استغراق الصَّابرين على العموم، وقوّى معنى العموم حذف المتعلَّق، والمعنى واللّه يحبُّ كلَّ صابرٍ عَلَى مَا أَصَابَهُ مِنْ قتلٍ في سَبِيلِ اللَّهِ، أَوْ جُرْحٍ، أَوْ بَلَاءٍ، أَوْ أَذًى يَنَالُهُ بِقَوْلٍ أَوْ فِعْلٍ أَوْ مُصِيبَةٍ فِي نَفْسِهِ، أَوْ أَهْلِهِ أَوْ مَالِهِ، أَوْ مَا يَجْرِي مَجْرَى ذَلِكَ، ويدخل فيهم المتحدَّث عنهم دخولًا أوَّليًّا.

(1) الزمخشري، الكشاف: 1/424، وابن التمجيد، حاشية على تفسير البيضاوي: 6/350، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/116.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/373، وأبو السُّعود: إرشاد العقل السليم: 2/96، والآلوسيُّ: روح المعاني: 2/297.

ولمّا كانت جملة التّذييل على معنى العموم مع إيجازها آذنت بأنّها تجري مجرى المثلِ في عمومِه وكلّيَّتِه.

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الضَّعْف والِاستكانة والوَهَن:

الضَّعْف هو خلاف القوَّة، وقد يكون في النَّفس أو في البدن أو في الحال[1]، وَقد خلق اللّه الإنسان بهذا الوصف، فقال تعالى: ﴿وَخُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ ضَعِيفٗا ٢٨﴾ [النِّسَاءُ: 28]، والوهن هُوَ أَن يفعل الْإِنْسَان فعل الضَّعِيف يقال وَهَن في الْأَمر يَهِنُ وهَنًا، إذا أَخذه بضعف، وَمِنْه قَوْله تَعَالَى ﴿وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ﴾ [آل عمران: 139]، أَي لَا تَفعلُوا أَفعَال الضُّعَفَاء، وأنتم أقوياء على مَا تطلبونَهُ فاللّه يذلّل لكم ذلك، ويعينكم عليه، وَأمّا الاستكانة فهِيَ إِظْهَار الضّعْف عند النّزال، بتسليم القياد والرّضوخ، كقوله تَعَالَى ﴿وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسۡتَكَانُواْۗ﴾، أَي لم يضعفوا بِنُقْصَان الْقُوَّة وَلَا اسْتَكَانُوا بِإِظْهَار الضَّعْف عِنْد المقاومة[2]، وأمّا الوهن، فهو ضعف من حيث الخَلْق أو الخُلُق[3]، وفي عمدة الحفَّاظ: أنَّه ضعف ورقٌّ[4]، ومن خلال الجمع بين الوهن والضَّعف والاستكانة، يتبيَّن: أنَّ الضَّعف خلاف القوَّة، وأنّ الوهن ضعفٌ شديد يؤدِّي إلى تعطيل حركة الجسم، وأنّ الاستكانة ضعف يؤدّي إلى تسليم الزّمام، عند اليأس من المقاومة، فيكون حال الربّيين، أنّهم لم يصبهم الضَّعف بألوانه ومسمّياته، ولا صدَّهم عن االمغالبة والثبات في ميدان النّزال، توخّيًا لطاعة اللّه، واتّباعا لأنبيائه الكرام، ومواصلة للجهاد في سبيل اللّه.

الإصابة والمسّ:

أنَّ المسَّ يُقال في كلِّ ما ينال الإنسان من أذى[5]. والإصابةُ في اللُّغة الأَخذ والنَّيل والوصول والإدراك، والإصابة في الخَير اعتبارًا بالصَّواب، أي: بالمطر، وفي الشَّر اعتبارًا

(1) الرَّاغب، المفردات، ص: 506 - 507.
(2) العسكريُّ: الفروق اللُّغوية، ص: 116، والبسيلّي التقييد الكبير، ص: 580، وابن عاشور: التَّحرير والتَّنوير: 4/118.
(3) الرَّاغب، المفردات، ص: 887.
(4) السَّمين، عمدة الحفَّاظ: (وهن).
(5) الراغب، المفردات: (مسس).

بإصابة السَّهم[1]. والإصابةُ أخفُّ من المسِّ، والإصابة أكثر استخدامًا في الخير من المسِّ، والمسُّ أكثر استخدامًا في الضّر والشّر من الإصابة[2].

الاستكانة والفتور:

لمّا كانَ الفتور: سكونًا بعد حدَّة، ولينًا بعد شدَّة، وضعفًا بعد قوة[3]؛ وهو أمرٌ طبعي، ويرجع بتجدّد النَّشاطِ ورفعِ الهمَّة، وكانت الاستكانة بمعنى الخضوع للعدوِّ والذلَّة له بالاستسلام الماديِّ أو المعنويِّ عبّر بقوله ﴿وَمَا ٱسۡتَكَانُواْۗ﴾ لأنَّ الاستكانة لا ينبغي أن تكون لمؤمن باللّه ورسوله.

السَّبيل والصِّراط والطَّريق:

فرَّق العسكريّ بين الصِّراط والطَّريق، بأنَّ الصِّراط هو الطَّريق السَّهل، والطَّريق لا يقتضي السُّهولة[4]. وفرَّق الكفويُّ بينها بأنَّ السَّبيل هو أغلب وقوعًا في الخَيْر، وَلَا يكَاد اسْم الطَّرِيق يُرَاد إِلَّا مُقترنًا بِوَصْف أَو إِضَافَة تخلصه لذَلِك، والصِّراط كذلك إِلَّا أنَّ الطَّرِيق هُوَ كلّ مَا يطرقه طَارق، مُعْتَادًا كَانَ أَو غير مُعْتَادٍ، والسَّبيل من الطُّرق مَا هُوَ مُعْتَاد السُّلوك، والصِّراط من السَّبِيل مَا لَا التواء فِيهِ وَلَا اعوجاج، بل يكون على سَبِيل القَصْد فَهُوَ أخص مِنها[5]. زِد على ذلك أنَّ سبيلًا وصراطًا يختصَّان بالإضافة إلى لفظ الجلالة وإلى سواء دون طريق، وأنَّ السَّبيل تختصُّ بإضافة ابن إليها وبإضافتها كثيرًا إلى اللّه تعالى دونَ صِراط الَّتي أضيف إليه لفظ الجلالة مرّة وحيدة[6].

(1) الراغب، المفردات: (صوب).
(2) سعد بن عبد العظيم، موسوعة الفروق القرآنية: 2/938.
(3) الرَّاغب، المفردات، ص: 622.
(4) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 313.
(5) الكفوي، الكليات، ص: 512، و513.
(6) سعد بن عبد العظيم، موسوعة الفروق القرآنية: 2/868.

﴿وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِيٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ١٤٧﴾ [آل عمران: 147]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الانتقال من الثَّناءُ على أفعال أتباع الرُّسُل، إلى الثَّناء على قولهم ودعائهم

لَمَّا ذَكَر اللّه تعالى حال الرِّبِّيِّينَ وما كانواْ عليه من الجَلَد والصَّبر، وعَدَم الوَهنِ والاستكانةِ للعدوِّ، وذلك كلُّه من الأفعالِ النَّفسانيَّة التّي يَظْهَر أثرُها في الجوارح، ذكَر مقالهم وما كانواْ عليه من الإنابةِ والاستغفارِ، والالتجاءِ إلى اللّه تعالى بالدُّعاء[1]، فلمَّا أثنى سُبحانه وتعالى على فِعْلِهِمْ أتبعه قَوْلَهُم[2]، بأن يدعو اللّه أن يغفر لهم ذنوبهم وإسرافهم في أمرهم، ويثبِّت أقدامهم، وينصرهم على عدوِّهم.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱغْفِرْ لَنَا﴾: الغُفْرانُ: المُسامَحَةُ والعَفو، يُقال: غَفَرَ لَهُ: إذا سامَحَهُ وعَفا عنه. والاستِغفارُ: طَلَبُ المَغْفِرَةِ. ويأْتي الغُفْرانُ بمعنى التَّجاوُزِ عن الذَّنْبِ وعَدَمِ المُؤاخَذَةِ بِهِ، يُقال: غَفَرَ اللّهُ ذُنُوبَهُ، أيْ: سَتَرَها وتَجاوَزَ عنْها. وأَصْلُ الغُفْرانِ مِن الغَفْرِ، وهو: التَّغْطِيَةُ والسَّتْرُ والإدْخالُ، ومنه سُمِّيَ العَفْوُ غُفْرانًا؛ لأنَّهُ سَتْرٌ لِلذَّنْبِ وإدْخالٌ لِلْعَبْدِ في العَفْوِ[3]، وقوله: ﴿ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾: أي: لا تُعاقِبنا مُؤاخذة عليها، يُقال غفر اللّه ذنبه غَفْرًا وغُفْرانًا ومَغْفِرَةً، والمَغفرة: السَّتْرُ لِخُلَّةِ المُسلم وفاقَتِهِ، وتَرْكُ أذيَّته[4]، وَالْغُفْرَانُ وَالْغَفْرُ بِمَعْنًى واحد، قَالَ فِي الْغَفْرِ:

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/373.
(2) البِقاعي، نظم الدُّرر: 5/87.
(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، وابن سيده، المحكم: (غفر).
(4) الرَّاغب، المفردات، وابن فارس، مقاييس اللغة، والسَّمين، عمدة الحفَّاظ: (غفر)، وابن عزير السّجستانيُّ، غريب القرآن، ص: 354، وابن الهائم، التِّبيان، ص: 117.

فِي ظِلِّ مَنْ عَنَتِ الْوُجُوهُ لَهُ *** مَلِكِ الْمُلُوكِ وَمَالِكِ الْغَفْرِ[1]

ولفظ: ﴿ٱغْفِرْ لَنَا﴾ دعاء يستجلب به الأمان، من صاحب الغفران، وهو في دلالته على السّتر متناسب مع عفو اللّه السِّتِّير الّذي يتجاوز عن سيّئاته، ويغفر حوباته.

2) ﴿ذُنُوبَنَا﴾: المراد بالذَّنب في القرآن الكريم: هو المعصية الشّرعيَّة، وأصله اللُّغويُّ: هو الأخذ بذَنَبِ الشَّيء، أي: مؤخِّرته، وصار يستخدم في كلِّ فعل يستوخم عقباه؛ اعتبارًا بذنب الشَّيء، ذكر الفيُّوميُّ أنَّ الذَّنب هو الإثم، وأذنب صار ذا ذنب، بمعنى: تحمَّلَه،[2]، وذكر الرَّاغب الأصفهانيُّ أنَّ الذَّنب يستخدم لما يستوخم عقباه؛ ولهذا يسمَّى الذَّنب: تبعة؛ اعتبارًا بما يحصل من عاقبته[3]، وأنشد سيبويه:

أَسْتَغْفِرُ اللّهَ ذَنْبًا لَسْتُ مُحْصِيهِ ***رَبَّ الْعِبَادِ إِلَيْهِ الْقَوْلُ وَالْعَمَلُ[4]

وللفظ (الذّنب) علاقة بالغفران، فلا يقع غفران، ما لم يكن عصيان، فإذا وقع الذّنب طلب الغفر، ولذلك كان لفظ (الغفور) من صفات اللّه تعالى، وهو من أبنية المبالغة، ومعناه السّاتر لذنوب عباده، المتجاوز عن خطاياهم وذنوبهم[5].

3) ﴿وَإِسْرَافَنَا﴾: الإسراف: الإِفْرَاطُ في الشَّيْءِ، وَأَصْلُ الإِسْرَافِ: مُجَاوَزَةُ الحَدِّ في كُلِّ شَيْءٍ، وَضِدُّهُ القَصْدُ وَالاعْتِدَالُ، والإِسْرَافُ أَيْضًا: التَّبْذِيرُ، وَالمُسْرِفُ: المُبَذِّرُ، وَمِنْ مَعَانِي الإِسْرَافِ فِي اللُّغَةِ أَيْضًا: الإِغْفَالُ والإِهْمَالُ والإِتْلَافُ والتَّضْيِيعُ والإِهْدَارُ والإِفْسَادُ والغُلُوُّ والقَطْعُ[6]، والإِسْرَاف الغلوّ في الشَّيْء وَالْخُرُوج عَن الْقَصْد وَهُوَ من السَّفه[7].

4) ﴿وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا﴾: الثَّباتُ: السُّكُونُ والاسْتِقْرارُ، ومنه: الثّباتُ في المَكانِ، أي: السُّكونُ فيه والاسْتِقْرارُ. وأَصْلُه: الدّوامُ والإِقامَةُ، وضِدُّهُ: الزّوالُ والانْقِطاعُ[8]، الثّبات والثّبوت: ضد الزَّوال، والتّثبيت تقويّة الشّيء، ورجلٌ ثبتٌ وثبيتٌ أي لا يزول عن النّصر في الحرب،

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (غفر).
(2) الفيُّومي، المصباح المنير: (ذنب).
(3) الرَّاغب، المفردات، ص: 331.
(4) ابن سيده، المحكم: (غفر).
(5) الزّبيديّ، تاج العروس: (غفر).
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب، والزَّبيدي، تاج العروس: (سرف).
(7) عياض، مشارق الأنوار: (سرف).
(8) ابن فارس، مقاييس اللغة، والجوهري، الصحاح، وابن سيده، المحكم: (ثبت).

وأصل ثبت يدلّ على دَوَام الشَّيْءِ، ورَجُلٌ ثَبْتُ القَدمِ: مُتَمَاسِكٌ لم يَزِلَّ في قِتال، وثباتُ القدم هُنا عبارةٌ عن كمال القوَّة والرُّسوخِ عند المقارعة وعدمِ التَّزلزل وقت المُقاومة[1]، واللّفظ مناسب لمضمون الدّعاء، ولسبب النّزول.

5) ﴿ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾: الكُفْرُ: نَقِيضُ الإيمانِ، ويأْتي الكُفْرُ بمعنى الإِنْكارِ والجُحودِ، فيُقال: كَفَرَ بِالنِعْمَةِ، أيْ: أَنْكَرَها وجَحَدَها. وأَصْلُ الكُفْرِ: السّتْرُ والتّغْطِيَةُ، ومِنْهُ سُمِّيَ الزّارِعُ كافِرًا؛ لأَنّهُ يُغَطِّي البَذْرَ بِالتُّرابِ. ومنه سُمِّيَ غَيْرُ المُؤْمِنِ كافِرًا؛ لأَنّهُ غَطّى الحَقّ والإيمانَ. ومِن مَعَاني الكُفْرِ أيضًا: البَراءَةُ، والامْتِناعُ، والكَذِبُ[2]، "والنّعم التّي سترها الكافر، هي الآيات التي أبانت لذوي التّمييز أنّ خالقها واحد لا شريك له، وكذلك إرساله الرّسل بالآيات المعجزة، والكتب المنزلة، والبراهين الواضحة"[3].

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

تجلّي ضراعة المؤمنين الصَّابرين، في الاستغفار وطلب النّصر والثّبات

وما كان قَولَ هؤلاء الصَّابرين عند شدائد الحرب، ولأواء الصّدام، إلّا أن يدعوا اللّه أن يغفر لهم ما كانوا ألمّوا به من ذنوب، وما اقترفوه من خطايا، وما تجاوزوا فيه حدود اللّه، واحكام الشّرع الحنيف، وأن يمنَّ عليهم بتثبيت أقدامهم على الصراط القويم، حتى لاتزلزلهم الفتن عن الدّين، ولا يعتريهم الوهن، أو يداخلهم الفشل، عند لقاء الأعداء في ساحة الوغى[4].

(1) الرّاغب، المفردات، والسَّمين، عمدة الحفَّاظ، وابن منظور، لسان العرب، وابن فارس، مقاييس اللغة، ومرتضى الزَّبيدي، تاج العروس: (ثبت)، وأبو السُّعود: إرشاد العقل السليم: 1/244.

(2) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (كفر).

(3) الزّبيدي، تاج العروس: (كفر).

(4) أسعد حومد، أيسر التّفاسير، ص: 440.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

مناسبةُ الوصلِ في قَوْلِهِ: ﴿وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ﴾ بما قبله:

وصفهم بما يَدُلُّ على الثَّبات في الأقوال بعد الثَّبات في الأفعال

الآية عَطْفٌ على ﴿فَمَا وَهَنُواْ﴾، ومناسبة الوصل بين الجملتين الخبريّتين لفظًا ومعنًى أنَّه لمَّا وصفهم برباطة الجأش، وثبات القلب والجدِّ في الحربِ، وصفهم بعد ذلك بما يَدُلُّ على الثَّبات من أقوال اللِّسان التي تجري عليه عند الاضطراب والجزع[1].

بلاغة التَّتميم في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ﴾:

بيان عدم تطرق الوهن إليهم قولًا وعملًا

لمّا ذكر محاسنهم الفعليّة في الآية السّابقة اقتضى المقامُ الإطنابَ ببيان محاسنهم القولية في مواطن الجزع والشدّة، ليُظهر ما ينبغي فعلُه وقولُه في تلكَ المواضعِ، فيكون ﴿وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ﴾ كالتَّتميم على سبيلِ المبالغة لبيانِ صلابتهم في الدِّين وعدم تطرُّق الوهن والضَّعف إليهم في الأفعالِ وفي الأقوال[2].

مناسبة مجيء الكلامِ على القصر في: ﴿وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ﴾:

لمّا تقدَّم خبر ﴿كَانَ﴾ على اسمِها في الآية؛ - على قراءة الجمهور - أفاد التّخصيصَ والتّأكيد ثم بالغَ في تأكيدِه بغرض المدحِ بمجيئه على طريقِ قصر الصفة على الموصوف، فصار الموصوف محصورًا؛ إذ المقصودُ حصْرُ أقوالِهم حينئذٍ في مقالة: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾، فالقصرُ حقيقيٌّ؛ على سبيلِ المبالغة، كأنَّه لم يصدر منهم أي قولٍ إلَّا هذا القول، ويحتمل أن يكونَ قصرًا إضافيًّا أي باعتبار أنَّ قولَهم كان في حالِ حصولِ ما أصابهم في سبيلِ اللّه، فلم يصدر منهم إلا هذا القول بالإضافة إلى ذلك الحال[3].

(1) ابن عاشور: التَّحرير والتَّنوير: 4/119.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السليم: 2/96، والآلوسيُّ، روح المعاني: 2/297.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/120.

مناسبة مجيء القصر بطريق النفي والاستثناء:

لمّا هلعَ من هلعَ من المسلمين يومَ أحد نزّلهم منزلة المخطئين المصرّين على خطئهم في أنَّ من سبقهم مِن أتباعِ الأنبياء كانوا يجزعون عند الحرب مع أنبيائهم، فجاء القصر بطريق النّفي والاستثناء على خلافِ مقتضى الظّاهر لِلردّ على اعتقاد من قد يَتَوَهَّمُ من المسلمين أنَّ أتباعَ الأنبياء من الرّبّيين قالوا أقوالًا تُنْبِىءُ عن الجزع، أو الهلع، أو الشَّك في النَّصر، أو الاستسلام للكُفَّار لشدّة ما أصابهم في الحربِ،[1].

نكتة التَّعريض في القصر السَّابق:

بيـــانُ حـــال المنـهـزمين وما هـــم فـيـه من الجزع والخَوَرِ

لمّا أشعرتِ الآية السابقة بالتعريض بذكر ثباتِ الرّبّيين أعقبه هنا بالإخبار عنهم بأنَّه ما كان قولَهم إلَّا هذا دون ما فيه شائبة جزع وخوَر وتَزَلْزُلٍ، ليكون تعريضًا في الأقوالِ متمّمًا للتّعريض بالأفعال، فكانوا بأجسادهم وقلوبِهم ثابتين، وبألسنتهم مستغفرين[2].

دلالة الاستثناء في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ﴾:

الاستثناء هنا مفرَّغ من أعمِّ الأشياء، أي: ما كان قولًا لهم عند أيِّ لقاء للعدوِّ، واقتحام مضايق الحرب، وإصابة ما أصابهم من فنون الشَّدائد والأهوال شيء من الأشياء إلَّا قولهم ذلك[3].

دلالة النّفي في قوله ﴿وَمَا كَانَ﴾:

تـأكـيـدُ الـنّـفـي لـتـقـريـرِ المعنى وتثبيته

فائدة دخول ﴿كَانَ﴾ المبالغةُ في نفي الفعل الدَّاخل عليه بتعديد جهة فِعْلِهِ، عموما باعتبار الكَوْنِ، وخصوصًا باعتبار خَصوصيَّة المقال، فكأنّه نفى مرَّتين أن يكونَ لهم أيُّ قولٍ تأكيدًا وتقريرًا ثمَّ استثنى قولَهم الدّعاء المذكور[4].

(1) ابن عاشور: التَّحرير والتَّنوير: 4/119.
(2) الآلوسيُّ: روح المعاني: 2/298.
(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السليم: 2/96.
(4) الآلوسيُّ: روح المعاني: 2/298، والخفاجي: حاشية الشِّهاب على البيضاويّ: 3/69.

نكتةُ عطف الخاصِّ على العامِّ:

الاهتمام بِطَلَبِ الغُفران وتحصيله

لمّا كان المرادُ من الذّنوب جميعَها في قوله ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾ كان عطف قوله ﴿وَإِسْرَافَنَا فِيٓ أَمْرِنَا﴾ من عطف الخاصِّ على العام، لأنَّ الإسرافَ هو الإفراط وتجاوزُ الحدِّ، فيكون أوفق بطلب المغفرة من الكبائر، وخصُّوا الذُّنوب العظيمة الكبيرة منها بالذِّكر بعد ذلك لِعِظَمِهَا وعِظَمِ عقابها، والمعنى اغفر لنا جميعَ ذنوبِنا واغفر لنا تجاوزَنا الحدَّ في ركوب الكبائرِ[1].

مناسبةُ التّرتيب في الدعاء:

اللُّجوء إلى التوبةِ والاستغفارِ عند النوائب والمِحَن

جاء الدعاء على ترتيب أنيقٍ لطيفٍ، فبدؤوا بطلب مغفرة الذنوب كلّها ثم خصّوا الكبائر منها لعِظَمِها، إمَّا هَضْمًا لأنفسِهم وإمّا لأنَّه لا يخلو أحدٌ عن تقصير ما، فقدّموا طلبَ الاستغفارِ على طلبِ تثبيتِ الأقدام والنُّصرة؛ لأنّهم لما دعوا بمحو ما أَوْجَبَ الخِذلان دعوا بثمرة المحو فقالوا: ﴿وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا﴾، ثُمَّ طلبوا النَّصر عَلَى الأعداء المُرَتَّبِ على التّثبيتِ غالبًا؛ كما أنَّ طلبَهم التثبيتَ إذا كانَ عن زكاةٍ وطهارةٍ،، فالاستجابة تكون أرجى وأحرى بالقبول، كما أنَّ تقديم طلب المغفرة على التَّثبيت والنُّصرةِ من باب تقديم التَّخلية على التَّحلية، وأيضًا فإنَّ الله تعالى لَمَّا ضمِن النُّصرةَ للمُؤمنين، فإذا لم تَحصُل النُّصرةُ وظهَرتْ أماراتُ استيلاءِ العَدُوِّ، دلَّ ذلك ظاهرًا على صُدورِ ذَنبٍ وتقصيرٍ من المؤمنين؛ فلهذا المعنى يجبُ عليهم تقديمُ التَّوبةِ والاستغفارِ على طلبِ النُّصرة[2]، وطلب المغفرة أوقعُ من طلبِ إفراغ الصَّبرِ ولهذا اختار الرّبانيّون ذلك فمناجاتهم أحسن من تضرُّعِ قومِ طالوت[3]، وكذلك فإنَّ هذا الدُّعاء مُناسب

(1) الرّازي، مفاتيح الغيب: 9/381، وأبو السّعود: 2/96، وابن عاشور: التَّحرير والتَّنوير: 4/120.
(2) الرّازي، مفاتيح الغيب: 9/381، وأبو حيَّان، البحر المحيط: 3/374، والبِقاعيُّ: نظم الدرر: 5/88، وأبو السّعود، إرشاد العقل السليم: 2/96، والآلوسيُّ: روح المعاني: 2/298.
(3) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 6/351.

للقتال؛ لأنَّ المُقاتل إمَّا أن يَقْصُرَ فيتخاذَل، وإمَّا أن يتجاوز الحدَّ فيُقتل في غير حاجة إلى القتال، فكان هذا الدُّعاء في موضعه[1].

نكتة الإضافة في قوله: ﴿وَإِسْرَافَنَا فِيٓ أَمْرِنَا﴾:

الاقتداء بالصَّالحين في هَضْمِ النَّفس وعدم الغرور

وإنما أضافوا الإسراف إلى أنفسهم مع أنّ الظاهر أنهم برآء من التفريط في جنب الله تعالى هضماً لأنفسهم واستقصارًا لهمهم وإسنادًا لما أصابهم إلى أعمالهم، على أنَّه لا يَبْعُدُ أن يُراد بتلك الذُّنوب وذلك الإسراف ما كان ذنبًا وإسرافًا على الحقيقة، على سبيلِ (حسنات الأبرار سيئات المقرَّبين)[2].

دلالة ﴿وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا﴾ بين أن يكونَ مجازًا مرسلًا بغرضِ الكناية وأن يكون استعارةً:

الثَّبات عند القتال يكون بعد الثَّبات في الدِّين والاستقامة عليه

وتثبيت القدم قد يكون مجازًا مرسلًا بإطلاق الجزء وإرادة الكلّ، والمعنى: ثبِّتنا. وعبَّر بالأقدام لأنَّ الثَّبات والزِّلزال يظهران فيها، وجاء المجاز المرسلُ الذي هو طلب تثبيت الأبدان والأجسام كناية عن طلب التَّثبُّت في مواطنِ الحربِ والجهادِ، إذ السّياق قرينة على أنّ الكلامَ في بيان الحرب.

وقد يكون استعارة ويحتمل معنيين أحدهما خاصٌّ بالسياق والمعنى شَجِّع قلوبنا على لقاء العدوِّ، والثّاني عامٌ، والمعنى ثَبِّتْ قلوبنا على دينك، ويدخل فيه التَّثبيت عند لقاء العدوِّ دخولًا أوّليًّا، وثبوت القدم في الحرب لا يكون إلا من ثبوت صاحبها في الدِّين، وكثيرًا ما جاءت هذه اللَّفظة دائرة في الحرب ومع النُّصْرَةِ[3].

دلالة حرف الاستعلاء ﴿عَلَى﴾:

لمّا كانت النصرة بمعنى حسنِ المعونة ومن لوازمها الغلَبة وكان

(1) أبو زهرة: زهرة التفاسير: 3/1441.

(2) الآلوسيُّ: روح المعاني: 2/297، والجمل، حاشية الجمل على الجلالين: 1/493، والبروسوي: روح البيان: 2/107.

(3) أبو حيَّان: البحر المحيط: 3/374، والقنُّوجي، فتح البيان: 2/350.

طلبها من ربِّ العالمين مقترنًا بحرف الاستعلاء ﴿عَلَى﴾ دلّ كلُّ ذلك على أنَّ علوَّ الرِّبِّيّين وتمكُّنهم من الكافرين إنّما هو بنصرِ اللّه وحده، ويشعرُ الكلامُ بأنَّهم لم يزالوا مواظبين على هذا الدُّعاء من غير أن يصدر عنهم قول يوهم شائبة الجزع والخور والتَّزلزل في مواقف الحرب ومراصد الدِّين[1].

من مناسباتِ ذكر دعاء الربّيّين:

في حِكَايَةِ دُعَاءِ الرِّبِّيِّينَ مِنْ أَتْبَاعِ الْأَنْبِيَاءِ الْمُتَقَدِّمِينَ تَعْلِيمٌ لَنَا لَأَنْ نَقُولَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ عِنْدَ حُضُورِ الْقِتَالِ فَيَنْبَغِي لِلْمُسْلِمِينَ أَنْ يَدْعُوا بِمِثْلِهِ عِنْدَ مُعَايَنَةِ الْعَدُوِّ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى حَكَى ذَلِكَ عَنْهُمْ عَلَى وَجْهِ الْمَدْحِ لَهُمْ وَالرِّضَا بِقَوْلِهِمْ لِنَفْعَلَ مِثْلَ فِعْلِهِمْ وَنَسْتَحِقَّ مِنَ الْمَدْحِ كَاسْتِحْقَاقِهِمْ[2].

القراءات القرآنية وتعدّد المعنى:

قرأ العشرة ﴿قَوْلَهُمْ﴾ بالنصب خبرًا، ويكون اسم كان فيما بعد ﴿إِلَّآ﴾، وقرأ الحسن (قولهم) بالرفع[3]، وجعل الخبر فيما بعد إلَّا، فعلى قراءة النّصب يكون الخبرُ مقدَّمًا على اسم كان ويفيد التّأكيد والتّخصيص، وفيه تعظيم المقول، لأنّه جاء في مقام المسندِ إليه، والمعنى دعاؤهم هو قولهم وليس لهم قولٌ غيرُه، ليؤذن بأنّهم كانوا يعرفونَ أنّه يوجد دعاء ولم يعرفوا قول من هو، فأخبر عنه بأنّه قولهم، وعلى قراءة الرَّفع يخبرُ عن قولِهم بأنّه هو الدعاء المذكور، فهم يعرفون أنَّ لهم قولًا ولكن لم يعرفوا ما كان نوعه ولا مفاده، فأخبر عنه بأنّه كان الدعاء المذكور، وعند بعض المفسّرين قراءة الرّفع أقعدُ بحسب المعنى وأوفق بمقتضى المقام لما أنَّ الإخبارَ بكون قولِهم المطلقِ خصوصيةَ قولِهم المحكيِّ عنهم مفصلاً كما تفيده قراءتهما أكثر إفادة للسامع من الإخبار بكون خصوصيةِ قولِهم المذكورِ قولَهم لما أنَّ مصبَّ الفائدةِ وموقِعَ البيانِ في الجُملِ الخبرية هو الخبرُ فالأحقُّ بالخبريَّةِ ما هو أكثرُ إفادةً وأظهرُ دِلالةً على الحدث، ولا يخفى أن ذلك ههنا في ﴿أَن﴾ مع ما في حيّزها أتمّ وأكمل[4].

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السليم: 2/96، وجبل، المعجم الاشتقاقيُّ: (نصر).
(2) الجصّاص، أحكام القرآن: 2/326.
(3) البنّاء، إتحاف فضلاء البشر: 1/229.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السليم: 2/97، وابن عطية، المحرر الوجيز: 1/522.

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(مغفرة الذُّنوب) و(تكفير السَّيئات):

لفظ المغفرة يتضمَّن الوقاية والحفظ، ولفظ التَّكفير يتَضمَّن السَّتْرَ والإزالة، وعند اقتران الذُّنوب والسَّيئات، ينصرف معنى الذُّنوب إلى الكبائر، ومعنى السِّيئات إلى الصَّغائر، وعليه تكون المغفرة للذّنوب والتَّكفير للسَّيئات[1] قال تَعالى: ﴿رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ١٩٣﴾ [آل عمران: 193]، فالمغفرة أكمل من لفظ التَّكفير، ولهذا كان مع الكبائر، والتَّكفير مع الصَّغائر؛ وعند الانفراد يدخل كلّ منهما في معنى صاحبه قال تَعالى: ﴿كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ٢﴾ [مُحَمَّدٌ: 2]، وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ٥٣﴾ [الزُّمَر: 53].

الذَّنب والإثم:

الذَّنب في أصل اللُّغة الأخذ بذَنبِ الشَّيء، ويُستعمل في كلِّ فِعل يستوخم عقباه اعتبارًا بذنب الشَّيء، ولهذا يُسمَّى الذَّنب تبعة اعتبارًا لما حصل من عاقبته. والإثم هو: اسم للأفعال المبطئة عن الثَّواب، وقوله تعالى: ﴿فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾ [البقرة: 219]، يعني في تناولهما إبطاء عن الخيرات[2]، أمَّا في الشَّرع، فقد يكونان أي الإثم والذَّنب بمعنى واحد، مثل قوله تعالى: ﴿وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا﴾ [النساء: 112]، قال ابن عطيّة: قيل هما بمعنى واحد، كرّر لاختلاف اللَّفظ تأكيدًا له، والخطيئة هي هنا الذَّنب، وقيل في تفسير الآية: إنَّ الخطيئة بمعنى الصَّغيرة، والإثم بمعنى الكبيرة. وقد يكونان - أي الإثم والذَّنب - مُتغايرين فيكون معنى الذَّنب المعصية، ومعنى الإثم ما يترتب عليها، فيقال: فلان أَثم بذَنْبِهِ[3]، وفي هذا ملمح بأنّ الذّنوب والآثام لا يطلب غفرانها عند التلبّس بها فحسب، بل وإن صلح العمل، ونأى المرء عن فعل المشين من الأفعال، فإنّ طلب غفران الذّنوب، والتّجاوز عن السّيئات، من أعظم القربات.

---

(1) ابن القيّم، مدارج السَّالكين: 1/317.

(2) الرّاغب، المفردات: (ذنب)، (إثم)، والفيروزابادي، بصائر ذوي التمييز: 3/19، والكفوي، الكليات، ص: 40.

(3) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/111، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 5/380.

الإسراف والتَّبذير:

الإسراف هُوَ صرف الشَّيْء فِيمَا لَا يَنْبَغِي زَائِدًا على مَا يَنْبَغِي، بِخِلَاف التَّبذير، فَإِنَّهُ صرف الشَّيْء فِيمَا لَا يَنْبَغِي، والإسراف: تجَاوز فِي الكميّة، فَهُوَ جهل بمقادير الْحُقُوق، والتّبذير: تجَاوز فِي مَوضِع الْحقّ، فَهُوَ جهل بمواقعها[1]، وليس الإسراف متعلّقا بإنفاق المال في غير وجوهه فقط، بل بكلّ شئ وضع في غير موضعه اللّائق به، من ذلك وصف قوم لوط بالإسراف، لوضعهم البذر في غير المحرث، فقال تعالى: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾﴾ [الأعراف: 81]، ووصف فرعون بالإسراف بقوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾﴾ [الدّخان: 31]، لذلك فالإسراف أوسع في الدّلالة والاستعمال من التّبذير، وكلاهما مذموم ومنهيّ عنه، كما هو مدلول الآية.

(1) الكفويّ، الكلّيات، ص: 113.

﴿فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنۡيَا وَحُسۡنَ ثَوَابِ ٱلۡأٓخِرَةِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٤٨﴾ [آل عمران: 148]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

العلاقة بين طلب الغفران والتّمكين، وبين تلبيّة المطلوب، وتحقيق المرغوب

لمّا تقدَّم في دعائهم ما يتضمَّن طلب الغفران، وتثبيت الأقدام، والنّصر على الأعداء الباغين، وذلك قوام الدّنيا والآخرة، ناسب ذلك أن يخبرهم اللّه، بأنّه لبّى طلبهم، واستجاب دعاءهم، فآتاهم ثواب الدّنيا، بالنّصر على أعدائهم، والتّمكين في الأرض، وضمان الكرامة في كلّ الأحوال، مع الذِّكر الحسن بين النّاس؛ وأحبّهم اللّه لأنّهم محسنون في الأساس، كما آتاهم ثواب الآخرة، بالفوز برضوان اللّه ورحمته، وذلك في البداية والنّهاية، هو المأمول، وغاية السّول.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ثَوَابَ ٱلدُّنۡيَا﴾: الثَّواب: الجَزَاءُ على الْعَمَلِ، والثَّوابُ مِن اللّه (ﷻ)، هو ما يعطيكه على ما عَمِلْتَهُ مِن خَيْرٍ أَو شَرٍّ، وهو أيضًا: ما يَرجِعُ على المُحْسِنِ مِن إِحْسَانِه، وعلى المُسيءِ مِن إِساءتِه[1]، وفي هذا المعنى قال حسّان بن ثابت:

وَإِنَّ ثَوَابَ اللّهِ كُلَّ مُوَحِّدٍ***جِنَانٌ مِن الفِردوسِ فِيها يُخَلَّدُ[2]

والثّواب هاهنا أقرب الألفاظ إلى توخّي المرغوب، لأنّه كائن من اللّه، وهو آنس لمن يحظى به، ويفوز بنعمته، وينال حظّه منه.

2) ﴿وَحُسۡنَ ثَوَابِ ٱلۡأٓخِرَةِۗ﴾: الحُسن: الزِّينة والجمال. وأصلُه: نقاء الشَّيء وصفاؤه. ويأتي بمعنى الجودة، يُقال: حسن الشَّيء،

(1) ابن دريد، وجمهرة اللغة، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن سيده، المحكم: (ثوب).

(2) البيت من ديوان حسّان بن ثابت، ص: 339، وشرح الأشموني على ألفيّة ابن مالك: 2/207، وأبو بكر الأنباري، الزاهر: 1/503، ولسان العرب: 6/503.

يحسن، حسنًا، أي: صار جيدًا. وضِده: القُبح والسُّوء[1]، ومعنى العبارة أنّ حسن ثواب الآخرة غير حسن ثواب الدّنيا، "وهو الفوز برضا ربّهم، والنّعيم المقيم الّذي قد سلم من جميع المنكرات، وما ذاك إلّا أنّهم أحسنواْ له الأعمال، فجزاهم أحسن الجزاء"[2]، وثواب الآخرة منتهى أمل المؤمنين، لأنّه عطاء بلا حساب، ومتعة بلا تنغيص.

3) ﴿ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾: الإِحْسانُ: الإِتْيانُ بِما هو حَسَنٌ، يُقال: أَحْسَنَ فُلانٌ، يُحْسِنُ، إِحْسانًا، أيْ: أَتَى بِشَيْءٍ حَسَنٍ. والحَسَنُ: الجَيِّدُ، وضِدُّهُ: القَبِيحُ والسَّيِّئُ. ويأْتي بِمعنى الإِتْقانِ والإِجادَةِ، وضِدُّه: الإِساءَةُ[3]، والإحسان يقال على وجهين: أحدهما: الإنعام على الغير، يقال: أحسن إلى فلان.

والثاني: إحسان في فعله، وذلك إذا علّم علمًا حسنًا، أو عمل عملًا حسنًا، وعلى هذا قول أمير المؤمنين علي رضي الله عنه: (الناس أبناء ما يحسنون) أي: منسوبون إلى ما يعلمون وما يعملونه من الأفعال الحسنة[4].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

ثـــواب الـلـه للمؤمنين إغداقٌ بـالـعـطـاء في الدّنيا، ونعيمٌ لا حدّ له في الآخرة

الآية بيان لثواب الله في الدُّنيا للمؤمنين المتضرّعين، وإكرامهم بالنّصر المبين، وما حازوه من الغنائم النّفيسة، وقد قهر الله أعداءهم، وأكسبهم هيبة وعزوة، بنعيمه الرّاقي الثّمين، في جنّات الخلود والعطاء واليقين، وقد آتاهم نعيمًا خالصًا، غير مشوب بتنغيص ولا قلق ولا مكدّرات، جزاء إحسانهم في الدّنيا، والله يحبُّ المحسِنين من عباده الصّالحين.

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

براعة اللَّفِّ والنَّشر:

لمَّا طلبوا في دعائهم طلب ثواب الآخرة في قولهم: ﴿ٱغۡفِرۡ لَنَا

(1) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (حسن).
(2) الكواري، تفسير غريب القرآن، ص: 148.
(3) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن سيده، المحكم، وابن منظور، لسان العرب: (حسن).
(4) الراغب، المفردات (حسن).

ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا﴾، ثمَّ طلبوا ما يتضمَّن ثواب الدنيا في قولهم ﴿وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا﴾، عدلَ عن التّرتيب المذكور في إجابة دعائهم، فأعطاهم مقدَّمًا ثوابَ الدّنيا لحاجتِهم الآنيَّة إليه، وللتَّعجيل بمسرَّتِهم، وليكون ذلك إشعارا لهم بقبول دعائهم وإجابتهم إلى طلبهم، ثمَّ أحسن لهم ثواب الآخرة، فأعطاهم الثَّوابين[1].

تعجيل ثواب الدنيا والإشعار بنيل ثواب الآخرة

دلالة الفاء في قوله: ﴿فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا﴾:

أفادت الفاء السببيّة بمعنى ترتّب إعطائهم ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة على دعائهم وصبرِهم وإخلاصِهم لربِّهم، وأفادت تعجيل قبول الدعاء والاستجابة لطلبِهم بدلالتها على التّعقيب[2].

الإعلام بتعجيل إجابة دعوتهم ونيلهم مُرادهم وبغيتهم

مجيء الكلامِ على خلاف مقتضى الظّاهر:

عبّر بصيغة الفعل الماضي في قوله تعالى: ﴿فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ﴾ مع أنَّ حسن ثواب الآخرة يكون في المستقبل؛ لإفادة القطع بحصول الطلب في الدُّنيا والآخرة، وللإيذان بأنَّ الله قد حكم بقبول دعائهم، فأقام حكم الله بذلك مقام نفس الحصول، ويحتمل أن يكون مجازًا مرسلًا باعتبار ما سيكون عَلَى قِيَاسِ قَوْلِهِ: أَتى أَمْرُ اللَّهِ [النَّحل: 1] أَيْ سَيَأْتِي أَمْرُ اللَّهِ[3]، والمعنى في الآية (سيؤتيهم ثوابَ الدنيا وحسن ثواب الآخرة) أو يقال: إنّ التّعبير بصيغة الماضي في إيتائهم ثواب الآخرة بالنّظر إلى تهيئة أسبابِه بتوفيقِهم إليها فيكون التّعبير بطريق المجاز[4]، وجميعُ هذه الاحتمالات هي من قبيل مجيء الكلام على خلافِ مقتضى الظّاهر

(1) أبو حيَّان، البحر المحيط: 3/374.
(2) البيضاوي: أنوار التنزيل وأسرار التأويل: 2/42، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 2/97.
(3) الرّازي، مفاتيح الغيب: 9/382.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 5/88.

دلالة قوله تعالى: ﴿ثَوَابَ ٱلدُّنۡيَا﴾ و﴿وَحُسۡنَ ثَوَابِ﴾:

لمّا كان السياق في الكلام على الثبات في القتال دلَّ على أنَّ المرادَ من ثواب الدنيا هو النَّصر والغنيمة والعزِّ وطِيب الذِّكر، والمراد من قولِه ﴿وَحُسۡنَ ثَوَابِ﴾ الجنَّة والنَّعيم المخلَّد في الآخرة، فتخصيص ثواب الدنيا وحسنَ ثواب الآخرة بما ذُكِرَ جاء بمعونة المقامِ وقرينةِ السّياق[1].

نُكتة وَصْفِ ثواب الآخرة بالحُسْنِ وتَرْكِهِ في وصف الدُّنيا:

الإشعارُ بفضل ثـــواب الآخـــرة وتَقَدُّمِهِ

إذا كان ثواب الآخرة كلُّه حسنًا، فما المناسبة في تخصيصه بالحسن هنا؟، وجوابه أنَّه لمّا جاء ذكر ثواب الآخرة في مقابلة ثواب الدّنيا كانَ تخصيصُ ثوابِ الآخِرة بالحُسن؛ للدَّلالة على فضلِه وأنَّه هو المعتدُّ به؛ ولإفادة أنَّ ثواب الآخرة منازل ومراتب في الحسن، ولمَّا كان ثواب الدنيا كيف ما كان لا بد أن يكون بالكدر مشوباً وبالبلاء مصحوباً، لأنها دار الأكدار؛ أعراه من وصف الحسن، وخص الآخرة به[2].

فائدة الإظهار في قوله تعالى: ﴿وَحُسۡنَ ثَوَابِ ٱلۡأٓخِرَةِۗ﴾:

أظهر الثواب هنا، فوضع الظّاهر موقع المضمر تنبيهًا على المغايرة بين الثَّوابين، وللاعتناء بشأنِ ثواب الآخرة[3].

بديع المقابلة في الآية الكريمة:

في الجمع بين ثواب الدُّنيا وحسنِ ثواب الآخرة مُقابلة بديعة، ففيها إشعار بأنّهم أَرَادُوا بِعَمَلِهِمۡ سَعَادَةَ الدُّنۡيَا والۡآخِرَةِ، وَإِنَّمَا الۡجَزَاءُ عَلَى حُسۡنِ الۡإِرَادَةِ، وإيذانٌ بأنَّ شأن المؤمن أنۡ يجمع بينَ ثواب الدّنيا والآخرة، وتنبيهٌ على أنَّ توصيف ثواب الآخرة بالحسن مؤذن بأنَّ ثواب الدنيا بالنسبة إليه ليس بحسن لزواله ولأنّه مشوب بالكدر، وإن كان حسنًا بميلِ الطبعِ له[4].

(1) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 6/352.
(2) الرَّاغب: تفسير الرَّاغب: 3/902، والرّازي: مفاتيح الغيب: 9/382، والبقاعي، نظم الدرر: 5/88.
(3) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 6/353.
(4) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 6/353، ورضا، تفسير المنار: 4/143.

حسنُ التَّذييل في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾:

في جملة التّذييل فوائد لغوية وبلاغية هي[1]:

1. أفاد التّعبير بالجملة الاسمية تأكيد محبّة الله للمحسنين وتقريره كما أنَّ مجيء خبر المبتدأ جملة فعليّة أفاد تقوية الحكم، فهو على معنى تكرّر الاسم الجليل مرّتين، إحداهما بالاسم الظّاهر والأخرى بمجيئه بصيغة الضمير في (يحبُّ)، فيكون الكلام على نيَّة تكرير الجملة مرّتين.

2. دلَّ التّعبير بصيغة المضارع على استمرارِ محبّة الله للمحسنين وتجدّد آثارِها عندهم.

3. جاء اللّفظ (المحسنين) على صيغة المشتقِّ للإشعار بأنَّ علَّة محبّة الله لهم هي إحسانهم المطلق.

4. أشعرَت الجملة أنَّ الرّبّيّين لَمَّا اعْتَرَفُوا بالإساءة سَمَّاهُمُ اللَّهُ مُحْسِنِينَ، كأنَّ الله يقول لهم إِذَا اعْتَرَفْتَ بِإِسَاءَتِكَ وَعَجْزِكَ فأنت من المحسنين، حَتَّى تَعْلَمَ أَنَّهُ لَا سَبِيلَ لِلْعَبْدِ إِلَى الْوُصُولِ إِلَى حَضْرَةِ اللَّهِ إِلَّا بِإِظْهَارِ الذِّلَّةِ وَالْمَسْكَنَةِ وَالْعَجْزِ

5. تضمّن التّذييل ترغيب للمؤمنين في تحصيل ما حكى عن الرّبّيين من المناقب الجليلة

6. وضِع الظَّاهر ﴿ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ موضِع ضمير المعهودين؛ وذلك للإشعار بأنَّ ما حُكي عنهم من الأقوال والأفعال من باب الإحسان

7. تحتمل (أل) أن تكون عهدية، فيكون المراد من المحسنين الرّبّيّين المذكورين في الكلام، وَوُضِعَ الظَّاهر مَوْضِعَ المضمر إيذانًا بأنَّ ما حكى عنهم من باب الإحسان، وتحتمل أن تكون للجنسِ فتفيد الاستغراق بمعنى محبّة الله لكلِّ محسنٍ، وهم داخلون فيه دخولاً أوليّاً

8. لَمَّا كان المعنى على العمومِ والكلّيّة دلَّ على أنّه يجري مجرى المثل في محبَّة الله لكلِّ مُحسن.

9. جرى هذا التّذييل في معرض التَّعليل ناظرًا إلَى معنى قوله: ﴿هَلۡ جَزَآءُ ٱلۡإِحۡسَٰنِ إِلَّا ٱلۡإِحۡسَٰنُ ٦٠﴾ [الرَّحمن: 60]

(1) الرّازي، مفاتيح الغيب: 9/383، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 2/97، وابن التَّمجيد: حاشية ابن التَّمجيد على البيضاوي: 6/352، والآلوسي، روح المعاني: 2/299، والقاسمي، محاسن التأويل: 2/413، وابن عاشور: التَّحرير والتَّنوير: 4/121.

توجيه المتشابه اللَّفظي هذه الآية وما قبلها من قوله تعالى: ﴿وَمَن يُرِدۡ ثَوَابَ ٱلدُّنۡيَا نُؤۡتِهِۦ مِنۡهَا وَمَن يُرِدۡ ثَوَابَ ٱلۡأٓخِرَةِ نُؤۡتِهِۦ مِنۡهَاۚ﴾ [آل عمران: 145]:

قال فيما تَقَدَّمَ: ﴿وَمَن يُرِدۡ ثَوَابَ ٱلدُّنۡيَا نُؤۡتِهِۦ مِنۡهَا وَمَن يُرِدۡ ثَوَابَ ٱلۡأٓخِرَةِ نُؤۡتِهِۦ مِنۡهَاۚ﴾ [آل عمران: 145] فذكر لفظة (مِنْ) الدَّالة على التَّبعيض وفي هذه الآية قال ﴿فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنۡيَا وَحُسۡنَ ثَوَابِ ٱلۡأٓخِرَةِۗ﴾ ولم يذكر كلمة (مِنْ) والفَرْقُ: أنَّ الذين يُريدون الثَّواب إنَّما اشتغلوا بالعبوديَّة لطلب مُجرَّد الثَّواب، فكانت مرتبتهم في العبودية نازلة، وأمَّا المذكورون في هذه الآية فإنَّهم لم يذكروا في أنفسهم إلا الذَّنب والقصور، وهو المراد من قوله: ﴿ٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسۡرَافَنَا فِيٓ أَمۡرِنَا﴾ [آل عمران: 147] ولم يروا التَّدبير والنُّصرة والإعانة إلا من ربِّهم، وهو المراد بقوله: ﴿وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ١٤٧﴾ [آل عمران: 147]، فكان مقام هؤلاء في العبودية في غاية الكمال، فلا جَرَمَ أولئك فازوا ببعض الثَّواب، وهؤلاء فازوا بالكُلِّ، وأيضًا أُولَئِكَ أَرَادُوا الثَّوَابَ، وَهَؤُلَاءِ مَا أَرَادُوا الثَّوَابَ وإنّما أرادوا خدمة مولاهم فلا جَرَمَ هؤلاء أعطوا خيرا من أولئك، ليُعْلَمَ أنَّ كُلَّ من أقبل على خدمة اللّه أقبل على خدمته كل ما سوى اللّه[1].

التَّفريق بين طالب الثَّواب المجرَّد وباذل نَفْسِهِ في خدمة مولاه محبَّة وتعظيمًا ورغبةً ورهبة

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الإيتاء والإعطاء:

والإيتاء: أقوى من الإِعْطَاء، إِذْ لا مُطَاوع لَهُ، يُقَال: آتَاني فَأَخَذته، وَفي الإِعْطَاء يُقَال: أَعْطَاني فعطوت؛ وَمَا لَهُ مُطَاوع أَضْعَف في إِثْبَات مَفْعُوله مِمَّا لَا مُطَاوع لَهُ، وَلِأَنَّ الإيتاء في أَكثر مَوَاضِع الْقُرْآن فِيمَا لَهُ ثباتٌ وقرارٌ، كالحكمة والسَّبع المثاني، وَالْملك الَّذِي لا يُؤْتى إِلَّا لذِي قُوَّة.

(1) الرّازي: مفاتيح الغيب: 9/382.

والإعطاءُ: فِيمَا ينْتَقل مِنْهُ بعد قَضَاء الْحَاجة مِنْهُ، كإعطاء كلّ شَيْء خلقه لتكرر حُدُوث ذَلِك بِاعْتِبَار الموجودات، وَإِعْطَاء الْكَوْثَر للانتقال مِنْهُ إِلَى مَا هُوَ أعظم مِنْهُ[1].

وذَكر الجزائريُّ أنَّ الفاضل النَّيسابوري ذهب إلى أنَّ الإعطاء أقوى؛ لأنَّ في الإعطاء دليل التَّملك دون الإيتاء. ووافقه على ذلك، وذَكر أنَّ آية الكوثر تُؤيِّده[2].

وذَكر سعد بن عبد العظيم أنَّ الإيتاء أقوى وأفخم من الإعطاء؛ يدلُّ على ذلك كَثرة إسناد (آتى) إلى الله تعالى، وقِلَّة إسناد (أعطى) إليه، فقد ورد الإيتاء 78 مرة. أمَّا (أعطى) فقد أُسند إلى الله تعالى 3مرات فقط[3].

الأجر والثَّواب:

الأجر ثواب وزيادة عوض. الأجرُ هو جزاء العمل الذي يكون فيه عَقْدٌ أو ما يجري مجراه، والشَّاهد أنَّك تقول ما أعمل حتى آخذ أجري ولا تقول ثوابي، أمَّا الثَّواب فقد اشتهر في الجزاء على الحسنات[4]، والأجر يُقال في هذا المعنى ويُقال في ما معناه المعاوضة بالانتفاع[5].

(1) الكفوي، الكليات، ص: 212.
(2) العسكري، الفروق اللغوية: 86، و87.
(3) سعد بن عبد العظيم، موسوعة الفروق القرآنية: 1/175.
(4) العسكريُّ، الفروق اللُّغوية، ص: 17.
(5) الزَّبيديُّ، تاج العروس، 10/25.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمۡ عَلَىٰٓ أَعۡقَٰبِكُمۡ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ١٤٩﴾ [آل عمران: 149]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

المناسبة بين الترغيب في اتّباع المهتدين، والتّحذير من طاعة الكافرين المضلّين

لمَّا رغَّب اللّه تعالى المؤمنين - في الآيات السّابقة - في الاقتداء بأنصار الأنبياء، وبيَّن ما لهم منَ الفضل وحُسن العاقبة حذَّرهم في هذه الآية من متابعة الكُفَّار وموالاتهم، ببيان أنَّ مآل ذلك هو الخسرانُ الدُّنيويّ بالانقياد إلى العدوّ المضلّل، وإظهار الحاجة إليه، والخسران الأخرويّ، بالحرمان من الثّواب المؤبّد، والوقوع في العقاب المخلّد[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَعۡقَٰبِكُمۡ﴾: الأعقاب: جمع عَقِب أو عَقْب، وأصله يدلُّ على تأخير الشّيء، وإتيانِه بعد غيره. ومنه عقبُ الرَّجُل: أولاده، وعقبُ الشّهر: آخرُه، والمراد بالعَقب هنا: مؤخَّرُ الرِّجل، ومنه حديث: "ويلٌ للأعقاب منَ النّار"[2]، وقولُهم: رجع على عقبِه، يعني: انثنى راجعًا[3]، "والتّعقيب: انصرافك راجعا من أمر أردته أو وجه، والمعقّب: الّذي يتتبّع عقب إنسان في طلب حقّ أو نحوه، قال لبيد:

حَتَّى تَهَجَّرَ فِي الرَّوَاحِ وَهَاجَهُ *** طَلَبَ الْمُعَقِّبِ حَقَّهُ المَظْلُومُ

وقوله ﷻ: ﴿وَلَمۡ يُعَقِّبۡۚ﴾ [النمل: 10]، أي لم ينتظر، والتّعقيب: غزوة بعد غزوة، وسير بعد سير، وقوله ﷻ: ﴿لَا مُعَقِّبَ لِحُكۡمِهِۦۚ﴾ [الرعد: 41]، أي لا راد لقضائه[4].

(1) القِنَّوجيّ: فتحُ البيان: 2/351.
(2) البخاري: 1/22، ومسلم: 1/213.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عقب)، والرّاغب، المفردات: (عقب).
(4) الخليل، العين: (عقب).

2) ﴿فَتَنقَلِبُواْ﴾: مضارع انقلب بمعنى: رجع، وهو من قلَبتُ الشّيءَ، أي: حوَّلتُه وصرفتُه عن وجهٍ إلى وجهٍ، وسُمِّي القلب قلبًا؛ لكثرة تقلُّبه[1]، "وَقَوله تَعَالَى: ﴿تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ۝٣٧﴾ [النّور: 37]، قَالَ الزّجاج: ترجف وتخفّ من الْجزع وَالْخَوْف، قَالَ: وَمَعْنَاهُ: أَنّ من كَانَ قلبه مُؤمنا بِالْبَعْثِ والقيامة، ازْدَادَ بَصِيرَة، وَرَأى مَا وعد بِهِ، وَمن كَانَ قلبه على غير ذَلِك، رأى مَا يُوقن مَعَه أَمر الْقِيَامَة والبعث، فَعلم ذَلِك بِقَلْبِه، وَشَاهده ببصره، فَذَلِك تقلُّبُ الْقُلُوب والأبصار"[2]، ومعنى قوله ﴿فَتَنقَلِبُواْ﴾: أي "فتعودوا بالخسران المبين، والهلاك المُحقّق"[3].

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

تحذيرٌ من الارتداد على الأعقاب، كي لا ينقلب إلى الخسران

يخاطب اللّه تعالى أصحاب النّبيّ ﷺ وسائرَ المؤمنين تبَعًا لهم - مُصدِّرًا ذلك بالنّداء، بقوله: يا أيّها الّذين آمنوا باللّه ورسوله، إن تتَّبعوا أهل الكفر منَ المنافقين والمشركين " الّذين حاولوا إلقاء الشّبهات في قلوب ضعاف المؤمنين، بقولهم: لو كان محمّد نبيّا حقّا، لانتصر، ولم يكن له يوم وعليه يوم، (وهؤلاء هم أبو سفيان وعبد اللّه بن أبيّ بن سلول)، لأنّ إطاعتهم تورث البوار في الدّنيا، بخضوعهم لسلطانهم، وذلّتهم بينهم، وفي الآخرة فيما يصيبهم من العذاب الأبديّ في نار جهنّم"[4]، وذلك آيلٌ بكم إلى الرُّجوع إلى حالكم الأوَّل، منَ الكفر المقتضي خُسرانَ خيرِ الدُّنيا وسعادة الآخرة.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالة (ياء النداء):

استدعاء إقبال المخاطَب لخير يُؤمَر به، أو شرّ يُنهى عنه

لمّا كانَ الحرفُ (يا) مفيدًا النِّداءَ دلَّ على طلبِ إقبالِ المؤمنينَ إلى المنادي، وهو اللّه تعالى؛ لِيدلَّ على معنى التَّودُّدِ والتَّحبُّبِ، ويؤيّدهُ

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (قلب)، وأبو حيّان، البحر المحيط: 2/17.
(2) ابن سيده، المحكم: (قلب).
(3) ابن سيده، المحكم: (قلب).
(4) حومد، أيسر التّفاسير، ص: 442.

أنّهُ خاطبَهم بوصفِ الإيمانِ، ولمّا كان (يا) لِنداءِ البعيدِ واقترنَ به (ها) التَّنبيهِ دلَّ على تنبيهِ المؤمنينَ على عِظَمِ الأمرِ والاهتمامِ بشأنِه[1]، وخاطبَهمُ اللّهُ تعالى بنفسِه بعدَ ما أَمرَ الرَّسولَ ﷺ بأنْ يُخاطبَ أَهلَ الكتابِ؛ إظهاراً لجلالةِ قدرِهم، وإشعاراً بأنَّهم همُ الأحقَّاءُ بأنْ يخاطبَهمُ اللّهُ ويُكلّمَهمْ[2].

دلالةُ الاسمِ الموصولِ ﴿ٱلَّذِينَ﴾:

يدلُّ الاسمُ الموصولُ على العموم، فيشملُ كلَّ المؤمنين، ولمّا كانَ المخاطبونَ وقتَ التَّنزيلِ همُ الصَّحابةَ ﵃ كانَ دخولُهمْ في الخطابِ دخولًا أَوَّليًّا[3]، والكلامُ مثلُهُ يجري في قولِهِ تعالى ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾، فيشملُ كلَّ الكافرين، ويدخلُ فيهِ الكافرونَ وقتَ التَّنزيلِ دخولًا أوّليًّا كذلكَ.

نكتةُ التَّعبيرِ بـ الاسمِ الموصولِ وصلتِهِ في قولِه ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾:

عبَّر بالاسمِ الموصولِ وصلتِه؛ لإحضارِ وصفِ الإيمانِ عند المخاطبينَ؛ للإيماءِ إلى وجهِ بناءِ الخبرِ على صلةِ الموصولِ، أَي: إنَّ اتِّصافَهم بالإيمانِ يقتضي الامتثالَ، وهو التّحذيرُ مِنْ طاعةِ الكافرينَ والانقيادِ لهمْ، كما أفادَ التَّعبير بـ ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ توجيهَ المخاطبينَ إلى ما سُيخبرُ بهِ عنهُ؛ لِينتظروا ورودَ الخطابِ حتَّى يأخذَ منهُ مكانَهُ إذا وردَ؛ لِيبادروا إلى الامتثالِ، وفيهِ تعريضٌ باستحقاقِ المؤمنِ الإجلالَ والتَّعظيمَ بسببِ وصفِ الإيمانِ[4].

شأنُ المؤمنِ هو عدمُ ارتكابِ ما يناقضُ إيمانَه

سببُ إيثارِ التَّعبيرِ بأداةِ الشَّرطِ ﴿إِن﴾:

لمّا كانتْ ﴿إِن﴾ تُستعمَلُ عندَ عدمِ الجزمِ في وقوعِ الشَّرطِ، وكانتْ

(1) التّفتازانّي، المطوّل، ص:430.
(2) البيضاوي، أنوار التنزيل: 2/31.
(3) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 6/353.
(4) السكاكي، مفتاح العلوم، ص: 182.

طاعة الكافرين ممّا يُستبعَد وقوعه من أهل الإيمان

تدلُّ على نُدرةِ وقوعِ الشّرطِ المقترنِ بها[1] أفادتْ عدمَ القطعِ بإطاعةِ المؤمنينَ للكافرينَ وندرةَ وقوعِهِ، وأيّدهُ اقترانُ الأداةِ بالفعلِ المضارعِ ﴿تُطِيعُواْ﴾ دونَ الماضي، إشعارًا بأنَّ مَنْ لهمْ وصفُ الإيمانِ باللّهِ لا يطيعُونَ مَنْ لهمْ وصفُ الكُفرِ بهِ سبحانَه وتعالى، ففي التّعبيرِ بـ ﴿إِن﴾ إشارةٌ إلى استبعادِ وقوعِ هذهِ الطَّاعةِ منَ المُخاطَبينَ المؤمنينَ.

بديع الطباق:

حسنُ الإيمانِ وقبحُ الكفر

وردت جملة الصّلة ﴿كَفَرُواْ﴾ في مقابلة ﴿ءَامَنُوٓاْ﴾ على سبيلِ الطّباق، لمَا فيهِ مِنْ بيانِ القبحِ بضدّهِ منَ الحُسنِ؛ تحريضًا على استمساكِهم بالحسنِ، وتحاميهم الوصفَ القبيحَ، بكلِّ سبيلٍ، وفي الطّباقِ إشارةٌ إلى أنَّ المؤمنَ لا ينبغي أنْ يُطيعَ الكافرَ؛ لِمَا يؤولُ بهِ إلى أنْ يُسلَبَ منه وصفُ الإيمانِ، ويتلبَّسَ بضدِّهِ مِنَ الكفرِ[2].

نُكتةُ التَّعبيرِ بـ ﴿تُطِيعُواْ﴾:

عبّر بـ ﴿تُطِيعُواْ﴾ لِما في الكلمةِ من معنى الانقيادِ والمضيِّ في أمرِ المُطاعِ، والمعنى إنْ يُطِعِ الَّذينَ آمنوا الَّذينَ كفروا يكونوا مُنقادينَ لَهم في القولِ والفعلِ والقلبِ، معَ لِينهِمْ وتيسُّرهِم لِلكافرينَ، فيتمكَّنوا مِنْ توجيههِمْ وتشغيلِهم، فيرتدُّوا على أعقابِهم وينقلبوا خاسرينَ[3].

بلاغةُ حذفِ المتعَلَّق:

حذفَ متعلَّقَ الفعلِ في قوله ﴿تُطِيعُواْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾، فلمْ يُقلْ: إنْ تطيعوا الّذينَ كفروا في إغرائِكم بالعودةِ إلى الكفرِ أو ماهو مثلُه في المعنى، فأطلقَ لِإفادةِ عمومِ التَّحذيرِ مِنْ أيِّ طاعةٍ منَ المؤمنينَ للكافرينَ.

(1) التفتازاني، المطول، ص: 318.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/381.
(3) الأزهري، تهذيب اللغة، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (طوع)، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/122.

نُكتةُ التَّعبيرِ بالاسمِ الموصول في قولِهِ ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾:

لِلإشعارِ بعلّةِ الحكمِ؛ لِيؤذِنَ بأنَّ النّهيَ عن طاعتِهم المضمَّنَ في معنى الشَّرطِ هو بسببِ ما اتّصفوا بهِ مِنَ الكفرِ، وفي التّعبيرِ بوصفِ الكفرِ إهانةٌ واستهجانٌ لهمْ، وزيادةٌ في التّنفيرِ عنهمْ، والتّحذيرِ مِنْ طاعتِهم، ولفظُ الكفرِ صالحٌ بِالوضعِ اللُّغويِّ لِكلِّ كافرٍ مِنْ مُشركٍ وكتابيٍّ، مُظهِرٍ أَو منافقٍ[1].

بلاغةُ المجازِ العقليّ في قوله ﴿يَرُدُّوكُمْ﴾:

في نسبةِ الرَّدِّ إلى الكافرينَ في قولِه تعالى: ﴿يَرُدُّوكُمْ﴾ مجازٌ عقليّ؛ إذْ أُسندَ فِعلُ الرّدِّ إلى الكافرين، مع أنّ الرّادَّ في الحقيقةِ هو اللّهُ تعالى، وهذا كقولِه تعالى: ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيۡطَٰنُ عَنۡهَا فَأَخۡرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾ [البقرة: 36]، وفي هذا المجازِ إشارةٌ لطيفةٌ إلى التّخليةِ بينَ الكافرينَ ومُطيعِيهم، وخُسرانِهم لتوفيقِ اللّه تعالى وتأييده[2].

العودةُ إلى الكفرِ انتكاسٌ، وتقهقرٌ عنِ الطّريقِ القويمِ، وهو أقبحُ القبائحِ

بلاغةُ قولِه تعالى ﴿يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعۡقَٰبِكُمۡ﴾ بينَ الاستعارةِ والكنايةِ:

يحتملُ أنْ يكونَ قولُه تعالى ﴿يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعۡقَٰبِكُمۡ﴾ استعارةً تصريحيَّةً تبعيَّةً حيثُ شَبَّهَ الرَّاجعَ عَنِ الدِّينِ بِالرَّاجعِ الْقَهْقَرَى على الأعقابِ[3]، فحذفَ المشبّهَ وأقامَ المشبَّهَ بهِ مقامَه؛ ليكونَ على معنى إثباتِ الانتكاسِ والخسرانِ بالدَّليلِ.

ويحتملُ أنْ يكونَ الكلامُ كنايةً بليغةً، حيثُ كُنِّي عن رجوعِ المرءِ إلى الكفرِ - بعدَ أنْ نجَّاهُ اللّهُ منهُ - بالرَّدِّ إلى جهةِ الخلفِ منْ غيرِ أنْ يعيدَ وجهَه إلى جهةِ مشيِهِ، لِيدلّ على أنّهُ غيرُ مهتدٍ في طريقِهِ، ولا مُحترزٍ ممّا قدْ يُهلكُهُ في أثناءِ سيرِهِ، وقد صارتْ

(1) ابن جرير، جامع البيان: 7/278، وأبو السّعود، إرشاد العقل السليم: 2/97، والقونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 6/353، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/121.

(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 1/262، والبروسوي، روح البيان: 2/108.

(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/381.

هذهِ الكنايةُ علَمًا في انتكاسِ الأمرِ، ومثَلًا في الحَورِ بعدَ الكَورِ، والنّقصانِ بعد الزّيادةِ[1].

مناسبةُ التَّعبيرِ بالأعقابِ:

في التّعبير بالأعقاب - وهي مؤخَّرُ الأرجُلِ - عنْ جهةِ الوراءِ إشعارٌ بالانخفاضِ والانحطاطِ في مسيرِ العائدِ منَ الإيمانِ إلى الكفرِ؛ إذ عُبِّر عنْ جهةِ سيرِهِ بجزءٍ من أخفضِ أعضائِهِ وأحطِّها[2]، فالارتدادُ على العقِبِ علمٌ في انتكاسِ الأمرِ كما تقدَّم.

بلاغة الاستعارة في قوله ﴿فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ﴾:

الارتـــداد عـن الإيـمـان صفقةٌ خاسرةٌ

وردتِ الاستعارةُ على تمثيلِ مَنْ حبِطَ عملُهُ - لارتدادِه عنِ الإسلامِ - بالتّاجرِ الّذي خسرَ ربحَه ورأسَ مالِه جميعًا؛ فالإسلامُ صفقةٌ رابحةٌ، فحذفَ المشبَّهَ وأقامَ المشبَّهَ بهِ مقامَهُ، فإنّ حبوطَ العملِ يحصلُ بهِ ضياعُ سعيِ المرءِ، ويكونُ يومَ القيامةِ هباءً منثورًا، وهذا أعظمُ ما يكونُ منَ الخُسرانِ، وهو كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أُوحِيَ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ لَئِنۡ أَشۡرَكۡتَ لَيَحۡبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٦٥﴾ [الزّمر: 65][3]، ويُقوّيهِ مجيءُ الفعلِ ﴿فَتَنقَلِبُواْ﴾ لمَا فيه منَ المناسبَةِ معَ الاستعارةِ السّابقةِ ﴿عَلَىٰٓ أَعۡقَٰبِكُمۡ﴾، وفي اقترانِ الفعلِ بالفاءِ دلالةٌ على سرعةِ الانتكاسِ المُخزي.

بلاغةُ أسلوبِ الشّرطِ:

لمّا كانَ الشَّرطُ دالًّا على وقوعِ الجزاءِ بوقوعِ الشَّرطِ واقترانهِ بهِ مِنْ غيرِ مُهلةٍ أفادَ أنَّ ارتدادَ المؤمنينَ وانقلابَهم خاسرينَ يقعُ بوقوعِ طاعتِهم لِلَّذينَ كفروا، وفي أسلوبِ الشَّرطِ إمعانٌ في البيانِ وفي التَّحذيرِ؛ ففيهِ نهيٌ عن طاعةِ الكافرينَ معَ التَّعريفِ بقبحِ إطاعتِهم ومآلِها، وما يعرضُ فيها مِنَ الفسادِ[4].

(1) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنّة: 2/504، وأبو حيّان، البحر المحيط: 3/381، وأبو السّعود، إرشاد العقل السليم: 2/97.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/113.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/381.
(4) الراغب، تفسير الراغب: 3/960.

نُكتةُ العطفِ في جزاءِ الشَّرطِ:

لمّا جاءَ الجزاءُ في جملتينِ معطوفتينِ ﴿يَرُدُّوكُمۡ عَلَىٰٓ أَعۡقَٰبِكُمۡ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ﴾ دلَّ على أنَّ الجزاءَ بمجموعِ المعطوفِ والمعطوفِ عليهِ مرتَّبٌ، أي لا يقعُ المعطوفُ حتَّى يقعَ المعطوفُ عليهِ، والكلامُ على تقديرِ شرطينِ متضامَّينِ، والمعنى إنْ تطيعوا الَّذين كفروا يردُّوكمْ على أعقابِكم، وإنْ ترتدّوا على أعقابِكمْ تنقلبوا خاسرينَ، ولِهذا أتى بالفاءِ الدالَّةِ على التَّعقيبِ وأنَّ ما قبلَها سببٌ لِما بعدَها، فصارتْ طاعةُ الكافرين سببًا لـ ﴿فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ﴾، منْ أجلِ كونِهِ سببًا في الارتدادِ على الأعقابِ[1].

دلالة قوله ﴿فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ﴾:

لمّا كانتِ الفاءُ لإفادةِ التَّرتيبِ والتَّعقيبِ، وكانَ ما قبلَها سببًا لِما بعدَها كانَ التَّعبيرُ بمثابةِ التَّصريحِ بما عُلِمَ التزامًا مِنْ قوله ﴿يَرُدُّوكُمۡ عَلَىٰٓ أَعۡقَٰبِكُمۡ﴾؛ لِمزيدِ التَّنفيرِ عنْ مطاوعتِهم، فذكرَ الخسرانَ؛ لِما فيهِ مِنْ معنى الضّياعِ والتَّوحُّشِ الَّذي ينفرُ منه العقلاءُ[2].

(1) الجرجانّي، دلائل الإعجاز: 1/234.

(2) القونويّ، حاشيّة على تفسير البيضاويّ: 6/353.

﴿بَلِ ٱللَّهُ مَوۡلَىٰكُمۡۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلنَّٰصِرِينَ ١٥٠﴾ [آل عمران: 150]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

العلاقة بين التّحذير من أهل الكفر، والدّعوة إلى موالاة الله خير النّاصرين

لمّا حذَّر الله تعالى المؤمنين من طاعة أهل الكفر وموالاتهم، بيَّن أنّ هؤلاء ليسوا أهلًا لولاية المؤمنين، وأنّه تعالى هو مولى المؤمنين وناصرهم الّذي لا ينصرُ أحدٌ أولياءَه كنصره، كائنًا من كان، "فاطمئنّ على أنّك خالص ومخلص لله، وإلّا ما جاءك نصره، فساعة يأتيك نصر الله، فاطمئن على نفسك الإيمانيّة وأنّك مع الله"[1]، لأنّه خير النّاصرين.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مَوۡلَىٰكُمۡۖ﴾: أي: ناصركم، وأصل وَلِيَ يدلّ على القُرب، ومنه قولهم: تباعدَ بعدَ وَلِي، أي: بعد قُرب، وقد يكون القربُ في المكان، أو في النِّسبة أو في الدِّين، أو في الصّداقة والنُّصرة، ولذا يُقال للمُعتِق، والمُعتَق، والصّاحب، والحليف، والنّاصر، وابنِ العمِّ والجارِ: المَوْلى. والتّوالي: " أن يَحْصُلَ شيئان فصاعدا حصولا ليس بينهما ما ليس منهما، ويستعار ذلك للقرب"[2].

2) ﴿خَيۡرُ ٱلنَّٰصِرِينَ﴾: أي أقواهم بالنّصرة. فلا ينبغي أن تطيعوا الكفّار لينصروكم لأنّهم عاجزون[3]، والمعنى: فاعتصموا به ولا تستنصروا بغيره، ولا ترجعوا على أعقابكم مرتدّين عن دينكم"[4]، أو أنّه تعالى" خير من ينصر من نصره؛ فلا يغلب، كقوله: ﴿إِن

(1) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 3/1813.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ولي)، والرّاغب، المفردات: (ولى).
(3) الجاويّ، مراح لبيد: 1/159.
(4) ابن جرير، جامع البيان: 6/126.

﴿يَنصُرۡكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمۡۖ﴾ [آل عمران: 160][1]، "لأنّه خبير بمواقع الحاجات، قدير على إنجاز الطّلبات، ينصر في الدّنيا والآخرة، بلا شائبة علّة من العلّات، ونصرة غيره لو فرض، فإنّه مخصوصٌ بالدّنيا وببعض الأمور، وفي بعض الأوقات، ولغرض من الأغراض الفاسدات، كيف ولا ناصر بالحقيقة سواه"[2].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

لا مـــــولى للمؤمنين غير الله، ولا ناصر لهم سواه

ليسَ الكفّار أولياءَ لكم - أيّها المؤمنون - فينصرونكم إذا أطعتموهم، إنّما وليُّكم، وناصركم هو اللّه الّذي لا تحتاجون إلى أحد بعده، فيقول لهم: " أطيعوا اللّه ربّكم ووليّكم ومولاكم، فإنّه خير من يطاع، وأحقّ من يطاع، واطلبوا النّصر بطاعته، فهو خير النّاصرين"[3].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالةُ ﴿بَلِ﴾ بينَ الإضرابِ الانتقاليِّ والإبطاليِّ:

اللـــــهُ مـــولى المؤمنينَ لا غيرُهُ

تحتملُ ﴿بَلِ﴾ أنْ تكونَ للإضرابِ الانتقاليِّ[4]، على معنى الانتقالِ مِنَ المهمِّ إلى الدُّخولِ إلى الأهمِّ بطريقِ الاستدلالِ، بدلالةِ قرينةِ الحالِ؛ لِأنَّهُ - سبحانَه - بعدَ أنْ حذَّرَ المؤمنينَ مِنْ إطاعةِ الكافرينَ وما يترتَّبُ عليها منَ الانقلابِ إلى الكفرِ والذِّلَّةِ، انتقلَ إلى توجيههِمْ إلى ما فيه عزَّتُهم ونصرُهم، والمعنى: إنّي أنهاكم - أيُّها المؤمنونَ - عن إطاعةِ الكافرينَ؛ لِأنَّهم ليسوا أولياءَ لكم فتطيعوهم، بلِ اللّهُ - تعالى - هو وليُّكم ومعينُكم وهو خيرُ النَّاصرينَ، فجاءَ الإضرابُ الانتقاليُّ لِتثبيتِ المؤمنينَ ولِبيانِ أنَّه إذا كانَ اللّه مولاهم وناصِرَهم ومعينهم فلنْ يُطيعوا الَّذينَ كفروا.

(1) الماتريديّ، تأويلات أهل السُّنّة: 2/505.
(2) النيسابوري، غرائب القرآن: 2/275.
(3) الكواريّ: تفسير غريب القرآن: 3/150.
(4) ابن عطية، المحرر الوجيز: 1/522، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 3/14- 46، وطنطاويّ، التّفسير الوسيط: 2/292.

كما تحتملُ ﴿بَلِ﴾ أنْ تكونَ للإضرابِ الإبطاليِّ، وهو ظاهرُ كلامِ البيضاويِّ وغيرِه، والمعنى إبطالُ مضمونِ المعنى الذي قبلَها وإثباتُ ما بعدَها، كأنَّه قيل فلا تطيعوهم، إنّهم ليسوا أهلًا لوَلايتكم، بل اللّهُ مولاكم، فأطيعوه واستغنوا بهِ عنْ موالاتِهم؛ لِيفيدَ الإضرابُ الإبطاليُّ التَّحذيرَ مِنْ فعلِ ما قبلَ ﴿بَلِ﴾، والمبادرةَ إلى فعلِ ما بعدَها[1].

مناسبةُ القصرِ في قوله ﴿بَلِ ٱللَّهُ مَوۡلَىٰكُمۡۖ﴾:

جاءَ القصرُ في الآيةِ بأسلوبين، أحدِهما في مجيءِ المسندِ والمسندِ إليه معرفتين؛ لِبلوغِ المسندِ إليه في استحقاقِ ما أُسندَ إليه حدًّا يقتضي حصرَ المسنَدِ فيه[2]، والقصدُ هنا هو إثباتُ الولايةِ للّهِ تعالى أوَّلًا وبالذَّاتِ ثمّ نفيُ الولايةِ عنْ غيرِهِ ثانيًا وبالتَّبعِ، كما أنَّ الإضرابَ بـ ﴿بَلِ﴾ يُشعِرُ بمعنى قَصرِ الولايةِ على اللّهِ تعالى، والمعنى: اللّهُ مولاكم لا غيرُه؛ لِيفيدَ ولايتَهُ سبحانَه وتعالى نصًّا، ونفيَ ولايةِ غيرِهِ ضمنًا، فدلَّ القَصْرُ على تأكيدِ مضمونِ الجملةِ وتقريرِهِ على سبيلِ انحصارِ الصِّفةِ ﴿مَوۡلَىٰكُمۡۖ﴾ في الموصوفِ ﴿ٱللَّهُ﴾، وثباتِ ولايةِ اللّهِ للمؤمنينَ ودوامِها، وليدفعَ ما قدْ يُتَوهَّم منْ أنَّ غيرَ اللّه قدْ يكونُ مولى المؤمنينَ.

نكتة التعبير بقوله ﴿مَوۡلَىٰكُمۡۖ﴾:

عبَّر بقوله ﴿مَوۡلَىٰكُمۡۖ﴾ لِما تفيدُه الكلمةُ من معنى التَّقرُّبِ والتَّودُّدِ والنُّصرةِ والإعانةِ، وفيه تذكيرٌ للمُخاطَبينَ أصالةً - وهمْ أصحابُ النّبيّ ﷺ - بعِظَمِ شأنِ الولاءِ عندَهم، فإنَّ له عند العرب شأنًا عظيمًا كشأنِ النَّسَبِ[3].

نكتةُ التَّعبيرِ بالاسمِ الجليلِ ﴿ٱللَّهُ﴾:

عَبَّرَ بالاسمِ الجليلِ المقتضي لصفاتِ العِزِّ والمنَعةِ تعظيمًا لأمرِ ولايةِ اللّهِ تعالى لِلمؤمنينَ في أنفسِهم[4].

(1) البيضاوي، تفسير البيضاوي: 2/42، والنيسابوري، غرائب القرآن: 2/275، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 5/91، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/122.

(2) السبكي، عروس الأفراح: 1/406.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/122.

(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 5/91، والسّيوطيّ، شرح عقود الجُمان، ص: 28.

دلالةُ العطفِ في قوله ﴿وَهُوَ خَيۡرُ ٱلنَّٰصِرِينَ﴾:

لمّا كانتِ الواوُ عاطفةً أفادتْ وقوعَ الجملتينِ المعطوفتين في حكم الإضراب على الاحتمالينِ المذكورينِ، فيكونُ الإضرابُ متعلِّقًا بقوله ﴿وَهُوَ خَيۡرُ ٱلنَّٰصِرِينَ﴾ كذلكَ؛ لإفادةِ تأكيدِ النَّهي عنْ طاعةِ الكافرينَ والامتثالِ لِكفرِهم، وحسَّنَ الوصلَ بينَ الجملتينِ هنا لِما بينهما منْ مناسبةِ الاتصالِ، فكلاهما جملةٌ اسميَّةٌ وعلى معنى النُّصرةِ والإعانةِ[1].

دلالةُ اسمِ التّفضيلِ بينَ الحقيقةِ والمجازِ في قوله ﴿خَيۡرُ ٱلنَّٰصِرِينَ﴾:

لا نصرَ كنصرِ اللهِ مقصدًا، وموقعًا، وفائدةً

يحتملُ اسمُ التَّفضيلِ ﴿خَيۡرُ﴾ أنْ يكونَ على حقيقةِ المفاضلةِ، أي إنَّ اللّه تعالى هو خيرُ الموصوفِين بهذا الوصفِ؛ ذلكَ أنّ نصرَ اللّهِ تعالى يتجاوزُ دفعَ الغلَبِ عنِ المغلوبِ إلى قطعِ الغالبِ، كما أنَّ نصرَهُ تعالى يتعدَّى دفعَ الظّلمِ عنِ المظلومِ إلى قطعِ ظُلمِ الظّالمِ، فاللّه خيرُ النّاصرين قصدًا، وموقعًا، وفائدةً[2]، كما يحتملُ أنْ يكونَ اسمُ التّفضيل ﴿خَيۡرُ﴾ على المجازِ، لِأنّه سبحانَهُ ليس معدودًا في جنسِ النّاصِرين، فلا تقعُ المفاضلةُ بينه وبينَ المخلوقينَ أصلًا، لكنّه خاطبهم بحسبِ عرفِهم، كقوله: ﴿وَهُوَ أَهۡوَنُ عَلَيۡهِۚ﴾ [الرّوم: 27].

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/376، والآلوسّي، روح المعاني: 2/300.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/122.

﴿سَنُلۡقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعۡبَ بِمَآ أَشۡرَكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗاۖ وَمَأۡوَىٰهُمُ ٱلنَّارُۖ وَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلظَّٰلِمِينَ ١٥١﴾ [آل عمران: 151]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

العلاقة بين نصر المؤمنين، وما نال الكافرين من الرّعب وسوء المصير

بعد أن بيَّن اللّه تعالى أنّه ناصرٌ المؤمنين، وأنّه لا ينصر أحدٌ كنصره جلّ وعلا، قرَّر ذلك المعنى بأنَّه حال بينهم، وبين استئصال المسلمين، وأنّه في الآخرة يجازي هؤلاء المشركين بالخلود في النّار، فقد وقعتِ الآية ممّا قبلها تقريرًا لتحقيق الوعد، "وسيلقي اللّه في قلوب الّذين كفروا الرّعب الشّديد، بسبب شركهم باللّه أصناما وحجارة، لا حجّة ولا برهان على صواب عبادتها وتعظيمها"[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلرُّعۡبَ﴾: هوَ الخوف الّذي يملأ القلب، وأصل الرُّعب هوَ الامتلاء، ومنه قولهم للسَّيل الّذي يملأ الأودية والأنهار: سَيل راعب، وسَنام رَعيب، أي: ممتلئٌ سمينٌ، وقِيل: هوَ الفزَع، وسُمِّي الرّعبُ بذلك؛ لأنّه تزعزُعٌ واضطرابٌ يملأ باطن الإنسان، وقيل: هوَ الانقطاع من امتلاء الخوف، من قولهم: رعَبتُ السَّنام، أي: قطَعتُه[2]، وقُرئ ﴿ٱلرُّعۡبَ﴾ حيث أتى في القرآن بإسكان العين وضمّها، فقِيل: هما لغتان، وقِيل: الأصل هوَ السّكون، والضّمُّ على الإتّباع، كالصُّبْح والصُّبُح، وقِيل: الأصل هوَ الضّمّ، والإسكان للتّخفيف، كالرُّسُل والرُّسْل[3].

(1) الزّحيلّي، التّفسير الوسيط: 1/248.
(2) الرّاغب، المفردات: (رعب)، والنّيسابوريّ، غرائب القرآن: 2/279، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (رعب).
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/377، والخفاجي، عناية القاضّي: 3/70.

2) ﴿سُلۡطَٰنٗا﴾، أي: حُجّةً وبرهانًا[1]، وأصل الكلمة اللّغويّ يدلّ على القوّة والقهر، ومنها قِيل للوالي: سلطان، وسُمِّيت الحُجَّة سلطانًا؛ لأنّها تهجُم على القلوب، أو لأنّها تقهَر المُنكِرَ، أو المُعارِض على التّسليم، ولا يُقال للحُجَج: سلاطين؛ لجريان السّلطان بمعنى الحجّة مَجرَى المصادر، وسَلَاطة اللّسان هي: القوّة على القول، وأكثر ما تُستعمَل في الذّمِّ[2]، و"جميع ما في القرآن من ذكر السّلطان مذكّر، ولو كان التّأنيث أكثر لكان في كتاب الله جلَّ وعزَّ.. والسّلطان الحجّة، والاحتجاج والحجّة معناهما واحد. فأمّا التّأنيث فصحيح، إلّا أنّه أقلّ من التّذكير، فمن قال: قضت به عليك السّلطان، أراد قضت عليكَ به الحجّة، وقضت عليك حجّة الوالي، ومن قال قضى به عليك السّلطانُ ذهب إلى معنى صاحب السّلطانِ. وجائز أن يكون ذهب به إلى البرهَانِ والاحتجاجِ، أي قضى به عليك البرهان"[3].

3) ﴿وَمَأۡوَىٰهُمُ﴾: أي مسكنُهم ومقرُّهم الّذي لا بَراحَ لهم منه[4]، وهو اسم مكان من أَوَيتُ إلى المكانِ، وأويتُه إذا دخلتُه، وسكنت فيه، وأصله اللّغويّ يدلُّ على الضّمِّ، ومنه قوله تعالى: ﴿وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِي تُـٔۡوِيهِ ١٣﴾ [المعارج: 13]، أي: تضمُّه، والتّأوِّي: التّجمُّع، يُقال: تأوَّتِ الطّير إذا انضمَّ بعضُها إلى بعض[5]، "وبالجملة ليس مَأْواهُم في النّشأة الأخرى إلّا النّارُ الموعودة المعدّة لمن ظلم وافترى على الله، واتّبع هواه، وَبِئۡسَ المثوى والمأوى مَثۡوَى الظَّالِمِينَ الكافرين، الخارجين عن مقتضيات حدود الله وشعائر توحيده"[6].

4) ﴿مَثۡوَى﴾: اسم مكان من ثوى، والثَّواء هو طول المُقام؛ ولذا يُقال: ثُوِيَ الرّجُل إذا قُبِر، والثّوِيُّ: البيت المهيَّأُ للضّيف، ويُقال للغريب إذا أقام ببلدة: ثاوٍ، ومنه قوله تعالى لموسى عليه السلام: ﴿وَمَا كُنتَ ثَاوِيٗا فِيٓ أَهۡلِ مَدۡيَنَ﴾ [القصص: 45][7]، والمثوى: المكان الّذي يقام فيه، يقال: ثوى يثوي ثواء، والمأوى: كلّ مكان يرجع إليه شيء ليلا أو نهارا[8].

(1) الواحديّ، التّفسير الوسيط: 1/503، والرّازي، مفاتيح الغيب: 9/385.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سلط)، والجوهريّ، الصّحاح: (سلط)، والرّاغب، المفردات: (سلط)، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (سلط).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سلط)، والجوهريّ، الصّحاح: (سلط)، والرّاغب، المفردات: (سلط)، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (سلط).
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/123.
(5) ابن سيده، المحكم: (أوى)، وابن منظور، لسان العرب: (أوا)، والزّبيديّ، تاج العروس: (أوى).
(6) علوان، الفواتح الإلهيّة: 1/129.
(7) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (ثوى)، وابن سيده، المحكم: (ثوي).
(8) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 4/233.

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

سنملأُ قلوب المشركين خوفًا بسبب إشراكهم باللّه آلهةً ليس لهم عليها حُجّة أو برهان، هذا في الدّنيا، أمّا في الآخرة فجزاؤهم أنَّ مستقرَّهم هو النّار، وبئس مستقَرُّ الظّالمين هي، "وهذا التّرهيب يستدعي زيادة شجاعة المؤمن الموعود بالنّصر، وضعف المشرك وخَوَرِ عزيمته، لأنّه مبشّر بالعذاب والعقاب"[1].

تـوعّـد الـلـه المشركين بالرّعب في الـدّنـيـا، وعـذاب النّار في الآخرة

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ الاستعارةِ في قولِه ﴿سَنُلۡقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعۡبَ﴾:

وردَ الكلامُ على طريقةِ الاستعارةِ المكنيَّةِ التَّبعيَّةِ؛ إذ استعارَ كلمةَ ﴿سَنُلۡقِي﴾؛ لِلتّعبيرِ عن جعلَ الرُّعبِ في القلوبِ، ولمّا كانَ الإلقاءُ يستعملُ لِلأجسامِ في الحقيقةِ، وحذفَ المشبّه بهِ وهو إلقاءُ الأجسامِ وذكرَ المشبَّه (جعل الرُّعبِ في القلوبِ) معَ ذكرِ شيءٍ من لوازمِ المشبَّه به وهو الإلقاءُ، كانتِ الاستعارةُ مكنيّةً، وكانت تبعيّةً لِلتَّعبيرِ بالفعل ﴿سَنُلۡقِي﴾، فأفادتِ الاستعارةُ المكنيّةُ إثباتَ المدّعى (إلقاءَ الرُّعبِ) بالدَّليلِ؛ لِتجسيدِ الصورةِ وتشخيصِها بتنزيلِ المعنويِّ (جعلِ الرُّعبِ في القلوبِ) منزلةَ الماديِّ (إلقاءِ الأجسامِ)؛ ولِلإشعارِ بسهولةِ الجعلِ المذكورِ على اللّهِ تعالى، كما أفادتِ الاستعارةُ أنَّ إلقاءَ الرُّعبِ يكونُ من علُوٍّ؛ لمناسبتِه لمقامِ الملقي، ولِتكونَ قلوبُ الَّذينَ كفروا ظَرفًا للرُّعبِ، فيستقرَّ الرُّعبُ كاستقرارِ المظروفِ في الظَّرفِ[2].

دلالةُ السِّينِ في قولِه ﴿سَنُلۡقِي﴾:

السِّينُ للاستقبالِ القريبِ بالنَّظرِ إلى زمانِ نزولِ الآيةِ؛ لِلإيذانِ بقُربِ وعدِ اللّهِ تعالى بإلقاءِ الرُّعبِ في قلوبِ الَّذينَ كفروا، وأفادتِ السِّينُ توكيدَ المعنى وتثبيتَه؛ لِأنّها إخبارٌ على إخبارٍ، والمُخبَر عنهُ

قـربُ إرعـابِ الـكـافـريـن تعجيلٌ بالنّصر وتحقيقٌ للولايةِ

(1) الزّحيلّي، التّفسير الوسيط: 1/248.

(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 1/522، والرّازي، مفاتيح الغيب: 9/384.

واحدٌ، فَفي التّعبيرِ بِها توكيدٌ فوقَ التّوكيدِ المستفادِ أصلًا من إخبارِ اللّهِ تعالى عمّا سيصيبُ بِهِ الكافرينَ.

نكتة التّعبير بالفعل المسند إلى نون العظمة:

عظمُ الرّعبِ المُلقى لِعظمِ الملقي

لمّا أسندَ الفعلَ إلى نونِ العظمةِ أشعرَ بعظمِ ما يُلقَى، وَهُوَ مُشْعِرٌ بِعِظَمِ الرُّعبِ الحاصلِ في قلوبِ الكافرينَ المكتسَبِ من عظمةِ المُلقي[1].

بلاغةُ الالتفاتِ في ﴿سَنُلْقِى﴾:

في الالتفاتِ من خطابِ الغَيبةِ إلى التّكلّمِ تربيةٌ لِلمَهابةِ، واستدرارٌ للأسماعِ

في الانتقالِ من أسلوبِ الغَيبةِ في قولِه تعالى: ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّٰصِرِينَ﴾ إلى أسلوبِ التّكلُّمِ والتّعظيمِ في: ﴿سَنُلْقِى﴾ التفاتٌ بليغٌ يفيدُ استدرارَ أسماعِ المُخاطَبين؛ لِلتَّنبيهِ على هولِ ما سيلقيهِ تعالى في قلوبِ الكافرينَ؛ جريًا على سَنَنِ الكبرياءِ؛ لِتربيةِ المهابةِ، لِما يتضمّنهُ الإسنادُ إلى الذّاتِ العليَّةِ بضميرِ التَّعظيمِ من معاني الكبرياءِ والتَّمجيدِ[2].

العودُ إلى الالتفاتِ بوضعِ الظّاهرِ موضِعَ المضمَرِ:

تعظيمُ الله ينافي الإشراكَ به

ومن لطائفِ هذهِ الآيةِ أنَّهُ التفتَ مرَّةً أخرى، فرجعَ إلى أسلوبِ الغَيبةِ، ووضعَ الظّاهرَ موضِعَ المضمَرِ في قوله ﴿بِمَآ أَشْرَكُواْ بِٱللَّهِ﴾، ولو ساقَهُ على الالتفاتِ بأسلوبِ التكلُّمِ، لَقالَ (بما أَشركوا بِنَا)، فعدلَ إلى الالتفاتِ مرةً أخرى؛ لِإيرادِ الاسمِ الجليلِ (اللّه)؛ لإثباتِ المدّعَى بالإشعارِ بما يتضمّنه اسمُ (اللّه) منَ العظَمةِ المنافيةِ للإشراكِ؛ لِيكونَ الكلامُ على المبالَغةِ في ذمِّ المشركينَ وتوبيخِهم[3].

ففي الآيةِ التفاتانِ.

بلاغة التقديم والتَّأخير:

قَدَّمَ الجار والمجرور ﴿فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ على المفعول به

(1) الدّماميني، شرح مغني اللّبيب: 2/8، وأبو حيان، البحر المحيط: 3/376، والآلوسّي، روح المعاني: 2/300.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/98، والآلوسّي، روح المعاني: 2/300.
(3) الآلوسّي، روح المعاني: 2/301.

﴿ٱلرُّعۡبَ﴾، وتقديرُ الكلام على الأصلِ، سنلقي الرُّعبَ في قلوبِ الّذين كفروا، فقدَّمَ ماحقُّهُ التَّأخيرُ؛ لِلاهتمام بالمحلِّ المُلْقَى فِيهِ قَبْلَ ذِكْرِ المُلْقَى[1]، ولِلإشعارِ بتخصيصِ محلِّ الرُّعبِ، وهو القلبُ.

القلب سيّد الأعضاء، وفي رُعبِه حَيرة النَّفس وشقاؤها

مناسبةُ التّعبير بالرُّعبِ دونَ الخوفِ:

لمّا كانَ الرُّعبُ بمعنى الامتلاءِ، وفيهِ معنى الفزعِ والاضطرابِ وكانَ الخوفُ بمعنى فراغِ جوفِ الشَّيءِ كفراغِ القلبِ؛ لِتوقُّعِ ضررٍ مشكوكٍ في أمرِه عبَّر بالرُّعبِ دونَ الخوفِ؛ لِمقامِ الكلامِ؛ لِيدلَّ على امتلاءِ قلوبِ الكافرينَ خوفًا وفزعًا منَ المؤمنين يومَ أُحُدٍ، فكأنَّ قلوبَ الكافرين يومَ أُحُدٍ قدْ أُفرِغَت تمامًا، ثمَّ ملأهَا الرّعبُ، فلا مجالَ للطُّمأنينةِ والسُّكونِ فيها[2]، ولهذا عندَ وصفِ المؤمنين لايُقالُ: يُرعَبونَ من اللّهِ بلْ يقالُ: يخافونَ اللّه.

الرُّعبُ أبلغُ منَ الخوفِ للكافرينَ لِدلالتِه على امتلاءِ القلبِ بالفزعِ والاضطرابِ

دلالة الباء بين السببية والمقابلة:

تحتملُ الباءُ أنْ تكونَ سببيَّةً وهو قولُ جمهورِ المفسِّرينَ[3]، والمعنى سُنلقي في قلوبِ الذين كفروا الرُّعبَ بسببِ إشراكِهم باللّهِ، كما تحتملُ أنْ تكونَ لِلعوضِ، وتسمَّى باءَ المقابلةِ[4] على معنى أنَّ إلقاءَ الرُّعبِ كانَ في مقابلةِ إشراكِهم باللّهِ، فكأنّهم اشترَوا الرُّعبَ في مقابلِ الإشراكِ باللّهِ تعالى، فيكونُ الكلامُ على معنى التَّهكُّمِ.

لا أمنَ إلا للموحِّد الحقّ، ورعبُ القلوبِ منْ أشدِّ العقوباتِ

مناسبةُ التَّعبيرِ بقولِهِ ﴿مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗاۖ﴾:

قدْ يقالُ: هل هناكَ حجَّةٌ على الشِّركِ حتّى ينزِّلَها اللّهُ، فإنَّ تسليطَ النَّفيِ على الإنزالِ يقتضي ذلكَ؟ والجوابُ إنَّه لمَّا أرادَ نفيَ الحجّةِ وتنزيلِها معًا أتى بهذا التَّعبيرِ؛ إذ نفى المقيَّدَ وهو التَّنزيلُ

الاستدلالُ على بطلانِ الشِّرك باللّه تعالى

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/376.
(2) النّيسابوريّ، غرائب القرآن: 2/279، والفيروزابادي، بصائر ذوي التّمييز: 2/576، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (خوف - خيف).
(3) الزمخشري، الكشاف: 1/425، وابن عطية، المحرر الوجيز: 1/523، والرّازي، مفاتيح الغيب: 9/385.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/123.

والقيدَ وهو الحجَّةُ، فإنَّ الآلهةَ لا حجَّة لها، والمعنى بما أشركوا باللّه آلهةً لاسلطانَ لها في إشراكِها، فيكونُ نفيُ التّنزيلِ بمثابةِ الوصفِ لِلآلهةِ، أَو يقالُ: إنَّ التَّنْزِيلَ إِمَّا بِمَعْنَى الْوَحْيِ، وَإِمَّا بِمَعْنَى نصبِ الأدلّة عَلَيْهِم، وَلَمَّا كَانَ الْحَقُّ لَا يعدو هذينِ الحالَين: لِأَنَّهُ إِمَّا أَنْ يُعلَمَ بِالوحيِ، أَوْ بِالأَماراتِ، كَانَ نَفْيُ تَنزيلِ السُّلطانِ على الْإِشراكِ كنايَةً عنْ نفيِ السُّلطانِ نفسِهِ، وعبَّرَ بهذا الأسلوبِ لإقامةِ الحجَّةِ عقلًا على بطلانِ الشِّركِ، ولِلإيذانِ بوجوبِ الامتثالِ لِكُلِّ ما ينزِّلُهُ اللّه تعالى دونَ الآراءِ والأهواءِ الباطلةِ[1].

بلاغةُ الاستعارةِ ﴿وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ﴾:

هذهِ استعارةٌ تهكميّةٌ عناديّةٌ، وبيانُها أنَّه لمّا كانَ المأوى هو المكانَ الذي يأوي إليهِ الإنسانُ حينَ يرجعُ إلى سكناهُ، ويقتضي الرّاحةَ والاستقرارَ كانَ إيرادُ قولِه تعالى ﴿وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ﴾ على معنى الاستعارةِ التّهكميَّةِ العناديَّةِ، لاستعمالِ المأوى في ضدّهِ، وهو الإقامةُ في النّارِ، ولمّا امتنعَ اجتماعُ الرَّاحةِ معَ النّارِ كانتِ الاستعارةُ عناديَّةً؛ لإفادةِ السُّخريَّةِ من المشركينَ؛ ليزيدَ منْ قُبحِ مآلِهم ويخيبَ ظنُّهم، فأخبرَ اللّه تَعَالَى بِأَنَّ مَصِيرَ المشركينَ وَمَرجعَهُمْ إِلَى النَّارِ؛ لتكونَ محلَّ إقامتِهم، فَهُمْ فِي الدُّنْيَا مرعُوبُونَ وفِي الآخرةِ مُعذَّبونَ، بِسببِ إِشراكِهِمْ، فهو جالِبٌ لهُمُ الشَّرَّ فِي الدُّنيَا وَالآخرةِ[2].

إيـواءُ المشركينَ إلى النّـار دائـمٌ ثابتٌ

مناسبةُ التَّعبيرِ بالجملةِ الاسميَّةِ ﴿وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ﴾:

أَفادتِ الجملةُ الاسميَّةُ هنا بمعونةِ المقامِ قصرَ الموصوفِ على الصِّفَةِ بمعنى قصرِ مأواهم وإقامتِهم يومَ القيامةِ على النَّارِ، وأفادَ التَّعبيرُ بالجملةِ الاسميَّةِ دوامَ إقامتِهم في النّارِ وثباتَها.

دلالةُ الجمعِ بينَ المأوى والمثوى:

بَدَأَ بِالْمَأْوَى وَهو الْمَكانُ الَّذِي يَأوي إليهِ الْإِنسانُ؛ لبيانِ موضعِ إقامتِهم على سبيلِ الإخبارِ عنه، ولمّا كانَ لايلزمُ من الإيواءِ الثَّواءُ

النّارُ مكانُ إقامةِ الكافرِ الّذي لا يخرجُ منه أبدًا

(1) الزمخشري، الكشاف: 1/425، وأبو حيَّان، البحر المحيط: 3/377، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 2/98، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/126.

(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/378، والسبكي، عروس الأفراح: 2/155.

بخلافِ العكْسِ، ذكرَ المثوى بعدَهُ على سبيلِ ذمٍّ موضعِ دوامِ إقامتِهم؛ لِيكونَ على جهةِ ذكرِ الشَّديدِ ثمَّ الأشَدِّ، فإنَّ التَّرتيبَ الوجوديَّ في وقوعِهما هو أنْ يَأوي ثمَّ يَثوي، فأفادَ قولُه ﴿وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُۖ﴾ إقامتَهم فيها، ولمّا كانتِ الجملةُ الاسميَّةُ دالَّةً على ثبوتِ إقامتِهم ودوامِها كما تقدَّمَ أفادَ قولُه: ﴿وَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ تأكيدَ دوامِ إقامتِهم في النّارِ وذمٍّ سوءِ منقلبِهم فيها، فدلَّ الجمعُ بينهما على سبيلِ العطفِ على المغايرةِ بينَ المعنيينِ، وعلى تأكيدِ بقائِهم في النَّارِ، وعدمِ خروجِهم منها أبدًا[1].

حُسنُ التَّذييلِ في قوله ﴿وَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾:

في التّعبيرِ بهذهِ الجملةِ فوائدُ هي:

تأكيدُ قبحِ المُقام وشرِّ المَنزل

1) لمّا كانتْ (بِئسَ) للذمِّ العامِّ الشَّائعِ في كلِّ خَصلةٍ مذمومةٍ اقتضى مجيءُ (بِئسَ) مزيدَ تقريرٍ في ذمِّ مثوى الظّالمين، والمبالغةِ فيه.

ذمَّ المحلَّ وأراد ذمَّ المحلِّ والحالِّ فيه

2) ذمَّ مثوى الظّالمينَ؛ لِيستلزمَ ذمَّ الظّالمين، إذ ذمَّ المحلَّ وأرادَ ذمَّ المحلِّ والحالِّ فيه، الذي أشار إليه بذكرِ ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾؛ لِيكونَ الذَّمُّ أشدَّ وأقبحَ، فإذا ذمَّ المحلَّ فكلُّ حالٍّ فيه مذمومٌ.

الجمعُ بينَ الإطنابِ والإيجازِ في جملةٍ واحدةٍ

3) في هذا التّعبيرِ من البلاغةِ ما فيهِ، إذ توجَّه الذَّمُّ إلى النّارِ إجمالًا؛ لِكونِها من أفرادِ مثوى الظَّالمين ثمَّ لمَّا جاءَ التَّفصيلُ بالمخصوصِ بالذّمِّ الذي حُذفَ لِلإيجازِ لِقرينةِ السِّياقِ، والتّقدير: بئس مثوى الظَّالمين النَّارُ، توجَّه الذمُّ إلى النّار على سبيلِ التَّفصيلِ، فكأنَّه ذمَّ النّار مرّتين، ففيه من عجيب البلاغة أنَّه يبرزُ الكلامَ في معرضِ الاعتدال نظرًا إلى إطنابِه من وجهٍ وإلى اختصارِه وإيجازِه من آخرَ[2].

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/378، وابن عادل، اللباب في علوم الكتاب: 5/596، والآلوسّي، روح المعاني: 2/301.
(2) السَّكّاكي، مفتاح العلوم، ص: 284.

التغليظ على الظَّالمين والتشديد في وعيدهم

4) وضعَ الظَّاهرَ موضعَ المضمَر فلم يقل(بئس مثواهم)، لِلتَّغليظِ عليهم بذكر (الظّالمين) بالتَّسجيل على ظلمِهم والتَّشديد في وعيدِهم، فهم في إشراكهم ظالمون واضعون للشيء في غير موضعه، ولبيانِ علَّة الحكم عليهم بعمومِ ذمِّ مثواهم من التّعبيرِ بالمشتقِّ، أي بسببِ ظلمِهم[1].

الظُّلم ظلمُ الكفرِ والجحودِ وظلمُ النَّاسِ بسوء المعاملةِ

5) لمّا كانتْ (أل) في قولِه ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ جنسيَّةً أفادتِ العمومَ، ويدخل في معنى اللّفظِ المشركونَ دخولًا أوَّليًّا لِظُلمِهمْ أَنفسَهُمْ بِالكُفرِ وَالجحودِ، وَظُلمِ النَّاسِ بِسوءِ المعاملةِ، وتحتمل (أل) أنْ تكونَ عهديَّةً، فيكونَ المقصودُ هم المشركينَ المذكورينَ في الكلامِ، كما في قولِه تعالى ﴿إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ ١٣﴾ [لقمان: 13]، وأنْ تكونَ (أل) هنا على العمومِ أولى لمناسبتها لجملة التَّذييل[2].

6) لمّا جاءتِ الجملةُ تذييليَّةً دلَّتْ على عمومِ المعنى وكلّيَّته، ولاسيّما معَ حذفِ المخصوصِ بالذّمّ؛ لِيفيدَ الحذفُ عمومَ ذمِّ كلِّ أفرادِ مثوى الظّالمين، ولِيتناولَ مثواهم في الدّنيا والآخرةِ؛ لِتكون الجملةُ كالمَثَلِ الجاري بينَ النَّاس.

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 2/42، والخفاجي، عناية القاضي: 3/140.

(2) الأشموني، شرح الأشموني على الألفية: 2/280، والقونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 6/355.

﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾﴾ [آل عمران: 152]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

ربط وعد الله بإلقاء الرّعب في قلوب الكافرين، بصدق وعده في تثبيت المؤمنين

لـمَّا تضمّنَتِ الآيةُ السّابقة وعدَ اللّه تعالى، بإلقاء الرّعب في قلوب الكافرين يوم أُحد، ذكَّرَ اللّه تعالى أصحاب النّبيّ ﷺ، بأنّه قد صدَقَهم وعده بالنّصر على العدوِّ، بشرط التّقوى والصّبر؛ إذ كانَت لهم الغلَبة على الكافرين يوم أُحد، في أوّل الأمر، قبل أن يحصل منهم التّنازع وعصيان الأمر النّبويّ، بترك الرُّماة لأماكنهم بعد رؤيتهم الغنائم، وهو ما أدّى إلى تحوّل الحرب لصالح الكفّار، ورجحان كِفَّتهم، وفي ذلك ابتلاءٌ للمؤمنين، واختبارٌ لثباتهم على الإيمان، ثمّ ذكَر تعالى أنّه تفضَّل بالعفو عمَّا وقع منهم يومها، لِمَا عَلِم من ندمِهم على المخالَفة[1]، فعفا عنكم، واللّه ذو فضل على المؤمنين[2]، يؤيّدهم بنصره، ويشملهم بعفوه، وذلك منتهى رحمته وفضله.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تَحُسُّونَهُم﴾: من حسّ، ولهما أَصْلَانِ: فَالْأَوَّلُ غَلَبَةُ الشَّيْءِ بِقَتْلٍ أَوْ غَيْرِهِ، وَالثَّانِي حِكَايَةُ صَوْتٍ عِنْدَ تَوَجُّعٍ وَشَبَهِهِ[3]، أو هو من

(1) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 2/42، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 5/92.
(2) نخبة من العلماء، التّفسير الميسّر، ص: 69.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حسّ).

الحاسَّة، أي: القوَّة الّتي تُدرك بها الأشياء الحسّيّة[1]، فمعنى ﴿تَحُسُّونَهُم﴾ في الآية: تقتلونهم قتلًا ذريعًا، أو تستأصلونهم قتلًا[2]، ومنه قِيل للقتيل: الحسيس، وقولهم: جراد محسوس إذا قتله البرد، وسنة حَسُوس إذا أتَت على كلّ شيءٍ، ويؤخذ معنى القتل على القول، بأنّه منَ الحاسَّة من قولهم: حسَستُه، مثلَ: كَبَدْتُهُ وفَأَدْتُهُ إذا أصبتُ كبدَه وفؤادَه، فيكون معناه: قتلتُه بإبطال حاسَّته[3]، "والحسيس القتيل، ومنه جراد محسوس، إذا طبخ، وقولهم البرد للنّبت وانحسّت أسنانه انفعال منه، فأمّا حسست فنحو علمت وفهمت، لكن لا يقال ذلك إلّا فيما كان من جهة الحاسّة[4].

2) ﴿بِإِذْنِهِۦ﴾: الإذن: التّمكين مع العلم بالممكَّن منه[5]، ومعناه هنا: بتقدير اللّه وتيسيره للأسباب، وقِيل: بعلمه[6]، والمراد بإذنه: أمره ومشيئته، وقوله ﴿بِإِذْنِهِۦ﴾ متعلّق بمحذوف، لأنّه حال من فاعل ﴿تَحُسُّونَهُم﴾، أي تقتلونهم مأذونا لكم في ذلك[7]، وقيل: "بإذنه لكم في قتالهم وبإعانته لكم على ذلك"[8].

3) ﴿فَشِلْتُمْ﴾: فعل ماضٍ منَ الفشَل، وهو: الضّعف مع الجُبن، وقِيل: الفزع والجُبن والضّعف[9]، فمعنى ﴿فَشِلْتُمْ﴾: جبُنتم وتخاذلتُم، وقِيل: المُراد بالفشل هوَ الوهَن والإعياء، وقِيل: استشعار العجز، وترك الجِدِّ[10]، يقال: رَجُلٌ فَشْلٌ وفَشَلٌ، وقد فَشِلَ يَفْشَل عند الحرب والشّدّة ويضعف، وإنّه لَخَشِلٌ فَشِلٌ، والفَشِلُ: الجبان المرعوب، يبهت عند الرّوع، لا يحسن قتالًا ولا شرادًا، أي: هربًا[11].

4) ﴿وَتَنَٰزَعْتُمْ﴾: فعل ماضٍ منَ التّنازُع، وهو: تجاذُب الحُجَج فيما يختلف فيه

(1) الرّاغب، المفردات: (حسّ).
(2) الزّجّاج، معاني القرآن: 1/478.
(3) مكّيّ، الهداية: 2/1152، والمهدويّ، التّحصيل: 2/136، وأبو حيّان: البحر المحيط: 3/359.
(4) الأبياري، الموسوعة القرآنيّة: 8/130.
(5) ابن عطية، المحرر الوجيز: 1/524.
(6) الرّازي، مفاتيح الغيب: 9/386، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/127.
(7) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 2/297.
(8) الجزائريّ، أيسر التّفاسير: 1/392.
(9) ابن منظور، لسان العرب: (فشل).
(10) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/427، وابن عطية، المحرر الوجيز: 1/524، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/128.
(11) الخليل، العين: (فشل).

الخصمان، والمُراد به: اختلاف الصّحابة يوم أُحد، وقول بعضهم: نأخذ الغنائم، وقول الآخرين: بل نثبُت كما أمرنا النّبيّ ﷺ، وأصل النّزع هو قلعُ الشّيءِ، ونزعتُ الشّيءَ، أي: جذبتُه من مقرِّه، ومنه قوله تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾ [الأعراف: 43][1].

5) ﴿صَرَفَكُمْ﴾: فعل ماضٍ منَ الصَّرف، وهو رد الشّيء عن وجهه، ومعنى ﴿صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ﴾: كفَّكم عنهم، فغلبوكم بعد أن كنتمُ الغالبين[2]، فقال لهم: " اذكروا وقت أن صرفكم عنهم، حين أصعدتم في الجبل، أي ذهبتم منهزمين، وأنتم لا تلتفتون لأحد من الدّهش والخوف والرّعب، والحال أنّ الرّسول قد خلفتموه وراء ظهوركم، يدعوكم إلى ترك الفرار من الأعداء"[3].

6) ﴿لِيَبْتَلِيَكُمْ﴾: فعل مضارع منَ الابتلاء، وهو الاختبار والامتحان، ومعناه: ليمتحن صبركم على المصائب، وقِيل: ليفعل في ذلك فعلَ من يريد الاختبار في الثّبات على الدّين في السّرَّاء والضّرَّاء[4].

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

لا نصر إلّا بطاعة الله ورسوله، ولا هزيمة إلّا بالاختلاف والتّنازع والعصيان

يخاطب اللّه تعالى أصحاب النّبيّ ﷺ أنّه قد أنجزَ لهم ما وعدهم منَ النّصر على أعدائهم يوم أُحد، حين كانوا يقتلونهم قتلًا شديدًا في أوّل الأمر، فلمّا جبُنوا، وضعُفَت نفوسُهم، واختلفوا في البقاء في أماكنهم الّتي أمرهم بها النّبيّ ﷺ بعد أن لاح لهم النّصرُ، وشاهدوا الغنائم، انقسموا فريقين: فريقًا طلب الغنائم، وفريقًا ثبَت على أمر النّبيّ ﷺ، بعدم مغادرة مكانه، فلمّا كان ذلك تحوّل نصرهم إلى هزيمة؛ اختبارًا لهم، وتمييزًا للمؤمن الصّابر على البلاء من غيره، وأنّه تعالى قد عفا عمَّا وقع منهم منَ المخالفة؛ لأنّه ذو فضل عظيم على المؤمنين، بهدايتهم للإيمان، وعفوه عن سيئاتهم، وإثابتهم على مصائبهم.

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نزع)، والرّاغب، المفردات: (نزع)، والمهدويّ، التّحصيل: 2/137.
(2) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 2/43، وابن منظور، لسان العرب: (صرف).
(3) الزّحيلّي، التفسير المنير: 4/127.
(4) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/427، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 5/94.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالةُ الفعل ﴿صَدَقَكُمُ﴾ بين التعدي بنفسه والتضمين:

تعدّى الفعلُ ﴿صَدَقَكُمُ﴾ هنا إلى مفعولين، فإمّا أنْ يكونَ على جوازِ تعديتِه إلى مفعولٍ واحدٍ، ونصبَ الثَّاني بحذف حرفِ الجرِّ، وأصله (صَدَقَكُم اللهُ في وعدِهِ)، فحذفَ حرفَ الجرِّ لإيصالِ الفعلِ إلى ﴿وَعْدَهُۥٓ﴾ بنفسِه، فيكون أثرُ الفعلِ أوثقَ وأكثرَ تأثيرًا ممّا لو أوصلَه بحرفِ الجرِّ، وإمّا أنَّه تعدّى إلى مفعولينِ على تضمينِ الفعلِ ﴿صَدَقَكُمُ﴾ معنى أَعطى، لِيدلَّ الفعلُ على معنى تحقيقِ الوعدِ والإشعار بمنَّة إعطاءِ الوعدِ وتحقيقِه[1].

قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ﴾ بينَ الإطلاقِ والتَّقييدِ:

وعد الله تعالى نافذٌ لا محالةَ

أفاد الإطلاقُ عمومَ صدقِ وعدِ اللهِ، فلمّا جاءت ﴿إِذْ﴾ لِتكونَ قيدًا لِما قبلَها أفادَ المعنى تحقيقَ وعدِ اللهِ في هذه الصورة المذكورة، والمعنى "وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللهُ وَعْدَهُ إِيَّاكُمْ بِالنَّصْرِ حَتَّى فِي هَذِهِ الْوَقْعَةِ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ"[2].

مناسبةُ مجيءِ ﴿إِذْ﴾ في الكلام:

لمّا كانتْ ﴿إِذْ﴾ ظرفًا لِما مضى منَ الزَّمنِ وكانتْ مشعرةً بالتّعليل[3] كما في هذهِ الآيةِ دلّتْ على أنَّ قولَه ﴿تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ﴾ دليلٌ وحجَّة؛ لِتحقيقِ صدقِ وعدِ اللهِ للمؤمنينَ.

مناسبةُ العطفِ في قوله: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ﴾:

تـأكـيـد وعـد المستقبل بتحقّق وعد وقع

لمّا تقدّمَ إخبارُ اللهِ تعالى بالوعيدِ بتحقيقِ الرُّعبِ في قولِه تعالى ﴿سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ﴾ [آل عمران: 151] ناسبَهُ الوصلُ بالإخبار عن صدقِ وعدِ اللهِ للمؤمنينَ، والمقصودُ بالوعدِ ما تقدّمَ في

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 3/378، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 2/98، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/127.
(2) رضا، المنار: 4/150.
(3) ابن هشام، مغني اللبيب: 1/113.

قولِهِ تعالى: ﴿إِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأۡتُوكُم مِّن فَوۡرِهِمۡ هَٰذَا يُمۡدِدۡكُمۡ﴾ الآية [آل عمران: 125]، ويحتملُ أنْ يكونَ وعدُه هو تحقيقَ إلقاءِ الرُّعبِ في قلوبِ الذين كفروا؛ لِتأكيدِ الأمرِ وتقريرِه[1].

تتابعُ التَّأكيدِ في قولِه ﴿وَلَقَدۡ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥٓ﴾:

تتابعَ على تقريرِ صدقِ وعدِ اللّهِ تعالى تأكيداتٌ عدَّةٌ لأهميَّتِه وللاعتناءِ بهِ ولتقريرِه في قلوب المؤمنين:

تقريرُ صدقِ وعدِ اللهِ للمؤمنينَ وتأكيدُه لِأهميَّتِه ولِلاعتناءِ بهِ

فقدْ أكّدَهُ بالقسمِ المحذوفِ المدلولِ عليهِ باللّامِ الموطّئةِ للقسمِ، وأفادتْ ﴿وَلَقَدۡ﴾ باقترانِها بالفعلِ الماضي تحقّقَ الوقوعِ، كما أنَّ عودَ الضَّميرِ في ﴿وَعۡدَهُۥٓ﴾ على الاسمِ الجليلِ (اللّه) بمثابةِ تكرارِهِ؛ لِيقوّيَ التَّأكيدَ ويقرِّرَهُ، وفي إسنادِ الفعلِ إلى الذّاتِ العليّةِ؛ تعظيمٌ لِوعدِ اللّهِ، وهذا فيه زيادةُ تطمينٍ للمؤمنينَ بتحقّقِ وعدِ اللّهِ إيَّاهم.

نكتة التعبير بالفعل المضارع ﴿تَحُسُّونَهُم﴾:

لـولا مخـالفةُ أمرِ رسـولِ اللهِ لَتحقَّقَ الوعدُ

لِإفادةِ استمرارِ القتلِ والاستئصالِ وتجدُّدِه حالًا فحالًا، ولِتصويرِ حالِ المؤمنينَ، وهمْ يُكثرونَ القتلَ في المشركينَ؛ لِلإشعارِ بأنَّ انتصارَهم كانَ مُحقَّقًا لولا ما وقعَ من مخالفةِ بعضِهم للأمرِ النّبويّ[2].

مناسبةُ التّعبيرِ بقوله ﴿تَحُسُّونَهُم﴾ دون (تقتلونهم):

الحَسُّ أبلغُ منَ القتلِ

لمّا كانَ الحسُّ يدلُّ على معنى القتلِ الذَّريعِ الشَّائعِ والاستئصالِ عبّرَ به دونَ أنْ يقولَ (تقتلونهم)؛ لِما في التّعبيرِ بـ ﴿تَحُسُّونَهُم﴾ منَ الإشعارِ بقربِ تحقُّقِ وعدِ اللّهِ وترقُّبِه، ولهذا أعقبَهُ بقولِه تعالى ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلۡتُمۡ وَتَنَٰزَعۡتُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ وَعَصَيۡتُم مِّنۢ بَعۡدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَۚ﴾، أي كانَ الوعدُ محقَّقًا لولا ضعفُكُم وتنازعُكم ومعصيتُكم،

(1) النيسابوري، غرائب القرآن: 2/279، والطّيبيّ، فتوح الغيب: 4/299.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/127.

ويؤيِّدُهُ أنّ قولَه ﴿تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ﴾ مشعرٌ بأنَّه في مقامِ الحجَّةِ والتّعليلِ لقولِه ﴿صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ﴾ كما تقدّمَ[1].

دلالةُ الباءِ في قوله ﴿بِإِذْنِهِۦ﴾:

النّصرُ من عندِ اللهِ، وطاعةُ اللهِ ورسولِهِ من أهمِّ أسبابِهِ

أفادت الباءُ معنى ملابسةِ حسِّ المشركينَ إذنَ اللّهِ تعالى، فإنَّه لمَّا أسندَ الفعل إلى المؤمنين في قوله ﴿تَحُسُّونَهُم﴾ بيّن لهمْ أنَّ اللّه هو الذي مكَّنَهم من المشركينَ، وأنَّه كانَ بعلمِه وأمره.

مناسبةُ التَّعبيرِ بصيغةِ الجمعِ:

الوعظُ لجميعِ المؤمنينَ، لِمَن خالفَ منهم، ومَنْ لم يخالفْ

جاءَتِ المخاطبةُ بجمعِ ضميرِ المُؤمنِينَ في هذهِ الآياتِ، وَإِنْ كَانَ لمْ يَصدرْ ما يعاتَبُ عليهِ مِنْ جميعهِمْ، وفيها فوائدُ، هي[2]:

1) لِتكونَ على سبيلِ التجوّزِ في نسبةِ ما يقعُ من بعضِهم لِلجميعِ، فَيكونَ منَ العامِّ المخصوصِ؛ اعتمادًا على المخصِّصِ بعدَهُ، وهو قولُه ﴿وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ﴾، ولِقرينةِ الحالِ، لِيَخرجَ غيرُ المخالِفين منَ الخطابِ.

2) لتشمَلَ الوعظَ لِجميعِ المؤمنينَ، والزَّجرَ عن الفعلِ لِمَنْ لم يفعلْ.

3) لِتُفيدَ السَّترَ والإبقاءَ لمن خالفَ أمرَ رسولِ اللّه ﷺ ولاسيَّما أنَّ الخطابَ قد صُدِّرَ بالامتنانِ.

مناسبةُ التعبير بـ ﴿حَتَّىٰٓ﴾:

لمّا كانتْ ﴿حَتَّىٰٓ﴾ تدلُّ على انتهاءِ الغايةِ على سبيلِ التَّدريجِ والتّقضّي؛ لأنَّ الفعلَ المتعدّي بها الغرضُ فيه أنْ ينقضيَ شيئًا فشيئًا إلى أنْ يبلغَ منتهاه، أفادت تحسِّي المشركينَ شيئًا فشيئًا على سبيلِ التدرُّجِ واستمرارِه إلى وقتِ فشلِكم، كما يحتملُ أنْ يكونَ التدرُّجُ في صدقِ وعدِ اللّه، والمعنى صدقَكم اللّهُ وعدَهُ في أمورِكم، ومنه

(1) الزّجّاج، معاني القرآن: 1/478.

(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 1/524، والنّيسابوريّ، غرائب القرآن: 2/280، والثّعالبيّ، الجواهر الحسان: 2/123.

نصرُكم على المشركينَ وكنتم ترونَ وعدَه شيئًا فشيئًا على وفقِ الحوادثِ واستمرَّ إلى وقتِ فشلِكم[1].

مناسبةُ حذفِ جوابِ الشَّرطِ:

الفشلُ والتَّنازعُ سببٌ في الانهزامِ وامتناعِ النّصرِ

﴿إِذَا﴾ شرطيّة، و﴿فَشِلْتُمْ﴾ فعلُ الشّرطِ، وجوابُ الشَّرطِ محذوفٌ، وتقديرُه انهزمتم، أو امتُحنتم، أو منعكم نصره، أو انقسمتم إلى قسمين، والتَّقاديرُ متقاربةٌ، وذهب بعضُ المفسّرين إلى أنَّ حَذْفَ الْجَوَابِ فِي مِثْلِ هَذه الْمَوَاضِعِ أَبْلَغُ وَأَدَلُّ عَلَى الْمُرَادِ، إذ تتزاحمُ على المخاطَبِ الظُّنونُ المعترضةُ للوعيدِ ما لا يتزاحمُ لو نَصَّ على الجوابِ؛ لِتذهبَ نفسُ السَّامعِ فيه كلَّ مَذهَب، حتّى كأنّه لا يُتصوّرُ شيءٌ في جزاء الشّرط إلَّا ويجوزُ أنْ يكونَ التّقديرُ فوقَه[2]؛ لِتفخيمِ الجزاءِ وتهويلِ الأمرِ على المخاطبينَ، ولِلإيجازِ في الكلامِ، فحذفَ لِطولِ الشَّرطِ أيضًا، وذهبَ بعضُ المفسّرينَ إلى أنَّ ﴿حَتَّىٰٓ﴾ هنا مجرّدةٌ من الشّرطِ، فهي ظرفُ زمانٍ، لِيكونَ المعنى (إذْ تحسّونَهم بإذنِهِ إلى حينِ فشِلتُمْ)[3].

دلالةُ (أل) في ﴿ٱلْأَمْرِ﴾:

حَـذْفُ المضافِ إليـه؛ لِـدلالـةِ السّياقِ عليهِ

إنْ كانَ الأمرُ في الآيةِ بمعنى (الشَّأن والقصَّة) فـ(أل) عهديَّةٌ، والمعنى تَنَازَعْتُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ مِنَ الشَّأْنِ، وإنْ كانَ بمعنى الأمرِ ضدِّ النَّهي، فتكونُ (أل) عِوضًا عنِ الضَّميرِ المضافِ إليه، بتقديرِ (تنازعتم في أمرِ اللّهِ أو في أمرِ نبيّكم ﷺ)؛ لِلإيذانِ بأنَّ أمرَ اللّهِ أو أمرَ رسولِ اللّه هو الأمرُ؛ لأهميّتِهِ ولِتعظيمِ شأنِهِ، لِما تدلُّ عليه (أل) حينئذٍ من معنى الاستغراقِ في صفاتِ الكمالِ، وذهبَ بعضُ المفسّرينَ إلى أنَّ التّقديرَ (أَمرِكم) أي تنازعتم في أمرِكم، فتكونُ

(1) المرادي، الجنى الداني، ص: 544، والطيبي، فتوح الغيب: 4/301، وأبو السّعود، إرشاد العقل السليم: 2/99.
(2) الرّازي، مفاتيح الغيب: 9/387، والمرزوقي، شرح ديوانِ الحماسة، ص: 118، والإسفراييني، الأطول: 2/75.
(3) الطيبي، فتوح الغيب: 4/301، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/128.

(أل) عوضًا عن المضافِ إليه، وتكونُ (أل) عهديةً كذلكَ؛ لِلتّذكيرِ بما تنازعوا فيه[1].

نُكتةُ التَّعبيرِ بقوله ﴿وَعَصَيْتُم﴾:

من شأنِ الحربِ الطَّاعةُ للقائِدِ

إنَّمَا سُمِّيَتْ مخالفَةُ مَنْ خالفَ أَمرَ الرَّسولِ عصيانًا، معَ أَنَّ تلكَ المخالفةَ كانتْ عنِ اجتهادٍ لَا عنِ اسْتخفافٍ؛ لأَنَّ المقَامَ ليسَ مقامَ اجْتهادٍ، فإنَّ شأْنَ الحربِ الطَّاعةُ للقائدِ مِنْ دونِ تأويلٍ، أَوْ لأَنَّ التَّأويلَ كانَ بعيدًا فلم يُعذروا فيهِ، أَوْ لأَنَّهُ كانَ تأويلًا لإِرْضاءِ حُبِّ المالِ، فلمْ يكنْ مكافئًا لدليلِ وجوبِ طاعةِ الرَّسولِ[2].

دلالة التّرتيب بين الأفعال في ﴿فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِي ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم﴾:

الفشلُ والتَّنازعُ مذمومانِ وهما سببٌ لِلمعصيةِ

قدّمَ في الآيةِ ذكرَ الفشلِ فالتَّنازعِ فالمعصيةِ، فجاءَ ترتيبُها في الإخبارِ على وفقِ ترتيبِها في الحدوثِ، ولِلإشعارِ بعلَّةِ ما سبقَ لِما بعدَه، فإنَّ القومَ لَمَّا رأَوا هزيمةَ الكفَّارِ، وطمعوا في الغنيمةِ فشِلوا في أنفسِهم عن الثَّباتِ وضعفوا، فتنازعوا بالقولِ هل نذهبُ لِطلبِ الغنيمةِ أم لا؟، ولمّا كانَ العصيانُ هنا بمعنى مخالفتِهم الأمرَ وخروجِهم من المكانِ الذي أُمروا أنْ يثبتوا فيه صار مرتَّبًا على الفشلِ والتَّنازعِ مسبَّبًا عنهما، وهذا هو الأصلُ في ترتيبِ الأخبارِ في صناعةِ الإنشاءِ، وذهبَ بعضُ المفسّرينَ إلى أنّه عطفَ السَّببَ على المسبَّبِ في قوله ﴿فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ﴾، كما في قوله تعالى ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ﴾ [الأنفال: 46]، ولايُعدَمُ التلازمُ بينهما إذا اقتضتِ الحالُ العدولَ عن أحدهما إلى الآخر[3].

(1) ابن جرير، جامع البيان: 7/289، والواحدي، الوسيط: 1/504، والرّازي، مفاتيح الغيب: 9/388، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/128.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/130.

(3) الرّازي، مفاتيح الغيب: 9/387 - 388، والنيسابوري، غرائب القرآن: 2/280، والبقاعي، نظم الدرر: 5/93، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/128.

دلالة ﴿مِّنۢ﴾ في قوله تعالى: ﴿مِّنۢ بَعۡدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَۚ﴾:

بشارةٌ لِلصَّحابةِ المخالفين بزوالِ المخالفةِ

في دخولِ ﴿مِّنۢ﴾ التي لابتداءِ الغايةِ على ظرفِ الزّمانِ ﴿بَعۡدِ﴾ إشارتانِ لطيفتانِ[1]:

الأولى: لِتصويرِ المخالفةِ بأنَّها ابتدأتْ عقبَ رؤيةِ الظَّفرِ بالمشركينَ مباشرةً من غيرِ مهلةٍ، تأكيدًا للومِهم وتنديمِهم.

الثّانية: بشارةٌ لِلصَّحابةِ المؤمنينَ المخالفينَ بزوالِ المخالفةِ؛ إذ إنَّ ابتداءَ الغايةِ الّتي تدلُّ عليه ﴿مِّنۢ﴾ يستلزم انتهاءَها[2].

دلالةُ تعلُّقِ ﴿مِّنۢ بَعۡدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَۚ﴾ بـ ﴿فَشِلۡتُمۡ﴾، وما نُسِقَ عليه:

الطّاعة سببٌ للنّصر، والمعصية سببٌ للهزيمة

يُشعرُ مجيءُ قولِه تعالى: ﴿مِّنۢ بَعۡدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَۚ﴾ بلَوم المخالفينَ وتنديمِهمْ على فعلِهم؛ إذ كانتْ رؤيةُ ما يحبُّونَ تستحقُّ منهمُ الطَّاعةَ لا المخالفةَ، كما يُشعرُ في الوقتِ نفسِه بأنَّهم كرهوا ما فعلوه لمقابلةِ الفشلِ والتَّنازعِ والعصيانِ بمحبَّتِهم لِما رأوه منَ النَّصرِ، فإذا كانوا يحبّونَ النَّصرَ فهم يكرهونَ الهزيمةَ ومسبِّباتِها، ففيه بشارةٌ بالعفوِ قبلَ ذكرِه في الآيةِ، وتمهيدٌ له[3].

مناسبةُ التَّعبيرِ بالاسمِ الموصولِ (ما) في قوله ﴿مَّا تُحِبُّونَۚ﴾:

مخالفةُ الرُّماة ليست لقصدِ مخالفة أمر الرّسول ﷺ

عبَّر بالاسمِ الموصولِ في قولِه ﴿مَّا تُحِبُّونَۚ﴾؛ لِلإشعارِ بالعمومِ، فيشملَ كلَّ ما رأوه منَ الأعيانِ والأحوالِ ممّا يحبّون، ولِيتوسَّلَ بالصِّلةِ إلى بيانِ سببِ المخالفةِ، أي ممّا يحبُّونه من الظَّفرِ والغنيمةِ وانهزامِ العدوِّ وغيرِها، وفيه إيماءٌ إلى أنّ مَنْ خالفَ مِنَ الرّماة قد عجِل في طلبِ شيءٍ محبوبٍ، وليستْ لِقصدِ مخالفةِ أمرِ رسولِ اللّهِ ﷺ[4].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 5/94، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/128.
(2) ابن يعيش، شرح المفصل: 4/459.
(3) الرّازي، مفاتيح الغيب: 9/388، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/128.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/379، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 2/43، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/129.

نُكتةُ التَّعبيرِ بقوله ﴿أَرَىٰكُم﴾:

عبّرَ بالفعلِ ﴿أَرَىٰكُم﴾، فجاءَ بالرؤيةِ القلبيَّةِ، وأسندَ الفعلَ إلى نفسِه سبحانَه وتعالى، ولم يقلْ (مِنْ بعدِ ما رأيتُم ماتحبّونَ)، فتكونَ الرؤيةُ بصريَّةً؛ لِلإشعارِ بأنَّ ما حصلَ أوّلًا منْ ظهورِ المؤمنينَ على الكافرينَ والظَّفرِ بهم إنَّما كانَ بفعلِ اللّهِ وحُكمِه وأمرِه، وهو أمرٌ يعلمُه النَّظرُ قبلَ البصَرِ.

مناسبةُ الاعتراضِ في قولِه ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنۡيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۚ﴾:

جاءتِ الجملتانِ الاعتراضيّتانِ بينَ المعطوفِ والمعطوفِ عليه[1] لِمعانٍ هي[2]:

1. لمّا وردَ قولُه ﴿فَشِلۡتُمۡ وَتَنَٰزَعۡتُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ وَعَصَيۡتُم﴾ على صيغةِ الجمعِ، وقد يُتَوهَّمُ أنَّ الخطابَ يشملُ جميعَ المؤمنينَ جاءتِ الجملتانِ الاعتراضيَّتانِ؛ لِدفعِ توهُّمِ ما يخالفُ المقصودَ؛ لِيكونَ تأكيدًا لإرادةِ الخصوصِ من ذلكَ العمومِ.

تأكيدُ إرادة الخصوص من العمومِ

2. أفادتِ الجملتانِ الاعتراضيَّتانِ توضيحَ ما أجملَ في قولِهِ ﴿وَتَنَٰزَعۡتُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ﴾، فإنّ لإيضاحِ الشَّيءِ بعد الإجمالِ تأثيرًا في نفس المخاطَبِ لتوجُّهِ ذهنِه إلى طلبِه أكثرَ ممّا لو أتاهُ منْ غيرِ طلبٍ.

3. في الاعتراضِ تنبيهٌ للمخاطبينَ على أنَّ بعضَ المؤمنينَ يريدُ الدُّنيا بحبِّه لِلغنيمةِ وعجلتِه لِاستحصالِها.

حبُّ الدنيا لاينافي الإيمانَ ولكنَّهُ يُضعفُه

4. بدأَ بذكرِ مَنْ يريدُ الدُّنيا لِمجيئه على خلافِ المتوقّعِ من المؤمنين، ولِيكونَ مناسبًا في الاقترانِ لِما ذُكِرَ قبلَه مِنَ اللَّومِ على المخالفةِ.

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 3/380، والسمين، الدر المصون: 3/437

(2) السبكي، عروس الأفراح: 1/618، والدسوقي، حاشية على مختصر المعاني: 2/730، والقونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 6/359، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/129.

إيـــرادُ مـا هو من أبـدعِ بلاغة الإيـجـاز الـدالِّ على الإعجاز

5. أغنتْ الجملةُ الاعتراضيَّةُ الأولى عن أنْ يقولَ: منكمْ مَنْ فشلَ وتنازعَ في الأمرِ وعصى، فأغنى قولُه ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنۡيَا﴾ عنْ ذكرِ ثلاثِ جُملٍ، ففيها مِنْ بلاغةِ الإيجاز ما يدلُّ على أبدعِ وجوهِ الإعجاز، والسِّياقُ قرينةٌ على المرادِ.

نكتةُ التَّقديمِ والتَّأخيرِ في قولِه ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنۡيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۚ﴾:

قدَّم المسنَدَ ﴿مِنكُم﴾ على المسنَدِ إليه ﴿مَّن﴾ في الموضعينِ؛ لِيفيدَ الاهتمامَ فحسب؛ لِيُشعرَ بِأنَّ مخالفتَهم أمرَ رسولِ اللّٰه ﷺ على خلافِ ما يتوقَّعُهُ المؤمنون منهم، ولمّا ذكرَ القَسيمَ الأوَّلَ اقتضى أنْ يكونَ القَسيمُ الثَّاني على وفقِهِ ونسَقِهِ في التَّقديم والتّأخير لِبلاغةِ النَّظمِ، فلا تخصيصَ في التَّقديمِ هنا.

بديعُ التَّفريقِ في قولِه ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنۡيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۚ﴾:

التّفريقُ لبيانِ الـفـرقِ بين المـخـالـفـينَ والطّائعينَ

تضمَّنتِ الآيةُ فنًّا بديعيًّا هو التّفريق[1]، إذ فرّقَ في الوصفِ بين المخالفينَ لِأمرِ رسولِ اللّٰهِ والثَّابتين المحافظينَ على أمرِهِ ﷺ، معَ اجتماعِهما في وصفٍ أعمَّ هو الإيمانُ، لِلإشعارِ بتباينِهما، ولِيُفيدَ لومَ مَنْ يريدُ الدُّنيا ومدحَ مَنْ يريدُ الآخرة، كما دلَّ هذا التّفريقُ على أنَّ مَنْ يخالفُ أمرَ رسولِ اللّٰهِ ﷺ فلحبِّه للدُّنيا، ومَنْ يطيعُهُ فلحبِّه لِلآخرةَ.

دلالة ثمَّ في ﴿ثُمَّ صَرَفَكُمۡ عَنۡهُمۡ﴾:

الـتّراخـي يـدلّ عـلى استبعاد الـهـزيـمـة، والـوثـوق مـنَ النّصر

تفيدُ ثمَّ معنى التَّراخي، ولمّا كان النّصرُ قاب قوسين من المؤمنين دلَّت ﴿ثُمَّ﴾ على أنَّ المؤمنين كانوا يستبعدون الهزيمةَ بعدَ ما رأوا من النَّصرِ والوثوقِ بهِ[2].

(1) السّيوطيّ، شرح عقود الجمان، ص: 119.
(2) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 2/43، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 5/94.

بلاغة الاستعارة التَّمثيلية في قوله ﴿لِيَبْتَلِيَكُمْ﴾:

يعاملُ اللهُ تعالى عبادَه معاملةَ مَنْ يُمتَحَنُ ليُظهرَ لهم صبرَهم على البلاءِ من عدمِه

لمّا كان الابتلاءُ بمعنى الاختبارِ محالًا على اللّهِ تعالى؛ لأنَّ اللّهَ عليمٌ بما في السَّماواتِ وما في الأرضِ أفادَ الكلامُ المجازَ؛ لِيكونَ استعارةً تمثيليَّةً، إذْ شبَّهَ صورةَ الهيئةِ الحاصلةَ منْ إصابةِ اللّهِ عبادَه وإيصالِه إليهم الذي يظهرُ به صبرُهم أو عدمُ صبرِهم بصورةِ الهيئةِ المنتزَعةِ ممّن يختبر إنسانًا في الأمورِ الشَّاقَّة لِيعلمَ امتثالَه وطاعتَه له، فاستعمل قوله ﴿لِيَبْتَلِيَكُمْ﴾ في هذا المعنى، والمرادُ لِيعاملَكم معاملةَ مَنْ يُمتَحَنُ لِيُبيِّنَ أمرَكم، هل تصبرونَ على البلاءِ أمْ لا[1]؟

مناسبةُ التَّأكيدِ في قوله ﴿وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ﴾:

جاء الكلامُ على خلافِ مقتضى الظّاهرِ؛ لاقترانِ الجملةِ بتأكيدينِ هما: اللّامُ الموطِّئةُ للقسمِ و(قد) المفيدةُ لِلتَّحقيقِ، مع أنَّ المخاطبينَ كانوا من المؤمنينَ، فلم يكونوا منكرينَ لعفوِ اللّهِ ليستلزمَ تأكيدَ الكلامِ بتأكيدينِ، ومناسبتُه أنَّه لمّا كانَ فعلُ المخالفين لأمرِ رسولِ اللّهِ أمرًا عظيمًا، ودلَّ عليه إثباتُ معصيتِهم، كانتْ نفوسُهم بمثابةِ المستشرفِ استشرافَ المتحيِّرِ في عفوِ اللّهِ عليهم، فساقَ الكلامَ هذا المساقَ؛ لِبيانِ حالةِ المخاطبين، وأيضًا لِلإشعارِ بأنَّ حالَ المخالفينَ بعدَ ندمِهم على فعلِهم وتركِهم المركزَ الذي أمرَ به رسولُ اللّهِ ﷺ للرُّماةِ بمثابةِ الذي يئسَ منْ عفوِ اللّهِ عنه، فسلكَ هذا الأسلوبَ؛ لِمناسبةِ المقامِ[2].

مناسبةُ مجيءِ العفوِ بعدَ الابتلاءِ:

تسكينُ خواطرِ المؤمنين بعدَ تقريعِهم

وفي ذكرِ العفوِ عقبَ الإخبارِ عنِ الابتلاءِ تسكينٌ لخواطرِ المؤمنينَ المخالفينَ، وفيه تلطُّفٌ معهمْ على عادةِ القرآنِ في تقريعِ المؤمنينَ،

(1) الخفاجي، عناية القاضي: 3/141، والقونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 6/373.
(2) السكاكي، مفتاح العلوم، ص: 172.

كما يُشعرُ بالتَّحذيرِ منَ العودةِ إلى مثلِ هذهِ المعصيةِ، للإيذانِ بأنَّ القتلَ الّذي وقعَ في صفوفِ المسلمين لمْ يكنْ كافيًا في العقابِ المترتِّب عليها، حتّى احتاجَ ذلك إلى عفوِ اللّهِ تعالى عنْ مرتكبيها[1].

حُسنُ التَّذييلِ في قولِهِ ﴿وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾:

في مجيء جملةِ التّذييلِ فوائدُ هي[2]:

1. جاءتِ الجملةُ لِتقريرِ مضمونِ ما قبلَها؛ لِيكونَ على سبيلِ تقريرِ المعنى وتأكيدِه، فوعدُ اللّه بالنَّصر بشرطِه والابتلاءُ والعفْوُ كلُّه مِنْ فضلِ اللّهِ، ففي الابتلاءِ مِنَ اللُّطفِ بالمؤمنين ما لا يخفى بالنَّظرِ إلى مآلِه.

الابتلاءُ والعفوُ من فضلِ اللهِ

2. لمّا أخبرَ اللّهُ تعالى عن نفسِه أنَّه ذو فضلٍ أفادَ أنّه تعالى متفضِّلٌ على المؤمنينَ في جميعِ الأحوالِ، فشأنُه ووصفُه هو التّفضّل.

شأنُ الله تعالى ووصفُه هو التَّفضُّلُ

3. أفادَ مجيءُ الوصفِ على أسلوبِ الجملةِ الاسميَّةِ دوامَ تفضُّلِ اللّهِ على المؤمنينَ واستمرارِه.

4. دلَّ مجيءُ الوصفِ مشتقًّا في قولِهِ ﴿ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ على علَّةِ التفضُّل، فهو تعالى متفضِّلٌ عليهم ماداموا على وصفِ الإيمانِ.

5. إنَّ ذلكَ العفوَ الذي أخبرَ عنه في قولِه ﴿وَلَقَدۡ عَفَا عَنكُمۡۗ﴾ بطريقِ التَّفضُّلِ والإحسانِ لا بطريقِ الوجوبِ عليه سبحانَه وتعالى.

العفوُ فضلٌ منَ اللهِ وليسَ واجبًا عليهِ

6. دلَّ تنكيرُ ﴿فَضۡلٍ﴾ على تفخيمِه وتعظيمِه، إذ وصفُ العظيمِ عظيمٌ.

فضلُ الله عظيمٌ

7. لمّا كانتِ الجملةُ تذييليَّةً، وكانتْ تفيدُ العمومَ والكليَّة؛ لِتكونَ كالمثلِ في مجاري الكلامِ كانَ المرادُ بالمؤمنينَ العمومَ؛ لِتكونَ (أل) جنسيَّةً، ويدخلَ فيه المخاطبونَ بالعفوِ دخولًا أوَّليًّا، ويُحتمَلُ أنْ

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/381، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/130.

(2) الرّازي، مفاتيح الغيب: 9/389، وأبو السّعود، إرشاد العقل السليم: 2/99، والآلوسّي، روح المعاني: 2/303.

يكونَ المرادُ هُمُ الصحابةَ المخالفينَ، وتكونَ (أل) عهديَّةً، ويندرجُ فيهم المؤمنونَ جميعًا، بقرينةِ المقامِ.

8. إنْ كانَ المرادُ من قوله ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ المخاطبينَ وقتَ نزولِ القرآنِ كانَ إظهارُ الاسم في موضعِ الإضمارِ؛ لِتشريفِهم ولِبيانِ أنَّ علَّةَ الحكمِ بالعفوِ عنهم هي فضلُ اللّٰهِ عليهم.

9. أفادَ مجيءُ حرفِ الجرِّ ﴿عَلَى﴾ الاستعلاءَ المعنويَّ؛ لِيُفيدَ استيعابَ فضلِ اللّٰهِ على جميعِ المؤمنينَ.

10. أفادَ وصفُ المخاطبينَ بالإيمانِ أنَّ مخالفةَ أمرِ رسولِ اللّٰهِ وإنْ كانَ من الكبائرِ لكنَّه لا يُخرجُ المؤمنَ من الإيمانِ.

﴿۞ إِذۡ تُصۡعِدُونَ وَلَا تَلۡوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٖ وَٱلرَّسُولُ يَدۡعُوكُمۡ فِيٓ أُخۡرَىٰكُمۡ فَأَثَٰبَكُمۡ غَمَّۢا بِغَمّٖ لِّكَيۡلَا تَحۡزَنُواْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمۡ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمۡۗ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ١٥٣﴾ [آل عمران: 153]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

تعلّق هذه الآية بما قبلها نحويّا ودلاليّا، لبيان الاختبار في الإقدام والفرار

لمَّا ذكر الله تعالى في الآية السّابقة أنّه هو الّذي دفع عن المؤمنين هزيمة المشركين يوم أُحُد، لمّا خالف بعضهم أمر النّبيّ ﷺ، وفرَّ بعضهم منَ الزَّحف - وذكَر عفوه تعالى عنِ الجميع بيَّن سبحانه وتعالى في هذه الآية الصّورةَ الّتي كان عليها المؤمنون في هذه الحالة، وهي فرارُهم ذاهبين في الأرض غير ملتفتين إلى أحد، مع أنّ النّبيّ ﷺ كان في أرض المعركة، يدعوهم إلى الثّبات، وهم مولُّون عنِ القتال، وأشار السّياق إلى أنّ ما فعل بهم ذلك، إلّا ليمرّنهم ويدرّبهم على الشّدائد، ولئلا يحزنوا على ما فات، ولا ما أصابهم من عدوّهم، فالله خبير بأعمالهم ومجازيهم عليها، بإنصاف وعدل[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تُصۡعِدُونَ﴾: مضارع أَصْعَدَ، أي: تفرُّون ذاهبين في الأرض، والإصعاد: هو ابتداء السَّفر، ومنه قول العرب إذا استقبلوا سفرًا بعيدًا: أصعدنا من بلد كذا[2]، وقِيل: وقال الأخفش: أصعد في البلاد: سار ومضى، وأصعد في الوادي: انحدر فيه، وأما صعد فهو ارتقاء[3]، وقِيل: كلّ شيء له أسفل وأعلى كالوادي والنّهر وغيرهما، فيُقال فيه: أصعد، إذا ذهب الذّاهب من أسفله إلى أعلاه[4]. وقِيل:

(1) الزّحيلّي، التّفسير الوسيط: 1/250.
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 1/525.
(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (صعد).
(4) النّيسابوريّ، غرائب القرآن: 2/282.

أصل الإصعاد هو الإبعاد في الأرض مُطلَقًا، سواءٌ أكان ذلك في صعود أو انحدار، ثمّ استُعمل في الإبعاد مُطلَقًا سواء أكان حسِّيًّا أم معنويًّا، كقولهم: أَبْعَدْتَ في قولك كذا[1]، وقرئت بقراءتين، الأولى بضمّ أوّله: ﴿إِذْ تُصْعِدُونَ﴾، ومعناه أي: تلوون منهزمين في الوادي، والثّانية بفتح أوّله: ﴿إِذْ تَصْعَدُونَ﴾، ومعناه أي: تصعدُوا الجبل منهزمين، وقال القتبي: ﴿إِذْ تُصْعِدُونَ﴾ تبعدون في الهزيمة يقال: اصْتَعَدَ في الأرض إذا أمعن[2].

2) ﴿وَلَا تَلْوُونَ﴾: أي: لا تَعطِفون، وأصل اللَّيِّ هو إمالة الشّيء، ومنه قوله تعالى: ﴿لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ﴾ [المنافقون: 5]، أي: أمالوها، ومنه قيل للرّاية: اللِّواء؛ لأنّ الرّياح تلويها[3]، "ويقال: فلان لا يَلْوِي على أحد إذا أمعن فى الهزيمة، قال تعالى: ﴿إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ﴾، وذلك كما قال حسّان بن ثابت رضي الله عنه يوم بدر:

تَرَكَ الأَحِبَّةَ أَنْ يُقَاتِلَ دُونَهُم *** وَنَجَا بِرَأْسِ طِمِرَّةٍ وَلِجَامِ[4].

ومعنى ﴿وَلَا تَلْوُونَ﴾ في السّياق: " عفا الله عنكم في الوقت الّذي وقعتم فيه في الفوضى والاضطراب، وأصبحتم تسيرون في بطن الوادي لَا تقصدون، ولا تبتغون أمرا، ولا تتّبعون غاية، أيًّا كانت، بل تضربون في الأرض وتخبطون خبط عشواء"[5].

3) ﴿أُخْرَىٰكُمْ﴾: أي: آخِركم، فالأُخرى هنا بمعنى المتأخِّرة، تقول العرب: جاء فلان في أخريات النّاس. وأُخرى القوم: أي: في أواخرهم، والتّقدير: في جماعتهم الأخرى، أي: المُتأخِّرة[6]، والمعنى في الآية: يعني أنّه يناديكم من خلفكم: (إليَّ عبادَ الله، إليَّ عبادَ الله)[7].

4) ﴿فَأَثَٰبَكُمْ﴾: أي: جازاكم على صنيعكم، وأصله اللّغويّ يدلُّ على العَود والرّجوع، ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ﴾ [البقرة: 125]، أي: مكانًا يرجعون إليه مرّة بعد أخرى. والثّواب والمَثُوبة: ما يرجع إلى الإنسان من جزاء أعماله، وقيل: هو خاصّ

(1) الرّاغب، المفردات: (صعد).
(2) مكي بن أبي طالب، الهداية: 2/1154.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (لوي)، والرّاغب، المفردات: (لوى).
(4) الأبياريّ، الموسوعة القرآنيّة: (لوى).
(5) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 3/1458.
(6) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/386، وابن منظور، لسان العرب: (أخر).
(7) ابن جرير، جامع البيان: 6/148.

بجزاء الطّاعة[1]، (أثابكم)" أي ألهاكم بذلك الغمّ لئلا تحزنوا على ما فاتكم من الغنيمة، وما أصابكم من القتل والجراح، فهو أنساهم بمصيبة صغيرة مصيبة كبيرة"[2].

5) ﴿غَمًّا﴾: أصل الغمّ لغةً يدلّ على التّغطية والإطباق، ومنه سُمِّي الغمام؛ لأنّه يغطي ضوء الشّمس، وغَمَّه الأمر، أي: اشتمَل الغمُّ قلبَه وغطَّاه، وقيل: سُمّي الغمّ بذلك؛ لأنّه يستر وجه اللّذّة والسّرور[3]، قوله: " ﴿فَأَثَٰبَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ﴾، في الغمّ الأوّل والثّاني تأويلان: أحدهما: أنّ الغمّ الأوّل القتل والجراح، والغمّ الثّاني الإرجاف بقتل النّبيّ ﷺ[4].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

مشهد الهزيمة وتبعاتها النّفسيّة، وأثر نجاة النّبيّ المعصوم في علاج الكُلُوم

قد صرفكم اللّه - معشر المؤمنين - عنِ المشركين يوم أحد، وعفا عنكم حين انطلقتم في الأرض هاربين يوم الهزيمة، لَمَّا خالف بعضكم أمر النّبيّ ﷺ، فأظهر اللّه المشركين عليكم، والرّسول يدعوكم من خلفكم لعدم الفرار، فجازاكم اللّه على هذا غمومًا متوالية، كان أشدّها عليكم ما أُشيع من موت النّبيّ ﷺ، وقد أنزل اللّه بكم هذا، حتّى لا تحزنوا على ما فات منَ النّصر والغنيمة، ولا ما أصابكم منَ القتل والتّنكيل، وذلك بعد علمكم أنّ نبيّكم المعصوم لم يُقتل، فهوَّن هذا عليكم ما أصابكم، واللّه سبحانه وتعالى خبير بأعمالكم، وأحوال قلوبكم.

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالة ﴿إِذْ﴾:

تعظيمُ شأن مخالفةِ أمرِ رسولِ اللّه ﷺ وتركِه في أخراهم

تردُ ﴿إِذْ﴾ في بدايةِ الكلام في أمرٍ ذي شأنٍ بأنْ يكونَ ميثاقًا مؤكَّدًا أو بيانَ نعمةٍ عظيمةٍ أو ارتكابِ ذنبٍ عظيم، ففي مجيئِها إيذانٌ بالتّنبيهِ على أمرٍ عظيمٍ قد وقعَ في زمنٍ ما، بحيثُ يستحقُّ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ثوب)، والرّاغب، المفردات: (ثوب)، وابن منظور، لسان العرب: (ثوب).
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/132.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (غمم)، والنّيسابوريّ، غرائب القرآن: 2/282.
(4) الماورديّ، النّكت والعيون: 1/430.

أنْ يكونَ ما بعدَ (إذْ) مثلًا للذِّكرى والتّدبّرِ والعِظَةِ، فجاءتْ ﴿إِذْ﴾ هنا للتّذكيرِ بحالِهم المزريةِ لِعظمِ فعلِهم بانهزامِهم، في حالِ عدمِ التفاتِهم إلى أحدٍ، وتركِهم رسولَ اللّهِ ﷺ، وهو يدعوهم في أُخراهم.

نكتةُ التّعبيرِ بالمضارعِ في ﴿إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ﴾:

عبّر بالفعلِ المضارعِ في قوله ﴿تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ﴾، لاستحضارِ صورتِهم المزريةِ وفزعِهم وهمّ في حالةِ الإصعادِ والإبعادِ مستشعرينَ الخوفَ، وفي حالةِ عدمِ الالتفات إلى أحدٍ، كما تشعرُ الصيغةُ بأنّ إصعادَهم لم يكنْ دفعةً واحدةً، فكانوا مستمرّين في الهزيمةِ حالًا فحالًا من غيرِ توقُّفٍ لشدّةِ الفزعِ[1].

قولُه تعالى ﴿وَلَا تَلْوُونَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ﴾ بين الكناية والمجاز:

في التّعبيرِ كنايةٌ عن الإمعانِ في الفرارِ والهزيمة

يدلُّ معنى لَوِي الشيء على عطفِه وثنيِه، ثمَّ صارَ كنايةً عن التَّوقُّفِ والانتظار، لأنَّ من شأنِ المنتظِرِ أن يلويَ عنقَه، و﴿وَلَا تَلْوُونَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ﴾ بمعنى لا تثنونَ أعناقكم على أحدٍ ولا تلتفتون، ويلزمه الفرار، ولهذا صارَ كنايةً عن الإمعانِ في الفرارِ والهزيمة، ويحتمل أن يكون الكلامُ على أصلِ المعنى اللغوي، أي لا تُعَرِّجُونَ ولا تنتظرونَ ولا تَلْتَفِتون هَرَبًا[2].

التّمثيل لانتزاعِ الرَّحمة من قلوب الهاربين بالجدِّ في الهروب

كما يحتمل أن يكون اللَّيُّ هنا مجازًا عن الرّحمة والرِّفقِ، والمعنى فَرَرْتُمْ لَا يَرْحَمُ أَحَدٌ أَحَدًا وَلَا يَرْفُقُ بِهِ، وَهَذَا تَمْثِيلٌ لِلْجِدِّ فِي الْهُرُوبِ حَتَّى إِنَّ الْوَاحِدَ لَيَدُوسُ الْآخَرَ لَوْ تَعَرَّضَ فِي طَرِيقِهِ[3]، وتنوُّعُ التَّوجيهِ البلاغيِّ السّليم مِنْ سماتِ إعجازِ القرآنِ.

(1) الراغب، تفسير الراغب: 3/921.
(2) الواحدي، التفسير البسيط: 6/79، والراغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (لوى).
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/131.

دلالةُ العمومِ في قولِه ﴿عَلَىٰٓ أَحَدٍ﴾:

لمّا كانتْ كلمةُ ﴿أَحَدٍ﴾ نكرةً واقعةً في سياقِ النَّفي أفادتِ العمومَ، بمعنى، لا تلتفتونَ على أيِّ أحدٍ، فلم يكنْ همُّكم إلا أنفسَكم.

المبالَغةُ في نفيِ وقوعِ العطفِ مِنْ أحدٍ على أحدٍ

ويحتمل أنْ يكونَ ﴿أَحَدٍ﴾، كنايةً عن النّبيّ ﷺ وإنَّما كُنِّي عن اسمِهِ إجلالًا لهُ وتَعْظِيمًا وَصَوْنًا لِاسْمِهِ أَنْ يُذْكَرَ عِنْدَ ذَهَابِهِمْ وإعراضِهم عَنْهُ[1].

إجلالُ رسولِ اللهِ بصونِ اسمِه أنْ يُذكرَ عندَ الإعراضِ عنه

مناسبةُ الإيجاز في قوله ﴿وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ﴾:

في الكلامِ إيجازٌ بالحَذْف؛ إذ المعنى: ولا يَلوي أحدٌ على أحدٍ منكم، فأوجزَ بالحذفِ[2]، وعبَّرَ بضميرِ الجمعِ إشارةً إلى الفَزَعِ الذي أصابَ المهزومينَ.

مناسبةُ التّعبيرِ بـ ﴿وَٱلرَّسُولُ﴾:

عبَّر بوصفِ الرِّسالةِ؛ لِلإشعارِ بأنَّ دعاءَهُ للفارِّينَ يومَ أُحُد بالثّباتِ كان بوصفِه رسولًا، فكانَ الامتثالُ واجبًا والانهزامُ معصيةً، ففيهِ توبيخٌ للمنهزمينَ الفارِّينَ عنه ﷺ[3]. وَذِكْرُ الرَّسُولِ إِنَّمَا جَاءَ فِي جُمْلَةٍ حَالِيَّةٍ، لِيَنْعَى عَلَيْهِمْ فِرَارَهُمْ مَعَ كَوْنِ المهتدينَ عَلَى يَدِهِ هم المدعُوِّين، فَلَمْ يجىءْ مَقْصُودًا لِأَنْ يُحَدَّثَ عَنْهُ.

توبيخُ المنهزمينَ المُعرضِين عن دعوةِ الرّسولِ ﷺ لهم بالثّباتِ في القتالِ

نكتةُ التّعبيرِ بقولِه: ﴿فِيٓ أُخْرَىٰكُمْ﴾[4]:

لم يكتفِ بقوله ﴿وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ﴾، فذكرَ الظَّرفيَّةَ المكانيَّةَ؛ لِفوائدَ هيَ[5]:

1. لِلإيذانِ بالموضِعِ الذي كانَ فيه رسولُ اللّهِ ﷺ، وهو يدعوهم

كان رسولُ اللهِ ﷺ أشجعَ النّاسِ، وأثبتَهم في ميدانِ المعركةِ

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/386.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/131.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/388، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 5/95، والآلوسّي، روح المعاني: 2/304.
(4) ابن عطية، المحرر الوجيز: 1/526.
(5) الراغب، تفسير الراغب: 3/922، وابن عطية، المحرر الوجيز: 1/526، والرّازي، مفاتيح الغيب: 9/390، وأبو حيّان، البحر المحيط: 3/386.

إليه، بما يدلُّ عليهِ حرفُ الجرِّ (في)، ففيهِ مدحٌ للنَّبيِّ ﷺ ومدحُ شجاعتِه؛ فإنَّ الوقوفَ على أعقابِ الشُّجعانِ إنّما هو للأبطالِ الأنجادِ، وكانَ ﷺ أشجعَ النَّاسِ.

2. في التَّعبيرِ بـ ﴿أُخْرَىٰكُمْ﴾ دلالةٌ على أنَّ مِنَ الصَّحابةِ مَن ثبتَ معَ رسولِ اللّهِ، والمعنى، والرَّسولُ يدعوكم بينَ جماعةِ المتأخّرينَ منكم أَو بينَ الجماعةِ الأخرى الثَّابتةِ معهُ؛ لِيكونَ زيادةً في الغمِّ عليهم.

3. أفادَ التَّعبيرُ دعوةَ الرَّسولِ المنهزمينَ إلى الاجتماعِ معهُ في جماعةِ المتأخّرين الأخرى لِمحاربةِ العدوِّ.

قوله ﴿فَأَثَٰبَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ﴾ بينَ الاستعارةِ التّهكُّميَّةِ والمشاكَلَةِ:

الثَّـــوابُ في طـاعـةِ رسـولِ اللـهِ والـغـمُّ في مخالفتِه

لمّا كان الثوابُ مختصًّا بالخيرِ عرفًا؛ لِغلبتِه فيه كانَ استعمالُه في الغمِّ على سبيلِ الاستعارةِ التَّهكُّمية[1]؛ لِيكونَ على طريقةِ قوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٢١﴾ [آل عمران: 21]، إذ جعلَ الغمَّ مكانَ ما خرجوا لأجلِه، وهو طلبُ الثّواب؛ لِيُفيدَ التَّهكّمُ تذكيرَهم بما خرجوا لَه وتنديمَهم على فعلِهم ومخالفتِهم أَمرَ رسولِ اللّهِ ﷺ.

التّذكيرُ بما نشأ مـن الـغـمِّ من عبرةٍ للمؤمنين

ويحتملُ الكلامُ أنْ يكونَ على طريقةِ المُشَاكَلَةِ التَّقديريَّةِ؛ لِأَنَّهُمْ لَمَّا خَرَجُوا لِلْحَرْبِ خَرَجُوا طَالِبِينَ الثَّوَابَ، فَسَلَكُوا مَسَالِكَ بَاءُوا مَعَهَا بِعِقَابٍ فَيَكُونُ كَقَوْلِ الْفَرَزْدَقِ[2]:

أَخَافُ زِيَادًا أَنْ يَكُونَ عَطَاؤُهُ *** أَدَاهِمَ سُودًا أَوْ مُحَدْرَجَةً سُمْرَا

وَنُكْتَةُ مجيءِ هذهِ الْمُشَاكَلَةِ أَنْ يُتَوَصَّلَ بِهَا إِلَى الْكَلَامِ عَلَى مَا نَشَأَ عَنْ هَذَا الْغَمِّ مِنْ عِبْرَةٍ وعظةٍ، كما تشعرُ المشاكلةُ بتوجُّهِ عِنَايَةِ اللّهِ تَعَالَى إِلَيْهِمْ بَعْدَ الغمِّ.

(1) الراغب، تفسير الراغب: 3/923، والبغوي، معالم التّنزيل: 1/523، والرّازي، مفاتيح الغيب: 9/390.

(2) البيت منَ الطّويل، وهو في ديوان الفرزدق، ص: 169، والأداهم جمع الأدهم، وهو القيد، والمحدرجة هي السّياط المحكَمة الفَتلِ.

نكتةُ التَّعبيرِ بالغَمِّ:

لمّا كان الغمُّ في الأصلِ بمعنى التَّغطيةِ ومنه الغَمامُ؛ لِأنّهُ يُغَطِّي ضوءَ الشّمسِ كما تقدَّمَ في شرحِ المفرداتِ ناسبَ ذكرُه هنا، فكأنَّ الغمَّ يسترُ وجهَ اللَّذَّةِ والسُّرورِ الذي كانَ يحصلُ بالثَّوابِ والغنيمةِ لو لم ينهزموا[1].

خرجَ الصّحابةُ طالبينَ للثّوابِ فلمّا خالفوا أثابهم الغمَّ

دلالةُ الباءِ في قولِهِ ﴿بِغَمٍّ﴾ بينَ السَّببيَّةِ والمعاوضةِ والمصاحبةِ:

تحتملُ الباءُ في قوله تعالى ﴿بِغَمٍّ﴾ ما يأتي[2]:

1. أنْ تكونَ سببيَّة، والمعنى فأثابكم غمًّا بسببِ غمٍّ أذقتموه رسولَ اللَّهِ ﷺ بعصيانِكم له؛ لِيكونَ الملامُ عليهم أشقَّ للتَّذكيرِ بما أصابَ رسولَ اللهِ ﷺ في ذلكَ الوقتِ.

2. أنْ تكونَ للمعاوضةِ، والمعنى إِنَّكُمْ لَمَّا أَذَقْتُمُ الرَّسُولَ غَمًّا بِسَبَبِ أَنْ عصيتُمْ أَمرَهُ، فَاللَّهُ تعالَى أَذاقكُمْ هذا الغَمَّ، وهوَ الغَمُّ الَّذِي حَصلَ لَهُمْ بسبَبِ الِانهزَامِ وَقَتلِ الْأَحبَابِ، وَالْمَعنَى جَازَاكُمْ مِنْ ذَلِكَ الْغَمِّ بِهَذَا الْغَمِّ.

3. أنْ تكونَ للمصاحبةِ، وهو الظّاهرُ، ويُلمحُ فيها معنى الملاصقةِ الذي هو أصلُ معنى الباءِ[3]، والمعنى غمًّا متَّصلًا بغمٍّ مُلتصقًا به؛ للإشارةِ إلى جُمْلَةِ الْغُمُومِ الَّتِي دَخَلَتْ عَلَيْهِمْ من الاغتمام بما أُرجفَ به منْ قتلِ رسولِ اللَّهِ ﷺ، والجرحِ والقتلِ وظفرِ المشركينَ وفوتِ الغنيمةِ والنَّصرِ وغيرِها، وهذا الوجهُ هو الأولى؛ لِأنَّهُ ليسَ يعني بذلك غمّين، بل غموماً كثيرةً متتابعةً متواليةً طويلةً، فيكونُ التّكريرُ على معنى استيعابِ الغمومِ[4].

دلالةُ تنكيرِ قولِه تعالى ﴿غَمًّا بِغَمٍّ﴾:

لمَّا كانَ الظّاهرُ أنْ تكونَ الباءُ على معنى المصاحبةِ، وكانَ المعنى غمومًا كثيرةً متواصلةً ملصقًا أحدُها بالذي بعدَه دلّ التنكيرُ في الغمَّينِ على معنى التَّكثيرِ والتَّفخيمِ، بمعنى تكثيرِ الغمومِ وتفخيمِها[5].

(1) النيسابوري، غرائب القرآن: 2/283.

(2) الزمخشري، الكشاف: 1/427، وابن عطية، المحرر الوجيز: 1/526، والرّازي، مفاتيح الغيب: 9/391، وأبو حيان، البحر المحيط: 3/387.

(3) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 6/361.

(4) الطيبي، فتوح الغيب: 4/303.

(5) أبو السّعود، إرشاد العقل السليم: 2/100.

دلالةُ التّعبيرِ بقولِه ﴿لِّكَيۡلَا﴾:

لمّا كانتِ اللّامُ بمعنى التّعليلِ، وكانت (كي) حرفًا مصدريًّا مفيدًا معنى الاستقبالِ مشرَّبًا معنى التَّعليلِ دلَّ اقترانُ لامِ التَّعليلِ بـ (كي) على تأكيدِ تعليلِ توالي الغمِّ وتتابعِه؛ لِلعنايةِ بالمعلِّل في قوله ﴿لِّكَيۡلَا تَحۡزَنُواْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمۡ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمۡۗ﴾، وتقريرِه في نفوسِ المخاطبينَ[1].

قوله ﴿لِّكَيۡلَا تَحۡزَنُواْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمۡ﴾ بين الكنايةِ والمجيء على الأصلِ:

يُحتملُ أنْ يكونَ الكلامُ على طريقِ الكنايةِ، فإنّه لمَّا كانتِ المجازاةُ بالغمِّ بعدَ الغمِّ سببًا للحزنِ لا لعدمِه كانَ التّعبيرُ بنفي الحزنِ بذكرِ الّلازمِ، والمرادُ هو الملزومُ معَ لازمِه، والمعنى أثابكم غمًّا بغمٍّ؛ لِتتمرَّنوا على تجرُّعِ الغمومِ، وتَضْرَوْا باحتمالِ الشَّدائدِ، ولازمُه هو، فلا تحزنوا فيما بعدُ على فائتٍ من المنافعِ ولا على مصيبٍ مِنَ المضارِّ[2].

التمرُّن على احتمالِ الشّدائدِ يمنعُ من الحزنِ على فوت المنافعِ ومصابِ المضارِّ

ويُحتملُ أنْ يكونَ الكلامُ على الأصلِ مِنْ غيرِ ملازمةٍ فيه، ويكونَ الّلزومُ في دلالةِ ﴿فَأَثَٰبَكُمۡ﴾، والمعنى فأَلْهَاكُمْ بِذَلِكَ الْغَمِّ لِئَلَّا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ مِنَ الْغَنِيمَةِ، وَمَا أَصَابَكُمْ مِنَ الْقَتْلِ وَالْجِرَاحِ، فَهُوَ أَنْسَاهُمْ بِمُصِيبَةٍ صَغِيرَةٍ مُصِيبَةً كَبِيرَةً[3].

دلالةُ تكريرِ ﴿وَلَا﴾ النَّافية:

أفادَ تكريرُ (لا) تأكيدَ نفي الحزنِ وتقريرَه، كما دلَّ على أنَّ الحزنَ على ما فاتَكم من المنافعِ غيرُ الحزنِ على ما أصابكم من المضارِّ، فلكلٍّ نوعٍ أثرُه وتأثيرُه، كما أنَّ تكريرَها يُبعدُ القولَ بزيادتها[4] وما يترتَّبُ عليه من المعاني غير المناسبةِ، فيكون طلبُ نفي الحزن ثابتًا ومقرَّرًا.

---

(1) ابن هشام، مغني اللبيب: 1/242، والسامرائي، معاني النّحو: 3/352.

(2) الزمخشري، الكشاف: 3/388، والطيبي، فتوح الغيب: 4/303، والخفاجي، عناية القاضي: 3/142، والقونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 6/362.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/133.

(4) الخفاجي، عناية القاضي: 3/142.

بديعُ الطِّباقِ في قولِه ﴿مَا فَاتَكُمْ﴾ و﴿مَآ أَصَبَكُمْ﴾:

لَمَّا كانَ الفوتُ يدلُّ على بُعْدِ شيءٍ مرغوبٍ فيهِ عن الإنسان بحيث يتعذّر إدراكه، وكانَت الإصابة تدلُّ على ضررٍ يلحقُ بالشّيء وينزلُ به أفادَ الجمعُ بينَ ﴿مَا فَاتَكُمْ﴾ و﴿مَآ أَصَبَكُمْ﴾ طباقًا لطيفًا، ثمَّ إنَّهُ يُؤْذِنُ بِطِبَاقٍ آخَرَ مُقَدَّرٍ بينَ النّافعِ والضَّارِّ؛ لِأَنَّ مَا فَاتَ هُوَ النَّافِع وَمَا أَصَابَ هُوَ مِنَ الضَّارِّ[1].

كلّ شيءٍ بتقدير الله، ما فات المؤمنَ وما أصابه

حسنُ التّذييلِ بقولِه ﴿وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾:

أفادتْ هذهِ الجملةُ فوائدَ، هي[2]:

1. التَّهْدِيدُ لِمَنْ يعملُ عملًا مخالفًا لأَمرِ اللّهِ أو لِأَمرِ رسولِ اللّهِ ﷺ، وتقتضي وجوبَ الحذرِ مِن المخالفةِ، فإنَّ اللّه تعالى إذا كانَ خبيرًا بعَمَلِنا فسوف يُحاسبنا.

كونُ الله خبيرًا بأعمال العبادِ يقتضي إحسانَها وتجنُّبَ إساءتِها

2. وَخَصَّ الْعَمَلَ هُنَا وَإِنْ كَانَ تَعَالَى خَبِيرًا بِجَمِيعِ الْأَحْوَالِ مِنَ الْأَعْمَالِ وَالْأَقْوَالِ وَالنِّيَّاتِ، تَنْبِيهًا عَلَى أَعْمَالِهِمْ مِنْ تَوْلِيَةِ الْأَدْبَارِ وَالْمُبَالَغَةِ فِي الْفِرَارِ، للإشعارِ بأنّها أَعْمَالٌ تُخْشَى عَاقِبَتُهَا وَعِقَابُهَا

3. أفادت الجملةُ عمومَ المعنى، فالخطابُ وإنْ كانَ لِلحاضرينَ وقتَ نزولِ القرآنِ، لكنَّهُ قُصِدَ بِهِ العمومُ لِكلِّ مخاطَبٍ؛ لِيكونَ الخطابُ لكلِّ تالٍ لِلقرآنِ مخاطَبٍ به.

4. لَمَّا كانتْ هذهِ الجملةُ على معنى العمومِ أفادتْ أنّها تجري مَجرى المَثَلِ.

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الصّعود والإصعاد:

قوله تعالى: ﴿تُصۡعِدُونَ﴾ هو بضمّ التّاء وكسر العين، مضارع

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/133.

(2) أبو حيان، البحر المحيط: 3/389.

أَصْعَد، والأكثرون على أنّ الإصعاد هو الذّهاب في مستوي الأرض وبطون الأودية؛ وهو ما حدث يوم أحدٍ؛ إذ كان انحياز من فرَّ منَ المسلمين بعد انكشاف ظهورهم إلى بطن الوادي، وعليه تدلّ القراءة الشّاذة المرويّة عن أُبَيٍّ رضي الله عنه: (إِذ تُصعِدُونَ في الوادي)[1]. أمّا الصّعود فهو ما يكون على الجبل والسُّلَّم، ونحوهما ممّا ارتفع منَ الأرض؛ ولذا لم يُعبَّر به في الآية[2]. والفرقُ بين الإصعاد والصّعود، أنّ الإصعاد في مستوى الأرض المنبسط، والصّعود يكون في ارتفاع، وهذا قول الفرّاء، وأبي العبّاس، والزّجّاج، وروي عن ابن عبّاس أنّهم صعدوا في جبل أحد فرارا[3]، قالوا: " الهرب في مستوى الأرض، وبطون الأودية والشّعاب إصعاد لا صعود، قالواْ: وإنّما يكون الصّعود على الجبال والسّلاليم والدّرج؛ لأنّ معنى الصّعود الارتقاء والارتفاع على الشّيء علوًّا، قالوا: فأمّا الأخذ في مستوى الأرض الهبوط، فإنّما هو إصعاد، كما يقال: أصعدنا من مكَّة، إذا ابتدأت في السّفر منها والخروج، وأصعدنا من الكوفة إلى خراسان، بمعنى خرجنا منها سفرًا إليها، وابتدأنا منها الخروج إليها"[4].

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 1/525.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 6/145، والآلوسّي، روح المعاني: 2/303.
(3) الماورديّ، النّكت والعيون: 1/429.
(4) ابن جرير، جامع البيان: 6/146.

﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾﴾ [آل عمران: 154]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لمّا وعدَ اللّهُ تعالى المؤمنين بالنَّصر على الكافرين، وهذا النَّصرُ لا بدَّ وأن يكونَ مسبوقًا بإزالةِ الخوفِ عنِ المؤمنين، بيَّنَ في هذه الآيةِ إزالتَه عنهم ليصيرَ ذلك كالدَّلالةِ على أنه تعالى يُنجزُ وعدَه في نصر المؤمنين. وبيَّن أنّه نصرَ المؤمنين أوّلًا، فلمّا عصى بعضُهم سلَّط الخوفَ عليهم، ثم ذكرَ أنّه أزال ذلك الخوفَ عن قلبِ مَن كان صادقًا في إيمانِه مستقرًّا على دينه بحيث غلبَ النُّعاسُ عليه[1]. وفي ذلك تأديبٌ لما وقَعَ مِن بَعْضِهِمْ مِنَ الخَلَلِ الظّاهِرِ؛ ثم عَفا عَنْهم بعد التأديب، ورَحِمَهُمْ؛ وطَيَّبَ قُلُوبَهم بِهَذِهِ الآيَةِ[2]، باثًّا الاطمئنانَ إلى قُدرِه المقدورِ، والثّقةِ في المستقبل تحقيقًا لوعدِه بنصر عبدِه ونبيّه محمدٍ ﷺ[3].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَنزَلَ﴾: النُّونُ وَالزَّاي وَاللَّامُ كَلِمَةٌ صَحِيحَةٌ تَدُلُّ عَلَى هُبُوطِ شَيْءٍ وَوُقُوعِهِ، وَنَزَلَ عَنْ دَابَّتِهِ نُزُولًا، وَنَزَلَ المَطَرُ مِنَ السَّمَاءِ نُزُولًا، فأصلُ النُّزول انحطاطٌ من عُلوٍّ إلى سُفْلٍ[4]،

(1) الرّازي، مفاتيح الغيب: 9/393.
(2) نظم الدرر، البقاعي: 2/272.
(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 3/1459.
(4) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (نَزَلَ).

وأفعالُ النُّزول، والتنزيل، والإنزال، وما اشتقَّ منها واضحةٌ يتحقَّق فيها معنى الهبوطِ إلى مقرٍّ، ومنَ الخُلوص إلى الاستقرار بين البشر[1]، وهو معنى اللّفظةِ في الآية الكريمة.

2) ﴿ٱلۡغَمِّ﴾: الغَيْنُ وَالميمُ أَصْلٌ وَاحِدٌ صَحِيحٌ يَدُلُّ عَلَى تَغْطِيَةٍ وَإِطْبَاقٍ،[2]، والغمُّ: سَترُ الشَّيء، ومنه: الغَمَامُ لكونِه ساترًا لضُوء الشَّمس، والغُمّةُ: الكُربةُ[3]، و"الغَمَاءُ: الشّديدةُ من شدائدِ الدَّهرِ، وإنهم لفي غَمّاءٍ من أمرهم إذا كانوا في أمرٍ مُلتبسٍ شديدٍ"[4]، فغَمَّه الأمر: فاغتمَّ وانْغَمَّ كأنه يُطْبقُ عليه، ويكبسُ على نَفَسه، والغُمَّة: الكربُ، والضِّيقُ، والظُلمةُ، والحزنُ. والذي في القرآن منَ هذا التَّركيب فهو بمعنى: الكرْب، نعوذ باللّه منه[5].

3) ﴿أَمَنَةً﴾: الهمزةُ والميمُ والنُّونُ أصلانِ مُتَقَارِبَانِ، مُتَدَانِيَانِ: أَحَدُهُمَا الأَمَانَةُ الَّتِي هي ضِدُّ الخِيَانَةِ، وَمَعْنَاهَا سُكُونُ القَلبِ، والآخَرُ: التَّصْديقُ[6]، ومعنى الأمن وفاقَ هذين الأصلين: طمأْنينةُ النَّفس وزوالُ الخوفِ[7]، فالأَمْنُ: ضدُّ الخوف[8]، "كأنَّ الآمِنَ تمكَّن في حِصْن، أو امتلأ قلبُه امتلاءً شديدًا بما يُطَمْئِنُه"[9]، وهو الأمان، على أهل الإخلاص منكم واليقين[10]، وهو معنى اللّفظةِ في الآية المباركة، واللّه أعلم.

4) ﴿نُّعَاسًا﴾: النُّونُ وَالعَيْنُ وَالسِّينُ أُصْلٌ يَدُلُّ عَلَى وَسَنٍ[11]، وحَقِيقَةُ النُّعاس: السِّنَةُ من غير نوم[12]، أو: أوَّلُ النَّوم[13]، أو النّومُ القليلُ[14]، وقد ألمحَ الجوهريُّ إلى أنّه قد يكونُ متّصلًا دائمًا، قال: " النُّعاس: الوسَنُ، وفي المثل: " مَطْلٌ كنُعاسِ الكلبِ "، أي متَّصلٌ دائمٌ"[15]،

(1) جبل، المعجم الاشتقاقي: (نَزَلَ).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (غَمَّ).
(3) الجوهري، الصحاح: (غمم)، والراغب، المفردات: (غمَّ).
(4) الخليل، العين: (غمَمَ).
(5) جبل، المعجم الاشتقاقي: (غمم - غمغم).
(6) ابن فارس، المقاييس: (أَمَنَ).
(7) الخليل، العين، والأزهري، التهذيب، والراغب، المفردات، والسمين، عمدة الحفاظ: (أَمِنَ).
(8) الجوهري، الصحاح: (أمن).
(9) جبل، المعجم الاشتقاقي: (أمن).
(10) ابن جرير، جامع البيان: 6/159.
(11) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نَعَسَ).
(12) الأزهري، تهذيب اللغة: (نَعَسَ).
(13) ابن الأثير، النهاية: (نَعَسَ).
(14) الراغب، المفردات: (نَعَسَ).
(15) الجوهري، الصحاح: (نَعَسَ).

والنُّعاسُ هنا: يحتَملُ أنْ يكون نومًا، أو مقاربةَ النَّوم، أو ثِقْلتَه[1]، كما ورد عن أَبِي طَلْحَةَ، رضي الله عنه، قَالَ: "كُنْتُ فِيمَنْ تَغَشَّاه النُّعَاسُ يَوْمَ أُحُد، حَتَّى سَقَطَ سَيْفِي مِنْ يَدِي مِرَارًا، يَسْقُطُ وَآخُذُهُ، وَيَسْقُطُ وَآخُذُهُ"[2].

5) ﴿يَغْشَىٰ﴾: الغَيْنُ وَالشِّينُ وَالحَرْفُ المُعْتَلُّ أَصْلٌ صَحِيحٌ يَدُلُّ عَلَى تَغْطِيَةِ شَيْءٍ بِشَيْءٍ، يُقَالُ غَشَّيْتُ الشَّيْءَ أُغَشِّيهِ، وَالغِشَاءُ: الغِطَاءُ، وَالغَاشِيَةُ: القِيَامَةُ؛ لِأَنَّهَا تَغْشَى الخَلقَ بِإِفْزَاعِهَا[3]، فغشيَه: سترَه، والغشاوةُ: ما يُغطَّى به الشّيءُ[4]، بكثيف يعمُّه، وكلُّ الفعل (غَشِيَ) و(غَشَّى)، و(أَغْشَى)، و(استَغْشَى)، والمضارُع منهنَّ فهي بمعنى التّغطية: إما بمادّة حقيقيةٍ كالموجِ، والنّارِ، والدّخانِ، والظلامِ، والعذابِ، وإمّا بما يُتَصور كذلك كالنُّعاسِ وإفقادِ الرّؤيةِ والشّعورِ، أو بأمرٍ غيبيٍّ[5].

6) ﴿طَآئِفَةً﴾: الطَّاءُ والوَاوُ والفَاءُ أَصْلٌ وَاحِدٌ صَحِيحٌ يَدُلُّ عَلَى دَوَرَانِ الشَّيْءِ عَلَى الشَّيْءِ، وَأَنْ يُحَفَّ بِهِ. ثُمَّ يُحْمَلَ عَلَيْهِ، وكُلُّ جَمَاعَةٍ يُمْكِنُ أَنْ تَحُفَّ بِشَيْءٍ فهي عندهم طَائِفَةٌ، فالطَّائِفَةُ مِنَ النَّاسِ كَأَنَّهَا جَمَاعَةٌ تُطِيفُ بِالوَاحِدِ أَوْ بِالشَّيْءِ، وَلَا تَكَادُ العَرَبُ تَحُدُّهَا بِعَدَدٍ مَعْلُومٍ[6]، فالطائفة منَ النّاس: جماعةٌ منهم، ومنهم من حدَّها بالرَّجل فما فوقه، والواحدِ إلى الألف[7]، وقد يَتَوَسَّعُونَ في لفظها مِنْ طَرِيقِ المَجَازِ فَيَقُولُونَ: أَخَذْتُ طَائِفَةً مِنَ الثَّوْبِ، أَيْ قِطْعَةً مِنْهُ، وهذا على معنى المَجَاز؛ لِأَنَّ الطَّائِفَةَ مِنَ النَّاسِ كَالفِرْقَةِ والقِطْعَةِ مِنْهُمْ[8].

7) ﴿أَهَمَّتْهُمْ﴾: "الهَاءُ وَالمِيمُ: أَصْلٌ صَحِيحٌ يَدُلُّ عَلَى ذَوْبٍ وَجَرَيَانٍ وَدَبِيبٍ وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، ثُمَّ يُقَاسُ عَلَيْهِ. مِنْهُ قَوْلُ العَرَبِ: هَمَّنِي الشَّيْءُ: أَذَابَنِي"[9]، وهمَّهُ الحزنُ والمَرَض

(1) ابن سيده، المحكم: (نَعَسَ).
(2) رواه البخاري في صحيحه الحديث رقم: (4562، 4068)، والترمذي في سننه، الحديث رقم: (3007، 3008)، والنسائي في السنن الكبرى، الحديث رقم: (11080).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (غَشَق).
(4) الراغب، المفردات: (غشي).
(5) جبل، المعجم الاشتقاقي: (غشي).
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (طَوَفَ).
(7) الراغب، المفردات: (طوف).
(8) ابن فارس، مقاييس اللغة: (طَوَفَ).
(9) ابن فارس، مقاييس اللغة: (هَمَّ).

إذا أذابَه[1]، فالهَمُّ: الحُزنُ الذي يُذيبُ الإنسانَ، وأهَمَّني الأمرُ، إذا أقلقَني وأحزَنَني. والاهتمامُ: الاغتمامُ[2]، وأصلُه: ما همَمْتَ أو حدَّثتَ بِهِ نفسَك، وأهمَّني كذا، أي: حملَني على أن أهُمَّ به[3]. وهذه الطائفة: هم المُنَافِقُونَ لَيْسَ لَهُمْ هَمٌّ إلَّا أنفسهُم.

8) ﴿يَظُنُّونَ﴾: الظَّاءُ وَالنُّونُ أُصَيْلٌ صَحِيحٌ يَدُلُّ عَلَى مَعْنَيَيْنِ مُخْتَلِفَيْنِ: يَقِينٍ وَشَكٍّ. فأمّا الشَّكُّ، فيُقَالُ: ظَنَنْتُ الشَّيْءَ، إِذَا لَمْ تَتَيَقَّنْهُ، وَمِنْ ذَلِكَ الظِّنَّةُ: التُّهْمَةُ. وَالظَّنِينُ: المُتَّهَمُ، الظَّنينُ: المُعادي، وهو موضعُ ظنّتي أي تُهْمَتي، والظَّنُونُ: الرجلُ السَّيِّئُ الظَّنِّ بكلِّ أحَدٍ[4].

والظنُّ: "اسمٌ لما يحصلُ عن أمارةٍ، ومتى قويتْ أدّت إلى العلم، ومتى ضعُفت جدًّا لم يتجاوزْ حدَّ التّوهُّم"[5]، و"هو الاعتقادُ الرّاجحُ مع احتمال النّقيضِ"[6]، وليس الاعتقادَ الجازمَ، فهو الوهمُ الملازمُ للضّعفِ، المُسيطرُ على النَّفس[7]، وهو معنى الظنّ في الآية فضلًا عنِ احتماله معنى: التُّهمةِ، والله أعلم.

9) ﴿ٱلْحَقِّ﴾: الحاء والقاف أصْلٌ واحدٌ يدلُّ على إحْكَام الشَّيء وصحّتِه[8]، وأصلُه: المطابقةُ، والموافقةُ[9]، والحقُّ نقيضُ الباطل، وهو: إيجابُ الحُكم[10]، وصدقُ الحديثِ، واليقينُ بعد الشكِّ، والإحكامُ، والتّصحيحُ[11]، والإثباتُ[12]، ومن جميل مظاهرِ قَصديةِ الانتقاء القرآنيِّ للألفاظ أن تكونَ لفظةُ (الحقِّ) مُتضمّنةً للمعاني المُعجميةِ التي وردتْ تفسيراتٍ لها.

10) ﴿ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾: الجهلُ على ثلاثة أضْرُبٍ: خلوُّ النّفس منَ العلم، وهو الأصلُ،

(1) ابن دريد، جمهرة اللغة: (همم).
(2) الجوهري، الصحاح، والراغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (همم).
(3) الراغب، المفردات: (همم).
(4) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة: (ظَنَّ).
(5) الراغب، المفردات: (ظنَّ).
(6) المناوي، التوقيف، ص: 493.
(7) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 3/1462.
(8) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حق).
(9) الراغب، المفردات: (حق).
(10) الخليل، العين: (حق).
(11) الأزهري، التهذيب: (حق).
(12) ابن سيده، المحكم: (حق).

واعتقادُ الشيء بخلاف ما هو عليه، وفعلُ الشّيء بخلافِ ما حقُّه أنْ يُفعلَ[1]، فالجيمُ وَالهَاءُ وَاللَّامُ أَصْلَانِ: أَحَدُهُمَا: "نقيضُ العِلم. تقول: جَهِلَ فلانٌ حقَّه، وجَهِلَ عليّ، وجهلَ بهذا الأمر، والجَهالةُ: أن تفعلَ فِعلاً بغير عِلم، والجاهليّةُ الجَهْلاء: زمانُ الفترةِ قبلَ الإسلام"[2]، وهو: اسْمٌ وَقع فِي الإِسْلَام على أهل الشّرك بيانًا للحالِ التي كان عليها العربُ قبل الإسلام من الجَهلِ باللّه ورسولِه وشرائعِ الدِّين، والمفاخرةِ بالأنساب والكِبْر والتّجبُّر وغيرِ ذلك، ولعلَّ منه قيل: إنّ الجهل: ضدُّ الحِلْم، وقيل: ضدُّ العلم؛ لأنّ الجاهلَ خالي الذِّهنِ منَ المعلومات[3]، والظاهرُ أنّ النّسبة فيه هي إلى الجاهل، أي: الذي لا يعلمُ الدِّينَ والتّوحيدَ، فإنّ العربَ أطلقتِ الجهلَ على ما قابلَ الحِلمَ، وأطلقتِ الجهلَ على عدمِ العلم[4].

11) ﴿ٱلْأَمْرَ﴾: الهَمْزَةُ وَالمِيمُ وَالرَّاءُ أُصُولٌ خَمْسَةٌ: أحدُها: الأَمْرُ مِنَ الأُمُورِ، ومنه قَوْلُهُمْ: هَذَا أَمْرٌ رَضِيتُهُ، وَأَمْرٌ لَا أَرْضَاهُ. وفي المَثَلِ: (أَمْرٌ مَا أَتَى بِكَ). وَمِنْ ذَلِكَ فِي المَثَلِ: (لِأَمْرٍ مَا يُسَوَّدُ مَنْ يَسُودُ)[5]. فالأمر: الشّأنُ، وجمعُه أمورٌ، وهو لفظٌ عامٌّ للأفعال والأقوال كلِّها[6]. والمعنى في الآية المباركة: ليس لنا رأي، ولا يسمع قولنا، أو ليس لنا من أمرٍ يُطاعُ[7]؟ فالأمرُ بمعنى السِّيادة الذي منه الإمارةُ، ومنه أولُو الأمرِ[8]. أو: لسنا على شيء من الأمر الحق

12) ﴿يُخْفُونَ﴾: الخَاءُ وَالفَاءُ وَاليَاءُ أَصْلَانِ مُتَبَايِنَانِ مُتَضَادَّانِ، فَالأَوَّلُ السَّتْرُ، وَالثَّانِي الإِظْهَارُ[9]، والخافِيةُ ضدُّ العلانية، ولقيته خفياً أي: سِرًّا[10]، وخفيتُ الشّيَء أُخفيه: سترتُه وكتمتُه[11]، وخَفيَ الشّيءُ: لم يظْهرْ. وفي التَّنْزِيل: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾ [طه:

(1) الراغب، المفردات: (جهل).
(2) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة: (جَهِلَ).
(3) ابن دريد، جمهرة اللغة، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (جهل).
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/136.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أَمَرَ).
(6) الراغب، المفردات: (أَمَرَ).
(7) الرّازي، مفاتيح الغيب: 9/395، وابن جزي، التسهيل: 1/168.
(8) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/135.
(9) ابن فارس، مقاييس اللغة: (خَفِيَ).
(10) الخليل، العين: (خفي).
(11) الجوهري، الصحاح: (خفى).

15]، أَي: أسترُها وأواريها[1]، فالمعنى المحوريُّ استتارُ الشّيء استتارًا ضعيفًا بحيث يظهرُ من وراء السّاترِ ظُهورًا ضعيفًا[2].

13) ﴿يُبْدُونَ﴾: البَاءُ وَالدَّالُ وَالوَاوُ أَصْلٌ وَاحِدٌ، وهو ظُهُورُ الشَّيْءِ، يُقَالُ: بَدَا الشَّيْءُ يَبْدُو: إِذَا ظَهَرَ، فَهُوَ بَادٍ[3]، وَسُمِّيَ خِلَافُ الحَضَرِ بَدْوًا مِنْ هَذَا؛ لِأَنَّهُمْ فِي بَرَازٍ مِنَ الأَرْضِ، وَلَيْسُوا فِي قُرًى تَسْتُرُهُمْ أَبْنِيَتُهَا[4]، فالمعنى المحوريُّ هو بروزٌ بقوّةٍ أو تجسّمٍ مع امتدادٍ وجَوْزٍ، وسائرُ ما في القرآن منَ هذا التَّركيب هو منَ البُروز والظُّهور[5].

14) ﴿لَبَرَزَ﴾: البَاءُ وَالرَّاءُ وَالزَّاءُ أَصْلٌ وَاحِدٌ، وهو ظُهُورُ الشَّيْءِ وَبُدُوُّهُ، قِيَاسٌ لَا يُخْلِفُ. وهو: انْفِرَادُ الشَّيْءِ مِنْ أَمْثَالِهِ[6]، نَحْوَ: تَبَارُزِ الفَارِسَيْنِ، وَذَلِكَ أَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا يَنْفَرِدُ عَنْ جَمَاعَتِهِ إِلَى صَاحِبِهِ، والبَرازُ: المكانُ الفضاءُ منَ الأرض، البعيدُ الواسعُ[7]. وبَرَزَ الرجل: ظهر بعد الخفاء، وخَرَجَ، والشّيءَ: أظهرتُهُ وبيَّنْتُه، وذلك إمّا أن يظهر بذاته، كالمبارزة للقتال، وإما أن يظهرَ بفضله، وهو أن يَسبقَ في فعلٍ محمودٍ؛ وإمّا أن ينكشفَ عنه ما كان مستورًا منه[8]، وهو خُلوصُ الشّيء أو ظهورُه ظهورًا قويًّا، أي: نفاذُه من بين ما يكتنفُه بجَهد وقوةٍ، ومنه معنى ﴿لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ﴾ في الآية الكريمة، أي: لدُفعوا إلى الخروج إليها[9].

15) ﴿كُتِبَ﴾: الكَافُ وَالتَّاءُ وَالبَاءُ أَصْلٌ صَحِيحٌ وَاحِدٌ يَدُلُّ عَلَى جَمْعِ شَيْءٍ إِلَى شَيْءٍ[10]. وَقد كَتَب الكتابَ يَكْتُبُهُ كَتْبًا إذا جمع حُرُوفَه[11]، والكتابُ: الفَرْضُ والحُكْمُ والقَدَر[12]؛ إذ به يُعبَّرُ عنِ الإثبات والتّقديرِ والإيجابِ والفرضِ والعزمِ والإلزامِ، ووجهُ ذلك أنَّ الشّيء

(1) ابن سيده، المحكم، والراغب، المفردات: (خفى).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقي: (خفو - خفي).
(3) الخليل، العين: (بدو، بدأ)، وابن فارس، مقاييس اللغة: (بَدَوَ).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بَدَوَ).
(5) جبل، المعجم الاشتقاقي: (بدو).
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بَرَزَ).
(7) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة: (بَرَزَ).
(8) الخليل، العين، والجوهري، الصحاح، والراغب، المفردات: (برز).
(9) جبل، المعجم الاشتقاقي: (بَرَزَ).
(10) ابن فارس، مقاييس اللغة: (كَتَبَ).
(11) ابن دريد، جمهرة اللغة: (كتب).
(12) الجوهري، الصحاح: (كتب).

يُرادُ، ثم يُقال، ثم يُكتبُ، فالإرادةُ مبدأٌ، والكتابةُ مُنتهى، ثم يعبَّرُ عنِ المراد الذي هو المبدأُ إذا أريدَ توكيدُه بالكتابة التي هي المُنتهى، ومنه ﴿لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَتۡلُ﴾ [آل عمران: 154][1]، وسائرُ ما في القرآن منَ هذا التَّركيب فهو عدا كُتُبِ اللّٰه المنزّلةِ بمعنى الفرضِ أو القضاءِ بأمر، والتَّسجيلِ كتابةً أو في كتاب[2].

16) ﴿مَضَاجِعِهِمۡۖ﴾: الضَّادُ وَالجِيمُ وَالعَيْنُ أَصْلٌ وَاحِدٌ يَدُلُّ عَلَى لُصُوقٍ بِالأَرْضِ عَلَى جَنْبٍ، ثُمَّ يُحْمَلُ عَلَى ذَلِكَ ما التحق به من معانٍ[3]، وضَجَعَ فلانٌ ضُجوعاً، أي نَامَ، وقيل: اسْتلقى. واضتجعَ: وضع جنبَه بالأرض[4]. وأصلُ بِنَاء الفِعْل منَ الاِضْطِجَاع[5]، واسمُ الموضع: المضجعُ والمضطجَعُ[6]، وهو استلقاءٌ أو انطراحٌ بثقلٍ يُريحُ، كالاضطجاع لثقلِ البدن أو استرخائِه، والذي جاء في القرآن الكريم من هذا التَّركيب هو (المضاجعُ) جمع المضْجَع: موضعُ الاضطجاع ومكانُه. أما في الآية الكريمة هنا ﴿إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمۡۖ﴾ فالمضاجعُ فيها: المصارِعُ، وهي الأماكنُ التي قُتِلوا فيها سُمّيتْ بذلك لضجعةِ المقتول فيها[7].

17) ﴿وَلِيَبۡتَلِيَ﴾: البَاءُ واللَّامُ والوَاوُ واليَاءُ، أَصْلَانِ: أَحَدُهُمَا إِخْلَاقُ الشَّيْءِ، وَالثَّانِي نَوْعٌ مِنَ الاِخْتِبَارِ[8]، والبَلوَى: التَّجْرِبة[9]، وبلوتُه بلوًا: جربتُه واختبرتُه[10]، ويقال: بَلِيَ الثّوبُ بِلًى وبَلاءً، أي: خَلِق، ومنه سُمّي البلاءُ اختبارًا كأنَّ المُبتلى أُخْلِق من كثرة الاختبار، وسُمّي التّكليفُ بلاءً من أوجُه: أحدُها: أنَّ التّكاليفَ كلَّها مشاقٌّ على الأبدان، فصارت من هذا الوجه بلاءً. والثاني: أنها اختباراتٌ، والثالث: أنَّ اختبارَ اللّٰه تعالى للعباد تارةً بالمسارِّ ليشكُروا، وتارة بالمضارِّ ليصبِرُوا، فصارتِ المحنةُ والمنحةُ جميعا بلاءً، فالمحنةُ

(1) الراغب، المفردات: (كتب).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقي: (كتب).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ضَجَعَ).
(4) الخليل، العين: (ضَجَعَ)، وابن سيده، المحكم: (ضَجَعَ).
(5) الأزهري، تهذيب اللغة: (ضَجَعَ).
(6) ابن دريد، جمهرة اللغة: (ضَجَعَ).
(7) جبل، المعجم الاشتقاقي: (ضَجَعَ).
(8) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بَلَوِيٌّ).
(9) الخليل، العين: (بلو - بلي).
(10) الجوهري، الصحاح: (بلا).

مقتضيةٌ للصبرِ، والمنحةُ مقتضيةٌ للشُّكرِ[1]. وجلُّ ما ورد من هذا التَّركيب - في كتاب اللّه - منَ الفعل فهو بمعنى الشّدّة مع الاختبار (تبيُّنُ الحال)[2].

18) ﴿صُدُورِكُمْ﴾: الصَّادُ وَالدَّالُ وَالرَّاءُ أَصْلَانِ صَحِيحَانِ، أَحَدُهُمَا: صَدْرُ الإِنْسَانِ وَغَيْرُهُ. والجَمْعُ: صُدُورٌ[3]. فالصَّدْرُ: أعلى مُقَدَّمِ كُلِّ شيءٍ، وصُدْرةُ الانسانِ: ما أَشْرفَ من أعلى صدره[4]، وهو: الجارحةُ، وليس في القرآن منَ هذا التَّركيب إلا (يَصْدرُ) و(يُصْدِر) ثم (صَدْر) الإنسان وجمعُه (صُدُور)[5]، ومعنى اللّفظ في الآية الكريمةِ: ما في صدوركم من الشك، أو ما في صُدُورِكم بِأعْمالِكم[6].

19) ﴿وَلِيُمَحِّصَ﴾: المِيمُ وَالحَاءُ وَالصَّادُ أَصْلٌ وَاحِدٌ صَحِيحٌ يَدُلُّ عَلَى تَخْلِيصِ شَيْءٍ وَتَنْقِيَتِهِ مِنْ كُلِّ عَيْبٍ، والمَحْصُ: خُلُوصُ الشَيء، ومَحَصَ اللّهُ العَبْدَ مِنَ الذَّنْبِ: طَهَّرَهُ مِنْهُ وَنَقَّاهُ[7]، والتَّمحيص: الابْتِلاءُ والاختِبارُ[8]. ويأتي التَّمحيصُ بمعنى التّزكيةِ والتّطهيرِ كما في لفظ الآيةِ المباركةِ[9].

20) ﴿قُلُوبِكُمْ﴾: القَافُ واللَّامُ والبَاءُ أَصْلَانِ صَحِيحَانِ: أَحَدُهُمَا يَدُلُّ عَلَى خَالِصِ شَيْءٍ وَشَرِيفِهِ، وَالآخَرُ عَلَى رَدِّ شَيْءٍ مِنْ جِهَةٍ إِلَى جِهَةٍ، فَالأَوَّلُ القَلْبُ: قَلْبُ الإِنْسَانِ وَغَيْرِهِ[10]، وهي "مضغةٌ منَ الفؤاد معلّقةٌ بالنّياط"[11].

وسُمِّيَ بذلك؛ لأنه أخلصُ شيءٍ فيه وأرفعُه؛ فخالصُ كلِّ شيءٍ وأشرفُهُ قلبُهُ. ومنه قولُهم: عربيٌّ قلبٍ[12]، أو لأنها أهمُّ ما في الباطن، وأقواه[13]. وقد يؤولُ معنى القلبِ

(1) الراغب، المفردات: (بلى).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقي: (بلو - بلى).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (صَدَرَ).
(4) الخليل، العين: (صَدَرَ).
(5) جبل، المعجم الاشتقاقي: (صَدَرَ).
(6) ابن جرير، جامع البيان: 7/527، والآلوسي، روح المعاني: 2/310.
(7) الخليل، العين: (محص)، وابن فارس، مقاييس اللغة: (مَحَصَ).
(8) الجوهري، الصحاح: (محص).
(9) الراغب، المفردات: (محص).
(10) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قَلَبَ).
(11) الخليل، العين: (قَلَبَ).
(12) ابن فارس المقاييس: (قَلَبَ).
(13) جبل، المعجم الاشتقاقي: (قَلَبَ).

الى الأصلِ الثاني أيضًا؛ إذ إنَّ القَلبَ: تحويلُك الشّيءَ عن وجهه، أي: تصريفُه، قال الأحوصُ الأنصاريُّ:

ما سُمّيَ القَلبُ إلّا من تقلُّبِهِ والرأيُ يُصْرفُ والإنسانُ أطوارُ

والقلبُ: المحضُ الذي لا يشوبُه شيءٌ[1]، وتقليبُ الأمور: تدبيرُها والنَّظرُ فيها، وتقليبُ اللّه القُلُوبَ والبصائرَ: صرفُها من رأيٍ إلى رأي، ويُعبَّر بالقلب عنِ المعاني التي تختصُّ به منَ الرُّوح والعلمِ والشّجاعةِ وغيرِ ذلك[2]. وجُلُّ ما في القرآن الكريم من كلمة (قلب) وجمعِها هو ما أسندَه القرآنُ إلى القلب من وظائفَ: الفقهِ، والتدبّرِ، والإيمانِ، وضدِّه، وما إلى ذلك[3]، وهو معنى اللّفظةِ في الآية الكريمة، واللّه أعلم.

21) ﴿عَلِيمٌ﴾: العَيْن واللّام والميْم أصلٌ صحيحٌ واحدٌ، يدلّ على أثرٍ بالشَّيء يتميَّزُ به من غيره[4]، وعَلِمَ به: شَعَرَ، والعلمُ نقيضُ الجهل[5]، وعَلِمَهُ: عَرَفَهُ، وخَبَرَهُ[6]، وهو إدراكُ الشَّيء بحقيقتِهِ[7].

ومن أسمائه جلَّ في صفاتِه (العليم) وهو: المحيطُ علمُه بجميع الأشياءِ ظاهِرها وباطِنها، دقيقِها وجليلِها، على أتمِّ الإمكان، وهو: فعيلٌ من أبنيةِ المبالغةِ[8]، وكلُّ ما ذُكِرَ مرادٌ في معنى اللّفظة الواردةِ في الآية الكريمةِ، فاللّه تعالى أحاطَ بكلِّ شيءٍ علمًا ومعرفةً وخبرًا وإدراكًا، وبهذا وبغيره ممّا لا نُدرك تميَّزَ وانفردَ عمَّن خلقَ، فتعالى، وتباركَ، وعزَّ.

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

ثم كان من رحمةِ اللّه بالمؤمنين المُخْلصين أن ألقَى في قلوبهم اطمئنانًا وأمانًا وثقة في وعد اللّه، وكان من أثره نعاس غَشِيَ طائفة منهم، وهم أهل الإخلاص واليقين، بعد أن أصابتْهم الغُمومُ، وهناك طائفةٌ أخرى منَ الذين اشتركوا في غزوة أُحُدٍ لم تكن صادقةً في

(1) الخليل، العين: (قَلَبَ).
(2) الراغب، المفردات: (قَلَبَ).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقي: (قَلَبَ).
(4) ابن فارس، المقاييس: (عَلِمَ).
(5) الخليل، العين: (عَلِمَ).
(6) الأزهري، التهذيب: (عَلِمَ).
(7) الراغب، المفردات: (عَلِمَ).
(8) ابن الأثير، النهاية: (عَلِمَ).

تطْييبُ قلوبِ المؤمنين وإظهارُ حالِ المنافقين

إيمانها؛ لأنها لا تهتمُّ لشأن الإسلام انتصر أم انهزم، ولا شأنِ النّبيّ ﷺ وأصحابِه، وإنما همُّها أمرُ نفسِها وما يتعلّقُ بذلك منَ الحصول على التسيّدِ، والغنائمِ، ومُتَع الدُّنيا، متطبّعةٌ بقيَمِ الجاهليّةِ، وباثّةٌ عباراتِ الإرجاف بأنهم ليس لهم اختيارٌ في الخروج للقتالِ - تمكّنًا لصفة النِّفاق في نفوسهم - مظهرةٌ غيرَ ما تُبطنُ[1].

وترشدُ الآيةُ الكريمةُ إلى الإيمان بالقَدَر؛ إذ إنَّ اللّه هو الذي قدَّر خروجكم إلى المعركة وما حدث لكم، وأنَّ الآجال بيد اللّه، ولو كنتم في بيوتكم، وقدَّر اللّه أنكم تموتون، لخرج الذين كتب اللّه عليهم الموت إلى حيث يُقْتلون، فالأسبابُ - وإن عظمت - إنَّما تنفعُ إذا لم يعارضها قضاءُ اللّهِ، فإذا عارضها القَدَرُ لم تنفع شيئًا[2].

وأنَّ الاطمئنانَ هو سبيلُ التَّدبيرِ المُحكَم، والقلقُ لما كان في الماضي يجعلُ العقلَ مأخوذًا بحوادثِه فلا يفكِّرُ ولا يدبِّر، ولا يتحفَّزُ ويتوثَّبُ للمقاتلة مرَّةً أخرى[3].

وفي الآية وعدٌ ووعيدٌ وتنبيهٌ على أنّ اللّه تعالى غنيٌّ عنِ الابتلاء، وإنما يُبرزُ صورةَ الابتلاء لحِكَم يعلمُها كتمرينِ المؤمنين، أو إظهارِ حالِ المنافقين؛ لكونه تعالى عليمٌ بِما في القُلُوبِ الَّتِي في الصُّدُورِ مِنَ الضَّمائِرِ الخَفِيَّةِ[4].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

تـأخّـرُ إنـزالِ النُّعاسِ تنبيهٌ على أنَّـه تـراخٍ مقصودٌ

دَلالةُ استعمالِ حرفِ التَّراخي ﴿ثُمَّ﴾:

الاستهلالُ بـ ﴿ثُمَّ﴾ تصريحٌ بتأخُّر الإنزالِ وترتّبِه على ما قبْلَه، فالعطفُ بها أمارةُ التّمهّلِ والتّراخي في الزَّمن قدِ امتدَّ بعد أنْ حلَّ

(1) طنطاوي، التفسير الوسيط: 2/303 - 304.
(2) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 70، ونخبة من العلماء، التفسير الميسر، ص: 70.
(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 3/1459.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 4/98.

بهم ما حلَّ في وقعة أُحُد[1]؛ وذلك لزيادة البيان والتّذكير بعِظَم المِنّةِ[2]، فـ "لـمّا كانَ أمانُهم بَعْدَ انْخِلاعِ قُلُوبِهِمْ بَعِيدًا؛ ولا سِيَّما بكونهِ بِالنُّعاس؛ الذِي هو أبْعَدُ شيءٍ عن ذلك المقامِ الوَعِرِ؛ والمحَلِّ الضَّنْكِ؛ عَطَفَ بِأداةِ البُعْدِ"[3].

علّةُ التَّعبيرِ عنِ الإغشاء بالإنزال:

الإغشاءُ نُعاسٌ مُقَدَّرٌ منَ الله لحكمةٍ خاصَّةٍ

سُمِّي الإغشاءُ إنزالًا؛ لأنه لمّا كان نُعاسًا مُقَدَّرًا منَ اللّه لحكمةٍ خاصَّةٍ، كان كالنّازل منَ العوالمِ المُشرفةِ كما يقال: نزلتِ السَّكينةُ[4]، وكلمةُ ﴿أَنزَلَ﴾ تدلُّ على أنّ هذا عطاءٌ عُلويٌّ ليس له شأنٌ بالأسباب الماديةِ ولا بالقوانينِ البشريةِ[5].

وجوهُ الاستعاراتِ في لفظِ الإنزال:

وجهُ التَّصريحيةِ التَّبَعيةِ تفخيمُ شأنِ النُّعاس

ونسبةُ الإنْزالِ مَجازٌ؛ لأنَّ حقيقتَهُ في الأجْرام[6]، فهو استعارةٌ تصريحيةٌ تبعيةٌ، شبَّه فيها مِنَّته عليهم نعاسًا بالإنزال من عند اللّه، والجامعُ بين طَرفَي الاستعارة كمالُ الرّعاية، وحسنُ التّدبير، وسرُّها البلاغيُّ تفخيمُ شأن النُّعاس بجعلِه منزَّلًا من عند اللّه.

وجـهُ المكـنـيَّـةِ التّثبيتُ والهدايةُ

وهو استعارةٌ بالكناية، شبَّه فيها النُّعاسَ المفعمَ بالرّاحة وتثبيتِ القُلُوب بالوحيِ النّازلِ منَ السَّماء لهداية العباد، ثم حذفَ المشبّهَ به، ورمز له بما يدلُّ عليه، وهو الإنزالُ. وكأنَّ هذا النُّعاس قد شفى نفوسَهم من حسْرةِ النَّكْسَة فأشبه التّنزيلَ الشّافيَ منَ الجهل والكُفر والعصيان، وإثباتُ الإنزال عاملًا في النُّعاس استعارةٌ تخييليةٌ هي قرينةُ المَكنيةِ[7].

---

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 2/100.
(2) الصافي، الجدول: 4/345.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 2/269.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/133.
(5) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 3/1822.
(6) أبو حيان، البحر المحيط: 3/92.
(7) المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 1/191.

علّةُ التَّعبير بالإنزال دونَ غيرِه:

التَّعبيرُ بالإنزال يوحي بأنَّ النُّعاسَ نزل مرَّةً واحدةً

يذهبُ الرّاغبُ الى التَّفريق بين الإنزال والتّنزيلِ في وصفِ القرآنِ والملائكةِ؛ فيرى أنَّ التّنزيلَ يختصُّ بالموضع الذي يُشير إليه إنزالُه مفرّقًا، ومرةً بعد أخرى، والإنزالُ عامٌّ يُطلقُ على ما أُنزلَ دفعةً واحدةً[1]، وعليه فيصحُّ القولُ: إنّ إطلاقَ الإنزالِ على الأَمنةِ نُعاسًا كان مرّةً واحدةً غيرَ متقطّعٍ، وقراءةَ (أَمْنَةً) بمعنى مرّة واحدة تعزّزُ هذا التّوجيهَ، وعليه فيُفهم أنَّ إنزالَ النُّعاسِ مرَّةً واحدةً كان كافيًا في أداءِ المقصودِ، وهو ما يُصوِّر عظيمَ الأمر وسرعتَه، وهو ما يتناسب مع المقام.

التَّعبيرُ بحرفِ الاستعلاءِ يدلّ على تَجَلُّلِ النُّعاسِ وغَلَبَتِهِ:

واستعمال ﴿عَلَيۡكُم﴾ "يَدُلُّ على تَجَلُّلِ النُّعاس واسْتِعْلائِهِ وغَلَبَتِهِ"[2]، وأفادَ به عَظَمَةَ الأَمْنِ[3]. وفيه مزيدُ إظْهارٍ لأثَرِ سُلطانِ النُّعاس المُنَزَّل عليهم أَمَنَةً تُذْهِبُ الخَوْفَ، والحَزَن، واللّه أعلم.

سرُّ الاعتراضِ بجملةِ ﴿مِّنۢ بَعۡدِ ٱلۡغَمِّ أَمَنَةٗ﴾:

رحمةُ الله تُدركُ العبادَ من بعد الغمِّ

الاعتراضُ في قولِه تعالى: ﴿مِّنۢ بَعۡدِ ٱلۡغَمِّ أَمَنَةٗ﴾ أفادَ زيادةَ البيانِ، والتّذكيرَ بعِظَم النِّعمةِ، أي: الغمُّ المذْكورُ، وفي ذلك تعزيزٌ لِمُعْطى التَّمُّهلِ الذي أفادَتْه ﴿ثُمَّ﴾، زيادةً في البيانِ وتذكيرًا بعِظَم النِّعمةِ كما في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ وَأَصۡلَحُوٓاْ﴾ [النحل: 119][4]، وفي ذلك بيانٌ لرحمة اللّه تعالى بعبادِه، فقد أدركهم برحمته من بعد ما أصابهم الغمُّ، والنُّعاسُ علاجٌ طبيعيٌّ يُزيل أعتى الهمومِ، ويدفع أشدَّ الغموم.

(1) الراغب، المفردات: (نزل).
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 3/92.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 2/269.
(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 2/100.

معنى تعريفِ الغَمّ:

أل في ﴿ٱلۡغَمِّ﴾ نائبةٌ عن ضمير المخاطَبين، وهم المؤمنون حقًّا[1]، أي: (غَمِّكم).

توجيه المخصوصِ بالذِّكرِ:

زوالُ الخوفِ بالنُّعاسِ من أعظمِ منِ العلاجِ النَّفسيِّ

خصَّصتِ الآيةُ ذكرَ الخوفِ المفهومِ من مقابلِه وهو الأمنة، بالإزالة من بين فنونِ الغمِّ؛ لأنَّ الخوفَ أحدُ جناحي البلاءِ في هذه الحياةِ، وهو ترقُّبُ وقوعِ الأذى في المستقبلِ، وهو ما يمنع الإنسانَ من النَّومِ، فكان إنزالُ النُّعاسِ دافعًا للبلاءِ، والمشركون لمّا انصرفوا كانوا يتوّعدون المسلمين بالرجوع، فلم يأمنوهم، وكانوا متأهِّبين للقتال، فأنزل اللّه تعالى عليهم الأمنةَ فأخَذَهُم النُّعاسُ[2].

سرُّ الجمعِ بين لَفْظَي الأَمَنَةِ والنُّعاسِ:

الأمنةُ قيَّدتِ النُّعاسَ بالنَّومِ الخفيفِ الذي يُحقِّقُ المقاصدَ

جمعتِ الآيةُ بين الأمنة والنُّعاس، إذِ الأمَنةُ هي: الأمنُ، والنُّعاسُ هو: النَّوْمُ الخفيف أو أوَّلُ النَّوم، وهو يُزيلُ التَّعبَ ولا يغيِّبُ صاحبَهُ، فلذلك كان أمَنَةً؛ إذ لو ناموا نومًا ثقيلًا لأُخِذُوا، وقد استجدُّوا بذلك نشاطَهم، ونَسُوا حُزْنَهُمْ؛ لأنَّ الحُزن تبتدئُ خفَّتُهُ بعد أوّل نوْمَةٍ تُغْفيه، كما هو مُشاهَدٌ في أحزان الموت وغيرِها[3]، وهذا سرُّ الجمعِ بين هذين اللَّفظين، فلو قال: أمنةً لكان الكلام مبهمًا غير معروفِ السَّببِ، ولو قال: نعاسًا لفُهم أنَّه نومٌ عميق، وهو غير مراد، فباجتماعِ هذين اللَّفظين فهمنا أنَّ المراد هو النُّعاسُ الخفيف الذي يُزيلُ الخوفَ ولا يأتي بالبلاءِ الأشدِّ.

علَّةُ تقديمِ الظَّرْفَين على المفعولِ الصّريحِ:

وقدَّمَ الظّرفَيْن ﴿عَلَيۡكُم﴾، و﴿بَعۡدِ﴾ على المفعول ﴿أَمَنَةً﴾

(1) الجلالان، المفصّل، (هامش المحقق)، ص: 234.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 2/100 - 101.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/133.

للاعتناء بشأن المُقدَّمِ المُخصَّص بالغمِّ، والتَّشويقِ إلى المفعول المؤخَّر[1].

بَلاغةُ تقديمِ ما هو بمنزلةِ الصّفةِ على الموصوفِ:

تقديمُ الأمنةِ؛ لأنّها عِلّةُ الإنزالِ، وغايةُ النُّعاسِ

الأصلُ أن يُقدّمَ بدلُ الاشتمال ﴿نُّعَاسًا﴾ ويؤخَّرَ ﴿أَمَنَةً﴾: لأنّ ﴿أَمَنَةً﴾ بمنزلة الصّفةِ أو المفعول لأجله فحقُّه التّقديمُ على المفعول كما جاء في قوله: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ﴾ [الأنفال: 11] ولكنّه قدّمَ الأمنةَ هنا وجعله المفعولَ؛ تشريفًا لشأنها؛ لأنَّها جُعِلَت كالمُنْزَلِ منَ اللّه لنصْرِهم، فهو كالسَّكِينةِ[2]، فهي عِلّةُ الإنزالِ، وغايةُ النُّعاسِ، وفيه إسراعٌ بالمسرَّةِ للمُخاطَبين، والبشارةِ لهم حتى مع قُصورِهم[3].

توجيهُ المُتشابهِ اللّفظيِّ:

تقديمُ الأمنةِ وتأخيرُ ذكرِها بحسبِ المقامِ

أنزلَ سبحانه وتعالى الأمَنَةَ في غزوة أُحُدٍ بعد الغمِّ الذي غمرَ النُّفوسَ بالألم، وكان مظهرُها نعاسًا اطمأنتْ فيه النّفوسُ، واسترخت الأعضاءُ واستسلمتْ لمقاديرِ اللّه تعالى وإرادتِه في خلْقِه ونصرِه دينَه، مُطّرحين الماضي مُكتفِين منه بالعِبرة، ومُتّخذين منه نورًا يُضيءُ المستقبل بعد ما أصابَهم من فزعٍ وهلعٍ واضطرابٍ، فتقديمُ الأمن أنسبُ لحالِ الخوفِ، والاضطرابِ، في حين قدَّم النُّعاسَ على الأمنِ في سياقِ غزوة بدْرٍ، فقال تعالى: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴿١١﴾﴾ [الأنفال: 11][4]، وهي موقعةُ نَصْرٍ وتمكينٍ وقرعٍ على رؤوس الكافرين، وهذا التَّمكينُ منافٍ للخوف فأخَّرَ الأمنةَ لذلك، واللّه أعلم.

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 2/100 - 101.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/133.
(3) المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 1/191.
(4) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 3/1460.

نُكتةُ الاستعارةِ في الفعل ﴿يَغۡشَىٰ﴾:

تشبيهُ النُّعاسِ في حمايتِهم بالثّوبِ السّاتِر

وفي ﴿يَغۡشَىٰ﴾ استعارةٌ تصريحيّةٌ تبعيّةٌ شبَّه فيها النُّعاسَ في حمايتهم من القلق والتحسُّر، وتجميلِهم بالثَّبات والطُّمأنينة بالثَّوب الذي يسترُ لابسَه ويُجمِّلُه في أعينِ الآخرين[1].

توجيه القراءات القرآنيَّة للفعلِ ﴿يَغۡشَىٰ﴾:

التَّذكير عائدٌ على النُّعاسِ، والتأنيثُ عائدٌ على الأمَنةِ

قرأ حمزة والكسائي وخلف (تغشى) بالتَّاءِ، ووجهُها أنّ الأمنةَ هي المقصودةُ، وحصولُ النُّعاس كان بسببِها، فالفعل عاد عليها، وقرأ الجمهورُ: ﴿يَغۡشَىٰ﴾ بالياء[2] على أنّ الضميرَ عائدٌ إلى النعاس[3]، أي: أنّ الأمنةَ هي المقصودةُ، وحصولُ النُّعاس بسببها؛ لأنَّ الخائفَ لا يكاد ينعسُ[4].

بيانُ الفرقِ بين الطّائفتَين بالواو، وباختلافِ الوصْفَين، وحُكمَيْهما الإعرابيّ:

اتِّحادُ التَّسميةِ بالطَّائفةِ لا يعني الاتِّحادَ بالصِّفاتِ

قوله: ﴿وَطَآئِفَةٞ قَدۡ أَهَمَّتۡهُمۡ أَنفُسُهُمۡ﴾ بعد قوله: ﴿يَغۡشَىٰ طَآئِفَةٗ مِّنكُمۡۖ﴾ انتقالٌ من وصْفِ حال طائفةِ المؤمنين، الى ذكْرِ حالِ طائفةِ المنافقين، وقطعَ حكمَ الطَّائفةِ الثانيةِ عن حُكم الطَّائفةِ الأولى في اللّفظ والمعنى إشارةً إلى تفاوُتِ الطائفتين في المنزلةِ عند اللّه بالواو التي تقتضي المغايرةَ، وبوصفِ الطائفةِ المؤمنةِ بالجارِّ والمجرور ﴿مِّنكُمۡۖ﴾، أي: منَ المؤمنين، و(من) بيانيَّة لا تبعيضيَّةٌ، وعدَلَ عن وصف الطائفةِ الثانيةِ بهما الى بيان حالهم بقوله: ﴿قَدۡ أَهَمَّتۡهُمۡ أَنفُسُهُمۡ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ ظَنَّ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِۖ﴾[5]، وباختلافِ اللّفظين في حُكم الإعراب، فالأُولى منصوبةٌ؛ لأنها مفعولٌ به لـ ﴿يَغۡشَىٰ﴾ والثانيةُ مرفوعةٌ على الاستئناف، وتبع هذا الحكمَ اللّفظيَّ

(1) المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 1/191.
(2) ابن الجزري، النشر: 2/242.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 7/315 - 316.
(4) الرّازي، مفاتيح الغيب: 9/394.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/134.

حكمٌ معنويٌّ: هو أنَّ الطَّائفةَ الأولى هي التي أنزل اللّه النُّعاس الآمِنَ من أجلِها فنَعِمتْ به، أما الثانيةُ فقد حُرِمت منه[1].

توجيهُ عطفِ الطَّائفةِ على الطَّائفة:

الأمـــنُ حليفُ المـــؤمـــنـــين، والخوفُ لصيقُ المنافقين

الواو في ﴿وَطَآئِفَةٌ﴾ للعطف، أي: طائفةٌ قد أهمَّتهُم أنفسُهم يظنّون باللّه غيرَ الحقِّ، لم يغْشَهم النُّعاسُ، وهو من عطف الجُمل بعضِها على بعض، وفائدةُ عطفِ الجُملة الاسميةِ على الفعليةِ: الإيذانُ بحدوثِ الأمنِ للطائفةِ الأولى، واستمرارِ الخوفِ على الطائفةِ الثانيةِ[2]، ففي إلقاءِ النُّعاسِ على المؤمنين دون المنافقين آيةٌ عظيمةٌ ومعجزةٌ باهرةٌ؛ لأنّ النُّعاسَ كان سببَ أمنِ المؤمنين، وعدمَ النُّعاسِ كان سببَ خوفِهم المنافقين[3].

نكتةُ تصديرِ الفعلِ بالهمزةِ:

المبالغةُ في إظهارِ مرضِ النّفوسِ، وشدّةِ نفاقِها

الهمزة في ﴿أَهَمَّتْهُمْ﴾ مزيدةٌ للمبالغة، أي: حملتْهم أنفُسُهم على دواعِي الهمِّ وصيَّرتْ أنفسَهم مبْلغَ همِّهم، وهو أدْعى لإظهار مرضِ هذه النّفوسِ، وشدّةِ نفاقهم، واللّه أعلم؛ إذْ لا يهُمّهم شأنُ الإسلام، أنتصر أم انهزم، ولا شأنُ النّبيّ ﷺ وصحابتِه.

أو أنَّهم أوقعُوا أنفسَهم في الهمّ والحُزن بعدم اطمئنانِهم وعدمِ صبرهم وعدمِ رضاهم بقدَرِ اللّه وجزَعِهم المُستمرِّ[4]، وإذ كانوا كذلك كانت نفوسُهم في اضطرابٍ وتحرّقٍ يمنعُهم منَ الاطمئنان ومنَ المنام.

أو أدخلتْ عليهم الهمَّ بالكُفر والارتدادِ[5].

بَلاغةُ التّشبيهِ في التَّعبيرِ عنِ الظنِّ:

شبَّه ظنَّهم باللّه غيرَ الحقِّ بظنِّ الجاهليةِ، وبحذْفِ أداةِ التَّشبيهِ

(1) المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 1/191.
(2) الطيبي، فتوح الغيب: 4/309.
(3) الخازن، لباب التأويل: 1/309.
(4) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 3/1461.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/134.

تكونُ الجملةُ أقوى من جهةِ أنَّ المشبَّه أصبح هو المشبَّهُ به في كلِّ الصفاتِ فلا تفاضلَ بينهم، وعليه يكونُ المعنى: يظنّون أنَّ النّبيّ ﷺ لم يصدُقْهم فيما أخبرهم به كما ظنّ الجاهلية، تنبيهًا أنَّ هؤلاء المنافقين هم في حيّزِ الكفّار[1].

التَّشبيهُ للتَّنبيهِ على أنَّ المنافقين في حَيِّزِ الكفّار

جمالُ الجناسِ الاشتقاقيِّ:

في قولِه ﴿يَظُنُّونَ﴾، و﴿ظَنَّ﴾ جناسٌ اشتقاقيٌّ[2]، أكسب التَّعبيرَ جمالًا وحُسنًا، بحُلوِ النّغمةِ، واتّحادِ الجرسِ، وتناسقِ الإيقاع، وأحدثَ ميلًا للنّفس نحو التّشوُّقِ والإصغاءِ لطبيعة الظنّ، وكيفيتِه، واللّه أعلم.

نكتةُ التَّعبيرِ بلفظِ ﴿يُخْفُونَ﴾:

لفظ ﴿يُخْفُونَ﴾ فيه إعلالٌ بالحذف، أصلُه (يُخْفِيوْنَ) حذفتِ الياءُ بعد تسكينِها لالتقائها مع الواو الساكنةِ، وهو يوحي بلطيفةٍ وهي: مناسبةُ معنى الإخفاء في اللّغة من سترٍ، ومواراةٍ، وفيه وجهُ تعريضٍ بهم في كونِهم لم يُخلصوا في عقائدِهم، وأضمروا خلافَ ما أظهروا، وأعلنُوا غيرَ ما سترُوا[3]، نفاقًا وبغضًا.

مناسبةُ لفظِ الفعلِ لمعناه، وكشفٌ عن استمرارِهم بمُزاولتِه

دلالةُ التَّعبيرِ بالفعلِ المُضارِعِ: ﴿يُخْفُونَ﴾:

والتَّعبير بالمضارع دلالةٌ على تجدُّدِ ما يُخفون في نفوسهم، وهو أدلُّ على شنيع فعلتِهم وقصْديتِهم فيه، واللّه أعلم.

سرُّ التَّعبيرِ بقولِه: ﴿فِيٓ أَنفُسِهِم﴾ بعد ﴿يُخْفُونَ﴾:

من المعلومِ أنَّ الخفاءَ يكونُ في النَّفسِ؛ فإنَّ التَّصريحَ به بلفظ: ﴿فِيٓ أَنفُسِهِم﴾ جاء لدَفْعِ اعتبارِ أنَّ الإخفاءَ قد حصل بين رجلَيْن منهم يُسِرُّ أحدُهما إلى الآخر حديثًا، فهو تأكيدٌ بأنّه حديثُ النفس[4]، وهو

دفعُ توهُّمِ أنّ الإسرارَ في غيرِ النَّفسِ

(1) الراغب، المفردات: 2/54.
(2) الإندونيسي، الشامل في بلاغة القرآن: 1/202.
(3) القشيري، لطائف الإشارات: 1/288.
(4) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/431.

أدّعى للنّفاق هنا؛ إذ يُخفون ما لا يُبدون ممّا تُحيكُه الصُّدور؛ لكونِ أنفسِهم بكُلّيتها مُستودعًا لها مع أنَّ محلَّ إخفاء النوايا الصُّدورُ، والقُلُوبُ؛ فبدأ بالأعمّ وخصَّص من ثَمَّ، والله أعلم.

دلالةُ التَّعريضِ في ظنِّ الكافرين:

إشارةٌ إلى أنّ المنافقين لم يُخلِصوا الدِّينَ لله

ومعنى ﴿يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ﴾ أي: ظنُّوا بالله ظنونًا باطلةً من أوهام الجاهليةِ، وفي هذا تعريضٌ بأنّهم لم يزالُوا على جاهليتِهم لم يُخلصوا الدِّينَ لله، وقد بيَّن بعضَ ما لهم منَ الظنّ بقوله: ﴿يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلۡأَمۡرِ مِن شَيۡءٖۗ﴾[1].

دَلالةُ إضافةِ ﴿غَيۡرَ﴾ إلى ﴿ٱلۡحَقِّ﴾:

ظنُّ المنافقين نابعٌ من الباطلِ ودائرٌ حولَه

و﴿غَيۡرَ﴾ لفظٌ مُوغلٌ في التَّنكيرِ، لبيانِ النّوع، والتّوكيدِ، وإضافتُه توكيدٌ للفعل يظنّ أيضًا[2]، و﴿ٱلۡحَقِّ﴾ مفعولٌ مطلق وصف لمصدر محذوف، والمعنى: يظنُّون ويتوهّمون بالله ظنًّا باطلًا، وقد بيّن سبحانه وتعالى ذلك الظنَّ غيرَ الحقِّ والذي لَا ينبغي أن يُظنَّ بالله تعالى، بطريق عطفِ البيان، أو البدلِ المُبين فقال: ﴿ظَنَّ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِۚ﴾، وشأنُ أهلِ الجاهلية أن يَطرحوا عن أنفسِهم التَّبعاتِ، ويدَّعوا ألّا مسؤوليةَ عليهم، وأنَّ الأمرَ للمقادير وحدها إذ كانتِ النتيجةُ على غير ما يَبغون[3]، وانتصب قولُه: ظنّ الجاهليةِ على المصدر المُبيِّنِ للنّوع إذ كلُّ أحدٍ يعرفُ عقائدَ الجاهليةِ إن كان مُتلبِّسًا بها أو تاركًا لها[4].

التخليطُ في معرفةِ صفاتِ اللهِ هو ظنٌّ باطلٌ

وإنّما كان هذا الظنُّ غيرَ الحق؛ لأنه تخليطٌ في معرفةِ صفاتِ الله وصفاتِ رسولِه وما يجوزُ وما يستحيلُ، فإنّ لله أمرًا وهديًا وله قدَرٌ وتيسيرٌ، وكذلك لرسوله الدَّعوةُ والتَّشريعُ وبذلُ الجُهد في تأييد

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/135.
(2) الجلالان، المفصل (هامش المحقق: 3)، ص: 234.
(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 3/1462.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/136.

الدِّين وهو في ذلك معصومٌ، وليس معصومًا من جَرَيان الأسباب الدُّنيويةِ عليه، ومن أنْ يكونَ الحربُ بينه وبين عدوِّه سِجالًا[1].

غرضُ التَّعبيرِ بلفظِ ﴿ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾:

لفظُ الجاهليّةِ من مُبتكَرات القرآنِ المستعملة في سياقِ الذّمِّ

معنى ظنِّ الجاهلية، أي: الظنُّ المختصُّ بالملّةِ الجاهليةِ، ويجوزُ أن يرادَ ظنُّ أهلِ الجاهلية، أي: لا يظنُّ مثلَ ذلك الظنِّ إلا أهلُ الشِّركِ الجاهلون باللّه[2]، الذين يتظاهرون بالإيمان ولم يدخلْ قلوبَهم فبقيت معارفُهم كما هي من عهدِ الجاهليةِ، فلفظُ الجاهليةِ من مُبتكَرات القرآنِ، وصف به أهلَ الشِّرك تنفيرًا منَ الجَهل، وترغيبًا في العلم، ولذلك يذكرُه القرآنُ في مقامات الذّمِّ في نحو قوله: ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾ [المائدة: 50] وقوله: ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾ [الأحزاب: 33][3].

بَلاغةُ الاستفهامِ في قولِه تعالى: ﴿يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَيْءٍ﴾:

الاستفهامُ الإنكاريُّ كاشفٌ عن مضامين النُّفوسِ وخفيّاتِها

الاستفهام في قوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَيْءٍ﴾، إمَّا أن يُحملَ على معنى المجازِ أو الحقيقةِ، فمعناه على المجاز: أن تكون ﴿هَل﴾ للاستفهام الإنكاريِّ، وهو بمعنى النَّفي المطلقِ الشاملِ، بقرينةِ زيادةِ ﴿مِنَ﴾ قبْل النَّكرة، وهي من خصائص النَّفي، وهو تبرئةٌ لأنفسِهم من أنْ يكونوا سببًا في مقابلة العدوّ، حتى نشأ عنه ما نشأ، وتعريضٌ بأنَّ الخروجَ للقتال يومَ أُحُد خطأ وغرورٌ، ويظنّون أنَّ محمدًا ﷺ ليس برسول إذ لو كان رسولًا لكان مؤيَّدًا بالنّصر[4]، أي: ليس لنا منَ النَّصر والظّفَرِ شيءٌ كما وُعِدْنَا، بل هو للمشركين يقولون ذلك على جهةِ تكذيبِ النّبيّ ﷺ في ادِّعاء النُّصرةِ والعِصْمةِ منَ اللّه تعالى لأمَّته[5].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/135.
(2) الزمخشري، الكشاف: 1/428.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/136.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/135.
(5) الواحدي، التفسير الوسيط: 1/507، والرّازي، مفاتيح الغيب: 9/395.

المنافقُ دائمُ التَّخلُّصِ من التُّهمِ خوفًا ناشئًا عن ذُعرٍ

وفيه تنصّلٌ من كونِهم سببًا في الهزيمةِ؛ فهم يُلقون عن أنفسِهم كلَّ تَبعةٍ وكلَّ مسؤولية فالأمرُ كلُّه للّه تعالى، فأمرُ النّصر والهزيمةِ بيده، وقد وعدَنا بالنّصر ولم ننتصرْ، وهو ظنٌّ جاهليٌّ؛ لأنَّ الجاهليَّ إذا انتصر فرح وأشرَ وبَطِرَ، وأصابتْه عزّةُ النصر، وإن أصابتْهُ كارثةٌ حسبَها منَ المقادير مُلقيًا عن نفسه كلَّ تبعةٍ[1].

دَلالةُ الاستفهام الحقيقيّ:

طلبُ الإمارةِ أَمارةٌ على سوءِ الطَّلب

وقد يكون الاستفهامُ على حقيقتِه ومعناه: طلبُ الإمارة، وتوطئةٌ للحصول على نصيبٍ منَ السُّلطة واتّخاذِ القرار، والمعنى: هل لنا من أمرٍ يُطاعُ؟[2]، فالأمر بمعنى السِّيادةِ الذي منه الإمارةُ، ومنه أولُو الأمر[3]، وعليه يكونُ الاستفهامُ حقيقيًّا، قائلُه: المنافقون، والمرادُ به التّوطئةُ للحصول على نصيبٍ منَ السلطة واتّخاذِ القرارِ[4].

وجهُ التَّعريضِ في جملةِ الاستفهام:

المنافقون متحيِّرون لا يجزمون بشيءٍ خوفًا من التُّهمة

وفي الإشارةِ إلى المنافقين في قولِه تعالى: ﴿هَل لَّنَا مِنَ ٱلۡأَمۡرِ مِن شَيۡءٖۗ﴾ تعريضٌ بأنّهم "يَتحيّرون في أمرهم فلا إقبالَ لهم على الصّواب بالحقيقةِ، ولا إعراضَ بالكُلّيةِ، يُحيلون فَترتَهم على سُوء اختيارِهم، ويُضيفون صفوةً لو كانت لقلوبِهم إلى اجتهادِهم، ويَنسَون ربَّهم في الحالَيْن، فلا يُبصرون تقديرَ الحقّ سبحانه"[5].

بَلاغةُ حشدِ المؤكِّداتِ:

في جماعِ المؤكِّدات تقويةٌ لبلاغةِ الجوابِ

ولمّا أكَّد في كلامهم بزيادةِ ﴿مِن﴾ في قولِه: ﴿مِن شَيۡءٖۗ﴾، جاء الكلامُ في قولِه: ﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡأَمۡرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِۗ﴾ مؤكِّدًا الخبرَ بـ (إنَّ)، ثم اسميّةِ الجملةِ، ثم بُولغ في توكيد العُموم بلفظ (كلّ)؛ لأنّ التأكيدَ

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 3/1462.
(2) الرّازي، مفاتيح الغيب: 9/395.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/135.
(4) المطعني، التفسير البلاغي للقرآن: 1/190.
(5) القشيري، لطائف الإشارات: 1/288.

أملكُ بلفظها، فكان الجوابُ أبلغَ[1]؛ لأنه ردٌّ على المنافقين في توهّمِهم أنَّ لهم من أمر الدّولةِ والدّعوةِ شيئًا[2].

سرُّ عدمِ تكرارِ حرفِ الجرِّ (من):

ذكرُ ﴿مِن﴾ في قولهم: ﴿هَل لَّنَا مِنَ ٱلۡأَمۡرِ مِن شَيۡءٖۗ﴾ وعدمُ ذكرِها في قولهم: ﴿لَوۡ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلۡأَمۡرِ شَيۡءٞ مَّا قُتِلۡنَا هَٰهُنَاۗ﴾؛ لأن الأول خطابٌ منهم لصاحب الرّسالة أن يجعل لهم منَ السّلطة نصيبًا ولو كان تافهًا فدلُّوا على هذا بالحرف ﴿مِن﴾؛ تودّدًا واحتيالًا ليستميلُوا مشاعرَ صاحبِ الدَّعوةِ إلى استجابةِ مطالبِهم، ولم يذكرُوها في الثاني؛ لأنه حديثٌ جرى بينهم ولم يُطلعوا عليه أحدًا غيرَهم، فظهرُوا على حقيقتِهم، وذلك دأبُهم وعادتُهم: مكرٌ، ودهاءٌ أمام المؤمنين، واستعلاءٌ، وإظهارٌ إذا خلَوْا إلى بعضهم[3]، فعند ذكر حرف الجرِّ كانوا متظاهرين بالتَّواضعِ، وعند حذفِه كانوا كاشفين عن حقيقتهم.

ذكر الجارِّ إشارةٌ إلى نفاقِهم، وحذفُه إشارةٌ إلى حقيقتِهم

بلاغةُ الكنايةِ والتَّعريضِ:

ومعنى ﴿لَوۡ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلۡأَمۡرِ شَيۡءٞ مَّا قُتِلۡنَا﴾، أي: من شأن الخُروج إلى القتال، أو من أمرِ تدْبيرِ النّاس شيءٌ، أي: رأيٌ ما قُتلنا هاهنا، أي: ما قُتل قومُنا، وليس المرادُ انتفاءَ القَتْل مع الخروج إلى القتال في أحُد، بل المرادُ انتفاءُ الخروج إلى أحُد الذي كان سببًا في قتْل من قُتل، كما تدلُّ عليه قرينةُ الإشارةِ بقوله: ﴿هَٰهُنَاۗ﴾، فالكلامُ كنايةٌ[4].

لمزُ القائلين بالخروجِ إلى أُحدٍ الذي كان سببًا في قَتْلِ من قُتِل

الوجهُ التَّعريضُ بالنّبيِّ ومن أشارَ بالخروج منَ المؤمنين، وهذا

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 3/94 - 96.
(2) المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 1/191.
(3) المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 1/192.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/135.

القول قاله عبد الله بن أُبي ابن سلول لما أخبروه بمن استُشهد منَ الخزرج يومئذٍ، وهذا تنصّلٌ من أسباب الحربِ وتعريضٌ بالنّبيِّ ومن أشار بالخروج منَ المؤمنين الذين رغبُوا في إحدى الحُسنيَيْن[1].

توجيهُ القراءاتِ في جملةِ الاعتراضِ:

حجةُ المنافقين دليلٌ على عدمِ إيمانِهم

وجملةُ ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ﴾ ردٌّ هذا العُذرِ الباطلِ عليهم، أي: أنَّ اللّه ورسولَه غيرُ محتاجَيْن إلى أمركم، والجملةُ معترضةٌ، وقرأ الجمهور: كلَّه - بالنصب - تأكيدًا لاسم إنّ، وقرأه أبو عمرو، ويعقوب - بالرفع - على نية الابتداء، والجملةُ خبرُ إنّ[2].

فائدةُ تعليمِ الجوابِ:

إبطالُ قولِ المنافقين، وتعليمُ المؤمنين

لَقَّنَ اللّهُ رسولَه ﷺ قولَه: ﴿قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ﴾ جوابًا عن قولِهم: ﴿لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا﴾. والجوابُ إبطالٌ لقولهم، وتعليمٌ للمؤمنين لدفع ما عسى أن يقعَ في نفوسهم من الرَّيْب، إذا سمعوا كلامَ المنافقين، أو هو جوابٌ للمنافقين ويحصلُ به علمٌ للمؤمنين[3].

سرُّ الفصلِ في جوابِ المنافقين:

بيانُ الفصلِ لوقوعِه في سياقِ القول

فُصلتِ الجملةُ جريًا على حكاية المقاولةِ، وهذا الجوابُ جارٍ على الحقيقةِ وهي جريانُ الأشياءِ على قدَرٍ منَ اللّه والتَّسليمِ لذلك بعد استفراغِ الجُهدِ في مصادفةِ المأمولِ[4].

براعةُ الالتفاتِ في مختتَمِ الآيةِ:

الالتفاتُ تنبيهٌ على عِظَمِ حدَثِ الابتلاءِ، اختبارًا وتمحيصًا

وفي قوله تعالى: ﴿وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ﴾ التفاتٌ منَ الحديث عنِ المنافقين إلى مخاطبةِ المؤمنين[5]، تنبيهًا على عِظَمِ الحدثِ، بوصفِه

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/135.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/137.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/138.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/138.
(5) المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 1/192.

اختبارًا وتمحيصًا يستدعِي حسنَ الظّنِّ، وعدمَ التأثّر بحديث المنافقين.

نكتةُ الاستعارةِ في لفظِ المَضاجِع:

مشابهةُ الموتِ للنَّومِ من حيثُ عدمُ الإحساسِ

حقيقةُ الضُّجوع هو وضعُ الجنْبِ للنّومِ والرّاحةِ، وأُطلقَ هنا على مصارع القَتْلى على سبيل الاستعارةِ التّصريحيةِ التّبعيةِ، شبَّه فيها مكانَ الموت والقَتْل بمكان النّومِ، والجامعُ بين طرفَي الاستعارة عدمُ الإحساسِ والحركةِ في كلٍّ منهما[1].

في الاستعارةِ مشاكلةٌ تقديريةٌ

وحسَّنَ الاستعارةَ أنَّ الشّهداء أحياءٌ، فهو استعارةٌ أو مشاكلةٌ تقديريةٌ؛ لأنّ قولَهم: ﴿مَّا قُتِلۡنَا هَٰهُنَاۗ﴾ يتضمن معنى أنَّ الشُّهداء كانوا يَبقُون في بيوتهم مُتمتِّعين بفُرُشِهم.

توجيهُ الكنايةِ في ابتلاءِ الصُّدورِ:

الكنايةُ لبيانِ الأثرِ المترتِّبِ عليه، وإظهارِه

والصُّدورُ هنا بمعنى الضّمائرِ، والابتلاءُ: الاختبارُ، وهو هنا كنايةٌ عن أثرِه، وهو إظهارُه للناس ليتميّزَ قويُّ الإيمان من ضعيفِه، والحُجّةُ على أصحاب تلك الضَّمائرِ بقرينةِ قولِه: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ كما تقدَّم في قولِه تعالى: ﴿وَلِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [آل عمران: 140][2].

وجهُ الاستعارةِ في لفظِ التَّمحيصِ:

التَّمحيصُ تطهيرُ قلوبِ المؤمنين

التَّمحيصُ تخليصُ الشَّيء مما يخالطُه ممّا فيه عيبٌ له فهو كالتّزكية، والقُلُوبُ هنا بمعنى العقائد، ومعنى تمحيصِ ما في قلوبهم تطهيرُها مما يخامرُها منَ الرَّيْبِ حين سماعِ شُبَهِ المنافقين التي يبثُّونَها بينهم[3]، ووجهُ الاستعارة فيه أنّ التَّمحيصَ: تنقيةُ الذّهبِ منَ الشّوائب؛ لتطهير القُلُوبِ منَ الرَّيْب والزَّيْغِ، والجامعُ هو الصّفاءُ من كلّ شيءٍ[4].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/138، والمطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 1/192.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/139، وطنطاوي، التفسير الوسيط: 2/307.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/139.
(4) المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 1/192.

علّةُ إطلاقِ الصُّدور على الضّمائرِ، والقُلُوبِ على الاعتقادِ:

الصّدرُ موضعُ الإحساسِ، والقلبُ موضعُ الاعتقادِ

أُطلِقَت الصُّدورُ على الضّمائر؛ لأنّ الصّدرَ في كلام العرب يُطلقُ على الإحساس الباطنيِّ، وأطلقَ القلبُ على الاعتقاد؛ لأنّ القلبَ في لسان العرب هو ما به يحصلُ التَّفكرُ والاعتقاد، فيقال: اعتقد بقلبه، ولا تكادُ تسمعُهم يقولون: اعتقد بصدره أو آمن بصدره[1].

حسنُ ائتلافِ فعْلِ الابتلاءِ للصّدور، وفعْلِ التَّمحيصِ للقلوبِ:

وجْهُ حُسْنِ الائتلاف مناسبةُ العامِّ للأعمِّ، والخاصِّ للأخصِّ

الابتلاءُ هو الاختيارُ، فهو إشارةٌ إلى كمال تعلُّقِ علمِ اللّه تعالى، فإذا كان علمُه عامَّ التّعلُّقِ ناسبَ أن يُسند لك الأعَّم، وهو الصدرُ، وأمّا التَّمحيصُ فهو تخليصُ شيءٍ بشيءٍ وتصفيتُه، فالمناسبُ تعلّقُه بالمعنى المقصودِ منَ الإنسان، وهو القلبُ كما في حديث "ألا وإنّ في الجسد مضغةً إذا صَلَحَت صَلَحَ الجسدُ كلُّه، وإذا فَسَدَت فَسَدَ الجسدُ كلُّه، ألا وهي القلبُ"[2].

الأوّل: اختبارُ الأخلاق والضّمائرِ، والثاني: تمحيصُ الظُّنونِ والعقائدِ، وعُدِّيَ إلى الصُّدورِ فعلُ الابتلاء؛ لأنه اختبارُ الأخلاق والضّمائر: ما فيها من خيرٍ وشرٍّ، وليتميّز ما في النّفس، وعُدّيَ إلى القُلُوب فعلُ التَّمحيص؛ لأنّ الظنونَ والعقائدَ محتاجةٌ إلى التَّمحيص لتكون مصدرَ كلِّ خيرٍ[3].

غرضُ إظهارِ لفظِ الجلالةِ الإشعارُ بعلّيّة الحُكمِ، وتأكيدٌ للاستقلال:

إظهار اسم اللّه الأعظم الَّذي لَهُ الإحاطَةُ بِكُلِّ شَيْءٍ للإشعارِ بعلِّيَّة الحُكم وتأكيدِ استقلالِ الجُملة[4].

جماعُ المؤكِّداتِ في فاصلةِ الآيةِ:

أكّد سبحانه وتعالى علمَه بخفايا النُّفوس في قولِه: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ

(1) الآلوسي، روح المعاني: 4/97، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/139.
(2) صحيح البخاري، الحديث رقم: (52).
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/139.
(4) الخلوتي، روح البيان: 10/7.

بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾، بثلاثةِ تأكيداتٍ: التَّعبيرُ بالجُملة الاسمية، والتَّعبيرُ بوصفِ ﴿عَلِيمٌ﴾، فهو يعلمُ صغائرَ الأمور وجليلَها، ولا يعزبُ عن علمِه مثقالُ ذرّةٍ في السّماوات ولا في الأرض، والتَّعبيرُ بـ ﴿بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾، فهذا من قَبيل ما يُشبه التّأكيدَ المعنويَّ، فمعناه يعلمُ الصُّدورَ ذاتَها، فلا يقتصر علمُه على ما في الوعاء، بل يعلمُ الوعاءَ ذاتَه[1].

حشدُ المؤكِّدات لترسيخ علمِه بمكنوناتِ النّفوسِ

وإنّما قيل لها: ﴿بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ وصاحبتِها - فضلًا عما ذُكِرَ من دَلالة التّوكيد - لملابستِها لها وكونِها مخزونةً فيها، ففي الآية ترقٍّ منَ الأظهر إلى الأخفى؛ لأنّه عالمٌ بما في السّموات وما في الأرض وبما يصدرُ من بنى آدم سرًّا وعلنًا وبما لم يصدرْ بعدُ، بل هو مكنونٌ في الصُّدور[2]، فلشدّةِ تمكُّنِها منَ الصُّدور جُعلتْ كأنها مالكةٌ لها[3].

التَّعبيرُ بلفظ (ذات)؛ لتحقيقِ التَّرقّي منَ الأظهر إلى الأخفى

جملةُ: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ بين الاعتراضِ، والحاليةِ:

الجُملة ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ إمّا اعتراضٌ للتّنبيه على أنَّ اللّه تعالى غنيٌّ عنِ الابتلاء، وإنما يُبرز صورةَ الابتلاءِ لتمرين المؤمنين وإظهارِ حالِ المنافقين، أو حالٌ من متعلَّق الفعلين أي فَعل ما فَعل للابتلاء والتَّمحيص، والحالُ أنه تعالى غنيٌّ عنهما مُحيطٌ بخفيّات الأمور، وفيه وعدٌ ووعيدٌ[4]، فـ ﴿عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾؛ ترغيبٌ، وترهيبٌ، ودفْعٌ لِما قَدْ يُتَوَهَّمُ مِن ذِكْرِ الابْتِلاءِ مِن عَدَمِ العِلمِ بِالخَفايا[5].

الاعتراضُ للتّنبيهِ، والحاليةُ وعدٌ ووعيدٌ

علّةُ تخصيصِ المختتَمِ بالصُّدورِ:

خصَّ سبحانه وتعالى علمَه بالصُّدور دون القُلُوب في مختتَمِ الآية؛ إذ هي أعمُّ[6]، لكونِها شاملةً للقُلُوب فهي وعاؤُها، ودخولُها

الصّدورُ أعمُّ بوصفِها أوعيةً للقلوب

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 3/1465.
(2) الخلوتي، روح البيان: 10/7.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 4/98.
(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 2/102.
(5) البقاعي، نظم الدرر: 2/271.
(6) الراغب، تفسير الراغب: 3/939.

فيه دخولُ الجُزء منَ الكُلّ، ولذلك سبقها لفظةُ ﴿بِذَاتِ﴾ ليدلّ على العلم به وبما يحتويهِ.

الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الغمّ، والهمّ:

الغمُّ مَظِنَّةُ قِصَرِ وقت الحزنِ، والكَرْبِ، والضِّيقِ، وسرعةِ زوالِه، والهمُّ وصفٌ لشدَّة الحزن وطولِ مدّته، قال العسكريُّ مفرّقًا بين الغمّ والهمّ: "الغَمُّ معنى ينقبض القلبُ مَعَه وَيكونُ لوُقُوع ضَرَر قد كَانَ، أَو توقّع ضَرَر يكون، أَو يتوهّمُه، وَقد سُمّي الحزنُ الَّذي تطول مدَّتُه حَتَّى يذيبَ البدنَ همًّا، واشتقاقُه من قَوْلك: انهم الشَّحْمُ إِذا ذاب، وهمَّه أذابه"[1].

فلفظ الغمِّ مشعرٌ بأَنَّ الكرب الحاصل أقلُّ حزنًا من استعمالِ لفظ الهمِّ، وأهونُ لتخصيصِه بانقباض القلبِ، لوقوع ضررٍ كان، أو متوقَّعٍ، أو متوهَّم، وكلُّ ذلك مظنَّةُ قِصَرِ الوقت، وسرعةِ الزَّوال، على خلاف الهمِّ الذي يُوصف بشدّةِ الحزن حدَّ إذابةِ البدَنِ؛ لطول مدّتِه، ولذلك ناسبَ لفظُ الغمّ سياقَ الآية بوصفِها حديثًا عن حزنٍ عارضٍ انقضى بسببِ موقعةِ أُحُدٍ لم يلبثْ أنْ أزاله الله تعالى، وصيّره أمَنَةً، والله أعلم.

النُّعاس، والنّوم، والسِّنَة:

النُّعاس أوّلُ النَّوم وأخفُّه

ذُكرَ أنَّ النُّعاس: السِّنَةُ من غير نوم[2]، أو: أوَّلُ النَّوم[3]، أو: النّومُ القليلُ[4]، وهو أخفُّ منَ النّوم[5]، فهو ثِقَلٌ أو فتورٌ في الجسم للِينِه وامتلائِه بالرخاوة[6]، أما النّومُ: فهو الغشيةُ الثقيلةُ التي تهجمُ على القلب فتقطعُه عن معرفة الأمور، وأما السِّنَة: فهي ثقلُ النُّعاس[7]، أو النُّعاس نفسُه، أو ابْتِدَاءُ النُّعاس في الرَّأْس، فاذا خالط القلبَ صَار

(1) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 267.
(2) الأزهري، تهذيب اللغة: (نَعَسَ).
(3) ابن الأثير، النهاية: (نَعَسَ).
(4) الراغب، المفردات: (نَعَسَ).
(5) القِنَّوجي، فتح البيان: 2/357.
(6) جبل، المعجم الاشتقاقي: (نَعَسَ).
(7) الواحدي، التفسير الوسيط: 1/367.

نومًا[1]، ويُذكرُ أنَّ: السِّنة في الرأس، والنُّعاسَ في العين، والنّومَ في القلب[2]، وبهذا يتبيّنُ حِكمة اختيارِ لفظِ (النُّعاس) في الآية الكريمةِ دونَهما؛ لكونه نومًا خفيفًا محدَّدًا بالعين، وهو يزيلُ التَّعبَ ولا يغيِّبُ صاحبَهُ، فلذلك كان أَمَنَةً على الصحابة ﵃؛ إذ لو ناموا نومًا ثقيلًا في بداية معركة أُحدٍ لأُخِذُوا[3].

ومصداقُه ما رُوي عن أبي طلحة - ﵁ - أنَّ النُّعاسَ غشيَه فكان السَّيفُ يسقطُ من يده فيأخذُه، ثم يسقطُ فيأخذُه، وما رُوي عنِ الزبير أنه كان يسمع قولَ مُعتِّبِ بنِ قُشَير والنُّعاس يغشاه[4]، فالعقلُ والقلبُ حاضران، وإنّما هي غفوةُ عينٍ، واللّه أعلم.

الغِشاء والغِطاء:

الغشيانُ أرقُّ منَ الغِطاء وهو يناسبُ حالَ النُّعاس

بيَّنَ العسكريُّ أنّ الغطاء يَقْتَضِي سترَ مَا تَحْتَهُ، أما الغِشاء فلا يَقْتَضِي ذَلِك؛ إذ إنّ الغشاءَ قد يكون رَقِيقًا يبيِّن مَا تَحْتَهُ ويتوهّم الرائي أَنه لَا شَيْء عَلَيْهِ لرقّته، وَمنه قيل غُشي على الإِنْسَان، والغطاء لَا يكون إِلَّا كثيفًا ملاصقًا، والغشاء أيضًا يكونُ من جنس الشَّيْءِ، والغطاءُ يكون من جنسه ومن غيرِ جنسِه، ولذلك تَقول: تغطّيتُ بالثياب ولا تَقول: تغشّيتُ بهَا[5]؛ لأنّ التّغشّي" يشبه التّغطّي واللُّبس"[6] وليس تغطية ولُبسًا، وعبَّر به اللّه في مقام دخول الليل، فقال: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ۝١﴾ [الليل: 1]؛ لكون ظلمة الليل منسوجةً منه، ويكنى بالتغشيةِ عن الجماع؛ لخفَّة وقوعه، فيقال: غشَّاها وتغشَّاها، ومنه قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتۡ﴾ [الأعراف: 189]. ومن هنا فرقّةُ الغِشيان هي علةُ اختياره لفظه في الآية الكريمةِ؛ وذلك ليناسبَ صفةَ النُّعاس في المعركة؛ إذ إنَّ التعبيرَ بالتّغطيةِ تعميةٌ لا تناسبُ حالَ مقارعةِ العدوِّ في المعارك، واللّه أعلم.

(1) الماوردي، النكت والعيون: 1/324، والكفوي، الكليات، ص: 499.
(2) الواحدي، التفسير الوسيط: 1/367، والماوردي، النكت والعيون: 1/324، والزركشي، البرهان: 3/404.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/133.
(4) الرّازي، مفاتيح الغيب: 9/393، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 3/53.
(5) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 288.
(6) الرّازي، مفاتيح الغيب: 15/429.

النّفس، والرُّوح:

النّفسُ موضعُ الكسب خيرًا وشرًّا، وهي ألصقُ بابن آدم بوصفِها موضعَ الهُدى، والضلالةِ، أو موضعَ التقلُّبِ والتّدبير في الحياة الدُّنيا، وعليها تقعُ الصّفاتُ الحميدةُ، والذميمةُ. أما الرّوحُ فهي أشرفُ من النّفس لإنّها من عالَم أمرِ اللّه، ولذلك نسبَها اليه تعالى تشريفًا، وتعظيما، وهي أعمُّ منَ النّفس لشمولها بعضَ الأنبياء، والملائكةَ، والقرآنَ، والنّاسَ، واستدعاءُ لفظِ النّفس مع صفاتِ المنافقين المذمومةِ بإخفاء ما في أنفسِهم ما لا يُبدون أنسبُ للسّياق، واللّه أعلم.

النّفسُ موضعُ الكسبِ خيرًا وشرًّا، والروحُ موضعُ تشريفٍ

المحص، والفحص:

قال الرّاغبُ: " أصلُ المَحصِ: تخليصُ الشيء ممَّا فيه من عيبٍ كالفحصِ، لكنَّ الفحصَ يقالُ في إبراز شيءٍ من أثناءِ ما يَختلطُ به، وهو منفصلٌ عنه، والمحصُ يقالُ في إبرازه عمّا هو متّصلٌ به، يقال: محَصتُ الذهبَ ومحّصتُه: إذا أَزَلْتَ عنه ما يشوبُه من خُبث"[1]، ولفظُ التَّمحيص في سياق الآية أنسبُ؛ لكونه حديثًا عن إزالةِ عوالقَ تعتري القُلُوبَ من سُوءِ ظنٍّ، ووساوسَ يُلقيها الشّيطانُ فيها؛ فهو تنقيةٌ، وتطهيرٌ، وتصفيةٌ لها، واللّه أعلم.

التَّمحيصُ تخليصُ القُلُوب من خُبثِ عوالقِها

القلب والفؤاد:

إنّ القلبَ أخصُّ منَ الفؤاد في الاستعمال؛ لأنه معنى منَ المعاني يتعلّقُ به، ولذلك قَالُوا: أصبتُ حَبَّة قلبِه وسُويداءَ قلبِه[2]، ومع خصوصِ لفظِ القلبِ فإنَّ معانيَه كثيرةٌ في القرآن، فقد ورد محلًّا للفهم والعقلِ، وموضعًا للتّكليفِ، وتقويةِ العزائم، واختصَّ بالحديث عنِ الرُّوح، والعلمِ، والعقلِ وذلك لكثرة تقلُّبِه بالخواطر والعُزوم[3]،

القلبُ محلُّ الفهمِ والعقلِ فناسبَ مقامَ سُوءِ الظنِّ

(1) الراغب، المفردات: (محص).
(2) الأزهري، تهذيب اللغة، والزبيدي، التاج: (قَلَبَ).
(3) الراغب، المفردات: (قلب)، والدوري، دقائق البيان القرآني، ص: 101-105.

ولذلك اختيرَ لفظُ القلب هنا لكونِه حديثًا عن ظنٍّ سيّئٍ لم يجْرِ على فهم وعلمٍ فهو أدعَى إلى أنْ يُمحَّصَ، ويُنقّى، والله أعلم. ولم يعدِلْ إلى الفؤاد لكونِه موطنَ لُطفٍ وشرفٍ في البدَنِ متعلّقٍ بشدّةِ التأثُّر بما يُفزعُ الإنسانَ من خوفٍ وفزعٍ، ولذلك خاطب الله به نبيَّه ﷺ في مواطنِ التّثبيتِ[1].

(1) دقائق البيان القرآني، ص: 101- 103.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوۡاْ مِنكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ إِنَّمَا ٱسۡتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِبَعۡضِ مَا كَسَبُواْۖ وَلَقَدۡ عَفَا ٱللَّهُ عَنۡهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٞ ١٥٥﴾ [آل عمران: 155]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا بيّنَ تعالى مُعلِّلًا ومُنبِّهًا غناه عنِ الاختبار، وخبرتَه بدقائقِ الأسرارِ؛ أتبعَه مُستأنِفاً ببيانِ ما هو من ثمراتِ العلمِ والدّراية: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوۡاْ مِنكُمۡ﴾ أي عنِ القتال ومقارعةِ الأبطالِ ﴿يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ﴾، أي: منَ المؤمنين والكفّار[1].

وبعد أن بيَّن لهم تعالى أيضًا مرتبةَ حقِّ اليقين بقوله: ﴿قُل لَّوۡ كُنتُمۡ فِي بُيُوتِكُمۡ﴾ انتقل بهم إلى مرتبة الأسباب الظاهرة، فوضَّح لهم أنّه إن كان للأسباب تأثيرٌ فسببُ مصيبتِهم هي أفعالُهم التي أملاها الشّيطانُ عليهم وأضلَّهم بها، فلم يتفطّنُوا إلى السّبب، والتبسَ عليهم بالمُقارَن، ومن شأن هذا الضّلالِ أن يحول بين المُخطئ وبين تدارُكِ خطئه، ولا يخفى ما في الجمع بين هذه الأغراض منَ العلمِ الصحيحِ، وتزكيةِ النُّفوسِ، وتحبيبِ اللّه ورسولِه للمؤمنين، وتعظيمِه عندهم، وتنفيرِهم منَ الشّيطانِ، والأفعالِ الذّميمةِ، ومن معصيةِ الرّسولِ، وفيه تسفيهُ أحلامِ المشركين والمنافقين[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تَوَلَّوۡاْ﴾: الوَاوُ واللَّامُ واليَاءُ: أَصْلٌ صَحِيحٌ يَدُلُّ عَلَى قُرْبٍ، مِنْ ذَلِكَ الوَلْيُ: القُرْبُ[3]. وقولُهم تولَّى إذا عُدّي بنفسه اقتضى معنى الولاية، والإقبالِ على الشيء، وإذا عُدّي بـ (عن) لفظًا أو تقديرًا اقتضى معنى الإعراضِ وترك القُربِ. والتّولّي قد يكونُ بالجسم، وقد يكون بترك الإصغاءِ والائتمار، ويقال: ولّاه دُبُرَه: إذا انهزمَ[4]، وهو المعنى هنا.

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 2/272.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/140.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (وَلَيَ).
(4) الراغب، المفردات: (ولي).

فكلُّ (تولَّى عن، وتولَّ عن) فهي بمعنى الانصراف، وقد يأتي الفعل(تولّى) بمعنى الانصراف إعراضًا وإدبارًا متعدّيًا بنفسه[1]. كما في لفظ الآية الكريمة، والله أعلم.

2) ﴿ٱلۡتَقَى﴾: اللَّامُ، وَالقَافُ، واليَاءُ أُصُولٌ ثَلَاثَةٌ: أَحَدُهَا تَوَافي شَيْئَيْنِ، وهو: اللِّقَاءُ: المُلَاقَاةُ وَتَوَافي الاثْنَيْنِ مُتَقَابِلَيْنِ[2]، وكلُّ شيءٍ استقبلَ شَيْئًا أو صادفَه فقد لقِيَه[3]. واللّقاءُ: مُقابلَةُ الشَّيء ومُصادَفَتُه مَعًا، ويُعبَّر بِهِ عَن كلٍّ مِنْهُمَا، ويقالُ ذلكَ في الإدْراكِ بالحسِّ، والبَصَرِ، وبالبصيرة. وملاقاةُ الله ﷻ عبارةٌ عنِ المصير إليه. وسُمِّيَ يوم القيامة بـ ﴿يَوۡمَ ٱلتَّلَاقِ ١٥﴾ [غافر: 15]، وتخصيصُه بذلك لالتقاء من تقدَّم ومن تأخَّر، والتِقَاءِ أهل السَّماء والأرض، وملاقاةِ كلِّ أحدٍ بعملِهِ الذي قدَّمَهُ[4]. وكلّ (لَقِي) و(التقى) ومضارعُهما فهي بمعنى المقابلةِ[5].

3) ﴿ٱلۡجَمۡعَانِ﴾: الجِيمُ وَالمِيمُ وَالعَيْنُ أَصْلٌ وَاحِدٌ، يَدُلُّ عَلَى تَضَامِّ الشَّيْءِ، يُقَالُ جَمَعْتُ الشَّيْءَ جَمْعًا[6]، والجمعُ: ضمُّ الشّيء بتقريب بعضِه من بعضٍ[7]، وتضامُّ أشياءَ متجانسةٍ كثيرةٍ تلاقيًا أو تلاحمًا أو تراكمًا، وعُمِّم في كلِّ جَمْع لمالٍ أو ناسٍ[8]. ومعنى اللَّفظ في الآية الكريمةِ: جَمْعَا المؤمنين والكافرين في معركة أُحدٍ، والله أعلم.

4) ﴿ٱسۡتَزَلَّهُمُ﴾: الزَّايُ وَاللَّامُ أَصْلٌ مُطَّرِدٌ مُنْقَاسٌ في المُضَاعَف، وَكَذَلِكَ في كُلِّ زَاي بَعْدَهَا لَامٌ في الثُّلَاثِيِّ، وهذا مِنْ عجيبِ هذا الأَصْلِ، وَالزَّلَّةُ: الخَطَأُ؛ لِأَنَّ المُخْطِئَ زَلَّ عَنْ نَهْجِ الصَّوَابِ[9]، وأزلّه الشَّيْطانُ عنِ الحقّ: أضلَّه[10]، واسْتَزَلَّهُ غَيَّرَهُ[11]، وأزلَّهُ: اسْتَفَزَّه، وقيل: أزالَهُ[12]، وزلَّ يزلُّ إذا زلقَ، بفتح اللامِ وكسرها، أراد أنه تزلُق - بضم اللام في

(1) جبل، المعجم الاشتقاقي: (ولي).
(2) ابن فارس، المقاييس: (لقي).
(3) الأزهريّ، تهذيب اللغة: (لقا).
(4) الراغب، المفردات: (لقى).
(5) جبل، المعجم الاشتقاقي: (لقى).
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (جَمَعَ).
(7) الراغب، المفردات: (جمع).
(8) جبل، المعجم الاشتقاقي: (جمع).
(9) ابن فارس، مقاييس اللغة: (زَلَّ).
(10) الخليل، العين: (زلّ).
(11) الجوهري، الصحاح: (زلل).
(12) ابن سيده، المحكم: (زلل).

المضارع وفتحِها - عليه الأقدامُ ولا تثبت، وأزلَّهُ الشيطان، أي: حمله على الزّلِ وهو الخطأُ والذّنبُ[1]، والزلّةُ في الأصل: استرسالُ الرِّجْل من غير قصدٍ، وقيل للذنب من غير قصد: زلّةٌ، تشبيهًا بزلّة الرِّجْل، واستزلّه: إذا تحرّى زلّتَه، وقولُه: ﴿ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾، أي: استجرَّهم الشّيطانُ حتى زلُّوا؛ فإنَّ الخطيئةَ الصغيرةَ إذا ترخَّص الإنسانُ فيها تصيرُ مُسهِّلةً لسبيل الشَّيطان على نفسِه[2]، ورُجّح في اللّفظةِ معنى: أنّ الشّيطانَ حملَهم على الزّلل بمَكرٍ منه، فاستفعل هنا بمعنى أفعَلَ[3]، باستبعاد معنى الطّلب.

5) ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ﴾: اختُلف في أصلِه: أهو من (فَيْعال) من (شَطَنَ)، أي: بَعُدَ[4]، والنّونُ فيه أصليةٌ، ودَلالةُ البُعد أصلٌ فيه[5]، وفي تسميتِه بذلك قولان: إمّا لبُعده عنِ الخير، أو الحقِّ أو عن رحمة اللّه، وتمرّدِه[6]؛ إذْ "خالفَه عن نيّته ووجْهِهِ"[7]، وإمّا "لبُعدِ غورِه في الشّرّ"[8]. أو هو (فَعْلان) من (شاطَ يَشِيطُ) ونونُه زائدةٌ، ويدلُّ على ذهاب الشّيء إمّا احتراقًا وإمّا غيرَ ذلك كالهلاك والبُطلان[9]، والطّردِ طردًا دائمًا حتى يعيَا[10]، فعلى هذا سُمّي بذلك؛ لأنه غارقٌ بالمعصية التي تؤولُ به إلى الهلاك[11]. ومنَ الدَّلالاتِ الأخرى المستنبطةِ من أصْلَيْهِ المُتقدّمَيْن: الكِبْرُ، والالتواءُ، والاعوجاجُ. يقال: بئرٌ شطون: ملتويةٌ معْوجّةٌ، ورمحٌ شطون: طويلٌ أعوجُ[12]. وخلاصةُ وصْفِه، ومِلاكُ تصوّرِه: أنّه كلُّ عاتٍ متمرّدٍ منَ الجن، والإنس، والدّوابِّ[13].

6) ﴿كَسَبُوا۟﴾: الكَافُ والسِّينُ والبَاءُ أَصْلٌ صَحِيحٌ، وهو يَدُلُّ عَلَى ابْتِغَاءٍ، وَطَلَبٍ،

(1) ابن الأثير، النهاية: (زلل).
(2) الراغب، المفردات: (زلّ).
(3) أبو حيان، البحر المحيط: 3/98.
(4) الخليل، العين: (شَطَنَ).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة، والجوهري، الصحاح: (شَطَنَ).
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (شَطَنَ)، وابن الجوزي، نزهة الأعين النواظر، ص: 375، والزبيدي، تاج العروس: (شَطَنَ).
(7) الأزهري، التهذيب، والجوهري، الصحاح: (شَطَنَ).
(8) نزهة الاعين النواظر، ص: 375.
(9) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (شَيَطَ).
(10) ابن عباد، المحيط: (شوط).
(11) وابن الجوزي، نزهة الأعين النواظر، ص: 375.
(12) الزمخشري، أساس البلاغة، وابن منظور، لسان العرب: (شَطَنَ).
(13) مقاييس اللغة: (شَطَنَ)، ونزهة الأعين النواظر، ص: 374.

وَإِصَابَةٍ[1]، وهو في الأصلِ: الطلبُ والسّعيُ في طلب الرزق والمعيشة[2]، فالكسبُ: ما يتحرّاه الإنسانُ ممّا فيه اجتلابُ نفع، وتحصيلُ حظٍّ، ككسب المالِ، وقد يُستعمل فيما يَظنُّ الإنسانُ أنه يجلبُ منفعةً، ثم استُجْلِبَ به مضرّةٌ، ويُقالُ فيما أخذه لنفسه، ولغيره، ولهذا قد يتعدّى إلى مفعولين، فيقال: كسبتُ فلانًا كذا[3]، وهو أيضًا: جَمْعُ الشّيء وتحصيلُه شيئًا بعد شيءٍ بجُهْدٍ ما، أخذًا من حيث كان: كما تأخذ الجوارحُ فرائسَها مرةً بعد أخرى، وكما يُجمع المالُ من مظانّه شيئًا بعد شيءٍ، ومنه: الكَسْبُ: طَلَبُ الرّزق، وتحصيلُه[4]، أو العملُ على الحصول على مرغوبٍ فيه، ومنه الاستمتاعُ بشيءٍ محبوبٍ للنّفس تلذُّذًا، ومتعةً، ومعنى اللّفظة في الآية الكريمة: مفارقةُ موقفِهم على الجبل، وعصيانُ أمرِ الرّسول في المعركة، والتّنازعُ، والتّعجيلُ إلى الغنيمة[5] وغيرُه منَ المعاني بحسبِ ما سيأتي بيانُه في الشّرح البلاغيِّ.

7) ﴿عَفَا﴾: العَيْنُ والفَاءُ والحَرْفُ المُعْتَلُّ أَصْلَانِ يَدُلُّ أَحَدُهُمَا عَلَى تَرْكِ الشَّيْءِ، العَفْوُ: عَفْوُ اللَّهِ تَعَالَى عَنْ خَلقِهِ، وَذَلِكَ تَرْكُ مؤاخذته إِيَّاهُمْ فَلَا يُعَاقِبُهُمْ، فَضْلًا مِنْهُ[6]، و"العفوُ: تركُكَ إنساناً استوجَبَ عُقوبةً فعفوتَ عنه تعفُو، واللّه العَفُوُّ الغَفور"[7]، والأَصْلُ فِي (عَفَا اللّه): محا ذنُوبَ عبدِه عَنهُ، وهو مَأْخُوذ من قَوْلهم: عفتِ الرِّيَاحُ الآثَارَ إذا درسَتْها ومحَتْها، وهو التّجاوُزُ عنِ الذنْبِ وتركُ العقاب عليه، وأصلُه المحوُ والطّمسُ[8]، وغالب ما في القرآن من هذا التَّركيب هو بمعنى الصَّفح[9].

8) ﴿غَفُورٌ﴾: أصلُ الغَفْر: السَّتْرُ والتَّغطيةُ، وَغفر اللّه ذنوبَه: أَي سَترها وَلم يَفْضَحْهُ بهَا على رُؤُوس المَلأ، وكلُّ شَيْء سترتَه بقصد الحمايةِ وما إليها فقد غفرتَه[10]، والغفرُ:

(1) ابن فارس، المقاييس: (كَسَبَ).
(2) الخليل، العين، وابن منظور، لسان العرب: (كَسَبَ).
(3) الراغب، المفردات: (كَسَبَ)، والجرجاني، التعريفات، ص: 236.
(4) جبل، المعجم الاشتقاقي: (كَسَبَ).
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/140.
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عَفَو).
(7) الخليل، العين: (عفو).
(8) ابن الأثير، النهاية: (عفا).
(9) جبل، المعجم الاشتقاقي: (عفو).
(10) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، المقاييس، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (غَفَرَ).

إلباسُ ما يصونُه عنِ الدنس، والغفرانُ والمغفرةُ منَ اللّه هو أنْ يصونَ العبدَ من أن يمسَّهُ العذابُ[1]، والغفور، والغفّار من صِفَاته جلّ ثَنَاؤُهُ وتقدّست أسماؤُه[2]، وكلُّ ما جاء في القرآن منَ التَّركيب هو من مغفرة الذّنوبِ[3].

9) ﴿حَلِيمٌ﴾: الحَاءُ وَاللَّامُ وَالمِيمُ، أُصُولٌ ثَلَاثَةٌ: أحدُها: تَرْكُ العَجَلَةِ، والحِلمُ خِلَافُ الطَّيْشِ. يُقَالُ حَلُمْتُ عَنْهُ أَحْلُمُ، فَأَنَا حَلِيمٌ[4]، أي: ضبطتُ النّفسَ والطبعَ عن هيجان الغضب، وجمعُه أحلام، وفُسِّرَ الحلمُ بالعقل؛ لكونِه من مسبّباتِه[5]. فالحِلمُ: الأناةُ. والحليمُ في صفة اللّه تعالى، معناه: الصَّبورُ[6]، الذي لا يستخفُّه شيءٌ من عصيان العبادِ ولا يستفزُّه الغضبُ عليهم، ولا يعجلُ بالعقوبةِ[7]، فهو ذو أناةٍ لا يعجلُ على عباده بعقوبتِهم على ذنوبِهم[8]، وكذا كلُّ صفةِ (حليم) في القرآن للّه ﷻ، أو للبشر، وللّه المثلُ الأعلى[9].

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

بيانُ علّةِ الهزيمةِ والتعطّفِ بإعلان العفوِ

يخبرُ تعالى عن حالِ الذين انهزموا يوم "أُحدٍ"، وعن الباعثِ الذي أوجبَ لهم الفرارَ، بأنَّ تلك المجموعةَ من الرُّماةِ كانوا سببَ تلك الجِراح بفرارِهم من موقعة أُحدٍ؛ طلبًا للغنيمة، وقد وقعُوا فيما وقعُوا فيه بسببِ أنَّ نفوسَهم لم تتَّجهْ إلى اللّه بكلّيتِها، ولهذا أوقعهم الشّيطانُ ببعض ما عملوا منَ الذّنوبِ، وزيَّن لهم الزّللَ والمعصيةَ، فترتَّبَ على ذلك أن مُنعُوا النَّصرَ والتأييدَ وقوةَ القلب والثّبات، ولقد تجاوزَ اللّهُ عنهم فلم يعاقِبْهم؛ فضلًا منه ورحمة، فمن صفات اللّه أنه غفور للمذنبين التائبين، حليم لا يعاجل من عصاه بالعقوبة[10].

(1) الراغب، المفردات: (غَفَرَ).
(2) ابن سيده، المحكم: (غَفَرَ).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقي: (غَفَرَ).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حَلُمَ).
(5) الراغب، المفردات: (حَلُمَ).
(6) الخليل، العين: (حَلُمَ).
(7) ابن الأثير، النهاية، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (حَلُمَ).
(8) ابن جرير، جامع البيان: 5/117.
(9) وجبل، المعجم الاشتقاقي: (حَلُمَ).
(10) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 3/1466، وطنطاوي، التفسير الوسيط: 2/308، ونخبة من العلماء، التفسير الميسر، ص: 70.

وتُرشدُ الآيةُ الكريمةُ إلى أنّ أعمالَ العبْدِ تسوقُه قسرًا إلى مقتضاها منَ الخيرِ والشّرِّ، والعبدُ لا يشعرُ أو يشعرُ ويتعامَى[1].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

علّةُ الاستئنافِ البيانيِّ:

سببُ الهزيمةِ الخفيُّ طمعُ الشَّيطانِ بأفعالهم

لما نبَّه سبحانه على أنه غنيٌّ عنِ الاختبار، خبيرٌ بدقائقِ الأسرار، أتبعَه قولَه مُستأنِفاً لبيانِ ما هو من ثمراتِ العلم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوۡاْ مِنكُمۡ﴾[2]، وهو استئنافٌ لبيانِ سببِ الهزيمةِ الخفيّ، وهي استزلالُ الشّيطانِ إياهم[3].

غرضُ التَّعبيرِ بلفظِ التّولِّي:

تولِّي المُستَزَلِّين كان عن تكلُّفٍ شديد

يُستعمل التَّولِّي بمعنى الإقبالِ وبمعنى الإدبارِ، فإن كان متعدِّيًا بنفسِه كان بمعنى الإقبالِ، وإن كان متعدّيًا بـ (عن) أو غيرَ متعدٍّ أصلًا كان بمعنى الإعراضِ، ومنه الإدبارُ عنِ الزَّحف والأمرِ في وقته، وهي هنا لذلك[4]، وعبّرَ عنه بصيغة التّفعّل للمبالغةِ في تولِّيهم لما تتضمّنُه الصِّيغةُ من معنى التّكلُّفِ والتّعمّلِ، واللّه أعلم.

سرُّ عدمِ تعيين فاعلِ التَّولِّي:

الاكتفاءُ بالمذكور للدَّلالةِ على مُطلقِ التَّولِّي

"وظاهرُ ﴿تَوَلَّوۡاْ﴾ يدلُّ على مُطلقِ التَّولِّي يومَ اللّقاء"[5]، ويشملُ فريقَيْن: أحدُهما الذين أقبلُوا على الغنيمة وتركوا مواقعَهم منَ الرِّماية؛ فأُولئك بتركِهم مواقعَهم وإقبالَهم على الغنيمة كانوا مُدبرين يُشبهون الفارِّين، والآخرُ: الذين فرُّوا منَ القتال يومَ أنِ اضطربتِ الموقعةُ وأصيب المؤمنون بجراحٍ، وكانت فيهم مقتلتُهم

(1) القاسمي، محاسن التأويل: 2/441.
(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 2/272.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/139.
(4) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 3/1465.
(5) أبو حيان، البحر المحيط: 3/97.

سواءً فرَّ إلى المدينة، أم صعدَ الجبلَ[1]، وفي عدم تعيين المتولِّين إطلاقٌ لاشتمالِ الفعلِ لكلِّ من يصح أن يتَّصفَ به.

والمرادُ منَ الذين تولَّوا نفسُ المخاطَبين بقولِه: ﴿ثُمَّ صَرَفَكُمۡ عَنۡهُمۡ﴾ [آل عمران: 152]، وضميرُ ﴿مِنكُمۡ﴾ راجعٌ إلى عامّةِ جيشِ أحُدٍ، فشملَ الذين ثبتُوا ولم يفرُّوا، وعن السُّدّي أنّ الذين تولَّوا جماعةٌ هربوا إلى المدينة[2].

تعريفُ اليومِ بالإضافةِ:

وأرادَ بـ ﴿يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ﴾ يومَ أحُدٍ[3]، والتّعريفُ بالإضافة أدلُّ هنا من غيره وأخصُّ في تحديد الواقعة، وجملةُ ﴿ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ﴾ حصرٌ للتّولِّي في أثناء المعركةِ.

وجهُ التَّعبيرِ بلفظِ الجمعِ:

فريق المؤمنين يوازي فريق المشركين وإن قلَّ عددًا

الجمعُ: المجموعُ منَ النّاس وهو على وزن فَعْل، مصدرٌ بمعنى اسمِ المفعولِ للمبالغةِ، عُبِّرَ به عن اسمِ الذَّاتِ لتوكيدِ المبالغةِ. والمعنى: جمعُ المؤمنين، وجمعُ المشركين، فلذلك صحّتْ تثنيتُه[4]، ويُعزِّزُ هذا المعنى: التَّعبيرُ عن فعل التّلاقي بصيغةِ التفعّل ﴿ٱلۡتَقَى﴾؛ للدّلالةِ على مشاركةِ طرفَي القتال من مؤمنين وكافرين، وإطلاقُ الجمعِ على الفريقين مع التَّفاوت في العددِ، إمَّا للتَّغليب، وإمَّا لبيان تساوي الفريقين، فاختلاف العدد لا يعني اختلاف الموازنة بينهما، وكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة.

الاستعارةُ في لفظِ الزّلِ للتَّعبيرِ عن معنى الانْهزامِ:

والزّللُ مستعارٌ لفعلِ الخطيئةِ، والمرادُ به الانهزامُ، وإطلاقُ الزَّللِ عليه معلومٌ مشهورٌ كإطلاقِ ثباتِ القدمِ على ضدِّه وهو النَّصرُ، قال تعالى: ﴿وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا﴾ [آل عمران: 147][5].

(1) رضا، تفسير المنار: 4/157، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 3/1466.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/141.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/139.
(4) أبو حيان، البحر المحيط: 3/97.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/140.

بَلاغةُ التَّعبير بصيغةِ الاستفعال:

الاســـتـــزلالُ استدراجٌ للوقوعِ في حالٍ أدنى من السَّابقةِ

استزلَّ للمبالغةِ في أزلّ، واستزلّهم الشّيطانُ أي: حملَهم على الزّللِ بمكرٍ منه، فاستفعلَ هنا بمعنى أفعل[1]، وذهب كثيرٌ منَ المفسِّرين إلى أنَّ معنى السين والتَّاء هو الطَّلب، أي: طلبَ منهم الزّللَ ودعاهم إليه؛ لأنّ ذلك هو مقتضى وسوستِه وتخويفِه[2].

وذهب ابنُ عاشور إلى أنَّ معنى السِّين والتَّاءِ هو التَّأكيدُ، حيث قال: "أي: جعلهم زالّين، والسِّين والتَّاء فيه للتأكيدِ، مثل استفادَ واستبشرَ واستنشق، ولا يحسنُ حملُ السِّين والتَّاء على معنى الطلبِ؛ لأنّ المقصودَ لومُهم على وقوعِهم في معصيةِ الرّسولِ، فهو زللٌ واقعٌ"[3]، فالمعنى هنا: التّحوّلُ من حالٍ إلى حالٍ بجعْلِهم زالِّين وهو منَ المعاني المحتملةِ لصيغة الاستفعال.

سرُّ إظهارِ الفاعلِ:

مـواضـعُ المهانةِ والمعصية مقترنةٌ بالشَّيطانِ

وعدلَ النَّظمُ عن إضمارِ الفاعلِ ﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾ إلى إظهاره جريًا على الأصل، فنسبَ مُنْكَرَ الفعَال إلى الشِّيْطَانِ للدَّلالةِ على أنَّ المعاصيَ لا تُنْسَبُ إلى اللّه[4]، وهي موضعُ إهانةٍ وتحقيرٍ، والإظهارُ أنسبُ؛ لأنّ موردَ الذِّكْر في مواطن الخيبةِ والشَّرِّ، يناسبُه التَّصريحُ ترسيخًا للمهانةِ والنَّبذِ، كما يُناسبُ مواطنَ التَّشريف إظهارُ الأسماءِ الشَّريفةِ.

عِلّةُ حذفِ متعلَّقِ الزَّلِ:

فـــي مـــواطـــنِ الإحـــســـان قـد يُـنـأى عـن ذكـرِ وجوهِ العِصيانِ

لم يُبيِّنْ تعالى في أيِّ شيءٍ استزلَّ الشّيطانُ المتولِّين؛ إذ لا حاجةَ إلى تعيين المعصيةِ مع العَفوِ، لكنَّ العلماءَ جوّزُوا أن يكونَ المرادُ بذلك تحوّلَهم عن ذلك الموضعِ، بأنْ يكون رغبتَهم في الغنيمة، وأن يكونَ فشلَهم في الجهاد وعدولَهم عنِ الإخلاص[5].

(1) أبو حيان، التحرير والتنوير: 3/98، والقاسمي، محاسن التأويل: 2/441.
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 1/530، وأبو حيان، البحر المحيط: 3/98.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/139 - 140.
(4) ابن عادل، اللباب: 6/4.
(5) الرّازي، مفاتيح الغيب: 9/398.

معاني حرفِ الباءِ في قولِه: ﴿بِبَعۡضِ مَا كَسَبُواْۖ﴾:

معنى السّببيةِ إثباتُ أنَّ ما أصابَهم هو بسببِ الشّيطان

اختلف المفسِّرون في معنى الباءِ في قولِه تعالى: ﴿بِبَعۡضِ مَا كَسَبُواْۖ﴾ على أقوالٍ:

القولُ الأوّل: للسّببيةِ، وله وجهان:

الوجه الأوَّل: أي: إنَّ بعضَ ما كسبوا قد كان سببًا لزلّتِهم، وأريدَ ببعض ما كسبوا مفارقةُ موقفِهم، وعصيانُ أمر الرّسولِ، والتّنازعُ، والتَّعجيلُ إلى الغنيمة، والمعنى: أنّ ما أصابَهم كان من آثارِ الشّيطانِ، رماهم فيه ببعضِ ما كسبُوا من صنيعِهم، والمقصدُ من هذا إلقاءُ تبعةِ ذلك الانهزام على عواتقِهم، وإبطالُ ما عرّضَ به المنافقون من رمْيِ تبعتِه على أمرِ الرّسول ﷺ بالخروجِ، وتحريضِ اللّه المؤمنين على الجهاد، وذلك شأنُ ضعاف العُقول أن يَشتبه عليهم مقارنُ الفعل بسببِه[1].

الوجه الآخر: للسّببية وجهٌ آخر ينطبقُ على كلٍّ منَ القولين في الذين تولَّوا، وهو أنَّ تولِّيَهم عنِ القتال لم يكن إلا ناشئًا عن بعض ما كسبُوا منَ السّيئات من قبلُ، فإنّها هي التي أحدثتِ الضّعفَ في نفوسِهم حتى أعدَّتْها إلى ما وقع منها، ويؤيدُ هذا الوجهَ قولُه تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ ٣٠﴾ [الشورى: 30] فهو بمعنى ما هنا إلا أنه هنالك عامٌّ، وهنا خاصٌّ بالذين تولَّوا يومَ أُحُدٍ[2].

معنى الإلصاقِ استزلالُ الشّيطانِ بوساطةِ جناياتِهم

القولُ الثَّاني: للإلصاقِ، كقولِك: كتبتُ بالقَلَم، والمعنى: أنه قد صدرتْ عنهم جناياتٌ، فبِواسطتِها قدِرَ الشَّيطانُ على أن يستزلَّهم لكن لا تولِّي عِنادٍ، ولا فرارٍ منَ الزَّحْف، رغبةً منهم في الدُّنيا، وإنّما ذكَّرهم الشّيطانُ ذُنوباً كانت لهم فكرهُوا البقاءَ إلا على حالٍ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/140.
(2) رضا، تفسير المنار: 4/157.

يَرْضَوْنَهَا، أو أنّهم لمّا أذنبُوا بمفارقةِ المركزِ، أو برغبتِهم في الغنيمةِ، أو بفشلِهم عنِ الجهاد أزلَّهمُ الشّيطانُ بشُؤم هذه المعصيةِ، وأوقعَهم في الهزيمة؛ لأنَّ الذنْبَ يجرُّ إلى الذّنْبِ، كما أنَّ الطاعةَ تجرُّ إلى الطاعة، ويكونُ لطفًا فيها، أو: لمّا أذنبُوا بسببِ الفشلِ ومنازعةِ بعضِهم مع بعضٍ وقعُوا في ذلك الذّنْبِ[1].

معنى التّبعيضِ وقوعُ الزلّة في بعضِ أعمالِهم

القول الثَّالث: للتّبعيض، والمعنى: أنَّ هذه الزَّلَّةَ وقعتْ لهم في بعضِ ما كسبُوا لا في كلِّ ما كسبُوا، والمرادُ منه بيانُ أنّهم ما كفرُوا وما تركُوا دينَهم، بل هذه زلّةٌ وقعتْ لهم في بعضِ أعمالِهم[2]، فالباءُ على أصلِها وأنَّ الزّللَ الذي وقع هو عينُ ما كسبُوا منَ التولّي عنِ القتال[3].

عِلّةُ تَكرارِ الإخبارِ بالعَفوِ:

تأنيسُ المؤمنين بالعفوِ بعد ما أصابَهم منَ الغمِّ

صرّح السِّياقُ بالعَفوِ عنهم في قولِه تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ١٥٢﴾ [آل عمران: 152] وأعادَه هنا في قولِه: ﴿وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْۗ﴾ مكرِّرًا الإخبارَ بالعَفو تأنيسًا لهم[4]، فهو عفوٌ خاصٌّ بالمؤمنين يُراد به أنّ ذنبَهم يومَ أُحُدٍ الذي كان من شأنِه أن يُعاقَبَ عليه في الدُّنيا والآخرةِ قد كانت عقوبتُه الدّنيويةُ تربيةً وتمحيصًا، وعفا اللّه عنِ العقوبة عليه في الآخرة[5].

براعةُ التّوكيدِ في جُملة العَفو:

وجهُ التّوكيدِ لتبديدِ حيرةِ النّفوسِ، والشّعورِ بقُربِ الله منهم تأييدًا وتسديدًا

أكّد سبحانه عفوَه بأربعةِ تأكيداتٍ في قولِه تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ١٥٥﴾:

أوّلها: باللّام في (لقد) فهي تُنبئ عنِ القسَم.

الثّاني: بـ (قد)؛ فإنها تفيدُ تأكيدَ تحقّقِ القولِ.

(1) الرّازي، مفاتيح الغيب: 9/398.
(2) الرّازي، مفاتيح الغيب: 9/399، وابن عادل، اللباب: 6/4.
(3) رضا، تفسير المنار: 4/157.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/141.
(5) رضا، تفسير المنار: 4/158.

الثّالث: وصفُ اللّه تعالى بالمغفرةِ؛ فإنّه يؤكّدُ أنَّ العفوَ شأنٌ في شؤونِه سبحانه.

الرابع: الوصفُ بالحِلْم فإنه يفيدُ: أنَّه سبحانه لَا يسارعُ عبادَه بالعقاب، ولا يعاجلُهم به: ﴿وَلَوۡ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهۡرِهَا مِن دَآبَّةٖ﴾ [فاطر: 45].

وفائدةُ هذه التَّوكيدات؛ لتذهب عن نفوسِهم حيْرتُها، ولتنخلعَ منَ الماضي ولتستقبلَ الحاضرَ والمستقبلَ بقلبٍ جريءٍ ثابتٍ، ولتشعرَ بعونِ اللّه وتوفيقِه وتأييدِه وتسديدِه[1]، بقلوبٍ عامرةٍ بالإيمان، وبنفوسٍ متغلّبةٍ على أهوائها مطيعةٍ لتعاليمِ دينِها[2].

إظهارُ اسمِ الله تعالى في موطنِ العَفو لتربيةِ المهابةِ وتأكيدِ التَّعليلِ:

قولُه تعالى: ﴿وَلَقَدۡ عَفَا ٱللَّهُ عَنۡهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٞ ١٥٥﴾ تعليلٌ لما قبْلَه على سبيل التَّحقيقِ، وفي إظهارِ اسم الجلالةِ تربيةٌ للمهابةِ وتأكيدٌ للتّعليل[3].

تكرارُ الاسمِ الأعظمِ تنبيهٌ على عِظَمِ الذَّنْبِ

وأُعيدَ الاسمُ الأعظمُ مُظهرًا مع أنَّ مقتضى الظَّاهرِ الإضمارُ، تنبيهاً على أنَّ الذّنبَ عظيمٌ والخطرَ بسببِه جسيمٌ، فلولا الاشتمالُ على جميع صفاتِ الكمالِ لعُوجِلوا بأعظمِ النَّكالِ[4].

سرُّ إردافِ المغفرةِ بالحِلْمِ:

مغفرتُه سبحانه مُحاطَةٌ بالحِلْمِ المورِّثِ للطَّمأنينةِ

لمّا كان غُفرُ الذُّنوبِ قد يكون مع تحمّلٍ لها، واستبقاءٍ لآثارِها نفاه سبحانه بقوله: ﴿حَلِيمٞ﴾ أي: حيث لم يُعاملِ المتولِّين حذرَ القَتْل معاملةَ الذين خرجُوا من ديارهم حذرَ الموت، فقال لهم اللّه: موتوا[5]، فالحليمُ هو الذي لَا يعاجلُ بالعقوبة فيؤخّرُ العاصيَ ليستدركَ فيتَّقي لما يُغفرُ له[6]، وفي ذلك توريثٌ للطَّمأنينةِ لدى العبادِ.

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 3/1466 - 1467.
(2) طنطاوي، التفسير الوسيط: 2/308.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 2/103.
(4) البقاعي، نظم الدُّرر: 2/273.
(5) البقاعي، نظم الدُّرر: 2/273.
(6) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/433.

دَلالةُ جملةِ التَّذييلِ:

غفر الذُّنوبِ والحلمُ بالعباد سببٌ في عدم تعجيلِ العقوبةِ

معنى قولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ "أي: محَّاءٌ للذّنوب عيناً وأثراً"[1]، فالمرادُ به المعنى الأعمُّ الشاملُ لمغفرة الذنْبِ والتّجاوُزِ عنه، وشأنُ التّذييلِ التّعميمُ[2]، فلأنَّه غفورٌ حليمٌ لا يعجلُ بتحتيم العقابِ، ومن آيات مغفرتِه لهم وحِلْمِه بهم توفيقُهم للاستفادة ممّا وقعَ منهم وإثابتُهم الغمَّ الذي دفعهم إلى التّوبة حتى تمحّصَ ما في قلوبهم واستحقُّوا العفوَ عن ذنوبهم[3]، فالجملةُ الكريمةُ تحذيرٌ وتبشيرٌ، وترغيبٌ وترهيبٌ، لكي لا يتجاسر النّاسُ على ارتكابِ ما نهى اللّه عنه، ولا ييأسُوا من رحمته متى تابُوا وأنابُوا[4].

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الشيطان، وإبليس:

موردُ ذكرِ إبليس العَلَميَّةُ على العِصيان، وموردُ ذكرِ الشّيطان مواضعُ الأفعالِ الشّريرةِ، والوسوسةِ، والإزلالِ، والإبعادِ عنِ الخير

ورد لفظُ إبليس في القرآن الكريم اسمًا علَمًا للذي عصى اللّه تعالى، في أحد عشر موضعًا، وغالبها في امتناعِه منَ الامتثال لأمرِ اللّه بالسُّجود لآدم عليه السلام؛ تكبُّرًا واستعلاءً. أمَّا لفظُ الشّيطانِ فيقعُ على كلِّ عاتٍ متمرّدٍ منَ الجنِّ، والإنسِ، والدّوابِّ، وورد في القرآن في مواضعِ الأفعال الشّريرةِ، والوسوسةِ، والإزلالِ، والإبعادِ عنِ الخير[5]، ومناطُ الكلام في الآية الكريمة على الوسوسةِ، واستزلالِ المؤمنين في المعركة، فناسبَه لفظُ الشيطان، واللّه أعلم.

الاكتساب، والاجتراح:

الاكتسابُ عامٌّ في الخيرِ والشّرِّ، والاجتراحُ خاصٌّ بمعاصِي الكفّارِ

إنَّ الكسْبَ والجرحَ يُراد بهما اكتسابُ المعاصي والآثام، ولكنَّ الجرحَ وردَ في اكتساب الكُفر، أمّا الكسبُ فهو عامٌّ يقع في اكتسابِ المؤمنِ

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 2/273.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/456.
(3) رضا، تفسير المنار: 4/158.
(4) طنطاوي، التفسير الوسيط: 1/540.
(5) الدوري، دقائق الفروق اللغوية، ص: 141.

والكافرِ، ويدلُّ ذلك على عمومِ الكسب في الخير والشّرِّ، وخصوصِ الجرحِ في المعاصي والآثام، ولذلك جاءت قرينةُ السيئات عمومًا في قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [الجاثية: 21][1].

العفو، والمغفرة، والرَّحْمة:

العفوُ إسقاطُ للعقاب، والمغفرةُ سترٌ للجُرم صونًا له من عذابِ التَّخجيل والفضيحةِ، كأنَّ العبدَ يقول: أطلُبُ منك العفوَ، وإذا عفوتَ عنِّي فاسترهُ عليَّ؛ فإنَّ الخلاصَ من عذاب النَّارِ إنَّما يطيبُ، إذا حصل عَقِيبَه الخلاصُ من عذاب الفضيحةِ، فهما تخلّصٌ من عقابٍ[2]، أمَّا رحمةُ اللّهِ التي وصلت لخلقه فقسمان[3]:

العفوُ إسقاطٌ للعقوبة، والمغفرةُ سترٌ للجُرم، والرَّحْمةُ طلبٌ للثّواب

أ- رحمة عامة: وسعت كل شيء من العالم العلوي والسُّفلي، ووصلت لكل حي مكلف وغير مكلف، برٍّ وفاجر، مؤمنٍ وكافر، وهي رحمة جسدية، دنيوية، دينية، ومن آثارها: خلق المخلوقات وإيجادها من العدم على صورة محكمة.

ب- الرحمة الخاصة: التي خص اللّه بها عباده الصالحين وأولياءه المتقين، وهي رحمة إيمانية، دينية، دنيوية، أخروية، ومن آثارها: امتنانه على أوليائه باستغفار ودعاء أفضل ملائكته - حملة العرش - لهم، وإدخال أوليائه الجنة التي هي أثر من آثار رحمة الرحمن الرحيم، ورحمته - ﷻ - في غاية الكمال والجلال، فلا ضعف معها ولا رقَّة ولا عجز، بل رحمةٌ مع عزة وقوة وقدرة تامة، قال تَعَالَى: ﴿ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٦﴾ [السجدة: 6].

ولا قُدرةَ لأحدٍ على فعلِ الطَّاعة وتركِ المعصيةِ إلاَّ برحمته.

المغفرةُ فيها لطفٌ وتكريمٌ؛ لأنّ استعمالَها في العطيّةِ الحِسّيةِ

(1) الدوري، دقائق الفروق اللغوية، ص: 170 - 171.

(2) الرّازي، مفاتيح الغيب: 7/124، وابن عادل، اللباب: 4/542.

(3) ابن القيم، مختصر الصواعق المرسلة، ص: 368، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 6/436، والسعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 828.

يُقصدُ بها الحفظُ كما في المِغْفَر، وقولُهم: اصْبُغ ثوبَك بالسّواد فإنه أغفرُ لوسخِه، والعفوُ التركُ، كأنه تَرْكُ الشّيءِ مغطًّى بغطائه لمّا لم يُؤْخَذْ منه[1]، فالعفوُ، والمغفرةُ من باب دفْعِ المُؤلِم، والرَّحْمةُ من باب جلْبِ الملائم، ودفعُ المؤلِم آكدُ[2].

والجمعُ بين العفوِ والمغفرةِ في سياقِ الآيةِ الكريمةِ من جزيلِ عطايَاهُ، ومديدِ هدايَاهُ، وواسعِ حِلْمِه بأن يرفعَ العقابَ، ويسترَ مُواقِعَهُ.

المغفرةُ مَظنّةُ اللُّطفِ والتّكريمِ؛ لأنها من بابِ دفْعِ المُؤلِمِ، والرَّحْمةُ من بابِ جلْبِ الملائمِ.

(1) جبل، المعجم الاشتقاقي: (عفو).

(2) البسيلي، التقييد الكبير، ص: 434 - 435، وابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/343.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَقَالُواْ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ إِذَا ضَرَبُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَوۡ كَانُواْ غُزّٗى لَّوۡ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ لِيَجۡعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسۡرَةٗ فِي قُلُوبِهِمۡۗ وَٱللَّهُ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ١٥٦﴾ [آل عمران: 156]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا ظهرَ من بعضِ المؤمنين فُتورٌ وفشلٌ في الجهاد بسببِ وساوسِ الشَّيطان التي استزلَّهم بها في وقعةِ أُحُدٍ، ذكرَ اللّه تعالى في هذه الآيةِ ما يدلُّ على النّهي عن أن يقولَ أحدٌ منَ المؤمنين مثلَ مقالتِهم؛ محذِّرًا إيّاهم من تلك الوسوسةِ[1]، ثمّ إنَّ قولَهم لمّا كان مُوجبًا لغيظِ رسولِ اللّه ﷺ؛ لما فيه منَ الاتّهامِ لقَدَر اللّه؛ ولما فيه من سُوءِ الاعتقاد؛ وكان ذلك مَظنّةَ لأنْ يخدعَ كثيرًا من أهل الطاعةِ؛ لشدّةِ حبِّهم لمن قُتل منهم؛ وتعاظُمِ أسفِهم عليهم؛ كان أنسبَ الأشياءِ المبادرةُ إلى الوعظِ بما يُزيلُ هذا الأثرَ[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ءَامَنُواْ﴾: الهمزةُ والميمُ والنُّونُ أصلانِ، أحدُهما: التَّصديقُ[3]، فالإيمانُ: التَّصديقُ، والطُّمأْنينةُ، وزوالُ الخوفِ[4]، ويرادُ به إذعانُ النَّفْس، والانقيادُ للحقِّ على سبيلِ التَّصديقُ[5]، والإقرار والتصديق الجازم بكل ما أخبر اللّه به ورسوله ﷺ، المتضمِّنُ القولَ باللسان والاعتقادَ بالقلب والعملَ بالجوارح[6]، وعلى هذا فمعنى اللّفظةِ في الآيةِ المبارَكةِ يتضمّنُ هذه الدَّلالاتِ.

2) ﴿كَفَرُواْ﴾: الكافُ والفاءُ والراءُ أصلٌ يدلُّ على معنى السّترِ، والتّغطيةِ[7]، ومنه

(1) الرّازي، مفاتيح الغيب: 9/399، ورضا، تفسير المنار: 4/159.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 2/273.
(3) ابن فارس، المقاييس: (أَمَنَ).
(4) الخليل، العين، والأزهري، التهذيب، والسمين، عمدة الحفاظ: (أَمَنَ).
(5) الراغب، المفردات: (أَمَنَ).
(6) الأزهري، تهذيب اللغة: (أَمَنَ)، وابن تيمية، الإيمان، ص: 64.
(7) ابن فارس، المقاييس: (كفر).

سُمِّيَ الكافرُ كافرًا؛ لأنه ستَر نِعَمَ اللّه عليه، وغطّى الكفرُ قلبَه كلَّه[1]، والكفرُ نقيضُ الإيمان؛ لأنّه تغطيةُ الحقِّ، وهو نقيضُ الشّكرِ؛ لأنّه كفرُ النّعمةِ، أي: جحودُها وسترُها[2]. فالكافرُ جاحدٌ لأنْعُمِ اللّه التي لا تُحصى ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَظَلُومٞ كَفَّارٞ ٣٤﴾ [إبراهيم: 34]. ومنها آياتُه الدّالّةُ على توحيدِه، التي أبانتْ لذوي البصائرِ، والتّمييزِ أنّ خالقَها واحدٌ لا شريكَ له، وهو المرسِلُ الرسلَ بالآياتِ المُعجزةِ، والكُتبِ المنزّلةِ، والبراهينِ الواضحةِ[3]، وأعظمُ الكفرِ: جحودُ الوحدانيةِ أو الشّريعةِ أو النّبوةِ[4].

3) ﴿لِإِخۡوَٰنِهِمۡ﴾: الأصل فيه: أخَوَ، وهو: المشارِكُ آخرَ في الولادةِ منَ الطَّرفين، أو من أحدِهما أو منَ الرَّضاعِ، ويُسْتَعارُ في كلّ مشاركٍ لغيره في القبيلةِ، أو في الدِّينِ، أو في صنْعةٍ، أو في معاملةٍ أو في مودَّةٍ، وفي غيرِ ذلك منَ المناسباتِ[5]، وأصلُ معناه عُرْوةٌ أو نحوُها يُشَدُّ فيها الشَّيءُ، أي: يُرْبَط كما تُرْبط الدابَّةُ في عُرْوة الآخية، والأَخَوان مرتبطان بخروج كلٍّ منهما من نفس الصُّلبِ، ولِملحظِ الارتباطِ عُبّر بها عنِ الصَّداقة والصُّحبةِ، وفي المُقترنَيْنِ المتلازمَيْنِ في عقيدةٍ أو حالٍ[6]، ومعناه في الآية الكريمةِ هو اتّفاقُهم نسبًا أو مذهبًا وعقيدةً[7]، واللّه أعلم. وقيل في النّسبِ فقط أو المشاكلةِ في الدِّين وسيأتي بيانُه.

4) ﴿ضَرَبُواْ﴾: الضَّادُ وَالرَّاءُ وَالبَاءُ أَصْلٌ وَاحِدٌ، مِنْ ذَلِكَ: ضَرَبْتُ ضَرْبًا، إِذَا أَوْقَعْتَ بِغَيْرِكَ ضَرْبًا، ثُمَّ يُسْتَعَارُ وَيُحْمَلُ عَلَيْهِ وَيُشَبَّهُ بِهِ، وَمِنْهُ الضَّرْبُ فِي الأَرْضِ تِجَارَةً وَغَيْرَهَا مِنَ السَّفَرِ، وهو أيضًا: الإِسْرَاعُ إِلى السَّيْرِ[8]، فالضَّرْبُ يقَعُ على جميع الأعمالِ، ضَرْبٌ في التّجارةِ، وفي الأرض، وفي سبيل اللّهِ، يصِفُ ذَهابَهم وأَخْذَهم فيه[9].

5) ﴿غُزًّى﴾: الغَيْنُ وَالزَّاي وَالحَرْفُ المُعْتَلُّ أَصْلَانِ صَحِيحَانِ، أَحَدُهُمَا طَلَبُ شَيْءٍ،

(1) الأزهري، التهذيب: (كفر).
(2) الخليل، العين، والأزهري، التهذيب، وابن فارس، المقاييس: (كفر).
(3) الزبيدي، تاج العروس: (كفر).
(4) الراغب، المفردات: (كفر).
(5) الراغب، المفردات: (أخ).
(6) جبل، المعجم الاشتقاقي: (أخو: أخي).
(7) البروسوي، روح البيان: 2/114.
(8) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ضَرَبَ).
(9) الخليل، العين: (ضَرَبَ).

وهو: الغَزْوُ، فالغَازِي: الطَّالِبُ لِذَلِكَ[1]، والغزْوُ: القصدُ[2]، وغزا الشَّيْءَ غزوًا: أرادَه وَطَلَبه، والغزوُ: السّيرُ إِلَى قتال العَدوّ وانتهابِه[3]، والخروجُ إلى محاربتِه، وجمعُه غُزاةٌ، وغُزًّى[4].

6) ﴿لِيَجْعَلَ﴾: معنى جَعَلَ في مُعجماتِ اللّغة: صَنَعَ، وصَيَّر، وخَلَقَ، وَوَضَعَ[5]، وذكرَ الرّاغبُ تَصرُّفَ الفِعْلِ على خمْسَة أوْجُهٍ: منها: ما يَجري مجرَى صارَ وطفِقَ[6]، وقال الزمخشريُّ: "جعل يتعدّى إلى مفعول واحدٍ إذا كان بمعنى أحدثَ وأنشأ، كقَوْلِه: ﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَۖ﴾ [الأنعام: 1] وإلى مفعولَيْن إذا كان بمعنى صيّر، كقَوْلِه: ﴿وَجَعَلُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًاۚ﴾ [الزخرف: 19]"[7]، وهو هنا متعدٍّ إلى مفعولَيْن. ومعنى (جَعَلَ) وما تَصَرَّف منها في القرآنِ التَّحويلُ والتَّهْيئةُ على وَضْعٍ، والتحويلُ للهيئةِ بإنشاء هَيْئَةٍ جَديدةٍ[8]، وهو معنى اللّفظةِ في الآيةِ الكريمةِ، أي: تَصْييرُ قولِهم أو فعلِهم حسرةً في قلوبهم، واللّه أعلم.

7) ﴿حَسْرَةً﴾: الحَاءُ وَالسِّينُ وَالرَّاءُ أَصْلٌ وَاحِدٌ، وَهُوَ مِنْ كَشْفِ الشَّيْءِ، ومِنْه الحَسْرَةُ: وهي التَّلَهُّفُ عَلَى الشَّيْءِ الفَائِتِ، وَذَلِكَ لانْكِشَافِ أَمْرِهِ في جَزَعِهِ وَقِلَّةِ صَبْرِهِ[9]، والحَسْرُ والحُسُور: الإعياءُ، وحَسِرَ حَسْرةً وحسْرًا، أي: نَدِمَ على أَمْرٍ فاتَه[10]، وكمَدَ على ما فاته وتلهَّف عَلَيْهِ[11]. والحاسِرُ: المُعيَّا لانكشاف قُواه، والحسرةُ: الغمُّ على ما فاته والنَّدمُ عليه، كأنه انحسرَ عنه الجهلُ الذي حملَهُ على ما ارتكبَه، أو انحسر قواه من فرطِ غَمٍّ، أو أدركه إعياءٌ من تدارُك ما فرطَ منه[12]، والحسرةُ النّدامةُ والاهتمامُ على فائتٍ لم يقدرْ بلوغَه[13]. وهي: شدّةُ الأسف، أي: الحُزن[14].

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (غَزَوَ).
(2) الأزهري، تهذيب اللغة: (غزا).
(3) ابن سيده، المحكم: (غزو).
(4) الراغب، المفردات: (غزا).
(5) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، وابن سيده، المحكم: (جعل).
(6) الراغب، المفردات: (جعل).
(7) الزَّمخشري، الكشَّاف: 2/3.
(8) جبل، المعجم الاشتقاقي: (جعل).
(9) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حَسَرَ).
(10) الفراهيدي، العين: (حسر).
(11) ابن دريد، جمهرة اللغة: (حسر).
(12) الراغب، المفردات: (حسر).
(13) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 4/247.
(14) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/142.

8) ﴿يُحۡيِۦ﴾: الحَاءُ وَاليَاءُ وَالحَرْفُ المُعْتَلُّ أَصْلَانِ، أَحَدُهُمَا خِلَافُ المَوْتِ، وهو الحَيَاةُ والحَيَوَانُ[1]، والحَيُّ من كلِّ شَيْءٍ: نقيضُ المَيِّت[2]، والحياةُ باعتبار الدُّنيا والآخرة ضربان: الحياةُ الدُّنيا، والحياةُ الآخرة[3]، وكلُّ ما في القرآن منَ التَّركيب هو منَ الحياة ضدُّ الموت عدا التّحيةِ والحياءِ[4].

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

تنبيهُ المؤمنين من عقائدِ المنافقين

يَنْهَى تعالى عبادَه المؤمنين عن مشابهةِ الكفّارِ في اعتقادِهم الفاسدِ، الدالِّ عليه قولُهم عن إخوانِهم من أهلِ الكفرِ - في الدِّين أو في النَّسب - الذين ماتُوا في الأسفار والتّجارةِ، أو قُتِلوا في الحروبِ: لو كانوا تركُوا ذلك لما أصابَهم ما أصابَهم، يعارضون القدر[5]، وأنّه سيجعلُ هذا القولَ النّاشئَ عنِ الاعتقادِ الفاسدِ حَسْرَةً في قلوبِهم بالاغتمامِ على ما فات، والتّحسّرِ على ما لم يأتِ، واللّه يحيي مَن قدَّر له الحياة - وإن كان مسافرًا أو غازيًا - ويميت مَنِ انتهى أجلُه وإن كان مقيمًا، لا يمنع قَدَرَه قعودٌ ولا يُعَجلُه خروجٌ، واللّه لا تخفى عليه أعمالكم، وسيجازيكم عليها[6].

وتُرشدُ الآيةُ الكريمةُ إلى عدمِ جوازِ التّشبّهِ بالكفّار، ووجوبِ حفظِ المنطقِ ممّا يشاكلُ ألفاظَ المشركين منَ الكلماتِ المُنافيةِ للعقيدةِ الإسلاميةِ[7]، وإلى التّحذيرِ منَ العَوْدِ إلى مخالجةِ عقائدِ المشركين، وبيانِ سُوءِ عاقبةِ تلك العقائدِ في الدُّنيا أيضًا[8].

(1) ابن فارس، المقاييس: (حَيَّ).
(2) ابن سيده، المحكم: (حيي).
(3) الراغب، المفردات: (حيي).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقي: (حيي).
(5) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 2/147، والسعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 70.
(6) جماعة من العلماء، المختصر في تفسير القرآن الكريم، ص: 70.
(7) القاسمي، محاسن التأويل: 2/442.
(8) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/141.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

الاستئنافُ في المَطلَعِ تلطّفٌ بالمؤمنين بعدَ التَّقريعِ:

قولُه تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ استئنافٌ، وإقبالٌ على المؤمنين بالخطاب تلطّفًا بهم جميعًا بعد تقريعِ فريقٍ منهم وهم الذين تولَّوا يومَ التقى الجمعان[1]، ولمّا كان الرّسولُ ﷺ مؤيَّدا بأعظمِ الثّباتِ؛ لِمَا طُبعَ عليه منَ الشِّيمِ الطاهرةِ؛ والمحاسنِ الظاهرةِ؛ كان الأنسبُ البداءةَ بغيره؛ فنَهى الذين آمنوا عنِ الانخداعِ بأقوالِهم[2].

سببُ فصلِ جملةِ النِّداءِ عمَّا قبلَها:

المطلعُ لا يناسبُ عطفَه على ما قبلَه

الكلامُ المفتتحُ بالنّداءِ والتّنبيهِ ونحوِه مثل: يا أيها الناس، ويا زيد، وألا، ونحوِها لا يناسبُ عطفُه على ما قبْله، وينبغي أن يُعتبرَ افتتاحَ كلامٍ بحيث لا يُعطفُ إلا بالفاء إذا كان مترتِّبًا عمّا قبْلَه؛ لأنّ العطفَ بالفاء بعيدٌ عنِ العطف بالواو وأوسعُ من جهة التّناسُبِ[3].

وجهُ النِّداءِ في المطلعِ:

النِّداءُ يُشعِرُ بخبرٍ مهمٍّ عظيمٍ

لفظ ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ صار كاللّقب لمن اتّبع الدِّينَ اتّباعًا حقًّا[4]، وافتُتحَ الكلامُ بالنّداء؛ لأنّ فيه إشعارًا بخبرٍ مهمٍّ عظيم، فإنّ شأنَ الأخبارِ العظيمةِ التي تهولُ المخاطَبَ أن يقدّمَ قبْلَها ما يُهيّئُ النَّفسَ لقَبولها؛ لتستأنِسَ بها قبلَ أن تُفجئَها[5].

دَلالةُ التَّعبيرِ بالاسمِ الموصولِ:

عرّفَ النَّظمُ المؤمنين والكافرين في قولِه تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ بالاسم الموصول، وهو إمّا أن

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/141.
(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 2/274.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/651.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/277.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/52.

احتمالُ الاسمِ الموصولِ للعهدِ أو للجنسِ

يكونَ لتعريف العهدِ مرادًا منه القومُ المعهودون منَ المؤمنين ومنَ المنافقين، وإمّا أن يكونَ الموصولُ لتعريف الجنسِ المفيدِ للاستغراقِ فيكونَ اللّفظُ على إطلاقه فيَدْخُلُ فيه كلُّ مؤمنٍ وكلُّ كافرٍ يقول مثلَ هذا القولِ سواء أكان منافقا أم لم يكن[1]، على أنَّ المرادَ منَ الكُفر أبلغُ أنواعِه بقرينةِ مقابلتِه بالذين آمنوا وهم الذين اتَّبعُوا الدِّينَ اتّباعًا حقًّا.

فائدةُ صيغةِ النّهيِ:

النّهيِ يُوحي بتباعدِ ما بين مقامَي الإيمان والكُفر

صيغةُ النَّهي التي عبَّر بها سبحانه: ﴿لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ تفيدُ تباعدَ ما بين المقامَيْن: مقامِ الإيمان، ومنزلِ الكفران، وأنه لا يصحُّ بالمؤمن أنْ ينزلَ إلى المرتبة الدُّونِ، بعد أن علا بالإيمان إلى مقام الأَعلِين الأبرارِ، وفي هذا تقبيحُ المَنهيّ عنه بأبلغِ تعبيرٍ، وأرقِّ تصويرٍ[2].

فائدةُ التَّعبيرِ بلفظِ الأُخوّةِ:

اشتمالُ لفظِ الأخوَّة النَّسبِ، أو الدِّينِ، أو الاثنين معًا

معنى الأخوَّةِ في قوله تعالى: ﴿لِإِخۡوَٰنِهِمۡ﴾ أخوَّةُ نَسَبٍ؛ لأنّ قتلى أُحدٍ كانوا منَ الأنصار، وأكثرُهم منَ الخزرج، ولم يكن فيهم منَ المهاجرين إلا أربعةٌ[3]، فالمرادُ: منَ الخزرج المؤمنين؛ لأنّ الشهداءَ منَ المؤمنين[4]، ويحتملُ أن يكونَ المرادُ من هذه الأخوّة المشاكلةَ في الدِّين، واتّفق إلى أن صار بعضُ المنافقين مقتولًا في بعض الغزوات فالذين بقَوا منَ المنافقين قالوا ذلك[5]، أو هو اتفاقُهم نسبًا أو مذهبًا وعقيدةً[6].

(1) هذا التوجيه مستنبطٌ من قول للفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 9/400.
(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 3/1468.
(3) ابن عطية، المحرر الوجيز: 1/530.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/141.
(5) الرّازي، مفاتيح الغيب: 9/400.
(6) الخلوتي، روح البيان: 2/114.

معنى اللّامِ في قولِه تعالى: ﴿لِإِخۡوَٰنِهِمۡ﴾:

الـلَّامُ للسّببِ؛ لأنّ قولَ المنافقين بسببِ إخوانِهم لا معهم

اللّام في قوله تعالى: ﴿لِإِخۡوَٰنِهِمۡ﴾ هي لامُ السببِ (العلّة)، والمعنى: قالوا ما قالوا لأجل إخوانهم، كقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ هَٰٓؤُلَآءِ أَهۡدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ سَبِيلًا ٥١﴾ [النساء: 51]، وليست لامَ التّبليغ (تعديةَ فعل القول) الجارّةَ لاسمِ السَّامع لقولٍ أو ما في معناه: نحو: قلتُ له، وأذنتُ له؛ وذلك لأنّ إخوانَهم ليسوا متكلِّمًا معهم بل هم الذين ماتُوا وقُتلوا[1].

علّةُ ذكرِ الغزوِ بعد الضَّربِ، وإفرادِه منه:

بـين الـضَّـربِ والـغـزوِ عُـمـومٌ وخـصـوصٌ فتغايرا

لسائلٍ أن يسألَ عن سرِّ ذكرِ الغزوِ بعد الضّرب في قولِه تعالى: ﴿وَقَالُواْ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ إِذَا ضَرَبُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَوۡ كَانُواْ غُزّٗى﴾؟ والجواب: أنَّ منَ الغزو ما لا يكونُ ضربًا؛ لأنّ الضّربَ هو الإبعادُ في السّفر، والجهادُ قد يكون قريبَ المسافة؛ إذ لا فرقَ بين بعيدِه وقريبِه، فالخارجُ منَ المدينة إلى جبل أحُدٍ لا يُوصَفُ بأنّه ضاربٌ في الأرض مع قُربِ المسافةِ وإن كان غازيًا؛ فلذلك أُفرِدَ الغزوُ عنِ الضرب؛ فإنَّ بينهما عمومًا وخصوصًا فتغايرَا، فصحّ إفرادُه، إذ لم يندرج من جهةٍ تحتَه[2].

فائدةُ عطفِ الخاصِّ على العامِّ:

الـغـزوُ هـو المقصودُ بيانُه، والضَّربُ توطئةٌ له

إفرادُ كونِ الضَّاربين في الأرضِ غُزاةً بالذِّكرِ مع اندراجِهم تحتَ الضَّربِ في الأرض؛ لأنَّه المقصودُ بيانُه في المقام، وذكرُ الضّربِ في الأرض توطئةٌ له وتقديمُه لكثرةِ وقوعِه، على أنه قد يوجدُ بدون الضّربِ في الأرض إذِ المرادُ به السفرُ البعيدُ، وإنما لم يقل: أو غَزَوْا للإيذانِ باستمرار اتّصافِهم بعنوان كونِهم غزاةً، أو بانقضاء ذلك، أي: كانوا غزاةً فيما مضى[3].

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 3/99، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/141.
(2) الرّازي، مفاتيح الغيب: 9/400، وأبو حيان، البحر المحيط: 3/100.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 2/103.

فائدةُ التَّعبيرِ بالظرف ﴿إِذَا﴾ دون (إِذ):

استحضارُ الصورةِ وكأنّها مشاهَدةٌ في الحال، وتجسيدٌ للمعنى المرادِ

﴿إِذَا﴾ ظرفٌ يفيدُ معنى الاستقبال، واستُعملَ في قولِه: ﴿إِذَا ضَرَبُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ للماضي بدليل فعلَيْ ﴿وَقَالُواْ﴾، و﴿ضَرَبُواْ﴾[1]، وهذا من روائعِ فنونِ البلاغةِ، فـ ﴿إِذَا﴾ ظرفٌ للمستقبل وقد جاء متعلِّقًا بـ ﴿وَقَالُواْ﴾، وهو فعلٌ ماضٍ، وكان ظاهرُ الكلام يقضي باستعمال (إذ) المفيدةِ للمُضيّ، ولكنّه عدَلَ عنها إلى ﴿إِذَا﴾ لحكايةِ الحالِ الماضيةِ استحضارًا للصّورة في الذّهنِ، وتجسيدًا للمعنى المرادِ وتشخيصًا لما يريد المتكلِّمُ عرضَه، وفائدتُها استمرارُ الزمان المنتظِمِ للحال الذي يدور عليه الحديثُ إلى وقتِ التّكلُّم[2].

دلَّت (إذا) على اطِّرادِ الأمرِ في الزَّمنِ المستقبلِ

دخلَتْ ﴿إِذَا﴾ في صلةِ الموصولِ لأنَّ الماضيَ إذا وقَع صلةً لموصولٍ صَلَح للاستقبال نحوَ: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبۡلِ أَن تَقۡدِرُواْ عَلَيۡهِمۡۖ﴾ [المائدة: 34] قال ابنُ عَطيةَ: "ودخلت إذا وهي حرفُ استقبالٍ من حيث ﴿ٱلَّذِينَ﴾ اسمٌ مُبْهَمٌ يَعُمُّ مَنْ قَال في الماضي ومَنْ يقول في الاستقبال، ومِنْ حيث هذه النازلةُ تُتَصَوَّرُ في مستقبلِ الزّمان، ويطَّردُ النَّهيُ للمؤمنين فيها، فوضعت ﴿إِذَا﴾ لتدلَّ على اطّراد الأمر في مستقبل الزمان"[3].

فائدةُ التَّعبيرِ عنِ المستقبل بلفظِ الماضي:

التَّعبيرُ بالماضي عنِ المستقبل مبالغةٌ في كونِه لازمَ الحُصولِ

آثر النَّظمُ التَّعبيرَ بصيغة الماضي للدّلالةِ على المستقبلِ في قولِه تعالى: ﴿وَقَالُواْ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ﴾ لفائدتين؛ إحداهما: أنَّ الشّيءَ الذي يكون لازمَ الحصولِ في المستقبل قد يعبَّرُ عنه بأنّه حدثَ أو هو حادثٌ، كقولِه تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ﴾ [النحل: 1] فهنا لو وقعَ التَّعبيرُ عنه بلفظ المستقبل لم يكن فيه مبالغةٌ، أما لمّا وقع التَّعبيرُ عنه بلفظ الماضي،

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/141.

(2) الراغب، تفسير الراغب: 3/944 - 945، والزمخشري، الكشاف: 1/430، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 2/103، ودرويش، إعراب القرآن وبيانه: 2/81.

(3) ابن عطية، المحرر الوجيز: 1/531، والسمين، الدُّرّ المصون: 3/452.

دلَّ ذلك على أنّ جدَّهم واجتهادَهم في تقرير الشُّبهة قد بلغ الغايةَ، وصار هذا المستقبلُ بسبب ذلك الجِدِّ كالكائنِ الواقعِ الثّابتِ؛ لأنّ صيغةَ الماضي مُتحقِّقةُ الوقوعِ.

قصدُ المنافقين الإخبارُ عن جِدِّهم في تقرير الشُّبهات

والثّانيةُ: أنّه تعالى لما عبّر عنِ المستقبل بلفظ الماضي دلَّ ذلك على أنّه ليس المقصودُ الإخبارَ عن صدورِ هذا الكلام، بل المقصودُ الإخبارُ عن جِدِّهم واجتهادِهم في تقرير هذه الشُّبهةِ[1].

وجهُ الاستعارةِ في لفظةِ الضَّرب:

إظهارُ وجهِ المَشقّة في السَّفر في الأرضِ

الضَّربُ في الأرض: الإبعادُ في السّفر[2]، وشبَّه المسافرَ في البرّ بالسَّابحِ الضّاربِ في البحر؛ لأنّه يضربُ بأطرافه في غَمرةِ الماءِ شقًّا لها، واستعانةً على قطعِها[3]، أو هو من أصل الضّرب، وهو إيقاعُ جسمٍ على جسمٍ وقرْعُه به، فالسّيرُ ضربٌ في الأرض بالأرجُلِ، فأُطلق على السّفر للتجارة في قولِه تعالى: ﴿وَءَاخَرُونَ يَضۡرِبُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَبۡتَغُونَ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ﴾ [المزمل: 20]، وعلى مُطلقِ السّفر كما هو هنا في أحدِ تفسيراتِه، وعلى السّفرِ للغزو كما في قولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبۡتُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ﴾ [النساء: 94]، والظّاهرُ أنّ المرادَ هنا السّفرُ في مصالحِ المسلمين؛ لأن ذلك هو الذي يلومُهم عليه الكفّارُ، وقيل: أريدَ بالضّرب في الأرض التّجارةُ، وعليه يكون قرنُه مع القَتْل في الغزو لكونِهما كذلك في عقيدةِ الكفار[4]، وأيًّا كان ففيه إظهارٌ لوجه المَشقّةِ في هذا الضّربِ إذ لا يخفى عُسرُ ركوبِ البحر أو مصاعبُ التّجارة، والله أعلم.

بلاغةُ التَّعبير بالجمع ﴿غُزًّى﴾ دون غيرِه:

﴿غُزًّى﴾ جمع غازٍ، وهو على وزن (فُعَّل)، ويدلُّ هذا الجمعُ

(1) الرّازي، مفاتيح الغيب: 9/401.
(2) الراغب، تفسير الراغب: 3/942.
(3) الإندونيسي، الشامل في بلاغة القرآن: 1/201 - 202.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/142.

على الحركةِ الظّاهرةِ، وتكثيرِ القيام بالفعل[1]، وهو يناسبُ صفةَ ملامتِهم، وكأنَّ مؤاخذتَهم هي على كثرةِ الغزواتِ التي يقومون بها، فضلًا عمّا تتضمّنه هذه الغزواتُ من فرطِ حركةٍ بسبب شدِّةِ القتال، ويرى العمادي أنّه "لم يقل: (أو غَزَوْا)؛ للإيذان باستمرار اتّصافِهم بعنوان كونِهم غزاةً أو بانقضاء ذلك أي كانوا غزاةً فيما مضى"[2].

الـدّلالـةُ على الـحـركـةِ الظّاهرةِ، وتكثيرِ القيامِ بالفعل

بلاغةُ المقابلةِ في التَّقديم والتَّأخيرِ:

تقدَّم ذكرُ الموتِ على القَتْل في قولِه تعالى: ﴿لَّوْ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ﴾؛ لمناسبة التَّرتيب وحسنِ مقابلةِ ما قبْلَه في الآية الكريمة؛ لأنّ قولَه: ﴿إِذَا ضَرَبُواْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ يقابلُه: ﴿مَا مَاتُواْ﴾، وقولُه: ﴿أَوْ كَانُواْ غُزًّى﴾ يقابله: ﴿وَمَا قُتِلُواْ﴾ فرجعَ الموتُ لِمَنْ ضَرَب في الأرض، والقَتْلُ لِمَنْ غزا[3].

يُناسبُ الضَّربَ المـوتُ، والغـزوَ القتلُ

معنى ﴿لَّوْ﴾ تلميحٌ بتمكُّنِ الشَّيطان منهم بتكرار عباراتِ استحضارِه:

تعبيرُهم بـ﴿لَّوْ﴾ في قوله تعالى: ﴿لَّوْ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ﴾ التي هي سبيلُ الشّيطانِ دائما إظهارٌ لوسواسِ نفوسِهم مكرّرين ما كان يجبُ في ظنِّهم[4].

بلاغةُ التَّهكُّمِ في دقَّةِ النَّظم:

التَّعبيرُ بقولِه تعالى: ﴿لَّوْ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ﴾ على هذا الصَّوغِ بإطلاقِ نفي الموتِ عنهم أو القتل عندما يكونون عندهم، غايةُ التّهكُّم بهم؛ لأنَّ إطلاقَ هذا القولِ منهم - لا سيما على هذا التأكيدِ - يلزمُ منه ادّعاءُ أنه لا يموت أحدٌ في المدينة، وهو ما لا يقولُه عاقل[5].

(1) السامرائي، معاني الأبنية في العربية، ص: 152.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 2/103.
(3) السمين، الدُّرّ المصون: 3/459، والإندونيسي، الشامل في بلاغة القرآن: 1/201.
(4) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 3/1468.
(5) البقاعي، نظم الدُّرر: 2/274.

فائدةُ تكرارِ حرفِ النّفي (ما):

دفعُ توهُّمِ عدمِ إرادةِ العطفِ

في تكرار ﴿مَا﴾ في قولِه تعالى: ﴿مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ﴾ دفعُ احتمالِ معنى: (أنّهم ما ماتوا، لكنّهم قُتلوا) وهو معنًى مُنْتَفٍ أصلًا، وعدمُ تكرار (ما) يحقّق تقديرَه.

دَلالةُ اللّام في ﴿لِيَجْعَلَ﴾:

تردُّدُ معنى اللّامِ بينَ العاقبةِ والتَّعليل

اللّام في قولِه تعالى: ﴿لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ﴾ إمَّا أن تكون لامَ العاقبة[1] والصَّيرورة، وهي تدلُّ على المآل، ولا تدلُّ على التَّعليل الباعث على العملِ، ومعناها في الآيةِ: لا تكونوا كالذين قالوا فترتَّبَ على قولهم أن كان ذلك حسرةً في قلوبهم، وذلك مثلُ قولِه تعالى: ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ [القصص: 8]، فإنّه ما كان الباعثُ على الالتقاط هو أن يكون لهم عدوًّا وحزنًا، بل كانت النتيجةُ هي العداوةُ[2].

ويصحُّ أن تكونَ لامَ للتّعليل (لام كي)، ويكونَ المعنى: أنّ اللّه سبحانه وتعالى خلقَ الكفّارَ على هذه الأخلاقِ اليائسةِ، أو قدّرَ لهم هذه الأحوالَ المُوئسةِ ليُلقيَ الحسرةَ في قلوبهم، والغمَّ في نفوسهم، والضّلالَ بهذه الأقوال في عقولِهم[3].

عِلّةُ ذكرِ اسمِ الإشارةِ ﴿ذَٰلِكَ﴾:

الإشارةُ إلى القولِ والاعتقادِ، أو الإشارةُ إلى النَّهي عن مشابهتِهم

التَّعبيرُ بـ ﴿ذَٰلِكَ﴾ في قولِه: ﴿لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْۗ﴾ إما إشارةً إلى القولِ والاعتقادِ، أي: لا تكونُوا مثلَهم في النُّطق بذلك القولِ واعتقادِه ليجعله اللّه حسرةً في قلوبِهم خاصّةً، ويصونَ منها قلوبَكم، وإمَّا إشارةً إلى ما دَلَّ عليه النهيُ، أي: لا تكونوا مثلَهم ليجعلَ اللّه انتفاءَ كونِكم مثلَهم حسرةً في قلوبِهم؛ لأنَّ مخالَفَتهم فيما يقولون ويعتقدون، مِمَّا يَغُمُّهُمْ ويَغيظُهم[4].

(1) الراغب، تفسير الراغب: 3/945.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/142، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 3/1469 - 1470.
(3) السمين، الدُّرّ المصون: 3/454، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 3/1469 - 1470.
(4) الزمخشري، الكشاف: 1/431.

معنى جعل الحسرةِ من فعل اللّه تعالى:

إيجادُ الحسرة في القلوبِ عقوبةٌ على المعتقدِ الفاسدِ

آثر النَّظمُ الكريمُ جَعْلَ الحسرةِ مفعولةً للّه تعالى في قولِه: ﴿لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ﴾ فإنّ اللّه ﷻ عند اعتقادِ المنافقين - أنَّ من مات لو بقيَ عندهم ما مات - يضعُ الغمَّ والحسرةَ في قلوبهم، ويُضيّقُ صدورَهم عقوبةً، فاعتقادُه فعلَهم وما يكون عنده منَ الغمّ والحسرةِ وضيقِ الصُّدور هو في الحقيقةِ فعلُ اللّه ﷻ؛ كقوله: ﴿يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأنعام: 125][1].

وجهُ تنكيرِ الحَسرةِ:

حَسْرةُ المنافقين متمكِّنةٌ منهم وشديدةٌ عليهم

الحسرةُ: شدّةُ الأسف، أي: الحزن[2]، وعبّر عنها بالمصدر ﴿حَسْرَةً﴾؛ للدّلالةِ على شدّتِها وتمكّنِها فيهم، وفي تنكيرِها تعدّدُ وجوهِ حصولِ الحسرةِ في قلوبهم[3].

قوّةُ قولِه: ﴿وَٱللَّهُ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ﴾ بعد النَّهي السَّابقِ:

تقرير المعتقدات بعد النَّواهي الشّرعيَّة أثبتُ في الأفهام

في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ﴾ ترشيحٌ لمعنى النّهي السّابق ﴿لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَقَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ إِذَا ضَرَبُواْ فِي ٱلْأَرْضِ أَوْ كَانُواْ غُزًّى لَّوْ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ﴾ وتقويةٌ له، وتأكيدٌ لضلالِ الكفّارِ ومن يُحاكونَهم في انشغالِ أنفسِهم بمن ماتوا، وظنّهم أنّ الخروجَ هو سببُ قتلِ من قُتلوا[4].

بَلاغةُ الطّباقِ بين لفظِ الحياةِ والموتِ:

الطّباقُ بين ﴿يُحْيِۦ وَيُمِيتُ﴾ هو من أوجزِ الحديثِ وأصدقِه وأعمقه في الدَّلالةِ على المعنى المرادِ، فإنّه سبحانه قد يُحيي المسافرَ والغازيَ مع اقتحامِهما مواردَ الهَلَكةِ، ثم يُميتُ المقيمَ والقاعدَ مع أخذِهما بأسباب الحِيطةِ والحذرِ[5].

---

(1) الزمخشري، الكشاف: 1/431.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/142.
(3) الرّازي، مفاتيح الغيب: 9/402.
(4) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 3/1471.
(5) الصافي، الجدول: 4/351، ودرويش، إعراب القرآن وبيانه: 2/84.

فائدةُ ذكرِ الإحياءِ مع أنّ الكلامَ في موتِ من مات التّسويةُ بين أسبابِ الإحياءِ والإماتةِ، فكما شاهدتم الأحياءَ، وعلمتُمْ أنّ اللّه تعالى هو الذي أحياهم من غير سببٍ، كذلك فاعلمُوا أنّ اللّه تعالى قادرٌ على إماتتِهم من غير سببٍ، فقد يموتون وهم في بيوتهم، وقد يحضرون القتالَ ويشعرون بالجراحِ ويعيشُون[1].

فـي الـطِّـبـاقِ تـسـويـةٌ بين أسبابِ الإحياءِ والإماتةِ

بلاغةُ إظهارِ اسمِه تعالى:

إظهارُ الاسمِ الجليلِ في موقعِ الإضمارِ في قولِه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ﴾؛ لتربيةِ المهابةِ وإلقاءِ الرَّوْعةِ والمبالغةِ في التّهديدِ والتّشديدِ في الوعيدِ[2]، فضلًا عن توكيد قُدرتِه، وألوهيتِه في مواطن العلمِ، والاستطاعةِ، والتَّمكينِ.

الـتَّـلـمـيـحُ بـالـتّـهـديـدِ والـتّـشـديـدِ في الوعيدِ بما يُشبه التَّصريح

توجيهُ القراءاتِ في قولِه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ﴾:

اختلف القرَّاء في قولِه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فقرأ ابنُ كثير وحمزةُ والكسائيُّ وخلفُ: ﴿يَعۡمَلُونَ﴾ بالياء، على أنّه وعيدٌ للمنافقين، وقرأ الباقون ﴿تَعۡمَلُونَ﴾ بالتاء على مخاطبة المؤمنين، فهذا توكيدٌ للنَّهي في قوله: ﴿لَا تَكُونُواْ﴾، ووعِيدٌ لمن خالفَه ووعْدٌ لمن امتثلَه[3]، فهو ترغيبٌ وترهيبٌ، وتحذيرٌ لهم من أن يُضمروا العَوْدَ إلى ما نُهُوا عنه[4].

قـراءةُ الـيـاءِ باعتبارِه وعيدًا لـلـمـنـافـقـين، وبالتاء باعتبارِه مـخـاطـبـةً للمؤمنين

بيانُ المناسبةِ بين العملِ، والبصرِ، والعلمِ:

علّقَ العملَ بالبصر مع أنّ تعليقَه بالسَّماع أليقُ؛ لكون قولِهم مسموعًا لا فعلًا مرئيًّا؛ لأنَّ قولَ الكافرين هو عن قصدٍ منهم إلى عملٍ يجادلونَهم، ولذلك خصَّ البَّصر، كقولك لمن يقول شيئًا - وهو يقصدُ به فعلًا يحاولُه -: أنا أرى ما يفعلُه[5].

تعليقُ العمل بالبصر لقصْدِ الـكـافـريـن بأقوالِهم عملًا يُجادلون به

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/434.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 2/104.
(3) ابن عطية، المحرر الوجيز: 1/532، وابن الجزري، النشر: 2/276.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/143.
(5) الراغب، تفسير الراغب: 3/944.

في هذا التَّذييلِ المعلّق فيه العملُ بالبصرِ إلماحٌ إلى أنّهم قد بلغُوا منَ الغباء أنهم لم يستتروا حتى في المعصية، ولكنّهم جعلوها حركةً واضحةً تُرى، وتُبصرُ، وهذا القولُ أقوى من (عليم)؛ لأنّ (عليم) تؤدّي إلى أن نفهمَ أنهم يَملكون بعضًا من حياءٍ ويسترون الأشياءَ، ولكنَّ عِلمَ اللّه هو الذي يفضحُهم[1].

في التَّعليقِ إلماحٌ إلى غبائِهم إذ لم يستتِرُوا في المعصيةِ

ما يَعْمَلُه المنافقون عامٌّ متناولٌ لقولهم المذكورِ، ولِمُنشئِه الذي هو اعتقادُهم، ولما ترتَّبَ على ذلك منَ الأعمال، ولذلك تعرَّض لعُنوان البَصَر لا لعُنوان السّمعِ[2].

لفظُ العملِ عمومٌ يناسبُه لفظُ السَّمعِ

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الكافر والمشرك:

الكفر: اسم جامع لعديد الذُّنوب، وهو يقعُ على ضروبٍ منه، والكافرُ بحسبِ ما تقدَّم من تأصيلٍ لُغويٍّ هو: (الجَاحد لأنْعُمِ اللّه التي لا تُحصى)، وهو على الإطلاق متعارفٌ فيمن يجْحَدُ الوحدانيةَ، أو النّبوةَ، أو الشّريعَة، أو ثلاثتَها،[3]، ويطلق وصفًا لمن لا إيمانَ له، فإن أظهر الإيمانَ وأبطن الكفر، فهو المنافق، وإن طرأ كفره بعد الإيمانِ، فهو المرتدُّ[4]، في حين أنّ الشَّرك: إثباتُ شَريكٍ للّه، وذلك أعظمُ كفْرٍ، أو مراعاةُ غيرِ اللّه في بعض الأمور[5]، فيما يُتَعبَّد به، أو التّسويةُ بين اللّه الخالق وبين أيٍّ غيرِه مخلوقٍ، وخلاصة معناه: تَسْوِيَةُ المَخْلوقِ بِاللّهِ فِيما هو مِن خَصائِصِ اللّهِ تعالى، فهو ضربٌ واحدٌ منَ الذُّنوب على عِظَمِ شأنِه، وفداحةِ وصْفِه؛ لذا فهو أخصُّ، ومن هنا فاختيارُ لفظِ الكافرين الدالِّ على العُموم يناسبُ سياقَ

الكفرُ عامٌّ لتعدّدِ صُورِ الجُحود، والشِّركُ خاصٌّ بإثباتِ شَريكٍ لله

(1) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 3/1833 - 1834.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 2/104.
(3) الراغب، المفردات: (كفر).
(4) ابن تيمية، مجموع الفتاوى: 3/282، والموصلي، مختصر الصواعق، ص: 620.
(5) الراغب، المفردات: (شرك).

الآية المباركةِ من حيث إنّ الكافرين المنافقين جاحدون لنبوَّةِ الرّسول، ورسالتِه وهما طريقُ وحدانيتِه؛ فناسبَهمُ اللّفظُ الأعمُّ؛ إذ يصْدُقُ الكُفرُ عليهم بجحودِ واحدٍ من أمور الإيمان كلِّها، واللّه أعلم.

الحسرة، والنّدم:

الحسرة حزنٌ شديد حدَّ الجزع مصحوبٌ بلهفةٍ، وليس ذلك في النّدم شرطًا

الحَسْرَةُ بحسبِ ما أُسِّس من معنى لُغويٍّ: التَّلَهُّفُ على الشَّيْءِ الفَائِتِ، مصحوبٌ بجَزَعٍ، وَقِلَّةِ صَبْرٍ، والنَدمُ على أمْرٍ فائتٍ[1] حدَّ الإعياء، والحسرةُ الندامةُ والاهتمامُ على فائت مُتَعلَّقٍ فيه لم يقدرْ بلوغَه[2]، وهي: شدَّة الأسف، أي: الحزن[3]، وحقيقةُ الحسرةِ أن يلحقَ المرءَ من النَّدم ما يصير به حسيرًا؛ وذلك من تبيُّن انقطاع القوةِ والحَولِ بعد فَوت الفرصةِ، أي هو: شعور باطنيٌّ بالغُ الحِدَّةِ بالندم؛ لإضاعته سببَ السعادةِ الأبديةِ الذي كان متاحًا، مع عدم فرصة استدراك الأمر، وهذا معنى كلِّ كلمة ﴿حَسْرَةً﴾[4].

أمّا الندمُ والندامة: فتحسّرٌ من تغيُّرِ رأيٍ في أمرٍ فائتٍ[5]، من غير أنْ يقيّدَ بلهفةٍ، وشدّةِ حزنٍ، وجزعٍ وإعياءٍ، بل يلمحُ فيه: أنَّك قد تندمُ على الشَّيْء وَلَا تعتقدُ قبحَه[6]، ولذلك كان العُدولُ عن هذا اللّفظِ هنا إلى لفظِ الحسرةِ أنسبَ لسياقِ الآيةِ الكريمةِ بجعْلِ قولِهم بإرجاف المؤمنين، وزعزعةِ عقائدِهم حزنًا شديدًا في قلوبِهم يزيدُهم ألمًا مستقِرًّا بها، مصحوبًا بجزعٍ ولهفةٍ، وهو مشهدٌ لا مجال فيه للنّدم مع عدم اعتقادِ القُبح، واللّه أعلم.

(1) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة: (حَسَرَ).
(2) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 4/247.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/142.
(4) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (حسر).
(5) الراغب، المفردات: (ندم).
(6) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 235.

﴿وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ١٥٧﴾ [آل عمران: 157]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

ما يُحذَر ترتُّبه على الغزو في سبيل الله ينبغي التنافسُ فيه

الآيةُ وجهٌ ثانٍ للجواب عن شُبهةِ المنافقين، وتقريرُه أنَّ الموتَ لا بُدَّ واقعٌ ولا محيصَ للإنسانِ من أنْ يُقتل أو يموتَ، فإذا وقعَ أحدهما في سبيل الله وفي طلبِ رضوانِه، فهو خيرٌ من أنْ يُجعلَ ذلك في طلب الدُّنيا ولذّاتها التي لا ينتفعُ الإنسان بها بعد الموت البتّةَ[1]، فالسِّياقُ شروعٌ في تحقيقِ أنّ ما يحذرونَ ترتُّبَه على الغزوِ منَ القَتْل أو الموتِ في سبيلِ الله تعالى ليسَ ممَّا ينبغِي أنْ يُحذرَ، بل ممّا يجبُ أنْ يتنافسَ المتنافسون إثرَ إبطالِ ترتُّبِه عليهما[2]؛ لأنَّ ما يحصلُ لهم من مغفرةِ الله ورحمته بسبب ذلك خيرٌ ممّا يجمعُون من حُطام الدُّنيا ومنافعِها، لو لم يُهلَكُوا بالقَتْل أو الموت[3].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿سَبِيلِ﴾: السِّينُ وَالبَاءُ وَاللَّامُ أَصْلٌ وَاحِدٌ يَدُلُّ عَلَى امْتِدَادِ شَيْءٍ، ومن الامتداد، السَّبيلُ: وهو الطَّريقُ، سُمِّيَ بِذَلِكَ لِامْتِدَادِهِ[4]، والسَّبيلُ: الطريق الذي فيه سهولةٌ، وجمعُه سُبُلٌ، ويُستعمل لكلِّ ما يُتوصّلُ به إلى شيء خيرًا كان أو شرًّا[5]، فسَبيلُ اللهِ طريقُ الهدى الذي دعَا إليه، وكلُّ ما أمَرَ به منَ الخَيْر[6]. والمراد به في الآية: الجهادُ في سبيل الله.

(1) الرّازي، مفاتيح الغيب: 9/403.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 2/104.
(3) أبو حيان، البحر المحيط: 3/102.
(4) ابن فارس، المقاييس: (سبل).
(5) الراغب، المفردات: (سبل).
(6) ابن سيده، المحكم: (سبل).

2) ﴿وَرَحْمَةٌ﴾: الرَّاءُ وَالحَاءُ وَالمِيمُ أَصْلٌ وَاحِدٌ يَدُلُّ عَلَى الرِّقَّةِ وَالعَطْفِ وَالرَّأْفَةِ، يُقَالُ مِنْ ذَلِكَ: رَحِمَهُ يَرْحَمُهُ، إِذَا رَقَّ لَهُ وَتَعَطَّفَ عَلَيْهِ[1]، والرَّحْمة: رِقَّة تَقْتَضِي الإِحْسَانَ إِلَى المَرْحُوم، وقد تُسْتَعْمَل تارَةً في الرِّقَّة المُجرَّدة وتَارةً في الإِحْسَان المُجَرَّد عَنِ الرِّقَّة، نَحْو: رَحِم اللّه فُلانًا، وَإِذا وُصِف بِها البَاري فَلَيْسَ يُرَاد بِها إِلَّا الإِحْسَانَ المُجَرَّدَ[2]، من قول، أو فعل يقتضي الإحسانَ إلى المرحوم، وإيصالَ المنافع، والمصالحِ له. وصفةُ الرحمةِ من الصفات الفعلية والذاتية للّه سُبْحَانَهُ وتعالى؛ فهو سُبْحَانَهُ يرحم من يشاء، فلم يزل متَّصفاً بالرحمة، فالرحمةُ العامةُ ملازمةً لذاته - تعالى - وإن كان أفرادُها تتجدَّدُ[3]. ومعنى اللَّفظِ في الآيَة الكريمةِ ظاهرٌ في دَلالتِه على الإنعامِ والتّفضّلِ والإحسانِ والرأفة، واللّه أعلم.

3) ﴿خَيْرٌ﴾: الخاءُ واليَاء والرَّاءُ: جذرٌ، أصلُهُ العَطْف والميْلُ، ونقيضُهُ الشَّر؛ لأنَّ كلَّ واحدٍ يميلُ إليه، ويعطِفُ على صاحبِه، والخيرُ: الكَرمُ[4]، وهو: ما يَرغبُ فيه الكلُّ: كالعَقْلِ، والعَدْلِ، والفَضْلِ، والشَّيء النّافع، وهو منَ الخيرِ المُطلق؛ لكونه مرغوبًا فيه بكلِّ حالٍ[5]، وخيريةُ اللّه تعالى في الآية: (مغفرةً، ورحمةً) مطلقةٌ لا تحدّها حدودٌ، ولذلك فاللّفظةُ محتملةٌ هذه المعانيَ وغيرَها ممَّا لا يخطرُ في ذهنٍ، واللّه أعلم.

4) ﴿يَجْمَعُونَ﴾: الجِيمُ وَالمِيمُ وَالعَيْنُ أَصْلٌ وَاحِدٌ، يَدُلُّ عَلَى تَضَامِّ الشَّيْءِ، يُقَالُ: جَمَعْتُ الشَّيْءَ جَمْعًا[6]، والجمع: تضامُّ أشياءَ متجانسةٍ كثيرةٍ، وعُمِّم في كلِّ جمعٍ لمالٍ، أو ناسٍ، أو غيرِهما[7]، ومعنى اللّفظِ في الآية الكريمةِ محتملٌ لمطلَقِ الجمعِ من مادّياتِ الدُّنيا مالًا كان، أو غيرَه، واللّه أعلم.

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

دعا جلَّ ثناؤه عبادَه المؤمنين إلى عدمِ الشّكِّ في أنَّ مقاليدَ الأمورِ كلَّها بيدِه، ومنها

(1) ابن فارس، المقاييس: (رَحِمَ).
(2) الراغب، المفردات: (رَحِمَ).
(3) ابن تيمية، مجموع الفتاوى: 11/357، وابن القيم، بدائع الفوائد: 1/168.
(4) ابن فارس، المقاييس: (خير).
(5) الراغب، المفردات: (خير).
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (جَمَعَ).
(7) جبل، المعجم الاشتقاقي: (جمع).

الإحياءُ والإماتةُ، كما شكّ المنافقون في ذلك، والواجبُ الجهادُ في سبيل الله وقتالُ أعدائه، متيقّنِين بأنه لا يُقتلُ في حربٍ ولا يموتُ في سفرٍ إلا من بلغَ أجلَه وحانت وفاتُه. وإنما جزاءُ ذلك مغفرةٌ منه ورحمةٌ خيرٌ لهم مما يجمعون في الدُّنيا من حُطامِها ورغيدِ عيشها الذي من أجلِه يتثاقلون عنِ الجهاد، ويتأخرون عن لقاءِ العدوّ[1].

أعظمُ المنازلِ وأكرمُها عند الله منزلةُ من يموت في سبيله

وتُرشدُ الآية الكريمةُ إلى ترغيب المؤمنين في الجهادِ، وأنّه مما يجبُ أن يتنافَسَ فيه المتنافسون إعلاءً لكلمةِ الله تعالى[2].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بَلاغةُ التَّعبيرِ عنِ المستقبل بالماضي:

جاء التَّعبيرُ بالفعلين ﴿قُتِلْتُمْ﴾، و﴿مُتُّمْ﴾ بصيغةِ الماضي؛ لاستحضارِ مشْهدِ الموت والقَتْل، فكأنَّه كائنٌ حاصلٌ تأكيدًا لتحقُّق وقوعِهِ؛ فلا يشكَّنَّ به إلا جاحدٌ، ولا يغفلنَّ عنه إلا لاهٍ.

إيثارُ الماضي لاستحضارِ المشهد، وتأكيدِ الحصولِ

تقديمُ لفظِ القَتْل باعتبارِه الأهمَّ في سياقِ التَّحريضِ على الجهادِ:

تقدّمَ ذكرُ القَتْلِ على الموت في قولِه تعالى: ﴿وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوْ مُتُّمْ﴾؛ لأنَّ السِّياقَ محلُّ تحريضٍ على الجِّهاد، فقُدِّم الأهمُّ والأشْرَفُ[3]، ولأنَّ الغالبَ في نوعِ ميتةِ المقاتلين القَتْلُ، لذلك قدَّمَ القَتْلَ على الموت[4].

وجهُ احتمالِ جعْلِ الموتِ في سبيلِه:

تحتملُ الآيةُ أن يكون قولُه: ﴿لَمَغْفِرَةٌ﴾ إشارةً إلى القَتْل أو الموتِ في سبيل الله[5]، فالموتُ قد يكونُ في سبيله وإن لم يكن في غزوةٍ أو ساحةِ جهادٍ، ومصداقُه قولُه ﷺ: "مَنْ سَأَلَ اللَّهَ الشَّهَادَةَ بِصِدْقٍ بَلَّغَهُ اللَّهُ

المؤمنُ الذي يعيشُ لله يموتُ في سبيلِ الله

(1) ابن جرير، جامع البيان: 7/337.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 4/104.
(3) ابن عطية، المحرر الوجيز: 1/532، وأبو حيان، البحر المحيط: 3/103، والبقاعي، نظم الدُّرر: 5/105.
(4) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 3/1835.
(5) ابن عطية، المحرر الوجيز: 1/533.

مَنَازِلَ الشُّهَدَاءِ وَإِنْ مَاتَ عَلَى فِرَاشِهِ"[1]، ويمكن ذلك أيضًا إذا كان المؤمنُ يعيشُ طولَ حياتِه مُخلصًا للّه وللحقِّ وللمعرفةِ والهدايةِ، يحبُّ الشَّيءَ لَا يحبُّه إلا للّه تعالى، وكان اللّه ورسولُه أحبَّ إليه من نفسِه، فإنَّ من يكونُ كذلك يعيشُ للّه وفي سبيل اللّه ويموتُ في سبيل اللّه[2].

تناسبُ المَطلعِ والمُختتَمِ في مقامِ الجَزاءِ والمثوبةِ

ابتدأ بالقَتْل؛ لكونِه خطابًا للمؤمنينِ الذين جاهدوا في أعقابِ مقتلةٍ أصابتِ المسلمين وأصابهم هَمٌّ بسببها فناسبَهُ حُسْنُ المُختتَم تبشيرًا ﴿لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾، فالأمرُ مقطوعٌ في كونِهم أكثرَ ثوابًا وأعظمَ عند اللّه؛ لكونِه قتلًا في سبيله؛ فترتُّبُ المغفرةِ والرَّحْمةِ عليه أقوى[3].

تقديمُ ذكرِ الموتِ ترغيبٌ في الجهادِ

يقول العمادي: "وتغييرُ الترتيب الواقعِ في قولِهم: ﴿مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ﴾ المَبنيِّ على كثرةِ الوقوعِ وقِلّته؛ للمبالغةِ في التّرغيب في الجهاد ببيانِ زيادةِ مزيّةِ القَتْل في سبيل اللّه وإنافتِه في استجلاب المغفرةِ والرَّحْمةِ"[4].

بَلاغةُ الاستعارةِ في لفظِ السَّبيلِ:

سبيلُ اللّه يَسيرٌ سهلٌ، متَّصفٌ بالخيريّةِ

في قولِه: ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ استعارةٌ تصريحيّةٌ؛ حيث استعارَ السَّبيلَ لدينِ اللّه[5]؛ للدّلالةِ على طريق هُدَى اللّه وما دعا اليه طريقٌ محمودٌ سهلُ المَسلكِ بحمولِ دَلالة لفظِ السَّبيل على اليُسْر، والطَّريقِ المحمودِ الحسنِ.

توجيهُ معنى اللّامَيْنِ في الآيةِ:

لامُ القَسَمِ لتأكيدِ الحصْرِ والاختصاصِ

اللّامُ في قولِه: ﴿وَلَئِن قُتِلْتُمْ﴾ موطِّئةٌ للقسم، أي: مؤذنةٌ بأنَّ قبْلَها قسَمًا مقدَّرًا.

(1) مسلم، صحيح مسلم، الحديث رقم: (1909).
(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 3/1472.
(3) الخفاجي، عناية القاضي: 3/74، والآلوسي، روح المعاني: 4/105، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 3/1472 - 1473.
(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 2/104.
(5) الإندونيسي، الشامل في بلاغة القرآن: 1/202.

وفي قولِه تعالى: ﴿لَمَغْفِرَةٌ﴾ قيل: هي المتلقيَّةُ القسمَ، والتّقديرُ: واللّه لمغفرةٌ[1]، وإدخالُ لامِ القسَمِ على المعمولِ المُقدَّمِ مُشْعِرٌ بتأكيد الحصْرِ والاختصاصِ، وبأنَّ ألوهيَّتَه تعالى هي التي تقتضي ذلك[2]، وكذلك: "لَمّا كانَ لِلنُّفُوسِ غايَةُ الجُمُوحِ عَنِ المَوْتِ؛ زادَ في التَّأْكِيدِ؛ فَقالَ: ﴿لَمَغْفِرَةٌ﴾ فَهَذا تَعَبُّدٌ بِالخَوْفِ مِنَ العِقابِ"[3].

لامُ التأكيدِ لتأكيدِ الفوزِ بالمغفرةِ بعد القتلِ في سبيل الله

وقيل: هي لامُ التَّأكيدِ، فيكونُ المعنى: إنْ وجب أن تموتوا وتُقتَلوا في سفرِكم وغزوِكم، فكذلك يجبُ أن تفوزوا بالمغفرةِ أيضًا، فلماذا تحترزُون عنه، كأنَّه قيل: إنّ الموتَ والقَتْلَ غيرُ لازمِ الحُصولِ، ثمّ بتقديرِ أن يكون لازمًا؛ فإنّه يستعقبُ لزومَ المغفرةِ، فكيف يليق بالعاقل أن يحترزَ عنه[4]؟.

غرضُ تنكيرِ مغفرةٍ ورحمةٍ:

وقولُه تعالى: ﴿لَمَغْفِرَةٌ﴾ رفعٌ بالابتداء، ﴿وَرَحْمَةٌ﴾ عطفٌ على المغفرة، وخَيْرٌ خبرُ الابتداء، والمعنى: المغفرةُ والرَّحْمةُ اللاحقةُ عنِ القَتْلِ أو الموتِ في سبيل اللّه خيرٌ، وتتعدَّدُ أغراضُ التَّنكيرِ في هذا السِّياقِ.

أقلُّ جُزءٍ من المغفرةِ خيرٌ منَ الدُّنيا وما فيها

فإمَّا أن يُحملَ على التَّقليلِ، إذ مجيءُ لفظَي المغفرةِ والرَّحْمةِ غيرَ مُعرَّفَيْن إشارةٌ بليغةٌ إلى أنّ أدنى خيرٍ منهما وأيسرَ جُزءٍ وأقلَّ شيءٍ خيرٌ منَ الدُّنيا، وأنّه كافٍ في فوز العبدِ المؤمن؛ فالتّنكيرُ قد يُشْعِرُ بالتّقليل[5].

تنكيرُ اللّفظَين للإطلاقِ

ويحتملُ التّنكير في لفظي (مغفرة) و(رحمة) إطلاقَهما سَعةً، ووصفًا، وحدودًا، ولذلك نكَّرهما وحذف متعلَّقَهما، ومصداقُه البِشارةُ بالنّعيم الذي وعدَ به الشّهداء، وهو قولُه ﷺ: "يُؤْتَى

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 1/532، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/143.
(2) الخفاجي، عناية القاضي: 3/74 - 75، والآلوسي، روح المعاني: 4/105.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 5/105.
(4) الرّازي، مفاتيح الغيب: 9/403.
(5) ابن عطية، المحرر الوجيز: 1/532، والسمين، الدُّرّ المصون: 3/457، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 2/104.

بِالرَّجُلِ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ فَيَقُولُ لَهُ: يَا ابْنَ آدَمَ كَيْفَ وَجَدْتَ مَنْزِلَكَ؟ فَيَقُولُ: أَيْ رَبِّ خَيْرَ مَنْزِلٍ، فَيَقُولُ: سَلْ وَتَمَنَّ، فَيَقُولُ: مَا أَسْأَلُ وَأَتَمَنَّى إِلَّا أَنْ تَرُدَّنِي إِلَى الدُّنيا فَأُقْتَلَ فِي سَبِيلِكَ عَشْرَ مَرَّاتٍ؛ لِمَا يَرَى مِنْ فَضْلِ الشَّهَادَةِ"[1].

المغفرةُ عظيمةٌ في محوِها الذُّنوب

ويصحُّ أن يكون التَّنكيرُ في ﴿لَمَغْفِرَةٌ﴾ للتّعظيم، بدليلِ: ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾؛ فالمغفرةُ التي تمحو الذُّنوبَ هي عظيمةٌ، ويلتقي معنى التَّقليلِ والتَّعظيم، إذ معنى التَّقليل أنَّه مهما قلَّ فهو أعظمُ من الدُّنيا وما فيها، فيؤول هذا القليلُ إلى أن يكون عظيمًا في ذاتِه.

نُكتةُ إظهارِ الاسمِ الأعظمِ:

إظهارُ اسمِ الله تعالى في سياقِ الوعْدِ مُنبئٌ عن تمامِ الرِّضا والكرمِ والرَّحْمةِ

اسمُ الله لمّا كان اسمًا للذّات الجامعِ لصفاتِ الكمالِ على وجه الكمال كان ذكرُه في معرض الوعْدِ مُنبئًا عن تمامِ الرِّضا والكرم والرَّحْمةِ، وفي معرضِ الوعيد عن غايةِ السّخطِ والانتقام[2]، ودليلُ تمامِ الرضا هنا نسبةُ المغفرة إلى الله مباشرة: ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ دون ذكرِ الظّرفِ (من عند)، وفي هذا إظهارٌ للاعتناءِ بها ورمزٌ إلى تحقُّقِ وقوعِها[3].

توجيهُ عطفِ: ﴿وَرَحْمَةٌ﴾ على المغفرةِ:

الرَّحْمة أعمُّ من المغفرةِ وسببُها

إمَّا أن يكونَ من بابِ عطفِ ما يعمُّ على ما يخصُّ، وذلك أنَّ المغفرةَ نعمةٌ، إذ بها تُدفعُ السِّيئات، والرَّحْمةُ تعمُّ جلْبَ الحسنات، ودفعَ السِّيات، والمغفرةُ تخصُّ محْوَ السيئات، فكان العطفُ تأسيسًا[4]، وتوجيهٌ آخر وهو أنَّ عطفَ الرَّحمةِ على المغفرةِ من قبيلِ عطفِ السَّببِ على المُسبَّبِ، فالله يغفرُ الذُّنوبَ؛ لأنَّه رحيمٌ بعبادِه.

(1) أحمد، المسند، الحديث رقم: (13162).
(2) الخفاجي، عناية القاضي: 3/74 - 75.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 4/104.
(4) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/435.

توجيه القراءاتِ في قولِه: ﴿يَجْمَعُونَ﴾ وبيانُ الالتفاتِ فيها:

قراءةُ الغَيبةِ محمولةٌ على المنافقين، والخطاب على المؤمنين

قرأ حفصٌ عن عاصمٍ: ﴿يَجْمَعُونَ﴾ بالياء على سبيل الغَيبةِ، وقرأ الباقون بالتاء على وجه الخطاب[1]، أما وجهُ الغَيبةِ فالمعنى أنَّ مغفرةَ اللّه خيرٌ مما يجمعُه هؤلاء المنافقون ممّا تركوا القتالَ لجمعِه منَ الحُطام الفاني، وأما وجهُ الخطاب فالمعنى أنّه تعالى كأنه يخاطبُ المؤمنين فيقول لهم: مغفرةُ اللّه خيرٌ لكم منَ الأموال التي تجمعونَها في الدُّنيا[2].

توجيهُ لفظِ ﴿خَيْرٌ﴾ على القراءتين:

وجهُ لفظِ الخيرِ في القراءتين الجمعُ بين عدمِ المشاركةِ، والتّفضيلِ

على قراءة الغَيبةِ يكون ﴿خَيْرٌ﴾ فعلًا، ولا مشاركَة فيها، أي: الخير خالصٌ للمؤمنين ولا يُشارك المنافقون في تلك الخيريَّةِ، وعلى قراءة الخطابِ يكون للمؤمنين فهي للتّفضيل، أي: تفضيل المغفرة والرحمة على الجمعِ؛ لأنّ موتَهم في القتال خيرٌ وأحسنُ من جميع المال الذي يُنفقُ في شهوات الدُّنيا ولذّاتِها[3].

وجهُ احتمالِ خيريّةِ ما يجمعون:

المغفرة خيرٌ من الأموالِ المباركاتِ فكيف بما دونها؟

منَ الواردِ أنَّ ما يجمعُونَه في الدُّنيا قد يكونُ من بابِ الحلالِ الذي يُعدُّ خيرًا، وهو واردٌ أيضًا على حسبِ قولِهم ومعتقَدِهم أنَّ تلك الأموالَ خيراتٌ، فقيل: المغفرةُ خيرٌ من هذه الأشياء التي تَظنّونها خيراتٍ[4]، فما بالكم بما تعدُّونه من السِّيئات؟!

فائدةُ التَّعبيرِ بـ (ما) والفعلِ المضارعِ:

المغفرةُ خيرٌ من جميعِ ما يُجمع على الدَّوامِ

(ما) في قولِه: ﴿مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ موصولةٌ اسميةٌ، والعائدُ محذوفٌ، ويجوزُ أن تكونَ مصدريةً[5]، وعمَّتْ هنا لكونِ استعمالِها لغيرِ العاقلِ

(1) ابن الجزري، النشر: 2/276.
(2) الرّازي، مفاتيح الغيب: 9/403.
(3) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/435.
(4) الرّازي، مفاتيح الغيب: 9/404.
(5) ابن عادل، اللباب: 6/13.

لتشملَ عُمومَ ما يجمعُون على تنوُّعِه، وتعدُّدِه، ورسّخَ هذا العُمومَ حذفُ مفعولِ ﴿يَجْمَعُونَ﴾ ليُطلقَ المرادُ منَ الجمعِ، والتَّعبيرُ به على صيغة المضارعِ دَلالةٌ على استمرارِه وتجدُّدِه بوصفِه منَ المكاسبِ الدّنيويةِ الزائلةِ.

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

السَّبيل، والطريق:

السَّبيل مخصَّصةٌ بسهولةِ الطريق، وكونِه محمودًا

في لفظ (السَّبيل) خصوصٌ بكونه يتميّزُ بالوضوحِ والسُّهولةِ، ولذلك ترى أكثَرَ إضافتِه في القرآن الكريم إلى لفظِ (اللّه) ظاهرًا أو مضمرًا، في مجالِ القتال، والإنفاق، والهجرة، ونحوها. أمَّا الطريقُ فهو أعمُّ؛ لأنّه يشملُ كلَّ مَسلكٍ يسلكُه الإنسانُ سواءً أكان محمودًا أم مذمومًا، سهلا أم صعبًا[1]، ولذلك اختِيرَ السَّبيلُ هنا للدّلالةِ على طريقِ هُدى اللّه وما دعا إليه، وما رَتَّب سبحانه على سلوكه من نتائجَ؛ فهو طريقٌ محمودٌ سهلُ المسلكِ، ويناسبُه خصوصُ معنى اللّفظةِ، واللّه أعلم.

(1) داوود، معجم الفروق الدلالية، ص: 281-284.

﴿وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى ٱللَّهِ تُحْشَرُونَ ١٥٨﴾ [آل عمران: 158]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

رغَّب سبحانه وتعالى المجاهدين في الآية قبلها بالحشر إلى مغفرة الله، وفي هذه الآية زاد في إعلاء الدَّرجات، فرغَّبهم هاهنا بالحشر إلى الله[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تُحْشَرُونَ﴾: الحاء والشّين والرَّاء أصلٌ، هو السّوق، والبعثُ، والانبعاث. والحشرُ الجمعُ مع سَوْقٍ، وكلُّ جمعٍ حَشرٌ[2]. وهو إخراج الجماعة عن مقرِّهم، وإزعاجهم عنه إلى الحرب، ونحوها، ولا يُقال الحشر إلّا في الجماعة، وهو الخُروجُ في النَّفير إذا عَمَّ[3]. فالحشر سَوقٌ من المقارّ، ويزيد عليه الجمع، أي: التّضامُّ في المكان المحشور إليه. والمقصود بـ الحشرِ في الآية الكريمة يوم القيامة.

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

تبيِّنُ الآيةُ بأنَّ مصير العباد جميعًا إليه وحده على أيِّ حال كان انقضاء حياتهم، موتًا، أو قتلًا في سبيله، فإلى الله المرجعُ، والمعادُ، فيجازيكم بأعمالكم، فآثروا ما يقرِّبكم من الله ومن الجنّة، ويُوجب لكم رضاه، من الجهاد في سبيل الله والعمل بطاعته، على الرّكون إلى الدّنيا، وما تجمعون من حُطامها الّذي هو غير باقٍ لكم، بل هو زائلٌ عنكم[4].

توكيدُ أنَّ المآل كلّه إليه سبحانه تصحيحٌ للقيم والتَّصورات

وترشدُ الآية الكريمة إلى تحقير أمر الدُّنيا والحضِّ على طلب الشَّهادة، أي: إذا كان الحشر حتميًّا في كلا الأمرين فالمضي إليه في

(1) الرّازي، مفاتيح الغيب: 9/404.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن سيده، المحكم: (حشر).
(3) الرّاغب، المفردات، وابن الأثير، النّهاية: (حشر).
(4) ابن جرير، جامع البيان: 7/339.

حال الشّهادة أولى[1]. وذلك أنَّ مصير كل من يموت أو يقتل صائرٌ إلى الله تعالى مهما كان سبب موته أو قتله، ومهما طالت حياته، ومن هنا فالاشتغال بذكر سبب هذا المصير ومبدئه لا يفيد، وإنّما الّذي يفيد هو الاهتمام بذلك المستقبل والاشتغال بالاستعداد له، وذلك دأب العقلاء من المؤمنين[2].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغة التّعبير عن المستقبل بالماضي:

مبالغة في تحقّق وقوع الفعل، وتأكيد حصوله

من عادات القرآن التَّعبير عن الشَّيء اللّازم الحصول في المستقبل بأنّه حَدَثَ أو هو حادث قال تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ﴾ [النّحل: 1]؛ إذ لو وقع التّعبير عنه بلفظ المستقبل لم يكن فيه مبالغة كوقوع التَّعبير عنه بلفظ الماضي[3].

ومن هنا جاء التَّعبير بالفعلين ﴿مُتُّمۡ﴾ و﴿قُتِلۡتُمۡ﴾ بصيغة الماضي؛ لاستحضارِ مشهد الموت، والقتل، وكأنَّه حاصلٌ تأكيدًا لتحقُّق وقوعه؛ فلا يشكَّنَّ به إلّا جاحدٌ، ولا يغفلنَّ عنه إلّا لاهٍ.

علّة الشّرط بـ (إنْ):

الموتُ محتمِلُ الوقوعِ في القتالِ، وليس لازمًا له

آثر النَّظم استعمالَ (إنْ) وهي تُستعملُ فيما هو مظنَّةُ الوقوعِ، والموت المذكورُ في الآية مقطوعٌ بوقوعِه، والسِّياقُ هو في الحديث عن الجهاد والقتال في سبيل الله، ومعلومٌ أنَّ القتالَ في المعارك مظنّةُ الموتِ، فهو ليس من لوازم الحرب والقتال، فناسب أن يكون الشّرط بـ(إن) لكون الموت مُحتملَ الوقوعِ في القتال، وليس لازمًا له[4].

دلالة حذف مُتعلَّق الموت والقتل:

قولُه تعالى: ﴿وَلَئِن مُّتُّمۡ أَوۡ قُتِلۡتُمۡ لَإِلَى ٱللَّهِ تُحۡشَرُونَ﴾ خطابٌ عامٌّ

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 1/533.
(2) رضا، تفسير المنار: 4/162.
(3) الرّازي، مفاتيح الغيب: 9/401.
(4) الإندونيسّي، الشّامل في بلاغة القرآن: 1/202.

للمؤمن والكافر للإخبار بأنَّ مصير الجميع إليه، فيُجازي كلًّا بعمله، وتوجيهُ ذلك أنَّ الموت والقتل لمّا أُطلقا، ولم يُقيَّدا بذكرٍ ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ كما قُيِّدا في الآية السَّابقة، فُهم أنّ ذلك عامّ[1].

تنوُّعُ احتمالِ أن يكونَ الخطابُ عامًّا وخاصًّا

وذهب الواحديُّ إلى أنّه خطابٌ للمؤمنين كالخطاب السَّابق، وتقديره عنده: ولئن مُتّم مقيمين عن الجهاد، أو قُتلتم مجاهدين؛ لإلى الله تحشرون، يعني: في الحالتين، وهذا تهديد بالحشر، وتحذير من القيامة[2]، ووافقه أبو حيّان بدليل تقدير الزّمخشريّ: لإلى الرّحيم الواسع الرّحمة المميت العظيم الثّواب تحشرون[3].

توجيه المتشابِه اللَّفظي تقديمًا وتأخيرًا في لفظتي الموت والقتل:

تقدّم ذكرُ القتل على الموت أوّلًا؛ لأنّه محلُّ تحريضٍ على الجهاد، فقدَّم الأهمَّ والأشرفَ. وقدَّمَ الموت هنا على القتل؛ لأنّها آية وعظ بالآخرة والحشر، وتزهيد في الدُّنيا والحياة، والموت فيها مُطلَق لم يقيّد بشيء، فإمّا أن يكون الخطاب مُختصًّا بمن خُوطب قبل، وإمّا أن يكونَ عامًّا واندرج أولئك فيه، فقُدِّم لعمومه؛ ولأنّه أغلب في النّاس من القتل[4]، أي: لمّا ذكرَ أشرفَ الموت بدأ بأشرفِه، ولمّا ذكَرَ ما دونه بدأ بأدناه[5].

تـقـديـمُ الـقـتـلِ للتَّحريض على الجهاد، والموتِ لأنّه الأغلبُ

وتوجيهٌ ثانٍ وهو:

أنّه ابتدأ بالقتل أوّلاً؛ لكونه خطابًا للمؤمنين الّذين جاهدوا في أعقاب مقتلةٍ أصابتِ المسلمين، وأصابهم هَمٌّ بسببها، وابتدأَ بالموت ثانيًا لأنَّ الخطاب لعموم المسلمين فناسبَهُ الجزاء العامّ غير المميَّز بفضلٍ ﴿لَإِلَى ٱللَّهِ تُحۡشَرُونَ﴾ فأكثرهما مستويان في الحشر[6].

مناسبةُ التَّقديمِ باعتبارِ الجزاءِ والمثوبة

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/103.
(2) الواحديّ، التّفسير الوسيط: 1/512.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/103.
(4) ابن عطية، المحرر الوجيز: 1/532، وأبو حيّان، البحر المحيط: 3/103.
(5) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 5/105.
(6) الخفاجي، عناية القاضي: 3/74، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 3/1472 - 1473.

الاعتبار بمظنّة البُعد أو القُرب عن المُتَعَلَّق

وتوجيهُ ثالثٌ وهو:

أنَّه قدّم القتل في الآية السَّابقة ﴿وَلَئِن قُتِلۡتُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوۡ مُتُّمۡ﴾ والموت في هذه الآية اعتبارًا بعطف ما يُظنُّ أنَّه أبعد عن الحكم، فإنَّ كون القتل في سبيل الله سببًا للمغفرة أمرٌ قريبٌ، ولكن كون الموت في غير سبيله أمرٌ خفيٌّ مُستَبعَد، وكذلك تقديمُ الموت في الثَّانية؛ لأنَّ القتل في سبيل الله قد يُظنُّ أنَّه بعيدٌ عن أن يعقُبَه الحشرُ[1].

مناسبة طبيعة الميتة لنوع الفعل

وتوجيهٌ رابعٌ وهو:

الغالب في نوع ميتة المقاتلين القتل؛ لذلك قدَّم القتل على الموت في الآية الأولى؛ فالآية جاءت كما أسلفنا في القتال، أمّا هذه الآية فالحديث فيها عن مصير جميع العباد وأكثرهم يتوَّفاه اللهُ بسبب الموت؛ لذا قدَّم الموت على القتل[2]؛ لأنّه أعمُّ من القتل وأكثر[3].

توجيه معنى اللّامين في الآية:

لامُ القَسَم لتأكيدِ الحصرِ والاختصاصِ

اللّام في قوله ﴿وَلَئِن مُّتُّمۡ﴾ كاللّام في الآية قبلها موطِّئةٌ للقسم، أي: مُؤذنةٌ بأنَّ قبلها قسمًا مُقدَّرًا، وفي ﴿لَإِلَى ٱللَّهِ﴾ هي المُتلقِّية للقسم[4]، وإدخال لام القسم على المعمول المُقدَّم مُشعِرٌ بتأكيد الحصر والاختصاص، وبأنّ ألوهيّته تعالى هي الّتي تقتضي ذلك[5].

لام التّأكيد للتّنبيه على أنّ الألوهيّة تقتضي الحشر

إدخالُ لام التّأكيد في حرفِ الجرِّ الدَّاخلِ على اسم الله حيث قال: ﴿لَإِلَى ٱللَّهِ﴾ تنبيهٌ على أنّ الألوهيّة تقتضي هذا الحشر والنّشر، كما قال: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخۡفِيهَا لِتُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا تَسۡعَىٰ ١٥﴾ [طه: 15][6].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/143 - 144.
(2) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 3/1835.
(3) رضا، تفسير القرآن الحكيم: 4/162.
(4) ابن عطية، المحرر الوجيز: 1/532، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/143.
(5) الخفاجي، عناية القاضي: 3/74 - 75، والآلوسي، روح المعاني: 4/105.
(6) الرّازي، مفاتيح الغيب: 9/404 - 405.

بلاغةُ تقديم مُتعلَّق الفعل عليه في قولِه: ﴿لَإِلَى ٱللَّهِ تُحۡشَرُونَ﴾:

تنبيهُ العبادِ إلى أنَّ منتهى الأمرِ الحشرُ

قولُه تعالى: ﴿لَإِلَى ٱللَّهِ﴾ مُتعلِّقٌ بـ ﴿تُحۡشَرُونَ﴾، وفي وجهِ تقديمِه ما يأتي:

أوَّلًا: للاختصاصِ والحَصْرِ، أي: إلى الله لا إلى غيره يكونُ حَشْرُكُم، فلا رجاءَ، ولا ثوابَ إلّا منه، ولا حاكم في ذلك اليوم، ولا ضارّ، ولا نافع إلّا هو سبحانه، قال تعالى: ﴿لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَۖ لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ ١٦﴾ [غافر: 16]، وقال تعالى: ﴿وَٱلۡأَمۡرُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ ١٩﴾ [الانفطار: 19][1].

ثانيًا: قُدِّم للاعتناءِ به والاهتمامِ بذكرِه، وزاده حسنًا هنا أن تأخّر الفعل هنا بوصفه فاصلة، فلو تأخّر المجرور لفات هذا الغرض؛ إذ في التّقديم تضمّنتِ الآية تحقيرَ أمر الدّنيا والحرص على الشّهادة، وأنّ مصير النَّاس جميعًا إلى الله، فالموافاة على الشّهادة أمثلُ بالمرءِ ليُحرزَ ثوابَها، ويجده وقت الحشر[2].

نكتةُ إظهارِ الاسمِ الأعظمِ:

مَواضِع الإعجاز والاستحالة دلائلُ العظمة

دلّ إظهارُ اسمِ الله الأحسنِ على عظمته[3]؛ إذِ الموتُ، والبعث، والحشر من محالات الأمور الّتي لا يقدر عليها غيره سبحانه، كما أنَّ كمالَ الصّفاتِ هي كمالٌ للرّحمةِ، وكمالٌ للقهرِ، فمصداقُ كمالِ الرّحمةِ أعظمُ أنواع الوعد، ومصداقُ كمال القهر أشدُّ أنواعِ الوعيد[4]، ولكون اسمه الأعظم اسمًا للذّات، الجامع لصفات الكمال على وجه الكمال، كان ذكره في مَعرِض الوعد مُنبئًا عن تمام الرّضا والكرم والرّحمة، وفي مَعرِض الوعيد عن غاية السّخط والانتقام[5].

(1) الرّازي، مفاتيح الغيب: 9/404.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/103.
(3) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 5/105.
(4) الرّازي، مفاتيح الغيب: 9/404.
(5) الخفاجي، عناية القاضي: 3/74 - 75.

سرّ التّعبير بالفعل المبنيّ للمفعولِ:

تـركُ التّصريح بالفاعل في مثل هذا المَوضِع أدلّ على العظمة

قوله: ﴿تُحۡشَرُونَ﴾ فعلٌ لم يُسمَّ فاعلُه، مع أنّ فاعل ذلك الحشر هو اللّه، وإنّما لم يقع التّصريح به؛ لأنَّ قولَه: ﴿لَإِلَى ٱللَّهِ﴾ دالٌّ على الفاعلِ، ولأنّه تعالى هو العظيم الكبير الذي شهدتِ العقولُ بأنّه هو اللّه الّذي يُبدئ ويعيد، ومنه الإنشاء والإعادة، فترك التّصريح في مثل هذا المَوضِع أدلّ على العظمة، وأدعى لانشغالهم بالفعل عن الفاعل المعروف، ونظيره قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ﴾ [هود: 44][1].

ولبيان أنّه لا حيلة في دفع الموت على أيِّ حالة من الحالات، قتل أو غيره، ولا في الحشر إليه سبحانه وتعالى، وأمّا الخلاص من هول ذلك اليوم ففيه حيلة بالطّاعة[2].

عمومُ الخطابِ في قولِه تعالى: ﴿تُحۡشَرُونَ﴾:

التّعبير بالجمع للإنذار والتّبشير، والتّذكر باللّقاء، ولتحقيق كليّة الجمع

قوله: ﴿تُحۡشَرُونَ﴾ خطابٌ مع الكلّ، فهو يدلّ على أنّ جميع العالَمين يجتمعون، ويحشرون، ويوقفون في عرصة القيامة وبساط العدل، لا يفلت منهم أحد، فيجتمع المظلوم مع الظّالم، والمقتول مع القاتل، والحقّ سبحانه وتعالى يحكم بين عبيده بالعدل المبرأ عن الجور[3]. وفي هذا إنذارٌ، وتبشيرٌ، وتذكيرٌ بلقاء اللّه العليّ الكبير[4].

براعة ترتيب الجزاء:

الترقّي في مقامات العبوديّة

في هذه الآية والّتي قبلها ترتيبٌ للجزاء في غاية الحُسن؛ فإنّه قال في الآية الأولى: ﴿لَمَغۡفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾، وهي التّجاوز عنِ السّيئات، وذلك إشارة إلى مَن عَبَدَه خوفاً من عقابه، ثمّ قال: ﴿وَرَحۡمَةٌ﴾، وهي التّفضُّل بالمثوبات، وهو إشارةٌ إلى مَن عَبَدَه لطلب ثوابه، ثمّ ختمها

(1) الرّازي، مفاتيح الغيب: 9/405.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 5/105.
(3) الرّازي، مفاتيح الغيب: 9/405.
(4) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 3/1473.

بقوله: ﴿لَإِلَى ٱللَّهِ تُحۡشَرُونَ﴾، وهو إشارةٌ إلى مَن عَبَدَه لمجرَّدِ العبوديّةِ والرّبوبيّةِ، وهذا أعلى المقاماتِ وأبعد النّهايات في العبوديّة في علوّ الدّرجة، فبين الحشر إلى مغفرة اللّه، والحشر إلى اللّه فرق كبير، فالّذين بذلوا أنفسهم وأبدانهم في طاعته ومجاهدة عدوّه يكون حشرهم إليه هو، واستئناسهم بكرمه، وتمتّعهم بشروق نور ربوبيّته[1].

(1) الرّازي، مفاتيح الغيب: 9/404، والخلوتي، روح البيان: 2/115.

﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾﴾

[آل عمران: 159]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا انهزمَ القومُ عنِ النّبيّ ﷺ يومَ أُحدٍ، ثمّ عادوا، لم يخاطبهم الرّسول ﷺ بالتّغليظ والتّشديد، وإنّما خاطبهم بالكلام اللّين، ثمّ لَمَّا أرشدهم سبحانه في الآيات المُتقدِّمة إلى ما ينفعهم في معاشهم ومعادهم - وكان من جملة ذلك أن عفا عنهم - زاد في الفضل والإحسان بأن مَدَحَ الرّسولَ ﷺ على عفوه عنهم، وتركِه التّغليظ عليهم[1].

وبَعْدَ الفراغِ من وعظ الصّحابة - رضي الله تعالى عنهم - أتبعه تحبيبَ النّبيِّ ﷺ فيما فعل بهم من الرّفق واللّين، مع ما سبَّبَ الغضب المُوجِب للعنف والسّطوة من اعتراض من اعترض على ما أشار به، ثمّ مخالفتهم لأمره في حفظ المركز، والصّبر، والتّقوى، وغير ذلك من الأمور الّتي تُوجِب الغضبَ وإيقاع بعضهم ببعضٍ؛ ليكون ذلك زاجرًا لهم عن العود إلى مثله[2].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿لِنتَ﴾: اللّام والياء والنُّون كلمةٌ واحدةٌ، وهي اللِّينُ: ضدُّ الخشونة. ويُقالُ: هو في لَيَانٍ مِن عَيشٍ، أَي: نَعمَةٍ، وفلانٌ مَلِيَنَةٌ، أَي: لَيِّنُ الجانبِ[3]. واللِّيان بالكسر: المُلايَنَة والملاطَفة[4]. ويُستعمل اللّين في الأجسام، ثم يُستعار للخُلُق وغيره من المعاني، فيُقال: فلانٌ ليّن، وفلانٌ خَشِنٌ، وكلّ واحدٍ منهما يُمدَح به طَورًا، ويُذمّ به طَورًا بحسب اختلاف

(1) الرّازي، مفاتيح الغيب: 9/405.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 5/106.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (لين).
(4) الجوهريّ، الصّحاح: (لين).

المَواقِع[1]. واللّين حسن الخُلق، وحسن الكلام بالصَّفو والزّلال[2]. والسّهولة والسّكون والوقار والخشوع[3]. وكلُّ ما في القرآن من اللّين فهو من المرونة ضدّ القساوة والصّلابة[4].

2) ﴿فَظًّا﴾: الفاءُ والظَّاءُ كلمةٌ تدُلُّ على كراهةٍ وتكرُّهٍ. والرّجل الفظُّ: الكريه الخُلُق[5] الّذي فيه غِلَظٌ في مَنطقه وتَجَهُّمٌ، والفَظَظُ خُشونةٌ في الكلام. والفَظُّ: ماءُ الكَرِش، ومن عادة العرب إذا اضطَرّت شَقُّوا الكَرِش وشَربوا منها الماءَ[6]. وذلك مكروه شربُه لا يُتناول إلّا في أشدّ ضرورة[7]. والفَظُّ: الرّجلُ الغليظُ[8]. والفَظُّ: السَّيِّئ الخُلق، الجافي الطَّبع[9]. وفلان أفظّ من فلان: أي: أصعب خلقًا وأشرس. وكان النّبيّ ﷺ رؤوفًا رحيمًا، كما وصفه اللّه تعالى، رفيقًا بأمّته في التّبليغ، وصفتُه في التوراة: "لستَ بِفَظٍّ ولا غليظٍ، ولا سَخّابٍ بالأسواقِ"[10].

3) ﴿غَلِيظَ﴾: الغِلظَة ضدُّ الرّقة، ويُقال: غِلظة وغُلظةٌ، وأصله أن يُستعملَ في الأجسام لكن قد يُستعارُ للمعاني، والغِلظة: الخشونة[11]. وغِلَظُ القلب: عبارة عن قلّة الرَّحمة، وبإزائه رقّة القلب[12]. والغِلظَة: الشّدّة البالغة مع الحدّة[13]. والغليظ: القاسي القلب[14].

4) ﴿لَٱنفَضُّواْ﴾: "الفاء والضّاد أَصلٌ صحيحٌ يدُلُّ على تفريقٍ وتَجزِئةٍ. مِن ذلك: فَضَضتُ الشَّيءَ، إذا فَرَّقتَهُ"[15]. فالفضُّ: تفريقُك حَلقَةً من الناس بعدَ اجتِماع[16]. وهو:

(1) الرّاغب، المفردات: (لين).
(2) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 3/948.
(3) ابن الأثير، النّهاية: (لين).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (لون - لين).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (فظ).
(6) الخليل، العين: (فظ).
(7) الرّاغب، المفردات: (فظ).
(8) الجوهريّ، الصّحاح: (فظظ).
(9) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/146.
(10) رواه البخاري في صحيح، الحديث رقم: (2125)، وأحمد في المسند، الحديث رقم: (6622)، ومعنى: (ولا سَخَّابٍ في الأسواقِ)، أي: لا يَرفَعُ صَوتَه على النَّاسِ في الأسواق لسُوءِ خُلُقِه، ولا يُكثِرُ الصِّياحَ عليهم، بل يُلينُ جانِبَه لهم ويَرفُقُ بهم.
(11) الرّاغب، المفردات: (غلظ).
(12) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 3/949.
(13) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (غلظ).
(14) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/146.
(15) ابن فارس، مقاييس اللغة: (فض).
(16) الخليل، العين: (فض).

الكَسرُ بالتّفرقة[1]. فالانفضاض: التَّفرق، ويُقال: انفضَّ اعتبارًا بانكسار بعضهم عن بعض[2]. ومعنى الانفضاض في الآية الكريمة: التَّفرق[3].

5) ﴿حَوْلِكَ﴾: "الحاء والواو واللَّام أَصلٌ واحدٌ، وهو تَحَرُّكٌ في دَورٍ"[4]. وحوالَي الدّار: جانِبَيه[5]. وجانبه الّذي يمكنه أن يُحوَّل إليه[6]، فهو الظّرف الّذي يعبر عن المنطقة المحيطة بجوانب الشّيء واتّجاهاته، أي: مجال تحوّله[7]. ويجوز أن يكون معنى ﴿مِنْ حَوْلِكَ﴾، أي: من جهتك وإزائك[8].

6) ﴿وَشَاوِرْهُمْ﴾: الشِّين والواو والرَّاء أَصلان مُطَّرِدان، أحدهما أَخذُ شَيءٍ. مِن هذا الباب شاوَرتُ فُلانًا في أَمري. قال: وهو مُشتقٌّ مِن شَورِ العسلِ، فكأَنَّ المُستَشيرَ يَأخُذُ الرَّأْيَ مِن غيرِهِ[9]. فالتّشاور والمُشاورة والمَشورة: استخراج الرّأي بمراجعة بعض إلى بعض، والشُّورى: الأمر الّذي يُتشاور فيه[10]. والمُشاورة: استخراج صائب الرّأي من الغير[11]. وإنّما تكون في الأمر المهمّ المُشكِل من شؤون المرء في نفسه أو شؤون القبيلة أو شؤون الأمّة[12].

7) ﴿عَزَمْتَ﴾: العينُ والزَّاءُ والميمُ أَصلٌ واحدٌ صحيحٌ يدُلُّ على الصَّريمة والقَطع. يُقالُ: عَزَمتُ عليك إلَّا فعلتَ كذا، أَي: جَعَلتُه أَمرًا عَزمًا، أَي: لا مَثنَوِيَّةَ فيه. العَزمُ: ما عَقدَ عليه القلبُ أنَّكَ فاعلهُ، أو من أمرٍ تيقّنتَهُ. والعزيمة الثّبات على أمر يَعزِم عليه، ويُقالُ: ما لِفلانٍ عَزِيمةٌ، أَي: ما يَعزِمُ عليه، كأَنَّه لا يُمكِنُهُ أَن يَصرِمَ الأَمرَ، بل يَختَلِطُ فيه ويَتَرَدَّدُ[13].

(1) الجوهريّ، الصّحاح: (فضض)
(2) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 3/949.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/146.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حَوَلَ).
(5) الخليل، العين: (حول).
(6) الرّاغب، المفردات: (حول).
(7) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (حول).
(8) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/146.
(9) ابن فارس، مقاييس اللغة: (شَوَرَ).
(10) الرّاغب، المفردات: (شور).
(11) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 3/949.
(12) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/147.
(13) الخليل، العين (عزم)، وابن فارس، مقاييس اللغة: (عَزَمَ).

وهو عقد القلب على إمضاء الأمر[1]. وثباتُ الرّأي عليه، نحو إجماع الرّأي[2]. وهو: الجدُّ، والقوّة، والصَّبر[3]. واستمرار الشّدّة والجِدّ فيما عُقِد عليه قلبك من أمر، فعَزَم على الأمر وعَزَمه: أراد فعله إرادةً جادَّةً دائمةً[4].

8) ﴿فَتَوَكَّلْ﴾ ﴿ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾: الواو والكاف واللَّام أَصلٌ صحيحٌ يدُلُّ على اعتِماد غيرِك في أمرِك. والتّوكّلُ منه، وهو: إظهار العجز في الأمر، والاعتماد على غيرك، وتجعله نائبًا عنك، وتصرِّفُ الأمر إليه، وتسلِّمهُ وتتركه[5]، ومنه: الوكيلُ: الحافظُ، والكفيل، والمتوكّلُ على اللّه يعلم أنّه كافلُ رزقه، وأمره؛ فاطمأنَّ قلبه على ذلك، ولم يوكِل أمرَهُ إلى غيره[6]. فالتّوكّل على اللّه: اعتمادُ القلب على اللّه في حصول ما ينفع العبد في دينه، ودنياه، ودفعِ ما يضرُّه في دينه، ودنياه، مع الأخذ بالأسباب المشروعة[7]، وهي معنى اللّفظة في الآية الكريمة.

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

صفات القيادة الدينية ومقتضياتها

فبرحمة من اللّه لك ولأصحابك - أيها النبيُّ - منَّ اللّه عليك فكنت رفيقًا بهم، ولِنْتَ لهم؛ فسَهُلت لهم وحَسُنت لهم أخلاقك، حتّى احتملتَ أذى من نالك منهم أذاه، وعفوتَ عن ذي الجُرمِ منهم جُرمَه، وأغضيتَ عن كثير ممَّن لو جفوت به وأغلظت عليه لتركَكَ، ففارقكَ ولم يتَّبعْكَ، ولا ما بُعثتَ به من الرّحمة، ولكنّ اللّه رحمهم ورحمك معهم[8].

ففي الآية تقريعٌ لجميع من أخلَّ بمركزه يوم أُحُد، فاستحقّوا الملام منك، والأصل أن لا تلين لهم، ولكن رحم اللّه جميعكم، أنت

(1) الرّاغب، المفردات: (عزم).
(2) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 3/950.
(3) ابن الأثير، النّهاية: (عزم).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (عزم).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات: (وَكَلَ).
(6) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (وَكَلَ).
(7) ابن تيمية، مجموع الفتاوى: 8/177، وابن القيم، مدارج السالكين: 3/523.
(8) ابن جرير، جامع البيان: 7/341، ونخبة من العلماء، التفسير الميسر، ص: 71.

- أيها النبيُّ - بأن جعلك اللّه على خُلقٍ عظيم، وبعثك لتُتَمِّمَ محاسنَ الأخلاق، وهم بأنْ ليّنك لهم، وجُعِلت بهذه الصّفات لما علم تعالى في ذلك من صلاحهم، وأنّك لو كُنتَ فَظًّا غَليظَ القلب لانفضُّوا مِن حولك، وتفرّقوا عنك، فلا تؤاخذهم بما كان منهم في غزوة (أُحد)، واسأل اللّه - أيها النبي ﷺ - أن يغفر لهم[1].

فإذا عزمْتَ - بعد المشاورة - على أمرٍ، واطمأنَّت به نفسك فتوكّل على اللّه في الإعانة على إمضاء ما عزمت، لا على المشورة وأصحابها؛ إنَّ اللّه يحب المتوكِّلين عليه.

وترشدُ الآية الكريمة إلى وجوب التَّمسك بمكارم الأخلاق، وخصوصًا لمن يدعو إلى اللّه تعالى، ويأمرُ بالمعروف، فالأخلاقُ الحسنةُ من الرئيس في الدِّين، تجذب الناس إلى دين اللّه، وترغِّبهم فيه، مع ما لصاحبه من المدح والثَّواب الخاص، والأخلاقُ السيئةُ من الرئيس في الدِّين تنفِّر الناس عن الدِّين، وتبغِّضهم إليه، مع ما لصاحبها من الذَّم والعقابِ الخاصِّ[2].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ الانتقالِ من خطابِ المؤمنين إلى خطابِ الرَّسولِ:

قولُه تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ﴾ التفاتٌ عن خطاب المؤمنين إلى خطاب النّبيّ ﷺ فيما يتعلّق بمعاملته إياهم[3]، وفي هذا الانتقال في الخطاب تنبيهٌ لمكانة الرّسول ﷺ، وتشريفٌ له، وتنزيهه عن سوءِ الخصالِ، وجفوةِ الطِّباع، فضلًا عن تقرير مبدأ المشاورة، وتحقيق فعل التّوكّل، وهما من الأسس المهمّة في بناء الدّولة النّاشئة، وتسيير أمورها؛ وبيانُ ذلك موجبٌ الالتفاتَ في الخطابِ لمبلغ أهمّيّته، ولولا الأخلاقُ النَّبويَّة لما كانت هناك دولةٌ إسلاميَّة، ولا رايةٌ دعويَّة، ولا حملةٌ جهاديَّة.

الأخلاقُ هي أصلُ بناءِ المجتمعِ، وقد تعدلُ الجهادَ في سبيلِ الله

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 1/533.
(2) القاسميّ، محاسن التّأويل: 2/448، والسعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 71.
(3) رضا، تفسير القرآن الحكيم: 4/163.

دلالة حرف الفاء:

التّفريع على الكلام السّابق تحقيقٌ لأسباب العفو

خصّص ابنُ عاشور معناها بالتَّفريع على ما اشتمل عليه الكلام السّابق من عفو الله تعالى، ولمّا كان عفو الله عنهم يُعرف في معاملة الرّسول إيّاهم أَلَانَ الله لهم الرَّسول تحقيقًا لرحمته وعفوه، فكان المعنى: ولقد عفا الله عنهم برحمته فلانَ لهم الرّسول بإذن الله، وتكوينه إيّاه راحمًا، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾ [الأنبياء: 107][1].

دلالة حرف الباء:

مصاحبةُ اللّينِ لرحمةِ الله تعالى

الباء في قولِه: ﴿فَبِمَا﴾ للمصاحبة، أي: لنتَ مع رحمة الله؛ إذ كان لينُه في ذلك كلِّه لينًا لا تفريط معه لشيء من مصالحهم، ولا مجاراة لهم في التَّساهل في أمر الدِّين، فلذلك كان حقيقًا باسم الرّحمة[2].

بلاغة تقديم متعلّقاتِ الفعلِ:

قصر الرّحمة عليه تعالى

تقديم ﴿فَبِمَا رَحۡمَةٖ﴾ و﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ مفيدٌ للقصر، والحصر الإضافيّ، أي: برحمةٍ من الله لا بغير ذلك من أحوالهم[3].

التّعريض فائدة من فوائد القصر

وذلك أنَّ أحوالهم كانت مستوجبةً الغلظ عليهم، ولكنَّ الله أَلَانَ خُلُقَ رسولِه رحمةً بهم، لحكمة علمها الله في سياسة هذه الأمّة[4].

بلاغةُ ذكرِ (ما) في قولِه تعالى: ﴿فَبِمَا﴾:

أفادت (ما) التّوكيدَ، والحصرَ، وحسنَ النَّظمِ، والإبهامَ، واحتمال الاستفهام

لذكرِ (ما) بعد باء الجرّ فوائدُ عدَّة منها:

أوَّلًا: تأكيدُ الجملةِ بما فيه من القصر، فتعيّن بذكرِها كون التّقديم للحصر، لا لمجرّد الاهتمام[5].

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/144.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/144.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/105، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/144.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/144.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/144.

ثانيًا: حسنُ النَّظم، وتمكينٌ للكلام في النّفس، وبُعدٌ به عن الألفاظ المبتذَلَة[1]، فدخولُها لتزيين اللّفظ وزيادة فصاحته[2].

ثالثًا: إبهاميّة تُعطي معنى التّنكير في (مثل)، وتزيد في شيوعه، وتؤكّد مضمون الجملة[3]، فوجه تأكيده أنّه نكرة تدلُّ على إبهام ما عُلِّق به، وإبهامه يقتضي التَّعجّب، فكأنّه بعظيم من رحمته ﴿لِنتَ لَهُمۡۖ﴾[4].

رابعًا: جواز أن تكون (ما) استفهامًا للتّعجّب تقديره: فبأيّ رحمة من اللّه لِنْتَ لهم؟ وذلك أنّه لمّا لم يُظهر ﷺ تغليظًا في القول، ولا خشونة في الكلام مع عِظَمِ جنايتهم؛ علموا أنّ هذا لا يتأتّى إلّا بتأييد ربّانيّ وتسديد إلهيّ، فكان ذلك مَوضِع التّعجّب من كمال ذلك التّأييد والتّسديد، فقيل: فبأيّ رحمة من اللّه لنت لهم[5].

غرضُ التّنوينِ في لفظ ﴿رَحۡمَةٖ﴾:

تعظيم خصلة الرّحمة، والمبالغة في تحقّقها

كلمةُ ﴿رَحۡمَةٖ﴾ بدلٌ من (ما) مُبيّنٌ لإبهامِها، وتنوينُها للتّعظيم والتّفخيم، والمعنى: أنّ لِينَه هذا لهم الخارق للعادة ما كان إلّا بسبب الرّحمة العظيمة منه[6].

تقديرُ صفةِ الرَّحمةِ المحذوفةِ:

الرَّحمةُ عظيمةٌ في بيئتِها وآثارِها

حرفُ ﴿مِّنَ﴾ في قولِه: ﴿فَبِمَا رَحۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمۡۖ﴾ لابتداء الغاية مُتعلّقةٌ بمحذوفٍ وقع صفةً لرحمةٍ، أي: فبرحمةٍ عظيمةٍ لهم كائنةٍ من اللّه تعالى، وهي ربطُه على جأشه، وتخصيصُه بمكارم الأخلاق، ولين الجانبِ لهم، ومعامَلتهم بالرّفق، والتّلطّف بهم[7].

(1) الماورديّ، النّكت والعيون: 1/432، وابن سنان الخفاجي، سرُّ الفصاحة: 1/156.
(2) السُّيوطيّ، نواهد الأبكار: 2/152.
(3) الطيبيّ، فتوح الغيب: 4/321، والسّيوطيّ، نواهد الأبكار: 2/151.
(4) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 3/948.
(5) الرّازي، مفاتيح الغيب: 9/406 - 407، واعترض بعض المفسّرين على توجيه الرّازي، يُنظر: أبو حيّان، البحر المحيط.
(6) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/105، والشّوكانّي، فتح القدير: 1/451، والقاسميّ، محاسن التّأويل: 2/446.
(7) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/105.

واكتفى بالمذكور حاذفًا الصّفة للدّلالة على قربه منه ﷺ، ودنوّ رحمته، فلا واسطة بينها وبينه تبارك وتعالى.

دلالة التّعبير عن اللّين مجازًا:

سعة الخلق، والصّفح، وإقالة العثرات

صفةُ اللّين في قولِه تعالى: ﴿فَبِمَا رَحۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمۡۖ﴾ مجازٌ في سَعَةِ الخُلُقِ مع أمّة الدّعوة والمسلمين، وفي الصّفح عن جفاء المشركين، وإقالة العثرات[1].

سِرُّ التّعبيرِ بالماضي لإثبات تقرّر وصفِ اللّين في خُلُقه:

دلَّت صيغةُ الماضي في قوله: ﴿لِنتَ﴾ على أنّ ذلك وصفٌ تقرّر وعُرِفَ من خلقه، وأنّ فطرته على ذلك برحمة من اللّه إذ خلقه كذلك ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥۗ﴾ [الأنعام: 124][2].

موقعُ ذكرِ الرَّحمةِ من خُلُقِ اللّين:

الرَّحمةُ سببُ اللّين في معاملةِ مَن أُنزلت عليهم الرّسالة

أرسل اللّه نبيّنا محمدًا ﷺ مفطورًا على الرّحمة، وجعل لِينَه مصاحبًا لرحمة من اللّه أودعها اللّه فيه، لكونه بُعث للنّاس كافّة، مع أنَّ دعوته اختُصّت بالعرب بادئَ الأمرِ، والعربُ أمّة عُرِفَت بالأنفة، وإباء الضّيم، وسلامة الفطرة، وسرعة الفهم، وهم المُتَلَقّون الأوّلون للدّين فلم تكن تليق بهم الشّدّة والغلظة[3]؛ فقُدّمت الرّحمة؛ لكونها سببًا في اللّين.

عَوْدُ الضّمير في (لهم) على جميع الأمّة:

ضمير (لهم) في قولِه تعالى: ﴿فَبِمَا رَحۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمۡۖ﴾ عائدٌ على جميع الأمّة، كما هو مُقتضى مقام التّشريع وسياسة الأمّة، وليس عائدًا على المسلمين الذين عصَوا أمر الرّسول يوم أُحد؛ لأنّه لا يُناسب قوله بعده: ﴿لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَۖ﴾، إذ لا يُظنّ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/145.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/145.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/145.

ذلك بالمسلمين، ولأنّه لا يُناسب قوله بعده: ﴿وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِۖ﴾، إذا كان المُراد المشاورة[1]؛ للاستعانة بآرائهم، بل المعنى: لو كنت فظًّا لَنَفَرَ منك كثير ممّن استجاب لك فهلكوا.

العَـــوْد على المنافقين

أو يكون الضّمير عائدًا على المنافقين المُعبَّر عنهم بقوله: ﴿وَطَآئِفَةٞ قَدۡ أَهَمَّتۡهُمۡ أَنفُسُهُمۡ﴾ [آل عمران: 154]، فالمعنى: ولو كنت فظًّا لأعلنوا الكفر وتفرّقوا عنك، وليس المُراد أنّك لنت لهم في وقعة أُحُد خاصّة؛ لأنّ قوله بعده: ﴿وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَۖ﴾ ينافي ذلك المَحمَل[2].

دلالة ﴿وَلَوۡ﴾ في قولِه: ﴿وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَۖ﴾:

انتفاء الفضاضة، والغلظة عن النّبيّ ﷺ

يُثبتُ هذا النّصّ الكريم أنّ النّبيّ ﷺ ليس فظًّا ولا غليظًا ولا قاسيًا؛ لأنّ (لو) تدلُّ على نفي الجواب لنفي الشّرط، والمعنى أنّك لست فظًّا ولا غليظَ القلب، وهذا هو الّذي يتّفق مع صفات النّبوّة والقيادة الحكيمة الرّشيدة الهادية المُوجّهة إلى أمثل الطّرق الجامعة للقلوب[3].

المجازُ في لفظِ الغلظة:

الغليظ القلب: القَاسِي القلب؛ إذِ الغلظة مجاز عنِ القسوة وقلّة التّسامح، كما كان اللّين مجازًا في عكس ذلك[4].

فنُّ التَّكميلِ في قولِه: ﴿فَبِمَا رَحۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمۡۖ﴾:

اجتماعُ الشّجاعة والرّفق من أندرِ الأخلاقِ العالية

أفاد قوله: ﴿فَبِمَا رَحۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ في هذا المقام فائدتين كما يذكر الطّيبيّ: "إحداهما: ما يدلُّ على شجاعته ﷺ، والثّانية: ما يدلُّ على رفقه، فهو من باب التَّكميل"[5]، وقال التّفتازانيّ: " إنّما جُعِل

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/145.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/146.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 3/1474.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/146.
(5) السُّيوطيّ، نواهد الأبكار: 3/82.

الرّفق ولين الجانب مُسبّبًا عن ربط الجأش؛ لأنَّ من ملك نفسه عند الغضب كان كامل الشّجاعة"[1].

ومقامه ﷺ هو التّوسط بين الشّدّة واللّين؛ لقوله تعالى: ﴿لِنتَ لَهُمۡۖ﴾، ولم يقُل: فبما رحمة من الله كنت لينًا، أو كنت تلين، فليس هو في ذاته ليِّنًا، لكنّه يستعمل اللّين[2].

بلاغة التّشبيه في قولِه تعالى: ﴿لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَۖ﴾:

فائدة التّشبيه الإيذان بأنَّ من حول النّبيّ ﷺ متّبعون له

الضّميرُ في قولِه: ﴿لَٱنفَضُّواْ﴾ راجعٌ إلى عموم الصَّحابةِ رضوان الله عليهم، أي: الذين دخلوا في الدّين لأنّهم لا يطيقون الشّدَّة، والكلام من التّشبيه التّمثيليّ: شُبِّهَت هيئة النّفور منه وكراهية الدّخول في دينه بالانفضاض من حوله، أي: الفرار عنه مُتفرّقين، وهو يؤذن بأنّهم حوله مُتَّبعون له[3].

علّة تقديم وصف الفظاظة على وصف الغلظة:

فظاظة الأبدانِ أوّل ما يقعُ في العين، وغلظةُ القلبِ خافية

نفتِ الآيةُ صفةَ الفظاظةِ أوّلًا، ثم أتبعتها بغِلَظِ القلبِ، إذِ الفظاظةُ تنشأُ عن القلب الغليظ؛ لتقديم ما هو ظاهرٌ للحسِّ على ما هو خافٍ يُعلَمُ بظهور أثَره، فالفظاظة: الجفوة قولًا وفعلًا، وهو أثر بيّن، وغِلَظ القلب: خلقٌ صلبٌ لا يلين ولا يتأثَّر، وهو وصفٌ خافٍ. فالوصفان متقاربان، ولشدّة ذلك قِيل: إنّهما بمعنى واحد، وجُمِعَا للتّأكيد[4].

وتوجيهٌ آخرُ: أن يكون من باب تقديمِ النتيجةِ على السَّببِ، ونكتةُ ذلك أنَّه إذا كانت النَّتائجُ منفيَّةً، فكذلك أسبابُها، فنُفيت الفظاظةُ أوّلًا، ثمَّ نُفيَ سببُها، ليُعلمَ أنَّه ليس فظًّا، ولا توجد عنده أسبابُ الفظاظة، وهذا غاية الكمالِ والجمال والجلالِ الأخلاقيّ.

(1) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 4/321، والسُّيوطيّ، نواهد الأبكار: 3/82.
(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/436.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/146.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/104.

بلاغة الجملة القرآنيَّة في قولِه تعالى: ﴿وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَۖ﴾:

الجملةُ القرآنيَّةُ تسري مثلًا أخلاقيًّا عاليًا

في قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَۖ﴾ فنُّ التَّمثيل؛ لأنّ هذا القول خرج مَخرج المثل السّائر الّذي يتمثّل به النّاس للدّعوة إلى لين الجانب وحسن الكلام مع النّاس[1]، وفي ذلك ترسيخٌ للرّحمة واللّين منهجًا يُقتفى، وأسلوب حياة به يُحتفى في الرّياسة، والقيادة، والتّعامل مع النّاس.

دلالة الفاء في ﴿فَٱعۡفُ﴾:

أجملُ العفوِ ما كان سريعًا بدون مُهلةٍ

الفاء في قوله تعالى: ﴿فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ﴾ تدلّ على التّعقيب، فهذا يدلّ على أنّه تعالى أوجب عليه أن يعفو عنهم في الحال، وهذا يدلّ على كمال الرّحمة الإلهيّة حيث عفا هو عنهم، ثمّ أوجب على رسوله أن يعفو في الحال عنهم[2].

علّة التّفريع في قوله: ﴿فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ﴾:

العفوُ تاجُ اللّينِ وثمرتُه الرّاسخة

التّفريع في قوله: ﴿فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ﴾ على قوله: ﴿لِنتَ لَهُمۡۖ﴾؛ لأنّ جميع الأفعال المأمور بها مُناسبة للّين، فأمّا العفو والاستغفار فأمرهما ظاهر، وأمّا عطف ﴿وَشَاوِرۡهُمۡ﴾ فلأنّ الخروج إلى أُحد كان عن تشاور معهم وإشارتِهم، ويشمل هذا الضّمير جميع الّذين لَانَ لهم ﷺ، وهم أصحابه الّذين حوله سواء من صدر منهم أمر يوم أُحد أم غيرهم[3].

الأمرُ بالعفو مُترتِّب على مضمون ما قبله

تقدير أن تكونَ الفاءُ للسّببيّة بتمهيد أنّه ليّن الجانب، وعلى الاتّصاف بأنّه على خلق عظيم[4]؛ فرتَّبت الفاء ما بعدها على ما قبلها، أي: أنّه يترتّب على اتّصافك بالعفو والرّحمة والبشاشة،

(1) الإندونيسّي، الشّامل في بلاغة القرآن: 1/202.
(2) الرّازي، مفاتيح الغيب: 9/408.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/146.
(4) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/436.

والبعد عن الفظاظة وغلظ القلب أن تكون عفوًّا[1]، العفو في هذه الحال ليس للرّحمة فقط، بل هو للمصلحة أيضًا؛ لأنّه يشحذ العزائم، إذ هو يقيل من العثرة، ويرفع من الكبوة، وعندئذٍ تستقيم القلوب نحو الحقّ، كما قامتِ الأجسام بعد الوقوع[2].

فائدةُ التّعبير بصيغة ﴿وَشَاوِرۡهُمۡ﴾:

المشاورة مصدر شاور، وجاءت على صيغة المفاعلة الدّالّة على المشاركة، والمطاوعة بالاستجابة للأمر بذلك، فناسبت سياق ورودها، وعبّر عنها بصيغة الأمر؛ "للتّنبيه على أنّ ما سبيله الاجتهاد فحقُّه الاستعانة فيه بالآراء الكثيرة الصّحيحة، لينقدح منها الصّواب"[3]؛ ولذلك وجب اللّجوء إليها، والاستعانة بها؛ لكونها تُطلبُ في الأمر المهمّ المشكل من شؤون المرء في نفسه أو شؤون القبيلة أو شؤون الأمّة[4].

الأمـــــــورُ الاجـتـهـاديَّـةُ تـحـسُـنُ فيها مشاركةُ الرَّأي؛ لاسـتـنـبـاطِ الأصوبِ

وفي أمرِه ﷺ بمشاورةِ أصحابِه تشريفٌ للصّحابة[5] رضي الله عنهم، فقوله: ﴿وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِۖ﴾، يعني: في أمر الحرب ونحوه ممّا لم ينزل عليك فيه وحي؛ لتستظهر برأيهم، ولِمَا فيه من تطييب نفوسهم، والرّفع من أقدارهم[6].

مشاورةُ الصَّحبِ تشريفٌ وتطييبٌ للنُّفوس

تعيينُ مَرجِعِ الضّميرِ في لفظ: ﴿وَشَاوِرۡهُمۡ﴾:

ضمير الجمع في قوله: ﴿وَشَاوِرۡهُمۡ﴾ عائد على المسلمين خاصة: أي: شاور الذين أسلموا من بين من لنت لهم، أي: لا يصدّك خطل رأيهم فيما بدا منهم يوم أُحد عن أن تستعين برأيهم في مَواقِع أخرى، فإنّما كان ما حصل فلتة منهم، وعثرة قد أقَلتَهُم منها[7].

مشاورةُ المؤمنين تـعـزيـزُ خـاطـر وتسديدُ رأي

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 3/1476.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 3/1476.
(3) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 3/953.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/146 - 147.
(5) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 3/953.
(6) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/432.
(7) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/147.

دلالة الألف واللّام في لفظ ﴿ٱلۡأَمۡرِۖ﴾:

دوران المعنى بين معنى الجنس، والعهد

الألف واللّام في لفظِ: ﴿ٱلۡأَمۡرِۖ﴾ يدلُّ على الجنسِ على إرادة الأمر المهمّ الّذي يُؤتمر له، والعهد على إرادة أمر الحرب[1]؛ لكون الذي نزل فيه الوحي لا تجوز المشاورة فيه، فوجب حمل الألف واللّام هاهنا على المعهود السّابق في هذه الآية وهو ما يخصّ الحرب ولقاء العدوّ[2].

وأيًّا ما كان فظاهر لفظِ ﴿ٱلۡأَمۡرِۖ﴾ أنّ المراد المشاورة الحقيقيّة الّتي يقصد منها الاستعانة برأي المستشارين بدليل قوله عقبه: ﴿فَإِذَا عَزَمۡتَ فَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾[3].

مراعاة حسن التّرتيب في الأوامر:

العفو النّبويُّ، وطلبُ المغفرةِ، هما أصل الصَّلاح المُهيِّئ للمشاورةِ

بدأتِ الآيةُ ﴿فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِۖ﴾ بالأمر بالعفو عنهم فيما يخصّه ﷺ مُسقِطًا لحقّه، ودالًّا على رضاه عليهم، وعدم مؤاخذته لهم، فإذا تحلَّوا بالعفوِ النَّبويِّ، جاء الأمر بالاستغفار لهم فيما كان للّه؛ ليكمل لهم صفحه، وصفح اللّه عنهم، فإذا صاروا في هذه الدّرجة، وزالت عنهم التّبعات من الجانبين صاروا أهلًا للاستشارة في الأمور إيذانًا بأنّهم أهل للمحبّة الصّادقة والخلّة النّاصحة، إذ لا يستشير الإنسان إلّا من كان معتقدًا فيه المودّة والعقل والتّجربة[4].

تقديرُ حذف مُتعلّق العزم:

في قوله: ﴿فَإِذَا عَزَمۡتَ فَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾ العزم: هو تصميم الرّأي على الفعل، وحَذَفَ مُتعلَّق ﴿عَزَمۡتَ﴾؛ لأنّه دلّ عليه التّفريع عن قوله: ﴿وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِۖ﴾، فالتّقدير: فإذا عزمت على الأمر[5].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/147.
(2) الرّازي، مفاتيح الغيب: 9/410.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/147.
(4) ابن عطية، المحرر الوجيز: 1/534، وأبو حيّان، البحر المحيط: 3/104، والآلوسّي، روح المعاني: 4/108.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/151.

بلاغة المجاز في لفظ التّوكّل:

مقتضى التَّوكُّلِ الشّروع في الفعل مع السَّداد فيه

حقيقةُ التّوكّل الاعتماد، وفي قوله: ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾ مجازٌ في الشّروع في الفعل مع رجاء السّداد فيه من اللّه، وهو شأن أهل الإيمان، فالتّوكّل انفعال قلبيّ عقليّ يتوجّه به الفاعل إلى اللّه راجيًا الإعانة، ومستعيذًا من الخيبة والعوائق، وربّما رافقه قول لسانيّ؛ وهو الدّعاء بذلك[1].

بيان التّعبير عن فعلَي العزم، والتّوكّل:

الدّلالة على تأكيد حصولهما، وإنفاذ المشورة دون تأخّر

عبّر عن العزيمة بصيغة الماضي ﴿عَزَمْتَ﴾، ولم يقل: (فإن تعزم) مع كونه أنسبَ؛ للدّلالة على تأكيد حصولها في نفسه، وتحقّق حدوثها، وكأنّها واقعة مشاهدة، ويرسّخ ذلك التّعبير بـ (إذا) الشّرطيّة الدّالّة على المستقبل، والأمر ينطبق على فعل التّوكّل المُصاغ بفعل الأمر جوابًا لـ(إذا) تجسيدًا لسرعة تمثّل الفعل، والتّقدير عند ابن عاشور: فإذا عزمت فبادر، ولا تتأخّر، وتوكّل على اللّه؛ لأنّ للتّأخّر آفات، والتّردّد يضيّع الأوقات[2].

دلالة نسبة التّوكّل على الله تعالى:

التَّوكُّلِ على الله، احتراسٌ من مَظِنَّةِ الاعتمادِ على رأي المجموعِ

لمّا أمر بالمشاورة الّتي هي النَّظر في الأسباب أمر بالاعتصام بمسببها من غير التفات إليها ليكمل جهاد الإنسان بالملابسة ثمّ التّجرّد[3]؛ إذ لا يجب بعد حصول الرّأي المتأكّد بالمشورة أن يقع الاعتماد عليه، بل يجب أن يكون الاعتماد على إعانة اللّه، وتسديده، وعصمته، فليس للعبد اعتمادٌ على غير اللّه في جميع الأمور[4].

تقديرُ الإيجاز بالحذف:

في قوله تعالى: ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾ إيجازٌ بالحذف، والتّقدير:

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/151.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/151.
(3) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 5/108.
(4) الرّازي، مفاتيح الغيب: 9/410.

التّوكّلُ حاضرٌ في كلِّ أحوالِ العبدِ

فتوكّل على نصر اللّه ومعونته، قاله العزّ بن عبد السّلام في الإشارات[1]. وفي الاستغناء بالمذكور إطلاقٌ للتّوكّل، وتعميم له، وعدم تحديده بشأن المعركة؛ ليناسب مُختتم الآية الكريمة المُتضمّنة محبّته تعالى للمتوكّلين.

بلاغةُ الجملةِ القرآنيَّة وقوَّةُ دلالتِها:

اكتنازُ الجملةِ القرآنيَّة جعلَها مثلًا سائرًا

خَرَجَ قولُه تعالى: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾ مخرج المثل السّائر الّذي يتمثّل به النّاس للدّعوة إلى الاعتماد على اللّه، والتّوكّل عليه في الأعمال[2]. وفي ذلك ترسيخٌ للتّوكّل منهجًا مستقيمًا وثابتًا في كلِّ ما يعرِضُ من عمل، أو يسعى إليه.

جمال فنِّ التَّصديرِ:

في قوله تعالى: ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾ ردّ كلمة ﴿ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾ على كلمة ﴿فَتَوَكَّلْ﴾، حيث وافقت كلمةُ ﴿ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾، وهي آخر كلمة في الكلام، أوّلَ كلمة في صدره، وفيه وجه توكيد يناسب فعل التّوكّل.

براعة الإظهار في مقام الإضمار:

إدخال الرّوعة والمهابة في نفس المُخاطَب

مُقتَضَى الظّاهر يستدعي التّعبير بالمُضمَر بأن يُقال: (فتوكَّل عليه إنَّه يحبُّ المتوكّلين)، لكن وُضع الاسم الظّاهر، وهو لفظ الجلالة (اللّه) مَوضِع الضّمير؛ لإدخال المهابة في نفس المُخاطَب، نظرًا إلى أنّ لفظ الجلالة يجمع كُلَّ صفات كمال اللّه ﷻ، باعتباره اسماً علمًا للذّات العليّة، وما هو اسم علم للذّات يكون جامعاً لكلّ صفات الكمال.

بلاغة التّذييل بجملة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾:

لمَّا كان التّوكّلُ علامةَ صدقِ الإيمان، وفيه ملاحظةُ عظمة

(1) الإندونيسّي، الشّامل في بلاغة القرآن: 1/202.
(2) الإندونيسّي، الشّامل في بلاغة القرآن: 1/202.

اللّه وقدرته، واعتقاد الحاجة إليه، وعدم الاستغناء عنه، والأدب العظيم معه الدّالّ على محبّة العبد ربّه فلذلك أحبّه اللّه[1]. مؤكّدًا حبّه تعالى للمتوكّلين بـ﴿إِنَّ﴾ المُؤكّدة، والجملة الاسميّة، وذكر الفاعل مرّتين، مرّة على أنّه مبتدأ، ومرّة على أنّه فاعل ﴿يُحِبُّ﴾، وإظهار اسمه الأعظم الجامع لكمال الصّفات في مَوطِن التّشريف والتّكريم، عناية بهذه الصّفة الحميدة وبالمتّصفين بها على الدّوام بقرينة التّعبير عنه بصيغة اسم الفاعل، المسبوق بالمضارع الدّالّ على الحال والاستقبال، والمبالغين في توكّلهم بأمارة صيغة التَّفعّل الّتي عبّر بها عن فعل التّوكّل، فهو حبّ دائم بدوام التّوكّل عليه، والمبالغة في ذلك.

توكيد الحبّ، وتشريفُ المحبوبين عنايةً بالصّفة والمتّصفين

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/152.

﴿إِن يَنصُرۡكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمۡۖ وَإِن يَخۡذُلۡكُمۡ فَمَن ذَا ٱلَّذِي يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعۡدِهِۦۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ١٦٠﴾ [آل عمران: 160]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا بيَّن تعالى بقوله: ﴿بَلَىٰٓۚ إِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ﴾ [آل عمران: 125] أنَّ من اتّقى المعاصيَ ينصرُهُ اللّه، بيّن في هذه الآية أنّ من نصره اللّه فلا غالب له، ليحصل من مجموع هاتين المُقدّمتين؛ أنّ من اتّقى اللّه فقد فاز بسعادة الدّنيا والآخرة؛ لأنّه يفوز بسعادة لا شقاوة معها، وبعزٍّ لا ذلَّ معه، ويصير غالبًا لا يغلبه أحد، وأمَّا من أتى بالمعصية فإنَّ اللّه يخذله، ومن خَذَله اللّه فقد وقع في شقاوة لا سعادةَ معها، وذلٍّ لا عزَّ معه[1].

وفيها تسليةٌ للصحابة - رضي الله عنهم - عمَّا وقع لهم من الفرار يوم أُحدٍ؛ إذ لَمَّا أمره بمشاورتهم وبالتّوكّل عليه، أوضح أنَّ ما صدر من النّصر، أو الخِذْلان إنّما هو راجع لمشيئته. وأنّه متى نَصَرَكم فلا يمكن أن يغلبكم أحد، ومتى خَذَلَكم فلا ناصر لكم فيما وقع لكم من النَّصر[2].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَنصُرۡكُمُ﴾: النُّون والصَّاد والرَّاء أَصلٌ صحيحٌ يدُلُّ على إتيانِ خَيرٍ وإيتائِه. ونَصَرَ اللَّهُ المُسلِمِينَ: آتَاهُمُ الظَّفَرَ على عَدُوِّهم، يَنصُرُهم نَصرًا. وانتَصَرَ: انتَقَمَ[3]. فالنَّصرُ: عَونُ المظلوم[4]؛ ليمتنع مِن ظالمه، وينتصفَ وينتقمَ مِنه[5]. والنَّصر والنُّصرة: العون. ونُصرَة اللّه للعبد ظاهرة، وهي الظّفر على العدوّ، ونُصرة العبد للّه هو نُصرته لعباده، والقيامُ بحفظ حدوده، ورعاية عهوده، واعتناق أحكامه، واجتناب نهيه[6]. والنّصرُ:

(1) الرّازي، مفاتيح الغيب: 9/411.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/105.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نصر).
(4) الخليل، العين: (نصر).
(5) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (نصر).
(6) الرّاغب، المفردات: (نصر).

العطاءُ[1]، والإعانةُ على الخلاص من غلب العدوّ ومريد الإضرار[2]. وسائرُ ما في القرآن من هذا التّركيب، ومنه (نصر)، (ناصر)، (نصير) فهو بمعنى المعونة الّتي يترتّب عليها الغلب حالًا أو مآلًا[3].

2) ﴿غَالِبَ﴾: "الغينُ واللّامُ والباءُ أَصلٌ صحيحٌ يدُلُّ على قُوَّةٍ وقَهرٍ وشدَّةٍ"[4]. والمُغَلَّبُ: الّذي يَغلِبُه أقرانه فيما يمارس[5]، والّذي غَلَبَ خَصمَه أَو قِرنَه، كأَنَّه غَلَبَ على خَصمِهِ، أَي: جُعِلَت له الغَلَبَة[6]، فهو من الأضداد. وسائر ما في القرآن من هذا التّركيب هو من الغَلَب، أي: القهر[7].

3) ﴿يَخْذُلْكُمْ﴾: الخاء والذّال واللّام أَصلٌ واحدٌ يدُلُّ على تَرك الشَّيء والقُعُود عنه. فالخِذلانُ: تَركُ المَعونَة[8]، وتركُ نصرة الأخ. وأصله من الظّباء والبقر الوحشيّة الّتي تخذُلُ صواحبَها في المرعى، وتنفرد مع ولدها، وتتخلّف عن القطيع بسبب خذلان ولدها لعجزه عن المشي[9].

وخِذلانُ اللّه للعبد: ألّا يعصمه من السّوء[10]، أو من السَّيِّئَة فيقعُ فِيهَا. والخذل: تركُ العون، والنّصرة، والإغاثة[11]، وتركُ من يُظنُّ به أن ينصرَ نُصرتَه[12]؛ بإمساك الإعانة مع القدرة[13].

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

إن ينصركم اللّه، أيّها المؤمنون باللّه ورسوله، على من ناوأكم وعاداكم من أعدائه،

(1) الجوهريّ، الصّحاح: (نصر).
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/153.
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (نصر).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (غلب).
(5) الخليل، العين: (غلب).
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (غَلَبَ).
(7) الرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (غلب).
(8) ابن فارس، مقاييس اللغة: (خَذَلَ).
(9) الخليل، العين: (خذل)، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/153.
(10) الخليل، العين: (خذل).
(11) الجوهريّ، الصّحاح، وابن الأثير، النّهاية: (خذل).
(12) الرّاغب، المفردات: (خذل).
(13) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/153.

قـوامُ التّـوكّـلِ التَّسليـمُ بـأنَّ النّاصر والخاذل الله

والكافرين به فلا غالب لكم من النّاس، ولو اجتمع عليكم مَن بين أقطارها من خلقه وما عندهم من العَددِ والعُدَدِ، فلا تهابوا أعداء الله لقلّة عددكم، وكثرة عددهم، ما كنتم على أمره، واستقمتم على طاعته وطاعة رسوله؛ فإنَّ الغلبة لكم والظّفر دونهم. وإن يتركْ ربّكم عونَكم بخلافكم أمره، وترككم طاعته وطاعة رسوله، فيكلكم إلى أنفسكم فلن تجدوا ناصرًا من بعد خِذلان الله إيّاكم، فلا تتركوا أمري وطاعتي وطاعة رسولي فتهلكوا بخِذلاني إيّاكم، وعلى ربّكم توكّلوا دون سائر خلقه، وبه فارضَوْا من جميع من دونه، ولقضائه فاستسلموا، وجاهدوا فيه أعداءه، يكفكم بعونه، ويمدِدْكم بنصره.[1].

وترشدُ الآيةُ الكريمة إلى التّرغيب في الطّاعة، والتّحذير منَ المعصية، وأنَّ الإيمانَ لا يحصل إلّا بإعانة الله، والكفرَ لا يحصل إلّا بخِذلانه؛ فالأمر كلُّهُ للهِ، وفي الآيةِ الأمرُ بالتوكُّل على الله وحدَه، وأنه بحسَب إيمانِ العبدِ يكونُ توكُّله على الله[2].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغة العدول إلى الفصل استئنافًا:

النَّصرُ من الله وحدَه، أصلٌ في اعتقادِ المتوكِّلين

قوله تعالى: ﴿إِن يَنصُرۡكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمۡۖ وَإِن يَخۡذُلۡكُمۡ فَمَن ذَا ٱلَّذِي يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعۡدِهِۦۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ جملةٌ مستأنفةٌ سيقت بطريق تلوين الخطاب؛ تشريفاً للمؤمنين؛ لإيجاب توكّلِهم عليه تعالى، وحثِّهم على اللّجوء إليه، وتحذيرِهم ممّا يُفضي إلى خِذلانه[3]، بعد المشاورة والعزيمة المبنيّة على أخذ الأهبة والاستعداد بما يستطاع من حول وقوّة[4].

(1) ابن جرير، جامع البيان: 7/347.
(2) الرّازي، مفاتيح الغيب: 9/411، وابن عادل، اللُّباب: 6/22، والسعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 71.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/105.
(4) رضا، تفسير القرآن الحكيم: 4/169.

السننُ الإلهيَّةُ في القوانين الاجتماعيَّة لا تتخلفُ

وقد يكون الاستئنافُ ناشئًا عن قوله: ﴿وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوْ مُتُّمْ﴾ [آل عمران: 157]، أو قوله: ﴿لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَقَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ﴾ [آل عمران: 156]، فتكون مناسبة موقع هذا الاستئناف عقب ما تقدّمه؛ بأنّه بعد أن خاطبهم بفنون الملام والمعذرة والتّسلية من قوله: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ﴾ [آل عمران: 137] إلى هذه الآية، قد جمع لهم تلك الوصايا والأوامر والإرشادات، في كلامٍ جامعٍ نافعٍ لتلقّي الماضي، وصالحٍ للعمل به في المستقبل[1].

دلالة الجملة الخبريّة:

تقريرُ تسلية المؤمنين على ما أصابهم من الهزيمة

لَوْ حُمِلَ قولُه تعالى: ﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ﴾ عَلَى ظَاهِرِه لَكَانَ إِخْبَارًا بِأَمْرٍ مَعْلُوم، فَإِنَّ مِثْلَ هَذَا الْمَعْنَى مُحَقَّقٌ في جَانِبِ اللَّهِ لَا يَجْهَلُهُ مُعْتَرِفٌ بِإِلَهِيَّتِه، مُؤْمِنٌ بِوَحْدَانِيَّتِه، فَيَتَعَيَّنُ أَنْ يَكُونَ هَذَا الْخَبَر مرَادًا بِه غَيْرَ ظَاهِرِ الْإِخْبَارِ، وَأَحْسَنُ مَا يُحْمَلُ عَلَيْه أَنْ يَكُونَ تَقْرِيرًا لِتَسْلِيَةِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ مِنَ الْهَزِيمَةِ، حَتَّى لَا يَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَ؛ لِأَنَّ رَدَّ الْأُمُورِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى عِنْدَ الْعَجْزِ عَنْ تَدَارُكِهَا مَسْلَاةٌ لِلنَّفْسِ، وَعَزَاءٌ عَلَى الْمُصِيبَةِ[2].

النّصر والخذلان لا يكون إلّا لحكمة

وَفِي ضِمْنِ ذَلِكَ تَنْبِيهٌ إِلَى أَنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَوْمًا في بَعْضِ الْأَيَّام، وَخَذْلَهُ إِيَّاهُمْ في بَعْضِهَا، لَا يَكُونُ إِلَّا لِحِكَم وَأَسْبَابٍ، فَعَلَيْهِمُ السَّعْيُ في أَسْبَابِ الرِّضَا الْمُوجِبِ لِلنَّصْرِ، وَتَجَنُّبُ أَسْبَابِ السُّخْطِ الْمُوجِبِ لِلْخَذْلِ[3].

استعمال الخبر في لازمِ معناه بتنزيل العالم مَنزِلة الجاهل

يجوز أن يكون الإخبار مبنيًّا على تنزيل العالم مَنزِلة الجاهل، حيث أظهروا من الحرص على الغنيمة، ومن التّأول في أمر الرّسول

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/152 - 153.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/152.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/152.

لهم في الثّبات، ومن التّلهف على ما أصابهم من الهزيمة والقتل والجرح، ما جعل حالهم كحال من يجهل أنّ النّصر والخذل بيد الله تعالى، فالخبر مُستعمل في معناه على خلاف مُقتضَى الظّاهر[1].

بلاغة الالتفات في الآية الكريمة:

الانتقال إلى مفاهيم واجبة التّسليم لها

ذكر أبو حيّان أنّ الآية التفات؛ إذ هو خروج من غيبة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾ إلى خطاب[2]، ﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّـهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ﴾ ونكتةُ الالتفاتِ: التّنبيه على أنّ الأمر كلّه للّه، وعلى وجوب التّوكّل عليه، وفيه ترغيب في الطّاعة، وفيما يستحقّون به النّصر من اللّه تعالى والتّأييد، وتحذير من المعصية، وممّا يستوجبون به العقوبة بالخذلان[3].

سرُّ إيثار أداة الشّرط ﴿إن﴾ دون (إذا):

الإشارة إلى تساوي نصر المؤمنين وخذلانهم

عبّر النَّظمُ بأداة الشّرط ﴿إن﴾ دون (إذا) في قولِه: ﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ﴾ إشارة إلى تساوي الأمر، وأنّ نُصرَتَهم، وخُذلانهم بالنّسبة إلى قدرة الله تعالى متساويان[4]، وليس أحدُهما أرجحَ منَ الآخر[5].

المطلوبُ من المؤمنين الأخذُ بأسباب النَّصرِ اعتقادًا وعملًا

ولتنزيل الواقع المُتحقّق مَنزِلة غير المُتحقّق؛ فنصرُ الله للمؤمنين أمرٌ مقطوعٌ بوقوعه، وإنّما جيءَ بالشّرط على هذه الصّورة تنزيلًا للمقطوع بوقوعه مَنزِلة غير المقطوع بوقوعه لحثّ المؤمنين على الأخذ بأسباب النَّصر من الاعتقاد والعمل[6]، وليكونوا بين الخوف والرّجاء؛ لأنّهم لو وثقوا من النَّصر كلّ الثّقة لناموا، ولو وثقوا من الهزيمة كلّ الثّقة لضاعوا، فكان من الحكمة أن يترقّبوا النّصرَ مع الأخذ بأسبابه، ويخافوا الهزيمة بتجنّب أسبابها[7].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/153.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/105.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/432 - 433.
(4) البسيلّي، التّقييد الكبير، ص: 591.
(5) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/437.
(6) الإندونيسّي، الشّامل في بلاغة القرآن: 1/204.
(7) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 1/193 - 194.

دلالة الفاء في قولِه: ﴿إِن يَنصُرۡكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمۡۖ﴾:

الفاء: داخلةٌ في جوابِ الشَّرطِ؛ لتوكيد التّرتيب والتّعقيب والسّببيّة، رابطة لجواب الشّرط؛ وهي لترتيب ما بعدها أوِ الأمر به على ما مرَّ من غلبة المؤمنين ومغلوبيتهم على تقدير نصر الله تعالى لهم، وخذلانه إيّاهم، فإنّ العلم بذلك ممّا يستدعي قصر التّوكّل عليه سبحانه لا محالة[1].

لا غالبَ للمؤمنين إن نزلَ بهم نصرٌ من الله تعالى

نكتةُ التّعبير باسم الفاعل:

التّعبير باسم الفاعل الدّالّ على ثبوت الصّفة، ورسوخها في صاحبها في قوله تعالى: ﴿فَلَا غَالِبَ لَكُمۡۖ﴾، يفيد أنّه لا يوجد مَن عنده القوّة، ومَن شأنه أن يغلبكم؛ لأنّه إن كان قويًّا في نفسه فالله معكم وهو القاهر فوق عباده، وهو الحفيظ عليهم[2]. فنفي الصّفة الثّابتة الرّاسخة أبلغ، وأقوى من نفي ما دونها.

نفي الصّفة الثّابتة الرّاسخة أبلغ من نفي ما دونها

بيان دلالة النّفي في قولِه: ﴿إِن يَنصُرۡكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمۡۖ﴾:

(لا) للتّنصيص على عموم نفي وجود الجنس. والمعنى: إن ينصُركم الله كما نصركم يومَ بدرٍ، فلا أحدَ يغلِبُكم، وهذا على طريق نفي الجنسِ المنتظِم لنفي جميعِ أفرادِ الغالبِ ذاتاً وصفةً، ولو قيل: فلا يغلبُكم أحدٌ لدلّ على نفي الصّفة فقط[3]. فهو نفي للهزيمة في حالة نصر الله لهم بنفي جنس المنتصر عليهم الغالب لهم، ونفي جنس الغالب يستلزم نفي الغلَب في أيّة صورة كانت[4].

نفيُ الغلبةِ عن المؤمنين شاملٌ لجميع الغالبين

علّة العدول عنِ التّصريح بالغلبة إلى النّفي:

نظمُ الآية ﴿إِن يَنصُرۡكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمۡۖ﴾ ليس صريحًا في غلبة المؤمنين لعدوّهم، وهو ليس كأن يُقال: (إن ينصركم الله

تنبيه على ظفرهم بعدوّهم في الحال والاستقبال

(1) الآلوسّي، روح المعاني: 4/108.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 3/1480.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/105.
(4) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 1/193.

تُنصَروا أو تَظفُرُوا)، وإنّما عبّر عن ذلك بالنّفي بحذف جواب الشّرط، وذكر ما يستلزمه، والتّقدير: إن ينصركم اللّه ظفرتم ولا غالب لكم، ولو قيل: ظفرتم فقط لما أفاد انتصارهم في المستقبل، فهو تنبيهٌ على ظفرهم بعدوّهم في الحال والاستقبال، أي: إن ينصركم اللّه على عدوّكم انتصرتم عليه في الحال، ولا يغلبكم بعد ذلك أحد[1].

براعة التّعبير عنِ المقابلة:

تلطُّفُ القرآنِ في خطابِ المؤمنين من دواعي السَّعادةِ السَّرمديَّة

لمّا كان حديث النُّصرة جاء جوابه بصريح النّفي العامّ: ﴿فَلَا غَالِبَ لَكُمْ﴾، ولمّا كان حديث الخذلان جاء بالجواب مُتضمّنًا النّفي؛ وهو الاستفهام فلم يقُل (فلا ناصر لكم)، بل قال: ﴿فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعۡدِهِۦ﴾، وهو من تنويع الكلام في الفصاحة والتّلطّف بالمؤمنين حتّى لا يصرّح لهم بأنّه لا ناصر لهم، بل أبرزَ ذلك في صورة الاستفهام الّذي يقتضي السّؤال عنِ النّاصر، وإن كان المعنى على نفي النّاصر. لكن فرقٌ بين الصَّريح والمتضمَّن، فلم يُجرِ المؤمنين في ذلك مُجرَى الكفّار الّذي نصَّ عليه بالصَّريح أنّه لا ناصر لهم كقوله: ﴿أَهۡلَكۡنَٰهُمۡ فَلَا نَاصِرَ لَهُمۡ ١٣﴾ [محمد: 13][2]. وفي هذا لطيفة في مراعاة دقائق أحكام الخطاب[3].

غرضُ الاستفهام البلاغيِّ:

خذلانُ الله ليس من بعدِه ناصر

الاستفهامُ في قولِه تعالى: ﴿فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعۡدِهِۦ﴾ "بمعنى النّفي، أي: لا ينصركم أحدٌ من بعده"[4]، فهو استفهامٌ إنكاريٌّ مفيدٌ لانتفاء النَّاصرِ ذاتًا وصفةً بطريق المبالغة[5]، وفي هذا

(1) البسيلّي، التّقييد الكبير، ص: 591، وابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/437 - 438.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/106.
(3) القشيريّ، لطائف الإشارات: 1/292.
(4) الواحديّ، التّفسير الوسيط: 1/513.
(5) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/106، والآلوسّي، روح المعاني: 4/108.

الاستفهامِ تنبيه على أنّ الأمر كلَّه للّه، وترغيبٌ في الطَّاعة، وفيما يستحقّون به النَّصر من اللّه تعالى والتّأييد، وتحذير من المعصية، وممّا يستوجبون به العقوبة بالخذلان[1].

الأنظارُ عاجزةٌ عن العثورِ على ناصرٍ من دون الله

جاء النّفي على صيغة الاستفهام ليوجّه أنظار المُخاطَبين إلى البحث عن قويٍّ تكون قدرته كافية للوقوف أمام إرادة اللّه تعالى، فإنّهم سيبحثون عن قويٍّ لا تكون قوّته إلى بقاء، ولا شكّ أنّهم لن يجدوه، فعندئذٍ يحكمون - مُعتقدين عن يقين - بأنّ اللّه وحده الكبير المُتعال، ولا ناصر لهم سواه[2]، ولا شكّ في أنّ صورة الاستفهام هذه أبلغ في الدّلالة، وإن كان معناها النّفي[3].

توجيه شبيه الاستعارة التّمثيليّة المكنيّة:

تمثيل الحالة الحاصلة من تقدير الانكسار بحالة خذلان المُستنصرِ بغير الله

قيدُ ﴿مِّنۢ بَعۡدِهِۦۗ﴾ مستعملٌ في لازم معناه، وهو المغايرة والمجاوزة، أي: فمن الّذي ينصركم دونه أو غيره، أي: دون اللّه، فالضّمير عائدٌ على اسم الجلالة، واستعمال (بعد) في مثل هذا شائع في القرآن قال تعالى: ﴿فَمَن يَهۡدِيهِ مِنۢ بَعۡدِ ٱللَّهِۚ﴾ [الجاثية: 23]، وأصل هذا الاستعمال أنّه كالاستعارة التّمثيليّة المكنيّة: بِأَنْ مُثِّلَتِ الْحَالَةُ الْحَاصِلَةُ مِنْ تَقْدِيرِ الانْكِسَارِ بِحَالَةِ مَنْ أَسْلَمَ الَّذِي اسْتَنْصَرَ بِهِ وَخَذَلَهُ فَتَرَكَهُ وَانْصَرَفَ عَنْهُ لِأَنَّ الْمُقَاتِلَ مَعَكَ إِذَا وَلَّى عَنْك فقد خذلك فَحَذَفَ مَا يَدُلُّ على الْحَالة الْمُشبه بِهَا وَرَمَزَ إِلَيْهِ بِلَازِمِهِ وَهُوَ لَفْظُ مِنْ بَعْدِهِ[4].

علّة تقديم شبه الجملة:

الإيـــذان بالاختصاص إفادةً لحصرِ التّوكّل عليه تعالى

قدّم شبه الجملة ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ﴾ إيذاناً بالاختصاص، وإفادة لحصر فعل التّوكّل وقصره عليه سبحانه، أي: "ليخصّ المؤمنون

(1) القاسميّ، محاسن التّأويل: 2/449.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 3/1481.
(3) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 2/320.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/154.

ربّهم بالتّوكّل والتّفويض إليه؛ لعلمهم أنّه لا ناصر سواه، ولأنّ إيمانهم يوجب ذلك، ويقتضيه"[1]، وليتوكّلوا عليه لا على غيره. لمّا ثبت أنّ الأمر كلّه بيد اللّه، وأنّه لا ناصرَ لهم سواهُ، ولا رادَّ لقضائه، ولا دافع لحكمه، وجب أن لا يتوكّل المؤمن إلّا عليه[2].

فائدة التّذييل في الآية:

المؤمنون مأمورون بالتّوكّل المستند إلى أسباب النّصرِ

جملة ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ تذييل قُصد به الأمر بالتّوكّل المستند إلى ارتكاب أسباب نصر اللّه تعالى: من أسباب عاديّة، وهي الاستعداد، وأسباب نفسانيّة، وهي تزكية النّفس واتّباع رضى اللّه تعالى[3].

براعة توكيد جملة التّذييل:

الفاء في قولِه تعالى: ﴿فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ لتأكيد الاستئناف، واللّام لام الأمر، ويتوكّل مضارع مجزوم باللّام، وفي تأكيد الاستئناف بعد الإنكار والنّفي حثٌّ مبالغٌ فيه على الاتّكال بعد الأخذ بأسباب الحيطة والحذر[4].

مناسبة تعلّق لفظِ التّوكّل بالمؤمنين:

التّنبيه على الوصف الذي يُناسب معه التّوكّل، وهو الإيمان

أمرهم تعالى بالتّوكّل، وناط الأمر بالمؤمنين، فنبّه على الوصف الّذي يناسب معه التّوكّل، وهو الإيمان؛ لأنّ المؤمن مصدّقٌ بأنّ اللّه هو الفاعل المختار بيده النّصر والخذلان. وأشركهم مع نبيّهم في مطلوبيّة التّوكّل، وهو إضافة الأمور إلى اللّه تعالى وتفويضها إليه[5]. ليخصّ المؤمنون ربّهم بالتّوكّل والتّفويض إليه.

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/433.
(2) الرّازي، مفاتيح الغيب: 9/411، وابن عادل، اللُّباب: 6/22.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/154.
(4) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 2/91.
(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/105.

فائدةُ التّعبير بلفظ المؤمنين:

تشريفُ المؤمنين بعذقهم بأصولِ التَّوكُّلِ على الله

المُراد بالمؤمنين في قولِه تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ إمّا الجنسُ، والمخاطبون داخلون فيه دخولًا أوّليًّا، وإمّا هم خاصّة بطريق الالتفات، وأيًّا ما كان ففيه تشريفٌ لهم بعنوان الإيمان اشتراكًا أو استقلالًا، وتعليلٌ لحتميّة التّوكّل عليه تعالى، فإنّ وصفَ الإيمانِ ممّا يوجبه قطعًا[1].

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/106، والآلوسّي، روح المعاني: 4/108.

﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ ۚ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۚ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦١﴾﴾ [آل عمران: 161]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا بالغ تعالى في الحثِّ على الجهاد أتبعه بذكر أحكامه، ومن جملتها المنع من الغلول، فذكر هذه الآية في هذا المعنى[1]؛ لكون الغلول من أعظم موجبات الخِذلان، والنّزاهة عنه من أعظم موجبات النّصر، ولذلك كان أنسب الأشياء تعقيب هذه الآية بآية الغلول بيانًا؛ لأنّه كان سبب هزيمتهم في غزوة أُحدٍ، فإنّه لا يُخْذَلُ إلّا بالذّنوب، ومن أعظم الذّنوب الموجبة للخذلان الغلول[2]. فالغلول: تعجُّلٌ بأخذ شيء من غال الغنيمة، ولا تجد غير هذا يصلح لأن يكون مناسبًا لتعقيب آية النَّصر بآية الغلول[3].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿لِنَبِيٍّ﴾: النُّون والباء والحرف المعتلُّ أَصلٌ صحيحٌ يدُلُّ على ارتفاعٍ في الشَّيءِ عن غيره، ومنه قيل: إنَّ النَّبيّ ﷺ اسمُهُ مِنَ النَّبوّة، وهو الارتفاعُ، كأَنَّه مُفضَّلٌ على سائر النَّاس برَفعِ مَنزِلَتِهِ. والنَّبيُّ: الطَّريقُ، والأَنبياء: طُرق الهُدى[4]. ومَن هَمَزَ النَّبيَّ فلأنّه أَنبأَ عنِ اللّهِ تعالى، فالنُّون والباءُ والهمزَةُ قِياسُهُ الإتيانُ مِن مكانٍ إلى مكانٍ، ومنه النَّبأُ: الخبرُ؛ لأنّه يأْتي مِن مكانٍ إلى مكانٍ[5]. فلفظة النّبيّ أُخِذَت من العُلُوّ؛ لشَرَفه، فالنّبيُّ أرفعُ خلقِ اللّه. وقد جاءَ من استعمالات العرب للفظ النّبيّ: العَلَمُ من أعلام الأرض المرتفعة الّتي يُهتَدَى بها. ومراعاة هذا القيد تجمع إلى النّبيّ الشَّرف مع الهداية. ويجوز أن يكون بمعنى مُنبِئ من اللّه أو مُنبِئ عنِ اللّه، أي: مُخبِر عنه[6].

(1) الرّازي، مفاتيح الغيب: 9/411.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 5/109 - 110.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/154.
(4) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (نبا)، وابن فارس، مقاييس اللغة: (نبو).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نبأ).
(6) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (نبو).

2) ﴿يَغُلَّ﴾: غَلَّ يَغُلُّ: إذا خان. وأَصْلُه مِن الغَلِّ: وهو التّخَلُّلُ بين الشّيْءِ، يُقال: تَغَلْغَلَ الماءُ في الشّجَرِ: إذا تَخَلَّلَها، ومنه سُمِّيَ المَسْروقُ مِن الغَنِيمَةِ غُلولاً؛ كأَنّ صاحِبَهُ قد غَلَّهُ بين ثِيابِهِ، وقِيلَ: سُمِّيَ غُلُولاً؛ لأنّ الأَيْدي فِيهِ مَغْلُولَةٌ، أيْ: مُقَيّدَةٌ بِالأَغْلالِ[1]. والغُلول: تناول مال الغير بضرب من المكيدة، وكثر استعماله في الغنيمة[2]. فهو أخذ شيء من الغنيمة بدون إذن أمير الجيش، والتّعجل بأخذ شيء من مال الغنيمة. قال أبو عبيد: "الغُلولُ في المغنم خاصَّةً، ولا نراه من الخيانة ولا من الحقد. وممَّا يبيِّن ذلك أنَّه يقال من الخيانة أغَلَّ يُغِلُّ، ومن الحقد غَلَّ يَغِلُّ بالكسر، ومن الغُلولِ غَلَّ يَغُلُّ بالضم"[3]. ويُطلق الغلول على الخيانة في المال مطلقًا[4]. ومعنى ﴿أَن يَغُلَّ﴾ ما كان بِنَبِيّ أَن يَخُونَ أمَّتَه. والإغلالُ: الخيانَة في المغانِم، وغيرِها[5].

3) ﴿يَأْتِ﴾: من (أتي - أتو - أتى) الهمزة والتّاء والحرف المعتلّ ياءً، أو واوًا، أو ألفًا، يدلُّ على مجيء الشَّيء وإصحابهُ وطاعته[6]. فالإتيان: المجيءُ[7]، وهو الدّنوُّ والقُربُ، يُقَال للرّجل إذا دنا من عدوّه: أُتِيتَ أيّها الرّجُل. و﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ﴾ [النّحل: 1]، أَي: قَرُبَ ودنا[8]، وكُلُّ مَسِيلٍ سَهَّلتَه لماءٍ: أَتِيٌّ، وطَريق مِيتاء، أَي: مسلوكٌ واضح[9]. ومنه قيل: للإتيان: مجيء بسهولة، فالإتيان: يُقال للمجيء بالذّات وبالأمر وبالتّدبير، ويُقالُ في الخير وفي الشَّرّ وفي الأعيان والأعراض[10].

4) ﴿تُوَفَّىٰ﴾: الواو والفاء والحرف المعتلُّ كلمةٌ تدلُّ على إكمالٍ وإتمام. ومنه توفَّيتُ الشَّيءَ واستَوفَيته؛ إذا أخذتَه كُلّه حتَّى لم تترك منه شيئاً. ومنه يُقال للميِّت: تَوفَّاه اللّه[11].

(1) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، والرّازي، مختار الصحاح، والفيروزابادي، القاموس المحيط: (غل - غلل).
(2) الرّاغب، المفردات: (غل)، وتفسير الرّاغب: 3/957.
(3) الجوهري، الصحاح: (غلل).
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/154 - 155.
(5) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (غل).
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أتو).
(7) الجوهريّ، الصّحاح: (أتا).
(8) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (أتى).
(9) ابن دريد، جمهرة اللّغة: (باب: فعليل)، وابن سيده، المحكم: (أتى).
(10) الرّاغب، المفردات: (أتى).
(11) ابن فارس، مقاييس اللغة: (وفي).

وتوفية الشّيء: بذله وافيًا، والوافي: الّذي بلغ التّمام. وأوفى: إذا تمّم العهد، ولم ينقض حفظه[1]، ومعنى اللّفظة في الآية الكريمة: تُعطى غير منقوصٍ.

5) ﴿نَفْسٍ﴾: النَّفس: الرّوحُ، ونفس الشَّيء: عينه يؤكّد به[2]. فمعنى النَّفس: جُملَة الشَّيء وحقيقَته. تقول: قَتَلَ فلانٌ نفسَه وأهلَكَ نفسَه، أي: أَوقعَ الإِهلاكَ بذاتِه كلّها وحَقِيقَته؛ فنَفسُ الشَّيء ذاتُه، والجمعُ من كلّ ذلك أنفُسٌ ونُفوسٌ[3]. وخلاصة استعمال القرآن الكريم لكلمة نفس أنّها تُستعمل: بمعنى الذّات، أي: الفرد من النَّاس، وذلك في الجمهور الأعظم من المَواضِع[4]، ومنه اللّفظ الوارد في الآية الكريمة.

6) ﴿لَا يُظْلَمُونَ﴾: الظّاء واللّام والميم أصلان صحيحان، أحدهما خلاف الضّياء والنّور، والآخر وَضعُ الشَّيء في غير مَوضِعه تعدِّيًا[5]. وهو الإنقاص، ويُقال: ظَلَمَ القومَ؛ إذا سَقَاهم اللَّبن قبل إدراكِه، وإخرَاج زُبدته[6]، والظُّلم: الجَورُ ومُجاوزَةُ الحدِّ[7]، والظّلم: الميل عن القصد، والظَلَمَةُ: المانعون أهل الحقوق حقوقهم[8]، والظّلم: وضع الشّيء في غير مَوضِعه المختصّ به؛ إمّا بنقصان أو بزيادة؛ وإمّا بعدول عن وقته أو مكانه، والظّلم: يُقال في مجاوزة الحقّ، ويُقال فيما يكثُر وفيما يقلُّ منَ التّجاوز، ولهذا يُستعمل في الذّنب الكبير، والذّنب الصّغير. وقيل: الظّلم ثلاثة: ظلمٌ بين الإنسان وبين اللّه تعالى، وأعظمه: الكفر والشّرك والنّفاق، وظلمٌ بينه وبين النّاس، وظلمٌ بينه وبين نفسه، وكلُّ هذه الثّلاثة في الحقيقة ظلم للنّفس؛ لأنَّ الإنسان في أوّل ما يهمّ بالظّلم فقد ظلمَ نفسه[9].

والظّلم: ضدّ العدل، وهو حجب ما ينبغي أو ما يُستَحق، أي: منعه أو انتقاصه[10]. ومعنى لا يظلمون في الآية: نفي كلِّ معاني الظّلم المذكورة.

(1) الرّاغب، المفردات: (وفي).
(2) الجوهريّ، الصّحاح، والرّاغب، المفردات: (نفس).
(3) ابن سيده، المحكم: (نفس).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (نفس).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ظلم).
(6) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (ظلم).
(7) ابن الأثير، النّهاية: (ظلم).
(8) ابن منظور، لسان العرب: (ظلم).
(9) الرّاغب، المفردات: (ظلم).
(10) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (ظلم).

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

مقام النّبوّة ينافي رذائل الصّفات

ما صحَّ ولا استقام على من اختارهم اللّه لنبوَّته أن يخون في المغنم، بأن يأخذ شيئًا من الغنيمة غيرَ ما اختصَّه اللّه به؛ لأنّ الخيانة تتنافى مع مقام النّبوّة الّذي هو أشرف المقامات، ومن يرتكب شيئًا من ذلك يأت بما غَلَّه يوم القيامة حاملًا إيّاه؛ ليكون فضيحة له يوم الحشر؛ ليُؤخذ بإثم غُلوله وخيانته، ثم تُعطى كلُّ نفس جزاء ما اكتسبته تامًّا غير منقوص، وهم لا يُظلمون بزيادة سيئاتهم، ولا بنقص حسناتهم[1].

وترشدُ الآية الكريمة إلى صيانةِ اللّه تعالى أنبياءَه عن كلِّ ما يدنِّسهم ويقدحُ فيهم، وجعلهم أفضل العالمين أخلاقًا، وأطهرهم نفوسًا، وأزكاهم وأطيبهم، ونزَّههم عن كل عيب، وجعلهم محلَّ رسالته، ومعدِنَ حكمتِه، ونهيِ المؤمنين عن الاستباق إلى المغنم[2]، وتجنُّبِ دنيِّ الفعال، بلهَ اتِّهام الآخرين بها.

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ عطف المقصد على المقصد:

النَّظرُ إلى الغنائم وعدمُ الالتفات إلى مرضاةِ الله يوقع في الغلول

عُطِف قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ﴾ على مجموع الكلام السَّابقِ من بابِ عطفِ المقصد على المقصد، وموقعه عقب جملة: ﴿إِن يَنصُرۡكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ﴾؛ لأنّها أفادت أنّ النّصر بيد اللّه والخذل بيده، وذلك يَستلزم التّحريض على طلب مرضاته ليكون لطيفًا بمن يرضونه. وإذ كانت هذه النّصائح والمواعظ موجَّهة إليهم ليعملوا بها فيما يستقبل من غزواتهم، نبّهوا إلى شيء يستخفّ به الجيش في الغزوات، وهو الغلول ليعلموا أنّ ذلك لا يرضي اللّه تعالى فيحذروه، ويكونوا ممّا هو أدعى لغضب اللّه أشدّ حذرًا، فهذه مناسبة التّحذير

(1) طنطاوي، التّفسير الوسيط: 2/321، ونخبة من العلماء، التفسير الميسر، ص: 71.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 5/113، والسعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 71.

من الغلول، ويعضد ذلك أنّ سبب هزيمتهم يوم أُحد هو تعجّلهم إلى أخذ الغنائم[1].

لُطفُ التّعريض في الآية:

نفيُ الغلولِ عنه ﷺ إثباتٌ لغيره

نُقل عن ابن الجوزيّ أنّه أشار إلى أنَّ قولَه تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ﴾ من ألطف التّعريض، إذ قد ثبتَت براءة ساحة النّبيّ ﷺ من الغُلول، فدلّ على أنّ الغلول في غيره[2]، فإنَّ النَّفي المطلق عن النَّبيِّ ﷺ يدلُّ على وجودِ المنفيِّ في غيره.

بلاغةُ النّفي بالتَّعبيرِ ﴿وَمَا كَانَ﴾:

المبالغةُ في نفي أن يـقـعَ منه غلولٌ في أيِّ حالٍ من الأحوال

أفادت صيغة النَّفي في قولِه تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ﴾ المبالغة، وأصل هذا التَّركيب في الكلام أنَّه في نفي الأفعال، فلمّا أُريدت المبالغة في النّفي عدل عن نفي الفعل إلى نفي المصدر الدّالّ على الجنس، وجعل نفي الجنس عنِ الشّخص بوساطة نفي الاستحقاق، فصار التّركيب: ما كان له أن يفعل، ويُقال أيضًا: ليس له أن يفعل[3].

وهذا التّعبير أبلغ من قولهم: ما صحّ ولا استقام لنبيّ أن يغلّ، أي: يخون في المغنم؛ لكونه نفيًا للشّأن الّذي هو أبلغ من نفي الفعل؛ لأنّه عبارة عن دعوى بدليل، كأنّه يقول هنا: إنّ النّبيّ لا يمكن أن يقع منه ذلك؛ لأنّ اللّه قد عصم أنبياءه من الغلّ والغلول فهو لا يقع منهم[4]. فذلك ليس من شأنه أصلًا، ولا من طبعه، ولا من خلقه، فالنّفي هنا نفي لإمكان وقوع الفعل، وليس نفيًا لحلِّه أو جوازه، فطبيعة النّبيّ الأمينة العادلة العفيفة لا يتأتّى أن يقع منها الغلول مُطلقًا.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/154.
(2) القمّاش، جامع لطائف التّفسير: 18/20.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/293 - 294.
(4) رضا، تفسير القرآن الحكيم: 4/177.

سرُّ اختيار لفظ النّبيّ دون الرّسول:

نفيُ الغلولِ عن الأنبياء شاملٌ للرُّسل بخلافِ العكسِ

آثر النَّظم الكريمُ استعمال كلمة النّبيِّ دون الرّسولِ، وذلك لتشملَ كلَّ نبيٍّ ورسول؛ فإنَّ كلّ رسول نبيٌّ وليس العكس كذلك، فلمَّا نفى الغلول عمَّن اتَّصف بالنُّبوة شملَ ذلك الجميع، ولو أتى بلفظ الرسول لاقتصر على الرُّسلِ دون الأنبياءِ، فهو نفيٌ للغلول عن عموم الأنبياء السّابقين له بما رسّخته صيغة تنكير لفظ النّبيّ من عموم، وبما تضمّنه اللّفظ من معنى السَّير على منهج سابقيه من الأنبياء سلوكًا، وعِظَمَ خُلقٍ.

سرّ تنكير لفظ النّبيّ:

عـمـومُ الـنـفـيِّ لجميعِ الأنبياء عليهم السلام

أفاد التّنكير في لفظِ (نبيّ) التّعميم، فلا يُتصوَّرُ الغلول من أيّ نبيٍّ، وإذا كان التَّنكيرُ للتّعميم؛ لأنّه تنكيرٌ في مقام النّفي، فمُؤدّى الكلام أنّ النّبوّة والغلول نقيضان لا يجتمعان، فما كان لأحد أن يظنَّ أنَّ النّبيّ سوف يظلم فَيَقْسِم بخلافِ السّويّة، وإذا وقع ذلك الظّنّ فهو منَ الظّنّ الإثم[1].

فائدة اللّام في لفظ ﴿لِنَبِيٍّ﴾:

المبالغة في نفي الغلول عنه في أصلِ الأمرِ

اللّام الدَّاخلةُ على لفظِ ﴿لِنَبِيٍّ﴾ هي أصل لام الجحود الّتي في نحو ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمۡ﴾ [الأنفال: 33]، فتراكيب لام الجحود كلّها من قبيل قَلْبِ مثل هذا التّركيب لقصد المبالغة في النّفي، بحيث ينفي أن يكون وجود المسند إليه مجعولًا لأجل فعل كذا، أي: فهو بريء منه بأصل الخلقة، ولذلك سُمّيت جحودًا[2]، ومعنى اللّام هنا الاستحقاقُ، وبوساطة نفي الاستحقاق نفي شأنِ الغلولِ عن النّبيّ ﷺ.

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 3/1483.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/294.

نكتةُ استعمالِ لفظ الغلول:

الغلولُ يورِّثُ الأحقاد والضَّغائنَ بين النَّاسِ

أصلُ لفظِ الغلول الغللُ، وهو دخول الماء في خلال الشّجر، فسمّيت الخيانة غلولاً؛ لأنّها تجري في المال على خفاء كجري الماء، ومنه الغلّ الحقد؛ لأنّ العداوة تجري في النّفس مَجرَى الغلل[1]، ولمَّا كان أخذُ المال من الغنائم يورِّث الأحقادَ بين النَّاس لأنَّه ظلمٌ وخيانةٌ سُمِّي غلولًا.

قال المبرّد: "ويُستعمل مستعارًا في غير المال، يُقال: غلّ يغلّ كقول الله ﷻ: ﴿وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾، ويُقال: أغلّ فهو مغلٌّ، إذا صُودف يغلّ، أو نُسب إليه"[2].

احتمالُ الإسنادِ المجازيِّ في إسناد الغلول إلى النّبيّ:

نفيُ الغلولِ عن الجيشِ أبلغُ في مدحِ النَّبيِّ وتنزيهه

ويحتملُ حملُ قولِه تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ﴾ على معنى النَّهي والتَّحذير أن يغلَّ أحدٌ من جيش رسول الله ﷺ، فيكون معنى أنَّ النّبيّ لا يغلّ: أنّه لا يقع الغلول في جيشه؛ فإسنادُ الغلول إلى النّبيّ مجاز عقليّ لملابسة جيش النّبيّ نبيّهم، ويجوز أن يُجعل على تقدير مُضاف، والتّقدير: ما كان لجيشِ النبيِّ أن يغلّ[3]، وعلى هذا الاحتمالِ فإنَّ نفيَ الغلولِ عن رسولِ الله أبعدُ شَوْطًا، وأرسخُ مدحًا.

علّة حذف المفعول:

نفي صفة الغلول إطلاقًا

حُذِف مفعول الفعل المضارع ﴿يَغُلَّ﴾، ولم يُقدّر له مفعول؛ لأنّ الغرض نفي هذه الصّفة إطلاقًا دون تعلّق بمفعول معيّن؛ ويُبنى على نفي إمكان الغلول إثبات الأمانة مؤكّدًا[4].

توجيه القراءات القرآنيَّة في لفظِ ﴿يَغُلَّ﴾:

قرأ ابن كثير وأبو عمرو وعاصم: (يَغُلَّ) بفتح الياء وضمّ الغين،

(1) الماورديّ، النّكت والعيون: 1/434.
(2) المبّرد، الكامل في اللّغة والأدب: 1/283.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/155.
(4) الجلالان، المفصّل: (هامش المحقّق: 1)، ص: 239.

وقرأ الباقون بضمّ الياء وفتح الغين[1]، ومعنى قراءة الجمهور: نهيُ جيش النّبيّ عن أن يغلّوا؛ لأنّ الغلول في غنائم النّبيّ ﷺ غلولٌ للنّبيّ؛ إذ قسمة الغنائم إليه، وعلى قراءة ابن كثير وأبي عمرو وعاصم فالمعنى: أنّ النّبيَّ لا يغلّ؛ أي: أنّه لا يقع الغلول في جيشه بحسب ما سبق ذكره[2].

نهي الجيشِ عن الغلولِ بنفيه عن النّبيّ

وهناك توجيهٌ آخر للقراءتين وهو أن يُقال: القراءتان قد جمعتا بين معنيين تربويين متدرجين، أما المعنى الأول فهو نهي الأمة عن الظن الباطل بنبيها؛ لأن ذلك يؤدي إلى الإخفاق والهزيمة؛ أي: لا تظنُّوا أنَّه يغلُّ، وأما المعنى الثاني فهو تهديد لمن أتبع الظن الباطل قولاً باطلاً وتهمة باطلة وسلوكاً باطلاً، أي: اتَّهم النَّبيَّ في الغلولِ، على أن يكون: ﴿يَغُلَّ﴾ بمعنى يُتَّهم بالخيانةِ، وعليه تكون القراءة الأولى المبنية للفاعل ممهدةً للقراءة الثانية، وكأن الخطاب: لا تظنوا ظنَّ السوء لكي لا تقعوا في قول السوء، وعمل السوء فتهلكوا، وهذا من بديع القرآن في تربية الأمة على المسلك الحسن في اعتقادها وقولها وعملها، من خلال تعدد القراءات القرآنية للكلمة الواحدة.

القراءات القرآنيَّة تتعاضدُ في تربية الأمَّةِ

بلاغةُ الجملة الشّرطيّة في الرَّدعِ عن الإغلالِ:

قوله: ﴿وَمَن يَغْلُلْ﴾ جملةٌ شرطيّةٌ مستأنفةٌ لا محلَّ لها من الإعراب، وإنّما جِيء بها للرَّدع عنِ الإغلال[3].

سرّ تغاير صيغةِ فعل الغلول:

استعملتِ الآيةُ صيغتي ﴿يَغُلَّ﴾ و﴿يَغْلُلْ﴾، ولذلك لا ترادفَ بين هاتين الصَّيغتين في الآيةِ والعرب استعملت الصّيغتين على تباينٍ بين معنيي: (فَعَّلتُ وأفعَلتُ)؛ فأفعَلتُهُ: أدخَلتُ ذاك فيه، وفَعَّلتُ:

نفي المعنيين أدفع للاحتمال، وإمكان المقال

(1) ابن الجزريّ، النّشر: 2/276.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/155.
(3) السّمين، الدّرّ المصون: 3/468.

كَثَّرتُ ذاك فيه[1]؛ فجاء النَّظمُ بالصّيغتين إرادةً لنفي المعنيين، وهو أدفع للاحتمال، وإمكان المقال.

جمالُ الجناس الاشتقاقيّ:

في قوله: ﴿يَغُلَّ﴾، و﴿يَغْلُلْ﴾، و﴿بِمَا غَلَّ﴾ تجنيسٌ مماثِلٌ[2] أكسب التَّعبير جمالًا وحسنًا، باتّحاد الجرس، وتناسق الإيقاع، وأحدث ميلًا للنّفس نحو التّشوق والإصغاء لطبيعة الغلول، وكيفيّته، وبلاغة تنزيه الأنبياء عنه.

التّعبيرُ بالفعل (يأت) دون غيره:

الأنبياءُ منزَّهونَ عن الغلول

عبَّرتِ الآيةُ بالفعل: ﴿يَأْتِ﴾ لدلالته على قصد المجيء لا تحقّقه، وهو أنسبُ في تنزيه الأنبياء عن شنيع هذا الفعل الذي لا يليقُ بمقامِهم، وعصمتهم صلوات ربّي عليهم جميعًا، من التّعبير بفعل المجيء الدّالّ على تحقّق الحصول.

التّعبير بإتيان الغلول بين الحقيقة والمجاز:

يُحاسبُ الغالُّ على إثم الغلول يومَ القيامةِ

جُعِلَ الإتيان بالغلول يوم القيامة مجازًا عن الإتيان بإثمِهِ تعبيرًا بما غلّ عمّا لزمه من الإثم مجازًا، فالمُراد أنّ اللّه تعالى يحفظ عليه هذا الغلول، ويعزِّرُه عليه يوم القيامة ويجازيه؛ لأنّه لا تخفى عليه خافية، أو المُراد أنّه يشتهر بذلك مثل اشتهار من يحمل ذلك الشّيء، وذهب الرّازيّ إلى أنّه مع احتمال هذا التّأويل إلّا أنّ الأصل المُعتَبر في علم القرآن أنّه يجب إجراءُ اللّفظِ على الحقيقة، إلّا إذا قام دليلٌ يمنعُه منه، وهاهنا لا مانعَ من الظّاهر، فوجب إثباته[3].

تردُّدُ معنى ﴿بِمَا﴾ بين الموصوليَّةِ والمصدريَّةِ في قولِه: ﴿يَأْتِ بِمَا غَلَّ﴾:

(ما) في قولِه: ﴿يَأْتِ بِمَا غَلَّ﴾ إمَّا أن تكون موصولةً بمعنى الذي،

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (غلّ).
(2) السّمين، الدّرّ المصون: 3/469.
(3) القاسميّ، محاسن التّأويل: 2/451.

فالعائدُ محذوفٌ، أي: يأتِ بالذي غلَّه، ويجوزُ أَن تكون مصدريّةً، وتكونُ على حَذفِ مضاف، أي: يأتِ بإثمِ غلولِه[1]، والتّعبيرُ عنه بصيغةِ الإبهامِ الدّالِّ على العمومِ إطلاقٌ لجنسِه ونوعِه.

وجه الوصل في جملة ﴿ثُمَّ تُوَفَّىٰ﴾:

بيان أنّ ذلك الجزاء ليس مختصًّا بمَن غلَّ، بل كلّ نفس توفّى جزاء ما كسبت

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ﴾ جملة معطوفة على الجملة الشّرطية السَّابقة ﴿وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ فلمّا ذكر الغلول، وما يجري لصاحبها يوم القيامة، انتقل لبيانِ الجزاءِ العامِّ، فكلُّ نفسٍ تُوفَّى جزاء ما كسبت من غيرِ ظُلمٍ، فصار الغالُّ مذكورًا مرّتين: مرّة بخصوصه، ومرّة باندراجه في هذا العامّ ليعلم أنّه غير مُتخلّص من تبعة ما غلّ، ومن تبعة ما كسبت من غير الغلول[2].

التّنبيه على العقوبة بعد التّفضيح

وفي قوله: ﴿ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ﴾ تنبيهٌ على العقوبة بعد التّفضيح، إذ قد علم أنّ الكلام السّابق مسوق مساق النّهي، ومن جملة النّفوس الّتي توفّى ما كسبت نفس من يغلل، فقد دخل في العموم[3].

دلالة العطف بـ ﴿ثُمَّ﴾:

الدّلالة على طول مهلة التّفضيح

جيء بـ (ثمّ) للدّلالة على التّراخي بين إحضار الأعمال بأوزارِها ثمّ بعد تولّي جزائها، فإنّ هذا التّراخي يفيد طول الحساب، وطول الحساب عذاب في ذات نفسه، وهو في الوقت ذاته يدلّ على دقّته؛ إذ تُقام الموازين بالقسط[4]، وللإشعار بالتّفاوت الشّديد بين حمله ما غلّ وجزائه وسوء عاقبته يوم القيامة[5].

(1) السّمين، الدّرّ المصون: 3/468.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/107.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/156.
(4) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 3/1485.
(5) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 2/322.

فائدة العدول عنِ التّعبير بالفعل (يوفّى) إلى (توفّى):

تعميمُ جزاءِ كلِّ نفسٍ ليكون برهانًا على خصوصِ جزاءِ الغالّ

ما يقتضيه الظَّاهر أن يكون النَّظم: (ثمّ يوفّى ما كسبت) أي: الغالّ؛ ليتّصل بما قبله، لكنّه عمّم الحكمَ معبّرًا بالفعل ﴿تُوَفَّىٰ﴾؛ لأنّ صاحبَ الغلولِ إذا علم أنّ هاهنا مُجازِيًا يُجازي كلّ أحد على عمله سواء كان خيرًا أم شرًا، علم أنّه غير متخلّص من بينهم مع عظم ما اكتسب[1]. فيكون كالبرهان على المقصود والمبالغة فيه، فإنّه إذا كان كلّ كاسب مجزيًا بعمله فالغالُّ مع عظم جُرمه بذلك أولى[2]. فمن فوائد ذكر هذا الجزاء بصيغة العموم؛ الإعلام والإخبار للغالّ وغيره من جميع الكاسبين[3].

سبب وضع المكسوبِ مَوضِعَ جزائِه:

تحقيقُ العدل ببيان ما بين المكسوبِ والجزاءِ من التّناسبِ

ذهب العماديّ إلى أنّ وضعَ المكسوبِ في قوله تعالى: ﴿مَّا كَسَبَتْ﴾ مَوضِعَ جزائِه فلم يقل: (ثم توفّى كلُّ نفسٍ جزاءها)، تحقيقٌ للعدل التَّامِّ، ببيان ما بين المكسوبِ والجزاءِ من تمام التّناسُب كمّاً وكيفاً، كأنّهما شيءٌ واحد[4].

إسناد التَّوفيةِ إلى كلّ كاسبٍ وتعليقها بكلّ مكسوبٍ:

توفيةُ كلِّ كاسبٍ على أقلِّ الأعمالِ دالٌّ على فظاعة توفيةِ الغالّ

إسنادُ التَّوفية إلى كلِّ كاسبٍ مع أنَّ السِّياقَ في بيانِ حالِ الغالِّ عند إتيانِه بما غلّه يوم القيامة، من الدّلالة على فخامة شأن اليوم وهول مطلَعه والمبالغة في بيان فظاعة حال الغالّ مالا يخفى، فإنّه حيث وُفيّ كلُّ كاسبٍ جزاءَ ما كسبه، ولم يُنقَص منه شيءٌ، وإن كان جُرمُه في غاية القِلّة والحقارة فلأَنْ لا يُنقَصَ من جزاء الغالِّ شيءٌ - وجُرمُه من أعظم الجرائم - أظهر وأجلى[5].

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/435، والرّازي، مفاتيح الغيب: 9/414.
(2) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 2/46.
(3) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 2/322.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/107.
(5) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/107.

نكتة التّعبير بضمير الفصل، والجملة الاسميّة:

تأكيد المساواة بين الجزاء والعمل، ونفي الظّلم نفيًا مُؤكّدًا

في قوله تعالى: ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ تأكيد للمساواة، وفيه أيضًا نفيٌ للظّلم نفيًا مُؤكّدًا بالتّعبير بالجملة الاسميّة، إذِ المعنى أنّهم ليس من شأنهم أن يظلموا؛ لأنّ اللّه تعالى خالقهم، واللّه تعالى لا يظلم مُطلَقًا؛ لأنّه لا يليق بكماله تعالى، ولأنّه كتب العدل على نفسه، وإنّ التّسوية بين الجزاء والعمل هي القانون العادل الذي سنّه ربُّ العالمين، فلا تستوي الحسنة ولا السّيئة، ولا يستوي الخير والشّرّ[1]، وتقديم المسند إليه (هم) على المسند الفعليّ (يظلمون) يفيد تقوية الحكم وتوكيده.

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الإتيان والمجيء:

مبنى الإتيان باعتبار القصد

المجيء أعمُّ من الإتيان، ويُقال اعتبارًا بالحصول، أمَّا الإتيان فيُقال باعتبار القصد[2]. ويُلاحظ في المجيء نقل الشّيء من جانب البدء، والإتيان يلاحظ فيه إيصاله إلى المنتهى فإنّ ابتداء المجيء هو جناب المُرسَل، ومُنتهى الإتيان هو المُرسَل إليه[3]؛ ولذلك ورد التعبير في الآية الكريمة بالإتيان؛ باعتبار القصد فهو إتيانٌ للمغلول - وكلُّ من خان في شَيْءٍ خُفْيةً فقدْ غَلَّ - حاصلٌ يوم القيامة؛ إذ كلُّ من أخذ مِنَ الْغَنِيمَةِ خفيةً قبل قِسْمتها، يأتِ بما أخذه حاملًا له يوم القيامة؛ ليُفضَح به في ذلك الموقفِ المشهود على رؤوس الخلائق.

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 3/1486.
(2) الرّاغب، المفردات: (جاء).
(3) البروسوي، روح البيان: 3/211.

﴿أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَ ٱللَّهِ كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأۡوَىٰهُ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ١٦٢﴾ [آل عمران: 162]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

أورد عَقيب وعيده على الغُلول، ونهيه عباده عنه، بالقول: إنَّ المطيع للّه فيما أمره ونهاه، والعاصي له في ذلك لا يستويان، ولا تستوي حالتاهما عنده؛ لأنّ لمن أطاع اللّه فيما أمره ونهاه الجنّةُ، ولمن عصاه فيما أمره ونهاه النّار[1]، فرتّب على ذكر الجزاء العامّ في آخر الآية قوله: ﴿أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَ ٱللَّهِ﴾[2].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱتَّبَعَ﴾: "التّاء والباء والعين أَصلٌ واحدٌ لا يَشذُّ عنه مِنَ الباب شَيءٌ، وهو التُّلُوُّ والقَفوُ، يُقالُ: تَبِعتُ فُلانًا إذا تَلَوتَهُ واتَّبَعتَهُ. وأَتبَعتُهُ إذا لَحِقتَهُ. والأَصلُ واحدٌ"[3]. فالتّابع: التّالي، وتتبّعتُ علمه، أي: اتّبعت آثاره[4]. وقفيت أثره، وذلك تارة بالجسم، وتارة بالارتسام والائتمار[5]. واتَّبَعَ القُرآن: ائتمّ به وعمل بما فيه[6]. والتِّباعُ: الولاءُ. وتابعَ الرّجلُ عمَله، أي: أَتقَنَه وأحكمه. وتَتَبَّعتُ الشّيء تتبّعًا، أي: تطلبّته متتبّعًا له[7]. وهو لحُوق الشّيء بمتقدّم أو سابق والسّير في أَثَره بلا فصل مع رقّة ولينٍ، واتّبعه وأتْبعه وتتبعه: قَفَاه كأنّما لَحِق أوِ التصق به، وتَطَلَّبه مُتّبعًا له. ومنه قَفو الائتمار والامتثال[8]. وهو معنى اللّفظ في الآية.

2) ﴿رِضۡوَٰنَ﴾: "الرَّاء والضَّاد والحرفُ المُعتلُّ أَصلٌ واحدٌ يدُلُّ على خلاف السُّخط"[9].

(1) ابن جرير، جامع البيان: 7/366.
(2) رضا، تفسير المنار: 4/179.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (تبع).
(4) الخليل، العين: (تبع).
(5) الرّاغب، المفردات: (تبع).
(6) ابن سيده، المحكم: (تبع).
(7) الجوهريّ، الصّحاح: (تبع).
(8) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (تبع).
(9) ابن فارس، مقاييس اللغة: (رضي).

ورضا العبد عن اللّه أن لا يكره ما يجري به قضاؤُه، ورضا اللّه عن العبد هو أن يراه مُؤتمِرًا لأمره، ومُنتهيًا عن نهيه، والرّضوان: الرّضا الكثير، ولمّا كان أعظم الرّضا رضا اللّه تعالى خصّ لفظ الرّضوان في القرآن بما كان من اللّه تعالى[1].

3) ﴿بَآءَ﴾: الباء والواو والهمزة أَصلان: أَحَدُهما الرُّجوعُ إِلى الشَّيءِ. ومنه قَولُهم: بَاءَ فُلانٌ بذَنبه، كأَنَّه عاد إِلى مَباءَته مُحتملًا لِذَنبه[2]، كرهاً لا يَستطيعُ دَفعَه عن نفسِهِ فقد باء به كما باءتِ اليهودُ بالغضب من اللّه[3].

وباؤوا بغضب من اللّه: رجعوا به، أي: صار عليهم. وباء بإثمه يبوء بَوءاً. وباء بحقه، أي: أقرَّ بما عليه، والتزم، ورجع به[4]. وحلَّ مبوأً ومعه غضب اللّه، أي: عقوبته، واستعمال (باء) تنبيهًا على أنَّ مكانه الموافق يلزمه فيه غضب اللّه، فكيف غيره من الأمكنة[5]؟ وقد جاء في القرآن الكريم من استعمالات هذا الجذر صيغتان، منهما: (باءَ بـ)، نحو: ﴿كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٖ مِّنَ ٱللَّهِ﴾، يريد بكفر أو غُلول أو تولٍّ عنِ النّبيّ ﷺ في الحرب، أي: رجعوا بالسّخط بسبب كفر[6].

4) ﴿بِسَخَطٖ﴾: السُّخْط والسِّخَطُ: نقيض الرّضا[7]. وتسخّط الرّجل تسخّطًا إذا تغضّب وَتكرّه الشَّيء[8]. وهو الغضب الشّديد المقتضي للعقوبة، وهو من اللّه تعالى: إنزال العقوبة[9].

5) ﴿وَمَأۡوَىٰهُ﴾: الهمزة والواو والياء أَصلان: أَحدُهما التَّجمُّعُ، والمأْوى: مكانُ كُلِّ شَيءٍ يُأْوَى إِليه ليلًا أَو نهارًا[10]. والتّأوّي: التّجمّع، وتأوّتِ الطَّير، إذا انضمَّ بعضُها إلى بعض[11].

(1) الرّاغب، المفردات: (رضي).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بوأ).
(3) الخليل، العين: (بوأ).
(4) الجوهريّ، الصّحاح: (بوأ)، وابن الأثير، النّهاية: (بوأ).
(5) الرّاغب، المفردات: (باء).
(6) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (بوأ).
(7) الخليل، العين: (سخط).
(8) ابن دريد، جمهرة اللّغة: (سخط).
(9) الرّاغب، المفردات: (سخط).
(10) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أوي)، والجوهريّ، الصّحاح: (أوى).
(11) الخليل، العين: (أوى).

وتقول: أوى إلى كذا: انضمَّ إليه، و﴿وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ﴾ اسم للمكان الّذي يأوي إليه[1]. والمأوى: المَنزِل[2]. ومعنى المأوى في الآية الكريمة أنّ جهنّم منزلهم الّذي يأوون إليه مُتجمعين.

6) ﴿جَهَنَّمُ﴾: جَهَنَّمُ: من أسماء النّار الموقدة الّتي يُعذِّب بها اللّه ﷻ عباده. وهو ملحق بالخماسي بتشديد الحرف الثّالث منه، ويُمنع من الصّرف للعلميّة والتّأنيث. ويُقال: هو فارسيّ مُعرَب[3]. وهو: بُعدُ قَعر الشَّيء، وعُمق تجوّفه مع اضطمامه على هذا التّجوّف، ومن هذا جَهَنَّم الّتي يُعذَّب فيها الكافرون، نعوذ باللّه منها وممّا يؤدّي إليها. وقد تكرَّر في الأحاديث وصفُها بالعمق السَّحيق[4].

7) ﴿ٱلْمَصِيرُ﴾: الصَّاد والياء والرَّاء أَصلٌ صحيحٌ، وهو المآلُ والمَرجِعُ. وصِيرُ الأَمرِ مَصيرُهُ وعاقِبَتُه[5]. وصَيُّورُ الأمر آخِرُهُ، ومُنتَهاه، وما يؤول إليه[6]. وصار إلى كذا: انتهى إليه[7]. والمصير، أي: المَرجِع[8]. وهو الالتواء أوِ التّحول إلى غاية أو مجمع، ومن معنى التّحول: صار الشّيءُ كذا، أي: انتقل من حال إلى أخرى، وصار إليه: رجع، وكلّ ما في القرآن من هذا التّركيب بمعنى مآل ومنتهى[9].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

جـــزاءُ اتّـبـاع رضـــوان الـلـه، وجـزاءُ الإعـراض عنه

تبيِّنُ الآية أنَّ من يتّبع ما يرضي اللّه تعالى من أوامر، ويتجنَّب ما ينهى عنه، فيجدُّ ويجتهد في الخيرات والأعمال الصّالحات، ويتّقي الغُلول وغيره من الفواحش والمنكرات، حتّى تزكو نفسه وترتقي روحه، فهو في الجزاء الحسن، وسيكون عند ربّه في جنّات عدن، ليس كمن انتهى إلى مباءته في الآخرة مصاحبًا ومقترنًا بغضب

(1) الرّاغب، المفردات: (أوى).
(2) ابن الأثير، النّهاية: (أوى).
(3) الجوهريّ، الصّحاح، والرّاغب، المفردات: (جَهَنَّم)، وقد ردّ السّمين الحلبيّ، ومحمد حسن جبل كونها غير عربية، وأثبتا أنّها عربية، وأنّ منعها للعلميّة والتّأنيث، يُنظر: السّمين، عمدة الحفّاظ، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (جَهَنَّم).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (جهنَّم).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (صير).
(6) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، والجوهريّ، الصّحاح: (صير).
(7) الرّاغب، المفردات: (صير).
(8) ابن الأثير، النّهاية: (صير).
(9) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (صير).

عظيم من اللّه ﷻ؛ لتدنيس نفسه بما خفي من الخطايا كالسّرقة والغُلول، وما ظهر منها كالسَّلب والنَّهب، وإهمال تطهيرها بالعبادات، وعمل الخيرات، فمأواه ومنتهاه جهنّم، وبئس المصير، فهذان لا يستويان في حُكْم اللّه[1].

وترشدُ الآية الكريمة إلى قانون سامٍ وضعه سبحانه وتعالى هو التّساوي بين العمل وجزائه[2].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغة الفصل بالاستفهام الإنكاريّ:

الهمزة في قوله تعالى: ﴿أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ للإنكار، أي: إنكار التَّسويةِ بَيْنَ من يتَّبع رضوانَ اللّه، ومن باء بسخطِ اللّه تعالى، والمُرادُ بهذه الآيةِ تأكيدُ نفي الغلولِ عنِ النّبيّ ﷺ وتقريرُه بتحقيق المباينةِ الكليّةِ بينه وبين الغالِّ، حيث وصف كلّ منهما ما وُصف به الآخَرُ، فقوبل رضوانُه تعالى بسَخَطه، والاتِّباعُ بالبَوء[3].

معنى الفاءِ بين العطفِ على مقدَّرٍ والتَّفريعِ على مذكورٍ:

إمَّا أن تُحمل الفاءُ على العطف على محذوفٍ تقديرُه: أمن اتّقى فاتّبع رضوان اللّه[4]، أو نجعلها تفريعيَّة على قوله: ﴿ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾؛ فهي كالبيان لتوفية كلّ نفس بما كسبت[5]، وتأكيد لبيان أنّه لا يستوي المحسن والمسيء والأمين والخائن[6].

والجمع بين الهمزة والكاف لتوجيه الإنكار إلى ترتّب توهُّم المماثلة بينهما والحُكمِ بها على ما ذُكر من حال الغالِّ، كأنّه قيل:

اجتماعُ الهمزةِ والكافِ أنتجَ معنى إنكارِ المساواة بين الأبرار والفجّارِ

(1) رضا، تفسير المنار: 4/179.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 3/1486.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/107.
(4) الرّازي، مفاتيح الغيب: 9/415.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/157.
(6) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 2/323.

أبعدَ ظهورِ حالِهِ يكونُ مَنْ ترقّى إلى أعلى عِلِّيين كمَن تردَّى إلى أسفل سافلين[1]؟!، فالاستفهام إنكار للمماثلة المستفادة من كاف التّشبيه، فهو بمعنى: لا يستوون[2]، أي: ليس من اتّبع رضا الله فامتثل أوامره، واجتنب مناهيه، كمن عصاه فباء بسخطه[3].

وجه الاستعارة في الاستفهام:

شرعة الله للمهتدي دليلٌ واجب الاتّباع، وللعاصي خسران بمخالفته

الاتِّباعُ في قولِه تعالى: ﴿أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَ ٱللَّهِ﴾ استعارة بديعة، فجعل ما شرعه الله كالدّليل الّذي يتّبعه من يهتدي به، وجعل في المقابلِ الفاسق ﴿كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٖ مِّنَ ٱللَّهِ﴾، فهو كالشّخص الّذي أُمر بأن يتّبع الطَّريقَ الموصل، فتركها ورجع مصحوبًا بما يخالف الاتّباع[4] فهو في خذلان، وخسران، وسخط، وفي الآيةِ تمثيل حال صاحب المعاصي بالسّاعي إلى طلب النّفع الرّاجع بالمضرّة، بوساطةِ الفعل ﴿بَآءَ﴾، أو رجع بالخيبة، كما تقدّم في معنى قوله تعالى: ﴿فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمۡ﴾ [البقرة: 16].

مقصدُ التّشبيه معذوقٌ بالسِّياق:

من طلبَ رضوانَ الله بالغَ في اهتمامِه

الاتِّباعُ في قولِه تعالى: ﴿أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَ ٱللَّهِ﴾ بمعنى التّطلب: شبَّه حالَ المُتوخِّي بأفعالِه رضا الله بحال المُتطلّب لطلبه، فهو يتبعها حيث حلّ؛ ليقتنصها، وفي هذا التّشبيه حسن التّنبيه على أنّ التّحصيل على رضوان الله تعالى مُحتاج إلى فرط اهتمام[5].

التّعبيرُ بالرُّضوان دون الرِّضا:

كلّ رضا في القرآن مُخصَّصٌ بما كان من الله تعالى

التّعبير بـ(الرُّضوان) دون الرّضا هو غاية الرّضا[6]، ولمّا كان أعظم الرّضا رضا الله تعالى خُصَّ لفظ الرّضوان في القرآن بما كان من الله تعالى[7].

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/107.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/157.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/107.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/107.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/157.
(6) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 3/962.
(7) الرّاغب، المفردات: (رضي).

نكتةُ إضافة الرّضوان إلى الله، وجعل السّخط منه:

قيل لابن عرفة: أضيف الرّضوان إلى اللّه تشريفًا، وفعل السّخط منه تأدّبًا وتعظيمًا للّه تعالى في إضافته إليه، وإبعاد الشّرّ عنه، كما قال اللّه تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ۝٧٨﴾ [الشّعراء: 78]، ثمّ قال: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ۝٨٠﴾ [الشّعراء: 80]، ولم يقُل: وإذا أمرضني مع أنّ الكلّ من فِعله وخِلقه[1].

التّأدّب والتّعظيم لله تعالى في إضافته إليه، وإبعاد الشّرّ عنه

غرضُ تنكيرِ السّخطِ:

غرضُ تنكيرِ السّخط للتّعظيم، أي: ليس من اتّبع أدنى شيء من رضا اللّه تعالى، ﴿كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٍ﴾ عظيم من اللّه، فأحرى من اتّبع أعلى الرّضا، فالآية إنّما خرجت مَخرَج التّنفير والوعظ، فالمناسب التّقليل في جانب الرّضا، بمعنى أنّ قليله لا يُقارب عظيم السّخط ولا يُدانيه، فهو نفي تشبيه، أو أنّ أدنى السّخط، وإن قلّ فهو من العظيمِ عظيمٌ، فيستوي في حقّه أقلّ السَّخط، وأعلاه بخلاف الرّضا[2].

التّعظيم لخروج الآية مَخرَج التّنفير والوعظ

نكتة العدول من الإضمار إلى الإظهار:

وإظهار الاسم الجليل في مَوضِع الإضمار؛ لإدخال الرَّوع في القلوب، وتربية المهابة في النّفوس[3].

تعقيب ذكر السّخط بذكر العقاب:

وعقّبَ سبحانه ذكرَ سخطِه بذكرِ عقابِه؛ لأنّ السّخطَ والعقابَ مُتلازِمَان، ولذا قال سبحانه: ﴿وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾، أي: أنّ عودتهم بغضب اللّه الشّديد يتبعه حتمًا ذلك المصير يوم القيامة، وهو أن يكون المستقرّ الذي يستقرُّون فيه وينتهون إليه، هو جهنّم، وهي الهاوية الّتي يهوون إليها في النّار، جزاء هاوية الخيانة

من كانت نهايتُه في الدُّنيا خاوية، فبدايتُه في الآخرةِ هاوية

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/439.
(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/439 - 440.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/107.

الّتي أصابتهم في الدّنيا، وبئس ذلك المصير الذي صاروا إليه، وكان لهم نهاية، وإن لم يريدوه لهم غاية[1].

بلاغةُ إتباعِ التَّرهيبِ بالتَّرهيبِ:

(السّخط) هو إظهارُ التّقبيح، لكنّ إظهار التّقبيح قد لا يؤثّر في أناس غليظي الإحساس لا تنفع فيهم اللّعنة أوِ الشّتائم؛ لذلك جاء سبحانه بالحكم: ﴿وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾[2]؛ ليردعَ من لا يردعُه معرفةُ سخطِ اللّه تعالى.

نكتةُ حذفِ مصير أهل الطَّاعة الأخرويِّ وذكرِه في حقِّ أهل المعصيَّةِ:

رضـــوان الـلـه تـعـالى أكـبر، وهـو مستلزم لكلّ نعيم سبقًا للجمالِ الجلالَ

عُلِم من هذه المقابلةِ حالُ أهلِ الطّاعةِ وأهلِ المَعْصِيةِ، أو أهل الإيمان وأهل الكفر[3]، ولم تذكر الآيةُ حالَ من اتّبع رضوانَ اللّه في الآخرةِ، كما ذكر أنَّ نهايةَ أهل المعصية النَّار، فصرّح بجهنّم مصيرًا لمن باء بالسّخط؛ وذلك لأنَّ المقامَ مقامُ رَدعٍ وزجرٍ[4].

بالإضافةِ إلى أنَّ رضوانَ اللّه تعالى أكبرُ، وهو مُستلزِمٌ لكلِّ نعيم، وكون السّخط مُستلزمًا لكلِّ عقابٍ، فيقتضي أن تُذكرَ معه جهنّمُ في حيِّز المنعِ لسبق الجمالِ الجلالَ[5].

بلاغة الطِّباق بين الرّضوان والسَّخط:

زيـــادة إيـضـاح المـعـنـى بـأوجـزِ عبارة

الطّباق في قوله: ﴿رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ﴾، و﴿بِسَخَطٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾[6]، هو من أوجز الحديث، وأصدقه، وأبعده في الدّلالة على المعنى المُراد، فإنّه سبحانه يجازي المُطيع المُتّبع بالرّضوان، ويُعاقب العاصي بالسّخط، وفيه إفصاحٌ عن دلالة الرَّبط في الجملة المُؤدّي إلى مزيدِ إيضاحٍ

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 3/1487.
(2) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 3/1848.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/157.
(4) السّمين، الدّرّ المصون: 3/469.
(5) الآلوسّي، روح المعاني: 4/111.
(6) السَّمين، الدّرّ المصون: 3/469.

للمعنى، وبيانه؛ بما يسبّبه من شدٍّ، وجذب على النَّفس المتلقّية له قراءةً، وتدبّرًا.

نكتة حذف المخصوص بالذّمِّ:

الاكتفاءُ بالمذكور استغراقٌ للمحتملاتِ وهو أشدُّ في التَّهويلِ

قوله تعالى: ﴿وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ اعتراضٌ تذييليٌّ[1]، أو هو تذييلٌ، أو اعتراضٌ، أو معطوفٌ على الصِّلة بتقدير: ويُقالُ في حقِّهم ذلك، وأيًّا ما كان فالمخصوص بالذّمِّ محذوفٌ، أي: وبئس المصيرُ جهنّمُ[2]، ومع وضوحِ هذا التَّقديرِ إلّا أنّ الاكتفاءَ بالمذكور استغراقٌ لعموم مُحتملات سوء المصير، فهو أبلغُ في التَّعبير عن شدّة العقاب، وسوء المنقلب، وذلّة المآل أجارنا الله تعالى.

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

السّخط والغيظ والغضب:

السّخط غضب من الله يقتضي إيجاب العقوبة

السّخط: حصول غضب يقتضي عقوبة، وإذا استُعمل في الله فبمعنى إيجابه العقوبة[3]؛ لأنَّ السَّخط إذا عدَّيته بنفسه فهو خلاف الرِّضا، يُقال: رضيه، وسخطه، وإذا عدَّيته بعلى فهو بمعنى الغَضَب، تقول: سخط الله عليه إذا أَراد عقابه. ولا يكون السّخط إلَّا منَ الكبير على الصَّغير، والغضب يكون من الصّغير على الكبير، ومن الكبير على الصَّغير[4]، والغيظ يقاربُه، إلّا أنّه يُقال إذا كان معه تغيّر مُنكر، ولا يُوصف به الله[5]، لذلك قصد إلى التَّعبير باستحقاق السّخط من الله في هذه الآية – وهي صفةٌ من صفات الله الفعليَّة الخبريَّة الثابتة لله ﷻ – دون الغضب والغيظ؛ لأنّها من الكبير المتعالي الَّذي أوجب على المَخلوقين له العقوبة في هذا المقام، وهي جهنَّم.

---

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/107، والآلوسّي، روح المعاني: 4/112.
(2) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 3/962.
(3) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 3/962 - 963.
(4) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 130.
(5) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 3/963.

المصير والمَرجِع:

المصير أعـمُّ من الرّجوع

الرّجوع هو انقلاب الشّيء إلى حال كان عليها، أو ما هو مُقدّر تقديرها، والمصير: التّنقُّل من حال إلى حال أخرى، فهو أعمُّ من الرّجوع، واستخدمه القرآن في ذمِّ حال أهل النار، والقصد في الآية الكريمة بيانُ سوء المنقلب والمعاد والمستقرِّ الملازم لمن مأواه جهنم، وتبعيدُ ما بين الفريقين المذكورين في الآية في الحُكم والصِّفة، كقوله: ﴿لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ﴾ [الحشر: 20][1].

المـصـير يقتضي مخالفة ما صار إليه من جهنّم لما كـان عليه في الدّنيا

ولأنَّ الصيرورة تقتضي الانتقال من حال إلى حال أخرى، كصار الطّين خزفًا، والمَرجِع انقلاب الشّيء إلى حال قد كان عليها كقولك: مَرجِع ابن آدم إلى التّراب، وأمّا قولهم مَرجِع العباد إلى اللّه تعالى فباعتبار أنّهم ينقلبون إلى حال لا يملكون فيها لأنفسهم شيئًا، كما كان قبل ما ملكوا[2]، ولأنّ مآلهم الّذي صاروا إليه مأوىً وجزاءً، وهو (نار جهنّم) هو انتقالٌ إلى حالٍ أخرى خالفوا فيه حالهم في الدّنيا، ناسب الآية لفظ المصير دون المرجع.

(1) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 3/963.
(2) الآلوسّي، روح المعاني: 4/112.

﴿هُمۡ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ ١٦٣﴾ [آل عمران: 163]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لمّا أُفهِم الإنكار على من سوّى بين النّاس أنّهم متمايزون صرّح بذلك في قوله:

﴿هُمۡ دَرَجَٰتٌ﴾، أي: متباينون تباين الدَّرجات[1]؛ لأنّ نتيجة عدم التّساوي بين من يتّبع رضوان الله تعالى، ويطلبه بإقامة الطّاعات على وجهها الأكمل، ومن يختارون الشّرّ سبيلًا هي أن يكون النّاس درجات بحسب مقدار طلب الرّضوان، ومقدار اتّباع السّخط[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿دَرَجَٰتٌ﴾: استعمال الدَّرَجَة في الرِّفعة والمنزلة، ودَرَجاتُ الجنان: منازلُ أرفع من منازل[3]؛ إذ يُقال للمنزلة درجة إذا اعتُبرت بالصّعود دون الامتداد على البسيطة، كدرجة السّطح والسّلم، ويُعبَّر بها عن المنزلة الرّفيعة: قال تعالى: ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيۡهِنَّ دَرَجَةٌۗ﴾ [البقرة: 228] تنبيهًا لرفعة منزلة الرّجال عليهنّ في العقل والسّياسة[4]. فالدّرَجةُ واحدةُ الدَّرجات، وهي الطّبقات منَ المراتب[5].

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

منازل الآخرة تتفاوت وفق أعمال أصحابها

النّاس يتفاوتون في الجزاء عند الله كما يتفاوتون في الدنيا في المعرفة والفضائل، وفي الجهل والرّذائل؛ وفاقَ أعمالهم الحسنة أو القبيحة. وهذا التّفاوت يكون على مراتبَ ودرجاتٍ، يعلو بعضها

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 5/114.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 3/1487.
(3) الخليل، العين: (درج).
(4) الرّاغب، المفردات: (درج)
(5) الجوهريّ، الصّحاح: (درج).

بعضًا، منَ الرّفيق الأعلى في الدَّرجات العلى، الّتي كان يطلبها النّبيّ ﷺ من ربّه في مرض موته، إلى الدّرك الأسفل من النّار، واللّه تعالى بصير بأعمالهم، لا يخفى عليه منها شيء، بل قد علمها، وأثبتها في اللوح المحفوظ[1].

وترشدُ الآية الكريمة إلى أنّ منازل الثّواب تتفاوت وفاق فضائل الأعمال، فمن رغب بأعلى الدَّرجات شمّر عن ساعد القُربات، فالمتبعون لرضوان اللّه يسعون في نيل الدرجات العاليات، والمنازل والغرفات، فيعطيهم اللّه من فضله وجوده على قدر أعمالهم، والمتبعون لمساخط اللّه يسعَوْن في النزول في الدركات إلى أسفل سافلين، كلٌّ على حَسَب عمِله.

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

براعةُ التّشبيه البليغ:

المؤمنون متفاوتون في منازِلهم كالدَّرجاتِ

جُعل المؤمنون في قوله تعالى: ﴿هُمۡ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِۗ﴾ الدَّرجات نفسها مبالغةً، والمعنى: أنّهم متفاوتون في الجزاء على كَسبهم، كما أنَّ الدَّرجات متفاوتة، والأصل على التّشبيه، أي: هم مثل الدَّرجات في التّفاوت[2]، فالتّشبيه بليغٌ، ووجه ما بينهم من تباين الأحوال في الثّواب والعقاب، كالدَّرجات في تفاوتها علوًّا وسفلًا[3].

المقصودُ بالضميرِ المُنفصلِ في قولِه: ﴿هُمۡ دَرَجَٰتٌ﴾:

أهلُ الرّضوان هم أهلُ الدَّرجات

اختُلف في عودِ الضَّميرِ في قوله تعالى: ﴿هُمۡ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِۗ﴾ على ثلاثةِ أقوالٍ، وهي:

الأوَّل: عاد الضَّميرُ إلى قوله: ﴿أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَ ٱللَّهِ﴾؛ لأنّهم المقصودون من الكلام، ولقرينة قوله: ﴿دَرَجَٰتٌ﴾؛ لأنّ الدَّرجات

(1) رضا، تفسير المنار: 4/180، والسعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 71.
(2) ابن عادل، اللُّباب: 6/30.
(3) القاسميّ، محاسن التّأويل: 2/452.

منازل رفعة، والغالبُ في العُرفِ استعمالُها في أهل الثّواب، والدّركات في أهل العقاب، ثمّ إنّ الكافرين ذُكرت عاقبتهم، فقيل: مأواهم جهنّم، ولم يُذكر للمؤمنين شيء؛ فوجب أن يكون قوله: ﴿هُمْ دَرَجَٰتٌ﴾ وصفًا لمنِ اتّبع رضوان اللّه، يزاد عليه أنّ عادة القرآن في الأكثر جارية بأنّ ما كان منَ الثّواب والرّحمة فإنّ اللّه يضيفه إلى نفسه، وما كان من العقاب لا يضيفه إلى نفسه[1].

جـــــوازُ عـــودِ الـضَّـمـيرِ على الـفـريـقـين لتغليبِ الأبرار

الثّاني: ويجوز أن يكون قوله: ﴿هُمْ﴾ عائدًا على الكلّ؛ وذلك لأنّ درجات أهل الثّواب متفاوتة، ودرجات أهل العقاب أيضًا متفاوتة على حسب تفاوت أعمال الخلق، لقوله تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨﴾ [الزّلزلة: 7 - 8][2]، ويكون إطلاق لفظ ﴿دَرَجَٰتٌ﴾ على الفريقين، وفيهم الأشرار من قبيل التّغليب، فتشمل الدّركات، فالدَّرجات[3]، والمغزى من التَّعبير بالدَّرجاتِ تغليبُ الخيرِ على الشَّرِّ، وتغليبُ رِضا اللّه على سَخَطِه، وتغليبُ الأبرارِ على الفُجَّارِ[4].

ضـعـفُ الـقـولِ بـعـودِ الـضَّـميرِ إلى أهلِ السّخط

الثَّالثُ: الضّمير عائدٌ إلى الأقرب، أي: أهل النَّار، باعتبارِهم متفاوتين في مراتب العذاب[5]، وهو وجه تردّه الحُجَجُ المتقدِّمُ ذكرُها، وهو أضعفُ الأقوالِ وأوهاها، وسببُه تمسُّكُ أصحابِه بقاعدةٍ غير مطَّردة، وهي عودةُ الضَّميرِ إلى أقرب مذكورٍ، وفاتَهم أنَّ العودَ إلى أقرب مذكورٍ منضبطٍ بموافقةِ السِّياقِ، وصحَّة المعنى.

بلاغةُ المجازِ بحذفِ المضافِ في قولِه: ﴿هُمْ دَرَجَٰتٌ﴾:

يجوز أن يكون قولُه تعالى: ﴿هُمْ دَرَجَٰتٌ﴾ على حَذف مضاف،

(1) الرّازي، مفاتيح الغيب: 9/416، والبسيلّي، التّقييد الكبير، ص: 593، وابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/440، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/157.

(2) الرّازي، مفاتيح الغيب: 9/416.

(3) رضا، تفسير المنار: 4/179.

(4) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 3/1488.

(5) الرّازي، مفاتيح الغيب: 9/416.

اختلافُ الأعمالِ صيّرت المؤمنين بمنزلة الأشياء المختلفة في ذواتها

أي: هم أهل درجات، أو ذوو درجات، ولهم درجات عند الله، والمعنى: أنّ المؤمنين ذوو درجة رفيعة، والكافرين ذوو دركة خسيسة[1]، وحُسن هذا الحذف، والاكتفاءُ بالمذكور؛ لأنّ اختلاف أعمالِهم قد صيّرتهم بمنزلة الأشياء المختلفة في ذواتها؛ فكان هذا المجازُ أبلغَ من الحقيقة[2]؛ ولذلك قصد إلى التّعبير في المَطلَع بالضّمير ﴿هُمۡ﴾ المُعبّر عن ذواتهم دون غيرها من المبهمات.

نكتةُ التّعبيرِ عنِ الدَّرجات بجمع القلّة:

لا يُشمَلُ بمنازلِ الجنّةِ ودرجات النّعيم إلّا المؤمنون

الجموع يقع بعضها مَوقِع بعض لاشتراكها في مُطلَق الجمعيّة، ووضع جمع القلّة مَوضِع الكثرة في قوله تعالى ﴿هُمۡ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِۗ﴾، مع أنّ رتب النّاس في علم الله لا محالة أكثر من العشرة، إشارة إلى قلّة من يُشمَل بهذه الدَّرجات فلا يكون فيها إلّا المؤمنون، وقد نصّ سبحانه على قلّتهم بالإضافة إلى غيرهم في قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [العصر: 3][3].

فائدةُ التّعبيرِ بالظّرف (عند):

ما عند الله أعظمُ وأفخمُ ممّا يُظنُّ أو يُحسب

لمّا كان اعتبار التّفاوت بما عند الله قال: ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾، أي: الملك الأعلى في حكمه وعلمه، وإن خفي ذلك عليكم؛ لأنّ الله سبحانه وتعالى خلقهم فهو عالم بهم حين خلقهم[4]، فالمشهور أنَّ العنديَّة هنا عنديّةُ علمٍ وحكم، أي: هم أصحاب درجات في حكم الله، وبحسب علمه بشؤونهم، وما يستحقّون، وكلا المعنيين صحيح ولا تنافي بينهما[5].

سرُّ إظهارِ لفظ الجلالة وتَكراره:

آثرَ النَّظم إظهار لفظِ الجلالةِ في قولِه تعالى: ﴿هُمۡ دَرَجَٰتٌ عِندَ

(1) الواحديّ، التّفسير الوسيط: 1/516.
(2) الرّازي، مفاتيح الغيب: 9/416.
(3) الزّركشّي، البرهان: 3/355.
(4) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 5/114.
(5) رضا، تفسير المنار: 4/179.

تشريفُ منازلِ المؤمنين وإبرازُ مكانتِها

ٱللَّهِ﴾، فلم يقُل: (عنده) لأنَّه يحمل جميع صفات الكمال جريًا على عادة القرآن في الأكثر؛ بأنّ ما كان منَ الثّواب والرّحمة فإنّ اللّه يضيفه إلى نفسه[1]، والغاية تشريف منازلِ المؤمنين، وإبراز مكانتها بوصفها عنده جلّ في علاه[2].

المبالغة في التّهديد والتّشديد في الوعيد

ويُلمَح في إظهار اسمه الشّريف وتَكراره في قولِه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ﴾ قاعدة ذكرها في القرآن؛ بأنَّ إظهار الاسم الجليل في مَوقِع الإضمارِ في مثل هذا المَوضِع لتربية المهابةِ، وإلقاءِ الرَّوعةِ، والمبالغة في التّهديد والتّشديد في الوعيد[3]، فضلًا عن توكيد قدرته، وألوهيّته في مَواطِن العلم، والاستطاعة، والتَّمكين.

التّعبير بصيغة فعيل:

الدّلالة على رسوخ الصّفة والمبالغة فيها

عبَّرتِ الآيةُ بصفة اللّه البصيرِ في قولِه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ﴾ للدّلالة على ثبوت الصّفة فيه جلَّ في علاه، ورسوخها على الدّوام، والمبالغة في الفعل وتَكراره، وهي تُناسِبُ إبهامَ أعمالِهم، وعمومَها، وتجدّدَها، واستمرارَها بمؤدّى صيغة المضارع.

نكتة التّعبير بـ (ما):

شمول مُطلَق الأعمال

يُستعملُ الاسمُ الموصولُ (ما) لغيرِ العاقلِ، وقد يُستعمل للعاقل، والتّعبير به في قولِه: ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ﴾ للدّلالة على الإبهام والعموم، ويعني: مُطلَقَ علمِه، وشمولَ كلِّ أعمالهم فلا يخفى عليه معلومها ومخفيّها.

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الدَّرجات والدّركات:

الدّرك كالدّرج، لكنّ الدّرج يُقال اعتبارًا بالصّعود، والدّرك

(1) الرّازي، مفاتيح الغيب: 9/416.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/108، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/157.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/104.

الـــدَّرجـــات صعود يناسب منازل الجنّة، والـــدّركـــات انحدار يناسب النّار

اعتبارًا بالحدور، ولهذا قيل درجات الجنّة ودَرَكات النّار، والدَّرْك أقصى قعر البحر[1].

فالحقُّ سبحانه يستعمل كلمة ﴿دَرَجَٰتٌ﴾ بالنِّسبة إلى تفاضل الأشخاص، والأعمال، والرفعة، والمنزلة في الدنيا والآخرة؛ لأنَّ فيها منازل ورتبًا، أمّا فيما يتعلّق بالنّار فيأتي لفظ (الدَّرْك)، فالدّركة تنزل، والدّرجة ترفع[2] وأكثر ما تكون كلمة الدّرجة في القرآن بمعنى المنزلة الرّفيعة، وأمّا المنزلة غير الرّفيعة فيعبّر عنها سبحانه بالدّركة[3]. ولذلك كانت لفظة الدَّرجات في محلِّها المناسب لبيان علوِّ منازل المؤمنين عند الله تعالى، وتسفُّلِ درجات المعرضين.

العمل، والقول، والفعل:

العمل أهمّ الأحداث؛ لأنّه تعلّق الجارحة بما نيطت به، فالقلب جارحة عملها النّيّة، واللّسان جارحة عملها القول، والأذن جارحة وعملها الاستماع، والعين جارحة وعملها أن تنظر. فكلُّ جارحة من الجوارح لها حَدَثٌ تنشئه لتؤدِّي مهمتها في الكائن الإنسانيّ، وكلُّ أداءِ مُهِمّة من جارحة يُقال له: عمل. أمَّا الفعل فهو تعلّق كلّ جارحة غير اللّسان بالحدث، أمّا تعلّق اللّسان فيكون قولًا، ومقابله فعل، إذن ففيه قول، وفيه فعل، وكلاهما عمل، فالعمل يشمل، ويضمّ القول والفعل معًا؛ لأنّ العمل هو شغل الجارحة بالحدث المطلوب منها، لكنّ الفعل هو شغل جارحة غير اللّسان بالعمل المطلوب منها، وشغل اللّسان بمهمته يسمّى قولًا ولا يسمّى فعلاً؛ لأنّ الإنسان يتكلّم كثيرًا، لكن أن يحمل نفسه على أن يعمل ما يتكلَّمه فهذه عملية أخرى، فالقول مقابله الفعل، والكلّ عمل ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ﴾ قولًا أو فعلًا[4].

الـعـمـل عـامّ يندرج تحته كلّ قول وفعل

(1) رضا، تفسير المنار: 4/180.
(2) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 3/1848.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 3/1487 - 1488.
(4) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 3/1849.

العـمـل جـلُّ ما يترتّب عليه الجزاء

خُصَّ العملُ دون القول؛ لأنَّ العملَ جلُّ ما يترتّب عليه الجزاء[1]، ولكون العمل شاملًا للفعل، والقول؛ ولأنّه ممّا يترتّب عليه الجزاءُ قُصِدَ إلى اختياره في الآية الكريمة؛ ليناسب جِماع ما تنشِئُهُ جوارحُهم، فضلًا عن كونه في مَوضِع ذكر الجزاء درجاتٍ ومنازلَ رفعةٍ.

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/108.

﴿لَقَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ بَعَثَ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ١٦٤﴾ [آل عمران: 164]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لمَّا بيَّن تعالى خطأ من نسب الرسول ﷺ إلى الغُلول والخيانة أكّد ذلك بهذه الآية؛ لبيان نعمة وجود هذا الرّسول بين ظهرانَيْهم؛ فقد وُلِد في بلدهم، ونشأ بينهم، ولم يظهر منه طولَ عمره إلّا الصِّدق، والأمانة، والدّعوة إلى الله، والإعراض عن الدُّنيا، فكيف يليق بمن هذه حاله الخيانة؟! فوجوده فيهم من أعظم نعمه عليهم، وتشريفُه تعالى له وتخصيصه بمزايا الفضل والإحسان شرفٌ عظيمٌ بسبب كونه فيهم، فطعنُهم فيه، واجتهادُهم في نسبة القبائح إليه على خلاف العقل. وهو ما يستوجب على كلّ عاقل أن يعينه بأقصى ما يقدر عليه بمحاربة أعدائه، فيكون معه باليد واللّسان والسّيف والسِّنان[1]. فـ "لمّا أرشدهم إلى هذه المَراشِد، وبيّن لهم بعض ما اشتملت عليه من الفوائد، وبان بهذه القصّة قَدْرُ من أسدى إليهم ذلك على لسانه ﷺ بما له من الفضائل الّتي من أعظمها كونه من جنسهم، يميل إليهم ويرحمهم، ويعطف عليهم، فيألفونه، فيعلّمهم؛ نبّه على ذلك سبحانه وتعالى؛ ليستمسكوا بِغَرْزِهِ، ولا يلتفتوا لحظة عن لزوم هديه"[2].

و"أنّه تعالى لمّا ذكر الفريقين: فريق الرّضوان، وفريق السّخط، وأنّهم درجات عند الله مُجملًا من غير تفصيل، فصّل أحوالهم، وبدأ بالمؤمنين، وذكر ما امتنّ عليهم به من بعث الرّسول إليهم تاليًا لآيات الله، ومبيّنًا لهم طريق الهدى، ومطهرًا لهم من أرجاس الشّرك، ومنقذًا لهم من غمرة الضّلالة بعد أن كانوا فيها، وسلّاهم عمّا أصابهم يوم أُحد من الخِذْلان والقتل والجَرْح، لما أنالهم يوم بدر من الظّفر والغنيمة. ثمّ فصّل حال المنافقين الّذين هم أهل السّخط بما نصّ عليه تعالى"[3].

(1) الرّازي، مفاتيح الغيب: 9/417.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 5/115.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/108.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مَنَّ﴾: الميم والنُّون أَصلان أَحدُهما يدُلُّ على اصطناعِ خَيرٍ وجميل[1]. والمِنَّة: النِّعمة الثّقيلة، ويُقال ذلك على وجهين: أحدهما: أن يكون ذلك بالفعل، فيُقال: مَنَّ فلان على فلان إذا أثقله بالنّعمة. والثّاني: أن يكون ذلك بالقول، وذلك مُستقبحٌ فيما بين النّاس إلّا عند كفران النّعمة[2]. ومنَّ عليه منًّا: أنعم. والمَنَّانُ من أسماء اللّه تعالى[3]. فهو منّانٌ على عباده بإحسانه، وإنعامه، ورزقه إياهم، وهو عظيم المواهب: أعطى الحياةَ، والعقلَ، والمنطقَ، وصوَّر فأحسن الصور، وأنعم فأجزل، وأسنى النعم، وأكثر العطايا والمِنَح، وهو سُبْحَانَهُ يعطى ابتداءً، وانتهاءً، ويعطي فوق الآمال، وما لايخطر على بال، وله المنة على عباده، ولايطلب جزاءً على إحسانه[4]. والمَنّ: العطاء. ومَنَّ عليه: أنعَمَ وأحسَنَ؛ إذِ الإنعام والإحسان رقّة ورحمة تمتدّ من المحسن، وترقيق حالٍ لمن وَقَعَ الإحسان إليه[5].

2) ﴿بَعَثَ﴾: الباء والعين والثّاء أصلٌ واحدٌ، وهو الإثارة[6]، والإرسالُ، والهَيَجان، والتّنبيه. ويومُ البَعثِ: يومُ القيامة[7]. وبَعَث عليهم البلاء: أحلَّه بهم. وهو الحمل على الشّيء، والاندفاع، والإيقاظ[8]. وخلاصة البعث في كلام العرب على وجهَين أَحدهما الإرسال، والإثارة، والآخر: الإحياء من اللّه للموتى[9]. والإيجاد للأعيان، والأجناس، والأنواع[10].

وتحرير معاني وروده في القرآن: بَعثُ المَوتى من القبور، وتوجيه رسول أو نبيّ، أو ملك، أو حَكَم، أو نقيبٍ، والإثارة، والدّفع، وإنهاضٌ بعد موت مؤقّت أو نوم أو نحوه[11]. ومعناه في الآية الكريمة توجيه رسول اللّه ﷺ إلى المسلمين بالرّسالة.

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (من).
(2) الرّاغب، المفردات: (منن).
(3) الجوهريّ، الصّحاح: (منن).
(4) القرطبي، شرح أسماء الله الحسنى: 1/260، والبيهقي، الأسماء والصفات: 1/170.
(5) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (منن).
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بعث).
(7) الخليل، العين: (بعث).
(8) ابن سيده، المحكم: (بعث).
(9) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (بعث).
(10) الرّاغب، المفردات: (بعث).
(11) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (بعث).

3) ﴿رَسُولًا﴾: الإرسالُ في اللّغة: التّتابع[1] فـ "الرَّاء والسِّين واللَّام أَصلٌ واحدٌ مُطَّرِدٌ مُنقاسٌ يدُلُّ على الانبعاث والامتداد"[2]. والرَّسْلُ: الّذي فيه استرسال، ولين، وأصلُه الانبعاث على تُؤَدَةٍ، ومنهُ الرّسولُ المنبَعِثُ، وجمعه رُسُلٌ، ورسل الله تارة يُراد بها الملائكة، وتارة يُراد بها الأنبياء[3]. والإرسالُ: التّسخير، والتّوجيه[4]. ورسالةُ الرّسولِ ما أُمر بتبليغه عنِ الله[5]. والرّسول ينطلق من طرف من أرسله برسالة متميّزة عنه، أي: ليس هو منشئها[6]. وهذا معنى اللّفظ الوارد في الآية الكريمة.

4) ﴿يَتْلُواْ﴾: "التَّاء واللَّام والواو أَصلٌ واحدٌ، وهو الاتِّباعُ. يُقالُ: تَلَوتُهُ إذا تَبِعتَهُ. ومنه تلاوةُ القرآن، لأَنَّه يُتبِعُ آيةً بعد آيةٍ"[7]. وتلاه: تبعه متابعةً ليس بينهم ما ليس منها، ويكون بالقراءة وتدبّر المعنى، ومصدره: تلاوة، والتّلاوة تختصُّ باتّباع كتب الله المُنزّلة تارة بالقراءة، وتارة بالارتسام لما فيها من أمر ونهي، وترغيب وترهيب[8].

فالتّلاوة بمعنى القراءة، كما في تلاوة القرآن والنّشرات، أصله من تتبع الكلام المكتوب عند القراءة، أي: اتّباعه كلمة كلمة[9].

5) ﴿ءَايَٰتِهِۦ﴾: الآية: العلامةُ، ومنه آية القرآن؛ لأنّها جماعة حروف، والجمع آي[10]، وقيل: سُمّيتِ الآيةُ من القرآن آية؛ لأنّها علامةٌ لانقطاع كلامٍ من كلام. وآياتُ الله: عجائبُه. والآيةُ من القرآن العلامةُ الّتي يُفضَى منها إلى غيرها كأعلام الطّريقِ المنصوبةِ للهدايةِ، كما قيل: إذا مضى علمٌ منها بدا علمُ[11]. فلفظ الآية في القرآن الكريم بمعناه المتعارف عليه؛ هو: جماعة حروف القرآن، وكلماته، واستُعمل بمعانٍ أُخر كالعلامة

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (رسل).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (رسل).
(3) الخليل، العين، والرّاغب، المفردات: (رسل).
(4) ابن سيده، المحكم: (رسل).
(5) مجموعة مؤلفين، المعجم الوسيط، دار الدّعوة: 1/344.
(6) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (رسل).
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (تلو)، وينظر: الجوهريّ، الصّحاح: (تلا).
(8) الرّاغب، المفردات: (تلى).
(9) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (تلو - تلى).
(10) الخليل، العين: (أيا)، وابن فارس، مقاييس اللغة: (أَيَّي).
(11) ابن منظور، لسان العرب: (أيا).

الإعجازيّة، وغيرها، والسِّياق يميّز[1]. ومعنى اللّفظة في الآية الكريمة آيات القرآن، أي: جماعة حروف القرآن، وكلماته.

6) ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾: الزّكاة: الصّلاح. تقول: رجلٌ زكيٌّ، أي: تقيٌّ[2]. والزَّكاةُ: صِفوة الشَّيء[3]. وكلُّ كلمة (الزّكاة) في القرآن هي بمعنى زكاة المال، وأمَّا سائر ما في القرآن من مفردات التّركيب فهو بمعنى طهارة النّفس، وزكاتها بالطّاعة، وصالح الأعمال، والصّلاح، وزيادة الإيمان تمدُّحًا، والتّطهير، والبركة، والتّنمية في وجوه الخير والبرّ[4]. فالتّزكية تطهير النّفس مُشتقّة منَ الزّكاة؛ وهي النّماء؛ لأنَّ في أصل خلقة النّفوس كمالات وطهارات تعترضها أرجاس ناشئة عن ضلال أو تضليل، فتهذيب النّفوس وتقويمها يزيدها من ذلك الخير المودع فيها[5].

7) ﴿وَٱلْحِكْمَةَ﴾: الحاء والكاف والميم أَصلٌ واحدٌ، وهو المَنْعُ. وحَكَمَ أصلُهُ: منع منعًا لإصلاح. والحكمة هذا قياسُها؛ لأنَّها تَمنَعُ مِنَ الجَهل، فهي إصابةُ الحقِّ بالعِلم والعقل، وهي من اللّه تعالى: معرفةُ الأشياء وإيجادُها على غاية الإحكام، ومن الإنسان: معرفةُ الموجوداتِ وفعلُ الخيراتِ[6]. ومَرجِعُها إلى العَدل والعِلم والحِلم. ويُقال: أحكَمَته التّجاربُ إذا كان حَكيمًا[7]. فالحَكيمُ: العالِمُ، وصاحبُ الحكمة المُتقِنُ للأمور[8].

8) ﴿ضَلَٰلٍ﴾: الضَّاد واللَّام أَصلٌ صحيحٌ يدُلُّ على معنًى واحدٍ، وهو ضياعُ الشَّيء وذَهابُهُ في غَيرِ حَقِّهِ[9]. وضَلَّ إذا جارَ عن القَصد، وهلَك[10]. والضّلال ضدّ الهدى. وضلَّ في الأَرض ضلالًا إذا لم يهتدِ للسّبيل[11]. وضللت: إذا أخطأتَ مَوضِع الشَّيء الثَّابِت[12].

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (أيي، إيي).
(2) الخليل، العين: (زكو).
(3) ابن سيده، المحكم: (زكو).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (زكو).
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/49.
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات: (حكم).
(7) الخليل، العين: (حكم).
(8) الجوهريّ، الصّحاح: (حكم).
(9) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ضل).
(10) الخليل، العين: (ضل)، والجوهريّ، الصّحاح: (ضلل).
(11) ابن دريد، جمهرة اللّغة: (ضلل).
(12) الأزهريّ: تهذيب اللّغة: (ضل).

والضّلال: هو العُدولُ عَنِ الطّريق المستقيم، ويُضادُّه الهداية، وهو: كُلُّ عُدولٍ عَنِ المنهج، والحَقِّ، عَمداً كان أم سَهواً، يَسيراً كان أم كثيرًا. وهو ضَربان: ضلالٌ في العلوم النَّظريَّةِ، كالضَّلال في معرفة وَحدانِيَّتِهِ تعالى، ومعرفة النُّبُوَّة، ونحوِهما، وضلالٌ في العلوم العمليّة، كمعرفة الأَحكام الشَّرعيَّة الَّتي هي العباداتُ[1]. والضّلال في الآية الكريمة من الضّرب الأوّل.

9) ﴿مُّبِينٍ﴾: الباء والياء والنّون أصلٌ واحد يدلُّ إمَّا على بُعد الشّيء، وإمَّا على انكشافه؛ فبان الشّيءُ، وأبان إذا اتّضح وانكشف[2]. وسُمّي ما يُشرَح به المُجمَل والمُبهَم من الكلام بيانًا، ويقال: بيّنتُه وأَبَنْتُه: إذا جعلتَ له بيانًا تكشِفُه[3]. ومن المعنى الأوّل استنبطت دلالة الفصل والتّمييز، ويؤول معناه إلى الوضوح والظّهور؛ لأنّ المفصول المتميّز من غيره يلفت النّظر. والانكشافُ، والوضوحُ، والظّهورُ هو المعنى الّذي جاءت به كلُّ مفردات التّراكيب القرآنيّة عدا الظّرف (بين)[4]. وبه تُفسّر اللّفظة في الآية المباركة، فضلالُهم واضحٌ بيّنٌ.

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

بعثة رسول الله من روائع المنح، وعظائم المنن

يبيِّنُ اللّهُ المِنَّةَ التي أنعم اللّه بها على المؤمنين من العرب وعلى عباده؛ وهي أكبر النِّعم، وهي الامتنان عليهم بهذا الرسول الكريم الذي أنقذهم اللّه به من الضلالة، وعَصمهم به من الهَلاك، إذ بعث فيهم رسولًا من جنسهم عربيّاً من ولد إسماعيل وبلسانهم؛ ليسهُلَ أخذُ ما يجب عليهم أخذُه عنه ممَّن عرفوا فيه الصِّدق والأمانة، يتلو عليهم آيَ القرآن بعدما كانوا أهلَ جاهليةٍ لم يَطرق أسماعَهم شيءٌ من الوحي، ويُطهِّرُهم بالإيمان من الشرك والأخلاق الفاسدة، ويعلِّمُهم القرآنَ والسُّنَّة، وقد كانوا مِن قبل بعثته ﷺ لفي عمًى ظاهر وجهالة واضحة[5].

(1) الرّاغب، المفردات: (ضل)، والزّبيديّ، تاج العروس: (ضلل).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بين).
(3) الرّاغب، المفردات: (بين).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (بون - بين).
(5) النّسفيّ، مدارك التّنزيل: 1/308، والسعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 71، ونخبة من العلماء، التفسير الميسر، ص: 71.

وترشدُ الآية الكريمة إلى عظيم مِنَحِ الله لعباده، وتفضّله عليهم بتهيئة أسباب هدايتهم، وسبل نجاتهم من ضلالهم، فهل لذلك من كفاءٍ إلّا الطّاعة والانقياد؟

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

وَجْهُ الفَصْلِ في الآية:

الاستئناف للتّذكير بنعم الله

قولُه تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ استئنافٌ لتذكيرِ رجالِ يوم أُحد وغيرهم من المؤمنين بنعمة الله عليهم، ومناسبة ذكره هنا أنّ فيه من التّسلية على مصيبة الهزيمة حظًّا عظيمًا؛ إذ قد شاع تصبير المحزون، وتعزيته بتذكيره ما هو فيه من النّعم، وله مزيد ارتباط بقوله: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ﴾ [آل عمران: 159]، وكذلك جاءت آيُ هذا الغرض في قصّة أُحد ناشئةً بعضها عن بعض، مُتفنّنة في مَواقِعها بحسب ما سمحت به فرص الفراغ من غرض، والشّروع في غيره، فما تجد اطِّرادَ الكلامِ يغدو طَلْقًا في حلبة الاستطراد إلّا وتجد له رواحًا إلى منبعثه[1].

بلاغةُ توكيدِ المَطلَعِ للمبالغةِ في تحقُّقِ المنِّ ووقوعِه:

أكّد عظيم المنّة والعطاء باللّام، وبالقسم المُتحقّق بلفظ (قد) الدّالّ على التّحقيق لدخوله على الفعل الماضي؛ ليدلّ على المبالغة في وقوعه وتحقّقه.

علّة إظهار اسمه الأعظم:

التّشريف لرسوله والمؤمنين، والمبالغة في منحها

أظهر تعالى اسمه الشّريف في قولِه: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ الدّالّ على كمال الصّفات فاعلًا للمنِّ تشريفًا لرسوله والمؤمنين، ومبالغةً في هيئتها، فمنّةُ الله على رسوله ﷺ تُعطي عطاء على قدر الدّنيا، وعلى امتداد الآخرة، فتكون هذه منّة كبيرة[2]. ويُلمح ههنا

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/157 - 158.
(2) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 3/1851.

أنّ ذات رسالته نعمة[1]، وأنّ إيكال تعليم المؤمنين القرآن وتلاوته، والحكمة، وتزكية أنفسهم من أعظم نعم التّشريف، ورفعة المكانة.

تعيينُ المقصودِ بالمؤمنين في الآيةِ:

هم المخاطَبون وقتَ نزولِ الآيةِ بالاعتبارِ الأولويِّ

المُراد بـ ﴿ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ المؤمنون يومئذ، وهم الّذين كانوا مع النّبيّ ﷺ بقرينة السّياق وهو قوله: ﴿إِذۡ بَعَثَ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ﴾، أي: من أمّتهم العربيّة، و(إذ) ظرف لـ (من)؛ لأنّ الإنعامَ بهذه النّعمة حصل أوقات البعث[2]، فهم المقصودون بالدَّرجةِ الأولى، ويدخلُ بقيَّةُ المؤمنين في كلّ العصور[3]، باعتبارِه منَّةً في أعناقِهم.

تخصيصُ المؤمنين بالامتنان؛ لأنّهم المجتبون

وتخصيصُهم بالامتنان مع عموم نعمةِ البعثةِ للأسود والأحمرِ؛ لأنّهم المجتبون لهذه النّعمة[4]، ولمزيد انتفاعِهم بها[5]، أمّا الباقون فقد أهدروا حقّهم في الأسوة، ولذلك تكون المنّة على من آمن[6].

فائدة التّعبير بلفظ ﴿إِذۡ﴾:

(إذ) ظرفٌ للفعل (مَنَّ)؛ للدّلالة على أنّ الإنعام بهذه النّعمة حصل أوقات البعث[7].

نكتةُ التّعبيرِ بالبعثِ دُونَ الإِرْسَالِ:

البعث في اللّغة: الإثارة، والتّوجيه، والتّنبيه[8]، وهو يناسب مهمّاته ﷺ المُكلّفَ بها من لدن الباري ﷻ من تعليم وتزكية.

فائدةُ التّعبيرِ بلفظ ﴿أَنفُسِهِمۡ﴾:

معنى من ﴿أَنفُسِهِمۡ﴾ المماثلة لهم في الأشياء الّتي تكون المماثلة

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 3/1489.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/158.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/160.
(4) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 5/115.
(5) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/108.
(6) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 3/1850.
(7) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/158.
(8) الخليل، العين: (بعث)، وابن فارس، مقاييس اللغة: (بعث).

فيها سببًا لقوّة التّواصل، وهي هنا النّسب، واللّغة، والعرب تقول: فلان من بني فلان من أنفسهم، أي: من صميمهم ليس انتسابه إليهم بولاء أو لصق، وكأنّ هذا وجه إطلاق النّفس عليه التي هي في معنى المماثلة، فكونه من أهل نسبهم، أي: كونه عربيًّا يوجب أُنْسَهم به، والرّكون إليه، وعدم الاستيحاش منه، وكونه يتكلّم بلسانهم يجعلهم سريعين إلى فهم ما يجيء به، وكونه جارًا لهم، ورَبيًّا فيهم يعجّل لهم التّصديق برسالته، إذ يكونون قد خبروا أمره، وعلموا فضله، وشاهدوا استقامته ومعجزاته[1].

الإنسانُ يأنسُ بالأقربِ منه نسبًا ولغةً ومسكنًا

أثرُ التّعبيرِ القرآنيِّ في الأثرِ النّفسيِّ:

زاد القرآنُ ترغيبَ النّاسِ فيه بقوله: ﴿مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾، أي: نوعاً وصنفاً، يعلمون أمانته وصيانته وشرفه ومعاليه[2]، فضاعف المنّة بكونه من أنفسهم، ولم يقُل: (منهم)؛ فإنّ للتّعبير القرآنيّ ﴿مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ ظلالًا عميقة الإيحاء والدّلالة؛ بأنّ الصّلة بين المؤمنين والرّسول هي صلة النّفس بالنّفس، لا صلة الفرد بالجنس.

الإيحاءُ بأنّه من أنفسِهم ونفسِهم نفاسةٌ في التّأثيرِ

من وجوه المنّة فيه أنّه صار شرفًا للعرب، وفخرًا لهم، كما قال سبحانه: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [الزّخرف: 44]؛ لأنّ الافتخار بإبراهيم عليه السلام كان مُشتركًا فيه بين اليهود والنّصارى والعرب، ثمّ إنّ الأوّلين كانوا يفتخرون بموسى، وعيسى، والتّوراة، والإنجيل، فما كان للعرب ما يقابل ذلك، فلمّا بعث اللّه محمّدًا ﷺ، وأنزل عليه القرآن، صار شرف العرب ذلك زائدًا على شرف الأمم جميعهم[3].

تشريف العربِ شرفًا زائدًا على شرف الأمم جميعها

علّةُ تنكيرِ لفظ ﴿رَسُولًا﴾:

غرضُ تنكيرِ ﴿رَسُولًا﴾ التّعظيمُ، ولتجريَ عليه الصّفاتُ التي

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/158.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 5/115.
(3) القاسميّ، محاسن التّأويل: 2/453.

التّعظيم، وجريان الصّفات التي كلّ واحدة منها نعمة خاصّة

كلٌّ واحدةٍ منها نعمةٌ خاصّةٌ، فالخطابُ في قولِه: ﴿فِيهِمْ﴾ وما بعده للمؤمنين من المهاجرين والأنصار تذكيرًا لهم بنعمة الله عليهم بأن بعث إليهم رسولًا بين ظهرانيهم ومن قومهم؛ لأنّ ذلك أقوى تيسيرًا لهدايتهم، وهذا على نحو دعوة إبراهيم: (ربّنا وابعث فيهم رسولًا منهم)[1].

سرُّ التّعبير بالرّسول دون النّبيّ ﷺ:

لفظ الرّسول أبلغ في الإنعام عليهم

في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ﴾ عبّر بلفظ النّبيّ دون لفظ الرّسول، وعبّر هنا بلفظ الرّسول، والسّر في ذلك: أنَّ تلك في مقام الصّبر والتّخويف، ونفي نسبة الغلول للنّبيّ ﷺ، وهذه في مقام التّذكير بالنّعمة والإبلاغ، فناسب فيها لفظ (الرّسول)؛ لأنّه أبلغ في الإنعام عليهم[2]، ووجهُ المنَّةِ والنِّعمة التَّصريحُ بأنَّه سيكونُ رسولًا لجميعِ الأممِ، والعربُ يميلون إلى حبِّ المجدِ، فكان هذا نعمةً عظيمةً إن هم أخلصوا العملَ والنيَّة لله تعالى.

قصديّة التّعبير بالفعل ﴿يَتْلُواْ﴾:

استمرار القراءة باستمرار النّزول

عبّر بالفعل المضارع ﴿يَتْلُواْ﴾؛ لأنّ نزول القرآن مستمر، وقراءة النّبيّ له متوالية، وفي كلّ قراءة يحصل علم بالمعجزة للسّامعين[3]، والتِّلاوةُ مستمرَّةٌ في أمَّته إلى يومِ الدِّين، وفيه إشارةٌ إلى إعجازٍ غيبيٍّ بحفظِ القرآنِ، لأنَّ التِّلاوةَ لا تكون إلَّا لكتابٍ محفوظٍ.

بلاغة انتقاء لفظ الآيات:

الآيات تُستعمل للأمور العجيبة، اللّافتة للنّظر

كلمة (آية) معناها: الأمر العجيب، وهو الّذي يقف الإنسان عنده وقفة طويلة ليتأمّل في عجائبه[4]، تقول مثلًا: فلان آية في الحسن،

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/48.
(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/440 - 441.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/49.
(4) الشّعراوي، تفسير الشّعراويّ: 3/1854.

أي: حسنُه لافت للنّظر، وتقول: فلان آية في الذّكاء، صحيح أنّ هناك أذكياء كثيرين، لكنّه آية متميِّزةٌ في الذّكاء عن غيرِه.

كلّ آية دليلٌ على صدق الرّسول

سمّيت جمل القرآن آيات؛ لأنّ كلّ واحدة منها دليل على صدق الرّسول، من حيث بلاغةُ اللّفظ، وكمالُ المعنى[1].

علّة تقديم جملة ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾:

اقتضاءُ المقامِ المعاتبةُ على الإقبالِ على الغنيمةِ

قدّم التّزكية لاقتضاء مقام المعاتبة على الإقبال على الغنيمة[2]، فناسبت التّزكية مقام نفي الغلول عنه بوصفه مزكِّيًا أنيطت به هذه المهمّة من جهة، وحاشاه أن يفعل خلاف ما يُعلِّمُ، وللتّذكير بما جرى في المعركة ممّا يستدعي التّزكية.

يقتضي مقام الامتنان تقديم المنفعة من تلاوة الآيات

قُدّمت جملة: ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ على جملة: ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾؛ لأنّ المقام هنا للامتنان على المسلمين، فقدّم فيها ما يفيد معنى المنفعة الحاصلة من تلاوة الآيات عليهم، وهي منفعة تزكية نفوسهم اهتمامًا بها، وبعثًا لها بالحرص على تحصيل وسائلها، وتعجيلًا للبشارة بها[3].

التّقديمُ والتّأخيرُ بحسب المُخاطَبِ

نقل ابن عرفة أنّ أمر التّقديم والتّأخير بحسب المجالس، فحيث تقدّم التّعليم تكون تلك الآية نزلت عليه بمحضر الخواصّ ومن هو أهل للتّعليم، فيكون التّعليم أَهَمّ، وحيث تقدّم التّزكية تكون الآية نزلت عليه في مَوضِع أكثره عوام، فتكون التّزكية في حقّهم أهمّ[4].

نكتة توسيط التّزكية بين تلاوة الآيات، وتعليمها:

ذكر العماديّ أنّه وَسَّطَ التّزكيةَ بين ﴿يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾، و﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾؛ لكونها "تكميلًا للنّفس وتهذيبها

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/159.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 5/116.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/49 - 50.
(4) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/170.

بحسب القوّةِ العمليّةِ المُتفرِّعِ على تكميلِها بحسب القوّةِ النّظريّةِ الحاصلِ بالتّعليم المُترتّب على التّلاوة؛ للإيذان بأنَّ كلَّ واحدٍ من الأمورِ المترتّبةِ نعمةٌ جليلةٌ على حيالِهَا مستوجبةٌ للشّكرِ فلو رُوعِي ترتيب الوجود كما في قوله تعالى ﴿رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُزَكِّيهِمۡ﴾ [البقرة: 129]؛ لتبادر إلى الفهم عدُّ الجميعِ نعمةً واحدةً، وهو السّرُّ في التّعبير عن القرآن بالآياتِ تارة، وبالكتاب والحكمة أخرى رمزًا إلى أنَّه باعتبار كلِّ عنوانٍ نعمةٌ"[1].

كـلُّ واحـدٍ من المذكوراتِ نعمةٌ عـلى حـيـالِـهَـا مـسـتـوجـبـةٌ للشّكر

وجه الافتراق بين التّلاوة والتّعليم:

تعليمُ الكتابِ هو تعليمُهم ما اشْتَمَلَ عليه من أحكامه ببيان ما عساه يكون فيه من نصوص تعلو على مداركهم، وتفصيل المُجمَل فيه، وتطبيقه عليهم، فتعليمُ علمِ الكتاب غير تلاوته؛ إذ تلاوته قراءته مرتّلًا مفهومًا، وتعليمه بيان أحكامه، فقد أمر بالصّلاة، والنّبيّ ﷺ علّمها، وأمر بالحجّ، والنّبيّ ﷺ علّمه، وهكذا[2].

تـلاوتـه قـراءتـه مرتّلًا مفهومًا، وتـعـلـيـمـه بيان أحكامه

نكتة عطف الحكمة على الكتاب:

عَطفُ الحكمة على الكتاب من قبيل عطفِ الأخصّ من وجه على الأعمّ من وجه، فمنَ الحكمة ما هو في الكتاب نحو: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ۝٩﴾ [الحشر: 9]، ومنها ما ليس في الكتاب، وفي الكتاب ما هو علمٌ وليس حكمة مثل فرض الصّلاة والحجّ[3].

مـــن عـطـف الأخـــصّ عـلى الأعمّ

علّة وصف الضّلال بالمبين:

وصف الضّلال بالمبين؛ لأنّه لشدّته لا يلتبس على أحد بشائبة هدى، أو شبهة، فكان حاله مبيّنًا كونه ضلالًا كقوله: ﴿قَالُواْ هَٰذَا

شدّة الضّلال لا يلتبس على أحد بشائبة هدى

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/108.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 3/1490.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/159.

﴿سِحۡرٞ مُّبِينٞ ١٣﴾ [النّمل: 13]، والمُراد به ضلال الشّرك والجهالة والتّقاتل وأحكام الجاهليّة[1].

نكتة التّعبير بجملة ﴿وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ﴾:

التّنبيه على بعد مـدّة ضلالهم قبل إسماعيل عليه السلام

﴿وَإِن﴾ مخفّفة مهملة، أي: والحال أنّهم ﴿كَانُواْ﴾، ولمّا كانوا قد مرّت لهم أزمان، وهم على دين أبيهم إسماعيل عليه السلام نبّه على ذلك بإدخال الجارّ فقال: ﴿مِن قَبۡلُ﴾، أي: من قبل ذلك[2]، ولذلك عبّر عن طول هذه المدّة بالفترة فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ عَلَىٰ فَتۡرَةٖ مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [المائدة: 19].

دلالة إعراب جملة التّذييل:

بـيـان كـمـال النّعمةِ وتمامِها

جملة ﴿وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ في مَوضِع الحال من الأميّين، أي: ليست نعمة إرسال هذا الرّسول إليهم قاصرة على رفع النّقائص عنهم، وتحليتهم بكمال علم آيات الله، وزكاة أنفسهم، وتعليمهم الكتاب والحكمة بل هي أجلّ من ذلك؛ إذ كانت منقذة لهم من ضلال مبين كانوا فيه، وهو ضلال الإشراك بالله. وإنّما كان ضلالًا مبينًا؛ لأنّه أفحش ضلال، وقد قامت على شناعته الدّلائل القاطعة، أي: فأخرجهم منَ الضّلال المُبين إلى أفضل الهدى، فهؤلاء هم المسلمون الّذين نفروا إسلامهم في وقت نزول هذه السّورة[3]. ويجوز أن تكون الجملة استئنافًا، وعلى التّقديرين؛ فهي مُبيِّنة لكمال النّعمةِ وتمامِها[4].

معنى (إن) المخفّفة، واللّام الفارقة:

وأداةُ (إن) مخفّفةٌ منَ الثّقيلة، وهي مهملة عن العمل في اسمها

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/160.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 5/116.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/210.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/108.

بيان أنّ شأنهم كونهم في ضلال

وخبرها، وقد سدّ مسدّها فعل (كان)، كما هو غالب استعمال (إن) المخفّفة، واللّام في قوله: لفي ضلال مُبين تسمّى اللّام الفارقة، أي: الّتي تفيد الفرق بين (إن) النّافية و(إن) المخفّفة من الثّقيلة، وما هي إلّا اللّام الّتي أصلها أن تقترن بخبر (إن)، إذِ الأصل: وإنّهم لفي ضلال مبين، لكن ذكر اللّام مع المخفّفة واجب غالبًا لئلا تلتبس بالنّافية، إلّا إذا أمن اللّبس[1]. المعنى: وإنّ الحال والشّأن والقصّة والواقع أنّهم كانوا من قبل بعثة الرّسول ﷺ في ضلال ظاهر يعرفه صاحبه[2].

في ذكر حالتهم الأولى بيان للفرق بين حالتيهم

ثمّ ذكر حالتهم الأولى منَ الضّلال في هذا التّذييل؛ ليُظهر الفرقَ بين حالَتَيْهم قبل البعثة وبعدها بتجاور الضّدّين[3].

صلة الآية الكريمة بما بعدها:

تمهيدٌ يهيِّئ نفوسَ المؤمنين لتقبّل تلويمهم

من عناصر الجمال الأدبيّ تزيّين الكلامِ المقصود بكلامٍ تتميميٍّ له عن طريق التّمهيد أوِ المقارنة أوِ التّذييل، فالتّمهيد يكون بعرض كلامٍ يُمهّد للمقصودِ بالذّات، وتزيِّنُها وتجعلها مقبولة؛ إشعارًا بتكريم المُخاطَب والتّلطّف معه، بحسب مكانته الاجتماعية بين قومه، فهذه الآية ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ بمضامينها قد كانت تمهيدًا يُهيِّئ نفوسَ المؤمنين لتقبّل تلويمهم على ما بَدر منهم من تذمُّر واستنكار لبعض المصائب الّتي أصابتهم في أعمالهم الجهاديّة، بأسباب من عند أنفسهم، فقال تعالى: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/210.
(2) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 2/46، وأبو حيّان، البحر المحيط: 3/110، والشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 3/1859.
(3) ابن عطية، المحرر الوجيز: 1/537.

الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

القراءة والتّلاوة:

التـّـلاوة قـراءة مشفوعة باتّباع

تختصّ (التّلاوة) باتّباع كتب الله المُنزّلة تارة بالقراءة، وتارة بالارتسام لما فيها من أمر ونهي، وترغيب، وترهيب، أو ما يتوهّم فيه ذلك، وهي أخصُّ من القراءة، فكلُّ تلاوة قراءة، وليس كلُّ قراءة تلاوة، لا يُقال: تلوتُ رقعتَك، وإنّما يُقال في القرآن في شيء إذا قرأتَه وجب عليك اتّباعُه[1].

التّلاوة قراءة من مكتوب بصوت

وتُستعمل التّلاوة للقراءة من مكتوب بصوت، ويتسامح فيها، فتكون من غير مكتوب لكن بصوت، وأمَّا القراءة فتُستعمل للقراءة من مكتوب ومن غير مكتوب، بصوت وبغير صوت، فإذا عُدّيا بـ (على) فهما بصوت[2].

التـّـلاوة ملازمة للقرآن من حيث تتابع القراءة

والتِّلاوةُ تكونُ فيما يطول، أي: يكثر من الكلام، ووجود عنصر التّلاحق أخذًا من الاتّباع واللّحوق في استعمالات التّركيب الذي يتيح ذلك؛ لأَنّ أصل التِّلَاوَة من قَولك: تَلا الشَّيء يتلوه إِذا تبعه، فإِذا لم تكن الكلمة تتبع أُختها لم تُستَعمل فيها التِّلاوة، وتُستعمل فيها القراءة[3]. ومن هنا قيل في التِّلَاوة: هي قراءة القرآن متتابعة[4].

ولِمَا تقدَّم من فرق دقيق بين اللّفظين تبيّن قصديّة اختيار لفظ التّلاوة بوصفه مخصوصًا بالقرآن، من حيث تتابع قراءته، فضلًا عن كونها قراءة من مكتوب بصوت، شريطة الاتّباع.

(1) الرّاغب، المفردات: (تلى).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (تلو - تلى).
(3) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 27 - 63.
(4) الكفويّ، الكليّات، ص: 308.

﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ١٦٥﴾ [آل عمران: 165]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لمَّا أخبر تعالى عنِ المنافقين أنّهم طعنوا في الرّسول ﷺ؛ بأن نسبوه إلى الغُلول والخِيانة، حكى عنهم شبهةً أخرى في هذه الآية، وهي قولهم: لو كان رسولًا من عند الله لما انهزم عسكره من الكفّار في يوم أُحد، وهو المُراد من قولهم: ﴿أَنَّىٰ هَٰذَاۖ﴾، وأجاب الله عنه بقوله: ﴿قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ﴾، أي: هذا الانهزام إنّما حصل بشؤم عصيانكم[1].

فوقف تعالى المؤمنين على الخطأ في قلقهم للمصيبة الّتي نزلت بهم، وإعراضهم عمّا نزل بالكفّار، وعرّفهم أنّ ذلك بسبب أنفسهم[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَصَٰبَتۡكُم﴾ ﴿مُّصِيبَةٞ﴾ ﴿أَصَبۡتُم﴾: الصَّاد والواو والباء أَصلٌ صحيحٌ يدُلُّ على نُزولِ شَيءٍ واستِقرَارِهِ قَرَارَه، ومنه الصَّوبُ، وهو نُزولُ المطرِ. والنَّازِلُ صَوبٌ[3]. وفي دائرة هذا الأصل تدور معاني الألفاظ الثّلاثة، فأصابته مصيبة، أي: أخذته، فهو مُصاب[4]. وأصاب السّهم: إذا وصل إلى المرمى بالصَّواب، ولم يُخطئ، والإصابة في الخير اعتبارًا بالصَّوب؛ أي: بالمطر، وفي الشّرّ اعتبارًا بإصابة السّهم، وكلاهما يرجعان إلى أصل النّزول والاستقرار[5].

ويُقال: أصاب الإنسان من المال وغيره، أي: أخذ وتناول[6]. والإصابة: النّزول بالشّيء واللّحاق به خيرًا كان النّازل أم شرًّا، ثمّ كثر في الشّرّ[7]. والمصيبة أصلها في الرّمية،

(1) الرّازي، مفاتيح الغيب: 9/420.
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 1/538.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (صوب).
(4) الجوهريّ، الصّحاح: (صوب).
(5) الرّاغب، المفردات: (صوب).
(6) ابن الأثير، النّهاية: (صوب).
(7) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (صوب).

ثمّ اختصّت بالنّائبة، نحو: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا﴾[1]. يُقال مصيبة، ومصوبة، ومصابة، والجمع مصايب، ومصاوب. وهو الأمر المكروه ينزل بالإنسان[2]، وهي النّازلة، والّذي جاء في القرآن منَ التّركيب: (الصّواب) ضدّ الباطل والخطأ، و(الصّيّب) المطر، و(أصاب) أراد، ثمّ الحَدَث الّذي يَنزل بالإنسان خيرًا أم شرًّا. وكلمة (مصيبة) لم تُستعمل في القرآن إلّا في التّعبير عمّا يعدّه الإنسان شرًّا[3]. ومعنى (أصبتم) غلبتم العدو، ونلتم منه مثلَيْ ما أصابكم به، يُقال: أصاب إذا غَلَب، وأصيب إذا غُلِب[4].

2) ﴿مِّثۡلَيۡهَا﴾: الميم والثّاء واللّام أَصلٌ صحيحٌ يدُلُّ على مُناظرة الشَّيءِ للشَّيءِ. وهذا مِثلُ هذا، أَي: نَظيرُهُ، والمِثلُ والمِثالُ في مَعنًى واحدٍ[5]. والمَثَلُ عبارة عن قولٍ في شيء يشبه قولًا في شيء آخر بينهما مشابهة؛ ليبيِّن أحدُهما الآخر ويصوِّرُه. وهو عبارة عن المشابهة للغير في معنى من المعاني أيّ معنى كان، وهو أعمُّ الألفاظ الموضوعة للمشابهة[6]. ومعنى (مثليها) في الآية الكريمة: يوم بدر؛ وذلك أنّ المشركين قتلوا من المسلمين يوم أُحد سبعين، وقَتَل المسلمون منهم يوم بدر سبعين، وأسروا سبعين[7]. أي: غلبتم العدو، ونلتم منه مثلَيْ ما أصابكم به في معركة أُحد[8].

3) ﴿قَدِيرٞ﴾: القاف والدّال والرّاء أَصلٌ صحيحٌ يدُلُّ على مَبلَغ الشَّيءِ وكُنهِهِ ونهايتِه[9]. ووصفُ اللّه تعالى بالقدرة نفي للعجز عنه، ومحالٌ أن يُوصفَ غير اللّه بالقدرة المُطلَقة معنى، وإن أطلق عليه لفظًا، ومتى قيل: هو قادر، فعلى سبيل معنى التّقييد، ولهذا لا أحدٌ غير اللّه يُوصَف بالقدرة من وجه إلّا ويصحُّ أن يُوصف بالعجز من وجه، فهو سبحانه المُنتفي عنه العجز من كلّ وجه. والقدير: من أسماء اللّه تعالى، وهو: كامل القدرة، الفاعل لما يشاء على قدر ما تقتضي الحكمة، لا زائدًا عليه ولا ناقصًا عنه؛ فبقدرته

(1) الرّاغب، المفردات: (صوب).
(2) ابن الأثير، النّهاية: (صوب).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (صوب).
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/161.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (مثل).
(6) الرّاغب، المفردات: (مثل).
(7) الواحديّ، التّفسير الوسيط: 1/517.
(8) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/161.
(9) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قدر).

أوجد الموجودات، وبقدرته سوَّاها، وأحكمها، وبقدرته يحيي، ويميت، ويبعث العباد للجزاء، ويجازي المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته، الذي إذا أراد شيئاً قال له: "كن" فيكون؛ ولذلك لا يصحُّ أن يُوصَف به إلّا الله تعالى[1]. ومعنى اللّفظ في الآية من القدرة بمعنى الطّاقة[2].

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

أصـــلُ حصـول الـــخـــذلان هـو شؤم العصيان

تسوقُ الآيةُ تسليةَ الله تعالى لعباده المؤمنين حين أصابهم يوم أُحدٍ ما أصاب المشركين يومَ بدر؛ فقد أصبتم مثليها من المشركين في يوم (بدر): بأن قَتلتم من كبارهم سبعين، وأسرتم منهم كذلك، فقلتم متعجبين: من أين أصابَنا هذا القتلُ والهزيمةُ، وقد تقدَّم الوعدُ بالنَّصر، ونحن مسلمون، وفينا رسولُ الله ﷺ؟ قل لهم أيُّها النبيُّ ﷺ: هو من عند أنفسكم؛ لأنّكم تركتم مركزَ المعركةِ، وأقبلتم على جمع الغنائم، وعصيتم الرَّسول ﷺ، فمِن قِبلِكم جاء الشّرُّ، فعودوا على أنفسكم باللَّوم، واحذروا من الأسباب المُرْدية؛ إنَّ الله يفعل ما يشاء ويَحْكم ما يريد، فإياكم وسوءَ الظنِّ بالله، فإنه قادرٌ على نصركم، ولكن له أتمُّ الحكمة في ابتلائكم ومصيبتكم[3].

وترشدُ الآية الكريمة إلى أنَّ أحوال الدُّنيا لا تدوم على حالةٍ واحدة[4]، وأنَّ الله وعد المؤمنين بالنَّصر شريطةَ أن يصبروا ويتّقوا[5]، وعلى المسلم الانقيادُ والتّسليم والطّاعة، فبها يتحقَّقُ الفلاح، ويُتحصَّل النَّصر والرَّباح.

(1) الرّاغب، المفردات: (قدر)، والبيهقي، الأسماء والصفات: 1/113، وابن تيمية، الجواب الصحيح: 3/224، والسعدي، تفسير أسماء الله الحسنى ص: 223.

(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (قدر).

(3) الواحديُّ، التّفسير الوسيط: 1/517، والسعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 71، ونخبة من العلماء، التفسير الميسر، ص: 71.

(4) الآلوسّي، روح المعاني: 4/116.

(5) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 3/969.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ إيلادِ الاستفهامِ حرفَ العطفِ:

حـقُّ المُتعجِّبِ المتغافلِ عن تقصيرِه الإنكارُ الشَّديدُ

غرضُ الاستفهامِ في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ﴾ الإنكارُ التّعجيبيّ على ما تقدّم؛ فإن قولهم: ﴿أَنَّىٰ هَٰذَاۖ﴾ ممّا يُنكره السّامع، ويُتعجَّب من صدوره منهم بعد ما علموا ما أتوا من أسباب المصيبة، إذ لا ينبغي أن يخفى على ذي فِطنة! وقد جاء مَوقِع هذا الاستفهام بعد ما تَكرّر من تسجيل تبعة الهزيمة عليهم بما ارتكبوا من عصيان أمر الرّسول ﷺ، ومن العجلة إلى الغنيمة، وبعد أن أمرهم بالرّضا بما وقع، وذكّرهم النّصر الواقع يوم بدر، عطف على ذلك هنا إنكار تعجّبهم من إصابة الهزيمة إيّاهم[1].

الـواو إمَّـا أنَّـها عـاطـفـةٌ عـلى مـحـذوفٍ أو مذكورٍ

يصحُّ في الواو في قولِه تعالى: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ﴾ أن تكون عاطفةً على ما مضى من قصّة أحد من قوله: ﴿وَلَقَدۡ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥٓ﴾ [آل عمران: 152]، ويجوز أن تكون عاطفةً على محذوف، تقديرُه: أفعلتُم ما فعلتم، ولمَّا أصابتكم مصيبةٌ.. قلتم[2]؟

نكتةُ توسيطِ الظَّرفِ ﴿أَوَلَمَّآ﴾ بينَ الهمزةِ ومتعلِّقِ الظَّرفِ ﴿قُلۡتُمۡ﴾:

يـــزدادُ قـبـحُ الأقوالِ إذا قيلت في غيرِ وقتها

جاءَ الظَّرفُ (لمّا) الذي هو بمعنى حين، متوسِّطًا بين همزةِ الاستفهام في ﴿أَوَلَمَّآ﴾ وبين متعلِّقِ الظَّرفِ الذي هو ﴿قُلۡتُمۡ﴾، ففي الكلامِ تقديمٌ وتأخيرٌ، وأصلُه: (أوَ قلتم لمَّا أصابتكم مصيبة..)؟ ونكتةُ ذلك تأكيدُ النّكير وتشديدُ التّقريع؛ فإنَّ فعلَ القبيح في غيرِ وقتِه أقبحُ، والإنكار على فاعله أدخلُ، والمعنى: أحين أصابكم من المشركين نصفُ ما قد أصابهم منكم قبل ذلك؛ جزِعتم، وقلتم: من أين أصابنا هذا[3]؟ ففيه تنبيهٌ على تحرِّي الأقوالِ، ومن ورائه

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/160.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/436، وأبو حيّان، البحر المحيط: 3/111.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/108، والآلوسّي، روح المعاني: 4/115.

تحذيرٌ في اختيارِ الأوقات؛ لأنَّ قُبحَ القولِ قد يكون ذاتيًّا، لكنَّه يزدادُ شدَّةً إذا كان في غيرِ زمنِه.

بلاغة المجاز في لفظ المصيبة:

سعة معنى المصيبة أوقع في الدّلالة على عظم الشّأن

إسناد الإصابة إلى المصيبة في قوله تعالى: ﴿أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ﴾ مجاز، وإلى المُخاطَبين حقيقة[1]، فالمصيب هو اللّه[2]، ولفظ المصيبة أوقع في الدّلالة على عظم الشّأن، فقد عبّر تعالى بها عن الموت، وهي من أعظم الأحداث.

دلالة لفظ ﴿مِّثۡلَيۡهَا﴾ وما يُستفادُ منها:

عند وقوعِ الشَّدائدِ تُستحضرُ الكرائم وتُستبعدُ المصائب

لبيان معنى مثليها في قوله تعالى: ﴿قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا﴾ علينا أن نعلم أنَّ المشركين لمَّا قتلوا من المسلمين يومَ أُحد سبعين، ذكَّرهم القرآنُ بما وقع يوم بدر إذ قتل المسلمون من المشركين سبعين، وأسروا سبعين[3]، فالمُراد بمثليها: المساويان في الجنس أو القيمة باعتبار جهة المماثلة، أي: إنّكم قد نلتم مثلي ما أصابكم، فإنّ رزايا الحرب أجناس: قتل، وأسر، وغنيمة، وأسلاب، فالمسلمون أصابهم يوم أُحد القتل: إذ قُتل منهم سبعون، وكانوا قد قَتلوا من المشركين يوم بدر سبعين، فهذا أحد المثلين، ثمّ إنّهم أصابوا من المشركين أسرى يوم بدر، فذلك مِثل آخر في المقدار إذِ الأسير كالقتيل. أو أُريد أنّهم يوم أُحد أصابوا قتلى إلّا أنّ عددهم أقلّ، فهو مثل في الجنس لا في المقدار والقيمة[4].

تذكيرُ النّاسي بالنِّعمِ عند المصائبِ حكمةٌ مرضيَّةٌ

وفائدة قوله: ﴿قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا﴾، أمران:

الأوَّل: التّنبيه على أنّ أمور الدّنيا لا تبقى على نهج واحد، فلمّا هزمتموهم مرّتين؛ فأيّ استبعاد في أن يهزموكم مرّة واحدة[5]؟!

(1) الآلوسّي، روح المعاني: 4/116.
(2) المطعنيّ، التفسير البلاغيّ للاستفهام: 1/197.
(3) الواحديّ، التّفسير الوسيط: 1/517.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/161.
(5) الرّازي، مفاتيح الغيب: 9/420.

الآخر: التّفضل منه تعالى على المؤمنين، بتسليتهم على ما أصابهم، وتذكيرهم بأنّهم قتلوا منهم سبعين، وأسروا سبعين، وهذا أبلغُ في المنّة والتّسلية، وهو أدعى إلى أن يذكروا نعم الله عليهم السّابقة، ويتناسوا ما جرى لهم يوم أُحد[1].

بلاغة الاستفهام بـ ﴿أَنَّىٰ﴾:

تعجب المنافقين وإنكارهم

و﴿أَنَّىٰ﴾ استفهام بمعنى: من أين؟ قصدوا به التّعجب والإنكار، وجملة: ﴿قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا﴾ جواب (لـمّا)، والاستفهام بـ ﴿أَنَّىٰ﴾ هنا مُستعملٌ في التّعجب[2]، و﴿أَنَّىٰ هَٰذَا﴾ نصبٌ لأنّه مقول، والهمزة للتّقرير والتّقريع[3].

نكتة التّعبير باسم الإشارة المذكّر ﴿هَٰذَا﴾:

التَّعبيرُ ترجمةٌ عن عِظَمِ الأمرِ في نفسِ المتكلِّم

تذكيرُ اسمِ الإشارةِ في حكايةِ قولِهم: ﴿أَنَّىٰ هَٰذَا﴾ مع كونه إشارةً إلى المصيبة ليس لكونها عبارةً عن القتل ونحوِه، بل لأنّ إشارتَهم ليست إلّا إلى ما شاهدوه في المعركة من حيث هو هو من غير أن يخطُر ببالهم تسميتُه باسمٍ ما فضلاً عن تسميته باسم المصيبةِ، وإنّما هي عند الحكاية[4]، ويجوز أن يكون التّذكير مراعاة لمعنى المصيبة المشار إليها[5]، وهذا يُترجمُ لنا أنَّ القرآنَ يُصوِّر لنا شخصيَّة المتكلِّم وما يدورُ في خلده.

وجه التّوكيد في جملة القول:

مـدارُ المصائبِ عـلى أعـمـالِ العبادِ

أكّد سبحانه جواب الاستفهام بأنّ سبب المصيبة من أنفسهم بإبراز الضّمير (هم) في الإجابة، والإتيان بالظّرف ﴿عِندِ﴾، وبالتّعبير بـ ﴿أَنفُسِكُمْ﴾ التي تدلّ على التّوكيد[6]، فالمعنى: أنتم

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/111.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/161.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/436.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/109.
(5) الآلوسّي، روح المعاني: 4/116.
(6) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 3/1493.

السّبب فيما أصابكم؛ لاختياركم الخروجَ من المدينة، أو لتخليتكم المركز، وعن علي رضي الله عنه: (لأخذكم الفداء من أسارى بدر قبل أن يؤذن لكم)[1].

بلاغةُ الفاصلةِ القرآنيَّةِ:

تقريرُ مضمونِ ما قبلَها داخلَ تحت الأمر

جُملة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾ تذييلٌ مُقرِّرٌ لمضمونِ ما قبلَها داخلٌ تحت الأمرِ[2]، أي: أنّ اللّه قديرٌ على نصركم وخذلانكم، فلمّا عصيتم وجرَرتم لأنفسكم الغضب قدّر اللّه لكم الخذلان[3].

وقد نبّه بجملة التّذييل على أنّه لم يُصبكم ما أصابكم لوهنٍ في دينِكم، أو ضعف في قدرة اللّه، وإنّما هو من عند أنفسكم، لا من خلل دخل في أمره، فإنّ اللّه على كلّ شيء قدير، ومن كان هذه حاله فهو قادر على دفاعهم[4].

وجه توكيد جملة التّذييل:

استجلاء واسع قدرته

أكّد سبحانه قدرته بلفظ ﴿إِنَّ﴾، وبإظهار لفظ الجلالة الّذي يُربي المهابة من الخلّاق العليم في قلب المؤمن، وبعموم قدرته سبحانه على ﴿كُلِّ شَيۡءٖ﴾، وهو القاهر فوق عباده، وهو الحكيم الخبير[5]، والتّعبير بصيغة (فعيل) الدّالّة على ثبوت صفة القدرة فيه، وتمكّنها، ورسوخها على وجه المبالغة.

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

المِثْل، والنّدّ، والشّبه، والشّكل:

المثل أعمّ الألفاظ الموضوعة للمشابهة

فرّق الرّاغب بين لفظ المثل وما يقاربه من لفظ في المعنى بالقول: " المِثْل عبارة عن المشابهة لغيره في معنًى من المعاني أيَّ معنى كان،

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/437.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/109.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/161.
(4) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 3/971.
(5) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 3/1494.

وهو أعمُّ الألفاظ الموضوعة للمشابهة، وذلك أنَّ النّدَّ يُقال فيما يشارِك في الجوهر فقط، والشِّبْه يُقال فيما يشارِك في الكيفيّة فقط، والمساوي يُقال فيما يشارِك في الكميّة فقط، والشّكل يُقال فيما يشارِكه في القَدْر والمساحة فقط، والمِثْلُ عامٌّ في جميع ذلك، ولهذا لمّا أراد اللّه تعالى نَفْيَ التّشبيه من كلّ وجه خصّه بالذّكر فقال: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ﴾ [الشّورى: 11]"[1]. ولعمومه الدلالة اختير في الآية ليعبّر عن عموم الشّبه فيما وقع بين الفريقين من الإصابة في المعركتين.

(1) الرّاغب، المفردات: (مثل).

﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَلِيَعۡلَمَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٦٦ وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْۚ وَقِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ قَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدۡفَعُواْۖ قَالُواْ لَوۡ نَعۡلَمُ قِتَالٗا لَّٱتَّبَعۡنَٰكُمۡۗ هُمۡ لِلۡكُفۡرِ يَوۡمَئِذٍ أَقۡرَبُ مِنۡهُمۡ لِلۡإِيمَٰنِۚ يَقُولُونَ بِأَفۡوَٰهِهِم مَّا لَيۡسَ فِي قُلُوبِهِمۡۚ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يَكۡتُمُونَ ١٦٧﴾ [آل عمران: 166 - 167]

❁ مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِمَا قَبْلَها:

عواقب المخالفة للرّسول، والتّأكيد أنّ الأقدار والمصير بيد القدير

لَمّا بَيَّنَ اللّهُ سُبحانَهُ وتَعالَى لجَماعةِ المؤمِنينَ في الآيةِ السّابقَةِ، أنّ الّذي أَصَابهُمْ يومَ أُحُدٍ مِنَ القَتْلِ والجِراحِ، كانَ بِسببِ مُخالفةِ الرُّماةِ لِمَا أَمَرهُم بهِ النّبيُّ ﷺ مِنْ لُزُومِ المكانِ الّذي عيَّنَهُ لَهمْ، وعَدَمِ مُفَارقَتِهم لَهُ عَلَى كُلِّ حَالٍ؛ أَرادَ أنْ يُبَيِّنَ لَهمْ في هَذهِ الآيةِ ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ﴾ أنّ ما وقعَ لهم هو بقَضاءِ اللّهِ وقَدَرِه، لا مَرَدّ لهُ، ولا بُدَّ مِن وقوعِه، وهذه حِكمَةٌ عَقَديةٌ جَليلَةٌ، يَعضُدُها حِكْمةٌ أُخْرَى؛ وهي أنَّ ما حدثَ إنْ هو إلّا فَرْزٌ، وتمَييزٌ لِلمُؤمنينَ منَ المُنافِقينَ، الَّذين لَمّا أُمِروا بالقتالِ، تَعلَّلُوا بِحُجَجٍ واهِيةٍ، وأَسبابٍ كاذِبةٍ تَزيدُهُمْ بُعداً عَنِ اللّهِ، وتَنَكُّبًا عن صِراطِهِ المُستَقيم. قيل في معنى كلامهم: لو نعلم أنكم ذاهبون لقتال لذهبنا معكم ولكنكم ذاهبون لهلاك محقَّق فنحن لا نذهب معكم هؤلاء الناس يوم أن قالوا هذه المقالة وتخلّفوا عن جيش المسلمين هم يومئذ للكفر أقرب منهم للإيمان[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَصَٰبَكُمۡ﴾: (صابَ) السَّهمُ، مِنْ بابِ بَاع، لغةٌ في

(1) الحجازيّ، التّفسير الواضح، ص: 306.

(أَصابَ)، والمرادُ هنا: فرارُكُم بينَ يَدَيْ عدوِّكُم، وقَتلِهم لجماعةٍ مِنكُم، وجِراحتِهمْ يومَ (أُحُدٍ)، والصّواب: نقيض الخطأ. والتّصوّب: حدب في حدور، تقول: صوّبتُ الإناء ورأس الخشبة، ونحوه تصويبا.. والعرب تقول للسّائر في فلاة تقطع بالحدس، إذا زاغ عن القصد: أقم صوبك أي قصدك، وفلان مستقيم الصّوب إذا لم يزغ عن قصده يمينًا وشمالًا في مسيره[1].

2) ﴿فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾: أَذِنَ بمعْنَى عَلِمَ، وبابُهُ طَرِبَ[2]؛ أيْ: فبعلمِ اللهِ وقَضائِهِ وقَدَرِه، "أي ما أصابكم حين التقيتم أنتم وعدوّكم فبإذني"[3]، أو" يا معشر المؤمنين يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعانِ بأُحد من القتل والجرح والهزيمة والمصيبة فَبِإِذْنِ اللَّهِ بقضائه وقدره وعلمه"[4].

3) ﴿وَلِيَعۡلَمَ﴾: عَلِمَ يَعلَمُ عِلْمًا: عَرَفَه[5]، والمرادُ بالعلمِ هنا: التّمييزُ والإظهارُ؛ لأنَّ عِلمَ اللهِ ثابِتٌ قَبلَ ذلك، "ولما كان علم الله تعالى محيطًا وشاملًا لكل ما كان ويكون، ولكلّ ماض وحاضر ومستقبل، ولكلّ سرٍّ وعلن، ولكلّ ما في صدور النّاس، وليس من شيء من كونه وخلقه غير معلوم عنده.. فمن واجب المؤمن أن يؤمن بذلك، وأن يعتبر مثل هذا التّعبير أسلوبيًّا بمعنى (ليظهر) و(ليتبيّن) و(لينكشف) ما هو خاف على النّاس من أحداث وأفعال وصور، وهذا هو ما عليه جمهور المؤوّلين، وهو من المألوفات الخطابيّة"[6].

4) ﴿نَافَقُواْۚ﴾: النِّفاقُ: فِعلُ المُنافِقِ، يُقَالُ: نَافَقَ الرَّجُلُ إِذَا أَظْهَرَ كَلِمَةَ الْإِيمَانِ وَأَضْمَرَ خِلَافَهَا في قلبه، وَالنِّفَاقُ اسْمٌ إِسْلَامِيٌّ اخْتُلِفَ في اشْتِقَاقِهِ، فقيل هُوَ مِنْ نَافِقَاءِ الْيَرْبُوعِ، وَذَلِكَ لِأَنَّ جُحْرَ الْيَرْبُوعِ لَهُ بَابَانِ: الْقَاصِعَاءُ وَالنَّافِقَاءُ، يهرب من أحدهما إذا هوجم من الآخر، فَقِيلَ لِلْمُنَافِقِ إِنَّهُ مُنَافِقٌ، لِأَنَّهُ وَضَعَ لِنَفْسِهِ طَرِيقَيْنِ، إِظْهَارَ الْإِسْلَامِ وَإِضْمَارَ الْكُفْرِ، وقيل في رأي آخر: الْمُنَافِقُ مِنَ النَّفَقِ، وَهُوَ السِّرْبُ، وبه يتستّر كما يتستّر المنافق بالإسلام، وباطنه الكفران، وقيل إنّ اليربوع يحفر النّافقاء، ويرقّق القشرة من التّراب الّذي فوق الجحر، حتّى إذا التمس خطرًا، دفع التّراب وخرج هاربًا، فَقِيلَ لِلْمُنَافِقِ: إنّه

(1) الخليل، العين: (صوب).
(2) الفيرزآبادي، القاموس المحيط: (أذن).
(3) ابن جرير، جامع البيان: 6/221.
(4) الثعلبي، الكشف والبيان: 3/200.
(5) الفيرزآبادي، القاموس المحيط: (علم).
(6) دروزة، التّفسير الحديث: 3/19.

مُنَافِقٌ، لِأَنَّهُ يُضْمِرُ الْكُفْرَ فِي بَاطِنِهِ، فَإِذَا فَتَّشْتَ قلبه رَمَى عَنْهُ ذَلِكَ الْكُفْرَ، وادّعى أنّه متمسّكٌ بِالْإِسْلَامِ، وهو أيضًا في بعض المصادر مأخوذ مِنْ نَفَقَ الرَّجُلُ والدَّابّةُ نُفوقًا بمعنى: مَاتَا، وكأنَّ المرادَ هنا: أنَّ المنافقَ قد ماتَ الإيمانُ في قلبِه. والمرادُ بالمنافقينَ هنا: عبدُ اللهِ بنُ أُبَيّ وأَصحابُه، وهُمُ الّذينَ نافَقُوا؛ أيْ: أَظهَرُوا الإيمانَ، وأَبطَنُوا الكُفرَ[1].

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

ما يستفاد من أحداث أُحُد الأليمة، ينفع من قبل ومن بعد الهزيمة

أَخبرَ البيانُ الإلهيُّ صحابةَ رسولِ اللهِ ﷺ، أنَّ ما أصابَهُم يومَ التقَى جَمعُهمْ مع جَمعِ المشركِينَ في غَزوةِ أُحُدٍ، مِنَ القَتلِ والهزيمةِ؛ أنَّه بإذنِه وقَضائِه وقَدَرِه، لا مَرَدَّ لهُ، ولا بُدّ مِن وُقوعِه؛ وليسَ لهم إلّا التَّسليمُ لهُ، يُغَلِّفُ ذلكَ ويُبطِّنهُ حِكَمٌ جَليلةٌ وفوائدُ جَسيمةٌ؛ ومِن أَعظَمِها تمييزُ المؤمِنينَ مِنَ المنافِقينَ، أولئكَ المنافِقونَ الَّذين قالَ لهمُ المؤمنونَ: تعالَوْا قاتِلوا ذَبّاً عَن دِينِ اللهِ، وحمايةً له، وطلباً لِمَرضاةِ اللهِ، أوِ ادْفَعوا عَن مَحارِمِكمْ وبَلدكمْ، إنْ لم تَكُنْ لكُمْ نيَّةٌ صَالحةٌ؛ فَأَبَوْا ذلكَ واعتَذَروا أَعذارًا واهِيةً كاذِبة؛ حيثُ قالُوا: لو نَعلمُ أنّكمْ يَصيرُ بينَكُم وبَينَهم قتالٌ؛ لاتَّبعناكُمْ، وقَد عَلِمُوا يَقينًا أنّ المشركِينَ قدْ بَذَلواْ أموالَهمْ وجَنَّدُوا أعدادَهُم وعُدَدَهم قاصدِينَ قِتالَ المؤمنِينَ في بَلدِهم، يَسبِقُهم حِقدُهم وغَيظُهم على المؤمنينَ، بما أَصابُوا مِنهُم يَومَ (بَدْرٍ). في تلكَ الحالِ الّتي تَركَ فيها المنافِقونَ الخُروجَ مع المؤمنينَ للقتالِ، مُظهرينَ بكلامِهمْ وأَفعالِهم خِلافَ ما يُبطِنونَ في قُلوبِهمْ وسَرائِرِهم؛ كانُوا أقرَبَ لِلكُفرِ؛ الَّذي انْطوَتْ صُدُورُهم عليهِ مِنَ الإيمانِ الَّذي يَتجَمَّلونَ به كَذِبًا وزورًا، والّذي يَعلَمُه اللهُ، وَلا يَعلمُه غَيرُه سُبحانَهُ وتَعالَى. ووَهِمَ أُولئكَ المنَافِقونَ أنَّ التَّخلُّفَ عنِ الجِهادِ يَقِي الإنسانَ مِنَ القَتلِ والموتِ؛ فوَقَعُوا في شَرِّ التَّكذِيبِ بقَضاءِ اللّهِ وقَدَرِه، فجاءَ الرَّدُّ الإلهِيُّ حَاسِمًا، قلْ يا مُحَمّدُ ﷺ لهم:

(1) الرّازي، مفاتيح الغيب: 9/422.

ادْفَعُوا عنْ أَنفُسِكُمُ المَوْتَ الّذي فَرَرْتُم مِنهُ، إنْ كُنتُم صَادِقِينَ في ادِّعائِكُم، ولَن تَستَطيعُوا[1].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

دِلَالَةُ الْوَاوِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ﴾:

وُجُوبُ التَّسْلِيمِ لِقَضَاءِ اللهِ تَعَالَى الْكَوْنِيِّ

الواوُ في قوله: ﴿وَمَآ﴾ عاطفةٌ، فقد عَطفتْ قولَه سبحانَهُ: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمۡ﴾ على قولِه في الآية السَّابقة: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ﴾، وهو كلامٌ واردٌ على معنى التَّسليم؛ أيْ: هَبُوا أنَّ هذه مصيبةٌ، ولم يكنْ عنها عِوَضٌ، فهي بقَدَرِ اللّهِ تعالَى، فالواجبُ التّسليمُ[2].

ويحتَمِلُ أن تكونَ الواوُ استئنافيَّةً، ويكون قولُهُ تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمۡ﴾ كلامًا مستأنفًا؛ سيقَ تتمَّةً لقصَّةِ غزوةِ أُحُدٍ[3].

والأوَّلُ أظهَرُ، ولا يُشكِلُ عليه أنَّ فيه عطفَ الخبَرِ على الإنشاءِ؛ لأنَّ المنعَ من ذلك - على ما هو مشهورٌ - لا يصحُّ، فإنَّ القرآنَ طافحٌ بعطفِ الخبر على الإنشاءِ وعكسِه[4]، والذي حسَّنَ العطفَ اشتراكُ الجُمْلَتَيْن في المُسْنَدِ - وهُوَ الإصابَةُ - والمُسْنَدِ إِلَيْهِ - وهو الضَّمير الرَّاجع إلى المُخَاطَبين -.

دِلَالَةُ ﴿وَمَآ﴾ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمۡ﴾:

التَّذْكِيرُ بِالْمَصَائِبِ مُجَدِّدٌ لِلْأَحْزَانِ

(ما) في قولِه تعالَى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمۡ﴾ اسم موصولٌ مُضَمَّنٌ معنَى الشَّرطِ، والمعنَى: وأمّا الذي أصابكُم فمتوقِّفٌ على إذنِ اللّه تعالى؛ لأنَّ قولَهُ: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمۡ﴾ معناهُ: بيانُ سَبَبِه وحِكْمتِه؛ ولذلك قُرِنَ الخَبرُ بالفاءِ في قوله: ﴿فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾ الّتي دَخَلتْ في جَوابِ المَوصولِ؛ لِكونِهِ أُشرِبَ معنى الشَّرطِ.

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 1/374، والسَّعدي: تيسير الكريم الرحمن، ص: 117.
(2) ابن عاشور: التحرير والتنوير: 4/162.
(3) الدّرويش، إعراب القرآن وبيانُه: 2/102 - 103.
(4) ابن عاشور: التحرير والتنوير: 29/210.

والاسمُ الموصولُ دالٌّ على العموم، ولذا أُوثِرَ التَّعبيرُ بهِ في قوله: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمۡ﴾؛ لدلالَتِه على جميعِ أفرَادِ ما أصابَهم من غيرِ تصريحٍ بهذه الأفرادِ؛ لئلَّا يُجدِّدَ أَحْزَانَهمْ، فيكُون جامعًا بين إظهارِ الحقِّ في إثباتِ القدَرِ وإخفاءِ تفاصيلِ مُصابِهِمْ.

نُكْتَةُ وَضْعِ الْمُظْهَرِ مَوْضِعَ الْمُضْمَرِ فِي قَوْلِه: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمۡ﴾:

إِرْشَـــادُ أَهْـلِ الْإِيـمَـانِ إِلَى طَرِيقِ الْحَقِّ

قال اللّهُ سبحانه: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمۡ﴾، ولم يقلْ: وهي - أي: المصيبةُ - بإذنِ اللّهِ، فهو إظهارٌ في موضِعِ الإضْمَارِ، والنُّكْتَةُ في ذلك: التَّهويلُ، وزيادةُ التَّقريرِ ببيانِ زمان المصيبةِ بقولِه: ﴿يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ﴾ أيْ: جمعُكم وجمع المشركين، وفي الإظهارِ أيضًا: إعلانٌ بذِكْرِ المُصيبةِ، وأنَّها بإذْنِ اللّهِ تعالَى، والمقامُ مَقامُ إظهارِ الحقيقةِ[1]، والاسم الظَّاهِرُ أدلُّ على ذلكَ مِنَ الضَّميرِ الرَّاجِعِ إليه.

وفي توجيهِ الخِطابِ لجماعةِ المُؤمنين بقوله: ﴿أَصَٰبَكُمۡ﴾ إرشادٌ لهم إلى طريقِ الحقِّ، فيما سَألُوا عنْه، وبيانٌ لبعضِ ما فيه مِنَ الحِكَمِ والمصالِحِ.

بَلَاغَةُ الِاحْتِرَاسِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾:

كُـلُّ مَـا يَـقَـعُ فِي الْعَـالَـمِ حَـاصِـلٌ بِإِرَادَةِ اللهِ تَعَالَى الْكَوْنِيَّةِ

قولُ اللّه تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾ احتراسٌ؛ وذلك أنَّ قولَهُ سُبحانه قبلُ: ﴿هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ﴾ قد يُوهِمُ استقلالَهُم في وقوعِ الحادثةِ، أو أنَّ بعضَ من ترسَخَ قدمُهُ في الإيمانيَّاتِ يتوهَّمُ أن من الأفعال ما هو خارجٌ عن الإرادةِ الكونيَّةِ الإلهيَّةِ، فدُفِعَ هذا التَّوهُّمُ بقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾[2].

(1) ابن عاشور: التحرير والتنوير: 4/162.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السّليم: 1/594.

نُكْتَةُ حَذْفِ حَرْفِ الْجَرِّ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ﴾:

عُدِلَ عنِ التَّعبير بـ: (ومَا أصَابَكُم في يوم الْتَقَى الجَمْعَان) إلى ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ﴾، بإسقاط حرف الجرِّ؛ للإشعار بأنَّ الحرفَ استغرقَتْ ذلك اليومَ كُلَّهُ[1]، فاجتمعت عليهم شدَّةُ المصائبِ، وطولُ الابتلاء بالحربِ باستيعَابِ وقوعِهَا اليومَ كُلَّهُ.

شِدَّةُ بَلَاءِ أَهْلِ الْإِيمَانِ يَوْمَ أُحُدٍ

واللَّامُ في ﴿ٱلۡجَمۡعَانِ﴾ للعهد العلميِّ الخارجيِّ، والمرادُ بِهِمَا: جمعُ الْمُسْلِمِينَ وجَمْعُ الْمُشْرِكِينَ الذين اجْتَمَعُوا في أُحُدٍ لِلْقِتَال.

سِرُّ التَّعْبِيرِ بـ ﴿يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ﴾ دُونَ (يَوْمَ أُحُدٍ):

جاءَ التَّعبير عن غزوةِ أحدٍ بقوله: ﴿يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ﴾، ولم يَرِدِ النَّظمُ القرآنيُّ: (يوم أُحُدٍ)، وفي التَّعبير بالْتِقَاء الجَمْعَين: إشعارٌ بقوَّة التَّجمُّعِ في الفريقَيْن؛ وذلك دالٌّ على أنَّ كلًّا منهما عازمٌ على القتالِ، راغبٌ في النَّصْرِ رغبةً شديدةً، فهزيمةُ المشركين في بَدْرٍ جمعَتْهُم في أُحُدٍ وجعلَتْ لهم عزيمةً قويَّةً على الانتقام، وإيمانُ المؤمنينَ قوَّى أملَهُم في اللهِ تعالى بنَصْرِهم على أعدائِهم أو استشْهَادِهم في سبيلِهِ.

الْإِيمَانُ بَاعِثٌ عَلَى قُوَّةِ الرَّجَاءِ فِيمَا عِنْدَ اللهِ تَعَالَى

دِلَالَةُ الْوَاوِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَلِيَعۡلَمَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾:

الواوُ في قَولِهِ تَعالَى: ﴿وَلِيَعۡلَمَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ عاطفةٌ، فقد عطفَت ما دخلَتْ عليهِ عَلَى قولِهِ تَعالَى قبلُ: ﴿فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾، وهو مِن بابِ عَطْفِ المسَّببِ على السَّبب.

والمُرادُ بالعِلم هُنا التَّمييزُ والإظهارُ بَيْنَ النّاس[2]، أو أنَّ المرادَ علمُهُ سُبحانَهُ ذلكَ علمًا يترتَّبُ عليه الثَّوابُ والعقابُ، وإلَّا فإنَّ أصلَ علمِهِ تعالى بِهِمْ أَزَلِيٌّ[3].

عِلْمُ اللهِ تَعَالَى قِسْمَانِ عِلْمُ رُؤْيَةٍ وَظُهُورٍ وَمُشَاهَدَةٍ، وَعِلْمٌ يَتَرَتَّبُ عَلَيْهِ الثَّوَابُ وَالْعِقَابُ

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 5/118.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 4/167.
(3) ابن عثيمين، تفسير سورة الكهف، ص: 24.

نُكْتَةُ تَكْرَارِ فِعْلِ الْعِلْمِ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝١٦٦ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْۚ﴾:

اخْتِلَافُ دِلَالَةِ الْفِعْلِ بِاخْتِلَافِ مُتَعَلَّقِهِ

كُرِّر الفعل (يَعْلَم) مِن قولِه تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝١٦٦ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْۚ﴾ لِنُكْتَتَيْنِ[1]:

إحدَاهُمَا: تَمييزُ المُؤمنينَ، وإظهارُ شَرفِهم ومَكانتِهم، وتَنْزيهُهم عنِ الانْتظامِ في سِلْكِ المنافِقينَ.

والأُخْرَى: الإيذانُ باخْتلافِ حالِ العلمِ بحَسَبِ التَّعلُّقِ بالفَريقَيْنِ؛ فإنّه مُتعلِّقٌ بالمؤمِنينَ على جهةِ وعدِهم وَإثابَتِهم وجزائِهِمُ الجزاءَ الحسنَ، وتعلُّقُهُ بالمنافقينَ على جِهَة وعيدِهم وتهديدِهم وعقابِهم العقابَ الأليمَ.

سِرُّ التَّعْبِيرِ عَنْ أَهْلِ الْإِيمَانِ بِالِاسْمِ وَعَنْ أَهْلِ النِّفَاقِ بِالْفِعْلِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝١٦٦ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْۚ﴾:

التَّحْذِيرُ مِنَ الِاتِّصَافِ بِأَدْنَى شَيْءٍ مِنَ النِّفَاقِ

استُعملَت صيغةُ اسم الفاعل في لفظ المؤمنين، وصيغة الفعل الماضي في صلةِ الموصولِ في قولِه تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝١٦٦ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْۚ﴾؛ وذلك لأنَّ صيغةَ اسم الفاعلِ ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝١٦٦﴾ مُنبئةٌ عنِ الثُّبوتِ وَاسْتمرارِ الوصفِ ودَيمُومَتِهِ، مع تمكُّنِ اسمِ الفاعل مِن الدّلالةِ على تمكُّنِ الصِّفةِ مِن صاحبها حتّى باتَتْ اسْمًا له، بخِلافِ صيغةِ الفعلِ ﴿نَافَقُواْۚ﴾؛ فدالَّةٌ على الحُدوثِ؛ فناتجُ المعنَى: وما أَصابَكمْ يَومَئِذٍ؛ فهو كائنٌ لِتَمييزِ الثَّابتينَ على الإيمانِ، والّذينَ أَظْهَروا النّفاقَ[2].

وفي التَّعبير عَنِ المؤمِنِين باسْمِ الفاعل وعَنِ الكَافِرين بالفعْلِ إيماءٌ إلى أنَّ وعدَ اللّهِ تعالى بالجزاءِ الحسن إنَّما هو لِمَنْ ثبَتَ لَهُ

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السّليم: 1/594 - 595.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السّليم: 1/595.

وصفُ الإيمانِ ظاهرًا وباطنًا، وأنَّ الوَعِيدَ بالعقابِ لمن اتَّصفَ بأدنَى شيءٍ مِن النِّفاقِ[1].

تَوْجِيهُ الْمُتَشَابِهِ اللَّفْظِيِّ:

دِقَّـــةُ الْـقُـرْآنِ الْكَرِيمِ فِي اخْتِيَارِ الْأَلْفَاظِ الْمُنَاسِبَةِ لِسِيَاقَاتِهَا

قال الله تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْۚ﴾، وقال في سورة: ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ ١١﴾ [العنكبوت: 11]، وسرُّ المغايرةِ بينهما: أنَّ آية آل عمران سُبقت بقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، فكان مقتضى الظَّاهرِ التَّعبير بـ (المنافقين) هنا؛ ليُشَاكِل قوله قبل: ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، إلَّا أنَّ السِّياقَ لمَّا تعلَّق بما منَّ الله تعالى به على المؤمنين بكشفِ جميع مَن تلبَّسَ بنفاقٍ؛ ناسبَهُ التَّعبير بالموصولِ وصِلَتِه، فقال: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْۚ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ قَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُواْۖ﴾.

وأمَّا آية العنكبوت؛ فصُدِّرت بقوله تعالى: ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، فكان مقتضى الظَّاهر التَّعبير بـ (الذين نافقوا) ليُشاكِلَ قولَهُ قبلُ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، إلَّا أنَّه لمَّا سُبقَ ذلك بقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِيَ فِي ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِۖ وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْۚ﴾ [العنكبوت: 10]، وأفادَ ذلك الرُّسوخَ في النِّفاقَ؛ كان المناسب التَّعبير بالوصف فقال سبحانه: ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ ١١﴾ [العنكبوت: 11][2].

دِلَالَةُ الْوَاوِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ قَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾:

أَثَـــرُ دِلَالَاتِ الْـحُـرُوفِ فِي تَوْجِيهِ الْمَعَانِي

الواوُ في قَوله تَعالى: ﴿وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ قَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ يجوزُ أَن تَكُونَ عاطفةً، فقد عطفَتْ مدخولَهَا على جملة الصِّلَةِ ﴿نَافَقُواْۚ﴾، أي: (الذين قيل لهم..).

ويجُوزُ أنْ تكونَ الواوُ استئنافيَّةً، ويكون قولُه سُبحانه: ﴿وَقِيلَ لَهُمْ

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/442.

(2) سعد عبد العظيم محمّد، استدراك ما فات من بلاغة الآيات المتشابهات، ص: 342.

تَعَالَوْاْ قَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ كَلامًا مُبتَدَأً[1]، ويكونُ في هذا اسْتِطْرَادٌ؛ إذْ أوردَ قِصَّة مِن قِصَصِهم تناسبُ هذا المَقَامَ[2].

إلَّا السِّباقَ واللِّحاقَ فيما قَبْلَ قولِهِ: ﴿وَقِيلَ لَهُمْ﴾ وما بعدَه؛ يُرجّحُ أنْ يكونَ قولُه: ﴿وَقِيلَ لَهُمْ﴾ معطوفًا على ﴿نَافَقُواْ﴾ داخلًا مَعَهُ في حَيِّز الصِّلةِ، مُبيِّنًا لِلْمُرادِ من النِّفاقِ، وأنَّهُ نِفَاقٌ خَاصٌّ أظْهَرُوهُ في ذلكَ المَوقفِ.

نُكْتَةُ بِنَاءِ الْفِعْلِ لِمَا لَمْ يُسَمَّ فَاعِلُهُ فِي قَوْلِهِ تعَالَى: ﴿وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ قَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾:

امْتِلَاءُ الْقُلُوبِ نِفَاقًا مَانِعٌ مِنَ الِانْقِيَادِ لِلْخَيْرِ وَلَوْ كَثُرَ دُعَاتُهُ

بُنِيَ الفعل (قِيلَ) من قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ قَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُواْ﴾ لما لَمْ يُسَمَّ فاعلُهُ؛ للإيماءِ إلى كثرةِ مَن قالَ لهم ذلكَ؛ فقالَ لهم النَّبيُّ ﷺ وأصحابُهُ، وأهلُهم وعشيرتُهم المؤمنُونَ، إلَّا أنَّهم امتَنَعُوا - مَعَ كَثْرَة القائلين -؛ لامتلاءِ قُلوبِهم نفاقًا[3].

بَلَاغَةُ تَرْكِ الْعَطْفِ فِي قَوْلِهِ: ﴿تَعَالَوْاْ قَٰتِلُواْ﴾:

مِنْ مَقَاصِدِ الْجِهَادِ إِقَامَةُ شَرْعِ اللهِ تَعَالَى قَوْلًا وَعَمَلًا وَاعْتِقَادًا

الأَصلُ في قِتالِ المؤمنينَ لِعدُوِّهم: أنَّهُ جِهادٌ في سَبيلِ اللّه، والقيامِ بشرعِ اللّهِ قَولًا وسُلوكًا في البلادِ وبَينَ العِبادِ، وهذا هو الأَساسُ في دَعوةِ المؤمنينَ لِغيرِهم في القتالِ مَعَهم حتّى لوْ كانُوا مُنافقينَ؛ ولهذا قالَ اللّه عنهُم: ﴿تَعَالَوْاْ قَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، وهو الخيارُ الأوّلُ الّذي نَطقَ بهِ أَهلُ الحقِّ وهُمُ المؤمِنونَ، وإنْ لم يَرضَ بهِ أَهلُ النّفاقِ؛ فَليكُن قِتالُهمْ لِدفعِ القَتلِ والجِراحِ عَنْ أهلِهم وحَريمِهم وبَلَدِهم، أو تكثيرِ سَوادِ المسلمين؛ فَيرَى العدوُّ كَثْرتَهم؛ فَيَتَسلَّلُ الوَهْنُ والخَوْفُ إلى قلبِهِ فيتراجَعُ، أو تَنكسِرُ شَوكَتُه فَينهزِمُ[4].

(1) الزّمخشري، الكشاف: 1/477.
(2) الطِّيبيّ، فتوح الغَيب: 4/335.
(3) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 3/1496.
(4) قال ابنُ عطيَّةَ في المحرّر الوجيز: 3/413: " ولا مَحالةَ أنّ المرابِطَ مُدافِعٌ، والمُكَثِّر للسَّوادِ مُدافِعٌ ".

وتُرِكَ العطفُ بيْنَ فعلِ ﴿تَعَالَوْاْ﴾ وفعل ﴿قَٰتِلُواْ﴾؛ لأنَّه أرادَ أنْ يَجعلَ كلَّ واحدةٍ منَ الجُملتَيْن مَقصودةً بنَفسِها، أو أنَّه أرادَ أن يكونَ قولُه: ﴿قَٰتِلُواْ﴾ بدلًا من ﴿تَعَالَوْاْ﴾، فالمقصودُ بهما واحدٌ وهو الْقِتَالُ، وذُكِرَ الفعلُ ﴿تَعَالَوْاْ﴾ توطئةً وتمهيدًا للقِتَالِ، وترغيبًا فيه[1]، وفي اقترانِ الفعلينِ على هذَا النّسَقِ إيماءٌ إلى أنَّ العلوّ مقدِّمةُ القتالِ، والقتالَ غايةُ العلوِّ.

دِلَالَةُ ﴿أَوِ﴾ وَبَلَاغَةُ التَّعْرِيضِ فِي قَوْلِهِ: ﴿قَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدۡفَعُواْۖ﴾:

جاءتْ (أوْ) في قولِه تعالى: ﴿قَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدۡفَعُواْۖ﴾ لِتُفيدَ التَّخييرَ، حيثُ قَسَمَ الأمرَ عليهِمْ بَينَ أنْ يُقاتِلوا للآخرةِ، كَما يُقاتِلُ المؤمنونَ، أو أنْ يُقاتِلوا دَفْعًا عن أنفُسِهمْ وأهليهِم وأموالِهم[2].

شَأْنُ أَهْلِ الْإِيمَانِ التَّجَرُّدُ لِمَطْلُوبَاتِ الْآخِرَةِ

وفي تقديم القِتَالِ في سَبيلِ اللّهِ تعالى على الْقِتَالِ دَفْعًا: تَرَقٍّ مِنَ الأعلَى إِلَى الأدْنَى؛ إذْ مَطْلُوباتُ الآخرةِ لا تُدَانيها مطلُوبَات الدُّنيا.

وفي قَوْلِه: ﴿قَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدۡفَعُواْۖ﴾ تَعْريضٌ بالمنافقينَ؛ إذْ مِن شأنِ المؤمنِين الصَّادِقين أَن يتجرَّدوا للآخرةِ، فلمَّا ذُكِرَ الدَّفعُ أبانَ عَن تحريضٍ خاصٍّ بِمَنْ لا ينظرُ للآخرةِ نَظرَ المُترقِّبِ.

سَبَبُ فَصْلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالُواْ لَوۡ نَعۡلَمُ قِتَالٗا لَّٱتَّبَعۡنَٰكُمۡۗ﴾ عَمَّا قَبْلَهُ:

فُصل قولُ اللّهِ تعَالَى: ﴿قَالُواْ لَوۡ نَعۡلَمُ قِتَالٗا لَّٱتَّبَعۡنَٰكُمۡۗ﴾ عمَّا قبلُ؛ لِمَا بينَهُما من شِبْهِ كمال الاتِّصالِ، وهو المسمَّى: الاستئنافَ البيانيَّ؛ وذلك أنَّ قوله سُبحانه: ﴿وَقِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ قَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدۡفَعُواْۖ﴾، أورثَ سؤالًا في أذهانِ المتلقِّين للخطابِ، كأنَّه قيل: فَماذا صَنَعوا حينَ خُيِّروا بَينَ الخَصْلَتَينِ المذكورَتَينِ؟ فجَاء الجوابُ: ﴿قَالُواْ لَوۡ نَعۡلَمُ قِتَالٗا لَّٱتَّبَعۡنَٰكُمۡۗ﴾[3].

أَثَرُ الِاسْتِئْنَافِ الْبَيَانِيِّ فِي إِبْرَازِ مُتَابَعَةِ الْمُتَلَقِّي وَشَوْقِهِ

(1) العكبري، التبيان: 1/156 - 157، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 1/595.
(2) الزمخشري، الكشاف: 1/477 - 478.
(3) الزّمخشري، الكشاف: 1/477.

عَادَةُ أَهْلِ النِّفَاقِ تَثْبِيطُ الْمُؤْمِنِينَ عَنْ مَعَالِي الْأُمُورِ

دِلَالَةُ تَعْلِيقِ الشَّرْطِ بِـ(لَوْ) فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا﴾:

عُلِّقَ الشَّرطُ بـ (لَوْ) في قوله تعالى: ﴿قَالُواْ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَٰكُمْۗ﴾؛ لإفادةِ امْتناعِ قتالِ المنافقينَ مَعَ المسلمينَ؛ لامْتناعِ ما توقَّعُوه زَعْمًا من عدمِ حصولِ القتالِ، وجاءتِ (اللّامُ) في جوابِ الشَّرطِ في قولِهم: ﴿لَّٱتَّبَعْنَٰكُمْۗ﴾؛ لإيهامِ استعدادِهم لِلْقِتَالِ مع المؤمنينَ في حالِ تيقُّنِهم وقوعَهُ، إلَّا أنَّ تعبيرَهُمْ بالاتِّباعِ دون القتالِ - فلم يقولوا: (لو نعلم قتالًا لَقَاتَلْنَا معكُم) - دليلٌ على كمالِ تَثْبِيطِهِم عَنِ القِتَالِ، وهُو مِن جُمْلَةِ لَحْنِ القَوْلِ الذي تُعْرَفُ بِهِ حَقِيقَتُهم.

وقدْ عَبَّرَ النَّظمُ عن نَفيِ القُدْرةِ على القِتالِ بنَفيِ العِلمِ به؛ لِمَا أنَّ القُدرةَ على الأَفعالِ الاختياريَّةِ مُسْتلزمةٌ لِلعلمِ بِها.

نُكْتَةُ إِيرَادِ الْمُسْنَدِ إِلَيْهِ ﴿هُمْ﴾ ضَمِيرَ غَيْبَةٍ لَا ضَمِيرَ خِطَابٍ:

انْحِطَاطُ رُتْبَةِ أَهْلِ النِّفَاقِ

وردَ المسندُ إليه ﴿هُمْ﴾ من قوله تعالى: ﴿هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَٰنِۚ﴾ ضميرَ غَيْبَةٍ دُونَ ضميرِ الْخِطَابِ؛ لنكتَتَين:

إحداهُمَا: مراعاةُ السِّياقِ؛ فإنَّ اللّٰه تعالَى قالَ قَبلُ: ﴿قَالُواْ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَٰكُمْۗ﴾؛ و﴿قَالُواْ﴾ جارٍ عَلَى أسلوبِ الْغَيْبَةِ.

الأُخْرَى: الاسْتِهَانةُ بهم وبنفاقِهم وكَذِبِهم، فَهُم أقلُّ شَأنًا مِنْ أنْ يَتوجَّهَ إليهمُ الخطابُ.

نُكْتَةُ تَنْكِيرِ ﴿قِتَالًا﴾ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا﴾:

تَظَاهُرُ الْمُنَافِقِينَ بِاعْتِمَادِهِمْ عَلَى الْأَعْذَارِ

نُكِّر ﴿قِتَالًا﴾ مِن قَول اللّٰه تعَالى: ﴿قَالُواْ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَٰكُمْۗ﴾ لإفادَةِ التَّعميمِ؛ لكونِ النَّكرةِ واقعةً في سياقِ الشَّرْطِ، والمعنى: لَوْ نَعلمُ ما يَصِحُّ أنْ يُسمَّى قِتالًا - أيَّ: قِتالٍ كانَ - لاتَّبعناكُمْ، ولكنَّ الذي أنتُمْ بِصدَدِهِ ليسَ بقتالٍ أَصْلًا، وإنّما هو إلقاءُ النَّفسِ في التَّهلُكةِ[1].

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السليم: 1/595.

تَعْيِينُ مُتَعَلَّقِ الْجَارِّ وَالْمَجْرُورِ فِي ﴿لِلْكُفْرِ﴾ وَ﴿لِلْإِيمَٰنِ﴾ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَٰنِ﴾:

فَضْحُ الْمُنَافِقِينَ بِحَقِيقَةِ كُفْرِهِمْ وَكَذِبِهِمْ فِي أَعْذَارِهِمْ وَاعْتِذَارِهِمْ

في قوله تعالى: ﴿هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَٰنِ﴾ نظمٌ جَزْلٌ، فالضَّميرُ ﴿هُمْ﴾ مبتدأٌ، و﴿أَقْرَبُ﴾ خبرُهُ، واللّامُ في ﴿لِلْكُفْرِ﴾ و﴿لِلْإِيمَٰنِ﴾ مُتعلِّقةٌ به، وكذلكَ القَولُ في ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ و﴿مِنْهُمْ﴾، والأصلُ عدَمُ جَوازِ تَعلُّقِ حَرْفَين مُتَّحِدَين لَفظاً ومعنًى بعاملٍ واحدٍ، بِلا عَطْفٍ أو بَدَليَّةٍ؛ وذلكَ إنّما هو فيما عَدا أَفعل التّفضيلِ؛ لاتِّحادِ حَيْثيّةِ عَمَلِها، وأمّا أَفعَلُ التّفضيلِ، فحيثُ دَلّ على أصْلِ الفعلِ وزِيادتِه، جَرَى مَجْرى عَامِلَين؛ كأنَّه قيلَ: قربُهم لِلكُفرِ زائدٌ على قُربِهم لِلإيمان.

ويجوزُ أنْ يكونَ تَعلُّقُ الجارَّيْنِ بـ﴿أَقْرَبُ﴾ لِشَبَهِهِمَا بالظّرْفَين؛ أيْ: هُمْ للكُفرِ يومَ إذْ قَالُوا ما قَالُوا، أقْربُ منهُم للإيمانِ، فإنّهم كانوا قَبْلَ ذلكَ يتَظَاهرونَ بالإيمانِ، ومَا ظَهَرَتْ منهُم أمَارةٌ مؤْذِنةٌ بكُفْرِهم، فلَمَّا انْخَذَلُوا عن عَسكَرِ المسلمِينَ، وقالُوا ما قَالُوا؛ تَبَاعدُوا بذلكَ عنِ الإيمانِ المظنُونِ بهم، واقْتَربُوا منَ الكُفْرِ.

ويجوزُ أن يكونَ المعنى: هُمْ لِأهلِ الكُفرِ أقربُ نُصرَةً منهم لِأَهلِ الإيمانِ؛ لأنّ تَقليلَ سَوادِ المسلمِينَ بالانخِذالِ الَّذي وقَعَ منهم يُعَدُّ تَقويةً لِلكافرين[1].

دِلَالَةُ تَقْدِيمِ مَا حَقُّهُ التَّأْخِيرُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَٰنِ﴾:

بُعْدُ الْمُنَافِقِينَ عَنْ كُلِّ خَيْرٍ وَقُرْبُهُمْ مِنْ كُلِّ شَرٍّ

جَاءَ تقديمُ الجارِّ والمَجْرُورِ ﴿لِلْكُفْرِ﴾ على الْخَبَرِ ﴿أَقْرَبُ﴾ في قوله تعالى: ﴿هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَٰنِ﴾؛ لإفادةِ الحَصْرِ والقَصْرِ؛ أي: أنَّهُم أقربُ لِلْكُفْرِ دُونَ غَيْرِه من صفاتِ الخَيْرِ التي

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/595 - 596.

أعلاهَا الْإيمانُ، وفي هذَا التَّقديمِ أيضًا: تعجيلُ ما يَسُوؤهُم بذِكْرِ الكُفْرِ أَوَّلًا.

وجاءَ قولُه: ﴿مِنْهُمْ﴾ مُتقدِّمًا على ﴿لِلْإِيمَٰنِ﴾ لتعلّقه بـ ﴿أَقْرَبُ﴾، ولِإفادَتهِ البُعدَ عنِ الإيمانِ، والقُربَ مِنَ الكُفر؛ حيثُ إنّ قولَه: ﴿أَقْرَبُ﴾ يقتضي فَاضلًا ومَفضُولًا، فلا يقعُ لَبْسٌ في تعلُّقِ مَجرورَين بِه؛ لأنّ السّامعَ يَرُدُّ كُلَّ مجرورٍ إلى بعضِ معنَى التَّفضيل.

وما يُشاهَدُ مِنْ حالِ المنافقِينَ أقربُ دِلالَة على أنَّهم يُبطِنونَ الكُفرَ مِن دِلالةِ أقوالِهم: إنّا مُسلِمُون، واعتذارِهم بقولِهم: لو نَعلمُ قتالًا لاتّبعناكُمْ؛ أيْ: إنَّ عُذرَهُم ظاهرُ الكَذِبِ، وبيِّنٌ في كون المرادِ مِنْهُ تَفْشيلَ المُسْلِمين وتثبيطَهُمْ، والقُربُ: مجازٌ في ظُهورِ الكُفْرِ عليهِم[1].

سَبَبُ فَصْلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ﴾ عَمَّا قَبْلَهُ:

الْكَشْفُ عَمَّا فِي ضَمَائِرِ الْمُنَافِقِينَ

فُصِلَ قولُ اللّهِ سُبحانَهُ: ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ﴾ عمَّا قبلَهُ؛ لأنَّ بينَهُما شِبْهَ كمال الاتِّصالِ، المعروفَ بِالاسْتِئْنَافِ الْبَيَانِيِّ، وذلك لقَصْدِ بيانِ مَغْزَى الاقترابِ المذكورِ في قولِهِ قبلُ: ﴿هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَٰنِ﴾؛ فهُمْ يُبْدُونَ مِنْ حالِهم أنّهم مُؤمِنون، ولذَا يَرِدُ السّؤالُ: كيفَ جُعِلوا إلى الكُفرِ أَقْربَ معَ أنَّ ظاهِرَ حالِهم الإسلامُ؟ فجاءَ الجوابُ في قوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ﴾، أَيْ: إنّ الّذي يُبْدونَه ليس مُوافقاً لِمَا في قُلوبِهم.

وفي هذه الجملةِ المستأنَفَةِ: تقريرٌ لِمضمونِ ما قَبلَهَا.

ويجوزُ أنْ يكون قولُه: ﴿يَقُولُونَ﴾ جملةً حاليَّةً مِنَ الضَّميرِ في ﴿أَقْرَبُ﴾؛ أيْ: قَرُبُوا إلى الكُفْرِ قائلينَ[2] بأفواهِهم ما لَيْسَ في قُلوبِهم.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/163.

(2) العكبري، التبيان: 1/157.

بَرَاعَةُ الْمَجَازِ الْمُرْسَلِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾:

شِدَّةُ كَذِبِ أَهْلِ النِّفَاقِ

يُسنِدُ القرآنُ الكريمُ القولَ تارةً للألسنِ، كما في قولِه تَعالَى: ﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ [الفتح: 11]، وتارةً أُخرَى يُسنِدُه لِلأفْواه؛ كَما في هذه الآية ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾، واللِّسان جُزءٌ مِن الفَم، فإطلاقُ الأفْواهِ وإرادةُ الألْسُنِ؛ هو مجازٌ مُرسلٌ، علاقَتُهُ الكُلّيَّةُ؛ إذْ أُطْلِقَ الكُلُّ وأُرِيدَ الجُزءُ، ونُكْتَتُه: تصويرُ قولِ المنافقِينَ لشِدّةِ كَذِبِهم فيهِ وأنَّهم لا يقولُونَه بألسنتهمْ فَقَط، وإنّما يَسْتجمِعونَه في جميعِ أفواهِهم، بيانًا مِنَ اللهِ تَعالى لحقيقةِ نفاقِهم القائم على الكَذبِ والبُهْتان، وكأنَّ كُلَّ جُزءٍ مِنْ أفواهِهم يتكلَّمُ بذاكَ الكَذِبِ ولَيس اللِّسانُ وحدَهُ.

ويجوزُ أن يُجْعَلَ هذا المجازُ مرسلًا بعلاقةِ المحلّيَّةِ[1]؛ فمعنى: ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم﴾ يقولونَ بألسنَتِهم، والأفواهُ مكانٌ لِلْألسنَةِ.

وفي هذا إشارةٌ إلى أنّ الإيمانَ لم ينعقِدْ في قُلُوبِهم مُطْلَقًا؛ بلْ رَانَ على قلوبِهم ما كانوا يَكْذِبونَ، فخَلَتْ من حقيقةِ الإيمَانِ.

دِلَالَةُ التَّعْبِيرِ بِالِاسْمِ الْمَوْصُولِ ﴿مَّا﴾ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾:

الْقَوْلُ الصَّادِرُ عَنِ الْمُنَافِقِينَ مُنَافٍ لِلْمُسْتَقِرِّ فِي قُلُوبِهِمْ

جاءَ الاسمُ الموصولُ (ما) في قولِه تعالى: ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ تعبيرًا عن قولِهم الكاذِب، وهو مفعولُ ﴿يَقُولُونَ﴾، واسمُ ﴿لَيْسَ﴾ المحذوفُ (هو) راجعٌ إلى (مَا) بمعنَى القولِ، وتقديرُ الكلامِ: يقولونَ بألسنتِهمُ الّذي ليس هو القولَ الكائنَ أو الموجُودَ في قلوبِهم، وكأنَّ في القلبِ قَولًا، وفي اللّسانِ قَولًا آخَرَ، وكلٌّ

(1) الأصل في تعريف المجاز: ما أُريد به غير المعنى الموضوع له في أصل اللّغة، وهو مأخوذ من: جاز من هذا الموضع إلى هذا الموضع، إذا تخطّاه، ينظر: ابن الأثير، المثل السّائر: 1/84.

وإطلاق مصطلح المجاز المرسل، يعني: ما كانت العلاقةُ بين ما استُعمل فيه، وما وُضع له مُلابسةً غير التّشبيه، وذلك مثل لفظة (اليد) إذا استعملت في معنى (النِّعمة) لأنّ من شأنها أن تَصدُر عن الجارحة، ومنها تصل إلى المقصود بها، وقد سمّاه البلاغيون (مجازًا مُرسلًا) لإرساله عن التّقييد بعلاقة المشابهة، ينظر: عبد المتعال الصّعيدي، بغية الإيضاح: 3/462.

منهما يُخالفُ الآخَرَ، وهذا هُوَ حقيقةُ النِّفاق؛ "فقدْ أَظهرُوا في تلكَ الواقعةِ أمرينِ اثنيْنِ، ليسَ في قلوبِهم شيءٌ منهُما؛ أحدُهما: عدمُ العِلمِ بالقتالِ، والآخرُ: الاتِّباعُ على تقديرِ العِلمِ به، وقدْ كَذَبوا فيهِمَا كَذِبًا بيّنًا، حيثُ كانُوا عالمينَ به، غيرَ ناوِينَ للاتِّباع؛ بَلْ كانُوا مُصرِّينَ على الانخِذال، عازِمينَ على الارْتِداد"[1].

مُنَاسَبَةُ خَتْمِ الْآيَةِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يَكۡتُمُونَ﴾:

إِحَاطَةُ عِلْمِ اللهِ تَعَالَى بِظَوَاهِرِ الْعِبَادِ وَبَوَاطِنِهِمْ

الواوُ في قولِه تعالَى: ﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يَكۡتُمُونَ﴾ اسْتِئْنَافيةٌ، ويجوزُ أَنْ تَكُونَ حاليَّةً، و﴿مَا﴾ اسمٌ مَوصولٌ، بمعنى: الّذي، أو حرفٌ مَصْدريٌّ، والمصدرُ المؤوَّلُ في محلّ جرٍّ بحرفِ الجرِّ، والتّقديرُ: والحالُ أنَّ اللّه أعلمُ بكِتْمانِهم، أو بِكتمانِ قلُوبِهم.

وفي قوله: ﴿أَعۡلَمُ﴾ وجهانِ:

أحدُهُمَا: أنّه أفْعَلُ تَفضيلٍ، وليستِ المفاضلةُ بينَ أصلِ عِلمِ اللّهِ تعالَى وعلمِ البَشرِ، وإنَّما هي مِنْ بابِ عِلمِه تعالَى بدَقائقَ وتفصيلاتٍ حاضرةٍ وغيْبيَّة، لا يَعلمُها إلّا اللّه تعالَى.

أو أنّه أفْعَلُ تَفضيلٍ لَم يجرِ على بابِهِ؛ إذْ لا مقارنَةَ بين علمِ اللّه تعالى وعلْمِ غيرِهِ، فهو كقوله تعالى: ﴿ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰ﴾ [المائدة: 8]، فليس معناه: أنَّ الظُّلْمَ قريبٌ من التَّقوى، والعدلَ أقربُ مِنْهُ.

الآخَرُ: أنّه ليسَ للتَّفضيلِ، وإنَّما هو وصفٌ جاءَ على وزنِ أفعل، وهو بِمعنَى عَليمٍ أو عالمٍ[2].

وقَدْ أَظهرَتْ فاصلةُ الآيةِ الكَريمةِ زيادَةَ تحقيقٍ لِكفرِ المنافقين؛ ببيانِ اشْتغالِ قلوبِهم بما يُخالِفُ أَقوالَهم، مِنْ فُنونِ الشَّرِّ والفَساد، إثرَ بَيانِ خُلوِّها عمَّا يُوافقُها، واستعمالُ صِيغَةِ التَّفضِيلِ ﴿أَعۡلَمُ﴾؛ لِمَا

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السّليم: 1/596.

(2) الزّمخشري، الكشاف: 1/478، وصافي، الجدول: 4/367 - 368.

أنَّ بعضَ ما يَكتُمونَهُ مِنْ أَحكامِ النِّفاق وذَمِّ المؤمنينَ وتخطِئةِ آرائِهم والشَّماتَةِ بهم، وغيرِ ذلك؛ يَعلَمُه المؤمِنونَ على وَجهِ الإجْمالِ، وأنّ تَفاصيلَ ذلكَ وكيفيَّاتِه مُختَصّةٌ بالعِلمِ الإلهَيِّ[1].

تَوْجِيهُ المُتَشَابِهِ اللَّفْظِيِّ:

المُبَالَغَةُ فِي تَهْدِيدِ الْكَفَرَةِ وَالْمُنَافِقِينَ تَابِعَةٌ لِشِدَّةِ كُفْرِهِمْ وَنِفَاقِهِمْ

خُتمت هذه الآية بقوله سبحانه: ﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يَكۡتُمُونَ﴾، وجاء في سورة المائدة قولُ اللّه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا كَانُواْ يَكۡتُمُونَ﴾ [المائدة: 61]، وسرُّ التَّغايُرِ بينهما: أنَّ المتحدَّثَ عنهم في آية آل عمران كانوا أقلَّ نفاقًا وكفرًا، كما دلَّ عليه قولُه سبحانه قبل: ﴿هُمۡ لِلۡكُفۡرِ يَوۡمَئِذٍ أَقۡرَبُ مِنۡهُمۡ لِلۡإِيمَٰنِۚ﴾، بخلاف المتحدَّث عنهم في آية المائدة؛ فقد كانوا غارقين في الكفر والنِّفاق، كما أرشد إلى ذلك قوله ﷻ قبلُ: ﴿وَإِذَا جَآءُوكُمۡ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَقَد دَّخَلُواْ بِٱلۡكُفۡرِ وَهُمۡ قَدۡ خَرَجُواْ بِهِۦۚ﴾؛ فناسبَ أن تختصَّ آيةُ المائدة بزيادة ﴿بِمَا كَانُواْ﴾ دون آية آل عمران[2].

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(أصابَكُمْ) و(مسَّكُمْ):

(المَسُّ) أَقلُّ تمكُّنًا مِنَ الإصَابةِ، وكأنّهُ أقَلُّ درجاتِها[3]، والّذي وقَعَ في غَزْوةِ أُحُدٍ كان ثقيلًا على المسلمِينَ؛ قَتْلٌ وجِراحٌ، ثمّ هَزيمةٌ بعدَ نَصْرٍ، وهو أشدُّ وَطْأً على النُّفوسِ، وأَوْقَعُ إيذاءً بها.

فلا يُناسِبُ والحالُ هذه إلّا اسْتخدامُ الإصابَةِ، وليسَ مُجرَّدَ المَسِّ، وخاصّةً أنَّ البيانَ الإلَهيَّ قد أعلَمَهُم أنَّ هذا الأمرَ الشَّديدَ الّذي أصابَهمْ يَنطوِي على حِكمتَيْنِ؛ الأُوْلَى: أنّه قَدَرُ اللّهِ الّذي لا مَفَرّ مِنهُ، والثَّانيةُ: أنَّه تَمييزٌ وتَمحِيص، قال الغطمَّش الضّبّي، وهو من بني شقرةَ بنِ كعبِ بنِ ثعلبةَ بنِ ضبّة:

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/478، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 1/596.
(2) سعد عبد العظيم محمّد، استدراك ما فات من بلاغة الآيات المتشابهات، ص: 342.
(3) ابن المنيّر، الكشاف بحاشية الإنصاف: 1/459، والفيروزآباديّ، القاموس المحيط: (مَسَسَ).

أَقُولُ، وَقَدْ فَاضَتْ بِعَيْنِيَ عَبْرَةٌ *** أَرَى الدَّهْرَ يَبْقَى، وَالْأَخِلَّاءَ تَذْهَبُ
أَخِلَّايَ لَوْ غَيْرُ الْحِمَامِ أَصَابَكُمْ *** عَتَبْتُ، وَلَكِنْ لَيْسَ لِلدَّهْرِ مَعْتَبُ[1]

الإذْن والقَضاء:

أَذِن بالشّيء، يأذَن إذْنًا، عَلِمَ به؛ كما قالَ تَعالى: ﴿فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ﴾؛ أيْ: كونُواْ على عِلم. وقَضَى يَقضِي قَضاءً؛ أيْ: صَنَعه صُنعاً، وقدّرهُ تقديراً؛ ومنه: القضاءُ والقَدَرُ[2]. والقَضاءُ: عِلمُ اللّهِ الأَزَليُّ بما هو كائنٌ وواقعٌ، فالقضاءُ؛ وهو العِلمُ سابِقٌ للقدَر، الّذي هو التَّقديرُ المطابِقُ لِلعِلم.

وما وَرَدَ في قولِه: ﴿فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: فهو كائِنٌ بقَضائِه وعِلمِه، وتَخْليتِه الكفّارَ؛ سُمِّيَ ذلكَ إذْنًا لِكَونِه مِنْ لَوازمِه، فاسْتعارَ الإذْنَ لِتخليتِه الكفَّارَ، وأنَّه لم يمنعهُمْ لِيبتليَهم[3].

(يَعلَمُ) و(يَتَبيَّنُ):

عَلِمَ الشَّيءَ بالكَسْر، يَعْلَمُهُ عِلْماً: عَرَفَهُ، بَانَ يَبِينُ بَيانًا وبَيْنُونَةً: اتّضَحَ، وتَبيَّنَ الشَّيْءُ: ظَهَرَ، والتَّبْيينُ: الإيْضاحُ والوُضوحُ[4]. والعِلمُ: اعْتقادُ الشَّيءِ على ما هو بهِ على سَبيلِ الثِّقةِ، كان ذلكَ بَعْدَ لَبْسٍ أوْ لَا، والتّبيينُ: علمٌ يَقعُ بالشَّيءِ بَعْدَ لَبْسٍ فقطْ؛ ولهذا لا يُقالُ: تبيَّنْتُ أنَّ السَّماءَ فَوقي، كما تقولُ: علمتُها فَوقي؛ لِذَا وردَ قولُه تَعالَى: ﴿وَلِيَعْلَمَ﴾، فعِلمُ اللّهِ لايَسبِقُهُ لَبسٌ، فَلا يُقالُ للّهِ: مُتَبيِّنٌ لذلك[5].

الدَّفْع والرَّدّ والدَّرْء:

دَفَعَهُ، وإليه، وعنه الأَذَى، كمَنَعَ، دَفْعاً ومَدْفَعاً، و(دافَعَ) عنه و(دَفَعَ) بِمعْنَى: ردَّهُ عن وَجْهِه يَرُدُّه (ردًّا) و(رِدّةً) بالكسر، و(مَردُودًا) و(مَرَدًّا) و(رِدِّيدَى): صَرفَهُ، قالَ اللّهُ تَعالَى: ﴿فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ﴾ [الرّعد: 11]. والدّرْءُ: الدّفْعُ، وبابُهُ: قَطَعَ، و(دَرَأَ) طَلَعَ مُفاجَأةً، وبابُهُ: خَضَعَ[6]. والدَّفعُ قدْ يكونُ إلى جِهةِ القُدّامِ والخَلْفِ، والرّدُّ لا يَكونُ إلّا إلى جهةِ الخَلْفِ،

(1) ابن منظور، لسان العرب: (عتب).
(2) الرّازي، مختار الصّحاح، والفيروزآبادي، القاموس المحيط: (أَذِنَ) و: (قَضَىَ).
(3) الزمخشريّ، الكشّاف: 1/477، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 1/594.
(4) الرّازي، مختار الصّحاح، والفيروزآباديّ، القاموس المحيط: (عَلِمَ) و: (بَيَنَ).
(5) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 317.
(6) الرّازي، مختار الصّحاح، والفيروزآبادي، القاموس المحيط: (دَفَعَ) و: (رَدَدَ) و: (دَرَأَ).

ويدلُّ عليه قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ۝٧٦﴾ [هود: 76][1]، وهذا المَعنَى للدَّفعِ هوَ الَّذي يُناسِبُ دَفعَ الأعدَاءِ مِنْ جِهَةِ القُدَّامِ والخَلفِ؛ بَلْ وفي كُلِّ الجِهاتِ.

الكِتْمان والإخْفاء والسِّرّ:

قالَ اللّه تَعالَى: ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾: كَتَمَهُ، كَتْمًا، وكِتْمانًا، مِنْ بابِ نَصَرَ، و(اكْتَتَمَهُ)، وسِرٌّ (كاتِمٌ)؛ أيْ: (مَكتومٌ)، و(اسْتَكْتَمَهُ) بِسِرِّه: سألَهُ أنْ يكتُمَهُ. خَفَاهُ: مِنْ بابِ رَمَى، كَتَمهُ وأَظهرَهُ، وهو مِنَ الأضْدادِ، و(أخفاهُ) سَتَرهُ، وكَتمَهُ. والسِّرُّ: ما يُكْتَمُ. و(الكِتْمانُ): هو السُّكوتُ عنِ المعنَى؛ وقولُهُ تَعالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ [البقرة: 159]؛ أي: يَسْكُتونَ عن ذِكرِه، والإخْفاءُ يكونُ في ذلكَ وفي غَيرِه، والشّاهدُ أنَّكَ تقولُ: أَخْفيتُ الدِّرهمَ في الثَّوْبِ، ولا تقولُ كَتَمتُ ذلكَ، وتقولُ: كتَمتُ المعنَى وأَخفَيتُهُ، فالإخفاءُ أعمُّ مِنَ الكِتمانِ. والمكْتومُ يَختصُّ بالمعَاني كالأَسرارِ والأَخبارِ؛ لأنّ الكِتمانَ لا يُستعمَلُ إلّا فيهِمَا، والمسْتورُ يَختصُّ بالجُثَثِ والأَعْيانِ؛ لأنّ الأصلَ في السِّرّ تَغطيةُ الشَّيءِ بِغِطاء، ومِنْ خِلالِ ما تَقدَّمَ مِنْ بَيانِ مَعَاني تلكَ المُفرَداتِ؛ نجدُ اشْتراكاً واضِحًا بينَها، و(الكَتْمُ) يَدخُلُ صُلبَها جميعَهَا دُخولًا أَوّليًّا.

وما ذَكرَهُ أَهلُ الفُروقِ مِنْ أنَّ (الكَتْمَ) يَختصُّ بالمعَاني، يُناسِبُ ما يَكتُمُهُ المنافِقونَ في نُفوسِهِمْ مِنْ حَقيقةِ كُفرِهِم، والَّذي لا يَعلمُهُ إلّا اللّه؛ ولذلكَ جاءَ بيانُ اللّهِ جَليًّا بقَولِ الحقِّ تَباركَ وتَعالَى: ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾.

(1) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 53، والجرجانّي، التّعريفات، ص: 11.

﴿ٱلَّذِينَ قَالُواْ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ وَقَعَدُواْ لَوۡ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْۗ قُلۡ فَٱدۡرَءُواْ عَنۡ أَنفُسِكُمُ ٱلۡمَوۡتَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ١٦٨﴾ [آل عمران: 168]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الـــرّبـــطُ بين حـالِ المنافقين، وبـين تثبيطِهِمُ المَـــمْـــقـــوتِ للمؤمنين

بعدَ أن بيّن اللّهُ سبحانُه وتعالى حَالَ المنافقين في الآيةِ السَّابقةِ، تابَعُ حديثَهُ عن قُعودِهمْ عنِ القتالِ مع المسلمِين، وتَثْبيطِهم للمقاتلِين، وإبرازِ عقيدتِهمُ الفاسِدةِ في عَدَمِ إيمانِهم بالقَضاءِ والقَدَر، وبذلك كان الرّدّ قاسيًا، دحض حجّتهم، وأبان زيف دعاواهم الباطلة، وكان السّياق توبيخا لهم وتقريعًا، وعليه فقد أمر نبيَّه أن يتحدّاهم، بأن يدفعواْ عن أنفسهم الموت، إن كان الحذَر يمنع من القدَر، كما يظنّون، ولكن هيهات لما يزعمون[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَقَعَدُواْ﴾: من قَعَدَ يَقعُدُ قُعودا، وهي خلافُ قام، والقَعْدةُ: المرّةُ الواحدة، والقَعدُ: القومُ الّذين لا ديوانَ لهم، والمُقعَدُ والمُقعَدةُ اللّذان لا يُطيقانِ المَشْي، والمُقعدات: فراخُ القَطا والنّسر قبلَ أن تَنهضَ للطّيران، قال ذو الرّمّة:

إِلَى مُقْعَدَاتٍ تَطْرَحُ الرِّيحَ بِالْضُّحَى *** عَلَيْهِنَّ رَفْضًا مِنْ حَصَادِ الْقَلَاقِلِ[2]

(قَعَدَ) منْ بابِ دَخَلَ (مَقعدًا) بالفتح؛ أي: جَلَسَ[3]، وهو هنا حالٌ مِن ضميرِ ﴿قَالُواْ﴾ بتَقديرِ (قَدْ)؛ أيْ: قالُوا، وقدْ قَعَدُوا عنِ القِتالِ بالانْخِذال.

2) ﴿فَٱدۡرَءُواْ﴾: الدَّرْءُ: الدّفْعُ، والمرادُ هنا: اقْمَعُوا وصُدُّوا العدُوّ عن أنفُسِكم، أو كَثّروا سَوادَ المسلمينَ ورابِطُوا، وإنْ لم تُقاتِلوا[4]، وقد ورد قوله: ﴿قُلۡ فَٱدۡرَءُواْ عَنۡ أَنفُسِكُمُ ٱلۡمَوۡتَ

(1) أسعد حومد، أيسر التّفاسير، ص: 461.
(2) الخليل، العين: (قَعَدَ).
(3) الرّازي، مختار الصّحاح: (قَعَدَ).
(4) الفيروزآبادي، القاموس المحيط: (دَرَأَ)، والشّوكاني، فتح القدير: 1/644 - 645.

﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾، ومعناه: "قل إن كنتُم صادقين، في أنّكم وجدتم إلى دفع القتل سبيلًا، وهو القُعود عن القتال، فَجِدوا إلى دفعِ الموتِ سبيلًا، يعني أنّ ذلك الدّفع غير مُغنٍ عنكم، لأنّكم إن دفعتُم القتلَ الّذي هو أحدُ أسبابِ الموت، لم تقدروا على دفعِ سائرِ أسبابِه المبثوثة، ولا بدّ لكم من أن يتعلّق بكم بعضها"[1].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

تحذير المنافقين من الموت الّذي لافرار منه، ولا فكاك عنه

إنّ أولئكَ المنافقينَ قدْ جَمَعوا بيْنَ التّخلُّفِ عنِ الجِهادِ، وبينَ الإعراضِ والتّكذيبِ بقَضاءِ اللّهِ وقَدَرِه، فَردَّ اللّهُ عليهم: أنِ ادْفعُوا عنْ أنْفُسِكمُ الموتَ، ولنْ تَقدِرُوا على ذلكَ، ولنْ تستَطيعوه[2]، إذْ "لو كان القعود يسلم به الشّخص من الرّدى، ويهرب به من الموت المحتوم، فقد كان ينبغي عليكم ألّا تموتوا، وهو أمر مستحيل، لأنّ الموت آتٍ لا بدّ منه، ولا مَنأى عنه، فادفعوا عن أنفسكمُ الموتَ إن كنتُم صادقين في قولكم، وأخّروا الأمر، إن كان الحذَرُ يمنعُ من القدَر، كما هو زعمُكم"[3].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

تَعْيِينُ المُرَادِ بِالِاسْمِ المَوْصُولِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ﴾:

اشْتِهَارُ أَمْرِ المُنَافِقِينَ بِمَقَالَاتِهِمُ الرَّدِيئَةِ

الاسْم الموصول في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُواْ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْۗ﴾ يُرادُ به: المنافقونَ، وهو خبرٌ لمبتدأٍ محذوفٍ تقديرُهُ (همْ)؛ أيْ: هُمُ الّذين قالُوا لإخوانِهم، وحِكايةُ مَقُولتِهم: ﴿لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْۗ﴾، فيها إيذانٌ بأنَّهم أَمَرُوا مَن كانَ مِنْ جِنسِهِمْ في النِّفاقِ بالانخِذالِ حِينَ انخَذَلوا، وأَغوَوهُمْ كما غَوَوْا، على أنّ تَخصيصَ عَدمِ الطّاعةِ بإخوانِهمْ، يُنادِي باخْتصاصِ الأَمرِ أيضًا بهِمْ[4].

(1) الأبياريّ، الموسوعة القرآنيّة: 9/275.
(2) السّعدي، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 117.
(3) القطان، تيسير التّفسير، ص: 243.
(4) الزمخشري، الكشاف: 1/478، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/597.

ويجوزُ في إعرابِ (الّذِينَ) أوجهٌ أخرَى، كالنَّصْبِ على الذَّمِّ[1]؛ لمناسبة ما حُكِيَ عنهم مِنَ القولِ البَاطِلِ؛ في اعْتِرَاضِهِم عَلَى القَدَرِ.

دِلَالَةُ اللَّامِ (ٱلَّذِينَ) فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالُواْ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ وَقَعَدُواْ لَوۡ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْۗ﴾:

بَيَانُ أَوْصَافِ الْمُنَافِقِينَ لِيَظْهَرَ نِفَاقُهُمْ وَيَتَمَيَّزُوا بِهِ أَكْمَلَ تَمْيِيزٍ

في التَّعبيرِ بالموصولِ وصِلَتِهِ ﴿ٱلَّذِينَ قَالُواْ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ﴾ دِلالَةٌ على أنَّ مضمونَ الصِّلَةِ أشهرُ عِنْدَ السَّامعينَ، ولذا كان الأظْهَرُ أن يُرادَ بهم مَن تقدَّمتْ حكايةُ مقالتهم في قوله تعالى: ﴿كَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَقَالُواْ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ إِذَا ضَرَبُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَوۡ كَانُواْ غُزّٗى لَّوۡ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ﴾ [آل عمران: 156]، فذُكِرَ وصفٌ لهم هُنَا؛ ليتمَيَّزُوا أكملَ تمييزٍ[2]، فاللَّامُ في (ٱلَّذِينَ) لِلْعَهْدِ الذِّكْرِيِّ الصَّريحيِّ.

مَعْنَى اللَّامِ فِي ﴿لِإِخۡوَٰنِهِمۡ﴾ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالُواْ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ وَقَعَدُواْ لَوۡ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْۗ﴾:

تَمَسُّكُ الْمُنَافِقِينَ بِبَعْضِ الْأَحْدَاثِ الْعَارِضَةِ لِنُصْرَةِ آرَائِهِمُ الْبَاطِلَةِ

اللَّامُ في ﴿لِإِخۡوَٰنِهِمۡ﴾ من قَوْلِ اللهِ سُبحانَهُ: ﴿ٱلَّذِينَ قَالُواْ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ وَقَعَدُواْ لَوۡ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْۗ﴾ لِلتَّعليلِ، والمعنى: الذين قالوا لأجلِ إخوانِهم، لا أنَّهم وجَّهوا إليهم القولَ؛ إذ إخوانُهم قد ماتُوا وقتَ صدورِ القولِ، كما دلَّ عليه قولُه تعالى بعدُ: ﴿لَوۡ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْۗ﴾[3].

ودِلَالَةُ اللَّام علَى التَّعْليلِ تدلُّ علَى أنَّ المذكورَ هو الباعِثُ علَى مَقَالَتِهِم؛ فَهُم لَا يتألَّمُون لأجْلِ إخْوَانِهِم وذَوِي رَحِمِهِم، ولكنَّهم يُلْقُونَ باللَّائمة عَلَيْهِمْ[4].

دِلَالَةُ الْأُخُوَّةِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالُواْ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ وَقَعَدُواْ لَوۡ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْۗ﴾:

الأُخُوَّةُ الواردةُ في قَوْلِ اللهِ تعالَى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالُواْ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ وَقَعَدُواْ لَوۡ

(1) أبو حيَّان، البحر المحيط: 3/426.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/164.
(3) الزمخشري، الكشاف: 1/438.
(4) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 3/1499.

الْأُخُـوَّةُ صِنْفَانِ أُخُـوَّةٌ بِنَسَبٍ، وَأُخُوَّةٌ بِسَبَبٍ

أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْ﴾ يجوزُ أن تكون أُخُوَّةَ النَّسَبِ، ويكون المقتولُونَ من المسلمينَ كانوا أقاربَ للمنافقينَ، فقال المنافقونَ هذه المقالَةَ بعد أن قُتِلَ بعضُ أقاربهم المسلمينَ في أُحُدٍ[1].

ويجوزُ أن تكونَ الأُخُوَّةُ أُخوَّةً بِسَبَبِ المشاركَةِ؛ إمَّا في سُكْنَى دارٍ، أو في عداوةِ النَّبيِّ ﷺ، أو في عبادَةِ الأوثانِ، أو أنَّ المرادَ نُظَراؤُهم في النِّفاقِ، وهذه الإطلاقاتُ هي أقربُ إلى المجازِ مِنْهَا إلى الحقيقَةِ، والأظهَرُ أنَّها مجاز مرسَلٌ، بعلاقة التَّقييد والإطلاق؛ إذ الأُخُوَّةُ: اشْتِرَاكٌ في أبٍ أو أُمٍّ، ثُمَّ تُستعمَلُ في مطلقِ الاشتراكِ ويُلْغَى قيدُ الأبوَّةِ والأمومةِ.

ومال ابنُ عاشورٍ إلى الأوَّلِ، وأنَّ المرادَ أقاربهم في النَّسَبِ؛ إذْ كانُوا مِنَ الْخَزْرَجِ المؤمنينَ[2].

دِلَالَةُ الْحَالِ ﴿وَقَعَدُواْ﴾ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُواْ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْ﴾:

لَـيْـسَ الـنِّـفَـاقُ مُـخَـالَـفَـةً فِي الِاعْـتِـقَـادِ فَحَسْبُ، بَلْ لَهُ أَثَرٌ سَيِّءٌ فِي وَاقِعِ النَّاسِ

يجوزُ أن يكون قولُه تعالى: ﴿وَقَعَدُواْ﴾ جملةً معترضةً، والأوفق بالسِّياق أن تكون حاليَّةً، أفادَتْ حالَ المنافقِينَ مِنَ القُعودِ عنِ الجهادِ معَ المسلمِين، وجاءتِ الجُملةُ حاليَّةً لِتَعيينِ ما فيهِ العِصْيانُ والمخَالفَةُ، وهو تركُ الجهادِ، أي: أنَّهم أَتْبَعُوا قولَهم التَّحريضيَّ المَشِين، فعلًا أقبحَ، وهذا دالٌّ على أنَّ لِلنِّفاقِ أثرًا سيِّئًا في واقعِ النَّاسِ، وليس مقتصرًا على المخالفةِ في الاعتقادِ الباطنِ، ولذا وجبَ الحذرُ منهم أشدَّ الحذرِ.

تَوْجِيهُ الْقِرَاءَاتِ الْقُرْآنِيَّةِ فِي قَوْلِهِ: ﴿مَا قُتِلُواْ﴾:

اتِّخَاذُ الْمُنَافِقِينَ قَتْلَ إِخْوَانِهِمْ سَبِيلًا لِلطَّعْنِ فِي امْتِثَالِ الشَّرِيعَةِ

قرأ جمهورُ القرَّاءِ قولَ اللهِ تعالى: ﴿مَا قُتِلُواْ﴾ بتَخفيفِ التّاءِ

(1) ابن عادل، اللباب في علوم الكتاب: 6/6.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/164.

مِنَ القَتلِ، وقرأ هشامٌ عن ابن عامر بتَشديدِ التّاءِ مِنَ التَّقتيلِ[1]، لِلمُبالغةِ في القتلِ، وهو يُفيدُ معنَى تَفظيعِهم ما أصابَ إخوانَهُم مِنَ القَتلِ، طَعْنًا في طاعتِهِمُ النّبيَّ ﷺ.

بَرَاعَةُ أُسْلُوبِ الْبَحْثِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ فَٱدْرَءُواْ عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾:

النَّقْضُ الْعَقْلِيُّ لِشُبُهَاتِ الْمُنَافِقِينَ

قال اللّه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُواْ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْ﴾، فادَّعوا أنَّهم لو أطاعَهم إخوانُهم في ترك الخروجِ للجهادِ ما قُتلوا، فكذَّبهم اللّه سُبحانه في دعواهم بقوله: ﴿قُلْ فَٱدْرَءُواْ عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾، ووجهُ تكذيبِهم مع أنَّهم لم يدَّعوا نفيَ الموت، وإنَّما نفَوُا القتل؛ لأنَّ المعنى: أنَّ القتلَ ضربٌ من الموتِ، فإنْ أمكنَكم دفعهُ عن أنفسكم بفعلٍ اختياريٍّ، فادفعوهُ عنها، وإن لم يُمكنهم ذلك؛ دلَّ على أنَّهم مبطلُونَ[2].

ففي هذه الآيةِ أسلوبُ البَحْثِ وهو الذي يُسمِّيه جماعةٌ: المذهبَ الكلاميَّ، ووجهُهُ: أنَّ قولهم: ﴿لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْ﴾ قضيَّةٌ موجبَةٌ جزئيَّةٌ، تُنقضُ بالسَّالبةِ الكُلّيَّةِ، وذلك هو قول اللّه تعالى: ﴿قُلْ فَٱدْرَءُواْ عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾؛ فإنَّ الأمر للتَّعجيزِ المتضمِّنِ معنَى النَّفْيِ[3].

دِلَالَةُ الْأَمْرِ ﴿قُلْ﴾ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ فَٱدْرَءُواْ عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ﴾:

تَبْكِيتُ الْمُنَافِقِينَ وَتَقْرِيعُهُمْ

فِعلُ الأمرِ ﴿قُلْ﴾ من قوله سُبحانَهُ: ﴿قُلْ فَٱدْرَءُواْ عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ﴾ الموجَّهُ لِرسولِ اللّهِ ﷺ، يُرادُ به التَّبكيتُ الشَّديدُ والتَّقريعُ لجَماعةِ المنافقِين، وفيه إظهارٌ بيِّنٌ يفضَحُ كَذِبَهُم[4].

(1) قراءة التّشديد لهشام، وقراءة التخفيف للباقين من العشرة، ينظر: محمد كريّم راجح، القراءات العشر المتواترة، ص: 72.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/427.
(3) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/442.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السَّليم: 2/111.

دِلَالَةُ الْفَاءِ فِي ﴿فَٱدۡرَءُواْ﴾ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلۡ فَٱدۡرَءُواْ عَنۡ أَنفُسِكُمُ ٱلۡمَوۡتَ﴾:

الْقُعُودُ عَنِ الْجِهَادِ لَا يَمْنَعُ مِنَ الْمَوْتِ

الفاء في ﴿فَٱدۡرَءُواْ﴾ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلۡ فَٱدۡرَءُواْ عَنۡ أَنفُسِكُمُ ٱلۡمَوۡتَ﴾ فصيحةٌ، وهي التي تُفصحُ عن شرطٍ مقدَّرٍ، والمعنى: إن كنتم تظنُّونَ أنَّكم بِتَرْكِكُم الجهادَ قد دفعتُم الموتَ عن أنفسِكم؛ فادفعوا عن أنفسِكُم المَوْتَ الذي لا يُمكِنُكُم الفِرَارُ مِنْهُ مطلقًا، "والمَرْمَى في هذا النَّصِّ أنَّهم يَعْتَقِدُون أنَّهم نَجَوْا مِنَ المَوْتِ بِقُعُودِهِم، فهَل يَعْتَقِدُون أنَّهُم نَجَوْا مِنْهُ نِهَائِيًّا! إنَّه مُلَاحِقُهُم، ومَا دامَ مُلَاحِقُهُم وهُوَ حَقِيقَةٌ مقرَّرة يُثْبِتُهَا الحِسُّ المُسْتَمِرُّ، فَلِمَاذَا تَفِرُّون مِنَ القِتَالِ؟!"[1].

نُكْتَةُ حَذْفِ جَوَابِ الشَّرْطِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلۡ فَٱدۡرَءُواْ عَنۡ أَنفُسِكُمُ ٱلۡمَوۡتَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾:

خُلُوُّ الْمُنَافِقِينَ مِنَ الْحَقَائِقِ الْإِيمَانِيَّةِ

(إنْ) في قولِ اللّه تَعَالَى: ﴿إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ شرطيَّةٌ، وجوابُ الشّرطِ محذوفٌ، لِدلالَةِ ما قبلَهُ عليه؛ ومتعلَّق الصِّدْقِ محذوفٌ، والتَّقدير: إنْ كُنْتُم صَادِقِين في أنَّ الموتَ يُغْنِي مِنْهُ الْحَذَرُ[2].

وفي هذِ الجملةِ إشعارٌ بِقَضيَّةٍ عَقَدِيّةٍ مُهمّةٍ جدًّا؛ وهي أنَّ الإنسانَ أيًّا كانتْ مِلَّتُه، أو نِحْلَتُهُ، أو قُدْرَتُه، مَحكومٌ عليهِ بالموتِ بقدَرِ اللّهِ وَحدَهُ، لا يَدفعُه عنهُ الانخذالُ عَنِ القِتالِ، أو القُعودُ عَنِ الأسبابِ الَّتي تُوهِمُ ارتِدادَ الموتِ عنهُ؛ فإنَّ أسبابَ الموتِ في إمكانِ المُدافَعَةِ بالحَالِ وامْتناعِها سَواءٌ. وكَيْفَ يُمكنُ للمُنافِقِ أنْ يُدرِكَ هذه الحقيقَةَ الإيمانيَّةَ الجَليلةَ، وقلبُهُ خَالي الوِفاضِ مِنْها؟!

ثمّ إنّ قولَه تَعالَى: ﴿فَٱدۡرَءُواْ عَنۡ أَنفُسِكُمُ ٱلۡمَوۡتَ﴾ في سِياقِ الحَدَثِ الجَلَلِ، فيهِ ما فيهِ مِنَ الاسْتهزاءِ والتَّهكُّمِ بالمنافقين، فإنْ

(1) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 3/1499.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 5/120.

كانَ ذلكَ كذلكَ، فَهَلُمُّوا إنْ كنتُم رِجالًا دَفّاعينَ لأسْبابِ الموتِ، فادْفعُوا جميعَ أسبابِهِ، حتّى لا تَموتُوا، كما دَفعْتُم في زَعمِكمْ هذا السَّببَ الخاصَّ[1].

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(قعَدَ) و(جلَسَ):

إنَّ في الفعلِ (قعَدَ) معنًى لَيْسَ في (جلَسَ)، أَلَا ترى أنَّنا نقولُ: قامَ ثمّ قَعَدَ، وقَعَدَتِ المرأةُ عَنِ الحَيضِ، ثمّ تقولُ: كانَ مُضْطَجِعاً فَجَلَسَ، فيكونُ (الفَرْقُ الأوّلُ بينَهما) أنّ: القُعودَ عَنْ قِيامٍ، والجُلوسَ عَنْ حالةٍ هيَ دُونَ الجُلوسِ[2]، فأصْلُ الجلسِ: الارْتفاعُ في الشَّيْءِ[3]، فالجلوسُ غيرُ القُعُودِ؛ فإنَّ الجُلوسَ: هو الانْتقالُ مِنْ سُفْلٍ إلى عُلوٍّ، والقُعُودُ: هو الانْتقالُ مِنْ عُلْوٍ إلى سُفْلٍ، يُقالُ لِمَن هو نائمٌ أوْ ساجِدٌ: اجْلِس، وعلى الثّاني، يُقالُ لِمَنْ هو قائمٌ: اقْعُدْ[4]، يؤيّدُ معنَى (الجُلوسِ) ما ورد في حديثِ رسول اللّه ﷺ: "أَلَا أُنَبِّئُكُمْ بأَكبَرِ الكَبَائرِ (ثلاثاً)؟ قالوا: بلَى يا رسولَ اللّهِ. قالَ: الإشراكُ باللّهِ، وعُقُوقُ الوَالدَينِ، وجَلَسَ وكانَ متّكِئاً، فقالَ: أَلَا وقولُ الزُّورِ. فما زالَ يُكرِّرُها حتَّى قُلْنَا: لَيْتَهُ سَكَتَ"[5]؛ ففي قولِه: وجَلسَ وكان متّكئاً، تأييدٌ للفَرْقِ بَينَ اللَّفظتَينِ، وفي الحديثِ الصَّحيحِ: "كانَ النّبيُّ ﷺ يخْطُبُ خُطْبتَيْنِ يَقعُدُ بينَهُما"[6]، والفَرْقُ الثّانيُ بَينَ الكَلمتَيْنِ: أنّ القُعودَ فيه لُبْثٌ وطُولُ مُكْثٍ، بخلافِ الجُلوسِ، ولهذا يُقالُ: قَواعدُ البَيْتِ، ولا يُقالُ: جَوالسُهُ[7]، قالَ تعالَى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ﴾ [البقرة: 127]، وقالَ سبحانَه: ﴿وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِى لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا﴾ [النور: 60]، فيُقالُ للمرأةِ الكبيرةِ في السِّنِّ الّتي قَعَدتْ عَنِ الحَيضِ والتَّزوُّجِ: قاعِدٌ، وجمعُها قواعدُ؛ لأنّها غالبًا تكون قَعيدَةَ البَيتِ لا تَبرَحُهُ، ولا تَتحوَّلُ عنهُ، بينَما الجُلوسُ يدُلُّ على سُرعةِ التّحوُّلِ والتّغيُّرِ؛ قالَ تعالَى: ﴿إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُواْ فِى ٱلْمَجَٰلِسِ فَٱفْسَحُواْ يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ [المجادلة: 11].

---

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/478 - 479، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 1/597 - 598.

(2) ابن فارس، الصّاحبيّ، ص: 96، والسّيوطيّ، المزهر: 1/404.

(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (جلس).

(4) الفيّوميّ، المصباح المنير: 1/128، وينظر: الكفويّ، الكلّيات، ص: 526.

(5) البخاري، الحديث رقم: (2654) و(5976)، ومسلم، الحديث رقم: (87).

(6) البخاري، الحديث رقم: (886).

(7) الكفويّ، الكلّيّات، ص: 526، وهنريكوس لامنس، الفرائد: 1/57.

وبهذا الإدراك للفَرقينِ الجَليَّينِ بَينَ (القعودِ) و(الجُلوسِ) تتضّحُ لنا بَلاغَةُ القرآنِ الكريمِ السّامقة، في اسْتخدام البيانِ الإلهيِّ لكلمةِ (قَعَدُواْ) بَدلَ (جَلسُواْ)؛ فحال المنافقينَ أوّلاً: هو القُعودُ الحِسِّيُّ عن الانْدفاعِ لطاعةِ اللّهِ ورسولِهِ، فلا تُعلَمُ لهمْ هِمَّةٌ في الدِّينِ، الّتي هي أَقربُ للقائمِينَ مِنَ القاعدِينَ. وثانياً: قدْ طالَ لُبْثُهمْ ومُكْثُهمْ في انخِذَالهم عن الجِهادِ في سبيلِ اللّه، هذا الانخذالُ القائمُ في قُلوبهِمْ بالكُفر، الَّذي صَدَأتْ به قلوبُهمْ، فأقْعَدهُمْ عَن كُلِّ خَيْر، حَتّى أنّهم لامُوا ضُرباءَهمْ مِنَ المنافقينَ، أنْ لَوْ قَعَدواْ مِثلَهمْ عَنِ الجِهادِ ما قُتِلواْ ﴿ٱلَّذِينَ قَالُواْ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ وَقَعَدُواْ لَوۡ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْۗ﴾.

﴿وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمۡوَٰتَۢاۚ بَلۡ أَحۡيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمۡ يُرۡزَقُونَ ١٦٩ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ وَيَسۡتَبۡشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمۡ يَلۡحَقُواْ بِهِم مِّنۡ خَلۡفِهِمۡ أَلَّا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ١٧٠ * يَسۡتَبۡشِرُونَ بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٖ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٧١﴾ [آل عمران: 169 - 171]

❁ مُناسَبَةُ الآيَاتِ لِمَا قَبْلَها:

المناسبة بين أهوال يوم أحد، وما أعدّ الله للشّهداء عنده من نعيم وكرامة

لَمّا بَيّنَ اللّهُ سبحانَهُ وتَعالَى أنَّ ما جَرَى على المؤمنِيَن يومَ أُحدٍ، كانَ امْتحانًا، ليتَميّزَ المؤمِنُ مِنَ المنافِقِ، والكاذِبُ مِنَ الصّادِقِ؛ بيّنَ هَهُنا أنَّ مَن لم يَنهزِمْ وقُتِلَ؛ فلَهُ هذه الكَرامةُ والنِّعمةُ، وأنّ مِثْلَ هذا ممّا يَتنافَسُ فيهِ المتنافِسونَ، لا ممّا يُخافُ ويُحذَرُ، كما قالَ مَنْ حَكَى اللّهُ عنهُم: ﴿لَّوۡ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ﴾ وقالُوا: ﴿لَوۡ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْ﴾؛ فجاءَ قولُه تَعالَى: ﴿وَلَا تَحۡسَبَنَّ﴾ اسْتئنافاً لِبيانِ هذا المعْنَى الجَليل، وإظهاراً لِتلكُمُ القِيَمِ الرَّبانيّة، الّتي نَطَقتْ بها تِلْكُمُ الآياتُ القُرآنيّة[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَلَا تَحۡسَبَنَّ﴾: حَسِبَه كذا، كَنَعِمَ في لُغَتَيه؛ أيْ: (بفتْحِ العَيْن وكَسرِها)، والكَسرُ أَجْودُ اللُّغتيْن، مَحْسَبَةً، ومَحْسِبةً، وحِسْبانًا؛ بالكَسرِ: ظنَّهُ، وما كانَ في حِسْباني (كذا)، ولا تقُلْ: في حِسابي[2]، وقال الفرّاء: حسبت الشّيء: ظننته أحسَبه وأحسِبه، والكسر أجود اللّغتين، وقرئ قول اللّه تعالى: (وَلَا تَحْسِبَنَّ)، وليس في باب السّالم حرف على فعل يفعِلُ بكسر العين في الماضي والغابر، غير حسِب يحْسِبُ، ونعِم ينعِمُ[3].

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 1/598، والشّوكاني، فتح القدير: 1/647.
(2) الرّازي، مختار الصّحاح، والفيروزآبادي، القاموس المحيط: (حسب).
(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (حسب).

2) ﴿أَحۡيَآءٌ﴾: أيْ: أَحياءٌ حَياةً مُحقّقةً، يتَنعَّمونَ[1]؛ وقدْ ورَدَت السُّنّةُ المطهَّرةُ بأنَّ أرواحَهُمْ في أجْوافِ طُيورٍ خُضْر، وأنّهمْ في الجنَّة يُرزَقونَ ويَأكُلونَ ويَتمتَّعون[2]، وقيلَ: "لأنَّ الشّهيدَ لا يَبْلَى في القَبْرِ، ولا تأكُلُهُ الأرْضُ"[3].

3) ﴿فَرِحِينَ﴾: الفَرحُ: السُّرورُ؛ وهو ضدّ الحزن، "ويقال: فرح يفرح فرحا، فهو فرح وفرحان وفارح من قوم فراحى وفرحين، والفرحة: المسرّة، ومن أمثالهم: التّرحة تعقب الفرحة، والرّجل المفرح: المثقل بالدّين، أفرح الرّجل يفرح إفراحا فهو مفرح،.. وأفرحني الشّيء مثل فدحني، فإن كانت هذه مستعملة فهي من الأضداد"[4]، والمعنى في الآية، أيْ: مسرُورينَ بما ساقَهُ اللّهُ إليهِم مِنَ الكَرامةِ بالشَّهادةِ، وما صارُواْ إليهِ مِنْ رزقِ اللّهِ سُبحانَهُ وتَعالَى[5]،

4) ﴿يَسۡتَبۡشِرُونَ﴾: أصلُهُ مِنَ البَشَرة؛ لأنَّ الإنسانَ إذا فَرحَ ظَهرَ أثَرُ السُّرورِ في بَشَرةِ وجهِه[6]، ويقال: اسْتَبْشَرَ" فلان بالخير: إذا أيقن به، قال اللّه تعالى: ﴿يَسۡتَبۡشِرُونَ بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٖ﴾، وتَبَاشَرَ القوم: بشَّر بعضهم بعضًا"[7]،

5) ﴿يَلۡحَقُواْ﴾: لحِق به: أدركه في زمان أو مكان.. قال تعالى: ﴿وَيَسۡتَبۡشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمۡ يَلۡحَقُواْ بِهِم مِّنۡ خَلۡفِهِمۡ﴾، ويقال: (عاد يَلْحق باللّطيف الخبير): كناية عن الشّيخوخة، كما يقال: (لا يُلْحق غُبارُه): فهو سابق، متقدِّم على غيره[8]، والمعنى في الآية، أيْ: مِنْ إخوانِهِمُ المجاهِدين، الَّذينَ لم يُقْتَلُوا إذْ ذاكَ، ولم يَنالُوا الشَّهادةَ بَعْدُ.

6) ﴿وَفَضۡلٖ﴾: أيْ: بُكُلِّ ما يُنعِمُ اللّهُ بهِ على عبادِهِ؛ ومِنْها: الثَّوابُ، والجَنَّةُ. والفَضْلُ: الزِّيادةُ في كُلِّ خَيرٍ ونِعْمةٍ[9]، ويُمكِنُ أنْ يُضَمَّ إليهِ الاسْتبشارُ بسلامَةِ الَّذينَ لم يَلْحَقُوا

(1) البغويّ، معالم التّنزيل: 2/34، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 4/172.
(2) قال ﷺ: "إنّ أرواح الشُّهداء في أجوافَ طَيْرٍ خُضْر تَسْرح في الجَنّة، تأكلُ من ثمار الجَنّة، وتشربُ من ألبانِها، وتأْوي باللّيل إلى قناديلَ من نورٍ مُعلَّقةٍ بالعَرْش"، أخرجه مسلمُ عن عبد الله بن مسعود ﷺ، حديث رقم: (1887).
(3) ابن حجر، فتح الباري: 3/279، والبغويّ، معالم التّنزيل: 2/134.
(4) ابن دريد، جمهرة اللّغة: (فرح).
(5) الرّازي، مختار الصّحاح: (فَرِحَ)، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 4/176.
(6) الواحديّ، الوسيط: 1/521، والفيروزآبادي، القاموس المحيط: (بَشَرَ).
(7) نشوان الحِميري، شمس العلوم: (اسْتَبْشَرَ).
(8) أحمد مختار عمر، معجم اللّغة العربيّة المعاصرة: (فَرِحَ).
(9) الشّوكانّي، فتح القدير: 1/648.

بهم[1]، وفي الحديث عن النّبيّ ﷺ: "لا تبيعوا الذّهب بالذّهب إلّا مثلًا بمثل، ولا الفضّة بالفضّة إلا مثلًا بمثل؛ والفضل ربا"[2]، وفي حديث آخر: "نهى عن بيع فضل الماء"[3].

7) ﴿لَا يُضِيعُ﴾: يُفسِّرُه قَوْلُ اللّهِ تَعالَى: ﴿وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ ۝١٠٩﴾ [هود: 109]، وقولُهُ سُبحانَه: ﴿أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ﴾ [الطُّور: 21]، والمعنى في الآية: "كما أنّه تعالى لا يضيع أجر المجاهدين والشّهداء، كذلك لا يضيع أجر المؤمنين"[4].

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

يُخاطِبُ اللّهُ ﷻ رسولَه ﷺ وكُلَّ النّاس، أن لا يَظُنَّنَّ ظانٌّ منهُم، أو يَخطُرَنَّ بِبالِهِ مجرَّدُ خاطِر، أنّ الّذين قُتِلوا في جهادِ أعداءِ الدِّين، قاصِدينَ بذلكَ إعلاءَ كَلمةِ اللّه، فَقدُوا حيَاتَهم الدُّنْيا، ولَذَّتَها، والتَّمتُّعَ بزهْرَتِها، بَلْ قدْ حَصَلَ لهم أعظمُ ممّا يَتنافسُ فيه المتَنافِسون، فَهم أحياءٌ في دارِ كرامةِ اللّه، يُغْدَقُ عليهم مِنْ أنواعِ النَّعيم ولَذائِذِه، مَا لا عَيْنٌ رَأَتْ، ولا أُذُنٌ سَمِعَتْ، ولا خَطَرَ على قَلبِ بَشَر. ويُبشِّرُ بعضُهُمْ بَعضًا، بِوُصولِ إخوانِهمُ الَّذينَ لم يلحَقُوا بهم، وأنّهم سَينالُونَ ما نَالُوا، ويُهنِّئون بعضَهم بأعْظَمَ مُهَنّأٍ به؛ وهو نعمَةُ ربِّهم وفضْلِهِ وإحْسانِه، واللّهُ سُبحانهُ وتعالَى يُنمِّي أَجرَهم، ويَزيدُهم مِنْ فَضلِه، ممَّا لا يَصلُ إليهِ سَعيُهم، وفي ذلك كُلِّه: إثْباتُ نَعيمِ البَرْزَخِ، وأنّ الشُّهداءَ في أَعْلى مكانٍ عندَ ربّهم، وفيه تَلاقِي أَرواحِ أهلِ الخَيْر، وزِيارةِ بعضِهم بَعضًا[5].

الشّهادة في سبيل الله، ليست موتًا ولا فوتًا، ولكنّها حياةٌ أبقى، ونعيمٌ أرقى

(1) العكبريّ، التبيان. 1/157:
(2) البخاري، الحديث رقم: (2175)، ومسلم، الحديث رقم: (1584).
(3) مسلم، الحديث رقم: (1565).
(4) الخازن، لباب التّأويل: 1/320.
(5) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 4/176 - 177، والسّعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 117 - 118.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دِلَالَةُ الْخِطَابِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتَۢا﴾:

هَـوَانُ الْمُنَافِقِينَ عَلَى اللهِ تَعَالَى

أَعْرَضَ بيانُ اللهِ تعالى عن خِطابِ أولئكَ المنافقين لِقلّةِ أهليَّتِهم، وعَدَمِ أهميَّتِهم، وأَقبلَ على خطابِ مَنْ يَستَأهِلُ المعرفةَ؛ فقالَ: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتَۢا﴾، وفي هذا إبطالٌ لِمَا تلهَّفَ مِنْهُ المنافقُونَ على إضاعةِ قَتْلاهُم.

وقولُه: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ﴾ معطوفٌ علَى ﴿قُلْ فَٱدْرَءُواْ عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ﴾، والحسْبانُ: الظّنُّ، فهو نَهيٌ عنْ أنْ يُظنَّ أنّهم أمواتٌ، وبالأَحْرَى يكونُ نهيًا عنِ الجزْمِ بأنّهم أمواتٌ[1].

والنّونُ في ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ﴾ نُونُ التَّوكيدِ الثَّقيلةُ، وهي دالَّةٌ علَى تأكيدِ النَّهْيِ.

والخطابُ في ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ﴾ يجوزُ أن يكون للنّبيِّ ﷺ تعليمًا له، ولِيُعَلِّم المسلمينَ تبعًا، ويجوزُ أنْ يكونَ خارجًا عن أصلِهِ في إرادةِ المعيَّنِ؛ قصدًا لإرادةِ العمُوم[2].

تَوْجِيهُ الْقِرَاءَاتِ فِي قَوْلِهِ: ﴿قُتِلُواْ﴾ و(قُتِّلُوا):

كَـثْرَةُ الشُّهَدَاءِ مِنَ الصَّحَابَةِ فِي غَزْوَةِ أُحُدٍ

الفعل ﴿قُتِلُواْ﴾ من قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتَۢا﴾؛ قُرِئَ بِتَخْفِيفِ التّاءِ، وقُرِئَ بتشديدِهَا (قُتِّلُوا)؛ أيْ: قُتِّلُوا قتلًا كثيرًا، وهو لبيانِ كَثرةِ المَقْتُولِينَ[3].

دِلَالَةُ الطِّبَاقِ فِي قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتَۢا بَلْ أَحْيَآءٌ﴾:

عَـظَـمَـةُ حَـيَـاةِ الـشُّـهَـدَاءِ وَكَمَالُهَا

بينَ: ﴿أَمْوَٰتَۢا﴾ و﴿أَحْيَآءٌ﴾ مِن قَوْلِ اللهِ تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتَۢا بَلْ أَحْيَآءٌ﴾ طِباقُ إيجابٍ، وفيه إيماءٌ إلى

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/165.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/165.

(3) قراءة التّشديد لابن عامر، وقراءة التّخفيف للجمهور، ينظر: محمد كريّم راجح، القراءات العشر المتواترة، ص: 72.

كمالِ حياتِهم؛ إذْ إنَّ قوله سبحانه: ﴿وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمۡوَٰتَۢاۚ﴾ يُنبئُ عن حياتِهم، فلمَّا لم يُكْتَفَ بالمفهومِ حتَّى صُرِّحَ به في قوله: ﴿بَلۡ أَحۡيَآءٌ﴾؛ عُلِمَ بذلكَ كمالُ حياتِهم وعِظَمُهَا.

وَرُفِعَ ﴿أَحۡيَآءٌ﴾ على أنَّه خبرٌ لمبتدَأٍ محذوفٍ، يقْتَضِي اسميَّةَ هذه الجملةِ، وفي التَّعبير بِهَا دِلالةٌ على ديمومةِ هذه الحياةِ الكاملَة[1].

وَ ﴿بَلۡ﴾ للإضرابِ عن قولِه: ﴿وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ﴾؛ فلذلكَ وقعَ ما بعدَها جُملة غَير مُفرَدٍ؛ لأنّها أَضْربتْ عن حُكمِ الجُملة، ولم تُضربْ عن مُفردٍ مِنْهَا؛ فالوَجهُ في الجملةِ الّتي بعدَها أنْ تكونَ اسْميَّةً مِنَ المبتدأ المحذُوفِ والخبرِ الظّاهرِ.

وقد أثبتَ القرآنُ للمُجاهدينَ مَوْتًا ظاهِرًا بقولِه: ﴿قُتِلُواْ﴾، ونَفَى عنهمُ الموتَ الحقيقيَّ، بقولِه: ﴿بَلۡ أَحۡيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمۡ يُرۡزَقُونَ﴾، فعلمنا أنّهم وإنْ كانوا أمواتَ الأجسامِ، فَهُم أحياءُ الأرواحِ، حياةً زائدةً على حقيقة بقاءِ الأَرْواح.

نُكْتَةُ التَّعْبِيرِ بِالِاسْمِ الْأَحْسَنِ (الرَّبّ) وَإِضَافَتِهِ إِلَى الضَّمِيرِ الْعَائِدِ عَلَى الشُّهَدَاءِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمۡوَٰتَۢاۚ بَلۡ أَحۡيَآءٌ﴾:

إِكْرَامُ اللهِ تَعَالَى لِلشُّهَدَاءِ وَتَمَامُ جُودِهِ وَإِنْعَامِهِ عَلَيْهِمْ

الظَّرفُ ﴿عِندَ رَبِّهِمۡ﴾ من قَوْلِ اللّهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمۡوَٰتَۢاۚ بَلۡ أَحۡيَآءٌ﴾ متعلّقٌ بقولِه: ﴿أَحۡيَآءٌ﴾.

ويجوزُ أنْ يَكُونَ متعلِّقًا بقولِه: ﴿يُرۡزَقُونَ﴾؛ ويكون قولُه: ﴿عِندَ رَبِّهِمۡ﴾ ظرفًا مقدَّمًا، وإنَّما قُدِّمَ للاهتمامِ بِهَذا الرِّزقِ، وما بَلَغوهُ مِنَ التَّقرُّبِ والزُّلْفَى إلى اللّهِ تعالَى.

وَذِكرُ الاسم الأحسن (الرَّبّ) في قولِه: ﴿رَبِّهِمۡ﴾، تَعرُّضٌ لعنوانِ الرُّبوبيّةِ المُنْبِئَةِ عنِ التّربية، والتّبليغِ إلى الكمال[2].

وفي إضافة اسم الرَّبِّ إلى الضَّميرِ الرَّاجعِ على الشُّهداءِ تعظيمٌ لهم وتفخيمٌ لشأنِهم وزيادةُ كَرَامَةٍ.

(1) صافي، الجدول: 4/371.
(2) البقاعي، نظم الدّرر: 5/121.

وقولُهُ ﴿أَحۡيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمۡ﴾: يَقتَضِي التَّنعُّمَ بالأكلِ والشُّرب، والتَّمتُّعَ باللَّذائذ، الّتي تَدُلُّ على أنَّهمْ أحياءٌ حياةً حقيقيَّةً، وزِيدَ في بيانِ هذا المعْنَى بقولِهِ: ﴿يُرۡزَقُونَ﴾[1].

وقولُهُ ﴿فَرِحِينَ﴾: حالٌ مِنْ ضميرِ ﴿يُرۡزَقُونَ﴾، وفيه تأكيدُ إكرامِهم بهذا الرِّزقِ العظيم مِنَ اللهِ سُبحانَهُ وتَعالَى[2]، و﴿فَرِحِينَ﴾: جمعُ فَرِحٍ، وهو صفةٌ مُشبّهةٌ، مُشتقّةٌ مِنْ فَرِحَ يَفرَحُ[3]، وهو دالٌّ على ثُبُوتِ الفرَحِ لهم ولُزُومِه واستمرارِهم عليه.

سِرُّ التَّعْبِيرِ بِالِاسْمِ الْمَوْصُولِ (مَا) فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ﴾:

مَا يُؤْتِيهِ الْعَظِيمُ عَظِيمٌ

(مَا) في قَوْلِه تَعَالَى: ﴿فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ﴾ اسمٌ موصولٌ، وفي التَّعبير بهِ إيماءٌ إلى تفخيمِ الذي أُوتُوه من النَّعيم؛ إذْ إنَّ في الاسْمِ المَوْصُولِ إبهامًا يُرشِّحُهُ لهذه الدِّلالَةِ.

وقوَّى دِلالةَ التَّعظيمِ إسنادُ الإتيانِ إلى الاسْمِ الأحسَنِ (اللّه) الجامعِ لصفاتِ الجلال والجمال والكمالِ، وما يُؤْتِيهِ العظيمُ عظيمٌ.

نُكْتَةُ التَّعْبِيرِ بِالْفِعْلِ الْمُضَارِعِ (يَسْتَبْشِرُونَ) فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَيَسۡتَبۡشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمۡ يَلۡحَقُواْ بِهِم مِّنۡ خَلۡفِهِمۡ﴾:

تَجَدُّدُ الخَيْرَاتِ وَالْبِشَارَاتِ لِلشُّهَدَاءِ

﴿وَيَسۡتَبۡشِرُونَ﴾: يُسَرُّونَ بالبِشارةِ، والواوُ حاليَّةٌ، أي: وهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ، والاسْتبشارُ: حصولُ البِشارةِ، فالسِّينُ والتّاءُ فيه، كَما هما في قولِه تعالَى: ﴿وَٱسۡتَغۡنَى ٱللَّهُۚ﴾ [التّغابن: 6].

ويجوزُ أن تكون الواوُ عاطفةً؛ عَطفَتْ جُملةَ ﴿وَيَسۡتَبۡشِرُونَ﴾ على

(1) وهو قولُ الجمهور، وذهبَ جَمْعٌ إلى أنَّها حياةٌ مجازيّةٌ، ولا مُوجِبَ للمصير إلى المجاز، خاصّةً أنّ في الصّحيح من السّنة المطهّرة ما يقوّي الحقيقة، ينظر: السَّمين، الدّر المصون: 3/484، وابن عادل، اللُّباب: 6/50.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/166.

(3) صافي، الجدول: 4/374.

كلمةِ ﴿فَرِحِينَ﴾[1]، وإنَّما جاز العطفُ؛ لأنّ الصّفة المشتّقة تشبهُ المضَارِعَ، إذْ قوله: ﴿فَرِحِينَ﴾ بمنزلةِ (يَفْرَحُونَ).

وفي التَّعبير عن الاِسْتِبْشَارِ بالفعل المضارِعِ إيماءٌ إلى تجدُّدِ النِّعَمِ والملذَّاتِ التي تُدْخِلُ عليهم السُّرورَ.

وقدْ جَمعَ اللّهُ لهم بيْنَ المَسرَّةِ بأنفُسِهم، والمسَرَّةِ بمَنْ بقيَ مِنْ إخوانِهم؛ لأنّ في بقائِهم نِكايةً لِأعدائِهم، وهم معَ حُصولِ فَضلِ الشَّهادةِ لهم على أيْدِي الأعداء، يَتمنَّوْنَ هلاكَ أعدائِهم؛ لأنَّ في هلاكِهم تحقيقَ أُمنيةٍ أُخْرى لهم، هي أمنيةُ نَصرِ الدِّين.

دِلَالَةُ التَّعْبِيرِ بِالِاسْمِ الْمَوْصُولِ وَصِلَتِهِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُواْ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ﴾:

جاء التَّعبير في قوله تعالى: (بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُواْ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ) دون (يستبشرون بإخوانهم)؛ لِمَا فيه من المبالغَةِ في مدحِ الذين من خلفِهِمْ، وأنَّ لهم رغبة في الاستشهاد في سبيل اللّه تعالى وأنَّهم سالكونَ طريقَ ذلك، وفيه إيماءٌ إلى أنَّ مآلَهُمْ كمآل الشُّهداءِ وإن لم يكن قتلهم في ساحة الجهادِ، ويقوِّيه قول النبي ﷺ: "مَنْ سَأَلَ اللّهَ الشَّهَادَةَ بِصِدْقٍ، بَلَّغَهُ اللّهُ مَنَازِلَ الشُّهَدَاءِ، وَإِنْ مَاتَ عَلَى فِرَاشِهِ"[2]، ولا أدلَّ على صِدْقِ طلَبِهم من مباشَرَتِهم الجهادَ في سبيل اللّه تعالى ونصرةً لدينِهِ وشرعِهِ.

مَـنْ صَـدَقَ فِي طَلَبِ الشَّهَادَةِ بَلَّغَهُ اللهُ تَعَالَى مَنْزِلَتَهَا

وقولُهُ: ﴿مِّنْ خَلْفِهِمْ﴾: تمثيلٌ يُرادُ به: مِنْ بَعدِهم، والتَّقديرُ: ويسْتَبْشِرونَ بالّذينَ لم يَصيرُوا إلى الدّارِ الآخرةِ مِنْ رفاقِهم، بِأَمْنِهم وانْتفاءِ ما يُحزِنُهم.

(1) العكبري، التبيان: 1/157.
(2) مسلم، الحديث رقم: (1909).

سَبَبُ فَصْلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ عَمَّا قَبْلَهُ:

الْأَعْمَالُ الصَّالِحَةُ بَاعِثَةٌ عَلَى الِاسْتِبْشَارِ

فُصِلَ قولُهُ سُبحانَهُ: ﴿أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ عمَّا قبلَهُ؛ لما بينَهُما من كمالِ الاتِّصالِ؛ إذْ قولُهُ: ﴿أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ بدلُ اشْتمالٍ مُبيِّنٌ لِكَونِ اسْتبشارِهم بحالِ إخوانِهم لا بِذواتِهم[1].

ويَجُوزُ أَن يَكُونَ الفصلُ لأنَّه استئنافٌ بيانيٌّ؛ وذلك أنَّ قولَ اللّٰهِ تعَالَى: ﴿وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُواْ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ﴾ يبعث في نفس المتلقِّي سؤالًا، وهو: ما وجهُ اسْتِبْشَارِهم بِهِمْ؟ فجاء الجواب: ﴿أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ١٧٠﴾.

والمعنَى المُرادُ مِنْ عدمِ الخَوْفِ والحُزْنِ بيانُ دوامِ انْتفائِهما، لا بيانُ انْتفاءِ دَوامِهما، كمَا يُمكِنُ أنْ يُوهمَهُ كونُ الخَبَرِ في الجُملةِ الثّانيةِ مُضارِعًا؛ وهو ﴿يَحْزَنُونَ﴾؛ فإنّ النّفيَ وإنْ دَخَلَ على نَفْسِ المضارعِ يُفيدُ الدّوامَ والاسْتمرارَ بحسب المقَامِ[2].

و(أنْ) في ﴿أَلَّا﴾ هي المُخَففّةُ مِن (أنَّ)، واسْمُها ضميرُ الشَّأْنِ محذوفًا، وخبرُها الجُملةُ المَنفيّةُ؛ أيْ: يسْتَبشِرون بما تبيّنَ لهم مِنْ حُسنِ حالِ إخوانِهُمُ الّذينَ ترَكوهُم، وهو أنّهم عندَ قتْلِهم يَفوزونَ بحياةٍ أبَديَّة، لا يُكدِّرُها خَوْفٌ مِنْ وُقوعِ مَحذورٍ، ولا حُزنٌ على فَواتِ مَطلوبٍ، ولذلكَ قدّم بيانُ اللّٰهِ الخَوْفَ على الحُزنِ[3].

نُكْتَةُ تَقْدِيمِ نَفْيِ الْخَوْفِ عَلَى نَفْيِ الْحُزْنِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾:

الْخَوْفُ أَكْثَرُ وُجُودًا فِي الْوَاقِعِ مِنَ الْحُزْنِ

قُدِّمَ نفيُ الخوفِ على نَفْيِ الحُزْنِ في قوله سُبْحَانه: ﴿أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ مع أنَّ سببَ الخَوْفِ مُستقبَلٌ، وسببَ الحُزْنِ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/166.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/600.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 1/599.

ماضٍ، فكان مُقْتَضَى التَّرْتِيبِ الزَّمَنِيِّ تقديمَ نفي الحُزْنِ على نَفْي الخوفِ، والنُّكتةُ في ذلك: مراعاةُ الأكثرِ وُجُودًا؛ فإنَّ الخوفَ مِمَّا هو آتٍ أكثرُ مِنَ الحُزْنِ على ما هو فائتٌ.

دِلَالَةُ تَقَدُّمِ الْمُسْنَدِ إِلَيْهِ عَلَى الْمُسْنَدِ الْفِعْلِيِّ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾:

مِـــنْ كَـمَـالِ النَّـعِـيـمِ دَفْـعُ الْمُنَغِّصَاتِ

في تقديمِ الضَّميرِ ﴿هُمْ﴾ إشارةٌ إلى القَصْرِ والاختصاصِ، فَفِيهِ: قَصْرُ انتفاءِ الحُزْنِ عَنْهُم، أمَّا غيرُهم فيحزنُونَ، فَإِنْ أُريدَ به عمومُ المسلمينَ فالقصرُ حقيقيٌّ؛ وَإِن أُريدَ بمَنْ خَلْفَهُم المُجَاهِدُون في سبيل اللّهِ تعالى؛ كان القصرُ إِضَافيًّا.

ومجيءُ خبر المبتدأ ﴿هُمْ﴾ جملةً فعليَّةً يقتضي تَكرارَ الإسنادِ؛ تأكيدًا لِدَوامِ نفي الحُزْنِ عن إخوانِهم الذين مِن خَلْفِهم؛ فَقَدْ أُسْنِدَ الحُزْنُ إلى ضَميرِ الذين مِن بعدِهم (هُمْ) - وهو مِن إسناد الخَبَر إلى المبتدأ -، وأُسْنِدَ الحُزْنُ إلى وَاوِ الْجَمَاعَةِ الرَّاجعة إِلَيْهِمْ، وهو مِن إسناد الفعل إلى فاعِلِه، فَلَمَّا تكرَّر الإسنادُ تأكَّدَ المَعْنَى وقَوِيَ.

فَائِدَةُ تَكْرَارِ الْفِعْلِ ﴿يَسْتَبْشِرُونَ﴾:

لَـيْـسَ لِـلْـعِـبَـادِ مَـعْـرِفَـةٌ بِـالْـغَـيْـبِ إِلَّا مَـا عَـلَّـمَـهُـمُ اللهُ تَـعَـالَـى إِيَّـاهُ

في قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُواْ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ﴾، ﴿يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ﴾: الضَّميرُ في ﴿يَسْتَبْشِرُونَ﴾ يجوزُ أن يعودَ إلى الّذينَ لم يَلحقُوا بهم؛ فتكونُ الجملةُ حالًا مِنَ الّذين لم يَلحقُوا بهِم؛ أيْ: لا خَوْفٌ عليهم ولا حُزنٌ حالَ كونِهم مُستبشِرِيَنَ بنعمةِ اللّه تعالى.

ويجُوزُ أنْ تكونَ تَكْرِيرًا لِقَوْلِهِ: ﴿وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُواْ بِهِم﴾ والضَّميرُ في ﴿بِهِم﴾ للّذينَ قُتِلُوا في سَبيلِ اللّه تعالَى.

وفائدةُ التَّكريرُ تحقيقُ معنى البِشارةِ؛ كقولِه تعالَى: ﴿رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا﴾ [القصص: 83]، فكرَّرَ فعل (أَغْوَيْنَا)

تحقيقًا لمعنى الغوَايَة اللَّاحقَةِ بِهِمْ، فقدْ زَادَ الفعلُ ﴿يَسْتَبْشِرُونَ﴾ المعْنَى جَلاءً، وأكَّدَهُ في نُفوسِ المتلقِّين للخطابِ القرآنيِّ، ولا سيَّمَا أنَّ الكلامَ عن قَضيّةٍ غَيبيَّةٍ ليس لِلنَّاسِ مَعْرِفَةٌ بِهَا إلَّا ما أَعْلَمَهُم اللّهُ تعالى بِهِ.

فالاسْتبشارُ الأوّلُ يُنْبِىءُ عن عَدمِ الخَوْفِ والحُزْن، والاسْتبشارُ الثّاني يَعضُدُ الأوّلَ، ويَزيدُهُ قوَّةً بما يُقارِنُهُ مِنْ نِعمةٍ عظيمةٍ لا يُقَادَرُ قدْرُها، وهي مَزيدُ النِّعمةِ والفَضلِ مِنَ اللّه تعالَى[1].

ويجُوزُ أن يكونَ الاستبْشَارُ الأوّلُ مُتعلِّقًا بحالِ إخوانِهم، وهذا بحالِ أنْفُسِهم بيانًا لبعضِ ما أُجْمِلَ في قولِه تعالَى: ﴿فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾[2]، ولذَا جَاءَتِ الْجُمْلَةُ مفصولةً عمَّا قبلَهَا؛ لِمَا بَيْنَهُما مِن كَمَالِ الاتِّصَال.

نُكْتَةُ تَنْكِيرِ (نِعْمَةٍ) وَ(فَضْلٍ) وَسِرُّ ذِكْرِ الْخَاصِّ بَعْدَ الْعَامِّ:

في قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ﴾: ﴿بِنِعْمَةٍ﴾: جارٌّ ومجرورٌ متعلّقٌ بـ ﴿يَسْتَبْشِرُونَ﴾، ولَم يَردْ (وفضلٍ من اللّهِ) اكتفاءً بورودِهِ مِن قبلُ.

النَّكِرَةُ فِي سِيَاقِ الْإِثْبَاتِ لَا تَعُمُّ إِلَّا فِي مَقَامِ الِامْتِنَانِ

وأُضيفَتِ النِّعْمَةُ والفضلُ إلى اللّهِ تعالى؛ إذْ هُوَ سبحانَهُ وتعالَى خالقُ كلِّ نعمة، ومِنْهُ كلُّ فَضْل، ووردَ كلاهُما نكرةً، ليعُمَّ كلَّ نعمةٍ وكلَّ فضلٍ دونَ حَصْرٍ أو قَصْر، ووَجْهُ العمُوم مع أنَّهما في سياقِ الإثباتِ: أنَّهما واردَانِ في سِيَاقِ الامتِنَانِ، والنَّكرةُ مَعَهَا تَعُمُّ[3].

والبِشارةُ في ذاتِها نعمةٌ من اللّهِ وفَضْل، ولذا جاءتِ الباءُ في ﴿بِنِعْمَةٍ﴾ لِتُعْطِيَ هذا المعنَى، معَ التَّوسعةِ في كونِ النِّعمةِ سببًا لحصولِ تلكَ البِشَارة.

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/600.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/600.
(3) أحمد العراقي، الغيث الهامع، ص: 292.

وذِكْرُ أحدِ أفرادِ العامِّ بعدَهُ؛ يُميِّزُهُ أكملَ تمييزٍ، ويُلْبِسُهُ حُلَّةً أَجْملَ وأَكْمل، ومِنْهُ ذِكْرُ الفَضْلِ بعدَ النِّعمَةِ في قولِهِ تَعالَى: ﴿بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٖ﴾؛ لِتأكيدِ حُصولِها، إذِ النِّعمةُ مِنَ اللّهِ تعالَى عامّةٌ، والفَضلُ مِنْهُ سُبحانَهُ أَحدُ أفرادِها، وقَدْ خُصَّ بالذِّكرِ لمزيدِ العنايَةِ بهِ وإبرازًا لأَهَميَّتِهِ.

والفَضلُ: الزِّيادةُ، فهؤلاءِ الشُّهداءُ معَ ما قدّموهُ مِنْ بَذْلِ أرواحِهِمْ رَخيصةً في سبيلِ اللّه تعالَى، معَ كَونِها أَغْلَى ما يَمْلِكون؛ يُناسِبُه ويُقابلُه الفَضلُ العظيمُ مِنَ اللّه سُبحانَهُ.

تَوْجِيهُ الْقِرَاءَاتِ الْقُرْآنِيَّةِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾:

الْإِيمَانُ هُوَ مَنَاطُ السَّعَادَةِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ

(إنَّ) من قولِهِ تعالَى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ قرأَهَا العشَرَةُ إلَّا الْكِسَائِيَّ بفَتْحِ (أنَّ)[1] عَلَى أنَّهَا عَطْفٌ علَى ﴿وَفَضۡلٖ﴾، فَهُوَ مُنتظِمٌ مَعَهُ في سِلكِ الْمُسْتَبْشَرِ به.

وَانْفَرَدَ الكسائيُّ بِكَسْرِ الهَمْزَةِ (وَإِنَّ اللّه) عَلَى أنَّهُ كلامٌ مستأنَفٌ، وهوَ تَذْيِيلٌ جَارٍ مَجْرَى المَثَلِ، لاستقلالِهِ بالإفَادةِ وعدَمِ افْتِقَارِه إِلَى مَا قَبْلَهُ في فَهْمِ أصلِ الْمُرَادِ مِنْهُ، وقد سيقَتْ تأكيدًا لِمَضْمُونِ الجملةِ قبلَهَا وتحقيقًا لإنعامِ اللّه تعالى وإفضالِهِ على أهل الإيمَانِ.

وذُكِرُ المؤمنونَ في قولِه: ﴿أَجۡرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ وَأُرِيدَ بِهِم: مَنْ جاءَ السِّياقُ بشَأنِهِم؛ وهُمُ الشُّهداءُ، ففيه مجازٌ مرسَلٌ، علاقتُهُ العموميَّةُ.

والتَّعبيرُ عَنْهُم بوصْفِ الإيمَانِ؛ إيذانٌ بسُمُوِّ رُتبَةِ الإيمَانِ، وكونِهِ مَناطًا لِمَا نَالوهُ مِنَ السّعادة؛ وأمّا كافَّةُ أهلِ الإيمانِ مِنَ الشُّهداءِ وغَيرِهِمْ، فقَدْ ذُكِرتْ تَوْفيةُ أجورِهم على إيمانِهِمْ، وعُدَّتْ مِنْ جُملةِ ما يَسْتَبشِرُ بهِ الشُّهداءُ بحُكمِ الأُخُوّةِ في الدِّينِ.

(1) ابن خالويه، الحُجّة، ص: 116، والبنَّاء، إتحاف فضلاء البشر، ص: 232.

دِلَالَةُ الْعَطْفِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾:

مِنْ نِعَمِ اللهِ تَعَالَى عَلَى أَهْلِ الْإِيمَانِ الْجَمْعُ لَهُمْ بَيْنَ اللَّذَّاتِ الْجُثْمَانِيَّةِ الْجُزْئِيَّةِ وَالْمَسَرَّاتِ الْعَقْلِيَّةِ الْكُلِّيَّةِ

الْمَقْصُودُ مِنَ العَطفِ - عَلَى وجهِ فَتْحِ الْهَمْزَةِ مِنْ (أَنَّ) - على قولِه: ﴿بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ﴾ يُرادُ به تفخيمُ مَا حصَلَ لهم مِنَ الاسْتبشَارِ، وانْشِرَاحُ الأَنْفُس؛ حيثُ جمعَ اللّه تعالَى لَهُمُ المَسرّةَ الجُثمانيَّة الجُزئيَّة، والمَسرَّةَ العقليَّة الكُلِّيَّة.

ذَلِكَ إنَّ إدْرَاكَ الحقائقِ الكُليّةِ لَذّةٌ رُوحَانيَّةٌ عَظِيمَةٌ؛ لِشرفِها وشَرفِ العلم بها، وحصولِ المَسرّةِ للنّفسِ مِنَ انكشافِها وإدْراكِها، والمعنَى: اسْتَبْشَروا بأنْ عَلِموا حقيقةً كُليّةً وسِرًّا جليلًا مِن أسْرارِ العلم بصفاتِ اللّهِ تعالَى وكمالاتِه، الَّتي تَعُمُّ آثارُها أهلَ الكمالِ كُلَّهُم، فتَشمَلُ الّذينَ أَدْرَكُوها وغيرَهُم.

ولَوْلا هذا المعنَى الجليل، لم يكنْ داعٍ إلى زيادةِ ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾؛ إذْ لم يَحصُلْ بزيادتِه زيادةُ نعمةٍ وفَضلٍ للمسْتَبشِرين مِنْ جنسِ النّعمةِ والفضلِ الأوّلَيْن، بَلْ حصَلتْ نعمةٌ وفضلٌ آخَران[1].

نُكْتَةُ الْإِظْهَارِ فِي مَوْضِعِ الْإِضْمَارِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾:

لَا يَضِيعُ عِنْدَ اللهِ تَعَالَى عَمَلٌ صَالِحٌ

في قَوْلِ اللّه تعَالَى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ إظهارٌ في مَوْضِعِ الْإِضْمَار؛ إذْ مقتضَى الظَّاهر أن يَرِدَ النَّظْمُ القُرآنيُّ: (وأنَّه لا يُضيع أجرَ المحسنِينَ)؛ لسَبْقِ التَّصريح بالاسم الأحسن (اللّه) في قوله سُبحانَهُ: ﴿يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ﴾، ونُكْتَةُ الإظهار: بيانُ عظيم مِنَّةِ اللّه تعالى على أهل الإيمانِ بإسنَادِ جزائِهم إلى صريحِ اسمِه تعالى دونَ الضَّمير الرَّاجعِ إليه؛ فإنَّ المَقامَ هنا مقامُ إظهارِ عظمتِه ومِنَّتِه ونعمتِه وفضلِه على عبادِه المؤمنين، ومِنْ فضلِه أنّه لا يُضيعُ أجرَ المؤمنِين.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/167.

والتَّعبيرُ بالفعل المضارعِ ﴿يُضِيعُ﴾ مسبوقًا بحرفِ النَّفْيِ (لَا) دالٌّ على أنَّ عَدَمَ إضاعتِه سُبحانَهُ لِأجرِهم مُستمرٌّ دائمٌ، والمضارعُ وإن سُبِقَ بنفيٍ يدلُّ على الاستمرَارِ والدَّوامِ بحسبِ المقامِ.

والجملةُ دَالَّةٌ على أنَّ ذلكَ أجرٌ لَهُم على إيمانِهِمْ، مُشْعِرٌ بأنَّ مَنْ لا إيمانَ لهُ أَعْمَالُه مُحْبَطَةٌ، لا أَجْرَ لهُ عليْها[1].

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(حَسِبَ) و(ظَنَّ):

(حَسِبَ): يُقالُ: حَسِبتُهُ صالحًا بالكَسرِ، أَحْسَبُهُ بالفتحِ والكَسرِ، (مَحْسَبةً) بكسرِ السِّينِ وفَتحِها، وحِسْباناً بالكسرِ: ظَنَنْتُه، والظَّنُّ: التَّردُّدُ الرَّاجحُ بينَ طَرَفيِّ الاعْتقادِ غيرِ الجازمِ، ومَظِنَّةُ الشَّيْءِ، مَوضِعٌ يُظنُّ فيهِ وُجودُه[2]، وأَصلُ الحِسْبانِ مِنَ الحِسابِ، تَقولُ: أَحْسَبُهُ بالظَّنِّ قدْ ماتَ بفتحِ السِّينِ وكسرِها، كما تقولُ: أَعُدُّه قدْ ماتَ، ثمّ كَثُرَ حتَّى سُمِّيَ الظَّنُّ حِسْباناً على جِهةِ التّوسُّعِ، وصارَ كالحقيقةِ بَعدَ كَثْرةِ الاستعمالِ، وفُرِّقَ بينَ الفعلِ مِنْهما؛ فيُقالُ في الظَّنِّ حَسِبَ، وفي الحِسابِ حَسَبَ، ولذلكَ فُرِّقَ بين المصدَرَيْنِ، فقيل: حِسْبٌ وحُسْبانٌ. ويَجوزُ أنْ يُقَالَ في الظَّنِّ: قُوَّةُ المعْنَى في النَّفْسِ مِنْ غَيْرِ بُلوغِ حالِ الثِّقةِ الثَّابتة[3].

والَّذي يَظهَرُ، أنَّ بيانَ اللهِ في إيرادِهِ للفعلِ ﴿تَحْسَبَنَّ﴾، على جِهةِ النَّهي؛ إنّما هو مِنْ بابِ التَّوسُّعِ في معنَى الظَّنِّ، الَّذي صارَ كالحقيقَةِ بعدَ كَثْرةِ اسْتعمالِه، فَلا يَتسلَّلُ حِينَئذٍ أيُّ احْتمالٍ يُنافي هذا الظَّنَّ أوْ يُضادُّهُ، في أيِّ جُزئيّةٍ مِنْه، ويمكنُ اسْتعمالُ كلمةِ (حُسْبان) فيما يُدُلُّ على حساباتِ الإنسانِ الضَّيِّقةِ في الحياة الدُّنيا المبنيَّةِ على اللَّذاتِ العاجلةِ دونَ الآجِلة، والَّتي تُورِدُه المهالِك، كما قالَ سُبحانَه وتعالَى: ﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ۝٧﴾ [الرُّوم: 07].

(1) الزّجّاج، معاني القرآن: 1/505، ومحمد كريّم راجح، القراءات العشر المتواترة، ص: 72.
(2) الرّازي، مختار الصّحاح، والفيروزآبادي، القاموس المحيط: (حَسِبَ) و: (ظَنَّ).
(3) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 43، 303، والكفويّ، الكليّات: 3/62.

(قُتِلوُا) و(ماتُوا):

قَتَلَ، يَقْتُلُ، وبابَه نَصَرَ، (قَتْلاً) و(تَقْتَالًا): أماتَهُ، و(قاتَلَهُ) (قِتالًا) و(قِيتَالًا). و(مَقاتِلُ) الإنسانِ: المواضِعُ الّتي إذا أُصِيبتْ (قَتَلَتْهُ)[1] و(ماتَ)[2]، وقدْ وَردَ أنّ القَتلَ هو نَقضُ البنيةِ الحيَوانيَّةِ، ولا يُقالُ لهُ قَتْلٌ في أكثرِ الحالِ إلّا إذا كانَ مِنْ فعْلِ آدميّ، وقال بعضُهم: القَتلُ إماتةُ الحَرَكة، والمَوْتُ: عَرَضٌ أيضًا، يُضَادُّ الحياةَ، ولا يَكونُ إلّا مِنْ فِعْلِ اللّه، والمِيتةُ: الموتُ بعيْنِه إلّا أنّه يَدُلُّ على الحَال، والموتُ يَنفِي الحياةَ معَ سَلامةِ البنْية، ولا بُدّ في القَتْلِ مِنَ انْتقَاصِ البنْيَة[3]، والشُّهداءُ الّذينَ حدَّثَنا عنهُم بيانُ اللّهِ تعالَى؛ قد أصابَهمْ ما أصابَهُمْ مِنَ الجِراحِ في بنْيَتِهم (رضيَ اللّهُ عنهم وأَرضاهُم)؛ ولذلكَ ناسبَ هذا المعنَى ماوَردَ في قولِهِ تَعالَى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتَۢا﴾.

الأَمْوات والمَوْتَى[4]:

(ماتَ) يَمُوتُ، ويَماتُ، ويَميتُ، ضِدُّ حَيٍّ، والجَمعُ: أمواتٌ، ومَوْتى، ومَيّتونَ، ومَيْتونَ، ويَستوِي فيه الذَّكَرُ والأُنثَى. فلفظ (مَوْتَى): جمعُ تَكسيرٍ، مفردُهُ: مَيِّتٌ، بتشديدِ الياءِ معَ كَسرِها، وهي تُستعمَلُ في الدِّلالةِ على مَنْ فارقَتهُ الرُّوحُ، وأيضاً لِمَنْ ستُفارِقُهُ الرُّوحُ؛ فهي كلمةٌ عامَّةٌ، قال تعالَى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ۝٣٠﴾ [الزُّمر: 30]؛ يَعني: ستموتُ، نَزلتْ على رسولِ اللّهِ ﷺ، وهو حَيٌّ. و(مَيْتٌ) بتخفيف الياء، لايُطلَقُ إلّا على مَنْ ماتَ، أمّا (أَمواتٌ): فقد جاءتْ في مُقابَلةِ دِلالةِ أَحْياء؛ فهي مُناسِبةٌ أَكثر مِنْ مَوتَى، في مقابلة الأحياء، قال تعالى: ﴿أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ﴾ [النّحل: 21]. وقال سبحانه: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ﴾ [فاطر: 22]، ولفظ (مَوتَى) لم يردْ في مُقابَلةِ الأَحْياء، والسِّياقاتُ القُرآنيَّةُ حَدّدتْ معناهُ في الموتِ الحَقيقيّ، ومُفارقةِ الرُّوحِ البَدَنَ، ولعلَّ فيه مبالغةً أكثرَ ممَّا في الجَمعِ (أَمْواتٍ)، فقدْ جاءتْ (أمواتٌ) في مقابَلَةِ دِلالةٍ واتّساقٍ صَوْتيٍّ وحَرْفيٍّ معَ كلمةِ (أَحياءٍ) ولم تردْ كلمةُ (مَوتَى) كذلكَ، وإنّما اقْترنتْ كلمةُ (مَوتَى) معَ الفعلِ المضَارِعِ (نُحْيي) أو (يُحْيي)؛ كَما قالَ ﷻ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [يس: 12]. وقالَ سُبحانهُ: ﴿فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِىُّ وَهُوَ

(1) الرّازي، مختار الصّحاح، والفيروزآباديّ، القاموس المحيط: (قَتَلَ) و: (مَوَتَ).
(2) سيأتي تفصيلها في الفقرة التّالية.
(3) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 420.
(4) الرّاغب، المفردات، ص: 781، والعسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 525.

﴿يُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾ [الشورى: 9]. ولعلَّ في إيرادِ البيانِ الإلهيِّ لكلمةِ ﴿أَمۡوَٰتَۢا﴾ بدلَ (مَوتَى)، في هذا السِّياقِ القرآنيِّ بالذّاتِ، تأكيداً للأَحياءِ الَّذينَ لم تُفارقْ أرواحُهمْ أجسادَهم، وما زالُوا على قَيْدِ الحَياةِ، أنَّ هؤلاءِ الشُّهداءَ، وإنْ كنتُم تَرَوْنهمْ أمْواتاً؛ أيْ: أجْسادًا بلا أرواحٍ؛ فإنَّهم عندَ اللّهِ هُمُ الأحْياءُ الحقيقيُّون، بسببِ سَخائهِمْ في إزْهاقِ أرواحِهمْ في سبيلِ اللّه، دِفاعًا عن دينِ اللّه، وإعلاءِ كَلمته، ورَفْعِ رايتِه، ولذلكَ اسْتحقُّواْ أنْ يَكونُواْ أحياءً عندَ ربِّهم، يتنعّمونَ ويَتَمتَّعونَ ويُرزَقون، وبهذا جاءَ بيانُ اللّهِ بقولِه تعالَى: ﴿بَلۡ أَحۡيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمۡ يُرۡزَقُونَ ١٦٩﴾، وفي هذا العَرْضِ القُرآنيِّ تَحفيزٌ شَديدٌ، ودَفْعٌ رَشيدٌ، لِلجِهادِ في سَبيلِ اللّه، والفَوْزِ بالشَّهادةِ في سبيلِه (ﷻ).

الرِّزق والنِّعمة واللَّذَة:

(الرّزقُ): ما يُنْتَفَعُ بِه، وأيضاً العَطاءُ، رَزَقه اللّهُ يَرْزُقُه بالضّم رِزقًا، يُقالُ: رَزَقَ اللّهُ الخلْقَ رِزْقًا بَكسرِ الرَّاء، والمصْدرُ الحَقيقيُّ رَزْقًا، والاسمُ يُوضَعُ مَوْضِعَ المَصْدر. و(النِّعمةُ): مِنْ نَعِمَ كسَمِعَ، ونَصَرَ، وضَرَبَ؛ أيْ: يَنْعَمُ، ويَنْعُمُ، ويَنْعِمُ. والتّنعُّمُ: التَّرفُّهُ، والاسْمُ: النَّعمَةُ، بالفَتحِ، والنَّعيمُ والنُّعْمَى بالضّمّ: الخَفْضُ، والدَّعَةُ، والمالُ كالنِّعمةِ بالكسرِ، وجَمعُها: نِعَمٌ وأنْعُمٌ، و(اللّذَّةُ): نقيضُ الألَم، الجَمعُ: لَذّاتٌ، يَتعدَّى، وهوَ مِنْ بابِ فَرِحَ، لَذَّ، يَلَذُّ[1]، والرِّزقُ: هو العَطاءُ الجَارِي في الحُكمِ على الإدرَارِ؛ ولهذا يُقالُ: أرزاقُ الجُندِ؛ لأنّها تَجري على إدْرارٍ، وهو اسْمٌ لما يَملِكُ صاحبُهُ الانْتفاعَ به، فلا يَجوزُ مُنازَعتُه فيه لِكونهِ حَلالًا له، واللَّذَّةُ لا تكونُ إلّا مُشْتَهاةً، ويَجوزُ أنْ تَكونَ نِعمة لا تُشْتهَى؛ كالتَّكليفِ، وإنّما صارَ التّكليفُ نِعمةً، لأنَّهُ تَعَوَّدَ عليها بمَنافعَ ومَلاذَّ، وإنَّما سُمِّيَ ذلكَ نعمة؛ لأنّه سببٌ للنِّعمة، والنِّعمةُ لا تكونُ إلَّا حَسَنة[2]، ومِنْ خلالِ ما تقدّمَ مِنْ تَفصيلٍ لتلكَ المُفرَدات؛ نجدُ أنَّ بَيانَ اللّهِ تعالَى، ذَكرَ الفعلَ (يُرزَقونَ)، وهو يُفيدُ الدّيْمومَةَ والاسْتمرار، وهذا هو المناسِبُ لِمَقامِ الشُّهداءِ الَّذينَ اصْطَفاهُمُ اللّهُ للشّهادةِ في سبيلِه، فَرِزْقُ اللّهِ لهمْ نَبْعٌ لا يَنضُبُ مَعينُه، بهِ يَتنعَّمونَ ويَتلذّذون، لا يُنازعُهمْ فيهِ أَحدٌ؛ لأنّهُ حُظْوَةٌ خاصّةٌ بهمْ مِنَ اللّه.

(1) الرّاغب، المفردات، ص: 765، والفيروزآبادي، القاموس المحيط: (رَزَقَ) و: (نَعِمَ) و: (لَذَذَ).
(2) أبو هلال العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 54، 63، والكفويّ، الكُلِّيّات: 4/184.

(فَرِحَ) و(سُرَّ):

(الفَرَحُ): انْشِراحُ الصَّدرِ بلَذّةٍ عاجِلة، وأكثرُ ما يَكونُ في اللَّذاتِ البَدنيّةِ الدُّنيويَّة، كما قال تعالَى: ﴿وَفَرِحُواْ بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ [الحديد: 23]، ولم يُرخَّصْ في الفَرحِ إلّا في قولِه تعالَى: ﴿قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ﴾ [يونس: 58]، وقولِه سُبحانَه: ﴿وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝٤ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ﴾ [الرّوم: 4 - 5]، وأمّا (السُّرورُ): فهو ما ينْكَتِمُ مِنَ الفَرحِ، قالَ ﷻ: ﴿وَلَقَّىٰهُمۡ نَضۡرَةٗ وَسُرُورٗا ۝١١﴾ [الإنسان: 11]، وقالَ سُبحانَه وتعالَى: ﴿تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ۝٦٩﴾ [البقرة: 69][1].

والفَرَحُ الّذي هو حالُ الشُّهداءِ عندَ مُلاقاةِ ربِّهم، وحِيازتِهمْ لفَضلِه بانْشراحِ صُدورِهم، وتَنعُّمِهم بما أفاضَهُ اللّهُ عليهم مِنْ رِزقِ الجَنَّةِ ولَذائذِها، لم يكنْ أمرًا مَكتومًا؛ بلْ كانَ تَمكينًا، نَقلَهُ لنا بَيانُ اللّهِ بقولِه تعالَى: ﴿وَيَسۡتَبۡشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمۡ يَلۡحَقُواْ بِهِم﴾، وقولِه سُبحانَه: ﴿يَسۡتَبۡشِرُونَ بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٖ﴾.

خَلْف ووَراء:

لفظُ (خَلْف): ضِدُّ القُدَّام، قالَ تعالَى: ﴿يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ﴾ [البقرة: 255]، وقالَ تعالَى: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٞ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ﴾ [الرّعد: 11][2]، (وراءَ): إذا قيلَ: وراءَ زَيْدٍ كذا، فإنَّه يُقالُ لِمَنْ خَلْفَه، نحوُ قولِه تعالَى: ﴿وَمِن وَرَآءِ إِسۡحَٰقَ يَعۡقُوبَ ۝٧١﴾ [هود: 71]، وقولِه سُبحانَه: ﴿ٱرۡجِعُواْ وَرَآءَكُمۡ﴾ [الحديد: 13]، ويُقالُ لِمَا كان قُدّامَه، نحوُ قولِه ﷻ: ﴿وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٞ﴾ [الكهف: 79]، وقولِه تعالَى: ﴿أَوۡ مِن وَرَآءِ جُدُرٖۚ﴾ [الحشر: 14]؛ فإنّ ذلك يُقالُ في أيّ جانبٍ مِنَ الجِدارِ، فهو وراءَهُ باعتبارِ الّذي في الجانبِ الآخَر، وقولُهُ تعالَى: ﴿وَرَآءَ ظُهُورِكُمۡۖ﴾ [الأنعام: 94]؛ أيْ: خَلَّفتُموهُ بعدَ مَوتِكم[3]، وهذه المعاني لكلمةِ (وراءَ) وكثيرٌ غيرُها، لا نجدُها تَفِي بالغَرَضِ المُرادِ في سِياقِ حديثِ القُرآنِ عنِ الشُّهداءِ، الّذينَ يَسْتبشِرونَ بالّذينَ لم يَلحقُواْ بهمْ بَعْدَ انْتقالِهمْ مِنْ دارِ الفَناءِ إلى دارِ البَقاء، مُعزّزينَ مُكرّمينَ مُنَعّمينَ مِنْ ربّهمْ سُبحانَهُ وتعالَى؛ بَلْ لا يُعطِي هذا المعْنَى المُرادَ إلّا قولُهُ تعالَى: ﴿مِّنۡ خَلۡفِهِمۡ﴾، وهذا من بلاغة القرآن الأثيرة، وانفساح ألفاظه على المعاني الغزيرة.

---

(1) الرّاغب، المفردات، ص: 128، وص: 404 - 405، والعسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 77.

(2) المفردات، ص: 93، والرّازي، مختار الصّحاح: (خَلَفَ).

(3) الراغب، المفردات، ص: 66، والرّازي، مختار الصّحاح: (وَرَى).

الخَوْف والخَشْيَة:

(الخَشْيَةُ): أعلَى مَرتبةً مِنَ الخَوْفِ، وهي أشَدُّ الخَوْف، فإنّها مَأخوذَةٌ مِنْ قَولِ العَرَبِ: (شَجَرةٌ خَاشيةٌ) إذا كانتْ يابِسةً، وذلكَ فَواتٌ بالكلّيّة، فهي ميْتةٌ، والخَوْفُ مِنْ قولِهمْ: (ناقةٌ خَوْفاءُ)، إذا كانتْ مَريضةً بها داءٌ، وهذا نَقْصٌ وضَعْفٌ، وليس بِفَوات، والخَشيةُ: خَوْفٌ مَشُوبٌ بتَعظيم المَخْشِيِّ، صادرٌ عن علم ويَقينٍ صادِق، ومَعرفَةٍ بعَظَمتِه، حتّى وإنْ كانَ الخَاشِي قَويًّا[1]؛ ولذلكَ خُصَّ العلماءُ بالخَشيَةِ في قولِه تعالَى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّـهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَـٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: 28]، أمّا الخَوْفُ: فإنّهُ تَوقُّعُ مَكروهٍ عَن أَمَارةٍ مَظنونَة، أوْ مَعلومَة، فإذا تُيُقِّنَ الضَّرَرُ، لم يكنْ خائفًا مِنْ وُقوعِه[2]، والخَوْفُ يكونُ غالِبًا مِنْ ضَعْفِ الخَائف، وإنْ كانَ المُخوَّفُ أمرًا يَسيرًا، كما قدْ يكونُ عَنْ تَسلُّطٍ بالقَهرِ والإرْهابِ؛ كما قالَ تعالَى: ﴿يَـٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ۝١٠﴾ [النّمل: 10][3]، وممّا سَبق نَجدُ أنَّ الّذينَ نَالُوا الشَّهادَةَ في سَبيلِ اللّهِ، نَالُوا معَها بِشاراتٍ عظِيمَةً عَديدةً مِنَ اللّهِ، سَطَّرَها بيانُ اللّه، واللّهُ أصدَقُ القائلِينَ، ومِنْ هذهِ البِشاراتِ أنَّهُ لا يَمَسُّهمْ أيُّ مَكروه، أوْ تَوقُّعُ مَكروه، سَواءٌ أكانَ مَظْنونًا أمْ مَعلومًا؛ فَهُمْ في أَمْنٍ وأَمانٍ مِنَ اللّهِ، فكَيفَ يَتسلّلُ الخَوْفُ إلى قُلوبِهمْ، والمَقامُ مَقامُ يَقينٍ باللّه، واطْمِئنانٍ برحمَةِ اللّه، فَلا يُمكِنُ أنْ يَكونَ معهُ أيُّ خَوْفٍ أوْ حُزْن.

(1) الرّاغب، المفردات، ص: 283، والعسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 217 - 218، والزَّملكانّي، البرهان الكاشف، ص: 91.
(2) الرّاغب، المفردات، ص: 303، والعسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 235.
(3) الزّركشيُّ، البرهان: 4/78 - 79.

﴿ٱلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعۡدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلۡقَرۡحُۚ لِلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ مِنۡهُمۡ وَٱتَّقَوۡاْ أَجۡرٌ عَظِيمٌ ١٧٢ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ فَزَادَهُمۡ إِيمَٰنٗا وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ ١٧٣﴾ [آل عمران: 172 - 173]

مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِمَا قَبْلَهُما:

استدراكُ الهزيمةِ بالاستجابةِ للهِ ورسوله، والاعتمادِ عليه في تتبُّعِ فُلولِ الشّرك

لَمَّا ذَكرَ بَيانُ اللهِ في الآياتِ السَّابقةِ، ما حَلَّ بالمسلِمينَ في غَزوةِ أُحُد، مِنَ الهَزيمةِ بَعْدَ النَّصر؛ بِسببِ عِصيانِ الرُّماةِ لِأَمْرِ رَسولِ اللهِ ﷺ، لهم بالثَّباتِ في أماكنِهم، وعَدمِ المُضِيِّ عنها مَهْما كانتْ نَتيجةُ المَعركَةِ وأَحوالِها، وما أدّاهُ ذلكَ مِنَ اسْتشهادِ عَديدٍ مِنْ صَحابةِ رسولِ اللهِ ﷺ، الَّذينَ عَرَضتْ لنا الآياتُ ما حَباهُمُ اللهُ به مِنَ الكَرامةِ الفائقة، والنّعيمِ المُقيم، جاءَنَا بِخَبَرِ صَحابةِ رسولِ اللهِ ﷺ، الّذينَ خَرجُواْ - على ما بِهِمْ مِنْ جِراحٍ - اسْتجابةً لِمَا نَدبَهمْ رسولُ اللهِ ﷺ، إليهِ مِنَ الخُروج، لِيُعاوِدُواْ الكَرَّةَ في طَلبِ المشْركِينَ وقَتْلِهِمْ، لا يَخافُونَ في اللهِ أَحداً مِنْ خَلْقه، ولِسانُ مَقالِهِمْ وحالِهِمْ: ﴿حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ﴾، فأَلْقَى اللهُ الرُّعْبَ في قُلوبِ المشركِينَ؛ فَرَجَعُواْ إلى مَكَّةَ مُنْخَذِلِينَ هائمين[1]، وعادَ المؤمِنُونَ إلى المدينةِ المُنوَّرَةِ سَالِمينَ غانمِينَ، بأَجرِ غَزوةٍ تَامّة.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱسۡتَجَابُواْ﴾: خَفضٌ على صفةِ المؤمنِيَن، تَقديرُهُ: وإنَّ اللهَ لا يُضِيعُ أجرَ المؤمنِينَ، المُسْتجِيبينَ للهِ وللرّسولِ، ومَعنَى (الاسْتجابة):

(1) البخاري، صحيح البخاري، الحديث رقم: (4077)، ومسلم، صحيح مسلم، الحديث رقم: (2418)، وابن إسحاق، السِّيرة النبوية: 3/44 - 45.

الإجَابةُ، والطّاعةُ[1]؛ ونظيرُهُ قولُهُ تعالَى: ﴿فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِي﴾ [البقرة: 186]؛ أيْ: فَلْيُطِيعوني، "وقيل: والإجابة والاستجابة بمعنى واحد، يقال استجاب الله دعاءه. قال الشّاعر كعب بن سعد الغنويّ:

وَدَاعٍ دَعَا يَا مَنْ يُجِيبُ إِلَى النَّدَى *** فَلَم يسْتجِبْه عِنْدَ ذَاكَ مُجِيبُ[2]

2) ﴿ٱلْقَرْحُ﴾: بالفَتحِ، الجِراحُ، وفيه لُغةٌ ثانيةٌ (القُرْحُ) بالضَّمِّ: أَلمُ الجِراحِ. وهو عضُّ السَّلاحِ، ونَحوُه ممَّا يَخرُجُ بالبَدَن[3]، ويقال القرح وهو الجراح، رجل قريح ومقروح، من قوم قراحى وقرحى، قال الشّاعر:

لَا يُسْلِمُونَ قَرِيحًا كَانَ وَسْطهُمُ *** تَحْتَ العُجَاجِ وَلَا يَشْوُونَ مَنْ قُرِحُواْ[4]

3) ﴿ٱلنَّاسُ﴾: أرادَ بـ (النَّاس): نُعَيْم بن مَسعود، وهُوَ على هذا التَّأويلِ مِنَ العامّ الَّذي أُريدَ بهِ الخَاصُّ، نَظيرُه قولُ اللّهِ تعالَى: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ﴾ [النّساء: 54] يَعنِي مُحمَّداً وحدَه[5]، و"النّاس: قد يكون من الإنس ومن الجنّ، وأصله أناسٌ فخفّف، ولم يجعلواْ الألف واللّام فيه عوضًا من الهمزة المحذوفة، لأنّه لو كان كذلك لما اجتمع مع المعوّض منه، في قول الشّاعر:

إِنَّ الْمَنَايَا يَطَّلِعْـ***نَ عَلَى الْأُنَاسِ الْآمِنِينَا[6]

وحكى سيبويه: (النّاسُ النَّاسُ)، أي النّاس بكلّ مكان، وعلى كلّ حال؛ "وقوله:

بِلَادٌ بِهَا كُنَّا، وَكُنَّا نُحِبُّهَا *** إِذِ النَّاسُ نَاسٌ، وَالْبِلَادُ بِلَادُ[7]

فهذا على المعنى دون اللّفظ، أي(إذ النّاس أحرارٌ، والبلاد مخصبة)، ولولا هذا الغرض، وأنّه مراد معتزم، لم يجز شيء من ذلك، لتعرّي الجزء الأخير من زيادة

(1) ابن عادل، اللُّباب: 6/55، والعُكبَري، التبيان: 1/158.
(2) الجوهريّ، الصّحاح: (جَوَبَ).
(3) الرّازي، مختار الصّحاح، والفيروزآبادي، القاموس المحيط: (قرَحَ).
(4) ابن دريد، مختار الصّحاح، والفيروزآبادي، القاموس المحيط: (قرَحَ)، والبيت للمتنخل الهذلي، القالي، الأمالي: 1/14.
(5) ابن جرير، جامع البيان: 6/138، والواقديّ، المغازي: 1/384 - 391.
(6) الجوهريّ، الصّحاح: (نوس).
(7) ابن عبد البَرّ، بهجة المجالس وأنس المجالس: 1/168، وابن سيده، المحكم: 8/552.

الفائدة عن الجزء الأوّل"[1] والمرادُ بـ﴿ٱلنَّاسَ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ﴾: أبو سُفيانَ وأصحابُه، فقدْ حَشَدواْ حُشودَهمْ لِلمَعرَكة، فقيل للمؤمنين: خافوهُمْ واحْذَرُوهم، فلم يزدهم ذلكَ إلّا تَصديقًا، ويَقينًا، وجَراءةً، وقُوَّة؛ وفيه دَليلٌ على أنَّ الإيمانَ يَزيدُ ويَنقُصُ[2].

4) ﴿حَسۡبُنَا﴾: و(حَسْبُ)؛ أيْ: كافٍ، وهو اسمٌ جامدٌ، بمعنَى الوَصْفِ، ليس له فِعلٌ؛ ومنه اسْمُه تعالَى: الحَسِيبُ، فهو فَعيلٌ بمعنَى مُفْعِلٌ، وقيل: الإحْسابُ: هو الإكْفاءُ، وقيل: هو اسْمُ فِعْلٍ بمعنَى كَفَى، وقولُهم: بَحَسْبِكَ دِرْهَمٌ، يُنافي دَعْوى كَوْنِه اسْمَ فعلٍ؛ لأنّ أسماءَ الأفعالِ لا تدخُلُ عليها العواملُ. وقيل: هو مصدرٌ، وهو مِنَ الأسماءِ اللّازمةِ للإضافةِ دُونَ مَعْنى، فَيُبْنَى على الضَّمِّ، مِثْلُ: قَبْلُ وبَعْدُ[3]. و﴿حَسۡبُنَا ٱللَّهُ﴾؛ أيْ: كافِينا اللهُ، وثِقَتُنا باللهِ، والنُّونُ والأَلِفُ مَخفوضَتانِ بالإضافَة، كقولِكَ: حَسْبُ زيدٍ دِرْهَمٌ؛ لأنّ حَسْبَه اسْمٌ، وإنْ كانَ في مذهبِ الفعلِ لا تَرَى ضَمّةَ الباءِ منهُ[4]، قال الشّاعِرُ[5]:

فَتَملأُ بَيْتَنا أَقْطاً وسَمْناً *** وحَسْبُكَ مِنْ غِنًى شِبَعٌ وريُّ[6]

5) ﴿وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ﴾ أيْ: المَوكولُ إليهِ الأُمورُ، فَعيلٌ بمعْنَى مَفْعولٌ، فَنِعْمَ الموكولُ إليهِ أمرُنا[7]؛ أيْ: نِعْمَ الوكيلُ اللهُ سُبحانَهُ وتَعالَى؛ وتأتي بمَعنَى: المانِع[8]؛ نَظيرُهُ قولُهُ تَعالَى: ﴿وَلَئِن شِئۡنَا لَنَذۡهَبَنَّ بِٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيۡنَا وَكِيلًا ٨٦﴾ [الإسراء: 86]، أيْ: مانعاً، وهو كما في قولِهِ تَعالَى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٞۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ٦٥﴾ [الإسراء: 65].

❁ المَعْنَى الإجْمَاليُّ:

لَمَّا رَجَعَ النّبيُّ ﷺ مِنْ غَزوَةِ أُحُدٍ إلى المدينةِ، نَدَبَ أصحابَهُ إلى الخُروجِ؛ فَخَرَجُواْ

(1) ابن منظور، لسان العرب: (أنس).
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 1/601، والشَّوكاني، فتح القدير: 1/649.
(3) الفيروزآباديّ، القاموس المحيط: (حَسَبَ)، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/170.
(4) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 1/481، والسَّمين، الدُّر المصون: 1/355، 3/490.
(5) هو امرؤ القيسِ بنُ حُجرِ بنِ الحارثِ الشّاعرُ الجاهليُّ.
(6) ديوان امرئ القيس، ص: 49.
(7) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 1/481، والشّوكانّي، فتح القدير: 1/469.
(8) البيهقيّ، الأسماء والصفات: 1/211 - 213.

صمودُ المسلمين ضدّ كلّ تهديدٍ وتخويف، ثقةٌ بالله الحفيظ اللّطيف

-على ما بِهِمْ مِنْ جِراحٍ- اسْتجابةً للّهِ ولرسولِه ﷺ فوَصَلُوا إلى (حَمْراءِ الأَسَدِ)، فجاءَهم نُعَيْمُ بْنُ مَسْعودٍ الأَشْجَعِيُّ الغَطَفَانِيُّ، ولم يكنْ قَدْ أَسلمَ، وقالَ لهمْ: "إنَّ أبا سُفيانَ وأَصحابَهُ، قَدْ حَشَدُوا جَمعَهُمْ، وهَمُّوا باسْتِئصالِكُم". تَخويفًا لهم وتَرهيبًا، فَلمْ يَزِدْهمْ ذلكَ إلّا إيمَانًا باللّهِ، واتّكالًا عليهِ، وقالُوا: حَسْبُنا اللّهُ؛ فَهوَ كافِينَا كُلَّ ما أَهمَّنا، المفوَّضُ إليه تَدبيرُ عبادِه[1]، القَائمُ بِمَصالحِهم.

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

نُكْتَةُ الْوَصْفِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾:

اسْتِجَابَةُ أَهْلِ الْإِيمَانِ للهِ تَعَالَى وَالرَّسُولِ ﷺ وَصْفٌ كَاشِفٌ لَهُمْ

الاسمُ الموصولُ (الذِينَ) مِنْ ﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ في محلِّ جرٍّ صفةٌ لـ ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ من قولِه تعالَى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، ونُكْتَةُ الوصفِ: مدْحُهم وتفخيمُ شأنِهم، وهو وَصْفٌ كَاشِفٌ لا مُخَصِّصٌ؛ إذْ إنَّ واقعَ المؤمنينَ أنَّهم الذِينَ اسْتَجَابُوا للّهِ تعالَى والرَّسُولِ.

ويجوزُ أن يكون (الذِينَ) مبتدأً خبرُهُ ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْاْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾، أو خبرًا لمبتدأٍ محذوف، تَقديرُه: هُم[2].

و(مِنْ) في قوله تعالَى: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ مِنْهُمْ﴾ بيانيَّةٌ[3]؛ جِيءَ بها لبيانِ أنَّ وَصْفَي الإحسَانِ والتَّقْوَى وَصْفَانِ لَازِمَانِ لكلِّ مَنِ اسْتَجَابَ للّهِ تعَالَى والرَّسُولِ ﷺ.

دِلَالَةُ الِاسْتِعَارَةِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ﴾:

﴿ٱلْقَرْحُ﴾ بِفَتحِ القافِ في لُغةِ قُرَيشٍ: الجُرْحُ، وبضمِّها في لُغةِ

(1) الشّوكاني، فتح القدير: 1/648 - 649، والسّعدي، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 118.
(2) العكبري، التبيان: 1/158، والسّمين، الدُّر المصون: 3/487.
(3) الزَّمخشري، الكشّاف: 1/480، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/600.

غيرِهم[1]، وقُرِئَ: بفتحِ القافِ، وقُرِئَ بضمِّها[2]، و﴿ٱلۡقَرۡحُ﴾ هُنَا مُستعمَلٌ في غيرِ حَقيقتِهِ، وهو مجازٌ بالاسْتِعَارةِ للهزيمةِ الَّتي أصابتْهُم، ولذلكَ لم يُجمَعْ، فيُقال: القُرُوح، ووجهُ الاستعارَةِ أنَّ الهزيمةَ تُشبَّهُ بالثُّلْمَةِ والانْكسارِ، فَشُبِّهتْ هنا بالقَرْحِ حينَ يُصيبُ الجَسدَ، وهي استعارةٌ تصريحيَّةٌ أصليَّةٌ، ولا يَصِحُّ أنْ يُرادَ به الحقيقةُ؛ لأنَّ الجِراحَ التي تُصيبُ الجيشَ، لا يُعبأُ بها إذا كانَ مَعَها النَّصرُ[3].

الْـجِـرَاحُ الَّتِي تُصِيبُ الْجَيْشَ، لَا يُعْبَأُ بِهَا إِذَا كَانَ مَعَهَا النَّصْرُ

تَوْجِيهُ الْمُتَشَابِهِ اللَّفْظِيِّ:

قال اللّه سُبْحَانَه: ﴿إِن يَمۡسَسۡكُمۡ قَرۡحٞ فَقَدۡ مَسَّ ٱلۡقَوۡمَ قَرۡحٞ مِّثۡلُهُۥۚ﴾ [آل عمران: 140]، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعۡدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلۡقَرۡحُۚ﴾؛ فقد ورد في كِلْتا الآيتينِ كلمةُ (القَرْح)، ولم ترد كلمة القَرْحِ في غيرهما، والفرقُ بين الآيتينِ: أنَّهُ قد أُسنِدَ المسُّ إلى القَرْحِ مرَّةً في قولِهِ سُبحانَهُ: ﴿إِن يَمۡسَسۡكُمۡ قَرۡحٞ فَقَدۡ مَسَّ ٱلۡقَوۡمَ قَرۡحٞ مِّثۡلُهُۥۚ﴾، وأُسنِدَتِ الإصابةُ إلى القَرْحِ مرَّةً أخرَى في قوله تعالَى: ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلۡقَرۡحُۚ﴾.

دِقَّـــةُ اخْـتِـيَـارِ الْأَلْفَاظِ الْمُنَاسِبَةِ لِسِيَاقَاتِهَا

وكِلْتَا الآيتينِ في الحديثِ عن يومِ أُحُدٍ، لكنَّ الآيةَ الأُوْلى فيها بيانُ النَّظيرِ بِنَظيرِه، والمقابَل بمقابِله، وَفيها تسليةٌ ومواساةٌ حكيمةٌ جليلةٌ لجماعةِ المؤمنينَ بقيادةِ رسولِ اللّه ﷺ؛ فإنْ كان قد مَسّكمْ جِراحٌ، ثمَّ هزيمةٌ في أُحُدٍ؛ فقد مسّ عَدُوَّكم كذلكَ جِراحٌ وهَزيمةٌ في بَدْرٍ.

واستُعْمِلَ الفعلُ (مَسَّ) في كلْتَا المُقابَلَتَيْن؛ لأنَّ المَقامَ مَقامُ تسليةٍ ومواساةٍ وتَثْبيت، والمسُّ أقلُّ تمكُّنًا مِنَ الإصابةِ، وأقلُّ درجاتِها، فكان لفظُ المسِّ أنسَبَ.

(1) الفيروزآبادي، القاموس المحيط: (قَرَحَ).
(2) بفتح القاف قراءة الجمهور، وبضمِّها: قراءة: حمزة، والكسائي، وأبي بكر عن عاصم، وخَلف، ينظر: محمد كريِّم راجح، القراءات العشر المتواترة، ص: 72.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/99.

وأمَّا في الآيةِ الثَّانيةِ؛ فالمَقامُ مَقامُ مَدْحٍ ورَفْعِ شَأنٍ وثَناءٍ لجماعةِ المؤمنِين، الَّذين بالرَّغمِ مِنْ إصاباتِهمُ البالِغَة - مِنْ جِرَاحٍ ثمَّ هزيمةٍ مِنْ بَعدِ النّصر - اسْتجابُوا للّهِ ولرسولِه ﷺ؛ فلبُّوا نداءَ الإيمانِ باللّهِ ورسولِه ﷺ، لِلعَوْدِ والكَرِّ مرَّةً ثانيةً على أعداءِ اللّهِ وأعداءِ رسولِه ﷺ، فكانَ حقًّا أنْ تَظهرَ اسْتجابتُهم تلكَ في عَلْيائِها، مُقابِلَ ما أصابَهم حَقًّا مِنْ إثْخانِ الجِراحِ وآلامِ الهزيمةِ، ولذلك كانَ اسْتخدامُ فعلِ (أصابَهم) أجدرَ بالسِّياقِ مِنْ فعلِ (مسَّهُم).

سَبَبُ فَصْلِ قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿لِلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ مِنۡهُمۡ وَٱتَّقَوۡاْ أَجۡرٌ عَظِيمٌ﴾ عَمَّا قَبْلُ:

تَشَوُّفُ النُّفُوسِ المُؤْمِنَةِ إِلَى الْجَزَاءِ الْأُخْرَوِيِّ

إذا جُعِلَ قولُ اللّه تعالَى: ﴿لِلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ﴾ جملةً مستقلَّةً، فيكون فصْلُهَا عمَّا قبلَهَا لوقوعِهَا اسْتئنافًا بيانيًّا، و﴿مِنۡهُمۡ﴾ حالٌ مِنَ الضَّميرِ في ﴿أَحۡسَنُواْ﴾[1]، ووجهُ الاستئنافِ البيانيِّ: أنَّ اللّه تعالى قال قبلُ: ﴿ٱلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعۡدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلۡقَرۡحُ﴾، فأورثَ ذلك في نَفْسِ المتلَقِّي سؤالًا، وهو: ما جزاءُ هؤلاءِ الذينَ استجابُوا للّه والرَّسولِ مع شدَّة حالِهم؟ فجاء الجواب: ﴿لِلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ مِنۡهُمۡ وَٱتَّقَوۡاْ أَجۡرٌ عَظِيمٌ﴾.

نُكْتَةُ تَقْدِيمِ مُتَعَلَّقِ الْخَبَرِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لِلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ مِنۡهُمۡ وَٱتَّقَوۡاْ أَجۡرٌ عَظِيمٌ﴾:

الْإِحْسَانُ أَعْلَى مَرَاتِبِ الدِّين

تقديمُ مُتعلَّقِ الخبرِ ﴿لِلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ﴾ على المبتدأ ﴿أَجۡرٌ﴾ يُرادُ بهِ: بيانُ أهمِّيّةِ المُخْبَرِ بِهِ، وعَظيمِ مكانتِه، وهو وصفُ الإحسانِ والتَّقوَى؛ تحريضًا للعبادِ علَى الانْدِرَاجِ في سِلْكِ المُحْسِنِين المتَّقِين.

وفي تَقديمِ الإحسانِ على التَّقْوَى في قوله سُبحانه: ﴿لِلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ مِنۡهُمۡ وَٱتَّقَوۡاْ﴾ بيانُ سُمُوِّ درجتِه، وعُلُوِّ كَعبِه؛ إذْ لِلْمُقدَّمِ مزيَّةٌ

(1) العكبري، التبيان: 1/158، وصافي، الجدول: 4/375 - 376.

على غيرِه، وَالتَّقوَى وإن كانت أسمَى مَراتبِ عبادةِ اللّهِ تعالَى؛ فإنَّ الإحسانَ ذُرْوةُ الأمر كُلِّه، إذْ إنّ مراتِبَ الدِّينِ ثلاثة: الإسلامُ، ثُمَّ الإيمانُ، ثُمّ الإحسانُ، وحقيقةُ الإحسانِ كما قالَ رسولُ اللّهِ ﷺ: "أنْ تَعبُدَ اللّه كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ"(1).

سِرُّ تَنْكِيرِ ﴿أَجْرٌ﴾ مِنْ قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْاْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾:

عِظَمُ الْجَزَاءِ مَعَ عِظَمِ الْعَمَلِ

أُورِدَ لفظُ الأجرِ نكرةً في قوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْاْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾؛ ليَعُمَّ كُلَّ أجرٍ يخطُرُ في بالِ المُسلم، ووَجْهُ العموم فيها - وإن كانَت في سِيَاق الإثْبَات - أنَّ النَّكِرَة في سِيَاق الامْتِنَان تَعُمُّ.

وفي هذا التَّنكيرِ إشعارٌ بتعظيمِه مع عمومِ أفرادِه، وهو عظَمةٌ ذاتيَّةٌ، ثُمَّ أُكِّدت عظمَتُهُ بالوصفِ في قوله سُبحانَهُ: ﴿أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾.

أَثَرُ إِعْرَابِ الِاسْمِ الْمَوْصُولِ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ مِنْ قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ﴾:

الْمُسَارَعَةُ إِلَى الطَّاعَةِ مَعَ وُجُودِ الْمُثَبِّطِ أَعْظَمُ أَجْرًا

﴿ٱلَّذِينَ﴾ مِن قَول اللّه تَعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ﴾ اسْمٌ موصولٌ مبنيٌّ في محلِّ نَصْبٍ مفعولٌ بهِ لفِعلٍ مَحذوف، تَقديرُه: أَمدَحُ، فقدْ جاءَ الموصولُ في مَعرِضِ المَدحِ ومَقامِهِ الرّفيع. وحُقَّ أنْ يُمدَحَ مَنْ سَمِعَ مِنَ النّاسِ مَقالةَ التَّخويفِ والتَّثبيطِ عنِ الجهادِ في سبيلِ اللّه؛ فزادتْه إيمانًا.

ويجوزُ أنْ يكونَ ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ﴾ بدَلًا مِنَ ﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾، أو صفةً له، وإنّما جِيءَ بإعادةِ الموصولِ، دونَ أنْ تُعطَفَ الصِّلةُ على الصِّلةِ، اهتمامًا بشأنِ هذه الصِّلةِ الثّانية، حتّى لا تكونَ جُزءَ صِلَةٍ.

ويجوزُ أنْ يكونَ ابتداءَ كلامٍ مُسْتَأنَف، فيكونَ مبتدأً وخبرُهُ قولُه:

(1) البخاري، صحيح البخاري، الحديث رقم: (50)، ومسلم، صحيح مسلم، الحديث رقم: (9).

﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوۡلِيَآءَهُۥ﴾؛ أيْ: ذلكَ القولُ، وهذا تَخلُّصٌ بذكْرِ شَأنٍ مِنْ شؤونِ المسلمينَ كفاهُمُ اللّهُ به بأسَ عَدوِّهم بعدَ يومِ أُحُد[1].

بَلَاغَةُ الْمَجَازِ الْمُرْسَلِ فِي قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ﴾:

وردَتْ كلمةُ (الناس) في هذه الآيةِ مرّتيْنِ:

إحْدَاهُمَا: في قولِه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ﴾، والمرادُ بها: رَكْبُ عبدِ القَيْسِ، وكان معهم نُعَيْمُ بنُ مَسعودٍ الأَشْجَعِيُّ، ولم يكنْ قدْ أسلمَ قبلُ.

والأُخْرَى: في قولِه سُبحانَه: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ﴾، والمرادُ بها: قُرَيْشٌ، وما جَمعُوهُ لِلمسلمِين.

واستعمالُ لفظِ (النَّاس) في الموضِعَيْن مجازٌ مرسَلٌ، علاقَتُهُ العمُوميَّةُ؛ إذْ أُطْلِقَ العامُّ وأُريدَ به بعضُ أفرادِه.

ويجُوزُ أنْ يُرادَ بلفظِ النّاسِ في الموضعِ الأوَّلِ: نُعَيْمُ بنُ مَسعودٍ، وفي الموضعِ الآخَرِ: أبو سُفيانَ، فيكونَ شاهدًا على اسْتعمالِ النّاسِ بمعْنَى الواحِدِ، والآيةُ تَحتمِلُه، وإطلاقُ النَّاسِ عليه؛ لِمَا أنَّه مِنْ جِنْسِهم، وكلامُهُ كَلامُهُم[2]، ونُكْتَةُ هذا الإطلاقِ قصدُ الإبهامِ، ومِنْهُ قولُه تعالَى: ﴿أَمۡ يَحۡسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۖ﴾ [النّساء: 54]، والمُرَادُ بالنّاسِ هُنَا: مُحَمّدٌ ﷺ[3].

ويجُوزُ أن تَكونَ نكتةُ المجازِ: الإشعارُ بكثرةِ الجمْعِ وظهورِهِ حتَّى كأنَّ النَّاسَ كُلَّهم يُخبرونَ عَنْهُ؛ رغبةً منهم في إدخالِ الرُّعْبِ والفزَعِ على أهلِ الإيمانِ.

مِنْ طُرُقِ أَعْدَاءِ الْإِسْلَامِ فِي حَرْبِهِمْ عَلَى الْمُسْلِمِينَ الْإِرْجَافُ بِالْأَخْبَارِ الزَّائِفَةِ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/168 - 169.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السليم: 1/601، والشّوكاني، فتح القدير: 1/648 - 649.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/168 - 169.

وحُذِفَ مفعولُ ﴿جَمَعُواْ﴾ لإرادةِ العموم؛ إذْ إنَّ حَذْف المعمولِ مؤْذِنٌ بذلكَ، والعمومُ هنَا يُراد به عمومُ ما يُجْمَعُ عادةً في الحَرْبِ والقِتَال، والمعنَى: جَمعوا أنفُسَهم وعَدَدَهم وأحلافَهم، كما فَعلُوا يومَ بدرٍ الأوّل، ويجوزُ أن يكون حذف المفعولِ لأجل أن يذهبَ الذِّهْنُ كلَّ مذهبٍ في مقدار ما جمعوهُ من أسلحة ومالٍ ورِجَالٍ، فيكون ذلك أشدَّ في تخويفِهمْ[1].

دِلَالَةُ التَّأْكِيدِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ﴾:

قُـوَّةُ إِيـمَـانِ الصَّحَابَةِ رضي الله عنهم وَثَبَاتُهُمْ أَمَامَ شِدَّةِ التَّخْوِيفِ

وفي تأكيدِ قولِهمْ: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ﴾ بـ: (إنَّ)، و(قَدْ) زيادةٌ في التَّخويفِ والإرْجافِ، ولكنّه في مقابَلِ مَقامِ الثَّباتِ على الحقّ، والزِّيادةِ في الإيمَان، فأيُّ الفريقَيْنِ أحقُّ بالمَدْحِ، والكِفايةِ باللّه، والعَوْنِ مِنَ اللّه ؟!

نُكْتَةُ التَّعْبِيرِ بِالْخَشْيَةِ دُونَ الْخَوْفِ فِي قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ﴾:

ضَعْفُ الْعَزَائِمِ سَبَبٌ فِي تَرْكِ الْمَطَالِبِ الْعَالِيَةِ

(الفاءُ) في قوله: ﴿فَٱخۡشَوۡهُمۡ﴾ عاطفةٌ لِربْطِ السَّبَبِ بالمُسَبَّبِ[2]، واختِيرَ التَّعبيرُ بلفظِ (الخَشْية) دُونَ (الخَوْفِ)؛ لكونِ الخَشْيةِ أليَقَ بالمقامِ، فهيَ أشدُّ وَقعًا وأثَرًا مِنَ الخَوْف، فالمقامُ هنا مَقامُ زَرْعِ الرُّعبِ في قُلوبِ المسلمِين؛ لِتَنْهَارَ عزائمُهم وتَخُورَ قُواهُم، فَيقعُدوا عن قتالِ المُشركِين.

وفي اختيارِ لفظ الخشيةِ إيهامٌ مِنْهُمْ بأنَّ خوفَهم مِنْهُم أمرٌ لازِمٌ لانْبِنَائِهِ على موجبِ الخوفِ وهو قوَّةُ المَخُوفِ، فكأنَّهم ذكرُوا الحُكْمَ مقرونًا بحُجَّتِهِ.

(1) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 3/1510.
(2) صافي، الجدول: 4/377.

دِلَالَةُ قَوْلِهِ تَعَالَى ﴿فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا﴾:

الْإِيمَانُ شَرْعًا يَزِيدُ وَيَنْقُصُ

الفاءُ في ﴿فَزَادَهُمْ﴾ عاطفةٌ[1]، والمرادُ أنَّهم لم يَلْتفِتُوا إلى مَقُولةِ ﴿قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ﴾؛ بل ثبتَ يقينُهم باللّهِ تعالَى، وازدادَ اطمئنانُهم، وأَظهرُوا حَمِيَّةَ الإسلام، وأَخْلصُوا النِّيَّةَ للّهِ[2].

وفي قوله سُبحانه: ﴿فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا﴾ ما يقرُبُ من قلب النُّكْتَةِ؛ وهو الاحتجاجُ بدليل الخصم على نقيضِ دعواهُ، وذلك أنَّهم أردُوا بقولهم: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ﴾ تثبيطَهُمْ عن الخروجِ للجهادِ، فكان ذلك سببًا في تحريضِهم علَيْهِ[3].

وقولُهُ: ﴿فَزَادَهُمْ﴾ فعلٌ ماضٍ، وفاعلُهُ مستترٌ، والتَّقديرُ: فزادَهُمُ القولُ[4]، وفي هذا: بيانُ حقيقةٍ مُهمّةٍ جِدًّا؛ وهي أنَّ الإيمانَ يزيدُ ويَنقُصُ، يزيدُ بالطَّاعةِ، ويَنقُصُ بالمَعصيةِ[5]، وازدِيادُ اليَقينِ بالإلِفِ، وكَثرةِ التَّأَمُّلِ، وتَناصُرِ الحُججِ ممّا لا رَيْبَ فيهِ، وبهذا التَّقريرِ العَقَدِيّ، رَسمتْ لنا الآيةُ الكَريمةُ صُورةَ ثَباتِ الصَّحابةِ رضي الله عنهم وكَمالِ يَقينِهِمْ باللّه تعالَى، وحَميّتِهِمُ الإيمانيَّةِ القَويّة؛ حَيثُ لم يَرْكنُوا لِتثبيطِ المُثبِّطين، وفُتورِ هِمَمِ المنافقِين.

دِلَالَةُ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾:

الْحَسْبَلَةُ دُعَاءٌ يُدْفَعُ بِهِ الْبَلَاءُ وَتُجْلَبُ بِهِ النَّعْمَاءُ

﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾: كلمةٌ أُلْهِمُوهَا، أوْ تلَقَّوْها عنِ النّبيِّ ﷺ، والمعْنَى: مُحْسِبُنا اللّه وكافِينا؛ مِن: أحسَبَهُ إذا كَفَاهُ، والدّليلُ على أنّه بمعنَى المُحسِب: أنّه لا يَستفيد بالإضافة تعريفًا في قولِكَ:

(1) صافي، الجدول: 4/377.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/601.
(3) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/444.
(4) العُكبَري، التبيان: 1/158.
(5) الإيمانُ: قولٌ، وعملٌ، ونيّة (اعتقادٌ)، يَزيدُ بالطّاعة، ويَنقُصُ بالمعصيةِ، ولا يَصِحُّ القولُ إلاّ بالعمل، ولا يَصِحُّ القولُ والعملُ إلاّ بالنِّيّة، ولا يَصِحُّ القولُ والعملُ والنِّيَّةُ إلّا بموافقة القرآن والسُّنة النَّبويّة، وهذه الحقيقة محلُّ إجماعِ علماءِ الأمّة. ينظر: ابن تيمية، الإيمان، ص: 313، والآجرّي، الشّريعة: 2/580.

هذا رَجلٌ حَسبُكَ، فَتصِفُ به النَّكِرةَ؛ لأنَّ إضافتَه - لِكونِه في معنى اسْمِ الفاعلِ - غيرُ حقيقيَّة[1].

وجُملةُ: ﴿وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ﴾، معطوفةٌ على حسبُنا اللّهُ في كلام القائلِين، فالواوُ في المَحْكيِّ لا مِنَ الحِكايَة، وهو مِنْ عَطْفِ الإنْشاءِ على الخَبَرِ، الّذي لا تُطلبُ فيه إلّا المُناسَبَةُ، والأصحُّ أنَّه من عطفِ الإنشاءِ على مثلِه؛ إذْ إنَّ (حسبُنَا اللّه) جملةٌ خبريَّةٌ في اللَّفْظِ إنشائيَّةٌ في المَعْنَى؛ لكون المرادِ مِنْهَا الدُّعاءَ[2]، والمعتبَرُ في باب الوصل والفصلِ هو معاني الجُمَلِ لا مجرَّدُ ألفاظِهَا.

و﴿وَنِعۡمَ﴾ فعلٌ ماضٍ جامدٌ لإنشاءِ المَدحِ، والمَخصوصُ بالمدحِ مَحذوفٌ؛ أيْ: نِعمَ الوَكيلُ اللّهُ سُبحانَه وتعالَى.

و﴿ٱلۡوَكِيلُ﴾: صِفةٌ مُشبَّهةٌ، مِنْ وَكَلَ يكِلُ، وزنُه فَعِيلٌ[3]، وهو فَعيلٌ بمعنَى: مفعولٌ؛ أيْ: موكولٌ إليه، يُقالُ: وَكَلَ حاجتَهُ إلى فُلانٍ، إذا اعْتمدَ عليه في قَضائِها وفَوَّضَ إليه تَحْصيلَها، ولذلكَ كانَ مِنْ أسمائِه تعالَى: (الوَكيلُ)؛ وَأُطلِقَ على هذا المعنَى أيضًا اسْمُ (الكَفيلُ)، في قولِه تعالَى: ﴿وَقَدۡ جَعَلۡتُمُ ٱللَّهَ عَلَيۡكُمۡ كَفِيلًاۚ﴾ [النَّحل: 91][4].

وقدْ حَمَلَ الزّمخشريُّ (الوكيل) على ما يَشمَلُ هذا عندَ قولِه تعالَى: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ ١٠٢﴾ [الأنعام: 102]، فقالَ: "وهو مالكٌ لكلِّ شيءٍ مِنَ الأرزاقِ والآجالِ، رقيبٌ على الأعمالِ؛ وذلكَ يدُلُّ على أنَّ الوكيلَ: اسْمٌ جامعٌ للرَّقيبِ والحافظِ في الأمورِ التي يُعنَى النَّاسُ بِحفظِها ورَقابَتِها وادِّخارِها، ولذلكَ يتقيَّدُ، ويَتعمَّمُ بحَسَبِ المَقامات"[5].

وفي تقديمِ ﴿حَسۡبُنَا ٱللَّهُ﴾ على ﴿وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ﴾ حِكمةٌ جليلةٌ، وهي أنّ الّذي يَكْفي الإنسانَ كلَّ شيءٍ، هو الَّذي يُتوكَّلُ عليه ويُعتمَدُ عليه في كلِّ شَيْءٍ، وهو اللّه تعالَى لا أحَدَ غيرُه، والإنسانُ العاقلُ لا يَكِلُ أمورَه لأَحَدٍ، ولا يُوكِّلُه في القيامِ بها إلّا بعدَ أن يَعلمَ يقينًا أو يَغلِبَ على ظنِّه أنّه قادرٌ على أدائها خيرَ أدَاء، فما الظنُّ باللّه تعالى؛ وهو علَّامُ الغُيوبِ، ليسَ لقُدرتِه وكِفايتِه لعبادِه مُنْتَهَى.

(1) الزّمخشري، الكشّاف: 1/481.
(2) ابن تيمية، الرد على الشاذلي في حزبيه، ص: 99، وابن عثيمين، مجموع الفتاوى والرسائل: 9/173.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/170، وصافي، الجدول: 4/377.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/171.
(5) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/41.

وفي جعلِ الفِعْلِ (نِعْمَ) صدرَ جملةِ ﴿وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ وهو فعلٌ لإنشاءِ المَدحِ؛ تَحفيزٌ وترغيبٌ للتّوكُّلِ عليه ﷻ.

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الاسْتجابة والإجابَة والطَّاعة[1]:

الاستِجابَةُ: قَبولٌ لِمَا دَعَاكَ إليه، ولِذا وَعَدَ اللّهُ سُبحانهُ وتَعالَى الدَّاعِينَ بالاسْتجابةِ في قولِهِ سُبحانَه: ﴿ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: 60]، والمُسْتجيبِينَ بالحُسْنَى في قولِهِ: ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الرّعد: 18]. أمّا (الإجابةُ) وهي: مُوافَقةُ الدّاعي إلى الفِعلِ، مِن أجلِ أنّهُ دَعَا به، فيَجوزُ أنْ يُجيبَ بالمُخالَفة؛ كما يقولُ السّائلُ: أَتُوافِقُ في هذا المَذهَبِ، أمْ تُخالِفُ؟ فيَقولُ المُجيبُ: أُخالِفُ. ولا تكونُ إجابةٌ إلَّا بأنْ تُفعلَ لِمُوافقةِ الدُّعاءِ بالأَمرِ ومِنْ أَجْلِه، وأمّا (الطّاعةُ) فهي: مُوافقةُ الإرادةِ الحادِثةِ للفِعلِ برَغبتِه، أوْ رَهْبتِه، وهي تكونُ مِنَ الأدْنَى للأَعْلَى؛ لأنَّهَا في مُوافقَةِ الإرادةِ الواقِعةِ مَوقِعَ المَسألَة، ومِنْ بيانِ الفُروقِ بينَ تلْكُمُ المُفرَدات، نَجِدُ أنَّ أَلْيَقَها بالمَقامِ اسْتخدامُ الفعلِ ﴿ٱسْتَجَابُوا۟﴾؛ فإنّ اللّه ناداهُمْ ودَعاهُمْ لِلجهادِ في سبيلِه؛ فَلَبّوا النّداءَ، وقَبِلُوا الدَّعوةَ، ولم يُخَالِفُوا، ووَافقُوا إرادةَ اللّه؛ فَقامُوا بالفِعلِ رغبةً بِرضَى اللّه، وبِما أَعَدّهُ لهُم مِنْ جَزيلِ الأَجْر، ووُفُورِ الرِّزق، وعَظيمِ الفَضلِ.

القَرْح والجُرْح:

(القَرْحُ): الأَثَـرُ مِنَ الجِراحةِ، مِنْ شيءٍ يُصيبُه السِّلاحُ ونَحوُه مِنْ خارِج، يُقالُ: قَرَحْتُهُ، نَحْوُ: جَرَحْتُهُ، وقَرِحَ: خرجَ به قَرْحٌ؛ ويُقالُ: القَرْحُ لِلجِراحة، والقُرْحُ لِلألَم، كما قالَ تعالَى: ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ﴾ [آل عمران: 140][2]، وقُرِئَ بالضَّمِّ[3]، و(الجُرْحُ): أثَرٌ دامٍ في الجِلدِ، يُقالُ: جَرَحَهُ جُرْحاً؛ فهوَ جَريحٌ، قال تعالَى: ﴿وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾ [المائدة: 45]، والجَمعُ (جُروحٌ)، ولم يَقولُوا: جِراحٌ إلَّا في الشِّعْر، وسُمِّيَ

(1) أبو هلال، الفروق اللغوية، ص: 34 - 35، ص: 44 - 45، والجرجانّي، التّعريفات، ص: 145.

(2) الرّاغب، المفردات، ص: 165، والفيروزآباديّ، القاموس المحيط: (قَرَحَ).

(3) قرأ بالضّم أبو بكر شعبة عن عاصم، وحمزة، والكسائي، وخَلَف، وقرأ الباقون من السَّبعة والعشرة بالفتح، وهما لغتان، وينظر: محمّد كُرَيِّم راجح، القراءات العشر المتواترة، ص: 72، والرّاغب، المفردات، ص: 165.

القَدحُ في الشَّاهدِ جَرحًا تَشبيهًا به، وسُمِّيت الأعضاءُ الكَاسيةُ جَوارحَ؛ إمّا لأنَّها تَجرَحُ، وإمّا لأنَّها تَكسِبُ تَشبيهًا لها بالسِّباعِ والطُّيورِ الجارِحةِ، والاجْتراحُ: اكْتِسابُ الإثمِ، وأَصلُهُ مِنَ الجراحة، قالَ تعالَى: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [الجاثية: 21][1]، ومِنْ خلالِ اسْتِعراضِ الفَرْقِ بَيْنَ الكَلِمتَيْنِ (القَرْح) و(الجُرْح)؛ نَجِدُ أنَّ إيرادَ البَيانِ الإلَهيِّ لِكلمةَ (القَرْحِ) في سِياقِ الآيةِ القُرآنيَّةِ أَوْلَى بالمَقام؛ فإنَّ القَرحَ خاصٌّ بِمَفهوم الجِراحة، الّتي تُصيبَ البَدَنَ مِنْ خَارجِه، وأَثَرِها عليه، وأمّا (الجُرْحُ) وإنْ كانَ يَدخُلُ في مَعنَى (القَرْحِ)، إلَّا أنَّ مَفهومَه ودِلالاتِه أَوسعُ وأَشْمل، ولا حاجةَ لنا بِها في مَقامِ السِّياقِ القُرآنيّ.

الخَشية والخَوف:

سَبقَ بيانُ الفَرْقِ بين هاتَيْنِ الكَلِمتَيْنِ، والمَقامُ السّابقُ في قولِه تعالَى: ﴿وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُواْ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾، ناسَبهُ ذِكرُ (الخَوْفِ)، وأمّا ذِكرُ (الخَشْيَةِ) فهو في هذه الآيةِ أَلْيَقُ بالمَقام؛ الَّذي هو زرعُ الرُّعبِ في قُلوبِ المسلمِينَ مِنْ قِبَلِ الكافرِين؛ كي تَنْهارَ عزيمتُهمْ، ويتقاعسواْ عَنِ الذّهابِ لِمُلاقاةِ المشركِينَ وقِتَالِهم، فلا تَزهَقُ نُفوسُهم، وتَهلِكُ أبدانُهم، كَما هو مُقْتَضَى مَعنَى (الخَشيةِ).

الجَمْع والحَشْر:

(الجَمعُ): ضَمُّ الشَّيءِ، بِتقريبِ بَعضِه مِنْ بَعْضٍ بَعْدَ التَّفرُّق؛ يُقالُ: جَمعْتُهُ فاجْتَمعَ، قالَ تعالَى: ﴿وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۝٩﴾ [القيامة: 9]؛ وقال سُبحانَه: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ﴾ [هود: 103]؛ أيْ: جُمِعُواْ فيه، و(الجُمَّاعُ): يُقالُ في أَقْوامٍ مُتفاوتَةٍ اجْتَمعُواْ، ويُقالُ: أَجْمَعَ المُسلِمونَ على كَذا؛ اجْتَمعتْ آراؤهُمْ عليه[2]، وأمّا (الحَشرُ): فهو الجَمعُ مَعَ السَّوْق؛ كَما في قولِه تَعالَى: ﴿وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَـٰشِرِينَ ۝٣٦﴾ [الشّعراء: 36]؛ أيْ: ابْعَثْ مَنْ يَجمَعُ السَّحَرَةَ، ويَسوقُهمْ إليكَ، ومِنهُ يَوْمُ الحَشرِ؛ لأنّ الخَلقَ يَجتمِعونَ فيه، ويُساقُونَ إلى المَوقِف[3].

(1) الراغب، المفردات، ص: 190 - 191، والفيروزآبادي، القاموس: (جَرَحَ).
(2) الرّاغب، المفردات، ص: 201، وأبو هلال، الفروق اللغوية، ص: 188.
(3) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 188، والفيروزآباديّ، القاموس: (حَشَرَ).

وضـمُّ المقَاتلِينَ واجْتماعُ آرائهِم يُـوافـقُـهُ ذِكْـرُ الفِعلِ (جمعوا)

وممّا تَقدَّمَ يَتّضِحُ لنا أنّ إيرادَ الفعلِ ﴿جَمَعُواْ﴾ أنْسبُ مِنَ الفعلِ (حَشروا) مِنْ حَيْثُ سِياقُ النّصِّ القُرآنيّ؛ فإنَّ المشركينَ بقيادةِ أبي سُفيانَ، قدْ ضَمُّواْ مُقاتِليهم بَعضِهم مِنْ بَعْضٍ، بَعْدَ تَفرُّقِهِمْ فاجْتَمَعُواْ لِلْعَوْدِ، وقِتالِ المسلمِين؛ واجْتمعَتْ آراؤهُمْ على العَوْدِ، والانتقامِ مِنَ المسلمِين؛ لأنَّهم أيقنُواْ أنّهُمْ لم يُحقِّقُواْ أَهدافَهُمْ مِنَ الثَّأْرِ لِقتْلاهُمْ في بَدْرٍ، كَما كانُواْ يُخطِّطونَ ويَتآمَرون، فَنَصْرُهُمْ كانَ نَاقِصًا غيرَ مُكتَمِلٍ.

الحَسيب والكَافِي والكَفِيل:

يُقالُ: حَسْبُهُ اللّهُ؛ أي: كَافيه، وكَفيلٌ به، وحَسْبُهُ فُلانٌ، أوِ الشّيْءُ؛ أي: كَافيه، وكَفيلٌ به، كَما قالَ تَعالَى: ﴿وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخۡدَعُوكَ فَإِنَّ حَسۡبَكَ ٱللَّهُۚ﴾ [الأنفال: 62]، والحَسيبُ: المُحاسِبُ، أو الحَسيبُ: الكَافي، مَأخوذٌ مِنْ قَولِكَ: أَحْسَبَني الشَّيءُ؛ أيْ: كَفَاني، ومِنهُ قولُهُ تعالَى: ﴿عَطَآءً حِسَابًا ٣٦﴾ [النبأ: 36]؛ أيْ: كَافِيًا[1]، وأمّا (الكافي): فمن الكفاية، وهي ما فيه سَدُّ الخَلَّةِ، وبُلوغُ المرادِ في الأَمْرِ، قالَ تَعالَى: ﴿وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلۡقِتَالَۚ﴾ [الأحزاب: 25]، وقالَ سُبحانَهُ: ﴿إِنَّا كَفَيۡنَٰكَ ٱلۡمُسۡتَهۡزِءِينَ ٩٥﴾ [الحِجر: 95]، وقال ﷻ: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ٧٩﴾ [النّساء: 79]، ومَعناهُ: كَفَى اللّهُ شَهيدًا، أوْ مَعناهُ: اكْتَفِ باللّهِ شَهيدًا، ويُقالُ: كَافيكَ فُلانٌ مِنْ رَجُلٍ، كَقولكَ: حَسْبُكَ مِنْ رَجُلٍ[2].

واللّفظ الآخر هو (الكفيل)، وهو من الكفالة، وتعني الضَّمان، تَقولُ: تكَفَّلْتُ بكذا، وكَفَّلْتُهُ فُلانًا، والكَفيلُ: الحَظُّ الَّذي فيه الكِفايةُ، كأنَّ اللّهَ تَكفّلَ بأمرِه، نَحْوُ قوله تَعالَى: ﴿فَقَالَ أَكۡفِلۡنِيهَا﴾ [ص: 23]؛ أيْ: اجْعَلني كِفْلًا لَها، والكِفْلُ: الكَفيلُ، قالَ: ﴿يُؤۡتِكُمۡ كِفۡلَيۡنِ مِن رَّحۡمَتِهِۦ﴾ [الحديد: 28]؛ أيْ: كَفلَيْنِ من نِعمته في الدُّنيا والآخِرة، أو أنَّ

(1) الرّاغب، المفردات، ص: 34، والجمل، معجم وتفسير لغويّ لكلمات القرآن: 1/393 - 394.
(2) الرّاغب، المفردات، ص: 719.

المرادَ: النِّعمةُ المُتواليةُ المتكفّلةُ بكفايتِه، والكَفَالةُ تَكونُ للنّفْس؛ كَما قالَ تَعالَى: ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّاۖ﴾ [آل عمران: 37][1].

وممَّا سَبقَ بيانُهُ يَظهرُ لنا جَليّاً أنَّ (الحَسِيبَ) يَجمَعُ مَعانيَ الكَلمتَيْنِ (الكَافي) و(الكَفِيلِ) جَمْعًا تامًّا، حَصرًا وقَصرًا، فَلا يَفِي بالغَرَضِ المُرادِ مِنَ السِّياقِ القُرآنيِّ إلَّا اسْتعمالُ كَلمَةِ ﴿حَسْبُنَا﴾ وكَفَى[2].

(1) الرّاغب، المفردات، ص: 717، والعسكريّ، الفُروق اللغوية، ص: 453 - 454.

(2) ونشير هنا إلى إيرادِ كَلمةِ (الوَكيلِ)، وخاصَّةً بَعْدَ الفِعلِ (نِعْمَ)، فيقال (نعم الوكيل)، وهو لفظٌ يُفيدُ المدْحَ والثَّناء، ولا تَنزِلُ مَنزِلتَهُ كلمةُ (الحَسِيب) أو: (الكَافِي)، أو (الكفيل)،، فلا يُمكنُ أنْ يَتدبَّرَ أمرَ الخَلقِ إلَّا مَنْ خَلَقَهُم، وهو المالِكُ لهُم، الرَّحيمُ بهم، ولا يُعتمَدُ اعْتمادًا كُلِّيًّا إلَّا على مَنْ بيدِهِ مَقاليدُ كُلِّ شَيْء، العليمِ الحكيمِ بكلِّ شَيْء، والوَكيلُ: اسمٌ مِنْ أسماءِ اللهِ الحُسْنَى، والوَكالةُ صِفةٌ مِنْ صفاتِ اللهِ بمَعْنَى: المُتَوَلِّي، القَائمُ بِتَدبيرِ خَلْقه، ولأنَّهُ مَالِكٌ لهُم، رَحيمٌ بهم، والتَّوكيلُ: أنْ تَعتمِدَ علَى غَيرِكَ، وتَجعلَهُ نائبًا عنك، فتكْتَفِي بهِ أنْ يَتولَّى أمرَكَ ويَتوَكّلَ لك، والتّوكُّلُ يُقالُ على وَجهَينِ، الأوَّلُ: يُقالُ: توكّلْتُ لِفُلان، وبمعنَى: تولَّيْتُ له، ويُقالُ: وكَّلْتُهُ فتَوكَّلَ لِي، والثَّاني: وتوكَّلْتُ عليه، وبمعنَى: اعْتَمدْتُه، وقال ﷻ: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ١٢٣﴾ [التّوبة: 51]، وقالَ تعالَى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓۚ﴾ [الطّلاق: 3]. ينظر: الرّاغب، المفردات، ص: 182، والعسكريّ، الفُروق اللغوية، ص: 577.

﴿فَٱنقَلَبُواْ بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٖ لَّمۡ يَمۡسَسۡهُمۡ سُوٓءٞ وَٱتَّبَعُواْ رِضۡوَٰنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَظِيمٍ ١٧٤﴾ [آل عمران: 174]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

مواجهة الأخطار بالتّوكّل على الله، وقطف الثّمرة وقايةً ورضوانًا وفضلًا

سبقَ بيانُها مع الآيةِ الّتي قَبلَها، وخلاصة ذلك أنّ السّياق إيضاح بليغ للمؤمنين الّذين توكّلواْ على الله، حين جمع لهم النّاس صنوف الكيد، وألوان الأذى، فانقلبوا بنعمة الله وعنايته، آمنين من الضّرر، سالمين من الخطر، وذلك فضلٌ من الله عظيم، على عباده الصّالحين، المتّبعين رضوانه العميم.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَٱنقَلَبُواْ﴾: مِنْ (قَلَبَهُ يَقْلِبُهُ): حوَّلهُ عن وجههِ، كأَقْلَبَهُ وقَلَّبهُ[1]، "وقلبت للقوم قليباً: حفرته، لأنّه بالحفر يقلب ترابه قلباً، والقليب في الأصل: التراب المقلوب، وقلبته: أصبت قلبه، وقلبه الدّاء: أخذ قلبه، وقلب فلان فهو مقلوب، وقلبت ناقته، قال ابن مولى المدنيّ:

يَا لَيْتَ نَاقَتِيَ الَّتِي أَكْرَيْتُهَا *** قُلِبَتْ وَأَوْرَثَهَا النَّجَازُ سُعَالًا[2]

والمرادُ هنا: رجعوا مُتَلَبِّسينَ، وهو معطوفٌ على مَحذوف، أيْ: فَخَرجواْ إليهمْ، فانْقَلَبوا بِنعمةٍ، وهو متعلِّقٌ بمحذوفٍ وقعَ حالًا، هوَ: رَجَعواْ مُتَلبِّسينَ[3].

2) ﴿بِنِعۡمَةٖ﴾: نَعِمَ ينعَمُ، ويَنْعُمُ، ويَنعِمُ، ثلاثُ لغات، والنَّعيمُ والنُّعمَى: الخَفْضُ والدَّعةُ والمالُ، والتَّنعُّمُ: التَّرفُّهُ[4]، والمرادُ هنا:

(1) الفيروزآبادي، القاموس: (قَلَبَ).
(2) الزّمَخْشري، أساس البلاغة: (قلب).
(3) الشوكاني، فتح القدير: 1/649، والسِّعديّ، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 118.
(4) الفيروزآبادي، القاموس: (نَعِمَ).

السَّلامةُ مِنْ عدوِّهم، "ونِعْمَةُ اللّه: مَا أعطَاهُ العَبْد مِمَّا لَا يُمكن غَيره أَن يُعْطِيَهُ إِيَّاه كالسمع وَالْبَصَر، وَالْجمع مِنْهُمَا نِعَمٌ وأَنْعُمٌ، قَالَ ابْن جني: جَاءَ ذَلِك على حذف التَّاء، فَصَارَ كَقَوْلِهِم ذِئْب وأذؤب، وَقطع وأقطع، وَمثله كثير.. والنِّعْمَةُ: المسرة، ونَعِمَ اللّه بك عينًا، ونَعِمَكَ عينًا، وأنْعم بك عينًا: أقَرَّ بك عين من تحبّه، أنْشد ثَعْلَب:

أَنْعَمَ اللّه بالرَّسُولِ وبالمُرْ***سِلِ والحامِلِ الرِّسالَةَ عَيْنَا[1]

3) ﴿وَفَضْلٍ﴾: فَضَلَ، كنَصَر، وعَلِمَ، والفَضْلُ: ضدُّ النَّقصِ، وأفْضَل عليه في الحَسَب: زاد[2]، وفي يده فضل الزّمام وهو طرفه، قال ذو الرّمّة:

طَرَحْتُ لَهَا بِالْأَرْضِ فَضْلَ زِمَامِهَا***وَأَعْلَاهُ فِي مَثْنَى الْخَشَاشَةِ مُعْلَقُ

وللرّئيس فضول الغنائم، وهي ما يفضل عن القسمة، وله في قومه فضول وفواضل، الواحدة: فاضلة، وهو مفضال[3]، أي: أَجْرٌ تَفَضّلَ اللّهُ بِهِ عليهِمْ، قد يصدُق على رِبْحٍ في التِّجارةِ، أوْ أيِّ منافعَ من منافعِ الدُّنيا والآخِرة، والأَوْلى أنْ يتوافقَ معَ منافعِ الدُّنيا؛ لأنَّ الحديثَ هُنا معَ الأحْياء، ويُؤيِّدُهُ قولُهُ تعالى من بَعْدُ: ﴿لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ﴾.

4) ﴿لَّمْ يَمْسَسْهُمْ﴾، يُقالُ: (مَسَّ) الشّيْءَ يَمَسُّهُ بالفَتح (مَسًّا)، وبابُه: فَهِمَ، وهي اللُّغةُ الفَصيحةُ، وفيه لُغةٌ أُخرى من بابِ رَدَّ[4]، و"مَسِسْتُ الشّيء بالكسر أمسّه مسًّا، فهذه اللّغة الفصيحة، وحكى أبو عبيدة: مَسَسْتُ الشّيء بالفتح أمسُّه بالضّمّ، وربّما قالوا مسّت الشّيء يحذفون منه السّين الاولى، ويحولون كسرتها إلى الميم، ومنهم من لا يحوّل ويترك الميم على حالها مفتوحة، وهو مثل قوله تعالى: ﴿فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ۝٦٥﴾ [الواقعة: 65] يكسر ويفتح، وأصله ظللتم، وهو من شواذّ التّخفيف، وأنشد الأخفش:

مَسْنَا السَّمَاءَ فَنِلْنَاهَا وَطَالَهُمُ***حَتَّى رَأَوْا أُحُدًا يَهْوِي وَثَهْلَانَا[5]

والمرادُ بقولِه: ﴿سُوٓءٌ﴾، أي: سالمينَ من أيِّ سُوء، من إصابةٍ بقَتْلٍ، أو جِراحٍ، أو أيِّ خَوْفٍ يَحْذَرونَ منهُ ومنْ عَواقبِه[6].

(1) ابن سيده، المحكم: (نَعِمَ).
(2) الرّازي، مختار الصّحاح: (فَضَلَ).
(3) الزّمَخْشري، أساس البلاغة: (فَضَلَ).
(4) الرّازي، مختار الصّحاح: (مَسَسَ).
(5) الجوهريّ، الصّحاح: (مَسَسَ).
(6) ابن جرير، جامع البيان: 4/183.

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

عاقبة المؤمنين حفظ من السّوء، وتفضّل من صاحب الفضل العظيم

بعد أن قالَ المسلمون: ﴿حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ ١٧٣﴾ [آل عمران: 173]، في وجهِ أولئكَ المُثبِّطين الَّذينَ حاوَلواْ إثارةَ الرُّعبِ في قلوبهم، بما أَعدَّه أبو سفيانَ وأصحابُه منْ حَشْدٍ، يُريدُ به العَوْدةَ والانْتقامَ من جماعةِ المؤمنين، كانَ لهذه الكِفايةِ باللّهِ، وصِدْقِ التّوكُّلِ عليه، أَثَرٌ بيّنٌ: في انْصرافِ المشركينَ وعَوْدتهم إلى مكَّة، وفي نُزولِ السَّكينةِ في قلوبِ المؤمنين، ورُجوعهم بتمامِ العافيةِ والسَّلامةِ من عَدوِّهم، مع رِبْحهم في التِّجارة، وإعطاءِ اللّهِ لهم ثوابَ الغَزْوة، وفَوْزِهم باتِّباع رضوانِ اللّه، وتثبيتِه لهم[1]، فأعطاهم اللّه ثواب ذلك ورضي عنهم، واللّه ذو فضل عظيم على عباده الصّالحين[2].

الإِيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

معنى الفاءِ في قولِه تعالى: ﴿فَٱنقَلَبُواْ﴾:

الانقلابُ إلى النعمةِ يَأتي إثرَ الاستجابةِ لأمرِ الله بالجهادِ

ابتدأتِ الآيةُ بالفاءِ في قوله: ﴿فَٱنقَلَبُواْ بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ للتَّعقيبِ في الإِخْبارِ عن ثَباتِ إيمانِهم، وقولِهم: ﴿حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ ١٧٣﴾ [آل عمران: 173]، والفاءُ عطفٌ على مقدَّرٍ؛ لأنَّ الانْقلابَ يقتضي أنَّهم خرجوا للِقاءِ العَدوِّ الّذي بلغَ عنهم أنّهم جَمَعوا له، ولم يَعْبَؤوا بتخويفِ الشَّيطان، والتَّقديرُ: فَخَرجوا مجاهدين إليهم ووافَوا الموعِدَ[3]، فانْقلَبوا بنعمةٍ من اللّهِ تعالى.

معنى الباءِ وغرضُ التَّنكير في قوله تعالى: ﴿بِنِعۡمَةٖ﴾:

إسباغُ النعمِ العظيمةِ على العبادِ نتيجةُ الأعمالِ العظيمةِ

الباءُ في قولِه: ﴿بِنِعۡمَةٖ﴾ مُتَعلِّقةٌ بمَحذوفٍ، وقعَ حالًا من الضَّمير في ﴿فَٱنقَلَبُواْ﴾[4]، وجاءَ التّنوين في ﴿بِنِعۡمَةٖ﴾ للتّفخيمِ[5]، أي: تَفْخيمُ

(1) ابن جرير، جامع البيان: 4/183، والسَّمعاني، تفسير القرآن: 1/381.
(2) البغويّ، معالم التنّزيل: 1/542.
(3) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 1/602.
(4) العكبري، التبيان: 1/158.
(5) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 1/602، وابنُ عاشور، التّحرير والتّنْوير: 4/171.

(نِعْمةٍ) وإسباغُ العَظَمةِ عليها، فيكونُ المعنَى: فَرَجعوا مِنْ مَقْصَدِهِمْ مُلْتبِسينَ بنعْمةٍ عَظيمةٍ لا يُقادَرُ قَدْرُها، وما قيل في النِّعمةِ يُقال في قولِه: ﴿وَفَضْلٍ﴾؛ فله حكمُ المعطوفِ عليه.

معنى تعلُّقِ قولِه: ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ بمحذوفٍ:

جاءَ قولُه تعالى: ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ متعلِّقًا بمحذوفٍ صِفَةٍ لِنعْمةٍ مُؤَكِّدةٍ لِفَخامَتِها الذَّاتيَّةِ الَّتي يُفيدُها التَّنكيرُ بالفَخامةِ الإضافيَّةِ، أي: نِعمةٌ كائِنَةٌ من اللّه تعالى، وهي العافيةُ، والثّباتُ على الإيمانِ، والزِّيادةُ فيه، وحَذَرُ العَدوِّ منهم[1]، وقوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ يُبيِّنُ النِّعمةَ ويُجلِّي حالَها، فهي من اللّه تعالى وكفى بها ذلك.

ما كانَ من اللّه تعالى فهو النِّعمةُ العظيمةُ والخيرُ العميم

بلاغةُ التَّنكيرِ وفنِّ الاحتراسِ في قولِه تعالَى: ﴿لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ﴾:

جاء قولُه تعالى: ﴿لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ﴾ احتراسًا لدفعِ توهمِ أن يمسَّ المؤمنين سوءٌ؛ فإنَّ الانقلابَ بالنِّعمةِ والفضلِ من اللّه تعالى، لا ينفي وقوعَ شيءٍ من السُّوءِ ولو كان يسيرًا، فجاءَ قولُه تعالى: ﴿لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ﴾ لدفعِ هذا الوَهمِ، وبيان أنَّ النِّعمةَ والفضلَ خاليان من أيِّ سوءٍ، وهذا سرُّ تنكيرِ كلمةِ ﴿سُوٓءٌ﴾؛ لِتَدُلَّ على العُموم، والتَّقديرُ: مُنعَّمينَ حالَ كونِهم سالمينَ مِنْ أيِّ سوءٍ، يمكنُ أنْ يتطرَّقَ إليهم[2].

تـوريـثُ الطَّمأنينةِ التَّامةِ من وقوعِ أيِّ سوءٍ

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(انْقلَبوا)، و(رَجَعوا):

قَلْبُ الشَّيءِ: تصريفُه، وصَرفُه عن وَجْهٍ إلى وَجْه، كقلبِ الثَّوْب، وقلبُ الإنسان، أي: صرفُه عن طريقتِه، قالَ تعالى: ﴿وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ۝٢١﴾ [العنكبوت: 21]، وقلبُ الإنسان، قيل: سُمِّيَ به لِكَثرةِ تَقلُّبِه، والانْقلابُ: الانْصرافُ، قالَ تعالى: ﴿ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ [آل عمران: 144]، وكذلكَ هو المصيرُ إلى نقيضِ ما

(1) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 1/602.
(2) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 1/602.

كانَ فيه قبلُ، ويوضِّح ذلكَ قولُكَ: انقلبَ الطّينُ خَزَفًا، فأمَّا رُجوعُه خَزفًا؛ فلا يصِحُّ؛ لأنَّه لمْ يكن قبْلُ خَزفًا[1]. والَّذي نخلُصُ إليه من خلالِ هَذا البَيان: أنَّ الفعلَ (انْقَلبواْ) أجْوَدُ بالمَقامِ القرآنيِّ مِنَ الفعلِ (رَجعوا)، فقدِ انقلبَ الصَّحابةُ - ﵃ - بقيادةِ رسولِ اللّهِ ﷺ، بمعنَى: صاروا إلى نقيضِ ما كانوا عليهِ مِنْ قبلُ، هؤلاءِ هم خرَجوا؛ ليُلحِقوا الهزيمةَ بالمشركين، بعد أنْ أصابَهم مِنَ القتلِ والجِراحِ ما أصابَهم، ولكنَّهم عادوا إلى مدينتِهم سالمينَ غانمينَ، لم يمسَسْهم سوء، بعد أنْ أنزلَ اللّهُ الرُّعبَ على قلوبِ المشركينَ، فرَجَعوا إلى مكَّةَ مِنْ حيثُ خرجوا؛ مُنهزمينَ، لم يحقِّقوا أيَّ هدَفٍ مِنْ أهدافِهم.

(يمسسُ)، و(يُصيبُ):

تقدَّم الفرقُ بين هذيْن الفعليْن في قولِه تعالَى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ﴾ [آل عمران: 166]، وذَكرْنا حينَها أنَّ قولَه: ﴿أَصَٰبَكُمۡ﴾ أَلْيَق بالسِّياق، في المشْهدِ المُعْلَنِ عنه في غَزوةِ (أُحُدٍ)، أمّا هنا في هذه الآيةِ الكريمة؛ فالَّذي يناسبُ السِّياقَ استخدامُ الفعلِ ﴿يَمۡسَسۡهُمۡ﴾ حيثُ رجعَ المسلمونَ بقيادةِ رسولِ اللّهِ ﷺ إلى ديارِهم في المدينةِ، بعد أنْ صرَفَ اللّهُ عنهم عدوَّهم، لم يَمْسَسْهم أيُّ سوء، والمَسُّ: هو أقلُّ درجاتِ الإصابة[2].

الإرادة والرِّضْوان:

الرِّضا: يُقالُ: رَضيَ يَرْضَى رِضًا، فهو مَرْضيٌّ ومَرْضوٌّ، ورضا العبدِ عَنِ اللّه: ألَّا يَكرَه ما يَجري به قَضاؤُه، ورضا اللّهِ عَنِ العبد: هو أنْ يَراهُ مُؤتمِرًا لأمرِه، ومُنتهيًا عن نَهيِه، قالَ اللّه تعالى: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ﴾ [المائدة: 119]. والرِّضوانُ: الرِّضا الكثيرُ، ولَمّا كانَ أعظمُ الرِّضا رضا اللّهِ تعالى؛ خُصَّ لفظُ الرِّضوانِ في القرآنِ بما كانَ مِنَ اللّهِ تعالى، قالَ اللّه ﷻ: ﴿يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗاۖ﴾ [الفتح: 29][3]، وأمّا الإرادةُ؛ فهي منقولةٌ مِنْ (رادَ) (يَرودُ): إذا سعَى في طلبِ الشَّيء، وجُعلَ اسْمًا لِنزوعِ النّفْسِ إلى الشَّيْءِ مع الحُكم فيه، بأنَّه يَنبغي أن يُفعَلَ، أوْ لا يُفعَل، ثم يُستعمَلُ مرّةً في المبدأ، وهو نُزوعُ النّفسِ إلى الشَّيء، وتارةً في المُنتهَى، وهو الحكمُ فيه بأنَّه ينبغي أنْ يُفعلَ أوْ لا يُفعَل، فإذا استُعمِلَ

(1) الرّاغب، المفردات، ص: 681، والعسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 249.
(2) الزّمَخْشري، الكشّاف: 1/459، والفيروزابادي، القاموس المحيط، ص: 741.
(3) الرّاغب، المفردات، ص: 371.

في اللّه؛ فإنَّه يُرادُ به المُنتهَى دونَ المبدأ، فإنَّه يتعالَى عن معنَى النُّزوع، فمتَى قيلَ: أرادَ اللّه كذا؛ فمعناهُ: حَكمَ فيه أنَّه كذا، وليس بكذا، نحوُ قولِه تعالى: ﴿إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً﴾ [الأحزاب: 17][1]، وإرادةُ الطّاعةِ تكونُ قبلَها، والرِّضا بها يكونُ بعدَها، أوْ معَها، فليس الرِّضا مِنَ الإرادةِ في شيْء، والرِّضا أيضًا نَقيضُ السُّخْط، والسُّخْطُ مِنَ اللّهِ تعالى إرادةُ العِقاب، فينبغي أنْ يكونَ الرِّضا منه إرادةَ الثَّواب، أوِ الحكم به[2]، وممّا تقدَّم بيانُهُ؛ يتَّضحُ أنَّ إيرادَ البيانِ الإلهيِّ لكلمةِ (رِضْوان)، أنسَبُ بالسِّياقِ القرآنيِّ، فهؤلاءِ الصَّحابةُ - رضي الله عنهم - قدْ رَضوا عنِ اللّه، فلم يكرَهوا ما جرَى به قضاؤه، ممّا حلَّ بهم مِنَ الهزيمةِ والجِراح في (أُحُدٍ)، وأيقنوا الدَّرسَ الكبيرَ الَّذي تَعلَّموه، جَرّاءَ مخالفةِ الرُّماةِ لأمرِ رسولِ اللّهِ ﷺ، ورَضوا كذلكَ عنِ اللّهِ تمامَ الرِّضا، بعد أنْ صرَفَ عنهُم أعداءَهمُ الَّذينَ أرادوا العَوْدَ لِقتالِهم كرَّةً ثانية، وأعادَهُم سالمينَ غانمينَ بخيْرَيِ الدُّنيا والآخِرة، وهذا كلُّه لا تَفي به كلمةُ (الإرادة)، كما سَلَف.

(1) الرّاغب، المفردات، ص: 56.

(2) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 34.

﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوۡلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمۡ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ١٧٥﴾ [آل عمران: 175]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الـــرّبـــط بين عـودة المؤمنين من غير سوء، ونـبـذ الـخـوف مـن الـشّـيـطـان وأوليائه

لمَّا انقلبَ الصَّحابةُ ﵃ بقيادةِ رسولِ اللّهِ ﷺ إلى مدينتِهم بفضلٍ من اللّهِ ونعمة، لم يَمْسَسْهم سوءٌ، بعد أن رَكَلوا مقالةَ المثبِّطين: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ﴾ [آل عمران: 173]؛ ساقَ بيانُ اللّهِ الآيةَ الكريمةَ؛ ليؤكِّدَ أنَّ الَّذي نَفَثَ في رَوْعِ أصحابِ تلكَ المقالةِ المثبِّطة؛ لترهيبِ المسلمين، إنَّما هو الشَّيطانُ، الَّذي ليس له سلطانٌ بالتَّخويفِ والتَّرويع إلّا على مَنْ تولّاه، وألقَى له حَبْلَ قيادتِه، ومن واجبِ المسلمينَ ألَّا يَخافوا أنصارَ الشَّيطان، بلْ يخافوا اللّه ﷻ دونَ سِواه، "فإنَّ الإيمانَ يقتضي إيثارَ خوفِ اللّه تعالى، على خوف غيرِه، ويستدعي الأمنَ من شرّ الشّيطانِ وأوليائِه"[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾: مِنْ (شَطَطَ)، أي: بَعُدَ، والشَّيطانُ بَعُدَ عن الحقِّ، بتكبُّرِه على أمرِ اللّهِ تعالى، وتأتي من (شَطَنَ)، والشّيطانُ: نونُه أصليّةٌ، وقيل: إنّها زائدةٌ، فإنْ جَعَلْتَه فَيْعالًا مِنْ قولِهم: (تَشَيْطَنَ) الرَّجُلُ؛ صَرَفتَه، وإنْ جعلتَه مِنْ تَشيَّطَ؛ لم تَصرِفْه؛ لأنَّه فَعْلانُ، والشَّيطانُ: كلُّ عاتٍ متمَرِّدٍ من الإنس والجنِّ والدّوابِّ، والمرادُ هنا الشَّيطانُ المعروف[2]، "والشّيطان: فيعال من شطن، أي: بعد، ويقال: شيطن الرّجل، وتشيطن، إذا صار كالشّيطان، وفعل فعله"[3].

(1) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 2/115.
(2) الرّازي، مختار الصّحاح، ص: 297، والقاموس المحيط: (شَطَطَ) و(شَطَنَ).
(3) الخليل، العين: (شَطَنَ).

2) ﴿أَوۡلِيَآءَهُۥ﴾: (الوَلْيُ) بسكونِ اللّام: القُرْبُ والدُّنوُّ، يُقال: تباعَدَ بَعدَ وَلْيٍ، والموالاةُ ضِدُّ المعاداة، و(الوَلايةُ) بالفتحِ والكَسْرِ: النُّصْرةُ[1]، والمرادُ هنا: الَّذينَ يَتَوَلَّوْنَهُ، ويَسْتنصِرونَ به، والمرادُ بهمُ المنافقون، أو أبو سفيانَ وأصحابُه، أو عُمومُ الكافرينَ[2]، والوليُّ: ضدّ العدوّ، يقال منه: تولّاه، والمولى: المعتِق، والمعتَق، وابن العمّ، والنّاصر، والجار، والوليّ: الصّهر، وكل من ولي أمر واحد، فهو وليّه، وقول الشّاعر:

هُمُ الْمَوْلَى وَإِنْ جَنَفُواْ عَلَيْنَا *** وَإِنَّا مِنْ لِقَائِهِمُ لَزُورُ

قال أبو عبيدة: يعنى الموالي، أي بني العمّ[3].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

الشّيطان يخوّفكم من أوليائه الكفرة، بأوليائه المرجفين

إنّ ترهيبَ مَنْ رهَّبَ مِنَ المشركين، وقال: إنّ أبا سفيان وأصحابَه قد جَمعوا مقاتليهم لكم، إنَّما هو شيطانٌ أو داعيةٌ من دُعاته، يخوِّف أنصارَه الَّذينَ عُدِم إيمانُهم، أو ضَعُفَ، فحذارِ حذارِ - أيُّها المؤمنون - أنْ تخافوا المشركين، أولياءَ الشَّيطان، فإنّ نواصيهم بيدِ اللّهِ تعالى، لا يَتصرَّفونَ إلَّا بقدَرِه، بل خافوا اللّه الَّذي ينصُرُ أولياءَه الخائفينَ إيَّاه المستجيبينَ لدعوته[4]، "فأولياء الشّيطان إذا كانوا قد خوَّفوا المؤمنين بالكثرة والعدد، والهزيمة القريبة، فذلك هو منطقهم ومنطق الشّيطان، أمّا المؤمنون فهم أولياء اللّه، ولا يعتمدون إلّا عليه"[5].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

توجيهُ سببِ الفصلِ في قولِه تعالَى: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوۡلِيَآءَهُۥ﴾:

الاستئنافُ البيانيُّ يُعيِّن قائلَ قولة التَّثبيطِ

قولُه تعالَى: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوۡلِيَآءَهُۥ﴾ إمّا أن يُحملَ على أنَّه استئنافٌ بيانيٌّ؛ وذلك في حال أن يكونَ قولُهُ: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ

(1) الرّازي، مختار الصّحاح، والفيروزآبادي، القاموس: (وَلَي).
(2) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 1/603.
(3) الجوهريّ، الصّحاح: 1/603.
(4) الشّوكاني، فتح القدير: 1/649 - 650، والسّعدي، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 118.
(5) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 3/1513.

﴿لَهُمُ ٱلنَّاسُ﴾ [آل عمران: 173] بدَلًا أوْ صفةً من قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ [آل عمران: 172]، ومعنى الاستئنافِ البيانيِّ: تقدير سؤالِ سائلٍ عمَّن قال للمؤمنين تلك المقولةُ؟ فكان الجوابُ إنَّما ذلكم الشَّيطان، وهذا الوجهُ هو الأوجه في هذه الجملةِ.

وإمّا أن يكون قولُه تعالَى: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ﴾ خبرًا عن ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ﴾ [آل عمران: 173]؛ في حال إعرابِ قولِه: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ﴾ مبتدأً، والتَّقديرُ: قال لهمُ النَّاسُ إنّما مقالُهُم يُخوِّفُ الشَّيطانُ به.

ورابطُ هذهِ الجملةِ بالمبتدأ على هذا التَّقديرِ: هو اسْمُ الإشارةِ، واسْمُ الإشارةِ مُبتدأٌ، وهو إمّا عائدٌ إلى المقالِ، فلفظُ الشَّيطانِ على هذا مُبتدأٌ ثانٍ، ولفظُه مُستعمَلٌ في معناهُ الحقيقيِّ، والمعنَى: أنَّ ذلكَ المقالَ ناشِئٌ عن وَسْوسَةِ الشَّيطانِ في نفوسِ الَّذين دَبَّروا مكيدةَ الإرْجافِ بتلكَ المقالةِ؛ لتخويفِ المسلمينَ بواسطة رَكْب عبدِ القَيْس.

وإمّا أن تعودَ الإشارةُ إلى ﴿ٱلنَّاسُ﴾ مِنْ قولِه: ﴿قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ﴾ [آل عمران: 173]؛ لأنَّ النّاسَ مُؤَوَّلٌ بشَخْص، وهو نُعَيمُ بنُ مَسْعود، فالشَّيطانُ بدَلٌ، أوْ بيانٌ مِن اسْمِ الإشارةِ، وأُطلقَ عليه لفْظُ (شيطان) على طريقةِ التّشبيه البليغِ[1].

سرُّ استعمالِ أداة ﴿إِنَّمَا﴾:

الحذرُ من الشَّيطانِ مسلكُ المؤمنين وحكمةُ العقلاءِ

آثرَ النَّظم استعمالَ أداة ﴿إِنَّمَا﴾ التي أفادَتِ الحَصْرَ في أنَّ الّذي ثبَّطَ، وخوّفَ ويسعى إلى ذلك على الدَّوامِ هو الشَّيطانُ وأولياؤه، وبتعيينِ السَّببِ يذهب العجب، ويدلُّ المؤمنين على معرفةِ من يُحرِّكهم الشَّيطانُ بوساوسِه، والشَّيطان معلومٌ لدى المؤمنين، وحصرُ التَّخويفِ به لبيانِ خطرِه، والحذر من كلِّ ما يبعثُ في النَّفسِ تخويفًا وترهيبًا.

امتلاءُ القلبِ من الخشيةِ طاردٌ للوَساوِسِ والأراجيفِ

بلاغةُ المجازِ بالحذفِ في قولِه: ﴿يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ﴾:

في قولِه تعالى: ﴿يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ﴾ مجازٌ بالحذفِ، تقديرُه: يُخوِّفكُمْ أولياءَه، فحُذِفَ المفعولُ به الأوَّلُ لفعلِ ﴿يُخَوِّفُ﴾، والدَّليل

(1) العكبري، التبيان: 1/158، وابنُ عاشور، التّحرير والتّنْوير: 4/171 - 172.

على ذلك قولُه بعدَه: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ﴾، فإنَّ خوَّفَ يتعدّى إلى مفعولَيْن[1]، ويجوزُ حملُه على حذفِ آخر؛ فيكون المعنى: الشَّيطانُ يخوِّف أولياءه منكم، فلا تخافوهم، وهذا أقوى وأرسخ، إذ تخويف الشَّيطان لأوليائه لا لأولياء الرَّحمن، ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٩٩ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ۝١٠٠﴾ [النَّحل: 99 - 100]، وفيه حذفٌ بديعٌ وتقديره: الشَّيطانُ يُخوِّفُ أولياءَه ليجمعوا لكم ويُحاربوكم، فلا تخافوهم، وهذا أبلغ من تقدير: يخوِّفكم أولياءَه.

نكتةُ استعمالِ اسم الإشارةِ للبعيدِ:

التَّهويـنُ من شأنِ الشَّيطانِ وأثرِه

هوَّنتِ الآيةُ من الشَّيطانِ وما ينتجُ عنه مِنْ سوءٍ بأشكالِه المختلفةِ، عندما استعملتِ الآيةُ اسْمَ الإشارةِ الَّذي يُفيدُ البُعدَ ﴿ذَٰلِكُمُ﴾؛ لتُؤكِّد بُعْدَ الشَّيطانِ وجماعتِه منْ أنْ يكونَ لهم أيُّ تأثيرٍ وسُلطانٍ على المؤمنينَ الّذين هم على ربِّهم يتوكَّلون،

قولُه سُبحانه: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ﴾.

معنى الفاءِ في قولِه تعالى: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ﴾:

تعليلُ النَّهي عن الخَوْفِ قبل الشُّروعِ بِالنَّهي

الفاءُ في قولِه تعالى: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ﴾ لترتيبِ النَّهي، أوِ الانتهاءِ على ما قبلَها، أي: فَلا تَخافوني، فتقعُدوا عنِ القتالِ، وتجبُنوا، وخافوني، فجاهِدوا مع رَسولي، وسارِعوا إلى ما يأمرُكُم به، والخطابُ بذلكَ للفريقينِ الخارجينَ للقتالِ والقاعِدين، ونبَّهتِ الفاءِ على ما وردَ قبلَها من كونِ المُخَوِّف: هو الشَّيطانُ، وإذا كانَ ذلك كذلك؛ فقد وجبَ عدمُ الخَوْف؛ لأنَّ الشَّيطانَ ضعيفٌ، كما قالَ تعالى: ﴿فَقَٰتِلُوٓاْ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِۖ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ۝٧٦﴾ [النساء: 76][2].

(1) العكبري، التبيان: 1/158، وابنُ عاشور، التّحرير والتّنْوير: 4/172.
(2) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 1/603.

فائدةُ جمعِ الضَّميرِ في قولِه: ﴿تَخَافُوهُمْ﴾:

أساليبُ الشَّياطين متجدِّدةٌ في أثرِها وتأثيرِها

جمعُ الضَّميرِ في قولِه تعالى: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ﴾، دون إفرادِه فلم يقل: (فلا تخافوه)؛ لتنبيهِ المؤمنين إلى أنَّ أولياءَ الشَّيطانِ كثيرون في طرائِقِهم، وأساليبِهم، وأنَّ على المسلم الانتباه منهم، فالمحرِّضُ واحدٌ، وأتباعُه كثرةٌ، وهو ما يُرشِّحُ حملَ النَّظمِ في قولِه: ﴿يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ﴾ على ظاهرِه لا تقدير يخوِّفكم كما سبق بيانُ ذلك.

نكتةُ تأخيرِ ماحقُّه التَّقديم:

إلهابُ المؤمنين الشُّعورَ بالإيمان لتقويتِهم في مجابهةِ أولياءِ الشَّيطانِ

جاءت أداةُ الشَّرط وفعلها ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ متأخِّرَيْن عن الجوابِ الَّذي تقدَّم مُصَدّرًا بالفاءِ الرَّابطةِ للجواب في قوله: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ﴾، والأصلُ: إن كنتم مؤمنين فلا تخافوهم وخافونِ، لكنَّ تقديمَ ما حقُّه التَّأخيرُ، وتأخيرَ ما حقُّه التَّقديمُ، من وجوه البلاغةِ القرآنيَّة الفريدة، ونكتتُه في هذه الآية الإلهابُ والتَّهييجُ، "تذكيرًا وإحماءً لإيمانِهم، وإلّا فقدْ عُلِمَ أنّهم مؤمنونَ حقًّا"[1].

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الوِلايَة والنُّصرَة:

الوَلاية والوِلاية: النُّصرةُ، قالَ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾﴾ [آل عمران: 68]. وقالَ سُبحانَه: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٧٨﴾﴾ [الحجّ: 78]. ونفَى اللّه تعالى الوِلايةَ بين المؤمنينَ والكافرينَ في غيرِ آية، منها قولُه تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۗ﴾ [الأعراف: 3]. وقولُه ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ﴾ [الممتحنة: 1]. وجعلَ بين الكافرينَ والشَّياطين موالاةً في الدُّنيا، ونفَى بينَهمُ الموالاةَ في الآخرة، فمِنَ الأوْلَى قولُه تعالى: ﴿إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [الأعراف: 30]، ومِنَ الثّانيّة

(1) ابنُ عاشور، التّحرير والتّنْوير: 4/172.

قولُه تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا﴾ [الدّخان: 41]، والمَوْلَى تأتي بمعنَى: المُعتِق، والمُعْتَق، وابنِ العمِّ، والنَّاصر، والجار، والحَليف[1].

النَّصْرُ والنُّصْرة: العَوْنُ، قالَ تعالى: ﴿نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ﴾ [الصّف: 13].

ونُصْرةُ اللّهِ للعبدِ ظاهرةٌ، ونُصْرةُ العبدِ للّهِ: هو نُصرتُه لعبادِه، والقيامُ بحفظِ حدودِه، ورعايةِ حقوقِه، واعْتناقِ أحكامِه، واجتنابِ نهيِه، قالَ ﷻ: ﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ﴾ [محمّد: 7][2]. ويتَّضحُ ممَّا تقدَّم أنَّ اسْتخدامَ البيانِ الإلَهيِّ لكلمة ﴿أَوْلِيَآءُ﴾ أوْلى بالسِّياق القرآنيِّ من كلمةِ (أنصارَه)؛ لأنَّ الوِلايةَ لها مفهومٌ أوْسعُ من النُّصرة، ومعانٍ عديدةٌ، واسْتخدامُها في الموالاةِ بين الكافرينَ والشَّياطينِ كثيرٌ في آياتِ القرآنِ الكريم، كما ذكرنا. وموالاةُ الكافرينَ للشِّياطينِ والعكسُ: هي موالاةٌ في الدُّنيا فقط؛ لأنَّها قائمةٌ على تحقيقِ مصالحَ شرّيرةٍ محْضَة، أمّا في الآخرةِ؛ فهي مُنْتَفيةٌ، بلْ تنقلبُ إلى عداوةٍ شَرسةٍ بين الشَّريكَيْن، ويتملَّصُ كل فريق وطَرَفٍ ممَّن كانَ يصاحبُه، ويناصرُه في الدُّنيا، كما جلَّى لنا البيانُ الإلهيُّ هذه الحقيقةَ أجْلَى بيان، بقولِ الحقِّ تباركَ وتعالى: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي ۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾ [إبراهيم: 22]، وقولُهُ ﷻ حكايةً لقولِ إبراهيمَ عليه السلام لقومِه: ﴿وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [العنكبوت: 25].

الخَوْف والخَشْية:

سَبقَ بيانُ الفرقِ بين هذين المصْطَلَحَيْن عندَ تفسيرِ قولِه تعالى: ﴿وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُواْ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ [آل عمران: 170]، وقولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ﴾ [آل عمران: 173]، ولكلِّ مقامٍ مِنَ السِّياقيْنِ السَّابقَيْنِ مَقالٌ يُناسبُه. وهنا في هذا المقامِ نجدُ نهيًا إلهيًّا لجماعةِ المؤمنينَ ألَّا يَخافوا مِنَ الشَّيطان وأوليائِه،

(1) الفرّاء، معاني القرآن: 1/418، والرّاغب، المفردات، ص: 185 - 186، والرّازي، مختار الصّحاح، ص: 650.

(2) الرّاغب، المفردات، ص: 808 - 809، والعسكري، الفروق اللغوية، ص: 577.

أَعْقبَه مباشرةً أمرٌ إلهيٌّ لجماعةِ المؤمنينَ أنْ يَخافوا اللّه وحدَهُ؛ إنْ كانوا مؤمنين، فما العلّة هنا في ذِكْرِ الخوفِ دونَ الخَشْية ؟ذكرْنا سابقًا أنَّ الخشيةَ هي أشدُّ الخَوْف، فهل كان صحابةُ رسولِ اللّهِ ﷺ قد بَلغوا أشدَّ الخوفِ من المشركينَ حتَّى يقولَ اللّه تعالى لهم: ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ﴾ [البقرة: 150]؟ الجوابُ واضحٌ أنَّه بالنَّفْي، ولكنَّ الصَّحابةَ ﷺ بَشَرٌ، فلا غَرْوَ مِنْ أنْ يَتسلَّلَ الخوفُ إلى قلوبِهم، حتَّى وإنْ كانَ المُخَوَّفُ أمرًا يسيرًا، وشيئًا هيِّنًا، ثمَّ إنَّ الخشيةَ هي خوفٌ مَشوبٌ بتعظيمِ المَخْشيِّ، صادرٌ عن علمٍ ويقينٍ صادقٍ، ومعرفةٍ بعظَمتِه، وليس لذلكَ أيُّ حسابٍ أوْ مِصداقيَّةٍ في نفوسِ الصَّحابة ﷺ، فلم يكونوا يُعظِّمون إلّا مَنْ يَستحِقُّ التَّعظيمَ، بلا حُدودٍ ولا قُيود، وهو اللّه وحدَه دونَ سِواه، واللّه يعلمُ ذلكَ أكثرَ مِنْ علمِهمْ بأنفُسِهم، ولذلكَ حُقَّ أنْ يقولَ اللّه عزّ شأنُه: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ﴾، وقولُه تعالى بعدَ ذلكَ: ﴿وَخَافُونِ﴾، هو مِنْ بابِ المُشاكلةِ اللُّغويّةِ الَّتي تقتضي مُسايَرةَ الكلمةِ وموافقتَها بكلمةٍ مِنْ جِنْسِها ورَسمِها؛ وإنِ اخْتلفَ المعنَى بينَهما، كما قالَ تعالَى: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَاۖ﴾ [الشورى: 40]، وليس جزاءُ السَّيِّئةِ في واقعِ الأمرِ والحالِ سيِّئة، وإنَّما هو خيرٌ وحُسْن، وإلّا فإنَّ الصَّحابةَ ﷺ أشدُّ النّاسِ خشيةً للّه، وأَعْلمُهم باللّهِ بعدَ رسولِ اللّه ﷺ.

الإيمان والإسلام:

(الإيمانُ): هو الإقرارُ باللِّسان، والتَّصديقُ بالجَنان، وهو عملُ القلبِ الَّذي هو المحبّةُ على سبيلِ الخُضوع، وجميعُ ما صحَّ عن رسولِ اللّهِ ﷺ مِنَ الشَّرعِ والبيانِ، كُلُّه حقٌّ، والإيمانُ واحد، وأهلُه في أصلِه سَواء، والتَّفاضلُ بينَهم بالخَشيةِ والتُّقى، ومخالفةِ الهوَى، وملازمةِ الأَوْلى[1]. و(الإسلامُ): شهادةُ أنْ لا إلهَ إلّا اللّه، والتّصديقُ برسولِ اللّه ﷺ، وإقامُ الصَّلاة، وصومُ رمَضان، وأداءُ الزَّكاة، وحجُّ البيتِ مَنِ اسْتطاعَ إليه سبيلًا. والإيمانُ أرفعُ من الإسلامِ بدرجةِ أنَّ الإيمانَ يُشارِكُ الإسلامَ في الظّاهر، والإسلامُ لا يُشارِكُ الإيمانَ في الباطِن، وإنِ اجْتَمَعا في القولِ والصِّفة. فالإسلامُ أعمُّ مِنَ الإيمان، معَ اعْتضادِهما بما نَطقَ به القرآنُ الكريمُ في قولِه تعالى: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّاۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمْۖ﴾ [الحجرات: 14] فإنَّه سُبحانه أثبتَ

(1) ابن تيمية، الفتاوى: 2/40 - 41، وابن أبي العزّ، شرح العقيدة الطَّحاوية: 2/459.

لهمُ الإسلامَ، ونفَى عنهمُ الإيمان[1]. وما تَقدَّمَ يُظهرُ أنَّ إيرادَ كلمةِ ﴿مُّؤۡمِنِينَ﴾ أنسَبُ بالمقامِ من كلمةِ (مُسلمينَ)؛ لأنَّ الإيمانَ عملُ القلب، وبه المحبَّةُ على سبيلِ الخُضوعِ التَّامِّ للّهِ ولشريعتِه، وهو أرفعُ من الإسلام، ثمَّ إنَّ سياقَ النَّصِّ القرآنيِّ ذكرَ الخَوْفَ بقول اللّه تعالى: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمۡ وَخَافُونِ﴾ والخَوْفُ عملُ القلبِ، فهو والإيمانُ سواءٌ في أنَّهما عبادة قلبيَّة، فمَنْ آمنَ باللّهِ حقَّ الإيمانِ في قلبِه؛ خافَ مِنَ اللّهِ حَقَّ الخَوْفِ في قلبِه، وقد قال النّبيّ ﷺ: «إِنَّ الْإِيمَانَ لَيْسَ بِالتَّحَلِّي وَلَا بِالتَّمَنِّي، إِنَّمَا الْإِيمَانُ مَا وَقَرَ فِي الْقَلْبِ، وَصَدَّقَهُ الْعَمَلُ»[2].

(1) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 318 - 319، والجرجانّي، التّعريفات، ص: 23.
(2) ابن أبي شيبة، المصنّف، ص: 23.

﴿وَلَا يَحۡزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِۚ إِنَّهُمۡ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗاۚ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجۡعَلَ لَهُمۡ حَظّٗا فِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٌ ١٧٦﴾ [آل عمران: 176]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

ربط نبذ الخوف من أولياء الشّيطان، بترك الحزن على أهل الكفر والهوان

لَمَّا بيّن اللّه ﷻ في الآيةِ السَّابقةِ: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوۡلِيَآءَهُۥ﴾ أنَّ للشّيطانِ أولياءَ يُخوّفُهم فَيخافونَه، وأنَّ الإيمانَ صِمامُ أمانٍ يقي صاحبَه الخَوْفَ إلَّا من اللّه: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمۡ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾، جاءتْ هذه الآيةُ المبارَكةُ تسليةً لرسولِ اللّهِ ﷺ في حُزنِهِ الشَّديدِ على أولئك الَّذين يُسارعونَ في الكُفْر أنِ اتَّبعوا الشَّيطانَ الَّذي يَخافونَه، أنّهم لن يَضرُّوا إلّا أنفُسَهم، وليس لهم، ولا لشيطانِهمُ الّذي خافوهُ، فاتّبعوهُ، إلّا البُعْدُ من رحمةِ اللّه، والعذابُ العظيمُ الَّذي ينتظرهم، "فالمعركة ليست مع المؤمنين، ولكنّها معركة الكافرين مع اللّه، وما دامت المعركة مع اللّه، فالمؤمنون جند اللّه؛ وهم الصّورة الّتي أرادها اللّه لهزيمة الكافرين"[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَلَا يَحۡزُنكَ﴾: (الحُزْنُ) و(الحَزَنُ): الهَمُّ ضِدُّ السُّرورِ، حَزِن، يَحْزَنُ، حُزْنًا، فهو حَزِنٌ، وحَزينٌ[2]، وفيها لُغتان: بفتحِ الياء وضمّ الزَّاي، وبضمِّ الياء وكَسْرِ الزَّاي ـ يُقال: حَزَنَني الأمْرُ، وأَحْزَنَني، إلّا أنّ الأوْلى هي اللُّغةُ العاليةُ الفَصيحةُ[3]، "وقال أبو

(1) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 3/1883.

(2) الرازي، مختار الصّحاح، والفيروزآبادي، القاموس: (حَزِنَ).

(3) الأولى قراءة الجمهور، والثّانية قراءة نافع، وكذلك جميع ما في هذا القرآن من هذا الفعل إلاّ التي في [الأنبياء: 103]، في قوله تعالى: ﴿لَا يَحۡزُنُهُمُ ٱلۡفَزَعُ ٱلۡأَكۡبَرُ﴾ فإنّه بفتح الياء، وضمِّ الزَّاي، ينظر: ابن مجاهد، السَّبعة، ص: 219، ومكّي ابن أبي طالب، الكشف: 1/365، وابن زنجلة، الحُجّة، ص: 181.

عمرو: إذا جاء الحزن منصوبًا فتحوه، وإذا جاء مرفوعًا أو مكسورًا ضمّوا الحاء، كقول اللّه ﷻ: ﴿وَٱبۡيَضَّتۡ عَيۡنَاهُ مِنَ ٱلۡحُزۡنِ﴾ [يوسف: 84]، أي أنه في موضع خفض، وقال: ﴿تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ حَزَنًا﴾ [التّوبة: 92]؛ أي أنّه في موضع النّصب، وقال: ﴿أَشۡكُواْ بَثِّي وَحُزۡنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [يوسف: 86] ضمّواْ الحاء ههنا: (الهمّ)، وفي الصّحاح: خلاف السّرور"[1].

2) ﴿يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِۚ﴾: السُّرعةُ: ضدُّ البُطءِ، و(أَسْرَعَ) في السَّيْر، وهو في الأصل مُتعدٍّ، والمسارعةُ إلى الشَّيء: المبادرةُ إليه[2]، "وهم يسارعون إلى الخير ويتسارعون إليه، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ﴾ [المؤمنون: 61]، وفلان يتسرّع إلى الشّرّ، ولَسُرْعَانَ ما جئت، ولَوُشْكَانَ، ولَعَجْلَانَ، وروى الكسّائي فيه الحركات الثّلاث، وفي مثل (سرعان ذا إهالة) وقال:

أَتَخْطُبُ فِيهِمْ بَعْدَ قَتْلِ رِجَالِهِمْ *** لَسُرْعَانَ هَذَا وَالدِّمَاءُ تَصَبَّبُ[3]

والمرادُ بهم في الآية كفّارُ قُريْش، وقيل: هم قومٌ ارتدُّواْ، فاغتمَّ النَّبيُّ ﷺ لذلك، وقيل: هم المنافقون، وقيل: هو عامٌّ في جميع الكفّار[4].

3) ﴿لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗاۚ﴾: الضُّرُّ: ضدُّ النَّفع، وبابُه: رَدَّ، و(ضارَّهُ) بمعنى: ضَرَّه، والاسْمُ: الضَّرَرُ[5]، "والعرب تقول: لا يضرّك هذا الأمر ضرًّا، ولا يضيرك ضيرًا، والضّرورة والضّارورة واحد، وهو الاضطرار إلى الشّيء، وفي الحديث: "يكفي من الضّرورة أو الضّارورة صبوح أو غبوق"[6]، أي الميتة إذا أصابها وهو مضطر إليها، والمضطرّ: مفتعل من الضّرّ"[7]، والمعنى هنا في الآية: أنَّ كُفرَهم لا يُنقِصُ من مِلك اللّهِ ﷻ شيئًا، ويُحتملُ أَنْ يُرادَ: لن يَضرُّواْ دينَه الَّذي شَرَعهُ لعبادِه، ولنْ يُضِرُّوا أولياءَه[8].

4) ﴿أَلَّا يَجۡعَلَ لَهُمۡ حَظًّا﴾: الحظْوةُ: بضمِّ الحاء وكسرها، والحِظَةُ: المكانةُ، والحَظُّ من

(1) الزَّبيديّ، تاج العروس: 34/411.
(2) الفيروزآباديّ، القاموس: (سَرَعَ).
(3) الزّمَخْشري، أساس البلاغة: (سَرَعَ).
(4) ابن جرير، جامع البيان: 4/185، وابن هشام، السِّيرة النَّبويّة: 3/128.
(5) الرّازي، مختار الصّحاح: (ضَرَرَ).
(6) الحاكم، المستدرك، الحديث رقم: (7258).
(7) ابن دريد، جمهرة اللّغة: (ضَرَرَ).
(8) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 1/604.

الرِّزق، والحَظُّ: النَّصيبُ[1]، "وقال أبو زيد: جمع (الحظ) حظ، (وحظوظ)،، وزاد ابن عباد: حظوظة، بضمّهن وهي جموع الكثرة، ومنه قول الشّهاب المقّري في أوّل قصيدته المشهورة:

سُبْحَانَ مَنْ قَسَمَ الْحُظُو *** ظَ فَلا عِتَابَ وَلَا مَلَامَةْ"[2]

والمعنى هنا: أنَّ اللّهَ يُريدُ ألّا يجعلَ لهمْ نَصيبًا في الجنَّة أوْ نصيبًا منَ الثَّواب[3].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

نهي النّبي عن الحزن عمّن كفر وغدر، فإنّه عليه لا على الله الضّرر

ارتدَّ قومٌ عن الإسلام، فاغتمَّ النبيُّ ﷺ، وحزِنَ حزنًا شديدًا لذلكَ، ولمن يُسارعُ في الكُفر عِنادًا وجُحودًا من قريشٍ وغيرها، فَسَلَّاه اللّهُ ﷻ، ونَهاهُ عن الحُزْن، وعلّل ذلكَ بأنّهم لن يَضُرُّوا اللّهَ شيئًا، وإنّما ضَرُّوا أنْفُسَهم بألَّا حظَّ لهم في الآخرة، لأنهم انصرفوا عن دعوة الحقّ، وسارعواْ في الكفر، وبذلك كان لهم عذابٌ عظيمٌ[4].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

فائدةُ الانتقال من النَّهي عن الخوفِ إلى النَّهي عن الحزنِ:

مقامُ النَّبيِّ في منزلةٍ سامقةٍ لا يبلغُها آحادُ النَّاسِ

قولُهُ تعالى: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ﴾ نهيٌ للرسول ﷺ عن أنْ يَحزَنَ من فعلِ قوم يَحرِصونَ على الكفر، وهو معطوفٌ على قولِه تعالى: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ﴾، فهو انتقالٌ من خطابِ المؤمنين إلى خطابِ رسولِهم ﷺ، ونكتتُه الانتقالُ من نهي المؤمنين عن الخوفِ إلى نهي الرَّسولِ عنِ الحزنِ، فحزنُ النَّبيِّ هو على الكافرين، بخلافِ خوفِ المؤمنين فهو من الكافرين، وفي هذا الانتقالِ بيانُ منزلةِ رسولِ اللّه ﷺ، في حرصِه على إيمان الجميعِ المؤمنِ والكافرِ، فهو في منزلةٍ لا يبلُغُها آحادُ النَّاسِ.

(1) الفيروزآباديّ، القاموس: (حَظا).
(2) الزَّبيديّ، تاج العروس: (حَظظ).
(3) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 4/184.
(4) الشَّوكاني، فتح القدير: 1/653، والسَّعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 118.

استعمالُ النَّهيِ عن اللَّازمِ بإرادةِ الملزوم

المقصودُ بالنَّهي في قولِه تعالى: ﴿وَلَا يَحۡزُنكَ﴾ نهي المؤمنين عن الحزنِ على المسارعين في الكفرِ، وذلك أنَّ النَّهيَ عن التَّأثير نهيٌ عن التَّأثُّر بأصلِه، ونفيٌ له بالمرَّة، أي: نهي النَّبيِّ عن التَّأثُّيرِ في المؤمنين هو في الحقيقةِ نهيٌ عن أن يتأثَّرَ هو بذلك، فهذا أبلغُ في النَّهي، فهو نهيٌ عن اللازمِ، والمرادُ نهيٌ عن الملزومِ[1].

توجيه القراءات القرآنيَّة:

قُرِئَ: ﴿يَحۡزُنكَ﴾ بفتح الياءِ وضَمِّ الزَّاي مِنْ (حَزَنَهُ)؛ إذا أَدْخَلَ عليه الحُزْن، وقُرِئَ: ﴿يُحۡزِنكَ﴾ بضمِّ الياءِ وكَسْرِ الزَّاي مِنْ (أَحْزَنَهُ)[2]، والفرقُ بينهما أنَّ معنى حزَنه: جعل فيه حُزْناً، كما في دهَنه، أي: جعل فيه دُهْناً، ومعنى أحزنه: جعله حزيناً، وقيل: معنى حزَنه: أحدث له الحزَن، ومعنى أحزنه: عرَّضه للحُزْن[3].

إيجازُ التَّضمينِ في قولِهِ سبحانَه: ﴿ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِۚ﴾:

مســـارعـــةُ الكافرين جاءَتْ عن رغبةٍ ومحبَّة

ضُمِّنَ قولُهُ: ﴿يُسَٰرِعُونَ﴾ معنى: (يَقَعونَ)، فَعُدِّيَ بـ ﴿فِي﴾، أي: يَقَعونَ فيه سريعًا، ويَرْغبونَ فيه أشدَّ رغبة[4]، ففيه تعليلُ النَّهي، أي: أنَّ هؤلاءِ الذين يكفرون إنَّما يكفرون مسارعين دون تمهُّلٍ أو تريُّثٍ، فلا يحزُنك كفرُهم الآتي عن رغبةٍ لا رهبة، وعن محبَّةٍ لا إكراه.

المســـارعـــةُ في الـكـفـرِ تمثيلٌ للحرصِ وطلبِ التَّمكينِ

ويصحُّ حملُه على الاسْتعارةِ التَّمثيليَّةِ، إذ شَبَّهَ حالَ حِرْصِهم، وجِدِّهم في تكفيرِ النَّاس، وإدخالِ الشَّكِّ على المؤمنين، وتَرَبُّصِهمُ الدَّوائر، وانْتهازِهمُ الفُرَصَ؛ بحالِ الطَّالبِ المسارِعِ إلى تحصيلِ شيءٍ يخشَى أنْ يَفوتَه، وهو مُتَوَغِّلٌ فيه، مُتلَبِّسٌ به؛ فلذلك عُدِّيَ بـ ﴿فِي﴾ الدَّالةِ على سُرعتِهم، سُرعةَ طالبِ التّمكين، لا طالبِ

(1) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 1/604.
(2) ابن مجاهد، السَّبعة، ص: 219، ومكيّ، الكشف: 1/365، وابن زنجلة، الحُجَّة، ص: 181، وابن الجزري، النشر: 2/244.
(3) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 1/604.
(4) الزّمَخْشري، الكشّاف: 1/481.

الحُصول؛ إذْ هو حاصلٌ عندَهم، ولو عُدِّيَ بـ (إلى)؛ لَفُهِمَ منه أنَّهم لم يكفُروا عند المسارَعةِ[1].

استعمالُ حرفِ الظَّرفيَّةِ لبيانِ شـدَّةِ التَّلبُّسِ بالكُفرِ

إيثارُ ذِكْرِ حرفِ ﴿فِي﴾ دون حرفِ (إلى) للإشعار باستقرارِهم في الكفر ودوام ملابستِهم له في مبدأِ المُسارعةِ ومُنتهاها، كما في قولِه تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ﴾ [المؤمنون: 61]، فإنَّ ذلكَ مُؤْذِنٌ بمُلابَستِهم للخَيْرات، وتقلُّبِهم في فُنونِها في طَرَفَي المسارعةِ وتضاعيفِها، ولزيادةِ البيانِ؛ فإنَّ إيثارَ ذكرِ حرفِ (إلى) في قوله تعالى: ﴿۞وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ﴾؛ فلأنَّ المغفرةَ والجنةَ منتهى المسارعةِ وغايتُها[2].

سرُّ التَّعبيرِ بالاسمِ الموصولِ في قولِه سبحانَه: ﴿ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِۚ﴾:

تعليلُ النَّهي بما في حيِّزِ الصِّلةِ

المرادُ بالاسم الموصول في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِۚ﴾: المنافقونَ من المتَخلِّفينَ وطائفةٌ منَ اليهودِ، حَسْبَما عُيِّن في قولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحۡزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَلَمۡ تُؤۡمِن قُلُوبُهُمۡۛ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْۛ﴾ [المائدة: 41] أولئكَ جميعُهم مُلابِسونَ للكُفرِ، مُتقلِّبونَ في فُنونِه معَ المسارعَةِ فيه، وقيل: قومٌ ارتدوا عن الإسلام، والتعبيرُ عنهم بذلك للإشارة بما في حيِّزِ الصلة إلى مَظِنة وجودِ المنهيِّ عنه واعترائِه لرسول الله ﷺ، أي: لا يَحْزُنوك بمسارعتِهم في الكفر ومبادرتِهم إلى تمشية أحكامِه ومُظاهرتِهم لأهله[3].

غرضُ التَّعليلِ في قولِه تعالى: ﴿إِنَّهُمۡ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ﴾:

قولُه تعالى: ﴿إِنَّهُمۡ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ﴾ تعليلٌ للنَّهي في قولِه: ﴿وَلَا يَحۡزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِۚ﴾، تكميلًا لِتَسليتِه ﷺ[4]، ودَعْمِه

(1) ابنُ عاشور، التّحرير والتّنْوير: 4/172 - 173.
(2) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 1/603، والشَّوكاني، فتح القدير: 1/653.
(3) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 1/603، والشَّوكاني، فتح القدير: 1/653.
(4) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 1/604، والشَّوكاني، فتح القدير: 1/653.

الدَّعْمَ النَّفسيَّ، فرسولُ اللّهِ ﷺ بَشرٌ لا يَخْرجُ عن الصِّبغة البَشَريَّة إلّا أنّه يوحَى إليه: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ [الكهف: 110]، فينتابُه ما ينتابُ البشرُ منَ الهمِّ والضِّيقِ والألَم، لكنَّ همَّه وضيقَه وألَمَه للّه، ومن أجلِ الدَّعوة إلى اللّهِ، فيحتاجُ تَسليةً ودَعْمًا مِنَ اللّهِ في طريقِ دَعْوتِه وتعليمِه وتَربيتِه لعبادِ اللّه، وإنَّ مَنْ سارَ مَسيرتَه من العلماءِ والدُّعاةِ والمربّين، لهو أشدُّ حاجةً لهذا الرِّفدِ الإلهيِّ والمعونَةِ الرَّبَّانيَّة؛ فساقَ بيانُ اللّهِ تعليلَه للنَّهي السَّابق.

إعانةُ النَّبيِّ على طمأنةِ المؤمنين بما يُصيبُ الكافرين

فائدةُ استعمالِ ﴿لَن﴾ في قولِه: ﴿لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ﴾:

أفادتْ أداةُ ﴿لَن﴾ الدّلالة على دوامِ الإرادةِ واستمرارِها، خدمةً لذاكَ الغَرَضِ، والمقْصدِ الأسْنَى، بتحقيقِ نَفْيِ ضَرَرِ الَّذينَ يُسارِعونَ في الكُفر أَبَدًا، فهم لَن يَضُرُّوا بذلكَ رسولَ اللّهِ، وأولياءَ اللّهِ، وكُلَّ مَنْ علَّم، وربَّى، ودَعا إلى اللّهِ، وجاء تعليقُ نَفْيِ الضَّرَرِ به ﷺ لتشريفِهم جَميعِهم، وعلى رأسِهم رسولُ اللّه ﷺ، والإيذانِ بأنَّ مُضارَّتَهُم بمنزلةِ مضارَّتِه ﷺ، وفيه مَزيدُ مبالغةٍ في التَّسليةِ، وبيانُ أن العِبْرةَ بعُموم اللَّفظِ لا بخُصوصِ السَّبب، فكلُّ مَنْ نَهَجَ مَنْهجَ رسولِ اللّهِ ﷺ وسارَ على دَرْبِه ﷺ يَشمَلُه هذا التَّأييدُ وتلكَ التَّسليةُ.

ضررُ المسارعين في الكُفر يلحقُهم دون غيرِهم

غرضُ التَّنكيرِ ومعناه في قولِه سُبحانه: ﴿شَيْـًٔا﴾:

يُحتملُ أن تكون كلمةُ ﴿شَيْـًٔا﴾ في حيِّز النّصب على المصدريَّة، أي: شيئًا مِنَ الضَّرَرِ، وغرضُ التّنكيرِ فيها لتأكيدِ ما فيه مِنَ القِلَّةِ والحَقارةِ، ويُمكنُ أن تكونَ على نَزْعِ الخافِضِ، أي: بشيءٍ ما أَصْلًا[1]، وغرضُها العموم، فالغرضان متَّفقان في العموم والقلَّة، فأيُّ شيءٍ مهما قلَّ ومن أيِّ وادٍ جاء، فلن يكونَ لأولئك منه نصيبٌ في إيقاعِ الضَّررِ على المؤمنين.

مَهما كان الشَّيءُ قليلًا ومن أيِّ وادٍ كان فهو مسلوبُ الإضرارِ

(1) العكبري، التبيان: 1/158، وأبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 1/604.

بيانُ استدراجِ المسارعين في الكفرِ

بلاغةُ فَصْلِ جملةِ: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجۡعَلَ لَهُمۡ حَظّٗا فِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ﴾:

جاءتْ جُملةُ ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ﴾ اسْتئنافيّةً لبيانِ سِرِّ ابْتلاءِ أولئكَ الَّذينَ يُسارعونَ في الكُفر، بما هم فيه مِن انْهماكٍ في الكُفر[1]، فالجملةُ بيانٌ لاستدراجِ أولئك المسارِعين في الكفرِ، بحيث لا يبقى لهم أدنى حظٍّ في الآخرةِ.

دلالةُ تعلُّقِ الإرادةِ بتعذيبِ الكافرين:

في ذكرِ الإرادةِ في صَدرِ الجُملةِ القرآنيَّة إيذانٌ بكمالِ خُلوصِ الدَّاعي إلى حِرْمانهم وتَعْذيبِهم، حيثُ تَعلَّقتْ بهما إرادةُ أرحمِ الرَّاحمينَ[2]، وهذا دليلٌ على كمالِ تجاسرِهم في الكفرِ، وأنَّهم أتوا عملًا استحقُّوا به تلك العقوبةُ، ودلَّتْ صيغةُ الاسْتقبالِ دلالةً واضِحةً على دَوامِ الإرادةِ واسْتمرارِها؛ أيْ: يُريدُ اللهُ بذلكَ ألَّا يَجْعلَ لهم في الآخرةِ حَظًّا ما مِنَ الثَّوابِ، ولذلك تركهم في طغيانهم يعمهون إلى أن يهلِكوا على الكفر[3].

غرضُ تنكيرِ ﴿حَظّٗا﴾ ونكتةُ تأخيرِه عن ﴿لَهُمۡ﴾:

وجاءتْ ﴿حَظّٗا﴾ نكرةً ومَنفيَّةً بـ ﴿أَلَّا يَجۡعَلَ﴾؛ لِتُفيدَ نَفْيَ أيِّ حَظٍّ، يُمكنُ أن يَنالوهُ مِنْ رحمةِ اللهِ ورزقِه، وجاءَت شِبهُ الجُملةِ ﴿لَهُمۡ﴾ مُتقدِّمةً على ﴿حَظّٗا﴾؛ تأكيدًا لهذا المعنَى وحَصْرِه وقَصْرِه.

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الحُزْن والكَرْب والكآبة:

(الحُزْنُ) و(الحَزَنُ) تكاثُفُ الغَمِّ، وغِلَظُهُ، مأخوذٌ من الأرضِ الحَزْنِ، وهو الغليظُ الصُّلبُ، وهو خُشونةٌ في الأرض، وخُشونةٌ في النَّفْس؛ لِما يحصُلُ فيه من الغَمِّ، ويُضادُّه الفَرَحُ، يُقال: حَزِنَ يَحزَنُ،

(1) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 1/604.
(2) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 1/604.
(3) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 1/604.

وحَزَنْتُه وأَحْزَنْتُه؛ قال ﷻ: ﴿لِّكَيْلَا تَحْزَنُواْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ﴾ [آل عمران: 153] وقوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ﴾ [فاطر: 34]، والحُزْنُ: ما أَخْفاه الإنسانُ؛ لأنَّ الحُزْنَ مُسْتكِنٌّ في القلب، والنّهيُ في قولِه تعالى: ﴿وَلَا تَحْزَنُواْ﴾ ليس بنهيٍ عن تحصيل الحُزْن، فالحُزْنُ ليس يحصُلُ بالاخْتيار، ولكنَّ النَّهيَ في الحقيقةِ إنّما هو عن تَعاطي ما يورِثُ الحُزْنَ واكتسابه[1]. وأمّا (الكَرْبُ): فهوالغَمُّ الشَّديدُ، قال تعالى: ﴿فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ۝٧٦﴾ [الأنبياء: 76]، والكُرْبة كالغُمَّة، وأصْلُ ذلك من: كَرْبِ الأرضِ، وهو قَلْبُها بالحَفْرِ، فالغَمُّ يثيرُ النّفْسَ إثارةَ ذلك، فهو تكاثُفُ الغَمّ مع ضيْقِ الصَّدْر[2]، و(الكآبَةُ): أثَرُ الحُزْنِ البادي على الوَجْهِ، ومَنْ ثَمَّ يُقالُ: عليه كآبَةٌ، ولا يُقالُ: عَلاهُ حُزْنٌ أوْ كَرْبٌ؛ لأنَّ الحُزْنَ لا يُرى، ولكنَّ دِلالتَه على الوَجْهِ، وتلك الدِّلالاتُ تُسمَّى: كآبةً[3]، ومِنْ خلالِ تلك المعاني، يظهر لنا أنَّ البيانَ الإلهيَّ نَهى النَّبيَّ ﷺ عن الحُزْن، ولم يذكرْ كلمةَ الكَرْبِ أو الكآبة؛ لأنّه ﷺ كان يغتمُّ اغتمامًا شَديدًا، يتكاثفُ مُسْتكِنًّا في قلبِه، يُخفيه، ولا يُبديه، وهذا تَمامُ معنى الحُزن، ولكنَّ الّذي يعلمُ حالَه هذا، هو اللّه ﷻ؛ ولذلكَ نهاه ﷻ في مواطنَ كثيرةٍ في القرآن عن هذا الحُزْن الَّذي ربَّما يُهلِكُ نفسَه بسببِه؛ منها قولُه تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ۝٦﴾ [الكهف: 6]، وقولُه سُبحانه: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾ [فاطر: 8].

(1) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 184 - 185، والرَّاغب، المفردات، ص: 231.
(2) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 185، والرَّاغب، المفردات، ص: 706.
(3) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 443.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلۡكُفۡرَ بِٱلۡإِيمَٰنِ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗاۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ١٧٧﴾ [آل عمران: 177]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

من اشتروا الكفر بالإيمان، عاد الضّرر عليهم لا على الله ﷻ

لَمَّا نهَى اللّه ﷻ نبيَّه محمّدًا ﷺ عن الحُزْنِ على الَّذين يُسارِعونَ في الكُفرِ، وبيَّن أنَّ ضررَ كُفرِهم عائدٌ عليهم؛ أكَّدَ هنا في هذه الآيةِ أنَّ ضررَ كُفرهم لن يعودَ إلّا عليهم، "لأنّ إمهالهم وتركهم مدّة أخرى من الزّمان ليزدادوا إثما على إثم، ويمعنواْ في الضّلال والباطل، ولهم عذاب بالغ الإهانة والذّلّ[1]، بسبب إيثارهم الغيّ على الرّشد، والكفر على الإيمان، والشّرَّ على الخير[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱشۡتَرَوُاْ﴾: "شَرَيْتُ الشَّيْءَ وَاشْتَرَيْتُهُ، إِذَا أَخَذْتَهُ مِنْ صَاحِبِهِ بِثَمَنِهِ، وَرُبَّمَا قَالُوا: شَرَيْتُ: إِذَا بِعْتَ، قَالَ اللّه تَعَالَى: ﴿وَشَرَوۡهُ بِثَمَنِۭ بَخۡسٖ﴾ [يوسف: 20]، وَمِمَّا يَدُلُّ عَلَى الْمُمَاثَلَةِ قَوْلُهُمْ: هَذَا شَرْوَى هَذَا، أَيْ مِثْلُهُ، وَفُلَانٌ شَرْوَى فُلَانٍ، وَمِنْهُ حَدِيثُ شُرَيْحٍ فِي قَوْسٍ كَسَرَهَا رَجُلٌ لِرَجُلٍ فَقَالَ شُرَيْحٌ: " شَرْوَاهَا " أَيْ مِثْلُهَا[3]، والشِّراءُ: يُمدُّ، ويُقصَرُ، وقد شَرَى الشَّيءَ، يَشْرِي به، شِرًى وشِراءً؛ إذا باعَهُ، وإذا اشْتراهُ أيضًا، وهو من الأضْداد، قالَ تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡرِي نَفۡسَهُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِۚ﴾ [البقرة: 207] أي: يَبيعُها[4].

2) ﴿عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾: من الألم، وهو الوجع، وقد ألم من باب طرب، والتّألّم التّوجّع، والإيلام الإيجاع، والأليم المؤلم، كالسّميع

(1) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 443.
(2) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 2/348.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (شرى).
(4) الرّازي، مختار الصّحاح: (شرى).

بمعنى المُسمع[1]، وقالوا: " ألم الرّجل ألما، من باب تعب، ويعدى بالهمزة فيقال آلمته إيلاما فتألم وعذاب أليم مؤلم وقولهم ألمت رأسك مثل وجعت رأسك"[2]، والأليم من العذاب: الّذي يبلغ إيجاعه غاية البلوغ[3].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

أخبرَنا بيانُ اللّهِ تعالى أنَّ الَّذينَ اخْتاروا الكُفرَ على الإيمانِ، ورَغِبوا فيه رغبةَ مَنْ بَذَل ما يُحبُّ منَ المالِ في شراءِ ما يُحبِّذ مِنَ السِّلَع؛ لن يَضُرُّوا اللّهَ شيئًا، بَلْ ضَرَرُ فِعْلِهم يَعودُ على أنفُسِهم، ولهم يومَ القيامةِ عذابٌ أليم[4]، وهو تقرير تطمينيّ بأنّ هؤلاء الكفرة لن يعطّلوا مسار الدّعوة، وإنّما يعود كيدهم عليهم، وستكون عاقبة أمرهم خسرًا، و(على نفسها جنت براقش).

من استبدل الكفر بالإيمان، طاله الضّرر في الدّنيا، والعذاب في الآخرة

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ الاسْتئنافِ في قولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلۡكُفۡرَ بِٱلۡإِيمَٰنِ﴾:

صُدِّرتْ الايةُ بالاسْتئنافِ الابْتدائيِّ؛ للتَّنويهِ بأولئكَ الَّذينَ رَضوُا الكُفرَ عقيدةً لهم بدلَ الإيمانِ باللّه، وما هُمْ عليه منْ خَطَرٍ عظيم في هذا الَّذي انْتَهجوه مَسْلَكًا لهم في الحياةِ الدُّنيا، وافْتُتحتِ الجُملةُ بَحرْفِ التّوكيدِ ﴿إِنَّ﴾؛ للاهْتمامِ بالخَبرِ وبيانِ مَدَى خُطورتِه.

بلاغةُ الاستعارةِ في قولِه تعالى: ﴿ٱشۡتَرَوُاْ﴾:

الاشْتراءُ في قولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلۡكُفۡرَ بِٱلۡإِيمَٰنِ﴾ استعارةٌ للاسْتبدال[5]، وإجراءُ ذلك؛ أنَّه استعار الاشتراءَ للاستبدالِ، واشتقَّ منه الفعل ﴿ٱشۡتَرَوُاْ﴾ على سبيل الاستعارةِ

نظرةُ المنافقين للدِّينِ على أنَّه سلعةٌ تُباعُ وتُشترى

(1) الرّازيّ، مختار الصّحاح: (ألم).
(2) الفيّوميّ، المصباح المنير: (ألم).
(3) الزَّبيديّ، تاج العروس: (ألم).
(4) الشَّوكاني، فتح القدير: 1/654، والسِّعدي، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 118.
(5) ابنُ عاشور، التّحرير والتّنْوير: 1/297 - 298.

التَّبعيَّةِ، وصرَّح بالمشبَّه به على سبيل الاستعارةِ التَّصريحيَّة، ونكتةُ الاستعارةِ بيانُ أنَّ هؤلاء القومَ ينظرون للدِّين والقيمِ على أنَّها سِلَعٌ تُباعُ وتُشترى، والاستعارة هنا أبلغُ من الحقيقةِ.

المبالغةُ في تعليلِ النَّهي في قولِه تعالى: ﴿إِنَّهُمۡ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗاۚ﴾:

جاءتْ هذه الجملةُ مُصَدَّرَةً بالتَّأكيدِ في ﴿إِنَّهُمۡ﴾ والتَّأبيدِ في ﴿لَن﴾، وفي كِلَيهما مبالغةٌ في تعليلِ النَّهي، وتكميلِ التَّسليةِ، بتحقيق نفي الضَّررِ، أي: لن يضُرُّوا بذلكَ أولياءَ اللهِ البتَّةَ، وتعليقُ نَفْي الضَّرَرِ به تعالى؛ لِتشريفهم والإيذانِ بأنَّ مُضارَّتهمْ بمنزلةِ مُضارَّتِه ﷻ، وجيءَ بالمسْنَدِ جُملةً فِعليَّةً؛ لإفادَتِه التَّعريض الظَّاهر باقتصارِ الضررِ عليهم؛ كأنَّه قيل: وإنَّما يضُرّون أنفسَهم[1].

من آثـر الكفرَ على الإيـمـانِ ألـحـقَ الـضَّـررَ بنفسِه

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(بَدَّلَ) و(اشْتَرى):

الإبْدالُ والتَّبديلُ والتَّبدُّلُ والاسْتِبدالُ: جَعْلُ شيءٍ مكانَ آخرَ، وهو أعمُّ مِنَ العِوَض، فإنَّ العِوَض هو أنْ يصيرَ لكَ الثَّاني، بإعطاءِ الأوَّل، والتّبديلُ قدْ يُقالُ للتَّغييرِ مُطْلَقًا؛ وإنْ لم يأتِ ببدلِه، كما في قولِه تعالى: ﴿وَإِذَا بَدَّلۡنَآ ءَايَةٗ مَّكَانَ ءَايَةٖ﴾ [النّحل: 101]، ﴿وَبَدَّلۡنَٰهُم بِجَنَّتَيۡهِمۡ جَنَّتَيۡنِ﴾ [سبأ: 16][2]. والشِّراءُ والبيعُ يتلازمان: فالمشْتري دافِعُ الثَّمَن، وآخِذُ المثْمَن، والبائعُ دافعُ المثْمَن، وآخِذُ الثَّمن، هذا إذا كانتِ المبايعةُ والمشاراة بنَقْدٍ وسِلْعة، فأمَّا إذا كانت بيعَ سِلْعةٍ بسِلْعة؛ فصَحَّ أنْ يُتَصوَّرَ كلُّ واحدٍ منهما في مَوْضعِ الآخَر، وشَرَيْتُ بمعنَى: بِعْتُ، وابْتعتُ، بمعنى: اشْتريتُ، قال اللهُ تعالى: ﴿وَشَرَوۡهُ بِثَمَنِۭ بَخۡسٖ﴾ [يوسف: 20]، أي: باعوهُ، وتُجوِّزَ بالشِّراءِ والاشْتراءِ في كلِّ ما يحصُلُ به شيءٌ من هذا القبيل، نحو: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشۡتَرُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: 77][3]. ولو دقَّقْنا الفَرْقَ بَيْن الشِّراءِ والاسْتبدالِ؛ لَوجَدْنا أنّ كُلَّ شِراءٍ اسْتبدالٌ، وليسَ كُلُّ اسْتبدالٍ شِراءً؛ لأنَّه قدْ يَستبدِلُ الإنسانُ غُلامًا بغُلام، وأجيرًا بأجير، ولم يَشْتِره[4].

(1) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 2/607.
(2) الرَّاغب، المفردات، ص: 111، والفيروزآباديّ، القاموس: (بَدَلَ).
(3) الرَّاغب، المفردات، ص: 53، والفيروزآباديّ، القاموس: (شَرَى).
(4) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 287.

﴿وَلَا يَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمۡلِي لَهُمۡ خَيۡرٞ لِّأَنفُسِهِمۡۚ إِنَّمَا نُمۡلِي لَهُمۡ لِيَزۡدَادُوٓاْ إِثۡمٗاۖ وَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ ١٧٨﴾ [آل عمران: 178]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الرّبط بين شراء الكفر بالإيمان، وإمهال الكفرة لأخذهم بالعذاب والهوان

لَمَّا بيَّن اللهُ ﷻ في الآيةِ السَّابقةِ، أنَّ الَّذين باعوا الإيمانَ، واشْتروُا الكُفْرَ بَدلَه، لن يَضُرُّوا إلّا أنفُسَهم، ولهم عذابٌ أليمٌ؛ جاءتْ هذهِ الآيةُ؛ لِتؤكِّدَ أنَّ العذابَ المهينَ يَنتظِرُ أولئكَ الكافرين، وليس ما يَرَوْنَه مِنْ إمْهالِ اللهِ لهمْ إلّا اسْتدراجًا لهم؛ ليزدادوا إثمًا وبُعدًا عنِ اللهِ، وعبّر بلفظ العذاب المهين، ليناسب الإملاء لهم؛ لأنّه باعتبار ظاهر الأمر إكرام لهم؛ ولكنّه في الأصل، إملاء لهم ليزدادوا إثما، فناسب استعمال لفظ المهين، لما يؤول إليه حالهم من ذلّة وهوان، وهذا من بلاغة توظيف اللّفظ في القرآن.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿نُمۡلِي﴾: (أَمْلَى) لهُ في غَيِّهِ: أطالَ له، وأَمْلَى اللهُ لهُ: أَمْهلَهُ، وطَوَّل له[1]، والإملاءُ للكافرين: إمهالُهم وتأخيرُهم، والإطالةُ في عُمُرِهم[2]، واسْتدراجُهم؛ لأَخْذِهم أخْذَ عزيزٍ مُقتَدِرٍ، وهمْ على كُفْرِهم.

2) ﴿إِثۡمٗاۖ﴾: الإثْمُ: الذَّنْبُ، وقدْ أَثِمَ إِثْمًا ومأْثَمًا ومأْثَمًا؛ إذا وقَعَ في الإثْم، فهو آثِمٌ، وأَثيمٌ، وأَثومٌ، وأَثَمه اللهُ يأْثُمُه ويأْثِمُه يأْثِمُه: بضمِّ الثَّاء وكَسرِها، إثْمًا وأَثامًا: عدَّه عليه إثْمًا، وجازاهُ جزاءَ الإثْم: فهو مأْثومٌ مأْثومٌ، أي: مَجْزيٌّ بإثْمه، وآثَمَه في المدِّ: أوقعَه في الإثم، والأثامُ الآثامُ: جزاءُ الإثْم، قالَ تعالى: ﴿يَلۡقَ أَثَامٗا ٦٨﴾ [الفرقان: 68][3].

(1) ابن منظور، اللّسان: (مَلَىَ).
(2) أبو عبيدة، مجاز القرآن: 1/108، وابن عباد، المحيط: (مَلَىَ).
(3) ابن منظور، اللّسان: (أَثِمَ).

3) ﴿مُّهِينٌ﴾: هان هونًا، بالضَّمِّ، وهَوانًا ومَهانةً: ذَلَّ، والهوْنُ: الخِزْيُ، و﴿عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾: عذابٌ مُذِلٌّ مُخزٍ[1].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

إملاء الله للكفرة استدراج، ليزدادوا إثمًا، ويضاعف لهم العذاب

لا يَظُنَّنَّ الَّذين كَفَروا بربِّهم، ونابَذوا دينَه، وحاربوا رسولَه: أنَّ تَرْكَنا إيَّاهُم في هذه الدُّنيا، وعدمَ اسْتِئصالِنا لهم، وإملاءَنا لهم خيرٌ لأَنْفُسِهم، ومَحبَّةٌ منّا، كلّا؛ ليسَ الأمرُ كما وَهِموا، وإنَّما ذلكَ لِشَرٍّ يُريدُه اللهُ بهم، وزيادةٍ في عذابٍ وعقوبةٍ إلى عذابهم المُذِلِّ المُخزيِّ لهم[2]، زيادة في استدراجهم، ليكثر ظلمهم، فيزداد عقابهم، وتتراكم آثامهم، فكان إمهالهُمْ عيْنَ عقابِهِمْ[3].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

توجيهُ عطفِ قولِه تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾:

حقائقُ الأمورِ خيرِها وشرِّها لله تعالى، وليس للعبدِ إلَّا التَّسليم

جاءَ قولُهُ تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ معطوفًا على قولِه: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتَۢاۚ﴾ [آل عمران: 168]، والمقصودُ مُقابَلَةُ الإعلامِ بخلافِ الحُسبانِ في حالتيْن: إحداهُما تَلوحُ للنَّاظرِ حالةَ ضُرٍّ، والأُخرى تلوحُ حالةَ خَيْرٍ، فأعْلَمَ اللهُ ﷻ أنَّ كِلْتا الحالَتَيْنِ على خِلافِ ما يَتراءَى للنَّاظرين[4].

ويجوزُ أن يكون قولُهُ تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ معطوفًا على قولِه: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْكُفْرِۚ﴾[5]؛ إذْ نَهاهُ أنْ يكونَ ذلكَ موجِبًا لحُزنِه؛ لأنّهم لا يَضُرُّون اللهَ شيئًا، ثمَّ أَلْقى إليه خبرًا لقصدِ إبلاغِه إلى المشركينَ وإخوانِهِمُ المنافقين: ألَّا يَحسَبوا

(1) الفيروزآبادي، القاموس: (هَوَنَ).
(2) الواحدي، الوسيط: 1/524، والسّعدي، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 118.
(3) المناويّ، فيض القدير: 2/264.
(4) ابنُ عاشور، التّحرير والتّنْوير: 4/174.
(5) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 1/605.

أنَّ بقاءهم نفعٌ لهم، بلْ هو إمْلاءٌ لهم، يزدادونَ به آثامًا؛ ليكونَ أخذُهم بعدَ ذلك أشدَّ[1].

توجيهُ القراءاتِ في قولِه تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾:

في قولِه: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ﴾ قراءتان[2]: الأوْلى: بالتَّاء، والثَّانية: بالياء.

فمنْ قَرأ بالتَّاء؛ فهو على التَّكريرِ[3]، والمعنى: ولا تَحسَبَنَّ - يا محمَّدُ ﷺ - الَّذين كفروا، ولا تَحسَبَنَّ أنَّما نُملي لهم[4]، وعندئذٍ يكونُ المفعولُ الأوَّلُ: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾، وأمّا المفعولُ الثَّاني؛ ففيه وجهان: الأوَّل: الجملةُ من (أنّ) وما عملت فيه، والثَّاني: أنَّ المفعولَ محذوفٌ، أُقيمَ المضافُ إليه مَقامَه، والتَّقديرُ: ولا تَحسَبَنَّ إملاءَ الَّذينَ كفروا[5]، ويجوز أن يكونَ موضعُ ﴿أَنَّمَا﴾ نصبًا على البَدَل من ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾[6]، بَدَل الاشْتمال، أي: ولا تَحسَبَنَّ أنَّما نُملي للكافرين خيرٌ لهم، و(أنَّ) مع ما في حَيِّزِه ينوبُ عن المفعولَيْن، كقولِه: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ﴾ [الفرقان: 44]، ويمكنُ أن يكونَ قولُه: ﴿أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ﴾ بدلًا من المضافِ المحذوف، والجملةُ سَدَّتْ مَسَدَّ المفعولَيْن، والتَّقديرُ: ولا تَحسَبَنَّ أنَّ إملاءَ الَّذين كفروا خيرٌ لأنفُسِهم[7].

ومَنْ قرأَ بالياء؛ فـ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ في محلِّ الرَّفعِ على الفاعِل، تقديرُه: ولا يَحسبَنَّ الكفَّارُ أنَّ إملاءَنا إيَّاهم خيرٌ لهم[8]؛ لأنَّنا إذا أَعْمَلْنا الحُسبان في الَّذين كفروا؛ لم يَجُزْ أن يقع على (أنَّما)، وهذا كقولِه

نـهـيُ الـنَّـبـيِّ والـكـافـريـن عن الحسبانِ دليلٌ عـلـى عـظـيـمِ العذابِ

(1) ابنُ عاشور، التَّحرير والتَّنْوير: 4/174 - 175.

(2) القراءة الأولى لحمزة، والثَّانية للباقين من العَشَرة، ينظر: ابن مجاهد، السَّبعة، ص: 220، وابن زنجلة، الحُجَّة، ص: 183، وابن الجزري، النَّشر: 2/244.

(3) وهو قول الفرَّاء في كتابه، معاني القرآن: 1/248.

(4) الزَّجاج، معاني القرآن: 1/491، والزَّمَخْشري، الكشاف: 1/482.

(5) العكبري، التبيان: 1/159.

(6) السَّمين، الدُّرُّ المصون: 3/499، وابن عادل، اللُّباب: 6/96.

(7) العكبري، التبيان: 1/159.

(8) الزَّجاج، معاني القرآن: 1/507 - 508، والسَّمين، الدُّرُّ المصون: 3/496.

ﷻ: ﴿فَهَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأۡتِيَهُم بَغۡتَةٗۖ﴾ [الزّخرف: 66]، يعني: فهل ينظرونَ إلّا السَّاعةَ، هل ينظرونَ إلّا أنْ تأتيَهم بغتةً؟[1].

معنى (مَا) في قولِه: ﴿أَنَّمَا نُمۡلِي لَهُمۡ﴾:

في (ما) وجْهان: أحدُهما: بمعنَى: الذي، والثّاني: مصدريَّة[2]، ولا يجوزُ أنْ تكون (ما) كافَّةً ولا زائدة، كما قد يُتَوهَّم؛ إذْ لو كان كذلكَ؛ لانْتصبَ ﴿خَيۡرٞ﴾ بـ ﴿نُمۡلِي﴾، واحتاجتْ (أنَّ) إلى خبر؛ إذا كانت (ما) زائدة، أو قُدِّر الفعلُ الَّذي يليها، وكلاهُما مُمْتنعٌ[3].

براعةُ الاستعارةِ في قولِه: ﴿أَنَّمَا نُمۡلِي لَهُمۡ﴾:

تشبيهُ الإمهالِ بالإملاءِ والتَّركِ على السَّجيَّةِ لبيانِ مآلِ الحريَّة في مخالفةِ الشَّرعِ

في قولِه تعالى: ﴿أَنَّمَا نُمۡلِي لَهُمۡ خَيۡرٞ لِّأَنفُسِهِمۡۚ﴾ استعارةٌ بديعةٌ، إذِ استعار الإملاءَ لمعنى الإمهال، واشتقَّ منه الفعلَ أملى على سبيل الاستعارة التَّبعيَّة، وصرَّح به على سبيل الاستعارة التَّصريحيَّة، وهو مأخوذٌ مِنْ أَمْلَى لِفَرسِه؛ إذا أَرْخَى له الطِّوَلَ؛ ليَرْعَى كيف يشاءُ، فقد شبَّهَ إمهالَهم، وتَرْكَ الحبلِ لهم على غَوارِبِه: بالفَرسِ الَّذي يُملَى له الحَبْلُ؛ ليجريَ على سَجيَّتِه، فحذَفَ المشَبَّهَ: وهو الإمهالُ والتَّركُ، وأَبْقى المشَبَّهَ به: وهو الإملاءُ[4].

بلاغةُ قولِه تعالى: ﴿إِنَّمَا نُمۡلِي لَهُمۡ لِيَزۡدَادُوٓاْ إِثۡمٗاۖ﴾:

استئنافُ الجملةِ لبيانِ التَّعليلِ

قولُه: ﴿أَنَّمَا نُمۡلِي لَهُمۡ﴾: جملةٌ مُستأنَفةٌ، تعليلٌ للجُملةِ الَّتي قبلَها؛ كأنَّه قيلَ: ما بالُهُم لا يَحسَبونَ الإملاءَ خيرًا لهم؟ فقيلَ: إنَّما نُمْلي لهم؛ ليزدادوا إثمًا[5]، و(ما) في هذه الجملةِ حقُّها أن تُكتب متَّصلة؛ لأنَّها كافَّةٌ دون الأولى.

قولُه تعالى: ﴿إِنَّمَا﴾ كلمةٌ مُركَّبةٌ: من (إنَّ) حرفِ التَّوكيد،

(1) مكيّ، مشكل إعراب القرآن: 1/179، وابن هشام، أوضح المسالك: 2/42.
(2) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 1/605.
(3) العكبري، التبيان: 1/159.
(4) صافي، الجدول: 2/384.
(5) الزّمَخْشري، الكشاف: 1/482.

و(ما) الكافَّة، وهي أداةُ حَصْر، أي: ما نُملي لهم إلّا ليزدادوا إثْمًا، أي: فيكونُ أخذُهم به أَشدَّ، فهو قصرُ قَلْبٍ، ومعناه: أنَّه يُملي لهم، ويُؤخِّرُهم، وهم على كُفرهم، فيزدادون إثْمًا في تلكَ المدَّة، فَيشتدُّ عقابُهم على ذلك، وبذلك لا يكونُ الإملاءُ لهم خيرًا لهم، بلْ على عكسِ ذلك فهو شَرٌّ لهم.

قصرُ الإملاءِ على خلافِ المتوقَّعِ أبلغُ في التَّهديدِ

وجاءَ الفعلُ ﴿لِيَزۡدَادُوٓاْ﴾ بصيغةِ المضارع؛ ليدُلَّ على الاسْتمرارِ والدَّيْمومة في ازْديادهم في الإثْم، والمصدرُ المؤوَّلُ لـ (أنْ يَزدادوا) في محلِّ جرٍّ باللَّام متعلِّقٍ بـ ﴿نُمۡلِي﴾ الثَّانية.

الاستمرارُ في ازديادِ الإثْمِ إيماءٌ بحُمقِ الكافرين

نكتةُ تقديمِ شِبهِ الجُملة، في إفادةِ الحَصْرِ:

قد أفادَ تقديمُ شِبه الجملة ﴿لَهُمۡ﴾ حَصْرَ العذابِ المُهين وقَصْرَه بأولئكَ الكافرينَ المُستكْبرين، وهو قصْرٌ ادِّعائيٌّ، إذ العذابُ المهين سيُصيبُ طوائف أخرى من الكفرةِ والمنافقين.

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الإمْلاء والإنْظار:

الإملاءُ: الإمدادُ، ومنه قيلَ للمدَّة الطَّويلة: مَلاوَةٌ من الدَّهر، ومَليٌّ من الدَّهر، قال تعالى: ﴿وَٱهۡجُرۡنِي مَلِيّٗا ٤٦﴾ [مريم: 46]، وتَملَّيْتُ دَهْرًا: أبقيتُ، وتملَّيتُ الثَّوبَ: تمتَّعتُ به طويلًا، وتملَّى بكذا: تمتَّعَ به بمَلاوةٍ به، بملاوةٍ من الدَّهْر، ومَلَّاكَ اللهُ - غيرُ مَهموز - عَمَّرَكَ، ويُقالُ: عشتُ مَليًّا، أيْ: طويلًا، و(المَلا) مَقصورٌ: المَفازةُ المُمتدَّةُ، والمَلَوانُ: قيل: اللَّيلُ والنَّهارُ، وحقيقةُ ذلك تكرُّرُهما وامتدادُهما[1]، والإمْلاءُ كذلكَ: هو الإمهالُ والتَّأخيرُ[2] والإنْظارُ، والنَّظَرُ: الانْتظارُ، يُقالُ: نَظَرْتُه، وانْتظَرْتُه، وأَنْظَرْتُه، أيْ: أخَّرتُه؛ ومنه قولُه تعالى:

(1) الرَّاغب، المفردات، ص: 776 - 777، والفيروزآباديّ، القاموس: (مَلا).
(2) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 72.

﴿وَٱنتَظِرُوٓاْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ١٢٢﴾ [هود: 122][1]، والإنْظارُ: إمهالٌ؛ لينظُرَ صاحبُه في أمره، خلافُ التَّقديم، ويُرشِدُ إليه قولُهُ سُبحانَه: ﴿فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ٥٥﴾ [هود: 55][2]، ومِن خلالِ ما تقدَّمَ بيانُه، مِنَ الفَرقِ بينَ (الإمْلاءِ)، و(الإنْظارِ)، نجدُ أنَّ معنى الإمْلاءِ، أَلْيَقُ وأَوْلَى بسياقِ النَّصِّ القُرآنيِّ، فاللهُ ﷻ يُملي للكافرينَ، بإمدادِه لهم المدّةَ الطَّويلةَ من الدَّهْر، ويُؤَخِّرُهم لا لِخَيْرٍ لهم، وإنَّما ليزدادوا إثْمًا، وهذا هو عَيْنُ الاسْتدراجِ الَّذي وردَ في قولِه تعالى: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ١٨٢﴾ [الأعراف: 182]، حتَّى يأتيَهم العذابُ المُهين، وهذا الإمهالُ والإمدادُ لهم تلكَ المدّةَ الطَّويلة، لا يَسَعُها معنى الإنْظار الَّذي هو إمهالٌ مَقرونٌ بُمدَّةٍ قليلةٍ، بِقَدْرِ ما يقعُ فيه النَّظرُ.

(1) الرَّاغب، المفردات، ص: 813، والفيروزآباديّ، القاموس: (نَظَرَ).

(2) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 81.

﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٩﴾﴾ [آل عمران: 179]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الإمـــــلاء والاســـتدراج، وعـلاقـتـهـمـا بـالـتّـمـيـيـز بين الخبيث والطّيّب

لَمَّا بيّنَ اللهُ ﷻ لعبادِهِ في الآيةِ السَّابقةِ، أنَّ اللهَ يُملي للكافرين، ويؤجِّلُ عقوبتَهم، فليس ذلك لخيرٍ، يُريده لأنفُسِهم، وإنَّما هو اسْتدراجٌ لهم؛ ليزدادوا ضَلالًا وغَيًّا، حتَّى إذا أخذَهم؛ لم يُفْلِتهم جاءَ بيانُ اللهِ هنا في هذه الآيةِ الكريمة؛ ليُظهِرَ حكمتَه الجليلةَ في تَمييزِ الخَبيثِ من الطَّيِّبِ، والمؤمنِ من المنافقِ والكافر، وهذا الأمرُ في غَيْبٍ لا يعلمُه إلّا اللهُ، وبهذا الفرْزِ والتَّمحيص، ينقسمُ النَّاسُ قسمَيْن: مُطيعين وعاصين، ومُسلمينَ وكافرين، ولكلٍّ منهُما وعدٌ بالخير، أوْ وَعيدٌ بالشَّرِّ.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿لِيَذَرَ﴾: يُقالُ: فلانٌ يَذَرُ الشَّيءَ، أي: يقذِفُه لِقلَّة اعتدادِه به، ولم يُستعمَلْ ماضيه، قالَ تعالى: ﴿وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ﴾ [الأعراف: 127]، والوَذَرَةُ: قِطعةُ اللَّحم، وتَسْميتُها بذلك لِقلَّةِ الاعْتدادِ بها[1]، ويُقالُ: ذَرْهُ، أي: دَعْهُ، وهو يذَرُهُ؛ أي: يَدَعُهُ، ولا يُقالُ منه: وَذَرَهُ ولا واذِرٌ، ولكن تَرَكَهُ، وهو تاركٌ[2]، "قال الخليل: أماتت العربِ فِعلَ (يَذَرُ) في الماضي ومصدره، فلا يكادون يقولون: وَذَرْتُه، هذا قول الخليل، وقد استعمل بعض أهل اليمن (وَذَرَ)، والصّحيح ما قاله الخليل،

(1) الرَّاغب، المفردات، ص: 162 - 163.
(2) الرَّازي، المختار: (وَذَرَ).

لأنّهم قد استغنوا عن (وَذَرَ) بترك، وقد استعملوا المستقبل، قال الله تعالى: ﴿وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ١٨٦﴾ [الأعراف: 186]"[1].

2) ﴿يَمِيزَ﴾: المَيْزُ والتَّمْييزُ: الفَصْلُ بينَ المُتَشابهات، يُقالُ: مازَهُ يَميزُهُ مَيْزًا، ومَيَّزَهُ تمييزًا، قالَ تعالى: ﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ﴾ [الأنفال: 37]، والتَّمييزُ يُقالُ تارةً للفَصْل، وتارَةً للقوَّة الَّتي في الدِّفاع، وبها تُستنبطُ المعاني، ومنه يُقالُ: فلانٌ لا تمييزَ له، ويُقالُ: انْمازَ، وامْتازَ، قال تعالى: ﴿وَٱمْتَٰزُواْ ٱلْيَوْمَ﴾ [يس: 59]، وتَميَّزَ مُطاوِعُ مازَ، أيْ: انْفصلَ، وانْقطعَ، قالَ تعالى: ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾ [الملك: 8][2]، وَانْمَازَ الشَّيْءُ: انْفَصَلَ عَنِ الشَّيْءِ، قَالَ يَصِفُ حَيَّةً:

قَرَى السُّمَّ حَتَّى انْمَازَ فَرْوَةُ رَأْسِهِ *** عَنِ الْعَظْمِ صِلٌّ فَاتِكُ اللَّسْعِ مَارِدُ[3].

3) ﴿ٱلْخَبِيثَ﴾: الخُبثُ والخَبيثُ: ما يُكرَهُ رَداءةً وخَساسةً، مَحسوسًا كانَ أوْ مَعقولًا، وأصلُه: الرَّديءُ الدَّخْلةِ، الجاري مَجْرى خَبَثِ الحَديد، وذلكَ يتناولُ الباطلَ في الاعْتقاد، والكذِبَ في المَقال، والقَبيحَ في الأفْعال، قال ﷻ: ﴿وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ﴾ [الأعراف: 157][4]، وهذا هو المرادُ في الآية الكريمة.

4) ﴿ٱلطَّيِّبِ﴾: يُقالُ: طابَ الشَّيءُ، يَطيبُ طَيبًا، فهو طَيِّبٌ، وأصلُ الطَّـيِّب: ما تَسْتلذُّه الحَواسُّ، وما تَسْتلذُّه النَّفْسُ، والطَّـيِّبُ مِنَ الإنسان: مَنْ تعرَّى من نجاسةِ الجَهْلِ والفِسْقِ وقبائحِ الأعمال، وتحلَّى بالعلمِ والإيمانِ ومَحاسنِ الأعمال، وإيَّاهُم قَصَدَ بقولِه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ﴾ [النّحل: 32][5]، والمعنى الأخيرُ هو الَّذي تهدف إليه الآية الكريمة.

5) ﴿لِيُطْلِعَكُمْ﴾: يُقال: أطلَعَهُ على سِرِّه، واسْتطْلَعَ رأيَه: اطَّلَعَ على باطِن أَمرِه، وطالَعَهُ بِكُتُبه، وطالعَ الشَّيءَ، أي: اطَّلَعَ عليه، والطُّلْعَةُ: الرُّؤْيَة[6]، "قال ابن السّكّيت: طلعت على القوم، إذا أتيتهم، وقد طلعت عنهم، إذا غبت عنهم، وطلِعت الجبل بالكسر، أي علوته،

(1) نشوان الحِميري، شمس العلوم: (وَذَرَ).
(2) الرَّاغب، المفردات، ص: 781.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (مَيَزَ).
(4) الرَّاغب، المفردات، ص: 272.
(5) الرَّاغب، المفردات، ص: 527.
(6) الفيروزآبادي، القاموس: (طَلَعَ).

وفي الحديث: «ولا يَهيدَنكُمُ السَّاطِعُ المُصْعِدُ»[1]، - يعني الفجر الكاذب - ، واطّلعت على باطن أمره، وهو افتعلت، وطالعه بكتبه، وطالعت الشّيء، أي اطّلعت عليه"[2].

6) ﴿ٱلْغَيْبِ﴾: مَصْدرُ غابتِ الشَّمسُ وغيرُها؛ إذا اسْتترتْ عَنِ العَيْن، يُقالُ: غابَ عنِّي كذا، قالَ تعالى: ﴿أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ۝٢٠﴾ [النَّمل: 20] واسْتُعمِل في كُلِّ غائبٍ عنِ الحاسَّة، وعمّا يَغيبُ عن علمِ الإنسان، بمعنى: الغائِب، ويُقالُ للشَّيءِ: غَيْبٌ وغائِبٌ باعتبارِه بالنَّاسِ، فإنَّه تعالى لا يَغيبُ عنه شيءٌ، وقولُه: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ [الأنعام: 73]، أيْ: ما يغيبُ عنكم، وما تَشْهدونَه[3].

7) ﴿يَجْتَبِى﴾: يقالُ: جَبَيْتُ الماءَ في الحَوْض: جَمَعْتُه، والحَوْضُ الجامع له: جابيَة، وجَمعُها: جَوابٍ. والاجْتباءُ: الجمعُ على طريقِ الاصْطِفاء، قالَ تعالى: ﴿فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ﴾ [القلم: 50]. واجْتباءُ اللّهِ العَبْدَ: تَخْصيصُه إيّاه بِفَيْضٍ إلَهيٍّ، يتحصَّلُ له منه أنواعٌ منَ النِّعَم بلا سَعْيٍ مِنَ العَبْد، وذلكَ للأنبياءِ، وبعضِ مَنْ يُقارِبُهم مِنَ الصِّدِّيقينَ والشُّهداء، قالَ تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ﴾ [يوسف: 6]، وقالَ سُبحانه: ﴿فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝٥٠﴾ [القلم: 50][4].

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

بيان الامتحان بتمييز معادن النّاس، والالتزام بالإيمان لنيل الأجر العظيم

يؤكّد سياق الآية، أنّ اللّه تعالى ما كان له أن يترك المؤمنين، من غير امتحان وتمحيص، وذلك من أجل أن يظهر الطّيّب من الخبيث، والمؤمن من المنافق، فكان امتحان المؤمنين يوم أحد، فرصة ليتجلّى المؤمنون على حقيقتهم، ويستبين حال المنافقين ظاهرًا جليًّا، فيما أبدوه من مخالفة للرّسول الأكرم، ونكال عن الجهاد في سبيل اللّه، وخيانة للمؤمنين في أصعب الظّروف، واللّه لا يُطْلِعُ عباده على الغيب المخبوء، ولا يكلّم جميع العباد كفاحًا، ولكنّه يجتبي من عباده رسلًا،

(1) أبو داود، الحديث رقم: (2348).
(2) الجوهريّ، الصّحاح: (طَلَعَ).
(3) الرَّاغب، المفردات، ص: 616.
(4) الرَّاغب، المفردات، ص: 187.

يكلّفهم بالبلاغ عنه، فيبشّرون من آمن، وينذرون من كفر، ويكون الامتحان بالجهاد بالنّفس والمال، لإحقاق الحقّ وإبطال الباطل، من أهمّ وسائل التّمحيص، وفي ذلك تجسيد لأمر اللّه، في التّمييز بين الخبيث والطّيّب، ومن أجل ذلك دعا النّاس إلى الإيمان باللّه ورسله، وعلى رأسهم محمّد الخاتم ﷺ، مؤكّدا أنّ من آمن به واتّقى، فقد حاز الأجر العظيم، وهو بإيمانه به، كأنّه آمن بجميع الأنبياء والمرسلين.

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ الاستئنافِ في حقِّ الفريقين:

التَّلويحُ بالوعدِ والوعيدِ سنَّةُ القرآنِ في التَّمييزِ:

قوله تعالى: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ﴾ كلامٌ مستأنَفٌ مَسوقٌ لوعدِ المؤمنين، ووعيدِ المنافقين بالعقوبةِ الَّتي هي الفَضيحةُ والخِزْيُ إثْرَ بيانِ عقوبتِهم الأُخرويَّة[1]، وهذه سنَّةٌ قرآنيَّةٌ في بيان أهلِ الحقِّ وأهل الباطلِ، ليتميَّزَ كلُّ فريقٍ بما هو عليه من الصِّفات.

معنى اللَّامِ في قولِه: ﴿لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾:

اللّامُ في قولِه: ﴿لِيَذَرَ﴾؛ لتأكيدِ النَّفي في قولِه: ﴿مَا كَانَ﴾[2]، ناصبةٌ للفعلِ بنفسِها، ويُمكنُ أن تكونَ (اللّامُ) مُتعلِّقةً بالخبرِ المقَدَّرِ لـ ﴿كَانَ﴾، وانْتصابُ الفعلِ بعدَها بأنْ المقَدَّرة، أيْ: ما كانَ اللّهُ مُريدًا أو مُتصدِّيًا؛ لِأن يَذَرَ المؤمنين[3].

سرُّ العدولِ عن الضَّميرِ إلى الاسمِ الظَّاهرِ:

المؤمنونَ كلمةٌ تُطلَقُ فيُرادُ منها عمومُ المجتمعِ

وَالْمُرَادُ بِالْمُؤْمِنِينَ في قولِه تعالى: ﴿لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ الْمُؤْمِنُونَ الْخُلَّصُ مِنَ النِّفَاقِ، وَلِذَلِكَ عَبَّرَ عَنْهُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ، وَغَيَّرَ الْأُسْلُوبَ لِأَجْلِ ذَلِكَ، فَلَمْ يَقُلْ: لِيَذَرَكُمْ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ تَنْبِيهًا عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ

(1) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 1/607.
(2) الزّمَخْشري، الكشَّاف: 1/483.
(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل: 1/608.

بِضَمِيرِ الْخِطَابِ أَكْثَرُ مِنَ الْمُرَادِ بِلَفْظِ الْمُؤْمِنِينَ، وَلِذَلِكَ لَمْ يَقُلْ: عَلَى مَا هُمْ عَلَيْهِ، فيكون المرادُ بالضَّميرِ في قولِه: ﴿أَنتُمْ عَلَيْهِ﴾ مُخاطَبٌ به المسلمونَ كُلُّهم، باعْتبار مَنْ فيهم مِنَ المنافقين[1].

معنى الاستعلاءِ في قولِه: ﴿عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ﴾:

حَرْفا الاستعلاءِ في قولِه تعالى: ﴿عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ﴾ للاسْتعلاءِ المجازيِّ، وهو التَّمكُّنُ مِنْ معنَى مَجرورِها، ويَتبيَّنُ الوصفُ المُبْهَمُ في الصِّلَةِ بما وردَ بعدَ ﴿حَتَّىٰ﴾ من قولِه: ﴿عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ﴾، فَيُعْلَمُ أَنَّ مَا هُمْ عَلَيْهِ هُوَ عَدَمُ التَّمْييزِ بَيْنَ الْخَبِيثِ وَالطَّيِّبِ.

براعةُ الالتفات في إفادةِ الإيجازِ:

الخطابُ في قوله: ﴿عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ﴾ من اخْتلاطِ المؤمنينَ الخُلَّصِ والمنافقين[2]، كأنّه قيل: ما كانَ اللّهُ ليذرَ المخلِصينَ منكم على الحال الَّتي أنتُم عليها من اخْتلاطِ بعضِكم ببعض، وأنَّه لا يعرِفُ مُخلِصَكم مِنْ منافِقكم، لاتّفاقكم على التَّصديقِ جميعًا، حتّى يميّزَهُم منكم بالوَحْيِ إلى نبيِّه ﷺ وإخبارِه بأحوالِكم، وهذا هو المُعَوَّلُ عليه عندَ المُحقِّقينَ من أهلِ التَّفسير، وهو الَّذي يُشيرُ إليه الالتفاتُ ضِمنَ تَلْوين الخطاب، ما بَيْن صَدْرِ الآية الكريمةِ، وقولِه: ﴿مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ﴾؛ لكونِ الخطابِ صريحًا في كَوْنِ المرادِ بما هم عليه، ما ذُكر مِنَ القَدْرِ المشْتَرك بينَ الفريقَيْن، من حيثُ هو مُشترَكٌ بينَهما، وعليه يدورُ أمرُ الاخْتلاطِ المُحوِجِ إلى الإفراز[3].

الاختلاطُ بينَ المؤمنين والمنافقين مؤقَّتٌ إلى حينٍ

توجيهُ القراءاتِ القرآنيَّة:

في قولِه تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَمِيزَ﴾ قراءتان، الأولى: بفَتح ياءِ المضارَعةِ، وكسرِ الميم، وياءٍ تَحْتيّةٍ بعدها ساكنةٍ، من: مازَ يَميزُ، وهي قراءة الجمهور، والثَّانية: بضمِّ ياء المضارَعةِ، وفَتْحِ الميم،

المنافقون في حيِّزٍ مختلفٍ عن المؤمنين، متفرِّقون مُشتَّتون

(1) ابنُ عاشور، التّحرير والتّنوير: 4/178.
(2) الزّمَخْشري، الكشّاف: 1/483.
(3) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 1/608.

وياءٍ مُشَدَّدَةٍ مَكْسورةٍ، ﴿يُمَيِّزَ﴾ مِنْ: مَيَّزَ، مُضاعَفُ مازَ، وهي قراءة حمزة، والكسائي، ويعقوب، وخلف[1]، يُقالُ: مازَ الشَّيْءَ، يَميزُ مَيْزًا، ومَيَّزَه يُميِّزه تمييزًا؛ إذا فرَّقه، فانْمازَ، وانْمازَ هو بنفسِه[2].

والفرق بين القراءتين؛ أنَّ قراءة الجمهورِ تدلُّ على تفريقِ الخبيثِ وهم المنافقون عن الطَّيِّب وهم المؤمنون، أي: جعل المنافقين في حيِّزٍ غير حيِّز المؤمنين، بَيْنَما تدلُّ قراءةُ البقيَّة على تفريقِ المنافقين في أنفسِهم، أي: جعل المنافقين متفرِّقين مُشتَّتين، والقراءتان بليغتان في بيانِ المعنى، والمعنى فيهما مرادٌ.

فائدةُ تسميةِ المنافقين بالخبيثِ والمؤمنين بالطَّيِّبِ:

الخُبثُ علَّةُ النِّفاقِ والطِّيبُ أصلُ الإيمانِ

جاء قولُه تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِۗ﴾ غايةً لما أفادَه النَّفيُ في صدرِ الآيةِ الكريمة، كأنَّه قيلَ: ما يتركُهمُ اللهُ تعالَى على ذلكَ الاخْتلاط، بلْ يُقدِّرُ الأمورَ ويُرتِّب الأسبابَ حتَّى يَعزِل المنافِقَ منَ المؤمن، والتَّعبيرُ عن المؤمنين بالطَّيِّبِ والمنافقين بالخبيثِ تسجيلٌ على كلٍّ منهما بما يَليقُ به، وإشْعارٌ بعِلَّةِ الحُكْم[3].

نكتةُ إفرادِ الخبيثِ والطَّيِّبِ:

وصفُ الخبثِ والطِّيبِ هما مدارُ التَّمييزِ بين الفريقين

جاء إفرادُ الخبيثِ والطَّيِّبِ مع تعدُّدِها - لأنَّه أُريدَ بكلٍّ واحدٍ منهما وتَكَثُّره، لا سيَّما بعدَ ذكرِ ما أُريدَ بأحدِهما، وهمُ المؤمنون، الَّذي وردَ بصيغةِ الجمع - ؛ للإيذانِ بأنَّ مدارَ إفرازِ أحدِ الفريقَيْن من الآخَرِ هو اتِّصافُهما بوصفِهما، لا خصوصيَّةَ ذاتِهما، وتعدُّد آحادِهما[4].

(1) ابن مجاهد، السَّبعة، ص: 220، وابن الجزري، النشر: 2/244.
(2) ابن خالويه، الحُجَّة، ص: 118، ومكيّ، الكشف: 1/369.
(3) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 1/609.
(4) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 1/609.

سرُّ تعليق الميَز بالخبيث لا الطَّيِّب:

الخبيثُ تعلُّقٌ مؤقَّتٌ لا بدَّ من زوالِه، والطَّيِّب ثابتٌ راسخٌ

لسائلٍ أن يسألَ عنِ العلَّةِ في تعليقِ الميزِ بالخبيثِ في قولِه: ﴿يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ﴾؟ والجوابُ: أنَّ العلَّةَ تَنتظِمُ في أمرَيْن:

الأوَّلُ: هو أنَّ الميزَ الواقعَ بين الفريقَيْن إنَّما هو بالتَّصرُّفِ في المنافقين، وتغييرِهم من حالٍ إلى حالٍ أُخرَى؛ مغايرةً للأُولَى مع بقاءِ المؤمنينَ على ما كانوا عليه من أصلِ الإيمان، وإنْ ظهرَ مزيدُ إخلاصِهم لا بالتَّصرُّفِ فيهم، وتغييرِهم من حالٍ إلى حالٍ أُخرَى مع بقاءِ المنافقينَ على ما هم عليه من الاسْتِتار.

الثَّاني: لأنَّ فيه مزيدَ تأكيدٍ للوعيد، كما أُشيرَ إليه بقولِه: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ﴾ [البقرة: 220][1].

براعةُ التَّجريدِ في خطابِ المؤمنين:

تشريفُ المؤمنين في معرفةِ حدودِهم في معرفةِ الغَيبِ

قولُه تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ﴾ تمهيدٌ لبيانِ الميزِ الموعودِ على طريقِ تجريدِ الخطابِ للمُخلِصين تشريفًا لهم[2]، يعني: أرادَ أن يُميِّزَ لكمُ الخبيثَ، فتعرِفوا أعداءَكم، ولم يكنْ من شأنِ اللهِ إطلاعُكم على الغيب؛ فلذلكَ جعلَ أسبابًا مِنْ شأنِها أنْ تَستفزَّ أعداءَكم، فيُظهِروا لكمُ العداوةَ، فَتطَّلعوا عليهم، وإنَّما قال: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ﴾؛ لأنّه تعالى جعلَ نظامَ هذا العالم مُؤسَّسًا على اسْتفادَةِ المُسَبَّباتِ من أسبابها، والنتائجِ من مُقدِّماتها[3].

فائدةُ إظهارِ الاسمِ الجليلِ على التَّوالي:

تربيةُ المهابةِ في قلوبِ المؤمنين والطُّمأنينة في نفوسِهم

إظهارُ الاسْمِ الجليلِ في الموضِعَيْن ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾؛ لتربيةِ المَهابَة، فالمعنَى: ما كان اللهُ ليترُكَ المخلِصينَ على الاخْتلاطِ بالمنافقين،

(1) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 1/609.
(2) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 1/609.
(3) ابنُ عاشور، التّحرير والتّنْوير: 4/179.

بلْ يُرتِّبُ المبادئ حتَّى يُخرِجَ المنافقين مِنْ بينِهم، وما يَفعلُ ذلكَ بإطلاعِكم على ما في قلوبِهم مِنَ الكُفرِ والنِّفاق، ولكنَّه تعالَى يوحي إلى رسولِه ﷺ، فيُخبِرُه بذلكَ، وبما ظَهَرَ منهم مِنَ الأقوالِ والأفعال، فَيفضَحُهم على رؤوسِ الأَشْهاد، ويُخلِّصَنَّكَ مِنْ خِسَّةِ الشُّركاء، وسوءِ جِوارِهم[1].

سرُّ التَّعبيرِ بلفظِ الاجتباءِ في قولِه تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجۡتَبِي مِن رُّسُلِهِۦ﴾:

التَّعرُّضُ للاجْتباءِ في قولِه: ﴿يَجۡتَبِي﴾ للإيذان بأنَّ الوقوفَ على أمثالِ تلكَ الأسرارِ الغَيبيَّة لا يَتأتَّى إلّا ممَّن رشَّحَهُ اللهُ تعالَى لِمَنْصِبٍ جليلٍ، تَقاصرَتْ عنه هِمَمُ الأُمَم، واصْطفاه على الجماهيرِ لإرشادِهم، وهمُ الرُّسُل ﷺ، وفيه كذلكَ بيانٌ عَنْ مزيدِ مِزْيتِهم وفَضْلِ معرفتِهم على الخَلْق، إثْرَ بيانِ قُصورِ رُتبتِهم عَنِ الوقوفِ على خَفايا السَّرائر، وفيه كذلكَ تصْريحٌ في أنَّ المرادَ إظهارُ تلكَ السَّرائرِ بطريقِ الوَحْي لا بطريقِ التَّكليف، بما يؤدِّي إلى خروجِ أَسْرارِهم عن رُتبةِ الخَفاء، وتعميمُ الاجْتباءِ لسائرِ الرُّسل ﷺ في قولِه: ﴿مِن رُّسُلِهِۦ﴾ للدَّلالةِ على أنَّ شأنَه ﷺ في هذا البابِ أمرٌ مَتين، له أَصْلٌ أصيل جارٍ على سُنَّةِ اللهِ تعالى المسْلوكةِ فيما بَيْنَ الرُّسُلِ الخالية[2] ﷺ.

اجتباءُ الرُّسُلِ دليلُ بُطلانِ ما يزعمُه المبطلون أدْعياءُ معرفةِ الغيبِ

تعدُّدُ احتمالِ المقصودِ بالخطابِ في قولِه: ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ﴾:

قولُه تعالى: ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ﴾ إمّا أنْ يكونَ خطابًا للمؤمنين، أوْ خِطابًا للمنافقين، فإنْ كانَ الأوَّلَ؛ فالمقصودُ منه الإيمانُ الخاصُّ، وهو التَّصديقُ بأنَّهم لا يَنطِقون عَنِ الهوَى، وبأنَّ وعدَ اللهِ لا يُخلَفُ، فعليهمُ الطَّاعةُ في الحربِ وغيرِها، ويُمكنُ أنْ يُرادَ بالأمرِ الدَّوامُ على الإيمان؛ لأنَّ الحالةَ المتَحدَّثَ عنها، قدْ يُتوَقَّعُ منها تَزلزُلُ إيمانِ الضُّعفاء، ورَواجُ شُبَهِ المنافقين.

أمرُ المؤمنين بالإيمانِ على سبيلِ الاستزادة، والمنافقين للإيمانِ

(1) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 1/611.

(2) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 1/610.

وإنْ كانَ الثَّاني؛ فيكون هذا الخطاب مَبْنيًّا على أنَّ المرادَ بالخِطابَيْن السَّابقيْن في قولِه تعالى: ﴿عَلَىٰ مَآ أَنتُمۡ عَلَيۡهِ﴾، وقولِه: ﴿لِيُطۡلِعَكُمۡ عَلَى ٱلۡغَيۡبِ﴾، هُمُ المنافقون، فيكونُ الأمرُ بالإيمانِ هنا ظاهرًا[1]، والأوفق بالسِّياقِ سباقًا ولحاقًا الاحتمالُ الأوَّل.

قوَّةُ تفريعِ شرطِ الإيمانِ على الأمرِ بالإيمانِ:

جاء قولُه: ﴿وَإِن تُؤۡمِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَلَكُمۡ أَجۡرٌ عَظِيمٌ﴾ تفريعًا مُصَدَّرًا بالشَّرْط؛ لإحقاقِ الحقِّ وإبْطالِ الباطِل، فإنَّ مَنْ آمن، وصَدَّق حقَّ التَّصْديق، وداومَ على إيمانِه، واتَّقَى مراعاةَ حُقوقِ اللّهِ، وإنزالَ رُسُلِ اللّهِ منازِلَهم، وأنَّهمُ المتَّبِعون وَحْيَ اللّه؛ فله أجرٌ عظيمٌ مِنَ اللّه، ومَنْ خلَع عباءَةَ الكفر، ورِبْقتَه من قلبِه، وآمنَ، وصدَّق، وداومَ على الإيمان؛ فإنَّ جزاءَه كذلكَ الأجرُ العظيمُ مِنَ اللّه، فهذا الشَّرطُ بتمامِه يُعدُّ دعوةً لِكلا الفريقَيْن: للأوَّلِ بضرورةِ الثَّبات، وللثَّاني بوجوبِ العَوْدِ للإيمان، ثمَّ الثَّبات.

حضُّ المؤمنين وترغيبُهم بعد أمرِهم بالإيمان أوثقُ استجابةً

فائدةُ تقديمِ شِبه الجملةِ القصرُ:

وتَقدُّمُ شِبْهِ الجُملة في ﴿فَلَكُمۡ﴾ يُعدُّ حَصْرًا وقَصْرًا وتأكيدًا لاسْتحقاقِ الجزاءِ الحَسَنِ بعدَ تَحقُّقِ سَبَبِه.

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(يَذَرُ) و(يَدَعُ) و(يَترُكُ):

سَبَقَ بيانُ معنَى (يَذَر) في فِقرةِ: شرح المفردات، من تفسير هذه الآية، ونضيف إلى ما ورد هناك، ما يلي: "قال ابن كيسان: وإنّما جُعل من باب فَعَلَ يَفْعَل، بالفتح فيهما، وليس فيه حلقيّ لمضارعته (ودع يدع) من وجهين: أحدهما: تَنَكُّبُ استعمال ماضيهما، استغناء عنه بتركٍ، الثّاني: أن لفظهما يؤدّي معنى التّرك، وكلّ شيءٍ أشبه

(1) ابنُ عاشور، التّحرير والتّنْوير: 4/180.

شيئاً من وجه أو وجهين، دخل معه في بعض أحكامه، فلذلك حُمل عليه بالحذف، وحذف واو مستقبله، وأصله يَوْذَرُ"[1]. وأمّا (يَدَعُ)؛ فماضيه: وَدَعَ، يُقالُ: ودَعْتُ كذا أَدَعُهُ وَدْعًا، نحوُ: تركتُه وادِعًا، ولا يُستعمَلُ ماضيه، فهو كالفعل (يَذَرُ) كما سبَق، ولا يُستعمَلُ اسْمُ فاعِله كذلك، وإنَّما يُقالُ: يَدَعُ، وَدَعَ[2] والتَّوَدُّعُ: تَرْكُ النَّفْسِ عنِ المجاهَدة، وفلانٌ مُتَّدِعٌ ومُتَودِّعٌ، وفي دَعَةٍ: إذا كانَ في خَفْضِ عَيْش، وأَصْلُه مِنَ التَّرْك، وعُبِّرَ عَنِ التَّرْكِ به في قولِه تعالى: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ﴾ [الضُّحى: 3]، كقولِكَ: ودَّعْتُ فلانًا، نحوُ: خَلَّيْتُه، ومنه قيل: اسْتودَعْتُكَ غيرَ موَدَّع[3]. وتَرْكُ الشَّيْءِ: رَفْضُه قَصْدًا واخْتيارًا، أوْ قَهْرًا واضْطرارًا، فمِنَ الأوَّلِ قولُه تعالى: ﴿۞وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ﴾ [الكهف: 99]، ومنه تَرِكَةُ فُلانٍ لما يَخْلُفُهُ بعدَ موتِه، وقد يُقالُ في كلِّ فعلٍ ينتهي به إلى حالةٍ ما: تركتُه كذا، أو يجري مَجْرَى جعلتُه كذا، نحوُ: تركْنا فلانًا وحيدًا[4]، والتَّـرْكُ عندَ العَرَب: تَخليفُ الشَّيْءِ في المكانِ الَّذي هو فيه، والانْصرافُ عنه[5]. ومِنْ خلالِ بيانِ المفرداتِ الثَّلاث: (يَذَرُ) و(يَدَعُ) و(يَترك)، نجدُ أنَّ كلَّ واحدةٍ منها تُستعمَلُ في نَظيرتِها، ولكنَّ الفِعْلَ (يَذَرُ) حازَ معنًى لم يَحُـزْهُ نَظيراه، وهو قِلَّةُ الاعْتدادِ بالشَّيء، فإذا قلْنا: فلانٌ يَذَرُ الشَّيْءَ؛ فإنَّنا نَعْني: يقذِفُه لِقلّةِ الاعْتدادِ به، لكنْ ما علاقةُ هذا المعنَى بسياق النَّصِّ القُرآنيِّ: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾؟الجوابُ: هو أنَّ بيانَ اللهِ تعالَى اسْتَخدمَ هذا الفعلَ (يَذَرَ) هنا؛ ليُظْهرَ لعبادِه أنَّه ﷻ لا يَذَرُ اخْتلاطَ المنافقينَ بالمؤمنينَ، يَمُـرُّ كأنْ لم يكنْ، وكأنَّ المنافقينَ هُم مع اختلاطِهم بالمؤمنين، في أعمالِ الإسلامِ الظَّاهرةِ، مِنْ صَلاةٍ وصيام وحَجٍّ وجِهاد، هم كذلكَ معهم، فيما وقَرَ في قلوبِهم مِنَ الإيمانِ الصَّادقِ المخلِصِ للّه، كلَّا؛ لا يمكنُ أنْ يكونَ ذلكَ كذلك، فلا بُدَّ مِنْ فَرْزِهم وتَخْليتِهم عن صفِّ المؤمنينَ الصَّادقينَ المخلصين، وهم في واقعِ حالِهم من حقيقةِ الكُفْر – الَّذي وَقَرَ في قُلوبهم، والَّذي لا يعلمُه إلّا اللّه – هم أهونُ عندَ اللّهِ وأَصْغَرُ مِنْ أن يوصَفوا بالإيمان، فَلا اعْتدادَ بهم، ولا بِظاهرِ ما هُم عليه مِنْ مَظاهِرِ الإسْلام، وقُلوبُهم خاويةٌ على عُروشها، ومُعطَّلةٌ عن حقيقةِ الإيمانِ باللّهِ، كما

(1) نشوان الحِميري، شمس العلوم: (وَذَرَ).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (ودَعَ).
(3) الرَّاغب، المفردات، ص: 861.
(4) الرَّاغب، المفردات، ص: 166.
(5) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 124.

قالَ ﷻ: ﴿۞قَالَتِ ٱلۡأَعۡرَابُ ءَامَنَّاۖ قُل لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا وَلَمَّا يَدۡخُلِ ٱلۡإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمۡۖ﴾ [الحُجُرات: 14].

(يَميز) و(يَفْصِل):

سَبَقَ بيانُ الفعلِ ﴿يَمِيزَ﴾ في فِقرةِ: شرح المفردات، وأمّا الفَصْلُ: فهو إبانةُ أحدِ الشَّيئَيْن مِنَ الآخَر، حتَّى يكونَ بينَهما فُرْجةٌ؛ ومنه قيلَ: المَفاصِلُ، والواحدُ مَفصِلٌ، وفَصَلْتُ الشَّاةَ: قَطَعتُ مفاصِلَها، وفَصَلَ القومُ عن مكاني كذا، وانْفصَلوا: فارقوه، كما قالَ تعالى: ﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلۡعِيرُ﴾ [يوسف: 94]، ويُستعمَلُ كذلكَ في الأفعالِ والأقوالِ، نحوُ قولِه تعالى: ﴿إِنَّ يَوۡمَ ٱلۡفَصۡلِ مِيقَٰتُهُمۡ أَجۡمَعِينَ ۝٤٠﴾ [الدُّخان: 40]، وقولِه تعالى: ﴿هَٰذَا يَوۡمُ ٱلۡفَصۡلِ﴾ [الصّافّات: 21]، أي: اليومَ يُبيِّنُ الحقُّ مِنَ الباطلِ، ويُفْصَلُ بين النَّاسِ بالحُكم. والفِصالُ: التَّفريقُ بين الصَّبيِّ والرَّضاعِ، كما قالَ تعالى: ﴿فَإِنۡ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٖ مِّنۡهُمَا﴾ [البقرة: 233]. والمُفَصَّلُ مِنَ القُرآن: السَّبعُ الأخيرُ، وذلكَ للفَصْلِ بين القَصَص بالسُّوَرِ القِصار[1].

وممَّا تقدَّمَ تفصيلُه بَيْن الفِعلَيْن (يَميزَ) و(يَفصِلَ) يَظهرُ لنا جَليًّا: أنَّ الفعلَ (يَميزَ) أوسعُ في إطلاقاتِه، وأشملُ في مَدْلولاتِه، مع فَرْقٍ واضحٍ كذلكَ: وهو أنَّه أَدَقُّ في معناهُ مِنَ الفعلِ (يفصلَ)، فهو فَصْلٌ بين المُتشابِهات. وسياقُ النَّصِّ القُرآنيِّ لَزِمَه الفعلُ (يَميزَ) لِشُمولِه ودقَّتِه، ممَّا لم يتوفَّرْ أوْ يَتَوافَرْ في الفعلِ (يَفْصل) بما يتعلّقُ بفائدتِه المُتوخَّاةِ في سياقِ الجُملةِ القرآنيَّة، فأولئكَ المنافقونَ قَدِ اشْتبَه حالُهم ومَقالُهم عندَ كثيرٍ مِنَ المؤمنين، ولكنَّ الأزماتِ تُظهِرُ أهلَ النِّفاق مِنْ أهلِ الصِّدقِ والإخلاصِ في الإيمان، فقد انْقَشَعَتِ الحُجُبُ، وانكشفَ الغِطاءُ، وزالتِ المُتشابهاتُ في حقيقةِ نفاقِ أولئكَ الَّذينَ أظْهروا الإيمانَ تَجمُّلًا، وأَبْطنوا الكُفرَ خِداعًا وزورًا، وخاصَّةً في مِحْنةِ القِتالِ في عديدٍ مِنَ الغزوات، فلا بُدَّ مِنْ وضْعِ النِّقاطِ على الحُروف، وتمييزِ المؤمنينَ المُخلِصين، وإعلاءِ مَنْزلتِهم، وبيانِ المنافقين وفَضْحِهم، وإهدارِ كرامتِهم.

(يُطْلِعُ) و(يُعرِّفُ):

سبق بيانُ الفعل (يُطلِعُ) في فِقرة: شرح المفردات، والمَعْرِفَةُ والعِرْفانُ: إدراكُ الشَّيءِ

(1) الرّاغب، المفردات، ص: 138.

بتفكُّرٍ وتَدَبُّرٍ لأَثَرِه، وهو أخصُّ مِنَ العلم، ويُضادُّه الإنْكار، ويُقالُ: فلانٌ يعرِفُ اللّه، ولا يُقالُ: يَعلمُ اللّه، مُتعدِّيًا إلى مفعولٍ واحد، لَمَّا كانت معرفةُ البَشَرِ للّه، هي بتدبُّر آثاره، دونَ إدراكِ ذاتِه، ويُقالُ: اللّه يعلمُ كذا، ولا يُقالُ: اللّه يعرِفُ كذا؛ لَمَّا كانتِ المعرِفةُ تُستَعملُ في العلمِ القاصِرِ، المُتوَصَّلِ به بتفكُّر[1]، وممّا سبقَ معرفتُه يتبيَّنُ لنا أنَّ إيرادَ البيانِ الإلهيِّ للفعلِ ﴿لِيُطْلِعَكُمْ﴾، أوقعُ في السِّياقِ من الفعلِ (ليُعرِّفكم)، فإنَّ اللّه تعالى يعلمُ بواطنَ الأمورِ وظاهرَها، والغُيوبُ بواطنُ بالنِّسبَةِ للعباد، لا يعلمُها إلّا هو ﷻ، ثمَّ إنَّ المعرفةَ ـــ كما سلفَ ـــ تُستعمَلُ في العلمِ القاصرِ، المُتوصَّلِ إليه بتفكُّر، واللّه منزَّهٌ عن ذلكَ، سواءٌ أكانَ ذلكَ بإسنادِ المعرفة إليه سُبحانه، كصفةٍ، أَمْ بإسنادِها إليه في تعريفِه عباده الغيبَ بها.

(يَجْتبي) و(يَصْطفي) و(يَخْتارُ):

سبقَ بيانُ معنى ﴿يَجْتَبِي﴾ في فِقرةِ: شرح المفردات، وأمّا (يخْتارُ) و(يَصْطفي)؛ فإنَّه قدْ كَثُرَ اسْتعمالُ أحدِهما مكانَ الآخَر، فاخْتيارُك الشَّيءَ: أَخْذُكَ خيرَ ما فيه في الحقيقة، أوْ خيرَهُ عندَك، والاصْطفاءُ أخذُ ما يَصْفو منه، واسْتُعمِلَ الاصْطفاءُ كذلكَ فيما لا صَفْوَ له على الحقيقةِ[2]، وبالنَّظرِ إلى معنَى الاجْتباءِ نجدُ أنَّه يقومُ على الجَمْعِ والتَّخصيص، فيَجمَعُ اللّه للعبدِ صفاتٍ يتحقَّق بها، تُؤهِّلُه للاجْتباء، وكذلكَ يُخصِّصُه بفُيوضاتٍ إلهيَّةٍ يمنحُها له، يتحصَّلُ له منها أنواعٌ مِنَ النِّعم بلا سَعْيٍ منه، وهذا عَيْنُ الاجْتباءِ الرَّبَّانـيِّ، وهذه المعاني ليستْ بعَيْنها متحقِّقةٌ في كُلٍّ مِنَ الاصْطفاءِ والاخْتيار، كما تبيَّنَ لنا، وإنْ كانَ في الظَّاهر ما يوهِمُ بأنَّها جميعَها بنَفْسِ القَدْرِ مِنَ الاشْتراكِ في المعنَى.

(1) الرَّاغب، المفردات، ص: 560 - 561.

(2) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 29.

﴿وَلَا يَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ هُوَ خَيۡرٗا لَّهُمۖ بَلۡ هُوَ شَرّٞ لَّهُمۡۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُواْ بِهِۦ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ١٨٠﴾ [آل عمران: 180]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

المناسبة بين حكمة الله في التّمحيص، والتّنديد بالباخلين بما أفاء الله عليهم

لَمَّا بيَّنَ اللهُ ﷻ في الآيةِ السَّابقة: أنَّه ما كانَ مِنْ حكمةِ اللهِ تعالَى أنْ يترُكَ المؤمنينَ على اختلاطٍ مع المنافقينَ دونَ تمييزٍ بينَهم، وأنْ يُطلعَ عبادَه على الغيب، وأنَّ اللهَ يَجْتبي مِن رُسُله مَنْ يشاءُ؛ كانَ مِنَ المناسبِ في هذه الآيةِ أنْ يُندِّدَ بأولئكَ الَّذين يَبخلونَ ببَذلِ ما أَنْعمَ اللهُ به عليهم مِنَ المالِ والجاهِ والعلمِ لِعبادِ اللهِ، أليسَ هذا مخالفًا لما أمرهُمُ اللهُ به في الآيةِ السّابقةِ مِنَ الإيمانِ والتَّقوى، وأنَّهم سَيرحلون عَنِ الدُّنيا، ولن يأخذوا منها شيئًا لِلآخرة؟

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَبۡخَلُونَ﴾: البُخلُ والبُخولُ، بضمّيهما: ضِدُّ الكَرَم، وبَخِلَ، كفرِحَ وكَرُمَ، بُخْلًا، بالضَّمّ والتَّحريك، ورَجلٌ بَخَلٌ، مُحرَّكةً: وصفٌ بالمصْدَر[1]، والبخل من أبشع الأخلاق عند العرب، يقال: " (فلان أصيل في اللّؤم بخّال، ماله عمّ كريم ولا خال)، ويقال: (لا يكاد يفلح النّخيل، إذا أبرَّها البخيل)، وقيل لرجل: (بفلان خبل، وبأخيه بخل، فقال: الخبل أهون من البخل)"[2].

2) ﴿مِن فَضۡلِهِۦ﴾ الفَضْلُ، والفَضيلةُ: ضِدُّ النَّقْص والنَّقيصَة، والجَمْعُ: فُضولٌ، وقد فَضَلَ، كنَصَر وعَلِمَ، وأمّا فَضِلَ، كَعَلِمَ، يَفْضُلُ،

(1) الفيروزآبادي، القاموس المحيط: (بَخِلَ)
(2) الزّمَخْشري، أساس البلاغة: (بَخِلَ).

كينصُرُ؛ فَمُرَكَّبةٌ منهما، والإفْضالُ: الإحْسانُ، ورجُلٌ مِفْضالٌ، وامْرأةٌ مِفْضالةٌ على قومِها؛ إذا كانت ذاتَ فَضْلٍ، سَمْحة[1].

3) ﴿سَيُطَوَّقُونَ﴾ الطَّوْقُ: حَلْيٌ للعُنُقِ، وكُلُّ ما اسْتدارَ بشَيءٍ، والجَمْعُ: أَطْواقٌ، وتَطَوَّقَ: لَبِسَهُ، ويَطَّوَّقونَهُ: أَصْلُهُ: يَتَطَوَّقونَه، قُلِبَتِ التَّاءُ طاءً، وأُدْغِمتْ[2]، وفي لفظ طوق «من ظلم شبرًا من أرض طوّقه الله من سبع أرضين»[3]، أي يخسف الله به الأرض، فتصير البقعة المغصوبة منها في عنقه كالطّوق، وقيل: هو أن يطوّق حملها يوم القيامة أي يكلّف، فيكون من طوق التّكليف لا من طوق التّقليد[4]، ومعنى اللّفظ في السّياق وهو الأرجح: "أنّه سيكون ما بخلوا به، طوقًا في أعناقهم، وغِلًّا فيها، يشعرهم بما كان منهم في الدّنيا، وهو طوق مؤلم، مَثّلهُ النّبيُّ ﷺ بثعبان، فقد روى البخاري عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «من آتاه الله مالا فلم يؤد زكاته مُثِّلَ له شجاعًا أقرع له زبيبتان يطوَّقه يوم القيامة فيأخذ بلهزمتيه، يقول: أنا مالك أنا كنزك، ثمّ تلا قوله تعالى: ﴿سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُواْ بِهِۦ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ﴾»[5].

4) ﴿مِيرَاثُ﴾: وَرِثَ أَباهُ، يَرِثُهُ، كَيَعِدُه، وِرْثًا، وَوِراثَةً، وإِرْثًا، وَرِثَةً، بِكَسْرِ الكُلِّ، وأَوْرَثَهُ أَبوهُ، وَوَرَّثَهُ: جَعَلَهُ مِنْ وَرَثَتِه، والوارِثُ: مِنْ أسماءِ اللّهِ الحُسْنَى، وهو الباقي بعدَ فناءِ الخَلْق[6].

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

البخلاء عاقبتهم عند الله وخيمة، وسمعتهم بين الخلائق ذميمة

لا يَظُنَّنَّ الَّذين يَمْنعون ما عندَهم - ممّا آتاهُمُ اللّهُ مِنْ فَضْلِه مِنَ المالِ والجاهِ والعلمِ، وغيرِ ذلكَ، ممَّا مَنَحهُمُ اللّهُ، وأَحْسنَ إليهمْ بِه، وأَمرَهُم ببذْلِ ما لا يَضُرُّهم منه لعبادِه، فأمْسَكوه، وضَنُّوا به على عبادِ اللّه - أنَّه خيرٌ لهم، بلْ هو محضُ شرٍّ لهم، في دينِهمْ ودُنْياهُم وعاجِلِهمْ وآجلِهم، وأولئكَ ستكونُ عاقبةُ بُخْلهم وَخيمةً يومَ

(1) الرّازي، مختار الصّحاح، والفيروزآبادي، القاموس: (فَضَلَ).
(2) الفيروزآبادي، القاموس: (طَوَقَ).
(3) البخاري، الحديث رقم: (2453)، ومسلم، الحديث رقم: (1610).
(4) ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث والأثر: (طَوَقَ).
(5) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 3/1525.
(6) الفيروزآبادي، القاموس: (وَرِثَ).

القيامة، فسيُجعَلُ ما بَخِلوا به طَوْقًا يُلَفُّ على أعناقِهم، يُعذَّبونَ به، وقدْ تَغافلَ أولئكَ عَنْ حقيقةٍ عظيمة، وهي أنَّ اللّه تعالى مالكُ المُلْك، سينقلِبُ العبادُ إليه، ما معَهم دِرْهمٌ ولا دينارٌ، ولا شيءٌ مِنْ مَتاعِ الدُّنيا الفانية، كما قالَ ﷻ: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدًا ۝٩٣ لَّقَدۡ أَحۡصَىٰهُمۡ وَعَدَّهُمۡ عَدًّا ۝٩٤ وَكُلُّهُمۡ ءَاتِيهِ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَرۡدًا ۝٩٥﴾ [مريم: 93 - 95][1].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

نوعُ عطفِ قولِه: ﴿وَلَا يَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ﴾:

عُطِفَ قولُه تعالى: ﴿وَلَا يَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ﴾ على ﴿وَلَا يَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾؛ لأنَّ الظَّاهرَ أنَّ هذا أُنزِلَ في شأنِ أحوالِ المنافقين، فإنَّهم كانوا يَبْخَلونَ ويأمُرونَ النَّاسَ بالبُخل، كما حَكَى اللّهُ عنهم بقولِه: ﴿ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ وَيَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبُخۡلِ﴾ [النّساء: 37]، وكانوا يقولون فيما حكاهُ القرآنُ: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُواْ عَلَىٰ مَنۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّواْۗ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَٰكِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَا يَفۡقَهُونَ ۝٧﴾ [المنافقون: 7]، وغيرَ ذلك، ولا يَجوزُ بحالٍ أنْ يكونَ نازلًا في شأنِ بعضِ المسلمين؛ لأنَّ المسلمينَ يَومئذٍ مُبَرَّؤون مِنْ هذا الفعلِ، ومِنْ هذا الحُسْبان[2]، وهذا من بابِ عطفِ الخاصِّ على العامّ، فهو عطفُ صفةِ البخلِ على صفةِ الكفرِ؛ فإنَّ المنافقين كانوا يحرصون على المالِ حرصَهم على الحياةِ، كيف لا وهم الذين اشتروا الكفرَ بالإيمان؟!

البخلُ أبرزُ سلوكٍ مارَسَه المنافقون

نكتةُ اختيارِ لفظِ الإيتاءِ في قولِه: ﴿بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ﴾:

وإيرادُ البيانِ الإلهيِّ لما بَخلَ به المنافقونَ بعنوانِ إيتاءِ اللّهِ تعالَى بقوله: ﴿بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ﴾؛ للمبالغةِ في بيانِ سوءِ صَنيعِهم،

بخلُ المنافقين عنوانُ الكفران ودليلُ الحرمان

(1) ابن سعدي، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 119.
(2) ابنُ عاشور، التّحرير والتّنْوير: 4/180 - 181.

فإنَّ ذلكَ مِنْ موجِباتِ بَذلِه في سبيلِه تعالَى، كما في قولِه تعالى: ﴿وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِۖ﴾ [الحديد: 7].

توجيه القراءات القرآنيَّة:

في قولِه تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ﴾ قراءتان: الأوْلى: بالياء وهي قراءةُ الجمهورِ، والثَّانيةُ: بالتَّاء وهي قراءة حمزة[1].

فمَنْ قرأَ: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ﴾ بالياء، يكونُ الموصولُ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ في محلِّ رفعٍ على أنَّه فاعلُ الفعل، والمفعولُ الأوَّلُ محذوفٌ، أيْ: لا يَحسبَنَّ الباخلونَ البُخلَ خيرًا لهم، وإنَّما حُذِفَ المفعولُ الأوَّلُ لِدلالةِ يبخلونَ عليه.

ومَنْ قرأَ: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ﴾ بالتَّاء؛ فالفعلُ مُسنَدٌ إلى النَّبيِّ ﷺ، والمفعولُ الأوَّلُ محذوفٌ، أيْ: لا تحسَبَنَّ - يا محمَّدُ - بُخْلَ الَّذينَ يَبخَلونَ خيرًا لهم، على حذفِ المضافِ، وهو مثلُ قولِه تعالى: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ [يوسف: 82]، والضَّميرُ المذكورُ هو ضميرُ الفَصْل[2].

فائدةُ الإضرابِ والتَّنوين في قوله: ﴿بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْۖ﴾:

البُخلُ محضُ شرٍّ لصاحبِه؛ وإنْ ظنَّ خِلافَه

سبقَ بيانُ أنَّ البُخلَ ليس فيه خيرٌ على صاحبِه، والآيةُ زادتْ البيانَ بنفْيِ الخَيْريَّة، والإضراب بـ ﴿بَلْ﴾؛ ليأتيَ التَّنصيصُ على شَرِّيَّته لهم؛ للمبالغَةِ في ذلك، وجاءَ التَّنوينُ في ﴿شَرٌّ﴾ للتَّفخيم[3]، وهذا يَقتَضي التَّنفيرَ منه.

براعةُ المباغتةِ في الوَعيدِ، وحسنُ التَّفسيرِ بالتَّمثيلِ البليغ:

الشَّرُّ المحضُ أن يكونَ مالُ المنافقين طَوْقًا لهم يومَ القيامةِ

السّينُ في قولِه: ﴿سَيُطَوَّقُونَ﴾ سينُ الوَعيد، وتأويلُها: سوفَ يُطَوَّقون[4]، وجملةُ ﴿سَيُطَوَّقُونَ﴾ واقعةٌ موقعَ العِلَّةِ لقولِه: ﴿بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْۖ﴾، وهي تفسيرٌ لها، أيْ: سَيُلْزَمونَ وَبالَ ما بَخِلوا به إلزامَ الطَّوْق،

(1) ابن الجزري، النشر: 2/244.
(2) النَّحَّاس، إعراب القرآن: 1/420، والعكبري، التبيان: 1/160.
(3) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 1/611.
(4) أبو حيَّان، البحر المحيط: 3/134.

فهم يُلزَمونَ أعمالَهم، كما يَلزَمُ الطَّوْقُ العُنُقَ، يُقالُ: طوَّقَ فلانٌ عملَه طَوْقَ الحَمامةِ؛ أُلزِمَ جزاءَ عملِه، ويُمكِنُ أنْ يكونَ ﴿سَيُطَوَّقُونَ﴾ مُشتقًّا مِنَ الطَّاقة، وهو تحمُّلُ ما فوقَ القُدْرة، أيْ: سَيحملونَ ما بَخِلوا به، أيْ: يكونُ عليهم وِزْرًا يومَ القيامة، والمعنَى الأَوَّلُ أَظْهر[1].

فائدةُ تقديمِ لفظ الجلالةِ في قولِه: ﴿وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۗ﴾:

تقديمُ لفظِ الجَلالةِ في قولِه سُبحانَه: ﴿وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۗ﴾ يُفيدُ حَصْرَ ميراثِ السَّماواتِ والأرضِ للّه وحدَه سُبحانَه دونَ سِواه، أيْ: ما يتوارثُه أهلُهما مِنْ مالٍ وغيرِه مِنْ أهلِ السَّماواتِ والأرض، فَمالَهمْ يَبْخَلونَ عليه بمِلْكِه، ولا يُنفِقونَه في سَبيلِه، أوْ أنَّه تعالى يَرِثُ منهم ما يُمسِكونَه، ولا يُنفِقونَه في سبيلِه تعالى عندَ هلاكِهم، وتدومُ عليهم الحَسْرةُ والنَّدامَة[2].

مَهْما بخِلَ المنافقونَ فإنَّ ميراثَ ذلك كلَّه لله تعالى

بلاغةُ إظهارِ ما حقُّه الإضمارُ لتربيةِ المهابةِ في قولِه: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾:

إظهارُ الاسْمِ الجليلِ (اللّه) في مَوْضعِ الإضْمار؛ لتربيةِ المَهابةِ، والالتفاتُ للمبالغةِ في الوَعيد، والإشعارِ باشْتدادِ غَضبِ الرَّحمنِ النَّاشئِ مِنْ ذِكْرِ قبائحِهم[3]، فالآيةُ موعظةٌ ووعيدٌ وَوَعْدٌ.

فائدةُ المجازِ المرسل في قوله: ﴿خَبِيرٌ﴾:

المقصودُ لازمُ قولِه: ﴿خَبِيرٌ﴾[4]، فأطلقَ ﴿خَبِيرٌ﴾ وأرادَ الوعيدَ لأهل المعصيةِ، من باب المجاز المرسل والعلاقةُ الملزوميَّة، ففيه تضمين الوعيدِ من خلالِ صفةِ اللّه تعالى ﴿خَبِيرٌ﴾.

تضمينُ صفةِ (خبير) وعيد المنافقين

نكتةُ تقديمِ شبه الجملة الخبرِ:

وتقديمُ شِبْهِ الجُملةِ معَ صِلَتِها ﴿تَعْمَلُونَ﴾ على ﴿خَبِيرٌ﴾ للإشعارِ

(1) ابنُ عاشور، التّحرير والتّنْوير: 4/182.
(2) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 1/611 - 612.
(3) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 1/612.
(4) ابنُ عاشور، التّحرير والتّنْوير: 4/183.

والإعلامِ بأنّ أعمالَهمُ الدَّائمةَ - ما خَفيَ منها وما ظهرَ - هي في علمِ اللّه، لا يَنِدُّ عنه شيءٌ منها.

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

البُخل والشُّحّ والضَّن:

البُخْلُ: مَنعُ الحقِّ، فلا يقالُ لمن يؤدِّي حقوقَ اللّهِ تعالى: بخيلٌ، والبَخيلُ يَبخَلُ بما في يدِه، والبَخيلُ: يكون بالمالِ خاصَّة[1]. والشُّحُّ: البُخْلُ مع حِرْصٍ[2]، وقدْ أُضيفَ إلى النَّفْسِ في قولِه تعالى: ﴿وَأُحۡضِرَتِ ٱلۡأَنفُسُ ٱلشُّحَّۚ﴾ [النّساء: 128]؛ لأنَّه غريزةٌ فيها، والشَّحيحُ يَشُحُّ - بضمِّ الشِّينِ وفتحِها - بما في أيْدي النّاس، وعلى ما في يدِه، حتّى لا يَرى في أيدي النَّاس شيئًا إلَّا تمَنَّى أنْ يكون له بالحِلِّ والحَرام، ولا يَقنَعُ بما رزقَه اللّه، والشُّحُّ غريزةٌ جُبِلَ عليها الإنسانُ، فهو كالوصفِ اللَّازمِ له، ومركزُها النَّفْسُ، ولذلكَ فهو ليس بمَذموم، وإنَّما المذمومُ أنْ يستوليَ سُلطانُه على القلبِ، فَيُطاعَ، وهو يكونُ بالمالِ وبغيرِه مِنَ الأغْراض[3]، وأمّا الضَّنُّ: فأصلُه أنْ يكونَ بالعَواري، ولهذا يُقالُ: هو ضَنينٌ بعلمِه، ولا يُقالُ: بخيلٌ بعلمِه؛ لأنَّ العلمَ أشبَهُ بالعاريَّةِ منه بالهِبَة، وذلكَ أنَّ الواهبَ، إذا وَهبَ شيئًا؛ خَرجَ مِنْ مِلكِه، فإذا أعارَ شيئًا؛ لم يخرج؛ ولهذا قالَ تعالى: ﴿وَمَا هُوَ عَلَى ٱلۡغَيۡبِ بِضَنِينٖ ٢٤﴾ [التّكوير: 34] ولم يقلْ: بَخيل[4]. ممَّا سبقَ تفصيلُه نجدُ: أنَّ كلتا الكلمتَيْن (الشُّحُّ) و(الضَّنُّ) لا تَفيان بالغَرضِ المرادِ من سياقِ نصِّ الآيةِ الكريمة، بلِ الَّذي يُؤدِّي المرادَ مِنَ السِّياقِ: هو كلمةُ (البُخلُ)، فإنَّ بيانَ اللّهِ تعالى، يَنْعَى على أولئكَ الَّذين يمسِكونَ أيديَهم عنِ الإنفاقِ من مالِهم في سبيلِ اللّه، والمالُ الَّذي في أيديهم فَضلٌ ومِنَّةٌ من اللّهِ عليهم، وهذا هو المعنَى الَّذي تقدّمَ ذِكْرُهُ تمامًا في كلمة (البُخل).

(يُطوَّقُ) و(يُقلَّدُ):

أصلُ الطَّوْقِ: ما يُجعلُ في العنُقِ خِلقةً، كَطَوْقِ الحَمام، أوْ صنعةً كطَوْقِ الذَّهبِ والفِضَّة، ويُتوَسَّعُ فيه، فيُقالُ: طَوَّقْتُه كذا، كقولِكَ: قلَّدتُه، وقدْ يُعبَّر بنفي الطَّاقة عَنْ نفيِ القُدْرة،

(1) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 295 - 296.
(2) الفيروزآبادي، القاموس: (بَخَلَ).
(3) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 295 - 296.
(4) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 332.

كقولِه تعالى: ﴿وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ﴾ [البقرة: 286]، أي: ما يصعُبُ علينا مزاولتُه[1]، والقَلْدُ: الفَتْل، يقالُ: قَلَدْتُ الحبلَ، فهو قَليدٌ ومَقلودٌ، والقِلادَةُ: المفتولةُ الَّتي تُجعَلُ في العُنُقِ من خَيْطٍ وفِضَّةٍ وغيرِهما، وبها شُبِّهَ كلُّ ما يُتطوَّقُ، وكلُّ ما يُحيطُ بشيءٍ، يُقالُ: تقلَّدَ سيفَه تشبيهًا بالقِلادة، وقَلَّدْتُه عملًا: أَلْزمتُه[2]، وعليه نجدُ أنَّ الفعلَ (يُطوَّقُ) أكثرُ اسْتيعابًا للمعنى المرادِ من سياقِ الجُملةِ القُرآنيَّة، فهو يحملُ معنَى الإحاطةِ الحِسِّيّة بالعُنُق، ومعنَى عَدَمِ الطَّاقةِ والقُدرةِ على تحمُّلِ ما يصيبُهم من شدَّةٍ وعَذاب، وهذا حالُ المنافقينَ وشأنُهم يومَ القيامة.

(1) الرَّاغب، المفردات، ص: 532 - 533.

(2) الراغب، المفردات، ص: 682.

﴿لَّقَدۡ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوۡلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٞ وَنَحۡنُ أَغۡنِيَآءُۘ سَنَكۡتُبُ مَا قَالُواْ وَقَتۡلَهُمُ ٱلۡأَنۢبِيَآءَ بِغَيۡرِ حَقّٖ وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ ١٨١ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ١٨٢﴾ [آل عمران: 181 - 182]

مُناسَبَةُ الآيَتيْنِ لِمَا قَبْلَهُما:

علاقة التّشنيع بالبخل، بوصف الله بالفقر، وتوعّدهم بعذاب الحريق

لَمَّا سطَّرَ بيانُ اللهِ في الآيةِ السّابقةِ، عاقبةَ الَّذين يبخلونَ بإنفاقِ المالِ في سبيلِ اللهِ، وأنّ اللهَ مالكُ السَّماواتِ والأرضِ، شَنَّع اللهُ على اليهودِ مقالَتَهم الفاجرةَ الكافرة، وكذلكَ قَتْلَهمْ لأنبيائهم ظُلمًا وعُدوانًا، وتوعَّدَهُمْ على ذلكَ بعذابِ الجَحيم، وهذا كلُّه بسببِ ما قدَّمَتْه أنفُسُهمُ الظَّالمةُ، وأنَّ اللهَ لا يَظلمُ أحدًا من عبيدِه.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿سَنَكۡتُبُ﴾: الكَتْبُ: في التَّعارفِ: ضَمُّ الحروفِ بعضِها إلى بعضٍ بالخَطِّ، وقد يُقالُ ذلكَ للمَضمومِ بعضِها إلى بعضٍ باللَّفظ، فالأصلُ في الكتابة: النَّظْمُ بالخطِّ، لكنْ يُستعارُ كلُّ واحدٍ للآخَر؛ والكتابُ في الأصلِ مصدرٌ، ثمَّ سُمِّيَ المكتوبُ فيه كتابًا، ويُعبَّرُ عنِ الإثْباتِ، والتَّقديرِ، والإيجابِ، والفَرْضِ، والعَزْمِ بالكتابة، كما يُعبَّرُ بالكتابةِ عن القضاءِ المُمْضى، وما يصيرُ في حُكمِ المُمْضى، وعلى هذا حُمِلَ قولُه تعالى: ﴿بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيۡهِمۡ يَكۡتُبُونَ ٨٠﴾ [الزُّخرف: 80]، ويُعبَّرُ بالكتابِ عنِ الحُجّةِ الثَّابتةِ من جهةِ اللهِ؛ نحوُ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ ٨﴾ [الحجّ: 8][1]، وهذا المعنَى هو المناسبُ لمقامِ الفعلِ ﴿سَنَكۡتُبُ﴾ في الآيةِ الكريمة، ممّا يؤكّد سُمُوَّ البيانِ في سياقاتِ القرآن.

(1) الرّاغب، المفردات، ص: 699 - 700.

2) ﴿ذُوقُواْ﴾: ذاق الطَّعامَ: اختبر طعمَه، بوضعه على طرف لسانه، ليختبر مذاقه، ومنه قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتۡ لَهُمَا سَوۡءَٰتُهُمَا﴾ [الأعراف: 22]، والذَّوْقُ: وجودُ الطَّعْم بالفَم، وأَصْلُه فيما يَقِلُّ تناولُه دون ما يكثُرُ، فإنَّ ما يَكثُرُ منه يُقالُ له: الأكلُ، واخْتيرَ في القرآن لفظُ الذَّوْقِ في العذاب؛ لأنَّ ذلك ـــ وإنْ كانَ في التَّعارُفِ للقليل ـــ فهو مرتضًى للكثير، فخصَّه بالذِّكرِ لِيَعُمَّ الأمريْن، وكَثُرَ استعمالُه في العذاب، كقولِه تعالى: ﴿فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ ٣٥﴾ [الأنفال: 35]. وقد جاءَ ذكرُ الذَّوقِ في الرَّحمة، كما في قولِه تعالى: ﴿وَلَئِنۡ أَذَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِنَّا رَحۡمَةٗ﴾ [هود: 9]، ويُستعملُ الذَّوْقُ مع اللِّباس، كما في قولِه تعالى: ﴿فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلۡجُوعِ وَٱلۡخَوۡفِ﴾ [النَّحل: 112] من أجلِ أنَّه أُريدَ به التَّجربةُ والاخْتبار؛ أي: فجعلَها بحيثُ تُمارِسُ الجُوعَ والخَوْفَ[1].

3) ﴿ٱلۡحَرِيقِ﴾: النَّارُ، وحَرْقُ الشَّيءِ: إيْقاعُ حرارةٍ في الشَّيْءِ من غير لهيبٍ، كحرقِ الثَّوْبِ بالدَّقِّ، وحَرَقَ الشَّيْءَ: إذا بَرَدَه بالْمِبْرَد، وعنه اسْتُعيرَ: حَرْقُ النَّاب، وماءٌ حُرَاقٌ: يَحرِقُ بملُوحَته، والإحْراقُ: إيقاعُ نارٍ ذاتِ لهيبٍ في الشَّيء، ومنه اسْتُعيرَ: أَحْرَقَني بِلَوْمِه: إذا بالغَ في أذيَّتِه بِلَوْم[2]، وللفظ (حرق) أَصْلَانِ: " أَحَدُهُمَا حَكُّ الشَّيْءِ بِالشَّيْءِ، مَعَ حَرَارَةٍ وَالْتِهَابٍ، وَإِلَيْهِ يَرْجِعُ فُرُوعٌ كَثِيرَةٌ، وَالْآخَرُ شَيْءٌ مِنَ الْبَدَنِ، هو الْحَارِقَةُ، وَهِيَ الْعَصَبُ الَّذِي يَكُونُ فِي الْوَرِكِ، والْأَوَّلُ هو الّذي يهمّنا هنا، وذلك في قَوْلهم حَرَقْتُ الشَّيْءَ، إِذَا حَكَكْتَ بَعْضَهُ بِبَعْضٍ، وَالْعَرَبُ تَقُولُ: (هُوَ يَحْرُقُ عَلَيْكَ الْأَرَّمَ غَيْظًا)، وَذَلِكَ إِذَا حَكَّ أَسْنَانَهُ بَعْضَهَا بِبَعْضٍ، وَالْأَرَّمُ هِيَ الْأَسْنَانُ، قَالَ:

نُبِّئْتُ أَحْمَاءَ سُلَيْمَى إِنَّمَا *** بَاتُوا غِضَابًا يَحْرُقُونَ الْأُرَّمَا"[3].

4) ﴿بِظَلَّامٖ﴾: من الظُّلم، وهو عندَ أهلِ اللُّغةِ: وَضعُ الشَّيءِ في غيرِ موضعِهِ المختصِّ به[4]، إمَّا بنقصانٍ أو بزيادَة، وإمَّا بعُدُولٍ عن وقتِه أو مكانِه، والظُّلمُ ثلاثةُ أنواعٍ: الأوّلُ: ظُلمٌ بينَ الإنسانِ وبينَ اللّهِ تعالى، والثّاني: ظلْمٌ بينَه وبينَ النَّاس، والثّالثُ: ظُلْمٌ بينَه وبينَ

(1) الراغب، المفردات، ص: 332 - 333.

(2) الرّاغب، المفردات، ص: 229، والفيروزآبادي، القاموس: (حَرَقَ).

(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حَرَقَ).

(4) الرّاغب، المفردات، ص: 537، والجرجانّي، التّعريفات، ص: 144.

نَفْسِه، وكُلّها ظُلمٌ للنَّفس، ولهذا قالَ تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ٣٣﴾ [النَّحل: 33][1].

5) ﴿لِّلۡعَبِيدِ﴾: العُبوديّةُ: إظهارُ التَّذلُّل، والعبد: الإنسان حرًّا أو رقيقًا، ويقال: هو عبد اللّه، ويجمع على عباد وعبدين، والعبد: المملوك، وجمعه: عبيد[2]، ولهذا اللّفظ صلة بلفظ العبادة، وهي فعلُ المكلَّفِ على خلافِ هوَى نَفْسِه، تَعظيمًا لربِّه[3]، وجَمْعُ العَبْدِ الَّذي هو مُسْتَرَقٌّ: عَبيدٌ، وجمعُ العَبْدِ الَّذي هو العابِدُ: عِبَادٌ، فالعبيدُ إذا أُضيفَ إلى اللّه أعمُّ مِنَ العباد، ولهذا قال تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّامٖ لِّلۡعَبِيدِ﴾، فَنَبَّه بيانُ اللّهِ تعالى، أنَّه لا يَظلِمُ مَنْ يختصُّ بعبادتِه، والوعيد في الآية، لِمَنِ انْتسبَ إلى غيرِه، مِنَ الَّذين تَسَمُّواْ بِعَبْدِ الشَّمس، وعَبْد اللَّات[4]، وعبدوها من دون اللّه.

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

التّشنيع على أباطيل الأقاويل، وتوعّد المبطلين بعذاب الحريق

يُخبر بيانُ اللّهِ تعالى عن أقبح مقالةٍ وأشْنعها على اللّه تعالى، وأنَّه ﷻ قدْ سمعَ ما قالوه، وسيكتبُه ويحفظُه مع أفعالهم الظَّالمة، ومنها قتلُ الأنبياءِ النَّاصحينَ لهم، وأنَّه سَيُعاقبهُم على ذلك أشدَّ العُقُوبة، ويُقابلُ قولهَم الفاجِرَ ذاكَ بقولِه لهم: ذُوقُوا العذابَ المُحرِقَ لِأجسادِكم؛ وسببُ عاقبتِهمُ المُخزيةِ تلكَ ما قدَّمتْه أنفُسُهمُ الفاجِرة، وأنَّ اللّه لا يظلمُ أحدًا مِنْ عبيدِه؛ بلْ همُ الظَّالمون[5]، وفي الآية ردٌّ صريح عليهم، ومجابهة قويّة تكشف عن كذبهم الصّراح، وتظهر ما أبدوه من التوائهم وإصرارهم على الكفر، ووصف اللّه بما لا يليق بجلاله وكماله.

(1) الرّاغب، المفردات، ص: 537 - 538.
(2) الرّاغب، المفردات، ص: 537 - 538.
(3) الجرجانّي، التّعريفات، ص: 146.
(4) الراغب، المفردات، ص: 542 - 543.
(5) السّعدي، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 119.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغة الفصل في الآية:

أفادَ الاستئنافِ، مناسبة ذكرِ البُخْل؛ لأنَّهم قالُوه في مَعْرِضِ دَفْعِ التَّرغيب في الصَّدقات

قولُه تعالى: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾.

قولُه: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ﴾ جملةٌ اسْتئنافيّةٌ لمناسبةِ ذكرِ البُخْل؛ لأنَّهم قالُوه في مَعْرِضِ دَفْعِ التَّرغيب في الصَّدقات، والَّذين قالوا ذلكَ هُمُ اليهودُ، كما هو صريحُ آخرِ الآيةِ في قوله: ﴿وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾، وجاءتْ صيغةُ الجمعِ ﴿قَالُوٓاْ﴾ مع أنَّ القائلَ واحدٌ لِرضا الباقينَ بذلك[1].

بلاغة الإيجاز في الآية:

علّة الاستغناء بالمذكور؛ لدلالة الكلام عليه

في الآية الكريمة إيجازٌ بالحذف؛ "إذ إنَّ السّياق تضمّن حذف كلمات دلّ فيها ما ظهر على ما طوي، إذ المعنى: سنكتب ما قالوا وما فعلوا ونُلْقيهم في جهنم وبئس المصير، ونخاطبهم وهم يَصْلون نارها بقولنا: ذوقوا عذاب تلك النار الملتهبة وآلامها، وذلك مثواهم"[2].

فائدة الافتتاح بالقسم:

علّة القَسَم؛ المبالغةُ في التَّهديد والوَعيد لليهود

وقولُه: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ﴾ تهديدٌ ووعيدٌ، وهو يُؤذِنُ بأنَّ هذا القولَ جراءةٌ عظيمةٌ، وإنْ كانَ القصدُ منها التَّعريضُ ببُطلانِ كلامِ القرآن؛ لأنَّهم أتَوْا بهاتِهِ العبارةِ بدونِ محاشاةٍ، ولأنَّ الاسْتخفاف بالرَّسولِ ﷺ وقرآنِهِ إثمٌ عظيمٌ وكُفْرٌ على كُفر، ولذلكَ قالَ تعالى: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ﴾ المستعمَلُ في لازمِ معناه، وهو التَّهديدُ على كلامٍ فاحش، إذْ قد علمَ أهلُ الشَّرائعِ أنَّ اللهَ يعلمُ خائنةَ الأَعْيُن، وما تُخفي الصُّدور، فليس المقصودُ إعلامَهم بأنَّ اللهَ علمَ ذلك؛ بلْ لازِمُه، وهو مقتضَى قولِه: سنكتُبُ ما قالُوا[3].

(1) ابنُ عاشور، التّحرير والتّنْوير: 4/183.
(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 3/1530.
(3) ابنُ عاشور، التّحرير والتّنْوير: 4/183 - 184.

علّة التعبير بلفظ السّمع:

إيثارُ لفظ السّمع إيذانٌ بشناعة القول غير المرضي أنْ يُسمع

وجاءَ التّعبيرُ بالسَّماعِ في قولِه: ﴿سَمِعَ﴾؛ للإيذانِ بأنَّه مِنَ الشَّناعةِ والسَّماجةِ، بحيثُ لا يرضَى قائلُه بأنْ يسمعَه سامعٌ.

دلالة التوكيد بـ ﴿لَقَدْ﴾:

جاء التَّوكيدُ القَسَميُّ في قولِه: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ﴾؛ للتَّشديدِ في التَّهديدِ والمبالغةِ في الوعيد[1].

سرّ التّعبير عن القائلين بالاسم الموصول:

التعبير بالموصول؛ لبيان أنّهم لا يُعرفون إلا بهذه المقولات والافتراءات

عبَّر عن القائلين في قوله: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾ بالاسم الموصول وجملة صلة الموصول التّي ذكرت مقولتهم دون أن يبيّن من هم على وجه التّحديد، مع أنّ السّياق يبيّنهم على وجه الخصوص، وذلك لبيان أنّه ليس لهم ما يُعرفون به سوى هذه المقولات والافتراءات التي يفترونها على اللّه.

بلاغة توكيد المقولة:

وجه توكيد المقولة؛ الإيهامُ بتحقّق مضمونها

وأكّدوا مقولتهم بـ ﴿إِنَّ﴾ والجملة الاسميّة تضليلًا للمُخاطبين وإيهامًا لهم بأنّ الأمر مُحقّق لا مرية فيه.

فائدة واو الحال:

أظهرت واو الحال وقاحتهم في الخطاب مع الله تعالى

وجاؤوا بواو الحال على معنى: هو فقير وحالنا أنّنا أغنياء، فلا حاجة لنا إذن به، وهذا يدلّ على شناعة وقاحتهم مع اللّه.

دلالة السّين في فعل الكتابة:

السِّينُ في ﴿سَنَكْتُبُ﴾؛ لتأكيدِ التَّشنيعِ على اليهودِ بمقالتِهمُ الفَاجِرة؛ أيْ: سنكتُبُ ما قالوه مِن العظيمةِ الشَّنعاء في صحائفِ الحَفَظة، أو سنحفظُه ونُثبتُه في عِلْمنا لا نَنْساهُ ولا نُهمِلُه، أي: لن يفوتنا أبداً تدوينُه وإثباتُه؛ لكونه في غاية العِظم والهولِ؛ كيف لا وهو

(1) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 1/612.

كفرٌ باللّه تعالى واستهزاءٌ بالقرآن العظيم والرسولِ الكريم؟![1]، فالمرادُ بالكتابةِ في قولِه تعالى: ﴿سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾؛ إمّا كتابته في صحائفِ آثامِهم، إذْ لا يَخطُرُ ببالِ أحدٍ أن يُكتَبَ في صحائفِ الحَسَنات، وهذا بعيد؛ لأنَّ وجودَ علامةِ الاسْتقبالِ يُؤذِنُ بأنَّ الكتابةَ أمرٌ يحصُلُ فيما بعدُ[2].

دلّت السّين على تأخر أمر الكتابة؛ وأكّدت التّشنيعِ على اليهودِ

توجيه القراءات القرآنيّة في كلٍّ من ﴿سَنَكْتُبُ﴾ و﴿وَقَتْلَهُمُ﴾ و﴿وَنَقُولُ﴾:

هناك قراءتان في كلٍّ من ﴿سَنَكْتُبُ﴾ و﴿وَقَتْلَهُمُ﴾ و﴿وَنَقُولُ﴾[3]: قُرِئَ: ﴿سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ وَقَتْلَهُمُ﴾ بنون العَظَمة منْ ﴿سَنَكْتُبُ﴾ وبنصبِ اللَّام مِنْ ﴿وَقَتْلَهُمُ﴾ على أنَّه مفعولُ (نكتُبُ) و﴿وَنَقُولُ﴾ بنونٍ، وقُرِيءَ: (سَيُكتبُ) - بياءِ الغائبِ مَضْمومة، وفَتْحِ المثنَّاةِ الفوقيَّة - مَبنيًّا للمفعول؛ لأنَّ فاعلَ الكتابةِ معلوم، وهو اللّه تعالَى، وبرفعِ اللَّام مِنْ (قَتْلُهُمُ) على أنَّه نائبُ الفاعل، و(يقولُ) بياءِ الغائب، والضَّميرُ عائدٌ إلى اسْمِ الجَلالةِ في قولِ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾.

وجه قراءة البناء للمفعول أنَّ فاعلَ الكتابةِ معلوم، وهو اللهُ تعالَى

بلاغة العطف في جملة قتل الأنبياء:

وجاءَ عطفُ قولِه: ﴿وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ زيادةً في مَذَمَّتِهم بذكرِ مساوئ أسلافِهم؛ لأنَّ الَّذينَ قَتلُوا الأنبياءَ هم غيرُ الَّذين قالوا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾؛ بلْ هم من أسلافِهم، فَذُكِرَ هنا ليدُلَّ على أنَّ هذا خُلُقٌ شَنيعٌ قديمٌ فيهم، وهو الاجْتراءُ على اللّهِ ورسولِه[4]، فنبّه على أنه ليس أوّل جريمة ارتكبوها وأنّ من اجترأ على قتل الأنبياء لم يُستبعد منه أمثال هذا القول[5].

استُحضِرَ العطفُ زيادةً في مَذَمَّتِهم بذكرِ مساوئِ أسلافِهم، وأنّ القتل خُلُقٌ شَنيعٌ قديمٌ فيهم

(1) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 1/612، وبعضه قول أبي عبيدة في كتابه مجاز القرآن: 1/110.
(2) ابنُ عاشور، التّحرير والتّنْوير: 4/184.
(3) ابن الجزري، النشر: 2/245، وسبط الخيّاط، الاختيار في القراءات العشر: 1/340، وابن خالويه، الحُجّة، ص: 117، وابن خالويه، إعراب القراءات السّبع: 1/124.
(4) ابنُ عاشور، التّحرير والتّنْوير: 4/184.
(5) الشربيني، السراج المنير: 1/270.

نكتة وصف القتل ﴿بِغَيْرِ حَقٍّ﴾:

وصف القتل بأنه غير حقٍّ للإشارة إلى شناعة أفعالهم، وعظم شرهم

وقد وصف تعالى قتلَهم للنبيِّين في قوله: ﴿وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ بأنه (غير حقٍّ) مع أنّ هذا النوع من الإجرام لا يمكن أن يكون بحقٍّ مطلقًا؛ وذلك للإشارة إلى شناعة أفعالهم، وعِظَم شرِّهم، ومبلغ سوئهم، وأنهم لا يبالون أكان فعلهم في موضعه أم في غير موضعه[1].

بلاغة الحذف والمجاز في جملة قتل الأنبياء:

الحذف على تقدير: آبائهم، والمجاز: لرضاهم بفعل آبائهم

نسبة القول إليهم في قولِه: ﴿وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾؛ إما أنه على حذف مضاف أي وقتلهم آباءَهم الأنبياء، وإما أنه نسب إليهم فعل القتل مجازًا لرضاهم بفعل آبائهم[2].

وجوه المبالغة في مقولة إذاقة عذاب الحريق:

وجه المبالغة التعبيرُ بنون العظمة، وصيغة الأمر، وإضافة العذاب إلى الحريق

وقولُه سُبحانه: ﴿وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ عَطْفُ أَثَرِ الكُتُبِ على الكُتُبِ؛ أيْ: سَيُجازَوْنَ عن ذلكَ بدونِ صَفْحٍ[3]، ونقولُ لهم: ذُوقُوا العذابَ المُحرِقَ كما أَذَقْتُمُ المسلمينَ الغُصَصَ[4]، وفي نونِ العَظَمةِ مِنْ ﴿وَنَقُولُ﴾، والأمرِ الإلهيِّ ﴿ذُوقُواْ﴾، وإسنادِه إلى عذابِ الحريقِ الَّذي لا يُجازي به إلّا اللّه ﷻ مبالغاتٌ تعبّر عن قدرته سبحانه، وعظمته، وعدالته في الجزاء، فضلا عن هول العذاب المُعدِّ.

علّة إيثار لفظ الحريق:

للحريق هولٌ، ورهبةُ مَشْهدٍ يجعلُ مِن وصْف العذاب به مزيدَ ترهيبٍ

والمرادُ بـ ﴿عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ النَّارُ، والنَّارُ: اسْمٌ جامِعٌ للمُلتهِبَةِ منها وغيرِ المُلتهِبَة، والحريقُ: اسْمٌ للمُلتهبَةِ منها، وهي بمعنى المُحْرِق، كما يُقالُ: عذابٌ أليمٌ، وضَرْبٌ وَجيعٌ[5]، ومع توجيه دلالة الحريق بمعنى الفاعل (مُحرق) إلا أنّ في مجيئه على هيئته دلالة

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 3/1529.
(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/450.
(3) ابنُ عاشور، التّحرير والتّنْوير: 4/184.
(4) الزّمَخْشري، الكشّاف: 1/484.
(5) أبو عُبيدة، مجاز القرآن: 1/110، والزّجّاج، معاني القرآن: 1/494.

تهويل لاتؤدّيها لفظ (مُحرق)؛ فللحريق هولٌ، ورهبةُ مَشْهدٍ لا يخفى شدّتهما، وفي وصف العذاب به مزيد ترهيب.

بلاغة المجاز، والاستعارة في التعبير بالذوق:

والذَّوْقُ حقيقتُه إدراكُ الطُّعُوم، واسْتُعمِلَ هنا مَجازًا مُرسَلًا[1] في الإحساسِ بالعذاب؛ فعلاقتُه الإطلاقُ، ونُكْتَتُه أنَّ الذَّوقَ في العُرْفِ يَسْتَتبِعُ تَكرُّرَ ذلكَ الإحساس؛ لأنَّ الذَّوقَ يَتبعُه الأكلُ، وبهذا الاعْتبارِ يَصِحُّ أنْ يكونَ ﴿ذُوقُواْ﴾ استعارةً، وقدْ شاعَ في كلامِ العربِ إطلاقُ الذَّوقِ على الإحساسِ بالخيرِ أو بالشَّرِّ[2].

إنَّ الذَّوقَ في العُرْفِ يَسْتَتبِعُ تَكرُّرَ الإحساس بالعذاب؛ لأنَّ الذَّوقَ يَتْبعُه الأكلُ

الذوق هنا الإحساس بالألم، والأصل في الذّوق أن يكون في أمرٍ مرغوبٍ في ذوقه وطلبه، وهو هنا للألم، فالتّعبير فيه تهكُّمٌ عليهم، كما قال تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٢١﴾ [آل عمران: 21][3].

التعبير بالذوق على طريق المجاز تهكّم عليهم

دلالة الإشارة للبعيد:

﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارةٌ إلى العذابِ المذكُور وما فيه مِنْ معنَى البُعْدِ؛ للدَّلالة على عِظَمِ شأنِه، وبُعْدِ مَنْزِلتِه في الهَوْلِ والفَظاعة[4].

بيّنتِ الإشارةُ للبعيد هَوْلَ ما سيُعانيه اليهودُ من عذابٍ يومَ القيامةِ

دلالة باءِ السّببيّةِ في الجملة:

جاءَ قولُه تعالى: ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ خبرًا لقولِه السَّابق: ﴿ذَٰلِكَ﴾، والباءُ في ﴿بِمَا﴾ للسَّببيِّة؛ أيْ: بسببِ ما اقْترفْتُموه من قتلِ الأنبياءِ والتَّفَوُّهِ بمثْلِ تلكَ العظيمةِ، وغيرِها منَ المعاصي[5].

فائدة ذِكر باءِ السَّببيّة؛ تسبيب مجازاتهم بما اقترفوه من معاصٍ

بديع المجاز في لفظ الأيدي:

وجاءَ التَّعبيرُ عَنِ الأنْفُسِ بالأيْدي في قولِه تعالى: ﴿بِمَا قَدَّمَتْ

(1) تقدّمَ بيانُ المجاز، والمجاز المُرْسَل، والفرقُ بينه وبين الاستعارة في فِقرة الإيضاح اللُّغوي والبلاغي في [آل عمران: 177].

(2) ابنُ عاشور، التّحرير والتّنْوير: 4/184 - 185.

(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 3/1530.

(4) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 1/613.

(5) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 1/613.

وجه المجاز أنّ عامة الأفعال إنّما تُزاولُ بالأيدي؛ فهو من باب التغليب

﴿أَيْدِيكُمْ﴾ مجازًا؛ لِمَا أنَّ عامّةَ أَفَاعيلِها تُزاوَلُ بهنَّ، فَجُعِلَ كُلُّ عملٍ كالواقعِ بالأَيْدي على سبيلِ التَّغليب[1]، قال الراغب: " لمّا كانت اليدُ هي الآلة الصانعة المختصّة بالإنسان، فإنه لما كفى كل واحد من الحيوانات بما احتاج إليه من الأسلحة والملابس، وسخّره لاستعمالها في الدفع عن نفسه، وخلق الإنسان عارياً من كل ذلك، جعل له الرؤية واليد الصانعة، ليعلم برؤيته، وليعمل بيده فوق ما أعطى الحيوانات، فلما كان لليد هذه الخصوصية صارت تُخصُّ بإضافة عمل الجملة إليها"[2].

تخصيص الأيدي دلالة التمكّن، والبطش، والالتصاق

ذهب أبو زهرة إلى أنّ" تخصيص الأيدي بالذكر؛ للدلالة على التمكّن من الفعل وإرادته؛ ولأن أكثر الشرّ يكون ببطش اليد؛ ولأن نسبة الفعل إلى اليد تفيد الالتصاق به، والاتصال بذاته"[3].

نكتة الوصل في جملة الفاصلة:

في العطف تسبيب العذاب بعلّتين: ما قدّمتُه أيدِيهم، وعدلُ اللهِ تعالى

قولُه تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ عُطِفَ قولُه: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ﴾ على مجرورِ الباء في قولِه: ﴿بِمَا﴾، ووصلها؛ ليكونَ لهذا العذابِ سَبَبان؛ الأوَّلُ: ما قدَّمتُه أيدِيهم، والثَّاني: عدلُ اللهِ ﷻ، فالأوَّلُ أَوْجَبَ حصولَ العذاب، والثَّاني أَوْجَبَ كونَ هذا العذابِ في مقدارِه المشاهَدِ مِنَ الشِّدَّة، حتَّى لا يَظُنُّوا أنَّ في شِدَّتِه إفراطًا عليهم في التَّعذيب[4].

الجملة اعتراضٌ تذييليٌّ مُقَرِّرٌ لمضمونِ ما قبلَها، وبيانٌ لكمال نزاهته تعالى عن الظلم

بلاغة الاعتراض في جملة نفي الظلم:

يمكنُ أنْ يكونَ قولُه: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ خبرًا لمبتدأٍ محذوف، والجملةُ اعتراضٌ تذْييليٌّ مُقَرِّرٌ لمضْمونِ ما قبلَها؛ أيْ: والأمرُ أنَّه تعالى ليسَ بمُعذِّبٍ لعبيدِهِ بغير ذنْبٍ من قِبَلِهِم، والتَّعبيرُ

(1) الزَّمَخْشري، الكشاف: 1/484.
(2) الراغب، تفسير الراغب: 3/1019.
(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 3/1530.
(4) ابنُ عاشور، التّحرير والتّنْوير: 4/185.

عن ذلك يَنْفي الظُّلم، وفي هذا بيانُ كمالِ نَزاهتِه ﷻ عن ذلك، بتصويرِه بصورةِ ما يَستحيلُ صُدُورُه عنه سُبحانَه مِنَ الظُّلم[1].

بلاغة التوكيد في جملة الفاصلة:

حشد التوكيدات للمبالغة بنفي الظلم عنه تعالى، وثبوت صفة نفيه فيه

تضمّنت جملة الفاصلة حشدًا من التوكيدات بدءًا من المطلع بافتتاحه بـ ﴿وَأَنَّ﴾ المؤكدة، والتعبير بالجملة الاسمية، ثم النفي بليس المقترن خبرها بالباء، والتعبير عن نفي عظيم الظلم بصيغة المبالغة ﴿بِظَلَّامٍ﴾.

براعة الجمع بين الجملتين الاسميّة والفعليّة:

ثبوت نفي صفة الظلم فيه سبحانه، مؤدّى فعليّة ليس الدّالة على الاستمرار

التّعبير في عموم جملة الفاصلة بالاسمية ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ الدّالة على تأكُّد نفي صفة الظلم فيه سبحانه، والتّعبير عن نفي الظلم بالفعليّة الدّال عليها ﴿لَيْسَ﴾ ﴿لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ المؤدّية معنى الاستمرار والتّجدد ههنا هو من بديع نظم القرآن، ورائع صوغه.

فائدة التعبير بصيغة المبالغة ﴿بِظَلَّامٍ﴾:

دلّت الصيغةُ على المبالغة في تنزيهه عن أدنى ملابسة ظلم

وجاءتْ صيغةُ المبالغةِ في ﴿بِظَلَّامٍ﴾ لتأكيدِ معنَى إبرازِ ما ذُكِرَ مِنَ التَّعذيب بغير ذنبٍ في صورة المبالَغة في الظُّلم[2]، فصيغة المبالغة ليست على بابها بأنّه تعالى منزّه عن كثير الظّلم دون قليله والعياذ بالله، بل دلّت على المبالغة في تنزيهه عن أدنى ملابسة ظلم؛ بأن يكون (ظلّام) للنسب، كما في بزاز وعطار أي: لا ينسب إليه ظلم البتة[3]؛ لأنّه" إذا نفى الظلم الكثير اتبع القليل ضرورة، لأن الذي يظلم إنما يظلم لانتفاعه بالظّلم، فإذا ترك الكثير مع زيادة نفعه في حق من يجوز عليه النفع والضرر كان للظلم القليل المنفعة أترك"[4].

(1) القاسمي، محاسن التأويل: 2/471.
(2) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 1/613.
(3) الشّربينيّ، السّراج المنير: 1/270.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/456، والشّربينيّ، السّراج المنير: 1/270.

وخُصَّ لفظ ظلَّام الذي هو للتكثير في نفي الظلم في هذا المكان، ولم يقُلْ على ما قال في قوله: ﴿لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ [النساء: 40]، المقتضي نفي الظلم قليله وكثيره؛ لأنه لمّا كان في الدّنيا قد يُظن بمن يعذب غيره عذابا شديداً أنه ظلَّام قبل أن يُفحص عن حال جُرمه، بيّن تعالى ذنبهم، وأنه إذا عاقبهم عقوبة شديدة فليس بظلَّام لهم، وإن كان قد يظن في الدنيا بمن يفعل ذلك أنه ظلَّام، تعالى اللّه عن الظلم[1].

في التعبير بصيغة المبالغة دفعٌ لتوهّم تشبيه إطلاق لفظ الظلَّام على المُبالِغِ في التّعذيب في الدّنيا دون تثبّت

وجاء لفظ ظلام الموضوع للتكثير، بسبب المتعلق: ﴿لِّلْعَبِيدِ﴾؛ فلكثرة العبيد ناسب أن يقابل الكثير بالكثير[2].

التعبير بصيغة المبالغة ليقابل لفظ العبيد الدّال على الكثرة

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(نكتُبُ) و(نُثبِتُ):

لفظ (نكتُبُ) يُعبِّرُ السّياق به عنِ الحُجّةِ الثَّابتةِ من جهةِ اللّه على عبده، بتقديم الدّليل بها، على قوله أو فعله، وأمَّا (نُثبِتُ) فهو مِنَ الفعل: ثَبَتَ، والثَّباتُ ضدُّ الزَّوال، قالَ اللّه تعالى: ﴿إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا﴾ [الأنفال: 45]، والإثْباتُ والتَّثبيتُ تارةً يُقالُ بالفِعْل، فيُقالُ لما يَخرجُ مِنَ العَدَمِ إلى الوُجود، نحو: أثبتَ اللّه كذا، وتارةً لما يَثبُتُ بالحُكْم، فيُقالُ: أثبتَ الحاكمُ على فُلانٍ كذا، وتارةً لما يكونُ بالقَوْل، سواءٌ أكانَ ذلكَ صِدْقًا منه أمْ كَذِبًا، فيُقالُ: أثبتَ التَّوحيدَ. وقولُه تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾﴾ [النّساء: 66]، أي: أشدَّ لتحصيلِ عِلْمِهم، أو أثْبتَ لأعمالهم، واجْتناءِ ثمرةِ أفعالِهم[3]، وبالنَّظرِ إلى ما سَبَقَ، يَتبيَّنُ أنَّ اسْتخدامَ البيانِ الإلهيِّ للفعلِ ﴿سَنَكْتُبُ﴾ أَوْفى مِنَ اسْتعمالِ الفعلِ (سَنُثْبتُ)، من

(1) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 3/1019 - 1020.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/456، والشّربينّي، السّراج المنير: 1/270.
(3) الرّاغب، المفردات، ص: 171.

حيثُ المرادُ مِنَ السِّياقِ القرآنيّ، فإنَّ القضيَّة ليستْ مجرَّدَ إثباتٍ وكَفى، لكنَّها حفظٌ لأعمالِ اليهودِ وأقوالِهم في صحائفِ آثامِهم؛ معَ التَّهديدِ والوَعيدِ بذلك، وهو ما يستوعبه قوله تعالى: ﴿سَنَكْتُبُ﴾، دون سواه.

الذَّوْق والإحْساس:

(الذَّوْق) اختبار طعم الطّعام بطرف اللّسان، ويستعمل مجازًا في غير ذلك، وأمَّا الإحساسُ: فهو الشُّعورُ بالشَّيءِ، وكُلُّ ما شَعَرتَ به فقدْ أَحْسَسْتَه، ومعناه: أَدْرَكتَه بِحسِّك؛ كما في قولِه تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأْسَنَآ﴾ [الأنبياء: 12]؛ وقولِه سُبحانه: ﴿فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ [يوسف: 87] أي: تعرَّفُوا بإحساسِكُم[1]، والذَّوقُ كما - تقدَّم بيانُه - إدراكُ الطُّعوم، حتَّى أنَّه اسْتُعمِلَ - كما هو هنا - مجازًا مُرسلًا في الإحساسِ بالعذاب، مع الإطلاق الَّذي يُفيد فيما يقِلُّ تناوُلُه، وفيما يَكْثُرُ، فَخُصَّ بالذِّكرِ هنا لِيُعمَّ الأمرَيْنِ، ثمَّ إنَّ الإحساسَ أَثَرٌ للذَّوق، وليس هو الذَّوق، واستعمالُ الأَصْلِ أصلٌ دونَ استعمالِ فَرْعِه أو أَثَرِه، والقضيَّةُ قضيّةُ تَهكُّم وازْدراءٍ وتبكيتٍ، لأولئكَ اليهودِ الذَّين فَظَّعواْ في الفُجورِ والإجرامِ قولًا وعملًا، وكأنَّه يقول: فَلْيَذُوقُوا العذابَ، كما كانواْ يذوقونَ الطَّعامَ، وشَتَّانَ بينَ هذا وذاك.

الحَريق والسَّعير والجَحيم والنَّار وجهنَّم:

السَّعيرُ: هو النَّارُ الْمُلتهبَةُ الحَرَّاقةُ، أيْ: تُسمَّى حَريقًا في حالِ إحراقِها؛ ولذلكَ يُقالُ: في العُودِ نارٌ، وفي الحَجَرِ نارٌ، ولا يُقالُ: فيه سَعير، والحَريقُ: النَّارُ الْمُلتهِبَةُ الّتي تلتهم الشّيء وتتلفه، ولهذا يُقالُ: وقَعَ الحريقُ في مَوْضعِ كذا، ولا يُقالُ: وقَعَ السَّعير، وقد قال الشّاعر:

اصْبِرْ عَلَى حَسَدِ الْحَسُو *** دِ، فَإِنَّ صَبْرَكَ قَاتِلُهْ
فَالنَّارُ تَأْكُلُ بَعْضَهَا *** إِنْ لَمْ تَجِدْ مَا تَأْكُلُهْ[2]

فلا يقتضي قولُكَ: السَّعير، ما يَقْتضيهِ الحَريق، ولهذا يُقال: فلانٌ مُسْعِرُ حَرْبٍ، كأنَّه يُشعِلُها ويُلهِبُها، ولا يُقالُ: مُحرِقُ حَرْب. وأمّا الجَحيمُ: فهي نَارٌ على نَار، وجَمْرٌ على

(1) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 23.
(2) البيتان للشّاعر العبّاسّي عبد الله بن المعتزّ، ينظر: ابن عبد ربّه، العقد الفريد: 2/174.

جَمْر لِشدَّة تَوقُّدِها، وجهنَّمُ: تفيدُ بُعْدَ القَعْر[1]. والنَّارُ: اسْمٌ جامِعٌ للمُلْتهِبة منها، وهي بمعنى المُحرِقة، وغيرِ الملْتهِبة[2]. وممَّا سبَق من بيانِ الفُروقِ بين تِلكُمُ الكلمات؛ نجدُ أنَّ استخدامَ سياقِ النَّصّ القُرآنيّ لكلمةِ (الحَريق) في هذه الآية، أَوْلى مِنْ غيرِها، فإنَّ كُلَّ واحدةٍ مِنَ المفرداتِ المتَقدِّمةِ تُطلَقُ باعتبارٍ يُغايرُ أُختَها مِنْ وَجْه، ويتَّفِقُ معها من وجهٍ آخَر، حيثُ وردَ سابقًا في التَّعاريف عبارةُ: يُقالُ كذا، ولا يُقالُ كذا، أمَّا كلمةُ (الحريق) فهي مشتركةٌ في الوَصْف معَ جميعِ المفردات، وداخلةٌ في تعريفها.

(1) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 278.

(2) أبو عبيدة، مجاز القرآن: 1/110.

﴿ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيۡنَآ أَلَّا نُؤۡمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأۡتِيَنَا بِقُرۡبَانٖ تَأۡكُلُهُ ٱلنَّارُۗ قُلۡ قَدۡ جَآءَكُمۡ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِي بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِي قُلۡتُمۡ فَلِمَ قَتَلۡتُمُوهُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ١٨٣ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدۡ كُذِّبَ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِكَ جَآءُو بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُنِيرِ ١٨٤﴾ [آل عمران: 183 - 184]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

العلاقة بين افتراء اليهود من قبل ومن بعد، وخزي الله لهم بما جنت أيديهم

لَمَّا أخبرَنا بيانُ اللهِ عَنْ فِرْية اليهود - أخزاهمُ الله - في حقِّ اللهِ تعالى، وتوعُّدِ اللهِ لهم بكتابةِ وحِفظِ قبائحِ أقوالِهم وأعمالِهم، وبما قدَّمتهُ أنفُسُهم بمُقْتَضَى العَدالةِ الإلهيَّة، جاءَنا بيانُ اللهِ هنا ليُخبِرَنا عَنْ فِريةٍ أُخْرى لليهود، وهي أنَّ اللهَ أَوْصاهم أن لا يُؤمنوا لرسول، حتَّى يأتيَهم بقُربانٍ تأكُلُه النَّارُ، وإلَّا فلَن يُؤمِنوا به، طاعةً لربِّهم، وقد أتتهُمُ الرُّسلُ بالبيِّنات، وبمَا قالوا، ومع ذلك قتلوهم ظُلمًا وعُدوانًا، وشأنُ تكذيبِهم لرسولِ الله ﷺ، هو شأنُهم مع الرُّسلِ جميعِهم قبلَه، "فإنّ زكريّا ويحيى وغيرهم من الأنبياء عليهم الصّلاة والسّلام، قد جاؤُوكم بما قلتم مع معجزات أُخَرَ، فما لكم لم تؤمنوا لهم حتّى اجترأتم على قتلهم"؟![1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿عَهِدَ﴾: العَهْدُ: حفظُ الشَّيءِ ومراعاتُه، حالًا بعدَ حال، وسُمِّيَ المَوثِقُ الَّذي يَلزَمُ مراعاتُه عَهْدًا[2]، قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَأَوۡفُواْ بِٱلۡعَهۡدِۖ إِنَّ ٱلۡعَهۡدَ كَانَ مَسۡـُٔولٗا ٣٤﴾ [الإسراء: 34]، أي: أَوْفُوا بحفظِ الأيمان.

(1) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 2/122.
(2) المَناويّ، التّوقيف، ص: 248.

وعَهْدُ اللّهِ تارَةً يكونُ بما ركزَه في عقولِنا، وتارةً يكونُ بما أمرَنا به بالكتابِ والسُّنَّة، وتارةً بما نَلتزمُه، وليس بلازمٍ في الشَّرع، كالنُّذُورِ وما يجري مَجْراها، وعلى هذا قولُه تعالى: ﴿۞وَمِنۡهُم مَّنۡ عَٰهَدَ ٱللَّهَ﴾ [التَّوبة: 75]، وقولُه سُبحانه: ﴿أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُواْ عَهۡدٗا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٞ مِّنۡهُمۚ﴾ [البقرة: 100]. والْمُعاهَدُ في عُرفِ الشَّرعِ يختصُّ بمن يَدخلُ من الكُفَّار في عهدِ المسلمين، وكذلكَ ذو العَهْد، وباعتبار الحفظِ؛ قيل للوثيقة بين المتعاقِدَيْن: عُهْدَةٌ، وقولُهم: في هذا الأمر عُهْدةٌ، لما أُمِرَ به أن يُستوثَق منه، ويُقالُ: تعهَّد الشَّيءَ: تفقَّدَه[1].

2) ﴿بِقُرۡبَانٖ﴾: القُرْبانُ: ما يُتقرَّبُ به إلى اللّه، وأصلُه مِنَ القُرْب؛ يقال: قَرُبْتُ مِنْه أَقْرُبُ، وقرَّبتُه أُقَرِّبُه قُرْبًا وقُرْبانًا، وصارَ القُربانُ في التَّعارُفِ اسْمًا للنَّسيكة، الَّتي هي الذَّبيحة، وجمعُه قرَابينُ، قالَ تعالى: ﴿إِذۡ قَرَّبَا قُرۡبَانٗا﴾ [المائدة: 27]. ومِنْ قولهم: قُرْبانُ المَلِكِ: لِمَن يَتقرَّبُ بخدمتِه إلى الملِك، ويُستعمَلُ ذلكَ للواحدِ والجمع[2]، وقرابين الملك: خاصّته الواحد قربان، قال الشّاعر:

وَمَا لِي لَا أُحِبُّهُمُ وَمِنْهُمْ *** قَرَابِينُ الْإِلَهِ بَنُو قُصَيِّ[3]

3) ﴿بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾: بالآيات الواضحات والمعجزات الظّاهرات[4]، والمعنى" أنّ أنبياءهم جاؤوهم بالبيّنات الكثيرة الّتي أوجبت عليهم التّصديق[5]، و(البيّنات) المراد منها الحجّة المبيّنة المثبتة لرسالة الرّسل[6]، والبيّنات: الدّلائل على الصّدق[7]، وقوله: ﴿جَآءُو بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ أي: الحجج العقليّة، والبراهين النّقليّة[8]، والمعنى في الآية: "وقد سبق أن أرسلت لكم الأنبياء الكثر ومعهم المعجزات، وأتوكم بالأدلّة الواضحة الدّالة على صدقهم، فلم كذّبتموهم؟"[9]، وفي القرآن قوله تعالى: ﴿شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ هُدٗى

(1) الرّاغب، المفردات، ص: 591 - 592، وابن منظور، لسان العرب: (عَهِدَ).
(2) الرّاغب، المفردات، ص: 663 - 664، وابن منظور، لسان العرب: (قَرُبَ).
(3) ابن دريد، جمهرة اللّغة: (قَرُبَ).
(4) محمّد بن الخطيب، أوضح التّفاسير، ص: 86.
(5) الأبياري، الموسوعة القرآنيّة: 9/281.
(6) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 9/281.
(7) ابنُ عاشور، التّحرير والتّنْوير: 4/186.
(8) السّعدي، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 159.
(9) الزّحيلّي، التّفسير الوسيط: 1/267.

لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ﴾ [البقرة: 185]. ويُقالُ: آيةٌ مُبيِّنَةٌ؛ اعتبارًا بِمَن بيَّنها، وآيةٌ مُبَيَّنَةٌ؛ اعْتبارًا بِنَفْسِها، وآياتٌ مُبيِّناتٌ ومُبَيَّنات[1].

4) ﴿وَٱلزُّبُرِ﴾: زبرت الكتاب زبرًا كتبته، فهو زبورٌ، فعولٌ بمعنى مفعولٌ، مثل: رسولٌ، وجمعه زُبُرٌ بضمّتين[2]، يُقالُ له: زَبُورٌ، وخُصَّ الزَّبورُ بالكتابِ المُنزَّلِ على داوُدَ عليه السلام، قالَ تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ١٦٣﴾ [النِّساء: 163][3]. وزِبْرٌ: مَصْدرٌ سُمِّيَ به كالكِتاب، ثمَّ جُمِعَ على زُبُر، كما جُمِعَ كتابٌ على كُتُب، وقيل: بلِ الزَّبور كُلُّ كتابٍ يَصعُبُ الوقوفُ عليه من الكُتُبِ الإلهيَّة، قالَ تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ١٩٦﴾ [الشُّعراء: 196]. وقيل: الزَّبورُ: اسمٌ للكتابِ المقصورِ على الحِكَم العقليَّةِ، دونَ الأحكام الشَّرعيّة، والكتابُ: لما يتضمَّنُ الأحكامَ والحِكَمَ، ويَدُلُّ على ذلكَ أنَّ زَبورَ داوودَ عليه السلام لا يتضمَّنُ شيئًا من الأحكام[4].

5) ﴿ٱلْمُنِيرِ﴾: أي: ذا نور، وأصلُ كلمة (مُنيرًا) مِنْ قولِنا: (أنارَ) الشَّيْءَ و(اسْتَنارَ) بمعنًى؛ أي: أضاءَ، و(التَّنْويرُ) الإنارةُ، وهو أيضًا الإسفارُ، [5]. و(النُّورُ): الضَّوْءُ المنتَشِرُ الَّذي يُعينُ على الإبْصار، وذلكَ ضَرْبان: دُنيَويٌّ، وأُخْرَويٌّ، فالدُّنيويُّ: ضَرْبان: ضربٌ معقولٌ بِعَيْنِ البَصيرة، وهو ما انْتشرَ مِنَ الأمورِ الإلهيَّة، كنورِ العَقْل، ونورِ القرآن، وضربٌ محسوسٌ بعَيْنِ البَصَر، وهو ما انْتشرَ مِنَ الأجسام النَّيِّرة كالقمَرَيْن، والنُّجوم النَّيِّرات. فمِن النُّور الإلهيِّ؛ قولُه تعالى: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ١٥﴾ [المائدة: 15]، ومِن المحسُوسِ الَّذي بعَيْنِ البصيرة نحو قولِه تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا﴾ [يونس: 5]. وتخصيصُ الشَّمسِ بالضَّوْء، والقمرِ بالنُّور، من حيثُ إنَّ الضَّوْءَ أخصُّ من النُّور[6].. ومن النُّورِ الأُخْرويِّ قولُه تعالى: ﴿يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ [الحديد: 12]. ويُقال: أنارَ اللّه كذا، ونوَّرَه، وسَمَّى اللّه تعالى نفسَه نورًا، من حيثُ إنَّه هو المُنوِّر، قالَ ﷻ: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [النُّور: 35]، وتسميتُه تعالى بذلك لمبالغةِ فعلِه[7].

(1) الرّاغب، المفردات، ص: 156 - 158، وابن منظور، اللِّسان: (بَيَنَ).
(2) الرّاغب، المفردات، والفيّوميّ، المصباح المنير: (زَبَرَ).
(3) نظر: الرّاغب، المفردات، ص: 377، وابن منظور، اللِّسان: (زَبَرَ).
(4) الرّاغب، المفردات، ص: 377.
(5) الفيروزآبادي، القاموس: (نَوَرَ).
(6) الزَّبيدي، تاج العروس: (نور)
(7) الرّاغب، المفردات، ص: 827 - 828.

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

إخبار النّبيّ أنّ الكفر متأصّل في اليهود بمن جاؤوهم بالمعجزات فقتلوهم

يُخبرُ تعالى عن كُفرِهم برسالة محمّدٍ ﷺ، بدعوى أنَّه لم يأتهمْ بقُربانٍ تأكلُه النَّار،، وقد عُلِمَ أنّ كلَّ رسولٍ كان يُؤيِّدُه اللّه بمُعجزاتٍ تدُلُّ على صدقِه، ولم يقصُرْها على ما زَعَموه، ومع هذا، فقد قَتلوا أنبياءَ جاؤوهم بما قالوا، ولذلك ثبّت اللّه تعالى قلب رسوله ﷺ وسَلَّاه، فأعلمه بأنَّ رُسُلًا قبلَه قد كذَّبَهُمُ كفرة أقوامهم، مع أنَّهم أتَوْهم بالحُجُجِ العقليَّةِ، والأدلَّةِ النَّقليَّة، وبالكُتُبِ المُنَزَّلةِ بوحي اللّهِ تعالى، المتضمِّنةِ للأحكامِ الشَّرعيّة، والمحاسِنِ الخُلُقيَّة، الَّتي هي نورٌ لهم في الدُّنيا والآخرةِ إنِ اهتدَوْا بها، وسَلَكوا طريقَها[1].

الإِيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

أثرُ البَدَل في تَجْليةِ المعنَى، وتأكيدِه:

أفادَ بدلُ جملةٍ لاحقةٍ مِنْ جُملةٍ سابقة، تأكيدَ إفْكِ اليهودِ وعَداوتِهم للهِ ولرُسُلِه ولعبادِه

﴿ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيۡنَآ أَلَّا نُؤۡمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأۡتِيَنَا بِقُرۡبَانٖ تَأۡكُلُهُ ٱلنَّارُۗ﴾ هو في موضعِ جرٍّ بدلًا من قولِه: ﴿ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٞ﴾ ويجوزُ أنْ يكونَ نَصْبًا بإضمارِ: (أَعْني)، ورَفْعًا على إضمارِ (هم)[2]، فهيَ شنيعةٌ لحقَتْها شنيعةٌ أُخرى، لِتُدَلِّلَ أنَّ اليهودَ قدْ مَرَدُوا على الإفْكِ وتَزويرِ الحقائق، يَكذبونَ على اللّهِ ﷻ، ويتَّهمونَ اللّه ﷻ، ويَقتُلونَ أنبياءَ اللّهِ، وفي هذا مافيه من الدَّعوة المؤكّدة لعدم تصديقِهم في أيِّ قولٍ أوْ فعل، أو تبريرٍ أوْ إجراءٍ، أوْ غيرِ ذلك، فإنَّ مَنْ يتَّهمُ اللّه ﷻ لا يُبرِّئُ النَّاس، ومَنْ يكذِبُ على الخالقِ لا يَصدُقُ مع المخلُوقين، ومَنْ يقتُلُ الأنبياءَ لا يَكُفُّ يدَه عن قتلِ البريئين.

بلاغة التضمين في جملة العهد:

وقُدِّر تركيب: ﴿أَلَّا نُؤۡمِنَ﴾ من قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيۡنَآ أَلَّا نُؤۡمِنَ لِرَسُولٍ﴾ على "أن يكون مفعولا به على تضمين عهد

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 1/382 - 383، والسّعدي، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 120.
(2) العكبري، التبيان: 1/161.

معنى ألزم، فكأنه ألزمنا أن لا نؤمن"[1]، على إرادة جِماع المعنيين، أي: عَهِدَ إلينا مُلزمين، وهو أقوى من إعطاء معنى واحد؛ إذ فيه ضربٌ من التوسع في المعنى مع غاية الإيجاز، ومؤدّاهُ أنّ للفعل دلالةُ أصلِ معناه، وتطلّبه فعلاً آخر يجعل للمعادلة وجهان متكاملان؛ إذ يؤدي الفعلُ أصلَ معناه بالتصريح به، وفعلا آخر يطلبه بالتضمين.

فـي التضمين وجـه تـوسّع في المعنى مع غاية الإيجاز

دلالة التّعبير بالمصدر (قربان)، ووصفه:

وصيغة (قُربان)؛ اسمُ جنس، ومصدرٌ كالعدوان والكفران والمصدر أقوى في الدلالة[2]، أي: قربانًا عظيمًا نقربه لله تعالى، متّصفاً بأن ﴿تَأۡكُلُهُ ٱلنَّارُۖ﴾ عند تقريبه له وفي ذلك أعظم بيان؛ لأنهم ما أرادوا - بقولهم: (إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ) حيث طلب الصدقة - إلا التشكيك حيث كان التقرّب إلى الله بالمال من دينهم الذي يتقربون إلى الله به، بل وادّعوا أنه لا يصحّ دين بغيره، فما كان إلا أنْ يأمرَ سبحانه بنقض هذا التشكيك بقوله: ﴿قُلۡ قَدۡ جَآءَكُمۡ رُسُلٞ﴾ فضلاً عن رسول[3].

غـايـة الـيـهـود في كـلّ زمـان الـتـشـكـيـك، والـمـمـاطـلـة، والتكذيب

بلاغة المجاز والاستعارة في أكل النّار:

وإسناد الأكل إلى النّار في قوله: ﴿بِقُرۡبَانٖ تَأۡكُلُهُ ٱلنَّارُۖ﴾ "مجازٌ واستعارةٌ عن إذهاب الشيء وإفنائه؛ إذ حقيقة الأكل إنما توجد في الحيوان المتغذي، والقربان وأكل النار معجز للنبي يوجب الإيمان به، فهو وسائر المعجزات سواء، ولله أن يعين من الآيات ما شاء لأنبيائه، وهذا نظير ما يقترحون من الآيات على سبيل التبكيت والتعجيز، وقد أخبر تعالى أنه لو نزل ما اقترحوه لما آمنوا"[4].

وجـه المـجـاز والاستـعـارة في إسـنـاد الأكـل إلى النار إذهابُ الشيء وإفناؤه، والـغـرض الـتـبـكـيـتُ والتعجيزُ

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/458.
(2) الرازي، مفاتيح الغيب: 11/338.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 5/142.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/458.

فائدة جملة الأمر:

معنى الأمر التّبكيتُ لليهودِ، والإظهارُ لِكَذِبهم

قولُه: ﴿قُلْ﴾ في قوله تعالى: ﴿قُلْ قَدْ جَآءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِي بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِى قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ خطابٌ لرسولِ اللّهِ ﷺ، ومعناه التّبكيتُ لليهودِ، والإظهارُ لِكَذِبهم.

نكتة إثبات شبه الجملة ﴿مِّن قَبْلِي﴾:

التعبير بشبه الجملة لاستغراق ما أغفلوا من ذكر الزمن الماضي

ولما كانت مدتهم لم تستغرق الزمان الماضي أثبت الجارَّ فقال ﴿مِّن قَبْلِي﴾ كزكريا وابنه يحيى وعيسى[1] عليهم السلام.

براعةُ التّأكيدِ في جلاء المعنَى:

أفادَ أسلوبُ التَّأكيدِ إظهار منح الله تعالى بتكرار وجوه هداياته بتعاقب الرّسل

في قوله تعالى: ﴿قُلْ قَدْ جَآءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِي بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِى قُلْتُمْ﴾ أكّد تعالى تكرار هداياته بـ ﴿قَدْ﴾: الدّال على التحقيق، وبتنكير ﴿رُسُلٌ﴾ المُفيد للكَثْرة في العَدَدِ مع عُلُوِّ القَدْرِ، وعظيم المقدارِ؛ ليكون قولُه: ﴿قَدْ جَآءَكُمْ رُسُلٌ﴾ تأكيدًا لمجيءِ الرُّسُلِ بـ ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾: بالمعجزاتِ الواضحاتِ، وبما قالوه بِعَينِه مِنَ القُربانِ الَّذي تأكلُه النَّار[2].

سرُّ التَّعبير بالموصول:

عُدِلَ إلى الموصولِ؛ للاختِصار، وتَسجيلًا عليهِم في نِسْبةِ القول لهم

وإنّما قالَ: ﴿وَبِٱلَّذِى قُلْتُمْ﴾ حيثُ عُدِلَ إلى الموصولِ؛ للاخْتِصار، وتَسجيلًا عليهِم في نِسْبةِ ذلكَ لهم، ونظيرُه قولُه تعالى: ﴿وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ۝٧٧﴾ إلى قولِه: ﴿وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ﴾ [مريم: 77 - 80] أيْ نَرِثُ مالَه وولَدَه[3].

بلاغة أسلوبُ التَّسليم:

هذا الضَّرْبُ من الجَدَلِ في الآية الكريمة مَبنيٌّ على التَّسليم؛ أيْ: إذا سَلَّمنا ذلك فليس امْتناعُكُم مِن اتِّباع الإسلامِ لأَجْلِ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 5/142.
(2) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 1/614.
(3) ابنُ عاشور، التّحرير والتّنْوير: 4/185.

انْتظارِ هذه المُعجِزة، فإنَّكم قد كذَّبتُمُ الرُّسُلَ الَّذين جاؤوكُم بها وقَتلتُموهم، ولا يَخفَى أنَّ التَّسليمَ يأتي على مَذْهبِ الخَصْم، إذْ لا شكَّ أنَّ بني إسرائيلَ قَتلُوا أنبياءَ منهم بعدَ أنْ آمنوا بهم، مِثْلَ: زَكريَّا، ويَحْيى، وأَشْعِيَاءَ، وأَرْمِيَاءَ عليهم السلام، فالإيمانُ بهم أَوَّل الأمرِ، يَستلزِمُ أنَّهم جاؤوا بالقُربانِ تأكلُه النَّارُ على قولِهم، وقَتْلُهُم آخِرًا يَسْتلزِمُ أنَّ عدمَ الثَّباتِ على الإيمانِ بالأنبياءِ عادةٌ قديمةٌ خَبيثةٌ في اليهود، وأنَّهم إنَّما يَتَّبعون أهواءَهم، فلا عَجَبَ أنْ يأتيَ خَلَفُهُم بِمِثْلِ ما أَتى به سَلَفُهُم.

أفادَ أسلوبُ التَّسليمِ، بيانَ كَذِبِ اليَهودِ في ادِّعاءاتِهم، وشَناعةِ أعمالِهم

بلاغة الاستفهام في الآية:

والاستفهام في قوله: ﴿فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ استفهام توبيخي يتعدى حدود الإنكار إلى معاني التكذيب، والتوبيخ، والتغليظ، والتّعجيب من شأنهم؛ فقد أنكر عليهم دعواهم، وأظهر كذبهم، ووبّخهم على هذا الافتراء، وعجّبَ الناسَ مِن حالهم[1].

غرض الاستفهام التوبيخ

إيجاز الحذف في الفاصلة:

وقولُه: ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ ظاهرٌ في أنَّ ما زَعَموه مِنَ العَهْدِ لهم بذلكَ؛ كَذِبٌ، ومَعاذِيرُ باطِلة[2]، وجواب الشرط هنا محذوف لدلالة ما قبله عليه، والتقدير: إن كنتم صادقين فأخبروني لم قتلتموهم؟.

حذف جواب الشرط لدلالة ما قبله عليه

الشَّرطُ، وأثرُه في تجليةِ المعنَى:

قولُه تعالى: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَآءُو بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ﴾: شُروعٌ في تَسْليةِ رسولِ الله ﷺ إثْرَ ما أُوحَى إليه ممَّا يُحزِنُه ﷺ من مَقالاتِ الكَفَرةِ مِنَ المشركينَ واليهود[3]، والتسلية ههنا تعليلٌ لجواب الشرطِ، أي: فتَسَلَّ فقد كُذب[4].

أَفادَ الشَّرطُ تسليةَ رسولِ اللهِ ﷺ فيما يُحزِنُه من شناعةِ اليهود وإجرامِهم

(1) المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 1/199.
(2) ابنُ عاشور، التّحرير والتّنْوير: 4/186.
(3) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 1/614.
(4) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 1/614.

دلالة الفاء في جملة الشرط:

الفاءُ في قوله: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ﴾ دليلُ الجواب؛ لأنَّه عِلَّتُه، والتَّقديرُ: فإنْ كذَّبوكَ فلا عَجَبَ أوْ فلا تحزَنْ؛ لأنَّ هذه سُنَّةٌ قديمةٌ في الأُمَمِ مع الرُّسُلِ مِثْلِك، وليس ذلكَ لِنَقْصٍ فيما جِئْتَ به[1].

الفاء في جملة جواب الشرط علّة الجواب ودليله

نكتة بناء فعل الكذب للمفعول:

وبني الفعل للمفعول ﴿كُذِّبَ﴾؛ لأنه لم يقتصر في تكذيب الرسل على تكذيب اليهود وحدهم لأنبيائهم، بل نبه على أن من عادة اليهود وغيرهم من الأمم تكذيب الأنبياء، فكان المعنى: فقد كَذَّبَتْ أمم من اليهود وغيرهم الرسل[2].

في بناء الفعل (كُذِّب) للمفعول شمولٌ لليهود وغيرهم بالتكذيب

براعة إسقاط التاء من لفظ الكذب:

ولما كان السياق لإثبات مبالغتهم في الغلظة، والجفاء، والكفر، وعدم الوفاء وكانت السورة سورة التوحيد، والرسل متفقون عليه، وقد أتى كل منهم فيه بأنهى البيان وأزال كل لَبْس أسقط تاء التأنيث، فقال: ﴿كُذِّبَ رُسُلٌ﴾؛ لأنها ربما دلت على نوع ضعف[3].

تذكير فعل الكذب لدفع توهم الضعف، وإثبات مبالغتهم في الغلظة، والجفاء، والكفر، وعدم الوفاء

سرّ تنكير لفظ ﴿رُسُلٌ﴾:

ونكّر رسل لكثرتهم وشياعهم[4]، وفي ذلك إشارةٌ إلى تماديهم في الإنكار، والتشكيك، والمعارضة.

تنكير لفظ الرسل دليلُ كثرتهم، وشياعهم

نكتة إثبات الجارّ: ﴿مِّن قَبْلِكَ﴾:

﴿مِّن﴾ في قوله: ﴿فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ﴾ متعلقةٌ بـ ﴿كُذِّبَ﴾ أو بمحذوفٍ صفةٍ لـ ﴿رُسُلٌ﴾ أي كائنةٌ من قبلك[5]، وأثبتَ الجارّ

(1) ابنُ عاشور، التّحرير والتّنْوير: 4/186.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/459.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 5/143 - 144.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/459.
(5) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 1/614.

فقال: ﴿مِّن قَبۡلِكَ﴾؛ لكون تسلية الإنسان بمن قاربه في الزمان أشد، أي: فلك فيهم مسلاة وبهم أسوة[1].

إثبات الجارّ للتسلية بالمقارب في الزمان

فائدة العطف في الآية:

والعطفُ في قوله: ﴿بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُنِيرِ﴾ منظورٌ فيه إلى التَّوزيع، فبعضُ الرُّسُلِ جاء بالزُّبُر، وبعضُهم بالكتابِ المنير، وكُلُّهم جاءَ بالبيِّنات[2].

فائدة العطف حسن التّوزيع، وبراعة التقسيم

دلالة الباء في ﴿بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾:

والباء في ﴿بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ تحتمل الحال والتعدية، أي: جاؤوا أممهم مصحوبين بالبينات، أو جاؤوا البينات[3].

تحتمل الباء الحاليّة، والتعدية

توجيه قراءة إعادة الباء في ﴿وَٱلزُّبُرِ﴾:

وقولُه: ﴿وَٱلزُّبُرِ﴾ فيه قراءتان: الأُولى: ﴿وَٱلزُّبُرِ﴾ بغير باء، اكتفاءً بواوِ العَطْف، والثَّانيةُ: (وبالزُّبُر) بالباء[4]، وفي إعادة الجارّ وجه توكيدٍ، ودِلالةٌ على أنَّها مغايرةٌ بالذاتِ للبيِّنات[5].

وجه إعادة الجارّ، التوكيدُ، والدلالة على أنَّ الزُّبر مغايرةٌ بالذاتِ للبيِّنات

وجه التفريق بين (الزُّبُر) و(الْكِتَابِ):

وفُرِّقَ بين ﴿وَٱلزُّبُرِ﴾ و﴿وَٱلۡكِتَٰبِ﴾ في قوله: ﴿بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُنِيرِ﴾، فـ"الزبور هو الكتاب؛ لأنّ الزبور هو الكتاب المقصور على الحكمة العقلية دون الأحكام الشرعيّة، والكتاب في تعارف القرآن ما يتضمن الأحكام، ولهذا جاء في عامة القرآن كتابًا وحكمة، ففصل بينهما لهذا، واستعمل الكتابة في معنى الإيجاب، فعلى هذا اشتقاقه من زبرت الشيء، أي: حكمتُه، وقيل: الزبور اسم

الزبور هو الكتاب المقصور على الحكمة العقلية دون الأحكام الشرعيّة

(1) البقاعي، نظم الدرر: 5/144.
(2) ابنُ عاشور، التّحرير والتّنْوير: 4/186.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/459.
(4) الأولى: قراءة الجمهور، والثّانية قراءة ابن عامر، ينظر: ابن الجزري، النشر: 2/245.
(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/459، وأبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 1/615.

لما أجمل ولم يفصَّل، والكتاب يُقال لما قد فُصِّل"[1]، فسمي بالزبور؛ لأنه مكتوب، إذ يقال: زبره كتبه[2].

سُمّي زبورًا لكثرة ما فيه من الزواجر والمواعظ

سُمّي زبورًا؛ لكونه زاجرًا من زبَرَهُ زجَرَهُ، وبه سُمّي كتاب داود زبورا لكثرة ما فيه من الزواجر والمواعظ، أو لأحكامه، فالزبر: الأحكام، وقال الزجاج: الزبور كل كتاب فيه حكمة، ويحتمل أن يراد بقوله: والزبر الزواجر من غير أن يراد به الكتب، أي: جاؤوا بالمعجزات الواضحة والتخويفات والكتب النيرة[3].

علّة الجمع بين الزبور والكتب:

وجه الجمع بين اللفظين التأكيد، أو اختلاف معنييهما

وجمع بين اللفظين على سبيل التأكيد، أو لاختلاف معنييهما، مع أن المراد واحد، ولكن اختلف معنياهما من حيث الصفة، وقيل: الكتاب هنا جنس للتوراة والإنجيل وغيرهما، ويحتمل أن يراد بقوله: والزبر الزواجر من غير أن يراد به الكتب، أي: جاؤوا بالمعجزات الواضحة والتخويفات والكتب النيرة[4].

دلالة التّعريف في الكتاب:

أفادَ التَّعريفُ بيانَ كُتُبِ الشَّرائعِ بعمومِها وخصوصِها

إنْ كانَ التَّعريفُ في قولِه تعالى: ﴿وَٱلزُّبُرِ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُنِيرِ﴾ للجِنْس؛ فهو كُتُبُ الشَّرائع، مِثْلُ التَّوراةِ والإنجيلِ والزَّبور، وإنْ كانَ التَّعريفُ للعَهْدِ؛ فهو التَّوراة.

بيانُ المجاز في وصف المنير:

المراد بالمنير مجازٌ بيانُه: وصفُ الكتاب بالإبانة

ووصفُ الكتاب بالمُنير في قوله: ﴿وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُنِيرِ﴾ مجازٌ بمعنَى المبَيِّن؛ كقولِه تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَا ٱلتَّوۡرَىٰةَ فِيهَا هُدٗى وَنُورٞۚ﴾ [المائدة: 44][5].

(1) الراغب، تفسير الراغب: 3/1022 - 1023.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/459.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/459.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/459.
(5) ابنُ عاشور، التّحرير والتّنْوير: 4/186.

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

العَهْد والميثاق والعَقْد:

تقدَّم أنَّ من معاني العَهْد: حفظُ الشَّيء، ومراعاتُه حالًا بعدَ حال، ويُنظَرُ في العهدِ وجودُ طرَفَيْنِ متعاقِدَيْن، وبهذا تُسمَّى الوثيقةُ عُهْدَة، أمّا الميثاقُ فهو توكيدُ العَهْد، مِنْ قولكَ: أَوْثقتُ الشَّيءَ، إذا أَحْكمتَ شَدَّه، والميثاقُ يكونُ من أحدِ الطَّرَفينِ المتعاهِدَيْن[1]، والعَقْدُ أبلغُ مِنَ العهدِ، تقولُ: عَهِدْتُ إلى فلانٍ بكذا؛ أي: أَلْزمتُه إيَّاه، وعَقَدتُ عليه، وعاقدتُه: أَلزمتُه باسْتيثاق، وتقولُ: عاهدَ العبدُ ربَّه، ولا تقولُ: عاقدَ العبدُ ربَّه؛ إذْ لا يجوزُ أنْ يُقالَ: اسْتوثقَ من ربِّه، قالَ تعالى: ﴿أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ﴾ [المائدة: 1]، وهي ما يتعاقدُ عليه اثْنان، وما يُعاهِدُ العبدُ ربَّه عليه، أو يُعاهِدُه ربُّه على لسانِ نبيِّه ﷺ[2]، وبِتَمحيصِ ما تقدّم من معاني الكلماتِ: (العهدُ) و(الميثاقُ) و(العَقْدُ) نجدُ أنَّ استخدامَ البيانِ الإلهيِّ للفعل (عَهِدَ) أوْفَى بالمرادِ؛ فاليهودُ أَلْزَموا أنفُسَهم ما لم يُلزِمْهُمُ اللّٰه به، في عدمِ إيمانِهم برسولٍ حتَّى يأتيَهم بقُربانٍ تأكلُه النَّار، وإنَّما كان ذلك ادِّعاءً كاذبًا منهم، فلا اعْتبارَ لعهدٍ همْ أَنْشؤوه من ذاتِ أنفُسِهم، وليس فيه طَـرَفٌ آخرُ، كما يقتضيهِ معنَى العَهْد، بل هو عهد مزيّف، وواقع من طرَفٍ واحدٍ، وعليه فلا يَصِحُّ أنْ يُقال: عاقَدوا ربَّهم، أوْ أخذواْ الميثاقَ من ربِّهم، أوْ أخذَ اللّٰه عليهمُ الميثاق، إذْ إنَّ الميثاقَ يكونُ من أحدِ طرفي التَّعاقُد، وفيه توكيدٌ للعَهْد، وليس الأمرُ هنا كذلك، ولذلك كانَ استعمال لفظ (العقد) أبلغَ مِنَ لفظ (العَهْد)، واللّٰه يتنزّه أن يُعاقِدَ أحدًا من خَلْقِه، وليس ثَمَّةَ عقدٌ أصلًا، بذلك كلّه، ظهرَ لنا جليًّا أنَّ اخْتيارَ البيانِ الإلهيِّ للفعلِ (عَهِدَ)، أَلْيقُ بالسِّياق معَ اعْتبارِ المُلابساتِ الَّتي شابتْ ذاكَ العَهْد.

قُربَان ونَسِيكة وذِبْح:

تبيَّنَ لنا ما تَعنيه كلمةُ (قُربان)، وهو ما يُتقرَّبُ به إلى اللّٰه، وأصلُه مِنَ القُرْب؛ وقد استعملها القرآن في قصّة ابني آدم فقال: ﴿۞وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱبۡنَيۡ ءَادَمَ بِٱلۡحَقِّ إِذۡ قَرَّبَا قُرۡبَانٗا فَتُقُبِّلَ مِنۡ أَحَدِهِمَا وَلَمۡ يُتَقَبَّلۡ مِنَ ٱلۡأٓخَرِ﴾ [المائدة: 27]، أمَّا كلمةُ (نَسِيكة) فهي مُختصَّةٌ

(1) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 525.

(2) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 365، والجرجانّي، التّعريفات، ص: 158، و165.

بالذَّبيحة، كما في قولِه تعالى: ﴿فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾ [البقرة: 196][1]، والذِّبحُ: المَذبوحُ، قالَ تعالى: ﴿وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾﴾ [الصَّافَّات: 107][2]، وقولُه: ﴿بِقُرْبَانٍ﴾ وإنْ كان معناه النَّسيكة أوِ الذّبيحة، لكنَّه ليس على عمومِهما في أيِّ نيَّةٍ يُؤدَّيان، وفي أيِّ أمرٍ يكونان؛ بل بنيَّة التَّقرُّبِ إلى اللهِ، الَّذي يُومِىء إليها سياقُ الآية الكريمة، بغضِّ النَّظرِ عن مصداقيَّةِ اليهود في هذه القُربى، والَّتي هي غيرُ متحقِّقةٍ من طَرَفِهم، ولذلك كانَ اسْتخدامُ السِّياقِ القرآنيِّ لكلمةِ (قُربان) أوْفى بالمُراد.

البيِّنات والبَراهين والدّلالات والمُعجِزات:

سَبقَ تفصيل معنَى البيِّنات، وهي الآيات الواضحات، والمعجزات الظّاهرات، الّتي جاء بها الأنبياء لأقوامهم، بطلب أو بغير طلب، والله يؤيّد أنبياءه بالمعجزات الخوارق، حتّى يثبت للجاحدين صدق قيّوميّته في كونه، أمَّا البراهينُ، فهي جمعُ بُرْهان، وهو لا يكونُ إلَّا قولًا يَشهدُ بصحَّة الشَّيء ووجوده، والبرهانُ: هو الحُجَّةُ القاطعةُ المفيدةُ للعلم[3]، والدَّلالاتُ: جمعُ دَلالة: بفتح الدَّال وكسرِها وضمِّها، دَلَّه عليه، فانْدلَّ: سَدَّدهُ إليه[4]، والدَّلالةُ تكونُ قولًا؛ تقولُ: دَلالَتي على صحَّة مذهبي كذا، فتأتي بقولٍ تحتجُّ به على صحَّةِ مذهبِك[5]، والمُعجِزاتُ: جمعُ مُعجِزَة، والمُعجزةُ في الاصْطلاح: هي أمر خارق للعادة، يجريه الله على يد من يختاره لنبوته، ليدل على صدقه وصحة رسالته، وممَّا تقدَّم تفصيلُه، يظهرُ أنَّ اسْتخدامَ بيانِ اللهِ لكلمة (البيِّنات) أوْفَى بالغرضِ المرادِ من سياقِ النَّصِّ القرآنيِّ، في حديثه عن شناعة اليهود في أعمالهم وكذبهم في أقوالِهم، فيريدُ اللهُ ﷻ أن يُقيمَ الحُجَّة عليهم تِلْوَ الحُجَّة، فقد كشفَ بيانُ اللهِ عُوارَهم، وتَبَلُّدَ عقولِهم، وخَواءَ قلوبِهم من الإيمان، وهذا الكشفُ هو مرتكز دَلالاتِ كلمةِ (البيِّنات)، فقد جمعتْ هذه الكلمةُ اعْتبارَيْن، الأوَّلُ: بمَن بيَّنَها بعدَ أنْ أَوْجدَها وهو اللهُ ﷻ، والثَّاني: بنفسِها وبما تُوحي إليه من مقاصدَ وغايات؛ لِتَحْمل النَّاسَ على

(1) الرّاغب، المفردات، ص: 802.
(2) الراغب، المفردات، ص: 326.
(3) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 97.
(4) الفيروزآبادي، القاموس المحيط: (دَلَلَ).
(5) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 97.

الإيمانِ بمن أوجدَها، ودَعا إليها وبها، وهو اللّهُ ﷻ، فهي تُفيدُ عمومَ الاعْتبارات، وعمومَ الأقوالِ والأفعالِ، الَّتي تُوجِّهُ العبادَ للإيمانِ بخالقِهم، عن بَصِيرةٍ وبيِّنة؛ كما يفيده قولِه تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ [يوسف: 108].

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ ١٨٥﴾ [آل عمران: 185]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

ربط شناعة فعل اليهود، بحقيقة الموت الّذي يتجرّعه الأفّاكون لا محالة

لَمَّا بيَّنَ سياق النَّصِّ القرآنيِّ في الآيتيْن السَّابقتَيْن، شناعةَ فعل اليهودِ وكَذِبَهم على اللّه، وكُفرَهم بالبيِّنات، جاءتْ هذه الآيةُ الكريمةُ لتُسطِّر حقيقةً لا يمكنُ أن يُنكِرَها أحدٌ، وهي حقيقةُ الموت، ذلك الكأسُ الّذي تَتجرَّعُه كلُّ الخلائق، ولو أنَّ الجميعَ وَعَوْها حقَّ الوَعْي، وآمنواْ بما يأتي خَلْفَها من مصير محتوم، يُفضي إمَّا إلى الجنَّة أوْ إلى النّارِ، لَمَا كفرواْ باللّه، ولاسْتقامتْ حياتُهم في الدُّنيا على ما يُرضي اللّه، بإيمانهم حقَّ الإيمان بالمصير الَّذي ينتظرهم، لقولهم الكَذِب في حقِّ اللّهِ وحقِّ أنبيائِه، وحينها لن يتجرَّؤواْ على قَتْلِ أنبياءِ اللّهِ، وهم خيرُ خَلْقِ اللّهِ.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تُوَفَّوْنَ﴾: من (وَفَى بِعَهدِه) يَفي وَفَاءً، وأَوْفَى: إذا تمَّمَ العَهدَ، ولم ينقُضْ حفظَه، قالَ تعالى: ﴿وَأَوْفُواْ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ [البقرة: 40]، وتَوْفيةُ الشَّيء: بَذْلُه وافيًا، واسْتيفاؤه: تناوُلُه وافيًا، قالَ تعالى: ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ﴾ [آل عمران: 25]، وقولُه تعالى: ﴿تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ﴾ يعني: تَسْتَوفُونها كاملةً، وتتناولونَها وافيةً؛ وهذا مصداقُ قولِه تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ٨﴾ [الزّلزلة: 7 - 8].

2) ﴿زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ﴾: زَحَّهُ: نَحّاهُ عن مَوْضعِه، ودَفَعَه، وجَذَبَه في عَجَلةٍ، وزَحْزَحَه عنه: باعَدَه فَتَزَحْزَحَ، وهو بِزَحْزَحٍ منه؛ أي:

بِبُعْدٍ، والزَّحْزاحُ: البعيدُ[1]، وزُحْزِحَ؛ أي: أُزيلَ عن مَقرِّه فيها[2]، " والزَحْزحة التّنحيّة عن الشّيء، وفي التّنزيل ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ﴾، و(تَزحزَح) الشّيءُ و(تَحزحَز) سواء"[3]، وفي حديث الحسن بن علي رضي الله عنهما: (كان إذا فرغ من الفجر، لم يتكلّم حتّى تطلع الشّمس وإن زحزح)، أي وإن أريد تنحيته عن ذلك، وأزعج وحمل على الكلام[4].

3) ﴿مَتَٰعٌ﴾: المَتاعُ: انتفاعٌ مُمتدُّ الوَقْت، يُقالُ: مَتَّعهُ اللّهُ بكذا، وأَمْتعَه، وتمتَّعَ به، قالَ تعالى: ﴿وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ۝٩٨﴾ [يونس: 98]. وكلُّ مَوضِعٍ ذُكِرَ فيه (تَمتَّعوا) في الدُّنيا، فَعلى طريقِ التَّهديد، وذلكَ لما فيه من معنَى التَّوسُّع، واسْتمتعَ: طلبَ التَّمتُّع، قالَ تعالى: ﴿رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ﴾ [الأنعام: 128]. وقولُه تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ۝٣٦﴾ [البقرة: 36]، تنبيهًا أنَّ لكلِّ إنسانٍ في الدُّنيا تمتُّعًا مدَّةً معلومة، ويُقالُ لما يُنتفعُ به في البيت: مَتاعٌ، وكلُّ ما يُنتفَعُ به على وجْهٍ ما فهو متاعٌ ومُتعةٌ، ومنه قولُه تعالى: ﴿وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَٰعَهُمْ﴾ [يوسف: 65]، أي: طعامَهم أوْ وِعاءَهم؛ وكلاهما مَتاع، وشرابٌ ماتعٌ، أي: الَّذي يُمتعُ بجَودَتِه[5].

4) ﴿ٱلْغُرُورِ﴾: يُقالُ: غَرَرْتُ فلانًا: أصبتُ غِرَّتَه، ونِلتُ منه ما أُريدُه، والغِرَّةُ: غَفْلةٌ في اليَقَظة، والغِرارُ: غفلةٌ مع غَفْوة، وأصلُ ذلكَ من الْغُرِّ، وهو الأثَرُ الظَّاهرُ في الشَّيء، وغَرَّهُ كذا غُرورًا؛ كأنَّما طواه على غَرِّه، قالَ تعالى: ﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ۝٦﴾ [الانفطار: 6]. وقالَ تعالى: ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ۝١٢٠﴾ [النّساء: 120]، فالغُرورُ: بالضَّمِّ ما اغْتُرَّ به من متاعِ الدُّنيا، والغَرُورُ، بفتح الغَيْن: كلُّ ما يَغُرُّ الإنسانَ من مالٍ وجاهٍ، وشهوةٍ وشَيْطان، والغَرَرُ: ما انطوى عنه أمره، وخفي عليه عاقبته أو عيوبه، ويكون في البيع والشّراء وغير ذلك، ومنه في الحديث: «أنَّ رسول اللّه ﷺ نَهى عن بَيْع الغَرَر»[6]، والغَريرُ: الخُلُقُ الحَسنُ، اعْتبارًا بأنَّه يَغُرُّ، ويُقالُ: غَرَّتِ النَّاقةُ: قلَّ لبنُها بعدَ أنْ ظُنَّ أنْ لا يَقِلَّ، فكأنَّها غرَّتْ صاحبَها[7].

(1) الفيروزآبادي، القاموس المحيط: (زَحَحَ).
(2) الرّاغب، المفردات، ص: 378.
(3) ابن القَطَّاع، كتاب الأفعال: 2/110.
(4) ابن الأثير: النّهاية: 2/297.
(5) الرّاغب، المفردات، ص: 757 - 758.
(6) مسلم، الحديث رقم: 1513.
(7) الرّاغب، المفردات، ص: 603 - 604، وابن منظور، اللّسان: (غَرَرَ).

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

الموتُ نزوحٌ عن الدّنيا الغرور، والفوزُ حيازةُ الجنّة، ووقاية من نار السّعير

نطقتْ هذه الآيةُ الكريمةُ بحقيقةٍ يخشى مواجهتَها النَّاسُ جميعُهم، ألَا وهي حقيقةُ الموتِ، الَّذي يتجرَّعُه الخلقُ كُلُّهم، ولكنَّ ذكْرَ الآية الكريمةِ للموتِ جاء في مَعرِضِ التَّزهيدِ في الدُّنيا بفنائِها، وأنَّها مَتاعٌ، تَفْتِنُ بِزُخْرُفِها، وتخدَعُ بِغُرورِها، وتَغُرُّ بمحاسِنها، والبقاءُ فيها مُؤقَّتٌ، ثمّ يكون الرَّحيلُ عنها إلى دارِ القَرار، الَّتي تُوفَّى فيها النُّفوسُ ما عملتْه في الدُّنيا من خيرٍ وشرٍّ، والفائزُ فيها مَنْ نجَّاه اللهُ مِنَ النَّار، وأَدْخَلَهُ الجنَّة[1].

الإِيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالة ﴿كُلُّ﴾، و﴿نَفْسٍ﴾ في مطلع الآية:

أفادَت (كلّ)، وتنكير (نفس) العموم، وفيه تسليةٌ للمؤمنين

حَوَتْ مقدِّمةُ هذه الآية ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ﴾ الوعدَ والوعيدَ للمصدِّقِ والمكذِّب[2]، وهي مع إفادتها العموم فقد حَملَتْ في مَنْطِقِها غَرَضًا نبيلًا جليلًا، وهو تسليةُ المؤمنين على ما أصابَهم يومَ أُحُد، وتَفنيدُ المنافقين في مزاعمِهم أنَّ النَّاسَ لو اسْتَشاروهم في القتالِ لَأشارُوا عليهم بما فيه سلامتُهم فلا يَهلِكوا، فخَتمَ بيانُ اللهِ تعالى ما سبقَ بما هو جامعٌ لِلْغَرضَيْن في قولِه ﷻ: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ﴾؛ لأنَّ المصيبةَ والحُزْنَ إنَّما نَشَآ على موتِ مَنِ اسْتُشهِدَ من خِيرَةِ المؤمنين، يعني أنَّ الموتَ لَمَّا كانَ غايةَ كلِّ حَيٍّ، فلوْ لم يموتُوا اليومَ لَمَاتوا بعدَ ذلكَ فلا تَأسَفُوا على موتِ قَتْلاكم في سبيلِ اللهِ، ولا يَفتِنَكُمُ المنافقونَ بذلك[3]، وزاد تنكير ﴿نَفْسٍ﴾ عموميّة ﴿كُلُّ﴾، وشمولها.

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 1/383، والسّعدي، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 120.
(2) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 1/615.
(3) ابنُ عاشور، التّحرير والتّنْوير: 4/187 - 188.

بلاغة المجاز في لفظ التذوق:

والذَّوقُ هنا في قولِه: ﴿ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۗ﴾ أُطلِقَ على وِجْدان الموت، على أنّه مجاز لغويّ، وقد تقدَّمَ نظيرُه عندَ قولِه: ﴿وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ﴾، وشاعَ إطلاقُه على حُصولِ الموت، قالَ تعالى: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلۡمَوۡتَ﴾ [الدُّخان: 56]، ويُقالُ: ذاقَ طعمَ الموت[1].

وجه المجاز إطلاق الذوق على حصول الموت ووجدانه

"عبر عن إقبال الموت بذوقه، للإشارة إلى أنه عند ذوق الموت سيكون المذاق إما مرًّا حنظلًا يومئ إلى ما يتبعه من عقاب، وإما أن يكون المذاق حلوا هنيئًا، فيكون إيماءً إلى ما يكون يوم القيامة من نعيم مقيم، والتّعبير عن حلول الأجل في الدنيا بذوق الموت فيه استعارة بتشبيه الموت عند إقباله الرّهيب أو الرغيب بالأمر الذي يُذاق فيؤلم، أو يذاق فيسعد[2].

وفي إطلاق لفظ الذوق وجه استعارة شبّه فيه الموت عند إقباله بالأمر الذي يذاق فيُؤلم، أو يذاق فيُسعد

"وهنا إشارة بيانية أخرى رائعة هي أنه أسند ذوق الموت إلى النفس، ولم يسنده إلى الشخص؛ لأن النفس روح، والشخص جزءان جسم ونفس، وإن النفس تبقى بعد مفارقة الجسم، فهي التي تذوق الموت، كما ذاقت الحياة الدنيا، فإسناد الذوق إليها لأنها باقية، وقد تغيرت حياتها من حال إلى حال، فبعد أن كانت في غلاف من جسم من الطين، قد تجردت أبدا منه حتى تلتقي به يوم البعث والنشور"[3].

وأسند الذّوق إلى النّفس؛ لأنها الباقية مع تغيّر حياتها من حال إلى حال

نكتة تأنيث لفظة (الذوق):

و﴿ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۗ﴾ الخبر، وأُنِّثَ ﴿ذَآئِقَةُ﴾ مراعاةً لمعنَى ﴿كُلُّ﴾؛ لأنَّ كُلَّ نَفْسٍ نُفوس، ولو ذُكِّرَ مراعاةً لِلَفظِ ﴿كُلُّ﴾ جاز، وإضافةُ ﴿ذَآئِقَةُ﴾ غيرُ مَحْضَةٍ؛ لأنَّها نَكِرةٌ يُحكَى بها الحال[4]، ويبدو أنّ في تأنيثها تلميحٌ بضعف النفس، ووهنها.

أُنِّثَ (ذائقة) مراعاةً لمعنَى (كُلّ)، وفي تأنيثها تلميحٌ بضعف النفس، ووهنها

(1) ابنُ عاشور، التّحرير والتّنْوير: 4/188.
(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 3/1535.
(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 3/1535.
(4) العكبري، التبيان: 1/161.

براعة أسلوب القصر:

في قولِه تعالى: ﴿وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ قصرُ قَلْب بـ ﴿وَإِنَّمَا﴾[1]؛ لتنزيلِ المؤمنين فيما أصابَهم مِنَ الحُزن على قَتْلاهم وعلى هزيمتِهم، مَنزلةَ مَنْ لا يترقَّبُ من عملِه إلَّا منافعَ الدُّنيا، وهو النَّصرُ والغَنيمة، مع أنَّ نهايةَ الأجرِ في نعيمِ الآخرة، ولذلكَ قالَ: ﴿تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ﴾، أي: تُكمَلُ لكم يومَ القيامة[2]. وفيه تعريضٌ بإثباتِ حياة البَرْزخ ونعيمِ القبرِ وعذابِه.

أفادَ أسلوبُ القصر، حَصْرَ تَوْفيةِ الأجورِ يومَ القيامة، وعرَّضَ بإثباتِ حياةِ البَرْزخِ ونعيمِ القبرِ وعذابِه

قصديّة التعبير بلفظ (التوفية):

في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾: التَّوْفيةُ: إعطاءُ الشَّيءِ وافيًا، ويُطلِقُها الفقهاءُ على مُطلَقِ الإعطاءِ والتَّسليم[3]، وفي لفظِ (التَّوفيةِ) إشارةٌ إلى أنَّ بعضَ أجورِهم يصلُ إليهم قبلَ يومِ القيامة، الَّذي يقومُ فيه النَّاسُ مِنْ قُبورهم[4]، وذلكَ يُثبِتُ وجودَ حياةَ البَرزخِ ونعيمَ القبر، وعذابه، وما يكونُ فيها من توفية لبعض الأُجور[5].

في لفظِ (التَّوفيةِ) إشارةٌ إلى أنَّ بعضَ أجورِهم يصلُ إليهم قبلَ يومِ القيامة

بلاغة الالتفات في الآية:

الْتَفَتَ من خطاب الاسمية إلى الفعليّة؛ لتغيّر الخطاب إلى الأشخاص:

الخطابُ في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ﴾ للأشخاص لا للنفوس وحدها، فالمعروف أنّ ذوق الموت للنفوس ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾، أمّا الجزاء فيكون للأشخاص؛ إذ تلتقي الجسوم بالنفوس، ولذلك عدلَ إلى الفعليّة مخاطبًا الأشخاص[6].

---

(1) القصرُ من أساليب البلاغة، وهو: تخصيصُ أمرٍ بأمر، بطريق مخصوص، وقَصْرُ القَلب هو أحدُ أقسام القَصْر من حيث المخاطبون، وهو يكون إذا كان المخاطَبُ يعتقدُ عكس ما نقول، لأنَّنا أردنا أن نقلبَ له مُعتقدَه رأسًا على عَقِب، ينظر: فضل عباس، أساليب البيان، ص: 168، و173 - 174.

(2) ابنُ عاشور، التّحرير والتّنْوير: 4/188.

(3) ابنُ عاشور، التّحرير والتّنْوير: 4/188.

(4) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 1/615.

(5) الزّمَخْشري، الكشّاف: 1/485.

(6) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 3/1536.

علّة جمع الأجور:

الأجورُ: جمعُ الأَجْرِ بمعنَى الثّواب، وَوَجْهُ جمعِه مراعاةُ أنواعِ الأعمال[1]، وتعدد صنوفه، ورحابة ميادينه.

وجـــه جـمـع الأجـور مـراعـاةُ أنواعِ الأعمال

فائدة التّعبير عن فعلي الزَّحزحة والإدخال بصيغة المفعول:

وأُسند الفعل للمجهول لأنّ الفاعل معروفٌ من ناحية، وللانشغال بالفعل نفسه عن الفاعل من ناحية أخرى.

أُسـنـد الـفـعـلان للمجهول؛ لأنّ الفاعل معروفٌ

سرّ إيثار فعل الزحزحة:

الفاءُ في قولِه: ﴿فَمَن زُحۡزِحَ﴾ للتَّفريعِ على ﴿تُوَفَّوۡنَ أُجُورَكُمۡ﴾، وحقيقةُ فعلِ زُحزحَ أنَّها جَذبٌ بسُرعة، وهو مضاعَفُ زَحَّه عن المكانِ: إذا جَذَبه بِعَجَلة، وأبعدَه بتكرير الزَّحِّ، ونحّاه[2]، فـ" أبان عظيم هول النّار، وشدّتها بالتّعبير عن النّجاة عنها بالزّحزحة كأن كلّ شخص كان مشرفًا على السّقوط فيها، وأنّ مجرّد الزّحزحة عنها فوز كبير، وفيه إيماء إلى أن أعمال الناس سائقة لهم إلى النار؛ لأنّها حيوانية في الغالب حتى لا يكاد يدخل أحد الجنّة إلا بعد أن يكون زحزح عما كان صائرا إليه من السّقوط في النار"[3].

في إيـثـار لـفـظ الـزحـزحـة إبـانـةٌ لـعـظـيـم هـول النّار، وشدّتها

وتشير جملة الزحزحة إلى " أنّ أعمال الإنسان ترديه ولا تنجيه، وأنه لكي يبعد عن النار ويتجنبها يكون كالمحتاج لمجهود، وتكرر الزح والتنحية كشيء ثابت ملازم لها، لا يبعد عنها إلا بمجهود، وذلك تصوير دقيق لعفو اللّه ورحمته وغفرانه، وأن المرء لا يبعد عن النار إلا بعد تكرار الرحمة والمغفرة"[4].

في إيـثـار لـفـظ الزحزحة تصوير دقيق لعفو الله بأن المرء لا يبعد عن النار إلا بعد تـكـرار الـرحـمـة والمغفرة

براعة المقابلة بين النعمتين:

وإنّما جُمعَ بين قوله: ﴿زُحۡزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ﴾ و﴿وَأُدۡخِلَ ٱلۡجَنَّةَ﴾ مع أنَّ

(1) ابنُ عاشور، التّحرير والتّنْوير: 4/188.
(2) الزّمَخْشري، الكشّاف: 1/485، وابنُ عاشور، التّحرير والتّنْوير: 4/188.
(3) رضا، تفسير المنار: 4/223.
(4) رضا، تفسير المنار: 4/223.

وجه المقابلة الجمعُ بين نعمتي: النّجاة من النار، وإدخال الجنّة

في التّاني غُنيةً عن الأوّل؛ للدّلالة على أنَّ دخولَ الجنَّة يشتملُ على نعمتَيْن عظيمتيْن: النَّجاةُ من النَّار، ونعيمُ الجنَّةِ.

وجه التحقيق في جملة المجازاة:

في التحقيق بـ (قد)، والفعل الماضي ثباتُ وقوع الجزاء، بنيلِ المُبتغى مِنَ الخَيْر

وقولُه: ﴿فَقَدْ فَازَ﴾ تحقيقٌ للفوزِ بما أفادَه حرفُ التحقيق ﴿فَقَدْ﴾، والفعل الماضي ﴿فَازَ﴾ الدّال على التحقّق، والوقوع، أي: ثباتُ نيلِ المُبتغَى مِنَ الخَيْر؛ لأنَّ تَرتُّبَ الفَوزِ على دخولِ الجنَّة، والزَّحزَحَةِ عَنِ النَّارِ معلومٌ، فلا فائدةَ في ذكر الشَّرطِ إلَّا لهذا، والعَرَبُ تعتمدُ في هذا على القَرائِن، فقد يكونُ الجوابُ عَيْنَ الشَّرطِ لبيانِ التَّحقُّق، نحوُ قولِ القائل: مَنْ عَرَفَني فقدْ عَرَفَني، وقدْ يكونُ عينَه بزيادةِ قَيْدٍ، نحوُ قولِه تعالى: ﴿وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغْوِ مَرُّواْ كِرَامًا ۝٧٢﴾ [الفُرقان: 72]، وقد يكونُ على معنَى بلوغِ أقْصَى غاياتِ نوعِ الجوابِ والشَّرط، كما في هذه الآية الكريمة[1].

بلاغة الإيجاز في جملة المجازاة:

في الإيجاز بالاكتفاء بالمذكور تشويقٌ للمعدّ لهم من جزاء

أوجز في صوغ جملة الإثابة، والمجازاة بحذف متعلّق الفوز بقوله: ﴿فَقَدْ فَازَ﴾ من غير أنْ يذكر بأيِّ شيءٍ؛ وفي ذلك تشويق للمعدّ لهم من جزاء، وتطلّعٌ إلى تحصّله، ونيله؛ فـ " ذكر الفوز مطلقا غير متعلق به شيء يفيد أنه الفوز العظيم الذي يشمل كل ما يطلبه المرء من سلامة من مكروه، وفوز بمحبوب، وناهيك بالسلامة من النار، والفوز بالنعيم الدائم في دار القرار"[2].

بديع الحَصْر في جملة الفاصلة:

معنى الحصر التوكيد، والمبالغة وكأنّه ليس للحياة الدنيا إلاّ هذا الوصف الذي تُعرف فيه

وفي قولِه تعالى: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ تأكيدٌ بمنطوقِ الحَصْر - بأداتِه ﴿إِلَّا﴾ بعد النَّفي - لِمَا أفادَه الشَّرطُ السَّابقُ في قولِه: ﴿فَمَن زُحْزِحَ﴾ بأنَّ الحياةَ الدُّنيا سَرابٌ، ليس لها قائمةٌ في

(1) ابنُ عاشور، التّحرير والتّنْوير: 4/189.
(2) رضا، تفسير المنار: 4/223.

جَنْبِ الفَوزِ بالجنَّة؛ فالأُوْلى متاعٌ فان، والآخِرةُ خُلودٌ وبقاء، فهو من قصر موصوف على صفة، وهو قصر إضافي للمبالغة وكأنّه ليس للحياة الدنيا إلا هذا الوصف الذي تُعرف فيه[1].

براعة الاستعارة، أو التشبيه البليغ في الفاصلة:

الغرور مصدر من قولك: غررتُ فلانًا غرورًا، وفي قولِه تعالى: ﴿مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ﴾ استعارةٌ، أو تشبيه بليغٌ؛ إذ " شبّه اللّه الدُّنيا بالمتاع الذي يُدلّس به على المُستام (المشاري) ويُغرُّ عليه حتى يشتريه ثم يُظهر له فساده ورداءته والشّيطان هو المدلّس الغَرور"[2].

شبّه اللهُ الدُّنيا بالمتاع الذي يُدلّس به على المُستام ويُغرُّ عليه حتى يشتريه

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(تُوَفَّوْن) و(تُعطَوْن) و(تَنالون):

معنَى ﴿تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمۡ﴾: أيْ تَسْتَوفُونها كاملةً، وتتناولونَها وافيةً؛ والإعطاءُ: الإنالةُ، قالَ تعالى: ﴿حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ﴾ [التّوبة: 29]، واختصَّ العَطيَّةَ والعطاءَ بالصِّلة، قالَ سُبحانه: ﴿هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمۡنُنۡ أَوۡ أَمۡسِكۡ بِغَيۡرِ حِسَابٖ ٣٩﴾ [ص: 39][3]، والنَّيْلُ: ما ينالُه الإنسانُ بيدِه، قالَ تعالى: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلۡبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَۚ﴾ [آل عمران: 92]، والنَّوْلُ: التَّناولُ، يُقالُ: نِلْتُ كذا أَنُولُه نَوْلًا، وأَنَلْتُهُ: أَوْليتُه، وذلكَ مثلُ: عَطَوْتُ كذا: تَناولتُ، وأعطيتُه: أَنلْتُه، وحقيقةُ النَّوال: ما ينالُه الإنسانُ مِنَ الصِّلة، وتحقيقُه ليس ذلكَ، ممّا تنالُ منه مُرادًا، قالَ تعالى: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقۡوَىٰ مِنكُمۡۚ﴾ [الحجّ: 37][4]. وبالنَّظر فيما تقدَّمَ، يظهرُ أنَّ بيانَ اللّهِ تعالى اسْتخدمَ الفعلَ الأَمْثلَ والأَلْيَق بالسِّياقِ؛ وهو ﴿تُوَفَّوْنَ﴾ ذلكَ أنَّ الحديثَ فيه عن يوم القيامة، وهو يوم الحساب؛ فالمحاسبةُ والتَّوْفيةُ والاسْتيفاءُ؛ كلُّ ذلكَ

(1) ابنُ عاشور، التّحرير والتّنْوير: 4/189.
(2) الزّمَخْشري، الكشاف: 1/449، والرّازيّ، مفاتيح الغيب: 9/453.
(3) الرّاغب، المفردات، ص: 573.
(4) الرّاغب، المفردات، ص: 829 - 830.

يكون دونَ زيادةٍ أوْ نُقصان، كما قالَ تعالى: ﴿وَوُفِّيَتۡ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡ﴾ [آل عمران: 25] وقوله: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَعَلَيۡهَا مَا ٱكۡتَسَبَتۡۗ﴾ [البقرة: 286]، وهذا يَقْتضي الاسْتيفاءَ الكاملَ للأُجور، والتَّناوُلَ الوَافيَ لها، الَّذي سوف يبلغ التَّمام، دونَ نظَرٍ ولامحاباةٍ، ولا التفاتٍ لِمدْحِ مادحٍ، أو ثناءِ مُثْنٍ، أو عطيةِ إكرامٍ أو صِلَةٍ، أو نَيْلِ نَوالٍ، ممَّا يقتضيه الفعلان: (تُعطَوْن) و(تَنالونَ).

(زُحزِحَ) و(أُبْعِدَ) و(دُفِعَ):

معنى زُحزِحَ من الزّحْزحة، وهي التّنحيّة عن الشّيء، وفي التّنزيل من الآية قيد التّفسير: ﴿فَمَن زُحۡزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدۡخِلَ ٱلۡجَنَّةَ فَقَدۡ فَازَۗ﴾، وأمّا البُعدُ فهو: ضدُّ القُرْب، وليس لهما حَدٌّ محدود، وإنَّما ذلكَ بحسبِ اعْتبارِ المكانِ بغيرِه، يُقالُ ذلكَ في المحسوسِ، وهو الأكثرُ، وفي المعقولِ، كما في قولِه تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوۡنَ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ ٤٤﴾ [فُصّلت: 44]، ويُقالُ: بَعُدَ: إذا تباعَد، وهو بَعيد، كما قالَ تعالى: ﴿وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٖ ٨٣﴾ [هود: 83][1]، وأمّا الدَّفعُ: فإنّه إذا عُدِّيَ بـ (إلى) اقْتضَى معنَى الإنَالة، كما في قولِه تعالى: ﴿فَٱدۡفَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡۖ﴾ [النّساء 6]، وإذا عُدِّيَ بـ (عن) اقْتضَى معنَى الحِماية، كما في قولِه سُبحانه: ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۗ﴾ [الحج: 38][2]، وهذا الَّذي تقدَّم في معاني الكلماتِ السَّابقة، يَقودُنا إلى أنَّ السّياقَ القرآنيَّ أثبتَ الفعلَ المناسب له وهو ﴿زُحۡزِحَ﴾ ـــ دون الفعلين (أُبْعِدَ) و(دُفع) ـــ الَّذي يجمعُ في معناه كلًّا منهما مع الجَذْبِ في عَجَلةٍ، والإزالةِ عن المقرِّ، وهذا يقتضي عدمَ العَوْدِ إلى النَّار، ممَّا لم يتحقَّقْ في معنَى الإبعادِ والدَّفع، فربَّما يعود المُبْعَدُ والمدْفُوع إلى مقرِّه السَّابق. إضافةً إلى أنَّ زيادةَ المَبْنى تدُلُّ على زيادةِ المعنَى، وخاصّةً مع تكريرِ الحُروفِ في نَفْسِ الكلمة، وهما الزَّايُ والحاءُ في الفعل ﴿زُحۡزِحَ﴾، وليس ذلكَ متوفِّرٌ أو مُتوافِرٌ في فِعْلي الإبعادِ والدَّفْع.

(1) الرّاغب، المفردات، ص: 133.

(2) الراغب، المفردات، ص: 316.

﴿۞لَتُبۡلَوُنَّ فِيٓ أَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ وَلَتَسۡمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُوٓاْ أَذٗى كَثِيرٗاۚ وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ١٨٦﴾ [آل عمران: 186]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

المناسبة بين غرور الدّنيا وفوز الآخرة، وبين وجوب التّقوى والمصابرة

لَمَّا زهَّدَ بيانُ اللّه في الآيةِ السَّابقة في الدُّنيا بفنائِها، وأنَّها متاعُ الغُرور، وذكرَ أنَّ الفائزَ الحقيقيَّ مَنْ يُنَجِّيه اللّهُ منَ النَّار، ويُدْخلُه الجنَّة، أوردَ في هذه الآية، أنَّ دُنيا المؤمنين مُثْقَلةٌ بالابْتلاءات، من تَعَبٍ ونَصَبٍ، وأَسْرٍ وجِراحٍ وأمراضٍ، ونقصٍ في الأموال والأَنْفُس، ولكنَّ المسلمَ الحقَّ، يُجابِهُ ذلكَ كُلَّه بالصَّبر واحْتسابِ الأجرِ عندَ اللّه، والتزام تقوى اللّهِ، بامتثالِ أوامرِه، واجْتنابِ نواهيه، فإنْ فَعلَ ذلكَ فقدْ وُفِّقَ ليكونَ من أهلِ العزائمِ العالية، والهِممَ السّامية، والدَّرجاتِ الرَّفيعة عند اللّه.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿۞لَتُبۡلَوُنَّ﴾: يُقالُ: بَلِيَ الثَّوْبُ بِلًى وبَلاءً، أي: خَلُقَ، وبَلَوْتُه: اخْتبرتُه كأنِّي أَخْلَقْتُه من كثرةِ اختباري له، وقولُه تعالى: ﴿هُنَالِكَ تَبۡلُواْ كُلُّ نَفۡسٖ مَّآ أَسۡلَفَتۡۚ﴾ [يونس: 30]، أي: تعرفُ حقيقةَ ما عَملَتْ، وسُمِّيَ الغَمُّ بلاءً من حيثُ إنَّه يُبْلي الجِسم، قالَ تعالى: ﴿وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَظِيمٞ ٤٩﴾ [البقرة: 49]. واخْتبارُ اللّهِ تعالى للعبادِ، يكونُ تارةً بالمسَرّات ليشكُروه، وتارةً بالأزمات ليصبِروا عليها فيعطيهم أجرهم بغير حساب، فصارتِ المِحْنةُ والمِنْحةُ جميعًا بلاء، فالمِحنةُ مُقتضيةٌ للصَّبر، والمِنحةُ مقتضيةٌ للشُّكر، والقيامُ بحقوق الصَّبر أَيْسرُ من القيامِ بحقوقِ الشُّكر، فصارتِ المِنحةُ أعظمَ البلاءَيْن، وجاءَ وصفُ كتابهِ الكريمِ بكلا الأمرَيْن

في قولِه ﷻ: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدًى وَشِفَآءٌۚ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًىۚ﴾ [فُصِّلت: 44][1].

2) ﴿عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾: العَزْمُ والعَزيمةُ: عَقْدُ القلب على إمضاءِ الأمر، يُقالُ: عَزَمْتُ الأمرَ، وعَزَمْتُ عليه، واعْتزمْتُ، قالَ تعالى: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾ [آل عمران: 159]، وقولُه تعالى: ﴿وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ١١٥﴾ [طه: 115]، أي: محافظةً على ما أُمِرَ به، وعزيمةً على القيام[2]. وعليه تعزَّم: أرادَ فِعْلَه، وقَطعَ عليه، أوْ جَدَّ في الأمرِ. وقولُه تعالى: ﴿أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: 35] الَّذين عَزَموا على أَمْرِ اللّهِ فيما عُهِدَ إليهم، وهم أولو الجِدِّ والثَّباتِ والصَّبر[3]، وأشار الشّنقيطيّ إلى أنّ الْعُلَمَاءُ اختلفواْ في الْمُرَادِ بِأُولِي الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ، في هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ، اخْتِلَافًا كَثِيرًا، وهي قوله تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: 35]، وَأَشْهُرُ الْأَقْوَالِ فِي ذَلِكَ أَنَّهُمْ خَمْسَةٌ، وَهُمْ: نُوحٌ وَإِبْرَاهِيمُ وَمُوسَى وَعِيسَى وَمُحَمَّدٌ (عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ)[4].

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

يخاطبُ اللّهُ ﷻ المؤمنينَ أنَّهم سيُختبرَون: في أموالِهم؛ مِنَ النَّفقاتِ الواجبةِ والْمُسْتَحبَّة، في إنفاقِها في سَبيل اللّه[5]، وبما يصيبُها مِنَ الجوائحِ والعَاهاتِ والخُسرانِ والنُّقصان[6]، وفي أَنْفُسهم؛ من التّكاليف الثّقيلةِ على كثيرٍ من النَّاس، كالجهادِ في سبيلِ اللّه، وبما يَعتَورِ أبدانَهم من الأمراضِ والآلامِ والأَسْرِ والجِراح،

قدر الله باختبار المؤمنين في أموالهم وأنفسهم، وأمرهم بالصّبر على الأذى

(1) الرّاغب، المفردات، ص: 145 - 146.
(2) الراغب، المفردات، ص: 565.
(3) الفيروزآبادي، القاموس المحيط: (عَزَمَ).
(4) الشّنقيطي: (أضواء البيان): 7/241.
(5) البغوي، معالم التّنزيل: 2/148.
(6) ابن جرير، جامع البيان: 4/200.

وكذلك ما يُصيبُهم مِنَ الطَّعنِ في دينِهم، وكتابِهم، ورسولِهم مِنْ قِبَلِ المشركينَ واليهودِ والنَّصارى[1]، ويُوجِّهُ بيانُ اللّهِ عبادَه المؤمنينَ للتَّسلُّحِ بالصَّبرِ والتَّقوى؛ فهما الدِّرْعانِ الحَصينانِ لمُواجَهةِ الأعباءِ الثِّقال، وهما عُدَّةُ أهلِ الإيمان، وسلاح أرباب الإيقان، وعلى رأسِهم رُسُلُ اللّهِ عليهم الصَّلاةُ والسَّلام.

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغة الفصل في الآية:

وجه الاستئناف إيقاظ المؤمنينَ وتنبيههم

في قوله تعالى: ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ﴾ اسْتئنافٌ لإيقاظِ المؤمنينَ إلى ما يعترِضُ أهلَ الحقِّ وأنصارَ الرُّسُل مِنَ البَلْوى، وتَنبيهٌ لهم على أنَّهم إنْ كانوا ممَّن تُوهِنُهمُ الهزيمة، فليسوا أَحرياءَ بِنَصرِ الحقِّ[2].

بلاغة تأكيد المطلع:

أفاد التوكيد تحقيقَ معنَى الابْتلاءِ تهوينًا للخَطْب، أو تحقيق وقوعِ المُبتَلَى به، مبالغةً في الحثِّ

وجاءَ الفعلُ ﴿لَتُبْلَوُنَّ﴾ مُؤكَّدًا بلامِ القَسَم، والتقدير: واللّه لتبلوُنَّ، وبنونِ التَّوكيدِ الثَّقيلة؛ لإفادةِ تحقيقِ الابْتلاء، إذْ نونُ التَّوكيدِ الثَّقيلةُ أَقْوى في الدَّلالةِ على التَّوكيدِ من الخَفيفَة، والجُملةُ جوابُ قَسَمٍ محذوف؛ أي: واللّهِ لَتُبلَوُنَّ؛ أي: لَتُعامَلُنَّ معاملةَ المُختَبَر، ليظهرَ ما عندَكم من الثَّباتِ على الحقِّ والأعمالِ الحَسَنة، وفائدةُ التَّوكيد؛ إمَّا: تحقيقُ معنَى الابْتلاءِ تهوينًا للخَطْب، وإمَّا: تحقيقُ وقوعِ المُبتَلَى به، مبالغةً في الحثِّ على ما أُريدَ منهم مِنَ التَّهيُّؤِ والاسْتعداد[3]، فـ"أكّد بهذه التأكيدات ليكون الوقوع مستيقنا، وليستعدوا بالصبر والمجاهدة، والاعتماد على اللّه تعالى"[4].

(1) الزَّمَخْشري، الكشّاف: 1/486.
(2) ابنُ عاشور، التّحرير والتّنْوير: 4/189.
(3) الرازي، مفاتيح الغيب: 1/453، وأبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 1/615.
(4) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 3/1538.

وجه المجاز في لفظ الابتلاء:

أُريدَ بالمجاز في الآية لازمُه، وهو المُصيبة

والابْتلاءُ: الاخْتبارُ، ويُرادُ به هنا لازمُه، وهو المُصيبة؛ لأنَّ في المصائبِ اخْتبارًا لمقدارِ الثَّبات[1].

نكتة تقديم الأموال على الأنفس:

علّة تقديم الأموال على الأنفس ترقّيًا إلى الأشرف، أو للكثرة

قدم الأموال على الأنفس في قوله: ﴿۞لَتُبۡلَوُنَّ فِيٓ أَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ﴾ على سبيل الترقّي إلى الأشرف، فالترتيب في الابتلاء متدرج يبتدئ من الأدنى، وهو المال، والاختبار فيه شديد قاس، والاحتمال يحتاج إلى صبر وعزم، وإنه ليسمى نفيسا؛ لأنه قرين النفس، وإن كان دونها، وهي أغلى منه، أو أنّ الترتيب على سبيل الكثرة؛ لأنّ الرّزايا في الأموال أكثر من الرزايا في الأنفس[2].

فائدة التوكيد في جملة السّماع:

وجه التوكيد تخصيصه بأذى الدّين، وبيانًا لشناعة المسموع

والدرجة العليا من الابتلاء هي ما يخصّ الدِّين، وعبّر عنها ﷺ بالذّكر المؤكّد، وخصّها بالأذى الكثير؛ فقال: ﴿وَلَتَسۡمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُوٓاْ أَذٗى كَثِيرٗاۚ﴾[3]، بيانًا لشناعة المسموع، وفداحة المقول في شأن دين الاسلام.

نكتة بناء فعل إيتاء الكتاب للمفعول:

المراد ببناء فعل الإيتاء للمفعول تسوية العالم بالجاهل في الذمّ

قال البقاعي: " ولما كان المراد تسوية العالم بالجاهل في الذمّ؛ نزه المعلِّم عن الذكر؛ فبنى للمفعول بقولِه: ﴿أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾"[4].

وجه التّفريق بين من أوتوا الكتاب، ومن أشركوا:

التعبير بإيتاء الكتاب؛ للإشْعارِ بمدارِ شقاقهم، وباطل زعمهم

المعنيُّ بقولِه: ﴿أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾، اليهودُ والنَّصارى، وعبَّر عنهم بـ ﴿أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾؛ للإشْعارِ بِمدارِ الشِّقاق، والإيذانِ بأنّ ما يَسْمعونَه منهم مُستَنِدٌ على زعمِهم إلى الكتاب، كما في قولِهم من قَبْلُ: ﴿إِنَّ

(1) ابنُ عاشور، التّحرير والتّنْوير: 4/190.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/464، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 3/1538.
(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 3/1539.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 5/149.

﴿ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيۡنَآ﴾[1]، أما المشركون فهم مَن لم يؤمن بالله من كفّار قريش وغيرهم.

نكتة توسيط الجّار والمجرور:

جـاءَ التَّصريحُ بالقَبْليَّة لتأكيدِ الإشْعار

وقوله تعالى: ﴿مِن قَبۡلِكُمۡ﴾، أي: من قبلِ إيتائكُمُ القرآن، وجاءَ التَّصريحُ بالقَبْليَّة لتأكيدِ الإشْعار بمَدار الشّقاق، وتقويته؛ فإنَّ قِدَمَ كتابِهم ممَّا يُؤيِّد تَمسُّكَهم به[2]، وقال البقاعي: " ولما كان إيتاؤهم له لم يستغرق الزمن الماضي أدخل الجار فقال: ﴿مِن قَبۡلِكُمۡ﴾، أي: من اليهود والنصارى"[3].

علّة التعبير عن نزول الأذى بسماعه:

التّعبير عن نزول الأذى بسماعه؛ لأنّـه في ذاتـه، ومـوضـوعـه، ومؤدّاه إلى أذى

الذي يُسمع في قوله تعالى: ﴿وَلَتَسۡمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُوٓاْ أَذٗى كَثِيرٗاۚ﴾ هو كلامٌ، وعبَّر عنه بالأذى؛ لأنه يؤدي إلى أذى، وموضوعه أذى، وهو في ذاته أذى، فكأن الأذى في ذات القول، ولذلك كان مفعولا للسّماع[4].

نكتة وصف الأذى بالكثير:

الأذى الكثير، أي: الخارج عن الحَدِّ الَّذي تَحتملُه النُّفوس بمَّا يُفْضِي إلى الفَشَل

الأذَى: هو الضُّرُّ بالقوْل، كقولِه تعالى: ﴿لَن يَضُرُّوكُمۡ إِلَّآ أَذٗىۖ﴾ [آل عمران: 111]، ولذلكَ وصفَه هنا بالكثير، فقالَ: ﴿أَذٗى كَثِيرٗاۚ﴾، أي: الخارجِ عن الحَدِّ الَّذي تَحتملُه النُّفوس غالبًا، وكلُّ ذلكَ ممَّا يُفْضِي إلى الفَشَل، وهذا الأذَى كما هو من أهلِ الكتابِ، هو كذلكَ من المشركين[5].

وصـف الأذى بالكثير؛ يشمل المقدار والنوع، والطـريـقـة والموضوع

ووصفه ﷻ بأنه أذى كثير، وذلك ليبين لهم ما يوجب استعدادهم لسماعه، من أذى ليس بقليل في مقداره، ولا في نوعه، ولا في

(1) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 1/616.
(2) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 1/616.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 5/149.
(4) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 3/1540.
(5) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 1/616.

موضوعه، فالكثرة ليس المراد منها المقدار فقط، بل الكثرة تشمل المقدار والنوع، والطريقة والموضوع[1].

بلاغة التعبير بأسلوب الشّرط:

وظاهرُ قولِه: ﴿وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ﴾ شرطٌ، إنْ تحقّق فعلُه فسَيتحقَّقُ جوابُه، لكنَّ معناه الأمر، أي: اصْبِروا واتّقُوا؛ تَفُوزوا بالنَّصْر، وتَنالُوا مراتبَ أهلِ العَزْم. "وفي إبرازِ الأمرِ بالصَّبرِ والتَّقوى في صورةِ الشَّرطيَّة من إظهارِ كمالِ اللُّطفِ بالعبادِ ما لا يَخْفَى"[2].

أفـــادَ نـظـمُ الشَّرط أنَّ أهلَ الصَّبرِ والتَّقوى همْ أهلُ مُهمَّاتِ الأمورِ وعزائمِها

بيان إيثار الشّرط بـ ﴿وَإِن﴾ دون (إذا):

عبر بـ ﴿وَإِن﴾ دون (إذا) في قوله تعالى: ﴿وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ﴾ مع أن الصبر مطلوبٌ مرادٌ وقوعه؛ إشارة لإمكان المراد المتعسّر منه، المشكوك في وقوعه، فإذا أمر بالمعتبر منه؛ فيدلّ على طلب المتيسّر منه من باب أحرى[3].

إنّ تـحـقـق المتعسّر من الأمر حـــريٌّ بتحقّق المتيسّر منه

نكتة التعبير بفعل التقوى:

وأوثرَ قولُه: ﴿وَتَتَّقُواْ﴾؛ لأن الصبر على نوعين: تارة: يكون للتجلد، والحمية في الباطل، وإظهار القوة والرياء والسمعة، وتارة: يكون للتقوى ونصرة دين الله ﷻ؛ فأُمروا بأن يصبروا صبرا يبتغون به وجه الله وهو الذي يصحبه التقوى فقط[4].

إنّ الصّبر الذي يُبْتغى به وجه الـلـه هـو الـذي يصحبه التّقوى فقط

علّة تقديم الصبر على التقوى:

الصبر عبارة عن احتمال المكروه، والتقوى عبارة عن الاحتراز عما لا ينبغي؛ فقُدِّم ذِكر الصبر ثم ذكر عقبه التقوى؛ لأن الإنسان إنما يُقْدِمُ على الصبر؛ لأجل أنه يريد اتقاء ما لا ينبغي.

إقـدامُ الإنسان على الصبر؛ لأنّه يريد اتقاء ما لا ينبغي

وفيه وجه آخر: وهو أن المراد من الصبر هو أن مقابلة الإساءة

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 3/1540.
(2) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 1/616 - 617.
(3) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/452.
(4) البسيلي، التقييد الكبير، ص: 605، وابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/452.

بالإساءة تفضي إلى ازدياد الإساءة، فأمر بالصبر؛ تقليلا لمضارِّ الدُّنيا، وأمر بالتقوى تقليلا لمضارِّ الآخرة، فكانت الآية على هذا التأويل جامعة لآداب الدنيا والآخرة[1].

أبان التقديم أنّ الآية جامعة لآداب الدنيا والآخرة

علّة التعبير باسم الإشارة:

في قوله: ﴿فَإِنَّ ذَٰلِكَ﴾: إشارةٌ إلى الصَّبرِ والتَّقوى، وما فيه من معنَى البُعدِ؛ للإيذانِ بِعُلُوِّ دَرَجتِهما، وبُعدِ مَنْزلتِهما[2].

ما في اسم الاشارة من معنَى البُعدِ؛ للإيذانِ بِعُلُوِّ دَرَجتِهما، وبُعدِ مَنْزلتِهما

سرّ توحيد حرف الخطاب:

وتوحيدُ حرفِ الخطاب في قوله تعالى: ﴿وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ﴾؛ إمَّا باعْتبارِ كلِّ واحدٍ مِنَ المخاطَبِين، وإمَّا لأنَّ المرادَ بالخطابِ لمجرَّدِ التَّنبيهِ من غيرِ ملاحظةِ خُصوصيَّةِ أحوالِ المخاطَبِين[3].

توحيدُ حرفِ الخطاب باعْتبارِ كلِّ واحدٍ مِنَ المخاطَبِين، أو لمجرَّدِ التَّنبيهِ

سرّ وصف الجمع بالمفرد:

وقولُه: ﴿مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ﴾، أي: الأمورِ العَزْم، ووصَفَ الأمورَ، وهو جمعٌ بعَزْم، وهو مُفرَد؛ لأنَّ أصلَ عَزْم أنَّه مَصْدرٌ، فيلزَمُ لفظُه حالةً واحدةً، وهو هنا مصدَرٌ بمعنَى المفعول؛ أي: مِنَ الأمورِ المَعزوم عليها، وفي قوّة المصدريّة ما يدلّ على الثبات وعدم التردد؛ فالعَزْمُ: إمْضاءُ الرَّأي، وعَدَمُ التَّردُّدِ بعدَ تَبيُّنِ السَّداد، قالَ تعالى: ﴿وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِۖ فَإِذَا عَزَمۡتَ فَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾ [آل عمران: 159][4].

أصلُ (عَزْمِ) أنَّه مَصْدرٌ، فيلزَمُ لفظُه حالةً واحدةً، تدلّ بقوتها على الثبات وعدم التردّد

وجه إضافة العزم إلى الأمور:

وقولُه: ﴿مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ﴾ من إضافةِ الصِّفةِ إلى الموصوف، أي: مِنْ مَعْزُوماتِها الَّتي يَتنافسُ فيها المُتنافِسون؛ أي: ممَّا تجبُ أنْ يعزِمَ عليه كلُّ أحدٍ لِمَا فيه من كمالِ المَزِيَّةِ والشَّرف، أوْ ممَّا عزمَ اللهُ

في الاضافة بيانٌ بأنَّ ذلكَ عَزْمة من عَزَماتِ اللهِ تعالى، لا بدَّ أنْ تَصبِروا وتَتَّقوا

(1) الرازي، مفاتيح الغيب: 9/454 - 455.
(2) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 1/616.
(3) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 1/616.
(4) ابنُ عاشور، التّحرير والتّنْوير: 4/190.

عليه، وأمرَ به؛ يعني أنَّ ذلكَ عَزْمةٌ من عَزَماتِ اللّهِ تعالى، لا بدَّ أنْ تَصبِروا وتَتَّقوا[1].

توجيه دلالة جملة الفاصلة:

جملة الفاصلة جوابٌ للشّرط، أو تعليلٌ لجوابه

والجُملةُ تعليلٌ لجوابِ الشَّرط، واقعٌ مَوقعَه، كأنَّه قيل: وإنْ تَصبِروا وتتَّقوا فهو خيرٌ لكم، أو فافْعلُوا، أو فقدْ أحسنتُم، أو فقدْ أصبتُم، فإنَّ ذلكَ من عزمِ الأمُور، ويجوزُ أن يكونَ ذلكَ إشارةً إلى صبرِ المخاطَبين وتقواهُم، فالجملةُ حينئذٍ جوابُ الشَّرط[2].

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الابْتلاء والاخْتبار:

الابْتلاءُ لايكونُ إلَّا بتَحْميلِ المكارِه والمَشاقِّ، وهو يعني كذلكَ كثرةَ الاخْتبارِ للشَّيءِ حتَّى يَبْلَى، وأمَّا الاخْتبارُ فيكونُ بتحميلِ المكارِه والمَشاقِّ، وبفعلِ المحبُوب، يُقالُ: اخْتبرَه بالإنعام عليه، ولا يُقالُ: ابتلاه بذلك، ولا هو مُبتلًى بالنِّعمة، كما قدْ يُقالُ: إنَّه مُخْتبَرٌ بها، ويجوزُ أنْ يُقالَ: إنَّ الابْتَلاءَ يَقْتضي اسْتخراجَ ما عندَ المبتلَى مِنَ الطَّاعة والمعصية، والاخْتبارَ يَقْتضي وقوعَ الخبرِ بحالِه في ذلك[3]، ومن بيانِ الفرقِ بينَ هاتَيْن الكلمَتيْن؛ يتَّضحُ أنَّ الابْتلاءَ أصدقُ مفهومًا وأوقعُ أثَرًا في سِياقِ النَّصِّ القُرآنيّ؛ فابتلاءُ اللّهِ لعبادِه المؤمنينَ في الأموالِ والأنفُس، وسماعِ الأذَى من أهلِ الكتابِ والمشركينَ في دينهم وكتابهم ورسولهم، لَهُوَ من الأمور الشّاقّة على المبتلين بذلك، وهو بغيض للأنْفُس مهما كان نوعه أو وسمه أو صفته، ولذلكَ اقتضت بلاغة القرآن الكريم، أن يستخدم البيانُ الإلهيُّ كلمةَ (الابْتلاء)، بَدَلَ (الاخْتبار)، وهو من معجز الاختيار.

(1) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 1/616.
(2) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 1/616 - 617.
(3) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 10.

العَزْم والحَزْم:

العزمُ: هو تصميمُ القلبِ على الشَّيءِ، والنَّفاذُ فيه بقَصْدٍ ثابتٍ[1]، والعزم: الجِدُّ والثَّباتُ والصَّبر، وقدِ اجتمعتْ هذه الصِّفاتُ على وجهِ الخُصوصِ، في أُوْلي العَزْمِ مِنَ الرُّسُل[2]، وأمَّا الحَزْمُ فهو: ضَبْطُ الأمر، والأخذُ فيه بالثِّقة؛ وحَزُمَ، كَكَرُمَ، فهو حازِمٌ وحَزيمٌ، وحَزَمَهُ يَحْزِمُهُ: شَدَّهُ[3]، وفي العَزْم إذًا مَزيدُ قُوّةٍ وثباتٍ ونفاذٍ وجِدٍّ وصَبْر، عمَّا هو في معنَى الحَزْم، ولذلكَ استعملَ البيانُ الإلهيُّ كلمةَ (العزْم) في سياقِ ما يُمكِنُ أنْ يُواجِهَ المؤمنينَ مِنِ ابْتلاءاتٍ في الأموالِ والأَنْفُسِ، وإيذاءٍ من أهلِ الكتابِ والمشركين، فهذه كلُّها تحتاجُ مواجهةً صابرةً، وثَباتًا وقُوّةً من أهلِ الإيمانِ.

(1) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 356.

(2) الجرجانّي، التَّعريفات، ص: 91، وابن منظور، لسان العرب: (حَزَمَ).

(3) الرّاغب، الفروق اللغوية، ص: 565، وابن منظور، لسان العرب: (عَزَمَ).

﴿وَإِذۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكۡتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمۡ وَٱشۡتَرَوۡاْ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلٗاۖ فَبِئۡسَ مَا يَشۡتَرُونَ ١٨٧﴾ [آل عمران: 187]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

المناسبةُ بين ذكر البلاءِ والصّراع، وبين كِتمانِ أهل الكتابِ ما أُمِرُوا ببَيانِه

لَمَّا ذُكِرَ بيانُ اللهِ - ﷻ - أنَّ المؤمنينَ سَيُبتَلَوْن بابْتلاءاتٍ، ومنها سماعُ الأذَى من أهلِ الكتاب، جاءَ بيانُ اللهِ هنا لِيُخبرَنا أنَّ أهلَ الكتاب خانُواْ العهدَ والميثاقَ الَّذي أخذَه اللهُ عليهم، ببيانِ ما في كتابِهم من أحكامٍ وحِكَمٍ للنَّاس، وطَرحُوا كلَّ ذلكَ، ولم يَعبَؤُواْ به، واستبدلوه بِعَرَضٍ من الدُّنيا قليل، فَخابُواْ وخَسِرواْ، ووجهُ الرّبطِ أنّ مطلع هذه الآية "معطوفٌ على قوله: ﴿وَلَتَسۡمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ﴾[1]؛ فإنّ تكذيبَ الرّسولِ من أكبر الأذى للمسلمين، وإنّ الطّعن في كلامِه وأحكام شريعته من ذلك، كقولهم: (إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٞ وَنَحۡنُ أَغۡنِيَآءُ)"[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مِيثَٰقَ﴾: الميثاقُ: العَهدُ، وَوَثِقَ به يَثِقُ، كَوَرِثَ، ثقةً ومَوْثِقًا: ائْتمنَهُ، والوَثيقُ: المُحكَمُ، ووَثُقَ، كَكَرُم: صارَ وثيقًا، أو أخذَ الوَثيقة، والميثاقُ يكونُ من أحَدِ الطَّرفينِ المتعاهدَين[3]، أخذَ عليهم الميثاقَ حين أخذ ذريّة آدم من ظهورهم، ويقال: أخذَ عليهم الميثاقَ بالوحي في كتبِ الأنبياءِ، لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ يعني: نعتُ محمّدٍ ﷺ وصفته وَلا

(1) الآية كاملة، هي قوله تعالى: ﴿۞لَتُبۡلَوُنَّ فِيٓ أَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ وَلَتَسۡمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُوٓاْ أَذٗى كَثِيرٗاۚ وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ١٨٦﴾ [آل عمران: 186].

(2) ابنُ عاشور، التّحرير والتّنْوير: 4/191.

(3) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 525، والفيروزآباديّ، القاموس المحيط: (وَثِقَ).

تَكْتُمُونَهُ عنهم[1]، "والميثاقُ إمّا مصدر بمعنى التّوثقةِ، كالميعادِ والميلاد، بمعنى الوعدِ والولادة، أو اسمٌ لما وثّقواْ به عهدَ اللّه من قبوله وإلزامِه أنفسَهم، ويجوزُ أن يرجعَ الضّميرُ إلى اللّه؛ أي من بعد توثِقَتِه عليهم، أو من بعد ما وثّق اللّه تعالى به عهده من آياته وكُتُبه ورُسُله"[2].

2) ﴿فَنَبَذُوهُ﴾: النَّبْذُ: إلقاءُ الشَّيءِ وطرحُه لقلَّةِ الاعتدادِ به؛ ولذلكَ يُقالُ: نَبَذْتُه نَبْذَ النَّعلِ الخَلِقِ، قالَ تعالى: ﴿لَيُنۢبَذَنَّ فِي ٱلْحُطَمَةِ ۝٤﴾ [الهمزة: 4]، وقالَ سُبحانه: ﴿۞فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ﴾ [الصافات: 145]، وانْتبذَ فلانٌ: اعْتَزلَ اعْتزالَ مَنْ لا يُقِلُّ مبالاتِه بِنَفسِه فيما بينَ النَّاس، وأهلُ الكتاب أخذَ اللّهُ عليهم العهدَ، على أن يبلّغواْ، دون كتمان، "فنبذواْ الميثاقَ وتأكيده عليهم؛ أي: لم يراعوه، ولم يلتفِتُواْ إليه، والنّبذُ وراء الظّهر، مثل في الطّرح وترك الاعتداد، وهو دليلٌ على أنّه يجبُ على العلماء، أن يبيّنواْ الحقَّ للنّاس وما عَلِمُوه، وأن لا يكتمواْ منه شيئًا، لغرضٍ فاسدٍ، من تسهيلٍ على الظّلمة، وتطييبٍ لنُفوسهم، أو لجرّ منفعةٍ، أو دفع أذيّةٍ، أو لبخلٍ بالعلم، وفي الحديث: "من كتمَ علماً عن أهلِه ألجَمَه اللّهُ بلجامٍ من نار"[3].

3) ﴿وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ﴾: يُقال: وَرِيَ يَرِي، مثلُ: وليَ يَلي، قالَ تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي تُورُونَ ۝٧١﴾ [الواقعة: 71]، ووراءُ: إذا قيلَ: وراءُ زيدٍ كذا، فإنَّه يُقالُ لمن خَلْفَه، كما قالَ تعالى: ﴿وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ۝٧١﴾ [هود: 71]، ويُقالُ لما كانَ قُدَّامُه، كما في قولِه تعالى: ﴿وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ﴾ [الكهف: 79]، وقولِه: ﴿أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍۚ﴾ [الحشر: 14]، فإنَّ ذلكَ يُقالُ في أيِّ جانبٍ من الجِدار، فهو وراءَهُ باعْتبارِ الَّذي في الجانبِ الآخرَ، وقولُه تعالى: ﴿فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ﴾ [المؤمنون: 7]؛ أي: مَنِ ابْتغَى أكثر ممَّا بيَّنَّاه، وشَرَعناه، من تَعرُّضٍ لما يَحرُمُ التَّعرُّضُ له، فقد تعدَّى طَورَه، وخَرَق سِترَه، وقولُه كما في الآية الَّتي معنا: ﴿فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ﴾ [آل عمران: 187]، تبكيتٌ لأهلِ الكتابِ، في أنَّهم لم يعملُواْ بكتابِهم، ولم يتدبَّرواْ ما فيه؛ بلِ اشْترَوْا به ثمنًا قليلًا، فاسْتبدَلواْ الَّذي هو أدْنَى بالَّذي هو خَيرٌ، فَبِئسَ ما فَعلُواْ.

(1) السّمرقنديّ: بحر العلوم: 1/272.
(2) النيسابوري، غرائب القرآن: 1/207.
(3) النّسفيّ، مدارك التّنزيل: 1/319، والحديث أخرجه أبو داود في سننه: (3658).

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

لـم يـرعَ أهـلُ الكتابِ الميثاقَ في البلاغ، بل نبذُوه واشتروا به ثمنًا قليلًا

أخذَ اللّهُ العهدَ المؤكَّدَ على كُلِّ مَنْ أعطاهُ الكتابَ، وعلَّمَه العلمَ، أن يبيِّنَ للنَّاس الصَّوابَ من الخطأ، والحقَّ من الباطل، فكان من هؤلاء من قامَ بأداءِ ما وجَبَ عليه، ومنهم مَن خانَ العهدَ، وألقاهُ وراءَ ظهرِه، وباعَ دينَه، بِعَرَضٍ من الدُّنيا قليل، والمقصود بهم منْ أَنكَروا نُبوَّةَ رسولِ اللّهِ محمَّدٍ ﷺ، وأمَروا أتباعَهم بذلك، وفي هذا تحذيرٌ للعلماءِ أنْ يَسلُكوا مسالكَهم، فيصيبهم ما أصابَهم[1]، واللّه تعالى أمر نبيّه ﷺ، أن يعلمهم بأنّه أخذ الميثاقَ على علمائهم، بأن يُبيّنوا للنّاس نعوتَ النّبيِّ ﷺ في كتابهم، وأن يؤمِنُوا به ويتابعوه، على ما جاء به من الهدى ودين الحقّ، ولكنّهم كتَمُوه، ونبذُوه وراءَ ظُهورهم، واستبدلُوا بذلك الجاهَ الزّائل، والمال الزّائف، ممّا عبّر عنه تعالى بقوله: ﴿فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾ "[2].

الإِيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغة الفصل في الآية:

وجـهُ الـفَـصْـل بـالاسـتـئـنـاف بـيـانُ بـعـضِ أذِيَّـةِ الـيـهـود بكِتمانِهم نبوَّتَه ﷺ

أفادَ نظمُ الاسْتئنافِ، المبالغةَ في تَقبيحِ أعمالِ اليهود؛ فقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ﴾، كلامٌ مُستَأنَفٌ، سيقَ لبيانِ بعضِ أذِيَّتِهم، وهو كِتمانُهم ما في كتابِهم من شواهدِ نبوَّتِه ﷺ وغيرِها[3].

سرُّ الإضمار على طريق تجريد الخطاب:

و﴿إِذْ﴾ منصوبٌ على المفعوليَّة بمُضمَرٍ أي: (واذْكُرْ وقتَ أخَذَ اللّهُ)[4]، أُمِرَ به النَّبيُّ ﷺ خاصَّةً بطريقِ تجريدِ الخطابِ، إِثْرَ

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 1/384.
(2) الجزائريّ، أيسر التّفاسير: 1/423.
(3) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 2/124.
(4) الزّمَخْشري، الكشّاف: 1486.

الخطابِ الشَّاملِ له ﷻ وللمؤمنين، لكونِ مَضمونِه من الوظائفِ الخاصَّةِ به ﷻ، وتوجيهُ الأمرِ بالذِّكرِ إلى الوقتِ، دونَ ما وقعَ فيه من الحوادثِ، مع أنَّها المقصودةُ بالذَّات؛ للمبالَغةِ في إيجابِ ذِكْرِها، أي: واذكرْ وقتَ أَخْذِه تعالى ﴿مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾، وهم علماءُ اليهودِ والنَّصارى.

توجيهُ الأمرِ بالذِّكرِ إلى الوقتِ، دونَ ما وقعَ فيه من الحوادثِ؛ للمبالَغةِ في إيجابِ ذِكْرِها

دلالة الميثاق على العموم:

وهذا الميثاقُ أُخِذَ على سَلَفِهم من عهدِ رسولِهم وأنبيائِهم، وكانَ فيه ما يدُلُّ على عمومِه لعلماءِ أُمَّتِهم في سائرِ أجيالِهم إلى أنْ يجيءَ رسولٌ من اللّه[1]، وقيل: عهودُ اللّهِ تعالى ثلاثةٌ: عهدٌ أخذه على جميع ذريّةِ آدمَ، بأن يقرّوا بربوبيّته، وعهدٌ أخذه على النّبيين، بأن يُقيموا الدّين ولا يتفرّقوا فيه، وعهدٌ أخذه على العلماء، بأن يبيّنُوا الحقّ ولا يكتُمُوه"[2].

في العموم شمولٌ لعلماءِ أُمَّتِهم في سائرِ أجيالِهم إلى أنْ يجيءَ رسولٌ من الله

علّة ذكر اليهود بعنوانِ إيتاءِ الكتابِ:

ذُكر علماءُ اليهودِ والنصارى في قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ "بعنوانِ إيتاءِ الكتابِ، مُبالَغةً في تَقْبيحِ حالِهم"[3].

ذُكر اليهودُ بعنوانِ إيتاءِ الكتابِ، للمبالغة في تَقْبيحِ تصرّفاتهم المنافية لوصفهم

بلاغة القَسَم في طلب البيان:

قولُه تعالى: ﴿لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ﴾: هذه الجملةُ بيانٌ للميثاق، وهي حكايةٌ لِمَا خُوطِبُوا به، والضَّميرُ (الهاء) للكتاب، وهو جوابُ لقسَم، يُنبئ عنه أَخْذُ الميثاق؛ كأنَّه قيلَ لهم: باللّهِ لَتُبيِّنُنَّه للنَّاس، وتُظهِرُنَّ جميعَ ما فيه من الأحكامِ والأخبارِ الَّتي من جُملتِها أمرُ نُبوَّتِه ﷺ، وهو المقصودُ بالحكاية[4].

أسلوب القسم سبيل إلى جلاء المعنى ووضوحه

ونُقل عن ابن القيّم أنّ القسمَ قد يرادُ به تحقيق المُقسمِ عليه

(1) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 2/63، وكذلك: 2/124.
(2) البيضاويّ، أنوار التنزيل: 1/64.
(3) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 2/124.
(4) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 2/124، وابنُ عاشور، التّحرير والتّنْوير: 4/191.

وفي القسم وجهُ تحقيق للمُقسمِ عليه وتوكيده

وتوكيده، فيكونُ من بابِ الخبر، ومن ذلك الأمور الغائبة والخفيّة، إذا أقسم على ثبوتها[1].

توجيه القراءات القرآنية في قوله: ﴿لَتُبَيِّنُنَّهُۥ﴾:

فـي قـراءة الجمهور التفات من من الغيبة إلى الخطاب زيادة في التنبيه وبيانًا لأهمية المُبَيَّنِ:

وقولُه: ﴿لَتُبَيِّنُنَّهُۥ﴾ فيه قراءتان[2]: الأُولى: بالتَّاء، هي صيغةُ خطابِهم بالمَحلوفِ عليه عَلى إضمارِ القول، وفيه التفاتٌ من الغيبة إلى الخطاب في ﴿لَتُبَيِّنُنَّهُۥ﴾؛ زيادةَ بيانٍ لأهمية المُبيَّن، والثَّانية: بالياء، وهي على طريقةِ الحكايةِ بالمعنَى؛ حيث كانَ المأخوذُ عليهم هذا العهدَ، غائبينَ في وقتِ الإخبارِ عنهم[3].

بديع تعاضد العطف والإضمارِ والنَّهي في تجلية المعنى:

في التعاضد مبالغةٌ في إيجاب البيان على اليهودِ فكتمانُ العلم هلكةٌ وجفاءٌ، وبذلُه صلةٌ ورفعة وسناء

أفادَ العطفُ، والإضمارُ، والنَّهيُ المبالغةَ في إيجاب البيان على اليهودِ، في ذكرِ دلائلِ نبوّتهِ ﷺ وعدم كتمانها، وذلك واضحٌ في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكۡتُمُونَهُۥ﴾، وهو عطفٌ على جوابِ القَسَم ﴿لَتُبَيِّنُنَّهُۥ﴾، لكنَّه لم يؤكّد قبلَه لسببَيْن: الأوَّل: كونُه منفيًّا، كما لو قيل: واللّهِ لا يقومُ زيدٌ[4]، والثَّاني: اكتفاءً بالتَّأكيدِ في الأوَّل؛ لأنَّه تأكيدٌ له[5]، ويُمكنُ أن يكون: ﴿وَلَا تَكۡتُمُونَهُۥ﴾ حالًا من ضمير المُخاطَبين؛ إمَّا على إضمارِ مبتدأٍ بعدَ الواو، أي: وأنتُم لا تَكتمونَه، وإمَّا على رأي مَنْ جَوَّزَ دخولَ الواوِ على المضارعِ المَنفيّ عندَ وقوعِه حالًا، أي: لَتبيِّنُنَّه غيرَ كاتمين، وجاءَ النَّهيُ عنِ الكتمانِ بعدَ الأمرِ بالبيان؛ إمَّا للمبالغةِ في إيجابِ المأمورِ به، وإمَّا لأنَّ المرادَ بالبيانِ المأمورِ به ذكرُ الآياتِ النَّاطقة بنبوَّته ﷺ، وبالكتمانِ المنهيِّ عنه إلقاءُ التَّأويلاتِ الزَّائغةِ والشُّبهاتِ الباطلة[6].

(1) التّهانويّ، موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم: 2/1317.
(2) الأُولى قراءةُ الجمهور، والثّانيةُ قراءة ابن كثير وأبي عمرو وأبي بكر شعبة عن عاصم، ينظر: مكيّ، الكشف: 1/371، وابن زنجلة، الحُجَّة، ص: 185 - 186.
(3) النّحاس، إعراب القرآن: 1/425.
(4) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 2/124.
(5) العكبري، التبيان: 1/161.
(6) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 2/125.

سرُّ تقديم التّبيان على عدم الكتمان:

رُوعي في الترتيب أنّ نفيَ الأعمّ، يستلزمُ نفيَ الأخصّ، وثبوتَ الأخصّ يستلزمُ الأعمّ؛ دفعًا للتوهّم

ترتيب الآية الكريمة مقصودٌ ولا يؤدّيه عكس المعنى بأن يُستبدلَ اللّفظُ الثّاني باللّفظ الأوّل، فيكون كالآتي: (وَلَا تَكْتُمُونَهُ وعليكم أن تبيّنوه لِلنَّاسِ)، قال البسيليّ موضّحًا نكتة الترتيب بأنّه: "رُوعي فيه ما تقرّر، من أنّ نفيَ الأعمّ يستلزمُ نفيَ الأخصّ، وثبوتَ الأخصّ يستلزمُ الأعمّ؛ لأنّ البيانَ، وعدم البيان، إمّا بكتم الكتاب عنهم من أصل، وإمّا بإلقائه لهم مبهمًا غير مُبينٍّ، فلمّا أمر بالبيان، تُوُهِّم أنّهم ما بيّنوا للأمّة إلّا ما سمعوه منهم، وأمّا ما لم يبلغ النّاس، فلا يلزمُهم تبيانه لهم، فقيل: ولا تكتموا عنهم ما بلغكم منهم، ولم يشعروا هم به؛ لئلّا يقال: أنّهم ما يجبُ عليهم أن يُبلّغواْ للنّاس إلّا آيات التّكليف، وما يتعلّقُ به حكم من وعدٍ ووعيدٍ ونحوه، فيبلّغون لهم ذلك، ويبيّنونه، ليعلمُوه، ويعمَلُوا بمقتضاه، وما سوى ذلك من القِصص الخارجة عن أمور التّكليف العلميّة والعمليّة، فليس بواجبٍ عليهم تبليغه، فاحترز من ذلك بقوله: ﴿وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾، وأجيب أيضًا: بأنّ المرادَ: ليبيننُّه لعوامّ النّاس، ولا يكتمونه عن خواصّهم؛ أي: ألقوه مبيَّنًا، وغير مبيّن بحسب الحاضرين، أو أمروا ببيان ما نُزِّل منه، أو ألقوه؛ لأنّهم كانوا يلقونه لهم غير مُبيَّن، وأن لا يكتموا عنهم ما يُنزَل منه في المستقبل"[1].

بيان معنى العطف بالفاء:

دلالة العطف المسارعة إلى النبذ، وبيان سوء اليهود بإضاعة كتابهم باستدبارهم إيّاه إهمالًا وتحريفًا

أفادَ العطفُ في قوله تعالى: ﴿فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ﴾ بيانَ سوء اليهودِ في اسْتدْبارِهم لكتابِهم، إضاعةً وإهمالًا وتحريفًا، والَّذينَ نَبَذوه هم علماءُ اليهودِ في عصورِهمُ الأخيرةِ القريبةِ من عهدِ الرِّسالةِ المحمَّديَّة، فالتَّعقيبُ الَّذي بينَ أخذِ الميثاقِ عليهم، وبينَ نَبْذِهم إيَّاه، مَنظورٌ فيه إلى مُبادَرتِهم بالنَّبذِ، عَقِبَ الوقتِ الَّذي

(1) البسيلّي، التّقييد الكبير، ص: 607.

تحقَّقَ فيهِ أَثَرُ أخذِ الميثاقِ، وهو وقتُ تأهُّلِ كلِّ واحدٍ من علمائِهم، لتَبيينِ الكتابِ وإعلانِه، فهو إذا أَنِسَ من نفسِه المَقدِرةَ على فهمِ الكتابِ والتَّصرُّفِ في معانيه، بادَرَ باتِّخاذِ تلكَ المقدرةِ وسيلةً لِسُوءِ التَّأويلِ والتَّحريفِ والكتمانِ، ويجوزُ أن تكونَ الفاءُ مُستعملَةً في لازِمِ التَّعقيبِ، وهو شدَّةُ المسارعةِ لذلكَ عندَ اقتضاءِ الحالِ إيَّاه، والاهتمامُ به، وصَرْفُ الفكرةِ فيه، ويجوزُ أن يكونَ التَّعقيبُ بحسبِ الحوادثِ، أساؤُوا فيها التَّأويلَ، واشْتَرَوا بها الثَّمنَ القليلَ؛ لأنَّ الميثاقَ لَمَّا كانَ عامًّا كانتْ كُلُّ جُزئيَّةٍ مأخوذًا عليها الميثاق، فالجُزئيَّةُ الَّتي لم يَعمَلُوا فيها بالميثاقِ يكونُ فيها تعقيبُ ميثاقِها بالنَّبذِ والاشْتراء[1].

بلاغة الاستعارة التّرشيحيّة في لفظ (النبذ):

وجه الاستعارة التّرشيحيّة استعمالُ لفظ (فنبذوه) لإخلافِ العَهدِ

النَّبذُ وراءَ الظَّهرِ مَثَلٌ في الطَّرْحِ وتركِ الاعْتدادِ، ونَقيضُه: جعله نُصْبَ عَيْنيه، وألقاهُ بين عَينيه، وهو هنا مُستعارٌ لعدَمِ العملِ بالعهدِ، تَشْبيهًا للعهدِ بالشَّيءِ المَنبوذِ في إضاعتِه وعدمِ الانتفاعِ به[2]، وشأنُ الشَّيءِ المرغوبِ عنه أن يُسْتَدبَرَ ولا يُلتفتَ إليه، وفي هذا التَّمثيلِ ترشيحٌ لاسْتعارةِ النَّبذِ لإخلافِ العَهْد[3].

خصائصُ الفعلِ (نَبَذَ)، وأثرُه في بيان هذه الآية:

نبذُ الكتابِ وراءَ الظّهورِ، تَخَلٍّ عن أمانةِ التّكليفِ المقدّسةِ

قوله تعالى: ﴿فَنَبَذُوهُ﴾ من الفعل (نَبَذَ)، ولهذا الفعل خصائصُ عجيبةٌ، فهو في الأصل بمعنى الطّرحِ، يقال: نَبَذَ الشّيءَ من يده، أي طرحَهُ ورَمَى به، ومن مجازِ هذا الفعل، قولهم: (نَبَذَ أمري وراءَ ظَهرِه)، إذا لم يعمل به، ومنه قوله تعالى: ﴿نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ﴾، قالوا: ويتعيّن أن يكونَ نَبَذَ من

(1) ابنُ عاشور، التّحرير والتّنْوير: 4/191 - 192.

(2) الزّمَخْشري، الكشّاف: 1/486.

(3) وهو ما يُسمَّى بالاستعارة التّرشيحيَّة، وهي كذلك هنا من قَبيل الاستعارة المكنيَّة، حيث حذف المشبّه به وهو الإنسان، ورمز إليه بشيءٍ من لوازمه وهو الظَّهر، وذكر معها ما يلائم المشبَّه به وهو الميثاقُ، الَّذي يعود إليه الضمير: (الهاء) في قوله: ﴿فَنَبَذُوهُ﴾ ومن ذلك يتَّضح أنّ الاستعارة سواءٌ أكانت مكنيَّة أم تصريحيَّة، إذا استوفتْ قرينتها، وذُكر معها ما يلائم المشبَّه به، فإنَّها تُسمَّى استعارةً مرشَّحة، ينظر: عبد العزيز عتيق، علم البيان، ص: 186 - 187.

أفعال التّحويل، أو التّصيير، لدلالتها على الانتقالِ من حالةٍ إلى حالةٍ أخرى، وعلى هذا، فـ ﴿كِتَٰبَ ٱللَّهِ﴾ مفعولٌ به أوّل، و﴿وَرَآءَ ظُهُورِهِمۡ﴾ مفعولٌ به ثانٍ، ويبعدُ بل يتعذّرُ جعله ظرفًا ل(نَبَذَ)؛ لأنّ الظّرف لا بدّ أن يكون حاويًا لفاعل العامل فيه، والنّابذون غير كائنين وراءَ ظُهورهم، على أنّ بعضَ النّحاة لا يشترِطُون وجودَ الفاعل والمفعول في الظّرف، وقال ابنُ حجر في شرح المنهاج: "ولك أن تقولَ: إنّ للقاعدة وجهًا وجيهًا، لأنّ ظرفَ المكان من الحسّيّات، فإذا جُعل ظرفًا لفعل حسّيٍّ متعدّ، لزم كونُ الفاعل والمفعول فيه، لأنّ الفعلَ المذكورَ لا يتحقّقُ إلّا بوجودهما، بخلافِ الفعل المعنويّ؛ فإنّه أجنبيّ من الظّرفِ الحسّي، فاكتفى بما هو لازمٌ له، لكلّ تقدير، وهو الفاعل فقط"[1].

بلاغة المجاز المرسل في لفظ الاشتراء:

وجه المجاز بيان حرص اليهود على الثّمنِ القليل، والزهد في بيانِ ما أمرَهُمُ اللهُ ببيانِه في التّوراة

الاشْتراءُ في قوله: ﴿وَٱشۡتَرَوۡاْ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلٗاۖ فَبِئۡسَ مَا يَشۡتَرُونَ ١٧٧﴾ مجازٌ مُرْسَلٌ[2]، بعلامةِ اللُّزوم، أُطلقَ الاشْتراءُ على لازِمِه الثّاني، وهو الحرصُ على شيءٍ، والزُّهدُ في ضِدِّه، أي: حَرَصوا (اليهودُ خاصّةً) على الثَّمنِ القليل، وزهِدُواْ في بيانِ ما أمرَهُمُ اللّه ببيانِه في التَّوراة - بعدَ أنْ أخذَ اللّهُ عليهمُ الميثاقَ بذلك - مقابلَ الرُّشَى والجوائزِ من أهلِ الأهواءِ والظُّلم، من الرُّؤساءِ والعامَّةِ من أجل تأييدِ المظالم والمفاسدِ بالتَّأويلاتِ الباطلة، وتأويلِ كُلِّ حكم فيه ضَرْبٌ على أيدي الجبابرَةِ والظَّلَمةِ، بما يُطلقُ أيديهم في ظلمِ الرَّعيَّةِ، من ضُروب التَّأويلاتِ الباطلة، وتحذيرات الَّذين يَصْدَعون بتغييرِ المنكرِ.

دلالة الجار والمجرور ﴿بِهِۦ﴾:

المعنى: بيانُ كمالِ فظاعةِ حالِ أهلِ الكتاب، وغايةِ قُبحِهم

وفي دخولِ الباءِ على الكتابِ الَّذي دلَّت عليه الهاء، في ﴿بِهِۦ﴾ والَّذي من حقِّهِ أنْ يتنافسَ فيه المتنافِسونَ، جَزَالةٌ وأيُّ جَزَالة، ودَلالةٌ أيُّ دَلالةٍ، على كمالِ فظاعةِ حالِ أهلِ الكتاب، وغايةِ قُبحِهم،

(1) درويش: إعراب القرآن وبيانه: 1/155.

(2) تقدَّم بيانُ المجازِ المرسَل، بعلاقة اللُّزوميّة في فقرة الإيضاح اللُّغويّ والبلاغيّ في [آل عمران: 177].

بإيثارهمُ الدَّنيءَ الحقيرَ على الشَّريفِ الخطير، وتعكيسِهم بجعلِهم المقصَدَ الأَصْليَّ وسيلةً، والوسيلةَ مَقصَدًا، ما لا يَخفى جلالةُ شأنِه، ورِفعةُ مكانِه، وجاءتْ ﴿مَا﴾ في قوله: ﴿فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾ صفتُه، والمخصوصُ بالذَّمِّ محذوف، تقديرُه: (بِئْسَ شيئًا يشترونَه ذلكَ الثَّمن)[1].

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

التَّبيين والإظْهار

سبقَ بيانُ الفعلِ ﴿لَتُبَيِّنُنَّهُۥ﴾ في فِقرة: شرح المفردات، وأمَّا (الإظهارُ) فهو من قولِنا: ظهرَ الشَّيءُ؛ أي: بَرَزَ، وأصلُه: أنْ يحصُلَ شيءٌ على ظهرِ الأرضِ فلا يَخفى، ومقابلُه أنْ يُقالَ: بَطَنَ؛ إذا حصَلَ في بُطْنانِ الأرضِ فيَخفَى، ثمّ صارَ مُستعمَلًا في كلِّ بارزٍ مُبصَرٍ بالبَصَرِ والبَصيرة، قالَ تعالى: ﴿مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ [الأنعام: 151]، وقالَ سُبحانه: ﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [الروم: 7]؛ أي: يعلمونَ الأمورَ الدُّنيويّة دونَ الأُخرَويَّة، وقولُه تعالى: ﴿فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾﴾ [الجن: 26]؛ أي: لا يُطلعُ عليه[2]، وممَّا تقدَّم يتبيَّنُ لنا أنَّ (التَّبيينَ)، أَوْقعُ أَثَرًا في سياقِ النَّصِّ القرآنيِّ من (الإظهار)؛ لأنَّ التَّبيينَ معناه الكشفُ عن المعنَى المَقصود، وقد يكونُ شَرحًا لما أُبهِمَ أو أُجمِلَ، أو تخصيصًا لعامّ، أو تقييدًا لِمُطلَق، فهو إظهارٌ وزيادةٌ، وليس مجرَّدَ إظهارٍ فَحَسْب.

الكِتمان والإخفاء والإسرار[3]:

تحدّث القرآن فيما سبق عن المنافقين في كتمانِهم للكفر، وإظهارِهم للإيمانِ خداعًا وزورًا، باستعمال لفظ الكتمان، لكنّه هنا يتحدّث عن أهل الكتاب، وخاصَّةً اليهودَ في كتمانِهمُ العلمَ الحقَّ الَّذي أنزلَه اللّه عليهم في كتابِهم، وتحريفِهم للحقائق، وكَذِبِهم في إظهارِ الأحكامِ على غيرِ وجهِها الصَّحيح، مع أنَّ اللّه أخذَ عليهمُ الميثاقَ، أن يُبيِّنوا

(1) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 2/125.

(2) الرّاغب، المفردات، ص: 541.

(3) تبيَّنَ لنا فيما سبقَ في فِقرة: الفروق المعجميَّة في [آل عمران: 167]، الفرق بين: (الكِتمان) و(الإخفاء) و(الإسرار)، وكلا السِّياقين هناك وهنا، يتكلّم عن كتمان الحقِّ، إلّا أنَّه في السِّياق السَّابق، جاء في معرض الكلام عن المنافقين، وفي هذا السّياق جاء كلامًا عن اليهود المشاكسين، فلا يعتبر إدراجه هنا تكرارًا.

ولا يَكتُموا، والكِتمانُ يختصُّ بالمعاني والأخبارِ، ولا يُستعمَلُ إلَّا فيهما، خلافَ الإخفاءِ والإسرارِ، ومن ذلك خبرُ البِشارةِ برسولِ اللهِ ﷺ في كتابِهم، ولكنَّهم طَرَحُوا ذلكَ كلَّه وراءَ ظهورِهم إهمالًا وتَضْييعًا، واسْتبدَلوه بما دونه اسْتخفافًا وجَوْرًا، قال ابن عادل الدّمشقيّ: "قال القاضي: الكتمانُ ترك إظهار الشَّيء مع الحاجةِ إليه، وحصول الدّاعي إلى إظهاره؛ لأنَّه مَتَى لم يكن كذلك، لا يُعَدُّ من الكتمان، فدلَّت الآية على أنَّ ما يتَّصلُ بالدِّين، ويحتاجُ المكلَّف إليه، لا يجوزُ كتمانه"[1].

النَّبذ والطَّرْح

النَّبذُ: اسْمٌ لإلقاءِ الشَّيءِ استهانةً به، وإظهارًا للاستغناءِ عنه[2]، وهذا هو واقعُ الحالِ الَّذي كان عليه أهلُ الكتاب، وخاصَّةً اليهود، وكما صوَّرتْه لنا الآيةُ الكريمة وسياقُها في خيانتِهم لميثاقِ ربِّهم، وكِتمانِهم لما أمرَهمُ اللهُ به من البَيان، ولكنَّهم أَلْقَوْه استهانةً به واستغناء عنه،، وهذا المعنى بحذافيرِه لا تُحقِّقُه كلمةُ (الطَّرح) ولا الفعلُ (طَرَحوه)؛ لأنَّ الطَّرحَ اسْمٌ لجنسِ الفعل، وهو يكونُ بالاسْتهانةِ وغيرِها، وليس خاصًّا بمعنَى إظهارِ الاسْتغناء عن الشَّيء[3]، والنّبذُ عبّر عنه السّياق بقوله ﴿فَنَبَذُوهُ﴾، بعد ما لزمهم تلقّيه بالقبول، كَأَنَّهُمْ لا يَعْلَمُونَ أنّه كتابُ اللّه لا يدخلهم فيه شكّ، يعنى أنّ علمهم بذلك رصينٌ، ولكنّهم كابروا وعاندوا، ونبذُوه وراء ظُهورهم، فمثّل لتركِهم وإعراضِهم عنه، بما يُرمى به وراءَ الظّهر، استغناءً عنه، وقلّةَ التفاتٍ إليه، وعن الشّعبي: هو بين أيديهم يقرؤُونه، ولكنّهم نبذوا العمل به، وعن سفيان: أدرجُوه في الدّيباج والحَرير، وحلّوه بالذّهب، ولم يحلُّوا حلالَه، ولم يحرّموا حرامَه"[4].

اشْترى وبدَّلَ

هنا حديثُ القرآن عن اشْتراءِ أهلِ الكتابِ الثَّمنَ البخْسَ بالكتاب، بما فيه من علمِ الشَّريعةِ الَّذي أخذَ اللّهُ عليهمُ الميثاقَ أن يُبيِّنوا ما فيه ولا يَكتُموه، فالعلَّةُ واحدةٌ؛ وهي

(1) ابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 3/104.
(2) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 530، والرّاغب، المفردات، ص: 788.
(3) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 530.
(4) الزّمَخْشري، الكشّاف: 1/171.

استبدالُ الَّذي هو أدْنى بالَّذي هو خير، وهذا ما يُحقِّقه من حيث المعنَى الدَّقيقُ الفعلُ (اشْترى) دونَ (استبدل)؛ لأنَّ الشِّراء أعمُّ من الاستبدال؛ وفيه دفعٌ للثَّمن، وأيُّ ثمن!! إنَّه دَفْعُ أهلِ الكتابِ كتابَ ربِّهم بما فيه من علم الشَّريعة وأحكامها، من أجل ثمنٍ قليلٍ من الرُّشى والوَجاهات، وتحريفِ الأحكامِ وتعطيلِها، مقابلَ إرضاءِ الطُّغاة والظَّالمين؛ لتحقيقِ أطماعِهم، وتسويغِ تسلّطهم، وتبرير قمعهم لأقوامهم.

﴿لَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡرَحُونَ بِمَآ أَتَواْ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحۡمَدُواْ بِمَا لَمۡ يَفۡعَلُواْ فَلَا تَحۡسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٖ مِّنَ ٱلۡعَذَابِۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ١٨٨﴾

[آل عمران: 188]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

المناسبةُ بين نبذِ اليهود ما كُلّفوا ببيانه، وفرحهم بما خادعُوا به المسلمين

بعد أن بيَّن اللهُ ﷻ في الآية السَّابقة، اختلالَ أمانةِ أهل الكتاب في تبليغ الدِّين، جاءتْ هذه الآيةُ الكريمةُ تكملةً لأحوالهم؛ حيث يفعلون الشَّرَ، ويُوغلون في الظُّلم، والصَّدِّ عن سبيل الله، ثمَّ يترقَّبونَ ثناءَ النَّاسِ على سوء صنيعهم، ويتطلبَّونَ المَحمدَة على ما لم يفعلوه من الخَير، و"إيذاء أهل الكتاب للنّبيّ كثيرٌ، والعجيبُ أن يطعنواْ في الدّين، وهم قد أمرُوا بأن يشرحُواْ للنّاس، ويُبيّنوا حقيقةَ النّبيّ ﷺ وصفتَه الّتي في كتبهم، ولكنّهم فرحُواْ بما أوتواْ وكتمُواْ ما أُنزل عليهم"[1]، ومن تطلّب المدحَ بما لم يفعل، فهو مغرورٌ مخدوعٌ، ولا يمكنُه النّجاةُ من العذابِ المحتوم، جزاءَ ما قدّمت يداه.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿بِمَآ أَتَواْ﴾: معناها بما فعلوا في إضلال النّاس، "وتلك طبيعة الضّال دائما، فالضّال يفرح بكلّ ما يعمله، ويزيَّنُ له سوءُ عملهِ فيراهُ حسنًا، ويحبّ أن يُحمد بما لم يفعل"[2]، و﴿بِمَآ أَتَواْ﴾ هي قراءة أبيّ بن كعب، وقرأ النّخعيّ ﴿بِمَآ أَتَواْ﴾ أي أَعطوا[3]، وقراءة سعيد بن جبير: (أُوتُواْ) بمعنى: (أُعطوا) بضمِّ الهمزة والتّاء، وعلى قراءته يستقيم المعنى الّذي قال، وهو أنّ" الآية في اليهود، فرحوا

(1) الحجازيّ، التّفسير الواضح: 1/319.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 3/1543.
(3) النّسفيّ، مدارك التّنزيل: 1/319.

بما أعطى اللّه آل إبراهيم من النّبوءة والكتاب، فهم يقولون: نحن على طريقهم، ويحبّون أن يحمدوا بذلك، وهم ليسوا على طريقتهم"[1]، ومعنى اللّفظ في الآية متّصل بمعناها العامّ، "فهم أهلُ الكتاب أُنزل عليهم الكتاب، فحكَمُوا بغير الحقّ، وحرّفوا الكلمَ عن مواضعه، وفرِحُوا بذلك، فرحوا بأنّهم كفرُوا بمحمّد، وما أنزل إليه، وهم يزعُمُون أنّهم يعبدون اللّه، ويصومون ويصلّون ويطيعون اللّه، فقال تعالى لمحمّد: ﴿لَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡرَحُونَ بِمَآ أَتَواْ﴾ كفروا باللّه، وكفروا بمحمّدٍ"[2]، فذلك ما فعلوه على الحقيقة.

2) ﴿بِمَفَازَةٍ﴾: المفَازةُ من الفوز: الظَّفَرُ بالخيرِ، مع حصولِ السَّلامة، وقولُه تعالى: ﴿فَلَا تَحۡسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٖ مِّنَ ٱلۡعَذَابِۖ﴾، فهي مصدرُ فازَ، والاسمُ: الفَوْزُ؛ أي: لا تحسبَنَّهم يَفوزونَ ويتخلَّصونَ من العذاب، يعني: ليسواْ بمنجاةٍ من العذاب، وفي قولِه تعالى: ﴿إِنَّ لِلۡمُتَّقِينَ مَفَازًا ٣١﴾ [النبأ: 31]؛ أي: فوزًا، أو مكانَ فوزٍ، ثم فُسِّرَ فقال: ﴿حَدَآئِقَ وَأَعۡنَٰبٗا ٣٢﴾ [النبأ: 32][3]، وقوله: ﴿بِمَفَازَةٖ مِّنَ ٱلۡعَذَابِۖ﴾؛ أي بمنجاة منه؛ لأنّ النّجاةَ من أعظم الفلاح، وسببُ منجاتهم العملُ الصّالحُ، ولهذا فسّر ابن عبّاس رضى اللّه عنهما المفازةَ بالأعمالِ الحسنةِ، "ويجوزُ بسببِ فلاحهم؛ لأنّ العملَ الصّالحَ سببُ الفلاح، وهو دخولُ الجنّة، ويجوزُ أن يسمّى العمل الصّالح في نفسه مفازة، لأنّه سببُها"[4].

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

بيان المصير المخزي لأهل الكتاب، الطّامعين في الحمد بما لم يفعلوا

هذا فريقٌ آخرُ من أهلِ الكتاب عبَّرَ عنهم بيانُ اللّهِ بالموصولِ ﴿ٱلَّذِينَ﴾، للتَّوصُّلِ إلى أنّهم جَمعُوا بين فعلِ الشَّرِّ وقولِه، والفَرَحِ بذلك، ومحبَّةِ الثَّناءِ على فعلِ الخيرِ الَّذي ما فعلوه[5]، وخلاصة المعنى: أنّه يقول: لا تظننّ فرحَهم بما كان منهم من الأعمال، سيؤول بهم إلى النّجاة في العقبى، وهم مخطئون في اعتبار أنفسهم من الصّلحاءِ المرضيين، فهم يحبّون أن يحمدُواْ بما لم يفعلُوا، ويتكلّفون

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 1/552.
(2) ابن أبي حاتم، تفسير القرآن العظيم: 3/838.
(3) الرّاغب، المفردات، ص: 647 - 648، وابن منظور، اللّسان: (فَوَزَ).
(4) الزّمَخْشري، الكشّاف: 4/140.
(5) السّعدي، تيسير الكريم الرّحمن: 2/126.

التّقوى والصّلاح، وما هم بالأتقياء ولا بالصّلحاءِ، بل تراهم يسلكون مسلكًا من التّظاهر الزّائف، والرّياء البرّاق، فلا تحسبنّهم بمنأى عن العذاب، في يوم الحساب؛ لأنّ أعمالهم ستردّ عليهم، وتكون هباءً منثورًا، وسيؤولون إلى العذابِ الشّديدِ، والهوان الأكيد، لمزاولتهم الرّياء وقيامهم بتزييف الحقائق[1].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

أثرُ القراءة القرآنيّة في إثراءِ المعنَى:

المعنيُّ بقراءة الياء الفرحون، والمعنيُّ بقراءة التاء النبيّ محمَّدٌ ﷺ

وفي قولِه: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ﴾ قراءتان[2]: الأُولى: (لا يَحسَبَنّ) بالياء، والثّانية: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ﴾ بالتّاء، فمن قرأ بالياء؛ فمعناه: لا يَحسَبَنَّ الفارِحونَ فَرحَهم مُنجيًا لهم من العذاب، ومن قرأ بالتّاء؛ فمعناه: لا تَحسَبَنّ يا محمَّدُ ﷺ الفَارحين فرَحَهم، بمفازةٍ من العذاب، وخبرُه في الباء[3].

تحتمل قراءة التاء العموم؛ لِيَعُمَّ كلَّ مُخاطَب، وفيه تشويقُ السَّامعِ إلى سماعِ المَنهيِّ عن حُسبانه

ويجوز على قراءةِ الجُمهور: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ﴾ - بتاء الخطاب - أن يكون خطابًا لغيرِ مُعيَّن، لِيَعُمَّ كلَّ مُخاطَب، ويكونَ تكرارُ فعلِ الحُسبان في قولِه: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّهُم﴾ اعتراضًا بالفاءِ أيضًا، والخطابُ للنبيِّ ﷺ مع ما في حَذفِ المفعولِ الثَّاني، لفعلِ الحُسبانِ الأوَّل، وهو محلُّ الفائدة، والبلاغة الرَّاقية من تشويقِ السَّامعِ إلى سماعِ المَنهيِّ عن حُسبانه[4].

توجيه قراءة ضمّ الباء في قولِه: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّهُم﴾:

في قولِه تعالى: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّهُم﴾ قراءتان[5]: الأُولى: بالتَّاءِ

(1) ابن الخطيب، أوضح التّفاسير، ص: 87 (بتصرّف).
(2) الأولى قراءة ابن كثير، ونافع، وابن عامر، وأبي عمرو، وأبي جعفر، والثّانية قراءة الباقين من العشرة، ينظر: الفارسيّ، الحجَّة: 3/101، وابن الجزَري، النّشر: 2/244.
(3) ابن زنجلة، الحُجَّة، ص: 186 - 187، وابن الباذش، الإقناع: 2/625، ومكيّ، الكشف: 1/369.
(4) ابنُ عاشور، التّحرير والتّنوير: 4/194 - 195.
(5) الأولى: قراءة الجمهور، والثّانية: قراءة ابن كثير، وأبي عمرو، ابن مهران، المبسوط، ص: 149، وابن فارس، الحُجة: 3/100 - 101.

وفتحِ الباء، إعادةُ توكيد، والثَّانيةُ: بالياءِ وضمِّ الباء، خبرًا عن الفارحين؛ أي: فلا يَحسَبُنَّ أنفُسَهم[1]، وأفادتْ قراءةُ الجمهور بفتح الباء المُوَحَّدة، في قولِه: ﴿فَلَا تَحۡسَبَنَّهُم﴾، أنَّ الفعلَ لخطابِ الواحد، وهو إعادةُ تَوكيد، وأفادتْ قراءةُ غيرِهم، بضمِّ الباءِ الموَحَّدَة في قوله: ﴿فَلَا تَحۡسَبَنَّهُم﴾ أنَّ الخطابَ للجَمعِ، وحيثُ إنَّ الفريقين قَرَأا أوَّلَه - بياءِ الغَيْبة - فَضَمُّ الباء عندئذٍ يجعلُ فاعلَ (يَحسَبنَّ) ومفعولَه مُتَّحدَيْن، أي: لا يَحسَبونَ أنفُسَهم، واتِّحادُ الفاعلِ والمفعولِ به للفعلِ الواحدِ من خصائصِ أفعال الظَّنِّ، كما هو معلومٌ، وكما هو هنا[2].

سرّ التعبير بالاسم الموصول:

جاء البيانُ الإلهيُّ بالموصولِ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ في قوله تعالى ﴿لَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡرَحُونَ بِمَآ أَتَواْ﴾؛ ليُعبِّرَ عنِ المذكورينَ، أوْ عن مشاهيرِهم، من أهلِ الكتاب - واليهود خاصَّةً - بما هو حالُهم العجيبةُ مِن حالِ مَن يَفعل الشَّرَّ والخِسَّةَ، ثمّ لا يقفُ عند حدِّ الانْكسار لما فعلَ، أو طلبِ السِّترِ على شَنعتِه؛ بل يرتَقي فيَترقَّبُ ثناءَ النَّاسِ على سوءِ صُنعِه، ويتطلَّبُ المحمدَةَ عليه، فالموصول هنا بمعنى المعرف بلام العهد؛ لأنه أريد به قوم معينون من اليهود أو المنافقين[3].

عمومُ هذه الآيةِ يتناولُ خيبةَ فَرَحِ كُلّ مؤمّل، أن يَحمدَه النَّاسُ بما لم يفعل

فقد وردَ عنِ ابن عباس - رضي الله عنهما - أنَّه قال: «إنَّما دعا رسولُ اللّهِ ﷺ يهودَ، فسألَهم عن شيءٍ، فَكتموه إيَّاه، فأخبرُوه بغيرِه، وأرَوْه أنَّهم أخبروه بما سألَهم عنه، ليستَحمِدوا بذلكَ إليه، وفَرِحوا بكتمانِهم إيَّاه ذلك، فنزلتْ فيهم هذه الآية»[4]، ووردَ أنَّ المرادَ بهم المنافقونَ، كما روى أبو سعيدٍ الخُدْريُّ - رضي الله عنه - : "أنَّ رجالًا من المنافقينَ كانوا إذا خرجَ رسولُ اللّه ﷺ إلى الغزوِ، تخلَّفوا عنه، وفرحُوا بِمَقعدِهم

(1) النّيسابوريّ، باهر البرهان: 1/340، وابن الأنباري، البيان في غريب إعراب القرآن: 1/233.

(2) ابن خالويه، إعراب القراءات السَّبع: 1/125، وابن الأنباري، البيان في غريب إعراب القرآن: 1/233، وابنُ عاشور، التّحرير والتّنْوير: 4/195.

(3) ابنُ عاشور، التّحرير والتّنْوير: 4/193.

(4) البخاريُّ، الحديث رقم: 4568، ومسلم، الحديث رقم: 2778.

خلافَ رسول الله ﷺ، فإذا قدمَ رسولُ الله ﷺ من الغَزْوِ اعتَذروا إليه، وحَلَفُوا وأَحَبُّواْ أن يُحمَدُوا بما لم يَفعَلوا؛ فنزلتِ الآية"[1]، ويمكنُ الجمعُ بين هذين القولَيْن بأن تكونَ الآيةُ نزلتْ في الفريقَيْن معًا، وعمومُ هذه الآيةِ أوْلى بأن يَتناولَ كلَّ مَنْ أتَى بحسنَةٍ، ففرحَ بها فَرَحَ إعْجاب، وأحبَّ أن يَحمدَه النَّاسُ، ويُثْنُواْ عليه بما ليس فيه.

سرّ إعادة فعل الحسبان:

إعـادة الفعل (تَحسَبَنَّ)؛ لتوكيدِ الحكم الواقع على اليهود وتقريرِه، وإلصاقِه بهم

وقوله تعالى ﴿فَلَا تَحۡسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٖ مِّنَ ٱلۡعَذَابِۖ﴾، هو بدل من قوله سبحانه: ﴿لَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡرَحُونَ بِمَآ أَتَواْ﴾، وإعادة الفعل ﴿تَحۡسَبَنَّ﴾، هنا لتوكيدِ الحكم الواقع عليهم وتقريرِه، وإلصاقِه بهم، بعد أن طال الفصل بالمفعول الأوّل ومتعلّقاته، بين الفعل (حسب) ومفعوله الثّاني[2]، وعلّة ذلك أنّه إذا طال الفصلُ من الكلام، وكان أوّله يفتقرُ إلى تمام، لا يفهم إلّا به؛ فالأولى في باب الفصاحة، أن يعادَ لفظ الأوّل مرّة ثانيّة؛ ليكون مقارنا لتمام الفصل؛ كي لا يجيء الكلام منثورًا؛ فالإعادة أحسنُ في حكم البلاغة والفصاحة؛ فإن لم يُعد اللفظُ مرّة ثانيّة، لم يأتِ على الكلام بهجةٌ ولا رونقٌ، وهذا لا يتنبّه لاستعماله إلّا الفصحاء، إمّا طبعًا وإمّا علمًا[3].

بلاغة الإيجاز في حذف المفعول:

وجه الاستغناء بالمذكور دلالة ما بعده عليه، وليذهب العقلُ كلّ مذهبٍ فيما يتناسب مع وصفه تعالى لهم

جاءَ تركيب الآيةِ: ﴿لَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡرَحُونَ بِمَآ أَتَواْ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحۡمَدُواْ بِمَا لَمۡ يَفۡعَلُواْ فَلَا تَحۡسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٖ مِّنَ ٱلۡعَذَابِۖ﴾ على نَظم بديع، إذْ حُذِفَ المفعولُ الثَّاني، لفعلِ الحُسبانِ الأوَّل، لدَلالةِ ما يدُلُّ عليه وهو مفعولُ ﴿فَلَا تَحۡسَبَنَّهُم﴾، والتَّقديرُ: لا يحسبَنَّ الَّذين يفرحون أنفُسَهم بمفازةٍ[4]، و"المفعول الثّاني محذوفٌ دلّ عليه

(1) البخاريُّ، الحديث رقم: 4567، ومسلم، الحديث رقم: 2777.
(2) الخطيب، التّفسير القرآني للقرآن: 2/669.
(3) ابن الأثير، المثل السائر: 2/155.
(4) العكبري، التبيان: 1/162، وابنُ عاشور، التّحرير والتّنْوير: 4/194.

ما بعده، وتقديرُ الكلام هكذا: ﴿لَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡرَحُونَ بِمَآ أَتَواْ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحۡمَدُواْ بِمَا لَمۡ يَفۡعَلُواْ﴾، موفّقين أو مهتدين، أو صالحين، وحذف لدلالة ما بعده عليه، وليذهب العقلُ كلّ مذهبٍ فيما يتناسب مع الوصف الّذي وصفهم سبحانه به، وهو أنّهم يزيّنون أعمالهم، ويرغبُون في المدح الكاذب، فإنّ ذلك هو الضّلالُ البعيدُ، وليُرتّب السّامعُ عليه ما شاء من عدم الهداية، وعدم التّوفيق، والبعد عن الخير والنّفع، فكلّ ذلك وغيره، يتضمّنه الكلامُ المحذوفُ"[1].

نكتة تصدير الوعيد بالنّهي عن الحُسبان:

وجه التصدير بالنهي؛ للتّنبيه على بُطلان آرائِهم، وقطعِ أطماعِهمُ

جاء الوعيدُ في قولِه تعالى: ﴿بِمَفَازَةٖ مِّنَ ٱلۡعَذَابِۖ﴾، بعد تصديرِهِ بالنَّهي عن الحُسبان في قولِه: ﴿فَلَا تَحۡسَبَنَّهُم﴾، للتَّنبيه على بُطلان آرائِهمُ الرَّكيكَة، وقطعِ أطماعِهمُ الفارِغة؛ حيث كانوا يَزعُمونَ أنَّهم يَنجُون بما صَنعُوا من عذابِ الآخرة، كما نَجَوْا به من المؤاخَذةِ الدُّنيويَّة، وعليه كان مَبْنَى فَرَحِهم.

وجه النّهي التَّعريض بحُسبانِهمُ المذْكور، لا لاحتمالِ وُقوعِ الحُسبانِ من جهتِه ﷻ

وأمَّا نَهيُه ﷻ فهو للتَّعريضِ بحُسبانِهمُ المذْكور، لا لاحتمالِ وُقوعِ الحُسبانِ من جهتِه ﷻ.

دلالة حرف الجرّ ﴿مِّنَ﴾:

معنى (من) البدلية، أو تضمين معنى (عن)

قال ابن عاشور: "ولما كانت المفازة مجملة بالنسبة للفوز الحاصل فيها بَيَّن ذلك بقوله: ﴿مِّنَ ٱلۡعَذَابِۖ﴾، وحرف ﴿مِّنَ﴾ معناه البدلية، مثل قوله تعالى: ﴿لَّا يُسۡمِنُ وَلَا يُغۡنِي مِن جُوعٖ ٧﴾ [الغاشية: 7]، أو بمعنى (عن) بتضمين (مفازة) معنى منجاة"[2].

سرّ تقديم الجار والمجرور:

وتقديم الجار والمجرور ﴿وَلَهُمۡ﴾ في قوله: ﴿وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾؛ "

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 3/1543.
(2) ابنُ عاشور، التّحرير والتّنْوير: 4/194.

للتنبيه على أنه خبر لانعت حتى يستقر بمجرد سماع المبتدأ العلم بأن ذلك من صفاتهم فلا تلهو النفس عن تلقيه"[1].

وجه التقديم التنبيه على خبريّة الجملة؛ لإثبات صفة العذاب فيهم

بلاغة إيثار صيغة الصفة المشبّهة على صيغة المفعول:

والأليم فعيل بمعنى مفعول؛ لأن الأكثر في هذه الصيغة أن الرباعي بمعنى مفعل وأصله عذاب مؤلم بصيغة اسم المفعول، أو هو فعيل بمعنى فاعل من ألم بمعنى صار ذا ألمٍ[2]، وصيغة فعيل في الصفة المشبهة تدلّ على أنّ الوصف قد وقع على صاحبه على وجه الثبوت أو قريب من الثبوت فأصبح فيه كالسجيّة والخلقة والطبيعة؛ وعلى هذا تكون أبلغ في الوصف وأشدّ من صيغة مفعول، وهي صفة لا تُطلق إلا إذا اتّصف صاحبها بها، على خلاف صيغة مفعول فإنه قد يطلق على ما اتّصف به صاحبه أو لم يتّصف، بمعنى: أنه سيتّصف[3].

إيثار صيغة فعيل لبيان ثبوت صفة العذاب فيهم، وتحقّق وقوعها لهم

بلاغة المجاز العقلي في الفاصلة:

والتعبير عن الإيلام بصيغة اسم المفعول، أي: مؤلمٌ من يُعذَّبُ به جاء على طريقة المجاز العقلي؛ لأن المؤلم هو المعذَّب دون العذاب كما قالوا جَدَّ جِدُّه[4].

طريقة المجاز العقلي؛ لأن المؤلم هو المعذِّب دون العذاب

بلاغة التوكيد في الفاصلة:

وقولُه تعالى: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، بعدَما أُشيرَ إلى عَدَمِ نجاتِهم من مُطلَقِ العذاب، حُقِّق أنَّ لهم فَردًا منه لا غايةً له في المُدَّةِ والشِّدَّة، كما تلوّحُ به الجملةُ الاسميَّةُ، وتقديمُ شِبهِ الجملةِ عليها، والتَّنكيرُ التّفْخيميُّ والوَصْف[5]."وفي قوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، توكيدٌ للحكم الّذي أشار إليه قوله تعالى: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ

وجه التوكيد؛ دفعُ توهّم ظنيّة فعل الحسبان بتحقّق العذاب

(1) ابنُ عاشور، التّحرير والتّنْوير: 1/282.
(2) ابنُ عاشور، التّحرير والتّنْوير: 1/282.
(3) د. فاضل السامرائي، معاني البنية: 60 - 63.
(4) ابنُ عاشور، التّحرير والتّنْوير: 1/282.
(5) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 2/126 - 127.

مِّنَ ٱلۡعَذَابِۖ﴾؛ إذ إنّ الفعل (حسب) فيه معنى الظنّ، الّذي يقع من جهة من ينظر إلى اليهود، فيرى أنّهم أصحابُ دين وأهلُ كتاب، وأنّهم في الوقت نفسه، مُنحرفُون في دينهم وكتابهم، وهم من أجل هذا أقربُ إلى العَطَبِ منهم إلى السّلامة، وأدنى إلى النّار منهم إلى الجنّة، هذا هو الحُكم الّذي يقع في ظنّ من يراهم، ويطّلع على أحوالهم، وهو ظنٌّ أقربُ إلى اليقين، ولكنّه مع هذا حكم غير قاطعٍ؛ إذ لا يملكُ هذا الحكمَ القاطعَ فى مصائر النّاس إلّا مالكُ الملك، وصاحبُ الأمر، اللّه ربّ العالمين، وقد جاء حكمُ اللّه فيهم، لتصدقَ ظنونُ النّاس بهم.. ﴿وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، وليس العذاب وحده، هو المصير الّذي يصيرون إليه، ولكنّه العذابُ الأليمُ"[1].

الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الفَرَح والسُّرور

الفرقُ بين (الفَرَح) و(السُّرور)، تقدَّم بيانُ هذا الفرق في [آل عمران آية 170]، والبيانُ الإلهيُّ هنا في هذه الآيةِ استخدمَ الفعلَ ﴿يَفۡرَحُونَ﴾، بدلَ (يُسَرُّون)؛ لأنَّ الفرحَ أكثرُ ما يكونُ في اللَّذاتِ البدَنيَّة الدُّنيويَّة، وقوله: ﴿لَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡرَحُونَ بِمَآ أَتَواْ﴾، "يعني: فنحاصًا وأشيع، وأشباههما من الأحبار، الّذين يفرحون بما يصيبون من الدّنيا على ما زيّنواْ للنّاس من الضّلالة"[2]، أمّا السُّرورُ: فهو ما ينكتِمُ من الفَرَح[3]، وأهلُ الكتاب والمنافقون لا يَكترِثونَ، ولا يَحتَفُونَ إلَّا باللَّذات الدُّنيويَّة، وهم في حالةٍ لا يكتُمون معها فَرَحهم؛ بل يُظهرونَه، تلبيسًا منهم على أهل الإيمان، وظَنًّا منهم كذلك، أنَّ حِيَلَهم وتَزْويرَهم للحقائق الَّتي أخْفَوْها، قد انْطلتْ على رسولِ اللّهِ ﷺ المؤيَّدِ بوحي اللّهِ تعالى وصحابتِه رضي الله عنهم، وهذا ما دعا بيانَ اللّهِ ليستخدمَ الفعلَ ﴿يَفۡرَحُونَ﴾، في سياقه المناسب له.

(أَتَوْا) و(أَعْطَوْا)

معنى ﴿بِمَآ أَتَواْ﴾ في هذه الآية الكريمة: أيّ بما فعلواْ في إضلال النّاس، وتحتمل معنى فرحواْ بما أعطى اللّهُ آل إبراهيم من النّبوّةِ والكتاب، وتحتمل معنى (أُوتُوا)،

(1) عبد الكريم الخطيب، التّفسير القرآنّي للقرآن: 2/669.

(2) ابن جرير، جامع البيان: 7/459.

(3) الرّاغب، المفردات، ص: 128، و404 - 405.

بمعنى أُعْطُواْ، وقال ابن عبّاس أيضا: إنّ الآية نزلت في قوم سألهم النّبي ﷺ عن شيء، فكتموا الحقّ، وقالوا له غير ذلك، ففرحوا بما فعلوا وأحبّوا أن يحمدوا بما أجابوا، وظنّوا أنّ ذلك قد قنعَ به، واعتقدت صحّته"[1]، واللّفظ يحتمل كلّ ذلك، وينسجم به المعنى عبر السّياق، أمَّا الإعطاءُ: ففيه دليلُ التَّملُّك دونَ الإيتاء[2]، وهو بمعنَى الإنالة، كما قالَ تعالى: ﴿حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ﴾، واخْتُصَّت العَطيَّةُ، كما اختصّ العطاءُ بالصِّلة، على نحو قوله تعالى: ﴿هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمۡنُنۡ أَوۡ أَمۡسِكۡ بِغَيۡرِ حِسَابٖ ٣٩﴾ [ص: 39][3]، وأهلُ الكتابِ والمنافقونَ الَّذي نزلتْ هذه الآيةُ في شأنِهم، فلا هؤلاءِ ولا أولئك، كانوا يملكون شيئًا؛ فَمُنزِّلُ التَّوراة هو اللّهُ تعالى، وهم مُؤتمنونَ على القيامِ بما فيها من شريعةٍ في أنفسِهم، وفي غيرِهم بالبَلاغِ والبيَان، والجهادُ الَّذي أُمِرَ به المسلمون، وإنْ كان المنافقون منهم ظاهرًا لا باطنًا، هو فرضُ اللّهِ، فلا يناسبُ مع هذا كلِّه أن يُستخدَمَ الفعلُ (أعْطَوْا) بدل الفعل ﴿أَتَوۡاْ﴾ الَّذي يستوعبُ دَلالاتٍ عديدةً، تتعلَّق بالذَّاتِ والأمرِ والتَّدبيرِ، والأَعْيانِ والأعْراضِ، والخيرِ والشَّرِّ.

مَفازة ومَنْجاة

وقد سبقَ بيانُ معنى المفازة، وهي من الفوز، وهو الظَّفَرُ بالخيرِ، مع حصولِ السَّلامة، وأمَّا المَنْجاةُ، فهي من الفعلِ نَجَا، يُقالُ: نَجَا فلانٌ من فلان، وأَنْجيتُه ونجَّيتُه، قالَ تعالى: ﴿وَأَنجَيۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [النمل: 53]، ونَاجَيْتُه: أصلُه من النَّجاة، وهو أنْ تعاونَه على ما فيه خَلاصُه[4]، وممَّا تقدَّمَ يتبيَّن أنَّ اسْتعمالَ البيانِ الإلهيِّ لكلمةِ ﴿بِمَفَازَةٖ﴾ أَوْلى بالسِّياقِ من كلمةِ (مَنْجاة)، فالمفازة ظَفَرٌ مع سلامة[5]، ومعناها في سياقِ النَّصِّ القرآنيّ: لا تحسبَنَّهم يَظفَرونَ، ويتخلَّصونَ من العذاب، وهذا قطعٌ بأنَّ أهلَ الكتابِ والمنافقين، لن يَظفَروا بخيرٍ أبدًا، ما داموا على ما هم عليه من التَّحريفِ لِلْكَلِم، وتزويرِ الحقائقِ، كما هو شأنُ اليهود، أو إبطانِ الكفرِ، وإظهارِ الإيمان تجمُّلًا وخِداعًا وزُورًا، كما هو حالُ

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 1/552.
(2) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 86.
(3) الرّاغب، المفردات، ص: 572.
(4) الراغب، المفردات، ص: 792 - 793.
(5) ابن منظور، لسان العرب: (فَوَزَ).

المنافقين، وفي هذا السّياق ذكر المقريزيّ في رسائله، صنفًا من النّاس وصفهم بأنّهم شرارُ الخلق، وهم المتزيّنون بأعمال الخير يراؤون بها النّاس، وهذا الضّرب يكثر فيمن انحرف عن الصراط المستقيم من المنتسبين إلى الفقه والعلم، والفقر والعبادة، فإنّهم يرتكبُون البدع والضّلال، والرّياء والسّمعة، ويحبّون أن يُحمدواْ بما لم يفعلوا، وفي أضراب هؤلاء نزلت هذه الآية[1]، وكلمةُ (مَنجاة) لا تُحقِّقُ هذا المعنَى؛ بل كما ظهرَ من قبلُ أن النَّجاةَ قد تكونُ بمعنى التَّعاون على ما فيه الخَلاص، وقد يكونُ خيرًا أو شرًّا، وليس هذا داخلًا في مفهومِ سياقِ الآيةِ الكريمة.

(1) الآية المقصودة، هي قوله تعالى: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَواْ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُواْ بِمَا لَمْ يَفْعَلُواْ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ١٨٨﴾، ينظر: المقريزيّ، رسائل المقريزيّ، ص: 108.

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ١٨٩﴾

[آل عمران: 189]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الـــرّبـــطُ بين شناعةِ أفعال أهـل الكتاب، وبيـان قـدرتـه الّتي لا يعجزُها شيء

لَمَّا بيَّن اللّهُ ﷻ في الآيةِ السَّابقةِ، شَناعةَ أفعال أهلِ الكتابِ والمنافقينَ، في تحريفِهم للحقائقِ، وحُبِّهم لأَنْ يُحمَدُواْ على ذلكَ، كان تَوَعُّد اللّهِ لهم بالعذابِ الأليم، فجاءتْ هذه الآيةُ الكريمةُ، لتُقرِّر مالكيّةَ اللّهِ لكلِّ شيء، وقدرتَه على كلِّ شيء، فلا يمتنع عليه أحدٌ من خلقِه، ولا يُعجِزُه أن يُعذِّبَ المنافقينَ وأهلَ الكتاب، وعليه فقد عطف هذه الآية على ما سبقها، "لاتّصالها بالآيات الّتي قبلها، فالواوُ فيها عاطفةٌ للجملة المستقلّة على مثلها، كأنّه يقول: لا تحزنواْ أيّها المؤمنون، ولا تضعفواْ، واصبرواْ واتّقواْ، ولا تخوّرون عزائمكم، بيّنواْ الحقّ، ولا تكتمواْ منه شيئًا، ولا تشترواْ بآيات اللّه ثمنًا قليلًا، ولا تفرحواْ بما عملتم، ولا تحبّوا أن تحمدُواْ بما لم تفعلُوا، فإنّ اللّه تعالى يكفيكم ما أهمّكم، ويغنيكم عن هذه المنكرات الّتي نُهيتم عنها، فإنّ ملكَ السّماوات والأرض كلّه له، يعطي منه ما يشاء، وهو على كلّ شيءٍ قديرٍ"[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾، اللّفظُ المناطُ هنا بالشّرح هو لفظ ﴿مُلْكُ﴾، وهو ما يُمْلكُ، ويُتصرَّفُ فيه، يُذكر ويُؤنّث، والجمع أملاكٌ، وفي القرآن الكريم: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ١٢٠﴾ [المائدة: 120]، بمعنى التّمليك، وعند الشّافعية: الملكُ

(1) رضا، تفسير المنار: 4/242.

هُو التّصرّفُ بالأمر والنّهي، وفي اصطلاح الفقهاء: اتّصالٌ شرعيٌّ بين الإنسان، وبين شيء يكون مطلقا لتصرّفه فيه، وحاجزا عن تصرّف غيره فيه[1]، قال الطّبريّ: "وهذا تكذيبٌ من الله - جلّ ثناؤه - الّذين قالوا: (إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحۡنُ أَغۡنِيَآءُ) [آل عمران: 181]، يقول - تعالى ذكره - مكذّبًا لهم: لله ملكُ جميع ما حوته السّماواتُ والأرض، فكيف يكونُ أيّها المفترون على الله، من كان ملك ذلك له فقيرًا؟"[2]، قال أبو حيّان: "ذكر تعالى أنّهم من جملةِ ما ملك، وأنّه قادر عليهم، فهم مملوكُون مقهورُون، مقدورٌ عليهم، فليسوا بناجين من العذاب"[3].

2) ﴿قَدِيرٌ﴾: اسم من أسماء الله الحسنى، وهو مذكور كثيرًا في القرآن الكريم، ويقال: هو قادر مقتدر، وهو ذو قدرة ومقدرة، وأقدره الله عليه، والأمور تجري بقدر الله ومقداره وتقديره[4]، وكونُ الله له ملكُ السّماواتِ والأرض، وأنّه على كلّ شيءٍ قدير، كما ورد في آخر هذه الآية، هو "تذييلٌ بوعيدٍ يدلُّ على أنّ اللهَ لا يخفى عليه ما يكتمُون من خلائقِهم"[5]، قال السّعديّ في تفسير أسماء الله الحسنى: "القديرُ: كاملُ القدرة، بقدرته أوجد الموجودات، وبقدرته دبّرها، وبقدرته سوّاها وأحكمها، وبقدرته يُحيي ويميتُ، ويبعثُ العبادَ للجزاء، ويجازي المُحسنَ بإحسانه، والمُسيءَ بإساءتِه، الّذي إذا أراد شيئًا، قال له: كُن فيكون، وبقدرته يُقلّب القلوبَ، ويُصرّفها على ما يشاء ويريد"[6].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

التّنويهُ بسلطان الله على الكون، وقُدرته المُهيْمنة على كلّ الكائنات

يُقرِّر بيانُ اللهِ ﷻ مالكيةَ اللهِ للسَّماواتِ والأرض، ومَنْ فيهما، وما فيهما، من سائر أصنافِ الخلقِ، وأنّه المتصرِّفُ فيهم بكمالِ قُدرتِه، وبديعِ صُنعِه، لا يَعزُبُ عنه من أحوالِهم شيء، ولا يَندُّ عن خلقِه وأمرِه منهم أحدٌ، والسّياق يُطمئنُ المؤمنين ضمنيًّا، بأنّ الله

(1) أبو حبيب، القاموس الفقهيّ، ص: 339.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 7/473.
(3) أبو حيان، البحر المحيط: 3/468.
(4) الزّمَخْشري، أساس البلاغة: (قَدَرَ).
(5) ابنُ عاشور، التّحرير والتّنْوير: 4/195.
(6) السّعدي، تفسير أسماء الله الحسنى، ص: 223.

"له وحده سبحانه ملكُ السّماواتِ والأرض بما فيهما، فهو وحده صاحب السّلطان القاهر، في هذا العالم، يتصرّف فيه كيفما يشاء ويختار: إيجادًا وإعدامًا، وإحياءً وإماتةً، وتعذيبًا وإثابةً، وهو سبحانه على كلّ شيءٍ قدير، لا يعجزه أمرٌ، ولا يدفع عقابَه دافعٌ، ولا يمنع عقابَه مانعٌ، فعليكم أيّها النّاس أن تطيعوه، وأن تحذروا غضبه ونقمته"[1].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغة الوصل في الآية:

وجه الوصل أنّ الآية تذييل بِوَعيدٍ يدلّ على سعة علم الله

قولُه تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، هذه الآيةُ الكريمةُ تذييلٌ بِوَعيدٍ، يدُلُّ على أنَّ اللّه تعالى، لا يَخْفى عليه ما يَكتُمه من يحادُّ اللّه ورسولَه، من أهل التَّحريفِ والتَّشويه، والضَّلالاتِ القوليَّة والفعليَّة، من أهل الكتابِ والمنافقين،

سرُّ تقديم ما حقّه التَّأخير:

أسلوب القصر تأكيدٌ لاختصاصِ ملكيّة اللهِ للسَّماوات والأرض دون سواه

في تقديم شِبهِ الجُملةِ على المبتدأ، في قوله تعالى ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ﴾، قصرٌ وحصرٌ، وتأكيدًا لاختصاصِ مُلكية اللّهِ للسَّماواتِ والأرضِ دون سواه، يتصرَّفُ - ﷻ - في سُلطانهِ القاهرِ فيهما، وبما فيهما كيفما يشاء، من غيرِ أن يكونَ لغيرِه شائبةُ تصرُّفٍ في شيءٍ من ذلك بوجهٍ من الوجوه، فالجملةُ مقرِّرة لما قبلَها، "وتقديم لفظ الجلالة، لإفادة الاختصاص والانفراد، وفي ذلك إشارةٌ، إلى أنّه وحده المتصرّفُ، وهو الّذي يعطي ويمنعُ، ويحاسبُ ويعاقبُ، وقد أعطى من أعطى في الدّنيا ليتمتّعواْ حتّى حين، وأبقى ما أبقى في الآخرة، ليجزيَ الصّابرين، وينالَ عهدَه المتّقُون، وإنّ عطاءهُ لحكمةٍ، ومنعهُ لحكمةٍ، وفيه إشارة إلى كمال

(1) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 2/370.

قدرته، وأنّه إن أوعد بالعقاب، ووعد بالثّواب، فهو القديرُ على تنفيذِ ما وعد وأوعد"[1].

بلاغة التخصيص في جملة الفاصلة:

قدرتُه الواسعةُ تـؤكّـد ثـبـوتَ عـــذابـــه في العاجلِ والآجلِ لمن حاربَه وكفرَ به

قولُه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾: تقريرٌ لاختصاصِ مُلكِ العالَمِ الجِسمانيِّ، المعبَّرِ عنه بقُطْرَيْه ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾ به ﷻ، وهو ﷻ القادرُ على الكلِّ؛ بحيث لا يشُذُّ عن مَلَكوتِه شيءٌ من الأشياء، وهذا كلُّه يَستدَعِي أنَّ ما سواه - كائنًا من كانَ - مقدورٌ له، ومن ضرورتِه اختصاصُ القدرةِ به تعالى، واستحالةُ أن يشاركَه شيءٌ من الأشياء، في القدرةِ على شيءٍ من الأشياء، فضلًا عنِ المشاركةِ في ملكِ السَّماواتِ والأرض، وفي ذلكَ كلِّه تقريرٌ لِمَا مرَّ من ثبوتِ العذابِ الأليمِ لهم، وعدمِ نجاتِهم منه[2].

إظهارُ اسم الجلالةِ في موضع الإضمار:

في الإظـــهـــار تـرسـيـةٌ لمهـابـةِ الـلـهِ وشُـمـولُ قـدرتـه جـميـعَ الأشـــيـــاءِ من أحكامِ الأُلوهيَّة المُـهـيـمـنـةِ على الأرض والسّماء

وقولُه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾: إظهارٌ لهذا الاسْم الجليلِ في موضعِ الإضمار، عوضًا عن قوله ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ١٢٠﴾ [المائدة: 120]، وفيه ما فيه من تربيةِ المهابةِ في القلوب، والإشعارِ بمناطِ الحكم، فإنّ شُمولَ القدرةِ لجميعِ الأشياءِ من أحكامِ الأُلوهيَّة، مع ما فيه من الإشعارِ باسْتقلالِ كلٍّ من الجملتَيْن بالتَّقرير[3].

دلالة التّذييل في هذه الآية الكريمة:

آية التّذييل تبرز قدرة اللهِ الّتي لا يُعجِزُها، حمايةُ عبادِهِ المؤمنين

هذه الآية تتضمّن تذييلًا بلاغيًّا، مستوعبًا بالإشارة ما تضيقُ عنه العبارةُ، قال صاحب التّحرير والتّنوير في شرحه لهذه الآية: "تذييل بوعيد يدلّ على أنّ الله لا يخفى عليه ما يكتمون من خلائقهم"[4]، فيؤكّد ببليغ العبارة، أنّه تعالى: "يُعطي ويمنعُ، وهو

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 3/1546.
(2) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 2/127.
(3) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 2/127.
(4) ابنُ عاشور، التّحرير والتّنْوير: 4/195.

على كلّ شيءٍ قديرٌ، لا يعزّ عليه نصركُم، وهلاكُ من يؤذيكم، من أهل الكتاب والمشركين، وإلى اللّه تُرجعُ الأمورُ"[1].

سرُّ التّعبير بلفظ ﴿شَيْءٍ﴾:

قال ابن عرفة: "لفظ ﴿شَيْءٍ﴾ يطلق على المعدوم والموجود، فأفاد أنّه – على كلّ شيء ممّا في السّموات والأرض وممّا هو خارج عنهما – قديرٌ"[2].

أفادت (كل) استغراق موجودات السّماوات والأرض، وما هو خارجٌ عنهما:

(1) الحجازيّ، التّفسير الواضح: 1/321.

(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/338.

﴿إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ١٩٠﴾ [آل عمران: 190]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لفتُ الأنظارِ إلى تدبّر ملكُوت القهّار، ببديعِ الخلقِ، وتعاقبِ اللّيلِ والنّهارِ

لَمَّا ذكرَ بيانُ اللّهِ في الآيةِ السَّابقةِ، ملكيّةَ اللّهِ للسَّماواتِ والأرض، وقدرتَه المطلَقةَ على كلِّ شيء، جاءَتْ هذه الآيةُ الكريمةُ؛ لتبيِّنَ أنَّ اللّهَ الَّذي مَلَك هذينِ الجرمَين العظيمَين؛ هو مَنْ خلَقهما وما فيهما من آياتٍ كآيَتي اللَّيلِ والنَّهارِ، وما يتبعهُما، لَهيَ آياتٌ بيِّناتٌ ودلائلُ واضحات، للعقولِ المُتبصِّرات، ولمّا كان المقصودُ من هذا الكتاب العظيم جذبَ القلوبِ والأرواح، إلى معرفةِ الحقّ، وصرفها عن الاشتغال بالخلق، جاءت الآياتُ الكريمةُ تنيرُ القلوبَ بأدلّة التّوحيد والإلهيّة، والكبرياء والجلال، فلفتَتِ الأنظارَ إلى التّفكير والتّدبّر في ملكوتِ السّماوات والأرض، ليخلصَ الإنسانُ إلى الاعترافِ بوحدانيّة اللّه، وباهر قدرته، وهو يتأمّلُ في كتابِ اللّهِ المنظور، بعد أن تأمّلَ في كتاب اللّه المسطورِ.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿خَلۡقِ﴾: الخَلْقُ لفظٌ يُستعمَلُ في إيجادِ الشَّيءِ من الشَّيءِ، كما في قولِه تعالى: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ﴾ [النساء: 1]، وليسَ الخلقُ الَّذي هو الإبداعُ إلَّا للّهِ تعالى؛ ولهذا قالَ في الفَصلِ بينَه تعالى وبينَ غيرِه: ﴿أَفَمَن يَخۡلُقُ كَمَن لَّا يَخۡلُقُۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ١٧﴾ [النحل: 17]، فإن قيل: إنَّ قولَه تعالى: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ ١٤﴾ [المؤمنون: 14] يدُلُّ على أنَّه يصحُّ أن يُوصفَ غيرُه بالخَلْق؟ قيل: إنَّ ذلكَ معناه: أحسنُ المُقدِّرين، أو يكونُ على تقديرِ ما كانوا يَعتقِدونَ ويَزعُمونَ أنَّ غيرَ اللّهِ يُبدِع؛ فكأنَّه قيل: فاحسبْ أنَّ ههنا مُبدِعينَ ومُوجِدين، فاللّه

أحسنُهم إيجادًا على ما يَعتقِدون، كما قالَ تعالى: ﴿خَلَقُواْ كَخَلۡقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلۡخَلۡقُ عَلَيۡهِمۡۚ﴾ [الرعد: 16]، وفي قولِه تعالى: ﴿لَا تَبۡدِيلَ لِخَلۡقِ ٱللَّهِۚ﴾ [الروم: 30] إشارةٌ إلى ما قدَّرَه وقضاه، وقيل: معناه نهيٌّ؛ أي: لا تُغيِّروا خلقَ الله[1].

2) ﴿لَأٓيَٰتٖ﴾: الآيةُ: هي العلامةُ الظَّاهرةُ، وحقيقتُه لكلِّ شيءٍ ظاهرٍ، وهو ملازمٌ لشيءٍ لا يَظهرُ ظُهورَه، فَمتى أَدْرَكَ مُدرِكٌ الظَّاهرَ منهما، علمَ أنَّه أدركَ الآخرَ الَّذي لم يُدركْه بذاتِه، إذْ كان حكمُهما سواء، وذلكَ ظاهرٌ في المحسوساتِ والمعقولاتِ، فمَن علمَ ملازمةَ العلمِ للطَّريقِ في المَنهج، ثمَّ وجدَ العلمَ، علمَ أنَّه وجدَ الطَّريق، وكذا إذا علمَ شيئًا مَصنوعًا، علمَ أنَّه لا بُدَّ له من صانِع، والصّحيحُ أنَّ الآيةَ مشتقَّةٌ من التَّأيّي الَّذي هو التَّثبُّتُ والإقامةُ على الشَّيء، وقيلَ للبناءِ العالي: آية، كما قالَ تعالَى: ﴿أَتَبۡنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةٗ تَعۡبَثُونَ ١٢٨﴾ [الشعراء: 128]، ولكلِّ جُملةٍ من القرآن دالَّةٌ على حُكْم: آية، وقولُه تعالى في آيتِنا الكريمة: ﴿إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ لَأٓيَٰتٖ﴾؛ أي: هي من الآياتِ المعقولةِ الَّتي تتفاوتُ بها المعرفةُ، بِحسَبِ تفاوتِ منازلِ النَّاسِ في العلم؛ كما في قولِه تعالى: ﴿بَلۡ هُوَ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ فِي صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَۚ وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ٤٩﴾ [العنكبوت: 49]، وقيل: الآياتُ إشارةٌ إلى الأدلَّة[2].

3) ﴿لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾: اللُّبُّ: العقلُ الخالصُ من الشَّوائب، وسُمِّيَ بذلكَ لكونِه خالصَ ما في الإنسانِ من معانيه، كاللُّبابِ واللُّبِّ من الشَّيء، وكلُّ لُبٍّ عَقْلٌ، وليس كلُّ عقلٍ لُبًّا، لهذا علَّق اللهُ تعالى الأحكامَ الَّتي لا يُدركُها إلَّا العقولُ الزَّكيَّةُ، بأولي الألباب في بعض الآيات القرآنيّة، كما في الآية الَّتي معنا: ﴿لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾، و"من المجاز: هو ذو لبّ، وهو من أولي الألباب، وهو لبيب من الألبّاء، وقد لبّ يلبّ لبابةً، وأخذ لبابه: خالصه، وهو من لباب الإبل، ورجل لبابٌ من قوم لبابٍ، وحسبٌ لبابٌ، قال:

أَلَيْسَ بِذِي المَكَارِمِ فِي قُرَيشٍ *** إِذَا عُدَّتْ وَذِي الحَسَبِ اللُّبَابِ"[3].

(1) الرَّاغب، المفردات، ص: 296 - 297، والفيروزابادي، القاموس المحيط: (خَلَقَ).
(2) الرّاغب، المفردات، ص: 101 - 102، وابن منظور، اللّسان: (أيَا).
(3) الزّمَخْشري، أساس البلاغة: 2/154 - 155.

ومن الاقتباسِ الجميلِ من القرآن الكريم، ما رواه صاحبُ بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح، حيث قال:

خُلَّةُ الغَانِيَاتِ خُلَّةُ سُوءٍ *** فَاتَّقُواْ اللّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ

وَإِذَا مَا سَأَلْتُمُوهُنَّ شَيْئًا *** فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابِ[1]

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

وفي كلِّ شيءٍ له آيةٌ كونيّة، تدلُّ على أنّه المتفرّد بالوحدانيّةِ

جاءتْ هذه الآيةُ الكريمةُ لِتَحُثَّ العبادَ على التَفكُّرِ في آياتٍ عجيبةٍ، يَرَونَها بأمِّ أَعْيُنِهم في هذا الكونِ المَنظور، تدُلُّ دَلالةً جَليَّةً على عَظمةِ خالِقها، وعَظمةِ سُلطانِه، وشُمولِ قُدرتِه، مع بديعِ الصُنعِ والإحكام، وجليلِ الحكمةِ والإنْعام، ومفاد ذلك: "أنّ في إيجادِ السّماوات والأرض، على هذا النّحو البديع، وما فيهما من الآياتِ المشاهدةِ العظيمةِ، من كواكب وبحار، وزروع وأشجار.. وفي إيجاد اللّيل والنّهار على تلك الحالة المتعاقبةِ، وفي اختلافِهما طولًا وقصرًا، وفي كلّ ذلك، لأماراتٌ واضحةٌ، وأدلّةٌ ساطعةٌ، لأصحاب العقول السّليمة على وحدانية اللّه – تعالى – وعظيم قدرته، وباهر حكمته"[2].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغة الفصل في الآية:

وجه الاستئناف تقرير ما سَبَقَ مِن اختصاصِه تعالى بالسُّلطانِ والقدرة

قولُه تعالى ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ ﴿لَأَيَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾: هذه جملةٌ مُسْتأنفةٌ سيقتْ لِتقرير ما سَبَقَ مِن اختصاصِه تعالى بالسُّلطانِ القاهرِ، والقُدرةِ التَّامَّة، فهي" تنبيهٌ تمهيديٌّ على ما في خلق السّماواتِ والأرضِ، وتعاقب اللّيل والنّهار، من الآياتِ الدّالةِ على عظيم قدرة اللّه، وبديع صنعه، تدعُو ذوي العقولِ الرّاجحةِ إلى التّفكير والتدبّر"[3]

(1) الصّعيديّ، بغية الإيضاح: 4/690.
(2) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 2/370.
(3) دروزة، التّفسير الحديث: 7/291.

بديع التّوكيد في مطلع الآية:

تصدير الآيـة بـ (إنّ) المؤكّـدة؛ اعتناءٌ بتحقيقِ مَضْمونِها

وقد صُدِّرتِ الآية الكريمة بـ ﴿إِنَّ﴾ الَّتي تُفيدُ التَّأكيد، اعتناءً بتحقيقِ مَضمونِها، النَّاطقِ بعجيبِ إنشائها، على ما هي عليه في ذواتِها وصفاتِها الَّتي تَحارُ في فَهْمِ أَسرارها العقولُ، فهي "نداءٌ رفيقٌ ينبعثُ من الأفق الأعلى، ليقودَ المؤمنين الّذين شَخَصَت قلوبُهم وعقولُهم، إلى ما لله فى السّموات والأرض، لترتادَ مواقعَ الحقّ والخير، فتجدَ في هذا النّداء الرّفيق هاديًا يهديها، ورفيقًا يُؤنسها، ويكشف لها معالمَ الطّريقِ، ففي خلق السّماواتِ والأرض، واختلاف اللّيل والنّهار، آياتٌ مبصرةٌ، لمن كان له قلب، أو ألقى السّمعَ وهو شهيدٌ"[1]، قال النّويريّ: "فلمّا تمَّ لي الرّأيُ، نظرتُ فى عظمةِ هذا الرّبّ، الّذي ابتدعَ هذا الخلق وضبطَه، ودبّرَه وأحكمَ أمرَه، فإذا قدرتُه تأتي من وراءِ ذلك كلّه، ليس من هذا الخلق شيْءٌ يفوتُها، ولا يخرجُ منها، وإذا هي محيطةٌ بكلّ شيءٍ، ومن وراءِ كلّ شيءٍ"[2].

علّة تقديم السّماوات على الأرض:

سيـاق الثـنـاء يناسبه تقديم الأعظم لسعتِه، ومُعْجِزِ تكوّنه

قدّم السّماء في قوله: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾؛ لأنها في سياق ثنائه تعالى على نفسه، ووصفه بإحاطة علمه فناسب تقديم السماء؛ لأنها أعظم، فإنّ فيها من الشّموس وعوالمها ما يبعد بعضه عن بعض مسافة ألوف الألوف من السنين التي تقدر أبعادها بسرعة النور، كما ثبت في علم هذا العصر[3].

سرُّ تقديم اللّيل على النّهار:

تـقـديـمُ الـلّـيـل على النّـهـار إمّا لأنّـه الأصـلُ، وإمّا لِتقدُّمِه في الخَلفيَّةِ

وفي قولِه تعالى: ﴿وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾؛ أي: تَعاقُبِهما في وجهِ الأرض، وكونِ كلٍّ منهما خِلفةً للآخرِ، بِحسَبِ طلوع الشَّمس وغروبها التابعَين لحركاتِ السَّماواتِ والأرض، أو في تفاوتِهما بازديادِ كلٍّ

(1) الخطيب، التّفسير القرآنّي للقرآن: 2/672.
(2) النّويريّ، نهاية الأرب: 15/267.
(3) رضا، تفسير المنار: 11/339.

بانتقاصِ الآخر، وانتقاصِه بازديادِه باختلافِ حالِ الشَّمسِ بالنِّسبة إلينا قُربًا وبُعدًا بحسبِ الأزمنةِ، أو في اختلافِهما وتَفاوُتِهما بحسبِ الأمكنةِ إمَّا في الطُّول أوِ القِصَر ما بين الصَّيفِ والشِّتاء، ففي بعضِ الأماكنِ يكونُ صباحًا وفي الآخرِ ظُهرًا أو عَصْرًا أو غيرَ ذلك، وتقديمُ اللَّيل على النَّهار إمَّا لأنَّه الأَصلُ، فإنَّ غُرَرَ الشُّهورِ تَظهَرُ في اللَّيالي، وإمّا لِتقدُّمِه في الخَلفيَّةِ حَسْبما يُنبئُ عنه قولُه تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيۡلُ نَسۡلَخُ مِنۡهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظۡلِمُونَ ٣٧﴾ [يس: 37]؛ أي: نُزيلُه منه فَيَخلُفَه، كما دلَّ عليه قولُه: ﴿فَإِذَا هُم مُّظۡلِمُونَ ٣٧﴾ [يس: 37][1].

بلاغة توكيد الآيات باللام:

تأكيد الآيات باللام دليلُ كونها أدلّةً قاطعةً لا مجال للريب فيها

والآيات في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ اسمُ إنَّ، ودخلتها اللَّام لتأخُّرِها عن خبرِها، فأكّدت الآيات باللام دلالةً على كونها أدلّةً قاطعةً لَا مجال للريب فيها.

فائدة تنكير الآيات:

وجه تنكير الآيات التعظيم، والتَّفخيم كمًّا وكَيفًا

والتَّنكيرُ في قوله تعالى: ﴿لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾؛ للتَّفخيم كمًّا وكَيْفًا؛ أي: لَآياتٍ كثيرةٍ عظيمةٍ لا يُقادَرُ قدرُها، دَالَّةٍ على تعاجيبِ شُؤونِه، وهنا في هذه الآيةِ الكريمةِ، لم يتعرَّضْ بيانُ اللهِ لذكرِ ما ورد في [سورة البقرة: 164]، من مفرداتِ عديدٍ من آيات بديعِ خلقِه من الفُلكِ والمَطَرِ، وإحياءِ الأرضِ المَيتَة، وتصريفِ الرِّياحِ والسَّحابِ؛ وذلك لأنَّ المقامَ هَهُنا بيانُ اخْتصاصِه سُبحانه بما ذُكِرَ من المُلكِ والقُدرةِ، فاكتَفَى بمعظمِ الشَّواهدِ الدَّالةِ على ذلك، وأمَّا هناكَ فقد قُصِدَ في ضمنِ اختصاصِه تعالى بالألوهيَّةِ بيانُ اتِّصافِه تعالى بالرَّحمةِ الواسعة، فَنُظمتْ دلائلُ الفضلِ والرَّحمةِ في سِلكِ دلائلِ

(1) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 2/127.

التَّوحيد؛ فإنَّ ما فُصِّل هناك هو من آياتِ رحمتِه تعالى، كما أنَّه من آياتِ ألوهيَّتِه ووحدانيَّتِه[1].

علّة إيثار لفظِ الجمع ﴿ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ دون المفرد:

الفصل المتحقّق في لفظ الألبابِ جمعًا وجهٌ لحسن تناسب الحروف

أشار الرّافعيُّ إلى أهميّة استعمال القرآن للفظ ﴿ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ بالجمع، دون لفظ المفرد (اللّبّ)، في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ ﴿لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾، وما يترتّب عليه من روعة في الدّلالةِ، وجمال في الإيقاع، قال: "وممّا لا يسعُه طوقُ إنسانٍ في نظم الكلام البليغ، ثمّ ممّا يدلّ على أنّ نظمَ القرآن مادّةٌ فوقَ الصّنعةِ، ومن وراءِ الفكر، وكأنّها صبّت على الجملة صبًّا، أنّك ترى بعضَ الألفاظِ لم يأتِ فيه إلّا مجموعًا، ولم يستعمل منه صيغةَ المفرد، فإذا احتاجَ إلى هذه الصّيغة استعملَ مرادفَها: كلفظة (اللُّبّ)، فإنّها لم ترد إلّا مجموعة، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكۡرَىٰ لِأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٢١﴾ [الزّمر: 21]، وقوله: ﴿وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٥٢﴾ [ص: 52] ونحوهما، ولم تجئ فيه مفردةً، بل جاء في مكانها (القلب)؛ وذلك لأنّ لفظَ الباءِ شديدٌ مجتمعٌ، ولا يفضي إلى هذه الشّدّة إلّا من اللّام الشّديدة المسترخية، فلمّا لم يكن ثَمّ فصلٌ بين الحرفين، يتهيأ معه هذا الانتقال، على نسبة بين الرّخاوة والشّدّة؛ تحسن اللّفظة مهما كانت حركة الإعراب فيها؛ نصبًا أو رفعًا، أو جرّا؛ فأسقطها من نظمه بتّة، على سَعَةِ ما بين أوّله وآخره، ولو حسنت على وجه من تلك الوجوه، لجاء بها حسنة رائعة، وهذا على أنّ فيه لفظة (الجُبّ)، وهي في وزنِها ونطقِها، لولا حسنُ الائتلافِ بين الجيم والباء، من هذه الشّدّة في الجيم المضمومة، وكذلك لفظة (الكُوب)، استعملت فيه مجموعة، ولم يأت بها مفردة؛ لأنّه لا يتهيّأ فيها ما يجعلها

(1) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 2/128.

في النّطق من الظّهور والرّقّة والانكشاف، وحسن التّناسب كلفظِ (أكواب) الّذي هو الجمع"[1].

بلاغةُ التّعريضِ في الفاصلة:

في قوله: ﴿لَآيَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ " تعريضٌ لافتٌ، بنفي العقل عمّن لا يصل به التّأمّل في هذه الأدلّة الكونيّة إلى وحدانيّة اللّه تعالى، وتفرّده بالألوهيّة، والأسلوبُ كما لا يخفى، جارٍ على منهج الحقيقةِ، وليس من قبيلِ الكنايةِ أو المجاز بصفة عامّة، فالمعنى الصّريحُ لهذا القول الكريم، أنّ أصحابَ العقول، يجدُون في خلق السّماوات والأرض، واختلاف اللّيل والنّهار، أدلّةً واضحةً على وجودِ اللّه ووحدانيّته، وفيه إلى جانب ذلك إيماءٌ إلى نفي العقول، عمّن لا تدلّه عليه"[2].

وجه التعريض نفي العقل عمّن لا يصل به التّأمّل في هذه الأدلّة الكونيّة إلى وحدانيّة الله تعالى

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الآيات والبيِّنات والدَّلالات

رغم أنّه سبقَ بيانُ معنَى (الآيات) و(البيِّنات) و(الدَّلالات) في آل عمران: 183، وقد جاءت هناك معبّرة عن سياقها، فإنّنا هنا ننظر إلى وِجهة السِّياقِ القرآنيِّ، في اسْتخدام كلمةِ (الآيات)، بمعزل عمّا مضى، فكلمةُ (البيِّنات) تعني الكشفَ عن الشَّيء، وبيان ما هو مُجمَلٌ أو مُبْهمٌ من الكلام[3]، وكلمةُ (الدَّلالات): تعني التَّدليلَ على الشَّيءِ، والتَّسديدَ إليه ليُعلَم، وهي متعلِّقةٌ بالأقوال، وتفيدُ الظَّنَّ[4]، أمَّا كلمةُ (الآيات) فهي العلاقةُ الظَّاهرةُ، وتكونُ سببًا لإدراكِ أمرٍ آخَرَ، لا يَتِمُّ إدراكُه إلَّا بِوجودِها[5]، ولو أردنا أن نضعَ

(1) الرّافعيّ، تاريخ آداب العرب: 2/153.
(2) البلاغة: (البيان والبديع)، مناهج جامعة المدينة العالميّة: (موسوعة الشّاملة)، ص: 279، وكذلك العلويّ، الطّراز: 1/194.
(3) الرّاغب، المفردات، ص: 156.
(4) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 97.
(5) الرّاغب، المفردات، ص: 101.

أيَّ كلمةٍ في سياقِ الآيةِ الكريمةِ، الَّتي تَنطِقُ بوجودِ مخلوقاتٍ كبيرةِ الجِرْمِ، عَظيمةِ الشَّأنِ كالسَّماوات والأرض، لا تحتاجُ إلى كشفٍ بالبيِّنات، ولا تسديدٍ ليُعلَمَ ممَّا يفيدُ الظَّنَّ كالدَّلالات، ولكنَّها تحتاجُ إلى نَظَرٍ بالبَصَرِ والبَصيرةِ، ليُدرَكَ من وُجودِها، وجودَ من أَوْجدَها، وهو اللّهُ الخالقُ، لا أحدَ غيرُه، لَعلِمنا يقينًا أنَّه لا يُحقِّقُ هذا المعنَى السَّديدَ الرَّشيدَ، إلَّا قوله تعالى: ﴿لَآيَٰتٍ﴾، بمفهومِها الدَّقيق الَّذي أَوضَحْناه.

الألباب والعُقول

قولُه تعالى: ﴿لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾، عند تأمّله يتبيَّن لنا من معنى (اللُّبّ)، أنَّه يُفيدُ ما كانَ من خالصِ صفاتِ المُوصوف، وهو العقلُ الخالصُ من الشَّوائب، وسُمِّيَ بذلكَ لكونِهِ خالصَ ما في الإنسانِ من معانيه، أمَّا العقلُ فيفيدُ أنَّه يحصُرُ معلوماتِ الموصوفِ به، فهو مُفارِقٌ للُّبِّ من هذا الوَجه؛ ولذلكَ لا يجوزُ أنْ يُوصفَ اللّهُ تعالى بمعانٍ بعضِها أَخْلصَ من بعض، فلا يُوصفُ ﷻ باللُّبّ مثلًا[1]، والعقلُ: هو القُوَّةُ المُتَهيِّئَةُ لقَبولِ العلم، ويُقالُ للعلم الَّذي يَستفيدُه الإنسانُ بتلكَ القُوَّةِ عَقْلٌ، وهذا العقلُ هو المعنيُّ بقولِه تعالى: ﴿وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [العنكبوت: 43][2]، وبذلك يتَّضحُ أنَّ البيانَ الإلهيَّ اسْتَخدم كلمةَ ﴿ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ في تذييل الآيةِ الكريمة، بدلَ (العُقُول)، لأنَّها أَوفى بخاتمةِ الآية، الَّتي بدأتْ بذكر جِرمَين عظيمَين، هما من خَلْقِ اللّهِ ﷻ، فليس كلُّ عقلٍ يُدرِكَ آياتِ اللّهِ في خَلْقِه البديعِ، إلَّا إذا كان صاحبه ذا لُبٍّ صافٍ، خالٍ من شوائبِ الكِبْرِ والعِنادِ.

(1) الرّاغب، المفردات، ص: 733، والعسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 461.

(2) الأبياريّ، الموسوعة القرآنيّة: 8/385، والسّيوطيّ، معجم مقاليد العلوم، ص: 198.

﴿ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ رَبَّنَا مَا خَلَقۡتَ هَٰذَا بَٰطِلٗا سُبۡحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ١٩١﴾ [آل عمران: 191]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

المناسبةُ بين آياتِ اللهِ الكونيّةِ، والدّعوةِ للذّكر والتّفكّر في الصّنعة الإلهيّة

لَمَّا بيَّن اللّه تعالى في الآيةِ السَّابقةِ أنَّ الَّذي يستفيدُ من آياتِ اللّهِ المبثُوثةِ في كونِه سُبحانه، هم أهلُ العقولِ المسْتَنيرة، جاءتْ هذه الآيةُ الكريمةُ بعرضِ بعضٍ من صفاتهم اللَّصيقةِ بتفكُّرِهم بتلكَ الآيات، فبعد أن ذكر السّياق أنّ في بديع نظام السّماوات والأرض، وعجيبِ صُنعِهما، وفي اختلافِ اللّيل والنّهار وتعاقبهما، آياتٍ ودلائلَ على وحدانيّةِ اللّه المطلقة، وكمالِ علمه في كونه، وبديعِ قُدرته في ملكوته، ممّا يدركُه أولواْ الألباب، ممّن يستحضِرُون عظمةَ الخالق، ويتذاكرُون دلائلَ ألوهيّته، وفواضلَ ربوبيّته، على جميع أحوالهم، وفي كلّ أوضاعهم، قيامًا وقعودًا وعلى جنوبهم، فيستغرقُون في ذكره، وينغمسُون في شكره، علّهم يؤدّون بعضًا من الشّكران، وقليلًا من العرفان، مقابلِ ما أفاء سبحانه به عليهم، وذلك فضلُ اللّه يُؤتيه من يشاء، واللّه ذو الفضلِ العظيمِ.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ﴾: يقال: "تفكَّر الشَّخصُ: تدبَّر واعتبر واتَّعظ، قال تعالى: ﴿فَٱقۡصُصِ ٱلۡقَصَصَ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ١٧٦﴾ [الأعراف: 176]، وتفكَّر في الطَّبيعة: تأمّل، أعمل العقلَ فيها، ليصل إلى نتيجة أو حلّ، ويقال: (لا تُفَكِّر فلها مُدَبِّر)، والمطلوب التّفكُّر في آلاء اللّه تعالى ومخلوقاته المبثوثة في كونه، لقوله: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ ويقال: فكّر في الأمر: أي تفكَّر فيه، وتأمّله، وأعمل العقل

فيه ليصل إلى نتيجة، أو حلّ أو قرار، وقولهم: (يفكّر في المستقبل)، أي: يفكِّر في حلّ مشاكله بهدوء، قال تعالى في وصف حال الوليد بن المغيرة: ﴿إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ١٨﴾ [المدثر: 18][1]، والفِكرةُ: قُوَّةٌ، والتَّفكُّرُ: جَوَلانُ تلكَ القُوَّةِ، بِحسَبِ نظرِ العقل؛ وذلكَ للإنسانِ دونَ الحيوان، ولا يقالُ إلَّا فيما يمكنُ أن يَحصُلَ له صورةٌ في القلب، ولهذا يكونُ التَّفكُّر في آلاءِ اللّه، ولا يكونُ في ذاتِ اللّه، إذْ كانَ اللّهُ ﷻ مُنزَّهًا أن يُوصَفَ بصورة، على غرار الآيةِ قيد التّفسير، ﴿يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ﴾ ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾، فهي تفكُّرٌ في آيات اللّه وخَلْقِه، ناهيك عن كون لفظ الفكر، يُستعمَلُ في المعاني، وهو فَرْكُ الأمورِ وبَحْثُها، طلبًا للوصولِ إلى حقيقتِها[2].

2) ﴿بَٰطِلًا﴾: الباطلُ: نقيضُ الحقِّ، وهو ما لا ثباتَ له عند الفَحْصِ عنه، قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلۡبَٰطِلُ﴾ [الحج: 62]، وقد يُقالُ ذلك في الاعتبارِ إلى المقالِ والفِعالِ، يُقالُ: بَطَلَ بُطُولًا وبُطلًا وبُطلانًا، وأَبطَلَه غيرُه، قال ﷻ: ﴿وَبَطَلَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١١٨﴾ [الأعراف: 118]، وقال سُبحانه: ﴿لِمَ تَلۡبِسُونَ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ﴾ [آل عمران: 71][3]، و"ويُقَال: رجل بَطل، ولا يُقَال امْرَأَة بطلة، عَن أبي زيد، وَبَطل الرّجلُ بطالةً، إذا هزل وكَانَ بطّالًا، والبطلانُ: مصدر بَطل الشَّيءُ بطلانًا، والبطلُ والبَاطِل وَاحِد، والأباطيل: جمع إبطالة وأبطولة، ويُقَال: جَاءَ فلَان بالأباطيل"[4].

3) ﴿سُبۡحَٰنَكَ﴾: التَّسبيحُ: تَنزيهُ اللّهِ تعالى، وأصلُه: المَرُّ السَّريعُ في عبادةِ اللّهِ تعالى، وجُعِلَ ذلكَ في فعلِ الخير، وسُبحانَ: أصلُه مصدرٌ، نحو: غُفران، كما قالَ تعالى: ﴿فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمۡسُونَ وَحِينَ تُصۡبِحُونَ ١٧﴾ [الروم: 17]، وجُعِلَ التَّسبيحُ عامًّا في العباداتِ قولًا كان، أو فعلًا، أو نيَّةً[5]، قال تعالى: ﴿فَلَوۡلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُسَبِّحِينَ ١٤٣﴾ [الصافات: 143]؛ أي: من المُصلِّين[6]، والأَوْلَى أن يُحمَلَ على الثَّلاثةِ السَّابقة، ولفظ "سُبْحَانَ اللّه عَلَمٌ لِلتَّسبِيحِ،

(1) أحمد مختار عمر، معجم اللّغة العربيّة المعاصرة: 3/1733.
(2) الرّاغب، المفردات، ص: 643.
(3) الرّاغب، المفردات، ص: 129، وابن منظور، اللّسان: (بَطَلَ).
(4) ابن دريد، جمهرة اللّغة: (بطل).
(5) الرّاغب، المفردات، ص: 129.
(6) ابن قُتيبة، غريبُ القرآن، ص: 374.

لَا يُصرَفُ وَلَا يَتَصَرَّفُ، وَإِنَّمَا يَكُونُ مَنصُوبًا عَلَى المَصدَرِيَّةِ، وَقَولُهُمْ: (سُبحَانَكَ اللهمَّ وَبِحَمْدِك)، مَعْنَاهُ سَبَّحْتُكَ بِجَمِيعِ آلَائِكَ، وَبِحَمدِكَ سَبَّحتُك، وَسَبَّحَ، قَالَ: سُبْحَانَ اللّه، وَسَبَّحَ اللّه نَزَّهَهُ، والسُّبُّوحُ: المُنَزَّهُ عَنْ كُلِّ سُوءٍ[1]، قال أبو بكر: معنى سُبحانك: تنزيهًا لك يا ربّنا من الأولادِ والصّاحبةِ والشّركاء؛ أي: نزّهناك.

4) ﴿فَقِنَا﴾: الوقايةُ: حفظُ الشَّيءِ ممَّا يُؤذِيهِ ويَضُرُّه، يُقالُ: وَقَيتُ الشَّيءَ أَقيه وِقايةً ووِقاءً، قالَ تعالى: ﴿فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ﴾ [الإنسان: 11]، وقولُه تعالى: ﴿قُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ [التحريم: 6]، ومن هنا جاءتِ التَّقوى الَّتي هي جعلُ النَّفسِ في وقايةٍ ممَّا يُخافُ، وهذا تحقيقُه، وصارتِ التَّقْوى في تَعارُفِ الشَّرعِ: حفظ النَّفْس ووقايتها عمّا يُؤثِم، وذلكَ بتركِ المحظُور، ويتمُّ ذلك أيضًا، بتركِ بعض المُباحات، قالَ اللّه ﷻ: ﴿فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝٣٥﴾ [الأعراف: 35][2].

5) ﴿رَبَّنَا﴾: قال الزّجّاج فيما نقله صاحب زاد المسير: "معناه: يقولون: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا﴾، أي: خلقتَه دليلًا عليك، وعلى صدق ما أتتْ به أنبياؤُك، ومعنى سبحانك: براءة لك من السّوء، وتنزيهًا لك أن تكون خلقتهما باطلًا، فقنا عذاب النّار، فقد صدّقنا أنّ لك جنّةً ونارًا"[3].

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

الوصلُ بذكر اللّه، والإقرارُ بعظمتِهِ وجلالِهِ، سبيلُ النّجاةِ من النّار

يخبرُ بيانُ اللّهِ تعالى أنَّ من صفاتِ أهلِ العقولِ التَّامَّة الذَّكيَّة الَّتي تُدركُ الأشياءَ بحقائِقها على تجَلِيَّاتها، أنَّهم لا يَقطَعون ذِكرَه سبحانه في جميعِ أحوالِهم بسرائرِهم وضمائرِهم وألسِنَتِهم، ويَفهمونَ ما في خلقِ السَّماواتِ والأرضِ من الحِكَمِ الدَّالةِ على عظمةِ الخالقِ وقدرتِه، وعلمِه وحِكمتِه، واخْتيارِه ورحمتِه، قائلين: ربَّنا ما خَلقتَ هذا الخَلقَ عَبَثًا؛ بل بالحقِّ، نُنزِّهكَ عن أن تخلُق

(1) المُطَرِّزِيّ، المغرب، ص: 215.
(2) الرّاغب، المفردات، ص: 881، وابن منظور، اللّسان: (وَقَيَ).
(3) ابن الجوزيّ، زاد المسير: 1/361.

شيئًا باطلًا، فاحفَظْنا بحَوْلك ورحمتِكَ من عذابِ النَّار[1]، وهؤلاء هم "الّذين لا يغفلُون عنه تعالى في عامّة أوقاتِهم، باطمئنانِ قلوبهم بذكره، واستغراق سرائرهم بمراقبتِه، مع التّفكر فى بديع صنعِه وأسرار خليقتِه، ويتفكّرون فى خلق السَّماواتِ والأرض، وما فيهما من الأسرارِ والمنافع الدّالةِ على العلم الكامل، والحكمةِ البالغةِ، والقدرةِ التّامّة، الّتي تُفضي إلى تمامِ النّعمة، وكمالِ الدّينِ[2].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغة الفصل في الآية:

وجه الاستئناف بيانُ نتيجة التفكرِ والترقّب لآثاره وأحكامِه سبحانه

في قولُه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ﴾: أنّ لفظ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ اسمٌ موصول، وفيه وجهان: الأوَّلُ: موصولٌ بأولي الألبابِ مجرورٌ على أنَّه نعتٌ كاشفٌ له بما في حَيِّزِ الصِّلَة، وفي " تقدير كونِ الموصول نعتًا لأولي الألباب استئنافٌ مبينٌ لنتيجة التفكرِ ومدلول الايات ناشئ ممّا سبق فإن النفسَ عند سماعِ تخصيصِ الآياتِ المنصوبةِ في خلق العالم بأولي الألباب ثم وصفهم بذكر الله تعالَى والتفكرِ في محال الآياتِ تبقى مترقبةً لما يظهر منهم من آثارها وأحكامِها كأنَّه قيلَ: فماذا يكونُ عند تفكرِهم في ذلك وماذا يترتب عليه من النتيجة؟ فقيل: يقولون: كيت وكيت مما ينبئ عن وقوفهم على سرِّ الخلقِ المؤدِّي إلى معرفة صدقِ الرسلِ وحقيَّة الكُتب الناطقةِ بتفاصيل الأحكامِ الشرعيةِ"[3].

أفادتِ الصِّلةُ ربطَ اللّاحقِ بالسَّابقِ، في بيان صفاتِ أولي الألبابِ وأحوالِهم

ويحتمل لفظ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ الفصل عمّا قبله، بأنّه: منصوبٌ على المَدْح، أو مرفوعٌ على أنَّه خبرٌ لمبتَدأٍ محذوف، تقديرُه (هم)[4]، وأيًّا ما كان فإنَّ الَّذي يَسُدُّ بُلْغَتَنا، أنَّه جاءَ في حيِّزِ صِلَته، مُبيِّنًا للقارئ

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 1/386 - 387.
(2) المراغي، تفسير المراغي: 4/162 (بتصرّف).
(3) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 1/623 - 624.
(4) وقيل غير ذلك، ينظر: العكبري، التبيان: 1/162، وأبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 1/623 - 624.

وللسَّامعِ، أنَّ المرادَ بمن سَبقُواْ أنَّهمُ الَّذين لا يَغفُلونَ عنِ اللّهِ تعالى في عامَّةِ أوقاتهم؛ لاطْمئنانِ قلوبهم بذكرِه ﷻ، واسْتِغراقِ سَرائرِهم في مراقبتِه؛ حيثُ أيقَنُواْ بأنَّ كلَّ ما سِواهُ تعالى فائضٌ منه، وعائدٌ إليه، فلا يُشاهِدونَ حالًا من الأحوال في أنفُسِهم[1].

فائدة الموصول ذكرُ الله مُطلقًا، ذاتًا، وصفاتٍ وأفعالًا؛ مقرونًا بالذِّكرِ اللِّسانيّ وغير مقرون

المرادُ به ذكرُه تعالى مُطلقًا، سواءٌ أكانَ ذلكَ من حيثُ الذَّات، أمْ من حيثُ الصِّفاتِ والأفعالِ، وسواءٌ أقارَنَه الذِّكرُ اللِّسانيُّ أمْ لم يُقارِنْه؛ وذلكَ كما وردَ في قولِه تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْۚ﴾ [النساء: 103][2]، فهذا الوصفُ ظاهرُه استعمالُ التّحميد والتّهليل والتّكبير ونحوه من ذكر اللّه، وأن يحصرَ القلبُ اللّسانَ، وذلك من أعظم وجوه العبادات، والأحاديث في ذلك كثيرة، وابن آدم منتقلٌ في هذه الثّلاثِ الهيئاتِ، لا يخلو في غالبِ أمره منها، فكأنّها تحصرُ زمنَه، وكذلك جرت عائشة - رضي الله عنها - إلى حصر الزّمن في قولها: «كان رسولُ اللّه ﷺ يذكرُ اللّه على كلّ أحيانِه»[3].

بلاغة العطف في الآية:

أفادَ العطفُ ووجوهُ الإعراب في بيانِ أهميَّةِ عبادةِ التَّفكُّر، وأحوالِ أهلها وجزائهم المُنْتَظَر

قولُه تعالى: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَـٰذَا بَـٰطِلًا سُبْحَـٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾، نجد قولَه: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ﴾ معطوفًا على ﴿يَذْكُرُونَ﴾، ويجوزُ أن يكونَ حالًا أيضًا، أي: يَذكرونَ اللّهَ مُتفكِّرين[4]، وجاءَ هنا بيانُ تَفكُّرِهم في أفعالِه ﷻ، إثْرَ بيانِ تفكُّرِهم في ذاتِه على الإطلاق، وأشارَ إلى نَتيجتِه الَّتي يُؤدِّي إليها، مِنْ معرفةِ أحوالِ المَعادِ، حَسْبَما نَطقتْ به أَلْسِنَةُ الرُّسُل وآياتُ الكُتُب، فكما أنَّها آياتٌ تشريعيَّةٌ هاديةٌ للخَلْقِ إلى معرفتِه تعالى ووجوبِ طاعتِه، كذلكَ المخلوقاتُ آياتٌ تكوينيَّةٌ، مُرشِدةٌ لهم إلى

(1) الجاويّ، مراح لبيد: 1/174.
(2) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 2/129.
(3) مسلم، الحديث رقم: (373).
(4) العكبريّ، التبيان: 1/122.

ذلكَ، فالأُولى مُنَبِّهاتٌ لهم على الثَّانية، ودَواعٍ إلى الاسْتشهادِ بها، كهذه الآية الكريمة ونحوِها، والثَّانيةُ مُؤَيِّداتٌ للأُولى وشواهدُ دالَّةٌ على صِحَّةِ مَضمونِها وحَقِّيَّةِ مَكنونِها، ومَنْ تأمَّل في الأُولى والثَّانية أدركَ يقينًا قُدرةَ اللهِ التَّامَّةَ، ومُلكَه القاهِر، وعلمَه الشَّامِل، وحكمتَه البالِغة، وغيرَ ذلكَ من صفاتِ الجَلالِ والجَمالِ والكَمالِ للهِ الأَحَدِ[1].

سرُّ الحذف والنفي في الدّعاء:

قولُه تعالى: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا﴾ على إرادةِ القول؛ أي: يقولونَ ذلك، وهو في محلِّ الحال، بمعنَى: يتفكَّرونَ قائلين، وفيه حذف لحرف النداء دلالة على القرب، ونَفَى بـ (ما) النافية الداخلة على الماضي، ليدلّ على انقضاء أمر انتفاء الخلق باطلًا، فهي آكدُ من (لم) في النّفي، والمعنَى: ما خلَقْتَه خَلْقًا باطلًا بغيرِ حكمة؛ بل خلقتَه لِداعي حكمةٍ عظيمة، وهو أن تجعلَها مساكنَ للمكلَّفينَ وأدلَّةً على معرفتِكَ، ووجوبِ طاعتكَ، واجْتناب معصيتِك، ولذلكَ وصلَ به قولَه: ﴿فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾؛ لأنَّه جزاءُ من عَصى ولم يُطِع[2]، وفيه "تنبيه أنه قصد تعالى بخلق هذه الأشياء قصداً صحيحاً"[3]، أي: "ما خلقتَ هذا مخالفًا لِمَا أَنْبأَتنا به الرُسُل عنك من الحشر، والنشر، والإعادة، والثواب، والعقاب، بل هو موافق لذلك ودليل عليه لا أنه لأجله وعلة فيه"[4].

في الدّعاء تنبيهٌ بقصديّة الخلق، وتنزيهٌ للهِ أن يخلقَ مخلوقًا بدون حكمةٍ أو غايةٍ

علّة إيثار لفظ الربوبيّة مطلقًا:

التفكر يجعل القلب يخضع واللسان يخشع فينطق مستشعرًا عظمة الله مبتهلًا بلفظ: ﴿رَبَّنَا﴾، وهذه الضراعة التي بدتْ على الألسنة هي أولى ثمرات التفكّر، لقد وصلوا بفكرهم إلى إدراك

خشوع القلب مدعاةٌ لنداء الباري بلفظه المُشعر بالحنان، والشفقة

(1) الخازن، لباب التّأويل: 1/332.
(2) الزّمَخْشري، الكشّاف: 1/488.
(3) الراغب، تفسير الراغب: 3/1046.
(4) البسيلي، التّقييد الكبير، ص: 612.

ربِّهم فقالوا: ﴿رَبَّنَا﴾، ونادوه سبحانه باللفظ المشعر بالحنان، والشفقة، والنداء الخاضع الضارع الشّاكر لنعمائه، وقد وصلوا بتفكيرهم وتدبّرهم إلى أنّ هذا الكون لا يمكن أن يُخلق باطلا[1].

نكتة ترتيب الخوف على التّفكّر:

الخوفُ منتهى التّفكر، والشعور بالمهابة

ترتيبُ الخوف على التّفكر له موضعه؛ لأن نهاية التّفكر هو الخوف؛ إذ ينتهي إلى أعلى درجات الشّعور بالمهابة لله تعالى، وهو يجعل المؤمن يستصغر حسناته، ويستكثر سيئاته[2]، فنتيجةُ هذا الترتيب: الذكرُ، والفكر، والإقرار، والتنزيه[3].

سرّ التعبير باسم الاشارة:

في الإشارة بهذا ضربٌ من التّعظيم:

كلمةُ ﴿هَٰذَا﴾ إشارةٌ إلى السَّماواتِ والأرضِ، مُتضمِّنةٌ لِضَربٍ من التَّعظيم، كما في قولِه تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: 9][4]، أو الاشارة فيه إلى (الخلق) في قوله: ﴿خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾، قال أبو حيّان: "هذه الجملةُ محكيّةٌ بقولٍ محذوفٍ، تقديره: (يقولون)، وهذا الفعلُ في موضع نصبٍ على الحال، والإشارةُ بهذا إلى الخلق، إن كان المرادُ المخلوقَ، أو إلى السَّماواتِ والأرض؛ لأنّها في معنى المخلوق؛ أي: ما خلقتُ هذا المخلوقَ العجيبَ باطلًا، قيل: المعنى خلقًا باطلًا، أي: لغير غايةٍ، بل خلقتُه وخلقتُ البشرَ لينظر فيه، فيوحِّد ويَعْبُد، فمن فعل ذلك نعّمتُه، ومن ضلّ عن ذلك عذّبتُه"[5].

نكتة التعبير بالمصدر: ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾:

وقولُه: ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾ اعتراضٌ للتَّنزيهِ من العَبَث، وأن يَخلُقَ شيئًا

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 3/1548.
(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 3/1549.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/147.
(4) الزّمَخْشري، الكشّاف: 1/488.
(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/470.

بلا حِكْمَة[1]، وهو اعتراضٌ مؤكِّدٌ لمضمونِ ما قبلَه، وَمُمَهِّدٌ لِمَا بعدَه، من قولِه: ﴿فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾[2]، فمعنى ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾، أي تنزيهاً لك من أن تكون خلقتهما باطلاً، ﴿فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾؛ أي: صدَّقْنا رسلَك، وسلَّمنا أنّ لك جنّةً وناراً، فَقِنا عَذابَ النَّارِ[3].

التسبيحُ اعتراضٌ للتَّنزيهِ عن العَبَث، وأن يَخلُقَ شيئًا بلا حِكْمَة

سرّ استعمال الفاء:

وقولُه: ﴿فَقِنَا﴾ دخلَتِ الفاءُ هنا لمعنَى الجَزاء، فالتَّقديرُ: إذا نزَّهْناكَ أو وحَّدْناكَ فَقِنا عذابَ النَّار[4]، أو هي للعطف، وفي دخولها وجهان: أحدُهما: الوقوفُ على تحقق العذابِ فالفاءُ لترتيبِ الدّعاءِ عَلَى الإقرار المذكور، والثاني: الاستعدادُ لقبول الدعاءِ فالفاءُ لترتيب المدعوِّ، أي: الوقاية على ذلك، كأنه قيل: وإذ قد عرَفنا سرَّك وأطعنا أمرَك ونزّهناك عما لا ينبغي فقِنا عذابَ النّارِ الّذي هو جزاءُ الّذين لا يعرِفون ذلك[5].

أفادتِ الفاءُ ترتيبَ الدعاء، أو الاستعدادَ لقبوله

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

التَّفكُّر والتَّدَبُّر

قولُه تعالى ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ﴾: سبقَ بيانُ (التَّفكُّر)، وهو التَّدبُّر والاعتبار والاتِّعاظ، وهو أيضًا التّأمّل وإعمال العقلِ للوصول إلى نتيجة أو حلّ، لما يفكّر فيه، وأمّا (التَّدَبُّر) فهو: النَّظرُ في عواقبِ الأُمور[6]، وهو من الفعلِ (دَبَرَ)، يُقالُ: دَبَرَ فلانٌ القومَ: صارَ خَلْفَهم، ودَبَرَ السَّهمُ الهَدَفَ: سقطَ خلفَه، ولذلكَ يُقالُ: التَّدبيرُ: التَّفكُّرُ في دُبُرِ الأُمور[7]، وقولُه تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُواْ ٱلْقَوْلَ﴾ [المؤمنون:

(1) الزّمَخْشري، الكشّاف: 1/488 - 489.
(2) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 1/627.
(3) السّمرقنديّ، بحر العلوم: 1/274.
(4) العكبريّ، التبيان: 1/163.
(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/147، وأبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 2/131.
(6) الفيروزآباديّ، القاموس المحيط: (دَبَرَ).
(7) الرّاغب، المفردات، ص: 307.

68]؛ أي: أَلَم يَتفهَّمُواْ ما خُوطِبواْ به في القُرآن[1]، وإذا كان التَّدَبُّر: تصرُّف القلبِ بالنَّظرِ في عواقبِ الأمور، والتَّفكُّرُ: تصرُّف القلبِ بالنَّظرِ في الدَّلائل[2]، عَلِمْنا يقينًا ما في إيرادِ كلمةِ (التَّفكُّر)، دونَ غيرِها، من حكمةٍ بالغةٍ وأثرٍ عظيم، في تَحفيزِ العقلِ والقلبِ، لِينالا حظَّهُما الأَوْفَرَ في جَوَلانِ تلك القُوَّةِ المودَعَةِ فيهما بِخَلْقِ اللّهِ وأمرِه، بالنَّظَرِ الأَمْثَلِ في دلائلِ عظمةِ اللّهِ وقدرتِه ووحدانيَّتِه، قال ابن رشد: "والتّفكّرُ من الأعمال، كما قال مالكٌ رحمهُ اللّه، وهو من أشرفِ الأعمال؛ لأنّه من أعمالِ القلوبِ الّتي هي أشرفُ الجوارح، ألا ترى أنّه لا يُثابُ أحدٌ على عملٍ من أعمالِ الجوارح، من الوضوءِ، والصّلاةِ، والصّيامِ، والحجّ، وسائرِ الطّاعات إلّا مع مشاركةِ القلوب لها، بإخلاصِ النّيّة للّه (ﷻ) في فعلِها؟"[3].

الباطل، والعبث

سبقَ بيانُ قولِه: ﴿بَٰطِلًا﴾، والباطل هو نقيضُ الحقِّ، وهو ما لا ثباتَ له عند تمحيصه، ولا مصداقيّة له، عند التّدليل عليه، وأمَّا العَبَثُ: فهو أن يَخْلُطَ بعملِه لَعِبًا، والعَبَثُ: طعامٌ مَخْلوطٌ بشَيء، ومنه قيلَ: العَوْبَثَانيُّ؛ لتمرٍ وسَمْنٍ وسَوِيقٍ مُختَلِط، قالَ تعالى: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾﴾ [الشعراء: 128]، ويُقال لمن ليس له غَرَضٌ صحيحٌ: عَبَثٌ، قال ﷻ: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾﴾، وبالنَّظَرِ في الفرقِ بين الكلمتَيْن، يظهرُ أنَّ سياقَ النَّصِّ القرآنيِّ، لا يَقبَلُ وجودَ كلمةٍ (عَبَثًا)، فهؤلاء المتفكِّرون المتدبِّرون في آياتِ اللّهِ وعظيمِ خَلْقه ﷻ، يُنزِّهونَ خالقَهم عن أيِّ فعلٍ أو أمرٍ أو حُكمٍ يُناقضُ الحقَّ، ومفهومُ مناقضةِ الحقِّ أوسعُ دَلالةً وشُموليَّةً من مجرَّدِ مجانبةِ اللهو واللَّعب، كما تَعنيه كلمةُ (عَبثًا)، وخاصَّةً أنَّها سُبقتْ بقوله: ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾ الَّتي تعني تنزيه اللّهِ ﷻ، عن كلِّ ما لا يليقُ به ﷻ، في ذاتِه وصفاتِه وأفعالِه، وأحكامِه وحِكَمِه، وكمالِه وجلالِه وجمالِه؛ ولذلكَ كانتْ كلمةُ ﴿بَٰطِلًا﴾ أوفَرَ حظًّا في تحقيقِ الغرضِ المرادِ من سِياق النَّصِّ القرآنيِّ من كلمةِ (عَبَثًا).

(1) الفيروزآباديّ، القاموس المحيط: (دَبَرَ).
(2) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 121.
(3) ابن رشد، البيان والتّحصيل: 17/581.

الوقاية والحفظ

قولُه تعالى: ﴿فَقِنَا﴾: سبقَ بيانُ معنَى الوِقايةِ، وهي حفظُ الشَّيءِ ممَّا يُؤذِيهِ ويَضُرُّه، وأمَّا الحِفظُ فهو يُستعمَلُ في كلِّ تَفقُّدٍ وتَعهُّدٍ ورِعايَة، قالَ اللّه تعالى: ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿١٢﴾﴾ [يوسف: 12]، وقال سُبحانه: ﴿فَٱللَّهُ خَيۡرٌ حَٰفِظٗاۖ﴾ [يوسف: 64]؛ أي: حفظُه ﷻ خَيْرٌ من حفظِ غيرِه، والحِفَاظُ: المُحافَظةُ، وهي أنْ يحفَظَ كُلُّ واحدٍ الآخَر[1]، وبالعَودِ لمعنَى (الوِقاية) نجدُها أَوْفَرَ قُوَّةً في المعنَى، وأَصْوبَ قِيلًا، من حيثُ ما يريدُه سِياقُ النَّصِّ القرآنيِّ، من شدَّة الحفظِ، من كلِّ ما يُؤذِي ويَضُرُّ، وهي مرتبطةٌ ارتباطًا وثيقًا، بالإبعادِ عن كلِّ شرٍّ، ولا أشدُّ شرًّا من أهوالِ يومِ القيامة، والَّذي يُعاني فيه الكفَّارُ والمنافقونَ ما يعانون؛ ولذلكَ جاءَ فعلُ الوِقايةِ دونَ الحفظِ، في أخطرِ المواقف، وأَحْلَكِ الظُّروفِ، وأشقّ الأَحْوال، وقد جاء لفظ الوقاية خصوصا من موقف الآخرة المخزي، بما فيه من هول وهلاك، وذلك في مثل قوله تعالى: ﴿فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمِ﴾ [الإنسان: 11]؛ وفي التّحذير من فعل ما يغمس في النّار، وذلك في قولِه تعالى: ﴿قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ﴾ [التحريم: 6]، والنّذارة من شرّ المصير الأكيد، وذوق العذاب الشّديد، وذلك ما يعبّر عنه قولِه تعالى: ﴿فَأَنذَرۡتُكُمۡ نَارٗا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾ لَا يَصۡلَىٰهَآ إِلَّا ٱلۡأَشۡقَى ﴿١٥﴾ ٱلَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٦﴾﴾ [اللّيل: 14 - 16].

(1) الرّاغب، المفردات، ص: 244 - 245.

﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدۡخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدۡ أَخۡزَيۡتَهُۥۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ ١٩٢﴾ [آل عمران: 192]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

ما للظّالمين من نجاةٍ ولا فرارٍ، إلّا إلى النّار وبئسَ القرارُ

لَمَّا وصفَ بيانُ اللّهِ في الآيةِ السَّابقةِ، أهلَ العقولِ الذّكيَّة، في ذكرِهم للّهِ في جميعِ أحوالِهم، وتَفكُّرِهم في خلقِ السَّماواتِ والأرضِ، واسْتغاثَتِهم باللّهِ، أن يَقيَهم عذابَ النَّار، جاءَ بيانُ اللّهِ في هذه الآية الكريمة، ليُتمِّمَ اسْتجارتَهم باللّهِ، بأنْ لا يجعلَهم ممَّن يُخزيهم، أو يجعلَهم من الظَّالمين؛ لأنَّ مصيرَ أولئكَ هو النَّار، "إنّهم يضرعون إلى ربّهم قائلين: يا ربّنا وخالقنا، إنّ من يستحقّ النّار بأعمالِه السّيئةِ سيلقاها لا محالة، وبذلك تكون قد أخزيته، وأظهرتَ فضيحتَه، وليس للظّالمين الّذين استحقّواْ النّارَ أنصارٌ يحمونَهُم يومَ القيّامة من دخولِ النّار"[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَخۡزَيۡتَهُۥۖ﴾: خَزِيَ الرَّجُلُ: لَحِقَهُ انْكسارٌ، إمَّا من نَفْسِه، وإمَّا من غيرِه، فالَّذي يلحقُه من نَفْسِه، هو الحياءُ المُفرِطُ، ومصدرُه الخَزَايَةُ، ورَجُلٌ خَزْيانُ، وامرأةٌ خَزْيَى، وجمعُه خَزايا، والَّذي يَلحقُه من غيرِه، يُقالُ: هو ضَرْبٌ من الاستِخْفاف، ومصدرُه الخِزْيُ، قالَ تعالى: ﴿فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلۡخِزۡيَ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ﴾ [الزّمر: 26]، وقولُه تعالى: ﴿يَوۡمَ لَا يُخۡزِي ٱللَّهُ ٱلنَّبِيَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥۖ﴾ [التّحريم: 8]، فهو من الخَزَاية والخِزي جميعًا، وإنْ كانَ مِنَ الخِزْيِ أَقرَب[2]، قال الواحديّ: " للإخزاء معانٍ متقاربةٌ، يقال أخزاه اللّه أي أبعده، وقيل

(1) القطّان، تيسير التّفسير: 1/259.
(2) الرّاغب، المفردات، ص: 281.

أهانه، وقيل أهلكه، وقيل فضحه، قال ابن الأنباريّ: الخزيُ لغةً الهلاكُ بتلف، أو بانقطاع حجّةٍ، أو بوقوع في بلاء، والمعنى فقد أخزيته خِزياً لا غايةَ وراءَه"[1].

2) ﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ﴾: تقدَّمَ تفصيلُ الكلام في معنى (الظُّلم)، يقال: ظلمه يظلمه ظلما ومظلمة، وأصله وضع الشّيء في غير موضعه، ويقال: (مَنْ أَشْبَهَ أَبَاهُ فَمَا ظَلَمَ)[2]، وقوله تعالى ﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾، "يحتملُ أن يكونَ من قول عيسى - عليه السلام - لبني إسرائيل، ويحتملُ أن يكون إخبارًا مستأنفًا لمحمّد ﷺ"[3].

3) ﴿مِنْ أَنصَارٍ﴾: النَّصرُ والنُّصْرَةُ: العَوْنُ، قالَ تعالى: ﴿نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ﴾ [الصف: 13]، ونُصرةُ اللّهِ للعبدِ ظَاهِرةٌ، ونُصرَةُ العَبْدِ للّه: هي نُصرتُه لعبادِه، والقيامُ بحفظِ حُدودِه، ورِعايةِ عُهُودِه، واعْتناقِ أحكامِه، واجْتنابِ نَهيِه، قالَ تعالى: ﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ﴾ [محمد: 7]، والانْتصارُ والاسْتِنْصارُ: طلبُ النُّصْرَة، كما قالَ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ۝٣٩﴾ [الشورى: 39]، ﴿وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ﴾ [الأنفال: 72]، وإنَّما قالَ نوحٌ عليه السلام: ﴿فَٱنتَصِرْ ۝١٠﴾ [القمر: 10]، في قولِه تعالى: ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ۝١٠﴾ [القمر: 10]، ولم يقلْ: انْصُرْ؛ تنبيهًا أنَّ ما يَلحقُني يَلحقُكَ، من حيثُ إنِّي جِئتُهمْ بأَمرِك، فإذا نَصَرتني فقدِ انْتصرتَ لنفسِك، والتّناصرُ: التَّعاون، قالَ تعالى: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ۝٢٥﴾ [الصافات: 25][4]، ونُصِرَ أرضُ بني فُلان؛ أي: مُطِرَ، وذلك أنَّ المَطَرَ هو نُصرةُ الأرض[5].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

يتوجّهُ المؤمنونَ المتفكِّرونَ في آياتِ اللّهِ في كونِه بالدُّعاءِ إلى مولاهُمْ وخالقِهم أنْ يَقيَهم عذابَ النَّار؛ لأنَّ الإهانةَ كُلَّ الإهانةِ هي في دخولِ النَّار، ويُقرِّرُ بيانُ اللّهِ حقيقةَ مَنْ ظَلمُواْ وتجبَّرواْ في الدُّنيا، أنَّه لا مُجيرَ لهم، ولا مُدافعَ عنهم يومَ القيامة، وخلاصة

(1) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 2/131.

(2) الجوهريّ، الصّحاح: (ظَلَمَ)، والشّطر صدر بيت لزهير بن أبي سلمى، ومعناه: فما وضع الشّبه في غير موضعه، وهو بتمامه:

أَقُولُ كَمَا قد قَالَ قَبْلِيَ عالِمٌ *** بِهِنَّ وَمَنْ أَشْبَهَ أَباهُ فَمَا ظَلَمْ

ينظر: كعب بن زهير، ديوانه، ص: 65، وكذلك: شرح المفضّليات، ص: 701.

(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/221، وأبو حيان، البحر المحيط: 4/468.

(4) الرّاغب، المفردات، ص: 809.

(5) أبو عبيدة، مجاز القرآن: 2/46.

ذلك: "أي إنّهم بعد أن يدعُواْ ربّهم أن يقيهم دخولَ النّار، يتوجّهُون إليه قائلين هذا القول، دلالةً على عظم هذا العقابِ وشدّته، وهو الخزيُ والفضيحةُ، ليكون موقعُ السّؤال أعظمَ، لأنّ من طلبَ من ربّه شيئًا، وشرح عظمَ المطلوب وقوّتَه، كانت الدّاعيةُ إلى الدّعاءِ أكملَ، والإخلاصُ فى الطّلب أشدَّ"[1].

من وقاه اللهُ نارَ القيامة، فقد فازَ في مآلهِ، وحاز في الجنّة مقامهُ

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغة تصدير الآية بالنِّداءِ:

لقد نادَوا ربَّهم بأرقِّ لفظٍ وأجملِ بيانٍ مُشْعرٍ بالحنان، والشفقة؛ فقالوا: "﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدۡخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدۡ أَخۡزَيۡتَهُۥۖ﴾؛ أي أهنتَه وفضحتَه، و﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ﴾ يعني: ما للمشركين من مانعٍ من العذاب، إذ نزلَ بهم"[2]، وفي تصدير الجملة بالنّداء مبالغةٌ في التّضرعِ والجُؤار[3].

التصدير بالدّعاءُ للمُبالغةِ في التّضرُّعِ، والجؤار إليه

فائدة التوكيد في الآية:

وسِيقَ التَّأكيدُ بـ ﴿إِنَّكَ﴾ لإظهارِ كمالِ اليقينِ بمضمونِها، والإيذانِ بِشدَّةِ الخَوْف، وتوثيق الطّلبِ بالدّعاء الرّاسخ المخلص، بأن يقيهم اللّه مغبّةَ الهوانِ، وحرجَ العذابِ الهُونِ، وهناك لا نصرةَ للظّالمين، ولا عونَ لهم ولا سندَ، بل سيواجهون الحقيقةَ وجهًا لوجه؛ حيث يتجلّى بيقين قولُ اللّه: ﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ﴾[4].

في التوكيد بـ (إنَّك) إظهارٌ لكمالِ اليقينِ بالمضمون، والإيذانِ بِشدَّةِ الخَوْف

قولُه تعالى ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدۡخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدۡ أَخۡزَيۡتَهُۥۖ﴾: جاءَ قولُه: ﴿إِنَّكَ مَن تُدۡخِلِ ٱلنَّارَ﴾ بعدَ الدُّعاءِ بالوِقايةِ من النَّارِ في قولِه: ﴿فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾، مبالغةً في اسْتدعاءِ الوِقاية، وبيانًا لِسَببِه.

أفادَ التوكيدُ المبالغةَ في تضرُّعِ أصحابِ العقولِ الرَّشيدةِ، أنْ يَقيَهم اللهُ من دخولِ النَّار

(1) المراغيّ: تفسير المراغيّ: 4/164.
(2) السّمرقنديّ، بحر العلوم: 1/274.
(3) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 1/628.
(4) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 1/628.

إظهارُ ﴿ٱلنَّارَ﴾ في مَوْضعِ الإضمار:

إيثارُ الإظهار على الإضـمـار بـيـانٌ لهول أمر النار

وإظهارُ ﴿ٱلنَّارَ﴾ في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدۡخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدۡ أَخۡزَيۡتَهُۥۖ﴾ في مَوْضعِ الإضمار؛ لتهويلِ أمرِها[1].

نكتة اصطفاء لفظي (الإدخال، والخزي) في مورد العذاب:

في إيثار لفظي: (الإدخـــــال، والخـزي) تعيين للكيفيّة، وتبيين لفظاعة العذاب

ذُكِرَ الإدْخالُ في ﴿تُدۡخِلِ﴾ في موردِ العذابِ؛ لتعيينِ كيفيَّتِه وتَبيينِ غايةِ فَظاعتِه، والخِزيُ لغةً: الهلاكُ بِتَلَفٍ، أو بانْقطاعِ حُجّةٍ، أو بوقوعٍ في بلاءٍ؛ والمعنَى: فقدْ أَخْزيتَه خِزْيًا لا غايةَ وراءَه، ولا منتهى له، وفيه كذلكَ مِنَ الإشْعارِ بفظاعةِ العذابِ الرُّوحانيِّ ما لا يَخفَى[2]، جاء في لطائف الإشاراتِ "من ابتليتَه في الآجلِ بالحرقةِ فقد أخزيتَه، ومن ابتليتَه بالفرقةِ في العاجلِ فقد أشقيتَه، ومن أوليتَه بيُمن الوصلةِ، فقد آويتَه وأدنيتَه"[3]، وذلك مُبتغى المؤمن في رجائه الفلاحَ في الدّنيا، والفوزَ في الآخرة، وقد قال تعالى: ﴿فَمَن زُحۡزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدۡخِلَ ٱلۡجَنَّةَ فَقَدۡ فَازَۗ وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ ١٨٥﴾ [آل عمران: 185].

دلالةُ التّذييلِ في الفاصلة:

فـائـدة التذييل بـيـان شـنـيـع حـالـهـم بفقدان الناصر والمخلّص

وفي قولِه: ﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ﴾ تَذييلٌ لإظهارِ نهايةِ فَظاعةِ حالِهم، ببيانِ خُلودِ عذابِهم بفُقدانِ مَنْ يَنصُرُهم، ويقومُ بتَخليصِهم، وغَرَضُهم تأكيدُ الاسْتدعاء.

بلاغة التّعبير بلفظ ﴿لِلظَّٰلِمِينَ﴾:

في إظـهـار لفظ الـظـالمين مـزيـدُ ذمٍّ لـهـم، وفي جمعه وصوغه دليل كثرتهم، ورسـوخ صفة الظلم فيهم

ووضَعَ ﴿لِلظَّٰلِمِينَ﴾ موضعَ ضميرِ المُدْخَلينَ لِذَمِّهم، والإشْعارِ بتعليلِ دُخولِهمُ النَّارَ بظُلمِهم، ووضعِهمُ الأشياءَ في غيرِ مواضِعها، وصوغه على هيئة الفاعل مجموعًا دليل كثرتهم، ورسوخ صفة الظلم فيهم؛ ممّا يجعلهم مستحقين للعذاب، وجَمعَ الأنصارَ بالنَّظرِ إلى

(1) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 1/628.
(2) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 1/628.
(3) القشيريّ، لطائف الإشارات: 1/306.

جميعِ الظَّالمين؛ أي: ما لِظالمٍ من الظَّالمينَ نصيرٌ من الأَنصار؛ والمرادُ به: مَنْ ينصُرُ بالمُدافَعةِ والقَهْر[1].

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الخِزْي والذِّلّ

سبقَ بيانُ (الخِزْيِ)، وهو أن يلحق الرَّجُلَ انْكسارٌ، إمَّا من نَفْسِه، وإمَّا من غيرِه، وأمَّا (الذُّلُّ): فهو ما كانَ عن قَهْر، يُقالُ: ذَلَّ يَذِلُّ ذُلًّا، والذِّلُّ بالكسر، ما كان بعد تصعّب، وشماس من غير قهر[2]، وقولُه تعالى: ﴿وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ﴾ [الإسراء: 24]؛ أي: كن كالمقهورِ لهما، قالَ اللّهُ تعالى عنِ اليهود: ﴿وَضُرِبَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلۡمَسۡكَنَةُ﴾ [البقرة: 61]، والذُّلُّ متى كانَ من جهةِ الإنسانِ نفسِه لِنَفْسِه فمحمودٌ، كما في قولِه تعالى: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [المائدة: 54][3]، والخِزْي كما سبقَ يَلحَقُ صاحبَه انكسارٌ واسْتِخفافٌ وهَوانٌ، مع زيادة معنًى آخَر، وهو أنَّ الخِزْيَ ذُلٌّ مع افْتِضاح[4]، ولذلكَ اسْتخدمَ البيانُ الإلهيُّ كلمةَ (الخِزْيِ)، بدَلَ (الذُّلِّ)، فهي أوقعُ أَثَـرًا في مفهومِ سِياقِ النَّصِّ القُرآنيِّ الَّذي وَرَدتْ فيه.

النُّصْرة والوَلاية

سبقَ بيانُ (النُّصْرة) في فِقرة: شرح المفردات، وهي العَوْنُ بكلّ أشكاله وألوانه، بغرض المؤازرة والتّأييد والدّعم، وأمَّا (الوَلاية) - بفتحِ الواو - : فهي النُّصْرَةُ لمحبَّةِ المَنصور والسُّمعَة؛ لأنَّها تُضادُّ العَداوة، والنُّصرةُ تكونُ على الوَجْهين[5]، وأولئكَ الظَّالمون ليس لهم في واقعِ الحالِ الَّذي كانواْ عليه في حياتهمُ الدُّنيا، من أولياءَ يَنصرونَهم ويُؤازرونَهم، بدافعِ المحبَّة والخوفِ عليهم؛ بل بدافعِ المصالحِ الشَّخصيَّة، والمكاسبِ الماديَّةِ الدُّنيويَّة، والخوفِ على أنفُسِهم هُمْ، لا على أولئك؛ ولذلكَ لم يَستخدمِ البيانُ الإلهيُّ كلمةَ (الوَلاية)؛ لأنَّها لا تُحقِّقُ المرادَ من سِياقِ النَّصِّ القُرآنيّ، الَّذي يَفضَحُ أولئكَ

(1) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 1/628.
(2) الزَّبيديّ، تاج العروس: (ذلل).
(3) الرّاغب، المفردات، ص: 330.
(4) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 215.
(5) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 577.

الظَّالمينَ، بأنَّ مَنْ كان يَشُدُّ أَزْرَهم، ويُدافعُ عنهم على الوَجهِ الَّذي ذكرناه، هو الآن بِمنأَى عنهم؛ بل هو يَحتاجُ لمن يُواليه ويُناصرُه، لكن لا سَبيل، وهذا على مبدأ قولِ اللّهِ تعالى: ﴿وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمۡ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُمۡ أَنَّهُمۡ فِيكُمۡ شُرَكَٰٓؤُاْۚ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيۡنَكُمۡ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمۡ تَزۡعُمُونَ ٩٤﴾ [الأنعام: 94].

﴿رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعۡنَا مُنَادِيٗا يُنَادِي لِلۡإِيمَٰنِ أَنۡ ءَامِنُواْ بِرَبِّكُمۡ فَـَٔامَنَّاۚ رَبَّنَا فَٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرۡ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلۡأَبۡرَارِ ١٩٣﴾ [آل عمران: 193]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لا نجاةَ من الخِزي وسوءِ العاقبةِ إلّا بالاستجابةِ للحقِّ، ونيلِ غُفران اللهِ

يسوقُ لنا بيانُ اللّهِ تعالى هنا تتمَّةَ أدعيّةِ أولي الألباب، إذْ لمَّا أعلَنُواْ في الآيةِ السَّابقةِ، أنَّ الظَّالمَ الَّذي يَدْخلُ النَّارَ، يَحِلُّ به الخِزيُ، ولن يجدَ مَنْ يُواليه ويُنقذُه منها، يُقدِّمون لأنفسِهم عندَ خالقهم في هذه الآية، تقريرًا عنِ استجابتِهم لنداءِ مَنْ نَاداهم للإيمانِ، قبلَ دعائِهم أن يغفرَ اللّهُ لهم ذنوبَهم، ويَتوفَّاهم مع عبادِه الأبرار، لعلَّ اللّه أن يستجيبَ دُعاءَهم، وقولهم: " ﴿رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعۡنَا مُنَادِيٗا﴾: حكايةٌ لدعاءٍ آخرَ لهم، وتصديرُ مقدّمةِ الدّعاءِ بالنّداءِ، لإظهار كمال الضّراعةِ والابتهال، والتأكيدُ للإيذان بصدور المقالِ عنهم، بوفور الرّغبةِ، وكمالِ النّشاط، والمرادُ بالمُنادي الرّسول ﷺ، والتّنوينُ للتّفخيم"[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مُنَادِيٗا يُنَادِي﴾: النِّداءُ: - بضمِّ النُّون وكَسْرِها - : الصَّوتُ، ونَاديتُه، ونَاديتُ به، وهو نَدِيُّ الصَّوْتِ: بَعيدُه، ونَخْلٌ نَاديةٌ: بعيدةٌ عن الماء، وتَنادَوا: نادى بعضُهم بعضًا، وتَجَالَسُوا في النَّادي، وأنْدَى: كَثُرَ عَطَاياهُ، أو حَسُنَ صوتُه، ونَدَا القومُ نَدْوًا: اجْتَمَعُوا، كانْتدَوا وتنَادَوا[2]، "في المنادي قولان: أحدُهما: أنّه النّبيُّ ﷺ، قاله ابن عبّاس، وابن جريج، وابن زيد، ومقاتل، والثّاني: أنّه القرآنُ، قاله محمّد بن كعب القرظيّ، واختاره ابنُ جرير الطّبريّ"[3].

(1) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 2/131، ومحاسن التّأويل: 2/483.
(2) الفيروزآباديّ، القاموس المحيط: (نَدَا).
(3) ابن الجوزيّ، زاد المسير: 1/361، والماورديّ، النّكت والعيون: 1/442.

2) ﴿فَٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾: اللّفظان يؤدّيان المعنى المطلوب مع بعضهما، فاللّفظُ الأوّلُ ﴿فَٱغۡفِرۡ﴾، من الغَفْرِ: وهو إلباسُ المرء ما يَصونُه عنِ الدَّنَس، ومنه قيلَ: اغْفِرْ ثوبَكَ في الوِعاء، واصْبِغْ ثوبَكَ، فإنَّه أَغْفَرُ للوَسَخ، والغُفْرانُ والمَغفرةُ من اللّه: هو أنْ يصونَ العبدَ من أنْ يَمَسَّه العذابُ، قالَ تعالى: ﴿غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا﴾، وقد يُقالُ: غَفرَ له إذا تجافَى عنه في الظَّاهر، وإنْ لم يَتجافَ عنه في الباطِن، كما في قولِه تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَغۡفِرُواْ لِلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ﴾ [الجاثية: 14]، والاسْتغفارُ: طلبُ ذلكَ بالمقالِ والفِعال[1]، واللّفظُ الثّاني قوله ﴿ذُنُوبَنَا﴾، جمعُ مفرده ذنْبٌ، في الأصلِ: الأَخْذُ بِذَنَبِ الشَّيء، يُقالُ: ذَنَبْتُه: أصبْتُ ذَنَبَهُ، ويُستعمَلُ في كلِّ فعلٍ يُستوخَمُ عُقْباه، اعْتبارًا بِذَنَبِ الشَّيء، ولهذا يُسمَّى الذَّنْبُ تَبِعةً، اعْتبارًا لما يحصُلُ من عاقبتِه، وجَمعُ الذَّنْبُ ذُنُوبٌ، قالَ اللّه تعالى: ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمۡۗ﴾ [آل عمران: 11][2].

3) ﴿وَكَفِّرۡ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا﴾: اللّفظان يتعاضدان لأداء المعنى المراد، في سياق هذه الآية، فاللّفظ الأوّل ﴿وَكَفِّرۡ﴾، من لفظ الكُفْر، وهو في اللُّغة: سَتْرُ الشَّيء، وَوُصِفَ اللَّيلُ بالكافرِ، لسَترِه الأَشْخاص، والزُّرَّاعُ لسَترِهمُ البِذْرَ في الأرض، كما في قولِه تعالى: ﴿كَمَثَلِ غَيۡثٍ أَعۡجَبَ ٱلۡكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ﴾ [الحديد: 20]، وكُفْرُ النِّعمةِ وكُفرانُها: سَترُها بتركِ أداءِ شُكرِها، قالَ تعالى: ﴿فَلَا كُفۡرَانَ لِسَعۡيِهِۦ﴾ [الأنبياء: 94]، وأعظمُ الكُفْر: جُحودُ الوحدانيَّةِ أوِ الشَّريعةِ أوِ النُّبُوَّة، واللّفظ الثّانيّ، قولُه: ﴿سَيِّـَٔاتِنَا﴾، من السُّوءُ: وهو كلُّ ما يَغُمُّ الإنسانَ منَ الأمورِ الدُّنيويّةِ والأُخْرَويَّة، ومِنَ الأحوالِ النَّفسيّة، والبَدَنيّة، والخارجَة من فواتِ مالٍ، وجاهٍ، وفَقْدِ حَميم، قالَ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡخِزۡيَ ٱلۡيَوۡمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ٢٧﴾ [النحل: 27]، وعبَّر عن كلِّ ما يَقبُحَ بالسُّوأَى؛ ولذلكَ قُوبِلَ بالحُسنَى، قالَ تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ ٱلسُّوٓأَىٰٓ﴾ [الرّوم: 10]، وقال: ﴿۞لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ وَزِيَادَةٞۖ﴾ [يونس: 26]، والسَّيِّئَةُ: الفِعْلَةُ القَبيحةُ، وهي ضِدُّ الحَسَنَة، قالَ تعالى: ﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةٗ﴾ [البقرة: 81]، والحَسَنَةُ والسَّيِّئَةُ ضَرْبان، أحدُهما: بِحَسَبِ اعْتبارِ العقلِ والشَّرْع، كما في قولِه تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشۡرُ أَمۡثَالِهَاۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَا﴾ [الأنعام: 160]، وثانيهما: بِحَسَبِ اعْتبارِ الطَّبْع،

(1) الرّاغب، المفردات، ص: 331.
(2) الرّاغب، المفردات، ص: 609.

وذلك ما يَستخفُّه الطَّبعُ ويَستثقِلُه، كما في قولِه تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَٰذِهِۦۖ وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةٞ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓۗ﴾ [الأعراف: 131][1].

4) ﴿وَتَوَفَّنَا﴾: أَوْفَى فلانًا حقَّه: أَعْطاه وافيًا، كوفَّاه ووَافاه، فاسْتوفَاه وتَوفّاه، والوَفَاةُ: الموتُ، وتَوفّاه اللّهُ: قَبَضَ رُوحَه[2]، ودُعاءُ المؤمنينَ ربَّهم أنْ يتوفَّاهم مع الأبْرار، يعني: يَسْتَوفي أجلَهم ويَقبِضُ أرواحَهم مع زُمرة الأبْرار، فيحشُرُهم ويُدخِلُهُمُ الجنَّةَ معهم، قوله ﴿وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلۡأَبۡرَارِ﴾: "أي: في عددِهم، وفي زمرتِهم، وقيل: المعنى وتوفّنا أبراراً مع الأبرارِ"[3].

5) ﴿ٱلۡأَبۡرَارِ﴾: البَرُّ: خلافُ البَحْر، وتُصوِّرَ منه التَّوسُّعُ فاشْتُقَّ منه البِرُّ، أي: التَّوسُّعُ في الخَيْر، ويُنسَبُ ذلكَ إلى اللّهِ تارةً نحو: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ٢٨﴾ [الطور: 28][4]، وإلى العبدِ تارةً، فيُقالُ: بَرَّ العبدُ ربَّه؛ أي: تَوسَّعَ في طاعتِه، فمنِ اللّهِ الثَّوابُ، ومن العبدِ الطَّاعة، وذلك ضربان: الأوَّل: في الاعْتقاد، والثَّاني: في الأعمال، وقد اشْتملَ عليهما قولُه - ﷻ -: ﴿۞لَّيۡسَ ٱلۡبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ قِبَلَ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ﴾ [البقرة: 177]، وتَضمَّنتِ الآيةُ الكريمة بتمامِها جميعَ أنواع البرِّ، بدءًا بالاعتقاد ثمّ الأقوال والأعمال، ويُقالُ: بَرَّ أبَاه، فهو بارٌّ وبَرٌّ، كما في قولِه تعالى: ﴿وَبَرَّۢا بِوَٰلِدَتِي﴾ [مريم: 32]، وجمعُ البارِّ: أَبْرارٌ وبَرَرَةٌ، قالَ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِي نَعِيمٖ ١٣﴾ [الإنفطار: 13]، وقالَ في صفةِ الملائكة: ﴿كِرَامِۭ بَرَرَةِۭ ١٦﴾ [عبس: 16][5]، فَبَرَرَةٌ خُصَّ بها الملائكةُ في القرآنِ، من حيث إنَّه أبلغُ من أَبْرار، فإنَّه جمعُ بَرٍّ، وأَبْرارٌ جمعُ بارٍّ، وبَرٌّ أبلغُ من بارٍّ، كما أنَّ عَدْلًا أبلغُ من عَادِل[6].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

ينقُلُ لنا سياق هذه الآية الكريمة، أدعيةَ المؤمنينَ أُولي الأَلْباب، والَّتي منها في هذه

(1) الرّاغب، المفردات، ص: 441 - 442.

(2) الفيروزآباديّ، القاموس المحيط: (وَفَّى).

(3) مكيّ بن أبي طالب، الهداية: 2/1204.

(4) "البرُّ: اسم من أسماء الله الحُسنى، ومعناه: فاعل البّر والإحسان، الّذي يُصلح أحوال عباده، ويُحسن إليهم في دينهم ودُنياهم، قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ٢٨﴾ [الطّور: 28]"، ينظر: أحمد مختار عمر: معجم اللّغة العربيّة المعاصرة: 1/187.

(5) الرّاغب، المفردات، ص: 114 - 115.

(6) الزّركشي، البرهان: 4/18، والسُّيوطي، الإتقان: 1/253.

الآية، والّتي مفادها قولهم: ربَّنا إنَّنا سَمِعْنا داعيًا يَدْعو إلى الإيمان، وهو رسولُكَ محمَّدٌ ﷺ، يقولُ: ﴿ءَامِنُواْ بِرَبِّكُمْ﴾، فاسْتجبْنا له واتَّبعْناه، فامْحُ يا ربَّنا ذنوبَنا بينَنا وبينَ عبادِك، واسْتُرها فيما بينَنا وبينَك، واقبِضْ أرواحَنا وألْحِقْنا مع الصَّالحين من عبادِك[1]، "وفي تقدمةِ الدّعاء بالنّداء، إشارةٌ إلى كمال توجّههم إلى مولاهم، وعدم غفلتهم عنه، مع إظهار كمال الضّراعةِ والابتهالِ، إلى من عوّدهم الإحسان والإفضال"[2].

إظهارُ كمالِ الضّراعةِ والابتهالِ، باعتبار الله مصدرَ الإحسانِ والإفضالِ

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

بيانُ افتتاح الدّعاء بالنِّداءُ:

قولُه تعالى ﴿رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ﴾: نجد تصديرَ مُقدِّمةِ الدُّعاءِ بالنِّداء؛ لإظهار كمالِ الضَّراعةِ، والابْتهالِ، والقرب المتحقّق بحذف حرف النداء.

اتّساعُ الأساليبِ للمعاني الجليلةِ، الّتي تمخّضت عن ابتهالاتِ المؤمنين ودعواتهم الخالصة

سرُّ تعقيب النداء بالتّوكيد:

جاءَ التّأكيدُ في ﴿إِنَّنَا﴾؛ للإيذانِ بِصدُور المقالِ عنهم بِمَوْفُورِ الرَّغبةِ، وكمالِ النَّشاط، وبتمام اليقينِ بمضمونِها[3].

في التوكيد إظهارٌ لكمال الرَّغبةِ، والنَّشاط، واليقين

براعة التعبير بلفظ النداء:

المرادُ بالنِّداء في قولُه تعالى: ﴿سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ﴾: الدُّعاءُ، وتَعْديتُها باللَّام لاشْتمالِها على معنَى التَّخصيص[4]، ويمكنُ أن تكونَ (اللَّام) بمعنَى: أجل[5].

عُدِّيَ النداء باللام للتخصيص

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 1/387.
(2) المراغيّ: تفسير المراغيّ: 4/164.
(3) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 2/132.
(4) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 2/132.
(5) الهرويّ، الأزهيّة في علم الحروف، ص: 287، وأبو حيّان، ارتشاف الضّرب: 4/1707.

في التنوين تعظيمٌ لشأن المنادي، والنداء، وتفخيمٌ لهما

نكتة تنوين لفظ المنادي:

والمرادُ بالمُنادِي الرَّسولُ ﷺ [1]، وتَنْوينُ لفظ ﴿مُنَادِيًا﴾ تعظيمًا لشأنه ﷺ وتَّفخيمًا لشأن النداء.

إيثار لفظ النداء بيانٌ لكمال اعْتنائه بِشَأْنِ الدَّعوة، وصورة تبليغها

سرُّ إيثار لفظ النداء على الدعوة:

إيثارُ لفظ (المنادي) على (الدَّاعي) في قوله: ﴿مُنَادِيًا يُنَادِى﴾؛ للدَّلالةِ على كمالِ اعْتنائه بِشَأْنِ الدَّعوة، وتَبليغِها إلى الدَّاني والقَاصِي، لما فيه منَ الإيذانِ برفعِ الصَّوْت[2].

في النداء وجهُ إبهامٍ، فيكون البيانُ فيه أكثرُ ثباتًا

دلالةُ النداء للإيمان:

يلاحظُ في قوله تعالى: ﴿رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ﴾ "أنّه أطلقَ المُنادي، ثمّ ذكرَ بعد ذلك، أنّه ينادِي بالإيمان، وذلك لما فيه من إبهامٍ بعده بيان، فيكون البيانُ أكثرَ ثباتًا، ولأنّ الإطلاقَ أعطى المنادي تفخيمًا وتكبيرًا؛ ولأنّ النّداءَ إلى الحقّ، اعتبرَ كالعنوان له، وثالثها: أنّ الإيمانَ ذكر مطلقًا، على أنّه إيمان بالرّبِّ، وذلك للدّلالة على الإذعان المطلق للّهِ وللحقّ والهدى، اللهم هبنا إيمانًا بالحقِّ وإذعانًا له، وقد أجابوا نداءَ الإيمان، فقالوا ﴿فَـَٔامَنَّاۚ﴾، وسماع النّداء لا يلزم أن يكونَ من شخصِ المُنادي، بل يعمّ السّماعَ من شخصه، وتتّبعَ رسالتِه من بعده"[3].

ذكرَ النّداءَ مطلقًا ثمّ مقيّداً بالإيمان، تفخيمٌ لشأن المنادي

وقال الزّمخشريّ: "فإن قلت: فأيّ فائدةٍ في الجمع بين المُنادي، وينادي؟ قلت: ذكرَ النّداءَ مطلقًا ثمّ مقيّداً بالإيمان، تفخيمًا لشأن المنادى؛ لأنّه لا منادَى أعظمَ من منادٍ يُنادي للإيمان، ونحوه قولك: مررتُ بهادٍ يهدي للإسلام؛ وذلك أنّ المنادى إذا أطلق، ذهب الوهمُ إلى منادٍ للحرب، أو لإطفاءِ النّائرة، أو لإغاثةِ المكروبِ، أو لكفايةِ بعض النّوازل، أو

(1) وقال القُرطبي: "يعني: القرآن، فليس كلُّ أحدٍ يلقَى النَّبيَّ ﷺ"، ينظر: ابن جرير، جامع البيان: 4/212، وابن أبي حاتم، تفسير القرآن: 3/842، ولا تعارضَ بينهما فإنَّ ما يدعو إليه رسولُ الله ﷺ هو عينُ ما يدعو إليه القرآن.

(2) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 2/132.

(3) أبو زهرة: زهرة التّفاسير: 3/1550.

لبعضِ المنافع، وكذلك الهادي، قد يطلقُ على من يهدي للطّريق، ويهدي لسدادِ الرّأي، وغير ذلك، فإذا قلت: يُنادي للإيمان، ويهدي للإسلام، فقد رفعتَ من شأن المنادي والهادي وفخّمته، ويقال: دعاه لكذا وإلى كذا، وندبَه له وإليه، وناداه له وإليه، ونحوه: هداه للطّريق وإليه؛ وذلك أنّ معنَى انتهاءِ الغاية، ومعنى الاختصاصِ واقعان جميعًا"[1].

فائدة الجمع بين ﴿مُنَادِيًا﴾ و﴿يُنَادِى﴾:

وفي ذكرِ الفعلِ ﴿يُنَادِى﴾ مع دَلالةِ الاسم ﴿مُنَادِيًا﴾ عليه ثلاثةُ أَوْجُهٍ بلاغيَّة[2]: الأوَّل: هو التَّوكيد، كما يقولُ أحدُهم: قُمْ قائمًا، الثّاني: أنَّه وصلَ به ما حَسُنَ التَّكرير، وهو قولُه: ﴿لِلْإِيمَٰنِ﴾، الثَّالث: أنَّه لو اقْتصَرَ على الاسْم لجازَ أن يكونَ سمعَ مَعروفًا بالنِّداءِ يذكرُ ما ليسَ بنداء، فلمَّا قالَ: ﴿يُنَادِى﴾ ثبتَ أنَّهم سَمِعوا نداءَه في تلكَ الحال، ولذا كان مفعولُ ﴿يُنَادِى﴾ محذوفًا، تقديرُه: يُنادي النَّاسَ.

في الجمع توكيدٌ، وحسنُ تكرير، وإثباتٌ لسماع النداء

وفي الآية إطنابٌ بالتّكرار، وهو الجمعُ بين لفظ ﴿مُنَادِيًا﴾ ولفظ ﴿يُنَادِى﴾، وذلك أنّه ذكر النّداء في الأوّل مطلقًا، ثمّ ذكره في الثّاني مقيّدًا بالإيمان، توكيدًا وتعظيمًا؛ إذ لا مناديَ أعظمُ من مُنادٍ يدعو إلى الإيمانِ، وهو محمّدٌ ﷺ، أو القرآنُ الّذي أنزل عليه بحسب ما رجَّحَ ابن جرير الطّبري محتجًّا بأنّ كثيرين ممّن وصفهم اللّه بهذه الصّفة، في هذه الآياتِ ليسوا ممّن رأى النّبيّ ﷺ، فسمعواْ دعاءَه إلى اللّهِ - تبارك وتعالى - ونداءه، ولكنّه القرآنُ[3].

في تكرار لفظ النداء وجهُ إطنابٍ زيادة في التوكيد والتعظيم

وجه التعبير بـ ﴿أَنْ﴾:

﴿أَنْ﴾: فيها وجهان[4]: الأوَّل: أنّها تفسيريّة؛ وذلكَ لما في فعل ﴿يُنَادِى﴾، من معنَى القولِ دونَ حروفه، فيكون النِّداءُ قولَه: آمنوا،

معنى (أن) التفسيريّة، أو المصدريّة

(1) الزّمَخْشري، الكشّاف: 1/455.
(2) العكبريّ، التبيان: 1/163.
(3) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 2/138.
(4) العكبريّ، التبيان: 1/163، وهذا ما ذكره الزّمَخْشري في الكشّاف: 1/489، ومختَصرًا بقوله: "أي: آمنوا أو بأن آمنوا".

والثَّاني: أنَّها مصدريّة، وُصلتْ بالأمر؛ فيكونُ التَّقديرُ: على هذا يُنادي للإيمان بأنْ آمنوا.

فائدة الفاء في فعل الاستجابة ﴿فَـَٔامَنَّا﴾:

الفاءُ في ﴿فَـَٔامَنَّا﴾ للتَّعقيب، سيقتْ للدَّلالةِ على المبادَرةِ والسَّبْقِ إلى الإيمان؛ وذلكَ دليلُ سلامةِ فِطْرتِهم من الخطأِ والمُكابَرَة، وقدْ تَوسَّمُوا أن تكونَ مُبادَرتُهم لإجابةِ دعوةِ الإسلامِ، مشكورةً عندَ اللّهِ تعالى؛ ولذلكَ فرَّعوا عليه قولَهم: ﴿فَٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾؛ لأنَّهم لما بَذَلوا ما في وُسْعِهم منِ اتِّباع الدِّين كانوا حَقيقينَ بترجِّي المَغفرة[1].

سيقتِ الفاءُ للدَّلالةِ على المبادَرةِ إلى الإيمان؛ وهو دليلُ سلامةِ الفِطْرة

بلاغة تقييد الإيمان بلفظ ﴿بِرَبِّكُمۡ﴾:

وقولُه ﴿بِرَبِّكُمۡ﴾: أي: بمالِكِكُم ومُرَبِّيكم ورازقِكُم ومُتولِّي أموركم ومُبلِّغِكُم إلى الكمال، وكلُّ ما تفيدُه كلمةُ (الرَّبِّ) من المعاني الفائقةِ الجليلة، وفي إطلاقِ الإيمانِ ثمَّ تقييدِه ﴿بِرَبِّكُمۡ﴾ تَفخيمٌ لشَأْنه وإعظامٌ لقَدْرِه، وهو كذلك[2].

في إطلاقِ الإيمانِ ثمَّ تقييدِه (بربّكم) تَفخيمٌ لشَأْنه وإعظامٌ لقَدْرِه

براعة تكرار لفظ الربوبيّة:

ولفظُ ﴿رَّبَّنَآ﴾ في قولِه تعالى: ﴿رَبَّنَا فَٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرۡ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلۡأَبۡرَارِ﴾ تكريرٌ للتَّضرُّع، وإظهارٌ لكمالِ الخُضوع، وعَرضٌ للاعْتراف بربوبيَّتِه سبحانه مع الإيمانِ به.

تكرير لفظ الربوبيّة للتَّضرُّع، وإظهارِ كمالِ الخُضوع

فائدة الفاء في فعل الغفران:

والفاءُ في قولِه تعالى: ﴿فَٱغۡفِرۡ لَنَا﴾ لِتَرتيبِ المغفرةِ، أوِ الدُّعاءِ بها، على الإيمانِ به تعالى، والإقرارِ بربوبيَّتِه، فإنَّ ذلكَ من دَوَاعي المغفرةِ والدُّعاءِ بها[3].

التعبير بالفاء؛ لِتَرتيبِ المغفرةِ، أوِ الدُّعاءِ بها، على الإيمانِ بالله تعالى

(1) ابنُ عاشور، التّحرير والتّنْوير: 4/199.
(2) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 2/132.
(3) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 2/132.

وجه الجمع بين لفظي: (الغفران، والتكفير):

شاعَ الغُفرانُ في العَفوِ عنِ الذّنبِ، والتّكفيرُ في تعويضِ الذّنبِ بِعِوَضٍ

والغَفْرُ والتَّكفيرُ متقاربانِ في المادَّةِ المُشْتقَّيْن منها، إلَّا أنَّه شاعَ الغَفْرُ والغُفرانُ في العَفوِ عنِ الذَّنبِ، والتَّكفيرُ في تعويضِ الذّنبِ بِعِوَضٍ، فكأنَّما العِوَضُ كفَّرَ الذَّنبَ، أي: سَتَرَه، ومنه سُمِّيتْ كفَّارةُ الإفطارِ في رمضان، وكفَّارةُ الحِنْثِ في اليمينِ، إلَّا أنَّهم أرادُوا بالذُّنوبِ ما كان قاصرًا على ذَواتِهم؛ ولذلكَ طَلبُوا مَغفرتَه، وأرادوا منَ السَّيِّئات ما كانَ فيه حقُّ النَّاس، ولذلكَ سألُوا تكفيرَها عنهم[1]، وثمّة وجهٌ يرى عَدَم اخْتصاصِ أحدِ اللَّفظيْنِ بأحدِ الأمرين، والآخَرُ بالآخَر؛ بل يكونُ المعنَى في الذُّنوب والسَّيِّئات واحدًا، والتَّكريرُ للمُبالغةِ والتَّأكيد[2].

وجه الجمع أنَّ غفرانَ الذّنوبِ بفضلِه ورحمتِه، وتكفير السّيئات بالطّاعات

"وجَمَعَ بين غفران الذّنوبِ، وتكفير السّيئات؛ لأنّ غفرانَ الذّنوبِ بفضلِه ورحمتِه، وتكفير السّيئات بالطّاعات، كتكفير الحنثِ بالصّوم، والظّهار بالإعتاق، فالمغفرةُ بفضله من غير سببٍ، والتّكفيرُ بسبب طاعةٍ"[3].

وجه التفريق بين لفظي: (الذنب، والسيئة):

السَّيئة عصيانٌ فيه إساءة، والذَّنب فيه تقصير وتباطؤ عن الخير

والفرق بين لفظي: الذنب، والسيئة في قوله تعالى: ﴿فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا﴾: " أنَّ السَّيئة عصيانٌ فيه إساءة، والذَّنب فيه تقصير وتباطؤ عن الخير"[4]، ولذلك ناسب الذنوبَ الغفرانُ بوصفه عفوًا، وناسب السيئةَ التّكفيرُ بوصفه تعويضًا لها بِعِوَضٍ.

وجه المعيّةِ الاعتباريّة مع الأبرار في الفاصلة:

المَعِيَّةُ مع الأبرارِ أبْلَغُ في الاتِّصاف بالدَّلالة؛ لأنَّه برٌّ يُرجَى دوامُه

وقولُه ﴿وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ﴾: المَعِّـيَّةُ هنا مَعِـيَّةٌ اعْتباريَّةٌ، وهي المُشارَكةُ في الحالةِ الكاملةِ، والمَعِيَّةُ مع الأبرارِ أبْلَغُ في الاتِّصاف

(1) ابنُ عاشور، التّحرير والتّنْوير: 4/200.
(2) الشَّوكانّي، فتح القدير: 1/665.
(3) الواحديّ، الوسيط: 1/534.
(4) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 3/1551.

بالدَّلالة؛ لأنَّه برٌّ يُرجَى دوامُه وتزايُدُه، لكونِ صاحبِه ضِمنَ جَمعٍ يَزيدونَه إقْبالًا على البرِّ، بلسانِ المقالِ ولسانِ الحال[1]،

في المعيّة إشعارٌ بأنَّ من أحبَّ لقاءَ الله أحبَّ اللهُ لقاءَه

والدُّعاءُ بالتَّوفِّي مع الأبرارِ فيه إشعارٌ بأنَّهم كانوا يُحبُّونَ لقاءَ اللهِ، ومَنْ أَحَبَّ لقاءَ اللهِ أَحَبَّ اللهُ لقاءَه[2]، وحَظِيَ بالقربِ منه في جنّاتِ النّعيم.

الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

النِّداء والدُّعاء:

النِّداءُ: هو رفعُ الصَّوتِ بما لَه معنًى، وأصْلُ الدُّعاءِ: طلبُ الفعلِ، دَعَا، يَدْعُو، وادَّعَى ادِّعاءً؛ لأنَّه يَدْعو إلى مَذْهبٍ من غيرِ دَليل[3]، والَّذي يتَّضِحُ من بيانِ الفَرقِ بين الكلمتَين: أنَّ استخدامَ البيانِ الإلهيِّ لكلمةِ (النِّداء) أَغزر معنى، وأَصْوَبُ قيلًا، فإنَّ أصحابَ العقولِ الرَّشيدةِ، قدْ سَمِعُواْ مُناديًا يُنادي عبادَ اللهِ للإيمانِ باللهِ، وهذا السَّماعُ يقتضي صوتَ مُنادٍ به، وهو الرَّسولُ ﷺ، وهناكَ مَنْ سمعَ منه مباشرةً، وهم صحابتُه (رضوانُ اللهِ عليهم)، وهناكَ من سَمِع من الصَّحابةِ ﷺ، ما نادهم به رسولُ اللهِ ﷺ، وأمرَهم به من الإيمانِ، وما أَوْجبَه من شريعةِ الإسلام، إلى أن وصلَ إلى مَسامعِ كلِّ مَنْ تَبعَهم بإحسان، وبأدلَّةٍ من كتابِ اللهِ المحكم، وسُنَّةِ خير البشريّة رسولِ اللهِ ﷺ.

الوفاة والإماتة

مرَّ سابقًا في فِقرة: شرح المفردات، أنَّ توفيةَ الحقِّ إعْطاؤه وافيًا، واستِيفاؤهُ يعني: تناوله وافيًا، كما في قولِه تعالى: ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ﴾ [آل عمران: 25]، وقد عُبِّر عنِ الموتِ والنَّوْمِ بالتَّوفِّي،

(1) ابنُ عاشور، التّحرير والتّنْوير: 4/200.
(2) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 2/132.
(3) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 534، والكفوي، الكليّات: 2/333.

قالَ تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلۡأَنفُسَ حِينَ مَوۡتِهَا وَٱلَّتِي لَمۡ تَمُتۡ فِي مَنَامِهَاۖ﴾ [الزّمر: 42]، وإذا تبيَّنتْ لنا هذه المعاني للتَّوفِّي والتَّوفيةِ والاسْتيفاءِ، فإنَّ أصحابَ العقولِ المؤمنةِ، يُعلنونَ بدُعائِهم، أنَّ الَّذي يَسْتوفي الأجل كاملًا تامًّا، هو اللّه ﷻ، لا أحدَ غيرُه، ولم يَستخدِموا الفعل (أَمِتْنا) الَّذي يعني مُجرَّدَ قبضِ الرُّوح، ومُفارقتَها للجسد[1]، وإنَّما يَسْتحضِرون مع دعائهم، أنَّ هذه الرُّوحَ، هي حقٌّ للّه، وعندما يُريدُ اللّه أنْ يَستوفيَ حقَّه وخَلْقَه، ويسترجع أمانته، فسيكونُ ما يُريد ﷻ، وهذا الاسْتحضارُ لهذه الحقيقةِ الَّتي اصطبغتْ بها مشاعرُهم وقلوبُهم وعقولُهم، هي تعبيرٌ تامٌّ عن كمالِ الإيمانِ، في جَنَانهم وأركانِهم.

الأبرار والصَّالحين

لم يرد في سياق الآية قولهم: (وتوفَّنا مع الصَّالحين)، بلِ اسْتخدمُوا كلمةَ (الأبرار)؛ لأنَّ البِرَّ كما مرَّ في شرحِ المفردات، هو التَّوسُّعُ في الخير، والتَّوسُّعُ في الطَّاعة، مع ما تضمَّنتْه من جميعِ أنواع البِرِّ، اعتقادًا وقولًا وعملًا، وهذا لا تُحقِّقُه في سِياق النَّصِّ القرآنيِّ، كلمةُ الصَّالحين الَّتي هي من الصَّلاح: وهي ما كانَ ضدَّ الفساد، وهو مختصٌّ في أكثرِ الاسْتعمالِ بالأفعَال، وقُوبِلَ في القرآنِ تارةً بالفَساد، وتارةً بالسَّيِّئة، كما قالَ تعالى: ﴿خَلَطُواْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا﴾ [التّوبة: 102]، ﴿وَلَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَا﴾ [الأعراف: 56][2]، قال الماتريديّ: "يحتملُ قوله: ﴿وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلۡأَبۡرَارِ﴾؛ أي: توفّنا واجعَلنا مع الأبرار، ويحتملُ: وتوفّنا من الأبرار وفي الأبرار"[3].

(1) العسكريّ، الفروق، ص: 525.
(2) الرّاغب، المفردات، ص: 489.
(3) الماتريديّ، تأويلات أهل السنة: 2/563.

﴿رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾﴾ [آل عمران: 194]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

وعدُ اللهِ صدقٌ لا يُغيَّرُ، وميثاقٌ لا يُحَوِّرُ؛ لأنّه لا يخلفُ الميعادَ

لَمَّا عَرَض لنا بيانُ اللّه في الآيةِ السَّابقةِ، تتمَّةَ أدعيةِ أُولي الألبابِ، ختمَها بدعائهم الّذي يرجون فيه من ربِّهم، أن يُنجزَ لهم ما وعدَهُم به على أَلْسنةِ رُسُلِه من النَّصرِ في الدُّنيا، ومن الفوزِ بجنَّتِه في الآخرة، فإنَّه تعالى لا يُخلِفُ وعدَه، "لقد ترقّوا في الطّلبِ، فانتقلُوا من طلبِ الغفران، إلى طلبِ الثّواب، فمعنى النّصِ الكريمِ: أعطِنا يومَ القيامةِ، ما وعدتَنا به على ألسنةِ رسلِك الأكرمين، وقد أخّروا ذلك، لشعُورهم بهفواتِهم، أكثرَ من شعورِهم بحسناتِهم الّتي يستحِقُّون عليها الثّوابَ"[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مَا وَعَدتَّنَا﴾: الوَعْدُ: يكونُ في الخيرِ والشَّرِّ، يقالُ: وَعَدْتُه بنفعٍ وضُرٍّ، والوَعيدُ لا يكون إلّا في الشَّرِّ خاصَّةً، يُقالُ منه: أوْعَدْتُه، ويُقال: واعَدْتُه وتَوَاعَدْنا، قالَ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ﴾ [إبراهيم: 22]، وقالَ تعالى في الوَعيدِ بالشَّرِّ: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ ۚ﴾ [الحجّ: 47]، وكانوا إنَّما يَستعجلونَه بالعذابِ، وذلكَ وَعيد، وكما في قولِه: ﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٥﴾﴾ [ق: 45]، وممَّا يتضمَّنُ الأمرَين قولُ اللّهِ ﷻ: ﴿أَلَآ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ [يونس: 55]، فهذا وَعْدٌ بالقيامةِ، وجزاءِ العبادِ، إنْ خيرًا فَخَير، وإنْ شَرًّا فَشَرّ، والمَوْعِدُ، والمِيعادُ يكونانِ مَصدرًا واسْمًا،

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 3/1551.

قالَ تعالى: ﴿فَٱجۡعَلۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكَ مَوۡعِدٗا﴾ [طه: 58]، وقالَ سُبحانَه: ﴿قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوۡمٖ لَّا تَسۡتَـٔۡخِرُونَ عَنۡهُ سَاعَةٗ وَلَا تَسۡتَقۡدِمُونَ ٣٠﴾ [سبأ: 34]، وقالَ تعالى في الآيةِ قيد التّفسير: ﴿إِنَّكَ لَا تُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ﴾[1].

2) ﴿لَا تُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ﴾: الخُلْفُ: المُخالَفَةُ في الوَعدِ، يُقالُ: وَعَدَني فَأَخْلَفَني؛ أي: خالفَ في الميعاد؛ كما قالَ تعالى: ﴿بِمَآ أَخۡلَفُواْ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ﴾ [التوبة: 77]، وكما في الآية الَّتي معنا: ﴿إِنَّكَ لَا تُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ﴾، ومعناها: " أنّك قد وعدتَ من آمنَ بك ووحّدَك: الجنّةَ في الآخرة، والنّصرَ في الدّنيا على أعدائك"[2]، قال أبو السّعود في تفسير قوله تعالى ﴿إِنَّكَ لَا تُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ﴾: "تعليلٌ لتحقيقِ ما نَظَموا في سلك الدّعاءِ، وهذه الدّعواتُ وما في تضاعيفها من كمالِ الضّراعةِ والابتهالِ ليست لخوفهم من إخلافِ الميعادِ، بل لخوفهم من أن لا يكونُوا من جملةِ الموعودين بتغيّرِ الحالِ، وسوءِ الخاتمةِ والمآلِ، فمرجِعُها إلى الدّعاءِ بالتّثبيت، أو للمبالغةِ في التعبُّد والخشوعِ، والميعادُ الوعدُ، وعن ابن عباس - رضي الله عنهما - أنّه البعثُ بعد الموت"[3]، وقولُه تعالى: ﴿ٱلۡمِيعَادَ﴾، تقدَّم بيانُه آنفًا في شرحِ قولِه: ﴿مَا وَعَدتَّنَا﴾، وتبيَّن لنا أنَّه مصدرٌ واسْمٌ للفعلِ (وَعَدَ)، وقوله في الآية: " ﴿إِنَّكَ لَا تُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ﴾، بإثابةِ المؤمن وإجابةِ الدّاعي، أو ميعاد البعثِ والحسابِ"[4].

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

الدّعاءُ بتحقيقِ الوعدِ بالرّضوان، والتّنعّم بالخلودِ في الجنانِ

لَمَّا ذَكَرَ أصحابُ العقولِ الذَّكيَّة، توفيقَ اللهِ إيَّاهم للإيمانِ، وتَوَسُّلَهم به إلى تَمامِ النِّعمة، سَألوه تعالى الثَّوابَ على ذلك، وأنْ يُنجِزَ لهم ما وعدَهُمْ به على أَلْسنةِ رُسُلِه من النَّصْرِ، والتَّمكين والظُّهورِ في الدُّنيا، ومن الفَوْزِ برضوانِه وجنَّته في الآخرة، فإنَّه (ﷻ) لا يُخلِفُ الميعادَ، فضلًا منه وإحسانًا ورحمة[5]، ومعنى قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ﴾: أي نسألُك يا ربّنا، أن

(1) الرّاغب، المفردات، ص: 875 - 876.
(2) مكيّ بن أبي طالب، الهداية: 2/1205.
(3) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 2/132.
(4) ابن عجيبة، البحر المديد: 1/451.
(5) السّعدي، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 122.

تعطينَا وتمنحنَا بعد وفاتنَا، وحين قيامنَا من قبورنَا يوم القيامة، ما وعدتنَا به من ثوابٍ، في مقابل تصديقنَا لرسلك، وطاعتنَا لهم، واستجابتنَا لأوامرهم ونواهيهم، ولا تذلّنَا ولا تفضحنَا يوم المحشرِ على رؤوسِ الأشهاد، إنَّكَ - سبحانك - لا تخلفُ وعدَك الّذي وعدتَه لعبادِك الصّالحين"[1].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

نكتةُ تكرير النّداءِ:

تكرير النّداءِ للتّضرّع، ولإظهار كمالِ الخضوع

في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ﴾: تكرير النّداءِ للتّضرّع، ولإظهار كمالِ الخضوع؛ أي: أعطنَا ما وعدتنَا على ألسنةِ رسلك، وهي الجنّةُ لمن أطاع، ففي إظهارِ ضراعتِهم وابتهالِهم لربِّهم بتكرير النِّداءِ؛ طلبُ اسْتجابةِ دعوتِهم وتحقيقِ رَغْبتِهم[2].

توجيه إيراد القول حكايةً لدعاءٍ متقدّمٍ:

إيرادُ القول حكايةٌ لدعاءٍ متقدّمٍ معطوفٍ عليه هذا الدّعاء، من باب تأخُّرِ التَّخليَةِ عن التَّحلِيَةِ

وفي قوله تعالى ﴿رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ﴾ حكايةٌ لدعاءٍ آخرَ لهم مَسبوقٌ بما قبلَه معطوفٌ عليه، لتأخُّرِ التَّحْليَةِ عن التَّخليَةِ[3]، والمرادُ بالموعودِ أمران: الأوَّلُ: الثَّوابُ، والثَّاني: النُّصرةُ على الأعداء[4]، وكلاهما مجتَمِعٌ لهما بفضلِ اللّه، وفي معنى هذه الآية يقول ابن عطيّة: "هذه الآياتُ حكايةٌ عن أولي الألباب، أنّهم يقولون: ﴿رَبَّنَا﴾، قال أبو الدّرداء: يرحمُ اللّهُ المؤمنين ما زالوا يقولون: ﴿رَبَّنَا﴾ ﴿رَبَّنَا﴾، حتّى استجيب لهم"[5].

قال ابن عاشور: "وقد ابتدؤوا دعاءَهم وخلّلوه بندائه تعالى

(1) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 2/375، (بتصرّف).
(2) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 2/132.
(3) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 2/132.
(4) الزّمَخْشري، الكشّاف: 1/489.
(5) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 1/556.

خمسَ مرّاتٍ، إظهارًا للحاجةِ إلى إقبالِ اللهِ عليهم، وعن جعفر بن محمد رضي الله عنه: "منْ حزَبَهُ أمرٌ فقال: يا ربِّ خمسَ مرّاتٍ، أنجاه اللهُ ممّا يخافُ وأعطاه ما أرادَ"[1].

في الحكاية لدعاءٍ آخرَ بتكرار النداء خمسَ مرّاتٍ، إظهارٌ للحاجةِ إلى إقبالِ اللهِ عليهم

دلالةُ حرف الجرّ ﴿عَلَىٰ﴾:

و﴿عَلَىٰ﴾ في قولِه تعالى: ﴿رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ﴾ صلةٌ للوعدِ؛ كما يُقالُ: وَعَدَ اللهُ الجنَّةَ على الطَّاعة، والمعنَى: ما وعدتَّنا على تصديقِ رُسُلِكَ، أَلَا نَراهُ كيفَ أَتبعَ ذكرَ المنادِي للإيمانِ، وهو الرَّسولُ ﷺ بقوله: ﴿ءَامَنَّا﴾ وهو التَّصديق؟!! ويمكنُ أن تكونَ ﴿عَلَىٰ﴾ متعلِّقةً بمحذوفٍ وقعَ صفةً لمصدرٍ مُؤكَّدٍ محذوف؛ أي: وَعدتَنا وعدًا كائنًا على أَلْسِنةِ رُسُلِكَ، ويُمكنُ أن يكونَ التَّقديرُ: مُنَزَّلًا على رُسُلِك، أو محمولًا على رُسُلِك؛ لأنَّ الرُّسُلَ مُحمَّلُونَ ذلك، كما في قولِه تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ﴾ [النور: 54].

دعاءُ المؤمنين بأنْ يُؤتيَهم اللهُ ما وعدَهم من الكرامةِ على ألسنِ رسلِه

إيثارُ الجمعِ على الإفرادِ في قوله: ﴿رُسُلِكَ﴾:

في قولِه تعالى ﴿رُسُلِكَ﴾: إيثارُ الجمع على الإفرادِ، لإظْهارِ كمالِ الثِّقةِ، بإنجازِ الموعودِ بناءً على كَثْرَةِ الشُّهُود[2].

أُوثِرَ جمعُ الرسل على إفرادِه إظهارًا لكمالِ الثِّقةِ بإنجازِ الموعودِ

بلاغة التَّأكيد والتَّعليل في الفاصلة:

وقولُه: ﴿إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾ تأكيدٌ وتعليلٌ، لتحقيقِ ما نَظَموا في سِلكِ الدُّعاء، وهذه الدَّعوات وما في تضاعيفِها من كمالِ الضَّراعةِ والابْتهال، ليستْ لخوفِهم من إخلافِ الميعاد؛ بل لخوفِهم من ألَّا يكونُواْ من جُملةِ الموجودينَ بتغيُّرِ الحالِ وسُوءِ الخاتمةِ والمآلِ، فَمرجِعُها إلى الدُّعاءِ بالتَّثبيت، أو للمبالَغةِ في التَّعبُّدِ والخُشوع[3].

علّةُ التَّأكيدِ والتَّعليلِ الدُّعاءُ بالتَّثبيت، والمبالَغةُ في التَّعبُّدِ والخُشوع

(1) ابنُ عاشور، التّحرير والتّنوير: 4/202.
(2) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 2/132.
(3) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 2/133.

بيان المتشابه اللفظي في جملة الفاصلة:

اتّصالُ الآيةِ الأولى بما قبلَها معنويٌّ، واتّصالُ الثّانيةِ بما بعدها لفظيٌّ ومعنويٌّ

أثارَ المفسّرون سؤالًا وجيهًا في إطار الموازنة بين قوله تعالى - في أول السورة - : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ ۝٩﴾ [آل عمران: 9]، وقوله تعالى - في آخر السّورة - : ﴿إِنَّكَ لَا تُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ﴾، وكلاهما خطابٌ؟ قال الكرمانيّ: "والجوابُ عنه من ثلاثةِ أوجهٍ: أحدها: أنّ أوّل السّورةِ، قد تقدّم فيه ذكرُ اللّه سبحانه وأوصافه مرّةً بعد أخرى صريحًا، ولم يتقدّم ذكرُ الكنايةِ إلّا مرّةً، فعدلَ من الخطابِ إلى الغيبةِ لأنّها الأغلبُ، وأمّا آخر السّورة، فالغلبةُ للكنايةِ، فثبت عليها، والثّاني: أنّ اتّصالَ ما في أوّلِ السّورة، بما قبلَها معنويٌّ، وتقديره: (فَقِنا شرَّه)، وهو المطلوب، بقوله: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوۡمٖ لَّا رَيۡبَ فِيهِۚ﴾، وقيل: المطلوبُ التّثبيتُ على الهداية، وإنّ اتّصال ما في آخر السّورة لفظيٌّ ومعنويٌّ، وهو قوله: ﴿مَا وَعَدتَّنَا﴾، والثّالث: أنّ ما في أوّل السّورة استئنافٌ من اللّه، يجري مجرى الاستجابةِ، وأنّ ما في آخر السّورة حكايةٌ عنهم، ثمّ ذكر عقيبها: ﴿فَٱسۡتَجَابَ لَهُمۡ رَبُّهُمۡ﴾ [آل عمران: 195]"[1].

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الإيتاء والإعطاء

سبقَ بيانُ الفرقِ بين هذيْن الفعليْن في فِقرة: الفروق المعجميَّة، وتبيَّن لنا أنَّ الإيتاءَ أوسعُ دَلالاتٍ من الإعطاء، فهو يتعلَّقُ بالذَّاتِ والأمرِ والتَّدبيرِ، والأعيانِ والأَعراضِ، وغيرِها، ممَّن لا يَملِكُها على وجهِ الحقيقةِ إلَّا الرَّبُّ الخالقُ - ﷻ - ؛ ولذلكَ كانَ من الأَنْسبِ والأَوْلى، أن يتوجَّه هؤلاء الدّاعون إلى اللّه بقولِهم: ﴿وَءَاتِنَا﴾، وقوله تعالى ﴿رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا﴾: قيل معناه: " وتؤتينَا ما وعدتنَا على

(1) الكرمانّي، غرائب التّفسير: 1/243 - 244.

ألسنِ رسلِك، من الفضلِ والرّحمةِ، والثّوابِ والنّعمةِ، وقيل معناه: واجعلنَا ممّن تُؤتيهم ما وعدتَ على ألسنةِ رسلك، ويستحقّون ثوابَك، لأنّهم ما تيقّنُواْ استحقاقَهم لهذه الكرامةِ، فسألوه أن يجعلَهم مستحقّين لها، ولو كان القومُ قد شهدواْ بذلك لأنفسِهم، لكانواْ قد زكّوها، وليس ذلك من صفةِ الأبرارِ"[1].

الوَعْد والعَهد

سبقَ البيانُ في فِقرة: شرح المفردات أنَّ الوعدَ يكونُ في الخيرِ والشَّرِّ، وإنْ كانَ يُطلقُ أكثرَ على الوعدِ بالخير، وأمَّا العَهْدُ، فهو حفظُ الشَّيءِ، ومراعاتُه حالًا بعدَ حال[2]، ويُنظَرُ في العهدِ وجودُ طرفَين مُتعاقِدَين، والعهدُ فيه معنَى الإلزام، يُقال: عَهِدتُ إلى فُلانٍ بكذا، أي: ألزمتُه إيَّاه، ويُقالُ: عاهدَ العبدُ ربَّه[3]، وبناءً على ما تقدَّم؛ كان من الأَلْيقِ في سياقِ النَّصِّ القرآنيِّ، وهو مقامُ دعاءِ أولي الألبابِ لربِّهم وخالقِهم، مُتضرِّعينَ مُبتهلينَ إليه، خاضعينَ خاشعينَ بين يديه، أن يتوجَّهوا له ﷻ، أن يؤتيَهُم ما وعدَهُم من الخيرِ في الدُّنيا والآخرة، في كتابِه الكريم، وعلى لسانِ رسولِه الأمين ﷺ، وليسَ في دعائهم تصوُّرُ وجودِ طرفين متعاقدين، أو إلزامٌ لربِّهم كما هو معنَى العهد، وإلَّا لا يكون هذا دعاءً فيه تذلُّلٌ وخضوعٌ، وأمَلٌ بالإجابة، ولكنَّه سوءُ أدبٍ مع اللّه، وكِبْرٌ والعياذُ باللّه.

الخِزْي والذُّلّ

سبقَ بيانُ الفرقِ بين الكلمتَيْن في فِقرة: الفروق المعجميَّة، والَّذي يسُدُّ بُلغَتَنا هنا في هذا المقامِ، أنَّ المؤمنينَ دَعَوا ربَّهم بِتضرُّعٍ وخُضوعٍ أنْ لا يُخزِيَهم؛ لأنَّ الخِزيَ ذلٌّ مع افتضاحٍ، ويَلحقُ صاحبَه به انكسارٌ واسْتخفافٌ وهَوانٌ[4]، وهذه المعاني لا تستوعبُها كلمة (الذُّلُّ) الَّتي تعني ما كان عن قَهرٍ وتصعُّب[5]؛ فلذلكَ كانُواْ حريصينَ في دعائِهم، أن لا يُصيبَهم أيُّ خِزيٍ بأيِّ معنًى من معانيه.

(1) الثّعلبيّ، الكشف والبيان: 3/234.
(2) الرّاغب، المفردات، ص: 591.
(3) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 365.
(4) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 215.
(5) الرّاغب، المفردات، ص: 330.

﴿فَٱسۡتَجَابَ لَهُمۡ رَبُّهُمۡ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٖ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰۖ بَعۡضُكُم مِّنۢ بَعۡضٖۖ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَأُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ وَأُوذُواْ فِي سَبِيلِي وَقَٰتَلُواْ وَقُتِلُواْ لَأُكَفِّرَنَّ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَلَأُدۡخِلَنَّهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ ثَوَابٗا مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلثَّوَابِ ١٩٥﴾ [آل عمران: 195]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

العلاقة بين دعاء الصّالحين، واستجابة الله لهم بالثّواب والجنّات يوم الدّين

لمَّا ذكر الله ﷻ دعاءَ عبادِه المؤمنينَ، وتضرُّعَهم إليه، وإلحاحَهم في هذا الدُّعاء، وكانواْ في ذلك مستحضرين عظمةَ الله (ﷻ)، مُستَفتِحين دعاءهم بالثَّناء عليه، وتنزيهِه سبحانه، ذكَرَ ما ترتَّب على هذا الدُّعاء مِن استجابة الله تعالى لهم[1]، بستر ما ارتكبوه من المعاصي في الآخرة، كما سترها عليهم في الحياة الدّنيا، فلا يحاسبهم عليها، بل سوف يكفّر عنهم سيّئاتهم، ويدخلهم جنّات تجري من تحتِ قصورِها الشّامخة، وأشجارِها السّامقةِ، الأنهارُ الجاريةُ، جزاء وفاقًا من عند الله، والله عنده حسن الثّواب[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَٱسۡتَجَابَ﴾: الجواب هُوَ "مُرَاجَعَةُ الْكَلَام، يُقَالُ: كَلَّمَهُ فَأَجَابَهُ جَوَابًا، وَقَدْ تَجَاوَبَا مُجَاوَبَةً، وَالْمُجَابَةُ: الْجَوَابُ، وَيَقُولُونَ فِي مَثَلٍ: (أَسَاءَ سَمْعًا فَأَسَاءَ جَابَّةً)[3]، والجيم والواو والباءُ، تدلُّ تصاريفُهُ على مراجعة الكلام[4]، ومنه الجوابُ؛ إذ هو خاصٌّ بما يرجع مِنَ الكلام دون المُبتَدأ مِنَ الخطاب، وهو مقولٌ في مقابلة

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 5/160.
(2) نخبة من أساتذة التّفسير، التّفسير الميسّر، ص: 76.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (جوب).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (جوب).

السُّؤال، ثُمَّ إنَّ السُّؤالَ ضربان: أحدهما: طلبُ مقالٍ، ويكونُ جوابهُ بمقالٍ مثلِه، والآخر: طلب نَوالٍ، ويكونُ جوابُهُ النَّوالَ[1]، الاستجابةُ بمعنى: الإجابَة؛ يُقالُ: استجابَ اللّه دعاءَهُ؛ أي: أجابَهُ[2]، ومعناه: قَبِلَهُ[3]، وقبولُهُ في دعاء المسألة: يكونُ بإعطاء العبد سُؤلَهُ، وقَبُولَهُ في دُعاء العبادَةِ: بالإثابة عليه[4]، قال الشّاعر كعب بن سعد الغنويّ:

وَدَاعٍ دَعَا يَا مَنْ يُجِيبُ إِلَى الْنَّدَى *** فَلَمْ يَسْتَجِبْهُ عِنْدَ ذَاكَ مُجِيبُ

فَقُلْتُ ادْعُ أُخْرَى وَارْفَعِ الْصَّوْتَ رِفْعَةً *** لَعَلَّ أَبَا الْمِغْوَارِ مِنْكَ قَرِيبُ[5]

2) ﴿أُضِيعُ﴾: "الضَّاد والياء والعين، تدُور اشتقاقاتُها على فوت شيءٍ وذهابهِ وهلاكه"[6]، ومنه قولُهم: ضاع الشَّيءُ إذا هلكَ[7]، والضَّيعَةُ والضَّياعُ: الإهمال[8]، يُقال: عيالٌ ضُيَّعٌ؛ أي: مُهمَلون من الرِّعاية والتَّفقُّد[9]، وضاع الشّيء، أي هلك، ومنه قولهم: فلان بدارٍ مَضِيعَةٍ، قال يعقوب: قولهم في المثل: (الضّيفَ ضَيَّعَتِ اللَّبَن)، خوطبت به امرأة، كانت تحت رجل موسر فكرهته لكبره، وفارق السّنّ بينهما، فطلّقها فتزوّجها رجلٌ فقيرٌ، فبعثت إلى زوجها الأوّل، تستميحه، لعلّه يراجعها، فقال لها هذه العبارة الّتي صارت مثلًا[10]، وإضاعةُ المال: إنفاقهُ فيما حرَّم اللّه تعالى؛ لأنَّ في ذلك إتلافًا للمال من غير عِوَضٍ عاجلٍ أو آجلٍ[11]. ومنه قولُ اللّه تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّـهُ لِيُضِيعَ إِيمَـٰنَكُمۡۚ﴾ [البقرة: 143]، قال ابنُ جريرٍ: "وإضاعتُه إيَّاه جلَّ ثناؤُه - لو أضاعَها - تَركُ إثابة أصحابه وعامِليه عليه، فيذهَب ضياعًا، ويصير باطِلا كهيئة إضاعة الرَّجُل مالَه، وذلك إهلاكهُ إيَّاه فيما لا يَعتاضُ منه عِوَضًا في عاجل ولا آجل"[12]، ومعنى الإضاعة في قول اللّه تعالى: ﴿أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَـٰمِلٍ مِّنكُم﴾، كمَعْنَاها في قوله: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَـٰنَكُمۡۚ﴾.

(1) الرّاغب، المفردات: (جوب).
(2) الجوهريّ، الصّحاح: (جوب).
(3) الفيّوميّ، المصباح المنير: (جوب).
(4) صالح آل الشَّيخ، التَّمهيد لشرح كتاب التَّوحيد، ص: 180.
(5) الجوهريّ، الصّحاح: (جَوَبَ).
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ضيع).
(7) الجوهريّ، الصّحاح: (ضيع).
(8) ابن سيده، المحكم: (ضيع).
(9) الزَّبيديّ، تاج العروس: (ضيع).
(10) الجوهريّ، الصّحاح: (ضيع).
(11) القاضي عيّاض، مشارق الأنوار: (ضيع).
(12) ابن جرير، جامع البيان: 3/169.

3) ﴿هَاجَرُواْ﴾: من هجر، وتدلُّ تصاريفُها على معنَيَينِ كُلّيَّين؛ أحدهما: قطعٌ وقطيعةٌ، والآخَرُ: شدُّ شيءٍ ورَبطُه[1]. ومنه الهَجرُ والهِجران؛ وهو مفارقةُ الإنسان غيرَه، إمَّا بالبدن، وإمّا باللِّسان وإمّا بالقَلب[2]، و"الهجر: ضدّ الوصل، وقد هجره هجرًا وهجرانًا، والاسم الهجرة... والمهاجرة من أرض إلى أرض: ترك الأولى للثّانية، والتّهاجر: التّقاطع"[3]، والهُجر: الإفحاش في المَنطِق والخَنا[4]، سُمِّيَ بذلك؛ لأنَّه ممَّا ينبَغي تَركُهُ وقطِيعَتُهُ. و(هاجَرَ) مِن المُهاجَرة؛ وهي: تركُ أرضٍ إلى أرضٍ أخرى[5]، ثُمَّ خُصَّت في الشَّرع بالانتقال من بلد الشِّرك إلى بلد الإسلام[6].

4) ﴿وَأُوذُواْ﴾: من (أَذَيَ) تدُور تصريفَاتُها على شيءٍ يُتَكَرَّهُ ولا تقِرُّ عليه[7]، والاسْمُ الأَذِيَّةُ والأَذاةُ، وقد أَنْشَدَ سِيبَوَيْهِ:

وَلَا تَشْتُمِ المَوْلَى وتَبْلُغْ أَذاتَهُ *** فَإِنَّكَ إِنْ تَفْعَلْ تُسَفَّهْ وتَجْهَلِ[8]

والأَذَى والأذيَّةُ: المكرُوه اليَسِير[9]، ومنه قول الله تعالى: ﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى﴾ [آل عمران: 111]، والمعنى: أنَّه أذًى يُعتزَلُ منه، ولا يتعدَّى موضعَهُ إلى غيره[10]، وكلُّ ما في القرآن مِنَ الأذى والإيذاء؛ فمعناهُ الإيلامُ النَّفسيّ أو البدنيّ غير الشَّديد[11]، والأذى في قول الله تعالى: ﴿وَأُوذُواْ فِي سَبِيلِي﴾ شامِلٌ لكلِّ أذًى؛ وهو المَكروه اليَسيرُ، وإذا كان الله تعالى يُثِيبُهم على ما أصابهم مِنَ المكروه اليسير، فإثابَتُهم على ما حلَّ بِهم مِنَ الضَّرر أولَى وأوفَى[12].

5) ﴿لَأُكَفِّرَنَّ﴾: من لفظ (كَفَرَ) تدلّ تصريفَاتُهُ على السَّترِ والتَّغطيةِ، ومنه سُمِّي

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (هجر).
(2) الرّاغب، المفردات: (هجر).
(3) الجوهريّ، الصّحاح: (هجر).
(4) الأزهري، تهذيب اللغة: (هجر).
(5) الجوهريّ، الصّحاح: (هجر).
(6) قد تكون الهجرةُ مِن بلدِ كُفرٍ إلى بلد كفرٍ آخرَ يكون آمنًا، إذا عُدِمَت بلادُ الإسلام، كما في هجرة المسلمين إلى الحبشة. يُنظر: السَّفّارينيّ، لوائح الأنوار السَّنِيَّة: 2/86.
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أذي).
(8) ابن سيده، المحكم: (أذي).
(9) الزَّبيديّ، تاج العروس: (أذي).
(10) بطَّال الرَّكبيّ، النَّظم المستعذَب: 1/45.
(11) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصَّل: (أذى).
(12) ابنُ عاشور، التّحرير والتّنْوير: 4/205.

الكافرُ كافرًا؛ لأنَّهُ يستُرُ نعمةَ اللّه عليه، وهو جاحدٌ لها بكُفره، ويُقال: كفَرَ البذرَ إذا زرَعَهُ؛ لأنَّه بزراعتِهِ يُغطِّيه[1]، وكلُّ الألفاظ المشتقَّة مِنَ الكُفرِ راجعةٌ إلى معنى السَّترِ، ومنهُ: اللَّيل، والبَحرُ، والسَّحاب المُظلِم، والزَّارِعُ، والزَّرعُ؛ فإنَّ الجميعَ يُسمَّى: كافرًا[2]، وذكر أبو موسَى المدينيُّ قَيدًا في السَّترِ والتَّغطية اللَّذَين هما أصلُ معنى الكُفرِ، فذكر أنَّ الكُفرَ التَّغطيةُ تَغطيَةً تَستَهلِكُهُ، كتغطيةِ الزَّارعِ الحَبَّ الّذي يَزرَعُه[3]، فالكفرُ: تغطيةٌ تامَّة كَثِيفة لا يظهر معها شيءٌ مِنَ المُغَطّى[4]، والفعل (أُكفِّر) مصدرُهُ: التَّكفير - على القياس-، وهو راجعٌ إلى المعنى المُتقدِّم، وتكفيرُ الذُّنوب: سترُ اللّهِ تعالى لها وتغطيته إيَّاها بحِلمِهِ حتَّى لا يظهرَ لها أَثرٌ[5].

6) ﴿سَيِّـَٔاتِهِمۡ﴾: مفردها (السَّيِّئَة): نقيض الحسنة، قال اللّه تعالى: ﴿وَلَا تَسۡتَوِي ٱلۡحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُۚ﴾ [فصّلت: 34]، أي الحسنة والسّيّئة[6]، والسِّين والواو والهمزة تدور اشتقاقاتُها على القُبحِ، ومنه سمِّيت النَّارُ سُوأَى؛ لقُبحِ منظَرِها[7]، وقيل لفَرْجِ الرَّجُلِ أوِ المرأةِ: سَوأَةٌ؛ لأنَّ الفطرَةَ السَّوِيَّةَ تَستَقبِحُ إظهارَها[8]. وسُمِّيت السَّيّئةُ سَيِّئَةً؛ لأنَّها عملٌ قبيحٌ[9]؛ وهي الخصلة الّتي تَسوءُ صاحبَها إذا رآها في صَحيفَتِه يوم القيامة[10]، وحقيقةُ السَّيِّئة عند الإطلاق: أنَّها ما يُذمُّ فاعلُها شرعًا صغيرةً كانَت أم كبيرة[11].

7) ﴿جَنَّٰتٍ﴾: الجيمُ والنُّون أصلٌ يدُلُّ على السَّتر، ومنه: الجنَّةُ في الدُّنيا، وهي البُستان؛ لأنَّ الشَّجرَ بوَرَقِهِ يستُرُ، والجَنَّةُ في الآخرة: ثَوابٌ مَستورٌ عنَّا اليَومَ[12]. والجَنَّة: الحديقَةُ ذات الشَّجَر والنَّخل، وذكر أَبو عَليٍّ بين الحديقَة والجنَّة؛ بأنَّ الجنَّةَ في كلام

(1) عِيّاض، مشارق الأنوار: 1/345، وابن مالك، إكمال الإعلام: 2/546.
(2) الكفوِيّ، الكلِّيّات، ص: 763.
(3) المدِينيّ، المجموع المغيث: (كفر).
(4) المعجم الاشتقاقيُّ المؤصَّل: (كفر).
(5) الشِّنقيطيّ، العذب النَّمير: 5/573.
(6) نشوان الحِميري، شمس العلوم: 5/3299.
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سوء).
(8) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصَّل: (سوأ).
(9) الأزهري، تهذيب اللغة: (سوأ).
(10) الشِّنقيطي، العذب النَّمير: 2/612.
(11) القِنَّوجيّ، فتح البيان: 10/158.
(12) ابن فارس، مقاييس اللغة: (جن).

العرب لا تُسمَّى كذلك إلَّا إذا كان فيها نَخيلٌ وعِنَبٌ، فإن لم يَكن فيها ذلك وكانَت ذاتَ شَجَرٍ؛ فهي حديقةٌ ولَيسَت بجَنَّةٍ[1]. والجنَّة في الآخرة: «فيها ما لا عَينٌ رَأَت، ولا أُذُنٌ سَمِعَت، ولا خَطَرَ على قَلبِ بَشَرٍ»[2].

8) ﴿ٱلْأَنْهَٰرُ﴾: جمع نهر، ويعبّر بنَهَرٍ عن الجمع، وقوله تعالى: (فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ)، أي أنهار، وقد يعبّر بالواحد عن الجمع، كما قال تعالى: (وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ) [القمر: 45][3]، والنُّون والهاء والرَّاء، تدُلُّ تصاريفها على تَفَتُّح شيءٍ أو فَتحِهِ، ومنه سُمِّيَ النَّهرُ، وجَمعُهُ: الأَنهارُ، وهو مِن مجاري المياه، وأيضًا؛ لأَنَّه يَنهَر الأَرضَ، أي: يشقُّها[4]، وهذا أصلُ التَّسمية، وإلَّا فإنَّ المرويَّ في الآثار أنَّ أنهارَ الجنَّة تَجري مِن غَير أُخدُودٍ[5].

9) ﴿ثَوَابًا﴾: (الثّواب) و(المثوبة) جزاء الطّاعة، قلت: هما مطلق الجزاء، كذا نقله الأزهريّ وغيره، ويعضده قوله تعالى: ﴿هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [المطفّفين: 36]، أي جُوزُوا؛ لأنّ ثَوَّبَهُ بمعنى أثابه، وقوله تعالى: ﴿بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ﴾ [المائدة: 60][6]، والثَّاء والواو والباء تدور اشتِقاقاتُها على معنى العَودِ والرُّجوع[7]، ومنه: المثابةُ وهي المَنزِلُ؛ لأنَّ أهلَهُ يَثوبون - أي: يَرجِعون - إليهِ، ومنه قولُ الله تعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ﴾ [البقرة: 125]؛ أي: مَرجِعًا ومجتمَعًا. والثَّوَابُ: ما يعود على الإنسان من جَزَاء عملِهِ[8]، والغالبُ استِعمالُهُ في جزاء العمَل الصَّالح[9]، ويُطلَق الثَّواب، ويُرادُ به: الإثابةُ[10].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

أجاب اللّه تعالى دُعَاءَهم: دعاءَ العبادةِ ودعاءَ المسألة، وقال: إنِّي لا أُضِيعُ جهدَ مَن عَمِل عمَلًا صالحًا، ذكرًا كان العاملُ أم أُنثَى، فالجميع على حدٍّ سواءٍ في الأجور والخيرات،

(1) ابن سيده، المحكم: 7/218.
(2) مسلم، الحديث رقم: (2825).
(3) الجوهريّ، الصّحاح، وكذلك: الرّازيّ، مختار الصّحاح: (نهر).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نهر)، وابن سيده، المحكم: (نهر).
(5) ابن القيّم، حادي الأرواح، ص: 178 - 179، وابن القيّم، الكافية الشّافية، ص: 326، والألبانّي، سلسلة الأحاديث الصّحيحة: 6/47 - 48.
(6) مختار الصّحاح: (ثوب).
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ثوب).
(8) القاضي عيّاض، مشارق الأنوار: (ثوب).
(9) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (ثوب).
(10) الخفاجيّ، عناية القاضي: 3/92.

فالّذين فارَقوا أوطَانَهم رغبةً فيما عندَ اللّهِ تعالى والتِماسًا لرضاهُ، وأخَرَجهم أقوامُهم إمَّا بصريح القَول وإمَّا بالإلجاء، وأُوذُواْ في طاعتهم ربَّهم وعبادتهم إيَّاه مُخلصِين له الدِّينَ، وقاتَلُواْ لتكون كلمةُ اللّه هي العُليا، وقُتلواْ في سبيل ذلك؛ ليَستُرَنَّ اللّه تعالى ما فَعَلوه مِنَ المعاصي فيمحُوها عنهم ولا يُحاسبهم عليها، وليُدخلنَّهم جنّاتٍ تجري مِن تحت قصورِها وأشجَارِها الأنهارُ، جزاءً منه لهم على ما عَمِلوا وأَبلَوا في اللّه تعالى وفي سبيله، واللّه ﷻ عندَه مِن جزاء أعمالهم جميعُ صُنوفِه[1].

لا يضيع الله صالح الأعمال في المـــآب، بل يجازي العاملين بالجنّة وحسن الثّواب

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

دِلالة الفعل الماضي ﴿فَٱسۡتَجَابَ﴾:

التَّعبير بالفعل الماضي ﴿فَٱسۡتَجَابَ﴾ من قول اللّه تعالى: ﴿فَٱسۡتَجَابَ لَهُمۡ رَبُّهُمۡ﴾، يُرادُ به الإيذانُ بتحقُّقِ إجابةِ اللّه تعالى لهم وإيجادُها حَتمًا[2].

في التعبير بالماضي تَحَقُّقُ إجابَة الله تعالى لأهل الإيمان

سِرُّ التَّعبير بـ (استَجابَ) دون (أَجَابَ):

جاء التَّعبير ههنا بالاستِجابة دون الإجابة، فقال تعالى: ﴿فَٱسۡتَجَابَ لَهُمۡ رَبُّهُمۡ﴾؛ وذلك لوجهين:

في إيثار لفظ الاستجابة دفعٌ لاحتمال القبول والردّ

أحدهما: أنَّ فيه الإيماءَ إلى أنَّ اللّه تعالى أعطاهُم مَطلوباتِهم الّتي سألُوها اللّه سبحانه؛ لأنَّ الاستجابةَ دالَّةٌ على القبولِ، بخلاف ما لو وقع التَّعبير بـ (أَجَابَ)؛ فإنَّها لا تدلُّ على قبولِ ما دَعَوا به؛ لأنَّ الإجابةَ تدلُّ على مُطلَق الجواب قبولًا كان ذلك أم ردًّا[3].

والآخر: لِمَا في الاستجابةِ مِنَ الدّلالة على حصول جميع

(1) ابن جرير، جامع البيان: 7/490، وابن جُزيّ، التَّسهيل: 1/174، والسّعديّ، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 162، وابنُ عاشور، التّحرير والتّنوير: 4/204، ونخبة من العلماء، التّفسير الميسّر، ص: 76.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 5/160، وأبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 2/133.

(3) ابنُ عاشور، التّحرير والتّنوير: 4/202.

مطلوباتِهم؛ وذلك لكثرة مبانيهِ، وزيادةُ المبنى تدلُّ على زيادة المعنى[1]، فلو جاء النَّظمُ القرآنيُّ (فأجابَهم)؛ لاحتمَلَ أنَّ الإجابَةَ - إن وقعَت بإعطائهم مطلوباتِهم - هي في مقابلة مجموع مطلوباتِهم لا جميعِها، بخلاف قوله تعالى: ﴿فَٱسۡتَجَابَ﴾؛ فإنَّه دالٌّ على إجابة اللّه سبحانه لمطلوباتِهم كلِّهَا.

في إيثار لفظ الاستجابة دلالةٌ على حصول جميع مطلوباتِهم

نُكتة اختيار اسم الله (الرّبّ):

اختيارُ اسم اللّه (الرَّبّ) في قول اللّه سبحانَهُ ﴿فَٱسۡتَجَابَ لَهُمۡ رَبُّهُمۡ﴾؛ للإشعار بأنَّ استجابةَ اللّه ﷻ لهم هي من باب الإحسان إليهم والتَّفَضُّل عليهم؛ وهو ما تَقتضيه ربوبيَّتُهُ سبحانه على خلقه[2].

مِن آثار ربوبيَّة اللّه تعالى إحسانُهُ إلى عبادِه وتَفَضُّلُه عليهم

تكرّر في دعائهم في الآيات السَّابقة وصف ﴿رَبَّنَا﴾ دون اسم الجلالة لما في وصف الربوبية من الدلالة على الشفقة بالمربوب، ومحبة الخير له، ومن الاعتراف بأنهم عبيده؛ فكان من جميل الرعاية الإضافةُ المفيدة التّشريف والقرب: ﴿رَبُّهُمۡ﴾، وردُّ حسن دعائهم بمثله[3].

أختيار لفظ الربوبيّة ردٌّ لحسن دعائهم بمثله

بلاغةُ الالتفات مِنَ الغَيبة إلى التَّكلُّم وإلى الخطاب:

في قول اللّه تعالى: ﴿فَٱسۡتَجَابَ لَهُمۡ رَبُّهُمۡ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٖ مِّنكُم﴾ التفاتٌ في مَوضِعين:

أحدهما: الالتفاتُ مِن الغَيبَةِ إلى التَّكلُّم؛ وذلك في قوله ﷻ: ﴿فَٱسۡتَجَابَ لَهُمۡ رَبُّهُمۡ أَنِّي﴾، فالغَيبَةُ في ﴿رَبُّهُمۡ﴾؛ لأنَّ الاسمَ الظَّاهرَ بمنزلة الغائب، والتَّكلُّم في قوله: ﴿أَنِّي﴾.

والآخر: الالتفاتُ مِنَ الغَيبَة إلى الخطاب؛ وذلك في قوله

في الالتفاتِ تَشريفُ اللّه تعالى لعباده، وكمال العناية بهم بتَوجيهِ الخطابِ لهم

(1) السّربينيّ، السّراج المنير: 1/276.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 5/161.
(3) ابنُ عاشور، التّحرير والتّنْوير: 4/202.

سبحانه: ﴿فَٱسۡتَجَابَ لَهُمۡ رَبُّهُمۡ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٖ مِّنكُم﴾، فالغَيبَةُ في ﴿لَهُمۡ﴾ و﴿رَبُّهُمۡ﴾، والخطابُ في قوله: ﴿مِّنكُم﴾.

ونُكتَةُ الالتفاتِ: إظهارُ كمالِ العِناية بأَمر الاستجابة في الأوَّل، وتشريفُ الدَّاعين بشرف الخطاب مِنَ اللّٰه الكريم في الثَّاني[1].

نُكتة التَّعبير عن ترك الإثابة بالإضاعَة:

فـي التَّعبيرِ بنفي الإضاعة إشارةٌ إلى كمال تنزيهه تعالى عن إضاعة ثواب العامِلِينَ

المُراد بإضاعة العمل المنفيَّة في قول اللّٰه تعالى: ﴿أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٖ مِّنكُم﴾ تركُ الإثابة عليه[2]، وفي هذا التَّعبيرِ إشارةٌ إلى كمال تنزيهه سبحانه عَنِ الإضاعة، بإبرازِها في صورة ما يستحيلُ صدُوره عنه مِنَ النَّقائص والقبائح، وإبراز الإثابَة في صُورة ما يَجِبُ عليه سبحانه[3].

بلاغةُ الإطناب بالاعتراض:

فائدةُ الإطناب بالاعتراض بيانُ سببِ انتظام النِّساء في الوَعدِ معَ الرِّجال

قولُ اللّٰه تعالى: ﴿بَعۡضُكُم مِّنۢ بَعۡضٖۖ﴾ اعتراضٌ بينَ الإجمال في قوله: ﴿لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٖ مِّنكُم﴾ والتَّفصيل في قوله: ﴿فَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ﴾، وفائدتُهُ: بيان سببِ انتظام النِّساء في الوَعدِ معَ الرِّجال؛ فإنَّ كونَ كلٍّ واحدٍ منهما مِنَ الآخر؛ لأنَّ أصلهما واحدٌ أو لفرط الاتِّصال بينهما أو لاتِّفاقهما دينًا وعملًا، ممَّا يقتضي التّشريك والاتِّحاد[4].

تفصيل الإجمال في قوله ﷻ: ﴿فَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ﴾:

عِظَمُ المشقَّة في الأعمال مِن مُقتضيات تَعظيم العاملين

في قول اللّٰه تعالى: ﴿فَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَأُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ﴾ تفصيلٌ لما في العَمَلِ ﴿لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٖ مِّنكُم﴾ مِنَ الإجمال، وتَعدادٌ لِشَيءٍ مِن أحاسِنِ أفرادِهِ، وهو أدخَلُ في المدح والتَّعظيم؛ لِما في هذه الأفراد من عظيم المشقَّة على النُّفوس[5].

---

(1) الآلوسّي، روح المعاني: 2/378.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 3/169.
(3) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 2/133/134.
(4) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 2/134، والزّمَخْشري، الكشَّاف: 1/456.
(5) الآلوسّي، روح المعاني: 2/378.

سرُّ التَّعريف بالمَوصوليَّة في قوله: ﴿فَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ﴾:

احتِمالُ المَشَاقِّ في دين الله تعالى مِن أَسباب تحصيل الثَّواب الحَسَن

التّعريفُ بالموصول (الذين) من قول الله سبحانه: ﴿فَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَأُخْرِجُواْ﴾ يُرادُ به الإيماءُ إلى وجه بناء الخَبَر وتعليل الجزاء، فحُسنُ الثَّواب مُعَلَّلٌ باحتمال المشاقِّ في دين الله تعالى، والصَّبر على الأوامر والنَّواهي؛ وذلك أنَّ حكمةَ الله سبحانه اقتَضَت تعليقَ الثَّواب بالأعمال؛ لئلَّا يتَّكِلَ العبادُ على فضلِهِ سبحانه ويُهملوا العمل رأسًا[1].

توجيهُ عَطفِ الإخراج على الهجرة:

وجهُ العطف التفسيرُ للهجرة، والإشارةُ إلى أنّ الانتقال كان قسرًا

عَطفُ قول الله سبحانه: ﴿وَأُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمْ﴾ على قوله تعالى: ﴿فَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ﴾ يَحتَمِلُ أوجهًا ثلاثة[2]:

أحدها: أن يكونَ مِن عَطف التَّفسير مع بيان العِلَّة؛ وذلك لأنَّ الهجرة تركُ أرضٍ لأرضٍ أخرى، ويُقيَّدُ ذلك بالتَّرك لأجل الدِّين على ما شاع في الاستعمال الشَّرعيِّ، فيكون قولهُ بعدُ: ﴿وَأُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمْ﴾؛ تفسيرًا للهجرة، وإشارةً إلى أنّ الانتقال كان قسرًا واضطرارًا؛ لِمَا لحِقَهم من الأذيَّة والظُّلم ما أَلجَأَهُم معه إلى تَرك أرضهم.

ثانيها: أن يكون العطفُ تأسيسًا، إذا حُمِلَتِ الهجرةُ على ترك الشِّرك.

ثالِثُها: أن يكونَ مِن عَطفِ العامِّ على الخاصِّ؛ لأنَّ الهجرةَ بعدَ استقرار النَّبيِّ ﷺ بالمدينة يُراد بها: الهجرةُ إلى المدينة النَّبويَّة خاصَّةً، والإخراجُ مِنَ الدِّيار أَعمُّ منه؛ لصِدقِهِ على الهجرة إلى المدينة والهجرة إلى غيرها، فيكون في هذا بيانٌ لفضيلة الهجرة إلى المدينة مِن وجهَين:

(1) النَّيسابُوريّ، غرائب القرآن: 2/334.

(2) أبو حيَّان، البحر المحيط: 3/479، والخفاجيّ، عناية القاضي: 3/91، والآلوسّي، روح المعاني: 2/378.

الأوَّلُ: ذِكرُها مرَّتين؛ إحدَاهما على جهة الانفراد، والأخرى على وجه الاندراج في عموم تَركِ البلد والانتقال إلى غَيرِه، والآخرُ: تقديمُهُ الأخصَّ؛ فإنَّ لِلمُقدَّم مزيَّةً على غيره. ولا منافاةَ بين هذه الأوجه.

نُكتةُ بناء الفعل ﴿وَأُوذُواْ﴾ للمفعول:

بُنِيَ الفعلُ ﴿وَأُوذُواْ﴾ للمفعول من قول الله سبحانه: ﴿وَأُوذُواْ فِي سَبِيلِي﴾؛ لأنَّ الأذى مكروهٌ لنفسه لا بالنِّسبة إلى معيَّنٍ، وبناءُ الفعل للمفعول أدلُّ على هذا المعنى، وللإيماء إلى لُحوق أنواعٍ مِنَ الأذيَّة لهم، والتَّقديرُ: وأُوذوا بأنواعٍ من الأذى[1].

في البناء للمفعول إلماحٌ بتَحَمُّل أهل الإيمان لِصنوفٍ مِنَ الأذى

سرُّ بناء الفعل للمفعول في قوله ﴿وَقُتِلُواْ﴾:

بُنِيَ الفعلُ ﴿وَقُتِلُواْ﴾ للمفعول مِن قول الله تعالى: ﴿وَقَتَلُواْ وَقُتِلُواْ﴾؛ لأنَّ القتلَ مكروهٌ في ذاته، فوَقع التَّعبيرُ بالبناء للمفعول أدخَل في المدح؛ لأنّه دالٌّ على اقتحامِهم موجبات القتل.

وفي ذِكرِ ﴿وَقُتِلُواْ﴾ بعد ﴿وَأُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمْ﴾ مراعاةُ نظيرٍ؛ لأنَّهم لمَّا ذُكِرَ نزوحُهُم عن منازل أبدانهم، ذُكِرَ خروجُهم بالقتل عن مساكِن أرواحِهم[2].

التَّعبيرُ بالبناء للمفعول أدخَل في المدح؛ لدلالته على شجاعة أهل الإيمان باقتحامِهم مُوجباتِ القتل

براعةُ حُسنِ ترتيب المعطوفات:

في قول الله ﷻ: ﴿فَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَأُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأُوذُواْ فِي سَبِيلِي وَقَٰتَلُواْ وَقُتِلُواْ﴾ ترتيبٌ بديعٌ؛ حيثُ بدأَ بالأَخصِّ وهي الهجرةُ؛ إذِ الهجرةُ - بعد استقرار النَّبيِّ ﷺ بالمدينة - تنصَرِفُ إلى الهجرة إلى المدينة النَّبويّة، ثُمَّ ثنَّى بما هو أعمُّ منه؛ وهو الإخراجُ مِنَ الدِّيار؛ إذ هو أعمُّ من جهة أنَّه يَصدُقُ على الهجرة إلى المدينة وإلى غيرها، ثُمَّ ثَلَّثَ بذكر الأذيَّة، وهي أعمُّ مِن أن تكونَ بالإخراج مِنَ الدِّيار؛ إذِ الأذى أنواعٌ شتَّى.

بلاغةُ النَّظم القُرآنيّ في سَوقِ المعطوفات ترتيبٌ بديعٌ؛ حيثُ بدأَ بالأَخصِّ، ثُمَّ ثنَّى بما هو أعمُّ منه

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 5/162.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 5/162.

ثمَّ ذكر الجهادَ والاستشهادَ في سبيل الله تعالى، "فجمعَ بين رُتَبِ هذه الأعمال مِن تَنقيص أحواله في الحياة لأجل دين الله بالمُهاجَرَة، وإخراجه مِن داره وإذايته في اللهِ، ومآله أخيرًا إلى إفنائه بالقتل في سبيل الله"[1].

توجيه القراءات بين ﴿وَقَٰتَلُواْ وَقُتِلُواْ﴾ و(قُتِلُوا وَقَاتَلُوا):

في الجمع بين القراءتين سعةٌ في المعنى، وتكاملٌ في الدّلالة

قرأ حمزةُ والكسائيُّ وخلفٌ البَزَّار بتقديم الفعل المبنِيِّ للمفعول ﴿وَقُتِلُواْ﴾ على ﴿وَقَٰتَلُواْ﴾؛ والجمهورُ بتقديم ﴿وَقَٰتَلُواْ﴾، إلَّا أنَّ ابنَ كثير وابنَ عامِر[2] شدَّدوا التَّاء في ﴿وَقُتِلُواْ﴾؛ فقرآهَا: (وَقُتِّلُوا) على معنى التَّكثير والمبالغة[3]، وأمَّا تقديم الفعل المبنيِّ للمفعول ففي توجيههِ خمسةُ مسالكَ[4]:

أحدها: أنَّه على معنى التَّقديم والتَّأخير، كما في قول الله سبحانه: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ﴾ [آل عمران: 55]؛ فإنَّ الواو لا تُفيد ترتيبًا.

ثانيها: أنَّ في تقديمه إشعارًا بشدَّة رغبتهم في الإقدام على الخصوم، ودلالةً على شدَّة بأْسِهم وعدمِ وَهَنِهم؛ فَهم يُقاتلون بعد أن يُقتلَ منهم، فلم يهِنُوا بعد قتل أصحابهم.

ثالثُها: أنَّ ذلك حديثٌ عن مجموعهم لا لجميعهم، فيكون المعنى: وقاتَلوا بعد أن رَأَوا كثيرًا مِن أصحابهم قد قُتِلَ.

رابعُها: أنَّه على إضمار (قَد)، والمعنى: وقُتلوا، وقد قاتلوا.

خامسُها: بيان أنَّ المرادَ كونُ الكفّارِ هُم البادئين للقتال، فلمَّا قُتِلَ مِن المؤمنين أُناسٌ؛ قاتَلوا الكفَّار.

(1) أبو حيَّان، البحر المحيط: 3/479.
(2) البنَّاء، إتحاف فضلاء البشر، ص: 234.
(3) السَّمرقنديّ، بحر العلوم: 1/275.
(4) النَّحّاس، إعراب القرآن: 1/195، والسَّمرقنديّ، بحر العلوم: 1/275، والفارسّي، الحجّة: 3/117، والثَّعلبيّ، الكشف والبيان: 3/235، وابن زَنجلة، حجّة القراءات، ص: 187، وابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 1/557، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 4/319، والنَّسفيّ، مدارك التَّنزيل: 1/323، والبقاعيّ، نظم الدُّرر: 5/162، ورضا، تفسير المنار: 4/252.

سرُّ تأكيد الخبر ﴿لَأُكَفِّرَنَّ﴾، و﴿وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ﴾:

أُكِّدَ الخبرانِ ﴿لَأُكَفِّرَنَّ﴾ و﴿وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ﴾ باللَّام الواقعة في جواب القسم المحذوف، ونُون التَّوكيد الثَّقيلة؛ تحقيقًا لِوَعد الله تعالى لهم، وتفخيمًا لهذا الجزاء، وتشريفًا له.

فـي التـأكـيـد فـخـامـةُ وَعـد الـلـه تـعـالى، وتـشـريـفُـه، وتحقُّقُه

بلاغة الوَصل في جملة: ﴿وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ﴾:

وُصِلَ قولُه: ﴿وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّٰتٍ﴾ على قوله: ﴿لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾؛ لِمَا بَينَ الجملتين مِنَ التَّوسّط بين الكمالين؛ لاتِّحاد الجملتين في الخبريَّة، ويجمعُهُما كونُ كلٍّ واحدٍ منهما ثوابًا مَرجُوًّا في الآخرة، وحَسَّنَ الوصلَ تناسُبُ الجملتين في الفعليَّة.

وجـه الـوصـل اتِّحاد الجملتين في الـخـبريَّـة، فـكـلٌّ واحـدٍ مـنـهـمـا ثـوابٌ مَرجُوٌّ في الآخرة

علّةُ تقديم تكفير الذُّنوب على إدخال الجنَّة:

قُدِّمَ تكفيرُ الذُّنوب على إدخال الجَنَّة في قول الله سبحانه: ﴿لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّٰتٍ﴾؛ لما في الأوَّل من إزالة المفاسد، وفي الثَّانية من تحصيل المصالح؛ فهو مِن باب التَّخلية قبل التَّحلية، وفيه تقديمٌ للسَّبب على النتيجة، والمآلِ؛ فلا دخول للجنّة دون كفران للسيئات.

التقديم من باب الـتَّـخـلـيـة قبل التَّحلية

نُكتة جمع الجنَّات وتنكيرها:

جُمِعَتِ الجَنَّات في قول الله تعالى: ﴿وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾؛ للإيماء إلى تعدُّدِها وكثرتِها؛ وذلك أنَّ الجنَّةَ في الآخرة تشتمِلُ على جنانٍ كثيرةٍ، ونُكِّرت؛ للإشعار بتنوُّعِها واختلافِها، وهذا أقوى في التَّرغيب، وأنشَطُ لقلوب المُتلقِّينَ على فعل أسباب تحصيلها.

جمع الجنّات، وتنكيرها أمارةُ عَـظَـمـةِ ثـوابِ الآخرة وتنوُّعِهِ

سرُّ وصف الجنَّات بجري الأنهار من تحتها:

وَصفُ الجنَّات بأنَّها ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾؛ يُراد به المدحُ؛ لأنَّ أَحسنَ المياه ما كان جاريًا؛ إذ إنَّ ذلك يقتضي كونَه جديدًا كلَّما

جـريـان أنـهـار الجنّة من كمالِ نعيمها

اغتُرِفَ أَوِ اغتُسِلَ منه، وفيه إشارةٌ إلى دوام الحياة فيها بدلالة الفعل المضارع ﴿تَجۡرِي﴾.

دلالةُ التّعريف في ﴿ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾، وعدم الإضافة:

كُلُّ نعيمٍ في الجنَّة يُتَنَعَّمُ به استقلالًا

اللَّام في الأَنهار يُراد بها تعريفُ الجنس[1]، فيكون في قوَّة النَّكرة، والمعنى: تجري من تحتها أنهارٌ، ويحتملُ أن تكون اللَّام للعهد التَّقديريِّ؛ وذلك أنَّه لمَّا ذُكرتِ الجنَّاتُ؛ استَحضَرَ السَّامعُ لوازمَها ومقارناتِها، ويَحتَمِل أَن تكون للعهد الخارجيِّ، ويكون المعهودُ هو المذكور في قول الله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلۡمُتَّقُونَۖ فِيهَآ أَنۡهَٰرٞ مِّن مَّآءٍ غَيۡرِ ءَاسِنٖ﴾ [محمّد: 15].

ولَم تُضَفِ الأنهارُ إلى ضمير الجنَّاتِ بأَن يقال: (تَجري مِن تحتها أنهارُها)؛ للإيماء إلى أَنَّ التَّنعُّمَ بالأنهار تنعُّمٌ مستقلٌّ، وليس ذلك تنعُّمًا تابعًا للجنَّات.

دلالة التَّنكير في ﴿ثَوَابٗا﴾:

وجهُ تنكير ثواب الله تعالى تعظيمُهُ، وتفخيمُهُ

تنكير ﴿ثَوَابٗا﴾ من قول الله تعالى: ﴿ثَوَابٗا مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۗ﴾ يُرادُ به التَّعظيمُ، ويُؤيِّدُ دلالَتهُ على التَّعظيم خمسةُ أوجهٍ[2]:

أحدُها: وقوع ﴿ثَوَابٗا﴾ مصدرًا مُؤكِّدًا لفعلٍ محذوفٍ؛ لأنَّ ﴿ثَوَابٗا﴾ واقعٌ مَوقِعَ (إثابةً)، والتَّقدير: أُثِيبُهُم إثابةً.

ثانيها: قولُه: ﴿مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۗ﴾؛ أي: أنَّ الثَّوابَ حاصلٌ من اللهِ المتَّصِف بصفات الجلال والجمال، ومنها: الكرمُ والرَّحمةُ، والثَّوابُ ممَّن هذا وصفُهُ لا يكون إلَّا عظيمًا؛ فقوله: ﴿مِّنۡ عِندِ﴾؛ فيه إيماءٌ إلى عظمة الثَّواب؛ لأنَّ الّذي عندَ الله تعالى العظيم، هو في غاية العظمة.

(1) الزَّمَخْشري، الكشَّاف: 1/107.

(2) البيضاويّ، أنوار التَّنزيل: 2/55، وأبو حيَّان، البحر المحيط: 3/481، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 2/191، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 5/163، والخفاجي، عناية القاضي: 3/92، والآلوسيّ، روح المعاني: 2/380.

ثالثها: وصفُ الثَّواب بأنَّه ﴿مِّنْ عِندِ ٱللَّهِۚ﴾ للتَّأكيد؛ لأنَّ الثَّواب لا يكُونُ إلَّا مِن عند الله تعالى، إلَّا أنَّه صُرِّحَ به تعظيمًا وتفخيمًا لشأنه.

رابعُها: الاختصاصُ المستفادُ من قوله: ﴿مِّنْ عِندِ ٱللَّهِۚ﴾ أي: هو المُختصُّ به، كما تقولُ: عندي ما تُريدُ، تقصِدُ: اختصاصَكَ به وتَملُّكَه.

خامسُها: الالتفاتُ في قوله: ﴿مِّنْ عِندِ ٱللَّهِۚ﴾؛ فإنَّه التفاتٌ من التَّكلُّم في ﴿لَأُكَفِّرَنَّ﴾ و﴿وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ﴾ إلى الغيبة ﴿مِّنْ عِندِ ٱللَّهِۚ﴾، وكان مُقتضى الظَّاهر: ثوابًا من عِندِي، إلَّا أنَّه عُدِلَ إلى أسلوب الغَيبة؛ لما ترتَّبَ عليه من إظهار الاسم الأحسن (الله)، وهو أدلُّ على جلالة الثَّواب من الضَّمير.

دلالةُ تقديم ﴿عِندَهُۥ﴾ على ﴿حُسْنُ﴾:

تقديم الظَّرف ﴿عِندَهُۥ﴾ على ﴿حُسْنُ﴾ في قوله: ﴿وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ﴾: يُرادُ به الاختصاصُ والقَصْرُ؛ إذ إنَّ ذلك من إفاداتِ تقديم ما حقّهُ التّأخير، فحسنُ الثَّواب مُختصٌّ بالله تعالى ولا يقدِرُ عليه غيرُهُ[1].

حسنُ الثَّواب مُختصٌّ بالله تعالى ولا يقدِرُ عليه غيرُهُ

ثُمَّ إنْ أُريد بـ ﴿حُسْنُ ٱلثَّوَابِ﴾: الجنَّةُ[2]؛ كان القصرُ قصرًا حقيقيًّا، وإن كان المُرادُ مُطلقَ الثَّواب؛ فالقصرُ مجازِيٌّ؛ لبيانِ عِظَم ثوابِه سبحانه، حتَّى كأنَّ كلَّ جزاءٍ للأعمال في الدُّنيا لا يُعدُّ حسنًا أمام ثواب الله سبحانه لعباده المُحسنين[3].

جزاءُ الأعمال في الدُّنيا - وإنْ عَظُمَ - لا يُقارِبُ ثواب الله تعالى لعباده المُحسنينَ

نُكتةُ التَّذييل في الفاصلة:

قولُ الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ﴾ تذييلٌ جارٍ مَجرَى المثَلِ، سيقَ مساقَ التَّوكيد والتَّقرير لمضمون ما قبلَه؛ ليكونَ ذلك

ثوابُ الله تعالى لا مُنتهى لشرفه

(1) النَّسفيّ، مدارك التَّنزيل: 1/323.
(2) السَّمرقنديّ، بحر العلوم: 1/275.
(3) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 3/1557.

الثَّوابُ لا مُنتهَى لشرفه؛ لأنّ اللّه سبحانه لمَّا كان قديرًا عليمًا؛ كان لا مُنتهَى لكرمه وجوده وإحسانه، فكان عنده حسنُ الثَّواب[1].

الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الاستجابة والإجابة:

الفرق بينهما من وجهين[2]: أوَّلُها: أنّ الاستجابة أكثرُ حروفًا مِنَ الإجابة، وزيادةُ المبنى يقتضي الزِّيادة في المعنى غالبًا، وزيادةُ المعنى ههنا مِن جهة أنَّ الاستجابَةَ دالَّةٌ على إعطاء جميع المطلوبات. وثانيها: أنَّ الاستجابةَ أخصُّ مِنَ الإجابة؛ لكون الاستجابةِ الجوابَ بما يُوافقُ الدَّاعي، بخلاف الإجابة فقد تكون بموافقتِهِ كما تكونُ بمخالفته.

الأَذى والضَّرر:

يَجمَعُهما أنَّ كليهما شرٌّ ومكروهٌ يَحُلُّ بالعبد، والفرقُ بينهما: أنَّ الأذى هو المكروهُ اليسير والشَّرُّ الخفيفُ، فإذا زادَ ذلك سُمِّيَ: ضَرَرًا[3].

الأَجر والثَّواب والجزاء:

تدلُّ مادَّةُ الأجر - الهمزةُ والجيم والرَّاء - على معنيين: الكِراء على العمل، وجَبرُ العَظمِ الكسير، ويُجمَعُ بينهما بأنَّ أجرة العامل بمنزلة الشَّيءِ الّذي تُجبَرُ بها حالُهُ فيما أصابَه من كَدٍّ في عمله[4]، وأمَّا الثَّواب فدالٌّ على العَود والرُّجوع، والمُرادُ به: ما يعود على الإنسان من جزاء عمله[5]، وأمَّا الجزاءُ فأصله الغَناءُ والكفايةُ، ويُرادُ به: الكفاية مِنَ المُقابلة إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشرٌّ[6]. والفرقُ بينها[7]: أنَّ الثَّوابَ يُستعمل في الجزاء بالخير غالبًا، واستعمالُهُ في الشّرِّ أَقلُّ، وأمَّا الجزاءُ فهو المقابلة على الخيرِ بالثَّواب، وعلى الشَّرِّ بالعقاب، وأمَّا الأجرُ فلا يُستعمل إلَّا في النَّفع دُون الضّرِّ، ويتضمَّن معنى المعاوضة، فالأجرُ أخصُّ مِنَ الثَّواب والجزاءِ، من جهة اختصاصه بالخير، بخلاف الثَّواب والجزاء

(1) الرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 9/471، والآلوسّي، روح المعاني: 2/380.
(2) الواحديّ، التّفسير البسيط: 8/109، و13/362، والشّربينيّ، السّراج المنير: 1/276، وابنُ عاشور، التّحرير والتّنْوير: 4/202.
(3) الزَّبيديّ، تاج العروس: (أذى).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أجر).
(5) القاضي عيّاض، مشارق الأنوار: (ثوب).
(6) الرّاغب، المفردات: (جزا).
(7) داود، معجم الفروق الدّلالية، ص: 46 - 48، الدُّوريّ، دقائق الفروق اللغوية، ص: 164 - 166.

فهما أعمُّ؛ لجريانِهما في الخير والشَّرِّ، والثَّواب أخصُّ مِنَ الأجر والجزاء مِن جهة أنَّهُ لا يُستعمل في المنافع المادِّيَّة أو الدُّنيوِيَّة، بخلاف الأَجر والجزاء؛ فإنَّهما يقعان على المنافع الدُّنيَويَّة والمنافع الأُخرَويَّة.

﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ١٩٦ مَتَٰعٞ قَلِيلٞ ثُمَّ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۚ وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ١٩٧﴾ [آل عمران: 196 - 197]

مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِمَا قَبْلَهُما:

المناسبة بين آجل الجزاء الأخرويّ الدّائم، وبين عاجل متاع الكفّار الزّائل

لمَّا وعد اللّه تعالى المؤمنين بالثَّواب الجزيل، وكان هذا الوعدُ آجلًا، وكان نظرُهم إلى ما عليه الكفَّار من سعةٍ وتنعُّم، مؤثِّرًا في بعض النُّفوس، أثرًا يقدحُ في الإيمان بالغيب؛ لمَا هم فيه مِنَ الفقر والشّدَّة، ذَكَرَ سُبحانه في هذه الآية ما يُسلِّيهم ويُصبِّرهم على ذلك، مُبيِّنًا أنَّ أموال الكُفَّار وما هم فيه مِنَ التَّنعُّم؛ إنَّما هي صورٌ لا حقائقَ لها، ولا ينبغي لأهل الإيمان أن يَعبَؤوا بذلك؛ لأنَّ عاقبتَه في غاية السُّوء[1]، فيجب أن لا تغترّ - أيّها الرّسول - بمتع أهل الكفر باللّه، وماهم عليه من بسطة في العيش، وتقلّب في ألوان الرّزق، وأصناف النّعم، ورواج تجاراتهم، وتراكم الأرباح والأموال لديهم، فسوف يزول هذا كلُّه عنهم، ويصبحون مرتهنين بأعمالهم السّيئة، وكفرهم الموبق[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَغُرَّنَّكَ﴾: من الغرور، وهو بالضّمّ ما (اغترّ) به من متاع الدّنيا[3]، والغين والرَّاء تدلُّ على أَثَرٍ ظاهرٍ في الشَّيءِ[4]، وأرجعها ابنُ فارسٍ إلى معانٍ، منها: النُّقصانُ، ومنه قِيلَ للنَّوم القليلِ: غِرارٌ، ومنه: بيع الغرَرِ؛ وهو الخطَرُ الّذي لا يُدرَى أيكونُ أم لا، كبيع الطَّيرِ في الهواءِ؛ وذلك لِنُقصان البيع وعدم تمامِهِ[5]، والأوَّلُ أعمُّ،

(1) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 9/471، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 5/163 - 164.
(2) نخبة من أساتذة التّفسير، التّفسير الميسر، ص: 76.
(3) الرّازيّ: مختار الصّحاح: (غرر).
(4) الرّاغب، المفردات: (غرر).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (غر).

والنُّقصانُ مندرِجٌ فيه؛ لأنَّه أثرٌ ظاهر في الشَّيءِ. وتقول العربُ: غَرَرتُ فلانًا؛ أَصَبتُ غِرَّتَهُ، ونِلتُ منه ما أُريدُه، والغِرَّةُ: غَفلة في اليقظةِ[1]، والغَرُّ: الإطماعُ في أمر محبوبٍ على نيَّةِ عدم وقوعهِ، أو هو إظهارُ أمرٍ مضرٍّ في صورة النَّافع[2]، والشَّيطانُ: غَرورٌ؛ لأنَّه يَحمِل على محابِّ النَّفسِ، ووراءَ ذلك ما يَسوءُ[3].

2) ﴿تَقَلُّبُ﴾: من (قلب)، قلبت الشّيء فانقلب، أي انكبّ، والمنقلَب يكون مكانًا ويكون مصدرًا، مثل المنصرَف[4]، والقاف واللَّام والباء تدلُّ على معنيين كُلِّيَّين؛ خالصُ شيءٍ وشريفُهُ، وردُّ شيءٍ مِن جهةٍ إلى جهةٍ[5]، يُقال: قَلَبَ الشّيءَ وقَلَّبه؛ إذا حَوَّله ظَهراً لبَطنٍ[6]، وقلَّب الأُمُورَ: بحثَها ونظر في عواقبها، وتَقَلَّبَ في الأُمور وفي البلاد: تصرَّف فيها كيف شاءَ[7]، والتقلُّبُ في قول الله تعالى: ﴿تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ هو التَّصرُّف على حسب المَشيئَة في الحُروب والتِّجارات والغَرسِ، ونحو ذلك[8].

3) ﴿مَتَٰعٌ﴾: الميم والتَّاء والعَين تدُورُ تصريفاتُهَا على منفعةٍ وامتدادِ مُدَّةٍ في خيرٍ وقوَّةٍ وكمالِ حالٍ[9]، ومنه قوله تعالى: ﴿يُمَتِّعۡكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى﴾ [هود: 3] أي: يَبسُط عليكم مِنَ الدُّنيا، ويرزقكم مِن زينتِها، ويَنسَأُ لكم في آجالكم إلى وقت وفاتِكم ولا يَستَأصِلكم بعذابٍ[10]. ومنه: المَتاع؛ وهو في الأَصل: كلّ شَيء يُنتفَع به، ويُتبلَّغ به، ويُتزوَّدُ[11]، والمتاع: ما يستمتع به الإنسان في حوائجه من أمتعة البيت ونحوه من كلّ شيء، والدّنيا متاع الغرور، وكلّ شيء تمتّعت به فهو متاع[12]، ويُقال: إنّما العيشُ متاعٌ

(1) الرّاغب، المفردات: (غرر).
(2) ابنُ عاشور، التّحرير والتّنْوير: 4/205.
(3) الهرويّ، الغريبين: (غرر).
(4) الجوهريّ، الصّحاح: (قلب).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قلب).
(6) الفيروزاباديّ، القاموس المحيط: (قلب).
(7) ابن سيده، المحكم: (قلب).
(8) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 104، وابنُ عاشور، التّحرير والتّنْوير: 4/206.
(9) ابن فارس، مقاييس اللغة: (متع)، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصَّل: (متع).
(10) ابن جرير، جامع البيان: 15/229، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (متع).
(11) الأزهري، تهذيب اللغة: (متع).
(12) الخليل، العين: (متع).

أيَّام ثُمَّ يَزُول، أي: بقاءُ أيَّام[1]، وقولُهُ سبحانه: ﴿مَتَٰعٞ قَلِيلٞ﴾ أي: شيءٌ ينتَفِعون به سنينَ قليلةً وينقضي[2].

4) ﴿مَأۡوَىٰهُمۡ﴾: أوى إلى منزله يأوي، - من باب ضرب - أويًا: أقام، والمأوى بفتح الواو لكلّ حيوان: سَكَنُهُ[3]، والهمزة والواو والياء تدور تصريفاتُها على معنيين: التَّجمُّع، والإشفاقُ[4]، ومِنَ الأوَّل: التَّأوِّي؛ وهو التَّجمُّع، وقولُ العربِ: تأوَّتِ الطَّيرُ؛ إذا انضمَّ بعضُها إلى بعضٍ[5]. المأْوى: المكانُ الذي يُنصرَفُ إليه ويُقامُ فيه[6]، والمأْوى في قول الله تعالى: ﴿مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ﴾ المصير الّذي يَأْوُون إليه يومَ القيامة[7].

5) ﴿ٱلۡمِهَادُ﴾: من (مهد)، ومهّدت الأمر تمهيدا، وطّأته وسهّلته[8]، والميم والهاء والدَّال تدلّ اشتقاقاتها على توطئةٍ وتسهيلٍ للشَّيءِ، ومنه: المَهدُ[9]؛ وهو ما يُهيَّأُ للصَّبيِّ مِنَ الفراش[10]، ويُقال: مَهَّدتُ لنَفسي، أَي: جَعَلتُ مَكانًا وطيئًا سهلًا[11]، والمِهَادُ: الفراش[12]. والمِهَادُ في قول الله تعالى: ﴿وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ﴾ الفراشُ، والمعنى: بِئسَ الفِراشُ والمَضجِعُ جَهَنَّمُ[13].

ما عند الله في جنّاته للأبرار، خيرٌ من متاع الكفرة في دنيا البوار

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

لا يَخدعنَّكَ يا أيُّها الرَّسول الكريمُ، تصرُّفُ الكفَّار في التِّجارة وإصابتُهم الأَموالَ وما هم فيه من سعة العيش؛ فيؤدِّي ذلك بك

(1) الخليل، العين: (متع).
(2) الجزائريّ، أيسر التَّفاسير: 1/429.
(3) الفيّومي، المصباح المنير: (عوي).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أوي).
(5) الخليل، العين: (أوى).
(6) الحُميديّ، تفسير غريب ما في الصَّحيحين، ص: 266.
(7) ابن جرير، جامع البيان: 7/494.
(8) الفيّومي، المصباح المنير: (مهد).
(9) ابن فارس، مقاييس اللغة: (مهد).
(10) الرّاغب، المفردات: (مهد).
(11) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 80، والأزهري، تهذيب اللغة: (مهد).
(12) ابن سيده، المحكم: (مهد).
(13) ابن جرير، جامع البيان: 7/494.

إلى الشُّعور بالهمِّ والغمِّ من حالِهم؛ فإنَّ ذلك متاعٌ حقيرٌ، يَزولُ عنهم قريبًا، ويكون مآلهم إلى نار جهنَّم[1]، "ولا شكّ أنّ ما عند اللّه من الكرامة، أفضل على التّحقيق، ممّا يتقلّب فيه الّذين كفروا من المتاع القليل"[2].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالة الخطاب في ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ﴾:

عصمةُ النَّبيِّ ﷺ مِنَ الاغترار بتَقَلُّب الكفَّار في المعايش

المخاطَبُ بالنَّهي في قول اللّه تعالى: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ﴾ يحتَمِلُ وجهين:

أحدهما: أنَّه النَّبيُّ ﷺ.

والآخرُ: أنَّه كُلُّ من يتَأَتَّى خطابُه.

أمَّا الأوَّلُ ففيه مَسلكان:

الأوَّلُ: أنَّ الخطابَ للنَّبيِّ ﷺ، والمُرادُ غيرُه[3]؛ لِمَا عُلِمَ مِن أنَّ النَّبيّ ﷺ لا يُمكنُه الاغترارُ بتنعُّم الكفَّار وتقلُّبِهم في المعايش؛ لأنَّ ذلك الاغترارَ مُنافٍ للعِصمَة.

وفي هذا نظرٌ؛ لأنَّ العصمةَ لا تُزيل النَّهي؛ إذ لو زال النَّهيُ لما كانت ثَمَّ عِصمةٌ؛ لأنَّ العصمةَ الحفظُ مِن مخالفة الأمر والنَّهي، وإذا زال النَّهيُ لم تكن ثَمَّ مخالفةٌ، فلا تكون عِصمةٌ[4].

والآخر: أنَّ الخطاب للنَّبيِّ ﷺ ولأمّتِه، ولكن وقعَ بأسلوب التَّغليب؛ تطييبًا لقلوب المُخاطَبين[5].

وخطاب الأُمَّةِ بمثل هذا النَّهي يُرادُ به حقيقةُ الإلزام بالتَّرك أو الدَّوامُ عليه لمن كان مُمتَثِلًا النَّهي.

(1) ابن جرير، جامع البيان: 7/493 - 494، وابن أبي زَمَنِين، تفسير القرآن: 1/342، والسّعدي، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 162، ونخبة من العلماء، التّفسير الميسّر، ص: 76.

(2) إبراهيم القطّان، تيسير التّفسير، ص: 260.

(3) مكيٌّ القَيسّي، الهداية إلى بلوغ النِّهاية: 2/1206، الرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 9/471.

(4) البروسوي، روح البيان: 2/153.

(5) الآلوسّي، روح المعاني: 2/381.

وأمَّا خطاب النَّبيِّ ﷺ فالمرادُ به: الإلهابُ والتَّهييجُ؛ والمُرادُ بهما: كلُّ كلامٍ دالٍّ على الحثِّ على الفعل لِمَن لا يُتصوَّر منه تركُهُ، وعلى ترك الفعل لِمَن لا يُتصوَّر منه فعلهُ، ولكن يَكونُ صُدورُ الأمر والنَّهي على جهة الإلهاب والتَّهييج له على الفعل والتَّرك فحسب[1].

وأمَّا الوجهُ الآخر، وهو أن يكون المُرادُ به كلَّ مَن يتأَتَّى خطابُهُ؛ فالمعنى: لا يغرنَّك أيُّها السَّامعُ[2]، وهو خارجٌ عَنِ الأصل من جهة أنَّ الأصلَ في الخطاب أن يكون لمعيَّنٍ، إلَّا أنَّ العدولَ عن إرادة المعيَّن بالخطاب قصدًا للعموم كثيرٌ في القرآن الكريم، وفي كلام العرب[3]، وهذا الوجهُ أبلَغُ؛ مِن حيث إنَّ هذا النَّهي يكون لكُلِّ مُتَلَقٍّ للخطاب كأنَّه وُجِّهَ له على سبيل الانفراد والخصوص، وهذا أدخَلُ في إبراز العناية بامتثاله.

بلاغةُ المجاز العقليِّ في ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ﴾:

مِـــن أَقـــوى طُـرُق المَنع مِنَ الأَشـيـاء: مَنعُ أَسبابها المُنتِجَة لها

إسنادُ فعلِ الغُرور إلى التَّقَلُّب في قوله تعالى: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ﴾ مجازٌ عقليٌّ؛ لأنَّ التَّقَلُّبَ سبَبٌ فيه، فالنَّهيُ في المعنى موجَّهٌ للمُخاطَب، وجعلُهُ للتَّقلُّب هو مِن باب تنزيل السَّبب - وهو التَّقلُّب - منزلةَ المُسبَّب - وهو اغترارُ المُخاطَب - ؛ لقصد المبالغة[4]، ووجه المبالغة: منعُ السَّبَب بإيراد النَّهي عليه؛ ليَمتَنِعَ المُسبَّبُ ضرورةً بالطَّريق البُرهانيّ[5]، والمعنى: لا ينبغي أن يَغُرَّكَ[6].

في المـوصـلـيّـة حـثٌّ عـلى عـدم الاغـــترار بـما يَصدُرُ مِنَ الكفَّار

نُكتة التَّعبير بالاسم الموصول:

إضافةُ التَّقلُّبِ إلى الاسم الموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾ من قول الله

(1) العلويُّ، الطِّراز: 3/93.
(2) الرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 9/471.
(3) السَّكَّاكيّ، مفتاح العلوم، ص: 180.
(4) البروسوي، روح البيان: 2/153.
(5) الآلوسّي، روح المعاني: 2/381.
(6) ابنُ عاشور، التّحرير والتّنْوير: 4/206.

تعالى: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ تنفيرٌ مِن تقلُّبِهم قبل ذكر عاقبتِهِ ومآلِهِ، فالتَّقلُّبُ في البلاد سببٌ للاغترار، ولكنَّ تقلُّبَ الموصوفينَ بالكُفر لا ينبغي الاغترارُ به، كيف وقَدِ انضمَّ إلى ذلك سوءُ عاقبة أَمرهم.

بلاغة الفَصْل في قوله ﴿مَتَٰعٞ قَلِيلٞ﴾:

فُصِلَ قولُ الله تعالى: ﴿مَتَٰعٞ قَلِيلٞ﴾ عمَّا قبلُ؛ لوقوعِهِ استئنافًا بيانيًّا[1]؛ وذلك أنَّ قوله سبحانه: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ﴾ يُورثُ في النَّفس سؤالًا؛ وما لنا لا نغترُّ بتقلُّبِهم وهو سببٌ في الاغترار؟ وكيف تَرَكَهُم الله تعالى على تلك الحال؟ فجاء الجواب: ﴿مَتَٰعٞ قَلِيلٞ ثُمَّ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ﴾؛ تَنبيهًا إلى أنَّه لا ينبغي قَصرُ النَّظَر على الأحوال الظَّاهرة، بل يجبُ التأمُّلُ في مآلاتها.

في الفصل تنبيهٌ على وجوبِ التَّأمُّل في مآلات الأُمور

دلالةُ تنكيرِ ﴿مَتَٰعٞ﴾:

تنكيرُ ﴿مَتَٰعٞ﴾ مِن قول الله تعالى: ﴿مَتَٰعٞ قَلِيلٞ ثُمَّ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ﴾ يُرادُ به التَّحقيرُ؛ فهو متاع لا يَعبأُ به ذو همَّةٍ عليَّةٍ[2]، وازدادَ حقارةً بوجهين:

أحدهما: إفرادُهُ، وهو دالٌّ على القلَّة.

والآخر: وصفُه بالقلَّة؛ فيكون تمتُّعُهم حقيرًا في قدرِه، وقليلًا في وصفه.

ما يتمتَّعُ به الكفَّارُ، مهما عَظُمَ في الظَّاهر، فإنَّهُ قليلٌ حقيرٌ

دلالةُ حرف العطف ﴿ثُمَّ﴾:

﴿ثُمَّ﴾ من قول الله تعالى: ﴿مَتَٰعٞ قَلِيلٞ ثُمَّ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ﴾ حرفُ عطفٍ دالٌّ على التَّرتيب معَ التَّراخي؛ وفي التَّعبير به نُكتَتان[3]:

الأولى: إشارةٌ إلى أنَّ تمتُّعَهم بزخارف الحياة الدُّنيا، وإن

تَمَتُّعُ الكفَّار بزخارف الدُّنيا، وإن طال، فإنَّهُ زائلٌ، سيِّئَةٌ عاقبتُهُ

(1) ابنُ عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 4/206.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 5/164.
(3) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 5/164، وأبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 3/1558.

فُرِضَ أنَّه قد طالَ في نظر المؤمنينَ؛ فإنَّهُ تمتُّعٌ لا قيمةَ له؛ لزواله وسوء ما بعدَهُ.

والأخرى: الإيماءُ إلى هول تلكَ العاقبَةِ وتناهِي عظَمَتِها؛ بالدِّلالة على التَّفاوت ما بين حالِهم في الدُّنيا، وما يكونون عليه في الآخرة.

توجيه المتشابه اللَّفظيّ بين ﴿ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ﴾ و﴿وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ﴾:

دقَّةُ النَّظم القرآنيّ في اختيار حروف المعاني بما يُناسبُ السِّياق

جاء التَّعبير في هذا المَوضِع مِن (آل عمران) بـ ﴿ثُمَّ﴾ في قول الله سبحانه: ﴿ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ﴾، وورد هذا النَّظمُ بالواو أيضًا في قول الله تعالى: ﴿وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ﴾ في أربعة مَواضِع:

أوَّلُها: قولُ الله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [التّوبة: 73].

ثانيها: قولُ الله سبحانه: ﴿سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ إِنَّهُمْ رِجْسٌ ۖ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [التّوبة: 95].

ثالثُها: قولُ الله ﷻ: ﴿وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُۥ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ [الرّعد: 18].

رابعُها: قولُ الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [التّحريم: 9].

وجاءت بـ ﴿ثُمَّ﴾؛ لأنَّ هذه الآية سُبقَت بقول الله تعالى: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ﴾، وتصرُّفُهم في التِّجارة وإصابتُهم الأَموالَ قد يطولُ زَمَنُهُ، ولذا ذُكر حرفُ العطف ﴿ثُمَّ﴾ الدَّالّ على التَّراخي.

أمَّا الآياتُ الأربعُ الأخرى فوردَ العطفُ فيها بالواو؛ لعدمِ تضمُّنِهَا ما يقتضي التَّراخي، فكان الأنسبُ العطفَ بالواو المفيدة الاشتراكَ

في الحكم، كالّذي ورد في سورة الرَّعد: ﴿وَٱلَّذِينَ لَمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَهُۥ لَوۡ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا وَمِثۡلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفۡتَدَوۡاْ بِهِۦٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ سُوٓءُ ٱلۡحِسَابِ وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ﴾ [الرّعد: 18]؛ فإنَّ سوءَ الحساب من أحوال الآخرة، فعُطِفَ عليه ﴿وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ﴾ بالواو؛ لأنَّه من أحوال الآخرة كذلك؛ لإفادة وقوع الحُكمَينِ عليهم[1].

بلاغةُ الاستعارة التَّهكُّميَّة في قوله ﴿ثُمَّ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ﴾:

التَّهكُّمُ مِن أَشدِّ أَنـواعِ العـذاب النَّفسيِّ

أصلُ المأْوى: المكانُ الّذي يُنصَرَفُ إليه ويُقامُ فيه[2]، وإنَّما يُؤوَى إلى مكانٍ فيه استقرارٌ واطمئنانٌ، فمجيءُ التَّعبير القرآنيِّ عن جهنَّم بالمأوى في قوله سبحانه: ﴿ثُمَّ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ﴾ من باب الاستعارة التَّهكُّميَّة، ويُؤيِّدُه قولُه عَن جهنَّم بعدُ: ﴿وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ﴾، وأصلُ المِهاد: المكانُ المُمَهَّدُ، والفراش اللَّيِّنُ الموطَّأُ، فذلك يقوِّي دلالة التَّهكُّم[3]، وهذا أشدُّ وقعًا على النُّفوس؛ لما فيها مِنَ الإنزال لِقَدر المُخاطَب، والحطِّ منه[4].

توجيه المتشابه اللَّفظيِّ بين ﴿مَتَٰعٞ قَلِيلٞ ثُمَّ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ﴾ و﴿مَتَٰعٞ قَلِيلٞ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾:

دقَّـــةُ اختـيـار اللَّفظة المُلائمة لسياقها

قال الله تعالى: ﴿مَتَٰعٞ قَلِيلٞ ثُمَّ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ﴾، وجاء في سورة النّحل: ﴿مَتَٰعٞ قَلِيلٞ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ [النّحل: 117]، ووجه المغايرة بينَهما: أنَّ آية آل عمران سُبقت بقول الله سبحانه: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ﴾، فلمَّا كان لهؤلاء قُوَّةٌ وسَعَةٌ تُمَكِّنُهم مِنَ التَّقلُّب في البلاد؛ كان لا بُدَّ لهم مِن مكانٍ يأوونَ إليه؛ ذكَرَ الله تعالى مأْواهم، فقال ﷻ: ﴿ثُمَّ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ﴾.

أمَّا آية النَّحل فسُبِقَت بقول الله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ

(1) داود، معجم الفروق الدّلاليَّة، ص: 592.
(2) الحُمَيديّ، تفسير غريب ما في الصَّحيحين، ص: 266.
(3) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 3/1558.
(4) العلويّ، الطِّراز: 1/127.

أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ [النّحل: 116]، فلمَّا بلغَ هؤلاءِ المُنتهَى في الكذب، وذلك بكذبهم على اللّه تعالى كَذِبًا يُؤلِمُ أولياءَهُ، وهم يَجِدون في كذبهم ذلك لذَّةً؛ كان الأنسبُ تخصيصَهم بما يُبطِلُ تلك اللَّذّة، ويُزيل كُلَّ عُذوبةٍ، ويُورِثُهم ضدَّ ذلك من الألم فقال تعالى: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[1].

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(غَرَّ) و(خَدَعَ):

يشتركان في مُطلَقِ وقوعِ الضَّرر، وهذا الّذي سبَّبَ التَّقارُبَ بين اللَّفظتين[2]، ويفترِقان مِن وجهين[3]: أوَّلُهُما: أنَّ أصلَ الغررِ الأثرُ الظَّاهرُ في الشَّيء، ومنه النُّقصانُ، وأمَّا الخداعُ فأصلهُ: الخَفَاءُ، ثانيهما: أنَّ الخِداع فعل يَظهرُ فيه قُدرَةُ الخادِعِ على إخفاء الشَّيء وإظهَارِ غَيرِه، وهو دالٌّ على الفِطنَة، أمَّا الغرورُ فهو فعلٌ يُنبئُ عن غفلة المغرور، ونقص فِطنتِه. ومِن هُنا ورد الخِداعُ في القرآن الكريم وَصفًا لأفعال الكافرين والمُنافقِين، ومُجازاةَ اللّه تعالى لهم على خِداعِهم، وتَحذيرًا للنَّبيِّ ﷺ والمؤمنين، من الوقوع في حبائلِهم، فهم يظنُّون أنَّهم أهل فطنةٍ وذكاءٍ، بخلاف الغرورِ؛ فقد ورد في سياق التَّحذير مِنَ الغفلة، والانسياق وراءَ زينَةِ الحياة الدُّنيا، ومِن الوقوع في حبائل الشَّيطان، ودرَك الشَّهوات.

المأْوى والمَثْوَى:

ذهب بعضُ أهل العلم إلى أنَّ المأوَى والمَثوَى بمعنًى واحد[4]، وفرَّق بينهما جماعةٌ، وحاصلُ الفرق بينهما مِن وَجهَين: أحدهما: أنَّ المأوى أعمُّ من المثوى؛ لأنَّ المثوَى تتضمَّنُ معنى الإقامةِ، بخلاف المأْوَى[5]؛ فقد يدلُّ على معنى الإقامة، وقد لا يدلُّ عليها؛ ولذا قد يأوي الإنسانُ إلى مكانٍ عارضٍ، ولذا جاء في الحديث قول النَّبيِّ ﷺ: «انطَلَقَ ثَلاثَةُ رَهطٍ مِمَّن كَانَ قَبلَكُم حَتَّى أَوَوا المَبِيتَ إلى غَارٍ»[6] - في القصَّة المشهورة - ، فعبَّر عن

(1) سعد عبد العظيم محمّد، استدراك ما فات من بلاغة الآيات المتشابهات، ص: 351.
(2) الجرجانّي، درج الدّرر: 2/555.
(3) داود، معجم الفروق الدّلاليّة، ص: 234 - 236.
(4) ابن جرير، جامع البيان: 14/77، والواحديّ، التّفسير البسيط: 20/232، والدَّقيقيّ، اتّفاق المباني وافتراق المعاني، ص: 255.
(5) الآلوسّي، روح المعاني: 2/301، والهرَريّ، حدائق الرَّوح والرَّيحان: 5/222.
(6) البخاريّ، الحديث رقم: (2272)، ومسلم، الحديث رقم: (2743).

مَبيتِهم العارِضِ في غارٍ بالإيواءِ، ثانيهما: أنَّ الإقامةَ إن دلَّ عليه لفظ (المأوى) يُفارق الإقامةَ الّتي يدلُّ عليه لفظُ (المثوى)؛ لأنَّ الإقامةَ في المثوَى إقامةٌ مع دوام، بخلافها في المأوى[1]، فالمأوى قد يُقيم فيه المرءُ إقامةً طويلةً، ولكنَّ المثوَى يقتضي الإقامة الدَّائمةَ[2]. وقد جُمِعَ بين المَأْوَى والمَثوَى في آيةٍ واحدةٍ، وهي قولُ اللّه تعالى: ﴿وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [آل عمران: 151]، وهو يؤيِّدُ أنَّ في المثوى أمرًا زائدًا على المأوَى، ففي ذِكر المَثوَى بعد المأوى إشارةٌ إلى خُلودِهِم، ولذا قُدِّم المأوى؛ بالنَّظر إلى التَّرتيب الوجوديِّ؛ فإنَّ الكافرَ يأوي ثُمَّ يَثوِي[3].

(1) زيدان، الفروق اللغوية، ص: 167 - 168.
(2) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 3/1450.
(3) القنَّوجيّ، فتح البيان: 2/352.

﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ لَهُمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلٗا مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۗ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لِّلۡأَبۡرَارِ ١٩٨﴾

[آل عمران: 198]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

التّقابل بين مآل الكافرين في النّار، وبين مآل المؤمنين في جنّات النّعيم

لَمَّا بيَّنَ اللّه تعالى مآل الكافرين وجزاءَهم، وأنَّ لهم نارَ جهنَّمَ، وذلك في ذكره سبحانه بأنّ تَقَلُّبهم في البلاد، مجرّد متاع قَلِيل، ثُمَّ يؤولون إلى جَهَنَّم، وبئس المهاد، أعقبَهُ بذكر مآل المؤمنين أهلِ التَّقوى، الّذين يجازيهم اللّه بتقواهم للّه، والتزامهم بهداه، جنّات تجري من تحتها الأنهار؛ اتّباعًا للوعيد بالوعدِ، على طريقة القرآن الكريم في ذِكر المتقابلَين[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱتَّقَوۡاْ﴾: من اتّقى يتّقي، أصله اوْتقى على افتعل، فقلبت الواو ياء لانكسار ما قبلها، وأبدلت منها التّاء وأدغمت، فقالوا: تقى يتقي مثل قضى يقضي[2]، والواو والقاف والياء، تدور تصاريفُها على دفع شيءٍ عن شيءٍ بغيرِهِ[3]، و(اتَّقَوا): فعلٌ ماضٍ مُسندٌ إلى واو الجماعة، وهو بصيغة الافتعال من (وَقَى)، والتَّقوى: الحِفظُ[4] أو: جَعلُ النَّفس في وِقاية ممَّا يُخافُ[5]، والاتِّقاءُ: اتِّخاذُ الوقاية[6]. والتَّقوى في الشَّرع: اتِّخاذُ الوقاية مِن عذَاب اللّه تعالى، وذلك بفعل أوامِره واجتناب نَوَاهيه[7].

(1) الرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 9/472، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 5/164.
(2) الجوهريّ، الصّحاح: (وقى).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (وقي).
(4) الجوهريّ، الصّحاح: (وقى).
(5) الرّاغب، المفردات: (وقى).
(6) الجرجانّي، التَّعريفات، ص: 65.
(7) ابن عثيمين، القول المفيد: 2/478.

2) ﴿نُزُلًا﴾: النُّون والزَّاي واللَّام، تدلُّ اشتقاقاتها على هبوطِ شَيء ووقوعه[1]، والمَنزِلُ: مَوضِعُ النُّزول، ويُقال: أنزلتُ الضَّيفَ فهو نزيلٌ، والنُّزُلُ: طعام النَّزيل الّذي يُهيَّأُ له[2]، وتقول العربُ: أقمتُ لهم نُزُلَهُم، أي: غذاءَهم وما يصلُحُ معه أن يَنزِلواْ عليه[3]، والنُّزلُ في قول اللّه تعالى: ﴿نُزُلًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِۗ﴾ ما يُعَدُّ للنَّزيل والضَّيف مِنَ الكرامة والقِرى[4]، والمعنى: أنَّ تلك الجنَّات الّتي وُعدواْ بها، هم خالِدُون فيها حالَ كونِ تلك الجنَّاتِ مَنزِلًا مهيَّأً لهم من عند اللّه تعالى على سبيل الإكرام والتَّشريف[5].

3) ﴿لِّلْأَبْرَارِ﴾: البرّ: "خلاف العقوق، والمبرّة مثله، تقول: بررت والدي بالكسر، أبرّه برّا، فأنا برٌّ به وبارٌّ"[6]، و(الأبرار) مفردُها: (البَارُّ)، و(البرَرة) مفردُها: (البَرُّ)، وكذا قد يكون مفرَدها: (البارُّ) أيضًا[7]، وعكس الجوهريُّ وغيرُه؛ فجعل (الأبرار) جمعًا لـ (البَرِّ)، و(البررة) جمعًا لـ (البَارِّ)[8]، والاستعمال القرآنيُّ يُؤيِّدُهُ؛ لأنَّ وزن (فَعَلَة) ورد في القرآن الكريم جمعًا لـ (فَاعِلٍ)، مثل: (وَرَثَة) جمع (وارث)، و(حَفَظَة) جمع (حافظ)، و(سَفَرَة) جمع (سافر)، و(فَجَرَة) جمع (فاجر)[9]، والباء والرَّاء تدُور تصريفاتُها على انبِساطٍ عظيم مع تجرُّدٍ أو انكشاف وجفاف ما[10]، ومنه البَرُّ المقابلُ للبَحرِ؛ لما فيه من السَّعة والانبساط، والبِرُّ: التَّوسُّع في فعل الخير، ويأتي بمعنى الصِّدقِ؛ لأنَّ الصِّدقَ بعضُ الخير المُتَوسَّعِ فيه[11]، تقول: برَّت يَمينُهُ؛ إذا صدقَت، وأبرَّها؛ إذا أمضاها على الصِّدقِ[12]، والأبرارُ جمع (بَرٍّ)؛ "وهُمُ الّذين بَرُّواْ اللّه تبارك تعالى بطاعتهم إيَّاه، وخدمتهم له، حتَّى أرضَوه فرضي عنهم"[13].

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نزل).
(2) الفيُّوميّ، المصباح المنير: (نزل).
(3) الزَّجّاج، معاني القرآن وإعرابُهُ: 4/306.
(4) ابنُ عاشور، التّحرير والتّنوير: 4/206.
(5) طنطاويّ، التَّفسير الوسيط: 2/380 - 381.
(6) الجوهريّ، الصّحاح: (برر).
(7) الفيروزآباديّ، بصائر ذوي التَّمييز: 2/213.
(8) الجوهريّ، الصّحاح: (برر)، والفيُّوميّ، المصباح المنير: (برر).
(9) الدّوري، دقائق الفروق اللغوية، ص: 305.
(10) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصَّل: (برر).
(11) الرّاغب، المفردات: (برّ).
(12) الخليل، العين: (بر).
(13) ابن جرير، جامع البيان: 7/482.

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

وصـــف جـــزاء الأتـقـيـاء وما أعـدّه الله لهم من جزاء عظيم، ونعيم مقيم

لكنَّ الّذين اتَّخذواْ الوقايةَ مِن عذاب اللّه سُبحانه - بفعلهم الأوامرَ واجتنابهم النَّواهِيَ - لهم في الآخرة جنّاتٌ تجري مِن تَحت قصورها وأشجارها الأنهارُ، وهذه الجنَّاتُ هي مَنزِلُهم الدَّائم، كرامةً مِن اللّه ﷻ لهم، والّذي عند اللّه ﷻ من كرامته لأهل طاعتِه وعطاياهُ لهم خيرٌ وأفضلُ ممَّا يتقلَّبُ فيه الّذين كفروا مِن نَعيم الدُّنيا؛ فإنَّ نعيمَ الدُّنيا حقيرٌ قليلٌ زائلٌ، وما عند اللّه تعالى مِنَ الكرامة لأهل طاعتِه عظيمٌ كثيرٌ باقٍ[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالةُ ﴿لَٰكِنِ﴾ بين القَصر والاستدراك:

تـعـدُّد دلالات الـــحـــروف؛ سعةٌ في المعاني القرآنيَّة

العطفُ بـ (لكن) عند البلاغيِّين مِن طُرق القصر، وهي لقصر القَلب، وردِّ اعتقادِ المُخاطَب؛ ففي قول اللّه ﷻ: ﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ لَهُمۡ جَنَّٰتٞ﴾ ردٌّ لاعتقاد الكفَرةِ أنَّهم مُتمتِّعون بالحياة، وأنَّ المؤمنين في خسرانٍ مُبينٍ.

و(لَكِنْ) عند النُّحاة حرفٌ دالٌّ على الاستدراك؛ وهو رفعُ توهُّمٍ ناشئٍ ممَّا سبق، وفي وجه الاستدراك ههنا مَسلَكانِ اثنان[2]:

أحدهما: أنَّ اللّه تعالى لمَّا وصف الكفّار بقلَّة نفع تَقَلُّبِهم في التِّجارة وتَصَرُّفِهم في البلاد مِن أجلها؛ قد يُتَوَهَّمُ أنَّ التِّجارة مقتضيةٌ لذلك مِن حيثُ هي؛ فاستُدرِكَ بأَنَّ الّذين اتَّقوا، وإن تعاطَوا التِّجارةَ لا يضُرُّهُم ذلك، وأَنَّ لهم ما وُعِدوا به في الآخرة.

الآخر: أنَّ اللّه سبحانه لمَّا جعل تمتُّعَهم في تقلُّبهم قليلًا مع أنَّهم في سَعَةِ حالٍ، قد يُوهِمُ ذلك أنَّ المُتَّقينَ الّذينَ في الفقر والجوع في

(1) ابن جرير، جامع البيان: 7/494 - 495، والنَّسفيّ، مدارك التَّنزيل: 1/324، ونخبة من العلماء، التّفسير الميسّر، ص: 76.
(2) الآلوسّي، روح المعاني: 2/382.

تمتُّع بالغ الكمالَ في القِلَّة؛ فاستُدرِكَ ذلك؛ بأنَّ تمتُّعَهُم حاصلٌ في تقواهُم ربَّهُم، ولا تمتُّعَ أعظمُ من طاعة الله سبحانه؛ لكونه المُوصِلَ إلى النِّعمة العظيمة الأبديَّة في الآخرة.

أَعـظـمُ المُـتـع مُـتـعـةُ أَهـل الإيـمـان بطاعة ربِّهم

وهذه المعاني كلُّها صحيحةٌ، ولا تعارُضَ بينها.

دلالةُ الاسم الموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾:

التَّعريفُ بالموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾ من قول الله تعالى: ﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ﴾؛ للإيماء إلى وجه بناء الخبر، وأنَّهُ سيكونُ مِن جنس الكرامَة، ولبيان العلِّيَّة؛ وأنَّ إكرامَ الله سبحانه لهم بالجنَّات وما فيها سببُه تَقواهم له.

تقوى الله تعالى مِن أَسباب نيل كرامته سبحانه

نُكتةُ التعبير بلفظ الرّبوبيّة:

إيقاعُ التَّقوى مُعبَّرًا عنها باسم الله (الرَّبّ) دون غيره مِنَ الأسماء في قول الله سبحانه: ﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ﴾ لِمَا في اسم (الرَّبّ) من الدِّلالة على الإنعام والإحسان؛ إذ هما مِن مُقتَضَيات التَّربية، وفي ذلك إشارة إلى عَظَمَةِ تقواهُم؛ لأنَّهم إذا اتَّقوه مع استحضار الإحسان والإنعام، فاتِّقاؤُهم له مع استحضار عقابِهِ وعذابِهِ من بابِ أَوْلَى وأحرى[1]، ولعِظَمِ تقواهم؛ استحقّوا أنْ يَشْرفُوا بالنِّسبة إلى ﴿رَبَّهُمۡ﴾؛ وهو ماتحقّق بالإضافة.

دوامُ تقوى أَهل الإيـمـان رغـبًـا ورهَبًا

بلاغةُ المُقابلة:

افتُتِحَتِ الآيةُ بحرف الاستدراك ﴿لَٰكِنِ﴾؛ لأنَّ مضمونَها ضدُّ الكلام الّذي قبلُ، ولأجل أنْ تكونَ ثَمَّ مقابلَةٌ جليَّةٌ بين العاقبة السُّوأى للكفَّار، والعاقبة الحُسنى للأبرار[2].

في مقابلة سوء عـاقـبـة الـكـفّـار، كـمـالُ حُـسـن مآل المؤمنين

ففي هذه الآيةِ ﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ لَهُمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلٗا مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۗ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لِّلۡأَبۡرَارِ﴾

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/459.

(2) ابنُ عاشور، التّحرير والتّنْوير: 4/206، وطنطاويّ، التَّفسير الوسيط: 2/380.

مع ما قبلها ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ١٩٦ مَتَٰعٞ قَلِيلٞ ثُمَّ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۚ وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ١٩٧﴾: مقابلَةٌ بديعةٌ، قُوبلَت فيها أربعَةُ معانٍ بأربعةٍ؛ فجاءت مقابلة الكفّار بالمُتَّقين، وجهنَّم بالجنَّات، وقلَّة متاعهم بعظيم النَّعيم في الجنَّات، وقِصَر مدَّة استمتاعهم بالخلُودِ الّذي هو داومُ التَّنعُّم.

ونُكتَةُ إيراد هذا التَّقابُل: بيانُ كمال حسن حال المؤمنينَ أتمَّ بيانٍ؛ ليَتِمَّ سرورُهم، ويزدادَ ابتهاجهم، ويتكاملَ به بيانُ سوء عاقبة الكُفَّار[1].

سرُّ جمع الجنَّات وتنكيرها:

جمع الجنَّات وتنكيرها أمارةُ تعددها، وتفاوتِ الجزاء بحسب الأعمال

جمع الجنَّات في قول الله تعالى: ﴿لَهُمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ إشعارٌ بتكثرتِها وتعدُّدِها؛ فإنَّ في الآخرة جنَّاتٍ متنوِّعةً - كما يدُلُّ عليه تنكيرُها - بحسب أعمال العاملينَ ودرجاتِهم.

سرُّ وصف الجنَّات بجري الأنهار من تحتها:

وُصِفَت الجنَّاتُ بجري الأنهار مِن تحتها في قوله سبحانه: ﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ تعريفًا بدوام تنوُّعها وزهرتها وعظيم بهجتها[2]؛ ولأنَّ أحسنَ الماءِ ما كان جاريًا؛ لأنَّ ذلك دالٌّ على تجدُّدِهِ كلَّما أُخِذَ منه شُربًا أو اغتسالًا أو نحو ذلك.

سرُّ التَّعبير بـ﴿نُزُلٗا﴾:

في التعبير عن الجنّة بالنُّزل بيانٌ لسعَة النَّعيم المُعَدِّ لأهل التَّقوى

وقع التَّعبير عن الجنَّات بكونها ﴿نُزُلٗا﴾ في قول الله تعالى: ﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ لَهُمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلٗا مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۗ﴾ مع أنَّ أصلَ النُّزُلِ هو ما يُقدَّم للضَّيف وقتَ نُزوله، وهو شيءٌ يسيرٌ؛ تمهيدًا لما أُعِدَّ له من الكرامة والقِرَى؛

(1) أبو حيَّان، البحر المحيط: 3/483، وأبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 2/135.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 5/165.

والنُّكتَةُ في ذلك: الإشارةُ إلى سَعَة كَرَم الله تعالى؛ حيث جَعَلَ الجنَّاتِ وأنهارَها نُزُلًا فقط، فما وراء ذلك مِنَ الإحسان والنَّعيم والخير الّذي لهم عند الله سبحانه أكثرُ مِن ذلك وأعظمُ[1].

دلالة تنكير ﴿نُزُلًا﴾:

فـي التَّنكير تعظيمٌ وتشريفٌ للنُّزل:

نُكِّرتْ كلمةُ ﴿نُزُلًا﴾ مِن قول الله تعالى: ﴿لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ تعظيمًا وتشريفًا له.

نكتة إضافة النُّزل إلى الله تعالى:

يَعظُمُ الشَّيءُ بعِظَمِ مَصدَرِه

وأضافَ النُّزل إلى الاسم الأحسن (الله) لبيان قدر تلكَ العظَمَة؛ إذِ الشَّيءُ يعظُمُ بعظمَةِ مَنْ هو مِنْ عِندِهِ[2]، فما الظّنُّ بالشَّيء من الله تعالى المُكرِم به أولياءَهُ؟

توجيه المتشابه اللَّفظيّ بين ﴿نُزُلًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ و﴿نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ﴾:

نُكتَةُ المغايرة دقَّة انتقاء المُفردات المناسبة لسياقاتِها

وَرَدَت هذه الآية: ﴿نُزُلًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾، وفي فُصِّلت: ﴿نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ﴾ [فُصِّلت: 32]، ونُكتَةُ المغايرة بينهما: مراعاةُ مناسبة كلٍّ مَوضِعٍ لسياقِهِ الواردِ فيه.

فآية (آل عمران) صُدِّرت بقوله سبحانه: ﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾؛ فالسِّياقُ مُتعلِّقٌ ببيان عِظَم جزائهم الحَسَنِ في مقابلة جزاء الكافرين، فكان الأنسبُ وصفَهُ بكونه ﴿مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾؛ لأنَّ ذلك أدخَلُ في التَّعظيم.

أمَّا آية (فُصِّلَت) فتقدَّمها قول الله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فُصِّلت: 30]، فلمَّا كان هذا عند الموت، وكان سبَبُ الخوفِ والحُزنِ ما كان من الذُّنوب في الدُّنيا؛ ناسبَه ذِكرُ ما

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/460، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 5/165.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 5/165.

يدلُّ على قطعِ سببهما، ويُشعِرُ بسَترِ الذُّنُوب والتَّجاوز عنها، فقال تعالى: ﴿نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ﴾[1].

دلالة الاسم الموصول (ما) في قوله ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ﴾:

الإبهام في الوَعد مُشعِرٌ بعظمته

التَّعبير بالاسم الموصول (مَا) في قول الله ﷻ: ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ﴾؛ لإفادة التَّهويل تعظيمًا؛ وذلك لمَا في الاسم الموصول (مَا) مِنَ الإبهام المُشعِرِ بأنَّه أمرٌ مهُولٌ، والتَّهويلُ قد يقع تعظيمًا، وقد يأتي تَحقيرًا، ولا ريبَ في إرادة التَّعظيم ههنا.

علّةُ حَذف مُتعلَّق ﴿خَيْرٌ﴾:

الّذي عند الله تعالى مِنَ الثَّواب للأَبرار خيرٌ مِن كلِّ شَيءٍ فيه خيرٌ

﴿خَيْرٌ﴾ اسمُ تفضيلٍ حُذِفَ مُتعلَّقه، والتَّقدير: وما عند الله خيرٌ للأبرار ممَّا في الدُّنيا، أو خيرٌ لهم ممَّا يتقلَّب فيه الكفرةُ مِنَ المتاع القليل الفاني[2].

ولا تعارُضَ بين التَّقديرَين؛ إذِ الثَّاني مندرجٌ تَحتَ الأوَّل، وهما فَردانِ مِن أفراد العموم؛ لأنَّ حذف المُتعلَّق مُؤذِنٌ بالعموم؛ فالّذي عند الله سبحانه خيرٌ للأَبرار مِن كلِّ شيءٍ قد يُظنُّ أنَّ فيه خيرًا.

نُكتةُ وَضع المُظهَرِ مَوضِع المُضمَرِ:

في الإظهار إشعارٌ بتداخل أَعمال البِرِّ وأَعمال التَّقوى

في التَّعبير عَنِ المُتَّقين بـ (الأبرار) في قوله تعالى: ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ﴾ وضعٌ للمُظهَر مَوضِعَ المُضمَر؛ إذ مُقتضى الظَّاهر أن يُقال: وما عند الله خيرٌ لهم، إلَّا أنَّه عُدِلَ عن هذا إلى التَّعبير بالظَّاهر؛ للإشعار بأنَّ الصِّفاتِ المعدودةَ هي مِن أعمال البِرِّ كما هي من أوصاف التَّقوى[3].

بلاغة التَّذييل في جملة الفاصلة:

جملة ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ﴾ إطنابٌ بالتَّذييل[4]، وهو تذييلٌ

(1) سعد عبد العظيم محمّد، استدراك ما فات من بلاغة الآيات المتشابهات، ص: 352.
(2) ابن عادل، اللُّباب: 6/133.
(3) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 2/135، والآلوسّي، روح المعاني: 2/382.
(4) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 2/135.

جارٍ مَجرَى المثلِ؛ لاستقلالِهِ عمَّا قبلَهُ، وفائدَتُهُ: تأكيدُ عِظَمِ ثواب أهل التَّقوى، وبيانُ شريفِ جزائِهم.

ومِن نُكَتِ هذا التَّذييل: التَّعريضُ بأهل الكفر؛ فإنَّ الآية قابلَت أربعة معانٍ بأربعةِ معانٍ ذُكرتَ من قبل، وزادَت هذه الآيةُ ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لِّلۡأَبۡرَارِ﴾، فالمقابلَةُ تقتضي أنَّ الآية تعريضٌ بالكفَّار، وأنَّ ما عند الله لهم مِنَ العذاب لا يُقادَرُ قدرُهُ.

في التذييل بيانٌ لعَظَمَة ما أعدَّ الله للأبرار من الثَّواب، وما للكفَّار من العذاب

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الأَبرار والبَرَرَة:

الفرق بينَ المفردين: أنَّ (البَرّ) أبلغُ من (البارِّ)، كما أنَّ (العدلَ) أبلغُ من (عادِل)[1]؛ لأنَّ (البرّ) صفةٌ مشبَّهَةٌ دالَّةٌ على الثّبوت. وفي النَّظم القرآنيّ اختصَّ (الأبرارُ) بأهل الطَّاعة من النَّاس، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِي نَعِيمٖ﴾ [المُطفّفين: 22]، واختصَّ (البَررة) بالملائكة، كما قال الله سبحانه: ﴿كِرَامِۭ بَرَرَةٖ﴾ [عبس: 16]، وفرَّع جماعةٌ على هذا التَّفريق الاستعماليّ أنَّ تخصيص الملائكة بـ (البرَرة)؛ لفضلِهم على النَّاس[2]. والأظهر أنَّ الفرقَ بينهُما في القرآن الكريم هو بالنَّظر إلى دلالة كلٍّ منهما على القلَّة والكثرة، فـ (أبرار) على زِنَة (أفعال) وهو من جموع القلَّة، بخلاف (بَرَرَة) على وزن (فَعَلَة) وهو من جموع الكثرة. فاستُعمِلَ جمع القلَّة للنَّاس؛ لأنَّ الأبرار فيهم قليلٌ بالنِّسبة إلى غيرهم، ولذا ذَكَرَ اللهُ تعالى الأبرارَ وما يُقابلُهم، فقال: ﴿إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِي نَعِيمٖ ١٣ وَإِنَّ ٱلۡفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٖ﴾ [الانفطار: 13 - 14]، فورد (الأبرار) بزِنَةِ جمع القِلَّة، و(الفُجَّار) بزِنَةِ جمع الكثرة؛ إشارةً إلى قلَّة الأبرار في غيرهم. أمَّا الملائكَةُ فلا مُقتضَى للتَّعبير عنهم بـ (الأبرار)؛ لأنَّه لا معنى للقلَّةِ فيهم؛ إذ هم جنسٌ مِنَ الخلق مُطيعون لله تعالى، ولا يَعصونَه ما أَمَرَهم[3].

(1) الرّاغب، المفردات: (برّ)، والفيروزآباديّ، بصائر ذوي التَّمييز: 2/213.
(2) الزَّركشّي، البرهان: 4/18.
(3) الدّوريّ، دقائق الفروق اللغوية، ص: 305 - 306.

﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩٩﴾﴾ [آل عمران: 199]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

المشابهة بين مصير المؤمنين من المسلمين، والمؤمنين من أهل الكتاب

لَمَّا ذكر اللّه ﷻ حالَ المُؤمنِينَ المتّقين، في مقامات النّعيم، وذكر حالَ الكفَّار مِن قبلُ بأَنَّ مصيرَهم إلى النَّار، بيَّن في هذه الآية أَنَّ مَن آمنَ مِن أهل الكتاب

بوحدانيّة اللّه وعبده واتّقاه، وبالقرآن المنزل وصدّق مؤدّاه، وبالكتب السّابقة، في ذلّة وخشوع للّه، من غير أن يشتري بها ثمنا قليلا، من حطام الدّنيا الحقير، أولئك لهم ثواب عظيم عنده ربّهم، يوم يلقونه، فيوفّيهم إيّاه كاملا غير منقوص، لأنَّ اللّه سريع الحساب، لا يعجزه إحصاء أعمالهم، ومحاسبتهم عليها"[1]، وقد جاء هذا السّياق لتأكيد أنّ وصف مؤمني أهل الكتاب الصّادقين، داخل في صفة الّذين اتَّقَواْ، لا صفة الّذين كفرواْ[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿خَٰشِعِينَ﴾: الخشوع: رميُك ببصرك إلى الأرض، والخشوع والتّخشّع والتّضرّع واحد، قال الشّاعر:

وَمُدَجَّجٍ يَحْمِي الْكَتِيبَةَ لَا يُرَى *** عِنْدَ الْكَرِيهَةِ ضَارِعًا مُتَخَشِّعًا[3]

والخاء والشّين والعين يدلّ على التَّطامُن والانخفاض، ومنه قولُهم: خشَعَ فلانٌ؛ إذا تطامَنَ وطأطأَ رأسَه[4]، ومنه خُشوعُ

(1) نخبة من أساتذة التّفسير، التّفسير الميسّر، ص: 76.
(2) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 9/472.
(3) الخليل، العين: (خشع).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (خشع).

الصَّوت؛ وهو انخِفاضُه، كما في قول الله تعالى: ﴿وَخَشَعَتِ ٱلۡأَصۡوَاتُ لِلرَّحۡمَٰنِ فَلَا تَسۡمَعُ إِلَّا هَمۡسٗا﴾ [طه: 108]، أي: انخَفَضَت لِمَهابَتِه سبحانه[1]، والخُشوع في الشَّرع: قيامُ القلب بين يدي الله تعالى بالخضوع والذُّلِّ والافتقار إليه وبالجوارح[2]. وقولُ الله ﷻ: ﴿خَٰشِعِينَ لِلَّهِ﴾ أي: خاضعين له سبحانه[3].

2) ﴿يَشۡتَرُونَ﴾: من شَرَى الشَّيءَ يَشْرِيه، بمعنى باعَه، والشِّين والرَّاء والحرف المُعتلُّ، تدلُّ تَصريفاتُها على معانٍ، منها: التَّعارُض مِن اثنَين في أَمرَين أَخذًا وإعطاءً مُمَاثلةً[4]. ومنه قولهم: شَرَى الشَّيءَ واشتراهُ؛ إذا أخذه مِن مالِكه بالثَّمَن، وهذا الفعلُ مِنَ الأَضداد؛ يُطلَق على الشِّراء والبيع[5]، فالاشتراء: أخذُ الشَّيء بثمنٍ، أو إعطاؤُهُ بثمنٍ[6]، ومِنَ الثَّاني قول الله تعالى: ﴿وَشَرَوۡهُ بِثَمَنِۭ بَخۡسٖ﴾ [يوسف: 20]، أي: باعوه[7]، وَالشُّرَاةُ الْخَوارِجُ سُمُّوا بذلك لأنَّهم غَضِبُوا وَلَجُّوا، وأمَّا هُمْ فقالُواْ نحن الشُّراةُ، لَقْوله ﷻ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡرِي نَفۡسَهُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِۗ﴾ [البقرة 207]، وقوله تعالى ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ﴾ [التوبة: 111]، ولذلك قال قَطَرِيُّ بنُ الفُجاءَةِ وهو خارِجيّ المذهب:

رَأَتۡ فِئَةً باعُواْ الۡإِلَهَ نُفُوسَهُمۡ *** بِجَنَّاتِ عَدۡنٍ عِنۡدَهُ وَنَعِيمِ[8].

3) ﴿ثَمَنٗا﴾: (الثَّمن) أي ثمن المبيع، وهو ما يعاوضه، يقال: (أثمنت) الرّجل متاعه، وأثمنت له، وشيء (ثمين) أي مرتفع الثّمن[9]، والثَّاء والميم والنُّون تدلُّ أكثرُ اشتقاقاتها على معنى: عِوَض ما يُباعُ[10]، وثمَنُ كُلِّ شيءٍ: قِيمَتُه[11]. والثَّمنُ القليلُ في قول الله تعالى:

(1) البيضاويّ، أنوار التَّنزيل: 4/39.
(2) ابن القيِّم، مدارج السّالكين: 1/516.
(3) الآلوسّي، روح المعاني: 2/383.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (شري).
(5) أبو بكر الأنباريّ، الأضداد، ص: 72.
(6) الفيّوميّ، المصباح المنير: (شري).
(7) ابن أبي حاتم، تفسير القرآن: 7/2115.
(8) ابن سيده، المحكم: (شري).
(9) الرّازيّ، مختار الصّحاح: (ثمن).
(10) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ثمن).
(11) الأزهري، تهذيب اللغة: (ثمن).

﴿لَا يَشۡتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنٗا قَلِيلًاۚ﴾ الدُّنيا بحذافيرها[1]؛ وجُعِلَ الثَّمنُ مُشتَرًى كسائر السِّلَع؛ لأنَّ كُلًّا من الثَّمن والمُثمَن مَبيعٌ[2].

4) ﴿أَجۡرُهُمۡ﴾: أجَر اللّٰه عبدَه: أثابه[3]، وفي الحديث: «وَإِنَّ الْمُسْلِمَ يُؤْجَرُ فِي كُلِّ شَيْءٍ يُنْفِقُهُ»[4]، والهمزةُ والجيم والرَّاءُ، تدورُ تَصاريفُها على معنى: الكِراء على العمل، وجَبرِ العظمِ الكسيرِ، وبين هذين المَعنَيَينِ نِظامٌ يجمعُهما؛ وذلك أنَّ الأجرة بمنزلة الشَّيء الّذي تُجبَرُ بها حالُ العاملِ مقابِلَ ما أصابَهُ من كَدٍّ وجُهدٍ في عمله[5]. والأجرُ: ما يعود مِن ثواب العمل دنيويًّا كان أو أخرويًّا، ولا يُستعمَلُ إلَّا في النَّفع دُون الضّرِّ[6]، والأجر في قول اللّٰه تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡۗ﴾ هو ثوابُ العمل الأخرَويُّ.

5) ﴿ٱلۡحِسَابِ﴾: الحاء والسِّين والباء تدُلُّ اشتقاقاتُها على معانٍ، منها: العَدُّ[7]، ومنه: الحِسابُ؛ وهو استعمالُ العَدَدِ[8]، ومنه أيضًا: الحَسَبُ؛ وهو الفَعال الحَسَنُ له ولآبائه، مأخوذ من الحِساب؛ وذلك لأنَّهم يَعُدُّون ذلك في مناقبهم[9]، والحِسابُ مصدرٌ بمعنى المحاسبة، والمُرادُ به عَرضُ كلِّ أعمال الشَّخص وتقويمُها[10]. والحسابُ شرعًا نوعان: حسابٌ يَسير، وحساب عَسير. أمَّا اليَسير فهو أن يَخلوَ اللّٰه ﷻ بعبده المؤمن، ويُقَرِّرَهُ بذنوبه. وأمَّا العسيرُ فهو أن تُعَدَّ أعمالُهم وتُحصى، فيُوقَفون عليها، ويُقَرَّرون بها[11].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

إنّ بعضًا من أهل الكتاب لَيُصَدِّق ويُقِرُّ - إقرارًا يستلزِمُ القبولَ والإذعانَ - باللّٰه تعالى ربًّا واحدًا، وإلهًا معبودًا بحقٍّ، وبما أُنزِل مِن القرآن، وبما أُنزِل مِنَ التَّوراة والإنجيل،

(1) ابن أبي حاتم، تفسير القرآن: 3/847.
(2) الهرويّ، الغريبين: (ثمن).
(3) أحمد مختار عمر، معجم اللّغة العربيّة المعاصرة: (أجر).
(4) البغويّ، شرح السّنة: 14/280.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أجر).
(6) الرّاغب، المفردات: (أجر).
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حسب).
(8) الرّاغب، المفردات: (حسب).
(9) الأزهري، تهذيب اللغة: (حسب).
(10) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصَّل: (حسب).
(11) ابن تيميَّة، العقيدة الواسطيَّة، ص: 98.

حالَ كونِهم خاضعين للّه سبحانه، مُستَكينينَ له، مُتَذلِّلينَ لعظمته، لا يستبدلون بآيات اللّه شيئًا مِن حُطام الدُّنيا الفانية، ولا يكتمون ما أنزلَ اللّه تعالى على أنبيائهم، ولا يُحَرِّفونَه كما هي عادة أَهل الكتاب، أولئك لهم ثوابٌ عظيم عنده يومَ يلقَونَه، وهو سريعُ المحاسبة لخلقِهِ؛ فلا يعجزه إحصاءُ أعمالهم، ولاتقرير مصائرهم[1].

التّنويه بمؤمني أهل الكتاب، ممّن آمن وخشع، ومالهم من الثّواب عند الله

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

سبب وَصلِ ﴿وَإِنَّ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ بما قبلها:

قول اللّه تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ معطوفٌ على قوله قبلُ: ﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ﴾؛ لاتِّفاقِهما في الخبرية واشتراكِهما في الاسميَّة، ولِمَا بينهما من التَّناسُب؛ فجملةُ ﴿وَإِنَّ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ استكمالٌ لذِكر الفَرقِ في تلقِّي الإسلام؛ إذِ المَذكورون فيها فريقُ المؤمنينَ مِن أَهل الكتاب[2].

في الوصل بيانٌ لأحوالِ النّاس في تَلَقِّي الإسلام

فائدة وَصفِهم بـ ﴿أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ﴾:

التَّعبير عن هذا الفريقِ بأنَّهم مِن أهل الكتاب في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ...﴾ إشعارٌ بأنَّهم لم يكونوا مَعروفين بتلك الأوصاف المَذكورَة؛ لأنَّهم لو عُرفوا بالإيمان؛ لَمَا كان في وصفِهم بأنَّهم من أهل الكتاب فائدةٌ[3].

الإنصافُ واجبٌ ولو مَعَ الكفَّار

وفي التَّنصيص على هذا الوصف أيضًا بيانٌ؛ لأنَّ أهل الكتاب ليسوا كُلُّهم على الحال الّتي حُكِيَت عن جماعةٍ منهم؛ من نَبذِ الميثاق، وتحريف الكتاب، وكَتم الحقِّ[4]، وهي المذكورة في قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا

(1) ابن جرير، جامع البيان: 7/499 - 501، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 5/166، ونخبة من العلماء، التّفسير الميسّر، ص: 76.

(2) ابنُ عاشور، التّحرير والتّنْوير: 4/207.

(3) ابنُ عاشور، التّحرير والتّنْوير: 4/207.

(4) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 2/136.

تَكۡتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمۡ وَٱشۡتَرَوۡاْ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلٗاۖ فَبِئۡسَ مَا يَشۡتَرُونَ﴾ [آل عمران: 187].

نُكتة العُدول عَنِ الفعل الماضي ﴿ءَامَنَ﴾ إلى المضارع ﴿يُؤۡمِنُ﴾:

مازال الإيمان في أفـرادٍ مـن أهل الكتاب زَمنًا بعد زمنٍ

عُدِلَ عن التَّعبير بالفعل الماضي (آمَنَ) إلى التَّعبير بالفعل المضارع ﴿يُؤۡمِنُ﴾ مِن قول الله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ لَمَن يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ﴾، وإن كان إيمانُ مَن نَزَلَت فيهم الآيةُ واقعًا بالفعل؛ وذلك للإشارة إلى دوام إيمانِهم واستمرارِهِ، وأنَّه ليس بإيمانٍ عارضٍ، وفيه إيماءٌ إلى أنَّ هذا الوصفَ غيرُ منقطعٍ عن أفراد أهل الكتاب، بل لا يزال يُوجدُ هذا الوصفُ فيهم زَمنًا بعد زمنٍ[1].

نكاتُ تقديم الإيمان بالقرآن على الإيمان بما أُنزِل إليهم:

الـــقـــرآنُ هـو الكتابُ المُهَيمنُ على ما سواهُ مِنَ الكُتُب

قُدِّمَ إيمانُهم بالقرآن الكريم على إيمانِهم بما أُنزِلَ إليهم مِنَ التَّوراة والإنجيل في قول الله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ لَمَن يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِمۡ﴾ مع أنَّ الأمرَ في الواقع بعكس ذلك؛ لِنكاتٍ خمسٍ[2]:

إحداهما: لبيان أنَّ الإيمانَ بالقرآن الكريم هو المعيارُ الّذي يُعتدُّ به.

ثانيها: للإيماء إلى أنَّه لا عِبرةَ بإيمانهم إن لم يُوافِقوا ما في القرآن الكريم.

ثالثها: أنَّ ما أُنزِلَ إليهم قد حرَّفوا كثيرًا منه، فلا يُعتَدُّ بما في كُتبهم إلَّا ما صحَّحه القرآن الكريم.

رابعها: لتعجيل مَسَرَّة المؤمنين بذكر ما أُنزل إليهم أوَّلًا.

خامسها: أنَّه قُدِّمَ ما هو مُستبعَدٌ حصولُهُ فيهم؛ فكان تصويرُ الإخبار بإيمانِهم به أَهَمَّ.

(1) أبو حيَّان، البحر المحيط: 3/484.

(2) البسيلّي، التّقييد الكبير، ص: 622، وأبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 2/136، والآلوسّي، روح المعاني: 2/383.

بلاغة المجاز في قوله ﴿لَا يَشۡتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنٗا قَلِيلًاۚ﴾:

وجـــه المـجـاز حقارةُ الدُّنيا بما فيها مقابل آيات الله تعالى

في التَّعبير عَنِ الاستبدال بالاشتِراء في قوله سبحانه: ﴿لَا يَشۡتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنٗا قَلِيلًاۚ﴾ مجازٌ؛ وفي تخريجه وجهان:

أحدهما: أن يكون ذلك مِن باب المجازِ المُرسَلِ، بعلاقة الملزوميَّة؛ حيث أُطلِقَ المَلزومُ وهو الاشتِراءُ، وأُريدَ لازِمُهُ، واللَّازم ههنا له وجهان؛ الاستِبدالُ، والحرصُ على شيءٍ، والزُّهدُ في ضدِّه.

فعلى اللَّازم الأوَّل - وهو الاستِبدالُ - ؛ يكون المعنى: أنَّهم لا يستبدلونَ آيات الله تعالى بالثَّمن القليل.

وعلى الآخر؛ يكونُ المعنى: أنَّهم لا يَحرِصون على الثَّمن القليل، ويزهدونَ في آيات الله تعالى.

والآخَرُ: أن يكون ذلك مِن باب المجاز بالاستعارة؛ حيثُ استُعير الاشتِراءُ للإعراض عمَّا في حيازة المرء طالبًا تحصيلَ غيره - وهذا في الأصل: يكونُ في المعاني، ويكون في الأعيان.

ويَحتَمِلُ أن تكون الاستعارةُ في كلمة (آيات)؛ بأن يُقالَ: شُبِّهت الآياتُ بالمال، بجامع وقُوع المُعاوضة في كلٍّ، فحُذِف المشبَّه به ورُمز له بشيءٍ مِن لوازمه، وهو ﴿لَا يَشۡتَرُونَ﴾ على طريق الاستعارة المكنيَّة الأصليَّة.

وجَعلُ الثَّمَنِ مُشترًى لا مشترى به للإيماء إلى كونه بمنزلة الثَّمَن في الاسترذال والامتهان، ففيه حطٌّ من شأن الدُّنيا وما فيها مقابل آيات الله تعالى.

سرُّ إفراد الثَّمن وتنكيره:

الدُّنيا بحذافيرها ثـمـنٌ قـلـيـلٌ، حقيرٌ

أُفرِدَ ﴿ثَمَنٗا﴾ في قوله تعالى: ﴿لَا يَشۡتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنٗا قَلِيلًاۚ﴾؛ لإرادة تحقيرِه، ويُقَوِّي هذه الدِّلالَةَ وجهان:

أوَّلُهما: إيرادُهُ مُنَكَّرًا؛ فإنَّ التَّنكيرَ ههنا مُفيدٌ معنى حقارة الشَّيء المُنَكَّر.

والآخر: وَصفُهُ بالقِلَّةِ في قوله: ﴿قَلِيلًاۚ﴾، وهو وصفٌ لا يُرادُ به الاحترازُ، بل هو لبيان الواقع[1]؛ وأنَّ الثَّمنَ في مقابلة آيات الله تعالى لا يكون إلَّا قليلًا ولو كان ذلك الثَّمَنُ هو الدُّنيا بحذافيرِها[2]، فدلَّ مجموعُ ما تقدَّمَ على حقارة الثَّمن قدْرًا ووصفًا.

بلاغة التَّعريض في قوله: ﴿لَا يَشۡتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنٗا قَلِيلًاۚ﴾:

ذِكْرُ عدم اشترائهم بآيات الله تعالى ثمنًا قليلًا في سياق المدح والثَّناء عليهم في قوله سبحانه: ﴿لَا يَشۡتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنٗا قَلِيلًاۚ﴾ يُرادُ به الثَّناء عليهم بلازم ذلك، لا بمجرَّد عدم الاشتراء؛ لأنَّ العدمَ المحضَ لا يكون مدحًا، واللَّازمُ المرادُ الثَّناء عليهم به هو إظهار ما في كُتُبِهم مِن شَواهِدِ نُبوَّة النَّبيِّ محمَّد ﷺ[3].

ذمُّ أَحبار اليهود مَـعَ إِقـامـة الـبرهـان على وجه الذَّمِّ

وتضمَّنتِ الجملةُ تعريضًا[4] بأحبار اليهود؛ إذ كانوا يقبلون الرِّشوَةَ، ويأخذونها عوضًا عن تحريفهم لآيات الله تعالى في كُتبهم المُنزَلَة[5]، والغرضُ مِن هذا التَّعريض المبالغةُ في الذَّمِّ مع إقامة الدَّليل على وجهه.

دلالة اسم الإشارة ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ﴾:

أُشِيرَ إلى هذا الفريق مِن أهل الكتاب باسم الإشارة ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ﴾؛ إشعارًا بأنَّهُم متميِّزُونَ بتحصيل كمال الأجرِ أكملَ تمييزٍ، وهذا أَبلَغُ في مدحِهم والثَّناءِ عليهم، وزادَهُم مدحًا وشرفًا ما في ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ مِنَ الدّلالة على البُعدِ المُقتضِي عُلوّ رُتبتهم، وبُعد منزلتِهم في الشَّرف والفضيلة، واستحقاقهم تفضُّلَ الله تعالى

شـرفُ مُـؤمِـني أَهـل الـكـتـاب، وتـمـيّـزهـم، وعُـلُـوُّ رُتبَتِهم؛ بتحصيل كمال الأجرِ

(1) البسيلّي، التَّقييد الكبير، ص: 623.
(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/460.
(3) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 2/136.
(4) التَّعريض: اللَّفظ الدّالُّ على الشيَّء مِن طريقِ المفهوم، لا بالوضع الحقيقيّ ولا المجازيّ، يُنظر: ابن الأثير، المثل السَّائر: 2/186.
(5) البسيلّي، التَّقييد الكبير، ص: 623، وابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/460، والآلوسّي، روح المعاني: 2/384.

عليهم بالأجر، وأنَّهم مُتوغِّلون في أسباب ذلك للغاية[1]، وأنَّهُم أَحرياء بما سيَرِدُ من الإخبار عنهم[2].

فائدة تقديم الخبر في قوله ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ﴾:

تَحصيلُ الأَجر والثَّواب خاصٌّ بمَن آمَنَ بالقرآن الكريم

قُدِّمَ الخبَرُ ﴿لَهُمْ﴾ على المبتدأ ﴿أَجْرُهُمْ﴾ في قوله سبحانه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْۗ﴾؛ لإفادة القصر والاختصاص، فذلك الأجرُ الّذي وُعِدُوهُ خاصٌّ بهم دُونَ سائر أهل الكتاب مِمَّن لم يُؤمِن بالقرآن الكريم، فهو قصرٌ إضافيٌّ[3].

فائدة الإضافة في قوله ﴿أَجْرُهُمْ﴾:

في الإضافة تخصيصُ مُؤمني أهل الكتاب بالأجر

إضافةُ الأجرِ إلى ضمير مُؤمِني أهل الكتاب ﴿أَجْرُهُمْ﴾ في قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْۗ﴾ يُرادُ به: العَهدُ؛ أي: الأجرُ المختصُّ بهم، المَوعودُ لهم في قول الله سبحانه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ﴾[4] [القَصص: 54].

سرُّ اختيار التَّعبير باسم الله (الرَّبِّ):

من لطف الله تعالى دوام إحسانه لأهل الإيمان

جاء التَّعبير باسم الله (الرَّبِّ) في قول الله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْۗ﴾؛ للإيماء إلى أنَّ الأجرَ الّذي وُعِدوا به عظيمٌ جزيلٌ؛ لكونهِ مِن عند الرَّبِّ العظيم، ويُقوِّيه قوله: ﴿عِندَ﴾؛ فإنَّ فيه تَشريفًا[5]؛ إذِ العنديَّةُ مُشعِرَةٌ به.

وفيه إشارةٌ أيضًا إلى أنَّ الّذي خلقَهُم ورَزَقَهُم وربَّاهم بنِعَمِه؛ لم يقطَع إحسانَهُ عنهم لحظةً[6]، وفيه مِن معاني اللُّطف ما لا يخفى[7].

(1) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 2/136، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 5/167، والآلوسّي، روح المعاني: 2/384.
(2) ابنُ عاشور، التّحرير والتّنْوير: 4/207.
(3) الزّمَخْشري، الكشَّاف: 1/459، والقِنَّوجيّ، فتح البيان: 2/408.
(4) الآلوسّي، روح المعاني: 2/384.
(5) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 2/136.
(6) البقاعيّ، نظم الدّرر: 5/167، ومحمّد رشيد رضا، تفسير المنار: 4/260.
(7) الآلوسي، روح المعاني: 2/384.

بلاغة الاستتباع في الآية:

دقَّـــة تـرتـيـب الأَلفاظ في البيان القرآنيِّ

في قول الله سبحانه: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْۗ﴾ استتباعٌ بديعٌ[1]؛ وذلك أنَّ الله تعالى ذكر أنَّ هذا الفريقَ من أهل الكتاب قد تحلَّى بخمسِ خصال:

أوَّلُها: إيمانُهم بالله تعالى.

ثانيها: إيمانُهم بما أُنزل على النَّبيِّ محمَّدٍ ﷺ.

ثالثُها: إيمانُهُم بحقيقة ما أُنزل عليهم.

رابعُها: الخوفُ مِنَ الله تعالى مع الضَّراعة إليه، وطلبِ رِضاه.

خامسُها: عدمُ إيثارهم شيئًا على آيات الله سبحانه.

وهذه الخصالُ الخمس يَستَتبِعُ بعضُها بعضًا، ويأخذُ بعضُها بِحُجَزِ بعضٍ؛ وذلك أنَّهُ "يتَرَتَّب على الإيمان الصَّادق بالله: الإيمانُ بمُحَمّد ﷺ، والإيمانُ بما نُزِّل على النَّبيِّين الصَّادقينَ، ويتَرَتَّب على هذا كلِّه: الخشوعُ، وأولى ثمرات الخشوعِ ألَّا يَترُكُوا آيات الله تعالى لأيِّ عرَضٍ مِن أعراض الدُّنيا"[2].

نُكتة الإتيان بجملة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ بعد ذكر الأَجر:

مِـن إكـرام الله تـعـالى لـعـباده تَعجيلُ إيصال الأَجر لهم

ذكرُ قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ بعد قوله: ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْۗ﴾؛ لبيانِ أنَّ الأجر الّذي وُعِدُوا به لا يتأخَّر عنهم؛ إذِ النَّفسُ مُولَعَةٌ بحُبِّ الخَيرِ العاجِلِ[3]، وفي هذا زيادَةُ إكرام الله سبحانه لهم.

وسُرعَةُ وصول الأجر لهم مستفادٌ بطريق الكناية؛ لأنَّ سرعة الحساب تستلزِمُ سرعةَ الجزاءِ[4].

(1) الاستتباع: هو المدح بِشيء على وجه يَستَتبِعُ المدحَ بشيءٍ آخرَ، يُنظر: عبد المتعال الصَّعيديّ، بغية الإيضاح: 4/625.

(2) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 3/1559 - 1560.

(3) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 3/1066.

(4) البيضاويّ، أنوار التَّنزيل: 2/56.

توجيه الفاصلة بين دلالة الاحتراس ودلالة التَّذييل:

جملةُ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾ تحتمِلُ وجهين:

سُرعَة حساب الله تعالى للخلق مع كَثرتهم

الأوَّلُ: أن تكون إطنابًا بالاحتراس؛ وذلك أنَّ الله تعالى لمَّا وعدَ مؤمني أهل الكتابِ إنجازَ الأجرِ، وإتمامَهُ، وإحسانَهُ، وكان قد تقدَّم قبلُ أنَّه سبحانه لا يُضيع عمل عاملٍ، ذكرًا كان العاملُ أم أنثى، وكانتِ العادةُ تقضي بأنَّ كثرة الخلقِ سببٌ لطول وقت الحساب وطولِ وقت الانتظار، وذلك يُورِثُ توهُّمَ ما لا ينبغي؛ - لمَّا كان الأمرُ كذلك - قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾؛ قصدًا لإزالة هذا التَّوهُّم، وأنَّ الله سبحانه بما له مِنَ الجلال والعظمَة والكمال سريعُ الحساب[1]، ولذا أُكِّدَت الجملةُ بـ (إنَّ)، والإتيان بالجملة اسميَّةً.

الثَّاني: أنَّ الآيةَ سيقَت مساقَ التَّعليل على سبيل التَّذييل الجاري مَجرَى المثَلِ؛ لاستقلالِهِ بمعناه، والمعنى: أنَّ الله ﷻ "يَجزيهم بما عَمِلوا؛ لأنَّه تعالى سريع الحساب، ولم يكن سريعًا للحساب إلَّا وهو عالمٌ بالمَحسوب الّذي هو أعمالُ العباد، وإذا عَلِمَ ذلك يُوَفِّي ما يَستَأهِلُهُ العامِلُ مِنَ الأجر؛ لأنَّه عادل مُتَفَضِّلٌ كريم، لا يَضيعُ عنده عملُ عاملٍ مِن ذكر أو أنثى"[2]، وهو بهذا الوجهِ كناية تَلويحيَّةٌ؛ لكثرة وسائطِها.

وعلى الوجه الأوَّل؛ يكونُ فَصلُ قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾ عمَّا قبلَه من قَبيل الاستئناف البيانيِّ؛ إذِ الجملةُ المذكورة واقعةٌ جوابًا عن سؤالٍ بعثَ عليه ما تقدَّم؛ وهو: إذا كان الله تعالى يُجازي كُلًّا من أهل الطَّاعة وأهل المعصية وهم خلائقُ كثيرون؛ فهل يقتضي ذلك تأخُّرُ أجر أهل الطَّاعة؟ فجاء الجوابُ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾.

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 5/167.
(2) الطِّيبيّ، فتوح الغَيب: 4/397.

بلاغة الكناية في قوله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾:

في الكناية بيانٌ لكمالُ علم الله تعالى وعظيمُ إحسانه، أو قُربِ إنجازِ ما وَعَدَ به مِنَ الأجر

الإخبار عَنِ اللّه سبحانه بأنَّه سريعُ الحساب فيه كنايةٌ عن كمال عِلمِهِ بمقادير الأجور ومراتب استحقاقِها، وأنَّه يوَفِّيها أهلَها على ما ينبغي وبمقدار ما ينبغي.

ويحتمل أن يكون كنايةً عَن قُربِ إنجازِ ما وَعَدَ به مِنَ الأجر؛ لأنَّ ذلك مِن لوازمها[1]. وكلا الوَجهَينِ في الكنايةِ صحيحٌ لا تعارُض بينهما؛ فيُحمَلُ عليهما معًا، وقد جاءت هذه الجملة مؤكّدة بـ ﴿إِنَّ﴾ والجملة الاسميّة؛ لِمَا فيها من التّهديد والوعيد لأهل الكتاب.

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الخشوع والخضوع:

الفرقُ بينهما مِن أَوجهٍ ثلاثةٍ: الأوَّلُ: أنَّ أثرَ الخشوعِ يظهرُ في الصَّوتِ والبصرِ، وَأثر الخضوعِ يظهرُ في البدَن[2]. الثَّاني: أنَّ الخشوعَ انقيادُ الباطن للحقِّ، والخُضوعَ انقيادُ الظَّاهر له[3]، الثَّالثُ: أنَّ الخشوعَ لا يكون إلَّا عَنِ انفعالٍ صادقٍ بجلال مَن يُخشَعُ له، بخلاف الخُضوع؛ فقد يكون تكلُّفًا، إمَّا نفاقًا، وإمّا خوفًا، وإمّا تقيَّةً أو نحوَ ذلك، ولذا تقولُ العربُ: خشعَ قلبُهُ، ولا تَقولُ: خضعَ قلبُهُ، إلَّا مِن باب التَّجوُّزِ والتَّوسُّعِ في العبارة[4].

(1) الخفاجيّ، عناية القاضي: 3/93، وطنطاويّ، التَّفسير الوسيط: 2/381.
(2) الخليل، العين: (خشع).
(3) البروسوي، روح البيان: 9/452.
(4) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 216، وبنت الشّاطئ، الإعجاز البيانّي، ص: 226.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصۡبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ٢٠٠﴾ [آل عمران: 200]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

المناسبة بين مضامين العقائد والأحكام، ومتطلّبات الثّبات والالتزام

لَمَّا ذكَر اللّهُ تعالى في هذه السُّورة أنواعًا كثيرةً مِنَ العقائد والأحكام العمليَّة، ختَمَها بالأمر بمقتضيات الصّبر والمصابرة، ودواعي الرّباط والتّقوى، في بيان موجز بليغ، يتضمّنه سيّاق هذه الآية، وهي مشتملةٌ على جميع الآداب؛ ووجهُ ذلك: أنَّ أحوالَ الإنسان قسمان: ما يتعلَّق به وحده، وما يكون مُشتركًا بينَه وبينَ غيرِه؛ فالأوَّلُ يحتاج إلى صبرٍ، والثَّاني يفتَقِرُ إلى مصابرةٍ، ثُمَّ إنَّ العبدَ إذا حافظَ على شرائع الدِّين أصولًا وأحكامًا، احتاجَ إلى مدافعةِ ما يُضادُّها، وذلك يكون بجهاد الأعداءِ، والرِّباطِ في الثُّغور، من أجل ردِّ عدوانِ الأعداء، ثمّ أمَرَ اللّه تعالى عبادَهُ، أن يكون الاتّصاف بالتَقوى، داعيًا للصّبرِ، وحافزًا للمصابرَة، وسبيلا للمرابطَة في سبيل اللّه، لنيل الحسنيين، وتحصيل الفلاح في الدّارين[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱصۡبِرُواْ وَصَابِرُواْ﴾: الصّبر: نقيض الجزع، وقد صبر فلان عند المصيبة، يصبر صبرا، وصبرته أنا: حبسته، قال اللّه تعالى: ﴿وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ﴾ [الكهف: 28][2]، والصَّاد والباء والرَّاء، تدلُّ اشتقاقاتُها على تَراكُم شيءٍ أَو تكَدُّسِه، مع تزايدِه أو دَوامِه على حاله[3]، ومنه قولُهم: صَبَرتُ نَفسي على

(1) الرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 9/473 - 474، والبقاعيّ، نظم الدُّرر: 5/167 - 168.
(2) الجوهريّ، الصّحاح: (صبر).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصَّل: (صبر).

كذا؛ أَي: حَبَستُها عليه[1]، بأَن دامَت حالُهُ على ملازمته. والصَّبرُ في الشَّرع: حبسُ النَّفس عَنِ الجَزَع، واللِّسان عَنِ التَّشَكّي، والجوارح عَن لَطم الخدود، وشَقِّ الثِّياب ونحوِهما[2]، وهو المأمورُ به بأسلوب النّداء في صدر الآية، وأمَّا المُصابرَةُ فهي مفاعَلَةٌ من الصَّبر، والمُرادُ بها المغالبةُ بالصَّبر، ومعنى ﴿وَصَابِرُواْ﴾: غالِبوهم في الصَّبر على شدائد الحرب، ولا تكونواْ أضعفَ، فيَكونواْ أشَدَّ منكم صَبرًا[3].

2) ﴿وَرَابِطُواْ﴾: من الرّبط، وقد روي عن الأخفش: ربطت الشّيء أربطه، أي شددته، ويقال: فلان رابط الجأش، وربيط الجأش، أي شديد القلب، كأنّه يربط نفسه عن الفرار[4]، والرّاء والباء والطّاء، تدلُّ اشتقاقاتُها على الشَّدِّ والثَّبات، ومنه: الرِّباطُ؛ وهو الّذي يُشَدُّ به[5]. ويُطلَق الرِّباط على المُقام في الثُّغور[6]، وأصلهُ: مِن مُرابطة الخيل؛ أَي: ارتباطها بإِزَاء العدوّ في بعض الثّغور[7]، ثُمَّ أُطلِقَ على المُكث في الثُّغور لِلذّبِّ عنِ الدِّين، ولو لم تَكُن خيولٌ[8].

3) ﴿تُفۡلِحُونَ﴾: من الفلح، وهو لغة، البقاء في الخير، وفلاح الدّهر: بقاؤه، و(حيّ على الفلاح)، أي: هلمّ على بقاء الخير[9]، والفاء واللَّام والحاء، تدور كثيرٌ مِن تصريفاتِها على معنى الفَوز والبقاء[10]، ومنه: الفلاحُ؛ وهو الفَوزُ بما يُغتبَطُ به، وفيه صلاحُ الحالِ[11]، ويُقال: أفلح؛ إذا أدرك مطلوبَهُ[12]. ويأتي الفلاح بمعنى البقاء في الخَير[13]، ومنه سُمِّيَ السَّحورُ فلاحًا؛ لأَنَّ به بقاء البدن والحِفظ مِنَ الضَّعف[14]، وبضمِّ المعنَيَين، وهما الفَوزُ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (صبر).
(2) ابن القيّم، عِدّة الصَّابرين، ص: 15.
(3) القِنَّوجيُّ، فتح البيان: 3/1561.
(4) الجوهريّ، الصّحاح: (ربط).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ربط).
(6) ابن دُريد، جمهرة اللُّغة: (ربط).
(7) الأزهري، تهذيب اللغة: (ربط).
(8) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 5/168.
(9) الخليل، العين: 3/233.
(10) ابن فارس، مقاييس اللغة: (فلح).
(11) الزَّبيديّ، تاج العروس: (فلح).
(12) ابن دُريد، جمهرة اللُّغة: (فلح).
(13) الخليل، العين: (فلح)، وأبو بكر الأنباريّ، الزَّاهر في معاني كلمات النَّاس: 1/38.
(14) السَّمين، عمدة الحفَّاظ: 3/250.

والبقاء، يَتَحَصَّلُ لنا المعنى الكُلِّيُّ للفلاح، وهو الفوزُ وإدراكُ الخير، ثُمَّ البقاءُ فيه، ولذا قيل عَنِ الفلاح: ليس في كلام العرب كلمةٌ أجمَعُ لِخير الدُّنيا والآخرة منها[1]، فالفلاحُ جامعٌ لخَيرَيِ الدُّنيا والآخرة، ولذا جعَلَ الرَّاغبُ الفلاحَ ضربين: دنيوِيًّا وأُخرَوِيًّا، وذكَرَ حدًّا جامعًا لكلٍّ منهما[2].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

دعـوة المؤمنين للفلاح بالجمع بـين الـصّـبر والمصابرة، وربط التّقوى بالمرابطة

يا أيُّها الّذين صدَّقوا اللّهَ ورسولَه، وأقرُّوا بهما إقرارًا يستلزمُ القبولَ والإذعان؛ اصبِروا على طاعة ربِّكُم، وعن مَعصِيَتِه، وعلى ما يَنزل بكم مِن مُرِّ القضاء، وما ينزل بكم من ضرّ وبلاء، وصابِرُوا أعداءَكم، بأقصى قوّتكم، ولا تهونواْ فيكونوا أشدَّ صبرًا منكم، وأقيموا على جهاد عَدُوِّي وعدُوِّكم، حفاظًا على الدّين، ودفعًا للعدوان، واحذَروا أن تُخالِفوا أمرَه بتركه، ونَهيَه بفعلِه؛ لتنالواْ خَيرَ الدُّنيا، وتحوزواْ فوز الآخرة[3].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

نكتة النِّداء في قوله تعالى ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾:

عَظَمَةُ الله ﷻ وعَظَمَةُ خِطابِه

جاء التَّعبيرُ في النِّداء بـ (يا) في قول اللّه تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، وهي في الأصل لِنداء البعيد، ونداءُ اللّه سبحانه لعبادِهِ نِدَاءٌ مِنَ الخالِقِ إلى المخلوقين، فَجديرٌ أَن يكونَ بأداة النِّداء للبعيد، وفي التَّعبير به نكاتٌ:

أُولاها: بُعدُ ما بين الخالقِ والمَخلوقِ مِنَ المكانة.

ثانيها: أنَّه نداء مِنَ الخالق، وهو مُقتَضٍ أعلى العلُوِّ وأبعدَه.

(1) الطِّيبيّ، فتوح الغَيب: 6/430.
(2) الرّاغب، المفردات: (فلح).
(3) ابن جرير، جامع البيان: 7/509، والزُّحيلّي، التَّفسير الوسيط: 1/277، ونخبة من العلماء، التّفسير الميسّر، ص: 76.

ثالثها: عِظَمُ شأن موضوع النِّداء؛ وهو الأمر بجوامع الآداب مِنَ الصَّبر، والمصابرة، والمرابطة، وتقوى الله تعالى؛ فإنَّ هذه المذكوراتِ لها شأنٌ خطيرٌ وجليلٌ.

والنِّداءُ بـ ﴿يَـٰٓأَيُّهَا﴾ فيه ضربٌ من تقوية النِّداء، وَوَجهُ ذلك: أنَّ (أَيّ) لا يُفهَمُ المرادُ به إلَّا باسمٍ بعَدَهُ يُزيلُ غُموضَه، وفي هذا انتقالٌ مِنَ الإبهام إلى الإيضاح والبيان، وفي هذا نوعُ توكيد، وفي اقترانه بـ (ها) التَّنبيه زيادةٌ في التَّوكيد؛ إذِ النِّداءُ في الأصل يُرادُ به التَّنبيه.

فائدة حذف مُتعلَّق الإيمان من قوله ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾:

حُذِفَ مُتعلَّقُ الفعل ﴿ءَامَنُواْ﴾ من قول الله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ وهو المُؤمَنُ به، وفي ذلك مَسلكانِ:

حقيقة الإيمان مُستقِرَّةٌ في نفوس المؤمنِينَ، وهم مُقِرُّون بجميع ما يجب الإيمانُ به

أحدهما: ظهورُ أفراد المؤمَنِ به؛ وذلك لأنَّ للإيمان حقيقةً شرعيَّةً معروفةً، فإذا أُطلِقَ لفظُهُ انصرَفَ الذِّهنُ إلى تلك الحقيقة، من غير حاجةٍ إلى التَّنصيص على مُتعلَّقِه.

والآخر: إرادةُ العموم؛ وذلك لأنَّ حَذفَ المعمول مُشعِرٌ بالعموم، والمعنى: آمَنوا بجميع ما يجبُ الإيمانُ به شرعًا، أو آمَنوا بكل ما ذُكِرَ في هذه السُّورة[1]، وهما متآيِلَانِ؛ لأنَّ المذكورَ في سورة (آل عمرانَ) أصولُ الإيمانِ الّتي تَرجِعُ إليها جميعُ أفرادِه.

ويصحُّ إرادةُ الوجهين معًا؛ لعدم التَّنافي بينَهُما؛ فمعنى ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ الّذين جاؤوا بالإيمان المشهورة دلالتُهُ، المعروفة أفرادُهُ؛ وهي كلُّ ما يجب الإيمان به شرعًا، المذكورةُ أصولُهُ في هذه السُّورة.

بلاغة عَطفِ الخاصِّ على العامِّ:

في العطف ترقٍّ في تَعدادِ الأعمال الصَّالحات

في عطف المُصابرة على الصَّبر من قول الله تعالى: ﴿ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ إطنابٌ بعطف الخاصّ على

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 5/168.

العامّ؛ لأنّ المُصابرةَ أشدُّ فتكون أفضلَ[1]، ومِن شأن عطف الخاصِّ على العامِّ بيانُ الاهتمامِ بشأن الفرد الخاصِّ بذِكرِهِ مرَّتين؛ أُولاهُمَا بذِكره مندرجًا تحت لفظ العامِّ، والأخرى: بذِكرِه على سبيل الاستقلال والانفراد.

ومثله: عطفُ المُرابطة على المُصابرة؛ إذِ المرابطَةُ ضربٌ من ضروبِ الصَّبر.

وفي هذا العطفِ أيضًا تَرَقٍّ في تَعداد المأموراتِ؛ فإنّ الصَّبرَ دون المُصابرة، والمُصابرةَ دون المُرابطةِ[2].

تشابه مقاطع السُّورة لمطالعها:

سـورُ القـرآن الكـريـم وِحـدَةٌ مُـتـكـامـلـةٌ في تناسُب آياتها

بينَ أواخر السُّورة وأوائلِهَا تناسبٌ - وهو ضربٌ بديعٌ من تشابه الأطراف - من وجوهٍ عديدةٍ، منها[3]:

أوَّلًا: أنَّ اللّه ﷻ ذَكَرَ في أول السُّورة تنزيلَ الكتاب على النَّبيِّ ﷺ، وإنزالَ التَّوراة والإنجيل مِن قَبلِ ذلك؛ هُدًى للنَّاس، فقال سبحانه: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۝٣ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ﴾ [آل عمران: 2 - 3]، وذكر في أواخر السُّورة أنَّ من أهل الكتاب من يُؤمِنُ بذلك كلِّه، فقال تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ﴾.

ثانيًا: أنَّ اللّه ﷻ ذَكَرَ عاقبةَ الكُفَّار في طالعة السُّورة، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ۝٤﴾ [آل عمران: 4]، ثُمَّ أعادَ ذِكرَ عاقبتِهم في آخرها، فقال سبحانه: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ۝١٩٦ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ۝١٩٧﴾.

(1) الآلوسّي، روح المعاني: 2/384.
(2) الفيروزآباديّ، بصائر ذوي التَّمييز: 3/379.
(3) فاضل السَّامرَّائي، التَّناسب بين السُّوَر في المفتتح والخواتيم، ص: 13 - 14.

ثالثا: أنَّ اللّه سبحانه ذَكَرَ أُولي الألباب في أوائل السُّورة وذكر دُعاءَهم، فقال ﷻ: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٧ رَبَّنَا لَا تُزِغۡ قُلُوبَنَا بَعۡدَ إِذۡ هَدَيۡتَنَا وَهَبۡ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةًۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ ٨﴾، ثُمَّ ذكر ذلكَ أيضًا في أواخرِها، فقال ﷻ: ﴿إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ١٩٠ ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ رَبَّنَا مَا خَلَقۡتَ هَٰذَا بَٰطِلٗا سُبۡحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ١٩١ رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدۡخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدۡ أَخۡزَيۡتَهُۥۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ ١٩٢ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعۡنَا مُنَادِيٗا يُنَادِي لِلۡإِيمَٰنِ أَنۡ ءَامِنُواْ بِرَبِّكُمۡ فَـَٔامَنَّاۚ رَبَّنَا فَٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾ [آل عمران: 190 - 193].

رابعًا: أنَّ اللّه تعالى ذَكَرَ الآخرة في أوائل السُّورة وفي أواخرها، وأمَّا أوائِلُها فقد قال تعالى: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوۡمٖ لَّا رَيۡبَ فِيهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ﴾، وقال في أواخرها: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوۡمٖ لَّا رَيۡبَ فِيهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ ٩﴾ [آل عمران: 9].

براعة الختام في السورة:

خواتمُ سور القرآن الكريم واردةٌ على أحسن وجوه البلاغةِ وأكملِها

مِن محالِّ التّأنُّقِ في الكلام: خاتمَتُهُ، ويُسمَّى: حُسنَ الانتهاء؛ وحقيقتُه: أن يَجعَلَ المتكلِّمُ آخرَ كلامِه عذبَ اللَّفظِ، حسَنَ السَّبكِ، صحيحَ المعنى، وأخصُّ منه وأجودُ: براعةُ المَقطَع؛ وهو ما آذَنَ بانتهاء الكلام[1]، وقد خُتمت هذه السُّورَةُ الكريمةُ في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصۡبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ "بوصاية جامعةٍ للمؤمنين؛ تُجدّد عزيمتهم، وتبعث الهمم إلى دوام الاستعداد للعدُوِّ"[2]، وهذا مُؤذِنٌ بالخَتم ومُشعِرٌ به؛ لأنَّ العادةَ جاريةٌ بأنَّ محلَّ الوصيَّة يكون آخرًا، ففيه براعةُ مقطعٍ.

(1) عبد المتعالِ الصَّعيديّ، بغية الإيضاح: 4/714.
(2) ابنُ عاشور، التّحرير والتّنْوير: 4/208.

الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الفوز والفلاح:

الفَوزُ: ضدُّ الهلاك[1]؛ وهو الظَّفر بدلًا مِنَ الوقوع في الشَّرِّ[2]، ولذا قال تعالى: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران: 185]، فجُعِلَ فَوزُهم بدلًا مِن دخولِهمُ النَّارَ، ومنه جَعَلَ الحميريُّ النَّجاةَ مِن معاني الفوز[3]. وقال الخليل: "الفَوزُ: الظَّفَرُ بالخَير، والنَّجاة مِنَ الشَّرِّ"[4]؛ يُقال: فازَ بالخَير، وفاز مِنَ العذاب[5]. ولذا فإنَّ الفوزَ ليس مجرَّدَ الخلاص مِمَّا يُكرَهُ، وإنَّما هو الخلاصُ منه مع الوصول إلى المحبوب؛ "ولهذا سمَّى اللّٰه تعالى المؤمنين فائزين لنجاتهم مِنَ النَّار ونَيلِهمُ الجنَّةَ"[6]، وأَمَّا الفلاحُ فهو إدراكُ الخير والبقاءُ فيه، فهو "يَجمَعُ بين الدُّنيا والآخرة، فهو ثمرةٌ لنجاحات متعدِّدة، وفيه جَنيٌ لثمار النَّجاح، وفيه إدراك كلِّ مأمولٍ، وفيه معنى السَّعَة، ومعنى التَّيسير، ومعنى البقاء والخَيرِ"[7]. والبَقاءُ في الخير يَلزَمُ منه النَّجاةُ مِنَ المكاره؛ فالفلاحُ أَجمعُ وأَوعبُ.

(1) ابن دُريد، جمهرة اللُّغة: (فوز).
(2) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 211.
(3) نشوان الحِميرِيّ، شمس العلوم: (فوز).
(4) الخليل، العين: (فوز).
(5) الأزهري، تهذيب اللغة: (فوز).
(6) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 210.
(7) محمّد داود، معجم الفروق اللغوية والدّلاليّة، ص: 43.

سُورَةُ النِّسَاءِ

سُورَةُ النِّسَاءِ

التعريف العام بالسورة:

سورة النّساء مدنيّة بإجماع المفسّرين، نزلت جميع آياتها بعد الهجرة؛ فقد أخرج البخاري بسنده عن عائشة أمّ المؤمنين رضي الله عنها قولها: «مَا نَزَلَتْ سُورَةُ البَقَرَةِ وَالنِّسَاءِ إِلَّا وَأَنَا عِنْدَه»[1] وتقصد بذلك أنّها كانت عند النبيّ ﷺ زوجة له، ومن المعلوم أنّ النبيّ ﷺ إنّما تزوجها بعد الهجرة في المدينة المنورة.

وَهِي مئة وَخمس وسَبْعُونَ آيَة عند الْمَدَنِيين والمكيّين والبصريّين، ومئة وَستّ وسَبْعُونَ آية عند الْكُوفِيّين، ومئة وَسبع وسَبْعُونَ آية عند الشَّاميّين[2]، وذلك بحسب اختلافهم في الوقوف على فواصل آياتها.

وسورة النّساء هي الرابعة في ترتيب المصحف الشريف بعد سور: الفاتحة والبقرة وآل عمران، وأمّا في ترتيبها النّزوليّ فقد قيل إنّها السادسة نزولًا في العهد المدنيّ بعد البقرة والأنفال وآل عمران والأحزاب والممتحنة[3]، والثالثة والتسعون في التّرتيب النزوليّ الكليّ للقرآن الكريم، وسورة النّساء من السبع الطوال تأتي في الطول مباشرة بعد سورة البقرة، حيث تبتدئ من الجزء الرابع وتنتهي في الجزء السادس من أجزاء القرآن الكريم.

أسماء السورة الكريمة:

سورة النّساء توقيفيّة الاسم، ولا يُعرف لها اسم آخر تعرف به، فقد جاء في صحيح مسلم عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنّه قال: «مَا رَاجَعْتُ رَسُولَ اللّهِ ﷺ فِي شَيْءٍ مَا رَاجَعْتُهُ فِي الْكَلَالَةِ، وَمَا أَغْلَظَ لِي فِي شَيْءٍ مَا أَغْلَظَ لِي فِيهِ حَتَّى طَعَنَ بِإِصْبَعِهِ فِي صَدْرِي فَقَالَ: يَا عُمَرُ، أَلَا تَكْفِيكَ آيَةُ الصَّيْفِ الَّتِي فِي آخِرِ سُورَةِ النِّسَاءِ؟!، وَإِنِّي إِنْ أَعِشْ أَقْضِ فِيهَا بِقَضِيَّةٍ يَقْضِي بِهَا مَنْ يَقْرَأُ الْقُرْآنَ وَمَنْ لَا يَقْرَأُ الْقُرْآنَ»[4]، ووردت أيضًا في حديث عبد

(1) البخاري، الحديث رقم: (4993).
(2) الداني، البيان، ص: 146.
(3) الزركشي، البرهان: 1/194.
(4) مسلم، الحديث رقم: (567).

اللّه بن مسعود الذي أخرجه البخاريّ بسنده عنه أنّه قال: «قَالَ لِي النَّبِيُّ ﷺ: (اقرأ عليّ)، قلت: يا رسول اللّه، آقرأ عليك وعليك أنزل؟ قال: (نعم)، فقرأت سورة النساء، حتى أتيت إلى هذه الآية: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾﴾ [النساء: 41]، قال: (حسبك الآن)، فالتفت إليه فإذا عيناه تذرفان»[1].

و تُعرف سورة الطلاق بأنّها سورة النّساء الصُغرى أو القُصرى إزاء سورة النّساء الطُّولى وهي البقرة لما أخرجه البخاريّ عن ابن مسعود رضي الله عنه قولَه: " أتجعلون عليها (المرأة الحامل المُتوفّى عنها زوجها) التّغليظ ولا تجعلون لها الرّخصة؟ لنزلت سورة النّساء القصرى بعد الطولى[2]"ويقصد بالطولى سورة البقرة لأنّ الحديث عن عدّة المُتوفّى عنها زوجها إنّما ورد فيها، وقد تفرّد الفيروزأبادي بتسمية سورة النساء بأنّها سورة النساء الكبرى[3]، وينبغي أنّه وهم، حيث قال ابن عاشور عن رأيه هذا: "لم أره لغيره[4]".

وأمّا عن سبب تسميتها بالنّساء فلأنّها تكرّرت فيها لفظة النّساء نحو (11) مرّة، فتكون التّسميّة لها من باب إكرام النّساء والعناية بهنّ، لأنّ ما نزل منها في أحكامهنّ أكثر ممّا نزل في غيرها[5]، ولكنّ اسم السورة قد يرتبط أحيانًا بمحور السورة بشكل مباشر أو غير مباشر، فعند من يرى أنّ محور سورة النّساء يقوم على خطّين متوازيَين وهما: الإنصاف والإصلاح[6]؛ فإنّ النّساء هنّ مظنّة الجور وترك الإنصاف عبر العصور، وقد يكون لهنّ دورٌ في كثير من الخصومات التي تستوجب الإصلاح، لذا بيّنت الآية الأولى من السورة بعض الحقائق المتعلّقة بطبيعة المرأة بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾﴾ [النساء: 1].

فهي مخلوقة من عين عنصر الرجل، وهي مكمّلة له، وهي أصلٌ في تكوين المجتمع البشريّ، وأنّه لا أفضليّة مطلقة لأحد النوعيَن على الآخر، لذا أنصفتها السورة في

(1) البخاري، الحديث رقم: (4763).
(2) البخاري، الحديث رقم: (5050).
(3) الفيروزأبادي، بصائر ذوي التمييز: 1/169.
(4) ابنُ عاشور، التّحرير والتّنوير: 4/211.
(5) القاسمي، محاسن التأويل: 5/4.
(6) خليفة، التفسير التحليلي لسورة النّساء: 1/22.

قضايا أخرى كثيرة كالحقوق الماليّة، فأعطتها حقّها وحرّمت أكل مالها، وأمرت بعشرتها بالمعروف: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرۡهٗاۖ وَلَا تَعۡضُلُوهُنَّ لِتَذۡهَبُواْ بِبَعۡضِ مَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ إِلَّآ أَن يَأۡتِينَ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖۚ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ فَإِن كَرِهۡتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا ١٩﴾ [النساء: 19]

وحرّم على الزوج أن يستولي على شيء من مالها بغير حقّ: ﴿وَكَيۡفَ تَأۡخُذُونَهُۥ وَقَدۡ أَفۡضَىٰ بَعۡضُكُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ وَأَخَذۡنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظٗا ٢١﴾ النساء: 21

وأمر بالعدل معها في المعاملة: ﴿وَلَن تَسۡتَطِيعُوٓاْ أَن تَعۡدِلُواْ بَيۡنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوۡ حَرَصۡتُمۡۖ فَلَا تَمِيلُواْ كُلَّ ٱلۡمَيۡلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلۡمُعَلَّقَةِۚ وَإِن تُصۡلِحُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ١٢٩﴾ النساء: 129

وأمّا في محور الإصلاح فتظهر عناية السورة بالنّساء في هذا الجانب بوضوح أيضًا في حالة اقترافهنّ للفاحشة لا سمح الله: ﴿وَٱلَّٰتِي يَأۡتِينَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمۡ فَٱسۡتَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِنَّ أَرۡبَعَةٗ مِّنكُمۡۖ فَإِن شَهِدُواْ فَأَمۡسِكُوهُنَّ فِي ٱلۡبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلۡمَوۡتُ أَوۡ يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلٗا ١٥﴾ [النساء: 15].

وكذلك في حالة نشوز المرأة: ﴿وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهۡجُرُوهُنَّ فِي ٱلۡمَضَاجِعِ وَٱضۡرِبُوهُنَّۖ فَإِنۡ أَطَعۡنَكُمۡ فَلَا تَبۡغُواْ عَلَيۡهِنَّ سَبِيلًاۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرٗا ٣٤﴾ [النساء: 34].

ويظهر هذا الإصلاح جليًّا في محاولة التوفيق بين الزوجين عند حدوث شقاق: ﴿وَإِنۡ خِفۡتُمۡ شِقَاقَ بَيۡنِهِمَا فَٱبۡعَثُواْ حَكَمٗا مِّنۡ أَهۡلِهِۦ وَحَكَمٗا مِّنۡ أَهۡلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصۡلَٰحٗا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيۡنَهُمَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرٗا ٣٥﴾ [النساء: 35].

ويظهر هذا الإصلاح أيضًا في ضرورة قناعة كلّ من الزوجين بما قسمه الله له: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوۡاْ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعۡضَكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٞ مِّمَّا ٱكۡتَسَبُواْۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٞ مِّمَّا ٱكۡتَسَبۡنَۚ وَسۡـَٔلُواْ ٱللَّهَ مِن فَضۡلِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٗا ٣٢﴾ [النساء: 32].

❁ المناسبات بين سورة النّساء والسور المجاورة والمشابهة لها:

جاءت سورة النساء بعد سورة آل عمران في ترتيب المصحف الشريف وهناك سلسلة من العلاقات الموضوعيّة والأسلوبيّة المشتركة بين السورتيْن، فإذا كانت سورة آل عمران

في شطرها الأول قد صوّرت ضلالات أهل الكتاب من يهود ونصارى في شأن آل عمران ومريم عليها السلام، وفي ادّعاءاتهم الباطلة في الدين، حيث طالبتهم السورة الإنصاف في ذلك، فسورة النّساء أكملت ردّ أباطيلهم ونفت عن المسيح عليه السلام قتله وصلبه، فالسورتان تشتركان في حقيقة هذا الإنصاف وإن كان ظهوره في سورة النّساء آكد وأبلغ[1]. فضلًا عن اشتراك السورتيْن في تناول قضايا الجهاد والقتال كلّ سورة بحسب مقتضاها، وإذا كانت سورة آل عمران قد اختتمت بالحديث عن جزاء المتّقين ثمّ الأمر بالتّقوى فقد ابتدأت النّساء بالأمر بالتّقوى: ﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ لَهُمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلٗا مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۗ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لِّلۡأَبۡرَارِ ١٩٨ وَإِنَّ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ لَمَن يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِمۡ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشۡتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنٗا قَلِيلًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ١٩٩ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصۡبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ٢٠٠﴾ [آل عمران 198 - 200].

و كان من أواخر سورة آل عمران عدم التّفريق بين الذكر والأنثى في الحساب في قوله: ﴿فَٱسۡتَجَابَ لَهُمۡ رَبُّهُمۡ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٖ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰۖ بَعۡضُكُم مِّنۢ بَعۡضٖۖ﴾ [آل عمران: 195] وجاءت التّسوية بينهما في الجزاء في النّساء: ﴿وَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ وَلَا يُظۡلَمُونَ نَقِيرٗا ١٢٤﴾ [النساء: 124]

و ذكرت آل عمران الراسخين في العلم إجمالًا على أنّهم يؤمنون بالكتاب محكمه ومتشابهه، ثمّ جاءت سورة النّساء لتبيّن لنا صفاتهم: ﴿وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٧﴾ [آل عمران: 7] وقال في النّساء: ﴿لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ مِنۡهُمۡ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَۚ وَٱلۡمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَۚ وَٱلۡمُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ أُوْلَٰٓئِكَ سَنُؤۡتِيهِمۡ أَجۡرًا عَظِيمٗا ١٦٢﴾ [النساء: 162].

وأمّا الترابط بين سورة النّساء وبين سورة المائدة فيقول عنه السيوطيّ: "وأمّا اعتلاقها (المائدة) بسورة النساء، فقد ظهر لي فيه وجه بديع جدًّا؛ وذلك أن سورة النساء اشتملت على عدة عقود صريحًا وضمنًا فالصريح: عقود الأنكحة، وعقد الصداق، وعقد الحلف،

(1) خليفة، ابراهيم، التفسير التحليلي لسورة النّساء: 1/93.

في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ عَقَدَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ فَـَٔاتُوهُمۡ نَصِيبَهُمۡۚ﴾ [النساء: 33]، وعقد الأيمان في هذه الآية، وبعد ذلك عقد المعاهدة والأمان في قوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوۡمِۭ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُم مِّيثَٰقٌ﴾ [النساء: 90]، وقوله: ﴿وَإِن كَانَ مِن قَوۡمِۭ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُم مِّيثَٰقٞ فَدِيَةٞ﴾ [النساء: 92].

والضمني: عقد الوصية، والوديعة، والوكالة، والعارية، والإجارة، وغير ذلك من الداخل في عموم قوله: ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا﴾ [النساء: 58]، فناسب أن يعقب بسورة مفتتحة بالأمر بالوفاء بالعقود، فكأنه قيل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ﴾ [المائدة: 1] التي فرغ من ذكرها في السورة التي تمت، فكان ذلك غاية في التلاحم والتناسب والارتباط، وقد ختمت المائدة بصفة القدرة، كما افتتحت النساء بذلك.

وافتتحت النساء ببدء الخلق، وختمت المائدة بالمنتهى من البعث والجزاء، فكأنهما سورة واحدة، اشتملت على الأحكام من المبتدأ إلى المنتهى.

ولمّا وقع في سورة النساء: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِتَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ﴾ [النساء: 105] الآيات، وكانت نازلة في قصة سارق سرق درعًا، فصّل في سورة المائدة أحكام السرّاق والخائنين.

ولمّا ذكر في سورة النساء أنّه أنزل إليك الكتاب لتحكم بين الناس، ذكر في سورة المائدة آيات في الحكم بما أنزل الله حتى بين الكفار، وكرّر قوله: ﴿وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ [المائدة: 44، 45، 47].

فانظر إلى هذه السور الأربع المدنيات، وحسن ترتيبها، وتلاحمها، وتناسقها، وتلازمها"[1].

وأمّا ارتباط سورة النّساء بالسور المشابهة لها موضوعًا وأسلوبًا، فيشبهها في المطلع سورة الحج التي بدأت بـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ وقد تنبّه لها الإمام الرازي فقال: " وَرَدَ فِي الْقُرْآنِ سُورَتَانِ أولهما: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ أَحَدُهُمَا: فِي النِّصْفِ الْأَوَّلِ: وَهِيَ السُّورَةُ الرَّابِعَةُ مِنْ سُورَةِ النِّصْفِ الْأَوَّلِ، فَإِنَّ أُولَاهَا الْفَاتِحَةُ وثانيتها البقرة وثالثها آلُ عِمْرَانَ وَرَابِعَتُهَا النِّسَاءُ.

(1) السيوطي، تناسق الدرر في تناسب السور، ص: 78.

وَثَانِيَتُهُمَا: فِي النِّصْفِ الثَّانِي مِنَ الْقُرْآنِ وَهِيَ أَيْضًا السُّورَةُ الرَّابِعَةُ مِنْ سُوَرِ النِّصْفِ الثَّانِي أُولَاهَا مَرْيَمُ، وَثَانِيَتُهَا طه، وَثَالِثَتُهَا الْأَنْبِيَاءُ، وَرَابِعَتُهَا الْحَجُّ.

ثُمَّ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ الَّتِي فِي النِّصْفِ الْأَوَّلِ تَشْتَمِلُ على شرح المبدأ فقال يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ واحِدَةٍ [النساء: 1] ويا أَيُّهَا النَّاسُ الَّتِي فِي النِّصْفِ الثَّانِي تَشْتَمِلُ على شرح المعاد فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡۚ إِنَّ زَلۡزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيۡءٌ عَظِيمٞ ١﴾ [الحج: 1] فَسُبْحَانَ مَنْ لَهُ فِي هَذَا الْقُرْآنِ أَسْرَارٌ خَفِيَّةٌ، وَحِكَمٌ مَطْوِيَّةٌ لَا يَعْرِفُهَا إِلَّا الْخَوَاصُّ مِنْ عَبِيدِهِ"[1]، وقد تحدّثت الآية الثانية من سورة الحج عن أحوال النّساء عند رؤية أهوال الساعة بقوله: ﴿يَوۡمَ تَرَوۡنَهَا تَذۡهَلُ كُلُّ مُرۡضِعَةٍ عَمَّآ أَرۡضَعَتۡ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمۡلٍ حَمۡلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٞ ٢﴾ [الحج: 2].

فضلًا عن اشتراك السورتيْن في الحديث عن النّاس وأقسامهم وحالاتهم.

وتشبهها أيضًا سورة الأحزاب في مجيء ﴿كَانَ﴾ في فواصلها مع أسماء الله الحسنى، حيث وردت في النّساء نحو (42) مرّة في فواصل الآيات المذيّلة بأسماء الله الحسنى، وفي الأحزاب نحو (18) مرّة، وكلا السورتيْن مدنيّتان تعالجان تنظيم المجتمع المسلم وترتيب أوراقه.

الخصائص الموضوعيّة والأسلوبيّة للسورة:

امتازت سورة النّساء بمجموعة من الخصائص التي انفردت بها عن غيرها من السور موضوعًا أو أسلوبًا، حتى لو شاركتها في قضايا وأساليب، فقد تحدّثت مطولًا عن العدل والقسط، وعن اليتامى وأحكامهم، حيث وردت كلمة (اليتامى) فيها نحو (8) مرّات من أصل (14) مرّة في القرآن، وتحدّثت عن أحكام النّساء: زوجة وأمًّا وجدّة وأختًا وابنة ويتيمة ومستضعفة وقويّة وغير ذلك، وتحدّثت عن أحكام التوارث وعن أحكام الضّعف والاستضعاف والكلالة وهي تمثل حالة ضعف، حيث تكرّرت كلمة الضعف ومشتقّاتها في السورة نحو (7) مرّات، وقد فرّقت السورة بين الضّعف الجِبِلّيّ الذي يُعذر أصحابه فيه، وبين الاستضعاف الاختياريّ الذي يمثّل حالة من الرضا فيه، وأصحابه لا عُذر لهم فيه،

(1) الرازي، مفاتيح الغيب: 5/281.

فحالهم حال المستكبرين في ذلك، وتحدّثت كذلك عن أحكام تعدّد الزوجات، والقوامة، ونشوز كلّ من الزوجين، وعن صلاة الخوف، وعن أحكام السفهاء، وتحدّثت عن المنافقين وأهل الكتاب حديثًا يتّفق وشخصيّتها ومحورها الذي قامت عليه.

وانفردت السورة ببعض أساليبها الخاصّة من مثل مجيء بعض الألفاظ الفريدة من أسماء وأفعال ليس لها من مادّتها وجود آخر في القرآن مثل: ﴿حُوبًا﴾ [النساء: 2]، ﴿أَفْضَىٰ﴾ [النساء: 21]، ﴿بِٱلْجِبْتِ﴾ [النساء: 51]، ﴿نَضِجَتْ﴾ [النساء: 56]، ﴿لَّيُبَطِّئَنَّ﴾ [النساء: 72]، ﴿أَذَاعُواْ﴾ [النساء: 83]، ﴿يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ﴾ [النساء: 83]، ﴿مُرَٰغَمًا﴾ [النساء: 100]، ﴿فَلَيُبَتِّكُنَّ﴾ [النساء: 119]، ﴿كَلَٰلَةً﴾ [النساء: 12]، وهي مرتبطة بسلسلة علاقات خاصّة مع محور السورة العام.

وانفردت ببعض الأبنية والصيغ الفريدة التي لم تتكرّر من مادتّها في موضع آخر من القرآن مثل: ﴿كَٱلْمُعَلَّقَةِ﴾ [النساء: 129]، ﴿تَعُولُواْ﴾ [النساء: 3]، ﴿نُشُوزَهُنَّ﴾ [النساء: 34]، ﴿ٱلْمَضَاجِعِ﴾ [النساء: 34]، ﴿وَرَبَٰٓئِبُكُمْ﴾ [النساء: 23]، ﴿وَٱهْجُرُوهُنَّ﴾ [النساء: 34]، ﴿فَعِظُوهُنَّ﴾ [النساء: 34]، ﴿قَوَّٰمُونَ﴾ [النساء: 34]، ﴿ٱلْعَنَتَ﴾ [النساء: 25]، ﴿طَابَ﴾ [النساء: 3] و﴿طِبْنَ﴾ [النساء: 4]، ﴿مَّرِيٓـًٔا﴾ [النساء: 4]، ﴿صَدُقَٰتِهِنَّ﴾ [النساء: 4]، ﴿نِحْلَةً﴾ [النساء: 4]، ﴿ضِعَٰفًا﴾ [النساء: 9]، ﴿طَوْلًا﴾ [النساء: 25]، ﴿شَجَرَ﴾ [النساء: 65]، ﴿أَرْكَسَهُم﴾ [النساء: 88] و﴿أُرْكِسُواْ﴾ [النساء: 91]، ﴿يَسْتَخْفُونَ﴾ [النساء: 108]، ﴿تَلْوُۥٓاْ﴾ [النساء: 135] ﴿وَلِيًّا﴾ [النساء: 45]، ﴿مُّذَبْذَبِينَ﴾ [النساء: 143]، ﴿ٱلدَّرْكِ﴾ [النساء: 145]، ﴿بَيَّتَ﴾ [النساء: 81]، ﴿ثُبَاتٍ﴾ [النساء: 71]، ﴿تَقْصُرُواْ﴾ [النساء: 101]، ﴿يَسْتَنكِفَ﴾ [النساء: 172]، ﴿صَلَبُوهُ﴾ [النساء: 157].

وامتازت السورة بذكر أسماء اللّه الحسنى في فواصل نحو (56) فاصلة من فواصلها، حوت (25) اسمًا من أسماء اللّه الحسنى دون تكرار، سواء أكانت أسماء مفردة أم مركّبة، وأكثرها ورودًا كان: عليم، حكيم، غفور، رحيم، وهذا يتّسق مع أحكامها وتشريعاتها الصادرة عن عليم حكيم وغفور رحيم لمن خالفها دون تعمّد، وأكثر هذه الأسماء في فواصلها اقترنت بـ (كان) المجرّدة عن الزمان والمكان، ممّا أعطى السورة مزايا فريدة لم تأت لغيرها وإن شاركتها بعضها.

وكذلك كثر في السورة أسلوب ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ﴾ بنحو ثمان مرّات، وهي نصف عددها في القرآن كلّه، ودلّ هذا الأسلوب على ضرورة الامتثال لأحكام اللّه تعالى في السورة الكريمة والاكتفاء بها دون التحاكم إلى غيره كما هو شأن المنافقين.

فضلًا عن بروز ظاهرة الشرط فيها بما يزيد عن أكثر من (120) جملة شرطيّة تنوعّت أساليبها وطرائقها، وذكر أو حذف أجوبتها، وهذا متلائم تمامًا مع طبيعة تشريعاتها وأحكامها.

وامتازت أيضًا بأنّها نفت الظّلم عن الله تعالى قليله وكثيره ولو بمقدار (فتيل)[1] أو (نقير)[2] أو (ذرّة)[3].

إنّ من شأن هذه الخصائص الموضوعيّة والأسلوبيّة أن ترسم لنا ملامح هوية السورة ومحورها العام الذي تنتظم آياتها حوله، سواء أكان متعلّقًا بالإنصاف والعدل أو بالإصلاح أو بعلاج الضعف وغيره.

المحور الذي تدور حوله موضوعات السورة:

يرى الشيخ محمود شلتوت أنّ سورة النّساء تعالج الاستقرار الداخليّ والاستقرار الخارجيّ للمجتمع المسلم، فالاستقرار الداخليّ أساسه صلاح الأسرة، وصلاح المال في ظلّ تشريع قويّ عادل مبنيّ على مراعاة مقتضيات الطبيعة الإنسانيّة، والاستقرار الخارجيّ أساسه احتفاظ الأمّة بشخصيّتها، والاستعداد لمقاومة الشرّ الذي يطرأ عليها، والعدوّ الذي يطمع فيها[4]، وتقدّم رأي من يقول إنّها تعالج محوريّ الإنصاف والإصلاح، ولا يبعد عن هذا وذاك من يرى أنّ محور السورة الكريمة هو إحقاق العدل وإقامته، أو تحقيق التكافل الاجتماعيّ في المجتمع المسلم، وكلّ ذلك صحيحٌ ومعقولٌ، ويمكن الجمع بين ذلك كلّه في قولنا: إنّ سورة النّساء تتناول مقوّمات التّشريع الإسلاميّ الصالح لتدبير شؤون الإنسانيّة جمعاء، من خلال عناصره الثلاثة: المُشرّع، والتشريع، والمكلّفين، فأكثرت السورة من ذكر صفات هذا المُشرّع القائمة على العلم والحكمة، والمغفرة والرحمة وغيرها من الصفات الجليلة التي ذكرتها السورة، فهو الأعلم بما يُصلح العباد في شؤون دنياهم وأخراهم.

(1) الآيتان (49، 77).
(2) الآية: 124.
(3) الآية: 40.
(4) شلتوت، محمود، تفسير القرآن الكريم، الأجزاء العشرة الأولى، ص: 137.

وأكثرت السورة من أسلوب المبالغة في نفي الظّلم عن اللّه ﷻ ولو كان بمقدار ذرّة أو فتيل أو نقير، وتناولت السورة كذلك هذه الشريعة الغرّاء، فبيّنت مقاصدها الخمسة، التي تكفل تحقيق مطالب الإنسان في كلّ زمان ومكان، من تحقيق الحرّية والإخاء والعدل، فتحدّثت عن حفظ الدين والنّفس والنّسل والعقل والمال، فبيّنت أهميّة الحفاظ على الدين حتى لو اقتضى الأمر الهجرة وترك البلدان، أو القتال لأجل إحقاق كلمة الدين، وتحدّثت عن حفظ النّفس فحرّمت قتلها بغير حقّ، وتناولت المال وبيّنت مصادر كسبه وإنفاقه وما يتعلّق به حتّى عدّها بعضهم سورة المال، وكذا تناولت حفظ العرض والنّسل من خلال تحريم الزنا والأخدان والأنكحة المحرّمة، وبيّنت أحكام الحياة الزوجيّة، وحكم من لم يستطع نكاح المحصنات، وبيان أحكام الأسرة بالتّفصيل، وكذا تناولت حفظ العقل بترك ما يعطّله من خمر أو غيره، وتناولت كذلك المكلّفين المخاطبين في هذه الشريعة، وبيّنت أنّهم سواء في الجزاء والعمل؛ فلا فرق بين قويّ وضعيف ورجل وامرأة، وبيّنت السورة مواقف النّاس أمام هذه الشريعة بين إيمان خالص ونفاق زائف وكفر بواح، وبين قادر كامل الأهليّة، ومعذور ناقص الأهليّة، فشرعت الرّخص عند نقصان الأهليّة لأصحاب الأعذار فشرعت الهجرة للضعفاء، وصلاة الخوف في الحرب، وتناولت وسائل الإصلاح بين الزوجين، وتناولت أحكام اليتامى والسفهاء، وهم أكثر النّاس ضعفًا، وشرعت التوبة للمذنبين، وبيّنت كثرة مغفرة اللّه ورحمته بهم، وبيّنت آثار إقامة هذه الشريعة ومآلات الخروج عليها في الدنيا والآخرة، وهناك أكثر من آية في السورة الكريمة لامست هذا المحور الرئيس في بيان مقاصد الشريعة التي تلبّي حاجات الإنسان عبر تنوّع الأزمنة والأمكنة من مثل قوله تعالى في السورة الكريمة: ﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗا وَبِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡجَارِ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡجَارِ ٱلۡجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلۡجَنۢبِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخۡتَالٗا فَخُورًا ٣٦﴾ [النساء: 36].

وقوله عن التوبة عند الخروج عن تطبيق بعض شريعته: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوۡبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٖ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا ١٧ وَلَيۡسَتِ ٱلتَّوۡبَةُ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ إِنِّي تُبۡتُ ٱلۡـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمۡ كُفَّارٌۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعۡتَدۡنَا لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا ١٨﴾ [النساء: 18].

وقوله عن سبل تحقيق شريعته: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا ٥٨ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ٥٩﴾

[النساء: 58 - 59].

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾﴾

[النِّسَاء: 1]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

التَّقوى عِمادُ الدِّين وطَريقُ النَّجاةِ والصَّلاحِ

جَاءَت هَذِهِ الآيةُ الكَرِيمَةُ فَاتِحَةً لِسُورَةِ النِّسَاءِ ببراعة افتتاحٍ، وحسن ابتداءٍ لما احتوته من الأحكام والتَّشريعَات المُتَعدِّدة، في حُقوقِ النِّسَاءِ وذَوي الأَرحَام واليَتَامَى وغيرهم، ولِكُلِّ هَؤلاءِ حُقُوقٌ يَجِبُ عَلى النَّاسِ تَقوى اللّهِ تَعَالى ومراقبته فيها وأداؤها إلى أهلها، وعلى ذلك يَقُومُ المُجتَمَعُ البَشَريّ قوياً مُطْمَئِنّاً، ويَتوطَّدُ التَّعاطُفُ والتَّعَاونُ بَينَ أَفرَادِه الّذِينَ هُم أخوةٌ مِن أبٍ وَاحِدٍ وأُمٍ وَاحِدَةٍ، ومَع أنَّ المُتبادَرَ مِن روح الآيةِ، أنَّ الخِطَابَ مُوجَّهٌ في الدَّرجَةِ الأولى إلى المُسلِمِينَ الّذِينَ يُؤمِنُونَ بِالقُرآنِ، ويَتَلَقَّونَ مَا جَاءَ فِيهِ نِبرَاسًا وهُدًى لَهُم - وهُم أَهلُ الدَّعوةِ إلى تَقوى اللّهِ تعالى - فإنَّ استِعمَالَ لَفظِ ﴿ٱلنَّاسُ﴾، لا يَخلُو مِن مَعْنًى جَلِيلٍ في صَدَدِ الدَّعوَةِ إلى تَقوى اللّهِ تَعَالى، في الحُقُوقِ الّتي هِي قَدْرٌ مُشتَركٌ بَينَ جَميعِ النَّاسِ الّذِينَ يَتَألَّفُ مِنهُم المُجتَمَعُ البَشَريّ؛ وبِهذا كلِّه تَبدُو الآيَةُ بَلِيغَةً رَائِعَةً في أُسلُوبِهَا وَمَدَاهَا، فَهِي مِفتَاحُ السُّورَةِ، وموضُوعُها الّذي جَاءَ في مَطلَعِهَا[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلنَّاسُ﴾: اسمُ جَمعٍ لِلبَشَرِ خَاصَّةً، وهُم الجنسُ المُنحَدِرُ مِن آدَمَ - عليه السلام - إلى أنْ تَقُومَ السَّاعَةُ، والنَّاسُ جَمَاعَةٌ لا وَاحِدَ لَها مِن

(1) دروزة، التَّفسير الحديث: 8/9.

لَفظِها[1]، والنَّاسُ مِنَ النَّوسِ وهُوَ الحَرَكَةُ يُقَالُ: نَاسَ يَنُوسُ نَوسَاً إِذَا تَحرَّكَ، قال ابن فارس: "النُّونُ وَالوَاوُ وَالسِّينُ: أَصْلٌ يَدُلُّ عَلَى اضطِرَابٍ وَتَذَبْذُبٍ، وَنَاسَ الشَّيْءُ: تَذَبْذَبَ، يَنُوسُ، وَسُمِّيَ أَبُو نُوَاسٍ لِذُؤَابَتَيْنِ لَهُ كَانَتَا تَنُوسَانِ[2]، وَيَقُولُونَ: نُسْتُ الإِبِلَ: سُقْتُهَا"[3]، وقيل: أَصلُهُ أُنَاس، فحذف فاؤه لمّا أُدخِلَ عَليهِ الأَلِفُ واللَّامُ، وقِيلَ: قُلِبَ مِن نَسِيَ، وَأَصلُهُ إِنْسِيانٌ على وَزنِ إِفْعِلانٌ مِنَ النِّسْيان[4]، والأولُ أَصَحُّ؛ لأَنَّ لَو كَانَ أَصْلُ النَّاسِ أُنَاسًا لَقيل في التَّصغِيرِ أنيس، وَإِنَّمَا يُقَال (نُويس)، فَاشتِقَاقُ أَنَاس مِن الأُنْسِ خِلَافُ الوَحشَةِ؛ وَذَلِكَ أَنَّ بَعضَهُم يَأنَسُ بِبَعضٍ[5]، وفي الصّحاح: " والنّاس قد يكون من الإنس ومن الجنّ، وأصله أناس فخفّف، ولم يجعلوا الألف واللّام فيه عوضًا من الهمزة المحذوفة"[6].

2) ﴿ٱتَّقُواْ﴾: فعل أمرٍ من (اتَّقَى) على وزن افْتَعَلَ، وهو افتعالٌ من (وقى)، بمعنى حَفِظَ وحَرَس؛ فأصل التّاءِ من (اتَّقَى) واوٌ: (اوْتَقَى) فَقُلِبَتِ الوَاوُ يَاءً لانكِسَارِ مَا قَبلَهَا، وأُبدلت مِنهَا التَّاءُ وأُدغمت؛ لِسُكون الأولى، وتحرِّك الثّانية[7]، "والاسم (التّقوى)، و(أصله تقيا)، التّاء بدل من الواو، والواو بدل من الياء؛ وفي الصّحاح: (التّقوى) والتّقى واحد، والواو مبدلة من الياء على ما ذكرناه في ريّا"[8]، ومصدرُ (اتَّقَى): الاتِّقاءُ وهو افتعالٌ من التَّقوَى، يرادُ به اتِّخاذ الوقاية، فالافتعالُ هنا بمعنى الاتِّخاذ، ويدلُّ على اختيار التَّقوى والعمل بمقتضاه[9]، والتَّقوى: الصِّيانةُ والحِفظُ، وجعلُ النّفس في وِقَايَةٍ مما يُخَاف[10]، ومعنى ﴿ٱتَّقُواْ﴾ في الآية على ما سبق من معانٍ: اجعَلوا لَكُم وِقايَةً مِنْ عَذابِ اللّهِ بِامتِثالِ أوامِرِهِ، واجتِنابِ نواهيهِ.

3) ﴿رَبَّكُمُ﴾: ربّ كلّ شيء: مالكه، ومعلوم أنّ لفظ الرّبِّ: اسمٌ من أسماء اللّه

(1) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 274.
(2) وفي تهذيب اللّغة: "وقيل لبعض ملوك حمير: ذو نواس، لضفيرتين كانتا تنوسان على عاتقيه" ينظر: الأزهري، تهذيب اللغة، وكذلك: الجوهريّ، الصّحاح تاج اللّغة وصحاح العربيّة: (نَوَسَ).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نَوَسَ).
(4) الراغب، المفردات، ص: 828.
(5) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 274.
(6) الجوهريّ، الصّحاح: (نَوَسَ)
(7) ابن منظور، لسان العرب: (وقى).
(8) الزّبيديّ، تاج العروس: (وقى).
(9) الجوهريّ، الصّحاح: (وقى).
(10) الجرجاني، التّعريفات، ص: 65.

ﷻ، وهو مخصوصٌ به، فلا يقال في غيره إلّا بالإضافة، وقد قالوه في الجاهليّة للملك، وشاهده قول الحارث بن حِلّزَة:

وَهُوَ الْرَّبُّ وَالْشَّهِيدُ عَلَى يَوْ *** مِ الْحَيَارَيْنِ وَالْبَلَاءُ بَلَاءُ[1]

والرّبُّ المَالِكُ والخالِقُ والرزَّاق والمُصلِحُ والمُدبِّر[2]، ويطلقُ على اللّه تعالى معرّفًا باللّام ومضافًا، وفي الأصل مأخوذٌ من التَّربية، وهو إنشاءُ الشَّيء حَالًا فَحَالًا إلى حدِّ التَّمام، يُقال: رَبَّهُ، وربّاه ورَبَّبَهُ، فالرّبُّ مصدرٌ مستعارٌ للفاعل، ولا يُطلَقُ غيرَ مُضافٍ إلا على اللّهِ تعالى المُتكفِّل بمصلحةِ الموجوداتِ، وإذا أُطلقَ على غيرِه أُضِيفَ، كربِّ الإبل ورَبِّ الدّارِ؛ أي: مالكها[3]، قال ابن تيميَّة: "الرَّبُّ: هُوَ الَّذِي يُرَبِّي عَبدَهُ فَيُعطِيهِ خَلقَهُ ثُمَّ يَهدِيهِ إلى جَمِيعِ أَحوَالِهِ مِن العِبَادَةِ وَغَيرِهَا"[4].

4) ﴿نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾: آدَمُ[5] عليه السلام، وقد يُرادُ بها جنسٌ واحدٌ؛ أي خلقكم من طينةٍ واحدةٍ، والنَّفْسُ: الرَّوحُ والجَسَدُ والدّمُ، وما يكون به التَّمييز، وتُطلَقُ على ذَاتِ الشَّيْء وَحَقِيقَته، وهي جملةُ الإنسان وذاتُه، روحًا وجسدًا، تقول: قَتل فَلانٌ نفسَه، أوقعَ الهلاكَ بذاته، وتُطلقُ - أيضاً - على الرُّوح فقط، نحو: خرجت نَفسُ فلانٍ؛ أي روحَه، وسُمِّيَ الدَّمُ نفساً؛ لأَنَّ النَّفسَ تَخرُجُ بِخُرُوجِهِ[6]، وهي من (نَفَسَ)، وتُجمعُ على أَنْفُس ونُفُوس، وجذرها (النُّونُ وَالفَاءُ وَالسِّينُ)، يَدُلُّ في أصله على خُرُوجِ النَّسِيمِ كَيفَ كَانَ، مِن رِيحٍ أَوْ غَيرِهَا، وَإِلَيهِ يَرجِعُ فُرُوعُهُ، ومِنهُ التَّنَفُّسُ: خُرُوجُ النَّسِيمِ مِنَ الجَوفِ وغيرها[7]، وقد شاعَ استعمالُ النّفس في الإنسان خاصةً؛ إذ تُطلقُ ويرادُ منها المركَّبُ والجملةُ المشتملةُ على الرّوح والجسدِ[8].

5) ﴿زَوْجَهَا﴾: الزَّوج: الصِّنفُ والنَّوعُ من كُلّ شيءٍ، والفَردُ الّذي له قَرين، وكلُّ شَيئَينِ مُقتَرِنَينِ - شَكْلَينِ مُماثلين كَانَا أَو نَقيضَينِ - فهما زَوجانِ، وكلّ واحدٍ مِنهُمَا: زَوجٌ، تقول:

(1) الجوهريّ، الصّحاح: (رَبَبَ).
(2) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 15، وابن فارس، مجمل اللّغة، ص: 370.
(3) الراغب، المفردات ص: 336.
(4) ابن تيميّة، مجموع الفتاوى: 1/22.
(5) ابن جرير، جامع البيان: 7/514.
(6) ابن منظور، لسان العرب: (نفس)، والسمين، عمدة الحفّاظ: 4/204.
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نَفَسَ).
(8) زقزوق، الموسوعة الإسلامية العامة، ص: 1409.

عِنْدِي زوجان من الحَمام، تَعنِي ذكرًا وَأُنْثَى، وزَوْجُ المرأة: بَعْلُها، وزَوْجُ الرجل: امرأتُهُ، يُقال: هو زَوجُها وهي زَوجُه وهما زَوجَان، وهو الفصيحُ، وَجَاء بهَا القُرآن، قَالَ تعالى: ﴿ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ﴾ [البقرة: 35]، ويجمع على أَزْوَاج[1]، وقد استعملواْ اللّفظ بإضافته إلى ضمير المتكلّم، دالًّا على الزّوج نحو ما قال الفرزدق:

وَإِنَّ الَّذِي يَسْعَى لِيُفْسِدَ زَوْجَتِي *** كَسَاعٍ إِلَى أُسْدِ الشَّرَى يَسْتَبِيلُهَا[2]

والتَّزاوجُ تداخُلٌ بين شيءٍ وآخر حتّى يشتَبِكَا ويختلطَا ويرتبطَا معًا - كالذَّكر بالأنثى، والنَّوم بالنَّائم، ولا يُقال للشَّيء زَوْجٌ إلّا وهو مرتبطٌ بآخرَ ارتباطًا مادِّيًّا أو معنويًّا، فهي تُطلقُ على الفردِ بهذا القيد، قال تعالى ﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزۡوَٰجٖۖ مِّنَ ٱلضَّأۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَمِنَ ٱلۡمَعۡزِ ٱثۡنَيۡنِۗ﴾ [الأنعام: 143]؛ فهذا يقطعُ بإطلاق الزَّوج على الفرد؛ لأنَّها مقترناتٌ عُدَّت ثمانية أزواج - لكن مع القيدِ السّابق، ومن هنا أُطْلق الزَّوجُ على امرأة الرَّجل - كما يقال: قرينتُهُ[3].

7) ﴿وَبَثَّ﴾: فَرَّقَ وَنَشَرَ، يُقال: بَثَّ الشَّيْءَ والخَبَر، يَبُثُّه ويَبِثُّه بَثًّا فانْبَثَّ: فَرَّقه فتَفَرَّقَ، ونَشَره، والبثُّ: إثارةُ الشّيء وتفريقه، كبثِّ الرِّيح للتُّراب، وتَمْرٌ بثٌّ: منثورٌ مُتفرِّقٌ ليس في جرابٍ ولا وعاء، وبَثَّ الصَّيادُ كلابَه: نَشَرَها، ومنه بثُّ الدَّواب في قوله تعالى: ﴿وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٖ﴾ [البقرة: 164]؛ أي: نشر فيها وفرَّق أنواع الدَّواب، وفيه إشارةٌ إلى إيجادِ ما لم يكن موجودًا[4]، والبَثُّ مَا يَرِدُ على الإنسَانِ مِنَ الأَشيَاءِ المُهلِكَةِ الَّتِي لَا يَتَهَيَّأُ لَهُ أَن يُخفِيَهَا كالحُزن والغمِّ في النّفس الّذي يضطَّر صاحبُهُ من شدَّته أن يُظهرَه، وَهُو مِن بَثَثْتُهُ؛ أَي فَرَّقْتُهُ، فَسُمِّيَتِ المُصِيبَةُ بَثًّا مَجَازًا، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَشۡكُواْ بَثِّي وَحُزۡنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [يوسف: 86][5]، قال الأصمعيّ: (تَمْرٌ بَثٌّ)، إذا كان منثورًا متفرّقًا بعضه من بعض، والبثّ: الحال والحزن، يقال: أبثثتك، أي أظهرت لك بثّي الّذي يجيش به صدري[6].

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والزَّبيدي، تاج العروس: (زوج).

(2) الجوهريّ، الصّحاح: (زوج). ومعنى يستبيلها: أي يأخذ بولها في يده، وأنشد ابن بري لمالك بن نويرة اليربوعي وقال أنشده ثعلب:

إِذَا مَا اسْتَبَالُواْ الْخَيْلَ كَانَتْ أَكُفُّهُمْ *** وَقَائِعَ لِلْأَبْوَالِ وَالْمَاءُ أَبْرَدُ.

يقول: كانوا في فلاة، فاستبالوا الخيل في أكفّهم، فشربوا أبوالها من العطش، ينظر: ابن منظور، لسان العرب: (وقع).

(3) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: 2/878.

(4) ابن منظور، لسان العرب: (بثث)، والسمين، عمدة الحفّاظ: 1/159.

(5) النَّحاس، إعراب القرآن: 2/213.

(6) الجوهريّ، الصّحاح: (بثث).

8) ﴿رِجَالًا﴾: جَمع رَجُلٍ، وهو الذَّكَر من بني آدمَ، بخلاف المرأة، وتصغيره رُجَيلٌ ورُوَيجِلٌ، والرَّجْلَة: المرأة المتشبِّهةُ بالرَّجل في بعض أَحوالِها، والرَّجُلُ مأخوذٌ من الرِّجْلِ: وهو العضوُ المخصوصُ بأكثر الحيوانات الّذي يُمشَى به، واشتقّ من الرِّجْلِ رَجِلٌ ورَاجِلٌ، ومنه رَجُلٌ رَاجِلٌ أي: قويٌّ على المَشي، وجمعه رِجَالٌ قال تعالى: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا﴾ [البقرة: 239][1]، ومن هذا الأصل (الرِّجْل) اشتُقت كلماتٌ انتزاعيّةٌ، فيقال: رجَلَ يَرجُل رَجْلاً، فهو راجل: إذا مشى برجلِهِ وقوي عليه، وارتجلَ الكلامَ: قَوِيَ عليه من غير حاجة فيه إلى فكرةٍ ورويَّة، وترجَّل في البئر: إذا نزلَ في البئر من غير أَنْ يُدَلّى؛ فكأنَّه استندَ على رجله، ومنه الرّجولةُ صِفَةٌ بمعنى الشِّدّة والقُّوة، والكرمِ ومكارم الأخلاق، والرّجوليّةُ: كمالُ الرّجل، يُقال: أرجلُ الرَّجُلين: أقواهُما[2]. فأصل كلمة (الرَّجل) مأخوذٌ من القوَّة؛ لأنَّه الأشدُّ والقائمُ الجادّ في الأمور المنتصبُ لها وفيها، وهو من يستبدّ برأيه ويقومُ بقدمه، ويستندُ إلى رجلِهِ، ويمشي لتأمين معاشِهِ ومعاش عائلته، وهو قويٌّ على العملِ والحركة والسّير[3].

9) ﴿وَنِسَآءٌ﴾: اسم جَمْعٍ لِلمَرأَةِ مِنْ غَيرِ لَفظِه، أو جمع (نِسوة) الّذي هو جمعُ (امرأة)، فهو جمعُ الجمع، وعلى كلا الجمعين النِّساءُ هنّ الإناثُ من بني آدمَ بخلافِ الرّجال[4]، وَنِسَاءُ على وزن (فِعَال)، والهمزةُ فيها إمّا أصليَّةٌ، أو منقلبةٌ عن أصل، فإن كانت أصليّةً دلَّ على تأخير الشَّيء؛ فالنَّسءُ من نُسِئَتِ المرأَةُ تُنْسَأُ نَسْأً: تأَخَّر حَيْضُها عَنْ وقتِه، وبَدَأَ حَملُها، ونَسَأَ الشّيءَ يَنْسَؤُه نَسْأً وأَنْسَأَه: أَخَّره، ومنه النَّسيئةُ والنَّسِيءُ[5]، أمّا إن كانت منقلبةً، فهي مُبدلةٌ عن (واو) على النَّحو الّذي أشار إليه العكبريُّ بقوله: "وَالهَمزَةُ في نِسَاءٍ مُبدَلَةٌ مِنْ (وَاوٍ)؛ لِقَولِكَ فِي مَعنَاهُ نِسْوَةٌ، وَهُوَ جَمعٌ لا وَاحِدَ لَهُ مِنْ لَفظِهِ بَل وَاحِدَتُهُ امْرَأَةٌ، وَأَمَّا نِسَاءٌ فَجَمعُ نِسْوَةٍ، وَقِيلَ: لَا وَاحِدَ لَهُ"[6]، وذهب السَّمين الحلبيُّ إلى احتمال أن

(1) الراغب، المفردات، ص: 344.
(2) الجوهريّ، الصّحاح، والزّبيدي، تاج العروس: (رجل).
(3) المصطفويّ، التّحقيق في كلمات القرآن الكريم: 4/70.
(4) الحريريّ، دُرَّةُ الغَوَّاص، ص: 263.
(5) ابن منظور، لسان العرب: (نَسَأَ).
(6) العكبري، التبيان: 1/154.

تكونَ الهمزةُ مبدلةً عن (ياء) اشتقاقاً من النِّسيان[1]، فالنِّسَاءُ - إذاً - هو جمعُ امرأة، وهو - أيضاً - جمع نَسْءٍ؛ لأنَّها اشتقَّت من هذا الأصل؛ وعلى ما سبق يتبيَّن سببُ تمسية النِّسَاء بهذا الاسم مُقابل الرِّجال، فالرِّجالُ سُمّوا بذلك لأنَّهم برَجْلِهم - سعيهم وحركتهم - يقومون بالبحثِ عن الرّزقِ والعملِ والحراسةِ، وتوفير الحمايةِ، بينما تكونُ النِّسَاءُ متأخراتٍ عن ذلك بقعودهن في البيوتِ، وأنّهن ملحقاتٌ برجالهنَّ تابعاتٌ لهم، ولأنَّهنّ تأخَّرنَ في الخَلْقِ، فحوّاءُ خُلقت بعد آدمَ عليه السلام.

10) ﴿تَسَآءَلُونَ بِهِۦ﴾: فعلٌ مضارعٌ بمعنى: يسألُ بعضُكم بعضًا باللّه تعالى، فيقولُ على سبيل الاستعطاف: أسألُك باللّه، وأنشدُك باللّه، وأصلُه تَتَساءلون حُذفت إحدى التّاءَين تخفيفًا[2]، وهو من الفعل (سَأَلَ) يَسْأَلُ سُؤَالًا وسَآلَةً ومَسْأَلةً وتَسْآلًا وسَأَلَةً، وتَسَاءَلُوا: سَأَل بعضُهم بَعضًا، وتَسَاءلُونَ بِهِ: تَطلُبون حقوقَكم بِهِ، ومنه السّؤال[3]، "فمن قرأ ﴿تَسَّآءَلُونَ﴾، فالأصل: تتسَاءلُون، قلبت التّاء سينًا، لقرب هذه من هذه، ثمّ أدغمت فيها، ومن قرأ ﴿تَسَآءَلُونَ﴾، فأصله أيضا: تتسَاءَلُون، حذفت التّاء الثّانية، كراهيّة للإعادة، ومعناه: تطلبون حقوقكم به"[4].

11) ﴿وَٱلۡأَرۡحَامَۚ﴾: جمع الرَّحِم وهي القرابة، وهو بكسر الحاء (رَحِمٌ)، والرّحم بالضّمّة: الرّحمة، قال تعالى: ﴿وَأَقۡرَبَ رُحۡمٗا ٨١﴾ [الكهف: 81]، وقد حرّكه زهير بن أبي سلمى، فقال:

وَمِنۡ ضَرِيبَتِهِ ٱلتَّقۡوَى وَيَعۡصِمُهُ *** مِنۡ سَيِّئِ ٱلۡعَثَرَاتِ ٱللّهُ وَٱلرَّحِمُ[5]

والآيةُ على تقدير مضافٍ؛ أي: واتّقُوا اللّه وقطعَ الأرحام[6]، والرَّحِمُ في الأصل رَحِمُ المرأة، وهو مَنْبِتُ الوَلَد ووِعَاؤه في البَطْنِ، ومن هذا المعنى استعير الرَّحِمُ للقرابة؛ لكونهم خارجين من رحمٍ واحدة؛ ولأَنَّ مِنهَا مَا يَكُونُ مَا يُرحَمُ وَيُرَقُّ له مِنْ وَلَدٍ[7]، والرَّحمُ من

(1) السمين، عمدة الحفّاظ: 4/233.
(2) الزّمَخْشري، الكشاف: 1/462.
(3) ابن منظور، لسان العرب: (سأل).
(4) الزّبيديّ، تاج العروس: (سأل).
(5) الجوهريّ، الصّحاح: (رحم).
(6) أبو حيان، البحر المحيط: 3/361.
(7) الراغب، المفردات، ص: 347.

الفعل (رَحِمَ) ويَدُلُّ عَلَى الرِّقَّةِ وَالعَطفِ وَالرَّأْفَةِ، يُقَالُ: رَحِمَهُ يَرْحَمُهُ، إِذَا رَقَّ لَهُ وَتَعَطَّفَ عَلَيْهِ[1]، ومنه الرَّحْمةُ: رِقَّةُ القَلبِ وَعَطفُهُ، مأخوذةٌ من الرَّحِمِ؛ وذلك لأنَّ الرَّحمَ منعطفةٌ على ما فيها[2].

12) ﴿رَقِيبًا﴾: الرَّقيبُ من أسماء اللّه تعالى ومعناه: العالمُ الحافظُ الَّذي لَا يَغيبُ عَنهُ شيءٌ في الأرض ولا في السَّماء[3]، والرَّقيبُ: على وزن فَعِيلٌ صيغةُ مبالغةٍ بمعنى فَاعِل؛ أي: (راقِبٌ)، من الفعل (رَقَبَ يَرقُبُ) تقول: "رَقَبَه يَرْقُبُه رِقْبةً ورِقْباناً، بِالكَسرِ فِيهِمَا، ورُقُوباً، وترَقَّبَه، وارْتَقَبَه: انتَظَرَه ورَصَدَه، والتَّرَقُّبُ: الانْتِظَارُ، وَكَذَلِكَ الارْتِقابُ، وارْتَقَبَ المكانُ: عَلَا وأَشْرَف"[4]. ومنه الرَّقَبَةُ: العُنُقُ أعلى جسمِ الإنسان تحتَ الرّأس، ورَقَبْتُهُ: أصبتُ رقبتَه، ورَقَبْتُهُ: حفظتُه، والمَرْقَبُ: المكانُ العالي الّذي يشرفُ عليه الرَّقيبُ، وفي الحديث عن أبي بكر ﵁: «ارقُبُواْ مُحَمَّدًا ﷺ فِي أَهلِ بَيْتِهِ»[5]؛ أَي احفَظُوه فيهم، ومن هنا جاءت تسميّةُ الرَّقِيب بمعنى الحافظِ المُحصي الرَّاصدِ؛ لرفعته وعلوّه، فهو المطَّلع على ما دونه، ولمراعاته رقبةَ المحفوظ[6].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

وحدةُ الأصل الإنسانيّ، والعلاقاتُ الاجتماعيَّة وأمانة صلة الأرحام.

تأتي هذه الآية الكريمة في أوّل سورة النِّسَاء لتُرشد إلى وحدةِ الأصل الإنسانيّ والعلاقات الاجتماعيَّة، فافتتحت بنداءِ اللّه تعالى لعبادِه بلفظٍ عامّ يشملُ مؤمنَهم وكافرَهم: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ ويأمرُهم بتقواه، لأنَّه خلقَهُم من نفسٍ واحدةٍ هي آدم - ﵇ - ، وخلقَ منها زوجَه حواءَ؛ ليناسبَها فيسكن إليها، وتتمُّ بذلك النّعمةُ، ويحصلُ به السُّرورُ، ونشر منهما في أنحاء الأرض رجالًا كثيرًا ونساءً كثيرات، ثمّ كرَّر الأمرَ بالتَّقوى؛ إذ هي مِلاك الأمر، فلا كمالَ ولا سعادةَ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (رحم).
(2) السمين، عمدة الحفّاظ: 2/79.
(3) الزجاج، تفسير أسماء الله الحسنى، ص: 65.
(4) ابن منظور، لسان العرب: (رقب).
(5) البخاريّ، الحديث رقم: (3751)
(6) الراغب، المفردات، ص: 362.

بدون الالتزام بها، وفي الإخبار بأنَّه خلقَهُم من نفسٍ واحدةٍ، وأنَّه بثَّهم في أقطار الأرض، مع رجوعِهم إلى أصل واحد - ليعطفَ بعضُهم على بعض، ويرقّقَ بعضَهم على بعض، وليدلَّ على أهميّة هذه الرّابطةِ الإنسانيَّةِ، ليعيش النَّاسُ في سعادةٍ وأمانٍ، ثمّ قرنَ الأمرَ بتقواه بالأمر ببرِّ الأرحام، والنَّهي عن قطيعَتِها، ليؤكِّد بأنّه كما يلزمُ القيام بحقِّ الله، كذلك يجبُ القيام بحقوقِ الخلق، خصوصًا الأقربين منهم، ثمّ ختم الآية بأنَّه - تعالى - مراقبٌ لأحوالهم جميعها مطّلع عليها، لا يخفى عنه خافية[1].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

حُسْنُ الافتِتَاحِ وَبَرَاعَتُهُ بالنِّداء والأمرِ بالتَّقوى:

النّداءُ للنَّاس لتنبيه النّفوس واستِصْغاء قلوبهم للخِطابِ

إنَّ أولَ ما يلفتُ الذِّهن في سورة النِّسَاء ويشدُّه افتتاحُها بفَنٍّ بديعيٍّ بليغٍ هو حسنُ الابتداء وبراعته، فأولُ آية منها كانت في منتهى البراعةِ والإحكام؛ إذ بيَّنت غرضَ السّورة وموضوعَها، فقد افتتحت السّورة بنداءٍ عامٍ مؤكدٍ بـ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾، وأمَرَتْهُم بتقوى الله تعالى، وأشارتْ إلى بدءِ الخلق والتَّكوين، مع التّنبيهِ الى مكانة المرأة، والتّوصيّة بصلة الرَّحم؛ لتكونَ دالّةً على ما في هذه السّورة من الأحكام والتَّشريعَات المُتعدِّدةِ الّتي تنظّمُ حياةَ النَّاس ومُجتمعاتهم على أساس التَّقوى والعدل والمُساواة، وتحثُّ على الرَّحمةِ بالضّعفاء من النِّسَاء والأَرحَامِ واليَتَامَى، بنظامٍ يكفلُ العدلَ للأفرادِ والصَّلاحِ للمجتمعات[2].

في المطلع تشويقٌ لما بعده، وتحقيقٌ لتناسق المفتتح بالختام

ومثلُ هذا الافتتاح الذي يُوقظُ النَّفسَ البشريَّةَ ويدلُّها على ما ينفعُها، ويحرِّك بواعثَ العمل فيها، ويجعلها تنصتُ وتستجيبُ لما يُلقى بعدها من أحكام وتشريعات تخصّها، وهذا من مقاصدِ

(1) السّعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 163.

(2) الرازي، مفاتيح الغيب: 9/476، وابنُ عاشور، التّحرير والتّنْوير: 4/214.

الخِطابِ القرآنيّ في التَّشويق لما بعد هذا الافتتاح، وهو يحقِّقُ مع نهاية السُّورة تناسبًا يتمثَّل في حسن الابتداءِ والختام؛ إذ بُدِئتِ السُّورة "بذكر بدءِ الخلق والولادة وخُتمت بأحكام الوفاة، وفُتحت بآيات المواريثِ والكلالةِ وخُتمت بمثل ذلك"[1]، ليتناسق المُفتتحُ مع الختام في أبدع صورةٍ، وأجمل بيانٍ.

بلاغة المتشابه اللفظي:

الخطاب بـ (يا أيها) ترقٍّ بحسب منزلة المنادى:

جملة ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ خطاب عام ولذلك ذكر معه لفظ (الربِّ)، و﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [البقرة: 104]، أخصّ منه، و﴿يَـٰعِبَادِىَ﴾ [العنكبوت: 56] أخصُّ منهما، وحيث يقصد خاصَّ الخاصِّ قال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ﴾ [الأنفال: 64]، و﴿۞يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ﴾ [المائدة: 41] وإنْ كان الخطاب له، ولغيره نحو ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ [الطلاق: 1][2].

نوع التّعريف في لفظ ﴿ٱلنَّاسُ﴾:

في الاستغراق تنبيهٌ وتوجيه إلى الاهتمام بالمحكيِّ فيما بعدُ

الألفُ واللّام في ﴿ٱلنَّاسُ﴾ يُفِيدُ الاِستِغرَاقَ، وهو يشملُ المخاطَبين كلّهم مؤمنهم وكافرهم، لتحريكهم وتنبيههم تنبيهاً يُشعر بالاهتمام بالكلام بعده[3]، وهو يناسب عموم الخطاب في جملة: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾.

التَّشابهُ اللّفظي في المُفتتح بين سورتي: النِّسَاء والحجِّ:

سورة النِّسَاء تُبيّن بداية الخلق، وسورة الحجّ تُبيّن نهايتَه

تشابهت سورة النِّسَاء مع سورة الحجّ في مطلعها بنداء النَّاس وأمرهم بالتَّقوى بقوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ﴾.

إذ افتتحت سورةُ النِّسَاء بهذا النِّداء مع بيان بدء الخلق والحياة للإنسان، وذلك في قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ

(1) السيوطي، مراصد المطالع، ص: 48.
(2) السيوطي، مراصد المطالع، ص: 48.
(3) الرازي، مفاتيح الغيب: 9/476، وابنُ عاشور، التّحرير والتّنوير: 4/214.

مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ١﴾ [النِّسَاء: 1].

أما سورة الحجّ فقد افتتحت بهذا النِّداء أيضًا مع ذكر نهايةِ هذه الحياة الدّنيا وبداية الحياة الأخرى بعدها في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡۚ إِنَّ زَلۡزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيۡءٌ عَظِيمٞ ١﴾ [الحجّ: 1]، وهذا من وجوهِ إعجاز القرآن الكريم فسورة النِّسَاء تتحدَّث عن النشأة الأولى للخلق في الدُّنيا، وسورة الحجِّ تتحدَّث عن نهاية هذه الحياة وبداية النشأة الثّانية في الآخرة، وبما أنَّ سورة الحجِّ نزلت قبل سورة النِّسَاء، فهي عندما أسَّست لِبناء الإيمان الرَّاسخ في القلب بتذكِّر الآخرة، عادت في النِّسَاء لتتحدَّث عن البدءِ؛ فإنَّ العبرةَ بالخواتيم.

وقد أشار الرَّازي إلى هذا التَّشابه مُبينًا سرَّه بقوله: "جَعَلَ تعالى هَذَا المَطلعَ مَطلعًا لِسُورَتَينِ في القُرآنِ: إحدَاهُمَا: هَذِهِ السُّورَةُ - وهِيَ السُّورَةُ الرَّابِعَةُ مِنَ النِّصفِ الأَوَّلِ مِنَ القُرآنِ - ، والثَّانِيَةُ: سُورَةُ الحَجِّ - وَهِيَ أَيضًا السُّورَةُ الرَّابِعَةُ مِنَ النِّصفِ الثَّاني مِنَ القُرآنِ، ثُمَّ إِنَّهُ تَعَالَى عَلَّلَ الأَمرَ بِالتَّقْوَى في هَذِهِ السُّورَةِ بِمَا يَدُلُّ عَلَى مَعْرِفَةِ المُبتدأ، وَهُو أَنَّهُ تَعَالَى خَلَقَ الخَلقَ مِنْ نَفسٍ وَاحِدَةٍ، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى كَمَالِ قُدرَةِ الخَالِقِ، وَكَمَالِ عِلمِهِ، وَكَمَالِ حِكْمَتِهِ وَجَلَالِهِ، وَعَلَّلَ الأَمرَ بِالتَّقْوَى في سُورَةِ الحَجِّ بِمَا يَدُلُّ عَلَى كَمَالِ مَعرِفَةِ المَعَادِ، وَهُوَ قَولُهُ: إِنَّ زَلزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ [الحجّ: 1] فَجَعَلَ صَدرَ هَاتَينِ السُّورَتَينِ دَلَالَةً عَلَى مَعرِفَةِ المُبتدأ وَمَعرِفَةِ المَعَادِ، ثُمَّ قَدَّمَ السُّورَةَ الدَّالَّةَ عَلَى المُبتدأ عَلَى السُّورَةِ الدَّالَّةِ عَلَى المَعَادِ، وَتَحتَ هَذَا البَحثِ أَسرَارٌ كَثِيرَةٌ"(1).

إيثارُ التَّعريف بالإضَافةِ والاسم الموصول:

من دقائق التَّعبير القرآنيّ التَّعريف بالإضافة في ﴿رَبَّكُمُ﴾، والتَّعريفُ بالاسم الموصول ﴿ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ﴾ في قوله: ﴿ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ﴾، دون التَّعريفِ بالاسم الكريمِ العلمِ (اللّه)؛ لأنَّ في إسناد (رَبّ) إلى ضمير المخاطَبين،

التَّعريفُ بالإضافة في (ربكم) إشعارٌ بالفضل، وبيانٌ لعلّةِ الاتِّقاء

(1) الرَّازي، مفاتيح الغيب: 9/476.

والمجيء بالموصول وصلتِهِ إرشادًا للعباد لحقيقة لا يُنكرونَها، بأنَّه تعالى الربُّ والخالقُ، فضلاً عمّا فيهما من بيان لعلّة الاتِّقاءِ[1].

وفي هذا بيانٌ لاستحقاقِه - تعالى - للعبادة وحدَه دون غيره، وإشعارٌ بفضله ونعمته عليهم؛ فهو الّذي خلق النَّاسَ وهيَّأ لهم ما به قِوامُ حياتهم، فهو صاحبُ نعمةِ الخلق والإيجاد وغيرهما، وفيها أيضًا تعريضٌ بالمشركين إذ تقلَّبوا في نعم اللّه تعالى وعبدُوا غيرَه.

دلالة حرف الجّر ﴿مِّن﴾ وتكراره:

وجه التّكرار بيانُ اتِّصَالِ النَّاسِ، وأنَّ أصلَ النَّاس واحدٌ وإن تباعدَت أنسابُهم

جاء استعمالُ حرف الجرّ ﴿مِّن﴾ لابتداء الغاية في الآية الكريمة في قوله تعالى: ﴿مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ وتكرارُه بعدها في موضعين للمعنى نفسه: ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً﴾[2]، للدَّلالة على اتِّصَالِ النَّاسِ بَعضِهِم ببَعضٍ، وبيان أنَّ أصلَهم واحدٌ وإنْ تباعدَت بهم الأنسابُ في هذا الزَّمان، فـ ﴿مِّن﴾ هنا لابتداء الغاية وهذا يدلُّ على المساواة في الأصل الإنسانيّ عند النَّاس كلِّهم؛ فالنَّاس كلُّهم من آدم - عليه السلام - وهذا ما أقرَّه تنكير لفظ ﴿نَّفْسٍ﴾ ووصفها بـ ﴿وَٰحِدَةٍ﴾.

في تكرار (من) الابتدائيّة تقرير لوحدة الأصل الإنسانيّ

وعطفَ على الخلق الأوّلِ خلقَ حواء: ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ ليُقرِّر وحدة الأصل الإنسانيّ ثانية بـ (مِن) للابتداء؛ أي: أَخرَج خَلق حَوَّاء من ضِلعِ آدَمَ - عليه السلام - وهي مساواةٌ أخرى للنَّاس، لتأتي (من) الثالثة في: ﴿وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً﴾ لتذكِّرنا بهذا الأصل عن طريق الأرحام مرّة ثالثة، وهو استئنافٌ مَسوقٌ لتقرير وَحدةِ المبدأ وبيانِ كيفيةِ خلْقِهم منه؛ لأَنَّ "في مَعَاني هَذِهِ الصِّلَاتِ زِيَادَةَ تَحقيقِ اتِّصَالِ النَّاسِ بَعضِهِم ببَعضٍ؛ إِذ كلّهُم مِنْ أَصْلٍ وَاحِدٍ، وَإِن كَانَ خَلقُهُمْ مَا حَصَلَ إِلَّا مِنْ زَوجَينِ فَكُلُّ أَصلٍ مِنْ أُصُولِهِم يَنتَمِي إِلَى

(1) الآلوسي، روح المعاني: 2/391.
(2) السمين، الدرُّ المصون: 3/551.

أَصلٍ فَوقَهُ"[1]، وهذا التَّذكيرُ بالأصل الإنسانيّ، وتأكيدُه بالتَّكرار كافٍ لتراحم النَّاس وتآلفهم، والتّنبيه على وجوب مواصلة بعضهم بعضًا، لكونهم من ذات واحدة، فهم كبنيان يشدُّ بعضه بعضًا[2].

تقديمُ شبهِ الجملة ﴿مِنۡهَا﴾ ودلالتُه على مكانةِ المرأة ومنزلتِها:

التَّقديمُ للتَّشويق للمُتأخّر، وإظهارٌ لمكانة المرأة

من بلاغة الآية الكريمة تقديم متعلّقات الفعل شبه الجملة ﴿مِنۡهَا﴾ على المفعول به في قوله: ﴿وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ﴾، والضمير في ﴿مِنۡهَا﴾ يعود على آدم - عليه السلام - ، وفي تقديمِ هذا الضمير تشويقٌ لما بعده، وإبراز لقضية مهمّة وهي مكانةُ المرأة، ورعايةُ حقوقها؛ فقد أوردتها الآيةُ بعنوان الزَّوجيةِ الدَّاعي إلى الرِّفق والحبِّ والحنان، فهي خُلقت من ضلع آدم - عليه السلام - لتكون له سكناً، وراحةً، وبينهما أشدُّ اتصالٍ، وأقربُ علاقة[3].

إيجَازُ الحَذفِ على طريقةِ الاكتِفاء:

في الاستغناء بالمذكور تهذيبٌ للكلام، وصيانتُه من الثّقل

في النَّظم الكريم إيجازُ حذفٍ بالاكتِفَاء[4]؛ فقد ذكرَ الوصف ﴿كَثِيرٗا﴾ مع الرِّجال دليلاً على أنَّ المحذوفَ نفسَهُ مع النِّسَاء في قوله تعالى: ﴿وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ﴾ أي: وَنِسَاءً كثيراتٍ أو "كثيرة، فاكتَفَى بأحدهما عن الآخر"[5]، ويقرِّرُ هذا المعنى تنكيرُ ﴿رِجَالٗا﴾ ﴿وَنِسَآءٗۚ﴾ الدَّال على التَّكثير، ولا يخفَى ما لهذا الحذف من تهذيبٍ للعبارة، وصيانةِ الكلام من الثّقل والترهّل اللّذين يحدُثان من ذكر ما تدلُّ عليه القرينة[6]، فضلاً عن أنَّه ينبّه المتلقّي إلى البحث عن المحذوف، فيجعله يتجاوبُ مع ما يقرأ، فترسخُ المعلومةُ

(1) ابنُ عاشور، التّحرير والتّنوير: 4/216.
(2) الراغب، تفسير الراغب: 3/1078.
(3) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 2/138، والسعدي، تيسير الكريم الرحمن: 163.
(4) الاكتفاء: هو أن يقتضي المقام ذِكْرَ شيئَيْنِ بَيْنَهُمَا مناسبة، فيحذف أحدهما بدلالة الآخر لنكتةٍ، ينظر: محمد النواجي، الشفاء في بديع الاكتفاء، ص: 26.
(5) الكرماني، غرائب التَّفسير: 1/279.
(6) أبو موسى، خصائص التراكيب، ص: 118.

في نفسه ويقلُّ نسيانُه، وهذا مطلبٌ من مطالب الحذف في القرآن الكريم، وهذه هي غاية البلاغةِ المُتمثِّلة في استثمار أقلِّ ما يمكنُ من الألفاظ في أكثر ما يُمكنُ من المعاني هذا من جهة اللّفظ.

سرُّ تخصيص الرِّجال بالكثرة دون النِّساء:

المشهور من حال الرّجال الظهور والخروج، والمشهور من حال النساء السّتر، والاختفاء

بيّن الرَّازي علَّة وصف الرِّجال بالكثرة دون النِّسَاء بقوله: "فَإِن قِيلَ: لِمَ لَمْ يَقُل: وَبَثَّ مِنهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً كَثِيرًا؟ وَلِمَ خَصَّصَ وَصفَ الكَثرَةِ بِالرِّجَالِ دُونَ النِّسَاءِ؟ قُلنَا: السَّبَبُ فِيهِ - واللّه أَعلَمُ - أَنَّ شُهرَةَ الرِّجَالِ أَتَمُّ، فَكَانَتْ كَثرَتُهُم أَظهَرَ، فَلَا جَرَمَ خُصُّوا بِوَصفِ الكَثرَةِ، وَهَذَا كَالتَّنبِيهِ عَلَى أَنَّ اللَّائِقَ بِحَالِ الرِّجَالِ الاشتِهَارُ وَالخُرُوجُ وَالبُرُوزُ، وَاللَّائِقُ بِحَالِ النِّسَاءِ الاختِفَاءُ وَالخُمُولُ"[1]، وللإشارة إلى أنَّ للرِّجال على النِّسَاء درجةً؛ فهم أقوى وأظهر في رأي العين لما لهم من الانتشار وللنِّساء من الاستِتار[2].

دلالةُ الطِّباق الضدّيّة على كمالِ قدرة الله تعالى:

تنوّعُ الخلق من نسل واحدٍ من براهين ربوبيّته تعالى

من بديع نسيج الآية الكريمة الطِّباق[3]؛ إذ جمع بين (الرِّجال) وما يقابلهم (النِّسَاء)، في قوله تعالى: ﴿رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً﴾، ولا يخفى ما للطِّباق من بيانٍ لكمال قدرتِهِ سبحانه في الخلق، وبرهان من براهين ربوبيَّته، ودلالات حكمته؛ إذ "خلقَ جميعَ هذا الخلق من نسلِ شخصٍ واحدٍ، على اختلاف هيئتهم، وتفاوتِ صورهم، وتباين أخلاقهم، وأنَّ اثنين منهم لا يتشابهان، فلكلٍّ وجهٌ في الصُّورة والخلق، والهمّة والحالة، فسبحانَ من لا حدَّ لمقدوراته ولا غاية لمعلوماته"[4].

(1) الرازي، مفاتيح الغيب: 9/479.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 5/175.
(3) الطِّباق: ويُسمى أيضاً التَّضاد والمطابقة، هو الجمع بين الشيء وضدّه، ينظر: ابن الأثير، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر: 2/41.
(4) القشيري، لطائف الإشارات: 1/312.

نكتةُ تكرارِ صيغةِ الأمر بالتقوى:

في تكرار الأمر بالتّقوى تأكيدٌ لأمرِ التّقوى في النّفوس وتقريرُها

في قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ﴾ تكرارُ الأمر بالاتِّقاء؛ فقد أعاد الأمر بعد أنْ ذكره قبلها في قوله: ﴿ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم﴾، وفي هذا التَّكرار تأكيدٌ لأمر التَّقوى في النُّفوس وتقريرٌ لها، وتربية للمهابة في النفس، وتنبيهٌ للمخاطَبين بأهمّيتها، وبيانٌ لعظمها، فضلاً عن إفادته التَّذكير لبعض آخَرَ من موجبات الامتثالِ به؛ فإنَّ سؤالَ بعضِهم بعضاً بالله تعالى بأنْ يقولوا: أسألُك بالله، وأنشُدك الله على سبيل الاستعطافِ يقتضي الاتِّقاءَ من مخالفة أوامرِه ونواهيه[1].

افتراق الصّفات المتعلّقة بالتقوى سرُّ تكرارها:

أعاد الأمر بالتقوى؛ "لاقتران ذكرها بصفة تحثُّ سامعها على استعمال التقوى، كقولك: اتقِ الله الذي تخافه، واتقِ الله الذي بيده الخير، فهذه الصفات هي التي تُحَسِّنُ التكرير"[2].

بلاغةُ أسلوبِ التّرقي في إقرار الألوهيّة:

الاستدلالُ بالرّبوبية إلى استحقاقِه للألوهية وانفراده بها

جاء الأمرُ بالاتِّقاء بذكر الاسم الكريم العَلَم ﴿ٱللَّهَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ﴾ عقبَ وصفِه تعالى بالربّ قبلها في قوله: ﴿ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم﴾، على سبيل التَّرقي[3]، من الاستدلال بالرّبوبيَّة إلى استحقاقه للألوهيَّة وانفراده بها؛ لأنَّ تفرّده بالألوهيَّة بمنزلة النّتيجة لربوبيَّة الخلق، فلمّا كانت ربوبيتُه لهم لا ينازعُ فيها المخاطَبُون من المشركين به أعقبت بما يقتضي استحقاقه للتَّقوى؛ لأنَّه الإلهَ الحقَّ بقوله: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ﴾ تعريضاً بهم في أثناء الكلام، فضلاً عن ذلك فقد "عبَّر أوّلًا بلفظ (الربّ) الّذي يدلّ

(1) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 2/138، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 3/1577.
(2) الراغب، تفسير الراغب: 3/1080.
(3) التّرَقي: أنْ يُذكر الأدنى ثم الأعلى لنكتة، ينظر: السيوطي، الإتقان: 3/46.

على التّربية والإحسان، ثم بلفظ (اللّه) الّذي يدلُّ على الهيبةِ والقهر للتَّرغيب أولًا والتَّرهيب ثانيًا"[1].

وفي قوله ﷻ: ﴿ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ﴾ إشعارٌ بأنّه " ربُّ الجميع، ربّ الأبيض والأسود والعربي والأعجمي، والعالم والجاهل، فَصِلَةُ الجميع به واحدة، وهي صلة الربوبية، وإن هذه الصلة توجب أن يشعر الجميع بأنه لَا فضل لجنس على جنس، ولا للون على لون إلا بمقدار الاتصال الروحي بخالق الخلق، وذلك بالتقوى، فهذه الصلة مقوية للأمر بالتقوى، وأنها مناط التفضيل، وهي سبيل قوة الصلة الرابطة"[2].

صلة الرّبوبيّة توجب أن يشعر الجميع بأنه لَا فضل لجنس على جنس

أمرَ اللّه تعالى بالتقوى في المطلع أمرًا عامًا؛ " ولهذا قال: ﴿رَبَّكُمُ﴾ تنبيهًا على أفضاله، وإحالتهم على ما لا يمكن لأحد إنكاره، ولما قصدَ الحثَّ على المحافظة على الرَّحِم قدّم ذكر المُوجِد باللفظ الذي فيه التنبيه على القدرة التامة"[3]، فـ" مقام التقوى في الثاني غير مقام التقوى في الأول، فمقام التقوى في الأول هو مقام التقوى التي تتجلى في شكر الرّب على ما أنعم، وبقيام الواجب نحو الخلق للصلة الجامعة الوثيقة، فهي تقوى الربوبية والإنعام، ومقام التقوى في الثاني تقوى الألوهية، ولذلك ذكر لفظ الجلالة الدّالة على كل معاني الألوهية، فهي تقوى العابد الخائف الراجي رحمته، والأولى تقوى الشاكر المحس بجلائل الإنعام"[4].

في التَّعبير بلفظ الربوبية في المفتتح تنبيهٌ على أفضاله، وفي التَّعبير بالاسم الأعظم تنبيهٌ على القدرة التّامّة

سرُّ التَّعبير بالفعل (تساءَل):

عبّر عن سؤال اللّه تعالى، ودعائه بصيغة (التفاعل) مضارعًا؛ "زيادةً في التَّرغيب في تقواه، وتنبيهًا على كون تعظيمه منغرسًا

(1) المراغي، تفسير المراغي: 4/177.
(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 3/1574.
(3) الراغب، تفسير الراغب: 3/1077.
(4) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 3/1577.

في قلوبنا، حتى إنا إليه نفزع إذا سألنا"[1]؛ ففي طول اللفظة، والتعبير عنها بصيغة المضارع مجموعةً؛ حثٌّ على دوام سؤاله، والتضّرع اليه، واللجوء اليه، والتوكل عليه؛ فبالإلحاح تُفتحُ أبواب الرّحمات، ويرسّخ ذلك دلالة الفعل على المطاوعة بما تحمله من دلالة التأثّر وقبول أثر الفعل استجابةً، ومبادلة قرب، وذلكم مدعاةٌ لتقواه، وخشيته.

ما تقرب عبدٌ إلى الله بالسؤال إلا تقرّب إليه تعالى أضعافًا

قراءةُ الأرحام بالضّمّ والفتح:

قرأ الجُمهورُ ﴿وَٱلۡأَرۡحَامَۚ﴾ بالنَّصب على أنْ تكون الأرحامُ معطوفةً في إعرابها بالنَّصب على الاسم الكريم اللّه - تعالى ذكره - ؛ أي: اتَّقوا اللّه، واتَّقوا الأرحامَ فصِلُوها، ولا تقطَعُوها، أو معطوفًا على محل الجارّ والمجرور كقولك: مررتُ بزيدٍ وعمرٍو، وقرأ حمزة منفردًا ﴿وَٱلۡأَرۡحَامِۚ﴾ بالجرّ، عطفًا على الضَّمير المُتَّصل الواقع في محلّ جرّ بالباء في قوله: ﴿تَسَآءَلُونَ بِهِۦ﴾؛ أي: اتَّقوا اللّه الّذي تساءلُون به وتسألون بالأرحام[2]؛ لأنَّ العربَ جرت بهم العادةُ بأنَّ أحدَهم قد يستعطفُ غيرَه بالرَّحِم، فيقول: أسألك باللّهِ، والرَّحم، وربَّما أفرد ذلك فقال: أسألك بالرَّحم، وهو معنى لا يستقيمُ عقديًا لعدم جواز القسم أو السؤال بغير اللّه تعالى شرعًا، ولا يستقيمُ نحويًا عند البصريين؛ فهو ضعيفٌ عندهم - مع أنَّ الكوفيين أجازوه - ؛ لأنَّه كالعطف على بعض الكلمة؛ لأنَّ العطف على الضَّمير المخفوض من غير إعادة خافض، وإن كان لغةً فصيحةً فهو خلاف الكثير[3].

اقترانُ تقوى الله تعالى بصلةِ الأرحامِ لبيان عظمِ الرَّحِمِ وأهميتِها

كما أشار إلى ذلك ابن مالك بقوله[4]:

(1) الراغب، تفسير الراغب: 3/1078.

(2) الفراء، معاني القرآن: 1/282، وابن مجاهد، السبعة، ص: 226، وابن الأنباري، إيضاح الوقف والابتداء: 2/592، والأزهري، معاني القراءات: 1/290، وابن الجزري، النشر: 2/247.

(3) ابن خالويه، الحجة، ص: 118، وابن زنجلة، حجة القراءات، ص: 190.

(4) ابن مالك، متن ألفية ابن مالك، البيتان رقم (559) و(560)، ص: 36.

وَعَودُ خَافِضٍ لَدَى عَطْفٍ علَى *** ضَمِيرِ خَفضٍ لازِمًا قَدْ جُعِلاَ
وَلَيسَ عِندِي لازِمًا إِذْ قَدْ أَتَى *** فِيْ النَّظْمِ وَالنَثْرِ الصَّحِيحِ مُثبَتَا

وفي قراءة الجمهور بالنَّصب خروجٌ من الخلاف بين البصريين والكوفيين حول جواز إجراءِ الظَّاهر المجرور على المضمر المجرور[1]، وخروجٌ من إشكالية الحلف بغير الله تعالى[2].

ومع أنَّ قراءة الجمهور هي الأشهرُ والأصحُّ، نجد أنَّ في كلا القراءتين تنبيهًا على قيمة الرَّحم وأهمّية صِلَتِها لتقوية بناءِ الأسرة، والمحبَّة والتَّواصل فيما بينهم سواء بقراءة الجمهور أم بقراءة حمزة، فكلُّ قراءةٍ أظهرت لنا معنًى خاصًّا وقيمة إضافية للرّحِم "فقراءة النَّصب تحثُّ على صلة الأرحام وتحذِّر من قطعها؛ إذ أكثرُ اللّغويين على أنَّ التَّقدير: واتَّقوا الأرحامَ، وليس معنى اتقائها إلّا صلتها وعدم قطعها والإحسان إليها، وأمّا قراءة الجرّ ففيها رفعٌ من شأن الرَّحم وتذكيرٌ لهم بصنيعتهم؛ إذ كانوا في عظائم أمورهم يتساءلُون بالأرحام"[3]، فالقراءتان في كلمة ﴿وَٱلۡأَرۡحَامَۚ﴾ مع اختلافهما جاءتا للدَّلالة على هذه المعاني كلِّها مجتمعة.

دلالةُ الإظهار في موضع الإضمَار:

تربيةُ المهابةِ وإدخالِ الرّوعة فِي ضَمَائِرِ المُخاطَبين

من بلاغة الآية الكريمة الإظهارُ في موضع الإضمَار[4]، وهو من أنواع الإطنابِ؛ إذ أظهر الاسم الكريم العَلَم ﴿ٱللَّهَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾ دون ضَمِيرٍ يَعُودُ إِلَى ﴿رَبَّكُمُ﴾ المذكور قبلها، فيقول: (واتقوا الّذي... إنّه كان عليكم رقيبًا)؛ لأنَّ في استحضار الاسم الكريم على طريقة الإظهار تأكيدًا ومبالغةً في الحمل على الامتثال بتربية المهابةِ وإدخالِ الروعة فِي ضَمَائِرِ المُخاطَبين؛

(1) الأخفش، معاني القرآن، ص: 151.
(2) الزَّجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 2/6.
(3) فضل عباس، القراءات القرآنية وما يتعلق بها، ص: 312.
(4) الإظهار في موضع الإضمار: التصريح باللفظ وإبرازه في الموضع الذي يُغني عنه الضمير لنكتة يقتضيها المقام، ينظر: قواعد التَّفسير، خالد عثمان السبت: 1/338 - 339.

لوقوع التساؤل به لا بغيره من أسمائه تعالى وصفاته[1]، و"لأَنَّ المَقَامَ مَقَامُ تَشرِيعٍ يُنَاسِبُهُ إِيثَارُ المَهَابَةِ بِخِلَافِ مَقَامِ قَولِهِ: ﴿ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ﴾ فَهُو مَقَامُ ترغيب"[2].

فاصِلةُ الآيَةِ الكريمَةِ بَينَ التَّذييلِ والاحتِرَاسِ:

في التذييل تأكيدٌ لما قبل الآية، وتقريرٌ لمضمونه

جاءت فاصلةُ الآية الكريمة بالأسلوب الخبري المؤكَّد في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾، وختم الآية بهذه الفاصلة فيه من المناسبة لموضوع الآية ما لا يخفى، فهي تذييلٌ[3] للآية، واحتراسٌ لها[4] في الوقتِ نفسِه، تذييل؛ لأنَّها تأكيدٌ لمضمون ما قبلها، فـ (رقيب) بمعنى حفيظٍ، وهو فعيلٌ بمعنى فاعل للمبالغة في الحفظ، فهو تعالى المطَّلع على ما يصدرُ عن العباد من الأفعالِ والأقوالِ كلِّها، وختمُ الآيةِ بتأكيد رقابته عليهم تعليلٌ للأمر بالتَّقوى ووجوبِ الامتثالِ به؛ لأنَّ فيها معنى رصدِ الألفاظ والحركات من العباد، وفي هذا التذييل تلويحٌ بالعقوبة لهم[5].

و"حثٌّ على المبالغة في التقوى ورعاية الرّحم، والصلات الإنسانية التي تربط بين الناس بعضهم للوحدة الإنسانية الشاملة، وكان الحثُّ على التَّقوى لإشعارهم جميعًا بقوة رقابة الله ﷻ"[6].

في الاحتراس دفعُ توهّم أنّ النّجاة من رقابة الله بكثرة العباد وانتشارهم

أما الاحتراسُ؛ فلأنَّ فيها دفعَ توهّم قد يحصلُ ممن يظنُّ أنَّ كثرةَ العباد وانتشارَهم في الأرض، يمكِّنُ أن تُنجيه من رقابة الله تعالى له الّتي تحصي كلَّ شيء، فجاء بالفاصلة المتضمّنة لرقابة الله تعالى بالأسلوب الخبري المؤكد للدلالةِ على أنّه - تعالى - لا تعجزُه

(1) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 2/138.
(2) ابنُ عاشور، التّحرير والتّنْوير: 4/217.
(3) التّذييل: "تعقيب الجملة بجملة تشتمل على معناها للتوكيد"، ينظر: القزويني، الإيضاح، ص: 179.
(4) الاحتراس: "أن يؤتى في كلام يوهم خلاف المقصود بما يدفعه"، ينظر: القزويني، الإيضاح، ص: 180.
(5) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/5.
(6) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 3/1578.

كثرةُ العباد؛ لأنّه تعالى الرَّقيب عليهم، ومن كانت هذه صفته؛ فإنّه يجب أن يُخاف منه ويُتّقى[1].

دلالة ﴿كَانَ﴾ في الفاصلة:

في استحضار ﴿كَـــــانَ﴾ في الفاصلة نفيٌ لتَقييد الخَبَرِ بِالمُخبَرِ عَنهُ فِي الزَّمَانِ المَاضِي

وممّا يُقرِّر معنى التَّذييل والاحتراس مجيء ﴿كَانَ﴾ في الفاصلة، للدلالةِ على الاستمرارية؛ لأنّه "لَا يُرَادُ بـ ﴿كَانَ﴾ تَقييدُ الخَبَرِ بِالمُخبَرِ عَنهُ فِي الزَّمَانِ المَاضِي المُنقَطِعِ فِي حَقِّ اللّٰه تَعَالَى، وَإِن كَانَ مَوضُوعُ ﴿كَانَ﴾ ذَلِكَ، بَلِ المَعنَى عَلَى الدَّيمُومَةِ فَهُوَ تَعَالَى رَقِيبٌ فِي المَاضِي وَغَيرِهِ عَلَينَا"[2].

براعةُ توكيد الرَّقابة الإلهيّة:

في رقابته تحقيقٌ لفعل التقوى، وتأكيد لصلة الأرحام

ذكر العليُّ القديرُ رقابتَه في الفاصلة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾ "مؤكَّدة بأوثق توكيد، فأكدها بـ ﴿إِنَّ﴾، وبتكرار لفظ الجلالة الذي يربّي في نفس المؤمن كلّ معاني العبودية، وبالتَّعبير بـ ﴿كَانَ﴾ الدّالّة على الدوام والاستمرار، وبذكر الفوقية في قوله تعالى: ﴿عَلَيۡكُمۡ﴾ وهي دالة على معنى الاطلاع الدائم مع السيطرة والقهر، وأخيرا بصفة المبالغة؛ إذ قال: ﴿رَقِيبٗا﴾ وإن اللّٰه يؤكد صلة الأرحام بهذا وباقترانها به في الذكر وباقترانها به عند السؤال باسم اللّٰه تعالى"[3].

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الرَّقيب والحفيظ:

الرَّقيبُ: "الحَافِظ الَّذِي لَا يغيب عَمَّا يحفظُه"[4]، والرَّقيب في نعوت الإنس الموكَّل بحفظ الشَّيء المُترصِّد له، المُتحرِّز عن الغفلة،

(1) الرّازي، مفاتيح الغيب: 9/482.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/500.
(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 3/1578.
(4) الزَّجَّاج، تفسير أسماء الله الحسنى، ص: 51.

أمَّا الرَّقيبُ في صفات اللّه تعالى فيتضمَّن التَّفتيش[1]، والرَّقيبُ يرجعُ في معناه إلى صفة العلم، فالرَّقيبُ يجمعُ العليمَ والحفيظَ؛ فهو الّذي يرقبُ كلَّ شيء ويحفظُه، ويعلمُ كلَّ شيء ويخبُرُه، قال الإمام الغزالي: "الرَّقيبُ: هُوَ العَلِيم الحفيظُ، فَمن رَاعى الشَّيء حَتَّى لم يغْفل عَنهُ، ولاحظه مُلَاحظَة دائمة لَازِمَة لُزُومًا لَو عرفه المَمنُوع عَنهُ، لما أقدم عَلَيْهِ سُمّي رقيبًا، فَكَأَنَّهُ يرجعُ إِلَى العلم وَالحِفظ، ولَكِن بِاعتِبَار كَونه لَازِمًا دَائِمًا بِالإِضَافَة إِلَى مَمنُوع عَنهُ محروس عَن المتناول"[2]؛ فالرَّقيب في أسمائه تعالى يجمعُ من الأسماء الحُسنى العليمَ والحفيظَ والشّهيدَ[3]، أمّا الحفيظُ في أسماء اللّه تعالى فهو الّذي لا يعزب عن حفظه الأشياء كلّها مثقال ذرّة في السَّموات والأرض، وقد حفظ السَّموات والأرض بقدرته[4]، واسم الحفيظ يتضمَّن معنى العليم والشّهيد، وتأويل ذلك أنَّ الحافظ للشَّيء علم به في أكثر الأحوال؛ إذ مَن خفيت عليه أحواله لا يتأتَّى له حفظه، ويفترق من الرَّقيب في أنَّه لا يتضمَّن مراقبة الأمور والتَّفتيش عنها[5]، والحفيظ في صفات المخلوقين هو الموكَّل بحفظ الشَّيء، يُقال: فلان حفيظنا عليكم وحافظنا؛ لذا قال تعالى على لسان يوسف عليه السلام: ﴿قَالَ ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ ٥٥﴾ [يوسف: 55][6]، من هنا تظهر دقَّة التَّعبير القرآنيّ بالرَّقيب دون الحفيظ في سورة النِّسَاء، لما في الرَّقيب من دلالة الشُّمول على المراقبة والتَّفتيش والعلم مع الحفظ، قال أبو هلال العسكريّ: "الْفرق بَين الحفيظ والرَّقيب، أَنَّ الرَّقيب هُوَ الَّذِي يرقبك لِئَلَّا يخفى عَلَيْهِ فعلك، وَأَنت تَقول لصاحبك إِذا فتّش عَن أمورك: أرقيب عَليّ أَنْت؟ وَتقول راقب اللّه، أَي اعْلَم أَنَّه يراك فَلَا يخفى عَلَيْهِ فعلك، والحفيظ لَا يتَضَمَّن معنى التَّفتيش عَن الْأُمُور والبحث عَنْهَا"[7].

(1) ابن الجوزيّ، زاد المسير: 1/367.
(2) أبو حامد الغزالي، المقصد الأسنى، ص: 117 - 118.
(3) ابن عيسى، توضيح المقاصد: 2/228، والدوري، دقائق الفروق اللغوية، ص: 134.
(4) ابن منظور، لسان العرب: (حفظ).
(5) العسكري، الفروق اللغوية: 169 - 170، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 2/451.
(6) ابن منظور، لسان العرب: (حفظ).
(7) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 206.

﴿وَءَاتُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰٓ أَمۡوَٰلَهُمۡۖ وَلَا تَتَبَدَّلُواْ ٱلۡخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِۖ وَلَا تَأۡكُلُوٓاْ
أَمۡوَٰلَهُمۡ إِلَىٰٓ أَمۡوَٰلِكُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبٗا كَبِيرٗا ٢ وَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا
تُقۡسِطُواْ فِي ٱلۡيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثۡنَىٰ
وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۖ فَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا تَعۡدِلُواْ فَوَٰحِدَةً أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۚ
ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُواْ ٣ وَءَاتُواْ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحۡلَةٗۚ فَإِن طِبۡنَ
لَكُمۡ عَن شَيۡءٖ مِّنۡهُ نَفۡسٗا فَكُلُوهُ هَنِيٓـٔٗا مَّرِيٓـٔٗا ٤ وَلَا تُؤۡتُواْ
ٱلسُّفَهَآءَ أَمۡوَٰلَكُمُ ٱلَّتِي جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمۡ قِيَٰمٗا وَٱرۡزُقُوهُمۡ فِيهَا
وَٱكۡسُوهُمۡ وَقُولُواْ لَهُمۡ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا ٥ وَٱبۡتَلُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا
بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ فَإِنۡ ءَانَسۡتُم مِّنۡهُمۡ رُشۡدٗا فَٱدۡفَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡۖ وَلَا
تَأۡكُلُوهَآ إِسۡرَافٗا وَبِدَارًا أَن يَكۡبَرُواْۚ وَمَن كَانَ غَنِيّٗا فَلۡيَسۡتَعۡفِفۡۖ
وَمَن كَانَ فَقِيرٗا فَلۡيَأۡكُلۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ فَإِذَا دَفَعۡتُمۡ إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡ
فَأَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِمۡۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبٗا ٦﴾ [النِّسَاء: 2 - 6]

مُناسَبَةُ الآيَاتِ لِمَا قَبْلَها:

أداء حُقوق الضُّعفاء بأمانة ووفاء، من موارد التَّقوى الواقيّة من الجفاء:

لمَّا ذَكَرَ تعالى التّقوى ومُوجِباتها، ومنها صلةُ الأرحام، وحرّم قطعَها في الآية الأولى من سورة النّساء، شرعَ بعدها في بيان موارد التَّقوى، ومنها الحفاظُ على حقوق الضُّعفاء، ورعاية المُستضعفين وأداءِ حقوقهم، كتطبيقٍ عمليٍّ للتَّقوى واختبارٍ لها، فابتدأ باليتامى؛ لانقطاع صلتِهم بأقرب الأرحام إليهم، وهم والديهم، "لإظهار كمال العناية بشأنهم ولملابستِهم بالأرحام؛ إذ الخطابُ للأوصياء والأولياء"[1]، ثمّ ثنّى بذكر النِّسَاء وحماية حُقوقِهنَّ، واليَتِيم والمَرأَة مُسْتَضعَفَانِ في المجتمع، وبخاصّة في عصر الجَاهِلِيَّةِ، فلذلك عمل

(1) الآلوسي، روح المعاني: 2/396.

القُرآن على حراسة حقوق اليتيم والمرأة أَشَدَّ الحِرَاسَة، وأورد حُكم النِّكَاح بين الوصيّتين، ليكون مناسبا للتَّهْيِيء لِعَطفِ هذا الكلام، بعضه على بعض، ومن أوجه التّناسب في ذلك أيضًا، أَنَّهُ جعل حفاظ الأوصياء على حُقوق الأَرحام من تَقوَى الله في التّواصي بالأرحام؛ لأَنَّ المُتَصَرِّفِينَ في أَموَالِ اليَتَامَى والنِّسَاء في غالِبِ الأَحوَال هم قرَابتُهم، أَو يَجعَلُونَ للأَرحام من الحَظِّ ما جَعَلَهُم يُقسمُونَ بها، كما يُقسِمون بِالله، وَشَيءٌ هذا شَأْنُه، حَقِيقٌ بِأَن تُرَاعَى أَوَاصِرُهُ وَوَشَائِجُه[1].

شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

1) ﴿وَءَاتُواْ﴾: أعطُواْ، وهو فعلُ أمر للجماعة من آتَى يُؤَتِي إِيتَاءً، وآتاهُ إِيتاءً أَي أَعطاه، والإِيتاءُ: الإِعْطاء، وآتَى إِليه الشّيءَ: ساقَه، والأَتِيُّ: النَّهَرُ يَسوقه الرَّجُلُ إِلى أَرْضه، وكلُّ مَسيل سَهَّلْته لماءٍ أَتِيٌّ، وَهُوَ الأُتِيُّ؛ وآتَاهُ عَلَى الأَمرِ: طاوَعَه، والمُؤَاتَاةُ: حُسنُ المُطاوَعةِ والمُوافقةِ، وآتَيْتُه عَلَى ذَلِكَ الأَمْر مُؤَاتَاةً إِذا وافَقْته وطاوَعته[2]، فـ (آتى) بالمدِّ فعل يُستعمل للإعطاء بسلاسةٍ ومطاوعةٍ، مع الرِّضا والقبول والرِّفق بالعطاء، ولهذا خُصَّ دفع الصَّدقة وغيرها، من حقوق الأموال في القرآن بـ (الإيتاء) دون (الإعطاء) أو غيره[3]، والإيتاءُ حقيقتُه الدَّفعُ والإعطاءُ الحِسّيُّ، يُرادُ به في هذه الآية لازم الإيتاء، وهو فرز أموالهم عن أموال الوليِّ والوصيِّ، وتعيينها وحفظها، وكفُّ الأيدي الظّالمة عنها وتهيئتها بالعفَّة وحسن التَّصرف فيها وتسليمها لهم حال البلوغ والرّشد.

2) ﴿ٱلْيَتَـٰمَىٰٓ﴾: جمعُ يتيم ويتيمة، من مات أبوه دون سنِّ البلوغ، وأصل اليُتم في اللُّغة: الانفراد والغفلة والإبطاء، فاليَتِيم: الفَرْدُ؛ لأَنَّ اليتيم ينفرد بعد موت والده، ويتغافل النَّاس عن الإحسان إليه، ويبطئون عن برِّه، وهو من يَتِمَ الصّبيُّ بالكسر يَيْتَمُ يُتْماً ويَتْماً، أي: مات أبوه، فهو يَتِيمٌ حتّى يبلغَ الحُلُم، فإنْ ماتت أمُّه فهو العَجِيّ، وإنْ فقد أبويه، فهو اللَّطيم؛ ولم يعتدّ العرب ولا الشَّرع بفقد الأمّ في إطلاق وصف اليتيم إذ لا يعدم الصبيُّ كافله، ولكنَّه يعدم بفقد أبيه من يدافعُ عنه ويحمي ظهره، ويُنفق عليه ويقومُ بتأديبه

(1) الرازي، مفاتيح الغيب: 9/382، وابنُ عاشور، التّحرير والتّنْوير: 4/218 و229.

(2) ابن منظور، لسان العرب: (أتى).

(3) مثل قوله تعالى: ﴿وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [البقرة: 177].

وتعليمه، ويجمعُ اليتيم على (اليتامى)، و(الأيتام)، و(اليَتَمَة)[1]، ومنه دُرَّةٌ يَتِيمَةٌ؛ أي: لا نظيرَ لها لانفرادها عن غيرها بحُسنها، وبَيْتٌ يَتِيمٌ تشبيهًا بالدّرّة اليَتِيمَةِ[2]، واليتيمُ اصطلاحًا: الصَّغير الّذي فقد أباه وهو دون سنِّ البلوغ حقيقةً، وهذا الاسمُ يزولُ عن اليتيم بمجردِ البلوغ، ولا يطلقُ عليه بعد البلوغ إلا باعتبار ما كان، على سبيل المجاز[3].

3) ﴿أَمْوَٰلَهُمْۖ﴾: أي أموال اليتامى، والأموالُ جمعُ مالٍ وهو ما يُملك من نقدٍ وذهبٍ ومواشٍ، وغيرها من العروض المُعدّة للتّجارة[4]، قَالَ ابنُ الأَثير: "المَالُ في الأَصل مَا يُملك مِنَ الذَّهَبِ وَالفِضَّةِ، ثُمَّ أُطلِق عَلَى كُلِّ مَا يُقْتَنَى ويملَك مِنَ الأَعيان، وأَكثر مَا يُطلق المَالُ عِندَ العَرَبِ عَلَى الإِبل؛ لأَنَّهَا كَانَت أَكْثَرَ أَموَالِهِمْ"[5]، يُقال: مالَ الرَّجُلُ يَمُولُ ويَمَالُ مَوْلًا ومُؤولًا، إذا صَارَ ذَا مالٍ، وتصغيره مُوَيْل، ومِلْتَ بَعْدَنَا تَمالُ، ومُلْت وتَمَوَّلْت، كُلُّهُ: كثُر مالُك، وَهُوَ رجلٌ مالٌ، وتَمَوَّلَ مِثْلُهُ ومَوَّلَه غَيْرُهُ، وفي الحَدِيثِ: «خُذْهُ، فَتَمَوَّلْهُ، وَتَصَدَّقْ بِهِ»[6]، وتَمَوَّلَه أَي اجْعَلْهُ لَكَ مَالًا، والمال يُذكّر ويؤنَّث، يُقال: هو المالُ وهي المالُ[7].

4) ﴿ٱلْخَبِيثَ﴾: الرَّديءُ والخسيسُ والفاسدُ، وهو ضِدُّ الطَّيِّبِ مِنَ الرِّزْق والولدِ والنّاسِ، يُقال: خَبُثَ الرّجلُ خُبْثاً، وَأَخْبَث، فَهُوَ خَبيثٌ أَي خبٌّ رَدِيءٌ، وخَبُثَ الشّيءُ يَخْبُثُ خَباثَةً وخُبْثاً، فَهُوَ خَبيثٌ: رديءٌ وخسيسٌ، وهو الحرام، والجمعُ: خُبَثاء، وخِبَاثٌ، وخَبَثَة، وأصله الرّديء، الجاري مجرى خبثِ الحَدِيدِ، ما نَفَاه الكِيرُ إذا أُذيب، وهو ما لا خيرَ فيه[8]، والأخبثان: البولُ والغائطُ، كما جاء في حديث رَسُول اللّهِ ﷺ يَقُولُ: «لَا صَلَاةَ بِحَضْرَةِ الطَّعَامِ، وَلَا وهُوَ يُدَافِعُهُ الْأَخْبَثَانِ»[9]. فالخبيثُ: "نعتُ كلِّ شيءٍ فاسدٍ، خَبيثِ الطَّعم، وخبيثِ اللَّون"[10]، وهو ما يُكره رداءةً وخساسةً، محسوسًا كان أو معقولًا،

(1) ابن منظور، لسان العرب: (يَتَمَ).
(2) الراغب، المفردات، ص: 889.
(3) الجصّاص، أحكام القرآن: 2/339.
(4) السّمين، عمدة الحفّاظ: 4/126.
(5) ابن الأثير، النّهاية: 4/373.
(6) البخاريّ، الحديث رقم: (7163).
(7) ابن منظور، لسان العرب: (مول).
(8) ابن منظور، لسان العرب: (خبث).
(9) مسلم، الحديث رقم: (560).
(10) الخليل، العين: (خبث).

وبذلك يتناولُ الباطلَ في الاعتقاد، والقبيحَ في الفِعال[1]. ومن هذا يُطلق الخبيثُ على ما استقبحه الشَّرعُ، كالحرام من المالِ، والقبيحِ من الأفعال، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَبَدَّلُواْ ٱلۡخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِۖ﴾ [النِّسَاء: 2]؛ أي: الحرام بالحلال، وكانوا يأخذون الأجودَ من مالِ اليتيم، ويجعلون مكانَه الأردأ كتبديل السّمين بالهزيل[2].

5) ﴿بِٱلطَّيِّبِۖ﴾: خلافُ الخَبيث[3]، مِن طَابَ الشّيءُ يَطِيبُ طَيْباً، فهو طَيِّبٌ، وأصل الطَّيِّبِ: ما تستلذّه الحواسُّ، وما تستلذّه النَّفسُ، قال علقمة الفَحْل الشّاعر:

يَحْمِلْنَ أُتْرُجَّةً نَضَخَ العَبِيرُ بِهَا *** كَأَنَّ تِطْيَابَهَا فِي الْأَنْفِ مَشْمُومُ[4]

والطّعامُ الطَّيِّبُ في الشّرع: ما كان متناولًا من حيثُ ما يجوز، ومن المكان الّذي يجوز؛ فإنّه متى كان كذلك كان طَيِّباً عاجلًا وآجلًا لا يستوخمُ، وإلّا فإنّه - وإن كان طَيِّباً عاجلًا - لم يَطِبْ آجلًا[5].

6) ﴿وَلَا تَأۡكُلُوٓاْ﴾: نهيٌ عن الأكل، و﴿تَأۡكُلُوٓاْ﴾ مضارعٌ من أَكَلَ الطَّعَامَ يأْكُلُه أَكْلًا، فَهُوَ آكِل والجمع أَكَلَة، تَنَاوَلَهُ بَعْدَ مَضْغِهِ والأَكْل: اسمُ المأكول، والأُكُل: الثَمَر[6]، واسْتَأكلهُ الشَّيْءَ: أَي طَلَبَ إِلَيهِ أَن يَجعَلَه لَهُ أُكْلَةً[7]، هذا المعنى الحسيُّ للأكل، ثُمَّ تطوَّر دلاليًّا، فقيل أكلَ ضربًا: ضُرب، ويَأْكُلُ الصَّدَأُ الحَدِيدَ: يَقْرِضُهُ، ويَأْكُلُ أَمْوَالَ النَّاسِ كَذِباً وَبُهتَاناً: يَأْتِي عَلَيهَا، ويَأْخُذُهَا وَيَصرِفُهَا، أَكَل مالَ أخيه: استباحَه، واغتصبَه، وأخذه لنفسه دون وجهِ حقّ، وأَكَلَتِ النَّارُ الحَطَبَ: أَي أَتَتْ عَلَيهِ وَأَفْنَتهُ، ودَمَّرَتْهُ[8]. فالأصلُ الواحدُ في هذه المادَّة: هو التَّناولُ الملازمُ إزالة الصُّورة والتَّشخُّص من الطَّرف المأكول، ففي أكل الطَّعام: يتناولُ الآكل من الطَّعام بحيث يزيلُ صورتَه، وفي أكل الأموال بالباطل، تناولُها والتّصرُّفُ فيها، حتّى تزولَ صورةُ المملوكيّة لصاحبِها[9]، والمرادُ من الأكل في ﴿وَلَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَهُمۡ﴾، معناه

(1) ابن الجوزي، نزهة الأعين النواظر، ص: 270 - 271.
(2) الراغب، المفردات: (طَيَبَ).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (طَيَبَ).
(4) الجوهريّ، الصّحاح: (طَيَبَ).
(5) الراغب، المفردات: (طَيَبَ).
(6) ابن منظور، لسان العرب: (أكل).
(7) الزَّبيدي، تاج العروس: (أكل).
(8) د، أحمد مختار عمر، معجم اللّغة العربيّة المعاصرة: (أكل).
(9) المصطفويّ، التّحقيق في كلمات القرآن الكريم: 1/91.

المجازيُّ وهو مطلقُ الانتفاع، وغالبًا ما يكونُ بخلط مال اليتيم بمال الوصيِّ، وعدم التَّمييز بينهما، أو التَّحرّج من استهلاكهما معا، فقوله: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓاْ﴾، بمعنى: لا تأخذواْ، فعبَّر بالأكل؛ لأنَّه مسبَّبٌ عن الأخذ مجازاً[1].

7) ﴿حُوبًا﴾: الحُوبُ: الإثمُ، من حَابَ حُوباً وحَوْباً وحِيَابَةً، والأصل فيه حوب لزجر الإبل، وَفُلَانٌ يَتَحَوَّبُ مِنْ كَذَا؛ أَي يَتَأَثَّمُ، وحابَ فلانٌ: ارتكبَ إثمًا، وسُمّي الإثم حوباً لكونه مزجوراً عنه[2]، ومنه الحَوْبَةُ: كُلُّ حُرمَةٍ تَضِيعُ إِنْ تَرَكَهَا مِنْ أُمٍّ أَوْ أُخْتٍ أَوِ ابنَةٍ أَوْ غَيرِها، والحَوْبَةُ أيضاً: الرَّجُلُ الضِّعيفُ، وَالمَرْأَةُ الضَعِيفَةُ، وهي أيضًا المسكنةُ والحاجةُ والفقرُ[3]، فالحَاءُ وَالوَاوُ وَالبَاءُ أَصْلٌ وَاحِدٌ يَتَشَعَّبُ إِلَى إِثمٍ، أَو حَاجَةٍ أَوْ مَسْكَنَةٍ، وَكُلُّهَا مُتَقَارِبَةٌ[4]؛ لدلالتها على العجز أو الثّقل من ضعف، من هنا يتبيَّن لنا أنَّ المعنى الحسّيّ للفظة الحوب، هو زجر الإبل، ثُمَّ أطلق على من يُرتكب الإثمَ؛ لأنَّ الّذي يرتكب الإثم يُزجر كذلك، ووُصِفَ الحوبُ في الآية بالكبير؛ لأنَّه اعتداءٌ على ضعيف، والاعتداءُ على الضَّعيف أكبرُ الإثم؛ ولأنَّه خيانةٌ للأمانة، ولأنَّه تضييعٌ لنفس بشريّة، وهي نفس اليتيم؛ لأنَّه إذا كان يُؤكل مالُه فمِمَّ يأكلُ؛ ولأنَّ ذلك يُنشئ اليتيمَ على النّفرة من المجتمع وسخطه على أفراده[5].

8) ﴿خِفۡتُمۡ﴾: الخَوفُ: ضدّ الأمن، وتدور مادّتُه حول الذُّعْرِ وَالفَزَعِ، يُقَالُ: خافَ يَخافُ الشَّيْءَ خَوْفًا وَخِيفَةً، أصلُها خِوْفَةٌ، أُبدلت اليَاءُ وَاوًا لِمَكَانِ الكَسرَةِ[6]، وخاف الشَّخصُ: شعرَ بنوع من الاضطراب بسببِ اقتراب مكروه أو توقّعه، تهيَّب، ارتعبَ، فَزِع وقفَ خائفًا أمام تهديداته[7]، والمعنى المحوريُّ للخوف: فراغٌ كبير في جَوف الشّيء لذَهابِ ما كان يشغلُه أو انتقاصِه، وهو يتخوّفُ المالَ: يتنقَّصه ويأخذ من أطرافه، ومن الأصل: الخَوف:

(1) صافي، الجدول: 4/308.
(2) الراغب، المفردات، ص: 261.
(3) الزَّبيديّ، تاج العروس: (حَوَبَ).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حَوَبَ).
(5) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 3/1580.
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (خَوَفَ).
(7) العسكريّ، الفروق اللغوية: 217.

الفَزَع، فكأنّ الّذي يخاف منخوبُ الفؤاد[1]، والخَوْف اصطلاحًا: "توقّعُ حلولِ مكروه، أو فواتِ محبوب"[2]، ويستعملُ ذلك في الأمور الدّنيوية والأخروية.

9) ﴿أَلَّا تُقْسِطُواْ﴾: القَافُ وَالسِّينُ وَالطَّاءُ، أَصْلٌ صَحِيحٌ يَدُلُّ عَلَى مَعنَيَينِ مُتَضَادَّينِ والبِنَاءُ وَاحِدٌ، فَالقِسْطُ: العَدْلُ، وَالقَسْطُ - بِفَتْحِ القَافِ - : الجَوْرُ لأخذه حقَّ غيره[3]، ويُقَالُ: أَقْسَطَ يُقْسِطُ، فَهُوَ مُقْسِطٌ إذا عدَل، وقَسَطَ يَقْسِطُ، فَهُوَ قاسِطٌ إذا جارَ، فكأَن الهَمْزَةَ في أَقْسَطَ للسَّلْب، كَمَا يُقَالُ شَكا إليه فأَشْكاه، والقِسْطُ: الكُوزُ عِنْدَ أَهل الأَمصار، والقِسْطُ: مِكْيالٌ[4]. والقِسْطُ: الحصّةُ والنّصيبُ بالعدل كالنّصف والنّصفة، قال تعالى: ﴿لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلْقِسْطِۚ﴾ [يونس: 4]، والقِسْطُ: هو أن يأخذَ قسطَ غيره، وذلك جورٌ، والإِقْسَاطُ: أن يعطي قسطَ غيره، وذلك إنصافٌ، ولذلك قيل: قَسَطَ الرّجل: إذا جارَ، وأَقْسَطَ: إذا عدلَ، وتَقَسَّطْنَا بيننا، أي: اقتسمنا، والقَسْطُ: اعوجاجٌ في الرّجلين بخلاف الفَحَجِ،، وَالقِسطَاسُ: الميزانُ[5]. وممّا سبق يتبيّنُ أنَّ الأصلَ الواحدَ في المادّة: هو إيصالُ شيءٍ إلى مورده، وإيفاءُ الحقّ إلى محلّه، وهذا المعنى إنّما يتحقّقُ في مقام إجراءِ العدل وإعماله في الخارج.

10) ﴿فَٱنكِحُواْ﴾: من النِّكاح: وهو الوطءُ، وقد يكون العقدَ، تقول: نَكَحتُها، ونَكَحَتْ هي، أي تزوَّجت، وهي ناكِحٌ في بني فلان، أي هي ذات زوج منهم، واسْتَنْكَحَها بمعنى نَكَحَها، وأَنْكَحَها، أي زوَّجها[6]، والنّكاحُ في الأصلِ عند العرب: لزومُ الشّيءِ والإكبابُ عليه، وقيل: أصلُه المداخَلَةُ ومنه: تناكَحَت الشّجرُ: أي تداخلت أغصانُها، فَيَكُونُ النِّكَاحُ مَجَازًا فِي العَقْدِ وَالوَطْءِ جَمِيعًا، لأَنَّهُ مَأْخُوذٌ مِنْ غَيرِهِ فَلَا يَستَقِيمُ القَولُ بِأَنَّهُ حَقِيقَةٌ، لَا فِيهِمَا وَلَا فِي أَحَدِهِمَا، وَيُؤَيِّدُهُ أَنَّهُ لَا يُفهَمُ العَقدُ إلَّا بِقَرِينَةٍ نَحْوُ: نَكَحَ فِي بَنِي فُلَانٍ، وَلَا يُفْهَمُ الوَطْءُ إلَّا بِقَرِينَةٍ، نَحْوُ: نَكَحَ زَوْجَتَهُ؛ وَذَلِكَ مِنْ عَلَامَاتِ المَجَازِ، وَإِنْ قِيلَ غَيرُ مَأْخُوذٍ

(1) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: 1/584 - 585.
(2) الجرجانّي، التّعريفات، ص: 101.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قَسَطَ).
(4) ابن منظور، لسان العرب: (قسط).
(5) الراغب، المفردات، ص: 670.
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نَكَحَ).

مِنْ شَيءٍ، فَيَتَرَجَّحُ الاشْتِرَاكُ؛ لأَنَّهُ لَا يُفْهَمُ وَاحِدٌ مِنْ قِسْمَيهِ إلَّا بِقَرِينَةٍ[1]. ويُطْلَقُ النّكاحُ على العَقْد، ثم استُعِيرَ للجِماع، ومُحالٌ أن يكونَ في الأصلِ للجِمَاعِ، ثمّ استعير للعَقْد؛ لأَنَّ أسماءَ الجِمَاعِ كلَّهَا كِنَايَاتٌ لاسْتِقبَاحِهِمْ ذكرَهُ كاسْتِقبَاحِ تَعَاطِيهِ، ومحالٌ أن يَسْتَعِيرَ منَ لا يَقْصِدُ فحْشاً اسمَ ما يَسْتَفْظِعُونَهُ لما يَسْتَحْسِنُونَهُ[2]، وقد فَرَّقَتِ العربُ بين العَقْد والوطء بفرق لطيفٍ، فإذا قالوا: نكح فلانٌ فلانةً أو ابنةَ فلان أرادوا عقدَ عليها، وإذا قالوا: نَكَحَ امرأتَه أو زوجته فلا يريدُون غير المجامعَةِ[3]، واستعمل (نكَحَ)؛ لأنّه أخفُّ من (تزوّج) في اللّفظ؛ فَكلُّ مَا كَانَ أخفَّ كَانَ ذكرُه أَكثر، يُقال: نكحتها، إذا وطئتها أو تزوجتها[4].

11) ﴿مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾: صيغةٌ من مَفْعَل وفُعَال، أعدادٌ معدولةٌ عن أعداد مكرَّرة، منعت الصَّرف، معدولة عن اثنين اثنين، وثلاثة ثلاثة، وأربعة أربعة، تدلُّ كلُّها على معنى تكرير اسم، لقصد التَّوزيع بين المُخاطَبين، ولمَّا كان الخطابُ للجَّماعة ﴿فَٱنكِحُواْ﴾، جاء بالعدد المعدول مثنى وثلاث ورباع، ليُصيب كلّ ناكح يُريد الجَّمع ما أراد من العدد الّذى أُطلق له، كما تقول للجماعة: اقتسمُوا هذا المالَ وهو ألف درهم: درهمين درهمين، وثلاثة ثلاثة، وأربعة أربعة، ولو أفردت لم يكن له معنى، أي: لو قلت للجَّمع اقتسمُوا المالَ الكثير درهمين لم يتَّضح الكلام، فإذا قلت: درهمين درهمين، كان المعنى أنَّ كلَّ واحدٍ يأخذُ درهمين فقطْ، لا أربعة دراهم[5]، فالتَّوْزِيعُ هنا باعتبار اختلاف المُخَاطَبِينَ في السَّعَةِ والطَّول، فمنهم فَرِيقٌ يستطيعون أن يتزوّجُواْ اثنتين، فهؤلاء تكون أزواجُهم اثنتين اثنتين، ومنهم يستطيعون أن يتزوَّجواْ ثلاثة وهلمّ جرّا، وقد دلَّ على ذلك قولُه بعد: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُواْ فَوَٰحِدَةً﴾، ومثل هذه الآية قوله تعالى: ﴿أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾ [فاطر: 1]، يعني قسم له جناحان، ولقسم ثَلَاثَةٌ، ولقسم أَرْبَعَةٌ، لا يعني أنّ كلّهم يشتركون في جناحين أو ثلاثة أو أربعة[6]، ولهذا آثر التَّعبيرُ العطفَ بـ (الواو) بين مثنى وثلاث ورباع، دون (أو)؛ لأنَّ الواو يرادُ به التّقسيم، أو الجمع على سبيل البدل، وليس لمطلق الجمع، لأنَّه لوكان

(1) الفيّومي، المصباح المنير: (نَكَحَ).
(2) الأصفهانّي، المفردات، ص: 823.
(3) السّمين، الدّرّ المصون: 2/414.
(4) الزَّبيديّ، تاج العروس: (نَكَحَ).
(5) الزّمَخْشري، الكشّاف: 1/467 - 468.
(6) ابنُ عاشور، التّحرير والتّنْوير: 4/225.

لمطلق الجمع، لقال: (فانكحوا تسعا)، والمرادُ أن ينكح المرءُ إمّا مثنى لمن أراد ثنتين، أو ثُلاث لمن أراد ثلاثًا، أو رُباع لمن أراد أربعًا، ولا يجوز لهم الزّيادة عليها[1].

12) ﴿أَدْنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُواْ﴾: "أقربُ إلى ألَّا تجورُواْ وتميلواْ"[2]، وتَعُولُواْ: مضارعٌ من الفعل عَوَلَ، والعَوْل: المَيْل في الحُكم إلى الجَوْر والشّطط، يُقال: عالَ في الحكم يَعُولُ عَوْلًا: جَارَ ومالَ عَنِ الْحَقِّ، والعَوْل: النُّقْصان، وَعَالَ المِيزانَ عَوْلًا، فَهُوَ عَائِل: مالَ[3]، والعَوْلُ: ما يهلك ويثقل من المصائب، يقال: ويله وعَوْلَهُ، وما عَالَكَ فهو عَائِلٌ لي، ومنه: العِيَالُ، الواحد عَيِّلٌ لما فيه من الثّقل، وعَالَهُ: تحمّل ثقل مؤنته، وأَعَالَ: إذا كثر عِيَالُهُ، والتَّعْوِيلُ: الاعتمادُ على الغير فيما يثقل[4]، والعولُ أيضًا: الزّيادةُ، ومنه: العَوْلُ في الفَرائض؛ لأنّها زيادةٌ في أنصباء المفروض لهم[5].

13) ﴿صَدُقَٰتِهِنَّ﴾: مُهُورُهُنَّ، جمع صَدُقَةٌ: وهي المهر[6]، والصَدُقَةُ: وزنه فَعُلة، والصّداقُ من الصّدْق: أَصلٌ يَدُلُّ عَلَى قُوَّةٍ في الشَّيْءِ قَوْلًا وَغَيرَهُ، مِنْ ذَلِكَ الصِّدقُ: خِلَافُ الكَذِبِ، سُمِّيَ لِقُوَّتِهِ في نَفْسِهِ، وَأَصلُه مِنْ قَولِهِمْ شَيْءٌ صَدْقٌ، أَيْ صُلْبٌ، وَالصِّدِّيقُ: المُلَازِمُ لِلصِّدقِ، وَالصَّدَاقُ: صَدَاقُ المَرْأَةِ، سُمِّيَ بِذَلِكَ لِقُوَّتِهِ وَأَنَّهُ حَقٌّ يَلْزَمُ، وَيُقَالُ: صَدَاقٌ وَصُدْقَةٌ وَصَدُقَةٌ[7]، وصَداقُ المرأة وصِداقُهَا وصُدْقَتُهَا: ما تُعطى من مهرها، سُمِّي بذلك لِقُوَّتِهِ وَأَنَّهُ حَقٌّ يَلْزَمُ[8].

14) ﴿نِحْلَةً﴾: عطيّةٌ حسنةٌ عن طيب نفس[9]، و﴿نِحْلَةً﴾: على وزن فعلَة، مصدر نَحَلَ، النُّونُ وَالْحَاءُ وَاللَّامُ كَلِمَاتٌ ثَلَاثٌ: الْأُولَى تَدُلُّ عَلَى دِقَّةٍ وَهُزَالٍ، وَالْأُخْرَى عَلَى عَطَاءٍ، وَالثَّالِثَةُ عَلَى ادِّعَاءٍ، والمعنى الّذي استعمل في الآية الكريمة من هذه المعاني الثّلاثة، الثّاني وهو العطاء، وهو من نَحَلْتُهُ كَذَا، أَيْ أَعْطَيْتُهُ، وَالاسْمُ النُّحْلُ، وسُمِّيَ الشَّيْءُ الْمُعْطَى

(1) الحمداويّ، تفسير سورة النّساء، ص: 26.
(2) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 119.
(3) ابن فارس، مجمل اللّغة: (عول)، وابن منظور، لسان العرب: (عول).
(4) الراغب، المفردات، ص: 597.
(5) السّمين، عمدة الحفّاظ: 3/142.
(6) السّجستانّي، غريب القرآن، ص: 298.
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (صَدَقَ).
(8) الراغب، المفردات، ص: 481.
(9) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 120.

النُّحلَانَ، وَيَقُولُونَ: النُّحْلُ: أَنْ تُعطِيَ شَيْئًا بِلَا اسْتِعْوَاضٍ، وَنَحَلْتُ المَرْأَةَ مَهْرَهَا نِحْلَةً؛ أَي عَنْ طِيبِ نَفْسٍ مِنْ غَيرِ مُطَالَبَةٍ[1]، وسُمِّيت الصَّدُقات ﴿نِحۡلَةٗۚ﴾، إبعادًا للصَّدُقات عن أنواع الأعواض، وتقريبًا بها إلى الهديّة عن طيبِ نفسٍ[2]؛ فالنِّحْلَةُ الإعطاءُ عن طيب نفس بلا اسْتِعاضةٍ، بخلاف الصّداق، وهو واجب، وقد راعى الخطابُ في الآية مصدرَ الأمر بالمهر، وهو اللّه تعالى، ومصدرَ العمل به، وهو الزَّوج؛ فاللّهُ تعالى هو الّذي فرضه على الأزواج للزَّوجات، حتمًا واجبًا عليهم، لا هبةً منهم ولا تفضُّلاً، وتفضَّل به عليهنَّ نِحْلَةٗ وعطاءً، وهبةً وكرمًا[3].

15) ﴿هَنِيٓـٔٗا مَّرِيٓـٔٗا﴾: دواءً شافيًا، مأخوذٌ في الأصل من: هنأتُ البعيرَ بالقَطِران، إذا مرض فعُولج به[4]، وطيّبًا سائغاً لا تنغيصَ فيه[5]، و﴿هَنِيٓـٔٗا مَّرِيٓـٔٗا﴾: صفتان لمصدر محذوف، أي: أكلاً هنيئًا مَّرِيٓـٔٗا، وهو من هَنُؤَ الطّعامُ ومَرُؤَ، إذا كان سائغًا لا تنغيصَ فيه، وقيل الهنيءُ: ما يلذّه الإنسانُ، والمريءُ: ما تُحمدُ عاقبتُه[6]، ويُقال: هَنُؤَ الطعامُ يَهْنُؤُ هَناءةً، أي صار هنيئًا لا يلحقُ فيه مشقّة[7]، وهنئت الإبلُ من نبت الأرض، أي شَبعَت، وأكلنا من هذا الطَّعام حتَّى هنئنا منه، أي شَبِعنا، ويقال: هَنَأني خيرُ فلان؛ أي كان هنيئًا بغير تبعةٍ ولا مشقَّة[8]، وكلُّ "أمْرٍ يأْتيكَ مِنْ غَير تَعَبٍ، فَهُوَ هَنِيءٌ"[9].

المريءُ من (مَرَأَ)، يقال: مَرَأَني الطَّعامُ وأَمْرأَني إذا لم يثْقُل على المَعِدة وانْحدَر عَنْهَا طَيِّباً[10]، والمريءُ: المَحمُودُ العَاقِبَةِ، التَّامُّ الهَضمِ الَّذِي لَا يَضُرُّ وَلَا يُؤْذِي[11]. وذكر سِيبَوَيْه أنَّ ﴿هَنِيٓـٔٗا مَّرِيٓـٔٗا﴾، من الصِّفَات الَّتِي أُجريت مجْرى المصادر المَدْعُو بهَا فِي نصبها على

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نحل)
(2) ابنُ عاشور، التّحرير والتّنْوير: 4/230.
(3) الحمداويّ، تفسير سورة النِّساء: 29.
(4) ابن جرير، جامع البيان: 7/559.
(5) الزّمَخْشري، الكشّاف: 1/471.
(6) الزَّبيديّ، تاج العروس: (مرأ).
(7) الجوهريّ، الصّحاح: (هنأ).
(8) الأزهري، تهذيب اللغة: 6/228.
(9) ابن منظور، لسان العرب: (هنأ).
(10) الزَّبيديّ، تاج العروس: (مرأ).
(11) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 5/27.

الفِعْل غير المُسْتَعْمل إِظْهَاره واختزاله لدلالته عَلَيْهِ، وانتصابه على فعل من غير لَفظه[1]، فهو دعاءٌ للآكل والشّارب بالاستمتاع والصِّحة.

16) ﴿ٱلسُّفَهَآءَ﴾: جمع سفيه: الطّائشُ الّذي لا يُحسن التَّصرّف في ماله، لقلّة عقله أو تبذيره، صبيًّا صغيرًا كان أو رجلًا كبيرًا، ذكرًا كان أو أنثى، والسِّفَهُ: ضِدُّ الحِلم مَعرُوفٌ، وَأَصله الخِفّة والنّزَق، تسفّهت الرِّيحُ الغصونَ إذا حرّكتها وتسفّهتِ، الرِّماحُ في الحَرب، إذا اضطَرَبَتْ[2]. والسَّفِيهُ: الجَاهِل الَّذِي قلَّ عقلُه، وَجمعه سُفَهَاء، وقد سَفِه بِكَسْر الفَاء، يسفَه بِفَتْحِهَا، والمصدر السَّفهُ والسّفاهة، وَسُمّي هَذَا سفيهًا لخفّة عقله، وسُمِّيَتْ المرأةَ سَفِيهةً؛ لِضَعفِ عَقلِها، وَلِأَنَّهَا لَا تُحسِنُ سياسة مَالِهَا، وَكَذَلِكَ الأَوْلَاد مَا لم يُؤنَسْ رُشدُهُم، لجهلهم وخفّة عُقُولهمْ[3]، فنلحظُ أنَّ هناك اتّحاداً بين المعنى الحسيِّ والمعنويِّ، وهو الخفَّة، فالسَّفيه: الّذي ليس لديه عقلٌ راجح، يُميِّز الأشياء، ويأخذُ من هذا وذاك، فلا يستقرُّ على رأي، كما أنَّ الرِّيحَ تُحرِّك الغصونَ، ولا تجعلها مُستقرَّة.

17) ﴿قِيَـٰمًا﴾: أي ما يقومُ به أمركُم، ويردُّ قواكُم؛ لأنّه سببُ رزقكم[4]، والقِيامُ والقِوام: جمع (قَائِم)، من قَامَ بِالأَمرِ يَقُومُ بِهِ قِيَامًا، فَهُوَ قَوَّامٌ وَقَائِمٌ، وَاسْتَقَامَ الأَمرُ وَهَذَا قِوَامُهُ: عِمَادُهُ الَّذِي يَقُومُ بِهِ وَيَنتَظِمُ، وَمِنهُ قَوْله تَعَالَى: ﴿ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَـٰمًا﴾، والقِوَامُ: مَا يُقِيمُ الإِنسَانَ مِنَ القُوتِ، وَالقَوَامُ - بِالفَتحِ - العَدْلُ وَالاعْتِدَالُ[5].

18) ﴿وَٱرْزُقُوهُمْ﴾: من (رَزَقَ)، الرَّاءُ وَالزَّاءُ وَالقَافُ أصلٌ وَاحِدٌ يَدُلُّ عَلَى عَطَاءٍ لِوَقتٍ، ثُمَّ يُحمَلُ عَلَيهِ غَيرُ المَوقُوتِ، فَالرِّزْقُ: عَطَاءُ اللّه - جَلَّ ثَنَاؤُهُ - ما يُنْتَفَعُ به والجمع: أرزاق، وَيُقَالُ: رَزَقَهُ اللّه رِزْقًا، والاسمُ الرِّزْقُ[6]، والرِّزقُ: يطلقُ تارَة على العطاءِ الجاري، نحو: رزقَ السّلطانُ جندَه، ويكون دنيويًّا وأخرويًّا، وتارَة على النّصيب، وعلى ما يصلُ إلى الجوف ويُتغذَّى به، ويُطلق على كلِّ خيرٍ وصل صاحبه نحو: رُزق فلانٌ علمًا، والرَّازِقُ:

(1) سيبويه، الكتاب: 1/317.
(2) ابن دريد، جمهرة اللّغة: 2/849.
(3) الأزهري، تهذيب اللغة: (سَفَه).
(4) السّمين، عمدة الحفّاظ: 3/353.
(5) الفيّومي، المصباح المنير: (قوم).
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (رزق).

يقال لخالق الرّزق، ومعطيه، والمسبّبِ له، وهو اللّه تعالى[1]. وسُمِّي العطاءُ رزقاً؛ لأنَّه لا يؤخذُ مرَّةً ثانيةً، فضلاً عمَّا فيه من تخفيف على المُعطَى له؛ لكي لا يشعرَ بالمِنَّة، وكأنَّه رزقٌ ساقه اللّه إليه.

19) ﴿وَٱكۡسُوهُمۡ﴾: الكِسْوَةُ والكُسْوَةُ: اللِّبَاسُ، وَاحِدَةُ الكُسا، وتُجْمَعُ على كِسَاءٍ كبُرْقَةٍ وبِرَاقٍ، وَلَهَا معانٍ مُختَلِفَةٌ، يُقَالُ: كَسَوْت فُلَانًا أَكْسُوه كِسْوَةً إذا أَلبسته ثَوْبًا فاكْتَسَى، أو أعطيته إيّاه، واكتَسَى فُلَانٌ: إذا لَبِس الكِسْوَة[2]، واكْتَسَتِ الأرضُ بالنَّبات: تمَّ نَباتُها والتَفَّ حَتَّى كأَنَّها لَبِسَتْه، والكَساءُ - بالفَتْحِ - مَمْدوداً: المَجدُ والشَّرَفُ والرِّفْعَةُ[3].

20) ﴿وَٱبۡتَلُواْ﴾: "الباءُ واللّامُ والواوُ والياءُ، أصلان: أحدهما: إخلاقُ الشّيءِ، والثّاني: نوعٌ من الاختبار، ويُحمل عليه الإخبار أيضًا"[4]، يُقال: بلوتُ الرّجلَ بلوًا وبلاءً، وابتليتُه: اختبرتُه، وبلاه يبلوه بلوًا، إذا جرّبه واختبرَه، وابتلاه اللّه: امتحنه، وبَلِيَ بالشّيء بلاءً وابتلي، والبلاءُ يكون في الخير والشَّرِ، ومنه قوله تعالى: ﴿وَنَبۡلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلۡخَيۡرِ فِتۡنَةٗۖ﴾، والإبلاءُ: الإنعامُ والإحسانُ، يُقَالُ: بَلَوْتُ الرّجلَ وأَبْلَيْت عندَه بَلاءً حَسَنًا[5]، والابتلاءُ في الأَصْل: التَّكْليف بالأَمر الشّاقِ من البلَاء، لكنّه لما استلزمَ الاختبارَ بالنِّسْبَةِ إلَى من يجهلُ العواقبَ ظنّ ترادفهما[6]، وقوله تعالى: ﴿وَٱبۡتَلُواْ﴾ في الآية: اختبرُواْ عقولَ اليتامى في أفهامِهم، وصلاحِهم في أديانهم، وإصلاحِهم أموالهم[7].

21) ﴿ءَانَسۡتُم﴾: من الفعل (أَنَسَ)، وأصل الإيناس: الرُّؤية والعِلمُ، والإحساسُ بالشَّيء، فالهَمزَةُ والنُّونُ وَالسِّينُ أَصلٌ وَاحِدٌ، وَهُوَ ظُهُورُ الشَّيءِ، وَكُلُّ شَيءٍ، خَالَفَ طَرِيقَةَ التَّوَحُّش، قَالُوا: الإِنْسُ خِلَافُ الجِنِّ، وَسُمُّوا لِظُهُورِهِمْ، يُقَالُ: آنَسْتُ الشَّيءَ: إِذَا رَأَيْتُهُ[8]، وتتغيّرُ دلالةُ هذا الفعل بتغيّر تعديتِهِ، فتارةً يتعدَّى بنفسه، وتارةً أخرى بحرف الجرِّ، يقال: آنس

(1) الراغب، المفردات، ص: 351.
(2) ابن منظور، لسان العرب: (كسا).
(3) الزَّبيدي، تاج العروس: (كسو).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بَلَوِيٌّ).
(5) ابن منظور، لسان العرب: (بلا).
(6) الكفويّ، الكليّات، ص: 34.
(7) ابن جرير، جامع البيان: 7/574.
(8) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أَنَسَ).

الشَّخصَ: لاطفَه، أي طمأنَه وأزالَ وحشتَه أو خوفَه، وآنسَ فلانًا: أبصرَه، رآه وشاهدَه ﴿إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا﴾ [طه: 10]، وآنسَ منه الأمرَ: عَلِمَه، وجده، ولاحظَه، ﴿فَإِنۡ ءَانَسۡتُم مِّنۡهُمۡ رُشۡدٗا﴾: لَمستُم فيهم عقلاً وحكمةً، آنسَ في عمله إخلاصًا: أحسّ به، آنستُ فيه الكفاءةَ[1].

22) ﴿رُشۡدٗا﴾: الرُّشْد والرَّشَدُ والرَّشادُ: الهدايةُ والصّلاحُ، نَقِيضُ الغَيِّ، يُقال: رَشَد الإنسانُ - بِالفَتْحِ - يَرْشُد رُشْداً - بِالضَّمِّ - ورَشِد - بِالكَسْرِ - يَرْشَد رَشَداً ورَشاداً، فَهُوَ راشِد ورَشيد، وَهُوَ نَقِيضُ الضَّلَالِ، إذا أَصاب وَجهَ الأَمر وَالطَّرِيقِ[2]، والرُّشْدُ: الاستِقامَةُ على طَريق الحَقِّ مع تَصَلُّبٍ فيه[3]، والرُّشْد والرَّشَد: لغتان مثل السُّخْط والسَّخَط[4]، والرَّشَدُ: عنايةٌ إلهيةٌ تعين الإنسَان فِي البَاطِن عِندَ توجّهه فِي أُمُوره، فتقوّيه على مَا فِيهِ صَلَاحه، وتعيدُه عَمَّا فِيهِ فَسَاده[5].

23) ﴿إِسۡرَافٗا﴾: يدورُ معنى الإسراف في اللُّغة، على تجاوز الحدِّ والقصدِّ في كلِّ فعلٍ يفعلُه الإنسانُ، ووضع الشَّيء في غير موضعه[6]، قال ابن فارس: "السِّينُ والرَّاءُ والفَاءُ: أَصلٌ وَاحِدٌ يَدُلُّ عَلَى تَعَدِّي الحَدِّ، وَالإِغفَالِ أَيضًا لِلشَّيءِ، تَقُولُ: فِي الأَمرِ سَرَفٌ؛ أَي مُجَاوَزَةُ القَدْرِ"[7]. والسَّرَف والإِسْرَافُ: مُجاوزةُ القَصْدِ، وأَسْرَفَ فِي مَالِهِ: عَجِلَ مِنْ غَيرِ قَصْدٍ، والإِسْرافُ فِي النَّفَقَةِ: التّبذيرُ، وأَسْرَفَ فِي الكَلَامِ وَفِي القَتلِ: أَفْرَط، والسَّرِفُ: الجاهلُ، وَرَجُلٌ سَرِفُ الفُؤاد: مُخْطِئُ الفُؤادِ غافِلُه، وسَرِفَ الشّيءَ - بِالكَسْرِ - سَرَفاً: أَغْفَلَه وأَخطأَه وجَهِلَه، وَذَلِكَ سَرْفَتُه وسِرْفَتُه[8]، وقد أجمل ابنُ عاشور أغلبَ هذه المعاني بقوله: "والإِسرَافُ: الإِفرَاطُ وَالإِكثَارُ فِي شَيْءٍ غَيرِ مَحمُودٍ"[9]، وجاء في التّعريفات أنّ الإسرافَ: "إنفاقُ المالِ الكثير في الغَرَضِ الخَسِيس"[10].

(1) د أحمد مختار، معجم اللّغة العربيّة المعاصرة: 1/128.
(2) ابن منظور، لسان العرب: (رشد).
(3) الفيروزآباديّ، القاموس المحيط: (رشد).
(4) نشوان الحِميري، شمس العلوم: 4/2504.
(5) السّيوطي، معجم مقاليد العلوم، ص: 199.
(6) الراغب، المفردات: (سَرَفَ).
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سَرَفَ).
(8) ابن منظور، لسان العرب: (سَرَفَ).
(9) ابنُ عاشور، التّحرير والتّنْوير: 11/112.
(10) الجرجاني، التعريفات، ص: 23.

24) ﴿وَبِدَارًا﴾: تأكلُوها مسارعةً، خشيةَ أن يكبرُوا فيأخذوها منكم[1]، والمبادرةُ: المسارعةُ، من بَدَرْتُ إلى الشَّيءِ أَبْدُرُ بُدُوراً: أَسْرَعْتُ، وَكَذَلِكَ بادَرْتُ إليه، وتَبادَرَ القومُ: أَسرعواْ، وابْتَدَروا السّلاحَ: تَبادَرُواْ إلى أَخذه، وبادَرَ الشّيءَ مبادَرَةً وبِداراً، وابْتَدَرَهُ وبَدَرَ غيرَه إليه يَبْدُرُه: عاجَلَهُ[2]، قال ابن فارس: "البَاءُ والدَّالُ وَالرَّاءُ، أَصلَانِ: أَحَدُهُمَا: كَمَالُ الشَّيءِ وامتِلَاؤُهُ، والآخَرُ: الإِسرَاعُ إِلَى الشَّيءِ"[3]، وقوله ﴿وَبِدَارًا﴾: مصدرُ بادرَ، والمفاعلةُ هنا يجوزُ أن تكونَ من اثنَين على بابها؛ بمعنى أنّ الوليَّ يبادرُ اليتيم إلى أخذِ مالهِ، واليتيمُ يُبَادِرُ إلى الكِبَر، والوليُّ يبادرُ إلى أخذ ماله، فكأنّهما يستبِقان، ويجوزُ أن يكونَ من واحدٍ بمعنى: أنَّ فاعلَ بمعنى فعلَ نحو: سافرَ وطارق[4].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

بيانُ مقتضياتِ التَّقوى، وكيفيّة إدارة أموال اليتامى، وحقوق النّساء

جاءت هذه الآياتُ الكريماتُ، بيانًا وتفصيلًا لمقتضياتِ التَّقوى، وتأكيدًا على أداءِ حقوق اليتيم والمرأة، والحفاظِ على أموالهم، فافتتحَتْ بأمرٍ من اللّه تعالى موجّه للأوصياءِ على اليتامى، بأداءِ الحقوقِ كاملةً، وإرشاد الأوصياء إلى عدم الزَّواجِ من اليتيمات بقصد الإضرار بهنّ، ولامنعهنّ من الزّواج إنْ خافواْ عدم العدلِ معهنَّ في مهورهنَّ وأموالهنَّ بعد الزّواج؛ لأنَّ اللّه (تعالى) شرع لهم الزّواج بمن يحبّون من غيرهنَّ، من النِّسَاء الرّاشداتِ من واحدةٍ إلى أربع[5]، مع أداء حقوقِهنّ، وإعطائهنّ المهورَ المستحقّة، فإن تنازلنَ عنها بطيبِ نفس، فهو سائغٌ حلالٌ، ثمّ يحذّر أوصياء اليتامى من إعطاءِ السُّفهاءِ من اليتامى أموالهم، وأنّها لا تسلّم لهم إلّا بعد بلوغهم الحُلمَ، ووصولهم مرحلة الرّشد، حينها تدفع إليهم بحضور الشُّهود، إبراءً للذّمّة، وإراحةً للضّمير، مع النّهي الصّارم

(1) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 107.
(2) ابن منظور، لسان العرب: (بَدَرَ).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بَدَرَ).
(4) ابن عادل، اللّباب: 6/190.
(5) ابن جرير، جامع البيان: 7/531.

عن أكل أموال اليتامى، والبدار إلى إتلافها، قبل بلوغهم الرّشد، فإنْ كان هناك عوزٌ ملحٌّ، وفاقةٌ شديدة، فلْينفقْ منها الكفيل، بقدر أجرتِهِ إذا عمل بالمعروف، في إطار لا ضرر ولا ضرار[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

دِلَالَةُ الإنشاءِ الطّلبي بالأمر:

وجوبُ إعطاءِ أموالِ اليتامى بطيبِ نفسٍ ورضًا

افتتحت الآياتُ الكريماتُ بالإنشاءِ الطلبي بفعل الأمر الصَّريح للجماعة ﴿وَءَاتُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰٓ أَمۡوَٰلَهُمۡۖ﴾، الدالِّ على الوجوبِ؛ أي: وجوبُ دفع أموال البالغين من اليتامى سالمةً من غير نقصٍ ولا أخذٍ.

سرُّ تقديم المتعلَّق باليتامى:

وجهُ بليغ العناية بشأن اليتامى؛ كونهم أحقّ النّاس بالرحمة العاطفة

قدّم ما يتعلق باليتامى؛ "لإظهار كمال العناية بأمرهم؛ ولملابستهم بالأرحام؛ إذ الخطاب للأولياء والأوصياء وقلما تفوض الوصاية إلى الأجانب"[2]، فابتدأ باليتامى الذين هم أحقّ الناس بالرحمة العاطفة، والمودة الواصلة، وهم الذين نزلوا إلى هذا الوجود من غير حامٍ غير الله تعالى، ولا قلب يحنو عليهم حنو الوالد الشفيق[3].

سرُّ إيثارِ فعل الإيتاءِ على غيره:

وجه إيثار لفظ الإيتاء استعماله للإعطاء الحسي

وخُصَّ دفعُ حقوق اليتامى من الأموالِ بفعل الأمر ﴿وَءَاتُواْ﴾ دون (ادفَعُوا) أو (اعْطُوا)؛ لأنَّ فعل الإيتاءِ يستعملُ في الدَّفع والإعطاءِ الحِسّيِّ، فضلاً عن دلالته على الإعطاء بسلاسةٍ ومطاوعةٍ مع الرضا والقبول والرفقِ بالعطاء، وهذا ما لا تحقّقه بقيةُ الأفعالِ القريبةِ من معناه[4]، ويلاحظ في دلالة الإتّيان أيضًا إيصالُ الشَّيء الى المنتهى[5]، وذلك في إيفاء اليتيم حقّه من ماله مطلبٌ واجبٌ مرغوبٌ، ومسعىً لازمٌ محمود.

(1) ابن جرير، جامع البيان: 7/580، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 5/40 (بتصرّف).
(2) القاسمي، محاسن التأويل: 3/9.
(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 3/1578.
(4) الراغب، المفردات: 61.
(5) الخلوتي، روح البيان: 3/211.

بلاغةُ المجازِ المرسلِ في التّنبيه على أداءِ حقوق الضّعفاء:

التعبيرُ المجازيُّ يَحملُ المُخاطَبين على العطفِ على هذه الفِئة وتأديةِ حقوقها حباً ورعايةً

في قوله تعالى: ﴿وَءَاتُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰٓ أَمۡوَٰلَهُمۡۖ﴾ مجازٌ مرسلٌ باعتبار ما كان[1]، فقد أطلق لفظ ﴿ٱلۡيَتَٰمَىٰٓ﴾ على الرَّاشدين منهم، ومن المعلوم أنّه لَمَّا يتمّ بعدُ البلوغ، والمعنى: الّذين كانوا يتامى[2]، فعبّر بلفظِ اليُتمِ بوصفِ ما كانوا عليه قبل البلوغ مجازاً؛ لقربِ العهد بالصِغَر وللمبالغة في المعنى المراد.

ففيه أمرٌ متضمِّنٌ معنى الإرشادِ للأَولِيَاء والأَوصِياء بضرورةِ دفع أموالهم، وعدم تأخيرها عن حَدِّ البُلُوغِ، وألّا يُمطَلُوا إنْ أُونِسَ منهم الرُّشدُ طمعًا فيها[3]،

في المجاز توجيه للمخاطبين على مراعاة الأيتام والعطف عليهم

فضلاً عن ذلك فإنَّ التَّعبيرَ المجازيَّ فيه يحملُ المُخاطَبين على العطفِ على هذه الفئةِ وتأدية حقوقها حبًّا ورعايةً، فتسميَتُهم باليتامى لتحريكِ القلوبِ تجاهَهُم، وتنبيهِ الأوصياء بضرورة إعطاءِ حقوق اليتامى الضُّعفاء؛ "حتَّى كأنَّ اسمَ اليتيم باقٍ بعدُ غير زائلٍ، وهذا المعنى يُسمّى في الأصول بإشارة النَّصِّ، وهو أن يُساقَ الكلامُ لمعنى ويُضَمّنَ معنى آخرَ، وهذا في الكون نظيرُ المشارفة في الأوّل"[4].

في المجاز إيجازٌ في العبارة، واقتصادٌ في الكلام

وفيه إيجازٌ أيضًا؛ فالمجازُ يحقّق الإيجازَ؛ لأنَّه يغنِي عن ألفاظٍ كثيرةٍ، فلو جاء التَّعبيرُ من غير مجازٍ لكان: (وآتوا الّذين كانوا يَتَامَى فبلغُوا رُشْدَهُمْ أَمْوَالهم)، فضلاً عن ذلك أنَّ في لفظ ﴿ٱلۡيَتَٰمَىٰٓ﴾ اختزالًا، فهو يطلقُ على المذَّكر منهم والمؤنَّث.

(1) المجاز المُرسل: هو استعمال اللفظ في غير ما وُضِع له لعلاقة غير المشابهة بين المعنى الأصلي والمجازي، مع قرينة مانعة من إرادة المعنى الأصلي، ينظر: القزويني، الإيضاح، ص: 233.

(2) البغوي، تفسير البغوي: 1/562، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 5/9، والبقاعي، نظم الدرر: 5/177.

(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/501.

(4) الآلوسي، روح المعاني: 2/397.

نكتةُ الإنشاءِ الطّلبي بالنّهي:

الحـــثُّ على عـزوفِ الإنسان وتـنـفـيره من مواقعَةِ الحرامِ

من دلالاتِ التَّراكيب في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَبَدَّلُواْ ٱلۡخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِۖ﴾ النَّهيُ الصّريحُ الدّالُ على تحريمِ استبدالِ أموال اليتامى ومنعها، أي: الحرام بالحلال، فقد كانوا يأخذون الأجودَ من مالِ اليتيم، ويجعلون مكانَه الأرْدَأ[1].

بلاغة الاستعارة التَّصريحيَّة في كلمتي ﴿ٱلۡخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِۖ﴾:

في الاستعارة حثٌّ على عزوفِ الإنسان وتنفيره من مواقعةِ الحَرام

في النَّظم استعارتان تصريحيَّتان[2] في ﴿ٱلۡخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِۖ﴾، تأتيان للتَّعبير عن (الحرام والحلال)[3]، فقد استعملَ أولاً ﴿ٱلۡخَبِيثَ﴾ بدلاً من (الحَرام) بجامع الكراهيّةِ في كلٍّ منهما، واستعمل ثانيًا ﴿بِٱلطَّيِّبِۖ﴾ بدلًا من (الحَلال) بجامع الحَلاوةِ في كل منهما على طريقةِ الاستعارةِ التَّصريحيَّة[4].

ولا تخفَى بلاغةُ الاستعارة في اللَّفظتين وجماليتها؛ إذ توافرت على دلالةٍ معنويَّة ونفسيَّة لا نجدُها في الاستعمال الحقيقيِّ؛ إذ إنَّ سياقَ الآية يحثُّ على عزوفِ الإنسان وتنفيره من مواقعةِ الحَرام، فالاستعارةُ بـ ﴿ٱلۡخَبِيثَ﴾ أشدُّ وقعًا على النَّفس وأعمقُ غورًا لتحقيق الاستجابةِ الّتي يتوخاها القرآن من السّامع، ومثلها استعارةُ ﴿بِٱلطَّيِّبِۖ﴾، فهي أشدُّ وقعًا في السَّمع في حثِّه على تقبُّل الحَلال والتَّرغيب فيه من اللّفظ الحقيقيِّ (الحلال)[5]، وعمّقَ معنى الاستعارةِ الطِّباقُ الحاصلُ بينهما.

فالاستعارةُ تُعطينا من الإيحاءِ في المعنى ما لا نجدُه في اللَّفظتين الحقيقيتين، وهذا من سماتِ الاستعارة في التَّعبير عن المعنى

(1) الراغب، المفردات، ص: 272 - 273.
(2) الاستعارة التَّصريحيَّة: هي الاستعارة التي يُصرَّح فيها بلفظ المشبه به، ويُحذَف فيها المشبّه، ينظر: الجُرجانيّ، دلائل الإعجاز، ص: 67.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 7/525.
(4) ابنُ عاشور، التّحرير والتّنْوير: 4/220.
(5) رمضان، الاستعارة في القرآن الكريم: 68 - 69.

الّتي أشار إليها البلاغيون في حديثهم عن الاستعارة الأصليَّة، فالرُّمّاني يُصرِّح بأنَّ الاستعارةَ الحسنةَ: "تُوجبُ بيانًا لا تنوبُ منابَه الحقيقةُ"[1].

براعة التَّرقي بتكرارِ أسلوبِ النّهي:

فـي الـترقّـي بـالـتّـأكـيـدِ والاحـــتراس تـجـريـمٌ لأخـذِ مـال الـيَـتـيـم، وتربيةٌ للنفوس كي تـتـمـثّـلـهـا سلوكًا

لَمَّا كان المرادُ تأكيدَ دفعِ مال اليتيم وتحريم أكله، كرَّر النَّهي مرّةً أخرى في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْۚ﴾؛ فهذا نهيٌ عن أخذ مالِ اليتيم على الوجهِ المخصوصِ بعد النَّهي الضِّمنيّ عن أخذه على الإطلاق، ليُؤكّدَ به تجريمَ أخذِ مال اليتيم ويقرِّره، وفيه تربيةٌ للنُّفوس التَّواقة لِتَمَثُّلِ الخير، فمن رسختِ التَّقوى في قلبِه، وامتثلَ أوامرَ ربِّه يتَّرفعُ تلقائياً عن الظُّلم والتَقصيرِ في حقوق العباد[2].

وفي مجيء هذا النَّهي بعد النَّهي الأوّل ما يُسمَّى في علم البديع بالتّرقي، فلَمَّا نُهُوا عَنِ استِبدَالِ الخَبِيثِ مِنْ أَموَالِهِم بِالطَّيِّبِ مِنْ أَموَالِ اليَتَامَى، ارتَقَى في النَّهي إِلَى مَا هُوَ أَفظَعُ مِنَ الاستِبدَالِ وهُوَ: أَكلُ أَموَالِ اليَتَامَى فَنُهُوا عَنهُ، وَمَعنَى إِلَى أَموَالِكُم: مَعَ أَموَالِكُمْ[3].

بلاغةُ الاستِعارةِ المكنيّةِ والتَّضمِين:

في النـهـي عـن الأدنى تـنـبـيـهٌ عـلى الأعـلى إذا كـان المنهيُّ عنه درجاتٍ

في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَهُمْ﴾ شبّهَ أموالَ اليتامى بطَّعام يُؤكلُ، ثمّ حذفه، وأبقى شيئًا من لوازمِه ممّا هو من أبرز خصائص الطَّعام وهو الأكل[4] على طريقة الاستعارةِ المكنيّة[5]، وقد أجراهَا ابنُ عاشور على التَّصريحيّة بقوله: "والأَكلُ استِعَارَةٌ للانتِفَاعِ المَانِعِ مِن انتِفَاعِ الغَيرِ وهُو المِلكُ التَّامُّ، لأَنَّ الأَكلَ هُو أَقوَى أَحوَالِ الاختِصَاصِ

(1) الرّمّاني، النُّكت في اعجاز القرآن، ص: 86.
(2) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 2/140.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/502.
(4) صافي، الجدول: 4/432.
(5) الاستعارة المَكْنيَّة: هي الاستعارة التي لا يُصرّح فيها بلفظ المُشبّه به، بل يُطوى ويُرمز له بلازمٍ من لَوازمه كدليلٍ عليه، مع إسناد هذا اللازم إلى لفظ المشبه، ينظر: السَّكاكي، مفتاح العلوم، ص: 378 - 379.

بالشَّيءِ؛ لأَنَّهُ يُحرِزُهُ في دَاخِلِ جَسَدِهِ، وَلَا مَطمَعَ في إرجَاعِهِ، وَضَمَّنَ تَأْكُلُوا مَعْنَى تَضُمُّوا؛ فَلذَلِك عدّي بإلى؛ أَيْ: لَا تَأْكُلُوهَا بِأَن تَضُمُّوهَا إِلَى أَموَالِكُمْ"[1].

وفي هذه الاستعارةِ سِرَّان من أدقِّ الأسرار: أولهما: إنَّ طريقَ البلاغةِ النَّهيُ عن الأدنى تنبيهًا على الأعلى إذا كان المنهيُّ عنه درجاتٍ، فكان مقتضى القانونِ المذكور أن يُنهى عن أكل مال اليتيم من هو فقير إليه، حتّى يلزمَ نهيُ الغنيِّ عنه عن طريق الأولى، فلا بدَّ من سرٍّ يوضّحُ فائدةَ تخصيص الأعلى بالنَّهي في هذه الآية؛ وذلك ما يُفهم من كلمةِ ﴿إِلَىٰٓ أَمۡوَٰلِكُمۡۚ﴾؛ والسرُّ في ذلك: أنَّ أكلَ مال اليتيم مع الغِنَى عنه أقبحُ صور الأكل، فخُصِّصَ بالنَّهي تشنيعًا على من يقعُ فيه.

النفس تنفرُ عن المنهيّ عنه الموغل في القبح والدّمامة

والسرُّ الثَّاني: في تخصيصِ الأكل؛ لأنَّ العربَ كانت تتذمَّمُ بالإكثار من الأكل، وتعدُّ من البطنة المساوية للبهيميَّة، فكأنَّ آكلَ مالِ اليتيم - في حال استغنائه عنه وكثرة المال لديه - شرٌّ من أكله وهو مملّقٌ شديدُ الحاجة إليه، وإن اشتركا في أكلِ ما هو محرّم، وكانا منتظمين في قرنٍ واحدٍ، ومعلوم أنَّ المنهيَّ عنه كلّما كان أوغلَ في القبح وأفرطَ في الدَّمامةِ، كانت النّفسُ بطبيعةِ الحال أنفرَ عنه[2].

علّةُ إيثارِ لفظ (الحُوب) منكَّرًا:

جاء لفظ ﴿حُوبًا﴾ نكرةً مع وصفها بـ ﴿كَبِيرًا﴾، لبيانِ عظم هذا الإثم من الأوصياء، والحُوبُ: "الإثم"[3]، وجاء التَّعبيرُ بالحوبِ دون الإثم أو الذَّنب؛ لأنَّ فيه تخويفًا وتهويلًا وتشنيعًا لأكلِ مال اليتيم، فـ"الحُوب يُفِيد أَنّه مزجورٌ عَنهُ؛ وذَلِكَ أَن أَصله فِي العَرَبيَّة الزّجرُ

إيثارُ لفظ الحُوبِ تخويفٌ وتشنيعٌ لآكل مالِ اليتيم ظُلمًا بوصفه إثمًا عظيمًا

(1) ابنُ عاشور، التّحرير والتّنوير: 4/221.
(2) ينظر: الدرويش، إعراب القرآن وبيانه: 2/151.
(3) الراغب، المفردات، ص: 261.

وَمِنه يُقَال في زجر الإبِل: (حُوب حُوب)، وقد سُمّي الجملُ بِهِ؛ لأَنَّهُ يزْجر"[1]، ولتأكيدِ هذا الإثم العظيم جاءت فاصلةُ الآيةِ بالأسلوب الخبري المُؤكّد: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾.

بلاغة التعبير بـ ﴿وَإِنْ﴾ الشَّرطِيّة:

الحثُّ على الوَرعِ بـتركِ اليتيمةِ والـزَّواج بغيرها من النِّسَاءِ

في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا۟ فِى ٱلْيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾ [النِّسَاء: 3] شرطٌ وجوابُه، فأداةُ الشرط: ﴿وَإِنْ﴾ وتدلُّ على الأمر غير المقطوع بحُصُوله، وفعلُ الشّرطِ: ﴿خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا۟﴾، وجوابُ الشّرط: ﴿فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾، وجاء الشَّرطُ مقترنًا بالأداة ﴿وَإِنْ﴾ الّتي عبَّر بها عن الشَّكِّ في العدل مع اليتيمة عندَ الزَّواج منها، حثًّا على الورعِ بتركها والزَّواجِ بغيرها من النِّسَاء[2]؛ فالارتباطُ سببيٌّ بين الشَّرطِ وجوابه، فبهذا الشَّرطِ أرشدَ - ﷺ - الوصيَّ عدم الزَّواج من اليتيمةِ، ولا منعها من الزَّواج إنْ خافَ عدم العدل معها في مُهُورها ومالِها بعد الزَّواج؛ لأنَّ اللّه تعالى جعلَ له مندوحةً، وشرعَ له الزَّواج بمن يحبُّ من غيرها من النِّسَاء الرّشيداتِ من واحدةٍ إلى أربع[3].

دلالة الفاء في جواب الشّرط:

إنّ الـخـوفَ من الـظـلـم مـانـعٌ من نكاح يتامى نساء

الفاءُ في جوابِ الشَّرط: ﴿فَٱنكِحُوا۟﴾ هي الرَّابطةُ للجواب بالشَّرط؛ لأنَّ الجوابَ جملةٌ طلبيَّةٌ بفعل الأمر، وهذه الفاءُ أفادت السببيَّةَ كما مرَّ، والمعنى: وإنْ خفتم عدمَ العدل في يتامى النِّسَاء فانكحوا ما طابَ لكم من النِّسَاء من سواهنَّ؛ أي من سوى اليتيماتِ مثنَى وثلاثَ ورباعَ.

(1) العسكري، الفروق في اللغة، ص: 261.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 5/179.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 7/531.

بلاغة الإيجاز في جملة الشّرط:

في الإيجاز بيانٌ للعلاقة بين عَدَمِ القِسطِ في يَتَامَى النِّسَاءِ، وَبَينَ الأَمرِ بِنِكَاحِ النِّسَاءِ

و"في الآيَةِ إيجَازٌ بَدِيعٌ إذْ أَطلَقَ فِيهَا لَفظَ اليَتَامَى في الشَّرطِ، وقُوبِلَ بِلَفظِ النِّسَاء في الجَزَاءِ، فَعَلِمَ السَّامِعُ أَنَّ اليَتَامَى هُنَا جَمعُ يَتِيمَةٍ، وَهِيَ صِنفٌ مِنَ اليَتَامَى في قَولِهِ السَّابِقِ: ﴿وَءَاتُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰٓ أَمۡوَٰلَهُمۡۖ﴾، وعُلِم أَنَّ بَينَ عَدَمِ القِسطِ في يَتَامَى النِّسَاءِ، وَبَينَ الأَمرِ بِنِكَاحِ النِّسَاءِ ارْتِبَاطًا لا مَحَالَةَ وإلَّا لَكانَ الشَّرطُ عَبَثًا"[1]، وَبَيَانُهُ حديثُ عروةَ بن الزّبير الّذي رواه البخاريُّ، وقد مرَّ ذكرُه كاملاً عندَ بيان المعنى الإجماليّ لهذه الآياتِ.

دلالةُ الإنشاءِ الطّلبي بفعلِ الأمر ﴿فَٱنكِحُواْ﴾:

إباحةُ التَّعددِ، وإرشادُ العبادِ لما فيه مصلحتُهُم

خرجَ فعلُ الأمر ﴿فَٱنكِحُواْ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۖ﴾ من معنى الوجوبِ والإلزامِ إلى الإباحةِ والتَّخيير، وفيه توجيهٌ وإرشادٌ لما في مصلحةِ النَّاس والمُجتمع[2]، ولو كان على حقيقَتِه بدلالته على الوجوبِ للَزِمَ كلَّ واحدٍ التَّعددُ وهذا مُحالٌ، وممَّا يُقرِّر هذا المعنى إيثارُ العطف بـ (الواو) دون (أو) في قوله: ﴿مَثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۖ﴾ الدَّالُ على التَّخيير في العدد، فبعضُ النّاسِ سيختار الاثنين، وبعضُهم سيختار الثلاث، وبعضُهم سيختارُ الأربعَ، ومنهُم من يكتفي بالواحدة.

سرُّ المقابلة بين الأمر بالنّكاح، والنّهي عنه:

جُبِّلتِ الأنفسُ على الرَّغبة في ما مُنعتْ منه

في إيثار الأمرِ بنكاح النّساء في قوله: ﴿فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ "على النهي عن نكاح اليتامى - مع أنه المقصودُ بالذات - مزيدُ لطفٍ في استنزالهم عن ذلك؛ فإن النفسَ مجبولةٌ على الحِرص على ما مُنِعت منه"[3].

(1) ابنُ عاشور، التّحرير والتّنوير: 4/222.
(2) الرازي، مفاتيح الغيب: 9/486، وابن عادل، اللباب: 6/160.
(3) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 2/141.

علّةُ تقييدِ عدد المنكوحات:

في ذكر العددِ كبحٌ لجماح المتطلّع إلى نكاح العديد من النساء

ذكر العدد المباح في النّكاح ولم يقل مثلا: (فانكحوا ما طاب لكم من النساء سواهن)، لحاجة السائل المتطلّع إلى ذلك؛ فإنّ النفس متشوّقةٌ في إشباع رغباتها إلى التّكرار، والكثرة، وإنّ في النّاس من لا يُبالي أن يتزوّج بالعدد الكثير من النساء؛ لذلك بيّنَ العدد الذي لا يجوز أن يتعدّاه الإنسان في وقت واحد[1].

إيثارُ التّعبيرِ بالاسمِ الموصول ﴿مَا﴾ دون (مَنْ):

جِيءَ بـ (ما) على أنها بمنزلة الصِّفَةِ وهُو الطَّيِّبُ بِلَا تَعيينِ ذَاتٍ

أوثر التّعبيرُ في قوله تعالى: ﴿فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم﴾ بالاسم الموصول ﴿مَا﴾ لغَيرِ العَاقِل غالبًا، دون (من) المُستعملة للعاقل، فلم يقل: (من طاب)، وفي هذا العدولِ نكتةٌ سياقيةٌ ذكرها ابنُ عاشور بقوله: "ومَعنَى مَا طابَ مَا حَسُنَ بِدَلِيلِ قَولِهِ: ﴿لَكُم﴾، ويُفهَمُ مِنهُ أَنَّهُ مِمَّا حَلَّ لَكُم؛ لأَنَّ الكَلَامَ فِي سِيَاقِ التّشريع، وَمَا صدق مَا طابَ النِّسَاءُ، فَكَانَ الشَّأْنُ أَنْ يُؤتَى بِـ (مَنْ) المَوصُولَةِ، لَكِن جِيءَ بِـ ﴿مَا﴾ الغَالِبَةِ فِي غَيرِ العُقَلَاءِ؛ لأَنَّهَا نُحِيَ بِهَا مَنحَى الصِّفَةِ، وهُوَ الطَّيِّبُ بِلَا تَعيينِ ذَاتٍ، وَلَوْ قَالَ (مَنْ) لَتَبَادَرَ إِلَى إِرَادَةِ نِسْوَةٍ طَيِّبَاتٍ مَعْرُوفَاتٍ بَينَهُم، وكَذَلِكَ حَالُ (مَا) فِي الاستِفهَام، كَمَا قَالَ صَاحِبُ الكَشَّاف، وَصَاحِبُ المِفتَاح، فَإِذَا قُلتَ: مَا تَزَوَّجتَ؟ فَأَنْتَ تُرِيدُ مَا صِفَتُهَا أَبِكْرًا أَمْ ثَيِّبًا مَثَلًا، وَإِذَا قلتَ: مَنْ تَزَوَّجتَ؟ فَأَنْتَ تُرِيدُ تَعيينَ اسمِهَا وَنَسَبِهَا"[2].

وذكر بعضُ المفسّرين - مع ما ذكره ابنُ عاشور - وجوهًا أخرى لاستعمال (ما)، أوّلها: أنَّ (مَا) بِمَعنَى (مَنْ)، وَهَذَا مَذهَبُ مَن يُجَوِّزُ وُقوعَ (مَا) عَلَى آحَادِ العُقَلَاءِ، وثانيها: إرادةُ الجنسِ، تَقُولُ: مَا عِندَكَ؟ فَيَقُولُ رَجُلٌ أَو امرَأَةٌ، وثالثها: أنَّ (مَا) و(مَنْ) رُبَّمَا

(1) الراغب، تفسير الراغب: 3/1087 - 1088.

(2) ابنُ عاشور، التّحرير والتّنْوير: 4/224.

يَتَعَاقَبَانِ، فيستعملُ أحدُهما مكانَ الآخر للذّات[1]، ورابعها: أنَّه آثرَ (ما) تَنزِيلًا لِلإِنَاثِ مَنزِلَةَ غَيرِ العُقَلَاءِ لِنُقصَانِ عُقُولِهِنَّ[2]، والعلَّةُ الأخيرةُ وما قبلها نراها بعيدةً عن المعنى، فالسِّياقُ لا يدلُّ عليهما، والعلَّةُ الأولى والثَّانيةُ وما ذهب إليه ابنُ عاشور أدلُّ على المعنى المراد وأقرب، واللّه تعالى أعلم.

نكتةُ التَّعبير بلفظِ (الطيب):

في وصف النساءِ بالطيب في قوله: ﴿فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ "مبالغةٌ في الاستمالة إليهن والترغيبِ فيهن؛ وكلُّ ذلك للاعتناء بصَرْفهم عن نكاح اليتامى وهو السرُّ في توجيه النهي الضمنيِّ إلى النكاح المُترقَّبِ مع أن سببَ النزولِ هو النكاحُ المحققُ لما فيه من المسارعة إلى دفع الشرِّ قبل وقوعِه"[3].

في الترغيب بالنساء صرفٌ عن نكاح اليتامى

سرُّ العطفِ بالواو في ﴿مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾:

في الآيةِ الكريمةِ أُوثرَ التَّعبيرُ بحرفِ العطف (الواو) في قوله تعالى: ﴿فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾ دون غيره مثل (أو)، وقد بيَّن الزَّمخشريُّ سرَّ إيثار العطفِ بالواو بقوله: "فإن قلت: فلِمَ جاءَ العطفُ بالواو دون أو؟ قلت: كما جاء بالواو في المثال الّذي حذوته لك، ولو ذهبت تقول: اقتسمُوا هذا المالَ درهمين درهمين، أو ثلاثةً ثلاثةً، أو أربعةً أربعةً: أُعلمت أنّه لا يسوغُ لهم أن يقتسِمُوه إلّا على أحدِ أنواع هذه القسمة، وليس لهم أنْ يجمعُوا بينها فيجعلُوا بعضَ القسم على تثنيةٍ، وبعضَه على تثليثٍ، وبعضَه على تربيع، وذهبَ معنى تجويز الجمع بين أنواع القسمةِ الّذي دلَّت عليه الواو، وتحريرُه: أنّ الواو دلّت على إطلاق أن يأخذَ النَّاكحون منْ أرادوا نكاحَها من النِّسَاء على

دلَّتِ الواوُ على إطلاقِ أن يأخذَ الناكِحُون من أرادوا نكاحَها من النِّسَاء على طريق الجَمعِ

(1) وهذا ما يعرف بعلم البديع بفن التغليب: وهو إِعطَاءُ الشَّيءِ حُكمَ غَيرِهِ، وَقِيلَ تَرْجِيحُ أَحَدِ المَغْلُوبَيْنِ عَلَى الآخَرِ أَو إِطلَاقُ لَفظَةٍ عَلَيهِمَا إِجرَاءً لِلمُختَلِفَيْنِ مَجرَى المُتَّفِقَيْنِ، الزّركشي، البرهان: 3/302.

(2) الرازي، مفاتيح الغيب: 9/486، وأبو حيّان، البحر المحيط: 3/504.

(3) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 2/141.

طريق الجمع، إنْ شاؤوا مُختلفين في تلك الأعداد، وإنْ شاؤوا مُتَّفقين فيها، محظوراً عليهم ما وراء ذلك"[1].

دلالة الفاء على السببيّة:

الحلّ في الخوف من عدم العدل التّزوج بواحدة

وفي قوله: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ فَوَٰحِدَةً﴾ الجملةُ شرطيّةٌ، والفاءُ في جواب الشَّرط: ﴿فَوَٰحِدَةً﴾ هي الرَّابطةُ للجوابِ بالشَّرط، وهذه الفاءُ أفادت السَّببيَّةَ كما مرَّ، والمعنى: وإنْ خفتُم عدمَ العدل في حال التعدّد، فهناك حلٌّ لهذا من خلال الاقتصار على واحدةٍ.

بلاغةُ التَّعبير عن العَولِ بالكناية:

وجه الكناية التعبيرُ عن كثرة العيال بكثرة المؤنة

العَولُ في قوله تعالى: ﴿أَدْنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُوا۟﴾: الميلُ من قولهم عال الميزانُ عَوْلاً إذا مال، وعال في الحكم أي جار، والمرادُ هنا الميلُ المحظورُ المقابلُ للعدل، وعبر عن كثرة العيال بكثرة المؤنة على طريقة الكناية ويؤيده قراءة: (أن لا تعيلوا) من أعال الرجلُ؛ إذا كثُر عيالُه، والجملةُ مستأنفةٌ جارية مما قبلها مجرى التعليل[2].

نكتة التَّعبير بصيغةِ الأمرِ:

التعبير بالأمر حمايةٌ لحقوقِ النِّسَاء، بوجوبِ دفعِ المهرِ لهنَّ

يتّجهُ التَّعبير القرآني عن طريق فعلِ الأمر للوجوبِ في قوله تعالى: ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحْلَةً﴾، إلى حمايةِ حقٍّ آخر للنِّسَاء، يتمثّلُ بوجوب دفع المهرِ لها، فهو على أزواجهنَّ واجبٌ، ولهنَّ من ربهنَّ هبةً وعطاءً؛ فالمعنى "وأعطُوا النِّسَاء مهورَهنَّ عطيّةً واجبةً، وفريضةً لازمةً"[3]، وفي تنفيذِ هذا الأمر صلاحٌ وخيرٌ للمجتمع.

والخطابُ هنا للأزواج وأولياءِ المرأة؛ فقد كانُوا في الجاهليّة لا يعطُونها من صداقها إلاّ بعيرًا يحملُونها عليه، ويُرسلُونها إلى بيتِ الزّوج، ويحبِسون باقي الصّداق لأنفسهم[4].

(1) الزَّمَخْشري، الكشاف: 1/467 - 468.
(2) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 2/142، ووهي قراءة شاذة.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 4/552.
(4) الجرجاني، دَرْجُ الدُّرر: 1/464.

سرُّ إيثار فعل الإيتاء على غيره:

في إيفاء الزّوجة حقّها من المَهر مع القبول والرضا تطبيقٌ لشرع الله

وأُوثر التَّعبيرُ بـ ﴿وَءَاتُواْ﴾ على (أعطوا) لما في فعل الإيتاءِ من قوّةٍ وخصوصيّةٍ أقوى من الإعطاء؛ لأنَّ الإيتاءَ يدلُّ على يُسرِ الإعطاءِ وسماحةِ البذل، فضلاً عن القبول[1]، فأوحى استعمال فعل الأمر ﴿وَءَاتُواْ﴾ بوجوبِ دفع المهر للزّوجة مع القَبولِ والرِضَا من الزّوج والوليِّ، مع ملاحظة إيفائه على وجهه الأتمّ لما في لفظ الإتيان من دلالة إيصال الشَّيء إلى المنتهى[2].

علّة التّعريف بالإضافةِ في ﴿صَدُقَٰتِهِنَّ﴾:

في الإضافة تنبيهٌ على ملك الزّوجة لمهرها، وتحذيرُ الأزواج والأولياء من التَّعرّضِ له

جاءت الآيةُ الكريمةُ بتعريف الصّدُقاتِ - جمع صَدُقَة - وهي المهْرُ - بالإضافة، مع تأكيدِ فعل الأمر بالمصدر ﴿نِحۡلَةٗۚ﴾ الهديّة، في قوله: ﴿وَءَاتُواْ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحۡلَةٗۚ﴾، فالتَّعريفُ بإضافة الصَّدُقات لضمير النِّسَاء فيه دلالةٌ على مُلكها لهذا المهر وأحقّيتها به، وفيه تحذيرٌ للأزواج والأولياء من التَّعرّض له وأخذِه منها إلّا عن طيبِ نفسٍ كما سيأتي بيانُه.

نكتة اصطفاء لفظِ الصَّدُقَةِ:

يناسبُ لفظُ الصَّدُقَةِ ثقل المهر، وتكلّف تحصّله

في إيثار هذا الاسم ﴿صَدُقَٰتِهِنَّ﴾ دون غيره إعجازٌ لا يخفَى، فالصَّدُقةُ - بضمّ الدَّال - والصَّدَقة - بفتحها - استعمالُ الأولى في المهرِ، والثّانية في التَّصدّق من بلاغة هذا القرآن العظيم؛ فالصَّدُقةُ - بالضمِّ - أثقلُ نطقًا من الصَّدَقة - بالفتح - ، وكذلك هما على هذا الشّأن، في مجال التَّطبيق العمليِّ لهما؛ فالمهرُ ثقيلٌ في قدره ومادتِه، قد يتكلَّفُ له المرءُ كثيراً من الجهد حتّى يحصلَ عليه، وقد يقتطِعُ له قدرًا كبيرًا من ماله، الّذي هو بعض نفسه؛ ومن هنا كان ثقلُهُ على النَّفس، ثمّ كان ثقلُه على اللِّسان، وليس كذلك

(1) الراغب، المفردات: 61.

(2) البروسوي، روح البيان: 3/211.

الصَّدقة، فإنَّ محملَها خفيفٌ، يؤديها الإنسانُ بطيب نفس عن سَعَةٍ، ويجودُ بها من فضل ماله كرمًا، فلا يكاد يحسُّ بها؛ فالجامع بين الصَّدُقة (المهر) والصَّدَقة (الإحسان) أنَّ كلًّا منهما من باب البرِّ والخير، وأنَّهما من موارد مرضاةِ اللّه ورضَا النّاس[1].

تنوّعُ دلالة النِّحلة بين الزّوج والزّوجة:

النّحلة أخصُّ من الهِبَة، وهي إعطاءُ عن طيب نفس بلا اسْتِعاضةٍ

من دقائق القرآن الكريم التَّعبيرُ بالمصدر ﴿نِحۡلَةٗ﴾: "العَطِيَّة على سبيل التّبرُّع، وهو أخصُّ من الهِبَة"[2]؛ إذ كل هِبة نِحلة، وليس كل نِحلة هِبة، وسُمّي الصداق بها من حيث لا يجب في مقابلته أكثر من تمتُّعٍ دون عوض مالي[3]، فالنِّحْلَةُ الإعطاءُ عن طيب نفس بلا اسْتِعاضةٍ، بخلاف الصّداق وهو واجبٌ، وقد راعى الخطابُ في الآية مصدرَ الأمر بالمهر وهو اللّه تعالى، ومصدرَ العمل به وهو الزّوج، فاللّه تعالى هو الّذي فرضَهُ على الأزواج للزَّوجات حتمًا واجبًا عليهم لا هبةً منهم ولا تفضُّلاً، وتفضَّلَ به عليهنَّ نحلة وعطاءً وهبةً وكرمًا[4].

العمدةُ في أمر المهور طيب النّفس

"عَدَل عن لفظ الهبةِ والسماحةِ إلى مَا عليهِ النظمُ الكريمُ إيذاناً بأن العُمدة في الأمر إنما هو طيبُ النفسِ وتجافيها عن الموهوب بالمرة"[5].

إبعَادُ المُهورِ عن أَنواعِ الأَعوَاضِ، وتَقريبٌ بِها إِلى الهَدِيَّةِ

ولابن عاشور إشارةٌ جميلةٌ في هذا؛ إذ يقولُ: "وسُمِّيَتِ الصَّدُقَاتُ نِحلَةً إبعَادًا للمهورِ عن أَنواعِ الأَعوَاضِ، وتَقريبًا بِها إِلى الهَدِيَّةِ؛ إذ لَيسَ الصَّدَاقُ عِوَضًا عَن مَنَافِعِ المَرأَةِ عِندَ التَّحقيقِ؛ فَإِنَّ النِّكَاحَ عَقدٌ بَينَ الرَّجُلِ وَالمَرأَةِ قُصِدَ مِنهُ المُعَاشَرَةُ، وإِيجَادُ آصِرَةٍ

(1) الخطيب، التَّفسير القرآني للقرآن: 2/697.
(2) الراغب، المفردات: (نحل).
(3) الراغب، تفسير الراغب: 3/1096.
(4) الحمداوي، تفسير سورة النِّساء، ص: 29.
(5) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 2/144.

عَظِيمَةٍ، وَتَبَادُلُ حُقُوقٍ بَينَ الزَّوجَينِ، وَتِلكَ أَغلَى مِن أَن يَكُونَ لَهَا عِوَضٌ مَالِيٌّ، وَلَو جُعِلَ لَكَانَ عِوَضُهَا جَزِيلًا وَمُتَجَدِّدًا بِتَجَدُّدِ المَنَافِعِ، وَامتِدَادِ أَزمَانِهَا، شَأْنُ الأَعوَاضِ كُلِّهَا، ولَكِنَّ اللّه جَعَلَهُ هَدِيَّةً وَاجِبَةً عَلَى الأَزوَاجِ إِكرَامًا لِزَوجَاتِهِم"[1].

براعةُ تأكيدِ الشَّرطِ على حقِّ المرأةِ بالمهر:

إعطاءُ الحقِّ للزّوجة في المَهرِ تكريمٌ لها، ومراعاةٌ لنفسيّتها

أكَّدت جملة الشَّرط: ﴿فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا﴾، حقَّ المرأة ومُلكَها في المهر؛ فهي منْ لها حقُّ التَّصرّف به إنْ أرادت أنْ تعطي الرَّجل منه شيئًا عن طيبِ نفس، وله أخذه آنذاك[2]، ولهذا جاء جوابُ الشَّرط فعل أمر خرج إلى معنى الإباحة في قوله: ﴿فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا﴾، وليس بعدَ هذا التَّكريم من تكريمٍ؛ إذ أعطى الحقَّ لأهله، وراعَى الجانبَ النَّفسيَّ للمرأة.

بنى الشّرط على طيب النّفس؛ للمبالغة في القبول والرضَا من الزَّوجة:

ولمَّا كانت المرأةُ تغلبُ عليها العاطفةُ للحدِّ الّذي قد يلحقُ بها الأذى والضَّرر والخِداع، نبَّه على وجوب الاحتياطِ لهذا الأمر وبنَى الشَّرطَ على طيب النّفس فقيل: فإنْ طبن، ولم يقل: (فإنْ وهبن أو سمحن).

بلاغة التَّضمين في لفظ ﴿طِبْنَ﴾:

التعدية بـ (عن) تضمينٌ لمعنى التّجافي عن الموهوب له بالرّضا لا بالإكراه

وعُدِّيَ لفظ ﴿طِبْنَ﴾ بـ (عن)؛ ليتضمَّن معنى التَّجافي والتَّجاوز منها عن الموهوبِ له بالرِّضا والطّيب لا بالقهر والإكراه، وبيانًا بأنَّ العلّة بجواز قبول جزءٍ من المهر أن يكون عن طيب نفسٍ من مالكة المال وهي الزّوجة؛ فالمعنى: إنْ وهبن شيئًا؛ فعبَّر بالطّيب للمبالغة في القبول والرضَا منها، وقال: ﴿فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ﴾، ولم يقل: (فإن طِبن لكم عنها)، بعثًا لَهنَّ على تقليلِ الموهوب[3].

(1) ابنُ عاشور، التّحرير والتّنوير: 4/230 - 231.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 7/555.
(3) الزّمَخْشري، الكشاف: 1/471، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 2/60.

نكتةُ تخصيص لفظ (الأكل) بالذكر:

في لفظ الأكل تعبيرٌ عن معظم وجوه التّصرفات المالية

قوله تعالى: ﴿فَكُلُوهُ﴾، أي: فخذوا ذلك الشيء الذي طابت به نفوسُهن، وتصرفوا فيه تملُّكاً، وتخصيصُ الأكلِ بالذكر؛ لأنه معظمُ وجوهِ التصرفاتِ المالية[1].

سرُّ تذييل الفاصلة بالوصفين ﴿هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا﴾:

في الوصفين ترسيخٌ لتحليل الأكل، ومبالغةٍ في الإباحة وإزالة التبعية

قوله: ﴿هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا﴾ صفتان من هنُؤَ الطعامُ ومرُؤَ إذا كان سائغاً لا تنغيصَ فيه، ونصبُهما على أنهما صفتانِ للمصدر أي أكلاً هنيئاً مريئاً أو على أنهما حالانِ من الضمير المنصوب أي: كُلُوهُ وهو هنيء مريء وفي التعبير بهما ترسيخٌ لتحليل الأكل، ومبالغةٌ في الإباحة وإزالة التبعية[2].

بَلاغَةُ الاحتراس في الجملَةِ الإنشَائيَّةِ:

إرشادُ الأولياءِ وتوجيهُهم بضرورة حفظِ مالِ اليَتيمِ غير المؤهّل للتصرّف به

راعى الخطابُ القرآنيُّ حقوقَ الأيتام، ودلَّ على حمايتها من الهدر والضَّياع في الصِّغر والكبر، ولمَّا جاءت الأوامرُ أولَ سورة النِّسَاء بدفع أموال اليتامى كاملةً، والنَّهي عن أكلها ظلمًا وبهتانًا، جاءت بعدها الجملةُ الإنشائيةُ بالنَّهي في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُؤْتُواْ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ﴾، احتراسًا "لِدَفعِ تَوَهُّمِ إيجَابِ أَن يُؤتَى كُلُّ مَالٍ لِمَالِكِهِ مِن أَجلِ تَقَدُّمِ الأَمرِ بإتيَانِ الأَموَالِ مَالِكِيهَا مَرَّتَينِ قبلها"[3]؛ فاليتيمُ إذا كان صغيرًا غير بالغٍ، أو كبيرًا غير عاقل، أو طائشًا لا يقدرُ على حفظِ ماله لقلّة عقلٍ، أو تبذيرٍ وسوء تدبير لا يُدفع له المالُ، بل يُحفظُ عند الوليِّ، إلى أن يزولَ عنه السّفهُ، وهذا ما دلَّ عليه النَّهي: ﴿وَلَا تُؤْتُواْ﴾ بتحريم إعطاءِ الوليّ المالَ لليتيم السَّفيه، بل الحَجْر عليه لتضييعِه مالَه، وفسادِه وإفسادِه وسوء تدبيره[4].

(1) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 2/144.
(2) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 2/144.
(3) ابنُ عاشور، التّحرير والتّنْوير: 4/233.
(4) الرازي، مفاتيح الغيب: 4/495.

بلاغة التَّعريف بالإضافة:

ولتأكيد معنى النّهي جاء التَّعريفُ بالإضافة لإفادة العموم في: ﴿أَمْوَٰلَكُمُ﴾؛ فقد أضاف الأموال إلى الأولياء ونسبَها لهم، ولم يقل: (أموالهم)، مع أنَّ المالَ مالُ السّفهاءِ، مبالغةً في إرشاد الأولياء وتوجيههم بضرورة حفظِ مال اليتيم وكأنّه ماله، ولينبّههُم أنَّه "إذا ضاعَ هذا المالُ وجبَ على الوليِّ أَنْ يُنفقَ عليه من مال نفسه، فإضاعتُه مُفضِيةٌ إلى إضاعة شيء من مال الوليِّ، فكأنَّ مالَه عين ماله، وإلى أنَّ الأمَّة مُتكافلةٌ في المصالح، فمصلحةُ كلِّ فردٍ فيها كأنَّها مصلحةُ للآخرين"[1].

في التّعريف بالإضافة مبالغةٌ في إرشاد الأولياء وتوجيههم بضرورة حفظِ مال اليتيمِ

فائدة الوصف بالاسم الموصول:

وأُجرِيَ على الأَموالِ صِفَةٌ تَزِيدُ إِضَافَتُهَا إِلَى المُخَاطَبِينَ وُضُوحًا وَهِي قَولُهُ: ﴿ٱلَّتِي جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا﴾ فَجَاءَ في الصِّفَةِ بِالاسم المَوصُولِ إِيمَاءً إِلَى تَعليلِ النَّهي، وَإِيضَاحًا لِمَعنَى الإِضَافَة[2]، فهو مالُ اللّه تعالى الّذي جعله عندهُم ليختبرَهم فيه ويبتليَهم به؛ لأنَّه في تصرُّفِ الأولياء وتحتَ ولايتهم[3].

الموصول يزيد الصّفة وضوحًا، وفيه إيماءٌ إلى تعليل النّهي

توجيه القراءات في لفظ ﴿قِيَٰمًا﴾:

وقُرئت ﴿قِيَمًا﴾ جمع قيمة، فيكونُ المعنى على أنّ حاجةَ النّاس للمال لصلاحِ أحوالهم كحاجتِهم للقِيَمِ لصلاح أنفسهم، وعلى قراءة ﴿قِيَٰمًا﴾ بالألف بمعنى الّذي يقيمُ شأنَهم، فبهذا المال يحصلُ قيامُهم[4].

إنَّ للقيم أثرًا في إصلاحِ النُّفوسِ، وإنّ بالمال يحصلُ قيام الأيتام

بلاغة الأمرِ في الدّلالة على الاحتراس:

لَمَّا نُهِيَ الأولياءُ عن دفع الأموال للسّفهاء، احترسَ بعدها بصيغ الأمر للإرشادِ والتّوجيه فقال: ﴿وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَٱكْسُوهُمْ وَقُولُواْ لَهُمْ

(1) المراغي، تفسير المراغي: 4/186.
(2) ابنُ عاشور، التّحرير والتّنوير: 4/235.
(3) البيضاوي، أنوار التنزيل: 2/60.
(4) قرأ نافع في هذا الموضع وابن عامر ﴿قِيَمًا﴾، وقرأ الباقون: ﴿قِيَٰمًا﴾، ابن الجزري، النشر: 2/247.

في الاحتراس دفعُ توهُّمِ من يظنُّ أنَّ منعَ الأموال عنهم عامٌّ مطلقٌ

قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا﴾، وهذا الاحتراسُ دفعَ توهّم من يظنُّ أنَّ منعَ الأموال عنهم عامٌّ مطلقٌ، بل على الوليِّ الانفاقُ على اليتيم السَّفيه بِمِقدَارِ انتِفَاعِهِمْ مِنْ نَفَقَةٍ وَكُسوَةٍ؛ ولذَلِكَ قَالَ فُقَهَاؤُنَا: تُسَلَّمُ لِلمَحجُورِ نَفَقَتُهُ وَكِسوَتُهُ إِذَا أَمِنَ عَلَيهَا بِحَسَبِ حَالِهِ وَمَالِهِ[1].

الكلمةُ الطيبةُ صدقةٌ، وجبرٌ للخواطر، ومراعاةٌ للجانب النّفسيّ

فضلاً عن ذلك راعَت صيغُ الأمر الجانبَ النّفسيَّ والعاطفيَّ لليتيم السَّفيه الّذي لم يُدفع له المالُ، بقوله تعالى: ﴿وَقُولُواْ لَهُمۡ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا﴾، فالآيةُ ترشدُ الأولياءَ وتعلمهم أنْ يقولوا للسُّفهاء ما تألفه نفوسُهم، وتُجبرُ به خواطرُهم، ووعدهم بالكلمة الطَّيبة الحسنة، تخفيفًا عليهم من حالتهم بحَجْر أموالهم عنهُم، ونصحهم والعمل على إخراجهم باللّين والكلم الطَّيب غير المُنفِّر من حالة السَّفهِ المُتلبِّسَة بهم[2].

سرُّ إيثارِ حرفِ الجرِّ (فِي):

تنبيهُ الأولياءِ إلى استثمارِ أموال اليتامى حتّى تبقَى موضِعًا للفَضلِ

يلحظُ القارئ إيثارَ القرآن الكريم استعمالَ حرف الجرّ (فِي)، بدلاً من (مِنْ) في قوله تعالى: ﴿وَٱرۡزُقُوهُمۡ فِيهَا﴾، لتنبيهِ الأوصياء إلى أنَّ النَّفقةَ على السُّفهاءِ مطعمًا وملبسًا وتعليمًا، وما سوى ذلك لا بدَّ أنْ تكونَ في أرباح أموالهم من الاتِّجارِ فيها قصدًا إلى إنمائِها؛ كي لا تنفدَ، وليس من رؤوس أموالهم نفسِها، فالمعنى: اجعَلُوا لَهُم فِيهَا رِزْقًا، فعبَّر بـ (في) الدَّالَّة على الظَّرفِيَّةِ المَجَازِيَّةِ إشارة إلى الاقتصاد واستثمار الأموال حتّى تبقى موضعًا للفضل، وتكون النَّفقةُ والكسوةُ من الربحِ لا من صلبِ المال، حتَّى يبقى المال ويستمرَّ النّفعُ[3]، قال الرّاغب: " إن قيل: لِمَ قال: ﴿فِيهَا﴾ في قوله: ﴿وَٱرۡزُقُوهُمۡ فِيهَا وَٱكۡسُوهُمۡ﴾ ولم يقل: منها، مع كون ذلك أظهر؟

(1) ابنُ عاشور، التّحرير والتّنْوير: 4/236.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/518.
(3) البغوي، تفسير البغوي: 2/164، والبقاعي، نظم الدرر: 5/196.

قيل: قد ذكر بعضهم أن فيه تنبيهًا على ما قاله ﷺ : "ابتغوا في أموال اليتامى، لا تأكلها الزكاة"، وأن المستحب أن يكون الإنفاق عليها من فضلاتها المكتسبة[1].

نكتةُ تكرار صيغ الأمر:

إرشادُ الأولياءِ وتوجيهُهم للطّريقة المُثلى في التّعاملِ مع اليتامى وأموالِهم

إنَّ النّاظر في قوله تعالى: ﴿وَٱبۡتَلُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ فَإِنۡ ءَانَسۡتُم مِّنۡهُمۡ رُشۡدٗا فَٱدۡفَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡۖ وَلَا تَأۡكُلُوهَآ إِسۡرَافٗا وَبِدَارًا أَن يَكۡبَرُواْۚ وَمَن كَانَ غَنِيّٗا فَلۡيَسۡتَعۡفِفۡۖ وَمَن كَانَ فَقِيرٗا فَلۡيَأۡكُلۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ فَإِذَا دَفَعۡتُمۡ إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡ فَأَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِمۡۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبٗا﴾، يلحظُ تكرارَ صيغ الأمر خمسَ مرّاتٍ في هذه الآية: ﴿وَٱبۡتَلُواْ﴾ ﴿فَٱدۡفَعُوٓاْ﴾ ﴿فَأَشۡهِدُواْ﴾ ﴿فَلۡيَأۡكُلۡ﴾ ﴿فَلۡيَسۡتَعۡفِفۡۖ﴾، وقد خرجت أغلبُها إلى إرشادِ الأولياء وتوجيههم للطّريقة المُثلى في التَّعامل مع اليتامى وأموالِهم، وإن دلَّ بعضُها في أصلها على الوجوبِ، فبدأ بالفعلِ ﴿وَٱبۡتَلُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰ﴾، وهو مع دلالته على وجوبِ اختبار اليتامى عند بلوغ الحُلم، فيه معنى توجيهِ الأولياء وإرشادِهم للاختبار وطريقته الّتي تمنع الأولياءَ من استمرار حَجرِهم على أموال اليتامى؛ ففيه شروعٌ في تعيين وقت تسليم أموال اليتامى إليهم، وبيان شرط الدَّفع بعد النَّهي عنه عند كونهم سفهاءَ.

بلاغة الإظهَارُ في موضِعِ الإضمَارِ:

في الإظهار زِيَادَةٌ في الإيضَاحِ والاهتِمَامِ بالحُكمِ

في الآيةِ الكريمةِ أظهر ﴿ٱلۡيَتَٰمَىٰ﴾ فقال: ﴿وَٱبۡتَلُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰ﴾، ولم يضمرْهم فيقول: وابتلوهم، مع أنّه ورد ذكرُهم صريحًا وضمنًا فيما سبق، وقد أشار ابنُ عاشور إلى بلاغةِ هذا العدول بقوله: "عُدِلَ عَنِ الضَّمِيرِ إِلَى الاسم الظَّاهِرِ وعَنِ الاسم الظَّاهِرِ المُسَاوِي لِلأَوَّلِ إِلَى التَّعبيرِ بِآخَرَ أَخَصَّ وهُوَ اليَتَامَى؛ لِزِيَادَةِ الإيضَاحِ والاهتِمَامِ بِالحُكمِ، وأَنَّ العُدُولَ عَنْ إِعَادَةِ لَفظِ السُّفَهَاءِ إِيذَانٌ بِأَنَّهُمْ في حَالَةِ

(1) الراغب، تفسير الراغب: 3/1102، والحديث في السنن الصغرى للبيهقي، برقم: (1221).

الابتِلَاءِ مَرجُوٌّ كَمَالُ عُقُولِهِم، وَمُتَفَاءَلٌ بِزَوَالِ السَّفَاهَةِ عَنهُمْ، لِئَلَّا يَلُوحَ شِبهُ تَنَاقُضٍ بَينَ وَصفِهِم بِالسَّفَهِ وَإِينَاسِ الرُّشدِ مِنهُمْ"[1].

توجيهُ بيان الجملَةِ الشَّرطيَّةِ لأركانِ الاختِبَارِ:

الإرشـــادُ إلى مسارعةِ دفعِ مالِ اليتامى عند أوّل علاماتِ الرُّشدِ مهما صغُرت

وردت في أوّل الآية الكريمة جملتان شرطيّتان: إحداهُما مُتضمِّنَةٌ للأُخرى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ فَإِنۡ ءَانَسۡتُم مِّنۡهُمۡ رُشۡدٗا فَٱدۡفَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡۖ﴾؛ فالجملةُ الواقعةُ بعد ﴿حَتَّىٰٓ﴾ جملةٌ شرطيةٌ أولى؛ لأنَّ ﴿إِذَا﴾ مُتضمِّنَةٌ معنى الشَّرط، وفعل الشَّرط، وقوله: ﴿فَإِنۡ ءَانَسۡتُم مِّنۡهُمۡ رُشۡدٗا فَٱدۡفَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡۖ﴾ جملةٌ من شرطٍ وجزاءٍ واقعةٌ جوابًا للشَّرط الأوّل ﴿إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ﴾، فكأنّه قيل: اختبِروا اليتامى إلى وقتِ بلوغهم؛ فاستحقاقُهم دفعَ أموالهم إليهم بشرطِ إيناس الرُّشد منهم[2]، والآيَةُ ظَاهِرَةٌ في تَقَدُّمِ الابتِلَاءِ والاستِينَاسِ عَلَى البُلُوغِ لِمَكَانٍ حَتَّى المُؤذِنَةِ بالانتِهَاءِ، وهي صَرِيحَةٌ في أنّه إذا لَم يَحصُلِ الشَّرطَانِ مَعًا: البُلُوغُ والرُّشدُ، لَا يُدفَعُ المَالُ لِلمَحجُورِ، فَمَن لَمْ يَكُنْ رَشِيدًا بَعدَ بُلُوغِهِ يَستَمِرُّ عَلَيهِ الحَجْرُ[3].

ولَمَّا كان البُلُوغُ وَالرُّشدُ وتَحرِّيهما أَمْرَيْنِ أَسَاسِيَّيْنِ لدفعِ مالِ اليتيم، ممّا يدفعُ ببعض الأولياء إلى التّلاعب بأموال اليتامى وتضييعها بحجّة عدم توفّر أحد هذين الأمرين، فيضيعَ حقُّ اليتامى ويُظلمون بذلك، جاءت الآيةُ الكريمةُ لتعاضد فيها الشَّرطان بالأداتين (إذا) و(إنْ)، والأساليبُ البلاغيَّة من تنكير وغيرها لحماية اليتيم من الظُّلم، ولبيان هذا الاختبارِ وإيضاحِه للأولياء المخاطَبين وتنبيههم على شروطِه من دون أي لبسٍ.

فجاء جوابُ الشَّرطِ الأوّل شرطًا ثانيًا مُنبِّهًا إلى المسارعةِ إليه بـ

(1) ابنُ عاشور، التّحرير والتّنْوير: 4/237.
(2) الزّمَخْشري، الكشّاف: 1/474.
(3) الرازي، مفاتيح الغيب: 9/497 - 499.

(إن) الدالّة على مجرّد احتماليةِ وجودِ الرُّشد؛ لدلالتها على مجرّد الظنِّ والشّكِّ بوجوده، بدفع مال اليتيم عند أوّل علاماتِ الرُّشدِ مهما صَغُرت؛ لذا اشترطت هذه الأداةُ إيناسَ الرُّشد مُنَكَّرًا لتقليله؛ فأيُّ نوع من درجات الرُّشد، ومخيلةٌ من مخايله مقبولةٌ لا ينتظرُ به تمامَ الرُّشد الّذي يعزُّ وقوعُه بين البشر[1].

علّة إيثار لفظ الإيناس على غيره:

حصولُ أوّل العلم بِرُشد اليتامى كفيلٌ بأن تُدفَعَ لهم أموالُهم

أُوثر استعمالُ الفعل ﴿ءَانَسۡتُم﴾ الّذي يدلُّ على الرُّؤية والعلم والإحساس بالشَّيء لأوّل بوادره، وإينَاسُ الرُّشدِ هُنَا عِلمُهُ، وأَصل الإينَاسِ رُؤيَةُ الإنسَانِ، ثُمَّ أُطلِقَ على أَوَّل مَا يُتَبَادَرُ من العِلم، فكَأَنَّ في اختيار ﴿ءَانَسۡتُم﴾ هُنَا دُونَ (عَلِمۡتُم)؛ للإِشَارَةِ إلى أَنَّه إنْ حَصَل أَوَّلُ العِلمِ بِرُشدِهِم يُدفَعُ إليهم مَالُهُم دون تَرَاخٍ وَلَا مَطْلٍ[2]؛ وبهذا حصّنت الآيةُ الكريمةُ أموالَ اليتامى، بتعليم الأولياء آلية دفع أموال اليتامى، ووجوب المسارعة بتسليم الأموال كاملةً سالمةً لهم، بمجرّد تَبيُّن الرُّشد - بعد البلوغ - على أتمِّ وجه، وأفصح بيان.

نكتة تقديم شبه الجملة على المفعول:

وجه التقديم العناية بالمقدَّمِ والتَّشويقِ إلى المؤخَّر

قدّم الجارّ والمجرور في قوله: ﴿مِّنۡهُمۡ رُشۡدٗا﴾ على المفعول؛ "للاهتمام بالمقدَّم، والتَّشويقِ إلى المؤخَّر أو للاعتداد بمَبدئيَّته له، والتنوينُ للدِلالة على كفاية رُشدٍ في الجملة"[3]، أي: رشدًا صالحًا لتحمّل المسؤوليّة، وأعباء الحياة.

قوّة اللّفظ في صيغة الأمر ﴿فَلۡيَسۡتَعۡفِفۡ﴾:

وَرَدَ في هذه الآية الكريمة نوعٌ طريفٌ من أنواعِ التَّناسب اللّغويّ والبيانيّ يُطلَقُ عليه مصطلح (قوّة اللّفظ لقوّة المعنى) في قوله

(1) الزّمَخْشري، الكشاف: 1/473، والبقاعي، نظم الدرر: 5/197.
(2) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 2/161 - 162.
(3) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 2/145.

المبالغةُ في العِفَّة من الوليِّ نفسِه؛ هضمًا لها، وحملًا على النَّزاهة

تعالى: ﴿فَلْيَسْتَعْفِفْ﴾؛ فإنَّ (استعفَّ) أبلغُ من (عفَّ)، كأنَّه يَطلُب زيادةَ العِفَّة من الوليِّ نفْسِه؛ هضمًا لها، وحَمْلًا على النَّزاهة الّتي يجب أن تكون رائدَ أبناءِ المجتمع، ومن المعلوم أنّ اللّفظَ إذا كان على وزن من الأوزان، ثمّ نُقل إلى وزنٍ آخرَ أكثر منه، فلا بدَّ من أن يتضمّن من المعنى أكثر مما تضمّنه أولًا؛ لأنّ الألفاظَ دالَّةٌ على المعاني، فإذا زِيدَ في الألفاظِ أوجبتِ الزِّيادةُ زيادةً في المعاني، وهذا النوعُ لا يُستعمل إلَّا في المبالغة[1].

تعانقُ التَّعريفِ بالإضافة مع النَّهي في بيان حُرمةِ مالِ اليتيم:

المال حقُّ اليتامى وليس للولي التّصرف به بعد البلوغ

لَمَّا بيّن القرآنُ شروطَ دفع أموال اليتامى لهم في أول الآية، بيّن بعدها أنّه يجب على الوليِّ المسارعةُ في إعطاء المال لصاحبه في قوله: ﴿فَٱدْفَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ﴾، ومن دقائقِ التَّعبير القرآني هنا التَّعريفُ في الأموال بإضافتها إلى ضمير الغائبِ العائد على اليتامى: ﴿أَمْوَٰلَهُمْ﴾، هذا التَّعريفُ الّذي جاء بعد فعل الأمر ﴿فَٱدْفَعُوٓاْ﴾.

مع تقديم شبه الجُملة ﴿إِلَيْهِمْ﴾ على المفعول به لبيان أنَّ هذا المالَ مالُ هؤلاء اليتامى وقد خرجَ حقُّ التّصرّفِ للأولياء به؛ فإنّه لَمَّا كان اليتيمُ يتيمًا أضافَ القرآنُ هذه الأموالَ إلى ضمير الأولياء لحملهِم على المحافظَةِ عليها، أما هنا وقد بلغُوا الرُّشدَ والحُلمَ، أصبح المالُ مالَهم.

في النّهي تقريرٌ لأمر الدّفع لليتامى، وتجريمٌ لأكل مالهم إسرافًا

ولتأكيد أمر الدَّفع وتقريره، جاء النَّهيُ الحقيقيُّ الدّالُّ على المنع بعدها مباشرة في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوهَآ إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُواْ﴾؛ أي: لا تَأكُلوها في حالِ صِغَرِهم - قبلَ بُلوغِهم وإيناسِ الرُّشدِ منهم - الّتي لا يُمكنُهم فيها أخذُها منكم، ولا مَنعُكم من أكْلِها، لا تأكلوها استعجالًا منكم بذلِك قبل أن يَكبَروا، فيأخذوها

(1) ابنُ عاشور، التّحرير والتّنْوير: 2/241 - 242.

منكم ويمنعوكم منها[1]؛ فهو نهيٌ للأولياء بتجريم أكل مال اليتامى إسرافًا له، خوفًا من أن يكبروا فيأخذُوها، نهيٌ جاء لحمايةِ مال اليتيم وصيانتِه، بأروع تركيبٍ وأجملِ بيانٍ.

براعة المقابلة البديعية في بيانِ حالِ الفَقيرِ والغَنيِّ مع مالِ اليتيمِ:

من بديعِ نسيجِ الآية الكريمة مجيءُ المقابلةِ بين قوله: ﴿وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ﴾ وقوله: ﴿وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾، لتُشعِرَ بأنَّ الوليَّ له حقٌّ في مال اليتيم بالمعروفِ من غير إسرافٍ ولا تبذيرٍ ولا جشع[2].

ولِتُبيِّن ما الأجدرُ بفعل الوليّ تجاه هذا المالِ الّذي جعلَه اللّهُ تعالى أمانةً عنده، فإنْ كان غنيًا عليه الاستعفافُ عن أكل شيءٍ منه مقابلَ القيام عليه، وإن كان فقيرًا أخذَ منه القليلَ قدرَ ما يسدُّ جوعَه وحاجتَه، وهذا ما يدلُّ عليه الاحتراسُ بكلمة ﴿بِٱلْمَعْرُوفِ﴾، وتعني أكلَ مال اليتيمِ عند الضرورة والحاجةِ إليه، على وجه الاستقراضِ منه، فدفعت هذه اللّفظةُ الأكلَ من غير هذا الوجهِ تحذيرًا[3].

في المقابلة بيانٌ لجواز التصرّف بمالِ اليتيمِ بالمعروف عند الفقرِ والحاجَةِ

علّة تقديم الجارِّ والمجرور:

تقديمُ الجارِّ والمجرورِ ﴿إِلَيْهِمْ﴾ في قوله: ﴿فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ﴾ على المفعول: ﴿أَمْوَالَهُمْ﴾ بعد مراعاة الشرائطَ المذكورةَ عن المفعول الصريحِ للاهتمام به[4].

وجه التّقديم العناية باليتامى، والحرص على أموالهم

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الخَوف والخَشْيَة:

الخوفُ: هو توقُّعُ مكروهٍ أو فوتُ محبوبٍ[5]، وهو ظنٌّ لا يقينَ معه، وضدُّه الأمنُ، وتدورُ مادّته حول الذُّعْرِ وَالفَزَعِ[6].

---

(1) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 164.
(2) البيضاويّ، أنوار التنزيل: 2/61.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 7/5.
(4) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 2/146.
(5) الجرجاني، التّعريفات، ص: 101.
(6) الأزهري، تهذيب اللغة: (خَافَ).

أمّا الخشيةُ، فهي خوفٌ يشوبُه تعظيمٌ، وأكثرُ ما يكونُ ذلك عن علمٍ بما يُخشَى منه[1]، وحقيقتُها طمأنينةٌ في القلبِ تبعثُ على التّوقّي[2].

و"تفترقُ الخشيةُ عن الخوفِ، بأنَّها تكونُ عن يقينٍ صادقٍ بعظمةِ مَنْ نخشاه، كما يفترقُ الخشوعُ بأنّنا لا نخشعُ إلاَّ عن انفعالٍ صادقٍ بجلالِ من نخشعُ له، أمّا الخوفُ، فيجوز أن يحدُثَ عن تسلُّط بالقهر والإرهابِ، كما أنَّ الخضوعَ قد يكونُ تكلُّفاً عن نفاقٍ وخوفٍ وتقيَّةٍ ومداراةٍ"[3]، والخشيةُ خلاصةُ الإيمانِ والعلمِ، ولا تكونُ إلاَّ لمؤمنٍ مُصدِّق؛ لأنَّها يقينٌ راسخٌ؛ لذا غلبت على الخوفِ الّذي يكونُ من العبد تجاهَ خالقه، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْۗ﴾ [فاطر: 28][4]، والخشيةُ محمودةٌ في كلِّ مواضعِها، أمّا الخوفُ فمذمومٌ لما يلحقُه من أمارة الظّنِّ، وعدمِ الأمن، والخشيةُ تكونُ من عِظَمِ المَخشِيّ منه وإن كان الخاشي قويّا، والخوفُ يكون من ضعفِ الخائفِ، وإن كان المَخوفُ أمرًا يسيرًا[5]؛ لذا كانت الخشيةُ في الرّسل زينةً لهم، فامتدَحها الخالقُ سبحانه بقولِه: ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخۡشَوۡنَهُۥ وَلَا يَخۡشَوۡنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبٗا﴾ [الأحزاب: 39]، أمّا الخوفُ فلا يليقُ بالرّسلِ؛ لأنَّه ضعفٌ، قال تعالى: ﴿يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفۡ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلۡمُرۡسَلُونَ﴾ [النّمل: 10]، وقد جمعَ القرآنُ الكريم بينهما في سياقٍ واحدٍ، فقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلۡحِسَابِ﴾ [الرّعد: 21]، وقد نُسّقت الخشيةُ مع الخوف في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَسۡرِ بِعِبَادِي فَٱضۡرِبۡ لَهُمۡ طَرِيقٗا فِي ٱلۡبَحۡرِ يَبَسٗا لَّا تَخَٰفُ دَرَكٗا وَلَا تَخۡشَىٰ ٧٧﴾ [طه: 77]، ومعنى الآية: أنَّك لا تخافُ لحاقًا من فرعون وجنوده، ولا تخشَى غرقًا في البحر[6]؛ قال الآلوسي: "والخشيةُ أعظمُ الخوفِ، وكأنَّه إنَّما اختيرت هنا؛ لأنَّ الغرقَ أعظمُ من ادِّراكِ فرعونَ وجنودِه؛ لما أنَّ ذاك مظنّةُ السّلامةِ، ولا يُنافي ذلك أنَّهم إنَّما ذكرُوا أوّلًا ما يدلُّ على خوفهم منه، حيثُ قالوا: ﴿إِنَّا لَمُدۡرَكُونَ ٦١﴾ [الشعراء: 61]؛ ولذا سُورع في

(1) الراغب، المفردات في غريب القرآن، ص: 283.
(2) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 2/170.
(3) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 11/332، وابن كثير، تفسير ابن كثير: 1/42.
(4) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 1/165.
(5) الزّركشي، البرهان: 4/78.
(6) ابن جرير، جامع البيان: 18/343.

إزاحتِه بتقديم نفيِه كما يظهرُ"[1]. وذكر أبو هلالٍ العسكريُّ فروقًا بينهما منها: أنَّ الخَوفَ يتَعَلَّقُ بالمكروه وَبتَركِ المَكرُوه، تَقول خِفتُ زيدًا، وخِفتُ المرضَ، والخشيةُ تتعلَّقُ بمنزلِ المَكرُوه ولَا يُسمَّى الخَوفُ من نفس المَكرُوه خشيةً، ولهذا قال تعالى: ﴿وَيَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلۡحِسَابِ ٢١﴾ [الرعد: 21]، والخوفُ تألُّمُ النَّفس من العقابِ المتوقَّع بسببِ ارتكاب المنهيات، والتَّقصير في الطَّاعات، وهو يحصلُ لأكثر الخلقِ، وإن كانت مراتبُه متفاوتةً جدًّا، والمرتبةُ العليا منه لا تحصلُ إلّا للقليلِ[2].

القسط والعدل:

بَينَ (القِسْط) و(العَدل) في الآية، فروقٌ من جهةِ المبنَى والمعنَى، نُجملها فيما يأتي: القِسْطُ هو النَّصيبُ بالعدل كالنِّصفِ، وفعلُهُ (أَقْسَطَ)، وإذا قيل أقسَطَهُ، فكأنَّهم قالُوا أعطاه النِّصفَ الّذي له[3]، ولأنَّ القسطَ هو النَّصيبُ في الموازين تجدُه يقتضي القِسمةَ العادلةَ، والعربُ تقول: تقسَّطْنا الشّيءَ بيننا، إذا تقاسَمُوه بالقسطِ[4]، والميزانُ لا يُوصفُ بالعدل؛ وإنَّما يُوصفُ بالقِسطِ، تقول: مِيزانٌ قِسْطٌ، ومِيزانانِ قِسْطٌ، ومَوازِينُ قِسْطٌ، فتصفُه بالمصدر، قال تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلۡمَوَٰزِينَ ٱلۡقِسۡطَ لِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ [الأنبياء: 47][5]، والقِسطُ يقترنُ بالأمور الحسّيَّةِ لكي ينشأ العدلُ بينها، فكما يقترنُ بالكيل والميزان، تجدُه في سياقِ البحثِ في حقوق اليتامى، لئلا يُهضَم حقُّهم، قال تعالى: ﴿وَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا تُقۡسِطُواْ فِي ٱلۡيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ [النِّسَاء: 3] وغيرها، ومن القِسط في المحسوسات عروضُ التّجارة، وما يجري فيها من عقود، قال تعالى: ﴿وَلَا تَسۡـَٔمُوٓاْ أَن تَكۡتُبُوهُ صَغِيرًا أَوۡ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ أَقۡسَطُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: 282]. وممّا يدلُّ على مغايرة القِسطِ للعدل اجتماعُهما في سياق النَّص القرآنيِّ في آية النِّسَاء، وفي قوله - تعالى - أيضًا: ﴿فَإِن فَآءَتۡ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَا بِٱلۡعَدۡلِ وَأَقۡسِطُوٓاْۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ٩﴾ [الحجرات: 9].

فالعدلُ يتضمَّن الإنصافَ، وهو المساواةُ في المكافأة[6]، وتقييدُ الإصلاحِ بالعدل؛ لأنَّه

(1) الآلوسي، روح المعاني: 8/547.
(2) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 217.
(3) الراغب، المفردات، ص: 670.
(4) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 234.
(5) ابن منظور، لسان العرب: (قسط).
(6) الراغب، المفردات: (عدل).

يفصلُ فيما بينهما على ما حكم اللّه، أمّا الإقساطُ فيُوجبُ الضّمانَ بعد أنْ تضعَ الحربُ أوزارها، والضَّماناتُ تكونُ في الأمور الحسيَّة: كالأموالِ والدِّماءِ، وما تركَته الحربُ من آثارٍ يجبُ مراعاةُ القسطِ فيها[1]، والعدلُ ما قام في النُّفوس أنّه مستقيمٌ، وهو ضدُّ الجَورِ[2]، وأصلُه من قولهم: عدلتُ عن الطَّريق، أعدلُ عنها عدلًا؛ وإنّما سُمِّي العدلُ كذلك؛ لأنَّه عَدَلَ عن الجَور إلى القصدِ[3]، والعَدْلُ يغلُبُ عليه الحكمُ في الأشياء بالحقّ، والقضاءُ بشرع اللّه تعالى، ومنه سُمِّي الحقُّ سبحانه بـ (العدل)، وهو بالمعاني ألصقُ من المحسوساتِ، من ذلك مثلا، اقتران العدلِ بالتَّقوى والشّهادةِ في الحكم[4].

(1) الزَّمَخْشري، الكشَّاف: 4/365، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/216.

(2) ابن منظور، لسان العرب: (عدل).

(3) الزَّجَّاج، تفسير أسماء الله الحسنى، ص: 44.

(4) الدوري، دقائق الفروق اللغوية، ص: 152 - 153.

﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ ۚ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ۝٧ وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُوْلُواْ ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينُ فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُواْ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ۝٨﴾ [النّساء: 7 - 8]

مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِمَا قَبْلَهُما:

العلاقة بين أحكام الوصاية على أموال اليتامى، وتفصيل حقوق الضّعفاء عمومًا

جاءَت هاتان الآيتان الكريمتان لِتِبْيَانِ حقُوق الضُّعفاء من اليتامى وغيرهم، وتأكيد الحفاظ على الأموال المستحقّة لهم، على نحو ما ورد في الآية السّابقة، وقد جاء السّياق ليؤكّد الأنصبة المفروضة ممّا ترك الأقارب الهالكون، توطئة لتفصيل أحكام الميراث المدرجة في سورة النّساء بعد ذلك، وتفاديًا لأعراف الجاهليّة في توريث الكبار الأقوياء دون الصّغار الضّعفاء، وتوريث الذّكور دون الإناث، ليعيش هؤلاء المستضعفون في ذلّة وهوان وفاقة، فجاءت الآيات ترفع الغبن، وتزيل الضّرر، وتضمن الحقوق، تلافيًا للصّدام والخصام والعقوق.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿نَصِيبٌ﴾: النّصيب: الحظّ من كلّ شيء، والجمع: أنصباء، وأنصبة، ومن المجاز: لي نصيب منه: أي قسم[1]، وهو لفظ إمّا يعني جزءًا من شيء، كما في قوله تعالى: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ﴾، أو يعني حظًّا من كلّ شيء، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا﴾ [القصص: 77][2]، وقد استعمل لفظ ﴿نَصِيبٌ﴾ ليدلّ على أنّه حقّ مشروع، لا ينازعه فيه أحد، وأنّ التّركة ليست له وحده، وإنّما له نصيب كما لغيره من الورثة

(1) الزَّبيديّ، تاج العروس: (نصب).
(2) أحمد مختار عمر، معجم اللّغة العربيّة المعاصرة: (نصب).

أنصبة، فضلًا عن كون التّوزيع هو أمر اللّه الّذي عنده كلّ شيء بمقدار، وذلك ما يدلّ على دقّة اللّفظ في سياقه البليغ.

2) ﴿تَرَكَ﴾: التّرْك: وَدْعُك الشَّيء تتركه تَركًا، والاتّراك: الافتعال[1]، ويظهر أنَّ المعاني الّتي يدور حولها التَّرك: هي مفارقة الشَّيء ما كان يعلَق به، ورفضُه قصدًا واختيارًا، أو قهرًا واضطرارًا، فمنَ الأوّل: قوله تعالى: ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ﴾ [الكهف: 99]، ومنَ الثّاني قوله تعالى: ﴿كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ﴾ [الدّخان: 25]، ومنه تَركَةُ فلان، لما يخلِّفه بعد موته[2]، والَّذي في القرآن من التَّركيب كلِّه بمعنى التَّخلِّي عن الشَّيء أو تخليته، لكن قد يكون تفسير التَّرك بإبقاء الشَّيء دون غيره ذاتًا، أو بإبقائه على حالٍ ما، كما في قوله تعالى: ﴿وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾﴾ [البقرة: 17][3].

3) ﴿الْوَالِدَانِ﴾: يُقال للأب: والدٌ، وللأمّ: والدةٌ، ويُقال لهما: والدان على التَّغليب، قال تعالى: ﴿رَّبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ﴾ [نوح: 28][4]، والوالد لا يُطلَق إلّا على من ولدك من غير واسطة، والأب: قد يُطلَق على الجَدِّ البعيد، ومن هذا المُنطلَق ورد لفظ الوالِدان في الآية الكريمة، فأحقيَّة الميراث تجب لمن كان من نسلِهما من غير واسطة، وتتحقَّق فيه شرعيّة الوريث[5]، والمعنى أنّه: اذا ترك الوالدان مالاً، فإنّه ينقسم، للرّجال نصيب منه، وللنّساء نصيب، سواء أكان الوارث صغيرًا أو كبيرًا، ذكرًا أو أنثى، ومهما كان المال الموروث قليلًا أو كثيرًا[6]، وما ينطبق على ما تركه الوالدان، ينطبق على ما تركه الأقربون، والميراث فيه أولويّات على قدر درجة القرابة..

4) ﴿مَّفْرُوضًا﴾: الفَرضُ: الحزُّ في الشَّيء، يُقالُ: فَرَضتُ الخَشَبَةَ، والحزُّ في سِيَةِ القَوسِ فَرضٌ، حيثُ يقعُ الوتَرُ، والفَرضُ: الثُّقبُ في الزَّندِ في المَوضِع الَّذي يُقدَحُ منه، والمِفرَضُ: الحَديدةُ الَّتي يُحزُّ بها"[7]، وَمِنه اشْتِقَاقُ الْفَرْضِ الَّذِي أَوْجَبَهُ اللّه تَعَالَى، وَسُمِّيَ

(1) الخليل، العين: (ترك).
(2) الراغب، المفردات: (ترك).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (ترك)
(4) الراغب، المفردات: (ولد).
(5) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 566.
(6) القطّان، تيسير التّفسير، ص: 268.
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (فرض).

بِذَلِكَ لِأَنَّ لَهُ مَعَالِمَ وَحُدُودًا[1]، وفرضْتُ الشّيء أفرِضهُ فَرْضاً وفَرَّضْتُه للتّكْثير أوْجَبْتُه، وقوله تعالى ﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَٰهَا وَفَرَضْنَٰهَا﴾ [النّور: 01]، معناه ألزمناكُم العَملَ بما فُرِضَ فيها ا[2]، وفي قوله تعالى: ﴿نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾ اسم مفعولٍ، والمفروض الّذي فرضه اللّه تعالى، وهو آكدُ من الواجب[3]، والمفروض المقطوع، أو المعلوم أو يقصد به التَّعيين، "فمعنى كَونِهِ مَفروضًا أَنَّه مُعَيَّنُ المقدار لكلِّ صنف مِنَ الرِّجال والنِّساء"[4]، وقد عبّر اللّفظ عن دقّة الحسبة، للأنصبة الّتي فرضها في التّركات، لتحقيق العدل، وإيتاء كلّ ذي حقّ حقّه.

5) ﴿ٱلْقِسْمَةَ﴾: الاسم من الاقتسام قال اللّه تعالى: ﴿تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ۝٢٢﴾ [النّجم: 22][5]، والقسمة من قَسَمَ، ومصدره القَسمُ: من قَسَمَ الشّيءَ يَقسِمُه قَسماً فانقَسَمَ، والمَوضعُ مَقسِم مِثالُ مَجلِسٍ، وقَسَّمَه: جزَّأَه، وهي القِسمَةُ، والقِسم، بالكسر: النَّصيبُ والحَظُّ، والجَمعُ أَقسام[6]، والقسيم: شطر الشّيء، يقال: هذا قسيم هذا أي: شطره، تقاسما المال اقتسماه بينهما، فالاقتسام والتّقاسم بمعنًى واحدٍ، والاسم منهما القسمة[7]، والمقصود أنّ الفقراء من الأقارب الّذين لا نصيب لهم في الميراث، إذا حضروا قسمة المال الوافر الغزير، تاقت نفوسهم إلى حيازة شيء منه، فكان الأمر أن يعطوا شيئًا من ذلك المال، كيما يكون برًّا بهم، وجبرًا لخواطرهم، ومنعًا من سريان الحسد إلى نفوسهم[8]، وذلك من حكمة اللّه في الأحكام، وبلاغة القرآن في تنسيق الكلام.

6) ﴿وَٱلْمَسَٰكِينُ﴾: جمع مِسكين على وزن مِفْعِيل، وهو من السّكُون، مِثل المِنْطِيق من المنطق، والمَسكَنَة: مصدر فعل المِسكين، وإذا اشتَقُّوا منه فعلًا قالوا: تَمَسكنَ الرّجل، أي: صار مِسكينًا، وتَمَسْكَنَ إذا خَضَعَ للّه، وهي المَسْكنةُ للذّلَّة[9]، والملحظ في المسكين هو شدَّة القرار للتَّسليم، أو لقلَّة الحيلة والعجز ونحوهما، والمساكين هم الفقراء الّذين

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (فرض).
(2) ابن سيده، المحكم: 8/184.
(3) ابن الجوزيّ، زاد المسير: 1/374.
(4) السّمين، عمدة الحفّاظ: 3/217.
(5) نشوان الحميري، شمس العلوم: 8/5481.
(6) ابن منظور، لسان العرب: (قسم).
(7) الزَّبيدي، تاج العروس: (قسم).
(8) حومد، أيسر التّفاسير، ص: 501.
(9) الأزهري، تهذيب اللغة: (سكن).

أسكنتهم الحاجة، بمعنى أذلّتهم، وأحوجتهم للتطلّع إلى ما يقسم، عسى أن يكون لهم منه نصيب، وليس معنى حضورالقسمة المشاهدة، وإنّما المراد العلم بهم، من مُقَسِّمي التّركة، عِلْمَ حضورٍ ومعاينة، فيعطوا ما يسدّون منه حاجاتهم، لا ما يغني، فإنّ ذلك مستبعد في المعتاد[1].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

إزجـــاءُ حقـوق الـضّـعـفـاء، ضمانٌ لاستيفاء كلّ ذي حقّ حقّه

جاءتِ الآية الأولى لبيان أنّ للرِّجالِ والنِّساءِ نصيبًا من التَّركة الّتي يتركها المورِّثُ، من الوالدين أو الأقربينَ، سواء كان الإرثُ قليلًا أم كثيرًا، نَصيبًا واجبًا معيَّنَ المقدار، تصحيحًا لما كان واقعًا من مظاهر الظّلم المسلّط على الضّعفاء في الجاهليّة، بمنعهم من الميراث، والاستحواذ على أنصبتهم بالباطل، بينما ترشد الآية الّتي بعدها إلى أنَّه إنْ حضَرَ الأقاربُ من غير الوارثين، وقتَ تقسيم التَّركة، أن يُعطَوا منها، مع إرفاق ذلك، بالقول الطّيب، والمعاملة بالمعروف، قال ابن عبَّاس: "أَمَرَ اللّه تعالى المُؤمنينَ عند قِسمَة مَواريثِهِم أَن يَصِلواْ أَرحامَهُم وأيتامهم ومساكينهم مِنَ الوَصيَّة، إن كان أَوصى لهم، فإن لم يَكنْ لهم وَصِيَّةٌ، وصل إليهم مِنَ الميراث"[2]، وفي هاتين الآيتين إرشاد إلى التّكافل الاجتماعيّ، وفعل الخيرات من صَدقة، وصلة رحم، وجَبرِ خاطر ليتيمٍ أو مسكينٍ أو فقيرٍ.

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغة تقديم الخبر على المبتدأ:

في الـقَـصْـر استحقاقُ كلٍّ مـن الـرِّجـال والنِّسَاء نصيبًا مخصوصًا من الميراث

من بلاغة الآية الكريمة القصر بتقديم ما حقّه التَّأخير، إذ قُدِّم الخبر - شبه الجُملة من الجارّ والمجرور - ﴿لِّلرِّجَالِ﴾ على المُبتدأ ﴿نَصِيبٌ﴾ في قوله تعالى: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ

(1) أبوزهرة، زهرة التّفاسير: 3/1596.
(2) السّيوطيّ، الدّرّ المنثور: 3/874.

﴿وَٱلۡأَقۡرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٞ مِّمَّا تَرَكَ ٱلۡوَٰلِدَانِ وَٱلۡأَقۡرَبُونَ﴾؛ لإثبات هذا النَّصيب للرِّجال خاصَّةً، ثمّ للنِّساء نصيبٌ فيما بعد.

فائدة (اللّام) في لفظَي الرّجال والنّساء:

فاللَّام في شبه الجُملة ﴿لِّلرِّجَالِ﴾ تُفيد الاستحقاق، وهو نظير الاختصاص وفرعٌ عنه، فكلُّ واحد منهما له نصيبٌ محدّدٌ من هذا الميراث، والمعنى كما ذكره الطَّبريّ في تفسيره "يعني بذلك - تعالى ذِكْره - للذُّكور من أولاد الرَّجل الميِّت حصَّة من ميراثه، وللإناث منهم حصَّة منه، من قليل ما خلَّف بعده وكثيره، حصَّة مفروضة واجبة معلومة مؤقّتة"[1].

أكّدتِ اللّامُ الاستحقاقَ، ورسّختِ الأحقّيّة في الميراث:

ويُقرّر هذا الاستحقاق لكلِّ طرفٍ منهما إعادة اللَّام فيما بعد مع النِّساء في قوله تعالى: ﴿وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٞ﴾ ليكون تقريرًا بحقِّ كلٍّ من الرِّجال والنِّساء في ما يتركه والِدُوهم وأقاربهم من إرث كنصيبٍ مفروضٍ من الله تعالى.

في دخول اللّام على (للنساء) تقريرٌ لاستحقاق كلّ طرفٍ في الإرث

سرُّ تقديم الرّجال على النساء:

وقَدَّم تعالى ذِكر الرِّجال على النِّسَاء في أمر الميراث الّذي يَشترِكون في الاستحقاق فيه، فقال تعالى: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٞ﴾ ﴿وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٞ﴾، وهذا هو المشروعُ والمعقولُ والفِطريّ لأنَّه الأصل، وقد عَكَس ذلك مَن عكَس اللّه قلوبَهم مِن الضّآلين؛ إذ قدَّموا النِّساءَ على الرِّجال، وهذا خطأ عظيم؛ لأنَّ الرِّجالَ مُقدَّمون على النِّساء، وهم قوَّامونَ عليهنَّ[2].

للقوامة فضلٌ، وخصيصة تميّز، ومسؤوليّة كبرى

نكتةُ تنكيرِ لفظة ﴿نَصِيبٞ﴾:

من البلاغة في الآية الكريمة إيثار تنكير لفظة ﴿نَصِيبٞ﴾ دون تعريفها في قوله تعالى: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٞ﴾ ﴿وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٞ﴾؛

النصيب في الميراث أمرٌ مستجدٌّ في حياة العرب لم يعهدوه

(1) ابن جرير، جامع البيان: 7/597.
(2) ابن عثيمين، تفسير القرآن الكريم - سورة النِّساء: 1/51.

للتَّنبيه على أنَّها شروع في حدثٍ جديدٍ مهمٍّ لم تعهده العرب من قبل الإسلام.

فائدة تكرار لفظ النّصيب:

إعـــادة لـفـظ النصيب لتحقيق فرض النّصيب

أُعيدَ لفظ الموصوف ﴿نَصِيبٌ﴾ في قوله تعالى: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ﴾ ﴿وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ﴾؛ لتبيين كون أنّ المفروض هو النصيب لا غير[1].

بلاغة الفصل في الآية:

في الاستئناف إجمالٌ للنَّصيب من الميراث مستتبعٌ لتفصيلٍ قادمٍ

فهو استئنافٌ ابتدائيٌّ، وهو جارٍ مَجرَى النَّتيجة لِحُكم إيتاء أَموال اليتامى، ومَجرَى المُقَدِّمَة لأَحكام المواريث الَّتي في قوله تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ﴾، وفيه أيضًا تهيئة النُّفُوس لهذه الأحكام الجديدة بالتَّدريج، فهي كالمُقَدِّمة جَاءَت بإِجمال الحقِّ والنَّصيبِ في الميراثِ وتلاهُ تفصيلُهُ[2].

وجهُ المجازِ المُرسَل بعلاقة الكُلِّيَّة:

أداءُ الميراث إلى مستحقّيه حكمٌ ربّانيٌّ واجبُ الأداء

في قوله تعالى: ﴿مِّمَّا تَرَكَ ٱلۡوَٰلِدَانِ وَٱلۡأَقۡرَبُونَ﴾، مجازٌ مُرسَلٌ بعلاقة الكُلِّيَّةِ إذ أُطلق الكلّ ﴿وَٱلۡأَقۡرَبُونَ﴾ وهو لفظٌ عامٌّ يشمُل كلّ الأقارب، وأراد جزءًا منهم وليس جميعهم؛ إذِ المُراد بـ ﴿وَٱلۡأَقۡرَبُونَ﴾ في الآية الكريمة أربابُ الفرائض، وليس كلَّ الأقارب[3]، ولا يخفى ما في هذا المجاز من إفادة التّأكيد والمبالغة على هذا الحكم الرّبّانيّ في أداء الميراث لمستحقّيه.

الإطناب البلاغيّ بذِكر العَامِّ بعدَ الخَاصِّ:

للوالدين عظيمُ المنزلة بين الأقارب، وهما الأصل في باب الميراث

من بلاغة الآية الكريمة أيضًا الإطناب بذكر العامِّ بعد الخاصِّ في قوله تعالى: ﴿مِّمَّا تَرَكَ ٱلۡوَٰلِدَانِ وَٱلۡأَقۡرَبُونَ﴾، فقد ذكر الخاصّ ﴿ٱلۡوَٰلِدَانِ﴾ أوّلاً، ثمّ ذكر العامَّ ﴿وَٱلۡأَقۡرَبُونَ﴾، ولم يكتفِ بذكر

(1) الراغب، تفسير الراغب: 3/1111.
(2) ابنُ عاشور، التّحرير والتّنْوير: 4/247 - 248.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/532.

الأقربين فقط، مع أنَّ الوالدَين يدخلان ضمنًا فيهما، بل ذكرهما على وجه الخصوص أوّلًا؛ لبيان شدَّة قرابتهما لمن يرث أوّلًا، وعظم منزلتهما بين الأقارب[1]، فضلًا عن ذلك فقد خصَّهما بالذِّكر؛ لأنَّهما من أوّل أصناف من يُورَثُون وأكثرها، فهم الأصل في الباب، فجاءتِ الآية الكريمة بذكرهم مرّتين أوّلًا: بإفرادهم ﴿ٱلْوَٰلِدَانِ﴾ على وجه الخصوص، وأخرى: على وجه العُموم في لفظ ﴿وَٱلْأَقْرَبُونَ﴾؛ لإظهار العناية بشأن الخاصِّ بذكره مرَّتين كما بيَّنّاه.

بلاغة إيراد حُكم النّساء على وجه الاستقلال:

إنَّ النّاظر في الآية الكريمة يرى تَكرارًا للقالب الجملي المكوّن من المسند والمسند إليه مع تغيير لفظ النساء مُقترنًا بلام الاختصاص في قوله تعالى: ﴿وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ﴾، وأورد حُكم النّساء على وجه الاستقلال دون الدرْجِ في تضاعيف أحكامِهم مع الاكتفاء بالعطف بأن يُقال: (للرِّجال والنِّساء نصيبٌ)؛ للدّلالة على أنَّ لكلِّ فئةٍ من الطّرفين الرِّجال والنِّسَاء مُستحقِّين لأصل النَّصيب من الميراث كما مرَّ بيانه[2]، وللاعتناء بأمر النِّساء، والإيذان بأصالتهنَّ في استحقاق الإرث، والإشارة من أوَّل الأمر إلى تفاوت ما بين نصِيبَي الفريقين، والمبالغة في إبطال حُكم الجاهليَّة في عدم توريثهنَّ[3].

في الإسلام عناية خاصّة بشأن النساء، وأنّ لهنَّ حقًّا أصيلًا في الميراث

فهذه الآية الكريمة جاءت ردًّا على المشركين بعدم توريثهم للنِّسَاء وتعريضًا بهم وبفعلهم، بإثبات هذا الإرث لهنَّ كما للرِّجال، هذا الإرث الّذي لم يكن مُعتَرَفًا به من قبل، وبهذا تتبيّن العناية الرّبَّانيّة بالنِّساء على اختلاف أحوالهنَّ في هذه الآية الّتي تُعدُّ " أَوَّل إعطاءٍ لِحقِّ الإرثِ للنِّساء في العرب"[4].

استقلال حكم النساء تعريضٌ بصنيع المشركين في منعهم النساء من الإرث

(1) الآلوسّي، روح المعاني: 2/240.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 7/597.
(3) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 2/146.
(4) ابنُ عاشور، التّحرير والتّنْوير: 4/249.

بلاغة التَّكرار والإظهار في مَوضِع الإضمار:

الرِّجال والنِّساء متساوون في القرب من سبب الإرث

من بلاغة التَّراكيب في الآية الكريمة تَكرار الاسم الموصول وصلته مع النِّساء في قوله تعالى: ﴿وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ﴾ على طريقة الإظهار في مَوضِع الإضمار، إذ عدل عن الإضمار ولم يقُل: (ممَّا تركوا) لذكر الصِّلة قبلها، بل أظهر وأعاد الموصول مع صلته بالاسم الظّاهر ﴿مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ﴾، وجاء هذا التَّكرار ليُقرِّر أنّه لا فرق بين النِّسَاء والرِّجال في القُرْبِ من المورِّث الّذي هو سبب الإرث، وفيه تأكيدٌ لِحقِّهنَّ بعموم الإرث أسوة بالرِّجال، فضلًا عن أنَّ فيه تعريضًا بالمشركين وردًّا عليهم بإبطال حُكمهم في الجاهليّة بعدم توريث النِّسَاء[1].

بلاغة الطِّباق بين القلَّة الكثرة وإفادته للاحتراس:

في الطباقِ تأكيدٌ لاستيفاء كاملِ الحقِّ في الإرث قلَّ أو كَثُرَ

من بديع نسيج الآية الكريمة طباقُ الإيجاب بين الفعلين: ﴿قَلَّ﴾ و﴿كَثُرَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾، وهذا الطِّباق دلَّ على التَّسوية في الموروث سواء أكان قليلًا أم كثيرًا، فهذان المعنيان المُتضادَّان أعطيا بالجَّمع بينهما بالطِّباق معنى تأكيد كلِّ الحقوق في الإرث لكلا الطّرفين الرِّجال والنِّساء، مع التركيز على حقّ النساء في كل تركة قليلة أو كثيرة فليس حقها تسامحًا يُعطى، ولكنّه حقٌّ ثابت، لَا يُقَدّم عليه حقّ الرجل، بل يثبتان معا في القليل والكثير، ولا تسامح في القليل[2].

وفي هذا الطِّباق احتراسٌ يدفع "توهّم اختصاص بعض الأموال ببعض الورثة كالخيل وآلات الحرب للرِّجال"[3]، فضلاً عن ذلك فإنَّ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 5/200.
(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 3/1595.
(3) الآلوسّي، روح المعاني: 2/421.

هذا الطِّباق مع ما سبقه من بيانٍ لحقوق النِّساء في الإرث، يُقرر "المبدأ العامّ، الّذي أعطى الإسلامُ به النِّسَاء منذ أربعة عشَر قرناً، حقَّ الإرث كالرِّجال - من ناحية المبدأ - كما حفظ به حقوق الصِّغار الّذين كانتِ الجاهليّة تظلمهم وتأكل حقوقهم؛ لأنَّ الجاهليّة كانت تنظر إلى الأفراد بحسب قيمتهم العمليّة في الحرب والإنتاج، أمَّا الإسلام فجاء بمنهجه الرَّبَّانيّ، ينظر إلى الإنسان أوّلاً بحسب قيمته الإنسانيَّة؛ وهي القيمة الأساسيَّة الّتي لا تُفارقه في حالٍ من الأحوال، ثمّ يَنظر إليه بعد ذلك حسب بحسب تكاليفه الواقعيَّة في محيط الأسرة والجماعة.

في الطباقِ دفعُ توهُّمِ اختصاص بعض الأموال ببعض الورثة

لفظا القلّة والكثرة بين الترقّي، والتَّدلّي:

قال ابن عرفة: " قوله تعالى: ﴿مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ﴾ إمّا ترقٍّ فيكونَ تأكيدًا، أو تدلٍّ فيكون تأسيسًا؛ لأنهم إذا أمروا بالإعطاء من القليل فأحرى الكثير، ومنهم من قال: إن القليل ربما تسمح النفس به وبالإعطاء منه بخلاف الكثير"[1].

الأحـــرى بمن يـؤمـرُ بإعطاء الـقـلـيـل، أن يجزل العطاء الكثير

علّة التّعريف بأل الاستغراقيَّة:

جاءتِ الألفاظ ﴿لِّلرِّجَالِ﴾ و﴿وَٱلْأَقْرَبُونَ﴾ و﴿وَلِلنِّسَآءِ﴾ في الآية الكريمة بصيغة الجمع المعرَّف بـ (أل) الاستغراقيَّة لإفادة العموم، وهو عمومٌ قطعيٌّ في لفظ ﴿وَٱلْأَقْرَبُونَ﴾ يُراد به جميع أفراده من حيث التَّناول، وعمومٌ مخصوصٌ في لفظتي ﴿لِّلرِّجَالِ﴾، و﴿وَلِلنِّسَآءِ﴾؛ لأنَّ اللَّفظين يُراد بهما جميع أفرادهما من حيث التَّناول، ويخرج البعض من الحكم، إذ يَخرج الذُّكور والإناث من أقارب الميت غير الوارثين، ويؤكِّد ذلك قوله تعالى بعدها: ﴿وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُوْلُواْ ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينُ فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُواْ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾،

التّعريف بـ (أل) يفيد العموم القطعيّ والعموم المخصوص

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/8.

فبعد أن بيَّن تعالى أنَّ الميراث للأقربين من الرِّجال والنِّساء أمر في هذه الآية بإعطاء من حضر القسمة من القرابة من غير الوارثِين على سبيل النَّدب[1].

والمُراد بلفظي: ﴿لِّلرِّجَالِ﴾، و﴿وَلِلنِّسَآءِ﴾ في الآية الذُّكور، والإناث كلُّهم - صغيرهم وكبيرهم - من أولاد الميت وأقاربه الوارثِين، فلكلٍّ منهم نصيبٌ من الميراث الّذي خلَّفه الوالدان والأقربون عمومًا[2]، ودخول الصِّغار من باب التَّغليب؛ إذ إنَّ أصل لفظ (الرِّجال) يُطلَق على الذُّكور البالغين، وكذا لفظ (النِّسَاء) يُطلَق على الإناث البالغات[3].

بلاغة الإيجاز بالحذف، ودلالة الاختزال بـ ﴿مَّفۡرُوضٗا﴾:

في الاستغناء بالمذكور تنبيهٌ على أنَّ التّلاعبَ في الميراث عدوانٌ على شِرْعَةِ الإسلام

في قوله تعالى: ﴿نَصِيبٗا مَّفۡرُوضٗا﴾ إيجازٌ بالحذف، فالفارض هو اللّه تعالى، لكن حُذِف وبُني الوصفُ للمفعول للعِلم به، فهو كقوله تعالى: ﴿وَخُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ ضَعِيفٗا ٢٨﴾ [النّساء: 28]، والّذي خلَقَه هو اللّهُ تعالى[4].

والتَّعبير بالنَّصيب المفروض يقتضي معرفة الفارض والمفروض له والمفروض عليه والأمر المفروض، أمّا الفارض فهو اللّه تعالى لم يُذكَر للعلم به إيجازًا، فإن عُلم هذا عُلم أنَّه لا يجوز مُطلَقًا تغيير ما فرضه اللّه تعالى في المواريث، وكلُّ إنكار لذلك أو محاولة في تغييره عدوانٌ على منهج الإسلام، وخللٌ في العقيدة الّتي بُني عليها؛ لأنَّه معروفٌ من الدِّين بالضَّرورة، وأمّا المفروض له فصاحب الحقِّ الّذي يدخل ميراثه شرعًا في مُلكه من دون إذنه، وإنْ انتفى منه، ولو أعرض عنه قبل استحقاقه لم يسقط عنه، والمفروض عليه

(1) ابن العربيّ، أحكام القرآن: 1/428.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 7/597، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 5/47.
(3) اللاّحم، تفسير آيات الأحكام في سورة النِّساء: 1/549.
(4) ابن عثيمين، تفسير القرآن الكريم - سورة النّساء: 1/52.

هم الورثة كافّة بصفتهم المُباشرين للقسمة، والقضاء الإسلاميّ بصفته راعي الشَّريعة والمسؤول عن تطبيقها، أمّا المفروض فهو الحقوق والأنصبة المُقدَّرة للورثة في تركة المُتوفَّى[1].

بلاغة تنكير الفاصلة ﴿نَصِيبًا مَّفۡرُوضًا﴾:

في التَّنكير إشعارٌ بوجوب الامتثال للمفروض من الإرث دون ريبٍ أو تردد

من بلاغة التّراكيب في الآية أيضًا تنكير ﴿نَصِيبًا مَّفۡرُوضًا﴾ في خاتمة الآية الكريمة في قوله تعالى: ﴿وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلۡوَٰلِدَانِ وَٱلۡأَقۡرَبُونَ﴾، وجاء هذا التَّنكير إشعارًا بتعلُّق الحُكم بالوصف، أي: نصيبًا مقطوعًا مفروضًا واجباً لهم يجب الامتثال به دون تردُّد وهوادة، وفيه دليلٌ على أنَّ الوارثَ لو أعرض عن نصيبه لم يسقط حقُّه[2].

و يقرِّر ما سبق نصب ﴿نَصِيبًا مَّفۡرُوضًا﴾ على الاختصاص، أي: نصيبًا مفروضًا مقطوعًا واجبًا لا بُدَّ لهم من أن يحوزوه ولا يستأثر به، أو منصوبًا على أنَّه مصدرٌ مؤكّدٌ كأنَّه قال: قسمةً مفروضةً كقوله تعالى: ﴿فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِۗ﴾، أو على الحاليّة، أي: ثبَت لهم نصيبٌ كائنٌ ممّا ترك الوالدان والأقربون حالَ كونِه مفروضاً[3].

في الاختصاص إيجابٌ لأداء الحق كاملا غير منقوص

يفيد الاختصاص العناية أي قدرًا عناه الله تعالى وقصده ﴿مَّفۡرُوضًا﴾ أي مقطوعًا لَا سبيل إلى الهوادة فيه، والاكتفاء ببعضه نزرًا يسيرًا، أو مقدارًا كبيرًا، فلا بد من إعطائه كاملًا غير منقوص[4].

سرُّ تأكيد أحقيَّة النِّسَاء بالميراث أسوة بالرِّجال:

الميراث حقٌّ ثابتٌ للرِّجال والنِّساء في تركة المُتوفَّى

مع أنَّ هذه الآية الكريمة: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلۡوَٰلِدَانِ وَٱلۡأَقۡرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلۡوَٰلِدَانِ وَٱلۡأَقۡرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنۡهُ أَوۡ كَثُرَۚ نَصِيبًا مَّفۡرُوضًا﴾ قد جاءَت كالمُقدِّمة المُختَزلة بإجمال الحَقِّ

(1) الحمداويّ، تفسير سورة النّساء، ص: 38.
(2) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 2/147.
(3) الزّمَخْشري، الكشّاف: 1/476.
(4) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 3/1595.

والنَّصيبِ في الميراث، فإنَّها في الوقت نفسه جاءت مُؤكِّدة أصالة المرأة في الميراث بجانب الرّجل، ومُوَطِّئة لتفصيل أكثرَ فيما يأتي بعده، وإشارة إلى كونه يختلف باختلاف وضع المرأة والرَّجل، ومستوى قرابتهما من المُتوفَّى، ومقدار مسؤوليّة كلّ منهما وواجباته داخل الأسرة الإسلاميَّة؛ وبذلك كانتِ الآية تمهيدًا لما بعدها من أحكام المواريث الجديدة الّتي شقَّت على بعض الجِبِلَّات الجاهليَّة، ثمّ ركنت إليها النُّفوس وسكنت لها الأفئدة بالتَّدريج، وأكَّد الله تعالى هذا النَّصيب ثانية بقوله: ﴿مِمَّا قَلَّ مِنۡهُ أَوۡ كَثُرَۚ﴾، أي: أنَّه ثابتٌ للنِّسَاء والرِّجال على السَّواء في تركة المُتوفَّى، ومُتعلِّقٌ بكلِّ جزءٍ منها قليلًا كان أم كثيرًا، ثم أكَّده مرّة ثالثة بقوله: ﴿نَصِيبٗا مَّفۡرُوضٗا﴾[1].

المـــيراث حـقٌّ مستقلٌّ للنِّساء في تركة المُتوفَّى وليس تابعًا لحقّ الرّجل

وفي حشد هذه المؤكّدات ترسيخٌ لحقهنَّ، وبيانٌ بأنّه حقٌّ مستقلٌّ عن حقّ الرَّجل، ثبت لهنَّ استقلالًا بالقرابة، كما ثبت له استقلالًا بالقرابة، حتى لَا يتوهم أحد أن حقهنَّ تابع لحقه بأي نوع من أنواع التبعية[2].

نكتة التعبير بـ ﴿وَإِذَا﴾ دون (إن):

إرزاقُ مَنْ يحْضَرِ القِسْمَة أمرٌ واجبٌ

عُبّر بـ ﴿وَإِذَا﴾ دون (إن) في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا حَضَرَ ٱلۡقِسۡمَةَ﴾ "إمّا إشارة إلى ترجيح الأمر بإرزاقهم منه وتأكيده، وإمَّا لأن حضورهم أمر غالب أكثري"[3].

علّةُ تقديمِ المفعول به ﴿ٱلۡقِسۡمَةَ﴾ على الفاعل ﴿أُوْلُواْ ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾:

في تقديم القسمة بيان شدَّة العناية بها؛ لأنَّها المبحوث عنها

من البلاغة في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا حَضَرَ ٱلۡقِسۡمَةَ أُوْلُواْ ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينُ فَٱرۡزُقُوهُم مِّنۡهُ وَقُولُواْ لَهُمۡ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا﴾، تقديم المفعول به ﴿ٱلۡقِسۡمَةَ﴾ على الفاعل وما عُطف عليه ﴿أُوْلُواْ ٱلۡقُرۡبَىٰ

(1) الحمداويّ، تفسير سورة النّساء، ص: 37 - 38.
(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 3/1595.
(3) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/8.

﴿وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينُ﴾، وأصل التَّركيب (وإذا حضر أولوا القربى واليتامى والمساكين القسمةَ)[1]، ولكنَّه قدَّم المفعول به لأغراضٍ يستدعيها السِّياق والجوّ العامّ للسُّورة الكريمة؛ وهي شدَّة العناية بهذه القسمة؛ لأنَّها المبحوث عنها، ومُتعلِّق الحُكم بها، ولأنَّ في الفاعل تعدادًا ﴿أُوْلُواْ ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينُ﴾، فلو رُوعي التَّرتيب يفوت تجاوب أطراف الكلام[2].

في التقديم مطابقة إيقاعٍ للَّفظ على الواقع

ومن بلاغة التَّقديم أيضًا أنَّه قدَّم ﴿ٱلۡقِسۡمَةَ﴾ لتكون أمام الحاضرين في اللَّفظ كما أنَّها أمامهم في الواقع[3]، وهذا كلُّه يغيب لو جاء التَّعبير بالتَّأخير (وإذا حضر أولوا القربى واليتامى والمساكين القسمة).

منهجُ الاسلام تحقيق التَّكافل الاجتماعيّ؛ بتراتبِ العناية على الأَوْلى، والأهمِّ

بلاغةُ طريقة التَّدلّي في ترتيب الألفاظ:

من بلاغة التّراكيب أيضًا في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا حَضَرَ ٱلۡقِسۡمَةَ أُوْلُواْ ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينُ فَٱرۡزُقُوهُم مِّنۡهُ وَقُولُواْ لَهُمۡ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا﴾ التَّقديم والتَّأخير اللّفظيّ، أي: ترتيب الألفاظ تقديمًا، وتأخيرًا وفاقَ طريقة التَّدَلِّي[4] بذكر الأهمّ ثمّ الّذي يليه، فقد ذكر أوّلًا ﴿أُوْلُواْ ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾، ثمَّ ﴿وَٱلۡيَتَٰمَىٰ﴾، ثمَّ ﴿وَٱلۡمَسَٰكِينُ﴾ على التَّوالي، وهذا التَّرتيب مقصودٌ في هذا السِّياق، إذ جاء ليُعزِّز معنى التَّقديم التَّركيبيّ بتقديم القِسْمة على الفاعل قبلها، ويُقرِّر معناه، ويناسب المعنى العامّ للسّورة الكريمة.

ونكتة تقديم ﴿أُوْلُواْ ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾ على ﴿وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينُ﴾؛ للاهتمام وبيان شدَّة العناية بالمُقدَّم على سنن العرب في تقديم الأهمِّ بحسب الموقف، وتبرز أهميّته من أنْ قدَّم ذوي القربى على

(1) السّمرقنديّ، بحر العلوم: 1/283.
(2) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 2/147.
(3) الآلوسّي، روح المعاني: 2/422.
(4) التَّدليّ: هو أن يُذكر الأعلى ثمّ الأدنى لنُكتة، يُنظر: السُّيوطيّ، الإتقان: 3/46.

اليتامى والمساكين؛ لأنَّهم أولى بالصَّدقة لقرابتهم، ولأنَّ إعطاءهم بجانب أنَّه صدقة، فهو صلة للرَّحم الّتي أمر الله تعالى بصلتها، وفي هذا الإعطاء كسبُ مَحَبَّتِهِم والتِئامُ الصّفّ بين الأقرباء[1].

أمّا تقديم ﴿وَٱلۡيَتَٰمَىٰ﴾ على ﴿وَٱلۡمَسَٰكِينُ﴾ فتكمن بلاغته في أنَّ "ضَعفَ اليتامى أَكثر، وحاجتهُم أَشدُّ، فكان وَضعُ الصَّدقات فيهم أَفضل وأَعظم في الأَجر"[2].

في تأكيدِ السُّنّة المطهَّرة هذا التَّرتيب في استحقاق الإعطاء؛ تربيةٌ للنّفوس

وهذا التَّرتيب في الآية الكريمة بين الفئات الثّلاث وفي الآيات الأخرى المشابهة، والّذي تزيده بعض الأحاديث النّبويَّة تحديداً ووضوحاً كالَّذي جاء في صحيح مُسلم عن جابر أنَّ رسول الله ﷺ قال لرجلٍ: «ابدأْ بنفسِكَ فَتَصَدَّقْ عليها، فإِن فَضَلَ شَيءٌ فلأهلِكَ، فإِن فَضَلَ عَن أَهلِكَ شَيءٌ فلذي قرابتِكَ، فإِن فَضَلَ عن ذي قرابتِكَ شَيءٌ فهكذا وهكذا»[3].

هذا التَّرتيب الّذي هو طريقةٌ من طرائق القرآن الكريم في تربية النّفوس، وإعداد القلوب، إذ فيه قيمةٌ إنسانيَّةٌ في محيط الجماعة، فهذه الصّلة لذوي القربى فيها تحقيقٌ لمروءة النَّفس، وكرامة الأسرة، ووشائج القربى، وهي لليتامى تكافلٌ بين الكبار والصِّغار في الجماعة، وبين الأقوياء فيها والضُّعفاء، وتعويضٌ لهؤلاء الصِّغار عن فقدان الحماية والرِّعاية الأبويَّة، وحماية للأمة من تشرُّدِ صغارها، وتعرُّضهم للفساد، وهي للمساكين الّذين لا يجدون ما ينفقون - وهم مع ذلك ساكنون لا يسألون ضنًّا بماء وجوههم - احتفاظٌ لهم بكرامة نفوسهم، وصيانةٌ لهم من البوار، وإشعارٌ لهم بالتَّضامن والتَّكافل في محيط المجتمع المسلم.

(1) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 3/52.
(2) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 9/504.
(3) مسلم، الحديث رقم: (997).

تعريف الألفاظ بالإضافة وبـ (أل) الاستغراقيّة:

في التعريف حثٌّ على الإنفاق المُطلَق لكلِّ من يحضر القسمة

جاءتِ الألفاظ ﴿أُوْلُواْ ٱلْقُرْبَىٰ﴾، ﴿وَٱلْيَتَـٰمَىٰ﴾، ﴿وَٱلْمَسَـٰكِينُ﴾ في الآية الكريمة معرَّفة بصيغة الجمع، فقد عرّف ﴿أُوْلُواْ ٱلْقُرْبَىٰ﴾ بالإضافة؛ وهو يدُلُّ على العموم المخصوص، أي: قرابة الميّت من غير الوارثين، وهو مخصوص لأنَّه أخرج البعض من الحُكم، وهم قرابة الميّت من الوارثين[1]، أمَّا ﴿وَٱلْيَتَـٰمَىٰ﴾ و﴿وَٱلْمَسَـٰكِينُ﴾ فقد عُرِّفا بـ (أل) الاستغراقيَّة؛ لإفادة العموم القطعيّ المُطلَق، إذ يُراد به جميع أفرادِهما من حيث التَّناول، فبعد أن بيَّن تعالى أنَّ الميراث للأقربين من الرِّجال والنِّسَاء أَمَرَ في هذه الآية بإعطاء من حضر القسمة من القرابة غير الوارثِين على سبيل النّدب[2].

وفي تعريف هذه الألفاظ جميعها ودلالتها على العموم ترغيبٌ في فعل الخيرات، وحثٌّ على التَّكافل الاجتماعيّ بالإنفاق على هذه الفئات كلّها من غير استثناء، فهو لم يحدّد درجة القرابة، ولا نوع اليتيم، ولا نوع المسكين، بل أطلقها لإفادة العموم، ليعمَّ العطاء كلّ من يدخل تحت هذه الألفاظ إن حضروا القسمة بمعزل عن العواطف والمشاعر والأهواء.

إيثارُ التَّعبير بحرف الجرّ (من) دون غيره:

إعطاءُ الحاضرينَ وقتَ القِسمةِ يكونُ من أصل المال الموروث

أَوْثَرَ التَّعبير بحرف الجرِّ (من) الدّالِّ على التَّبعيض في قوله تعالى: ﴿فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُواْ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ دون غيره من حروف الجرِّ مثل (في) كما مرَّ في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُؤْتُواْ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَـٰمًا وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَٱكْسُوهُمْ وَقُولُواْ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ [النّساء: 5].

وإيثار التّعبير بـ (من) التّبعيضيَّة عند توزيع الميراث له دلالاته،

(1) ابن كَثير، تفسير ابن كَثير: 2/219.
(2) ابن العربيّ، أحكام القرآن: 1/428.

إذ إنَّ الإعطاء هنا يكون من رأس المال الموروث، ومِن أصله، والمعنى: فارزُقوهُم مِن هذا المال الّذي يُقسَم أمامَهم، وهذا الإعطاء وقت توزيع الميراث أمرٌ عارضٌ ويسيرٌ مقارنة بما قبله، وغالبًا ما يكون يسيرًا لا يضرُّ بالمال المقسوم، وهو أيضًا عملٌ لا يتكرَّر دومًا، لذا جاء بحرف الجرّ الدّالِّ على التّبعيض لتقليله[1].

دلالةُ الإنشاءِ الطّلبيّ بفعل الأمر على النَّدب والاستحباب:

توجيهُ مَن يرِثُ بالعَطَاءِ وقْتَ القِسْمةِ على وجْهِ الاستحبابِ

من بلاغة الآية الكريمة الإنشاءُ الطّلبيّ بفعل الأمر المجازيّ في قوله تعالى: ﴿فَٱرۡزُقُوهُم مِّنۡهُ﴾، والأَمرُ هنا محمولٌ عند جمهور أَهل العلم على النَّدب والاستحباب من أَوَّل الأَمر، إذ ليس في الصَّدقات الواجبة غيرُ الزَّكاة، وذهب فريقٌ من أَهل العلم إلى حَمل الأَمر بقوله: ﴿فَٱرۡزُقُوهُم﴾ على الوجوب[2]، والرّاجح أنَّه للنَّدب والاستحباب، وقد فصَّل الرَّازيّ في بيان ذلك، وردَّ على من قال بالوجوب بكلام طويل منه: " إنَّه ثبتَ على سبيل النَّدب والاستحباب، لا على سبيل الفرض والإيجاب.. وهذا المَذهَبُ هو الَّذي عليه فُقهاءُ الأَمصار، واحتَجُّوا بأَنَّه لو كان لهؤُلاء حقٌّ مُعَيَّنٌ لبيَّنَ اللّه تعالى قدرَ ذلك الحَقِّ كما في سائر الحقوق، وحيثُ لم يُبَيِّن عَلِمنَا أَنَّه غيرُ واجب، ولأَنَّ ذلك لو كان واجبًا لتوَفَّرتِ الدَّواعي على نَقلِه لشدَّة حِرص الفقراء والمساكين على تقديره، ولو كان ذلك لنُقِلَ على سبيل التَّوَاتُر، ولمَّا لم يكنِ الأَمرُ كذلك عَلِمنَا أَنَّه غيرُ واجب"[3].

فـــي الأمـــر بالإعطاءِ مراعاةٌ لما يُثيرُه مشْهدُ قسمةِ الأموال أمام أعينهم من حسرة الشّعور بـالـحـرمـان والحاجة

وعلى كلا الغرضين يُرشد الأمر إلى النَّفقة من مال الإرث بإعطاء من يحضر وقت القسمة من الأقرباء، واليتامى، والمساكين، بعض المال تطييبًا لنفوسهم، وتصدُّقًا لسدِّ حاجتهم، وبهذا التّوجيه

(1) ابن عثيمين، تفسير القرآن الكريم - سورة النّساء: 1/54.
(2) ابنُ عاشور، التّحرير والتّنْوير: 4/251.
(3) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 9/504.

راعى الإسلام حالة الإنسانيّة الّتي يرى فيها الأقارب المحجوبون والمساكين والأيتام قسمة الأموال أمام أعينهم فتستثير في نفوسهم حسرة الشّعور بالحرمان والحاجة، وقرَّر لهم على سبيل الاستحباب عطاء في التَّركة يحدّده الورثة عن طيب نفس وكرم سجيّة، حفاظًا على المودّة بين المؤمنين وتوثيقًا للرَّوابط القلبيَّة بينهم، وتعميقًا لروح التَّكافل والتَّراحم في المجتمع.

إعطاءُ الرِّزق يكونُ مرّةً واحدةً من غير منّةٍ، وتفضُّل

علّةُ تسميةِ العطاءِ رزقاً:

سُمِّي العطاء رزقاً في قوله تعالى: ﴿فَٱرۡزُقُوهُم مِّنۡهُ﴾؛ لأنَّه لا يؤخذ مرَّة ثانية فضلًا عمَّا فيه من تخفيفٍ على المُعطَى له كي لا يشعر بالمِنَّة، فكأنَّه رزقٌ قادَهُ اللّٰه تعالى إليه.

في التعبير بالرزق دون العطاء حثٌّ على كمال الإعطاء

ولم يقل: فأعطوهم منه تهييجًا على كمال الإعطاء، وإشعارًا بأن ذلك من الرزق الذي به قوام الأنفس، وفيه إشارة إلى قلّته، ويسره[1].

بلاغة الاحتراس في الفاصلة:

مراعاة الجانب النَّفسيّ للحاضرين وقت توزيع الميراث

جاءت فاصلة الآية الكريمة بقوله تعالى: ﴿وَقُولُواْ لَهُمۡ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا﴾، وهي مُشتمِلة على فعل الأمر ﴿وَقُولُواْ﴾ ومصدره ﴿قَوۡلٗا﴾ مع وصفه بـ ﴿مَّعۡرُوفٗا﴾، وقد راعَى اللّٰه تعالى بهذا النَّظم البليغ الجانب النَّفسيّ والعاطفيّ للحاضرين وقت توزيع الميراث، فالفاصلة تُرشِد بفعل الأمر أوّلًا أصحابَ الإرث، وتُعلِّمهم أن يقولوا للحاضرين وقت القسمة بالكلمة الطَّيبة الحسنة ما تألفه نفوسهم، وتُجبَرُ به خواطرهم، سواء أعطوا فيكون حفظًا لماء وجوههم عنِ السّؤال وغيره أم لم يُعطوا فيكون تخفيفًا عليهم من حالتهم وتَسليةً لهم على ما حُرِموا منه من مال الميِّت كما كانوا في الجاهليَّة، فأمروا

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/9.

بالكلام الطَّيِّب الجَّميل غير المُنفِّر، وفي وصف القول بالمعروف احتراسٌ يدفع تَوهّم القول الخبيث والجارح وغيرهما، وهذا الاحتراس يُقرِّر المعنى ويؤكِّده.

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

المسكين والفقير:

أَصل المسكين في اللُّغة الخاضِعُ، وأَصل الفقيرِ المُحتاجُ، وعليه يكون المسكين أَصلح حالًا مِنَ الفقير، وممّا يدُلُّ على ذلك أَنَّ العربَ قد تَسَمَّت به، ولم تَتَسَمَّ بفقيرٍ، لتناهي الفَقر في سوء الحال، يقولون: تَمَسكَن الرَّجلُ، فَبَنَوا منه فعلًا على معنى التَّشبيه بالمِسكين في زيِّه، ولم يَفعَلوا ذلك في الفقير إذ كانَت حالُهُ لا يَتَزَيّا بها أَحدٌ[1]، وَفرق مَا بَين الْفَقِير والمسكين، أنّ الْمِسْكِين هُوَ الَّذِي لَا شَيْء لَهُ، وَالْفَقِير هُوَ الَّذِي لَهُ الْبلْغَة من الْعَيْش، قَالَ الرَّاعِي:

أَمَّا الْفَقِيرُ الَّذِي كَانَتْ حَلُوبَتُهُ *** وِفْقَ الْعِيَالِ فَلَمْ يُتْرَكْ لَهُ سَبَدُ

فَجعل للْفَقِير حلوبة وَجعلهَا وفقا لِعِيَالِهِ أَي قدر قوتهم[2]، وقيل: "إنّ المسكين الّذي ليس له ما يكفيه، ولكن له شيء يسكن إليه، وهو أحسن حالًا من الفقير، والفقير: الّذي لا شيء له لقول الله تعالى: ﴿أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ﴾ [الكهف: 79]، والسّفينة بمال كثير، ومع ذلك سمّاهم مساكين"[3]، وقيل: الفقير الَّذي لا يسأَل، والمسكين الَّذي يسأَل، وهذا يدُلُّ على أَنَّ المِسكِين أضعف حالًا، وأبلغ في جهة الفقر، ويدُلُّ عليه أيضًا قوله تعالى: ﴿يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا﴾ [البقرة: 273]، فوصفهم بالفقر، وأخبر مع ذلك عنهم بالتّعفّف، حتَّى يَحسبهُم الجاهل بحالهم أَغنياء، ولا يَحسبهُم أَغنياء، إلَّا ولهم ظاهر جميل، وعليهم بزّة حَسَنَة[4]، واستعمال سياق الآية للفظ المساكين، جاء اعتبارًا لمعنى المسكنة، وإشارة إلى شدّة الحاجة، مع الحفاظ على ماء الوجه، والفقهاء يرون أنّ المسكين أشدّ فقرًا، لأنّه لا يملك قوت يومه، بينما

(1) ابن منظور، لسان العرب: (سكن).
(2) نشوان الحميريّ، شمس العلوم: (المِسْكين).
(3) ابن قتيبة: غريب الحديث: 1/191.
(4) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 177.

الفقير من لا يملك قوت عامه، ويظهر الفرقُ بينهما في قوله تعالى في مصارف الزّكاة: ﴿۞إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ﴾ [التّوبة: 60]، فجعل كلّا منهما مصرفًا على حدة، علمًا بأنّ كلا اللّفظين من مفردات القرآن المستعملة، ولكن لكلّ ورود منهما معناه المختلف عن الآخر، وذلك بمقتضى القرائن الّتي توجّه المعنى في سياق الآية قيد التّفسير.

النَّصيب والحظّ:

النَّصيب هو الحظُّ المنصوب، أي: المعيَّن[1]، وممّا يدُلُّ على تعيينه اقترانه بلفظ ﴿مَّفۡرُوضٗا﴾ في القرآن الكريم غالبًا، وهو يأتي عامّاً في الحظِّ من كلِّ شيء، أو للقسمة بين جماعة[2]، أمَّا الحظُّ فهو مخصوصٌ بقدرٍ معلوم، وبالخير دون الشّرّ، وقد جاء الحظّ في الميراث المقسوم، وذلك بتقدير حصّة الفرد، قال تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ لِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۚ﴾، فدلَّتِ الآية على أنَّ "الحظَّ النَّصيبُ المُقدَّر"[3]، والنَّصيب يكون عامًّا في المحبوب والمكروه، فهو يأتي في الجزاء بالأجر والثّواب، كقوله سبحانه: ﴿مَّن يَشۡفَعۡ شَفَٰعَةً حَسَنَةٗ يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٞ مِّنۡهَاۖ﴾ [النّساء: 85]، أو في الجزاء بالعذاب، كقوله تعالى: ﴿فَهَلۡ أَنتُم مُّغۡنُونَ عَنَّا نَصِيبٗا مِّنَ ٱلنَّارِ ٤٧﴾ [غافر: 47]، أمَّا الحظُّ فلا يُقال في المكروه والشّرّ أو العذاب؛ لأنَّ أصلَ الحظِّ، هو ما يحظُّه اللّه تعالى للعبد من الخير، قال تعالى: ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٖ ٣٥﴾ [فُصِّلت: 35][4]، وقد استعمل السياق لفظ ﴿نَصِيبٗا﴾ دون لفظ حظّ، لتلاؤم الأوّل مع وصفه بقوله: ﴿مَّفۡرُوضٗا﴾، والحظ لا يوصف بذلك، فضلًا عن كون النّصيب يحدّد ماديًّا، بينما الحظّ شيء يتعلّق بالمعنويّات ولا قياس له ولا تحديد لمنتهاه، فكان الاستعمال بليغًا ومواتيًا للدّلالة السّياقيّة المطلوبة.

(1) الراغب، المفردات: (نصب).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (نصب)، والمناويّ، التّوقيف، ص: 700.
(3) النَّحاس، معاني القرآن: 6/270، والراغب، المفردات: (حظ).
(4) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 541.

﴿وَلۡيَخۡشَ ٱلَّذِينَ لَوۡ تَرَكُواْ مِنۡ خَلۡفِهِمۡ ذُرِّيَّةٗ ضِعَٰفًا خَافُواْ عَلَيۡهِمۡ فَلۡيَتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡيَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدًا ٩ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلۡيَتَٰمَىٰ ظُلۡمًا إِنَّمَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ نَارٗاۖ وَسَيَصۡلَوۡنَ سَعِيرٗا ١٠﴾ [النّساء: 9 - 10]

مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِمَا قَبْلَهُما:

الـــرّبـــط بـين الـتّـــقـــوى في الـحـفـاظ على حقوق اليتامى، وجـزائـه بحفظ أبنائه من بعده

بين هاتين الآيتين وما سبقهما تناسبٌ جليٌّ، وترابطٌ لطيفٌ، جاء موعظةً لكلٍّ من حُذِّر أو رُغِّب في الآيات السّابقة، في شأن أموال اليتامى، وأموال الضُّعفاء من النِّسَاء والصِّبيان، فمن يخش اللّه في حقوق يتامى الآخرين، فسوف يجازيه اللّه بحفظ أبنائه من بعد وفاته، وفيها ترهيبٌ من أكل أموال اليتامى، بذكر العقاب الشّنيع لمن يظلم اليتيم في ماله، بنار مستعرة شديدة الإحراق، يصطلي بدنه بحرقها، ويلتهب بطنه بجمرها، كناية عن شدّة العذاب، وتصويرًا لسوء المصير، وتأكيدًا على رحمة اللّه تعالى باليتامى؛ لأنَّهم لمّا بلغوا في الضّعف إلى الغاية القصوى، بلغت عناية اللّه تعالى بهم إلى مثل ذلك[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَلۡيَخۡشَ﴾: من خَشِيَ الرَّجُلُ يَخشَى خَشية، أَي: خافَ، والخشية: خوفٌ يشوبُه تعظيمٌ، وأكثر ما يكون ذلك عن علم بما يُخشى منه[2]، و"الخشية تألّم القلب، بسبب توقُّع مكروه في المستقبل، يكون تارةً بكثرة الجناية من العبد، وتارةً بمعرفة جلال اللّه وهيبته، وخشية الأنبياء من هذا القبيل"[3]، وكذلك خشية

(1) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 9/506، و(بتصرّف).
(2) الأزهري، تهذيب اللغة: (خشي)، والراغب، المفردات: (خشي).
(3) الجرجانّي، التّعريفات، ص: 98.

العلماء، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْۗ﴾ [فاطر: 28]، والخشية محمودة في كلِّ مواضعها، وتكون من عظم المخشِيّ منه، وإن كان الخاشي قويّاً؛ لذا كانتِ الخشية في الرّسل زينة لهم، فامتدحها الخالق سبحانه بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخۡشَوۡنَهُۥ وَلَا يَخۡشَوۡنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَۗ﴾ [الأحزاب: 39][1].

2) ﴿ذُرِّيَّةَ﴾: الذُّرِّيَّةُ نَسلُ الرَّجُل وما توالدَ منه ومِن أبنائِهِ وبناتِهِ، قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلۡبَاقِينَ ٧٧﴾ [الصّافات: 77]، قال بعضهم: ذريّة هي فُعلية من ذررت، لأنّ الله تعالى ذَرَّهم في الأرض: أي نشرهم فيها[2]، وأصل الذّريّة (ذرأ) بالهمز، لكنّهم حذفوه فلم يستعملوها إلّا غير مهموزة، وتجمع على ذريّات، وذراريّ مشدّدًا[3]، وقال بعض النّحويين: " أصلها ذرُورة على فعلولة، ولكنّ التّضعيف لمّا كثر، أبدل من الرّاء الأخيرة ياء، فصارت ذروية، ثمّ أدغمت الواو في الياء فصارت (ذريّة)، قال الأزهريّ: وقول من قال إنّه فعليّة أقيس وأجود عند النّحويين"[4]، والمقصود في الآية الكريمة، هو إظهار الله تعالى ما أبداه، يُقال: ذَرَأَ الله الخلق، أي: أوجد أشخاصهم، والذُّرِّيَّة أصلها: الصّغار من الأولاد، وإن كان قد يقع على الصّغار والكبار معًا في التّعارف، ويُستعمل للواحد والجمع، وجَمعُها ذَراريُّ[5]، ولفظ الذّريّة أجمع في المعنى، من ذكر الذّكر وحده والأنثى وحدها، وتنكيرها أبلغ في الدّلالة على الذّرية المتروكة ذكرانًا وإناثًا، بعد رحيل الأب عن الدّنيا.

3) ﴿ضِعَٰفًا﴾: من ضعُف، والضُّعْف: خلاف القوّة، ويُقال: الضَّعفُ في العقل والرّأي، والضُّعفُ في الجسد، ويُقال: رجالٌ ضِعافٌ، كما يُقال خِفافٌ[6]، وفي الآية الكريمة قصد بالضِّعاف الأولاد الصّغار[7]، وهو على وزن (فِعَال)، "وكلّ ما في القرآن من الفعل (ضَعُف) و(اسْتَضْعَفَ) ومضارعه للفاعل والمفعول، وكلمة (ضَعْف) بالفتح، والصّفة (ضعيف)، وجمعها (ضِعاف) و(ضُعفاء) وكذلك صفة التّفضيل (أضعف)، واسم

(1) الزّركشّي، البرهان: 4/78.
(2) نشوان الحِميريّ: شمس العلوم: (ذُرِّيّة).
(3) ابن الأثير: النّهاية: (ذرر).
(4) الزَّبيديّ: تاج العروس: (ذرر).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ذرأ).
(6) الخليل، العين: (ضعف).
(7) ابن الجوزيّ، زاد المسير: 1/376.

المفعول (مُستضعَف) وجمعها كلّ ذلك من الضّعف: عدم القوّة"[1]، والضِّعْفُ من الألفاظ المُتضايفة الّتي يقتضي وجود أحدهما وجود الآخر، كالنّصف والزّوج، وهو تركّب قدْرين مُتَساويين، ويختصّ بالعدد، فإذا قيل ضَعَّفتُ الشّيء، وضَاعَفتُهُ: ضمَمتُ إليه مثلَه فصاعدًا[2].

4) ﴿سَدِيدًا﴾: جذرها سدد، يُقال: سَدَّدهُ تَسديداً: قوَّمَه، ووفَّقَهُ للسَّداد، أي: الصَّواب من القَولِ والعملِ، وسَدَّ يَسِدُّ: صار سديداً، والسِّدَادُ: ما يُسَدُّ به الثّغر، واستُعير لما يُسَدُّ به الفقرُ، واستَدَّ: استَقامَ، والسَّدَدُ: الاستِقامَةُ[3]، والسَّدَادُ بالفتح: الاستقامة والصّواب، وكذلك السَّدَدُ مقصور منه، قال الأعشى:

مَاذَا عَلَيْهَا وَمَاذَا كَانَ يَنْقُصُهَا *** يَوْمَ التَّرَحُّلِ لَوْ قَالَتْ لَنَا سَدَدَا[4]

وقوله تعالى: ﴿وَلْيَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا﴾، أي: مستقيمًا من السّداد، وهو ما يُسدُّ به من الخلل، وكلّ ما سددته من ثلمةٍ ونحوها، فهو مسدودٌ، وما كان من المعاني والأقوال، فهو مفتوح السّين، وتأتي لفظة ﴿سَدِيدًا﴾ بمعنى صواباً، يُقالُ: قُلْ قَولًا سَدَداً وسَداداً وسَديداً، أَي: صَوَابًا[5]، والسّدادُ مِنَ القول، والتَّسديدُ: التّوفيقُ للسَّداد، وهو الصَّواب والقَصد مِنَ القول والعمل، ورجُلٌ سديدٌ وأَسَدُّ: مِنَ السَّداد وقَصد الطَّريق، وسدَّده اللّه: وفَّقَهُ، وأَمر سديدٌ وأَسَدُّ، أَي: قاصدٌ[6]، وقوله ﴿سَدِيدًا﴾ صفة للفظ ﴿قَوْلًا﴾، وهو الأجلى والأبلغ في الدّلالة على حسن القول، وجميل الملفوظ، ممّا يؤكّد أدب الإسلام في قول الحسن من الكلام، مهما كان الظّرف والمقام.

5) ﴿وَسَيَصْلَوْنَ﴾: من صلا، وأصل الصَّليُ الإيقادُ بالنّار، ويُقال: صَلِيَ بالنّار، أي: بلي بها، واصطَلى بها، ويأتي الصَّلا بمعنى الحَطَبُ، وبمعنى النّار، وهو اسمٌ للوَقود إذا اصطَلى به القوم، "يقال: صليت الرّجل نارًا إذا أدخلته النّار، وجعلته يصلاها، فإن

(1) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصَّل: (ضعف).
(2) الراغب، المفردات: (ضعف).
(3) الراغب، المفردات: (سد)، الفيروزابادي، القاموس المحيط: (سدَّ).
(4) الجوهريّ، الصّحاح: (سدد)، والزّمَخْشري، أساس البلاغة: (سدد).
(5) السّمين، عُمدة الحفّاظ: 2/183.
(6) ابن منظور، لسان العرب: (سدد).

ألقيته فيها إلقاء كأنّك تريد الإحراق قلت أصليته، بالألف، وصليته تصلية"[1]. والمِصلاةُ أن تنصِبَ شَرَكاً ونحوه ليَقَعَ فيه شيءٌ فيُصطاد، وتقول: صَلَيتُ، أي: نَصَبتُ المِصلاةَ، وتجمع مَصالي، والصّاليات: الأَثافيُّ، لأنَّهنَّ قد صَلِينَ النّارَ، وصَلِيَ فلانٌ بشَرٍّ فلانٍ وبرَجُل سُوءٍ، وفلانٌ لا يُصطَلَى بناره، أي: لا يُتَعَرَّض لحَدِّه، وصَلَّى عَصاه إذا أدارَها على النّار يُثقّفُها[2]، فالمعنى المحوريّ للّفظة هو التّليين بمعنى اللّين الّذي ينتج عن صَلْيِ الشّيء في النّار، ليُحدِث ليناً أو رخاوة من الدّاخل مع تماسك ما، فيمكن التّصرف فيه: مثل تليين اللّحم والعصا، بتعريضها للنّار، فيمكن بذلك تقويمها إن كانت معوجّة، ويمكن أيضًا ثَني طرفها، ليكون مَقْبِضًا لها[3].

6) ﴿سَعِيرًا﴾: من سعر، السِّين والعين والرَّاء، أَصلٌ واحدٌ يدُلُّ على اشتعال الشَّيءِ واتِّقاده وارتفاعه، مِن ذلك السَّعيرُ: وهو سعيرُ النَّار، واستعارها: توقُّدُها، والمِسعَرُ: الخشبُ الَّذي يُسعَرُ به، والسُّعارُ: حرُّ النَّار[4]، وسَعَرتُ النَّار وأَسعَرتُها، فهي مُسعَرَةٌ ومَسعورَةٌ[5]، والسَّعيرُ: النَّارُ المُسَعَّرَةُ، أَي: المُلتهبةُ، على وزن فعيلٌ بمعنى مَفعولٌ، بُنِي بصيغة المُجرَّد، ومنه قوله تعالى: ﴿وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾، ومن المجاز: " ضربه السُّعار، وهو حرّ اللّيل وبه سُعار، وهو توهّج العطش، وسُعِر الرّجل: ضربَته السَّموم فهو مسعور، وسعَرواْ نار الحرب، وسعَر على قومه وسعَرَهم شرّاً"[6]، والسّعر في البياعات: الثّمن، وهو مأخوذٌ من استعار النّار على التّشبيه[7]، واستعمال لفظ ﴿سَعِيرًا﴾، تهويل لجريمة أكل أموال اليتامى، وتخويف من مغبّة الاعتداء على ما يحوزه اليتيم، حماية له من غوائل الزّمان، وعدوان الإنسان.

7) ﴿يُوصِيكُمُ﴾: جذرها (وصي)، " الواو والصَّاد والحرف المعتلُّ: أَصلٌ يدُلُّ على وَصلِ شيءٍ بشيءٍ، ووصَيتُ الشَّيءَ: وصَلتُهُ، ويُقالُ: وَطِئنَا أَرضًا واصيةً، أَي: إِنَّ نَبتَها

(1) ابن منظور، لسان العرب: (صلا).
(2) الخليل، العين: (صلو)، والراغب: المفردات: (صلا).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصَّل: (صلو)، (صلى).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سعر).
(5) ابن دريد، جمهرة اللغة: (رسع).
(6) الزّمَخْشري، أساس البلاغة: (سعر).
(7) السّمين، عمدة الحفّاظ: 2/200.

مُتَّصِلٌ قدِ امتلأَت منه"[1]، والوَصِيَّةُ ": التّقدّمُ إلى الغير بما يعملُ به مُقترِنًا بوعظٍ من قولهم: أرض وَاصِيَةٌ: متّصلةُ النّبات، ويقال: أَوصاهُ ووصَّاهُ"[2]، و"المعنى المحوريّ التزام الأشياء بعضها بعضًا، كالمحزوم بالجريد والنّبات الملتفّ، وكالمتّصل بعضه ببعض منه إذ هو متضامّ، ومن هذا الالتزام جاء معنى الإيجاب في الوصيّة، فهي عهد وتكليف وإلزام"[3]، من هنا وردت لفظة يُوصِيكم، في قوله تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّـهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ﴾ أي: "يفرض عليكم، لأنّ الوصيّةَ من الله ﷻ فرضٌ، والدّليل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقۡتُلُواْ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ﴾ [الأنعام: 151]، وهذا من المحكم علينا[4]، وتوجيه الخطاب إلى الوالدين بالوصيّة بالأولاد، تأكيد لما تفرضه الغريزة الأبويّة من حبّ للأولاد أصيل، يراد له أن يتجلّى في الوصيّة، بصورة تضمن العدل بين الأبناء، وتعطي لكلّ ذي حقّ حقّه.

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

جاءت هاتان الآيتان الكريمتان: ترهيبًا من أكل أموال اليتامى بالعقوبة بالمثل،

فجاءتِ الأولى، لتأمر كلَّ من يطاله الخطاب من الأوصياء وغيرهم[5]، بأنْ يخشَواْ الله تعالى ويتَّقوه، في أمر اليتامى وأموالهم، فيفعلواْ بهم، مِثل ما يحبُّون أن يُفعَل بذرّيَّتهم الضِّعافِ بعدَ موتهم، ثم تأتي الآية الثّانية لتتوعَّد المخالفين الّذين يأكلون أموال اليتامى ظلمًا، " سواء أكان الآكل من الورثة، أم من أولياء السّوء من غيرهم، واللّفظ لكمال التّشنيع على الآكلين، لأنّهم يظلمون اليتامى الضّعفاء الّذين ليس في قدرتهم الدّفاع عن أنفسهم"، وهم لا يعلمون أنّهم

من خاف ضياع أبنائه بعده، فليتّق الله، فكما يدين الفتى يدان

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (وصي).
(2) الراغب، المفردات: (وصى).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصَّل: (وصى).
(4) الزَّجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 2/18.
(5) اختُلف في بيان المُراد من الخطاب في هذه الآية على ثلاثة أقوال، الأوّل: أنّها خطاب للحاضرين عند المُوصي، والثّاني: أنّها خطابٌ لأولياء اليتامى، والثّالث: أنّها خطاب للأوصياء أمروا بأداء الوصيّة، يُنظر: الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 9/505، وابن الجوزيّ، زاد المسير: 1/376، والظّاهر أنّها خطاب عامٌّ يشمُل كلّ من يدخل تحته من هذه الأصناف وغيرهم.

يأكلونَ في بطونهم نارًا تصطلي، ويبلعون جمرًا يتلظّى، يقطّع الأمعاء، ويضاعف الألم[1].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغة الإنشاء الطّلبيّ بصيغة المضارع المَسبوق بلام الأمر:

تحذير الأوصياء من أكل أموال اليتامى ظلمًا

افتُتح الخطاب في هاتين الآيتين الكريمتين بالأسلوب الإنشائي الطّلبيّ الأمر بالفعل المضارع المسبوق بلام الأمر في الفعل ﴿وَلْيَخْشَ﴾، في قوله تعالى: ﴿وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُواْ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُواْ عَلَيْهِمْ﴾، وجاءت هذه الصّيغة لتنبيه المُتلقّي لما سيأتي بعدها، وشدِّ انتباهه له، فيجعله مُتيقّظًا لذلك مُنتظِرًا ما أُمر بالخشية منه على طريقة القرآن الكريم في التّنبيه ترغيبًا وترهيبًا.

وتكمن بلاغة هذا الخطاب بالأمر في رعاية حقوق اليتامى والضُّعفاء، وحماية حقوقهم بتخويف أولياء اليتامى وتحذيرهم من الحال نفسها لأبنائهم وذريّاتهم، وهم على فراش الموت يستحضرون هذه الصّورة، وهم يمنعون اليتامى حقوقهم، فصيغة الأمر نقلتِ الأولياء والأوصياء على اليتامى الَّذين بين أيديهم إلى حال ذرّيّتهم بعد موتهم، قال الرَّازيّ: " هذا أَمرٌ لأَولياء اليتيم، فكأَنَّه تعالى قال: ولْيَخشَ مَن يخافُ على ولده بعد مَوته أَن يُضيّع مال اليتيم الضَّعيف الَّذي هو ذُرِّيَّةُ غيره إذا كان في حجره، والمقصود من الآية على هذا الوجه أَن يَبعثَهُ ﷻ على حِفظ ماله، وأَن يُترَكَ نَفسه في حفظه والاحتياطُ في ذلك بمنزلة ما يُحِبُّهُ مِن غيره في ذُرِّيَّته لو خَلَفَهم وخَلَفَ لهم مالًا... فجعل تعالى آخِر ما دعاهُم إلى حفظ مال اليتيم أَن يُنَبِّهَهُم على حال أَنفُسهم وذُرِّيَّتِهم إذا تَصَوَّرُوها، ولا شكَّ أَنَّه

(1) طنطاوي، التفسير الوسيط: 3/58.

من أَقوى الدَّواعي والبواعث في هذا المقصود"[1]، حتَّى يخافوا على ذرّيّتهم، ويقدِّروا ذلك في أنفسهم، ويصوّروه حتّى لا يجسروا على خلاف الشّفقة والرّحمة[2].

فائدة الإيجاز بحذف المفعول به:

في الإيجاز بالحذفِ ترسيخٌ لمخافة الله تعالى، وعقابه في الدّنيا

من بلاغة الآية الكريمة الإيجاز بحذف المفعول به للفعل ﴿وَلۡيَخۡشَ﴾، وهو الاسم الكريم (اللّه)، في قوله تعالى: ﴿وَلۡيَخۡشَ ٱلَّذِينَ لَوۡ تَرَكُواْ مِنۡ خَلۡفِهِمۡ ذُرِّيَّةٗ ضِعَٰفًا﴾ [النّساء: 9]، والتَّقدير: وَلْيَخْشَ اللهَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُواْ، ويحتمل التَّقدير غير الاسم الكريم أيضًا لتذهبَ النَّفسُ في تقديره كلّ مَذهَب مُحتَمل، قال ابن عطيَّة: "مفعول (يخشى) محذوفٌ لدلالة الكلام عليه، وحسن حذفه من حيث يتقدَّر فيه التّخويف باللّه تعالى، والتّخويف بالعاقبة في الدّنيا، فينظر كلّ متأوِّل بحسب الأهمّ في نفسه"[3] ممَّا يخشى أَنْ يُصيب ذُرِّيَّته من بعده، وبهذا الحذف تحقّقَت فضيلة الإيجاز، فضلًا عن تنبيه المُتلقِّي إلى البحث عن المحذوف، فيجعله يتجاوب مع ما يقرأ، فترسخ المعلومة في نفسه، وهذا مَطلَب من مطالب الحذف في القرآن الكريم.

إيثار التَّعريف بالاسم الموصول وصلته:

التّعريف بالاسم الموصول أفاد العموم، وصوَّر حال الذّرّيّة

لَمَّا كان المُراد من الآية الكريمة تحذير الأوصياء على اليتامى من ظلمهم، وأكل أموالهم بتصوير حالهم بعد موتهم، كان المناسب لهذا التّحذير إيثار التَّعريف بالاسم الموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾ دون غيره في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ لَوۡ تَرَكُواْ مِنۡ خَلۡفِهِمۡ ذُرِّيَّةٗ ضِعَٰفًا خَافُواْ عَلَيۡهِمۡ﴾، لِمَا في التّعريف بالاسم الموصول من إفادة العموم؛ لأنَّه أريد به

(1) الرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 9/505.
(2) الزّمَخْشري، الكشّاف: 1/478.
(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/13.

أفراده جميعًا تناولًا وحكمًا، فضلًا عن ذلك أوثر التّعبير بالاسم الموصول لما في صلته من بيان حال ذرّيّتهم من بعدهم، وهو بذلك جدير بإيقاع الخشية في قلوبهم، فجيءَ بالموصول؛ "لأنَّ الصِّلة لمَّا كانت وصفًا مفروضًا حَسُنَ التَّعريفُ بها إذ المقصودُ تَعريفُ مَن هذه حالُهُ، وذلك كافٍ في التَّعريف للمُخاطَبِينَ بالخشيةِ إذ كُلُّ سامعٍ يعرِفُ مضمونَ هذه الصِّلةِ لو فرضَ حصولها لهُ، إذ هي أَمرٌ يتصوَّره كُلُّ النَّاس"[1].

إيثارُ التَّعبير بأداة الشَّرط ﴿لَوْ﴾:

التعبير بـ (لو) توسيع لدائرة الداخلين في فرض الشّرط

في قوله تعالى: ﴿وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُواْ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُواْ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا﴾ [النّساء: 9]، شرطٌ وجوابُه، فأداة الشّرط: ﴿لَوْ﴾، وفعل الشّرط: ﴿تَرَكُواْ﴾، وجواب الشّرط: ﴿خَافُواْ عَلَيْهِمْ﴾، وجاء الشّرط مُقترنًا بالأداة (لو) مع الفعل ﴿تَرَكُواْ﴾ الدّالّ على المشارفة مَجازًا، فالمعنى "وليخش الّذين صفتهم وحالهم أنّهم لو شارفوا أن يتركوا خلفهم ذرّيّة ضعافًا، وذلك عند احتضارهم خافوا عليهم الضَّياع بعدهم لذهاب كافلهم وكاسبهم"[2].

وأوثِرَ التَّعبيرُ بأداة الشَّرط ﴿لَوْ﴾ دون غيرها من أَدوات الشَّرط؛ لأَنَّها الأَداة الصَّالحةُ لِفَرض الشَّرط من غير تَعَرُّض لإمكانه، فَيَصدُقُ معها الشَّرط المُتَعَذِّرُ الوقوعِ والمُستَبعَدُهُ والمُمكِنُهُ، فحتَّى الَّذين بلغوا اليأْس من الولادة، ولهم أَولادٌ كبارٌ أَو لا أَولاد لهم، يدخلونَ في فَرض هذا الشَّرط؛ لأَنَّهم لو كان لهم أَولادٌ صغارٌ لخافوا عليهم، والَّذين لهم أَولادٌ صغارٌ أَمرُهُم أَظهرُ[3].

(1) ابنُ عاشور، التّحرير والتّنوير: 4/252.
(2) الزّمَخْشري، الكشّاف: 1/478.
(3) ابنُ عاشور، التّحرير والتّنوير: 4/252 - 253.

علّة اقتران ﴿لَوْ﴾ بفعل الترك:

التّخويف بالحالة الّتي لا يبقى معها مَطمَعٌ في الحياة، ولا في الذّبِّ عن الذّرّيّة الضِّعاف

وفي التَّعبير بأداة الشّرط ﴿لَوْ﴾ مع فعل التّرك الدَّالِّ على المشارفة بلاغة لا تخفى، وسرٌّ بديعٌ لطيفٌ يتمثَّل بالتّخويف بالحالة الصَّعبة للوصيّ عند الاحتضار على فراش الموت، والّتي لا يبقى معها مَطمَعٌ في الحياة ولا في الذّبِّ عنِ الذّرّيَّة الضِّعاف، وهي الحالة الّتي وإن كانت من الدّنيا إلّا أنَّها لقربها من الآخرة ولصوقها بالمفارقة صارت من حيّزها ومُعبِّرةً عنها بما يُعبَّر به عن الحالة الكائنة بعد المفارقة من التّرك[1].

نكتةُ التَّفريعِ بالفاء في فعل الاتّقاء:

تقوى الله سبيلُ الخيراتِ، وحبْلُ النجاةِ، وطريقُ حفْظِ الذُّرّيات

من بديع نسيج الآية الكريمة التَّفريع[2]، إذ فرَّع الأمر بالتَّقوى والقول السّديد في قوله تعالى: ﴿فَلْيَتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا﴾ على الأمر بالخشية في أول الآية الكريمة في قوله تعالى: ﴿وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ﴾، وفرَّع الأمر الثّاني على الأوّل مع أنّهما أمران متقاربان؛ لأنَّ الأَمر الأَوّل لمَّا عُضِّد بالحُجَّة عُدّ كالحاصل فصحَّ التَّفريعُ عليه، والمعنى: فليتَّقوا اللّه تعالى في أَموال النَّاس وليُحسنوا إليهم القول، وفي هذا التَّفريع إشارةٌ إلى إرشاد الآباء الّذين يخشون ترك ذرّيّة ضعيفة بالتَّقوى في سائر شؤونهم حتَّى تُحفظ ذرّيّتهم، وتُغاث بعناية اللّه تعالى، ويكون في إشعارها تهديدٌ بضياع ذرّيّتهم إنْ فقدوا تقوى اللّه تعالى، وإشارةٌ إلى أنَّ تقوى الأصول تحفظ الفروع، وأنَّ الرِّجال الصَّالحين يحفظون في ذرّيّتهم الضِّعاف، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا﴾ [الكهف: 82]، فإنَّ الغُلامين حُفِظا ببركة صلاح أبيهما في أنفسهما ومالهما[3].

(1) ابن المُنيّر، الانتصاف: 1/478.

(2) التَّفريع: هو "أن يرى المتكلّم أنّ المعنى الّذي يُعبرّ عنه بعبارةٍ ما يتفرَّعُ عنه معنًى آخر، ويرى فَنِّيًّا أَنَّ من البديع في القول أن يُعبرّ عمّا لاحظهُ على سبيل التّخيُّل أو الادّعاء".

(3) القاسميّ، محاسن التّأويل: 3/36.

بلاغة الإيجاز بحذف المفعول به:

في الاستغناء بالمذكور تفنّنٌ في تصوير الخوْف من ضياع الذّرّيّة في مسارب الحياة

من بلاغة التَّراكيب في قوله تعالى: ﴿وَلۡيَخۡشَ ٱلَّذِينَ لَوۡ تَرَكُواْ مِنۡ خَلۡفِهِمۡ ذُرِّيَّةٗ ضِعَٰفًا خَافُواْ عَلَيۡهِمۡ﴾ الإيجاز بالحذف، إذ حُذِفَ المفعول به للفعل ﴿خَافُواْ﴾ إيجازًا واختصارًا،؛ لِتذهبَ النَّفسُ في تقديره كلَّ مذهب، ولِتَفتَنَّ في تصوير الخوف من المصير المحتوم الّذي يَؤُول إليه أمرُ الضِّعاف في هذه الحياة، فيمكن أن يُقدَّر بـالفقر، والضَّياع، والهيام، والتَّشرُّد في مسارب الحياة ومسالكها المُتشعِّبة من دون كافلٍ يَكفُلهم، أو مُدبِّر يُدبِّر شؤونَهم[1].

التّناسب السِّياقيّ لكلمة ﴿ضِعَٰفًا﴾:

في اصطفاء لفظ (ضعافا) إظهارٌ لشِدَّةِ الضَّعْفِ والحاجة

من جماليات التَّعبير القرآنيّ التَّناسب الدَّقيق للألفاظ مع السِّياق، من ذلك مُناسبة كلمة ﴿ضِعَٰفًا﴾ للسِّياق العامِّ ومحور السُّورة الكريمة، فهذه اللَّفظة لم تَرد بهذه الصِّيغة إلَّا في هذه السُّورة في قوله تعالى: ﴿وَلۡيَخۡشَ ٱلَّذِينَ لَوۡ تَرَكُواْ مِنۡ خَلۡفِهِمۡ ذُرِّيَّةٗ ضِعَٰفًا خَافُواْ عَلَيۡهِمۡ﴾، وقد جاءت على وزن (فِعال) الَّذي يعني الاشتمال والاحتواء[2].

وهذا يدُلُّ على تناسبها مع محور السّورة، بمعنى أنَّ الضِّعاف بحاجة ماسَّة إلى من يرعاهم ويحتويهم ويشمُلهم برعايته، فإنَّ اللَّفظة مع حركة الكسر الواقعة على الحرف الأوّل أظهرت شدَّة الضَّعف والحاجة، وكأنَّ الضَّعف يلفّهم ويشملهم من الجوانب والاتِّجاهات جميعها كالغطاء واللِّحاف، وقد جاءت في سياق الدَّلالة على الوصف لا على الكَمِّ كونها من صيغ الجموع[3].

فضلًا عن ذلك فهذه اللَّفظة تجعل الوصيَّ يتصوَّر ذرّيّته وهي

(1) الدّرويش، إعراب القرآن وبيانه: 2/166.
(2) السّامرائّي، معاني الأبنية في العربيّة، ص: 110.
(3) غازي، التّناسب في سورة النّساء، ص: 208.

ضعيفة لا حيلة لها ولا نصير، وهذا يقرِّر معنى الخوف في الآية الكريمة، ويرسم مع الضَّمير (الهاء) في ﴿خَلۡفِهِمۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿لَوۡ تَرَكُواْ مِنۡ خَلۡفِهِمۡ ذُرِّيَّةٗ ضِعَٰفًا﴾ صورة مُستقبليَّة كاملة أمام أعينهم لما سيحصل لذرّيّتهم، فهي تبعث في نفوسهم الشّفقة والتَّرحم على اليتامى، وتهيّج المشاعر الإنسانيّة في قلوبهم ممَّا يجعلهم يتحذَّرون من ظلم اليتامى والضُّعفاء في المجتمع، وأكل حقوقهم.

بلاغة الإطناب بطريق الاعتراض[1]:

من عناية الشارع بأمر اليتامى كرَّرَ تحذيرَ الأوصياء مِن أكل مالِ اليتامى

جاءت هذه الآية الكريمة ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلۡيَتَٰمَىٰ ظُلۡمًا إِنَّمَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ نَارٗاۖ وَسَيَصۡلَوۡنَ سَعِيرٗا﴾ "جُملةً مُعترِضةً تفيدُ تَكرار التَّحذير من أَكل مال اليتامى، جَرَّتهُ مناسبةُ التَّعرُّض لقسمة أَموال الأَموات؛ لأَنَّ الورثة يَكثُرُ أَن يكون فيهم يتامى لكثرة تزوُّج الرِّجال في مُدَّة أَعمارهم، فقلَّما يخلو مَيِّتٌ عن ورثةٍ صغارٍ، وهو مُؤذِنٌ بشدَّة عناية الشَّارع بهذا الغرض، فلذلك عاد إِليه بهذه المناسبة"[2].

فائدة التوكيد في الجملة الاعتراضية:

في التَّوكيد تحذيرٌ من التَّعرّض لأموال اليتامى؛ وتشديدٌ في النَّهي من الوقوع فيه

ولتأكيد مضمون هذه الجملة الاعتراضيّة وتقريرها جاء قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلۡيَتَٰمَىٰ ظُلۡمًا إِنَّمَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ نَارٗاۖ وَسَيَصۡلَوۡنَ سَعِيرٗا﴾ بالأسلوب الخبريّ المُؤكّد بـ ﴿إِنَّ﴾، والتَّعريف بالموصول فضلًا عن أسلوب القصر بـ (إنَّما)، والعطف بعذابٍ عامٍّ شاملٍ.

علّة التَّعريف بالاسم الموصول وصلته:

من البلاغة في الآية الكريمة إيثار التَّعريف بالاسم الموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾ دون غيره من المعارف، مع تقديمه على المسند في قوله

(1) الاعتراض: هو " أن يُؤتى في أثناء الكلام، أو بين كلامين مُتّصلين معنى بجُملة أو أكثر لا محلّ لها من الإعراب، لنكتةٍ سوى رفع الإبهام" الجرجانيّ، التّعريفات، ص: 24.

(2) ابن عاشور: التّحرير والتّنوير: 4/254.

تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلۡيَتَٰمَىٰ﴾، لِمَا في التّعريف بالاسم الموصول من إفادة العموم، وإن كان مخصوصًا بالَّذين يأكلون أموال اليتامى ظلمًا؛ ويخرج منه بذلك من يأكل بعضه للحاجة أو غيرها، فضلًا عن ذلك أوثر التّعبير بالاسم الموصول وتقديمه على المسند لما في صلته ﴿يَأۡكُلُونَ﴾ من استحضارٍ لصورة أكلهم لأموال اليتامى وتجدُّدها، ليتمَّ التَّسجيل عليهم بفعلهم القبيح هذا، ممَّا يجعل المتلقّي يتشوَّف للمُسند الّذي يصوّر الحكم عليهم ويسجِّله بأبلغ صورة.

في التعريف بـ (الذين) دلالةُ العموم، والتسجيلُ بالفعل القبيح المُتمثِّل بأكل أموال اليتامى

بلاغة الاستعارة المكنيّة في الفعل ﴿يَأۡكُلُونَ﴾:

في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلۡيَتَٰمَىٰ﴾ شبَّه أموال اليتامى بطعام يُؤكل، ثمّ حذفه، وأبقى شيئًا من لوازمه ممّا هو من أبرز خصائص الطّعام وهو الأكل[1] على طريقة الاستعارة المكنيّة، وقد حملها ابن عاشور على التّصريحيّة بقوله: "والأَكلُ استعارةٌ للانتفاع المانع مِن انتفاع الغير وهو الملكُ التَّامُّ، لأَنّ الأَكلَ هو أَقوى أَحوال الاختصاص بالشَّيء؛ لأَنَّه يُحرِزُه في داخل جسدِهِ، ولا مَطْمَعَ في إِرجاعه"[2].

أكلُ مال اليتيم من أقبح صور الأكل الحرام

وفي هذه الاستعارة مبالغة في تشنيع فعلهم بأخذ أموال اليتامى ظلمًا وبهتانًا بطريق الأكل؛ لأنَّ العرب كانت تتذمّم بالإكثار من الأكل، وتعدّ من البطنة المساويّة للبهيميّة، فكأنّ أكل مال اليتيم من أقبح الأفعال وأشدّها تحريمًا[3].

بلاغة إيثار فعل الأكل:

وخصَّ التّعبير بفعل الأكل؛ لأَنَّه أعمُّ وجوه الانتفاع بالمال وأهمّها،

كسوة الباطن أهمُّ أسباب جمع المال

(1) صافي، الجدول: 4/432.
(2) ابنُ عاشور، التّحرير والتّنْوير: 4/221.
(3) الدّرويش، إعراب القرآن وبيانه: 2/151.

وهو كسوة الباطن، وأهمُّ ما يجمع المال من أجله، وإلَّا فسائر الانتفاعات مثله، كأن يأخذ مال اليتيم ليشتري به دارًا أو حاجة أخرى، بل وأشدُّ منه وأعظم لو أتلف مال اليتيم بصورة أخرى كالإحراق والإغراق وغيرهما[1].

إيثار التَّعبير بالفعل المضارع ﴿يَأۡكُلُونَ﴾:

من أسرار البيان القرآنيّ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلۡيَتَٰمَىٰ﴾ إيثار التَّعبير بالفعل المضارع ﴿يَأۡكُلُونَ﴾؛ لإفادة تجدّد أكلهم لأموال اليتامى واستمرارهم ممَّا يزيد من تقبيح فعلهم وتشنيعه، فالفعل المضارع ﴿يَأۡكُلُونَ﴾ يقتضي الأكل المرّة بعد المرّة، وهذا ما يدعو إلى الاستنكار والتّعجب من فعلهم بأكل أموال اليتامى الضُّعفاء.

فضلًا عن ذلك فقد أوثر التَّعبير بالفعل المضارع؛ لاستحضار صورة الأكل والظّلم والتّعجيب منها، وذلك بإظهار صورتهم الشّنيعة للمتلقّي، فهذا الفعل "صوَّر الأكل وحقّقه"[2].

بلاغة الإطناب بالاحتراس التَّكميليّ:

من البلاغة في الآية الكريمة الإطناب بالاحتراس بكلمة ﴿ظُلۡمًا﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلۡيَتَٰمَىٰ ظُلۡمًا﴾، فهذه الكلمة جاءت لتدُلَّ على أنَّ مال اليتيم قد يُؤكَل في غير ظُلم، من ذلك ما تَقَدَّمَ ذكره في هذه السُّورة الكريمة من أَنَّ للوليِّ المُحتَاجِ أَن يأْكُل من ماله بالمعروف عند الحاجة الشَّديدة إليه ممّا يسدُّ به رمقه وحاجته وذلك في قوله تعالى: ﴿وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلۡيَأۡكُلۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ﴾ [النّساء: 6]، فجاء هذا الاحتراس تكميلًا للمعنى ودفعًا لتوهّم قد يرد بأنَّ الوعيد والتّحذير يشمل كلَّ من يأكل من أموال اليتامى، بل أخرج من يأكل بالحقِّ كالأكل بالمعروف لحاجة أو غيرها من الأسباب[3].

من قبيح صور الظّلم، وعجيبها تجدّدُ أكل أموال اليتامى، والإصرار عليها

في التَّعبير بالفعل المضارع؛ استحضارٌ لصورة الأكل ظُلمًا والتّعجيب منها

عند الحاجة الملحّة يحقّ للوليّ الأخذ من مال اليتيم استحقاقًا؛ وذلك أكلٌ في غير ظُلمٍ

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/14.
(2) البقاعيّ: نظم الدُّرر: 5/202.
(3) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 9/506.

فكلمة ﴿ظُلْمًا﴾ حدّدت طبيعة التّجاوز على مال اليتيم، وهذا مُرتَبطٌ بالمآل الحقيقيّ بما عقَّب به في نهاية الآية ﴿وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾، وهذا هو المُرتكز التّتميميّ لختام بنية الآية الكريمة، قال الآلوسيّ مُبيّنًا علّة الاحتراس: " وعلَّق الوعيد على الأكل بذلك؛ لأنَّه قد يأكل مال اليتيم على وجه الاستحقاق، كالأجرة والقرض مثلًا فلا يكون ظُلمًا، ولا الآكل ظالمًا"[1].

بلاغة أسلوب القصر بـ (إنَّما):

من بلاغة التّراكيب في الآية الكريمة القصر بـ ﴿إِنَّمَا﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾، فالمقصورُ في الآية (المأكول)، والمقصور عليه (النَّار)، فقصر الله تعالى صفة الأكل على الموصوف بها وهي النَّار، فهم لا يأكلون في بطونهم شيئًا آخر غير النّار.

في القصر بـ (إنَّما) تخويفٌ للأوصياء على أموال اليتامى وترهيبٌ من أكلها ظلمًا

وفي هذا القصر بلاغة لا تخفى تتمثَّل في المبالغة في التّرهيب من أكل مال اليتيم، والتّأكيد أنّ هذا الأكل مصيره النَّار، فهذا الأسلوب البلاغيّ جاء تخويفًا للأوصياء على أموال اليتامى وتنفيرًا لهم من هذا الفعل الشّنيع ببيان أنَّ أكل أموال اليتامى ظلمًا في الدُّنيا سينتهي بنارٍ تتأجّج في بطونهم وتمزّقهم يوم القيامة[2].

التّصريحُ بعاقبة أكل أموال اليتامى ظلمًا من تمام العناية الرّبَّانيَّة باليتامى

وفيه عناية ربَّانيَّة باليتامى، ودفاعٌ إلهيٌّ عنه ببيان نتيجة أكل أموالهم ظُلمًا، لذا جاءت ﴿إِنَّمَا﴾ لتُظهر لنا العذاب الإلهيَّ لمرتكب هذا الذّنب ظهورًا تشمئزّ منه النّفس، وترتعدُ له الفرائص، بنفي الأكل عن الأشياء جميعها، وإثباته للنّار على وجه المبالغة والتّأكيد، فهم يأكلون النّار فقط ولا شيء غير النّار، وهذا مُستفاد من كون القصر أحد مُكوّنات المغايرة؛ لأنَّ فيه إثباتاً لما يُذكَر بعد ﴿إِنَّمَا﴾

(1) الآلوسّي، روح المعاني: 2/424.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 7/26.

ونفيًا لما سواه، أي: لا يأكلون إلا ناراً ولا يأكلون غيرها[1]، وبهذا تتوضّح وظيفة القصر الّذي يُعدُّ مرجعيَّةً دلاليَّةً للنّصِّ، لما يُحقّقه من لزوم التَّرابط، وما يُقدّمه من دلالة تنشأ من خلال وجوب الارتباط بين طرفيه، على النّحو الّذي بيّناه.

علّة التعبير بـ ﴿إِنَّمَا﴾ دون (إنّ):

المجيء بـ (إنّما) لتقييد حصر أكلهم في النار

لما كانت العقوبة محقَّقة، والتّشكيك في كون هذه العقوبة هي: (أكْل النّار) كان الأصل أن يؤتى فيه بـ (إنَّ)، فيقال: إنَّهم يأكلونَ في بطونهم نارًا، لكن جيء بـ ﴿إِنَّمَا﴾ المخصّصة بنفي الشكّ في اختصاص المخبر عنه، المقتضية للحصر؛ لأنه روعي فيه كون أكلهم من حيث هو معلوم لعلمنا أنهم يأكلون شيئًا بالإطلاق وجيءَ بـ ﴿إِنَّمَا﴾ لتقييد حصر أكلهم في النار.

ادخال (إنما) للإخبار عن أنَّ العذاب بأكل النار نزل منزلة المعلوم تحقيقًا له

وذُكِرَ أنه إنْ لم يُرد بأكلهم النَّار حقيقة بل مُطلق تذميمهم على ذلك، وأنَّهم مُجازَون عليه فهو معلوم؛ لأنّا نعلم نصًّا أنَّ أكْلَ المال ظلمًا مُوْجِبٌ العقوبة مطلقًا وإنْ أريد أنّهم يعذبون بأكل النار حقيقة فهو غير معلوم لنا لكنه نزل منزلة المعلوم تحقيقًا له حتى صار كالمشاهد الذي لَا يخالف أحد فيه فيكفي في الإخبار عن وقوعه أو في شيء من غير تأكيد فلم يبق إلا الحصر فأدخلت (إنّما) دليلًا عليه[2].

بلاغة المجاز المُرسَل في التّنبيه على أداء حقوق الضّعفاء:

مبالغةٌ في التّرهيب من أكل مال اليتيم ببيان عاقبته

في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا﴾ مجازٌ مُرسَلٌ في كلمة ﴿نَارًا﴾ علاقته المُسَبَّبِيَّة، فقد أُطلق المُسَبَّب ﴿نَارًا﴾، وأراد به السَّبب (مال اليتامى)؛ لأنَّ النَّار لا تُؤكل وإنَّما يُؤكل مُسَبِّبها، والآيل إليها، وهو مال اليتيم الّذي يأخذونه ظُلمًا من اليتامى، وبهذا أوقع المُسَبِّب (النَّار) نيابةً عن السَّبب (المال الحرام) الّذي يُوصِل إلى

(1) السّامرائّي، معاني النّحو: 1/328.
(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/9.

النّار باعتباره النّتيجة الّتي سيؤول إليها مَن يأكل مال اليتامى ظُلمًا، ويجوز أن تكون العلاقة باعتبار ما سيكون في المستقبل بتسمية الشَّيء بما سيؤول إليه في المُستقبل[1].

فعبَّر بلفظ النَّار مَجازًا لأنَّهم سيؤولون إليها، ويأكلون منها يوم القيامة؛ للمبالغة في المعنى المُراد وهو التَّهديد، والوعيد، والتَّخويف، والتّرهيب، قال النَّحاس: "هذا مَجازٌ في اللَّفظ، وحقيقتُه في اللُّغة أنَّه لمَّا كان ما يأكلون يؤدّيهم إلى النَّار كانوا بمَنزِلة من يأكل النَّار، وإن كانوا يأكلون الطَّيّبات"[2]، وممَّا يُقرِّر هذا المعنى التَّنكير في لفظ ﴿نَارًا﴾ الَّتي دلَّت على فظاعتها.

براعة الإطناب بالتّتميم بذكر البطون:

في التتميم مبالغةٌ في وصْفِ إجرامهم، وبشاعة ذنبهم

من بلاغة الآية الكريمة الإطناب بالتَّتميم[3] بذكر البطون في قوله تعالى ﴿إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا﴾، مع أنَّ الأكل لا يكون إلّا في البطون؛ فهي محلُّ الأكل ومستقرُّه؛ للتَّأكيد والمبالغة في وصف إجرامهم بأكل أموال اليتامى وجشعهم نحوها، ولتَجسيدِ بشاعة الذَّنب المُقترَف بأكل هذه الأموال؛ حتَّى تتأكَّدَ عِند السَّامع بشاعةُ هذا الجُرم بمزيدِ تصويرٍ، ولأجل تأكيد التَّشنيع عليهم، خَصَّ الأكل لأنَّه أبشع الأحوال الّتي يُتناول مالُ اليتيم فيها[4].

التَّعريض بذِكر البُطون لبيان دناءتهم وسُقوط هِمَمِهم

وأفاد هذا التَّتميم بذكر البطون التَّعريض بهم، إذ "نَبَّه على الحامل على أَخْذ المال؛ وهو البطنُ الَّذي هو أَخَسُّ الأَشياء الَّتي يُنتَفَعُ بالمال لأَجلها؛ إذ مآلُ ما يُوضعُ فيه إلى الاضمِحلال والذَّهاب

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/531، والآلوسّي، روح المعاني: 2/425.
(2) معاني القرآن، النّحاس: 2/37.
(3) التَّتميم: وهو "أن يُؤتى في كلام لا يوهم خلاف المقصود بفضلة تفيد نُكتة كالمبالغة" القزوينيّ، الإيضاح، ص: 212.
(4) ابن المُنيّر، الانتصاف: 1/479.

في أَقرب زمانٍ"[1]، وبهذا عرَّض بذِكر البُطون؛ لخِسَّتهم، واتّضاع أمرهم، وسُقوطِ هِمَمِهم، والعربُ تُذَمُّ بذلك[2].

وجْهُ فَهْمِ غير المنطوق به من المنطوق:

يُلمحُ السياقُ إلى تحريمِ مال اليتيم وإحراقه وإهلاكه

من دقائق التَّعبير القرآنيّ أنَّه يُفهم من قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلۡيَتَٰمَىٰ ظُلۡمًا إِنَّمَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ نَارٗاۖ وَسَيَصۡلَوۡنَ سَعِيرٗا﴾ بدلالة سِياق الكلام ومقصُوده، تحريم مال اليتيم وإحراقه وإهلاكه، ووجوب المحافظة عليه وحسن معاملة اليتيم ورعايته؛ لأنَّ النَّار لا تُؤكل إنَّما إحراقها حتميّ[3].

وتتضمّن الآية وعيدًا لمن خالف أمر اللّه في اليتامى ممَّا يوحي بمنزلة اليتيم وقدره عند اللّه تعالى ذلك القدر الّذي توحي به الآيات الّتي تَذكرُ اليتيم ووجوب حسن معاملته.

وقُرِئت ﴿وَسَيُصۡلَوۡنَ﴾؛ بالبناء للمجهول أيضًا: ﴿وَسَيَصۡلَوۡنَ﴾[4]؛ لأنّ الفاعلَ معروفٌ، والأهمُّ الانشغال بالفعل، وفي هذا البناء مزيدٌ من التّهديد والوعيد.

سرُّ دخول السّين في فعل الصَّلي دون الأكل:

أكلُ ما لا خير فيه من الأموال التي هي بمثابة النّار آنيٌّ، وثَمَّ جزاءٌ في المستقبل

ذُكِرَ لفظ ﴿يَأۡكُلُونَ﴾ غفلًا من علامة الاستقبال، وعطف عليه ﴿وَسَيَصۡلَوۡنَ﴾ مقرونًا بالسّين التي هي علامة الاستقبال؛ ليدلَّ على أنّهم إنّما يأكلون الآن ما لا خير لهم في أكله؛ لأنّه في قبحه، وما يترتَّب عليه من العقاب كالنار، أو لأنه سببٌ لدخول النار، ثم بيَّن ما يُجزَون به في المستقبل الذي يشير إليه المجاز في أكل النار فقال: ﴿وَسَيَصۡلَوۡنَ سَعِيرٗا﴾[5].

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/531.
(2) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 9/506.
(3) الغزاليّ، المُستصفى، ص: 264.
(4) وهي قراءة ابن عامر وشعبة من العشرة، ينظر: ابن الجزري، النشر: 2/247.
(5) رضا، تفسير المنار: 4/329.

الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الخشية والخوف، والتقوى:

الخشية خوفٌ يشوبُه تعظيمٌ، وأكثر ما يكون ذلك عن علم بما يُخشَى منه[1]، وحقيقتُها طمأنينةٌ في القلب تبعث على التّوقّي[2]، أمّا الخوف فهو توقُّع مكروه أو فوت محبوب[3]، وهو ظنٌّ لا يقين معه، وضدّه الأمن، وتدور مادّته حول الذُّعر والفَزع[4]. و"تفترق الخشية عنِ الخوف، بأنَّها تكون عن يقينٍ صادقٍ بعظمة من نخشاه، كما يفترق الخشوع، بأنَّنا لا نخشع إلّا عن انفعالٍ صادقٍ بجلال من نخشع له، أمّا الخوف فيجوز أن يحدُثَ عن تسلّط بالقهر والإرهاب، كما أنَّ الخضوع قد يكون تكلُّفاً عن نفاقٍ وخوف تقيَّةٍ ومداراة"[5]، قال الرّاغب: إن قيل: لِمَ قال: ﴿وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُواْ﴾، ثمّ قال: ﴿فَلْيَتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾؟ وهل بين الخشية والتّقوى فرق؟قيل: الخشية الاحتراز من الشّيء بمقتضى العلم، ولذلك وُصف به العلماء، في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَـٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: 28]، والتّقوى جعل العبد نفسه في وقاية ممّا يخشاه، ولذلك قال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ﴾ ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾﴾ [البقرة: 21]، فالخشية مبدأ التّقوى، والتّقوى غاية الخشية، فأمر الله تعالى بمراعاة المبدأ والنّهاية، إذ لا ينفع الأوّل دون الثّاني. ولا يحصل الثّاني من دون الأوّل"[6]، وقال محمّد رشيد رضا: "فإن كان بين الخوف والخشية فرق، فالأقرب عندي أن تكون الخشية هي الخوف، في محلّ الأمل، ومن دقّق النّظر في الآيات الّتي ورد فيها حرف الخشية، يجد هذا المعنى فيها، ولعل أصل الخشية من مادّة خشت النّخلة تخشو، إذا جاء تمرها دقلًا (رديئًا)، وهي ممّا يرجى منها الجيّد"[7].

والخشية محمودةٌ في كلِّ مَواضِعها، أمّا الخوف فمذمومٌ لما يلحقه من أمارة الظّنّ وعدم الأمن، والخشية تكون من عِظَم المَخْشِيّ منه، وإن كان الخاشِي قويّاً، والخوف يكون

(1) الراغب، المفردات: (خشي).
(2) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 2/170.
(3) الجرجانّي، التّعريفات، ص: 101.
(4) الأزهري، تهذيب اللغة: (خَافَ).
(5) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 11/332، وابن كَثير، تفسير ابن كَثير: 1/42.
(6) الراغب، تفسير الرّاغب: 3/1116، وما بعدها.
(7) رضا، المنار: 4/322.

من ضعف الخائف، وإن كان المَخوف أمراً يسيراً[1]؛ والخوف تألّم النّفس من العقاب المُتوقّع، بسبب ارتكاب المَنهيّات، والتّقصير في الطّاعات، وهو يحصل لأكثر الخلق، وإن كانت مراتبه متفاوتة جدًّا، والمرتبة العليا منه لا تحصل إلّا للقليل[2].

ضِعاف وضُعَفاء:

ضِعاف جمعٌ على وزن فِعال، وضُعَفاء جمعٌ على وزن فُعلاء، وكلتا الصّيغتين جمع لضعيف على وزن فعيل، والأخير وصفُ ذَكَر عاقل بمعنى فاعل[3].

قال الأستراباذيّ: وأكثر ما يجيء (فُعَلاء) في هذا الباب - يعني فاعلاً كجاهل - وغيره، إذا دلَّ على سجيَّة مدح أو ذمّ كجهلاء وجُبناء وشُجعاء[4]، ويقع (فُعَلاء) في الأمور المعنويّة، ومنه لفظ (ضُعفاء)، فهو لا يُراد به الضّعف البدنيّ؛ وإنّما يُراد به الضَّعف الّذي ضدّ القوّة، وهو الضّعف المعنويّ، وثمَّة آية جاء وصف الذّرِّية فيها بالضُّعفاء، في قوله تعالى: ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ﴾ [البقرة: 66]، إذ قُصد بـ ﴿ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ﴾ الضّعف المعنويّ، أي: عدم القيام بالأمر[5]، أمّا (الضِعَاف) فيُراد منهم الضُّعف البدنيّ، وفسَّره فاضل السَّامرائيّ بالضَّعف المادّيّ، أي: محتاجين إلى المال فقراء، كقوله تعالى: ﴿وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا۟ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُوا۟ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا﴾ [النّساء: 9]، والمقصود بـ ﴿ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا﴾: الأولاد الصّغار[6].

(1) الزّركشّي، البرهان: 4/78.
(2) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 217.
(3) السّامرائي، معاني الأبنية، ص: 165.
(4) الأستراباذيّ، شرح الرّضي: 2/157 - 158.
(5) مصطفويّ، التّحقيق في كلمات القرآن، ص: 369.
(6) السّامرائّي، معاني الأبنية، ص: 168.

﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ لِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۚ فَإِن كُنَّ نِسَآءٗ فَوۡقَ ٱثۡنَتَيۡنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَۖ وَإِن كَانَتۡ وَٰحِدَةٗ فَلَهَا ٱلنِّصۡفُۚ وَلِأَبَوَيۡهِ لِكُلِّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٞۚ فَإِن لَّمۡ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٞ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُۚ فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخۡوَةٞ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُۚ مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِي بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍۗ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ لَا تَدۡرُونَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ لَكُمۡ نَفۡعٗاۚ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمٗا ١١﴾ [النّساء: 11]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

المناسبة بين حقوق اليتامى والضّعفاء، وبين بيان حقوق الورثة الشّرعيين

بين هذه الآية وما سبقها، مناسبةٌ ظاهرةٌ، فقد جاءت بمَنزِلة البيان والتَّفصيل لما أُجمل من حقوق الميراث، فقد فصَّلَت أحكام الميراث، وما يتعلّق به، لإبطال ما كان عليه العربُ من نظام التّوارث في الجاهليّة من منع الضّعاف من النّساء والأطفال من الميراث، فبَيَّن كيف يحصّل هذا اليتيمُ المال بالإرث، وذلك ببيان مجمل أحكام الميراث[1]، "والوصيّة الّتي تضمّنتها الآية، هي على سبيل الوجوب والإلزام، وإنّما جاءت بلفظ (الإيصاء)، لأنّها متعلّقة بأمر يقع بعد الموت، وهو الميراث، فهي وصية من الله، ينبغي نفاذها فى تركة المتوفّى، كما يجب نفاذ وصية الموصي بعد موته! "[2] ويؤكّد وجوبها على من أُمِرَ بها، لأنّها جاءت ﴿فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ﴾، كما نصّت الآية..

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿حَظِّ﴾: الحظُّ: النَّصيبُ والجدّ من الفَضل والخير،

(1) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 9/509، وابن عادل، اللُّباب في علوم الكتاب: 6/206.
(2) الخطيب، التّفسير القرآنّي للقرآن: 2/709.

والجمع: الحُظُوظ وفلان حَظيظ، ولم نَسمَع فيه فعلاً[1]، وقد يقال في جمعه أحاظٌّ، قال الشّاعر:

وَلَيْسَ الْغِنَى وَالْفَقْرُ مِنْ حِيلَةِ الْفَتَى *** وَلَكِنْ أَحَاظٍ قُسِّمَتْ وَجُدُودُ[2]

والحظُّ: النَّصيب المُقدَّر، وقد حَظِظتُ وحُظِظتُ، فأنا محظوظٌ، وقيل في جمعه: أَحاظٍ وأُحُظٌّ، قال الله تعالى: ﴿فَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ﴾ [المائدة: 14]، وقال تعالى: ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِۚ﴾[3]، وقوله تعالى: " ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ۝٣٥﴾ [فُصّلت: 35] الحظُّ هاهنا الجنَّةُ، أَي: ما يُلَقّاها إلَّا مَن وَجَبَت له الجنَّةُ، ومَن وَجَبَت له الجنَّةُ، فهو ذو حظٍّ عظيمٍ مِنَ الخير"[4]، واستعمال الحظّ دالًّا على القسم أو على النّصيب أو على الجنّة، أو غير ذلك، ممّا يتّسع له البيان القرآنيّ بجدارة، وهو عطاء الله في الميراث المقسوم، وفي الرّزق المعلوم.

2) ﴿ثُلُثًا﴾: الثُّلُث بضمَّتَينِ سهم من ثلاثة، وهو المُراد من قوله تعالى: ﴿فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُۚ﴾،، وثلاث إن أفرد، كما في قولك: (بِعت من النّوق ثلاثًا)، يكتب بالألف لاتّقاء اللّبس بثلث؛ وإن أُضيف أَو وصف كما في قولك: (حلبتُ ثلث نُوق)، و(ما حلبت النّوق الثُّلُث)، يُكتب بحذف الألف لارتفاع اللّبس[5]، وثَلَثتُ القوم أَثْلِثُهم ثَلْثاً، إذا أخذتُ ثُلُثَ أموالهم، وقد يُقال: ثَلَثتُ الرّجلَين، أي: كانا اثنَين فصرتُ لهما ثالثا، وثُلاثُ ومَثلَثُ لا تدخل عليهما اللّام ولا يُصرَفان، والمُثَلَّثُ من الأشياء: ما كان على ثلاثة أَثناء، والمثلُوثُ من الحبل: ما كان على ثلاث قُوَى، وكذلك ما يُنسَجُ ويُضفَر، والمضفور والمفتول، والمَثلُوث: ما أخذ ثُلُثُه[6].

3) ﴿ٱلسُّدُسُ﴾: من (سَدَسَ)، والسِّين والدَّال والسِّين أَصلٌ في العدد، وهو قولهم السُّدُسُ: جزءٌ مِن ستَّة أَجزاءٍ، وهو المعنى المقصود في قوله تعالى: ﴿لِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا

(1) الخليل، العين: (حظظ)، وفي تاج العروس: "وقال الأزهري: للحظ فعل عن العرب، وإن لم يعرفه اللّيث ولم يسمعه، ج في القلة: أحظ، كأشد"، ينظر: الزبيدي، تاج العروس: (حظظ).

(2) ابن دريد، جمهرة اللّغة: (حظظ).

(3) الراغب، المفردات: (حظ).

(4) ابن منظور، لسان العرب: (حظظ).

(5) الكفويّ، الكليّات، ص: 327.

(6) الخليل، العين: (ثلث).

﴿ٱلسُّدُسُ﴾ [النّساء: 11]، والسِّدسُ مِنَ الورد في أَظماء الإبل: أَن تَنقَطِعَ الإبلُ عَنِ الورد خمسةَ أَيَّام، وتَرِدَ السَّادسَ، وأَسدَسَ البعيرُ، إذا أَلقى السِّنَّ بعد الرُّباعية، وذلك في السَّنة الثَّامنة، فأَمَّا السِّتَّةُ فمِن هذا أَيضًا غيرُ أَنَّها مُدغمةٌ، كأَنَّها سِدْسَةٌ[1]. قال الخليل في باب السّين والتّاء: "ستّ: سِتَّةٌ وسِتٌّ في الأصل سِدسَةٌ وسِدسٌ، فأدغموا الدّالَ في السِّين، فالتقى عندها مخرَج التّاء فغَلَبَت عليها كما غَلَبَت الحاءُ على العين والهاء في سَعدٍ، يقولون: كنتُ مَحهُم، أي: معهم، وبَيانه أنَّ تصغير سِتّةٍ سُدَيسَة"[2].

4) ﴿وَوَرِثَهُۥٓ﴾: من (وَرِثَ)، الوِراثةُ والإرثُ: انتقال قِنْيَةٍ إليك عن غيرك من غير عَقد، ولا ما يجري مَجرَى العَقد، وسُمّي بذلك المُنتقِل عن الميّت، فيقال للقِنيةِ المَوروثةِ: مِيراثٌ وإرثٌ، وتُراثٌ أصله وُراثٌ، فقُلبَت الواو ألفًا وتاء، قال تعالى: ﴿وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ﴾ [الفجر: 19][3]، والمعنى في قوله تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٌ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُ﴾ [النّساء: 11] هو حوزُ الإنسان ما كان يملكه آخر بعد موت هذا الآخر استحقاقًا بالشَّرع، وهذا المعنى المشهور للميراث في القرآن، والوارث صفة من صفات اللّه تعالى، وهو الباقي الدّائم الَّذي يرث الخلائق، ويبقى بعد فنائهم، يقول تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا﴾ [مريم 40]، ﴿وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝٨٩﴾ [الأنبياء: 89]، أي: يبقى بعد فناء الكلّ، ويفنى ما سواه، فيرجع ما كان ملك العباد إليه وحده لا شريك له، ومجيء الفعل بالصّيغة المضعّفة ورّث فلان فلانًا، أي: أدخله في ماله مع ورثته، في حين أنَّه ليس له نصيب في المال بحسب الشّرع[4]، واللّفظ مصطلح للدّلالة على انتقال ملكيّة المال والعقّار والأعيان، من ذمّة المتوفّى إلى ذمّة ورثته، كلٌّ بحسب نصيبه بالفرض أو التّعصيب، وهو ملائم للمراد، معبّر بدقّة عن المقصود، ولا يقوم لفظ آخر مقامه.

5) ﴿فَلِأُمِّهِ﴾: من (أَمَّ)، الهمزَة والميم أَصلٌ واحدٌ، يتفرَّعُ منه أربعة أَبوابٍ؛ وهي الأصل والمَرجع والجماعة والدّين، وهذه الأَربعةُ مُتقاربةٌ[5]، وجمع الأمّ أمّهات، وهي الوالدة،

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سدس)، وابن منظور، لسان العرب: (سدس).
(2) الخليل، العين: (ست).
(3) الراغب، المفردات: (ورث).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصَّل: (ورث).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أمّ).

ومكَّة: أمّ القرى، لأَنّ الأَرض دحيت من تحتها، والأُمُّ بإزاء الأب، وهي الوالدة القريبة الّتي ولدَته، والبعيدة الّتي ولدَت من ولدَته، ولهذا قيل لحوّاء: هي أمّنا، وإن كان بيننا وبينها وسائط، ويُقال لكلّ ما كان أصلًا لوجود شيء، أو تربيته، أو إصلاحه، أو مبدئه: أمّ[1]، وذكر الفراهيديّ: أنَّ كلّ شيء ضُمّ إليه سائر ما يليه يُسمّى أمًّا، قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ فِيٓ أُمِّ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ [الزّخرف: 4] أي: اللّوح المحفوظ؛ وذلك لكون العلوم كلّها منسوبة إليه ومُتولّدة منه[2]. والأُمّ في القُرآن على خمسة أوجه: أَحدها: الأَصل، ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ فِيٓ أُمِّ ٱلۡكِتَٰبِ لَدَيۡنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ [الزّخرف: 4]، والثّاني: الوالدة، ومنه قوله تعالى: ﴿فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُۚ﴾، والثّالث: المُرضعَة، ومنه قوله تعالى: ﴿وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِيٓ أَرۡضَعۡنَكُمۡ﴾ [النِّسَاء: 23]، أَراد: حُرِّمت عليكم المُرضعات، لِأَن المُرضعَة تسمّى بالرّضاع أُمّاً، والرَّابع: مشابهة الأُم في الحُرمَة والتّعظيم، ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَزۡوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمۡۗ﴾ [الأحزاب: 6]، والخامس: المَرجع والمَصير، ومنه قوله تعالى: ﴿فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٞ ۝٩﴾ [القارعة: 9][3]، قال ابن قتيبة: " لمّا كانتِ الأمّ كافلة الولد وغاذيته، ومأواه ومربّيته، وكانتِ النّار للكافر كذلك جعلها أمّه"[4].

6) ﴿لَا تَدۡرُونَ﴾: من دَرى الشّيءَ دَرْياً، ويقال: دريت الشّيء أدريه عرفته، وأدريته غيري إذا أعلمته، الجوهري: دريته ودريت به دريا ودرية ودراية أي علمت به[5]، ويقال: قد دريت الشّيء أدريه: إذا عرفته، وأدريته غيري: إذا أعلمته، قال اللّه تبارك وتعالى: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحُطَمَةُ ۝٥﴾ [الهمزة: 05]، فتأويله: أيّ شيء أعلمك ما الحطمة؟[6]، والدِّرايَة: وهي المعرفة الحاصلة بعد تردّد مُقدّمَات[7]، وهي أخصّ من العلم، كما في التّوشيح وغيره، وقيل: إنّ (درى) يكون فيما سبقه شكّ؛ قاله أبو عليّ، (أو) علمته (بضرب من الحيلة)، ولذا لا يطلق على اللّه تعالى[8].

7) ﴿نَفۡعٗاۚ﴾: من نَفَعَ يَنفَعُ نَفعاً فهو نافع، والنّفع ضدّ الضَّرّ، وفلان ينتفع بكذا وكذا،

(1) الراغب، المفردات: (أمّ).
(2) الخليل، العين: (أمم).
(3) ابن الجوزيّ، نزهة الأعين النّواظر، ص: 140 - 141.
(4) ابن قتيبة، تأويل مشكل القرآن، ص: 70.
(5) ابن منظور، لسان العرب: 14/254.
(6) الأنباريّ، الزاهر: 2/195.
(7) الكفويّ، الكليّات، ص: 67.
(8) الزَّبيدي، تاج العروس: (دري).

قالَ: والنِّفعُ في المزادة في جانبيها، يُشَقُّ الأَديم، فيُجعَلُ في جانبيها، في كلّ جانب نِفعَةٌ[1]. والنَّفع ما يُستعان به في الوصول إلى الخيرات، وما يُتوصَّل به إلى الخير فهو خير، ويقال: نَفَعَ يَنْفَعُ نَفْعاً، وانتفع ينتفع انتفاعًا فهو مُنتفع[2]، جاء النَفعُ ضدّ الضّرّ في القرآن كلّه، وذلك في كلّ شيء بحسب سياقاته اللّغويّة[3]، وهي من الألفاظ المأنوسة، الخفيفة على اللّسان، والكثيرة الدّوران في الاستعمال الوظيفي.

8) ﴿عَلِيمًا﴾: من عَلِمَ، والعِلمُ: إدراك الشّيء بحقيقته؛ وذلك ضربان: أحدهما: إدراك ذاتِ الشّيء، والثّاني: الحكم على الشّيء بوجود شيء، هو موجود له، أو نفي شيء هو مَنفيٌّ عنه[4]، ومن هذا المعنى المحوريّ، أخذ معنى العِلم، وهو الاعتقاد الجازم الثّابت المُطابق للواقع[5]، ومن صفات الله تعالى العَلِيم والعالِمُ والعَلَّامُ[6]، وهو" العالم بالسَّرائر والخَفيّات لا يُدركها علم الخلق، وجاء على فعيل للمبالغة في وصفه بالعلم"[7]، والعليم يدُلُّ على كَثرَة المعلومات، الّتي لا نهاية لها، ثمَّ يكون العلم في ذاته من حيثُ الوضوح والكشف، على أتمّ ما يُمكن فيه، بحيثُ لا يُتصوَّر مُشاهدة وكشف أظهر منه، وللعبد حظٌّ من وصف العليم لا يكاد يخفى، ولكن يُفارق علمه علم الله تعالى، لأنّ معلومات العبد محصورة في قلبه، ومعلومات الله لا حصر لها، وأنّ علم الله ﷻ بالأشياء غير مُستَفاد من الأَشياء، بل الأَشياء مستفادة منه، وعلم العبد بها تابع للأشياء وحاصل بها[8].

9) ﴿حَكِيمًا﴾: من حكم، والحكمة: خروج نفس الإنسان إلى كمالها المُمكن لها، في حدّي العلم، والعمل، فحينئذٍ تنال الخلق الَّذي يُسمّى العدالة، وسمّيت حِكمَة الدَّابَّة بذلك؛ لأَنَّها تمنعها من التَّصرُّف بما لا يُريد راكبها، كما أَنّ الحِكمَة تمنع صاحبها من ركوب ما

(1) الأزهري، تهذيب اللغة: (نفع).
(2) السّمين، عمدة الحفَّاظ: 4/207.
(3) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصَّل: (نفع).
(4) الراغب، المفردات: (علم).
(5) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصَّل: (علم).
(6) ابن منظور، لسان العرب: (علم).
(7) البيهقيّ، الأسماء والصّفات: 1/71.
(8) الغزالّي، المَقصد الأسنى، ص: 87.

لا يصلح[1]، ومنه: الحكيم؛ لأَنَّهُ يمنَع نَفسه ويصرفها عن هواها[2]. والحَكَمُ والحكيمُ من أسماء اللّه الحسنى، وهما بمعنى الحاكِم، وهو القاضي، فهو فعيلٌ بمعنى فاعلٍ، أَو هو الَّذي يُحكِمُ الأَشياءَ ويُتْقِنُها، فهو فَعيلٌ بمعنى مُفعِلٍ، والحكيمُ ذُو الحكمة، والحكمةُ عبارةٌ عَن معرفة أَفضل الأَشياء بأَفضل العلوم، ويُقالُ لِمَن يُحسِنُ دقائقَ الصِّناعات ويُتقنُها: حكيمٌ[3]، واللّه هو الحكيم؛ "لأَنَّه يعلم أجلّ الأَشياء، بأَجلّ العلوم؛ إِذ أجلّ العلوم هو العلم الأزليّ الدَّائم الَّذي لا يتَصَوَّر زواله المطابق للمعلوم، مُطابقة لا يتَطَرَّق إِليه خَفاء ولا شُبهَة ولا يتَّصف بذلك إِلَّا علم اللّه ﷻ"[4].

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

جاءت هذه الآية الكريمة[5]، وما بعدها من الآيات لتفصِّل في أحكام الميراث، وتبيّنها على وجه الاستقصاء، وأوجبت للمرأة نصيبا في الميراث، بعد أن كانت مهضومة الحقوق، وتُعدُّ "هذه الآيةُ ركنًا من أَركان الدِّين، وعُمدَةً من عُمَدِ الأَحكام، وأمًّا من أُمَّهات الآيات؛ لاشتمالها على ما يُهِمُّ من علم الفرائض، وقد كان هذا العلم من أَجَلِّ علومِ الصَّحابة، وأَكثَرُ مُناظراتهم فيه"[6]، وخلاصة معنى الآية: أنَّ اللّه يأمركم بأن تدقّقواْ في قسمة المواريث، وهي تخصّ الأبناء والبنات، والأبوين، والإخوة الأشقّاء أو لأب أو لأمّ، وتكون القسمة بلاجور ولا حرمان لأصحاب الحقوق، بعيدا عن الأهواء، فلا يدرى من هو أقرب للموصي نفعا.

إعطاء كلّ ذي حقٍّ حقَّه، ولو كان ضعيفًا لا يقدر على شيء

(1) ابن الجوزيّ، نزهة الأعين النّواظر، ص: 261.
(2) الكفويّ، الكليّات، ص: 380.
(3) ابن منظور، لسان العرب: (حكم).
(4) الغزاليّ، المقصد الأسنى، ص: 120.
(5) وقد رُوِيَت في سبب نزول هذه الآية أَحاديثُ كثيرةٌ، منها ما رواه البخاريُّ عن جابر بن عبد الله ﷺ، قال: «مرِضتُ فعادَني رسولُ الله ﷺ وأَبو بكرٍ، وهما ماشيان، فأَتاني وقد أُغمِيَ عليَّ، فتوضَّأَ رسولُ الله ﷺ فصبَّ عليَّ وَضوءَهُ فأَفَقتُ، فقُلتُ: يا رسولَ الله، كيف أَصنعُ في مالي؟ كيف أَقضي في مالي؟ فلم يُجِبني بشيءٍ حتَّى نزلَت آيةُ المواريثِ» البخاريّ، صحيح البخاري، الحديث رقم: (6723).
(6) الشّوكانّي، فتح القدير: 1/496.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغة الإطناب بطريق التَّفصيل بعد الإجمال:

تفصيل أحكام الميراث وموارده المُجملة؛ بيانٌ مُفسِّرٌ لإبهامه

من بلاغة التَّراكيب في الآية الكريمة: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ لِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۚ فَإِن كُنَّ نِسَآءٗ فَوۡقَ ٱثۡنَتَيۡنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَۖ وَإِن كَانَتۡ وَٰحِدَةٗ فَلَهَا ٱلنِّصۡفُۚ وَلِأَبَوَيۡهِ لِكُلِّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٞۚ فَإِن لَّمۡ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٞ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُۚ فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخۡوَةٞ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُۚ مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِي بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍۗ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ لَا تَدۡرُونَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ لَكُمۡ نَفۡعٗاۚ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمٗا﴾ أنَّها جاءت على طريقة الإطناب بتفصيل أحكام الميراث وموارده بعد إجمالها في قوله تعالى: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٞ مِّمَّا تَرَكَ ٱلۡوَٰلِدَانِ وَٱلۡأَقۡرَبُونَ﴾ [النّساء: 7][1].

فاللّه تعالى قد أثبت حكم الميراث بالإجمال في الآية السّابعة، وجاء بلفظة ﴿نَصِيبٞ﴾ نكرة مبهمة تدُلُّ على الحظِّ أو المقدار عمومًا، فأُبهم المُراد التّفصيليّ لكلّ واحد من الرِّجال والنِّساء، ممَّا أدخلها في اللّفظ المجمل المُبهم الّذي لا يدُلُّ على قدرٍ معينٍ محدودٍ لعدم وجود ما يوضّحها في سياقها، فكانتِ الآيةُ مُجمَلةً لا يُعلَمُ منها مَن يَرِثُ من الرِّجال والنِّساءِ بالفَرض والتَّعصيب، ومن يَرِثُ ومن لا يَرِثُ[2]، حتَّى جاء قوله تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ﴾ شروعًا في تفصيل أحكام المواريث في هذا النَّصيب المجمل، وتفسير إبهامه، فهي جاءت بمَنزِلة البيان والتَّفصيل له[3].

حسن افتتاح آية الميراث بـ ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ﴾:

الاهتمام بأحكام الميراث، وتأكيدها

من بلاغة الآية الكريمة افتتاحها بالأسلوب الخبريّ ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ﴾، وهو "خبرٌ فيه معنى الإلزام"[4]، يتضمّن وصيّة

(1) الزّمَخْشري، الكشّاف: 1/480.
(2) الزّركشّي، البرهان: 2/192.
(3) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 9/509.
(4) النّحاس، إعراب القرآن: 1/202.

اللّه تعالى بتوزيع الميراث على الأولاد بالفعل المضارع مع ذكر الفاعل الاسم الكريم (اللّه) في قوله تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ لِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۚ فَإِن كُنَّ نِسَآءٗ فَوۡقَ ٱثۡنَتَيۡنِ﴾ دون الفعل الماضي (أوصَاكُم)، أو فعل الأمر (أوصِيكُم)، أو (يأمركم)، أو (نوصيكم) بإضمار الفاعل وغير ذلك من الصّيغ والألفاظ؛ لأنَّ التَّعبير بلفظ الإيصاء بالفعل المضارع ﴿يُوصِيكُمُ﴾ المسند إلى الاسم الكريم الفاعل الصّريح ﴿ٱللَّهُ﴾ أَبلغُ وأَدلُّ سُرعَةً على الاهتمام وطلبِ حُصولِهِ من فعل الأمر أو الماضي؛ لأنَّ الفعل المضارع يدُلُّ على التَّجدد والاستمرار.

فـــي حـسـن الافتتاح عنايةٌ بأحكام الميراث

وفي افتتاحها بهذا الأسلوب أيضًا اهتمامٌ بأحكام الميراث وما يتعلَّق بها؛ لذا صدَّر تشريعها بقوله: ﴿يُوصِيكُمُ﴾؛ لأَنَّ الوِصاية هي الأَمرُ بما فيه نفعُ المَأمور، وفيه اهتمام الآمِرِ لشدَّة صلاحه، ولذلك سُمِّي ما يَعهَدُ به الإِنسان، فيما يصنع بأَبنائه وماله وذاته بعد الموت، وصِيَّةً[1].

براعة إظهار فاعل الإيصاء:

إسناد الوصيّة إلى اسم الله الأعظم؛ إعلاءٌ لشأنها، وتربية للمهابة عند السّامعين

قوله: ﴿يُوصِيكُمُ﴾ فعل دائم جيء به مع الفاعل الاسم الكريم الصّريح فقال: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ﴾ دون (نوصيكم)؛ لأنَّه أراد تعظيم الوصيّة وتأكيد أمرها فأسندها إلى الاسم الكريم الصّريح الّذي هو أعظم الأسماء (اللّه)، فهو يربِّي المهابة عند السّامعين، فاللّه تعالى هو المُوصي، وبذكره لا يسع أحدًا من السّامعين التَّقديمُ بين يديه ولا ردّ هذه القسمة[2].

ومن هذا الافتتاح استنبط علماؤنا الكرام مِن قوله تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ﴾ أنَّ اللّه تعالى أَرحَمُ بالعباد من الوالدِ

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/551، وابنُ عاشور، التّحرير والتّنوير: 4/256.
(2) ابن عجيبة، البحر المديد: 1/471.

بولدِه، فقد أَوصَى الوالدَين بأَولادهم، فَعُلِم أَنَّه أَرحَمُ بهم منهم؛ لأنَّ الَّذي يوصيكَ بالشّيءِ هو أرحمُ به منك، وأشدُّ عنايةً به منك[1]، كما جاء في الحديث الصّحيح عن عُمرَ بن الخطَّاب رضي الله عنه: «قَدِمَ على النَّبيِّ ﷺ سَبيٌ، فإذا امرأةٌ مِنَ السَّبيّ قد تَحلُبُ ثَديَها تَسقي، إذا وَجَدَت صبيًّا في السَّبيِّ أَخَذَته، فأَلصَقَته ببطنِها وأَرضَعَته، فقال لنا النَّبيُّ ﷺ: أَترَونَ هذه طارحةً ولدها في النَّار، قُلنَا: لا، وهي تَقدرُ على أَن لا تَطرَحَه، فقال: للَّه أَرحَمُ بعباده مِن هذه بولدها»[2].

رحمة الله بعباده تفوق رحمة الوالد بولده

بلاغة تقديم الأولاد في الميراث:

من البلاغة في الآية الكريمة تقديم الأولاد على باقي الصّنوف الّتي ترث مثل: الأب والأمّ والأخ وغيرهم في قوله تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ﴾، وجاء تقديمهم في الميراث؛ لأنَّهم أحقُّ بالعطف والعون لضعفهم، أمّا الأصول فقد يكون لهم حقٌّ واجبٌ على غير المُتوفَّى، أو لهم قدرةٌ على الكسب[3]؛ ولأنَّهم أقرب الورثة إلى الميّت، وأكثر بقاءً بعد المورِّث؛ ولأنَّ تعلُّق قلب الإنسان بولده أشدُّ من تعلّقه بغيره[4].

الأولاد أقرب الورثة للميّت، وأحقُّ النّاس بالعطف لضعفهم

إيثار التَّعبير بـ (الأولاد) دون (الأبناء) وغيره:

من دقائق التَّعبير القرآنيّ إيثار لفظ (الأولاد) دون غيره كالأبناء أو الذُّرّيّة وغيرهما في قوله تعالى ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ﴾؛ لأنَّ هذا اللّفظ يُبيّن علّة الميراث؛ وهي أنَّه من ولده وصلبه، فأوثر التَّعبير به دون الأبناء؛ لأنَّ "الابن يقعُ على الابن من الرَّضاعة، وعلى ابن البنت، وعلى الابن المُتبنَّى، وليسوا من الورثة"[5].

بيان علّة الميراث مع الأولاد؛ هي أنّهم من ولده وصلبه

(1) ابن كَثير، تفسير القرآن العظيم: 2/225.
(2) البخاريّ، صحيح البخاري، الحديث رقم: (5999).
(3) الزّحيلّي، التَّفسير المُنير: 4/273.
(4) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 9/509.
(5) ابن عجيبة، البحر المديد: 1/471.

دلالة حرف الجرّ ﴿فِيٓ﴾:

التعبير بـ (في) دون غيرها من الحروف؛ تمثيلٌ لشدّة تعلّق الوصية بالأولاد

وممَّا يُقرِّر هذا المعنى ويؤكّده استعمال الحرف ﴿فِيٓ﴾ دون غيره مثل (الباء) فلم يقُل: يوصيكم اللّه بأولادكم، بل قال: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ﴾؛ فحرف الجرِّ (في) معناه الوعاء[1]، ويدُلُّ على الظّرفيّة المجازيّة الّتي "جعلتِ الوصيَّة كأنَّها مظروفةٌ في شأن الأَولاد لشدَّة تعلُّقها به كاتِّصال المَظروف بالظَّرف"[2].

بلاغة تقديمُ الخبر على المبتدأ:

في التقديم بيانٌ لمنزلة الذَّكر، وأفضليّته على الأنثى في الميراث

من بلاغة الآية الكريمة تقديم ما حقّه التَّأخير، إذ قدَّم الخبر ﴿لِلذَّكَرِ﴾ على المبتدأ ﴿مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۚ﴾ مع جعل نصيبه ضعف نصيب الأنثى، فلم يقُل: (للأُنثَيَينِ مثل حَظِّ الذَّكر)، بل عكسه.

وفي هذا التَّقديم بيان لمنزلة الذّكر، وأَدلّ على فضله مِن ذِكرِ بيان نَقص الأُنثى عنه، ولأَنَّهم كانوا يُوَرِّثُون الذُّكُورَ دُونَ الإِناث، فكفاهُم إِن ضُوعِفَ لهم نصيبُ الإِناث فلا يُحرَمنَ إِذ هُنَّ يُدلين بما يُدلُون به مِنَ الوَلَدِيَّة[3]، وبهذا كان في تقديمه "تَّنبيهٌ مِن أَوَّل الأَمر على أَنَّ الذَّكر صار له شريكٌ في الإِرث وهو الأُنثى؛ لأَنَّه لم يكن لهم به عَهدٌ مِن قَبلُ إِذ كان الذُّكورُ يأخذونَ المال المَوروثَ كُلَّه ولا حَظَّ للإِناث فيه"[4].

وجه التعبير بـ (الذَّكر) و(الأُنثى) دون (الرِّجال) و(النِّساء):

في الميراث يستوي الكبير والصغير في الاستحقاق

أوثر التَّعبير بـ (الذَّكر) و(الأُنثى) دون (الرِّجال)و(النِّساء) كما في الآية السّابعة من هذه السّورة الكريمة؛ للتَّنصيص على استواء الكبار والصِّغار من الفريقين في الاستحقاق من غَير دخلٍ

(1) الرّمانّي، معاني الحروف، ص: 81.
(2) ابنُ عاشور، التّحرير والتّنْوير: 4/257.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/533.
(4) ابنُ عاشور، التّحرير والتّنْوير: 4/257.

للبلوغ والكِبَر في ذلك أصلًا، كما هو زَعمُ أهل الجاهليَّة؛ حيث كانوا لا يُورِّثون الأطفالَ كالنِّساء[1].

إيثار التَّعبير بمقدار إرث الذّكر ﴿مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۚ﴾:

من أسرار التَّعبير القرآنيّ إيثار استعمال ﴿حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۚ﴾ لبيان مقدار الذَّكر من الميراث في قوله تعالى: ﴿لِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۚ﴾، ولم يقُل مثلًا: (للأُنثى نِصفُ حَظِّ الذَّكر)، بل جعلَ حظَّ الأنثيين هو المقدار الّذي يُقدَّر به حَظُّ الذَّكر، ولم يكُن قد تقدَّمَ تعيينُ حظٍّ للأنثيين حتّى يُقدَّر به، فعُلِمَ أنَّ المُرادَ تضعيفُ حظِّ الذَّكر من الأولاد على حظِّ الأنثى منهم.

جعلَ حظَّ الأنثيين هو المقدار الّذي يُقدَّر به حَظُّ الذَّكر

وأوثِرَ هذا التّعبيرُ لنُكتةٍ لطيفةٍ؛ وهي الإيماءُ إلى أنَّ حظَّ الأُنثى في اعتبارِ الشَّرع أهمُّ من حظِّ الذَّكر؛ إذ كانت مهضومةَ الجانب عند أهل الجاهليَّة، فصار الإسلامُ يُنادي بحظِّها في أوَّل ما يَقرَع الأسماعَ[2].

في اصطفاء هذا التّعبير إيماءٌ أنَّ حظَّ الأُنثى في اعتبارِ الشَّرع أهمُّ من حظِّ الذَّكر

فضلًا عن أنَّ التَّعبير بـ ﴿لِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۚ﴾ دون: (للأُنثى نِصفُ حظِّ الذَّكر)؛ أنَّ في الحظِّ والنَّصيبِ فضلًا وزيادة، والنِّصف نقصٌ؛ فلهذا قال: للذَّكَرِ مِثلُ حَظِّ الأُنثَيَين، ولم يقُل: للأنثى نِصفُ ما للذَّكر؛ لِمَا في كلمة (نِصف) من النَّقص، بخلاف حظِّ الأنثيين؛ فإنَّ فيه زيادةً، فهو أحسنُ تعبيرًا ممَّا لو قال: للأُنثى نِصفُ ما للذَّكر[3].

إيثار اللفظ الأمثل على ما فيه نقصٌ من أدب الخطاب القرآنيّ

قال الرَّازيّ: "لِمَ لَم يقُل: للأُنثَيَين مثلُ حظِّ الذَّكرِ، أَو للأُنثى مثلًا نصفُ حظِّ الذَّكر، والجواب من وجوهٍ: الأَوَّل: جعل نَصِيبَهُ ضِعفَ نَصيب الأُنثى، الثَّاني: أَنَّ قوله: ﴿لِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۚ﴾ يدُلُّ على

(1) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 2/149.
(2) ابنُ عاشور، التّحرير والتّنْوير: 4/257.
(3) ابن عثيمين، تفسير القرآن الكريم - سورة النِّساء: 1/64.

فضلِ الذَّكر بالمُطابقة، ونقص الأُنثى بالالتزام، ولو قال كما ذكرتم؛ لَدلَّ ذلك على نقص الأُنثى بالمُطابقة وفضل الذَّكر بالالتزام، فرُجِّح الطّريقُ الأَوَّلُ تَنبيهًا على أَنَّ السَّعي في تشهير الفضائل يجبُ أَن يكون راجحًا على السَّعي في تشهير الرَّذائل... الثَّالثُ: أَنَّهم كانوا يُوَرِّثون الذُّكور دون الإناث وهو السَّبَبُ لورود هذه الآية، فقيل: كفى للذَّكر أَن جعل نصيبَه ضِعفَ نصيب الأُنثى، فلا ينبغي له أَن يَطمَعَ في جعل الأُنثى مَحرومةً عنِ الميراث بالكُلِّيَّة"[1].

علَّة تفضيل الذَّكر في الميراث بضعف حظّ الأنثى:

في التّفضيل توازنٌ وعدلٌ في التَّكوين العائليّ، والنّظام الاجتماعيّ الإسلاميّ

جاءتِ الآية الكريمة بتفضيل حظِّ الذّكر من الميراث، وجعله ضعفَ حظّ الأنثى في قوله تعالى: ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِۚ﴾، وقد بيَّن علماؤنا سرَّ هذا التّفضيل لا لجنس الذَّكر بل لما له من أعباءٍ ووظائفَ أكثر من الأنثى نفسها، فالرَّجل مُطالبٌ بالنَّفقة، والعمل، والتَّكسُّب وتحمُّل المشاقِّ ودفع مهر زوجته، ولا تُطالب المرأة بالإنفاق على أحدٍ، سواء أكانت بنتًا، أم أختًا، أم أمًّا، أم زوجة، وإنَّما بَعد الكبر أو البلوغ تُنفق على نفسها إنْ لم تكن زوجةً.

وفُضِّل الذّكرُ على الأنثى في الميراث أيضًا؛ لأنّ الذَّكرَ في مَظِنَّةِ الحاجة أكثرُ من الأنثى، فإنّ كلَّ واحدٍ منهما في العادة يتزوَّجُ، ويكون له الولدُ، فالذّكرُ يجبُ عليه نفقةُ امرأتِه وأولادِه، والمرأةُ يُنفِقُ عليها زوجُها، ولا يلزمها نفقةُ أولادِها، وقد فضّل اللّه الذّكرَ على الأنثى في الميراث على وَفْقِ ذلك[2].

فالمسألة في هذا التَّفضيل ليست محاباةً لجنس الذَّكر على حساب جنس الأنثى، إنَّما الأمرُ أمرُ توازنٍ وعدلٍ بين أعباء الرَّجل وأعباء المرأة في التَّكوين العائليّ، وفي النّظام الاجتماعيّ الإسلاميّ،

(1) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 9/512.
(2) المَقدسّي، فتح الرّحمن: 2/92.

فالرَّجل يتزوَّج امرأة، ويكلّف إعالتها، وإعالة أبنائها منه في كلِّ حالةٍ، وهي معه، وهي مُطلّقة منه، أمّا هي فإمّا أن تقوم بنفسها فقط، وإمّا أن يقوم بها رجلٌ قبل الزَّواج وبعده سواء، وليست مُكلّفةً نفقة للزّوج ولا للأبناء في أيّ حال، فالرَّجل مُكلّفٌ على الأقلّ بضعف أعباء المرأة في التَّكوين العائليّ، وفي النِّظام الاجتماعيّ الإسلاميّ.

بلاغة الإيجاز بإضمار فاعل التَّركِ، ومتعلِّقه:

إضمارُ فاعلِ الفعل (تَرَكَ) للعلم به، وإضمارُ مُتعلّقاتِه للشّمول

من البلاغة في الآية الكريمة الإيجاز بالحذف في قوله تعالى: ﴿فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ﴾، فقد أُضمر فاعل الفعل ﴿تَرَكَ﴾ للعلم به، وإن لم يُذكر من قبل بلفظٍ صريحٍ فقد تضافر السِّياق على ذكره معنى، ممَّا جعله كالمذكور صراحة، وهو الميِّتُ الموروثُ؛ لأنَّ الآيةَ لمَّا كانت في الميراثِ عُلِم أنَّ التاركَ هو الميِّتُ الموروثُ[1].

وفي الوقت نفسه، فقد حُذفَت مُتعلّقات الفعل ﴿تَرَكَ﴾، ولم يذكر نوع التّركة الّتي تورث من مال، أو ذهب، أو غيرها، بل حذفها وأجملها في الاسم الموصول ﴿مَا﴾ الدّالّة على العموم، لتدخل التّركة كلُّها في التَّوزيع، فدلَّ الحذف على العموم في الإرث، وأنَّه يشمُل التّركة جميعها من مالٍ، وعَقارٍ، ومنقول، وحيوان، ومنافع، وحقوق؛ فكلُّ ما ترك داخلٌ في الإرث؛ ولهذا يجب التَّنبُّهُ لِمَن كان له وَرَثةٌ في غير البيت الّذي هو فيه، فإنَّ من النَّاس مَن إذا مات ميِّتُهم وورثَه آخرونَ خارجَ البيت يتمتَّع بما في البيت مِن طعام وغيره، ويَسكُن أيضًا، وهذا لا يجوزُ إلَّا بعد إذن بقيَّة الورثة، وإلَّا فإنَّه يُخصَم مِن ميراثِه، وكذلك تُضرَبُ أُجرةٌ على هؤلاء الّذين في البيت مِن حينِ موت الرَّجل[2].

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/548.
(2) ابن عثيمين، تفسير القرآن الكريم - سورة النِّساء: 1/85.

سرُّ ذِكْر فرض البنت المنفردة دون الابن:

تغيير أعراف التعامل مع النساء يتطلّبُ بيانًا، وتأكيدًا

ذكرَ فرض البنت إذا انفردت في قوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَتۡ وَٰحِدَةٗ فَلَهَا ٱلنِّصۡفُۚ﴾، ولم يذكر فرض الابن على الانفراد؛ لأن العرب كانوا يورّثون البنين دون البنات، فاحتيج إلى تبيين ذلك[1]، وتأكيده بفصله؛ للحثِّ على دفع الإبقاء على ما كانوا عليه من عادات الجاهليّة.

سرُّ تقديم الوصيَّة على الدَّين:

في تقديم الوصيّة حثٌّ على القيام بها، والتحذير من التَّهاون بشأنها

من دقائق التَّعبير القرآنيّ تقديم اللَّفظ على غير العامل في قوله تعالى: ﴿مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِي بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍۗ﴾، فقد قدَّم الوصيَّة لفظًا على الدَّين، مع أنَّ إيفاء الدُّيون المُتعلّقة بالتّركة مُقدَّمٌ شرعًا على الوصيَّة، وهو الواجب؛ لأنَّ ذمّة الميّت مرتهنة به، وأداء الدَّين أولى من فعل الخير الّذي يتقرّب به بالوصيَّة، ودليل تقديم الدَّين على الوصيَّة شرعًا ما رواه الإمام أحمد عن عليٍّ ﷺ، أنَّه قال: «إنَّكم تَقرؤون مِن بعدِ وصيَّةٍ يُوصَى بها أَو دينٍ، وإنَّ رسولَ الله ﷺ قضى بالدَّين قبل الوصيَّة»[2].

وقُدِّمت الوصيَّة على الدَّين لفظًا في الآية الكريمة ﴿مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِي بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍۗ﴾ لأسباب عدّة منها: الحثّ على تنفيذها، والاهتمام بشأنها، ومنع جحودها، أمّا الدَّين فمعلوم قوّته، قُدِّم أو لم يُقدَّم، وقد فصَّل علماؤنا من أهل التَّفسير في أسباب هذا التَّقديم اللّفظيّ للوصيَّة على الدَّين في الآية الكريمة منها:

الوصيّة ممّا يشقُّ على الورثة ولا تطيب أنفسهم بها

قدَّم الوصيَّة على الدَّين مع أنَّها متأخِّرَة في الحُكم؛ "لأنَّه لمَّا كانتِ الوصيَّةُ مُشبِهَةً للميراث في كونها مأخوذةً من غير عِوَضٍ، كان إخراجها ممّا يشقُّ على الورثة ويتعاظَمُهم ولا تطيبُ أنفُسُهم بها، فكان أداؤها مَظِنَّةً للتّفريط، بخلاف الدَّين فإنَّ نفوسَهم مطمئنَّةٌ

(1) الراغب، تفسير الراغب: 3/1125.

(2) الإمام أحمد، المسند، الحديث رقم: (1222).

إلى أدائه؛ فلذلك قُدِّمَت على الدَّين بعثًا على وجوبها، والمسارعة إلى إخراجِها مع الدَّين؛ ولذلك جِيءَ بكلمة (أو) للتَّسوية بينهما في وُجوب الإخراج على السَّوِيَّة"[1].

ومنها أنّه قدَّمها على الدَّين، اهتمامًا بها، وندبًا إليها، إذ هي أقلُّ لزومًا من الدَّين، وقدَّمها أيضاً؛ لأنَّها حظُّ المساكين والضِعاف، وأخَّر الدَّين لأنّه حقُّ غريمٍ يَطلُبه بقوَّة، وهو صاحبُ حقٍّ له فيه مقال[2].

يُنْدبُ إلى الوصيّة لكونها حظُّ المساكين والضِعاف

ومن علل تقديمها أيضًا أَنَّ سهام المواريث كما أَنَّها تُؤَخَّرُ عنِ الدَّين فكذا تُؤَخَّرُ عنِ الوصيَّة، أَلَا ترى أَنَّه إذا أَوصى بثلث ماله كانت سهامُ الورثة مُعتَبَرَةً بعد تسليم الثُّلُث إلى المُوصَّى له، فجمع اللّه تعالى بين ذِكر الدَّين وذِكر الوصيَّة، ليُعلِّمنا أَنَّ سِهامَ الميراث مُعتَبَرَةٌ بعد الوصيَّة كما هي مُعتَبَرَةٌ بعد الدَّين، بل فَرَّقَ بين الدَّين والوصيَّة من جهةٍ أُخرى، وهي أَنَّه لو هلك مِن المال شيءٌ دخل النُّقصانُ في أَنصِباء أَصحاب الوصايا وفي أَنصِباء أَصحاب الإرث، وليس كذلك الدَّينُ، فإنَّه لو هلك مِنَ المال شيءٌ استُوفِيَ الدَّينُ كلُّه مِنَ الباقي، وإن استَغرَقَه بَطَلَ حقُّ المُوصَى له وحقُّ الورثة جميعًا، فالوصيَّةُ تُشبه الإرثَ مِن وجهٍ، والدَّينَ مِن وجهٍ آخرَ، أَمَّا مُشَابهتُها بالإرث فما ذكرنا أَنَّه متى هلك مِن المال شيءٌ دخل النُّقصانُ في أَنصِباء أَصحاب الوصيَّة والإرث، وأَمَّا مُشابهتُها بالدَّين فلأَنَّ سهامَ أَهل المواريث مُعتبَرَةٌ بعد الوصيَّة كما أَنَّها مُعتبَرَةٌ بعد الدَّين[3].

الوصيَّةُ تُشبه الإرثَ مِن وجهٍ، والدَّينَ مِن وجهٍ آخرَ

نكتة الإطناب بالجملة الاعتراضيّة:

من البلاغة في الآية الكريمة الإطناب بالاعتراض في قوله تعالى: ﴿ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ لَا تَدۡرُونَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ لَكُمۡ نَفۡعٗاۚ﴾، فقد جاءت هذه

في الفصل بجملة الاعتراض تنبيهٌ على جهل المرء بعواقب الأمور

(1) الزَّمَخْشري، الكشّاف: 1/482 - 483.
(2) الثّعالبيّ، الجواهر الحسان: 2/179.
(3) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 5/207، والزُّحيلّي، التَّفسير المنير: 4/277.

الجملة مُعترِضةً بين (الإيصاء) بقوله تعالى: ﴿مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِي بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍۗ﴾، و﴿فَرِيضَةٗ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمٗا﴾، فهذه الجملة المُعترِضة جاءت للتّأكيد والتّنبيه على جهل المرء بعواقب الأمور، فبيّن تعالى أنّ هؤلاء الّذين أوصاكم الله تعالى بهم، وقدَّر أنصباءهم، هم آباؤكم وأبناؤكم، فلا تجوروا في القسمة، ولا تحرموا البعض، كما كان يفعل العرب في الجاهليّة، إذ لا تدرون بمن هو أقرب لكم نفعًا[1].

وقُرِئت ﴿يُوصِي﴾ بالبناء للمجهول ﴿يُوصَىٰ﴾[2]؛ لدعوتهم للانشغال بفعل الوصيّة بغضّ النّظر عن المُوصّي.

قال الزَّمخشريّ: "ثمّ أُكّد ذلك ورُغّب فيه بقوله ﴿ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ﴾، أي: لا تدرون من أنفع لكم من آبائكم وأبنائكم الّذين يموتون، أمّن أوصى منهم أمّن لم يُوصِ؟ يعنى أنّ من أوصى ببعض ماله فعرّضكم لثواب الآخرة بإمضاء وصيّته فهو أقرب لكم نفعًا وأحضر جدوى ممّن ترك الوصيّة، فوفّر عليكم عرض الدّنيا وجعل ثواب الآخرة أقرب وأحضر من عرض الدّنيا، ذهابًا إلى حقيقة الأمر، لأنّ عرض الدّنيا وإن كان عاجلًا قريبًا في الصّورة إلّا أنّه فانٍ فهو في الحقيقة الأبعد الأقصى، وثواب الآخرة وإن كان آجلًا إلّا أنّه باقٍ فهو في الحقيقة الأقرب الأدنى"[3].

من رحمة الله تعالى إكسابُ القلوب كلّها راحة الرِّضى والتَّسليم لأمر الله تعالى

وفي هذا الاعتراض أيضًا لفتةٌ قرآنيةٌ لتطييب النُّفوس تجاه هذه الفرائض والأحكام، فهنالك من النَّاس مَن تدفعهم عاطفتهم الأبويَّة إلى إيثار الأبناء على الآباء؛ لأنَّ الضّعف الفطريّ تجاه الأبناء أكبر، وفيهم من يُغالب هذا الضّعف بالمشاعر الأدبيَّة والأخلاقيَّة فيميل إلى إيثار الآباء، وفيهم من يحتار ويتأرجح بين الضّعف الفطريّ والشعور الأدبيّ، وقد تفرض البيئة بمنطقها العُرفيّ اتّجاهات معيّنة، فأراد الله تعالى أن يسكب في القلوب كلِّها راحة الرَّضى والتَّسليم لأمر الله تعالى.

(1) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 9/518.
(2) ابن الجزري، النشر: 2/248.
(3) الزّمَخْشري، الكشّاف: 1/484.

دلالة ﴿كَانَ﴾ على الزّمان كلّه ماضيه وحاضره ومستقبله:

في إطلاق زمن (كان) مناسبة لحتميّة الوقوع، والتحقّق

جاءت خاتمة الآية الكريمة بالإخبار عن اللّه تعالى بـ ﴿كَانَ﴾ الدّالّة على الاستمراريّة، في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾، فـ ﴿كَانَ﴾ هنا لا تدُلُّ على الماضي المنقطع بل على الاستمراريّة، وهي بمعنى (لم يزل) "والخبر عن اللّه تعالى بمثل هذه الألفاظ كالخبر بالحال والاستقبال؛ لأنَّه تعالى مُنزَّه عن الدّخول تحت الزَّمان، وقال سيبويه: القوم لمّا شاهدوا علمًا وحكمةً وفضلًا وإحسانًا تعجَّبوا فقيل لهم: إنَّ اللّه تعالى كان كذلك، أي: لم يزل موصوفًا بهذه الصّفات فلا حاجة إلى القول بزيادة ﴿كَانَ﴾ كما ذهب إليه البعض"[1].

بلاغة التَّذييل وتشابه الأطراف في فاصلة الآية الكريمة:

مَن حكمَ هو العليم الحكيم الّذي يضع الأشياء في مكانها المناسب

من بديع نسيج الآية الكريمة ختمها بما يناسبها على طريقة تشابه الأطراف، فجاءتِ الفاصلة بـ (العليم الحكيم) تذييلًا لمَا سبقها وتأكيدًا عليه وتقريره، في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾.

وفي ختم الآية الكريمة بالاسمين الكريمين (العليم) و(الحكيم) تناسبٌ بليغٌ مع مضمون الآية يُسمَّى في علم البديع بتشابه الأطراف[2]؛ لأنّه لمّا كانتِ الآية تتحدّث عن أحكام الميراث وتفريعاته، وبيان مَن يرِث ومَن لا يرِث، وإعطاء بعض الورثة أكثر من بعض وغيرها ممّا يقتضي سؤالًا عن سبب هذه القسمة ناسب أن يختم الآية بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾؛ ليُبيّن أنَّه تعالى حكم بذلك فهو العليم الحكيم الّذي يضع الأشياء في مكانها المناسب، ويعطي من المواريث كلّاً ما يستحقّه.

(1) الآلوسّي، روح المعاني: 2/437 - 438.

(2) تشابه الأطراف: هو " أن يُختَم الكلام بما يناسب أوّله في المعنى"، ينظر: القزوينيّ، الإيضاح، ص: 295.

قال البقاعيّ في بيان ختم الآية الكريمة بالعليم الحكيم: "﴿عَلِيمًا﴾، أي: بالعواقب، ﴿حَكِيمًا﴾، أي: فوضع لكم هذه الأحكام على غاية الإحكام في جلب المنافع لكم ودفع الضّرّ عنكم، ورتّبها ﷻ أحسن ترتيب"[1]، ولتأكيد هذا المعنى وتقريره جاءتِ الفاصلة بالأسلوب الخبريّ المُؤكّد بـ ﴿إِنَّ﴾، واسميّة الجملة، وغيرها، فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾.

يقول ابن القيّم: "إنَّ مُشاهدةَ حِكمة اللّه في أقضيته وأقداره الَّتي يُجْرِيها على عباده باختياراتهم وإراداتهم هي من ألطف ما تكلَّم فيه النَّاس وأدقِّه وأغمضه، وفي ذلك حِكَمٌ لا يعلمها إلَّا الحكيم العليم سبحانه"[2].

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 5/208.

(2) ابن القيّم، مفتاح دار السّعادة: 1/286.

﴿۞ وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَٰجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ ۚ فَإِن
كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ ۚ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَآ
أَوْ دَيْنٍ ۚ وَلَهُنَّ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَ
لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ ٱلثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم ۚ مِّنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَآ أَوْ
دَيْنٍ ۗ وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَٰلَةً أَوِ ٱمْرَأَةٌ وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ
وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ ۚ فَإِن كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمْ شُرَكَآءُ فِى
ٱلثُّلُثِ ۚ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَآرٍّ ۚ وَصِيَّةً مِّنَ
ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿١٢﴾﴾ [النِّسَاء: 12]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

ارتباط الآية بسابقتها في بيان أحكام المواريث المنصفة للضّعفاء

هذه الآيةُ الكريمةُ متعلِّقةٌ بما سبقَها تعلُّقًا تامًّا، فهي تَتِمَّةٌ لها في بيان أحكام الميراثِ وتفصيلِها، فلَمَّا ذكرَ تعالى في الآيةِ السّابقةِ بياناً لميراثِ الفُروعِ منَ الأصولِ، وميراثِ الأصولِ منَ الفروع، أخذَ يفصّل في ذِكرِ ميراثِ المتَّصلين بالسَّببِ لا بالنَّسَب، وهو ميراث الزّوجين، بعضهما من بعض، ليُتابعَ الحديثَ عنِ الأحكامِ التَّفصيليَّةِ للميراثِ[1]، بقصد تحقيق العدالة بين القرابات، ومراعاة حكمة التّقسيم بدقّة وعناية.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿نِصْفُ﴾: من (نصف) و"النُّون والصَّاد والفاء أَصلان صحيحان: أحدُهما يدلُّ على شَطْرِ الشَّيءِ، والأُخرى على جنسٍ منَ الخِدمةِ والاستعمالِ"[2]، والنِّصفُ من كلِّ شيءٍ شطْرُه مُساويًا

(1) أبو حيَّان، البحر المحيط: 3/544.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نصف).

له في القَدْر، ونَصَفَ النّهارُ وانْتَصَفَ: بلغ نصْفَهُ[1]، ونَصَّفْتُ الشيءَ؛ إذَا أَخذتُ نِصفَه، وتَنْصِيفُ الشَّيءِ: جعْلُه نصفين، وناصَفتُه المالَ: قاسَمتُه على النِّصف، والنَّصَفُ: الكهلُ كأَنّه بلغ نصفَ عمره، وقومٌ أَنصاف ونصفون، والأُنثى نَصَفٌ ونصَفةٌ كذلك: كأَنَّ نِصفَ عمرها ذهب[2]، والإنصافُ في المعاملةِ: العدلُ، وهو أن لا تأخذَ من صاحبِك منَ المنافع إلّا مثَل ما تُعطيه، ولا تُنيلَه منَ المضارِّ إلا مثلَ ما ينالُه، والإنصاف والانتصاف: طلبُ النَّصفَة[3]، ممَّا سبق، يتبيّن أنَّ النِّصفَ يدلُّ على أَحَدِ شِقَّي الشَّيءِ المُساوِي للشّقِّ الثّاني قدْرًا، والنّصف يعطي للمتناصفين مقاسمة متساويّة لا يزيد أحدهما على الآخر فيما يأخذ.

2) ﴿أَزْوَٰجُكُمْ﴾: الزَّوْجُ: الصِّنْفُ والنَّوْعُ من كُلّ شيْءٍ، والفَرْدُ الّذي له قَرينٌ، وكلُّ شَيْئَينِ مُقْتَرِنَيْنِ: شَكْلَيْنِ مُماثِلَين كَانَا أَو نَقيضَيْن: فهما زَوجانِ، وكلُّ واحدٍ مِنْهُمَا: زَوْجٌ، تقول: عِنْدِي زوجان منَ الحَمام تَعْنِي ذكرًا وَأُنْثَى، وزَوْجُ المرأة: بَعْلُها، وزَوْجُ الرّجل: امرأتُه، يُقال: هو زَوجُها وهي زَوجُه وهما زَوجَان، وهو الفصيحُ وَجَاء به القُرْآن، قَالَ تعالى: ﴿ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ﴾ [البقرة: 35]، ويُجمعُ على أَزْوَاجٍ[4]، ويقال: " تزوّجت امرأة، وليس من كلام العرب تزوّجت بامرأة، قال: وقول الله تعالى: ﴿وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ۝٥٤﴾ [الدخان: 54]، أي قرنّاهم بهن، من قوله ﷻ: ﴿۞ٱحْشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزْوَٰجَهُمْ﴾ [الصّافات: 22]، أي وقرناءهم، وقال الفراء: تزوجت بامرأة، لغة في أزد شنوءة[5]، والتَّزاوجُ تداخُلٌ بين شيءٍ وآخرَ، حتّى يشتبكَا ويختلطَا ويرتبطَا معًا، كالذَّكر بالأنثى، والنَّوم بالنَّائم، ولا يُقال للشَّيء: زَوْجٌ إلّا وهو مرتبطٌ بآخرَ ارتباطًا مادِّيًّا أو معنويًّا، فهي تُطلقُ على الفرد بهذا القيدِ، قال تعالى ﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍۖ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِۗ﴾ [الأنعام: 143]، فهذا يقطعُ بإطلاق الزَّوجِ على الفرد؛ لأنَّها مُقترناتٌ عُدَّتْ ثمانيةَ أزواج، لكنْ مع القيد السَّابق، ومن هنا أُطْلقَ الزَّوجُ على امرأةِ الرَّجل، كما يقال قَرينَتُه[6].

(1) الراغب، المفردات: (نصف).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (نصف).
(3) السَّمين، عمدة الحفَّاظ: (نصف).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (زَوَجَ)، والزَّبيدي، تاج العروس: (زوج).
(5) الجوهريّ، الصّحاح، تاج العروس: (زوج).
(6) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (زوج).

3) ﴿وَلَدٌ﴾: مِنْ ولَدَ يَلِد لِدْ، وِلادَةً ووِلادًا، فهو والدٌ، وهي والدٌ، ووالدةٌ، والمفعولُ مولودٌ[1]، والوَلَدُ اسمٌ يَجمعُ الصَّغيرَ والكبيرَ، والذَّكرَ والأنثى على حدٍّ سواء[2]؛ لأَنَّهُ مُشْتَقٌّ منَ التَّولُّدِ، وكذا يتناولُ الواحدَ والمتعدّدَ؛ لأَنَّه اسمُ جنسٍ لمولودٍ غيرِ صفةٍ، والولدُ دليلُ النَّجلِ والنَّسلِ، ثمّ يُقاس عليه غيرُه[3]، وجمعُ الولدِ أولادٌ، والأبُ يُقال له والدٌ، والأمُّ والدةٌ، ويقال لهما والدان[4]، والوليدُ المولودُ والصَّبيُّ والعبدُ، والوليدةُ: الأمةُ، والجمعُ الولدان والولائدُ، ووَلَدتْ تَلِد وِلاداً ووِلادة[5]، واستعمال لفظ الولد مرتبطًا بأصل الاشتقاق من الولادة، ينبي عن قرب الرّابطة، والتصاق العلاقة، ولذا أبرز نصيب الأولاد، باعتبارهم امتدادًا للوالد الّذي ورثوه.

4) ﴿ٱلرُّبُعُ﴾: من (رَبَعَ)، والرَّاءُ وَالبَاءُ وَالعَيْنُ أُصُولٌ ثَلَاثَةٌ، أَحَدُهَا: جُزْءٌ مِنْ أَرْبَعَةِ أجزاء، وَالآخَرُ: الإِقَامَةُ، وَالثَّالِثُ: الإِشَالَةُ وَالرَّفْعُ[6]، ورَبَعْتُ القَوْمَ أَرْبِعُهُمْ، أخذتُ رُبعَ أموالِهم، ورَبَعْتُ الحبلَ: جعلتُه على أربعِ قوى، وأَرْبَعَ إِبِلَهُ: أوردها رِبْعاً، والمِرْبَاع: الرُّبُعُ الّذي يأخذه الرّئيسُ منَ الغنم، من قولهم: رَبَعْتُ القومَ،، والرَّبْعَةُ: الجُونةُ، لكونها في الأصل ذاتَ أربعِ طبقاتٍ، أو لكونها ذاتَ أربعِ أرجلٍ، والرَّبَاعِيتان قيل: سُمّيتا لكون أربعِ أسنان بينهما، واليربوع: فأرة؛ لجُحرها أربعةُ أبواب، وأرضٌ مَرْبَعَةٌ: فيها يرابيعُ، كما تقول: مضبّةٌ في موضعِ الضّبّ[7]، رَبَعَ الرّئيسُ الغنيمةَ: إذا أخذ رُبْعها، قال عدي بن حاتم: ربعت في الجاهلية، وخمست في الإسلام[8]، ممّا سبق تتبيّنُ دلالةُ الرُّبُع: بأنّه جُزْءٌ مِنْ أربعة أَجْزَاءٍ، وهو المعنى المقصودُ في قوله تعالى: ﴿فَلَكُمُ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكۡنَۚ﴾ [النّساء: 12].

5) ﴿وَصِيَّةٍ﴾: جذرُها (وصي) الوَاوُ وَالصَّادُ وَالحَرْفُ المُعْتَلُّ: أَصْلٌ يَدُلُّ عَلَى وَصْلِ شَيْءٍ بِشَيْءٍ، وَوَصَيْتُ الشَّيْءَ: وَصَلْتُهُ[9]، والوَصِيَّةُ ": التّقدّمُ إلى الغَير بما يعملُ به مُقترنًا

(1) ابن منظور، لسان العرب: (ولد).
(2) الخليل، العين: (ولد).
(3) الكفوي، الكليات، ص: 945.
(4) الراغب، المفردات: (ولد).
(5) الفيروزآبادي، القاموس المحيط: (ولد).
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ربع).
(7) الراغب، المفردات: (ربع).
(8) نشوان الحِميريّ، شمس العلوم: (ربع).
(9) ابن فارس، مقاييس اللغة: (وصي).

بوعظٍ، من قولهم: أرضٌ وَاصِيَةٌ: متّصلةُ النّبات، ويقال: أَوْصَاهُ ووَصَّاهُ"[1]، و"المعنى المحوريُّ التزامُ الأشياء بعضِها بعضًا كالمحزومِ بالجريدِ، والنّباتِ الملتفِّ، وكالمتّصلِ بعضُه ببعضٍ منه، إذ هو متضامٌّ، ومن هذا الالتزامِ جاء معنى الإيجابِ في الوصيّة، فهي عهدٌ وتكليفٌ وإلزامٌ"[2]، ومن المجاز: أوصيك بتقوى الله ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبۡرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ﴾ [البقرة: 132]، ووصيتك بفلان أن تبرّه، وبأرضي أن تعمرها، واستوص بفلان خيراً[3]، و"لفظ الوصيّة مشترك بين التّذكير والاستعطاف، وبين الأمر، فيتعيّن حمله على الأمر، ويقوم مقامه كلّ لفظ فيه معنى الأمر "[4]، و"أجمعواْ على أنّ الوصيّة غير واجبة، لمن ليست له أمانة، يجب عليه الخروج منها، ولا عليه دين لا يعلم به من هو له، وليست عنده وديعة بغير إشهاد، ومن كانت ذمّته متعلّقة بهذه الأشياء فإنّ الوصيّة بها واجبة عليه"[5].

6) ﴿دَيۡنٍ﴾: أصلُ مادّةِ الدَّينِ تدلُّ على الانقياد، والذُّلِّ، والدَّينُ فيه كلّ الذلِّ للعبد، قال ابنُ فارس: "الدَّالُ وَاليَاءُ وَالنُّونُ أَصْلٌ وَاحِدٌ إِلَيْهِ يَرْجِعُ فُرُوعُهُ كُلُّهَا، وهو جِنْسٌ مِنَ الانْقِيَادِ، وَالذُّلِّ، فَالدِّينُ: الطَّاعَةُ، يُقَالُ دَانَ لَهُ يَدِينُ دِينًا، إِذَا أَصْحَبَ وَانْقَادَ وَطَاعَ، وَمِنْ هَذَا البَابِ الدَّيْنُ، يُقَالُ دَايَنْتُ فُلَانًا، إِذَا عَامَلْتَهُ دَيْنًا، إِمَّا أَخْذًا وَإِمَّا إِعْطَاءً"[6]. فالدَّينُ هو القرضُ الّذي يكون بين المخلوقين، واسْتَدانَه: طَلَبَ منه الدَّيْنَ، واسْتَدَانَه: اسْتَقْرَضَ منه، ودِنْتُه: أَعْطَيْتُه الدَّيْنَ، وتَدايَنَ القَوْمُ وادّايَنُوا: أَخَذُوا بالدَّيْن، والاسمُ الدِّيَنَةُ، وأَدانَ فلانٌ النّاسَ: أَعْطاهُمُ الدَّيْنَ وأَقْرَضَهُم، ورَجُلٌ مِدْيانٌ: يُقْرِضُ النّاسَ، ودايَنْتُ فُلانًا: إذا أَقْرضَتَه وأقْرَضَكَ[7]، وقيل ليَوْم الْقِيَامَة: يَوْم الدّين، أي هُوَ يَوْم الْحساب وَأما قَول الْقطَامِي:

رمتِ المَقاتلَ من فُؤَادك بَعْدَمَا *** كَانَت نوارُ تدينُكَ الأَدْيَانَا[8]

(1) الراغب، المفردات: (وصي).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصَّل: (وصي).
(3) الزّمَخْشري، أساس البلاغة: (وصي).
(4) الفيّوميّ، المصباح المنير: (وصي).
(5) القونويّ، أنيس الفقهاء: 1/111.
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (دين).
(7) ابن سيده، المحكم: (دين)، وابن منظور، لسان العرب: (دين).
(8) ديوان القطامي، ص: 58، وابن الأنباري، الزاهر: 1/335.

فَهَذَا من الإذلال، وَالدّين أَيْضًا: الْجَزَاء من ذَلِك قَوْلهم: (كَمَا تَدين تُدان)[1]، والدَّين اصطلاحًا: "ما ثبتَ في الذّمّة من مالِ الآخَر، سواءً كان مؤجّلًا أم لم يكن"[2]، و"هو الحقُّ الّذي لا يسقطُ إلا بالأداءِ أوِ الإبراءِ"[3]، والأمر بأدائه من التّركة، لإلزام النّاس بأداء الحقوق وضمانها.

7) ﴿ٱلثُّمُنُ﴾: من (ثَمَنَ)، الثَّاءُ وَالميمُ وَالنُّونُ أَصْلَانِ: أَحَدُهُمَا عِوَضُ مَا يُبَاعُ، وَالآخَرُ جُزْءٌ مِنْ ثَمَانِيَةٍ، فَالأَوَّلُ قَوْلُهُمْ بِعْتُ كَذَا وَأَخَذْتُ ثَمَنَهُ، وَأَمَّا الثُّمُنُ فَوَاحِدٌ مِنْ ثَمَانِيَةٍ، يُقَالُ ثَمَنْتُ القَوْمَ أَثْمُنُهُمْ إِذَا أَخَذْتَ ثُمُنَ أَمْوَالِهِمْ[4]، وثَمَنَهُم يَثْمِنُهم ثَمْنًا كانَ لَهُم ثامِنًا، والمُثَمَّنُ منَ العَرُوضِ ما بُنِي عَلَى ثَمانِيَةِ أَجْزاءٍ، والثَّمْنُ الليلةُ الثامِنَةُ من أَظْماءِ الإِبِلِ، والثَّمانِيَةُ منَ العَدَد مَعْرُوفٌ[5]، والثّمين: الثّمن، وهو جزء من الثّمانية، وقال:

فَأَلْقَيْتُ سَهْمِي بَيْنَهُمْ حِينَ أَوْخَشُواْ *** فَمَا صَارَ لِي فِي القَسْمِ إِلَّا ثَمِينُهَا.

ممّا سبق تتبيّنُ دَلالةُ الثُّمن: بأنّه جُزْءٌ مِنْ ثمانيةِ أَجْزَاءٍ، وهو المعنى المقصودُ في قولِه تعالى: ﴿فَلَهُنَّ ٱلثُّمُنُ مِمَّا تَرَكۡتُمۡ﴾ [النِّسَاء: 12].

8) ﴿كَلَٰلَةً﴾: من (كلل)، والكلالةُ في الأصل مصدرٌ بمعنى الكَلال وهو: ذهابُ القوّة منَ الإعياءِ، وكللتُ منَ المشيِ وكَلَّ كلالةً أي أعيى[6]، واختُلف في المُرادِ منَ الكلالةِ في أقسام المواريثِ، واحتملتْ عدّةَ معانٍ منها: أنَّ الكلالةَ: الذي لم يُخلِّفْ والداً ولا ولداً يرثُه، بل يرثُه ذَوُو قرابته، والعربُ تقول: لم يرثْه كلالةً، أي لم يرثْهُ عن عرضٍ بل عن قُربٍ واستحقاقٍ[7]، ومن معاني الكلالةِ بنُو العمِّ الأباعدُ[8]، "والكلالة هُوَ أَن يَمُوت الرّجل وَلَا يتْرك ولدًا ولَا والدًا، قَالَ أَبُو عُبَيْدَة هُوَ مصدر تكلله النّسَب أَي أَحَاط بِهِ، فالأمّ وَالابْن طرفان للرّجل، فَإِذا مَاتَ وَلم يخلفهما، فقد مَاتَ عَن ذهَاب طَرفَيْهِ، فَسُمّي ذهَاب

(1) الهرويّ، غريب الحديث: (دين).
(2) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 436.
(3) الجُرجاني، التَّعريفات، ص: 141.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ثمن).
(5) ابن سيده، المحكم: (ثمن).
(6) الجَّوهري، الصّحاح: (كلل).
(7) ابن منظور، لسان العرب: (كلل).
(8) ابن فارس، مقاييس اللغة: (كلل)، وابن سيده، المحكم: (كلل)، والكفوي، الكليات، ص: 769.

الطَّرفَيْنِ كَلَالَة، وَكَأَنَّهَا اسْم للمصيبة من تكلّل النّسَب مَأْخُوذ مِنْهُ"[1]، قال الأَصْفَهَانيُّ: "والكلالَةُ: اسمٌ لِما عدا الولدِ والوالدِ منَ الورثةِ، وقال ابنُ عبّاسٍ: هو اسمٌ لمَن عدا الولدِ، وكلَا القولين صحيحٌ؛ فإنّ الكَلَالَةَ مصدرٌ يجمعُ الوارثَ والموروثَ جميعًا، وتسميتُها بذلك، إمّا لأنّ النّسبَ كلَّ عنِ اللُّحوق به، أو لأنّه قد لحقَ به بالعَرضِ من أحدِ طَرفيْه"[2]، وحكمة الكلالة، نقل الإرث من عمود النّسب أصلًا وفرعًا، إلى الحواشي وهم الإخوة والأخوات.

9) ﴿مُضَآرٍّ﴾: منَ (الضّر)، و"الضّاد والرّاء ثلاثةُ أصولٍ: الأوّلُ خلافُ النّفع، والثّاني اجتماعُ الشّيء، والثّالثُ: القوّةُ"[3]، والضَّرّ المصدر، والضُّرُّ الاسمُ ضدُّ النَّفْعِ، وقيل هما لغتان كالشَّهد والشُّهد، فإذا جمعت بين الضَّرّ والنّفعِ فتحتَ الضّادَ، وإذا أفردتَ الضُّرَّ ضممتَ الضّادَ، إذا لم تجعلْه مصدراً[4]، يقال: ضَرَّه يَضُرُّه ضرًّا وضَرَّ به وأضَرَّ بِه وضارّه مُضارَّةً وضِراراً، ثم يُحملُ على هذا كلُّ ما جانسَه أو قاربَه[5]، ومعنى قوله ﴿غَيْرَ مُضَآرٍّ﴾لورثته في الوصيّة، "وذلك بأن يوصي بزيادة على الثّلث، أو يوصي بالثلث فما دونه، ونيّته مضارّة ورثته ومغاضبتهم لا وجه اللّه تعالى"[6].

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

التَّفصيلُ في بيانِ أقسامِ الميراثِ المنصفة لكلّ مستحقّ

جاءتْ هذه الآيةُ الكريمةُ، تتمّةً لما قبْلَها في تفصيلِ أحكامِ الميراثِ وتفريعاتِه، مبيِّنةً ميراثَ الزّوجين فيها؛ فأخبرَ اللّه تعالى أنَّ للأزواج النِّصفَ ممّا تركتْهُ زوجاتُهم، إن لم يكُن لهنَّ ولدٌ، وفي

(1) ابن قتيبة، غريب الحديث، ص: 769.
(2) الراغب، المفردات: (كلل).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ضرَّ).
(4) الخليل، العين: (ضرر)، وابن منظور، لسان العرب: (ضرر).
(5) ابن سيده، المحكم: (ضرر).
(6) الأبياري، الموسوعة القرآنيّة: 9/293.

حالة وجودِ الولد، فإنَّ الأزواجَ يستحقُّون الرُّبُعَ مما تركتْهُ الزّوجاتُ منَ الميراث، وللزَّوجاتِ الرُّبُعُ من تركةِ أزواجهنَّ إنْ لم يكُن لأزواجهِنَّ ولدٌ، فإنْ كان هناك ولدٌ، فلهنَّ الثُّمُنُ منَ التّركةِ، وفي الحالتين، من بعدِ الوصِيَّة وقضاءِ الدَّين، ثمَّ أوضحَ اللّه تعالى حُكمَ الكلالة، فأعطى للأخ أو الأخت من الأُمِّ السُّدُسَ، فإنْ كانوا أكثرَ فالثُّلُثُ مقاسمة، وذلك بعدَ إخراجِ الوصيَّة وقضاءِ دُيونِ المتوفَّى، والنّهي عن الإضرار بالوَرَثَةِ في الوصيّة، باعتبارها عهدًا يجبُ التزامُه، فاللّه تعالى عليمٌ بما يُصلح عبادَه في الدّارين، حليمٌ لا يُعاجلُ العاصيَ بالعقوبةِ[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

دِلَالَةُ التَّعْرِيفِ بِالْإِضَافَةِ فِي ﴿أَزْوَاجُكُمْ﴾:

عُمُومُ الْحُكْمِ فِي مِيرَاثِ الزَّوْجَاتِ

من دقائقِ التَّعبيرِ القُرآنيِّ تعريفُ (الأزواج) بالإضافةِ في قولِه تعالى: ﴿*وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ﴾، فقد جاء اللَّفظُ جمعًا مُعرَّفًا بالإضافة إلى كافِ المخاطَب ﴿أَزْوَاجُكُمْ﴾، وقد أفادَ ذلكَ العمومَ والشّمولَ، أي: كلُّ زوجةٍ عُقد عليها بعقدٍ شرعيٍّ صحيحٍ، وعليه فإنَّ الرَّجلَ يرثُ نصفَ ما تركتْه أزواجُه سواء أكانت واحدةً أم أكثر، إن لم يكن لهنَّ ولدٌ، وإن كان لهنَّ ولدٌ فله الرُّبع[2].

بَلَاغَةُ تَقْدِيمِ مُتَعَلِّقِ الْخَبَرِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَلَكُمْ نِصْفُ﴾:

وُجُوبُ إِيصَالِ الْحُقُوقِ إِلَى أَصْحَابِهَا

قُدِّم متعلّق الخبر ﴿وَلَكُمْ﴾ لإفادَةِ معنى التَّشويقِ وتَعجيلِ المنفعةِ؛ لِتَسْرِيعِ إيصَالِ الحُقُوقِ إلى أَصْحَابِهَا، وقد يُفيدُ معنى التَّخصيصِ، على معنى أنّ هذا الحكمَ خاصٌّ بِكُم لا بزوجاتِكم؛ إذْ إنَّ نصيبَهنّ هُو نِصْفُ ما كانَ لَكُمْ.

(1) ابن جرير، جامع البيان: 8/51 - 53.

(2) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 5/75 - 76.

سَبَبُ ذِكْرِ الْمُسْنَدِ إِلَيْهِ (الْفَاعِلِ) فِي قَوْلِهِ: ﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ﴾:

بَيَانُ اللهِ تَعَالَى لِلْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ بَيَانٌ لَا غُمُوضَ فِيهِ وَلَا لَبْسَ

مِنَ اللَّطائفِ التَّعبيريةِ في الآيةِ الكريمةِ أيضًا ذكرُ المُسنَد إليه الفاعلِ ﴿أَزْوَاجُكُمْ﴾ للفعل ﴿تَرَكَ﴾ في قولِه تعالى: ﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ﴾، وقد ذُكرَ؛ لأنَّه الأصلُ في الكلام ولا مُقتضى للعُدولِ عنه وحذفِه، فإنَّ ذكرَه في هذا السياق ضرورةٌ؛ لأنَّه يحملُ حُكمًا شرعيًّا لا يمكنُ تحديدُه لولا ذكرُهُ صراحةً، وبدونِه لا يستقيمُ المعنى ولا يتَّضحُ، ويكون مُعمًّى مُبهمًا، لا يستبينُ المرادُ منه[1].

نُكْتَةُ إِيجَازِ الْحَذْفِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ﴾:

الْمَالُ الْمَوْرُوثُ يَعُمُّ جَمِيعَ مَا تَرَكَهُ الْمَيِّتُ

من أسرارِ التَّراكيبِ في الآيةِ الكريمةِ الإيجازُ بالحذفِ في قولِه تعالى: ﴿*وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ﴾، فقد حذفَ مُتعلّقاتِ الفعل ﴿تَرَكَ﴾، ولم يذكرْ نوعَ التَّركة التي تُورَّث من مالٍ، أو ذهبٍ، أو غيرِهما، بل حذفَها وأجملَها في الاسمِ الموصولِ ﴿مَا﴾ الدالّةِ على العُمومِ، لتدخلَ التَّركةُ كلُّها في التَّوزيع، فدلَّ الحذفُ على العُمومِ في الإرثِ، وأنَّه يشملُ التَّركةَ جميعَها من مالٍ، وعَقارٍ، ومنقولٍ، وحيوانٍ، ومنافعَ، وحقوقٍ؛ فكلُّ ما تُرِكَ داخلٌ في الإرث؛ ولهذا يجبُ التَّنبُّهُ لِمَن كان له وَرَثةٌ في غير البيتِ الذي هو فيه، فإنَّ منَ النَّاس مَن إذا مات ميِّتُهم وورثَه آخرونَ خارجَ البيت، يتمتَّعُ بما في البيتِ مِن طعام وغيرِه، ويَسكُنُ أيضًا، وهذا لا يجوزُ إلَّا بعدَ إذْن بقيَّةِ الورثة، وإلَّا فإنَّه يُخصَمُ مِن ميراثِه، وكذلك تُضرَبُ أُجرةٌ على هؤلاء الذين في البيت مِن حينِ موتِ الرَّجُلِ[2].

إِرْثُ الزَّوْجِ الرُّبُعَ مِنْ زَوْجَتِهِ مَنُوطٌ بِوُجُودِ الْفَرْعِ الْوَارِثِ مِنْهَا مُطْلَقًا

نُكْتَةُ تَقْدِيمِ مُتَعَلِّقِ الْخَبَرِ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ﴾:

مَجِيءُ الجُملِ الشّرطيَّةِ في سياقِ بيانِ الأحكامِ الشّرعيّةِ يَكثرُ في هذه السُّورةِ؛ لأنّها تُرتِّبُ أحكامًا على حالاتٍ محدّدةٍ.

(1) القزويني، الإيضاح، ص: 40 - 41، والهاشمي، جواهر البلاغة، ص: 110.
(2) ابن عثيمين، تفسير القرآن الكريم - سورة النِّساء: 1/85.

وتقديمُ متعلّقِ الخبرِ ﴿وَلَهُنَّ﴾ على اسم كان ﴿وَلَدٌ﴾؛ لكون المبتدأ نكرةً ليس له مسوِّغٌ، فلَزِمَ تقديمُهُ اتِّباعًا للصِّناعة النَّحويَّة، وفيه دِلالة على أنَّ إرثَ الزَّوجِ الرُّبعَ منْ زوجتِهِ يتعلّقُ بوجود الفرعِ الوارثِ منها مطلقًا، ولا مانِعَ من إيرادِ نكتةٍ بلاغيَّةٍ لما لَزِمَ سُلوكُهُ عربيَّةً؛ إذْ قد تقرَّر في القواعدِ: أنَّ كونَ أمرٍ مَا لازمًا بحسب القاعدة النَّحويَّةِ لا ينافي قصدَ إفادةِ ما يَقْتَضِيهِ المقامُ[1].

دِلَالَةُ تَنْكِيرِ لَفْظِ ﴿وَلَدٌ﴾ فِي مَوَاضِعِهِ الْأَرْبَعَةِ:

أَثَرُ وَلَدِ الرَّجُلِ أَوِ الْمَرْأَةِ فِي مِيرَاثِ أَحَدِ الزَّوْجَيْنِ

منَ البلاغةِ في الآيةِ الكريمةِ أيضًا تنكيرُ لفظِ ﴿وَلَدٌ﴾ في قولِه تعالى: ﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ﴾ ﴿وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ﴾، فقد ورد لفظُ ﴿وَلَدٌ﴾ نكرةً في مواضعِهِ الأربعةِ، وقد أفادَ هذا التّنكيرُ العُمومَ؛ لوقوعِ كلٍّ واحدٍ منها في سياق الشَّرْطِ، والنَّكرةُ في سياق الشَّرط تَعُمُّ، فقولُه تعالى: ﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ﴾ يشملُ الذَّكرَ والأنثى، واحدًا كان الولدُ أو جمعًا، من أولادِ الزَّوجةِ وأولادِ بَنيها وإن نزلوا، وسواءً كانوا من هذا الزَّوج، أو من زوجٍ سابقٍ، وقولُه تعالى: ﴿وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ﴾ يشملُ الذَّكرَ والأنثى، واحدًا كان الولدُ أو جمعًا من أولادِ الميّتِ وأولادِ بَنيه وإن نزلوا، وسواءٌ أكانوا مِن أولاد هذه الزَّوجة، أم من زوجةٍ غيرِها[2].

نُكْتَةُ تَقْدِيمِ الْوَصِيَّةِ عَلَى الدَّيْنِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ﴾:

الْحَثُّ عَلَى الْقِيَامِ بِالْوَصِيَّةِ وَالتَّحْذِيرُ مِنْ تَضْيِيعِهَا أَوْ كَتْمِهَا

من دقائقِ التَّعبيرِ القُرآنيِّ تَّقديمُ اللَّفظ على غيرِ العاملِ في قولِه تعالى: ﴿مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ﴾، فقد قدَّم الوصيَّةَ لفظًا

(1) الخفاجي، عناية القاضي: 6/229.
(2) الرَّازي، مفاتيح الغيب: 9/521.

على الدَّين، مع أنَّ إيفاءَ الدَّيونِ مقدَّمٌ شَرعًا على الوصيَّة، وهو الواجبُ؛ لأنَّ ذمّةَ الميت مرتهَنةٌ به، وأداءُ الدَّين أولى من فعلِ الخيرِ الذي يُتقرّبُ به بالوصيَّة، ودليلُ تقديم الدَّين على الوصيَّة شرعًا ما جاءَ عن عَلِيٍّ رضي الله عنه أنَّه قَالَ: إِنَّكُمْ تَقْرَؤُونَ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَى بِهَا أَوْ دَيْنٍ، وَإِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَضَى بِالدَّيْنِ قَبْلَ الوَصِيَّةِ [1].

وقُدِّمت الوصيَّةُ على الدَّين لفظًا في الآية الكريمة ﴿مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِينَ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍۚ﴾ لأسبابٍ عدّةٍ؛ منها: الحثُّ على تنفيذِها، والاهتمامُ بشأنها، ومنعُ جُحودِها، أمَّا الدَّينُ فمعلومٌ قوّتُه، قُدّمَ أو لم يُقدَّم؛ لأنَّ وراءَهُ طالبًا، وقد فصَّل علماؤنا من أهل التَّفسيرِ في أسباب هذا التَّقديمِ اللّفظي للوصيَّة على الدَّين في الآية الكريمة منها:

أنَّه قدَّمَ الوصيَّةَ على الدَّين مع أنَّها متأخِّرَةٌ في الحُكم؛ "لأنَّه لَمَّا كانتِ الوصيَّةُ مُشْبِهَةً للميراثِ في كونِها مأخوذةً من غيرِ عِوَضٍ، كان إخراجُها ممّا يشقُّ على الوَرَثة ويتعاظَمُهم ولا تطيبُ أنفُسُهم بها، فكان أداؤها مَظِنَّةً للتّفريطِ، بخلاف الدَّيْنِ؛ فإنَّ نفوسَهم مطمئنَّةٌ إلى أدائِه، فلذلك قُدِّمَتْ على الدَّيْن بَعْثًا على وُجوبِها، والمسارعةِ إلى إخراجِها مع الدَّيْن؛ ولذلك جِيءَ بكلمة ﴿أَوۡ﴾ للتَّسويةِ بينهما في وُجُوبِ الإِخْرَاجِ عَلَى السَّوِيَّةِ"[2].

ومنها: أنَّه قدَّمها على الدَّين، اهتمامًا بها، وندباً إليها؛ إذْ هي أقلُّ لزومًا منَ الدَّيْن، وقدَّمها أيضًا؛ لأنَّها حظُّ المساكينَ والضِّعَافِ، وأخَّر الدَّيْنَ؛ لأنَّه حقُّ غريمٍ يَطْلُبُه بقوَّة، وهو صاحبُ حقٍّ له فيه[3].

ومن علل تقديمها أيضًا: أنَّ سِهامَ المواريثِ كما أنَّها تُؤَخَّرُ عنِ الدَّينِ فكذا تُؤَخَّرُ عن الوصيَّةِ، أَلَا ترى أنَّه إذَا أَوصى بثُلثِ ماله؛ كانَتْ سهامُ الورثةِ مُعتَبَرَةً بعد تسليم الثُّلُثِ إلى المُوصَى له، فجمع اللّه تعالى بينَ ذِكْرِ الدَّينِ وذِكْرِ الوصيَّة، ليُعلِّمَنا أنَّ سهامَ الميراث مُعتَبَرَةٌ بعد الوصيَّة كما هي مُعتَبَرَةٌ بعدَ الدَّين، بَلْ فَرَّقَ بين الدَّينِ والوصيَّة من جهةٍ أُخرَى، وهي أنَّه لو هَلَك منَ المال شَيءٌ دخلَ النُّقصَانُ في أَنْصِبَاءِ أَصحابِ الوصايَا وفي أَنصباءِ أَصحابِ الإرثِ، ولَيس كذلك الدَّينُ، فإنَّه لو هلك مِنَ المالِ شَيءٌ استُوفِيَ الدَّينُ كُلُّه مِنَ الباقي، وإن اسْتَغرَقَهُ؛ بَطَلَ حَقُّ المُوصَى له وحقُّ

(1) الإمام أحمد، المسند، الحديث رقم: (1222).
(2) الزَّمَخْشري، الكشَّاف: 1/482 - 483.
(3) الثَّعالبي، الجواهر الحسان: 2/179.

الورثة جميعًا، فالوصيَّةُ تُشبهُ الإرثَ من وجهٍ، والدَّينَ من وجهٍ آخرَ، أَمَّا مُشَابهتُها لِلْإِرْثِ فما تقدَّمَ مِنْ أَنَّه متَى هلك من المالِ شَيءٌ دخل النُّقصانُ في أَنصِبَاءِ أَصحَابِ الوصيَّةِ والإرثِ، وأَمَّا مُشَابهتُهَا بالدَّينِ؛ فلِأَنَّ سِهَامَ أَهل المواريث مُعتبَرَةٌ بعد الوَصيَّةِ كما أَنَّهَا مُعتبَرَةٌ بعد الدَّيْنِ[1].

نُكْتَةُ الْإِطْنَابِ بِالِاحْتِرَاسِ فِي قَوْلِهِ: ﴿مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِينَ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍۚ﴾:

إِثْبَاتُ حَقِّ الْمَرْأَةِ بِالْإِيصَاءِ وَالِاسْتِدَانَةِ

في قوله تعالى: ﴿وَلَكُمۡ نِصۡفُ مَا تَرَكَ أَزۡوَٰجُكُمۡ إِن لَّمۡ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٞۚ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٞ فَلَكُمُ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكۡنَۚ مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِينَ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٖۚ﴾ إطنابٌ بالاحْتِرَاس في قوله: ﴿مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِينَ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٖۚ﴾ بعد ذِكْرِ فَرِيضَة الأَزْوَاجِ؛ لِئَلَّا يَتوهَّمَ مُتوهِّمٌ أَنَّهُنَّ مَمنُوعَاتٌ مِنَ الإيصاء ومنَ الاِسْتِدَانَةِ، كما كان الحالُ في زمانِ الجَّاهليَّة من حرمانِ المرأة من حقوقِها بذلك، وأَمَّا ذِكْرُ تلك الجملةِ عَقِبَ ذِكر ميراثِ النِّساءِ من رجالهنَّ؛ فهوَ جريٌ على الأسلوبِ المتَّبَعِ في هذه الآيات، وهو أَنْ يعقبَ كلّ صِنفٍ منَ الفرائضِ بالتّنبيهِ على أَنَّه لا يُستَحَقُّ إلَّا بعد إخراجِ الوصيَّةِ وقضاءِ الدَّيْنِ[2].

دِلَالَةُ وَصْفِ الْوَصِيَّةِ بِـ ﴿يُوصِينَ بِهَآ﴾:

تَأْكِيدُ أَمْرِ الْوَصِيَّةِ، وَالتَّحَقُّقُ مِنْ نِسْبَتِهَا إِلَى الْمَيِّتِ

وُصِفَتِ الوصيّةُ بِفعْلِ الْإِيصَاءِ في قوله تعالى: ﴿مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِينَ بِهَآ﴾، وقوله: ﴿مِّنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ تُوصُونَ بِهَآ﴾، وقوله: ﴿مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصَىٰ بِهَآ﴾، وذلكَ لتأكيدِ أمرِها، والتَّحقُّقِ من نِسبتِها إلى الميِّت؛ لأنَّ الحقوقَ يجبُ التثبُّتُ فيها[3]؛ ولئلَّا يُتَوهَّمَ أنَّ المرادَ الوصيَّةُ التي كانت مفروضةً قبل تشريعِ الفرائض، وهي التي في قولِه: ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمۡ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ إِن تَرَكَ خَيۡرًا ٱلۡوَصِيَّةُ لِلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَ﴾ [البقرة: 180][4].

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 5/207، والزُّحيلي، التَّفسير المُنير: 4/277.
(2) ابنُ عاشور، التّحرير والتّنْوير: 4/263.
(3) رضا، تفسير المنار: 4/343.
(4) ابنُ عاشور، التّحرير والتّنْوير: 4/261.

سِرُّ تَنْكِيرِ ﴿وَصِيَّةٍ﴾ و﴿دَيْنٍۗ﴾ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مِّنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ تُوصُونَ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍۗ﴾:

وُجُــوبُ قَـضَـاءِ الـدُّيُـونِ وَأَدَاءِ الْوَصَايَا

أفادَ تنكيرُ ﴿وَصِيَّةٍ﴾ و﴿دَيْنٍۗ﴾ تعظيمَ شأنِهما وشأنِ العنايةِ بهما، ودلَّ أيضًا على معنى العُموم؛ ليشملَ كلَّ وصيّةٍ ودَينٍ مهما كانَا، إلَّا ما قيَّدَتْهُ السُّنَّةُ النَّبويَّةُ مِن أمر الوصيَّةِ؛ بكونِهَا لا تجاوزُ الثُّلُثَ ولا تكون لوارثٍ من الورثةِ.

ويصدُقُ ما تقدّمَ من وجوهٍ بلاغيّةٍ على قولِه تعالى: ﴿وَلَهُنَّ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكۡتُمۡ إِن لَّمۡ يَكُن لَّكُمۡ وَلَدٞۚ فَإِن كَانَ لَكُمۡ وَلَدٞ فَلَهُنَّ ٱلثُّمُنُ مِمَّا تَرَكۡتُمۚ مِّنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ تُوصُونَ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍۗ﴾.

دِلَالَةُ الْكِنَايَةِ فِي لَفْظِ ﴿كَلَٰلَةً﴾ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِن كَانَ رَجُلٞ يُورَثُ كَلَٰلَةً﴾:

حَقِيقَةُ الْكَلَالَةِ: مَنْ لَا وَلَدَ لَهُ وَلَا وَالِدَ

في قولِ اللهِ تعالى: ﴿وَإِن كَانَ رَجُلٞ يُورَثُ كَلَٰلَةً﴾ كنايةٌ؛ فقد كنَّى بالْكَلَالةِ عمَّن ماتَ وليس له ولدٌ أو والدٌ يشدُّ بِهِمَا عضُدَه؛ لأنَّ الكلَالَةَ اسمٌ لِلْكَلَالِ؛ وهو في أصلِ الوضع اللُّغَوِيِّ: التَّعبُ والإعيَاءُ[1].

والتَّعبيرُ بالجملةِ الشَّرطيّةِ لِمَا تقدّمَ مِنْ أنّهَا آياتٌ مُتعلّقةٌ بأحكامٍ لها تفصيلاتٌ وحالاتٌ مُحدّدةٌ.

واختيارُ حرف الشَّرطِ ﴿وَإِن﴾ دون (إذَا)؛ جريًا على الأصلِ في دِلالة ﴿وَإِن﴾، فإنَّها موضوعةٌ لما لا يُقْطَعُ بوقوعِه، وكونُ الميِّتِ يُورَثُ كلالةً ليس مقطوعًا بِهِ، فقد يموتُ الميِّتُ وله ولدٌ أو والدٌ أو هما معًا، بل إنَّ هذا هو الغالبُ.

والتَّعبيرُ بالفعلِ المَبني لِلْمَفْعول في ﴿يُورَثُ﴾ دُونَ ذكرِ الفاعلِ؛ لِعَدَمِ تعلُّقِ الفائدةِ بالتَّنصيصِ عليه، إذْ لا يتعلّقُ الحكمُ بِمَنْ يرثُ بل بالمِيرَاثِ نَفْسِه، وما يترتَّبُ عليه مِنْ أحكامٍ.

(1) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 2/151.

دِلَالَةُ تَنْكِيرِ ﴿رَجُلٌ﴾ و﴿ٱمْرَأَةٌ﴾ و﴿أَخٌ﴾ و﴿أُخْتٌ﴾:

الْأَصْـــــلُ فِي الْأَحْـــكَـــامِ الشَّرْعِيَّةِ أَنْ تَعُمَّ جَمِيعَ الْعِبَادِ

جاء تَنْكِيرُ ﴿رَجُلٌ﴾ و﴿ٱمْرَأَةٌ﴾ و﴿أَخٌ﴾ و﴿أُخْتٌ﴾ في قول اللّه تعالى: ﴿وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَٰلَةً أَوِ ٱمْرَأَةٌ وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ﴾ للدّلالَةِ على العموم؛ إذ هذه الألفَاظُ جاءت منكَّرةً في سياق الشَّرطِ ﴿وَإِن﴾، وذلك مؤذِنٌ بالعموم، فهي شاملةٌ لكلِّ من يُورَثُ كلالَةً من رجُلٍ أو امرأةٍ، ويشمَلُ كلَّ أخٍ أو أختٍ تَرِثُ الميِّتَ الذي لا ولدَ له ولا والدَ.

إلَّا أنَّ الإجماعَ خصَّ الأخ والأختَ في هذه الآيةِ بكونِهِمَا لأُمٍّ، أمَّا الإخوة الأشقَّاء ولأبٍ، والأخواتُ الشَّقيقاتُ ولأبٍ؛ فجاءَ ذِكْرُ ميراثِهِمَا في آية الكلالَةِ في آخرِ سورة النِّساءِ.

بَلَاغَةُ الْإِطْنَابِ بِالاحْتِرَاسِ فِي قَوْلِهِ: ﴿غَيْرَ مُضَآرٍّ﴾:

مِـــنْ شُـــرُوطِ صِحَّةِ الْوَصِيَّةِ أَنْ لَا تَتَضَمَّنَ ضَـــرَرًا يَلْـحَـقُ الْوَرَثَةَ

لَمَّا كان الميّتُ قد يُضارُّ ورثَتَه أو بعضَهم بشيءٍ يُخْرِجُه عنهم ظاهرًا أو باطنًا[1]؛ نبَّهتِ الآيةُ الكريمةُ إلى ذلك بطريق الاحْتِرَاسِ، فذكَرَ: ﴿غَيْرَ مُضَآرٍّ﴾، بعد قولِه: ﴿مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ﴾؛ احتراسًا يمنعُ أن يَكونَ في الوصيةِ قصدُ الْإِضْرَارِ بالمَالِ لِلْوَارِثِينَ، والإضرَارُ منه ما حدَّده الشَّرعُ، كأنْ يُوصِيَ بأكثرَ من ثُلث مالِه، أو أنْ يُقرَّ بكلِّ مالِه أو ببعضِه لأجنبيٍّ، أو أن يُقرَّ على نفسِه بدَينٍ لا حقيقةَ له، أو أنْ يُقرَّ بأنَّ الدَّينَ الَّذي كان له على غيرِه قد استوفاه ووصلَ إليه دفعًا لِلْمِيراثِ عنِ الورثة، وغيرِها منَ الوصيّةِ التي تُوقِعُ ضررًا بالمال وتُنقصُ حقوقَ الورثةِ على غيرِ وجهِ حقٍّ[2]، فكان في الاحتراس تنبيهٌ على هذه المسألةِ بأنَّ شَرْطَ الوصيّةِ أن لا تُلحقَ ضررًا بحقِّ الورثةِ؛ فإنّ ذلك مَنهيٌّ عنْهُ.

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 5/212.
(2) الرازي، مفاتيح الغيب: 9/524.

وقرأَ أكثرُ القُرّاء[1] ﴿يُوصِى بِهَآ﴾ بالبناءِ للمعلوم، والفاعلُ مستَترٌ تقديره هو، وقد دلَّ عل تعيينِه ما قبْلَه، وهو: الرَّجلُ، وعلى قراءة الفعل ﴿يُوصَىٰ بِهَآ﴾ بالبناءِ للمجهولِ؛ يكونُ الفاعل محذوفًا، وقد أقيمَ المفعول به مقامَهُ؛ لأنَّ الشَّأْنَ بيانُ الوصيَّةِ بقطعِ النَّظَرِ عن الموصِي.

بَلَاغَةُ الْإِظْهَارِ فِي مَوْضِعِ الْإِضْمَارِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾:

الاسْمُ الْأَحْسَنُ (اللـه) دَالٌّ عَلَى صِفَاتِ الْجَلَالِ وَالْكَمَالِ وَالْجَمَالِ

جاءَ الاسمانِ الجليلانِ في فاصلةِ الآيةِ بجُملةٍ استِئْنَافيَّةٍ، فالواو: استئنافيَّةٌ، لا حاليَّةٌ؛ لئلَّا يلزمَ مِنْهُ مخالفةُ الأصلِ في الحالِ أن تكونَ مُنتَقِلَةً، ومِنَ المتقرِّر في أسماء اللّٰه تعالى المتضمِّنةِ صفاتِهِ سبحانه أنَّها لازمةٌ له سبحانَهُ.

وفي قَوْلِه سُبْحَانه: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾ إظهارٌ في موضعِ الإضمار؛ وذلك أنَّ الاسم الأحسن (اللّٰه) تقدَّم ذكره في قوله تعالَى: ﴿وَصِيَّةً مِّنَ ٱللَّهِ﴾، فكان مقتضى الظَّاهر أن يَرِدَ النَّظمُ القرآنيُّ: (وصيةً من اللّٰه، وهو عليمٌ حليمٌ).

ونكتةُ هذَا الإظهارِ إدخالُ الرّوعةِ، وتربيةُ المهابةِ في النّفوس[2]، وزيادةُ التَّعظيم والتَّفخيم، فالاسمُ الكريمُ أكبرُ أثرًا ووقْعاً في النُّفوسِ منَ الضَّميرِ العائدِ إليهِ؛ لإشعارِهِ بما اشتمَلَ عليه من صفاتِ الجلالِ والكمالِ.

بَلَاغَةُ التَّذْيِيلِ وَتَشَابُهِ الْأَطْرَافِ فِي الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ:

الْجَمْعُ بَيْنَ التَّرْغِيبِ وَالتَّرْهِيبِ فِي سَوْقِ الْأَحْكَامِ؛ حَثًّا لِلْعِبَادِ عَلَى الِامْتِثَالِ، وَتَخْوِيفًا لَهُمْ مِنَ الْمُخَالَفَةِ

قولُ اللّٰه سبحانَهُ: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾ تذييلٌ مؤكِّدٌ لِمضمونِ مَا سبَقَهُ ومقرِّرٌ لَهُ، وهو تذييلٌ جارٍ مجرَى المثَلِ؛ لاستقلالِهِ بالإفادةِ، وعدمِ افتقارِهِ إلى ما قبلَهُ في الكشفِ عن أصلِ معنَاهُ، ولذا صُرِّح بالاسم الأحسن (اللّٰه) في صدرِ الجملةِ دونَ الاكتفاءِ بالضَّميرِ الرَّاجعِ إليهِ.

(1) ابن الجزري، النشر: 2/248.

(2) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 2/153.

وفي ختْمِ الآيةِ الكريمةِ بالاسْمَين الكريمَيْن (العليم) و(الحليم) تناسبٌ بديعٌ مع مضمون الآية؛ فهو ضربٌ مِن تشابُهِ الأطرافِ[1]؛ لأنّه لمّا كانتِ الآيةُ في سياق الكلامِ عن أحكامِ الميراثِ وتفريعاتِه، ناسبَ أن تُختمَ الآيةُ بقولِه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾، ترغيبًا وترهيبًا، لبيَانِ أنَّه تعالى حكَمَ بذلك، فهو العليمُ الذي لا يَخْفَى عليه أمرُ مَنْ جارَ أو عدَلَ بقولٍ أو فعلٍ في وصيّتِه، نيّةً أو غيرَها، وهو الحليمُ الذي مِن شأنِه أن لا يُعاجلَ الجائرَ بالعقوبةِ، فلا يَغتَرّ بإمهالِه، فإنه إذا أَخَذَهُ بعد طُولِ الأناةِ؛ لم يُفلتْ، فاحذرُوا غضبَ الحليمِ.

وفي الوصْفَيْن مع التَّهديد استجلابٌ للتَّوبةِ[2].

بَرَاعَةُ التَّرْتِيبِ فِي أَقْسَامِ الْوَرَثَةِ عَلَى طَرِيقَةِ التَّدَلِّي:

أَصْنَافُ الْوَرَثَةِ مُرَتَّبَةٌ بِحَسَبِ الْقُرْبِ وَقُوَّةِ الْمُخَالَطَةِ

منَ البلاغةِ في الآيةِ الكريمةِ: ﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَٰجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ ٱلرُّبُعُ﴾ ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾، ترتيبُ أقسامِ الورثةِ على طريقةِ التَّدلِّي منَ الأعلَى إلى الأدْنَى.

فقد أَوْرَدَ اللهُ تعالى أقسامَ الوَرَثَةِ في هذه الآياتِ على أَحسنِ التَّرتيباتِ؛ وذلك لأنَّ الوارثَ إمَّا أنْ يكونَ متَّصِلًا بالميِّت بغيرِ واسطةٍ أو بواسطةٍ، فإنِ اتَّصلَ به بغيرِ واسطةٍ فسببُ الاتِّصالِ إمَّا أن يكونَ هو النَّسبَ أو الزوجيَّةَ، فحصَل هاهنا أقسامٌ ثلاثةٌ:

أشرفُها وأعلاها الاتِّصالُ الحاصلُ ابتداءً من جِهة النَّسبِ، وذلك هو قرابةُ الْوِلَادَةِ، ويَدخُل فيها الأولادُ والآباءُ؛ فاللهُ تعالى قدَّم حُكْمَ هذا القسمِ.

وثَانِيها: الاتِّصالُ الحاصلُ ابتداءً من جِهة الزَّوجيَّةِ، وهذا

(1) تشابُهُ الأطراف: هو "أنْ يُختم الكلامُ بما يناسب أوَّلَه في المعنى"، ينظر: القزويني، الإيضاح، ص: 295.

(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 5/213.

القسمُ متأخِّرٌ في الشَّرفِ عنِ القِسم الأوَّلِ؛ لأنَّ الأوَّلَ ذاتيٌّ، وهذا الثَّاني عَرَضيٌّ، والذاتيُّ أشرفُ منَ العَرَضيِّ.

وثالثُها: الاتِّصالُ الحاصلُ بواسطةٍ، وهو المسمَّى بالكَلالةِ، وهذا القسمُ مُتأخِّرٌ عنِ القِسمينِ الأوَّلَينِ لوجوه:

أحدُها: أنَّ الأولادَ والآباءَ والأزواجَ والزَّوجاتِ لا يَعْرِض لهم السُّقوطُ بالكليَّة، وأمَّا الكَلالةُ فقد يَعرِض لهُم السُّقوطُ بالكليَّة.

وثانيها: أنَّ القِسمَينِ الأوَّلينِ يُنسَبُ كلُّ واحدٍ منهما إلى الميِّت بغير واسطةٍ، والكلالةُ تُنسَب إلى الميِّت بواسطةٍ، والثَّابتُ ابتداءً أشرفُ مِنَ الثَّابتِ بواسطةٍ.

وثالثُها: أنَّ مخالطةَ الإنسانِ للوالِدَين والأولادِ والزَّوجِ والزَّوجةِ أكثرُ وأتمُّ من مخالطتِه لِلْكَلالةِ، وكثرةُ المخالطةِ مَظِنَّةُ الأُلفةِ والشَّفقةِ، وذلك يُوجِبُ شدَّةَ الاهتمامِ بأحوالِهم.

فلهذه الأسبابِ الثَّلاثةِ وأشباهِها أخَّرَ اللّه تعالى ذِكْرَ مواريثِ الكَلالةِ عن ميراثِ القِسمَينِ الأوَّلين؛ فما أحسنَ هذا التَّرتيبَ! وما أشدَّ صِدْقَهُ على قوانينِ المَعْقُولاتِ[1].

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الزَّوج والمرأة:

ثمَّةَ فروقٌ كثيرةٌ بين لفظي (الزَّوج) و(المرأةِ) في الاستعمالِ القُرآنيِّ، والّذي يَعنِينَا في الآيةِ وسياقِها، هو مجيءُ لفظِ (الزّوج) للدّلالةِ على امرأةِ الرَّجلِ الّتي تخصُّه بعَقدِ النّكاحِ، وهي مأخوذةٌ منَ التَّزاوُجِ، وهو تداخُلٌ بين شيءٍ وآخرَ، حتّى يشتبكَا ويختلطَا ويرتبطَا معًا، ولا يُقالُ للشَّيءِ زَوْجٌ إلّا وهو مرتبطٌ بآخَرَ ارتباطًا مادِّيًّا أو معنويًّا، ومن هنا أُطْلِقَ الزَّوجُ على امرأةِ الرَّجل[2]، أمّا لفظُ (امرأة) في قولِه تعالى: ﴿وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَٰلَةً أَوِ ٱمْرَأَةٌ﴾، فقد جاءت عامّةً تشملُ كلَّ أنثى تخصُّ الرَّجلَ، سواء كانت أمَّهُ أو أختَه أو زوجتَه أو بنتَه، أو غيرَ ذلك[3]، ولمّا كان المقصودُ أوّلًا منَ الآية التَّفصيلَ في أحكامِ الميراثِ، جاء التَّعبيرُ في أوّلِ الآيةِ عن سببِ ميراثِ الرَّجل لامرأتِه، وهو قوامة الزَّوجيَّةِ ومتطلّباتها

(1) الرَّازي، مفاتيح الغيب: 9/520.
(2) الراغب، المفردات: (زوج).
(3) الخليل، العين: (أمر).

بالنّسبة للزّوج، أو رباط الزّوجيّة المقدّس بالنّسبة للزّوجة، وما يقتضيه العقد، وتتطلّبه العشرة من وفاء، فقال تعالى: ﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ﴾، ثمّ جاء بعدَها بسببٍ آخرَ للميراث غيرِ الزَّوجيّة، وهو عامٌّ فعبَّر بلفظِ ﴿ٱمْرَأَةٌ﴾، فقال: ﴿وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَٰلَةً أَوِ ٱمْرَأَةٌ﴾.

القَرض والدَّين:

القرضُ في اللُّغة القطعُ، ومنه المِقراضُ، وسُمِّي ما يقطعُ الإنسانُ من مالِهِ ليُجازَى عليه قرضاً[1]، أمَّا الدَّينُ فهو القرضُ الّذي يكون بين المخلوقين، يقال: أدنتُ الرّجلَ إذا بعتُه بدَيْنٍ، ودان هو أخذ الدَّينَ[2]، وقيل: دِنته أقرضتُهُ، وأدَنتُه استقرضتُ منه[3]، والفرق بين الدَّين والقرض، أنَّ الدَّين: ما له أجلٌ، والقرض ما لا أجلَ له، وقال أبو هلال: "القَرْضُ أكثرُ ما يُستعملُ في العين والوَرِقِ، وهو أن تأخُذ من مال الرَّجل درهمًا لِتردَّ عليه بدلَه درهمًا، فيبقى دَيْنًا عليك إلى أن تردَّه، فكلّ قرضٍ دينٌ، وليس كلُّ دَيْنٍ قرضًا، وذلك أنَّ أثمانَ ما يُشترَى بالنَّسإ دُيُون وليستْ بقُروضٍ، فالقرضُ يكونُ من جنسِ ما اقْتُرِضَ، وليس كذلك الدَّينُ، ويجوزُ أن يُفرّقَ بينهما فنقول: قولُنا يُداينُهُ يُفيدُ أنّه يُعطيه ذلك، ليَأخُذ منه بدلَه، ولهذا يقال قضيتُ قرضَه، وأدَّيتُ دَينَه وواجبَه، ومن أجل ذلك أَيضًا يقال: أدّيت صلاةَ الوقتِ وقضيتُ ما نسيتُ منَ الصَّلاة، بمنزلة القَرْضِ"[4].

(1) ابن منظور، لسان العرب: (قرض).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (دَيَنَ).
(3) الراغب، المفردات: (قرض).
(4) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 313.

﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِۚ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٣﴾ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٤﴾﴾ [النساء: 13 - 14]

❁ مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِمَا قَبْلَهُما:

دعوة للحفاظ على حدود المواريث، تثمينًا للطّاعة، وتشنيعًا بالمعصية

لَمَّا بيَّن اللّه تعالى أقسامَ المواريثِ في الآياتِ السَّابقةِ، ذَكَر الوعدَ والوعيدَ ترغيبًا في الطَّاعةِ وترهيبًا عنِ المعصيةِ[1]؛ بالتزام تِلك الفرائض والمقادير التّي جعَلها اللّه تعالى للوَرَثةِ، هي حدودُ اللّهِ تعالى التي شرَعَها لعبادِه؛ ومن راعى تلك الحدودَ فهو في طاعة اللّه، ومن يعْصِهِ فهو خالدٌ في النّار[2]، وفي ختمِ آياتِ المواريثِ بهاتين الآيتين إشارةٌ إلى عِظَم أمرِ الميراثِ، ولزومِ الاحتياطِ والتَّحرِّي، وعدمِ الظُّلمِ فيه[3].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿حُدُودُ﴾: جمعُ الحدِّ منَ الفعل حَدَّ، والحاء والدَّال أصلان: الأوَّلُ المنعُ، فالحدُّ: الحاجزُ بين الشَّيئين الّذي يمنعُ اختلاطَ أحدِهما بالآخرِ، وَفُلَانٌ مَحْدُودٌ، إِذَا كَانَ مَمْنُوعًا[4]، والثّاني: فهو طرفُ الشَّيء ومنتهاه؛ لأنَّه يردُّه ويمنعُه عنِ التَّمادي، وَمِنْه حُدُود الأَرَضين، وحدود الحرم[5].

وحدودُ اللّه: هي الأَشْيَاءُ الَّتِي بَيّن تَحْرِيمهَا وتحليلَها، وَأمرَ أَلّا

(1) الرَّازي، مفاتيح الغيب: 9/525.
(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 5/213.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 2/443.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حدَّ)، وابن منظور، لسان العرب: (حدَّ).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حدَّ).

يُتعدّى شَيْءٌ مِنْهَا، فيُجاوَزَ إِلَى غير مَا أَمرَ فِيهَا أَو نهى عَنهُ مِنْهَا، وسُمّيت حدوداً؛ لأنَّها موانعُ منَ ارتكاب أسبابِها، فهي تَحُدُّ أي: تمنعُ مِن إتْيَان مَا جُعلتْ عقوباتٍ فِيهَا[1]، فالمعنى المِحوريُّ للحدِّ إيقافُ الامتدادِ والتَّخطّي للشّيءِ، أي إنهاؤُه أو منعُه: كحدِّ السّكّينِ والسَّيفِ في ذاتِهما برقّتِهما إلى الانقطاع أو بعملِهما، وهو قطعُ الامتداد، وكحدودِ الأرضين وحدودِ الحرم، ومنه حدودُ اللّه؛ لأنَّها نهاياتٌ نهى اللّه تعالى عن تعدِّيها[2].

2) ﴿وَرَسُولَهُۥ﴾: من (رَسَلَ)، والرَّسُول: بِمَعْنَى الرِّسالة[3]، ومنه قول كثيّر:

لَقَدْ كَذَبَ الوَاشُونَ مَا بُحْتُ عِنْدَهُمْ *** بِسِرٍّ وَلَا أَرْسَلْتُهُمْ بِرَسُولِ

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ١٦﴾ [الشّعراء: 16]، ولم يقل: (رُسُلُ ربّ العَالَمِينَ)، لأنّ فَعُولًا وفَعِيلًا، يستوي فيها المذكّر والمؤنّث[4]، والإرْسَال: البعثُ والتَّسليطُ والتَّوجيهُ، جاء في القاموس: "الإرسالُ: التَّسْليطُ، والإطْلاقُ، والإهْمالُ، والتَّوْجِيهُ، والاسمُ: الرِّسالَةُ، والرَّسولُ أيضًا: المُرْسَلُ"[5]، وكأنَّ الرّسول يُسلَّط ويوجَّه إلى من أُرْسلَ إليه لأداء مهمّته وعملِه، والرّسولُ بمعنى الرِّسالةِ، وهو الّذي يتابعُ أخبارَ الّذي بعثَه، وعلى ذلك فالرُّسُلُ إنّما سُمُّواْ بذلك؛ لأنّ اللّه أرسلَهم وبعَثَهم بالرِّسالاتِ إلى أُمَمِهم، وكلّفَهم بحمْلِها وتبليغِها، وَالرَّسُولُ الَّذِي يُتَابع أَخْبَار الَّذِي بَعثَه؛ أُخِذ من قَوْلهم: جَاءَتِ الإبلُ رسلًا، أَي: مُتتابعةً، وسُمِّي الرَّسولُ رَسُولًا؛ لأَنه ذُو رَسُولٍ أَي ذُو رِسالةٍ، والرَّسولُ: اسْمٌ مِنْ أَرْسَلْتُ وَكَذَلِكَ الرِّسَالة، وَيُقَالُ: جَاءَتِ الإبل أَرْسَالًا إذا جَاءَ مِنْهَا رَسَلٌ بَعْدَ رَسَل، وَجمعُ الرَّسول الرُّسُلُ[6].

3) ﴿جَنَّٰتٍ﴾: جمعُ جنَّة منَ الفعل جَنَّ يَجُنُّ، وتدلُّ مادّتُه على الخفاءِ والتَّستُّرِ، قال ابنُ فارسٍ: "الجيمُ والنّونُ أصلٌ واحدٌ، وهو السَّتْر والتَسَتُّر"[7]، فالاجتِنانُ في اللُّغة عموماً بمعنى الاسْتِتار؛ لتكاثُفِ الأشجارِ وتَظليلِها بالتفافِ أغصانِها، إذ يقال: جَنَّ

(1) الأزهري، تهذيب اللغة: (حدَّ).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (حدد).
(3) الخليل، العين: (رسل).
(4) الجوهريّ، الصّحاح: (رسل).
(5) الفيروزآبادي، القاموس المحيط: (الرَّسَلُ).
(6) الأزهري، تهذيب اللغة: (رسل)، وابن منظور، لسان العرب: (رسل).
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (جنّ).

النَّبتُ جُنُوناً، أي طالَ والتفَّ، وقد تأزَّرَ بعضُه فوقَ بعضٍ، ومنه تسميةُ العربِ للنَّخيل المُرتفعِ طُولاً: جَنَّةٌ ومَجنُونٌ[1]، و(الجَنَّةُ) بفتح الجيم، تدلُّ على البستانِ أو الحديقةِ المحفوفةِ بالأشجارِ والمياهِ الجاريةِ بشرطِ أن يَستُرَ بأوراق أشجارِه الأرضَ، وتُجمعُ على (جَنَّات)[2]، والجَّنة في الآخرة تدلُّ على دارِ النَّعيمِ الأبديِّ يومَ القيامة، وهي ما وعدَ اللّه تعالى به عبادَه المؤمنين المُتّقين، وفي سبب تَسميتِها بذلك قولان ذكرهما الرَّاغب مُعلِّلاً التَّسميةَ بأنَّها: "إمّا تشبيهًا بالجنّةِ في الأرض، وإن كان بينهما بَوْنٌ، وإمّا لستْرِه نِعمَها عنّا المُشارَ إليها بقولِه تعالى: ﴿فَلَا تَعۡلَمُ نَفۡسٞ مَّآ أُخۡفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعۡيُنٖ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٧﴾ [السَّجدة: 17]"[3].

4) ﴿ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾: جمعُ نهر، منَ الفعل نَهَرَ، والنُّونُ وَالهَاءُ وَالرَّاءُ أَصْلٌ صَحِيحٌ يَدُلُّ عَلَى تَفَتُّحِ شَيْءٍ أَوْ فَتْحِهِ، وَأَنْهَرْتُ الدَّمَ: فَتَحْتُهُ وَأَرْسَلْتُهُ، وَسُمِّيَ النَّهْرَ لِأَنَّهُ يَنْهَرُ الأَرْضَ أَيْ يَشُقُّهَا، وَجَمْعُ النَّهْرِ أَنْهَارٌ وَنُهُرٌ ونُهورٌ، ومجرَى الماء، وَأَنْهَرَ المَاءُ: جَرَى، وَنَهْرٌ نَهِرٌ: كَثِيرُ المَاءِ[4]. قال أبو ذُؤَيبٍ الهُذَلي[5]:

أَقَامَتْ بِهِ فَابْتَنَتْ خَيْمَةً *** عَلَى قَصَبٍ وَفُرَاتٍ نَهِرْ

والمَنهرُ: موضعُ النَّهر يحتفرُه الماءُ ليجريَ فيه[6]، وَاسْتَنْهَرَ النَّهرُ: أَخذ لمَجرَاهُ مَوضعًا مَكينًا[7]، والمعنى المحوريُّ يدلُّ على جَرَيانِ مائعٍ أو رقيقٍ نحوَه، باتِّساعٍ واسْترسالٍ مِن شَقٍّ يشقُّه ويَحتفِرُه، كماءِ النَّهرِ في مَجراه[8]، والمعنى أنّ الجزاء: "جنّات تجري من تحتها الأنهار، فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر"[9].

5) ﴿وَيَتَعَدَّ﴾: فعلٌ مضارعٌ يدلُّ على التَّجاوُزِ والتَّعدِّي، فـ"العَيْنُ وَالدَّالُ وَالحَرْفُ المُعْتَلُّ أَصْلٌ وَاحِدٌ صَحِيحٌ، يَرْجِعُ إِلَيْهِ الفُرُوعُ كُلُّهَا، وهو يَدُلُّ على تَجَاوُزٍ فِي الشَّيْءِ وَتَقَدُّمٍ لِمَا

(1) ابن منظور، لسان العرب: (جنن).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (جنن).
(3) الراغب، المفردات: (جنن).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نهر).
(5) مجموعة من المؤلفين، ديوان الهذليين: 1/146.
(6) الخليل، العين: (نهر).
(7) الخليل، العين: (نهر)، وابن منظور، لسان العرب: (نهر).
(8) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصِّل: (نهر).
(9) الخطيب، التّفسير القرآني للقرآن: 2/715.

يَنْبَغِي أَنْ يُقْتَصَرَ عَلَيْهِ"[1]، واستُعملتِ المادّةُ بدَلالةِ الظُّلم والتَّعدِّي والتَّجاوُزِ على حقوقِ الآخَرين[2]، و"العَدَاء بِالفَتْحِ والمَدِّ: الظُّلْمُ وتجَاوُزُ الحَدِّ"[3]، واعتدى فلان عنِ الحقّ واعتدى فوقَ الحقّ، كأنّ معناه جازَ عنِ الحقّ إلى الظُّلْم[4]، وأرجع الرّاغبُ أصلَ المادّة إلى (التَّجاوُزِ) مُستجمِعاً فيه كلَّ دلالاتِها، فيقولُ: "العَدُوُّ: التّجاوُز ومنافاةُ الالتئام، فتارةً يُعتبرُ بالقلب، فيقال له: العَدَاوَةُ والمُعَادَاةُ، وتارةً بالمَشي، فيقال له: العَدْوُ، وتارةً في الإخلال بالعدالةِ في المعاملةِ، فيقال له: العُدْوَانُ والعَدْوُ"[5]، ومعنى لفظ ﴿وَيَتَعَدَّ﴾ في السّياق، أنّ من يخالف حكم اللّه في الميراث، فقد تعدّى ما رسمه اللّه من حدود في ماله الّذي آتاه لعباده، ولا ريب أنّ جزاءه النّار، وبئس القرار.

6) ﴿عَذَابٌ﴾: من عذب: وهو أصلٌ صحيحٌ، "العين والذال والباء أصلٌ صحيحٌ، لكنَّ كلماتِه لا تكادُ تُقاسُ، ولا يمكنُ جمعُها إلى شيءٍ واحدٍ"[6]، لذا اختلفَ أهلُ اللّغةِ في أصلِ معناهُ[7]، قال المُناوي: "العذابُ: كلُّ مُؤلِم للنَّفسِ إذا كان جزاءً على سُوءٍ، واشتقاقُه من عذبَ الشّيءُ إذا استمرَّ وجرَى، فالألمُ يَستمرُّ في النَّفس، ويَتغلغلُ فيها، وقيل: العذابُ إيلامٌ لا إخبارَ فيه، وقيل: أصلُه عندَ العربِ الضَّربُ ثمّ استُعملَ في عقوبةٍ مُؤلمةٍ، واستُعيرَ للأمورِ الشّاقّةِ فقيل: السَّفرُ قطعةٌ منَ العذاب"[8]، والعذابُ "كلُّ ما شقَّ على النَّفسِ احتمالُه وآلَمَها"[9]، وسُمِّي العذابُ عذاباً؛ لأنّ صاحبَه يُحبسُ ويُمنعُ عنه جميعُ ما يلائمُ الجسدَ منَ الخير، وتُزال عنه حلاوةُ العَيْشِ وتَنهالُ عليه أضدادُها، ثمّ أُطلقَ اللَّفظُ بعدَ هذا على كلِّ شيءٍ يُؤلمُ الإنسانَ مثلَ الضَّربِ بالسَّوْطِ والحَرقِ بالنّارِ والقطعِ بالحديدِ[10]، وهو لفظ فصيح مألوف في الاستعمال، ويدلّ على المشهد بقوّة وجلاء.

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عدو).
(2) الجَوهريّ، الصّحاح: (عدا).
(3) ابن الأثير، النّهاية: 3/193.
(4) ابن منظور، لسان العرب: (عدا).
(5) الراغب، المفردات: (عدا).
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عذب).
(7) الأزهري، تهذيب اللغة: (عذب)، وابن سيده، المحكم: (عذب)، والرّاغب، المفردات: (عذب)، وابن منظور، لسان العرب: (عذب)، والفيروزآباديّ، القاموس المحيط: (عذب).
(8) المُناوي، التوقيف، ص: 239.
(9) قلعجي، معجم لغة الفقهاء: 1/307.
(10) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 1/192.

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

بيـانُ مصيرِ الطّائعين لله تعالى ورسولِه، ومصيرِ العاصِين لهما

جاءتْ هاتانِ الآيتَانِ الكريمتانِ، ترغّبان في الطَّاعةِ، وترهّبان عنِ المعصيةِ؛ لئلَّا يُغترَّ بحلم اللّه المذكور في الآية التّي قبْلَهما، فجاءتِ الآيةُ الأولى لتُبيِّن أنَّ ما شرَعه اللّه تعالى منَ الفرائضِ والمقاديرِ في المواريثِ، هي حدودُه تعالى، التّي يجبُ ألَّا يتجاوزَها العبادُ، مع بيانِ جزاءِ مَن يطيعُ اللّه ورسولَه فيكون له جنّاتٍ تجرِي من تحتها الأنهارُ، ثمّ جاءت الآيةُ الثّانيةُ لتتوعَّدَ العاصِين الّذين يتجاوَزُون حدودَ اللّه تعالى، بالمصيرِ المشؤوم، والعذاب المعلوم[1]، إذ إنَّ مَن يُخالفُ أمْرَ اللّه ورسوله، ويَتجاوزُ حدودَ ما شرَعه تعالى لعباده، فإنَّ اللّه تعالى سيُصليه نارًا خالدًا فيها[2]، وذلك جزاء الظّالمين.

الإِيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

بَلَاغَةُ التَّعْبِيرِ بِاسْمِ الْإِشَارَةِ فِي قَوْلِهِ: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِۚ﴾:

عَظَمَةُ الْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ وَجَمِيلُ أَثَرِهَا عَلَى الْعِبَادِ

التَّعبيرُ باسم الإشارةِ ﴿تِلْكَ﴾ وهو دالٌّ على البُعْدِ في قوله تعالى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِۚ﴾؛ وذلكَ لإنزالِ البُعدِ المعنويّ منزلةَ البُعدِ الحِسّي، لعُلُوِّ درجةِ هذه الأحكامِ وعظيمِ منزلَتِهَا، وفيه إيماءٌ إلى تعظيمِ مُنزلِها وفَارِضِها ﷻ.

دِلَالَةُ الْإِضَافَةِ فِي قَوْلِهِ: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِۚ﴾:

وُجُوبُ لُزُومِ حُدُودِ اللهِ تَعَالَى

أُضيفَت الحدودُ إلى الاسم الأحسنِ (اللّه) في قولِه سبحانَهُ: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِۚ﴾، وفي ذلك تعظيمُ هذه الحدودِ وتفخيمُها، إذ هي

(1) "يَدخُل في اسم المعصية الكُفرُ فما دونه من المعاصي، فلا يكون فيها شُبهةٌ للخوارج القائلين بكُفر أهل المعاصي، فإنَّ الله تعالى رتَّب دخولَ الجنّة على طاعتِه وطاعةِ رسوله، ورتَّب دخولَ النّار على معصيتِه ومعصيةِ رسوله، فمَن أطاعه طاعةً تامَّةً، دخل الجنّةَ بلا عذاب، ومَن عصى الله ورسولَه معصيةً تامَّةً - يَدخُل فيها الشّرك فما دونه - دخل النّار وخُلِّد فيها، ومَن اجتمع فيه معصية وطاعة، كان فيه مِن مُوجب الثّواب والعقاب بحسَب ما فيه منَ الطّاعة والمعصية، وقد دلَّتِ النُّصوصُ المتواترةُ على أنَّ الموحِّدين الّذين معهم طاعةُ التّوحيد، غيرُ مخلَّدِين في النّار، فما معهم منَ التّوحيد مانعٌ لهم منَ الخلود فيها"، ينظر: السَّعدي، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 134.

(2) ابن جرير، جامع البيان: 6/490، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 2/232 - 234.

حدودُ اللّه تعالى ممَّا يُوجبُ على العبادِ أن يلتزمُوها ولا يتجاوَزُوها طاعةً للّه تعالى.

وفيه ذلك أيضًا: إيجازٌ وتكثيفٌ في المعنى المُرادِ، فقد شَمِلَ الحدودَ والأحكامَ الواردةَ في السُّورة كلِّها، التي ذُكرتْ في باب اليتامَى والوصايَا والمواريثِ وغيرِها[1].

وفي إضافة الحدود إلى الاسم الأحسن (اللّه) أيضًا: إدخال المهابَةِ على قلوب العبادِ بِذِكْرِ الاسمِ الْأَحْسَنِ، فيكون ذلك أدعَى لامتثالِهَا وعدمِ تجاوُزِهَا.

بَلَاغَةُ الْقَصْرِ فِي قَوْلِهِ: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ﴾:

الـتَّرْهِـيـبُ مِـنَ الْـعُـدُولِ عَـنْ أَحْـكَـامِ غَـيْرِ أَحْـكَـامِ الـلـهِ سُبْحَانَهُ

في قَوْلِه سُبحَانَه: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ﴾ قَصْرٌ، وذلك لتعريفِ جُزأي الإسنادِ؛ فالمبتدأ ﴿تِلْكَ﴾ معرَّفٌ بالإشارَةِ، و﴿حُدُودُ﴾ معرَّفةٌ بإضافتِهَا إلى الاسم الأحسن (اللّه)، والمقصورُ بهذا الطَّريقِ هو المعرَّفُ باللَّامِ وما هو بمنزِلَتِهِ، ففيه قصرُ حدودِ اللّه تعالى على تلك الأحكامِ المذكورةِ، وليس هو قصرًا حقيقيًّا تحقيقيًّا، بل هو قصرٌ إضافيٌّ؛ لأنَّ أحكامَ اللّه تعالى أعمُّ من المذكوراتِ في آيات المواريثِ، وإنَّما سيقَ ذلك مساقَ القصرِ الإضافيِّ تفخيمًا لشأنِ هذه الأحكامِ، وترهيبًا من العدولِ عنْهَا إلى أحكامٍ مخالفةٍ لما قضَى اللّه تعالى بِهِ.

دِلَالَةُ الِاسْتِعَارَةِ التَّصْرِيحِيَّةِ فِي قَوْلِهِ: ﴿حُدُودُ ٱللَّهِ﴾:

تَـحْـذِيـرُ الْـعِـبَـادِ مِـنْ تَـجَـاوُزِ أَوَامِـرِ الـلـهِ تَـعَـالَى وَنَوَاهِيهِ

في قولِه تعالى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ﴾: استعارةٌ تصريحيَّةٌ؛ إذ استُعِيرَت الحدودُ للشّرائعِ والأحكامِ بجامعِ معنى الفَصْلِ، فشرائعُ اللّه فاصلةٌ بين الحقّ والباطلِ وبين الكُفرِ والإيمانِ، والحدُّ: "الحاجزُ بين الشَّيئين الذي يمنع اختلاطَ أحدِهما بالآخَر"[2].

(1) الزّمَخْشري، الكشَّاف: 1/487.
(2) الراغب، المفردات: (حدّ).

قال ابنُ عاشور: "حُدُودُ اللّهِ اسْتِعَارَةٌ لِلْأَوامر والنَّواهي الشَّرعِيَّةِ بقرينةِ الإشارةِ، شُبِّهَتْ بالحدود الَّتي هي الفواصلُ المجعولةُ بين أَملاكِ النَّاسِ؛ لأَنَّ الأَحكامَ الشَّرعيَّةَ، تَفصِلُ بين الحلالِ والحرامِ، والحقِّ والباطلِ، وتَفصلُ بين ما كان عليه النَّاسُ قبل الإسلام، وما هُم عليه بعدَه"[1]، وفي هذه الاستعارةِ مبالغةٌ في التَّحذير من تجاوُزِ هذه الشّرائعِ التي جعلَها اللّه تعالى حدًّا فاصلًا لا يجوزُ على المرءِ تعَدِّيه.

نُكْتَةُ التَّعْبِيرِ بِالْأَفْعَالِ الْمُضَارِعَةِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ﴾:

جاء التَّعبير بالفعل المضارع ﴿يُطِعِ﴾ في قوله: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ﴾؛ للإيماء إلى أنَّ الطَّاعةَ التي يَترَتَّبُ عليهَا الجزاءُ الحسنُ في الآخرةِ هو الاستمرارُ والمداومةُ عليهَا، لا ما كان منها عرضِيًّا ثمَّ استمرَّ صاحبُهَا على العِصيانِ.

إِنَّمَا تُمْدَحُ الطَّاعَةُ كَمَالَ الْمَدْحِ إِذَا كَانَتْ عَلَى سَبِيلِ الدَّوَامِ وَالِاسْتِمْرَارِ عَلَيْهَا

وفي التَّعبير بالفعل المضارع ﴿يُدۡخِلۡهُ﴾ من قَوْلِه سُبحانه: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ﴾؛ لاستحضارِ صورَةِ الجزاءِ في الآخرةِ، فيكون ذلك أَحْرى للامتثالِ؛ فإنَّ استحضارِ الثَّوابِ على العملِ باعثٌ عليهِ.

نُكْتَةُ الْإِظْهَارِ فِي مَوْضِعِ الْإِضْمَارِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾:

تَضَمُّنُ الِاسْمِ الْأَحْسَنِ (الله) لِصِفَاتِ الْجَلَالِ وَالْكَمَالِ وَالْجَمَالِ

في قولِه تعالى: ﴿تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِۚ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ إظهارٌ في موضعِ الإضمار، فقد أُظْهِرَ الاسمُ الأحسنُ ﴿ٱللَّهَ﴾ في قولِه: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ﴾، مع أنَّ مقتضى الظّاهرِ أن يُكتفَى بالإضمارِ (ومن يطعه)؛ لتقدُّمِ ذكرِهِ في قوله: ﴿تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِۚ﴾.

وفي هذا الإظهارِ: إدخالُ الرَّوعةِ، وتربيةُ المهابةِ في النّفوس،

(1) ابنُ عاشور، التّحرير والتّنْوير: 2/413.

وزيادةُ التَّعظيم والتَّفخيم، فالاسمُ الأحسنُ أكبرُ أثرًا ووقْعًا في النّفوس منَ الضّمير العائدِ إليه، فضلًا عمَّا فيه منَ المبالغةِ في التَّهديدِ والتَّشديدِ في الوعيدِ على المُخالِفِ[1]؛ لما اشتمَلَ عليه الاسم الأحسن (اللّه) من صفاتِ الجلال والكمال.

دِلَالَةُ جَمْعِ الْجَنَّاتِ وَتَنْكِيرِهَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ﴾

جُمِعَتِ الجَنَّاتُ في قولهِ سُبحانه: ﴿يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ﴾ إعلامًا بكثرَتِهَا وَتعدُّدِهَا؛ وذلك أنَّ الجنَّةَ في الآخرةِ مشتملةٌ على جِنَانٍ كثيرةٍ.

كَثْرَةُ الْجَنَّاتِ وَتَنَوُّعُهَا فِي الْآخِرَةِ؛ لِاخْتِلَافِ دَرَجَاتِ الْمُتَّقِينَ

وتنكيرُ ﴿جَنَّٰتٍ﴾ فيه إيماءٌ إلى تنوُّعِهَا واختلافِهَا.

وكثرة الجنَّاتِ وتنوُّعُها هُوَ بِحَسَبِ دَرجاتِ أهلِهَا في طاعةِ اللّه تعالى؛ فإنَّهم في رُتَبٍ متبايِنَةٍ حسَبَ تحقُّقِهم مِنْ طاعةِ اللّه سبحانه.

دِلَالَةُ وَصْفِ الْجَنَّاتِ فِي قَوْلِهِ: ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾:

وُصِفَت الجنَّاتُ بكونِهَا ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ مدحًا لها، وتزيينًا لها في قلوبِ العبادِ؛ ليكونَ ذلك أدعَى للتَّزَيِّي بِزِيِّ الطَّاعةِ.

جَمَالُ الْجَنَّةِ وَجَمَالُ مَا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ، كَشِدَّةِ جَرَيَانِ أَنْهَارِهَا وَوَفْرَةِ مِيَاهِهَا

ووجهُ المدحِ بالوصفِ: أنَّ أَحْسَنَ المياهِ هُوَ ما كَانَ جَارِيًا؛ لأنَّ ذلك يَقْتَضِي كونَه جَدِيدًا كلَّما اغْتُرِفَ أَوِ اغتُسِلَ منهُ.

وَأَصْلُ الْجَرْيِ في كلامِ العربِ: شِدَّةُ سُرعةِ الْمَشْيِ، وإطلاقُهُ على سَيَلانِ الماء سَيْلًا متكرِّرا مُتَعَاقِبًا: مَجازٌ[2]، وفي تخريجِهِ مَسْلَكَانِ:

أحدهما: أنَّه مجازٌ بِالاسْتِعَارَةِ؛ ووجهُهُ: أنَّه شُبِّهَ سيَلَانِ الماءِ سَيْلًا مُتَكرِّرا متعاقِبًا بشِدَّة سُرعة المشيِ؛ لجَامِعِ سُرعة الانْتِقَالِ والحركةِ في كلٍّ مِنْهُمَا، فيكونُ مِنَ الاستعارَةِ التَّصريحيَّة التَّبعيَّة.

والآخَرُ: أنَّه مجازٌ مُرسَلٌ بعلاقةِ الإطلاق والتَّقْيِيدِ، فأصلُ

(1) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 2/154.

(2) ابنُ عاشور، التّحرير والتّنْوير: 1/354.

الجري: شدَّةُ سُرعة المشي، ثُمَّ أُطلِقَ عَنْ قَيْدِ المشي، واستعمِلَ في شِدَّة السُّرعةِ مطلقًا.

وهو على كِلَا الوَجْهَيْنِ أدخَلُ في مَدْحِ الماءِ الجاري؛ لِاقْتِضَائِهِ المُبَالغةَ في جِدَّتِهِ بشدَّةِ جَرْيِهِ.

دِلَالَةُ اللَّامِ فِي ﴿ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾:

اللَّامُ في ﴿ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ من قولِ الله تعالى: ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ لِتَعْرِيفِ الجِنْسِ، فتَكُونُ في قوَّة النَّكرةِ.

أَنْهَارُ الْجَنَّةِ نِعْمَةٌ مُسْتَقِلَّةٌ لِأَهْلِهَا

ويَحْتَمِلُ أن تكون اللَّامُ لِلْعَهْدِ التَّقديريِّ؛ وذلك أنَّه لَمَّا ذُكرتِ الجنَّاتُ؛ اسْتَحْضَرَ السَّامعُ لوازمَها ومقارنَاتِها؛ "فساغَ لِلْمُتَكَلِّم أن يُشير إلى ذلك المعهُودِ، فَجِيء باللَّام"، ويَحْتَمِل أن تكون لِلْعَهْدِ الخارجيِّ، والإشارةُ فيه إلى قَولِ الله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ﴾ [محمد: 15].

ولَم تُضَفِ الأنهارُ إلى ضمير الجنَّاتِ بأَنْ يقال: (تَجْرِي مِن تحتِها أنهارُهَا)؛ لِما في الإضافة مِن كُلْفَةٍ في الكلام، ولِلتَّنْبِيه على أَنَّ نعمةَ الأنهارِ مُسْتَقِلَّةٌ، فيكون التَّمَتُّع بها تنعُّما مستقِلًّا لا تبعًا لِلْجَنَّاتِ.

ومالَ ابنُ عَاشُور إلى أنَّ تعريفَ الأنهار في مثلِ هذا التَّركيبِ إنَّما هو لِلتَّفنُّنِ؛ لئلَّا يُعادَ التَّنكيرُ مرَّةً أخرَى بعد تنكيرِ ﴿جَنَّٰتٍ﴾.

بَلَاغَةُ الْمَجَازِ الْعَقْلِيِّ فِي قَوْلِهِ: ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾:

فَخَامَةُ نَعِيمِ الْجَنَّةِ

في قوله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾: مجازٌ عقليٌّ بعلاقة المكانيَّةِ، فقد أُسنِدَ الجريُ إلى الأنهارِ وهو مكانُ الماءِ الجاري في الأصلِ إسنادًا مجازيًّا، فالأنهارُ لا تجري، إنَّما الذي يجري ماؤُها.

ونكتةُ المَجازِ: الإيجازُ والمبالغةُ في المعنى المُرادِ؛ إذْ ذلكَ يُوحِي

بكثرةِ ما في الجَنّة منَ النَّعيم الدَّائم ووفْرَته، فإنَّهُ يدلُّ على كثرةِ الماء وغزارَته وعُمومِه لجميعِ مَجرى النَّهر، حتَّى يُصوّرَ لِلْمتلقِّي أنَّ النَّهرَ لِعظَمِ ما فيه يجري برُمّته لا الماءُ الذي فيه فحسب[1].

بَلَاغَةُ الِاحْتِرَاسِ فِي قَوْلِهِ: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ﴾

نَعِيمُ أَهْلِ الْجَنَّةِ دَائِمٌ، لَا يَتَنَغَّصُ بِاخْتِمَالِ انْقِطَاعِهِ

قولُ اللّه تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ﴾ حالٌ منصوبَةٌ، جيءَ بها لِلاحتراسِ؛ دَفْعًا لِتوهُّمِ انقطاع النَّعِيمِ الْمَذْكُورِ قبلُ، وسبَبُ هذا التَّوهُّمِ: ما جرت به العادةُ مِن انقطاع اللَّذَّات في الحياةِ الدُّنيا؛ فإنَّ العبدَ في الحياة الدُّنيا مهما كثرَتِ اللَّذَّاتُ عندهُ وعَظُمَتْ؛ فإنَّ استحضارَهُ زوالَهَا يُنغِّصُ عليه كمالَ الاستمتاعِ بها، فبيَّن اللّه سبحانه أنَّ ذلك مُنْتَفٍ في نعيم الجنَّةِ، وأنَّه نعيمٌ دائمٌ.

تَوَاشُجُ التَّذْيِيلِ مَعَ الْقَصْرِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾:

تَفْخِيمُ ثَوَابِ الطَّائِعِ لِأَوَامِرِ اللهِ تَعَالَى

يتواشجُ التّذييلُ مع القَصْر في بيان هذه الخاتمة والمآلِ للطّائعِ لأوامرِ اللّه تعالى، وتفخيم الثَّوابِ وتعظيمه له بقوله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾، وفيه معنى الكمالِ، إذْ قُصِرَ الفوزُ العظيمُ على ما يُجازَى به المؤمنون، وخصّصَه بهم، وطريقُ القصرِ: تعريفُ طَرَفَي الإسنادِ، والقصدُ من ذلك: المبالغَةُ.

وأُوثِرَ التَّعبيرُ باسمِ الإشارةِ المُذكَّرِ ﴿وَذَٰلِكَ﴾ دون (تِلْكَ)؛ لأنَّ المرادَ في الآية إخبارُ اللّه تعالى بحصولِ هذه الجنّاتِ، وهذا يدلُّ على كونِه تعالى راضيًا، والفوزُ الكبيرُ هو رضا اللّه تعالى لا حصولُ الجنَّاتِ، وهذا الإخبارُ يعودُ عليه ﴿وَذَٰلِكَ﴾ وليس (تِلْكَ) الذي فيه إشارةٌ إلى الجنّاتِ وحدهَا[2].

(1) الزّمَخْشري، الكشَّاف: 1/107.
(2) الرَّازي، مفاتيح الغيب: 31/113.

دِلَالَةُ الْمُقَابَلَةِ بَيْنَ الطَّائِعِينَ وَالْعَاصِينَ:

التَّرْغِيبُ فِي الطَّاعَةِ وَالْإِيمَانِ، وَالتَّرْهِيبُ مِنَ الْكُفْرِ وَالْعِصْيَانِ

من بديعِ نسيجِ الآيتَيْن الكريمَتَيْن المقابلةُ بين الفريقَيْن الطّائعِ والعاصِي، فقد ذكرتِ الآيةُ الأولى منهما الطّائعَ في الدّنيا وما له منَ النَّعيم في الجِنان في قولِه تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾، لتأتيَ الآيةُ التي بعدَها مبيِّنةً حالَ العاصِي في الدّنيا ومصيرَه إلى النّيران في الآخرة في قولِه تعالى: ﴿وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدۡخِلۡهُ نَارًا خَٰلِدٗا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٞ مُّهِينٞ﴾، على سبيل المقابلةِ بين حال الفَريقَيْن في الدّنيا وجزائِهما في الآخرة، لتصوُّرَ ما للطائعين من نعيم في الجِنانِ، وما للمُجرمين من عذابٍ في النِّيران، وقد جاءت هذه المَشاهدُ ترغيبًا وترهيبًا؛ ترغيبًا في الطّاعة والإيمان والعملِ الصّالحِ المُوصلةِ إلى الجِنان، وترهيبًا منَ الكُفْرِ والمعاصِي الموصلةِ إلى النّيران، وهذا التّقابلُ مقصودٌ إذْ "بضدّها تتميّزُ الأشياءُ"[1].

نُكْتَةُ التَّغَايُرِ بَيْنَ ﴿خَٰلِدِينَ﴾ - جَمْعًا - و﴿خَٰلِدٗا﴾ - مُفْرَدًا - :

صِيغَةُ الْجَمْعِ مُشْعِرَةٌ بِالِاجْتِمَاعِ وَالْأُلْفَةِ، وَصِيغَةُ الْإِفْرَادِ مُؤْذِنَةٌ بِالْوَحْشَةِ وَالرَّهْبَةِ

أُوثِرَ التَّعبير بصيغة الجمع ﴿خَٰلِدِينَ﴾ مع الطّائعين من أهلِ الجَنّة في قولِه تعالى: ﴿يُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ﴾، وأُوثِرَت صيغةِ المُفرد ﴿خَٰلِدٗا﴾ مع العاصِين من أهل النَّارِ في قولِه تعالى: ﴿يُدۡخِلۡهُ نَارًا خَٰلِدٗا فِيهَا﴾، وفي هذه المغايرةِ بين الصِّيغتَيْن دِلالةٌ لطيفةٌ تتمثَّل في أنَّ صيغةَ الجمعِ ﴿خَٰلِدِينَ﴾ تبشيرٌ بكثرةِ الواقفِ عند هذه الحدودِ، ولأنَّ منادمةَ الإخوانِ من أعلى نعيم الجِنان، والجمعُ لأهل الجَنّة يقتضي الأُنسَ بالاجتماعِ والسّعادةَ بالتَّعارف واللّقاءِ، في حين جاءتْ صيغةُ الإفراد مع أهل النَّار للدَّلالةِ على الوَحْشةِ والرَّهبة؛ لأنَّ الإفراد ﴿خَٰلِدٗا﴾ يقتضي الوَحْشَةَ منَ العذاب والهَوانِ[2].

(1) الراغب، محاضرات الأدباء: 2/409.

(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 5/214.

وذهب أبو حيّانَ إلى أنَّه غايرَ بين الصِّيغتَيْن للدّلالةِ على أنَّ أهلَ الطاعة أهلُ شفاعةٍ، وإذا شفَع في غيره دخلَها، والعاصِي لا يَدْخُل النَّارَ به غيرُهُ، فبقي وحيدًا[1].

وفي هذه المُغايَرةِ مناسبةٌ دقيقةٌ لطيفةٌ تتمثَّلُ في جمْعِه لضمير الخالدينَ في الجنة؛ لأنَّ كلَّ مَن دخل الجنَّة كان خالدًا فيها أبدًا، أمَّا أهلُ النار فعبَّر بالمفرَد ﴿خَٰلِدًا﴾؛ إذ بينهم الخالِدون وغيرُ الخالِدين من عُصاةِ المؤمنين؛ فساغَ الجمعُ هناك ولم يَسُغْ هنا[2].

مُنَاسَبَةُ خَتْمِ الْآيَةِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾

بَـيَـانُ مَـصِـيرِ الْعَاصِي الْمُتَكَبِّرِ عَلَى أَوَامِـرِ اللهِ تَعَالَى

ختمُ الآيةِ الكريمةِ بالعذابِ المهينِ في قولِه تعالى: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ مناسبٌ لمضمونِ الآيةِ؛ لأنَّ العاصيَ المُتعدِّيَ الحدودَ بَرَزَ في صورةِ مَنِ اغترَّ وتجاسرَ على معصيةِ اللّه تعالَى، وقد تقلُّ المُبالاةُ بالشَّدائدِ ما لم يَنضمَّ إليها الهوانُ؛ ولهذا قالوا: المنيَّة ولا الدَّنيَّة[3].

وفي ذكْرِ ﴿وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾، بعد قولِه: ﴿يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا﴾، إيغالٌ في بيانِ شدّةِ الألمِ والعذابِ الذي سيُلاقِيه هذا العاصِي لأوامرِ اللّه تعالى ونَواهِيه.

وتنكيرُ ﴿عَذَابٌ﴾ يُرَادُ به التّفخيمُ والتَّعظيمُ، ومُشعِرٌ بالنَّوعيَّة؛ أي: أنَّه نوعٌ خاصٌّ من العذاب غير ما اعتادُوه وعرَفُوه أو سمِعُوا به.

ووصْفُ العذاب بالهَوانِ في قوله: ﴿عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ يَتَلاءَمُ مع إعلانِه المعصيّةَ والمجاهرةَ فيها.

وقرأ جماعةٌ مِنَ القُرّاء ﴿نُدْخِلْهُ﴾ - بالنُّون - مع الجنّات ومع

(1) أبو حيَّان، البحر المحيط: 3/551.
(2) درويش، إعراب القرآن الكريم وبيانه: 2/179.
(3) أبو حيَّان، البحر المحيط: 3/551.

النّار[1]، فيكون ذلك مِنَ الالتِفَاتِ؛ إذ وقع الالتفاتُ منَ الغَيْبَةِ في قولِه: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّـهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ إلى التَّكلُّم في: ﴿نُدْخِلْهُ﴾، وذلك لقصدِ العناية بالجَزَاءيْن، وإسنادِ ذلك إلى منْ بيده ناصيةُ الأمر كلِّه.

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الرَّسول والنَّبي

إذا أُطلق لفظُ الرَّسُولِ أُريد به "إنْسانٌ بَعَثَه اللّه إلى الخَلْق لِتَبْلِيغ الأحْكَام"[2]، أمّا النَّبيُّ فهو "مَن أوحِي إليه بِمَلَك، أو أُلهِم في قَلْبِه، أوْ نُبِّه بالرُّؤيا الصَّالِحَة، فَالرَّسُولُ أفْضَلُ بِالوَحي الخَاصّ الذِّي فَوقَ وَحي النُّبَوة؛ لأنَّ الرَّسولَ هُو مَن أَوحَى إليه جِبْرَائيلُ خَاصّة، بِتَنْزيل الكِتاب مِن اللّه"[3]، أمَّا النَّبيُّ: فهو المُخْبِر عَنِ اللّه، ﷻ، [4]. والنُّبُوَّةُ: سِفَارَةٌ بين اللّه وبين ذوي العقولِ من عبادِه، لإزاحةِ عِللِهم في أمرِ مَعادِهم ومَعاشِهم، والنَّبِيُّ لكونه منبِّئًا بما تسكنُ إليه العقولُ الذَّكيَّةُ، وهو يصحُّ أن يكون فعيلًا بمعنى فاعلٍ، لقولِه تعالى: ﴿نَبِّئْ عِبَادِىٓ﴾ [الحِجْر: 49][5]، والرِّسالةُ تُضافُ إلى اللّه، لأنَّه المُرْسِلُ بِهَا، ولهذا قال تعالى: ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى﴾ [الأعْراف: 144] ولَمْ يَقُلْ بِنُبوَتي والرِّسَالَةُ جُمْلَةٌ مِنَ البَيَان يَحْمِلُهَا القَائِمُ بِهَا ليُؤَدّيَهَا إلى غَيْرِه، والنُّبُوَة تَكْلِيفُ القِيام بِالرِّسَالَة فَيَجُوزُ إبْلاغُ الرِّسَالات ولا يَجُوزُ إبْلاغُ النُّبوَات، والرَّسولُ أَخصُّ مِنَ النَّبِيِّ، لأَنَّ كُلَّ رَسُولٍ نَبِيٌّ، وَلَيْسَ كُلُّ نَبِيّ رَسُولًا، والرَّسول الذِّي معه كتابٌ، أمَّا النّبيُّ فالذِّي يُنْبِئ عَنِ اللّه، وإنْ لَمْ يَكُنْ مَعَه كِتَاب[6]، ونلاحظُ في الاستعمالِ القُرآنيِّ أنّ النّداءَ لنبيّنا بوصْفِ النّبوّةِ، يأتي في مواضعَ وصفه بأنّه القائدُ والقدوةُ من نبا إذا ارتفع، وأنّ نداءَه بالرّسالة يأتي بوصفِه الوظيفيّ.

(1) ابن الجزري، النشر: 2/248.
(2) الجُرْجَانيُّ، التَّعريفات، ص: 110.
(3) الجُرْجَانيُّ، التَّعريفات، ص: 239.
(4) ابن مَنْظور، لسانُ العَرب: (نبأ).
(5) الراغب، المفردات: (نبأ).
(6) العَسْكَريُّ، الفروق اللغوية: 1/162.

﴿وَٱلَّٰتِي يَأۡتِينَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمۡ فَٱسۡتَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِنَّ أَرۡبَعَةٗ مِّنكُمۡۖ فَإِن شَهِدُواْ فَأَمۡسِكُوهُنَّ فِي ٱلۡبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلۡمَوۡتُ أَوۡ يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلٗا ١٥ وَٱلَّذَانِ يَأۡتِيَٰنِهَا مِنكُمۡ فَـَٔاذُوهُمَاۖ فَإِن تَابَا وَأَصۡلَحَا فَأَعۡرِضُواْ عَنۡهُمَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابٗا رَّحِيمًا ١٦﴾

[النّساء: 15 - 16]

مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِمَا قَبْلَهُما:

المناسبة بين معاشرة النّساء بالحسنى، وتغليظ العقوبة على المنحرفات منهنّ

لَمَّا ذَكَرَ في الآيات المُتَقَدِّمَة الأَمرَ بالإحسان إلى النِّساء، ومعاشرتهنَّ بالجميل، وكان الإحسانُ في الدُّنيا تارةً يكونُ بالثَّواب، وتارةً يكونُ بالزَّجر والعتاب، ضَمَّ إلى ذلك التَّغليظَ عليهنَّ فيما يأْتِينَه مِن أفحش العصيان، وهو الفاحشة، فإنَّ في الكفِّ عن الفساد لئلّا يلقيهنَّ ذلك في الهلاك إحسانًا إليهنَّ، ونظرًا لهنَّ في أَمر آخِرَتِهنَّ، وكما يشرّع اللّه تعالى لخلقِهِ، فكذلك يوفيهم أجورهم إذا تابوا إليه، لأنّه الموصوف، بأنّه توّاب رحيم، ومدارُ الشَّرع على العدل والإنصاف والاحتِراز في كلِّ بابٍ، عن طَرَفي الإفراط والتَّفريط، ثمَّ جمع ذكْر أمرِ النِّساءِ، مع حُكْم الرِّجالِ، على وجهٍ يعمُّ النِّساءَ أَيضاً[1]، في الخطاب بالمثنّى في الصّفح عنهما حالة التّوبة والإصلاح، وهو منهج في العدل والتّسامح مكين.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلۡفَٰحِشَةَ﴾: أَصلُ الكلمةِ يدلُّ على قُبحٍ في شَيءٍ وشَناعَةٍ فيه، لمجاوزتِهِ الحدَّ مع تَكَرُّهٍ له وذمٍّ شديدٍ، فالفُحشُ والفَحشاءُ والفاحِشَةُ، ما عظُمَ قُبحُهُ، وفشا استقباحُه لدى النَّاس من الأَفعال

(1) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 9/527.

والأقوال والأحوال، والفاحشةُ في الآية بمعنى الزِّنا؛ لأنَّه من أقبح الفواحش[1]، "وكلّ شَيْء جَاوز حدّه وقدرَه فَهُوَ فَاحش. "وأَفْحشَ الرّجلُ إذا قَالَ قولا فاحِشًا، وَقد فَحُش علينا فلَان، وَإِنَّهُ لفحَّاش، وكلّ أَمر لَا يكون مُوافِقا للحقّ فَهُوَ فاحِشَة، وَقَالَ اللّه جلّ وعزّ: ﴿إِلَّآ أَن يَأۡتِينَ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖۚ﴾، قيل: الفاحِشَة الْمُبَيِّنَةُ: أَن تَزْني فَتُخرَجَ للحَدِّ، وَقيل: الفاحِشَةُ: خُرُوجهَا من بَيتهَا من غير إِذْن"[2]، " قَالَ ابْن عَرَفَة: كلّ مَا نهى اللّه عَنهُ، فَهُوَ فَاحِشَة، وَقيل الْفَاحِشَة مَا يشْتَدّ قبحه من الذُّنُوب، وَالْفُحْش زِيَادَة الشَّيْء، على مَا عهد من مِقْدَاره"[3].

2) ﴿فَٱسۡتَشۡهِدُواْ﴾: أصل الكلمة شَهِدَ، وتدلُّ على حُضور وعِلم وإعلام، من ذلك الشَّهَادَةُ، وشَهِد الشّاهد عند الحاكِم، أَي: بَيَّن ما يَعلَمه وأَظهَره، واستَشهَدتُ فلانًا: إذا سألتَه إقامة شَهادَة احتَملها، و﴿فَٱسۡتَشۡهِدُواْ﴾ في الآية بمعنى اطلبوا الشَّهادةَ عليهنَّ[4]، و"الشَّهَادَة: أَن يخبر بِمَا رأى، وَأَن يقرّ بِمَا علم، ومجموع مَا يدْرك بالحسّ وَالشَّهَادَة الْبَيِّنَة (فِي الْقَضَاء)، هِيَ أَقْوَال الشُّهُود أَمَام جِهَة قضائيّة "[5]، " وأصل الشّهادة الإخبار بما شاهده وشهده ... ومنه الحديث (يَأْتِي قَوْمٌ يَشْهَدُونَ وَلَا يُسْتَشْهَدُونَ)، هذا عامّ في الّذي يؤدّي الشّهادة، قبل أن يطلبها صاحب الحقّ منه، فلا تقبل شهادته ولا يعمل بها"[6].

3) ﴿يَتَوَفَّىٰهُنَّ﴾: أصل الكلمة وَفَى يتوفّى[7]، وتدُلُّ الكلمةُ على نموٍّ أو زيادةٍ يبلغُ بها الشَّيءَ - أَو يتأكّدُ - تمامَ قوامِه، والتَّوفيةُ: التَّتميم، ومنه قوله تعالى ﴿وَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ إِذَا كِلۡتُمۡ﴾ [الإسراء: 35]، وتَوَفَّى فُلانٌ حَقَّهُ من فلانٍ، أي: أخذه تامًّا، وتوفيةُ الشَّيء: بذلُهُ وافيًا تامًّا، واستيفاؤُه: تناولُه وافيًا تامًّا، وسمِّيَ الموتُ والنَّومُ تَوفّيًا؛ لأنَّهما استيفاءُ مدَّة الحياة، وقال الزّجاج في قوله تعالى: ﴿۞قُلۡ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلۡمَوۡتِ﴾ [السّجدة: 11]، قال: هو من توفية العدد، تأويله أي يقبض أرواحكم أجمعين فلا ينقص واحد منكم"[8]، و﴿يَتَوَفَّىٰهُنَّ﴾ في

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (فحش)، يُنظر: البغويّ، معالم التّنزيل: 1/582.
(2) الأزهري، تهذيب اللغة: (فحش).
(3) عياض: مشارق الأنوار: 2/148.
(4) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة: (شهد).
(5) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة: (شهد).
(6) ابن الأثير، النّهاية: (شهد).
(7) ابن الأثير، النّهاية: (شهد).
(8) الزَّبيديّ، تاج العروس: (وفي).

الآية بمعنى يتقاضاهنّ الموتُ، أَي: يَستوفي الموتُ آجالهنَّ[1]، و"الأفصح أن يقال: تُوُفِّي فلانٌ بالبناء للمجهول؛ لأنّ الّذي يتوفّى الأنفس هو اللّه، ومنه قوله تعالى: ﴿وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ﴾ [الحجّ: 5]"[2].

4) ﴿فَأَمۡسِكُوهُنَّ﴾: أصل الكلمة مَسَك، والمَسَك: المَوضِعُ الّذي يُمسِك الماءَ، ومنهُ قولُهم: سقاءٌ مَسِيكٌ، أي: يحفظُ الماءَ ويَحبِسُه فلا يَنضحُ، فمعنى الكلمة يدُلُّ على ضبط الشَّيء وحفظه أَو حبسه حَبسًا قويًّا في حَيّزٍ، فلا يتسيّبُ، ومنَ الاستعمال المشهور أمسكَ الشّيءَ: قبضَه باليد، وباختلاف تعلّق الحرف بالكلمة يتغيّرُ المعنى، فيقالُ: تمسَّكَ بالشَّيء، واستمسَكَ به بمعنى اعتصَمَ به، وأَمسكَ عنهُ: كفَّ عنه وامتنعَ، وأمسكَ الشّيءَ على نفسه: حَبَسه، أي: استبقاهُ في حَوزته[3]، كقوله تعالى ﴿أَمۡسِكۡ عَلَيۡكَ زَوۡجَكَ﴾ [الأحزاب: 37].

5) ﴿ٱلۡبُيُوتِ﴾: جمع بيتٍ، هو المأْوى والمآبُ، ومَجمَعُ الشَّمل الّذي يلزمُ منه السَّكن والاستقرار، ومنه يُقالُ لبيت الشِّعر: بَيتٌ على التَّشبيه، لأَنَّهُ مَجمَعُ الأَلفاظ والحروف والمعاني، ومنه قِيل: باتَ، أي: في اللَّيل؛ لأنَّهُ زمنُ المآب والسُّكون، والبيتُ هو الدَّارُ والمسكنُ الّذي يستقرُّ فيه النَّاسُ، فهو مَوضِعُ مآبِهم[4]، وفي معنى قول اللّه تعالى: ﴿وَأۡتُواْ ٱلۡبُيُوتَ مِنۡ أَبۡوَٰبِهَاۚ﴾ [البقرة: 189]، قيل: إنّه يعني النّساء لا يؤتين من أدبارهن، وقيل: هو مثلٌ مضروبٌ: أي ائتوا البرّ من وجهه، وفيه أقوال أخرى[5].

6) ﴿سَبِيلٗا﴾: السَّبيلُ: هو الطَّريقُ المُوصِلُ، سواء أكان سهلًا أم صعبًا، ويذكَّرُ ويؤنَّثُ، وهو بهذا المعنى في كلِّ القرآن، وإنَّما يختلفُ المُرادُ به بحسب السِّياق، فيأتي بمعنى الطَّريق المادّيّ، وبمعنى الطَّريق المعنويِّ مجازًا، كما في الآية، وابنُ السَّبيل هو المسافرُ، جُعِلَ ابنَ الطَّريق لِملازمتِه إيَّاه[6]، والسّبيل: يذكّر ويؤنّث، قال اللّه تعالى: ﴿قُلۡ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ﴾ [يوسف:

(1) السّمين، عمدة الحفّاظ، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (وفَى)، يُنظر: الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 9/530.
(2) "قرئت الآية بالبناء للمعلوم، على توجيه أن: (توفَّى) بمعنى استوفى أجله، ومجيء: (تفعَّل) بمعنى: (استفعل)، منصوص عليه في كتب النّحاة، وهو ما دعا مجمع اللّغة المصريّ إلى قبول هذا التّعبير"، ينظر: أحمد مختار عمر، معجم الصّواب اللّغويّ: (وفي).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة، جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (مسك).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (بيت).
(5) نشوان الحِميريّ، شمس العلوم: (البَيْت).
(6) الأزهري، تهذيب اللغة، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (سبل).

108] فأنّث، وقال: (وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا) [الأعراف: 146] فذُكّر[1]، قال ابن السّكّيت: " والجمع على التّأنيث سُبُولٌ، كما قالوا: عُنُوقٌ، وعلى التّذكير سُبْلٌ وسُبُلٌ "[2].

7) ﴿فَأَعْرِضُواْ﴾: أَصل الكلمة من العَرض، وتَرجِعُ معانيه المُتَنوّعة إلى أَصلٍ واحدٍ، وهو العَرضُ الَّذي يُخالِفُ الطُّولَ، وإذا عُدِّيَ الفعلُ بـ (عن) أَفادَ الانصرافَ عن الشَّيء بالقلب، وتَخَطّيه بالبَدن عَرْضًا، فإذا قِيل: أَعرَضَ عنّي، فمعناه: ولّى مُبديًا عَرضَهُ، ومنه الإعراضُ في الآية بمعنى تولّي الشّيء عرضك، أي جانبك، ولا تقبل عليه[3]، وأعرض عنه: أي أضرب، قال اللّه تعالى: ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا﴾ [يوسف: 29]، وأعرض بوجهه: أي مال، قال اللّه تعالى: ﴿وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [آل عمران: 23][4].

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

عقوبة أصحاب الفواحش الزّناة، وحكمة الله في التّدرّج في تشريع العقوبات

جاءَت هاتان الآيتان لبيان ما على النّساء من واجبِ العفَّةِ وصون العِرضِ عن الفحشاء، وأنّه لا بدّ من التّثبت بشهادة أربعة عدول من المؤمنين، فإذا ثبت عليهنّ ذلك بيقين، حبسن في البيوت عقوبة لهنّ، ومحافظة عليهنّ من الانزلاق في مهاوي الخزي والرّذيلة، حتّى يتوفاهنّ الموت، أو يجعل اللّه لهنّ مسلكا آخرللحياة الطّاهرة المستقيمة، بالتّوبة النّصوح، والزّواج الشّرعيّ المحصّن، وأتبع السّياق ذلك بإيضاح العقوبة الّتي تسلّط على الزّاني والزّانية غير المحصنين، بالتّأديب والتّوبيخ والضّرب، إلّا أن يتوبا عن غيّهما، ويقلعا عن الموبقات، فلا يعيّران، ولا يذكّران بما فات، لأنّ اللّه توّابٌ رحيمٌ، يعفو للعاصين عن السّيّئات، وقد كان ذلك موجودا

(1) الجوهريّ، الصّحاح: (سبل).
(2) الفيوميّ، المصباح: (سبل).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (عرض)، وابن الهائم، التّبيان، ص: 291.
(4) نشوان الحميريّ، شمس العلوم: (الإعراض).

في الحالتين في بداية الإسلام، ثمّ نسخه الله بالجلد للأبكار، والرّجم للمحصنين والمحصنات[1]، على الرّأي القائل بأنّ الفاحشة المقصودة في الآيتين هي الزّنا[2]، وهو الأظهر والأشهر.

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

نُكْتَةُ تَقْدِيمِ النِّسَاءِ عَلَى الرِّجَالِ:

الْفَاحِشَةُ فِي الرِّجَالِ عَظِيمَةٌ مِنَ الْعَظَائِمِ، وَهِيَ فِي النِّسَاءِ أَعْظَمُ

قُدِّم ذكرُ من يأتِي الفاحشة من النِّساءَ في قولِهِ سُبحانَهُ: ﴿وَٱلَّٰتِي يَأۡتِينَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمۡ﴾ على من يأتيهَا من الرِّجالِ في قوله تعالى بعدُ: ﴿وَٱلَّذَانِ يَأۡتِيَٰنِهَا مِنكُمۡ فَـَٔاذُوهُمَاۖ﴾، لنُكتَتَيْنِ:

أُولاهُمَا: أنَّ الفسادَ في النِّساءِ أعظَمُ والفِتْنَةَ بهِنَّ أكبَرُ، ولذا قُدِّمَ الزَّانيةُ على الزَّاني في قوله تعالى: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجۡلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا مِاْئَةَ جَلۡدَةٖۖ﴾ [النّور: 2].

والأخرَى: أنَّ في إتيانِ النِّساء الفاحشةَ إدخالًا على الرِّجالِ مَنْ يرثُهم مِنْ غيرِ أن يكونوا مستحقِّين، ولذا جاءت هذه الآياتُ بعد آياتِ الميراثِ.

ولهذا قُدِّمَ ذِكْرُهُنَّ اهتمامًا بزَجْرِهِنَّ[3].

دِلَالَةُ التَّعْبِيرِ بِالْجَمْعِ ﴿وَٱلَّٰتِي﴾ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱلَّٰتِي يَأۡتِينَ ٱلۡفَٰحِشَةَ﴾:

كَثْرَةُ الْفَسَادِ الصَّادِرِ مِنَ النِّسَاءِ

﴿وَٱلَّٰتِي﴾ من قوله تعالى: ﴿وَٱلَّٰتِي يَأۡتِينَ ٱلۡفَٰحِشَةَ﴾ جمعٌ لـ (التِي)، وهو اسمٌ موصولٌ، وأُوثِرَ لفظُ الجمعِ ﴿وَٱلَّٰتِي﴾ دون المفرد بأن يَرِدَ النَّظْمُ القرآنيُّ: (والتي تأتي الفاحشة من نسائكم فاستشهدوا عليها)؛ للإيماءِ إلى كثرَتِهِنَّ، وكثرة الفسادِ الصَّادرِ مِنْهُنَّ[4].

---

(1) الزّحيلّي، التّفسير المنير: 4/289.

(2) في الآيتين رأيان: أحدهما للجمهور، يقول بأنّ الفاحشة هي الزّنا، في المحصنات المتزوّجات من النّساء، ثمّ في الأبكار، والآيتان منسوختان بما ورد في سورة النّور من الرّجم للفئة الأولى، والجلد للفئة الثّانية، ورد عن مجاهد: أنّ الآية الأولى في السّحاق بين النّساء، والثّانية في اللّواط بين الرّجال، وعلى الرّأي الثّاني، فلا نسخ "، ينظر: الحجازيّ، التّفسير الواضح: 3/348.

(3) البقاعي، نظم الدّرر: 5/216.

(4) البقاعي، نظم الدّرر: 5/216.

دِلَالَةُ التَّعْبِيرِ بِفِعْلِ الْإِتْيَانِ ﴿يَأْتِينَ﴾ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱلَّٰتِي يَأۡتِينَ ٱلۡفَٰحِشَةَ﴾:

جاء التَّعبير بفعل الإتيان في قول الله تعالى: ﴿وَٱلَّٰتِي يَأۡتِينَ ٱلۡفَٰحِشَةَ﴾، لأنَّ الإقدام على الفاحشةِ - وهي الزِّنا - لَمَّا كان لا يقعُ إلَّا بمقدّماتٍ مُمَهِّداتٍ له، فكأنَّ فاعلَ الفاحشةِ هُوَ الّذي يذهبُ إليهَا بِنَفْسِه، ويختارُها بطبعِه[1]، وليست هي الّتي تأتيه وتتعرَّضُ لَهُ.

الْمُقْدِمُ عَلَى الْمُحَرَّمَاتِ مُقْدِمٌ عَلَى الْعُقُوبَاتِ نَفْسِهَا

كما أنَّ التَّعبيرَ بالإتيان يُفيدُ أنَّهُ هو الّذي اختارَ العقوبةَ لاختياره الفاحشةَ، لأنَّ المُقْدِمَ على جريمةٍ تترَتَّب عليها عقوبةٌ، هو في الحقيقة مُقْدِمٌ على العقوبةِ نفسِهَا.

بَلَاغَةُ الْمَجَازِ الْمُرْسَلِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱلَّٰتِي يَأۡتِينَ ٱلۡفَٰحِشَةَ﴾:

السَّيْرُ عَلَى طَرِيقِ الْفَاحِشَةِ مُوصِلٌ إِلَيْهَا

في قَوْلِ اللّهِ تَعَالَى: ﴿وَٱلَّٰتِي يَأۡتِينَ ٱلۡفَٰحِشَةَ﴾ مجازٌ مرسَلٌ بعلاقةِ السَّبَبِيَّةِ؛ إذْ أُطلِقَ السَّبَبُ وهو الإتيانُ، وأُريد المسبَّب وهو الفعلُ، ونُكتَتُهُ: للتَّنبيه إلى أنَّ السَّيرَ على طريق الفاحِشَةِ مُوصلٌ إليها.

نُكْتَةُ الِاسْتِعَارَةِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱلَّٰتِي يَأۡتِينَ ٱلۡفَٰحِشَةَ﴾:

إِبْرَازُ الْمَعَانِي الْعَقْلِيَّةِ فِي قَالَبِ الصُّوَرِ الْمَحْسُوسَةِ أَدْعَى لِإِدْرَاكِ حَقَائِقِهَا

يحتَمِلُ أن يكون قوله تعالى: ﴿وَٱلَّٰتِي يَأۡتِينَ ٱلۡفَٰحِشَةَ﴾ من بابِ الاستعارةِ؛ وذلك أنَّ أصلَ الإتيانِ: المَجيءُ إلى شيءٍ، يُقال: أتيتُ فلانًا، أي: جئتُهُ، فإذا تعلّق الإتيانُ بالْحَدَثِ؛ دلَّ على فِعْلِ الشَّيء وتَحْصِيلِه، كقولهم: أتيتُ العمرةَ، أي: فعلتُها، فاستُعيرَ هنا الإتيانُ لفعل شَيءٍ؛ إشعارًا بأنَّ الأَمرَ مقصودٌ وقد سبقَهُ عَزمٌ على الفِعْلِ؛ لأَنَّ فاعلَ شَيءٍ عن قَصدٍ يُشبه السَّائِرَ إلى مكانٍ حتَّى يَصِلَه[2]، ففي قوله: ﴿وَٱلَّٰتِي يَأۡتِينَ ٱلۡفَٰحِشَةَ﴾ استعارةٌ تصريحيَّةٌ تبعيَّةٌ، وفي ذلك تصويرٌ للمعاني العقليَّةِ وإبرازٌ لها في صورة المحسوسِ، وذلك أدعَى لإدراكِ حقيقتِهَا، والتَّنفيرِ مِنْهَا.

(1) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 4/205.

(2) ابنُ عاشور، التّحرير والتّنْوير: 4/270.

دِلَالَةُ الْكِنَايَةِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱلَّٰتِي يَأۡتِينَ ٱلۡفَٰحِشَةَ﴾:

يعبِّر اللّٰه ﷻ عن المعاني الّتي لا تألفها النّفس الكريمَةُ بعباراتٍ تَسْتُرُها، فتكون الكناية بدلًا مِنَ التّصريح، وهذا مِن تأديب اللّٰه تعالَى لعبادِهِ في التَّعبير[1].

تَأْدِيبُ اللهِ تَعَالَى عِبَادَهُ لِانْتِقَاءِ الْأَلْفَاظِ الَّتِي يُعَبَّرُ بِهَا عَنِ الْمَعَانِي

واللَّامُ في ﴿ٱلۡفَٰحِشَةَ﴾ لِلْعَهْد العلميِّ[2]، وهو الواردُ في قول اللّٰه تعالى: ﴿وَلَا تَقۡرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةٗ وَسَآءَ سَبِيلٗا ٣٢﴾ [الإسراء: 32]، فتكونُ الفاحشةُ كنايةً عن الزِّنا، وهو إجماعُ المفسّرين[3]، والكنايةُ هنا أبلغُ مِن التَّصريح؛ لِمَا في التَّصريح مِنَ السُّوء، والمقامُ مقامُ سَتْرٍ، كما أنّ لفظَ ﴿ٱلۡفَٰحِشَةَ﴾ يوحي بالقبح والشَّناعة، فتأثيرُه النَّفسيُّ في الاجتناب أكثرُ من لفظ الزِّنا.

دِلَالَةُ الْإِضَافَةِ فِي ﴿نِّسَآئِكُمۡ﴾ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱلَّٰتِي يَأۡتِينَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمۡ﴾:

جاءتِ الإضافةُ في قوله: ﴿نِّسَآئِكُمۡ﴾ لِمعنى التَّخصيص، بمعنى إضافةِ نسبةِ الّذين فعلوا الفاحشةَ إلى خصوصِ المسلمينَ؛ للإعلام بأنّ الحكمَ يتعلّقُ بالنِّساء المُسلمات دونَ غيرِهم؛ لأنَّ الكافرةَ قد تكون من نساء المسلمين بنسَبٍ، ولا يلحقُها هذا الحكمُ، ولمّا كان ﴿مِن نِّسَآئِكُمۡ﴾ متعلّقا بمحذوفٍ هُوَ حالٌ مِنَ الفاعل في ﴿يَأۡتِينَ﴾، والمعنى: "يَفعَلنَها حالَ كَونِهِنَّ مِن نِسائِكُم"[4]؛ أشعرَ أنَّهم لم يَخْرُجُوا مِن دائرة الإسلام بهذا الفعلِ، كما أشارَ إلى وجوب المحافظةِ عَلَيْهِم، وإنِ ارْتَكَبُوا هذا الفعلَ، فهُم نساؤُكُم.

ارْتِكَابُ الْكَبَائِرِ غَيْرُ مُوجِبٍ لِلْخُرُوجِ مِنَ الْإِسْلَامِ

خُرُوجُ ضَمَائِرِ الْخِطَابِ عَنْ أَصْلِهَا فِي إِرَادَةِ الْمُعَيَّنِ:

جاءَ الخطابُ على خِلَاف مُقتضى الظَّاهر، فإنَّ ضميرَ الخطاب

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 3/1609.
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/21.
(3) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 9/528.
(4) ابن عطية، المحرَّر الوجيز: 2/21، ورضا، تفسير المنار: 4/356.

خِطَابُ الشَّرْعِ يَعُمُّ جَمِيعَ الْعِبَادِ لَا خُصُوصَ الْحَاضِرِينَ وَقْتَ النُّزُولِ

يكونُ في الأصلِ لِمُعيَّن، وقد تُرِكَ هُنا إرادةُ المعيَّنِ - في قوله: ﴿نِّسَآئِكُمۡ﴾ و﴿مِّنكُمۡۖ﴾، قصدًا لمَعنى الحَمْلِ على عمُومِ المسلمينَ[1]، ولتعميمِ المخاطَبِينَ في كلِّ الأزمان، ونُكْتَةُ التَّعبير بالخطاب: مَا في الخطاب من إقبالٍ لِلْمَدْعوِّ قصدًا إلى المبادرة لامتثال الأوامر والانتهاء عنِ الزَّواجر.

دِلَالَةُ الْفَاءِ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَٱسۡتَشۡهِدُواْ﴾:

الْمُبَادَرَةُ إِلَى الشَّهَادَةِ حَسْمًا لِلَّغَطِ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ

جاءتِ الفاءُ في قوله تعالى: ﴿فَٱسۡتَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِنَّ أَرۡبَعَةٗ مِّنكُمۡۖ﴾ للدَّلالة على سَبَبيَّةِ ما في حَيِّزِ الصِّلة لِلحُكم[2]، فيكونُ سببُ طلبِ الاستشهادِ هو إتيانُ الفاحشة، ولمّا كانتِ الفاءُ للتَّرتيب والتَّعقيب في الأصل؛ دلّت ههنا على طلب المبادرة مِن غيرِ تراخٍ إلى طلب شهادة أربعةِ رجالٍ عدولٍ من المسلمينَ؛ كي لا يَكثُرَ اللَّغطُ والكلامُ السَّيِّءُ بينَ المسلمينَ، وحَسمًا للموضُوعِ.

سَبَبُ حَذْفِ الْمُضَافِ إِلَيْهِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى ﴿أَرۡبَعَةٗ مِّنكُمۡۖ﴾:

مُنَافَاةُ الرُّجُولَةِ لِذِكْرِ الْفَاحِشَةِ مَعَهَا

قول الله تعالى: ﴿فَٱسۡتَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِنَّ أَرۡبَعَةٗ مِّنكُمۡۖ﴾ فيه حذْفٌ للمعدودِ - وهو مضافٌ إليه - ، والتَّقديرُ: أربعة رجالٍ مِنْكُم؛ لأنّ العددَ مؤنَّثٌ، فتجبُ المخالفةُ، وفي هذا الحذفِ إشارةٌ إلى منافاة ذِكْرِ الرُّجولة في سِيَاقِ فعل الفاحشة؛ تكريمًا للرُّجولة، كما أنَّ مجيءَ ضمير المُخاطَب لجماعة الذّكور في ﴿مِّنكُمۡۖ﴾ إشارة إلى أنَّهم يكونونَ من الرِّجال.

دِلَالَةُ التَّقْدِيمِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱلَّٰتِي يَأۡتِينَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمۡ فَٱسۡتَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِنَّ أَرۡبَعَةٗ مِّنكُمۡۖ فَإِن شَهِدُواْ فَأَمۡسِكُوهُنَّ فِي ٱلۡبُيُوتِ﴾:

ورد الأسلوبُ الشّرطيُّ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿وَٱلَّٰتِي يَأۡتِينَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمۡ فَٱسۡتَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِنَّ أَرۡبَعَةٗ مِّنكُمۡۖ فَإِن شَهِدُواْ فَأَمۡسِكُوهُنَّ

(1) ابنُ عاشور، التّحرير والتّنْوير: 4/270.

(2) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 2/154.

أَهَمِّيَّةُ الشَّهَادَةِ فِي صِيَانَةِ الْأَعْرَاضِ مِنَ الطَّعْنِ بِغَيْرِ مُوجِبٍ

﴿فِي ٱلۡبُيُوتِ﴾، وهو مِن روائع أساليب نَظْم الشَّرط في القرآن الكريم؛ فالفاء في قولِه: ﴿فَٱسۡتَشۡهِدُواْ﴾ هِيَ الفاءُ المُشْبِهَةُ فاءَ الجوابِ الدّالّةَ على أنّ الكلامَ على تقدير وجودِ شرطٍ وجوابٍ، والتَّقديرُ: (إن يأتينَ الفاحشَةَ؛ فَاسْتَشهِدُوا).

ودلّتِ المبالغة في ﴿فَٱسۡتَشۡهِدُواْ﴾ دُونَ (فأشهدوا) على التّقصّي والتّثبّت من وقوع الفاحشة.

والفَاءُ في قولِه: ﴿فَإِن شَهِدُواْ﴾ تَفريعيَّةٌ فهي مُضَمَّنَةٌ معنى الشَّرط؛ لأَنَّ الاستشهادَ المُتقدّمَ سببٌ للشَّهادة، والفاءُ في قولِه: ﴿فَأَمۡسِكُوهُنَّ﴾ جَزائيَّةٌ[1]، فلمّا كان الجزاءُ مبنيًّا على الشَّرط المُقدَّر وما تفرَّعَ منه أَخَّرهُ، فصارَ في الصُّورة جزاءً ﴿فَإِن شَهِدُواْ﴾، وهوفي الحقيقة جزاءٌ مبنيٌّ على مجموع الجملتين قبلَه، والمعنى (إن يأتينَ بفاحشةٍ وشهدوا عليهنَّ بعدَ طلبِ الشَّهادةِ؛ فأَمسكوهنَّ في البيوت)، ولولا قَصدُ الاهتمام بإعداد الشَّهادة قبل الحُكم بالحَبسِ في البُيوت لقيلَ: واللَّاتي يأْتِينَ الفاحشةَ مِن نسائِكم فأَمسكوهُنَّ في البيوت إن شَهِدَ عليهنَّ أَربَعَة منكم؛ فقدّمَ وأَخَّرَ لإفادة أهمّيَّة الشَّهادة قبلَ الحكم عليهنَّ صيانةً للطَّعْنِ بغير موجِبٍ، وحِفظًا لِأَعْرَاضِ النِّساءِ المُسْلِمَات.

دِلَالَةُ تَعْلِيقِ الْإِمْسَاكِ فِي الْبُيُوتِ بِوُقُوعِ الشَّرْطِ:

النَّهْيُ عَنْ إِمْسَاكِ النِّسَاءِ فِي الْبُيُوتِ لِمَحْضِ التَّحَكُّمِ

جاء وجوبُ الإمساك في البيوت بما ذُكِرَ في حَيّز الشَّرط في قولِه سبحانه: ﴿وَٱلَّٰتِي يَأۡتِينَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمۡ فَٱسۡتَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِنَّ أَرۡبَعَةٗ مِّنكُمۡۖ فَإِن شَهِدُواْ فَأَمۡسِكُوهُنَّ فِي ٱلۡبُيُوتِ﴾؛ لأنّ إتيانَ النِّساءِ الفاحشةَ هو الَّذي سَبَّبَ إمساكَهُنَّ في البيوت، وإن كان قد بُنِيَ نَظمُ الكلامِ على جَعلِ ﴿فَٱسۡتَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِنَّ﴾ هو الخبَر، لكنَّهُ

(1) ابنُ عاشور، التّحرير والتّنْوير: 4/277.

خَبَرٌ صُوريٌّ، وإلَّا فإنَّ الخَبَرَ هو ﴿فَأَمۡسِكُوهُنَّ﴾، لكنَّه جِيءَ به جوابًا لشرطٍ هُوَ مُتَفَرِّعٌ على ﴿فَإِن شَهِدُواْ﴾[1]، فالشَّرْطُ هُوَ مجموع إتيان الفاحشة والشّهادة عليهنَّ، وجزاؤُهُ: ﴿فَأَمۡسِكُوهُنَّ فِي ٱلۡبُيُوتِ﴾، وتعليقُ الجوابِ بوجود الشَّرط قَيدٌ له، "وفي هذا دليلٌ على تَحريم إمساكِهنَّ في البيوت، ومَنعِهنَّ الخروجَ عند الحاجة إليهِ في غير هذه الحالة لِمُجَرَّد الغَيرَةِ، أَو مَحضِ التَّحَكُّم مِنَ الرِّجال، واتّباعهم لأَهوائِهم في ذلك كما يَفعَلُهُ بَعضُهم"[2].

نُكْتَةُ إِيثَارِ التَّعْبِيرِ بِـ ﴿فَأَمۡسِكُوهُنَّ فِي ٱلۡبُيُوتِ﴾ دُونَ (فَاحْبِسُوهُنَّ):

جاء التَّعبيرُ بالإمساك دون الحَبس الّذي عبّرَ به المفَسِّرونَ[3]؛ للإشارة إلى أنّ بقاءَهنّ في البيوت على معنى الحفظ لَهُنَّ والرّعاية بالتَّهذيبِ والعطفِ، فالإمساكُ هو الحفظُ في موضعٍ مُحرِزٍ، وتقييدُ الإمساكِ بأن يكونَ في البيوت؛ لِمَا في دِلَالَة البَيْتِ مِن معنى السَّكن والاستقرار النَّفسيِّ، وفي ذلك صيانةٌ لهنَّ عَن مِثْلِ مَا جرى عليهنَّ بسبب الخروج مِنَ البيوت والتَّعرُّض للرِّجال[4]، كما أنّ البيوتَ ليسَت مكانًا للحَبسِ، فلو عبّرَ بالحبسِ لَفاتَ معنى الحفظِ والرِّعايةِ المَقصودَينِ مِنَ الإمساك في البيوت، وتعبيرُ من عبَّرَ بِالْحَبْسِ تفسيرًا لِلَفْظِ (الإمساكِ) إنَّما هو بِاعْتِبَارِ أنَّ الإمسَاكَ في البيوت سِجنٌ لهنّ، فأُخِذَ الحبسُ مِنْ هذَا المَعْنَى.

الْإِمْسَاكُ فِي الْبُيُوتِ يُرَادُ بِهِ الْحِفْظُ وَالرِّعَايَةُ وَالتَّهْذِيبُ

سِرُّ التَّعْبِيرِ بِـ ﴿حَتَّىٰ﴾ دُونَ (إِلَى) فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَأَمۡسِكُوهُنَّ فِي ٱلۡبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلۡمَوۡتُ﴾:

أُوثِرَ التَّعبيرُ بـ ﴿حَتَّىٰ﴾ الّتي لانتهاء الغاية وإفادة التَّدريج في قوله تعالى: ﴿فَأَمۡسِكُوهُنَّ فِي ٱلۡبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلۡمَوۡتُ﴾؛ لأنَّ الفعلَ

(1) ابنُ عاشور، التّحرير والتّنْوير: 4/277.
(2) رضا، تفسير المنار: 4/357، والمراغيّ، تفسير المراغيّ: 4/206.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 8/73، والرّازيّ، مفاتيح الغيب: 9/528.
(4) الزّمَخْشري، الكشّاف: 1/487، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 3/1610.

المُتعدّيَ بها الغرضُ فيه أن ينقضيَ شيئًا فَشَيْئًا، حتَّى يأتيَ عليه إلى غايتِه[1]، و(إلى) ليست كذلك؛ فأفادَ التَّعبيرُ بـ ﴿حَتَّىٰ﴾ أنَّ انقضاءَ الإمساك في البيوت يكونُ شيئًا فشيئًا تدريجًا حتَّى يتوفَّاهُنَّ الموتُ أو يجعلَ اللّه تعالى لهنّ سبيلًا؛ للإشعار بصُعُوبَةِ انقضاء مدَّة الحياة واستيفائها شيئًا فشيئًا بانتظار الموتِ أو الحُكْم مِنَ اللّه سبحانه، "والعربُ تَتَخَيَّلُ العُمرَ مُجَزَّءًا، فالأَيَّامُ والزَّمانُ والموتُ يَستَخلِصُهُ مِن صاحِبِهِ مُنَجَّمًا إلى أَن تَتَوَفَّاه"[2]؛ لِيكونَ هذا التَّدريجُ في استيفاء الموت عقوبةً أخرى تُضافُ إلى عقوبة الإمساك في البيوت حتَّى يتوفّاهُنّ الموتُ، أو يجعلَ اللّهُ تعالى لهنَّ طريقًا واضحًا لِلْخُرُوجِ مِن ذلك الإمساك بما يحكمُ اللّهُ به مِنَ العقوبة لهنَّ.

التَّدْرِيجُ فِي اسْتِيفَاءِ الْمَوْتِ: عُقُوبَةٌ فَوْقَ عُقُوبَةِ الْإِمْسَاكِ فِي الْبُيُوتِ

دِلَالَةُ الْمَجَازِ فِي قَوْلِهِ: ﴿يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلْمَوْتُ﴾:

يَصِحُّ أن يُحملَ معنى: ﴿يَتَوَفَّىٰهُنَّ﴾ على المعنى اللّغويِّ بمعنى الاستيفاء، والمعنى (حتَّى يَستوفيَ أرواحَهُنّ الموتُ أو يَستوفيَ آجالَهُنّ الموتُ)، ويكون استعارةً مكنيَّةً تبعيَّةً؛ إذ شُبِّهَ الموتُ بالشَّخص الّذي يأخذُ حقّهُ كاملًا[3]، ثُمَّ اشتُقَّ مِنْهُ الفعلُ (يَتوفَّى)؛ لإفادة استيفاء مدّةِ حياتِهنَّ بالموتِ.

مِنْ طَرَائِقِ التَّخْوِيفِ وَالتَّرْهِيبِ: التَّذْكِيرُ بِالْمَوْتِ

ويَصحُّ أن يكون بمعناه المعهودِ، وهو الموتُ، ولابدَّ حينئذٍ من تقديرٍ؛ إذْ لا يَصحُّ أن يكون المعنى (حتَّى يُميتَهُنَّ الموتُ)، ويكون التَّقديرُ: (حتَّى تتوفّاهنّ ملائكةُ الموتِ)؛ لِيكونَ مَجازًا من إسناد ما للفاعل الحقيقيِّ وهو الملائكةُ إلى أثرِ فعلِهِ وهو الموتُ[4]، فأسندَ التَّوفي إلى الموت، وإنَّما هو إلى ملائكة الموت، وجاء على طريقة المجاز؛ لقصدِ التّخويفِ والتَّرهيبِ باستشعار أنّ الموتَ هو الّذي يَتوفّاهُم.

(1) المراديّ، الجنى الدّاني، ص: 544.
(2) ابنُ عاشور، التّحرير والتّنوير: 4/271.
(3) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 4/477.
(4) الزّمَخْشري، الكشّاف: 1/488، والآلوسي، روح المعاني: 2/444.

تَشْرِيعُ الْأَحْكَامِ إِنَّمَا هُوَ لِتَحْقِيقِ مَصَالِحِ الْعِبَادِ

نُكْتَةُ تَقْدِيمِ الْجَارِّ وَالْمَجْرُورِ عَلَى الْمَفْعُولِ فِي قَوْلِهِ: ﴿أَوْ يَجْعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا﴾:

قُدِّمَ ﴿لَهُنَّ﴾ على المفعولِ بهِ ﴿سَبِيلًا﴾ في قولهِ تعالى: ﴿أَوْ يَجْعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا﴾؛ اهتمامًا بأمرِ أولئك النِّساءِ، وفي هذا التَّقديم مراعاةٌ للتَّناسُبِ الصَّوتيِّ الذي عليه أواخرُ الآياتِ في هذه السُّورةِ؛ إذ لو وردَ النَّظْمُ القرآنيُّ: (أو يجعل الله سبيلًا لهنَّ)؛ لفاتَ هذا التَّناسُبُ.

بَيَانُ اللهِ تَعَالَى لِلْأَحْكَامِ: بَيَانٌ لَا لَبْسَ فِيهِ

دِلَالَةُ الِاسْتِعَارَةِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَوْ يَجْعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا﴾:

جاء التَّعبير عن الحُكْم المشتَمِلِ على العقوبةِ بالسَّبيلِ في قوله تعالى: ﴿أَوْ يَجْعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا﴾، والسَّبيلُ في الأصلِ: الطَّريقُ الجادَّة السَّالكةُ الواضحَةُ، فإطلاقُهُ على الحكمِ استعارةٌ تصريحيَّةٌ؛ حيثُ شُبِّهَ الحكمُ بالسَّبيلِ بجامع الوضوحِ والبيانِ في كُلٍّ، فَحُذف المشبَّهُ وصُرِّحَ بالمشبَّهِ بهِ[1]، وفي هذا إشعَارٌ بأنَّ الحُكْمَ المُرْتَقَبَ ظاهرٌ بيِّنٌ لا لَبْسَ فيهِ.

وهذا السَّبيلُ غيرُ الإمساكِ في البيوت؛ لِدلالة ﴿أَوْ﴾ الّتي تقتضي المغايرةَ بين المعطوفَين، ويَحْتَمل أن تكون ﴿أَوْ﴾ بِمَعْنَى: إلى أَنْ، والمعنى: فأمسكوهُنَّ في البيوت حتَّى يتوفَّاهُنَّ الموتُ إلى أن يجعلَ اللهُ لهنَّ سبيلًا[2]، وعلى كلا الوجهينِ فإنَّ الكلامَ مُقْتَضٍ للمغايرَةِ بين الحُكمَينِ.

وليسَ في كلمة ﴿سَبِيلًا﴾ دلالةٌ على كونِهِ أخفَّ من الإمساك في البيوت، كما أنَّ تنكيرَ ﴿سَبِيلًا﴾ دالٌّ على الإبهام المُقتضِي لِلْإِجْمَال[3]؛ إمعانًا في التَّخويف والتَّرهيب، لئلّا يعُودُوا إلى الفاحشة، ولا سيّما مع تعليقِ جَعْلِ السَّبيل على وصف الألوهيّة الّتي تدلُّ على علوِّه سبحانَه وتفرُّدِه بالتَّشريعِ.

(1) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 2/155، وابنُ عاشور، التّحرير والتّنْوير: 4/271.
(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/15.
(3) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 4/206.

نُكْتَةُ التَّعْبِيرِ بِالتَّثْنِيَةِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَٱلَّذَانِ﴾ بَعْدَ التَّعْبِيرِ بِالْجَمْعِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَٱلَّٰتِي يَأۡتِينَ﴾:

مِـنْ أَسَـالِـيـبِ الْـكَـلَامِ الْبَلِيغِ: التَّفَنُّنُ فِي التَّعْبِيرِ وَالـتَّـصَـرُّفُ فِيهِ مَعَ أَمْنِ اللَّبْسِ

وردَ التَّعبير بالمثنَّى في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذَانِ يَأۡتِيَٰنِهَا مِنكُمۡ فَـَٔاذُوهُمَاۖ﴾ بعدَ ورود التَّعبير بالجَمع في قوله: ﴿وَٱلَّٰتِي يَأۡتِينَ ٱلۡفَٰحِشَةَ﴾؛ تفنُّنًا في الأسلوبِ وتنويعًا له؛ فإنَّ ذلك مَعهودٌ في الكلام البليغ معَ الأَمن مِنَ الاشتباه[1].

والتَّعميم حاصلٌ بالأسلوبَيْن معًا؛ فأمَّا عمومُهُ بضمير الجمع فظاهرٌ في قوله: ﴿وَٱلَّٰتِي يَأۡتِينَ ٱلۡفَٰحِشَةَ﴾، وأمَّا عمومُهُ في ضمير التَّثنية ﴿وَٱلَّذَانِ يَأۡتِيَٰنِهَا مِنكُمۡ فَـَٔاذُوهُمَاۖ﴾؛ فلأنَّ المرادَ صنفانِ من الرِّجالِ، وهم المُحصَنُونَ وغيرُ المُحصَنِينَ، وإنَّما أُشْعِرَ بالصِّنْفَيْنِ؛ تحرُّزًا مِن التماسِ العذرِ لغيرِ المُحصَنِينَ.

ويجوزُ أن يكونَ قوله: ﴿وَٱلَّذَانِ﴾ مرادًا به: صنفُ الرِّجالِ وصنفُ النِّساء، وعُبِّر بالاسم الموصول الدَّال على المثنَّى المذكَّر مِنْ باب التَّغليب، "فعلَى الوَجْهِ الأوَّل تكونُ الآيةُ قد جَعَلت للنِّساء عقوبةً واحدةً على الزِّنا، وهي عقوبةُ الْحَبْسِ في البيوت، وللرِّجال عقوبةٌ على الزِّنا، هي الأذى، سواء أكانوا محصَنِين بزوجَاتٍ أَم غيرَ مُحْصَنِين، وهم الْأَعْزَبُونَ، وعلى الوجه الثَّاني تكونُ قَد جَعَلَت للنِّساء عقُوبَتَيْنِ: عقوبةً خاصَّة بهِنَّ وهي الحبس، وعقوبةً لهُنَّ كعقوبةِ الرِّجال وهي الأذى، فيكون الحبسُ لهُنَّ مع عقوبة الأذى، وعلى كِلا الوَجْهَيْنِ يُسْتَفَادُ استواءُ المُحْصَن وغيرِ المُحْصَن مِنَ الصِّنْفَيْنِ في كِلْتَا العقوبتين، فأمَّا الرجال فبِدِلَالَة تَثْنِيَة اسم الموصول المرادِ بها صِنْفَان اثنان، وأمَّا النِّساء فبِدِلَالَة عمُومِ صِيغَةِ ﴿نِّسَآئِكُمۡ﴾"[2].

(1) رضا، تفسير المنار: 4/360.

(2) ابنُ عاشور، التّحرير والتّنْوير: 4/272.

نُكْتَةُ التَّعْبِيرِ عَنِ الْفَاحِشَةِ بِالِاسْمِ الْمُضْمَرِ دُونَ الِاسْمِ الظَّاهِرِ:

تَعْلِيمُ اللهِ تَعَالَى عِبَادَهُ الْأَدَبَ فِي الْكَلَامِ؛ وَذَلِكَ بِسُلُوكِ مَسْلَكِ الْكِنَايَةِ عَمَّا يُسْتَقْبَحُ ذِكْرُهُ

جاء التَّعبيرُ عن الفاحشةِ بالاسم المُضمرِ في قولِه: ﴿يَأْتِينَهَا﴾، دون الاسمِ الظَّاهرِ؛ إذْ لم يَرِدْ: واللَّذانِ يأتيانِ الفاحشةَ، وكان التَّصريحُ باسم الفاحشةِ أقربَ لمقتضى الظَّاهرِ؛ لطول الفصلِ بكلامٍ كثيرٍ، إلَّا أنَّ التَّعبير بالضَّمير أنسبُ؛ لمَا في ذِكْرِ الفاحشَةِ مِنَ القُبحِ، فلا تُذكَرُ إلَّا في مَوضِعِ الحاجة، ولمّا كان المقامُ مقامَ سَتْرٍ، وهُو ما يُنافي الظُّهورَ؛ اكتُفِيَ بالضَّميرِ، وكُنِّيَ به عنِ الاسم الظَّاهر.

دِلَالَةُ الْفَاءِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَـَٔاذُوهُمَاۖ﴾:

تَعْجِيلُ الْعُقُوبَةِ عَلَى الْجَرَائِمِ أَقْوَى فِي الزَّجْرِ عَنْهَا

أفادتِ الفاءُ في قوله تعالى: ﴿فَـَٔاذُوهُمَاۖ﴾ وجوبَ إيقاعِ الأذيَّةِ عليهِمَا على التَّعقيب مِن غَيْرِ مُهلَة؛ تَعجيلًا للزَّجر، ولئلَّا لا يضْعُفَ الرَّدْعُ عند التَّراخِي في العقوبةِ، وأفادتِ الفاء تضمّن الجملةِ معنى الشّرط، فالإذايةُ مفرَّعةٌ على إتيانِهما الفاحشةَ.

سِرُّ حَذْفِ مُتَعَلَّقِ فِعْلِ الْإِيذَاءِ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَـَٔاذُوهُمَاۖ﴾:

الزِّنَا مِنْ أَقْبَحِ الْجَرَائِمِ شُؤْمًا عَلَى الْمُجْتَمَعَاتِ

لَم تُقيَّدِ الأذِيَّةُ بنوعٍ مُعيَّنٍ؛ إذْ لم يَرِد النَّظْمُ القرآنيُّ: فآذوهما بالضّربِ، أو بالقولِ، أو بأيِّ نوعٍ مخصوصٍ مِن أنواع الأذيَّة؛ وذلك لقصدِ إفادةِ الإطلاقِ المُقتضِي عُمُومَ أَنواعِ الأذيَّة؛ لاستحقاقهما ذلكَ بسبب إتيانِهمَا جُرْمًا مِن أقبحِ الجرائمِ شُؤمًا على المجتمعاتِ.

دِلَالَةُ الْفَاءِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَإِن تَابَا﴾:

عُقُوبَةُ آتِي الْفَاحِشَةِ قَدْ يَكُونُ سَبَبًا لِتَوْبَتِهِ

أفادتِ الفاءُ العاطفةُ بينَ الجملِ ترتّبَ المسبَّبِ على ما تقدَّمَها منَ السَّببِ، فقد رتّبَ توقُّعَ توبتِهما عمّا فَعلا من الفاحشة وإصلاحِهما لِمَا وقعا فيه من الفساد على ما لَقِيَا مِن زواجر الأذيّة وقوارع التّوبيخِ، فكان الإيذاءُ سببًا للتَّوبة[1]، وفي هذا إعلامٌ بأنَّ تشريعَ العقوباتِ لا يُرادُ به مجرَّدُ الإيذاءِ العاري عمَّا يُرجَى من ورائِهَا.

(1) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 2/155، والقونويّ، حاشية القونويّ على تفسير البيضاويّ: 7/74.

سِرُّ حَذْفِ الْمُتَعَلَّقِ مِنْ ﴿فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا﴾:

إِذَا كَانَ ضَرَرُ الْمَعْصِيَةِ مُتَعَدِّيًا؛ وَجَبَ عَلَى الْعَاصِي إِصْلَاحُ مَا أَفْسَدَهُ بِمَعْصِيَتِهِ

حُذِفَ مِنَ الفعلِ ﴿تَابَا﴾ متعلّقاهُ، أحدهما: (إِلَى اللّهِ)، والتَّقدير: فإن تابَا إلى اللّهِ؛ وحُذِفَ ذلك لِلْعِلْم به، فإنَّ التَّوبةَ من جملة الأعمال الصَّالحةِ التي لا يتوجَّهُ العبدُ بها إلى أحدٍ إلَّا إلى اللّهِ تعالَى، والآخرُ: الأمر الذي تِيبَ مِنْهُ، والتَّقدير: فإن تابَا ممَّا فعلاهُ من الفاحشَةِ، وحُذِفَ ذلك للعِلْمِ به أيضًا، ولئلَّا يُصرَّحَ بذِكْرِ لَفْظِ الفاحشَةِ؛ لشناعَةِ حقيقَتِهَا.

وحُذِفَ متعلّقُ الفعلِ ﴿وَأَصْلَحَا﴾ لإرادةِ التَّعميم؛ فإنَّ حذف المتعلّق مؤذِنٌ بذلك، فأفادَ هذا الحذفُ عمومَ الإصلاح؛ لِيشملَ إصلاحَ نفسِهما وإصلاحَ ما أفسداه في المجتمع، وقد أشار إلى هذه قصْدَ العموم ابنُ عطيَّةَ؛ إذْ قال: "فأمرَ اللّهُ تعالى المُؤمنينَ، إذا تابَ الزَّانيان وأَصلحَا في سائر أَعمالهما أن يُكَفَّ عَنْهُما الأَذى"[1].

بلاغةُ تعليق جواب الشَّرط على مجموع الشَّرط:

الإعراضُ عن أَصحاب الفواحش بعد التَّوبة والإصلاح

جاء الجزاءُ (فَأَعرضُوا عنهما) مُتعلّقًا بجملتي الشَّرط (تَابا وَأَصلَحَا)، فالجزاءُ الّذي هو وجوبُ الإعراضِ عنهما أَمرٌ يَتعلّق إيجابُه بمجموع ما حَصلَ منَ الجملتَين، فليسَ هو للتَّوبة على الانفراد ولا للإصلاح على الإطلاق، بل هو لحصول التَّوبة والإصلاح كليهما.

نُكْتَةُ التَّعْبِيرِ بِـ ﴿فَأَعْرِضُواْ عَنْهُمَآ﴾ دُونَ (فَتَوَلَّوا عَنْهُمَا):

وُجُوبُ الْإِعْرَاضِ عَنِ التَّائِبِ وَتَرْكِ تَعْنِيفِهِ عَمَّا تَابَ مِنْهُ

جاءَ التَّعبير بالإعراضِ في قوله تعالى: ﴿فَأَعْرِضُواْ عَنْهُمَآ﴾ دُونَ (تَوَلَّوَا عَنْهُمَا)؛ لِلْإِشْعَارِ بوجُوبِ الانصرافِ عَنْهُما بالكلّيّة؛ لأنّ المُتَوَلّي هو الّذي يُطْمَعُ في رجوعِه؛ لأَنَّ تولّيَه قد يكونُ لحاجةٍ تدعُو إلى الانصراف مع إمكانيَّةِ الرَّجعةِ، والمُعرِضُ لا يُطمعُ في رجوعِه بوجهٍ؛ لأَنَّ معنى الإعراض هو الانصرافُ عنِ الشَّيء بالقَلْبِ، وتخطّي

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/23.

البدَنِ له[1]، إذِ الإعراض بالبدن ليس بِمُفيدٍ في تركِ الإيذَاء؛ فآثرَ لفظَ الإعراضِ عِنْدَ الكفِّ؛ لِمَا في قوَّة الكلمة من الغَضِّ مِنَ الزُّناة، وإن تابوا؛ فالإعراضُ هنا ليسَ أمرًا بهجرةٍ، بل هو مُتاركةُ معرِضٍ احتِقارًا لِلمَعصية المُتَقَدِّمَة[2].

نِكَاتُ تَصْدِيرِ قَوْلِهِ سُبْحَانَهُ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ بِـ ﴿إِنَّ﴾:

سَعَةُ رَحْمَةِ اللهِ تَعَالَى بِعِبَادِهِ: مُطِيعِهِمْ وَعَاصِيهِمْ

أفادت ﴿إِنَّ﴾ في صدر آية التَّذييل في قوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ نكاتٍ:

أوَّلُهَا: إفادةُ ربط مضْمُون جملة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ بما قبلَها؛ لِتكونَ متآلفةً معها، متّحدةً بها، حتّى كأَنَّ ما قبلَها وما بعدَها قد أُفرغَا إفراغًا واحدًا، وقد سُبِكَ أحدُهما بالآخر، ولو أُسقطت ﴿إِنَّ﴾ انقطعَ الكلامُ ونبا عنِ الّذي سبقَه، وهذا الأسلوبُ كثيرٌ في القرآن[3].

ثَانِيهَا: الإشعارُ بأنَّ ما بعدَها جوابٌ عن سؤالٍ، فكأنَّ سائلًا سَأَلَ: هل من توبةٍ للَّذين يفعلونَ هذا الفعلَ الشَّنيعَ؟ فكأنَّ المخاطَبَ ظنَّ أَن لا توبةَ لِمَن يفعلُ هذا الفعلَ الشَّنيعَ، فكانَ المَوضِعُ مَوضِعَ افتقارٍ إلى ﴿إِنَّ﴾[4]؛ لِتكونَ جوابًا عن هذا السُّؤال المُقدَّر من مخاطَبٍ غيرِ مُعيَّنٍ؛ لِيفيدَ أنَّ مِن حقِّ أيِّ مخاطَبٍ أن يسألَ هذا السُّؤالَ، وتقديرُ الجواب: نعم لَهُمْ توبةٌ؛ لأنَّ اللّه موصوفٌ بكونه تَوَّابًا رحيمًا، وعلى هذا يكون بين هذه الجملةِ وما قبلَهَا شبهُ كمالِ الاتِّصالِ، ولذا فُصلَت بِتَرْكِ الواوِ في صدرِهَا.

ثالثها: إفادةُ تأكيدِ وصفِ اللّه تعالى بالتَّوبة والرَّحمة، بعدَ تأكيدِ هذا الوصفِ بمجيئِهِ في جملة اسميَّةٍ دالّةٍ على الثُّبوت والاستمرار،

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/358، والرّاغب، تفسير الرّاغب: 1/248، والكفويّ، الكليّات، ص: 28.
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/23، والقونويّ، حاشية القونويّ على تفسير البيضاويّ: 7/74.
(3) الجرجانّي، دلائل الإعجاز، ص: 316.
(4) الجرجانّي، دلائل الإعجاز، ص: 325.

فاجتمعَ تأكيدان لِمناسبة المقام، فإنَّ العقوباتِ المذكورةَ على فعل الفاحشة قد تُوهِمُ أن لا توبةَ لِفَاعِلِهَا، فناسبَ تأكيدَ الوصفِ للتَّحريضِ على الْإِقْبَالِ عَلَى اللّٰه تعالى والتَّوبةِ مِنْ ذلكَ الفِعْلِ.

رابعُهَا: إفادةُ تعليلِ الأمرِ بالإعراضِ عَمَّن يفعلُ الفاحشةَ[1]، وقد أفادَ التَّعليلُ بـ ﴿إِنَّ﴾ التَّرغيبَ في ترك الفِعْلِ المذكورِ، والتَّوبة إلى اللّٰه تعالى مِنْهُ.

دِلَالَةُ صِيغَةِ الْمُبَالَغَةِ فِي اسْمَيِ اللهِ تَعَالَى الْوَارِدَيْنِ فِي قَوْلِه: ﴿تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾:

اللهُ تَعَالَى وَاسِعُ التَّوْبَةِ وَالرَّحْمَةِ، كَثِيرُهُمَا

وردَ اسمَا اللّٰهِ تعالى: التَّوَّابُ والرَّحيم في قولهِ سُبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ بصيغةِ المبالغة؛ لإفادة أمرين:

أحدهما سعةُ توبتِه سبحانه ورحمتِه، وشمولُهما كُلَّ التّائبينَ.

والآخر: كثرةُ توبتِه ورحمتِه على عباده المؤمنين، وفي ذلكَ تَرْغيبٌ في توبةِ الْعَاصِينَ، وحثٌّ على المبادرةِ إلَيها.

نُكْتَةُ تَقْدِيمِ اسْمِ اللهِ تَعَالَى (التَّوَّاب) عَلَى اسْمِهِ تَعَالَى (الرَّحِيم) فِي قَوْلِهِ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾:

تَوْبَةُ اللهِ تَعَالَى عَلَى الْعِبَادِ أَثَرٌ مِنْ آثَارِ رَحْمَتِهِ سُبْحَانَهُ

لمّا كانَت توبةُ اللّٰهِ تعالَى على عبادِه الّذين يفعلونَ الفواحشَ الّتي أَمرَ باجتنابِها أمرًا عظيمًا؛ اقتضى أن يُعَقِّب التّوبة بالرّحمة؛ بيانًا لِسَعةِ رحمتِه بعبادِه المؤمنين، ولولا رحمةُ اللّٰهِ بهم لَمَا تابَ عليهم، كما أفاد التّعقيبُ أنَّ اللّٰه سيرحمُهُم بعدَ توبتِه عليهم، فتقديم اسم اللّٰه تعالى التَّواب على اسمه الرَّحيم هو من باب التَّخلية قبل التَّحلية.

(1) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 2/155.

﴿إِنَّمَا ٱلتَّوۡبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن
قَرِيبٖ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا ١٧
وَلَيۡسَتِ ٱلتَّوۡبَةُ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ
ٱلۡمَوۡتُ قَالَ إِنِّي تُبۡتُ ٱلۡـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمۡ كُفَّارٌۚ أُوْلَٰٓئِكَ
أَعۡتَدۡنَا لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا ١٨﴾ [النّساء: 17 - 18]

مُناسَبَةُ الآيَتيْنِ لِمَا قَبْلَهُما:

علاقة معاقبة أصحاب الفواحش، بالتّذكير بالتّوبة وشروطها ومآلاتها

لمَّا ذكر تعالى عقوبة الفحشاء للمحصنين بالزّواج، وغير المحصنين من العزّاب، وختمها بالتّقرير بأَنَّ التَّوبة مع الإِصلاح، تحمي صاحبها من العُقوبة في الدُّنيا، لأنّه تعالى توَّاب رحيم، وهو ما كان منصوصًا عليه في بداية التّشريع الّذي انتهى بتقنين الحدّ الشّرعيّ لكلّ حالة، عَقَّبَ ذلك ببيان شروطِ قَبول التَّوبة من العاصين الّذين يبادرون إلى المتاب، ويسارعون إلى الإياب، فيتوب اللّه عليهم بفضله، ويمحو سيّئاتهم بعفوه، وليست التّوبة للمتواكلين الّذين يخوضون في المعاصي، حتّى يداهمهم الموت، فيعلنون التّوبة عند الخوف من الممات، واليقين بالوفاة، فأولئك لهم سوء العقاب، وأليم العذاب.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلسُّوٓءَ﴾: هو عيبٌ أو نقصٌ من قُبحٍ أو فسادٍ أو مرضٍ يخالطُ ظاهرَ الشَّيء أو باطنَه، فهو اسمٌ جامعٌ للآفات والدَّاء، وكلُّ كلام أَو فعلٍ قبيح وشائن، هو سُوء، يُقال: رَجُلٌ أَسوَأُ، أَي: قَبيحٌ، وامرأَةٌ سَوآءُ، أَي: قَبيحةٌ، ولذلك سُمِّيَتِ السَّيِّئَةُ سَيِّئَةً، وسمِّيَتِ النَّارُ سُوأَى؛ لِقُبحِ مَنظرِها، والسَّيء نَعتٌ للذَّكَر من الأَعمال، والسَّيئة للأُنثى،

وكلُّ (سُوء) في القرآن هو الفعلُ القبيحُ[1]، والاسم السّوء، بالضّم، وقُرئ ﴿عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ﴾ [التّوبة: 98]، يعني الهزيمة والشّر، ومن فتح، فهو من المساءة، وتقول هذا رجل سوء بالإضافة، ثمّ تدخل عليه الألف واللّام، فتقول: هذا رجل السّوء، قال الفرزدق:

وَكُنْتَ كَذِئْبِ السُّوءِ لَمَّا رَأَى دَمًا *** بِصَاحِبِهِ يَوْمًا أَحَالَ عَلَى الدَّمِ[2]

وفي تفسير الغريب لابن قتيبة قوله تعالى: ﴿وَسَآءَ سَبِيلًا ۝٣٢﴾ [الإسراء: 32]، أي قبح هذا الفعل فعلا وطريقا، كما تقول: ساء هذا مذهبا، وهو منصوب على التّمييز، كما قال ﴿وَحَسُنَ أُوْلَـٰٓئِكَ رَفِيقًا ۝٦٩﴾ [النّساء: 69][3]، والسُّوء في هذه الآية يعمُّ الكفرَ والمعاصي[4]، وقوله تعالى: ﴿يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ﴾، أي يقع منهم ما يسيء، من غير أن تُرْكَس نفسه في السّيئات وتحيط بها[5].

2) ﴿بِجَهَـٰلَةٍ﴾: أصل الكلمة جَهِلَ، وتدلُّ الكلمةُ على معنى خلوِّ الباطن (ممَّا يفيدُ أو يُطلب) مع جفافٍ، ومنه ناقةٌ مجهولةٌ: لم تُحلَب قطّ، وأرضٌ مجهولةٌ: لا أعلامَ بها ولا جبالَ، ومنه الجهلُ الّذي هو نقيضُ العِلم؛ لأنَّ الجاهلَ خالي الذِّهن من المعلومات، وكلُّ شيءٍ جهلتَهُ بمعنى لم تعرفْهُ، والجَهالة: أن يَفعلَ فعلًا بغير علم[6]، والجَهالَةُ في الآية بمعنى فعلَ فِعلَ الجُهَّالِ أو جَهِلَ العقوبةَ[7]، "والجاهل يذكر تارةً على سبيل الذّمّ، وهو الأكثر، وتارة لا على سبيله، نحو: ﴿يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ﴾ [البقرة: 273]، أي من لا يعرف حالهم... قلت: والجهل على قسمين: بسيط ومركّب، فالبسيط: عدم العلم عمّا من شأنه أن يعلم، والمركّب: اعتقاد جازم غير مطابق للواقع، قاله ابن الكمال"[8].

3) ﴿حَضَرَ﴾: الكلمةُ تدلُّ على إيراد الشَّيءِ ووُرُودِه، ومُشاهَدَتِه، ومُعاينتِه، والإحضارُ بمعنى إيرادِه ومشاهدتِه عيانًا، والحَضَرُ خلافُ البدوِ؛ لورودهم حول المناهلِ فيجتمعونَ،

(1) الأزهري، تهذيب اللغة، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (سوأ).
(2) الجوهريّ، الصّحاح: (سوء).
(3) الزَّبيديّ، تاج العروس: (سوأ).
(4) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/24.
(5) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 3/1613.
(6) الأزهري، تهذيب اللغة، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (جهل).
(7) البغويّ، معالم التّنزيل: 1/586.
(8) الزَّبيديّ، تاج العروس: (جهل).

ويقيمونَ، والحضورُ اسمٌ لشهادةِ مكانٍ أو إنسانٍ أو غيرِه معَ معاينةٍ له[1]، ومعنى حضرَ الموتَ، هو وقتُ النَّزعِ ومُعاينة مَلَكِ الموت[2]، وفي استعمال لفظ ﴿حَضَرَ﴾ للدّلالة على وقوع الأجل بالقدر، إيحاءٌ بسلطان الموت الّذي يحضر في كلّ حين، ويباغت البشر أجمعين، وأنّه حاضرٌ باطّراد، حضورا مفروضا لا فكاك منه، ولا منأى عنه.

4) ﴿أَعْتَدْنَا﴾: أصل الكلمة عَتَدَ، بمعنى هَيّأَ وأَعَدَّ، والعَتَادُ: الشَّيءُ الَّذي تُعِدّه لأمرٍ ما وتهيِّئُهُ له بحيث يكونُ حاضرًا وقت الحاجة إليه، وعليه يدورُ معنى (عَتَدَ) ومشتقّاتِها، وَحكى يَعْقُوب أَن تَاء أَعْتَدْتُهُ بدل من دَال أَعْدَدْتُه، وَفِي التَّنْزِيل: ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَاۚ﴾ [الكهف: 29]، قَالَ الشَّاعِر:

أَعْتَدْتُ للْغُرَماءِ كَلْبا ضَارِيًا *** عِنْدِي وفَضْلَ هِرَاوَةٍ من أَرْزَنِ[3]

و﴿أَعْتَدْنَا﴾ بمعنى هيّأنا وأَعددْنا، فالعذابُ الأليمُ حاضرٌ للكافرينَ، والمعنى في السّياق: " أولئك الّذين تابواْ في غير وقت قبول التّوبة، هيأنا لهم عذابا مؤلما موجعا بسبب ارتكاسهم في المعاصي وابتعادهم عن الصراط المستقيم الذي يرضاه سبحانه لعباده"[4].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

التّوبة للمسارع إلى النّدم قبل الفوت، لا للمصرّ على الكفر حتّى يدهمه الموت

إنَّما يقبلُ اللّهُ التَّوبةَ مِنَ الَّذينَ يَرتكبونَ المعاصيَ، لجهلٍ منهم بسوء عاقبَتِها، ومغبّة ارتكابها، ثُمَّ لا يلبثون أن يرعووا عن فعلتهم، ويسارعوا إلى التّوبة النّصوح، في ندم وإخبات، فيجدون اللّه العليم بطواياهم، والمطّلع على نِيَّاتِهم، حكيما في معاملتهم، قابلًا لتوبتهم، وليست التَّوبة مقبولة من المصرّين في عناد وغرور، على ارتكاب المعاصي، والمجاهرة بالفجور، حتّى تدهمهم سكراتُ الموت، وينزع عن أعينهم الغطاء، ويكون البصر – آنئذٍ – في غرغرة الموت

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (حضر).
(2) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 5/93.
(3) ابن سيده، المحكم: (عَتُدَ)، ورد الشّطر الثّاني برواية أخرى:
أَعْتَدْتُ للْغُرَماءِ كَلْبا ضَارِيًا *** عِنْدِي وفَضْلَ هِرَاوَةٍ من أَرْزَنِ
ينظر: ابن منظور، لسان العرب: 3/278.
(4) طنطاويّ، التفسير الوسيط: 3/88.

حديدًا، فيندم أحدُهم، ويقول: إنّي تُبتُ الآنَ، ولات حين مندم، إذْ لا مجال للتّوبة حيث يُغلقُ بابُ التّوبة على العصاة، ويُسدُّ المجالُ على الكفرة العتاة، لأنّ اللّه أمهلهم في الدّنيا، فكفروا به، وأصرّوا على عصيانه، فأعتد لهم عذابًا أليمًا، سوف يصطلون بناره، ويتألّمون من آثاره.

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

بَلَاغَةُ الْقَصْرِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوۡبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ﴾:

الْبِشَارَةُ بِقَبُولِ تَوْبَةِ التَّائِبِينَ إِذَا صَدَرَتْ مِنْهُمْ قَبْلَ الْمَوْتِ

في قول اللّه تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوۡبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٖ﴾ أسلوبُ قصرٍ، وقد جاء طريقُهُ بـ ﴿إِنَّمَا﴾، وهذا الأسلوب أفاد نكاتٍ:

أوَّلُهَا: أنَّ قبولَ التّوبة مِن اللّه تعالى ليس على إطلاقِه كما يُنبِئُ عنه وصفُه تعالى بكونه تَوَّابًا رحيمًا، بل هو مقيّدٌ بِمَن يَعملُ السُّوءَ بجهالةٍ ثمَّ يَتوبُ مِن قريبٍ قبلَ الموت.

ثانيها: لمّا كانَ القصرُ هنا مفيدًا تخصيصَ التّوبة بالّذين يعملونَ السُّوءَ بجهالةٍ، ثمَّ يتوبونَ من قريبٍ؛ دلّ على أنّ توبةَ مَن عدا هؤلاء بمنزلة العدَم، فهو قصر إفرادٍ؛ جيءَ به لِدفعِ توهّمِ أنَّ غيرَ هؤلاءِ قد تشملُهم التَّوبةُ.

ثالثُها: أشعرَ القصرُ بـ ﴿إِنَّمَا﴾ أنَّ قبولَ اللّه تعالى التَّوبة مِنَ الّذينَ يعملون السُّوء ثمّ يتُوبون مِن قريبٍ أمرٌ واضحٌ جليٌّ[1]، لاشكَّ فيه؛ لأنَّ ﴿إِنَّمَا﴾ موضوعةٌ في الأصلِ للأمر الذي لا يجهلهُ المخاطَبُ ولا يُنكِرُهُ، وكأنَّه أمرٌ معلوم لكلِّ سامع، أو هو ممّا يَنْبَغِي أن لا يكونَ مَجْهُولًا، فينبغي لكلّ سامعٍ أن يتلقَّاه بالقبول، وفي هذا بِشارةٌ بِقَبُول توبةِ مَن يعملُ السُّوءَ، ثُمَّ يتوبُ مِن قريبٍ.

(1) الجرجانّي، دلائل الإعجاز، ص: 330، والسّكّاكّي، مفتاح العلوم، ص: 295.

رابِعُهَا: فيه تعريضٌ[1] بذمِّ الّذين لا يتوبونَ من قريبٍ لِغَلَبَةِ الهوى عليهم، فهم لا يَستحقّونَ التَّوبةَ، ولا يقبلُها اللّهُ تعالَى مِنْهُم.

دِلَالَةُ ﴿عَلَى﴾ فِي قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوۡبَةُ عَلَى ٱللَّهِ﴾:

حرفُ الجرِّ ﴿عَلَى﴾ دالٌّ في الأصلِ على مَعْنَى الاِسْتِعْلاءِ، وأفادَت ﴿عَلَى﴾ في قول اللّه تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوۡبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٖ﴾ على تحقُّق وقوع وعدِ اللّه سبحانه بقبول توبة التَّائبينَ، وذلك لأنَّ (على) تُستعمَلُ في معنى الإيجابِ، فتوبةُ اللّهِ تَعَالَى علَى من تابَ قبلَ موتِهِ توبةً مستوفيةً الشُّروطَ أمرٌ واجبٌ أوجبَهُ اللّه تعالى على نفسِهِ تكرُّمًا وتفضُّلًا، لا لاستحقاقِ العبادِ ذلكَ، كما قال ابن القيِّم:

مَا لِلْعِبَادِ عَلَيْهِ حَقٌّ وَاجِبٌ *** هُوَ أَوْجَبَ الْأَجْرَ الْعَظِيمَ الشَّانِ[2]

وفي سلوكِ مسلَكِ الإيجابِ دفعٌ لِمَا قَد يُتَوَهَّمُ أنَّ اللّه تعالى لا يقبلُ توبةَ مَن يفعلونَ الفاحشةَ، ومَن يكفرونَ به سبحانَهُ؛ لِشناعة أفعالِهم وقُبحِها، فأفادت ﴿عَلَى﴾ تحقيقَ الوعدِ بقبول التَّوبة لِمَن يتوبُ مِن قريبٍ قبل نزول الموت به.

إِيجَابُ اللهِ تَعَالَى عَلَى نَفْسِهِ قَبُولَ تَوْبَةِ التَّائِبِينَ هُوَ تَكَرُّمٌ وَتَفَضُّلٌ مِنْهُ سُبْحَانَهُ

نُكْتَةُ التَّقْيِيدِ بِالْحَالِ ﴿بِجَهَٰلَةٖ﴾ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوۡبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ﴾:

﴿بِجَهَٰلَةٖ﴾ من قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوۡبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ﴾ جارٌّ ومجرورٌ متعلِّقان بمحذوفٍ حالٌ مِنَ فاعل ﴿يَعۡمَلُونَ﴾، وقد أفادَ الحالُ تقييدَ قبولِ توبةِ اللّه تعالى على العبادِ، وأنَّ الّذين يتوبُ اللّهُ عليهم هُمُ الّذين يعملونَ السُّوءَ مُتلبِّسينَ بجهالَتِهم بِعاقبةِ عملِهم؛ لِسفَهِهم وتغلّبِ شهوتِهم، وفي هذا إشارةٌ

كُلُّ مَنْ عَصَى اللهَ تَعَالَى؛ فَهُوَ جَاهِلٌ

(1) الجرجانّي، دلائل الإعجاز، ص: 354، والسّكّاكيّ، مفتاح العلوم، ص: 296.
(2) ابن القيّم، الكافية الشَّافية، ص: 208.

إلى أنَّ ارتكابَ القبيح ممَّا يدعو إليه السَّفَهُ والشَّهوةُ حالَ ارتكاب الفاحشة، لا ممَّا تدعو إليه الحِكمةُ والعقلُ[1].

ولمّا كانَ عملُ السُّوء لا ينفكُّ عن تلبّسِه بالجَهَالَةِ لِعَدَم جَرْيِهِ وفقَ العلم وَالحكمةِ والعقلِ؛ كان مجيءُ الحال كالوَصْفِ الكَاشِفِ لِعَمَلِ السُّوء[2]، وَوُصِفَ ارتكابُ الذَّنب بالجهالة؛ لِتَنْزِيل عِلْمِه منزلةَ الجهلِ لعدم جريهِ على مُقتضى العلم[3].

دِلَالَةُ ﴿ثُمَّ﴾ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ﴾:

سَعَةُ رَحْمَةِ اللهِ تَعَالَى فِي إِمْهَالِ الْعَاصِينَ

أفادَ حرفُ العطفِ ﴿ثُمَّ﴾ الدّالُّ على التَّرتيب والتَّراخي في قوله سبحانه: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوۡبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٖ﴾ أنَّ التَّوبةَ قد يكونُ فيها تراخٍ عن فعل المعصية؛ لبيان رحمة الله بالعبادِ وفَضْلِهِ عليهم، معَ طلبِ المبادَرةِ إلى التَّوبة الّذي أشعرَ به قولُه تعالى: ﴿مِن قَرِيبٖ﴾.

دِلَالَةُ حَرْفِ الْجَرِّ ﴿مِن﴾ فِي قَوْلِهِ سُبْحَانَهُ: ﴿ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٖ﴾:

كُلَّمَا بَادَرَ الْعَبْدُ إِلَى التَّوْبَةِ؛ كَانَتْ بِالْقَبُولِ أَحْرَى

﴿مِن﴾ في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٖ﴾ تحتملُ وجهين:

أحدُهما: أن تكون لابتداء الغاية الزَّمانيَّة، أي: يجعلونَ مبتدأَ توبَتِهم زَمانًا قَريبًا مِنَ المَعصيَة؛ لِئَلَّا يندَرِجُوا في زُمرَة المُصرِّينَ على الذّنب[4].

وفي هذا إشعارٌ بأنَّ وقتَ التَّوبةِ كلَّما قَرُبَ مِن وَقتِ اقترافِ الذَّنبِ؛ كان الرَّجاءُ بالقبول أَقوى، وهم بقبولِ التّوبةِ أولى ممَّن تابَ بعدَهم، وفي هذا: إرشادٌ إلى المبادرةِ إلى التَّوبةِ، لِئلّا يُشرَبَ في قلوبهم حُبُّ السَّيّئة فيتعذَّرَ عليهم الرُّجوعُ.

(1) الزّمَخْشري، الكشّاف: 1/488، وأبو حيّان، البحر المحيط: 3/561.
(2) ابنُ عاشور، التّحرير والتّنْوير: 4/278.
(3) القونويّ، حاشية القونويّ على البيضاويّ: 7/76.
(4) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 10/7، ابنُ عاشور، التّحرير والتّنْوير: 4/278.

وفيه إشارةٌ إلى تفاوت درجَاتِ التَّائبينَ على وَفْقِ أَقربيَّتِهم بالتَّوبة إلى الانتهاءِ مِن فِعْلِ السَّيِّئة، ويمتدُّ القُربُ إلى زمَنِ حضُورِ المَوْتِ؛ فكُلُّ قريبٌ ما دامَتِ التَّوبةُ قبل المَوْت.

والآخَرُ: أن تكون ﴿مِن﴾ لِلتَّبعِيضِ، والمعنى: يتوبونَ في أيِّ جُزءٍ من الزَّمان القريب الّذي هو قبلَ أن ينزلَ بهم سلطانُ الموت، كأنَّهُ سُمِّيَ ما بينَ وجودِ المعصيةِ وحضورِ الموتِ زمانًا قريبًا، ففي أيِّ جزءٍ تابَ مِن أجزاءِ هذا الزَّمانِ فهو تائِبٌ مِن قريبٍ، وإلَّا فهو تائِبٌ مِن بعيدٍ[1].

دِلَالَةُ التَّعْبِيرِ بِالْقُرْبِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ﴾:

كُلُّ مَا هُوَ آتٍ قَرِيبٌ

أَجمعَ المُفسِّرونَ على أنَّ المرادَ من القُربِ حُضورُ زَمانِ المَوتِ، وقد وصفَ اللّه تعالى هذا الوقتَ بأنّه ﴿قَرِيبٍ﴾ لِأوجُهٍ[2]:

أَحَدُها: أنَّ أجلَ العبادِ لمَّا كان إتيانُهُ متحقِّقًا؛ جُعِلَ ذلك قريبًا؛ لأنَّ كُلَّ ما هو آتٍ قريبٌ.

ثانيها: التَّنبيهُ على أَنَّ مُدَّةَ عُمرِ الإنسان - وإن طالَت - قليلةٌ قريبةٌ، فإنَّها مَحفوفَةٌ بطرفي الأَزَلِ والأَبدِ، فإذا قَسَّمتَ مُدَّةَ عُمرِكَ إلى ما على طَرَفَيها؛ صار كالعَدَم.

ثالثُها: أَنَّ الإنسان يَتَوَقَّعُ في كلِّ لحظةٍ نُزولَ المَوتِ به، وما هذا حالُهُ؛ فإنَّهُ يُوصَفُ بالقُرب.

نُكْتَةُ تَنْكِيرِ ﴿قَرِيبٍ﴾ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ﴾:

كُلُّ وَقْتٍ قَبْلَ الْمَوْتِ قَرِيبٌ بِالنِّسْبَةِ إلى إيقَاعِ التَّوْبَةِ فِيهِ

وردَت كلمةُ ﴿قَرِيبٍ﴾ من قوله سبحانه: ﴿ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ﴾ نكرةً؛ لإطلاقِ وصفِ كلِّ الأوقاتِ الّتي قبلَ الموتِ بأنَّها قريبةٌ، ويصحُّ وقوعُ التَّوبة فيها؛ رحمةً مِنَ اللّهِ وفضلًا منه ﷻ.

(1) الزَّمَخْشري، الكشّاف: 1/489، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 2/65، وأبو حيّان، البحر المحيط: 3/562.
(2) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 10/7.

دِلَالَةُ الْفَاءِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۗ﴾:

عَظِيمُ فَضْلِ اللهِ تَعَالَى بِقَبُولِهِ تَوْبَةَ التَّائِبِينَ

دلَّتِ الفاءُ في ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ من قَوْلِه تعالَى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۗ﴾ على التَّرتيب والتَّعقيب والسَّببيَّة؛ لِيكونَ عملُ السُّوءِ بجهالةٍ والتَّوبة من قريبٍ سَبَبًا لِقبول اللّه تعالى توبتَهم مِن غير تَرَاخٍ، بل يقبلُ اللّه توبتَهم عَقِبَ إقلاعِهم عنِ الذَّنبِ -مع باقِي شروطِ التَّوبةِ- مِن غيرِ مُهلةٍ، فَضلًا مِنْهُ ﷻ ورحمةً.

نِكَاتُ التَّعْبِيرِ بِاسْمِ الْإِشَارَةِ (أُوْلَئِكَ) فِي قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۗ﴾:

عُلُوُّ مَنْزِلَةِ التَّائِبِينَ

في التَّعبير باسم الإشارة (أُولَئِكَ) في قوله سبحانه: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۗ﴾ نكاتٌ:

أوَّلُهَا: استِحضارُهُم في الذِّهنِ عند الحُكمِ؛ لئلَّا يَخطُرَ في بالِ القارِئِ والسَّامِعِ إشراكُ غيرِهم معهم فيه[1].

ثانِيهَا: تنبيهُ المُخاطَبينَ على أنّ المشارَ إليهم هُم باعتبار مجموعِ الأَوصافِ المُتَقَدِّمَةِ البالِغَةِ غايَةَ الخَوفِ مِنَ اللّهِ تعالى والمُبادِرَة إلى طَلَب مَرضاتِهِ؛ لِيُعرَفَ أَنَّهُم أَحْرِياءُ بمدلول المُسندِ الوارِدِ بعد اسم الإشارة، أي: أَحْرِيَاءُ بتَوْبَة اللّهِ تعالَى عليهم، فهو نَظيرُ بناءِ المُسْنَدِ على اسم الإشارةِ في قولِهِ تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ﴾ [البقرة: 5]، والمعنى: هؤلاء همُ الَّذين جعلَهُمُ اللّهُ مُستَحِقِّينَ قَبولَ التَّوبةِ منهم[2].

ثالثُها: الإشعارُ بِرِفْعَةِ رُتبة مَن يتوبُ اللّهُ تعالَى عليه، بما أَفادَهُ اسمُ الإشارة مِنَ البُعْدِ في المكانة والمنزلة.

(1) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 2/156، ورضا، تفسير المنار: 4/366.
(2) ابنُ عاشور، التّحرير والتّنْوير: 4/280.

دِلَالَةُ التَّأْكِيدِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۗ﴾:

مَـنْ تَـابَ؛ تَـابَ اللهُ تَعَالَى عَلَيْهِ

أُكِّدَ قولُ اللّه تعالى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۗ﴾؛ تقريرًا لِتَوْبَةِ اللّهِ على المذكورةِ أوصافُهم، وتثبيتًا لِلْمَعْنَى في النُّفوسِ، وتكريمًا لَهُمْ، وجاءَ هذا التَّوكيدُ في صُوَرٍ:

أوَّلها: مجيءُ الجملةِ اسميَّةً ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۗ﴾، وذلك دالٌّ على ثبوتِ مضمونِها ودوامِه واستمرارِه.

ثَانِيهَا: التَّعبير عن فِعْلِ التَّوبةِ بصيغة الْمُضَارِعِ؛ لإفادة تجدّد قبول اللّهِ تعالى توبةَ التَّائبينَ؛ تأكيدًا وتقريرًا لِمَا دلّت عليه الجملة الاسميّة.

ثالثُها: مجيءُ خبرِ (أُولَئِكَ) جملةً فعليَّةً؛ لإفادة تقوية الحُكم، فإنَّ عَوْدَ الضَّميرِ في ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾ على (أُولَئِكَ) في حكمِ تكرارِ الإسناد[1]، والتَّقديرُ: يتوبُ اللّه على أولئك، يتوب اللّه عَلَيْهِم.

وجاء إسنادُ الجملة الفعليَّة على أصلِ ترتيبِهَا، فقال سبحانه: ﴿يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۗ﴾ مِن غير تقديم ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾ عَلَى الْفَاعِلِ ﴿ٱللَّهُ﴾؛ لأنّ مدارَ السِّياق على قَبولِ اللّه تعالَى التّوبةَ، وبيانِ سعةِ رحمتِه بذلكَ، فناسبَ أن يبقَى تقديمُ الفاعلِ ﴿ٱللَّهُ﴾ لما تضمَّنه من صفات الجلال والجمال والكمال.

سِرُّ تَقْيِيدِ التَّوْبَةِ بِـ﴿عَلَىٰ﴾ أَوَّلًا، وَبِـ(اللام) آخِرًا فِي قَوْلِهِ: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوۡبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ﴾:

شُمُولُ تَوْبَةِ اللهِ تَعَالَى عَلَى عِبَادِهِ الْمُحَقِّقِينَ شُرُوطَ التَّوْبَةِ

في قول اللّهِ تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوۡبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ﴾، تقييدٌ لفعلِ التَّوبة بحَرْفَيْ جَرٍّ؛ إذْ قُيِّد أوَّلًا بحرف الجرِّ ﴿عَلَى﴾ في قوله: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوۡبَةُ عَلَى ٱللَّهِ﴾، ثُمَّ قُيِّد بعدُ بحرف الجرِّ اللَّام في قوله سُبحانه: ﴿لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ﴾، ففي تقييدِه بـ﴿عَلَى﴾ دِلالةٌ

(1) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 2/156، والسّكّاكي، مفتاح العلوم، ص: 211.

على الوفاءِ بالوعد والقبول بالفِعْلِ؛ والإشعار باستيعاب التَّوبة لهم وشمولِهم بِهَا؛ لأنّ المقامَ مقامُ استيعابٍ وشمولٍ، ويجوزُ أن يكون في العبارةِ تضمينٌ؛ وذلك بتضمين التّوبة معنى العَطفِ، والمعنى: يَعطِفُ عليهم بقَبول تَوبَتِهم ويَعودُ برحمتِهِ عليهم[1]، وفي تقييدِهِ التَّوبةَ بـ ﴿عَلَى﴾ إعلامٌ بأنَّ ذلك شيءٌ أوجَبَهُ اللّه تعالى على نفسِهِ تفضُّلًا وتكرُّمًا منه.

ثُمّ قُيِّد فعلُ التَّوبةِ باللَّام المفيدةِ للاختصاصِ في قوله: ﴿لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ﴾، وذلك أنَّ صدرَ الآية لَمَّا كان مشعرًا بعموم توبةِ اللّه تعالى على العبادِ، أعقبَهُ ببيانِ أنَّ ذلك خاصٌّ لمن يعمل السُّوءَ بجهالةٍ ثمَّ يتوبُ قبل الموتِ، فكان هذا كالاحْتِرَاس.

نُكْتَةُ الْإِظْهَارِ فِي مَوْضِعِ الْإِضْمَارِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾:

جاء الاسمُ الأحسنُ ﴿ٱللَّهُ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ ظاهرًا، مع قُرب ذِكْرِه في قولهِ قبلُ: ﴿يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۗ﴾، فأظهرَ الاسم الأحسنَ (اللّه) في مَوضِع الإضمار؛ للإشعار بعلَّة الحُكم؛ لأنّ الألوهيَّةَ مَنشأٌ لاتِّصافِه تعالى بصفات الكمال[2]، كما أنَّ في تكرُّرِ ذكرِه تلذّذًا للتَّائب المقبلِ على اللّه ﷻ.

أُلُوهِيَّةُ اللهِ تَعَالَى مَنْشَأٌ لِاتِّصَافِهِ سُبْحَانَهُ بِصِفَاتِ الْكَمَالِ

وأشعرَ مجيءُ الوصفين بصيغة المُشتَقّ لِلْمُبَالغة ﴿عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ - مع تقدُّم قولِهِ: ﴿وَكَانَ﴾ - دوامَ اتِّصاف اللّهِ تعالَى بالعلم والحكمة وملازمتِهما لَهُ ﷻ؛ فهو المُتّصِفُ بصفات الجَمال والجَلال والكمَالِ.

مُنَاسَبَةُ خَتْمِ الْآيَةِ بِاسْمَيِ اللهِ تَعَالَى: الْعَلِيمِ وَالْحَكِيمِ:

لمّا كانَ وقوعُ المعصيةِ النَّاشئُ عن استيلاء الشَّهوة والغضَب والجهالة علَى صاحبِها حاصِلًا بعِلْمِ اللّهِ تعالَى، وهو سبحانَه عالمٌ بإخلاصِهم في التَّوبة؛ ناسَبَ أن يَرِدَ في ختامِ الآية اسمُهُ العليم،

الْحَكِيمُ لَا يُعَاقِبُ مَنْ تَابَ تَوْبَةً صَحِيحَةً

(1) رضا، تفسير المنار: 4/366.

(2) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 2/156.

ثُمَّ لمّا كانَ قبولُ التَّوبةِ ممّا أوجبَه اللّهُ تعالى على نفسِهِ فَضلًا منه ورحمةً بالعباد لِحكمةٍ منه في هذا الإيجاب؛ ناسَبَ أن يُتبِعَ اسمَهُ العليم باسمه الحكيم، فقال سبحانه: ﴿عَلِيمًا حَكِيمًا﴾، والحكيمُ لا يُعاقِبُ التَّائبَ[1].

سِرُّ تَوَجُّهِ النَّفْيِ إِلَى التَّوْبَةِ فِي قوله تعالى: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾:

لَا قِيمَةَ لِلتَّوْبَةِ إِنْ لَمْ يَقْبَلْهَا اللهُ تَعَالَى

قال تعالَى: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾، ولم يَقُل هنا: (وليستِ التّوبةُ على اللّهِ) كما جاء في الآية السّابقة، وذلك أنَّه ليس المُرادُ نَفيَ القَطعِ بقَبولِ توبَتِهم، وإنَّما المُرادُ نَفيُ وُقوعِ التَّوبةِ الصَّحيحةِ منهم، وأنَّه ليسَ مِن شأنِها أن تكونَ لهم، ولو نَفَى كونها ممَّا أوجَبَه تعالى على نفسِه لكان المعنى أنَّها غيرُ واجبةٍ لهم، ولا مَقطوعٍ بقَبولِها منهم، ولكنَّهم قد يَنالونَها[2]، فيكونُ ظاهرُ النَّفي مُتوجّهًا إلى حصولِ التَّوبة مع أنّها قد توجدُ عندَ الموت، فنَفَى وجودَ التَّوبة؛ للإشعار بأنّ التَّوبةَ وإن وُجِدَت فلا فائدةَ منها إنْ لَم يَقْبَلْهَا اللّهُ تعالى.

دِلَالَةُ الْفِعْلِ الْمُضَارِعِ ﴿يَعْمَلُونَ﴾ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾:

لَا تُقْبَلُ التَّوْبَةُ مِمَّنْ أَصَرَّ عَلَى الْمَعْصِيَةِ حَتَّى حَضَرَهُ الْمَوْتُ

جاء التَّعبير بالفعل المضارع ﴿يَعْمَلُونَ﴾ دون الماضي (للذينَ عَمِلُوا) إشعارًا بتجدّد عَمَلِهم للسّيّئات حالًا فحالًا، وأنَّهُم مُصِرُّونَ على عَمَلِها إلى أن يَحضُرَهُمُ الموتُ[3]، فحقيقٌ بِهَؤُلَاءِ أن لا يَقْبَلَ اللّهُ تَعَالَى مِنْهُم.

نُكْتَةُ التَّعْبِيرِ فِي الْآيَةِ بِـ﴿ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ دُونَ (السُّوءِ):

عُبّرَ في هذه الآية بِـ ﴿ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ بصيغَةِ الْجَمْعِ فقال سبحانه: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾؛ باعتبار تكرّر وقوعِها في

(1) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 10/8، البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 2/65.
(2) رضا، تفسير المنار: 4/367.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/565.

الزَّمان المَديد[1]؛ لأنّهم مدّوا عملَ السّيّئات إلى الموت، فأفادَ الجمعُ التَّكثيرَ؛ ترهيبًا مِن الإغراقِ في السَّيِّاتِ الذي قد يُؤدِّي بالعبدِ إلى أن لا يتوبَ أصلًا، أو يتوبَ توبةً غير مقبولةٍ عند الله تعالى، بخلاف الآية السَّابقة، فقد جاء التَّعبير بـ (السُّوءِ)؛ للإشارة إلى نوعٍ منها؛ لِمناسبة مقام التَّوبة الّذي تقِلُّ فيه السّيّئات، كما أنَّ في التَّقليل ترغيبًا في التَّوبة وتعجيلًا لها.

الْإِغْـــــرَاقُ فِي السَّيِّئَاتِ مَظِنَّةٌ لِخَاتِمَةِ السُّوءِ

سِرُّ إِيثَارِ التَّعْبِيرِ بِـ ﴿حَتَّىٰٓ﴾ دُونَ (إِلَى) فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ﴾:

آثر التّعبير بـ ﴿حَتَّىٰٓ﴾ في قولِه تَعَالَى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ﴾ الّتي تفيد انتهاءَ الغاية مع التّدريج في هذَا الانتهَاء؛ لأنّ الفعلَ المُتعدّيَ بها الغرضُ فيهِ أَن يَنْقَضِيَ شيئًا فَشَيْئًا حتّى يأتي عليه إِلَى غايته[2]، و(إلى) ليسَت كذلك؛ لدِلَالَتِها على انتِهَاءِ الغَايَةِ مُطلَقًا؛ فأفاد التّعبيرُ بِـ ﴿حَتَّىٰٓ﴾ مُدَاوَمَتَهُم على فعل السّيّئات شَيْئًا فَشَيئًا تَدْرِيجًا مِن غيرِ انقطاعٍ حتّى حَضَرَهُمُ الموتُ، وهذا إِصْرَارٌ مِنْهُمْ عَلَى عَمَلِ السُّوءِ وتَمَادٍ فِيهِ، فأدّتْهم هذه الحالُ إلى أن فاجأَهم الموتُ وهُم مُتَلَبِّسُون بالسَّيِّئَات.

التَّرْهِيبُ مِنَ الْإِصْرَارِ عَلَى السَّيِّئَاتِ وَالتَّرْغِيبُ فِي الْمُبَادَرَةِ إِلَى التَّوْبَةِ

وفي هَذَا تَرْهِيبٌ مِنَ الْإِصْرَارِ علَى السَّيئات، وترغِيبٌ في المُبَادَرةِ إلى التَّوبَةِ؛ إذِ المَرْءُ لا يَدْرِي مَتَى يَفْجَؤُهُ أَجَلُهُ.

سَبَبُ تَعْلِيقِ الشَّرْطِ بِأَدَاةِ الشَّرْطِ ﴿إِذَا﴾ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ﴾:

عُلِّقَ الشَّرطُ بأداة الشَّرط ﴿إِذَا﴾ دُون (إن) في قوله سُبحانه: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ﴾؛ لأنَّ الأصل في وضعِ ﴿إِذَا﴾ أن تدلَّ على القَطْعِ والجزْمِ بوقوعِ مدخُولِهَا، ولمَّا كان حضورُ الموت واقعًا

الْمَوْتُ مَكْتُوبٌ عَلَى جَمِيعِ الْعِبَادِ

(1) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 2/157.

(2) المراديّ، الجنى الدّاني، ص: 544.

لا محالةَ؛ عُبّر بـ ﴿إِذَا﴾ جريًا على أَصلِ دلالَتِهَا؛ ولذا جاءَ الفعلُ ﴿حَضَرَ﴾ بصيغة الماضي؛ لأنَّه أقربُ إلى القَطْعِ نظرًا إلى اللَّفظ.

بَلَاغَةُ الِاسْتِعَارَةِ فِي قَوْلِهِ: ﴿حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ﴾:

التَّذْكِيرُ بِالْمَوْتِ مِنْ أَعْظَمِ الْمَوَاعِظِ الزَّاجِرَةِ عَنِ الْقَبَائِحِ

في قول اللّه تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ﴾ ذِكْرٌ لِلْمَوْتِ على طريقةِ الاستعارة؛ إذْ شُبِّهَ الموتُ بشخصٍ يأتي مكانًا أو شخصًا آخرَ، فيُعاينُه ويشاهدُهُ؛ بجامع المُلابَسَةِ والاجتِمَاعِ، ثمَّ حُذِفَ المشبَّهُ بِهِ؛ لِيكونَ مَجازًا بطريق الاستعارة المكنيّةِ المُضمّنةِ قوَّةَ الدَّعوى؛ لإفادة التَّرهيب مِن مُفَاجَأة الموتِ بحضورِه دونَ استعدادٍ ممّا يقعُ فيه المُذْنِبُونَ مِنْ غُرُور التَّسويف.

وللإمعان في التَّخويف والتَّرهيب استُعمِلَ الفعلُ ﴿حَضَرَ﴾ الدّالُّ على وُرُودِ المَوْتِ إِلَيْهِ، ومعاينَتِه له، ومشاهدتِه إيّاه.

ويَحْتَمِلُ أن يكون الكلامُ على الْحَقِيقَة؛ بتقديرِ الفاعِلِ محذوفًا، وإقامةِ المُضَافِ إِلَيْهِ مُقَامَه، والتَّقديرُ: إذا حضرَت أحدَهم ملائكةُ الموتِ، وحُذِفَ الفاعلُ؛ لإفادة التَّرهيب كذلك.

وفي كِلَا الوجهين خروجٌ عن الأصلِ؛ فالأوَّلُ فيه خروجٌ عن الحقيقة - وهي الأصل - ، وفي الآخَرِ خروجٌ عنه من جهةِ دَعوَى الحذفِ.

وهما وجهانِ متآيِلان، لا تعارُضَ بينَهُما في المعنَى.

نُكْتَةُ الْعُدُولِ عَنْ (إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ؛ تَابَ) إِلَى قَوْلِهِ: ﴿إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ﴾:

مِنْ شَرْطِ صِحَّةِ التَّوْبَةِ شَرْعًا وُقُوعُهَا قَبْلَ حُضُورِ الْمَوْتِ

قال اللّه تَعَالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ﴾ بنسبةِ التَّوبةِ إلى قولِ مُدَّعيها، ولم يَرِد النَّظمُ القرآنيُّ: (حتّى إذا حَضَرَ أحدهُم الموتُ؛ تَابَ)؛ لإسقاط قوله وتلفّظه بالتَّوبة عن درجة الاعتبار، فلِتَجَنُّبِ تسميتِه توبةً؛ نَسَبَ التَّوبةَ إلى القول[1]، وفي ذلك

(1) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 2/157.

إشعارٌ بأنَّها توبةٌ بحسب زَعْم مُدَّعيها لا في حقيقة الأمْر؛ إذْ مِن شروطِ التَّوبةِ شرعًا أن تقعَ قبلَ حضورِ الموتِ العبدَ، فإنْ أوقعَهَا عِنْدَ معايَنتِهِ الموتَ لم تُقبَل توبَتُهُ.

سِرُّ الِاخْتِلَافِ بَيْنَ قَوْلِهِ: ﴿ثُمَّ يَتُوبُونَ﴾ وَقَوْلِهِ: ﴿قَالَ إِنِّي تُبْتُ ٱلْـَٔـٰنَ﴾:

لمّا كان وقوعُ توبة المذكورين في الآيَةِ السّابقةِ حقيقةً؛ أُسنِدَتِ التَّوبةُ إليهم، فقال اللّه تعالى: ﴿ثُمَّ يَتُوبُونَ﴾، ولمّا كان الأمرُ في هذه الآيةِ متضمِّنًا دَعْوَى التَّوبةِ عندَ العِلم بالعَجز عَنِ الذَّنب؛ حُكِيَت دعواهُم في حصولِهَا، فقال تعالى" ﴿قَالَ إِنِّي تُبْتُ ٱلْـَٔـٰنَ﴾، أي: إنَّ قَلبَهُ لم يَنخَلِع مِنَ الذَّنب، ونَفسَهُ لم تَرغَب عنه فيكونُ تائبًا، ولو خلّي الموت عنه لرجع إلى عمل السّيّئات[1].

النَّـــاسُ فِي تحقيقهم التَّوْبَةَ أَصْنَافٌ

فَائِدَةُ عَطْفِ قَوْلِهِ: ﴿ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ عَلَى قَوْلِهِ: ﴿لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾:

لَمَّا كان قد يُتَوَهَّم أنّه لا معنى لنَفْيِ قَبُول التّوبة بالنّسبة إلى مَن لَم يَتُب، ولم يَطْلُبْها أصلًا ومات على الكفر؛ عُطِفَ هذا الصّنف على من سوَّفَ التَّوبةَ إلى حضور الموتِ مِنَ الفَسَقَةِ والكفَرَة؛ ليفيد التَّسويةَ بين حال توبتِهم في هذا الوقتِ وعدمِها؛ مُبَالغةً في عدَم الِاعْتِدَادِ بِهَا في حالِ التّوبة زمنَ حضُورِ المَوْتِ، وكأنّه قال: توبةُ هَؤُلاءِ وعَدَمُ توبَتِهم سواءٌ[2]؛ لأنَّ للتَّوبةِ شروطًا، من أخلَّ بها لم يُعتدَّ بتوبتِهِ شرعًا، وإذا كان كذلك كانت في حكمِ العدَمِ، فإنَّ المعدومَ شرعًا كالمعدومِ حسًّا.

الْمَعْدُومُ شَرْعًا كَالْمَعْدُومِ حِسًّا

دِلَالَةُ تَكْرَارِ النَّفْيِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾:

لِتَكرار النَّفي في قوله سبحانه: ﴿وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ نُكتَتانِ:

مِـــنْ مَـقَـاصِـدِ زِيَـادَةِ الْـحَـرْفِ: دَفْعُ تَوَهُّمِ غَيْرِ الْمَعْنَى الْمُرَادِ

(1) رضا، تفسير المنار: 4/367.

(2) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 2/65.

إحدَاهُمَا: أفادت (لا) تأكيدَ انتِفاءِ الحُكم عن كُلِّ واحدٍ بعدَ نفيه بـ (ليس)، أَي: ليستِ التَّوبةُ لِمَن يتوبُ وقتَ الموت، ولا لِمَن يموتُ وهو كافرٌ، ولو لم يأتِ بـ (لا) لاحتملَ أن يكون المعنى: إنَّ التَّوبةَ ليست لكليهما حالَ كونِهما مَجْمُوعَيْنِ بل التوبةُ لأَحدهما، فلمّا دخلت (لا) تقرّرَ تأكيدُ النَّفيِ عن كلِّ واحدٍ منهما تَفْصِيلًا للأمر وبيانًا له، بأنّه لا تَوْبَةَ لكلِّ واحدٍ منهما.

والأخرَى: أنَّهُ لمّا كانَ تَكرار حرفِ النَّفي في المعطوف يدلُّ على أنَّ ما بعدَ حرف النَّفي المُكرّر أدنى رتبةً ممّا قبلَه، أفادَ الكلامُ بإشعارٍ خفيٍّ أنَّ حالَ المسوِّفين في عدم استتباع الجدوى أقوى من حال الّذين يموتون على الكفر[1]، ويَحْتَمل أن يكون تكرارُ حرفِ النَّفي؛ لأَنّه لمّا كان أمرُ الكافرينَ مفروغًا مِنْهُ في أَنْ لا توبةَ لَهُمْ؛ قُدِّمَ ما يقعُ الشَّكُّ في قبول توبتِهِ مِمّن يتوبُ وقتَ حضُور الموت؛ لكونِهِ أَولَى بالإعلامِ مِمَّن حُسِمَ أمرُه أن لا توبَةَ له، وهم مَن يموتون وهم كفّار.

دِلَالَةُ اسْمِ الْإِشَارَةِ ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ﴾ فِي قَوْلِهِ سُبْحَانَهُ: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾:

فَظَاعَةُ حَالِ مَنْ مَاتَ عَلَى غَيْرِ تَوْبَةٍ مَقْبُولَةٍ

عُبّر باسم الإشارة (أُولَئِكَ) من قول الله تعالى: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ - وهو إشارةٌ إلى الفريقين - ، للإيماءِ إلى البُعْدِ المعنويّ، ولمّا كان السّياق في بيان أَنْ لَا توبَةَ لِلْمَذْكُورينَ دلَّ معنى البُعدِ في اسم الإشارةِ على تَرَامِي حالِهم في الفَظاعة وبُعدِ منزلتِهم في السّوء[2]

سَبَبُ فَصْلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ عَمَّا قَبْلُ:

بَيَانُ الْعَاقِبَةِ الْقَبِيحَةِ لِمَنْ لَمْ يَتُبْ تَوْبَةً صَحِيحَةً

فُصِلَ قول الله تعالى: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ عمَّا قبلَهُ؛ لأحدِ وجهين:

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/564، وأبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 2/157.
(2) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 2/157.

أحدُهُمَا: أنّ اللّه تعالى لمَّا نفى قبولَ توبةِ الصِّنفين: الّذين يعملونَ السّيّئات ويتوبونَ وقتَ الموتِ، والّذين يموتونَ وهم كفّارٌ؛ أعقبَهُ بتأكيد عدم قبول توبتهم[1]، فذكرَ أنّه تعالى أَعدَّ لهم عذابًا أليمًا، فلمّا كانت هذه الجملةُ تأكيدًا لِمَا قبلَها جاءت مفصولةً، فالمؤكِّد عينُ المؤكَّدِ في المعنى، فيكون بين الجملتين كمال الاتِّصالِ.

والآخرُ: أن يكونَ الكلامُ استئنافًا بيانيًّا؛ فيكون قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَعۡتَدۡنَا﴾ واقعًا في جوابِ سؤالٍ مقدَّرٍ، وذلك أنَّ اللّه تعالى لمَّا قال: ﴿وَلَيۡسَتِ ٱلتَّوۡبَةُ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ إِنِّي تُبۡتُ ٱلۡـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمۡ كُفَّارٌۚ﴾، أورثَ ذلك في نفس المتلقِّي سؤالًا، وهو: ماذا سيكونُ حالُ أولئك يومَ القيامةِ؟ فأجاب: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَعۡتَدۡنَا لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا﴾، فيكون بين الجملتين شبه كمال الاتِّصالِ.

نُكْتَةُ تَقْدِيمِ الْجَارِّ وَالْمَجْرُورِ ﴿لَهُمْ﴾ عَلَى ﴿عَذَابًا أَلِيمًا﴾ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَعۡتَدۡنَا لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا﴾:

الْحَثُّ عَلَى التَّوْبَةِ وَالْمُبَادَرَةِ إِلَيْهَا

قُدِّمَ ﴿لَهُمْ﴾ على المفعول الصّريح ﴿عَذَابًا أَلِيمًا﴾ من قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَعۡتَدۡنَا لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا﴾؛ لإظهارِ الاعتناء بكون العذاب الأليم مُعَدًّا لهم، ولبيان أنّه مخصّص لهم؛ زيادةً في تقريعِهم.

وفي تَخْصيصِ العذابِ الأليم بأولئك الصِّنْفَيْنِ دلالةٌ على أنَّ مَن يقبلُ اللّه تعالى توبتَه؛ فلَه النَّعيمُ المُقيمُ، وفي ضمن هذا حثٌّ وتحضيضٌ على الإقبال على التَّوبة والإسراع إليها.

سِرُّ تَنْكِيرِ (العذاب) وَتَقْيِيدِهِ بِالْوَصْفِ فِي قَوْلِهِ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَعۡتَدۡنَا لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا﴾:

شِدَّةُ عَذَابِ الْآخِرَةِ وَعَظِيمُ إِيلَامِهِ

نُكِّرَ العذاب من قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَعۡتَدۡنَا لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ تفخيمًا له وتعظيمًا، وَوَصْفُه بالأليم تفخيمٌ آخَرُ له؛ والفرق بين

(1) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 2/65.

التَّفْخِيمَيْنِ: أنَّ التَّفخيمَ الأوَّل ذاتيٌّ والآخر: وصفيٌّ عرضِيٌّ[1]، فجاء التَّفخيمُ في المَوضِعين نظرًا إلى لفظ ﴿أَعْتَدْنَا﴾ الّذي لا يَرِدُ إلَّا في مقام التَّعظيم والتَّفخيم، فكان الكلامُ مُطابقًا لمقتضى الحالِ، في شدَّةِ التَّرهيب والتَّخويف بذِكْرِ الإيلامِ للعذابِ.

فكأنَّ الإيلامَ تكرّرَ في الكلام؛ بذِكْرِ العذاب، وتنكيره، ووصفه بالأليم[2]، والغرضُ من المبالغة في بيان شدَّةِ عقوبة الآخرةِ، وأنّ العذابَ فيهَا يبلغُ إيجاعُه غايةَ البُلوغ[3].

تَوْجِيهُ المُتَشَابِهِ اللَّفْظِيِّ:

دِقَّـــةُ اخْـتِـيَـارِ الأَلْفَاظِ المُنَاسِبَةِ لِسِيَاقَاتِهَا

في هَاتين الآيتينِ الكريمَتَين متشابه لفظيٌّ مِن وَجْهَيْن:

أوَّلهما: بين قوله: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ﴾، وقوله: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْۗ﴾، والفرقُ بينَهما: أنَّ الأوّلَ إعلامٌ بأنَّ اللّه تعالى أوجبَ على نفسِهِ تكرُّمًا وتفضُّلًا قبولَ التَّوبة، بقرينة القَصْرِ بـ ﴿إِنَّمَا﴾ وحرف الجرّ ﴿عَلَى﴾، ووجوبُ قبولِ التّوبةِ دالٌّ على فضلِه وكرمِه وإحسانِه ﷻ، والموضع الآخَرُ: فيه إخبارٌ بأنَّ اللّه سبحانه سيتُوب عليهم؛ لِمجيءِ صيغةِ المضارع ﴿يَتُوبُ﴾ الدّالِّ على التَّجدّد والحدوثِ حالًا فحالًا في الحال والاستقبال[4].

والآخَرُ: بين قوله تعالى: ﴿حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ﴾، وقوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ۝٦١﴾ [الأنعام: 61]، وقوله: ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝١٠﴾ [المنافقون: 10].

فالآية الأولى فيها دِلالة على أنّ الموت أقربُ ما يكون إلى صاحبه؛ لدِلالَةِ (حَضَرَ) على الشّهود والمعاينة، فيكون مشاهدًا لملائكة الموت الّتي تتوفّاه.

(1) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 2/157.
(2) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 3/29.
(3) الزّجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 2/29.
(4) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 10/6.

وأمّا الآية الثّانية والثّالثة الّتي ورد فيها ﴿جَآءَ﴾ و﴿يَأۡتِيَ﴾ فيدلّان على قُرب الموت كذلك، ولكن ليس قربه فيهما كقرب الحضُور والمشاهدة، فقد يكون مَجِيئًا أو إتيانًا مِن غير مشاهدة ولا معاينة، فالتّعبير بالحضور أوثق لِلْوَفَاة مِن غيره وأقربُ، ولهذا قال اللّه تعالى في آية الأنعام: ﴿تَوَفَّتۡهُ رُسُلُنَا﴾ [الأنعام: 61] بعد قولِه: ﴿جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ﴾ [الأنعام: 61] بمعنى أنّ الحضور يكون بعد المجيء.

وذهب فاضلٌ السّامرائيّ إلى أنّ الآيات الّتي فيها حضور الموت تتكلّم في الوصايا والأحكام الّتي تكون بِحُضُور الموت، وكأنّ الموتَ هو من جملة الشّهود، فالقرآن هنا لا يتحدّث عن الموتِ نَفْسِه أو أحوال النّاس في الموت، و(جاء) و(أتى) تتكلّم في أحوال الشّخص عند الموت.

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(يَعْمَلُونَ) و(يَفْعَلُونَ):

جاء في الآية قولُه تعالى ﴿يَعۡمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ﴾، ولم يقُل (يفعلونَ السّيّئات)؛ لمناسبة (يعملونَ) لنظم الآية؛ فإنّ (العملَ) يشملُ الأعمالَ الحسّيّةَ من القول باللِّسان والفعل بالجوارح، والأعمال المعنويَّة الّتي تكونُ بالقلب، ولو قال (يفعلونَ) لَمَا دلَّ على هذا العموم؛ لأنّ (الفعلَ) يقتصرُ على ما يصدرُ من جوارح الإنسان، من مثلِ: الفمِ واليدِ والعينِ، ولا يشملُ القولَ باللِّسان، ولا عمل القلب، كما أنَّ (العملَ) يكونُ بعلمٍ وإجادةٍ وقصدٍ؛ ولهذا قال اللّه تعالى ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ ٩٦﴾ [البقرة: 96]؛ لِيشملَ قولَ اللِّسان وفعلَ الجوارح وعملَ القلب، وأمّا (الفعلُ) فيكونُ بإجادةٍ أو غيرِ إجادةٍ، وبعلمٍ أو غيرِ علمٍ، وقصدٍ أو غيرِ قصدٍ، ويكونُ من الإنسان والحيوان والجمادات[1]، وقد تناسق البيان في السّياق، للإفادة بأنَّ السّيّئات تكونُ في أقوالِهم، وأفعالِهم، وقلوبِهم، وللإشعارِ بأنّهم كانوا يعملونَ السّيّئات عن علمٍ وقصدٍ وإصرار، آثرَ التَّعبيرَ بـ ﴿يَعۡمَلُونَ﴾ دونَ (يفعلونَ)، لأنّ العمل ممارسة حسيّة مربوطة بمقصديّة معنويّة، وذلك مناط كلّ الأعمال الشّرعيّة، الّتي فيها حركيّة ظاهرة، ولكنّها مربوطة بالنّية، متّصلة بنقاء الطّويّة، فيقال عمل الصّالحات،

(1) الرّاغب، المفردات: (فعل)، والشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 3/1849، 8/4908.

كما في قوله تعالى: ﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَا كُفۡرَانَ لِسَعۡيِهِۦ﴾ [الأنبياء: 94]، بينما الأفعال المجرّدة، وخصوصًا أفعال المعصية والهلاك تسمّى أفعالا، كما في قوله تعالى: ﴿أَفَتُهۡلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ ١٧٣﴾ [الأعراف: 173]، وقوله: ﴿أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ٦﴾ [الأعراف: 173]، وأحيانا يستعمل لفظ (يعمل)، في الضّدين معا، كما في قوله تعالى: ﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ ٧ وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥ ٨﴾ [الزلزلة: 07 ـ 08].

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرۡهٗاۖ وَلَا تَعۡضُلُوهُنَّ لِتَذۡهَبُواْ بِبَعۡضِ مَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ إِلَّآ أَن يَأۡتِينَ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖۚ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ فَإِن كَرِهۡتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا ١٩﴾ [النّساء: 19]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الرّبط بين صنائع الجاهليين في الأموال واليتامى، وبين حقوق النّساء في الإسلام

لمَّا نهى سبحانه فيما تَقَدَّمَ عَن عادات الجاهليَّة المتعسّفة، في قضايا حقوق اليتامى، وتوزيع الأَموال الموروثة عن الهالكين بالموت، عَقَّبَ عليه بالنَّهي عَن نوعٍ مِنَ الاستِنانِ بِسُنَنِهِم في النِّساء وأَموالِهِنَّ، وإِنَّما جاءَ ذِكرُ التَّوبةِ استِطرادًا، فجاءتِ الآية استِئنافًا لتَشريع أَحكام النِّساء الَّتي ورد سياقُ السُّورَةِ لِبيانِها[1]، فلا يورثن كالمتاع وهنّ كارهات، ولا يُعْضلن في حال ولا مال، وأن تكون عشرتهنّ بالمعروف، فعسى أن يكون في ذلك خير.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تَرِثُواْ﴾: أصل الكلمة وَرِثَ، وتدلّ على أَن يكون الشَّيءُ لِقَومٍ، ثُمَّ يَصيرَ إِلى آخرينَ بنسبٍ أَو سَبَبٍ، من غير عقد، ولا ما يجري مَجرَى العقدِ، وسُمّي بذلك المُنتقلُ عن الميّت، ويُقالُ لكلّ مَن حصلَ له شيءٌ من غير تعبٍ: قد وَرِثَ كذا، والتُّراثُ بالضَّمِّ والإِرثُ بالمعنى نفسه، و﴿تَرِثُواْ﴾ في الآية بمعنى الانتقال إلى الوريث[2]، ووراثة نساء الآباء كانت سيرة في الأنصار لازمة، وكانت في قريش مباحة مع

(1) رضا، تفسير المنار: 4/356.

(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (ورث)، وقال الشَّافِعِي: (رحمه الله) في هذه الآية: "نزلت في الرّجل يمنع المرأة حقّ الله تعالى عليه، في عشرتها بالمعروف، عن غير طيب نفسها، ويحبسها لتموت فيرثها، أو يذهب ببعض ما آتاها" ينظر: الشّافعيّ، تفسير الإمام الشّافعيّ: 2/660.

التّراضي، من ذلك أنّ أبا عمرو بن أميّة، خلف على امرأة أبيه بعد موته، فولدت من أبي عمرو مسافرا وأبا معيط، وكان لها من أميّة أبو العيص وغيره، فكان بنو أميّة إخوة مسافر وأبي معيط وأعمامهما في نفس الوقت، وهو ما منعه الإسلام[1].

2) ﴿كَرْهًا﴾: يدُلُّ الكُرهُ على خلاف الرِّضا والمحبَّة، والكُره والكَره لغتان كالضَّعف والضُّعف، وذهب بعضُ اللّغويّين إلى أنَّ الكَرْهَ: المشقّة الّتي تنالُ الإنسانَ من خارجٍ فيما يُحمَلُ عليه، فيعملُه كارِهًا بإكراهٍ، والكُرهُ: ما ينالُه من ذاته، وهو يعافُه، وكلُّ ما في القرآن من (كَره)، فهو من معنى كراهةِ الشَّيءِ، أي: عدم قبول النَّفس إيَّاهُ، و﴿كَرْهًا﴾ في الآية بمعنى كارهات أو مُكرَهات[2]، ومعنى اللّفظ ﴿كَرْهًا﴾ في السّياق: " أي حال كونهن كارهات لذلك! أو مكرهات عليه، والتّقييد (بالكره) لا يدلّ على الجواز عند عدمه، لأنّ تخصيص الشّيء بالذّكر، لا يدلّ على نفي ما عداه"[3]، ولابن طباطبا في لفظ (كرها) قوله:

أَعَادَ الثُّرَيَّا وَالْهِلَالُ كِلَاهُمَا *** لِيَ الشَّمْسَ إِذْ وَدَّعْتُ كَرْهًا نَهَارَهَا

كَأَسْمَاءَ إِذْ زَارَتْ عِشَاءً وَغَادَرَتْ *** لَدَيْنَا دَلَالاً قُرْطَهَا وَسِوَارَهَا[4]

3) ﴿تَعْضُلُوهُنَّ﴾: أصل الكلمة عَضَلَ، ويدلُّ على التَّضييق، يُقالُ: أعضلَ في الأمرِ، أي: ضاقَ، وأصل العضْل من قولهم: عضلتِ المرأةُ: إذا نَشِبَ ولدُها فلم يسهل خروجُه، ومنه مسألةٌ مُعضِلَةٌ: إذا كانت صعبَةً لا يُهتدَى لوجه الصَّواب فيها لِضيقها، وأعضلَ الأمرُ: اشتدَّ لضيقِه، وداءٌ عُضالٌ: إذا عسُرت مداواتُه، يُقَالُ: عَضَلَ فُلَانٌ ابْنَتَهُ، إِذَا مَنَعَهَا مِنَ التَّزَوُّجِ، فَهُوَ يَعْضُلُهَا وَيَعْضِلُهَا، بِضَمِّ الضَّادِ وَبِكَسْرِهَا، وَأَنْشَدَ الْأَخْفَش:

وَإِنَّ قَصَائِدِي لَكَ فَاصْطَنِعْنِي *** كَرَائِمَ قَدْ عُضِلْنَ عَنِ النِّكَاحِ[5]

وقوله ﴿وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ﴾ في الآية، بمعنى لا تضرّوا النّساء بمنعهنّ رزقهنَّ، وكسوتهنَّ بالمعروف، والتَّضييق عليهنَّ[6].

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/26.
(2) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (كره).
(3) القاسميّ، محاسن التّأويل: 3/52.
(4) التّيفاشّي، سرور النّفس، ص: 135.
(5) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 6/454.
(6) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (عضل).

4) ﴿بِفَٰحِشَةٖ﴾: يدلُّ الفحشُ على قُبحٍ في شَيءٍ وشناعةٍ فيه، لمجاوزته الحدّ مع تكرّه له وذمٍّ شديدٍ، فالفُحشُ والفَحشَاءُ والفاحِشَةُ ما عظُمَ قُبحُهُ وفَشا استقباحُه لدى النَّاس، من الأَفعال والأقوال والأحوال، و(الفاحشةُ) هنا بمعنى الفعلةِ الشَّنيعةِ الشَّديدةِ القُبحِ، من زِنا أو نشوزٍ وسوءِ خُلُقٍ[1]، "والفَوَاحِشُ في اللّغة ما فَحُشَ وشنع، وأصله من القُبْحِ في النّظر، وهي هنا إنّما هي إشارة إلى ما نصّ الشّرع على تحريمه، فكلّ ما حرّمه الشَّرْعُ، فهو فاحش"[2]، أو هي "ما فحش من الكبائر خصوصا، وهو الذّنب الّذي عاقب الله عليه بالحدّ، كالقتل العمد، والزّنا والقذف، وشرب الخمر، وسائر المسكرات"[3]، "وقال قوم: (الفاحشة) إذا وردت معرفة، فهي الزّنا واللّواط، وإذا وردت منكّرة، فهي سائر المعاصي، كلّ ما يستفحش، وإذا وردت موصوفة بالبيان، فهي عقوق الزّوج وفساد عشرته"[4].

5) ﴿مُّبَيِّنَةٖ﴾: الأصل بَيَنَ، وبانَ الشَّيءُ وأَبانَ إذا اتَّضَحَ وانكشف، وفلانٌ أَبيَنُ مِن فلانٍ، أَي: أَوضَحُ كلامًا منه، فالبيّنة بمعنى الأمر الواضح الّذي لا ينازع فيها منازع لوضوحها[5]، و﴿مُّبَيِّنَةٖ﴾ في الآية بمعنى الفاحشة الظّاهرة الفاضحة، و﴿مُّبَيِّنَةٖ﴾ في الآية إمّا بصيغة اسم مفعول، فتكون بمعنى؛ بَيَّنَ الفاحشةَ مَن يَدَّعيها وأوضحها، وإمّا بصيغة اسم فاعل فتكون بمعنى؛ الفاحشة مُبيِّنةً حالَ مرتكبها[6]، قال ابن كثير: " الفاحشة المبيّنة، تشمل الزّنا، كما قاله ابن مسعود وابن عبّاس، وسعيد بن المسيّب، والشّعبيّ، والحسن، وابن سيرين، ومجاهد، وعكرمة، وغيرهم، قال:

وتشمل ما إذا نشزت المرأة، أو بذت على أهل الرّجل، وآذتهم في الكلام والفعال، كما قاله أبيّ بن كعب، وابن عبّاس، وَعِكْرِمَةُ، وغيرهم"[7].

6) ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ﴾: أصل الكلمة عِشْرٌ، والعِشْرَةُ تدلُّ على المخالطة والتَّداخل والتَّرابط، ومعشرُ الرَّجلِ أهلُه وقومُه ورهطُه، والمُعاشِر هو المخالِطُ من قريبٍ أو صديقٍ، أو زوجِ المرأةِ،

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والسّمين، عمدة الحفّاظ: (فحش).
(2) الثّعالبيّ، الجواهر الحسان: 3/26.
(3) الزّحيلّي، التّفسير المنير: 27/118.
(4) ابن عطيّة، المحرر الوجيز: 4/381.
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب، والسّمين، عمدة الحفّاظ: (بين).
(6) السّمين، الدّرّ المصون: 8/144.
(7) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 3/631.

وهي عشيرتُه، وهو يعاشِرُها؛ لِمخالطتِه لها معايشةً أو نكاحًا، و﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ﴾ بمعنى الأمرِ بالعِشرةِ مع الأزواج بالمعروف، في القول والفعل، ومنه الإجمالُ في القَولِ والمَبيتِ والنَّفَقَة[1]، قال ابن عاشور: "قال ابن عطية: وأرى اللّفظة من أعشار الجزور، لأنّها مقاسمة ومخالطة، أي فأصل الاشتقاق من الاسم الجامد، وهو عدد العشرة، وأنا أراها مشتقّة من العشيرة، أي الأهل، فعاشره جعله من عشيرته، كما يقال: آخاه، إذا جعله أخا، أمّا العشيرة، فلا يعرف أصل اشتقاقها، وقد قيل: إنّها من العشرة، أي اسم العدد وفيه نظر"[2].

7) ﴿بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ﴾: أصل الكلمة عَرَف، يدُلُّ اللّفظُ على السُّكون والطُّمأنينة، ومنه المَعرِفَةُ والعِرفانُ، وقولهم هذا أمرٌ معروفٌ؛ لأَنَّ مَن أَنكر شيئًا تَوَحَّشَ منه، ونَبَا عنه، ومنه العَرفُ: وهي الرَّائحةُ الطَّيِّبةُ؛ لأَنَّ النَّفسَ تَسكُنُ، والعُرفُ: المَعروفُ، وسُمِّيَ بذلك، لأَنَّ النُّفُوس تَسكُن إليه، والمعروفُ: اسم لكلِّ فعلٍ يُعرَفُ حُسنُه بالعقلِ أَو الشَّرع، أو هو ما تألفه الطّباع، ولا يستنكره الشّرعُ ولا العرفُ ولا المروءةُ، وهو خلافُ المُنكر[3]، قال الشّاعر:

قَدۡ كَانَ عِنۡدَكَ بِالۡمَعۡرُوفِ مَعۡرِفَةٌ *** وَكَانَ عِنۡدَكَ لِلنُّكۡرَاءِ تَنۡكِيرُ[4]

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

معنى الآيةِ أنّه يَحرمُ عليكم أيُّها المؤمنون، " أن تجعلوا نساءَ آبائِكم مِن جملةِ تَركتِهم، تتصرَّفونَ فيهنَّ بالزَّواج منهنَّ، أو عضلهنّ، أو تزويجهنَّ للآخرين، وهنَّ كارهاتٌ لذلك غير راضيات، وعليه فلا يجوز لكم أيضا أن تضارُّوا أزواجَكم، لِيتنازلنَ عن بعض ما آتيتموهنَّ من مهرٍ ونحوِه، إلَّا في الحالِ الّتي يأتينَ فيها بالفاحشة المُبيّنة الواضحة الفاضحة، مِن زنا معيب، أو نشوزٍ مريب، أو سوءِ عشرةٍ وتصرّف في الحضور والمغيب، ولم ينفع معهنّ التَّأديبُ، فلكم حينئذٍ استرجاع ما أَعطيتموهنَّ؛ لارتكابهنّ الفُحشَ المقيت،

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (عشر)، يُنظر: البغويّ، معالم التّنزيل، تح: مهدي: 1/588.
(2) ابنُ عاشور، التّحرير والتّنوير: 4/286.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة، ومَجمَع اللّغة العربيّة، المعجم الوسيط: (عرف)، يُنظر: المراغيّ، تفسير المراغيّ: 4/211.
(4) البصريّ، الحماسة البصريّة، ص: 258.

ولتكن مصاحبتُكُم لِنسائِكم مَبنيَّةً على التَّكريم والمحبَّة والإنصاف، وأداء ما لهنَّ من حقوقٍ، فإن كَرهتموهُنَّ لسببٍ من الأسبابِ الدُّنيويَّةِ، فلا تُفارقوهُنَّ على الإطلاق، بالبدار إلى الطّلاق[1]، بل " اصبروا ولا تعجلوا بمضارتهنّ ولا بمفارقتهنّ، فربّما كرهت النّفس ما هو أصلح فى الدّين، وأوفى إلى الخير"[2]، والله أعلم بالغيب، فلا مندوحة عن تصديق أحكامه بلا ريب.

دعـــــوة إلى نـبـذ مـيراث الـجـاهـلـيّـة، والـحـثّ على المـصـابـرة في الـعـلاقـات الزّوجيّة

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

نُكْتَةُ التَّعْبِيرِ بِالِاسْمِ الْمَوْصُولِ مَعَ صِلَتِهِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَحِلُّ لَكُمْ﴾:

في قول الله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَحِلُّ لَكُمْ﴾ جاءَ الاسمُ المَوْصُولُ تَوطِئَةً للأمر المُهمِّ؛ ليناسبَ بناءَ الحكم على صلتِهِ المعلومةِ الانتسابِ عندَ المخاطَبينَ، فبُنِيَ الأمرُ بالتَّحريم على اتِّصافِهم بالإيمانِ منذُ الزَّمن الماضي تعظيمًا لشأن الإيمان وتمهيدًا لمَا بعدَه؛ لِيتوجّهَ ذهنُ السَّامع إلى ماسَيُخبَرُ به عنه[3]؛ فإنّ مُقتضَى الاتِّصاف بالإيمان يستلزمُ التّشوّقَ لأمر الشَّارع مُنتظِرًا ورودَه عليه؛ لِيسارعَ في الامتثالِ فعلًا للمأمورِ وتركًا للمنهيِّ عَنْهُ.

الْإِيمَانُ الصَّادِقُ بَـاعِـثٌ عَـلَى امْتِثَالِ خِطَابِ الشَّرْعِ

نُكْتَةُ الْعُدُولِ عَنْ إِرَادَةِ الْمُعَيَّنِ فِي أُسْلُوبِ الْخِطَابِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَا يَحِلُّ لَكُمْ﴾:

جاء الكلامُ في قوله سُبحانه: ﴿لَا يَحِلُّ لَكُمْ﴾ بِأُسْلُوب الخطاب؛ إذْ ذُكِر ضميرُ الخِطَاب (كُمْ)، والأصلُ في الخطابِ أَن يَكُونَ لِمُعَيّنٍ[4]، وهمُ الموجودُونَ زمنَ نزولِ القُرآن، إلَّا أنَّ المعنى ههنَا على قصدِ العمومِ لكلِّ المؤمنينَ، وفي جميعِ الأحوالِ والأزمنةِ والأمكنة، وإنّما

انْتِقَاءُ الْقُرْآنِ الْـكَـرِيـمِ الْأَسَـالِـيـبَ الْبَـاعِـثَـةَ عَـلَى الِامْتِثَالِ

(1) نخبة من أساتذة التّفسير، التّفسير الميسّر، ص: 80، (بتصرّف).
(2) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 4/214.
(3) التّفتازانّي، شرح مفتاح العلوم: 1/340 - 341.
(4) السّكّاكّي، مفتاح العلوم، ص: 180.

جاءَ بأسلوب المخاطبة لِيكونَ أبلغَ أثرًا في نفس المتلقّي؛ فَيَحْمِلُهُ ذلك على الامْتِثَالِ بتَرْك المنهيّات وفعلِ المَأْمُورَات، لاستحضارِ القارئِ خطابَ اللّهِ تعالَى لَهُ.

دِلَالَةُ الْحَرْفِ الْمَصْدَرِيِّ ﴿أَن﴾ في قوله تعالى: ﴿لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًا﴾:

رَحْمَةُ اللهِ تَعَالَى بِخَلْقِهِ فِي تَرْكِ مُؤَاخَذَتِهِمْ بِمَا قَبْلَ نُزُولِ التَّشْرِيعِ

أفاد الحرفُ المصدريُّ ﴿أَن﴾ من قوله تعالى: ﴿لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًا﴾ أنَّ تحريمَ إرثِ النّساء يتعلّقُ بما بعدَ نزولِ الأمرِ، وقد عفا اللّهُ تعالَى عمّا مَضى؛ لأنَّ (أنْ) تدُلّ على أنّ حصولَ الفِعْلِ يَكُونُ في المُسْتَقْبَل مع مُنَاسَبَتِهِ الزَّمنيّة لـ ﴿لَا﴾ النّافيةِ في قَوْلِهِ: ﴿لَا يَحِلُّ﴾.

بَلَاغَةُ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ﴾ بَيْنَ التَّشْبِيهِ وَالْإِيجَازِ:

كَرَامَةُ النِّسَاءِ فِي الشَّرِيعَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ

يَحْتَمِلُ أن يكونَ الفعلُ ﴿تَرِثُواْ﴾ مُتوجِّهًا إلى عَيْن النِّساء على أنّ ﴿ٱلنِّسَآءَ﴾ مفعولٌ به لـ ﴿تَرِثُواْ﴾، فيكونُ في هذا توبيخٌ وتقريعٌ؛ لأنَّهم جعلوا النِّساءَ سلعةً كالمال، يُورَثْنَ عَن الرِّجال المَوْتَى، كما يُورَثُ المالُ، وتقدير المعنى: (لا تَجعلوا النِّساءَ كالمال ترثونَهُنَّ كَرهًا)، فإنَّهُنَّ لا يُورَثْنَ مِنَ المَيِّت، ونكتةُ تعلُّقِ النِّساءِ بالفِعْلِ ﴿تَرِثُواْ﴾ على أنه مفعولُه: بيانُ كرامتهنَّ عندَ اللّهِ تعالَى.

ويَحْتَمِلُ أن يكونَ إيجازًا بِحذفِ مضافٍ، والتَّقديرُ: (لا يَحِلُّ لَكم أن تَرِثُوا أموالَ النِّساءِ كَرهًا)، والوراثة هنا تَعودُ إلى المال، وذلك أَنَّ وارِثَ المَيِّتِ كان له أن يَمنَعَها منَ الأزواج حتّى تموتَ، فيرث مالَهَا[1].

ولا تعارُض بين المعنَيَيْن، ولا مانعَ من حملِ اللَّفْظِ عليهِمَا معًا؛ إذْ كلاهُما تشهدُ أدلَّةُ الشَّرع بِالنَّهْيِ عنهُ.

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/26، والرّازيّ، مفاتيح الغيب: 10/11.

دِلَالَةُ ﴿كَرْهًا﴾ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا۟ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًا﴾:

المصدرُ المُنكَّرُ ﴿كَرْهًا﴾ يَحْتَمِلُ أن يكونَ حالًا، وهذا الوجهُ فيه مَسْلَكَانِ:

أحدهما: أن يكونَ المصدَرُ بمعنى اسمِ الفاعلِ، والمعنى: (لا يحلُّ لكم أن ترثوا النِّساءَ وهنَّ كارهاتٌ).

والآخَرُ: أن يَكُونَ بمعنى اسمِ المفعولِ، والمعنى: (لا يحلُّ لكم أن ترثُوا النِّساءَ وهنَّ مُكرَهاتٌ على الأمر)[1].

وَيَحْتَمِلُ أن يكونَ ﴿كَرْهًا﴾ مصدرًا لفعلٍ محذوفٍ، تقديرُه: (يَكرَهنَ كُرهًا)؛ لإفادة توكيد كُرهِهنَّ وإقرارِه، ويكونُ الفعلُ مع فاعله (يَكرَهنَ) في موضع نصبٍ حالًا.

والحالُ في جميعِ الأوجهِ المتقدِّمَةِ وصفٌ كاشفٌ لبيانِ الواقع، وهُوَ إظهارٌ لِمَا يَكْتُمْنَهُ مِن كُرهِ وِراثةِ الرِّجالِ لهنَّ، أو أنَّهُ وصفٌ خرجَ مَخرجَ الغالب[2]، وما كان الوصفُ كذلكَ؛ فإنَّه لا مفهومَ مخالفةٍ لَهُ؛ فقوله تعالى: ﴿لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا۟ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًا﴾ يُفيدُ أنّ كرهَ النِّساءِ لوراثتهنَّ سببٌ في التَّحريم؛ وَليس الحالُ قيدًا لتحريم الوراثة، فَسَوَاء كَرهنَهُ أم لَمْ يَكْرَهْنَهُ؛ فوراثةُ النِّساءِ حرامٌ.

الْأَوْصَافُ الْكَاشِفَةُ أَوِ الْخَارِجَةُ مَخْرَجَ الْغَالِبِ لَا مَفْهُومَ مُخَالَفَةٍ لَهَا

سَبَبُ وَصْلِ الْجُمْلَةِ الطَّلَبِيَّةِ: ﴿وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ﴾ بِالْجُمْلَةِ الْخَبَرِيَّةِ: ﴿لَا يَحِلُّ لَكُمْ﴾:

قولُ اللهِ تعالى: ﴿لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا۟ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًا﴾ جملةٌ خبريَّةٌ، والمقامُ مُشتملٌ على تضمينِها معنى الطَّلب؛ لِتكونَ على طريقة النَّهي، والتَّقدير: (لا تَرثُوا النِّساءَ كَرهًا؛ فإنّه غيرُ حلالٍ لكم)، ومناسبة مجيءِ الكلامِ على طريقة الخبر هو تأكيدُ نفي

اسْتِخْدَامُ الْمُخَالَفَةِ يَقْتَضِي تَشْدِيدَ النَّهْيِ عَنْهَا وَتَقْوِيَتَهُ

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/567.
(2) السّمين، عمدة الحفّاظ: 3/628.

الحِلِّ، ووجهُ تأكيد نفي الحلِّ هو استحكامُ هذه العادَةِ عند القوم رغبةً في متاع الدُّنْيَا، فناسبَهُ تقويةُ النَّهي، وفي هذا التَّأكيد أيضًا: إظهارُ كرامةِ النِّساء، ولو وردَ النَّظمُ القرآنيُّ: (لا تَرِثُوا النّساءَ كرهًا)؛ لفاتَ هذا المقصدُ الدّلاليُّ الاجتماعيُّ.

والحاصلُ أنَّ قولَه تعالى: ﴿لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًا﴾ خبرٌ في معنى الطَّلب، وأمَّا قولُه سُبحانه: ﴿وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ﴾ فجملة إنشائيَّةٌ؛ لكونِهَا أسلوبَ نَهْيٍ؛ إذ (لَا) ناهيةٌ والفعلُ مجزومٌ بها، والواو: عاطفةٌ بين الجملتينِ؛ جملَةً طلبيَّةً على جملةٍ خبريَّةٍ بمعنى الطّلب، والعبرةُ في باب الوصلِ والفصلِ بمعاني الجُمَلِ لا بمجرَّدِ ألفاظِهَا، فناسبَ المقامُ الوصلَ، لاشتراكِ الجملتَيْنِ في الإنشاء، مع وجودِ مناسبةٍ بينهما؛ وهو التَّماثُلُ في الإكراه، وفي أَنَّ مُتعلَّقَهُ سوءُ معاملةِ المرأَة، وفي أَنَّ العَضلَ لأَجل أَخذ مالٍ منهُنَّ[1]، فيكون سببُ الوصلِ التوسُّطَ بين الكمالَيْنِ.

بَلَاغَةُ الِاسْتِعَارَةِ فِي قَوْلِهِ: ﴿لِتَذْهَبُواْ بِبَعْضِ مَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ﴾:

عُبّر عن أخذ المالِ بالذَّهاب به، لا بالأخذِ ولا الإذهاب؛ لِيكونَ ذلك على طريقة المجازِ بالاستعارةِ في الأخذ؛ فقد شُبِّهَ أخذُ الشَّيءِ بالذَّهابِ بهِ بجامعِ النَّقْلِ من حيِّزِهِ إلى حيِّزِ الآخذ، فحذِفَ المشبَّه وصُرِّحَ بالمشبَّهِ به، على طريقةِ الاستعارة التَّصريحيَّةِ التَّبعيَّة، والنُّكْتَةُ في ذلك: المبالغةُ في تَقْبيحِه بِبَيَانِ تضمُّنِه لأمرين؛ كلٌّ مِنْهُما محظورٌ شنيعٌ: أخذُ مالِهنّ والإذهابُ منهنّ - لأنَّه الذهابُ مُسْتَصْحَبًا بهِ - ؛ لِيفيدَ أنَّ فعلَهُم هو رغبةٌ في تحصيل النَّفع منهنّ، وإنْ كان فيه مسٌّ كَرَامتهنَّ، ودلّ عليه مجيءُ الباء في ﴿بِبَعْضِ﴾ وهِيَ للمصاحبة، والمعنى: لتَذهَبوا مَصْحُوبِينَ بِبَعْضِ مَا آتَيتُموهنَّ[2].

لَا يَجُوزُ تَحْصِيلُ النَّفْعِ بِالْوُجُوهِ الْمُحَرَّمَةِ

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/569، وابنُ عاشور، التّحرير والتّنْوير: 4/284.

(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/568، وأبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 2/158، وابنُ عاشور، التّحرير والتّنْوير: 4/285.

دِلَالَةُ الِاسْتِثْنَاءِ فِي قَوْلِهِ: ﴿إِلَّآ أَن يَأۡتِينَ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖۚ﴾:

تَحْرِيمُ عَضْلِ النِّسَاءِ تَحْرِيمًا مُطْلَقًا

جاء الاستِثْنَاءُ في قولِه: ﴿إِلَّآ أَن يَأۡتِينَ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖۚ﴾ ليدلّ على العُمُوم؛ إذِ الاستثناءُ معيارُ العموم، وهو استِثناءٌ مُتَّصلٌ، من أعمِّ الأحوال أو أعمِّ الأوقات أو أعمِّ العِلَل، وليس في الكلام أعمّ مِنْ هذا الاستثناء، والمعنَى: لا يحلّ لكم عضلُهنّ في حالٍ من الأحوال أو في وقتٍ من الأوقات أو لعلّةٍ مِنَ العِلل إلّا في حال إتيانِهنّ بفاحشة مُبيّنة أو إلّا في وقْتِ إتيانِهنّ أو إلّا لإتيانهنّ بها[1].

تَوْجِيهُ الْقِرَاءَاتِ الْقُرْآنِيَّةِ فِي قَوْلِهِ: ﴿مُّبَيِّنَةٖۚ﴾:

التَّكَامُلُ الدِّلَالِيُّ فِي تَنَوُّعِ الْقِرَاءَاتِ

قرأَ نافعٌ وأَبو عَمرو وابنُ عامر وحفصٌ عن عاصمٍ وحمزةُ والْكِسَائِيُّ قولَهُ تعالى: ﴿بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖۚ﴾ بكسر الياء مشدَّدَةً: ﴿مُّبَيِّنَةٖۚ﴾، وقرأَ ابنُ كَثيرٍ وشعبةُ عن عاصمٍ بالفتح والتّشديد (مُبَيَّنَة)، فعلى قراءةِ الْكَسْرِ تكون هي الفاعِلَةً؛ أَي: الفاحشة هي الّتي تُبيِّنُ حالَ مُرتَكِبِها، وعلى قراءة الفتح؛ يكون المعنى: أَظهَرَهَا صاحِبُها[2]، وهما قِرَاءتَانِ مُتَكَامِلتَانِ، فالفَاحِشَة يُظهِرُهَا صَاحبُها بفعلِه لهَا، ولِعَظِيم قُبْحِهَا صَارَتْ كأنَّها هِيَ فَاعِلُ التَّبيين.

دِلَالَةُ الْأَمْرِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ﴾:

دَفْعُ الْإِسْلَامِ الْمُضَارَّ عَنِ النِّسَاءِ وَجَلْبُهُ الْمَصَالِحَ إِلَيْهِنَّ

الأمرُ في قوله سبحانه: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ﴾ يُرادُ به الإلزامُ على أصلِ دِلالَتِه، وفيه معنَى الإرشادِ؛ لما فيه من تحقيق المصالِح.

ومجيءُ الأمرِ بالمعاشرة بالمعروف بعدَ النَّهي عن العَضْلِ يفيدُ تأكيدَ الاعتناءِ بشأن النِّساءِ وإكرامِهنَّ؛ إذْ لم يُكْتَفَ بالنَّهْيِ عن الإضرارِ بهنَّ، بل زِيدَ على ذلك الأمرُ بإكرامهنَّ وعشرتِهنَّ بالمعروف.

وجملة ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ﴾ اعتراضٌ، فيه معنى التَّذييل لما

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/568، وأبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 2/158.
(2) الأزهريّ، معاني القراءات: 1/298، والعكبريّ، التّبيان: 1/341، وابن الجزري، النشر: 2/248.

تَقَدَّمَ مِنَ النَّهي؛ لأَنَّ حُسنَ المُعاشرةِ جامِعٌ لِنَفي الإضرار والإكراه، وزائدٌ بمعاني إحسان الصُّحبة[1].

وتقديمُ النَّهيِ عَنِ العَضْلِ عَلَى الأمر بالمُعَاشَرَة بالمَعْرُوف هُو مِن بَابِ التَّخلِيَة قبلَ التَّحلية.

دِلَالَةُ الْبَاءِ وَالتَّعْرِيفِ بِاللَّامِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِۚ﴾:

الأَمْرُ بِمُعَاشَرَةِ النِّسَاءِ بِأَنْوَاعِ الْمَعْرُوفِ: الْقَلْبِيَّةِ وَالْقَوْلِيَّةِ وَالْفِعْلِيَّةِ

أفادتِ الباءُ في قوله: ﴿بِٱلْمَعْرُوفِۚ﴾ معنى المُلَابَسَةِ، والمعنى: وعاشروهنّ مُتَلبّسِين بالمعروفِ غيرَ مُنْفَكّينَ عنهُ.

واللَّامُ للجنسِ، وهي مفيدةٌ استغراقَ أنواعِ المَعْرُوف، والمعنى: عاشروهنّ بكلِّ نوعٍ من أنواع المعروف قلبيًّا كان أو قوليًّا أو فعليًّا، كما أنَّ استغراقَ أنواعِ المعرُوفِ يُوحي بأنَّ لكلّ امرأةٍ معروفًا يليقُ بها.

والأَمْرُ في قوله: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِۚ﴾ يستلْزِمُ النّهيَ عنِ الإساءة إليهنّ، إذِ الأمرُ بالشّيءِ يسْتَلْزِمُ النَّهْيَ عن ضدِّه.

بَلَاغَةُ إِيجَازِ الْقِصَرِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِۚ﴾:

الْمَعْرُوفُ كَلِمَةٌ جَامِعَةٌ لِمَعَانِي الْخَيْرِ

قول الله تعالى: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِۚ﴾ مِن جوامع الكَلِم، فهي قليلةُ اللَّفْظِ عظيمةُ المعاني غَزِيرَتُهَا.

والعشرةُ: هي المخالطةُ والملابسةُ، وقد أُكِّدَتْ هذه الملابسَة بمَجِيءِ الباءِ الّتي لِلْمُلَابَسة - كما تقدّم - ؛ والمعروفُ كلمةٌ جامعةٌ لكلِّ معاني الخَيْرِ.

دِلَالَةُ الْفَاءِ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ﴾:

تَشَوُّفُ شَرِيعَةِ الْإِسْلَامِ إِلَى الِاجْتِمَاعِ وَتَنْفِيرُهَا مِنَ الِافْتِرَاقِ

الفاءُ في قوله: ﴿فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ﴾ تفريعيَّةٌ، وقد فَرَّعت ما بعدَها على لازم الأمْرِ في قوله: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ﴾، ولازِمُ حُسْنِ المُعَاشَرَةِ هو النَّهيُ عَن سُوئِهَا، والمعنى: فإن وُجِدَ سببُ سُوءِ المُعاشرة وهو الكراهيةُ؛ فلا تُفَارِقُوهنَّ؛ إذْ قَد يَجْعَلُ اللهُ تعالى في بَقَائِهِنَّ في عِصْمَتِكُم خَيْرًا كَثِيرًا.

(1) ابنُ عاشور، التّحرير والتّنْوير: 4/286.

فسياقُ الآية فيهِ الحثُّ على إمساكهِنَّ وصُحبَتِهِنَّ، وإن كَرِهَ الإنسانُ منهنَّ شيئًا مِن أخلاقِهِنَّ[1].

دِلَالَةُ تَعْلِيقِ الشَّرْطِ بِـ(إِنْ) فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ﴾:

عُلِّقَ الشّرطُ في الاستقبال بِـ (إنْ) دون (إذَا) في قوله سُبحانه: ﴿فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ﴾؛ لأنَّ (إنْ) في أصلِ دِلالَتِهَا تدلُّ على الشَّكِّ بوقوع الشَّرطِ، وهَذَا هُوَ المناسبُ للمقام؛ لأنَّ وقوعَ كراهةِ المرأةِ في قلبِ زوجِهَا ليس مقطوعًا بِهِ، بل إنَّ التَّعليق بـ (إنْ) مشعِرٌ بقلَّةِ وقوعِ هذه الكراهَةِ؛ إذِ المسلِمُ إذا امتثلَ خطابَ الشَّرعِ في عِشْرَةِ امرأتِهِ بالمعرُوفِ؛ بادَلَتْهُ العِشْرةَ كذلكَ؛ فيبعُدُ حينئذٍ وقوعُ الكراهةِ بينَهُمَا.

الْتِزَامُ الْوَصَايَا الشَّرْعِيَّةِ يُحَافِظُ عَلَى تَمَاسُكِ الْأُسَرِ الْمُسْلِمَةِ

تَعْيِينُ مُتَعَلَّقِ (عَسَى) من قوله تعالى: ﴿فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا﴾:

(عسى) تدلُّ على الطَّمعِ والتَّرجِّي في أصلِ وضعِهَا[2]، وتَرِدُ (عسَى) مِنَ اللّه تعالى؛ فتكون واجبةً -كما قاله ابنُ عبَّاس[3] رضي الله عنهما-، وقد تدلُّ على إدخالِ الرَّجاءِ في قلوبِ المتلقِّين للخِطَابِ.

كَرَاهَةُ الْأَنْفُسِ الشَّيْءَ لَا تَقْتَضِي انْتِفَاءَ الْخَيْرِ مِنْهُ

و(عسَى) في قولِه: ﴿فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا﴾ تُفِيدُ الحصولَ في المستقبل القريب؛ وفي ذلك حثٌّ للأزواجِ على إمْسَاكِ نسائهم وعدَمِ مفارقتهنَّ، ومَنَاطُ المُقاربةِ والرَّجاءِ هو مَجموعُ المَعطوفِ والمَعطوفِ عليه، بدلالة القرينة على ذلك[4]، فيكون ﴿وَيَجۡعَلَ﴾ معطوفًا على ﴿تَكۡرَهُواْ﴾، و(عَسَى) داخلةٌ على الجُمْلَتَيْنِ، ولذَا لَم تكرَّر (عسى)؛ إذِ المَقْصُودُ هُوَ الحاصِلُ مِن مَجْمُوعِ الجُمْلَتَيْنِ، فدلّت (عَسَى) على الإطْمَاعِ في حُصُول الخَيْرِ، وأَنْ لا تَحْمِلَهُمُ الكراهةُ على سُوءِ المُعاشرة.

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/568، وابنُ عاشور، التّحرير والتّنْوير: 4/286.
(2) الرّاغب، المفردات: (عسى).
(3) ابن أبي حاتم، تفسير القرآن العظيم: 3/905.
(4) ابنُ عاشور، التّحرير والتّنْوير: 4/286.

نُكْتَةُ إِقَامَةِ الْعِلَّةِ مُقَامَ جَزَاءِ الشَّرْطِ فِي قوله: ﴿فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾:

مُقتضَى ظاهِرِ الشَّرْطِ أن يكُونَ جَزَاؤُه: (فلا تُفَارِقُوهُنّ لِكَراهَةِ الْأَنْفُسِ)، إلَّا أنَّهُ حُذِفَ، وأُقِيمَتْ عِلّتُهُ - وهو قولُه: ﴿فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا﴾ - مُقَامَهُ في التّنزيل[1]؛ إيذانًا بقوّة اسْتِلْزَامِ العلّة لِلْجَزَاءِ الْمَحْذُوفِ، وفي هَذا نِكَاتٌ:

أُولَاها: إقامَةُ الحُجَّة عَلَيْهِم، وإِقْنَاعُهُم بإِمْسَاكِهِنّ؛ لِظُهور العلّة وقُوّتها.

ثانِيها: تجنُّبُ لَفْظِ الْمُفَارَقَةِ أو ما يدلُّ على مَعْنَاهَا؛ تكريمًا للنّساء، وحِفْظًا للبيوت، وصيانَةً لها عَنِ التّفكّك.

ثالثُهَا: التَّوسّلُ إلى تَعْمِيم الْمَفْعُول ﴿شَيْـًٔا﴾؛ لِبيان أنّ تَرْتِيبَ الخيرِ الكثيرِ مِنَ اللّهِ تعالى ليسَ مَخْصُوصًا بمكروهٍ دُون آخَرَ، بل هو سنةٌ إلهيّة جاريةٌ على الإطلاق حَسَبَ اقْتِضَاء الحكمة، وأنّ ما نحن فيه مادّةٌ مِن موادّها[2].

حِفْظُ الشَّرِيعَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ لِلْبُيُوتِ وَصِيَانَتُهَا لِلْأُسَرِ وَتَكْرِيمُهَا لِلنِّسَاءِ

دِلَالَةُ تَنْكِيرِ ﴿شَيْـًٔا﴾ وَنُكْتَةُ إِقَامَةِ الظَّاهِرِ مَوْقِعَ الْمُضْمَرِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾:

تنكيرُ ﴿شَيْـًٔا﴾ من قوله تعالى: ﴿فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا﴾ أفادَ الإطلاقَ، وهو عُمومٌ على جهةِ البدَلِ لا على جهةِ التَّناوُلِ دَفعةً واحدةً، فهي شاملةٌ كلَّ ما يكرهُهُ المرءُ ممَّا يتطلَّبُ منه الصَّبْر عليه، ويدخُلُ فيه كلُّ ما يمكن أن يَكْرَهَهُ الرّجلُ مِنَ المرأة مِمَّا يُطلَق عَلَيْهِ أنَّه شَيْءٌ، حسِّيًّا كانَ أو معنويًّا.

قَدْ تُوجَدُ الْخَيْرَاتُ فِي بَوَاطِنِ الْمَكْرُوهَاتِ

(1) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 2/66، والطّيبيّ، فتوح الغيب: 4/483.
(2) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 2/158.

ولم تُعلَّق الكراهَةُ بِضَمِيرِ النِّساءِ، بأن يكون النَّظمُ القرآنيُّ: (فعَسَى أَن تَكرَهُوهُنَّ)، بل عُدِلَ عنِ الإضمارِ إلى الإظْهَارِ؛ لإفادةِ العموم، وليكون اللَّفْظُ جاريًا مجرَى الأمثالِ، وهذا مِن عجيب فصَاحَةِ القُرآن[1].

دِلَالَةُ الْفِعْلِ ﴿وَيَجْعَلَ﴾ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾:

الْعِبْرَةُ بِالْخَيْرِ فِي الْمَآلِ

الفعلُ ﴿وَيَجْعَلَ﴾ من أفعال التَّحويل والتَّصيير، فمعنَى قولِه تعالَى: ﴿وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ أي: يُحَوِّلُ اللّه تعالَى ذلك الشَّيءَ الّذي تكرهونَه خَيرًا، والتَّحويلُ تغييرٌ للشَّيءِ من حالةٍ إلى أخرى، وفي ذلك إيذانٌ بأنّ اللّه تعالى يجعل مآلَ المكروهاتِ إلى خيرٍ كثيرٍ بإذنه سُبحانه، وذلك للإرشاد إلى التمسّك بالأزواج اللَّاتي يقعُ كُرهُهُنَّ لأمرٍ مِن أمور الدُّنيا، طمعًا في الخير الكثيرِ مآلًا.

تَعْيِينُ مَرْجِعِ الضَّمِيرِ (فِيهِ) وَدِلَالَةُ حَرْفِ الْجَرِّ (فِي) مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾:

الْمِحَنُ فِي طَيَّاتِهَا مِنَحٌ

يَعُودُ الضّميرُ ﴿فِيهِ﴾ من قوله تعالى: ﴿وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ﴾ إلى ﴿شَيْـًٔا﴾[2]، ولفظُ ﴿شَيْـًٔا﴾ هُو أعمُّ النَّكراتِ؛ لِيشملَ كلَّ ما يُطلَقُ عليه شيءٌ مادّيًّا كان ذلك أو معنويًّا.

وجِيءَ بِحَرْف الجرِّ (فِي) الدّالِّ على الظّرفيّة القارّة؛ لإفادةِ رجاءِ تضمّنِه في حقيقتِه الخيرَ الكثيرَ.

سِرُّ تَقْدِيمِ الْجَارِّ وَالْمَجْرُورِ ﴿فِيهِ﴾ عَلَى الْمَفْعُولِ بِهِ وَصِفَتِهِ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾:

عِنَايَةُ الشَّرِيعَةِ بِالْفَأْلِ الْحَسَنِ

قُدِّمَ الجارُّ والمجرورُ ﴿فِيهِ﴾ على المفعول بهِ وصفتِه ﴿خَيْرًا كَثِيرًا﴾ من قَوْلِه تعالى: ﴿وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾؛ لإفادة العنايَةِ والاهتمامِ بالشَّيء الّذي يكون فيه الخيرُ الكثيرُ، وهو في ظنِّ

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/28، وأبو حيّان، البحر المحيط: 3/570.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 8/123.

صاحبه مكروهٌ يَنْبَغِي مفارقتُه، وفيه إِدْخَالُ الفألِ على قلوب العبادِ ولو كَانُوا في أَضْيَقِ الأَحْوَالِ وأَشَدِّها.

وليس في هذا التَّقديم دِلالَةٌ على الاختصاصِ؛ إذْ لو كان كذلك لدلَّ على أنَّ الخيرَ الكثيرَ لا يُوجَدُ إلَّا فيما هو مكروهٌ للعَبْدِ، وليس الأمرُ كذلك.

نُكْتَةُ التَّنْكِيرِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿خَيْرًا كَثِيرًا﴾:

رَغْبَةُ الشَّرْعِ فِي الِاجْتِمَاعِ وَالِائْتِلَافِ

نُكِّرَ ﴿خَيْرًا﴾ وصفته ﴿كَثِيرًا﴾ من قوله تعالى: ﴿وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾؛ لقصدِ الْمُبَالَغة في الحَمْلِ على تَرْكِ الْمُفَارَقَة، وتعميمًا في الْإِرْشَاد[1]، وفيه تفخيمٌ ذَاتيٌّ للخيرِ وتَعْظِيمٌ لَهُ، ووصفُه بـ ﴿كَثِيرًا﴾ لبيان فَخَامتِه العرضيَّةِ الوَصْفيَّةِ[2].

بَلَاغَةُ التَّذْيِيلِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا﴾:

تَضَمُّنُ الْأَلْفَاظِ الْقَلِيلَةِ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ مَعَانِيَ غَزِيرَةً

قولُ اللهِ تعالى: ﴿فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا﴾ مِن جوامع الكَلِم في القرآنِ الكَريم، وهوَ تذييلٌ جارٍ مَجرَى المثَلِ؛ لاستقلالِه بالإفادةِ وعدم افتقارِه إلى ما قبلَهُ في الوقوفِ على أصلِ معناهُ، وقد تضمَّنتْ هذه الجملةُ معانيَ متنوّعةً متكاثِرةً، ومِمَّا تُوُسِّلَ به إلى هذه الوفرةِ في المعاني العدُولُ عنِ الْإِضْمَارِ إلى الإظهَارِ؛ إذْ لم يَرِدْ نظمُ القرآنِ: (فَعَسى أنْ تكرهوهنَّ)؛ ليُعْدَلَ عن التَّخصيصِ بشأن النِّساءِ إلى التَّعميم الذي تُشعِرُ به كلمةُ ﴿شَيۡـٔٗا﴾.

بَلَاغَةُ الْمُتَشَابِهِ اللَّفْظِيِّ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا﴾:

دِقَّةُ اخْتِيَارِ الْأَلْفَاظِ الْمُلَائِمَةِ لِسِيَاقَاتِهَا

وردَ هنا قولُ اللهِ تعالى: ﴿فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا﴾، وجاءَ في سورةِ البقرةِ قولُ اللهِ سُبحانه: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن

(1) الآلوسّي، روح المعاني: 2/452.

(2) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 2/158.

تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٢١٦﴾﴾ [البقرة: 216]، فذُكِرَ الطّرفَان في سورة البقرةِ، بخلاف آيةِ النِّساء فقد اقْتُصِرَ على حالِ حصولِ الكراهية لِشَيءٍ فيهِ خَيرٌ كثيرٌ، دونَ التَّنصيصِ على مُقابِلِه،، وذلك أنَّ سياق قولِه تعالى: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ﴾ [البقرة: 216]؛ سياقُ بيَانِ طَرَفَي الحقيقةِ: الخيرِ والشّرِّ؛ إذِ المُخاطَبونَ فيها كَرِهوا القتالَ، وأَحبُّوا السِّلمَ، والواقع أنَّ الخير قد يوجَدُ فيما كرِهُوهُ منَ القِتَال، وأنَّ الشَّرَّ قد يكونُ فيمَا أحبُّوه مِنَ السّلمِ، فذِكْرُ الطّرفين كانَ لِمُنَاسَبَةِ القِتَالِ والسّلم.

أَمَّا المقامُ في سورةِ النِّساءِ؛ فهو لِبيان حُكمِ مَن وقعَ بَينَه وبينَ زَوجِه ما كَرِهَهُ فيها، ورَامَ فِرَاقَها، وليس له معَ ذلك ميلٌ إلى غيرِها، فناسب ذلك بيانَ ما في كثيرٍ مِنَ المَكروهاتِ مِنَ الخَيراتِ، ولا يُناسِبُ أَن يذكرَ ما في كثيرٍ مِنَ المَحْبُوبَاتِ مِنَ الشُّرور؛ كي لا يفتحَ لهم بابًا إلى الفِرَاقِ مَيْلًا إلى هواهُم[1].

مَــنْ يَـمْـتَـثِـلْ خِطَابَ الشَّرْعِ يَـجْـعَـلِ اللـهُ تَـعَـالَى عَـاقِـبَـةَ أَمْرِهِ كُلِّهِ خَيْرًا

وقدِ اختلفَ الإسنادُ في آية النِّساءِ عن آيةِ سُورَةِ البقرة؛ إذْ أُسْنِدَ جَعْلُ الخَيرِ في المَكروهِ هنا للّه سُبحانه، فقال تعالى: ﴿وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا﴾، وذلك يقتضِي أَنَّهُ يكون خيرًا بتَصْيِيرِ اللّه له، فهو جَعلٌ عارِضٌ لِمَكروهٍ خاصٍّ، وقال في سورة البقرة: ﴿وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ﴾؛ لإفادة أنّه حقيقة ثَابِتَةٌ، ولكنّها خفيّة، فيظْهِرُها اللّه تعالَى، فيُعلَم كونُها خيرًا أو شرًّا؛ لِيكونَ رجاءُ الخيرِ مِنَ القتالِ مُطَّردًا في جميع الأَحوال غيرَ حاصلٍ بجَعلٍ عارضٍ، بخلاف هذه الآية، فإنَّ الصَّبرَ على الزَّوجة المُؤذيةِ أَوِ المَكروهة إذا كان لأَجل امتثال أَمر اللّهِ تعالى بِحُسْنِ مُعاشرتها، يكونُ جَعلُ الخيرِ في ذلك جَزاءً مِنَ اللّهِ على الامتثال[2].

(1) ابنُ عاشور، التّحرير والتّنْوير: 4/288.
(2) ابنُ عاشور، التّحرير والتّنْوير: 4/288.

﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُواْ مِنْهُ شَيْـًٔا ۚ أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٢٠﴾﴾ [النّساء: 20]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لـمَّا ذكر اللّه تعالى في الآية الأُولى مُضارّة الزَّوجات - إذا أَتَينَ بفاحشةٍ - بَيَّنَ في هذه الآية تَحريمَ المُضارَّة في غير حال الفاحشة، ونهى عن بَخسِ المرأةِ حقِّها مِنَ المَهرِ إذا أرادَ الرَّجلُ طلاقَها، وتزوُّجَ غيرِها، فليس المَهر للمرأةِ مَوقوفًا على التَّمَسُّك بها، حتَّى إذا أرادَ الاستبدال جازَ له أخذُه، بل هو تَمليكٌ صحيحٌ لها لا يجوزُ الرُّجوع فيه[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ﴾: الرَّودُ: التّردُّد في طلب الشَّيء برفق، يُقال: رَادَ وارتَادَ، والإرادَةُ مأخوذةٌ من رادَ يَرودُ: إذا سعى في طلب شيءٍ، أو من الرَّيْد: الحَيدِ في الجبل كالحائط، وهو الحرف النّاتئ منه، وأراد الشّيءَ: أحبَّه وعُنِيَ به، والإرادَةُ في الأصل: قوَّة مُركَّبة مِن شهوةٍ وحاجةٍ وأَملٍ، وجعل اسمًا لنُزوع النَّفس إلى الشَّيءِ، وهو: ذَهاب النَّفس إلى الشّيء طلبًا ورغبةً قويَّةً في تحصيله، وكلُّ ما جاء في القرآن من هذا التركيب فهو من الإرادة بهذا المعنى عدا (المراودة)، و(رُوَيدا)[2].

2) ﴿ٱسْتِبْدَالَ﴾: الإبدال والتَّبديل والتَّبَدُّل والاستبدال: جَعلُ شيء مكان آخر، يُقالُ: هذا بَدَلُ الشَّيء وبَدِيلُهُ، وبَدَّلتُ الشَّيءَ: إذا غَيَّرتُهُ، وإن لم تَأْتِ له ببَدَلٍ، قال اللّه تعالى: ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآيِٕ نَفْسِيٓ﴾ [يونس: 15]، وأَبدَلتُهُ: إذا أَتَيتُ له بِبَدَلٍ[3].

3) ﴿زَوْجٍ﴾: الزَّاءُ والواو والجيم أَصلٌ يدُلُّ على مُقارَنَةِ شيءٍ لِشيءٍ، مِن ذلك الزَّوجُ زَوجُ المرأَة، والمرأَةُ زَوجُ بَعلِها، وهو الفصيحُ فيها دون تاء، قال اللّه تعالى: ﴿ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ﴾ [البقرة: 35]، يُقالُ: لفلانٍ زَوجانِ مِنَ الحَمَامِ، يعني: ذكرًا وأُنثى[4].

(1) الواحديّ، التّفسير البسيط: 6/400، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/29.
(2) الخليل، العين، الرّاغب، المفردات، جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصَّل: (رود، ريد).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (بدل).
(4) الخليل، العين، ابن فارس، مقاييس اللغة: (زوج)

4) ﴿وَءَاتَيْتُمْ﴾: الإيتاءُ: الإعطاءُ، تقولُ: آتَى يُؤتي إيتاءً، وَلَا يُقَالُ: واتَيْتُ - بإبدال الهمزة واوًا - إلَّا في لُغَةٍ قَبِيحَةٍ في الْيَمَنِ، فآتى بالمدِّ تُستعمل في الإعطاء، كقوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ١٢﴾ [مريم: 12].

وخُصَّ دَفعُ الصَّدقة في القرآن بالإيتاء، نحو: ﴿وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [البقرة: 277][1].

5) ﴿إِحْدَىٰهُنَّ﴾: من وَحَدَ، فالْوَاوُ وَالْحَاءُ وَالدَّالُ: أَصْلٌ وَاحِدٌ يَدُلُّ عَلَى الِانْفِرَادِ، والهمزُ فرعٌ، أُبدلت فيه الهمزة من الواو، يقال: مَا اسْتَأْحَدْتُ بِهَذَا الْأَمْرِ، أَيْ: مَا انْفَرَدْتُ بِهِ، والأَحَد: هو بمعنى الواحِد، وهو اسمٌ لمن يصلح أَن يُخَاطَب، يَستَوي فيه الواحد والمثنَّى والمجموع، والمذكَّر والمؤنَّث، يُراد به جمعٌ منَ الجنس الَّذي يدلُّ الكلام عليه[2].

6) ﴿قِنطَارًا﴾: هو عربيٌّ، مشتقٌّ من (قَنْطَر)، ويدور معناه حول تخطٍّ بتوالٍ: مرَّة بعد أخرى: كما يُعبَر بالقنطرة النَّهرُ ونحوُه، ومنه: قنطرَ الرّجلُ: تركَ البدوَ، وأقام بالأمصار والقُرى، أي: تخطَّى حياةَ البادية هَجْرًا لها، ويُجمَعُ القنطار على القناطير، ويذكر أنَّه مُعَرَّبٌ، وهو - على هذا - من جهة التَّصريف مُخَرَّجٌ على قَولِ العرب: قَنطَرَ الرَّجُلُ يُقَنطِرُ قِنطارًا: إذا مَلَكَ مالًا كثيرًا، كأَنَّه يُوزَنُ بالقِنطار، فأَصلُ القِنطارِ في كلام العرب: الجملةُ الكثيرةُ مِنَ المال، واختُلِفَ في قَدرِهِ وتفسيرِهِ على أَقاويلَ كثيرةٍ كُلُّها تَؤُولُ إلى معنى الشيء الكثير، وهو وجمعه ما ورد في القرآن منَ التّركيب[3].

7) ﴿تَأْخُذُواْ﴾: الأَخذُ: تَناولُ الشّيء والحُصولُ عليه، وأَصلُه: حيازَةُ الشّيء وجَمعُهُ، وضِدُّه: العَطاءُ والتّسليمُ[4].

8) ﴿بُهْتَٰنًا﴾: أَصلُ كلمة البُهتان والبَهْت: التّحَيُّرُ والدّهشَةُ، يُقالُ: بُهِتَ الرَّجُلُ، أَي: دَهِشَ وتَحيَّرَ، وهو: الكَذِبُ والافتِراءُ، وسُمِّيَ الافتراءُ بُهتانًا؛ لأَنَّه يُدهِشُ الشَّخصَ ويُحَيِّرُهُ لفظاعة ما سَمِعَ، فالبُهتانُ كَذِبٌ يُحَيِّرُ الإنسانَ، ومِن معانيه أَيضًا: العَجزُ والضَّعفُ[5].

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أتي)، والرّاغب، المفردات: (أتى)، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصَّل: (أتو، أتى).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (وحد)، والكفويّ، الكلّيّات، ص: 53، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصَّل: (أحد).
(3) الخليل، العين، والجوهريّ، الصّحاح، والزّبيديّ، تاج العروس، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصَّل: (قنطر).
(4) ابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس: (أخذ).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (بهت).

9) ﴿وَإِثْمًا﴾: أصل الكلمةِ يدلُّ على البُطءِ والتَّأخُّرِ، ومنه اشتُقَّ الإثمُ؛ لأنَّ صاحبَ الإثمِ بَطيءٌ عنِ الخير مُتأَخِّرٌ عنه، يُقال: أَثِمَ فُلانٌ، يَأْثَمُ، إثمًا ومأْثَمًا: إذا أذنَبَ وارتَكَبَ إساءَةً أو خَطيئَةً، فهو آثِمٌ وأَثيمٌ، والإثمُ: الذَّنبُ، أو: الذَّنبُ الّذي يَستَحِقُّ فاعِلُهُ العُقوبَةَ عليه، وهو أعمُّ مِنَ العُدوان، وكلُّ ما في القرآن من تركيب (الإثم) فهو بمعنى الوِزْر والذَنْب، ومِن معانيه أيضًا: الخَمرُ، والقِمارُ، والجمعُ: آثامٌ[1].

10) ﴿مُّبِينًا﴾: أصلُ البَيْنِ بُعْدُ الشَّيْءِ وَانْكِشَافُهُ، وبانَ الشَّيء وأبانَ: إذا اتَّضح وانكشَفَ، والبَيِّنُ: الواضِحُ، والبَينُ: البُعدُ والفِراقُ، يُقال: بانَ، يَبين، بينًا وبَينُونةً، أي: فَارقَ وبَعُدَ.

ومِن معاني البَيان أيضًا: التَّفسير، والتَّفصيل، والبَسط، والفَصَاحة، والإثبات[2].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

إن أَردتُم - أيّها الأَزواج - تطليقَ امرأةٍ، واستبدالَ غيرها بها؛ فلا حَرجَ عليكم في ذلك، وإن كنتم أعطيتُم الَّتي عَزمتم على فِراقها مالًا كثيرًا مهرًا لها؛ فلا يَجوزُ لكم أَخذ شيءٍ منه، فإنَّ أَخذ ما أعطيتموهنَّ - التي فارقَها أو التي تزوَّجها - يُعدُّ افتراءً مُبينًا وإثمًا واضحًا![3].

❁ الإِيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

سَبَبُ وَصْلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ﴾ بِمَا قَبْلَهُ:

تَـوْسِـيـعُ الـلـهِ تَعَالَى عَلَى عِبَادِهِ فِيمَا لَا طَاقَةَ لَهُمْ بِتَحَمُّلِهِ مِنَ الْمَكْرُوهَاتِ

لَمَّا ذكر اللّه تعالى كراهيةَ الزَّوجِ لزوجه في قوله: ﴿فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ﴾ [النّساء: 19]، ولا جَرَمَ أنَّ الكَراهيةَ تَعقُبها إرادةُ استبدالِ المَكرُوه بضدّه؛ عطفَ الشَّرطَ في ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ﴾ على الَّذي قبلَه استِطرادًا واستيفاءً للأَحكام[4]؛ والجامعُ بين الجملتينِ وَهْمِيٌّ؛ إذْ بينَهما تضادٌّ، فقوله سبحانه: ﴿فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ﴾ [النّساء: 19]،

(1) الرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصَّل: (أثم).
(2) الأزهري، تهذيب اللغة، والجوهريّ، الصّحاح، والزّبيديّ، تاج العروس: (بين).
(3) جماعة من علماء التَّفسير، المختصر في تفسير القرآن، ص: 81.
(4) ابنُ عاشور، التّحرير والتّنْوير: 4/288.

يُشعِرُ بالإبقاءِ على الزَّوجيَّةِ، وقولُهُ: ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ﴾ مؤذِنٌ بالانْفصالِ، وحسَّنَ العطفَ بينهما ما فيهما من التَّناسُبِ؛ إذْ قدِ اشترَكَتا في كون كلٍّ منهما جملةً شرطيَّةً، والاتِّفاقِ في المسندِ إليهِ.

نُكْتَةُ التَّصْرِيحِ بِفِعْلِ الْإِرَادَةِ بَعْدَ أَدَاةِ الشَّرْطِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ﴾:

اسْتِبْدَالُ الْأَزْوَاجِ لَيْسَ مِنَ الْمَطْلُوبَاتِ الشَّرْعِيَّةِ

الفعل الواقع شرطًا تارةً يأتي غير مصرّح فيه بالإرادة، كقوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ۝٩٨﴾ [النّحل: 98]، وقوله سُبحانه: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُوا۟ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ﴾ [المائدة: 6] مع أنَّ المُراد: إذا أردتَ أن تقرأَ القرآن، وإذا أردتُم القيامَ إلَى الصَّلاة، وتارةً يأتي مُصرَّحًا فيه بالإرادة، كما في آية النِّساء هذه ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ﴾.

وأُقِيمَتِ الإرَادَةُ في قَوْلِه: ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ﴾ مُقامَ الفِعْلِ، والمعنَى: (وإِنِ اسْتَبْدَلْتُم)، أَوْ أنَّ المعطوفَ محذوفٌ، والمعنى: (وإِنْ أَرَدْتُم استبدَالَ زَوْجٍ، واسْتَبْدَلْتُموهَا)[1].

والنُّكْتَةُ في ذلك: أنَّ فعل الشَّرط إذا كان مرادًا وقوعُهُ شرعًا؛ أُمِرَ به في صورةِ الواقع، حتَّى كأنَّه أرادَهُ وفعلَهُ، كالواردِ في آية الوضوءِ، بخلاف ما إذا لم يكن فعلُ الشَّرْطِ مرادًا وقوعُهُ شرعًا؛ فإنَّه يُسنَدُ إلى إرادةِ العَبْدِ، كالوارد في هذه الآية وهي قولُهُ: ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ﴾، فإنَّ استبدالَ الزَّوْجِ ليس مِنَ المطلوباتِ الشَّرعية[2].

والشَّرط المذكور في قوله سبحانَهُ: ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ﴾ جارٍ على الغالبِ، فلا مفهومَ مخالفةٍ له، فلو أنَّ الرَّجُلَ طلَّقَ المرأةَ

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/571.
(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/17.

وهو لا يُريد أن يتزوَّج غيرهَا، وإنَّما أرادَ الوحدَة وعدمَ التَّقيُّدِ بامرأةٍ ومؤنَتِهَا؛ فإنَّه لا يجوزُ له أن يأخذَ شيئًا من مالِهَا.

سِرُّ تَعْلِيقِ الشَّرْطِ بِـ(إنْ) فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ﴾:

لُـزُومُ التَّثَبُّتِ وَحُسْنِ النَّظَرِ فِي مَآلَاتِ الأُمُورِ

في تعليقِ الشَّرط بـ ﴿وَإِنْ﴾ في قولِهِ تعالَى: ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ﴾، وهي في الأصلِ دالَّةٌ على عدمِ الجزْمِ بمدخُولِهَا؛ وذلك للإيماءِ إلى أنّ الإرادَةَ قَد لَا تَكُون سَلِيمَةً، وَلَا مَبْنِيّة علَى أَسْبَابٍ قويّة[1]، فعلى الزّوج أن يتريّث ويتَثَبَّت، ويحسن التّدبّر في عواقِبِ الأُمُور[2].

وفي تعليقِ الشَّرط بـ ﴿وَإِنْ﴾ أيضًا إيماءٌ إلى عدمَ تطلُّعِ الشَّرعِ وتشوُّفِهِ إلى وقوعِهِ، ويُقَوِّيه ما تقدَّم من نكتةِ التَّصريح بفعلِ الإرادَةِ، بخلاف آية الوضوءِ فقد عُلِّقَ الشَّرطُ فيها بـ (إذَا) فقال سُبحانه: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ﴾ [المائدة: 6]، وكذا في قول اللّه تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾﴾ [النّحل: 98]؛ لما تُفيده (إذا) من الجَزْمِ بوقوعِ مدخُولِهَا، ففيه تفاؤلٌ بامتثالِ العبدِ وإخراجٌ لعملِه في صورة الواقع[3].

سِرُّ التَّعْبِيرِ بِلَفْظِ ﴿ٱسْتِبْدَالَ﴾ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ﴾:

السَّـتْرُ عَـلَى النِّـسَـاءِ مِـمَّا يُحْمَدُ شَرْعًا

السّين والتّاء في ﴿ٱسْتِبْدَالَ﴾ يُرادُ بهَا تأكيدُ الحَدَثِ وبيانُ قُوَّتِه، فهِيَ كقولِهِ تعالَى: ﴿وَٱسْتَغْنَى ٱللَّهُ﴾ [التّغابن: 6]، وكَقَوْلِهِم: اسْتَجَابَ، بمعنَى: أجَابَ، واسْتَكْبَرَ، بمعنى: قوِيَ كِبْرُهُ، والمرادُ بالاسْتِبْدَالِ في الآية: طلاقُ امرأةٍ سَابقَةٍ، وتزوّجُ أخرَى[4].

ويجوزُ أن تكون السِّين والتَّاءُ مرادًا بها الطَّلَبُ - عَلى ما هُوَ الغالِبُ فيهَا - ، فمعنى الاستبدَالِ: طَلَبُ البدَلِ.

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 3/1623.
(2) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 3/94.
(3) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/17.
(4) ابنُ عاشور، التّحرير والتّنْوير: 4/288.

وفي اخْتِيَار لَفْظِ الاسْتِبْدَالِ إشعارٌ بأنَّ هذا رغبةٌ في نفسِ الزَّوْجِ لفراقِ زوجةٍ ونكاحِ أُخرى، من غيرِ تعرُّضٍ لذِكْرِ سببٍ في المرأةِ يَقْتَضِي فراقَهَا؛ وذلك سَتْرًا لَهَا، وحَسْمًا لمادَّةِ الطَّعْنِ فِيهَا الذي يلحَقُ المُفارقَاتِ عادةً.

وفيهِ دِلالةٌ على أنَّ الطَّلاقَ قَدْ لا يكُونُ له سَبَبٌ إلَّا إرادةُ التّزوّجِ منِ امرأة أُخرى، فَنَاسَب هذَا التّعبير بالاسْتِبْدَال، ونهَى الأزواجَ عن إلجَاءِ الزّوجة إلى الافْتِدَاءِ بِمَا أُعطيَت مِنْ صداقٍ[1]؛ لأنّكم إنّما تَسْتَبْدِلُون غيرَها بِهَا لأجل هَوَاكم، وتمتُّعِكم بغَيْرِ ذنْبٍ شرعِيٍّ مِنْهَا يُبِيحُ لكم أخذَ شَيْءٍ مِنْهُ؛ كأن تكُونَ هي المُطالِبةَ بالفراقِ المسيئةَ إليكم لأَجْلِ إلجائِكُمْ إلى طلاقِهَا[2].

نُكْتَةُ التَّصْرِيحِ بِـ ﴿مَّكَانَ زَوْجٍ﴾ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ﴾:

قال اللّه تَعَالَى: ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ﴾ وكان يَتَأَتَّى أن يرِدَ النَّظْمُ القرآني: ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ﴾ من دُونِ ﴿مَّكَانَ زَوْجٍ﴾؛ لكونِهِ مفهومًا من الكلامِ، وإنَّما نُصَّ عليهِ ليُعَاد عليه الضَّميرُ في قوله تعَالى: ﴿وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا﴾[3]، وفيه إشعارٌ بأنّ الزَّوْجَ الأُولَى مرغُوب عنهَا، والأُخْرَى مرغُوبٌ فِيها، وليسَ ثَمَّ سَبِيلٌ إلى الجَمْعِ بَيْنَهُمَا؛ لبُلُوغِ الكُرْهِ للأُولَى مَبْلغًا لَم يُمْكِنْهُ معَهُ الإبْقَاءُ عَلَيْهَا.

شِـــدَّةُ الـكُـرْهِ مَظِنَّةٌ لِلْفِرَاقِ بَيْنَ الزَّوْجَيْنِ

بَلَاغَةُ الْكِنَايَةِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا﴾:

عُبِّر بِلَفْظِ (القِنْطَارِ) في قَوْلِه تَعَالَى: ﴿وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا﴾ إيمَاءً إلى الكثرةِ؛ إذِ القِنْطَارُ يُستعمَلُ كنايةً عَنِ المالِ الكثِيرِ؛ لأنَّ

المَهْرُ حَقٌّ خَالِصٌ لِلْمَرْأَةِ؛ يَحْرُمُ الاعْتِدَاءُ عَلَيْهِ

(1) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 3/1155.
(2) رضا، تفسير المنار: 4/375.
(3) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/17.

مفهومَ الوَزْنِ غيرُ مقصُودٍ، والقناطِيرُ مِمَّا يُضرب بِهِ المَثَلُ في الكَثرَة[1]، ونكتَةُ التَّعبير بالكِنَايةِ: المُبالغَةُ في تَفْخِيم النَّهْيِ الوارِد بعدُ في قولِه: ﴿فَلَا تَأْخُذُواْ مِنْهُ شَيْـًٔا﴾ وتأكيدُهُ، وأنَّ المهْرَ حقٌّ خالِصٌ لِلْمَرْأَةِ لا يجُوزُ الاعتداءُ عليه بحالٍ مِنَ الأحوالِ، وفيه إشارةٌ إلى أنْ لا حدَّ لأَكثَرِ المَهْرِ.

دِلَالَةُ الْإِفْرَادِ فِي لَفْظِ ﴿زَوْجٍ﴾ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ﴾:

مُقَابَلَةُ الْجَمْعِ بِالْجَمْعِ تَقْتَضِي الْقِسْمَةَ آحَادًا

لَمَّا كان قولُه: ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ﴾ خطابًا لجماعَةٍ؛ كان مُتعلِّق الاستبدال أزواجًا مكانَ أزواجٍ، إلَّا أنَّهُ اكْتُفِيَ بالْمُفْرَدِ عَنِ الجمع؛ لِدِلَالَة جَمْعِ الْمُستَبْدِلِين؛ إذ لا يتوهَّمُ أحدٌ أنَّ المرادَ استبدالُ الجميعِ زوجًا واحدةً مكانَ زوجٍ واحدةٍ، فلفظ ﴿زَوْجٍ﴾ مفردٌ في اللَّفْظِ وهو في المعنَى جمعٌ، وقد قُوبِلَ بخطاب الجمْعِ في ﴿أَرَدتُّمُ﴾، فاقْتَضَى ذَلِك القِسْمَةَ آحَادًا، والمعنَى: إن أرَاد وَاحِدٌ مِنْكُم استبدَالَ زوْجٍ مكانَ زوجٍ.

دِلَالَةُ النَّهْيِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَلَا تَأْخُذُواْ مِنْهُ شَيْـًٔا﴾:

رِعَايَةُ الْإِسْلَامِ حَقَّ الْمَرْأَةِ وَسَدُّهُ الطُّرُقَ الْمُفْضِيَةَ إِلَى انْتِقَاصِهِ

نهى اللهُ سُبحانَهُ عن أَخذِ ما قدَّمه الزَّوج مَهرًا للمرأةِ بَعدَ فراقِهَا، وحذَّرهم مِنْهُ، فقال تعالى: ﴿فَلَا تَأْخُذُواْ مِنْهُ شَيْـًٔا﴾؛ والنَّهيُ دالٌّ على الإلزامِ بالتَّرْكِ كما هو الأصلُ فيه.

و(مِنْ): تبعيضيَّةٌ، والنَّهْي عن أخذِ بعضِهِ أبلغُ مِنَ النَّهي عن أَخذِهِ كُلِّهِ؛ لأنَّ النَّهيَ عَن أَخذِ بَعضِهِ يستلزم النَّهيَ عن أَخذِهِ كُلِّهِ من غير عكسٍ.

ويُقوِّيه تَنْكِيرُ كلمةِ ﴿شَيْـًٔا﴾؛ فإنَّه دالٌّ على العُمُوم، لكَوْنِها نكرةً في سِيَاق النَّهي، ويجوزُ أن يكونَ المُرَادُ بالتَّنْكِير التَّحقيرَ؛ أي: لا

(1) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 1/201.

يَجُوزُ أخْذُ الشَّيءِ الحَقِير مِنْهُ، فأَخْذُ الجَلِيلِ مُحَرَّمٌ مِن باب أَوْلَى؛ وهذَا يَؤُولُ إلى سَابقِه في إفَادَةِ النَّهْيِ عَن عُمُومِ الأَخْذِ.

وفي هذا رعايةٌ فائقةٌ لحقِّ المرأة، وسدّ للطُّرُقِ المُفضيَةِ إلى انتقاصِه ولو في حَالِ الخصام والتَّفريق[1].

دِلَالَةُ الِاسْتِفْهَامِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾:

الهمزةُ في قَوْلِه تَعَالَى: ﴿أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ لِلاسْتِفْهَام، وهذا الاستفهامُ خارجٌ عَن أصلِ دلالَتِه مِن طَلَبِ العِلْمِ بِشَيء لَم يَكُنْ معلومًا مِن قبلُ إلى مَعْنَى التَّعجُّبِ والإِنْكَارِ، والمعنَى: أَتفعلونَه مَعَ ظُهور قُبْحِه؟![2]

مِنْ بَدِيعِ التَّشْرِيعِ الإِسْلَامِيِّ: قَرْنُ الْأَحْكَامِ بِمَا يَحُثُّ عَلَى امْتِثَالِهَا

ومِنَ السِّمات البيانيَّة والتَّشريعيَّةِ في القرآنِ الكريم، أنَّهُ إذَا وَرَدَ فِيهِ أَمْرٌ أَوْ نهيٌ أُتْبِع ذلكَ بِمَا يُرَغِّبُ في المأمور بِهِ، ويُنَفِّرُ منَ المَنهيّ عَنْهُ[3].

نُكْتَةُ التَّعْبِيرِ بِالْمَصْدَرِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا﴾:

﴿بُهْتَٰنًا﴾ في قولِ اللّهِ تَعَالَى: ﴿أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ حالٌ من الفَاعِلِ في ﴿أَتَأْخُذُونَهُۥ﴾، وهو مصدَرٌ قُصِدَ به الوصفُ، أي: أَتَأْخُذُونَهُ بَاهِتِينَ فَاعلِينَ فِعلًا تَتَحَيَّر العقولُ في سَببِه، آثمينَ بفِعْلِهِ إثمًا واضِحا مُعلَنَ الوضوح، مُستَنكرَ الوقُوع.

شَنَاعَةُ الْمُعْتَدِي عَلَى حَقِّ الْمَرْأَةِ وَاسْتِحْقَاقُهُ أَشَدَّ التَّوْبِيخِ

ويصحُّ أن يكُونَ المَصْدَرَان مفعُولَيْن لأَجله، ويكون المعنى: أَتأخذُونَه لأَجل البُهتَانِ والإِثْمِ المُبين؛ ويكون في التَّعليل تَوبيخٌ أَشَدُّ[4].

(1) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 1/201.
(2) القاسميّ، محاسن التّأويل: 3/75.
(3) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 1/201.
(4) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 3/1624.

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الإرادة والمشيئة:

كلاهما قد ورد في القرآن الكريم منسوبًا إلى الإنسان، فالإرادة كما ورد في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ﴾، والمشيئة في نحو قوله تعالى: ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُواْ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾ [البقرة: 223]، ويبدو الفرق بينهما في أنَّ "الإرادة قد تكون بحسب القوّة التّسخيريّة، والفكريّة، والحسّيّة، ولذلك تُستعمل في الجماد، نحو: ﴿جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ﴾ [الكهف: 77]، وفي الحيوان، وفي العقلاء، والمشيئة لا تكون إلّا مع اختيار، ولذلك لا يُقال إلّا للعالم والمُتفكّر".[1]

"أَنّ الإِرادة تكون لمَا يتراخى وقته ولمَا [لا]يتراخى، والمشيئة لمَا لم يتراخ، والشَّاهد أَنَّك تقول: فعلت كذا شاء زيدٌ أَو أَبى؛ فيقابل بها إباءه، وذلك إنما يكون عند محاولة الفعل، وكذلك مَشيئَته إِنَّما تكون بدلًا من ذلك في حاله"[2].

ومعنى أراد الشّيءَ: أحبّه وعُنِيَ به، فالإرادةُ ملحوظ بها ذَهابُ النّفس إلى الشّيء طلبًا ورغبة قويّة في تحصيله، ومعنى شاء يشاء، أي: اجتمعَت نفسُه على الأمر، أو تجمَّعَت الرّغبة في نفسه، فالمشيئة في اجتماع النَّفس على الشّيء ورغبتها أقوى دون الذَّهاب والمضيِّ.

ولأنّ المشيئة في صفات المخلوقين ألزم منَ الإرادة والهوى لغةً، ألَا ترى أنَّ المشيئة لا تُذكر مُضافةً إلى غير العقلاء[3].

وقد استُعمل في السياق القرآني من الآية الكريمة الإرادة؛ لتضمن استبدال الزوجة معنى التّردُّد في طلب الشَّيء برفق، وهذا الاستبدال هو نُزوع النَّفس إلى التغيير، وهو: ذَهاب النَّفس إلى الشّيء طلبًا ورغبةً قويَّةً في تحصيل هذه الزوجة الجديدة.

البَدَل والعِوَض:

الإبدالُ والتَّبديلُ والتَّبَدُّلُ والاستبدالُ: جَعلُ شيءٍ مكانَ آخر، وهو الوارد في القرآن الكريم، وهو أعمُّ منَ العِوَض، ومعنى العوض قد ورد في القرآن دون لفظه، وقد أشير

(1) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 1/152.

(2) العسكريّ، الفروق اللغوية: 1/124، وبزيادة ما بين المعقوفين لاقتضاء السّياق.

(3) العينيّ، البناية شرح الهداية: 5/400.

إليه بباء المقابلة أو العِوَض، كقوله تعالى: ﴿ٱلۡحُرُّ بِٱلۡحُرِّ وَٱلۡعَبۡدُ بِٱلۡعَبۡدِ وَٱلۡأُنثَىٰ بِٱلۡأُنثَىٰۚ﴾ [البقرة: 178]، فإنَّ العِوَضَ هو أن يصير لك الثَّاني بإعطاء الأوَّل، والتَّبديل قد يُقال للتَّغيير مُطلقًا، وإن لم يأتِ ببدله، قال تعالى: ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوۡلًا غَيۡرَ ٱلَّذِي قِيلَ لَهُمۡ﴾ [البقرة: 59]، وقال تعالى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمۡ حَسَنَٰتٖۗ﴾ [الفرقان: 70][1].

فعبَّرت الآية باستبدال زوجة مكان أخرى، وهو أعمُّ في التغيير من العِوَض، فقد تكون الجديدة مساوية للأولى في صفاتها الذاتية والمكتسبة، وقد تكون أعلى، وقد تكون أدنى منها، فجاء التعبير بالبدل؛ للإشارة إلى مطلق هذه المعاوضة، ووقوع شتى الاحتمالات.

الإيتاء والإعطاء:

الإيتاء: أقوى من الإعطاء، إذ لا مُطاوع له، يُقال: آتاني فأَخَذته، وفي الإعطاء يُقال: أَعطاني فعطوت؛ وما له مُطاوع أَضعَف في إثبات مَفعوله ممَّا لا مُطاوع له، ولأَنَّ الإيتاء في أَكثر مَواضِع القرآن فيما له ثباتٌ وقرارٌ، كالحكمة والسَّبع المثاني، والمُلك الَّذي لا يُؤتَى إلَّا لذي قُوَّة.

والإعطاءُ: فيما ينتقل منه بعد قضاء الحاجة منه، كإعطاء اللهِ كلَّ شَيء خَلْقه اللائق به الدَّال على حسن صُنعه؛ لتكرّر حدوث ذلك باعتبار الموجودات، وإعطائه تعالى الكوثرَ للنبيِّ ﷺ؛ للانتقال منه إلى ما هو أعظم منه، وكذا ﴿وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ ۝٥﴾ [الضّحى: 5]، للتَّكرّر إلى أن يرضى كلّ الرِّضا[2].

وَاحِد وأَحَد:

(وَاحِد): اسم لمُفتتح العدد، ويأتي بعده اثنان وثلاثة؛ أمَّا (أَحد) فينقطع معه العَدَد فلا يأتي بعده عدد، إذًا هو نفي لمَا يُذكر معه مِنَ العدد، ولذلك لا يُوصف بالأحديّة مطلقًا إلَّا الله، قال تعالى: ﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ [الإخلاص: 1][3].

والتعبير في الآية جاء بـ (أحد)؛ ليناسب بيان حالة استبدال مخصوصة لزوجة مكان أخرى.

---

(1) الرّاغب، المفردات: (بدل).

(2) الكفويّ، الكلّيّات، ص: 212.

(3) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن الأثير، النّهاية: (وحد).

الأَخذ والاتِّخاذ:

الأَخذُ مصدر أخذتُ بيَدي، ويُستعار فيُقال: أَخذه بلِسَانه إذا تكلَّم فيه بمكروه، وجاء بمعنى العذاب في قوله تعالى ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخۡذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلۡقُرَىٰ﴾ [هود: 102]، وقوله تعالى: ﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّيۡحَةُ﴾ [الحجر: 73]، وأَصله في العربيَّة الجمع، والاتّخاذ: أخصُّ الشَّيء لأمر يستمر فيه، مثل: الدَّار يتَّخذها مسكنًا، والدَّابَّة يتّخذها قَعْدَةً، ويكون الاتّخاذ التَّسمية والحكم، ومنه قوله تعالى ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً﴾ [الفرقان: 3]، أَي: سَمَّوْها بذلك، وحكموا لها به[1].

ولفظ الأخذ هو المناسب لمعنى سياق الآية الكريمة.

البُهتان والاغتياب والافتراء والإفك:

تتقاربُ معاني هذه الألفاظ، بَيدَ أنَّها عند التَّدقيق ممَّا تختلف دلالته وتتفاوت، فالاغتياب هو أن يتكلَّم شخصٌ خلفَ إنسان مَستورٍ بكلامٍ هو فيه، وإن لم يكن ذلك الكلام فيه فهو بهتان، والكذب الفاحش الَّذي يدهش له سامعه هو بهتان، إن لم يكن بحضرة المقول فيه، فإن كان بحضرته كان افتراءً، سواء أكان ذلك عن قَصد أم عن غير قصدٍ، فإذا كان ذلك عن قَصدٍ كان إفكًا[2]، والبهتان الباطل في الآية بمعنى: الظُّلم والإثم والفعل الباطل، لا قذف البريء.

الإثم والذَّنب:

الإثم: الذَّنب الَّذي يستحقّ العقوبة عليه، ولا يَصحُّ أَن يُوصف به إلَّا المحرَّم، سواء أُريد به العقاب أَو ما يستَحقّ به منَ الذُّنوب، وبين الذَّنب والإثم فرقٌ من حيثُ إنَّ الذَّنب مُطلق الجُرم عَمدًا كان أم سهوًا، بخلاف الإثم، فإنَّه ما يستحقّ فاعله العقاب، فيختَصّ بما يكون عمدًا، ويسمّى الذَّنب تبعة اعتبارًا بذنب الشَّيء، كما أَنّ العقوبَة باعتبار ما يحصل من عاقبته، والهمزة فيه منَ الواو، كأَنَّه يثم الأعمال، أَي: يكسرها، وهو أَيضًا عبارة عنِ الانسلاخ عن صفاء العقل، ومنه سُمِّي الخَمر إثمًا؛ لأَنَّها سبب الانسلاخ عنِ العقل ﴿قُلۡ فِيهِمَآ إِثۡمٞ كَبِيرٞ﴾ [البقرة: 219]، أَي: في تناولهما إبطاء عَنِ الخيرات[3].

فناسب استخدام الإثم في سياق الآية الكريمة.

---

(1) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 138.

(2) عدد من المختصين، نضرة النّعيم في مكارم أخلاق الرّسول الكريم ﷺ، ط: 4، 9/4108.

(3) الكفويّ، الكلّيّات، ص: 40.

﴿وَكَيۡفَ تَأۡخُذُونَهُۥ وَقَدۡ أَفۡضَىٰ بَعۡضُكُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ وَأَخَذۡنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظٗا ٢١﴾ [النّساء: 21]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا أنكر على الأزواج أخذ شيء من مهور النِّساء في الآية السّابقة شدَّد الاستنكار هنا، لِما اشتمل عليه الأخذ من أحوال خاصّة بين الزّوجين تستدعي الفضل في المعاملة فضلًا عنِ العدل عند الفراق.

فكان التَّأكيد في الآية الّتي قبلها استنكارًا لذات الأَخذ، وهنا الاستنكار لِمَا أحاط بالأَخذ مِن أحوالٍ وملابساتٍ، والمُؤدَّى أنَّ الأخذ عند إرادة الاستبدال أمرٌ مُستنكر في ذاته، ثمَّ هو مُستنكرٌ لأجل الأحوال والمقتضيات التي تدعو إلى حفظ الحق وعدم نسيان الفضل فيما كان بين الزَّوجين[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَفۡضَىٰ﴾: فَضا يَفضو، فُضُوًّا وفَضاءً، أَصْلٌ صَحِيحٌ يَدُلُّ عَلَى انْفِسَاحٍ فِي شَيْءٍ وَاتِّسَاعٍ، مِنْ ذَلِكَ الْفَضَاءُ: الْمَكَانُ الْوَاسِعُ، وَيَقُولُونَ: أَفْضَى الرَّجُلُ إِلَى امْرَأَتِهِ: بَاشَرَهَا، وَالْمَعْنَى أَنَّهُ شُبِّهَ مُقَدَّمُ جِسْمِهِ بِفَضَاءٍ، وَمُقَدَّمُ جِسْمِهَا بِفَضَاءٍ، فَكَأَنَّهُ لَاقَى فَضَاءَهَا بِفَضَائِهِ، والإفضاء: الوصول، يُقال: أفضى إليه، أي: وصل إليه بالملابسة معه، وأصلُه مِنَ الفَضاء الَّذي هو السّعَة، والفاضي: المكان الواسع، والإفضاء ههنا كناية عَنِ الجماع، أو أَن يَخلُوَ بها وإن لم يُجامعها[2].

2) ﴿مِّيثَٰقًا﴾: وَثِقتُ به أَثِقُ ثِقَةً: سَكَنتُ إليه، واعتَمَدتُ عليه، وأَوثَقتُهُ: شددته، والوَثاقُ والوِثاقُ: اسمان لِمَا يُوثَقُ به الشّيء، والميثاقُ: عقد مؤكّد بيمين وعهد، قال: ﴿وَإِذۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [آل عمران: 81]، ﴿وَأَخَذۡنَا مِنۡهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظٗا ١٥٤﴾ [النّساء: 154] والمَوثِقُ الاسم منه، قال الله تعالى: ﴿حَتَّىٰ تُؤۡتُونِ مَوۡثِقٗا مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [يوسف: 66][3].

(1) الزّبيديّ، تاج العروس: (بين).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (فضى/فضا)، والواحديّ، التّفسير البسيط: 6/402 - 403.
(3) الرّاغب، المفردات: (وثق).

والمعنى في الآية: عهدًا موثقًا بالنكاح، أو بإمساك الزوجة بالمعروف أو تسريحها بإحسان.

3) ﴿غَلِيظًا﴾: يُقال: غَلُظَ، يَغلُظُ، غِلَظًا: إذا صار غليظًا، وعذابٌ غَليظٌ، أي: شَديدُ الألم، وبَينَهما غِلظَةٌ ومُغالَظَةٌ، أي: عَداوَةٌ، والتّغليظُ: التّكبيرُ والتّعظيمُ، يُقال: غَلُظَ الشّيءُ، أي: عَظُمَ وكَبُرَ، ويأتي بمعنى التَّشديدِ والتَّوكيدِ، ومنه: عَهدٌ غَليظٌ، أي: مُؤَكَّدٌ مُشَدَّدٌ[1]، وهو هنا: ما أمَرَ اللّه بِهِ من حقِّ الزوجة.

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

كيف تأخذون ما أعطيتُم زوجاتكم من المهر بعد الّذي حصل بينكم من علاقة ومودّة واستمتاع واطّلاع على الأسرار، فإنّ الطّمع بما في أيديهنّ من مال بعد هذا أمر مُنكَر ومستقبَح، وقد أخذن منكم عهدًا موثَّقًا شديدًا، وهو استحلال الاستمتاعِ بهنَّ بكلمة اللّه تعالى وشرعه، أو من إمساكهن بمعروف أو تسريحهن بإحسان!؟[2]

❁ الإِيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

بَلَاغَةُ الِاسْتِفْهَامِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾:

تَهْيِيجُ الْـوَازِعِ الدِّينِيِّ فِي قَلْبِ أَهْلِ الْإِيمَانِ مِنْ أَقْـوَى الـدَّوَاعِي عَـلَى اجْـتِـنَـابِ الْمُنْكَرَاتِ

في قولِ اللّهِ تَعَالَى: ﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾ إِنْكَارُ أَخْذِ الزّوج شيئًا مِن مَهْرِ المرأَةِ بِغَيْرِ وَجْهِ حَقٍّ، وقد ورَدَ هذا الاستفهامُ الإنكاريُّ عقِبَ الاستفهامِ الإنكاريِّ السَّابقِ في قولِه سُبحانه: ﴿أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾، والقصدُ: تَهْيِيجُ الْوَازِعِ الدّينيِّ في قَلْبِ المؤمِنِ؛ لئلّا يُقْدِمَ على هذا المُنْكَرِ والظُّلْمِ أو ليرجِعَ ويَرْعَوِيَ إذا كان قدْ باشَرَهُ.

وهذا الاسْتِفْهَامُ في قَوْلِه تعالَى: ﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾ استفْهَامٌ تَعْجِيبِيٌّ بعدَ الْإِنْكَارِ، أُريدَ به تَعْظِيمُ أَخْذِ

(1) الرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، الزّبيديّ، تاج العروس: (غلظ).
(2) جماعة من علماء التّفسير، المختصر في تفسير القرآن الكريم، ص: 81.

المَهْرِ بِغَيْرِ حقِّه وتوبيخُ الآخذ، فقد أُنْكِرَ أوَّلًا الأَخْذُ، ونُبِّهَ على امْتِنَاع الأَخْذِ بكونِهِ بُهتانًا وإثمًا، وأُنْكِرَ ثانيًا حالَ الأَخذ، وأنَّها ليست ممَّا يُمكن أن يُجامع حالَ الإفضاء؛ لأنَّ الإفضاءَ - وهُو المُبَاشَرَةُ والدُّنوُّ الَّذي ما بعدَه دُنوّ - يَقْتَضِي أَنْ لا يُؤخَذَ معَهُ شَيْءٌ ممَّا أعطاهُ الزَّوجُ[1].

وهذا الاِسْتِفْهَامُ الإنكَارِيُّ في قوله: ﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾ سِيقَ مَسَاق المبالغة؛ حيثُ وُجِّه الإنكارُ إلى كيفيَّة الأخذ؛ إيذانًا بأنَّه ممَّا يَنْبَغِي أَن لا يَتَحَقَّق ولا يُوجَد في الوَاقِعِ أَصْلًا؛ لأنَّ ما يَدْخُلُ تحتَ الوُجُودِ لا بدَّ أن يكونَ على حالٍ مِنَ الأحوال، فإذا لَم يَكُنْ لشيءٍ حالٌ أَصلًا؛ لَم يَكُنْ لَهُ حظٌّ منَ الوجُودِ قَطعًا[2].

بَرَاعَةُ عَرْضِ الدَّلِيل:

لَا يَتِمُّ الْحُكْمُ حَتَّى تَجْتَمِعَ الشُّرُوطُ وَتَنْتَفِيَ الْمَوَانِعُ

في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿فَلَا تَأْخُذُواْ مِنْهُ شَيْـًٔا ۚ أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ۝٢٠ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾ ترتيبٌ بديعٌ لعرضِ الدَّليلِ، يُشبهُ أساليبَ الفقهاءِ التي عُرِفَتْ بعدُ؛ وذلك أنَّ المجتهدَ إذا حَكَمَ في مسألَةٍ مَا، لا يَتِمّ لَهُ ذلكَ إلَّا بِأَمْرَيْنِ:

أحدُهُمَا: أن يَأْتِيَ بالدَّليل المُقْتَضِي ثبوتَ الحكمِ.

والآخَرُ: انتفاءُ المانِعِ مِنْهُ.

ومثلُ هذا وردَ في الآية الكريمة؛ فإنَّ اللّه تعالى لَمَّا حَكَمَ بعَدَمِ جوازِ الأَخذ ممَّا أُوتِيَتْهُ النِّساء في قولِه: ﴿فَلَا تَأْخُذُواْ مِنْهُ شَيْـًٔا﴾؛ أعقبَهُ ببَيَانِ أنَّ مُريدَ الأخذِ ليسَ لَهُ دليلٌ يُبيحُ أخذ ذلكَ، بل هو مُجرَّد بُهتانٍ، فقال سُبحانه: ﴿أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾، وإن سُلِّمَ أنَّ لهُ في أخْذِ شيءٍ مِنْ ذلك مُستندًا أو دليلًا؛ فَهُنَاكَ مانعٌ يمنَعُ الأَخذَ؛ وهو إفضاءُ بَعْضِكُم إِلَى بَعْضٍ، وتقرّر العهدِ بينَكُم بالمَوَاثِيقِ[3].

(1) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 3/96.

(2) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 2/159.

(3) ابن عرفة: تفسير ابن عرفة: 2/18.

مِنْ مَحَاسِنِ التَّشْرِيعِ الإِسْلَامِيِّ قَرْنُهُ الْأَحْكَامَ بِعِلَلِهَا

دِلَالَةُ الْحَالِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾:

الوَاوُ في قَوْلِه تعالَى: ﴿وَقَدْ أَفْضَىٰ﴾ لِلْحَالِ، والجملةُ بعدَها في محلِّ نصْبٍ: حالٌ مِن فاعِلِ ﴿تَأْخُذُونَهُۥ﴾ مفيدةٌ لتأكيد النَّكير وتقريرِ الاِسْتِبْعَادِ، أي: على أيّ حالٍ، أو في أيِّ حالٍ تأخُذونهُ، والحالُ أنَّه قد جَرَى بينَكُمْ وبينهنَّ أحوالٌ منافيةٌ لهذا الأخْذِ؛ منَ الخَلوةِ، وتقرُّرِ المَهرِ، وثبوتِ حقِّ خِدمتِهنَّ لَكُم، وغير ذلك[1].

التَّذْكِيرُ بِالْعِشْرَةِ السَّابِقَةِ مَظِنَّةٌ لِحِفْظِ الْحُقُوقِ الْحَاضِرَةِ

دِلَالَةُ (قَدْ) الْحَرْفِيَّةِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقَدْ أَفْضَىٰ﴾:

نصَّ المُحقّقونَ من أهل العربيَّةِ[2] على أنَّ (قَد) تُقَرِّبُ المَاضِيَ منَ الحال، فأفادَنَا هذا المعْنَى لـ (قَدْ) أنَّ قولَهُ تَعَالَى: ﴿وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾ دالٌّ على أنَّ الإفضَاء قد حصَلَ، ولَا يَزَالُ أثرُه في الحالِ، وهذا أبلَغُ في الصّفةِ مِن تجريدِ ذِكْرِ الفِعْلِ، وأَدْعَى لترْكِ التَّعرُّضِ لمالِهِنَّ بالأخذِ، وكذا قولُهُ تعالَى: ﴿وَأَخَذْنَ﴾، فإنَّ (قَد) مُقدَّرةٌ مَعَهُ، وإنَّما حُذِفَت اكتفاءً بذِكْرِهَا مع الفعل ﴿أَفْضَىٰ﴾[3].

وَذِكْرُ (قَدْ) في مَقام تَوْبيخِ الزَّوْجِ إنْ أرَادَ أخْذَ شَيْءٍ مِن مَهْرِ الزّوجةِ: تَذْكِيرٌ لَهُ بحَالٍ ماضيَةٍ، وكأنّها حاصلَةٌ الآن؛ لقُرْبِهَا زَمَانًا، وبقاءِ أثرِهَا حَالًا.

شِدَّةُ الْخُلْطَةِ بَيْنَ الزَّوْجَيْنِ تُصَيِّرُهُمَا بِمَنْزِلَةِ النَّفْسِ الْوَاحِدَةِ

نُكْتَةُ اخْتِيَارِ لَفْظِ الْإِفْضَاءِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾:

الإفضَاءُ الوَارِدُ في قولِ اللّه تعالى: ﴿أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾ مأخوذةٌ مِنَ (الفَضَاءِ)، والفَضاءُ: المكَانُ الوَاسِعُ، فقولُهُ تعالَى: ﴿أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾ يعني: دَخلتُم مع بعضٍ دُخولًا غيرَ مُضيّقٍ.

(1) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 2/159.

(2) الهرويّ، الأزهية، ص: 211، والزّجاجي، حروف المعاني، ص: 13، والمراديّ، الجنى الدّاني، ص: 256، والمالقيّ، رصف المباني، ص: 392، والدَّقر، معجم القواعد العربيّة، ص: 354، وشراب، معجم الشّواهد النّحويّة، ص: 433.

(3) السّمين، الدّرّ المصون: 2/635.

فَمَعْنَى الْإِفْضَاءِ: أَنَّكم دَخلتُم معًا أوسعَ مُدَاخَلةٍ، وحَسبُك مِن قِمَّة المُداخلة أنَّ عَورتَها الَّتي تَسترها عن أَبيهَا وعن أَخيها، بل وَعَن أُمِّها وأُختها؛ تُظْهِرُهَا لزوجِهَا، ولا يوجدُ إفضاءٌ أَكثرُ مِن هذا، ودَخل الزَّوْجُ معهَا في الاتِّصال الواسعِ؛ بأَنفاسِهِ، ومُلامَستِه، ومُباشَرتِهِ، ومُعاشرتِهِ، وَمَدْخَلِهِ وَمَخْرَجِهِ، فحدثَت الإفضاءَاتُ في كلِّ شيءٍ، والزَّوْجُ ما دامَ قد أَفضى إِلَيْها، وهي قد أَفضَت إليه؛ كما قال اللّه سُبحانَهُ في شأنِ المُدَاخَلَةِ الشَّاملة: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾ [البقرة: 187]، أيّ شيءٍ تُريدُ أكثرَ من هذا؟![1]

بَلَاغَةُ الْكِنَايَةِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾:

الْحَيَاءُ فِي الْقَوْلِ وَالْفِعْلِ مَنْبَعُ كُلِّ فَضِيلَةٍ

في قولِ اللّه سُبحانَهُ: ﴿وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾ كنايةٌ مِن أَلطَف الكِنايات عمَّا يُستقبَح التَّصريحُ به من أعمَالِ الرَّفث وألفاظِهِ، فالبيان القرآنيّ يَهْدي دائمًا للَّتي هي أَقوَم في الألفَاظِ والمعَاني والْأَخْلَاقِ والسُّلوك، فقد كنَّى اللّه تعالى عَنِ الجماع بلَفْظِ الْإِفْضَاء تعليمًا لِلْمُؤْمِنِين الأدبَ الرَّفيع، قال ابنُ عبَّاس: الإفضاءُ في هذه الآية الجماعُ، ولكنَّ اللّه كريمٌ يُكنِّي[2].

دِلَالَةُ تَعْدِيَةِ فِعْلِ الْإِفْضَاءِ بِـ ﴿إِلَىٰ﴾ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾:

لِحُرُوفِ الْجَرِّ أَثَرٌ فِي تَرْجِيحِ الْمَعَانِي الْمُحْتَمِلَةِ

في تَعْدِيَةِ الْإِفْضَاءِ بحرف الجرِّ ﴿إِلَىٰ﴾ في قولِهِ تَعَالى: ﴿وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾ مَا يدلُّ علَى معنَى الْوُصُولِ والاتِّصال، وذلك أَنسَبُ بِالمَعْنَى الْمُكَنَّى عَنْهُ وَهُوَ الْجِمَاع[3]، ولذا عُدِّيَ فعل الرَّفَثِ أيضًا بحرفِ الجرِّ ﴿إِلَىٰ﴾ في قوله تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ﴾ [البقرة 187]، وإنّما دخلت (إلى)؛ لأنّ

(1) الشّعراويّ: تفسير الشّعراويّ: 4/2086 - 2087.
(2) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 1/201 - 202.
(3) الآلوسّي، روح المعاني: 2/452.

معنى (الرَّفث) و(الإفضاء) واحد، فكأنّه قال: أُحِلَّ لَكُمُ الإفضَاءُ إلى نسائِكُمْ[1].

سِرُّ التَّعْبِيرِ بِـ﴿بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾:

عَظَمَةُ الرَّابِطَةِ فِي الْحَيَاةِ الزَّوْجِيَّةِ

في قولِهِ سُبحانه: ﴿وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾ نُكْتَةٌ لَطِيفَةٌ، وذلك لأنَّهُ عُدِلَ عن التَّعبيرِ بنحْوِ: (وقد أَفضَيتُم إليهنَّ)، أو (أَفضَى أحدُكم إلى الآخَر)، إلى التَّعبير بقَوْلِه: ﴿وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾ بقصدِ الإشَارَةِ إلَى كَوْنِ كُلّ واحدٍ مِنَ الزَّوجين بمَنْزِلَةِ الجُزْء مِنَ الآخَرِ وبَعْضِهِ المُتمِّم لوجُودِهِ، فكأنّ بعضَ الحَقِيقَةِ كانَ مُنْفَصِلًا عَن بَعْضِهَا الآخَرِ، فوَصَلَ إِلَيْهِ بِهَذَا الإِفْضَاء، واتَّحد به[2].

بَلَاغَةُ الْمَجَازِ الْعَقْلِيِّ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾:

حِرْصُ الشَّرْعِ عَلَى حِفْظِ حُقُوقِ النِّسَاءِ وَالْمُبَالَغَةُ فِي ذَلِكَ

الضّمير في ﴿وَأَخَذْنَ﴾ من قولِ اللّه تعالى: ﴿وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾ راجعٌ إلَى النّسَاء، والآخِذُ لِلْمِيثاقِ في الحقيقة إنّما هو اللّه تعالى؛ فهو الذي أخذ الْمِيثَاقَ الغَلِيظَ على الرِّجالِ أَنْ يُعَامِلُوا نساءَهُمْ معامَلَةً كَرِيمَةً، إلّا أنّهُ سُبحانه نسَبَ أخذَ الميثاقِ إلى النِّساءِ؛ مُبَالغَةً في المُحَافَظَةِ علَى حُقُوقِهِنّ، حتّى جَعَلَهُنّ كأنّهنَّ الآخذَاتُ لَهُ، ففِي هذا الإِسْنَادِ مَجَازٌ عَقْلِيٌّ؛ من إسنادِ الفعل إلى سَبَبِهِ؛ لأنَّ اللّه تعالَى أخذَ الْعَهْدَ على الرِّجالِ لأجلهنّ وبسببهنّ[3].

نُكْتَةُ الْمُشَاكَلَةِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾:

جَلَالَةُ عَقْدِ الزَّوْجِيَّةِ

في قَوْلِ اللّهِ تعالى: ﴿وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا﴾ مشاكَلَةٌ[4]، حيثُ سُمِّيَت المواثَقَةُ بالعَقْدِ أو العِشْرةِ أو الوَلَدِ بالأَخذِ مُشاكلةً لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ﴾، والنُّكْتَةُ: تَصْوِيرُ هذا الميثاق في صورةِ

(1) الأخفش، معاني القرآن: 1/139.
(2) رضا، تفسير المنار: 4/376.
(3) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 3/95.
(4) المشاكلة: أن يُذكرَ الشيَّء بلفظ غيره لوقوعه في صُحبته، يُنظر: الحمويّ، خزانة الأدب: 2/252.

الشَّيء الثَّمين الغالي الَّذي تقبِضُه الزَّوجة مُقابل عِشْرَتِهَا مع زَوْجِها، فيُسْبِغُ على الحياة الزَّوجيّة الرَّاحةَ والأَمَان[1].

والّذي يَنْبَغِي بينَ الأزوَاجِ أن يشيعَ فِيهِم قولُ النَّبِيِّ ﷺ: «أَخَذْتُمُوهُنَّ بِأَمَانِ اللهِ، وَاسْتَحْلَلْتُمْ فُرُوجَهُنَّ بِكَلِمَةِ اللهِ»[2]؛ فالعَجَبُ مِمَّنْ يُرِيدُ أخذَ شيءٍ مِن مهُورِ أزوَاجِهِم، وقد أعطَوْهَا أمانَ اللّهِ تعالَى عندَ عَقْدِ النّكاح!

دِلَالَةُ لَفْظِ (الْمِيثَاقِ) فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾:

الـزَّوَاجُ أَسَـاسُ بِنَاءِ الْمُجْتَمَعَاتِ

سُمّي عَقْدُ الزّواج ميثاقًا؛ لمَا بين الزّوجين من علاقة وثيقَةٍ قد أحلَّها اللّه تعالى، وجعلها أساسًا في بناء المجتمع المسلم، وهذا المَعْنَى مأخُوذٌ منَ المعنى المِحْوَرِيِّ لِلْجِذْرِ اللّغويّ (وثق) الدّالِّ على بقاء الشّيءِ إلى الأمَدِ المَرْجُوِّ؛ لكثافَتِه واشْتِدَاد بعضِه إلى بعضٍ، ويُستعمَلُ التّركيبُ في الرّبط والارتباط، وما هو مِن باب الشّدّ والإمساك، ومنْهُ: الوِثاق - بِكَسْرِ الوَاوِ وفتحِهَا - ، وهوَ حبلٌ أو قَيْدٌ يُشدّ ويُربَطُ به الأسِيرُ أَوِ الدّابَّةُ، ومنه قول اللّهِ تعالَى: ﴿فَشُدُّواْ ٱلْوَثَاقَ﴾ [محمّد: 4]، والمُوَاثَقَةُ: المُعَاهَدَةُ، ومنه قولُ اللّهِ سُبحانَهُ: ﴿وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِى وَاثَقَكُم بِهِۦٓ﴾ [المائدة: 7]، وأَخذ الميثاق، أي: شدُّه بعقد وعهد[3].

والميثَاقُ في قولِ اللّهِ تعالَى: ﴿وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾ هُوَ الصُّحبةُ والمضاجعَةُ، ويَحْتَمِلُ أن يُرادَ بِهِ: قولُ الوليِّ عندَ العَقد: أَنكحتُكَ على ما في كتاب اللّه من إمساكٍ بمعروفٍ أو تسريحٍ بإحسانٍ[4]، أوْ هُوَ ما أوثقَ اللّه تعالى عَلَيْهِمْ في شَأْنِهِم بقَوْلِه تعالى: ﴿فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَٰنٍ﴾ [البقرة: 229]، ولا تعارُضَ بينَ هذه المعاني، ويجوزُ حَمْلُ اللّفْظِ عليهَا جميعًا.

(1) البنَّاني، سورة النّساء دراسة بلاغيّة تحليليّة، ص: 504.
(2) مسلم، الحديث رقم: (1218).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصَّل: (وثق).
(4) الزّمَخْشري، الكشَّاف: 1/492.

بَلَاغَةُ الِاسْتِعَارَةِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾:

وُجُوبُ تَعْظِيمِ الْمِيثَاقِ الَّذِي عَظَّمَهُ اللهُ تَعَالَى

في قولهِ سُبحانَهُ: ﴿مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾ مجازٌ بالِاسْتِعَارةِ؛ حيثُ شُبِّهَتِ العلاقَةُ القويَّة بينَ الزَّوجين بالحبل المُوثق، على طريقة الاستعارَةِ التَّصريحيَّةِ، وفي هذا تحذيرٌ وإنذارٌ مِنَ الإخلال بمقتضيات ذلكَ الميثاق المُبْرَم بين الزَّوجين، وهذا أسلوبٌ بيانيٌّ حامِلٌ على الوفاءِ والالتزام بالعَدْلِ المُؤلِّف بينَ القُلُوب[1].

وَ﴿غَلِيظًا﴾ من قولِ اللّه تعالى: ﴿وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾ صفةٌ مُشبَّهةٌ مِن غَلُظَ - بضمِّ اللَّام - إذا صَلُبَ، وأصلُ الغِلظَةِ في الحقيقة: صلابةُ الذَّوات، واستعمالُهَا وصفًا للميثاقِ استعارَةٌ؛ فقد استُعيرَت الصَّلابةُ في الذَّواتِ إلى صُعوبَةِ المعَاني وشدَّتها في أنواعها، ومِنْهُ قولُ اللّهِ تَعَالَى: ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ [التّوبة: 123][2]، واستعارةُ الغِلظ ههنا ترشيحٌ وتقويةٌ للاستعارةِ الأولَى في قولِهِ: ﴿مِّيثَٰقًا﴾؛ لكونِهِ ملائمًا للمشبَّهِ بهِ.

وإيثارُ الوَصْفِ بالغِلَظِ إشعارٌ بقوَّةِ الميثاقِ وعَظَمَتِه؛ فقد قالوا: صُحْبَةُ عِشْرِينَ يومًا قرابَةٌ، فكيفَ بِمَا جَرَى بينَ الزَّوجَيْنِ مِنَ الاتّحاد والِامْتِزَاج؟![3]، بَل قالُوا:

صُحْبَةُ يَوْمٍ نَسَبٌ قَرِيبُ *** وَذِمَّةٌ يَعْرِفُهَا اللَّبِيبُ[4]

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الإفضاء والخُلُوّ:

الإفضاء: أَصله: الوصول إلى الشَّيء بسعة، من الفضاء، فالخُلُوُّ: الفراغُ، يُقال: خَلا المكانُ، يَخلو خُلُوًّا وخَلاءً: إذا لم يَكُن فيه أَحدٌ ولا

(1) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 1/201 - 202.
(2) ابنُ عاشور، التّحرير والتّنْوير: 4/290.
(3) الزّمَخْشري، الكشّاف: 1/523.
(4) الخفاجيّ، عناية القاضي: 3/118.

شيءَ فيه، ويُقال: مكانٌ خالٍ، أي: فارغٌ، ويأْتي الخُلُوُّ بمعنى الانفراد، تقول: خلا الرَّجلُ بنفسه، أي: انفرد بها، ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوٓاْ أَتُحَدِّثُونَهُم﴾ [البقرة: 76]، ومن معانيه أيضًا: البَراءَةُ، فيُقال: خلا فلانٌ مِنَ العيب: إذا بَرِئَ منه[1]، وأفضى إلى امرأَة - في باب الكناية - أبلغُ وأقرب إلى التَّصريح من قولهم: خَلَا بها[2]؛ إذ ليس من معاني الخلوّ الوصول؛ لذا جاء التعبير القرآني بالإفضاء.

العهد، والعقد، والميثاق:

العَهدُ: ما أخذه اللّه على بني آدم من الإقرار بربوبيَّته ووحدانيَّته، ويشمل أيضًا ما أخذه على هذه الأُمَّة أن يوفُّوا به ممَّا أحلَّ وحرَّم وفوَّض، ويتضمَّن العَهد أيضًا ما يكون مِن اتِّفاقٍ بين المسلمين والمشركين، ومنه قوله تعالى: ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝١﴾ [التّوبة: 1].

والعَقد هو ما عَقَدَهُ الإنسان على نفسه للآخرين من بيعٍ وشراءٍ ونحوهما، أو ما عقدَه للّه تعالى منَ الطَّاعات كالحجِّ والصَّوم وغيرهما من العبادات

أمَّا الميثاق فهو العَهدُ المُؤكَّد باليمين، وناسب استعماله في الآية الكريمة في وصفِ العلاقة الزوجية ومقامِ مكانها[3].

(1) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 1/201 - 202.
(2) الكفويّ، الكلّيّات، ص: 154، والزّبيديّ، تاج العروس: (خلو).
(3) عدد من المختصين، نضرة النّعيم في مكارم أخلاق الرّسول الكريم: 11/5633.

﴿وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدۡ سَلَفَۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةٗ وَمَقۡتٗا وَسَآءَ سَبِيلًا ٢٢﴾ [النّساء: 22]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لمَّا كان الكلامُ متَّصلًا بعضه ببعضٍ في الأَحكام المُتَعلِّقة بالنِّساء، وذكر اللّه منها في أوائل السُّورة حُكم نِكاح اليتامى، وعدد ما يحلُّ مِنَ النِّساء بشرطه، وذكر في الآية الَّتي قبل هاتين الآيتين استبدال زوجٍ مكانَ زوجٍ بأن يُطَلِّقَ هذه ويَنكحَ تلك، فناسب ذلك بيانُ ما يُحرَّم نكاحه منهنَّ.

ولمَّا كرَّر الإذن في نكاحهنَّ، وما تضمَّنه مَنطوقًا، ومفهومًا، وكان قد تقدَّم الإذن في نكاح ما طاب مِنَ النِّساء، وكان الطَّيب شرعًا يحمل على الحلّ مسَّتِ الحاجة إلى تفصيل ما يحلُّ منهنَّ لذلك وما يحرَّم فقال: ﴿وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾[1].

وإفراد هذا النوع من النِّكاح وتقديمه على غيره، وجعله في آيةٍ خاصَّة، ولم يسرده تعالى مع سائر المحرَّمات في الآية الأُخرى؛ لأنَّه على قُبحه كان فاشيًا في الجاهليَّة، ولذلك ذمَّه بمثل ما ذَمَّ به الزِّنا للتَّنفير عنه كما ترى في آخر الآية[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَلَا تَنكِحُواْ﴾: أصلُ النِّكاح: غَلَبَةُ الشّيء، يُقالُ: نَكَحَ النُّعاسُ عَينَه يَنكِحُها نِكاحًا، أَي: غَلَبَها، والنِّكاحُ: الزّواج، تقولُ: نُكِحَتِ المرأَةُ إذا تَزَوَّجَت، والتزوج: أخذُ الرجلِ المرأةَ للمخالطة التَّامة؛ لأنَّها مخالطة يعرفها النَّاس ويشهدون بها، ويُطلَقُ النِّكَاحُ بمعنى: الجماعِ والوَطءِ، وناكَحَها، أَي: جامَعَها، ومن أسمائه البِضاعُ، ويُطلَقُ أَيضًا على العَقدِ دُونَ الجِماعِ، ومن معاني النِّكاحِ أَيضًا: الجِماعُ والعَقدُ والضّمُّ[3].

والمعنى في الآية: ولا تتزوَّجوا.

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 5/227.

(2) رضا، المنار: 4/379.

(3) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (نكح).

2) ﴿سَلَفَ﴾: السَّلفُ: من سَلَفَ، يَسلُفُ، سُلوفًا: إذا مضى وانقضى، وتقدَّم وسَبَقَ، فهو سالِفٌ، وسَلفُ الرَّجُلِ: آباؤُه المتقدِّمون والرَّاحلون، والأَوَّلُون السَّابقون، وذوو قرابةِ الرَّجل الَّذين هم فوقه في السِّنِّ والفَضل، ومن معانيه: كلُّ شيءٍ قدَّمه العبد مِن عَمل صالحٍ، والجَمعُ: أَسلاف[1].

والمعنى في الآية: مضى منكم في الجاهلية.

3) ﴿فَٰحِشَةً﴾: الفاحشةُ: القَبيحُ والسّيّءُ مِنَ القَول أو الفِعل، يُقال: فَحَشَ، وفَحُشَ، وأَفحَشَ علينا، أي: سَبّنا، وقال قَولًا فاحشًا، والفاحِشُ أيضًا: مَن يَسُبُّ غيرَه ويَشتِمُه، وأَصلُ الفُحشِ: القُبحُ والشّناعةُ.

ويأْتي الفُحشُ بِمعنى الزّيادةِ ومُجاوَزَةِ الحدِّ، ومنه قيل للطّويل طولًا زائدًا: إنّه لَفاحِشُ الطُّول، وكُلُّ شَيءٍ جاوَزَ قَدرَهُ فهو فاحِشٌ، ومن معاني الفاحشة: التّعَدِّي، والذّنبُ، والزِّنا، وجَمعُها: فَواحِش[2].

4) ﴿وَمَقْتًا﴾: المَقتُ: البُغضُ الشَّديدُ لمن تراه تَعاطى القَبيحَ، يُقال: مَقَتَ مَقاتَةً فهو مَقيتٌ، ومقّتَهُ فهو مَقيتٌ ومَمقُوتٌ، قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ [النّساء: 22]، وكان يُسمَّى تزوُّج الرَّجل امرأةَ أَبيه نكاحَ المَقتِ[3].

5) ﴿وَسَآءَ﴾: أَصلُ السُّوء: القُبحُ، وضدُّه: الحُسنُ، والسُّوءُ: الشّرُّ والفسادُ، يُقال: عَمِلَ سُوءًا، أي: شرًّا وفسادًا، والسُّوءُ أيضًا: الحُزنُ والغَمُّ، ويأْتي بمعنى الضّرَر والأَذى، كقولهم: بَلَغَهُ السُّوءُ، أي: الضُّرُّ، وكُلُّ ما يُكرَهُ فهو سوءٌ، والإِساءَةُ: فِعلُ الشّرِّ وما يُكرَهُ، ومن معانيه أيضًا: المُنكَرُ والفُجورُ والبلاءُ والعذابُ والشّتمُ والشِّدّةُ والقَتلُ[4]، والمعنى هنا: قَبُحَ.

6) ﴿سَبِيلًا﴾: (سَبَلَ) السِّين والباء واللّام أَصلٌ واحدٌ يدُلُّ على إِرسال شيءٍ مِن عُلُوٍّ إِلى سُفلٍ، وعلى امتداد شيءٍ، ووردَت كلمة (سبيل) في القرآن الكريم مفردًا ومجموعًا،

(1) الخليل، العين، وابن عبّاد، المحيط في اللّغة، والزّبيديّ، تاج العروس: (سلف).
(2) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة: (فحش).
(3) الرّاغب، المفردات: (مقت).
(4) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والزّبيديّ، تاج العروس: (سوء).

معرّفًا ومنكّرًا، مضافًا وغير مضافٍ (176)[1] مرّة، ومعناه الطّريق، وهو بهذا في كلّ القرآن، وإنّما يختلف المُراد بحسب السِّياق، وهو المُمتَدُّ طُولًا، سُمِّيَ السَّبيلُ بذلك لامتداده.[2]

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

لا تتزوَّجوا ما تزوَّجه آباؤكم مِنَ النِّساء؛ فإنَّ ذلك مُحرَّمٌ، إلَّا ما سَبقَ مِن ذلك قَبلَ الإسلام - في الجاهلية - فلا مُؤاخذة عليه؛ لأنَّ تزوُّج الأبناء مِن زوجات آبائهم أمرٌ يعظُم قُبحُه، وسبب غَضَب الله على فاعله، وساءَ طريقًا لمن سَلَكها[3].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

دِلَالَةُ النَّهْيِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم﴾:

قُبْحُ نِكَاحِ أَزْوَاجِ الْآبَاءِ

النَّهي في قولِه تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم﴾ جارٍ على أصلِهِ في الدِّلالَةِ على الإلزامِ بالتَّرْكِ، والفعلُ ﴿تَنكِحُواْ﴾ مُضَارِعٌ قُرِنَ بـ (لَا) النَّاهية، وما كان هذا سبيله؛ فإنَّ مدلُولَهُ إيجَادُ الحَدَثِ في المُستَقْبَل، وهذا يُفيدُ النَّهي عنِ الاستمرَارِ على نكاحهنَّ إذا كانَ قد حَصَلَ قَبْلَ ورود النَّهي[4]، والاستمرارَ على التَّرْكِ لِمَنْ لم يحصُلْ ذلكَ مِنْهُ.

ولم يُنْظَم تحريمُ نكاحِ زوجاتِ الآباءِ في سِلْكِ نكاحِ المُحرَّماتِ الآتي بيانُهَا؛ مبالغةً في الزّجر عَنْهُ؛ حيث إنَّهُم كانوا مُصِرِّين على تَعَاطِيه مع الاستِهَانَةِ بذلك، فأُفْرِدَ وقُدِّمَ؛ تعظيمًا لحُرْمَةِ أَزْوَاجِ الآباء[5].

(1) عبد الباقي، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، ص: 341 - 344.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصل: (سبل).
(3) جماعة من العلماء، المختصر في تفسير القرآن الكريم، ص: 81.
(4) ابنُ عاشور، التّحرير والتّنْوير: 4/291.
(5) أبو السّعود، نظم الدّرر: 2/159.

وفي قولِه: ﴿وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم﴾ جناسُ اشْتِقَاقٍ، وطباقُ سَلْبٍ، وفي ذلك زيادةٌ في رَدْعِ نكاحِ زوجاتِ الآباءِ؛ من جهةِ التَّنصيص على فعل النِّكاحِ مكرَّرًا والمنكُوحَةُ واحدةٌ بين أبٍ وابنٍ، وهذا في غايةِ القُبْحِ.

دِلَالَةُ ﴿مَا﴾ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾:

يَحْتَمِل أن تكونَ ﴿مَا﴾ في قولِ اللّٰه تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ بمعنى: مَن، فيكون المعنى: ولا تَنكحوا مَن نكحَ.

إِبْطَالُ نِكَاحِ أَزْوَاجِ الْآبَاءِ، وَإِبْطَالُ الْعَادَاتِ الْمُخَالِفَةِ لِلشَّرْعِ فِي شَأْنِ النِّكَاحِ

ويَحْتَمِلُ أن تكون ﴿مَا﴾ مَصْدَرِيَّةً، فيكون المعنى: ولا تَنكِحوا نِكاحَ آبائِكُم، أي: كنِكاحِهم، وذلك أنَّ آباءهم كانُوا يَنْكِحُون أزواجَ آبائهم، فنَهاهم اللّٰه تعالَى أن يكون نكاحُهم كنكاح آبائهم.

فعلى الأوَّل يكونُ النَّهيُ عنِ التَّزوّج بمَنكوحات الآباء، وعلى الثَّاني يكُونُ النَّهيُ عن أن يكون نِكَاحُهُم كَنِكَاح آبائِهم في البُطلان والفساد[1].

والوَجْهَان متآيِلَانِ.

نُكْتَةُ التَّعْبِيرِ بِالْمَجَازِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾:

لَفْظُ النِّكَاحِ: حَقِيقَةٌ فِي الْوَطْءِ مَجَازٌ فِي الْعَقْدِ

ذهب جماعةٌ من أهل العلم إلى أنَّ لفظ النِّكاح حقيقةٌ في الوَطْءِ مَجَازٌ في العَقدِ؛ وذلك لِأنَّ لفظ النِّكاح في أَصل اللُّغةِ عبارة عن الضَّمّ، ومعنى الضَّمّ حاصلٌ في الوَطءِ لا في العَقدِ، فكانَ لفظُ النِّكاح حقيقةً في الوَطء، وإنَّما سُمِّيَ العقدُ نكاحًا؛ لكونِه سببًا فيه، فإطلاق النِّكاح على العقد مجازٌ مرسَلٌ، علاقتُهُ: المسبَّبيَّةُ[2].

ونُكتةُ التَّعبير بالنِّكاحِ مجازًا دون العقْدِ بأن يَرِدَ النَّظْمُ القرآنيُّ:

(1) الواحديّ، التّفسير البسيط: 6/407، والرّاغب، تفسير الرّاغب: 3/1161.
(2) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 10/17.

(وَلَا تَعْقِدُوا)؛ لأنَّ لفظ النِّكاحِ مذكِّرٌ بالمعنَى الحقيقيِّ وهُوَ الوطءُ، فيكون ذلك أشدَّ تنفيرًا لهم من الإقدامِ على نكاحِ موطوءَةِ الأبِ.

دِلَالَةُ الْإِضَافَةِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ءَابَآؤُكُم﴾:

الْإِضَافَةُ في ﴿ءَابَآؤُكُم﴾ مِنْ قول اللّه تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ تُومِئُ إلى شدَّة القُرب والوصلَة بين الأبناء وآبائِهم؛ ممَّا يُنَفِّر مِن هذا النِّكاح، ويُهيِّئ للتَّذليل الحاكمِ بفُحشِهِ ومَقتِهِ وسُوء سبيل مَن يَسْلُكُه.

الْمُبَالَغَةُ فِي التَّنْفِيرِ مِنْ مَنْكُوحَاتِ الْآبَاءِ

مَعْنَى اللَّامِ فِي ﴿ٱلنِّسَآءِ﴾ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾:

اللَّامُ في ﴿ٱلنِّسَآءِ﴾ مِنْ قولِ اللّهِ سُبحانه: ﴿وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ لِلْجِنْسِ المفيدةِ استغراقَ جميعِ الأفرادِ المندرجَةِ تحتهَا، فيدلُّ ذلك على أنَّ مَنْكُوحَاتِ الآبَاءِ حَرَامٌ كلُّهنَّ، سواءٌ أَكُنَّ إماءً أم لا، بنكاحٍ أو مُلكِ يَمين[1]، وهذا المعنَى ظاهرٌ إذَا أُريدَ بالنِّكاحِ الوطءُ، أمَّا إذا أُريدَ به العقدُ؛ فإنَّ ظاهرَهُ يختصُّ بزَوْجَاتِ الآباءِ، ويُلْحَقُ بهِنَّ إماؤُهنَّ اللَّائي وَطِئَهُنَّ.

تَعْمِيمُ التَّحْرِيمِ لِجَمِيعِ مَنْكُوحَاتِ الْآبَاءِ

وفي هذا التَّعميمِ زيادةٌ في التَّأكيد على قُبْحِ هذا النِّكاحِ وفُحْشِه.

دِلَالَةُ الِاسْتِثْنَاءِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَۚ﴾:

الاستثناءُ في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَۚ﴾ استثناءٌ منقطِعٌ، والغرضُ مِنْهُ - كما أفادَهُ الزَّمخشريُّ - المبالغةُ في تحريم نكاحِ منكوحات الآباء، وسدِّ الطَّريق إلى إباحة ذلك؛ إذ قال: "فإن قُلتَ: كيف استثنى ﴿مَا قَدْ سَلَفَۚ﴾، ممّا نكح آباؤكم؟ قلتُ: كما استثني (غَيْرَ أَنَّ سُيُوفَهُمْ) مِن قولِه: (وَلَا عَيْبَ فِيهِمْ)، يعني: إن أَمكنَكُم أن تَنكِحوا ما سَلَف فانكِحوهُ،

تَعْلِيقُ الْأَحْكَامِ بِالْمُحَالِ ضَرْبٌ مِنْ ضُرُوبِ تَوْكِيدِهَا

(1) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 2/67، وأبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 2/159، وليد إبراهيم، الاستثناء المنقطع في القرآن الكريم، ص: 1455.

فلا يحلُّ لكُمْ غَيْرُه، وذلك غير مُمكنٍ، والغَرضُ المبالغة في تحريمه وسَدّ الطَّريق إلى إباحته، كما يعلّق بالمُحال في التَّأبيد، نحو قولهم: حتَّى يَبْيَضَّ القارُ[1]، و﴿حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ﴾ [الأعراف: 40]"[2].

بَلَاغَةُ التَّذْيِيلِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا﴾:

تَأْكِيدُ قُبْحِ هَذَا النِّكَاحِ وَشَنَاعَتِهِ

قولُ الله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ تذييلٌ غيرُ جارٍ مجرَى المثَلِ، وهو مُشتملٌ على تعليل للنَّهي عَنْ هذا النِّكاح، ولذا فُصِلَت الجملةُ عمَّا قبلَهَا لوقوعِهَا استئنافًا بيانيًّا.

والضَّمير في ﴿إِنَّهُۥ﴾ يعودُ على النِّكاح المَنهيِّ عنه المفهوم مِنْ قوله: ﴿وَلَا تَنكِحُواْ﴾، فهو نظيرُ قول الله تعالى: ﴿ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: 8]، و﴿كَانَ﴾ بمعنى: لم يَزل[3]، أي: الآن وما بعده كونًا راسخًا، فهو فاحشةٌ لَمْ يُرخِّص اللهُ تعالَى فيه لأُمَّة مِنَ الأُمم قطُّ.

وقدِ اجتمع في التَّذييل ثلاثُ صفات تؤكِّد قبحَ هذا النِّكاحِ وشناعَتَه، وهي صفاتٌ تعودُ إلى مَراتب القُبح الثَّلاث: العقليّ، والشَّرعي، والعاديّ؛ فَقَدْ جَعَلَه اللهُ تعالى ﴿فَٰحِشَةً﴾، وهو بيانٌ لمرتبةِ قُبْحِه العقليّ؛ إذِ الفاحشَةُ لا يُقدِمُ عليها تامُّ العَقل؛ وذلك أنَّ زوجة الأَب كالأُمِّ، فنِكاحُها يُشبه نكاحَ الأُمِّ الَّذي هو مِن أَفْحَشِ الفوَاحِشِ، وجَعَلَهُ ﴿وَمَقْتًا﴾، وهو بيانٌ لمرتبةِ قُبحه الشَّرعي، أي: ممقوتٌ عند اللهِ تعالَى وعندَ النَّاس، وكانتِ العرب تُسمِّي الولدَ الَّذي يجيء من زَوج الوالِد: المقتيَّ، وأمَّا القبحُ العاديّ فَوَارِدٌ في قوله: ﴿وَسَآءَ سَبِيلًا﴾، أي: سبيل مَن يرَاهُ ويَفْعَلُه، فهو بِئْسَ الطَّريقُ والمَنْهَجُ، وَمَتَى اجتمَعَت هذهِ الوجوهُ؛ فقدْ بلغَ الغايَةَ في القُبْحِ[4].

(1) القار: هو شيءٌ أَسود تُطلَى به الإبل والسُّفُنُ يَمنَعُ الماءَ أَن يَدخُلَ، ومنه ضَربٌ تُحشى به الخلاخيل والأَسوِرَةُ، وقَبَّرَتْ السّفينةَ: طَلَيتُها بالقار، وقيل: هوَ الزِّفت، يُنظر: لسان العرب، ابن منظور: (قير).

(2) الزّمَخْشري، الكشّاف: 1/493، والطّيبيّ، فتوح الغيب: 4/490، وأبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 2/159، والإسفراييني، الأطول: 2/435.

(3) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 2/67، وأبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 2/160.

(4) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 4/291، ووليد إبراهيم، الاستثناء المنقطع في القرآن الكريم، ص: 1455.

دِلَالَةُ الْإِنْشَاءِ غَيْرِ الطَّلَبِيِّ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَسَآءَ سَبِيلًا﴾:

بِئْسَ سَبِيلُ مَنْ تَجَرَّأَ عَلَى حُدُودِ اللهِ تَعَالَى

في كَلِمَةِ ﴿وَسَآءَ﴾ من قوله تعالى: ﴿وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ قَوْلَانِ:

أحدُهما: أنَّها جاريةٌ مَجرى (بئسَ) في الذَّمّ والعَملِ؛ فَفيها ضميرٌ مُبهمٌ يفسِّره ما بعدَهُ، والمخصوصُ بالذَّمّ محذوفٌ، تقديرُه: وساء سبيلًا سبيلُ ذلكَ النِّكاح، كقوله تعالى: ﴿بِئۡسَ ٱلشَّرَابُ﴾ [الكهف: 29]، أي: ذلك الماءُ، وأسلوبُ الذَّمِّ بـ (سَاءَ) إنشاءٌ غيرُ طلبيّ، ويَحْمِلُ في طيَّاتِهِ مبالغةً عظيمةً في وَصْفِ هذا النِّكاحِ بالسُّوءِ.

والآخَرُ: أنَّها كسائر الأفعال، وفيها ضميرٌ يعُودُ إلى ما عادَ إِلَيْهِ ضَميرُ ﴿إِنَّهُۥ﴾، و﴿سَبِيلًا﴾ تمييزٌ، والجملةُ إمَّا مُستأنفةٌ لا محلَّ لها من الإعراب، وإمّا معطوفةٌ على خبرِ كان محكيّة بقولٍ مُضمرٍ هو المعطوفُ في الحقيقة، تقديرُه: ومقولًا في حقِّه: ساءَ سبيلًا[1]، وفي هذا الوجهِ زيادةُ ذمِّ هذا السَّبيل بوُرُودِهِ تمييزًا؛ لأنَّهُ قد ذُمَّ مرّتين؛ إحداهُمَا بالفعل ﴿وَسَآءَ﴾، والأُخْرَى: في المَخْصُوصِ بالذّمّ المحذوفِ، أي: ساءَ سبيلُ ذلك النّكاح الممقوت سبيلًا.

الدِّلَالَةُ الصَّوْتِيَّةُ لِكَلِمَةِ ﴿سَبِيلًا﴾:

امْتِدَادُ السَّبِيلِ وَسُهُولَتُهُ يَكُونُ فِي الْخَيْرِ وَالشَّرِّ

جَمِيعُ حروفِ كَلِمَةِ ﴿سَبِيلًا﴾ مُستفلة، وهذا مُنَاسِبٌ لدِلَالَتِهِ علَى السُّهُولة، سواءٌ أكانَ خيرًا أم شرًّا؛ إذْ سُهُولَةُ السّبيلِ لا تقتضِي خيريَّتَهُ، لاحْتِمَالِ كَوْنِهِ اسْتِدْرَاجًا، أو انجرافًا إلى مَهْلَكَةٍ.

كما أنَّ حركَةَ الفَتْحَةِ في السِّين من ﴿سَبِيلًا﴾، ثمّ الكسرَة الطّويلة (بِي) يُنَاسِب ما جاءَ في معناه المحوريِّ؛ وهُو الامتِدَادُ إلى أسفل، كما أنّ اللّامَ - بِمَا في مخرجِها مِن امْتِدَادِ طَرَف اللّسان والتقائِه بأعلى اللّثَة، وامتدادِ الصّوت بِها) تُشِيرُ إلى امتداد السّبيلِ كما جاءَ في تركيبه اللّغويّ.

(1) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 2/160، والجمل، الفتوحات الإلهيّة: 2/32.

تَوْجِيهُ المُتَشَابِهِ اللَّفْظِيّ:

نِـكَـاحُ زَوْجَـاتِ الْآبَاءِ أَشَدُّ جُرْمًا مِنَ الزِّنَا

قال تعالى في هذه الآية: ﴿وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدۡ سَلَفَۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةٗ وَمَقۡتٗا وَسَآءَ سَبِيلًا﴾، وقال في سُورةِ الإسرَاء: ﴿وَلَا تَقۡرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةٗ وَسَآءَ سَبِيلٗا ٣٢﴾ [الإسراء: 32].

فاختصَّت آية النِّساءِ بزيادةِ ﴿وَمَقۡتٗا﴾، ووجهُ ذلك أنَّ "مُتزوِّجَ امرأةِ أَبيه فاعِلٌ رَذِيلَةً يُمْقَتُ فاعِلُها، ويُشْنَأُ، وتَسْتَخِسُّه الطِّباعُ السَّليمة، فوصفت فِعلَتُهُ بالمَقتِ، وساوتِ الزِّنا فيما وراءَ ذَلِكَ"[1].

تَوْجِيهُ المُتَشَابِهِ اللَّفْظِي:

دِقَّـةُ مُنَاسَبَةِ خَـوَاتِـيـمِ الْآيِ لِسِيَاقَاتِهَا

قال تَعالى في هذه الآية: ﴿إِلَّا مَا قَدۡ سَلَفَۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةٗ وَمَقۡتٗا وَسَآءَ سَبِيلًا﴾، وقال سُبحانه بعدهَا بآياتٍ: ﴿إِلَّا مَا قَدۡ سَلَفَۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾، واختصَّت كل آية بما بعدَ قوله: ﴿إِلَّا مَا قَدۡ سَلَفَۚ﴾ لنكتةٍ اقتضت ذلك؛ وذلك أنَّ الآية الأولى صُدِّرت بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾، فلمَّا نُهُوا عن ذلك؛ ناسب أن يُتبعَ النَّهيُ بما يُنفِّرُ منه أشد النُّفور، فقال سبحانه: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةٗ وَمَقۡتٗا وَسَآءَ سَبِيلًا﴾.

وأما الآية الأخرى؛ فقد تقدَّمها قوله تعالى: ﴿وَأَن تَجۡمَعُواْ بَيۡنَ ٱلۡأُخۡتَيۡنِ﴾، فلمَّا كان تحريم ما يقطع الأواصر بين الأرحام ويُثير الشِّقاق، وكان التَّجاوز عمَّا سلف منه دالّا على أنَّ الله غفور رحيم، يشرع لهم ما فيه صلاحهم، ناسب أن يُعْقَبَ بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾[2].

(1) ابن الزبير، ملاك التّأويل: 1/103.

(2) سعد عبد العظيم محمّد، استدراك ما فات من بلاغة الآيات المتشابهات، ص: 365.

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الفاحشة والإثم:

الفَواحش: الكبائر؛ لأنَّه قد تَفاحَشَ قُبحها وتزايد، والإِثمُ: الصَّغائر مِنَ الذُّنوب، والفاحشة كذلك اسم لِمَا يجب فيه الحدّ منَ الذُّنوب، والإثم اسم لِمَا لا يَجب فيه الحَدُّ، وقيل: إنَّ الفاحشة، وإن كانت بحسب اللُّغة اسمًا لكلِّ ما تفاحش مِن قولٍ أو فِعلٍ، لكنَّه قد صار في العُرف مخصوصًا بالزِّنا؛ لأنَّه إذا أطلق لفظ الفاحشة لم يُفهم منه إلَّا ذاك[1]، وحسن التعبير بالفاحشة في سياق الآية؛ لما تضمَّنه هذا الصنيع - نكاح زوجات الآباء - من القباحة والسوء الشنيع.

المقت، والبغض، والبغضاء، والشّنآن، والقِلى، والكره:

المقتُ هو البُغض المقرون بالاستِحقارِ فهو أخصُّ منَ البغض، والبغضاء شدَّة البُغض، خلافُ الحُبِّ، والشَّنآن: البغضُ، مع التَّجنُّب والتَّقزّز والقبح، والقِلَى: التَّجافي عنِ الشَّيء وتركه؛ لشدّة الكُره له، والكُره والكراهة والكراهية: خلاف الحبِّ[2].

فالمقتُ أشدُّ هذه الكلمات وأخَصُّها؛ لأنَّه يتضمَّن الكراهية، معَ الشِّدة، والقُبح، ومنافاة المروءة؛ وهذا مناسب للسِّياق الّذي جاءَت به الآية الكريمة.

وحسبُ المُخاطَب تنفيرًا من هذا النّكاح أنّ وصف (المقت) في غير هذا المَوضِع[3] لم يرد في القرآن الكريم إلّا في سياق جزاء الكافرين، أو المنافقين.

السُّوء، والسَّوء، والسَّيّئة:

السُّوء: بضمِّ السِّين، الاسم مِنَ السَّوء، جرى مَجرَى الشَّرّ، كلُّ ما يغمُّ الإنسان منَ الأمور الدُّنيويَّة، والأُخرويَّة، ومنَ الأحوال النَّفسيَّة، والبدنيَّة، والخارجة، من فَوات مالٍ، وجاهٍ، وفَقدِ حميمٍ، وقوله: ﴿بَيۡضَآءَ مِنۡ غَيۡرِ سُوٓءٍ﴾ [طه: 22]، أي: من غير آفةٍ بها، وفُسِّر بالبَرَص؛ وذلك بعض الآفات الَّتي تعرض لليد.

وأمَّا السَّوء بفتح السِّين فمصدر ساءَه يسوءه سَوءًا، فعل به ما يكره، وهو نقيض سرَّه،

(1) الخازن، لباب التّأويل: 2/196.

(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (بغض)، (شنأ)، (قلو)، (كره)، (مقت).

(3) ورد لفظ: (مقتًا) في أربعة مَواضِع: في سور [النّساء: 22]، [فاطر: 39]، [غافر: 35]، [الصّف: 3].

فهو مصدر، وغلب عليه أن يُضاف إليه ما يُراد ذمُّه، تقول: هذا رجل سَوء، وهذه امرأة سَوء، ونحو هذا؛ ويُقال: ساءَ ما فعَل فلانٌ صنيعًا، يسوء: أي: قبح صنيعه صنعًا، وفي التّنزيل: ﴿سَآءَ مَثَلًا ٱلۡقَوۡمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ [الأعراف: 177].

والسَّيِّئَةُ: الفَعلَة القبيحة، وهي ضدُّ الحسنة، قال تعالى: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنۡ حَسَنَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٖ فَمِن نَّفۡسِكَۚ﴾ [النّساء: 79]، فالتّعبير بالسُّوء في الآية أبلغُ في التَّصوير؛ لأنَّه طريق أهل المعصية، والمخالفين أمر الله تعالى، فأَسوِئ به طريقًا يُوردُ صاحبَهُ نارَ جهنَّم[1].

السّبيل، والطَّريق، والصِّراط[2]:

من خلال ما سبق نلحظ في معنى السّبيل أنّه ممتدٌّ، فما سمِّي السّبيل سبيلًا إلّا لامتداده، كما نلحظ في معنى السّبيل أنه الطّريق السّهل، للسّير فيها، وقد تكون سهولته من كون السّائر فيه نازلًا من علوٍّ إلى سُفل، أو من سيره في اتِّجاه الرّيح، أو غير ذينك، حقيقةً أم مجازًا، كأن يكون في الشّرّ استدراجًا، أو انجرافًا إلى الضَّعة والدّناءة والتَّهلكة، أو يكون في الخير امتدادًا لسير الصّالحين السّابقين، أو تيسيرًا وتوفيقًا.

وأما الطّريق فقد ورد لفظه ومشتقاته في القرآن إحدى عشْرة مرّة، وهو يدلُّ على الوضوحِ، وقد يكون ذلك الوضوح من كونه مَطروقًا قبل ذلك أو غيرَ مطروق، ويدلُّ على الارتفاع عن سائر الأرض، وعلى التّتابع، أي: مواصلة السّائر السّير فيه، وقد يكون في الخير أو الشّرّ، ويقال للنَّخل الَّذي على صفٍّ واحدٍ، طريقٌ، وهذا تشبيهٌ، كأنَّه شُبِّهَ بالطَّريق في تَتَابُعِهِ وعُلُوِّهِ الأَرض[3].

وذكر الرّاغب: أنَّ الطّريق هو "كلّ مسلك يسلكه الإنسان في فعلٍ، محمودًا كان أو مذمومًا "[4]، والطّريق: هو السّبيل المطروق[5] بالأرجل، أي: يُضرب كما جاء على لسان مؤمني الجنّ قولُهم: ﴿إِنَّا سَمِعۡنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعۡدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ يَهۡدِيٓ إِلَى

(1) الراغب، المفردات: (سوأ)، والكفويّ، الكلّيّات، ص: 503.
(2) نصر سعيد، التّمييز في فواصل القرآن الكريم، ص: 46.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (طرق).
(4) الرّاغب، المفردات: (طرق).
(5) الفيروزاباديّ، بصائر ذوي التّمييز: 3/504.

ٱلۡحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٣٠﴾ [الأحقاف: 30]، "أي: إلى سبيل مطروق، قد مرَّت عليه الرّسل قبله، وإنّه ليس بِدعًا، فاقتضتِ البلاغة والإعجاز لفظ الطّريق؛ لأنّه (فعيل) بمعنى (مفعول)، أي: مطروق مشت عليه الرّسل والأنبياء من قبل، فحقيق على من صدَّق رسل اللّه، وآمن بهم أن يؤمن به، ويصدّقه، فذكرُ الطّريق - في آية الأحقاف - أولى؛ لأنّه أدخل في باب الدّعوة، والتّنبيه على تعيّن اتّباعه"[1].

وأما الصّراط فإنّه يدلُّ على أنّه واسع، وسهل، ومستقيم، ومسلوك، وموصّل إلى الغاية، ويقع في الخير غالبًا، ولم يرد في القرآن إلّا مفردًا، والصّراط: الطّريق، وأصله بالسّين منَ السّرط، وهو اللّقم، ولذلك يسمّى لقمًا كأنّ سالكه يبتلعه، أو يبتلع سالكَه، يقال[2]: أكلته المفازة إذا نهكته لسيره فيها، وأكل المفازة إذا قطعها بسهولة، والطّريق لا يقتضي السّهولة، والسّبيل اسم يقع على ما يقع عليه الطّريق، وعلى ما لا يقع عليه الطّريق، تقول: سبيل اللّه وطريق اللّه، وتقول: سبيلك أن تفعل كذا، ولا تقول: طريقك أن تفعل به[3].

وقد يفرَّق بين السّبيل والطَّريق؛ بأنَّ السّبيل أغلب وقوعًا في الخير، ولا يكاد اسم الطّريق يُراد به الخير إلّا مُقترِنًا بوصف أو إضافة تخلّصه لذلك[4].

فالطّريق: هو كلُّ ما يطرقه طارقٌ، معتادًا كان أم غير معتادٍ، والسّبيل منَ الطُّرق: ما هو مُعتادُ السّلوكِ، والصّراط منَ السّبيل: ما لا التِواء فيه ولا اعوِجاج، بل يكون على سبيل القَصد، فهو أخصُّ منها.[5]

فبان ممَّا سبق أنَّ لفظ السّبيل أنسب لمقام النّهي عن نكاح نساء الآباء؛ إذ إنَّ هذا العمل ممتدٌّ في أيام الجاهلية، وقد دأب عليه آباؤهم من قبل، وسهُل عليهم فعلُه لكثرة اعتيادهم عليه، وشيوعه عندهم.

(1) ابن القيّم، بدائع التّفسير: 1/69.
(2) الآلوسّي، روح المعاني: 1/71، والأزهري، تهذيب اللغة: (سرط).
(3) الرّاغب، المفردات: (سبل).
(4) الجرجانّي، التّعريفات، ص: 145، والكفويّ، الكلّيّات، ص: 581.
(5) الكفويّ، الكلّيّات، ص: 513.

﴿حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمۡ أُمَّهَٰتُكُمۡ وَبَنَاتُكُمۡ وَأَخَوَٰتُكُمۡ وَعَمَّٰتُكُمۡ وَخَٰلَٰتُكُمۡ وَبَنَاتُ ٱلۡأَخِ وَبَنَاتُ ٱلۡأُخۡتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِيٓ أَرۡضَعۡنَكُمۡ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمۡ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِي دَخَلۡتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمۡ تَكُونُواْ دَخَلۡتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ وَحَلَٰٓئِلُ أَبۡنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنۡ أَصۡلَٰبِكُمۡ وَأَن تَجۡمَعُواْ بَيۡنَ ٱلۡأُخۡتَيۡنِ إِلَّا مَا قَدۡ سَلَفَۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ٢٣﴾ [النّساء: 23]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

بعدَ أن بَيَّنَتِ الآية الَّتي قَبلَها حُرمَة التَّزوّج ممَّن تَزوَّج بهنَّ الآباءُ، ناسب أن يشرع في هذه الآيةِ ببيانِ أصناف النساءِ المُحرَّماتِ على الرِّجال التَّزوُّج بهنَّ[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمۡ﴾: الحَرام: الممنوع، يُقالُ: حَرُمَ عليه الشَّيءُ حُرمَةً وحَرامًا، أَي: امتَنَعَ، وشيءٌ مُحَرَّمٌ، أي: ممنوعٌ، وأَصل التّحريم: المَنعُ، يُقالُ: مَكانٌ حَرامٌ، أي: يُمنَعُ دُخولُهُ، ومنه سُمِّيَ الشّهرُ الحرامُ بذلك؛ لأنّ العربَ تَمتَنِعُ فيه عنِ القتال، وضِدُّ الحَرام: الحلالُ والمُباحُ والجائِزُ[2].

2) ﴿أُمَّهَٰتُكُمۡ﴾: الأمُّ: الوالدةُ الَّتي ولَدَتِ الإنسان، والآية تشمل الجدَّات كذلك.

3) ﴿وَبَنَاتُكُمۡ﴾: البِنتُ: مُؤَنَّثُ الابن، وهو الوَلَدُ الذَّكَرُ، سُمِّيَ به؛ لكَونه بناءً للأب ومُتَوَلِّدًا عنه، والأُنثى مِنَ الأَولاد تُسمَّى ابنةً وبِنتًا، وعند الإطلاق يَنصَرِفُ إلى البِنت مِنَ النَّسب، والجمعُ: بناتٌ[3]، ويدخل فيهنَّ البنتُ من الرَّضاعِ، وبناتُ الأولاد وإن سَفَلنَ.

(1) الخطيب، تفسير القرآني للقرآن: 2/734.
(2) الأزهري، تهذيب اللغة، والجوهريّ، الصّحاح، وابن منظور، لسان العرب: (حرم).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (بنو).

4) ﴿وَأَخَوَٰتُكُمۡ﴾: الأُختُ: أُنثى الأَخ، ولَيسَتِ التَّاءُ فيها بعلامة تَأنيثٍ؛ لسكون مَا قبلهَا، وهي صِيغَة على غَير بنَاء الْمُذكر، وتاؤُها بدل من الْوَاو، أصلها "أَخَوَة" على وزن " فَعَلَة"، فنقلوها إِلَى "فُعْل"، وألحقتها التَّاءُ المُبدلة من لامها بوَزْن "فُعْلٍ"، فَقَالُوا: أُخْت، وهي مَن وَلدَها أَبُوك وأُمُّك، أو أَحَدُهما، وقد تُطلَقُ أيضًا على الأُخت من الرَّضاعِ، والجمعُ: أَخَواتٌ[1].

5) ﴿وَعَمَّٰتُكُمۡ﴾: العَمَّةُ: أُختُ الأب، واسْتَعَمَّ عَمًّا، وتَعَمَّمَهُ، أي: اتّخذه عَمًّا، وأصل ذلك من العُمُوم، وهو الشُّمول وذلك باعتبار الكثرة، ويقال: عَمَّهُمْ كذا، وعَمَّهُمْ بكذا، عَمًّا وعُمُومًا، والعَامَّةُ سمُّوا بذلك لكثرتهم وعُمُومِهِمْ في البلد، ويدخل في العمَّاتِ أخواتُ الآباء والأجداد، وإن علونَ، والجمعُ: عَمّاتٌ[2].

6) ﴿وَخَٰلَٰتُكُمۡ﴾: الخالة: أُختُ الأُمِّ، وإن عَلَت، فيدخل فيهنَّ جميعُ أخواتِ الأمّهاتِ والجدَّاتِ.

7) ﴿وَبَنَاتُ ٱلۡأَخِ وَبَنَاتُ ٱلۡأُخۡتِ﴾: الإناثُ من أولاد الأَخ الشَّقيق، والإناثُ من بنات الأُخت الشَّقيقة، ويدخلُ فيهنَّ بناتُ أولاد الأخِ والأخت، وإن سفَلنَ، فهؤلاء المذكوراتُ محرَّماتٌ بالنَّسب اتّفاقًا، وما بقيَ محرَّماتٌ بالسَّبَب، وهنَّ:

8) ﴿وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِيٓ أَرۡضَعۡنَكُمۡ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ﴾: أي: المُحرَّمات بالرّضاعة، والرَّضعات المحَرِّمات خمسُ رضعات، أو أقلُّ من ذلك، ويَكُنّ في سِنِّ الحَولين، ويُلحق بالتَّحريم بأمَّهات الرّضاعة بناتها وأخواتها.

9) ﴿وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمۡ﴾: مِنَ المُصاهرة، فأمُّ زوجة الرَّجلِ محرَّمة عليه بمجرَّد أن يَعقد على بنتها؛ أي: لا يحلُّ له أن يتزوَّج بأُمِّ الزوجة تحريمًا مؤبَّدًا.

10) ﴿وَرَبَٰٓئِبُكُمُ﴾: الرَّبيبةُ: ابنةُ امرأَة الرَّجُل مِن زَوجٍ سابِقٍ، والابنُ: رَبيبٌ، وأَصلُها مِنَ الرّبِّ، وهو الإصلاحُ والتّأديبُ، يُقال: رَبَّ الوَلَدَ يَرُبُّهُ رَبًّا وتَربيةً، أي: أَصلَحَهُ وأَدّبَهُ، ورَبَبتُ الأَمرَ، أي: أَصلَحتهُ، وسُمِّيَت رَبيبةً؛ لأنّ زَوجَ أُمِّها يقومُ بأُمورها ويُصلحُ أَحوالَها غالبًا، والجمعُ: رَبائِب[3].

(1) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن عبّاد، المحيط، وابن سيده، المحكم: (أخو).
(2) الرّاغب، المفردات: (عم).
(3) الجوهريّ، الصّحاح، وابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس: (ربب).

11) ﴿حُجُورِكُم﴾: جمعُ حِجْرٍ، والمُرادُ: البيوتُ؛ أو في ضمانكم وتربيتكم، ويُقال: فلان في حِجر فلانٍ، إذا كان يلي تربيته، وذلك أنّ كلَّ من ربَّى صبيًّا أجلَسَه في حِجرِه، فصار الحِجر عبارةً عنِ التَّربية، كما يُقال: فلان في حضانة فلان، وأصلُه منَ الحِضن الَّذي هو الإبط[1].

12) ﴿ٱلَّٰتِي دَخَلۡتُم بِهِنَّ﴾، أي: جامعتموهنَّ.

13) ﴿فَلَا جُنَاحَ﴾ الْجِيمُ وَالنُّونُ وَالْحَاءُ أَصْلٌ وَاحِدٌ يَدُلُّ عَلَى الْمَيْلِ وَالْعُدْوَانِ، وَالْجُنَاحُ: الْإِثْمُ، سُمِّيَ بِذَلِكَ لِمَيْلِهِ عَنْ طَرِيقِ الْحَقِّ[2].

14) ﴿وَحَلَٰٓئِلُ أَبۡنَآئِكُمُ﴾: جمعُ حليلةٍ، والذَّكَرُ حليلٌ؛ لأنَّ كلَّ واحدٍ حلالٌ لصاحبه، إمَّا بحَلِّ كلٍّ منهما إزارَه لصاحبه، وإمَّا بكونه حلالًا له غيرَ حرامٍ عليه، وإمَّا لنزوله معه[3]، والمعنى: وحُرِّمت زوجاتُ أبنائكم.

15) ﴿ٱلَّذِينَ مِنۡ أَصۡلَٰبِكُمۡ﴾، من: الصُّلْب: وهو عَظمٌ من لَدُن الكاهِل إلى العَجْب: (العَظمةُ التي عند رأس العُصْعُص أسفل الظَّهر)، أي: ظهوركم، وسُمِّيَ الظَّهْرُ صُلْبًا؛ لِقُوَّتِه، وهو تنبيه على أنَّ الولدَ جزءٌ من الأب[4]، والمعنى: وحُرِّمت زوجةُ الابنِ على أبيه بمجرَّد العقد اتّفاقًا.

16) ﴿وَأَن تَجۡمَعُواْ﴾، أي: وحُرِّم عليكم الجمعُ.

17) ﴿بَيۡنَ ٱلۡأُخۡتَيۡنِ﴾، فلا يجوزُ للرّجل الجمعُ بينَ الأُختينِ من نسبٍ أو رَضاعٍ.

18) ﴿إِلَّا مَا قَدۡ سَلَفَۚ﴾، أي: إلَّا ما مضى في الجاهليَّة، فإنَّه معفوٌّ عنه؛ لأنَّهم كانوا يفعلونه.

19) ﴿غَفُورٗا﴾: أَصلُ الغُفرانِ مِنَ الغَفر، وهو: التّغطيةُ والسَّترُ والإدخالُ، ومنه سُمِّيَ العَفوُ غُفرانًا؛ لأنّهُ سترٌ للذّنب، وإدخالٌ للعبد في العفو، وغَفَرَ له: إذا سامَحَهُ وعفا عنه[5]،

(1) الواحديّ، التّفسير البسيط: 6/422.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (جنح).
(3) السمين، عمدة الحفاظ: (حلل).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (صلب).
(5) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب، الزّبيديّ، تاج العروس: (غفر).

والغفور من أسماء اللّه الحسنى، ومعناه: الذي يسترُ ذنوبَ عبادِه، ويتجاوزُ عنها، ويقيهم آثامَها، بالعفو عنها، وهو بمعنى الغفَّار، لكنَّه ينبئُ عن نوع مبالغةٍ لا ينبئُ عنها الغفَّار؛ فالفَعُول ينبئ عن جَوْدة الفعل، وكمالِه، وشمولِه، فهو بمعنى تامُّ المغفرة[1].

20) ﴿رَّحِيمًا﴾: ذو الرَّحمة الواسِعَة للمؤمنين يوم القيامة، والرَّحيمُ من أسماء اللّه تعالى، أي: لا يعاقبكم على سَيِّئاتكم إذا تُبتم، وأَصلحتُم، ويعني: كثير المَغفرة والرَّحمة لعباده[2].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

حَرَّم اللّهُ عليكم نكاحَ أمَّهاتِكم وإن عَلَون؛ أي: أمُّ الأمِّ وجدُّتها من جهة الأب أو الأمِّ، وبناتِكم، وإن نزَلْن، أي بنتُها وبنتُ بنتِها، وكذلك بناتُ الابن وبناتُ البنت وإن نزَلْن، وأخواتِكم من أبويكم أو من أحدهما، وعمَّاتِكم، وكذلك عمَّاتُ آبائكم وأمَّهاتِكم وإن عَلَون، وخالاتِكم، وكذلك خالاتُ أمَّهاتكم وآبائكم وإن عَلَون، وبناتِ الأخِ وبناتِ الأخت، وأولادهنَّ وإن نزلوا، وأمَّهاتِكم اللَّاتي أرضعنَكم، وأخواتِكم منَ الرَّضاعة، وأمَّهاتِ زوجاتكم سواء دخلتم بهنَّ أم لم تدخلوا بهنَّ، وبناتِ زوجاتِكم من غيركم اللَّاتي ينشأنَ ويتربَّينَ في بيوتكم غالبًا، وكذلك إذا لم يتربَّينَ فيها، إن كنتم دخلتم بأمَّهاتهنَّ، وأمَّا إذا لم تدخلوا بأمَّهاتهنَّ وطلقتموهنَّ، أو متّنَ قبلَ الدُّخول بهنَّ فلا حَرج عليكم في نكاح بناتهنَّ، وحُرِّمَ عليكم نكاحُ زوجاتِ أبنائكم الّذين من أصلابكم ولو لم يدخلوا بهنَّ، ويدخل في هذا الحكمِ زوجاتُ أبنائكم منَ الرَّضاعة، وحُرِّمَ عليكم الجمعُ بين الأختين منَ النّسب أو الرّضاعة - وثبت في السُّنَّة تحريمُ الجمعِ كذلك بين المرأةِ وعمَّتها أو خالتِها - إلّا ما مضى من ذلك في الجاهليّة فقد عفا اللّه عنه، إنَّ اللّه تامُّ المغفرة لعباده التّائبين إليه، ذو رحمةٍ واسِعَةٍ للمؤمنين يوم القيامة[3].

(1) الخطابي، شأن الدعاء ص: 65، وابن عثيمين، شرح العقيدة الواسطية ص: 253.
(2) ابن القيم، مدارج السالكين: 1/34، والعليميُّ، فتح الرّحمن: 2/109.
(3) نخبة من العلماء، التفسير الميسَّر، ص: 81، وجماعة من العلماء، المختصر في تفسير القرآن الكريم، ص: 81.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

نُكْتَةُ التَّعْبِيرِ بِالْفِعْلِ ﴿حُرِّمَتْ﴾ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ﴾:

تَخْتَلِفُ صِيَغُ التَّحْرِيمِ بِحَسَبِ حَالِ الْمُخَاطَبِينَ مِنَ الْمَنْهِيِّ عَنْهُ

تَغيَّر أسلوب النَّهي في هذه الآية عن سابِقَتِهَا؛ فالآية السَّابقة وردَ النَّهيُ فيها بصيغةِ المضارعِ المقرونِ بلَا النَّاهية ﴿وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم﴾، وهذه الآية وردَ التَّحريمُ فيها بصريحِ مادَّتِه ﴿حُرِّمَتْ﴾، والفرقُ بين التَّعبيرَيْن؛ أنَّ صيغةَ (لَا تَفْعَل) نهيٌ بصيغةِ المضارع الدَّالّ على زمنِ الحالِ، فيُؤْذِنُ بالتَّلبّس بالمَنهيّ، أو إمكان التَّلبّس به، بخِلَافِ ﴿حُرِّمَتْ﴾؛ فإنَّه دالٌّ على أنَّ تحريمَه أمرٌ مُقرَّر؛ ولذلك قال ابنُ عبَّاس: (كان أهلُ الجاهليَّة يُحرِّمون ما يُحرِّم الإسلام إلَّا امرأةَ الأبِ، والجمعَ بينَ الأُختَيْن)، ولهذا وردَ التَّعبير عن حُكم الجمعِ بين الأُختين بلفظ الفعلِ المُضَارِع: ﴿وَأَن تَجْمَعُواْ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ﴾[1].

سِرُّ بِنَاءِ الْفِعْلِ ﴿حُرِّمَتْ﴾ لِلْمَفْعُولِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ﴾:

مَالِكُ حَقِّ التَّحْرِيمِ هُوَ اللهُ تَعَالَى

بُنِيَ الفعلُ ﴿حُرِّمَتْ﴾ للمفعولِ؛ لكونِ الفَاعِلِ معلومًا لِلْمُخاطَب؛ إذِ المُخاطَبون بهذا التَّحريم هُمُ المُؤْمِنُون، وهُم يَعْلَمُونَ عِلَم اليَقين المحرِّمَ وهو اللهُ تعالَى، فكانَ الأَولى هنا لَفتَ الانْتِبَاه إلى المُحرَّم نفسِه؛ ليكون أدْعَى لِلامْتِثَالِ، ومثلُهُ قولُه تَعَالَى: ﴿وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ﴾ [النّساء: 24][2].

تَعْيِينُ الْمَحْذُوفِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ﴾:

التَّحْرِيمُ الْمُوَجَّهُ لِلْأَعْيَانِ يُرَادُ بِهِ تَحْرِيمُ الْفِعْلِ الْمُتَوَجِّهِ إِلَيْهَا

في قولِ اللهِ تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ﴾ حذفٌ، دلَّ عليهِ قولُه قبلُ: ﴿وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم﴾؛ فإنَّ النَّهي عن النِّكاح ههنا مُفيدٌ أنَّ المُرادَ مِن قوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ﴾

(1) ابنُ عاشور، التّحرير والتّنوير: 4/294.

(2) البنَّاني، سورة النّساء: دراسة بلاغيّة تحليليّة: 1/225.

تحريمُ نكاحِهنّ، ثُمَّ إنَّ الأصلَ في الحُرمَة والإباحَة إذَا أُضيفتا إلى الأَعْيَانِ؛ فالمُرادُ تَحْرِيمُ الفعل المطلُوبِ مِنْهَا في العُرف، ففي قولِه سُبحانَهُ: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ﴾ [المائدة: 3] يُرادُ: تحريمُ أكلِهِمَا، وكذا في قولِه ﷻ: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ﴾؛ فإنَّ المُرادَ: تحريمُ نِكَاحِهنَّ[1].

سِرُّ تَقْدِيمِ الْجَارِّ وَالْمَجْرُورِ ﴿عَلَيْكُمْ﴾ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ﴾:

الاهْتِمَامُ بِالْمُخَاطَبِ يَحْمِلُهُ عَلَى الِامْتِثَالِ

قُدِّمَ الجارُّ والمجرورُ ﴿عَلَيْكُمْ﴾ في قولِ اللهِ تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ﴾ والأصلُ تأخيرُهُ؛ لِنُكْتَتَيْنِ:

إحدَاهُمَا: الاهتِمَام بشأنِ المُخَاطَبِينَ؛ لِيَجِدُّوا في الِامْتِثَالِ.

والأُخْرَى: الحفاظُ على سلَامةِ النَّظْمِ من الخلل؛ وذلك لأنَّه لو أُخِّرَ الجارُّ والمجرورُ مع كثرةِ المرفوعَاتِ ﴿أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ﴾؛ لبَعُدَ عن العامِلِ ﴿حُرِّمَتْ﴾، واختلَّ نظمُ الكلام.

نُكْتَةُ اخْتِيَارِ لَفْظِ الْأُمَّهَاتِ دُونَ الْوَالِدَاتِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ﴾:

دِقَّةُ اخْتِيَارِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ لِلْأَلْفَاظِ الْمُنَاسِبَةِ لِسِيَاقَاتِهَا

لَمّا ابتدأ اللهُ تعالى بتعظيم الآباءِ وذلك بتحريم أن يَنْكِحَ الأبناءُ أزواجَ آبائِهم على العُموم؛ ثنَّى بذِكْرِ الأُمّ، فقال تعالَى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ﴾، واختِيرَ في عَدِّ المُحرَّمات كلمةُ (أُمَّهاتُ)، وأُوثِرَت كلمة ﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ﴾ في قولِه سُبْحَانه: ﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ﴾ [البقرة: 233]؛ لأنّ كلمةَ (الأُمّ) تُشْعِرُ بالتَّقدير والتَّوقير، والإعزازِ والإجلال، حتَّى إنَّ النَّفسَ لتَشمَئِزُّ وتَنفرُ مِنْ أن تُمَسَّ بِمَا يَشِينُ، فكانَتْ أَنْسَبَ كلمةٍ تُذْكَرُ في سياقِ إيرَادِ المُحرَّماتِ، بخلافِ كلمة (الوَالِدَات)؛

(1) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 10/23 - 6/283.

فإنَّها تُوحِي إلَى النَّفس بأنَّ مِنَ الظُّلم أن يُنزع مِنَ الوالدَةِ مَا وَلَدَتْهُ، وأن يُصبح فؤادُها فارغًا، ومِن هُنا كانت كلُّ كلمةٍ مِنْهُما مُوحيَةً في مَوضِعها، آخذة خيرَ مكانٍ تَسْتَطِيعُ أن تتبوَّأَهُ[1].

دِلَالَةُ اللَّامِ فِي ﴿ٱلْأَخِ﴾ و﴿ٱلْأُخْتِ﴾ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ﴾:

اللَّامُ في ﴿ٱلْأَخِ﴾ و﴿ٱلْأُخْتِ﴾ جِيءَ بهَا عِوَضًا عَنِ المُضَافِ إلَيْه، فمعنَى ﴿وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ﴾: بَناتُ أَخِيكُم، وبناتُ أُخْتِكُم[2]، ودخولُها على الاسْمَيْنِ أَضْفَى خُصوصِيَّةً لَهُمَا ومكانَةً؛ إذ كلُّ المذكورَاتِ أُضيفَت أسماؤُهنَّ إلَى ضمير الخِطَاب، إلَّا هذين الاسمين.

حِرْصُ الْإِسْلَامِ عَلَى حِفْظِ نَسْلِ الْأُسَرِ وَتَمَاسُكِهَا

عِلَّةُ تَسْمِيَةِ الْمُرْضِعِ أُمًّا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى ﴿وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِيٓ أَرْضَعْنَكُمْ﴾:

سمَّى اللّه تعالى المراضِع أُمَّهات جَريًا على لغة العرب، وما هنَّ بأُمَّهاتٍ حقيقةً، ولكنَّهنَّ تَنَزَّلنَ مَنزلةَ الأُمَّهات؛ لأنَّه بلبنهنَّ تَغَذَّتِ الأَطفالُ، ولِمَا في فِطرة الأطفال مِن محبَّة لمُرضعاتهم محبَّة أُمَّهاتهم الوالدات، ولزِيَادَةِ تَقْرِير هذا الإطلاقِ الَّذي اعتبرَهُ العَربُ.

تَكْرِيمُ الْمُرْضِعِ بِتَسْمِيَتِهَا أُمًّا

وقد قُرِنَ ﴿وَأُمَّهَٰتُكُمُ﴾ بالوصف: ﴿ٱلَّٰتِيٓ أَرْضَعْنَكُمْ﴾؛ دَفعًا لتوهُّم أنَّ المُرادَ الأُمَّهاتُ فيكونُ تكرارًا للواردِ في صدرِ الآيةِ.

وإطلاقُ اسم الأُخْتِ على الَّتي رضَعَت مِن ثَدْي مُرضعةٍ مَن أُضِيفَت الْأُخْتُ إلَيْه؛ جَرَى على لُغَةِ العرَبِ، كما تقدَّم في إطْلَاقِ اسمِ الأُمِّ على الْمُرْضِع.

وقولُهُ: ﴿مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ﴾ حالٌ مِن ﴿وَأَخَوَٰتُكُمْ﴾، و﴿مِّنَ﴾ فيه للتَّعليل والسَّببيّة، فلا تُعْتَبَرُ أُخوَّة الرَّضاعة إلَّا برضاعةِ الْبِنْتِ مِنَ المرأة الَّتي أَرضعَتِ الْوَلَدَ[3].

(1) البدويّ، من بلاغة القرآن، ص: 59.
(2) ابنُ عاشور، التّحرير والتّنْوير: 4/296.
(3) ابنُ عاشور، التّحرير والتّنْوير: 4/296.

وبينَ ﴿أَرۡضَعۡنَكُمۡ﴾ و﴿ٱلرَّضَٰعَةِ﴾ جناسُ الاشتقَاقِ؛ تأكيدًا على المرادِ بالأُمُومةِ والأُخُوَّةِ.

نُكْتَةُ التَّعْبِيرِ بِالرَّبَائِبِ دُونَ بَنَاتِ النِّسَاءِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِي فِي حُجُورِكُم﴾:

إِجْـرَاءُ الرَّبَائِبِ مُجْرَى الْبَنَاتِ لِاشْتِرَاكِهِنَّ فِي بَعْضِ الْأَوْصَافِ

الرّبائبُ: جمعُ ربيبة، وهي فَعِيلَةٌ بِمَعْنَى: مَفْعُولَةٍ، والتَّاءُ فيهَا للنّقل إلَى الاِسْمِيَّة، والرَّبيبُ: ولدُ المرأة مِن رجلٍ آخَرَ، سُمِّي به؛ لأنَّه يرُبُّه غالبًا كما يرُبُّ ولدَه، وإن لم يكن ذلك أمرًا مُطَّرِدًا، وهو المعنيُّ بكونهنَّ في الحُجور، فإنَّ شأنهنَّ الغالبَ المعتادَ أن يكنَّ في حضانة أُمَّهاتِهن تحت حماية أزواجهنَّ، لا كونهنَّ كذلك بالفعل.

وفائدةُ التَّعبير عنهنَّ بذلك تقويةُ عِلَّةِ الحُرمةِ وتَكْمِيلُها، فإنَّ كونَهنَّ بصَدَدِ احْتِضَانِهم لهنَّ، وعلَى مقرُبَةِ التَّقلُّب في حُجورهم وتحتَ حِمَايَتِهم وتَرْبِيَتِهم ممَّا يقوِّي الملابسةَ والشَّبَهَ بينهنَّ وبينَ أولادِهم، ويَسْتَدْعِي إجراءَهنَّ مُجْرَى بناتِهم، لا تَقْيِيدُ الْحُرْمةِ بكَوْنِهِنَّ في حُجُورِهِمْ بِالْفِعْلِ[1].

دِلَالَةُ الْكِنَايَةِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِي فِي حُجُورِكُم﴾:

التَّنْبِيهُ عَلَى حِكْمَةِ تَحْرِيمِ الرَّبِيبَةِ

قولُ اللّهِ تعالى: ﴿ٱلَّٰتِي فِي حُجُورِكُم﴾ خرجَ مخرجَ الغالبِ؛ إذ هِيَ حالَةُ الرّبيبةِ في الْأَكْثَر، وهي مُحرّمَةٌ وإن كانَت في غَيْرِ الحِجر[2]؛ لأنَّ اللَّفْظَ الخارجَ مخرجَ الغالبِ لا مفهومَ مخالفةٍ له.

وقولُه تعالى: ﴿فِي حُجُورِكُم﴾ كنايةٌ عَنِ الرِّعاية والحيَاطَة والعَطف، وغيرها مِن أنواعِ البِّر الَّتي يَحُوطُ بها أَولادَ زوجتِهِ، وهذا الوَصف جارٍ مَجرَى العادة، والتَّعبيرُ به بيانٌ لِقُبح تزوُّجِ الرَّجُلِ بنتَ امْرَأَتِهِ[3].

(1) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 2/161.
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/32.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 3/1633.

دِلَالَةُ التَّضْمِينِ وَالْكِنَايَةِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ٱلَّتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ﴾:

الـــدُّخـــولُ بِالْأُمَّهَاتِ يُحَرِّمُ الْبَنَاتِ

في قولِهِ تعالى: ﴿وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ﴾ تضمينٌ، فقد ضُمِّنَ الفعلُ ﴿دَخَلْتُم﴾ معنَى الفعلِ (خَلَوْتُمْ)، فيكون معنى قوله: ﴿دَخَلْتُم بِهِنَّ﴾ أي: دخلتُمْ وخلوتُمْ بِهِنَّ.

ثُمَّ إنَّ هذا الدُّخولَ والخلْوَةَ كنايةٌ عن الوَطْءِ، ولكِنْ عُدِلَ عن التَّصريحِ بالوطْءِ إلى التَّعبير بالدُّخولِ صراحةً وبالخَلْوَة إيماءً بالتَّضمين؛ لما عُهِدَ في خطاب الشَّرْعِ منْ سَتْرِ المعَاني التي قَدْ يُسْتَحْيَى من ذِكْرِهَا، وهذا القيدُ المذكُور في قولِهِ: ﴿ٱلَّٰتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ﴾ يدلُّ بمفهومِهِ على أنَّهُ إن لم تكونوا دخلتم بهنَّ فلا جناح عليكم في نكاح الرَّبائب، كما إذا فارقتموهنَّ قبل الدُّخولِ أو مِتْنَ قبلَهُ[1].

تَعْيِينُ الْمَحْذُوفِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَإِن لَّمْ تَكُونُواْ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾:

حِلُّ نِكَاحِ الرَّبِيبَةِ إِذَا لَـمْ يُدْخَلْ بِأُمِّهَا

قولُ اللّهِ تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ تَكُونُواْ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ أي: في نكاح الرَّبائب، وحُذِفَ لدلالة ما قبلَهُ عليه، وهو قوله سُبحانه: ﴿وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ﴾.

وقولُهُ: ﴿فَإِن لَّمْ تَكُونُواْ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ تصريحٌ بما أَشْعَرَ بِهِ ما قَبْلَهُ، والفاء الأُولى ﴿فَإِن﴾ جيءَ بها لِتَرْتِيب ما بَعْدَها عَلَى مَا قَبْلَهَا، فإنَّ بيانَ حُكم الدُّخول مُستتبِعٌ لبيان حكم عَدمِه[2].

نُكْتَةُ الْعُدُولِ عَنْ (لَيْسَ) إِلَى (لَا) النَّافِيَةِ لِلْجِنْسِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾:

جاءَ التَّعبير في قولِه سُبحانَهُ: ﴿فَإِن لَّمْ تَكُونُواْ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ بـ (لَا) النّافيةِ لِلْجِنْسِ، وهي دالَّةٌ على نفي جِنْسِ

(1) القنّوجيّ، فتح البيان: 3/73، والجمل، الفتوحات الإلهيّة: 2/34.
(2) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 2/162.

الجُناح نَصًّا، والمُرادُ: نفيُ أَدْنَى حَرَجٍ أو إثم إذا تَزَوَّج الرَّجلُ بنتَ امرأتِه التي فارقَها ولم يدخُلْ بِهَا، "وصِيغَةُ نفي الجِنْسِ على سَبِيل التَّنصيص: صِيغَةُ تأكيدٍ؛ لأنَّ (لَا) النّافيَةَ لِلْجِنْسِ في مقام النّفي بمنزلة (إنّ) في مَقَام الإثبَات، ولذلك حُمِلَتْ عليهَا في الْعَمَلِ"[1]، وعُدِلَ عنِ النّفي بِـ (لَيْسَ)؛ لكونِهَا تَنْفِي الجملةَ الاسْمِيّةَ علَى الحَالِ غالبًا.

فَـ ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ جملةٌ اسميَّة، بخلاف: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ﴾: جملةٌ فعليَّة، والجُملةُ الاسميَّة أقوى وآكَدُ مِنَ الجملة الفعليَّة؛ حيث إنَّ الجملة الاسميَّة تدلُّ على الثُّبوت، والجملة الفعليَّة تدلُّ على التَّجدد والحدوث، فكانتْ جملةُ ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ أقوى في النَّفي مِن ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ﴾؛ إذِ النَّفي درجاتٌ، ولذا تُستعمل (لَا جُنَاحَ) في مُهِمَّاتِ القضايا، مثل العبادات، والحقوق الزَّوجيَّة، والعقيدة، وتُستعمل (ليس) في القضايا الأَقل أهميَّة، وربَّمَا كانت نادرةً، كالأكلِ والشُّرب في قوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُواْ جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا﴾ [النّور: 61]، ودخولِ البيُوتِ في قوله سُبحانه: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُواْ بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَٰعٌ لَّكُمْ﴾ [النّور: 29][2].

دِلَالَةُ الْوَصْفِ ﴿ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ﴾ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ﴾:

تَبْيِينُ اللهِ تَعَالَى الْأَحْكَامَ وَدَفْعُهُ كُلَّ مَا يُتَوَهَّمُ مِنْهُ خِلَافُ الْمُرَادِ

قولُ اللّه تعالى: ﴿وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ﴾ أي: مِن ظُهورِكم، وَوُصِفَ الأبناءُ الذين حُرِّمَ نكاحُ حلائلهم بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ﴾ لِقَصْدِ رفْعِ المَجَازِ الذي يَحْتَمِلُهُ لَفْظُ ﴿أَبْنَآئِكُمْ﴾؛ وذلك أنَّ العربَ كانت تُطْلِقُ اسمَ الابْنِ على المُتَبَنَّى، كمَا كانوا يقولُونَ: زَيْدُ بْنُ مُحَمَّدٍ، إلى أن أَنْزَلَ اللّه تعالى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ

(1) ابنُ عاشور، التّحرير والتّنْوير: 17/206.

(2) الهلال، تفسير القرآن الثريّ، ص: 101.

أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [الأحزاب: 40][1]، فكان تحليلُ نكاحِ زوجاتِ المُتبَنَّين إمعانًا في إبطالِ التَّبنِّي وإلغائِه.

دِلَالَةُ اللَّامِ فِي ﴿ٱلْأُخْتَيْنِ﴾ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَن تَجْمَعُواْ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ﴾:

تَحْرِيمُ الْجَمْعِ بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ فِي الْوَطْءِ مُطْلَقًا

اللَّامُ في ﴿ٱلْأُخْتَيْنِ﴾ استغراقيَّة، فقد دخلت على اسمِ الْجِنْسِ المُثنَّى، وهي تعمُّ عند علماء الأصُول، فكانت بظاهرِهَا مفيدةً لعمومِ تحريم الجمع بين كلِّ أختين، سواء أكان ذلك الجمعُ بعَقدٍ أم بمِلْكِ يَمِين، وهَذه حجَّة الجمهُورِ[2].

وعُدِلَ ههنا عن التَّعبير بِـ (والجمع بين الأختين) إلى ﴿وَأَن تَجْمَعُواْ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ﴾؛ لِيُفِيدَ ذلكَ مُواجَهَتَهُم بِالْخِطَاب، فيكونُ أبلغَ في التَّعبير عمَّا نهُوا عَنْهُ[3].

دِلَالَةُ الِاسْتِثْنَاءِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَۚ﴾:

مِنْ حِكَمِ النَّهْيِ عَنِ الْجَمْعِ بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ: حِفْظُ الْأَرْحَامِ مِنَ التَّقْطِيعِ

الاستثناءُ في قَوْلِهِ ﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَۚ﴾ استثناء منقطعٌ، والمَعْنَى: لا تجمعُوا أيّها المؤمنون بين الأختَيْن؛ لأنّه مِن أفعَالِ الجاهليّة القبيحة، أمّا ما قد سلف ومضَى مِنْهُ قبلَ نزُولِ هذه الآية، فلا تُؤَاخَذُونَ عَلَيْه، فمَن كانَ متزوّجًا مِن أُخْتَيْن؛ فإنّها تَصِيرُ حَرامًا عليه مِن وقْتِ نزُولِ هذه الآيَةِ الكَرِيمَةِ، ويَجِبُ عَلَيْه أَنْ يُفَارِقَ إحادهُما، أمّا مَا مضَى مِن هذا النّكاحِ القَبِيحِ فلَا تَثْرِيبَ عليْكُم فيه، وتَثْبُتُ بِهِ أحكَامُ النّكاح مِنَ النّسب وغَيْرِهِ مِنَ الأحْكَام.

دِلَالَةُ ﴿مَا﴾ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَۚ﴾:

رَفْعُ الْمُؤَاخَذَةِ عَنِ الْمُحَرَّمَاتِ قَبْلَ وُرُودِ الشَّرْعِ

﴿مَا﴾ في قولِهِ تعَالى: ﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَۚ﴾ اسمٌ موصولٌ، وهُوَ دالٌّ على العُمُومِ، والمعنى: قَدْ حرَّم علَيْكُم الجمعَ بَيْنَ الأُخْتَيْن؛ لكن ما

(1) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 3/1169، أبو حيَّان، البحر المحيط: 3/582، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 3/1633.

(2) الشّنقيطيّ، الرّحلة إلى إفريقيا، ص: 155.

(3) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/20.

مضى قبلَ نُزُولِ الآيَةِ وقبلَ التَّحريمِ مَعفوٌّ عنهُ، فهو عموم قطعيٌّ، حيث يُراد به جميع أفراده تناولًا وحُكمًا[1].

مُنَاسَبَةُ خَتْمِ الْآيَةِ بِاسْمَيِ اللهِ تَعَالَى: الْغَفُورِ وَالرَّحِيمِ:

المَغْفِرَةُ سَبَبٌ لِحُلُولِ الرَّحْمَةِ

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ تُناسِبُ أن يكون مَعْنَى ﴿إِلَّا مَا قَدۡ سَلَفَۚ﴾ تقريرَ ما عقَدُوهُ مِن ذلك في الجاهليَّة، فالمَغْفِرةُ للتَّجاوز عنِ الاستمرارِ عَلَيْهِ، وأمَّا الرَّحمة؛ فَلِبَيَانِ سببِ ذلك التَّجاوز[2]، أو لِبيانِ أثرِ المغفرةِ على القول بأن المغفرةَ هي سببُ الرَّحمةِ، كما قال اللّه تعالى: ﴿لَوۡلَا تَسۡتَغۡفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ١٦﴾ [النمل: 46]، مع ما تَضَمَّنَتْهُ الجملةُ مِنْ تأكيدِ الخَبَرِ بِـ (إنَّ) واسميَّةِ الجملةِ.

تَوْجِيهُ الْمُتَشَابِهِ اللَّفْظِيِّ:

دِقَّةُ مُلَاءَمَةِ خِتَامِ الْآيَاتِ لِسِيَاقَاتِهَا

قال اللّه تعالى هنا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾، وقال في آيةٍ أخرى منَ السُّورة نفسِها: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ٩٦﴾ [النّساء: 96]، ووجه التَّفريق بينهمَا: أنَّ الآية الأولى ساقَتِ المحرَّماتِ بدءًا بالأُمِّ وانتهاءً بالنّهي عن الجمع بين الأختين، فقال سُبحانه: ﴿وَأَن تَجۡمَعُواْ بَيۡنَ ٱلۡأُخۡتَيۡنِ إِلَّا مَا قَدۡ سَلَفَۗ﴾، فلمَّا أُريدَ تعليلُ هذا الحكم وتقويةُ مضمونِهِ لدَى المخاطَبِين؛ ناسبه فصلُ الجملةِ وتأكيدُها بـ ﴿إِنَّ﴾ فقال ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾.

بخلاف الآية الأخرى؛ فقد جاء قبلَها قوله تعالى: ﴿وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلۡقَٰعِدِينَ أَجۡرًا عَظِيمًا ٩٥﴾ [النّساء: 95]، فلمَّا كان المتحدَّثُ عنه هو اللّه تعالى، وأُريدَ الجمعُ بين الأخبار، وكان السِّياقُ خاصًّا بالمؤمنينَ؛ ناسبَه الوصلُ بالواو، وتَركُ تأكيدِهِ، فقال تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ٩٦﴾ [النساء: 96][3].

(1) الزّايديّ، صيغ العموم وأنواعه، ص: 220.
(2) ابنُ عاشور، التّحرير والتّنْوير: 3/401، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 3/1636.
(3) سعد عبد العظيم، استدراك ما فات من بلاغة الآيات المتشابهات، ص: 365.

الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

التَّحريم والنَّهي:

التحريمُ: هو الحَظْرُ، وَشَيْءٌ مُحَرَّمٌ أَيْ مَحْظُورٌ، وَأَصْلُ التَّحْرِيم: المَنْعُ، يُقَالُ: حَرَّمَ الشَّيْءَ أَيْ مَنَعَ مِنْهُ وَلَمْ يُجِزْهُ، وَضِدُّهُ الإِبَاحَةُ وَالإِذْنُ وَالجَوَازُ، ويكون التَّحريمُ إمَّا بتسخير إلهيٍّ، وإمَّا بشريٍّ، وإمَّا بمنع قهريٍّ، وإمَّا بمنعٍ من جهة العقل، أو من جهة الشَّرع، أو من جهة من يُرْتَسم أمره، وقوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ﴾ [النّساء: 23]، هذا مُحرَّمٌ على المسلمين بحُكم شرعيٍّ مقتضٍ طلبَ تركِ الفعلِ جزماً[1].

وأمَّا النَّهي فهو الكَفُّ وَالزَّجْرُ وَالمَنْعُ، وَمِنْهُ النُّهْيَةُ وَهِيَ العَقْلُ؛ لِأَنَّهُ يَمْنَعُ صَاحِبَهُ مِنَ القَبِيحِ، وَأَصْلُ النَّهْيِ مِنَ الانْتِهَاءِ وَهُوَ التَّوَقُّفُ عِنْدَ حَدٍّ مَعْلُومٍ، وَضِدُّهُ: الأَمْرُ، قال تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم﴾، والنهيُ من حيث المعنى لا فرق بين أن يكونَ بالقول أو بغيره، وما كان بالقول فلا فرق بين أن يكون بلفظة (افعل)، نحو: اجتنب كذا، أو بلفظة (لا تفعل)، وكذلك النهيُ لا فرق بكونه بالقول ممَّن هو دونه، ويطلق على طلب ترك الفعل مطلقاً سواء كان من الأعلى للأدنى، أم بالعكس[2].

لذا ناسب التعبيرُ في سياق الآية الكريمة بلفظ"التحريم"؛ لما يتضمَّنه من ترك العلاقة بين الرجل والمرأة - في المحرَّمات من النِّساء - على وجه الجَزْم والقطع.

(سَلَفَ) و(مَضَى):

السَّلَفُ: المُتقدِّم، قال تعالى: ﴿فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ ۝٥٦﴾ [الزّخرف: 56]، أي: مُعتبرًا مُتقدَّمًا، وكذا قوله: ﴿وَأَن تَجْمَعُواْ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾، أي: ما تقدّم من فعلكم؛ فذلك مُتجافَى عنه.

المُضِيُّ والمَضاءُ: النَّفاذ، ويُقال ذلك في الأعيان والأحداث، قال تعالى: ﴿وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝٨﴾ [الزّخرف: 8]، وقوله تعالى: ﴿فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝٣٨﴾ [الأنفال: 38][3].

وناسب التعبيرُ في السياق المبارك بـ (سَلَفَ) لمقام النَّهي عن عادةِ نكاح هؤلاء

(1) ابن دريد، جمهرة اللغة، وابن سيده، المحكم، والرّاغب، المفردات: (حرم)، والطوفي، شرح مختصر الروضة: 1/262.
(2) الجوهري، الصحاح، وابن سيده، المحكم، الرّاغب، المفردات: (نهي)، والسمعاني، قواطع الأدلة: 1/251.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (مضي)، (سلف)، والرّاغب، المفردات: (سلف)، (مضي).

المحرَّمات من النساء؛ إذ كان هذا العمل ممتدًّا في أيام الجاهلية وفاشياً فيها، وقد دأب عليه الماضون منهم الآباءُ، ومن كان قبلهم.

الغفور والغفَّار:

الغَفور من أسماء الله الحسنى، وهو: الَّذي يستر ذنوب عباده، ويتجاوز عنها، ويَقِيهِم آثامَها بالعفو عنها، وهو بمعنى اسمه (الغَفَّار)، لكنَّه يُنبئ عن نوعٍ مبالغة لا يُنبئ عنها (الغَفَّار)؛ فالفعولُ يُنبئ عن جَودَة الفعل، وكماله، وشموله، فهو بمعنى تامِّ المغفرة.

فالفرق بينه وبينَ (الغَفَّار) أنَّ المبالغة فيه من جهة الكيفيَّة، وفي الغَفَّار باعتبار الكميَّة[1].

الرَّحمن والرَّحيم:

لا يُطلق الرَّحمَنُ إلَّا على الله تعالى من حيثُ إنَّ معناه لا يَصِحُّ إلَّا له؛ إذ هو الَّذي وسع كلَّ شيءٍ رَحمَةً، والرَّحيمُ يُستعمل فيه سبحانه وفي غيره؛ وهو الَّذي كثرت رحمته، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ١٨٢﴾ [البقرة: 182]، وقال في صفة النَّبيِّ ﷺ: ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ١٢٨﴾ [التَّوبة: 128]، وقيل: إنَّ الله تعالى هو رحمنُ الدُّنيا، ورحيمُ الآخرة، وذلك أنَّ إحسانه في الدُّنيا يعمُّ المؤمنين والكافرين، وفي الآخرة يختصُّ بالمؤمنين، وعلى هذا قال: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: 156]؛ تنبيهًا أنَّها في الدُّنيا عامَّة للمُؤمنين والكافرين، وفي الآخرة مختصَّة بالمؤمنين[2].

(1) الآلوسّي، روح المعاني: 5/411.

(2) الراغب، المفردات: (رحم)، وتفسير الرّاغب: 1/51.

المحتويات

الجزء الرابع 7

سورة آل عمران 9

- [آل عمران: 141] 10
- [آل عمران: 142] 17
- [آل عمران: 143] 25
- [آل عمران: 144] 33
- [آل عمران: 145] 48
- [آل عمران: 146] 58
- [آل عمران: 147] 71
- [آل عمران: 148] 81
- [آل عمران: 149] 88
- [آل عمران: 150] 95
- [آل عمران: 151] 99
- [آل عمران: 152] 107
- [آل عمران: 153] 121
- [آل عمران: 154] 131
- [آل عمران: 155] 160
- [آل عمران: 156] 174
- [آل عمران: 157] 189
- [آل عمران: 158] 197
- [آل عمران: 159] 204
- [آل عمران: 160] 220
- [آل عمران: 161] 230
- [آل عمران: 162] 242
- [آل عمران: 163] 251
- [آل عمران: 164] 258
- [آل عمران: 165] 272
- [آل عمران: 166 - 167] 280
- [آل عمران: 168] 298
- [آل عمران: 169 - 171] 306
- [آل عمران: 172 - 173] 323
- [آل عمران: 174] 338
- [آل عمران: 175] 344
- [آل عمران: 176] 352
- [آل عمران: 177] 360
- [آل عمران: 178] 363
- [آل عمران: 179] 369
- [آل عمران: 180] 381
- [آل عمران: 181 - 182] 388
- [آل عمران: 183 - 184] 401
- [آل عمران: 185] 414
- [آل عمران: 186] 423
- [آل عمران: 187] 432
- [آل عمران: 188] 443
- [آل عمران: 189] 453
- [آل عمران: 190] 458
- [آل عمران: 191] 466
- [آل عمران: 192] 476
- [آل عمران: 193] 482
- [آل عمران: 194] 492
- [آل عمران: 195] 498
- [آل عمران: 196 - 197] 514
- [آل عمران: 198] 524
- [آل عمران: 199] 532
- [آل عمران: 200] 543

سورة النساء 551

- [النِّسَاء: 1] 562
- [النِّسَاء: 2 - 6] 582
- [النّساء: 7 - 8] 619
- [النّساء: 9 - 10] 638
- [النّساء: 11] 657
- [النِّسَاء: 12] 675
- [النساء: 13 - 14] 692
- [النّساء: 15 - 16] 705

- [النّساء: 17 - 18] 722
- [النّساء: 19] 741
- [النّساء: 20] 756
- [النّساء: 21] 767
- [النّساء: 22] 776
- [النّساء: 23] 787

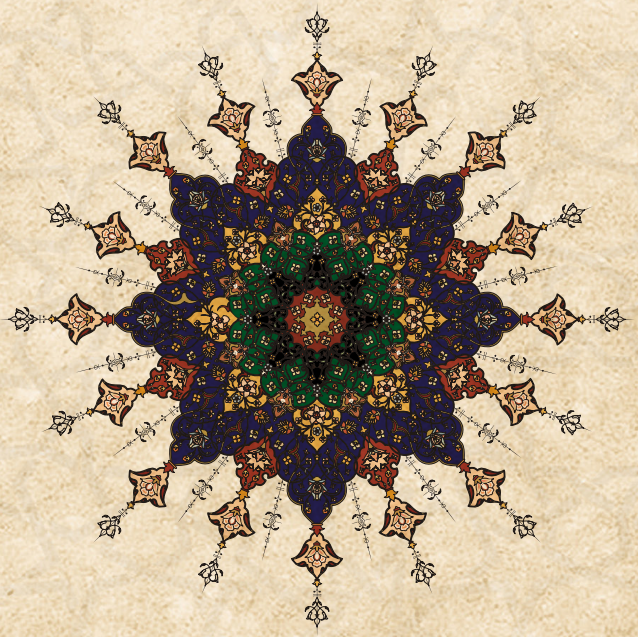

مجمع القرآن الكريم بالشارقة

موسوعة التفسير البلاغي

المُجَلَّدُ السَّابِعُ

سورة النساء من الآية 24 إلى الآية 114

موسوعة التفسير البلاغي

Government of Sharjah حكومة الشارقة
مجمع القرآن الكريم بالشارقة
HOLY QURAN ACADEMY IN SHARJAH

موسوعة التفسير البلاغي

المجلد السابع

سورة النساء من الآية 24 إلى الآية 114

نخبة من علماء مجمع القرآن الكريم بالشارقة

منشورات القاسمي
AL QASIMI PUBLICATIONS
20/23

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد السابع، سورة النساء من الآية 24 إلى الآية 114
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1444هـ - 2023م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2023م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: سورة النساء من الآية 24 إلى الآية 114 [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2023.
مج. 7 ، 804 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-798-59-0
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 7 : سورة النساء من الآية 24 إلى الآية 114.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث ج- المستغانمي، امحمد صافي

الترقيم الدولي : 978-9948-798-59-0
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-5066600 بتاريخ 2023/03/16م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الجُزْءُ الخَامِسُ

سُورَةُ النِّسَاءِ

﴿ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۖ كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ أَن تَبْتَغُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ ۚ فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ مِنْهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَٰضَيْتُم بِهِۦ مِنۢ بَعْدِ ٱلْفَرِيضَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٢٤﴾ ﴾ [النّساء: 24]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَرَ تعالى - في آخر الآية السَّابقةِ - مُضارَّةَ الجَمْعِ بين الأختين من النَّسب أو الرَّضاعِ، أَتْبَعَهُ في هذه الآية بمُضارَّةِ الإغارَةِ عَلى حَقِّ الغير، وهو بيانٌ لآخر المُحرَّمات مِنَ النِّساء - وهُنَّ ستَّة عشَر صنفًا، منهُنَّ خمسةَ عشَر في الآيتين السَّابقتين، وصنْفٌ واحدٌ في هذه الآية - ؛ فالمنهيُّ الأوَّلُ جَمْعٌ بَيْنَ المَنكُوحَيْنِ من أنواع النساء؛ وهَذا الصنف الأخير من المحرَّمات جَمْعٌ بَيْنَ النّاكِحِينِ من الرِّجال[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ﴾، ﴿مُّحْصِنِينَ﴾: الإحصانُ: على وزن إفعال، وهو مصدرُ مُشتقٌّ من أَحصنَ، يُحصِنُ، إحصانًا، وأصلُه: المَنعُ، يُقالُ: حَصُنَ المكانُ فهو حَصينٌ: إذا صار مَنيعًا، وامرأَةٌ حَصانٌ: عَفيفَةٌ، والمرأةُ تكونُ مُحصَنةً بمعاني الإحصان، وهي: الإسلامُ، والعَفافُ، والحُرِّيَّةُ، والتَّزويجُ، يُقالُ: أَحصَنَت المرأةُ، فهي مُحصَنةٌ ومُحصِنَةٌ، وكذلك الرَّجلُ، ويُطلَقُ الإحصانُ على الحِفظِ والحِرزِ، ومنه الحِصنُ: وهو الحِرزُ، وكلُّ مَوضِعٍ لا يُوصَلُ إلى ما فيه[2]، ومعنى ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ﴾: ذواتُ الأزواج، ومعنى: ﴿مُّحْصِنِينَ﴾: عفيفين عن اقترافِ الحرام.

2) ﴿ٱلنِّسَآءِ﴾: النِّساءُ، والنِّسوان، والنِّسوَة جمعُ المرأة مِن غير لفظها، كالقَوم في

(1) البقاعي، نظم الدرر: 5/232، والخطيب، التَّفسير القرآنيُّ للقرآن: 3/737.

(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس: (حصن).

جمعِ المَرء، قال تعالى: ﴿لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ﴾ إلى قوله: ﴿وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ﴾ [الحُجرات: 11]، والمعنى المحوري لهذا الأصل غيابٌ في الأثناء مع الامتداد فيها، ومنه النِّسوة - بالكسر والضم - حيث يحملن في باطنهن الأجنّةَ ويحتبس الدمُ، ثم يخرجُ هذا وهذا من باطنهنَّ، واللفظُ في أصله خاصٌّ باللاتي بلغن المحيضَ والحَمْل، ولذا لا يُطلق في الذوق العامِّ على الصغيرات قبل الحيض، وهو صحيح، ثم تعمَّم في كل مَنْ شأنُ جِنسهن ذلك، كقوله: ﴿۞وَقَالَ نِسۡوَةٞ فِي ٱلۡمَدِينَةِ﴾ [يوسف: 30]، وبهذا المعنى جاء كلُّ (نسوة)، (نساء) في القرآن الكريم[1].

3) ﴿مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ﴾: المَملوكُ يختصُّ في التَّعارف بالرَّقيق مِنَ الأملاك، قال: ﴿عَبۡدٗا مَّمۡلُوكٗا﴾ [النّحل: 75] وقد يُقال: فلانٌ جَوَادٌ بمملوكه، أي: بما يتملَّكه، والمِلكَةُ تختصُّ بمِلكِ العبيد، ويُقال: فلانٌ حسَنُ المِلكة، أي: الصُّنع إلى مماليكه، وخصَّ مِلك العبيد في القرآن باليمين، فقال: ﴿لِيَسۡتَـٔۡذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ﴾ [النّور: 58]، وقوله: ﴿أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۚ﴾ [النّساء: 3][2].

والمعنى: ما يملك من الجواري بقصد الخدمة، أو الوطء، وهنَّ ما ملكتموهن بالسبي في الجهاد في سبيل الله.

4) ﴿كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡۚ﴾: المعنى: وكتبَ عليكم هذا كتابًا، بمعنى: فَرَضَه، وقَضَى به، وقيل معناه: كتبَ اللهُ تحريمَ ما حرَّم عليكم مِن ذلك وتحليلَ ما حلَّل كتابًا[3].

5) ﴿وَأُحِلَّ لَكُم﴾: الحِلُّ: الإباحةُ والإذنُ والجَوازُ، وضدُّه: الحُرمَة والمَنع، يُقال: حَلَّ الشَّيءُ، يَحِلُّ، فهو حلالٌ، أي: صارَ مُباحًا مَأذونًا فيه بعدَما كان مَمنوعًا[4].

6) ﴿مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمۡ﴾: أي: أحلَّ اللهُ تعالى لكم نكاحَ ما سوى المُحرَّمات المذكورات مِنَ النِّساء في الآيات السَّابقة، انْفِرادًا وجَمْعًا[5].

(1) الرّاغب، المفردات: (نسي)، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (نسو).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (ملك).
(3) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 10/35، والخازن، لباب التّأويل: 1/361.
(4) الأزهري، تهذيب اللغة، والزّبيديّ، تاج العروس: (حلل).
(5) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 2/164، والآلوسي، روح المعاني: 3/6.

7) ﴿أَن تَبۡتَغُواْ﴾: الابتغاءُ: طَلَبُ الشَّيءِ، تقول: ابتَغَيتُ الشّيءَ، وبَغَيتُهُ، أَبغِيهِ بُغيَةً وابتِغاءً، أي: طَلَبتُهُ، والباغي: الطّالِبُ، وأَبغاهُ الشّيءَ: طَلَبَه له وأَعانَه على طَلَبِه، وقيل: الابتغاءُ هو الاجتهادُ في الطّلَب، وأَصلُه: الإرادةُ والقَصدُ، يُقالُ: ابتَغيتُ الأَجرَ في عملي، أي: قَصَدتُهُ، ويأتي بمعنى الاتِّخاذ، تقول: ابتَغيتُ البَيتَ سَكنًا لي، أي: اتّخَذتُهُ، ومن معانيه: الحاجَةُ والحِرصُ والرّغبَةُ[1].

والمعنى هنا: أن تطلبوا.

8) ﴿غَيۡرَ مُسَٰفِحِينَۚ﴾: جذر الكلمة (سَفَحَ)، يَدُلُّ عَلَى إِرَاقَةِ شَيْءٍ، يُقَالُ سَفَحَ الدَّمَ، إِذَا صَبَّهُ، وَالسِّفَاحُ: صَبُّ الْمَاءِ بِلَا عَقْدِ نِكَاحٍ، فَهُوَ كَالشَّيْءِ يُسْفَحُ ضَيَاعًا، والتَّسافُحُ والسِّفاح والمُسافحة: الزِّنَا والفُجورُ؛ وأَصل ذلك مِنَ الصَّبِّ، تَقولُ: سافَحته مُسافَحةً وسِفاحًا، وهو أَن تُقِيمَ امرأَةٌ مع رَجُلٍ على فُجورٍ مِن غير تَزويجٍ صحيحٍ؛ ويُقالُ لابن البغيِّ: ابنُ المُسافِحةِ، والمُسافِحة: الفاجِرَةُ؛ وقال تعالى: ﴿مُحۡصَنَٰتٍ غَيۡرَ مُسَٰفِحَٰتٍ﴾ [النّساء: 25][2].

والمعنى في الآية: عفيفين عن اقتراف الحرام.

9) ﴿ٱسۡتَمۡتَعۡتُم بِهِۦ﴾: الاستِمتاعُ: على وزن استِفعالٍ مِن استَمتَعَ بالشَّيءِ، وتَمَتَّعَ به، أي: تَبَلَّغَ به وانتَفَعَ، وأصلُ الكلمة يدُلُّ على مَنفَعَةٍ وامتدادِ مُدَّةٍ في خيرٍ، والمَتاعُ في الأصل: كُلُّ شيءٍ يُنتَفَعُ به، ويُتَبَلَّغُ به ويُتَزَوَّدُ، ويأتي الفَناءُ عليه في الدُّنيا[3].

والمعنى هنا: التمتعُ بالنِّساء بالنكاح الصحيح.

10) ﴿أُجُورَهُنَّ﴾: الأجرُ: العِوَضُ، مَصدَرُ أَجَرَهُ وآجَرَهُ يَأجُرُهُ ويَأجِرُهُ، وأَصلُه: الجَزاءُ على العمل، ومنه سُمِّيَ الثَّوابُ أَجرًا؛ لأَنّ اللّه يجزي العبد عليه[4].

والمعنى هنا: مهورهنَّ فيما يَعُمُّ الْمَالَ وَغَيْرَه[5].

11) ﴿فَرِيضَةٗۚ﴾: الفَرضُ: القَطعُ، ويأتي بمعنى الإلزام، فيُقال: فرَضَ عليه الأَمر، أي: أوجَبَه وأَلزَمَه به، ويأتي بمعنى التَّقدير[6].

---

(1) الخليل، العين: (بغي)، وابن فارس، مقاييس اللغة: (بغي)، وابن منظور، لسان العرب: (بغا).

(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (سفح).

(3) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (متع).

(4) ابن عبّاد، المحيط، وابن فارس، مقاييس اللغة: (أجر).

(5) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 5/133.

(6) الخليل، العين، والجوهريّ، الصّحاح، والزّبيديّ، تاج العروس: (فرض).

والمعنى هنا: فرضها الله لهنَّ.

12) ﴿فِيمَا تَرَٰضَيۡتُم بِهِۦ﴾: الرَّاء والضَّاد والحرف المُعتلُّ أَصلٌ واحدٌ يدُلُّ على خلاف السُّخط، تقول: رَضِيَ يَرضَى رِضًى، وهو راضٍ، ومَفعولُهُ مَرضِيٌّ عنه.

والتَّراضي: رِضا كُلٍّ مِن أَفراد جَماعَة بأمرٍ ما اتَّفَقوا معًا عليه[1].

والمعنى في الآية: فيما تمَّ التراضي به بينكم، من الزيادة أو النقصان في المَهْر.

13) ﴿عَلِيمًا﴾: العِلمُ: نقيضُ الجَهلِ، وعَلِم يَعْلَمُ عِلمًا، والعليم: فَعِيلٌ: مِن أَبنية المبالغة، وهو مِن أسماء الله ﷻ وصفاته، ومعناه: ذو العِلْم المطلق، والكامل، الذي لم يُسبَق بجهل، ولا يَلْحقُه نسيانٌ، فهو العالم الواسع المحيط بكل شيء جملةً، وتفصيلًا، سواء ما يتعلَّق بأفعاله، أو أفعال خَلْقه، فلا يخرج عن علمه مثقالُ ذرة في الأرض، ولا في السماء[2].

14) ﴿حَكِيمًا﴾: الحكمُ: القَضاءُ والفَصلُ، تقولُ: حَكَمتُ بينهما إذا قَضَيتَ، ويأتي الحُكمُ بمعنى: الشَّيءِ الحَسَنِ المُتقَنِ، والإحكامُ: الحُسنُ والإتقانُ، يُقال: أَحكَمتُ صُنعَ الشَّيءِ، أي: أَتقَنتُهُ، والحَكيمُ من أسماء الله وصفاته الحسنى، ومعناه: المُتقِنُ للأُمور، الموصوفُ بكمال الحِكْمة، وبكمال الحُكْم بين المخلوقات[3].

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

وحُرِّم عليكم نِكاحُ المُتزوِّجاتِ مِنَ النِّساء، إلَّا مَن سَبَيتُم منهنَّ في الجهاد، فإنَّه يَحِلُّ لكم نكاحهنَّ، بعد استبراء أرحامِهنَّ بحيضةٍ، كَتَبَ اللهُ عليكم تحريمَ نِكاحِ هؤلاء، وأجازَ لكم نكاحَ مَن سِواهنَّ، ممَّا أَحلَّه اللهُ لكم، أن تطلبوا بأموالكم العِفَّة عنِ اقتراف الحَرام، فما استمتعتم به منهنَّ بالنِّكاح الصَّحيح، فأعطوهنَّ مُهورهنَّ الَّتي فرضَ اللهُ لهنَّ عليكم، ولا إثمَ عليكم فيما تمَّ التَّراضي به بينكم مِنَ الزِّيادة أو النُّقصان في المَهر بعد ثبوت الفريضة.

إنَّ الله تعالى كانَ ذا عِلْمٍ كاملٍ تامٍّ بأُمور عباده، ذا إتقانٍ في أحكامِه وتدبيره[4].

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (رضي).
(2) الخطابي، شأن الدعاء ص: 57، والغزالي، المقصد الأسنى ص: 81، وابن منظور، لسان العرب: (علم).
(3) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (حكم)، وابن القيم، مدارج السالكين: 2/195.
(4) مجموعة من العلماء، التّفسير المُيَسَّر، ص: 82.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

سَبَبُ وَصْلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ بِمَا قَبْلَهُ:

اللَّفْظُ إِذَا تَعَدَّدَتْ مَعَانِيهِ؛ يَتَعَيَّنُ لِأَحَدِهَا بِالْقَرَائِنِ

المُراد بالمُحصناتِ في قَوْلِه تعَالَى: ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ ذواتُ الأَزواج، وهنَّ مُحرَّمات على كلِّ أحدٍ إلَّا على أزواجهنَّ؛ لذلك عُطِفنَ على المُحرّمات في الآية الَّتي قبلها، ولا يَصِحُّ حَمْلُ المُحْصَنَات في هذه الآية علَى الحَرائِر، ولا على المُسلِمات، ولا على العَفائف، وإن كان كلٌّ من هذه الثَّلاثِ يُطلق عليه وصفُ المحصنَات؛ وذلك لأنَّ حِلَّ نكاحِ الحرائر أو المسلمات أو العفيفاتِ أمرٌ متقرِّرٌ في الشَّرع إذا لم يمنَعْ من ذلك مانعٌ، فتعيَّن حَمْلُها على الوجْهِ الرَّابع؛ وهي ذاتُ الزَّوْجِ[1].

تَوْجِيهُ الْقِرَاءَاتِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ﴾:

التَّكَامُلُ الدِّلَالِيُّ بَيْنَ الْقِرَاءَاتِ الْقُرْآنِيَّةِ

قرأ الجُمْهُورُ ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ﴾ - سواء أكانت مُعرَّفة بِاللَّامِ أم مُنَكَّرة - بفتحِ الصَّاد، وقرأَهَا الكِسائيُّ بكَسرها في الجَمع، إلَّا قوله ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ في رأس الجزء هُنَا؛ فإنَّه وافقَ الْجُمْهُورَ[2].

فأمَّا الفتحُ؛ ففيه وجهان:

أَشهرُهما: أنَّه أَسندَ الإحصان إلى غيرهنَّ، وهو إمَّا الأَزواج أو الأَولياء، فإنَّ الزَّوج يُحصِنُ امرأتَه، أي: يُعِفُّها، والوليَّ يُحصِنُها بالتَّزويج أيضًا، واللّٰه يُحصِنُها بذلك.

والآخَرُ: أنَّ هذا مفتوح الصَّادِ بمنزلة مَكْسُورِهَا، أي: أنَّه اسمُ فاعل، وإنَّما شَذَّ فتحُ عَيْنِ اسم الفاعل في ثلاثة ألفاظ: أَحصَنَ فهو مُحصَن، وأَلقَح فهو مُلقَح، وأَسهَب فهو مُسهَب.

(1) الواحديّ، التّفسير البسيط: 6/434 - 435.

(2) البنَّا، إتحاف فضلاء البشر، ص: 239.

وأمَّا الكسر؛ فإنَّه أَسندَ الإحصان إليهنَّ؛ لأنَّهنَّ يُحصِنَّ أنفسهنّ بعفافهنَّ، أو يُحصِنَّ فُروجهنَّ بالحفظِ، أو يُحصِنَّ أَزواجهنَّ، وأمّا استثناء الكسائيِّ الّذي في رأس الجزء في هذه الآيةِ؛ فوجْهُهُ: "أنَّ المُراد بهنَّ المُزَوَّجات، فالمعنى: أنَّ أَزواجَهُنَّ أَحصنُوهنَّ، فهنَّ مَفعولاتٌ"[1].

والقراءَتانِ متكاملتَانِ؛ لأنَّ الزَّوجاتِ محصَناتٌ ومُحصِنَاتٌ، فلا تعارُضَ بين القراءتينِ.

سِرُّ اخْتِيَارِ لَفْظِ (الْمُحْصَنَات) فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ﴾:

في التّعبير عن المُتزوِّجَاتِ بالمُحصَنات في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ تَرْغِيبٌ لِلطّرفين في الزّواج؛ إذِ الزّواجُ هو طريق الإحصان للزّوجين معًا، وهذا ما أشارت إليه القِرَاءتَانِ بفَتْحِ الصّادِ في (المحصَنات) وكَسْرِهَا.

الـزَّوَاجُ طَرِيقٌ لِإِحْـصَـانِ الزَّوْجَيْنِ

فالمُحصَنُ: اسم مفعولٍ؛ مِن أَحصَنَ الشَّيءَ؛ إذا مَنعَهُ من الإضاعة واستيلاءِ غَيْرِهِ عليه، فالزَّوج يُحْصِن امرأته، أي: يَمنَعُها مِنَ الإهمال واعتداءِ الرِّجَال، ولا يُطلَق وصفُ المُحصَنَات إلَّا على الحرائر المُتزَوِّجات دُون الإمَاء؛ لعدم صيانتهنَّ في عُرف النَّاس قبلَ الإسلَام[2].

دِلَالَةُ الِاحْتِرَاسِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مِنَ ٱلنِّسَآءِ﴾:

لفظُ (المُحصَنات) قد يُرادُ به وصفُ الأَنفُسِ، أي: الأنفُس المحصَنَات، فتُقامُ الصِّفةُ مُقام الموصوفِ، وتكون عامَّةً للرِّجال والنِّساء، إلَّا أنَّ قولَهُ سُبحانَهُ: ﴿مِنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ يرفعُ هذا الاحتمالَ، فيكونُ احتراسًا جيءَ به لدفعِ توهُّمِ المعنَى غيرِ المرادِ.

لَفْظُ (الْمُحْصَنَاتِ) يَـقَـعُ وَصْـفًـا لِلنِّسَاءِ، وَيَقَعُ وَصْفًا لِلْأَنْفُسِ فَيَعُمُّ الرِّجَالَ وَالنِّسَاءَ

والدَّليلُ على أنَّهُ قَدْ يُرَادُ بِـ (المُحصنات) الأَنفس قوله ﴿وَٱلَّذِينَ

(1) الدّانّي، التّيسير، ص: 95، والسّمين، الدّرّ المصون: 3/646.

(2) ابنُ عاشور، التّحرير والتّنْوير: 18/158.

يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ﴾ [النُّور: 4]، فلو أُرِيدَ به النِّساء خاصَّةً لَمَا حُدَّ مَن قَذَفَ رَجُلًا بنصِّ القرآن، وأَجمعوا على أَنَّ حَدَّهُ بهذا النَّصِّ[1].

دِلَالَـةُ ﴿مَا﴾ فِي قَـوْلِـهِ: ﴿وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۖ﴾ ﴿وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمۡ﴾ ﴿فَمَا ٱسۡتَمۡتَعۡتُم بِهِۦ مِنۡهُنَّ﴾ ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ فِيمَا تَرَٰضَيۡتُم بِهِۦ مِنۢ بَعۡدِ ٱلۡفَرِيضَةِۚ﴾:

(مَـا) تَـدُلُّ عَـلَى الْـعُـمُـومِ؛ شَرْطِيَّةً كَانَتْ أَوْ مَوْصُولَةً

تكرَّرت (مَا) في أربعَة مَواضِع في قوله ﷻ: ﴿۞وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۖ كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡۚ وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمۡ أَن تَبۡتَغُواْ بِأَمۡوَٰلِكُم مُّحۡصِنِينَ غَيۡرَ مُسَٰفِحِينَۚ فَمَا ٱسۡتَمۡتَعۡتُم بِهِۦ مِنۡهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةٗۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ فِيمَا تَرَٰضَيۡتُم بِهِۦ مِنۢ بَعۡدِ ٱلۡفَرِيضَةِۚ﴾.

أَوَّلُهَا: في قولِه تعالى: ﴿إِلَّا مَا مَلَكَتۡ﴾ وهي اسمٌ موصولٌ، وهُوَ دالٌّ علَى العموم، فإنَّ مِلْكَ اليمينِ تحلُّ للمسلِمِ ولو كانت ذاتَ زوجٍ؛ لأنَّ سَبْيَهَا يُبْطِلُ نكاحهَا السَّابق.

ثَانِيها: في قوله تعالى: ﴿وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمۡ﴾، و﴿مَا﴾ هنا اسمٌ موصولٌ أيضًا، وهُوَ يُفيدُ العُموم؛ وهو عُمومٌ مَخْصُوصٌ؛ لورُودِ النَّهي في الشَّرْعِ عمَّا سِوَى المذكور، كالنَّهْيِ عَنِ الْجَمْعِ بينَ المَرْأَةِ وعمَّتها، والمرأةِ وخَالَتِهَا[2].

ثالثُهَا: في قوله تعالى: ﴿فَمَا ٱسۡتَمۡتَعۡتُم بِهِۦ﴾، و﴿مَا﴾ هُنَا يجوزُ أن تكون شرطيَّةً أو موصولة، وكلاهما يفيدُ العموم، وهذا العموم أُريدَ به الخُصوص؛ لأنَّه لا يُراد به جميع أفرادِه تناولًا وحكمًا؛ وإنَّما أُريدَ به بَعضُهَا؛ وهو الاستمتاع المأذونُ به شرعًا دونَ ما نُهِيَ عَنْهُ وَقْتًا أَوْ مَكَانًا.

رابُعهَا: في قولِه سُبحانَهُ: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ فِيمَا تَرَٰضَيۡتُم بِهِۦ

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/584، والسّمين، الدّرّ المصون: 3/648، وابن عادل، اللُّباب في علوم الكتاب: 6/299.
(2) الزّايديّ، صيغ العموم وأنواعه، ص: 169 - 329.

مِنۢ بَعۡدِ ٱلۡفَرِيضَةِۚ﴾، و﴿مَا﴾ هنَا اسمٌ موصولٌ، وهو دالٌّ على استغراقِ أفرادِ ما تراضَيَا عليه، مِنَ الحطِّ أو الزِّيادَةِ.

دِلَالَةُ حَرْفِ الْجَرِّ (الْبَاءِ) فِي قَوْلِهِ: ﴿أَن تَبۡتَغُواْ بِأَمۡوَٰلِكُم﴾ ﴿فَمَا ٱسۡتَمۡتَعۡتُم بِهِۦ مِنۡهُنَّ﴾ ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ فِيمَا تَرَٰضَيۡتُم بِهِۦ﴾:

ذُكِرَ حرفُ الجرِّ (الْبَاء) ثلَاثَ مرَّات في هذه الآية:

تَنَوُّعُ دِلَالَاتِ الْحُرُوفِ بِحَسَبِ سِيَاقَاتِهَا

أُولَاهَا: في قوله تعالى: ﴿بِأَمۡوَٰلِكُم﴾، وقَد دلَّتِ الباءُ على الاِسْتِعَانَةِ، وهيَ إحدَى مَعَانيه الأَصليَّة، والمعنى: فاستَعينوا بأموالكم الَّتي رزقكم اللّه تعالى إيَّاهَا على النِّكاحِ.

وثانيهَا: في قوله تعالى: ﴿فَمَا ٱسۡتَمۡتَعۡتُم بِهِۦ﴾، وقد أفادتِ الباءُ هنا معنَى السَّببيّةِ، أي: فآتُوهنَّ أُجورهنَّ من أَجله، أي: مِن أَجل ما اسۡتَمۡتَعۡتُم بِهِ[1].

وثالثُهَا: في قولِهِ تعالَى: ﴿فِيمَا تَرَٰضَيۡتُم بِهِۦ﴾، ودلَّ حرفُ الجرِّ فيه على معنى الاستعلاء الْمَجازيّ، أي: ما تراضيتم عليه، وَيَحْتَمِلُ فيه معنى السَّببيّة، أي: فيما تراضيتم بِسَبَبِهِ، والأوَّل أظهر.

وللمُتأمِّل أن يَلحظ أنّ معنى الإلصاق مُصاحبٌ تلكَ المعانيَ جميعَها، ولذا ذكرَ جماعةٌ من أهل العلمِ أنَّ الإلصاقَ معنًى لا يُفارقُ الباءَ، ولذا اقتصرَ سِيبَوَيْهِ عليه[2].

دِلَالَةُ الِاسْتِثْنَاءِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِلَّا مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۖ﴾:

سَبْيُ الْمَرْأَةِ الْكَافِرَةِ يُبْطِلُ نِكَاحَهَا السَّابِقَ

الاستثناءُ في قولِهِ تعَالَى: ﴿إِلَّا مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۖ﴾ استثناءٌ مُتَّصل؛ لأنَّ المستثنَى منه: نكاحُ المحصَنَاتِ وهُنَّ المتزوِّجَاتُ، والمستثنَى: هو جوازُ وطءِ مِلْكِ اليَمينِ، دون التَّعرُّضِ لحكم الزَّواجِ بهِنَّ، وإنَّما ذلك واردٌ في الآيةِ بعدهَا، وهي قوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمۡ

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/36.

(2) ابن هشام، مغني اللبيب، ص: 137، والبنَّاني، سورة النّساء دراسة بلاغيّة تحليليّة، ص: 179.

يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِۚ﴾، فكان الاستثناءُ في ﴿إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْۖ﴾ استثناءً منقطعًا، وقد صرَّحَ بذلك السَّمينُ الحلبيُّ[1].

إلَّا أنَّ هذا الاستثناءَ المنقَطِعَ فيه شائبةُ اتِّصالٍ؛ من جِهَةِ أنَّ المستثنَى في الآيةِ هُنَّ الإماءُ المتزوِّجَاتُ، فإنَّ السَّبْيَ يُبْطِلُ نكاحَ السَّابقَ، ويُجَوِّزُ لمن ملَكَهَا وَطؤُهَا بعد استبرائِهَا.

نُكْتَةُ الْمَجَازِ الْمُرْسَلِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْۖ﴾:

مِنْ أَنْوَاعِ التَّصَرُّفِ فِي الْإِمَاءِ جَوَازُ وَطْئِهَا مِنْ مَالِكِهَا

الْأَيمَان: جمعُ يَمِين، والمرادُ هي اليَدُ اليُمْنَى، وجعلُ الأيمانِ مالكةً في قولِه تعالى: ﴿إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْۖ﴾ مجازٌ مرسَلٌ، علاقتُه: الجزئيَّةُ؛ إذْ أُطْلِقَ الجُزْءُ وهو اليدُ وأُريدَ به الإنسانُ؛ إذْ هو الذي يُوصَفُ بالمِلْكِ، وإنَّما عُبِّر باليَمين؛ لأنَّ الغَالبَ في الأَخذِ والعطاءِ أنَّهُ يكُونُ بِهَا[2]، ففيه إشارةٌ إلى التَّصرُّفِ في المَمْلُوكِ بأنواعٍ مِنَ التَّصرُّفَاتِ.

دِلَالَةُ الْحَذْفِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْۚ﴾:

نِسْبَةُ التَّحْرِيمِ إِلَى اللهِ تَعَالَى تَوْثِيقٌ لَهُ وَتَوْكِيدٌ

في قول اللّهِ تعالَى: ﴿كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْۚ﴾ حذفٌ لِلْمُسنَدِ، وذلك أنَّ المُسندَ قد يُحذَفُ لِدِلَالَةِ السِّياق عليه مِنْ دُونِ قياسٍ خاصٍّ في النَّحو، والَّذي دلَّ على المُسْنَدِ المَحْذُوفِ في الآيةِ نصبُ كَلِمَةِ ﴿كِتَٰبَ﴾، فالعَامِلُ فِيهَا النَّصبُ محذوفٌ لفظًا، وفِي تَقْدِيرِهِ وَجْهَانِ، كلُّ واحدٍ مِنهما يُشير إلى مَعْنًى مُسْتَقِيمٍ:

أحدُهُمَا: أن يكون ﴿كِتَٰبَ﴾ مَصْدَرًا للفِعْلِ (كَتَبَ)، والمعنى: كتبَ اللّهُ تعالى التَّحريمَ كتابًا مفروضًا بأحكامِهِ عَلَيْكُم، فليس لكم أن تَتَخَلَّوا عنْهُ.

(1) السّمين، الدّرّ المصون: 3/647، والقنّوجيّ، فتح البيان: 3/80.

(2) ابن عثيمين، تفسير القرآن الكريم - تفسير سورة النّساء: 1/206.

والآخَرُ: أن يكونَ المُرادُ القرآنَ الكريمَ، والمعنى: الزَموا كتابَ اللّه الَّذي هو حُجَّة عليكم إلى يوم القيامة، وهو الَّذي بَيَّن شريعةَ تَحْرِيمِ المُحرَّمات فأطيعوه.

وَكِلَا التَّخريجين يُؤَدِّي إلى توثيق التَّحريم وتوكيدِهِ بِنِسْبَتِهِ إلى اللّهِ تَعَالَى، إمَّا باعتبارِهِ كَتَبَه وفَرَضَهُ، وإمَّا باعتبَار أنَّهُ نصَّ عليه في كِتَابِهِ، ولم يَتْرُكْ بَيَانَه لرَسُولٍ أَوْ نَبيٍّ[1].

تَوْجِيهُ الْقِرَاءَاتِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأُحِلَّ لَكُم﴾:

التَّكَامُلُ الدِّلَالِيُّ لِلْقِرَاءَاتِ الْقُرْآنِيَّةِ

قولُ اللّهِ تعالى: ﴿وَأُحِلَّ لَكُم﴾ معطوفٌ علَى قولِهِ قبلُ: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ﴾، ووُسِّطَ قولُهُ تَعَالَى: ﴿كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْۚ﴾ بينَهما؛ لقصد المُبَالَغَةِ في الحَمل على تَرْكِ المُحرَّمات المذكُورَة.

وقرأَ نافعٌ وابن كثيرٍ وأبو عمرٍو وابنُ عَامِرٍ وشعبةُ ويعقوبُ[2]: ﴿وَأُحِلَّ لَكُم﴾ بالبِنَاءِ للفَاعِلِ، والضَّميرُ المستترُ عائدٌ إلى الاسم الأحسَنِ ﴿ٱللَّهِ﴾ مِن قَوْلِهِ: ﴿كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْۚ﴾، وأُسنِدَ التَّحليلُ إلى اللّه تعالى إظهارًا للمنَّة، ولذلك خُولِفَ في طَرِيقَة إسنَادِ التَّحريم في قولِه: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ﴾؛ لأَنَّ في التَّحريم مَشَقَّةً؛ فليس المقامُ مَقَامَ منَّة.

وقرأَ حَمزَةُ والكسائيُّ وحَفصٌ عن عاصم وأَبو جعفَرٍ وخلفٌ البَزَّار: ﴿وَأُحِلَّ﴾ - بضمِّ الهمزة وكَسْرِ الحاء - على البناءِ للمفعولِ؛ مشاكلةً لِقولِهِ: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ﴾[3].

نُكْتَةُ الْمُقَابَلَةِ بَيْنَ قَوْلِهِ: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ﴾ وَقَوْلِهِ: ﴿وَأُحِلَّ لَكُم﴾:

أَحْكَامُ اللهِ تَعَالَى مُشْتَمِلَةٌ عَلَى مَصَالِحِ الْعِبَادِ

بينَ قولِ اللّه تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ﴾ وقولِه: ﴿وَأُحِلَّ لَكُم﴾ مقابلَةٌ مَعْنَيَيْنِ بِمَعْنَيَيْنِ؛ حيثُ قُوبِلَ بينَ فِعْلَي التّحريم وَالْحِلِّ، وقُوبِلَ

(1) سيبويه، الكتاب: 1/381، وابن السَّرَّاج، الأصول: 1/142، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 3/1638.
(2) ابن الجزري، النشر: 2/249، والبنَّا، إتحاف فضلاء البشر، ص: 239.
(3) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 2/146، والبروسوي، روح البيان: 2/188، وابنُ عاشور، التّحرير والتّنْوير: 5/7، وابن الجزري، النشر: 2/249.

بين الحرفَيْن: علَى واللَّام؛ فإنَّ في (عَلَى) معنَى المضرَّة، وفي اللَّام معنَى النَّفْع، والغرضُ مِن هذهِ المقابلَةِ بيانُ سعة رحمةِ اللّه تعالى، وعظَمَةِ شَرْعِهِ؛ إذ إنّ الأصل هو الحلال المباح، والتَّحريم طارئٌ، ولا يثبُتُ إلَّا بنصّ، كما ورد في المُحَرَّماتِ نِكَاحُهُنَّ.

وقد أشارتِ المقابلَةُ إلى أنَّ المَنْعَ مِن نِكَاح المحرّماتِ المذكورَاتِ إنَّما هُوَ لِمَصْلَحَةِ العبَادِ، ورَفْعِ الضَّرر عَنْهُم.

نُكْتَةُ المَجَازِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ﴾:

سَعَةُ المُبَاحِ فِي الشَّرِيعَةِ الإِسْلَامِيَّةِ

الوَرَاءُ في قوله تعالى: ﴿وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ﴾ بِمَعْنَى: غَيْر وَدُون، كقول النَّابغة[1]:

حَلَفْتُ فَلَمْ أَتْرُكْ لِنَفْسِكَ رِيبَةً *** ولَيسَ وَراءَ اللّه لِلمَرءِ مَذهَبُ

وهو مَجازٌ؛ لأَنَّ الوراءَ هو جهةُ ظَهرِ ما يُضافُ إليه، والكلامُ خرجَ مخرجَ التَّمثيلِ لحالِ المُخاطَبين بحال السَّائر يَترُكُ ما وراءَهُ ويتجاوَزُهُ، والمعنى: أَحَلَّ لَكُم مَا عدَا أُولئكُمُ المُحرَّمات[2]، وفيه إشعارٌ بسَعَةِ المبَاحِ.

نُكْتَةُ العُدُولِ عَنِ الضَّمِيرِ إِلَى اسْمِ الإِشَارَةِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ﴾:

الأَحْكَامُ الشَّرْعِيَّةُ قَدْ يَدُلُّ عَلَيْهَا القُرْآنُ الكَرِيمُ بِالعِبَارَةِ أَوْ بِالفَحْوَى

في قولِ اللّهِ تعالَى: ﴿مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ﴾ إشارةٌ إلى ما ذُكِرَ منَ المحرَّمات المعدودةِ، وإيثَارُ التَّعبير باسْم الإِشَارَةِ ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ على التَّعْبيرِ بالضَّمير، فلم يَرِد نظمُ القرآنُ: (وأُحِلَّ لكُمْ مَا وَرَاءَهُ)، وذلك لأَنَّ اسمَ الإشارَةِ يدلُّ على ذاتِ المُشَارِ إِلَيْهِ ووَصْفِه، بخلافِ الضَّميرِ فإنَّهُ يدلُّ على الذَّات فقط؛ وفي هذا تذكيرٌ بما في كُلِّ واحدةٍ من النِّساء المحرَّمات مِنَ الصِّفة الَّتي عليها يَدورُ حُكمُ الحُرْمَةِ؛ فيُفهم مُشَارَكَةُ مَن في معناهُنَّ لهنَّ فِيهَا بِطَرِيق الدِّلالة؛ كحُرمَةِ

(1) النّابغة الذّبيانّي، ديوان النَّابغة، ص: 72.

(2) ابنُ عاشور، التّحرير والتّنْوير: 5/8.

الجَمْعِ بينَ المرأَةِ وعَمَّتِها، وبينَ المرأةِ وخَالتِها، فإنَّها ليست بطريق العِبَارَةِ، بل بطريق الدِّلالة[1].

دِلَالَةُ التَّعْبِيرِ بِالْمَالِ مَجْمُوعًا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَن تَبْتَغُواْ بِأَمْوَٰلِكُم﴾:

الْأَصْلُ فِي الْمَهْرِ أَنْ يَكُونَ مَالًا

ذهَب بعضُ أهلِ العلم إلى أنَّ ذِكرَ الأَموالِ في قولِه تَعَالَى: ﴿أَن تَبْتَغُواْ بِأَمْوَٰلِكُم﴾ يُشْعِرُ بأنَّ غيرَ المَالِ لَا يَصلُحُ مَهرًا، وأنَّ القَليل لا يكفي مَهرًا، فإنَّ الدِّرهم ونحوه لا يُسمَّى مالًا، ثمَّ هو لا يكون أقلّ من عشَرة دراهم[2].

وهذا وإنْ كان يَحْتَمِلُه اللَّفْظُ، إلَّا أنَّه غيرُ مرادٍ ههنا؛ لأنَّ السُّنَّةَ دلَّت على أنَّ المهرَ قَدْ لا يكُونُ مالًا، وإنَّما هو منفعةٌ، كتعليمِ القرآن الكريم، إلَّا أن يُحْمَلَ لفظُ الآيَةِ على أنَّ الأصلَ في المهرِ أن يكونَ مالًا، وهو حقٌّ؛ لأنَّ النبيَّ ﷺ إنَّما أرشدَ الرَّجُلَ إلى جعلِ تعليمِ القرآنِ الكريمِ مهرًا عِنْدَ تعذُّرِ تحصيلِهِ المالَ[3].

والظَّاهِرُ أنَّ الجمْعَ يُرادُ به التَّوزيعُ على المخاطَبينَ؛ لأنّ لكلِّ مخاطَبٍ مالًا، لأنَّ الواوَ في ﴿تَبْتَغُواْ﴾ واوُ الجماعةِ، فناسبَ جمعُ المَالِ بعدها في ﴿بِأَمْوَٰلِكُم﴾؛ لأنَّ مقابلةَ الجمعِ بالجمعِ تقتضِي القسمَةَ آحادًا.

نُكْتَةُ الطِّبَاقِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ﴾:

مِنْ أَعْظَمِ مَقَاصِدِ النِّكَاحِ تَحْصِيلُ الْإِحْصَانِ

الطِّباقُ بينَ لَفْظَتَي ﴿مُّحْصِنِينَ﴾ و﴿مُسَٰفِحِينَ﴾ من قوله تعالى: ﴿مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ﴾ يدلُّ على أنَّ المُحصَنَ هُوَ الَّذي يمنعُ

(1) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 2/146.

(2) البروسوي، روح البيان: 2/188.

(3) عن سهلِ بن سعدٍ السَّاعديِّ رضي الله عنه «أَنَّ امْرَأَةً عَرَضَتْ نَفْسَهَا عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ الله زَوِّجْنِيهَا، فَقَالَ: "مَا عِنْدَكَ؟" قَالَ: مَا عِنْدِي شَيْءٌ، قَالَ: "اذْهَبْ فَالْتَمِسْ وَلَوْ خَاتَمًا مِنْ حَدِيدٍ"، فَذَهَبَ ثُمَّ رَجَعَ، فَقَالَ: لا وَالله مَا وَجَدْتُ شَيْئًا وَلاَ خَاتَمًا مِنْ حَدِيدٍ، وَلَكِنْ هَذَا إِزَارِي وَلَهَا نِصْفُهُ - قَالَ سَهْلٌ: وَمَا لَهُ رِدَاءٌ - فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: "وَمَا تَصْنَعُ بِإِزَارِكَ، إِنْ لَبِسْتَهُ لَمْ يَكُنْ عَلَيْهَا مِنْهُ شَيْءٌ، وَإِنْ لَبِسَتْهُ لَمْ يَكُنْ عَلَيْكَ مِنْهُ شَيْءٌ"، فَجَلَسَ الرَّجُلُ حَتَّى إِذَا طَالَ مَجْلِسُهُ قَامَ، فَرَآهُ النَّبِيُّ ﷺ فَدَعَاهُ - أَوْ دُعِيَ لَهُ - فَقَالَ لَهُ: "مَاذَا مَعَكَ مِنَ الْقُرْآنِ؟" فَقَالَ: مَعِي سُورَةُ كَذَا وَسُورَةُ كَذَا - لِسُوَرٍ يُعَدِّدُهَا - فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: "أَمْلَكْنَاكَهَا بِمَا مَعَكَ مِنَ الْقُرْآنِ"، البخاري، الحديث رقم: (5121)، ومسلم، الحديث رقم: (1425).

فَرجهُ، والمُسافحُ الَّذي يَبذله، وهو يُبْرِزُ المَعْنَى ويوضِّحه، مع ما فِيهِ مِنَ التَّأكيد[1]؛ بيانًا لحكمةٍ من حِكَمِ النِّكاحِ.

وقوله: ﴿مُّحْصِنِينَ﴾ حالٌ مِن فاعِلِ ﴿تَبْتَغُواْ﴾، أَي: مُحصنينَ أَنفُسَكم مِنَ الزِّنى، والمُرادُ مُتَزَوِّجينَ على الوَجهِ المَعروفِ، وقولُه: ﴿غَيْرَ مُسَٰفِحِينَۚ﴾ حالٌ ثانيةٌ[2].

سِرُّ التَّعْبِيرِ بِلَفْظِ السِّفَاحِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿غَيْرَ مُسَٰفِحِينَۚ﴾:

التَّرْغِيبُ فِي النِّكَاحِ، وَالتَّنْفِيرُ مِنَ السِّفَاحِ

السِّفاحُ هُوَ الزِّنى، وأصلُ السَّفحِ: الصَّبُّ، تقول العربُ: سَافحَ؛ أي: زَنَى وصَبَّ الماءَ باطلًا، بخلاف النِّكاحِ فإنَّ فيه مِن المقاصِد والحِكَمِ شيئًا كثيرًا؛ كَإقامة السُّنَّة، وتكثير عباد اللهِ الصَّالحين، وغيرِهما، ولذا لَمْ يكُنْ سِفاحًا.

فالسِّفاحُ ليسَ إلَّا قضاءُ الشَّهوة وصبُّ الماءِ باطِلًا، ولذَا سُمِّيَ بهذا الاسْمِ[3]، ومنْهُ: السِّفاح والمُسافحة؛ وهو الزِّنا والفجور؛ إذْ كلُّ واحدٍ مِنَ المتسافِحَيْنِ سفَحَ ماءَهُ، أي: دَفَقَهُ بلا حُرْمَةٍ أَبَاحَتْ دَفْقَهُ[4].

نُكْتَةُ التَّعْبِيرِ بِـ(مَا) دُونَ (مَنْ) فِي قوله تعالى: ﴿فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ مِنْهُنَّ﴾:

عَظَمَةُ الأَمَانَةِ فِي الزَّوَاجِ

جاءَ التَّعبيرُ بـ (مَا) دون (مَنْ) في قولِهِ تعالى: ﴿فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ مِنْهُنَّ﴾ لتفخيم أمْرِ الاسْتِمْتَاعِ، وفيه إشارةٌ إلى ما لَهُ مِن حقُوقٍ وما عليه مِن واجبات، وإيمَاءٌ إلى ما في المرأة مِن مُتعة فوقَ الاسْتِمْتَاع المعهودِ، فـ (مَا) اسمٌ موصولٌ لِغَيْرِ العاقل، مَعدولٌ به عن (مَن) الَّتي يقع في حَيِّزها ذَوُو العِلْمِ، وهُنَّ النِّساءُ المَرْغُوبُ في الزَّواج منهنَّ.

وفي اختيار النَّظم القرآنيّ لهذا الأُسلوب إعجازٌ مِن إعجازِهِ،

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/607، ومجموعة من الباحثين، المحرّر في التّفسير: 3/154.
(2) ابنُ عاشور، التّحرير والتّنْوير: 5/8.
(3) النّسفيّ، التّيسير في التّفسير: 4/501.
(4) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصَّل: (سفح).

فإنَّ الَّذي في كلمة (ما) من التَّجهيل والتَّفخيم ما يُلقي إلى شعور الرِّجال إحساسًا بعِظم الأَمانة الَّتي سَيَحمِلونها بهذا الزَّواج الَّذي هم مُقدِمون عليه، وبأنَّه نِعْمَة عَظِيمَة مِن نِعَم اللّه تعالَى[1].

دِلَالَةُ الِاسْتِمْتَاعِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ مِنْهُنَّ﴾:

حملَ بعض المُفسِّرين معنى الآية على نِكاح المُتعة، وأنَّ قولَه تعالى: ﴿فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ إشارةٌ إلى الثَّمن الَّذي يقدِّمه الرَّجل للمرأة في مُقابل الاستمتاع بها، والآية الكريمة في منطوقها لا تُعْطِي هذا المفهومَ، بالإضافةِ إلى أنَّهُ عُنصرٌ دخيلٌ على القضيَّة الَّتي أَمسكَ القرآنُ الكريم بِجَمِيعِ أَطْرَافِهَا هُنَا، وهي قضية (الزَّواج)، وما أحلَّ اللّه تعالى وما حرَّم على الرِّجال مِنَ النِّساء، فإنَّ السِّياقَ معيِّنٌ للمعاني مُبيِّنٌ لَهَا.

مَنْ أَخْرَجَ النَّصَّ عَنْ سِيَاقِهِ فَقَدْ غَلِطَ فِي نَظَرِهِ وَغَالَطَ فِي مُنَاظَرَتِهِ

وَفوقَ هذا فإنَّ هذا المفهومَ يُنَاقِضُ قولَه تعالى: ﴿فَرِيضَةً﴾ الَّذي هو وصفٌ مُلازمٌ لِلْمَهر الَّذي أشارَ إليه سُبحانه بقوله: ﴿فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً﴾.

كما أنَّه يُعارِضُ قولَه تعالى: ﴿مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَـٰفِحِينَ﴾؛ فإنَّ فيه إشارةً إلى كَوْنِ القَصد ليس مجرَّدَ قضَاءِ الشَّهوة، وحبِّ استفراغ المنيّ، وبناءً عليه فتَبْطُلُ إرادَةُ المُتعةِ بهذا القَيْدِ؛ لأنَّ مقصود المُتمتِّع ليس إلَّا ذاك مِن دُونِ التَّأهل والاسْتِيلَادِ وحماية النَّسب، كما أنَّ كلمة الاستمتاع تدلُّ على الوَطْءِ والدُّخول، وليس بمعنى المُتعَةِ الَّتي يقول بِهَا الشِّيعةُ[2]، وتحريمُ المُتْعَةِ بهذا المعْنَى معلومَةٌ أدلَّتُهُ في الشَّريعةِ[3].

---

(1) ابنُ عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 5/9، والخطيب، التَّفسير القرآنّي للقُرآن: 3/740.

(2) الخطيب، التَّفسير القرآنّي للقرآن: 3/740.

(3) عن علّي بن أبي طالب ﷺ أَنَّهُ قال: «نَهَى رَسُولُ اللهِ ﷺ عَنْ نِكَاحِ الْمُتْعَةِ، وَعَنْ لُحُومِ الْحُمُرِ الْأَهْلِيَّةِ يَوْمَ خَيْبَرَ»، البخاري، الحديث رقم: (5115)، ومسلم، الحديث رقم: (1407).

وروى مسلم في صحيحه، الحديث رقم: (1406) عن سَبْرَةَ بْنِ مَعْبَدٍ الجهنيّ أَنَّهُ كانَ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فقال: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِنِّي قَدْ كُنْتُ أَذِنْتُ لَكُمْ فِي الِاسْتِمْتَاعِ مِنَ النِّسَاءِ، وَإِنَّ اللهَ قَدْ حَرَّمَ ذَلِكَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، فَمَنْ كَانَ عِنْدَهُ مِنْهُنَّ شَيْءٌ فَلْيُخَلِّ سَبِيلَهُ، وَلَا تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا».

بَلَاغَةُ الِاسْتِعَارَةِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةٗ﴾:

لُـــزُومُ بَـــذْلِ الْمَـهْـرِ لِـلْـمَـرْأَةِ وَاسْتِحْقَاقُهَا لَهُ

في قولِ اللّه تعالى: ﴿فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةٗ﴾ استعارَةٌ؛ فقد استعِيرَ لفظُ الأُجور لِلْمُهور، بجامعِ وُقُوعِهِمَا بدلًا عنِ المنافعِ لا عنِ الأعيانِ[1]، وهي استعارةٌ تصريحيَّةٌ أصليَّةٌ، ونكتَتُها الإشعارُ بلزومِ المَهْرِ واستحقاقِ النِّساءِ لَهُ.

وقولُهُ: ﴿فَرِيضَةٗ﴾ حَالٌ مِن ﴿أُجُورَهُنَّ﴾، أَي: مَفروضةً، أَي: مُقَدَّرَةً بَيْنَكُم، والمَقصِدُ من ذلك قَطعُ الخُصومات في أَعظمِ معاملةٍ يُقصَدُ منها الوثاقُ وحُسنُ السُّمعَة[2].

بَرَاعَةُ التَّذْيِيلِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾:

وُجُوبُ التَّسْلِيمِ لِلشَّرْعِ الْمُنَزَّلِ، فَأَحْكَامُهُ عَيْنُ الْحِكْمَةِ

خُتِمَت هذه الآية بقوله سُبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾، وهو تذييلٌ جارٍ مجرَى المثَلِ؛ يُرادُ به بيانُ أنَّ ما شَرَّعه هو مُقتضى عِلمه الَّذي أَحاط بكلِّ شيءٍ، ومُقتضى حِكمته الَّتي تضع كلَّ شيءٍ في مَوضِعه، وهي مُقتضى جلالِهِ تبارك وتعالى، ومُقتضى أُلوهِيَّته، ولذا صُدِّرتْ جملةُ التَّذييلِ بالاسم الأحسن (اللّه).

وقد أكَّد اللّه سُبحانه وصفَه بالعِلم والحِكمة بـ﴿إِنَّ﴾، وبـ﴿كَانَ﴾ الدَّالة على الدَّوام والاستمرار، وفيه إعلامُ العبادِ بلازمِ وصفي اللّه تعالى بالعِلْم والحِكْمَة، وهو التَّسليمُ لأوامر اللّه تعالى ونواهيه؛ إذِ الحكمَةُ ثَمَّ[3].

الْفُرُوقُ الْمُعْجَمِيَّةُ:

خلف ووراء:

الخَلفُ: كلُّ شَيءٍ يَجِيءُ بعد شَيءٍ فهو خَلفُه، وهو مقيَّدٌ بهذا المعنى، والوراء: بالمدِّ: اسم لِمَا توارى عنك، أَي: استتر، فالقُدَّام والخلف مُتوارٍ عنك.

(1) القنّوجيّ، فتح البيان: 3/83.
(2) ابنُ عاشور، التّحرير والتّنْوير: 5/9.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 3/1643.

قال هُدْبةُ بن خشرم[1]:

عسى الكَربُ الَّذي أَمسَيتُ فيه *** يكونُ وَراءه فَرَجٌ قَريبُ

وكلُّ ما كانَ خَلفًا يجوزُ أَن يَنقَلِب قُدَّامًا وبالعكس؛ لأَنَّك مُستَقبل المُستَقبل ومُستدبِر الماضي.

و(وَرَاء) يَصلح لمَا قبله ولمَا بعده لا لأَنَّه وضع لكلٍّ منهما على حدة، بل لأَن معناه ما توارى عنك، أَي: استتر، وهو موجود فيهما، وأساسُ استعمالها بمعنى (بعد) و(غير) أنه إذا كان المقصود على مسافة مكانية أو زمانية تقع أو تأتي بعد الموقع، أو الآن الحالي، بحيث لا يُعايَنُ فإنه يكون مستترًا غائبًا، ومن هذا الاستتار يكون مثل الذي هو خلف شيء، ويكون مغايرًا، لأنه ليس هو، وبمجمل هذا قال المفسرون[2].

وممَّا تقدَّم يتوضَّح أن استعمال لفظ (وراء) في الآية الكريمة قد صوّر معنى دقيقًا لسياق الآيات ذات الصّلة بالموضوع.

الرَّغبة والابتغاء:

الابتغاءُ مصدرُ قولهم: ابتَغَى الشَّيءَ بمعنى طَلَبَهُ، ويُقالُ أيضًا: بَغَى الرَّجلُ حاجَتَهُ أو ضَالَّتَهُ إذا طلبَها، والبُغية: الطُّلبة، والابتغاء: الاجتهاد في الطَّلب، أو هو الاشتدادُ في طَلَب شيءٍ ما، وأَصلُه مُطلَق الطَّلب والإرادة.

أمَّا أصلُ الرَّغبَة فهو السَّعة في الشَّيء مُطلَقًا، وأنَّ الرَّغب والرَّغبة والرَّغبى: السَّعة في الإرادة، والرَّغيبة: العطاء الكثير؛ إمَّا لكونه مرغوبًا فيه، وإمَّا لسَعته.

والرَّغبة أيضًا: السُّؤال والطَّمع.

وبالنّظر في كلا التعريفين بينَ الرَّغبة والابتغاء يتَّضح أنَّهما مُتقاربان من حيث الدّلالة، بيدَ أنَّه يُلحظ في الرَّغبة معنى الحرص، وفي الابتغاء معنى الشِّدَّة والاجتهاد، وهذا ما ناسب استعماله في الآية الكريمة، وكلاهُما قد يُستعمل - في بعض السِّياقات - استعمال الآخر[3].

---

(1) سيبويه، الكتاب: 3/159.

(2) الكفويّ، الكلّيّات، ص: 414 - 419، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (ورى).

(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب الأصفهانّي، المفردات: (رغب)، (بغي)، وعدد من المختصين، نضرة النّعيم في مكارم أخلاق الرّسول الكريم: 6/2126.

البغاء والزِّنى والسِّفاح:

البِغاء هو الفُجور، من بَغَى في الأرض، أي: فجَرَ فيها، وهو تجاوُزٌ إلى ما ليس له، ﴿۞إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوۡمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيۡهِمۡۖ﴾ [القصص: 76]؛ لذا يُقال للمرأة: بَغِيٌّ ولا يُقال للرَّجل: بَغِيٌّ، ﴿يَٰٓأُخۡتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمۡرَأَ سَوۡءٖ وَمَا كَانَتۡ أُمُّكِ بَغِيّٗا ٢٨﴾ [مريم: 28]، ولا يُوصف الرَّجل بالبغيِّ في الزِّنى، فالبِغاء للمرأة وحدها، قال ﷻ: ﴿وَلَا تُكۡرِهُواْ فَتَيَٰتِكُمۡ عَلَى ٱلۡبِغَآءِ إِنۡ أَرَدۡنَ تَحَصُّنٗا﴾ [النور: 33]، واشتقاقه اللَّفظيّ من بغَتِ المرأة إذا فجَرَت؛ لأنَّها تجاوزت ما ليس لها.

والزِّنى هو الوَطء من غير عَقدٍ شرعيٍّ، والبغاء استمراءُ الزِّنى، فيصير فجورًا.

أمَّا المُسافحة والسِّفاح يَدُلُّ عَلَى إِرَاقَةِ شَيْءٍ، يُقَالُ سَفَحَ الدَّمَ، إِذَا صَبَّهُ، وَالسِّفَاحُ: صَبُّ الْمَاءِ بِلَا عَقْدِ نِكَاحٍ، فَهُوَ كَالشَّيْءِ يُسْفَحُ ضَيَاعًا، وهو أن تُقيمَ امرأةٌ مع رَجُلٍ على فُجورٍ مِن غير تَزويجٍ صحيحٍ؛ ويُقالُ لابن البغيِّ: ابنُ المُسافِحة، والمُسافِحة: الفاجِرَةُ؛ وقال تعالى: ﴿مُحۡصَنَٰتٍ غَيۡرَ مُسَٰفِحَٰتٖ﴾ [النّساء: 25]، وهذا من أشدِّ صور حدوث الفاحشة، والزِّنى مُشترك بين هذه الثَّلاث، وهو أقلّها[1].

الإيتاء والإعطاء:

الإيتاءُ أَقوى مِنَ الإعطاء في إثبات مفعوله؛ لأنَّ الإعطاءَ له مُطاوِعٌ بخلاف الإيتاء، تقولُ: أَعطاني فعطوت، ولا يُقالُ: آتاني فأتيت، وإنَّما يُقالُ آتاني فأَخَذتُ، والفعلُ الَّذي له مُطاوِعٌ أَضعفُ في إثباتِ مفعوله ممَّا لا مُطاوِعَ له؛ لأنَّك تقولُ: قَطَعته فانقَطَعَ، فيدلُّ على أَنَّ فِعلَ الفاعِلِ كان مَوقوفًا على قبول المَحلِّ، لولاه ما ثَبَتَ المَفعولُ، ولهذا لا يصحُّ قَطَعته فما انقَطَعَ، ولا يصحُّ فيما لا مُطاوعَ له ذلك؛ ودليل ذلك في مَواضِع مِنَ القرآن، قال تعالى: ﴿تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ مَن تَشَآءُ﴾ [آل عمران: 26]؛ لأنَّ المُلكَ شيءٌ عظيمٌ لا يُعطاهُ إلَّا مَن له قوَّةٌ؛ وقال: ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ١﴾ [الكوثر: 1]؛ لأنَّه مورود في المَوقفِ مُرتَحَلٌ عنه إلى الجنَّة.

وذهب الزَّبيديّ إلى أنَّ الإعطاءَ أَقوى مِنَ الإيتاء؛ ولذا خصَّ في دفعِ الصَّدقاتِ الإيتاء ليكون ذلك بسهولةٍ من غير تَطَلُّعٍ إلى ما يَدفعه.

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (سفح)، (زنى)، ومحاضرة للدّكتور فاضل صالح السَّامرائيّ، بتصرف.

وتأَمَّل سائرَ ما وَرَدَ في القرآن تجد معنى ذلك فيه، والكوثرُ لمَّا كان عظيمًا شأْنُهُ غير داخلٍ في حيطةِ قُدرَةٍ بشريَّةٍ استُعمِل الإعطاءُ فيه، وكلامُ الأئمَّة وسياقُهم في الإيتاء لا يُخالِفُ ما ذَكَرنا[1].

ولذلك كان الإيتاء أنسب في مقام إيتاء مهر المرأة؛ لأنّه أقوى في إثبات المفعول، وينبغي أن يُخرِج حقَّها من دون تعسُّفٍ أو مماطلة.

الثَّواب والأَجر:

الأَجرُ يكونُ قبل الفعل المأْجُور عليه، والشَّاهد أَنَّك تقول: ما أَعمل حتَّى آخذ أَجري، ولا تقول لا أعمل حتَّى آخذ ثوابي؛ لأَنَّ الثَّواب لا يكون إلَّا بعد العمل، هذا على أَنّ الأجر لا يستَحقُّ له إلَّا بعد العمل كالثَّواب، إلَّا أَنَّ الاستعمال يجري بما ذكرناه، وأَيضًا فإنَّ الثَّواب قد شُهر في الجزاء على الحسنات، والأَجر يُقال في هذا المعنى، ويُقال على معنى الأجرة الَّتي هي من طريق المثامنة بأَدنى الأَثمان، وفيها معنى المُعاوضة بالانتفاع[2].

وناسب في الآية الكريمة استخدام الأجر مكان المَهر؛ لكونه مقابل استمتاع الزوج بامرأته.

العليم والخبير:

العَليمُ: هو العالمُ بالسَّرائر والخَفيَّات الّتي لا يُدرِكُها عِلمُ الخَلقِ، كقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝٥﴾ [هود: 5]، وجاء على بناء فعيلٍ للمبالغة في وصفه بكمال العلم، ولذلك قال سُبحانه: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ۝٧٦﴾ [يُوسُف: 76]، والآدميُّونَ - وإن كانوا يُوصَفونَ بالعِلم - فإن ذلك يَنصَرِفُ منهم إلى نوع مِنَ المعلومات من دون نوع، وعِلمُ اللّه سبحانه عِلمُ حَقيقَةٍ، وكمالٍ ﴿قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًا ۝١٢﴾ [الطلاق: 12]، ﴿وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَىْءٍ عَدَدًا ۝٢٨﴾ [الجنّ: 28].

والخبير: هو العَالِمُ بكُنه الشَّيء، المُطَّلِعُ على حَقيقته، كقوله تعالى: ﴿فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ۝٥٩﴾ [الفرقان: 59]، يُقالُ: فلان بهذا الأمرِ خبيرٌ؛ وله به خبرٌ، وهو أخبَرُ به مِن فلانٍ؛ أي: أعلَمُ، إلَّا أنّ الخُبرَ في صفة المَخلوقينَ إنَّما يُستَعمَلُ في نوع العِلمِ الَّذي يدخله الاختبارُ، ويُتَوَصَّلُ إليه بالامتحان، والاجتهاد، أمَّا اللّه تعالى الخبيرُ فهو الذي أحاط علمه ببواطن الأشياء، وخفاياها كما أحاط بظواهره[3].

---

(1) الزّبيديّ، تاج العروس: (أتي).

(2) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 237.

(3) الخطابي، شأن الدّعاء: 1/57 - 63، ابن القيم، الصواعق المرسلة: 2/492.

الحكيم والعَالِم:

يردُ معنى الحكيم على ثلاثة أَوجهٍ، أحدها: بمعنى المُحكِم، مثل: البديع بمعنى المُبدِع، والسَّميع بمعنى المُسمِع، والثّاني: بمعنى مُحكم، وفي القرآن المجيد: ﴿فِيهَا يُفۡرَقُ كُلُّ أَمۡرٍ حَكِيمٍ ۝٤﴾ [الدّخان: 4]، أي: مُحكم، وإذا وصف اللّه تعالى بالحكمة من هذا الوجه كان ذلك مِن صفات فعله، والثَّالث: الحَكيم بمعنى العالِم بأحكام الأمور، فالصّفة به أَخصُّ مِن الصّفة بعالِم، وإذا وصف اللّه به على هذا الوجه فهو من صفات ذاته، الدَّالَّةِ على كمال الحكمة، وكمال الحكم بين المخلوقات[1].

المعرفة والعلم:

المعرفة: العلم المُتعلِّق بالمفردات، ويسبقه الجهل، ولذا لم يوصف اللّه تعالى بالمعرفة[2]، ثمّ قد يتجاوَز عن قيد الملامح المحدّدة، وقد يكون الظّاهر عزيزًا، أو رموزًا، أو يوصل منه إلى ما هو أعمق، أمّا العلم فأحكام تتكوّن في القلب من روافد وأسباب محدَّدة ﴿فَلَعَرَفۡتَهُم بِسِيمَٰهُمۡۚ وَلَتَعۡرِفَنَّهُمۡ فِي لَحۡنِ ٱلۡقَوۡلِۚ﴾ [محمّد: 30]، ﴿فَدَخَلُواْ عَلَيۡهِ فَعَرَفَهُمۡ وَهُمۡ لَهُۥ مُنكِرُونَ ۝٥٨﴾ [يوسف: 58]، يُلحظ أنّها معرفةٌ بالسِّيما والملامح، ولحن القولِ الذي يُؤخَذ من الألفاظ المسموعة، و"التّعريف: إنشاد الضّالّة"؛ لأنّه يعرّف بصفاتها الظّاهرة[3].

(1) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 96، وابن القيم، مدارج السالكين: 2/195.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 1/466.
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصَّل: (عرف).

﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِكُم ۚ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ مُحْصَنَٰتٍ غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ ۚ فَإِذَآ أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَٰحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَٰتِ مِنَ ٱلْعَذَابِ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ ٱلْعَنَتَ مِنكُمْ ۚ وَأَن تَصْبِرُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٥﴾﴾ [النِّساء: 25]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

ذِكْرُ ما يَحِلُّ مِنَ النِّساءِ في حالٍ، ويَحْرُمُ في حالٍ بَعْدَ ذِكْرِ المُحَرَّماتِ مِنَ النِّساءِ

لَمَّا بَيَّنَ اللهُ ﷻ مَنْ يَحِلُّ ومَنْ لا يَحِلُّ مِنَ النِّساءِ، وأَتْبَعَهُ تَعْليمَ الحِكْمَةِ في نِكاحِ الإِماءِ؛ شَرَعَ في ذِكْرِ ما يَحِلُّ في حالٍ، ويَحْرُمُ في حالٍ أخرى، وعلى أَيِّ وجْهٍ يَكونُ حلالًا[1]؛ فَقال مُبَيِّنًا ذلكَ كُلَّهُ: ﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا﴾، وكَأَنَّ سائِلًا سَأَلَ: هذا حُكْمُ مَنِ اسْتَطاعَ نِكاحَ حُرَّةٍ، فما حُكْمُ مَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ؟ فَجاءَهُ تَفْصيلُ الجَوابِ.

وفي ذِكْرِ الإِحْصانِ، والتَّنْويهِ بِشَأْنِ العَفافِ، وتَقْبيحِ السِّفاحِ في الآيَةِ السَّابِقَةِ: ﴿مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ ۚ﴾، مناسبةٌ مع قَوْلِهِ في هذه الآيةِ: ﴿مُحْصَنَٰتٍ غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ ۚ﴾، ويظهرُ التَّناسب - أيضًا - في تأْكيدِ وُجوبِ المَهْرِ للحَرائِرِ والإِماءِ عَلى السَّواءِ في قَوْلِهِ ﷻ: ﴿وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾، وقَوْلِهِ: ﴿فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾؛ وفي قَوْلِهِ في الآيَةِ الرَّابِعَةِ مِنْ هذِهِ السُّورَةِ: ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحْلَةً ۚ﴾.

ومن ناحية أخرى: يتجلَّى التَّناسُبُ بَيْنَ قَوْلِهِ: ﴿بَعْضُكُم مِّنۢ

(1) الرازي، مفاتيح الغيب: 10/57، والبِقاعيُّ، نَظْمُ الدُّرَرِ: 5/235، والسُّيوطيُّ، قَطْفُ الأَزْهارِ في كَشْفِ الأَسْرارِ، ص: 697.

بَعْضٍۖ﴾، وَقَوْلِهِ في مَطْلَعِ السُّورَةِ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ [النِّساء: 1] فجَميعُكُمْ تَرْجِعونَ في أَصْلِ نَشْأَتِكِمْ إلى آدَمَ وحَوَّاءَ[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿طَوْلًا﴾: طالَ يَطولُ طَوْلًا في الإِفْضالِ والقُدْرَةِ[2]، وأَصْلُ الطَّوْلِ: يَدُلُّ على فَضْلٍ وامْتِدادٍ في الشَّيْءِ[3]، والطَّوْلُ: القُدْرَةُ والفَضْلُ والسَّعَة، وَفُلانٌ ذو طَوْلٍ، أَيْ: ذو قُدْرَةٍ، ولِفُلانٍ على فُلانٍ طَوْلٌ، أَيْ: فَضْلٌ، والمُرادُ هاهُنا: السَّعَةُ في المالِ، والقُدْرَةُ على المَهْرِ والنَّفَقَةِ[4].

2) ﴿يَنكِحَ﴾: نكحَ فلانٌ امرأَةً يَنكِحُها نِكاحًا؛ إذا تزوَّجَها[5]، والنَّكْحُ: البُضْعُ[6]، والنِّكاح: كِنَايَة عَن الجِمَاع[7]، والمعنى هنا: أن يتزوَّج[8].

3) ﴿ٱلْمُحْصَنَٰتِ﴾: أَصْلُ الإِحْصانِ: الحِفْظُ، والحِياطَةُ، والمَنْعُ، ومِنْهُ الحِصْنُ؛ لِأَنَّهُ يُمْتَنَعُ بِهِ[9]، وحَصُنَتِ المَرْأَةُ تَحْصُنُ؛ إذا عَفَّتْ عَن الرِّيبَةِ فَهِيَ حَصانٌ[10]، والمُحْصَنَةُ: الَّتي حَصُنَتْ بِالتَّزْويجِ، فَالمَرْأَةُ مُحْصَنَةٌ بِالعَفافِ والحُرِيَّةِ، مُحْصَنَةٌ بِالتَّزْويجِ، والمراد هنا: النِّساءُ االحَرائِرُ العَفيفاتُ.

4) ﴿مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم﴾: مِلْكُ اليَمينِ يُطْلَقُ، ويُرادُ بِهِ: الأَمَةُ والعَبْدُ المَملوكانِ، ولَا يُطْلَقُ على غَيْرِ ذَلك[11]، والمُرادُ بِهِ هنا: الإِمَاءُ اللَّاتي مَلَكْتُموهُنَّ بالسَّبْيِ[12]، أو انتقلَ مِلكُهنَّ إليكم أبًا عن جدٍّ.

---

(1) عَبْدُ اللهِ الغُماريُّ، جَواهِرُ البيانِ في تَنَاسُبِ سُوَرِ القُرآنِ، ص: 29.
(2) القُرْطُبيُّ، الجامع لأحكام القرآن: 6/225.
(3) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة: (طول).
(4) الراغب، المفردات: (طول)، والقُرْطُبيُّ، الجامع لأحكام القرآن: 6/225.
(5) الأزهري، تهذيب اللغة: (نكح).
(6) ابْنُ عَبَّادٍ، المُحيطُ في اللُّغَة: (نكح).
(7) ابْنُ دُرَيْدٍ، جَمْهَرَةُ اللُّغَة: (نكح).
(8) الأزهري، تهذيب اللغة، والزَّبيديُّ، تاجُ العَروس: (عنت).
(9) السَّمينُ الحَلَبيُّ، عُمْدَةُ الحُفَّاظ: (حصن).
(10) الأزهري، تهذيب اللغة، وابْنُ مَنْظورٍ، لسان العرب: (حصن).
(11) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 188.
(12) أَبو الحَسَنِ الغَزْنَويُّ، باهِرُ البُرهانِ في مَعاني مُشْكِلاتِ القُرْآنِ: 1/361.

5) ﴿فَتَيَٰتِكُمُ﴾: الفَتى: الطَّريُّ والكَريمُ مِنَ الشُّبَّانِ، والأُنْثى فَتاةٌ، يُقالُ: فَتِيٌّ بَيِّنُ الفَتاءِ، أَيْ: طَرِيُّ السِّنِّ، ويُعَبَّرُ بِالفَتى والفَتاةِ عَنِ العَبْدِ والأَمَةِ[1]، ومَعْنى فَتَياتِكُمْ هنا: إماؤكُمْ وجواريكم.

6) ﴿أُجُورَهُنَّ﴾: أَجَرَه يَأْجُرُهُ؛ إذا جَزاهُ، وأَثابَهُ، وأَعْطاهُ[2]، مُقابِلَ المَنْفَعَةِ المَعْقودِ عَلَيْها[3]، وأَصْلُ الأَجْرِ: الكِراءُ على العَمَلِ[4]، فَهُوَ جَزاءُ العَمَلِ[5]، ويُطلَقُ الأَجْرُ، ويراد به: الثَّوابُ، وَبَدَلُ المَنْفَعَةِ، وَالمَهْرُ، وهُوَ هنا: المَهْرُ والعِوَضُ الَّذي يَدْفَعُهُ الزَّوْجُ لِزَوْجَتِهِ.

7) ﴿مُسَٰفِحَٰتٍ﴾: مِنْ سافَحَ مُسافَحَةً وسِفاحًا، وأَصْلُ السَّفْحِ: الصَّبُّ وإراقَةُ الشَّيْءِ[6]، والسِّفاحُ: الزِّنى والفُجورُ؛ وسُمِّي الزِّنى: سِفاحًا؛ لِأَنَّهُ كانَ عَنْ غَيْرِ عَقْدٍ، كَأَنَّهُ بِمَنْزِلَةِ الماءِ المَسْفوحِ الَّذي لا يَحْبِسُهُ شَيْءٌ، وَكانَ أهل الْجاهِلِيَّةِ إذا خطب الرَّجُل المرأةَ؛ قالَ: أنكحِيني، فَإذا أَرادَ الزِّنى؛ قالَ: سافِحِيني[7]، والمُسافِحَةُ: المرأةُ الفاجِرَةُ الَّتي لا تَمْتَنِعُ عَنِ الزِّنى.

8) ﴿أَخْدَانٍ﴾: جَمْعُ خِدْنٍ، يُقالُ: خِدْنُ المَرْأَةِ وخَدينُها، وأَصْلُ المُخادَنَةِ: مُصاحَبَةٌ خاصَّةٌ[8]؛ إذْ هِيَ عَلاقَةٌ مُتَغَلْغِلَةٌ في الظَّاهِرِ والباطِنِ مَعَ تَخَفٍّ وسِرِّيَّةٍ[9]، وأَكْثَرُ ما يُسْتَعْمَلُ فيمَا يُصاحِبُ شَهْوَةً[10]، والمعنى هنا: أَصْدِقاء وَأَخِلَّاء، أو زَوانٍ سِرًّا[11].

9) ﴿ٱلْعَنَتَ﴾: عَنِتَ فُلانٌ يَعْنَتُ عَنَتًا؛ إذا وَقَعَ في أَمْرٍ يَخافُ مِنْهُ التَّلَفَ، وأَصْلُ العَنَتِ: المَشَقَّةُ[12]، ويُطْلَقُ العَنَتُ، ويُرادُ بِهِ: الهَلاكُ والمَشَقَّةُ الشَّديدَةُ والإِثْمُ[13]، والمَعْنى هنا: الوُقوعُ في الزِّنى الموجِبِ لِلحَدِّ في الدُّنْيا والعَذابِ في الآخِرَةِ.

---

(1) ابْنُ مَنْظورٍ، لِسانُ العَرَبِ: (فتا)، والسَّمينُ الحَلَبيُّ، عُمْدَةُ الحُفَّاظ، والراغب، المفردات: (فتى).
(2) الزَّبيديُّ، تاجُ العَروس: (أَجَرَ).
(3) عَبْدُ الوَهَّابِ البَغْداديُّ، التَّلْقينُ في الفِقْهِ المالِكيِّ: 2/158.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أَجَرَ).
(5) الخليل، العين: (أجر).
(6) ابْنُ فارِسٍ، مَقاييسُ اللُّغَةِ، وابْنُ مَنْظورٍ، لِسانُ العَرَبِ: (سفح).
(7) الأزهري، تهذيب اللغة: (أَبْوابُ الحاءِ والسِّينِ) (سفح).
(8) ابن فارس، مقاييس اللغة: (خدن).
(9) الخليل، العَيْنُ: (بابُ الخاءِ والدَّالِ والنُّونِ)، وجبل، المُعْجَمُ الاشْتِقاقيُّ المُؤَصَّل: (خدن).
(10) الرَّاغِبُ، المُفْرَداتُ: (خدن).
(11) ابْنُ الهائِمِ، التِّبْيانُ في تَفْسيرِ غَريبِ القُرْآنِ، ص: 138.
(12) الخليل، العَيْن: (بابُ العَيْنِ والتَّاءِ والنُّونِ)، وابن فارس، مقاييس اللغة: (عنت).
(13) الأزهري، تهذيب اللغة: (بابُ العَيْنِ والتَّاءِ مَعَ النُّونِ)، (عتن)، والجَوْهَريُّ، الصِّحاحُ: (عنت).

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

إباحةُ الزَّواجِ مِنَ الإِماءِ المؤمنات؛ لِمَنْ لَمْ يَجِدْ مَهْرَ الـحُـرَّةِ؛ خوفًا مـن الـوقـوعِ في الزِّنى

نَبَّهَ اللهُ ﷻ في هذِهِ الآيَةِ الكَريمَةِ إلى تَخْفيفِ أَعْباءِ النِّكاحِ على مَنْ لَمْ يَجِدْ سَعَةً للاقتران بِالحَرائِرِ مِنَ النِّساءِ، فشَرَعَ لَهُ نِكاحَ الإِماءِ المَمْلوكاتِ؛ إنْ كُنَّ مُؤْمِناتٍ، وتبدو عليهنَّ علاماتُ الإيمان وأماراتُه فيما يَظْهَرُ، واللهُ هو العليم بِحَقيقَةِ إيمانِكُمْ وبَواطِنِ أَحْوالِكُمْ، فَكُلُّكُمْ مِنْ نَفْسٍ واحِدَةٍ، فَأَنْتُمْ وهُنَّ سَواءٌ في الدِّينِ والإِنْسانيَّةِ، فلا تَسْتَنْكِفوا عَنِ الزَّواجِ مِنْهُنَّ، فَرُبَّما كانَ إيمانُ أَمَةٍ أَفْضَلَ مِنْ إيمانِ بَعْضِ الحَرائِرِ[1]، والزَّواجُ منهنَّ يكونُ بِإِذْنِ مالِكيهِنَّ، وآتوهُنَّ مُهورَهُنَّ حَسَبَ المَعْهودِ بَيْنَكُمْ في حُسْنِ التَّعامُلِ، وَتَوْفِيَةِ الحَقِّ دونَ نَقْصٍ أَوْ مُماطَلَةٍ، هذا إنْ كُنَّ عَفيفاتٍ غَيْرَ زانياتٍ، ولا مُتَّخِذاتٍ أَخِلَّاءَ للزِّنى بِهِنَّ سِرًّا، فَإِذا تَزَوَّجْنَ، ثُمَّ ارْتَكَبْنَ فاحِشَةَ الزِّنى؛ فَحَدُّهُنَّ نِصْفُ عُقوبَةِ الحَرائِرِ: خَمْسونَ جَلْدَةً، بِخِلافِ المُحْصَناتِ مِنَ الحَرائِرِ؛ إذا زَنَيْنَ.

ثمّ أَوْضَحَ - جلَّ شأنُهُ - أنَّ ذَلِكَ المَذْكورَ مِنْ إباحَةِ نِكاحِ الإِماءِ المُؤْمِناتِ العَفيفاتِ رُخْصَةٌ لِمَنْ خافَ على نَفْسِهِ الوُقوعَ في الزِّنى، ولَمْ يَقْدِرْ على الزَّواجِ مِنَ الحَرائِرِ، على أَنَّ الصَّبْرَ عَنْ نِكاحِ الإِماءِ مع العِفَّةِ أولى وأفضلُ؛ لِتَجْنيبِ الأَوْلادِ الاسْتِرْقاقَ، واللهُ غَفورٌ لِمَنْ تابَ مِنْ عِبادِهِ، رَحيمٌ بِهِمْ، ومِنْ رَحْمَتِهِ أَنْ شَرَعَ لَهُمْ نِكاحَ الإِماءِ حالَ العَجْزِ عَنْ نِكاحِ الحَرائِرِ عِنْدَ خَشْيَةِ الزِّنى؛ تَوْسِعَةً مِنْهُ سُبْحانَهُ على عِبادِهِ[2].

الإِيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

السِّرُّ فِي اسْتِعْمَالِ أَدَاةِ النَّفْيِ (لَمْ) دُونَ غَيْرِهَا:

يُعَدُّ النَّفْيُ مِنْ أَعْلى ضُروبِ البَلاغَةِ؛ لِكَثْرَةِ فَوائِدِهِ وعُذوبَةِ مَوارِدِهِ، وهَذا راجِعٌ لِكَثْرَةِ أَدَواتِهِ وَحُروفِهِ وَتَنَوُّعِ مَعانيها وخَصائِصِها وأَثَرِها في الكَلامِ، ومِنْ تِلْكَ الحُروفِ: (لَمْ)؛

(1) القُرْطُبيُّ، الجامع لأحكام القرآن: 6/233.

(2) عَبْدُ اللهِ الزَّيد، مُخْتَصَرُ تَفْسيرِ البَغَويِّ: 1/175، والمَحَليِّ والسُّيوطيِّ، تَفْسيرُ الجَلالَيْنِ، ص: 105، ولَجْنَةٌ مِنْ عُلَماءِ الأَزْهَرِ، المُنْتَخَبُ في تَفْسيرِ القُرآنِ الكَريمِ، ص: 112، وجَماعَةٌ مِنْ عُلَماءِ التَّفْسيرِ، المُخْتَصَرُ في تَفْسيرِ القُرْآنِ الكَريمِ، ص: 82.

فَمَعَ كَوْنِها تَنْفي الفِعْلَ المُضارِعَ، وتَقْلِبُ مَعْناهُ إلى الزَّمَنِ الماضي، فَهِيَ تَتَمَيَّزُ أَيْضًا بِتَنَوُّعِ التَّأثيرِ في مَعْنَاهُ، فَقَدْ تَنْفيه على جِهَةِ الجَزْمِ والتَّأْبيدِ، فَيَتَّصِلُ نَفْيُهَا مُطْلَقًا، نَحْوُ: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣﴾ [الإخلاص: 03]، وقَدْ يَنْقَطِعُ، نحو: ﴿لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ۝١﴾ [الإنسان: 1]، أَيْ: لَمْ يكُنْ ثُمَّ كانَ[1]، وَقَدْ تَنْفي الحَدَثَ مِنَ الماضي إلى الحاضِرِ مَعَ إِمْكانِ تَغَيُّرِهِ في الزَّمَنِ الحاضِرِ، كما هُوَ هُنَا في قوله: ﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا﴾، فالسِّياقُ يُعَبِّرُ عَنْ حالٍ مُؤَقَّتَةٍ يُتَوَقَّعُ تَغَيُّرُها عِنْدَما يُوَسِّعُ اللهُ تعالَى على عَبْدِهِ، فَيَتَمَكَّنُ مِنَ الاقْتِرانِ بِالمُحْصَنات[2]، ولِهَذا خُتِمَتِ الآيَةُ بِقَولِه تَعالى: ﴿وَأَن تَصْبِرُواْ خَيْرٌ لَّكُمْۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾؛ وَهُوَ المَعْنى المُنَاسِبُ لِكَرَمِ اللهِ وجُودِهِ وتَفَضُّلِهِ على عِبادِهِ بِالتَّوْسِعَةِ عَلَيْهِمْ بِالفَرَجِ بَعْدَ الشِّدَّةِ، واليُسْرِ بَعْدَ العُسْرِ، كَما قال ﷻ في آيَةٍ أُخْرى تَصِفُ حَالًا قَريبَةً مِنْ هذِهِ: ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦۗ﴾ [النُّور: 33]، فاسْتِعمالُ (لَمْ) في هذا المَوْضِعِ مِنَ الدِّقَّةِ البَلاغِيَّةِ بِمكانٍ.

مِنْ كَرَمِ اللهِ تَعالَى وَتَفَضُّلِهِ عَلَى عِبادِهِ التَّوْسِيعُ عَلَيْهِمْ بِالْفَرَجِ بَعْدَ الشِّدَّةِ

دِلَالَةُ التَّعْبِيرِ بِلَفْظِ الطَّوْلِ بَدَلَ السَّعَةِ:

في قَوْلِهِ تَعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا﴾ اسْتُعيرَ لَفْظُ الطَّوْلِ لِلسَّعَةِ والغِنى في المالِ، بجامِعِ القُدْرَةِ والتَّمَكُّنِ مِنَ الشَّيْءِ، فالاسْتِعارَةُ هنا: تَصْريحيَّةٌ[3] تَبَعِيَّةٌ[4]، أُخْرِجَ فيها الأَمْرُ المَعْنَوِيُّ - وهُوَ السَّعَةُ - في صورَةٍ حِسِّيَّةٍ جَميلَةٍ، وذلِكَ أَنَّ الطَّوْلَ يَسْتَلْزِمُ المَقْدِرَةَ على المُناوَلَةِ، فيَقولونَ: تَطاوَلَ لِكَذا، أَيْ: تَمَطَّى، وتَمَدَّدَ؛

إِخْراجُ الأَمْرِ المَعْنَوِيِّ فِي صُورَةٍ حِسِّيَّةٍ يَزِيدُ فِي تَأْكِيدِ المَعْنَى وَتَقْرِيرِهِ

(1) ابْنُ هِشامٍ، مُغْني اللَّبيبِ، ص: 367.
(2) الشِّنْقيطيّ، أَضْواءُ البَيان: 5/530.
(3) الاستعارة التَّصريحيَّة: هِيَ التي حُذِفَ فيها المُشَبَّهُ، وصُرِّحَ بِالْمُشَبَّهِ بِهِ، عَبْدُ العَزيزِ عَتيق، عِلْمُ البَيان، ص: 176.
(4) الاستعارة التَّبعيَّة: هي التي يَكونُ فيها اللَّفْظُ الذي جَرَتْ فيهِ الاستعارةُ مُشْتَقًّا أَوْ فِعْلاً، فَضْل حَسَن عبَّاس، البَلاغَةُ فُنونُها وأَفْنانُها ص: 189.

لِيَأْخُذَهُ[1]؛ وإنَّما سُمِّيَ الغِنى: طَوْلًا؛ لِأَنَّهُ يُتَوَصَّلُ بِهِ إلى الْغَرَضِ الَّذي ينشُدُهُ صاحبُه، ويُنالُ بِهِ مِنَ المُرادِ ما لا يُنالُ مَعَ الفَقْرِ[2]، وتَتَجَلّى فائِدَةُ هذا التَّشْبيهِ: في زِيادَةِ تَأْكيدِ المَعْنى في النَّفْسِ؛ لِما تُوحي به كَلِمَةُ (طَوْلٍ) مِنَ الزِّيادَةِ والسَّعَةِ في المالِ في هذا المَوْضِعِ، ونَظيرُ هَذا ما تُفيدُهُ مِنَ الاعْتِلاءِ بِالمالِ وَالعُدَّةِ في قَوْلِهِ: ﴿ٱسْتَـْٔذَنَكَ أُوْلُواْ ٱلطَّوْلِ﴾ [التَّوْبَةُ: 86]، وما تُفيدُهُ مِنَ الإنْعامِ والتَّفَضُّلِ في قَوْلِهِ: ﴿شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ﴾ [غَافِرٌ: 3]، وَمِن هنا تتَّضحُ الفائدةُ الَّتي يجنيها القارئُ من هذِهِ الكَلِمَةِ بِمَعْنَيَيْها: الحِسِّيِّ والعَقْلِيِّ، وما تفرَّعَ عنها مِنَ المَعاني والدّلالات بِحَسَبِ سِياقِ وُرودِها في كُلِّ مَوْضِعٍ.

سَبَبُ تَخْصيصِ ذِكْرِ الْإيمَانِ بَعْدَ الإحْصَانِ:

وَصْفُ الْإيمَانِ جَارٍ عَلَى الْمَدْحِ، وَفِيهِ تَنْبِيهٌ وَإِرْشَادٌ إِلَى تَحَرِّي الأَفْضَلِ وَالأَكْمَلِ

لَمّا بَيَّنَ سبحانه المُحَرَّمَاتِ مِنَ النِّساءِ، وذَكَرَ مِنْهُنَّ المُحْصَناتِ مِن النِّساءِ، وكانَتْ مُطْلَقَةً مُحْتَمِلَةً لِلمُؤْمِناتِ والكِتابيَّاتِ؛ أَتْبَعَها بِقَوْلِهِ: ﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾؛ إشارةً إلى أَنَّ الإيمانَ هُوَ المَطْلوبُ الأَوْلى، فَطالِبُهُ طالِبُ النَّسْلِ لِلْمَعْرِفَةِ والعِبادَةِ وتعميرِ الأَرْضِ بأَهْلِ الإيمَانِ والصَّلاحِ، ولَيْسَ طالِبَ شَهْوَةٍ فَقَط، فعَلَيْكُمْ بِالإيمانِ حَيْثُ كانَ، مَعَ عَدَمِ إغْفالِ تلبية الحاجة الجسميَّة الفطريَّة - أَيْضًا. كما جاءَ مُشارًا إِلَيْهِ في الآيَةِ بِخَشْيَةِ الوُقوعِ في الزِّنَى والعَنَتِ، ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ ٱلْعَنَتَ مِنكُمْ﴾.

والَّذي يُؤَكِّد مَدْحَ أَهْلِ الْإيمانِ وتَقْديمَهُم تَكْرارُ وَصْفِ الإيمانِ عِنْدَ ذِكْرِ التَّزْويجِ بالإماءِ أَيْضًا في قَوْلِهِ: ﴿فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾، وقَوْلِهِ بَعْدَها: ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِكُم﴾، فهذا تَكْرارٌ[3] وتَأْكيدٌ لِبَيانِ شَرَفِ الإيمانِ وفَضْلِ المُؤْمِناتِ[4] عَلى

(1) ابنُ عاشور، التّحرير والتّنْوير: 5/12.
(2) القِنَّوْجيُّ، فَتْحُ البَيانِ في مَقاصِدِ القُرآن: 3/84.
(3) أبو حيّان، البَحْرُ المُحيط: 3/606.
(4) البيضاوي، أنوار التنزيل: 2/69.

غَيْرِهِنَّ، فتَخْصيصُهُنَّ بالذِّكْرِ للبَعْثِ على ما هُوَ أَوْلى، ولَيْسَ لِنَفْيِ ما عَداهُنَّ[1]، وهذا المَعْنى مُتَقَرِّرٌ - أَيْضًا - في قَوْلِهِ تعالى في سُورَةِ المائِدَةِ: ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ﴾، فَقَدَّمَ ذِكْرَ المُؤْمِنَاتِ عَلى المُحْصَناتِ الكِتابِيَّاتِ لِهَذا المَأْخَذِ.

وفي التَّقْييدِ هُنا نَدْبٌ إلى مُباعَدَةِ الكُفَّارِ، فَلا يُنْكَحُ مِنْهُنَّ إلَّا لِضَرورَةٍ[2].

دِلالَةُ حَذْفِ فِعْلِ الأَمْرِ المُسْنَدِ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم﴾:

المُسْنَدُ المَحْذُوفُ في قوله تعالى: ﴿فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم﴾ هُوَ فِعْلُ الأَمْرِ، والتَّقديرُ: فانْكِحُوا مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمانُكُمْ، والَّذي يدلُّ عليه هو السِّياقُ، ونُكْتَةُ حَذْفِهِ: تَفادي صيغَةِ الأَمْرِ؛ لئلَّا يُفْهَمَ مِنْهُ الإِلْزامُ، فالمَسْأَلَةُ مَدارُها على الإباحَةِ والإِرْشادِ، كما أَنَّ تَرْتيبَ الحُكْمِ على الفِعْلِ بالفاءِ ﴿فَمِن مَّا مَلَكَتْ﴾ الرَّابِطَةِ لِجَوابِ الشَّرْطِ، أَوْ خَبَرِ المَوْصولِ في: ﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ﴾، فيهِ تَنْبيهٌ على تَعْليلِ الحُكْمِ بِسَبَبِهِ، فَدَلَّ ذلِكَ على أَنَّ سَبَبَ إباحَةِ نِكاحِ الإِماءِ العَجْزُ عَنْ نِكاحِ الحَرائِرِ[3]، وأَنَّهُ مِمَّا وَسَّعَ اللهُ بِهِ على هذِهِ الأُمَّةِ في النِّكاحِ[4].

نِكَاحُ الإِمَاءِ المُؤْمِنَاتِ مُبَاحٌ بِشَرْطِهِ، وهو تَوْسِعَةٌ مِنَ اللهِ تَعَالَى عَلَى العِبَادِ

والدَّليلُ على هذِهِ التَّوْسِعَةِ تِلْكَ الإِشارَةُ اللَّطيفَةُ في قَوْلِهِ: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ ٱلْعَنَتَ﴾ التي جاءَتْ لِبيانِ المُشارِ إِلَيْهِ، وَهُوَ تِلْكَ الفُسْحَةُ في نِكاحِ الأَمَةِ لِمَنْ عَجَزَ عَنْ نِكاحِ الحُرَّةِ، وخافَ الزِّنى، فالإِشارَةُ إلى نِكاحِ الإِماءِ عَلَّلَتِ الرُّخْصَةَ فيهِ.

الأَصْلُ فِي المُعَامَلَاتِ التَّخْفِيفُ وَرَفْعُ العَنَتِ عَلَى النَّاسِ

(1) أبو السّعود، إرشادُ العَقْلِ السّليم: 1/681، وهَذا التَّفْسيرُ عَلى قَوْلِ الحَنَفِيَّةِ وعامَّةِ أَهْلِ الرَّأْيِ، وإلاَّ فَإِنَّ الجُمْهورَ على عَدَمِ جَوازِ التَّزَوُّجِ بِالأَمَةِ الكِتابِيَّةِ، قالَ القُرْطُبيُّ: "قَوْلُهُ تَعالَى: ﴿ٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾، بَيَّنَ بِهَذا أَنَّهُ لا يَجُوزُ التَّزَوُّجُ بِالأَمَةِ الكِتابِيَّةِ، فَهَذِهِ الصِّفَةُ مُشْتَرَطَةٌ عِنْدَ مالِكٍ وَأَصْحابِهِ، وَالشَّافِعِيِّ وَأَصْحابِهِ، وَالثَّوْرِيِّ وَالْأَوْزاعِيِّ وَالحَسَنِ البَصْرِيِّ وَالزُّهْرِيِّ وَمَكْحولٍ وَمُجاهِدٍ، وَقالَتْ طائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ مِنْهُمْ أَصْحابُ الرَّأْيِ: نِكاحُ الأَمَةِ الْكِتابِيَّةِ جائِزٌ"، ينظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 6/232.

(2) البِقاعيُّ، نَظْمُ الدُّرَر: 5/236.

(3) الغَزالِّي، شِفاءُ الغَليلِ في بيانِ الشَّبَهِ والمَخيلِ ومَسالِكِ التَّعْليلِ، ص: 27 - 28.

(4) الزَّمَخْشري، الكَشَّاف: 2/58.

وَيَدُلُّ عَلَيْهِ - أَيْضًا- قَوْلُهُ في خِتامِ الآيَةِ: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، فهُوَ مُؤَكِّدٌ لِمَعْنى الإِبَاحَةِ، مُؤْذِنٌ بِأَنَّ إِباحَةَ ذلِكَ لِأَجْلِ رَفْعِ الحَرَجِ؛ لِأَنَّ اللّه رَحيمٌ بِعِبادِهِ[1].

وكُلُّ هذا مِمَّا تَمَيَّزَتْ بِهِ سورَةُ النِّساءِ الَّتي عالَجَتْ كَثيرًا مِنْ قَضايا التَّشْريعِ في المُجْتَمَعِ المُسْلِمِ.

سِرُّ التَّعْبيرِ بِمِلْكِ الْيَمينِ بَدَلَ الإِماءِ في قَوْلِهِ: ﴿فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم﴾:

التَّعْبيرُ عَنِ الإِماءِ بِمِلْكِ الْيَمينِ إيماءٌ لِضَعْفِ حالِهِنَّ وَحَثٌّ عَلَى التَّلَطُّفِ بِهِنَّ:

إِسْنادُ المِلْكِ إلى اليَمينِ عِنْدَ العَرَبِ: مِنَ المَجازِ العَقْلِيِّ[2]؛ لِأَنَّ اليَمينَ سَبَبٌ وَهْمِيٌّ لِلمِلْكِ، فسَبَبُ المِلْكِ: إِمَّا أَسْرٌ: وَهُوَ أَثَرٌ لِلْقِتالِ بِالسَّيْفِ الَّذي تُمْسِكُهُ اليَدُ اليُمْنى، وإِمَّا شِراءٌ: ودَفْعُ الثَّمَنِ يَكونُ بِاليَدِ اليُمْنى عُرْفًا، فَهِيَ سَبَبٌ وَهْمِيٌّ ناشِئٌ عَنِ العادَةِ[3]، فَأُسْنِدَ التَّمَلُّكُ إلى الأَيْدي في قَوْلِه: ﴿فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم﴾؛ لِأَنَّها سَبَبُهُ، والغَرَضُ مِن هذا المَجازِ تَصْويرُ هذهِ الفِئَةِ مِنَ النِّساءِ بِصورَةِ الأَسيرِ الضَّعيفِ الَّذي لا يَمْلِكُ لِنَفْسِهِ شَيْئًا، بَلْ هُوَ مَمْلوكٌ لِغَيْرِه، وفي هذا حَثٌّ على التَّلَطُّفِ بِهِنَّ والإِحْسانِ إليهِنَّ خُصوصًا، وأَنَّهُ لَيْسَ لَهُنَّ مِنَ الحُقوقِ مِثْلُ ما لِلحَرائِرِ[4]، هذا بِالْإِضافَةِ إلى ما في ذِكْرِ اليَمينِ دونَ الشِّمالِ مِنْ تَيَمُّنٍ وتَفاؤُلٍ.

سِرُّ التَّعْبيرِ بِالْفَتَيَاتِ بَدَلَ الْجَوَارِي وَالْإِمَاءِ:

إِطْلاقُ لفظ (الفَتَياتِ) على الإماءِ في قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ﴾ مِنْ قَبيلِ المَجازِ المُرْسَلِ[5]؛ إِذِ الفَتاةُ

(1) ابنُ عاشور، التّحْرير والتّنْوير: 5/18.

(2) "هُوَ إِسْنادُ الفِعْلِ أَوْ ما في مَعْناهُ إلى غَيْرِ صاحِبِهِ لِعَلاقَةٍ، مَعَ قَرينَةٍ مانِعَةٍ مِنْ إِرادَةِ الإِسْنادِ الحَقيقِيِّ"، ولا يَكونُ إلاَّ في التَّرْكيبِ: عَبْدُ العَزيزِ عَتيق، عِلْمُ البيانِ، ص: 143.

(3) ابنُ عاشور، التّحْرير والتّنْوير: 14/215.

(4) خَديجة محمَّد بناني، سورَةُ النِّساءِ دِراسَةٌ بَلاغيَّةٌ تَحْليليَّة: (أُطْروحَةُ دُكْتوراه): 2/449.

(5) المجاز المرسل: "اسْتِعْمَالُ الكَلِمَةِ في غَيْرِ مَعْناها الحَقيقِيِّ، لِعَلاقَةٍ غَيْرِ المُشابَهَةِ، مَعَ قَرينَةٍ مانِعَةٍ مِنْ إِرادَةِ المعنى الحَقيقيِّ"، مِثْلَ: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعْصِرُ خَمْرًا﴾ [يوسُف: 36]، فَالخَمْرُ لا تُعْصَرُ، وإِنَّما يُعْصَرُ العِنَبُ الذي يَؤُولُ أَمْرُهُ إلى خَمْرٍ، فَإِطْلاقُ الخَمْرِ وإِرادَةُ العِنَبِ مَجازٌ مُرْسَلٌ عَلاقَتُهُ اعْتِبارُ ما سَيَكونُ، أَحْمَد الهاشِمي، جَواهِرُ البَلاغَةِ، ص: 254.

في الأَصْلِ: الشَّابَّةُ، والمُرادُ بها هنا: الأَمَةُ، فَأُطْلِقَ عَلَيْها فَتَاةٌ بِعَلاقَةِ اللُّزومِ؛ لِأَنَّ الأَمَةَ تُعَامَلُ مُعامَلَةَ الصَّغيرِ في الخِدْمَةِ وقِلَّةِ المُبَالاةِ[1].

إِطْلاقُ لَفْظِ الفَتَياتِ عَلَى الإِمَاءِ: تَرْغِيبٌ فِي الزَّوَاجِ مِنْهُنَّ مَعَ تَكْرِيمِهِنَّ وَمَنْعِ احْتِقَارِهِنَّ

وَمُناسَبَةُ اخْتيارِ هذا اللَّفْظِ التَّرْغيبُ في الزَّواجِ مِنْهُنَّ بما يَجْذِبُ انْتِباهَ الرِّجالِ إِلَيْهِنَّ؛ كَما أَنَّ في ذلك تَكْريمًا لَهُنَّ، وإِرْشادًا لِلْمُسْلِمِين إلى عدَمِ مُنَادَاة الخَادِمِ بِالعَبْدِ والأَمَةِ، بَلْ بِلَفْظِ الفَتى والفَتاةِ[2]، وقَدْ رَوى البُخَارِيُّ قَوْلَهُ ﷺ: «ولا يَقُلْ أَحَدُكُمْ: عَبْدِي، أَمَتِي، وَلْيَقُلْ: فَتايَ وَفَتاتِي»[3].

دِلَالَةُ الْإِضَافَةِ فِي: ﴿أَيْمَٰنُكُم﴾ و﴿فَتَيَٰتِكُمُ﴾:

حِرْصُ الشَّرِيعَةِ عَلَى إِزَالَةِ مَا عَلِقَ بِالنُّفُوسِ مِنِ احْتِقَارِ الإِمَاءِ

الإِضافَةُ في قَوْلِه: ﴿أَيْمَٰنُكُم﴾ وقَوْلِه: ﴿مِّن فَتَيَٰتِكُمُ﴾؛ لِلتَّقْريبِ وإِزالَةِ ما بَقِيَ في نُفوسِ العَرَبِ مِنِ احْتقارِ العَبيدِ والإِماءِ، والتَّرفُّعِ عَنْ تزويجِ العبيدِ وإِنْكاحِهِمْ، والتَّزوُّجِ منَ الإِماءِ أو إنكاحهنَّ لِمَنْ يطلبُهنَّ.

كما أَشارَتِ الآيَةُ إلى أَنَّ نِكاحَ المَمْلوكَةِ يَكونُ لِغَيْرِ مالِكِها؛ لِأَنَّ مالِكَها لا يَحْتاجُ ذلِكَ، فَهُوَ يَسْتَطيعُ الاسْتِمْتاعَ بها مِنْ غَيْرِ نِكاحٍ؛ لِأَنَّها مِلْكُ يَمينِه.

وفي قَوْلِه: ﴿أَيْمَٰنُكُم﴾ و﴿مِّن فَتَيَٰتِكُمُ﴾ خِطابٌ لِلْمُؤْمنينَ على أَنَّهُمْ وحْدَةٌ بُنْيانِيَّةٌ، ونَظائِرُهُ في القُرْآنِ الكَريمِ كَثيرَةٌ، كَقَوْلِهِ تعالى: ﴿وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ [الحُجُرات: 11]، أَيْ: لا تَلْمِزُوا غَيْرَكُمْ، وقالَ في مَوْضِعٍ آخَرَ: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾ [النُّور: 61]، فاللهُ ﷻ يُريدُ بِالتَّشْريعِ أَنْ يَجْعَلَ المُؤْمنينَ كالجَسَدِ الواحِدِ[4].

(1) ابنُ عاشور، التَّحْرير والتَّنْوير: 5/14.
(2) مُحَمَّدُ الأَمين الهَرَري، حَدائِقِ الرَّوْحِ والرَّيْحان: 6/16.
(3) صَحيحُ البُخاريِّ، كِتابُ العِتْقِ، بابُ كَراهيةِ التَّطاوُلِ على الرَّقيقِ، برقم: (2552).
(4) الشّعراويّ، تَفْسِيرُ الشَّعْراوِيّ: 4/2121.

فَائِدَةُ ذِكْرِ الْجُمْلَةِ الِاعْتِرَاضِيَّةِ: ﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِإِيمَٰنِكُمۡۚ﴾:

قولُه تعالَى: ﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِإِيمَٰنِكُمۡۚ﴾ اعتراضٌ[1]، وهو مِنْ ضُروبِ الإطْنابِ[2] في الكَلام، وقد قَيَّدَ ما سَبَقَ؛ حَتَّى لا تَحولَ الشَّهْوَةُ والعَجَلَةُ دونَ تَحْقيقِ شُروطِ اللّه تعالَى، فأَحالَهُمْ اللّهُ على إيمانِهم، وهو المُطَّلِعُ عَلَيْهِ وَحْدَهُ دونَ ما سِواهُ، وهذا يَدُلُّ عَلَيْهِ تَقْديمُ المُسْنَدِ إلَيْهِ ﴿وَٱللَّهُ﴾.

المُسْلِمونَ يَتَعامَلُونَ بِالظَّواهِرِ، وَاللهُ وَحْدَهُ هُوَ الَّذِي يَتَوَلَّى القُلُوبَ وَالسَّرَائِرِ

أَيْضًا فَإِنَّ تقديمَ المُسنَد إليه يَدُلُّ من ناحية أخرى على التَّخْصيصِ الَّذي يُثْبِتُ الحُكْمَ لِلمُسْنَدِ إلَيْهِ، ويَنْفيه عَنْ غَيْرِه، حَتَّى لا يَسْتَريبَ مُتَحَيِّرٌ بإيمانِ بَعْضِ الإماءِ، كقَريبَةِ عَهْدٍ بِسَبْيٍ، أَوْ خَرْساءَ وما أَشْبَهَ ذلك، فَإِنَّ حُكْمَ إيمانِها للّه تعالَى الَّذي يَعْلَمُ السَّرائِرَ[3].

في هذِهِ الجُمْلَةِ الاعْتِراضِيَّةِ: ﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِإِيمَٰنِكُمۡۚ﴾ أيضًا: تأْنيسٌ لَهُمْ بِنِكاحِ الإماءِ وتَرْكِ الاسْتِنْكافِ مِنْهُ، بِبَيانِ أَنَّ مَناطَ التَّفاضُلِ ومَدارَ التَّفاخُرِ هُوَ الإيمانُ دونَ الأَحْسابِ والأَنْسابِ، وهذا كَقَوْلِهِ في سورَةِ الحُجُراتِ: ﴿إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ﴾ [الحُجُرات: 13]، فاللّه تعالى أَعْلَمُ مِنْكُمْ بِمَراتِبِكُمْ في الإيمانِ الَّذي بِهِ تَنْتَظِمُ أَحْوالُ العِبادِ، وعَلَيْهِ يَدُور فَلَكُ المَصالِحِ في المَعاشِ والمَعادِ، ولا تَعَلُّقَ لَهُ بِخُصوصِ الحُرِّيَّةِ والرِّقِّ، فَرُبَّ أَمَةٍ يَفوقُ إيمانُها إيمانَ الحَرائِرِ[4]، فَلا يَنْبَغي لِلْمُؤْمِنِ أَنْ يَطْلُبَ الفَضْلَ والرُّجْحانَ إلَّا بِاعْتِبارِ الإيمانِ والإسْلامِ لا بِالأَحْسابِ والأَنْسابِ.

فَلَكُ المَصالِحِ فِي المَعَاشِ وَالمَعَادِ يَدُورُ حَوْلَ رَحَى الإِيمَانِ مِنْ غَيْرِ اعْتِبَارٍ لِلْأَحْسَابِ وَالأَنْسَابِ

التَّذْييلُ لِتَأْكيدِ الِاعْتِراضِ السَّابِقِ والتَّوْطِئَةِ لِلْأَمْرِ اللَّاحِقِ:

أَمَّا قَوْلُه تعالى: ﴿بَعۡضُكُم مِّنۢ بَعۡضٖۚ﴾؛ فَهُوَ تَذْييلٌ[5] مُؤَكِّدٌ

(1) الاعتراضُ: هُوَ أَنْ يُؤْتى بِجُمْلَةٍ مُعْتَرِضَةٍ في كَلامٍ مُتَّصِلٍ بَعْضُهُ بِبَعْضٍ، فَضْل حَسَن عَبَّاس، البَلاغَةُ فُنونُها وأَفْنانُها، ص: 490.

(2) الإطناب: زِيادَةُ اللَّفْظِ على المَعْنى لِفائِدَةٍ، ومُقْتَضاهُ: المُبالَغَةُ في إيرادِ المَعاني، ابْنُ الأَثيرِ، المَثَلُ السَّائِر: 2/120.

(3) ابنُ عاشور، التَّحْرير والتَّنْوير: 5/15.

(4) الزَّمَخْشري، الكشاف: 2/59، وأبو السّعود، إرشادُ العَقْلِ السّليم: 1/681.

(5) التّذييل: هُوَ تَعْقيبُ الجُمْلَةِ بِجُمْلَةٍ أُخْرى تَشْتَمِلُ على مَعْناها لِلتَّأْكيدِ، الإسْفَرَايِينيّ، الأَطْوَلُ شَرْحُ تَلْخيصِ مِفْتاحِ العُلومِ: 1/70.

لِلاعْتِراضِ السَّابِقِ، فَأَنْتُمْ وأَرِقّاؤُكُمْ مُتَناسِبونَ، نَسَبُكُمْ مِنْ آدَمَ، ودينُكُمُ الإِسْلامُ، فَأَنْتُمْ سَواءٌ: بَنو الحَرائِرِ وبَنُو الإِماءِ، وهذِهِ تَوْطِئَةٌ لِنُفوسِ العَرَبِ الَّتي كانَتْ تَسْتَهْجِنُ وَلَدَ الأَمَةِ، فَلَمَّا جاءَ الإِسْلامُ بِجَوازِ نِكاحِها؛ عَلِموا أَنَّ ذلكَ التَّهْجينَ لا مَعْنى لَهُ[1].

النَّاسُ سَوَاسِيَةٌ: بَنُو الْحَرَائِرِ وَبَنُو الإِمَـــاءِ، وَلَا مَعْنى لِتَهْجِينِ وَلَدِ الأَمَةِ؛ إِذَا كَانَ مُؤْمِنًا

ولا يخفى أنَّ هذه المعانيَ تُوَطِّدُ الأَصْلَ العامَّ للسُّورَةِ في تَنْظيمِ المَجْتَمَعِ المُسْلِمِ وبِناءِ عَلاقاتِهِ، وحِفْظِ الحُقوقِ تَحْتَ مِظَلَّةِ التَّقْوى: بِامْتِثالِ المَأْمورِ واجْتِنابِ المَحْظورِ.

دَلالَةُ الأَمْرِ في الفِعْلَيْنِ: ﴿فَٱنكِحُوهُنَّ﴾ و﴿وَءَاتُوهُنَّ﴾:

إذا تَأَمَّلْنا فعلَي الأَمْرِ: ﴿فَٱنكِحُوهُنَّ﴾ و﴿وَءَاتُوهُنَّ﴾؛ وَجَدْنا أَنَّهما جارِيَانِ على أَصلِهِمَا في إفادَةِ الإِلْزَامِ بالفِعْلِ، ويَدلُّ على ذلك ثلاثةُ أوجهٍ:

بَـيَـانُ وُجُـوبِ الْمَـأْمُـورِ بِـهِ وَالتَّـنْـبِـيهُ عَـلَى رِعَايَةِ حَقِّ الْأَمَةِ الضَّعِيفَةِ:

أَوَّلُهَا: الفِعْلانِ وردَا على جِهَةِ العُلُوِّ؛ فالأمرُ مِنَ اللهِ - ﷻ - إلى عِبادِهِ، مَعَ ما يَتْبَعُ هذا مِنَ التَّعْظيمِ والتَّبْجيلِ المُوجِبِ لِلامْتِثالِ التَّامِّ.

ثانيهِمَا: اشْتَمَلَت الآيَةُ على أسبابِ الوُجوبِ ودَواعيهِ، مِنْ صيانَةِ حَقِّ الضَّعيفِ المَمْلوكِ، وهِيَ مِنْ مُمَيِّزاتِ الأُسْلوبِ القُرْآنيِّ في خِطابِ النُّفُوسِ والعُقولِ؛ لِيَصِلَ بالسَّامِعِ إلى الانْقيادِ والطَّاعَةِ بِنَفْسٍ راضِيَةٍ مُطْمَئِنَّةٍ.

ثالِثُها: أنَّ الأمرَ لَمَّا كانَ مُرَتَّبًا على ما قَبْلَهُ، صُدِّرَ بالفاءِ ﴿فَٱنكِحُوهُنَّ﴾، أَيْ: فَإِذا وَقَفْتُمْ على جَلِيَّةِ الأَمْرِ؛ فَانْكِحوهُنَّ.. إلخ، فَأُعيدَ الأَمْرُ - مَعَ فَهْمِهِ مِن السِّياقِ قَبْلَهُ - لِزِيادَةِ التَّرْغيبِ في نِكاحِهِنَّ، ولِإِفادَةِ الوُجوبِ[2] في شُروطِ النِّكاحِ بَعْدَ تَقْريرِ الإِباحَةِ في أَصْلِهِ.

(1) ابن عطيَّةَ، المحرَّر الوجيز: 2/38.
(2) الآلوسيُّ، روحُ المعاني: 3/11.

رِعَـايَـةُ حُـقُـوقِ الْمَـالِـكِـينَ وَالإِشْـعَـارُ بِأَهَمِّيَّةِ الْعِنَايَةِ بِالْمَمْلُوكِينَ

نُكْتَةُ التَّعْبِيرِ بِالْأَهْلِ دُونَ السَّيِّدِ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ﴾:

لَفْظُ (الْأَهْلِ) في قَوْلِه تعَالَى: ﴿فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ﴾ بِمَعْنى: السَّادَةِ المالِكينَ، وهُوَ إِطْلاقٌ شائِعٌ على سادَةِ العَبيدِ في عُرْفِ الشَّرْعِ، والأَمَةُ تُنْكَحُ بِإِذْنِ مَوْلاها وُجوبًا، وشُرِطَ الإِذْنُ؛ لِئَلَّا يَكُونَ سِرًّا وَزِنًى، وَلِأَنَّ نِكاحَهُنَّ دونَ ذلِكَ اعْتِداءٌ على حُقوقِ أَهْلِ الإِماءِ[1]، ولِأَنَّها بِالزَّواجِ تَقْتَطِعُ جُزءًا مِنْ وَقْتِها وخِدْمَتِها لِزَوْجِها، فَلا بُدَّ أَنْ يُسْتَأْذَنَ سَيِّدُها؛ لِيَكونَ أَمْرُ انْقِطاعِها إلى الزَّوْجِ في بَعْضِ خَدَماتِه مِمَّا هُوَ مَعْلومٌ لِأَوْلِيائِهِنَّ[2].

فِي عِبَارَةِ ﴿بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ﴾ تَلَطُّفٌ بِالإِمَاءِ، وَتَنْبِيهٌ لِلْأَزْوَاجِ بِأَنَّ لِلإِمَاءِ مَنَعَةً

والتَّعبيرُ بِالْأَهْلِ يُعَدُّ مِنْ مُصْطَلَحاتِ القُرْآنِ الدَّقيقَةِ؛ تَلَطُّفًا بِالْعَبيدِ، وفيهِ إِشْعارٌ بِأَنَّ مَنْ تَحْتَ يَدِهِ فَتاةٌ بِمِلْكِ اليَمينِ، عَلَيْهِ أَنْ يُعامِلَها بِلُطْفٍ وإِحْسانٍ، كمُعامَلَةِ الأَهْلِ، لِيُعَوِّضَها عَمَّا فَقَدَتْهُ عِنْدَ أَهْلِها هناكَ، وَلِتَشْعُرَ الأَمَةُ أَنَّها في حَضانَةِ الإِسْلامِ، مِثْلَما كانَتْ في حَضانَةِ أَهْلِها وآبائِها أَوْ أَكْثَرَ، كما أَنَّ فيهِ تَنْبيهًا للزَّوْجِ بِأَنَّ لِلْأَمَةِ مَنَعَةً وأَهْلًا يَحوطونَها، ويُدافِعونَ عَنْ حُقوقِها، ويَمْنَعونَ ظُلْمَها مِنْ قِبَلِهِ.

سِرُّ التَّعْبِيرِ بِالأَجْرِ بَدَلَ الْمَهْرِ، وَنُكْتَةُ تَقْيِيدِه بِالْمَعْرُوفِ:

تَـقْـوِيَـةُ حَـقِّ الإِمَـاءِ فِي الْمُهُورِ وَتَمْكِينُهُنَّ مِنَ الِانْتِفَاعِ مِنْهَا

لَفْظُ (أَجْر) في قَوْلِهِ تعالى: ﴿وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ من قبيل الاسْتِعارَةِ التَّصْريحِيَّةِ الأَصليَّةِ[3]، فالأَجْرُ المَذْكورُ: هو لفظٌ مُسْتَعارٌ لِلْمَهْرِ، والأَجْرُ يَدُلُّ عَلَى عَمَلٍ، والمُسْتعارُ مِنْهُ مَعْنى الأَجْرِ: هو تَمْكينُ المَرْأَةِ مِنَ الانْتِفاعِ بِمهرِها، كَأَنَّهُ أَجْرٌ تَقاضَتْهُ على عَمَلٍ تَعْمَلُهُ[4]، والمُسْتَعارُ لَهُ: المُهورُ، وَلَوْ كانَتِ المُهُورُ أُجورًا حَقيقَةً؛ لَوَجَبَ تَحْديدُ مُدَّةِ الانْتِفاعِ وَمِقْدارِه، وَذَلِكَ مِمَّا تُنَزَّهُ عَنْهُ عُقْدَةُ النِّكاحِ[5].

(1) ابنُ عاشور، التّحْرير والتّنْوير: 5/15.
(2) الشعراوي، تَفْسِيرُ الشَّعْراوِيِّ: 4/2124.
(3) الاستعارة الأصليَّةُ: هي الَّتي يَكونُ اللَّفْظُ المُسْتَعارُ فيها اسمًا جامِدًا.
(4) أَبو حَيّانَ، البَحْرُ المُحيط: 3/607، والهرري، تفسير حدائق الروح والريحان: 6/27.
(5) ابنُ عاشور، التّحْرير والتّنْوير: 6/124.

تَأْكِيدُ الِاهْتِمامِ بِمَهْرِ الأَمَةِ؛ لِئَلَّا يَتَهاوَنَ النَّاسُ فِي حَقِّهَا:

وَقَوْلُه: ﴿بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾ ترشيحٌ للاستعارة؛ لِأَنَّ لَفْظَ المَعْروفِ في مَهْرِ الأَمَةِ يدُلُّ على قَدْرٍ زائِدٍ مِنَ الاهْتِمام، لِكَوْنِهَا ضَعيفَةً يَتَهاوَنُ النَّاسُ في حَقِّها، فَقَوَّتْ هَذِه الكَلِمَةُ هَذا الحَقَّ.

ولفظُ ﴿بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾ وإنْ لَمْ يَكُنْ مُخْتَصًّا بالمشبَّهِ به في أَصْلِ اللُّغَةِ، إلَّا أنَّ لَفْظَ المَعْرُوفِ كَثُرَ اسْتِعْمَالُه في حالَاتِ الْعِشْرَةِ الزَّوْجِيَّة، فكانَ لَفْظُ المَعْرُوفِ أَلْصَقَ بِالْمُشَبَّهِ به مِنْهُ بِالْمُشَبَّه، ولِذَا جُعِلَ تَرْشِيحًا لِلِاسْتِعارَةِ.

نُكْتَةُ التَّعْبِيرِ بِـ﴿وَءَاتُوهُنَّ﴾ دُونَ (آتُوهُمْ):

المَهْرُ حَقٌّ لِلْمَرْأَةِ حُرَّةً كَانَتْ أَوْ أَمَةً

في قولِه تعالى: ﴿وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾ إشعارٌ بأنَّ المهرَ حقٌّ ثابتٌ من حقوق المرأةِ مطلقًا، حرَّةً كانتْ أو أمَةً، ويَدُلُّ على هذا الفعل: ﴿وَءَاتُوهُنَّ﴾، مَعَ أَنَّ الإِذْنَ والإيتاءَ لِمَواليها، فحُذِفَ المُضَافُ هنا، وخَصَّهُ بِهِنَّ؛ لِأَنَّهُ حَقٌّ لَهُنَّ دونَ غَيْرِهِنَّ، فَنُكْتَةُ ذِكْرِ ﴿وَءَاتُوهُنَّ﴾ بَدَلَ (آتوهُمْ) تَأْكيدُ إيجابِ المَهْرِ، وأَنَّهُ حَقُّهُنَّ مِنْ هذِهِ الجِهَةِ[1].

كَما أَنَّ اخْتِيارَ الأَجْرِ بَدَلَ المَهْرِ في هذا المَقامِ؛ لِمَا في مَادَّةِ الكَلِمَةِ مِنْ مَعانٍ ساميَةٍ وما تَحْمِلُهُ مِنْ دَلالَاتٍ، مثل: الثَّوابِ والجَزَاءِ والعَطاءِ والذِّكْرِ الحَسَنِ[2].

بَلَاغَةُ الِاسْتِعَارَةِ فِي لَفْظَيْ: ﴿مُحۡصَنَٰتٍ﴾ و﴿مُسَٰفِحَٰتٍ﴾:

تَلْوِينُ الصُّورَةِ بِالِاسْتِعَارَةِ تَأْكِيدٌ لِفَضِيلَةِ الْعَفَافِ وَتَنْفِيرٌ مِنَ الْفَاحِشَةِ:

كَلِمَةُ: ﴿مُحۡصَنَٰتٍ﴾ من قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِ مُحۡصَنَٰتٍ غَيۡرَ مُسَٰفِحَٰتٍ﴾: حالٌ مِنْ مَفْعولِ ﴿فَٱنكِحُوهُنَّ﴾، أَيْ: فانكحوهنَّ حالَ كَوْنِهِنَّ عَفائِفَ عَنِ الزِّنى، ﴿غَيۡرَ مُسَٰفِحَٰتٍ﴾: حالٌ مُؤَكِّدَةٌ، أَيْ: غَيْرَ مُجاهِراتٍ بِهِ، تَأْكيدًا وتَنْبيهًا على مَسْأَلَةِ العِفَّةِ والطَّهارَةِ في بابِ النِّكاحِ؛ حِفْظًا لِلْأَنْسابِ وَبُعْدًا عَنِ الفَواحِشِ ومَواطِنِ الرِّيَبِ.

(1) البَيْضاويُّ، أَنْوارُ التَّنْزيل: 2/69، والآلوسيُّ، روحُ المعاني: 3/11.
(2) ابْنُ مَنْظورٍ، لِسَانُ العَرَبِ: (أجر).

والتَّعْبيرُ بِلَفْظِ الإِحْصانِ الَّذي هُوَ وَصْفٌ لِلْحَرائِرِ في الأَصْلِ - إِذِ الحُرَّةُ يُسْتَبْعَدُ مِنْها الفُجورُ - يُرادُ بِهِ التَّأْكيدُ على مَسْأَلَةِ العَفافِ في حَقِّ الإِماءِ، لِضَعْفِهِنَّ وكَوْنِهِنَّ مَظِنَّةً لِلانْتِقالِ مِنْ يَدٍ إِلى أُخْرى، فَلَمْ تُمَرَّنْ نُفوسُهُنَّ على الاخْتِصاصِ بِرَجُلٍ واحِدٍ، كما أَنَّ الزِّنى كانَ غالِبًا في الجاهِلِيَّةِ على الإِماءِ، فَقَدْ كانُوا يَشْتَرونَهُنَّ لِلاكْتِسابِ بِبِغائِهِنَّ، حتَّى إِنَّ عَبْدَ اللهِ بْنَ أُبَيٍّ كانَ يُكْرِهُ إِماءَهُ على البِغاءِ بَعْدَ أَنْ أَسْلَمْنَ، فَنَزَلَ في ذلِكَ قوله تعالى: ﴿وَلَا تُكْرِهُواْ فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُواْ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [النُّورُ: 33]، فَاشْتَرَطَ على مَنْ يُريدُ أَنْ يَتَزَوَّجَ أَمَةً أَنْ يَتَحَرَّى فيها العِفَّةَ في السِّرِّ والجَهْرِ[1].

تَنْوِيعُ الأَسَالِيبِ فِي التَّنْفِيرِ مِنْ فَاحِشَةِ الزِّنَى

بَرَاعَةُ الاسْتِعَارَةِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مُحْصَنَٰتٍ غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ﴾:

اسْتُعيرَ لفظُ (السِّفاح) في قولِهِ تَعالَى: ﴿غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ﴾ للدَّلالة على كَثْرَةِ الزِّنى؛ إِذِ السَّفْحُ: صَبُّ المَاءِ بِتَدَفُّقٍ وسُرْعَةٍ، فَدَلَّ بِالأَمْرِ المَحْسوسِ عَلَى المَعْنى المَعْقولِ، وشَبَّهَ الزِّنى بِصَبِّ الماءِ في الأَنْهارِ والعُيونِ؛ لِأَنَّ الزَّاني لا غَرَضَ لَهُ إِلَّا صَبُّ النُّطْفَةِ فَقَط لا النَّسْلُ[2].

جَمالِيَّةُ الطِّباقِ بَيْنَ لَفْظَتَيْ: ﴿مُحْصَنَٰتٍ﴾ و﴿مُسَٰفِحَٰتٍ﴾:

مِمَّا يَخْدِمُ تَأْكيدَ التَّبايُنِ بَيْنَ المُحْصنةِ والمُسافِحة: الطِّباقُ[3] بينَ لَفْظَتَيْ ﴿مُحْصَنَٰتٍ﴾ و﴿مُسَٰفِحَٰتٍ﴾؛ لِأَنَّ التَّقابُلَ بَيْنَ اللَّفْظَتينِ مُشْعِرٌ بِمَزيدِ تَأْكيدٍ على أَنَّ المُحْصَنَةَ هِيَ الَّتي تَمْنَعُ فَرْجَها، والمُسافِحَةَ هي الَّتي تَبْذُلُهُ.

شَتَّانَ بَيْنَ الْمُؤْمِنَةِ الْمُحَافِظَةِ عَلَى عِرْضِهَا كَأَنَّهَا تُحَصِّنُهُ تَحْصِينًا، وَبَيْنَ الْمُسَافِحَةِ الَّتِي تَبْذُلُ عِرْضَهَا رَخِيصًا لِلطَّالِبِينَ

نُكْتَةُ نِسْبَةِ الإِحْصانِ إِلَى الإِماءِ تارَةً وَإِلَى الرِّجالِ تارَةً أُخْرى:

مِنْ لَطائِفِ الإِشاراتِ في هذا البابِ: أَنَّ اللهَ تعالَى قَدْ فَرَضَ الإِحْصانَ والعِفَّةَ على كُلٍّ مِنَ الزَّوْجَيْنِ، لَكِنْ جَعَلَ الإِحْصانَ وعَدَمَ

(1) الهرري، تفسير حدائق الروح والريحان: 6/18.
(2) أبو حيان، البَحْرُ المُحيط: 3/607.
(3) الطِّباقُ، ويُقالُ: المُطابَقَةُ والتَّضادُّ، وهُوَ الإِتْيانُ بِالنَّقيضَيْنِ والضِّدَّيْنِ، يَحْيى العلَوِيّ، الطِّرازُ لِأَسْرارِ البَلاغَةِ وعُلومِ حَقائِقِ الإِعْجاز: 3/198.

السِّفاحِ في نِكاحِ الإماءِ مِنْ قِبَلِ النِّساءِ: ﴿مُحْصَنَٰتٍ غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ﴾؛ لِكَوْنِهِ كَثيرَ الوُقوعِ مِنْهُنَّ، فَناسَبَ جَمْعَ المؤَنَّثِ بالإحْصانِ، وفي نِكاحِ الحَرائِرِ جَعَلَهُ مِنْ قِبَلِ الرِّجالِ، فَقالَ: ﴿أَن تَبْتَغُواْ بِأَمْوَٰلِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ﴾ [النِّساءُ: 24]، وقالَ في سُورَةِ المائِدَةِ: ﴿إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ﴾ [المائِدَةُ: 5]؛ لِأَنَّ الحَرائِرَ وُصِفْنَ بالإحْصانِ ابْتِداءً، ولِأَنَّهُنَّ - ولاسِيَّما الأَبْكارُ مِنْهُنَّ - أَبْعَدُ مِنَ الرِّجالِ في باب الفاحِشَةِ، وَأَقَلُّ انْقِيادًا لِطاعَةِ الشَّهْوَةِ، كما أَنَّ في ذِكْرِ إحْصانِ الرِّجالِ - أَيْضًا - تَسْوِيَةً بَيْنَهُما؛ لِأَنَّهُ مَطْلوبٌ فيهِما معًا[1].

الْحَرَائِرِ أَبْعَدُ مِنَ الرِّجَالِ فِي بَابِ الْفَاحِشَةِ وَأَقَلُّ انْقِيَادًا لِطَاعَةِ الشَّهْوَةِ

نُكْتَةُ تَقْديمِ ذِكْرِ المُسافِحاتِ عَلَى مُتَّخِذاتِ الأَخْدانِ:

جاءَ تَقْديمُ ذِكْرِ المُسافِحاتِ على المُتَّخِذاتِ الأَخْدانَ في قَوْلِهِ تعالى: ﴿غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ﴾؛ لِأَنَّ المُسافِحَةَ أَظْهَرُ في المُجْتَمَعِ، وأَجْرَأُ على المَعْصِيَةِ، وأَقَلُّ حَياءً مِنَ المُتَّخِذَةِ أَخْدانًا، فالمُسافِحَةُ بِمُجاهَرَتِها بالمَعْصِيَةِ تُريدُ أَنْ تَشيعَ الفاحِشَةُ في المُجْتَمَعِ، حتَّى لا تَكونَ مُنْفَرِدَةً بِشَناعَةِ مَعْصِيَتِها، ثُمَّ هِيَ بِكُلِّ ذلِكَ أَبْعَدُ عَنِ التَّوْبَةِ النَّصوحِ أَوْ تَرْكِ الزِّنى اكْتِفاءً بِزَوْجِها؛ إِنْ تَزَوَّجَتْ.

الزِّنَى بِجَمِيعِ صُوَرِهِ قَبِيحٌ، إِلَّا أَنَّ الْمُسَافِحَةَ أَكْثَرُ ضَرَرًا وَأَعْظَمُ خَطَرًا

كَما أَنَّ المُسافِحاتِ - وهُنَّ اللَّواتي يبذُلْنَ أَنْفُسَهُنَّ، ويَمْتَهِنَّ الزِّنى - يَزْنينَ مَعَ غَيْرِ مُعَيَّنٍ، فَهُوَ يَقَعُ مِنْهُنَّ عَلَنًا، وكانَتِ العَرَبُ تَمْقُتُ هذا، وتُسَمِّيهِ سِفاحًا، أَمَّا مُتَّخِذاتُ الأَخْدانِ؛ فَهُنَّ اللَّواتي يَصْحَبْنَ واحِدًا واحِدًا، ويَزْنينَ خُفْيَةً، فَهُنَّ لا يَزْنينَ مَعَ كُلِّ أَحَدٍ، بَلْ تَتَّخِذُ الواحِدَةُ منهنَّ خَليلًا تَخْتَصُّ بِهِ لا تَأْلَفُ غَيْرَهُ، فَهَذا يَقَعُ سِرًّا، وكانوا في الجاهِلِيَّةِ لا يَحْكُمونَ على المُخادِنَةِ بِكَوْنِها زانِيَةً، فَيَقولونَ: أَمَّا ما ظَهَرَ مِنْهُ؛ فَهُوَ لُؤْمٌ، وأَمَّا ما خَفِيَ؛ فلا بَأْسَ بِذلِكَ[2]، وهَذا النَّوْعُ الثَّاني، وَإِنْ كانَ يُشْبِهُ النِّكاحَ مِنْ جِهَةِ عَدَمِ التَّعَدُّدِ، فإِنَّهُ يُخالِفُهُ

السِّفَاحُ مُجَاهَرَةٌ بِالْفَاحِشَةِ، وَهُوَ مَذْمُومٌ مُسْتَشْنَعٌ فِي الْجَاهِلِيَّةِ وَالْإِسْلَامِ

(1) ابْنُ جماعَةَ الحَمَوِيُّ، كَشْفُ المعاني في المُتَشابِهِ مِنَ المثاني، ص: 137.
(2) جَواد عَلي، المُفَصَّلُ في تاريخِ العَرَبِ قَبْلَ الإسْلام: 9/141.

مِنْ جِهَةِ العِفَّةِ وجَهْلِ النَّسَبِ وَخَلْعِ بُرْقُعِ المُرُوءَةِ؛ ولِذَلِكَ عَطَفَهُ عَلى قَوْلِهِ: ﴿غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ﴾ سَدًّا لِمَداخِلِ الزِّنى كُلِّهَا[1]، وهذا نَصٌّ في تَحْرِيمِ السِّفاحِ والمُخادَنَةِ كِلَيْهِما، فَهُما في الحُكْمِ سَواءٌ، وَإِنِ اخْتَلَفَتْ صُورَةُ أَحَدِهِما عَنِ صورةِ الأُخْرى؛ وفي هَذا تَجْرِيمٌ للزِّنى بجميعِ صُوَرِهِ، وَسَدٌّ لِجَميعِ مَداخِلِهِ.

نُكْتَةُ عَدَمِ ذِكْرِ صِفَةِ اتِّخَاذِ الأَخْدَانِ فِي جَانِبِ الرِّجَالِ الأَحْرَارِ:

عِظَمُ حُرْمَةِ المُسْلِمَاتِ الحَرَائِرِ؛ إِذْ هُنَّ إِلَى الصِّيانَةِ أَقْرَبُ ومِنَ الخِيَانَةِ أَبْعَدُ

في عَدَمِ ذِكْرِ اتِّخاذِ الأَخْدانِ في قَوْلِهِ: ﴿مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ﴾ [النِّساء: 24]، وَذِكْرِهِمْ في قَوْلِهِ: ﴿مُحْصَنَٰتٍ غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ﴾ هُنا، وَفي المَائِدَةِ: ﴿مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍ﴾ [المائدة: 5]؛ لِأَنَّ الحُكْمَ في الأُولى وَقَعَ في حَقِّ الأَحْرارِ المُسْلِمينَ، فاقْتَصَرَ على لَفْظِ ﴿غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ﴾، تَنْبِيهًا على حُرْمَةِ الحَرائِرِ المُسْلِماتِ؛ لِأَنَّهُنَّ إِلَى الصِّيانَةِ أَقْرَبُ ومِنَ الخيانَةِ أَبْعَدُ، ولِأَنَّهُنَّ لا يَتَعاطَيْنَ ما يَتَعاطاهُ الإِماءُ والكِتابِيَّاتُ مِنِ اتِّخاذِ الأَخْدانِ[2].

بَلَاغَةُ الِاسْتِعَارَةِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَإِذَآ أُحْصِنَّ﴾:

الزَّواجُ إِحْصانٌ لِلْمَرْأَةِ وسَتْرٌ لها وتَكْرِيمٌ ورِفْعَةٌ:

إِطْلاقُ لفظ (الإِحْصان) عَلى النِّسَاءِ اللَّاتي يَتَزَوَّجُهُنَّ الرِّجالُ: استعارةٌ، حيثُ شُبِّهَ الزَّواجُ بالحِصْنِ الَّذي يُحْتَمَى بِهِ، وذلكَ عَلى جِهَةِ الاسْتِعَارة التَّصْرِيحيَّة التَّبعيَّة، فالنِّسَاءُ المُحْصَنَاتُ كَأَنَّهُنَّ في مَكانٍ حَصينٍ بالتَّزْويجِ.

المُهِمُّ في الإِسْلامِ إِيقاعُ حَدَثِ التَّزويجِ الَّذي هو حِصْنٌ للحُرَّةِ والأَمَةِ كِلْتَيْهِما:

واخْتيارُ تَسْمِيَتِهِنَّ بِذلِكَ تَكْرِيمٌ لَهُنَّ وَرِفْعَةٌ، وتَنْويهٌ بما يُتَوَقَّعُ مِنَ المَرْأَةِ المُسْلِمَةِ دائِمًا[3].

وهذا يَدُلُّ عَلَيْهِ - أَيضًا- حَذْفُ المُسْنَدِ إِلَيْهِ (الفاعل) بِبِناءِ الفِعْلِ لِلمَفْعولِ في ﴿أُحْصِنَّ﴾، وهُوَ مُشْعِرٌ بِصَرْفِ الهِمَّةِ إلى حَدَثِ التَّزْويجِ،

(1) ابنُ عاشور، التَّحرير والتَّنْوير: 5/16، والزَّمَخْشري، الكَشَّاف: 2/60، وأبو السّعود، إرشادُ العَقْلِ السّليم: 1/682، وإسماعيل حَقِّي، روح البيان: 2/190.

(2) الكَرمانيُّ، البُرْهانُ في تَوْجيهِ مُتَشابِهِ القُرْآن: ص: 96.

(3) ابنُ عاشور، التَّحرير والتَّنْوير: 5/16.

وَيُصَوِّرُ لنا الرِّفْعَةَ الَّتي تَنالُها الأَمَةُ بِهِ، فَهِيَ في حِصْنٍ مُرْتَفِعٍ ومَقامٍ كَريمٍ يصونُها، ويُحَصِّنُها.

نُكْتَةُ التَّغايُرِ بَيْنَ أَداتَيِ الشَّرْطِ (إِذَا) و(إِنْ) مِنْ قَوْلِهِ: ﴿فَإِذَآ أُحۡصِنَّ فَإِنۡ أَتَيۡنَ﴾:

مِنَ المُتَقَرَّرِ في عِلْمِ البَلاغَةِ أَنَّ (إذا) تُسْتَعْمَلُ لِما هُوَ مُحَقَّقُ الوُقوعِ، وتَدُلُّ على اليَقينِ والكَثْرَةِ والتَّأْكيدِ[1]؛ لِذا جاءَتْ كَثيرًا في بَيانِ الأَحْكامِ الشَّرْعيَّةِ، وأَمَّا (إِنْ) فَتَكُونُ لِما يُخالِطُهُ الشَّكُّ[2]، وما يَتْبَعُهُ مِنَ التَّقْليلِ.

فَضِيلَةُ الزَّوَاجِ فِي تَحْصِينِ النَّفْسِ وَالبُعْدِ عَنِ الوُقُوعِ فِي الفَوَاحِشِ

وَيَلْحَظُ القارِئُ في قَوْلِهِ تَعالى: ﴿فَإِذَآ أُحۡصِنَّ فَإِنۡ أَتَيۡنَ بِفَٰحِشَةٖ فَعَلَيۡهِنَّ نِصۡفُ مَا عَلَى ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ مِنَ ٱلۡعَذَابِۚ﴾، أَنَّ اللّٰهَ سُبحانه ذَكَرَ الإِحْصانَ في الآيَةِ وصَدَّرَهُ بـ (إذا) وأَكَّدَ وُقوعَهُ بِالفِعْلِ الماضي الَّذي يُفيدُ الوُقوعَ أَصالَةً مَعَ بِنائِهِ لِلْمَفْعولِ؛ زِيادَةً في تَأْكيدِ التَّأْكيدِ، وفي المُقابِلِ قَلَّلَ احْتِمالَ الإِتْيانِ بِالفاحِشَةِ على هَذِهِ الحالِ، فأَتى بَعْدَها بـ"إِنْ"؛ إيماءً إلى كَوْنِ الفاحِشَةِ غَيْرَ مُتَوَقَّعَةٍ مِمَّنْ هذه حالُهُ، وهذا مِنْ رَوْعَةِ البيانِ القُرآنيِّ الَّذي يُعْرَفُ بالضَّبْطِ في سياقِ الآياتِ ومَعانيها، فـ (إذا) جاءَتْ مَعَ (أُحْصِنَّ) وهَذا هُو الأَكْثَرُ، أَمَّا (إِنْ) فَجاءَتْ مَعَ اللَّواتي يَأْتينَ بِفاحِشَةٍ، وهُوَ نادِرُ الوقوعِ مِنَ المُحْصَنَاتِ.

لَفْظُ (المُحْصَنَاتِ) يُطْلَقُ عَلَى المُتَزَوِّجَاتِ، وَالحَرَائِرِ، وَالعَفِيفَاتِ، وَالسِّيَاقُ يُعَيِّنُ المُرَادَ:

دِلَالَةُ التَّجْنيسِ في مُشْتَقَّاتِ لَفْظِ (الإِحْصانِ):

مِنْ رَوْعَةِ البَديعِ في الآيَةِ الكَريمَةِ عُمومًا، وفي هذا المَقْطَعِ خُصوصًا: ظاهِرَةُ التَّجْنيسِ[3] بِتَقْليباتِهِ المُخْتَلِفَةِ[4] في لَفْظِ (الإِحْصانِ)، وهذا مِن شأنِه أن يُوَلِّدَ تَنْويعًا فَريدًا لِلْمَعاني:

(1) القَزْوينيُّ، الإيضاحُ في عُلومِ البَلاغَة: 2/117.

(2) بهاء الدِّين السُّبكي، عروس الأفراح: 1/323.

(3) التَّجْنيسُ أَوِ الجِناسُ: هُوَ تَشابُهُ لَفْظَيْنِ في النُّطْقِ، واخْتِلافُهُما في المَعْنى، أَحْمَد الهاشِمي، جَواهِرُ البَلاغَةِ، ص: 326.

(4) في لَفْظَةِ ﴿أُحْصِنَّ﴾ مَعَ لَفْظَةِ ﴿ٱلْمُحْصَنَٰتِ﴾ جِناسُ اشْتِقاقٍ، وهُوَ أَنْ تَجْتَمِعَ الكَلِمتانِ في أَصْلِ الاشْتِقاقِ، نَحْوُ: ﴿فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ﴾، وَيُسَمَّى المُقْتَضَبَ أَيْضًا، السُّيُوطِيُّ، الإِتْقانُ في عُلومِ القُرْآن: 3/312.

فَتارَةً يُطْلَقُ على الحَرائِرِ ﴿ٱلْمُحْصَنَٰتِ﴾، وتارَةً على العَفيفاتِ ﴿مُحْصَنَٰتٍ﴾، وتارَةً على المُتَزَوِّجاتِ ﴿فَإِذَآ أُحْصِنَّ﴾، في انْتِقالٍ لِلْمَعْنى لا يَتَّفِقُ لِلْبليغِ مِنَ النَّاسِ إلَّا على نُدْرَةٍ وقِلَّةٍ، وفي نِظامٍ يَقَعُ مَوْقِعَهُ مِنَ الحُسْنِ عِنْدَما يَكُونُ المَعْنى هُوَ الَّذي اسْتَدْعاهُ وساقَهُ؛ حتَّى تَكونَ كَلِمَتُهُ مِمَّا لا يَبْتَغي السَّامِعُ بها بَدَلًا، وَلا يَجِدُ عَنْها حِوَلًا.

نُكْتَةُ التَّعْبِيرِ بِالْعَنَتِ بَدَلَ الوُقُوعِ فِي الزِّنى فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ ٱلْعَنَتَ مِنكُمْ﴾:

مِنْ مَقَاصِدِ الشَّرِيعَةِ رَفْعُ الْعَنَتِ وَالْمَشَقَّةِ عَلَى الْمُسْلِمِ؛ وَلِذَا أُبِيحَ الزَّوَاجُ بِالْإِمَاءِ الْمُؤْمِنَاتِ بِشَرْطِهِ

تَنَوَّعَتْ مَعاني العَنَتِ في اللُّغَةِ بَيْنَ: الهَلاكِ، والمَشَقَّةِ الشَّديدَةِ، والفُجورِ، والزِّنى، والإِثْمِ، وخَوْفِ التَّلَفِ، وَالانْكِسارِ، وَكُلُّها دائِرَةٌ في فَلَكِ الضَّرَرِ والفَسادِ، وَأَشَدُّ الفَسادِ على الإنسانِ فَسادُ دينِهِ، وَأيُّ ضَرَرٍ أَعْظَمُ مِنْ ضَرَرِ القَلْبِ بِمُواقَعَةِ الفُجورِ؛ لِذا جاءَ التَّعْبيرُ هنا بِالعَنَتِ عَنِ الزِّنى؛ كِنايَةً[1] عَنِ الخَوْفِ مِنَ الوُقوعِ فيهِ، ولِشِدَّةِ مُكابَدَتِهِ أَمْرَ الشَّهْوَةِ، وإنَّما سُمِّيَ الزِّنى عَنَتًا؛ لِأَنَّهُ سَبَبُ المَشَقَّةِ بِالحَدِّ في الدُّنْيا والعُقوبَةِ في الآخِرَةِ[2]؛ لِأَجْلِ هذا أَشارَتِ الآيَةُ إلى إباحَةِ زواجِ الإماءِ عِنْدَ شِدَّةِ الرَّغْبَةِ في النِّكاحِ، مَعَ عَدَمِ اسْتِطاعَةِ التَّزَوُّجِ مِنَ الحَرائِرِ.

فَفي قولِهِ تَعالَى: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ ٱلْعَنَتَ مِنكُمْ﴾ كِنايَةٌ عَن موصوفٍ، وهو الزِّنى، فإنَّ الزِّنى يُوصَفُ بِكَونِهِ عنتًا، ويجوزُ أن يُخرَّجَ ذلك على المَجازِ المرسَلِ، وعلاقَتُهُ المُسَبَّبِيَّة؛ إذْ أُطْلِقَ المُسَبَّب: وهو العنتُ والهلكَةُ والشِّدَّة، وأُريد السَّبَبُ: وهُوَ الزِّنى.

نُكْتَةُ الْعُدُولِ عَنِ التَّعْبِيرِ بِالْمَصْدَرِ الصَّرِيحِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَن تَصْبِرُواْ﴾:

﴿وَأَن﴾ مِن قَوْلِ اللهِ تعالَى: ﴿وَأَن تَصْبِرُواْ﴾ مصدَرِيَّة تُسْبَكُ مَعَ مَا بَعْدَهَا بِمَصْدَرٍ، والتَّقديرُ: وصَبْرُكُم خيرٌ لَكُم، ونُكْتَةُ العدُولِ عَنِ

(1) الكِنايَةُ: لَفْظٌ أُطْلِقَ، وأُريدَ به لازِمُ معناهُ مَعَ جَوازِ إرادَةِ المَعْنى الأَصْليِّ، عَبْدُ المُتعال الصَّعيديُّ، بُغْيَةُ الإيضاحِ لِتَلْخيصِ المِفْتاح: 3/538.
(2) إسماعيل حَقِّي، روحُ البَيان: 2/191.

التَّعبيرِ بِصَريح المَصْدَرِ معَ أنَّه أَخْصَرُ إلى التَّعْبير بالمَصْدَرِ المُؤَوَّل: أنَّ الفعلَ المُضَارعَ دالٌّ على التَّجدُّد الاسْتِمْرَارِيِّ، وهو مناسبٌ لِذِكْرِ خَشْيَةِ الوقُوعِ في العَنَتِ؛ وذلكَ أنَّ مُقْتَضيات الصَّبْرِ مُتَجَدِّدةٌ وَقْتًا بعدَ وَقْتٍ، فكانَ التَّعْبِيرُ بالْفِعْلِ المُضَارِعِ أَنْسَبَ لِهَذَا المَعْنَى.

الصَّبْرُ: هُوَ الْحَالُ الْكُمْلَى اللَّائِقَةُ بِالْمُؤْمِنِ تَجَنُّبًا لِمَآلَاتِ نِكَاحِ الْأَمَةِ:

وفي تَوجيهِ المُؤْمنينَ إلى التَّحلِّي بخُلُقِ الصَّبْرِ بَدَلَ المُسارَعَةِ إلى نِكاحِ الأَمَةِ إشارةٌ إلى ما في الصَّبْرِ مِنْ تَرْبيةِ قُوَّةِ الإرادَةِ، وتَنْمِيَةِ مَلَكَةِ العِفَّةِ، وتَغْليبِ العقْلِ على عاطِفَةِ الهَوى، ولِما في نِكاحِ الأَمَةِ مِنْ إتْباعِ الوَلَدِ لِأُمِّهِ في الرِّقِّ، ولِثُبوتِ حَقِّ المَوْلى فيها وفي اسْتِخْدامِهَا كَيْفَمَا يُريدُ في السَّفَرِ والحَضَرِ، وعلى بَيْعِها لِلْحاضِرِ والبادي، ولِأَنَّهَا مُمْتَهَنَةٌ خَرَّاجَةٌ وَلَّاجَةٌ، فلا تَخْلُصُ لِلزَّوْجِ خُلوصَ الحَرائِرِ، وذَلِكَ كُلُّهُ نُقْصانٌ يَرْجِعُ على النَّاكِحِ بِنَوْعِ مَهانَةٍ، فلا يَنْتَظِمُ أَمْرُ بَيْتِهِ، والعِزَّةُ هِيَ اللَّائِقَةُ بِالْمُؤْمِنينَ[1].

بَرَاعَةُ الْمَقْطَعِ فِي التَّذْيِيلِ بِقَوْلِهِ: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾:

خَتْمُ الآيَةِ بِالمَغْفِرَةِ والرَّحْمَةِ فيه بَراعَةُ مَقْطَعٍ، وهُوَ مُناسِبٌ لِما سَبَقَ مِنْ بيانِ تلك الأَحْكام التَّشْريعيَّةِ في الآياتِ السَّابِقَةِ، وفيه إشارَةٌ إلى كَوْنِ هذِهِ الأَحْكَامِ مَبْنِيَّةً على الرَّحْمَةِ مِنَ اللهِ لِعِبادِهِ المُؤْمِنينَ.

وقوله سُبْحَانَهُ: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ تذييلٌ جارٍ مجْرَى المَثَلِ؛ لاسْتِقْلَالِه بالإفادَةِ، وعدَمِ افْتِقَارِه إلى مَا قَبْلَه في الكَشْفِ عَنْ أَصْلِ مَعْنَاه.

اللهُ غَفُورٌ لِمَنْ صَدَرَتْ مِنْهُ الهَفَوَاتُ، كَاحْتِقَارِ الإِمَاءِ الْمُؤْمِنَاتِ، رَحِيمٌ بِالْمُؤْمِنِينَ بِإِبَاحَتِهِ لَهُمْ نِكَاحَ الإِمَاءِ دَفْعًا لِلْعَنَتِ:

واللهُ ﷻ ﴿غَفُورٌ﴾، أَيْ: كَثيرُ المَغْفِرَةِ لِمَنْ صَدَرَتْ مِنْهُ الهَفَواتُ، كاحْتِقارِ الإماءِ المُؤْمِناتِ، وعَدَمِ الصَّبْرِ على مُعاشَرَتِهِنَّ بِالمَعْروفِ، وسُوءِ الظَّنِّ بِهِنَّ[2]؛ ﴿رَّحِيمٌ﴾ بعبادِهِ، حَيْثُ رَخَّصَ لَهُمْ فيما رَخَّصَ فيه بِإباحَتِهِ لَهُمْ نِكاحَ الإماءِ، وإنْ كان يُؤَدِّي إلى إرْقاقِ الوَلَدِ، مَعَ أَنَّ هذا يَقْتَضي المَنْعَ لاحْتياجِهِمْ إِلَيْهِ، فكانَ ذلكَ مِنْ بابِ المَغْفِرَةِ

(1) الزَّمَخْشري، الكَشَّاف: 2/60، وابن عطية، المُحَرَّرُ الوَجيز: 2/39.
(2) الآلوسيُّ، روحُ المعاني: 3/12.

والرَّحْمَةِ[1]، مَعَ ما في الجُمْلَةِ الاسْميَّةِ مِنَ التَّأكيدِ والدَّلالةِ على الثُّبوتِ والاسْتِقْرارِ، وما في إظْهارِ الاسْمِ الجَليلِ مِنْ تَرْبيَةِ المَهابَةِ.

تَوْجِيهُ المُتَشَابِهِ اللَّفْظِيِّ بَيْنَ قَوْلِهِ: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ وَقَوْلِهِ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾:

دِقَّةُ اخْتِيَارِ الأَسَالِيبِ المُلَائِمَةِ لِسِيَاقَاتِهَا

قال اللّه تعالى هُنا: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، وقال في مَوْضِعٍ آخَرَ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، ووجهُ المغايرَةِ بَيْنَهُما: أنَّ آية النِّساء تقدَّمها قولُ اللّه تعالى: ﴿وَأَن تَصْبِرُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾، فلمَّا انتهى الكلامُ، وأُريد استئنافُ جملةٍ جديدةٍ، وكان الخطابُ موجَّهًا للمؤمنين حثًّا لهم على الرُّسوخ في الإيمَانِ، وهُمْ غيرُ متردِّدين ولا منكرين؛ ناسبَهُ عدمُ التَّوكيدِ، فقال سُبحانَهُ: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، بخِلافِ آيَةِ الأنْفَالِ فَقَدْ صُدِّرت بقولِهِ تَعَالَى: ﴿فَكُلُواْ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ [الأنفال: 69]، فلمَّا أريد تعليلُ الحُكْمِ، وكان الخِطَابُ لِمَنْ عاتَبَهُمُ اللّه تعَالَى مِن أَهْلِ الإيمان؛ ناسبَ ذلك فصلَ الجملةِ وتأكيدَ الخبرِ بـ (إنَّ)؛ طمأنةً لهم، فقالَ ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

النِّكاح والزَّواج:

النِّكَاحُ: هُوَ عَقْدُ الزَّوَاجِ، ويُسْتَعَارُ لِلْجِمَاعِ، والزَّوَاجُ: يَدُلُّ عَلى مُطْلَقِ الاِقْتِرَانِ:

الأصل في النِّكاحِ: البِضَاعُ، وَامْرَأَةٌ نَاكِحٌ في بَنِي فُلَانٍ، أَيْ: ذَات زَوْجٍ مِنْهُمْ، وَالنِّكَاحُ قد يَكُونُ بالْعَقْدِ دُونَ الْوَطْءِ[2]، ومِنْهُ قوله تعالى: ﴿إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ﴾ [الأحزاب: 49]، أَيْ: عَقَدْتُمْ عَلَيْهِنَّ، أو أنَّ أصل النِّكاح للعقد، ثم استُعير للجماع[3]، ومحال أن يكون في الأصل للجماع، ثم استعير للعقد؛ لأنَّ أسماء الجماع كلَّها كنايات لاستقباحهم ذكره كاستقباح تعاطيه، ومحال

(1) الهَرَري، حَدائِقِ الرَّوْحِ والرَّيْحانِ: 6/18.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نكح).
(3) الأزهري، تهذيب اللغة: (أَبْوابُ الحاءِ والكافِ)، (حكن).

أن يستعير من لا يقصد فحشًا اسم ما يستفظعونه لما يستحسنونه، قال تعالى: ﴿وَأَنكِحُواْ ٱلۡأَيَٰمَىٰ﴾ [النُّور: 32]، وهو بذلك حقيقة في العَقْد لحِلِّ المخالطة بعد الإعلان، ومجاز في الوطء؛ لأنَّه سببه[1]، أَمَّا كَلِمَةُ الزَّواجِ؛ فَتَدُلُّ على مُطْلَقِ الاقْتِرانِ، فَكُلُّ ما قُرِنَ بِشَيْءٍ؛ فَهُوَ زَوْجٌ، وَهُما زَوْجانِ[2]، فَهُوَ أَشْمَلُ وَأَعَمُّ مِنْ حَيْثُ اللُّغَةُ، فَيُقالُ: تَزَوَّجَ بِامْرَأةٍ، أَيْ: أَصْبَحَتْ زَوْجَةً لَهُ، ومِنْهُ قولُهُ تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيۡدٞ مِّنۡهَا وَطَرٗا زَوَّجۡنَٰكَهَا﴾ [الأحزاب: 37]، وتُطْلَقُ على المُزاوَجَةِ والاقْتِرانِ بَيْنَ أَمْرَيْنِ، كَقَوْلِهِ: ﴿وَءَاخَرُ مِن شَكۡلِهِۦٓ أَزۡوَٰجٌ ٥٨﴾ [ص: 58]، أَيْ: أَلْوانٌ وأَنْواعٌ مِنَ العَذابِ[3]، فَبَيْنَهُما عُمومٌ وَخُصوصٌ: فالنِّكاحُ مَخْصُوصٌ بِالعَقْدِ الَّذي يَكُونُ بَيْنَ الرَّجُلِ والمَرْأةِ، والزَّواجُ عَامٌّ، وقد يكون النِّكاحُ التَّزوُّجَ، وهو أخذُ الرَّجل المرأة للمخالطة التَّامَّة؛ لأنَّها مخالطة يعرفها النَّاس، ويشهدون بها، أي: ليس اتِّصالًا خفيًّا، وهو الأنسب في تعبير الآية الكريمة في اتِّخاذ الأمة المسلمة بدلًا من الحُرَّة.

الأَجْر والثَّواب:

الأَجْرُ: هُوَ جَزاءُ العَمَلِ الَّذي يَكُونُ فيهِ عَقْدٌ أَوْ ما يَجْري مَجْراهُ، وَالشَّاهِدُ أَنَّكَ تَقُولُ: مَا أَعْمَلُ حَتَّى آخُذَ أَجْري، وَلَا تَقولُ: ثَوابي، أَمَّا الثَّوابُ؛ فَقَدِ اشْتَهَرَ في الجَزاءِ على الحَسَناتِ[4]، وَالأَجْرُ: يُقالُ في هذَا المَعْنى، ويُقالُ في ما مَعْناهُ: المُعاوَضَةُ بِالانْتِفاعِ، ومِنْها المَهْرُ[5]، وناسب في الآيةِ الكريمةِ استخدام الأجر مكان المَهر؛ لكونه مقابل استمتاع الزَّوج بامرأته، وهو في معنى المعاوضة.

الأَجْـــرُ: جَـزاءُ العَمَلِ بِعَقدٍ أو شِبْهِهِ، والثَّوابُ: مَـشْـهـورٌ في الـجَـزاءِ على الحَسَناتِ

(1) الراغب، المفردات، وجبل: المعجم الاشتقاقي المؤصل: (نكح).
(2) السَّمِيْن الحَلَبيُّ، عُمْدَةُ الحُفَّاظِ: 2/152.
(3) ابْنُ مَنْظورٍ، لِسَانُ العَرَب: (زوج).
(4) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 17.
(5) الزَّبيديُّ، تاجُ العَروس: (أجر).

العَذاب والعِقاب:

العِقَابُ: يُنْبِئُ عَنِ اسْتِحقاقٍ، وَسُمِّيَ بذلِكَ؛ لِأَنَّ الفاعِلَ يَسْتَحِقُّهُ عقيبَ فِعْلِهِ، وَيَجوزُ أَنْ يَكونَ العَذابُ مُسْتَحَقًّا وغَيْرَ مُسْتَحَقٍّ؛ فَالْعِقابُ يَقْتَضي بِظاهِرِهِ الجَزاءَ عَلى فِعْلَةِ المُعَاقَبِ عَقِبَ فِعْلِهِ، والعَذابُ لَيْسَ كَذلِكَ، فَبَيْنَهُما عُمومٌ وخُصوصٌ[1].

العِقَابُ: يُنْبِئُ عَنِ اسْتِحقاقٍ، والعَذابُ: قد يكونُ مُسْتَحَقًّا وغَيْرَ مُسْتَحَقٍّ

والنَّاظرُ في مواضع ورود (العقاب) في القرآن الكريم - وهي تصل إلى نحو عشرين موضعًا - يلحظ استخدامه فيما معناه: المآلُ والعاقبة في الجزاء؛ ولذا استُخدم في مقام الوعيد والتخويفِ والتهديد، وبيانِ ما حصل للمكذِّبين من الأمم مع رسلهم، وفي مخالفة أمر اللّه ورسوله ﷺ.

أمَّا (العذابُ)؛ فلوحظ فيه معنى وقوع الجزاء وملازمته للفاعل؛ لذا ذُكر بأنَّ أصله "الضَّرْب"، وَاحْتَجُّوا بِقَوْلِ زُهَيْرٍ:

وَخَلْفَهَا سَائِقٌ يَحْدُو إِذَا خَشِيَتْ *** مِنْهُ الْعَذَابَ تَمُدُّ الصُّلْبَ وَالْعُنُقَا

ثُمَّ اسْتُعِيرَ ذَلِكَ فِي كُلِّ شِدَّةٍ[2]؛ ولذلك استُخدم في مناسبات عديدة - مواضع وروده في القرآن تزيد على (300) موضعٍ - منها: تأكيد وقوعه على الكفَّار وغيرهم في الدُّنيا والآخرة، وفي طلب المؤمنين صرف عذاب النَّار عنهم، وفي مقام تنفيذ الحدود الشَّرعيَّة، كحدِّ الحرابة - وهو قطع الطَّريقِ على النَّاس، وإشهار السَّلاح عليهم - وحدِّ الزَّاني غير المُحصَن، وحدِّ الأمَة؛ إذا زنت، كما في الآية الكريمة هنا، لذلك كان التَّعبير بالعذاب مناسبًا وبليغًا في سياق الآية.

(1) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 364.

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ضرب).

﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمۡ وَيَهۡدِيَكُمۡ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَيَتُوبَ عَلَيۡكُمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ٢٦﴾ [النِّساء: 26]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

بَيانُ ما يُريدُهُ اللهُ لِهَذِهِ الأُمَّةِ مِنَ الهِدايَةِ والإِكْرام بَعْدَ ذِكْرِ التَّشْريعاتِ والأَحْكام

لَمَّا فَصَّلَ اللهُ ﷻ أَحْكامَ المُحَرَّماتِ مِنَ النِّساءِ، وَبَيَّنَ حُكْمَ العاجِزِ عَنْ نِكاحِ الحَرائِرِ مِنَ المُحْصَناتِ، والرُّخْصَةَ لَهُ في نِكاحِ الإِماءِ بالشُّروطِ الشَّرْعيَّةِ والآدابِ المَرْعيَّةِ؛ أَخْبَرَ أَنَّ كُلَّ هذا يُعَدُّ بَيانًا وَهُدًى لِأُمَّةِ الإِسْلامِ، حتَّى لا تَكونَ شَريعَةُ هَذِهِ الأُمَّةِ دونَ شَرائِعِ مَنْ سَبَقَها مِنَ الأُمَمِ، بَلْ تَفُوقُها في انْتِظامِ أَحْوالِها[1]، فَجاءَ التَّعْقيبُ: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمۡ﴾؛ لِيُبَيِّنَ ما يُريدُهُ اللهُ ﷻ لِهَذِهِ الأُمَّةِ بِهَذِهِ الأَحْكامِ والتَّشْريعاتِ والتَّنْظيماتِ، فَإِرادَتُهُ تعالى أَنْ يُبَيِّنَ لنا الحَلالَ والحرامَ، وأَنْ يَدُلَّنا على السُّنَنِ الحَميدَةِ لِمَنْ قَبْلَنا مِنَ الأَنْبياءِ والمُرْسَلينَ والشُّهَداءِ والصَّالِحينَ.

كَما أَنَّهُ ﷻ لَمَّا ذَكَرَ الحَلالَ والحَرامَ مِنْ تِلْكَ الحُدودِ والأَحْكامِ في الآيَةِ السَّابِقَةِ، وخَتَمَها بِصِفَةِ المغفرةِ والرَّحْمَةِ في قَوْلِهِ تَعالى: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾؛ بَيَّنَ في هَذِهِ الآيَةِ ما أَرادَ بِها مِنْ مُوجِباتِ الرَّحْمَةِ تَذْكيرًا بِالنِّعْمَةِ لِتُشْكَرَ، وتَحْذيرًا مِنْ أَنْ تُنْسى، فَتُكْفَرَ، فَقال تَعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمۡ وَيَهۡدِيَكُمۡ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَيَتُوبَ عَلَيۡكُمۡۗ﴾[2].

ومِنْ ناحِيَةٍ أُخْرى: فإِنَّ ذِكْرَ التَّوْبَةِ: ﴿وَيَتُوبَ عَلَيۡكُمۡۗ﴾ مُناسِبٌ لِختامِ الآيَةِ الَّتي قَبْلَها: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾؛ لِأَنَّ شَريعَةَ اللهِ مَبْنِيَّةٌ على الرَّحْمَةِ في الأَحْكامِ والمَقاصِدِ، فاللهُ الغفورُ الرَّحيمُ يُريدُ بِنا الرَّحْمَةَ في الأَحْكامِ والمَغْفِرَةَ والتَّوْبَةَ عِنْدَ العَجْزِ والتَّقْصيرِ.

(1) ابنُ عاشور، التَّحْرير والتَّنْوير: 5/18.
(2) البِقاعيُّ، نَظْمُ الدُّرَرِ: 5/540 - 541.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يُرِيدُ﴾: أَرَادَ الشَّيْءَ: شاءهُ، وأَحبَّه، وعُنِيَ بِهِ[1]، يُقالُ: أَرَاد يُريد إِرَادَة[2]، والمراد من الإرادة هنا: الإرادةُ الشَّرعيَّةُ: وهي المتضمِّنةُ محبَّةَ اللّه، ورضاه، وهي الأوامر الشَّرعيَّة، الَّتي يحبُّها اللّه، ويرضاها[3].

2) ﴿لِيُبَيِّنَ﴾: البَيْنُ والبَوْنُ: وُضوحُ الشَّيْءِ وجَلاؤُهُ بِامْتِدادٍ أَوِ اتِّساعٍ أَوِ انْقطاعٍ[4]، وأَصْلُ (بين): بُعْدُ الشَّيْءِ وَانْكِشَافُهُ[5]، ومِنْهُ البَيانُ والتَّبيينُ بِمَعْنى: الإيضاحِ والإِفْهام.

3) ﴿سُنَنَ﴾: جَمْعُ سُنَّةٍ، وهِيَ الطَّريقَةُ المَسْلوكَةُ، والسِّيرَةُ، ويَغْلِبُ إِطْلاقُها على الطَّريقَةِ المُسْتَقيمَةِ المَحْمودَةِ[6]، وهِيَ في الأَصْلِ: جَرَيَانُ الشَّيْءِ وَاطِّرَادُهُ في سُهُولَةٍ[7]، والمَعْنى هُنا: طَرائِقُ الَّذينَ مِنْ قَبْلِكُمْ ومناهِجُهم.

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

يُريدُ اللّهُ سُبْحانَهُ - بِتَشْريعِهِ هَذِهِ الأَحْكام لَكُمْ، فمرادُ اللّه فيها محبوبٌ له - أَنْ يُبَيِّنَ لَكُمْ مَعالمَ شَرْعِهِ ودينِهِ، وَما يَحِلُّ لَكُمْ، وَما يَحْرُمُ عَلَيْكُمْ مِمَّا فيه مَصالِحُكُم الدُّنْيَويَّةُ والأُخْرَويَّةُ، ويُريدُ أَنْ يُرْشِدَكُمْ إلى شَرائِعِ الأَنْبياءِ مِنْ قَبْلِكُمْ في التَّحليلِ والتَّحْريم، وشَمائِلِهِم الكَريمَة، وسِيَرِهِمُ الحَميدَةِ لِتَتَّبِعُوهُمْ، ويُريدُ جلَّ شأْنُهُ أَنْ يَرْجِعَ بِكُمْ عَنْ مَعْصيَتِهِ إلى طاعَتِهِ، واللّهُ عَليمٌ بما فيه مَصْلَحَةُ عِبادِهِ في أَمْرِ دينِهِمْ ودُنْياهُمْ، حَكيمٌ في تَشْريعِهِ وتَدْبيرِهِ لِشُؤونِهِمْ[8].

مِنْ تَمامِ رَحْمَةِ اللّهِ بِعِبادِهِ، هِدايَتُهُ لَهُمْ بِبَيانِ طَريقِ الحَقِّ، وتَوْبَتُهُ عَلَيْهِمْ مَعَ تَقْصيرِهِمْ

(1) ابن سيده، المحكم: (رود).
(2) ابْنُ الأَثيرِ، النِّهايَةُ في غَريبِ الحَديثِ والأَثَر: (رید).
(3) ابْنُ تيمية، مجموع الفتاوى: 8/188.
(4) الراغب، المفردات: (خدن)، (بين)، وجبل، المُعْجَمُ الاشْتِقاقيُّ المُؤَصَّل: (بون، بين).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بون، بين).
(6) الأزهري، تهذيب اللغة، وابْنُ مَنْظورٍ، لِسَانُ العَرَب: (سنن).
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سنن)، وجبل، المُعْجَمُ الاشْتِقاقيُّ المُؤَصَّل: (سنن، سنسن).
(8) القُرْطُبيُّ، الجامع لأحكام القرآن: 6/244، والمَحليّ والسُّيوطيُّ، تَفْسيرُ الجَلالَيْن، ص: 105، والمُخْتَصَرُ في تَفْسيرِ القُرْآنِ الكَريمِ، ص: 82.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دَلالَةُ الاِسْتِئْنافِ في قَوْلِهِ: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ﴾:

تَقْريرُ ما سَبَقَ مِنَ الأَحْكامِ، وبَيانُ كَوْنِها جَارِيَةً على مناهجِ المُهْتَدينَ مِنَ الأَنْبياءِ والصَّالِحينَ

فُصِلَ قولُهُ تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ عمَّا قبلَهُ؛ لوقوعِهِ استِئْنَافًا بيانيًّا؛ إذْ هذه الجملةُ واردة جوابًا عن سؤالٍ يُفْهَمُ ممَّا سبقَ؛ كأنَّ سائلًا سَأل: ما الحِكْمَةُ مِن تَشْريع تلك الأَحْكَام؟ فجاء الجَوَابُ: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ﴾.

وهَذِهِ الجُمْلَةُ: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ بِمَنْزِلَةِ التَّذييلِ الشَّامِلِ لِما سَبَقَ، والمرادُ منه إيناسُ المُؤْمنينَ واسْتِنْزالُ نُفوسِهِمْ إلى امْتِثالِ الأَحْكامِ المُتَقَدِّمَةِ مِنْ أَوَّلِ السُّورَةِ إلى هنا؛ فَإِنَّها أَحْكامٌ جمَّةٌ، وأَوامِرُ ونَواهٍ[1] يَسْمو بها المُجْتَمَعُ المُسْلِمُ، ويَتَخَلَّصُ بها مِنْ ظُلُماتِ أَهْلِ الجاهِلِيَّةِ وشَهَواتِهِمْ[2]، ويَرفَعُ بها مُسْتواهُ الإيمانيَّ إلى القِمَّةِ السَّامِقَةِ الوَضيئَةِ بِهدايَتِهِمْ إلى سُنَنِ السَّلَفِ الصَّالِحِ مِن الأُمَمِ السَّابِقَةِ، فَهذا الخِطابُ يَرْفَعُهُمْ إلى مَرْتَبَةٍ عُلْوِيَّةٍ تُؤَهِّلُهُمْ إلى هِدايَتِهِ لَهُمْ وتَوْبَتِهِ عَلَيْهِمْ.

نُكْتَةُ التَّعْبيرِ بِصيغَةِ المُضارِعِ في قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾:

إِفادَةُ التَّجَدُّدِ وَالاسْتِمْرارِ في الانْتِفاعِ بالْبَيانِ وَالْهِدايَةِ وَالتَّوْبَةِ، وَبَيانُ صَلاحِ هَذا الدِّينِ لِكُلِّ زَمانٍ ومَكانٍ:

جاء التَّعبيرُ بِصيغَةِ المُضارِعِ في الأفعال الأربعة: ﴿يُرِيدُ﴾ و﴿لِيُبَيِّنَ﴾ و﴿وَيَهْدِيَكُمْ﴾ و﴿وَيَتُوبَ﴾ في هذا السِّياقِ؛ لِلدَّلالَةِ على تَجَدُّدِ الاِنْتفاعِ بهذا البَيانِ واسْتِمرارِهِ، فَإِنَّ نَفْعَ هَذِهِ التَّشْريعاتِ والهِداياتِ والرَّحماتِ مُتَجَدِّدٌ مُسْتَمِرٌّ، فَتَكونُ بِذلِكَ مِنْحَةً لِلْمُخاطَبينَ ولِمَنْ جاءَ بَعْدَهُمْ، ولِلدَّلالَةِ على أَنَّ اللهَ تعالَى يُبْقي بَعْدَها بيانًا وهَدْيًا مُتعاقِبًا[3] صالِحًا لِكُلِّ زَمانٍ ومَكانٍ، ومُواكِبًا لِجَميعِ البيئاتِ وسائِرِ

(1) ابنُ عاشور، التّحرير والتّنوير: 5/18.
(2) أبو السّعود، إرشادُ العَقْلِ السّليم: 1/684.
(3) ابنُ عاشور، التّحرير والتّنوير: 5/18.

الأَحْوالِ ومُناسِبًا لِجَميعِ الأَجْيالِ، كَما كان امْتِدادًا لِما سَبَقَها مِنْ شَرائِعَ إِلهِيَّةٍ، فَشَريعَتُهُ شَريعَةٌ سَمْحَةٌ غَرَّاءُ، جَمَعَتْ، فَأَوْعَتْ، فَهِيَ عَريقَةُ الأُصولِ مورِقَةُ الفُروعِ وارِفَةُ الظِّلالِ يانِعَةُ الثِّمارِ على تَجَدُّدِ الجَديدَيْنِ؛ كَما أَنَّ تَوالي العَطْفِ بَيْنَ هَذِهِ الأَفْعالِ يُشْعِرُ بِتَوالي رَحماتِ اللّٰهِ في شَرْعِهِ وحُكْمِهِ، وعِنايَتِهِ بِخَلْقِهِ تَعَطُّفًا وتَكَرُّمًا.

دَلالَةُ اللَّامِ في ﴿لِيُبَيِّنَ﴾ بَيْنَ التَّأْكيدِ والمُبالَغَةِ:

في تَنَوُّعِ دِلالاتِ الْحُرُوفِ إِثْراءٌ لِلْمَعاني وَتَكْثيرٌ لَها

مِثْلُ هَذا التَّرْكيبِ: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ وَقَعَ في كَلامِ العَرَبِ قَديمًا، وقَدِ اخْتَلَفَ النُّحاةُ في مَعْنى اللَّامِ الدَّاخِلَةِ على الفِعْلِ ﴿لِيُبَيِّنَ﴾ وعَمَلِها، وفي تَقْديرِ مَفْعولِ الفِعْلِ ﴿يُرِيدُ﴾ قَبْلَها، وقَدْ خَرَّجوا المَسْأَلَةَ على مَذاهِبَ: فَمَذْهَبُ سيبَوَيْهِ وجُمْهورِ البَصْرِيِّينَ أَنَّ مَفْعولَ ﴿يُرِيدُ﴾ مَحْذوفٌ، واللَّامَ لِلتَّعْليلِ، والتَّقْديرُ: يُريدُ اللّٰهُ تَحْليلَ ما أَحَلَّ، وتَحْريمَ ما حَرَّمَ؛ لِأَجْلِ التَّبْيينِ لَهُمْ بِهِدايَتِهِمْ[1]، فَمُتَعَلَّقُ الإِرادَةِ غَيْرُ التَّبْيينِ وَما عُطِفَ عَلَيْهِ، وَلا يَجوزُ عِنْدَهُمْ أَنْ يَكونَ مُتَعَلَّقُ الإِرادَةِ التَّبْيينَ؛ لِأَنَّهُ يُؤَدِّي إِلى تَعَدِّي الفِعْلِ إِلى مَفْعولِهِ المُتَأَخِّرِ بِوَساطَةِ اللَّامِ، وَإِلى إِضْمارِ (أَنْ) بَعْدَ لامٍ لَيْسَتْ لامَ الجُحودِ، وَلا لامَ كَيْ، وَكِلاهُمَا لا يَجوزُ عِنْدَهُمْ[2].

وَمَذْهَبُ الكُوفِيِّينَ: أَنَّ مُتَعَلَّقَ الإِرادَةِ هُوَ التَّبْيينُ، وَاللَّامُ: هِيَ النَّاصِبَةُ بِنَفْسِها، لَا بِـ (أَنْ) مُضْمَرَةً بَعْدَها، وأَنَّها تَقومُ مَقامَ (أَنْ) في فِعْلِ الإِرادَةِ والأَمْرِ، فَيُقالُ: أَرَدْتُ أَنْ تَذْهَبَ، وأَرَدْتُ لِتَذْهَبَ، وأَمَرْتُكَ أَنْ تَقومَ، وأَمَرْتُك لِتَقُومَ، وَعليه قوله تَعالَى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾ [التَّوْبَة: 32]، وَقَالَ: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾ [الصَّفّ: 8]، وَقَالَ: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٦﴾﴾ [غَافِر: 66]،

(1) القَيْرَوانِّي، النُّكَتُ في القُرْآنِ الكَريمِ، ص: 189، وإِسماعيلُ الأَصبهانيُّ، إِعْرابُ القرآنِ، ص: 89.
(2) أبو حيان، البَحْرُ المُحيط: 3/600.

وَقَالَ: ﴿وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ﴾ [الشُّورى: 15][1]، فَإذا جاؤوا بِاللَّامِ أَشْبَهَتْ لَامَ التَّعْلِيلِ، فَقَدَّرُوا (أَنْ) بَعْدَ اللَّامِ المؤكِّدة.

وَمِنْ أهلِ الْعِلْمِ مَنْ قَرَّرَ قَوْلَ سِيبَوَيْهِ بِخِلافِ ما سَبَقَ؛ بِأَنَّ الْمَفْعُولَ الْمَحْذُوفَ دَلَّ عَلَيْهِ التَّعْلِيلُ الْمَذْكُورُ، فَيُقَدَّرُ: يُرِيدُ اللهُ الْبَيَانَ لِيُبَيِّنَ، ويَكونُ الْمَصْدَرُ الْمُنْسَبِكُ مَفْعُولَ (يُرِيدُ)، والمَعْنى: يُرِيدُ اللهُ الْبَيَانَ لَكُمْ وَالْهُدَى وَالتَّوْبَةَ، فَيَكُونُ الْكَلَامُ مُبَالَغَةً بِجَعْلِ الْعِلَّةِ نَفْسَ الْمُعَلَّلِ، فَكَانَ أَصْلُ الاسْتِعْمَالِ ذِكْرَ (أَنْ) الْمَصْدَرِيَّةِ، وَلِذَلِكَ فَاللَّامُ هُنَا لِتَوْكِيدِ مَعْنَى الْفِعْلِ الَّذِي قَبْلَهَا[2].

وذَهَبَ جَمَاعَةٌ إِلَى أَنَّ اللَّامَ ظَرْفٌ مُسْتَقِرٌّ، هُوَ خَبَرٌ عَنِ الْفِعْلِ السَّابِقِ، وَذَلِكَ الْفِعْلُ مُقَدَّرٌ بِالْمَصْدَرِ دُونَ سَابِكٍ، أَيْ: إِرَادَةُ اللهِ كَائِنَةٌ لِلْبَيَانِ عَلَى حَدِّ: (تَسْمَعُ بِالْمُعَيْدِيِّ خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَرَاهُ)[3]، ويَكونُ الْكَلَامُ عِنْدَهُمْ مَحْمُولًا عَلَى الْمُبَالَغَةِ، كَأَنَّ إِرَادَةَ اللهِ انْحَصَرَتْ فِي ذَلِكَ[4].

وتَنَوُّعُ هذهِ المَعَانِي إِثْرَاءٌ لِلنَّصِّ القُرآنِيِّ وتَكْثِيرٌ لِلْمَعَانِي؛ إِذِ القرآنُ الكريمُ حمَّالُ وُجُوهٍ، بعضُهَا يُكَمِّل بَعْضًا، وَيُقَوِّيه.

سِرُّ التَّرْتِيبِ بَيْنَ الْبَيَانِ وَالْهِدَايَةِ وَالتَّوْبَةِ فِي تَعَلُّقِ كُلٍّ مِنْهَا بِمَا قَبْلَهُ:

الْهِدَايَةُ ضَرْبَانِ: هِـدَايَـةُ إِرْشَـادٍ وَبَيَانٍ، وَهِدَايَةُ تَوْفِيقٍ وَإِلْهَامٍ

الهِدايَةُ هِدايَتان: هِدايَةُ بَيانٍ ودِلالَةٍ، وهِدايَةُ تَوْفيقٍ وإِلْهام، وهِيَ تَكونُ بَعْدَ هِدايَةِ البَيانِ، فَإذا حَصَلَ البَيانُ والتَّعْريفُ تَرَتَّبَ عَلَيْهِ هِدايَةُ التَّوْفيقِ؛ ولِأَنَّ مِنَ الأُمورِ ما قَدْ يُهْدَى المَرْءُ إِلى أَصْلِها دونَ تَفْصيلِها، فَهُوَ مُحْتاجٌ إِلى هِدايَةِ تَفاصيلِها، وأُمورٌ قَدْ هُدِيَ إِلَيْها مِنْ وَجْهٍ دُونَ وجهٍ، فَهُوَ مُحْتاجٌ إِلى تَمامِ الهِدايَةِ فيها، لِتَتِمَّ لَهُ الهِدايَةُ،

(1) الرازي، أُنْموذَج جَليل، ص: 67، والسَّايس، تَفْسيرُ آياتِ الأَحْكام، ص: 268.

(2) الفيروزابادي، بَصائِرُ ذَوي التَّمْييز: 4/411، وابنُ عاشور، التَّحْرير والتَّنْوير: 5/18.

(3) (تَسْمَعُ بِالْمُعَيْدِيِّ خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَرَاهُ)، ويروى: (لأَنْ تَسْمَعَ بِالْمُعَيْدِيِّ خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَرَاهُ)، وهو مَثَلٌ يُضْرَبُ لِمَنْ خَبَرُه خَيْرٌ من مَرْآهُ، قالَ المُفَضَّلُ: "أَوَّلُ مَنْ قال ذَلِكَ المُنْذِرُ ابْنُ ماءِ السَّماءِ"، الميداني، مَجْمَعُ الأَمْثال: 1/129.

(4) ابنُ عاشور، التَّحْرير والتَّنْوير: 5/19.

ويزدادَ هُدًى إلى هُداهُ، ولا يَكونُ ذلك إلَّا بالتَّفْصيلِ والبَيانِ، ولَمَّا كان العَبْدُ مُفْتَقِرًا إلى الهِدايَةِ في ظَاهِرِهِ وبَاطِنِهِ في جَميعِ ما يَأْتيه، ويَذَرُهُ مِنْ أُمورٍ قَدْ فَعَلَها عَلى غَيْرِ الهِدَايَةِ عِلْمًا وعَمَلًا وإرادَةً، أَوْ قَصَّرَ في الإتْيانِ بها عَلى وَجْهِها؛ فَهُوَ مُحْتاجٌ بَعْدَها إلى التَّوْبَةِ مِنَ التَّفْريطِ والتَّقْصيرِ.[1]

إذًا، فَهذا هُوَ التَّرْتيبُ الطَّبَعِيُّ، فَإنَّهُ قُدِّمَ البَيانُ على هِدايَةِ السُّنَنِ؛ لِأَنَّ البيانَ مُقَدَّمٌ على الهِدايَةِ، فالهِدايَةُ تَكونُ بَعْدَ البَيانِ، وإلَّا فَإلى أَيِّ شَيْءٍ يَهْديهِ؟ وأَمَّا التَّوْبَةُ؛ فَهِيَ بَعْدَ البَيانِ والهِدايَةِ، فَإنَّها تَكونُ بَعْدَ التَّقْصيرِ في الاتِّباعِ، وارْتِكابِ الذُّنوبِ والمَعاصي.

الشَّرِيعَةُ مَبْنِيَّةٌ عَلَى تَحْقِيقِ مَصَالِحِ الْعِبَادِ وَمَا فِيهِ نَفْعُهُمْ فِي الدُّنْيَا، وَفَلَاحُهُمْ فِي الْآخِرَةِ

دِلالَةُ حَذْفِ المَفْعُولِ في قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ﴾:

مَفْعولُ ﴿لِيُبَيِّنَ﴾ مِن قَوْلِهِ تَعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ مَحْذوفٌ بِدَليلِ السِّياقِ، وتَقْديرُهُ: يُريدُ اللهُ أَنْ يُبَيِّنَ لَكُمْ ما هُوَ خَفِيٌّ عَنْكُمْ مِنْ مَصالِحِكُمْ وأَفاضِلِ أَعْمالِكُمْ، أَوْ ما تَعَبَّدَكُمْ بِهِ مِنَ الحَلالِ والحَرامِ[2]، فَحُذِفَ إيجازًا لِشِدَّةِ ظُهورِهِ، فَقَدْ بَيَّنَ اللهُ سُبْحانَهُ أَوْضَحَ بَيانٍ وأَوْفاهُ كُلَّ ما يُصْلِحُ النَّاسَ في مَعاشِهِمْ، ويَنْفَعُهُمْ في مَعادِهِمْ، وهذا أَمْرٌ مُؤَكَّدٌ لا رَيْبَ فيه، دَلَّتْ عَلَيْهِ اللَّامُ المُؤَكِّدَةُ لِإرادَةِ التَّبْيينِ في ﴿لِيُبَيِّنَ﴾[3].

نُكْتَةُ تَقْديمِ العِلْمِ عَلَى الْحِكْمَةِ في قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾:

أَحْكَامُ اللهِ تَعَالَى نَاشِئَةٌ عَنْ كَمَالِ الْعِلْمِ وَكَمَالِ الْحِكْمَةِ

سِياقُ الآياتِ السَّابِقَةِ كُلُّهُ يَنْدَرِجُ تَحْتَ العِلْمِ بِأَحْكامِ المُحَرَّماتِ مِنَ النِّساءِ وما يَحِلُّ مِنْهُنَّ، فَكانَ المُقْتَضَى أَنْ تُقَدَّمَ صِفَةُ العِلْمِ، مَعَ مُلاحَظَةِ المُبالَغَةِ في الوَصْفِ بالعِلْمِ بِالأَشْياءِ الَّتي مِن جُمْلَتِها ما شَرَعَ اللهُ - جلَّ شَأْنُهُ - لِلْمُؤْمِنينَ مِنَ الأَحْكامِ، كَما فيه مُبالَغَةٌ

(1) ابْنُ القَيِّمِ، مَدارِجُ السَّالِكِين: 1/32، وابْنُ القَيِّمِ، الصَّلاةُ وأَحْكامُ تارِكِها، ص: 144.
(2) أبو السّعود، إرشادُ العَقْلِ السّليم: 1/684.
(3) الزَّمَخْشري، الكشاف: 2/60، والبَيْضاويُّ، أَنْوارُ التَّنْزيل: 2/70، وأبو السّعود، إرشادُ العَقْلِ السّليم: 1/684.

في وصْفِهِ بِمُراعاةِ الحِكمَةِ والمصْلَحَةِ في جَميعِ أَفْعالِه سُبْحانَهُ، مَعَ مَا في الجمع بين الوَصْفَيْنِ مِنَ الكَمَالِ والجَلالِ[1]، وقُدِّمَ العِلْمُ عَلَى الْحِكْمَة؛ لأنَّ الإتْقَانَ نَاشِئٌ عَنِ الْعِلْم[2].

تَوْجِيهُ الْمُتَشَابِهِ اللَّفْظِيِّ بَيْنَ قَوْلِهِ: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ وَقَوْلِهِ: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾:

تَنَاسُبُ مَقَاطِعِ آيِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ لِمَضَامِينِهَا

قال اللهُ سُبْحَانَهُ في الآية السَّابقة: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، وقال في هذه الآيَة: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾، ونُكْتَةُ اخْتِصَاص كُلِّ آيةٍ بما فيها مِنَ الأسمَاءِ الْحُسْنَى أنَّ الآية السَّابقة تقدَّمها قولُهُ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ ٱلْعَنَتَ مِنكُمْ ۚ وَأَن تَصْبِرُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ ۗ﴾، فلمَّا كان اللهُ سُبْحَانَهُ قَد أباحَ التَّزوُّجَ بالإمَاءِ - بشرْطِه - رفعًا لِلْحَرجِ ودفعًا لِلْمَشقَّة، وكان ذلك دالًّا على أنَّ اللهَ تعالى رَحِيمٌ بعِبَادِه، غفُورٌ لَهُم بالتَّجَاوُز عمَّا كان الأصلُ فِيهِ التَّحريم؛ ناسَب أن تُخْتَمَ الآيةُ بذِكْرِ الاسْمَيْنِ الدَّالَّيْنِ على هَذَيْنِ المَعْنَيَيْنِ، فقَال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

بخِلَافِ هذه الآية، فقد صُدِّرت بقولِهِ تَعَالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ۗ﴾، فلمَّا كان سبَبُ ذَلِكَ أنَّ اللهَ تعالى عَلِيمٌ بأحْوَالِهِم، حَكِيمٌ فيما يَشْرَعُ لهم مِمَّا فيهِ صَلَاحُهم، ناسَبَ ذَلِكَ خَتْمُ الآيةِ بِقَوْلِهِ: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾[3].

❁ الفُرُوقُ الْمُعْجَمِيَّةُ:

البَيان والهُدى:

البيانُ إظْهارُ المَعْنى لِلنَّفْسِ كائِنًا ما كانَ، فَهُوَ في الحَقيقَةِ مِنْ قَبيلِ القَوْلِ، وهو الكلامُ الفصيحُ البليغ الَّذي فيه يظهر المعنى،

البيانُ إظْهارُ المَعْنى لِلنَّفْسِ كائِنًا ما كانَ، والهُدى بَيانُ طَريقِ الرُّشْدِ لِيُسْلَكَ

(1) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 1/684.
(2) الزركشي، البرهان في علوم القرآن: 3/247.
(3) سعد عبد العظيم، استدراك ما فات من بلاغة الآيات المتشابهات، ص: 366.

ويوضِّح ما كان مستورًا قبله للمخاطب[1]، أمَّا الهُدى؛ فهو الإرشادُ والدَّلالةُ بلُطْفٍ إلى ما يُوصِلُ إلى المَطْلوبِ، يُقال: هَداه هُدًى وهَدْيًا وهِدايَةً وهِدْيَةً، وهَداهُ للدِّين، أي: أرْشَدَهُ إليه، وبَيَّنَهُ له، وعَرَّفَهُ بِه، فهو بَيانُ طَريقِ الرُّشْدِ لِيُسْلَكَ دونَ طَريقِ الغَيِّ[2]؛ لذلك جاء بعد توضيح الأحكام الشَّرعيَّة ذكر الهداية، وهي: الإرشادُ والدِّلالة لما فيه التَّوفيق، والفلاح، وجاءَ وَصْفُ القُرْآنِ بِهِما جَميعًا في قَوْلِهِ تَعالى: ﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾﴾ [آل عمران: 138]، أَيْ: بَيَانٌ لِلنَّاسِ عامَّةً، يُبَيِّنُ لِلنَّاسِ الحَقَّ مِنَ الباطِلِ، وهُدًى لِقُلوبِ المُتَّقين مِنَ الضَّلالَةِ[3].

(1) السيوطي، البيان والمعاني والبديع، ص: 63، وأبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 01/684.
(2) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن سيده، المحكم: (هدى)، والعسكري، الفروق اللغوية، ص: 109.
(3) تَفْسيرُ ابْنِ كَثيرٍ: 2/110.

﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡكُمۡ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُواْ مَيۡلًا عَظِيمٗا ٢٧ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمۡۚ وَخُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ ضَعِيفٗا ٢٨﴾ [النّساء: 27 - 28]

مُناسَبَةُ الآيَتيْنِ لِمَا قَبْلَهُما:

بيانُ عِلَلِ التَّخفيفِ وأسبابِه في تَزَوُّجِ الإماءِ، عَقِبَ ذكر أحكام الزَّواج مِنْهُنَّ

لَمَّا قرَّرَ ﷻ إرادتهُ لِصلاح عبادِهِ المؤمنينَ، ورغَّبَ في اتِّباعِ الهدى بِعِلْمِهِ وحِكْمَتِهِ، عَطَفَ بِالتَّذْكيرِ بِأَنَّهُ لا يَزالُ مُراعيًا رِفْقَهُ بِهذِهِ الأُمَّةِ، وإرادَتَهُ بِها اليُسْرَ دونَ العُسْرِ، كَما بَيَّنَ طَريقَةَ أَهْلِ الزَّيْغِ مِنْ أَهْلِ الكِتابِ في تَعامُلِهِمْ مَعَ أَحْكامِ اللّهِ، بِالتَّبْديلِ والتَّغييرِ[1]، لِنَحْذَرَ مِنْ مُشابَهَتِهِمْ في ذلِكَ، والمَقْصِدُ بِهَذِهِ الآيَةِ تَخْفيفُ اللّهِ تَعالى بِإِباحَةِ نِكاحِ الإماءِ، وكان إِخْبارُهُ عَنْ ضَعْفِ الإِنْسانِ، انطلاقا من علمه بِضَعْفِ الرِّجالِ عَنِ الصَّبْرِ عَنِ النِّساءِ، فيسّر لهم بِإِباحَةِ ذلك[2]، فَجاءَتْ هاتانِ الآيَتانِ وما قَبْلَهُما لبيان الإرادَةِ الشَّرْعيَّةِ، بالتَّخْفيفِ عَلَيْنا، بالأمر بِإِباحَةِ الزَّواجِ بالإماءِ، وفي ذلك إِشارَةٌ واضِحَةٌ إلى أَنَّ المُجْتَمَعَ الإِسْلامِيَّ يخلو مِنَ الزِّنا والفاحِشَةِ[3]، ثمّ إِنَّ اللّه تَعالى ذَكَرَ أَحْكامَ النِّكاحِ بَيانًا وإِسْهابًا، وأعقبها بذكر عِلَلِها وأَحْكامها، لِيَكونَ في ذَلِكَ طُمَأْنينَةٌ لِلْقُلوبِ، وسُكونٌ لِلنُّفوسِ، فَتُقْبِلَ عَلَيْها وهِيَ عَالِمَةٌ بِأَنَّ لها في هَذِهِ الأَحْكامِ سَعادَةً في دُنْياها وأُخْراها[4].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلشَّهَوَٰتِ﴾: شَهِيَ الشَّيْءَ، وشَهاه يَشْهاهُ شَهْوةً، أَحَبَّهُ وَرَغِبَ

(1) ابنُ عاشور، التّحرير والتّنْوير: 05/22.
(2) ابْنُ عَطِيَّةَ، المُحَرَّرُ الوَجيزُ: 02/40.
(3) الرَّازيُّ، مفاتيح الغيب: 10/55.
(4) الهَرَري، حَدائِقِ الرَّوْحِ والرَّيْحانِ: 6/28.

فِيهِ[1] وأَصْلُ الشَّهْوَةِ: نُزوعُ النَّفْسِ إلى ما تُريدُهُ[2]، والمَعْنى هُنا: اللَّذَّاتُ المُحَرَّمَةُ كالزِّنا ونَحْوِهِ[3]، "واتّباع الشّهوات مُرْدٍ، وطاعتُها مُهلكةٌ، وفي الحديث: «حفّت الجنّة بالمكاره، وحفّت النّار بالشّهوات»، حيث الجنّة لا تنال إلّا بقطع مفاوز المكاره، وأنّ النّار لا منجى منها إلّا بفطام النّفس عن الشّهوات[4]، والنّأي عن دواعيها في الخلوات والجلوات.

2) ﴿تَمِيلُواْ مَيۡلًا﴾: مَالَ عَنِ الشَّيْءِ: عَدَلَ، وانْحَرَفَ[5]، يُقالُ مالَ يَميلُ مَيْلًا ومَيَلانًا، والمَيْلُ أَيْضًا الجَوْرُ والحَيْفُ، ومِنْهُ المَيْلُ في الحُكْمِ[6]، أَي: الجَوْرُ، وأَصْلُ كَلِمَةِ (مَيْلٍ) تَدُلُّ على انْحِرافٍ في الشَّيْءِ[7]؛ والمَعْنى هنا تَنْحَرِفوا عَنِ الدِّينِ وتَضِلُّوا، "وقال ابن السّكّيت: الأميلُ عند الرّواة: الّذي لا يثبت على ظهور الخيل، إنّما يميل عن السّرج في جانب، فإذا كان يثبت على الدّابة قيل: فارس، وإن لم يثبت، قيل: كفل، والجمع ميل، قال جرير:

لَمْ يَرْكَبُوا الْخَيْلَ إِلَّا بَعْدَمَا هَرِمُوا *** فَهُمْ ثِقَالٌ عَلَى أَكْتَافِهَا مِيلُ"[8]

3) ﴿ضَعِيفًا﴾: الضَّعْفُ: ضِدُّ القُوَّةِ، ويَكونُ في البَدَنِ وَالرَّأْيِ، وأَصْلُ الضَّعْفِ يَدُلُّ على خِلَافِ الْقُوَّةِ، وضَعْفُ الإِنْسانِ لِكَثْرَةِ حاجاتِهِ التي يَسْتَغْني عَنْهَا المَلَأُ الأَعْلَى ومَعْنَى ﴿وَخُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾: أَي يَسْتَمِيلُه هَواهُ[9]، وقد خلق الله الإنسان ضعيفًا أمام غرائزه وميوله، فلا فكاك له منها، ولا منأى له عنها، فيناسبه من التّكاليف ما فيه يسرٌ وسعةٌ، وذلك هو ما يكلّف الله به عباده، فضلاً منه ورحمة، وتيسيرا عليهم ونعمة[10].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

تؤكّد الآية للمؤمنين أنّ اللهَ يُريدُ أَنْ يَتوبَ عَلَيْهِمْ، ويَتَجاوَزَ عَنْ سَيِّئاتِهِمْ، ويُريدُ الّذينَ يَسيرونَ خَلْفَ مَلَذَّاتِهِمْ، أَنْ يبْعُدوا عَنْ طَريقِ الِاسْتِقامَةِ بُعدًا شَديدًا فَيكُونُوا

(1) ابن سيده، المحكم: (شهو).
(2) الرَّاغِبُ، المُفْرداتُ: (شها).
(3) ابن جرير، جامع البيان: 6/221.
(4) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 4/28.
(5) الجَوْهَريُّ، الصِّحاحُ: (حرف)، والزَّبيديُّ، تاجُ العَروسِ: (ميل).
(6) الخليل، العَينُ: (عول)، والرَّاغِبُ، المُفْرداتُ: (جنف).
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (مَيَلَ).
(8) الزَّبيديّ، تاج العروس: (مَيَلَ).
(9) الرَّاغِبُ، المُفْرداتُ، ومُرْتضى الزَّبيديُّ، تاجُ العَروسِ، وابن فارس، مقاييس اللغة: (ضعف)
(10) لجنة من علماء الأزهر، المنتخب في تفسير القرآن الكريم، ص: 113.

مِثْلهمْ، ثمّ يخاطبهم قائلا: يُرِيدُ اللهُ أَنْ يُسَهِّلَ عَلَيْكُمْ فِي أَحْكامِ الشَّرْعِ، فَلا يُكَلِّفُكُمْ ما لا تُطيقونَ؛ لِأَنَّهُ عالِمٌ بِضَعْفِ الإِنْسانِ في خَلْقِهِ، وعدم اتّزانه في خُلُقِهِ[1]، فراعى له تلك الخصوصيّة، وعامله بلطفه وإحسانه.

كُلَّما كَثُرَ دُعاة الشَّهوات جاء لطفُ اللَّطيفِ؛ وكُلَّما طفت الشِّدَّةُ جاء التَّخفيف

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

دَلالَةُ تَقْديمِ المُسْنَدِ إِلَيْهِ في: ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾:

﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُواْ مَيْلًا عَظِيمًا﴾: تأكَّدَ مضمونُ الجملةِ بمجيءِ الجملةِ اسميَّةً، ولمّا وردَ الخبرُ جملةً فعليَّةً أفادَ تقويةَ الإسنادِ بتكرُّرِ المسندِ، مرةً بمجيئِهِ اسمًا ظاهرًا، وأخرى بمجيئِهِ ضميرًا مستترًا في ﴿يُرِيدُ﴾، فكأنَّ الإسنادَ تكرّرَ مرَّتينِ لِلمبالغةِ.

تَأْكيدُ حُكْمِ الإِسْنادِ وتَقْوِيتُه، وبَيانُ خُصوصيَّةِ التَّوْبَةِ وأَهَمِّيَّتِها

مناسبةُ مجيءِ الكلامِ على أسلوبِ الجملةِ الاسميّةِ:

لمّا كانتِ التَّوبةُ لها خَصوصيَّةٌ وردَ الكلامُ على أسلوبِ الجملةِ الاسميّةِ، فخالفَ ما سبقَ في قَوْلِهِ: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ﴾ ولِحاقِهِ في قَوْلِهِ ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ﴾، وفي تَكْمِلَةِ الآيَةِ نَفْسِها ﴿وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ﴾؛ فَجَميعُها وردَ على أسلوبِ الجملةِ الفعليَّةِ، فخالفَ في التَّعبيرِ في قولِه ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾؛ لِمَا تفيدُهُ الجملةُ الاسميَّةُ مِنَ الإشعارِ بالحصرِ، فاللهُ وحدَهُ هو الذي يريدُ أنْ يتوبَ عليكم، ولِمَا تفيدُهُ مِنْ تقويةِ الحكمِ وتأكيدِهِ؛ لِأهميّةِ تقريرِ المعنى في نفوسِ المخاطبينَ، والغرضُ هو التَّحريضُ عَلى التَّوْبَةِ وَالإِقْلَاعِ عَنِ المَعاصي[2].

(1) الزَّيد، مُخْتَصَرُ تَفْسيرِ البَغَويِّ: 1/175، والمحلي والسيوطي، تَفْسيرُ الجَلالَيْنِ، ص: 105، وجَماعَةٌ مِنْ عُلَماءِ التَّفْسيرِ، المُخْتَصَرُ في تَفْسيرِ القُرْآنِ الكَريمِ، ص: 83.

(2) ابنُ عاشور، التّحرير والتّنْوير: 5/21.

بلاغةُ مجيءِ الكلامِ على خلافِ مقتضَى الظّاهرِ في الخطاب بقولِه ﴿يَتُوبَ عَلَيۡكُمۡ﴾ ووقولِه ﴿يُخَفِّفَ عَنكُمۡۚ﴾:

التّوبةُ تشملُ كلَّ المسلمين

لمّا كانَ الخطابُ يقتضي توجيهَ الكلامِ إلى حاضرٍ، وهوَ لا يكونُ إلَّا شاهدًا معيَّنًا كانَ تركُهُ إلى غيرِ معيّنٍ؛ ليفيدَ العمومَ مِنْ إخراجِ الكلامِ على خلافِ مقتضَى الظّاهرِ، وهوَ مِنْ قبيلِ وضعِ المضمَرِ موضعَ الظّاهرِ كذلكَ، فحُمِلَ هنا قوله ﴿عَلَيۡكُمۡۗ﴾ و﴿تَمِيلُواْ﴾ و(عَنكُم) على عمومِ المؤمنينَ؛ قصدًا إلى تعظيمِ أمرِ التَّوبةِ وتحصيلِها، وأنّها تشملهمْ جميعًا، فلا تختصُّ بمخاطَبٍ دونَ مخاطَبٍ، بلْ كلُّ مؤمنٍ له مدخلٌ في هذا الخطابِ، كما أنَّ في الخطابِ مِنَ المواجهةِ بالتّودُّدِ والتّحبُّبِ والتّكريمِ والاهتمامِ ما لايخفى، وَلِيُنَبِّهَ بهذا الخِطابِ أَسْماعَهُمْ، فَتَهْتَزَّ نُفوسُهُمْ؛ لِلشُّعورِ بِعِظَمِ مَكانَتِهِمْ عند اللّه تعالى[1].

دلالةُ الفعلِ المضارعِ ﴿يُرِيدُ﴾، ﴿يَتُوبَ﴾:

أفادَ مجيءُ الفعلين بصيغةِ المضارعِ استمرارَ إرادةِ اللّهِ لأنْ يتوبَ على المؤمنينَ المذنبينَ، واستمرارِ قبولِ توبتِه على المؤمنين

نكتةُ التّعبيرِ بالمصدرِ المؤوّلِ:

لمْ يأتِ المصدرُ بصيغةِ الصّريحِ، فلمْ يقلْ (يريدُ التّوبةَ عليكم)؛ لإفادةِ تطاولِ زمنِ إرادةِ التّوبةِ وامتدادِه؛ ليشملَ الحالَ والمستقبلَ الممتدَّ بقرينةِ السِّياقِ، ولِتصويرِ حالةِ حبِّ اللّهِ لِتوبةِ عبادِهِ المؤمنينَ، وأيضا لِبيانِ أنَّ الغرضَ هو تحصيلُ مطلقِ التّوبةِ من غيرِ تقييدٍ بوصفٍ، ترغيبًا في تحصيلِ أصلِ التّوبةِ والإسراعِ فيها.

مناسبة التّعبير بالاسم الموصول في قوله: ﴿وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُواْ﴾:

عبّرَ بالاسمِ الموصولِ لفوائدَ هي:

أوّلاً: أفاد الاسم الموصول العموم ليشملَ كلَّ متَّبعٍ للشَّهوات من أهل الباطلِ وطلَّاب الفواحشِ وغير ذلك ممّا حرَّمه اللّه[2]

(1) الإسفراييني، الأُطْوَلُ: 1/295.

(2) ابن جرير جامع البيان، وابن عطية، الوجيز: 2/40.

ثانيًا: للتوسّلِ إلى الصِّلةِ التي تدلُّ على أنّ المؤمنينَ يعرفونَ الَّذينَ يتّبعونَ الشَّهواتِ لِمَا تُشعِرُ بهِ جملةُ الصِّلة مِنْ أنّها معلومةُ الانتسابِ عندَ المخاطبينَ إلى مشارٍ إليهِ معلوم.

ثالثًا: كما أنَّ في ذِكْرِ الصِّلَةِ تَشْنِيعًا لِحالِ أَصحابِ الشَّهواتِ، وإيماءً إلى أنَّ اتّباعَ الشَّهواتِ موصِلٌ إلى العدولِ عنِ القصدِ والاستقامةِ[1]

بلاغةُ العدولِ عن الجملةِ الاسميَّةِ إلى الجملة الفعليَّةِ:

في العدولِ عن الجملةِ الاسميَّةِ إلى الفعليَّةِ فوائدُ هيَ:

كَمالُ المُبايَنَةِ بَيْنَ إرادَةِ اللهِ وإرادَةِ مُتَّبعي الشَّهَواتِ

أوّلاً: في الآيةِ الكريمةِ مُباينةٌ عجيبةٌ بينَ كمالِ منفعةِ ما أَرادهُ اللّهُ تعالى مِنْ رحمةٍ وتخفيفٍ، وكمالِ مضرَّةِ ما يريدُهُ الفجرةُ، فقُدِّمَتْ إرادةُ اللّهِ وغُيِّرَ الأُسلوبُ إلى الجملةِ الاسميَّةِ توطئَةً لإظهارِ فسادِ متَّبعِي الشَّهواتِ، ودلالَةً على دوامِ الإرادةِ الإلهيَّةِ.

ثانيًا: بدأَ بصيغةِ الفعلِ في قولِهِ ﴿وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُواْ﴾ لِلْإِشارَةِ إلى تجدّدِ حدوثِ إرادتِهم في كلِّ وقتٍ، ولِلْإيماءِ إلى كمالِ المُباينةِ بَينَ مَضمونَي الجملتَيْنِ[2].

ثالثًا: عَطْفُ ذِكرِ إرادةِ مُتّبعي الشَّهواتِ بَعدَ ذِكرِ إرادةِ اللّهِ على جِهةِ التَّقابلِ والتَّضادِّ المُتدرِّجِ الواقعِ في المَوقفِ، لِلتَّبصِرَةِ والعِظَةِ بِما تُنتجهُ المُقارنةُ مِنْ تَفاوتٍ بَينَ الإرادتَيْنِ؛ فَالمَظنونُ في هذهِ المُقابلَةِ أَنْ يَقولَ: (واللّهُ يُريدُ أَنْ تَسْتَقيموا) مَثَلًا أَوْ (أَنْ تُطيعوهُ)، فَإِنَّ الاستقامةَ تُقابلُ المَيلَ، فلمّا قالَ: ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ ذَكَرَ ما هُوَ أَخَفُّ، وأشعرَ بأنَّ في التّوبةِ الاستقامةَ.

رابعًا: في ذِكْرِ إرادةِ اللّهِ في مُقابلِ ما يُريدُهُ الذينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَواتِ يَظْهَرُ كَمالُ رَحمةِ اللّهِ وحبِّهِ للمؤمنينَ.

(1) البَيْضاويُّ، أَنْوارُ التَّنْزيلِ: 2/70، والسّكاكي، مفتاح العلوم/182، والقونْويُّ، حاشيةُ على تفسير البيضاوي: 7/124، وابنُ عاشور، التّحْرير والتّنْوير: 5/21.

(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/40، وأبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 1/684.

مناسبةُ تأخيرِ المسندِ إليهِ في قولِه: ﴿وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُواْ﴾:

تَأخيرُ المسندِ إليهِ في الجملَةِ الثَّانيةِ مِنَ الآيَةِ يَدُلُّ على أَنَّ أَصحابَ الشَّهواتِ مِنَ الزُّناةِ والعُصاةِ[1]، لَيْسوا وحدَهُمُ الذينَ يُريدونَ لِلْمسلمينَ أَنْ يَميلوا مَيْلًا عَظيمًا، بَلْ هناكَ غيرُهُمْ مِمَّنْ يريدُ ذلكَ مِنَ المُنافِقينَ وأَهْلِ الكِتابِ لذا تَأَخَّرَ المُسْنَدُ هُنا، وخَصَّهم بالذِّكرِ هنا لِمناسبةِ المقامِ

ليسَ أَصْحابُ الشَّهَواتِ وحدَهم الَّذينَ يُريدونَ ميلَ المسلمِينَ ميلًا عظيمًا

نُكتةُ التَّعبيرِ بقولِه ﴿يَتَّبِعُونَ﴾:

عبّر بالاتّباع لِما فيه من معنى اقتفاءِ الشّهواتِ ولحاقِها وتطلّبِها أينما كانت، فهيَ أمامَهُ، وهو تابعٌ لها معَ موافقته عليها، ورغبتِه فيها[2]

بلاغةُ الاستعارة التّمثيليّة في قوله ﴿يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ﴾:

لمّا كانَ الاتّباعُ عنْ أمرٍ مِنَ المتبوعِ، وكانَ هؤلاءِ يدورونَ معَ شهواتِ أنفسِهم مِنْ غيرِ تحاشٍ عنها، ويَلحقُونَها أَينما كانتْ، دلَّ على أنَّ انهماكَهمْ فيها بمثابةِ أنْ تكونَ الشّهوات هي التي أَمرتهم باتِّباعِها فامتثلوا أَمرَها واتَّبعوها، فهو استعارةٌ تمثيليَّةٌ للمبالغةِ في التّحذيرِ منهمْ[3].

تصويرُ انهماكِ أصحابِ الشّهواتِ فيها لِلمبالغةِ في التّحذيرِ منهمْ

نُكْتَةُ تَأْكيدِ الفِعْلِ بِالمَصْدَرِ ووَصْفِهِ بِالْعِظَمِ في قولِه: ﴿أَن تَمِيلُواْ مَيْلًا عَظِيمًا﴾:

فقد أَكَّدَ فعلَ المَيلِ بِالمَصدرِ على سبيلِ المبالغةِ، ولَمْ يكتفِ حتَّى وصفَهُ بِالعِظَمِ، على معنى غايةِ الميلِ عن الحقِّ ومُنتهاهُ، وذلكَ أَنَّ الميولَ قدْ تختلِفُ، فقدْ يَتركُ الإنسانُ فِعلَ الخَيرِ لِعارِضِ شُغلٍ أَوْ لِكسلٍ أَوْ لِفسقٍ يَستلذُّ بِهِ، أَوْ لِضَلالَةٍ بِأَنْ يَسبقَ لَهُ سُوءُ اعتقادٍ،

بَيانُ شِدَّةِ حِرْصِ أَصْحابِ الشَّهَواتِ على إِضْلالِ النَّاسِ وعِظَمِ خَطَرِهِمْ عَلَيْهِمْ

(1) عَلى قَوْلِ مَنْ فَسَّرَ اتِّباعَ الشَّهَواتِ هُنا بِالزِّنى ونِكاحِ المَحارِمِ: يُنْظَرُ: الزَّمَخْشري، الكَشَّاف: 2/61، وابْنُ عَطِيَّةَ، المُحَرَّرُ الوَجيزُ: 02/40.

(2) الزَّمَخْشري، أساس البلاغة: 1/89، والراغب، المفردات، ص: 162.

(3) الآلوسي، روح المعاني: 3/15.

وَيتفاوَتُ رُتَبُ مُعالجةِ هذهِ الأَشياءِ، فبعضُهَا أَسهَلُ مِنْ بَعضٍ، فَوُصِفَ مَيلُ هَؤُلَاءِ بِالْعِظَمِ، إِذْ هو أَبعدُ المُيولِ مُعالجةً وَهو الكُفرُ[1].

بلاغةُ التَّعريض في الآية:

في الآية تعريضٌ بالمُسْلِمينَ؛ لِتنبيههم إلى دَخائِلِ أَعدائِهِمْ، لِيَعلموا الْفَرقَ بَينَ مُرادِ اللّه مِنَ المؤمنينَ، وَمُرادِ أَعوانِ الشَّياطينِ الذينَ يَتَّبِعونَ الشَّهواتِ[2].

دَلالَةُ الِاسْتِئْنافِ والفَصْلِ في: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾:

استأنفَ في الكلامِ؛ لِبيانِ حُكمٍ دائمٍ مستمرٍّ؛ لِيكونَ حكمًا عامًّا كليًّا؛ لِبيانِ مَزيدِ أَلطافِهِ بهذهِ الأمَّةِ وتفضُّلِهِ عليها؛ لأنَّها تتناولُ كلَّ ما خفَّفَ اللّهُ تعالى عن عبادِهِ[3]، وكأنَّهُ أرجعَ التّخفيفَ إلى أمرينِ: أحدهما تخصيصُ هذهِ الأمّةِ بهِ؛ لِمَزيدِ العِنايَةِ بهم وتكريمًا لهم، والثاني لِكَوْنِ الضَّعْفِ العَامِّ في نَوْعِ الإِنْسانِ سَبَبًا مُقتضِيًا لِلتَّخفيفِ.

بَيانُ ظُهورِ تمَامِ النِّعَمِ الإِلَهيَّةِ عَلى هَذِهِ الأُمَّةِ

دلالةُ حرفِ الجرِّ (عَنْ):

أفادَ حرفُ الجرِّ في قولِه ﴿عَنكُمْۚ﴾ المُجاوَزَةَ المَعْنَوِيَّةَ؛ لِلإشعارِ بأنَّ التّخفيفَ هو نوعٌ من المجاوزةِ؛ تَكْريمًا لِرسولِ اللّه مُحَمَّدٍ ﷺ وَأُمَّتِهِ، وهَذا نظيرُ قَوْلِهِ تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البَقَرَة: 185][4].

التَّخفيفُ عن الأمّةِ تَكْريمًا لِرسولِ اللهِ مُحَمَّدٍ ﷺ وَأُمَّتِهِ

حُسنُ التَّذييلِ في قَولِهِ: ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾:

في جملةِ التّذييلِ فوائدُ لغويّةٌ وبلاغيَّةٌ، هي:

أوّلاً: أشعرتْ جملةُ التَّذييلِ بتعليلٍ آخرَ سوى إرادةِ اللّهِ التّخفيفَ؛

الإسلامُ أليق الأديان بالإنسان في كل زمان ومكان لِمزيةِ التَّخفيفِ المُناسبِ فيه

(1) أبو حَيّانَ، البحر المحيط: 3/603.

(2) أبو حَيّانَ، البحر المحيط: 3/603، والآلوسيُّ، روحُ المعاني: 03/15، والقِنَّوْجيُّ، فَتْحُ البَيانِ: 3/92، وابنُ عاشور، التّحرير والتّنْوير: 5/21.

(3) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/41، والقونويُّ، حاشيةُ القونويِّ على البَيْضاويِّ: 07/125.

(4) أبو حَيّانَ، البحر المحيط: 3/603.

لخَصوصيَّة الأمّة المحمّديّة كما تقدَّمَ، فهي تَذْييلٌ مَسوقٌ لِتَقْريرِ ما قَبْلَهُ مِمّا خفّفه اللّهُ على هذهِ الأمّةِ وتعليلٌ له، ومنه الرُّخصةُ في نكاحِ الإماءِ.[1]

ثانيًا: فيها إشَارَةٌ وتَعْليلٌ لِمَا سَبَقَ في الآياتِ مِنْ قَبيلِ الائْتلافِ وَتَشابُهِ الأَطْرافِ[2] فَلِضَعْفِ هَذِهِ الأُمَّةِ؛ أَنْعَمَ اللّهُ تَعالى عَلَيْها بِإرادَةِ أَرْبَعَةِ أَشْياءَ، أَوَّلُها: التَّبْيينُ، وهُوَ أَنْ يُبَيِّنَ لَهمْ صِراطَهُ المُستقيمَ، وثانيها: الهدايةُ بِأَنْ يَهديَهمْ إليهِ بالعِيانِ بعدَ البيانِ، وثالثُها: التَّوبةُ عليهِمْ، وهي أَنْ يَرجِعَ بِهمْ إلى حَضرتِهِ، ورابِعُهَا: التَّخفيفُ عَنهُمْ وهو إيصالهم إلى حضرته بِالمعونةِ، وتَخفيف المؤُونَةِ[3].

ثالثًا: كما أَنَّ هذَا التَّذييلَ خرجَ مَخرجَ المثلِ المُستقِلِّ بِالفائِدةِ والذِّكرِ، فالإنسانُ ضَعيفٌ باعتبارِ أَصلِهِ وما يؤُولُ إِليهِ حالُهُ[4].

رابعًا: في هذا التَّذييلِ إظهارٌ لِمَزِيَّةِ هذا الدِّينِ وَأَنَّهُ أَليَقُ الأَديانِ بِالنَّاسِ في كُلِّ زمانٍ ومكانٍ، وَلِذلكَ فمَا مضى مِنَ الأَديانِ كانَ مُراعًى فيهِ حالٌ دونَ حَالٍ، ومِنْ هذا المعنَى قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا﴾ [الأَنْفالُ: 66][5].

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الإرادَة والمَشِيئَة:

المَشيئَةُ حُكْمٌ قَدَرِيٌّ في ما أَحَبَّهُ اللّهُ، وفيما لا يُحِبُّهُ فَهِيَ تَتَعَلَّقُ بِالْقَضاءِ والقَدَرِ، فَمَشيئَتُهُ سُبْحَانَهُ مُتَعَلِّقةٌ بِخَلْقِهِ وَأَمْرِهِ الكَوْنِيِّ، فَمَا شَاءَ اللّهُ كَانَ، وما لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ، كَقَوْلِهِ تَعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ﴾ [البَقَرَةُ: 253]، وَقَوْلُهُ ﴿وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ۝٢٧﴾ [إبْراهِيمُ: 27]، أَمَّا الإرادَةُ فَتَنْقَسِمُ إلى قِسْمَيْنِ: إرادَةٌ بِمَعْنى المَشيئَةِ فَتَتَعَلَّقُ بِالْقَدَرِ، كَقَوْلِهِ تَعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَـٰمِ﴾ [الأَنْعامُ: 125]، وقَوْلُهُ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ۝١﴾ [المَائِدَةُ: 1]، وَإرادَةٌ بِمَعْنى المَحَبَّةِ، وتَتَعَلَّقُ بِالشَّرْعِ، كَقَوْلِهِ

(1) أبو السّعود، إرشادُ العَقْلِ السّليم: 1/685.

(2) وهُوَ ائْتِلافٌ مَعْنَوِيٌّ يُسَمَّى تَشَابُهَ الأَطْرافِ ويُطْلَقُ عَلَيْهِ مُرَاعاةُ النَّظِيرِ أَيْضًا: وهُوَ أَنْ يَخْتِمَ الكَلامَ بِمَا يُنَاسِبُ ابْتِداءَهُ في المَعْنى، يُنْظَرُ: الإسفراييني، الأَطْوَلُ: 02/382.

(3) البروسوي، روحُ البَيانِ: 2/193.

(4) أبو حَيّانَ، البحر المحيط: 3/607.

(5) ابنُ عاشور، التّحرير والتّنْوير: 5/22.

تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البَقَرَةُ: 185] وقَوْلُهُ ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ [النِّساءُ: 26] فَهَذِهِ بِمَعْنى المَحَبَّةِ، فَالمَشِيئَةُ قِسْمٌ واحِدٌ وهِيَ مَشِيئَةٌ كَوْنِيَّةٌ قَدَرِيَّةٌ؛ والإرادَةُ قِسْمانِ: شَرْعِيَّةٌ دينِيَّةٌ بِمَعنى المَحَبَّةِ، وقَدَرِيَّةٌ كَونِيَّةٌ بِمَعْنى المَشِيئَةِ[1]، و"اللّه تعالى صاحب الإرادة والمشيئة المطلقة، وبيده الأمر كلّه، بعلم الماضي والحاضر والمستقبل، ويفعل عادة ما فيه الخير والمصلحة للعباد"[2]، وقال الرّاغب: "الإرادة قد تكون بحسب القوّة التّسخيريّة، والفكريّة والحسيّة، ولذلك تستعمل في الجماد، نحو: ﴿جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ﴾ [الكهف: 77]، وفي الحيوان، وفي العقلاء، والمشيئة لا تكون إلّا مع اختيار، ولذلك لا يقال إلّا للعالم والمتفكّر"[3].

الهوى والشَّهْوَة:

الْهَوَى مُخْتَصٌّ بِالْآرَاءِ وَالاعْتِقَادَاتِ، مِثَالُهُ قَوْلُهُ تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى﴾ [القَصَصُ: 50] وقوله: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوٓاْ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّواْ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيرًا وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ۝٧٧﴾ [المائِدَةُ: 77] وأَمَّا الشَّهْوَةُ فمُخْتَصَّةٌ بِنَيْلِ اللَّذَّةِ، مُبَاحَةً كانَتْ كَقَوْلِهِ: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ﴾ [آلُ عِمرانَ: 14]؛ أَوْ مُحَرَّمَةً كَقَوْلِهِ: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِۚ﴾ [الأَعْرافُ: 81]، وقيلَ إنَّ الهوى هُوَ الشَّهْوَةُ المَذْمومَةُ إذا اسْتَتْبَعَتْها الفِكْرَةُ[4]، فَصَارَت الشَّهْوَةُ مِنْ نَتَائِجِ الْهَوَى وَهِيَ أَخَصُّ، وَالْهَوَى أَصْلٌ هُوَ أَعَمُّ[5]، فآدم عليه السلام لم يكن معصومًا من تدبير نفسه بالخلود في الجنّة، فدخل عليه البلاء، من غلبة الهوى والشّهوة على العلم والعقل، وعلى البيان ونور القلب، وذلك لسابق القدر من اللّه تعالى، حتّى انتهى كما أثر عن الحارث المحاسبيّ فيما ذكره صاحب حلية الأولياء في الإشارة إلى ذلك المعنى، في رواية عطاء السّليمي، قال: (بلغنا أنّ الشّهوة، والهوى يغلبان العلم والعقل والبيان)[6].

(1) ابْنُ القَيِّمِ، شِفَاءُ العَليلِ، ص: 48.
(2) الزّحيلّي، التّفسير الوسيط: 2/1491.
(3) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 1/152.
(4) صالِحُ بْن حميد وآخرون، نَضْرَةُ النَّعيم: 9/3753.
(5) الماوَرْديُّ، أَدَبُ الدُّنْيا والدِّين، ص: 33.
(6) التُستري، تفسير التّستريّ، ص: 29، وكذلك: أبو نعيم، حلية الأولياء: 6/224.

المَيْل والزَّيْغ:

الزَّيْغُ اسْمٌ لِمَيْلٍ مَكْروهٍ، ولا يَكُونُ إلَّا في المَيْلِ عَنِ الحَقِّ، يُقَالُ: فُلانٌ مِنْ أَهْلِ الزَّيْغِ، ويُقالُ: زاغَ عَنِ الحَقِّ، ولا يُقالُ: زاغَ عَنِ البَاطِلِ؛ قال تَعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾ [آلُ عِمْران: 8] وقال: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ﴾ [آلُ عمران: 7]، أَمَّا المَيْلُ: فَهُوَ عَامٌّ في المَحْبوبِ والمَكْروه[1]، فَالمَيْلُ أَعَمُّ مِنَ الزَّيْغِ، وذكر القرطبيّ لفظًا جامعًا لهما، وهو العوج، قال: "والعوج: الميل والزّيغ (بكسر العين)، في الدّين والقول والعمل، وما خرج عن طريق الاستواء"[2].

الضَّعْف والوَهن والِاسْتِكانَة:

الضَّعْف ضِدُّ الْقُوَّة؛ والوهن هُوَ أَن يفعل الْإِنْسَانُ فِعْلَ الضَّعِيف، يُقال وَهُوَ في الْأَمر يَهِنُ وَهْنًا واهنٌ، إذا أَخذ فِيهِ أَخذ الضَّعِيف، وَمِنْه قَوْله تَعَالَى: ﴿وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ﴾ [آلُ عمران: 139] أَي لَا تَفعلُوا أَفعَال الضُّعَفَاء وأَنْتم أقوياء على مَا تَطْلُبونَهُ بتذليل اللّه إِيَّاه لكم[3]، والوَهَنُ أَيْضًا الضَّعْفُ في الْعَمَلِ وَعلى النُّهوض في الْأَمر، وَيكون كَذَلِكَ في العَظْم وَنَحْوِه، يُقالُ وَهَنَ الْعَظْمُ وَالبدن[4]؛ ومثّل القرآن للوهن ببيت العنكبوت، وعلله النّسفيّ بقوله: " لما كانت حال الآلهة التي جعلها الكفار أنداداً للّه لا حال أحقر منها وأقل، ولذلك تجعل بيت العنكبوت مثلها في الضعف والوهن، وجعلت أقل من الذّباب وضربت لها البعوضة فالذي دونها مثلاً، لم يستنكر "[5]، وَأَمَّا الاستكانة فهِيَ إِظْهارُ الضَّعْف والخُضوع عن ذُلٍّ: قَالَ اللّه تَعَالَى ﴿وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسْتَكَانُواْ﴾ [آلُ عمران: 146]، أَي لم يَضْعُفوا بِنُقْصَان الْقُوَّة وَلَا اسْتَكَانُوا بِإِظْهَار الضَّعْفِ عِنْدَ المُقاوَمَةِ[6].

---

(1) العَسْكَرِيُّ، الفروق اللغوية، ص: 269.

(2) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 4/154، وكذلك ذكره الشّوكانّي، فتح القدير: 1/420.

(3) العَسْكَرِيُّ، الفروق اللغوية، ص: 115، والْمصطفوي، التَّحْقيقُ في كَلِماتِ القُرآنِ الكَريمِ: 13/214.

(4) الأزهري، تهذيب اللغة: (وهن)، وابنُ عاشور، التّحرير والتّنْوير: 04/118.

(5) النّسفيّ، مدارك التّنزيل: 1/74.

(6) النَّيْسابوريُّ، إيجازُ البَيانِ: 1/210.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَـٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَـٰرَةً عَن تَرَاضٖ مِّنكُمۡۚ وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمۡ رَحِيمٗا ٢٩ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ عُدۡوَٰنٗا وَظُلۡمٗا فَسَوۡفَ نُصۡلِيهِ نَارٗاۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ٣٠ إِن تَجۡتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنۡهَوۡنَ عَنۡهُ نُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَنُدۡخِلۡكُم مُّدۡخَلٗا كَرِيمٗا ٣١﴾ [النساء: 29 - 31]

مُناسَبَةُ الآيَاتِ لِمَا قَبْلَها:

ذِكْرُ كَيْفِيَّةِ التَّصَرُّفِ فِي الأَمْوَالِ المحوزة، بعد ذكر التَّخفيف بجواز نكاح الإماء

بَعْدَ أَنْ قَرَّرَ اللهُ ﷻ في الآياتِ السَّابِقَةِ أَحْكامَ النِّكاحِ وشَرَحَ كَيْفِيَّةَ التَّصَرُّفِ في النُّفُوسِ بِسَبَبِه ذَكَرَ بَعْدَهُ كَيْفِيَّةَ التَّصَرُّفِ في الأَمْوَالِ المُوصِلَةِ إلى النِّكاح ومِلْكِ اليمينِ؛ وأَنَّ المُهورَ والأثمانَ المبذولةَ في ذلك لا تكونُ ممَّا مُلِكَت بالباطِلِ[1] فقال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَـٰطِلِ﴾.

كَما أَنَّهُ لَمَّا كانَ غالِبُ ما مَضى مِنَ السُّورَةِ في مُعامَلَةِ اليَتامى والأَقارِبِ والنِّساءِ، وسائِرِ النَّاسِ، مِنْ أَحْكامٍ في المَواريثِ والنِّكاحِ وما يُفرَض للنِّساءِ وما يَجِبُ مِن إيتائِهنَّ أُجورَهنَّ، وكان مَدارُ الكَلامِ في تِلْكَ المُعامَلاتِ على المالِ، ذكَرَ بَعْدَ كُلِّ هذا قاعِدَةً عامَّةً للتَّعامُلِ الماليِّ وتشريعًا عامًّا في الأَمْوالِ والأنفُسِ.

فَهِيَ حَلَقَةٌ في سِلْسِلَةِ التَّربيَةِ، مُصاحِبَةٌ لِسِلْسِلَةِ التَّشْريعِ والأَحْكامِ، والتَّربيَةُ والتَّشْريعُ في المَنْهَجِ الإِسْلامِيِّ مُتَلازِمانِ ومُتَكامِلانِ في الخِطابِ القُرْآنيِّ ويُنْظَرُ فِيها دَوْمًا إلى رَبْطِ القَلْبِ باللهِ، وإِشْعارِهِ بِمَصْدَرِ هذا المَنْهَجِ المُتَكامِلِ مِنَ التَّشْريعِ والتَّوْجيهِ[2].

(1) الرَّازيُّ، مفاتيح الغيب: 10/56، وأَبو حَيّانَ، البحر المحيط: 3/609.

(2) البِقاعيُّ، نَظْمُ الدُّرَرِ: 5/258، ورضا، تَفْسيرُ المنارِ: 05/33، وابنُ عاشور، التّحرير والتّنْوير: 05/23.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿لَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم﴾: الأَكْلُ تَناوُلُ المَطْعومِ بِالفَمِ وبَلْعُهُ[1]، قال الرّمانيّ والأكل حقيقة بلع الطّعام بعد مضغه، فبلْعُ الحصاة ليس بأكل[2]، و(الأكلة) بالفتح المرّة الواحدة حتّى تشبع، وبالضّم اللّقمة الواحدة، وكلّ (مأكول) أكلٌ، ومنه قوله تعالى: ﴿أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَاۚ﴾ [الرّعد: 35][3]، وأَصْلُ الأَكْلِ التَّنَقُّصُ، ويُطْلَقُ مَجازًا على حِيازَةِ الشَّيءِ والانْتِفاعِ بِهِ[4] والمَعْنى هُنا: صَرْفُهُ إلى ما يُنافيهِ الحَقُّ[5]، ويقال: أكلت النّار الحطب، وائتكلت: اشتدّ التهابها، كأنّما يأكل بعضها بعضا، ومن المجاز: (لعن آكل الرّبا ومؤكله)[6].

2) ﴿عُدْوَٰنًا﴾: مِنْ عدا عَلَيْهِ، يَعْدو عَدْوًا وعُدُوًّا وعُدْوانًا، إذا جارَ[7]، وتَجاوَزَ قَدْرَهُ[8]، وأَصْلُ العُدْوانِ يَدُلُّ عَلَى تَجاوُزٍ فِي الشَّيْءِ[9]، والمَعْنى هُنا: تَجاوُزُ ما أَحَلَّ اللّهُ إلى ما حَرَّمَ بِمُواقَعَةِ المَحْظورِ وارْتِكابِهِ[10]، وقيل: العدوان أسوأ الاعتداء في قوّة أو فعل أو حال؛ ومنه ما ورد في قوله تعالى في هذه الآية: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَٰنًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًاۚ﴾، وقوله تعالى: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ١٦٦﴾ [الشّعراء: 166]، أي معتدون[11]، وقولهم: عدا على الضُّعفاء: ظلمهم وجار عليهم، افترى عليهم، وتجاوز الحدَّ، قال تعالى: ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ١١٥﴾ [النّحل: 115]، وقال: ﴿وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِۚ﴾ [المائدة: 2][12].

3) ﴿نُصْلِيهِ نَارًاۚ﴾: نُدْخِلُهُ فيها، ونَشْويه بها، ومِنْهُ صَلَيْتُ اللَّحْمَ، أَيْ شَوَيْته، وأَصْلاهُ النَّارَ وصَلاهُ صَلْيًا أَدْخَلَهُ إيَّاها وأَثْواهُ فِيهَا، وَأَصْلُ الصَّلَى لِإيقادِ النَّارِ؛ والمَعْنى هُنَا: نُدْخِلُهُ

(1) الرَّاغِبُ، المُفْرَداتُ: (أكل)، وجبل، المُعْجَمُ الاِشْتِقاقيُّ: (أكل).
(2) ا الفيّوميّ، المصباح: (أكل).
(3) الرّازيّ، مختار الصّحاح: (أكل).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أكل).
(5) جبل، المُعْجَمُ الاِشْتِقاقيُّ: (أكل).
(6) الزَّبيديّ، تاج العروس: (أكل).
(7) ابْنُ دُرَيْدٍ، جَمْهَرَةُ اللُّغَةِ: (دعو)
(8) ابْنُ عَبَّادٍ، المُحيطُ: (عدو)
(9) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عدو).
(10) جبل، المُعْجَمُ الاِشْتِقاقيُّ: (عدو).
(11) الزَّبيديّ، تاج العروس: (عدو).
(12) أحمد مختار عمر، معجم اللّغة العربيّة المعاصرة: (عدو).

فيها فَيُلاقي حَرَّها وشِدَّتَها[1]، قال أبو زَيْدٍ: يقال: صَلِيَ الرَّجلُ النَّارَ يَصْلاهَا صَلًى وصلاءً، وهُوَ صَالي النَّارِ، وقوم صالون وصلاء، قال تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ ۝١٦٣﴾ [الصّافات: 163] وقال: ﴿ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِٱلَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ۝٧٠﴾ [مريم: 70][2]، ومعنى اللّفظ في السّياق: " فَسَوْفَ نُصْلِيهِ جَوَابُ الشَّرْطِ، أَيْ: نُدْخِلُهُ نَارًا عَظِيمَةً"[3]، واللّه لا يعجزه شيء، فهو قادر على إصلائه.

4) ﴿نُكَفِّرْ﴾: نَغْفِرْ، ونَسْتُرْ ونَمحُ، وَقَدْ كَفَرْتُ الشَّيْءَ أَكْفِرُهُ كَفْرًا، أَيْ سَتَرْتُهُ، وَأَصْلُ الكَفْرِ: السَّتْرُ وَالتَّغْطِيَةُ[4]؛ والمَعْنى هُنا: نَغْفِرْ لَكُمُ الصَّغائِرَ؛ إِنِ اجْتَنَبْتُمُ الكَبائِرَ[5]، ومعنى هذا اللّفظ ﴿نُكَفِّرْ عَنكُمْ﴾ في السّياق: نغطّي ونستر، فلا نطالب بها، ولا نؤاخذ عليها[6].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

الإرشـــاد إلى حِفْظِ الأَنْفُسِ والأمـــوال، والتَّحذير من الكبائر وطرق أهل الضَّلال

يخاطب السّياق الّذين صَدَّقوا اللّه ورَسُولَهُ وعَمِلُوا بِشَرْعِه، بأن يتعفّفوا عن أخذ بَعْضِهِمْ مالَ بَعْضٍ بِغَيْرِ حَقّ، إِلَّا أَنْ تَكونَ الأَمْوالُ المَأْخوذَةُ تِجارَةً صادِرَةً عَنْ تَراضي المُتَعاقِدينَ، وَطِيبِ أنفسهم بما يتبادلونه، فَيَحِلُّ لَهُمْ أَكْلُها والتَّصَرُّفُ فيها، ونهاهم عن قتل بَعْضِهِمْ بَعْضًا، أوقتل أنفسهم، رحمة من اللّه الرّحيم بهم، ومَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ المنهيّ عَنْهُ، فَسَيُدْخِلُهُ اللّهُ نارًا يصطلي بحَرِّها، وَيُقاسي عَذابَهَا، وهو أهون ما يكون عَلى اللّهِ القدير، ثمّ يؤكّد لهم بأنّهم إِنْ يبْتَعِدوا عَنْ فِعْلِ الكَبائِرِ، كالشِّرْكِ بِاللّهِ، وَقَتْلِ النَّفْسِ، وَأَكْلِ الرِّبا؛ فإنّ اللّه

(1) الخليل، العين: (وصل) ابْنُ مَنْظورٍ، لِسانُ العَرَبِ: (صلاَ)، السَّمِيْن، عُمْدَةُ الحُفَّاظِ: (صلي)، والزَّبيديُّ، تاجُ العَروسِ: (صلي)، والرَّاغِبُ، المُفْرداتُ: (صلا).

(2) ابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 6/205.

(3) الشّوكانّي، فتح القدير: 1/527.

(4) الجَوْهَريُّ، الصِّحاحُ: (كفر)، وابن فارس، مقاييس اللغة: (كفر).

(5) القُرْطُبيُّ، الجامع لأحكام القرآن: 06/406.

(6) الجزائريّ: أيسر التّفاسير: 1/468.

سوف يتجاوَز عنهم ما يرْتَكِبونَهُ مِنْ صَغائِر، بِمَغْفِرَتِها ومَحْوِها، ويُدْخِلهُمْ مدخلا رضيًّا لديه، في جنّات النّعيم[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

بَراعَةُ تَصْديرِ الخِطابِ بِالنِّداءِ في قَوْلِهِ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾:

إظْهارُ كَمالِ العِنايَةِ بِمَضْمونِ الخِطابِ وفَحْواهُ

قَوْلُهُ تَعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَـٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَـٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ ۚ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾.

هَذا المَضْمونُ الذي يحملُ بيانًا واضِحًا في حرمةِ الأَموالِ والأَنْفُسِ؛ إثرَ بَيانِ الحُرُماتِ المُتَعَلِّقَةِ بالنِّساءِ، ولِذَا جَاءَ الكَلامُ مُسْتَأْنَفًا[2] بِالنِّدَاءِ بِحَرْفِ الياءِ التي هِيَ لِلتَّعْظيم، مَعَ أَداةِ التَّنْبيهِ (أَيُّها)، لطلبِ إقبالِ المؤمنينَ على أمرٍ ذي شأنٍ.

دلالةُ مجيءِ الاسمِ الموصولِ:

الإيمانُ يقتضي الامتثالَ اللّائقَ للهِ ولرسولِهِ

عبَّرَ بالاسم الموصولِ؛ للتّوسُّلِ إلى جملةِ الصِّلةِ ﴿ءَامَنُواْ﴾ المعلومةِ الانتسابِ إلى المُشارِ إليه، وهمُ المؤمنونَ باللهِ ورسولِهِ؛ لِلإيماءِ إلى أنَّ كونَهم مؤمنينَ يقتضي الامتِثالَ اللّائِقَ بِأَهلِ هذا الوَصفِ الشَّريفِ؛ لِما يُطلَبُ منهم؛ تلبيَةً لِندائِهِ في اجتنابِ أكلِ الأموالِ بالباطلِ وقتلِ المؤمنينَ بغيرِ حقٍّ.

مناسبةُ تَقْديمِ النَّهْيِ عَنْ أَكْلِ الأَمْوالِ عَلى النَّهْيِ عَنْ قَتْلِ الأَنْفُسِ في: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم﴾:

قدّم النّهي عن أكلِ الأموال على النّهي عن قتل الأنفس مع أنَّ الثانيَ أخطرُ؛ لأنَّ أَكْلَ الْأَمْوَالِ أَسْهَلُ، والنّاسُ أَشَدُّ اسْتِخْفَافًا بِهِ مِنْهُمْ بِقَتْلِ الْأَنْفُسِ، ولكثرةِ وقوعِهِ، ولِأَنَّهُ يَقَعُ فِي مَوَاقِعِ الضَّعْفِ

(1) المحلي والسيوطي، تَفْسيرُ الجَلالَيْنِ، ص: 105، ونُخْبَةٌ مِنْ أَساتِذَةِ التَّفْسيرِ، التَّفْسيرُ المُيَسَّر، ص: 83، وجَماعَةٌ مِنْ عُلَماءِ التَّفْسيرِ، المُخْتَصَرُ في تَفْسيرِ القُرْآنِ الكَريمِ، ص: 83.

(2) ابنُ عاشور، التّحْرير والتّنْوير: 5/23.

غالبًا حَيْثُ لَا يَدْفَعُ صَاحِبُهُ عَنْ نَفْسِهِ، كَالْيَتِيمِ وَالْمَرْأَةِ وَالزَّوْجَةِ، فَآكِلُ أَمْوَالِ هَؤُلَاءِ فِي مَأْمَنٍ مِنَ التَّبِعَاتِ بِخِلَافِ قَتْلِ النَّفْسِ، فَإِنَّ تَبِعَاتِهِ لَا يَسْلَمُ مِنْهَا أَحَدٌ، وَإِنْ بَلَغَ مِنَ الشَّجَاعَةِ وَالْعِزَّةِ فِي قَوْمِهِ كُلَّ مَبْلَغٍ، [1] ولأن أكل الأموال بالباطل داعٍ غالبا إلى قتل الأنفس، ومِمَّا يَزِيدُ هذا النَّهْيَ قُوَّةً وتَأْكِيدًا مُراعَاةُ ما قُيِّدَ بِهِ الأَكْلُ بِوَصْفِهِ بِالبَاطِلِ، مَعَ ما فيه مِنَ الاسْتِعلاءِ الذي يَجْعَلُهُ إِلْزامِيًّا.

التَّحْذِيرُ مِنْ تَساهُلِ النَّاسِ فِي شَأْنِ الأَمْوالِ لِخَفاءِ خُطورَتِهِ

بلاغةُ المجازِ المرسَلِ في قوله: ﴿لَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم﴾:

جاء التّعبير على طريقة المَجازِ المُرْسَلِ[2] بِعَلاقَةِ اللُّزُومِ حَيْثُ عَبَّرَ عَنْ أَخْذِ المالِ والاستيلاء عليه بِالأَكْلِ؛ لِأَنَّهُ أَهَمُّ الْحَوَائِجِ، وَبِهِ يَقَعُ إِتْلَافُ أَكْثَرِ الْأَمْوَالِ، وهُوَ أَشْهَرُ لَوَازِمِهِ ومَصارِفِهِ عِنْدَ النَّاسِ[3]، كَما عَبَّرَ بِالأَكْلِ هُنا لِمَا فيه مِنْ فَناءِ المادَّةِ المَأْكولَةِ وإِخْفائِها عَنِ العُيُونِ نِهائِيًّا، فَجَعَلَ اللّهُ تَعالى المَالَ بمثابةِ الطَّعامِ يَلْتَهِمُهُ الظَّالِمُ، لِيُبَيِّنَ شِدَّةَ حِرْصِهِ على أَخْذِهِ دُونَ تَرْكِ شَيْءٍ مِنْهُ ودُونَ إِرْجاعِهِ إِلى أَصْحابِهِ، وَهذا المَجَازُ صارَ كالْحَقِيقَةِ[4]، في ظُهُورِهِ وشيوعِهِ وكَثْرَتِهِ وشَنَاعَةِ حالِ فاعِلِهِ؛ ونَظيرُ هَذِهِ الصُّورَةِ في القُرْآنِ الكَريمِ قَوْلُهُ تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُواْ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٨﴾﴾ [البقرة: 188] وقَوْلُهُ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾﴾ [النِّساءُ: 10].

بَيانُ أَشْهَرِ مَصارِفِ المالِ وأَشْنَعِ صُوَرِ التَّعَدِّي فيه

دَلالَةُ الاِسْتِثْناءِ المُنْقَطِعِ في قَوْلِهِ: ﴿إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ﴾:

الاستثناءُ هنا مُنْقَطِعٌ، لِأَنَّ التِّجارَةَ لَيْسَتْ مِنْ أَكْلِ الْأَمْوَالِ بِالْبَاطِلِ، والمَعْنَى: لَكِنْ كَوْنُ التِّجارَةِ غَيْرَ مَنْهِيٍّ عَنْها، ومناسبة

بَيانُ اخْتِلافِ التِّجارَةِ عَنْ غَيْرِها في الحُكْمِ، وإِباحَةِ أَكْلِ المالِ الزَّائِدِ فِيهَا

(1) الآلوسيُّ، روحُ المعاني: 03/17، وابنُ عاشور، التّحرير والتّنْوير: 5/23.
(2) تَعْريفُهُ في تَفْسِيرِ الصَّفْحَةِ الأُولى مِنْ هذا الجُزْءِ.
(3) أبو حَيّانَ، البحر المحيط: 3/610، والقِنَّوْجيُّ، فَتْحُ البَيانِ: 3/93.
(4) ابنُ عاشور، التّحرير والتّنْوير: 5/23.

استدراك التجارة دونَ غيرها هي أنّ التِّجارةَ لمّا كانت أَشَدَّ أَنْوَاعِ أَكْلِ الْأَمْوَالِ شَبَهًا بِالْبَاطِلِ، إِذِ التَّبَرُّعَاتُ وَالْمُعَاوَضَاتُ عن طيب نفس، وَأَمَّا التِّجَارَةُ فَلِأَجْلِ مَا فِيهَا مِنْ أَخْذِ الْمُتَصَدِّي للتجارة مَالًا زَائِدًا عَلَى قِيمَةِ مَا بَذَلَهُ لِلْمُشْتَرِي قَدْ تُشْبِهُ أَكْلَ الْمَالِ بِالْبَاطِلِ فَلِذَلِكَ خُصَّتْ بِالِاسْتِدْرَاكِ[1].

فائدةُ الاستدراكِ في الاستثناءِ المنقطِعِ:

أشعرَ الاستدراكُ أنَّ التّجارةَ التي تكون عنْ تراضٍ، وفيما بيّنَهُ اللّهُ تعالى محمودةٌ ممدوحَةٌ، وَحِكمةُ إباحةِ أَكلِ المالِ الزَّائِدِ فيها أَنَّ عليهَا مدارَ رواجِ السِّلَعِ الحاجيَّةِ والتَحسينيَّةِ، ولولَا تَصدِّي التُّجَّارِ وَجلبُهُمُ السِّلعَ لَمَا وجدَ صاحبُ الحاجةِ مَا يَسدُّ حاجتَهُ عِندَ الاحتياجِ[2].

التّجارةُ الشّرعيّةُ محمودةٌ مَمدوحَةٌ

نُكتةُ التّقييدِ بالصِّفةِ في قولِه ﴿عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ﴾:

شِبْهُ الجملةِ هنا صفةٌ ﴿تِجَٰرَةً﴾، ولمَّا كانَ الموصوفُ نكرةً كانتِ الصّفةُ قَيدًا لهُ، والمعنى جوازُ أكلِ مالِ التّجارةِ بقيدِ التّراضي والتّسامحِ وطِيبِ النَّفسِ من المُتعاقِدَينِ[3].

جوازُ أكلِ مالِ التّجارةِ الّتي تكونُ عن مسامَحةٍ وطِيبِ نَفسٍ

دلالةُ حَرفَي الجرِّ (عَنْ، مِنْ) في قوله ﴿عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ﴾:

يدلُّ ﴿عَن﴾ على معنى المُجاوزةِ، والمعنى أنْ يتجاوزَ الرِّضا عنِ التّجارةِ كلّ طَرَف منَ المُتعاقِدَينِ إلى الآخر، والمرادُ تجارةٌ صادرةٌ عن تراضٍ منكم، أي بينَ المتبايِعَينِ، بِمَا يَدُلُّ عليهِ مِنْ لفظٍ أَو عُرفٍ[4]، ودلَّ الحرفُ (مِن) على أنَّ ابتداءَ التّراضي يصدرُ من كلِّ واحدٍ من الطَّرفين، لِلإشعارِ بأنَّ رضا غيرِ الطّرفينِ لا يُعتَدُّ به، والمعنى يبتدئُ الرّضا مِنَ الطّرفِ الأوّلِ ويتجاوزُهُ إلى الثّاني، ثمَّ يبتدئُ الرِّضا مِنَ الثَّاني ويتجاوزُهُ إلى الأوَّل، فيحصلُ التّبايعُ.

(1) ابن عاشور: التحرير والتنوير: 5/23.
(2) الراغب، تفسير الرّاغب: 3/1204، ابنُ عاشور، التّحرير والتّنْوير: 5/24.
(3) أَبو حَيّانَ، البحر المحيط: 3/610، والآلوسيُّ، روحُ المعاني: 03/16، والهَرَري، حَدائِقِ الرَّوْحِ والرَّيْحانِ: 6/34.
(4) الزّمَخْشري، الكشاف: 1/502، وابنُ عاشور، التّحرير والتّنْوير: 5/24.

بلاغة قوله ﴿لَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم﴾ و﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْۚ﴾ بينَ الحقيقةِ وَالاستعارةِ والمجازِ المرسَلِ:

يحتملُ الكلامُ أنْ يكونَ على الحقيقةِ؛ لِيتناولَ اللَّفظُ في ﴿لَا تَأْكُلُوٓاْ﴾ و﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ﴾ النَّهيَ عنْ أَنْ يَأكلَ مالَ نَفْسِهِ بِالْبَاطِلِ، وَهُوَ: إنفاقُهُ في معاصِي اللّه تعالى، والنَّهيَ عنْ قتلِ النّفسِ بقَصدٍ منهُ للقتلِ، أَو بِأَنْ يحملَها علَى غَرَرٍ أو حسرةٍ، أَو يُعَرِّضَها لِمَا يُوجِبُ الحَدَّ بِالقتلِ كالرِّدةِ والزِّنى معَ الإحصانِ أَو يُعَرِّضَها لِمَا يجلِبُ لَها الهَلَكَةَ، فَهذا كُلُّهُ يتناولُهُ النَّهيُ[1]

شُمولُ الخِطابِ لِجِنْسِ المؤْمنينَ بِحِفْظِ أَنْفُسِهِمْ مِـنَ الـهَـلَـكـاتِ وإِشْعارٌ لَهُمْ بِأَنَّ ذِمَّتَهُمْ واحِدَةٌ

ويحتملُ أَنْ يكونَ مجازًا بطريقِ الاستعارةِ التَّصريحيَّةِ التّبَعيَّةِ، إذْ جعلَ مالَ الغيرِمالَه نفسَهُ، وجعلَ الغيرَ نفسَه؛ لِمناسبةِ الاتّصالِ بالدِّينِ، والقرينةُ مخاطبتُهم بوصفِ الإيمانِ، فإذا أكلَ المؤمنُ مالَ غيرِه المتَّصلِ بالدّينِ بالباطلِ فكأنَّما أكلَ مالَهُ بالباطلِ، وإذا قتلَ المؤمنُ أخاه المتَّصلَ بهِ في الدِّينِ فكأنَّما قتلَ نفسَهُ، ومبنَى الاستعارةِ على الضَّميرِ في ﴿أَمْوَٰلَكُم﴾، ﴿أَنفُسَكُمْۚ﴾، والمعنى النَّهيُ عن أَكلِ أموالِ النّاسِ بالباطلِ، وأنْ يقتلَ بعضُ النَّاسِ بعضَهم، والغرضُ مِنْ مجيءِ الكلامِ على الاستعارةِ هو التَّنبيهُ على تَكَافُلِ الْأُمَّةِ في حقوقِها وَمصالحِها بإقامةِ الدّليلِ وإظهارِ الحجَّةِ على المدّعَى، كَأَنَّهُ يقولُ: إنَّ مالَ كُلِّ واحدٍ منكمْ هو مالُ أُمَّتِكُمْ، فَإِذَا استباحَ أَحدُكُم أَنْ يَأكُلَ مالَ الآخَرِ بالباطِلِ أَو قتلَهُ كَانَ كَأَنَّهُ أَباحَ لِغيرِهِ أَكلَ مَالِهِ وَهَضمَ حقوقِهِ أو قتلَه وإتلافَ روحِه، ففيهِ من المبالغةِ في الزَّجرِ عَنْ أكلِ الحرامِ والقتلِ بغيرِ حَقٍّ وتَصويرِهِ بِصورةِ ما لا يكادُ يَفعلُهُ عاقِلٌ[2].

ويحتملُ أنْ يتناولَ اللَّفظُ المعنى الحقيقيَّ المذكورَ أوّلًا والمعنى المجازيَّ، معًا، وهو أوجهُ الأقوالِ وأظهرُها من حيثُ اللَّفظ؛ لِيشملَ

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/42، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 2/71، وأبو حَيّانَ، البحر المحيط: 3/610.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 3/610، وأبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 1/170، ورضا، تفسير المنار: 5/33.

اللّفظُ النَّهيَ عنْ أكلِ أموالِ النّاسِ بالباطلِ وعنْ أكلِ مالِهِ بالباطلِ بصرفِهِ في المعاصي والنَّهيَ عنْ قتلِ غيرِهِ وعنِ قتلِ نفسِهِ[1]؛ لِذا احتجَّ عمرُو بنُ العاصِ بهذهِ الآيةِ حينَ امتنعَ مِنَ الاغتسالِ بالماءِ البارِدِ خَوفًا على نَفسهِ منهُ، وَقَرَّرَهُ رسولُ اللّهِ ﷺ على احتجاجِهِ[2]. وجاءتْ جملةُ التّذييلِ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمۡ رَحِيمٗا﴾ مؤكِّدةً لِهذا المعنى؛ فإنَّ تَعْليلَ النَّهي عَنْ قَتْلِ النَّفْسِ بالرَّحْمَةِ أَوْفَقُ وأَنْسَبُ كما لَا يَخْفى[3].

ويحتملُ أنْ يكونَ مَجازًا مُرسَلًا مِنْ إطلاقِ المُسَبَّبِ على السَّبَبِ على معنى إذا أكلَ مالَ غيرِهِ بالباطلِ ضَمِنَ بالتّعدّي، فيكونُ سببًا لأخذِ مالِه لِردِّه إلى مَنْ أُكِلَ مالُه، وإذا قَتَلَ غيرَهُ فَكَأَنَّما قَتَلَ نفسَهُ؛ لِأَنَّه يُقتَصُّ منهُ[4]

دلالةُ الجَمْعِ في الطلبِ بَينَ حِفظِ النَّفسِ والمالِ: ﴿لَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم﴾ و﴿وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡۚ﴾:

بَيانُ سَبَبِ قِوامِ الأَنـفُـسِ وأَنَّ صلاحَها يَكُونُ بالمالِ

فَالمالُ عديلُ الرُّوحِ مِنْ حَيثُ إِنَّهُ سَبَبُ قِوامِها، وقدْ نُهينا عنْ إتلافِهِ بالباطلِ، كنهينا عنْ إتلافِ النَّفسِ؛ لِكَونِ أَكثرِ إتلافِهِمْ لَها بالمغامراتِ؛ لِنَهبِ الأَموالِ، وما كان مُتّصِلًا بِها، ورُبَّمَا أَدَّى ذلِكَ إلى الفِتَنِ التي ربَّما كان آخِرَها القَتلُ[5].

حسنُ التَّذييلِ في قولِهِ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمۡ رَحِيمٗا﴾:

أوّلًا: لمّا كانَ التّعبيرُ بـ ﴿إِنَّ﴾ في هذهِ الجملةِ يصحِّحُ ماقبلَه، ويُحتَجُّ له، ويبيّنُ وجهَ الفائدةِ في النّهي دلَّ على أنَّها تفيدُ العِلِّيَّةَ[6]؛

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/42.، أَبو حَيّانَ، البحر المحيط: 3/611، والنيسابوري، غرائب القرآن: 2/399، وأبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 1/687.

(2) ابْنُ عَطِيَّةَ، الْمُحَرِّرُ الوَجيزُ: 2/42.

(3) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 1/687.

(4) أبو حيان، البحر المحيط: 2/612.

(5) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 1/686، والبروسوي، روحُ البَيانِ: 2/195، والهَرَري، حَدائِق الرَّوْحِ والرَّيْحانِ: 6/37.

(6) الجرجاني، دلائل الإعجازص: 323/أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 1/687.

فبسببِ رحمته بكم نهاكم عن أكل الأموالِ بالباطل وعن قتل النفس، فنهاكم عمّا يضرُّكم عاجلًا وآجلًا؛ لِيكونَ التّعليلُ داعيًا إلى محبَّتِهِ سبحانَه وإلى شُكرِه على ما نهاهمْ عنهُ[1].

تَعْليلُ النَّهي السَّابِقِ وبيانُ حِكمتِهِ في الأَمرِ والنَّهي وكَمالِ رَحمةِ اللهِ بِهذهِ الأُمَّةِ

ثانيًا: أفادت ﴿إِنَّ﴾ تأكيدَ مضمونِ الجملة لتقريرِ المعنى وتثبيتِه.

ثالثًا: أكّد الكلامَ بـ ﴿إِنَّ﴾؛ لِلإشعارِ بأنَّكم قد تظنُّون أنَّ النّهي عن أكلِ المالِ الحرامِ وعن إتلافِ النُّفوسِ ليسَ في مصلحتِكم، وليسَ فيه رحمةٌ بكم، فالظَّنُّ الَّذي قدْ كانَ منكمْ ينبغي أنْ لا يكونَ، فأكّدَ الكلامَ بـ ﴿إِنَّ﴾؛ لِيكونَ بمثابةِ الإنكارِ على ما قد يظنّونه[2].

رابعًا: قدّم الجارَّ والمجرورَ ﴿بِكُمْ﴾ على ﴿رَحِيمًا﴾؛ لِلاهتمامِ ولِلاعتناء بالمؤمنين لا للتّخصيصِ، وإنّما كانَ التّقديمُ للاهتمامِ لِلحثِّ على الامتثالِ للنَّهي.

خامسًا: أفاد أسلوب ﴿كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ استمرارَ اتّصاف اللّه تعالى بكونِه رحيمًا ودوامَ رحمتِه بالمؤمنين، وظهورَ آثارِ رحمتِه بهم.

دَلالَةُ اسمِ الإشارَةِ في قولِه: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَٰنًا وَظُلْمًا﴾:

التَّهويلُ والتَّخويفُ مِنْ قَتْلِ الأَنْفُسِ وأَكْلِ الأَموالِ بِالباطِلِ

قَولُهُ تعالى: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَٰنًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾: عبّر بـ ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارةً إلى القتلِ خاصَّةً؛ لأنّه أجازَ أكلَ أموالِ التِّجارةِ عن تراضٍ، وبقيَ الإجمالُ في النَّهي عن القتلِ، أو إشارةً إلى أكلِ الأموالِ بالباطلِ والقتلِ؛ لأنَّ النَّهيَ عنهما جاءَ متَّسقًا مسرودًا، أو إشارةً إلى كلِّ ما حرّمَ اللّهُ مِنْ نكاحِ المحرَّماتِ، وعَضْلِ المُحرَّمِ وأكلِ المالِ بالباطلِ، وقتلِ المحرَّمِ قتلُهُ مِنَ المؤمنينَ، فعبّرَ باسمِ الإشارةِ؛ لِلإيجازِ في الكلامِ، ولبيانِ المشارِ إليهِ وتمييزِهِ أكملَ تمييزٍ، ولَمّا ذكرَ ما يكونُ إشارةً إلى البعيدِ كانَ

(1) ابن جرير، جامع البيان: 8/229، وأبو حَيّانَ، البحر المحيط: 3/610، والنيسابوري، غرائب القرآن: 2/400.
(2) الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص: 327.

إيذانًا ببُعدِ منزلَتِهما في الفسادِ؛ لِبيانِ عِظَم الخَطْبِ، وَأَنَّ فاعِلَهُمَا قدْ أَبعدَ، وبلغَ الغايةَ في الجُرمِ.[1]

دلالةُ قولِهِ ﴿عُدۡوَٰنٗا وَظُلۡمٗا﴾ بينَ التَّعليلِ والحاليَّةِ:

يحتملُ أنْ يكونَ انتصابُ ﴿عُدۡوَٰنٗا وَظُلۡمٗا﴾ على المفعولِ لأجْلِهِ؛ لِلإشعارِ بأنَّ نيّةَ الاعتداءِ والظُّلمِ حاضرةٌ وقتَ البدءِ بأكلِ الأموالِ بالباطلِ وبالقتلِ مستمرَّة معهما، ويحتملُ أنْ يكونَ انتصابُهما على الحاليَّةِ، فيكونَ المعنى على اقترانِ العُدوانِ والظُّلمِ بالفعلِ المذكورِ[2].

سببُ تَقْييدِ الفعلِ بالعُدْوانِ والظُّلْمِ:

لمّا كان العدوانُ والظُّلمُ قيدين لاستحقاقِ الوعيدِ أفاد الكلام أنَّ ما كان خطأً أو سهوًا أو كانَ بحقٍّ كالقصاصِ وسائرِ الحدودِ الشّرعيَّة لايدخل ضمن الوعيد[3].

إخْـراجُ ما كان مِـنَ الأَخْـذِ والقَتْلِ على وَجْهِ حَقٍّ أَوْ سَهْوٍ أَو خَطَأٍ

مناسبةُ الجمعِ بيَن العُدوانِ والظُّلمِ في قولِه ﴿عُدۡوَٰنٗا وَظُلۡمٗا﴾:

لمّا كانَ العطفُ يقتضي المغايرةَ دلَّ على أنَّ العدوانَ غيرُ الظّلمِ، وليسَ مرادفًا لهُ، فإذا كانَ العدوانُ بمعنى الإفراطِ في التَّجاوزِ عنِ الحقِّ، والظّلمُ بمعنى الإتيانِ بما لا يستحقُّهُ، فيشملُ العدوانَ وغيرَهُ كانَ الظُّلمُ أعمَّ، فيكونُ مِنْ عطفِ العامِّ على الخاصِّ، فقدَّم العدوانَ الذي هو أخصُّ مِنَ الظُّلمِ؛ تنبيهًا على أنَّ مَنِ ارتكبَ صغيرةً، ولم يقمعْ نفسَهُ عنها جرَّتْهُ إلى ما هو أعظمُ منها، فنبَّه أنَّ مِنْ حقِّ الإنسانِ أنْ يحفظَ نفسَهُ عنِ الصَّغيرةِ خشيةَ أنْ يقعَ فيما هو أعظمُ منها.

وإذا كانَ العُدوانُ بمعنى التَّسلُّطِ بشدَّةٍ، الذي يكون بِظُلمٍ غالبًا، وقد يكونُ بِحقٍّ، كما قالَ تَعالَى: ﴿فَلَا عُدۡوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ١٩٣﴾ [البقرة: 193]، فيكونُ الظُّلمُ أخصَّ منه، فيكونُ مِنْ عطفِ الخاصِّ على

(1) ابن جرير، جامع البيان: 8/231، وابن عطية، المحرر الوجيز: 2/42.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 3/613.
(3) النيسابوري، غرائب القرآن: 2/400.

العامِّ، وهو الغالبُ في الكلامِ، فإنَّ حكمَ العامِّ والخاصِّ إذا اجتمعا أنْ يقدَّمَ العامُّ على الخاصِّ، وعلى كلا التّوجيهين يدلُّ العطفُ على التَّأكيدِ، لتضمُّنِ العامّ معنى الخاصِّ.

أو أنْ يكونَ العُدوانُ هو أن يتجاوزَ إلى حقِّ غيرِهِ، والمرادُ مِنَ الظُّلمِ ظلمُ النَّفسِ بتعريضِها لِلعقابِ، فيكونُ بينهما تغايرٌ تامٌّ، ويكونُ المعنيُّ بالظُّلمِ غيرَ المعنيِّ بالعُدوانِ، فبيّنَ أنَّ مَنْ جمعَ بينَ الأمرينِ فقدْ ظلمَ نفسَهُ، وظلمَ غيرَهُ، فهو مستوجِبٌ لإصلائِهِ في النَّار[1].

مناسبة العطفِ في الشرط في قوله ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَٰنًا وَظُلْمًا﴾:

لمّا كانَ الشَّرطُ في مقامِ السَّببِ لِوقوعِ الجزاءِ دلَّ عطفُ الظُّلمِ على العُدوانِ اشتراطَ حصولِهما معًا؛ لِتحقُّقِ الجزاءِ ووقوعِه، فَإِذَا وُجِدَ أَحدُهمَا دونَ الآخَرِ لَا يستَحِقُّ هذا الوعيدَ الشَّديدَ[2].

نكتةُ التّعبيرِ بـ ﴿فَسَوْفَ﴾:

عبّرَ بحرفِ الاستقبالِ ﴿فَسَوْفَ﴾؛ لإفادةِ تأكيدِ الوعيدِ وتثبيتِه، وأنَّهُ واقعٌ لا محالةَ[3]، وإنْ كانَ بعيدًا في ظنّهم.

دلالةُ التَّنكيرِ في قولِه ﴿نَارًا﴾:

أفادَ التَّنكيرُ التَّعظيمَ، والمعنى: فسوفَ نُصليه نارًا عظيمةً شديدةً يستحقُّها على فعلِه الشَّنيعِ.[4]

بلاغةُ الالتفاتِ في قولِه ﴿فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا﴾:

وردَ الكلامُ على طريقِ الالتفاتِ، ففيهِ عدولٌ عنِ الغَيبةِ إلى التَّكلّم في قولِهِ: ﴿فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا﴾ ثمَّ رجوعٌ إلى الغَيبةِ في قولِهِ: ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾، فيكونُ الكلامُ الحسنُ أكثرَ تطريَةً لِنَشاطِ السَّامعِ، ولِيكونَ السّامعُ أكثرَ إصغاءً لِموضعِ الوعيدِ؛ لِمَا في نونِ التّعظيمِ في قولِه ﴿نُصْلِيهِ﴾ مِنَ الرَّهبةِ والمهابةِ تأكيدًا لِشِدّةِ العذابِ وتعظيمًا له.

(1) الراغب، تفسير الراغب: 3/1207، البيضاوي، أنوار التنزيل: 2/71، وابنُ عاشور، التّحرير والتّنْوير: 5/25.
(2) رضا، تفسير المنار: 5/38.
(3) الزّمَخْشري، الكشاف: 1/583.
(4) أَبو حَيّانَ، البحر المحيط: 3/613، والسمين، الدر المصون: 3/664، والبروسوي، روحُ البَيانِ: 2/195.

نكتةُ العدولِ إلى الاسمِ الظّاهرِ في قولِه ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾:

ذكـــرُ الاســـمِ الجليلِ لِتربيةِ المهابةِ وتأكيدِ الوعيدِ

رجعَ الكلامُ إلى أسلوبِ الغَيبةِ؛ للتّعبيرِ بالاسمِ الجليلِ الأَحسنِ (اللّهِ)، لِما في إظْهارِه مِنْ تربيةِ المهابةِ وتأكيدِ الوعيدِ.

نكتةُ تقديمِ ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾ على قولِه ﴿يَسِيرًا﴾:

أفادَ تقديمُ الجارِّ والمجرور ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾ الاهتمامَ بهِ كما أفادَ التَّخصيصَ، وعبّرَ بالاسمِ الجليلِ؛ لِلإشعارِ بأنَّ إدخالَه النّارَ وإصلاءَه فيها يسيرٌ لا عُسرَ فيهِ على اللّهِ وحدَهُ، بمقتضى ألوهيّته ﷻ.

قَوْلُه تَعالى: ﴿إِن تَجۡتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنۡهَوۡنَ عَنۡهُ نُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَنُدۡخِلۡكُم مُّدۡخَلٗا كَرِيمٗا ٣١﴾ [النّساء: 31].

مناسبةُ التّعبيرِ بـ (إنْ) في قولِه ﴿إِن تَجۡتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنۡهَوۡنَ عَنۡهُ﴾:

بَـيَـانُ فَـضـيـلَـةِ اجْتِنابِ الكَبائِرِ، والبُعْدِ عَنْها، لِشِدَّةِ دواعيها وخَطَرِ الوُقوعِ فيها

عبَّرَ بأداةِ الشَّرطِ (إنْ)؛ للإشعارِ بالشَّكِّ مِنْ جهةِ المخاطبينَ في اجتنابِهمُ الْكبائرَ وندرةِ هذا الاجتنابِ، ولِهذا اقترنَ بها فعلُ المضارعِ ﴿تَجۡتَنِبُواْ﴾ الدالُّ على الاستقبالِ، فدلَّ على أنَّ هذا الاجْتنابَ مَطْلَبٌ عَزيزٌ لا يَكونُ إلا بعد مُجاهدةٍ كبيرةٍ لِلنَّفس وصَبرٍ عظيمٍ على دواعي الوُقوعِ فيها.

نكتةُ التّعبيرِ بالفعلِ ﴿تَجۡتَنِبُواْ﴾:

الاجـتـهـادُ في الابـتـعـادِ عن الكبائرِ وتركِها جانبًا

عبّرَ بصيغةِ (افْتَعَلَ)؛ للإيذان بأنَّ تركَ الكبائرِ فيهِ اجتهادٌ وطلبٌ في البعدِ عنها، كما تتضمَّنُ الصِّيغةُ معنى المبالغةِ في معنى الفعلِ وهو البعدُ الشَّديدُ، فاجتنابُ الكبائرِ على معنى المباعدةِ عنها وتركِها جانبًا، بِأَنْ يَكونَ في جانبٍ، والكَبائرُ في جانبٍ آخرَ، وفي هذا ثنَاءٌ على مُجتنِبِ الكبائرِ ببيانِ فضيلَةِ مجتنِبِها وجزائِهِ بتكفيرِ السِّيّئاتِ، ودُخُولِ الجنَّاتِ، فمعنى ﴿إِن تَجۡتَنِبُواْ﴾ إنْ تَتْركوا الكبائرَ نِهائيّاً[1]

(1) الزجاج، معاني القرآن وإعرابه: 2/45، والواحدي، التفسير الوسيط: 2/39.

مُناسَبَةُ الاعْتِراضِ بَيْنَ الأَوامِرِ والتَّوجيهاتِ لِأَهْلِ الإيمانِ في: ﴿إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا﴾.

فَإِنَّ هذا الاعْتِراض نَاسَبَ ذِكْرُهُ بَعْدَ ذِكْرِ ذَنْبَيْنِ كَبِيرَيْنِ: وَهُمَا قَتْلُ النَّفْسِ، وَأَكْلُ الْمَالِ بِالْبَاطِلِ، وَقَبْلَ مُواصَلَةِ سِلْسِلَةِ الأَوامِرِ والنَّوَاهِي في: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْاْ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ﴾ عَلَى عَادَةِ الْقُرْآنِ فِي التَّفَنُّنِ مِنْ أُسْلُوبٍ إِلَى أُسْلُوبٍ، وَفِي انْتِهَازِ الْفُرَصِ فِي إِلْقَاءِ التَّشْرِيعِ عَقِبَ الْمَوَاعِظِ وَعَكْسِهِ، فَإِنَّهُ ﷺ لَمَّا ذَكَرَ الْوَعِيدَ عَلَى فِعْلِ بَعْضِ الْكَبَائِرِ، ذَكَرَ الْوَعْدَ عَلَى اجْتِنَابِ الْكَبَائِرِ[1].

التَّفَنُّنُ في ذِكْرِ الوَعْدِ بَعْدَ الوَعيدِ، والتَّنويعُ بَيْنَ الوَعْظِ والتَّشْريعِ:

براعةُ الكلامِ بيَن الحذفِ والذّكرِ في قَوْلِهِ: ﴿إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾:

لَمَّا كانَ مُجرَّدُ الاجتنابِ عَنِ الكبائِرِ لا يوجبُ دُخولَ الجنَّةِ، بَلْ لا بُدَّ معهُ مِنَ الطَّاعَاتِ، كان التَّقديرُ: إنْ أَتيتُمْ بجميعِ الواجِباتِ، وَاجتنبتُمْ جَميعَ الكبائِرِ كَفَّرْنَا عَنْكُم السَّيِّئَاتِ أي الصَّغائرَ، وَأَدخلناكُمُ الجَنَّةَ، فالعامِلُ لا يَكُونُ مَحْمُودًا بِمُجَرَّدِ اجْتِنابِ النَّواهي حَتّى يجمعَ معهُ امتثالَ الأَوامِرِ[2]، فحذفَ المعلومَ من السّياقِ؛ للإشعارِ بأنَّه واضحٌ وبيِّنٌ.

التَّنْبيهُ إلى امْتِثالِ الأَوامِرِ وتَعْظيمُ الأَمْرِ والنَّهيِ جَميعًا

وقد يقال إنَّ فعلَ الواجباتِ داخلٌ في ضمنِ اجتنابِ الكبائِرِ، فإنَّ تركَ الصَّلاة مثلًا من الكبائرِ، وهو منهيٌّ عنه، فاجتنابُ تركِ الصّلاة هو فعلُها، وتركَ صيامِ رمضانَ من الكبائرِ، وهو منهيٌّ عنه، واجتنابُ تركِ صيامِ رمضانَ هو صومُه، ولهذا عبّر بقولِه ﴿إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ﴾ ولم يقلْ (إنْ تجتَنِبُوا فعلَ كبائرِ)، فلا حذفَ في الكلامِ؛ لشمولِ اجتنابِ الكبائرِ فعلَ

(1) أبو حَيّانَ، البحر المحيط: 3/613، وابنُ عاشور، التّحْرير والتّنْوير: 5/25.
(2) الرازي، مفاتيح الغيب: 10/64.

الواجباتِ أيضًا، فيكونُ الجزاء ﴿نُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ﴾ مرتّبًا على فعلِ الواجباتِ وتركِ المنهيَّاتِ.

نكتة التّعبير بصيغة المبني للمفعول في قوله ﴿تُنۡهَوۡنَ﴾:

حُذِفَ الفَاعِلُ وهو الاسْمُ الأَحْسَنُ (اللّه) لِلْعِلْمِ بِهِ؛ ولِبيانِ عَظَمَتِهِ ﷻ، ولِتَفْخيمِ شَأْنِ غُفْرانِهِ والمدخل الكريم جِيء بِفِعْلِ الجَزاءِ (نُكَفِّر) وما عطف عليه (ندخلكم) مُصَدَّرَين بِنون العَظَمَةِ على طَريقِ الالْتفات[1].

نكتةُ العطفِ في جزاءِ الشّرطِ في قولِه ﴿نُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَنُدۡخِلۡكُم مُّدۡخَلٗا كَرِيمٗا﴾:

لَمَّا كانَ الشّرطُ سببًا للجزاءِ دلَّ على أنَّ اجتنابَ الكبائرِ سببٌ لتكفيرِ السَّيّئات[2]، ولمّا كانَ دخولُ الجنَّةِ لا يكونُ حتَّى يكونَ تكفيرُ السَّيّئات دلَّ على أنَّ تكفيرَ السَّيّئاتِ سببٌ لِدخولِ الجنَّة، وإنّما كانَ الشَّرطُ وهو اجتنابُ الكبائرِ سببًا لدخولِ الجنّة من أجلِ كونِهِ سببًا في تكفير السَّيِّئات، أي فلمّا كانَ المعطوفُ لا يقعُ حتَّى يكونَ المعطوفُ عليه وكانَ الشَّرط سببًا في الجزاء أفاد أنَّ الشَّرطَ سببٌ في المعطوف كذلك بوساطةِ كونه سببًا في الأوّل[3].

مناسبةُ الإضافةِ في قوله ﴿سَيِّـَٔاتِكُمۡ﴾:

الصّغائرُ ملابِسَةٌ للمؤمنينَ، وتكفيرُها باجتنابِ الكبائرِ

أضافَ السَّيِّئَاتِ التي هي الصّغائرُ إِلَى ضَميرِ الْمُخَاطَبِينَ ولم يُضِف الكبائرَ إليه، إيذانًا بلطفِ اللّهِ تعالى بهم، وإشعارًا بأنَّ السَّيّئاتِ ملابسةٌ لهم، فهم غيرُ منفكّينَ عنها على عكسِ الكبائر التي يستطيعونَ اجتنابَها.

بلاغةُ مجازِ الإسنادِ في قولِه ﴿وَنُدۡخِلۡكُم مُّدۡخَلٗا كَرِيمٗا﴾:

كرمُ المنزل يُفضي إلى كرمِ صاحبِه وإكرامِ ضيفِه

بيّنَ اللّه تعالى في هذهِ الجملةِ ما وعدَ بهِ من الثَّوابِ العظيم، فأشارَ إلى جميعِ منازلِ الثَّوابِ على اختلافِ مراتبِها، ونبَّهَ أنَّ كلَّ مدخلٍ لا يَخرجُ عنْ كونِهِ كريمًا في نفسه؛ لِيكونَ على مجازِ الإسنادِ للمبالغةِ في الوصفِ، والمعنى مُدخَلًا مُكرّمًا، ويقتضي كرمَ الفضيلةِ ونفيَ العيوبِ، وذهبَ بعضُ المفسّرين إلى أنّهُ على طريقة العربِ

(1) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 1/687، والآلوسيُّ، روحُ المعاني: 3/18.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 3/615.
(3) الجرجاني، دلائل الإعجاز: 234.

في الكلام، فيقولونَ: أَرضٌ كريمةٌ وأَرضٌ مُكَرَّمَةٌ: أَي طيِّبةٌ جيِّدةُ النَّباتِ، وَفي التَّنزيلِ: ﴿فَأَخۡرَجۡنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٖ وَعُيُونٖ ۝٥٧ وَكُنُوزٖ وَمَقَامٖ كَرِيمٖ ۝٥٨﴾ [الشعراء: 57، 58]، فعلى هذا لا مجازَ فيه[1]

القراءاتُ القرآنيَّةُ وتنوّعُ المعنَى:

المبالغةُ في إكرامِ الدَّاخلِ إلى الجنّةِ لِكَرَمِ المُدخِلِ

قَرَأَ نَافِعٌ: ﴿مَّدۡخَلٗا﴾ بِفَتْحِ الْمِيمِ، وَرُوِيَتْ عَنْ أَبِي بَكْرٍ عن عاصم، وقرأ باقي السبعة ﴿مُّدۡخَلٗا﴾ بالضم وعلى القراءتين يحتمل المكان أو المصدر، فإذا كانَ المرادُ المكانَ وهو مَوْضِعُ الدُّخُولِ، أشعرَ وصفُه بالمبالغةِ في الكرمِ، بسببِ مجيئِه على طريقِ المجازِ كما تقدّمَ، بمعنى الْمَكَانِ الَّذِي يُكرَمُ بِهِ مَنْ يدخلُهُ وَيُقيمُ فيهِ، وإذا كانَ المُرادُ المَصدَرَ وَهُو الإدخالُ، فالمعنى: وَيُدخِلْكُمْ إدخَالًا كَرِيمًا، فوَصفَ الإدخالَ بِالكرمِ معَ أنّهُ حدثٌ؛ للإيذانِ بأَنَّ ذَلِكَ الإدخالَ يَكونُ مَقرونًا بِالكرمِ، فهوَ إدخالٌ حَسَنٌ مَرضِيٌّ لا عيبَ فيهِ، وعلى كلا التّوجيهين يُشعِرُ الكلامُ بالمبالغةِ في إكرامِ الدَّاخلِ وكرمِ المُدخِلِ[2].

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الظُّلْم والعُدْوان:

الظُّلمُ مُجاوَزَةُ الحُدودِ وتَعَدِّيها بِغَيْرِ حَقٍّ بِالكُلِّيَّةِ، كَأَخْذِ مالٍ بِغَيْرِ اسْتِحْقاقٍ لِشَيْءٍ مِنْهُ، وقَتْلِ نَفْسٍ لا يَحِلُّ قَتْلُها، وأَمَّا العُدْوَانُ: فَهُوَ التَّسَلُّطُ بِشِدَّةٍ، وهُوَ أيضًا مُجَاوزَةٌ فيما أَصْلُهُ مُباحٌ، مِثْلَ أَنْ يَكُونَ لَهُ على أَحَدٍ حَقٌّ مِنْ مالٍ أَوْ دَمٍ أَوْ عِرْضٍ، فَيَسْتَوْفي أَكْثَرَ مِنْهُ، فَهذا هُوَ العُدْوانُ، فَيَأْخُذُ ما لَهُ أَخْذُهُ وما لَيْسَ لَهُ أَخْذُهُ، ويَكونُ بِظُلْمٍ غالِبًا، وَقَدْ يَكُونُ بِحَقٍّ، إنْ كان مِنْ قَبيلِ المُجَازاةِ[3]، قَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَا عُدۡوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ۝١٩٣﴾ [البقرة: 193]، وإضافة إلى ما سلف، فإنّ الفرق

(1) الراغب، تفسير الراغب: 2/1214، ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/44، ورضا، تفسير المنار: 5/47.
(2) الأزهري، معاني القراءات: 1/305، والرازي، مفاتيح الغيب: 10/64.
(3) ابْنُ رَجَب، شَرْحُ حَديثِ لَبَّيكَ اللهمَّ لَبَّيْكَ، ص: 103، وابنُ عاشور، التّحرير والتّنْوير: 5/25.

بين لفظي الظّلم والعُدوانِ يرتكز على أنَّ الظُّلمَ: ما كانَ تصرّفًا بغيرِ حقٍّ بالكليَّة، كأخذ مالٍ بغير استحقاقٍ لشيء منه، سوى الظّلم والجور، وقتلِ نفس لا يحلُّ قتلُها، اعتداء على حدود اللّه، في حرمة السّطو على الأرواح، وأمَّا العُدوانُ: فيذكرون بأنّه مُجاوزةُ الحدودِ وتعدّيها، فيما أصلُه مباح، مثل أن يكونَ له على أحدٍ حقّ من مالٍ أو دم أو عرضٍ، فيستوفي أكثرَ من ذلك الحقّ المستحقّ، فهذا هوالعُدوانُ، وهو تجاوزُ ما يجوزُ أخذُه، فيأخذُ ما لَهُ أخْذُهُ وما ليس له أخْذُهُ[1].

الإِثْم والعُدْوان:

الإِثْمُ: الجُرْمُ كائِنًا ما كانَ، والْعُدْوانُ: هُوَ مُجَاوزَةٌ فيما أَصْلُهُ مُباحٌ[2]، فَالإِثْمُ أَعَمُّ مِنَ العُدْوانِ[3]، قال تَعالى: ﴿يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾ [المائدة: 62]، وقد أمر اللّه المؤمنين بالتّعاون الإيجابيّ على البرّ والتّقوى، على أنّ البرّ هو اسمٌ لكلّ خير، والتّقوى: هي تركٌ لكلّ شرّ، ونهاهم عن التّعاون السّلبيّ على الإثم الّذي تقترفه الجوارح، والعدوان الّذي يطال النّاس من المعتدي، وقد جمعهما اللّه في قوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾ [المائدة: 2][4]، قال القتبي: العدوان على وجهين: عدوان في السّبيل، كقوله: ﴿فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ١٩٣﴾ [البقرة: 193]، وكقوله: ﴿فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَيَّ﴾ [القصص: 28]، والثّاني عدوان في الظّلم، كقوله: ﴿فَلَا تَتَنَٰجَوْاْ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾ [المجادلة: 9][5]، والمعنى المستفاد من هذه الآية، يفضي إلى الفرق بين الإِثْم والعُدْوانِ، قال عطاء: يريد: معاصي اللّه، والتّعدّي في حدوده[6]، وقيل: الْإِثْم: الْكفْر، والعدوان: الْبِدْعَة، وَقيل: الْإِثْم الْكفْر، والعدوان: الظُّلم[7]، وقيل الإثم ترك المأمور، والعدوان فعل المحظور، ويجوز أن يراد العموم لكلّ إثم وعدوان[8].

(1) ابن رجب، روائع التّفسير: 1/323.
(2) أَبو حَيّانَ، البحر المحيط: 1/469.
(3) الرَّاغِبُ، الْمُفْردات: (إثم).
(4) الماتريدي، تأويلات أهل السّنة: 3/443.
(5) السّمرقنديّ، بحر العلوم: 1/367.
(6) الواحديّ، الوسيط: 2/150.
(7) السّمعانّي، تفسير القرآن: 2/8.
(8) النسفي، مدارك التّنزيل: 1/425.

الاِجْتِناب والتَّرْك:

اجْتِنابُ الشَّيْءِ وتَجَنُّبُهُ البُعْدُ عَنْهُ[1]، ويَكُونُ بِإِرَادَةٍ واخْتِيارٍ مِنَ الإِنْسانِ، وبِدَافِعٍ مِنْهُ، بَيْنَما التَّرْكُ قَدْ يَكُونُ لِدَافِعٍ داخِلِيٍّ، أَوْ خارِجِيٍّ كَمَنْ يَتْرُكُ الشَّيْءَ لِعَدَمِ تَمَكُّنِهِ مِنْهُ، فَالاِجْتِنَابُ أَبْلَغُ مِنَ التَّرْكِ في بَابِ النَّهْيِ عَنِ الشَّيْءِ[2]، لِهَذا وَرَدَ الاِجْتِنابُ عِنْدَ ذِكْرِ الكَبَائِرِ ﴿فَٱجۡتَنِبُواْ ٱلرِّجۡسَ مِنَ ٱلۡأَوۡثَٰنِ وَٱجۡتَنِبُواْ قَوۡلَ ٱلزُّورِ ٣٠﴾ [الحج: 30]، والتّعبير بقوله تعالى: ﴿فَٱجۡتَنِبُوهُ﴾ [المائدة: 90] أبلغ دلالة في النّهي والتّحريم من لفظ (حرَّم) ذاته، لأنّ معناه البعد عنه بالكليّة، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقۡرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓ﴾ [الإسراء: 32]، لأنّ القرب منه محرّم، فيكون الفعل مُحرّمًا من باب أولى، وقد جاء التّعبير بلفظ الاجتناب، لتأكيد بشاعة الفعل وخطورته، ومثاله قوله تعالى: ﴿فَٱجۡتَنِبُواْ ٱلرِّجۡسَ مِنَ ٱلۡأَوۡثَٰنِ﴾ [الحج: 30]، باعتبار الإشراك بالله، أعظم الجرائم خطرا، وأكبر الموبقات ضررًا[3].

الفَرْقُ بَيْنَ عبارتي (مَغْفِرَةِ الذُّنوبِ) و(تَكْفِيرِ السَّيِّئَاتِ):

لَفْظُ المَغْفِرَةِ يَتَضَمَّنُ الوِقَايَةَ والحَفْظَ، ولَفْظُ التَّكْفيرِ يَتَضَمَّنُ السَّتْرَ والإِزالَةَ، وعِنْدَ اقْتِرانِ الذُّنوبِ والسَّيِّئَاتِ يَنْصَرِفُ مَعْنى الذُّنُوبِ إِلى الكَبائِرِ، ومَعْنى السَّيِّئَاتِ إِلى الصَّغائِرِ، وعَلَيْهِ تَكُونُ المَغْفِرَةُ لِلذُّنوبِ، والتَّكْفيرُ لِلسَّيِّئَاتِ[4]، قال تَعالى: ﴿رَبَّنَا فَٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرۡ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلۡأَبۡرَارِ ١٩٣﴾ [آل عمران: 193] فَالمَغْفِرَةُ أَكْمَلُ مِنْ لَفْظِ التَّكْفيرِ ولِهذا كانَ مَعَ الكَبائِرِ، والتَّكْفيرُ مَعَ الصَّغائِرِ؛ وعِنْدَ الاِنْفرادِ يَدْخُلُ كُلٌّ مِنْهُما في مَعْنى قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ٥٣﴾ [الزُّمَر: 53]، مع ملاحظة أنّ السّياق القرآنيّ، يذكر تكفير السّيئات، إذا اجتنب المذكور الكبائر، ونأى عن العظائم والجرائر، ولا يذكر الحكم إذا لم يجتنبها؛ فليس فيه أنّه إذا لم يجتنب لا يكفر، فهو في مشيئة الله: إن شاء [غفر]، وإن شاء عذّب؛ على ما ذكرنا: وأنّ وجوب الحكم، لا يوجب إيجاب ذلك الحكم، في حال أخرى، حظرًا كان أو إحلالا[5].

---

(1) ابن سيده، المحكم: (جنب).

(2) الرَّاغِبُ، المُفْرداتُ: (جنب).

(3) مضمون فتوى بعنوان: (الاجتناب آكد في التّحريم من مجرّد لفظ حرّم)، موقع إسلام ويب، فتوى: 20849 (الشّابكة)، منشورة بتاريخ: 8 جمادى الآخر 1423 هـ - 16 - 8 - 2002 م.

(4) ابْنُ القَيِّمِ، مَدارِجُ السَّالِكِين: 1/317.

(5) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 1/317.

﴿وَلَا تَتَمَنَّوۡاْ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعۡضَكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٞ مِّمَّا ٱكۡتَسَبُواْۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٞ مِّمَّا ٱكۡتَسَبۡنَۚ وَسۡـَٔلُواْ ٱللَّهَ مِن فَضۡلِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٗا ٣٢﴾ [النِّساء: 32]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

النَّهي عن تمنِّي حيازة أموال الآخرين، لأنَّه سبب في أكلها بالباطل المهين

لَمَّا نَهى اللّه ﷻ عَنِ القَتْلِ، وعَنِ الأَكْلِ بالباطِلِ بالْفِعْلِ، نَهَى عَنِ التَّمَنِّي الذي هُوَ مُقَدِّمَةُ الأَكْلِ، لِيَكونَ نَهْيًا عَنِ الأَكْلِ بِطَريقِ الأَوْلى، وَكانَتِ المُبادَرَةُ إِلَى النَّهْيِ عَنِ المُسَبِّبِ آكَدَ لِفَظاعَتِهِ ومَشَقَّتِه، فَبَدَأَ بِهِ، ثُمَّ أَتْبَعَهُ بِالنَّهْيِ عَنِ السَّبَبِ حَسْمًا لِمَادَّةِ المُسَبِّبِ، وَلِيُوَافِقَ الْعَمَلُ الْقَلْبِيُّ الْعَمَلَ الْخَارِجِيَّ، فَيَسْتَوِي الْبَاطِنُ وَالظَّاهِرُ في الامْتِنَاعِ عَنِ الأَفْعَالِ القَبيحَةِ[1]، فَكان النّهي عَنْ تَمَنِّي ما فَضَّلَ اللّه بِهِ بَعْضَ النَّاسِ على بَعْضٍ، مِنَ الجاهِ والمالِ؛ لِأَنَّ ذلكَ التَّفْضيلَ قِسْمَةٌ مِنَ اللّهِ، صَادِرَةٌ عَنْ حِكْمَةٍ، وتَدْبيرٍ، وعِلْمٍ بِأَحْوالِ العِبادِ[2]، مع اليقين بأنّ الدّنيا دار اختبار، وأنّ متاعها إلى فناء واندثار، وأنّ التّنافس والتّكاثر، يؤدّي إلى الغرور والتّفاخر، والأولى بالمؤمن الحصيف، أن يترك الدّنيا بزخرفها المبهج، وصراعها المزعج، وأن يلجم نفسه عن الأماني الطّامحة، والأطماع الطّافحة، ليعيش في هناء وسعادة وأمان، وأن يسأل اللّه من الأفضال، لأنّه العليم بالواقع والمآل.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَلَا تَتَمَنَّوۡاْ﴾: من الأماني: "جمع أمنية، يقال تمنّى الشّيء، إذا أحبّ أن يكون له، وإن لم يتّخذ له أسبابه، والتّمنّي: تقدير شيء في النّفس وتصويره فيها، سواء أكان عن تخمين وظنّ، أم كان عن

(1) أَبو حَيّانَ، البحر المحيط: 3/616.
(2) الزَّمَخْشري، الكَشَّاف: 2/64.

رؤية وبناء على أصل، ولكنّه يغلب فيما يبنى على الحدس والتّخمين، وما لا حقيقة له"[1]، وفي لفظ الأماني وجهان: العرب تقول هذه أمَانٍ وأمَانيٌّ، بالتّشديد والتّخفيف، فمن قال أمانيَّ بالتّشديد، فهو مثل أحْدُوثة وأحاديث، ومن قال أمانٍ بالتّخفيف، فهو ممّا اجتمعت فيه الياءان أكثر لثقل الياءِ[2]، والأمانيّ جمع أمنية، وهو ما يأمل المرء تحقيقه خيرا كان أو شرّا، قال تعالى: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾ [النّساء: 123]، قال طرفة بن العبد:

تَمَنَّى رِجَالٌ أَنْ أَمُوتَ، فَإِنْ أَمُتْ *** فَتِلْكَ سَبِيلٌ لَسْتُ فِيهَا بِأَوْحَدِ[3]

2) ﴿ٱكْتَسَبُوا۟﴾: من كَسَبَ: والكسب، وهو طلب الرّزق، وفي لسان العرب: "قال ابن جنيّ: قوله تعالى: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ﴾ [البقرة: 286]، عبر عن الحسنة بكسبت، وعن السّيئة باكتسبت؛ لأنّ معنى كسب دون معنى اكتسب، لما فيه من الزّيادة، وذلك لأنّ كسب الحسنة، بالإضافة إلى اكتساب السّيئة، أمر يسير ومستصغر، وذلك لقوله ﷻ: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا﴾ [الأنعام: 160][4]، قال الشّاعر:

يُعَاتِبُنِي فِي الدَّيْنِ قَوْمِي وَإِنَّمَا *** دُيُونِي فِي أَشْيَاءَ تُكْسِبُهُمْ حَمْدَا[5]

والكسب: العمل، وهو ما يحصله المرء بسعيه، يقول الشّاعر:

إِذَا لَمْ يَكُنْ فِي الأَرْضِ حُرٌّ يُعِينُنِي *** وَلَمْ يَكُ لِي كَسْبٌ فَمِنْ أَيْنَ أُرْزَقُ؟[6].

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

الآية خطاب للمؤمنين، كيلا يتَمَنَّوا ما فَضَّلَ اللّهُ بِهِ بَعْضَهُمْ عَلى بَعْضٍ؛ فَلا يَتَطَلَّعُ الرِّجَالُ إلى مَا حلّى اللّهُ بِهِ النِّساءَ، ولا النِّساءُ إلى ما حَبَا اللّهُ بِهِ الرِّجالَ، لِئَلَّا يُؤَدِّي ذلك إلى السُّخْطِ والحَسَدِ

نَـهـيُ المـؤمـن عـن حسـد أولي النّعم، وإرشادُه إلى سُـؤال الله ذي الـعـطـاء والكرم

(1) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 5/156.
(2) الزّجاج، معاني القرآن وإعرابه: 1/159.
(3) الثّعلبيّ، الكشف والبيان عن تفسير القرآن: 10/219.
(4) ابن منظور، لسان العرب: (كسب).
(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/139.
(6) الثّعالبيّ، التّمثيل والمحاضرة، ص: 124.

والشّنآن، ذلك أنّ اللّه قد خصّ كلّ فَريقٍ بنصيب مكتوب، ورزق محسوب، وثواب مضمون، وعطاء مأمون، وطلب منهم أن يسألوا اللّه مِن فَضْلِهِ الواسع الرّحيب؛ فهو العليم المجيب[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

نكتةُ التَّعبيرِ في قولِهِ ﴿وَلَا تَتَمَنَّوۡاْ﴾:

عُبِّر بالنَّهي عن تمنّي ما فضَّلَ اللّهُ به بعضَكم على بعضٍ؛ لِمَا في معنى التَّمنّي من تشهّي حصولِ الشَّيءِ ومحبَّتِهِ والرّغبةِ فيه، وفي التّعبيرِ بالتّمنّي إشعارٌ بِبُعدِ تحصيلِهِ والمظنونُ أنَّهُ لا يكونُ[2].

المظنونُ في المتمَنّى أنَّهُ بعيدٌ ولا يَقَعُ

مناسبةُ التّعبيرِ بالاسمِ الموصولِ في قولِهِ ﴿مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعۡضَكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ﴾:

عُبِّرَ بالاسمِ الموصولِ ﴿مَا﴾؛ ليُفيدَ النّهيَ عنْ عموم ما تفضَّلَ اللّهُ بِهِ صغيرًا أو كبيرًا ممّا يجري فيه التّنافسُ، وللتّوسّل إلى جملةِ الصِّلةِ؛ لبيانِ وجهِ النَّهي عنِ التّمنّي؛ للإشعارِ بأنَّ ما تفضَّلَ اللّهُ بِهِ هو مِنْ شأنِ الألوهيَّةِ، فاللّهُ تعالى هو الذي وضعَ لكلٍّ نصيبَه عن تدبيرٍ لائقٍ بأحوالِ العبادِ مترتِّبٍ على الإحاطةِ بجلائِلِ شؤونِهِمْ ودقائقِها.

ما تفضّلَ اللهُ بِهِ مِنْ شأنِ الألوهيَّةِ فلا يَليقُ تَمنّيهِ

براعةُ الإيجازِ في قولِهِ ﴿مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعۡضَكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ﴾:

فيه إيجَازٌ عجيبٌ، فهوَ يَشملُ مَا فضَّلَ اللّهُ بِهِ بعضَ الرِّجالِ عَلَى بعضٍ، وَمَا فضَّلَ بعضَ النِّسَاءِ عَلَى بعضٍ وَما فضَّلَ بِهِ جِنسَ الرِّجَالِ عَلَى النِّساءِ، وَمَا فضَّلَ بِهِ جِنسَ النِّساءِ عَلَى الرِّجالِ، مِنْ حيثُ إنَّ الْخَصُوصِيَّةَ فضلٌ، أَيْ: زِيادَةٌ في صاحبِهَا على غيرِهِ، وَمَا فضَّلَ بِهِ بعضَ الرِّجَالِ على بعضِ النِّسَاءِ، وَما فضَّلَ بِهِ بعضَ النِّساءِ على

(1) المحلي والسيوطي، تَفْسيرُ الجَلالَيْنِ ص: 106، ولَجْنَةٌ مِنْ عُلَماءِ الأَزْهَرِ، المُنْتَخَبُ في تَفْسيرِ القُرآنِ الكَريمِ، ص: 113، ونخبة من أساتذة التفسير، التّفسير الميسّر، ص: 83، وجماعَةٌ مِنْ عُلَماءِ التَّفْسيرِ، المُخْتَصَرُ في تَفْسيرِ القُرْآنِ الكَريمِ، ص: 83، (باختصار وتصرّف).

(2) البروسوي، روح البيان: 2/198.

بعضِ الرِّجالِ، فلا إيجازَ أبدعُ مِنْ هذا في وصفِ أنواعِ التَّفاضُلِ بينَ الرّجالِ والنّساءِ[1].

فائدةُ تَقْديمِ الجارِّ والمَجْرورِ في: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ﴾ و﴿وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ﴾:

قدّمَ المُسندَ ﴿لِّلرِّجَالِ﴾ عَلى المُسْنَدِ إلَيْهِ ﴿نَصِيبٌ﴾؛ لإفادةِ تخصيصِ نصيبِهِمْ بهِمْ، على سبيلِ الإثباتِ والاستحقاقِ، وفيهِ إشعارٌ بأنَّ سببَ التَّخصيصِ هوَ وصفُ الرّجولةِ، ومثلُه تقديمُ ﴿وَلِلنِّسَآءِ﴾على ﴿نَصِيبٌ﴾، فسببُ تخصيصِ نصيبِهنَّ بهنَّ هو كونُهنَّ نساءً، فلِكلِّ فريقٍ نصيبٌ مُختَصٌّ به، فَما كانَ خاصًّا بالرِّجالِ لَهُمْ نَصيبٌ مِنْ عملِه والاجتهادِ فيه لا يُشارِكُهُمْ فيه النِّسَاءُ، وما كانَ خاصًّا بالنِّساءِ لَهُنَّ نَصيبٌ مِنْ عملِه والاجتهادِ فيه لا يُشارِكُهُنَّ فيهِ الرِّجالُ، وذِكرُ الرِّجالِ والنّساءِ هنا هو بقصدِ تعميمِ النّاسِ كما هو ظاهرُ اللَّفظِ، فَفَصَّلَ لما يترتّبُ على ذكرِ النّوعِ من بيانِ سببِ التّخصيصِ[2].

لكلِّ فريقٍ من الرّجالِ والنِّساءِ نصيبُه من الاجتهادِ والعملِ في ما خصَّه الله به

بلاغةُ الاستعارةِ التَّصريحيَّةِ في قولِهِ ﴿ٱكۡتَسَبُواْۖ﴾، ﴿ٱكۡتَسَبۡنَۚ﴾:

عُبّرَ عنِ النَّصيبِ المعيَّنِ المقدارِ في الإرثِ بالاكتسابِ، على طريقةِ الاستعارةِ التَّصريحيَّةِ التَّبعيَّةِ، إذْ شبَّهَ اقتضاءَ حالِ كلِّ فريقٍ لِنصيبِهِ باكتسابِهِ إيَّاهُ، على طريقةِ الاجتهادِ والطَّلَبِ، بما تُفيدُهُ صيغةُ (الافتعالِ)؛ تأكيداً لاستحقاقِ كلٍّ منهما لنصيبِهِ وتقريرًا لهُ، فما يجتهدُ فيه الرِّجالُ ويطلبونَهُ مختصٌّ بهِمْ وما يجتهدُ فيه النِّساءُ ويطلبونَهُ مختصٌّ بهنَّ، كما أفادتِ الاستعارةُ تقويةَ اختصاصِ كلِّ فريقٍ بنصيبِه بحيثُ لا يتخطَّاهُ إلى غيرِه، فإنَّ ذلكَ مما يوجبُه الانتهاءُ عنِ التَّمنِّي المذكورِ[3].

تقريرُ اختصاصِ كلِّ فريقٍ من الرّجالِ والنِّساءِ بنصيبِه بحيثُ لايتخطَّاه إلى غيرِهِ

(1) رضا، تفسير المنار: 5/49.
(2) ابنُ عاشور، التّحرير والتّنْوير: 5/31.
(3) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 2/172.

دلالةُ التّعبيرِ بقولِهِ ﴿ٱكۡتَسَبُواْۖ﴾، ﴿ٱكۡتَسَبۡنَۚ﴾:

توجيهُ الأنظارِ إلى العملِ والكسبِ لا إلى التَّمنّي والكسلِ

لَمَّا كانَ الاكتسابُ بمعنى الاجتهادِ في العملِ وطلبِه ممّا هو مقدورٌ عليه، فيَدْخُلُ في النَّهْيِ تَمَنِّي كُلِّ مَا هو منَ الأُمورِ الخِلقيَّةِ كَالجمالِ والعَقلِ إذْ لا فَائدةَ في تمنِّيها لِمَنْ لَمْ يُعطَهَا، والمعنى وجِّهوا أَنظارَكُمْ إلى مَا يقعُ تَحتَ كسبِكُمْ ولا تُوجِّهُوهَا إلى ما ليسَ في استِطَاعَتِكُمْ؛ فَإِنَّمَا يُنالُ الفضلُ بِالأَعمالِ الكَسبِيَّةِ والكلفةِ فيها فلا تَتمَنَّوْا شيئًا بِغَيرِ كسبِكُمْ وعملِكُم ممّا تُثيرُهُ البطَالَةُ مِنْ أَمَانيِّ النَّفسِ، ففي الكلامِ إرشادٌ إلى المُبَالَغَةِ والتَّكَلُّفِ في طلبِ الزِّيادةِ مِنَ المالِ والجاهِ وكُلِّ ما يتفاضَلُ فيهِ النَّاسُ بِأَعمالِهِمْ بِشرطِ التزامِ الحقِّ[1]

بديعُ المقابلَةِ في قولِه ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٞ مِّمَّا ٱكۡتَسَبُواْۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٞ مِّمَّا ٱكۡتَسَبۡنَۚ﴾:

تأكيدُ اختصاصِ كلِّ فريقٍ بنصيبِه

قابلَ بين الرِّجالِ والنِّساءِ في النَّصيبِ، فَصَرَّحَ بذكرِ نصيبِ النّساءِ؛ لإفادةِ تأكيدِ الأمرِ وتقريرِه للفريقينِ، إذْ دلَّ تخصيصُ نصيبِ الرِّجالِ على أنَّ للنِّساءِ نصيبًا مختصًّا بهنَّ لمقابلتهنَّ بهم، ودلَّ تخصيصُ نصيبِ النِّساءِ على أنَّ للرِّجالِ نصيبًا مختصًّا بهمْ لمقابلتهم بهنَّ، فالكلامُ على تقديرِ التّكريرِ لكلِّ جملةٍ.

دلالةُ (مِنْ) بين التَّبعيضِ والابتداءِ:

بعضُ أنواعِ الاكتسابِ يشتركُ فيه الرّجالُ والنّساءُ

تحتملُ (مِنْ) في قوله تعالى: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٞ مِّمَّا ٱكۡتَسَبُواْۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٞ مِّمَّا ٱكۡتَسَبۡنَۚ﴾ أنْ تكونَ لِلتَّبعيضِ، بمعنى ليسَ كلُّ ما يكتسِبُهُ الرِّجالُ أو النِّساءُ ممَّا يختصُّ بهِ بعضُهم على بعضٍ، للإشعارِ بأنَّ بعضَ الاكتسابِ ممَّا يشتركُ فيهِ الرِّجالُ والنِّساءُ، وتحتملُ أنْ تكونَ ابتدائيَّةً، والمعنى استَحقَّ الرِّجالُ نصيبَهم مِنْ

(1) رضا، تفسير المنار: 5/49 - 50.

عملِهم، واستَحقَّ النِّساءُ نصيبَهم مِنْ عملِهم، فَلَا فائِدةَ في تَمَنِّي فريقٍ أَنْ يعملَ عملَ فريقٍ آخَرَ[1]

أثرُ الفَصْلِ بَيْنَ المُتعاطِفَيْنِ بقَوْلِهِ: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكۡتَسَبُواْۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكۡتَسَبۡنَۚ﴾:

تَعْليلُ النَّهْيِ السَّابِقِ وقَطْعُ عُذْرِ المُتَمَنِّينَ

هَذِهِ الجُمْلَةُ اعتراضيَّةٌ تفيدُ تأكيدَ طلبِ الانتهاءِ على ما تفيدُهُ الجملُ الاعتراضيَّةُ[2]، وتفيدُ كذلكَ تعليلًا لِطلبِ الانتهاءِ، وتتضمَّنُ ترغيبًا في الامتثالِ للأمرِ في قولِه ﴿وَسۡـَٔلُواْ ٱللَّهَ مِن فَضۡلِهِۦٓۚ﴾، كأنَّه قيلَ: لاتتمنَّوا ما يَختصُّ بغيركمْ مِنْ نصيبِهِ المكتَسبِ لهُ، واسألوا اللّه تعالى مِنْ خزائنِ نعَمِهِ الَّتي لا نفادَ لها، فالجملةُ مَسوقَةٌ مَساقَ التَّعْليلِ لِلنَّهيِ عنِ التَّمَنِّي قَطعًا لِعُذرِ المتمَنِّينَ، وتأنيسًا بالنَّهيِ[3].

نكتةُ حذفِ المفعولِ في قولِه ﴿وَسۡـَٔلُواْ ٱللَّهَ مِن فَضۡلِهِۦٓۚ﴾:

سَلُوا اللهَ ما تريدونَ فإنَّ اللهَ يُعطيكُمُوه

حُذِفَ مفعولُ ﴿وَسۡـَٔلُواْ﴾؛ لإفادةِ عمومِ المسألةِ، أيْ واسألَوهُ ما تريدونَ، فإنَّه تعالى يُعطيكُموه[4]

مناسبةُ العطفِ في قولِه ﴿وَسۡـَٔلُواْ ٱللَّهَ مِن فَضۡلِهِۦٓۚ﴾:

اطلبُوا الفضلَ مِنَ اللهِ تعالى بالعملِ لا بالحسدِ والتَّمنِّي

عطفَ طلبَ الأمرِ في قولِه: ﴿وَسۡـَٔلُواْ ٱللَّهَ مِن فَضۡلِهِۦٓۚ﴾ على طلبِ النَّهيِ في قولِهِ: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوۡاْ﴾؛ لِمشاركةِ المعطوفِ والمعطوفِ عليهِ في الطَّلبِ والجهةِ الجامعةِ، والمعنى: لَا تَتَمَنَّوا ما في يدِ الغَيرِ ممَّا يَختصُّ بغيركم مِنْ نصيبِهِ المكتَسَبِ له، وَاسألُوا اللّه مِنْ فضلِهِ، فَإِنَّ فضلَ اللّه يَسعُ الإنعامَ على الكُلِّ[5]، فَنهاهُمْ عنِ الخَطَأِ وأَمرَهمْ بالصَّوابِ، وأَجاز ابنُ عاشورٍ أنْ يكونَ عطفًا على قولِه ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكۡتَسَبُواْۖ﴾[6].

(1) ابنُ عاشور، التّحرير والتّنْوير: 5/32.
(2) التّفتازاني، المطول، 500.
(3) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 2/172، وابنُ عاشور، التّحرير والتّنْوير: 5/31.
(4) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 2/172.
(5) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 1/689، وابنُ عاشور، التّحرير والتّنْوير: 5/32.
(6) ابنُ عاشور، التّحرير والتّنْوير: 5/32.

حسنُ التّذييلِ في قولِه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٗا﴾:

براعةُ التّذييلِ في عمومِ المَعنى وتنوّعِه

في جملةِ التَّذييلِ فوائدُ لغويَّةٌ وبلاغيَّةٌ، هي:

أوّلًا: أفادتْ ﴿إِنَّ﴾ تأكيدَ علمِ اللّه بكلِّ شيءٍ ودوامه.

ثانيًا: كما أفادت ﴿إِنَّ﴾ تعليل جميعِ ما تقدّمها في الآية، لتدلَّ على تعليلِ النّهي عنِ التّمنّي المذكورِ، وتعليلِ تخصيصِ كلٍّ من الرِّجالِ والنِّساءِ بما قدّرَ اللّه لهمْ، وتعليلِ طلبِ سؤالِ اللّهِ مِنْ فضلِه.

ثالثًا: لمَّا كانَ التّمنِّي مُتَعَلِّقًا بِعملِ النَّفسِ لَا يُراقبُهُ فيهِ إلّا اللّه تعالى ناسبَ تذييلَ الآيةِ بإحاطةِ علمِ اللّهِ بكلِّ الأشياءِ[1].

رابعًا: ناسبتْ جملةُ التّذييلِ ما تقدّمَها؛ للإشعارِ بأنَّ الإنسانَ يجهلُ ما يحتاجُهُ، واللّهُ تعالى هو العليمُ بهِ، وبمنافعِه وحاجاتِه.

خامسًا: دلَّ تعبير ﴿كَانَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٗا﴾ على استمرارِ علمِ اللّهِ بكلِّ شيءٍ ودوامِه، وظهورِ آثارِ علمِه تعالى في المؤمنينَ.

سادسًا: أفادَ تقديمُ ﴿بِكُلِّ شَيۡءٍ﴾ على ﴿عَلِيمٗا﴾ الاهتمامَ بعلمِ اللّهِ بِعمومِ الأشياءِ، وتخصيصَ العلمِ بها باللّهِ تعالى، فلا يعلمُ كلَّ شيءٍ إلَّا اللّه تعالى

سابعًا: لمَّا كانتْ الجملةُ على معنى العمومِ والكلِّيّةِ كانت بمثابةِ المَثَلِ في حكايتِها والتَّمثيلِ بها.

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

التَّمَنِّي والتَّرَجِّي:

التَّمَنِّي هُوَ الرَّغْبَةُ في حُصولِ الشَّيْءِ المُسْتَحيلِ، كَقَوْلِ الكَافِرِ عِنْدَ مُعَايَنَةِ العَذابِ ﴿يَٰلَيۡتَنِي قَدَّمۡتُ لِحَيَاتِي ٢٤﴾ [الفَجْرُ: 24]، أَوْ ما في حُكْمِ المُسْتَحيلِ مِمَّا يُمْكِنُ وُقوعُهُ، مِثْلَ قَوْلِ الّذينَ يُريدُونَ الحَياةَ الدُّنْيا: ﴿يَٰلَيۡتَ لَنَا مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٖ ٧٩﴾ [القَصَصِ: 79] وَيُعَبَّرُ عَلَيْه غالبًا بالأَداةِ لَيْتَ، وأَمَّا التَّرَجِّي فَهُوَ رَغْبَةٌ في حُصولِ أَمْرٍ مُمْكِنِ الحُدوثِ كَقَوْلِ مُوسى عليه السلام: ﴿عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهۡدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ٢٢﴾ [القصص: 22]؛ وتُسْتَخْدَمُ فيهِ الأَداةُ

(1) ابنُ عاشور، التّحرير والتّنْوير: 5/32.

(لَعَلَّ) غالبا، فَكُلٌّ مِنْهُما يَشْتَمِلُ على مَعْنى الطَّلَبِ إلَّا أَنَّ التَّمَنِّي يَكُونُ في المُسْتَحيلِ والمُمْكِنِ القريب مِنْهُ والرَّجاءُ يَخْتَصُّ بِالمُمْكِنِ[1]، وقد فَرَّقَ النّاسُ بين التّمني والتّرجِّي: بأنَّ الترجِّيَ لا يكونُ إلاَّ في الممكنِ، عكسَ التّمنّي، فإنّه يكونُ فيه، وفي المستحيلِ كقولِه:

لَيْتَ الشَّبَابَ هُوَ الرَّجِيع عَلَى الْفَتَى *** وَالشَّيْب كَانَ هُوَ البَدِيء الْأَوَّلُ[2]

وفي الإتقان قال في عروس الأفراح: "والأحسن ما ذكره الإمام وأتباعه من أنّ التّمنّي والتّرجّي والنّداء والقسم، ليس فيها طلب، بل هو تنبيه، ولا نزاع في تسميته إنشاء"[3].

الكَسْب والاِكْتِساب:

الكَسْبُ الْفِعْلُ العَائِدُ على فَاعِلِه بِنَفْعٍ أَوْ ضُرٍّ، ويَشْتَمِلُ على ما هُوَ خَيْرٌ كَقَوْلِه: ﴿أَوْ كَسَبَتْ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرٗاۗ﴾ [الأنعام: 158]، وفي ما هُوَ شَرٌّ كَقَوْلِه: ﴿بَلَىٰۚ مَن كَسَبَ سَيِّئَةٗ﴾ [البقرة: 81] ويَكُونُ لِنَفْسِه ولِغَيْرِه، والاِكْتِسابُ المُبالَغَةُ والاِعْتِمالُ في الكَسْب، ويَكونُ لِنَفْسِه خاصَّةً؛ فَفي الاِكْتِسابِ مَزِيدُ أَعْمالٍ، وتَصَرُّفٍ؛ أَمَّا إذا جاءَ الكَسْبُ مُجْتَمِعًا مَعَ الاِكْتِسابِ، فَإِنَّ الكَسْبَ هُنا لا يَعْني إلَّا ما هُوَ خَيْرٌ، والاِكْتِسابُ يَعْني ما هُوَ شرٌّ؛ قال تَعالى: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْۗ﴾ [البقرة: 286] وعِنْدَ الاِفْتِراقِ يَحْتَمِلُ الاِكْتِسابُ المَعْنَيَيْنِ، كما هُوَ في قَوْلِه تعالى: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٞ مِّمَّا ٱكْتَسَبُواْۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٞ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَۚ﴾، أَيْ لِلرِّجالِ نَصِيبٌ مِنْ ثَوابِ اللّه وَعِقابِه مِمَّا اكْتَسَبُوا، فَعَمِلوهُ مِنْ خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ، وَلِلنِّساءِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبْنَ مِنْ ذَلِكَ[4]، قيل: إنّ الكسب والاكتساب واحد في اللّغة، وقيل: إنّ الاكتساب أخصّ، واختلفوا في توجيهه، واختار الأستاذ الإمام محمّد عبده، ما قاله الزّمخشريّ، وقال: إنّه الصّواب، وهو أنّ الفرق بينهما، كالفرق بين عمل واعتمل، فكلّ من اكتسب واعتمل يفيد الاختراع والتّكلّف، فالآية تدلّ على أنّ فطرة الإنسان مجبولة على الخير، وأنّه يتعوّد الشّرّ بالتّكلّف والتّأسّي، والمعنى: أنّ لها ثواب ما كسبت من الخير، وعليها عقاب ما اكتسبت من الشّرّ، وفي هذا المضمار أفاض صاحب المنار، لتبيان الخلاف، وهو مبسوط من قبل في آخر سورة البقرة[5].

(1) العَسْكَرِيُّ، الفروق اللغوية، ص: 74.
(2) السّمين، الدّرّ المصون: 9/483.
(3) التّهانويّ، كشّاف اصطلاحات الفنون والعلوم: (التّمنّي)، والسّيوطيّ، الإتقان: 3/279.
(4) ابن جرير، جامع البيان: 6/669.
(5) رضا، تفسير المنار: 3/121.

﴿وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ ۚ وَٱلَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَـَٔاتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدًا ﴿٣٣﴾﴾ [النساء: 33]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

حقوق المستحقّين من الورثة في المالِ، بعد ذكرهم على سبيل الإجمال

لَمَّا أَنْهى اللّهُ ﷻ حُكْمَ أَكْلِ أَمْوالِ النَّاسِ بِالبَاطِلِ، ونَهى عَنْ تَمَنِّي ما فَضَّلَ اللّهُ بِهِ بَعْضَ النَّاسِ عَلى بَعْضٍ، مِنْ تَمَنِّي النِّساءِ ما لِلرِّجالِ، والرّجال ما للنّساء، عَطَفَ عَلَيْها مذكّرا بأنّه جعل لكلّ ميّت ورثة يرثون ممّا ترك الوَلِدَانِ وَالأَقرَبُونَ، بِاعْتِبارِها قَاعِدَةً عامَّةً لِمَعْنى النَّهْيِ عَنِ الطَّمَعِ في مَالِ صاحِبِ المَالِ، والمَقْصودُ مِنْها اسْتِكْمالُ تَبْيِينِ مَنْ لَهُمْ حقٌّ في المالِ[1]، حيث نبّه إلى حقوق من كانوا يتبنّون من الموالي، فأمر اللّه تعالى أن يجعل لهم نصيب في الوصية، وردّ الميراث إلى الأقارب[2]، بصورة نهائيّة ناسخة لما كان من قبل.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مَوَالِيَ﴾: جَمْعُ مَوْلى: وهُوَ الوارِثُ والسَّيِّدُ، والمَمْلوكُ، والحَليفُ، وَابْنُ العمِّ، وَالأَوْلَى بالشَّيْءِ، والصَّاحِبُ المُعينُ[3]، وأَصْلُ الوَلْيِ: لُزومُ الشَّيءِ غَيْرَهُ مَعَ القُرْبِ مِنْهُ[4]، والمَوالي هُنا وَرَثَةُ الرَّجُلِ وعَصَبَتُهُ[5]، والمقصود بالموالي هنا: " الّذين عقد المتوفّى لهم عقدًا، مقتضاه أن يرثوه إذا مات، من غير قرابة، وينصروه إذا احتاج إلى نصرتهم، في مقابل ذلك"[6].

(1) ابنُ عاشور، التّحْرير والتّنْوير: 5/33.
(2) الزّحيلّي، التّفسير الوسيط: 1/314.
(3) الأزهري، تهذيب اللغة: (ولى)، وابْنُ مَنْظورٍ، لِسانُ العَرَبِ: (ولي).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ولي)، وجبل، المُعْجَمُ الاِشْتِقاقيُّ: (ولي).
(5) ابْنُ قُتَيْبَةَ، غَريبُ القُرْآنِ، ص: 125.
(6) الأبياريّ، الموسوعة القرآنيّة: 9/303.

2) ﴿عَقَدَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾: المُعاقَدَةُ: المُعاهَدَةُ وَالْمِيثَاقُ؛ قال الرّاغب: "العَقْدُ: الجمع بين أطراف الشّيء، ويستعمل ذلك في الأجسام الصّلبة كعقد الحبل، وعقد البناء، ثم يستعار ذلك للمعاني، نحو: عَقْدِ البيع، والعهد، وغيرهما"[1]، قال رشيد رضا: " إنّ ما فسّر به الرّاغب العقد لم يوضّحه، فليس كلّ جمع بين طرفين عقدا، وقد يكون العقد في غير الأطراف، فهو كما قال في لسان العرب: نقيض الحلّ، فعقد الأيمان توكيدها، بالقصد والغرض الصّحيح، وتعقيدها المبالغة في توكيدها، فهو كعقد الشّيء لشدّه، أو ما يعقد على الشّيء من خيط أو حبل ليحفظه"[2]، والأَيْمانُ: جَمْعُ يَمِينٍ، وهو القَسَمُ أَوِ الْيَدُ[3]، وأَصْلُ عَقَدَ: يَدُلُّ على شَدٍّ، وشِدَّةِ وُثوقٍ[4]. ومَعْنى عَقْدِ اليَمينِ: تَوْثيقُها بِاللَّفْظِ مَعَ العَزْمِ عَلَيْها[5].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

تقرّر الآية واقعًا معيشا، مفاده أنّ لِكُلِّ واحِدٍ مِنْهُمْ، جَعَلْنا لَهُ عَصَبَةً يَرِثونَ مِمَّا تَرَكَ الوالِدانِ والأَقْرَبونَ مِنْ ميراثٍ، والَّذينَ تَحالَفْتُمْ مَعَهُمْ بِالأَيمانِ المُؤَكَّدَةِ على الحِلْفِ والنُّصْرَةِ، فَأَعْطوهُمْ نَصيبَهُمْ مِنَ الميراثِ، وكانَ هذَا الميراثُ بِالتَّحالُفِ في صَدْرِ الإِسْلامِ، ثُمَّ نُسِخَ، إِنَّ اللهَ كانَ مُطَّلِعًا على كُلِّ شَيءٍ، حاضِرًا مَعَكُمْ، يَشْهَدُ ما تَتَصَرَّفونَ بِهِ، وسَيُجازيكُمْ على ذلِكَ[6].

حيازة الثّروة إمّا بالوصيّة للموالي، أو بالإرث للقرابة الغوالي

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

نكتةُ تَقْديمِ الجارِّ والمَجْرورِ في: ﴿وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ﴾:

قدّمَ الجارَّ والمجرورَ ﴿وَلِكُلٍّ﴾ الذي هو في موضعِ نصبٍ مَفعولٌ

(1) الرّاغب، المفردات: (عقد).

(2) محمّد رشيد رضا: تفسير المنار: 6/98.

(3) ابْنُ مَنْظورٍ، لِسانُ العَرَبِ: (عقد)، والزَّبيديُّ، تاجُ العَروسِ: (عقد).

(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عقد).

(5) الكَفَوِيُّ، الكُلِّياتُ، ومعنى قوله تعالى: "﴿وَٱلَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ أي: حالفتموهم بما عقدتم معهم من عقد المحالفة، على النّصرة والمساعدة والاشتراك بالأموال وغير ذلك، وكل هذا من نعم الله على عباده، حيث كان الموالي يتعاونون بما لا يقدر عليه بعضهم مفردا"، ينظر: السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن: 1/176.

(6) المحلي والسيوطي، تَفْسيرُ الجَلالَيْنِ ص: 106، ولَجْنَةٌ مِنْ عُلَماءِ الأَزْهَرِ، المُنْتَخَبُ في تَفْسيرِ القُرآنِ الكَريمِ، ص: 113، ونخبة من أساتذة التفسير، التفسير الميسر، ص: 83، وجَماعَةٌ مِنْ عُلَماءِ التَّفْسيرِ، المُخْتَصَرُ في تَفْسيرِ القُرْآنِ الكَريمِ، ص: 83.

تَقْريرُ ما سَبَقَ مِنْ أَحْكامٍ، وتَأْكيدُ ما سَيَلْحَقُ مِنْ تَشْريعٍ وَإِلْزامٍ

ثانٍ لِـ ﴿جَعَلْنَا﴾؛ لِتَأْكيدِ الشُّمُولِ ودَفْعِ تَوَهُّمِ تَعَلُّقِ الجَعلِ بِالْبَعْضِ دونَ البَعْضِ، [1]، ونَظيرُ هذا التَّقْديمِ قَوْلُهُ تعالى في سُورَةِ المائِدَةِ: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائِدَة: 48].

إفادةُ التَّقديمِ القَصرَ:

لمّا قدَّمَ المَفعول الذي هُو شِبهُ الجُملَةِ (لِكُلٍّ) عَلى مُتَعَلِّقِهِ دلَّ على قَصْرِ الحَدَثِ عَلَيْهِ، وهُوَ قَصْرُ صِفَةٍ على مَوْصوفٍ قَصْرًا إضافِيًّا[2]، والغَرَضُ مِنْهُ التَّنْبيهُ على أَهَمِّيَّةِ هذا الجَعْلِ، وإِلْزامِهِمْ بِحُكْمِهِ مَعَ ما يَحْمِلُهُ مِنْ تَأْكيدٍ وإيجازٍ.

التَّنْبيهُ على عَلاقَتِهِمْ بِالمَوْروثِ، والتَّعْليلُ لِاسْتِحْقاقِهِمُ الإِرْثَ:

دَلالَةُ المَجازِ المُرْسَلِ في ﴿وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ﴾

فالمَوالي جَمْعُ مَوْلًى وَهُوَ مَحَلُّ الوَلْيِ، أَيْ لُزومُ أَحَدِهِما لِلآخَرِ مَعَ القُرْبِ مِنْهُ، [3]، وَهُوَ مَحَلٌّ مَجازِيٌّ وَقُرْبٌ مَجازِيٌّ[4]؛ فَهُوَ إِذَنْ مَجازٌ مُرْسَلٌ[5] عَلاقَتُهُ المَحَلِّيَّةُ، فذكرَ المحلّ وأراد الحالَّ، وذِكْرُهُ هُنا مَجازٌ عَنِ الأَقْرِباءِ الذينَ يَؤولُ إِلَيْهِم الميراثُ، وفيهِ تَنْبيهٌ على قربِهم ومَكانَتِهِمْ بِالنِّسْبَةِ إلى المُورِثِ، وتَعْليلٌ لِاسْتِحْقاقِهِمُ الإِرْثَ مِنْهُ.

دلالةُ لفظِ العمومِ ﴿وَلِكُلٍّ﴾:

إفادةُ (كُلّ) الاستغراقَ والإحاطةَ بأفرادِ المضافِ إليه

تدلُّ (كُلّ) هنا على الاستغراقِ والإحاطةِ بجميعِ أفرادِ ما تُضافُ إليه[6]، ولمَّا كانَ المضافُ إليه هنا مَحذوفًا، فالمرجِعُ إلى قرينةِ السّياقِ في تقديرِ المحذوفِ، فيُحتمَلُ أنْ يكونَ المضافُ إليه (قومًا) أو ما في معناه، والتّقدير: ولكلِّ قومٍ (أو لكلِّ أحدٍ) من الرِّجالِ

(1) أبو السّعود، إرشادُ العَقْلِ السّليم: 1/690، والبروسوي، روحُ البَيانِ: 2/200.
(2) القصر: تخصيص شيء بشيء بطريق مخصوص والإضافي منه أن يختص المقصور عليه بحسب الإضافة والنسبة إلى شيء آخر مُعَين، لا لجميع ما عداه، نحو: ما خليل إلا مسافر، فإنك تقصد قصر السفر عليه بالنسبة لشخص غيره، كمحمود مثلًا، وليس قصدك أنه لا يوجد مسافر سواه، يُنْظَرُ: الهاشِمي، جَواهِرُ البَلاغَةِ، ص: 170.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ولي).
(4) ابنُ عاشور، التّحرير والتّنْوير: 5/33.
(5) تَعْريفُهُ في تَفْسيرِ الصَّفْحَةِ الأُولى مِنْ هذا الجُزْءِ.
(6) ابن هشام، مغني اللبيب: 1/212.

والنِّساءِ جعلنا مواليَ؛ لإفادةِ استغراقِ أفرادِ الرّجال والنّساءِ، ويُحتمَلُ أنْ يكونَ المضافُ إليه (شيءٍ) بمعنى المال أي التّركَةِ، والتَّقديرُ: ولكلِّ شيءٍ من المالِ، على معنى استغراقِ أنواعِ المالِ وأفرادِه[1]

دلالةُ حرفِ الجرِّ (مِن) في قولِه ﴿مِّمَّا﴾:

(مِن) هنا بيانيّة، فهي تبيينٌ للإجمالِ في (كلّ)[2].

اختلافُ المعنى باختلافِ موضعِ الوقفِ القرآني:

إذا كانَ الوقفُ على ﴿وَٱلۡأَقۡرَبُونَۚ﴾، - وهو الرَّاجحُ؛ لأنَّ الوقفَ عليهِ حسنٌ[3] - فالمعنى له توجيهانِ بالنَّظرِ إلى تقديرِ المضافِ إليه في ﴿وَلِكُلّٖ﴾ كما تقدّمَ، فإمّا أنْ يكونَ المعنى: وَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ جَعَلْنَا عُصبَةً يُعطَونَ مِمَّا تَرَكَ الوالدانِ وَالْأَقربونَ، فيكونُ الوالدانِ وَالأَقربونَ هُمُ المُوَرِّثينَ، وإمّا أنْ يكون المعنى: ولكلِّ شيءٍ ممَّا تركَ الوالدانِ وَالأَقربونَ منَ المالِ جعلنا مواليَ ورَّاثًا يَلونَه ويُحرِزونَه.

وإذا كانَ الوقفُ على ﴿تَرَكَ﴾ فيكونُ المعنى: ولكلٍّ جعلنا ورثةً ممّا تركَ، وَيَكُونُ (مَا) بِمَعْنَى مَنْ، وفاعلُ ﴿تَرَكَ﴾ ضميرًا عائدًا على ﴿وَلِكُلّٖ﴾، ثُمَّ كَأَنَّهُ قِيلَ: وَمَنْ هَؤُلَاءِ الورثةُ؟ فقِيلَ: هُمُ الوالدانِ وَالأَقربونَ، ليكونَ على طريقةِ الاستئنافِ البيانيِّ، وعلى هذا القولِ الوالدانِ وَالأَقربونَ هُمُ الْوَارِثُونَ، وفي هذا التّوجيهِ تفكيكٌ للنَّظمِ الكريمِ وانخرامٌ لانتظامِ المعنى، وذكرنا هذا التّوجيهَ هنا لِتوالي المفسِّرينَ على ذكرِه[4].

بلاغةُ المجازِ في قولِه ﴿وَٱلَّذِينَ عَقَدَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ﴾:

تَعظيمُ شَأنِ العُقودِ وبيانُ أَهَمِّيتِها

الأَيْمَانُ جَمْعُ يَمِينٍ: إمَّا بِمَعْنَى اليَدِ، إذ أُسْنِدَ العَقْدُ إِلَى الأَيْدِي مَجازًا؛ لِأَنَّهَا تُقارِنُ الْمُتَعاقِدِينَ فَهُمْ يَضَعُونَ أَيْدِيَ بَعْضِهِمْ فِي أَيْدِي الآخَرِينَ، عَلامَةً عَلى انْبِرامِ العَقْدِ، وَمِنْ أَجْلِ ذَلِكَ سُمِّيَ العَقْدُ صَفْقَةً أَيْضًا لِأَنَّهُ يُصَفَّقُ فِيهِ الْيَدُ عَلَى الْيَدِ، فَيَكُونُ مِنْ بَابِ ﴿أَوۡ مَا

(1) ابن عطيّة، المحرر الوجيز: 2/46.

(2) الزّمَخْشري، الكشاف: 1/504، وأبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 2/172.

(3) الأنباري، إيضاح الوقف والابتداء: 2/597.

(4) البغوي، معالم التنزيل: 1/609، والزّمَخْشري، الكشاف: 1/504، والرازي، مفاتيح الغيب: 10/67، وأبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 2/173، وابنُ عاشور، التّحرير والتّنْوير: 5/35.

﴿مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۚ﴾ [النّساء: 3] وَإِمَّا بِمَعْنَى الْقَسَمِ لِأَنَّ ذَلِكَ كَانَ يَصْحَبُهُ قَسَمٌ، وَمِنْ أَجْلِ ذَلِكَ سُمِّي حِلْفًا، وَصَاحِبُهُ حَلِيفًا، وَإِسْنَادُ الْعَقْدِ إِلَى الْأَيْمَانِ بِهَذَا الْمَعْنَى مَجَازٌ أَيْضًا لِأَنَّ الْقَسَمَ هُوَ سَبَبُ انْعِقَادِ الْحِلْفِ[1].

وعَلى كِلا التَّقْديرَيْنِ فَإِنَّ المجازَ هُنا عَقْلِيٌّ عَلاقَتُهُ السَّبَبِيَّةُ؛ فاليَمينُ سَبَبُ العَقْدِ ولَيْسَتِ الفاعِلَ الحَقيقِيَّ، لِأَنَّ الفاعِلَ هُمُ المُتَعاقِدونَ، والغايَةُ مِنْ هذا المَجازِ تَعْظيمُ شَأْنِ العُقودِ وبيانُ أَهَمِّيَّتِها.

بلاغةُ مجيءِ الكلامِ على خلافِ مقتضَى الظَّاهر:

لَمَّا كانتِ الفاءُ في قولِه ﴿فَـَٔاتُوهُمۡ نَصِيبَهُمۡۚ﴾، فصيحةً؛ لإفصاحِها عن كلامٍ مقدَّرٍ سبقَها، كانَ الكلامُ على تضمينه معنى الشّرطِ والجزاءِ، فيكونُ قولُه ﴿وَٱلَّذِينَ عَقَدَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ﴾ مبتدأً ضُمِّنَ معنى الشَّرطِ، فوقعَ خبرُهُ ﴿فَـَٔاتُوهُمۡ نَصِيبَهُمۡۚ﴾ معَ الفاءِ، والتَّقديرُ (إنْ عَقَدتُمُ الأيمانَ فآتوهمْ نصيبَهمْ)، فتكونُ جملةُ ﴿فَـَٔاتُوهُمۡ نَصِيبَهُمۡۚ﴾ جملةً مسبَّبَةً عن عقدِ الأيمانِ مؤكِّدَةً لها[2]، وجاءَ الكلامُ على طريقةِ المبتدأِ والخبرِ؛ لِلإشعارِ بتقريرِ الخبرِ، فكأنّه واقعٌ وثابتٌ.

حسنُ التّذييل في قولِه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٗا﴾:

في جملةِ التّذييلِ فوائدُ لغويّةٌ وبلاغيَّةٌ، هي:

غَرْسُ مراقبةِ اللهِ ومهابتِهِ لِلامْتِثالِ وحُسْنِ الاِسْتِجابَةِ

أوّلاً: في جملةِ التّذييلِ التفاتٌ، حَيْثُ انْتَقَلَ مِنْ صيغَةِ الخِطابِ إلى صِيغَةِ الغَيْبَةِ، والدَّاعي إلى هذا الالْتِفاتِ حاجَةُ السِّياقِ إلى ذِكْرِ الاِسْمِ الأَحْسَنِ الجامعِ لِصِفاتِ الجَلالِ والكَمالِ، كَما أَنَّ المَقامَ يَقْتَضي المُراقَبَةَ والرَّهْبَةَ[3] لِذا أَخْبَرَ تَعالى أَنَّهُ مُطَّلِعٌ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ فَهُوَ المُجازي بِهِ، وَفي ذَلِكَ تَهْديدٌ لِلْعاصي، وَوَعْدٌ لِلْمُطيعِ، وَتَنْبيهٌ عَلى أَنَّهُ شَهيدٌ عَلى المُعاقَدَةِ بَيْنَكُمْ فَأَوْفُوا بِالعَهْدِ[4].

(1) ابنُ عاشور، التّحرير والتّنْوير: 5/35 - 36.
(2) الزّمَخْشري، الكشاف: 1/504، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 2/72، والسبكي، عروس الأفراح: 1/597.
(3) ابْنُ عَطِيَّةَ، المُحَرِّرُ الوَجيزُ: 2/47.
(4) أبو حَيّانَ، البحر المحيط: 3/622.

ثانيًا: أفادَ تصديرُ الجملةِ بـ ﴿إِنَّ﴾ تأكيدَ مضمونِ الجملةِ وتقريرها

ثالثًا: أفادتْ ﴿إِنَّ﴾ تعليلَ جميعِ ما تقدّمَها في الآية، والمعنى: لِأنَّ اللّهَ على كلِّ شيءٍ شهيدٌ أوفوا بالعهدِ مراقبةً ورهبةً، وأدّوا الحقوقَ إلى أهلِها ولاتظلموهم.

رابعًا: لمَّا تقدّمَ ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ﴾، الذي هو معمولُ الخبرِ ﴿شَهِيدًا﴾ دلَّ على العنايةِ بهِ وعلى تخصيصِهِ، والمعنى إنَّ اللّه وحدَه – وليس غيرُهُ – شهيدٌ على كلِّ شيء، فالتَّخصيصُ شاملٌ الخبرَ ومعمولَهُ.

خامسًا: أفادتْ جملةُ التّذييلِ التَّهديدَ والوعيدَ لِمَن يمنعُ نصيبَ مَنْ يستحِقُّه[1]

سادسًا: لمَّا أفادتْ الجملةُ العمومَ والكلّيَّة كانتْ بمثابةِ المَثَلِ في حكايتِها والتَّمثُّل بها كما تقدّمَ غيرَ مرَّة.

سابعًا: أفادَ أسلوبُ ﴿كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا﴾ استمرارَ اتّصافِ اللّهِ بكونِه شهيدًا على كلِّ شيءٍ، ودوامَ هذه الصّفةِ، وظهورَ آثارِها.

القراءاتُ القرآنيَّةُ وتعدّدُ المعنى:

توكيدُ اليمينِ وحفظُها أمرٌ ثابتٌ ومقرَّرٌ

قَرَأَ عَاصِمٌ وَحَمْزَةُ وَالْكِسَائِيُّ: ﴿عَقَدَتْ﴾ بِغَيْرِ أَلِفٍ وَبِالتَّخْفِيفِ، وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر ﴿عَاقَدَتْ﴾ بِالْأَلِفِ وَالتَّخْفِيفِ:

فأمّا قراءةُ ﴿عَقَدَتْ﴾ فقد أَضَافَتِ الْعَقْدَ إِلَى وَاحِدٍ، ويكونُ مفعولُ ﴿عَقَدَتْ﴾ محذوفًا، وتقديرُ الكلامِ: عقدَتْ أَيمانُكُم حلفَهم أو ذمَّتَهم، فيفيدُ تقديرُ المفعولِ تقييدَ عقدِ الأيمانِ وبيانَهُ.

وعلى قراءةِ ﴿عَاقَدَتْ﴾ تكونُ الصِّيغةُ على معنى المفاعلة، أي يكونُ عَقْدُ الْحَلِفِ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ، فيُعاقدُ أحدُهما الآخرَ، والمعنى: أيمانُ هؤلاءِ عاقَدَتْ أولئكَ، وفيه تقويةُ المعاقدةِ وتقريرُها، واختارَ الفخرُ الرّازي هذهِ القراءةَ لقوّةِ المعنى، والمعنى على القراءتين هو التّوكيدُ لليمينِ[2]

(1) البيضاوي، أنوار التّنزيل: 2/72.

(2) ابن مجاهد، السبعة/233، والأزهري، معاني القراءات: 1/306، وابن عطية، المحرر الوجيز: 2/46، والرّازي، مفاتيح الغيب: 10/68.

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الوَلِيّ والمَوْلى:

الولي والمولى: متقاربان، لكن الوليَّ من الأسماء المتضايفة، ويقتضي أنّ من واليته مواليك[1]، والمولى: هُوَ السَّيِّدُ، والمَمْلوكُ، والحَليفُ، وَابْنُ العَمِّ، وَالأَوْلى بالشَّيْءِ، والصَّاحِبُ المُعينُ[2]، فَهُو مِنَ المُشْتَرَكِ اللَّفْظيِّ الّذي يَدُلُّ على عِدَّةِ مَعانٍ، وهُوَ أَيْضًا مِنْ مُصْطَلَحاتِ الأَضْدادِ الّذي يَدُلُّ على الشَّيْءِ وضِدِّهِ، كما في السَّيِّدِ والمَمْلوكِ، فَتُسْتَعْمَلُ لِلْفاعِلِ والمَفْعولِ فَيُقالُ مَوْلى فُلانٍ، ويُقالُ اللّه مَوْلانا والمَعْنى في حَقِّ اللّهِ المُعينُ الّذي تَرْكَنُ إِلَيْهِ، وتَعْتَمِدُ عَلَيْهِ، وتَحْتَمي بِهِ عِنْدَ الشِّدَّةِ والرَّخاءِ، وفي السَّرَّاءِ والضَّرَّاءِ، والوَليُّ في أَسْماءِ اللّهِ تعالى خَاصٌّ بِالْمُؤْمنينَ؛ كَقَوْلِهِ تَعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [البَقَرَة: 257] أَمَّا المَوْلى فَيُطْلَقُ على المَعْنى الخَاصِّ بِالْمُؤْمنينَ كَقَوْلِهِ تَعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿١١﴾﴾ [محمّد: 11]، ويُطْلَقُ أَيْضًا بِالمَعْنى العَامِّ، مِثْلَ قَوْلِهِ تعالى: ﴿وَرُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ﴾ [يُونُس: 30]، ولا تَعارُضَ بَيْنَ الآيَتَيْنِ الكَريمَتَيْنِ؛ إِذْ معنى كَوْنِهِ مَولى الكافِرينَ، أَيْ مَالِكُهُمْ والمُتَصَرِّفُ فيهم بِما شَاءَ، ومَعْنى كَوْنِه مَوْلى المُؤْمنينَ دونَ الكَافِرينَ: أَيْ وِلايَةُ مَحبَّةٍ وتَوْفيقٍ[3]، وأصل الوليّ جعل الثّاني بعد الأوّل من غير فصل، من قولهم هذا يلي ذاك وليا، وولّاه اللّه كأنّه يلي أمره، ولم يكله إلى غيره، وولّاه أمره وكله إليه، كأنّه جعله بيده، وتولى أمر نفسه قام به من غير وسيطة[4]، قال الزّجاج (الولي) هو فعيل، من الموالاة، والوليّ الناصر، قَالَ الحَليمِيُّ: الْوَليُّ هُوَ الْوَالي، وَمَعْنَاهُ مَالِكُ التَّدْبيرِ، وَلِهَذَا يُقَالُ لِلْقَيِّمِ عَلَى الْيَتيمِ: وَليُّ الْيَتيمِ، وَلِلأَميرِ الْوَالي، قَالَ أَبُو سُلَيْمَانَ: وَالْوَليُّ أَيْضًا النَّاصِرُ يَنْصُرُ عِبَادَهُ الْمُؤْمِنينَ، أَمّا المولى فقد ورد في القرآن الكريم في عدّة آيات، منها قوله تعالى: ﴿فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٧٨﴾﴾ [الحج: 78][5].

---

(1) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 4/382.

(2) الأزهري، تهذيب اللغة: (ولى)، وابْنُ مَنْظورٍ، لِسانُ العَرَبِ: (ولي).

(3) الشِّنْقيطي، دَفْعُ إيهامِ الاِضْطِرابِ: 1/89.

(4) العسكريّ، معجم الفروق اللغوية، ص: 578.

(5) المهدي، صيد الأفكار: 2/255.

﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡۚ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٞ لِّلۡغَيۡبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُۚ وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهۡجُرُوهُنَّ فِي ٱلۡمَضَاجِعِ وَٱضۡرِبُوهُنَّۖ فَإِنۡ أَطَعۡنَكُمۡ فَلَا تَبۡغُواْ عَلَيۡهِنَّ سَبِيلًاۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيّٗا كَبِيرٗا ٣٤﴾ [النِّساء: 34]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

ربط أنصبة النِّساء بعلل المفاضلة بين الجنسين، وطرائق علاج النُّشوز

لَمَّا نَهى اللهُ ﷻ كُلًّا مِنَ الرِّجالِ والنِّساءِ عَنْ تَمَنِّي ما فضَّلَ اللهُ بِهِ بَعْضَهُمْ على بَعْضٍ، وأَمَرَهُمْ أَنْ يُؤْتوا الوارِثينَ أَنْصِبَتَهُمْ، وفي هَذِهِ الأَنْصِبَةِ يَسْتَبِينُ تَفْضيلُ الرِّجالِ على النِّساءِ؛ ذَكَرَ هُنا أَسْبابَ التَّفْضيلِ[1]، فبَيَّنَ اللهُ ﷻ أَنَّهُ فضَّلَ الرِّجالَ على النِّساءِ في الميراثِ؛ لِأَنَّ الرِّجالَ قَوَّامونَ على النِّساءِ، بما دفَعوا إِلَيْهِنَّ من مَهْرٍ، وما دَرُّوا عَلَيْهِنَّ من نفَقَةٍ، فصارَتِ الزِّيادةُ مِنْ أَحَدِ الجانِبَيْنِ مُقابَلَةً بالزِّيادَةِ مِنَ الجانِبِ الآخَرِ[2]، وقَدْ ذُكِرَ عَقِبَ ما قَبْلَهُ لِمُناسَبَةِ الأَحْكامِ الرَّاجِعَةِ إِلَى نِظامِ العائِلَةِ، لا سِيَّما أَحْكامِ النِّساءِ[3]، كما أبانت الآية حكمة الله في معالجة نشوز الزَّوجات، للمحافظة على الرَّابطة الزَّوجيَّة، دون بغي ولا حيف.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿قَوَّٰمُونَ﴾: جَمْعُ قَوَّامٍ، مُبالَغَةٌ مِنَ القِيامِ، فيُقالُ: قَيِّمٌ وقَوّامٌ، والقائِمُ: هوَ الَّذي يَقومُ على الشَّيْءِ، ويَرْعاهُ، ويَحْفَظُهُ، ويُصْلِحُ مِنْ شَأْنِهِ، والقَوّامُ: كَثيرُ القيامِ[4]، أَوْ سَريعُهُ، أَوْ شَديدُهُ، أَوْ نَحْوُ ذَلِكَ

(1) ابن عطية، المُحَرَّرُ الوَجيز: 2/47، وأبو حيان، البحر المحيط: 3/622، والمَراغيُّ، تَفْسيرُ المَراغيِّ: 5/26 - 27، والزحيلي، التَّفْسيرُ المُنيرُ: 5/54.

(2) الرازي، مفاتيح الغيب: 10/70.

(3) ابنُ عاشور، التَّحرير والتَّنْوير: 5/37.

(4) ابْنُ مَنْظورٍ، لِسانُ العَرَب: (قوم)، والزَّبيديُّ، تاجُ العَروس: (قوم).

مِمَّا يُتَصَوَّرُ فيهِ المُبالَغَةُ، وأَصْلُ (قَوَمَ): يَدُلُّ عَلى انْتِصابٍ أَو عَزْمٍ[1]، والرَّجُلُ قَوَّامٌ على المَرْأَةِ، أَيْ: رَئيسُها وكَبيرُها والحاكِمُ عَلَيْها، القائِمُ على صَلاحِ أَمْرِها بِالتَّدْبيرِ والتَّأْديبِ، بِما خَصَّهُ اللّهُ بِهِ مِنَ المُكْنَةِ والمالِ والجاهِ والقُوَّةِ[2]، ومعنى اللَّفظ في سياقه: "الرِّجال أهل قيام على نسائهم، في تأديبهنَّ، والأخذ على أيديهن، فيما يجب عليهن لله ولأنفسهم"[3].

2) ﴿قَٰنِتَٰتٌ﴾: خاضِعاتٌ، دائِماتٌ على ذَلِكَ[4]، والقُنوتُ: لُزومُ الطَّاعَةِ مَعَ الخُضوعِ[5]، وأَصْلُ (قَنَتَ): يَدُلُّ على طاعَةٍ وخَيْرٍ في دينٍ[6]، والمَعْنى هُنا: قائِماتٌ بِحُقوقِ أَزْواجِهِنَّ[7]، ينقسم في كلام العرب على أربعة أقسام: يكون القنوت: الطَّاعة، كما قال ﷻ: ﴿كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ١١٦﴾ [البقرة: 116]، معناه: كلٌّ له مطيعون، ويكون القنوت: الصَّلاة كما قال تعالى: ﴿يَٰمَرۡيَمُ ٱقۡنُتِي لِرَبِّكِ وَٱسۡجُدِي﴾ [آل عمران: 43]، ويكون القنوت: طول القيام، قال جابر بن عبد الله: «سُئِل النَّبيُّ: أيُّ الصَّلاة أفضل؟ فقال: طول القنوت»، معناه: طول القيام، ويكون القنوت: السُّكوت، يروى عن زيد بن أرقم أنَّه قال: (كنَّا نتكلَّم في الصَّلاة، يكلِّم أحدنا الَّذي يليه، حتَّى نزلت: ﴿وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ٢٣٨﴾ [البقرة: 238]، فأمسكنا عن الكلام)[8].

3) ﴿حَٰفِظَٰتٌ لِّلۡغَيۡبِ﴾: أَيْ: يَحْفَظْنَ عَهْدَ الأَزْواجِ عِنْدَ غَيْبَتِهِمْ، فلا يوطِئْنَ فُرُشَهُنَّ غَيْرَهُمْ، ولا يَفْعَلْنَ في غَيْبَةِ الزَّوْجِ ما يَكْرَهُهُ، وقيل: المعنى: طائعات لأزواجهنَّ، ما غاب عنهم من سرِّهنَّ وشأنهنَّ، وقال النَّبيُّ ﷺ: «خيْرُ النِّساء امرأةٌ إذا نظرت إليها؛ سرَّتك، وإذا أمرتها؛ أطاعتك، وإذا غبت عنها؛ حفظتك في مالك ونفسها»، ثمّ قرأ رسول الله ﷺ: ﴿فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ﴾"[9]، وذهب ابن عطيَّة إلى أنَّ المعنى: "حافظات للغيب بطاعة

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قَوَمَ).
(2) الفيروزابادي، بَصائِرُ ذَوي التَّمْييزِ، تح: مُحَمَّد النَّجار، المَجْلِسُ الأَعْلى لِلشُّؤونِ الإِسْلامِيَّةِ، القاهِرَةُ، د. ط، 1412ه: 4/309، والسَّمينُ الحَلَبيُّ، عُمْدَةُ الحُفّاظ: (فضل)، والنَّيْسابوريُّ، إيجازُ البَيانِ عَنْ مَعاني القُرْآنِ، تح: حَنيف القاسمي، دارُ الغَرْبِ الإِسْلامِيِّ، بَيْروتُ، ط: 01، 1415 هـ: 33/238.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 6/687.
(4) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 472.
(5) الراغب، المفردات: (قَنَتَ).
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قَنَتَ).
(7) السَّمينُ الحَلَبيُّ، عُمْدَةُ الحُفّاظِ، (قنت)، والنَّيْسابوريُّ، إيجازُ البَيان: 1/238.
(8) الأنباريُّ: الزَّاهر في معاني كلمات النَّاس: 1/68، وذكرها ابن الأثير في النّهاية: 4/111 نقلًا عنه.
(9) مكيّ بن أبي طالب، الهداية إلى بلوغ النِّهاية: 2/1313.

وخوف، وبرٍّ ودين، حفظ اللّه في أوامره حين امتثلنها"[1]، وقال الزَّجَّاج: " حافظات للغيب بالشَّيء الَّذي يحفظ به أمر اللّه"[2].

4) ﴿نُشُوزَهُنَّ﴾: نُشوزُ المَرأَة: اسْتِعصاؤُها على زَوْجِها، ونَشَزَتِ المَرْأَةُ على زَوْجِها نُشوزًا، أَيْ: عَصَتْهُ وخالَفَتْهُ[3]، ونُشوزُ المَرْأَةِ أَيْضًا: بُغْضُها لِزَوْجِها[4]، وأَصْلُ النُّشوزِ الارْتِفاعُ، يُقالُ: نَشَزَتِ المَرْأَةُ: تَرَفَّعَتْ على زَوْجِها، فرَفَعَتْ نَفْسَها عَنْ طاعَتِهِ، وعَيْنَها عَنْهُ إلى غَيْرِهِ[5]، والمَعْنى هنا: مَعْصيَتهُنَّ وتَعاليهِنَّ عَمَّا أَوْجَبَ اللّهُ ﷻ عَلَيْهِنَّ مِنْ طاعَة الأَزْواجِ[6].

5) ﴿فَعِظُوهُنَّ﴾: الوَعْظُ: التَّذْكيرُ بِالخَيْرِ فيما يَرِقُّ لَهُ القَلْبُ[7]، والوَعْظُ كذلك: نُصْحٌ وتَذْكيرٌ بِالعَواقِبِ[8]، وأَصْلُ الوَعْظِ: تَذْكيرٌ بِالخَيْرِ مَعَ تَخْويفٍ[9]، يقال: (السَّعيد من وعظ بغيره، والشَّقيُّ من اتَّعظ به غيره)[10]، ومَعْنى ﴿فَعِظُوهُنَّ﴾هُنا: ذَكِّروهُنَّ بِحَقِّ الزَّوْجِ، وأَنَّ رِضَا الزَّوْجِ سَبَبٌ في رِضَا اللّهِ.

6) ﴿فَلَا تَبْغُواْ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًاۗ﴾: لا تَجْنُوا عَلَيْهِنَّ الذُّنوبَ[11]، وأَصْلُ البَغْي: الظُّلْمُ ومُجاوَزَةُ الحَدِّ[12]، والمَعنى هُنا: إِنْ أَطَعْنَكُمْ؛ فلا يَبْقَى لَكُمْ عَلَيْهِنَّ طريقٌ، إِلَّا أَنْ يَكونَ بَغْيًا وجَوْرًا[13]، والمعنى: إِذَا أَطَاعَتْكَ؛ فَلا تَتَجَنَّ عَلَيْهَا الْعِلَلَ، أي: لا تعلَّلوا عليهنَّ بالعيوب[14]، ويقال: "إنَّ اللّه مع علوِّه يتجاوز عن عباده، فأنتم - أيضًا- تجاوزوا، ولا تطلبوا العلل"[15].

---

(1) ابن عطية، المحرَّر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: 2/47.
(2) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التَّفسير: 1/402.
(3) نَشْوانُ بن سعيد، شَمْسُ العُلومِ ودَواءُ كَلامِ العَرَبِ مِنَ الكُلومِ، والأزهري، تهذيب اللغة: (نَشَزَ).
(4) الراغب، المفردات: (نَشَزَ).
(5) ابْنُ قُتَيْبَةَ، غَريبُ القُرْآنِ، ص: 126، والسَّمِيْن الحَلَبيُّ، عُمْدَةُ الحُفَّاظ: (نشز)، والرَّاغِبُ، والمُفْردات: (نَشَزَ).
(6) السِّجِسْتانيُّ، غَريبُ القُرْآنِ، ص: 472.
(7) الخليل، العَيْنُ: (وعظ).
(8) الجَوْهَريُّ، الصِّحاح: (وعظ).
(9) ابن فارس، مقاييس اللغة: (وعظ)، والراغب، المفردات: (وَعَظَ).
(10) الرازي، مختار الصِّحاح، ص: 342.
(11) ابْنُ قُتَيْبَةَ، غَريبُ القُرْآنِ، ص: 126.
(12) ابْنُ مَنْظورٍ، لِسانُ العَرَب: (بغا).
(13) ابْنُ الأَثيرِ، النِّهايَةُ في غَريبِ الحَديثِ والأَثَرِ، تح: طاهِر الزّاوي ومَحْمودُ الطَّناحي، المَكْتَبَةُ العِلْمِيَّةُ، بَيْروتُ، دط، 1399ه: 1/144.
(14) النِّيسابوريُّ، كتاب تفسير القرآن: 2/694.
(15) السّمرقنديّ، بحر العلوم: 1/300.

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

واجِبُ الرَّجُلِ الإِنْفاقُ والتَّأْديبُ، وواجِبُ الزَّوْجَةِ حِفْظُهُ في الحضور والمغيب

الرِّجالُ لَهُمْ حَقُّ رعايَةِ النِّساءِ، والقيامِ بِشُؤُونِهِنَّ؛ بِسَبَبِ ما خَصَّهُمُ اللهُ بِهِ مِنْ خَصائِصِ القوامَةِ والتَّفْضيلِ، وبِسَبَبِ ما يَجِبُ عَلَيْهِمْ مِنَ المُهورِ والنَّفَقاتِ، فالصَّالِحاتُ مِنَ النِّساءِ مُطيعاتٌ لِرَبِّهِنَّ ولِأَزْواجِهِنَّ، حافِظاتٌ لَهُمْ في غَيْبَتِهِمْ بِسَبَبِ تَوْفيقِ اللهِ لَهُنَّ، والزَّوْجاتُ اللَّاتي تَخْشَوْنَ عِصْيانَهُنَّ وتَرَفُّعَهُنَّ عَنْ طاعَتِكُمْ في قَوْلٍ أَوْ فِعْلٍ، فابْدَؤوا - أَيُّها الأَزْواجُ - بِتَذْكيرِهِنَّ وتَخْويفِهِنَّ مِنَ اللهِ، فإِنْ لَمْ يَسْتَجِبْنَ؛ فاهْجُروهُنَّ في الفِراشِ، فإِنْ لَمْ يَسْتَجِبْنَ؛ فاضْرِبوهُنَّ ضَرْبًا لا ضَرَرَ فيهِ، فإِنْ رَجَعْنَ إِلى الطَّاعَةِ؛ فلا تَعْتَدوا عَلَيْهِنَّ بِظُلْمٍ أَوْ مُعاتَبَةٍ، إِنَّ اللهَ كانَ ذا عُلوٍّ على كُلِّ شَيْءٍ، كَبيرًا في ذاتِهِ وصِفاتِهِ، فخافوهُ[1].

الإِيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغة الاستئناف البيانيّ في قولِه: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾:

الرَّجُلُ قائِمٌ بِحُقوقِ الإِنْفاقِ والرِّعايَةِ، فلَهُ حَقُّ التَّفْضيلِ في الميراثِ والوِلايَةِ

وَقَعَتْ هَذِهِ الجُمْلَةُ في جَوابِ سُؤالٍ يُفْهَمُ مِمَّا قَبْلَها، فكان ذكرُ ما سبقَ من استحقاقِ الرِّجال التَّفضيلَ في الجهادِ وفي الميراثِ غالبًا ممَّا يحرِّكُ السَّامعين من النِّساءِ والرِّجالِ أنْ يعرفوا السَّببَ، ويشوِّقُهم أنْ يسألوا: ما سَبَبُ اختصاصِ الرِّجالِ في ما اختُصُّوا به؟ فوقعَ قولُه: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾ جوابًا للسُّؤالِ الَّذي هو مقتضى الحالِ بِطريقِ الاستئنافِ البيانيِّ مُبَيِّنًا السَّببَ العامَّ.[2]

دلالةُ مجيءِ الكلامِ على طريقةِ الجملةِ الاسميَّةِ:

سلكَ في الكلامِ طريقَ الجملةِ الاسميَّةِ؛ لبيانِ ثبوتِ استحقاقِ القِوامةِ واستمرارِهم في الولايةِ، وللإيذانِ بعراقةِ الرِّجالِ في

(1) عَبْدُ اللهِ الزَّيد، مُخْتَصَرُ تَفْسيرِ البَغَويّ: 1/179، ولَجْنَةٌ مِنْ عُلَماءِ الأَزْهَرِ، المُنْتَخَبُ في تَفْسيرِ القُرآنِ الكَريمِ، ص: 114، ونُخْبَةٌ مِنْ أَساتِذَةِ التَّفْسيرِ، التَّفْسيرُ المُيَسَّرُ، ص: 84، وجَماعَةٌ مِنْ عُلَماءِ التَّفْسيرِ، المُخْتَصَرُ في تَفْسيرِ القُرْآنِ الكَريمِ، ص: 84.

(2) السّكّاكي، مفتاح العلوم/262، وأبو السّعود، إرشادُ العَقْلِ السّليم: 2/172، ورشيد رضا، تفسير المنارِ: 5/55.

الاتِّصافِ بما أُسندَ إليهم ورسوخِهم فيه، أي: شأنُهم المعروفُ المعهودُ القيامُ عَلَى النِّسَاءِ بِالحِمايةِ وَالرِّعايةِ وَالولايةِ وَالكفايةِ، فالإخبارُ مِنْ قبيلِ بيانِ الواقعِ، أي: شأنُهم أنْ يكونوا قوَّامين على النِّساءِ[1].

ثبوتُ استحقاقِ القوامةِ للرِّجالِ واستمرارُهم في الولايةِ

بلاغةُ الاستعارةِ التَّمثيليَّةِ في قوله: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾:

فالاسْتِعارَةُ في قَوْلِهِ تَعالى: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾ تَمثيليَّةٌ[2]؛ أَيْ: يَقومونَ عَلَيْهِنَّ آمِرينَ ناهينَ، كَما يَقومُ الوُلَّاةُ على الرَّعايا؛ لِأَنَّ شَأْنَ مَنْ يَهْتَمُّ بِأَمْرٍ أَنْ يَقومَ لِقَضائِهِ، فشُبِّهَتْ هَيْئَةُ الحَريصِ المُهْتَمِّ بِأَمْرِ نِسائِهِ بِهَيْئَةِ القائِمِ لِقَضاءِ أَمْرٍ يَهُمُّهُ، بِجامِعِ الاهْتِمامِ والحِرْصِ في كِلٍّ مِنْهُما، والقَرينَةُ حاليَّةٌ؛ لِأَنَّ الحَريصَ على أَمْرِ نِسائِهِ لا يَجِبُ عَلَيْهِ القيامُ دائِمًا، وإِنَّما شُبِّهَ المُهْتَمُّ بِالقائِمِ لِلْأَمْرِ على طَريقَةِ التَّمْثيلِ[3].

بَيانُ رُسوخِ الرِّجالِ وعَراقَتِهِمْ في وصْفِ القيامِ بِشُؤونِ النِّساءِ

نكتة التَّعبير بـ ﴿ٱلرِّجَالُ﴾:

عبَّر بِلَفْظِ الرِّجالِ دونَ الذُّكورِ لِما يُوْحِيهِ وصْفُ الرُّجولَةِ من اتِّساقِ صِفاتِ الشَّهامَةِ والمُروءَةِ والحزمِ والنَّخوَةِ اللَّاتي تَقْتَضي قِيامَةَ الرِّعايَةِ والحِمايَةِ، فربَّ أنثى فضلَتْ ذكرًا[4].

وصْفُ الرُّجولَةِ يوجِبُ اتِّساقَ صِفاتِ الشَّهامَةِ والمُروءَةِ والحزمِ والنَّخوَةِ

دلالةُ (ال) في لفظي: ﴿ٱلرِّجَالُ﴾ و﴿ٱلنِّسَآءِ﴾:

(الـ) في الموضعينِ: جنسيَّةٌ، والمعنى: هَذَا الجنسُ قوَّامٌ على هذا الجنسِ، فهو إخبارٌ عنِ جنسِ الرِّجالِ وجنسِ النِّساءِ، وَلَمْ يتعَرَّضْ فيهِ إلى اعتبارِ أفرادِهِ.[5]

الإخبارُ عن الجنسِ وليس عن الأفرادِ

(1) رَشيد رضا، تَفْسيرُ المنار: 5/56.
(2) الاِسْتِعارَةُ التَّمْثيليَّةُ: هيَ اسْتِعارَةٌ يَكونُ اللَّفْظُ المُسْتَعارُ فيها لَفْظًا مُرَكَّبًا، وهَذا اللَّفْظُ المُرَكَّبُ يُسْتَعْمَلُ في غَيْرِ ما وُضِعَ لَهُ في اصْطِلاحِ التَّخاطُبِ، لِعَلاقَةِ المُشابَهَةِ بَيْنَ المَعْنى الأَصْليِّ.
(3) القونويُّ، حاشيةُ القونويِّ على البَيْضاويِّ: 7/145، وابنُ عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 5/38.
(4) أبو حيان، البحر المحيط: 3/622.
(5) أبو حيان، البحر المحيط: 3/622.

دلالة التَّعبير بصيغة المبالغة ﴿قَوَّٰمُونَ﴾:

تحمُّلُ القوامةِ مستمرٌّ ومتجدِّدٌ في كلِّ حين

لَمَّا كانَ ﴿قَوَّٰمُونَ﴾ على صيغةِ فَعَّالٍ؛ دلَّ على المبالغةِ، فالقوَّامُ هنا بمعنى: كثيرِ القيامِ على الزَّوجِ بالاجتهادِ في حفظِها، وكثرةِ تحمُّلِ حقوقِها، وأيضًا يدلُّ على تنوُّعِ مهامِّ القوامةِ وأضرُبِها، ولَمَّا كانتْ صيغةُ المبالغةِ مشتقَّةً من الفعلِ المضارعِ؛ أفادتْ أنَّ قوامةَ الرَّجلِ مستمرَّةٌ في حينٍ بعدَ حينٍ إلى أنْ يأتيه اليقين[1].

دلالةُ الباءِ في قولِه: ﴿بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ﴾ وقولِه: ﴿وَبِمَآ أَنفَقُواْ﴾:

الولايةُ إنَّما تُستحَقُّ بالفضلِ، لا بالتَّغلُّبِ والاستطالةِ والقَهرِ، وبإنفاقِ الرِّجالِ على النِّساء

لَمَّا جاءتِ الآيةُ على طريقةِ الاستئنافِ البيانيِّ، فكانتْ بيانًا لسببِ زيادةِ استحقاقِ الرِّجالِ على النِّساءِ في الإرثِ وغيرِه، فجعلَ الرِّجالَ قوَّامينَ على النِّساءِ زادَ هذا السَّبَبَ بَيانًا وإيضاحًا بتعليلِ سببِ القوامة، فجاءتِ الباءُ في الموضعينِ سببيَّةً، والمعنى: بسببِ تفضيلِ اللهِ بعضَهم، وهمُ الرِّجالُ، على بعضٍ، وهم النِّساءُ، ولَمَّا كانَ الكلامُ على طريقةِ العطفِ دلَّ على لزومِ اجتماعِ سببِ المعطوفِ وسببِ المعطوفِ عليه، ففيه دليل على أنَّ الولاية إنَّما تستحقُّ بالفضل، لا بالتَّغلُّب والاستطالة والقهر، وبإنفاقِ الرِّجالِ على النِّساء[2].

إذا تخلَّف أحدُ سببَي القِوامةِ لم يكن قوَّامًا عليها

ولَمَّا كانَ السَّببُ بمنزلة الشَّرط، وكان اجتماعُ السَّببين واجبًا بدلالة العطفِ؛ فُهِمَ منه أنَّهُ إذا تخلَّف أحدُ السَّببينِ؛ لم يكن قوَّامًا عليها، ومن باب أولى إذا تخلَّفَ السَّببانِ معًا.

مناسبةُ تكرير الباء في قوله: ﴿وَبِمَآ أَنفَقُواْ﴾:

التَّفضيلُ: سببٌ وهبيٌّ، والإنفاقُ: سببٌ كسبيٌّ

كرَّرَ الباءَ لتأكيدِ السَّببِ الثَّاني لإثباتِ قوامةِ الرِّجالِ على النِّساء، وهو الإنفاقُ، وللإشعارِ بأنَّ كلَّ سببٍ قائمٌ بنفسِه، للمغايرةِ بينَ السَّببينِ، فالتَّفضيلُ: سببٌ وهبيٌّ بما أعطاهم من القوَّةِ، والإنفاقُ:

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/47، والقِنَّوْجيُّ، فتحُ البَيانِ في مَقاصِدِ القُرآنِ: 3/105، والقونويُّ، حاشيةُ القونويِّ عَلى البَيْضاويِّ: 7/144.

(2) الزَّمَخْشري، الكشاف: 1/505، وأبو حيان، البحر المحيط: 3/623.

سببٌ كسبيٌّ، فيما يقومُ بهِ الرِّجالُ ممَّا يحتاجُه النِّساءُ مِنَ النَّفقةِ والكِسوةِ والمَسكنِ[1].

مناسبةُ قولِهِ: ﴿بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ﴾:

عَدَلَ عَنِ الضَّميرَين، فَلَمْ يَأْتِ (بِمَا فَضَّلَهم اللّه عَلَيْهِنَّ) مع أنَّه أخصرُ، لنُكتتين:

بعضُ النِّساء أفضلُ من بعضِ الرِّجالِ في العلمِ والعملِ

إحداهما: لِمَا في ذِكْرِ ﴿بَعۡضٖ﴾ مِنَ الْإِبْهَامِ الَّذِي لَا يَقْتَضِي عُمُومَ الضَّمِيرِ، فبعضُ النِّساء أفضل، فَكَمْ مِن امْرَأَةٍ تَفْضُلُ زَوْجَهَا فِي الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ بَلْ فِي قُوَّةِ الْبِنْيَةِ، وَالْقُدْرَةِ عَلَى الْكَسْبِ.

المْرَأَةُ مِنَ الرَّجُلِ، وَالرَّجُلُ مِنَ المْرَأَةِ بِمَنْزِلَةِ الْأَعْضَاءِ مِنْ بَدَنٍ واحدٍ

الثَّانيةُ: إِفَادَةُ أَنَّ الْمَرْأَةَ مِنَ الرَّجُلِ، وَالرَّجُلَ مِنَ الْمَرْأَةِ بِمَنْزِلَةِ الْأَعْضَاءِ مِنْ بَدَنِ الشَّخْصِ الْوَاحِدِ، فَالرَّجُلُ بِمَنْزِلَةِ الرَّأْسِ، وَالْمَرْأَةُ بِمَنْزِلَةِ الْبَدَنِ، وتَفَضُّل بَعْضِ أَعْضَاءِ الْبَدَنِ عَلَى بَعْضٍ إِنَّمَا هُوَ لِمَصْلَحَةِ الْبَدَنِ كُلِّهِ، لَا ضَرَرَ فِي ذَلِكَ عَلَى عُضْوٍ مَا، وَإِنَّمَا تَتَحَقَّقُ وَتَثْبُتُ مَنْفَعَةُ جَمِيعِ الْأَعْضَاءِ بِذَلِكَ، ويحتمل أن يكون العدول عن الضَّميرين للإشعار بغاية ظهورِ الأمرِ في تفضيل الرِّجالِ على النِّساءِ وعدمِ الحاجةِ إلى التَّصريحِ بالمفضَّل والمفضَّل عليه أصلًا[2].

دلالــة ﴿بِمَا﴾ فــي قولــه: ﴿بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ﴾ و﴿وَبِمَآ أَنفَقُواْ﴾ بين المصدريَّةِ والموصولةِ:

في التَّعبيرِ مِن بديعِ الإعجازِ تكثيرُ المعنى بلفظٍ واحدٍ

تحتملُ (ما) أنْ تكونَ مصدريَّةً في الموضعين، وهو الرَّاجحُ؛ لِأَنَّ الْعَرَبَ يُرَجِّحُونَ الْأَفْعَالَ عَلَى الْأَسْمَاءِ فِي طُرُقِ التَّعْبِيرِ، والتَّقدير: (بسببِ تفضيلِ اللّهِ الرِّجالَ على النِّساءِ فيما اختُصُّوا بهِ وبسببِ إنفاقِ الرِّجالِ مِنْ أموالِهم على النِّساءِ في مُهورِهنَّ وقوتِهنَّ وفيما يحتاجونَه)، وتحتملُ أنْ تكونَ مصدريَّةً في الموضعِ الأوَّلِ، وموصولةً

(1) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 2/173.

(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/623، وأبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 2/173، ورشيد رضا، تفسير المنار: 5/56.

في الثَّاني؛ لِبيانِ أنَّ تفضيلَ اللهِ أمرٌ ثابتٌ، وإنفاق الرِّجالِ على النِّساءِ بما هو معلومٌ وظاهرٌ في العاداتِ، وتحتملُ أنْ تكونَ موصولَةً في الموضعينِ؛ لبيانِ أنَّ المعنى بسبب ما يعلمُه النَّاس من أنَّ اللّه فضَّلهم عليهنَّ وممَّا يجري في عمومِ العاداتِ من إنفاقِ الرِّجالِ عليهنَّ، والضَّميرُ العائد على الاسم الموصولِ في الموضعين محذوفٌ، معَ ضعفِ التَّقديرِ في جملةِ: ﴿فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ﴾؛ لِاقتضائِه تقديرَ الضَّميرِ معَ حرفِ الجرِّ، وجوازِهِ في جملةِ ﴿أَنفَقُواْ﴾ للعلمِ به من السِّياقِ[1].

وفي التَّعبيرِ مِن بديعِ الإعجازِ تكثيرُ المعنى بلفظٍ واحدٍ؛ لِصَوْغِ قَوْلِهِ: ﴿بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡۚ﴾ في قَالَبٍ صَالحٍ للمصدريَّةِ وللموصوليَّةِ؛ لِيَصْلُحَ الْخِطَابُ لِلْفَرِيقَيْنِ: للجاهلِ بتفضيلِ اللّهِ وبالإنفاق وللعالمِ بمضمونِ الصِّلةِ بما جرَى بهِ العرفُ والعادةُ، وثبتَ في الواقعِ[2].

نكتةُ التَّعبيرِ بالمصدرِ المؤوَّلِ في قوله: ﴿بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ﴾ و﴿وَبِمَآ أَنفَقُواْ﴾:

تصويرُ الحدثِ بصيغة الفعلِ لتقريرِ المعنى وتثبيتِه

لَمَّا كان الرَّاجح أن تكون (ما) مصدريَّةً في الموضعين؛ اقتضى بيانَ نكتةِ التَّعبيرِ بالمصدر المؤوَّل دونَ الصَّريح، وبيانُه أنَّ في الْإِتْيَان بـ ﴿بِمَا﴾ مَعَ الْفِعْلِ عَلَى تَقْدِيرِ احْتِمَالِ الْمَصْدَرِيَّةِ جَزَالَةً لَا تُوجَدُ فِي قَوْلِنَا: بِتَفْضِيلِ اللّه وَبِالْإِنْفَاقِ؛ لِأَنَّ الْعَرَبَ يُرَجِّحُونَ الْأَفْعَالَ عَلَى الْأَسْمَاءِ فِي طُرُقِ التَّعْبِيرِ؛ لِما في التَّعبيرِ بالفعلِ من تصويرٍ للحدثِ، فيتقرَّرُ المعنى، ويثبتُ في النَّفسِ.[3]

إنفاقُ الرِّجالِ على نِساءِ العائلةِ مِنْ أزواجٍ وبَناتٍ أمْرٌ قدْ تقرَّرَ في المُجْتَمَعاتِ الإنْسانيَّةِ مُنْذُ القِدَمِ

نكتةُ التَّعبيرِ بصيغةِ الماضي في قوله: ﴿بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ﴾، وقوله: ﴿وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡۚ﴾:

عبَّر بصيغة الماضي في قولِه: ﴿بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ﴾ للإيذانِ بأنَّ التَّفضيل أمر قد تمَّ وهو مقطوعٌ به، لنسبتِه إلى اللّه تعالى، وعبَّر بصيغة الماضي كذلك في قوله: ﴿وَبِمَآ أَنفَقُواْ﴾ للإيماء إِلَى أنَّ ذَلِك

(1) الزَّمَخْشري، الكشاف: 1/506. البيضاويُّ، أنوار التنزيل: 2/72، وأبو حيَّان، البحر المحيط: 3/623، وأبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 2/173، ورشيد رضا، تفسير المنار: 5/56.

(2) ابن عاشور: 5/39.

(3) ابن عاشور: 5/40.

أَمْرٌ قَدْ تَقَرَّرَ في المُجْتَمَعاتِ الإِنْسانيَّةِ مُنْذُ القِدَم، فالرِّجالُ هُمُ العائِلونَ لِنِساءِ العائِلَةِ مِنْ أَزْواجٍ وبَناتٍ، فهذهِ حُجَّةٌ خِطابيَّةٌ؛ لِأَنَّها تَرْجِعُ إِلَى مُصْطَلَحِ غالِبِ البَشَرِ، لاسيَّما العَرَبُ[1].

دلالة حذف المفعولِ في قولِه: ﴿وَبِمَآ أَنفَقُواْ﴾:

حذفَ المفعولَ؛ ليَدُلَّ على عُمومِ النَّفَقَةِ[2].

دلالةُ لفظِ ﴿مِنْ﴾ في قولِه: ﴿مِنْ أَمْوَٰلِهِمْۚ﴾ بينَ أنْ يكونَ للتَّبعيضِ ولِلبيانِ:

يحتمل حرف الجرِّ ﴿مِنْ﴾ أنْ يكونَ لِلتَّبعيضِ؛ لِلإيذانِ بأنَّ النَّفقةَ تجبُ مِنْ بعضِ أموالِهم، ويحتمل أنْ يكون لبيانِ الجنسِ؛ للدَّلالةِ على أنَّ المنفَق هو من الأموالِ، وليس شيئًا آخر.

النَّفقةُ تجبُ مِنْ بعضِ أموالِ الرِّجالِ

دلالة الإضافة في قوله: ﴿أَمْوَٰلِهِمْۚ﴾:

وأُضيفَتِ الأَمْوالُ إِلَى ضَميرِ الرِّجالِ؛ لِأَنَّ الاكْتِسابَ مِنْ شَأْنِ الرِّجالِ في الأَصْلِ والغالِبِ، وللإشعارِ بأنَّ قيامَ الرَّجلِ عليها إنَّما يكونُ تامًّا؛ إذا أنفق من مالِه لا من مالها، والحميَّة تقتضي ذلك، وفيه إشعار كذلك بأنَّ مالَ المرأة حقٌّ لها[3].

الإنفاقُ من مالِ الرَّجلِ لا من مالِ المرأةِ، والحميَّةُ تقتضي ذلك

دلالة الفاء بين الاستئنافيَّة والفصيحة والتَّفصيليَّة في قوله: ﴿فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ﴾:

تحتملُ الفاءُ أن تكونَ استئنافيَّةً، وهي بمنزلة التَّفريعِ على ما تقدَّمَ مِنْ ذكرِ ما اختصَّ به الرِّجالُ مِنَ التَّفضيلِ والإنفاقِ، فبيَّنَ هنا فضيلتَي المرأةِ، وإحداهما: قيامُها بما يلزمُها من طاعةِ الأزواجِ - فيما حدَّدهُ الشَّرعُ - وحفظِ غيبِهم، وتحصينِ ما سلَّموهُ إليهنَّ، والثَّانيةُ: إسبالُ اللهِ سترَ رحمتِهِ عليها وحفظِها بوصيَّةِ الزَّوجِ بها، وتسخيرِهِ للقيامِ بمراعاتها[4].

فضيلتا المرأةِ: قيامُها بما يلزمُها في بيتِ الزَّوجيَّةِ، وحفظُها بوصيَّةِ الزَّوجِ بها وتسخيرُهُ للقيامِ بمراعاتها

(1) ابنُ عاشور، التَّحرير والتَّنْوير: 5/39.
(2) السِّعْدي، تَيْسيرُ الكَريمِ الرَّحْمنِ في تَفْسيرِ كَلامِ المَنّانِ، تح: عَبْدِ الرَّحمنِ اللّويحق، ص: 177.
(3) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 7/146.
(4) الراغب، تفسير الرّاغب: 3/1222، درويش، إعراب القرآن وبيانه: 2/208.

لكلِّ صنفٍ من الرِّجالِ والنِّساءِ واجباته وحقوقُه

وتحتمل أن تكون فصيحة؛ لتفصِحَ عن شرطٍ تقديره: إذا كانَ الرِّجال قوَّامين على النِّساء بتفضيل الله وبنفقتهم على النِّساء؛ فالواجبُ على النِّساء أن يكنَّ صالحاتٍ قانتاتٍ حافظاتٍ للغيب، أي: إِذَا كَانَ الرِّجَالُ قَوَّامِينَ عَلَى النِّسَاءِ؛ فَمِنَ الْمُهِمِّ الإفصاحُ عن أَحْوَالِ الْأَزْوَاجِ مِنْهُنَّ وَمُعَاشَرَتِهِنَّ أَزْوَاجَهُنَّ، وَهُوَ الْمَقْصُودُ؛ لبيانِ أنَّ لكلِّ صنفٍ من الرِّجالِ والنِّساءِ واجباتِه وحقوقَه.

مِنْ صِفَةِ الصَّالِحَاتِ دوامُ الطَّاعةِ والاستقامةِ وحفظُ الغيبِ بما حفظَ اللهُ

وتحتمل أن تكونَ تفصيليَّةً، لِتَفصيلِ حالِ النِّسَاءِ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الْمَنْزِلِيَّةِ الَّتِي تَكُونُ المرأةُ فِيهَا تَحتَ رِيَاسَةِ الرَّجُلِ، فأشعرَ أَنَّهُنَّ فِيهَا قِسمَانِ: صَالِحَاتٌ وَناشزاتٌ، وَأَنَّ مِنْ صِفَةِ الصَّالِحَاتِ دوامَ الطَّاعةِ والاستقامةِ وحفظَ الغيبِ بما حفظَ اللهُ[1].

بلاغةُ مجيءِ الكلامِ على خلافِ مقتضَى الظَّاهرِ في قوله: ﴿فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلۡغَيۡبِ﴾:

يتنوَّع المعنى على وفقِ التَّوجيهِ البلاغيِّ، وفيه احتمالان:

كُلُّ امْرَأَةٍ تَكُونُ صَالِحَةً، لَا بُدَّ أَنْ تَكُونَ قَانِتَةً مُطِيعَةً حافظةً للغيب

أحدهما: أنْ يقالَ: لمَّا كانت (الـ) في ﴿فَٱلصَّٰلِحَٰتُ﴾ تُفيدُ الاسْتِغْرَاقَ، وكانَ الوصفُ باسم الفاعلِ بمنزلة الوجهِ الَّذي بُنِيَ عليه الخبرُ؛ دلَّ التَّعبيرُ على أَنَّ كُلَّ امْرَأَةٍ تَكُونُ صَالِحَةً، لَا بُدَّ وَأَنْ تَكُونَ قَانِتَةً مُطِيعَةً حافظةً للغيب[2]، فأفاد أنَّ صلاحَ النِّساءِ سببٌ لقنوتهنَّ وحفظهنَّ للغيبِ، فالكلام على معنى الشَّرط، أي: إذا أرادتِ المرأةُ أنْ تكونَ قانتةً حافظةً للغيبِ؛ فلا بدَّ أنْ تكونَ صالحةً، فعدلَ عن أسلوبِ الشَّرطِ إلى أسلوبِ الإخبارِ بالمبتدأ والخبرِ؛ لِلإيذانِ بأنَّه أمرٌ ثابتٌ واقعٌ.

الأَمرُ بطاعةِ الله وحفظِ موجباتِ الغيب

الثَّاني: أنْ يقالَ: لمَّا كان المرادُ قصدَ التَّفاؤلِ بأنَ يكونَ النِّساءُ صالحاتٍ قانتاتٍ حافظاتٍ للغيبِ، أو قصدَ المبالغةِ في الطَّلبِ، حتَّى كأنَّ المخاطَباتِ سارعنَ في الامتثالِ وتحصيلِ المطلوب؛ عبَّر بالجملةِ

(1) رشيد رضا، تفسير المنار: 5/58، وابنُ عاشور، التّحرير والتّنوير: 5/40.
(2) الرازي، مفاتيح الغيب: 10/71.

الاسميَّةِ الدَّالَّةِ على الوقوعِ والثُّبوتِ بطريقِ الإخبارِ، والمرادُ منهُ الأَمرُ بطاعةِ اللهِ وحفظِ موجباتِ الغيبِ[1]، فالكلامُ على الاحتمالينِ على خلافِ مقتضى الظَّاهر.

دلالةُ حرفِ الجرِّ اللَّامِ في قولِه: ﴿لِّلۡغَيۡبِ﴾:

لَمَّا كانَ ﴿حَٰفِظَٰتٞ﴾ يتعدَّى بنفسِهِ إلى المفعولِ؛ دلَّ مجيءُ اللَّامِ على تقويةِ تخصيصِ حفظِ غيبِ الرِّجالِ بالنِّساءِ وتأكيدِهِ.[2]

تأكيدُ الأمرِ بحفظِ النِّساءِ لغيبِ الرِّجالِ

دلالة (ال) في قوله ﴿لِّلۡغَيۡبِ﴾:

(الـ) هنا عوضٌ عن المضافِ إليه، بمعنى: حافظات لِغيبِهم، أي: غيبِ الزَّوجِ، وَالِاسْتِغْنَاءُ عن الإضافةِ بِهَا كثيرٌ، كقولِه: ﴿وَٱشۡتَعَلَ ٱلرَّأۡسُ شَيۡبٗا﴾، أي: رأسِي، فعدلَ عنِ الضَّميرِ إلى (الـ)؛ ليفيدَ حفظَهُنَّ لِكُلِّ ما غابَ عنْ عِلمِ زوجِهَا مِمَّا استترَ عنهُ، وذلكَ يَعُمُّ حالَ غَيبَةِ الزَّوجِ، وحالَ حُضورِهِ[3].

حفظُ غيبِ الزَّوجِ حالَ حُضورِه وحالَ غَيبتِه

نكتةُ تقديمِ قولِه: ﴿قَٰنِتَٰتٞ﴾ على قولِهِ: ﴿حَٰفِظَٰتٞ لِّلۡغَيۡبِ﴾:

لَمَّا كانَ ﴿قَٰنِتَٰتٞ﴾ بمعنى: دائماتٍ على طاعةِ اللهِ، وكانَ ﴿حَٰفِظَٰتٞ لِّلۡغَيۡبِ﴾ بمعنى: قَائِمَاتٍ بِحُقُوقِ الزَّوْجِ جمعَ بينهما؛ لِلدَّلَالَةِ عَلَى تَلَازُمِ طاعةِ اللهِ وَحِفظِ حَقِّ أَزواجِهِنَّ، وقَدَّمَ قَضَاءَ حَقِّ اللهِ، ثُمَّ أَتْبَعَ ذَلِكَ بِقَضَاءِ حَقِّ الزَّوجِ، وأيضًا لَمَّا أرادَ أنْ يستوعِبَ حالَ المرأةِ معَ زوجِها؛ عبَّرَ بحالِها عِندَ حُضُورِ الزَّوجِ أَو عِندَ غَيبتِه: أَمَّا حَالُهَا عِنْدَ حُضُورِ الزَّوجِ؛ فقدْ وصفَهَا اللهُ بِأَنَّهَا قَانتةٌ، وأمَّا حالُها عِندَ غَيبةِ الزَّوجِ؛ فقدْ وصفَهَا اللهُ تَعَالَى بِقولِهِ: ﴿حَٰفِظَٰتٞ لِّلۡغَيۡبِ﴾، بمعنى: حافظاتٍ لِمواجِبِ الغيبِ؛ إذا كانَ الأزواجُ غيرَ شاهدينَ لهنَّ من الفروجِ والبيوتِ والأموالِ[4].

التَّلازمُ بينَ طاعةِ اللهِ وحفظِ حقِّ الأزواجِ

---

(1) الرازي، مفاتيح الغيب: 10/71، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 5/170، وابنُ عاشور، التّحرير والتّنْوير: 5/40.

(2) السّامرائي، معاني النّحو: 3/74.

(3) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/47، وأبو حيان، البحر المحيط: 3/624.

(4) الزّمَخْشري، الكشاف: 1/506، والرازي، مفاتيح الغيب: 10/71، وابنُ عاشور، التّحرير والتّنْوير: 5/40.

بلاغة المجاز العقليّ في قوله: ﴿حَٰفِظَٰتٞ لِّلۡغَيۡبِ﴾:

هذه العبارةُ من أبلغِ ما في القرآنِ من دقائق كناياتِ الإيماءِ

عُلِّقَ الحفظُ بالغيبِ على سبيلِ المجازِ العقليِّ، فجُعِلَ مَفْعُولًا لِلْحِفْظِ عَلَى التَّوَسُّعِ؛ لِأَنَّهُ في الْحَقِيقَةِ ظَرْفٌ لِلْحِفْظِ ووقتٌ له، فَأُقِيمَ مَقَامَ الْمَفْعُولِ، ونكتةُ العدولِ إلى المجازِ: أنَّه - بدَلًا مِن أنْ يذكرَ مفعولَ الحفظِ، فيقولَ: حافظاتٌ مالَ أزواجهنَّ وقتَ الغيبةِ وعِرضَهم وبيتَهم، فيعدِّدَ كلَّ ما مِن شأنِه أنْ تقومَ الزَّوجةُ بحفظِه وقتَ غَيبةِ زوجها - أقامَ الغيبَ مقامَ المفعولِ، فقالَ: ﴿حَٰفِظَٰتٞ لِّلۡغَيۡبِ﴾، أي: لِغيبهم؛ لِيَشملَ كُلَّ مَا هو مَظِنَّةُ تَخَلُّفِ الْحِفظِ في مُدَّةِ غيبتِه: مِنْ كُلِّ مَا شَأْنُهُ أَنْ يحرسَهُ الزَّوجُ الحاضِرُ مِنْ أحوالِ امرأتِه في عِرضِه وَمَالِه وغيرِهما، ويشمل كذلكَ وجوبَ كتمانِ ما يكونُ بَينَهُنَّ وَبينَ أَزواجِهنَّ في الخلوَةِ، ولا سيَّما حديثُ الرَّفَثِ، فَحصلَ بِإِنابةِ الظَّرفِ عَنِ الْمفعولِ إيجازٌ بَدِيعٌ وتعميمٌ في المعنى، وهَذِهِ العبارَةُ من أَبلغِ مَا في الْقُرآنِ مِنْ دقائِقِ كِناياتِ النَّزَاهَةِ، تَقْرَؤُهَا خَرَائِدُ الْعَذَارَى جَهرًا، وَيَفْهَمْنَ مَا تُومِئُ إليهِ مِمَّا يَكونُ سِرًّا.[1]

دلالةُ قولِه: ﴿بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُۚ﴾:

تذكيرُ الزَّوجاتِ بأنْ يكونَ حفظهنَّ الغيبَ حِفْظًا مُطَابِقًا لِأَمْرِ الله تَعَالَى

تحتملُ ﴿بِمَا﴾ أنْ تكونَ مصدريَّةً، والباءُ: إمَّا لِلملابسةِ، وإمَّا لِلسببيَّةِ، فإذا كانت للملابسةِ؛ فالمعنى: بِملابسةِ حِفظِ اللّه، أي: حافظاتٌ للغيبِ حِفظًا مُطابِقًا لِأمرِ اللّه تَعَالَى لا يتجاوزْنَهُ إلى المعصيةِ، أو المعنى: حافظاتٌ للغيبِ بملابسةِ حفظِ اللّهِ إيَّاهُ بِصلاحِهنَّ، مِنْ مُراقبةِ اللّهِ تَعَالَى وتقواهُ مَا يجعلُهَا محفوظَةً مِنَ الخيانةِ، قَوِيَّةً عَلَى حِفظِ الأَمانةِ، وإذا كانت لِلسَّببيَّةِ؛ فالمعنى: حافظاتٌ للغيبِ بسببِ حفظِ اللّهِ.

وتَحتملُ (ما) أنْ تكونَ موصولةً، والمعنى: بالَّذي حفِظَ اللّهُ

(1) رشيد رضا، تفسير المنار: 5/59، وابن عاشور: التحرير والتنوير: 5/40.

لهنَّ عليهم، ممَّا هو معلومٌ بينَ النَّاسِ مِنْ حقوقِهِ، فاللَّفظُ واحدٌ، والمعنى متعدِّدٌ.

حفظ غيب الزَّوجِ من الحقوقِ المعلومَةِ بيْنَ النَّاسِ

بديعُ المقابلةِ بالعطفِ في قولِه: ﴿وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ﴾:

عطفَ: ﴿وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ﴾ على قوله: ﴿فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلۡغَيۡبِ﴾ على سبيلِ المقابلةِ؛ ليكونَ النُّشوزُ مقابلًا لصلاحِهنَّ وقنوتِهنَّ وحفظِهنَّ أزواجهنَّ في غيبتِهم، ولَمْ يُعَدِّدْ لَهُنَّ مَعَ النُّشوزِ صِفاتِ السُّوءِ الَّتي تُقابِلُ الصِّفاتِ الحَسَنَةَ؛ لأَنَّ لفظةَ النُّشوزِ كافيَةٌ في الوصفِ المقابِلِ للصِّفاتِ المحمودَةِ في النِّساءِ مِنْ جِهَةٍ؛ لجِماعِ معنى السُّوءِ فيها، ولِملاحَظَةِ تغليبِ صِفةِ الصَّلاحِ فيهِنَّ مِنْ جهةٍ أُخرى، فلَمَّا ذَكَرَ اللهُ تَعالى الصَّالِحاتِ وصِفاتِهِنَّ؛ ذَكَرَ بعدَهُ غَيرَ الصَّالِحاتِ[1].

لفظةُ النُّشوزِ جامعةٌ لمعاني السُّوءِ للمعاملةِ في العلاقةِ الزَّوجيَّةِ

مناسبةُ مجيءِ الاسمِ الموصولِ في قولِه: ﴿وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ﴾:

عُبِّرَ بالاسمِ الموصولِ؛ للإشارةِ إلى أنَّ الأمرَ بالموعظةِ أو الهجرانِ أو الضَّربِ مبنيٌّ على الخوفِ من نشوزهنَّ، فيكونُ في مقامِ السَّببِ لوقوعِ المسبَّبِ، وإذا انتفى السَّببُ؛ انتفى الأمرُ بالموعظةِ وما بعدها، كما أشعرَ التَّعبيرُ بالاسمِ الموصولِ بتوجيهِ ذهنِ السَّامعِ إلى ما سَيُخبرُ به عن اللَّاتي تخافونَ نشوزهنَّ؛ ليكونَ منتظرًا الخبرَ مترقِّبًا به، حتَّى يأخذَ منهُ مكانَهُ؛ إذا سمعَهُ[2].

إذا انتفى خوفُ النُّشوزِ؛ انتفى الأمرُ بالموعظةِ وما بعدها

دلالة لفظ ﴿تَخَافُونَ﴾ بينَ تحقُّقِ النُّشوزِ وتوقُّعِه:

يحتملُ اللَّفظُ أنْ يكونَ بمعنى العلمِ بتحقُّقِ النُّشوزِ وحصولِه، لورودِه بهذا المعنى في كلامِ العربِ، ودلَّ مجيءُ الفاءِ العاطفةِ على ترتُّبِ الحُكمِ على محذوفٍ، وتقديرُ الكلامِ: (واللَّاتي تخافونَ نشوزَهنَّ، فنشزْنَ، فعِظوهُنَّ)، فتكونُ الموعظةُ وما بعدَها مرتَّبةً

(1) الرازي، مفاتيح الغيب: 10/71.
(2) السّكاكي، مفتاح العلوم، ص: 182.

على تحقُّقِ النُّشوزِ، ويدلُّ عليه قولُه: ﴿فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ﴾، ومثلُه في الحذفِ قولُه تعالى: ﴿ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنفَجَرَتْ﴾، فتَقْديرُهُ: فضربَهُ، فَانفجرَتْ؛ لِأَنَّ الانفجارَ لَا يَتَسبَّبُ عَنِ الْأَمرِ، إِنَّمَا هو مُتَسَبِّبٌ عَنِ الضَّربِ، وذهبَ بعضُ المفسِّرينَ إلى أنَّ ظهورَ أماراتِ النُّشوزِ سببٌ لِوعظِهنَّ أو هجرِهنَّ أو ضربِهنَّ لِظاهرِ السِّياق؛ لأنَّ الخوفَ هو توقُّع حصولِ المكروه؛ لِيكونَ قطعًا للأمرِ قبلَ حصولِ النُّشوزِ، ولِلتَّعرُّف بمراتبِ التَّأديبِ على أحوالهن وتحقُّقِ أمرِهنَّ في النُّشوزِ، وأيضًا لِلإشارةِ إلى ضرورةِ المُبادرةِ بِعِلاجِ النُّشوزِ بِمجرَّدِ ظُهورِ أَماراتِهِ[1]

مناسبة الجمعِ بين المعطوفات في قولِه: ﴿فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِى ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّ﴾:

العِظةُ والهجرُ والضَّربُ مراتبُ، إنْ وقعتِ الطَّاعةُ عند إحداها لمْ يتعدَّ إلى سائرِها

دلَّ السِّياقُ والقرينةُ العقليَّةُ على مجيءِ الأوامرِ على التَّرتيبِ في التَّأديبِ مِنَ الأدنى إلى الأعلى، إذْ لَو عُكِسَ؛ كَانَ استغناءً بِالأَشدِّ عَنِ الأَضعفِ، فلا يكُونُ لِهذا فَائِدةٌ، كما أنَّ الواوَ العاطفةَ - وإنْ كانتْ لا تفيدُ التَّرتيبَ، لكنَّها بدخولِها على أمورٍ مختلفةٍ في الشِّدَّةِ وَالضَّعْفِ، مُرَتَّبَة في الذِّكرِ على أَمرٍ مُدرَجٍ - أشعرتْ بالتَّرتيبِ، والسِّياقُ يؤيِّدُهُ؛ ولذا قالَ ﷻ في قولِه تعالى: ﴿۞إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: 158]: «أَبْدَأُ بِمَا بَدَأَ اللهُ بِهِ»، فَبَدَأَ بِالصَّفَا[2]، فإنْ وَقَعَت الطَّاعَةُ بالوعظِ بِلينِ القولِ أو بخَشنِه؛ لَمْ يتعدَّ إلى سائِرِها، فدلَّ الكلامُ والسِّياقُ على أنَّه مهما حَصلَ الغرضُ بِالطَّريقِ الأَخفِّ؛ وجبَ الاكتِفاءُ بِهِ، ولمْ يَجُزِ الإقدامُ على الطَّريقِ الأَشقِّ[3]

(1) ابن جرير، جامع البيان: 8/298، والزَّمَخْشري، الكشاف: 1/507، وابن عطيّة، المحرر الوجيز: 2/48، والرازي، مفاتيح الغيب: 10/73، وأبو حيان، البحر المحيط: 3/628.

(2) مسلم، صحيح مسلم، رقم الحديث: 1218.

(3) الزَّمَخْشري، الكشاف: 1/507، وابن عطية، المحرر الوجيز: 2/48، والرازي، مفاتيح الغيب: 10/72، وأبو حيان، البحر المحيط: 3/628.

مجيء أفعال الأمر على خلافِ مقتضى الظَّاهر في قولِه: ﴿فَعِظُوهُنَّ وَٱهۡجُرُوهُنَّ فِي ٱلۡمَضَاجِعِ وَٱضۡرِبُوهُنَّۖ﴾:

جاءتْ أفعالُ الأمر هنا على خلافِ مقتضى الظَّاهرِ؛ لأنَّ الأمرَ هنا على سبيلِ الإرشاد، وليس على سبيلِ الوجوبِ، ونكتةُ التَّعبير بفعلِ الأمرِ هو العناية بشأنِ الأسرةِ، والحذرُ من وقوعِ الضَّررِ فيها، وإنَّما قلنا: إنَّ الأمرَ ليسَ للوجوبِ؛ لِمَا ذهبَ إليهِ الشَّافعيُّ - رحمهُ اللهُ - مِنْ أنَّ الضَّربَ مُباحٌ، والأولى تركُه.[1]

العناية بشأنِ الأسرةِ والحذرُ من وقوعِ الضَّررِ فيها

بلاغة الكنايةِ في قولِه تعالى: ﴿وَٱهۡجُرُوهُنَّ فِي ٱلۡمَضَاجِعِ﴾:

جاءَ الكلامُ على خلافِ مقتضى الظَّاهر، فلمْ يُصرِّحْ بالمرادِ؛ إكرامًا للمرأةِ وأدبًا في التَّعبيرِ، ولمَّا كانَ قولُه: ﴿فِي ٱلۡمَضَاجِعِ﴾ ظرفًا لقولِه: ﴿وَٱهۡجُرُوهُنَّ﴾؛ كانَ الكلامُ على طريقِ الكنايةِ، إذْ ذكرَ اللَّازِمَ، وأرادَ به المَلْزومَ، فيحتملُ أنْ يكونَ كنايةً عنِ الجماعِ، وهو الظَّاهرُ؛ لِكونِهِ أكثرَ تأثيرًا في رجوعِ المرأةِ إلى رُشدِها، وأليقَ بالسَّترِ عليها، كما أنَّه هو المتبادرُ في عرفِ الاستعمالِ اللُّغوي لهذهِ الكلماتِ، ويحتملُ أنْ يكونَ كنايةً عن المراقدِ، والمعنى: فلا تُدْخِلوهنَّ تحتَ اللُّحفِ، ولا تباشِروهنَّ، فيكون كنايةً عن الجمعِ، كما يحتملُ أنْ يكونَ ذكرُ المضاجعِ كنايةً عن البيوتِ، والمعنى: اهجروهنّ في البيوتِ[2].

الإرشادُ إلى أدَبِ الكَلامِ ومُراعاةِ الحَياءِ في الخِطابِ

نكتة مجيء الشَّرط في قولِه: ﴿فَإِنۡ أَطَعۡنَكُمۡ﴾:

عبَّر بـ ﴿فَإِنۡ﴾ الشَّرطيَّة الدَّالَّة على الشَّكِّ في الوقوعِ؛ للإشعارِ بأنَّ الطَّاعَةَ الكاملَةَ مِنَ الزَّوجةِ مَظِنَّةُ الشَّكِّ، فيُقبَلُ منها مسمَّى الطَّاعة، ولهذا صرَّح المفسِّرونَ بأنَّ المرادَ إظهارُ الطَّاعةِ في الظَّاهر

الاكتفاء بإظهارِ الطَّاعةِ مِنَ الزَّوجِ في الظَّاهر دونَ التَّفتيشِ عن ما في قلبِها

(1) الرازي، مفاتيح الغيب: 10/72، وابن عادل، اللباب في علوم الكتاب: 6/365.

(2) الراغب، تفسير الرّاغب: 3/1224، أبو حيّان، البحر المحيط: 3/726، والقونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 7/148 أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 2/174، ورشيد رضا، تفسير المنار: 5/60.

دونَ التَّفتيشِ عن ما في قلبِها، فإنَّ المحبَّة بالقلب، فليس من فعلها، فتُؤخَذُ به.[1]

السِّرُّ في التَّعْبيرِ بِالخَوْفِ في قَوْلِهِ تَعالى: ﴿وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ﴾:

فَلَمْ يَقُلْ: "واللَّاتي يَنْشُزْنَ"، أو "واللَّاتي نَشَزْنَ"؛ لِلإشارَةِ إلى ضَرورَةِ المُبادَرَةِ بِعلاجِ النُّشوزِ بِمُجَرَّدِ ظُهورِ أَماراتِه[2]، فلَمْ يَشَأْ أَنْ يُسْنِدَ النُّشوزَ إلى النِّساءِ إِسْنادًا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يَقَعَ مِنْهُنَّ فِعْلًا، بَلْ عَبَّرَ عَنْ ذَلِكَ بِعِبارَةٍ تُومِئُ إلى أَنَّ مِنْ شَأْنِهِ أَلَّا يَقَعَ؛ لِأَنَّهُ خُروجٌ عَنِ الأَصْلِ الَّذي يَقومُ بِهِ نِظامُ الفِطْرَةِ، وتَطيبُ بِهِ المَعيشَةُ، ففي هَذا التَّعْبيرِ تَنْبيهٌ لَطيفٌ إلى مَكانَةِ المَرْأَةِ، وما هوَ الأَوْلى في شَأْنِها، فَرَتَّبَ الحَقُّ الحُكْمَ على مُجَرَّدِ الخَوْفِ مِنَ النُّشوزِ، لا على حُدوثِ النُّشوزِ بِالفِعْلِ، وهَذِهِ لَفْتَةٌ للمبادرة في الإصلاحِ قبل وقوعِ النُّشوزِ؛ بأنْ يَتَلافَى الأَسْبابَ قَبْلَ أَنْ تَقَعَ؛ لِأَنَّها إنْ وقَعَتْ رُبَّما اسْتَعْصى عَلَيْهِ تَدارُكُها.[3]

المُبادَرَةُ إلى حَلِّ النِّزاعاتِ الزَّوْجيَّةِ عِنْدَ ظُهورِ بَوادِرِها

دلالة جزاء الشَّرط في قوله: ﴿فَلَا تَبْغُواْ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًاۗ﴾:

لَمَّا كانَ الشَّرطُ بمنزلة السَّببِ لوقوعِ الجزاءِ، وكان مقترنًا بهِ في الوقوعِ؛ أفادَ ذكرُ الجزاءِ أنَّ ظهورَ الطَّاعةِ منَ الزَّوجةِ يمنعُ الزَّوجَ من البغي عليها، وأكَّدهُ بتصديرِ الجزاءِ بالفاءِ المُنْبِئةِ عنْ سببيَّةِ ما قبلَها لِمَا بعدَها؛ للإشعارِ بأنَّه إنْ وعظَها على نشوزِها، أو هَجَرَها، أو ضَرَبَها بعدَ ظهورِ طاعتِها، سيكونُ ظالمًا لها.

إنْ وعظَ الزَّوجُ زوجَتَهُ على نُشوزِها، أو هَجَرَها، أو ضَرَبَها بعدَ ظهورِ طاعتِها؛ فهو ظالمٌ لها

دلالةُ لفظِ البغيِ في قولِه: ﴿فَلَا تَبْغُواْ﴾:

يحتملُ لفظُ ﴿تَبْغُواْ﴾: أنْ يكونَ بمعنى: تطلبوا، من قولهم: بَغَيْتُه،

(1) الراغب، تفسير الرّاغب: 3/1225.

(2) الرازي، مفاتيح الغيب: 10/73، ورَشيد رضا، تَفْسيرُ المنار: 5/59، وسْماعيل حَقّي الإسْتانْبولي، روحُ البَيان: 2/202، والقِنَّوْجيُّ، فتْحُ البَيانِ في مَقاصِدِ القُرآن: 3/106.

(3) الرازي، مفاتيح الغيب: 10/73، ورَشيد رضا، تَفْسيرُ المنار: 5/59، وإسْماعيل حَقّي الإسْتانْبولي، روحُ البَيان: 2/202، والقِنَّوْجيُّ، فتْحُ البَيانِ في مَقاصِدِ القُرآن: 3/106.

أي: طلبتُه والمعنى: لَا تَطلُبوا عليهِنَّ الضَّربَ والهِجرانَ طريقًا على سَبيلِ التَّعنُّتِ والإيذاءِ، أو فلا تَطلُبوا طريقًا لإجراءِ تِلكَ الزَّواجِرِ عليهِنَّ، ويحتمل أنْ يكونَ بمعنى: تَظلمُوا، والمعنى: لَا تجنُوا عليهِنَّ بِقولٍ أَو فِعلٍ أو بأيِّ سبيلٍ يقعُ بهِ الأذى عليهنَّ، وهذا نَهيٌ عَنْ ظُلمهِنَّ، ومآلُ الاحتمالينِ واحدٌ، وهو طلبُ الكَفِّ عنِ التَّعرُّضِ لهنَّ، بأنْ يجعلَ الأزواجُ ما كانَ منهنَّ كأنْ لم يكنْ، فإنَّ التَّائبَ منَ الذَّنبِ كمَنْ لا ذنبَ لهُ[1].

طلبُ الكَفِّ عنِ التَّعرُّضِ لِلأزواجِ بعدَ ظهورِ الطَّاعةِ، بأنْ يجعلُوا ما كانَ منهنَّ كأنْ لم يكنْ

نكتةُ تقديمِ الجارِّ والمجرورِ في قولِه: ﴿فَلَا تَبۡغُواْ عَلَيۡهِنَّ سَبِيلًاۗ﴾:

قدَّم ﴿عَلَيۡهِنَّ﴾، وهو حالٌ من ﴿سَبِيلًاۗ﴾؛ لأنَّه في الأصلِ صفةُ النَّكرةِ قُدِّمَ عليه، وفائدةُ التَّقديمِ: تأكيدُ النَّهيِ عنْ ظلمِهنَّ، والاهتمامُ بهِ.

تأكيدُ النَّهيِ عن ظلمِ الأزواجِ بعدَ ظهورِ طاعتِهنَّ

براعةُ التَّضمين في قولِه: ﴿سَبِيلًاۗ﴾:

لمَّا كانَ لفظُ السَّبيلِ يتعدَّى بـ (إلى) بأنْ يُقالَ لا سبيلَ إليه؛ كان التَّعبيرُ بـ ﴿عَلَيۡهِنَّ﴾ على خلافِ مقتضى الظَّاهر؛ لِتضمينِ ﴿سَبِيلًاۗ﴾ معنى: الحكمِ والسُّلطانِ، فتضمَّنَ اللَّفظُ معنى: الطَّريقِ، ومعنى: السُّلطانِ، والتَّقديرُ: فلا تَبْغُوا سلطانًا عليهنَّ، تصِلونَ بهِ إلى أذيَّتِهنَّ.[2]

النَّهي عن اتِّخاذِ أيِّ طريقٍ لِلتَّسلُّطِ على الأزواجِ للوصولِ إلى أذيَّتِهنَّ

دلالة التَّنكير في قوله: ﴿سَبِيلًاۗ﴾:

لمَّا جاء الاسم ﴿سَبِيلًاۗ﴾ نَكِرَةً في سِيَاقِ النَّفْيِ، أفادَ عمومَ النَّهْيِ عَنِ الْأَذَى بِقَوْلٍ أَوْ فِعْلٍ أو إشارةٍ أو أيِّ سبيلٍ يتوصَّل به الزَّوجُ إلى أذى الزَّوجة أو ضررها.[3]

(1) الرازي، مفاتيح الغيب: 10/73، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 2/73، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 5/173، وأبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 2/174.

(2) ابنُ عاشور، التّحرير والتّنْوير: 5/42.

(3) أَبو حَيّانَ، البحر المحيط: 3/628.

بلاغة الاستعارة في قوله: ﴿فَلَا تَبۡغُواْ عَلَيۡهِنَّ سَبِيلًاۗ﴾:

سلك في الكلام طريق الاستعارة؛ إذ استعار السَّبيل الَّذي حَقِيقَتُهُ الطَّرِيقُ، وَأُطْلِقَ هُنَا مَجَازًا عَلَى التَّوَسُّلِ وَالتَّسَبُّبِ وَالتَّذَرُّعِ إِلَى أَخْذِ الْحَقِّ[1]، على طريق الاستعارة التَّصريحيَّة التَّبعيَّة؛ لتأكيدِ النّهي والمبالغةِ فيه، وللإشعارِ بأنَّ بعضَ الأزواجِ قد يتَّخذونَ الأذى طريقًا إلى ظُلمِ أزواجِهم بدعوى الإصلاحِ.

مجيءُ الكلامِ على خلافِ مقتضى الظَّاهرِ في الخطابِ:

أصلُ الخطابِ أنْ يكونَ معَ مخاطبٍ معيَّنٍ، وقُصِدَ به هنا: العمومُ، فالْخِطَابُ صَالِحٌ لِكُلِّ مَنْ جُعِلَ لَهُ سَبِيلٌ عَلَى الزَّوْجَاتِ فِي حَالَةِ النُّشُوزِ، وليس مختصًّا بالمخاطبين وقت نزولِ القرآن؛ لِيكونَ الكلامُ على خلافِ مقتضى الظَّاهر، وأتى على طريقةِ الخطابِ؛ لأنَّهُ أكثرُ تأثيرًا في المخاطَبين، وأحرى بهم أنْ يمتثلوا لَهُ[2].

حسنُ التَّذييلِ في قولِه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا﴾:

في جملة التَّذييل وتضمُّنها هاتين الصِّفتين الجليلتين فوائد بديعة هي[3]:

التَّهديدُ والوَعيدُ على العُلوِّ ومُجاوزَة الحدِّ في العُقوبَةِ

أوّلاً: أفادتْ ﴿إِنَّ﴾ تأكيدَ وصفِ اللّهِ بكونِهِ عليًّا كبيرًا.

ثانيًا: كما أفادتْ ﴿إِنَّ﴾ تعليلَ جميعِ ما تقدَّمها في الآيةِ؛ لتكونَ بمنزلة التَّعليلِ لِكلِّ ما أخبرَ اللّهُ بهِ في هذهِ الآيةِ.

ثالثًا: دلَّ تعبيرُ: ﴿كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا﴾ على استمرارِ كونِ اللّهِ عليًّا كبيرًا، وظهورِ آثارِ اتِّصافِهِ تعالى بهاتينِ الصِّفتينِ الجليلتينِ.

رابعًا: أفادتْ جملةُ التَّذييلِ تَهْديدَ الْأَزواجِ بسببِ ظُلمِ النِّسوانِ، وتحذيرَهم، والمعنَى: أَنَّهُنَّ إِنْ ضَعُفْنَ عَنْ دَفعِ ظُلمِكُمْ، وَعَجزْنَ عَنِ

(1) ابنُ عاشور، التّحرير والتّنْوير: 5/42.

(2) ابنُ عاشور، التّحرير والتّنْوير: 5/42.

(3) الرازي، مفاتيح الغيب: 10/73، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 2/73، وأبو حيان، البحر المحيط: 3/628.

الانتصافِ منكمْ، فاللّه سبحانَهُ عَلِيٌّ قَاهِرٌ كَبِيرٌ قَادِرٌ ينتصفُ لَهُنَّ مِنكُمْ، ويستَوفِي حَقَّهُنَّ منكمْ، فلا ينبغِي أَنْ تَغتَرُّوا بِكونِكُمْ أَعلى يَدًا مِنْهُنَّ، وَأَكبَرَ درجةً مِنْهُنَّ.

خامسًا: لَمَّا كَانَ فِي تَأديبِهِنَّ بِمَا أَمرَ تَعالى بِهِ الزَّوجَ اعتلاءٌ لِلزَّوجِ على المرأَةِ؛ خَتمَ تعالى الآيةَ بِصفةِ العلوِّ والكِبَرِ، لِيُنبِّهَ العبْدَ على أَنَّ المُتَّصِفَ بِذلكَ حقيقةً هُو اللّه تعالى، وإِنَّما أَذِنَ لكمْ فيما أَذِنَ على سبيلِ التَّأديبِ لهُنَّ، فلا تستَعلُوا عليهنَّ، ولا تتكبَّرُوا عليهِنَّ.

سادسًا: لا تبغُوا عليهِنَّ؛ إذا أَطعنَكُمْ لِعلُوِّ أَيديكُمْ، فَإِنَّ اللّه أَعلى منكمْ وَأَكبرُ مِنْ كُلِّ شيءٍ، وهو مُتعالٍ عَنْ أَنْ يُكلَّفَ إِلَّا بالحقِّ.

سابعًا: أَنَّهُ تعالَى معَ عُلُوِّهِ وكِبرِيائِهِ لا يُكَلِّفُكُمْ إِلَّا ما تُطيقونَ، فكذلكَ لا تُكَلِّفوهُنَّ محبَّتكمْ، فَإِنَّهُنَّ لا يقدرْنَ على ذلكَ.

ثامنًا: أَنَّه على علوِّ شأنِه سبحانَه يتجاوزُ عن سيِّئاتِكم، ويتوبُ عليكم، فأنتمْ أحقُّ بالعفوِ عن أزواجِكم.

تاسعًا: أَنَّهُ تعالى معَ عُلُوِّهِ وكبريائِهِ اكتفَى مِنَ العبدِ بِالظَّواهِرِ، وَلَمْ يهتِكِ السَّرائِرَ، فَأَنتُمْ أَولى أَنْ تَكتفوا بِظاهِرِ حَالِ المرأَةِ، وَأَلَّا تقعوا فِي التَّفتيشِ عَمَّا في قلبِها وضميرِها من الحبِّ والبغضِ.

عاشرًا: في جملةِ التَّذييلِ إيذانٌ للرِّجالِ والنِّساءِ أَنَّه سبحانه يتعالى من أَنْ يظلمَ أحدًا، أو يَنقُصَ حقَّهُ.

الحادي عشر: لَمَّا كانتْ جملةُ التَّذييلِ على معنى: العمومِ والكلِّيَّةِ؛ كانتْ بمنزلة المَثَلِ في حكايتِها والتَّمثيلِ بها.

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

القوامَة والوِلايَة:

يقال: قام على الشَّيء؛ إذا كان يرعاه، ويحفظه، ويتولَّاه بعنايته والمحافظة عليه، والرِّياسة تسمَّى: قوامة؛ إذا كان الرَّئيس يقوم على رعاية المرؤوس، والمحافظة على حقوقه وواجباته، ومن هذا المعنى قوله تعالى: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾، فإنَّ المعنى:

أنَّ الرِّجال يقومون على شؤون النِّساء، بالحفظ والرِّعاية والكلاءة والحماية[1]، والقوامةُ: تَكونُ على النَّفْسِ والمَرْأَةِ والصَّغيرِ والسَّفيهِ والمَجْنونِ، والقوامةُ على المالِ، أَمَّا الوِلايَةُ؛ فقَدْ تَكونُ خاصَّةً: كالقِيامَةِ على النَّفْسِ والزَّوْجَةِ والمالِ، وقَدْ تَكونُ عامَّةً: كَوِلايَةِ السُّلْطانِ على الأُمَّةِ، كَما أَنَّ في الوِلايَةِ مَعْنى الحُبِّ والنُّصْرَةِ والإِعانَةِ، فالوِلايَةُ أَعَمُّ مِنْ هذهِ الجِهَةِ[2]، وليست القوامة على النِّساء سلطة وتحكُّمًا، ولكنَّها إرعاء وتفهُّم[3]، أمَّا الولاية؛ فقد اختار الطَّبريُّ أن يكون: ﴿أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ﴾ [المائدة: 51] بمعنى: أنصار بعض، قال ابن عبَّاس: كانت هذه الولاية في الميراث، فكان المهاجرون والأنصار يرث بعضهم بعضًا بالهجرة دون القرابة، حتَّى نزلت بعده: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلۡأَرۡحَامِ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلَىٰ بِبَعۡضٖ﴾ [الأنفال: 75]، فنسخت مواريث المهاجرين والأنصار بعضهم من بعض[4].

الخُشوع والقُنوت:

الخُشوعُ: خُضوعُ القَلْبِ، والقُنوتُ: دَوامُ الطَّاعَةِ، والخُشوعُ: لينُ القَلْبِ وخُضوعُهُ ورِقَّتُهُ وسُكونُهُ، وحُضورُهُ وقْتَ تَلَبُّسِهِ بالطَّاعَةِ، فتَتْبَعُهُ جَميعُ الجَوارِحِ والأَعْضاءِ[5]، وعَنِ الْحَسَنِ قَالَ: الْخُشُوعُ: الْخَوْفُ الثَّابِتُ فِي الْقَلْبِ، وعَنْ مُجَاهِدٍ قَالَ: الْخُشُوعُ: غَضُّ الْبَصَرِ وَخَفْضُ الْجَنَاحِ[6]، "الخشوع علانيَة: وهو الوقوف بين يدي الله تعالى على الإقامة على شروط آداب الآمر، وهو تخليص الحركات والسُّكون عمَّا سواه، وأصل ذلك الخشية في السِّرِّ، فإذا أعطي الخشية؛ ظهر الخشوع على ظاهره"[7]، وقيل: الخشوع في الصَّلاة: هو جمع الهمَّة، والإعراض عمَّا سواها، والتَّدبُّر فيما يجري على لسانه من القراءة والذِّكر[8]، أَمَّا القُنوتُ؛ فيَرِدُ في القُرْآنِ على قِسْمَيْنِ: القِسْمُ الأَوَّلُ: قُنوتٌ عامٌّ لِجَميعِ المَخْلوقاتِ، بِمَعْنى: الخُضوعِ، كَقَوْلِهِ تَعالى: ﴿وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ كُلّٞ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ٢٦﴾ [الرُّومُ: 26]، والمَعْنى:

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 3/1667.
(2) مَجْموعَةُ باحِثِين، المَوْسوعَةُ الفِقْهِيَّةُ الكوَيتيَّةُ، وزارَةُ الأَوْقافِ والشُّؤونِ الإِسْلامِيَّةِ، الكوَيْتُ، ط: 2، 1427هـ: 45/139.
(3) الحجازيّ، محمّد محمود، التّفسير الواضح: 1/370.
(4) مكي بن أبي طالب، الهداية إلى بلوغ النّهاية: 4/2897.
(5) ابْنُ رَجَبٍ الحَنْبَلِيُّ، الذُّلُّ والانْكِسارُ لِلْعَزيزِ الجَبّارِ، تح: طارق حِجازيّ، دارُ الرِّسالَةِ، القاهِرَةُ، ط: 01، 1420هـ، ص: 35.
(6) يحيى بن سلاّم، تفسير يحيى بن سلام: 1/392.
(7) التُستري، تفسير التّستريّ، ص: 109.
(8) البغويّ، معالم التّنزيل في تفسير القرآن: 3/359.

الكُلُّ عَبيدٌ خاضِعونَ لِرُبوبيَّتِهِ وتَدْبيرِهِ ﷻ، لا مَعْبودَ بِحَقٍّ سِواهُ، والقِسْمُ الثَّاني: القُنوتُ الخاصُّ: وهوَ دَوامُ الطَّاعَةِ للهِ على وجْهِ الخُشوعِ، وهوَ الأَكْثَرُ في القُرْآنِ الكَريمِ، ومِنْهُ قَوْلُهُ تَعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ سَاجِدٗا وَقَآئِمٗا﴾ [الزُّمَر: 9]، ونَحْوُ ذَلِكَ[1]، والخشوع: ثمرة العبوديَّة للّه، يخبت به القلب، ويستريح به الضَّمير، ويجد به للعبادة مذاقًا خاصًّا، يزداد به المؤمن إيمانًا مع إيمانه، ويمتح به من موائد العرفان، ما يضمن له الأيلولة إلى متعة الجنان، وأمَّا القنوت

الحِفْظ والرِّعايَة:

الحِفْظُ: صَرْفُ المَكارِهِ عَنِ الشَّيْءِ لِئَلَّا يَهْلِكَ، والرِّعايَةُ: فِعْلُ السَّبَبِ الَّذي يَصْرِفُ المَكارِهَ عَنْهُ، فالرِّعايَةُ سابِقَةٌ لِلْحِفْظِ، ومِنْ ثَمَّ يُقالُ: فُلانٌ يَرْعى العُهودَ بَيْنَهُ وبَيْنَ فُلانٍ، أَيْ: يَحْفَظُ الأَسْبابَ الَّتي تَبْقى مَعَها تِلْكَ العُهودُ، ومِنْهُ راعي المَواشي لِتَفَقُّدِهِ أُمورِها، ونَفْيِ الأَسْبابِ الَّتي يَخْشى عَلَيْها الضَّياعَ مِنْها، فكُلُّ حافِظٍ راعٍ، فالحِفْظُ أَعَمُّ، والرِّعايَةُ أَسْبَقُ[2]، وقَدْ يُطْلَقُ كُلٌّ مِنْهُما على الآخَرِ في حَقِّ اللّهِ، فيُقالُ: في رِعايَةِ اللّهِ تَعالى، أَيْ: في حِفْظِهِ[3]، والمعيَّة في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مَعَكُمۡۖ﴾ [المائدة: 12] معيَّة مجازيَّة، بمعنى: الحفظ والرِّعاية والنُّصرة[4]، وكذلك قوله على لسان النَّبيِّ ﷺ لأبي بكر: ﴿لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ﴾ [التَّوبة: 40]، بيان لما أحاط اللّه به نبيَّه من مظاهر الحفظ والرِّعاية[5]، وفي الحديث المشهور: «الْإِمَامُ ضَامِنٌ، وَالْمُؤَذِّنُ مُؤْتَمَنٌ»، أراد بالضَّمان هاهنا: الحفظ والرِّعاية، لا ضمان الغرامة؛ لأنَّه يحفظ على القوم صلاتهم[6].

البَغْي والظُّلْم:

الظُّلْمُ: مُجاوَزَةُ الحُدودِ وتَعَدِّيها بِغَيْرِ حَقٍّ بِالكُلِّيَّةِ، وقد كَثُرَ وُرُودُهُ في القُرْآنِ الكَريمِ، وتَعَدَّدَتْ مَعانيهِ بِحَسَبِ السِّياقاتِ، ومِنْهُ ظُلْمٌ بَيْنَ الإِنْسانِ وبَيْنَ اللّهِ تَعالى، وأَعْظَمُهُ الكُفْرُ

(1) السِّعْدي، تَيْسيرُ اللَّطيفِ المَنّانِ: 1/311.
(2) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 205.
(3) الحِميَرِيّ، شَمْسُ العُلومِ: 4/2547.
(4) طنطاوي، التّفسير الوسيط: 4/80.
(5) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 6/292.
(6) ابن الأثير، النّهاية في غريب الحديث والأثر: 3/102.

والشِّرْكُ والنِّفاقُ، كَما في الآيَةِ: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ١٣﴾ [لُقمان: 13]، وفي قَوْلِه: ﴿وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَٰدُ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْۚ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ١٨﴾ [هودٌ: 18]، ومِنْهُ ظُلْمُ الإِنْسانِ لِلْإِنْسانِ، كَقَوْلِهِ تَعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ٤٢﴾ [الشُّورى: 42]، ويُطْلَقُ البَغْيُ على التَّرَقِّي في الفَسادِ، وشِدَّةِ الطَّلَبِ لما لَيْسَ بِحَقٍّ[1]، وقَدْ ورَدَ لفظُ البَغْيِ ومُشْتَقّاتُهُ في آياتٍ كَثيرَةٍ، ومِنْ ذلِكَ: ﴿بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦۖ﴾ [البقرة: 90]، و﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ [الأعراف: 33]، وفي قوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْۚ﴾ [البقرة: 194]، يشار إلى أنَّ البغي، والظُّلم، والعدوان.. كلُّها وجوه منكرة من وجوه المنكر، ومطلوب من كلِّ مؤمن بالله، أن يدفع المنكر بكلِّ ما ملكت يده، ووسع جهده[2]، وفي الحديث عن ابن عبَّاس رضى الله عنه: «لَوْ بَغَى جَبَلٌ عَلَى جَبَلٍ؛ لَدُكَّ البَاغِي»[3]، وقد قيل في هذا المضمار:

يَا صَاحِبَ الْبَغْيِ إِنَّ الْبَغْيَ مَصْرَعَةٌ *** فَارْبَعْ فَخَيْرُ فِعَالِ المَرْءِ أَعْسَلُهُ

فَلَوْ بَغَى جَبَلٌ يَوْمًا عَلَى جَبَلٍ *** لَانْدَكَّ مِنْهُ أَعَالِيهِ وَأَسْفَلُهُ[4]

(1) الكفوي، الكُلِّيَّاتُ، ص: 247، والعسكري، الفروق اللغوية، ص: 232.

(2) عبد الكريم الخطيب، التَّفسير القرآنيُّ للقرآن: 9/1043.

(3) هذا الحديث، أخرجه البخاري في الأدب، عن ابن عبّاس: (رضى الله عنهما) موقوفا، ورواه ابن المبارك في الزّهد عن مجاهد مرسلا، ورواه البيهقيّ في الشّعب، ورواه ابن مردويه عن أنس: (رضى الله عنه)، وأخرجه ابن حبّان في الضّعفاء.

(4) البيتان كان المأمون العبّاسّي يتمثّل بهما في حربه مع أخيه الأمين، ولم نعثر لهما على قائل.

﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُواْ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ﴿٣٥﴾﴾ [النِّساء: 35]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

ربـــط الأمـــر بـمُـعـالَـجَـةِ الزَّوجِ للنُّشوزِ، بمشاركة حكمي الأســـرتـــين في الإصلاح

لَمَّا ذكَرَ اللهُ ﷻ الحالَ الأَوَّلَ، وهوَ إذا كانَ النُّفورُ والنُّشوزُ مِنَ الزَّوْجَةِ، وأَنَّ الزَّوجَ يعِظُها، ثمَّ يَهْجُرُها، ثمَّ يَضْرِبُها، مِنْ غَيرِ قَسْوَةٍ ولا عنف ولا طُغْيانٍ؛ ذَكَرَ الحالَ الثَّانيَ، وهوَ إذا كانَ النُّفورُ مِنَ الزَّوْجَيْنِ، وبَيَّنَ أَنَّهُ لَمْ يَبْقَ بَعْدَ كُلِّ هذا إلَّا المُحاكَمَةُ إلى مَنْ يُنْصِفُ المظلومَ من الظَّالمِ[1]، حَيْثُ يَخْرُجُ أَمْرُ مُعالَجَةِ الخِلافِ مِنْ مُحيطِ الأُسْرَةِ الصَّغيرَةِ إلى مُحيطِ الأُسْرَةِ الكَبيرَةِ، وذلك إذا "تفاقمت الخصومة بينهما، وصارت تهدِّد بالانفصال؛ بعث القاضي ثقة من أهل الزَّوجة، وثقة من أهل الزَّوج؛ ليجتمعا، وينظرا في أمرهما، ويفعلا ما فيه المصلحة ممَّا يريانه من التَّفريق أو التَّوفيق"[2]، فبَيَّنَ بِذلِكَ الطَّريقَ السَّوِيَّ الَّذي يُتَّبَعُ عِنْدَ حدوثِ النِّزاعِ وخَوْفِ الشِّقاقِ[3].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿شِقَاقَ﴾: الشِّقاقُ: التَّباعُدُ والفِراقُ والمُخالَفَةُ والعَداوَةُ[4]، والشِّقاق: المنازعة، يقال: شقَّ العصا، أي: فارق الجمع، وشاقَّ القوم: صار كلُّ نفر في شقٍّ، ﴿شَآقُّواْ ٱللَّهَ﴾ [الأنفال: 13]، أي: صاروا في شقٍّ غير شقِّ أوليائه[5]، وأَصْلُ الشِّقاقِ: يَدُلُّ عَلَى انْصِداعٍ في الشَّيْءِ[6]،

(1) الرازي، مفاتيح الغيب: 10/95، وابْنُ كَثِيرٍ، تَفْسِيرُ القرآن العظيم: 2/296.
(2) أسعد حومد، أيسر التّفاسير، ص: 528.
(3) أَحْمَدُ مُصطفَى المَراغيُّ، تَفْسِيرُ المَراغيّ: 5/31، ومُحَمَّد أبو زهرة، زَهْرَةُ التَّفاسير: 3/1564.
(4) الراغب، المفردات: (شقَّ)، والزَّبيديُّ، تاجُ العَروسِ: (شقق)، والسَّمِيْن الحَلَبيُّ، عُمْدَةُ الحُفَّاظِ: (شقق).
(5) الرَّاغِبُ، تفسير الرّاغب: 1/323.
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (شَقَّ).

والمَعْنى هُنا: فِراقُ بَيْنِهما في الاخْتِلافِ والخُصومَةِ، حَتَّى شَقَّ أَمْرُ أَحَدِهما عَلى الآخَرِ[1]، قال الطَّبريُّ: "وأصل (الشِّقاق) عندنا - والله أعلم - مأخوذٌ من قول القائل: (شَقَّ عليه هذا الأمر)؛ إذا كرَبه وآذاه، ثُمَّ قيل: (شاقَّ فلانٌ فلانًا)، بمعنى: نال كلٌّ واحد منهما من صاحبه ما كرَبه وآذاه، وأثقلته مَساءَته[2]، والشِّقاق غاية العداوةِ قال تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ۝٥٣﴾ [الحجّ: 53]، ومنه قول الأخطل:

أَلَا مَنْ مُبْلِغٌ قَيْسًا رَسُولًا *** فَكَيْفَ وَجَدْتُمُ طَعْمَ الشِّقَاقِ[3]

2) ﴿يُوَفِّقِ﴾: مِنَ المُوافَقَةِ، وهيَ: المُطابَقَةُ بَيْنَ الشَّيْئَيْنِ[4]، ووَفْقُ الشَّيْءِ: ما لاءَمَهُ، والمُوافَقَةُ بَيْنَ الشَّيْئَيْنِ كالالتِحامِ[5]، وأَصْلُ (وفق): يدُلُّ عَلَى مُلاءَمَةِ الشَّيْئَيْنِ[6]، والمَعْنى هُنا: يُيَسِّرُ اللهُ عَوْدَ مُعاشَرَتِهِما إلى أَحْسَنِ حالٍ، وقوله: ﴿يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ﴾، يحتمل وجهين: أحدهما: يوفِّق الله بين الحكمين في الإصلاح بين الزَّوجين، والثَّاني: يوفِّق الله بين الزَّوجين بإصلاح الحكمين[7]، ومقصد العبارة في دلالة السِّياق: "أنَّ من أصلح نيَّته في أمر يتحرَّاه؛ أصلح الله مبتغاه، كما رُوِيَ في الخبر أنَّ: (مَنْ أَصْلَحَ سَرِيرَتَهُ، أَصْلَحَ اللهُ عَلَانِيَتَهُ)[8].

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

نِيَّةُ الإِصْلاحِ والسَّعْيُ في الوِفاقِ، سَبَبُ الوِفاقِ وزوالِ الشِّقاقِ

وإِنْ عَلِمْتُمْ - يا أَوْلياءَ الزَّوْجَيْنِ - أَنْ يَصِلَ الخِلافُ بَيْنَهُما إلى العَداوَةِ والتَّدابُرِ؛ فأَرْسِلوا رَجُلًا عَدْلًا مِنْ أَهْلِ الزَّوْجِ، ورَجُلًا عَدْلًا مِنْ أَهْلِ الزَّوْجَةِ؛ ليَحْكُما بِما فيهِ المَصْلَحَةُ مِنَ التَّفْريقِ أَوِ التَّوْفيقِ بَيْنَهُما، فإِنْ أَرادَ الحَكَمانِ أَوِ الزَّوْجانِ أَوْ غَيْرُهُما الإِصْلاحَ، وسَلَكَ كلٌّ مِنْهُما الأُسْلوبَ الأَمْثَلَ إِلَيْهِ؛ يُوَفِّقِ اللهُ بَيْنَ الزَّوْجَيْنِ، ويَرْتَفِعِ الخِلافُ

(1) الكفوي، الكُلِّيّاتُ، ص: 543.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 3/116.
(3) الماورديّ، النّكت والعيون: 2/498.
(4) الراغب، المفردات: (وفق).
(5) جبل، المُعْجَمُ الاِشْتِقاقيُّ المُؤَصَّل: (وفق).
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (وفق).
(7) الماوردي، النّكت والعيون: 1/484.
(8) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 3/1228.

بَيْنَهُما، إنَّ اللّٰهَ كانَ مُطَّلِعًا على ظَواهِرِ العِبادِ وبَواطِنِهِمْ، لا يَخْفى عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ عِبادِهِ[1]، ومتى صدقت الإرادة، وصحَّت العزيمة؛ فإنَّ اللّٰه كفيل بالتَّوفيق[2]، والآية "فيها معنى الحثِّ على الإصلاح، والتَّأميل في توفيق اللّٰه إليه، مع عدم إغفال إرادة الزَّوجين ممَّا هو متَّسق مع التَّقريرات القرآنيَّة، في أهليَّة المرء للإرادة والاختيار الَّتي أودعها اللّٰه فيه[3].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

مناسبة تصدير الآية بالوصلِ والشَّرط:

انْتقالُ الخطابِ إلى الأَوْلياءِ أو الحُكَّام لِعِلاجِ الشِّقاقِ وجَبْرِ الفِصام

لَمَّا ذكرَ اللّٰه تعالى الطَّائعةَ والنَّاشزةَ؛ طوى ذكرَ الَّتي ترجعُ طواعيةً إلى زوجِها؛ لأنَّه هو المقصودُ من الآيةِ، وذكر القسمَ الآخرَ، فالآيةُ أشعرتْ بتقسيمِ النِّساءِ تقسيمًا عقليًّا؛ لأنَّها: إمَّا طائعةٌ، وإمَّا ناشزةٌ، والنَّاشِزُ: إمَّا منْ يرجعُ إلى الطَّواعيَة، وإمَّا منْ يحتاجُ إلى الحَكَمَين، ولهذا انتقلَ الكلامُ مِنْ خِطابِ الأَزْواجِ إِلَى خِطابِ الأَوْلياءِ أو مَنْ لَهُ الحُكْمُ والفَصْلُ بَيْنَ النَّاسِ[4].

نكتةُ التَّعبيرِ بأداة الشَّرط (إنْ) في قولِه: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا﴾:

بعثُ الحَكَمَيْنِ لإزالةِ الشِّقاقِ ومنعِ استمرارِه

لَمَّا كانَ الشَّرطُ على معنى الاستقبالِ؛ دلَّ على أنَّ المرادَ هو الخوفُ مِنْ بقاءِ الشِّقاقِ واستمرارِه، فإنَّ وُجودَ الشِّقاقِ بالحالِ مَعلومٌ، ومِثْلُ هذا لا يحصلُ منهُ خَوفٌ؛ لِمَا يُشعرُ به لفظُ الخَوفِ مِنْ توقُّعِ مكروهٍ عن أَمارةٍ مظنونةٍ، أو معلومةٍ، فدلَّ على أنَّ الخوفَ إنَّما هو في بقاءِ الشِّقاقِ في المستقبلِ واستمرارِه، ففائدةُ بَعثِ الحَكَمَين ليستْ إزالةَ الشِّقاقِ الثَّابتِ، فإنَّ ذلكَ مُحالٌ، بَلِ الفائدَةُ إزالَةُ ذلكَ الشِّقاقِ في

(1) لَجْنَةٌ مِنْ عُلَماءِ الأَزْهَرِ، المُنْتَخَبُ في تَفْسيرِ القُرآنِ الكَريمِ، ص: 114، ونُخْبَةٌ مِنْ أَساتِذَةِ التَّفْسيرِ، التَّفْسيرُ المُيَسَّرُ، ص: 84، وجَماعَةٌ مِنْ عُلَماءِ التَّفْسيرِ، المُخْتَصَرُ في تَفْسيرِ القُرآنِ الكَريمِ، ص: 84.

(2) أحمد مصطفى المراغيّ، تفسير المراغيّ: 5/31.

(3) دروزة محمّد عزّت، التّفسير الحديث: 8/111.

(4) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/49، وأبو حيان، البحر المحيط: 3/629.

المستقبلِ[1]، ويَحتملُ أَنْ يكونَ المعنى أَيضًا: وإنْ خِفتُمْ حُدوثَ شِقاقٍ بينهُما بِرُؤيةِ أَسبابِهِ وبوادرِهِ ومُقَدِّماتِهِ؛ فأَسرعوا بإزالَةِ أَسبابِهِ، وعلاجِ بوادِرِهِ ومُقدِّماتِهِ، فابعثوا الحَكَمَيْنِ.

مجاز التَّعبير في قوله: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا﴾:

حصولُ الانشقاق تفريقٌ بينَ متآلفين حسًّا أو معنًى

عبَّر عن المخالفةِ بالشِّقاق؛ لأنَّه لمَّا كانَ الشِّقاقُ يفيدُ أنْ يكونَ كلُّ واحدٍ منهما في جانبٍ وشِقٍّ غيرِ شقِّ الآخرِ؛ اقتضى أنْ يكونا متخالِفَينِ متباعِدَينِ حِسًّا أو معنًى، فعبَّر باللَّازم ﴿شِقَاقَ﴾ عن الملزوم (المخالفة) مجازًا، ويُحتمَلُ أنْ يكونَ الشِّقاقُ من شقِّ العصا، فيكون كنايةً عن العداوة[2]، كما أنَّ التَّعبيرَ بالشِّقاقِ يومئ إلى أنَّ الزَّوجين بمنزلة الشَّيء الواحدِ؛ لأنَّ الشِّقاقَ يشعرُ بألفةٍ أو موافقةٍ سبقتْه، فحصولُ الانشقاق تفريقٌ بينَ متآلفين حسًّا أو معنًى.

مناسبةُ العدولِ إلى المجازِ بالإضافةِ في قولِه: ﴿شِقَاقَ بَيْنِهِمَا﴾:

تعميمُ معنى الشِّقاقِ؛ ليتناولَ كلَّ شؤونِ الزَّوجينِ وأحوالِهما

أَصلُ المعنى: وإنْ خِفتمْ شِقاقًا بينهما، فعدلَ عنهُ، وأُضيفَ الشِّقاقُ إلى البَيْنِ على طريقِ الاتِّساعِ[3]: إمَّا لإجرائِه مُجرى المفعولِ؛ للمُلابَسَةِ بَيْنَ الظَّرفِ ومظروفِهِ للمُبالغةِ في الشِّقاقِ، كَأَنَّهُ سَرى منهُما إلَى مكانِهما، مثلَ قَولِهِمْ: يا سارِقَ اللَّيلةِ أَهلَ الدَّارِ، أو مجرى الفاعِلِ، كَقَولِهِمْ: نَهارُكَ صائِمٌ؛ ليَكونَ البَيْنُ كَأَنَّهُ فاعِلُ الشِّقاقِ، وبِما أَنَّ البَيْنَ في الأَصلِ مِنَ الظُّروفِ المَكانيَّةِ، وهُنا وما يُماثِلُهُ مُستعارٌ لِلمَحَلِّ المعنويِّ؛ كانَتِ النِّسبةُ الإضافيَّةُ هُنا مجازيَّةً في كِلا الحالَيْنِ، وهيَ مِنْ قَبيلِ المَجازِ الحُكميِّ (العقليِّ)، ولَمَّا كانَ الشِّقاقُ مِنَ المُفاعَلَةِ، وكان كُلٌّ مِنْهُما فاعِلًا ومَفْعولًا؛ جازَ هُنا احْتِمالانِ،

(1) البَغَويُّ، مَعالِمُ التَّنْزيلِ، تح، مهدي: 1/613، والرازي، مفاتيح الغيب: 10/73، وابْنُ عادِلٍ، اللُّبابُ في عُلومِ الكِتابِ: 6/367، وأبو السّعود، إرشادُ العَقْلِ السّليم: 1/694.

(2) الراغب، المفردات: (شقا)، والقونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 7/150.

(3) الاتِّساعُ هوَ: العُدولُ عَنِ الحَقيقَةِ إلى المَجازِ لِغَيْرِ مُشارَكَةٍ بَيْنَ المَنْقولِ إلَيْهِ، ومِنْ هذا القَبيلِ قَوْلُ الرَّسولِ ﷺ عَنْ جَبَلِ أُحُدٍ: "هَذا جَبَلٌ يُحِبُّنا ونُحِبُّهُ" فإضافَةُ المَحَبَّةِ إلى الجَبَلِ مِنْ بابِ التَّوَسُّعِ، إذْ لا مُشارَكَةَ بَيْنَهُ وبَيْنَ الجَبَلِ الذي هوَ جَمادٌ، يُنْظَرُ: ابْنُ الأَثيرِ الكاتِبُ، المَثَلُ السّائِرُ: 1/350.

وفائدةُ العدولِ إلى المجازِ: هو التَّعميم، بمعنى: (شقاقًا) في حالهما أوعشرتهما أوصحبتهما أو في كلِّ ما يلابسهما؛ لِسَعَةِ ظرفِ المكانِ أنْ يكونَ مظروفًا لكلِّ شؤونِهما وأحوالِهما، معَ ما في التَّعبيرِ من الإيجازِ البَديعِ الَّذي يَدُلُّ فيهِ الظَّاهِرُ على المُقَدَّرِ[1].

عودُ الضَّمير في: ﴿بَيۡنِهِمَا﴾:

الحثُّ على السِّترِ وقتَ خوفِ الشِّقاقِ

لم يَجرِ ذكرُ ما يعودُ إليه الضَّميرُ (هما)؛ لِجري ذكرِ ما يدلُّ عليهما في السِّياقِ، وهو الرِّجالُ والنِّساءُ، وأيضًا لِدلالة النُّشوزِ: الَّذي هو عصيانُ المرأةِ زوجَها، فما يعودُ عليه الضَّميرُ هو في حكم المذكورِ، والقرينةُ سياقيَّةٌ؛ فعبَّرَ بالضَّميرِ؛ إيجازًا في الكلامِ ورعايةً لِنَسَقِ النَّظمِ، وإيماءً إلى الحثِّ على السِّترِ وقتَ خوفِ الشِّقاقِ بينهما وما بعدَه، لما في الضَّمير من معنى الاستتار والإبهام.[2]

دلالةُ التَّعبيرِ بقولِهِ: ﴿فَٱبۡعَثُواْ﴾:

المبادرةُ إلى الإصلاحِ بالإسراعِ في بعثِ الحَكَمَيْنِ

عبَّر بلفظِ البعثِ دونَ الإرسالِ؛ لأنَّه لمَّا كانَ البعثُ هو الإرسالَ مضمَّنًا معنى: إثارةِ المرسَلِ من مكانٍ يلزمُهُ بقوَّةٍ، فيندفعُ ناهضًا إلى ما يرسَلُ إليهِ[3]؛ أفادَ التَّعبير بلفظِ ﴿فَٱبۡعَثُواْ﴾ إلى إثارةِ الحكمين وإرسالِهما بطريقِ الاندفاعِ؛ للمبادرةِ إلى الإصلاحِ، ثمَّ إنَّه زادَ مِنْ تأكيدِ المبادرة إلى الإصلاحِ باقتران فعل الطَّلب بالفاء المعقِّبة الدَّالَّة على الإسراعِ في بعثِ الحكمين.

دلالة التَّنكير في قوله: ﴿حَكَمٗا مِّنۡ أَهۡلِهِۦ وَحَكَمٗا مِّنۡ أَهۡلِهَآ﴾:

على الحكَمَينِ أنْ يكونَ لهما مزيدُ اختصاصٍ ومعرفةٍ بالإصلاحِ بينَ الزَّوجينِ

لمَّا كان الحَكَمُ بمعنى: الَّذي يَضْبط أمر كلٍّ من الزَّوجين وَيفْصِل بينهما، بأن يكونَ مانعًا مِن أن يدخل أيٌّ منهما على الآخرِ في

(1) الزَّمَخْشري، الكشاف: 2/72، وابن عطية، المُحَرَّرُ الوَجيز: 2/49، وابْنُ بَطّال، النَّظْم المُسْتَغْذَبُ، تح: مُصْطَفى سالِم: 2/156، والبَيْضاويُّ، أَنْوارُ التَّنْزيل: 2/73، والقونويُّ، حاشيةُ القونويّ: 7/150.
(2) الزَّمَخْشري، الكشاف: 1/508.
(3) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (بعث).

حقِّهِ[1]، وكانَ التَّنكيرُ على معنى الشُّيوعِ وانتفاءِ التَّعيينِ؛ أفاد مجيءُ ﴿حَكَمًا﴾ نكرةً بأنَّ الشَّرطَ أنْ يكونَ متَّصِفًا بصفة الحَكَم، بأنْ يكونَ لهُ مزيدُ اختصاصٍ ومعرفةٍ بالإصلاحِ بينَ الزَّوجينِ وأنْ يكونا حكمينِ اثنينِ: أحدَهما مِنْ أهلِهِ، والآخرَ مِنْ أهلِها، وحرفُ الجرِّ ﴿مِّنْ﴾ على معنى: التَّبعيض.

نكتة التَّفصيلِ في ذكر الأهل:

مِنْ تَمامِ العَدْلِ والحِكْمَةِ أنْ يكونَ حَكَمٌ مِنْ أَهْلِهِ وحَكَمٌ مِنْ أَهْلِها

وقَدْ جاءَتِ الإضافَةُ مُكَرَّرَةً للطَّرَفَيْنِ ﴿أَهْلِهِۦ﴾ ﴿أَهْلِهَآ﴾، فلَمْ يَقُلْ: "حَكَمَيْنِ مِنْ أَهْلِهِما"، مَعَ أَنَّهُ أَخْصرُ؛ فجاء بطريق التَّفصيل والإطناب؛ لِلإيضاحِ والبيانِ؛ لِأَنَّ المُرادَ أَنْ يَكونَ كُلُّ واحدٍ مِنَ الحَكَمَيْنِ مِنْ أَهْلِ أَحَدِ الزَّوْجَيْنِ، وهذا مِنْ تَمامِ العَدْلِ والحِكْمَةِ[2].

مناسبة اتِّصاف الحكمين بأن يكونا من أهله ومن أهلها:

الأَقارِبُ أَعْرَفُ بِبَواطِنِ الأَحْوالِ، وتَسْكُنُ إِلَيْهِمْ نُفوسُ الزَّوْجَيْنِ أَكْثَرَ مِنْ غَيْرِهِمْ

لَمَّا كانتِ الصِّفةُ قيدًا للموصوفِ دلَّ على اشتراطِ أنْ يكونَ الحَكَمانِ بالوصفينِ المذكورين، وإنَّما كانَ بَعْثُ الحَكَمَيْنِ مِنْ أَهْلِ الزَّوْجَيْنِ؛ لِأَنَّ الأَقارِبَ أَعْرَفُ بِبَواطِنِ الأَحْوالِ، وأَطْلَبُ لِلصَّلاحِ، وتَسْكُنُ إِلَيْهِمْ نُفوسُ الزَّوْجَيْنِ أَكْثَرَ مِنْ غَيْرِهِمْ، ويَبْرُزُ إِلَيْهِمْ ما في ضَمائِرِهِما مِنَ الحُبِّ والبُغْضِ، وإرادَةِ الصُّحْبَةِ والفُرْقَةِ، وموجِباتِ ذلِكَ ومُقْتَضياتِهِ، وما يَزْوِيانِهِ عَنِ الأَجانِبِ ولا يُحِبَّانِ أَنْ يَطَّلِعوا عَلَيْهِ[3].

براعةُ المقابلةِ بين قولِه: ﴿شِقَاقَ بَيْنِهِمَا﴾ وقولِه: ﴿يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ﴾:

الشِّقاقُ شرٌّ والتَّوفيقُ خيرٌ

لَمَّا كانَ الشِّقاقُ بمعنى المُخالفةِ، وفيهِ معنى: الشَّرِّ، وكانَ التَّوْفِيقُ بمعنى المُوافَقَةِ والمطابقةِ بينَ الشَّيئَيْنِ، وهو مُختصٌّ بالخيرِ دونَ

(1) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (حكم)

(2) أبو العَبّاسِ البَسيليُّ، نُكَتٌ وتَنْبيهاتٌ في تَفْسيرِ القُرْآنِ المَجيدِ، تح: مُحَمَّد الطَّبراني، وزارَةُ الأَوْقافِ والشُّؤونِ الإِسْلامِيَّةِ، الدّارُ البَيْضاء، ط: 01، 1429 هـ: 2/163.

(3) الزَّمَخْشري، الكشاف: 2/72، وأبو حيان، البحر المحيط: 3/629.

الشّرّ؛ [1] ناسبَ أنْ يكونَ قولُه تعالى: ﴿يُوَفِّقِ ٱللَّـهُ بَيۡنَهُمَآۗ﴾ مُقابِلًا للشِّقاقِ؛ ليكونَ على سبيلِ الضِّدِّ، ولمَّا كانَ التَّوفيقُ خيرًا كلَّه أسنده اللّه سبحانَه إلى نفسِه.

مناسبةُ ذكرِ الإصلاحِ في الآيةِ:

لمَّا كانَ التَّفريقُ مذمومًا، وكانَ الاهتمامُ بشأنِ الإصلاحِ؛ لأنَّهُ مرغوبٌ فيه، لَمْ يَذْكُرِ اللّهُ تَعالى إلَّا الإصلاحَ في مُهِمَّةِ الحَكَمَيْنِ، ولَمْ يَذْكُرِ التَّفريقَ إشارَةً إلى تنبيهِ الحكمَينِ إلى أنْ يكونا حريصَينِ على الإصلاحِ[2].

تنبيهُ الحَكمَينِ إلى أنْ يكونا حَريصَينِ على الإصلاحِ

براعة التَّعبير بالضَّمير؛ لتكثيرِ المعنى في قوله: ﴿إِن يُرِيدَآ إِصۡلَٰحٗا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيۡنَهُمَآۗ﴾:

يحتملُ الضَّميرُ في قَولِه: ﴿إِن يُرِيدَآ إِصۡلَٰحٗا﴾ أنْ يكونَ لِلْحَكَمَيْنِ، وفي قولِه: ﴿يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيۡنَهُمَآۗ﴾ لِلزَّوْجَيْنِ، والمَعْنى: إنْ قَصَدَ الحَكَمانِ إصْلاحَ ذاتِ البَيْنِ، وكانَتْ نَيَّتُهُما صَحيحَةً؛ يوفِّق اللّه بينَ الزَّوجين[3]، أَوْ أَن يكونَ الضَّميرُ في ﴿يُرِيدَآ﴾ و﴿بَيۡنَهُمَآ﴾ لِلْحَكَمَيْنِ، والمَعْنى: إنْ قَصَدا إصْلاحَ ذاتِ البَيْنِ، والنَّصيحَةَ لِلزَّوْجَيْنِ؛ يُوَفِّقِ اللّهُ بَيْنَهُما، فيَتَّفقا على الكَلِمَةِ الواحِدَةِ، ويَتَساندا في طَلَبِ الوِفاقِ، حَتَّى يَتِمَّ المُرادُ، أَوْ أَن يكونَ الضَّميرُ ﴿يُرِيدَآ﴾ للزَّوْجَيْنِ، و﴿بَيۡنَهُمَآ﴾ لِلْحَكَمَيْنِ، أَيْ: إنْ يُرِدِ الزَّوْجانِ إصْلاحَ ما بَيْنَهُما؛ يوَفِّقِ اللّهُ بَيْنَ الحَكَمَيْنِ اخْتِلافَهُما، حَتَّى يَعْمَلا بِالصَّلاحِ، ويحتمل أن يكون الضميرانِ لِلزَّوْجَيْنِ، أَيْ: إنْ أَرادَ الزَّوجانِ الإصْلاحَ وطَلَبَ الخَيْرِ، وأَنْ يَزولَ عَنْهُما الشِّقاقُ؛ يُلْقِ اللّهُ بَيْنَهُما الأُلْفَةَ، ويُبْدِلْهُما بالشِّقاقِ الوِفاقَ، وبِالبَغْضاءِ المَوَدَّةَ، وذهبَ أبو البقاء إلى أنَّ الضَّميرَ في:

عُمومُ النَّفعِ بِصلاحِ المَقاصِدِ والنِّياتِ، وأَثَرُهُ في صَلاحِ الحالِ

(1) الراغب، المفردات/878، والرازي، مفاتيح الغيب: 10/75.
(2) الزحيلي، التَّفْسيرُ المُنير: 5/61.
(3) القاسِميُّ، مَحاسِنُ التَّأْويل: 3/100.

﴿بَيۡنِهِمَا﴾ عائدٌ على الزَّوجين فقط، سواءٌ قيل بأنَّ ضميرَ ﴿يُرِيدَآ﴾ عائدٌ على الحَكَمينِ أم الزَّوجَين[1]، فإذا كانَ الضَّميرُ الأوَّلُ عائدًا إلى الحكمين، والضَّميرُ الثَّاني إلى الزَّوجينِ؛ كانَ التَّعبيرُ من بديعِ الاستخدام.

وفيهِ تَنْبيهٌ إلى أَنَّ مَنْ أَصْلَحَ نيَّتَهُ فيما يَتَحرَّاه؛ أَصْلَحَ اللّٰهُ تَعالى مُبْتَغاه[2]، وعلى قَوْلِ مَنْ قالَ: إنَّ المُخاطَبينَ بهذا هُمُ الحُكَّامُ، فإنَّ في الآيَةِ تَلْوينًا وتَنْويعًا لِلْخِطابِ؛ لِأَنَّ تَوْجيهَهُ إلى الحُكَّامِ واردٌ، ويَكونُ ذَلِكَ في حالِ المُخاصَمَةِ والمُرافَعَةِ إِلَيْهِمْ[3].

حسنُ التَّذييلِ في قولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا﴾:

أوّلاً: دلَّ مجيءُ الجملةِ الاسميَّةِ على ثبوتِ اتِّصافِ اللّٰهِ بهذينِ الوصفينِ الجليلينِ.

ثانيًا: أفادَ مجيءُ ﴿إِنَّ﴾ تأكيدَ اتِّصافِ اللّٰهِ بكونِه عليمًا خبيرًا.

ثالثًا: كما أفادتْ ﴿إِنَّ﴾ تعليلَ جميعِ ما تقدَّمها في الآيةِ؛ لتفيدَ تعليلَ طلبِ الحَكَمينِ والإصلاحِ بينَ الزَّوجين.

رابعًا: دلَّ قولُه تعالى: ﴿كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا﴾ على استمرارِ اتِّصافِ اللّٰهِ بهذينِ الوصفينِ الجليلينِ، وظهورِ آثارِهما في الواقعِ.

خامسًا: أفادتْ جملةُ التَّذييلِ التَّهديدَ والوعيدَ لِلْحَكَمَيْنِ؛ إذا ما سَلَكا طَريقًا يُخالِفُ الحَقَّ والعَدْلَ، فَهوَ عَليمٌ بِظَواهِرِ الأُمورِ وبَواطِنِها، خَبيرٌ بِأَحوالِ النُّفوسِ وطُرُقِ عِلاجِها، لا يخفى عليهِ شيءٌ مِنْ تَصرُّفاتِ النَّاسِ وأَعمالِهِمْ، وسيُحاسِبُهُمْ عليها.[4]

سادسًا: ناسبَ ذكرُ الوصفين ﴿عَلِيمًا خَبِيرًا﴾ ما ذَكَرَ مِنْ إرادَةِ الإِصْلاحِ[5]، فَهوَ يعلَمُ كيفَ يُوَفِّقُ بينَ المختلفَينِ، ويجمعُ بينَ المُفترقَيْنِ.[6]

سابعًا: لَمَّا كانتْ جملةُ التَّذييلِ على معنى: العمومِ والكلِّيَّةِ في معناها، لِثبوتِ الأوصافِ الجليلةِ للّٰهِ تعالى ودوامِ الاتِّصافِ بها؛ كانتْ بمنزلةِ المَثَلِ في حكايتِها والتَّمثيلِ بها.

---

(1) العكبري، التبيان في إعراب القرآن: 1/355، والنَّسَفيُّ، تَفْسيرُ النَّسَفيِّ: 1/356، والسمين الحلبي، الدر المصون: 3/674.

(2) الشِّرْبينيُّ، السِّراجُ المُنيرِ، مَطْبَعَةُ بولاق، القاهِرَةُ، د. ط، 1285 هـ: 1/301، والثَّعالِبيُّ، الجَواهِرُ الحِسان: 2/232.

(3) أبو السّعود، إرشادُ العَقْلِ السّليم: 1/693.

(4) طنطاوي، التَّفْسيرُ الوَسيط: 1/143.

(5) الثَّعالِبيُّ، الجَواهِرُ الحِسان: 2/232.

(6) الزّمَخْشري، الكشاف: 2/73.

الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الخَوْف والخَشْيَة:

الخَوْفُ: انْفِعالٌ في النَّفْسِ يَحْدُثُ عِنْدَ تَوَقُّعِ حُلولِ مَكْروهٍ، أَوْ فواتِ مَحْبوبٍ[1] عَنْ أَمارَةٍ مَظْنونَةٍ، أَوْ مَعْلومَةٍ[2]، وفي التَّنْزيلِ: ﴿فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ﴾ [الأَحْزابُ: 19]، والخَشْيَةُ: خَوْفٌ يَشوبُهُ تَعْظيمُ المَخْشيِّ، مَعَ المَعْرِفَةِ بِهِ[3]، كما أَنَّ الخَوْفَ يتَعَلَّقُ في الغالِبِ بِالمَكْروهِ نَفْسِهِ، أَمَّا الخَشْيَةُ؛ فتتَعَلَّق بِمَنْزِلةِ المَكْروهِ[4]، ولِهَذا جاءَ التَّفْريقُ بَيْنَهُما بِحَسَبِ هذا المَعْنى في قَوْلِهِ تَعالى: ﴿وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢١﴾﴾ [الرَّعْدُ: 21]، فالخَشْيَةُ: تَكونُ مِنْ عِظَمِ المُخْتَشَى، وإِنْ كانَ الخاشي قَويًّا، والخَوْفُ: يَكونُ مِنْ ضَعْفِ الخائِفِ، وإِنْ كانَ المَخوفُ أَمْرًا يَسيرًا، ولِذا وَرَدَتِ الخَشْيَةُ غالِبًا في حَقِّ اللّه تَعالَى، نَحْو: ﴿مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ [البَقَرَة: 74]، وقوله: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَـٰٓؤُا۟﴾ [فاطِرٌ: 28][5]

وَعلَيْهِ تَكونُ الخَشْيَةُ أَخَصَّ مِنَ الخَوْفِ، فهيَ خَوْفٌ مَقْرونٌ بِمَعْرِفَةٍ وتَعْظيمٍ[6]، وفي لطائف الإشارات: "الخوف من شرط الإيمان، ﴿وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾﴾ [آل عمران: 175]، والخشية من شرط العلم: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَـٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: 28][7]".

الحَكَم والحاكِم:

الحاكِمُ: مَنْ يَحْكُمُ بَيْنَ النَّاسِ، قالَ اللّه تَعالى: ﴿وَتُدْلُوا۟ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ﴾ [البَقَرَةُ: 188]، والحَكَمُ: المُتَخَصِّصُ بِذَلِكَ، فهوَ أَبْلَغُ، قال اللّه تَعالى: ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا﴾ [الأَنْعامُ: 114][8]، فالفَرْقُ بَيْنَ الحاكِمِ والحَكَمِ أَنَّ الحَكَمَ يَقْتَضي أَنَّهُ أَهْلٌ أَنْ يُتَحاكَمَ إِلَيْهِ، والحاكِمُ الَّذي مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يَحْكُمَ، فالصِّفَةُ بِالحَكَمِ أَمْدَحُ، وذَلِكَ أَنَّ صِفَةَ حاكِمٍ جارِيَةٌ عَلى الفِعْلِ، فقَدْ يَحْكُمُ الحاكِمُ بِغَيْرِ الصَّوابِ؛ أَمَّا مَنْ يَسْتَحِقُّ الصِّفَةَ بِالحَكَمِ؛ فلا يَحْكُمُ إِلَّا

(1) الجُرْجانيُّ، التَّعْريفاتُ، ص: 101، والأحمد نكري، جامِعُ العُلومِ في اصْطِلاحاتِ الفُنون: 2/66.
(2) الراغب، المفردات: (خوف).
(3) السُّيوطيُّ، مُعْجَمُ مَقاليدِ العُلومِ في الحُدودِ والرُّسومِ، ص: 204، والمَناويُّ، التوقيف على مهمّات التّعاريف، ص: 155.
(4) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 241.
(5) السُّيوطيُّ، الإِتْقانُ في عُلومِ القُرْآن: 2/364.
(6) ابْنُ قَيِّمِ الجَوْزِيَّةِ، مَدارِجُ السّالِكين: 1/508.
(7) القول للدَّقاق شيخ القشيريّ، الرّسالة القشيريّة، ص: 65، عن القشيريّ، لطائف الإشارات: 3/455.
(8) الراغب، المفردات: (حَكَمَ)، والسَّمينُ الحَلَبيُّ، عُمْدَةُ الحُفّاظ: (حكم).

بِالصَّوابِ؛ لِأَنَّها صِفَةُ تَعْظِيمٍ ومَدْحٍ[1]، ونقل الرَّازيُّ عن الواحديِّ قوله: "الحَكَمُ وَالْحَاكِمُ وَاحِدٌ عِنْدَ أَهْلِ اللُّغَةِ غَيْرَ أَنَّ بَعْضَ أَهْلِ التَّأْوِيلِ قَالَ: الْحَكَمُ أَكْمَلُ مِنَ الْحَاكِمِ؛ لِأَنَّ الْحَاكِمَ كُلُّ مَنْ يَحْكُمُ، وَأَمَّا الْحَكَمُ؛ فَهُوَ الَّذِي لَا يَحْكُمُ إِلَّا بِالْحَقِّ، وَالْمَعْنَى: أَنَّهُ تَعَالَى حَكَمٌ حَقٌّ، لَا يَحْكُمُ إِلَّا بِالْحَقِّ، فَلَمَّا أَظْهَرَ الْمُعْجِزَ الْوَاحِدَ، وَهُوَ الْقُرْآنُ، فَقَدْ حَكَمَ بِصِحَّةِ هَذِهِ النُّبُوَّةِ، وَلَا مَرْتَبَةَ فَوْقَ حُكْمِهِ، فَوَجَبَ الْقَطْعُ بِصِحَّةِ هَذِهِ النُّبُوَّةِ"[2]، وقال القرطبيُّ: وقد يكون الحكم والحاكم في اللُّغة واحدًا، وكأنَّهم يريدون الكاهن وما أشبهه، من حكَّام الجاهليَّة، فيكون المراد بالحكم الشِّيوع والجنس، إذ لا يراد به حاكم بعينه"[3]، وقيل: "الفرق بين الحكم والحاكم: أنَّ الحَكم: هو الَّذي يكون أهلًا للحكم، فلا يحكم إلَّا بحقٍّ، والحاكم: قد يكون من غير أهله، فيحكم بغير حقٍّ، فصار الحكم من صفات ذاته، والحاكم من صفات فعله، فكان الحكم أبلغ في المدح من الحاكم"[4].

(1) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 190.

(2) الرازي، مفاتيح الغيب: 13/124.

(3) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 6/216.

(4) الماورديّ، النّكت والعيون: 2/159.

﴿۞وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗا وَبِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡجَارِ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡجَارِ ٱلۡجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلۡجَنۢبِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخۡتَالٗا فَخُورًا ٣٦﴾ [النِّساءُ: 36]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الأَمْرُ بِالإِحْسانِ لِعُمومِ النَّاسِ بَعْدَ تَخْصيصِ الزَّوْجاتِ بذلك

لَمَّا كانَ الكَلامُ عَنِ الإِرْشادِ إِلَى كَيْفيَّةِ مُعامَلَةِ النِّساءِ، والإِحْسانِ إِلَيْهِنَّ في كُلِّ الأَحْوالِ؛ ناسَبَ بَعْدَها التَّذْكيرُ بِحُسْنِ مُعامَلَةِ الخالق بالإِخْلاصِ لَهُ في الطَّاعَةِ، وثَنَّى بالإِحْسانِ إِلَى الوالِدَيْنِ، وأَنَّ المُؤْمِنَ لا يَكْتَفي مِنَ التَّكاليفِ الإِحْسانيَّةِ بِما يَتَعَلَّقُ بِزَوْجَتِهِ فقَطْ، بَلْ عَلَيْهِ غَيْرُها مِنْ بِرِّ الوالِدَيْنِ وغَيْرِهِما، وافْتَتَحَ التَّوَصُّلَ إِلَى ذَلِكَ بِالأَمْرِ بِإِفْرادِ اللهِ تَعالَى بِالعِبادَةِ؛ إِذْ هيَ المَبْدَأُ الأَوَّلُ الَّذي تَتَرَتَّبُ الأَعْمالُ الصَّالِحَةُ عَلَيْهِ[1]، فقال: ﴿۞وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾، فأَرْشَدَ إِلى العِبادَةِ الخالِصَةِ الَّتي هيَ الإِحْسانُ في العلاقة بالخالِقِ، ثُمَّ أمر بِالإِحْسانِ في مُعامَلَةِ الخَلائِقِ، بِصنوفِ الأَخْلاقِ الحِسان، وبذل ما لا بدَّ منه من عوارف الإحسان، فجاءَتْ هَذِهِ الآيَةُ تحثُّ عَلى ألوان البرِّ والملاطفة، للأقارب الأدنين، والأباعد من الجنسين[2].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَٱلۡجَارِ ٱلۡجُنُبِ﴾: أَيِ: الغَريبِ الَّذي جاوَرَكَ مِنْ قَوْمٍ آخَرينَ[3]، وأَصْلُ الجِوارِ: المَيْلُ[4]، وسُمِّيَ الجارُ: جارًا؛ لِمَيْلِهِ إلى جارِهِ[5]، وسُمِّيَ

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 3/631.
(2) البِقاعيُّ، نَظْمُ الدُّرَر: 5/275، وابنُ عادِلٍ الحَنْبليُّ، اللُّبابُ في عُلومِ الكِتاب: 6/369، (بتصرّف).
(3) الرازي، مُخْتارُ الصِّحاحِ، تح: يوسُف محمَّد، المَكْتَبَةُ العَصْريَّةُ، بَيْروتُ، صَيْدا، ط05، 1420هـ، ص: 62.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (جَوَرَ).
(5) ابْنُ الهائِمِ، التِّبْيانُ في تَفْسيرِ غَريبِ القُرْآنِ، ص: 138.

جُنُبًا لِبُعْدِهِ؛ إِذِ الأَصْلُ في (تَجانَبَ): تَباعَدَ[1]، والمَعْنى هُنا: الجارُ الغَريبُ الَّذي لَيْسَ بَيْنَهُ وبَيْنَ جارِهِ صِلَةُ قَرابَةٍ[2]، والجار الجنب: هو الَّذي يبعد منك، لا قرابة بينك وبينه، و"﴿ٱلْجُنُبِ﴾ البعد، ومنه اجتنب فلان فلانًا إذا بعد منه، ومنه قيل للجنب: جنب لبعده من الطُّهر والصَّلاة حتَّى يغتسل، ومنه قيل: رجل أجنبيٌّ، أي: بعيد غريب، فمعنى ذلك: والجار المجانب للقرابة، أي: البعيد منها"[3].

2) ﴿وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ﴾: أَي: المُلازِم لِلمَرْءِ، وهوَ: المَرْأَةُ أَوِ الرَّفيقُ في السَّفَرِ[4]، وأَصْلُ صَحِبَ: يَدُلُّ عَلَى مُقارَنَةِ شَيْءٍ ومُقارَبَتِهِ[5]، والمَعنى هُنا: المُنْقَطِعُ إِلى الرَّجُلِ الَّذي يُلازِمُهُ رَجاءَ نَفْعِهِ[6]، و"فيه ثلاثة أقوال: أحدها: أنَّه الرَّفيق في السَّفر، وهو قول ابن عبَّاس، ومجاهد، وقتادة، والثَّاني: أنَّها زوجة الرَّجل الَّتي تكون في جنبه، وهو قول ابن مسعود، والثَّالث: أنَّه الَّذي يلزمك، ويصحبك؛ رجاء نفعك، وهو قول ابن زيد"[7]، وقيل: "والصَّاحب بالجنب، أي: الرَّفيقِ في أمر حسنٍ، كتعلُّم وتصرُّف، وصناعةٍ وسفرٍ، فإنَّه صحِبَك، وحصل بجانبك، ومنهم من قعد بجنبك في مسجد أو مجلسٍ أو غيرِ ذلك، من أدنى صحبةٍ التَأَمَتْ بينك وبينه، وقيل: هي المرأةُ"[8].

3) ﴿وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾: هو المُسافِرُ البَعيدُ عَنْ مَنْزِلِهِ، والضَّيْفُ[9]، والسَّبيلُ: هوَ الطَّريقُ، سُمِّيَ بِذَلِكَ لِامْتِدادِهِ[10]، والمعنى هُنا: المُسافِرُ والضَّيْفُ المُنْقَطِعُ بِالسَّبيل، وإِنْ كانَ لَهُ مالٌ في بَلَدِهِ، قَالَ الشَّافِعِيُّ (رَحِمَهُ اللّه): ابْنُ السَّبِيلِ الْمُسْتَحِقُّ لِلصَّدَقَةِ، وَهُوَ الَّذِي يُرِيدُ السَّفَرَ فِي غَيْرِ مَعْصِيَةٍ، فَيَعْجِزُ عَنْ بُلُوغِ سَفَرِهِ إِلَّا بِمَعُونَةٍ[11]، وقيل: ابن السَّبيل اسم جامع

(1) أَبو بَكْرٍ الأَنْباريُّ، الزّاهِرُ في مَعاني كَلِماتِ النّاسِ: 1/429.
(2) أَبو بَكْرٍ السِّجِستانيُّ، غَريبُ القُرْآنِ، تح: مُحَمَّد أديب جمران، دار قُتَيْبَةَ، سوريا، ط: 1، 1416هـ، ص: 173، وابْنُ الهائِمِ، التِّبْيانُ في تَفْسيرِ غَريبِ القُرْآنِ، ص: 138.
(3) مكيّ بن أبي طالب، الهداية إلى بلوغ النّهاية: 2/1321.
(4) ابْنُ الهائِمِ، التِّبْيانُ في تَفْسيرِ غَريبِ القُرْآنِ، ص: 138.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (صَحَبَ).
(6) ابْنُ جَريرٍ، جامع البيان: 7/15.
(7) الماورديّ، النّكت والعيون: 1/485.
(8) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 2/176.
(9) ابْنُ الجَوْزيِّ، تَذْكِرَة الأَريبِ، ص: 141.
(10) الرازي، مفاتيح الغيب: 16/87.
(11) الرازي، مفاتيح الغيب: 16/87.

جعل للمسافر[1]، وسمِّي: "ابن السَّبيل، كما قيل لطائر يلازم الماء: ابن ماء، ولمن مرَّت عليه دهور: ابن اللَّيالي والأيَّام، وقيل: سمِّي ابن سبيل؛ لأنَّ السَّبيل تبرزه، شُبِّه إبرازها له بالولادة، فأطلقت عليه البنوَّة مجازًا"[2].

4) ﴿مُخْتَالًا﴾: ذو الخُيَلاءِ والكِبْرِ، والمزْهُوُّ المُعْجَبُ بِنَفْسِهِ[3]، فالخُيَلاءُ: الكِبْرُ والعُجْبُ[4]، والمُخْتالُ: مِنْ خالَ الرَّجُلُ، فهوَ خائِلٌ ومُخْتالٌ[5]، وأَصْلُ (خَيَلَ): يَدُلُّ عَلَى حَرَكَةٍ في تَلَوُّنٍ؛ لِأَنَّ المُخْتالَ في مِشْيَتِهِ يَتَلَوَّنُ في حَرَكَتِهِ أَلوانًا[6]، والمَعْنى هُنا: مُتَكَبِّرٌ يَسْتَنْكِفُ عَنْ أَقارِبِهِ وجِيرانِهِ وأَصْحابِهِ[7]، يعني بقوله جلَّ ثناؤه: ﴿مَن كَانَ مُخْتَالًا﴾: إنَّ الله لا يحبُّ من كان ذا خُيَلاء، و(المختال): المُفْتَعِلُ، من قولك: خَالَ الرَّجُلُ، فهُوَ يَخُولُ خَوْلًا وخَالًا"[8]، وقيل: "المُختال: الصَّلِفُ التيَّاه الجهولُ، وإنَّما ذُكر الاختيالُ في هذه القصَّة؛ لأنَّ المختال يأنف من ذوي قرابَاتِه؛ إذا كانوا فقراءَ، ومن جيرانه؛ إذا كانوا كذلك، فلا يُحْسِنُ عِشْرتَهم"[9].

5) ﴿فَخُورًا﴾: من الفَخْرِ، وهو المُباهاةُ في الأَشْياءِ الخارِجَةِ عَنِ الإِنْسانِ كالمالِ والجاهِ[10]، والتَّفَخُّرُ: التَّعظُّمُ والتَّكبُّرُ، والتَّمَدُّحُ بالخِصال، وعَدُّ القَديمِ مِنَ الفِعالِ[11]، وأَصْلُ فخَرَ: يَدُلُّ عَلَى عِظَمٍ وقِدَمٍ[12]، والمعْنى هنا: كَثير الافْتِخارِ عَلَى النَّاسِ بِمَناقِبِهِ، يُعدِّدُها كِبْرًا وتَطاوُلًا[13]، وعَنِ الْحَسَنِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله: " ثَلاثٌ مِنْ أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ لا يَدَعُهُنَّ النَّاسُ: الْفَخْرُ فِي الأَحْسَابِ، وَالطَّعْنُ فِي الأَنْسَابِ، وَالاسْتِسْقَاءُ بِالأَنْوَاءِ"[14].

---

(1) الخازن، لباب التّأويل في معاني التّنزيل: 1/106.
(2) الخازن، لباب التّأويل في معاني التّنزيل: 1/106.
(3) ابْنُ سيده، المُخَصَّص: 3/400.
(4) ابْنُ الأَثِيرِ، النِّهايَةُ في غَريبِ الحَديثِ والأَثَر: 2/93.
(5) الجَوْهَريُّ، الصِّحاح: (خَيَلَ).
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (خَيَلَ).
(7) الكفوي، الكُلّيّاتُ، ص: 885.
(8) ابن جرير، جامع البيان: 8/349.
(9) الزّجاج، معاني القرآن وإعرابه: 2/51.
(10) الراغب، المفردات: (فَخَرَ).
(11) الجَوْهَريُّ، الصِّحاح: (فَخَرَ)، وابن سيده، المحكم: (فَخَرَ).
(12) ابن فارس، مقاييس اللغة: (فَخَرَ).
(13) ابْنُ الهائِمِ، التِّبْيانُ في تَفْسِيرِ غَريبِ القُرْآنِ، ص: 139، ومُحَمَّد الخَضيري، السِّراجُ في بَيانِ غَريبِ القُرْآنِ، ص: 32.
(14) يحيى بن سلّام، تفسير يحيى بن سلّام: 1/486، وص: 32.

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

مِـنَ الإِحْـسـانِ مُعامَلَةُ الخالِقِ بـالـعـبـوديَّـة، ومُـعـامَـلَـةُ المَـخْـلـوقـات بالإنسانيَّة

تؤكِّد الآية على عبادة الله وحْدَهُ بالانْقيادِ لَهُ، ولا تَعْبُدوا مَعَهُ سِواهُ، وأَحْسنوا إلى الوالِدَيْنِ بإِكْرامِهما وبِرِّهما، وأَحْسنوا إلى الأَقارِبِ واليَتامى والفُقَراءِ، وأَحْسنوا إلى الجارِ القريب، والجارِ الغريب، وأَحْسِنوا إلى الصَّاحِبِ المُرافِقِ لَكُمْ من زوجة مرافقة في الحياة، أو أيِّ مصاحب في الأعمال والأسفار وأداء الواجبات، وأَحْسِنوا إلى المُسافِرِ الغَريبِ الَّذي انْقَطَعَتْ بِهِ السُّبُلُ، وإلى المَماليكِ مِنْ فِتْيانِكُمْ وفَتَياتِكُمْ، إنَّ اللهَ لا يُحِبُّ مَنْ كانَ مُعْجَبًا بِنَفْسِهِ، مُتَعاليًا على النَّاسِ، كَثيرَ التَّمَدُّحِ لنَفْسِهِ[1]، مُبالغًا في المفاخرة، ومُوغلًا في المكاثرة.

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

مناسبةُ الجمعِ بين الأمر والنَّهي في قوله: ﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ﴾:

الأَمْرُ بالعِبادَةِ والنَّهْيُ عَنِ الشِّرْكِ بِطَريقٍ يُشْبِهُ القَصْرَ لتَرْسيخِ التَّوْحيدِ وتَجْديدِ مَعْناهُ في نُفوسِ المُسْلِمينَ.

فلمَّا كانَ الخِطابُ لِلْمُؤْمِنينَ، وكانَ الغرضُ تجديدَ العبادة ودوامَها والثَّبات عليها؛ قَدَّمَ الأَمْرَ بعبادةِ اللهِ عَلَى النَّهْيِ عَنِ الإِشْراكِ به سبحانَه، فهو بمنزلةِ الأمرِ بالإخلاصِ في العبادة؛ لِأَنَّ مَنْ عَبَدَ مَعَ اللهِ غَيْرَهُ كَانَ مُشْرِكًا، وَلَا يَكُونُ مُخْلِصًا.

نكتةُ العدولِ من الإيجاز إلى الإطناب في قولِ تعالى: ﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ﴾:

مَجْموعُ الجُمْلَتَيْنِ في قُوَّةِ صِيغَةِ القَصْرِ؛ لاشتمالهما على مَعْنى إِثْباتٍ ونَفْيٍ، كَأَنَّهُ قيلَ: لا تَعْبُدوا إِلَّا اللهَ، وعَدَلَ هُنا عَنِ أُسْلوبِ

(1) لَجْنَةٌ مِنْ عُلَماءِ الأَزْهَرِ، المُنْتَخَبُ في تَفْسيرِ القُرآنِ الكَريمِ، ص: 114، ونُخْبَةٌ مِنْ أَساتِذَةِ التَّفْسيرِ، التَّفْسيرُ المُيَسَّرُ، ص: 84، وجَماعَةٌ مِنْ عُلَماءِ التَّفْسيرِ، المُخْتَصَرُ في تَفْسيرِ القُرآنِ الكَريمِ، ص: 84.

القَصْرِ إلى الإطنابِ؛ لِأَنَّ المَقامَ مقامُ خِطابٍ لِأَهْلِ الإيمانِ، فالغَرَضُ الأَوَّلُ: هوَ طلبُ تجديدِ العبادةِ وتوثيقِها والاستزادةِ منها، ثُمَّ قصدَ بَعْدَ ذَلِكَ إفرادَه حينَ لا يشركون معه في التَّذلُّل شيئًا، أي: نَفيَ الحُكْم عَمَّا عَدا المُثْبَتَ لَهُ، كما أنَّه بسببِ مقامِ الإطنابِ أفاد حصول الأَمرِ بالعبادة، والنَّهي عن الإشراكِ مرَّتين، بالمطابقة وباللُّزوم، ففيه معنى: التَّأكيدِ والتَّقرير، فإنَّه يلزمُ من الأمر بعبادةِ اللّه النَّهيُ عن الإشراكِ به، كما يلزمُ من النَّهي عن الإشراكِ باللّه الأمرُ بعبادته، وإذا جِيْءَ بالقَصْرِ؛ كانَ المَقْصدُ الأَوَّلُ هوَ نَفْيَ الحُكْم عَمَّا عَدا المَذْكورَ، وذَلِكَ على خلافِ مُقْتَضَى المقامِ هُنا، ولِأَجْلِ ذَلِكَ لَمَّا خُوطِبَ بَنو إسْرائيلَ بِنَظيرِ هَذِهِ الآيَةِ خُوطِبوا بِطَريقَةِ القَصْرِ في قَوْلِهِ: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [البَقَرَة: 83] الآيَةَ؛ لِأَنَّ المَقْصودَ الأَوَّلَ إيقاظُهُمْ إلَى إبْطالِ عِبادَةِ غَيْرِ اللّه؛ لِأَنَّهُمْ قالوا لِموسَى: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾، ولِأَنَّهُمْ عَبَدوا العِجْلَ في مُدَّةِ مُناجاةِ موسَى رَبَّهُ، فأَخَذَ عَلَيْهِمُ الميثاقَ بِالنَّهْيِ عَنْ عِبادَةِ غَيْرِ اللّه[1].

الأمـرُ بتجديدِ عبـادةِ اللـه والاسـتـزادةِ منها، والنَّهي عـنِ الإشـراكِ باللّه مطلقًا

براعةُ التَّرتيب في المعاطيف في الآية:

لَمَّا أمر اللّه بعبادته، والنَّهي عن الإشراكِ به، فصارَ المأمورُ بذلك مخلِصًا في عبادته؛ أمرَه بالإحسانِ في خلافته، وبدأ بأولى النَّاس بذلك، وهو مَنْ جعلَه سببًا لإيجاده، فقالَ مشيرًا إلى أنَّه لا يرضى له مِنْ ذلك إلَّا درجةَ الإحسانِ: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾، ثمَّ ذكرَ أهلَ الصِّلةِ، وبدأ بقولِه: ﴿وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾؛ لتأكُّدِ حقِّهم بمزيدِ قربِهم، ثمَّ أتبعَ ذلكَ مَنْ تجبُ مراعاتُهُ للّه، أو لمعنى: تفسُدُ بالإخلالِ به ذاتَ البَيْنِ، وبدأ بما للّه؛ لأنَّه إذا صحَّ؛ تَبِعَهُ غيرُهُ، فقال: ﴿وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾، أي: لأنَّ له حقَّين: ﴿وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ﴾، أي: الجارِ الَّذي لا

الـوالـدانِ أولـى الـنَّـاسِ بالإحسانِ

(1) البسيلي، نكت وتنبيهات: 2/163، وابنُ عاشور، التّحرير والتّنْوير: 5/48.

قرابةَ لهُ، ثمَّ قال: ﴿وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ﴾، فذكرَ الرَّفيقَ والصَّاحبِ بالجنبِ ممَّنْ له مخالطةٌ في أمرٍ من الأمورِ الموجِبَةِ لامتدادِ العشرةِ، ثمَّ ذكرَ الغريبَ الَّذي لا معرفةَ لكَ بهِ، فقالَ: ﴿وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾، أي: المسافر لِغربتِهِ وقلَّةِ ناصره ووحشتِهِ، ثمَّ قال: ﴿وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾، أي: من العبيدِ والإماءِ وغيرِهما كذلكَ، فإنَّ الإحسانَ إليهم طاعةٌ عظيمةٌ[1].

مناسبةُ التَّنكيرِ في سياقِ النَّهيِ في قوله: ﴿وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾:

النَّهيُ عَن الشِّرْكِ مِنْ كُلِّ نَواحيهِ وبِشَتَّى طُرُقِهِ

لَمَّا كانَ ﴿شَيْـًٔا﴾ نكرةً في سياق النَّهي؛ دلَّ على العموم، والمعنى يتنوَّع على وفق دلالة ﴿شَيْـًٔا﴾ في السِّياق، فإذا كان منصوبًا عَلَى المَفْعوليَّةِ لِـ ﴿تُشْرِكُواْ﴾، فالمعنى على النَّهي عن الإشراك باللّه أيَّ أحدٍ ممَّا يعبَدُ صَغيرًا كانَ أَوْ كَبيرًا، عَظيمًا أَوْ حَقيرًا، مِنْ غَيْرِ فرْقٍ بَيْنَ حَيٍّ ومَيِّتٍ وجَمادٍ وحَيَوانٍ، فيتناول كلَّ ما يطلقُ عليه شيء: الَّذي هو من الألفاظ الَّتي تجري على كلِّ الذَّوات، لا يغادر منها شيءٌ، فيَكونُ بِهذا المَعْنى كَقَوْلِهِ: ﴿وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ۝٢﴾ [الجنّ: 2]، وإذا كانَ منصوبًا عَلى المَصْدَريَّةِ لِلتَّأْكيدِ؛ فالمعنى: لاتشركوا أَيَّ شَيْءٍ مِنَ الإِشْراكِ خَفِيًّا كانَ أَوْ جَلِيًّا، مِنْ غَيْرِ فرْقٍ بَيْنَ شِرْكٍ أَكْبَرَ وأَصْغَرَ[2].

بلاغة التَّعبير في قوله: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾:

الاهتِمامُ بِشَأْنِ الوالِدَيْنِ وتَعْظيمُ بِرِّهِما

أفادت الجملة الأمر عن طريق المصدر النَّائب عن فعل الأمر، وقدَّره بعضهم بـ (وأحسنوا إلى الوالدين إحسانًا)، ولو جاء على هذا النَّظم؛ لم يدلَّ على الأمر بتمام الإحسانِ إليهما، فإنَّ تقديم ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ﴾ - سواءٌ أكانَ عن تأخير في أصلِ وضعه أم أنَّه في أصل وضع العبارة لا يكون إلَّا مقدَّمًا - يفيدُ الاهتمامَ والتَّخصيصَ بمعنى: وَأَحْسِنُوا بِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا تَامًّا لَا تُقَصِّرُوا فِي شَيْءٍ مِنْهُ،

(1) البِقاعيُّ، نَظْمُ الدُّرَر: 5/276 - 277.

(2) البِقاعيُّ، نَظْمُ الدُّرَر: 5/276، والقونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 7/154.

فيكونُ الإحسانُ إلى الوالدين فيه مزيد اهتمام وتخصيص بأنواعِ الإحسانِ ومراتبه حتَّى يصلَ إلى التَّمام، ولمَّا كان الإحسان يتعدَّى إلى متعلَّقه بـ (الباءِ واللَّام وإلى)؛ إذْ يُقَالُ: أَحْسَنَ بِهِ، وَأَحْسَنَ لَهُ، وَأَحْسَنَ إِلَيْهِ، كانت التَّعديةُ بالباء الَّتي للإلصاق أَبْلَغَ؛ لإِشْعَارِهَا بِإِلْصَاقِ الْإِحْسَانِ بِمَنْ يُوَجَّهُ إِلَيْهِ مِنْ غَيْرِ إِشْعَارٍ بِالْفَرْقِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْمُحْسِنِ، وَالتَّعْدِيَةُ بِـ (إِلَى أو باللَّام) تُشْعِرُ بِطَرَفَيْنِ مُتَبَاعِدَيْنِ يَصِلُ الْإِحْسَانُ مِنْ أَحَدِهِمَا إِلَى الْآخَرِ، كما أنَّ الإحسانَ إذا عُدِّيَ بالباءِ دَلَّ على مُعامَلَةِ الذَّاتِ وتَوْقيرِها وإكْرامِها، وهوَ مَعْنَى البرِّ، كَقَوْلِهِ: ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِيٓ إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجْنِ﴾، وإذا أُريدَ بِهِ إيصالُ النَّفْعِ الماليِّ عُدِّيَ بِـ "إلى"، فيُقالُ: أَحْسَنَ إِلَى فُلانٍ، إذا وصَلَهُ بِمالٍ ونَحْوه، والتَّعدية بالباء فيها معنى العطف، ويحتمل أنْ تكونَ التَّعدية بالباء على تضمين الإحسانِ معنى البرِّ؛ ليكونَ من تكثيرِ المعنى، وأفاد تنكير ﴿إِحْسَٰنًا﴾ التَّعظيم.[1]

نكتة تخصيصِ الوالدين في الذِّكرِ من سائر الأقارب:

أقربُ القراباتِ قرابةُ الوالدَيْنِ وبسببِهما تنشأُ سَائِرُ القراباتِ

لَمَّا كانَ الْوَالِدَانِ مِنَ الْأَقَارِبِ -أَيْضًا- أفادَ أنَّ تخصيصَهما في الذِّكرِ وتقديمهما، فيه نكتةٌ، وهي أنَّه لَمَّا كَانَتْ قرابةُ الوالدينِ مَخْصُوصَةً بِكَوْنِهَا أَقْرَبَ الْقَرَابَاتِ، وَكَانَتْ مَخْصُوصَةً بِخَوَاصَّ لَا تَحْصُلُ في غَيْرِهَا، فمنهما تنشأ سائر القراباتِ - لَا جَرَمَ - مَيَّزَهَا اللهُ تَعَالَى في الذِّكْرِ مِنْ سَائِرِ الْأَنْوَاعِ، فَذَكَرَ في هَذِهِ الْآيَةِ قَرَابَةَ الْوالدَينِ، ثُمَّ أَتْبَعَهَا بِقَرَابَةِ الرَّحِمِ[2].

دَلالَةُ التَّعْريفِ بِالإِضافَةِ في: ﴿وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾:

التَّنْويهُ بِشَأْنِ جَميعِ الأَقارِبِ وتَأْكيدُ الإِحْسانِ إِلَيْهِمْ

أتى بـ (ذي) ليشمل جَميعَ الأَقارِبِ، لنكتة الإضافة إلى المصدر، فكلُّ من له صلة القربى داخِلٌ في وُجوبِ الإِحْسانِ لَهُ على الإِطْلاقِ، وفيه اختصار عن تَفْصيلِ ذِكْرِهِمْ وأَنْواعِ قَرابَتِهِمْ، فأفاد الاختصار التَّعميمَ.

(1) ابْنُ التَّمْجيدِ الحَنَفيُّ، حاشيَةُ ابْنِ التَّمْجيدِ على البَيْضاويّ: 7/154، ورشيد رضا، تفسير المنار: 5/68، وابنُ عاشور، التّحْرير والتّنْوير: 5/48.

(2) الرازي، مفاتيح الغيب: 10/76، وأبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 1/695، وابْنُ التَّمْجيدِ الحَنَفيُّ، حاشيَةُ ابْنِ التَّمْجيدِ على البَيْضاويّ: 7/154.

دلالةُ إعادةِ حرفِ الجرِّ في قولِه: ﴿وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾:

تأكيدُ الإحسانِ لذي القربى

يحتمل أنْ تكونَ إعادةُ حرفِ الجرِّ؛ لتأكيدِ الإحسانِ لذي القربى، لِما قد يقعُ من بعضِهم من الاستخفافِ بالقريب؛ لأنَّه قريبُه، فيصرفُ برَّه وإحسانَه إلى الأباعدِ؛ ليستكفيَ شرَّهم، أو ليُذكَرَ بينَ النَّاسِ بالذِّكرِ الحسَنِ، ويحتمل أنْ يكونَ لإفادةِ التَّنويع، فَإِنَّ الْإِحْسَانَ بِالْوَالِدَيْنِ غَيْرُ الْإِحْسَانِ بِالْأَقْرَبِينَ؛ إِذْ يَجِبُ لِلْوَالِدَيْنِ مِنَ الرِّعَايَةِ وَالتَّكْرِيمِ وَالْخُضُوعِ مَا لَا يَجِبُ لِغَيْرِهِمَا، وأيضًا لِلْإِشارَةِ إلى أَنَّ الإِحْسانَ إلى القَرابَةِ مُسْتَقِلٌّ، بمعْنى: أَنَّهُ لوْ فُرِض أَنَّ الرَّجُلَ لَيْس لَهُ والِدانِ، فحَقُّ القَرابَةِ ثابِتٌ، ولَيْسَ مَبْنِيًّا على حَقِّ الوالِدَيْنِ، وتابِعًا لَهُ؛ لِأَنَّ الوالِدَيْنِ قَدْ يَكونانِ ميِّتينِ، فحَقُّ القَرابةِ باقٍ[1].

مناسبةُ تكريرِ الباءِ في هذهِ الآيةِ دونَ آية البقرة:

وقَدْ تَكَرَّرَ حَرْفُ الجَرِّ هنا، ولَمْ يَتَكَرَّرْ في حِكايَةِ وَصِيَّةِ بني إسْرائيلَ: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ [البَقَرَةُ: 83]، للتَّوْكيدِ والمُبالَغَةِ، فبُولِغَ في هَذِهِ الآيَةِ؛ لِأَنَّها في حَقِّ هَذِهِ الأُمَّةِ، ولَمْ يُبالَغْ في حَقِّ تِلْكَ؛ لِأَنَّها في حَقِّ بَني إسْرائيلَ، والاعْتِناءُ بِهَذِهِ الأُمَّةِ أَكْثَرُ مِنَ الاعْتِناءِ بِغَيْرِها؛ إِذْ هيَ خَيْرُ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ، ولِأَنَّ الإِسْلامَ أَكَّدَ أَواصِرَ القَرابَةِ أَكْثَرَ مِنْ غَيْرِهِ[2].

تأكيدُ المناسبة في تقْديمِ اليَتامى على المَساكينِ في قولِه: ﴿وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ﴾:

الأَوْلَوِيَّةُ لليَتامى على المَساكينِ في بابِ الإِحْسانِ

قدَّمَ اللهُ اليَتيمَ على المِسْكينِ؛ لِأَنَّهُ أَضْعَفُ، وبالإِحْسانِ والرِّفْقِ أَوْلى؛ لِأَنَّهُ يَضْعُفُ عَنْ دَفْعِ حاجَتِهِ ورَفْعِها إلى غَيْرِهِ لِصِغَرِ سِنِّهِ[3]، أَمَّا المِسْكينُ؛ فيُمْكِنُهُ أَنْ يَعْرِضَ حالَ نَفْسِهِ على غَيْرِهِ، فيَجلِبَ بِهِ

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 3/631، ورشيد رضا، تفسير المنار: 5/74، وابنُ عاشور، التّحرير والتّنْوير: 5/49.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 3/631، والقِنَّوْجيُّ، فتْحُ البَيانِ في مَقاصِدِ القُرآن: 3/112.
(3) البِقاعيُّ، نَظْمُ الدُّرَر: 5/276.

نَفْعًا، أَوْ يَدْفَعَ بِهِ ضَرَرًا[1]، كَما أَنَّ اليَتيمَ لِانْكِسارِ نَفْسِهِ بِفَقْدِ والِدِهِ أَحْوَجُ مِنَ المِسْكينِ إلى الإِحْسانِ والمعامَلَةِ الرَّقيقَةِ.

دلالةُ المغايرةِ في التَّعبير بين قوله: ﴿وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ وقوله: ﴿وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ﴾:

لَمَّا كان الجارُ الأَجْنَبيُّ الَّذي لا قَرابَةَ بَيْنَهُ وبَيْنَ جارِهِ يَحْتاجُ إلى مَزيدِ عِنايَةٍ؛ حَذَفَ المُضافَ، فلَمْ يَقُلْ: (ذي الجُنُبِ)؛ ليَكونَ وصْفًا عَلَى سَبيلِ المُبالَغَةِ، فجَمَعَتْ هذِهِ الجُمْلَةُ بَيْنَ إِطْنابٍ وإيجازٍ في سياقٍ واحِدٍ، فأذنت بتَعْظيمِ حَقِّ الجارِ، والاِعْتِناءِ بِهِ، والاِهْتِمامِ بِشَأْنِهِ.

دلالة الباء في قوله: ﴿وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ﴾:

تفيد الباء معنى: الملابسة، والكلامُ على الكنايةِ؛ ليشمل كلَّ من له صحبةٌ أو رفقةٌ في أمر حسنٍ كتعلُّمٍ وتصرُّفٍ وصناعةٍ وسفرٍ، فإنَّه صحِبَك، وحصل بجانبِك، ومنهم من قعد بجنبِك في مسجدٍ أو مجلسٍ أو غيرِ ذلك مِنْ أدنى صحبةٍ التَأَمَتْ بينك وبينه.[2]

السِّرُّ في التَّعْبيرِ بِابْنِ السَّبيلِ بَدَلَ الغَريبِ في: ﴿وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾:

التَّلَطُّفُ بِهِ ومُراعاةُ حالِهِ وحاجَتِهِ

فابْنُ السَّبيلِ في الغالِبِ يَكونُ مُحْتاجًا، فإِنْ قُدِّرَ انْتِفاءُ حاجَتِهِ بِغِناهُ، ولَمْ يَكُنْ فقيرًا، فهوَ مُحْتاجٌ إلى مَنْ يَدُلُّهُ على ما فيهِ مَصالِحُهُ لِغُرْبَتِهِ وعَدَمِ مَعْرِفَتِهِ بالْبِلادِ الَّتي نَزَلَ بِها، كإِرْشادِهِ والتَّرَفُّقِ بِهِ وتَلْيينِ القَوْلِ لَهُ وتَأْمينِ رَوْعَتِهِ ومُساعَدَتِهِ في حاجيّاتِهِ، فالإِحْسانُ إِلَيْهِ باقٍ.

بلاغة المجاز في قوله: ﴿وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾:

تَسْميَتُهُ بِابْنِ السَّبيلِ لِمُلازَمَتِهِ الطَّريقَ، مِثْلَ: لُزومِ الوَلَدِ لِوالِدَتِهِ، وهذا مِنَ المَجازِ العَقْليِّ، ووَجْهُهُ وعَلاقَتُهُ مِنْ بابِ تَسْميَةِ الحالِّ باسْمِ المَحَلِّ، وذَلِكَ لِكَوْنِ المُسافِرِ مَوْجودًا في السَّبيلِ[3]، ولَعَلَّ في نِسْبَتِهِ إلى السَّبيلِ بَيانًا لِخِفَّةِ مُؤْنَتِهِ، فهوَ ضارِبٌ في الأَرْضِ، ولَيْسَ

(1) الرازي، مفاتيح الغيب: 10/76.

(2) أبو السّعود، إرشادُ العَقْلِ السّليم: 2/176، والقونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 7/156.

(3) ابْنُ عُثَيمين، تَفْسيرُ ابْنِ عُثَيْمين: 1/311.

قاصِدًا المُكوثَ والتَّطْويلَ في المَوْضِعِ الَّذي نَزَلَ فيهِ، وهَذا مَعْنًى يُنَشِّطُ النُّفوسَ لِخِدْمَتِهِ والعِنايَةِ بِهِ، واللهُ أَعْلَمُ.

السِّرُّ في التَّعْبيرِ بِمُلْكِ اليَمينِ بَدَلَ العَبيدِ والإِماءِ في: ﴿وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾:

بَيانٌ لِضَعْفِ حالِهِم وحَثٌّ على مَزيدِ التَّلَطُّفِ بِهِم:

فإِسْنادُ المُلْكِ إلى اليَمينِ عِنْدَ العَرَبِ مِنَ المَجازِ العَقْليِّ[1]، والغَرَضُ مِنْ هذا المَجازِ تَصْويرُ هذهِ الفِئَةِ مِنَ النَّاسِ بِصورَةِ الأَسيرِ الضَّعيفِ الَّذي لا يَمْلِكُ لِنَفْسِهِ شَيْئًا، بَلْ هوَ مَمْلوكٌ لِغَيْرِهِ، وفي هذا حَثٌّ على التَّلَطُّفِ بِهِم والإِحْسانِ إِلَيْهِمْ.

دلالة (ما) في قوله: ﴿وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾:

جاء بـ (ما) الَّتي لغير العاقل حملًا على الأنواع والأوصاف.[2]

حسنُ التَّذييل في قَوْلِهِ تَعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾:

الإِشْعارُ بِذَمِّ الفَخْرِ والخُيَلاءِ ومَنِ اتَّصَفَ بِهِما

أوّلاً: في جملة التَّذييل تهديدٌ ووعيدٌ لمن يتَّصف بهذين الوصفين القبيحين.[3]

ثانيًا: أفادت ﴿إِنَّ﴾ تأكيد مضمونِ الجملة لرعايةِ الاهتمامِ بمضمونِ الإسناد.

ثالثًا: كما أفادت ﴿إِنَّ﴾ المبادرةَ إلى الامتثال للإحسانِ لجميعِ من تقدَّمها؛ لأنَّها جاءت في مقام التَّعليلِ[4] ببيان أنَّ من لم يمتثلِ إنَّما هو لكونه مُخْتالًا فخورًا، فدلَّ على منافاة الإحسان لِلاختيالِ والتَّفاخُرِ.

رابعًا: دلَّت الجملةُ الاسميَّةُ على ثباتِ مضمونِ الجملةِ ودوامِهِ.

خامسًا: لَمَّا جاءَ الخبرُ فعلًا في قولِه: ﴿لَا يُحِبُّ﴾؛ أفادَ تقويةَ

(1) سَبَقَ التَّعْريفُ بِه.
(2) السمين الحلبي، الدر المصون: 3/676.
(3) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/51.
(4) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 2/176.

الحكم وتأكيدَه؛ ليجتمع معَ تأكيدِ ﴿إِنَّ﴾، ومجيءِ الجملة اسميَّةً، كما دلَّ الإخبارُ بالفعلِ على تجدُّدِ انتفاءِ حبِّه تعالى، كلَّما اتَّصفَ بهما أحدٌ، أو ظهرت آثارُ الاتِّصافِ بينَ النَّاس.

سادسًا: أفادَ النَّفيُ بـ﴿لَا﴾ استمرارَ انتفاءِ حبِّ اللّٰهِ تعالى لِمَنْ يتَّصفُ بهذينِ الوصفينِ.

سابعًا: أفادَ التَّعبير بـ ﴿مَن﴾ المبالغةَ في العمومِ؛ ليشملَ انتفاءَ محبَّةِ اللّٰهِ لكلِّ مَنِ اتَّصفَ بهذينِ الوصفينِ، وإنْ كانَ الاتِّصافُ قليلًا.

ثامنًا: دلَّ التَّعبير بالاسمِ الموصول ﴿مَن﴾ على أنَّ الاتِّصافَ بالاختيالِ والافتخارِ هما سببُ انتفاءِ محبَّةِ اللّٰهِ.

تاسعًا: أفادَ تعبيرُ ﴿كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾ ذمَّ الوصفين وقبحَهما وذمّ الاستمرارِ في الاتِّصاف بهما، وظهور آثارهما في النَّاس.

عاشرًا: جمعَ بينَ وصفينِ هما: ﴿مُخْتَالًا﴾و ﴿فَخُورًا﴾، ولمَّا كانَ المختالُ هو الْمُتَكَبِّرَ الَّذي تمكَّنتْ من نفسِه ملكَةُ الكِبر، وجاء على صيغةِ اسمِ الفاعلِ بمعنى: أنَّه وصفٌ ثابتٌ؛ أشعرَ بأنَّه مذمومٌ في أصلِه وفي الزِّيادةِ عليه، ولمَّا كانَ ﴿فَخُورًا﴾ صيغةَ مبالغةٍ؛ أشعرَ أنَّه مذمومٌ على جهةِ المبالغةِ؛ إذا خرجَ عن حدِّه، أي: بأنْ يتفاخرَ على أقاربِه وعلى النَّاسِ، وأنْ يعدِّدَ مناقبَه كِبرًا، وبما ينافي الإحسانَ المأمورَ به، فإنْ عدَّها اعترافًا كان شكورًا، ولهذا جازَ الفخرُ على سبيلِ التَّحدُّثِ بالنِّعَم[1].

الحادي عشر: تشعرُ جملةُ التَّذييلِ بأنَّ مَنِ اتَّصَفَ بالإحسانِ قد يَجِدُ في نَفْسِهِ زَهْوًا وَخُيَلَاءَ، وَافْتِخَارًا بِمَا صَدَرَ مِنْهُ، فَأَرَادَ تَعَالَى أَنْ يُنَبِّهَ عَلَى التَّحَلِّي بِصِفَةِ التَّوَاضُعِ، وَأَلَّا يختالَ عَلَى مَنْ أَحْسَنَ إِلَيْهِ، وَأَلَّا يَفْخَرَ عَلَيْهِ، أي: وَلَا تَخْتَالُوا، وَتَفْخَرُوا عَلَى مَنْ أَحْسَنْتُمْ إِلَيْهِ[2]، ﴿إِنَّ ٱللَّـهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾.

الثاني عشر: جمعَ بينَ المختالِ والفخورِ مِنْ دونِ عطفٍ، ولمْ يَرِدَا في القرآنِ إلَّا كذلكَ للإشعارِ بمقاربةٍ في معنى الوصفينِ وفي آثارِهما، وبأنَّ الاختيالَ سببٌ في الافتخار.

الثالث عشر: لمَّا كانتْ جملةُ التَّذييلِ على معنى العمومِ والكلِّيَّةِ؛ كانت بمنزلةِ المَثَلِ في حكايتِها والتَّمثيلِ بها.

(1) النسفي، مدارك التنزيل: 1/357، والنيسابوري، غرائب التفسير: 2/402.

(2) أبو حيان، البحر المحيط: 3/634.

الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

العِبادَة والطَّاعَة:

الطَّاعَةُ: هيَ الفِعلُ الواقِعُ عَلى حَسَبِ ما أَرادَهُ المُريدُ، مَتى كانَ المُريدُ أَعلَى رُتْبَةً مِمَّنْ يَفْعَلُ ذَلِك، وتَكونُ لِلْخالِقِ والمَخْلوقِ[1]، ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّـهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ﴾ [النِّساء: 59]، والعِبادَةُ: هيَ تَعْظيمُ اللّهِ تَعالَى بأَمْرِه، بِشَرْطِ النِّيَّةِ ومَعْرِفَةِ المَعْبودِ، ولا تَكونُ إلَّا لِلْخالِقِ، قال تَعالى: ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ٥٦﴾ [الذّاريات: 56]، فالعِبادَةُ حَقُّ اللّهِ وحْدَهُ، أَمَّا الطَّاعَةُ؛ فهيَ مُطْلَقُ امْتِثالِ الأَمْرِ والنَّهْيِ، فالطَّاعَةُ أَمْرُها واسِعٌ[2]، وما ثبت بالتَّواتر أنَّ عيسى - عليه السلام - كان عظيم الرَّغبة في العبادة والطَّاعة لله - تعالى - ولو كان إلهًا؛ لاستحال ذلك؛ لأنَّ الإله لا يَعْبُدُ نفسه"[3]، وَالدِّينُ: الْعِبَادَةُ وَالطَّاعَةُ، وَرَأْسُهَا تَوْحِيدُ اللّه، وَأَنَّهُ لَا شَرِيكَ لَهُ[4]، وهو تعالى "لا معبود بحقٍّ سواه، فهو الإله الحقُّ الَّذي تتعيَّن أن تكون جميع أنواع العبادة والطَّاعة والتَّألُّه له تعالى، لكماله وكمال صفاته وعظيم نعمه"[5].

الإِحْسان والبِرّ:

الإِحْسانُ: إِعْطاءُ الحَسَنَةِ وفِعْلُ الخَيْرِ، قالَ تعالى: ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَـٰنِ﴾ [النَّحل: 90]، وقالَ: ﴿وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ إِحۡسَـٰنًاۖ﴾ [الأَحْقاف: 15]، يقال: رجل حسن، وامرأة حسنة، يقال: صدق فلان وبرَّ، وبرَّت يمينه: صدقت، وأبرَّها: أمضاها على الصِّدق، ومن هذا الباب قولهم: يبرُّ قرابته، وأصله: الصِّدق في المحبَّة، يقال للرَّجل: بارٌّ، وبررت والدي، وبررت في يميني[6]، والبِرُّ: الاتِّساعُ في الإِحْسانِ وفِعْلِ الخَيْرِ[7]، فالبِرُّ: أَعْلى دَرَجَةً مِنَ الإِحْسانِ، قال تَعالى في وصْفِ نَبيِّهِ يَحيى عليه السلام: ﴿وَبَرَّۢا بِوَٰلِدَيۡهِ﴾ [مَريَمَ: 14]، وفي وصْفِ عيسى عليه السلام: ﴿وَبَرَّۢا بِوَٰلِدَتِي﴾ [مَرْيَمَ: 32]، وقوله تعالى: ﴿يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ﴾ [البقرة: 212]، " يَعْنِي: أَنَّ

(1) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 221.
(2) زَكَرِيّا الأَنْصاريُّ، الحُدودُ الأَنيقَةُ والتَّعْريفاتُ الدَّقيقَةُ، ص: 77.
(3) الرازي، مفاتيح الغيب: 8/246.
(4) الشّوكاني، فتح القدير: 4/515.
(5) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن في تفسير كلام المنّان: 1/110.
(6) مناهج جامعة المدينة العالمية، التفسير الموضوعي، ص: 45.
(7) الراغب، المفردات: (بَرَرَ).

أَصْلَ الْإِحْسَانِ وَالْبِرِّ عَامٌّ، فِي حَقِّ كُلِّ الْعِبَادِ، وَذَلِكَ هُوَ الْإِحْسَانُ بِالْحَيَاةِ وَالْعَقْلِ وَالْفَهْمِ، وَإِعْطَاءِ مَا لَا بُدَّ مِنْهُ مِنَ الرِّزْقِ، وَدَفْعِ أَكْثَرِ الْآفَاتِ وَالْبَلِيَّاتِ عَنْهُمْ، فَأَمَّا مَرَاتِبُ الْعَطِيَّةِ وَالْبَهْجَةِ؛ فَمُتَفَاوِتَةٌ مُخْتَلِفَةٌ"[1].

الصَّاحِب والصَّديق:

الصَّاحِبُ: مِنَ الصُّحْبَةِ في الزَّمانِ والمَكانِ، وقَدْ تَكونُ صُحْبَتُهُ مُؤَقَّتَةً في الطَّريقِ، مِثْلَ: العَبْدِ الصَّالِحِ مَع موسى: ﴿قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَٰحِبْنِيۖ﴾ [الكَهْفُ 76]، أَوْ في مَكانٍ، مِثْلَ: يوسُفَ مَعَ صاحِبَيْهِ في السِّجنِ: ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ۝٣٩﴾ [يوسُفُ 39]، وفي الجاهليَّة قال الشَّاعر امرؤ القيس:

بَكَى صَاحِبِي لَمَّا رَأَى الدَّرْبَ دُونَهُ *** وَأَيْقَنَ أَنَّا لاحِقَانِ بِقَيْصَرَا

فَقُلْتُ لَهُ: لا تَبْكِ عَيْنُكَ إِنَّمَا *** نُحَاوِلُ مُلْكًا أَوْ نَمُوتَ فَنُعْذَرَا[2]

وقَدْ تَكونُ الصُّحْبَةُ مُؤَبَّدَةً، مِثْلَ: الوالِدَيْنِ، قال تَعالى: ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِي ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًاۖ﴾ [لُقْمانُ 15]، ومِثْلَ: الزَّوْجَةِ الَّتي تَصْحَبُ الزَّوْجَ طِيْلَةَ عُمُرِه، قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ۝٣٤ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ۝٣٥ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ۝٣٦﴾ [عَبَسَ: 36]، أَمَّا الصَّديقُ؛ فمِنَ الصَّداقَةِ: وهيَ اتِّفاقُ الضَّمائِرِ وصِدْقُ الاعْتِقادِ على المَوَدَّةِ[3]، وفي التَّنْزيلِ جَوازُ الأَكْلِ مِنْ بَيْتِ الصَّديقِ، وَعَدَّهُ مِنَ الأَقارِبِ، قال تَعالى: ﴿أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ أَوْ صَدِيقِكُمْۚ﴾ [النُّورُ 61]، وقالَ تعالى يَصِفُ حالَ المُشْرِكينَ، وهُمْ في النَّارِ يَصْطَرِخُونَ، ويتَحَسَّرُونَ على فَقْدِ الأَصْدِقاءِ: ﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ۝١٠٠ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ۝١٠١﴾ [الشُّعَراءُ 101]، فمُصْطَلَحُ الصَّاحِبِ أَعَمُّ مِنَ الصَّديقِ، والصَّداقَةُ مِنْ دَرجاتِ الصُّحْبَةِ.

الطَّريق والسَّبيل والصِّراط:

الطَّريقُ: هوَ كُلُّ ما يَطْرُقُهُ الطَّارِقُ مِنَ النَّاسِ، مُعْتادًا كانَ أَو غَيْرَ مُعْتادٍ[4]، قال تعالى:

(1) الرازي: مفاتيح الغيب: 8/246.

(2) البيتان لامرئ القيس، من ديوانه، ص: 65، من قصيدته الَّتي رويت عنه حال سفره الطَّويل إلى قيصر الرُّوم، مستنصرًا به بعد قتل أبيه، وصاحبه المذكور، هو عمرو بن قميئة اليشكريُّ، وهو الَّذي صحبه إلى قيصر، والدَّرب المشار إليه، هو الطَّريق ما بين طرسوس وبلاد الرُّوم، والمشهور أنَّ قيصر أهداه حلَّة مسمومة مات لمَّا لبسها، وسمِّي ذا القروح لذلك، ينظر ديوان امرئ القيس، ص: 65، وابن جرير، جامع البيان: 16/540، وهامش التَّحقيق.

(3) الراغب، المفردات: (صَدَقَ)، والعسكري، الفروق اللغوية، ص: 285.

(4) الكفوي، الكُلِّيَّاتُ، ص: 513.

﴿فَٱضۡرِبۡ لَهُمۡ طَرِيقٗا فِي ٱلۡبَحۡرِ يَبَسٗا لَّا تَخَٰفُ دَرَكٗا وَلَا تَخۡشَىٰ ٧٧﴾ [طه: 77]، والطَّريق: كلُّ ما يطرقه طارق، معتادًا كان أو غير معتاد، فهو الطَّريق، "والطَّريق الموصل إلى البلد يسمَّى: عدلًا، وما لا يوصل إليه يسمَّى: جائرًا، والطُّرق: جمع طريق جمع تكسير، وطرقات: جمع طريق جمع سلامة"[1]، أَمَّا السَّبيلُ؛ فهوَ الطَّريقُ السَّهْلُ؛ وأَغْلَبُ ما يَقَعُ في الخَيْرِ، وقَدْ يَقَعُ في الشَّرِّ، كَقَوْلِهِ تَعالى: ﴿وَلِتَسۡتَبِينَ سَبِيلُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ٥٥﴾، [الأنعام: 55]، وأَمَّا الصِّراطُ: فهوَ السَّبيلُ الَّذي لا اعْوِجاجَ فيهِ ولا التِواءَ، فالفَرْقُ بَيْنَ الطَّريقِ والسّبيلِ: أَنَّ الطَّريقَ لا يَقْتَضي السُّهولَةَ واعْتِيادَ السُّلوكِ[2]، أَمّا السَّبيلُ مِنَ الطُّرُقِ؛ فهوَ السَّهْلُ المُعْتادُ، والفَرْقُ بَيْنَ السَّبيلِ والصِّراطِ: أَنَّ الصِّراط لا اعْوِجاجَ فيهِ[3]، قالَ اللّه تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [الأنعام: 161]، فالصِّراطُ أَخَصُّ مِنَ السَّبيلِ، قال تَعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ﴾ [الأنعام: 153]، والسَّبيلُ أَخَصُّ مِنَ الطَّريقِ[4]، وقَدْ يُطْلَقُ كُلٌّ مِنْهما على الآخَرِ تَوَسُّعًا.

الاِخْتيال والفَخْر:

الاِخْتيالُ: مِشْيَةُ البَطَرِ، والفَخْرُ: ذِكْرُ المَناقِبِ لِلتَّطاوُلِ بها على السَّامِعِ، فمادّةُ الاِخْتيالِ أَكْثَرُها يَدورُ على زَهْوِ الحَرَكَةِ؛ لِذا سُمِّيَ الحِصانُ: خَيْلًا؛ لِأَنَّهُ يَخْتالُ في مَشْيِهِ، وعِنْدَما يَرْكَبُهُ الفارسُ يَتَبَخْتَرُ بِهِ، فكَلِمَةُ الخُيَلاءِ مِنْ هَذِهِ، فهي حَرَكَةٌ مَرْئِيَّةٌ، قال تَعالى: ﴿وَلَا تَمۡشِ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًاۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٖ ١٨﴾ [لقمان: 18]، أَمَّا الفَخْرُ؛ فهوَ حَرَكَةٌ مَسْموعَةٌ، وهوَ أَنْ يَتَعاظَمَ الإِنْسانُ بِكَلامٍ مُبالَغٍ فيه، فيَحْكِيَ عَمَّا فعَلَهُ، وَيُمَجِّدَهُ ويُعْلِيَ مِنْ شَأْنِهِ[5]، فالمُخْتالُ: مُتَكَبِّرٌ بالفِعْلِ فقطْ، والفَخُورُ: مُتَكَبِّرٌ بالقَوْلِ، أَوْ بالقَوْلِ والفِعْلِ، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخۡتَالٗا فَخُورًا﴾؛ لأَنَّ الاختيال والفخر من الأوصاف النَّفسيَّة المذمومة[6].

(1) الكفوي، الكليات، ص: 581.
(2) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 298.
(3) الكفوي، الكُلِّيّات، ص: 513.
(4) المناوي، التوقيف على مهمّات التّعاريف، ص: 215.
(5) مُحمَّد الخضيري، السِّراجُ في بَيانِ غَريبِ القُرآنِ، ص: 32.
(6) إسماعيل حقّي، روح البيان: 2/207.

﴿ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ وَيَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبُخۡلِ وَيَكۡتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۗ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا ٣٧ وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۗ وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيۡطَٰنُ لَهُۥ قَرِينٗا فَسَآءَ قَرِينٗا ٣٨ وَمَاذَا عَلَيۡهِمۡ لَوۡ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِهِمۡ عَلِيمًا ٣٩﴾

[النِّساء: 37 - 39]

مُناسَبَةُ الآيَاتِ لِمَا قَبْلَها:

ذِكْرُ الأَخْلاقِ الذَّمِيمَةِ الحامِلَةِ على الفَخْرِ والخُيَلاءِ الواردين في الآيَةِ السَّابِقَةِ

لَمَّا ذكَر اللهُ تعالى الأمرَ بعِبادَتِه، والإحسانَ إلى عِبادِه، وذَمَّ المُختالَ الفَخورَ الَّذي يَمْنَعُهُ اختيالُهُ وفَخْرُهُ مِنْ هذا الإحسانِ[1]؛ شرَعَ في بَيانِ جُمْلَةٍ مِنَ الأَخْلاقِ الرَّديئَةِ والصِّفاتِ الذَّميمَةِ الحامِلَةِ على الاختيالِ والفَخْرِ[2]، وأَنَّ مَرَدَّها إلى صِفَتَيْنِ اثْنَتَيْنِ، هُما: البُخْلُ والرِّياءُ، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ﴾، أي: يوقِعونَ البُخْلَ بما حَمَلَهُمْ مِنَ المَتاعِ الفاني على الفَخارِ، وقال: ﴿وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾، فأَتْبَعَهُ ذَمَّ المُسْرفينَ المبَذِّرينَ، فَبَيَّنَ في كُلٍّ هذا أَنَّ الذينَ لا يُحْسِنونَ على الوَجْهِ المَأْمورِ بِهِ - فيمَنْ تقدَّمَ الأَمْرُ بالإحسانِ إليْهِمْ - فِرْقَتانِ: فِرْقَةٌ يَمْنَعونَ النَّفَقَةَ أَصْلًا، وهُمُ البُخلاءُ خَوْفًا مِنْ زَوالِها، وفِرْقَةٌ يَمْنعونَ وصْفَها، ويَفْعَلونَها رِياءً، فَيُعْدِمونَ بذلِكَ روحَها[3].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَأَعۡتَدۡنَا﴾: أَعْتَدَ الشَّيءَ: أعَدَّه، وأَصْلُهُ: أَعدَدْنا، أُبْدِلَتِ الدَّالُ

(1) ابن جرير، جامع البيان: 7/19، وابْنُ كَثِيرٍ، تَفْسِيرُ القرآن العظيم: 2/301، والسِّعْدي، تَيْسِيرُ الكَرِيمِ الرَّحْمنِ، ص: 178.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 7/21، وابْنُ عُثَيْمين، تَفْسِيرُ ابْنِ عُثَيْمين: (سورَةُ النِّساءِ)، 1/316.
(3) البِقاعيُّ، نَظْمُ الدُّرَر: 5/278.

تاءً[1]، والعَتادُ والعُدَّةُ: ادِّخارُ الشَّيءِ قَبْلَ الحاجَةِ إلَيْهِ، كالإعْدادِ[2]، وأَصْلُ (عَتَدَ): يَدُلُّ على حُضورٍ وقُرْبٍ[3]، فـ"أعتَدْتُ الشَّيءَ: هيَّأته، وأعددته، وهو من إحضاره"[4]، ومعْنى اللَّفظة في الآية: هَيَّأْنا، وأَحْضَرْنا[5].

2) ﴿رِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾، أي: مُراءاةً، مِن راءَى فُلانٌ النَّاسَ يُرائيهِمْ مُراءاةً ورِئاءً[6]، وأَصْلُ (رَأَى): يَدُلُّ عَلَى نَظَرٍ، وإبْصارٍ بِعَيْنٍ أَوْ بَصيرَةٍ[7]، ويُحملُ عليه المراءاةُ بالعمل؛ وذلك أن ينفق ماله في ما يَرَى النَّاسُ في الظَّاهر أنَّه يريد اللّه تعالى، فيَحْمَدونه، ويُثْنونَ عليه، وهو في الحقيقة غيرُ مريدٍ به اللّه ولا طالبٍ منه الثَّواب[8]، وهو معنى اللَّفظة في الآية.

3) ﴿قَرِينًا﴾: القَرين: صاحبك الَّذي يُقارنُك، ويُلاصِقُك، ويتَّصِلُ بك[9]، وهو مِن: قَرَنْت الشَّيء بالشَّيء؛ إذا وصَلْتَهُ[10]، ويُطلق القَرينُ كذلك على: المُصاحِب، وأصل (القَرْنِ): جمعُ شيءٍ إلى شيء[11]، والمراد هنا: الشَّيطانُ المَقْرون بالإنسانِ لا يُفارقُه[12].

❁ المَعْنَى الإجْمَاليُّ:

الَّذينَ يَمْنعونَ ما أَوْجَبَ اللّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ الإنفاقِ مِمَّا أَعْطاهُمْ مِن رِزْقِهِ، ويَأْمرونَ غَيْرَهُمْ بالإمْساكِ أَيضًا، ويَجْحَدون ما آتاهُمُ اللّهُ مِنْ فَضْلِهِ مِنَ الرِّزْقِ والعِلْمِ وغَيْرِه، ولا يُبَيِّنونَ لِلنَّاسِ الحَقَّ، بَلْ يَكْتُمونَه، ويُظْهِرون الباطِلَ، وهذِه الخِصالُ من خِصالِ الكُفْرِ، وقَدْ هَيَّأْنا لِلْجاحِدينَ عَذابًا مُخْزِيًا، وهَيَّأنا العذابَ المُخْزِيَ - أَيْضًا- لِلَّذينَ يَبْذُلون أموالهم من أجل أَنْ يَراهُمُ النَّاسُ، ويَمْدَحوهُم، وهم لا يُصَدِّقونَ باللّه، ولا بيوم القيامةِ، وهذه الأعمال السَّيِّئَةُ مِمَّا يدعو إلَيْها الشَّيْطانُ، ومَنْ يَكُنِ الشَّيْطانُ له صاحبًا مُلازمًا؛ فساءَ صاحبًا،

(1) ابن سيده، المحكم: (العين والدال والتاء).
(2) الراغب، المفردات: (عَتَدَ)، المناوي، التوقيف على مهمّات التّعاريف، 236.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عَتَدَ).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (عتد).
(5) الرّاغِبُ، المُفْردات: (عَتَدَ)، والسَّمينُ الحَلَبيُّ، عُمْدَةُ الحُفّاظ: (عتد).
(6) الجَوْهَريُّ، الصِّحاح: (رَأَى).
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (رَأَى).
(8) الرّاغِبُ، المُفْرداتُ: (رَأَى)، والسَّمينُ الحَلَبيُّ، عُمْدَةُ الحُفّاظِ: (رأي)، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (رأى).
(9) الأزهري، تهذيب اللغة: (قرن).
(10) ابْنُ مَنْظورٍ، لِسانُ العَرَب: (قَرَنَ).
(11) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قَرَنَ).
(12) ابْنُ الهائِمِ، التِّبْيانُ في تَفْسيرِ غَريبِ القُرْآنِ، ص: 139، والزَّبيديُّ، تاجُ العَروسِ: (قَرَنَ).

وماذا يَضُرُّ هؤلاء؛ لو أَنَّهُم صَدَّقوا باللّه وبيوم القيامة اعْتِقادًا وعملًا، وبذَلوا مِمَّا أَعْطاهُمُ اللّه باحتِسابٍ وإخلاص، واللّهُ عالِمٌ ببَواطِنِ عبادِهِ وظَواهِرِهم، لا يَخْفَى عَلَيْهِ حالُهم، وسَيُجازي كلًّا بِعَمَلِه؟[1]، وترشدُ الآية الكريمة إلى"أنَّ قرناء السُّوء يفسدون الأخلاق؛ لأنَّ عدوى الأخلاق تصل بالمجاورة، كما تصل عدوى الأمراض"[2].

مَـــنْ يَـبْـخَـلُ بِـالإِحْـســانِ شُـحًّـا، ومَـنْ يَجودُ بِهِ رِياءً: سيَّانِ، وكِلاهُما مَحْرومٌ مُهانٌ

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ الفَصْلِ بالِاسْتِئْنافِ الابتدائيِّ:

الكلامُ اسْتِئْنافٌ ابتدائيٌّ جيءَ بِهِ عَقِبَ الأَمْرِ بالإحْسانِ لِمَنْ جَرَى ذِكْرُهُمْ في الجُمْلَةِ السابقة، كَأَنَّهُ قيلَ: الَّذين يَبْخَلون، ويفعلون، ويَصْنَعون، أَحِقَّاء بكلِّ ملامة[3]، ودَلَّ عَلى هذا الخبر قَوْلُهُ: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾، وقُصِدَ العُدولُ عَنِ العَطْفِ؛ لِتَكونَ مُسْتَقِلَّةً، ولِما فيهِ مِنْ فائِدَةِ العُموم، وفائِدَةِ الإعْلام بِأَنَّ هَؤُلاءِ مِنَ الكافِرينَ، فالتَّقْديرُ: الَّذينَ يَبْخَلونَ أَعْتَدْنا لَهُمْ عَذابًا[4].

البَخيلُ بما آتاهُ اللهُ مِنْ مالٍ أَوْ عِلْمٍ حَقيقٌ بِكُلِّ مَلامَةٍ مُسْتَحِقٌّ لِلْعَذابِ والمَهانَةِ

وإرْدافُ التَّحْريضِ على الإحْسان بالتَّحْذير مِنْ ضِدِّهِ، وما يُشْبِهُ ضِدَّهُ مِنْ كُلِّ خلق غَيْرِ صالِحٍ، من قبيل مقابلة الخُلُقِ - الَّذي دَعاهُمُ اللّه إلَيْهِ - بِأَخْلاقِ أَهْلِ الكُفْرِ وحِزْبِ الشَّيْطانِ، كَما دَلَّ عَلَيْهِ ما في خِلالِ هَذِهِ الجُمْلَةِ مِنْ ذِكْرِ الكافِرينَ الَّذينَ لا يُؤْمِنونَ بِاللّه ولا باليَوْمِ الآخر، فَيكون قَوْلُهُ: ﴿ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ﴾ مُبْتَدَأً حُذِفَ خَبَرُهُ، وتكون الجُمْلَةُ منقطعةً عَمَّا قبلها جيءَ بِها لحكاية صفات من يمنع الإحسان[5].

(1) لَجْنَةٌ مِنْ عُلَماءِ الأَزْهَرِ، المُنْتَخَبُ في تَفْسيرِ القُرآنِ الكَريمِ، ص: 115، ونُخْبَةٌ مِنْ أَساتِذَةِ التَّفْسيرِ، التَّفْسيرُ المُيَسَّرُ، ص: 85، وجَماعَةٌ مِنْ عُلَماءِ التَّفْسيرِ، المُخْتَصَرُ في تَفْسيرِ القُرآنِ الكَريمِ، ص: 85.

(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 4/1682.

(3) الزَّمَخْشري، الكشاف: 2/74، وابن عطية، المُحَرَّرُ الوَجيز: 2/52.

(4) ابنُ عاشور، التّحرير والتّنْوير: 5/52.

(5) ابْنُ التَّمْجيدِ الحَنَفيُّ، حاشيَةُ ابْنِ التَّمْجيدِ على البَيْضاويّ: 7/157، وابنُ عاشور، التّحرير والتّنْوير: 5/52.

توجيه عطف جمل وجوه البخل:

في العطف حسنُ تقسيمٍ لأحوال البخل إحاطةً بوجوهه المذمومة

ذكر تعالى في هذه الآية من أحوال البُخْلِ المذمومة ثلاثًا: أولها: كون الإنسان بخيلًا، وثانيها: كونهم آمرين غيرهم بالبُخْلِ، وهذا هو النِّهاية في حُبِّ البُخْلِ، وثالثها: قوله: ﴿وَيَكۡتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۗ﴾، فيوهمون الفقر مع الغنى، والإعْسار مع اليَسَار، والعَجْز مع الإمكان، ثم إنَّ هذا الكتمان قد يقع على وجه يُوجب الكفر، مثل أن يظهر الشِّكاية عن الله تعالى، ولا يرضى بالقضاء والقدر، وهذا ينتهي إلى حدِّ الكفر، فلذلك قال: ﴿وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا﴾[1].

في حسن التَّقسيم بالعطف بيانٌ لمنتهى السُّوء في الطَّبع والخصال

يُلمح في حسن التَّقسيم توصيف البخل، وصفة البخيل، وتوسيع دائرة وصفه بالشُّحِّ في نفسه طبعًا متجسِّدًا في الفعال، والأمر بالبخل، ثم كتْم الفضل؛ وذلكم منتهى السُّوء في الطَّبع، والتَّمادي في رديء الخصال.

براعة الالتفات في الآية:

ضمير التَّكلُّم مع الإلتفاتِ لبيانِ شِدَّةِ التَّهديدِ وهَوْلِ الوَعيد

الالتِفاتُ مِنَ الغَيْبَةِ في قوله تعالى: ﴿ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۗ﴾ إلى التَّكَلُّم في: ﴿وَأَعۡتَدۡنَا﴾، وهذه النُّونُ الَّتي تَدُلُّ على العظَمَةِ أتَتْ بِغَرَضِ التَّهْويل والتَّعْظيم؛ لِأَنَّ عذابَ العَظيم عَظيمٌ، وغضَبَ الحليم وخيمٌ[2].

وقَد نَزَلَت هذهِ الآيةُ في شأن اليهودِ الَّذين كتَموا صِفَةَ رسولِ الله ﷺ وكانوا يأمرون الأَنْصارَ بالبُخْلِ[3]، فكما تَكَبَّروا على عباد الله، ومنَعوا حقوقَه، وتَسَبَّبوا في مَنْعِ غَيْرِهِم مِنَ البُخْلِ وعدم الاهْتِداء، أهانَهُم بالعذابِ الأليم والخِزْيِ الدَّائم[4]، ولهذا تغَيَّر الأسلوبُ إلى

(1) الرازي، مفاتيح الغيب: 10/79.
(2) الآلوسيُّ، روحُ المعاني: 3/30.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 08/353، وابْنُ عَطيَّةَ، المُحَرِّرُ الوَجيز: 2/52.
(4) السِّعْدي، تَيْسيرُ الكَريمِ الرَّحْمنِ ص: 177.

صيغَةِ التَّكَلُّم؛ إشعارًا بعِظَمِ هذا العذاب لذَلِكَ الذَّنْبِ الكبير، ففي قوله تعالى: ﴿وَأَعْتَدْنَا﴾ بنونِ العَظَمَةِ تَعْلو نَبْرَةُ الوعيد؛ لِتَمْلَأَ الأُفُقَ؛ لأنَّ العتيدَ هو الحاضر المُهَيَّأ[1]، واقترانُه بضمير العظيم المُتعال لا شَكَّ يضاعف مِن عظم هذا العذاب المُهين المُعَدِّ مِن قِبَلِهِ ﷻ.

ونتيجَةً لِعِنادِ الجاحدين وإصرارهم على باطلِهم جابَهَهُمُ اللهُ ﷻ بالضَّمير نفسه في آيات كثيرة، مُتَوَعِّدًا إيَّاهم بسوءِ المصير، مِنْها قولُه تعالى في هذه السُّورة أيضًا: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ حَقّٗاۚ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا ١٥١﴾ [النساء: 151].

علَّة وضع الظَّاهر موضع المُضْمر:

ولِتَقْرِيرِ مَعْنى مقابلة عذابهم بجنس أعمالهم وضَعَ الظَّاهِرَ - أي: لَفْظَ الكافرينَ - مَوْضِعَ المُضْمَرِ في قوله تعالى: ﴿وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا﴾؛ إشْعارًا بأَنَّ مَنْ هَذا شأنُه، فَهوَ كافِرٌ بِنِعْمَةِ اللهِ، ومَن كان كافِرًا بِنِعْمَةِ اللهِ؛ فلَهُ عذابٌ يُهينُهُ، كما أَهانَ النِّعْمَةَ بالبُخْلِ والإخْفاء[2]؛ إذِ الضَّمير كِنايَةٌ عَنِ الذَّاتِ غير مُتَعَرِّض لِلصِّفات، فالبُخْلُ والإخْفاءُ مِنَ الكُفْرِ بِنِعْمَةِ اللهِ، ومَن كانَ كافِرًا بِنِعَمِهِ؛ فَلَهُ عَذابٌ مُهينٌ يُهينُهُ، كما أَهانَ النِّعَمَ بِالبُخْلِ والإخْفاء[3].

في الإظهار تقريرٌ برسوخ الكفر فيهم، وأنَّه شأنُهم الَّذي استحقُّوا عليه العذاب

عَطَفَ على جملة: ﴿ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ﴾، ومتعاطفاتها على جملة: ﴿وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾، ووَجْهُ ذَلِكَ: أَنَّ الأَوَّلين قد فَرَّطوا بِالبُخْلِ وبِأَمْرِ النَّاس به، وبِكَتْمِ ما آتاهُمُ اللهُ مِن فَضْلِهِ، وهَؤُلاءِ أَفْرَطوا بِبَذْلِ أَمْوالِهِمْ في غَيْرِ مَواضِعِها لِمُجَرَّد الرِّياء والسُّمْعَةِ، ولِيُقال: ما أَسْخاهُم! وما أَجْوَدَهم! كَما يَفْعَله مَن يُريد أَنْ يَتَسامَعَ النَّاسُ بأنَّه كَريمٌ، ويَتَطاوَلَ على غَيْرِهِ بِذلِكَ، ويَشْمَخَ

ذَمُّ المُرائي بَعْدَ البَخيلِ لِاشْتِراكِهما في قُبْحِ الفِعْلِ والطَّوِيَّة وسوء المُنْقَلَب

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 3/636، والقِنَّوْجيُّ، فَتْحُ البَيانِ في مَقاصِدِ القُرآن: 13/169.
(2) البيضاوي، أنوار التنزيل: 2/74، وأبو السّعود، إرشادُ العَقْلِ السّليم: 1/696، والهرري، تفسير حدائق الروح والريحان: 6/87.
(3) القونويُّ، حاشيةُ القونويِّ على البَيْضاويّ: 7/158.

بأَنْفِه عَلَيْهِ، مَعَ ما ضَمَّ إلى هذا الإنْفاقِ الَّذي يعود عَلَيْهِ بِالضَّرَرِ مِن عَدَمِ الإيمان باللّهِ واليَوْمِ الآخر[1].

فَقَد أَنْفَقوا إنْفاقًا لا تَحْصُلُ بِهِ فائِدَةُ الإنْفاقِ غالِبًا؛ لِأَنَّ مَنْ يُنْفِقُ مالَهُ رِئاءً لا يَتَوَخَّى بِهِ مَواقِعَ الحاجَةِ، فَقَدْ يُعْطي الغَنيَّ، ويَمْنَعُ الفَقيرَ[2]، فالمُرائي بخيل في الحقيقة؛ إذ هو إنَّما يبذُلُ المالَ لِمَن لا حَقَّ لَهُمْ عنده، ويَبْخَلُ على أَرْبابِ الحُقوقِ كالزَّوجة والولَدِ والخادِمِ والأقربين كالوالِدَيْنِ، ولا يتحَرَّى في إنْفاقِهِ النَّفْعَ العامَّ ولا الخاصَّ، وإنَّما يَتَحَرَّى مَواطِنَ التَّعْظيم والمَدْح، وقَدْ يَكونُ الإنفاقُ ضارًّا، كالمُساعَدَةِ على فِسْقٍ أَوْ فِتْنَةٍ، فَهو تاجِرٌ يَشْتَري تَعْظيمَ النَّاس لَهُ، وتَسْخيرَهُمْ لِلْقيامِ بِخِدْمَتِه[3].

فالحاصِلُ: أَنَّ مانعي الإحسانِ مِنْ أَهْلِ الفَخْرِ والخُيَلاءِ فَريقانِ: فَريقٌ يَبْخَلونَ، ويكتُمون فَضْلَ اللّهِ عَلَيْهِمْ، وفَريقٌ يَبْذُلُ المالَ؛ لا شُكرًا للّه على نِعَمِه، ولا اعْترافًا لِعبادِهِ بِحَقٍّ، بل يُنْفِقونَها مُرائين النَّاسَ، أي: يَقْصدونَ أَنْ يَرَوْهُم، فيُعَظِّموا قَدْرَهُمْ، ويَحْمَدوا فِعْلَهم، فَهُما في الحكم سواءٌ، فتَشاركا في الذَّمِّ والوَعيدِ؛ لِأَنَّ البُخْلَ والسَّرفَ - الَّذي هو الإنْفاقُ لا على مَنْ يَنْبَغي - مِنْ حَيْثُ إنَّهُما طَرَفا إفْراطٍ وتَفْريطٍ سواءٌ في القُبحِ واسْتِجْلابِ الذَّمِّ[4]، فَإنْفاقُ هَذِهِ الفِئَةِ مِثْلُ إمساكِ تِلْكَ.

سرُّ وصْفِ العَذابِ بِالمُهين:

مُقابَلَتهم بالجزاءِ مِن جِنْسِ أعمالِهم، وتَبْشيع ما هُم عَلَيْهِ مِنَ الكُفْر

جُمْلَةُ: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ اعْتِراضٌ تَذْييليٌّ لِما قبلها[5]، ورُبَّما كانَ اخْتيارُ الإهانَةِ - وهيَ نَقيضُ الإكْرام - لِيُقابِلَ ما كانَ مِنْ أَمْرِ هَؤُلاءِ مِنَ الكِبْرِ والخُيَلاءِ اللَّذَيْنِ يَكْرَهُهُما المَوْلَى ﷻ، ﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ﴾ [الحجّ: 18]. "فإذا كانوا قد استكبروا، وطغوا، واستعلوا، واختالوا في الدُّنيا، وهي متاعٌ قليلٌ، فالذُّلُّ الدَّائم، والهوان المستمرُّ لهم في الآخرة"[6].

(1) القِنَّوْجيُّ، فَتْحُ البَيانِ في مَقاصِدِ القُرآن: 3/119.
(2) ابنُ عاشور، التّحرير والتّنْوير: 5/53.
(3) الهرري، تفسير حدائق الروح والريحان: 6/88.
(4) البيضاوي، أنوار التنزيل: 2/74، وأبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 1/696، والهرري، تفسير حدائق الروح والريحان: 6/88.
(5) الآلوسي، روح المعاني: 3/30.
(6) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 4/1681.

فضلًا عن أنَّ في البخل إهانة للنَّفس الَّتي كرَّمها الله بمديد عطاياه، وابتذالًا لها واحتقارًا، بمنعها من طيِّبات ما أحلَّ لها شُحًّا، وحرصًا، وقترًا، فناسب العذابُ تلكم الإهانة.

سِرُّ تَقْديمِ البَخيلِ عَلى المُرائي:

شِـــدَّةُ الأَثَـــرِ السَّـيِّـئِ على الفَرْدِ والمُجْتَمَعِ أَكْثَرَ ما يَكونُ مِنَ البخيل

قدَّم البُخْلَ في قَوْلِهِ تَعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ﴾ على المراءاة في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾؛ لأنَّ البَخيل أَشَدُّ ضَرَرًا بِنَفْسِهِ وبِالمُجْتَمَعِ مِنَ المُرائي؛ إذِ البَخيلُ يَحْرِمُ نَفْسَهُ أَجْرَ إنْفاقِ المالِ، ويَحْرِمُ نَفْسَهُ مَحَبَّةَ اللهِ ومَحَبَّةَ النَّاسِ، ويوجِبُ لِنَفْسِهِ العَذابَ المُهينَ، ويَحْرِمُ الفُقَراءَ مِنَ الانْتِفاعِ بِالمالِ، وأَمَّا المُرائي؛ فَإِنَّهُ مَعَ حِرْمانِ نَفْسِهِ أَجْرَ إنْفاقِ المالِ، ومَحَبَّةَ اللهِ ومَحَبَّةَ النّاسِ، ومَعَ إيجابِ العَذابِ المُهينِ لِنَفْسِهِ، لَكِنَّهُ مَعَ ريائِهِ يَنْتَفِعُ بِمالِهِ الفُقَراءُ والمُحْتاجونَ، ولَعَلَّ اللهَ أَنْ يُصْلِحَ نِيَّتَهُ.

فائدَةُ تَكْرارِ اللَّام والباءِ:

وجْـهُ التَّـكـرار انتِفاءُ الإيمان بكُلِّ واحدٍ مِنَ المَذْكـوراتِ على حِدَةٍ

تَكَرَّرَتْ (لا) وكَذلِكَ (الباءُ) في قوله: ﴿وَلَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ﴾؛ إشْعارًا بأَنَّ الإيمان بكُلٍّ مِنْهُما مُنْتَفٍ على حِدَتِهِ، فلو قُلْتَ: لا أَضْرِبُ زيدًا وعَمْرًا؛ احتمَلَ نَفْيَ الضَّرب عنِ المجْموع، ولا يلزم مِنْهُ ضربُ كُلٍّ واحد على انْفِرادِهِ، واحْتَمَلَ نَفْيُهُ عَنْ كُلِّ واحدٍ بِانْفِرادِهِ؛ فَإذا قُلْتَ: ولا عَمْرًا؛ تعيَّن هذا الثَّاني[1]؛ لِذا تَنَوَّعَت عباراتُ المُفَسِّرينَ في تحديد مَن نزَلَت فيهِ الآيةُ: فَقيلَ: نزلَتْ في اليهود، وقيل: في المنافقين، وقيل: في مُشْرِكي مكَّة[2].

براعة التَّشبيه في الجمع بين صورتي الرِّياء ومُصاحبة الشَّيطان:

عَبَّرَ السِّياقُ عَنْ صورَةِ المُشابَهَةِ بين الرِّياء وملازمة الشَّيطان

(1) سُلَيْمان الجَمَل، الفُتوحاتُ الإلَهيَّةُ، تح: إبراهيم شَمْس الدّين: 2/53، والهرري، تفسير حدائق الروح والريحان: 6/88، والقِنَّوْجيُّ، فَتْحُ البَيانِ في مَقاصِدِ القُرآن: 3/119.

(2) ابن جرير، جامع البيان: 8/356، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 6/320.

في التَّشبيه الضِّمنيّ تَبْشيعُ صورَةِ الرِّياءِ في النَّفْسِ والمُبالَغَة في ذمِّ المتَّصِف به

بِطَريقِ التَّشْبيه الضِّمْنيِّ[1] بين المُشَبَّه: ﴿وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾ والمُشَبَّه به: الجملة المُعْتَرِضَة: ﴿وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيْطَٰنُ لَهُۥ قَرِينًا فَسَآءَ قَرِينًا﴾ الَّتي سيقَت؛ لِتَرُدَّ على اسْتِفْساراتٍ مُثارَةٍ في الذِّهْنِ تَتَعَلَّق بالجُمْلَةِ الواقِعَةِ مُشَبَّهًا: لِماذا يَتَكَبَّدونَ عَناء الإنْفاقِ وكُلفتَهُ مع عَدَمِ الأَجْرِ والثَّوابِ، وهُمْ يَعْلَمونَ ذلِكَ؟ فهُم أَدْرَى النَّاسِ بِما انطوتْ عَلَيْهِ دخائِلُهم.

فَتَأْتي صورة المُشَبَّه به؛ لِتوَضِّح العلَّة، وتُبَرْهِنَ الحُجَّة: ﴿وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيْطَٰنُ لَهُۥ قَرِينًا فَسَآءَ قَرِينًا﴾، فَهو المُسَيْطِر عَلَيْهِمْ، وداعيهِمْ إلى هَذِهِ المَعْصيَةِ المُؤَدِّيةِ إلَى النَّارِ[2]، فَشَبَّهَ حالَ مَن يُنْفِقون رِئاءَ النَّاس - وهُمْ يَعْلَمونَ أَنَّهم في تَخَبُّط وخُسْرانٍ - بِحالِ مَن يُقارِنُهُ الشَّيطانُ، ويُمْلي عَلَيْهِ مَنْهَجَ السُّوءِ، ويَجُرُّه إلى الجحيم، فَكُلٌّ مِنْ رُكْنَي التَّشْبيه مَعْنًى قائمٌ بِذاتِه، ولَكِنْ بينَهُما علاقةٌ ضِمْنيَّة قائِمَةٌ على أَنَّ المُشَبَّه به حُجَّة ودَليلٌ وتَعْليلٌ لِلْمُشَبَّه[3].

زادَ التَّوكيدُ تصويرَ مُصاحبة الشَّيطان ومُخالَطَتِهِ، ونتائِجِ هذه المُلازَمَة

ومِمَّا زاد هذا التَّشْبيهَ قوَّةً وتأكيدًا وتقريرًا مَجيءُ اللَّام في ﴿لَهُۥ﴾ الَّتي أَعْطَتْ معنى (معه)، ومجيء المُشَبَّه به على هيئة الاعتراضِ وبصيغة الشَّرْطِ وجوابه؛ لِتُصَوِّرَ تِلْكَ المُلازَمَةَ، فإنَّ هَذِهِ الصِّفاتِ الَّتي عَدَّدها الله - تَبارَكَ وتَعالى - لِهَذِهِ الفِئَةِ مِن نتائِجِ مُقارَنَةِ الشَّيطان ومُخالَطَتِه ومُلازَمَتِه لِلْمُتَّصِف بِذلِكَ؛ لأَنَّها شَرٌّ مَحْضٌ؛ إذْ جَمَعَت بين سوءِ الاعْتِقادِ الَّذي صَدَرَ عَنْهُ الإنفاقُ رِئاءً وسائِرِ الأوصافِ المَذْمومَةِ[4].

(1) التَّشْبيهُ الضِمْنيُّ: هوَ ما لَمْ يُصَرَّحْ فيه بِأَرْكانِ التَّشْبيهِ على الطَّريقَةِ المَعْلومَةِ، بَلْ يُفْهَمُ من مَعْنى الكَلامِ وسياقِ الحَديثِ، فَهذا النَّوْعُ مِنَ التَّشْبيهِ لا يَحْتاجُ إلى أَداةِ رَبْطٍ مِثْلَ المؤَكِّدِ، ولَكِنَّ العَلاقَةَ فيه تَقومُ على إعْمالِ الفِكْرِ لِلرَّبْطِ بَيْنَ الرُّكْنَيْنِ، ولِذا فَإمْتاعُ العَقْلِ فيه أَكْثَرُ، لِأَنَّ الشَّيْءَ الذي يَحْصُلُ بَعْدَ جُهْدٍ يَكونُ أَغْلى عَلى النَّفْسِ مِنْ غَيْرِهِ، ويُحْدِثُ مُتْعَةً ودَهْشَةً، ينظر: أَحْمد المراغي، عُلومُ البَلاغَةِ، ص: 234.

(2) الآلوسي، روح المعاني: 3/30.

(3) خَديجة محمَّد بناني، سورَةُ النِّساءِ دِراسَةٌ بَلاغيَّةٌ تَحْليليَّة: 1/408 - 409.

(4) أبو حيان، البَحْرُ المُحيط: 3/683، وابنُ عاشور، التّحرير والتّنْوير: 5/53.

بلاغة الإيجاز في جملة مصاحبة الشَّيطان:

الشَّيطان قرين سوء للمُذعنِ له بسوء عمله، وقبيح فعله

ذكر أبو زهرة أنَّ في قوله: ﴿وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيۡطَٰنُ لَهُۥ قَرِينٗا فَسَآءَ قَرِينٗا﴾ " إيجازًا بالحذف معجزًا، إذ المعنى: وقد دفع هؤلاء - إلى الرِّياء في إنفاقهم وإلى البخل والكتمان - قرناء السُّوء من شياطين الإنس والجنِّ، والقرين: هو الصَّاحب الملازم الَّذي يخلط نفسك بنفسه، ويقرنها بها، حتَّى تصيرا كأنَّهما شيء واحد"[1].

علَّة تقديم أحوال البخل:

مصاحبةُ الشَّيطان أصلُ صفات البُخل ومآلهُ إلى إنكار الإيمان

لكون الاتِّصاف بالبُخْل والأمر به، وكتمان فضل اللّه تعالى، والإنفاق رئاءً، شرًّا محْضًا؛ إذ جمعتْ بين سوء الاعتقاد الصَّادر عنه الإنفاق رئاء، وسائر تلك الأوصاف المذمومة؛ قدَّم تلك الأوصاف، وذكر ما صدرتْ عنه، وهو انتفاء الإيمان باللّه واليوم الآخر، ثُمَّ ذكر أنَّ ذلك من نتائج مقارنة الشَّيطان، ومخالطته، وملازمته[2].

بديع السَّجع في فواصل الآي:

السَّجعُ في: ﴿مُّهِينٗا﴾، ﴿قَرِينٗا﴾، وهو سَجْعٌ مُتَوازٍ[3] طَويلٌ بِحروفٍ مُتَماثِلَةٍ، فَهاتانِ الكَلِمتانِ ورَدَتا في فاصِلَتَي جُمْلَتَي الاعتراض التَّذْييليِّ في الآيتين:

السَّجعُ في الفَواصِلِ لإثارَةِ السَّامِعينَ وتَنْبيههِمْ إلى تلازمِ جَزاءِ الكافرين بملازَمَتِهِم لِلشَّيطانِ القرينِ

فخُتِمَتِ الأولى بـ ﴿مُّهِينٗا﴾، والمُهينُ: هو العَذابُ الجامعُ بينَ الألَمِ والذِّلَّة؛ جزاءً وفاقًا على ما اقْتَرَفوا، وسَمَّاهم اللّه كفَّارًا؛ لِلْإيذانِ بأَنَّ هذه أخلاقٌ وأعمالٌ لا تَصْدُرُ إلَّا مِنَ الكَفور، لا مِنَ المُؤْمِنِ الشَّكورِ[4].

---

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 4/1682.

(2) أبو حيّان، تفسير البحر المحيط: 3/258.

(3) السِّجع المُتَوازي: هوَ السِّجع الذي تَكونُ فيهِ آخِرُ كَلِمَةٍ في الفِقْرَتينِ مُتَوافِقَتَيْنِ في الوَزْنِ العَروضيِّ والقافيةِ، كَقَوْلِهِ تعالى: ﴿فِيهَا سُرُرٞ مَّرۡفُوعَةٞ ١٣﴾ [الغاشية: 13]، وهوَ مِنَ المُحَسِّناتِ اللَّفْظيَّةِ. عَبْدُ العزيزِ عَتيق، عِلْمُ البَديعِ، ص: 219.

(4) الهرري، تفسير حدائق الروح والريحان: 6/87.

أمَّا قَوْلُهُ تعالى: ﴿فَسَآءَ قَرِينًا﴾؛ فَلِأَنَّهُ يَدْعوه إلى المَعْصيَةِ المؤدِّيَةِ إلى النَّارِ وإلى العَذابِ المُهينِ، فاخْتيارُ القَرينِ دونَ الصَّاحِبِ أَوِ الخَليلِ يَدُلُّ على شِدَّةِ التَّلازُمِ والاقْتِراب الَّذي لا يَتَخَلَّلُه انْفِصالٌ، وهوَ تَأْكيدٌ على إيفاءِ السَّجْعِ بِتِلْكَ المعاني المُرادةِ، كما أَنَّ هذا التَّماثُلَ يُعْطي سِرًّا لِهاتَيْنِ الكَلِمَتَيْنِ في بِنائِها، وفْقَ نَغَمٍ يَهْطُلُ على مَسامِعِ القارِئِ؛ ليُثيرَ القارِئَ والمُسْتَمِعَ؛ ويُساعِدَهُ على تَرْسيخِه وتوضيحه بِسُهولَةٍ ويُسْرٍ.

سرُّ العَطْفِ على ما سَبَقَ بالِاسْتِفْهام:

الِاسْتِفْهامُ الوارد في قوله: ﴿وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾ إنْكاريٌّ تَوْبيخيٌّ[1]، وتَقْديرُ الكَلام: لَوْ آمَنوا ما الَّذي كانَ يُتْعِبُهُمْ، ويُثْقِلُهُمْ، أَيْ: لَكانَ خَفيفًا عَلَيْهِمْ ونافِعًا لَهُمْ، فخرج إلى معنى الِاسْتِنْكار والتَّوبيخ والتَّعجُّب[2] مِن أُناسٍ كان بمقدورهم أَنْ يَكْسِبوا رضا اللّه وعفوَه بإنفاقِ أموالِهم في سَبيلِه بَعْدَ إيمانهم باللّه واليوم الآخِرِ، ولكنَّهمُ اسْتَحَبُّوا العمَى على الهدى، فَأَيُّ تَبِعَةٍ ووبالٍ عَلَيْهِمْ في الإيمانِ والإنْفاقِ في سبيل اللّه، وإلَّا فكُلُّ مَنْفَعَةٍ ومَفْلَحَةٍ في ذلك، وهذا كما يُقال لِلْمُنْتقم: ما ضَرَّك؛ لو عَفَوْتَ، ولِلْعاقِّ: ما كان يَرْزؤُك؛ لو كُنْتَ بارًّا، وقَدْ عَلِمَ أنَّه لا مَضَرَّة ولا مَرْزَأَةَ في العفو والبِرِّ، ولكنَّه ذمٌّ وتوبيخ وتجهيل بِمكانِ المَنْفَعَة[3].

في الاستفهام إنْكارٌ لتخلُّفهم عَنِ الإيمانِ والعَمَلِ الصَّالِحِ، وتَوْبيخُهُم على ذلك

والمَلامُ هنا مُتَوَجِّهٌ إلى الْفَريقَيْنِ: الَّذينَ يَبْخَلونَ، والَّذينَ يُنْفِقونَ رِئاءً؛ لِقَوْلِه: ﴿لَوْ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ﴾ عَلَى عَكْسِ تَرْتيبِ الكَلامِ السَّابِقِ[4].

(1) مُجيرُ الدّينِ العُلَيْميُّ، فَتْحُ الرَّحْمنِ في تَفسيرِ القُرْآنِ، تح: نورُ الدّين طالب: 2/127، والقونْويُّ، حاشيةُ القونْويِّ على البَيْضاويّ: 7/161.

(2) ابنُ عاشور، التّحرير والتّنْوير: 5/53.

(3) الزّمَخْشري، الكشاف: 1/511 وابن عطية، المُحَرَّرُ الوَجيزُ: 2/53، وابْنُ التَّمْجيدِ الحَنَفيُّ، حاشيَةُ ابْنِ التَّمْجيدِ على البَيْضاويِّ: 7/161.

(4) ابنُ عاشور، التّحرير والتّنْوير: 5/54.

"أصل استعمال (ماذا عليك): أن يوقع في أمر يجب على المخاطب أن يفعله لما فيه نفعه ومصلحته، فيجعله المتكلِّم مظنَّة للوبال، والتَّبعة؛ إرخاءً للعنان موبِّخًا له على التَّكاسل، كما تقول للمنتقم: ما ضرَّك لو عفوت؟"[1]، وهذا أسلوبٌ بديعٌ استعملَتْهُ العربُ كثيرًا في كلامها، ومِن ذلك قَوْلُ مَنْ قال:

ما كانَ ضَرَّكَ لَوْ مَنَنْتَ ورُبَّما *** مَنَّ الفَتَى وهوَ المغيظُ المُحْنَقُ[2]

قال الرَّاغب: "قوله: ﴿وَمَاذَا عَلَيْهِمْ﴾ استدعاء لطيف إلى تحرِّي الإيمان والإنفاق على ما يجب؛ لأنَّ لفظه استخبار يستدعي جوابًا، ولا يمكن جواب المستخبر عنه المشتبه إلَّا بعد التفكُّر فيه، والتفكُّر فيما ذكره تعالى يؤدِّي إلى أن ليس على متحرِّي ذلك ضير، بل له كلُّ خير"[3]، وفيه توجيههم إلى صَرْفِ الفِكْرِ لِتَحْصيل الجواب، لَعَلَّه يُؤَدِّي بِهِمْ إلى العِلْمِ بما في ذَلِكَ مِمَّا هو أَجْدَى، وتَنْبيهُهُم على أَنَّ المَدْعوَّ إلى أَمْرٍ لا ضررَ فيه ينبغي أن يُجيب احْتياطًا، فكيف إذا تَدَفَّقَت مِنْهُ المنافع[4]؟

فـي الاستفهام إرشادٌ لِلانْقيادِ لِلْإيمان والإنفاق وتشجيعُهم لِلْإقْبالِ عَلَيْهِ

نكْتة تقديم الإيمان هنا، وتأخيره في الآية السَّابقة:

قَدَّم الإيمان على الإنفاق في قوله: ﴿وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾، وأخَّره في: ﴿وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾؛ لأنَّ القَصْدَ بذِكْرِهِ التَّحريض هاهنا والتَّعليل هناك[5]، فتَقْديم الإيمان بالله واليوم الآخِر هنا؛ لأهمِّيَّتِهِ في نفسه،

تقديمُ الإيمانِ هنا حَضٌّ عَلَيْهِ وعنايةٌ به، وتعليلُ الإنفاق رياءً بعدم الإيمانِ فيما سَبَقَ

(1) الطيبي، فتوح الغيب: 4/542.

(2) هَذا البَيْتُ مِنْ قَصيدَةٍ لِقُتَيْلَةَ بِنْتِ الحارِثِ تَرْثي أَخاها النَّضْرَ بَعْدَ أَنْ أَمَرَ النَّبيُّ ﷺ بِقَتْلِهِ بِسَبَبِ مُحارَبَتِهِ للهِ ودينِهِ وأَذِيَّةِ رَسولِهِ ﷺ، ينظر: ابْنُ هِشامٍ المَعافِريُّ، سيرَةُ ابْنِ هِشامٍ، تح: طه سعد، شَرِكَةُ الطِّباعَةِ الفَنِّيَّةِ المُتَّحِدَةِ، القاهِرَةُ، دط، دت: 2/285، وابْنُ عَبْدِ رَبِّهِ الأَنْدَلُسيُّ، العِقْدُ الفَريدُ، دارُ الكُتُبِ العِلْميَّةِ، بَيْروتُ، ط: 1، 1404 ه: 6/128، والآلوسي، روح المعاني: 3/31.

(3) الراغب، تفسير الراغب: 3/1239.

(4) البيضاوي، أنوار التنزيل: 2/74، وأبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 1/696.

(5) البيضاوي، أنوار التنزيل: 2/74.

ولِعَدَمِ الاعْتِدادِ بالإنفاق بدونه، وأمَّا تَقْديمُ إنفاقِهم رِئاءَ النَّاسِ على عدم إيمانِهم بهما مع كَوْنِ المؤخَّرِ أقبحَ من المقدَّم؛ فَلِرِعايَةِ المُناسبةِ بين إنفاقِهم ذلك وبينَ ما قَبْلَهُ مِن بُخلهم وأمرِهم النَّاسَ به[1].

وإنَّما قُدِّم الإيمانُ هاهنا، وأُخِّر في الآية المتقدِّمة؛ لِأَنَّه ثَمَّة ذكرٌ لِتَعْليل ما قبله مِن وقوع مصارفهم في دُنْياهم في غير مَحَلِّها، وهُنا للتَّحْريض، فيَنْبَغي أن يُبْدَأَ فيه بِالأَهَمِّ فالأَهَمِّ، ويُمْكِنُ أَنْ يُقالَ: أُخِّر الإيمانُ هناك، وقُدِّم الإنفاقُ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ الإنْفاقَ كان بِمَعْنى: الإسْرافِ الَّذي هوَ عَديلُ البُخْلِ، فأُخِّر الإيمان؛ لِئَلَّا يكونَ فاصلًا بين العَديلَيْنِ[2].

فَكانَتْ فائِدَةُ تَقْديمِ الإيمانِ: أَنَّهمْ لَوْ آمَنوا؛ لَكانَ إنْفاقُهُمْ لِخالِصِ وجْهِ اللّه لا لِلرِّياءِ؛ والرِّياءُ لِكَوْنِهِ شِرْكًا خَفيًّا لا يُجامِعُ الإيمانَ باللّه واليومِ الآخِرِ؛ فَإنَّ التَّوحيدَ مُضادٌّ لِلتَّشْريكِ، فَلا يَجْتَمِعانِ[3].

قال الرَّاغب: "لَمَّا قصد في الأولى إلى ذمِّهم بالإنفاق رياءً لكونهم غير مؤمنين، قدَّم ذكره، وجعل قوله: ﴿وَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ في موضع الحال؛ تنبيهًا أنَّ ذلك منهم لكونهم غير مؤمنين، ولَمَّا حثَّهم في هذه الآية على ما يجب أن يتحرَّوه؛ ابتدأ بذكر الإيمان؛ تنبيهًا أنَّ إنفاقهم غير معتدٍّ به إلَّا بعد الإيمان بهما"[4].

قــدَّم الإنــفــاق في الآيــة الأولى لذمِّهم، وأخَّره هنا تنبيهًا على أنَّ إنفاقهم غير معتدٍّ به إلَّا بعد الإيمان

توجيهُ التَّذْييلِ بِقَوْلِهِ: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا﴾:

فهاهُنا خَبَرٌ يَتَضَمَّن وعيدًا وتَنْبيهًا على سوءِ بَواطِنِهِمْ، وأنَّهُ تَعالى مُطَّلِعٌ على ما أَخْفَوْهُ في أَنْفُسِهِمْ، فيُجازيهم بِهِ، فلا يَنْفَعُهُم كَتْمٌ مَعَ عِلْمِ اللّهِ تَعالى بِهِمْ[5]، فـ"القصد إلى الرِّئاء إنَّما يكون

(1) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 1/697.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 3/31.
(3) ابْنُ التَّمْجيدِ الحَنَفيُّ، حاشيَةُ ابْنِ التَّمْجيدِ على البَيْضاويّ: 7/162.
(4) الراغب، تفسير الراغب: 3/1240.
(5) ابن عطية، المُحَرَّرُ الوَجيزُ: 2/53، والقِنَّوْجيُّ، فَتْحُ البَيانِ في مَقاصِدِ القُرآن: 3/120.

باطنًا غير ظاهر، فبيَّن تعالى أنَّه عليم ببواطن الأمور كما هو عليم بظواهرها، فإنَّ الإنسان متى اعتقد ذلك؛ صار ذلك كالرَّادع له عن القبائح من أفعال القلوب: مثل داعية النِّفاق والرِّياء والسُّمعة"[1].

علمُ العبد أنَّ الله تعالى عليم بالظَّواهر والبواطن رادعٌ له عن قبائح الأفعال

في جملة الفاصلة إشارَةٌ إلى إثابَتِهِ تَعالى إيَّاهُمْ؛ لَوْ كانوا آمنوا، وأَنْفَقوا، فهوَ عَليمٌ بِأَحْوالِهِمْ المحقَّقَةِ والمَفْروضَةِ، فَيُعاقِبُ على الأولى، ويُثيبُ على الثَّانيَةِ[2]، وفي ذَلِكَ تَعْريضٌ بِالتَّهْديدِ والجَزاءِ عَلَى سوء أَعْمالهم[3].

في جملة الفاصلة تعريضٌ بسوء أعمالهم استحقَّ التَّهديد والجزاء

فَيَنْبَغي لِلْمُؤْمِنِ أَنْ يَكْتَفيَ بِعِلْمِ اللّه في إنْفاقِهِ، ولا يُبالي بعِلْمِ النَّاس، فَهوَ الَّذي لا يَنْسَى عَمَلَ العامِلينَ، ولا يَظْلِمُهم مِن أَجْرِهِم شيئًا، وفي هَذِهِ الآياتِ الكَريمَةِ الهِدايَةُ الكافيَةُ في مُعامَلَةِ النَّاسِ لربِّهم ولِبَعْضِهِم بعضًا[4].

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

البُخْل والشُّحّ:

البُخْلُ: ثَمَرةُ الشُّحِّ

البُخْلُ: هوَ مَنْعُ ما في اليَدِ مِنْ مالٍ، قال تَعالى: ﴿وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ﴾ [محمد: 38]، أمّا الشُّحُّ؛ فهو أن يَأْكُلَ المرءُ مالَ الآخرين بغير حقٍّ[5]، كما أَنَّ في الشُّحِّ شدَّةً في الحرص على الشَّيْءِ وطَلَبِه، وجَشَعِ النَّفس عَلَيْهِ، والبُخْلُ: منعُ إنفاقِهِ بعد حصوله، وحُبُّه،

(1) الرازي، مفاتيح الغيب: 10/80.

(2) الآلوسي، روح المعاني: 3/31.

(3) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 2/177، وابنُ عاشور، التّحرير والتّنْوير: 5/55.

(4) الهرري، تفسير حدائق الروح والريحان: 6/90.

(5) وبِهَذا عَرَّفَهُ الصّاحبيُّ الجَليلُ عَبْدُ اللهِ بْنُ مَسْعودٍ ﷺ، لمَّا سُئِلَ عَنْ تَفْسيرِ قَوْلِهِ تعالى: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٩﴾، في قَوْلِهِ: وإنَّ الشُّحَّ الذي ذَكَرَهُ الله في القُرآنِ: أَنْ تَأْكُلَ مال أَخيكَ ظُلْمًا، رَواهُ ابْنُ أَبي شَيْبَةَ والطَّبرانيُّ، والحاكم، وقال الحاكم: صَحيحٌ على شَرْطِ الشَّيْخَيْنِ، ولم يُخَرِّجاهُ، أَبو بَكْرِ بْنُ أبي شَيْبَةَ، المُصَنَّفُ في الأَحاديثِ والآثارِ، تح: كمال الحوت، رقم: (26611)، والطَّبَرانيُّ، المُعْجَمُ الكَبيرُ، تح: حمدي السَّلفي، رَقْم: (9060)، وأبو عبد اللهِ الحاكِمُ، المُسْتَدْرَكُ على الصَّحيحَيْنِ، تح: مصطفى عطا، رقم: (3815).

وبِمَعنًى قَريبٍ فَسَّرَهُ أَيْضًا عَبْدُ الله بْنُ عُمَرَ ﷺ بِقَوْلِهِ: إنَّما الشُّحُّ أَنْ تَطْمَحَ عَيْنُ الرَّجُلِ إلى ما لَيْسَ لَهُ، أَبو مُحَمَّدٍ البَغَويُّ، مَعالِمُ التَّنْزيل: 8/78، والسُّيوطيُّ، الدُّرُّ المَنْثورُ في التَّفْسيرِ المأْثورِ، دارُ الفِكْرِ، بَيْروت: 8/108.

وإمساكُه، فَهوَ شَحيحٌ قَبْلَ حُصولِه، بَخيلٌ بَعْدَ حُصولِه، فالشُّحُّ يَدْعو إلى البُخْلِ، والشحُّ كامِنٌ في النَّفْسِ، فمَنْ بَخِلَ؛ فقد أطاعَ شحَّه، ومَن لَمْ يَبْخَل؛ فقد عَصَى شُحَّه، ووُقِيَ شرَّه، وذَلِكَ هوَ المُفْلِحُ: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٩﴾ [الحشر: 9]، فالبُخْلُ ثَمَرةُ الشُّحِّ[1] ومؤدَّاه؛ ولذلك عبَّر به في الآية، ونقل أبو حيَّان عن الرَّاغب: أنَّ البخل لم يُرد به المالُ حسبُ، بل جميع ما فيه نفع للآخر[2]، وهذا سببٌ - أيضًا- في إيثار البُخْلِ في الآية لعمومه، وشموله المال وغيره، فهو أدعى إلى تقبيح الفعل.

الكِتْمان والإخْفاء:

الكِتْمانُ يَخْتَصُّ بِالمَعاني، والإخْفاءُ أعَمُّ

الكِتْمانُ: هوَ السُّكوتُ عَنِ المَعْنى، ومِنْهُ قَوْلُهُ تَعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ [البقرة: 159]، أي: يَسْكُتونَ عن ذِكْرِه، والإخْفاءُ يَكونُ في المَعاني، كَقَوْلِهِ تَعالى: ﴿يُخْفُونَ فِيٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَۖ﴾ [آل عمران: 154]، وفي غَيْرِهِ مِنَ الأُمورِ الحِسِّيَّةِ، كَقَوْلِهِ تَعالى: ﴿تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرٗاۖ﴾ [الأنعام: 91]، والشَّاهِدُ أنَّكَ تَقولُ: أَخْفَيْتُ الدِّرْهَمَ في الثَّوب، ولا تَقولُ: كَتَمْتُ[3]، فالإخْفاءُ يَكونُ في الأُمورِ الحِسِّيَّة، والكِتْمانُ يَخْتَصُّ بِالمعاني كالأَخْبارِ والأَسْرارِ، ولذلك قُصد إلى التَّعبير به؛ لكونهم لا يبيِّنون للنَّاس ما فضَّل الله به عليهم.

القَرين والصَّاحِب:

في الصُّحْبَةِ مَزيدُ انْتِفاعٍ وحِفْظٍ

الصُّحْبَةُ: تُفيدُ انْتِفاعَ أَحَدِ الصَّاحِبَيْنِ بِالآخَرِ[4]، وأَكْثَرُ ما تُسْتَعْمَلُ مَعَ الآدَميِّينَ، وقد يُطْلَقُ الصَّاحِبُ، ويُرادُ به الحافظُ، يُقالُ: صَحِبَكَ اللهُ، وسِرْ مُصاحَبًا، أَيْ: مَحْفوظًا، وفي القُرْآن: ﴿وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ ۝٤٣﴾ [الأنبياء: 43]، أَيْ: يُحْفَظونَ.

(1) ابْنُ قَيِّمِ الجَوْزِيَّةِ، الوابِلُ الصَّيِّبُ مِنَ الكَلِمِ الطَّيِّبِ، تح: سيد إبراهيم، ص: 33.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/256، ولم أقف عليه في مؤلفات الرّاغب المطبوعة.
(3) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 287.
(4) تَعْريفُ الصّاحِبِ والفَرْقُ بَيْنَهُ وبَيْنَ الصَّديقِ في تَفْسيرِ الصَّفْحَةِ الثّالِثَةِ مِنْ هذا الجُزْءِ.

وأمَّا المُقارَنَةُ؛ فَهيَ أَنْ يَقومَ أَحَدُ القَرينَيْنِ معَ الآخر، ويَجْري على طَريقَتِهِ؛ وإنْ لَمْ يَنْفَعْهُ، بَلْ وإنْ ضَرَّهُ، كَما جاءَ في الآيَةِ: ﴿وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيْطَٰنُ لَهُۥ قَرِينًا فَسَآءَ قَرِينًا﴾، ومِنْ ثَمَّ قيل: إذا قامَ أحدُهما مع الآخر؛ فَهُما قَرينانِ[1]، ولاشتماله على صفة الضُّرِّ أُوثِرَ استعمالُه في الآية؛ لكونها حديثًا عن مضرَّة الشَّيطان، وشرور وساوسه، واستطالة أذى مرافقته.

(1) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 283.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةٗ يُضَٰعِفۡهَا وَيُؤۡتِ مِن لَّدُنۡهُ أَجۡرًا عَظِيمٗا ٤٠ فَكَيۡفَ إِذَا جِئۡنَا مِن كُلِّ أُمَّةِۭ بِشَهِيدٖ وَجِئۡنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدٗا ٤١ يَوۡمَئِذٖ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَعَصَوُاْ ٱلرَّسُولَ لَوۡ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلۡأَرۡضُ وَلَا يَكۡتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثٗا ٤٢﴾ [النساء: 40 - 42]

مُناسَبَةُ الآيَاتِ لِمَا قَبْلَها:

كُلُّ ما سَبَقَ يُعَدُّ تَوْطِئَةً لِذِكرِ الجَزاءِ على الحسَناتِ والسَّيِّئاتِ

لَمَّا أَمَرَ اللّه تَعالى بِعِبادَتِهِ وبالإحْسانِ إلى الوالدَيْنِ ومَن ذُكِر مَعَهُم - ثمَّ أَعْقَبَ ذَلِكَ بذمِّ البُخلِ والأَوصافِ المَذْكورَةِ مَعَهُ، ووَبَّخَ مَنْ لَمْ يُؤْمِنْ، ولم يُنفِقْ في طاعةِ اللّه، وأَراهُمْ تَفْريطَهُمْ مَعَ سُهولَةِ أَخْذِهِمْ بالحَيْطَةِ لِأَنْفُسِهِمْ؛ لَوْ شاؤوا - كان هذا كُلُّهُ تَوْطِئَةً لِذِكرِ الجَزاءِ على الحسَناتِ والسَّيِّئاتِ، فَأخبَرَ تعالى بِصِفَةِ عَدْلِه، وأنَّه ﷻ مُنَزَّهٌ عَنِ الظُّلْمِ القَليلِ، بَلْهَ الظُّلْمِ الشَّديدِ، فَلا يَظْلِمُ أَدْنى شَيْءٍ، ثُمَّ أَخْبَرَ بِصِفَةِ الإحْسانِ[1]، فَقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةٗ يُضَٰعِفۡهَا﴾.

التَّرْغيبُ في الإيمانِ والطَّاعَةِ بَعْدَ الوَعيدِ على الكُفْرِ والرِّياءِ

وثَمَّةَ مُناسَبَةٌ أُخْرى، وهيَ أَنَّهُ تَعالى بَعْدَ أَنْ وصَفَ حالَهُم - وأَقامَ الحُجَّةَ عَلَيْهِمْ، وأَراهُمْ تَفْريطَهُمْ مَعَ سُهولَةِ أَخْذِهِمْ بالحَيْطَةِ لِأَنْفُسِهِمْ؛ لَوْ شاؤوا - بَيَّنَ أَنَّ اللّه مُنَزَّهٌ عَنِ الظُّلْمِ القَليلِ، بَلْهَ الظُّلْمِ الشَّديدِ، فَبَيَّنَ ﷻ أنَّه لا يَظْلِمُ أَحَدًا مِنَ العامِلينَ بِتِلْكَ الوَصايا، قَليلًا أَوْ كَثيرًا، بَلْ يوفِّيهِ حَقَّهُ بالقِسْطاسِ المُسْتَقيمِ[2]، فَماذا على مَنْ آمَنَ بِهِ، وهو بِهَذِهِ الصِّفَةِ العُظْمى[3]، فَفي هَذِهِ الآيةِ تَرْغيبٌ في الإيمانِ والطَّاعَةِ بَعْدَ الوَعيدِ على الكُفْرِ والرِّياءِ[4].

(1) أبو حيان، البَحْرُ المُحيط: 3/642، وابنُ عاشور، التّحرير والتّنْوير: 5/55.
(2) مُحَمَّد رَشيد رضا، تَفْسيرُ المنار: 5/85.
(3) البِقاعيُّ، نَظْمُ الدُّرَر: 5/281.
(4) الرازي، مفاتيح الغيب: 10/80.

فضلًا عن أَنَّ مُناسَبَةَ ذِكْرِ الْإيمانِ بِاليَوْمِ الْآخَرِ وإتْباعَهُ بِإظْهارِ الْعَدْلِ الْإلَهيِّ الَّذي يَتَجَلَّى فيهِ؛ كانَ سَبَبًا لِلسُّؤالِ عَنْ حالِ أَهْلِ الْكُفْرِ في ذَلِكَ الْيَوْمِ، فَجاءَ البيان[1]: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ﴾.

شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾، أي: زِنة ذَرَّة، يُقال: هذا على مِثقال هذا، أي: على وزْن هذا[2]، والمثقال: ما يوزن به[3]، وأصل الثِّقَل: ضدُّ الخفَّة[4]، وهوَ انْجِذابُ الشَّيْءِ إلى أَسْفَلَ بِسُرْعَةٍ تُناسِبُ وزْنَهُ[5]، والذَّرَّة: النَّمْلَةُ الصَّغيرَةُ[6]، أَوْ بَيْضُها، فالذَّرَّةُ "تُطْلَقُ عَلَى بَيْضَةِ النَّمْلَةِ، وعَلَى ما يَتَطايَرُ مِنَ التُّرابِ عِنْدَ النَّفْخِ، وهَذا أَحْقَرُ ما يُقَدَّرُ بِهِ"[7]، وتُطْلَقُ كَذلِكَ على ما لا وزْنَ لَهُ يُذكَرُ، وما يَرفَعُه الرِّيحُ من التُّرابِ، ولِلْمُنْبَثِّ في الهَواءِ مِنَ الهَباءِ في شُعاعِ الشَّمْسِ مِنْ كوَّةٍ ونَحْوِها[8].

2) ﴿مِن لَّدُنْهُ﴾، أي: من عِنْدِه[9]، أَوْ لَدَيْهِ[10]، فَلَدُنْ: ظَرْفٌ، بِمَعْنَى: عِنْدَ[11]، وهوَ يَدُلُّ على ابْتِداءِ غايَةِ مَكانٍ أَوْ زَمانٍ أَوْ مَنْزِلَةٍ ومَكانَةٍ، وهوَ أَبْلَغُ مِنْ (عِنْدَ) و(أَخَصُّ)، و(لَدُنْ) كَذلِكَ أَقْوى مِنْ (عِنْدَ) في الدَّلالَةِ على القُرْبِ[12].

3) ﴿بِشَهِيدٍ﴾، أي: شاهِد، أو مُشاهِد للشَّيء، والشَّهادة: قولٌ صادرٌ عن عِلم حصَل بمشاهدةِ بصيرةٍ أو بصَر[13]، وأصلُ شهد: حضورٌ، وعِلم، وإعلام[14]، ومعناه هنا: الشَّاهد الصَّادق الَّذي يشهد بالأمر العظيمِ على بيِّنةٍ منه.

---

(1) البِقاعيُّ، نَظْمُ الدُّرَر: 5/283.
(2) ابْنُ قُتَيْبَةَ، غَريبُ القُرْآنِ ص: 127.
(3) السَّمِيْن الحَلَبيُّ، عُمْدَةُ الحُفّاظ: (ثقل).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ثَقَلَ).
(5) جبل، المُعْجَمُ الاِشْتِقاقيُّ المُؤَصَّلُ: (ثقل).
(6) السِّجِسْتانيُّ، غَريبُ القُرْآنِ، ص: 455.
(7) ابنُ عاشور، التّحْرير والتّنْوير: 5/55.
(8) ابْنُ الهائِمِ، التِّبْيانُ في تَفْسيرِ غَريبِ القُرْآنِ، ص: 139، أساس البلاغة، الزَّمَخْشري، تح: محمد عيون السود: 1/311، والسَّمِيْن الحَلَبيُّ، عُمْدَةُ الحُفّاظ: (ثقل).
(9) تَهْذيبُ اللُّغَة: (لدن).
(10) الكفوي، الكُلّياتُ، ص: 801.
(11) ابْنُ مَنْظورٍ، لِسانُ العَرَب: (لدن).
(12) الخَليلُ، العَيْن: (الدّال واللّام والنّون)، وابن فارس، مقاييس اللغة: (لدن)، والرّاغِبُ، المُفْردات: (لدن).
(13) الرّاغِبُ، المُفْردات: (شهد)، والسَّمِيْن الحَلَبيُّ، عُمْدَةُ الحُفّاظ: (شهد).
(14) ابن فارس، مقاييس اللغة: (شهد).

4) ﴿تُسَوَّىٰ بِهِمُ﴾: يَسْتَوونَ مع الأَرْضِ، فَيكونونَ معها سَواء[1]، وأَصْلُ (سوي): استِقامةٌ واعْتدالٌ بين شيئين[2]، والمعنى هنا: لو يُدخَلون في الأرضِ، فَتَلْتئم عَلَيْهِمْ، [3] حتَّى يَصيروا وهي شيئًا واحدًا[4].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

إنَّ اللّه تَعالى عَدْلٌ لا يُنقِصُ أَحدًا مِنْ جَزاءِ عَمَلِه مِقْدارَ أنملة صغيرة، ولا يَزيدُ في سَيِّئاتهم شيئًا، وإنْ تَكُنْ زِنَةُ الذَّرَّةِ حَسَنَةً؛ يُكَثِّرْها لِصاحِبِها فَضْلًا منه، ويُعْطِه مِنْ عِنْدِهِ مَعَ المُضاعَفَةِ ثَوابًا عَظيمًا.

فَكَيْفَ يَكونُ حال النَّاسِ يَوْمَ القيامَةِ حينَ نَجيءُ بِكُلِّ نبيٍّ شَهيدًا على قَوْمِه بما عَمِلوا، ونَجيءُ بك - أَيُّها الرَّسولُ ﷺ - على أُمَّتِكَ شاهدًا أَنَّكَ بَلَّغْتهم رِسالَةَ ربِّكَ، يَوْمَ يَكونُ ذَلِكَ، يَتَمَنَّى الَّذينَ كَفَروا بِاللّه، وعَصَوا رَسولَهُ، لَوْ يَجْعَلُهُمُ اللّه والأَرْضَ سَواءً، فَيَصيرونَ تُرابًا، حَتَّى لا يبْعَثوا، وهُمْ لا يَسْتَطيعونَ أَنْ يُخْفوا عَنِ اللّه شَيْئًا؛ لِأَنَّ اللّه يَخْتِمُ عَلَى أَلْسِنَتِهِمْ، فَلا تَنْطِقُ، ويَأْذَنُ لِجَوارِحِهِمْ، فَتَشْهَدَ عَلَيْهِمْ بِعَمَلِهِمْ[5].

مِنْ تمامِ عَدْلِ اللّه مَعَ عِبادِهِ أَنَّهُ لا يَظْلِمُهُمْ في ذَرَّةِ خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ فَعَلوها، وأَلَّا يُعَذِّبَهُمْ حتَّى يُشْهِدَ عَلَيْهِمْ أَشْرَفَ خَلْقِهِ

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغة الاِسْتِئْنافِ مَعَ التَّأْكيدِ:

في قَوْلِه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖۖ﴾ اسْتِئْنافٌ، ذُكِرَ فيه المُسْنَدُ إليْه ﴿ٱللَّهَ﴾ مُؤَكَّدًا بإنَّ واسْميَّةِ الْجُمْلَةِ مَعَ تَقْديمِه، وذَلِكَ أَقْوَى وأَبْلَغُ مِنْ أَنْ يُقالَ: لا يَظْلِمُ اللّه مِثْقالَ ذَرَّةٍ، وكُلُّ ذَلِكَ يُنْبِئُ بِأَنَّ اللّه وحْدَهُ هو الَّذي لا يَقَعُ مِنْهُ جِنْسُ الظُّلْمِ، ولا أَقَلُّ القَليلِ مِنْهُ سُبْحانَهُ جَلَّ شَأْنُهُ.

كَمالُ العَدْلِ الإلهيِّ مَعَ العِبادِ تَفَضُّلُهُ على المُحْسِنينَ مِنْهُمْ

(1) ابْنُ سيده، المُخَصَّصُ: 03/317، والنيسابوري، إيجازُ البَيانِ عَنْ مَعاني القُرْآن: 1/240.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سوى).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: 2/934.
(4) ابْنُ قُتَيْبَةَ، غَريبُ القُرْآنِ، ص: 127.
(5) لَجْنَةٌ مِنْ عُلَماءِ الأَزْهَرِ، المُنْتَخَبُ في تَفْسيرِ القُرآنِ الكَريمِ، ص: 115، ونُخْبَةٌ مِنْ أَساتِذَةِ التَّفْسيرِ، التَّفْسيرُ المُيَسَّرُ، ص: 85، وجَماعَةٌ مِنْ عُلَماءِ التَّفْسيرِ، المُخْتَصَرُ في تَفْسيرِ القُرْآنِ الكَريمِ، ص: 85.

وفي هذا التَّركيبِ تَعْريضٌ بِوَعيدٍ مَحْذوفٍ هوَ مِنْ جِنْسِ العِقابِ، وأَنَّهُ في حَقِّهِمْ عَدْلٌ؛ لِأَنَّهُمُ اسْتَحَقُّوهُ بِكُفْرِهِمْ، وقَدْ دَلَّ عَلَى ذَلِكَ المُقَدَّرِ -أَيْضًا- مُقابَلَتُهُ بِقَوْلِهِ: ﴿وَإِن تَكُ حَسَنَةً﴾؛ ولَمَّا كانَ المَنْفيُّ الظُّلْمَ عَلَى أَنَّ: ﴿مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ تَقْديرٌ لِأَقَلِّ ظُلْمٍ؛ فَدَلَّ عَلَى أَنَّ المُرادَ أَنَّ اللهَ لا يُؤاخِذُ المُسيءَ بِأَكْثَرَ مِنْ جَزاءِ سَيِّئَتِهِ[1].

في جملة المطلع تَعْريضٌ بالوَعيدِ لِمُخالِفِ الأَوامِرِ والنَّواهي

سِرُّ التَّعْبيرِ بِالمِثْقالِ بَدَلَ المِقْدارِ:

استعملَ لفظَ المثقال في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾؛ "تنبيهًا أنَّ ذلك يعظم جزاؤه وإن صَغُر قدره"[2]، ﴿وَإِن تَكُ حَسَنَةً﴾، أي: وإنْ يَكُنْ مِثْقالُ الذَّرَّةِ حَسَنَةً[3]، ولَمْ يُعَبِّرْ سُبْحانَهُ بِالمِقْدارِ ونَحْوِهِ، بَلْ عَبَّرَ بِالمِثْقالِ لِلْإِشارَةِ إلى ما يُفْهَمُ مِنْهُ مِنَ الثِّقَلِ الَّذي يُعَبَّرُ بِهِ عَنِ الْكَثْرَةِ والعِظَمِ، كَقَوْلِهِ تَعالَى: ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٦﴾ [القارِعَة: 6] فَهو، وإنْ كانَ حَقيرًا؛ فَهوَ بِاعْتِبارِ جُزْئِهِ عَظيمٌ عِنْدَ اللهِ[4].

في لفظ المثقال بَيانٌ لكَمالِ كَرَمِ اللهِ عَلى عِبادِهِ وسَعَةِ رَحْمَتِهِ بِهِمْ

وَيَدُلُّ عَلَى هَذا التَّفَضُّلِ والعِنايَةِ ضَميرُ الْغائِبِ في: ﴿يُضَٰعِفْهَا﴾، وكَذا ﴿لَّدُنْهُ﴾، فالضَّميرُ في ﴿يُضَٰعِفْهَا﴾ يُؤَكِّدُ مَضْمونَ مُضاعَفَةِ الْحَسَنَةِ، وهوَ أَمْرٌ ثابِتٌ عَنْهُ سُبْحانَهُ بِالنُّصوصِ الشَّرْعيَّةِ مِنَ الْكِتابِ والسُّنَّةِ، وأَمَّا الضَّميرُ في ﴿لَّدُنْهُ﴾، أَيْ: مِنْ عِنْدِهِ سُبْحانَهُ؛ فَيُؤَكِّد تَفَضُّلَهُ وعِنايَتَهُ سُبْحانَهُ بِعِبادِهِ الْمُؤْمِنينَ؛ وإنْ قَلَّ عَمَلُهُمْ، أَوْ ذَهَبَ جُلُّهُ مُقابِلَ سَيِّئاتِهِمْ، فالمَسْأَلَةُ مَحْضُ تَفَضُّلٍ مِنَ اللهِ ابْتِداءً وانْتِهاءً[5].

الإِضْمارُ لِبيانِ فَضْلِ اللهِ على عِبادِهِ المُؤْمنينَ وعِنايَتِهِ بِهِمْ

(1) ابنُ عاشور، التَّحرير والتَّنْوير: 5/55.
(2) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 3/1241.
(3) البَيْضاويُّ، أَنْوارُ التَّنْزيل: 2/75.
(4) شِهابُ الدّينِ، الآلوسيُّ، روحُ المعاني: 3/31.
(5) خَديجة محمَّد بناني، سورَةُ النِّساءِ دِراسَةٌ بَلاغيَّةٌ تَحْليليَّة: 1/65.

لَطيفَةُ التَّصْويرِ البَيانيِّ في التَّشْبيهِ التَّمْثيليِّ(1):

المُبالَغَةُ في نفي الظُّلْمِ عَنِ اللهِ والحَثُّ على طاعَتِهِ واجْتنابِ مَعْصيَتِهِ

صورَةُ التَّشْبيهِ في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖۖ﴾، أَيْ: إنَّ اللّه لا يَظْلِمُ ظُلْمًا كَمِقْدارِ ذَرَّةٍ، "وضرب تعالى الذَّرَّة مثلًا للشَّيء الصَّغير؛ تقريبًا للمخاطب""(2)، ومُبالَغَةً في نَفْيِ الظُّلْمِ عَنْهُ سُبْحانَهُ مَهْما تَضاءَلَ وزْنُهُ وقَلَّ، وقَدْ أَثْبَتَتْ هَذِهِ الصُّورَةُ بِتَمْثيلِها بِشَيْءٍ حِسِّيٍّ يَعْرِفُهُ المُخاطَبونَ بِالقُرْآنِ، وهوَ الذَّرُّ المُتناهي في الصِّغَرِ.

والظُّلْمُ - وهوَ المُشَبَّهُ - شَيْءٌ مَعْنَويٌّ لا يُقاسُ بِالمَوازينِ في دُنْيا المُخاطَبينَ بِالقُرْآنِ الكَريمِ، ولَكِنَّ الجَمْعَ بَيْنَهُ وبَيْنَ الذَّرَّةِ - وهيَ أَقَلُّ شَيْءٍ مِمَّا يَدْخُلُ في وهْمِ البَشَرِ - أَخْرَجَ المَعْنَى العَقْليَّ بِصورَةٍ حِسِّيَّةٍ، والجامِعُ بَيْنَ الطَّرَفَيْنِ الأَثَرُ النَّفْسيُّ الَّذي يَتْرُكُهُ نَقْصُ الوَزْنِ - وإنْ قَلَّ - لأَنَّ النَّفْسَ جُبِلَتْ عَلَى الشُّحِّ في حُقوقِها، وأَيُّ نَقْصٍ في تِلْكَ الحُقوقِ يُؤْلِمُها، ويَجْعَلُها في اضْطِرابٍ، وفي ذَلِكَ حَثٌّ عَلَى الإيمانِ والإنْفاقِ، بَلْ إرْشادٌ إلَى أَنَّ كُلَّ ما أُمِرَ بِهِ مِمَّا يَنْبَغي أَنْ يُفْعَلَ، وكُلَّ ما نُهيَ عَنْهُ مِمَّا يَنْبَغي أَنْ يُجْتَنَبَ(3).

براعة الإيجاز بالحذف في ﴿تَكُ﴾:

لا يغفل قاضي السَّموات والأرض عن أجور الأعمال وإن تناهت في صغرها

حُذِفَتِ النُّونُ في قَوْلِهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةٗ يُضَٰعِفۡهَا﴾ "من غير قياسٍ؛ تشبيهًا بحروف العلَّة وتخفيفًا لكثرة الاستعمال"(4)، وحذف النُّون مناسبٌ لخفَّة مثقال الذَّرَّة، وإشعارٌ بمدى تناهيها في الصِّغَرِ، فإنَّها لا تغيب عن قاضي السَّموات والأرض، وليناسب إفراد الحسنة دلالة على قلَّتها.

(1) التَّشْبيهُ التَّمثيليُّ: ما كانَ وجْهُ الشَّبهِ فيه صورَةً عَقْليَّةً تَحتاجُ إلى تَأَوُّلٍ، سَواءٌ أكان مُفْردًا أَم مُرَكَّبًا، أَسْرارُ البلاغَةِ، عَبْدُ القاهِرِ الجُرْجانيُّ، تح: مَحمود محمد شاكر، ص: 65.

(2) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 3/1241.

(3) شِهابُ الدّينِ، الآلوسيُّ، روحُ المعاني: 3/32.

(4) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 2/177.

دَلالَةُ تَأْنيثِ الفِعْلِ ﴿تَكُ﴾ والضَّميرِ في ﴿يُضَٰعِفۡهَا﴾:

فالأَصْلُ في الضَّميرِ أَنْ يُذَكَّرَ؛ لِأَنَّ التَّذْكيرَ هوَ الأَصْلُ، ولِأَنَّهُ يَعودُ في الآيةِ على مُذَكَّرٍ، وهوَ لَفْظُ ﴿مِثۡقَالَ﴾، وإنَّما أُنِّثَ الضَّميرُ لِتَأْنيثِ الخَبَرِ ﴿حَسَنَةً﴾، أَوْ لِإضافَةِ المِثْقالِ إلى مُؤَنَّثٍ ﴿ذَرَّةٖ﴾[1]، وإنَّما آثَرَ التَّأْنيثَ هُنا مَعَ جَوازِ التَّذْكيرِ؛ لِأَنَّ التَّعْبيرَ بِالتَّأْنيثِ فيه دَلالَةٌ على الضَّعْفِ والنَّقْصِ، والتَّعْبيرُ بالتَّذْكيرِ فيهِ دَلالَةٌ على القوَّةِ والكَمالِ، وأنَّ الإثابة، ومضاعفة الأَجْرِ بفضل اللّه، ومَنِّهِ.

في التَّأنيث بيانٌ لضَعْفِ الإنسان ونقْصِه، وأنَّ مضاعفةَ الأجْرِ بفضل الله

نكتة التَّعبير عن مضاعفة الأجر بالمضارع:

عبَّر عن مضاعفة الحسنات بالمضارع في قوله: ﴿يُضَٰعِفۡهَا﴾؛ ليؤدِّي معنى أنَّه: "يضاعف ثوابها؛ لاستحقاقها عنده الثَّواب في كلِّ وقت من الأوقات المستقبلة غير المتناهية"[2].

عطاء الله لا ينفد، وثوابه لا حدَّ له زمانًا، ومقدارًا

علَّة إسناد المضاعفة إلى الحسنة:

قوله تعالى: ﴿وَإِن تَكُ حَسَنَةٗ يُضَٰعِفۡهَا﴾، أي: يُضاعفُ ثوابَها، وجعل ذلك مضاعفةً للحسَنةِ نفسها؛ تنبيهًا على كمال الاتِّصالِ بين الحَسَنة، وثوابها كأنَّهما شيءٌ واحد، وذلك بوصفها سبيلَ تحصُّله[3].

الحسنات سبُلٌ تحصُّل الخيرات ثوابًا وأجرًا

فائدة التَّعبير بالظَّرف (لدن) دون (عند):

(لدن) ظرفٌ بمعنى: (عند) إلَّا أنَّ (لدن) أكثر تمكينًا من (عند)، وأقرب مكانًا، وأخصُّ منه، يقول الرَّجل: عندي مالٌ؛ إذا كان ماله ببلد آخر، ولا يقال: لديَّ مالٌ، ولا لدنِّي، إلَّا ما كان حاضرًا، وتقول: لي عند فلان مال، أي: في ذمَّته، ولا يقال ذلك في (لدن)، فإنَّ (عند) تقع على المكان وغيره[4]، و" فائدة قوله: ﴿مِن لَّدُنۡهُ﴾ أنَّ

نسبة الهباتِ إليه تعالى تعظيمٌ لشأنها، وتشريفٌ للموهوب

(1) البَيْضاويُّ، أَنْوارُ التَّنْزيل: 2/75.
(2) الزَّمَخْشري، الكشاف: 1/511.
(3) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 2/177.
(4) الرازي، مفاتيح الغيب: 10/83، والطيبي، فتوح الغيب: 4/543.

كلَّ ما أريد تعظيمه ينسب إلى الله، فيقال: (مِنْ عِنْدِ الله)، و(مِنْ لَدُنْهُ)، و(له)، و(بيت الله)، و(نَاقَةُ الله)، وعلى هذا قوله تعالى: ﴿فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝٥﴾"[1]، وفي الجملة تشريفٌ لمن يوهبُ هذا الأجر بوصفه من عند الله تعالى، ولذلك وصفه بالعِظَم، وذكر الرَّاغب أنَّ "وصْفَ الأجر بالعظيم اعتبارٌ بالأجور الدُّنيويَّة"[2].

توجيه المجاز في لفظ (الأجر):

الإثابة بالأجر تفضُّلٌ من الله تعالى على عباده

"سمَّاه ﴿أَجْرًا﴾؛ لأنَّه تابع للأجر لا يثبت إلَّا بثباته""[3]، " أي: هو مجاز عن التَّفضُّل؛ لأنَّه تعالى قال: ﴿وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا﴾ ومضاعفة الحسنة هي الأجر؛ لأنَّها جزاء الحسنة، وقال بعده: ﴿وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا﴾، فوجب حمله على معنى زائد على الأجر، وليس ذلك إلَّا التَّفضُّل... وتسمية التَّفضُّل بالأجر تسمية للشَّيء باسم مجاوره"[4].

وجه التَّفريق بين مضاعفة الحسنات، وإتيان الأجر من لدنه:

من فضله تعالى الجمعُ في الثَّواب بين السَّعادة الجسمانيَّة، والسعادة الروحانيَّة

ذهب الرَّازيُّ أنَّ ثمَّة فرقًا بين الإثابتين، تحريره: "أنَّ ذلك التَّضعيف يكون من جنس ذلك الثَّواب، وأمَّا هذا الأجر العظيم؛ فلا يكون من جنس ذلك الثَّواب، والظَّاهر أنَّ ذلك التَّضعيف يكون من جنس اللَّذات الموعد بها في الجنَّة، وأمَّا هذا الأجر العظيم الَّذي يؤتيه من لدنه، فهو اللَّذة الحاصلة عند الرُّؤية، وعند الاستغراق في المحبَّة والمعرفة، وإنَّما خصَّ هذا النَّوع بقوله: ﴿مِن لَّدُنْهُ﴾؛ لأنَّ هذا النَّوع من الغبطة والسَّعادة والبهجة والكمال، لا ينال بالأعمال الجسمانيَّة، بل إنَّما ينال بما يودع الله في جوهر النَّفس القدسيَّة من الإشراق والصَّفاء والنُّور، وبالجملة فذلك

(1) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 3/1243.
(2) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 3/1243.
(3) الزّمَخْشري، الكشاف: 1/512.
(4) الطيبي، فتوح الغيب: 4/543 - 544.

التَّضعيف إشارة إلى السَّعادة الجسمانيَّة، وهذا الأجر العظيم إشارة إلى السَّعادة الروحانيَّة"[1].

بلاغةُ الِاسْتِفْهامِ في الآية:

قال تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا﴾.

التعبير بالاستفهام لتهويل حال الكافرين يوم القيامة وتوبيخهم وتقريع قلوبهم

السُّؤالُ بِـ (كَيْفَ) في قوله: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ﴾ عَنِ الحالِ الْمُتَوَقَّعَةِ في ذَلِكَ المَوْقِفِ الْعَظيمِ، وهَذِهِ الْحالَةُ الَّتي دَلَّ عَلَيْها الِاسْتِفْهامُ الْمُسْتَعْمَلُ هُنا في التَّعْجيبِ، وهوَ يُؤْذِنُ بِحالَةٍ مَهولَةٍ لِلْمُشْرِكينَ تُنادي عَلَى حَيْرَتِهِمْ ومُحاوَلَتِهِم التَّمَلُّصَ مِنَ الْعِقابِ بِسُلوكِ طَريقِ إِنْكارِ أَنْ يَكونوا أُنْذِروا مِمَّا دَلَّ عَلَيْهِ مَجيءُ شَهيدٍ عَلَيْهِمْ، ولِذَلِكَ حُذِفَ الْمُبْتَدَأُ الْمُسْتَفْهَمُ عَنْهُ، وقُدِّرَ بِنَحْوِ: كَيْفَ أولَئِكَ، أَوْ كَيْفَ الْمَشْهَدُ؟ لِأَنَّ في الْكَلامِ دَليلًا عَلَى ما حُذِفَ، ولا يُقَدَّرُ بِكَيْفَ حالُهُمْ؟ خاصَّةً؛ إِذْ هيَ أَحْوالٌ كَثيرَةٌ، ومَهْما اتَّسَعَ الْخَيالُ؛ فَلا يُمْكِنُ تَصَوُّرُ ما هُمْ عَلَيْهِ؛ لِذا، فَهيَ تَحْمِلُ مَعْنَى الدَّهْشَةِ والتَّعَجُّبِ والتَّهْويلِ الْمُصاحِبِ لِهَذا الْمَوْقِفِ العَظيمِ[2].

والقُرْآنُ يُخاطِبُ الْعَرَبَ بِما اعْتادَتْهُ في لُغَتِها، فَقَدْ كانَ مِنْ عادَةِ الْعَرَبِ أَنَّهُمْ يَقولونَ في الشَّيْءِ الَّذي يَتَوَقَّعونَهُ: كَيْفَ بِكَ؛ إذا كانَ كَذا وكَذا، وإذا فَعَلَ فُلانٌ كَذا، وإذا جاءَ وقْتُ كَذا؟ لِيُثيرَ هَذا السُّؤالُ صوَرًا كَثيرَةً واحْتِمالاتٍ شَتَّى، فَكَيْفَ هُنا: لَفْظُها لَفْظُ الِاسْتِفْهامِ، ومَعْناها: مَعْنَى التَّوْبيخِ والتَّقْريعِ[3].

سِرُّ اسْتِعْمالِ ضَميرِ التَّكَلُّمِ لِلْمُعَظِّمِ نَفْسَهُ:

التَّعْبيرُ بِضَميرِ الْمُتَكَلِّمِ في قوله: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ

(1) الرازي، مفاتيح الغيب: 10/83.

(2) ابنُ عاشور، التّحرير والتّنْوير: 5/57.

(3) الزَّجاجُ، مَعاني القُرْآنِ وإعْرابُهُ، تح: عَبْدُ الجَليلِ شَلَبي: 2/53، وأبو حيان، البحر المحيط: 3/644.

بَـيـانُ عَـظَـمَـةِ اللهِ الَّتي تَتَجلَّى خُـصـوصًـا في مَوْقِفِ الحَشْرِ

بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا﴾؛ لِلتَّعْظيم، وهَذا الْغَرَضُ كَثيرًا ما يُصاحِبُ نونَ الْعَظَمَةِ الَّتي تَرِدُ في حَقِّ اللهِ ﷻ في الْقُرْآنِ الْكَريم، خُصوصًا في هَذا الْمَوْقِفِ الْعَظيم في ساحَةِ الْعَرْضِ الْكُبْرَى، فَكُلُّ أُمَّةٍ حاضِرَةٌ، وعَلَى كُلِّ أُمَّةٍ شَهيدٌ بِأَعْمالِها، وكَيْفَ يَكون ذَلِكَ الْحُكْمُ الْعَظيمُ الَّذي جَمَعَ أَنَّ مَنْ حَكَمَ بِهِ كامِلُ العِلْمِ، كامِلُ الْعَدْلِ، كامِلُ الْحِكْمَةِ، بِشَهادَةِ أَزْكَى الخَلْقِ، وهُمُ الرُّسُلُ، عَلَى أُمَمِهِمْ مَعَ إِقْرارِ الْمَحْكومِ عَلَيْهِ؟ فَهَذا - واللهُ - الْحُكْمُ الَّذي هوَ أَعْظَمُ الأَحْكامِ وأَعْدَلُها[1].

ثُمَّ يَجيءُ الْمَلِكُ الْواحِدُ الْأَحَدُ بِرَسولِنا الْحَبيبِ الرَّؤوفِ الرَّحيمِ ﷺ شاهِدًا عَلَى الْجَميعِ، فَأَيُّ مَشْهَدٍ هَذا؟ وأَيُّ تَكْريمٍ لِلْخَليلِ الْمُصْطَفَى - صَلَواتُ اللهِ وسَلامُهُ عَلَيْهِ - ولِذا دَمَعَتْ عَيْناهُ الشَّريفَتانِ عِنْدَما تُلِيَتْ عَلَيْهِ هَذِهِ الآياتُ[2]، وَمِمَّا زادَ ضَميرَ الْعَظَمَةِ هَيْبَةً لَفْظُ الاسْتِفْهامِ الَّذي قَدْ تَصَدَّرَتِ الْآيَةُ بِهِ ﴿فَكَيْفَ﴾ الَّذي يوحي بِالتَّعَجُّبِ والرَّهْبَةِ.

عِلَّة تكرار لفظ ﴿جِئْنَا﴾:

في الـتَّـكـرار تـشـريـف لمـقـام الـنَّـبـيِّ بـاخـتـصـاصـه بمجيءٍ خاصٍّ

كرَّر لفظ ﴿جِئْنَا﴾ في قوله تعالى في قوله: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا﴾ مَرَّةً ثانيَةً مَعَ نونِ الْعَظَمَةِ؛ لِيَدُلَّ عَلَى اخْتِصاصِ الْمُسْنَدِ بِالْمُسْنَدِ إِلَيْهِ، فَكانَ ضَميرُ الْعَظَمَةِ بِذَلِكَ خَيْرَ ما يُمَثِّلُ هَذا الْمَشْهَدَ النَّاطِقَ بِالهَيْبَةِ الَّتي مَلَأَتْ صَدْرَ الرَّسولِ ﷺ حَتَّى فاضَتْ عَيْناهُ حينَما تُلِيَتْ عَلَيْهِ هَذِهِ الْآياتُ.

دَلالَةُ تَقْديمِ المَعْمولاتِ:

تَقْديمُ الْمَعْمولاتِ بَعْضِها عَلَى بَعْضٍ كَثيرٌ جِدًّا في هذه السُّورَةِ، ومِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعالَى: ﴿وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا﴾ في هَذا الْمَقْطَعِ مِنَ الْآيَةِ نَرى الْجارَّ والْمَجْرورَ ﴿بِكَ﴾، وكَذا ﴿عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ﴾

(1) السِّعْدي، تَيْسيرُ الكَريمِ الرَّحْمن، ص: 179.
(2) ابن عطية، الْمُحَرَّرُ الوَجيز: 2/55.

قُدِّمَ عَلَى كَلِمَةِ ﴿شَهِيدًا﴾ الْواقِعَةِ حالًا، وذَلِكَ لِشِدَّةِ تَعَلُّقِ هَذا الْمُقَدَّمِ بِالحَدَثِ، وكَذا لِلَفْتِ الانْتِباهِ إلَيْهِ وحَصْرِ الاهْتِمامِ بِهِ.

الاهْتِمامُ بِشَأْنِ النَّبِيِّ ﷺ وتَعْظِيمُ قَدْرِهِ ومَنْزِلَتِهِ وتَشْرِيفُ أُمَّتِهِ

بلاغة الإضْمارِ في مقامِ الإظْهارِ:

الإضْمارُ في ﴿بِكَ﴾ مقامَ الْإظْهارِ في قوله: ﴿وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا﴾ هوَ مِنْ بابِ ذِكْرِ الْخاصِّ بَعْدَ الْعامِّ عَلَى سَبيلِ الْإطْنابِ، فَخَصَّهُ ﷺ بِمَجيءٍ لَيْسَ كَمِثْلِهِ مَجيءٌ؛ تَنْويهًا بِمَكانَتِهِ وشَرَفِهِ ونَفْعِهِ لِكُلِّ الْأُمَمِ، والذي جاءَ بَعْدَ السُّؤالِ عَنْ حالِ النَّاسِ، إذا جِئْنا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهيدٍ؛ فالنَّاسُ بَيْنَ مُسْتَبْشِرٍ ومُتَحَسِّرٍ، وعلى هذا يَكونُ الإضْمارُ في ﴿بِكَ﴾ واقِعًا مَوْقِعَ الاسْمِ الظَّاهِرِ؛ لِأَنَّ مُقْتَضَى هَذا أَنْ يَكونَ الكَلامُ مَسوقًا لِجَميعِ الأُمَّةِ، فَيَقْتَضي أَنْ يُقالَ: وجِئْنا بِالرَّسولِ عَلَيْهِمْ شَهيدًا، فَعَدَلَ إلَى الخِطابِ تَشْريفًا لِلرَّسولِ ﷺ بِعِزِّ الحُضورِ والإقْبالِ عَلَيْهِ[1]، وكُلٌّ مِنْ هَذِهِ الْمُؤَثِّراتِ النَّفْسِيَّةِ - في تَقْديمِ الْمَعْمولاتِ والإضْمارِ مَوْقِعَ الْإظْهارِ - داعَبَتْ خَواطِرَ النَّبِيِّ ﷺ حَتَّى أَوْصَلَتْهُ إلَى الْبُكاءِ.

في التَّعبيرِ بالخطابِ إتمامٌ لتشريفِ النَّبيِّ ﷺ:

سِرُّ إضمارِ مَنْ تَعودُ إلَيْهِ الإشارَةُ:

﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ في قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا﴾، إشارَةٌ إلَى الَّذينَ دَعاهُمُ النَّبِيُّ ﷺ لِحُضورِهِمْ في ذِهْنِ السَّامِعِ عِنْدَ سَماعِهِ اسْمَ الإشارَةِ، وأَصْلُ الإشارَةِ يَكونُ إلَى مُشاهَدٍ في الوُجودِ أَوْ مُنَزَّلٍ مَنْزِلَتَهُ، وقَدِ اصْطَلَحَ القُرْآنُ عَلَى إطْلاقِ إشارَةِ ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ مُرادًا بِها الْمُشْرِكونَ، ويَجوزُ أَنْ تَكونَ الإشارَةُ إلَى ﴿ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ﴾، وهُمُ الْمُشْرِكونَ والْمُنافِقونَ؛ لِأَنَّ تَقَدُّمَ ذِكْرِهِمْ يَجْعَلُهُمْ كالحاضِرينَ، فَيُشارُ إلَيْهِمْ؛ لِأَنَّهُمْ لِكَثْرَةِ تَوْبيخِهِمْ ومُجادَلَتِهِمْ صاروا كالْمُعَيَّنينَ عِنْدَ الْمُسْلِمينَ[2]، وفي التَّعبيرِ عنهم

في الإضمارِ شُمولٌ للخِطابِ لِكُلِّ المُخالِفينَ وتَصْويرُهُمْ بصورَةِ المُشاهِدِ المُعايِنِ

(1) ابنُ عاشور، التَّحرير والتَّنْوير: 5/56.
(2) ابنُ عاشور، التَّحرير والتَّنْوير: 5/58.

باسم الإشارة الدَّالِّ على القرب دلالة قدرة اللّه على سوقهم جميعًا، والإتيان بهم بين يدي رسول اللّه ﷺ وقد كانوا يظنُّون أنَّهم بعيدون عن العذاب؛ لعدم إيمانهم باليوم الآخِر.

بلاغة المتشابه اللَّفظيّ:

في تقديم اسم الإشارة تقبيحٌ لأفعالهم، وفي تأخيره بيانٌ لفضلِ النَّبيِّ ﷺ

المُلاحَظُ في هذه الآية تَقْديمُ اسْم الإشارَةِ ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ عَلَى الشَّهيدِ، في حينِ نَجِدُ في سورَةِ النَّحْلِ تَأْخيرَهُ في قَوْلِه: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ﴾ [النحل: 89].

فَفي سورَةِ النَّحْلِ قُدِّمَتْ كَلِمَةُ ﴿شَهِيدًا﴾؛ لِبَيانِ فَضْلِ النَّبيِّ ﷺ وعَظَمَتِه بِغَضِّ النَّظَرِ مَن هُمُ المَشْهودُ عَلَيْهِمْ، فالآية في مقام تشريف النَّبيِّ ﷺ ولذلك أردفها - في الآية نفسها - بجملة: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾، أمَّا هذه الآية: ﴿وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا﴾؛ فالكلام فيها على الكافرين، فناسب تقديمُ المَشْهودِ عَلَيْهِمْ؛ لِبَيانِ مَدَى جُرْمِهِمْ، وقُبْحِ فِعالِهِمْ حَيْثُ أَشْرَكوا، وغَيَّروا، وحَرَّفوا[1].

فائدة التَّعبير بحرف الجرِّ ﴿عَلَىٰ﴾:

في التَّعبير بالعلِّيَّة تهديدٌ للكافرين بكون الشَّهادة عليهم

"ذكر متعلَّق ﴿شَهِيدًا﴾ الثَّاني مجرورًا بـ ﴿عَلَىٰ﴾؛ هو لتهديد الكافرين بأنَّ الشَّهادة تكون عليهم؛ لأنَّهم المقصود من اسم الإشارة"[2]، أو"كانت التَّعدية بـ ﴿عَلَىٰ﴾ للإشارة إلى معنى المحافظة على أصول الشَّرائع السَّابقة لاشتمال القرآن الكريم عليها، ونشرها خالصة سائغة واضحة بيِّنة للأجيال"[3].

بلاغة الإيجاز بالحَذْفِ في المطلع:

قوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَعَصَوُا۟ ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا﴾: في لفظ ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ من قوله:

(1) سامي القَدّومي، التَّفسير البياني لِما في سورة النَّحل من دقائق المعاني: 179.
(2) ابنُ عاشور، التّحرير والتّنْوير: 5/58.
(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 4/1687.

﴿يَوۡمَئِذٖ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾، تَنْوينُ عِوَضٍ عن جملةٍ؛ إذ حُذِفَتِ الجُمْلَةُ السَّابِقَةُ، وعوِّضَ عَنْها هَذا التَّنْوينُ، والتَّقْديرُ: يَوْمَ إذْ جِئْنا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهيدٍ، وجِئْنا بِكَ عَلَى هَؤُلاءِ شَهيدًا؛ يَوَدُّ الَّذينَ كَفَروا، وعَصَوُا الرَّسولَ"[1].

في الحذف بَيانٌ لِشِدَّةِ حالِ المُشارِ إلَيْهِمْ مِنْ قَبْلُ، وفَظاعَتِهم

بلاغة الفصل في الآية:

الجُمْلَةُ اسْتِئْنافٌ بيانيٌّ؛ [2] لِبَيانِ حالِهِمْ الَّتي أُشيرَ إلَى شِدَّتِها وفَظاعَتِها بِقَوْلِهِ تَعالَى: ﴿فَكَيۡفَ إِذَا جِئۡنَا مِن كُلِّ أُمَّةِۭ بِشَهِيدٖ﴾؛ لِأَنَّ السَّامِعَ يَتَساءَلُ عَن هذه الحالَةِ المُبْهَمَةِ، ويَطْلُبُ بَيانَها، فَجاءَتْ هَذِهِ الجُمْلَةُ مُبَيِّنَةً لِبَعْضِ تِلْكَ الحالَةِ العَجيبَةِ، وهوَ حالُ الَّذينَ كَفَروا حينَ يَرَوْنَ بوارِقَ الشَّرِّ: مِنْ شَهادَةِ شُهَداءِ الأُمَمِ عَلَى مُؤْمِنِيهِمْ وكافِرِهِمْ، ويوقِنونَ بِأَنَّ المَشْهودَ عَلَيْهِمْ بِالكُفْرِ مَأْخوذونَ إلَى العَذابِ، فَيَنالُهُمْ مِنَ الخَوْفِ ما يَوَدُّونَ مِنْهُ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الأَرْضُ[3].

وجْهُ الفصل بيانُ حالِ الكافرين القاسية في هذا المشهد

نكتة التَّعبير بالاسم الموصول:

التَّعْبيرُ عَنِ الذين كفروا بِالمَوْصولِ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ في قوله: ﴿يَوَدُّ ٱلَّذِينَ﴾، بَعْدَما أشارَ إلَيْهِمْ بـ ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾؛ لِذَمِّهِمْ والإشْعارِ بِعِلَّةِ ما اعْتَراهُمْ مِنَ الحالِ الفَظيعَةِ والأَمْرِ الهائِلِ وما سَيَحُلُّ بِهِم مِنَ الخِزْيِ والفَضيحَةِ والعَذابِ[4].

في التَّعبير عنهم بالموصول ذمٌّ لهم، ومزيدُ تقبيحٍ لأفعالهم

بلاغة الِالتفاتِ في الآية:

فائدةُ الالتفاتِ المَقْصودِ في قَوْلِهِ تعالى: ﴿وَعَصَوُاْ ٱلرَّسُولَ﴾ إلى الغَيْبَةِ بَعْدَ المواجَهَةِ بِالخِطابِ في قَوْلِهِ تعالى: ﴿وَجِئۡنَا بِكَ﴾ في الآيَةِ

أورد الاسمَ الظَّاهِرَ بَعْدَ الإضْمارِ تَشْريفًا للرَّسولِ ﷺ وللتَّهْويلِ مِنْ أمرِ تكذيبه وعِصيانِهِ

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 3/644.

(2) هَذا على القَوْلِ بِأَنَّ الفاءَ لِلتَّفْريعِ، ويُمْكِنُ أَنْ تَكونَ هي الفاءَ الفَصيحَةَ، وتَدُلُّ عَلَى شَرْطٍ مُقَدَّرٍ نَشَأَ عَنِ الكَلامِ السابِقِ، والتَّقْديرُ: إذا أَيْقَنْتَ بِذَلِكَ، فَكَيْفَ حالُ كُلِّ أولَئِكَ، إذا جاءَ الشُّهَداءُ، وظَهَرَ موجَبُ الشَّهادَةِ عَلَى العَمَلِ الصّالِحِ وعَلى العَمَلِ السيِّئِ، وعَلَى هَذا، فَلَيْسَ ضَميرُ (بك): إضْمارًا في مَقامِ الإظْهارِ، ينظر: ابنُ عاشور، التّحْرير والتّنْوير: 5/56.

(3) ابنُ عاشور، التّحْرير والتّنْوير: 5/58.

(4) أبو السّعود، إرشادُ العَقْلِ السّليم: 1/698، وطنطاوي، التَّفْسيرُ الوَسيط: 3/154.

السَّابِقَةِ: إيرادُ ذِكْرِهِ ﷺ بِعُنْوانِ الرِّسالَةِ تَشْرِيفًا لَهُ وزِيادَةً في تَقْبِيحِ حالِ مُكَذِّبِيهِ، فَإِنَّ حَقَّ الرَّسولِ ﷺ أَنْ يُؤْمَنَ بِهِ، ويُطاعَ، لا أَنْ يَكْفُرَ بِهِ ويُعْصى[1]، فَتَسْمِيَتُهُ ﷺ بِهَذا الاِسْمِ تَعْلِيلٌ كافٍ لِوُجوبِ طاعَتِهِ ولِعِظَمِ جُرْمِ مَن عَصاهُ، وفيهِ تَهْوِيلٌ لِأَمْرِ عِصْيانِهِ[2].

بلاغة الإطناب في الآية:

عـلَّـة الـكـفـر عصيان الرَّسول ﷺ وعـــدم طاعته

في الإِطْنابِ بِذِكْرِ الخاصِّ بَعْدَ العامِّ في قَوْلِهِ: ﴿كَفَرُواْ وَعَصَوُاْ ٱلرَّسُولَ﴾ دليلٌ على تَشْرِيفِ الرَّسولِ والتَّنْوِيهِ بالرِّسالَةِ الَّتي هيَ أَشْرَفُ ما تَحَمَّلَها الإِنْسانُ مِنَ اللّه تَعالَى؛ إِذْ هيَ سَبَبُ السَّعادَةِ الدُّنْيَوِيَّةِ والأُخْرَوِيَّةِ؛ لِأَنَّ كُفْرَهُمْ يَدْخُلُ فيهِ عِصْيانُهُمْ لَهُ ﷺ، فَلو أَطاعوهُ؛ ما كَفَرُوا، ولَكِنَّهُ ذَكَرَ الخاصَّ: وهوَ عِصْيانُهُمْ لِلرَّسولِ، بَعْدَ الْعامِّ: وهوَ كُفْرُهُمْ؛ تَشْرِيفًا لَهُ ﷺ وكَأَنَّ عِصْيانَهُمْ لَهُ يُعادِلُ كُلَّ كُفْرِهِمْ؛ لِبَيانِ عِظَمِ مَكانَتِهِ وخَطَرِ مُخالَفَتِهِ.

فـــي الـعـطـف بـيـــانٌ لـعـدم المحاسبة على الكفر حسبُ، بل على جميع مـشـمـولاتـه ومنه عصيانهم الرَّسول

وَمِمَّا يَدُلُّ على خَطَرِ العِصْيانِ عَطْفُ جُمْلَةِ: ﴿وَعَصَوُاْ ٱلرَّسُولَ﴾، على جُمْلَةِ صِلَةِ المَوْصولِ: ﴿كَفَرُواْ﴾، بِطَرِيقِ الْوَصْلِ بِجامِعِ كَوْنِهِما خَبَرِيَّتَيْنِ، وفِعْلاهُما ماضِيانِ، وأَهَمُّ مِنْ ذَلِكَ الْجامِعُ الْمَعْنَوِيُّ، حَيْثُ يُبَيِّنُ الْحَقُّ - ﷻ - دِقَّةَ حِسابِ هَؤُلاءِ الْكافِرِينَ، فَلا يُحاسِبونَ عَلَى كُفْرِهِمْ فَقَطْ، بَلْ حَتَّى عَلَى فُروعِهِ، وأَهَمُّها عِصْيانُهُمْ لِلرَّسولِ ﷺ فَهوَ كُفْرٌ أَوْ نَوْعٌ مِنَ الإِثْمِ يُعادِلُ الْكُفْرَ؛ لِهَذا عُطِفَتْ جُمْلَةُ ﴿وَعَصَوُاْ﴾ عَلَى جُمْلَةِ ﴿كَفَرُواْ﴾، وقَدْ حَسَّنَ الْعَطْفَ أَنَّهُما مِنْ قَبِيلِ الإِخْبارِ مِنَ اللّه[3] ﷻ.

دَلالَةُ الكِنايَةِ عَنِ النِّسْبَةِ في الآية:

تَصِفُ الآيَةُ الْكَرِيمَةُ: ﴿لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ

(1) أبو حيان، البَحْرُ المُحيط: 3/644 - 645.
(2) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 1/698، والآلوسي، روح المعاني: 3/34.
(3) أبو حيان، البحر المحيط: 3/645، والبِقاعيُّ، نَظْمُ الدُّرَر: 5/283.

حَدِيثًا﴾ الْأَحْوالَ النَّفْسيَّةَ لِطُغاةِ الدُّنْيا وعُصاتِها يَوْمَ لا يَنْفَعُ مالٌ ولا بَنونَ، فَيَتَمَنَّوْنَ لَوْ كانوا تُرابًا مِثْلَ الْأَرْضِ، أَوْ لَوْ دُسُّوا فيها، ولَمْ يَبْقَ لَهُمْ أَثَرٌ عَلَى سَطْحِها، حَتَّى تَكونَ مُسْتَوِيَةً تَمامًا بِهِمْ، فَيَخْتَفي أَثَرُهُمْ، ونِسْبَةُ أُمْنِيَتِهِمْ في التَّسْوِيَةِ بِالأَرْضِ نِسْبَةٌ كنائيَّةٌ؛ لِأَنَّ ما يَهُمُّهُمْ هوَ تَسْوِيَةُ أَجْسادِهِمْ بِها، كَما جاءَ في مَوْضِعٍ آخَرَ: ﴿يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا ﴿٤٠﴾﴾ [النبأ: 40]، فَسَلَكَ الْأُسْلوبُ طَريقَةَ الْكِنايَةِ عَنْ صَيْرورَتِهِمْ تُرابًا بِالكِنايَةِ الْمَطْلوبِ بِها نِسْبَةٌ، كَقَوْلِهِمْ: الْمَجْدُ بَيْنَ ثَوْبَيْهِ[1]، وَمِمَّا يَزيدُ هَذِهِ الكِنايَةَ وُضوحًا مَجيءُ ضَميرِ الْغائِبِ في ﴿بِهِمُ﴾ الَّذي يُشْعِرُ بِعُمْقِ صِلَةِ هَؤُلاءِ النَّادِمينَ بِتَسْوِيَةِ الْأَرْضِ، حَتَّى شاعَ مِنْهُ مَعْنَى: الْحَسْرَةِ والأَلَمِ والخُسْرانِ والنَّدَمِ.

في الكنايةِ بيانٌ لشدَّةِ خَوْفِ الكافِرينَ وحَسْرَتِهِمْ ونَدَمِهِم على التَّفْريطِ في الإيمانِ

توجيه القراءات في ﴿تُسَوَّىٰ﴾:

قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وعاصم: ﴿تُسَوَّىٰ﴾ بضمِّ التَّاء وتخفيف السِّين مبنيًّا للمفعول، وهو مضارع سوَّى، وقرأ نافع، وابن عامر: بفتح التَّاء وتشديد السِّين، وتشديد الشين: ﴿تَسَّوَّىٰ﴾ وأصله: تتسوَّى، فأدغمتِ التَّاء في السِّين، وهو مضارع تسوَّى، وقرأ حمزة والكسائيُّ: ﴿تَسَوَّىٰ﴾ بفتح التَّاء وتخفيف السِّين، وذلك على حذف التَّاء؛ إذ أصله: تتسوَّى، وهو مضارع تسوَّى، فعلى قراءة من قرأ ﴿تَسَوَّىٰ﴾، و﴿تَسَّوَّىٰ﴾ فتكون الأرض فاعلة، أي: يتمنَّون لو تنشقُّ الأرضُ، ويكونون فيها، وتنسوي هي في نفسها عليهم، والباء بمعنى: على[2].

لهول ما يرونه يتمنَّون أنْ يعودوا أمواتًا وتسوَّى عليهم الأرض

أو المعنى: يتمنَّون لو تسوَّى هي معهم في أنْ يكونوا ترابًا كالبهائم، فجاء اللَّفظ على أنَّ الأرض هي المسوِّية معهم، والمعنى: إنَّما هو أنَّهم يستوون مع الأرض، وعلى قراءة من قرأ: ﴿تُسَوَّىٰ﴾ مبنيًّا للمفعول،

ويحتمل تمنِّيهم أن يختلطوا بالأرض، فيكونوا مادَّة التَّسوية ترابًا، أو غيره

(1) ابنُ عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 5/59.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/263.

فالمعنى: أنَّ اللّه يفعل ذلك على حسب المعنيين السَّابقين، وقيل: المعنى: لو دفنوا؛ فتسوَّى بهم الأرض، كما تسوَّى بالموتى، ومعنى هذا القول هو معنى القول الأوَّل، وقيل: المعنى: لو تعدَّل بهم الأرض[1]، فالتَّعبير بـ (الباء) دون (على) للدَّلالة على تمنِّيهم أن يختلطوا بالأرض، فيكونوا مادَّة التَّسوية، لا أن تسوَّى عليهم فقط؛ وذلك لهول ما يرونه من عذاب.

بلاغة التَّعبير عن الفاصلة بجملة التَّمنِّي:

تمنِّي الخفاء تسويةً بالأرض منتهى صور الحسرة والنَّدامة

عُطِفَتْ جُمْلَةُ الفاصلة: ﴿وَلَا يَكۡتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثٗا﴾ عَلَى الْجُمْلَةِ الاسْتِئْنافيَّةِ الْأُولَى: ﴿يَوۡمَئِذٖ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ بِكُلِّ ما فيها وفي صِلَةِ فاعِلِها، حَيْثُ تَمَنَّوْا أَنْ يُخْفَوْا، ولا يُظْهَروا، حَتَّى لا يُسْأَلوا، فَلا يَضْطَرُّوا إلَى الاعْتِرافِ الموبِقِ إلَى الْكِتْمانِ الْمُهْلِكِ[2]، فالْمُناسَبَةُ الْمَعْنَوِيَّةُ الَّتي بَيْنَ الْجُمْلَتَيْنِ: الاتِّحادُ في "الْخَفاءِ"، خَفاؤُهُمْ مِنْ حَيْثُ الْأَجْسادُ، كَما في قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿لَوۡ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلۡأَرۡضُ﴾، وخَفاؤُهُمْ مِنْ حَيْثُ الْكَلامُ في قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿وَلَا يَكۡتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثٗا﴾، ومن حُسْنِ الْجَمْعِ بَيْنَ الْجُمْلَتَيْنِ أَنَّ كِلْتَيْهِما مِنْ قَبِيْلِ التَّمَنِّي.

❁ الفُرُوقُ الْمُعْجَمِيَّةُ:

الإيتاء والإعْطاء:

الإيتاءُ أَقْوى مِنَ الإعْطاءِ

لا يَكادُ أَهْلُ اللُّغَةِ يُفَرِّقونَ بَيْنَ الْإيتاءِ والإعْطاءِ، لَكِنْ نَجِدُ في الاسْتِعْمالِ الْقُرْآنيِّ بَعْضَ الْفُروقِ الدَّقيقَةِ الَّتي توحي بِبَلاغَةِ الْقُرْآنِ وعَظَمَتِهِ، وذَلِكَ مِنْ حَيْثُ إنَّ الْإيتاءَ أَقْوَى مِنَ الْإعْطاءِ في إثْباتِ مَفْعولِهِ؛ لِأَنَّ الْإعْطاءَ، لَهُ فِعْلٌ مُطاوِعٌ، تَقولُ: أَعْطاني، فَعَطوتُ، ولا يُقالُ في الْإيتاءِ: آتاني، فَأَتَيْتُ، وإنَّما يُقال: آتاني، فَأَخَذْتُ، والفِعْلُ الَّذي لَهُ فِعْلٌ مُطاوِعٌ أَضْعَفُ في إثْباتِ مَفْعولِهِ مِنَ الَّذي لا مُطاوِعَ له[3].

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/263.
(2) ابنُ عاشور، التّحرير والتّنْوير: 5/60.
(3) السُّيوطيُّ، الإتْقانُ في عُلومِ القُرْآن: 2/367 - 368، والكَفَويُّ، الكُلِّيّاتُ، ص: 212.

فالإيتاءُ أَقْوى مِنَ الإعْطاءِ، قالَ تَعالَى: ﴿تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ﴾ [آل عمران: 26]؛ لِأَنَّ المُلْكَ شَيْءٌ عَظيمٌ لا يُعْطاهُ إلَّا مَنْ لَهُ قوَّةٌ، وكَذا: ﴿يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ﴾ [البقرة: 269]، والحِكْمَةُ شَيءٌ عَظيمٌ أَيْضًا، وقال: ﴿ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي﴾ [الحجر: 87]؛ لِعِظَمِ القُرْآنِ وشَأْنِه[1].

وَمِنَ الْفُروقِ أَيْضًا: أَنَّ الْإيتاء فيهِ مَعْنَى: الْوُجوبِ والالتِزام، أَمَّا الْعَطاءُ؛ فَفيهِ مَعْنَى: التَّفَضُّلِ والإكْرام، فَبَعْدَ أَنْ أَسْعَد اللّه الْمُؤْمِنينَ بِدُخولِ الْجَنَّةِ؛ قالَ: ﴿عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ۝١٠٨﴾ [هود: 108]، وقال: ﴿عَطَآءً حِسَابًا ۝٣٦﴾ [النبأ: 39]، ومِنَ الْفُروقِ أَيْضًا: أَنَّ العَطاءَ يَكونُ في الْأَشْياءِ الْمادِّيَّةِ، ويُفيدُ التَّكْرارَ: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١﴾ [الكوثر: 1]، أَيْ: سَيَتَكَرَّرُ شُرْبُكَ - يا مُحَمَّدُ ﷺ - كَثيرًا مِنْ نَهْرِ الْكَوْثَرِ، ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ۝٥﴾ [الضحى: 5]، أَيْ: سَيَكونُ عَطاءُ اللّه لَكَ مُكَرَّرًا، حَتَّى تَبْلُغَ دَرَجَةَ الرِّضا[2].

فـي الإيـتـاءِ: وُجوبٌ والتِزام، وفي الإعْـطـاءِ: تَفَضُّلٌ وإكْرام

أَمَّا الإيتاء؛ فَفي الأَشْياءِ المادِّيَّةِ والمَعْنويَّةِ، قال سُبْحانَهُ: ﴿۞وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ﴾ [الأنبياء: 51]، وقال: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ۝٢٠﴾ [ص: 20][3].

وَمِنَ الْفُروقِ أَيْضًا: أَنَّ الْإعْطاءَ دَليلُ التَّمَلُّكِ دونَ الْإيتاءِ[4]، فالإيتاءُ: يَشْمَلُهُ النَّزْعُ، بِمَعْنَى: أَنَّهُ لَيْسَ تَمْليكًا، ولَكِنَّ الْعَطاءَ تَمْليكٌ، والإيتاءُ: لَيْسَ بِالضَّرورَةِ تَمْليكًا؛ لِأَنَّ الْإعْطاءَ: هوَ إيصالُ الشَّيْءِ إلَى الْآخِذِ لَهُ، وكَثُرَ اسْتِعْمالُ الْإعْطاءِ، حَتَّى صارَ لا يُطْلَقُ إلَّا عَلَى التَّمْليكِ، فَيُقال: أَعْطاهُ مالاً؛ إذا مَلَّكَهُ إيَّاهُ.

الإعْـطـاءُ دَليـلُ التَّمَلُّكِ

ومن هنا: فاختيار لفظ الإيتاء المتضمِّن معنيي: القوّة، والوجوب

(1) السُّيوطيُّ، الإتْقانُ في عُلومِ القُرْآن: 2/367، والكفوي، الكُلِّيَّاتُ، ص: 212.
(2) الكفوي، الكُلِّيَّاتُ، ص: 212، والسُّيوطيُّ، الإتْقانُ في عُلومِ القُرْآنِ: 2/367.
(3) صَلاح لاشين، مِنْ أَسْرارِ التَّعبيرِ في القُرْآنِ الكَريمِ، ص: 71 - 77.
(4) الكفوي، الكُلِّيَّات: 1/360، والعسكري، الفروق اللغوية، ص: 86.

في قوله: ﴿وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ يناسب سياق الآية الدَّالِّ على قوَّة الأجر الممنوح، ووجوبه لمستحقِّيه، والالتزام بذلك، ويرسِّخه لفظا: ﴿مِن لَّدُنْهُ﴾، و﴿عَظِيمًا﴾؛ لأنَّ كلَّ عطايا ربِّنا عظيمة متحقِّقة الوقوع.

(لَدُنْهُ)، و(عِنْدَهُ)، و(لَدَيْهِ):

(عِنْدَ) لِلْحُضورِ الزَّمانيِّ والمَكانيِّ، وهـيَ أَوْسَـعُ الظُّروفِ

عِنْد: اسْمٌ لِمَكانِ الحُضورِ الحسِّيِّ، نَحْو: ﴿فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ﴾ [النَّمل: 40] والمَعْنَويِّ، نَحْو: ﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [النَّمل: 43]، وتَأْتي أَيْضًا لِزَمانِه، نَحْوُ: جِئْتُكَ عِنْدَ طُلوعِ الشَّمْسِ، ولِلْقُرْبِ كَذَلِكَ، نَحْو: ﴿عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴿١٥﴾﴾ [النَّجم: 15] ولا تَقَعُ إلَّا ظَرْفًا أَوْ مَجْرورَةً بِمِنْ، وهي أَوْسَعُ الظُّروفِ.

وَتُعاقِبُ (عِنْدَ) كَلِمَةُ (لَدُنْ)؛ إذا كانَ المَحَلُّ مَحَلَّ ابْتِداءِ غايَةٍ، نَحْوُ: جِئْتُ مِنْ لَدُنْهُ، وقَدِ اجْتَمَعَتا في قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾﴾ [الكَهْف: 65].

وَتَفْتَرِقُ (لَدُنْ) عَنْ (عِنْدَ) مِنْ عِدَّةِ أَوْجُهٍ:

أَوَّلًا: إذا كانَ المَحَلُّ لَيْسَ مَحَلَّ ابْتِداءِ غايَةٍ؛ فَلا يَصِحُّ أَنْ يُقالَ: (جَلَسْتُ لَدُنْهُ)؛ لِعَدَمِ مَعْنَى الابْتِداءِ هُنا.

ثانيًا: أَنَّ (لَدُنْ) مَبْنِيَّةٌ عَلَى السُّكونِ في لُغَةِ الأَكْثَرينَ.

ثالِثًا: أَنَّ (لَدُنْ) لا تَقَعُ إلَّا فَضْلَةً، يَعْني: لا تَقَعُ عُمْدَةً، فَلا يُقالُ: (السَّفَرُ مِنْ لَدُنْ زَيْدٍ)، بِخِلافِ (عِنْد)؛ فَإِنَّها تَقَعُ عُمْدَةً، كَقَوْلِهِ تَعالَى: ﴿وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌۢ ﴿٤﴾﴾ [ق: 04][1].

(لَدُنْ) لِلْمُلاصِقَةِ وشِدَّةِ الاِقْتِرانِ، وهيَ أَخَصُّ مِنْ (عِنْدَ)

خامِسًا: لَدُنْ تُفيد المُلاصَقَةَ وشِدَّةَ الاقْتِرانِ؛ لِذا تَرِدُ في القُرْآنِ مُقْتَرِنَةً كَثيرًا بِالدُّعاءِ، كَقَوْلِهِ تَعالَى: ﴿وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٨﴾﴾ [آلُ عِمْرانَ: 8]، وقَوْلُهُ: ﴿رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ۖ

(1) ابْنُ هِشام، مُغْني اللَّبيب، ص: 206 - 209، وخالِدُ الأَزْهَريُّ، شَرْحُ التَّصْريحِ على التَّوْضيح: 1/714، والكَفَويُّ، الكُلِّيَّاتُ، ص: 633، 634.

إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٨﴾ [آلُ عِمْرانَ: 38] وكَقَوْلِهِ: ﴿فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾﴾ [مَرْيَمُ: 5].

فَبِهَذِهِ الاعْتِباراتِ تَكونُ (لَدُنْ) أَخَصَّ مِنْ (عِنْدَ).

فَيَتَحَصَّلُ مِمَّا سَبَقَ: أَنَّ (لَدُنْ) أَبْلَغُ مِنْ (عِنْدَ) وأَخَصُّ، و(لَدُنْ) كَذلِكَ أَقْوى مِنْ (عِنْدَ) في الدَّلالَةِ على القُرْبِ، ولذلك اختيرَ لفظًا في الآية.

(لَدَى) أَمْكَنُ مِنْ (عِنْد)

أَمَّا (لَدَى)؛ فَهيَ مِثْلُ (عِنْد) مُطْلَقًا إلَّا أَنَّ جَرَّها مُمْتَنِعٌ، بِخِلافِ جَرِّ (عِنْد)، فـ (عِنْد) تَدْخُلُ عَلَيْها (مِنْ)، فَتَجُرُّها، وأَمَّا (لَدَى)؛ فَلا، وأَيْضًا (عِنْد) أَمْكَنُ مِنْ (لَدَى)، مِنْ وجْهَيْنِ:

أَوَّلًا: أَنَّها تَكونُ ظَرْفًا لِلْأَعْيانِ والمَعاني، تَقولُ: (هَذا الْقَوْلُ عِنْدي صَوابٌ)، ويَمْتَنِعُ ذَلِكَ في (لَدَى)، فَلا يُقالُ: (هَذا الْقَوْلُ لَدَيَّ صَحيحٌ)، وإنَّما يُقال: عِنْدي.

ثانيًا: أَنَّهُ لا يُشْتَرَطُ الحُضورُ في (عِنْد)، فَتَقول: (عِنْدي مالٌ)؛ وإنْ كانَ غائِبًا عَنْكَ، بِخِلافِ (لَدَى)، فَإن قُلْتَ: لَدَيَّ مالٌ، لا بُدَّ أَنْ يَكونَ حاضِرًا في جَيْبِكَ أَوْ نَحْوِ ذَلِكَ، قَريبًا مِنْكَ[1].

المجيء والإتْيان:

المَجيءُ إتْيانٌ مُحَقَّقٌ

الْإِتْيانُ: مَجيءٌ بِسُهولَةٍ، وهوَ بِدايَةُ المَجيءِ[2]، فَإذا اكْتَمَلَ، وبَلَغَ مَقْصَدَهُ مِنْ مَكانٍ أَوْ زَمانٍ أَوْ شَخْصٍ؛ أَصْبَحَ مَجيئًا، فالمَجيءُ: هوَ إتْيانٌ مُحَقَّقٌ بَعيدٌ عَنْ عَوامِلِ النَّقْصِ، قالَ تَعالَى: ﴿قَالُوٓاْ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَاۚ﴾ [الأَعْرافُ: 129]، فالإتيانُ: بِدايَةُ المَجيءِ زَمانيًّا أَوْ مَكانيًّا، وقَدْ لا يَتِمُّ، فَلا يَكونُ مَجيئًا، أَمَّا المَجيءُ؛ فَهوَ إتْيانٌ

(1) ابْنُ الشَّجَرِيِّ، أَمالي ابْنِ الشَّجَرِيِّ، تح: مَحْمود الطَّناحي: 1/224، والسُّيوطيُّ، الأَشْباهُ والنَّظائِر: 2/185.

(2) الرّاغِبُ، المُفْرداتُ، ص: 283.

مُحَقَّقٌ قَريبٌ زَمانيًّا ومَكانيًّا[1]، وبه تتكشَّف علَّة اختيار لفظ المجيء في قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا﴾ بوصفه وجهَ تشريفٍ للنَّبيِّ ﷺ ومن قبله الشُّهداء على الأمم قبله، لكمال المقصد منه، وبعده عن عوامل النَّقص المناسب لصفات الأنبياء والرُّسل عليهم السلام.

الشَّهيد والشَّاهِد:

الشَّهادَةُ في أَصْلِ اللُّغَةِ، مَعْناها: الحُضورُ، وفي الاصْطِلاحِ: هيَ خَبَرٌ قاطِعٌ، صادِر عَنْ عِلْمٍ حَصَلَ بِمُشاهَدَةِ بَصَرٍ، أَوْ بَصيرَةٍ[2]، وتَنْقَسِمُ مِنْ حَيْثُ الطَّرَفُ الَّذي يُؤَدِّيها قِسْمَيْنِ: شَهادَةَ شاهِدٍ وشَهادَةَ شَهيدٍ، والفَرْقُ بَيْنَهُما:

الشَّاهِدُ يَشْهَدُ انطِلاقًا مِنْ خِبْرَتِهِ ومَعْرِفَتِهِ، والشَّهيدُ يَشْهَدُ انطِلاقًا مِنْ سَمْعِهِ ورُؤْيَتِهِ

أَنَّ شَهادَةَ الشَّاهِدِ: هيَ شَهادَةُ مَعْرِفَةٍ وخِبْرَةٍ مُكْتَسَبَةٍ، ومِثالُها قَوْلُهُ تَعالَى في قِصَّةِ يوسُفَ عليه السلام: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٢٦ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝٢٧﴾ [يوسُفُ: 26 - 27]، فَهَذا الَّذي شَهِدَ مِنْ أَهْلِ امْرَأَةِ الْعَزيزِ لَمْ يَشْهَدِ الْواقِعَةَ بِنَفْسِهِ حَتَّى يَكونَ شَهيدًا عَلَيْها، ولَكِنَّهُ شَهِدَ مِنْ واقِعِ خِبْرَتِهِ بِالأَدِلَّةِ، ومَعْرِفَتِهِ بِكَيْفِيَّةِ سَيْرِ الْأُمورِ، ومَنْطِقِيَّةِ الْأَحْداثِ بِنَتائِجِها[3]، أَمَّا شَهادَةُ الشَّهيدِ؛ فَهيَ شَهادَةٌ حُضوريَّةٌ، تَعْتَمِدُ عَلَى السَّمْعِ والبَصَرِ، ومِثالُها قَوْلُهُ تَعالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ﴾، إلى قوله: ﴿وَٱسْتَشْهِدُواْ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ﴾، وقوله: ﴿وَأَشْهِدُوٓاْ إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ﴾ [البَقَرَةُ: 282]، فَنُلاحِظُ هُنا: أَنَّ

(1) جبل، المُعْجَمُ الاشْتِقاقيُّ المُؤَصَّل: 1/264. وأودُّ التنبيه على أنَّ مَنْ تَكَلَّمَ عَنْ صِفَةِ المَجيءِ والإتْيانِ في بابِ الأَسْماءِ والصِّفاتِ مِنْ مُحَقِّقي أَهْلِ السُّنَّةِ، يَجْعَلُهُما بِمَعْنى واحِدٍ، ويَسْتَدِلُّ لَهُما بِالأَدِلَّةِ نَفْسِها دونَ تَفْريقٍ، فالفَرْقُ المذكور في المتن غَيْرُ وارِدٍ في بابِ الصِّفاتِ، فَقَوْلُهُ تَعالَى: ﴿أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ﴾ [الأَنْعامُ: 158] كقوله تعالى: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾ [الفَجْرُ: 22].

(2) الراغب، المفردات: (شهد).

(3) وهَذا أَحَدُ وُجوهِ تَفْسيرِ وصْفِ الشَّاهِدِ في القِصَّةِ مِنْ أَقْوالِ المُفَسِّرينَ، قال القُرْطُبيُّ لمَّا ذَكَرَ تَحْديدَ هَذا الشَّاهِدِ: وهو الصَّحيحُ في البابِ، القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 6/321.

الَّذي طُلِبَ مِنْهُ أَنْ يَشْهَدَ عَلَى عَقْدِ الْمُدايَنَةِ والمُبايَعَةِ هوَ حاضِرُ الْعَقْدِ، فَهوَ شَهيدٌ، ولَيْسَ بِشاهِدٍ[1]، وقيلَ أَيْضًا: إنَّ الشَّاهِدَ بِمَعْنَى: الْحُدوثِ، والشَّهيدُ بِمَعْنَى: الثُّبوتِ، فَإنَّهُ إذا تَحَمَّلَ الشَّهادَةَ؛ فَهوَ شاهِدٌ بِاعْتِبارِ حُدوثِ تَحَمُّلِهِ، فَإذا ثَبَتَ تَحَمُّلُهُ لَها زَمانَيْنِ أَوْ أَكْثَرَ؛ فَهوَ شَهيدٌ[2].

ويَتَحَصَّلُ مِمَّا تَقَدَّمَ: أَنَّ الَّذي يُؤَدِّي شَهادَتَهُ اِنْطِلاقًا مِنْ خِبْرَتِهِ ومَعْرِفَتِهِ: هوَ شاهِدٌ، ولَيْسَ بِشَهيدٍ، وأَنَّ الَّذي يُؤَدِّي شَهادَتَهُ؛ اِنْطِلاقًا مِنْ سَمْعِهِ ورُؤْيَتِهِ: هوَ شَهيدٌ، ولَيْسَ بِشاهِدٍ؛ ولذلك اختيرَ لفظُ الشَّهيد في الآية لما يتضمَّنه من مبالغة في الشَّهادة بوصفها مبنيَّة على السَّمع والرُّؤية، وهو يناسب مقام رسول الله ﷺ ثبوتًا للصِّفة فيه، وقوَّة تحقُّقٍ، فضلًا عن كونه عاش بين ظهراني قومه، فسمع، وشهد كلَّ شيء بدر منهم إيمانًا أو كفرًا.

(1) الماتُريديُّ، تَأْويلاتُ أَهْلِ السُّنَّة: 2/278.

(2) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 292.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمۡ سُكَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعۡلَمُواْ مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغۡتَسِلُواْۚ وَإِن كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوۡ جَآءَ أَحَدٞ مِّنكُم مِّنَ ٱلۡغَآئِطِ أَوۡ لَـٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمۡ تَجِدُواْ مَآءٗ فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدٗا طَيِّبٗا فَٱمۡسَحُواْ بِوُجُوهِكُمۡ وَأَيۡدِيكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ٤٣﴾ [النِّساء: 43]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

ذِكْرُ الطَّهارَةِ الحِسيَّةِ بَعْدَ الإشارَةِ إلى الطَّهارَةِ المَعْنَويَّةِ

لَمَّا وصَفَ الْوُقوفَ بَيْنَ يَدَيْهِ في يَوْمِ الْعَرْضِ، وبَعْضَ الأَهْوالِ الَّتي تَكونُ فيهِ، وتَضَمَّنَ وصْفُهُ أَنَّهُ لا يَنْجو فيهِ إلَّا مَنْ كانَ طاهِرَ الْقَلْبِ والجَوارِحِ بالإيمانِ بِهِ والطَّاعَةِ لِرَسولِهِ ﷺ؛ وصَفَ الْوُقوفَ بَيْنَ يَدَيْهِ في الدُّنْيا في مَقامِ الْأُنْسِ وحَضْرَةِ الْقُدْسِ الْمُنْجي مِنْ هَوْلِ الْوُقوفِ في ذَلِكَ الْيَوْمِ، أَمَرَ بِالطَّهارَةِ فيهِ عَنِ الْخَبائِثِ الحِسِّيَّةِ[1]، فَقالَ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمۡ سُكَـٰرَىٰ﴾.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿جُنُبًا﴾، أي: إنْ أصابتكم الجَنابةُ، والمُراد بالجنابة: إنزال المنيِّ أو بالتقاء الختانَيْن، ونحو ذلك[2]، وسمِّيت بذلك؛ لكونها سببًا لتجنُّب الصَّلاة شرعًا[3]؛ إذ أنَّ أصل (جَنَبَ) مَعْنيانِ: النَّاحيَةُ، والبُعد[4]، وكَوْنُ الأَصْلِ أَحَدَ جانِبَي الشَّيْءِ أَقْرَبُ، والنَّاحيةُ مُتَفَرِّعَةٌ عَلَيْهِ، والبُعْدُ مَأْخوذٌ مِنْ (أَجْنَبَ): تَرَكَ الجَنْبَ، فَتَكونُ الهَمْزَةُ لإزالَةِ القُرْبِ مِنَ الجَنْبِ، وسُمِّي الإنْسانُ: جُنُبًا؛ لِأَنَّهُ نُهيَ أَنْ يَقْرَب

(1) البِقاعيُّ، نَظْمُ الدُّرَر: 5/284.
(2) الرّاغِبُ، المُفْردات: (جنب).
(3) ابن سيده، المحكم: (جنب)، والكفوي، الكُلّياتُ، ص: 355، ومَحْمود عَبْد المُنْعِم، مُعْجَمُ المُصْطَلَحاتِ والأَلْفاظِ الفِقْهيَّة: 1/541.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (جنب).

مَواضِعَ الصَّلاةِ؛ ما لَمْ يَتَطَهَّرْ[1]، والمعنى هنا: أصابتكم الجنابة، وذلك بإنزال المنيِّ أو بالتقاء الختانَيْن.

2) ﴿عَابِرِى سَبِيلٍ﴾، أي: مارِّين في المساجدِ[2]، أو مُجتازين غيرَ مُقيمين ولا مُطمئنِّين[3]، أو المسافِرينَ[4]، وأَصْلُ العُبورِ: النُّفوذُ والمُضيُّ في الشَّيْءِ[5]، والمعنى هنا: جائزو طريقٍ في المسجد غيرَ مُريدينَ الصَّلاةَ[6].

3) ﴿ٱلْغَآئِطِ﴾: الحدَث، وأصلُ الغائطِ: المطمئنُّ مِن الأرض[7]، وكانَ الرَّجُلُ، إذا أَرادَ التَّبَرُّزَ؛ ارْتادَ غائطًا من الأَرْضِ، يَغيبُ فيهِ عَن أَعْيُنِ النَّاسِ، ثمَّ قيلَ للبُرازِ نفسِهِ، وهوَ الحَدَثُ: غائطٌ كِنايَة عَنهُ؛ إذا كانَ سَبَبًا لَهُ[8].

وأَصْلُ الغَوطِ: اطمئنانٌ وغَوْرٌ[9]، ومعنى ﴿مِّنَ ٱلْغَآئِطِ﴾ هنا، أَيْ: مِنْ قَضاءِ الحاجَةِ[10].

3) ﴿لَٰمَسْتُمُ﴾: كِنايَةٌ عَنِ الجِماعِ[11]، وقيلَ: اللَّمْسُ من غير جماع[12]، وأصْل اللَّمْسِ: تطلُّبُ شيءٍ ومَسيسُهُ أَيضًا[13]، والمَعْنى هُنا: جامَعْتُمْ[14].

4) ﴿فَتَيَمَّمُواْ﴾: تعمَّدوا، واقصدوا، وتوخُّوا[15]، يُقال: تَيَمَّمته، وتأَمَّمْته تَيَمُّمًا، بِمَعْنى واحِد، أَي: توخَّيْته، وقَصَدْتُه، [16] وأَصلُ اليَمِّ: قَصْدُ الشَّيْءِ وتَعَمُّدُهُ[17]، ثمَّ كثر اسْتِعْمالُهم

(1) ابْنُ الأَثيرِ، النِّهايَةُ في غَريبِ الحَديثِ والأَثَر: 1/302.
(2) الزَّبيديُّ، تاجُ العَروس: (عبر).
(3) ابْنُ قُتَيْبَةَ، غَريبُ القُرْآنِ، ص: 127.
(4) الأزهري، تهذيب اللغة: 2/230.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عبر).
(6) السَّمينُ الحَلَبيُّ، عُمْدَةُ الحُفّاظ: 3/23.
(7) الخليل، العين: (باب العين والذال والرّاء).
(8) الزَّبيديُّ، تاجُ العَروس: (غوط).
(9) ابن فارس، مقاييس اللغة: (غوط).
(10) السَّمينُ الحَلَبيُّ، عُمْدَةُ الحُفّاظ: 3/181.
(11) الخليل، العين: (باب العين والجيم والميم معهما).
(12) النَّيسابوريُّ، إيجازُ البَيانِ: 1/241.
(13) ابن فارس، مقاييس اللغة: (لمس).
(14) الأزهري، الزاهر في غريب ألفاظ الشافعي، تح: مسعد السعدني، ص: 36.
(15) ابْنُ قُتَيْبَةَ، غَريبُ القُرْآنِ، ص: 127، والجَوْهَريُّ، الصِّحاح: 5/2064.
(16) الأزهري، تهذيب اللغة: (بابُ اللَّفيفِ من حَرْفِ الميمِ).
(17) ابن فارس، مقاييس اللغة: (يَمَّ).

لهَذِهِ الكَلِمَة حتَّى صار التَّيَمُّم اسْمًا عَلَمًا للطَّهارة التُّرابيَّة الَّتي تشتمل على مسح الوجه واليدين بنيَّة[1].

5) ﴿صَعِيدًا طَيِّبًا﴾، أَيْ: تُرابًا نَظيفًا، والصَّعيدُ: التُّرابُ ووَجْهُ الأَرْضِ[2]، والطَّيِّبُ: خلاف الخبيث، [3] والطَّيِّبُ: الحَلالُ النَّافِعُ الَّذي تَسْتَطيبُهُ النَّفْسُ، والمعنى هنا: ترابٌ لا نجاسة به[4].

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

تُحرَمُ الصَّلاةُ حالَ السُّكْرِ إلَّا بِزوالِهِ، وعِنْدَ الحَدَثِ إلَّا بَعْدَ الطَّهارَةِ المائيَّةِ أَوِ التُّرابيَّةِ

يا أَيُّها الَّذينَ صَدَّقوا بِاللّٰه، واتَّبَعوا رَسولَهُ، لا تُصَلُّوا، وأَنْتُمْ في حالِ سُكْرٍ، حَتَّى تَصْحوا مِنْ سُكْرِكُمْ، وتَفْقَهوا ما تَقولونَ، وكانَ هَذا قَبْلَ تَحْريمِ الْخَمْرِ مُطْلَقًا، ولا تُصَلّوا؛ إِنْ أَصابَكُمْ الْحَدَثُ الْأَكْبَرُ، ولا تَدْخُلوا الْمَساجِدَ أَيْضًا إِلَّا مُجْتازينَ دونَ اسْتِقْرارٍ فيها، حَتَّى تَتَطَهَّروا بِالاغْتِسالِ، وإِنْ أَصابَكُمْ مَرَضٌ لا يُمْكِنُ اسْتِعْمالُ الْماءِ مَعَهُ، أَوْ كُنْتُمْ مُسافِرينَ، يَشُقُّ عَلَيْكُمْ وُجودُ الْماءِ، أو أَحْدَثَ أَحَدُكُمْ، أو جامعتم النِّساء، فلم تجدوا ماءً؛ فاقصدوا ترابًا طاهرًا، إِنَّ اللّٰه كانَ كَثيرَ الْعَفْوِ، يَتَجاوَزُ عَنْ سَيِّئاتِكُمْ، ويَسْتُرُها عَلَيْكُمْ[5].

الإِيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

في النِّداء تنبيهٌ على صِفَةِ الإيمانِ، وعِنايَةٌ بِها بِوصفِه امتِثالًا لِلأَمْرِ واجْتِنابًا للنَّهيِ

بلاغةُ تَصْديرِ خِطابِ المُؤْمنينَ بالنِّداء:

في قَوْلِهِ ﷻ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ نِداءٌ لِلتَّنْبيه، ولا يُنَبَّهُ إِلَّا عَلَى شَيْءٍ مهمٍّ، وإذا وجَّهَ الْخِطابَ لِلْمُؤْمِنينَ؛ فَهوَ لِلْإِغْراءِ والحَثِّ، كَأَنَّهُ يُناديهِمْ بِصِفَةِ إيمانِهِمْ الَّذي يَحْمِلُهُمْ عَلَى امْتِثالِ الْأَمْرِ واجْتِنابِ النَّهْيِ، وأَنَّ الالتِزامَ بِهَذا مِنْ مُقْتَضَياتِ الْإيمانِ، فالكَلامُ خاصٌّ بِكُم

(1) مَحْمود عَبْد الْمُنْعِم، مُعْجَمُ الْمُصْطَلَحاتِ والْأَلْفاظِ الفِقْهيَّة: 1/500، والزَّبيديُّ، تاجُ العَروس: (أمم).
(2) ابنُ عُزَيْرٍ السِّجِسْتانيُّ، غَريبُ القُرْآنِ، ص: 298.
(3) ابْنُ قُتَيْبَةَ، غَريبُ القُرْآنِ، ص: 127، وابن فارس، مقاييس اللغة: (طَيَبَ)، وابْنُ الهائِمِ، التِّبْيانُ في تَفْسيرِ غَريبِ القُرْآنِ، ص: 139.
(4) الرّاغِبُ، المُفْردات: (طيب).
(5) لَجْنَةٌ مِنْ عُلَماءِ الْأَزْهَرِ، الْمُنْتَخَبُ في تَفْسيرِ القُرآنِ الكَريمِ ص: 116، ونُخْبَةٌ مِنْ أَساتِذَةِ التَّفْسيرِ، التَّفْسيرُ الْمُيَسَّرُ ص: 85، وجَماعَةٌ مِنْ عُلَماءِ التَّفْسيرِ، المُخْتَصَرُ في تَفْسيرِ القُرْآنِ الكَريمِ، ص: 85.

- يا أَيُّها المؤمنون - فَتَنَبَّهوا أَن يَشوبَ دينَكُمْ شائِبَةٌ، وأَنَّ الْمُخالَفَةَ فيهِ مِمَّا يُنْقِصُ الإيمانَ[1].

فَصُدِّرَ الْكَلامُ بِحَرْفي النِّداءِ والتَّنْبيهِ؛ لِلْمُبالَغَةِ في حَمْلِهِمْ عَلَى الْعَمَلِ بِموجِبِ النَّهْيِ[2]؛ ولِذا قالَ الصَّحابيُّ الْجَليلُ عَبْدُ اللّٰه بْنُ مَسْعودٍ رضي الله عنه: "إذا سَمِعتَ اللّٰه يَقولُ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾؛ فَأَرْعِها سَمْعَكَ، فَإِنَّهُ خَيْرٌ يَأْمُرُ بِهِ، أَوْ شَرٌّ يَنْهَى عَنْهُ"[3].

سرُّ النَّهي عن القرب دون الفعل:

النَّهْيُ عَنْ قُربانِ الصَّلاةِ حالَ السُّكْرِ للمُبالَغَةِ في النَّهْيِ عَنْ ذلِكَ، ولِلْإشارَةِ إلى ذَمِّ الخَمْرِ

في هَذا النَّهْيِ مَعْنَى التَّنْفيرِ، وفي اخْتيارِ الْفِعْلِ ﴿تَقْرَبُواْ﴾؛ لِدُخولِ النَّهْيِ عَلَيْهِ دونَ "لا تُصَلُّوا"، ونَحْوُهُ؛ إشارَةٌ إلى أَنَّ تِلْكَ حالَةٌ مُنافيَةٌ لِلصَّلاةِ، وصاحِبُها جَديرٌ بِالابْتِعادِ عَنْ أَفْضَلِ عَمَلٍ في الْإِسْلامِ، وهوَ عَلَى هَذِهِ الْحالِ، بَلْ هوَ مُطالَبٌ بِالابْتِعادِ حَتَّى مِنْ مَواضِعِها مِنَ الْمَساجِدِ والْمُصَلَّياتِ[4]، فَبالَغَ في النَّهْيِ عَنْ أَنْ يُصَلِّيَ الْمُؤْمِنُ - وهوَ سَكْرانُ - بِقَوْلِهِ: ﴿لَا تَقْرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَـٰرَىٰ﴾؛ لِأَنَّ النَّهي عن قربان الصَّلاة أَبْلَغُ مِنْ قَوْلِهِ: لا تُصَلُّوا، وأَنْتُمْ سُكارَى، ومِنْ أَمْثالِ هَذا الْأُسْلوبِ في الْقُرْآنِ الْكَريمِ قَوْلُهُ تَعالَى: ﴿وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓ﴾ [الإسراء: 32]، ﴿وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلْفَوَٰحِشَ﴾ [الأنعام: 151]، ﴿وَلَا تَقْرَبُواْ مَالَ ٱلْيَتِيمِ﴾ [الأنعام: 151]، فَتَوْجيهُ النَّهْيِ إلى قُرْبانِ الصَّلاةِ مَعَ أَنَّ الْمُرادَ هوَ النَّهْيُ عَنْ إقامَتِها؛ لِلْمُبالَغَةِ في النَّهْيِ[5].

---

(1) ابْنُ عُثَيمين، تَفْسيرُ ابْنِ عُثَيْمين: 3/410.

(2) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 1/699.

(3) أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ، الزُّهْدُ، تح: مُحَمَّد شاهين، ص: 130، وجَوَّدَ أَحْمد شاكر إسْنادَهُ. ينظر: أحمد محمَّد شاكر، عُمْدَةُ التَّفْسيرِ عَنِ الحافِظِ ابْنِ كَثير: 1/619، وأَوْرَدَهُ ابْنُ كَثير في تَفْسيرِهِ مَأْثورًا عَنِ ابْنِ مَسْعودٍ وغَيْرِهِ مِنَ السَّلَفِ ينظر: ابْنُ كَثيرٍ، تَفْسيرُ القُرْآنِ العَظيم: 1/200.

(4) عَلى قَوْلِ مَنْ قالَ مِنْ أَهْلِ التَّفْسيرِ: إنَّ الصَّلاةَ هُنا يُرادُ بِها الْمَسْجَدُ، أَبو الحَسَنِ الواحِديُّ، الوَجيزُ في تَفْسيرِ الكِتابِ العَزيزِ، تح: صَفْوان داوودي، ص: 265، والشَّوكانيُّ، فَتْحُ القَديرِ: 1/541.

(5) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 1/699، وأبو حيان، البحر المحيط: 3/648، وإسْماعيل حَقّي الإسْتانْبولي، روحُ البَيان: 2/212.

فائدة التَّعبير بالجملة الاسميَّة:

النَّهي عن الملذَّات من الموبقات يتطلَّب مزيدَ المؤكِّدات

أكَّدَ تعالى النَّهْيَ عن القربان بمَجيء الْجُمْلَةِ الاسْميَّةِ الْحاليَّةِ: ﴿وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ﴾، المصدَّرة بضمير الخطاب (أنتم) الَّتي أَكَّدتِ التَّحْذيرَ من عَدَمِ الْقُرْبِ، والنَّهْيَ عَنْ تِلْكَ الْحالِ الْمُنافيَةِ؛ لِتَمامِ الْعَقْلِ والمَشاعِرِ؛ لِأَنَّ السُّكْرَ عِلَّةٌ تَلْحَقُ الْعَقْلَ[1]، وصاحِبُها جَديرٌ بِالابْتِعادِ عَنْ أَفْضَلِ الْأَعْمالِ، ومِنْ هُنا كانَتْ مُؤْذِنَةً بِتَغْييرِ شَأْنِ الْخَمْرِ والتَّنْفيرِ مِنْها؛ لِأَنَّ الْمُخاطَبينَ يَوْمَئِذٍ هُمْ أَكْمَلُ النَّاسِ إيمانًا، وأَعْقَلُهُمْ بِالصَّلاةِ، فَلا يَرْمُقونَ شَيْئًا يَمْنَعُهُمْ مِنَ الصَّلاةِ إِلَّا بِعَيْنِ الْاحْتِقارِ[2].

براعة التَّدرُّج في النَّهي:

من رحمة الله تعالى بعباده التَّدرُّج في النَّهي دفعًا للتَّشديد

وفي هذا النَّهي تَدْريبٌ عَلَى تَرْكِها، ولِهَذا أَتْبَعها بِقَوْلِهِ: ﴿حَتَّىٰ تَعْلَمُواْ مَا تَقُولُونَ﴾؛ إشارَةً لِذَمِّ الْخَمْرِ والتَّنْفيرِ مِنْها، وتَدْريجًا في تهيئة النُّفوسِ لِتَرْكِها، فَحالُ الثَّمِلِ كَحالِ الْمَجْنونِ، فَلَمْ يَشَأِ الرَّبُّ الرَّحيمُ التَّشْديدَ عَلَى الْمُؤْمِنينَ في أَوَّلِ أَمْرِ تَحْريمِ الْخَمْرِ - كَما هوَ مَعْلومٌ - وذَلِكَ لِعَدَمِ الاسْتِطاعَةِ، بَلْ جَعَلَ ذَلِكَ بِالتَّدْريجِ، وذَلِكَ بِالتَّمْرينِ عَلَى تَرْكِها في أَوْقاتِ الصَّلَواتِ، وهوَ تَعْريضٌ بِالنَّهْيِ عَنِ السُّكْرِ بِالْكُلِّيَّةِ؛ لِكَوْنِهِمْ مَأْمورينَ بِالصَّلاةِ في الْأَوْقاتِ الْخَمْسَةِ مِنَ اللَّيْلِ والنَّهارِ[3]، وهَذِهِ دَرَجَةٌ مِنْ تِلْكَ الدَّرَجاتِ، أَتَى النَّهْيُ فيها عَلَى جِهَةِ الْوَعْظِ والإِرْشادِ بِتَعْليلِ سَبَبِ النَّهْيِ، وإِنَّما نَفَّرَهُمُ اللهُ مِنْ هَذا الْوَضْعِ تَهْيِئَةً لَهُمْ لِاجْتِنابِها وتَرْكِها عِنْدَ تَحْريمِها.

نكتة إيثار لفظ القول على الكلام والفعل:

قوله: حتى تعلموا ما تقولون غاية للنَّهي وإيماء إلى علَّته، وخصَّصَ (القولَ) في: ﴿حَتَّىٰ تَعْلَمُواْ مَا تَقُولُونَ﴾ دون الكلام، ولم

(1) الزَّمَخْشري، الكشاف: 2/81، وابن عطية، المُحَرَّرُ الوَجيز: 2/57.
(2) ابنُ عاشور، التَّحْرير والتَّنْوير: 5/61.
(3) ابْنُ كَثيرٍ، تَفْسيرُ القُرْآنِ العَظيم: 2/310.

يَقُلْ: (حتى تعلموا ما تتكلَّمون)؛ وذلك لعموم القول؛ إذ يُطلق على اللَّفظ المركَّب، والمفرد، فيتناول المفردات كلَّها[1]، فيندرج تحته كلُّ لفظٍ مفهوم، وغير مفهوم، وهو يناسب حالة السَّكران، وهذيانه بما يعلم من الكلام وما لا يعلم، "واكتفى بقوله: ﴿تَقُولُونَ﴾ عن (تفعلون)؛ لظهور أنَّ ذلك الحدَّ من السُّكر قد يفضي إلى اختلال أعمال الصَّلاة؛ إذ العمل يسرع إليه الاختلال باختلال العقل قبل اختلال القول[2].

إيثار اللَّفظ الدَّالِّ على العموم؛ لأنَّ المغيَّب بالسُّكر يتلفَّظُ بما يُفهم، وما لايُفهم

دَلالَةُ تقديم المُسْتثنى قبل تمام الكلام:

الاسْتِثْناءُ في قَوْلِه: ﴿وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِى سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُواْ﴾ اسْتِثْناءٌ مِنْ عُموم الْأَحْوالِ الْمُسْتَفادِ مِنْ وُقوعِ ﴿جُنُبًا﴾، وهوَ حالٌ نَكِرَةٌ في سياقِ النَّفْيِ، و﴿عَابِرِى﴾: مُشْتَقٌّ مِنَ الْعَبْرِ: وهوَ القَطْعُ والاجْتيازُ، و﴿عَابِرِى سَبِيلٍ﴾ مارِّينَ في طَريقٍ، والمُرادُ مِنْهُ: طَريقُ الْمَسْجِدِ، فَيَكونُ في الْآيَةِ رُخْصَةٌ في مُرورِ الْجُنُبِ في الْمَسْجِدِ؛ إذا كانَ قَصْدُهُ الْمُرورَ لا الْمُكْثَ، وفيهِ مُراعاةٌ لِحاجَةِ النَّاسِ ودَفْعٌ لِلْحَرَجِ عَنْهُمْ، فَفي تَقْديمِ الْمُسْتَثْنَى ﴿عَابِرِى﴾ قَبْلَ تَمامِ الْكَلامِ الْمَقْصودِ قَصْرُهُ بِقَوْلِهِ: ﴿حَتَّىٰ تَغْتَسِلُواْ﴾، والغَرَضُ مِنْهُ: الاهْتِمامُ بِهِ[3].

في تقديم المُسْتثنى بَيانٌ للرُّخْصَةِ عِنْدَ الحاجَةِ مَعَ وُجودِ المانِعِ

ويجوز في ﴿جُنُبًا﴾ أن يكون صفة، وتكون (إلَّا) بمعنى: (غير)، والفرق بين أن يكون حالًا وأن يكون صفةً: هو أنَّه - على الحال - يفيد أنَّه لا يجوز قربان الصَّلاة في حال الجنابة قطُّ؛ إلَّا أن يكون مسافرًا؛ فدلَّ الحصر على أنَّ العذر غير متعدِّد، ثُمَّ مجيء قوله: ﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ﴾ يبطل معنى: الحصر، بخلافه إذا جعل صفة، فيكون المعنى: لا تقربوا الصَّلاة جنبًا مقيمين، فيحسن: ﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ﴾؛ لجواز ترادف القيد... فدلَّ مفهوم

في الصِّفة إباحة قربان الصَّلاة للجُنب عند طرآن السَّفر

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/28.
(2) ابنُ عاشور، التّحرير والتّنْوير: 5/61.
(3) أبو حيان، البحر المحيط: 3/665، وابنُ عاشور، التّحرير والتّنْوير: 5/65.

الوصف على جواز قربان الصَّلاة للجنب عند طرآن السَّفر... والمعنى: لا تقربوا الصَّلاة مع هذا القيد حتى تغتسلوا، إلا أن تكونوا مسافرين، فإنَّ الحكم حينئذٍ غير ما ذكر، وهو جواز قربان الصَّلاة مع كونه جنبًا فاقدًا للماء"[1].

سرُّ العدول من الجمع إلى الإفراد:

العُدولُ إلى الإفْرادِ بَعْدَ مُخاطَبَةِ الجَمْعِ؛ للإشارَةِ إلى التَّسَتُّرِ الفِطْريِّ لدى قَضاءِ الحاجَةِ

الآيَة تَحْمِلُ نِداءً لِجَماعَةٍ مِنَ الْمُؤْمِنينَ، وتُخاطِبُهُمْ بِصيغَةِ الْجَمْعِ في كافَّةِ التَّفاصيلِ الَّتي حَمَلَتْها عَدا نُقْطَةً واحِدَةً في قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿أَوۡ جَآءَ أَحَدٞ مِّنكُم مِّنَ ٱلۡغَآئِطِ﴾، إسْنادُ الْمَجيءِ مِنْهُ إلَى واحِدٍ مِنَ الْمُخاطَبينَ دونَ الجَميعِ، حَيْثُ لَمْ يَقُلْ: (أَوْ جِئْتُمْ) ونَحْوُهُ؛ لِلتَّفادي عَنِ التَّصْريحِ بِنِسْبَتِهِمْ إلَى ما يُسْتَحيا مِنْهُ، أَوْ يُسْتَهْجَنُ التَّصْريحُ بِهِ[2]، فالسِّياقُ الْقُرْآنيُّ لا تَفوتُهُ كَبيرَةٌ ولا صَغيرَةٌ في مُطابَقَةِ الْواقِعِ، والواقِعُ الْمَلْموسُ لِلْفِطْرَةِ السَّويَّةِ يُؤَكِّدُ الْحاجَةَ إلَى الانْفِرادِ في هَذا الْمَوْطِنِ، ولِذا سَمَّتْهُ العَرَبُ: بَيْتَ الْخَلاءِ.

في الالتفات ترسيخ لمعنى عدم نسبة ما يستحيا منه، ويُستقْذر إليهم

وَمِمَّا زادَ هَذا الْمَعْنَى وُضوحًا: ذَلِكَ الالْتِفاتُ اللَّطيفُ مِنَ الْخِطابِ إلَى الْغَيْبَةِ، فالخِطابُ في: ﴿كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٍ﴾، أَوْ ﴿لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾، والغَيْبَةُ في: ﴿أَوۡ جَآءَ أَحَدٞ﴾؛ لِأَنَّهُ لَمَّا كَنَّى عَنِ الْحاجَةِ بِالغائِطِ؛ كَرِهَ إسْنادَ ذَلِكَ إلَى الْمُخاطَبينَ، فَنَزَعَ بِهِ إلَى لَفْظِ الْغائِبِ بِقَوْلِهِ: ﴿أَوۡ جَآءَ أَحَدٞ﴾، ولَمَّا كانَ الْمَرَضُ والسَّفَرُ ولَمْسُ النِّساءِ لا يُفْحِشُ الْخِطابُ بِها؛ جاءَتْ عَلَى سَبيلِ الْخِطابِ[3].

نكتة العُدولِ عَنِ التَّصريحِ إلى الكِنايَةِ:

جاءَتِ الكِنايَةُ في قوله: ﴿أَوۡ جَآءَ أَحَدٞ مِّنكُم مِّنَ ٱلۡغَآئِطِ أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ عَنِ البَوْلِ ونَحْوِهِ، مِمَّا يُسْتَقْبَحُ ذِكْرُهُ بِالغائِطِ في قوله: ﴿مِّنَ

(1) الطيبي، فتوح الغيب: 5/8.
(2) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 1/699، وابنُ عاشور، التّحرير والتّنْوير: 5/60.
(3) أبو حيان، البحر المحيط: 3/654.

﴿ٱلۡغَآئِطِ﴾؛ إذ أَصْلُ الغائِطِ: المَكانُ المُطْمَئِنُّ المُنْخَفِضُ مِنَ الأَرْضِ، فَفيهِ تَسْمِيةُ الشَّيءِ بِاسْمِ مَكانِه، وكان الرَّجلُ، إذا أَرادَ قَضاءَ الحاجةِ؛ طَلَبَ غائِطًا مِنَ الأَرْضِ يحجُبُه عَنْ أعيُنِ النَّاس، ثمَّ سُمِّي الحَدَثُ نفسُه بهذا الاسم[1]، فَفيهِ التَّجوُّزُ بِإطْلاقِ المحَلِّ على الحالِّ فيه[2]، وفي هَذا إرْشادٌ لِلنَّاسِ بِأَنْ يُراعوا حُسْنَ التَّعْبيرِ وأَدَبَ الْخِطابِ.

في الكناية إرْشادٌ إلى أَدَبِ الكَلامِ ومُراعاةُ الحَياءِ في الخِطابِ

توجيه الكناية في صيغة الملامسة:

آثَرَ الكناية في قَوْلِه بَعْدَها: ﴿أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾: عَلَى التَّصْريحِ بِالجِماعِ[3]؛ لعلَّة مراعاة أدب الخطاب؛ فـ" عن ابن عباس أنَّه قال: إنَّ اللّه حييٌّ كريم يعفُّ، ويكنِّي، فعبَّر عن المباشرة بالملامسة"[4]، أو أنَّ المراد باللَّمس هاهنا: التقاء البشرتين، سواء كان بجماع أو غيره[5]، على سبيل المشاركة في فعل اللَّمس المُعبَّر عنها بصيغة المفاعلة.

إن اللـه حييٌّ كريم يعفُّ عن الذِّكر في مواطن الاستحياء، ويكنِّي

علَّة الجمع بحرف العطف بين أسبابٍ مختلفة:

المذكورات الأربعة: (السَّفر والمرض، والمجيء من الغائط، وملامسة النِّساء) أسبابٌ لأشياء مختلفة، وجمعها بحرف النَّسق مع أنَّ الجهة الجامعة مفقودة؛ لأنَّ المسبِّبات، وإن اختلفت، لكن جمعها حكمٌ واحد، وهو الرُّخصة في التَّيمُّم؛ لأنّ الخطاب بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ لجميع الأمَّة الَّذين وجب عليهم التَّطهُّر، وأعوزهم الماء لأعذار جمَّةٍ من المرض، والسَّفر، والخوف من العدوِّ والسَّبُع، والحبس، وغير ذلك ممَّا يدخل تحت هذا المعنى[6].

جامع المسبِّبات واحـــدٌ هـو الـرُّخـصـة في التَّيمُّم لمن أعذر

(1) الرازي، مفاتيح الغيب: 10/85، وأبو حيان، البحر المحيط: 3/653.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 3/665.
(3) البَيْضاويُّ، أَنْوارُ التَّنْزيلِ: 2/76، وأبو حيان، البحر المحيط: 3/665، وأبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 1/703.
(4) الرازي، مفاتيح الغيب: 10/89.
(5) الرازي، مفاتيح الغيب: 10/89.
(6) الطيبي، فتوح الغيب: 5/11.

سرُّ تقديم السَّفر والمرض:

أشيع مسبِّبات العذر وقوعًا عند البشر السَّفرُ، والمرضُ

أقدم المسبِّبات في استحقاق الرُّخصة وأغلبها وقوعًا: السَّفر والمرض؛ لشدَّة الحاجة إلى الماء سفرًا، أو تجنُّبها مرضًا، ولذلك خصَّهما بالذِّكر أوَّلًا بقوله: ﴿وَإِن كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٍ﴾، ثم عطف عليهما ما هو مظنَّة الإقامة وتوافر الماء: ﴿أَوۡ جَآءَ أَحَدٞ مِّنكُم مِّنَ ٱلۡغَآئِطِ أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ على إرادة أنَّهما مشتملان على سائر ما يدخل تحت العذر على طريقة قوله: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَٰكَ سَبۡعٗا مِّنَ ٱلۡمَثَانِي وَٱلۡقُرۡءَانَ ٱلۡعَظِيمَ ٨٧﴾ [الحجر: 87] عطف القرآن - وهو مجموع التَّنزيل - على قوله: ﴿سَبۡعٗا مِّنَ ٱلۡمَثَانِي﴾: وهو الفاتحة؛ ليؤذن بتقدُّمها على مزيد شرفها[1].

نكتة إدخال الباء على (الوجوه):

من لطف الله على عباده أنَّه لايجمع عليه التَّشديد في مواضع الرُّخَصِ

ولمَّا كان التُّراب لكثافته لا يتمكَّن من جميع العضو، ولا يصل إلى ما يصل إليه الماء بلطافته، وإن اجتهد الإنسان في ذلك؛ أدخلَ الباء في قوله: ﴿بِوُجُوهِكُمۡ﴾ قصرًا للفعل، وإشارة إلى الاكتفاء بمرَّة والعفو عن المبالغة، أي: أوقعوا المسح بها، سواء عمَّ التراب منبت الشَّعر أم لا[2].

توجيه فاصلة الآية الكريمة:

خَتْمُ الآيةِ بالتَّذييلِ، والكناية لِلتَّقْريرِ والتَّعليلِ والتَّيْسيرِ والتَّسْهيل

فَفي: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ تَذْييلٌ؛ لِتَقْريرِ حُكْمِ الرُّخْصَةِ؛ إذْ عَفا اللهُ عَنِ المُسْلِمينَ، فَلَمْ يُكَلِّفْهُمُ الغُسْلَ أَوِ الوُضوءَ عِنْدَ المَرَضِ، ولا تَرَقُّبَ وُجودِ الماءِ عِنْدَ عَدَمِهِ، حَتَّى تَكْثُرَ عَلَيْهِمُ الصَّلَواتُ، فَيَعْسُرَ عَلَيْهِم القَضاءُ[3].

فإنَّ مَنْ عادَتِهِ - ﷺ - المُسْتَمِرَّةِ أنْ يَعْفوَ عن الخاطئينَ، ويَغفرَ

(1) الطيبي، فتوح الغيب: 5/12.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 5/287، و6/36.
(3) ابنُ عاشور، التَّحرير والتَّنْوير: 5/71.

للمُذنبينَ، لا بُدَّ أن يكونَ مُيسِّرًا لا مُعسِّرًا، وقيلَ: هوَ كِنايَةٌ عَنِ التَّرخيصِ والتَّيسيرِ؛ فإنَّ التَّرفيهَ والمُسامحةَ مِن رَوادِفِ العَفْوِ وتَوابعِ الغُفرانِ[1]، فإنَّ "من كان من عادته أنَّه يعفو عن المذنبين، فبأن يرخِّص للعاجزين كان أولى"[2].

سرُّ اقتران وصفي العفو والغفران في الفاصلة:

"في تخصيص الوصفين إدماجٌ لشدَّة إيجاب الطَّهارة في الصَّلاة، وأنَّ أصل الأمر ألَّا يؤتى بها إلَّا بالطَّهارة الكاملة؛ لأنَّها مثولٌ بين يدي جبَّار السَّماوات والأرض، وأن التَّرخيص بالطَّهارة بالتُّراب بابٌ من العفو والغفران، وإذا كان حال الطَّهارة الظَّاهرة إلى هذه المثابة، فما بال الطَّهارة الباطنة!"[3].

المثول بين يدي الله تعالى يستحقُّ كمال الطَّهارة ظاهرًا وباطنًا

بلاغة التَّوكيد في جملة الفاصلة:

أكَّد سبحانه وصفي: (العفو، والغفران) بثلاثة أمور: أوَّلها: ﴿إِنَّ﴾ فهي من أقوى ألفاظ التَّوكيد، وثانيها: ﴿كَانَ﴾ الدَّالَّة على وقوع عفوه، ومغفرته سبحانه، وتحقُّقهما واستمرارهما، وثالثها: (الجملة الاسميَّة)، فلها فضل توكيد في المعنى الَّذي اشتملت عليه ثبوتًا، ودوامًا[4].

صفات الله راسخة متحقِّقة الوقوع ترغيبًا وحثًّا على طاعته

سرُّ التَّشديد في مقدِّمات الصَّلاة:

و"في مثل هذا التَّشديد في مقدِّمات الصَّلاة إيذانٌ بعلوِّ منزلتها ورفعة مرتبتها، وكيف لا وهي أعظم العبادات الَّتي ما خلقت الكائنات إلَّا لها؟"[5]، وهي عمود الدِّين، ومقياس صلاح الأعمال، وأوَّل ما يُحاسَبُ عليه يوم العرض عليه.

الصَّلاة عمود الدِّين، والتَّشديد في مقدِّماتها إيذانٌ بمكانتها في الشَّريعة منزلةً ورفعةً

(1) الزَّمَخْشري، الكشاف: 2/85، والرازي، مفاتيح الغيب: 10/91، وأبو حيان، البحر المحيط: 3/657، وابنُ عاشور، التّحرير والتّنْوير: 5/71.
(2) الرازي، مفاتيح الغيب: 10/91.
(3) الطيبي، فتوح الغيب: 5/11.
(4) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 4/1697.
(5) الطيبي، فتوح الغيب: 5/11.

الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(لَمَسَ) و(مَسَّ) و(لامَسَ):

اللَّمْسُ: إدْراكٌ بِظاهِرِ الْبَشَرَةِ كالمَسِّ، ويُعَبَّرُ بِهِ عَنِ الطَّلَبِ، والمَسُّ: يَكونُ بِاليَدِ وبِغَيْرِها[1]، فالمَسُّ: يُكَنَّى بِهِ عَنِ الْجِماعِ ومُقَدَّماتِهِ، وعَلَى هَذا حُمِلَ قَوْلُهُ تَعالَى: ﴿وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ﴾ [البقرة: 237]، كَما يُكَنَّى بِهِ عَنِ الْجُنونِ وعَنْ كُلِّ ما يَنالُ الْإِنْسانَ مِنَ الْأَذَى، كَما في قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّۚ﴾ [البقرة: 275]، وقوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ﴾ [البقرة: 80]، وقوله تعالى: ﴿مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ﴾ [البقرة: 214].

اللَّمْسُ: الشُّعورُ الْحِسِّيُّ بِواسِطَةِ الْيَدِ، فَهوَ أَخَصُّ مِنَ الْمَسِّ قالَ تَعالَى: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝٧﴾ [الأنعام: 7].

وَأَمَّا لامَسَ؛ فَتَعْني: فِعْلًا مُتَبادَلًا بَيْنَ طَرَفَيْنِ، مِثْلَ: قاتِلٍ ولاعِبٍ: ﴿أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ [النِّساءُ: 43]، فالمُلامَسَةُ في النَّصِّ، تَعْني: تَبادُلَ اللَّمْسِ مَعَ الْمَرْأَةِ بِشَهْوَةٍ دونَ حائِلٍ سَواءٌ أَنْزَلَ أَم لَمْ يُنْزِلْ[2]، وبه تتبيَّن نكتة إيثارِهِ في الآية الكريمة بصيغة ﴿لَٰمَسْتُمُ﴾ الدَّالَّة على خصوصه بوصفه شعورًا حسِّيًّا، وفعلًا متبادلًا يتشارك فيه الزوجان.

اللَّمْسُ: شُعورٌ حِسِّيٌّ بِواسِطَةِ اليَدِ، والمُلامَسَةُ: فِعْلٌ مُتَبادَلٌ بَينَ طَرَفَيْنِ، والمَسُّ: أَعَمُّ

(1) الراغب، المفردات: (لمس).

(2) الحِفيرَيُّ، شَمْسُ العُلومِ: 9/6112، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: 4/2002.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يَشْتَرُونَ ٱلضَّلَٰلَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّواْ ٱلسَّبِيلَ ﴿٤٤﴾﴾ [النساء: 44]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

ذِكْـــرُ تحريف القلب واللِّسان بالتَّدليس، بعد ذِكْـــرِ تحريف اللِّسان بالسُّكْرِ

لمَّا نهى الله ﷻ المؤمنين عن قُربان الصَّلاة، وهم سكارى؛ وكان حال السَّكران داخل في من حرَّف في الصَّلاة بلسانه فقط، لا عن عَمْدِ الكلم عن واضعه؛ أتبعها التَّصريح بالتَّعجيب من حال المُحَرِّفين بالقلب واللِّسان عمدًا وعدوانًا اجتراءً على الله ﷻ، مُلَوِّحًا إليهم بأنَّهم يُريدون لنا الضَّلال عمَّا هُدينا إليه من سُنَنِهِم[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿نَصِيبًا﴾، أي: حظًّا، والنَّصيب: الحظُّ المنصوب، أي: المُعَيَّنُ، من نَصَبَ الشَّيء، أي: وَضَعَهُ وَضْعًا نَاتِئًا كنَصْبِ الرُّمح والبِناء والحَجَرِ، وجمعه: أَنْصِباءُ، وأصل (نَصَبَ): يَدُلُّ عَلَى إِقَامَةِ شَيْءٍ وَإِهْدَافٍ في اسْتِوَاءٍ، وَالنَّصِيبُ: الْحَظُّ مِنَ الشَّيْءِ، يُقَالُ: هَذَا نَصِيبِي، أَيْ: حَظِّي، وَهُوَ مِنْ هَذَا، كَأَنَّهُ الشَّيْءُ الَّذِي رُفِعَ لَكَ وَأَهْدَفَ، والمعنى هنا: الذين أُعطوا حَظًّا من كتاب الله[2].

2) ﴿ٱلضَّلَٰلَةَ﴾: الضَّلال: ضِدُّ الهدَى، يُقَال: ضَلَّ في الأمر إذا لم يَهْتَدِ لَهُ، ورَجُلٌ مُضَلَّل: لَا يُوفَّقُ لِخيرٍ، ويوصَفُ الإنسانُ بالضَّلالِ، فيُقال: هو ضالٌّ، وأصل الضَّلال: ضَياعُ الشَّيْءِ وَذَهابُهُ في غَيْرِ حَقِّهِ، والضَّالُّ ضَرْبَانِ: أحدُهما: مَن سلَك طريق الضَّلالة عَنْ عَمْدٍ،

(1) البِقاعي، نظم الدُّرر: 5/289.

(2) الجَوْهَرِيُّ، الصِّحاحُ، والرَّاغِبُ، المُفْرداتُ، وابن فارس، مقاييس اللغة: (نصب)، والحِمْيَرِيُّ، شَمْسُ العُلوم: (باب النُّون والضَّاد، النَّصيب)، والكفوي، الكليّات، ص: 906، وابن جرير، جامع البيان: 8/427.

والآخَر: مَن سَلَك طريق الضَّلالة عَنْ غير عَمْدٍ، يَسْتَبْدِلُونَ الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى[1]، والمعنى هنا: الضَّلال ضدُّ الهدى.

3) ﴿ٱلسَّبِيلَ﴾: السَّبيل: الطَّريق، وجَمْعُهُ سُبُل، وأصل سَبَلَ: يدلُّ عَلَى امْتِدَادِ شَيْءٍ، والسَّابلةُ: المختلفةُ في الطُّرُقات للحوائج، والمعنى هنا: سَبِيلُ اللّٰهِ، وهو طريقُ الهدى ومحجَّة الحقِّ[2].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

التَّعجيب من حال اليهود في استبدالهم الضَّلالة بالهدى وتَمَنِّيهم إضلال غيرهم

ألم تَعْلَمْ - أَيُّها الرَّسُول ﷺ - وتَتَعَجَّبْ من حال اليهود الَّذين آتاهُمُ اللّٰه حَظًّا من عِلْمِ التَّوراة، يستبدلون الضَّلال بالهدى، ويَتَمنَّوْنَ لكم - أيُّها المؤمنون المهتدون - أن تَنْحرفوا، وتبعدوا مثلهم عن الحقِّ، وهو صراط اللّٰه المستقيم[3].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

سِرُّ الاستفهام على العِلْمِ بالرُّؤية في مقام الخطاب:

تقرير الرُّؤية في ذهن المخاطب بجعلها في منزلة الشَّيء المُشاهَد مع توبيخ اليهود وفعلهم

قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾، دخل حرف الاستفهام على النَّفي (لم) وهو استفهامٌ مسُوقٌ لتعجيب[4] المؤمنين من سوء حالهم الَّتي بلغت درجة كبيرة من الشَّناعة[5].

وهذا التَّعجيب مع ما يُوحي به من التَّوبيخ، والاستقباح ناشئ عن تقرير الرُّؤية الواقعة في حيِّز الاستفهام، فدَلالة هذا الاستفهام أصلًا هي التَّقرير بالنِّسبة إلى المخاطب ﷺ ومن يَصِحُّ خطابه، أمَّا التَّوبيخ وما أشبهه؛ فهذا بالنَّظر إلى المُتَحدَّث عَنهم، وهم اليهود[6].

(1) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس: مقاييس اللُّغة: (ضَلَّ)، وابن دُرَيْد، جمهرة اللُّغَة: (ضلل)، والهرويّ، الغَرِيبَيْنِ في القرآن والحديث: 4/1137، والرازي، مفاتيح الغيب: 10/91.

(2) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، والجوهريُّ، الصِّحاح، وابن فارس، مقاييس اللُّغة، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (سبل - سنبل)، وابن جرير، جامع البيان: 8/429.

(3) لَجْنَةٌ مِنْ عُلَماءِ الْأَزْهَرِ، الْمُنْتَخَبُ فِي تَفْسِيرِ القُرآنِ الكَرِيمِ، ص: 116، ونُخْبَةٌ مِنْ أَساتِذَةِ التَّفْسِيرِ، التَّفْسِيرُ الْمُيَسَّرُ، ص: 85، وجَماعَةٌ مِنْ عُلَماءِ التَّفْسِيرِ، المُخْتَصَرُ فِي تَفْسِيرِ القُرْآنِ الكَرِيمِ، ص: 85.

(4) التَّعجيب حمل المُخاطب على التَّعجب، وإيقاعه في التَّعجُّب منه.

(5) أبو السُّعود: إرشاد العقل السَّليم: 2/181.

(6) تفسير أبي السُّعود: 2/194.

في الاستفهام بالرُّؤية وجه استعارةٍ عن العِلْم اليقينيِّ:

ذكرَ الرَّازيُّ أنَّ العلمَ اليقينيَّ يشبه الرُّؤية، فيجوز جعل الاستفهام عن الرُّؤية في الآية استعارةً عن مثل هذا العلم، والمعنى: ألم ينتهِ علمك إلى هؤلاء؟[1]

بلاغة تعدية الفعل (رأى) بـ ﴿إِلَى﴾:

استعمال (إلى) يتناسب مع عمق الرُّؤية التَّعجُّبيَّة تشهيرًا بالمُتَعَجَّبِ من حالهم

معنى الآية: ألم تر بقلبك - يا محمَّد - عِلْمًا[2]، و(رأى) هنا عِلْمِيَّةٌ وضُمِّنت معنى ما يتعدَّى بـ (إلى)، فلذلك لم يتعدَّ الحرف إلى مفعولين، وكأنَّه قيل: ألم ينته علمك إلى كذا؟ وتكون الإجابة بالإثبات في هذا المقام، أي: بلى رَأَيْتُ، والخطاب لكلِّ من يتأتَّى منه الرُّؤية من المؤمنين[3]، و(رأى) يتعدَّى بنفسه دون الجارِّ، لكن لمَّا استعير قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ لمعنى: ألَمْ تَنْظُر؛ عُدِّي تعديته، وقلَّما يُستعمل ذلك في غير التَّقرير، فَضِمَنَ العامل معنى: يُناسب التَّعدِّي بـ (إلى)، وقد تكرَّر هذا الأسلوب في سورة النِّساء في خمسة مواضع، واستعمال ﴿إِلَى﴾ هُنا يتناسب معنويًّا مع عمق الرُّؤية التَّعجُّبيَّة حتَّى تَصِلَ بالمخاطَب إلى أقصى الغايات، وهو من باب التَّشهير بهؤلاء المُتَعَجَّبِ من حالهم، فَجُعِلوا عبرةً لكلِّ مُتَّعظٍ وذلك؛ لأنَّ (رأيت) إذا عُدِّيَ بـ (إلى) أفاد معنى: النَّظَرِ المؤدِّي إلى الاعتبار[4]، فتعدَّت تعديتها للإشارة إلى أنَّ هذا الأمر قد بلغ من الوضوح والظُّهور والتَّحقُّق مَبْلَغَ الشَّيء المحسوس المُشاهد الَّذي تُبصرُه العينان، ولا يُمكن إنكارُه[5].

سِرُّ الإطناب بوصف علماء اليهود:

تأكيد التَّعجيب من حال من أوتي الكتاب، ولم يهتدِ به

جاء الموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾ وصِلَتُهُ في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ على هذا التَّركيب الطَّويل في وصف علماء اليهود تأكيدًا

(1) الرازي، مفاتيح الغيب: 10/91.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 8/427.
(3) أبو السُّعود: إرشاد العقل السَّليم: 2/181، والآلوسي: روح المعاني: 3/44.
(4) أبو حيان، البحر المحيط: 2/560، وخديجة بناني، سورة النِّساء دراسة بلاغيَّة تحليليَّة: 1/186.
(5) محمَّد رشيد رضا، تفسير المنار: 2/475.

للتَّعجُّبِ مِنْ حَالِهم؛ إذ كان ينبغِي لِمَن أوتِيَ نَصيبًا من الكتاب؛ ألَّا يفعل ما ذُكِرَ، مع ما بيَّن لهم في ذلك الكتاب من الأحكام والعلوم الَّتي من جملتها ما علموه من نعت النَّبيِّ[1] ﷺ.

علَّةُ تقييد الصِّلة بالنَّكرة:

في تقييدِ الصِّلة بالنَّكرة (نصيبًا) تهويـنٌ لشأنِ علمائهم

في تقييد الصِّلَة بإيتاء (نصيب من الكتاب)، وهو هنا - التَّوْرَاة - لاخْتِصَاصه بعُلمائهم[2]، وجاءت لفظة ﴿نَصِيبًا﴾ مُنكَّرة لإفادة النَّوعيَّة، لا للتَّعظيم؛ لأنَّ المقام مقامُ تهاون بِهِمْ[3]؛ " لأنَّهم لم يأخذوا الكتاب كلَّه، بل تركوا كثيرًا من أحكامه، لم يعملوا بها، وزادوا عليها، والزِّيادة فيه كالنَّقص منه"[4].

دلالةُ الفَصْل بعد الوصف بإيتاء الكتاب:

في الاستئنافِ تنبيهٌ على شناعة فعْلِهم وقُبْحِهِ، وفقدانهم بوصلة اتِّباع الحقِّ

لَمَّا ابتدأت هذه الآية بالاستفهام التَّقريريِّ الَّذي يُقصد به التَّعجُّب من شأن أهل الكتاب، فكأنَّه قيل: ما شأن هؤلاء الذين أوتوا نصيبًا من الكتاب؟ وماذا يفعلون؟ فقال: ﴿يَشْتَرُونَ ٱلضَّلَٰلَةَ﴾، فهو استئناف مُبَيِّنٌ لمناط التَّشنيع ومدار التَّعجيب المفهومين من صدر الكلام[5]، ويكون الغرضُ البلاغيُّ لهذا الفصل التَّنبيهَ على شناعة فعلهم؛ إذ المَرْجُوُّ ممَّن أوتي نصيبًا من الكتاب أن يهتدي به، وأن يبحث عن الحقِّ، ويَتَّبِعَهُ، لا أن يَطلب الضَّلالة، ويدعو إليها.

فائدة حذف شِبْه الجُملة:

حصر الاهتمام في شراء الضَّلالة كونها وسيلتهم في إضلال غيرهم

المُشترى به في قوله تعالى: ﴿يَشْتَرُونَ ٱلضَّلَٰلَةَ﴾، محذوفٌ، أي: بالهدى، كما صرّح به في مواضع[6]، مثل قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ١٦﴾

(1) الآلوسي، روح المعاني: 3/44.
(2) القونْويُّ، حاشيةُ القونْويِّ على البَيْضاويّ: 7/186.
(3) ابنُ عاشور، التّحرير والتّنْوير: 3/209.
(4) رضا، تفسير المنار: 5/112.
(5) أبو السُّعود: إرشاد العقل السَّليم: 2/181، والآلوسي: روح المعاني: 3/44.
(6) السَّمين الحَلبيُّ، الدُّرُّ المصون: 3/693.

[البقرة: 16]، ولَعَلَّ عِلَّةَ الحذف في الآية - موضع الدِّراسة - هو حصر الاهتمام في شراء الضَّلالة؛ لأنَّها وسيلتُهم النَّاجعةُ في محاولة إضلال غيرهم بدليل قوله تعالى: ﴿وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّواْ ٱلسَّبِيلَ﴾ تنبيهًا للمُخاطَبين على سُوء نِيَّات عدُوِّهم ووسائله الخبيثة[1].

في ذكر المطلوب: وهو الضَّلالة من غير ذكر المتروك: وهو الهدى، أو ذكر المبيع من غير ذكر الثَّمن، ما يدلُّ على أنَّهم يطلبون الضَّلالة في ذاتها، فالبعد عن الحقِّ مطلبٌ لهم وغاية؛ لأنَّهم مَرَدُوا على الباطل لا يستمرئون غيره، ولا يبتغون سواه"[2].

من يعتادُ الباطلَ سلوكًا؛ يصبح الضَّلال مطلبه، ومبتغاه

سرُّ استعارة لفظ الاشتراء:

قولُه: ﴿يَشْتَرُونَ ٱلضَّلَٰلَةَ﴾، أي: يستبدلونها بالهُدى، والضَّلالة هي البقاء على اليهوديَّة بعد وضوح الآيات لهم على صحَّة نبوَّة رسول الله - صلَّى الله عليه وآله وسلَّم[3] - وإنَّه هو النَّبيُّ العربيُّ المُبَشَّرُ به في التَّوراة والإنجيل، فشبَّه فعلهم هذا بالاشتراء على سبيل الاستعارة التَّصريحيَّة التَّبعيَّة، بجامع الرَّغبة؛ مُبالغةً في وضوح إصرارِهم على الضَّلالة، وتَعَمُّدِهم اختيارها، مع علمهم التَّامِّ بنقيضها، وفيه من التَّسجيل على نهاية سخافة عقولهم وغاية ركاكة آرائهم ما لا يخفى حيث صوَّرت حالهم بصورة ما لا يكاد يتعاطاه أحدٌ ممَّن له أدنى تمييز، والاشتراء مجازٌ في الاختيار والسَّعي لتحصيل الشَّيء؛ لأنَّ المشتري هو آخذ الشَّيءِ المرغوب فيه من المُتَبَايِعَيْن[4].

تصويرُ سخافة عقولهم وسوء اختيارهم في صورة السَّاعي لطلب السلعة الرَّديئة؛ مبالغة في ذمِّهم

دلالة الوصل بين الجُمْلتَيْن:

رَبَطَ أسلوب القرآن الرَّائع بين قوله تعالى: ﴿يَشْتَرُونَ ٱلضَّلَٰلَةَ﴾،

(1) خديجة بناني، سورة النِّساء دراسة بلاغيَّة تحليليَّة: 21/243.
(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 4/1699.
(3) الزَّمَخْشري، الكشَّاف: 1/515.
(4) أبو السّعود، إرشادُ العَقْل السّليم: 2/182، وابن عاشور: التَّحرير والتَّنوير: 5/72.

التَّشنيع على اليهود والتَّعجُّب من حالهم في جمعهم الضَّلال، والإضلال

وقوله: ﴿وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّواْ ٱلسَّبِيلَ﴾ بواو العطف، والمعطوف شريكٌ للمعطوف عليه فيما سبق له، في بيان محلِّ التشنيعِ والتَّعجُّبِ، والمعنى: أنَّهم لا يكتفون بضلال أنفسهم، بل يريدون بما فعلوا من تكذيب النَّبيِّ ﷺ وكتم نعوته النَّاطقة بها التَّوراة أن تكونوا - أنتم أيضًا - ضالِّين الطَّريق المستقيم الموصل إلى الحقِّ، ففي هذا الوصل تنبيهٌ لاتِّصافهم بالجمع بين الضَّلال والإضلال، ولا أسوأ ولا أقبح مِمَّن جَمَعَ بينهما[1].

سِرُّ التَّعبير عن أفعال اليهود بالمضارع ضلالًا وإضلالًا:

استمرار اليهود على الضَّلال والإضلال تشنيعٌ عليهم

صيغةُ المضارعِ في ﴿يَشْتَرُونَ ٱلضَّلَٰلَةَ﴾، و﴿وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّواْ ٱلسَّبِيلَ﴾، للدِّلالة على الاستمرار التَّجدُّديِّ، فإنَّ تَجَدُّدَ حُكمِ اشترائِهم المذكورِ وتَكَرُّرَ العملِ بموجبه في قوَّة تجدُّدِ نفسِه وتكرُّرِه، وفي ذلك أيْضًا من التَّشنيع ما لا يَخْفى[2]، ورسَّخ شدَّة طلبهم للإضلال بالعدول من المصدر الصَّريح إلى المصْدر المؤوَّل: ﴿أَن تَضِلُّواْ﴾.

دلالة (ال) التَّعريف في ﴿ٱلسَّبِيلَ﴾:

صراط العزيز الحميد معروفٌ، ولا يوصلُ إلى الحقِّ سبيلٌ غيره

(الـ) في لفظ ﴿ٱلسَّبِيلَ﴾ عهديَّة، وليست للاستغراق، فالسَّبيل الحقُّ معروف بيِّن لا عوج فيه، وهو وحده الموصل إلى الحقِّ، لأنَّه الطَّريق المستقيم، ولأنَّه صراط العزيز الحميد"[3].

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

النَّصِيب والحظّ:

النَّصيب: هو الحظُّ، والقسْمُ من كُلِّ شيء[4]، فيكون النَّصِيب في المحبوب والمكروه، يُقال: وفَّاه اللّه نصِيبه من النَّعيم أو من العذاب،

(1) الرازي، مفاتيح الغيب: 10/91.
(2) تفسير أبي السعود، إرشاد العقل السليم: 2/182، وتفسير الآلوسي، روح المعاني: 3/45.
(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 4/1699.
(4) ابن مَنْظورٍ، لِسَانُ العَرَبِ، والزَّبيديُّ، تاجُ العَروس: (نصب).

والحظُّ: هو النَّصيبُ المُقَدَّرُ من الفضل والخيْر[1]، فلا يُقال: حظُّه من العذاب إلَّا على استعارة بعيدة؛ لأنَّ أصل الحظِّ: هو ما يحظه الله تعالى للعبد من الخير، والنَّصيب: ما نصب للعبد لِيناله، سواء أكان محبوبًا أم مكروهًا، ولهذا كان الحظُّ اسمًا لما يرتفع به المحظوظ، فيُذكر على جهة المدح، فيُقال: لفُلانٍ حظٌّ، وهو محظوظ، وفي التَّنْزيل: ﴿إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ۝٧٩﴾ [القَصَص: 79]، والنَّصيبُ: ما يُصِيب الإنْسَانَ من مُقاسمةٍ، سواء ارْتَفع به شأنه أم لا، ولهذا يُقال: لفُلان حَظٌّ في التِّجارة، ولا يُقال: له نصيب فيها؛ لأنَّ الرِّبحَ الَّذِي يَنالهُ فيها ليس عن مُقاسَمَةٍ[2]، وسياق الآية حديثٌ عن ضلالة، وإضلال؛ فناسبَهُ لفظ النَّصيب.

الحظُّ: نصيبٌ مُقدَّرٌ مِنَ الفَضْل والخيْر، والنَّصيب: يَعُمُّ المحبوبَ وَالمكْرُوهَ

الضَّلال والغواية:

الضَّلال: فقدان ما يُوصِلُ إلى المطلوب، وقيل: هو سلوك طريق لا يُوصل إلى المطلوب[3]، وكل عدُول عَن النَّهج عمدًا أَو سَهوًا قَلِيلًا كَانَ أَو كثيرًا[4]؛ فَهُوَ ضلال، وفي باب الحقِّ والباطل يكون الضَّلال عدولًا عن الطَّريق المستقيم[5]، وقد يكون عن قصد أو عن غير قَصْدٍ: ﴿وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ [الجاثية: 23]، وقال: ﴿ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ۝١٠٤﴾ [الكهف: 104]، أمَّا الغواية؛ فهي جهل من اعتقادٍ فاسد[6]، فلَا يكون للغاوي مَقْصِدٌ إلى الطَّرِيق المُسْتَقِيم[7]، والغواية أيضًا: إمعان في الضَّلال، كما أنَّ الضَّلال عامٌّ[8] يكون للعاقل وغيره، فيُقال: ضلَّت الدَّابَّة، ولا يُقال:

الضَّلال: عامٌّ، وهو فقدان الطَّريق الموصل، والغواية: العدول عن الطَّريق القويم تَقَصُّدًا

(1) الخليل، العين: (حظظ)، والأزهري، تهذيب اللغة: (حظ).
(2) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 165.
(3) الجرجاني: التَّعريفات، ص: 138.
(4) الكفويُّ، الكليات، ص: 567.
(5) المناويُّ: التوقيف، ص: 223.
(6) الرَّاغب، المفردات: (غوى).
(7) الكفويُّ، الكليات، ص: 576.
(8) النَّيسابوريُّ، غرائب القرآن: 6/199.

غوت الدَّابَّة، أمَّا الغواية؛ فهي للعاقل المُكلَّف، والضَّلال نقيضُ الهُدى، قال الله تعالى: ﴿يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ﴾ [فاطر: 8] وقال: ﴿وَأَضَلَّ فِرۡعَوۡنُ قَوۡمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ ٧٩﴾ [طه: 79]، والغِوايَةُ: نقيض الرُّشْدِ، قال تعالى: ﴿وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلرُّشۡدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗاۚ وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلۡغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗاۚ﴾ [الأعراف: 146] وقال: ﴿قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ﴾ [البقرة: 256].

فالضَّلال: أعمُّ، وهو ألَّا يَجِدَ السَّالك إلى مقصده طريقًا أصلًا، والغِواية: ألَّا يكون له إلى المَقْصَدِ طريقٌ مستقيم[1]، وهي اللَّفظة المناسبة لقوَّة سعي الشَّيطان في الآية، ومبتغاه من الوسوسة، وهو فقدان الوجْهة، وضياع السَّبيل إلى المقصد.

الطَّريق والسِّبيل والصِّراط:

الطَّريقُ: هو كُلُّ ما يطرُقُهُ الطَّارِق من النَّاسِ، مُعْتادًا كانَ أَو غَيْرَ مُعْتادٍ[2]، قال تعالى: ﴿فَٱضۡرِبۡ لَهُمۡ طَرِيقٗا فِي ٱلۡبَحۡرِ يَبَسٗا لَّا تَخَٰفُ دَرَكٗا وَلَا تَخۡشَىٰ ٧٧﴾ [طه: 77]، أَمَّا السَّبيلُ؛ فهُوَ الطَّرِيقُ السَّهْلُ؛ وأَغْلَبُ ما يقع في الخيْرِ، وقَدْ يَقَعُ في الشَّرِّ، كَقَوْلِهِ تَعالى: ﴿وَلِتَسۡتَبِينَ سَبِيلُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ٥٥﴾، [الأنعام: 55]، أَمَّا الصِّراطُ: فَهُوَ السَّبيلُ الَّذي لا اعْوِجاجَ فيهِ ولا الْتِواءَ.

الطَّريق: ما يُسْلَكُ، والسَّبيلُ: أَسْهَلُهُ، والصِّراطُ: أَقْوَمُهُ

فَالفرقُ بين الطَّريقِ والسِّبيلِ: أَنَّ الطَّرِيقَ لَا يقتضي السُّهولةَ واعتيادَ السُّلوكِ[3]، أَمَّا السَّبيلُ مِنَ الطُّرُقِ؛ فهو السَّهْلُ المُعتاد، والفرقُ بين السَّبيلِ والصِّراطِ: أَنَّ الصِّراط: لا اعوجاجَ فيهِ[4]، قالَ الله تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [الأنعام: 161]، فالصِّراطُ: أَخَصُّ مِنَ السَّبيلِ، قال تَعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي

(1) النَّيسابوريُّ، غرائب القرآن: 6/199، والتهانوي، كشاف اصطلاحات الفنون: 2/1119.
(2) الكفوي، الكُلِّياتُ، ص: 513.
(3) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 298.
(4) الكفوي، الكُلِّياتُ، ص: 513.

مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ﴾ [الأنعام: 153]، والسَّبيلُ: أَخَصُّ مِنَ الطَّريقِ[1]، وقد يطلق كُلٌّ منها على الآخَرِ توسُّعًا.

وغاية جهد الشَّيطان، ومنتهى مقصده: الإضلال عن الوجهة اليسيرة، والزيغ عن الدَّرب السَّهل الواضح البيِّن؛ لأنَّ من لا يقاوم وساوسه في اليسير من الأمور؛ يصعب عليه عسيره، وهذا مبلغ قوَّته، وسعة تمكُّنه في الإضلال؛ ولذلك اخْتيرَ لفظ ﴿ٱلسَّبِيلَ﴾ الدَّال على الطَّريق السَّهْل المُعتاد.

(1) المناوي، التوقيف على مهمّات التّعاريف، ص: 215.

﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِأَعۡدَآئِكُمۡۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيّٗا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرٗا ٤٥ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعۡنَا وَعَصَيۡنَا وَٱسۡمَعۡ غَيۡرَ مُسۡمَعٖ وَرَٰعِنَا لَيَّۢا بِأَلۡسِنَتِهِمۡ وَطَعۡنٗا فِي ٱلدِّينِۚ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ قَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَا وَٱسۡمَعۡ وَٱنظُرۡنَا لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡ وَأَقۡوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفۡرِهِمۡ فَلَا يُؤۡمِنُونَ إِلَّا قَلِيلٗا ٤٦﴾ [النِّساء: 45 - 46]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

ذكر أحوال الكُفَّارِ وعقُوباتهم بعد ذكر العبادات؛ تَرْغيبًا في الاتِّباع، وتَرْهيبًا من المُخالفة والابتداع

لَمَّا ذكَر اللّه تعالى أنواعًا كثيرةً من التَّكاليفِ والأحكامِ الشَّرعيَّةِ؛ انتقَل إلى ذِكْر أحوال أعداءِ الدِّين، وأقاصيص المتقدِّمين؛ ليكون ذلك مُرغِّبًا في تَقَبُّل ما مَرَّ من التَّكاليف لِيُسْرِهِ ولرجاء الثَّواب، مُرَهِّبًا من تَركِها خَوْفًا من العقاب، ولِيَصيرَ الكلام حُلْوًا رائقًا بتفصيل نَظْمِهِ تارة بأحكام، وتارة بأقاصيصَ عِظام، فالانتقالُ من نوعٍ من العلوم إلى نوع آخر يُنشِّطُ الخاطرَ، ويدفَع ما يُكدِّره، ويقوِّي القريحةَ[1]، وتلك عادة القرآن الحكيم.

ولَمَّا وَفَّرت هذه الآيات الدَّواعي على تَعْيينِ هؤلاء الَّذين يُريدون الإضلال، قال بيانًا بعد الاعتراض بما بَيْنَ المُبَيِّنِ والمُبَيَّنِ من الجُمَلِ لمزيدِ الاهتمام به: ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ﴾[2]، فهي بَيَانٌ لِقَوْلِهِ: ﴿بِأَعۡدَآئِكُمۡۚ﴾[3].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَلِيّٗا﴾: الوليُّ النَّاصر الَّذي يَلي أُمورَ أوليائه بالحياطةِ لهم والحراسة، وأصْلُ (وَلِيَ): يدلُّ على القُرْبِ والدُّنوِّ، سَواء مِن حيث:

(1) الرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 10/91، والبِقاعيّ، نَظْمُ الدُّرَر: 5/289.
(2) البِقاعيّ، نَظْمُ الدُّرَر: 5/292.
(3) أَبو حَيَّان، البحر المحيط: 3/660.

المكانُ، أم النِّسبةُ، أم الدِّين، أم الصَّداقة، أم النُّصرة، أم الاعتقاد، وحَقيقتُهُ تَوَلِّي الأَمْر، وكُلُّ مَن وَلِيَ أَمْرَ آخَرَ؛ فهو وَلِيُّه[1]، وهذه المعاني محتملة في لفظة ﴿وَلِيًّا﴾ الواردة في الآية.

2) ﴿هَادُواْ﴾: الهَوْدُ: التَّوْبةُ، قال الله ﷻ: ﴿إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَۚ﴾، أي: تُبْنا إليك، والهُودُ: اليهود، هادوا يَهُودون هَوْدًا، وأصلُ الهَوْدِ: إِرْوَادٌ وَسُكُونٌ، يَقُولُونَ: التَّهْوِيدُ: المَشْيُ الرُّوَيْدُ، وسُمِّيتِ اليهود اشتقاقًا من هادوا، أي: تابوا، ورجعوا، أخذًا من قول موسى على نبيِّنا وعليه الصَّلاة والسَّلام في دعائه الله: ﴿إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَۚ﴾ [الأعراف: 156]. كأنّهم رجعوا عن شيء إلى شيء، وكان اسم مَدْحٍ، ثُمَّ بعد نَسْخِ شريعتهم أصبح لازمًا لهم، وإن لم يكن فيه معنى المدح، كما أنَّ النَّصارى في الأصل من قوله: ﴿مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ﴾ [آل عمران: 52]، ثُمَّ صار لازمًا لهم بَعْدَ نَسْخِ شريعتهم، ويُقالُ: نُسبوا إلى يهوذا، وهو أَكْبَرُ وَلَدِ يعقوبَ، فَأَدْخلوا الأَلف واللَّامَ فِيهَا على إرادَةِ النَّسَب، وَتُسُوهِل في الإعجام بالإهمال؛ لِمَا أنَّ الدَّال والذَّال يتعاوران في الكلام، فإذا بالدَّال موضع الذَّال، ومعنى هادوا هُنا: تَهَوَّدُوا، أَي: صَارُوا يَهودًا[2].

3) ﴿يُحَرِّفُونَ﴾: التَّحريفُ: إمالة الشَّيءِ عن جهته وصَرْفُهُ، ومنه تحريف الكَلِم، وتَحَرَّفَ فُلانٌ عن فلان، وانحَرَف، واحرَوْرَفَ: واحدٌ، أَيْ: مالَ، وأَصْلُ الحرف: العُدُولُ والانْحِرَافُ عَنِ الشَّيْءِ، والتَّحريفُ في القرآن: تَغْيِيرُ الكَلِمَةِ عن معناها، ومعنى ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ﴾: يُقَلِّبونَهُ، ويُغَيِّرونَهُ[3]. ويميلونه عن مواضعه الَّتي وضعه الله فيها بإزالته عنها، وإثبات غيره فيها، أو يؤوِّلونه على ما يشتهون، فيميلونه عمَّا أنزل الله فيه[4].

4) ﴿غَيۡرَ مُسۡمَعٖ﴾: أي: لا سَمِعْتَ، أَوْ مَدْعوًّا عليك بِصَمَمٍ أو مَوْتٍ، أو غيرَ مُجابٍ إلى ما تَدْعو إِلَيْه أو كلامٍ ترْضاهُ[5].

---

(1) الجَوْهَريّ، الصِّحاح: (ولي)، والرَّاغِب، المُفْرَدات، والسَّمين، عُمْدَةُ الحُفَّاظ، وابْنُ فارِس، مَقاييسُ اللُّغَة: (ولي)، وابْنُ الهائِم، التِّبْيان، ص: 89، وابن جرير، جامع البيان: 7/101.

(2) الخليل، العَينْ، وابْنُ سيدَه، المُحْكَم، والرَّاغِب، المُفْرَدات، والسَّمين، عُمْدَةُ الحُفَّاظ، والزَّبيديّ، تاجُ العَروس: (هود)، وغريب القرآن لابن قُتَيْبَة، ص: 173، وابنُ عُزَيز، غَريبُ القُرْآن، ص: 490.

(3) الخليل، العَينْ، وابْنُ سيدَه، المُحْكَم، والسَّمين، عُمْدَةُ الحُفَّاظ، وابْنُ فارِس، مَقاييسُ اللُّغَة، والزَّبيديّ، تاجُ العَروس: (حرف)، وابنُ عُزَيز، غَريبُ القُرْآن، ص: 531.

(4) البَيْضاويّ، أَنْوارُ التَّنْزيل: 2/77.

(5) الرَّاغِب، المُفْرَدات: (سمع)، وابْنُ قُتَيْبَة، غَريبُ القُرْآن، ص: 128، وابن الجوزيّ، تذكرة الأريب، ص: 65، والكَفَويّ، الكُلِّيَّات، ص: 883.

5) ﴿وَرَٰعِنَا﴾: من رعيتُ الرَّجُلَ؛ إذا تَأَمَّلْتُهُ، وتعرَّفْتُ أحواله، يُقال: أَرْعَيْتُه سَمْعِي، أَي: أَصْغَيْتُ إِلَيْهِ؛ وراعاه يُراعيهِ؛ إذا تَعَهَّدَهُ؛ وكان المسلمون يقولون لرسول الله ﷺ: رَاعِنَا، وأَرْعِنا سَمْعَكَ، وكان اليهود يقولون: رَاعِنَا، وهِيَ - بسوء نيَّتهم وفَسَاد طويَّتهم - سَبٌّ لرسول الله ﷺ بالرُّعُونَةِ؛ وأَصْلُ رَعَنَ بهذا المعنى: يَدُلُّ عَلَى هَوَجٍ وَاضْطِرَابٍ، يُقال: رَعَنَ الرَّجل يَرْعَنُ رَعْنًا؛ فهو أَرْعَنُ، أي: أهوجُ، والمرأة رَعْناءُ، والأَرْعَنُ: الأهوج في مَنْطِقه المُسْتَرْخي، فالمعنى هُنا: يُحرِّفون، ﴿وَرَٰعِنَا﴾: من طريق المُراعاة والاستمهال إلى السَّبِّ بالرُّعونَةِ[1].

6) ﴿لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ﴾: تَحْريفًا بالكذب، واستهزاءً ومُحاكاةً؛ وأَصْلُ لَوِيَ: يَدُلُّ عَلَى إِمَالَةٍ لِلشَّيْءِ، يُقالُ: لَوَيْتُ الحَبْلَ: فَتَلْتُهُ، ولَوى الرَّجُلُ رأسه، وألْوَى برأسه: أَمال، وأَعْرَضَ، ولَوى لِسانَهُ بكذا: كِنايَةٌ عن الكذب وتخرُّصِ الحديث، أي: يُحرِّفونه، ويُغَيِّرونَ أحكامه[2].

7) ﴿وَطَعْنًا فِي ٱلدِّينِ﴾: قَدْحًا فيه، يُقال: طَعَنَ فُلانٌ على فلان في أمره طَعْنًا؛ إذا أَدْخَلَ عليه العَيْبَ، وذكرَه بقبيحٍ، وأَصْلُ الطَّعْنِ: النَّخْسُ في الشَّيْءِ بِمَا يُنْفِذُهُ، فالطَّعْنُ: الضَّرْبُ بالرُّمْحِ وبالقَرْنِ وما يجري مجْراهُما، وتطاعنوا، واطَّعنوا، واسْتُعيرَ للوَقيعَةِ، ومعنى طَعْنهم في الدِّين: أنَّهم عابوه، وثَلَبُوه قَدْحًا بالاستهزاء والسُّخْرِيَةِ[3].

8) ﴿وَٱنظُرْنَا﴾: أي: أَفْهِمْنا، أَوِ انْظُرْ إِلَيْنا، أو انتظرنا نَفْهَمْ ما تعلَّمنا، وَنَظَرهُ، وانْتَظَره، وتَنَظَّرَه: تَأَنَّى عَلَيْهِ، وأَصْلُ النَّظَرِ: تَأَمُّلُ الشَّيْءِ وَمُعَايَنَتُهُ، والمَعنى هُنا: قالوا: انْتَظِرنا، مكان راعنا، تقول: نظرتك، وانتظرتُك: بمعنى واحدٍ[4].

9) ﴿وَأَقْوَمَ﴾: أَيْ: أَخْلَصَ، وأَسَدَّ، يُقال: فلانٌ أقوَمُ كلَامًا مِن فلانٍ، أَي: أعدَلُ كلَامًا، وأقامَ الشَّيء، أيْ: أَدامَهُ، وأصل قَوَمَ: مُراعاةُ الشَّيءِ وحِفظُه، وكذلك الانتصاب والعزم[5].

(1) ابْنُ سيدَه، المُحكَم، والرَّاغِب، المُفْرَدات، والسَّمين، عُمْدَةُ الحُفَّاظ، وابْنُ فارِس، مَقاييسُ اللُّغَة، والزَّبيديّ، تاجُ العَروس: (رعن)، وابن قُتَيْبَة، غَريبُ القُرْآن، ص: 60.

(2) الجَوْهَريّ، الصِّحاح، والرَّاغِب، المُفْرَدات، والسَّمين، عُمْدَةُ الحُفَّاظ، وابْنُ فارِس، مَقاييسُ اللُّغَة، والزَّبيديّ، تاجُ العَروس: (لوى)، وابْنُ الهائِم، التِّبْيان، ص: 139، والكَفَويّ، الكُلِّيَّات، ص: 801.

(3) الخليل، العَينْ، وابْنُ دُرَيْد، جَمْهَرَةُ اللُّغَة، والرَّاغِب، المُفْرَدات، وابْنُ فارِس، مَقاييسُ اللُّغَة، والسَّمين، عُمْدَةُ الحُفَّاظ: (طعن)، وأبو السّعود، إِرْشادُ العَقْلِ السَّليم: 2/184.

(4) ابْنُ فارِس، مَقاييسُ اللُّغَة، والزَّبيديّ، تاجُ العَروس: (نظر)، والغَزْنَويّ، باهِرُ البُرْهان: 1/120، وابْنُ قُتَيْبَة، غَريبُ القُرْآن، ص: 128.

(5) الأَزْهَريّ، تَهْذيبُ اللُّغَة، والجَوْهَريّ، الصِّحاح، والرَّاغِب، المُفْرَدات، وابْنُ فارِس، مَقاييسُ اللُّغَة: (قوم)، وابن الجوزيّ، تذكرة الأريب، ص: 423، والكَفَويّ، الكُلِّيَّات، ص: 160.

10) ﴿لَّعَنَهُمُ﴾: جَمَعَ عليهم كلَّ معاني اللَّعن؛ فَذَمَّهم، وطَرَدَهُمْ، وأَبْعَدَهُمْ، ولَعَنه يَلْعَنه لَعْنًا: أَبْعَدَهُ، وأَصْلُ اللَّعْنِ: يَدُلُّ عَلَى إِبْعَادٍ وَإِطْرَادٍ على سبيل السَّخَطِ، يُقالُ: الرَّجُلُ الطَّرِيدُ لَعِينٌ، واللَّعْنُ: الإِبْعادُ والطَّرْد مِنَ الخَيْرِ، والمعنى هُنا: أَبْعَدَهُمْ من رَحْمَتِهِ[1].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

مِنَ اليَهود قَوْمٌ سوءٍ يغيِّرون الكلام الَّذي أنزله الله، فيُؤوِّلونه على غير ما أنزل الله لَفْظًا بالتّصْحيف، ومعنًى بالتَّزييف، وكلاهما تحريف، ويقولون للرَّسول ﷺ حين يأمرهم بِأَمْرٍ: سمعنا قَوْلَكَ، وعصينا أمرك، ويقولون مُسْتَهْزِئينَ: اسمع ما نقول، لا سَمِعْتَ؛ ويُوهمون بقولهم: ﴿وَرَاعِنَا﴾ أنَّهم يُريدون: راعنا سَمْعَكَ، وإنَّما يريدون الرُّعونة حَسَبَ لُغتهم، يَلْوون بها ألسنتهم، يُريدون الدُّعاء عليه ﷺ، ويقصدون القدح في الدِّين، ولو أنَّهم قالوا: سمعنا قولك، وأطعنا أمرك، بَدَلًا من قولهم: سَمِعْنا قولك، وعصينا أَمْرَكَ، وقالوا: اسمع، بدل قولهم: اسْمَعْ، لا سَمِعْتَ، وقالوا: أَوْلِنا من سماحتك الطَّيِّعة لكَ نَظرًا وأَنَاة نَفْهَمْ عنك ما تَقُول، بدل قولهم: راعنا؛ لكان ذلك خيرًا لهم مِمَّا قالوه أوَّلًا، وأعدل منه؛ لِمَا فيه من حسن الأَدَبِ اللَّائِقِ بجناب النَّبيِّ ﷺ ولكنَّ الله ذَمَّهُم، وطردهم من رحمته، بسبب كُفْرِهِمْ أبدًا، فاللهُ ﷻ أَعْلَمُ منكم - أيُّها المؤمنون - بِعَداوَةِ هؤلاء اليهود لكم، فأخبركم بهم، وبيَّن لكم عداوتهم، ووَلايَةُ الله تَحْميكم، وتَكْلَؤُكُمْ، وتَكْفيكم، فلا تطلبوا وَلايَةً غَيْرَ وَلايَتِهِ، وتَكْفيكم نُصْرَتُهُ، فلا تستعينوا بسواه[2].

المُستعانُ على مَكْرِ الأعداء هو الله وحده، فهو العالم بعداوتهم، والنَّاصر لأوليائه

(1) الأَزْهَرِيّ، تَهْذيبُ اللُّغَة، والسَّمين، عُمْدَةُ الحُفَّاظ، وابْنُ فارِس، مَقاييسُ اللُّغَة، وابْنُ مَنْظور، لِسانُ العَرَب: (لعن).
(2) لَجْنَةٌ مِنْ عُلَماءِ الأَزْهَر، المُنْتَخَبُ في تَفْسيرِ القُرآنِ الكَريم، ص: 116، ونُخْبَةٌ مِنْ أَساتِذَةِ التَّفْسير، التَّفْسيرُ المُيَسَّر، ص: 86، وجَماعَةٌ مِنْ عُلَماءِ التَّفْسير، المُخْتَصَرُ في تَفْسيرِ القُرْآنِ الكَريم، ص: 86.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

سِـرُّ الاعْـتِراضِ بَيْنَ ذِكْـرِ البَيانِ والمُبَيَّنِ

إنّ اشتراء غيرنا الضَّلالة لنفسه هو أحد جناحيّ عداوته لنا، وهو كإرادته لنا التخبُّط في مهامِهِ الحيرة، والتقلُّب في ظلمات الضَّلالة من وثنيَّة وأهواء، على حدٍّ سواء، ذلك أنَّنا أصحاب قِيَمٍ وهدايات نابعة من دينٍ حقٍّ، نعيش لأجلها، ونموت في سبيلها، إرادة أن يفيء إليها، وأن ينعم بها – مثلنا – الآخرون وهكذا، فوجود الأمَّة المسلمة على الأرض ضرورة حياتيَّة وضرورة إنسانيَّة، وهو وجود أغلى من الحياة ذاتها، إن خلت منهم، فإنَّما الأغلى من الحياة للَّذي لا تطيب الحياة إلّا به، كما أنَّ شرًّا من الموت، كلُّ ما يُتَمَنَّى الموت من أجله.

تقرير ما سَبَقَ من إرادة اليهود إضلال المؤمنين مُبالغة في التَّحذير من مَكْرِهِمْ والتَّنْفيرِ منهم

جُمْلَةُ ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَآئِكُمْۚ﴾ مُعْتَرِضَةٌ، مُقَرِّرَةٌ لما سَبَقَ، وإرَادَتهُمُ الضَّلَالَةَ لِلْمُؤْمِنِينَ ناتجة عَنْ عَدَاوَةٍ وَحَسَدٍ وبغضاء[1]، فَقَدْ أخبر في الآيةِ السَّابقة أنَّ اليهود يَشْتَرُونَ الضَّلالة، وَيُرِيدُونَ أن يَضِلَّ المؤمنون السَّبيل، وجيء فيهما بالمُضارع: ﴿يَشْتَرُونَ﴾ و﴿وَيُرِيدُونَ﴾ [النساء: 44]؛ للدَّلالةِ على الاستمرار التَّجدُّديِّ؛ فناسب أن يَجيءَ بهذه الجُمْلَةِ المعترِضَةِ لِتَقْريرِ إرادَتِهِم المذكورةِ[2].

توجيه الإخبار بجملة الاعتراض:

أعلميّة الله تعالى محسومة، وفي الخبر تهديدٌ للمُشركين، وتحذيرٌ منهم

قولَه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَآئِكُمْۚ﴾ خَبَرٌ، في ضِمْنِهِ التَّحذيرُ منهم[3]، وإلَّا؛ فأَعْلميَّة الله تعالى مَعْلومَةٌ[4]، وفيه – أيضًا – تهديدٌ للمُشركين وتحذيرٌ لهم[5]؛ إذ اللهُ يَعلمُهم، ويعلمُ ما يَفعلون، مع التَّأكيد على الاكتفاء بوَلاية الله ﷻ ونُصْرَتِهِ وعدَمِ المُبالاة بهم[6]؛

(1) الرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 10/93، وابْنُ عاشور، التَّحريرُ والتَّنْوير: 5/72.
(2) أَبو السُّعود، إرْشادُ العَقْلِ السَّليم: 2/182.
(3) ابْنُ عَطيَّة، المُحَرَّرُ الوَجيز: 2/61.
(4) الآلوسّي، روحُ المعاني: 5/45.
(5) ابْنُ عُثَيمين، تَفْسيرُ ابْنِ عُثَيْمين: (سورَةُ النِّساءِ): 1/364.
(6) الآلوسّي، روحُ المعاني: 5/45.

لذا توسَّطت هذه الجملة بين البَيَانِ والمُبَيَّن على سبيل الاعتراض[1]، مبالغةً في التَّحذير منهم، فَوَسَّطَ بَيْنَهُما ما وَسَّطَ لمزيد الاعتناء ببيان مَحَلِّ التَّشْنيعِ والتَّعْجيبِ والمُسارَعَةِ إلى تَنْفيرِ المؤمنين عنهم[2].

بلاغة التذييل بالجملتين الاعتراضيّتين

وقد عطفت على جملة الاعتراض الأولى - تتمَّة لها - جملتان اعتراضيَّتان هما: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيًّا﴾ ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرًا﴾، وهما خبرٌ بما لا يجوز ادَّعاؤه من حيث تعلُّقه بالمؤمنين، من غير توقيف من الموحِي سبحانه، أو من جهة السَّمعيَّات، من حيث إنَّه كلام عن الله ﷻ، ولا أحد أعلم بالله من الله سبحانه، فناسب أن يتوقَّف استقبال مثل هذه الإفادات على مجيئها وحْيًا منه، وعلى ذلك؛ فالمقصود من الخبر الفائدة، ومن حيث إنَّ أسبابه بأيدي المؤمنين، كما قال في الولاية: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عمران: 31]، وقال في النَّصر: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ﴾ [الحجّ: 40]، ﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ﴾ [محمَّد: 7]، جاز أن يدَّعى في الخبرين لازم الفائدة؛ لما أنَّ شواهد الفائدة وأماراتها قد امتلأ بها كيانهم، ووقرت في أنفسهم، وصدَّقتها أعمالهم، وكان إخبارهم به وحيًا لذَّة لهم ونِعْمة عليهم، وتحصَّل من هذا أنَّ الاعتراض بين قوليه: ﴿وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّواْ ٱلسَّبِيلَ ﴿٤٤﴾﴾ [النساء: 44] بالآية السَّابقة أوَّلًا، و﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ﴾ بالآية اللَّاحقة تاليًا، قد حصل بثلاث جمل: ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَآئِكُمْ﴾، ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيًّا﴾، ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرًا﴾، قال أبو حيَّان: إذا كان الفارسيُّ قد منع الاعتراض بجملتين؛ فما ظنُّك بثلاث؟ قال الحلبيُّ: وفيه نظر، فإنَّ الجُمل هنا متعاطفة، والعطف يصيِّر الشَّيئَيْن شيئًا واحدًا[3].

(1) الزَّمَخْشَريّ، تَفْسيرُ الكَشّاف: 1/516.
(2) الآلوسّي، روحُ المعاني: 5/45، والقاسِميّ، مَحاسِنُ التَّأْويل: 3/139.
(3) السُّيوطيّ، حاشية على تفسير البيضاويّ: 3/160.

من رحمة الله تَطْمينُ المؤْمنينَ وحَثُّهمْ عَلى الثِّقَةِ به تَعالى والاكتفاءُ بوَلايَتِهِ ونُصْرَتِهِ

والجملتان تَذْييلٌ لِتَطْمين نُفُوس الْمُؤْمنينَ بنَصْر اللَّه؛ لأَنَّ الْإِخْبَارَ عَنِ الْيَهُودِ بِأَنَّهُمْ يُرِيدُونَ ضَلَالَ الْمُسْلِمِينَ، وَأَنَّهُمْ أَعْدَاءٌ لِلْمُسْلِمِينَ، مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يُلْقِيَ الرَّوْعَ فِي قُلُوبِ الْمُسْلِمِينَ؛ إِذْ كَانَ الْيَهُود المجاورون لِلْمُسْلِمِينَ ذَوِي عَدَدٍ وَعُدَدٍ، وَبِيَدِهِمُ الْأَمْوَالُ، ولهم مكْرٌ وخديعةٌ وحقْدٌ وتربُّص وكيْدٌ بالغ، وَهُمْ مَبْثُوثُونَ فِي الْمَدِينَةِ وَمَا حَوْلَهَا: مِنْ قَيْنُقَاعَ وَقُرَيْظَةَ وَالنَّضِيرِ وَخَيْبَرَ، فَعَدَاوَتُهُمْ وَسُوءُ نَوَايَاهُمْ، لَيْسَا بِالْأَمْرِ الَّذِي يُسْتَهَانُ بِهِ، فَكَانَ قَوْلُهُ: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيًّا﴾ مُنَاسِبًا لِقَوْلِهِ: ﴿وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّواْ ٱلسَّبِيلَ ۝٤٤﴾ [النساء: 44][1]. فَبَيَّنَ أَنَّ اللّه تعالى وليُّ المُسلمين وناصرُهم، ومن كان اللّه وَلِيًّا له وناصرًا؛ لَمْ تَضُرَّه عداوة الخَلْق[2]، فاكْتَفوا بوَلايَتِهِ ونُصرته، ولا تُبالوا بهم، ولا تكونوا في ضَيْقٍ ممَّا يَمْكُرون[3]، ففيها اهتمامٌ بِحَثِّهِمْ على الثِّقَةِ باللّه تعالى والاكتفاء بوَلايَتِهِ ونُصْرَتِهِ[4].

وفي هذا التَّذييل تَحذيرٌ للمؤمنين من مُوالاة الكافرين ومَحَبَّتِهِمْ، فَإذا كان اللّه وليًّا لكم - وهو أعلم منكم بالأعداء - فلَا تتخذوا عَدوّي وعدوّكم أَولياء.

دلالةُ تكرار جملة ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ﴾:

في تكْرارِ الاعتراضِ دلالةٌ على الانتقام الشَّديد والتَّسْلية العامَّة

في الكلام تسليةٌ لِرَسُولِ اللّه ﷺ وَوَعْدٌ على نُصْرَتِهِ، وقهرٌ لأعدائه، فكان قوله: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرًا﴾ اعتراضًا مُؤَكِّدًا لما سبق، وفي تَكْريرِ الاعتراضِ دلالة على الانتقام الشَّديد والتَّسْلية العامَّة[5]، فالتَّكرار في مثل هذا المقام يكون أَشَدَّ تأثيرًا في القلب وأكثرَ مُبَالَغَةً[6].

(1) ابْنُ عاشور، التَّحريرُ والتَّنْوير: 5/72 - 73.
(2) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 10/93.
(3) الآلوسّي، روحُ المعاني: 5/45.
(4) الآلوسّي، روحُ المعاني: 5/45، والقاسِميّ، مَحاسِنُ التَّأْويل: 3/139.
(5) السُّيوطيّ، حاشية السيوطي على البَيْضاويّ: 3/160.
(6) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 10/93.

نكتة إظهار اسم الله الأعظم:

ذُكِرتْ جملةُ: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ﴾؛ للتَّبَرُّكِ، وللثِّقة بعلمه تعالى، وكفايته في الجمل الثَّلاث: ﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ﴾، ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ﴾، و﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ﴾، فهو للاستئناس به، واستحضار حوله وقوَّته، وقوَّة غلبته، وشدَّة قهره، وللاستنصار به، ومطامنة النَّفس، وتوطين الثِّقة، وإلهام الدُّعاء، واستشعار الغنى والقوَّة، وأنَّه العزيز الحكيم، الفعَّال لما يريد، ولطمأنة المؤمنين ليأووا إليه، ويتوكَّلوا عليه، ويلتمسوا العزَّة منه، ولا يخشوا كيد عدوِّهم ومكره، ما داموا مكبِّرين الله على ما هداهم، مطيعين لرسالة نبيِّهم، وآخذين ما آتاهم.

التبرُّك بذكر الاسم الجليل، وتأكيدُ كفايتِه ﷻ في كلٍّ من الولايةِ والنُّصرةِ

وفي إظهارِ اسم الجّلالة ﴿بِٱللَّهِ﴾ في مقامِ الإضمار في الجملتين - لا سيَّما في الثَّانية - تقويةٌ لاستقلالهما المُناسبِ للاعتراض، وتأكيدٌ لكفايتِه ﷻ في كلٍّ من الولايةِ والنُّصرةِ[1].

إنّ الله غنيٌّ عن الولاية، وعن النّصرة، ولن يُعجزه شيءٌ في الأرض ولا في السَّماء

المغزى البلاغيُّ من زيادة حروف الجَرِّ:

الباءُ في فاعل ﴿وَكَفَىٰ﴾ مَزيدةٌ؛ لتأكيد الاتِّصال الإسناديِّ بالاتِّصال الإضافيِّ[2]، أي: تأكيدُ النِّسبة الاتِّصاليَّة، وهي الْفَاعليَّة بالنِّسبة الإضافيَّة، فإنَّ المُضَاف إليه ما نُسِبَ إليْهِ المُضَافُ بواسطة حرف الجرِّ لفظًا أو تقديرًا[3]، فَجيءَ بالباء المزيدة تأكيدًا للنِّسبة بما يُفيد الاتِّصال، وهو الباءُ الإلصاقيَّةُ[4].

تأكيد الكفاية يناسبُ مقام الذّات الإلهيّة العليّة، وفيه تشويقٌ لما أُجْمِلَ، وتمكينٌ للْمَعْنَى فِي الذِّهْنِ

وفي هذا التَّركيب زِيادةُ تشويقٍ إلى معرفة تفصيل ما أُجْمِلَ في نسبة الفعل إلى فاعله؛ لأنَّ الفعل يَطْلُبُ فاعلًا، ولا بُدَّ أن يصل إليه، فتأتي (الباء) بما فيها من معانٍ - منها الإلصاق - تُؤَكِّدُ اتِّصال

(1) أبو حَيَّان، البَحْرُ المُحيط: 3/665، وأبو السّعود، إرْشادُ العَقْلِ السَّليم: 2/182، والآلوسّي، روحُ المعاني: 5/45.
(2) أبو السُّعود، إرْشادُ العَقْلِ السَّليم: 1/527، والبَيْضاويّ، أَنْوارُ التَّنْزيل: 2/76، والآلوسّي، روحُ المعاني: 4/45.
(3) القونويّ، حاشيةُ القونويِّ على البَيْضاويّ: 7/180.
(4) الآلوسّي، روحُ المعاني: 5/45.

الأوَّل بالثَّاني؛ لِيَتَمَكَّنَ الْمَعْنَى في ذِهْنِ السَّامِعِ[1]. وثَمَّةَ فائدة أخرى، وهي أنَّ زيادة حرف الجرِّ تُبَيِّنُ معنى الأمر في لفظ الخَبَرِ، أي: اكْتَفُوا باللّه، فالباء تَدُلُّ على المُرادِ من ذلك[2].

علّةُ إيثارِ فعل الكفاية:

الكفايةُ من اللّه تعالى ليست كالكفاية من غيره، فهي مؤَكَّدةٌ، متحقّقةٌ

الفِعْلُ ﴿وَكَفَىٰ﴾ في قَوْلِهِ: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرًا﴾ مُسْتَعْمَلٌ في تَقْوِيَةِ اتِّصَافِ الفاعل بِوَصْفٍ يَدُلُّ عَلَيْهِ التَّمْيِيزُ الْمَذْكُورُ بَعْدَهُ، أَيْ: إنَّ فَاعِلَ ﴿وَكَفَىٰ﴾ أَجْدَرُ مَنْ يَتَّصِفُ بِذَلِكَ الْوَصْفِ؛ وغَلَبَ فِي الْكَلَامِ إِدْخَالُ (بَاءٍ) عَلَى فَاعِلِ فِعْلِ ﴿وَكَفَىٰ﴾؛ لتأكِيدِ اتِّصال الفعل بلفظ الجلالة ﴿بِٱللَّهِ﴾، وتَقْوِيتِه[3]، فالباء مزيدة في فعل الكفاية لتوكيدها، وفيها إيذان بأنَّ الكفاية فيما زيدت فيه، متحقِّقة على النَّحو المقصود البالغ شأوًا بعيدًا منها[4].

بيانُ المتشابه اللفظي:

تعلّق السّياق بالربوبيّة، وبالشّكوى من الضّالين يستوجب ذكر الهداية

اكتفى هنا بذكر لفظ ﴿نَصِيرًا﴾، وزاد في [الفرقان: 31] لفظة ﴿هَادِيًا﴾، فقال: ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ۝٣١﴾ [الفرقان: 31]. وبيان ذلك أنّ آية النساء بُدِئَتْ بقوله: ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَآئِكُمْ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيًّا﴾؛ ولأنّ السّياق متعلّقٌ بالألوهية، وكانت الولاية مقدَّمة للنصرة؛ ناسبه قوله: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرًا﴾. أما آية الفرقان فيسبقها قوله: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ۝٣٠﴾ [الفرقان: 30]؛ فلما كان السياق متعلقًا بالربوبية، وبشكوى الرّسول ﷺ ممّن ضلّوا عن سبيل الهداية؛ ناسبه تبشيره بكفاية ربه له هداية، ونصرة بقوله: ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ۝٣١﴾ [الفرقان: 31].

(1) ابْنُ عاشور، التَّحْريرُ والتَّنْوير: 5/73.
(2) ابْنُ عَطيَّة، المُحَرَّرُ الوَجيز: 2/61، والآلوسّي، روحُ المعاني: 5/45.
(3) ابْنُ هِشام، مُغْني اللَّبيب: 1/109.وابْنُ عاشور، التَّحْريرُ والتَّنْوير: 5/73.
(4) الرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 10/93، وابْنُ عادِل، اللُّبابُ في عُلومِ الكِتاب: 6/403 — 404.

فائدة بيان صفات اليَهودِ تَفْصيلًا بَعْدَ ذِكْرِ عَداوتِهِمْ إِجْمالًا:

في بيان الصّفات تَفْصيلٌ لفنون ضلالهم وتحذيرٌ مِنْ أَشَدِّ الأعداء على المسلمين خَطَرًا وأعظمِهِمْ شَرًّا

جملة: ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ﴾ بَيَانٌ لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾، وقد تكونُ جملتها بَيَانًا لـ﴿بِأَعْدَآئِكُمْۚ﴾[1]، وكلتا المبيَّنتين متقدِّمة، فيسوَّغ الاحتمال، غير أنَّ الثَّانية منهما أحقُّ بالبيان وأوعى للغرض، وعلى كلا القولين؛ فإنَّه لمَّا كان ذِكْرُ الأَعْداءِ بِشَكْلٍ عامٍّ - في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَآئِكُمْۚ﴾ بعد قوله: ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ المُشْتَمِلِ على الفريقين: اليهود بالأصالة والتَّقدُّم والأوَّليَّة، والنَّصارى بالتَّبعيَّة والمحاكاة - مُشْعِرًا بتَهْديدٍ عظيم ووعيد شديد لِبَعْضٍ منهم على سبيل الإبهام؛ بَيَّنَ بِقَوْلِهِ: ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ﴾ ذلك البعض المُبْهَم، والآية تَنْظُرُ إلى معنى قوله تعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰۚ﴾ [المائدة: 82][2].

في الإجمال إعمامٌ يشمل اليهود وغيرهم، وفي التَّفْصيل كمالُ الإيضاح لفنون ضلالهم

حاصلُ مَعْنَى قولِه: ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ﴾: وهُمُ الَّذينَ هادوا، أي: تَهَوَّدُوا؛ يُقال: هادَ، وتَهَوَّدَ؛ إذا دَخَلَ في اليَهُوديَّة، فالذِّكْرُ مُجْمَلٌ أوَّلًا؛ فإنَّها تحتملهم وغيرهم، ومآلهُما واحدٌ، والتَّفْصيل ثانيًا؛ لكمال الإيضاح[3]، فهو تَفْصيلٌ لفنون ضلالهم، فقد رُوعِيَتْ في النَّظْمِ الكريم طريقة التَّفسير بعد الإبهام، والتَّفصيل إثر الإجمال؛ رَوْمًا لزيادة تقريرٍ يقتضيه الحال[4]؛ تحذيرًا مِنْ أَشَدِّ الأعداء على المسلمين خَطَرًا، وأعظمِهِمْ شَرًّا، وهُمُ اليَهُودُ، وتَنْبيهًا على شِدَّةِ خَطَرِهِمْ على الإسلام والمسلمين وعَدَاوَتِهِمْ لرسول رَبِّ العالمين.

(1) أَبو السُّعود، إرْشادُ العَقْلِ السَّليم: 1/529، والآلوسّي، روحُ المعاني: 5/45.
(2) السُّيوطيّ، حاشية السُّيوطيِّ على البَيْضاويّ: 3/160.
(3) القونويّ، حاشيةُ القونويِّ على البَيْضاويّ: 7/181.
(4) القاسِميّ، مَحاسِنُ التَّأْويل: 3/139.

النُّكتة في حذف المبتدأ:

في الحذف تحقيرُ اليهودِ ببيان صفاتهم الدَّالَّة عليهم وعلى عداوتهم ومكرهم

يجوز أن يكون قوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ﴾ مستأنفًا، على أنَّ الجارَّ والمجرور ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ﴾ واقعٌ خَبَرًا لمُبْتدأ محذوفٍ، تقديره: قَوْمٌ مِنَ الذين هادُوا، دلَّ على هذا المُبتدأ جملةُ: ﴿يُحَرِّفُونَ﴾، الواقعة صفة له[1]، وَحَذْفُ المبتدأ في مِثْلِ هَذَا شَائِعٌ في كَلَامِ الْعَرَبِ؛ اجْتِزَاءً بِالصِّفَةِ عَنِ الْمَوْصُوفِ، وَذَلِكَ إِذَا كَانَ الْمُبْتَدَأُ مَوْصُوفًا بِجُمْلَةٍ أَوْ ظَرْفٍ، وَكَانَ بَعْضَ اسْمٍ مَجْرُورٍ بِحَرْفِ ﴿مِّنَ﴾، وَذَلِكَ الاسْمُ مُقَدَّمٌ عَلَى الْمُبْتَدَأ، وَمِنْ كَلِمَاتِ الْعَرَبِ الْمَأْثُورَةِ قَوْلُهُمْ: "مِنَّا ظَعَنَ، وَمِنَّا أَقَامَ"، أَيْ: مِنَّا فَرِيقٌ ظَعَنَ، وَمِنَّا فَرِيقٌ أَقَامَ، وَقَدْ دَلَّ ضَمِيرُ الْجَمْعِ فِي قَوْلِهِ: ﴿يُحَرِّفُونَ﴾ على أَنَّ هَذَا صَنِيعُ الموصوفين، وعلى أنَّ ﴿مِّنَ﴾ تبعيضيَّة، فهم فَرِيق مِنْهُمْ[2]، وفيه تحقيرٌ لهم؛ فإنَّ أهل الكتاب لَيْسُوا على صفة واحدة، قال تعالى: ﴿لَيْسُواْ سَوَآءً ۗ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾﴾ [آل عمران: 113].

شرُّ اليهود مستطيرٌ في كلّ زمان، وأفعالهم على الدّوام متشابهة

علّةُ حذْف المُبتدأ – في وجهٍ – ألَّا تتمحَّض ﴿مِّنَ﴾ تبعيضيَّة، ويقوى ظهورها بيانيَّة، فتتناول جميع المكلَّفين ولا تقف عند مجموعهم، وأثر ذلك على المعنى: الدّلالة على أنَّهم على قلب رجل واحد في الشَّرِّ، فمن لم يباشره منهم؛ تمنَّى أنْ لو كان باشره، وأنَّ الأخلاف ليسوا بأقصر يدًا في ذلك من الأسلاف، وعلى ذلك براهين؛ منها: انسحاب دلالة (الماضي) في آيات الإخبار عنهم على (المضارع) بشقَّيه: الحاضر والمستقبل، كقوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا﴾ [البقرة: 111]، وانسحاب دلالة (المضارع) في مثل ذلك على ماضيهم كلِّه منذ بعثة النَّبيِّ ﷺ: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ﴾ [البقرة: 120].

(1) الزَّمَخْشَريّ، الكَشّاف: 1/516، وابْنُ عاشور، التَّحْريرُ والتَّنْوير: 5/75.
(2) ابْنُ عاشور، التَّحْريرُ والتَّنْوير: 5/74.

ومَنْ أجْلَى ذلك وأوضَحَهُ إخبارُه عن أبشع جرائمهم الماضية المنقضية بالمضارع، كما قال مفيدًا بفعل الكون الاستمرار: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَانُواْ يَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقۡتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ٦١﴾ [البقرة: 61]، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقۡتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيۡرِ حَقّٖ وَيَقۡتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡقِسۡطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ٢١﴾ [آل عمران: 21].

خفاء المسمّى مظنّة اتّساع التقدير، واستحضار الحَذَر

فائدة الحذف ألَّا تنحصر دلالته في مُسمّى؛ فتذهب النَّفس في تقديره كلَّ مذهب، فيكون ذلك داعية للحذر والاحتياط منهم جميعًا، وذلك أنأى عن خُلُوص الشَّرِّ، وأنجى من مغبَّته، وأبعد عن مواقعته، وأدنى إلى السَّلامة منه؛ إذ الذِّكر تقييد، والحذف إطلاق.

خفاء المبتدأ لظهور معناه سبيلٌ لتقوية التعلّق بالله تعالى

قوَّة ظهور المبتدأ، وشدَّة وضوحه، وعدم مؤدّاه إلى الإلباس على السَّامع والمُتَلَقِّي سببٌ لخفائه، وعلّةٌ لحذفه. وفي ذلك تقويةٌ لتعلُّقهم بالله؛ عياذًا به، ولياذًا إليه، وتوكُّلًا عليه، في كفايتهم عدوَّهم وحفظهم من غائلته ووقايتهم من خطره وضرره، فلا يخشون غيره، ولا يرهبون سواه؛ ولذلك كلّه كان الحذف أبلغ من الذِّكر.

بلاغة تعليل العداوة على سبيل الاستئناف:

تصوير تعليل العداوة على سبيل الاستئناف بطريق السؤال وجوابه أثبت في النفس وأوقع

علَّل النَّظم الكريم العداوة على سبيل الاستئناف بقوله: ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ كأنَّ سائلاً سأل: لمَ تَفَرَّدت اليهود بعداوة النَّبيِّ ﷺ؟ فقيل: لأنَّهم حَرَّفوا اسمه وَوَصْفَهُ من التَّوراة، وكَتَموا الحقَّ، وأخذوا على ذلك الرِّشا، وأظهروا على سبيل ذلك المُشْتَبِهَ بقولهم: ﴿وَرَٰعِنَا﴾؛ إخفاءً لأمره وحَطًّا لمنزلته[1]، مع علْمِهم أنَّه نبيٌّ آخر الزَّمان، وأن رسالته الأخيرة الباقية إلى أبد الآباد، ودهر الدُّهور، حتَّى يرث الله الأرض ومن عليها، ولازم ذلك أنَّها كاشفة لزيغ الأمم قبلها، مظهرة انحرافهم عن شرائعهم نصحًا لمن ينظر إليهم في

(1) السُّيوطيّ، حاشية السُّيوطي على البَيْضاويّ: 3/160.

دينهم، كاشفة عن ليِّهم في متابعة أنبيائهم، وغلوِّهم في دينهم غير الحقِّ، ولازم شريعة النَّبيِّ محمَّد - صلّى الله عليه وآله وسلَّم - أنَّها لا تقرُّ غير الحقِّ، كما لا تسكت عن باطل.

إظهارُ جرائمِ الذين هادُوا لاستنكارها، والحَذَر منها

كان الَّذين هادوا قتلة الأنبياء، وهم الأوفى حظًّا ونصيبًا من هدم الرِّسالات باتِّباع الأهواء الشَّيطانيَّة والحيل الإبليسيَّة، وقد أخرج القرآن جرائمهم هذه للعلن؛ لتلقى استنكارًا عامًّا وتنديدًا مُستحقًّا، وحذّر منها، ونفَّر عنها أعمَّ تحذير، وأتمَّ تنفير، فسقط في أيديهم، ورأوْا أنَّهم قد ضلُّوا، وحوصروا بضلالهم، وكعهدهم، فلم يرجعوا، ولم يراجعوا، بل ازدادوا إثمَ الإصرار، وتمنَّى الأخلاف أن: لو كانوا بمكان الأسلاف؛ لفعلوا فعلهم في التّكذيب وقتل النَّبيِّين، ولزادوا في الشَّناعة عليهم.

وليس بعد الكفر ذنْب، ولا بعد قتْل النَّبيِّين ثلبٌ، وأنَّ أدلَّ دليل على تقدُّم الأخلاف على الأسلاف في الكفر والفجور لتكذيبهم أضوأ الرسالات، وأسطع النُّبوَّات، وأظهر المعجزات: رسالة النَّبيِّ محمَّد صلّى الله عليه وآله وسلّم، ونبوَّته، ومعجزة كتابه، وهم على علم بها، وقد نبَّأهم الله فيما أوحى إلى موسى بها وبأهلها وترك لهم وصاة عنها.

دلالة معنى التَّحريف بَيْنَ الحقيقة والمجاز:

بيانُ جمعهم تحريفَ الألفاظ والمباني والمقاصد والمعاني

التَّحْرِيفُ: الْمَيْلُ بِالشَّيْءِ إِلَى الْحَرْفِ: وَهُوَ جَانِبُ الشَّيْءِ وَحَافَّتُهُ، وَهُوَ هُنَا مُسْتَعْمَلٌ فِي الْمَيْلِ عَنْ سَوَاءِ الْمَعْنَى وَصَرِيحِهِ إِلَى التَّأْوِيلِ الْبَاطِلِ، كَمَا يُقَالُ: تَنَكَّبَ عَنِ الصِّرَاطِ، وَعَنِ الطَّرِيقِ؛ إِذَا أَخْطَأَ الصَّوَابَ، وَصَارَ إِلَى سُوءِ الْفَهْمِ أَوِ التَّضْلِيلِ، فَهُوَ عَلَى هَذَا تَحْرِيفُ مُرَادِ اللَّهِ فِي التَّوْرَاةِ إِلَى تَأْوِيلَاتٍ بَاطِلَةٍ، كَمَا يَفْعَلُ أَهْلُ الْأَهْوَاءِ فِي تَحْرِيفِ مَعَانِي الْقُرْآنِ بِالتَّأْوِيلَاتِ الْفَاسِدَةِ، وَيَجُوزُ أَنْ يكون التَّحريف مُشْتَقًّا مِنَ الْحَرْفِ: وَهُوَ الْكَلِمَةُ وَالْكِتَابَةُ، فَيَكُونُ مُرَادًا

بِهِ تَغْيِيرُ كَلِمَاتِ التَّوْرَاةِ وَتَبْدِيلُهَا بِكَلِمَاتٍ أُخْرَى؛ لِتُوَافِقَ أَهْوَاءَ أَهْلِ الشَّهَوَاتِ فِي تَأْيِيدِ مَا هُمْ عَلَيْهِ مِنْ فَاسِدِ الْأَعْمَالِ، وَالظَّاهِرُ أَنَّ كِلَا الْأَمْرَيْنِ قَدِ ارْتَكَبَهُ الْيَهُودُ فِي كِتَابِهِمْ، فَعَلَى الِاحْتِمَالِ الْأَوَّلِ: يَكُونُ اسْتِعْمَالُ ﴿عَن﴾ فِي قَوْلِهِ: ﴿عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ مَجَازًا، وَلَا مُجَاوَزَةَ وَلَا مَوَاضِعَ، وهي استعارة، والمُراد بها أنَّهم يُنَكِّسون الكلام عن حقائقه، ويُزيلونه عن جهة صوابه؛ حَمْلًا له على أهوائهم، وعَطْفًا على آرائهم، وَعَلَى الثَّانِي: يَكُونُ حَقِيقَةً؛ إِذِ التَّحْرِيفُ حِينَئِذٍ نَقْلٌ وَإِزَالَةٌ[1]. وكلُّ ما يدلُّ النَّصُّ عليهم باقترافه واجتراحه بإجرامهم ودناءتهم وكفر قلوبهم ومحادَّتهم اللّٰه ورسله وأنبياءه؛ فهو حقٌّ وصدق، وهم أهل إجرامه، واقتحامه.

توجيه المتشابه اللفظيّ:

قال تعالى هاهُنا: ﴿عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾، وقال في المائدة: ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَوَاضِعِهِۦۖ﴾ [المائدة: 41]، فأمّا ﴿عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾؛ فعلى ما فُسِّرَ أنَّ التَّحريف عن مواضعه الَّتي أوجبت حكمة اللّٰه وضعه فيها؛ بما اقتضت شهواتهم من إبدال غيره مكانه بالتَّأويلات الباطلة، فَهُمْ يذكرون التَّأويلات الفاسدة لتلك النُّصوص، وليس فيه بيان أنَّهم يخرجون تلك اللَّفظة من الكتاب، وأمَّا ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَوَاضِعِهِۦۖ﴾ [المائدة: 41]؛ فالمعنى: أنَّه كانت له مواضع هو قَمِنٌ بأن يكون فيها، فحين حرَّفوه؛ تركوه كالغريب الَّذي لا موضع له بعد مواضعه ومقارِّهِ، فهي دالَّةٌ على أنَّهم جمعوا بين الأمرين، فكانوا يذكرون التَّأويلات الفاسدة، وكانوا يُخْرِجُون اللَّفظ - أيضًا - من الكتاب، فقوله: ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ﴾؛ إشارة إلى التَّأويل الباطل، وقوله: ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَوَاضِعِهِۦۖ﴾ [المائدة: 41]؛ إشارة إلى إخراجه عن الكتاب[2]، فاختيار الأوَّل هُنا، والثَّاني في

جمعَ اليَّهودُ ذكر التَّأويلات الفاسدة من الكتاب، ومن عند أنفسهم

(1) ابْنُ عاشور، التَّحْرِيرُ والتَّنْوِير: 5/75.

(2) الزَّمَخْشَرِيّ، تَفْسِيرُ الكَشَّاف: 1/517، والرَّازِيّ، مفاتيح الغيب: 10/95.

المائدة: مَبْنِيٌّ عَلَى رعاية المناسبة بما قبله وبما بَعْدَهُ[1]، فالَّذي في المائدة أَدَلُّ على ثبوت مَقارِّ الكلم واشتهارها ممَّا هُنا؛ لأنَّ الظَّرف يَدُلُّ على أنَّه بعد ما ثَبَتَ المَوْضِعُ، وتقرَّر؛ حَرَّفوه عَنْه[2].

سرُّ العَطْفِ بعد الوصف:

بيان سُوء أقوال اليهود بعد ذِكْرِ سُوء فِعالِهِمْ

قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ﴾ عَطْفٌ عَلى ﴿يُحَرِّفُونَ﴾، فَذَكَرَ سُوء أَقْوَالهم بَعْدَ ذِكْرِ سُوءِ أَفْعَالِهِمْ، وَأَقْوَالهم هِيَ الَّتِي يُوَاجِهُونَ بهَا الرَّسُول ﷺ على حين يستخفون بأفعالهم ومن إظهارها: يَقُولُونَ سَمِعْنَا دَعْوَتَكَ، وَعَصَيْنَاكَ؛ إظهارًا لِتَمَسُّكِهِمْ بِدِينِهِمْ غير الحقِّ، فتًّا في عضده، وتأييسًا له، بالتَّكذيب والإصرار؛ لِيَزُولَ طَمَعُ الرَّسُولِ في إِيمَانِهِمْ، وَلِذَلِكَ لَمْ يَرَوْا في قَوْلِهِمْ هَذَا أَذًى لِلرَّسُولِ بالغًا به حدَّ ما في أنفسهم، مشبعًا ما فيها من دونيَّة وانحطاط واستخفاف بمشاعر النَّبيِّ المطهَّر المقدَّس الَّذي لم يألُ نصحًا، ولا فتر دعاءً إلى خير عاجل وفضل آجل وتزكية لازمة، فَأَعْقَبُوهُ بِقَوْلِهِمْ لَهُ: وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ؛ إِظْهَارًا لِلتَّأَدُّبِ مَعَهُ[3]؛ خداعًا ومواربة، استخفافًا واستهزاءً، فقد ردُّوا بذلك أسفل سافلين، ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٦﴾﴾ [الزخرف: 76].

فقوله: ﴿وَيَقُولُونَ﴾ عطف عَلَى ﴿يُحَرِّفُونَ﴾، والجهة الجامعة: خياليّ؛ إذ عند حكاية جسارتهم التَّحريف يخطر بالبال أنَّهم يَتَجاسَرُون على مثل هذا المثالب، كالمُوَاجَهَة بالعصيان والطُّغيان[4].

فائدة استعمال ضمير التَّكلُّم:

تَنْعى الآية على اليهود بعض جرائمهم المُتَوَارَثَة، فلم يَكْفِهِمْ تحريف ما في شَرْعِهِمْ - ومنه صفةُ النَّبيِّ ﷺ - بل هم - أيضًا -

(1) حاشيةُ القونويِّ على البَيْضاويّ: 7/182.
(2) الآلوسّي، روحُ المعاني: 3/46.
(3) ابْنُ عاشور، التَّحريرُ والتَّنْوير: 5/75، (بتصرف).
(4) ابْنُ التَّمْجيد، حاشيَةُ ابْنِ التَّمْجيدِ على البَيْضاويّ: 7/182.

بيان تواطؤهم على العناد واجتماعهم على العصيان

يُجاهرون بالعناد والمعصية بقولهم: ﴿سَمِعۡنَا وَعَصَيۡنَا﴾، أي: سمعنا قولك، وعصينا أمرك[1]، مُعبِّرين بذلك عن تبجُّحهم، وما انطوت عليه دخائلهم بالضَّمير (نا) الدَّالِّ على المتكلِّمين، مُوهِمين بذلك أنَّهم يُريدون أنَّ ذلك حكاية ما وقع لأَسلافهم قديمًا، وإنَّما يُريدون أنَّهم هم سمعوا ما يقول، وخالفوه عمدًا؛ لِيَظُنَّ من سَمِعَ ذلك أنَّهم على بصيرة في المخالفة بسبب ما عندهم من العلم الرَّبَّانيِّ؛ ليُوَرِّثَهُ ذلك شكًّا في أمره وحَيْرَةً في شأنه[2].

وكان ذلك آية شاهدة على جُرمهم الجَماعيِّ، وتَحامي بعضهم ببعض حين يَسْخَرُون بالدِّين وبالرَّسول ﷺ لهذا استحقُّوا لعنة اللّه ﷻ على ما انطوت عليه ضمائرهم، وأعلنت عنه ألسنَتُهم من العدول عن الخير إلى الشَّرِّ، وعن الإيمان إلى الكُفْرِ، والذّمِّ، وإرادة السُّوء أقرب احتمالاً باعتبار معهودهم، والمدح وإرادة الثَّناء أقرب منالًا باعتبار معهوده هو عليه أفضل الصَّلاة وأزكى السَّلام.

بديع التَّوجيه في قوله تعالى: ﴿وَٱسۡمَعۡ غَيۡرَ مُسۡمَعٖ وَرَٰعِنَا﴾:

من سوء أدب اليهود إظهارُ التَّوقير في الخطاب والاحترام، وإضمارُ الشَّتيمة، والإهانة نيّةً

الموضع الأوَّل من التَّوجيه[3] هو قولهم: ﴿وَٱسۡمَعۡ غَيۡرَ مُسۡمَعٖ﴾، وهو حال من المخاطب، أي: اسمع، وأنت غير مُسْمَعٍ، وهُوَ قولٌ ذو وجهين: يَحْتَمِلُ الذَّمَّ، أي: اسمع مِنَّا مَدْعوًّا عليك بلا سمعت؛ لأنَّه لو أجيبتْ دعوتهم عليه؛ لم يَسْمَعْ، فكان أَصَمَّ، أو اسمع غير مُجاب إلى ما تدعو إليه، ومعناه: غَيْرَ مُسْمَعٍ جوابًا، فكأنَّك لم تسمع شيئًا،

(1) أَبو حَيَّان، البحر المحيط: 3/263.

(2) البِقاعيّ، نَظْمُ الدُّرَر: 2/263.

(3) هو إيراد الكلام محتملاً وجهين مُتضادَّين، كالمدح والهجاء أو الذَّمِّ والثَّناء، ولا بدَّ أن يكون هذا الاحتمال على حدٍّ سواء، فلو كان أحد الوجهين متبادرًا إلى الذِّهن، لم يكن توجيهًا، ينظر: السَّكَّاكيّ، مِفْتاحُ العلوم، ص: 202، والقَزوينيّ، الإيضاح، ص: 328، وهو أسلوبٌ يجعل صاحبه في مأمن من المؤاخذة والعقاب، لأنَّه يقول كلامًا يحتمل وجهين، فإذا شاء، مال به إلى الذَّمّ، فينال من مذمومه، وإذا شاء، مال به إلى المدح، فينجو من المؤاخذة، ويبرأ من الإثم، ينظر: بسيوني، علم البديع: 2/63.

أو اسمع غير مسمعٍ كلامًا ترضاه، فسمعك عنه نَابٍ[1]، أو اسمع غير مُسْمَعٍ مكروهًا؛ من باب قولهم: أسمعه فلان؛ إذا سبَّه، وإنَّما قالوا ذلك نفاقًا[2].

فقد كانوا يَقُولُونَ لِلرَّسُولِ ﷺ عِنْدَ مُرَاجَعَتِهِ فِي أَمْرِ الْإِسْلَامِ: اسْمَعْ مِنَّا، وَيُعَقِّبُونَ ذَلِكَ بِقَوْلِهِمْ: غَيْرَ مُسْمَعٍ، يُوهِمُونَ أَنَّهُمْ قَصَدُوا الظَّاهِرَ الْمُتَبَادِرَ مِنْ قَوْلِهِمْ: غَيْرَ مُسْمَعٍ، أَيْ: غَيْرَ مَأْمُورٍ بِأَنْ تَسْمَعَ، فِي مَعْنَى قَوْلِ الْعَرَبِ: (افْعَلْ غَيْرَ مَأْمُورٍ)، أو غَيْرَ مُسْمَعٍ مَكْرُوهًا، وَالْحَاصِلُ: أَنَّ هَذِهِ الْكَلِمَةَ كَانَتْ مَعْرُوفَةَ الْإِطْلَاقِ بَيْنَ الْعَرَبِ فِي مَعْنَى: الْكَرَامَةِ وَالتَّلَطُّفِ، إِطْلَاقًا مُتَعَارَفًا، وَلَكِنَّهُمْ لَمَّا قَالُوهَا لِلرَّسُولِ؛ أَرَادُوا بِهَا مَعْنًى آخَرَ، انْتَحَلُوهُ لَهَا مِنْ شَيْءٍ يَسْمَحُ بِهِ تَرْكِيبُهَا الْوَضْعِيُّ، أَيْ: أَلَّا يَسْمَعَ صَوْتًا من متكلِّم؛ لِأَن يَصِيرَ أَصَمَّ، أَوِ الَّذِي دَلَّ عَلَى أَنَّهُمْ أَرَادُوا ذَلِكَ قَوْلُهُ بَعْدُ: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُواْ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَٱسْمَعْ وَٱنظُرْنَا﴾، فَأَزَالَ لَهُمْ كَلِمَةَ: ﴿غَيْرَ مُسْمَعٍ﴾[3].

والموضع الثَّاني: قولهم: ﴿وَرَٰعِنَا﴾، وهو يحتمل: راعنَا؛ لنكلِّمك، أي: ارقبنا، وانتظرنا، نكلِّمك، أو نفهم كلامك[4]، فأَتَوْا بِلَفْظٍ: ظَاهِرُهُ طَلَبُ الْمُرَاعَاةِ، أَيِ: الرِّفْقِ، وَالْمُرَاعَاةُ مُفَاعَلَةٌ مُسْتَعْمَلَةٌ فِي الْمُبَالَغَةِ فِي الرَّعْيِ عَلَى وَجْهِ الْكِنَايَةِ الشَّائِعَةِ الَّتِي سَاوَتِ الْأَصْلَ؛ لِأَنَّ الرَّعْيَ مِنْ لَوَازِمِهِ الرِّفْقُ بِالْمَرْعِيِّ، وَطَلَبُ الْخِصْبِ لَهُ، وَدَفْعُ الْعَادِيَةِ عَنْهُ، وَهُمْ يُرِيدُونَ بِـ ﴿وَرَٰعِنَا﴾ كَلِمَةً فِي الْعِبْرَانِيَّةِ، تَدُلُّ عَلَى مَا تَدُلُّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الرُّعُونَةِ فِي الْعَرَبِيَّةِ[5]، وفي عملهم هذا عَمَدُوا إلى إيصال الأذى إلى النبيّ ﷺ بطريقة خفيَّة، لا يُؤاخذون عليها،

في عَمَلِهِم عَمْدٌ إلى إيذاء الرَّسول ﷺ بطريقةٍ خفيَّة، لا يُؤاخذون عليها

(1) الزَّمَخْشَرِيّ، الكَشّاف: 1/271.

(2) الرَّازِيّ، مفاتيح الغيب: 10/95، والبَيْضاويّ، أَنْوارُ التَّنْزيل: 2/77.

(3) تفسير أبي السُّعود، إرْشادُ العَقْلِ السَّليم: 1/529، وابْنُ عاشور، التَّحْريرُ والتَّنْوير: 5/76.

(4) البَيْضاويّ، أَنْوارُ التَّنْزيل: 2/77.

(5) الزَّمَخْشَرِيّ، الكَشّاف: 1/271، وابْنُ التَّمْجيد، حاشيَةُ ابْنِ التَّمْجيدِ على البَيْضاويّ: 7/183 - 184، وابْنُ عاشور، التَّحْريرُ والتَّنْوير: 5/76.

ولكنَّ اللّه كشَفَهُم، وفضحَ أمرَهُم ببيانِ تحْريفهم لِلْكَلِم، ومن المعلوم أنَّ تحريف الشَّيء: إمالتُه، كتحريف القلم، وتحريف الكلام: أن تحمله على حرف من الاحتمال، فيمكن حمله على الوجهين[1]، وهو ظاهر في قولهم: ﴿وَٱسۡمَعۡ غَيۡرَ مُسۡمَعٖ﴾، أمَّا قولهم: ﴿وَرَٰعِنَا﴾؛ فالغالب فيه هو اللَّيُّ؛ لأنَّهم يُخْرجونَ الكلمة بطريقة يَلْوونَ فيها ألسنتهم، حتَّى تُعَبِّرَ عمَّا أرادوا، تشبيهًا بكلمة عبرانية كانوا يتسابون بها، وهي: (راعينا)، هكذا بالياء؛ فقد كانوا يُكلِّمون الرَّسول ﷺ بكلام مُحْتَمَلٍ، يَنْوُون به الشَّتيمة والإهانة، ويُظهرون التَّوقير والاحترام والإكرام[2].

بلاغة التجنيس في الآية:

في قوله ﴿وَٱسۡمَعۡ﴾ و﴿غَيۡرَ مُسۡمَعٖ﴾ جناسٌ مغايرٌ[3] يُبْرِزُ قَصْدَهُمْ مِنْ إيرَادِ كَلَامٍ ذِي وَجْهَيْنِ - يحتمل المدح والتَّعظيم، ويحتمل الإهانة والشَّتم - وهو أَنْ يُرْضُوا الرَّسُولَ وَالْمُؤْمِنِينَ، وَيُرْضُوا أَنْفُسَهُمْ بِسُوءِ نِيَّتِهِمْ مَعَ الرَّسُول ﷺ وَيُرْضُوا قَوْمَهُمْ، فَلَا يَجِدُوا عَلَيْهِمْ حُجَّةً[4].

في التجنيس قصدٌ إلى إرضاء الجميع بسوء نيّتهم

دلالة التَّعريض بالقول المحتمل بعد التَّصريح بالكفر والعصيان:

جاؤوا بالقول المحتمل في الوجهين بعد ما صَرَّحوا، وقالوا: سمعنا، وعصينا؛ لأنَّ جميع الكفرة كانوا يُواجهونه ﷺ بالكفر والعصيان، ولا يواجهونه بالسَّبِّ ودعاء السُّوء، ويجوز أنْ يقولوه فيما بينهم، ويجوز ألَّا ينطقوا بذلك، ولكنَّهم لمَّا لم يؤمنوا به؛ جعلوا كأنَّهم نطقوا به[5]، فكان النَّبيُّ ﷺ إذا أمرهم بشيء؛ قالوا في الظَّاهر: سمعنا،

في التّعريض تَغدادُ صفاتهم الذَّميمة من قول وفعل، ووصفُ عصيانهم، واحتيالهم

(1) الرَّاغِب، المُفْرَدات: (حرف)، والسُّيوطيّ، حاشية السُّيوطيّ على البَيْضاويّ: 3/161، وابْنُ التَّمْجيد، حاشيَةُ ابْنِ التَّمْجيدِ على البَيْضاويّ: 7/182 - 183.

(2) البِقاعيّ، نَظْمُ الدُّرَر: 2/293.

(3) أَبو حَيّان، البحر المحيط: 3/665.

(4) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 10/95، وابْنُ عاشور، التَّحْريرُ والتَّنْوير: 5/76.

(5) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 10/96.

وقالوا في أنفسهم: وعصينا[1]. والمقصود على هذا عَدُّ صفاتهم الذَّميمة، لا مجرَّد التَّحريف والاحتيال، فكأنَّه قيل: يحرِّفون كتابهم، ويجاهرون بإنكار نُبوَّة محمَّد ﷺ قالًا وحالًا، وعِصيانهم بعد سماع ما بَلغهم وتحقُّقِه لديهم، ويحتالون في سبِّه[2] ﷺ.

بيان اختصاص اليهود في خطابهم لغيرهم بما ظاهره التَّوقير وباطنه التَّحقير

سِرُّ إيثار لفظ (اللَّيِّ) دون غيره:

(اللَّيُّ) في قوله تعالى: ﴿لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ﴾ أَصْلُهُ: الِانْعِطَافُ وَالِانْثِنَاءُ والفَتْلُ، وَمِنْهُ ﴿وَلَا تَلْوُونَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ﴾ [آل عمران: 153]، وَهُوَ يَحْتَمِلُ الْحَقِيقَةَ فِي كِلْتَا الْكَلِمَتَيْنِ: اللَّيِّ، وَالْأَلْسِنَةِ، أَيْ: إِنَّهُمْ يُثْنُونَ أَلْسِنَتَهُمْ صَرْفًا لها عن مخارج الحروف الَّتي تَحِقُّ لها في العربيَّة إلى ما يفعله العبرانيُّون من تَغْليظِ بعض الحروف، وشَوْبِ بَعْضِها بِغَيْرِهِ[3] بِأَنْ يُشْبِعُوا حَرَكَاتٍ، أَوْ يَقْصُرُوا مُشْبَعَاتٍ، أَوْ يُرَقِّقُوا مُفَخَّمًا؛ لِيُعْطِيَ اللَّفْظُ فِي السَّمْعِ صُورَةً تُشْبِهُ صُورَةَ كَلِمَةٍ أُخْرَى، فَإِنَّهُ قَدْ تَخْرُجُ كَلِمَةٌ مِنْ زِنَةٍ إِلَى زِنَةٍ، وَمِنْ لُغَةٍ إِلَى لُغَةٍ بِمِثْلِ هَذَا[4].

في لفظي (اللَّيِّ)، و(الأَلْسِنَةِ) مجازٌ يرسّخُ ما في قلوبهم من الابتعاد عن الخير، ونقيض الحقّ

وَيُحْتَمَلُ أَنْ يُرَادَ بِلَفْظِ (اللَّيِّ) مجازه، وبلفظ (الْأَلْسِنَةِ) مَجَازُهُ: فَاللَّيُّ، بِمَعْنَى: تَغْيِيرِ الْكَلِمَةِ، وَالْأَلْسِنَةُ مَجَازٌ عَلَى الْكَلَامِ، أَيْ: يَأْتُونَ فِي كَلَامِهِمْ بِمَا هُوَ غَيْرُ مُتَمَحِّضٍ لِمَعْنَى الْخَيْرِ، فهم يلوونها عن الحقِّ، ويميلونها إلى ما في قلوبهم[5].

فقولهم: ﴿وَرَٰعِنَا﴾، ويريدون به الشَّتم، فذاك هو اللَّيُّ، وكذلك قولهم: ﴿غَيْرَ مُسْمَعٍ﴾ وأرادوا به: لا سمعت، فهذا هو من اللَّيِّ[6]، فاستعمل لفظ (اللَّيِّ) في معنى صرف الإنسان عمَّا يريده، واستعير

(1) الرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 10/95.
(2) الآلوسّي، روحُ المعاني: 3/47.
(3) البِقاعيّ، نَظْمُ الدُّرَر: 2/263.
(4) ابْنُ عاشور، التَّحريرُ والتَّنْوير: 5/76.
(5) الشَّوكانّي، فتح القدير: 1/475، وابْنُ عاشور، التَّحريرُ والتَّنْوير: 5/76.
(6) الرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 10/96.

في صرفِ الكلام من وجه إلى وجه[1]؛ ولهذا انتصب: ﴿لَيًّا﴾ على المفعول المطلق، لـ ﴿وَيَقُولُونَ﴾؛ لأنَّ اللّيَّ كيفيَّة من كيفيَّات القول[2].

مصداقُ وصفِ الحقّ تعالى في اليهود ثبوت طباع السّوء فيهم في كلّ زمان

قال ابن عطيَّة: "وهذا اللَّيُّ باللِّسان إلى خلاف ما في القلب موجود حتَّى الآن في بني إسرائيل، ويُحفظ منه في عصرنا أمثلة"[3]. وعقّب أبو حيَّان، وهو يحكي عن يهود الأندلس: "وقد شاهدناهم، وشاهدنا يهود ديار مصر على هذه الطَّريقة، وكأنَّهم يُربُّون أولادهم الصِّغار على ذلك، ويُحَفِّظونهم ما يُخاطِبُونَ به المسلمين مِمَّا ظاهره التَّوقير، ويريدون به التَّحقير"[4].

فائدة الإطناب في قوله تعالى: ﴿لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ﴾:

بيان اللَّيِّ المقصود وأنَّه يكون باللِّسان

(اللَّيُّ) في الآية يَخُصُّ اللِّسان؛ بدليل قوله تعالى: ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ﴾؛ إذ به عُلِمَ أنَّ اللَّيَّ المقصود هو إخراج الكلام على طريقةٍ مقصودة؛ لإيقاع الشُّبهة الَّتي تُرْضي نُفوسهم المريضة، وهذا لا يكون إلَّا باللِّسان، فهو من قبيل التَّتميم[5].

دلالة تعدية (اللَّيِّ) بالباء:

من غيّهم الاستعانةُ بالموهوبِ على المعاصي والانحرافات

معنى حَرْف الباء في ﴿بِأَلْسِنَتِهِمْ﴾ الاستعانةُ؛ إذ استعملوا هذه الجارحَةَ الَّتي وهبهم الله إيَّاها في معصيته - سبحانه - فَتْلًا بها وصَرْفًا للكلام عن نهجه إلى نسبة السَّبِّ[6].

وجه الاستعارة في قوله تعالى: ﴿وَطَعْنًا فِي ٱلدِّينِ﴾:

قوله: ﴿وَطَعْنًا فِي ٱلدِّينِ﴾، أي: قدحًا فيه بالاستهزاء والسُّخريَّة[7]،

(1) الرَّاغب، تفسير الرَّاغب: 3/1259.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 5/76.
(3) ابن عطية، المُحرَّر الوجيز: 2/62.
(4) أبو حَيَّان، البحر المحيط: 3/275، بل هو موجود إلى عصرنا هذا.
(5) التَّتميم: الإتيان بفضلة مفيدة في كلام لا يوهم خلاف المراد، ومثاله قوله تعالى: ﴿وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ﴾ [البقرة: 177]، فقوله: ﴿عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾ [البقرة: 177] تتميم، لأنَّ المعنى تَمَّ قبلها.
(6) أبو السُّعود، إرْشادُ العَقْلِ السَّليم: 2/184، وخَديجة بناني، سورَةُ النِّساءِ دِراسَةٌ بَلاغيَّةٌ تَحليليَّة: 1/180.
(7) الآلوسّي، روحُ المعاني: 3/47.

في الاستعارة بيانٌ لشِدَّة عداوة اليهود للنَّبيِّ ﷺ

وقد عبَّر النَّظم الكريم عن ذلك بالطَّعن بطريق الاستعارة التَّصريحيَّة التَّبعيَّة؛ لأنَّ الطَّعن هنا مجازٌ عن العيب؛ لأنَّه حقيقة في الإصابة بالرُّمح أو العُودِ وشِبْهِهِ[1]، وَطَعْنُهُمْ في الدِّين من خلال طعنهم في النَّبيِّ ﷺ بإِنْكَار نُبُوَّتِهِ، وَتَغْيِير نَعْتِهِ، أَوْ عَيْب أَحْكَام شَرِيعَتِهِ، أَوْ تَجْهِيله[2]، وطعنهم - أيضًا - بقولهم لأصحابهم: إنَّما نَشْتِمُهُ، ولا يعرف، ولو كان نبيًّا؛ لَعَرَفَ ذلك، فأطلعه الله تعالى على خبيث ضمائرهم، وما في قُلوبهم من العداوة والبغضاء[3]، فالطَّعن في الدِّين تحقيره والهُزء به، وهو مُسْتعار من الطَّعن في الشَّيء بمعنى: الضَّرب له.

دلالة تنوّع إعراب المصدر:

رُكِّبَ طبعُ اليهود على الانحراف، والمكر، والكذب وسوء القصد وخبث المرام

انتصب ﴿وَطَعْنًا فِي ٱلدِّينِ﴾ مفعولًا لأجله، فيكون مع المفعول المطلق قبله ﴿لَيًّا﴾، من عطف بعض المفاعيل على بعض، ولا ضيْر فيه، ولك أن تجعلهما معًا: مفعولين مطلقين، أو مفعولَيْن لأجلهما، أو حالَيْن من فاعل ﴿وَيَقُولُونَ﴾ بتقديرهما: (لاوين)، و(طاعنين)، وعلى الأوّل والثّاني ابن عاشور[4]، وبالثَّاني والثَّالث صرَّح أبو السُّعود[5]، وتابعه عليه الآلوسيُّ[6]صريحًا في المفعول له والحال، محتملًا للأوَّل المفعول المطلق.

واعتبارُهما مطلقيْن ينبئ عن طبيعة الَّذين هادوا، وما ركِّب في طبعهم من انحراف وعوج، والتواء ومكر، وخديعة وكذب، وغِشٍّ واستهزاء، واعتبارهما مفعوليْن لأجله ينبئ عن سوء القصد وفساد الغرض وخبث المرام، ونيَّة الشَّرِّ والانطواء على الكفر المبيَّت على

(1) الهَرَريّ، حَدائِق الرَّوْحِ والرَّيْحان: 11/156.
(2) أبو حَيّان، البحر المحيط: 3/663.
(3) الهَرَريّ، حَدائِق الرَّوْحِ والرَّيْحان: 6/124.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 5/76.
(5) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 2/184.
(6) الآلوسّي، روح المعاني: 3/47.

التَّمرُّد والمُشاقَّة والعصيان، أمَّا إعرابهما حالين؛ فدالٌّ على جمعهما بين السُّوْءَيْن الأصيل والدَّخيل، واللّازم والعارض، والمتجذِّر والطَّارئ، وفي الآية وصف كاشف لبعض ما مردوا عليه من فضول الكلام الَّذي يظهر من العيوب ما بطن، ويحرِّك من العدوِّ ما سكن، وتصنُّعهم لا يُخْفي شيئًا من طبعهم، فإنَّ الطَّبع يغلب التَّطبُّع: ومن تخلَّق بالخلق الجميل، وله خلق سوء أصيل؛ فتخلُّقه – لا محالة – زائل، وهو إلى خلقه الأوّل آيل، كطلي الذَّهب على النُّحاس، ينسحق، وتظهر صفرته للنَّاس.

في الحاليّة ظهورٌ لهيئة القول في أنفس قائليه، وأثـــــره عـلى متكلِّميه

ومن إعجاز القرآن ترتيبه الحاليْن هذا التَّرتيب المحكم: ﴿لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ﴾، أي: (لاوين ألسنتهم)، فهذا حال القول في أنفس قائليه، وأثره على متكلِّميه يظهر عليهم العِوَج، فتقوم عليهم الحُجَج: أنّ جهة القول غير قويمة، ومسالكها غير مستقيمة، وهذا الحال الأوّل الأسبق، والحكم للسّابق، ثم جال الحال الثّاني الأعجب: يبيّن أثر القول في نفسه: ﴿وَطَعْنًا فِي ٱلدِّينِ﴾ أي: (طاعنين في الدِّين)؛ إذ هو بمجرَّد صدوره معدود كذلك، وليس هو إلَّا ذلك.

علّة تسمية مخاتلة اليهود للنبي طعنًا في الدّين:

الائتساء بالنبيّ ﷺ هو التقرُّب إلى الـلـه، وطـاعـتـه هي الهدى، وبلاغه هو الحجَّة

إنَّ اللّه سمّى مخاتلة اليهود لنبيِّه: طعنًا في الدِّين، فالدِّين به هو، ولو لم يُبْعث هو ﷺ بنفسه بهذه الرِّسالة الخاتمة للزم أن يتقاسمَها أنبياء عديدون بعدد قرى الدُّنيا؛ فسَدَّ وحده مسَدَّهم، وأدَّى مؤدَّاهم، وأغنى عنهم، وفي هذا يقول اللّه تعالى له: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ۝٥١﴾ [الفرقان: 51].

وجعل اللّه سيرته وسنَّته مبيِّنة لمراد اللّه من شريعته ومقصوده من خطابه، فالائتساء به هو التقرُّب إلى اللّه، وطاعته هي الهدى، واتِّباعه هو الدِّين. وجعل بلاغه هو الحجَّة، وتكفّل له بحفظ حياته حتّى يُبَلِّغ رسالته، وزكَّى أفعال نبيِّه، فنسبها إليه، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ

يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾ [الفتح: 10]، وقال: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال: 17]، وزكّى نطقه، فقال: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾ [النجم: 3، 4]، وزكّى رأيه، فقال: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ﴾ [النّساء: 105]، وجعل أذيَّته أذيَّة له، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ۝٥٧﴾ [الأحزاب: 57].

سِرُّ الإتيان بالقول الجاري مُجرى المثل:

بيان الحال اللّائقة بمن عَرَفَ الحَقَّ

قَوْلُهُ: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾، أَيْ: لَوْ قَالُوا مَا هُوَ قَبُولٌ لِلْإِسْلَامِ؛ لَكَانَ خيرًا، وَقَوله: سَمِعْنا، وَأَطَعْنا يُشْبِهُ أَنَّهُ مِمَّا جَرَى مجْرَى الْمَثَلِ بِقَوْلِ مَنْ أُمِرَ بِشَيْءٍ، وَامْتَثَلَهُ "سَمْعٌ وَطَاعَةٌ"، أَيْ: شَأْنِي سَمْعٌ وَطَاعَةٌ، وَهُوَ مِمَّا الْتُزِمَ فِيهِ حَذْفُ الْمُبْتَدَأ؛ لِأَنَّهُ جَرَى مُجْرَى الْمَثَلِ، كقَوْله تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾[1].

وفي تَقديمِ حال القول بالنِّسبة إليهم على حاله في نفسه إيماء إلى أنَّ هِمَم اليهود - لعنهم الله تعالى - طَمَّاحَةٌ إلى ما ينفعهم[2].

بديع المقابلة بَيْنَ الألفاظ:

بيان وجه المفارقة بين حال اليهود وحال من عرف الحقَّ واتَّبعه

في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَٱسْمَعْ وَٱنظُرْنَا﴾ عندما سَمِعوا شيئًا من أوامرِ الله تعالى ونواهيه؛ ﴿قَالُواْ﴾ بلسان المقال، كما هو الظَّاهر أو به، وبلسان الحال، كما قيل: ﴿سَمِعْنَا﴾ سماع قبول مكان قولهم: ﴿سَمِعْنَا﴾: المُراد به سماع الرَّدِّ، ﴿وَأَطَعْنَا﴾ مكان قولهم: ﴿وَعَصَيْنَا﴾، ﴿وَٱسْمَعْ﴾ بَدَلَ قولهم: ﴿وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ﴾، ﴿وَٱنظُرْنَا﴾ بدل قولهم: ﴿وَرَٰعِنَا﴾ فالطِّباق الظَّاهر:[3]

(1) ابْنُ عاشور، التَّحْريرُ والتَّنْوير: 5/77.
(2) الآلوسّي، روحُ المعاني: 3/47.
(3) أَبو حَيَّان، البحر المحيط: 3/276.

بَيْنَ ﴿وَعَصَيْنَا﴾ و﴿وَأَطَعْنَا﴾، والطِّباقُ المُغاير: بين ﴿مُسْمَعٍ﴾ و﴿غَيْرَ مُسْمَعٍ﴾، وما تُوحيه معاني ﴿وَٱنظُرْنَا﴾ و﴿وَرَٰعِنَا﴾ من التَّضادِّ؛ شَكَّلَ صورةَ مُقابَلَةٍ بَديعة، وأعطى وَجْهَ المُفارَقَةِ بَيْنَ الحال الأُولى لليهود، وما ذُكِرَ من وَصْفِ مَكْرِهِمْ وغلِّ قُلوبهم وحَسَدِهِمْ، وبين ما يجب أن يكون عليه مَنْ عَرَفَ الحقَّ، وظَهرت له دلائله من السَّمع والطَّاعة والانقياد.

دلالة اسم التَّفضيل ﴿خَيْرًا﴾:

قَوْلُنا: "هذا خيرٌ من ذلك"؛ يقتضي أن يكون في كلٍّ واحد منهما خيرٌ حتَّى يَصِحَّ تفضيل أَحَدِهِمَا على الآخر؛ لأنَّ ﴿خَيْرًا﴾ في الأصل: أَفْعَلُ تفضيل، فكيف قال: ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ﴾ بعد ما سبق من قولهم في أوَّل الآيةِ؟

فالجواب: أنَّ المُراد بالخير هُنا: هو الخير الَّذي هو ضدُّ الشَّرِّ، لا الَّذي هو أَفْعَلُ التَّفْضيلِ، كما يُقال: في فلان خَيْرٌ، فالضَّمير في قوله: ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾، يرجع إلى ﴿أَنَّهُمْ قَالُواْ﴾؛ لأنَّ المعنى، ولو ثبت قولهم: سَمِعنا وأطعنا؛ لكان قولهم ذلك خيرًا لهم - في الدُّنيا: بحقن دمائهم وعُلُوِّ رُتْبَتِهِمْ بإحاطة الكُتُبِ السَّماويَّة، وفي الآخرة: بِضِعْفِ الثَّوابِ[1] - وَأَقْوَمَ وأَعْدَلَ وأَسَدَّ[2] ممَّا طَعَنُوا، وقَتَلُوا، ولا يخفى موقع ﴿وَأَقْوَمَ﴾ في مقابلة (اللَّيِّ)[3].

فالمراد به إثبات الوصف مجرَّدًا عن التَّفضيل لفقدان الفضل في القول المعدول عنه، المؤاخذ عليه.

إثبات الوصف مجرَّدًا عن التَّفضيل لفقدان الفضل في القول المعدول عنه، المؤاخذ عليه

سِرُّ الاستدراك بعد بيان الأعدل والأقوم من الأقوال والأفعال:

الِاسْتِدْرَاكُ في قَوْلِهِ: ﴿وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ﴾ ناشئ عَنْ

بيان أثر اللَّعنة الَّتي حاقت بهم بِسَبَبِ تَأَصُّل نُفوسهم في الشَّرِّ

(1) القاسِميّ، مَحاسِنُ التَّأْويل: 3/142.
(2) الزَّمَخْشَريّ، الكَشّاف: 1/518.
(3) الخَفاجيّ، حاشيةُ الشِّهابِ على البَيضاويّ: 3/143.

قَوْلِهِ: ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾، أَيْ: وَلَكِنْ أَثَرُ اللَّعْنَةِ حَاقَ بِهِمْ، فَحُرِمُوا مَا هُوَ خَيْرٌ، فَلَا تَرْشَحُ نُفُوسُهُمْ إِلَّا بِآثَارِ مَا هُوَ كَمِينٌ فِيهَا من فعلٍ سيِّئ وَقَوْلٍ بَذَاءٍ لَا يَسْتَطِيعُونَ صَرْفَ أَنْفُسِهِمْ عَنْ ذَلِكَ[1].

دلالة الاستثناء بعد نفي الإيمان:

تأكيد النَّفي بِمَا يُشْبِهُ ضِدَّهُ؛ فالقلّة مستعملة في معنى النّفي

مَعْنَى ﴿فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾: أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ أَبَدًا، فَهُوَ مِنْ تَأْكِيدِ الشَّيْءِ بِمَا يُشْبِهُ ضِدَّهُ، وَأُطْلِقَ الْقِلَّةُ عَلَى الْعَدَمِ، وَفُسِّرَ بِهِ قَوْلُ تَأَبَّطَ شَرًّا:

قَلِيلُ التَّشَكِّي لِلْمُهِمِّ يُصِيبُهُ *** كَثِيرُ الْهَوَى شَتَّى النَّوَى وَالْمَسَالِكِ[2]

وذا يُشْبِهُ قَوْلَهُمْ: فُلَانٌ قَلِيلُ الْحَيَاءِ، فَلَيْسَ مُرَادُهُمْ أَنَّ هُنَاكَ حَيَاءً؛ وَإِنْ قَلَّ، وَمِنْهُ - أيضًا - قَوْلُ العَرَبِ: قَلَّ رَجُلٌ يَقُولُ ذَلِكَ، يُرِيدُونَ أَنَّهُ غَيْرُ مَوْجُودٍ، ومثله قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ۝٦٢﴾ [النمل: 62]، وَالْمَعْنَى: نَفْيُ التَّذْكِيرِ، وَالْقِلَّةُ مُسْتَعْمَلٌ فِي مَعْنَى النَّفْيِ[3]، وَإِنَّمَا اسْتَعْمَلَتِ العَرَبُ الْقِلَّةَ عِوَضًا عَنِ النَّفْيِ؛ لِضَرْبٍ مِنَ الِاحْتِرَازِ وَالِاقْتِصَادِ، فَكَأَنَّ الْمُتَكَلِّمَ يَخْشَى أَنْ يُتَلَقَّى عُمُومُ نَفْيِهِ بِالْإِنْكَارِ، فَيَتَنَازَلُ عَنْهُ إِلَى إِثْبَاتِ قَلِيلٍ، وَهُوَ يُرِيدُ النَّفْيَ[4].

وقد يكون القليل صفة للقوم، فهو المبتدأ المقدَّر مؤخَّرًا المحذوف المتعلَّق به ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ﴾، والمعنى: فلا يؤمن منهم إلَّا أقوام قليلون[5]، ووجه آخر: أن يكون استثناء من ضمير المفعول في ﴿لَّعَنَهُمُ﴾، أي: إلَّا قليلًا لم يلعنهم، فآمنوا، كعبد الله ابن سلام وكعب الأحبار وغيرهما، أو استثناء من الفاعل في: ﴿فَلَا يُؤْمِنُونَ﴾[6]، وضعَّف أنَّ

(1) ابْنُ عاشور، التَّحْرِيرُ والتَّنْوِير: 5/77.
(2) تأبَّط شرًّا، ديوان تأبَّط شرًّا وأخباره، ص: 150.
(3) الزَّمَخْشَرِيّ، الكَشَّاف: 3/377.
(4) ابْنُ عاشور، التَّحْرِيرُ والتَّنْوِير: 5/77.
(5) الرَّازِيّ، مفاتيح الغيب: 10/96.
(6) أبو حَيَّان، البحر المحيط: 3/275.

الوجه حينئذٍ كان الرّفع على البدل؛ لأنَّه من كلام غير موجَب مع أنَّ القُرَّاء قد اتَّفقوا على تلقِّي قراءاتهم بالنَّصب هكذا: ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ على حين تلقَّوا ما توجيهه كالمقول هنا بالرّفع، وهو قوله تعالى: ﴿مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ﴾ [النّساء: 66]، يضاف إلى تبعيده معنويًّا: أنَّ القول به – رغم مخالفته المُتَلَقِّي – يقتضي وقوع إيمان من لعنه اللّه تعالى، وخذله، فلا ينبغي له إلَّا الاستبعاد والنَّفي في كلِّ نادٍ.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

المَوْلى والوَلِيّ والنَّصير:

المَوْلى – في حَقِّ اللّهِ – المُعينُ الَّذي تَرْكَنُ إِلَيْه، وتَعْتَمِدُ عَلَيْه، وتَحْتَمي بِهِ عِنْدَ الشِّدَّةِ والرَّخاءِ، وفي السَّرَّاءِ والضَّرَّاءِ[1]. والوَلِيُّ في أَسْماءِ اللّهِ تَعالى خَاصٌّ بِالمُؤْمنينَ، كَقَوْلِهِ تَعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [البَقَرَةُ: 257]، أَمَّا المَوْلى؛ فَيُطْلَقُ على المَعْنى الخَاصِّ بِالمُؤْمنينَ، كَقَوْلِهِ تَعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿١١﴾﴾ [مُحَمَّدٌ: 11]، ويُطْلَقُ – أَيْضًا – بِالمَعْنى العَامِّ مِثْلَ قَوْلِهِ تعالى: ﴿وَرُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ﴾ [يُونُس: 30]. ولا تَعارُضَ بَيْنَ الآيَتَيْنِ الكَريمَتَيْنِ؛ إِذْ معنى كَوْنِه مَولى الكافِرينَ، أَيْ: مَالِكُهُمْ والمُتَصَرِّفُ فيهم بِما شَاءَ، ومَعْنى كَوْنِه مَوْلى المُؤْمنينَ دونَ الكَافِرينَ، أَيْ: وِلايَة مَحبَّةٍ وتَوْفيقٍ[2].

أَمَّا النَّصيرُ؛ فَهُوَ على وَزْنِ (فَعيلٍ)، والمَقْصودُ مِنْهُ اسْمُ الفاعِلِ (ناصِرٌ)، والنَّاصِرُ: هُوَ الَّذي يُعينُ غَيْرَهُ، ويُقَوِّيه[3]، وقَدْ نَصَرَهُ يَنْصُرُهُ نَصْرًا؛ إذا أَعانَهُ على عَدُوِّهِ وشَدَّ مِنْهُ[4]، والنَّصيرُ في حَقِّ اللّهِ تَعالى: المَوْثوقُ مِنْهُ بِأَلَّا يُسْلِمَ وَلِيَّهُ، ولَا يَخْذُلَهُ، بَلْ يَنْصُرَهُ،

الـوِلَايَـةُ تَـكـونُ بِـإِخْـلاصِ المَـوَدَّةِ، والنَّصْرُ يَـكـونُ بِالمَعونَةِ والتَّقْوِيَةِ

(1) العسكريّ، الفُروقُ اللُّغَويَّة، ص: 284.
(2) الشِّنْقيطي، دَفْعُ إيهامِ الاضْطِراب: 01/89.
(3) العَسْكَريّ، الفُروقُ اللُّغَويَّة، ص: 189.
(4) ابْنُ الأَثير، النِّهايَة: (نَصَرَ).

ويُعينَهُ، ويُسَدِّدَهُ، وقَدْ سَمَّى اللهُ تَبارَكَ وتَعالى نَفْسَهُ باسْمِ النَّصيرِ، فَقالَ: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرًا﴾، ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٧٨﴾﴾ [الحجّ: 78]، واللهُ ﷻ هُوَ النَّصيرُ الَّذي يَنْصُرُ عِبادَهُ المُؤْمِنينَ، ويُعينُهُمْ، قال تَعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الرُّومُ: 47][1].

السَّماع والاستماع:

الاستماع لِمَا كَانَ بِقَصْدٍ، ولَا يَكُونُ إلَّا بِالْإِصْغَاءِ، والسَّماع يَكُونُ بِقَصْدٍ وَبِدُونِهِ

السَّماع - وكذا السَّمع - مُطْلَقُ إدراك الحروف والأصوات، والاستماع: طَلَبُ السَّمع بالإصغاء بالأذن، أي: تَقَصُّدُ السَّماع[2].

والسَّمع ثلاث درجات: إحساس بالصَّوت دون فهم: كسماع الدَّوابِّ السَّارحة؛ إذا دعاها راعيها إلى ما يُرشدها، فلا تسمع إلا دعاءه ونداءه، ولا تَفهم ما يقول[3]، قال تعالى: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً﴾ [البقرة: 171]، وإحساسٌ بالصَّوت مع الفهم: كما في قوله تعالى: ﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [البقرة: 75]، وإحساسٌ بالصَّوت مع الفهم والاقتناع والإيمان والطَّاعة: وهي أعلى درجات السَّمع التي تُمنَحُ للمؤمنين، كما في قوله تعالى: ﴿۞إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾ [الأنعام: 36]، وقال تعالى: ﴿إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨١﴾﴾ [النمل: 81].

والاستماع يكون على درجتين: الأولى: استماعُ انتفاع، وانقياد، وطاعة، وهو استماع المؤمنين، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٨﴾﴾ [الزُّمر: 18]، والمقصود منه هُنا: فهم المَعْنَى مع القبول والانتفاع،

(1) القحطانّي، شَرْحُ أَسْماءِ اللهِ الحُسْنى، 222 - 223، بِتَصَرُّفٍ يَسيرٍ.
(2) الفَيُّوميّ، المصباح المنير: 1/289، والعَسْكَريّ، الفُروقُ اللُّغَويَّة، ص: 89، والهَرَويّ، حَدائِق الرَّوْحِ والرَّيْحان: 20/187.
(3) ابْنُ عَطيَّة، المُحَرَّرُ الوَجيز: 1/238، والثَّعالِبيّ، الجَواهِرُ الحِسان: 1/355.

وهناك استماع لا ينتج عنه انتفاع ولا قبول ولا انقياد، وهو استماع الكافر والمُنافق، قال تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَۚ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوْ كَانُواْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [يونس: 42]، وقوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُواْ مِنْ عِندِكَ قَالُواْ لِلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًاۚ﴾ [محمّد: 16]، فَهُمْ في هذه المنزلة كالبهائم في عدم الانتفاع؛ وإن كان الفَرْقُ بَيْنَهُمَا: بأنَّ مُسمَّى الاستماع موجود في الكفرة دون البهائم[1]، وذلكم المستمع يريد الضِّدَّ، ويقصد الصَّدَّ.

(1) البَيْضاويّ، أَنْوارُ التَّنْزيل: 3/114، وابْنُ التَّمْجيد، حاشيَةُ ابْنِ التَّمْجيدِ الحَنَفيِّ على البَيْضاويّ: 9/472.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَـٰبَ ءَامِنُواْ بِمَا نَزَّلۡنَا مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبۡلِ أَن نَّطۡمِسَ وُجُوهٗا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدۡبَارِهَآ أَوۡ نَلۡعَنَهُمۡ كَمَا لَعَنَّآ أَصۡحَـٰبَ ٱلسَّبۡتِۚ وَكَانَ أَمۡرُ ٱللَّهِ مَفۡعُولًا ٤٧ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ إِثۡمًا عَظِيمًا ٤٨﴾ [النِّساء: 47 - 48]

مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِمَا قَبْلَهُما:

دعـوةُ اليهود للإيمان بعد تَرْجِيَتِهم وترغيبهم فيه، وتخويفُ من أبى منهم، وأَصَرَّ على الكفر

لَمَّا حَكَى اللهُ تعالى عن اليهودِ أنواعَ مَكرِهم وإيذائِهم، ورجَّاهم ﷻ بقوله: ﴿وَلَوۡ أَنَّهُمۡ قَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَا﴾؛ أمَرهم بالإيمانِ، وقرَن بهذا الأمرِ الوَعِيدَ الشَّديدَ على التَّركِ؛ ليكونَ أدْعى لهم إلى الإيمانِ والتَّصديقِ به[1].

فخاطَبَ مَن يُرجَى إيمانُه منهم بالأمرِ بالإيمان، وقَرَنَ بالوعيدِ البالغِ على تركِه، ثمَّ أزال خوفَهم من سوءِ الكبائرِ السَّابقةِ معلِّلًا لِتَحقيقِ وعيدهم، مُعلِمًا بوقوعهم في الشِّركِ،[2] فَقالَ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ﴾.

فضلًا عن أنَّه ﷻ لَمَّا هدَّد اليَهُود عَلَى الكفر، وبَيَّنَ أنَّ ذلك التَّهديد لا بدَّ من وقوعه لا محالة؛ ذكر أنَّ مِثْلَ هذا التَّهديد من خواصِّ الكفر، فأمَّا سائر الذُّنوب الَّتي هي مُغَايِرَةٌ للكفر؛ فليس حالها كَذَلكَ، بل هُوَ سبحانه قد يغفرها، ويعفو عنها، فلا جَرَمَ، قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾[3].

(1) الرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 10/95، وأبو حيّان، البَحْرُ المُحيط: 3/667.
(2) أبو حَيَّان، البَحْرُ المُحيط: 3/667، والبِقاعيّ، نَظْمُ الدُّرَر: 5/297.
(3) ابْنُ التَّمْجيد، حاشيَةُ ابْنِ التَّمْجيدِ على البَيْضاويّ: 7/190.

شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

1) ﴿مُصَدِّقًا﴾: مُؤَكِّدًا لصدقه، والصِّدْقُ: ضِدُّ الكَذِبِ، يُقال: صَدَقَ يَصْدُقُ صِدْقًا، وصَدَّقَهُ تَصْدِيقًا: ضِدُّ كَذَّبَهُ، وأصل صَدَقَ: يَدُلُّ عَلَى قُوَّةٍ فِي الشَّيْءِ قَوْلًا وَغَيْرَ قول، ويُسْتعمل التَّصديق في كلِّ ما فيه تحقيق، يقال: صدَّقني فعله وكتابه، والمعنى هنا: محقِّقًا للَّذي معكم من التَّوراة الَّتي أنزلتها إلى موسى بن عمران [1] عليه السلام.

2) ﴿نَّطْمِسَ وُجُوهًا﴾: أي: نمحو تخطيطَ صُوَرِها وآثارها، فَنُصَيِّرها كالقَفا، أو نَمْحو ما فيها من عَيْنٍ وأَنْفٍ وحاجبٍ وفم، وأَصْلُ طَمَسَ: يدلُّ على محوِ الشَّيء ومَسْحِهِ، والطَّمس: إزالة الأثَرِ، وانْطَمَسَ الشَّيْءُ: امَّحى، ودَرَسَ[2].

3) ﴿فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ﴾: أي: نُصيِّرها كَأَقْفَائِهِمْ، ونجعَل وجوهَهُمْ من قِبَلِ أَقفيتهم، أو نجعَل أبصارَهم من ورائهم، أو نجعَل الوَجْهَ قَفًا، والقَفَا وَجْهًا، وأصل الرَّدِّ: رَجْعُ الشَّيْءِ، وصَرْفُه بذاتِه، أو بحالةٍ من أحواله، يُقال: رَدَدْتُ الشَّيْءَ أَرُدُّهُ رَدًّا عن وَجْهِهِ: صَرَفْتُهُ، وأَصْلُ الدُّبُرِ: آخِرُ الشَّيءِ وخَلْفُه، ضِدُّ القُبُلِ[3].

4) ﴿أَصْحَٰبَ ٱلسَّبْتِۚ﴾: المقصودُ بأصحابِ السَّبت: اليهودُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا فِي يوم السَّبت بِالْحِيلَةِ عَلَى الِاصْطِيَادِ، وَقَدْ مُسِخُوا قِرَدَةً وَخَنَازِيرَ، وذُكِرت قصَّتُهم في سُورتَي البَقرة والأعراف[4].

5) ﴿ٱفْتَرَىٰٓ﴾: كَذَبَ، واختَلَقَ، يُقال: فَرى فلانٌ الكَذبَ يفْرِيه؛ إذا اخْتَلقه، وافترى فلانٌ على فلان؛ إذا قَذَفَهُ بما ليس فيه، أو قَذَفَ أبوَيْه، وأَصْلُ الفَرْيِ: قَطْعُ الشَّيْءِ، والافتراء: الاختلاقُ، وهو ما عَظُمَ مِن الكَذِبِ، وكذلِكَ استُعمِلَ في القُرآن في الكَذِب والشِّركِ والظُّلْمِ[5]، وهو معنى اللفظة ههنا.

---

(1) الرَّاغِب، المُفْردات، وابْنُ فارِس، مَقاييسُ اللُّغَة: (صدق)، والفيروزآبادي، القاموس المحيط: (فَصْلُ الصَّاد، باب القاف)، وابن جرير، جامع البيان: 8/440.

(2) الجَوْهَريّ، الصِّحاح، والرَّاغِب، المُفْرَدات، وابْنُ فارِس، مَقاييسُ اللُّغَة، والسَّمين، عُمْدَةُ الحُفَّاظ: (طمس) ابنُ عُزَيز، غَريبُ القُرْآن، ص: 460، وابن الهائم، التِّبيان، ص: 139، والكَفَويّ، الكُلِّيَّات، ص: 917.

(3) الرَّاغِب، المُفْردات، والسَّمين، عُمْدَةُ الحُفَّاظ: (رد)، وابْنُ فارِس، مَقاييسُ اللُّغَة: (رد) و(دبر)، وابْنُ كَثير، تَفْسيرُ القرآن العظيم: 2/324، وابْنُ قُتَيْبَة، غَريبُ القُرْآن، ص: 128، وابنُ عُزَيز، غَريبُ القُرْآن، ص: 460.

(4) الرَّاغِب، المُفْردات، ص: 392، وابن الهائم، التِّبيان، ص: 79، وابْنُ كَثير، تَفْسيرُ القرآن العظيم: 2/325.

(5) الأَزْهَريّ، تَهْذيبُ اللُّغَة: (فرى)، والرَّاغِب، المُفْرَدات: (فرى)، وابْنُ قُتَيْبَة، غَريبُ القُرْآن، ص: 31، 128، 280، والكَفَويّ، الكلِّيَّات: 154.

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

نـــداءُ الـلـه تـعـالى لأهـل الكتاب السَّابق وتـرغـيـبـهـم فـي الإيـمـان بالكتاب اللَّاحِقِ وتحذيرهم من الشِّرك

المعنى: يا أهل الكتاب من اليهود والنَّصارى؛ صَدِّقوا، واعملوا بما نزَّلنا من القرآن على النَّبيِّ محمَّد ﷺ الَّذي جاء مُحَقِّقًا لما معكم من التَّوراة والإنجيل، من قبل أن نمحوَ ما في الوجوه من الحواسِّ، ونجعلها ناحية أدبارهم، أو نَطْرُدَهُمْ من رحمة الله، كما طردنا الَّذين خالفوا أَمْرنا بفعل ما نُهُوا عنه من الصَّيد يوم السَّبْتِ بعد نَهْيِهِمْ عنه، فَمَسَخَهُمُ الله قِرَدَةً، وكان أَمْرُهُ تعالى وقَدَرُهُ واقعًا لا محالة.

إنَّ الله لا يَغْفِرُ أن يُشْرِكَ به شيءٌ من مخلوقاته، ويَتَجاوز عمَّا دُونَ الشِّرك والكفر من المعاصي لمن يشاء من عِبادِهِ بِفَضْلِهِ، أو يعذِّب بها من شاء منهم بِقَدْرِ ذُنوبهم بِعَدْلِهِ، ومن يُشرك مع الله غَيْرَهُ؛ فقد اختلق ذَنْبًا عَظيمًا، لا يُغفرُ لِمَنْ مات عَلَيْهِ[1].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

سِرُّ النِّداء في قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَـٰبَ﴾:

التَّنبيه لما هو موجود في كتابهم من حقيقة الإسلام

أقبل على خطاب أهل الكتاب - الذين أُريد بهم اليهود، بعد أن ذكر من عجائب ضلالهم، وإقامة الحجَّة عليهم - ما فيه وازِعٌ لهم؛ لو كان بهم وَزْعٌ، وكذلك شأن القرآن ألَّا يُفْلِتَ فُرصة تَعِنُّ من فُرَصِ الموعظة والهدى إلَّا انتهزها، وكذلك شأن النَّاصحين من الحكماء، والخطباء أنْ يتوسَّموا أحوال تأثُّر نفوس المخاطبين ومظانَّ ارعوائها عن الباطل، وتبصُّرها في الحقِّ، فيُنْجدها حينئذٍ بقوارع الموعظة والإرشاد[2].

علّةُ إضمارِ المُسَمّى، والتّعبير بالوَصْفِ:

خاطب الله تعالى أهلَ الكتاب خطاب مُشافهة مع جميع

(1) لجْنَةٌ مِنْ عُلَماءِ الأَزْهَر، المُنْتَخَبُ في تَفْسِيرِ القُرآنِ الكَريم، ص: 116، 117، ونُخْبَةٌ مِنْ أَساتِذَةِ التَّفْسير، التَّفْسيرُ المُيَسَّر، ص: 86، وجَماعَةٌ مِنْ عُلَماءِ التَّفْسير، المُخْتَصَرُ في تَفْسِيرِ القُرْآنِ الكَريم، ص: 86.

(2) ابْنُ عاشور، التَّحْريرُ والتَّنْوير: 5/78.

علمائهم[1]، ويَدْخُل فيه عامَّة أهل الكتاب، فهو خِطاب لهم قاطبة إثر بيان جناية أحبارهم وأشرارهم؛ فَلِذا اخْتيرَ هنا (إيتاء الْكتَاب) - وهو عامٌّ - واخْتيرَ فيما قبلُ (إيتاءُ نصيبٍ من الكتاب) في قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [آل عمران: 23]؛ لاخْتصَاصه بعلمائهم[2]، وذلك لما هو موجود في كتبهم من حقيقة نبيِّ الإسلام، وإنَّما كُفْرهم به لمحض العناد والمكابرة والحسد، فلا جرم أنْ هدَّدهم المولى سبحانه بعد هذا النِّداء بِطَمْسِ الوجوه، واللَّعن تحقيرًا لهم؛ لأنَّ الوجه أكرم عضوٍ في الإنسان، وفيه يُكْرَمُ، أو يُهان.

إيتاءُ الكتاب شمولٌ لعامَّة أهله، وإيتاءُ نصيب منه تخصيصٌ بعلمائهم

أثر الاسم الموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾ في معنى صلتِهِ:

جُعِلَتِ الصِّلةُ هُنا في الخِطاب، ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ﴾، وفي آية سابقة: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾؛ لما في الموضعين من تفاوت، فإنَّ المقصودَ - فيما سبق - بيانُ أخذِهم الضَّلالةَ، وإزالةُ ما أُوتوه بمقابلتها بالتَّحريف، وليس ما أزالوه بذلك التوراةَ كلَّها، حتى لا يوصَفوا بإيتائه، بل هو بعضُها، فوُصِفوا بإيتائه، وأمَّا هاهُنا؛ فالمقصودُ تأكيدُ إيجابِ الامتثالِ بالأمر الذي يعقُبه، والتحذيرُ عن مخالفته من حيث إنَّ الإيمانَ بالمصدَّق موجِبٌ للإيمان بما يصدِّقه، والكفرَ بالثَّاني مقتضٍ للكفر بالأوَّل قَطْعًا[3]؛ لكونهم أهل دين سماويٍّ يعلمون حقيقة ما أنزله الله على النَّبيِّ محمَّد ﷺ وهُمْ مأمورون بالإيمان به.

تأكيدُ إيجابِ الامتثالِ بالأمرِ الذي يعقُبه، والتحذيرُ عن مخالفته

قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا﴾ جاء في مقام التَّعجُّبِ والتَّوْبيخ، فمُناسبَتُهُ صلة مُؤْذِنَةٌ بتهوين شأن علمهم بما أوتوه من الكتاب، وأمّا هُنا؛ فجاء في مقام التَّرغيب، فَنَاسَبَتْهُ صِلَةٌ تُؤْذِنُ

مجيء الآية في مقام التَّرغيب نَاسَبَهُ صِلَةٌ تُؤْذِنُ بِأَنَّهُمْ شُرِّفُوا بِإِيتَاءِ التَّوْرَاةِ

(1) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 1/120.
(2) القونويّ، حاشيةُ القونويِّ على البَيْضاويّ: 7/186.
(3) تفسير أبي السُّعود، إرْشادُ العَقْلِ السَّليم: 2/185.

بِأَنَّهُمْ شُرِّفُوا بِإِيتَاءِ التَّوْرَاةِ؛ لِتُثِيرَ هِمَمَهُمْ لِلِاتِّسَامِ بِمِيسَمِ الرَّاسِخِينَ فِي جَرَيَانِ أَعْمَالِهِمْ عَلَى وَفْقِ مَا يُنَاسِبُ ذَلِكَ[1].

وليس بين الصِّلتين اختلاف في الواقع؛ لأنَّهم أوتوا الكتاب كلَّه حقيقة باعتبار كونه بين أيديهم، وأوتوا نصيبًا منه باعتبار جريان أعمالهم على خلاف ما جاء به كتابهم، فالَّذي لم يعملوا به منه، كأنَّهم لم يؤتوه[2]. والمعنى: فيما حصل لهم فواته من الخير والطَّاعة بتركه، وهو أهمُّ ممَّا عملوا به؛ لأنَّ فيه صفة النَّبيِّ صلّى الله عليه وآله وسلَّم وبارك.

إيثار الاسم الموصول (ما) دون العلم:

التَّذكير بعظم شأن القرآن، وتشريفُ ما في حَيِّزِ الصِّلَةِ، وتحقيقُ كونه من عند الله تعالى

جِيءَ بالصِّلَتَيْنِ في قوله تعالى: ﴿بِمَا نَزَّلْنَا﴾، وقوله: ﴿لِّمَا مَعَكُم﴾ دون الاسمين العَلَمَيْنِ، وهُما: القرآن والتَّوراة؛ لما في قوله: ﴿بِمَا نَزَّلْنَا﴾ من التَّذكير بعظم شأن القرآن أنَّه مُنَزَّلٌ بإنزال الله، فَعَبَّرَ عنه بالموصولِ؛ تشريفًا له بما في حَيِّزِ الصِّلَةِ، وتحقيقًا لكونه من عنده عَزَّ وعَلا، ولِما في قوله: ﴿لِّمَا مَعَكُم﴾ من التَّعريض بهم في أنَّ التَّوراة كتاب مُسْتَصْحَبٌ عندهم، لا يعلمون منه حقَّ عِلْمِهِ، ولا يَعْمَلُونَ بما فيه، وللإيذان بكمالِ وُقُوفِهِمْ على حقيقة الحالِ، فإنَّ المعيَّةَ المُسْتَدْعِيَةَ لِدَوامِ تلاوتِها وتَكَرُّرِ المُراجعةِ إليها من مُوجبات العثور على ما في تَضاعيفها المؤدِّي إلى العلم بكون القرآنِ مُصدِّقًا لها، ومعنى تصديقِه إيَّاها: نزولُه حَسْبَما نُعِتَ لهم فيها، أو كونُه مَوافِقًا لها في القصص والمواعيدِ والدَّعوةِ إلى التَّوحيد[3]، فقوله: ﴿بِمَا نَزَّلْنَا﴾: وهو الْقُرْآن، عبَّر عنه بالموصول؛ تفخيمًا بإبهامه أوَّلًا، وبمضمون الصِّلة ثانيًا، وتحقيقًا من عنده ثالثًا[4].

(1) أَبو السُّعود، إِرْشادُ العَقْلِ السَّليم: 1/350، وابْنُ عاشور، التَّحريرُ والتَّنْوير: 5/78.
(2) ابْنُ عاشور، التَّحريرُ والتَّنْوير: 5/78.
(3) أَبو السُّعود، إِرْشادُ العَقْلِ السَّليم: 1/350، وابْنُ عاشور، التَّحريرُ والتَّنْوير: 5/78.
(4) القونويّ، حاشيةُ القونويِّ على البَيْضاويّ: 7/186.

دلالة الأمر في الآية الكريمة:

يَحْمِلُ الفعل: ﴿ءَامِنُواْ﴾ مع الوجوب الكثير من التَّهديد والوعيد ببيان العليِّ القادر ﷻ، ومن التَّحذير في قوله تعالى: ﴿ءَامِنُواْ﴾، والَّذي جعله لذلك الغرض مَضْمُون الآية كُلِّها، حيث تعلو فيها نبرة التَّهديد والوعيد، وقصَّة إسلام عبد الله بن سلام وكعب الأحبار تُصَوِّرُ لنا كيف كان وقع هذا التَّحذير على النَّفوس الواعية من أهل الكتاب[1].

في الأمر تهديدٌ ووعيدٌ من التَّخلُّف عن الإيمان بالله خُصوصًا بعد ظهور دلائله

دلالة ضمير التَّكَلُّمِ:

بدأتِ الآية بخطاب اليهود والنَّصارى في ظِلِّ الكناية عَنْهُم بإيتاء الكتاب؛ تأكيدًا على أنَّ ما نَزَّلَهُ ﷻ على المُصطفى ﷺ حقيقةٌ ثابتةٌ ومؤكَّدةٌ في كتابهم، فلا حُجَّةَ لكفرهم به، وهُمُ القوم الذين يَعلمون يَقينًا أنَّ الله سُبحانه مُنَزِّلٌ كتابًا بعد كتابهم، مُصَدِّقًا لما معهم، فكان ضميرُ المُتَكَلِّم في قوله تعالى: ﴿نَزَّلْنَا﴾ حُجَّةً مُلْزِمَةً لهم بما يعلمون من خَبَرِه؛ لذا هَدَّدَهُمُ الحقُّ تبارك وتعالى بقوله: ﴿مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّآ أَصْحَٰبَ ٱلسَّبْتِۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا﴾، مُؤَكِّدًا استحقاقهم اللَّعن بضمير المُتَكَلِّم في: ﴿لَعَنَّآ﴾ عند عَدمِ إيمانهم، كما استحقَّ أصحاب السَّبْتِ ذلك، وهي حقيقة مُؤَكَّدَةٌ لديهم - أَيْضًا - ولا يخلو الضَّمير هُنا في المَوْضِعَيْنِ من التَّعظيم المُصاحِبِ لِلتَّأكيدِ[2].

إقامة الحجَّة عليهم، والتَّأكيد على استحقاقهم اللَّعن، كما استحقَّه من قبلهم

نُكْتَةُ الإطناب بالاحتراسِ في قوله تعالى: ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم﴾:

الاحتراسُ[3] في قوله تعالى: ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم﴾ جاء تأكيدًا على أنَّ ما نزَّلَهُ الله لا يُخالف الحقَّ الصَّادِقَ في دينهم؛ لِوحْدَةِ ما

في الاحتراس بيانٌ لوحدة المصدر والدَّعوة لجميع الرِّسالات

(1) المحرر الوجيز: 2/63، وأبو السّعود، إرْشادُ العَقْلِ السَّليم: 1/532، والرّازيّ، مفاتيح الغيب: 10/120.

(2) خَديجة بناني، سورَةُ النِّساءِ دِراسَةٌ بَلاغيَّةٌ تَحْليليَّة: 1/47.

(3) الاحتراس أو التَّكميل: اسمان أُطْلِقا على مسمًّى واحد، هو زيادة إطنابيَّةٌ في الكلام، يَدْفَع بها المتكلِّم إيهامًا، قد يُفهم من كلامه.

بُعِثَ به الأنبياء والرُّسل في المصدر والمبادئ، فلا مُسوِّغ لجفائِكُم له، فهو مُصَدِّقٌ لما مَعَكُمْ[1].

السِّرُّ في تنكير الوجوه دون وصْفٍ:

في التنكير تهويلٌ لِعاقبة التَّكذيب مع لُطْفٍ وحُسْنِ اسْتِدعاءٍ للإيمان

قوله: ﴿مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا﴾ مُتَعَلِّقٌ بالأمر، مُفيدٌ للمُسارَعَةِ إلى الامتثال به، والجِدِّ في الانتهاء عن مخالفته، بما فيه من الوعيد الشَّديدِ الواردِ على أبلغِ وجهٍ وآكَدِه، حيث لم يُعَلَّقْ وقوع المتوعَّدِ به بالمخالفة، ولم يصرَّحْ بوقوعه عندها؛ تَنْبيهًا على أنَّ ذلك أَمْرٌ مُحَقَّقٌ غنيٌّ عن الإخبار به، وأنَّه على شفا الوقوعِ، متوجِّهٌ نحوَ المخاطَبين[2]، وقد تجلَّت المبالغة بوضوح في قوله تعالى: ﴿مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا﴾، ففي تنكيرِه ﴿وُجُوهًا﴾ تهويلٌ لِلْخَطْبِ مع لُطْفٍ وحُسْنِ اسْتِدعاءٍ[3]، فَتَنَكَّر ﴿وُجُوهًا﴾؛ لإرادة المبالغة المفيدة للتَّكثير، مع الإشعار بأنَّه أَمْرٌ مَهُولٌ وخَطْبٌ عظيم تُخْلَعُ له القلوب، وهو عذاب عظيم من القادر سبحانه[4].

في تنكيرِ الوجوه تعظيمٌ، وتجنّبٌ للتَّعبيرِ بالمواجهةِ عند المؤاخذةِ

وفي تَنْكِيرِه ﴿وُجُوهًا﴾ أَمْرٌ دقيق آخر، وهو تحاشِي التَّعبيرِ بالمواجهةِ عند المؤاخذة، فلم يقُلْ: (وجوهكم)، وكان مقتضى السِّياقِ أن يقول: مِن قبْلِ أنَّ نطمِسَ وجوهَكم؛ لأنَّهم هم المهدَّدون، لكن أتى بها على صيغةِ النَّكرةِ تحاشيًا للمواجهةِ بالمؤاخَذةِ[5]، فهو لطف بالمخاطبين لعدم إسنادها إليهم، وذلك حُسْنُ اسْتدعاءٍ لهم إلى الإيمان[6]، وقد يُقال: إنَّ المرادَ بالتَّنكيرِ هنا التَّعظيمُ، أي: وجوهًا معظَّمةً عندكم، فتُطمَس، وهي وجوهُ زعمائِهم الَّذين صدُّوهم عن سبيلِ اللّه[7] ﷻ.

(1) خَديجة بناني، سورَةُ النِّساءِ دِراسَةٌ بَلاغيَّةٌ تَحليليَّة: 1/358.
(2) تفسير أبي السُّعود، إرْشادُ العَقْلِ السَّليم: 2/185.
(3) الآلوسّي، روحُ المعاني: 3/49.
(4) أَبو السُّعود، إرْشادُ العَقْلِ السَّليم: 1/531.
(5) ابْنُ عُثَيمين، تَفْسيرُ ابْنِ عُثَيْمين: (سورَةُ النِّساءِ): 1/385.
(6) أَبو السُّعود، إرْشادُ العَقْلِ السَّليم: 1/531.
(7) ابْنُ عُثَيمين، تَفْسيرُ ابْنِ عُثَيْمين: (سورَةُ النِّساءِ): 1/385.

بيانُ الحقيقة والمجاز في لفظ الطمس:

أصل الطَّمس: مَحْوُ الأثر وإزالة الأعلام، ومعنى ﴿نَّطۡمِسَ﴾، أي: نمحو تخطيط صورها، من عين وحاجب وأنف وفم، أو نعميها[1].

وجهُ الحقيقةِ أنْ يسلّط تعالى عَلَيْهِمْ مَا يُفْسِدُ بِهِ مُحَيَّاهُمْ، وفي المجاز إِزَالَةٌ لمَا بِهِ كَمَالُ الْإِنْسَانِ مِنِ اسْتِقَامَةِ المَدَارِكِ

هذا؛ إن كان الطَّمس على حقيقته، ويحمل التَّنْكيرُ على هذا المعنى ضَرْبًا من الغرابة والنُّدرة لهذا اللَّوْنِ من العذاب الذي لَمْ يعهد لأحد رؤيته، فيُسَلِّط اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَا يُفْسِدُ بِهِ مُحَيَّاهُمْ، فَإِنَّ قُدْرَةَ اللَّهِ صَالِحَةٌ لِذَلِكَ، وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ الطَّمْسُ مَجَازًا عَلَى إِزَالَةِ مَا بِهِ كَمَالُ الْإِنْسَانِ مِنِ اسْتِقَامَةِ المَدَارِكِ، فَإِنَّ الْوُجُوهَ مَجَامِعُ الْحَوَاسِّ[2].

يحتملُ المجازُ الاستعارةَ تشبيهًا لهم بالشَّرافة ورفعة المنزلة

أو مجازًا في الوجوه، والمراد بالوجوه عندئذٍ: الوجهاء وعلية النَّاس، فتكون الوجوه اسْتِعَارَة شبِّهوا بها في الشَّرافة والقدر والمنزلة[3]، أي: من قبل أن نغيِّر أحوال وجهائهم، فنسلبهم إقبالهم ووجاهتهم، ونكسوهم صغارهم[4]، فَهُوَ وَعِيدٌ بِزَوَالِ وَجَاهَةِ الْيَهُودِ فِي بِلَادِ الْعَرَبِ، وَرَمْيِهِمْ بِالْمَذَلَّةِ بَعْدَ أَنْ كَانُوا هُنَاكَ أَعِزَّةً ذَوِي مَالٍ وَعُدَّةٍ[5].

دلالة الفاء بين التَّسبيب والتَّعقيب في قوله: ﴿فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدۡبَارِهَآ﴾:

العطف بالفاء إظهارٌ للوعيد الشَّديد في رَدِّهم على أدبارهم حِسًّا ومَعْنًى

﴿فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدۡبَارِهَآ﴾ عَطْفٌ؛ إن أريد به مُجَرَّدُ التَّعْقِيبِ، أَيْ: مِنْ قَبْلِ أَنْ يَحْصُلَ الْأَمْرَانِ: الطَّمْسُ وَالرَّدُّ عَلَى الْأَدْبَارِ، أي: إنَّهم تُوعِّدُوا بعقابين: أحدهما عُقَيْبَ الآخر، ردُّها على أدبارها بعد طَمْسِهَا[6].

وَالرَّدُّ عَلَى الْأَدْبَارِ عَلَى هَذَا الْوَجْهِ: يُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ مَجَازًا بِمَعْنَى: الْقَهْقَرَى، أَيْ: إِصَارَتُهُمْ مصير بئيس، فَنَطْمِسها عن الهدى، فَنَرُدُّها على أدبارها، أي: على ضلالتها، والمقصود بيان إلقائها في

(1) أبو السُّعود، إرْشادُ العَقْلِ السَّليم: 1/531.
(2) ابْنُ عاشور، التَّحريرُ والتَّنْوير: 5/79.
(3) القونويّ، حاشيةُ القونويِّ على البَيْضاويّ: 7/187.
(4) الزَّمَخْشَريّ، الكَشّاف: 1/518.
(5) ابْنُ عاشور، التَّحريرُ والتَّنْوير: 5/79.
(6) الزَّمَخْشَريّ، الكَشَّاف: 1/518.

أنواع الخِذلان وظُلُماتِ الضَّلالات، ونَظِيرُهُ قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ﴾ [الأنفال: 24] الآية[1]، وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ حَقِيقَةً، وَهُوَ رَدُّهم مِنْ حَيْثُ أَتَوْا، أَيْ: إِجْلَاؤُهُمْ مِنْ بِلَادِ الْعَرَبِ إِلَى الشَّام، وَالْفَاءُ عَلَى هَذَا الْوَجْهِ لِلتَّعْقِيبِ وَالتَّسَبُّبِ مَعًا، وَالْكَلَامُ وَعِيدٌ، وَالْوَعِيدُ حَاصِلٌ، فَقَدْ رَمَاهُمُ اللَّهُ بِالذُّلِّ، ثُمَّ أَجْلَاهُمُ النَّبِيُّ ﷺ، وَأَجْلَاهُمْ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ إِلَى أَذْرِعَات[2].

وإن كانت الفاء في ﴿فَنَرُدَّهَا﴾ للتَّسبيب؛ فإنَّ تَغَيُّرَ تخطيط الصُّور وإزالتها سبب؛ لكون الوُجُوه مثل: الأدبار، وإنْ أُريدَ بالرَّدِّ على أَدْبَارِها: رَدُّها عَلَى أدبارها بعد إزالة التَّخْطيط، فيكون الفاء للتَّعقيب، ويكون وعيدًا بِعِقابَيْن: أحدُهُمَا: عُقَيْبَ الآخر بدون السَّببيَّة (ردُّها عَلَى أدبارها بعد الطَّمس)، وفي الوجه الثَّاني: عُدَّ رَدُّ الْوُجُوه إِلَى أدبارها بدون تَغْيِيرِ تَخْطيطِ الصُّور بقرينة المُقابلة، فَيُنْكِسُ الوُجُوهَ إِلَى الخَلْفِ، والقفا إِلَى القُدَّام[3].

والصّواب: القطع بالتّهديد بمسح الوجوه، فلا يكون فيها عينٌ ولا حواسٌّ ولا أثرٌ لأيٍّ من ذلك، فتكون كهيئة القفا، وهذا المعنى لا ينبغي أن يُعْدَلَ به، ولا أن يُتَرَدَّد فيه، وإنَّما منع من وقوعه أمران: أوَّلهما: كون عموم بعثة النَّبيِّ رحمة عامَّة، لا يعجَّل فيها عذاب الخسف والمسخ والاستئصال بأحد بعينه؛ والنَّبيُّ بين ظهرانيهم، وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمۡ وَأَنتَ فِيهِمۡۚ﴾ [الأنفال: 33] شاهد قائم مفصح مبيِّن عن ذلك.

والثَّاني: أنَّ الوعيد الشَّديد كان معلَّقًا على عدم إيمانهم، فآمن منهم خلق، وأظهر الإيمان تحاميًا به وجُنَّةً فيه، أقوامٌ، وانخنس عن لَيِّهِ وَغَيِّهِ طوائف، وأراد اللّه أن يذلَّهم بإنزالهم على حكم رسول اللّه فيهم عنوة، فيكون هو الآمر والمباشر؛ إظهارًا لعزَّته وإعلاء لشأنه، وقصَّة سعد بن معاذ فيهم شهيرة، ولعلم اللّه أنَّ صفيَّة بنت حييِّ بن أخطب - وهي فيهم وقتذاك - ستكون أُمًّا للمؤمنين وزوجًا لرسول اللّه - صلَّى اللّه عليه وآله وسلَّم - وهي من ولد نبيِّ اللّه ورسوله هارون، وعمُّها رسول اللّه وكليمه موسى أخو جدِّها هارون النَّبيِّ، وستكون صفيَّة لرسول اللّه خاتم النَّبيِّين وسيِّد الخلق أجمعين محظيَّة

(1) الرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 10/97.
(2) ابْنُ عاشور، التَّحريرُ والتَّنْوير: 5/79.
(3) القونويّ، حاشيةُ القونويِّ على البَيْضاويّ: 7/186.

عنده، وستحمل من ميراث النُّبوَّة علمًا تنشره من بعده، فقد روت عنه عشرة أحاديث.

سِرُّ مَرْجِعِ الضَّميرِ في ﴿نَلْعَنَهُمْ﴾:

كَفَرَةُ اليهودِ مطرودون من رحمة الله، مذمومون عبر العُصورِ

ذلك أنَّ قوله تعالى: ﴿أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّآ أَصْحَٰبَ ٱلسَّبْتِۚ﴾، نَلْعَنَهُمْ، أي: نُخْزيهِمْ بالمَسْخِ، كما مَسَخْنَا أصحاب السَّبْتِ[1]، والضَّمير في: ﴿أَوْ نَلْعَنَهُمْ﴾ راجع للوجوه؛ إنْ أُريدَ الوُجهاءُ، أو لأصحاب الوُجوهِ؛ لأنَّ المَعْنى مِنْ قَبْلِ أن نَطْمِسَ وُجُوهَ قَوْمٍ؛ إذ الوُجُوه تَدُلُّ عَلى أصحابها، أو التَّقدير: وُجُوهَ قَوْمٍ، أَوْ يَرْجِع إلى: ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ﴾ على طريقة الالْتفَاتِ من الخطَاب إلَى الغَيْبَةِ؛ لأنَّ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ مُنادًى حَقيقَةً[2]، كما في قَوْلِهِ تَعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم﴾ [يونس: 22]، وفي هذا بيانٌ لِذلَّةِ كَفَرَةِ اليهودِ عبر العُصورِ، وطَرْدِهِمْ من رحمة اللّٰه الموجبِ لِمَسْخِهِمْ وخِزْيِهِمْ. والمقصود: ذهاب صورة الحسِّ، وزوال أثر موضعها من الوجه بالكُلِّيَّة.

وينبغي أن يكون مرجع الضَّمير في: ﴿نَلْعَنَهُمْ﴾ الَّذين كتموا صفة النَّبيِّ في التَّوراة، وأنكروا وجودها، كما أنّ قوله: ﴿كَمَا لَعَنَّآ أَصْحَٰبَ ٱلسَّبْتِۚ﴾، أي: الَّذين اعتدوا فيه منهم.

سِرُّ التَّعريف بالإضافة:

في الإضافة تحقيرٌ للمتلاعبين بدين الله والحَطُّ من شأنهم

ومن الإضافة ما حصل معنى التَّحقير في قوله تعالى: ﴿أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّآ أَصْحَٰبَ ٱلسَّبْتِۚ﴾، هذه الإضافة دلَّتْ على تحقير المُضافِ، وحَطَّتْ مِنْ قَدْرِهِ، وبيان ذلك: أنَّ التَّهديدَ في قوله تعالى: ﴿أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّآ أَصْحَٰبَ ٱلسَّبْتِۚ﴾ حَمَلَ الخِزْيَ والعارَ والتَّحْقيرَ لِلْيَهودِ، حيث ذَكَرَهُمْ المَوْلى ﷻ بِتِلْكَ اللَّعْنَةِ الَّتي نَزَلَتْ بِأَجْدادِهِمْ،

(1) الزَّمَخْشَريّ، الكَشَّاف: 1/518.

(2) الزَّمَخْشَريّ، تَفْسيرُ الكَشَّاف: 1/518، والرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 10/99، والقونويّ، حاشيةُ القونويِّ على البَيْضاويّ: 7/188.

فَمَسَخَهُمْ قِرَدَةً وخَنَازِيرَ، وهم يَعْلَمُونَ ذَلِكَ يَقِينًا، بدَليلِ قَوْلِه تَعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْاْ مِنكُمْ فِي ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿٦٥﴾﴾ [البقرة: 65][1].

بلاغة التَّشْبيه المُرْسَل:

بيان معنى اللَّعنة المتوعَّدِ بها بربطها بأبشع لعنة في تاريخ اليهود

لا شَكَّ أَنَّ اللَّعْنَ في كِلَا طَرَفي التَّشبيه مقصودٌ به اليهود، غير أنَّه جاء على طريقة الوعيد؛ إذ إنَّ اللّه ﷻ تَوَعَّدَ اليهود المعاصرين لرسول اللّه ﷺ بمثل ما حصل لأجدادهم المُعْتَدينَ في السَّبْتِ، فالمُشَبَّهُ: اللَّعن المتوعَّد به اليهود، والمُشَبَّهُ به: لَعْنَةُ أَصحاب السَّبْتِ، ووجه الشَّبَهِ: الغضب الحاصل منه اللَّعنتان بالمَسْخِ والتَّبديلِ، حيث مَسَخَ أجدادهم قِرَدَةً وخَنَازِيرَ، وقد اختلف المُفَسِّرونَ في ماهيَّة اللَّعْنِ ووقْتِ حُدوثِه: فَذَهَبَ فريق إلى أنَّ اللَّعْنَ هو المَسْخُ إلى قِرَدَةٍ وخَنَازِيرَ[2]، وَوَقْتُ حُدوثِهِ الدُّنْيا، مُسْتَدلِّينَ بمُبادرة بعض اليهود بالإسلام حال سماعهم هذه الآية[3]، ومنهم من رأى أنَّ وقت حدوثه يكون في آخر الزَّمان، ومنهم من قال: يكون في الآخرة عند الحشر، وسيقع - لا محالة - أحدُ الأمرين أو كلاهما على سبيل التَّوزيع،[4] أي: البعض يناله الطَّمس والرَّدُّ على الأدبار، والبعض الآخر يُلْعَنُ، أي: يُمسخ إلى قردةٍ وخنازير، بدليل عدم حدوث هذا الأمر المَهُولِ، لا في زمن الرَّسول ولا في ما بَعْدَه، بينما ذهب آخرون: إلى أنَّ المُراد من التَّشبيه بِلَعْنِ أصحاب السَّبْتِ الإغراق في وصفه فقط[5]، وعلَّل ذلك: بأنَّ الوعد مشروطٌ بالإيمان ألَّا يقع معه، وقد آمن منهم أناسٌ[6].

(1) خَديجة بناني، سورَةُ النِّساءِ دِراسَةٌ بَلاغيَّةٌ تَحْليليَّة: 1/89.
(2) ابْنُ كَثير، تَفْسيرُ القرآن العظيم: 1/509، وابْنُ عَطيَّة، المُحَرَّرُ الوَجيز: 2/63.
(3) الزَّمَخْشَريّ، الكَشّاف: 1/272.
(4) أَبو السُّعود، إرْشادُ العَقْلِ السَّليم: 1/532.
(5) الآلوسّي، روحُ المعاني: 5/50.
(6) الزَّمَخْشَريّ، الكَشّاف: 2/272.

وقد مرّ بنا قريبًا أنّ لعدم حدوث المسخ أسبابًا عدَّة، منها: عموم الرَّحمة ببعثته، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمۡ وَأَنتَ فِيهِمۡۚ﴾ [الأنفال: 33].

ويُهِمُّنا من ذلك كلِّه ثمرة الخلاف: فبناء على الطَّرف الأوَّل؛ يكون طَرَفَا التَّشبيه حِسِّيَّيْن، والوجه: تلك الحالة التي يُمْسَخُ إليها اليهود سواء في الدُّنيا أو الآخرة، أمَّا على الرَّأي الثَّاني؛ فيكون من قبيل تشبيه شيء عقليٍّ بشيء حِسِّيٍّ[1].

فقد خَدَمَ حرف الجرِّ (الكاف) - الذي معناه: التَّشبيه - السِّياقَ أيَّما خدمة؛ لأنَّه عمَّق معنى اللَّعنة المُتوعَّدِ بها بربطها بأبشع لعنة في تاريخ اليهود، وهيَ مسخ بعض أجدادهم إلى قردة وخنازير، وهم يوقنون بذلك حقَّ اليقين؛ ولذا نرى من هداه الله منهم إلى الإسلام أَسْرَعَ إلى رسول الله ﷺ مُعْلِنًا إسلامه مخافة أن يمسخ قبل ذلك[2]، وكان هذا الحرف وما جسَّده من صورة نزل كصاعقة عنيفة الأثر، هزَّت قلوب الصَّالحين من أهل الكتاب، وأرشدتهم إلى الصِّراط المستقيم.

رؤية تفكُّريَّة في معنى التَّشبيه ونوعه:

والذي يقتضيه سداد النَّظر، وصواب الفِكر أن يكون التَّشبيه في قوله تعالى: ﴿أَوۡ نَلۡعَنَهُمۡ كَمَا لَعَنَّآ أَصۡحَٰبَ ٱلسَّبۡتِۚ﴾ تشبيهًا مقلوبًا، على غير بابه، بكون المشبَّه هنا أقوى من المشبَّه به في هذا التَّشبيه، لعلَّة المناسبة، فإنَّ كتمان الَّذين أوتوا الكتاب (صفة محمَّد رسول الله خاتم النَّبيِّين ﷺ) أبعد أثرًا، وأعظم خطرًا، وأكثر جُرمًا، وأكبر إثمًا من الاعتداء في السَّبت، والسّبت يوم، وكتمان صفة النَّبيِّ الخاتم محمَّد رسول الله ﷺ اعتداء على الإيمان كلِّه ومستقبل

المتوعَّد به على كتمان صفة النَّبيِّ أعظم ممَّا حاق بالَّذين اعتدوا في السَّبت؛ لأنَّ جُرْمهم أقبح، وضرره أفدح

(1) خَديجة بناني، سورَةُ النِّساءِ دِراسَةٌ بَلاغيَّةٌ تَحْليليَّة: 2/404.
(2) ابْنُ كَثير، تَفْسيرُ القرآن العظيم: 1/509.

الدَّينونة للّه ربِّ العالمين، واعتداء الأسلاف في فرع من فروع شريعة اللّه إلى قوم بعينهم، واعتداء الأخلاف في أصل من أصول الاعتقاد في دين اللّه الَّذي ارتضاه للبشريَّة كلِّها إلى قيام السّاعة، ولا مناسبة بين البابين من أيِّ وجه في الجرم أو في العقاب، فأصل أصول رسالات السَّماء جميعها قائم على ما خالف فيه المتأخِّرون؛ إذ محمَّد رسول اللّه ﷺ قد بشَّر به جميع الأنبياء أممَهم، وأعلنوا للّه عهودهم على تصديقه والتَّسليم له، وبلّغوا أممهم ذلك عنه وعن صفات أُمَّته، على حين انحصرت مخالفة الأسلاف الممسوخين في فرع تشريعيٍّ صَحِبَهُ دون ما صحب مخالفة المتأخِّرين من استخفاف وتهوُّر، واستهزاء وتنكُّر، فكيف يقال بالتَّسوية بين العقابين أيًّا كان كلٌّ منهما؛ جريًا على قاعدة التَّشبيه، أو أن يكون السّابق أصلًا مقيسًا عليه اللّاحق، فيكون الوعيد في السّابق أمكن منه في اللّاحق وأظهر، مع أنّ الآيات شاهدة بأنَّ طمس الوجوه بردِّها على أدبارها، المُهدَّد به، لا عهد للبشريَّة كلِّها بمثله، فهو أشنع وأبشع وأقذع وأفظع، ممَّا عرفه اليهود في تاريخهم كلِّه، حتى ما جرى من قبلهم من طمس في قوم لوط، كان طمس أعيُن لا طمس وجوه؛ لِئلَّا يتَّبعوا أضياف لوط من الملائكة، وقد ألمحنا من قبلُ إلى ذلك.

ويزاد على ذلك: أنَّ التَّنزُّل في التَّهديد بـ﴿أَوۡ﴾ في قوله سبحانه: ﴿أَوۡ نَلۡعَنَهُمۡ﴾ بما يفيد التَّنويع أو التَّنصيص على الحدِّ الأدنى من العقاب المتوقَّع إيقاعه بالمجرمين منكري أظهر النُّبوَّات بأقوى البيِّنات، وأوضح الآيات، وأعلى الدَّلالات، فإنّ هذا التَّنويع المسمَّى تخييرًا، ليس قاضيًا على العقوبة بالمماثلة، إذ المراد بالتَّشبيه – لو كان على بابه – المصدر، وهو (اللّعْنُ)، ويكون لكلٍّ بحسبه، فلا يستلزم المماثلة من كلِّ وجه، بل يكفي فيه مماثلة الإطلاق والتَّسمية، وإنَّما أُتيَ من توهَّم خلاف ذلك من اعتقاد أنَّ المشبَّه به: هو (اللَّعنة) على وزن اسم المرَّة – بفتح اللَّام الثَّانية المدغَم فيها – أو على وزن اسم الهيئة بكسرها، فمِن ثَمَّ اعتقد المماثلة، وليس بذلك؛ إذ هو فوق مخالفته الظَّاهرة للنَّصِّ، مخالف للعقل، وللقياس، وللاستقراء التامِّ، وما يقوم عليه سبْر وتقسيم، ولأصول عاصمة عديدة، وسبحان اللّه وبحمده القائل: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ٢﴾ [يوسف: 2].

علّة إضافة الأمر إلى الاسم الجليل:

قوله: ﴿وَكَانَ أَمۡرُ ٱللَّهِ مَفۡعُولًا﴾ اعتراضٌ تذييليٌّ خُرِّجَ مخرج المِثالِ، وفائدته: تَقْريرُ

ما سَبَقَ من الوعيد[1] بالإخبار عن جريان عادة الله في الأنبياء المتقدِّمين: أنَّه مَهْمَا أخبرهم بإنزال العذاب على أقوامهم فعل ذلك لا محالة، فكأنَّه قيل لهم: أنتم تعلمون أنَّ تهديدَ الله في الأمم السَّالفة واقعٌ لا محالة، فاحترزوا الآن، وكونوا على حَذَرٍ من هذا الوعيد[2]؛ فالمقصود هُنا: هو ﴿أَمْرُ ٱللَّهِ﴾، ويُرادُ بالأَمْرِ: المأمور، فهو مَصْدَرٌ وَقَعَ مَوْقِعَ المفعول، فالمعنى: أنَّه متى أراده؛ أَوْجَدَهُ[3]، ووَضْع الاسمِ الجليل مَوْضِعَ الضَّميرِ بطريقِ الالتفاتِ؛ لِتَرْبِيةِ المَهابةِ، وتعليلِ الحُكم، وتقويةِ ما في الاعتراضِ من الاستقلالِ[4].

تَرْبِيةِ المَهابةِ، وتعليل ما سَبَقَ وتعظيمه تَخْويفًا وتهديدًا ووعيدًا بوقوعه لا محالة

بلاغة الفصل في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾:

يجوز أنْ تكونَ جملةُ المطْلَعِ "مستأنفةً، وقعتْ اعتراضًا بين قوارعِ أهلِ الكتابِ، ومواعِظِهم، فيكون حرفُ ﴿إِنَّ﴾ لتوكيدِ الخبرِ لقَصْدِ دفْعِ احتمالِ المَجَاز أو المُبالغة في الوَعِيدِ، وهو إمّا تمهيدٌ لِمَا بَعْدَه لتشْنيعِ جُرْمِ الشِّرك باللّه ليكونَ تمهيدًا لتشنيعِ حالِ الذين فَضّلوا الشِّرك على الإيمان، وإظهارًا لمقدارِ التَّعجيبِ من شأْنِهم الآتي في قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ سَبِيلًا﴾، أي فكيفَ ترْضَوْن بحالِ من لا يَرْضى اللّه عنه؟ والمغفرة على هذا الوجه يصح حملها على معنى التجاوز الدنيوي، وعلى معنى التجاوز في الآخرة على وجه الإجمال.

تشنيعُ جُرْمِ الشِّرك وتَبْشيعُ حال أهله وتعجيبُ شأنهم، أو تعليمُ حُكْم في مغفرة ذنوب العصاة

وإما أنْ يكونَ استئنافَ تعليم حُكْم في مغفرة ذنوبِ العُصَاة: ابتدئ بمحكم، وهو قوله: ﴿لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾، وذُيِّل بمتشابه، وهو قوله: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ فالمغفرة مراد منها التجاوز في الآخرة"[5].

(1) أبو السُّعود، إرْشادُ العَقْلِ السَّليم: 2/187.
(2) الرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 10/99، وأبو حيّان، البحر المحيط: 3/279.
(3) القُرْطُبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 5/245.
(4) أبو السُّعود، إرْشادُ العَقْلِ السَّليم: 2/187.
(5) ابْنُ عاشور، التَّحْريرُ والتَّنْوير: 5/81.

الفصل على الاستئناف البيانيّ تقريرٌ للوعيد السّابق، وتوكيدٌ لوجوب امتثال الأمر بالإيمان، وتهديدٌ بعذاب الدّنيا

فالكلام هنا مستأنف مقرِّر لما قبله من الوعيد، ومُؤَكِّدٌ وجوب امتثال الأمر بالإيمان؛ حيث إنَّه لا مغفرة بِدُونِهِ كما زعم اليهود، وأشار إليه قوله تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٞ وَرِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ يَأۡخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلۡأَدۡنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغۡفَرُ لَنَا﴾ [الأعراف: 169]، وفيه – أيضًا – إزالة خوفهم من سوء الكبائر السَّابقة؛ إذا آمنوا[1].

وَتَتَضَمَّنُ الْآيَةُ تَهْدِيدًا لِلْمُشْرِكِينَ بِعَذَابِ الدُّنْيَا، يَحِلُّ عليهم، فَلَا يَنْفَعُهُمُ الْإِيمَانُ بَعْدَ حُلُولِ الْعَذَابِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَوۡلَا كَانَتۡ قَرۡيَةٌ ءَامَنَتۡ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوۡمَ يُونُسَ﴾ [يونس: 98]، وَعَلَى هَذَا الْوَجْهِ يَكُونُ حَرْفُ ﴿إِنَّ﴾ فِي مَوْقِعِ التَّعْلِيلِ وَالتَّسَبُّبِ، أَيْ: آمِنُوا بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَنْزِلَ بِكُمُ الْعَذَابُ؛ لِأَنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ مَا دُونَ الْإِشْرَاكِ بِهِ[2].

نكتة توكيد نفي الغفران:

الغفران عند الخالق سبحانه معلّقٌ بالتوبة، والإقلاع

أكّد تعالى عدم الغفران في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ﴾" بـ ﴿إِنَّ﴾ التي تفيد التوكيد، فلا يرجو مشرك غفرانا، أيا كان نوع الشرك، إلا أن يقلع عنه، فإن الله تعالى غفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا"[3].

سِرُّ تَكْرارِ ذِكْرِ الفعل ﴿يَغْفِرُ﴾:

سرُّ التكرار حاجةُ المعنى إلى التَّفرقة بَيْنَ الشِّرْكِ وما دونه من الخَطايا

﴿وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ عَطْفٌ على خبر ﴿إِنَّ﴾، لا مُسْتَأْنَفٌ، أي: يَغْفِرُ ما دون الشِّرك من المعاصي، صغيرًا كان أو كبيرًا، ﴿لِمَن يَشَآءُ﴾؛ تَفَضُّلًا عليه وإحسانًا[4]. وقد تكرَّر الفعل ﴿يَغْفِرُ﴾؛ حيث أطلق الله تعالى نَفْيَ مَغْفِرَةِ الشِّرك، وأثبت مَغْفِرَةَ ما دونه مقرونة بالمشيئة؛ لأنَّ الشِّركَ هو الظُّلْمُ الَّذي لا ظُلْمَ بعده، والسَّبَبُ في هذا التَّكرار: حاجة المعنى إلى التَّفرقة بَيْنَ الشِّرْكِ وما دونه بأنَّ الله

(1) أبو السُّعود، إرْشادُ العَقْلِ السَّليم: 2/187، والآلوسّي، روحُ المعاني: 5/51.
(2) ابْنُ عاشور، التَّحْريرُ والتَّنْوير: 5/80.
(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 4/1709.
(4) البَيْضاويّ، أَنْوارُ التَّنْزيل: 2/201.

لا يغفر الأوَّل البتَّة، ويغفر الثَّاني لمن يشاء[1]، فاختلاف الحكمين في أمر من أهمِّ الأمور العقديَّة أدَّى إلى ذكر المُسْند الثَّاني؛ فالآية بُرْهَانٌ ساطع على وجوب تَنْزيهِ العبادة لله ﷻ عن شوائب الشِّرْك والرِّياء والسُّمعة وإخلاص القلب فيها، كما أنَّها باب من أبواب فضل الله ورحمته على عباده؛ لِمَا تَحْمِلُهُ من بشرى المغفرة من الرَّبِّ الغفور الرَّحيم، مهما بلغت خطايا العبد؛ ما لم يُشْرك بالله شيئًا، إذا شاء سبحانه ذلك[2].

فائدة التَّعْبيرِ باسم الإشارة:

بيان الظُّلْمِ العظيم الذي لا ظُلْمَ بعده في القبح والشِّدَّة

جاء اسم الإشارة المركّب من: (الذّال للإشارة، والألف للتَّقوية، واللَّام للبعد، والكاف للخطاب)؛ لتعيين الإشارة للشِّرك دلالة على بُعد منزلته في القبح، وأنَّه ظلم عظيم، تتصاغر كلُّ الذُّنوب؛ إذا قورنت به، أو ذكرت معه؛ لأنَّه تسوية بين الخالق الَّذي لا نعمة إلَّا وهي منه، وبين المخلوق الَّذي لا نعمة له أصلًا، فهو كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ١٣﴾ [لقمان: 13]، وقال: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا﴾[3].

سِرُّ تعليق الموصول بالمشيئَةِ:

تبشير للمسلمين بعد النَّذارة والتَّحذير، حتَّى يكونوا على خَوْفٍ وطَمَعٍ

في قوله: ﴿لِمَن يَشَآءُ﴾ نعمة عظيمة من وجهين: أحدهما: أنَّها تقتضي أنَّ كُلَّ مَيِّتٍ على ذنبٍ دون الشِّرك لا يُقطع عليه بالعذاب؛ وإنْ مات مُصِرًّا. والثَّاني: أنَّ تعليقه بالمشيئة فيه نفعٌ للمُسْلمين، وهو أنْ يكونوا على خَوْفٍ وطَمَعٍ[4]؛ سعيًا إلى تحصّل الرّضا، والفوز بالمغفرة.

(1) الآلوسّي، روحُ المعاني: 5/53.
(2) ابن حجر، الكافي الشَّافي: 1/273.
(3) الآلوسّي، روحُ المعاني: 5/53، والبِقاعيّ، نَظْمُ الدُّرَر: 5/397.
(4) ابْنُ الجَوْزيّ، زادُ المَسير: 2/103.

دلالة العطف في قوله تعالى: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ﴾:

بيان عِلَّةِ عَدَمِ مَغْفِرَةِ الله للشِّرْكِ ومغفرة ما عداه

جملة ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ﴾ ابتدائيَّة مَسُوقَةٌ لبيان عِلَّةِ عَدَمِ المَغْفِرَة للشِّرْكِ والكفر، ومغفرة ما عدا الشِّرك[1]، وفيه تحذيرٌ من الوقوع فيهما، واقتراف وجوههما.

سِرُّ إظهار الاسمِ الجليل في موضعِ الإضمار:

تربيةُ مهابة الله في القلوب وتقبيحُ الإشراك به

إظهارُ اسمِ الله الأعظم في موضعِ الإضمار؛ تربيةٌ للمهابة، وإدخال الرَّوعة في القلوب، وزيادة تقبيح الإشراك، وتفظيعُ حالِ مَن يتَّصفُ به[2].

سِرُّ التَّعبير بالافتراء بَدَلَ الكَذِبِ:

الافتراء اختلاق ما لا يَصْلُحُ قولًا وفِعْلًا يشمل الكذب والشِّرك والظُّلم

الافتراءُ كما يُطلق عَلَى الْقَوْل يُطلق عَلَى الْفعْل، وكَذَلكَ الاختلاق، والافتراء أخصُّ من الكذب، وظاهِرُه أنَّه مُخْتَصٌّ بالقَوْل حَقيقَةً، وإطلاقه عَلَى الْفعْل مجاز، فكما يكون الشِّرك بالْقَوْل يكون بالْفعْل، فلا بُدَّ من التَّعميم[3].

وإنَّما جعله الله تعالى (مُفْتَرِيًا)؛ لأنَّه قال: زُورًا وإفكًا بِجُحودِهِ وحدانيَّة الله، وإقرَارِه بأنَّ لله شَريكًا مِنْ خَلْقِهِ وصاحبةً أو ولدًا، فَقائلُ ذلك مُفترٍ، وكذلك كلُّ كاذبٍ، فهو مُفْتَرٍ في كذبِهِ مُختلِقٌ له[4].

الافتراءُ مفسدةٌ كالقطع؛ ولذا غلب استعماله قرآنيًّا في مواطن الإفساد؟

أصلُ الافتراء: من الفَرْي، وهو القَطْعُ، ولكون قطع الشَّيءِ مَفْسدة له غالبًا؛ غلب على الإفساد، واستُعملَ في القرآن، بمعنى: الكذب والشِّرك والظُّلم، فهو ارتكابُ ما لا يصلح أن يكون قَوْلًا أو فِعْلًا، وهو الأليق بوصف المُشْرِك، فيقع على اختلاقِ الكَذِبِ وارتكاب الإثم، وهو المُراد هُنا، وهل هو مُشْتَرَكٌ بين اختلاق الكذب، وافتعال

(1) القونويّ، حاشيةُ القونويِّ على البَيْضاويّ: 7/192.
(2) أَبو السُّعود، إرْشادُ العَقْلِ السَّليم: 2/187، والآلوسّي، روحُ المعاني: 5/54.
(3) القونويّ، حاشيةُ القونويِّ على البَيْضاويّ: 7/192.
(4) ابن جرير، جامع البيان: 8/451.

ما لا يصلح، أم حقيقة في الأوَّل، مَجَازٌ مُرْسَلٌ أو استعارة في الثَّاني؟ قولان: أَظْهَرُهُمَا عند البعض الثَّاني، ولا يلزم الجمع بَيْنَ الحقيقة والمجاز؛ لأنَّ الشِّرْكَ أَعَمُّ من القوليِّ والفعليِّ، فالمراد معنًى عامٌّ، وهو ارتكاب ما لا يصلح[1].

بيانُ متشابه ألفاظ الآيات:

ذكْـرُ الـضَّـلالِ يـنـاسـبُ أهـلَ الـكِـتـابِ، واعـتـداءهـم وتـحـريـفـهـم، وذكـر الافـتراء يناسب ما قبله

تكرَّر هذا الوَعيد في آية أخرى من هذه السُّورة الكريمة في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ١١٦﴾ [النِّساء: 116]؛ لبيان أنَّ الشِّرْك أَبعَدُ ضَلالًا، ووجه اختلاف تَعْقِيبِ الأُولى بِقَوْلِهِ: ﴿فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ إِثۡمًا عَظِيمًا﴾، وتعقيب الثَّانية بقوله: ﴿فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ١١٦﴾ [النِّساء: 116]؛ أنَّه لمَّا وَقَعَ قَبْلَ الآيَةِ الكريمة ذكْرُ أهل الكِتابِ وذكْر اعتدائهم وتحريفهم مِنْ لَدُنْ قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبٗا مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ يَشۡتَرُونَ ٱلضَّلَٰلَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّواْ ٱلسَّبِيلَ ٤٤﴾ [النِّساء: 44]، ثُمَّ قال بَعْدَ هذا: ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾، وهذا إفصاح بِكذبِهِمْ وافترائهم، ثُمَّ أَتْبَعَ ما ذَكَرَ بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ﴾؛ ناسب ما تقدَّم من أوصاف الشِّرك الافتراءَ الَّذي هو أَخَصُّ صفات مَنْ كَذَبَ من أهل الكتاب، من أنَّ المُشْرِكَ مُفْتَرٍ، فقال ﷻ: ﴿وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ إِثۡمًا عَظِيمًا﴾، ولمَّا لم يَتَقَدَّمْ مِثْل ذلك في الآية الأخرى، إنَّما تَقَدَّمَ قَبْلَهَا قَوْلُهُ: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ﴾ [النِّساء: 145]، وقبلها ما يَخُصُّ مُنافقي أَيَّام نَبِيِّنَا - عليه السلام - مِنْ لَدُنْ قَوْلِه تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِتَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُۚ وَلَا تَكُن لِّلۡخَآئِنِينَ خَصِيمٗا ١٠٥﴾ [النِّساء: 105]، ثُمَّ قال: ﴿وَلَا تُجَٰدِلۡ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخۡتَانُونَ أَنفُسَهُمۡۚ﴾ [النِّساء: 107]، فلم يَقَعْ في هذه الآي ذِكْرُ تحريفٍ ولا افتراء،

(1) الآلوسّي، روحُ المعاني: 5/53.

إنَّما ذُكِرَ منافقو أيَّامه - ﷺ - بِنِفاقِهِمْ وما صدر منهم من غير الكذب والافتراء، فَنَاسَبَ ذلك ما بُنِي عليه من قوله سبحانه: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾﴾، كما ناسب قوله في الأولى: ﴿فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ ما تَقَدَّمَهُ، وبُنِيَ عليه، وجاءَ كُلٌّ على ما يَجِبُ، ولو أُعْقِبَتِ الأُولى الثَّانية، والثَّانية بما أُعْقِبَتْ به الأُولى؛ لَمَا ناسب على ما تَقَدَّمَ[1].

عــرف الـيـهـودُ صحّة نبوّة نبيّنا محمّد ﷺ ومع ذلك افتروا عليه

وخَتَمَ الآياتِ مَرَّةً بقولِهِ: ﴿فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ﴾، ومَرّةً بِقَوْلِهِ: ﴿فَقَدْ ضَلَّ﴾؛ لأَنَّ الأَوَّل: نَزَلَ في اليهود، وهُمْ الذين عَرَفُوا صِحَّةَ نُبوَّة مُحَمَّدٍ ﷺ من التَّوراة، فَكَذَّبُوا، وافْتَرَوْا على اللّه ما ليس في كِتابهم، والثَّاني: نَزَلَ في الكُفَّارِ والمُنافِقينَ، ولم يكن عِنْدَهُمْ كتاب، فيرجعوا إليه، فَكانَ ضَلالُهُمْ أَشَدَّ[2].

ويعني على قول المصدر: أنَّه أظهر في وصفهم من الافتراء، بما يعني: أنَّها أفعليَّة إضافيَّة لا مطلقة، وليس بذاك؛ إذ اليهود أصل الأمم في الشَّرِّ، والنصُّ قاض بذلك: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٦٠﴾﴾ [المائدة: 60]

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الإيتاء والإعْطاء:

الإيْتاءُ أَقْوى مِنَ الإعْطاءِ

لَا يَكَادُ أَهْلُ اللُّغَةِ يُفَرِّقُونَ بَيْنَ الْإِيتَاءِ وَالْإِعْطَاءِ، لَكِنْ نَجِدُ فِي الِاسْتِعْمَالِ الْقُرْآنِيِّ بَعْضَ الْفُرُوقِ الدَّقِيقَةِ الَّتِي تُوحِي بِبَلَاغَةِ الْقُرْآنِ وَعَظَمَتِهِ، وَذَلِكَ مِنْ حَيْثُ إِنَّ الْإِيتَاءَ أَقْوَى مِنَ الْإِعْطَاءِ فِي إِثْبَاتِ مَفْعُولِهِ؛ لِأَنَّ الْإِعْطَاءَ لَهُ فِعْلٌ مُطَاوِعٌ، تَقُولُ: أَعْطَانِي،

(1) ابْنُ الزُّبَيْرِ، مَلاكُ التَّأْويل، ص: 105 — 106.

(2) الفَيْروزآباديّ، بَصائِرُ ذَوي التَّمْييز: 1/174، وابن بَرِّي، مسائل منثورة في التَّفسير: 18/41.

فَعطوْتُ، وَلَا يُقَالُ فِي الْإِيتَاءِ: أَتَانِي، فَأَتَيْتُ، وَإِنَّمَا يُقَال: آتَانِي، فَأَخَذتُ، وَالْفِعْلُ الَّذِي لَهُ فِعْلٌ مُطَاوِعٌ أَضْعَف فِي إِثْبَاتِ مَفْعُولِهِ مِن الَّذِي لَا مُطَاوِعَ له[1].

فَالإيتاءُ أَقْوى مِنَ الإعْطاءِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ﴾ [آل عِمْرَان: 26]؛ لِأَنَّ الْمُلْكَ شَيْءٌ عَظِيمٌ لَا يُعْطَاهُ إِلَّا مَنْ لَهُ قُوَّةٌ، وَكَذَا قَوْلُهُ: ﴿يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البَقَرَة: 269] والحِكْمَةُ شَيءٌ عَظيمٌ أَيْضًا، وقال: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾﴾ [الحِجْر: 87]؛ لِعِظَم الْقُرْآنِ وَشَأْنِهِ[2]. وفي السُّورة: ﴿فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾﴾ [النِّساء: 54].

فِي الإِيتَاءِ مَعْنى الوُجوبِ والإلْتِزامِ، وفي الإِعْطاءِ مَعْنى التَّفَضُّلِ والإِكْرامِ

وَمِن الْفُرُوقِ أَيْضًا: أَنَّ الإيتاء فِيهِ مَعْنَى: الْوُجُوبِ وَالالْتِزَام، أَمَّا الْعَطَاءُ؛ فَفِيهِ مَعْنَى: التَّفَضُّلِ وَالْإِكْرَام، فَبَعْدَ أَنْ أَسْعَد اللَّه الْمُؤْمِنِينَ بِدُخُولِ الْجَنَّةِ قَالَ: ﴿عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾﴾ [هُود: 108]، وقال: ﴿جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا ﴿٣٦﴾﴾ [النَّبَأ: 36].

وليس بظاهر، والصَّواب: أنَّ الإيتاء قد يكون منه بِخُفْية ولطف، أمّا الإعطاء؛ فعلانيةٌ؛ وعليه، فقوله تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ﴿٥﴾﴾ [الضُّحى: 5]، من معناه: أن يُعلي شأنك، ويظهر كرامتك، ويقبل شفاعتك، ولا يردَّ سؤالك، وذلك على رؤوس الأشهاد أمام الخلائق، وانظر إلى ذكره معه في الأذان بالشّهادتين، فإنَّه من ذلك؛ إذ نزلت قبل مشروعيَّة الأذان.

الإيتاءُ عَامٌّ في الأُمورِ المادِّيَّةِ والمَعْنَوِيَّةِ، والإِعْطاءُ مُخْتَصٌّ بِالمادِّيَّةِ

وَمِن الْفُرُوقِ أَيْضًا: أَنَّ الْعَطَاءَ يَكُونُ فِي الْأَشْيَاءِ الْمَادِّيَّةِ، وَيُفِيدُ التَّكْرَارَ: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ﴿١﴾﴾ [الكوثر: 1]، أَيْ: سَيَتَكَرَّرُ شُرْبُكَ - يَا مُحَمَّد ﷺ - كَثِيرًا مِنْ نَهْرِ الْكَوْثَرِ، ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ

(1) السُّيوطيّ، الإتْقان: 2/367.
(2) الكَفَويّ، الكُلِّيَّات، ص: 212.

﴿فَتَرۡضَىٰٓ ۝٥﴾ [الضُّحى: 05]، أَيْ: سَيَكُونُ عَطَاءُ اللَّهِ لَكَ مُكَرَّرًا حَتَّى تَبْلُغَ دَرَجَةَ الرِّضَا[1].

أمَّا الإيتاء؛ ففي الأشياءِ المادِّيَّة والمعنويَّة، قال سبحانه: ﴿۞وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَآ إِبۡرَٰهِيمَ رُشۡدَهُۥ﴾ [الأنبياء: 51]، وقال: ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحِكۡمَةَ وَفَصۡلَ ٱلۡخِطَابِ ۝٢٠﴾ [ص: 20][2].

الإِعْطَاء دَلِيلُ التَّمَلُّكِ، والإِيتَاءُ قد يَلحقه النَّزْعُ

وَمِن الْفُرُوقِ أَيْضًا: أَنَّ فِي الْإِعْطَاءِ دَلِيل التَّمَلُّكِ دُونَ الْإِيتَاءِ[3]، فَالْإِيتَاءُ يَشْمَلُهُ النَّزْعُ، بِمَعْنَى: أَنَّهُ لَيْسَ تَمْلِيكًا بالنَّظر إلى قوله تعالى: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا فَأَتۡبَعَهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ۝١٧٥ وَلَوۡ شِئۡنَا لَرَفَعۡنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخۡلَدَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُۚ﴾ [الأعراف: 175، 179]، ولو عُبِّر عنه بأنَّه يتوقَّف على قبول المُؤْتى؛ إلماحًا إلى معنى الدُّعاء النَّبويِّ: "واجعلنا شاكرين لنعمك، مثنين بها عليك قابليها، وأتمَّها علينا"[4]؛ لكان بصرًا وسدادًا، وَلَكِنَّ الْعَطَاءَ تَمْلِيكٌ؛ فلذا عُبِّرَ به في الآية الفذَّة الجامعة: ﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ۝٥٠﴾ [طه: 50]، وَالْإِيتَاءُ لَيْسَ بِالضَّرُورَةِ تَمْلِيكًا؛ لِأَنَّ الْإِعْطَاءَ هُوَ إِيصَالُ الشَّيْءِ إِلَى الْأَخْذِ لَهُ، وَكَثُرَ اسْتِعْمَالُ الْإِعْطَاءِ، حَتَّى صَارَ لَا يُطْلَقُ إِلَّا عَلَى التَّمْلِيكِ، فَيُقَال: أَعْطَاهُ مَالاً؛ إِذَا مَلَّكَهُ إِيَّاهُ[5]، والمعاني تتداخل، فلا يكاد يخلص معنى دون أن يدخله شيء من معنًى آخر، ألا ترى أنَّ الزَّكاة تملُّك لمصْرفها من أحد الثَّمانية؛ ومع ذلك، فالتَّعبير الدّائم عنها بالإيتاء، يملأ الخيال، ولا يفارق البال.

(1) الكَفَويّ، الكُلِّيَّات، ص: 212، والسُّيوطيّ، الإِتْقان: 2/367.
(2) لاشين، مِنْ أَسْرارِ التَّعْبِيرِ في القُرْآنِ الكَرِيم، ص: 71 - 77.
(3) الكَفَويّ، الكُلِّيَّات: 1/360، والعَسْكَريّ، الفُروقُ اللُّغَويّة، ص: 86.
(4) سنن أبي داوود، الحديث رقم: (969)، والحاكم: 1/265، وقال: (صحيح على شرط مسلم)، ووافقه الذَّهبيّ: 1/26، وبنحوه: البخاريُّ في الأدب المفرد، وعنه الألباني في صحيح الأدب المفرد: 630.
(5) السُّيوطيّ، الإِتْقانُ/197.

الإنزال والتَّنزيل:

الإنـزال دَفْعِيٌّ، والـتَّـنـزيـلُ تدريجيٌّ

يُطلقُ الإنزالُ: على ما يكون دفعةً واحدة[1]، ويطلق التَّنزيل: على ما يكون مُفرَّقًا أو تدريجيًّا، وغالبًا ما تكون دلالته على التّدريج هي من خارج، فالإنزال دَفْعِيٌّ، والتَّنزيلُ تدريجيٌّ، قال الله تعالى: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۝٣﴾ [آل عمران: 3]؛ وهذا لأنَّ حُكْمَ القرآن الكريم مؤبَّدٌ، وهو مناسبٌ لـ (نزَّل)، فإنَّه بِنَاءٌ لِلمبالغة، ولِمَا في التَّنزيل مِن معنَى التَّدريج، فبينَ الإنزالِ والتَّنزيل عمُومٌ وخصُوصٌ، والإنزالُ أَعَمُّ مِنْهُ؛ لأنَّه قد يدلُّ على معنى التَّدْريج، وقد لا يدلُّ[2]، ولا يُشْكِلُ على هذا الفَرْقِ وقوع التَّعبير عَنْ نزول القُرآن الكريم بالفِعْلَيْنِ معًا؛ لأنَّ لِلْقُرْآنِ الكريم نُزولَيْنِ: دَفْعِيًّا إلى السَّماءِ الدُّنيا، وتدريجِيًّا بحسب الوقائع والأحداث[3].

الطَّمس، والطَّلس، والدَّرس:

الطَّمسُ مَحْوُ الأثـــر وإزالـــة الأعـــلام، وهـو أنـسـب لـزوال معالم الوجوه

ذكرَ الراغب أنّ: "الطَّمس والطَّلس والدَّرس يتقارب، ولكن الطمس زوال الأعلام المماثلة، قال:

وبلدةٍ طامسةٍ أعلامُها*** .....[4]

والطلس زوال الصورة، ومنه قيل: (درهم مطلس)، إذا لم يكن عليه نقش، والدرس قد يقال في الأثر الخفي"[5]. ومن هنا فالتعبير بالطمس في الآية أنسب لزوال معالم الوجوه؛ لكون أصل الطَّمس: مَحْوَ الأثر وإزالة الأعلام، وطمس الوجوه: محو تخطيط صورها، من عين وحاجب وأنف وفم، أو تعميتها[6].

---

(1) السَّمين، عُمْدَةُ الحُفَّاظ: (نزل)، والعسكريّ، الفروق اللُّغويَّة، ص: 79، والجرجانّي، التَّعريفات، ص: 68، والخفاجيّ، عناية القاضي: 1/3.

(2) الرّاغِب، المُفْرَدات: (نزل).

(3) أبو شامة، المُرْشِدُ الوَجيز، ص: 17، والسِّيوطيّ، الإتقان: 1/146.

(4) شطر البيت للشاعر: القطامي التغلبي، وعجزه: يضغو جميعاً بومُها وهامُها، ينظر: ديوانه، ص: 162، ومعنى: (يضغو): يصيح.

(5) الراغب، تفسير الراغب: 3/1262.

(6) أَبو السُّعود، إِرْشادُ العَقْلِ السَّليم: 1/531.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمۚ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ۝٤٩ ٱنظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَۖ وَكَفَىٰ بِهِۦٓ إِثْمًا مُّبِينًا ۝٥٠﴾ [النِّساء: 49 - 50]

مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِمَا قَبْلَهُما:

النَّهي عن مدح النَّفس بعد إنكار اليهود مُشابهتهم لأهل الذَّمِّ من المشركين

لَمَّا هدَّد اللهُ ﷻ اليهودَ بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾ [النِّساء: 48]؛ فعند هذا قالوا: لَسْنَا من المُشْرِكينَ، بل نحن خَوَاصُّ اللهِ تعالى، كما حَكَى تَعالى عَنْهُمْ أنَّهم قالوا: ﴿نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥۚ﴾ [المائدة: 18]، وبعضُهم كانوا يقولون: (إنَّ آباءَنا كانوا أنبياءَ، فيشفَعون لنا)، فبالَغوا في تزكيةِ أنفسِهم، فَذَكَرَ تعالى في هذه الآيةِ أنَّه لا عِبْرَةَ بتزكيةِ الإنسان نَفْسَهُ، وإنَّما العبرةُ بتزكيةِ اللهِ له[1]. وَلَمَّا أخبَر تعالى أنَّ التَّزكيةَ إنَّما هِيَ إليه بما له مِن العَظَمَةِ والعِلمِ الشَّاملِ، وكان ذلك أَمْرًا لا نزاعَ فيه، وشَهِدَ عليهم بالضَّلالِ؛ زاد في تَوْبِيخِهِمْ؛ مُعَجِّبًا لرسولِه ﷺ من وقَاحتِهم واجْترائِهِمْ على مَنْ يَعْلَمُ كَذِبَهُمْ، ويقدِرُ على معاجلتهم بالعذاب[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمۚ﴾: أي: يَمدحُونها، ويُثنون عليها، وزكَّى نَفْسَهُ: مَدَحَها، ونَسَبَهَا إلى الزَّكاء، مِن: زكَّى يُزَكِّي تَزْكيةً، وأَصْلُ الزَّكاةِ: النَّماءُ والطَّهارة، والمَعْنى هُنا: يَمْدَحونَ أَنْفُسَهُمْ، وهو وَصْفٌ مَذْمُومٌ؛ لأنَّ مدح الإنسان نَفْسَهُ قَبيحٌ شَرْعًا وعَقْلًا[3].

(1) الرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 10/99.
(2) البِقاعيّ، نَظْمُ الدُّرَر: 5/299.
(3) الرَّاغِب، المُفْرَدات، وابْنُ مَنْظور، لِسانُ العَرَب، والسَّمين، عُمْدَةُ الحُفَّاظ: (زكا)، وابْنُ فارِس، مَقاييسُ اللُّغَة: (زكى)، والزَّبيديّ، تاجُ العَروس: (زكو)، وابْنُ قُتَيْبَة، غَريبُ القُرْآن، ص: 31، والشِّنْقيطيّ، أضواء البيان: 8/542.

2) ﴿فَتِيلًا﴾: الفَتِيل: القِشرةُ الَّتي في بطن النَّواةِ، وسُمِّي ما يكونُ في شَقِّ النَّواة فَتِيلًا؛ لكونِه على هيئَتِه، وقِيلَ: الفَتِيلُ: ما يُفتَلُ بالإصبعِ مِن الوسَخِ الَّذي يَخْرُجُ منه، وهو فَعِيلٌ، بمعنى: مَفْعُولٌ، يُضْرَبُ بِهِ المَثَلُ في القِلَّةِ والنَّزَارَةِ، وأَصْلُ فَتَلَ: يَدُلُّ على لَيِّ شَيْءٍ[1]، ومَعْنَى ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾، أي: قَدْرَ ذلك من الصِّغر، والقلّة.

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

ألم تَعْلَمْ - أيها الرسول ﷺ - أَمْرَ أولئِكَ الذين يُثْنُونَ ثَناءَ تزكية على أنفسهم وأعمالهم، ويَصِفونَها بالطُّهْرِ والبُعْدِ عن السُّوءِ؟ بل اللهُ وَحْدَهُ هو الَّذي يُثْني على من شاء من عباده ويُزَكِّيهِمْ؛ لأنَّهُ عَالِمٌ بِخَفايا القُلوبِ، ولن يُنْقَصوا شَيْئًا من ثوابِ أَعْمَالِهِمْ؛ ولو كان قَدْرَ الخَيْطِ الَّذي في نواة التَّمْرِ؛ انْظُرْ - أيها الرسول ﷺ - كيف يَخْتَلِقونَ على اللهِ الكَذِبَ بهذا وأَمْثالِهِ، وكَفَى بهذا الاختلاقِ ذَنْبًا واضِحًا يَكْشِفُ عن خَبيثِ طَوِيَّتِهِمْ[2].

التَّعجيب من حال اليهود في مدحهم لأنفسهم مع كونهم من أكذب النَّاس وأكثرهم افتراءً على الله

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالة الاستفهام الدَّاخل على حرف النَّفي:

التَّزكية في هذا الموضع عِبارَةٌ عن مدح الإنسان نَفْسَهُ، ومنه تزكية المعدِّل للشَّاهِدِ، فقال تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ٣٢﴾ [النَّجم: 32]، وقد نُهِي عن التّزكية بما لم يؤتِ المزكِّي العلم به؛ لِأَنَّ التَّزكية مُتَعَلِّقَةٌ بِالتَّقْوى، والتَّقوى صِفَةٌ في الباطِنِ، وَلَا يَعْلَمُ حَقِيقَتَها إِلَّا اللهُ، فَلَا جَرَمَ لَا تَصْلُحُ التَّزْكِيَةُ إِلَّا مِنَ اللهِ؛ فَلِهَذَا قَالَ تَعَالى: ﴿بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ﴾[3].

في الاستفهام تقريرٌ للرُّؤْيَةِ والتَّعَجُّبُ مِنْ هذا الخُلُقِ، والتَّنْفيرُ منه

(1) ابْنُ عَبّاد، المُحيطُ في اللُّغَة، والرَّاغِب، المُفْرَدات، والسَّمين، عُمْدَةُ الحُفَّاظ، وابْنُ فارِس، مَقاييسُ اللُّغَة: (فتل)، وابْنُ قُتَيْبَة، غَريبُ القُرْآن، ص: 259، وابْنُ الهائِم، التِّبْيان، ص: 140.

(2) لَجْنَةٌ مِنْ عُلَماءِ الأَزْهَر، المُنْتَخَبُ في تَفْسِيرِ القُرآنِ الكَريم، ص: 117، ونُخْبَةٌ مِنْ أَساتِذَةِ التَّفْسير، التَّفْسيرُ المُيَسَّر، ص: 86، وجَماعَةٌ مِنْ عُلَماءِ التَّفْسير، المُخْتَصَرُ في تَفْسِيرِ القُرْآنِ الكَريم، ص: 86.

(3) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 10/100.

وقَدْ دَخَلَ (أَهْلُ الكتاب) في زمرة مَنْ يُزَكُّونَ أَنفسهم دُخولًا مَنْطِقيًّا؛ لِمَا عُرِفَ عَنْهُمْ مِنْ تَأَصُّلِ هَذِهِ الخَصْلَةِ الذَّميمَةِ فِيهِمْ، ثُمَّ يَنْسَحِبُ الحُكْمُ على كلِّ مَنْ حَذَا حَذْوَهُمْ، وقدِ امْتَزَجَتْ فيه معانٍ بلاغيَّةٌ كَثيرةٌ، مِنْ أَهَمِّهَا: التَّقْريرُ للرُّؤْيَةِ والتَّعَجُّبُ من خبرها والتَّنْفيرُ مِنْ هذا الخُلُقِ، وهذا مِنْ قَبيلِ الافْتِراءِ، فَهُوَ - أيضًا - مُقَرِّرٌ لِما قَبْلَهُ؛ ولذا لَمْ يُعْطَفْ[1].

مديدُ مخازي أهل الكتاب جَعَلَهُم أَحِقَّاءُ بِأَنْ يَكُونوا عِبْرَةً لِمَنْ يَعْتَبِرْ

ومن معاني الاسْتِفهام هنا: التَّقرير المُوصِلُ إلى التَّعَجُّبِ؛ حَيْثُ دَخَلَ حرفُ الاستفهام على النَّفي (لَمْ)، وبهذا تكون الإجابة بالإثبات في هذا المَقَام، أي: بَلَى رَأَيْتُ، والخطابُ لكلِّ من تتأتَّى منه الرُّؤيَةُ من المؤمنين[2]. وغرضُهُ مع التَّقرير: التَّعجُّبُ من حال أهل الكتاب الَّتي بلغت درجة كبيرة من الشَّناعة[3]، فما هذا التَّكرار إلَّا لِأَنَّ أهل الكتاب اُشْتُهِرُوا بِهذِهِ المَخازي، فَصارَت حِكَاياتٍ تُروى عَنْهُمْ، وهُمْ أَحِقَّاءُ بِأَنْ يَكُونوا عِبْرَةً لِمَنْ يَعْتَبِرْ.

سِرُّ الإضراب بعد الاستفهام:

إبطال تزكيتهم لأنفسهم، وإثبات التَّزكية لله وَحْدَهُ وتأكيدها

كانت الحاجة في قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمۚ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ﴾، إلى إلغاء زَعْمِهِم الباطل بحرف الإضراب الابتدائيِّ،[4] والجملة عَطْفٌ على مُقَدَّر يَنْساقُ إليه الكلام، كأنَّه قيل: هم لا يزكُّونها في الحقيقة، بل اللّه يُزكِّي من يشاء تزكِيَتَهُ مِنْ يَسْتَحِقُّ من عبادِهِ المؤمنين؛ إذْ هُوَ العَليمُ الخبير[5]، وهي جملة خبريَّة تحمل أقوى المُؤكِّدات مع اسميَّتها ووقوع المبتدأ اسم الجلالة، والإخبار عنها بجملة فعليَّة، فِعْلُها يُفيد الاستمرار؛ لذا

(1) القونويّ، حاشيةُ القونويِّ على البَيْضاويّ: 7/192.
(2) أَبو السُّعود، إرْشادُ العَقْلِ السَّليم: 1/526.
(3) تفسير أبي السُّعود، إرْشادُ العَقْلِ السَّليم: 1/526، وابنُ عاشور، التَّحْريرُ والتَّنْوير: 5/79.
(4) صافي، الجدول: 4/358.
(5) الآلوسّي، روحُ المعاني: 5/54.

كان الفَصْلُ لكمال الانقطاع الشَّكْلِيِّ رغم قوَّة الاتِّصال المعنويِّ؛ إذ نسبوا تزكيتهم أنفسهم إليه، بزعمهم أنَّهم شعب الله المختار، وأبناء الله وأحبَّاؤه، وكلُّ ذلك سوء فهم محض، وكذب لا يستحقُّ غير النَّقض والرَّفض.

فَفِي تصدير الجملةِ بـ﴿بَلِ﴾ تصريحٌ بإبطالِ تزكيتهم، وأنَّ الَّذين زكَّوْا أنفسَهم لا حظَّ لهم في تزكيةِ الله، وأنَّهم ليسوا ممَّن يشاءُ الله تزكيتَه، ولو لم يذكر ﴿بَلِ﴾، فقيل: (والله يُزكِّي مَن يَشاء)؛ لكان لهم مطمَعٌ أنْ يكونوا ممَّن زكَّاه الله تعالى[1]، وهذا الختم والتَّعقيب يقتضي الغَضَّ من المُزَكِّي لنفسه بِلِسانِهِ، ولوْ لمْ يكن من ذنبه ولا عيْبه غير اتِّباعه سنن اليهود في تزكية النَّفس؛ لكان بحسْبه من الشَّرِّ ذلك، فإنَّه لا شرَّ وراءه، ولا سوء فوقه، والإعلام بأنَّ الزَّاكِي المُزَكَّى من حَسُنَتْ أفعاله، وزكَّاه الله ﷻ فلا عبرة بتزكية الإنسان نَفْسَهُ، وإنَّما العِبْرَةُ بتزكية الله له[2].

فائدة الكناية عن الموصوف[3]:

في الكناية بيانٌ لكمال عدل الله مع عباده، وتَنْزِيهُهُ عن أَدْنى ظُلْمٍ

جُملة ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ عَطْفٌ على جملة حُذِفَتْ تَعويلًا على دلالة الحال عليها، وإيذانًا بأنَّها غَنِيَّةٌ عن الذِّكر، أَيْ: يُعاقَبُونَ بِتِلْكَ الفِعْلَةِ الشَّنيعة، ولا يُظْلَمُونَ في ذلك العقاب أَدْنى ظُلْمٍ وأَصْغَرَهُ، وهو المُراد بالفَتيلِ[4].

وسُمِّيَ ما يكون في شقِّ النَّواةِ فتيلًا؛ لِكَوْنِهِ على هيئة الحَبْلِ المفتول، أو ما يفتله أحدهم بين إصبعيه من وسخ، ويُضرب به المثل في الشَّيءِ الحقير[5]، وذُكِرَ هُنَا كنايةً عن الشَّيء الحقير أو الصَّغير.

(1) ابْنُ عاشور، التَّحْريرُ والتَّنْوير: 5/84.

(2) القُرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 5/246، وأبو حيّان، البحر المحيط: 3/281.

(3) وفيها تُذْكَرُ الصِّفة والنِّسْبَة، ولا يُذْكر الموصوف، بل يتوصَّل إليه بالصِّفة المذكورة، لأنَّها من خَصائِصِه، ينظر: القزوينيّ، الإيضاح، ص: 289.

(4) الآلوسّي، روحُ المعاني: 5/54.

(5) القُرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 5/248، والرّاغِب، المُفْرَدات، والسَّمين، عُمْدَةُ الحُفّاظ: (فتل).

في لفظ الفتيل وجه استعارة للقلّة التي لا ينتفع بها

ويكون التَّعبير بلَفْظِ الفتيل - أيضًا - من قبيل الاستعارة، فَقَد شَاعَ اسْتِعَارَتُهُ لِلْقِلَّةِ؛ إِذْ هُوَ لَا يُنْتَفَعُ بِهِ، وَلَا لَهُ مَرْأًى وَاضِحٌ، وَانْتَصَبَ فَتِيلًا عَلَى النِّيَابَةِ عَنِ الْمَفْعُولِ الْمُطْلَقِ؛ لِأَنَّهُ عَلَى مَعْنَى التَّشْبِيهِ؛ إِذِ التَّقْدِيرُ: ظُلْمًا كَالْفَتِيلِ، أَيْ: بِقَدْرِهِ، فَحُذِفَتْ أَدَاةُ التَّشْبِيهِ، وَهُوَ كَقَوْلِهِ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖۖ﴾ [النِّساء: 40][1].

وهذا كُلُّه يَرْجِعُ إلى الكناية عن تحقير الشَّيءِ وتصغيره، وفيه دلالة حِسِّيَّةٌ على أنَّ الله ﷻ لا يَظْلِمُ النَّاس فَتيلًا، ولا شيئًا دُونَهُ في الصِّغر، فكيف بما فَوْقَهُ[2]؟

ومِثْلُ هذا في تصغير الشَّيء قوله تعالى: ﴿وَلَا يُظۡلَمُونَ نَقِيرٗا ١٢٤﴾ [النِّساء: 124]، والنَّقير: هو النُّقطة الَّتي في ظهر النَّواةِ، وأيضًا القِطْميرُ المذكور في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمۡلِكُونَ مِن قِطۡمِيرٍ ١٣﴾ [فاطر: 13]، وهو القِشْرَةُ الرَّقيقة على النَّواة، وهذه الأشياء كُلُّها تُضْرَبُ أمثالًا للشَّيءِ التَّافِهِ الحَقيرِ[3].

سِرُّ الفصل بَيْنَ الجُمَلِ:

تأكيد التَّعَجُّبِ من حال اليهود في مَدْحِهِمْ أَنْفُسَهُمْ، والِاستنكارُ لادِّعائهم الباطل في ذلك

في قَوْلِهِ تعالى: ﴿ٱنظُرۡ كَيۡفَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۖ﴾ تأكيدٌ مَعْنَويٌّ للتَّعجيبِ الدَّالِّ عليه الكلام في الآية السَّابقة[4]، وهو من قَبيلِ كَمالِ الاتِّصالِ[5]، فالآيتان تَحْمِلانِ غَرضًا بيانيًّا واحدًا، هو شِدّة التَّعَجُّبِ من حال اليهود الَّذين قالوا: ﴿نَحۡنُ أَبۡنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥۚ﴾ [المائدة: 18]، وقالوا كذلك: ﴿لَن يَدۡخُلَ ٱلۡجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا﴾ [البقرة: 111]، ونحو ذلك، فالآية الثَّانية تَحْمِلُ مَعْنى الأُولى - من حيثُ إنَّها تَأكيدٌ على التَّعَجُّبِ والِاستنكار لادِّعائهم الباطل، وفيها تعجيب للنَّبيِّ ﷺ

(1) ابْنُ عاشور، التَّحْريرُ والتَّنْوير: 5/84 - 85.
(2) ابْنُ عَطيَّة، المُحَرَّرُ الوَجيز: 2/66.
(3) الرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 10/102.
(4) الآلوسّي، روحُ المعاني: 5/55.
(5) ويعْنونَ بهذا الاصْطِلاحِ أَنْ تكون الثَّانية مُتَّصِلَةً بالأولى اتِّصالاً كامِلاً تامًّا في المعنى، وتنْدَرِجُ تَحْتَهُ صوَرٌ مُتَعدِّدة، ينظر: عباس، البلاغة فنونها وأفنانها، ص: 405.

من فريتهم على الله، وهِيَ تزكيتُهم أنفسَهم وافتراؤهم على الله[1] - ففي الآيَتَيْنِ تَحذيرٌ من إعجاب المَرْءِ بِنَفْسِهِ وبِعَمَلِهِ.

دلالة الأمر بعد الإخبار عن سُوءِ مقالهم:

تَشْديدُ التَّشْنيع على اليهود، وتأكيدُ التَّعجيب من حالهم ومقالهم

الأَمْرُ في ﴿ٱنظُرْ﴾ موجّهٌ إلى رسُول الله ﷺ وعلى كلِّ واقف على الآية الكريمة من بعده، فجعل افتراءَهم الكَذِبَ؛ لِشِدَّةِ تَحَقُّقِ وُقوعِهِ، كَأَنَّهُ أَمْرٌ مَرئيٌّ يَنْظُره النَّاس بأعينهم[2]، والآيةُ تعقيب على ما قَبْلَهَا، وتَعَجُّبٌ من الَّذين يُزَكُّون أَنْفُسَهُمْ، والله سُبْحانه يُزكِّي من يشاء بِعِلْمِهِ وعَدْلِهِ؛ واليهود أوَّل المَقْصُودينَ بهذا التَّعَجُّبِ بدليل حالهم على مَرِّ الزَّمان، فَتَرْجَمَ هذا الفعلُ ﴿ٱنظُرْ﴾ تَعَجُّبًا إِثْرَ تَعَجُّبٍ على ما ارتكبوه، والمرادُ منه بيان شناعةِ تلك الحالِ وكَمَالِ فَظاعَتِها، والجملةُ تَعْجيبٌ وتَنْبيهٌ على أَنَّ ما ارتكبوه مُتَضَمِّنٌ لأمرين عظيمين مُوجِبَيْنِ لِلتَّعَجُّبِ: ادِّعائهم الاتِّصافَ بما هُمْ مُتَّصفون بِنَقيضِهِ، وافترائهم على الله سُبْحانه، فإنَّ ادِّعاءَهم الزَّكاةَ عنده تعالى مُتَضمِّنٌ لادِّعائهم قبولَ اللهِ وارتضاءَه إيَّاهم، تعالى عن ذلك عُلُوًّا كبيرًا؛ ولِكَوْنِ هذا أشنعَ من الأوَّل جُرمًا وأعظمَ قُبْحًا؛ لما فيه من نِسْبَتِهِ ﷻ إلى ما يَسْتَحيلُ عليه بالكُلِّيَّةِ من قَبول الكُفْرِ وارتضائِه لعباده، ومغفرةِ كُفْرِ الكافرِ وسائرِ معاصيه، فوُجِّه النظرُ إلى كَيفيَّته؛ تَشْديدًا للتَّشْنيع، وتأكيدًا للتَّعجيب[3].

نكتة التعبير عن الافتراء بالمضارع:

استحقاق اليهود التَّهديد والوعيد هو لاستمرارهم على الافتراء

التَّصريحُ بالكذب - مع أنَّ الافتراءَ لا يكون إلَّا كَذِبًا - للمبالغةِ في تقبيح حالِهم[4].واستمرارهم عليه، والَّذي يَدُلُّ عليه التَّعبيرُ بالمضارع في قوله: ﴿يَفْتَرُونَ﴾، حيث أقام المضارع مُقامَ الماضي؛ إعلامًا أنَّهم

(1) الرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 10/102.
(2) ابْنُ عاشور، التَّحريرُ والتَّنْوير: 4/154.
(3) أبو السُّعود، إرْشادُ العَقْلِ السَّليم: 1/534، والآلوسّي، روحُ المعاني: 5/55.
(4) أبو السُّعود، إرْشادُ العَقْلِ السَّليم: 1/534، والآلوسّي، روحُ المعاني: 5/55.

مُسْتَمرُّون على ذلك[1]؛ لذا استحقُّوا التَّهديد والوعيد الَّذي تَضَمَّنَهُ تذييل الآية: ﴿وَكَفَىٰ بِهِۦٓ إِثۡمٗا مُّبِينًا﴾؛ تَأْكيدًا على سُوءِ المَصِير.

دلالة الإخبار بتركيب ﴿وَكَفَىٰ بِهِۦٓ﴾:

قوله تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِهِۦٓ إِثۡمٗا مُّبِينًا﴾ نهاية في بلوغه غاية الإثم، كما يُؤْذِنُ بِهِ تَرْكيبُ: كَفى بِهِ كذا[2]، وهو خَبَرٌ، في مُضَمَّنِهِ تَعَجُّبٌ وتَعْجيبٌ من الأمر، ولذلك دَخَلَتِ الباء؛ لِتَدُلَّ على معنى الأمر بالتَّعجُّب، وأن يُكْتَفى لهم بهذا الكَذِبِ إِثْمًا، ولا يُطْلَبَ لهم غَيْرُهُ؛ إذ ليس وراءه، وهو موبق ومهلك[3].

بلغ اليهودُ الغايةَ في الذَّمِّ لافترائهم واختلاقهم الكَذِبَ

وإنَّما يُقالُ: (كَفَى بِهِ) في التَّعظيم على جِهَةِ المَدْحِ أو على جهة الذَّمِّ، أَمَّا في المدح؛ فَكَقَوْلِهِ: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيّٗا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرٗا﴾، وأمَّا في الذَّمِّ؛ فكما في هذا الموضع[4].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الافتراء والكذب:

الكذب عَدَمُ مُطابقة الخبر للواقع[5]، والافتراء: افتعالٌ من الفَرْيِ، وهو أقبح الكَذِبِ وأعظمه، ويكون في القول والفعل، فيُقَال لمن عَمِلَ عملًا، فَبَالَغ فِيهِ: إنَّه لَيَفْري الفَرْيَ، يَعْنِي: ليقطع الْأَمر العَجيبَ[6]، قَال جَلَّ شَأْنُهُ: ﴿وَلَا يَأۡتِينَ بِبُهۡتَٰنٖ يَفۡتَرِينَهُۥ بَيۡنَ أَيۡدِيهِنَّ وَأَرۡجُلِهِنَّ﴾ [المُمْتَحِنَة: 13]، وقوله: ﴿قَالُواْ يَٰمَرۡيَمُ لَقَدۡ جِئۡتِ شَيۡـٔٗا فَرِيّٗا ٢٧﴾ [مريم: 27] قيل: معناه: عظيمًا، وقيل: عجيبًا، ووقع الافتراء في القرآن، والمُراد به: الكذب، نحو: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۖ﴾ [المائدة: 103]، والشِّرْكُ، نحو: ﴿وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ إِثۡمًا

الافتراء أخصُّ من الكَذِب؛ وهو أقبحُ الكَذِبِ وأَعْظَمُهُ

(1) أَبو حَيَّان، البَحْرُ المُحيط: 3/682.
(2) ابْنُ عاشور، التَّحْريرُ والتَّنْوير: 4/154.
(3) ابْنُ عَطيَّة، المُحَرَّرُ الوَجيز: 2/66.
(4) الرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 10/103.
(5) العَسْكريّ، الفروق اللُّغويَّة، ص: 449.
(6) السجستانّي، غَريبُ القُرْآن، ص: 103.

عَظِيمًا﴾، والشَّيء العَظيم، كما في الآية: ﴿قَالُواْ يَٰمَرۡيَمُ لَقَدۡ جِئۡتِ شَيۡـًٔا فَرِيّٗا ٢٧﴾ [مريم: 27]، وكُلُّ ذلك بِحَسَبِ المقامات الواردة في الكتاب[1].

فالافتراء: أخصُّ من الكذب من باب الأَقوال؛ لأنَّ الافتراء كذب في حقِّ الآخر بما لا يَرْتَضيهِ، بخلافِ الكَذِبِ؛ فإنَّه قد يَكُونُ في حقِّ المتكلِّم نَفْسِهِ؛ ولذا يُقَالُ لمن قال: فَعَلْتُ كَذا، ولم أفعل كذَا، مع عدم صدقه في ذلك: هو كَاذِبٌ، ولا يُقالُ: هو مُفْتَرٍ، وكذا من مَدَحَ أَحَدًا بما ليس فيه، يقال: إِنَّهُ كاذب في وصفه، ولا يُقال: هو مفترٍ؛ لأنَّ ذلك ممَّا يرتضيه المقول فيه غالبًا. وقد ذكر اللّه قول الكفَّارِ: ﴿ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ [الأنعام: 93]؛ لِزَعْمِهِمْ أنَّه أتاهم بما لا يرتضيه اللّه سُبْحانَهُ مع نِسْبَتِهِ إِلَيْهِ[2]؛ ومن هنا فالافتراء اختلاقٌ للكذب؛ لذا يُطْلِقُ الفُقهاءُ الفِرْيَةَ والافتراء على القَذْفِ: وهو رَمْيُ المُحْصَنِ بالزِّنى من غير دليلٍ، ومنه قيل: افترى فُلانٌ على فلان؛ إذا قَذَفَهُ بما ليس فيه، أو قذف أَبَوَيْهِ[3].

وأيضًا قد يَحْسُنُ الكذب في بعض الوُجوهِ: كالكذب في الحرب، وإصلاح ذات البَيْنِ، وعدَةِ الزَّوجة، كما وردت فيه الرِّوايات، بخلاف الافتراء[4].

(1) الرَّاغِب، المُفْرَدات، والسَّمين، عُمْدَةُ الحُفّاظ، والزَّبيديّ، تاجُ العَروس: (فرى).
(2) العَسْكريّ، الفروق اللُّغويَّة، ص: 450.
(3) الرّاغِب، المُفْرَدات، وابْنُ قُتَيْبَة، غَريبُ القُرْآن، ص: 31.
(4) العَسْكريّ، الفروق اللُّغويَّة، ص: 450.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ سَبِيلًا ﴿٥١﴾﴾ [النِّساء: 51]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

بيان نوعٍ من أنواعِ مَكْرِ اليهود في مدح المشركين، بعد التَّعجيب من مَدْحِهِمْ لأَنْفُسِهِمْ

لَمَّا عَجَّبَ اللّٰه تعالى من مَدْحِ اليَهودِ لأَنْفُسِهِم وافترائهم على اللّٰه الكذب؛ حَكَى عنهم نوعًا آخَرَ من المَكْرِ، وهو أنَّهم كانوا يُفَضِّلُونَ عَبَدَةَ الأصنام على المؤمنين، ولا شَكَّ أنَّهم كانوا عَالِمِينَ بأنَّ ذلك باطل، فكان إقدامهم على هذا القَوْلِ لِمَحْضِ العناد والتَّعَصُّبِ، فَأُعيدَ التَّعْجيبُ من اليهود الَّذين أُوتوا نَصيبًا من الكتاب، بما هُوَ أعجب من حالهم الَّتي مَرّ ذِكْرُها، فَلَمَّا عَجَّبَ من كذبِهِمْ؛ دلَّ عليه بقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿بِٱلْجِبْتِ﴾: الجِبتُ يُفَسَّرُ بالصَّنم والكاهن والسَّاحر، وأَصْلُ الجِبْتِ: الجِبْسُ، وهو الذي لا خَيْرَ فيه، فأُبْدِلَتِ التَّاء من السِّين، وهذا لَيْسَ من مَحْضِ العَربيَّة، لاجتماع الجيم والتَّاء في كلمةٍ واحدة، وهو كُلُّ ما عُبد من دون اللّٰه، فالجِبت: كَلِمَةٌ تَقَعُ على الصَّنَم والكاهن والسَّاحِرِ، والذي لا خير فيه، وكلُّ ما عُبِدَ من دُونِ اللّٰه تَعالى[2].

2) ﴿وَٱلطَّٰغُوتِ﴾: كُلُّ مَعْبودٍ مِنْ حَجَرٍ أو صُورَةٍ أو شيطان، يُقالُ: طَغَيْتَ طُغْيانًا، وأَصْلُ الطُّغْيانِ: مُجَاوَزَةُ الْحَدِّ في الْعِصْيَانِ، والطَّاغوت من الْإِنْس وَالْجِنِّ: شَياطِينُهم، وكلُّ رأْس ضَلالٍ صارِفٍ

(1) الرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 10/103، والبِقاعيّ، نَظْمُ الدُّرَر: 2/267، وابْنُ عاشور، التَّحريرُ والتَّنْوير: 4/155.
(2) الخليل، العَينْ: (باب الجيم والتاء والباء)، والرَّاغِب، المُفْرَدات، والسَّمين، وعُمْدَةُ الحُفَّاظ، وابْنُ فارِس، مَقاييسُ اللُّغَة، وتاج العروس، والمعجم الاشتقاقي: (جبت).

عَن طريقِ الخيْرِ، وجُمَّاع مَعْنَى الطَّاغوت: أنَّهُ كُلُّ مَا تَجَاوَزَ بِهِ الْعَبْدُ حَدَّهُ مِنْ مَعْبُودٍ أَوْ مَتْبُوعٍ أَوْ مُطَاعٍ[1].

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

التَّعجيب من حال اليهود المادحين لأهل الشِّرك والضلال الذَّامِّين لأهل التَّوحيد والحقِّ

المعنى: ألم تَعْلَمْ - أيها الرسول ﷺ - وتَتَعَجَّبْ من حال اليهود الذين آتاهُمُ اللّه حَظًّا من عِلْمِ الكتاب، يُصَدِّقون بكلِّ ما يُعبدُ من دون اللّهِ من الأَصْنام وشَياطِينِ الإنس والجنِّ، ويَقُولون مُصانَعَةً لِلْمُشْرِكِينَ: إنَّهُمْ أَعْدَلُ وأقوم طَريقًا من أولئك الَّذين آمنوا[2].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

سِرُّ المشاكلة في الآية:

التَّأكيدُ القَوِيُّ على تَأَصُّلِ الكُفْرِ في قُلوبِهِمْ

في قَوْلِهِ تعالى: ﴿يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ﴾ مشاكلةٌ[3] لقوله تعالى: ﴿أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾؛ لأنَّ إيتاءهم ذلك يَدُلُّ على إيمانهم باللّه، ولَكِنَّ إيمانَهُمْ بِالجِبْتِ والطَّاغوت دلَّ على كُفْرِهِمْ باللّه ﷻ، فكانت المُشاكلةُ هنا تَقْديريَّةً؛ لأنَّ الكلمة المُسْتَعْمَلَةَ شاكلَتْ نَقيضَ الكلمة الأولى، وفي وصفهم بالإيمان ﴿بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ﴾ تَأكيدٌ قَوِيٌّ على تَأَصُّلِ الكُفْرِ في قُلوبِهِمْ[4].

ومعنى الإيمانِ بِهِمَا: إمَّا التَّصديق بأنَّهما آلهة، وإشْراكُهمَا بالعِبادَةِ مع اللّه تعالى، وإمَّا طاعَتُهُمَا وموافقتهما على ما هُمَا عليه من الباطل، وإمَّا القَدْرُ المُشْتَرَكُ بَيْنَ المعنيين كالتَّعْظيم مَثَلًا،

(1) الرَّاغِب، المُفْرَدات، والسَّمين، عُمْدَةُ الحُفَّاظ، وتاج العروس: (طغو)، وابْنُ فارِس، مَقاييسُ اللُّغَة: (طغى)، وابْنُ قُتَيْبَة، غَريبُ القُرْآن، ص: 128، والسجستانيّ، غَريبُ القُرْآن، ص: 316، وابن قيِّم الجوزيَّة، إعلام الموقعين: 1/40.

(2) لَجْنَةٌ مِنْ عُلَماءِ الأَزْهَر، المُنْتَخَبُ في تَفْسيرِ القُرآنِ الكَريم، ص: 117، ونُخْبَةٌ مِنْ أَساتِذَةِ التَّفْسير، التَّفْسيرُ المُيَسَّر، ص: 86، وجَماعَةٌ مِنْ عُلَماءِ التَّفْسير، المُخْتَصَرُ في تَفْسيرِ القُرْآنِ الكَريم، ص: 86.

(3) المُشاكلة: هي أن يُذْكَرَ الشيَّءُ بلفظ غَيْرِه، لوقوعه في صحبته تَحقيقًا أو تَقْديرًا، فَيَعْمَدُ المتكلِّم إلى معنى غير موجود، فَيُقَدِّرُهُ موجودًا من جنس معنًى قابَلَهُ به مقابلة الجَزاءِ أو العِوَض، ولو تَقْديرًا، مِثالُ اللَّفظيَّةِ قوله تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ﴾ [الشورى: 40]، إذِ الجَزاءُ على السَّيِّئَةِ لَيْس بِسَيِّئَةٍ في الحقيقة، لكنَّه سُمِّي: سَيِّئَةً لِلْمُشاكَلَةِ اللَّفْظيَّة، ومِثالُ التَّقديريَّةِ قوله تَعالى: ﴿صِبۡغَةَ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: 138]، والمعنى: "تَطْهيرُ الله"، لأنَّ الإيمانَ يُطَهِّرُ النُّفوس، ينظر: الصَّعيديّ، بغْيَةُ الإيضاح: 4/588، والهاشميّ، جواهر البلاغة، ص: 309، وابن عاشور، موجَزُ البلاغة، ص: 41.

(4) خَديجة بناني، سورَةُ النِّساءِ دِراسَةٌ بَلاغيَّةٌ تَحليليَّة: 2/506.

والمُتَبادِرُ المَعْنى الأوَّلُ، أي: إنَّهمْ يُصَدِّقُونَ بأُلوهِيَّةِ هَذَيْنِ الباطلين، ويُشْرِكُونَهُمَا في العبادة مَعَ الإلَهِ الحَقِّ، ويَسْجُدُونَ لَهُمَا[1].

علّة التذكير بإيتاء نصيب من الكتاب:

في التذكير تقبيح للفعل، وتعظيم للذنب

ذكرهم تعالى بإيتاء نصيب من الكتاب تقبيحًا لفعلهم، فمن جحد الحق مع معرفته به فهو أقبح فعلًا، وأعظم مأثمًا، وأكبر ذنبًا[2].

دلالة الاستئناف بعد وصفهم بإيتاء نصيب من الكتاب:

في الاستئناف تعجّبٌ مِنْ حَالِهم الثَّانية المُنافية لِلازِمِ الحال الأُوْلى

قوله: ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ استئنافٌ مُبينٌ لمادّة التعجّب، "وكأنَّه تعجُّبٌ مِنْ حَالِهم؛ إذْ كَانَ يَنْبَغِي لِمَنْ أوتِيَ نَصيبًا من الكتاب؛ ألَّا يَفْعَلَ شَيْئًا مِمَّا ذُكِرَ، فَيكُونُ جوابًا لِسُؤالٍ مُقَدَّرٍ، كأنَّهُ قيلَ: ألا تَعْجَبُ مِنْ حَالِ الذِين أوتُوا نَصِيبًا من الكتاب؟ فقيل: وما حالُهم؟ فقالَ: يؤمِنُون، ويقولونَ، وهذان منافيان لحالهم"[3].

توجيه المتشابه اللفظي:

تفريق الخطاب بمقتضى الكتاب الذي نُزّل على رسولهم، أو ذكر حقيقة أمرهم

عبّر هنا بأنهم أوتوا نصيبا من الكتاب، بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ وخاطبهم في الآية (47) بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ ءَامِنُواْ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم﴾؛ "وذلك لأنهم أنزلت عليهم كتب الرسالة الأولى لنبيهم، فبمقتضاها يدعوهم إلى الإيمان، ولذا عبّر بالكتاب كله لَا ببعضه، فهم في هذا المقام يخاطبون بمقتضى الكتاب الذي نُزّل على رسولهم. أما هنا فيذكر حقيقة أمرهم، وهو أنهم نسوا حظًا مما ذُكِّرُوا به. ومن جهة أخرى فإن نيلهم أقل قدر من علم الكتاب يتنافى مع إيمانهم بأتفه الأوهام، وإيمانهم بالظلم والطغيان، واعتبارهما سبيلًا للعيش في الحياة، فهم ظالمون يرضون بالظلم يقع عليهم، ويتنافى علم

(1) ابن جرير، جامع البيان،: 8/465، وأبو حيّان، البحر المحيط: 3/283، والآلوسّي، روحُ المعاني: 5/56.
(2) الراغب، تفسير الراغب: 3/1273.
(3) ابْنُ عادِل، اللُّبابُ في عُلومِ الكِتاب: 6/421.

الكتاب مع ممالأتهم لعبدة الأوثان على أهل التوحيد، فيقولون في المشركين هؤلاء أهدى طريقًا من المؤمنين"[1].

دلالة اللّام في قوله: ﴿لِلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾:

بيان قولهم ومدحهم لمن شابههم في الكفر والجحود

﴿وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾، أي: لِأَجْلِهِمْ وفي حَقِّهِمْ، فيقولون في حقِّ الكفَّار: كيت وكيت[2]، فاللَّامُ لَيْسَتْ صِلَةَ القَوْلِ، وإلَّا لَقيلَ: أَنْتُمْ، بَدَلَ قوله سُبْحانَهُ: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾، أي: الكُفَّار من أَهْلِ مَكَّةَ[3]. واللَّام معناها: (عن)، لكنَّها - لما تشِي به من معنى: المصانعة في مواجهة المعنيِّين بالتّفضيل عندهم، وهم المشركون - كانت أطبق وأصدق وأوفق.

سرُّ مجيء الخبر بصيغَةِ أفعلِ التَّفضيل:

بيان شِدَّةِ حَسَدِ اليهود وكثرة استهزائهم بالمؤمنين

قوله تعالى: ﴿أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ سَبِيلًا﴾، أي: أَقْوَم دِيْنًا وأَرْشَدُ طريقًا، والظَّاهِرُ أَنَّهُمْ أطلقوا أفعل التَّفْضيل، ولم يَلْحَظُوا معنى التَّشْريكِ فيه، أَوْ قالوا ذَلِكَ على سبيلِ الاسْتِهزاءِ؛ لِكُفْرِهِمْ، وإيرادُ النَّبيِّ ﷺ وأتباعه بعنوان الإيمان هنا لَيْسَ من قِبَلِ القائلين، بَلْ من جِهَةِ اللّه تعالى؛ تَعْريفًا لهم بالوصف الجَميلِ، وتَخْطِئَةً لِمَنْ رَجَّحَ عَلَيْهِم أهل الكُفْرِ المَتّصِفينَ بَأَشْنَعِ القَبائِحِ[4]، وتنصيلاً لغيرهم من القائلين والمقول لهم من الإيمان بالكلِّيَّة؛ إذ هم ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ ومن ليس منهم؛ فليس بمؤمن قطعًا.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الطاغوت والجبت:

الطَّاغوت أعمُّ من الجِبت، وفيه زيادة معنى مُجاوزَةِ الحَدِّ

الجبت: يُطْلَقُ على الصَّنم والكاهن والسَّاحر، والَّذي لا خير فيه، وكلُّ ما عُبِدَ من دون اللّه تعالى، فصرف العبادة له من الإيمان

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 4/1713 - 1714.
(2) المُنْتَجَبُ الهَمَذاني، الكتابُ الفريد: 2/283.
(3) الآلوسّي، روحُ المعاني: 5/56.
(4) الآلوسّي، روحُ المعاني: 5/56.

بالجبت والطَّاغوت، فالمعنى الجامع لِلَفْظِ (الجِبت): هو الدَّجَلُ والأَوهام والخُرافات[1]، والهَوى الَّذي يَفيضُ من عقل مُظْلِم وَوِجْدانٍ سَقيم[2]، فالإيمان بالجِبت هو الإيمان بالباطل، والطَّاغوت هو المعبود بالباطل، وهو الشَّيطان، كما قال تعالى: ﴿۞أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُواْ ٱلشَّيْطَٰنَۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝٦٠ وَأَنِ ٱعْبُدُونِيۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ۝٦١﴾ [يس: 60 - 61].

والطَّاغوت: جاء في القرآن ثَمانيَ مرَّات؛ تَرْغيبًا في الكفر به والإيمان بالله، أو تَنْديدًا بالإيمان به، مِثْل: قوله تعالى: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾ [البقرة: 256]، أو تَنْديدًا بالقتال في سبيله، كقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ﴾ [النِّساء: 76]، أو على التَّحاكم إليه مرَّة أيضًا: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓاْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِۦ﴾ [النِّساء: 60]، فَهُوَ كُلُّ مَا تَجَاوَزَ بِهِ الْعَبْدُ حَدَّهُ مِنْ مَعْبُودٍ أَوْ مَتْبُوعٍ أَوْ مُطَاعٍ[3]، وهُوَ مَأْخُوذٌ مِنَ الطُّغْيَانِ، وَهُوَ الْإِسْرَافُ فِي الْمَعْصِيَةِ، فَكُلُّ مَنْ دَعَا إِلَى الْمَعَاصِي الْكِبَارِ؛ لَزِمَهُ هَذَا الِاسْمُ[4]، فالطَّاغوت من هذه الجِهَةِ أَعَمُّ في المعنى، وفيه معنى مُجاوزةٍ لِلْحَدِّ في اللَّفْظِ.

ولهذا جاء في النَّظم الكريم في الذِّكر الحكيم مرتَّبًا هذا التَّرتيب البديع التَّصاعدي المشعر بتوغُّلهم في الشَّرِّ، فالإيمان بالجِبت كان استدراجًا، ومقدِّمة لإيمانهم بالطَّاغوت، وهو مردُّ كلِّ الشُّرور الَّتي تصدر عنهم، وتندُّ منهم من كفر متمرِّد وعتوٍّ متجدِّد متصلِّد: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُۖ وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا ۝٥٢﴾ [النِّساء: 52].

(1) المَراغيّ، تَفْسيرُ المَراغيّ: 5/62.
(2) الخطيب، التفسير القرآنيُّ للقرآن: 3/814.
(3) ابن القيِّم، إعلام الموقِّعين: 1/40.
(4) الرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 10/101.

﴿أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُۖ وَمَن يَلۡعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا ٥٢﴾

[النّساء: 52]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

ربط افتراء اليَهودِ وتضليلهم للمشركين، باللّعنة الملازمة لهم إلى يوم الدّين

بعد أَنْ بَيَّنَ اللّه حال اليهود الّذين أُوتوا نصيبًا من الكتاب، وآمنوا بالجِبْتِ والطَّاغوت، ولامهم على تفضيلهم الكفر على الإيمان، وتغريرهم بأهل الشّرك والكفران، وقولهم كذبًا وزورًا، أنّ المشركين أهدى من المؤمنين سبيلا، ذكر بأنّهم هُمُ الملعونون المطرودون من رحمة اللّه، والمُخْزَوْنَ بالبُعد عن جنابه، والنّأي عن عفوه وغفرانه، وأن من طالته لعنة اللّه حاضرًا ومصيرا، فلن تجد له نصيرا.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿لَعَنَهُمُ﴾: (لَعَنَ) اللَّامُ وَالْعَيْنُ وَالنُّونُ أَصْلٌ صَحِيحٌ يَدُلُّ عَلَى إِبْعَادٍ وَطَرْدٍ. وَلَعَنَ اللّه الشَّيْطَانَ: أَبْعَدَهُ عَنِ الْخَيْرِ وَالْجَنَّةِ، وَيُقَالُ لِلذِّئْبِ لَعِينٌ، واللَّعْنُ: الإبعادُ والطَّرْد مِنَ الخَيرِ، والمعنى هُنا: أَبعَدَهُمْ من رَحمَتِهِ[1]، وَالرَّجُلُ الطَّرِيدُ لَعِينٌ، والرّجل اللّعين لا يزال منتبذا عن النّاس، شبه الذّئب به. وكلّ من لعنه اللّه فقد أبعده عن رحمته، واستحقّ العذاب، فصار هالكا، وفيه يقول الشّاعر الشّمّاخ:

ذَعَرْتُ بِهِ الْقَطَا وَنَفَيْتُ عَنْهُ *** مَقَامَ الذِّئْبِ كَالرَّجُلِ اللَّعِينِ[2]

ومنه لفظ الحديث: (اتَّقُوا المَلَاعِنَ الثَّلَاثَ)، هي جمع ملعنة، وهي الفعلة التّي يلعن بها فاعلها، كأنّها مظنّة للعن، ومحلٌّ له، وهي أن يتغوّط الإنسان على قارعة الطّريق، أو ظلّ الشّجرة، أو

(1) الأنباريّ، الزّاهر: 2/82.

(2) الأَزْهَريّ، تَهذيبُ اللُّغَة، والسَّمين، عُمْدَةُ الحُفَّاظ، وابْنُ فارِس، مَقاييسُ اللُّغَة، وابْنُ مَنْظور، لِسانُ العَرَب: (لعن).

جانب النّهر، فإذا مرّ بها النّاس لعنواً فاعلها[1]، ومعقد المعنى أنّ "اللّعن: الطّرد والإبعاد، ومن أبعده اللّه لم تلحقه رحمته، وخلد في العذاب"[2].

2) ﴿نَصِيرًا﴾: النّصر: "هو المعاونة والتّأييد، بضدّ الخذلان، نصره اللّه ينصره نصرا ونصرة، فهو ناصر والمفعول منصور، والنّصير: فعيل من ناصر، مثل شهيد من شاهد"[3]، "واستنصره على عدوه، أي سأله أن ينصره عليه. وتناصروا: نصر بعضهم بعضا. ونصر الغيث الأرض، أي غاثها. ونصرت الأرض فهي منصورة، أي مطرت. وقال الشّاعر يخاطب خيلا:

إِذَا دَخَلَ الشَّهْرُ الْحَرَامُ فَجَاوِزِي*** بِلَادَ تَمِيمٍ وانْصُرِي أَرْضَ عَامِرِ[4]

والنّصير: فعيل بمعنى فاعل أو مفعول، لأنّ كلّ واحد من المتناصرين ناصر ومنصور[5]، وَنَصَرَ اللَّهُ الْمُسْلِمِينَ: آتَاهُمُ الظَّفَرَ عَلَى عَدُوِّهِمْ، يَنْصُرُهُمْ نَصْرًا[6].

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

بيان مصير اليَهودِ المضلّلين، واستحالة فرارهم من لعنة الله ربّ العالمين

الآية تؤكّد أنّ هذه الشّرذمة الماكرة، من اليهود الّذين زيّفواً الحقائق، وبدّلواً المفاهيم، وادّعواً أنّ دين أهل الشّرك الذّميم، أهدى من صراط أهل التّوحيد المستقيم، قد استحقّواً أن يطردهم اللّه فلا ينالون منه رحمة، وأن يسلبهم فلا يحظون منه بنصرٍ أو حماية، ونتيجة ذلك أنّه لمّا كَثُرَ فسادهم، وعمَّ ضلالهم، عاقبهم اللّه بطردهم من الرّحمات، ومَن يطرده اللّه من جنابه، ويحرمه

(1) ابن الأثير، النّهاية: (لعن).
(2) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (لعن).
(3) ابن دريد: جمهرة اللّغة: (رصن).
(4) الجوهريّ: الصحاح: (نصر).
(5) ابن الأثير: النّهاية: (نصر).
(6) ابن فارس: مقاييس اللّغة: (نصر).

من عوارف إنعامه، وألطاف منّته وإكرامه، فلن تجد له من ينصره، ويدفع عنه سوء العذاب[1].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

سِرُّ الاستئناف باسم الإشارة في قوله تعالى: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُۖ﴾:

تجليّة الإشارة لضلال اليهود، واستحقاقهم اللعنة

الجملةُ مستأنَفةٌ لبيانِ حالِهم، وإظهارِ مآلِهم، وذلك بقوله: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ﴾، وهو اسم إشارة، دالٌّ على البعد، وقد ورد في السّياق، لإبراز إيغال اليهود في الزّيغ، والإشعارِ ببُعدِ منزلتِهم في الضَّلال والتّزييف[2]، فعقَّب التَّعجب السَّابق، من إيمانهم بالجبت والطّاغوت، وتشجيعهم أهل الكفر على ضلالهم، جاء السّياق بالإشارة إليهم، بقوله: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُۖ﴾، وقد كان موقع اسم الإشارة مفيدًا؛ في ربط ما سبق بما لحق، والتّأكيد على أنّ من بَلَغَ هذا المبلغ، في الضّلال والتّضليل، صار كالمُشاهَدِ المعلوم، فَناسب قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾، أَنْ يُشارَ إلى هذا الصّنف المقدّم لكي يُرى حالُهُ في ضلاله وزيغه، بقوله: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ﴾، ليُلفت النّظر إلى ما يتّسمون به، وعليه، فقد جاء اسْم الإشارة تَنْبيهًا للنّبيّ ﷺ وللمؤمنين، على أنَّ المُشارَ إليهم، جديرون بما سَيُذْكَرُ من الحُكْم باللّعن عليهم، لِأَجلِ ما تَقَدَّم من أَحْوالِهم[3]، وما سيؤولون إليه من سوء المصير.

أثر طرفي الإسناد في إبراز المعنى، وإيضاح الدّلالة:

الإيماءُ إلى الإخبار عن الخذلان، واستحقاق اللّعنة والهوان

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُۖ﴾؛ أي أَنَّ هَؤُلَاءِ هُمُ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ على الحقيقة، وقد كان ذِكرُ المُسنَدِ إليه لاختصاصه بالمُسنَدِ، ودلَّ على ذلك صيغة الجمع في اسم الإشارة ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ﴾، وفي الموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾، وفي الضَّمير الواقع مفعولًا به في ﴿لَعَنَهُمُ﴾،

(1) نخبة من أساتذة التّفسير، التّفسير الميسّر، ص: 87.
(2) أبو السُّعود، إرْشادُ العَقْلِ السَّليم: 2/189، والآلوسّي، روحُ المعاني: 3/55.
(3) ابنُ عاشور، التَّحريرُ والتَّنْوير: 5/87.

على أنَّ الكلام عن جماعة اليهود الذّاهبين إلى المشركين بحثًا عن النُّصرة[1]، قد استحقّوا بذلك أن يُجعلوا مثالًا لكلّ مُبعدٍ تطاله لعنة الله، ويَجُوزُ أَنْ يَكُونَ المُسلِمُونَ قَدْ عَلِمُوا أَنَّ اليَهُودَ مَلعُونُونَ، فالمَقصُودُ مِنَ الصِّلَةِ هُو مَا عُطِفَ عَلَيهَا بِقَولِهِ: ﴿وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا﴾، والمَوصُولُ على كِلَا الاحتِمَالَينِ فِيهِ إِيمَاءٌ إِلَى تَعلِيلِ الإِخبَارِ الضِّمنِيِّ عَنهُم، بِأَنَّهُم لَا نَصِيرَ لَهُم؛ لأَنَّهُمْ ملعونون من اللّه، والَّذِي يَلعَنُهُ اللّه لَا نَصِيرَ لَهُ[2].

دلالةُ الشَّرطِ وجوابه في قوله: ﴿وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا﴾:

سُوءِ حال اليهود الملعونين، وبيان أنْ لا نصرإلّا من ربّ العالمين

قوله تعالى ﴿وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا﴾، الواو استئنافية ومن شرطيّة، وفعل (يلعن) فعل الشّرط مجزوم، والفاء رابطة، والجملة المقترنة بالفاء في محلّ جزم جواب الشّرط[3]، و﴿وَمَن﴾: تحتملُ معنى الجمع والإفرادِ، ومع إفادتها معنى العُموم، كانت واسطةً في المعنى بَينَ الجمع السَّابق، وبَينَ الإفراد في جَعلِ الحُكْمِ قاعدةً عامَّة، تَنسَحِبُ على كلِّ من استحقَّ لعنةَ اللّه، كما أنَّ في هذا الشَّرطِ وجوابه إيماءً إلى وعدِ المؤمنين بأنّهم المنصورون؛ حيث كانوا بضدِّ هؤلاء، فهم الّذين قرّبهم اللّه تعالى، ومن يقرّبه اللّه تعالى فلن تجدَ له خاذلاً[4]، فِفِيهِ وَعدٌ لِلرَّسُولِ - ﷺ - بِالنُّصرَةِ، ولِلمُؤمِنِينَ بِالتَّقوِيَةِ، بِالضِّدِّ على الضِّدِّ، كَمَا قَالَ فِي الآيَاتِ المُتَقَدِّمَةِ: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرًا﴾[5].

(1) وإلى هذا ذهب جمهور المفسّرين: "وهذه قصّة أخرى من سيّئات اليهود التّي عملوها سابقا فيما بينهم يخبر الله تعالى رسوله بها، وهي أنّ حييّ بن أخطب، وكعب بن الأشرف، ذهبا إلى مكّة بعد واقعة أحد في سبعين رجلا من أصحابهم ليحالفوا قريشا على حرب رسول الله ﷺ الحلف الذي أخزاهم الله به وشتّت شملهم ... ونقضوا عهدهم معه، فقالت لهم قريش إنّا لا نأمن أن يكون هذا مكرا منكم، فإن أردتم أن تسجدوا لهذين الصّنمين فنختبر صدقكم فسجدوا" ينظر: العاني، بيان المعاني: 5/564.

(2) ابنُ عاشور، التَّحريرُ والتَّنْوير: 5/87.

(3) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 2/236.

(4) الآلوسّي، روحُ المعاني: 3/54.

(5) الرَّازي، مفاتيح الغيب: 10/102.

سِرُّ تَكرار فِعلِ اللَّعنِ واسم الجلالة، في قوله: ﴿لَعَنَهُمُ ٱللَّهُۖ وَمَن يَلۡعَنِ ٱللَّهُ﴾:

ثُبوتُ اللّعن لليهود، واستمراره في كلّ العهود

فقد جاء الفعل أوَّلًا بصيغة الماضي، في قوله تعالى: ﴿لَعَنَهُمُ﴾، ثُمَّ بصيغة المضارع في قوله ﴿يَلۡعَنِ﴾، فهَذَا اللَّعنُ بهذا الاعتبار، حَاضِرٌ في الدُّنيا، وباعتبار المستقبل، فإنّ المضارع، يناسب ما سوف تؤول إليه الدّنيا بقضّها وقضيضها، وما ينتظره المؤمن في الآخرة، وما في الآخِرَةِ أَعظَمُ، وهُوَ ﴿يَوۡمَ لَا تَمۡلِكُ نَفۡسٞ لِّنَفۡسٖ شَيۡـٔٗاۖ وَٱلۡأَمۡرُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ ١٩﴾ [الانفطار: 19]، وقد كرَّر السّياق التَّعبيرَ بالاسم الأعظم الفاعل؛ لأنَّ المَقامَ يَقتَضي ذكر اسم الجلالة الأعظم، إشعارًا بتأصّل الكفر، وتناهي الضّلال عن هدي الله، ممّا يعتبر أعظم المعاصي، وهو ما يقابل أشدّ السّخط، وتَناهي الغَضَبِ[1]، الّذي يفضي إلى اللّعنة، لأنّ الله لا يقبل أن يشرك به، ولا يرضى لعباده الكفر.

دلالة تقديم المفعولِ به في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَلۡعَنِ ٱللَّهُ﴾:

وقوع اللّعن من الله على الملعونين خسران وهوان

قوله: ﴿وَمَن﴾ الواو استئنافيّة، ولفظ (من) مفعول به مقدّم للفعل ﴿يَلۡعَنِ﴾، وهو فعل الشّرط مجزوم بالسّكون وحرّك بالكسر لالتقاء السّاكنين. ولفظ الجلالة ﴿ٱللَّهُ﴾ فاعل مرفوع على التّعظيم[2]، ولم يذكر المفعول به بعد الفعل ﴿يَلۡعَنِ﴾ لِسَبْقِ ذكره في سياق الآية بقصد الإيجاز؛ وتقديم المفعول الّذي وقع عليه اللّعن، دليل على شناعة وقوع اللّعن على من وقع عليه اللّعن، وفي لفظ ﴿وَمَن﴾ الّتي صُدّر بها الكلام، معنى العموم، وبتقديم المفعول به يمتنع وروده ضميرا متّصلا بالفعل، فلا يقال (ومن يلعنه الله)، ممّا يعطي لفظ الجلالة بروزًا بعد الفعل، يوحي بضخامة أَمر لَعنِهِ، لوقوعه من معظّم، فيكون ذلك أدعى لتجنّب مُسَبِّبات اللّعن، ناهيك عن أهميّة ذلك في الإيجاز الّذي تتَّسم به اللُّغةُ العربيَّةُ.

(1) الرّازي، مفاتيح الغيب: 10/102، والبِقاعيّ، نَظْمُ الدُّرَر: 5/301.
(2) الدّعاس: (وآخران)، إعراب القرآن الكريم: 1/201.

دلالةُ النَّفي بلنْ، في قوله: ﴿فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا﴾:

الحرمان الأبديّ من النَّصير، دلالة على سوء المصير

قوله ﴿فَلَن تَجِدَ﴾ لفظ (لنْ) هنا لتأكيد النّفي، ويقول الزّمخشريّ: "إنّ لن تفيد تأكيد النّفي أبدا"[1]، أي أنّهم لم ينصرهم اللّه، ولن يجدوا أبداً نصيرا من النّاس، تستمر نصرته، وإذا استطاعوا أن يستنصروا بأمثالهم في هذه الأيّام، فإنّ الخذلان وراءهم لا محالة في الدّنيا والآخرة، طال الزّمان أم قصر[2]، وتفيد ﴿فَلَن﴾ توجيه الخطابِ إلى كلِّ واحد يَصْلُحُ له، مع التَّعبير عن عَدَمِهِ بعدم الوِجدان المؤذِنِ بسبقِ الطَّلب، مُسندًا إلى المخاطب العامِّ من الدَّلالة على حرمانهم الأبديِّ، عن الظَّفر بما أملُّوا بالكليَّة ما لا يخفى[3]، والفاءُ هي الرّابطةُ للجواب المحذوف بالظّاهر، والتّقدير: ومن يلعن اللّهُ مطرودٌ من رحمتِه فلن تجدَ له نصيرًاعلى الإطلاق.

السِّر في مجيء صيغة المبالغة مُنَكَّرَةً، في قوله: ﴿نَصِيرًا﴾:

صيغة المبالغة تقوية لدلالة النَّفي وعُمُومِ معناه

لفظ ﴿نَصِيرًا﴾ صيغة مبالغة للتّأكيد، بعدم حصول النّصرة من اللّه ابتداء، كما يدلّ عليه مدلول السّياق، ومن كلّ ناصر مألوف في العادة، ودلالة صيغة المبالغة، تقويّة مفهوم النَّفي، وقد جاء قوله: ﴿نَصِيرًا﴾ نكرة للمُبالغة، ونفي احتمال وقوع المنفيّ، معَ ما يلحظ من وجود المبالغة في صيغتها أصالةً[4]؛ لأنَّ الحقَّ ﷻ ما دام قَد طَرَدَهُ،

---

(1) قال الشّنقيطيّ: "وبالجملة فقد اختلف أهل العربيّة، في إفادة لن تأبيد النّفي، حيث لم يصرف عنه صارف، وعدم إفادتها لذلك، فعلى القول: بأنّها تفيد التّأبيد فقوله ﷺ لأبي بردة: (ولن تجزئ عن أحد بعدك)، يدلّ على تأبيد نفي الإجزاء، كما ذكرنا وعلى عدم اقتضائها التّأبيد، فلا تقل عن الظّهور فيه، حتّى يصرف عنه صارف، وبذلك كلّه تعلم أنّ الجمع بين حديث أبي بردة، وحديث عقبة بن عامر، كالمتعذّر فيجب التّرجيح، وحديث أبي بردة: أرجح"، ينظر: الشّنقيطيّ، أضواء البيان: 5/216.

وكتب الأستاذ هارون محمّد أمين في بريد الرّسالة الأدبيّ، عدد: 765، تعليقا تحت عنوان: (لن لا تفيد تأكيدا ولا تأبيدا) تعقّب فيه ما جاء في كلام عبد العزيز فهمي باشا، من إفادتها لذلك، وقال: "والذي أعلمه أن: (لن) كما ذهبت إليه جمهرة النّحاة، لا تقضي تأبيد النّفي ولا تأكيده، ولم يقل بذلك إلّا الزّمخشريّ.. الخ"، ثمّ ذكر في التّدليل على إبطال ما ذهب إليه الزّمخشريّ، قوله وأذكر في الرّد عليه أدلّة، منها أنّه لم يقم دليل على كونها للتّأبيد، وأنّها لو كانت كذلك للزم التّناقض بذكر اليوم، في قوله تعالى: ﴿فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ۝٢٦﴾ [مريم: 26]، وللزم التّكرار بذكر الأبد، في قوله تعالى: ﴿فَقُل لَّن تَخْرُجُواْ مَعِيَ أَبَدًا﴾ [التوبة: 83]، ينظر: مجلّة الرّسالة، العدد: 772.

(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 4/1715.

(3) أبو السُّعود، إرْشادُ العَقْلِ السَّليم: 2/189، والآلوسّي، روحُ المعاني: 3/55.

(4) الآلوسّي، روحُ المعاني: 3/55.

فهو يقذف في روع النَّاس كُلِّهم بغضه والتّخلّي عنه، وعدم تلبيّة استغاثته بطلب النّصرة، مهما كان السّببُ وجيهًا وملحًّا، فلا يبادر إلى نصرته أحد[1].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الوَليّ والنَّصير:

الوليُّ: هو المُعينُ الذي تَرْكَنُ إليه وتَعتَمِدُ عَلَيه، وتَحتَمي بِهِ عِندَ الشِّدَّةِ والرَّخاءِ، وفي السَّراءِ والضَّراءِ[2]، والوِلاية أصلُها الحبُّ، فلا مُوالاة إلّا بحبٍّ، كما أنّ العداوةَ أصلُها البغضُ، واللّهُ ولي الّذين آمنواْ، وهم أولياؤُه، فهم يوالونه بمحبّتهم له[3]، وهو يواليهم بمحبّته لهم. أَمَّا النَصيرُ: فَهُوَ على وَزْنِ (فَعيلٍ)، والمَقصودُ مِنْهُ اسْمُ الفاعِلِ (ناصِرٌ)، والنَّاصِرُ: هُوَ الذي يُعينُ غَيرَهُ ويُقَوّيه[4]، والنَّصيرُ في حَقِّ اللّهِ تَعالى المَوثوقُ مِنهُ بِأَنْ لَا يُسلِمَ وَلِيَّهُ ولَا يَخْذُلُهُ، بَل يَنصُرُهُ ويُعينُهُ ويُسَدِّدُهُ، وقَدْ سَمَّى اللّهُ تَبارَكَ وتَعالى نَفسَهُ باسْمِ النَّصيرِ، فقالَ: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرًا﴾، واللّهُ ﷻ هُوَ النَّصيرُ الّذي يَنصُرُ عِبادَهُ المُؤمِنينَ ويُعينُهُمْ، قال تَعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الرُّوم: 47][5].

اللّعنة والشّتيمة:

واللّعنة: الدّعاء عليه، واللّعنة: الكثير اللّعن، واللّعنة: الّذي يلعنه النّاس، والتعن الرّجل، أي يقول لخصمه إنصافا من نفسه: على الكاذب منّي ومنك اللّعنة. وتلاعنوا: لعن بعضهم بعضا، واشتقاق ملاعنة الرّجل امرأته منه في الحكم، والحاكم يلاعن بينهما ثمّ يفرق، قال جميل:

إِذَا مَا ابْنُ مَلْعُونٍ تَحَدَّرَ رَشْحُهُ *** عَلَيْكِ فمُوتِي بَعْدَ ذَلِكِ أَوْ ذَرِي[6]

والشّتم: السّبّ، يقال: شتمت الرّجل أشتمه شتما، والاسم الشّتيمة والمشتمة أيضا،

(1) الشَّعْراوي، تَفْسِيرُ الشَّعْراوِيّ: 4/2316.
(2) العَسْكَرِيّ، الفُروقُ اللُّغَوِيَة، ص: 284.
(3) ابْنُ القَيِّم، الجواب الكافي، ص: 229.
(4) العَسْكَرِيّ، الفُروقُ اللُّغَوِيَة، ص: 189.
(5) القحطاني، شَرْحُ أَسْماءِ اللهِ الحُسْنى، ص: 222 - 223، (بِتَصَرُّفٍ يَسِيرٍ).
(6) الخليل، العين: (لعن).

ورجل شتّامة: كثير الشّتم كما قالوا علامة ونسابة[1]، وأنْشد أَبُو زيد لعون بن عبد الله بن عتبَة بن مَسْعُود:

فَكَيْفَ بِأَطْرَافِي إِذَا مَا شَتَمْتَنِي *** وَمَا بَعْدَ شَتْمِ الْوَالِدَيْنِ صُلُوحُ[2]

وأمّا اللّعن: فقد يكون بمعنى السّبّ، إذا كان من المخلوق، وأمّا إذا كان اللّعن من الله، فيكون معناه الطّرد والإبعاد من رحمته ﷻ، وفي اللّسان: الشّتم: قبيح الكلام وليس فيه قذفٌ.. وقال سيبويه في باب ما جرى مجرى المثل: (كُلُّ شَيْءٍ وَلَا شَتِيمَةُ حُرٍّ)[3].

(1) ابن دريد، جمهرة اللّغة: (شتم).

(2) ابن قتيبة، غريب الحديث: 1/225.

(3) ابن منظور: لسان العرب: (شتم).

﴿أَمۡ لَهُمۡ نَصِيبٞ مِّنَ ٱلۡمُلۡكِ فَإِذٗا لَّا يُؤۡتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا ۝٥٣ أَمۡ يَحۡسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۖ فَقَدۡ ءَاتَيۡنَآ ءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَءَاتَيۡنَٰهُم مُّلۡكًا عَظِيمٗا ۝٥٤ فَمِنۡهُم مَّنۡ ءَامَنَ بِهِۦ وَمِنۡهُم مَّن صَدَّ عَنۡهُۚ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ۝٥٥﴾ [النساء: 53 - 55]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

بعد أن وصَف اللّه تعالى اليهودَ في الآيات السّالفة، بالجهل المطبق، والضّلال المفسد، من حيث اعتقادِهم أنَّ عبادةَ الأوثان الصمّاء، أفضلُ من عبادة اللّه ذي العزّة والعلاء، أتبع ذلك بوصَفهم في هذه الآيات بالبُخلِ، والحَسَدِ والصَّدِّ عن طريق الإيمان، ومسلك الهداية[1]، حيث شرع في تفصيلِ بعضِ قبائحِهم الأخرى[2]، وقد كان فضل اللّه عطاءً للنّبيئين وآلهم، فكان من أقوامهم المؤمنُ المُهتدي، والصّادُّ المُعتدي، الذّي يؤول إلى السّعير، وبئس المصير.

لعنة اليهود تفضي إلى النّار ذات الوقود، بسبب البخل والحسد والجحود

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿نَصِيبٞ﴾: أي: حظٌّ، والنَّصيب الحظُّ المنصوب أي المُعَيَّنُ، من نَصَبَ الشَّيء وَضَعَهُ وَضعًا نَاتئًا، كنَصْبِ الرُّمح والبِناء والحَجَرِ وجمعه أَنْصِباءُ، وأصل (نَصَبَ) يَدُلُّ عَلَى إِقَامَةِ شَيءٍ وأهدَافٍ في استِوَاءٍ، والنَّصِيبُ: الحَظُّ مِنَ الشَّيءِ، يُقَالُ: هَذَا نَصِيبِي؛ أَي: حَظِّي، وهُوَ مِنْ هَذَا، كَأَنَّهُ الشَّيءُ الَّذِي رُفِعَ لَكَ وأَهدَفَ، والمعنى هنا: حظٌّ مما يُمْلَكُ[3]، ومن المجاز: لي نصيب منه: أي قسم، منصوب مشخّص، كذا في الأساس[4]، صاحب النّصيب هو الّذي

(1) الرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 10/102.
(2) أَبو السُّعود، إِرْشادُ العَقْلِ السَّليم: 2/189.
(3) الجَوْهَريّ، الصِّحاح، والرَّاغِب، المُفردات، وابْنُ فارِس، مَقاييسُ اللُّغَة: (نصب)، والعُلَيْمِيّ، فتح الرَّحمن: 2/141.
(4) الزَّبيديّ، تاج العروس: (نصب).

أراد له القدر أن يفعل شيئا أو يناله، من حظّ وسعادة[1]، ونَصيبٌ بمعنى جزء من شيء، ومنه: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ﴾ [النّساء: 7]، أو حظّ من كلّ شيء، ومنه: ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا﴾ [القصص: 77]، أو جزء من مالٍ مقسوم اخْتُصَّ به أحد المتقاسِمين "كانت الدّار نصيبَه من ميراث والده"[2].

2) ﴿نَقِيرًا﴾: النَّقيرُ: النَّقرةُ التّي في ظَهرِ النَّواة، ويُضرَبُ به المَثَلُ في الشَّيء الطَّفيف، يُقال ما أغنَى عَنْهُ نَقيرًا؛ أي: شَيْئاً، وأَصلُ (نَقَرَ) يَدُلُّ عَلَى قَرعِ الشَّيءِ المُفضِي إلى النَّقْبِ ومِنهُ نَقْرَةٌ ونُقَارَةٌ؛ أي: قَدرَ ما يَنْقُرُ الطَّيْرُ، والنِّقْرُ: الشَّيءُ التَّافِهُ القَليلُ[3]، قَالَ أَبُو هُذَيْل، أَنْشدهُ أَبُو عَمْرو بن الْعَلَاء:

وإِذَا أَرَدْنَا رِحْلَةً جَزَعَتْ *** وَإِذَا أَقَمْنَا لَمْ تُفِدْ نَقْرَا[4]

وفي حديث ابن عبّاس، في قوله تعالى: ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾﴾ [النّساء: 124] "وضع طرف إبهامه على باطن سبابته ثمّ نقرها، وقال: هذا النّقير"[5].

3) ﴿يَحْسُدُونَ﴾: يَتَمَنَّونَ زَوَال النّعمة عَنهُ، من حَسَدَ يَحْسُد حَسَداً وحُسوداً، وهو حاسِدٌ، يقال حَسَدَه: تَمَنَّى أن تَتَحَوَّلَ إليه نِعمَتُه وفَضيلَتُه، أو يُسلَبَهُما، والحسدُ شعورٌ حادٌّ يحتبّسُ في جوف الحاسدِ، فيكرَه وُجُودَ النّعمة عند المحسودِ إن كانت موجودةً، وصيرورتَها إليه إن لم تكن[6]، قال الأخفش: وبعضهم يقول: يحسده بالكسر. قال: والمصدر حسدا بالتحريك وحسادة[7]، ويقال: حسدتك الشّيء، أو على الشّيء، قال الشّاعر:

فقُلْتُ إِلَى الطَّعَامِ فقَالَ مِنْهُمْ *** فَرِيقٌ نَحْسُدُ الإِنْسَ الطَّعَامَا[8]

4) ﴿فَضْلِهِۦ﴾: الزِّيادةُ على الاقتصار، وهُوَ ضِدُّ النَّقْص، ومِنَ الفضل ما هو محمودٌ

(1) بيتر آن دُوزِي، تكملة المعاجم العربيّة: (نصب).
(2) أحمد مختار عمر، معجم اللّغة العربيّة المعاصرة: 3/2218.
(3) ابْنُ عَبَّاد، المُحيط، وابْنُ سِيدَه، المُحكَم، والرَّاغِب، المُفردات، والسَّمين، عُمْدَةُ الحُفَّاظ، وابْنُ فارِس، مَقاييسُ اللُّغَة، والزَّبيديّ، تاجُ العَروس: (نقر)، والسِّجِسْتانِيّ، غَريبُ القُرْآن، ص: 460، وابْنُ الهائِم، التِّبْيان، ص: 140.
(4) ابن سيده، المحكم: (نقر).
(5) ابن الأثير، النّهاية: (نقر).
(6) الخليل، العين، الجَوْهَريّ، الصّحاح، والفَيْرُوزآباديّ، القاموس المحيط، وجبل، المُعْجَمُ الاِشْتِقاقيّ: (حَسَدَ)، والمحلي والسيوطي، تَفْسيرُ الجَلالَيْن، ص: 110.
(7) الجوهريّ، الصّحاح: (حسد).
(8) ابن دريد، جمهرة اللّغة: (حسد).

كفضل العلم والحِلْم، ومذمومٌ كفضل الغضب على ما يجب أن يكون، وأَصْل (فَضَلَ) يَدُلُّ عَلَى زِيَادَةٍ فِي شَيءٍ، وفَضَلَ يَفْضُلُ فَضْلًا، وَرَجُلٌ مِفْضَالٌ كَثِيرُ الخَيْرِ، والفضيلة: الدَّرجة والرِّفعة في الفضلِ، وأفضَلَ فُلان على فلانٍ: أنالَه من فضلهِ وأَحْسَنَ إليه، والمعنى هُنا: ﴿مِن فَضْلِهِۦ﴾ يعني: النُّبوَّةَ والكتابَ والنُّصرةَ والإعزازَ وجعلَ النَّبيِّ الموعود منهم[1].

5) ﴿وَٱلْحِكْمَةَ﴾: الحِكْمَةُ: (العِلْمُ) بحَقائق الأَشْياءِ على مَا هِيَ عَلَيه، والعَمَلُ بُمُقْتَضاها، فالحِكْمَةُ علمٌ وعملٌ، ولا يسمّى الرّجلُ حكيمًا حتّى يجمعهُما، ومَرْجِعُها إلى العَدْل والعِلْم والحِلْم، والحَكيمُ: العالم، وصاحب الحكمة. والحَكيم: المُتقِن للأمور، وأَصْل (حكم) المَنْعُ، والحِكْمَةُ هَذَا قِيَاسُهَا، لِأَنَّهَا تَمنَعُ مِنَ الجَهلِ، وكلُّ كلمةٍ وعَظَتْك وزَجَرَتك ودَعَتك إِلَى مكرمَةٍ، أَو نهتك عَن قَبِيح فهِيَ حِكْمَة، والمعنى هنا: النّبوّة[2].

6) ﴿صَدَّ عَنْهُۚ﴾: أي: أعرَض وانصرَف وصدف عنه، يُقال صَدَّ عَنْهُ يَصُدُّ بِضَمِّ الصَّادِ صُدُودًا، إِذا صدف عَن الشَّيء أَو أعرض عَنهُ، وَأَصْل (صَدَّ): إعراضٌ وعدولٌ[3]، وفي قوله تعالى: ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ﴾ [النّمل: 43]، منعها عن الإيمان، العادة الّتي كانت عليها، لأنها نشأت ولم تعرف إلا قوما يعبدون الشّمس، فصدّتها العادة[4]، ومن المجاز: صدّ السّبيل: إذا اعترض دونه مانع[5].

7) ﴿سَعِيرًا﴾: اتِّقادًا ولَهيبًا، والسَّعْرُ التهابُ النَّار، وسَعَرَ النَّارَ والحَربَ، يَسْعَرُهَا سَعْراً: (أَوْقَدَها) وهَيَّجَها، وأصل (سَعَرَ) يَدُلُّ عَلَى اشتِعَالِ الشَّيءِ واتِّقَادِهِ، والسَّعير أَيضًا اسْم من أَسمَاء جَهَنَّم، والمعنى هُنا: أي: نارًا مُوقَدَةً يُعذَّبُونَ بها[6]، وقرئ: ﴿وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِرَتْ ﴿١٢﴾﴾ [التكوير: 12] و﴿سُعِّرَتْ﴾ مخفّفا ومشدّدا، والتّشديد للمبالغة[7].

---

(1) الخليل، العين، والرَّاغِب، المُفردات، والسَّمين، عُمْدَةُ الحُفَّاظ، وابْنُ فارِس، مَقاييسُ اللُّغَة، وابْنُ عَبَّاد، المُحيط، والزَّبيديّ، تاجُ العَروس: (فضل)، والبَيْضاويّ، أَنْوارُ التَّنْزيل: 2/79.

(2) الفَراهيديّ، العين، وابْنُ دُرَيْد، جَمْهَرَةُ اللُّغَة، والجَوْهَريّ، الصِّحاح، وابْنُ مَنْظور، لِسانُ العَرَب، والزَّبيديّ، تاجُ العَروس: (حكم)، وابْنُ قُتَيْبَة، غَريبُ القُرْآن، ص: 32، وابْنُ عاشور، التَّحريرُ والتَّنْوير: 5/89.

(3) الرَّاغِب، المُفردات، والرَّازيّ، مُخْتارُ الصِّحاح، وابْنُ سِيدَه، المُحكَم: (صدد)، وابْنُ عَبَّاد، المُحيط، وابْنُ فارِس، مَقاييسُ اللُّغَة: (صدَّ).

(4) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (صدَّ).

(5) الزّمخشريّ، أساس البلاغة: (صدد).

(6) الرَّاغِب، المُفردات، وابْنُ فارِس، مَقاييسُ اللُّغَة، والزَّمخشريّ، أساس البلاغة، والزَّبيديّ، تاجُ العَروس: (سعر)، وابْنُ قُتَيْبَة، غَريبُ القُرْآن، ص: 261، والسِّجِسْتانيّ، غَريبُ القُرْآن، ص: 259، والبروسوي، روحُ البَيان: 2/222.

(7) الرّازي، مختار الصّحاح، ص: 148.

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

البُخْلُ والحسد والكفران، أدّت باليهود إلى الخسران والعذاب والهوان

تؤكّد الآيات أنّه لو كان لليهود حَظٌّ من المُلْكِ، لبخلوا به، ولم يجودوا بالفتيل ولا القطمير، بل إنّ ديدنهم أن يَحسُدوا العرب على ما آتاهم الله من فضله، ببعث مُحَمَّدٍ ﷺ وأمّته، على ما أعطاه الله من النُّبُوَّةِ والتَّمكين في الأرض، مع أنّ الله أعطى إبراهيم وذريّته الكتاب المُنَزَّلَ، والحكمة الرّضيّة، والملك العظيم، فكان منهم مؤمن أوّاب، وكافر مرتاب، وحَسْبُ هؤلاء المعرضين عن دعوة الحقِّ، جهنّم المحرقة بالنّار[1]، تتسعّر بهم وبئس القرار.

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

الاستفهام الإنكاريّ ودلالته على التّوبيخ والتّقريع:

تبشيع وتنديد بصفات اليهودِ، الدّالة على فساد الطّبع والمعتقد

سبق هاهنا اسْتِفْهَامٌ عَلَى سَبِيلِ المَعْنَى، فهو تَعَالَى لَمَّا حَكَى عَنْ هَؤُلَاءِ المَلْعُونِينَ قَوْلَهُمْ لِلْمُشْرِكِينَ: (إِنَّهُمْ أَهْدَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ)، عَطَفَ عَلَيْهِ بِقَوْلِهِ: أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ؟ فَكَأَنَّهُ تَعَالَى قَالَ: أَمِنْ ذَلِكَ يُتَعَجَّبُ، أَمْ مِنْ قَوْلِهِمْ: لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ الْمُلْكِ؟[2]، و: ﴿أَمْ﴾ مُنقطعةٌ تُفَسَّرُ بـ(بل) وهمزةِ الاستفهام؛ أي: (بلْ أَلَهم)، والاستفهامُ فيه إنكاريٌّ، حُكمُهُ حُكمُ النَّفْيِ؛ أي: ليس لهم شَيءٌ من المُلْكِ البَتَّةَ[3]، ومعناه التَّوبيخُ والتَّقريع، وإنكارُ أنْ يكونَ لهم نصيبٌ من المُلْك، وجَحْدٌ لِما زعَمَت اليهودُ مِن أنَّ المُلك سيصير إليهم، ويجوز أن يكون المعنى إنكارَ أنَّهم أوتوا نصيبًا من المُلك على الكِناية، وأنَّهم لا يؤتونَ النَّاسَ شيئًا[4]، فالآيةُ نزلت في أهل الكتابِ، وقد خَصَّهَمُ المولى ﷻ بهذا الإنكار

(1) لَجْنَةٌ مِنْ عُلَماءِ الأَزْهَر، المُنْتَخَب، ص: 118، ونُخْبَةٌ مِنْ أَساتِذَةِ التَّفْسير، التَّفْسيرُ المُيَسَّر، ص: 87، وجَماعَةٌ مِنْ عُلَماءِ التَّفْسير، المُخْتَصَرُ في تَفْسيرِ القُرْآنِ الكَريم، ص: 87، (بتصرّف).

(2) الرّازي، مفاتيح الغيب: 10/102.

(3) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 10/103.

(4) الزَّمَخْشَرِيّ، الكَشَّاف: 1/521، والبَيْضاويّ، أَنْوارُ التَّنْزيل: 2/79، وأبو حيّان، البَحْرُ المُحيط: 3/682، وأبو السّعود، إرْشادُ العَقْلِ السَّليم: 2/189، وابْنُ عاشور، التَّحريرُ والتَّنْوير: 5/88.

الذي تَحمِلُهُ هَمزَةُ الاستفهام، وأنكر عليهم أن يكون لهم نصيبٌ من مُلْكِ اللّه[1]؛ لأنَّ حالَهم يَدُلُّ على اعتقادهم بهذا.

فائدةُ عطفِ الجزاء على أسلوب الاستفهام:

دلالـة التَّهكـم بِهِمْ والتَّعريضُ بِبُخْلهم البئيس

فقوله ﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ ٱلْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا﴾: فائدة (إذًا) تأكيدُ الإنكار والتَّوبيخ؛ حيث يجعَلون ثبوتَ النَّصيبِ سببًا للمنعِ، مع كونه سببًا للإعطاء[2]، وفيه: تَعريضٌ؛ حيث عرَّض بشدَّة بُخلِهم[3]، ويدخل في هذا ابتداءً أن لو كان لليهود حكمٌ في مملكة اللّه ما أعطوا محمّداً من النُّبوَّة شيئًا[4]، فالعَطفُ بالفَاءِ عَلَى جُملَةِ ﴿لَهُمْ نَصِيبٌ﴾، وكَذَلِكَ ﴿فَإِذًا﴾ هِيَ جَزَاءٌ لِجُملَةِ ﴿لَهُمْ نَصِيبٌ﴾، واعتُبِرَ الاستِفهَامُ دَاخِلًا عَلَى مَجمُوعِ الجُملَةِ وجَزَائِهَا مَعًا؛ لِأَنَّهُم يَنتَفِي إِعطَاؤُهُمُ النَّاسَ نَقِيرًا عَلَى تَقدِيرِ ثُبُوتِ المُلْكِ لَهُم، لَا على انتِفَائِهِ، وهَذَا الكَلَامُ تَهَكُّمٌ عَلَيهِم فِي انتظارهم أَنْ يَرجِعَ إِلَيهِم مُلْكُ إِسرَائِيلَ، وَتَسجِيلٌ عَلَيهِم بِالبُخلِ الَّذِي لَا يُؤَاتِي مَنْ يَرجُونَ المُلْكَ[5]، فجعل اللّه ﷻ بُخْلَهُمْ كالمانع من حصول المُلْكِ لهم، وهذا يَدُلُّ على أنَّ الملكَ والبخلَ لا يجتمعان[6]، وعلَّل سُبْحانه عدم استحقاقهم لهذا النَّصيب، وأنكره عليهم لِمَا هُمْ عليه من اللُّؤْمِ ودناءةِ النَّفس؛ لأنَّه لو جَعَلَ لهم نصيبًا من المُلْكِ لا يُعطُونَ النَّاس نَقيرًا منه لِشِدَّةِ بُخلِهم وقُوَّةِ حَسَدِهِمْ[7]، والمَقصودُ من هذا المبالَغَةُ في احتقارهم، فَهُمْ أَحِقَّاءُ بذَلِكَ.

(1) الزَّمَخْشَرِيّ، الكَشَّاف: 1/521.
(2) أَبو السُّعود، إرْشادُ العَقْلِ السَّليم: 2/190.
(3) أَبو حَيّان، البَحْرُ المُحيط: 3/682.
(4) الدِّيرينيّ، الكفاية، ص: 618.
(5) ابْنُ عاشور، التَّحريرُ والتَّنْوير: 5/88.
(6) الرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 10/103.
(7) الشَّوكانّي، فتح القدير: 1/552.

تقديم السَّبَب عَلَى الْمُسَبَّبِ، بتقديم الجهل على البخل والحسد:

الجهل مدخل إلى الضّلال، وفساد للأخلاق بالاعتدال

قَدَّمَ السّياق وَصْفَ اليهود بِالْجَهْلِ في الآيات السّابقة، والجهل هو عدم العلم الذّي هو الْقُوَّة النَّظَرِيَّة، عَلَى وَصْفِهِمْ بِالْبُخْلِ وَالْحَسَدِ، بفقدان الخصال الشّريفة الّتي هي االْقُوَّة الْعَمَلِيَّة، فكَانَ منطقيّا أن يبدأ بما حقّه التّقديم، علمًا بأنّ السّبب لحصول البخل والحسد، إنّما هُوَ الْجَهْلُ، والسَّبَبُ مُقَدَّمٌ عَلَى الْمُسَبَّبِ، وعكس البخل البَذْلُ الّذي هو سَبَبٌ لِطَهَارَةِ النَّفْسِ وسموّها وسعادتها، ولذلك كان الْبُخْلُ داعيا إِلَى الدُّنْيَا، ومُبعدًا عَنِ الْآخِرَةِ، ومن رجّح الفانية على الباقيّة، كان ذلك دليلا على تأصّل الجهل فيه، وكذلك الأمر بالنّسبة إلى الْحَسَد، فهو مَحْضُ الْجَهْلِ، لأنّ الحاسد يريد منع نعم اللّه عن عباده، ومن كان كذلك، فكَأَنَّهُ أَرَادَ عَزْلَ الْإِلَهِ عَنِ الْإِلَهِيَّةِ، فَثَبَتَ أَنَّ السَّبَبَ الْأَصْلِيَّ لِلْبُخْلِ وَالْحَسَدِ إنّما هُوَ الْجَهْلُ، لذلك بدأ به، وجعل ما بعده لاحقا له، ومتّصلا به دلالة وغاية، وهو ما تتجلّى به بلاغة النّظم، بوضوح وجماليّة[1].

بلاغةُ التّعبير بلفظةِ (النَّقير)، في قوله ﴿فَإِذَا لَّا يُؤْتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا﴾:

أثر الإستعارة التّصريحيّة، في بيان شدّةِ الإمساك، والإغراق في الضّلال

والنَّقير: النَّقرةُ في ظهر النَّواةِ، ويُكَنَّى به عن الشَّيءِ الحَقير[2]، والغَرَضُ أَنَّهم يَبْخَلون بِأَقَلِّ القليل[3]، وهذا هو الإغراق في بيان شُحِّهِم؛ لأنَّهم بَخِلُوا بالنَّقير، وهُمْ مُلوكٌ، فما ظَنُّكَ بِهِم إذا كانوا فقراء، فعَبَّرَ عن هذا الإغراقِ بمنعهم النَّقير الّذي هُوَ كنايةٌ عن الغاية في الحقارة والقِلَّة، على مجاز العرب واستعارتها[4]؛ حيث شبّه القليلَ الّذي يؤتونه للنّاس بالنَّقير، بجامع الضآلةِ والحقارةِ في هذا المأتيّ على سبيل الاستعارة التّصريحيّة، وهو أمرٌ مشاهدٌ فيهم

(1) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 10/102.
(2) الخفاجي، عناية القاضي: 4/98، والقِنَّوْجيّ، فَتْحُ البَيان: 3/145، والشَّوكانّي، فتح القدير: 1/551.
(3) الرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 10/104.
(4) ابْنُ عَطِيَّة، المُحَرَّرُ الوَجيز: 2/68.

إلى اليوم؛ فاليهود معروفون بشدّة بخلهم وجشعهم، مع امتلاكهم الأموال الطَّائلة والثَّروات الهائلة، ولذلك شاع عند الأجيال السّابقة ممّن عاشوا مع الجاليات اليهوديّة في بعض البلدان العربيّة قولهم فيما جرى مجرى الأمثال: (أجْشَعُ من يهوديّ)، و(أبخلُ منْ يهوديّ).

البخل طبعٌ متأصّل في اليهود، ولو حازوا ملكًا كبيرًا، ومالًا كثيرا

أثر (إذًا) في دلالة السّياق بين الإعمال والإهمال:

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا لَّا يُؤْتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا﴾، نجد أنّ (إذًا) إذا استؤنف بها الكلام نصبت الفعل الَّذِي في أوّله الياء، أو التّاء، أو النّون، أو الألف، فيقال: (إذا أضربك)، (إذًا أجزيك)[1]، فإذا كان فيها فاء أو واو، أو ثُمَّ أو (أو) حرف من حروف النّسق، فإن شئت كان معناها معنى الاستئناف، فنصبت بها أيضا، وإن شئت جعلت الفاء أو الواو، إذا كانتا منها، منقولتين عَنْهَا إلى غيرها، والمعنى فى قوله ﴿فَإِذَا لَّا يُؤْتُونَ﴾ على: (فلا يؤتون النّاس نقيرا إذًا)، ويدلّك على ذلك أنّه في المعنى.. جواب لجزاء مضمر، كأنّك قلت: (ولئن كان لهم)، أو (ولو كان لهم نصيب لا يؤتون النّاس إذا نقيرا)[2]، قال سيبويه: (إذاً) في عوامل الأفعال بمنزلة (أَظن) في عوامل الأسماء، فإذا ابتدأت إذَنْ وأنت تريد الاستقبال، نصبت لا غير، تقول: (إذَنْ أكرمَكَ)، وتكون آنئذٍ حرف مكافأة وجواب[3]، وإن جعلتها معترضة ألغيتها فقلت: (أنا إذَنْ أكرمُكَ)، أي(أنا أكرمك إذَنْ)، فإن أتيت بها مع الواو والفاء، قلتَ (فإذاً أكرمُك)، وإن شئت (فإذَنْ أكرمَكَ)[4]، ولخّص ابن عطيّة ذلك، فذكر أنّ (إذا) في

(1) تكتب: (إذًا) بالألف والتّنوين، وتكتب: (إذن) بالنّون، والثّاني هو الأرجح عند النّحاة، وتأتي حرفا ناصبا للفعل المضارع، شريطة أن لا يفصل بينها وبين الفعل المضارع بفاصل سوى القسم، كقول الشّاعر:

إِذَنْ وَاللهِ نَرْمِيَهُمْ بِحَرْبٍ *** تُشِيبُ الطِّفْلَ مِنْ قَبْلِ الْمَشِيبِ

وإذا سبقت بواو أو فاء عاطفتين ألغيت، وكان الفعل بعدها تابعا للفعل قبلها، وإذا اعتبرنا الاستئناف وألغينا العطف، فهي عاملة النّصب في المضارع، وإذا سبقت بعامل أهملت، وقدّم العامل عليها، نحو: (إنْ تذْهبْ إذنْ أذهب معك)، ينظر: صافي، الجدول: 5/64.

(2) الفرّاء، معاني القرآن: 1/273.

(3) الشّيخلّي، بلاغة القرآن الكريم: 2/364.

(4) الزّجاج، معاني القرآن وإعرابه: 2/63.

هذه الآية ملغاة، لدخول فاء العطف عليها، ويجوز إعمالها، والإلغاء أفصح، وذلك أنّها إذا تقدّمت أعملت قولا واحدا، وإذا توسّطت ألغيت قولا واحدا، فإذا دخل عليها وهي متقدّمة فاء أو واو، جاز إعمالها والإلغاء أفصح، وهي لغة القرآن[1]، وأثر (إذًا) واضح في التّعبير عن الزّمن في الآية، فهي تشير إلى أوان بخلهم بالنّقير، وهو شيء تافه حقير، ويكون ذلك آن حيازتهم للملك، وما يتبعه من غنى ومكنة ماديّة، تؤهّلهم للإغداق على النّاس، ولكنّ تأصّل البخل فيهم، يمنعهم من العطاء، فيمسكون ما في أيديهم، ولا يؤتون النّاس منها شيئًا، ولو نقيرا، والملاحظُ أنّ (إذًا) لها ارتباط معنويٌّ بالزّمان والمكان، وأما (إذن) بالنّون، فيتمّ استخدامها في حالة التّعبير عن الاستنتاج، وهذا ملمح يحكمه الذّوق، ولا تحكمه القاعدة في الغالب الأعمّ.

نُكتةُ الفصلِ بين الجُملتين الإنشائيتين، بتَكرارِ الاستفهام:

بيـان بُخلِهم حتَّى في المقَاصِد والإرادات، حَسَدًا من عند أنفسهم

الآيتان إنشائيَّتان لتقدير همزة استفهام بعد ﴿أَمْ﴾ الّتي بمعنى (بل)، لإفادة معنى الإنكار مع حذف همزة الاستفهام؛ فالأولى على تقدير: (بَلْ أَلَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ الْمُلْكِ)، والثّانية: (بَلْ أَيَحْسُدُونَ النَّاسَ)، و(بل) هذه المقدرة بدل (أم) حرف قطع، والاستفهام المُقَدَّرُ لإنكارِ الحسَدِ واستقباحِه، فإنَّهم كانواْ يَطْمَعُون أن يكون النّبيُّ الموعودُ منهم؛ فلمَّا خصَّ اللّه تعالى بتلك الكرامةِ غيرَهم حسدوهُم[2]، وسَبَبُ هذا الفصل اختلاف الجملتين في الغرض، رغم اتّفاقهما إنشاءً؛ فالأولى وُصف فيها اليهود بالبخل، وفي الثّانية وُصفواْ بالحسد، والبخل هو: أنْ لا يدفع لأحد شيئًا ممَّا آتاه اللّهُ من النِّعم، والحسدُ هو أن يَتَمَنَّى ألّا يُعْطي اللّهُ غيرَه شيئًا من النِّعَم، فكما أنكر اللّه سبحانه عليهم البخلَ، أنكر عليهم الحسدَ كذلك[3]، ففيه انتقال من توبيخهم بالبخل، إلى توبيخهم

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/68.
(2) الزَّمَخْشَرِيّ، الكَشَّاف: 1/522، وأبو السّعود، إرْشادُ العَقْلِ السَّليم: 2/190.
(3) الرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 10/102.

بالحسد[1]، وقد دلَّ أيضًا على نهاية حسدِهم بأداة الاستعلاء في قوله: ﴿عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ﴾[2].

فائدةُ المجازِ المُرسل في التَّعبير بـ ﴿ٱلنَّاسَ﴾ عن النَّبيِّ ﷺ:

فإطلاقُ لفظ ﴿ٱلنَّاسَ﴾ على نبيِّنا محمَّد ﷺ[3]، في قوله تعالى: ﴿أَمۡ يَحۡسُدُونَ ٱلنَّاسَ﴾ ففي لفظ ﴿ٱلنَّاسَ﴾ مجازٌ مُرْسَلٌ علاقته الكلّيةِ، فَهَذا اللَّفظ المذكور دالٌّ على العموم، شاملٌ لكثيرين، والمقصودُ الجزء، وهو النّبيّ ﷺ ؛ والقرينة حاليةٌ[4]؛ فقد كان اليهودُ يحسدون النّبيَّ ﷺ، على اختصاصه بالنّبوّةِ وتفضيله بالرّسالة، وفي التّعبير على النّبيّ ﷺ، بـ(النّاس) إشارةٌ إلى أنّه جُمعت فيه كمالات الأوّلين والآخرين[5]، على حدِّ قول القائل: (أنت النّاسُ كلَّ النّاسِ أيّها الرّجلُ)[6].

بيانُ اجتماع الكمال الإنسانيِّ الأوفى، في شَخْصِ النّبيّ الأصْفى

سِرُّ استعمال ضمير المتُكَلِّم في الإيتاء، في قوله: ﴿فَقَدۡ ءَاتَيۡنَآ﴾:

وردت نون العَظَمَةِ في قوله ﴿ءَاتَيۡنَآ﴾، لِتَدُلَّ دلالةً واضحةً على عِظَمِ الهِبَةِ الّتي مَنَحها اللّه آلَ إبراهيم عليه وعلى نَبيِّنا أفضل الصَّلاة والتَّسليم، وتَتَّضِحُ مكانة هذه الهِبَةِ بمُقارنة الآية بما سَبَقَ عليها من قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبٗا مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ ببِناءِ الفعل للمفعول، فهؤلاء المُتَعَجَّبُ من حَسَدِهِمْ، في قوله تعالى: ﴿أَمۡ يَحۡسُدُونَ ٱلنَّاسَ﴾، ضاقت نفوسهم المريضة، بما أنعم اللّه به على نَبيِّنَا محمَّد ﷺ من نعمة النُّبوَّةِ، وعلى أمّته من نعمة الإسلام، فأنكروا ما يَعرِفُونَهُ.

تعظيمُ نِعَمِ اللهِ المعطاة، ومِنَنِه المنتقاة، على أنبيائه الثّقات

---

(1) الآلوسّي، روحُ المعاني: 3/55.

(2) البِقاعيّ، نَظْمُ الدُّرَر: 5/303.

(3) على قول من قال من المفسّرين أنَّ المقصود بالنَّاس هُنا النَّبيِّ ﷺ، وعلى قول من قال أيضا أنَّه النَّبيُّ ﷺ وصحابته الكرام، يكون أيضا مَجازًا مُرْسَلًا.

(4) الهاشِمي، جَواهِرُ البَلاغَة، ص: 253، عوني، المِنْهاجُ الواضِح: 1/139.

(5) الزُّحَيْلي، التَّفْسِير المُنير: 5/108.

(6) الهَرَري، حَدائِقِ الرَّوْحِ والرَّيْحان: 6/154.

مغزى الإطنابِ بعد الإيجاز بطريق الالتفاتِ:

بيانُ نعماء الله وأفضاله، على نبيّه المصطفى وأوليائه

أجمل السّياق المعنى في قوله تعالى: ﴿مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦٓ﴾، ثُمَّ فَسَّرَ هذا الفضل بضرب مَثَلٍ تَوضيحيٍّ لِمَا آتاه اللّه أَبا الأنبياء إبراهيمَ(عليه السلام)، فقال تعالى: ﴿فَقَدۡ ءَاتَيۡنَآ ءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَءَاتَيۡنَٰهُم مُّلۡكًا عَظِيمًا﴾؛ وفيه تعليلٌ للإنكار والاستقباحِ، وإلزامٌ لهم بما هو مُسلَّمٌ عندهم، وحسمٌ لمادّة حسَدِهم واستبعادِهم المبنيَّيْن على توهّم عدمِ استحقاقِ المحسودِ، لِما أوتيَ من الفضل ببيان استحقاقِه له، بطريق الوراثةِ كابرًا عن كابر، وإجراء الكلام على سَنَنِ الكبرياءِ؛ حيث عبَّر بقوله: ﴿ءَاتَيۡنَآ﴾ بطريق الالتِفاتِ؛ حيث انتقل من ضمير الغائب، إلى ضمير المتكلّم، مستعملا ضمير العظمة(نَا)، لإظهارِ كمالِ العنايةِ بالأمر[1]، وهل هناك أعظم من هذا الفَضْلِ الّذي خَصَّ به الأنبياء(عليهم السلام)، وزاد آل إبراهيم المُلْكَ، لكنَّ اليهود قلبواْ الحقائقَ، فألزمهم المولى بما هو مُسَلَّمٌ عندهم، وهو نُبُوَّةُ إبراهيم(عليه السلام) وتكريم آله بَعدَهُ؛ لاعتنائهم بآثاره حسمًا لمادَّة حَسَدِهِمْ[2]، ورجوعا إلى الأصل الّذي لا يرتاب فيه أحد.

دلالةُ تكرارِ العامل في لفظة (الإيتاء):

بيانُ فضلِ (النُّبوَّة) على (المُلْكِ)، ودلالة ذكر كلّ منهما

تكريرُ الإيتاءِ لما يقتضيه مقامُ التّفضيلِ، مع الإشعار بما بين النّبوّةِ والمُلْكِ من المغايرة، فإنَّ النُّبُوَّةَ لا يَعظُمُ عَلَيها شَيءٌ، حتَّى ولو كان مُلْكًا عظيمًا، يَدُلُّ على هذا تكرير العامل ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُم﴾؛ وذلك لما يقتضيه مَقامُ التَّفْضيلِ مع الإشعار بما بَينَ النُّبُوَّةِ والمُلْكِ من المغَايَرَةِ[3]؛ ولذا قدَّم ما يَدُلُّ على النُّبُوَّةِ إشعارًا بفضلها على المُلْكِ، ومعلوم أنّ الملك يستمدّ عزته من المخلوقين، وأنّ النّبوّة تمتاح مددها

(1) أَبو السُّعود، إِرْشادُ العَقْلِ السَّليم: 2/190.
(2) بناني، سورَةُ النِّساءِ دِراسَةٌ بَلاغيَّةٌ تَحْليليَّةٌ: 2/345.
(3) أَبو السُّعود، إِرْشادُ العَقْلِ السَّليم: 1/537.

من الخالق، وشتّان بين هذا وذاك، وفي هذا المعنى قال أحمد شوقي في همزيّته الّتي عارض بها همزيّة البوصيريّ:

وَإِذَا حَمَيْتَ الْمَاءَ لَمْ يُورَدْ وَلَوْ *** أَنَّ الْقَيَاصِرَ وَالْمُلُوكَ ظِمَاءُ[1]

تَنْكيرِ لفظ ﴿مُّلْكًا﴾ ووَصفِه بِالعِظَمِ، في قوله ﴿وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا﴾:

في وصْفِ المُلك بالعِظَم، وتنكيرِه التَّفخيميِّ مِن تأكيد الإلزام، وتشديدِ الإنكار ما لا يَخفَى[2]. قال تعالى: ﴿فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُۚ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا﴾، وتَضَمَّنَتْ هذه الآيةُ تَسْلية الرَّسول ﷺ، في كَونِهم يَحْسدونه ولا يَتَّبِعونه، فذكر أنَّهم أيضًا مع أسلافهم وأنبيائهم، انقسموا إلى مؤمن وكافر، هذا وَهُمْ أسلافهم، فكيف بِنَبِيٍّ ليسَ مِنهُم؟[3]، وذلك يدلّ على عراقتهم في الكفر، وصراعهم الدّامي المرير، مع أنبيائهم الرّاشدين، وملوكهم الصّالحين، عبر قرون بعيدة، وأزمنة مديدة.

تفخيمُ مُلْكِ الأنبياء من ذُريَّةِ إبراهيم، وتبكيتُ اليهود الحاسدِين

فَائِدةُ تقديمِ المُسْنَدِ، في قوله: ﴿فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُۚ﴾:

وقد تَقَدَّمَ المُسْنَدُ (الخَبَرُ: مِنهُم) على المُسْنَدِ إليه (المبتدأ: مَنْ آمن ومَنْ صدّ) بِغَرَضِ تخصيص المُسْنَد بالمسند إليه، على سبيل الإثبات، فقد خصَّ المولى أَسْلافَ اليهود بالانقسام والتَّذبذب، ونَعى على أَخْلافهم هذا؛ لأنَّهم على نهج أسلافهم سائرون، تبكيتًا لهم وتنقيصاً وتَوَعُّدًا[4] بِسوءِ المصير بدليل آخر الآيات، وهي قوله تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا﴾.

بيانُ اختصاصِ اليهود بالفرقة والتّذبذبِ والصّدود

---

(1) وقريبًا من هذا المعنى، قول عبد الله بن الخيّاط المدنّي في وصف هيبة الإمام مالك مقارنة بالملوك، وهو ليس من الرّسل، ودون الأنبياء مقاما، حيث قال في: (ستّ وثلاثين سؤالا من أربعين): لا أدري، وقال: من قال لا أدري فقد أفتى:

يَأْبَى الْجَوَابَ فَمَا يُرَاجَعُ هَيْبَةً *** وَالسَّائِلُونَ نَوَاكِسُ الْأَذْقَانِ

هَذَيْ الْوَقَارِ وَعِزُّ سُلْطَانِ التُّقَى *** فَهْوَ الْمَهِيبُ وَلَيْسَ ذَا سُلْطَانِ

ينظر: الإمام مالك، المدوّنة الكبرى لسحنون: 6/465.

(2) أبو السُّعود، إرْشادُ العَقْلِ السَّليم: 2/190.

(3) أبو حَيّان، البَحْرُ المُحيط: 3/679.

(4) ابْنُ عاشور، التَّحْريرُ والتَّنْوير: 5/89، وبناني، سورَةُ النِّساءِ دِراسَةٌ بَلاغيَّةٌ تَحْليليَّةٌ: 1/211.

بديعُ المقابلةِ بين فعلي ﴿ءَامَنَ﴾ و﴿صَدَّ﴾، في قوله: ﴿ءَامَنَ بِهِۦ﴾ ﴿صَدَّ عَنۡهُۚ﴾:

أثـر التَّفصيل بعد الإجمالِ، فـي تـوضـيـحِ المعنى وتأكيده

فالإيمانُ إذعانُ النّفسِ للحقِّ على سبيل التَّصديق، وإظهارٌ للخضوع والقبول، فإنْ قال قائل: آمنتُ بكذا وكذا فمعناه: صدّقتُ، والصُّدودُ والصّد، قد يكون انصرافًا عن الشَّيء، وامتناعًا عنه، وقد يكون صرفًا ومنعًا؛ أي: صرف النَّفس أو صرف الغير، ﴿فَمِنۡهُم مَّنۡ ءَامَنَ بِهِۦ﴾؛ أي: بهذا الإيتاءِ وهذا الإنعام الّذي أنعم اللّه به على آل إبراهيم عليه السلام من الكتاب والحكمة، ﴿وَمِنۡهُم مَّن صَدَّ عَنۡهُۚ﴾؛ أي: كَفَرَ به وأعرض عنه، وسعى في صَدِّ النَّاس عنه[1]، فقوبل فعل الإيمان بفعل الصُّدود، وقوبل الإلصاق في معنى ﴿بِهِۦ﴾ بالمجاوزة في معنى (عن)؛ إذ الإلصاق يدلُّ على أشدِّ القُرْبِ والقبول، وهو الإيمان، والمجاوزة تَدُلُّ على الابتعاد والنُّفور، وذلك أبلغ ما تُصَوِّرُهُ هذه المقابلة البليغة، فقد صَوَّرت حال اليهود منذ العهد القديم، حيث لم يُراعوا الفَضْلَ لمستحقّيه، ولم يحافظواْ على النِّعمة، ولم يصونوا العهد القديم، بل كان منهم الكفران والعناد والكنود، كما تَهْدِفُ هذه المقابلةُ البديعةُ إلى تسليّةِ رسول اللّه محمَّدٍ ﷺ، وتثبيته على الحقِّ المستقيم، والدِّفاع عن دينه القويم، فهو ليس بِدْعًا من الرُّسُلِ[2]، وفي هذه المقابلة أيضًا تثبيتٌ للمؤمنين وتذكير لهم، بأنّ هذه سنّة الأنبياء حتّى لا يَعُدّوا تكذيبَ اليهود للنّبيِّ محمّد ﷺ ثلمةً في نُبُوَّتِهِ؛ إذ لا يُعرف رسولٌ أجمَعَ أهل دعوته على تصديقه من عهد إبراهيم إلى من جاء بعده من الرسل[3]، ولأجل هذا ناسب تقديم ذكر الإيمان على الكفر، لما سمّى إبراهيم وآله

(1) ابْنُ كَثير، تَفْسيرُ القرآن العظيم: 2/336.
(2) بناني، سورَةُ النِّساءِ دِراسَةٌ بَلاغيَّةٌ تَحْليليَّةٌ: 2/481.
(3) ابْنُ عاشور، التَّحْريرُ والتَّنْوير: 5/89.

في سورة التّغابن، في قوله تعالى: ﴿فَمِنكُمۡ كَافِرٞ وَمِنكُم مُّؤۡمِنٞۚ﴾ [التّغابن: 2]؛ لعموم اللّفظ فيه، ولذلك قَدَّم هُنا ﴿مَّنۡ ءَامَنَ بِهِۦ﴾، وأَخَّرَ هناك﴿وَمِنكُم مُّؤۡمِنٞۚ﴾ [التّغابن: 2][1].

أثر التَّذييل في التّهديد والتّهويل:

بيانُ الوعيدِ الشَّديدِ، والتَّهديدِ الأكيدِ، لكلّ كافر عنيد

فالمعنى في قوله تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا﴾، أي حَسْبُكم، أيُّها المكذّبون جَهَنَّم المتسعّرة[2]؛ فهي نار مُوقدة إيقادًا مهولا، وكأنّه يقول لهم: إنّه إذا انصرفَ عنكم بَعضُ العَذاب في الدُّنيا؛ فقد كفاكم ما أُعِدَّ لكم من سَعِيرِ جَهَنَّم في العُقْبى[3]، فالجملةُ تَذْييلٌ لما قبلَها[4]، وفيها تَهديدٌ ووَعِيدٌ للكُفّارِ الْمُتَقَدِّمِينَ وَالْمُتَأَخِّرِينَ[5]. وتعدّت ﴿وَكَفَىٰ﴾ بالباء؛ لأنّها فعل يتعدّى بالباء، على تقدير: اكتفى بجهنّم سعيرًا لهم.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

النَّصِيب والحظّ:

النَّصيبُ هو الحظُّ والقَسْمُ من كُلِّ شيء[6]؛ وبه يكون النَّصِيب في المحبوب والمَكْرُوه، يُقَال: وفَّاه اللّه نصِيبَه من النَّعيم، أَو من العَذَاب، والحَظُّ هو النَّصيبُ المُقَدَّرُ مِنَ الفَضْل والخيْر[7]، فلَا يُقَال حظُّه من العَذَاب إلَّا على استِعَارَةٍ بعيدَةٍ؛ لِأَنَّ أَصلَ الحَظِّ، هُوَ مَا يُحْظِه اللّه تَعَالَى للعَبد من الخَيرِ، والنَّصيبُ مَا نُصِبَ لِلعَبدِ لِيناله، سَوَاء كَانَ مَحبوبًا أَو مَكرُوهًا؛ ولهذا كان الحَظُّ اسْمًا لما يرْتَفع بِهِ المَحظوظُ، فيُذكر على جِهَةِ المَدْحِ، فيُقَالُ لفُلَانٍ حَظٌّ، وهُوَ مَحْظوظٌ، وفي التَّنزيل: ﴿إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٖ ٧٩﴾ [القَصَص: 79]، والنَّصيبُ مَا يُصِيب

(1) ابن جماعة، كشف المعاني، ص: 139، 140.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 8/483.
(3) الآلوسّي، روحُ المعاني: 3/56.
(4) أَبو السُّعود، إرْشادُ العَقْلِ السَّليم: 2/191.
(5) الرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 10/105، وابْنُ عاشور، التَّحْريرُ والتَّنْوير: 5/89.
(6) ابن مَنْظور، لِسَانُ العَرَب، والزَّبيديّ، تاجُ العَروس: (نصب).
(7) الخليل، العَينْ، والأزهري، تَهْذيبُ اللُّغَة: (حظ).

الإنسانَ من مُقاسمةٍ، سَوَاء ارْتَفع بِهِ شَأْنه أم لَا، ولِهَذَا يُقَال لفُلَان حَظّ فِي التِّجَارَة، وَلَا يُقَال لَهُ نصيبٌ فِيهَا؛ لِأَنَّ الرِّبْحَ الّذِي يَنَالهُ فِيهَا لَيسَ عَن مُقاسَمَةٍ[1].

الإيتاء والإعْطاء[2]:

لا يَكَادُ أهلُ اَللُّغَةِ يُفَرِّقُونَ بَينَ اَلإيتَاءِ والإعْطَاءِ، لَكِن نَجِدُ فِي اَلاستِعمَالِ اَلقُرْآنِيِّ بَعضَ اَلفُرُوقِ اَلدَّقِيقَةِ اَلَّتِي تُوحِي بِبَلَاغَةِ اَلْقُرآنِ وَعَظَمَتِهِ؛ وذَلِكَ مِنْ حَيثُ أَنَّ اَلإيتَاءَ أَقوَى مِنْ اَلإعطَاءِ، فِي إثبَاتِ مَفعُولِهِ؛ لِأَنَّ الإعطَاءَ لَهُ فِعلٌ مُطَاوِعٌ، تَقُولُ: أَعْطَانِي فعَطَوتُ، ولَا يُقَالُ فِي الإيتَاءِ: أَتَانِي فأَتَيْتُ، وإنَّمَا يُقَال: آتَانِي فأَخَذتُ، والفِعلُ اَلَّذِي لَهُ فِعلٌ مُطَاوِعٌ أَضعَفَ فِي إثبَاتِ مَفعُولِهِ مِن اَلَّذِي لَا مُطَاوِعَ له[3]، والإيتاءُ أَقْوى مِنَ الإعْطاءِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ مَن تَشَآءُ﴾ [آل عِمرَان: 26]؛ لِأَنَّ المُلْكَ شَيءٌ عَظِيمٌ لَا يُعْطَاهُ إلَّا مَنْ لَهُ قُوَّةٌ، وكَذَا قَولُهُ ﴿يُؤۡتِي ٱلۡحِكۡمَةَ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُؤۡتَ ٱلۡحِكۡمَةَ فَقَدۡ أُوتِيَ خَيۡرٗا كَثِيرٗاۗ﴾ [البَقَرَة: 269] والحِكْمَةُ شَيءٌ عَظِيمٌ أَيضًا، وقال: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَٰكَ سَبۡعٗا مِّنَ ٱلۡمَثَانِي وَٱلۡقُرۡءَانَ ٱلۡعَظِيمَ ٨٧﴾ [الحِجْر: 87]؛ لِعظَمِ القُرآنِ وشَأْنِهِ[4]، ومِن اَلْفُرُوقِ أيضًا: أَنَّ اَلْإِتيَانَ فِيهِ مَعنَى اَلوُجُوبِ والاِلْتِزَام، أَمَّا الإعطاءُ ففِيهِ مَعنَى اَلتَّفَضُّلِ والإكرَام؛ فبَعدَ أَنْ أَسعَد اَللَّهُ اَلْمُؤمِنِينَ بِدُخُولِ اَلْجَنَّةِ قَالَ: ﴿عَطَآءً غَيۡرَ مَجۡذُوذٖ ١٠٨﴾ [هُودٌ: 108]، وقال ﴿جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابٗا ٣٦﴾ [النَّبَأ: 36]، ومِن اَلفُرُوقِ أَيضًا: أَنَّ اَلعَطَاءَ يَكُونُ فِي اَلأَشيَاءِ اَلمَادِّيَّةِ، وَيُفِيدُ اَلتَّكْرَارَ ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ١﴾؛ أَيْ: سَيَتَكَرَّرُ شُربُكَ يَا مُحَمَّد كَثِيرًا مِنْ نَهرِ اَلكَوثَرِ، ﴿وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ ٥﴾ [الضُّحى: 05]؛ أَيْ: سَيَكُونُ عَطَاءُ اَللَّهِ لَكَ مُكَرَّرًا حَتَّى تَبْلُغَ دَرَجَةَ اَلرِّضَا[5]، أَمَّا الإيتاءُ ففي الأشياءِ المادِّيَّة والمعنويَّة، قال سبحانه: ﴿۞وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَآ إِبۡرَٰهِيمَ رُشۡدَهُۥ﴾ [الأَنْبِيَاء: 51] وقال: ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحِكۡمَةَ وَفَصۡلَ ٱلۡخِطَابِ ٢٠﴾ [ص: 20][6]، ومِن اَلفُرُوقِ: أَنَّ فِي اَلإعطَاءِ دَلِيلُ اَلتَّمَلُّكِ دُونَ الإيتَاءِ[7]، فالإيتَاءُ يَشْمَلُهُ اَلنَّزْعُ، بِمَعْنَى أَنَّهُ لَيسَ تَمليكًا وَلَكِنَّ اَلعَطَاءَ

(1) العَسْكَرِيّ، الفُروقُ اللُّغَويَة، ص: 165.
(2) تفصيل هذا الفرق تفسير الصّفحة الخامسة من الجزء الخامس.
(3) السُّيُوطِيّ، الإتْقان: 2/367.
(4) الكَفَوِيّ، الكُلِّيات، ص: 212.
(5) الكَفَوِيّ، الكُلِّيات، ص: 212، والسُّيُوطِيّ، الإتقان: 2/367.
(6) لاشين، مِنْ أَسرارِ التَّعْبِير في القُرْآنِ الكَرِيم، ص: 71 - 77.
(7) الكَفَوِيّ، الكُلِّيات: 1/360، والعَسْكَرِيّ، الفُروقُ اللُّغَويَة، ص: 86.

تَمْلِيكٌ، وكَثُرَ اِستِعمَالُ الإعطَاءِ، حَتَّى صَارَ لَايُطْلَقُ إِلَّا عَلَى اَلتَّمليكِ، فيُقَال: أَعطَاهُ مَالاً، إِذَا مَلَكَهُ إِيَّاهُ[1].

الفَضل والنّعمة:

أَصْلُ الفضل مأخوذٌ من الشَّيءِ الفَاضِلِ عند الإنسان، وهو مُسْتَغنٍ عنه، والفَضْل من جانب المولى سبحانه؛ لأنَّ كلَّ خزائنه بما فيها من الخَيْرِ فضلٌ زائدٌ، وهو سبحانه في غنًى عنه، فهُوَ يُعْطي عِبادَهُ ممَّا هو فاضل عنده، والنِّعمة بِالنِّسْبَةِ إلى جهة العبد؛ أي: ما يُنعم به اللّه لبعض خلقه لِسَدِّ حاجتهم[2]، ففَضْلُ اللّه إشارةٌ إلى ما عنده من الخَيْرِ، وهو مُسْتغنٍ عنه، والنِّعْمَة إشارةٌ إلى ما يصل إلى العبدِ وهو محتاجٌ إليه؛ لأنَّ الفضلَ في الأصل يُنبئ عن الزّيادة، وعنده خزائن من الرَّحمة لا لحاجةٍ إليها، ويرسلُ منها على عباده ما لا يبقون معه في ورطةِ الحاجة بوجهٍ من الوجوه، والنِّعمة تُنْبئ عن الرَّأفةِ والرَّحمةِ، وهو من جانب العبد، وفيه معنى لَطيفٌ وهو تأكيدُ الإعطاء؛ وذلك لأنَّ المحتاجَ يقول للغنيِّ: أعطني ما فضل عَنْكَ وعندك، وقد اجتمعا في قوله تعالى: ﴿فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝٨﴾ [الحجرات: 8]؛ فإذن قوله: ﴿فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ﴾، إشارةٌ إلى ما هو من جانب اللّه الغنيِّ، والنِّعمةُ إشارةٌ إلى ما هو من جانبِ العبد من اندفاع الحاجة[3]؛ لأنَّه به يُنْعِمُ عليكم، وتكون حياتُكُم ناعمةً، فالعَطاء واحدٌ، وهو من جانب اللّه فضلٌ؛ لأنَّهُ مَوْجُود بكثرة، واللّه مستغنٍ عنه، ومن جانب العبد نِعْمَةٌ.

الصَّدّ والإعراض:

الصَّدُّ قد يكونُ انصرافًا عن الشَّيء وامتناعًا؛ إذا كان لازمًا غيرَ مُتعدٍّ، فيكون بمعنى الإعراض، من ذلك قوله تعالى: ﴿رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ۝٦١﴾ [النّساء: 61]؛ أي: يعرضُون ويتولّون عمّا يدعوهم الرَّسول ﷺ إليه من الحقِّ والهُدى، ومنه أيضاً قوله سبحانه: ﴿وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ﴾؛ أي: أعرض، وقد يكونُ صرفًا ومنعًا؛ إذا كان مُتعدِّيًا، بمعنى صَدَّ غيرَه، يُقال صَدَدْتُه عن وَجْهِ كذا، عَدَلْتَه وصرفته عنه[4]، ومن ذلك قوله

(1) السُّيُوطِيّ، الإتْقان: 2/197.
(2) الرَّاغِب، المُفْردات، والسَّمين، عُمْدَةُ الحُفَّاظ، وابْنُ فارِس، مَقاييسُ اللُّغَة، والزَّبيديّ، تاجُ العَروس: (فضل).
(3) الرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 28/104.
(4) الرَّاغِب، المُفْردات، وابْنُ فارِس، مَقاييسُ اللُّغَة: (صدَّ)، والسَّمين، عُمْدَةُ الحُفَّاظ: (صدد).

تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [الأعراف: 45]، يصدُّون النَّاس عن اتّباع سبيل الله وشرعه وما جاءت به الأنبياء[1]، ونحو هذا قوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [الحجّ: 25]، ومن هذا الباب قوله ﷻ: ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ۝٤٣﴾ [النَّمل: 43]؛ أي: منعها من أَنْ تعبدَ الله ما كانت تَعبُدُ من الشَّمس والقَمَرِ[2]، وأكثر ما جاء لفظ (الصَدِّ) في القرآن على هذا المعنى، وهو من البلاغة بمكان، وقد استعمله القرآن بفصاحة وبيان.

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 3/417.

(2) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 13/208.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَوۡفَ نُصۡلِيهِمۡ نَارٗا كُلَّمَا نَضِجَتۡ جُلُودُهُم بَدَّلۡنَٰهُمۡ جُلُودًا غَيۡرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمٗا ٥٦﴾ [النّساء: 56]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

بيـانُ تعميمِ الـعـذابِ على الكافرين بعد وعيدِ كَفَرَةِ أهل الكتاب، بسوء العذاب

بعدَما ذكَر الوعيدَ لأهل الكتابِ ممّن كفر، بيَّن ما يعُمُّ الكافرين مِن الوعيد، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَوۡفَ نُصۡلِيهِمۡ نَارٗا﴾[1]، فلمَّا أثبت لمن صَدَّ عنه النَّارَ عَلَّلَهُ بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾[2]، سوف نصليهم ونحرقهم بالنّار الّتي كلّما احترقت جلودهم بها، حتّى لم تعد صالحة لإيصال الألم، إلى مراكز الشّعور والإدراك، بدّلناهم جلودا جديدة غيرها، وهو تمثيل لدوام شعورهم بالعذاب شعورا كاملا[3].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿نُصۡلِيهِمۡ﴾: نُدْخِلُهُم فيها، ونَشْويهم بها، ومِنْهُ صَلَيْتُ اللَّحْمَ؛ أَي: شَوَيْته، وأَصْلاهُ النَّارَ وصَلاهُ صَلْيًا أَدْخَلَهُ إيَّاها، وأَثْواهُ فِيهَا، وَأَصلُ الصَّلَى لِإيقادِ النَّارِ؛ والمَعنى هُنَا: نُدخِلهُ فيها فيُلاقي حَرَّها وشِدَّتَها[4]، صلاَّه في النَّار: أصلاه، أدخله فيها "صلّى العصا على النَّار: لوّحها وليَّنها وقوّمها بها، قال تعالى: ﴿فَنُزُلٞ مِّنۡ حَمِيمٖ ٩٣ وَتَصۡلِيَةُ جَحِيمٍ ٩٤﴾ [الواقعة: 93 94]، وقال: ﴿ثُمَّ ٱلۡجَحِيمَ صَلُّوهُ ٣١﴾ [الحاقّة: 31] "[5].

(1) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 10/105.
(2) البقاعي، نظم الدّرر: 5/305.
(3) الحجازيّ، التّفسير الواضح: 1/388.
(4) الخَليل، العين، وابْنُ مَنْظور، لِسانُ العَرَب، والسَّمين، عُمْدَةُ الحُفَّاظ، والزَّبيديّ، تاجُ العَروس: (صلى).
(5) أحمد مختار عمر، معجم اللّغة العربيّة المعاصرة: (نضج).

2) ﴿نَضِجَتْ﴾: انشوتْ فاحترَقَتْ؛ يُقال: نضِجَ اللَّحم يَنضَج، نُضْجًا ونَضْجًا، فهو ناضِج: إذا أَدرَك شَيَّه، والنُّضجُ: إدراك اللَّحم نهاية شيِّه وطبخِه، وأصل (نَضَجَ): بلوغ النِّهايةِ في طبخ الشَّيء، ونضِجَتِ الفاكهةُ: طابت[1]، وجذرها أَصْلٌ يَدُلُّ عَلَى بُلُوغِ النِّهَايَةِ فِي طَبْخِ الشَّيْءِ، ثُمَّ يُسْتَعَارُ فِي كُلِّ شَيْءٍ بَلَغَ مَدَى الْإِحْكَامِ.. وَلذلك يُقَالُ: هُوَ نَضِيجُ الرَّأْيِ: مُحْكَمُهُ[2]، "قال ابن سيده: واستعمل أبو حنيفة الإنضاج في البرد، في كتابه الموسوم (بالنّبات) فقال: المهروء: الّذي قد أنضجه البرد، قال: وهذا غريب، إذ الإنضاج إنّما يكون في الحرّ، فاستعمله هو في البرد"[3].

3) ﴿لِيَذُوقُواْ﴾: لِيُقَاسُوا شِدَّته، والذَوقُ وجود الطَّعم بالفمِّ، وأَصلُهُ فيما يَقِلُّ تناولُهُ دون ما يَكثُرُ، يُقال ذاقَ الطّعامَ يذوقُه ذَوْقًا ومَذاقة ومَذاقًا وذَواقًا، والأصلُ (ذوق)، ويَدُلُّ على اختِبَار الشَّيءِ مِنْ جِهَةِ تَطَعُّم، يُقال ذاق الشَّيء: جرَّبه ومنه يُقال ذاق فلانٌ البأسَ: إذا عَرِفَهُ بِنُزُولِهِ بِهِ، والمعنى هُنا: لِيَجِدوا أَلَمَ العذاب وكَرْبَهُ وشِدَّتَهُ[4].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

وعيدُ الله للكافرين بالإحراق بنارٍ يتجدّدُ العذابُ بها على الدّوام

أخبر الله تعالى أنَّ الّذين جحَدُوا بآيات الله، سوف يدْخِلُهُم يوم القيامة نارًا تُحيط بهم، كلمَّا احترقت جُلُودُهُمْ، وفقدت الإحساسَ بالألم، بدَّلهم جلودًا غيرها؛ لِيَسْتَمِرَّ عليهم العذاب ويتجدّد لهم الإحساس بالألم الشّديد، والعذاب المديد، ذلك أنّ الله غالبٌ

(1) ابن جرير، جامع البيان: 7/163، وابن فارس مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، والسّمين، عمدة الحفاظ: (نضج).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نضج).
(3) الزَّبيديّ، تاج العروس: (نضج).
(4) الخليل، العين، والرّاغب، المفردات: (ذوق).

على أمره، حكيمٌ في تدبيره وقضائه[1]، يعرف من هو أهل للعقوبة فيعاقبه، ومن هو أهل للثّواب فيثيبه[2].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالةُ الاستئنافِ بذكر الاسم الموصولِ بعد ذكر الوعيد:

تقريرٌ وبيانٌ لشمولِ العذاب كلَّ مُكَذِّبٍ بالله ورُسُلِهِ

فقوله تعالى ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَوۡفَ نُصۡلِيهِمۡ نَارٗا﴾: استئنافٌ وقع كالبيان والتَّقرير لما قبله، والمُراد بالموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾: إمَّا الّذين كفروا برسول الله ﷺ، وإمَّا ما يعمُّهم وغيرُهم، ممَّن كفر بسائر الأنبياءِ عليهم السلام، ويَدْخُل أولئك دُخولًا أوّليًّا، وعلى الأوَّل فالمُرادُ بالآيات: إمَّا القرآن، أو ما يَعُمُّ كلَّه وبعضه، أو ما يَعُمُّ سائر مُعْجَزاتِهِ عليهم السلام، وعلى الثَّاني فالمُراد بها ما يستوفي المذكورات، وسائر الشَّواهد البيّنات، التّي أتى بها الأنبياء (عليهم الصَّلاة والسَّلام) على مُدَّعاهُمْ[3]، فهو وعيدٌ من الله (عز وجل) للَّذين أقاموا على كُفْرِهِمْ، وتكذيبهم بما أنزل الله عز وجل على محمَّد ﷺ من اليهود وغيرهم من سائر الكفَّار[4]، والجملةُ مؤكّدة بـ﴿إِنَّ﴾ والجملة الاسميّة؛ لمزيد التّقرير لهذا الوعيدِ من الله لهم.

فائدةُ التَّتميم بقوله تعالى ﴿سَوۡفَ نُصۡلِيهِمۡ نَارٗا﴾:

التَّهديدُ والتَّهويلُ في ذِكْرِ جزاءِ الجاحدين

في قَولِهِ ﴿سَوۡفَ نُصۡلِيهِمۡ نَارٗا﴾ بَدَلَ (سَنُعَذِّبُهُمْ): إطْنابٌ، أعطى المَعنَى قوَّةً والصُّورة وضوحًا، فكلمة ﴿سَوۡفَ﴾ تُذكَر للتَّهديد والوعيد[5]، مع مُلازمتها للمضارع المفيد لتَجدُّد العذاب واستمراره، مع ذِكْرِ كلمة ﴿نَارٗا﴾ المُنَكَّرَةِ المفيدة للتَّهويل والتَّعظيم؛ أيْ: ندخلُهم

(1) لَجْنَةٌ مِنْ عُلَماءِ الأَزْهَر، المُنْتَخَب، ص: 117، ونُخْبَةٌ مِنْ أَساتِذَةِ التَّفْسير، التَّفْسيرُ المُيَسَّر، ص: 87، وجَماعَةٌ مِنْ عُلَماءِ التَّفْسير، المُخْتَصَر، ص: 87.

(2) حومد، أيسر التّفاسير، ص، 549.

(3) أَبو السُّعود، إرْشادُ العَقْلِ السَّليم: 2/191، والآلوسّي، روح المعاني: 3/56.

(4) الخازن، لباب التأويل: 1/390.

(5) الرَّازي، مفاتيح الغيب: 10/105.

نارًا عظيمة هائلةً[1]، فهذا التَّتميم أَخرَجَ المعنى بِصُورَةٍ أَوضَح وأَعمَق، مُبالغةً في الإفهام.

دلالة الشَّرْطِ وجوابُهُ، في قوله: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا﴾:

بيان شدّة العذاب بدوام العذابِ

قوله ﴿كُلَّمَا﴾: ظرفُ زمانٍ مُتَضَمِّنٌ معنى الشَّرط، متعلِّق بالجواب ﴿بَدَّلْنَٰهُمْ﴾، وهو يَدُلُّ على التَّكرار؛ يعني أنَّهم دائمًا وأبدًا كُلَّمَا نضجت الجُلودُ بُدِّلوا جُلودًا غيرها؛ إذ معنى ﴿نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ﴾؛ أي: احترقت وتهرَّت وتَلاشَت، أعطيناهم مكان كلِّ جِلْدٍ مُحترق عند احتراقه جِلْدًا جديدًا مُغايرًا للمُحتَرِق[2]، والنَّضجُ معناه بلوغ الغاية في الكمال؛ يَعني أنَّها إذا نَضِجَتْ من الاحتراق، فإنَّها تُبَدَّل جُلودًا غيرها غَيْرَ الأولى؛ لأنَّ الأولى احترقت وزالت، ولأنَّ الجِلْدَ إذا احترق صار حائلًا دون بقيَّة الجسم، فلا يُحِسُّون بالنَّار، فلا يكون هُناك بين احتراق الجلد، وبين التَّبديل بِجِلْدٍ جديد مُهْلَةً، لأنَّه إذا كانت هناك مُهلةٌ، وإنْ كانت قليلة جدًا، فهي راحة للكافر، واللّه تعالى لا يُريد أن يكون للكافر هذه الرَّاحة، يقول تعالى: ﴿لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿١٦٢﴾﴾ [البقرة: 162]؛ ولذلك كان تبديل الجِلْدِ بمُجَرَّدِ النُّضج، ليُحسُّوا بحرِّ النَّار مجدّدا، لذلك قال: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا﴾[3]، ولعلَّ السّرَّ في تبديل الجلود مع قدرتِهِ تعالى على إبقاء إدراك العذاب وذَوْقِهِ بحالٍ مع الاحتراق، أو مع بقاء أبدانهم على حالها مَصُونةً عنه؛ أنَّ النَّفس رُبَّما تتوهَّم زوال الإدراك بالاحتراق، ولا تَسْتَبْعِدُ كلَّ الاستبعاد أن تكون مَصُونة عن التَّألم والعذاب صيانة لبَدَنِهَا عن الاحتراق، أو أنَّ السِّرَّ في ذلك أنَّ في النُّضج والتَّبديل نوعَ إياسٍ لهم، وتجديدَ حُزْنٍ

(1) أبو السُّعود، إرْشادُ العَقْلِ السَّليم: 2/191، والآلوسّي، روح المعاني: 3/57.
(2) الآلوسّي، روح المعاني: 3/57.
(3) ابن عثيمين، تفسير العثيمين: 1/423.

على حُزْنٍ[1]، فتبديلُ الجلود زيادةٌ في عذاب النُّفوس، يَدُلُّ عليه قوله تعالى بعد ذلك: ﴿لِيَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَۗ﴾ وقوله تعالى: ﴿كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا ۝٩٧﴾ [الإسراء: 97]؛ فالمقصودُ تعذيبُ الأبدان وإيلام الأرواح[2].

سِرُّ الاستعارةِ المكنيَّة في التَّعبير عن إدراكِ العذاب، بقوله ﴿لِيَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَۗ﴾:

بيانُ ديمومةِ العذابِ الأليم، واستمرارِ ذوقه في نار الجحيم

نلمح الاستعارةَ المكنيَّةَ التَّخْييليَّةَ في قوله ﴿لِيَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَۗ﴾؛ فقد حُذف المُشَبَّهُ به الّذي من شأنِهِ أن يُذاق، واستعار شيئًا من لوازمِهِ وهو الذَّوق، والمُراد بالذَّوق هُنا ديمومته، مع ما يَصحَبُهُ من الاستكراه والألم الّذي لا يُوصَفُ، ولا مريةَ في أنَّ استمرار ذوق العذاب، مع بقاء الأبدان حيَّةً مصونةً فيه ما فيه من استبعاد، لِكُلِّ ما قد يخطر على البال من تَوَهُّم زوال العذاب وألمه، لا يدخله نقصان بدوام الملابسة، أو للإشعار بمرارة العذاب مع إيلامه أو للتَّنبيه على شِدَّةِ تأثيره، من حيث إنَّ القوة الذَّائقة أَشَدُّ الحواسِّ تأثيرًا، أو على سريانه للباطن ناهيك بما لحاسَّة الذَّوق من أثر في نفسِ المحترِق بالنَّار[3]، ولهذا جِيءَ هُنا بالمضارع ﴿لِيَذُوقُواْ﴾؛ أي: لِيَدُوم ذَواقُهُ ولا ينقطع كقول القائل للعزيز: أعزَّكَ اللّٰه[4]، أي أدام اللّٰه عزّك، فالتَّعبيرُ عن إدراك العذابِ بالذَّوق، ليس لبيان قِلَّتِه، بَلْ لبيان أنَّ إحساسَهم بالعذاب في كلِّ مرّةٍ، كإحساس الذَّائقِ بالمَذُوقِ من حيثُ إنَّه لا يدخُله نُقْصانٌ[5]، كما أنَّ في قوله ﴿لِيَذُوقُواْ﴾ تَعْليلٌ لِقَولِه: ﴿بَدَّلْنَٰهُمْ﴾؛ لِأَنَّ الجِلدَ هُوَ الَّذِي يُوَصِّلُ إِحسَاسَ العَذَابِ إِلَى النَّفْسِ، بِحَسَبِ عَادَةِ خَلقِ اللّٰهِ تَعَالَى[6].

(1) الآلوسّي، روح المعاني: 3/58.
(2) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 5/253.
(3) درويش، إعراب القرآن: 2/240.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 3/58.
(5) أبو السُّعود، إرْشادُ العَقْلِ السَّليم: 2/192.
(6) ابْنُ عاشور، التَّحريرُ والتَّنْوير: 5/90.

براعة التّصوير بحركيّة مشهديّة، تتجلّى في تبديل الجلود النّاضجة باستمرار:

تجديد العذاب بتبديل الجلود، إمعان في العذاب اللّامحدود

قوله تعالى: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ﴾، هذا التّصوير المشهديّ، لون من الإعجاز الفنّيّ في القرآن الكريم، حيث يعرض لنا السّياق المشهد، ضمن إطار من الحركة والحياة، فيتملّاها الحسّ والخيال، ويتمثّلها الشّعور، وكأنّها قائمة مرئيّة، أمام من يتلو الآية أو يسمعها، ونحن نستحضر لدى سماعنا هذه الآية، صور العذاب الدّائمة الّتي لا تنقطع، والجلد الّذي لا يكاد ينضج حتّى يتجدّد، وهكذا إلى غير انقطاع أو انتهاء[1]، واختلف المتأوّلون في معنى تبديل الجلود، فقالت فرقة: تبدّل عليهم جلود غيرها، إذ نفوسهم هي المعذّبة، والجلود لا تألم في ذاتها، فإنّها تبدّل ليذوقواْ تجديد العذاب، وقالت فرقة: (تبديل الجلود) هو إعادة ذلك الجلد بعينه الّذي كان في الدّنيا، تأكله النّار، ويعيده اللّه دأبا لتجدّد العذاب، وقال ابن عمر، كلّما احترقت جلودهم بدّلوا جلودا بيضاء كالقراطيس، وقالت فرقة: الجلود في هذا الموضع سرابيل القطران، سمّاها جلودا للزومها فصارت كالجلود، وهي تبدّل دأبا[2]، وقال النّسفيّ: التّبديل والتّغيير، لتغاير الهيئتين، لا لتغاير الأصلين، عند أهل الحقّ.. وعن فضيل يجعل النّضيج غير نضيج لِيَذُوقُواْ العذاب، أي ليدوم لهم ذوقه، ولا ينقطع عنهم ألمه، كقولك للعزيز: (أعزك اللّه)، أي أدامك على عزّك[3].

دلالةُ الإخبار عن العِزَّة والحكمة، في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾:

تعليلُ جريان الأمور وفق قُدْرَة الله وحِكْمَتِهِ

وَقَوْلُهُ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾: وَاقِعٌ مَوقِعَ التَّعليلِ لِمَا قَبلَهُ؛ فهو استئنافٌ بيانيٌّ جوابٌ عن سؤال مقدّر، كأنّ سائلًا يسأل: لِمَ يفعلُ ذلك؟ والعِزَّةُ يَتَأَتَّى بِهَا تَمَامُ القُدرَةِ في عُقُوبَةِ المُجتَرِئِ على اللَّهِ،

(1) صافي: الجدول: 5/67.
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/69.
(3) النّسفيّ، مدارك التّنزيل: 1/366.

والحِكمَةُ تتَأَتَّى بِهَا تِلكَ الكَيفِيَّةُ فِي إِصلَائِهِمُ النَّارَ[1]، فهو عزيز في انتقامه مِمَّنْ ينتقم من خلقه لا يَغلِبُهُ شيء، ولا يمتنع عليه أحد، حَكِيم في تدبيره وقضائه، وأنَّه لا يفعل إلّا ما هو الصَّواب[2]، وذِكرُهُمَا فِي هَذَا المَوضِعِ فِي غَايَةِ الحُسنِ؛ لِأَنَّهُ يَقَعُ فِي القَلبِ تَعَجُّبٌ مِنْ أَنَّهُ كَيفَ يُمكِنُ بَقَاءُ الإِنسَانِ فِي النَّارِ الشَّدِيدَةِ أَبَدَ الآبَادِ! فَقِيلَ: هَذَا لَيسَ بِعَجِيبٍ مِنَ اللَّهِ؛ لِأَنَّهُ القَادِرُ، ويَقَعُ فِي القَلبِ أَنَّهُ كَرِيمٌ رَحِيمٌ، فكَيفَ يَلِيقُ بِرَحمَتِهِ تَعذِيبُ هَذَا الشَّخصِ الضَّعِيفِ إِلَى هَذَا الحَدِّ العَظِيمِ؟ فقِيلَ: كَمَا أَنَّهُ رَحِيمٌ فهُوَ أَيضًا حَكِيمٌ، والحِكمَةُ تَقتَضِي ذَلِكَ؛ فإِنَّ نِظَامَ العَالَمِ لَا يَبقَى محفوظا إِلَّا بِتَهدِيدِ العُصَاةِ، والتَّهدِيدُ الصَّادِرُ مِنهُ تعالى، لَا بُدَّ وأَنْ يَكُونَ مَقرُونًا بِالتَّحقِيقِ، صَونًا لِكَلَامِهِ عَنِ الكَذِبِ، فثَبَتَ أَنَّ ذِكرَ هاتين الكلمتين هاهُنا في غاية الحُسنِ[3]، وحسنُ الاتّصاف بعد هذه المقدِّمات بالعِزَّة والإحكام؛ لأنَّ اللّه لا يُغالِبُه مُغالِبٌ إلَّا غلبَه اللّه، ولا يفعلُ شيئًا إلّا بحكمةٍ وإصابةٍ، لا إله إلّا هو تبارك وتعالى[4]، والجملةُ تعليلٌ لما قَبْلَها من الإصلاء والتَّبديلِ، فتأكيدُ الخَبرِ بـ: ﴿إِنَّ﴾ مع اسميَّةِ الجملة، لتعليلِ الحُكْم، وإظهارُ الاسمِ الجليلِ بطريق الالتفات، لتهويل الأمرِ، وتربيّة المهابةِ، لأن عنوانَ الألوهيّةِ مَنَاطٌ لجميع صفاتِ كماله تعالى[5]، والتّعبيرُ بـ: ﴿كَانَ﴾ لتجرّدها هنا عن الزّمان، والمعنى أنّ هذا شأنه منذ أن كان.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الصّلى والحرق:

الرّازيّ: (صليت) اللّحم وغيره من باب رمى شويته وفي الحديث: (أنّه أتي بشاة (مصليّة)، أي مشوية، ويقال أيضا: (صليت) الرّجل نارا إذا أدخلته النار وجعلته يصلاها فإن ألقيته فيها إلقاء كأنك تريد إحراقه قلت (أصليته) بالألف و(صليته) (تصلية) وقرئ: ﴿وَيَصۡلَىٰ سَعِيرًا ١٢﴾ [الإنشقاق: 12][6]، ويقال أيضا: صلي بالأمر إذا قاسى حرّه وشدّته؛ ومنه قول أبي الغول الطّهويّ:

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 5/90.
(2) الخازن، لباب التأويل: 1/390.
(3) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 10/107.
(4) ابن عطيَّة، المحرَّرُ الوجيز: 2/69.
(5) أبو السُّعود، إرْشادُ العَقْلِ السَّليم: 2/192، والآلوسّي، روح المعاني: 3/58.
(6) الرّازيّ، مختار الصّحاح، ص: 178.

وَلَا تَبْلَى بَسَالَتُهُمْ وَإِنْ هُمْ *** صَلَوْاْ بِالْحَرْبِ حِينًا بَعْدَ حِينِ[1]

قال الزّجاج: وهذا هو الأصل في الصّلاة؛ ومنه: من يصلى في النّار، أي يلزم، سمّيت بها، لأنّها لزوم ما فرض الله تعالى بها[2]، وأمّا الحَرْقُ بالسّكون، فهو تسليط النّار على الشّيء لتأتي عليه، والحَرَقُ بالتّحريك: النّار، وأحرقه بالنّار وحرَّقَهُ، شدّد للكثرة، أي عند كثرة فعل الحرق، والنّار تأكل كلّ شيء، وقدقال ابن المعتزّ:

واصْبِرْ عَلى حَسَدِ الْحَسو *** دِ فإِنَّ صَبْرَكَ قاتِلُهْ

فالنَّارُ تَأْكُلُ بَعْضَهَا *** إِنْ لَمْ تَجِدْ مَا تَأْكُلُهْ

والفرق بين اللّفظين، أنّ (اصطلى) بمعنى ذاق النّار، وتألّم من آثار الحرّق، ومنه قوله تعالى: ﴿سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣﴾ [المسد: 3]، والحرق إنّما هو التهاب النّار، وتسليط حرارتها على الشّيء، حتّى تتمكّن منه، ثمّ تتناقص إلى أن تخبو.

التّبديل والإبدال:

التَّبديل: تغيير حالٍ إلى حال آخر، يُقال: بَدَّلَ صورتَه، والإبدال: رَفْعُ الشَّيء بأن يجعل غَيرَهُ مَكَانَهُ، فالتّبْديل: تَغْييرُ الصُّورة إلى صورة غيرِها، والجَوْهَرةُ بعيْنها، والإبدال: تنحِيَة الجَوْهَرَةِ واستئناف جوهرة أخرى؛ أي: أنَّ التَّبديل يكون في صفاتِ الشَّيء، وذاتُ الشَّيءِ لا تزالُ قائمةً موجودةً، والإبدالُ تغيير الشَّيء كُلِّهِ بذاته وصفاته، بتنحيّته وإزالته ووَضْعِ شيء آخر مَكَانَهُ[3]، والعرب تقول: "قد بدّل فلان، إذا غيّرت حاله، ولم يأت مكان غيره، وكذلك كلّ مغيّر عن حاله، فهو عندهم مبدّل بالتّشديد، وربّما قيل بالتّخفيف، وليس بالفصيح، فأمّا إذا جعل مكان الشّيء المبدل غيره، فذلك بالتّخفيف أبدلته، فهو مبدل"[4].

(1) الرّازيّ، مختار الصّحاح، ص: 178.
(2) الرّازيّ، تاج العروس: (صلى).
(3) الأزهريّ، معاني القراءات: 2/119، والعَسْكَرِيّ، الفُروقُ اللُّغَويّة، ص: 313.
(4) ابن جرير، جامع البيان: 19/208.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ لَّهُمۡ فِيهَآ أَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞۖ وَنُدۡخِلُهُمۡ ظِلّٗا ظَلِيلًا ٥٧﴾ [النّساء: 57]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

ذِكْـــرُ أهـمـيّـة الـــوعـــدِ بعـد الـوَعـيـدِ، من جناب الله الّذي يُبدئ ويُعيد

لَمَّا ذكَر تعالى وعيدَ الكفَّار، أعقَب بِوَعْدِ المؤمنين؛ فقد جرَتْ عادةُ اللّه تعالى في هذا الكتابِ الكريمِ بأنَّ الوعدَ والوعيدَ يتلازمانِ في الذِّكر على سبيل الأغلبِ، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾[1]. كما أنَّه (ﷺ) لمَّا ذكر التَّرهيب بِعقابِ الكافرين أتبعه التَّرغيبَ بثواب المؤمنين[2]، الّذين "سندخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار، ينعمون فيها أبدًا ولا يخرجون منها، ولهم فيها أزواج طهّرها اللّه مِن كلّ أذى، وندخلهم ظلّا كثيفًا ممتدًّا في الجنّة"[3].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿خَٰلِدِينَ﴾: الخلودُ هو المُكْثُ الطَّويلُ، والبقاءُ في دارٍ لَا يُخرَجُ مِنْهَا، يقال خَلَد يَخْلُد خُلْدا وخُلوداً: بَقيَ وَأقَام، ودَارُ الخُلد: الآخِرَةُ لبقاءِ أَهلها فِيهَا، و(خَلَدَ) أَصلٌ وَاحِدٌ يَدُلُّ عَلَى الثَّبَاتِ والمُلَازَمَةِ، والمعنى هنا: ماكثين ساكنين فيها لَا يُحَوَّلُونَ ولَا يَزُولُونَ[4]، وقد قالوا: أخلد الرّجل إخلادا إذا أبطأ عنه الشّيب[5]، وقيل لأثافي الصّخور: خوالد، لبقائها بعد دروس الأطلال[6].

(1) ابن جرير، جامع البيان: 7/167، وأبو حيّان، البَحرُ المُحيط: 3/681، والسِّعْدي، تَيسيرُ الكَريمِ الرَّحمن، ص: 183.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 5/306.
(3) نخبة من أساتذة التّفسير، التّفسير الميسّر، ص: 87.
(4) الأَزْهَريّ، تَهْذيبُ اللُّغَة، وابْنُ عَبَّاد، المُحيط، والسَّمين، عُمْدَةُ الحُفَّاظ، وابْنُ مَنْظور، لِسانُ العَرَب: (خلد)، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 3/169.
(5) ابن دريد، جمهرة اللغة: (خلد).
(6) الجوهريّ، الصحاح: (خلد).

2) ﴿أَبَدًا﴾: الأَبَدُ: الزَّمنُ والدَّهر الطَّويلُ الممتدُّ، والأَبَدُ أيضًا: الدَّائم، والتَّأبيدُ: التَّخليد، ويُقالُ: أَبَدٌ آبِدٌ وأبيدٌ على المبالغةِ؛ أي: دائمٌ؛ ولَا أفعل ذَلِك أَبَدَ الأبيدِ وأَبَدَ الآبدِين، وأصل (أَبَدَ) يَدُلُّ عَلَى طُولِ المُدَّةِ، وأَبَدَ بالمكان يَأْبِدُ أُبُودًا؛ أي: أقام به، والمعنى هُنا: زمانًا لا انقضاءَ لآخرِه[1].

3) ﴿ظِلًّا ظَلِيلًا﴾: الظّلُّ الفائضُ الدَّائم الَّذي لا تنسَخُه الشَّمسُ، والّذي لا بَرْدَ فيه ولا حرَّ ولا ريحَ ولا سَمومَ، والظَّليل فعيلٌ من الظِلِّ بمعنى ما يَتَّصِف بالظَّلالة وثَبَتَتْ فيه هذه الصِّفة، فيدلُّ على الثُّبوت والدَّوام، وأَصْلُ (ظَلَل): يَدُلُّ على سَتْر شيءٍ لِشَيءٍ[2]، وأظَلَّكَ الشّيءُ دَنا مِنكَ، حَتَّى أَلْقَى عليكَ ظِلَّهُ من قُرْبِه والظِّلُّ الخَيالُ مِنَ الجِنِّ وغيرِه يُرَى، ومُلاعِبُ ظِلِّه طائِرٌ وقولُهم في المَثَلِ لأَتْرُكَنَّه تَرْكَ ظَبْيٍ ظِلَّهُ، معناه كَما تَرَكَ ظَبْيٌ ظِلَّه[3]، وورد: فيه (الجنّة تحت ظلال السّيوف)، هو كناية عن الدّنوّ من الضّراب في الجهاد، حتّى يعلوه السّيف، ويصير ظلّه عليه[4].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

وَعْدُ اللهِ لعباده المؤمنين برغد النَّعيم، في جَنَّات الخلود المقيم

والّذين صَدَّقواْ بما جاءهم من ربِّهم، واستقامواْ على الطَّاعة سنُدخلهم يوم القيامة جنّاتٍ تجري من تحت قصورها الأنهار، يتمتّعون بنعيمها العظيم، ماكثين فيها أبدًا، لهم فيها أزواجٌ مُطَهَّرة من العيوبِ المُزرية، والأدناس المُردية، يُدخلن السّرور الى نفوسهم، فتكمُلُ سعادتُهم، ويُقيمُون في ظلّ ظليل من العيش الطيّب، والهناء المنعش، حيث نبسط عليهم ظلًّا ظليلا، لا حرَّ فيه ولا قرّ[5].

(1) الرَّاغِب، المُفْردات، والسَّمين، عُمْدَةُ الحُفَّاظ، وابْنُ فارِس، مَقاييسُ اللُّغَة: (أبد).
(2) الرَّاغِب، المُفْردات، والسَّمين، عُمْدَةُ الحُفَّاظ، وابْنُ فارِس، مَقاييسُ اللُّغَة: (ظلل)، وابن الهائم، التبيان، ص: 140، والكفويّ، الكليَّات، ص: 596، والمصطفويّ، التحقيق في كلمات القرآن الكريم: 7/168.
(3) ابن سيده، المحكم: (ظلل).
(4) ابن الأثير، النهاية: (ظلل).
(5) لَجْنَةٌ مِنْ عُلَماءِ الأَزْهَر، المُنْتَخَب، ص: 118، ونُخْبَةٌ مِنْ أَساتِذَةِ التَّفْسير، التَّفْسيرُ المُيَسَّر، ص: 87، وجَماعَةٌ مِنْ عُلَماءِ التَّفْسير، المُخْتَصَر، ص: 87 (بتصرّف).

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالةُ العطفِ على المزاوجة بين مصير الكافرين، ومآل المؤمنين:

استكمال مظاهر المساءَةِ والمسرَّة، لمن كفر ثـمّ لمن آمن

فقَد عقَّب النَّظمُ الكريمُ بيانَ سُوءِ حال الكفرة، ببيانِ حُسْنِ حال المؤمنين، تَكْميلًا للمَساءَةِ والمَسَرَّةِ، وقدَّم بيانَ حال الأوَّلين لأنَّ الكلام فيهم[1]، والمُراد بالمَوصولِ إمَّا المؤمنون بنَبِيِّنا ﷺ، وإمَّا ما يَعُمُّهُمْ وسائر من آمنَ من أمم الأنبياء - عليهم السلام - ؛ أي: إنَّ الّذين آمنواْ بما يجبُ الإيمانُ به، وعملواْ الأعمالَ الحسنةَ، سَنُدخِلُهُم جَنَّاتٍ تَجرِي مِنْ تَحتِهَا الأَنهارُ[2].

المُقابلةِ بين جزاءِ أَهْلِ الإيمانِ وعقاب أَهْلِ الكفرِ والعصيان:

تزجيّة البشارة بتصويرِ الحالتين في صورةِ المحسوسِ الظَّاهر

هاهُنا مقابلةُ ثلاثةِ معانٍ بثلاثةٍ أخرى: فجملة ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾، تُقابل جملة ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، وجملة ﴿نُصْلِيهِمْ نَارًا﴾ تقابل جملة ﴿سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ﴾؛ إذ أَصلُ الصَّلْي الإيقاد بالنَّار، وصَلِيَ الكَافِرُ النَّار دخلها وقاسى حَرَّها[3]، ووَصفُ العذاب يُقابِلُ وصفَ النَّعيم، فالعذاب الّذي يكون بإصلاءِ النَّار، وإنضاج الجلود وتبديلها، لاستمرار العذاب، صورةٌ مُضادَّةٌ للنَّعيم، في جريان الأنهار، والأزواج المُطَهَّرَةِ، والظِّلِّ الظَّليل، وقيمة هذه المقابلة تتجلّى في تصوير نعيم الجنَّة، وعذاب النَّار، بصورة حِسِيَّةٍ واضحة، تدفع المُتَأَمِّلَ إلى الاختيار الصَّحيح للفئة التّي يَرْغَبُ أن يكون منها، وفي هذه المُقابلة أيضًا زِيَادَةُ غَيْظٍ لِلْكَافِرِينَ[4].

دلالةُ التَّعبير بـ(السِّين) مع المؤمنين و(سوف) مع الكافرين:

ففي (السِّين) تأكيدٌ للوعد أيضًا، مثل (سوف)، لكنّ اختيارها

(1) الآلوسي، روح المعاني: 3/58.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 3/58.
(3) الرَّاغِب، المُفردات: (صلا).
(4) ابْنُ عاشور، التَّحريرُ والتَّنْوير: 5/90.

هُنا بليغ، وفي ورودها في وَصْفِ حال الكافرين، ما لا يخفى[1]، فقوله سبحانه ﴿سَوۡفَ﴾ في الآية السابقة لأنَّها دالّة على البعد، وفيها إشارة من الله، أنّه أمهل الكفَّارَ ليتُوبُواْ، وهو بإيراد (السّين) يُغْرينا بالطَّاعَةِ، لدلالتها على القرب، لذلك عبَّر عنها بقوله: ﴿سَنُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾[2]، ورُبَّما أفهم التَّنفيس لهم بالسِّين، دون سوف، أنَّهم أقصر الأمَمِ بقاء في الحياة، وأنَّهم أقصرهم أعمارًا، إذ أنّ الرّجوع إليه، راحة لهم من دار الكَدَرِ إلى ما يؤولون إليه في مقام الصَّفاء، وأنَّهم يَدخُلون الجنَّةَ، قبل جميع الفرق النَّاجيةِ، من أهل الموقف[3]، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

معاملة أهل الكفر بالعذاب والبعد، وجزاء أهل الإيمان بالنّعيم والقرب

فائدةُ المجاز العقليّ في إسنادِ الفعل إلى مكانِه:

هناك مجازٌ عقليٌّ في قوله تعالى: ﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾؛ حيث أسند الجريانَ إلى الأنهار إسنادًا مجازيًا؛ وذلك لأنَّ الأنهار لا تجري، إنَّما الّذي يجري ماؤها[4]، فهو مجازٌ عقليٌّ علاقته المكانيَّة؛ حيث أسند الفعل إلى مكان المسندِ إليه، وغرضه البلاغيُّ المبالغةُ في إظهار النَّعيم الدَّائم الّذي فيه أهل الجنان، بإظهار جمال هذه الصُّورة، في عمقٍ وغزارةٍ، وسعةٍ وصفاءٍ، وسرعةِ جريان ماءِ تلك الأنهار، حتّى يخيّلَ للرَّائي أنَّ النَّهرَ برمّته يجري، وليس الماءُ فقط[5].

المبالغةُ في التّنويه بالنَّعيمِ الرّضيّ، والمصير التّقيّ

دلالةُ الكنايةِ عن النِّسْبَةِ، في قوله: ﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾:

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾، جَعَلَ الحقُّ تبارك وتعالى جريان الأنهار تحت الجنَّاتِ، كنايةً عن رفعة هذه الجنّاتِ، ثُمَّ إنَّ في هذا أيضًا كنايةً عن نسبةِ الرِّفعة لمقام المنعَّمين بهذه الجنَّات[6].

بيانُ رفعةِ أهل الجنان، بجريان الأنهار من تحتهم

(1) الآلوسي، روح المعاني: 3/58.
(2) الشَّعراوي، تفسير الشَّعراوي: 4/2338.
(3) الشِّربينيّ، السِّراجُ المُنير: 1/311.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 4/233.
(5) بناني، سورَةُ النِّساءِ دِراسَةٌ بَلاغيَّةٌ تَحليليَّةٌ: 2/445.
(6) بناني، سورَةُ النِّساءِ دِراسَةٌ بَلاغيَّةٌ تَحليليَّةٌ: 2/461.

سِرُّ العدول عن الجَمْعِ إلى الإفراد، وغرض تقديم المسند:

بيـانُ أصالـةِ الطُّهر ودوامه في الأزواج المطهّرة

لمّا وصَفَ تعالى حُسنَ الدَّارِ، ذكَر حُسنَ الجارِ، فَقال تعالى: ﴿لَّهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾[1]، والمُطَّردُ في وصف جَمعِ القِّلة لِمَنْ يَفضُلُ، الألفُ والتَّاء، فعَدَلَ هُنَا عن ذلك إلى الوحدَةِ؛ لإفهام أنَّهنَّ لِشدَّةِ الموافقة في الطُّهرِ كذاتٍ واحدَة فقال: ﴿مُّطَهَّرَةٌ﴾؛ أي: مُتَكَرِّرٌ طُهرُها، لا تُوجَدُ وَقْتًا ما على غَيْرِ ذَلِكَ[2]، وقدّم المسندَ ﴿لَّهُمْ﴾ لتعجيل المسرّة لهم، ونكّر ﴿أَزْوَٰجٌ﴾ للتّفخيم والتّعظيم.

وجه مُرَاعاةِ النَّظير في تَعَدُّد نعيم أهل الجنَّة:

بيان التَّناسُب والتَّكامُل بين النِّعم المرصودة في الجنان

في هذه الآية الكريمة نِعَمٌ عظيمة يُبَشِّرُ الرَّحمن بها عباده الصَّالحين، منها نعمة جريان الأنهار، ثُمَّ نعمة الخلود، ثُمَّ نعمة الأزواج المُطَهَّرَة، وتُتَوَّجُ تلك النِّعم الجليلة بنعمة الظِّلِّ الظَّليلِ، الّذي يكون: ظلًا وارفا طَيِّبًا أنيقًا[3]، والتَّناسب المعنويُّ بين ذلك الظِّلِّ الظَّليل وبَيْنَ نعمة الأزواج المُطَهَّرَةِ كَبيرٌ؛ حيث إنَّ مِنْ أَجَلِّ النِّعَم على الإنسان وأَلْصَقِهَا بالنَّفْسِ الخُلْوَةُ في مكان ظَليلٍ لا تَقَعُ عَلَيْهِ عُيونُ الآخَرينَ[4].

بلاغة الاستعارة والكناية، في قوله: ﴿وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا﴾:

ظـلّ الـلـه في جنّاته، عطاء ورحمة وراحة

تتضمّن الآية استعارة بليغة، لأنّ الظلّ في الحقيقة هو ضوء شعاع الشّمس دون شعاعها، فإذا لم يكن ضوء فهو ظلمة، وليس بظلّ، ولذلك قيل: (فلان يعيش في ظلّ فلان)، بمعنى: في كنفه، ويقال: أظلّك فلان، إذا دنا منك كأنّه ألقى عليك ظلّه[5]، فقد شبّه الظّلّ بالكنف، وحذف المشبّه به وجاء بشيء من لوازمه، وهو الإدخال فيه على سبيل الاستعارة المكنيّة، وهي معبّرة عن أقصى معاني المتعة

(1) الشِّرْبينيّ، السِّراجُ المُنير: 1/311.
(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 5/307، والشِّرْبينيّ، السِّراجُ المُنير: 1/311.
(3) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 2/338.
(4) بناني، سورَةُ النِّساءِ دِراسَةٌ بَلاغيَّةٌ تَحْليليَّةٌ: 2/502.
(5) الشّيخلّي، القرآن الكريم في الإعجاز: 2/370.

والحماية واللّذة بالنّعمة، وإذَا كان الظّل عِبَارَةً عن الرَّاحَة؛ كَانَ كِنَايَةً عن المُبَالَغَةِ العَظِيمَةِ في الرّاحة، وفي هذا المضمار، يقول الرّازيّ: "وَاعْلَمْ أَنَّ بِلَادَ الْعَرَبِ كَانَتْ فِي غَايَةِ الْحَرَارَةِ، فكَانَ الظِّلُّ عِنْدَهُمْ أَعْظَمَ أَسْبَابِ الرَّاحَةِ، ولِهَذَا الْمَعْنَى جَعَلُوهُ كِنَايَةً عَنِ الرَّاحَةِ"[1].

بديعُ الجِناس بالصِّفَة المُشتَقَّة:

بيان حُسْنِ الظِّل الظّليل، والمتعة بانبساطِه واعتِدالِه

فقوله ﴿ظِلًّا ظَلِيلًا﴾: جِناسُ اشتقاقٍ، و﴿ظَلِيلًا﴾ صفةٌ مشتقَّة من الظِّلِّ؛ لتأكيده[2]؛ للدَّلالةِ على بلوغه الغايةَ في جِنسه[3]، فهُوَ مِنْ تَمَام مَحَاسِنِ الجَنَّاتِ؛ لأنَّ الظِّلَّ إنَّمَا يَكُونُ مع الشَّمس، وذَلِكَ جَمَالُ الجنَّات ولذّة التنعّم بِرُؤيَةِ النُّورِ مَعَ انتِفَاءِ حَرِّهِ، ووُصِفَ بِالظَّلِيلِ وَصفًا مُشتَقًّا مِن اسم المَوصُوفِ لِلدَّلَالَةِ عَلَى بُلُوغِهِ الغَايَةَ في جِنسِهِ، فهو متّصلٌ لا فُرَجَ فيه، منبسطٌ لا ضيقَ معه دائمًا، لا تصيبُه الشَّمس يوماً ما، ولا حرَّ فيه ولا بردَ، بل هو في غاية الاعتدال[4]، والعربُ يَأْتُونَ بِمِثلِ هَذَا الوَصفِ بِوَزنِ فَعِيلٍ: كما هو الحال هُنَا، ومنه قَولُهُمْ: دَاءٌ دَوِيٌّ، ويَأْتُونَ بِهِ بِوَزنِ أَفعَلِ: كَقَولِهِمْ: لَيلٌ أَلْيَلُ ويَومٌ أَيوَمُ[5]، والمُراد في هذه الآية إمَّا حقيقته، وإمّا أنَّه إشارةٌ إلى النِّعمة التَّامة الدَّائمة، فيكون من قبيل الكِنايَةِ[6]، فإن قيل: أفي الجنَّة بَرْدٌ أو حَرٌّ يحتاجون معه إلى ظِلٍّ؟ فالجوابُ: أن لا، وإنَّما خاطَبَهم بما يَعْقِلُون مثله، كقوله: ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿٦٢﴾﴾ [مريم: 62] وجوابٌ آخرُ: وهو أنَّه إشارةٌ إلى كمال وَصفِهَا، وتمكين بنائِها، فلو كان البردُ أو الحرُّ يتسلّطُ عليها، لكان في أبنيتها وشجَرِها ظِلٌّ

(1) الرازي، مفاتيح الغيب: 10/108.
(2) الزَّمَخْشَرِيّ، الكَشَّاف: 1/523، والبَيْضاويّ، أَنْوارُ التَّنْزيل: 2/79، وأبو السّعود، إرْشادُ العَقْلِ السَّليم: 2/192.
(3) ابْنُ عاشور، التَّحريرُ والتَّنْوير: 5/90.
(4) البقاعي، نظم الدُّرر: 5/307.
(5) ابْنُ عاشور، التَّحريرُ والتَّنْوير: 5/90.
(6) النّسفيّ، مدارك التنزيل: 1/231، والآلوسّي، روح المعاني: 3/58.

ظَليلٌ[1]، يُتَّقَى به من الحرّ، ويُحْتَمَى به من القرّ، وذلك بديعُ صنع اللّه الّذي لا يعجزه شيءٌ في الأرض ولا في السّماء، والّذي أعدّ لعباده الصّالحين، ما لا عينٌ رأت ولا أذنٌ سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الخلود والدَّوام:

الدَّوامُ هو استمرار البقاءِ في جميع الأوقاتِ، يُقال: دام الشَّيءُ إذا امتدَّ الزَّمان عليه[2]، ولا يقتضي أن يكونَ في وقتٍ دون وقتٍ؛ ولهذا يُقال: إنَّ اللّه لم يزل دائِمًا ولا يزال دائِمًا، والخلودُ هو استمرارُ البقاء من وقتٍ مُبْتَدإٍ؛ ولهذا لا يُقال: إنَّه خالدٌ كما إنَّه دائم، والخلودُ يقتضي طولَ المُكث كَقَوْلِهِم للأيام: خَوالد؛ وذَلِكَ لطول مكثها لَا للدّوام[3]، وفلان خَلَدَ في الحَبسِ، ولا يقتضي ذلك دوامُه فيه، ولذلك وُصِفَ سبحانه بالدَّوام دون الخلود، إلّا أنَّ خلود الكفَّار في النَّار المُرادُ به التَّأبيدُ بلا خلاف بَينَ الامَّة[4]، ومعلوم أنّ حبّ البقاء في هذه الحياة الدّنيا، أمرٌ فطريٌّ مغروس في جبلّة الإنسان، لذلك استطاع إبليس بمكره وزيغه، أن يخدع آدم عليه السلام، وينجح بدهائه في إخراجه من جنّة الاختبار؛ لأنّه دخل عليه من مدخل نفسيّ لا يقاوم، وهو حبّه للخلود والبقاء، فانصاع لإغوائه وعصى أمر ربّه، ونسي ما ذكّره به، قال تعالى: ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾﴾ [طه: 120 121].

الأبد والأمد:

الأمدُ: الغاية، تقول بَلَغَ أَمَدَهُ؛ أي: غايتَه، والأمدُ والأبَد مُتقاربان، لكنَّ الأبد عبارةٌ عن مُدَّةِ الزَّمان الّتي لا حدَّ لها ولا تَتَقَيَّد، يُقال: أبد الآبدين؛ مَعْنَاهُ دهر الدَّاهرين، وعصر البَاقِينَ؛ أَي: يبقي مَا بَقِي دهر وداهِرٌ[5]، ولا يقال أَبَدُ كذا، والأمد مُدَّةٌ لها حدٌّ مجهول إذا

(1) ابْنُ الجَوْزيّ، زادُ المَسير: 2/113.
(2) المَنَاويّ، التَّوقيف، ص: 167.
(3) الكفوي، الكليات، ص: 414.
(4) العَسْكَرِيّ، الفُروقُ اللُّغَويَة، ص: 118.
(5) الكفويّ، الكليات، ص: 32.

أُطْلِقَ، وقد ينحصر فيُقال أَمَدُ كذا، كما يُقال زمن كذا، فالأمدُ يُقال باعتبار الغاية[1]، ويعبّر بالأمد مجازا عن سائر المدّة، وهو المنتهى من الأعمار، يقال: ما أمدك؟ أي منتهى عمرك، وفي القرآن بمعنى المدّة عموما: ﴿فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الحديد: 16][2]، أو بمعنى المدى الطّويل، كما في قوله تعالى: ﴿أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُۥ رَبِّىٓ أَمَدًا ﴿٢٥﴾﴾ [الجنّ: 25].

الظلّ والفيء:

والظّلّ معناه في اللّغة: السّتر، يقال: لا أزال اللّه عنّا ظِلَّ فلان، أي: ستره لنا، ويقال: هذا ظلّ الشّجرة، أي: سترها وتغطيّتها[3]، ومعنى الفيء: الموضع الّذي تكون فيه الشّمس ثمّ تزول عنه، لأنّه عاد إلى مثل الحال الّتي كان عليها قبل أن تقع فيه الشّمس[4]، قال ابن قتيبة: "يذهب النّاس إلى أنّ الظّل والفيء بمعنى واحد، وليس كذلك، بل الظّل يكون غدوة وعشيّة، والفيء لا يكون إلّا بعد الزّوال، فلا يقال لما قبل الزّوال فيء، وإنّما سمّي بعد الزّوال فيئا، لأنّه ظلٌّ فاء من جانب المغرب إلى جانب المشرق، والفيء الرّجوع[5]، وقيلَ الفَيْءُ بالعَشِيِّ، والظِّلُّ بالغَداةِ، فالظِّلُّ ما كانَ قبل الشّمس، والفَيْءُ ما فاءَ بعدُ، وقالوا ظِلُّ الجَنَّةِ، ولا يُقالُ فَيْؤُها، لأنّ الشّمس لا تُعاقِبُ ظِلَّها، فيكون هُناكَ فَيْءٌ، إنّما هي أبداً ظِلٌّ، ولذلك قالَ اللّه ﷻ ﴿أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا﴾ [الرّعد: 35]، أراد وظِلُّها دائِمٌ أَيْضًا"[6].

(1) المَناويّ، التّوقيف، ص: 61.
(2) الزَّبيديّ، تاج العروس: 7/391.
(3) الأنباريّ، الزّاهر: 2/68.
(4) الأنباريّ، المصدر نفسه: 2/68.
(5) الفيوميّ، المصباح المنير: 1/46.
(6) ابن سيده، المحكم: 4/10.

﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا ٥٨﴾ [النّساء: 58]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الرّبط بين استحقاق الجنّة، والأعمال الموجبة لرضا السّميع البصير

بعدما وعدَ اللّهُ عبادَه المؤمنين على امتثالِ أمره، من كريمِ ثوابه، بالعطاء الموعود، والظِّل الممدود، أقبل عليهم بلذيذِ خطابه، حاثًّا لهم على الأمانة والعدل:[1]، نبَّهَ على هذين العَمَلَينِ الشَّريفَينِ اللَّذَينِ من اتَّصَفَ بهما كان أَحرَى أن يتَّصِف بغيرهما من الأعمال الصَّالحة، أحَدُهُما ما يَخْتَصُّ به الإنسان فيما بَينَهُ وبين غَيرِه، وهو أداءُ الأمانة التّي عُرِضَتْ على السَّماوات والأرض والجبال، فأَبَيْنَ أن يَحْمِلْنَها، والثَّاني ما يكون بَينَ اثنين من الفَصلِ بينهما بالحُكم العَدلِ، الخالي عن الهوى، وهو من الأعمال العظيمة التّي أَمَرَ اللّه بها رُسُلَهُ وأنبياءَه والمؤمنين[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تُؤَدُّواْ﴾: أدَّى الحقَّ، أدَّى إليه الحقَّ: أوصله، وسلَّمه، وفي الحديث: (أَدِّ الأَمَانَةَ إِلَى مَنِ ائْتَمَنَكَ، وَلاَ تَخُنْ مَنْ خَانَكَ)، ومنه قوله تعالى: ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا﴾[3]، وتؤدّواْ بمعنى "تُوصِلُواْ، وأَدَّى فلانٌ ما عليه أداءً وتأدِيةً، أَوصَلَهُ، وقَضاهُ، والأَداءُ: ما يجبُ دفعُهُ، وإعطاؤُهُ لمستحقِّه كأداءِ الأمانة، والأصلُ (أَدَيَ)، وهُوَ إِيصَالُ الشَّيءِ إِلَى الشَّيءِ، أو وُصُولُهُ إِلَيهِ مِنْ تِلقَاءِ نَفسِه[4].

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 5/308.
(2) أَبو حَيّان، البَحْرُ المُحيط: 3/684.
(3) أحمد مختار عمر، معجم اللّغة العربيّة المعاصرة: 1/76.
(4) الخَليل، العَينُ، والرَّاغِب، المُفردات، والسَّمين، عُمْدَةُ الحُفَّاظ، والفيروزآباديّ، القاموس المحيط، وابْنُ فارِس، مَقاييسُ اللُّغَة: (أدى).

2) ﴿أَهۡلِهَا﴾: أصحابها، وأَهْلُ الرَّجُلِ: من يجمعه وإياهم نسب، أو دين، أو ما يجري، مجراهما، كعَشِيرَتِه وذَوي قُرباه وأخصِّ النَّاس بِهِ، وأهلُ البَيت: سُكانه، وأهلُ الإِسلَام: من يَدين بِهِ، ومن هَذَا يُقَال: فلَان أَهلُ كَذا أَو كَذَا، وأَهلُ الأَمَانَةِ هنا: هُم مُستَحِقُّوهَا من أصحابُ الأملاكِ والأَموالِ[1].

3) ﴿بِٱلۡعَدۡلِۚ﴾: العدلُ الاسْتقَامَةُ، والحكْمُ بالحقّ، وهُوَ ضدُّ الجور والظُّلم، وأصل (عَدَلَ) يَدُلُّ عَلَى استِوَاءٍ، والعَدلُ من النَّاس المَرضيُّ قولُهُ وحُكْمُهُ، يُقالُ: فلانٌ عَدْلٌ، وهُمْ عدولٌ، والمعنى هُنا: مَا قَامَ في النُّفوس أَنَّه مُستَقِيمٌ وحقٌّ لا زيادة فيه ولا نُقْصان[2]، قال الشّاعر:

إِنَّ الَّذِينَ قَتَلْتُمْ أَمْسِ سَيِّدَهُمْ *** لا تَحْسِبُواْ لِيَلَهُمْ عَنْ لَيْلِكُمْ نَامَا

أَدُّواْ الَّتِي نَقَصَتْ سَبْعِينَ مِنْ مِائَةٍ *** ثُمَّ ابْعَثُواْ حَكَمًا بِالْعَدْلِ حَكَّامَا[3]

4) ﴿نِعِمَّا﴾: نِعْمَ: ضِدُّ بِئْسَ، يُقال نَعِمَ يَنْعِمُ، وَيجوز يَنْعَمُ، فهُوَ ناعم ويَقُولُونَ: إِنْ فَعَلتَ ذَاكَ فبِهَا وَنِعْمَتْ؛ أَي: نِعْمَتِ الخَصلَةُ هِيَ، ونعم الشَّيءُ، صَارَ (نَاعِمًا) لَيِّنًا، وبَابُهُ سَهُلَ، وأصل (نَعِمَ) يَدُلُّ عَلَى تَرَفُّهٍ وطِيبِ عَيشٍ وصَلَاحٍ، والمعنى هنا: نِعْمَ شيءٌ يعظكم بِهِ[4].

5) ﴿يَعِظُكُم﴾: الوَعظُ: النُّصْحُ والتّذكيرُ بالعواقب، يقال وَعَظْتُهُ وَعْظاً وعِظَةً فاتَّعَظَ؛ أي: قبِلَ المَوْعِظَةَ، والوَعْظُ والعِظَةُ والمَوْعِظَةُ: تذكرتك الإِنسَانَ بِمَا يليّنُ قلبَه من ثَوَاب وعقاب، وأصل الوعظ التَّخويف، والرّجل يتَّعظ إِذا قَبِل الموعظة حِين يذَكَّرُ الخَير وَنَحْوه، مِمَّا يرقّ به قلبُه، والمعنى هنا: يذكِّركُم ويرشدُكم[5]، ومن أمثالهم المعروفة: (لا تعظيني وتعظعظي)، أي: اتّعظي أنت، ودعي موعظتي[6]، ويقال: "السّعيد من وعظ بغيره، والشّقيّ من اتّعظ به غيره "[7].

---

(1) الأَزْهَريّ، تَهْذيبُ اللُّغَة، والرَّاغِب، المُفردات، والسَّمين، عُمْدَةُ الحُفَّاظ، والزَّبيديّ، تاجُ العَروس: (أهل)، وابْنُ عاشور، التَّحْريرُ والتَّنْوير: 5/92.

(2) الخَليل، العَينْ، والأَزْهَريّ، تَهْذيبُ اللُّغَة، والجَوْهَريّ، الصِّحاح، وابْنُ فارِس، مَقاييسُ اللُّغَة، والزَّبيديّ، تاجُ العَروس، وجبل، المُعْجَمُ الِاشْتِقاقيّ: (عدل)، والمصطفوي، التَّحقيق في كلمات القرآن: 8/60.

(3) الأنباريّ، الزّاهر: 2/10.

(4) الأَزْهَريّ، تَهْذيبُ اللُّغَة، وابْنُ فارِس، مَقاييسُ اللُّغَة: (نعم).

(5) الأَزْهَريّ، تَهْذيبُ اللُّغَة، وابْنُ سِيدَه، المُحكَم، وابْنُ فارِس، مَقاييسُ اللُّغَة: (وعظ)، وأبو حيّان، البَحْرُ المُحيط: 2/492.

(6) الخليل، العين: (وعظ).

(7) الجوهريّ، الصحاح: (وعظ).

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

الأمـــرُ بـــأداء الأمانةِ والعدل في الـحـكـمِ، إرشادًا لما يصلحُ الدّين والدّنيا

إنَّ اللّهَ يأمرُكُم أن تُوصِلواْ كلَّ ما ائْتُمِنْتُم عليه إلى أصحابِه، ويأمرُكُم إذا قضيتم بين النَّاس أن تُقسِطواْ، ولا تميلُوا في الحكم، أوتَجُوروا في المعاملة، إنَّ اللّه نِعِمّا يُذَكِّرُكم به، ويُرْشِدُكم إليه، في كلِّ أحوالكم، فهو السّميعُ لأقوالكم، المُطَّلعُ على سائر أعمالكم، البصير بها، يَعلَمُ من أدَّى الأمانة فيجازيه، ومن خانها، فيبعده ويقصيه[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالةُ الاستئنافِ بعد الوعدِ والوعيدِ:

بيـان الـشَّـرائـع الموجِبَة للنَّعيم، والـصَّـارفَـةِ عـن الـعـذاب والجَحيم

فقوله تعالى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا﴾: استِئنَافٌ ابتِدَائِيٌّ، قُصِدَتْ مِنهُ الإِفَاضَةُ في بَيَانِ شَرَائِعِ العَدلِ والحُكم، ونِظَامِ الطَّاعَةِ، وذَلِكَ مِنَ الأَغرَاضِ التَّشرِيعِيَّةِ الْكُبرَى الَّتِي تَضَمَّنَتهَا هَذِهِ السُّورَةُ[2]، إذْ العدل أساس الدّين، ومرتكز التّشريع الّذي ينظّم الحياة، ويحقّق المقاصد والمناطات، ويضمن الحقوق والواجبات.

دلالةُ ذكرِ المُسنَدِ إليه بلفظ الجلالة الظّاهر (اللّه):

تـعـظـيـمُ شـأن المُسْنَدِ والاهتمامُ بـه، مسلك في البلاغة أصيل

لكأنَّ توشيح الكلام بالاسم الجليل ﴿ٱللَّهَ﴾، وتوكيده بلفظ ﴿إِنَّ﴾ في صدر الجملة، يُشْعِرُ بأنَّ شأن المُسْنَدِ - وهو الأمر - قد عَظُمَ بعظمةِ المسنَدِ إليه، فأمرٌ منه سبحانه لا بدَّ أن يكون عَظيمًا[3]، والآمر اللّه الّذي له صفات الكمال والجلال والجمال، حين يأمر بأداء الأمانات، هو قيّوم الأرض والسّموات، وحاجتنا نحن إلى الانتفاع بأوامره أكيدة، وهو مستغنٍ عن طاعتنا، فلا تزيد في ملكه،

(1) لَجْنَةٌ مِنْ عُلَماءِ الأَزْهَر، المُنْتَخَب، ص: 118، ونُخْبَةٌ مِنْ أَساتِذَةِ التَّفْسير، التَّفْسيرُ المُيَسَّر، ص: 87، وجَماعَةٌ مِنْ عُلَماءِ التَّفْسير، المُخْتَصَر، ص: 87.

(2) ابْنُ عاشور، التَّحْريرُ والتَّنْوير: 5/91.

(3) بناني، سورَةُ النِّساءِ دِراسَةٌ بَلاغيَّةٌ تَحْليليَّةٌ: 1/250.

ومنزّه عن التّأذّي بمعصيتنا، فلا تنقص من ملكوته، ولذلك كان التّعبير عند الأمر بأداء الأمانة بلفظ الجلالة ﴿ٱللَّهَ﴾، مفيدا في هذا السّياق البليغ.

سِرُّ مجيء الأمر على صيغة الإخبار المؤكّد:

بيانُ وجوبِ الامتثالِ لأمر الله، بأداء الأمانات، والاعتناءِ بشأنها

وإيرادُ الأمرِ على صورة الإخبارِ، من الفخامة وتأكيدِ وجوبِ الامتثالِ به، والدِّلالةِ على الاعتناء بشأنه، ما لا مزيدَ عليه؛ حيث أكّد الأمر بـ﴿إِنَّ﴾ والجملة الاسميّة، وهو خِطابٌ يعُمّ حكمُه المكلَّفين قاطبةً، كما أنَّ الأماناتِ تعمُّ جميعَ الحقوقِ المتعلِّقةِ بذِمَمِهم، من حقوق الله تعالى، وحقوقِ العبادِ، سواءً كانت فعليةً أو قوليةً أو اعتقاديةً[1]، فجُمْلَةُ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ﴾ صَرِيحَةٌ في الأَمرِ والوُجُوبِ، والخِطَابُ لِكُلِّ مَنْ يَصلُحُ لِتَلَقِّي هَذَا الخِطَابِ والعَمَلِ بِهِ، مِنْ كُلِّ مُؤتَمَنٍ عَلَى شَيءٍ، في أيّ مجال من مجالات الحياة، وهو ينصرف تذكيرا وأمرًا إلى كُلِّ مَنْ تَوَلَّى الحُكمَ بَينَ النَّاسِ في الحُقُوقِ العامّة والخاصّة[2].

دلالةُ الأمر بتأديّةِ الأمانةِ قبلَ الأمرِ بالتزام العَدلِ:

الاهتمامُ بما يُصْلِحُ النَّفسَ، مقدّم على إصلاح الغير

لَمَّا كان التَّرتيبُ الصَّحيحُ، أن يبدأ الإنسان بنفسه في جلب المنافع، ودفع المضارِّ، ثُمَّ يشتغل بغيره، فقد ذكر تعالى الأمر بالأمانة أوَّلا، ثُمَّ ذَكَرَ الأمر بالحُكْم بالحقِّ، وهو ترتيب حسن منطقيّ؛ لأنَّ أكثر لطائف القرآن مُودَعَةٌ في التَّرتيبات والرَّوابط[3]، فقد أمر الله تعالى بإيصال الحقوق المُتعلِّقة بِذِمَمِ الغَيْرِ إلى أصحابها، إثر الأمر بإيصال الحقوق المُتَعَلِّقَةِ بذممهم[4]، لهذا عَطَفَ الأمرَ بالعدل على الأمر بأداء الأمانة؛ فالواو للعطف في قوله ﴿وَإِذَا حَكَمۡتُم﴾، والظَّرف

(1) أَبو السُّعود، إرْشادُ العَقْلِ السَّليم: 2/192، والقاسميّ، محاسن التأويل: 3/177.
(2) ابْنُ عاشور، التَّحْريرُ والتَّنْوير: 5/91.
(3) الرَّازي، مفاتيح الغيب: 10/110، وأبو حيّان، البَحْرُ المُحيط: 3/684.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 3/62.

مُتَعَلِّقٌ بما بعد ﴿أَن﴾، وهو معطوف على ﴿أَن تُؤَدُّواْ﴾، والجارُّ مُتَعَلِّقٌ به، أو بمقدّر وقعَ حالًا من فاعله؛ أي: ويأمركم أن تحكُمُواْ بالإنصافِ والسَّويَّة، أو مُتَلَبِّسين بذلك إذا قضيتم بين النَّاس، ممَّن يَنْفُذُ عليه أمرُكم، أو يرضى بحكمِكُم[1].

سِرُّ الكناية عن العَدْلِ، بكَفِّ المعتدي وصدّ عدوانه:

مظاهرُ العدل، تتجلّى في نُصرة المظلوم، ورَدِّ الحقوق

شَاعَ إطلَاقُ العدل عَلَى إيصَالِ الحَقِّ إِلَى أَهلِهِ، ودَفعِ المُعتَدِي على مُستَحِقِّه، إطلَاقًا نَاشِئًا عَمَّا اعتَادَهُ النَّاسُ، من أَنَّ الجَورَ يَصدُرُ مِنَ الطُّغَاةِ الَّذِينَ لَا يَعُدُّونَ أَنفُسَهُمْ متساوين مَعَ عُمُومِ النَّاسِ، فأَطلَقَ لَفظَ العَدْلِ - الَّذِي هُوَ التَّسوِيَةُ - عَلَى تَسوِيَةٍ نَافِعَةٍ، يَحصُلُ بِهَا الصَّلَاحُ والأَمنُ، وذَلِكَ بسحب الشَّيءِ مِنْ يَدِ المُعتَدِي؛ لتَظهَرُ المساواة العادلة بَينَ المُتَنَازِعِينَ، فهُوَ كِنَايَةٌ غَالِبَةٌ، ومَظْهَرُ ذَلِكَ هُوَ الحُكْمُ لِصَاحِبِ الحَقِّ بِأَخذِ حَقِّهِ مِمَّنِ اعتَدَى عَلَيهِ؛ ولِذَلِكَ قَالَ تَعَالَى هُنَا: ﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِٱلْعَدْلِۚ﴾، ثُمَّ وقع التَوَسُّعُ في هَذَا الإطلَاقِ، حَتَّى صَارَ يُطلَقُ عَلَى إبلَاغِ الحَقِّ إِلَى صاحبه، ولَو لَم يَحصُلِ اعتِدَاءٌ ولَا نِزَاعٌ[2].

تقييدُ الأمرِ بالعدلِ، بحال الحُكم على النّاس:

العدلُ معظّم أثير، يُؤتمن عليه القُضاة وولاةُ الأمور

قُيِّدَ الأَمرُ بِالعَدلِ بِحَالَةِ التَّصَدِّي لِلحُكْمِ بينَ النَّاسِ، وأُطلِقَ الأَمرُ بِرَدِّ الأَمَانَاتِ إِلَى أَهلِهَا عَنِ التَّقيِيدِ؛ لِأَنَّ كُلَّ أَحَدٍ لَا يَخلُو مِنْ أَن تَقَعَ بِيَدِهِ أَمَانَةٌ لِغَيرِهِ، لَا سِيَّمَا عَلَى اعتِبَارِ تَعمِيمِ المُرَادِ بِالأَمَانَاتِ، الشَّامِلِ لِمَا يَجِبُ عَلَى المَرءِ إِبلَاغُهُ لِمُستَحِقِّهِ، كَمَا تَقَدَّمَ، بِخِلَافِ العَدْلِ؛ فإِنَّمَا يُؤمَرُ بِهِ وُلَاةُ الحُكْمِ بَينَ النَّاسِ، ولَيسَ كُلُّ أَحَدٍ أَهلًا لِتَوَلِّي ذَلِكَ، فتِلكَ نُكتَةُ قَولِهِ: ﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾[3].

(1) الآلوسي، روح المعاني: 3/62.
(2) ابْنُ عاشور، التَّحْريرُ والتَّنْوير: 5/94.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 5/94.

دلالةُ الفَصلِ بعد إيراد الأمربالعدل، والحُكم وفقه بين المتخاصمين:

تقريرُ المضمونِ السَّالف، والحثُّ على حُسنِ الامتثال

فقوله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ﴾: جملةٌ مُستأنَفَةٌ مقرِّرة لمضمون ما قبلها، لكمال الاتّصال بين الجملتين، وهذه الجملة مُتضمِّنة مزيدًا من اللُّطف بالمخاطَبين المدعوين إلى المسارعة للانصياع لأمر الله بالعدل، وقد تمّ إظهار الاسم الأعظم ﴿ٱللَّهَ﴾ في السّياق، لتربيّة المهابة، وهو اسم ﴿إِنَّ﴾ منصوب على التّعظيم، وجملة ﴿نِعِمَّا يَعِظُكُم﴾ خبرُها، و﴿يَعِظُكُم﴾ صفةُ موصوفٍ محذوف، وهو المخصوص بالمدح؛ أي: (نِعمَ الشَّيءُ شيءٌ يَعِظُكُمْ به)[1]، ويمكن أن تكون الجملةُ استئنافًا بيانيًّا جوابًا عن سؤال مقدّر، فُهم بعد ما تقدّم، فجُملَةُ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ﴾: وَاقِعَةٌ مَوقِعَ التَّحرِيضِ على امتِثَالِ الأَمرِ، فكَانَتْ بِمَنزِلَةِ التَّعليلِ، وَأَغنَتْ ﴿إِنَّ﴾ في صَدرِ الجُملَةِ عَنْ ذِكْرِ فَاءِ التَّعقِيبِ، كَمَا هُوَ الشَّأْنُ إِذَا جَاءَتْ ﴿إِنَّ﴾ للاهتمام بالخبر دون التَّأْكِيد[2].

سِرُّ جمع الحُكْمَينِ السَّابقين في صفةٍ واحدةٍ:

بيان وِحْدَةِ المصدر في الحكم وتَضَمُّن الأمانة للعدل

جَمَعَ الحقُّ تبارك وتعالى بين أداء الأمانات، والعدل في الحكومات[3] في صفة واحدة، وهي قوله تعالى: ﴿نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ﴾، والعبارة منصرفة إلى كلّ ملمح منهما، والغرضُ البلاغيُّ من هذا الجمع بيّنٌ واضحٌ؛ حيث إنَّ الأمرين وإنْ يبدوا متفرقَيْن، فإنَّ مؤدّاهما واحدٌ؛ فالحُكْمُ بالعدل لونٌ من أداء الأمانات إلى أهلها؛ أي: إعطاء كلّ ذي حقٍّ حَقَّهُ، سواء كان المُعْطَى ماديًا أو معنويًا؛ فقوله ﴿نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ﴾؛ أَي: نِعْمَ شَيءٌ يَعِظُكُمْ بِهِ، أَو نِعْمَ الَّذِي يَعِظُكُمْ بِهِ، والمَخصُوصُ بِالمَدحِ مَحذُوفٌ؛ أَي: نِعْمَ شَيءٌ يَعِظُكُمْ بِهِ

(1) الآلوسي، روح المعاني: 3/63.
(2) ابْنُ عاشور، التَّحريرُ والتَّنْوير: 5/96.
(3) أَبو السُّعود، إِرْشادُ العَقْلِ السَّليم: 1/540.

ذَاكَ، وهُوَ المأمور به مِنْ أَدَاءِ الأَمَانَاتِ، والحُكْمِ بِالعَدلِ[1]، وذلك في غاية البلاغة والتّناسق وأداء المعنى المراد من السّياق.

فائدةُ التَّذييلِ بذكر السَّمعِ والبَصَرِ بعد الأمر والإرشاد:

لَمَّا أَمَرَ اللّه تعالى في هَذِهِ الآيَاتِ بِالحُكم بالعَدلِ وبأَدَاءِ الأَمَانَةِ، أردفها بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾؛ أَي: إِذَا حَكَمتَ بِالعَدلِ، فهُوَ يَسمَعُ ذَلِكَ الحُكْمَ، وإِنْ أَدَّيتَ الأَمَانَةَ، فهُوَ بَصِيرٌ يُبصِرُ ذَلِكَ، ولَا شَكَّ أَنَّ هَذَا أَعظَمُ أَسبَابِ الوَعدِ لِلمُطِيعِ، وأَعْظَمُ أَسبَابِ الوَعِيدِ لِلعَاصِي، ثمّ إنّه كُلَّمَا كَانَ احتِيَاجُ العَبدِ أَشَدَّ، كَانَت عِنَايَةُ اللّه أَكمَلَ، والقُضَاةُ والوُلَاةُ قَدْ فَوَّضَ اللّه إِلَى أَحكَامِهِم مَصَالِحَ العِبَادِ، فكَانَ الاهتِمَامُ بِحُكمِهِم وَقَضَائِهِم أَشَدَّ، فهُوَ سُبحَانَهُ مُنَزَّهٌ عَنِ الغَفلَةِ والسَّهوِ وأن يعزب عنه إدراك المُبصَرَاتِ، أوالإحاطة بالمَسمُوعَاتِ، فلَمَّا كَانَ هَذَا المَوضِعُ مَخصُوصًا بِمَزِيدِ العِنَايَةِ، قَالَ في خَاتِمَةِ هَذِهِ الآيَةِ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾، فحسُنَ التّوافق بين المقاطع والمطالع، وتبيّن للمتدبّرالحصيف أهميّة ما في هذه الجملة البليغة من وعد ووعيد[2].

بيان الوَعْدِ والوعيد، لزرع المهابةِ والرَّقابةِ في قلوب المُخاطَبِينَ

جملة التّعليل وبلاغةُ مؤكّداتها في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾:

هذه الجملةُ تعليليّةٌ؛ ولذا فهي استئنافٌ بيانيٌّ، جوابًا عن سؤال مقدّر: لمَ يفعل هذا؟؛ فيكون الجواب: (لأنّه كان سميعًا بصيرًا)، وقد أُكّدت الجملةُ بـ ﴿إِنَّ﴾، وباسميّة الجملة، ومجيءِ ﴿كَانَ﴾ الّتي تجرّدت هنا عن الزّمان، لتدلّ على أنّ هذين الوصفين قديمان، قِدَمَ ذاتِه تعالى، فهذا وصفُهُ منذ كان، لم يتغيّر عمّا كان، وهو سميع بمن أدّى الأمانة وبمن خانها، بصير بمن حكَم بالعدل وبمن جار، فيجازي كلاًّ بعمله. وفي هذا وعد للطّائعين، ووعيد للعاصين[3].

اللــه تعالى لا تطرأ عليه الأغيار، ولا يؤثّر فيه تعاقب اللّيل والنّهار

(1) الرّازي، مفاتيح الغيب: 10/111.
(2) الرّازي، مفاتيح الغيب: 10/111، والآلوسّي، روح المعاني: 3/63.
(3) القطّان، تيسير التفسير: 1/305.

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الأمانة والوديعة:

الأمانةُ: ضدُّ الخيانة، وهي كُلُّ حقٍّ لَزِمَ أداؤه وحِفظُهُ[1]، وكلُّ ما افتُرِضَ على العباد فهو أمانةٌ، كالصَّلاة والزّكاة والصّيام وأداء الدَّيْن، وأَوْكَدُها الودائع[2]، فالأمانةُ اسمٌ لما يُؤمَّن عليه الإنسان، قال تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأحزاب: 72]، والوديعةُ: واحدَةُ الودائع، وأَوْدَعْتُهُ مالًا: دفعتُه إليه، وهي المالُ المدفوعُ إلى من يحفظه بلا عِوَضٍ، والإيدَاعُ تَوكِيلٌ في حِفظِهِ[3]، فبين الوديعةِ والأمانة عمومٌ وخُصوصٌ؛ لأنَّ الوديعةَ هي الاستحفاظُ قصدًا؛ فتكون خاصَّةً لاشْتِرَاطِ قصدِ الحِفظ فِيهَا، بِخِلَاف الأَمَانَة فهي عامَّة[4].

الأهل والآل:

الآلُ: خاصّةُ الرَّجل من جِهَةِ القرابة أو الصُّحْبة، فيقال آلُ الرَّجل لأهله وأصحابه، أمَّا الأهلُ فيكون من جهة النَّسب، كأهل الرَّجل لقرابته الأدنين، ويكون للاختصاصِ كأهل البصرةِ وأهل العلم، ولا يقال: آلُ البصرة وآل العلم[5]، ثمَّ إنّ لفظَ الآل مختصٌّ بأولي الخَطَرِ، كالأنبياء والملوك ونحوهم، فيُقال: آلُ الرَّجُلِ له نفسه، ومنه قوله تعالى: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ ءَالِ يَاسِينَ ١٣٠﴾[6] [الصَّافات: 130]، وآله لأهله وأقاربه، كقول القائل: (اللهمَّ صلِّ على محمّدٍ وعلى آل محمّدٍ)، وآله لمن تَبِعَه كقوله: ﴿أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ٤٦﴾ [سورة غافر: 46]، وأمَّا إن ذُكِرَ الرّجلُ، ثمّ ذُكِرَ آلُه لم يدخل فيهم[7]، ولا يضافُ (آل) إلى الأرذالِ، ولا المكان والزَّمان، ولا إلى الحَقِّ ﷻ، فلا يُقال آل الحائِكِ، وآل مِصْرَ، وآل زَمانٍ، وآل اللّه تعالى؛ بخلاف الأهل في جميع ما ذُكِرَ[8]، وَيكون الْآل أَتبَاع الرّجل، وَأهل دينه، وَأمّا أهل الرّجل فأهل بَيته[9]، ولذلك قال تعالى: ﴿يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ [هود: 46]، أي ليس من أهل دينك وولايتك، وهذا قول الجمهور[10].

---

(1) الشَّوْكانّي، فَتْحُ القدير: 1/288.
(2) الكَفَوِيّ، الكُلِّيات، ص: 186.
(3) ابن النَّجار، مُنْتهى الإرادات: 3/250.
(4) الكَفَوِيّ، الكُلِّيات، ص: 186.
(5) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 281.
(6) حسب قراءة نافع وابن عامر ويعقوب، ينظر: ابن الجزري/ النشر، 360/2.
(7) ابن القيِّم، جلاء الأفهام، ص: 209.
(8) التّهانويّ، كشّاف اصطلاحات الفنون: 1/72.
(9) عيّاض، مشارق الأنوار: 1/50.
(10) نشوان الحِميري، شمس العلوم: 1/345.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ٥٩﴾ [النّساء: 59]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

توجيهُ المحكومين للطّاعة والتّسليم، بعد إرشاد الحاكمين للوفاء والعدل

لمَّا أمر اللّه سبحانه بأداء الأمانات، ورغّب في العدل في المعاملات، حيث أمر الرُّعاة والولاة، بأخذ أمانة المسؤوليّة بحقّها، والمبادرة إلى العدل في الرَّعيَّة، أمرفي هذه الآية عموم النّاس، بطاعته وامتثال أوامره، ثُمَّ بطاعة رسوله واتّباعه، ناهيك عن طاعة الأمراء من أولي الأمر، ممّن أنيطت بهم أمانة الحكم، وجعل ذلك شرطا في الإيمان باللّه واليوم الآخر، و" ذلك الرّدُّ إلى الكتاب والسّنة، خير لكم من التّنازع والقول بالرّأي، وأحسن عاقبة ومآلا"[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ﴾: هم الرّؤساء والعلماء، وللمفسّرين أقوال فيه كثيرة[2]، ونقصد بأُولي الأَمر مِنَ المُسلِمِينَ، مَنْ يَقُومُ بشأْنهم في أَمر دِينِهِم، وجَمِيعِ ما أَدّى إِلى صلاحهم، وكُلُّ مَنْ وَلِيَ أَمرَ آخَرَ، فهُوَ وَلِيُّهُ، وأصل (وليّ) يدلُّ على القرب، والأمرُ: الشَّأن؛ فأُولُو الأَمرِ مِنَ الأُمَّةِ، ومِنَ القَومِ، هُمُ الَّذِينَ يُسنِدُ النَّاسُ إِلَيهِم تَدبِير شؤونهم ويَعتَمِدُونَ في ذَلِكَ عَلَيهِمْ من أمراء وعلماء[3]، وفي القواميس المعاصرة، أَنّ أولي الأمر: الرُّؤساء ومن بأيديهم الحلّ والعقد، وعندهم الأمر والنَّهي، ولهم السّلطة الكاملة على من يحكمونهم[4].

(1) نخبة من أساتذة التّفسير، التّفسير الميسّر، ص: 87.
(2) الزّبيديّ، تاج العروس: 28/41.
(3) ابْنُ مَنْظور، لِسَانُ العَرَب: (إلل)، والرَّاغِب، المُفْردات: (أمر)، وابْنُ فارِس، مَقاييسُ اللُّغَة: (ولي)، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 5/98.
(4) أحمد مختار عمر، معجم اللغة العربية المعاصرة: (أمر).

2) ﴿تَنَٰزَعۡتُمۡ﴾: اختلفتم، والتَّنازُعُ: التَّجاذُبُ، كالمُنَازَعَةِ، ويُعَبَّرُ بهِمَا عَن التَّخَاصُم والمُجَادَلَةِ، وأصل (نزع)يَدُلُّ عَلَى قَلع شَيءٍ، ونَزَعْتُ الشَّيءَ مِنْ مَكَانِهِ نَزْعًا قلعته، والمعنى هنا: تَجَادَلتُمْ وَاخْتَلَفتُم[1]، وتنازَع الْقَوْم: اخْتَصَمُوا ولتعرفنَّ أَيّنَا أَضْعَف مِنزَعة ومَنْزَعة: أَي رَأيا وتدبيرا[2]، والمعنى لهذا اللّفظ في سياق الآية: أنّه " أمر بردّ كلّ ما تنازع النّاس فيه من أصول الدّين وفروعه إلى اللّه وإلى رسوله ... إمّا بصريحهما أو عمومهما؛ أو إيماء، أو تنبيه، أو مفهوم، أو عموم معنى يقاس عليه ما أشبهه، لأن كتاب اللّه وسنة رسوله عليهما بناء الدين، ولا يستقيم الإيمان إلا بهما"[3].

3) ﴿تَأۡوِيلًا﴾: التَّأويلُ من الأَوْلِ؛ أي: الرُّجوعُ إلى الأصلِ، ومنه المَوْئِلُ للموضع الّذي يُرجَعُ إليه، وَآلَ يَؤُولُ، أَيْ: رَجَعَ. يُقَالُ: "أَوَّلَ الحُكْمَ إِلَى أَهلِهِ"؛ أَي: أَرجَعَهُ ورَدَّهُ إِلَيهِمْ، وأصل (أوّل) يَدُلُّ على الانتهاء، والمعنى هُنا: أحسنَ عاقبةً ومرجعًا[4]، " قال ابن الكمال: التّأويل: صرف الآية عن معناها الظّاهر إلى معنى تحتمله، إذا كان المحتمل الّذي تصرف إليه موافقا للكتاب والسّنة، كقوله: يخرج الحيّ من الميّت، إن أراد به إخراج الطّير من البيضة، كان تأويلا، أو إخراج المؤمن من الكافر، والعالم من الجاهل، كان تأويلا"[5].

الأمـــر بطاعة اللـه ورسولـه وأولي الأمـــر، وبالاحتكام إلى الله ورسوله في الاختصام

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

يا أَيُّها الّذين صدَّقواْ اللّهَ وعمِلواْ بشرعه واتبعوا رسوله، استجيبواْ لأوامر اللّه تعالى ولا تعصوه، واستجيبواْ للرَّسول ﷺ فيما

(1) الزَّبيديّ، تاج العروس، والرَّاغِب، المُفْردات، وابْنُ فارِس، مَقاييسُ اللُّغَة: (نزع).
(2) ابن سيده، المحكم: (نزع).
(3) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن: 1/183.
(4) الرَّاغِب، المُفْردات، والسَّمين، عُمْدَةُ الحُفَّاظ، وابْنُ فارِس، مَقاييسُ اللُّغَة: (أول)، وابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 130، والنَّيْسابوريّ، إيجازُ البَيان: 1/246.
(5) الرَّاغِب، المُفْردات، والسَّمين، عُمْدَةُ الحُفَّاظ، وابْنُ فارِس، مَقاييسُ اللُّغَة: (أول)، وابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 130، والنَّيْسابوريّ، إيجازُ البَيان: 1/246.

جاء به من الحقِّ، وأطيعواْ الّذين يَلُونَ أمركَم من المسلمين في غير معصيةِ اللّه، فإن اختلفتم في شيءٍ بينكم فارجعُواْ فيه إلى كتاب اللّه وسُنَّة نَبيِّه ﷺ، إن كنتم تؤمنون باللّه وبيومِ الحسابِ، فإنّ ذلك الرُّجوعَ إلى الكتاب والسُّنَّة خَيْرٌ من التَّمادي في الخلاف والقول بالرَّأي، وأحسنُ عاقبةً ومآلًا[1].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

سِرُّ النِّداء لأهل الإيمان بقوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾:

تكريمُ المؤمنين وتحفيزهم لِتَقَبُّلِ الأوامر والإقبال عليها

خُصَّ الّذين آمنواْ بهذا النِّداء الكريم على وجه التَّعظيم والتَّكريم؛ لِيَعلَموا أنَّ تَمييزهم بهذا سَبَبُهُ هذه الطَّاعة، فيَتَنَبَّهواْ لها ويُقبلواْ عليها، فالطَّاعة عُنوان الإيمان[2]، والنّداء بالإيمان محض شفقة وترفّق، من جناب اللّه الرّحيم بعباده، وربط للأحكام المدرجة بالإيمان الرّاسخ في قلوب المؤمنين، مع الإشارة إلى أنّ مقتضيات الطّاعة للّه ورسوله وأولي الأمر، قد تكتنفها صعوبات وعراقيل تخالطها عوائق وعقابيل، لا يطيق المصابرة عليها وتجاوزها إلّا من أوتي إيمانا راسخًا، ويقينا صادقًا، يثبت به على النّهج المرسوم في هذه الآية.

دلالةُ الأمر بالطَّاعةِ، ومغزى إضافتها إلى الاسمِ الأعظم:

الإشـــارةُ إلى وجوبِ الطَّاعة، وأهميّة المُداومة عليها

فقد أَضَافَ لَفظَ الطَّاعَةِ إلى الاسم الأعظم ﴿ٱللَّهَ﴾، وهَذَا يَقتَضِي أَنَّ وُجُوبَ طاعَته عَلَينَا، إنَّمَا كَانَت لِكَونِنَا عَبِيدًا لَهُ، ولِكَونِهِ إلَهًا، فثَبَتَ مِنْ هَذَا الوَجهِ أَنَّ المَنشَأَ لِوُجُوبِ الطَّاعَةِ هُوَ العُبُودِيَّةُ والرُّبُوبِيَّةُ، وذَلِكَ يَقتَضِي دَوَامَ وُجُوبِ الطَّاعَةِ عَلَى جَمِيعِ المُكَلَّفِينَ إِلَى قِيَامِ السّاعة[3].

(1) لَجْنَةٌ مِنْ عُلَماءِ الأَزْهَر، المُنْتَخَب، ص: 119، ونُخْبَةٌ مِنْ أَساتِذَةِ التَّفْسير، التَّفْسيرُ المُيَسَّر، ص: 87، وجَماعَةٌ مِنْ عُلَماءِ التَّفْسير، المُخْتَصَر، ص: 87.

(2) ابن عطية، المُحرَّر الوجيز، وبناني، سورَةُ النِّساءِ دِراسَةٌ بَلاغيَّةٌ تَحْليليَّةٌ: 1/309.

(3) الرَّازي، مفاتيح الغيب: 10/117.

سِرُّ تكرار الأمر بالطَّاعةِ، في قوله: ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾:

الاهتمامُ بشأن النَّبي الأكرم، وتعظيم سُنَّتِهِ وشأنه

أعاد السيّاق الفعل﴿أَطِيعُواْ﴾ في قوله: ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾، مع أنَّ طاعة الرَّسول مُقترنةٌ بطاعةِ الله تعالى، وأَنَّ حَرفَ العَطفِ يُغنِي عَنْ إِعَادَتِهِ اعتناءً بِشأنه ﷺ، وإظهَارًا لِلاهتِمَام بِتَحصِيلِ طَاعَةِ الرَّسُولِ، وقَطعًا لِتَوَهُّم أنَّه لا يجب امتثال ما ليس في القرآن، فهذا العطف يَدُلُّ عَلَى وُجُوبِ مُتَابَعَةِ الكِتَابِ والسُّنَّة، وفيه إيذان بأنَّ للنَّبيِّ ﷺ استقلالًا بالطَّاعة، لم يَثبُتْ لغيره، لِتَكُونَ مرتبته فيها، أَعلَى مَرتَبَةً مِنْ طَاعَةِ أُولِي الأَمرِ، ومن ثمّ لم يُعَدُ في قوله سبحانه: ﴿وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ﴾، إيذانًا بأنَّهم لا استقلالَ لهم فيها استقلالَ الرَّسول[1] ﷺ، وفيه أيضًا تَنْبيهٌ عَلَى وُجُوبِ طَاعَتِه فِيمَا يَأْمُرُ بِهِ، ولَوْ كَانَ أَمرُهُ غيرَ مُقتَرِنٍ بِقَرَائِنِ تَبلِيغِ الوَحي؛ لِئَلَّا يَتَوَهَّمَ السَّامِعُ أَنَّ طَاعَةَ الرَّسُولِ المَأْمُورَ بِهَا، تَرجِعُ إِلَى طَاعَةِ اللَّهِ فِيمَا يُبَلِّغُهُ عَنِ اللَّهِ دُونَ مَا يَأْمُرُ بِهِ فِي غَيرِ التَّشْرِيعِ، فَإِنَّ امْتِثَالَ أَمْرِهِ كُلِّهِ خَيرٌ[2].

سرّ إعادةِ العاملِ مع ﴿ٱلرَّسُولَ﴾ لا مع غيره، في قوله: ﴿وَأَطِيعُواْ﴾ ﴿وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ﴾:

طاعة أولي الأمر تكون في المعروف لا في المنكر

فقد أمرَ الله ﷻ سائرَ النَّاسِ بطاعتهم، لكنْ ليس مُطلقًا، بل ضمن طاعة الله تعالى، وطاعة رسوله ﷺ، والنُّكْتَة في إِعَادَة العَامِل مع لفظ الرَّسُول دُونَ أُولِي الأَمر، مَعَ أَنَّ المُطَاع في الحَقِيقَة هُوَ اللَّه تَعَالَى، هي أن الَّذِي يُعرَف بِهِ مَا يَقَع بِهِ التَّكلِيف هُمَا القُرآن والسُّنَّة، فكَأَنَّ التَّقدِير: أَطِيعُوا اللَّه فِيمَا نَصَّ عَلَيكُم في القُرآن، وأَطِيعُوا الرَّسُول فِيمَا بَيَّنَ لَكُم مِنْ القُرآن ومَا يَنْصُّهُ عَلَيكُم مِن السُّنَّة. أَوْ المَعنَى: أَطِيعُوا اللَّه فِيمَا يَأْمُركُم بِهِ مِنْ الوَحي المُتَعَبَّد بِتِلَاوَتِه،

(1) الآلوسي، روح المعاني: 3/63، والرَّازي، مفاتيح الغيب: 10/112، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 5/97.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 5/97.

وأَطِيعُوا الرَّسُول فِيمَا يَأْمُركُم بِهِ مِنْ الوَحي الَّذي لَيسَ بِقُرآنٍ. قَالَ الطِّيبِيُّ: أَعَادَ الْفِعل في قَوْله ﴿وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ إِشَارَة إِلَى استِقلَال الرَّسُول بِالطَّاعَةِ؛ وَلَمْ يُعِدهُ في أُولي الْأَمْر، إِشَارَة إِلَى أَنَّهُ يُوجَد فِيهِم مَنْ لَا تَجِب طَاعَته، ثُمَّ بَيَّنَ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ﴾؛ كَأَنَّهُ قِيلَ فإِنْ لَم يَعمَلُواْ بِالحَقِّ فلَا تُطِيعُوهُمْ، ورُدُّوا مَا تَخَالَفتُمْ فِيهِ إِلَى حُكم اللَّه ورَسُوله[1]، ولأجل هذا جاء تَصْديرُ ﴿فَإِن﴾ الشَّرطيَّة بالفاء؛ لتَرتُّبها على ما قبلها، فإنَّ بيانَ حكمِ طاعةِ أولي الأمرِ عند موافقتِها لطَاعة اللّه تعالى، وطاعة الرَّسول ﷺ، يستدعي بيانَ حكمِها عند المخالفةِ؛ أي: إن اختلفتُم أنتُم وأولواْ الأمرِ منكم، في أمرٍ من أمورِ الدِّين، فارجِعُوا فيه إلى كتاب اللّه[2].

سرُّ الاستعارة التَّصريحيَّة في قوله تعالى﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ﴾:

أَطلَقَ السّياق لفظ (التَّنَازُع) على الاختِلَافِ الشَّدِيدِ بين المؤمنين، عَلَى طَرِيقِ الاستِعَارَةِ؛ إذ إنَّ أصل المنازعة الجذب باليد، ثم استعيرت في التّنازع في الكلام؛ لِأَنَّ الاختِلَافَ الشَّدِيدَ يُشبِهُ التَّجَاذُبَ بَينَ شَخصَينِ، فاستعير لفظ ﴿تَنَٰزَعۡتُمۡ﴾ لـ(اختلفتم)[3]؛ لما في لفظ المستعار من صورة حسّية تُنَفِّرُ المتنازعين منه[4]، وَغَلَبَ هذا المعنى في القرآن الكريم، حَتَّى سَاوَى الحَقِيقَةَ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ وَٱصۡبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ٤٦﴾ [الأنفال: 46]، وقوله تعالى: ﴿فَتَنَٰزَعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجۡوَىٰ ٦٢﴾ [طه: 62].

التَّحذيرُ من الاختلاف والتَّنفير منه، للحفاظ على وحدة الأمّة والدّين

دلالةُ ضمير الجمعِ في لفظة ﴿تَنَٰزَعۡتُمۡ﴾:

ضَمِيرُ ﴿تَنَٰزَعۡتُمۡ﴾ هنا، رَاجِعٌ إلى الَّذِينَ آمَنُواْ، فيَشمَلُ كُلَّ مَنْ يُمكِنُ بَينَهُمُ التَّنَازُعُ، وهُم مَنْ عَدَا الرَّسُولَ ﷺ؛ إِذْ لَا يُنَازِعُهُ

بيانُ المُختلفين وحصول التَّنازع في مختلف طبقات الأمّة

(1) ابن حجر، فتح الباري: 1/111.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/193.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/193.
(4) بناني، سورَةُ النِّساءِ دِراسَةٌ بَلاغيَّةٌ تَحليليَّةٌ: 2/432.

المُؤمِنُونَ، فَشَمَلَ تَنَازُعَ العُمُوم بَعضِهِمْ مَعَ بَعضٍ، وشَمَلَ تَنَازُعَ وُلَاةِ الأُمُورِ بَعضِهِم مع بَعضٍ، كَتَنَازُعِ الوُزَرَاءِ مع رئيسهم، أَو بَعضِهِم مع بَعضٍ، وشَمَلَ تَنَازُعَ الرَّعِيَّةِ مَعَ وُلَاةِ أُمُورِهِم، وَشَمَلَ تَنَازُعَ العُلَمَاءِ بَعضِهِم مَعَ بعضٍ، في شؤون عِلْمِ الدِّينِ[1]، وذكر الثَّعالبيّ أنّ "معنى التنَازُعِ، أنَّ كلَّ واحدٍ ينتزعُ حُجَّة الآخَرِ ويُذْهِبُهَا"[2]، وذكر الشّوكانيّ أنّ "المُرَاد: الاخْتِلَافُ وَالمُجَادَلَةُ، وَظَاهِرُ قَوْلِهِ: فِي شَيْءٍ يَتَنَاوَلُ أُمُورَ الدِّينِ وَالدُّنْيَا، وَلَكِنَّهُ لَمَّا قَالَ: فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ، تَبَيَّنَ بِهِ أَنَّ الشَّيْءَ المُتَنَازَعَ فِيهِ يَخْتَصُّ بِأُمُورِ الدِّينِ، دُونَ أُمُورِ الدُّنْيَا"[3].

سِرُّ تنكيرِ لفظ (شَيْءٍ) المُتنازَع عليه، في قوله: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ﴾:

إفادةُ العمومِ في المُتنازَع عليه، بعد بيانِ عموم المُتنازِعين

إنّ لَفظَ ﴿شَيۡءٖ﴾ نَكِرَةٌ مُتَوَغِّلَةٌ في الإبهَام، فهُوَ في حَيِّزِ الشَّرطِ يُفِيدُ العُمُومَ؛ أَي: في كُلِّ شَيءٍ، فيَصدُقُ بالتَّنَازُعِ في الخُصُومَةِ عَلَى الحُقُوقِ، ويَصدُقُ بالتَّنَازُعِ في اختلَافِ الآرَاءِ عِندَ المُشَاوَرَةِ أَو عِنْدَ مُبَاشَرَةِ عَمَلٍ مَا، كَتَنَازُعِ وُلَاةِ الأُمُورِ في إجرَاءِ أَحوَالِ الأُمَّةِ، ولَقَدْ حَسَّنَ مَوْقِعَ كَلِمَةِ ﴿شَيۡءٖ﴾ هُنَا، تَعْمِيمُ الحَوَادِثِ وأَنوَاعِ الاختِلَافِ، فَكَانَ مِنَ المَوَاقِعِ الرَّشِيقَةِ، وعُمُومُ لَفظِ شَيءٍ في سِيَاقِ الشَّرْطِ، يَقتَضِي عُمُومَ الأَمرِ بالرَّدِّ إِلَى اللَّهِ والرَّسُولِ، وعُمُومُ أَحوَالِ التَّنَازُعِ، تَبَعًا لِعُمُومِ الأَشيَاءِ المُتَنَازَعِ فِيهَا[4].

سِرُّ استعارة لفظِ (الرَّد) إلى معنى (التَّحاكم):

وجوبُ الرُّجوع إلى تفويض الحُكمِ لله ورسوله عند التَّنازُع

جاء الأمرُ بالرَّد للّه ولرسوله ﷺ عند الاختلاف والتَّنازع؛ على سبيل الوجوبِ والإلزام، لأنَّ في الرُّجوع إليهما حَسْمًا لمادَّة الخلاف، وقَطْعًا لسُبُلِ التَّنازع، والرَّدُّ هُنَا مَجَازٌ في التَّحَاكُم إِلَى الحَاكِم، وفي تَحكِيمِ ذِي الرَّأْيِ عِندَ اختِلَافِ الآرَاءِ، وحَقِيقَتُهُ إِرجَاعُ الشَّيءِ إِلَى

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 5/99.
(2) الثَّعالبيّ، الجواهر الحسان: 2/255.
(3) الشّوكانّي فتح القدير: 1/556.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 5/100.

صَاحِبِهِ مِثلَ العَارِيَةِ والمَغصُوبِ، فأصل الردِّ الإرجاعُ، ثُمَّ أُطْلِقَ عَلَى التَّخَلِّي عَنِ الانتِصَافِ وعَدَمِ تَصوِيبِ الرَّأيِ بِتَفوِيضِ تَصوِيبِهِ وتفويض الحكم إِلَى الحَاكِمِ، وهو هنا الكتابُ والسُّنَّةُ، فإطلاق الرَّدِّ على التَّحاكمِ اسْتِعَارَة؛ لأنَّ التَّخلي عن الانتصاف وتَرْكِ الرأي عند الاختلاف يُشْبِهُ الإرجاع من هذه النَّاحية[1].والرَّدُّ إلى اللَّه هو النَّظَرُ في كتابِهِ العزيزِ، والرّدّ إلى الرّسول هو سؤاله ﷺ في حياتِهِ، والنَّظَرُ في سُنَّته بعد وفاته، هذا قولُ مجاهد وغيرِهِ"[2]، وقد" أمر اللّه في هذه الآية الكريمة، بأنّ كلّ شيء تنازع فيه النّاس، من أصول الدّين وفروعه، أن يرد التّنازع في ذلك إلى كتاب اللّه، وسنّة نبيّه ﷺ، لأنّه تعالى قال: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ﴾ [النّساء: 80]، وأوضح هذا المأمُورَ به هنا بقوله: ﴿وَمَا ٱخۡتَلَفۡتُمۡ فِيهِ مِن شَيۡءٖ فَحُكۡمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۚ﴾ [الشّورى: 10]»[3]، وهذه الآيةُ اشتملتْ على أكثرِ علْمِ أصول الفقه؛ فالكِتَابُ يَدُلُّ عَلَى أَمرِ اللَّه، ثُمَّ نَعلَمُ مِنْهُ أَمرَ الرَّسُولِ لَا مَحَالَةَ، والسُّنَّةُ تَدُلُّ عَلَى أَمرِ الرَّسُولِ، وأُولِي الأَمرِ مِنكُمْ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ إِجمَاعَ الأُمَّةِ حُجَّةٌ، وقوله: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾، يدلُّ على أنَّ القياسَ حُجّةٌ[4]، ومعنى ﴿فَرُدُّوهُ﴾ في الآية: فردّوه "إلى النّصوص أوّلا، فإن لم توجد النّصوص، فإلى المبادئ الكليّة العامّة، والمقاصد الشّرعيّة الثّابتة الّتي تغطّي كلّ جوانب الحياة الرّئيسيّة، وفي ذلك احترام للعقل، ومنحه مكانًا للعمل، وهي مهمّة العلماء العاملين والفقهاء المجتهدين "[5].

دلالةُ حذف جواب الشَّرطِ في قوله: ﴿إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ﴾:

تحريضُ المؤمنين على الامتثال وترك المخالفة

فقوله ﴿إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ﴾: مُتَعَلِّقٌ بالأمر الأخير الوارد في محلِّ النِّزاع؛ إذ هو المُحتاج إلى التَّحذير عن المخالفة، وجواب الشَّرط محذوفٌ، ثقة بدلالة المذكور عليه، والكلام على حدِّ - إن كنت ابني فَأَطِعْني - فإنَّ الإيمان باللّه، يُوجِبُ امتثال أمره، وكذا الإيمان باليوم الآخر، لما فيه من العقاب على المخالفة، ذلِكَ؛

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 5/100 (بتصرّف).
(2) الثّعالبيّ، الجواهر الحسان: 2/255.
(3) الشّنقيطيّ، أضواء البيان: 1/244.
(4) الرّازي، مفاتيح الغيب: 16/166.
(5) صافي، الجدول: 5/73.

أي: الرَّدُّ المأمورُ به العظيمُ الشّأن، يُحتَمَلُ أَنْ يَكُونَ عَائِدًا على جميع ما سبق على سبيل التَّفريع[1]، ويكون فيه بعضُ وعيدٍ؛ لأنَّ فيه جزاءَ المسيء العاتي[2]، ففي هذا الشَّرط تَحريضٌ وتَحذيرٌ مَعًا، لِأَنَّ الإيمَانَ بِاللَّهِ واليَومِ الآخِرِ، وازعان يزعان عَن مُخَالَفَةِ الشَّرْعِ[3]، وعبّر بـ﴿إِن﴾ في الشَّرطِ هنا للإشارة إلى أنّ الأصل عدمُ حدوث التّنازع.

دلالةُ الجملة الاعتراضيّة ﴿إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾:

تـأكُّـد معنى تقرير الإيمان، على جهة الإلزام والالتزام

فجملة ﴿إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾ اعتراضيّة، جاءت في مَعْرِضِ الحَضِّ[4]، وقد خاطبهم بـ ﴿إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ﴾، وهم قد كانواْ آمنواْ، على جهة التَّقرير، ليتأكد الإلزام[5]، ؛ أَي: إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ حَقًّا، وتُلَازِمُونَ وَاجِبَاتِ المُؤمِنِ وهذا الأسلوب يفيدُ التَّلهيبَ، وجواب الشّرطِ محذوف لدلالة ما قبله عليه.

دلالةُ اسم الإشارة بعد تمام تقرير العبارة:

التَّنويهُ بعموم الـطّـاعـةِ، والاحتكام إلى ما هو خير وأحسن تأويلا

قوله: ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾؛ أي: ذلك الّذي أَمَرْتُكُمْ به في هذه الآية، خَيْرٌ لكم وأحسنُ عاقبةً لكم؛ لأنَّ التَّأويل عبارةٌ عمّا إليه مآل الشَّيء ومَرجِعُهُ وعاقبتُه[6]، فجِيءَ بِاسْمِ الإِشَارَةِ للبعيد بعدًا معنويًّا لِلتَّنويهِ، وهِيَ إِشَارَةٌ إِلَى الرَّدِّ المَأْخُوذِ مِنْ ﴿فَرُدُّوهُ﴾، ويُفْهَمُ مِنْ هَذا أَنَّهُ لَا يَجُوزُ التَّحَاكُمُ إِلَى غَيرِ كِتَابِ اللَّهِ، وسُنَّةِ نَبِيِّهِ[7] ﷺ؛ حيث أَمَرَهُمْ بِالرَّدِّ عِنْدَ التَّنَازُعِ إِلَى اللَّهِ والرَّسُولِ، فأَبطَلَ الرَّدَّ إِلَى إِمَامٍ مُقَلِّدٍ أَو قِيَاسٍ عَقلِيٍّ فَاضِلٍ[8].

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/194، والآلوسّي، روح المعاني: 3/65.
(2) ابن عطيّة، المحرَّر الوجيز: 2/71، والرّازيّ، مفاتيح الغيب: 10/119.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 5/101.
(4) صافي، الجدول: 5/72.
(5) ابن عطيّة، المحرَّر الوجيز: 2/71.
(6) الرّازي، مفاتيح الغيب: 10/119.
(7) الشَّنقيطيّ، أضواء البيان: 1/244.
(8) ابن تيميَّة، مجموع الفتاوى: 19/67.

دلالة تقديم الخيريَّة على الحُسْنِ، في قوله: ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾:

اعتبارُ مصالحِ المُخاطَبين، في تَعَلُّق نفوسِهم بما يَنْفَعُهُمْ

تقديمُ خيْريّتِه لهم على أحسنيّته في نفسه، لما مرَّ من تعلّقِ أنظارِهم بما ينفعهم، والمرادُ بيانُ اتّصافِه في نفسه بالخَيْريَّةِ الكاملة، في حَدِّ ذاتِه، من غير اعتبار فَضْلِه على شيء يُشاركه في أصل الخيريَّةِ والحُسْنِ، كما ينبئ عنه التَّحذيرُ السَّابِقُ، وتنكير ﴿خَيْرٌ﴾ للتّعظيم والتّفخيم[1].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الاختلاف والتّنازع:

الاختلافُ: افتعالٌ من الخلافِ، وهو أن يأخذ كلُّ واحدٍ طريقًا غير طريق الآخر في حالِهِ أو قولِهِ[2]؛ فالاختلافُ يكون في الرأي، فيكون تقابلًا بين رأيين فيما ينبغي انفراد الرأي فيه[3]، ويكون في الحال والفعل[4]. أمّا التَّنازُعُ: فهو التَّجاذُبُ وشدّةُ الاختلاف، ويُعَبَّرُ بِهِ عَن التَّخَاصُمِ والمُجَادَلَةِ[5]، والتّنازعُ خاصٌّ بالقولِ، فالاختلافُ بين النّاس في القول قد يقتضي التّنازع[6]، والاختلافُ سببٌ في التّنازع؛ لأنَّ الاختلافَ في أصل اللّغةِ لا يحملُ معنى المنازعةِ والمشاقة، إلّا أنّه يحصلُ من واقع النّاسِ ونفوسِهم، وصدورهم الّتي تضيقُ عن مخالفة غيرهم لهم، فيكون هذا الاختلافُ سببًا في المنازعةِ، فالاختلافُ أعمُّ من التّنازع، والثّاني درجةٌ من درجاتِه وصورةٌ من صُوَرِه ناتجةٌ عنه، وهي أحدُّ وأقوى منه[7].

---

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/194.
(2) الرَّاغِب، المُفْردات، والسَّمين، عُمْدَةُ الحُفَّاظ: (خلف).
(3) المَناويّ، التَّوقيف، ص: 41.
(4) السَّمين، عُمْدَةُ الحُفَّاظ: (خلف)
(5) الرَّاغِب، المُفْردات، والزبيدي، تاج العروس: (نزع)، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 5/99.
(6) الرَّاغِب، المُفْردات: (نزع).
(7) عوَّامة، أدب الاختلاف، ص: 11.

التّأويل والتّفسير:

اللّفظان من الألفاظ ذات الدّوران والاستعمال الواسع، عند المفسّرين وعلماء اللّغة، وهم يذهبون إلى أنّ" التَّفْسِير هُوَ نوع من الْإِخْبَار عَن أفْرَاد آحَاد الْجُمْلَة، والتّأويل الْإِخْبَار بِمَعْنى الْكَلَام، وَقيل التَّفْسِير إِفْرَاد مَا انتظمه ظَاهر التَّنْزِيل والتّأويل، وَقيل التَّأْوِيل: اسْتِخْرَاج معنى الْكَلَام لَا على ظَاهِره، بل على وَجه يحْتَمل مجَازًا أَو حَقِيقَة"[1]، وقيل: "التّفسير: شرح ما جاء مجملا من القصص في الكتاب الكريم، وتقريب ما تدلّ عليه ألفاظه الغريبة، وتبيين الأمور الّتي أنزلت بسببها الآي، وأمّا التّأويل: فهو تبيين معنى المتشابه، والمتشابه: هو ما لم يقطع بفحواه من غير تردد فيه، وهو النّص"[2]، والمؤوّل مُشْتَقّ من التَّأْوِيل وَهُوَ حمل الظَّاهِر على الْمُحْتَمل الْمَرْجُوح[3]، والعلامة الألوسى فى مقدمة تفسيره يقول بعد أن استعرض بعض أقوال العلماء فى هذا المضمار: "وقيل: التّفسير ما يتعلّق بالرّواية، والتّأويل ما يتعلّق بالدّراية، وقيل غير ذلك، وعندي أنّه إن كان المراد الفرق بينهما بحسب العرف، فكلّ الأقوال فيه ما سمعتها وما لم تسمعها، مخالفة للعرف اليوم، إذ قد تعارف من غير نكير، أنّ التّأويل إشارة قدسيّة، ومعارف سبحانيّة، تنكشف من سجف العبارات للسّالكين، وتنهلّ من سحب الغيب على قلوب العارفين، والتّفسير غير ذلك"[4].

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 58.
(2) الزَّبيديّ: تاج العروس: 28/32.
(3) السّنيكّي، الحدود الأنيقة، ص: 80.
(4) الآلوسّي، روح المعاني: 1/6.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓاْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾﴾ [النساء: 60]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

بَيَانُ حَالِ الْمُنَافِقِينَ بَعْدَ بَيَانِ حَالِ الْكُفَّارِ وَالْمُسْلِمِينَ

في مُنَاسَبَةِ هَذِهِ الآيَةِ لِمَا قَبْلَهَا وَجْهَانِ:

أحدُهُمَا: أنَّ اللهَ تعالَى لَمَّا ذكَر كَوْنَ اليهودِ يؤمِنون بالجِبْتِ والطَّاغوت، وذكَرَ مِن سوء حالِهم ووعيدِهم ما ذكَر، ثمَّ أمر المُؤمِنين بعدَ ذلك بأداءِ الأماناتِ إلى أهلِها، والحُكم بالعَدْل، وأَمَرَهم بطاعةِ اللهِ ورَسُولِه في كلِّ شيءٍ، وطاعةِ أُولي الأَمْرِ، وبرَدِّ ما تنازَعوا فيه إلى اللهِ ورسولِه؛ بيَّن بعْدَ هذا حالَ طائفةٍ أخرى بين الطَّائفتين، وهم المنافقون الَّذين يَزْعُمُون أنَّهم آمَنوا، ومِن مُقْتَضَى الإيمَانِ: امتثالُ ما أُمِر بهِ المُؤْمِنُونَ في الآيَتَيْنِ السَّابقتَيْنِ، ولكنَّهم مع هذه الدَّعوى يُرِيدُونَ أنْ يَتحَاكَمُوا إلى الطَّاغوتِ الَّذي عليه تلك الطَّائفةُ[1].

والآخَرُ: أنَّ اللهَ سُبحانَهُ لَمَّا أوجَب في الآيةِ السَّابقة على جميع المكلَّفين أن يُطيعوا اللهَ، ويُطيعوا الرَّسولَ؛ ذكَرَ في هذه الآيةِ أنَّ المنافقينَ والَّذين في قلوبهم مرضٌ لا يُطيعونَ الرَّسولَ، ولا يرضَوْن بحُكمِه، وإنَّما يريدونَ حُكمَ غيرِه متعجِّبًا من حالهم مع ادِّعائهم الإيمانَ[2].

شَرْحُ الْمُفْرَدَاتِ:

1) ﴿أَلَمْ تَرَ﴾: أَصْلُ (رأى) دالٌّ عَلَى نَظَرٍ وَإِبْصارٍ بِعَيْنٍ أو بَصِيرَةٍ، وتأويلُهُ في قولِهِ تعالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ أَيْ: ألم تُخْبَرْ؟ وألَم تَعْلَمْ؟ أو أَلَمْ

(1) رضا، تفسير المنار: 5/181.

(2) الرَّازي، مفاتيح الغيب: 10/119، وأبو حيّان، البحر المحيط: 3/688.

يَنْتَه عِلْمُكَ إلى هَؤُلاء؟ وهُوَ سُؤالٌ فِيهِ إعْلامٌ، وَهِيَ كَلِمَةٌ تَقُولُهَا العربُ عند التَّعَجُّب مِنَ الشَّيْءِ، وَعِنْدَ تَنْبِيهِ المُخَاطَبِ، أي: ألم تَعْجَب بفِعْلِهِم أو مِن قَوْلِهِم، وألم يَنْته شَأْنُهم إلَيْكَ؟[1]

2) ﴿يَزْعُمُونَ﴾: أصلُ الزَّعم: القولُ مِن غير صِحَّةٍ ولا يقينٍ، وَأَكثرُ مَا يُقال فِيمَا يُشَكُّ فِيهِ، وَلَا يتحقَّق، و﴿يَزْعُمُونَ﴾ بمعنَى: يَكذِبون، يُقال: زَعَمَ يَزْعُمُ زَعْمًا، والزَّعم: يُطلَق على حِكايةِ قولٍ يكونُ مَظِنَّةً للكذبِ، وعَلَى اعتقادِ الباطِل بتقوُّلٍ، والتَّزَعُّمُ: التَّكَذُّبُ، والزَّعم القَول مع الظَّنِّ والشَّكِّ، ويُطلَقُ كذلك على الكَلام الَّذي لا سَنَدَ له[2].

3) ﴿أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ﴾: الحَاءُ والكَافُ والميم تدلُّ تصريفَاتُهُ على معْنَى المَنْع لإصلاحٍ، ومِنه سُمِّيَ اللِّجام: حَكَمَةً، ومعنَى قولِه: ﴿أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ﴾ أنْ يَجْعَلوه حَكَمًا وقاضيًا.

والحُكمُ بالشَّيء: القضاءُ بأنَّه كذا أو لَيْسَ بِكَذَا، سواءٌ أَكَان مُلزِمًا أَم غَيْرَ مُلْزِمٍ، والإحكامُ: هو الفَصلُ والتَّمييزُ[3].

4) ﴿ٱلطَّٰغُوتِ﴾: أَصْلُ الطُّغْيان: مُجَاوَزَةُ الحدِّ في العِصْيَانِ ونحوِه، يُقالُ: طَغَى طُغْيانًا، أي: تجاوزَ حدَّهُ، والطَّاغُوتُ يُطْلَقُ على كُلِّ مَعْبودٍ مِنْ حَجَرٍ أو صُورَةٍ أو شيطان، والطَّاغوت من الإنْس وَالجنِّ: شَياطِينُهم، وكلُّ رأْس ضَلالٍ صارِفٍ عَن طريقِ الخيْرِ.

وجِماع مَعْنَى الطَّاغوت: أنَّهُ كُلُّ مَا تَجاوَزَ به العَبْدُ حدَّهُ من مَعْبودٍ أو مَتْبوعٍ أو مُطاعٍ[4].

❁ المَعْنَى الإجْمَاليُّ:

ألم تعلم - أيها الرسول ﷺ - تناقُضَ المُنَافِقِينَ الَّذين يَدَّعون كَذِبًا أنَّهم صدَّقوا بما أُنْزِل عليك مِنَ الكِتَابِ وما أُنْزِل مِن قَبْلِكَ منَ الكتُبِ، يُرِيدُونَ أن يتحَاكَمُوا في

(1) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 128، وابن فارس، مقاييس اللُّغة: (رأى)، وابن الأثير، النِّهاية: (رأي)، وابن منظور، لسان العرب: (رأي)، والسمين، عمدة الحفاظ: (رأو)، والزَّبيديّ، تاج العروس: (رأى).

(2) ابن عبَّاد، المحيط في اللُّغة: (زعم)، وابن فارس، مقاييس اللُّغة: (زعم)، والرَّاغب، المفردات: (زعم)، والزَّبيديّ، تاج العروس: (زعم)، والكفويّ، الكليَّات، ص: 488.

(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (حكم)، والرَّاغب، المفردات: (حكم)، والسَّمين، عمدة الحُفَّاظ: (حكم)، والقاسميّ، محاسن التَّأويل: 2/257.

(4) ابن قُتَيْبَة، غريب القرآن، ص: 128، وابنُ عُزيز، غَريبُ القُرْآن، ص: 316، وابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرَّاغب، المفردات، والسَّمين، عمدة الحُفَّاظ، والزَّبيديّ، تاج العروس: (طغى)، وابن القيّم، إعلام الموقِّعين: 1/40.

نِزَاعَاتِهم إلى غَيْرِ شَرْعِ اللّه مِنَ البَاطِل، وقد أُمِرُوا أنْ يكْفُرُوا بالبَاطِلِ؟ ويُرِيدُ الشَّيطَانُ أَنْ يُبْعِدَهُم عَنِ الحقِّ والهُدى إبعادًا شَدِيدًا لا يَهْتَدُونَ مَعَهُ[1].

فَضْحُ الْمُنَافِقِينَ الزَّاعِمِينَ الْإِيمَانَ بِقُلُوبِهِمْ وَالْمُنْقَادِينَ لِلطَّاغُوتِ بِجَوَارِحِهِمْ

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

دِلَالَةُ الِاسْتِئْنَافِ بَعْدَ الْأَمْرِ بِطَاعَةِ اللهِ وَرَسُولِهِ:

قولُ اللّهِ تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ استئنافٌ ابتدائيٌّ للتَّعجيب مِن حال هؤلاء الَّذين ادَّعوا لأنفسهم أنَّهم قد جمعوا بينَ الإيمَانِ بما أُنْزل على رَسُولِ اللّه ﷺ وهُوَ القُرآنُ، وما أُنْزِلَ علَى مَن قَبْلَهُ مِنَ الأنبِيَاء، وهُم في الحَقِيقَةِ يُخَالِفُون ما مَرَّ مِنَ الأمْرِ المَحْتُوم بطَاعَةِ اللّه ورَسُولِهِ، والتَّعجِيبُ حَمْلُ المُخاطب على التَّعجُّب، وإيقاعُهُ في التَّعجُّب مِنْهُ، ففي هذا إِشَارةٌ إِلَى أنَّ المُخاطَب لم يَسْبِقْ لَهُ عِلْمٌ بتلكَ القصَّة قبل نُزُولِ الآيَةِ، فنَاسَبَ الانْتِقَال إِلَيْهِ مِن مضمون الجملة السَّابقة: ﴿إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾ [النِّساء: 59]، وجاؤوا بعد ذلك بِمَا يَنْقُضُ عليهم هذه الدَّعوى، ويُبْطِلُها من أَصْلِهَا[2].

التَّعْجِيبُ مِنْ حَالِ مَنْ يَزْعُمُ الْإِيمَانَ بِقَلْبِهِ وَيُخَالِفُهُ بِفِعْلِهِ

دِلَالَةُ الْخِطَابِ وَفِعْلِ الرُّؤْيَةِ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ﴾:

دخلَت هَمْزَةُ الاسْتِفْهَام علَى (لَمْ) النَّافيةِ الجَازِمَةِ الْفِعْلَ المُضَارِعَ (تَرَى)، و﴿تَرَ﴾: فعلٌ مضارعٌ مُسْنَد إلى ضمِيرِ المُخَاطَب (أَنْتَ) مُسْتَتِرًا وُجُوبًا، والمُخَاطَبُ: هو رسُولُ اللّهِ ﷺ.

ومن أهل العِلْم مَن يحَمِلُ الخطابَ على أنَّ المرادَ به النَّبِيُّ ﷺ، ولكلِّ أحَدٍ يتأتَّى خطابُهُ، قال التَّفتازانيُّ: (الأوجَهُ عمُومُ الخِطَابِ للدِّلالَةِ على أنَّ هذه القصَّة قد بَلَغَتْ مِنَ العَجَبِ حيثُ يَنْبَغِي لكلِّ

بُلُوغُ انْحِرَافِ الْمُنَافِقِينَ مَبْلَغًا عَظِيمًا، حَتَّى صَارَ فِي الظُّهُورِ بِمَنْزِلَةِ الْمَحْسُوسَاتِ

(1) لجنة من علماء الأزهر، المُنتخب في تفسير القرآن الكريم، ص: 119، ونُخبة من أساتذة التَّفسير، التَّفسير المُيَسَّر، ص: 88، وجماعة من علماء التَّفسير، المُختصر في تفسير القرآن الكريم، ص: 88.

(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السليم: 2/194، والقنَّوجي، فتح البيان: 3/163، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 5/102.

أحدٍ أَن يتعجَّب مِنْهَا)[1]، ويَكُونُ ضَمِيرُ الخِطَابِ خَارِجًا عَن أصلِهِ في إرادةِ المعيَّن؛ قَصْدًا لِلْعُمُومِ.

وفعلُ الرُّؤيةِ في ﴿تَرَ﴾ يُرادُ به الرُّؤيةُ العِلْميَّةُ، والمَعْنَى: أَلَمْ تَعْلَمْ، فتتعدَّى في الأصلِ إلى مَفْعُولَيْنِ، إلَّا أنَّها هُنا لَم تَسْتَوْفِ مَفْعُولَيْها، وعُدِّيَتْ بحَرْفِ الجرِّ (إلَى)؛ لأنَّها ضُمِّنَتْ معنى ما يتعدَّى بهذا الحَرْفِ، والمعنى: أَلَمْ يَنْتَهِ عِلْمُكَ إلى الَّذين...[2].

ومن أهلِ العلْمِ مَنْ يرَى أَنَّ الرُّؤيةَ هُنا وإن كانَتْ عِلْميَّة؛ فقَدِ اسْتُعْمِلَت استعمالَ (تَنْظُرْ)، فتعدَّت تَعْدِيَتَهَا؛ لِلْإشارَةِ إلى أنَّ هذا الأمرَ قَد بَلَغَ مِنَ الوضُوحِ والظُّهور والتَّحقُّق مَبْلَغ الشَّيء المَحْسُوس المُشاهد الَّذي تُبصرُه العَيْنَانِ، ولا يُمكِنُ إنكارُه[3].

دِلَالَةُ الِاسْتِفْهَامِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ﴾:

شَنَاعَةُ صَنِيعِ مَنْ يُخَالِفُ فِعْلُهُ قَوْلَهُ

التَّرْكِيبُ في قَوْلِه تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ تركيبٌ دالٌّ على التَّعجُّب[4]، والتَّعجيب من مخالفة العمَلِ الْقَوْلَ عندَ الْيَهُودِ ومَن على شَاكلَتِهم مِن أهل الكُفْرِ والنِّفاق، وهذا التَّعجيب مع ما يوحِي بِهِ مِنَ التَّوبيخِ والاسْتِقْبَاحِ ناشئٌ عَنْ تَقْرِير الرُّؤية الواقعَةِ في حيِّز الاستِفْهَام، فَدِلَالة هذا الاسْتِفْهَام أصلًا هي التَّقرير بالنِّسبة إلى المُخَاطَبِ وهو النَّبِيُّ ﷺ وَكُلُّ مَن يَصِحُّ خطابُهُ.

(1) الجمل، حاشية الجمل على الجلالين: 1/297.

(2) الآلوسي، روح المعاني: 3/65.

(3) رضا، تفسير المنار: 2/475.

(4) وليس بين التَّعجُّب والتعجيب منافاة ولا تعارض، فالتَّعجُّب: منظور فيه إلى القائل ﷻ، والتَّعجيب: منظور فيه إلى المُخاطَب. ومن النَّاس من يُنْكِرُ أن يكون الاستفهام هنا للتَّعجُّب، ويقول: إنَّ اللّه سبحانه لا يَعْجَبُ مِن شيء، وهو يظنُّ أنَّ تَعَجُّبَهُ سبحانه سيكون كَتَعَجُّبِ خلقه، وهذا منافٍ لقوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: 11]، فَتَعَجُّب اللّه تَعَجُّبٌ يليق بكماله وجلاله، ولا يمكن أن يكون بينه وبين تَعَجُّبِ غَيْرِهِ مشابهة ما أو مماثلة، وليس عجبه سبحانه ناشئًا عن خفاء في الأسباب أو جهل بحقائق الأمور، كما هو الحال في عجب المخلوقين، فإنَّ التعجُّبَ قد يكون بسبب خفاءِ الأسبابِ على المتعجِّب، وهذا لا يليق بالله تعالى، وقد يكون سببُ التَّعجُّبِ خروجَ الشَّيءِ عن نظائرِهِ أو عمَّا ينبغي أن يكونَ عليه، وهذا المعنَى ثابتٌ لله تعالى، بدلالةِ الكتاب والسُّنَّة والإجماع، قال اللّه تعالى: ﴿بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ۝١٢﴾ [الصافات: 12]، فإنَّ حمزة والكسائي قرآ: (عَجِبْتُ) بضمِّ التَّاء، ورُوِيَت هذه القراءة أيضًا عن عبد اللّه بن مسعود وغيره، وظاهره أنَّ المُتَعَجِّبَ هو اللّه ﷻ، ينظر: هرَّاس، شرح العقيدة الواسطية، ص: 170، وابن عثيمين، شرح لمعة الاعتقاد، ص: 59 - 60، وابن الجزريّ، النَّشر: 2/356.

أمَّا معنَى التَّوبيخِ ومَا أَشْبَهَهُ؛ فهُوَ بالنَّظر إلى المُتحدَّثِ عنهم، وهُمُ اليَهُود والمُنَافِقُون، خصوصًا وأنَّه أُتْبِعَ بإسناد الزَّعْم إلى هؤلاء المنافقين، وهو دالٌّ على الظَّنِّ والشَّكِّ؛ لتأكيدِ التَّعجيب وتشديدِ التَّوبيخِ والاستقباحِ[1].

وقد جاءَ التَّعبير بـ ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ في كثير مِنَ القضايا الَّتي لم يُدْرِكها المخَاطَبُ - وَهُوَ رَسُولُ اللهِ ﷺ؛ لِيَدُلَّنا على أنَّ ما يقوله اللّه تعالَى وإنْ كانَ خبرًا عمَّا مَضَى؛ فإنَّهُ يَجِبُ أَنْ تُؤمِنَ به إيمانكَ بالمَرْئيِّ لكَ الآنَ؛ لأنَّ اللّه تعالَى أوثَقُ في الصِّدق مِن عَيْنِك[2].

وُجُوبُ تَصْدِيقِ أَخْبَارِ اللهِ تَعَالَى وَالْقَطْعِ بِهَا؛ لِأَنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ أَوْثَقُ فِي الصِّدْقِ مِمَّا تَرَاهُ الْأَعْيُنُ

وفي الاِسْتِفْهَام بِفِعْلِ الرُّؤية إثارةٌ للذِّهن وتشويقٌ لِما يَرِدُ بعدَها مِنَ الكَلَام، وإيقاظٌ لِلانْتِبَاهِ والحِسِّ، ويقع بَعْدَهَا: إمَّا الْبُشْرَيَاتُ العِظَام والآياتُ الفِخامُ، وإمَّا الأحداثُ الْجِسَامُ، فَمِنَ الأوَّل قولُهُ تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ ۝٢٤ تُؤْتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ۝٢٥﴾ [إبراهيم: 24 – 25]، ومن الثَّاني قولُه ﷻ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ۝٤٥﴾ [الفرقان: 54]، ومِنَ الثَّالث قولُهُ سُبحانَهُ: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ۝١﴾ [الفيل: 1].

نُكْتَةُ التَّعْبِيرِ بِالِاسْمِ الْمَوْصُولِ الْمَجْمُوعِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ﴾:

ذكَر أهل التَّفسيرِ أنَّ هذه الآيةِ وهي قولُه تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ﴾، نزلت في رجُلٍ مِنَ المُنَافِقين، دعا رَجُلًا مِنَ اليَهُودِ في خُصُومَةٍ كانت بَيْنَهُما إلى بعْضِ الكُهَّان، لِيَحْكُم بينَهُم، ورَسُولُ اللّهِ ﷺ بينَ أظهُرهم، فكان المنافِقُ يدْعُو إلى كاهنِ اليَهُود؛ لأنَّه

الْأَحْكَامُ الشَّرْعِيَّةُ لَا تُعَلَّقُ بِخُصُوصِ الْأَفْرَادِ، وَإِنَّمَا تُعَلَّقُ بِالْأَوْصَافِ

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 2/194.

(2) الشَّعراوي، تفسير الشَّعراوي: 4/2362.

يَعْلَمُ أنَّهم يَقْبَلُون الرِّشوة، وكان اليهوديُّ يدعُو إلى التَّحاكم للنَّبيِّ ﷺ؛ لأنَّه يعلم أنَّ المُسْلِمين لا يَقْبَلُون الرِّشوة، فاصْطَلَحَا أن يَتَحَاكَمَا إلى كاهِنٍ مِن جُهَيْنَةَ، فأنزل اللّٰه فيه هذِهِ الآية[1].

ومع أنَّ سببَ النُّزول كانَ فَرْدًا واحدًا، إلَّا أنَّه جِيء باسمِ موصولِ الجَمَاعةِ ﴿ٱلَّذِينَ يَزۡعُمُونَ﴾؛ لأنَّ المقامَ مَقَامُ توبيخٍ بأسلوبِ التَّعريضِ، كقَوْلِهِم: ما بَالُ أقوامٍ يَقُولُونَ كَذَا؛ ليشملَ المقصودَ ومَن كانَ عَلَى شَاكِلَتِه[2]، إذِ الْأَحْكَامُ الشَّرعيَّةُ لا تُعَلَّقُ بِخُصُوص الأفرادِ، وإنَّما تُعَلَّقُ بِالْأَوْصَافِ.

نُكْتَةُ التَّعْبِيرِ بِالْفِعْلِ الْمُضَارِعِ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزۡعُمُونَ﴾:

دَأْبُ أَهْلِ النِّفَاقِ وَطَبْعُهُمُ الْكَذِبُ وَالدَّعَاوَى الْبَاطِلَةُ

جَاء التَّعبيرُ بِالْفِعْلِ الْمُضَارِعِ ﴿يَزۡعُمُونَ﴾ مِن قَوْلِه تَعَالَى: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزۡعُمُونَ أَنَّهُمۡ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ﴾؛ للإشارة إلى دوامِ كَذِبِهم ونِفَاقِهِم[3]؛ فإنَّ الفعلَ الْمُضَارِعَ دالٌّ على التَّجَدُّد والاسْتِمْرَار بالقَرَائِن، كالوَارِدِ في هَذِهِ الآيةِ؛ فإنَّ سياقَ الذَّمِّ والتَّوبيخِ قَرِينةٌ دالَّةٌ على اسْتِمْرَارِ كَذِبِهِم.

سِرُّ بِنَاءِ الْفِعْلِ ﴿أُنزِلَ﴾ لِمَا لَمْ يُسَمَّ فَاعِلُهُ:

عَظَمَةُ الْوَحْيِ وَعَظَمَةُ مُنْزِلِهِ وَالْمُنْزَلِ عَلَيْهِ

المُنْزِلُ في قَوْلِه: ﴿أُنزِلَ﴾ هُوَ اللّٰه سُبحانَهُ، وقَدْ بُنِيَ الفعلُ ﴿أُنزِلَ﴾ مِن قولِه تعالَى: ﴿بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ﴾ لِما لَمْ يُسَمَّ فاعلُهُ؛ لِلْعِلْمِ به ولكونِه متعيِّنًا، تَعْظِيمًا لِلْمُنْزِلِ ﷻ.

وفي تعظيم المُنْزِلِ تعظيمٌ للمُنْزَلِ - وهو الوحيُ - وتعظيمٌ للمُنْزَلِ عَلَيْهِمَا؛ وَهُمَا نَبِيُّنَا مُحَمَّدٌ ﷺ ومُوسَى عليه السلام.

(1) ابن جرير، جامع البيان: 8/508.
(2) أبو حيَّان، البحر المحيط: 3/708، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 5/104.
(3) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 5/312.

نُكْتَةُ الْكِنَايَةِ فِي قولِهِ تَعَالَى: ﴿بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾:

تَشْرِيفُ النَّبِيِّ ﷺ بِإِبْقَائِهِ فِي سَاحَةِ الْخِطَابِ

أُوثِرَ التَّعبيرُ عَنِ الْقُرآنِ الكريم بطريقِ الْكِنَايةِ - وهِيَ كِنَايَةٌ عَنْ مَوْصُوفٍ - ، فقالَ سُبحانَهُ: ﴿بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾، بدَلَ التَّصريحِ بِهِ؛ تَشْرِيفًا للنَّبيِّ ﷺ، وذلكَ بإبْقَائِهِ في ساحَةِ الخِطَابِ الْإلَهِيِّ مَعهُ بِقَوْلِه: ﴿إِلَيْكَ﴾، ولو جاءَ النَّظْمُ بالتَّصريح بلفظ الْقُرْآنِ الكريم؛ لَمَا تأتَّى اسْتِمْرَارُ هذَا الْخِطَابِ الجليلِ.

دِلَالَةُ الْعَطْفِ فِي قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾:

الْمُبَالَغَةُ فِي فَضْحِ الْيَهُودِ بَعْدَ تَكْذِيبِ زَعْمِهِمْ

من عجائب الدَّقائق البيانيَّة الَّتي يدلُّ عليهَا أسلوبُ الْوَصْلِ: ما نَجِدُهُ في قولِه تعالَى: ﴿بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾، إذْ اشتملَ على جُمْلَتَيْنِ خَبَرِيَّتَيْنِ، أُولاهُمَا في محلِّ جَرٍّ بِحَرْفِ الجرِّ (الْبَاء)، وتَبِعَتْها الثَّانية في الحُكْمِ الإعرابيِّ، وبينَهُما اشتراكٌ في المَعْنَى واتِّحادٌ في المسْنَدِ ﴿أُنزِلَ﴾، وقد أفادتْ دُخُولَ إيمَانِهِم بِمَا أُنْزِلَ مِن قبلِ الدِّينِ الإسلامِيِّ في حيِّز الزَّعم، بالرّغم مِن ادِّعائهم أنَّهم على شِرْعَةِ مُوسَى عليه السلام، والدَّليلُ على أنَّ ذلك مجرَّدُ زعْمٍ لا حقيقة لَهُ: أنَّ عِنْدَهم شريعةً يَتَعَبَّدُونَ بِهَا، ولكنَّهم عدلُوا عَنْهَا وَأَرَادُوا التَّحاكمَ إلى الطَّاغوت، فَفَضَحَهُمُ اللهُ تعالَى بهذهِ (الْوَاوِ) الَّتي جمَعَتْ بَيْنَ الجُمْلَتَيْنِ في حُكْمٍ واحدٍ، وسِرُّ هذا العطفِ الْمُبَالَغَةُ في فَضْحِهِم بعدَ أن تكذيبِ زَعْمِهِم[1].

دِلَالَةُ ذِكْرِ الْمُسْنَدِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾:

التَّشْنِيعُ عَلَى الْيَهُودِ فِي جَمْعِهِمْ مُخَالَفَةَ الْكِتَابَيْنِ

ذُكِرَ الْمُسْنَدُ ﴿أُنزِلَ﴾ في قَوْلِه تَعَالَى: ﴿وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾، وقد كانَ يُمكِنُ حذفُهُ، لتقدُّم ذكرِ نظيرِهِ في قوله تعالى: ﴿بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾، فيَرِدُ النَّظْمُ القرآنيُّ: (آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إليكَ ومِنْ قبلك)، إلَّا أنَّ المسندَ ذُكِرَ وكُرِّرَ لإفادةِ التَّخصيص، وللإيمَاءِ إلى اختلاف

(1) البناني، سورة النساء: دراسة بلاغية تحليلية: 2/393.

المُنْزَلِ، فما أُنزل إليك هُو القرآنُ الكَريم، والذي أُنْزِلَ مِن قَبْلِكَ - والمرادُ المنزَلُ على مُوسَى عليه السلام - هُوَ التَّوراة[1]، وكلٌّ منهما مُخْتَصٌّ بِنَبِيٍّ؛ وإن كان مَصْدَرُهُما واحدًا، فلهذا الاخْتِصَاصِ أُعِيدَ ذِكْرُ المُسْنَدِ تأكيدًا على تلك الفُروقِ، وفي هذا التَّكرار أيضًا: إيماءٌ إلى تكرارِ مخازِي أهل الكتاب التي شُهِرُوا بها، فصارت حكايات تُرْوَى عَنْهُم، فَصارُوا أحقَّاءَ بأنْ يكونُوا عِبْرةً لمن يَعْتَبِرُ[2].

دِلَالَةُ فَصْلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ﴾ عَمَّا قَبْلَهُ:

التَّنْبِيهُ عَلَى عَجِيبِ حَالِ الْمُنَافِقِينَ فِي تَمَسُّكِهِمْ بِبَاطِلِهِمْ

فُصِلَ قولُه تعَالَى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ﴾ عمَّا قبلَهُ؛ لوقوعِهِ استِئْنافًا بيانيًّا، فإنَّ اللّه سُبحانَهُ لَمَّا ذكَرَ زَعْمَ المُنَافِقِين مِنَ اليَهُودِ في ادِّعائِهِم الإيمَانَ، فكأنَّ سائلًا سألَ: ماذا يَفْعَلُ هَؤُلَاءِ؟ ومَا الحُجَّةُ على أنَّهم يَزْعُمُونَ الإيمَان، وليْسُوا بمُؤْمِنِين في الحَقِيقَة؟ فقال: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ﴾، فيكونُ بين الجملَتَيْنِ شِبْهُ كمال الاتِّصال، والنُّكْتَةُ في ذلكَ بيانُ محلِّ التَّعجيب على قِيَاسِ نَظَائِرِه، وأنَّهم ليسُوا بمُؤْمِنِين، وفيه أيضًا: تنبيهٌ على عَجِيبِ حَالِهِم الَّذي هُم مُتَمَسِّكون بهِ مِنَ النِّفاق[3].

دِلَالَةُ التَّعْبِيرِ بِالطَّاغُوتِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ﴾ بَيْنَ الْحَقِيقَةِ وَالْمَجَازِ:

تَفْظِيعُ التَّحَاكُمِ إِلَى غَيْرِ مَا أَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى وَأَنَّهُ مِنْ عَلَامَاتِ النِّفَاقِ

الطَّاغُوت: كلُّ ذي طُغْيَانٍ عَلَى اللّهِ تعالَى، فكلُّ معبودٍ مِنْ دُونِ اللّهِ سُبحَانَهُ؛ إذا لَم يَكُنْ كَارهًا لذلك: طَاغوتٌ، إنسانًا كانَ ذلكَ المَعْبُودُ، أو شيطانًا، أو وثنًا، أو صَنمًا، وكذا المُطَاعُ في معصِيَةِ اللّه تعالَى يُسمَّى: طَاغُوتًا، وكذلك السَّاحر والكاهِن، واشتقَاقُهُ مِنَ الطُّغْيَانِ:

(1) الآلوسي، روح المعاني: 3/65.
(2) البناني، سورة النساء دراسة بلاغية تحليلية: 1/274.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 3/65، والبناني، سورة النساء دراسة بلاغية تحليلية: 2/393.

وهو الظُّلم والبَغْيُ، يُقال: طغَى فُلَانٌ يَطْغَى؛ إذا تَعَدَّى قدْرَهُ، وتجاوَزَ حدَّه، والأصل الجَامِعُ لِلطُّغْيانِ دالٌّ على مُجَاوَزَةِ الحَدِّ في العِصْيَانِ[1].

والطَّاغوت في قولِه تعالَى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ﴾ الأَصْنَامُ، بدَليلِ قَوْلِه بعدُ: ﴿وَقَدۡ أُمِرُوٓاْ أَن يَكۡفُرُواْ بِهِۦ﴾، ولكن فَسّره أَهْلُ العِلْم بالكَاهِنِ، أو بعَظِيم اليَهُودِ، فإذَا كانَ كَذَلِكَ؛ فَهُوَ اسْتِعَارَة تَصْرِيحِيَّة أصليَّةٌ بتشبيه عظيم الكُفْرِ بالصَّنم المعبودِ؛ لغلوِّ قَوْمِهِ في تَقْدِيسِهِ، وإمَّا لأنَّ الكاهنَ يُترجم عَن أقوال الصَّنم في زَعْمِه[2].

ويحتَمِلُ أن يكُونَ إطلاقُهُ عَلَيْهِ حقيقَةً، بناء على أنَّه بمعنى: كثير الطُّغيان، أو أنَّه عَلَمٌ لُقِّب به، وفي معناه: كلُّ مَن يَحْكُمُ بالباطِلِ.

ويجُوزُ أَن يَكُون الطَّاغوتُ بمعنى: الشَّيطان، ويكون الضَّمير المجرور في قولِه: ﴿أَن يَكۡفُرُواْ بِهِۦ﴾ رَاجِعًا إلى الطَّاغوت باعتبار الوَصْفِ لا الذَّات، أي: أُمِروا أن يَكْفُرُوا بِمَنْ هُوَ كثيرُ الطُّغيانِ أو شَبِيهٌ بالشَّيطان[3]، فإطلاقُ الطَّاغوت على الكاهن؛ إمَّا استعارةٌ وإمَّا حقيقةٌ على التَّوجيهِ الآنِفِ الذِّكْرِ.

والتَّجوُّز في إِسْنَادِ التَّحاكم إِلَيْهِ بالنِّسبة الإيقاعيَّة بينَ الفِعْلِ ومفعُولِه بالواسِطَة، وذهبَ بعضُ أهلِ العلم إلى أنَّ التَّحاكم إِلَيْهِ تَحَاكُمٌ إلى الشَّيطانِ، مِن حَيْثُ إنَّه الحامِلُ عَلَيْهِ، فنَقَلَهُ عَنِ الشَّيطان إِلَيْهِ علَى سَبيلِ المجاز المُرْسَلِ.

وفي هذه التَّأويلات مِنَ الإِشَارَةِ إِلَى تفظيع التَّحاكُم نَفْسِهِ ما لا يخفى، وهو أيضًا أنسَبُ بِوَصْفِ المُنَافِقِين في ادِّعاء الإيمَانِ بالتَّوراة[4].

نُكْتَةُ التَّقْيِيدِ بِالْجُمْلَةِ الْحَالِيَّةِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَقَدۡ أُمِرُوٓاْ﴾:

تَأْكِيدُ التَّعْجِيبِ مِنْ شَأْنِهِمْ بِالْحَالِ بَعْدَ تَأْكِيدِهِ بِالْوَصْفِ

قولُهُ تعَالَى: ﴿وَقَدۡ أُمِرُوٓاْ﴾ جملةٌ في محلِّ نصبٍ حالٌ مِنْ فَاعِلِ ﴿يُرِيدُونَ﴾، والمعْنَى: يُريدُون أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ حَالَ كَوْنِهِم

(1) ابن قُتَيْبَة، غريب القرآن، ص: 128، وابنُ عُزيز، غَريبُ القُرْآن، ص: 316، وابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرَّاغب، المفردات، والسَّمين، عمدة الحُفَّاظ، والزَّبيديّ، تاج العروس: (طغى)، وابن جرير، جامع البيان: 4/558، وابن الجوزيّ، تذكرة الأريب، ص: 37.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 5/105.

(3) البيضاويّ، أنوار التنزيل: 2/80، والآلوسي، روح المعاني: 3/66.

(4) الآلوسي، روح المعاني: 3/66.

مَأْمُورِينَ بِالْكُفْرِ بِهِ، و﴿وَقَد﴾: حرفُ تحقيقٍ يقرِّب الماضيَ مِنَ الحَال[1]، وفي إيرادِ هَذِهِ الجُمْلَةِ الحاليَّة تأكيدٌ لِلتَّعجِيبِ السَّابق[2].

بَرَاعَةُ الْجِنَاسِ فِي قَوْلِهِ سُبْحَانَهُ: ﴿أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًا﴾:

تَأْكِيدُ إِضْلَالِ الشَّيْطَانِ لِلْمُنَافِقِينَ، وَتَأْكِيدُ وُقُوعِهِمْ فِي الضَّلَالِ

في قولِهِ تعالى: ﴿أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًا﴾ جناسُ اشتقاقٍ بين الفِعْلِ والمصدَرِ، وفيهِ بيانُ أنَّ التَّحاكُمَ إلى الطَّاغوت شَرَكُ الشَّيطانِ؛ لِيُضِلَّ المؤمنين عنِ الصِّراط المستقيم، ويُلْقِيَهُمْ في مَجَاهِيل الباطل بعيدًا عَنِ الحقِّ.

وقولُهُ: ﴿ضَلَٰلًا﴾ مصدَرٌ مؤكِّد لِلْفِعْلِ المذكُور بحذف الزَّوائد على حدِّ ما ذُكِرَ في قولِهِ: ﴿أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾﴾ [نوح: 17]؛ إذ لو جرَى المصدَرُ على حُرُوفِ فِعْلِهِ؛ لجاء النَّظْمُ القرآنيُّ: أَنْبَتَكُمْ مِنَ الأَرْضِ إِنْبَاتًا، وكذا في قولِهِ تَعَالَى: ﴿أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًا﴾؛ فإنَّ المصدَرَ لَو جَرَى على حُرُوفِ فِعْلِهِ، لَجاء: (أَنْ يُضِلَّهُم تَضْلِيلا)، ويجوزُ أن يكون المصدرُ مُؤَكِّدًا لفِعْلِهِ المَدْلُولِ عَلَيْهِ بالمَذْكُورِ، والتَّقدير: (أن يُضلَّهُمْ، فَيَضِلُّونَ ضَلالًا)[3].

سِرُّ الِاسْتِعَارَةِ فِي وَصْفِ الضَّلَالِ بِالْبُعْدِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًا بَعِيدًا﴾:

شِدَّةُ ضَلَالِ الْمُنَافِقِينَ وَبُعْدِهِمْ عَنِ الْهُدَى

وصفُ الضَّلالِ بالبُعْدِ في قولِهِ تعالَى: ﴿أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًا بَعِيدًا﴾ اسْتِعَارَةٌ تَصْرِيحِيَّةٌ يُرادُ بها: المُبَالَغَةُ في بيانِ شدَّةِ الضَّلالِ؛ بِتَنْزِيلِه مَنْزِلَةَ جنسٍ ذي مَسَافةٍ؛ إذا كان هذا الفردُ مِنْهُ بالغًا غايَةَ المَسَافة[4]، فاستُعِيرَ البُعْدُ المُخْتَصُّ بالأزمِنَةِ والأمكنَةِ

(1) الخرَّاط، المجتبى من مشكل إعراب القرآن: 1/182، والدُّرَّة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 2/507.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 3/66.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 3/66.
(4) تفسير أبي السعود: 2/195، وابن عاشور، التحرير والتَّنوير: 5/105.

لِلْمَعَاني المختصَّةِ بالقلُوبِ؛ لدوام القلوب عَلَيْهَا[1]، فيكونُ ضَلَالُهُم ضَلَالًا يَصْعُب الرُّجوعُ مِنْهُ إلى الهُدى، تَشْبِيهًا بِمَن ضَلَّ عن محجَّة الطَّريق بُعدًا متناهيًا، فلا يَكَادُ يُرْجَى لَهُ العَوْدُ إِلَيْهَا[2].

فَوَصْفُ الضَّلال بالبُعْدِ - معَ أنَّ البُعْد مِن صِفَاتِ الْمَسَافاتِ - إشعارٌ بِشدَّة الضَّلال وكمالِهِ في نَوْعِهِ، بحيثُ لا يُدْرَكُ مِقْدارُهُ، وهو تشبيهٌ شائِعٌ في كلَام العرَبِ: أن يشبِّهوا بلُوغَ الكمَالِ بِمَا يدلُّ على الْمَسَافاتِ والنِّهاياتِ، كقَوْلِهِمْ: بَعيدُ الْغَوْرِ، وبَعِيدُ القَعْرِ، ولا نِهَايَةَ لَهُ، ولا غايَةَ لَهُ، ورَجُلٌ بَعِيدُ الهمَّةِ.

ومِن بَدِيعِ مُنَاسَبَتِه هنا: أنَّ أصلَ الضَّلالِ حقيقةً يَكُونُ في الفَيَافي، فإذا اشتدَّ التِّيهُ والضَّلال؛ بَعُدَ صاحِبُه عَنِ الْمَعْمُورِ، فكانَ في وَصْفِهِ بالبُعْدِ تَعَاهُدٌ لِلْحَقِيقَة، وإيمَاءٌ إلى أنَّ في إِطْلاقه على الْكُفْرِ والجَهْلِ نقلًا عرفيًّا[3].

تَوْجِيهُ الْمُتَشَابِهِ اللَّفْظِيِّ بَيْنَ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ضَلَٰلًا بَعِيدًا﴾ وَقَوْلِهِ سُبْحَانَهُ: ﴿ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾:

التَّفْرِيقُ بَيْنَ كَمَالِ ضَلَالِ الْكُفْرِ وَبَيْنَ ضَلَالِ الْمَعْصِيَةِ

لا يمكن وصفُ هذا الضَّلال في هذا الموضع بِلَفْظٍ أصدَقَ عَلَيْهِ مِنَ البُعد، كأنْ يُوصَفَ بكَوْنِهِ مبينًا مثلًا؛ إذْ إنَّه في حقِّ المنافقينَ ونِفَاقِهِمْ غَيْرُ بَيِّنٍ لشدَّةِ حرصِهم على إِخْفَائِه، كما أنَّ اللهَ سُبحَانَهُ عندما يتكلَّم عَنِ الكُفَّارِ يَصِفُهُم بأنَّهم ضَلُّوا ضلالًا بعيدًا؛ لأنَّ الطَّريق إلى الهدايَةِ كانَ أَمَامَهُمْ فَلَمْ يَسْلُكُوه، وهذا غايةُ الضَّلال وقِمَّتُهُ، وقد يكونُ الإنسانُ مُؤْمِنًا لكنَّ مُقوِّماتِ الإيمَانِ ضَعِيفَةٌ في نفسِه، فيَعْصِي ربَّه، ويقول اللهُ تعالَى عن مثلِ هَذَا الْإِنْسَان: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ۝٣٦﴾ [الأحزاب: 36]؛ فهوَ ضَلَالٌ بيِّنٌ ولكنَّهُ ضلالٌ دُونَ ضَلَالٍ، وكُفْرٌ دُونَ كُفْرِ القِمَّة[4].

(1) أبو حيَّان، البحر المحيط: 3/708.
(2) الرَّاغب، المفردات: (بعد)، والآلوسي، روح المعاني: 3/66.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 6/46.
(4) الشَّعراوي، تفسير الشَّعراوي: 6/3565.

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الطَّاغُوت وَالْجِبْت:

الطَّاغُوتُ أَعَمُّ مِنَ الْجِبْتِ، وَفِيهِ زِيَادَةُ مَعْنَى مُجَاوَزَةِ الْحَدِّ

الجِبْتُ: يُطْلَقُ على الصَّنم والكاهن والسَّاحر الَّذي لا خير فيه، وكلُّ ما عُبِدَ من دون اللَّه تعالى، فالمعنى الجامع لِلَفْظِ (الْجِبْتِ): أنَّهُ الدَّجَلُ والأَوهام والخُرافات[1]، والهَوى الَّذي يَفيضُ من عقل مُظْلِمٍ وَوِجْدانٍ سَقيم[2].

والطَّاغوت: جاء في القرآن ثَمانيَ مرَّات تَرْغيبًا في الكفر به والإيمان باللَّه، أو تَنْديدًا بالإيمان به، مِثْلَ: قولِهِ تَعَالَى: ﴿فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ﴾ [البقرة: 256]، أو تَنْديدًا بالقِتَال في سَبيله، كقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ﴾ [النِّساء: 76]، أو على التَّحاكم إليه مرَّة أيضًا: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدۡ أُمِرُوٓاْ أَن يَكۡفُرُواْ بِهِۦ﴾ [النِّساء: 60]، وَهُوَ كُلُّ مَا تَجَاوَزَ بِهِ الْعَبْدُ حَدَّهُ مِنْ مَعْبُودٍ أَوْ مَتْبُوعٍ أَوْ مُطَاعٍ[3]، وهُوَ مَأْخُوذٌ مِنَ الطُّغْيَانِ، وَهُوَ الْإِسْرَافُ فِي الْمَعْصِيَةِ، فَكُلُّ مَنْ دَعَا إِلَى الْمَعَاصِي الْكِبَارِ؛ لَزِمَهُ هَذَا الاسْمُ[4].

فالطَّاغوتُ بهذَا الاعتبَارِ: أَعَمُّ في الْمَعْنَى، وفِيهِ مَعْنَى مُجاوزةٍ لِلْحَدِّ في اللَّفْظ.

الْجِبْتُ مَعْبُودُ كُلِّ أُمَّةٍ مُنْحَرِفَةٍ، وَالطَّاغُوتُ الدَّاعِي إِلَى الْجِبْتِ الْمُزَيِّنُ لَهُ

وذَهَبَ بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ إلى التَّفريقِ بينَ الجِبْتِ والطَّاغُوتِ مِنْ جِهَةِ أنَّ الجبتَ الأصنامُ وكُلُّ ما يُعْبَدُ من دُونِ اللّه تعالى، بخلَافِ الطَّاغُوتِ؛ فإنَّهُ الذي يُعَظِّم هذا الجِبْتَ ويَحْمِيهِ ويَدْعو النَّاسَ إلى تَعْظِيمِه، فإنَّ لكلِّ أمةٍ منحرفَةٍ جِبْتَهم وطاغُوتَهم، فالجبتُ الرَّمْزُ الصَّنميُّ أو الحيوانيُّ أو الْإِنْسَانِيُّ الذي يَجْعَلُونَهُ إلهًا يَعْبُدُونَهُ مِنْ

(1) المَراغيّ، تفسير المَراغِيّ: 5/62.
(2) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 3/814.
(3) ابن القيّم، إعلام الموقعين: 1/40.
(4) الرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 10/101.

دُونِ اللّه تَعَالى، والطَّاغُوت هُو مَنْ يَدْعُو إِلَى تَعْظِيمِ هذا المَعْبُودِ وطاعةِ أمْرِه مِن دُونِ اللّهِ سُبحانه[1].

الضَّلَال وَالْغِوَايَة:

الضَّلال: فقدان ما يُوصِلُ إلى المَطْلُوب، أَوْ هُوَ سُلُوكُ طَرِيق لا يُوصِل إلى المطلوب[2]، وكلُّ عدُول عَنِ النَّهج عمدًا أَو سَهوًا، قَلِيلًا كَانَ أَو كثيرًا[3]؛ فَهُوَ ضَلَالٌ، وفي بابِ الحقِّ والباطل يكون الضَّلال عدولًا عن الطَّريق المستقيم[4]، وقد يكون عَنْ قصْدٍ أو عَن غَيْرِ قَصْدٍ: ﴿وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ [الجاثية: 23]، وقال: ﴿ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾﴾ [الكهف: 104]، أمَّا الغوايةُ؛ فهي جَهْلٌ مِن اعتقادٍ فاسِدٍ[5]، فلَا يكون لِلْغَاوِي مَقْصِدٌ إلى الطَّرِيق المُسْتَقِيم[6]، والغوايَةُ: إمعَانٌ في الضَّلال، كما أنَّ الضَّلال عامٌّ[7]؛ يكون لِلْعَاقِلِ وغَيْرِه، يُقال: ضلَّت الدَّابَّة، ولا يُقال: غوت الدَّابَّة، أمَّا الغِوَايَةُ؛ فهي لِلْعَاقِلِ المُكلَّف.

الضَّلَال عَامٌّ؛ وَهُوَ فُقْدَانُ الطَّرِيقِ الْمُوصِلِ، وَالْغِوَايَةُ الْعُدُولُ عَنِ الطَّرِيقِ الْقَوِيمِ تَقَصُّدًا

والضَّلال: نقيضُ الهُدى، قال اللّه تعالى: ﴿يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [فاطر: 8]، وقال: ﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ ﴿٧٩﴾﴾ [طه: 79]، والغِوايَةُ نقيض الرُّشْدِ، قال تعالى: ﴿وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾ [الأعراف: 146] وقال: ﴿قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ﴾ [البقرة: 256].

وقدِ اجْتَمَعَ ذِكْرُ الضَّلال والغِوَايَةِ في قَوْلِه تعَالَى: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾﴾ [النَّجم: 2]، وفيه الشَّهادة للرَّسولِ ﷺ بأنَّه

(1) زيدان، الفروق اللغوية في القرآن الكريم، ص: 388.
(2) الجرجاني: التَّعريفات، ص: 138.
(3) الكفويّ، الكليات، ص: 567.
(4) المناويّ: التوقيف، ص: 223.
(5) الرَّاغب، المفردات: (غوى).
(6) الكفويّ، الكليات، ص: 576.
(7) النَّيسابوريّ، غرائب القرآن: 6/199.

رَاشِدٌ تَابِعٌ لِلحقِّ لَيْسَ بضالٍّ، والضَّالُّ هو الجاهلُ الَّذي يَسْلُكُ طريقًا بِغَيْرِ عِلْم، والغَاوِي هو العالم بالحقِّ العادِلُ عنه قصدًا إلى غيره؛ فنَـزَّه اللّٰه رَسُولَهُ وشَرْعَهُ عن مشابهة أهل الضَّلال كالنَّصارى، وطرائقِ غِوَايَةِ اليَهُود، وهي عِلْمُ الشَّيء وكِتمانه، والعملُ بخلافه، بل هو صَلَاةُ اللّٰهِ وسلامُهُ عَلَيْهِ، وما بعثه اللّٰه تعالَى به مِنَ الشَّرع العظيم في غايةِ الاِسْتِقَامَةِ والاعتِدَالِ والسَّداد، فأثْنَى عَلَيْهِ بِكَمَالِ العِلْمِ والعمل[1].

فالضَّلال أعمُّ مِنَ الغِوَايَةِ مِنْ وَجْهَيْنِ:

أحدُهُما: كونُ الضَّلال ألَّا يَجِدَ السَّالك إلى مَقْصَدِه طريقًا أصلًا، بخِلَافِ الغِواية فهي ألَّا يكون لَهُ إِلَى المَقْصَدِ طريقٌ مستقِيمٌ[2].

والآخرُ: أنَّ الغواية إمعانٌ في الضلال والغلو فيهِ، فهي بهذا أخصُّ.

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 7/411.

(2) النَّيسابوريّ، غرائب القرآن: 6/199، والتهانوي، كشاف اصطلاحات الفنون: 2/1119.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾﴾ [النساء: 61]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

ذِكْرُ أَفْعَالِ المُنَافِقِينَ بَعْدَ ذِكْرِ أَقْوَالِهِمْ

لَمَّا ذكَر اللهُ ﷻ ضلالَ المنافقِينَ ورَغْبتَهم في التَّحاكمِ إلى الطَّاغوتِ؛ ذكَر فِعلَهم فيه، في نُفرتِهم عَنِ التَّحاكمِ إلى رَسُولِ الله ﷺ، فقال: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ﴾[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَصُدُّونَ﴾: أَصْلُ (صَدَّ) يدلُّ على إعراضٍ وَعُدولٍ، يُقال: صَدَدتُه عَن كذا أَصُدُّه صدًّا، أيْ: عَدَلْتُه وصَرَفْتُهُ عَنْهُ، وَالصَّدُّ: الإعراضُ والصُّدُوفُ، ومعنى قَوْلِه: ﴿يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا﴾: يُعرِضون عنكَ إعْرَاضًا[2].

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

نُفُورُ المُنَافِقِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى تَحْكِيمِ الشَّرْعِ

إذا نُصِحَ هَؤُلَاءِ المُنَافِقُون، وقيلَ لَهُمْ: أَقْبِلُوا على ما أَنْزَلَ اللهُ تعالَى في كِتَابِهِ مِنَ الْحُكْم، وإلى الرَّسول؛ لِيَحْكُم بينَكُم في خِصَامِكُم، أَبْصَرْتَ الَّذين يُظْهِرُون الإيمَانَ ويُبْطِنُونَ الكُفْرَ يُعْرِضُونَ عنك - أيها الرسول ﷺ - إلى التَّحاكُمِ إلى غَيْرِكَ إعْرَاضًا شديدًا[3].

(1) البقاعيّ: نظم الدُّرر: 5/313، والرَّازي، مفاتيح الغيب: 10/122.
(2) الخليل، العين، وابن دريد، جمهرة اللُّغة، وابن عبَّاد: المحيط في اللُّغة، والجوهريّ، الصِّحاح، وابن منظور، لسان العرب: (صدد)، وأبو السّعود: إرشاد العقل السَّليم: 2/195.
(3) لجنة من علماء الأزهر، المُنتخب في تفسير القرآن الكريم، ص: 119، ونُخبة من أساتذة التَّفسير، التَّفسير المُيَسَّر، ص: 88، وجماعة من علماء التَّفسير، المُختصر في تفسير القرآن الكريم، ص: 88.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

نُكْتَةُ تَعْلِيقِ الشَّرْطِ بِـ (إِذَا) فِي قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّـهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ﴾:

تَأْكِيدُ الْإِخْبَارِ عَنِ الْمُنَافِقِينَ بِشِدَّةِ نُفُورِهِمْ مِنْ تَحْكِيمِ الشَّرِيعَةِ

جَاءَتِ الآيةُ في وَصْفِ حالِ المنافقين وشِدَّةِ نفُورِهم من تَحْكِيم قولِ اللهِ تعالَى وقولِ رسُولِهِ ﷺ، فَجِيء بـ (إذا) الشَّرطيَّة، وزَادَت الحَالُ تأكيدًا بِدُخولِهَا علَى الْفِعْلِ الْمَاضِي؛ لأنَّ (إذا) تَأْتِي في مَقَامِ التَّأكيدِ لِمَا يُقْطَعُ بوقُوعِه، ولمَّا كان أَصْلُ (إذا) الجَزْمَ بوقوعِ مدخولِهَا؛ كان الغَالِبُ في الفِعْلِ المُستعمَلِ مَعَها أَنْ يَرِدَ بِلَفْظِ المَاضِي؛ لِإِشْعَارِ المُضِيِّ بتحقُّقِ الوقُوعِ الَّذي يُناسب مَفادَ (إذا)[1].

دِلَالَةُ الْمَجَازِ الْمُرْسَلِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿تَعَالَوْاْ﴾:

بَيَانُ عُلُوِّ مَنْزِلَةِ الْمُتَحَاكَمِ إِلَيْهِ وَرِفْعَةِ تَشْرِيعِهِ وَحُكْمِهِ

الْفِعْلُ ﴿تَعَالَوْاْ﴾ مشتقٌّ مِنَ الْعُلُوِّ لَمَّا استعملت في دعاء الإنسان وجلبه؛ سِيقَتْ مِن العلوِّ تحسينًا للأدب، كما تقول: ارْتَفِعْ إِلَى الحقِّ"[2]، ووجه اشتقاقِ (تعالَ) من مادَّة العلوِّ أنَّهم تخيَّلوا المنادِيَ في علوٍّ والمُنَادَى - بِالْفَتْحِ - في سُفْلٍ؛ لأنَّهم كانوا يَجْعَلُون بيوتَهُم في المُرْتَفَعَات؛ لأنَّها أحصَنُ لَهُم، ولذلك كان أصلُه أَن يدلَّ علَى طلَبِ حُضُورٍ لِنَفْعٍ.

والفعلُ ﴿تَعَالَوْاْ﴾ مُسْتَعْمَلٌ هنا مجازًا مرسلًا؛ إذ استُخدِمت مَكانَ (تَحَاكَمُوا)، فليس ثمَّة حُضُورٌ وإتيان حقيقيٌّ، فهو مجازٌ في تَحْكِيمِ كتَابِ اللهِ تعالَى وتحكيم الرَّسولِ ﷺ في حضُورِه، ولذلكَ قَالَ: ﴿إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾؛ إذْ لا يُحَكَّمُ اللهُ إلَّا بواسِطَةِ كلامِه[3].

وهذا المَجازُ يَحْمِلُ تصويرًا بديعًا لعلوِّ مَنْزِلَةِ المُتحاكَمِ إلَيْه، فَهُو مجازٌ علاقَتُهُ اللُّزومُ: وهِيَ التَّعبير عنِ المَعْنَى بما يكون مُلازمًا له،

(1) ابن يعقوب، مواهب الفتَّاح: 2/40، والبناني، سورة النِّساء: دراسة بلاغيَّة تحليليَّة: 1/137.
(2) ابن عطيَّة، المُحرِّر الوجيز: 2/73.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 5/106.

فالتَّشريع إذَا جاءَ مِنَ اللّهِ تعالَى فهُوَ عَالٍ؛ لأنَّه سُبْحَانه لَا يَغِيبُ عنْهُ شيءٌ وإن صَغُرَ، بخلافِ أحكامِ البشَرِ فإنَّها أحطُّ مَنْزِلَةً وَأَسْفَلُ؛ لأنَّه يُوضَعُ لأحوالٍ آنيَّةٍ، ثُمَّ تَرِدُ أحوالٌ بعدها تُوجِبُ تعديلَ هذه الأحكامَ واستبدالَهَا، وهذا ناشِئٌ مِنْ أنَّ أحداثًا جدَّت لم تكن في بال مَن قنَّن لصيانة المجتمَعِ، وكان ذِهْنُ واضِعِ القانُونِ الوضعيِّ قاصرًا عنها، كما أنَّ تعديل أيِّ قانون لا يَحْدُثُ إلَّا بعد أن يَرَى واضِعُهُ الآثارَ الضَّارَّة في المُجْتَمَعِ الَّتي نشأت مِن قَانُونِهِ الأوَّل، أمَّا تشريعُ اللّهِ تعالَى؛ فهُوَ يَحْمِي المُجْتَمَعَ مِن أن تقَعَ هذهِ الأحدَاثُ ابتداءً، هذا هو الفَارِقُ بينَ تَقْنِينٍ وضعيٍّ بشريٍّ جاء لِيُنْقِذَنَا مِنَ الأحدَاثِ، وتَشْرِيعٍ ربانيٍّ إلهيٍّ يَقِينًا مِن تِلْكَ الْأَحْدَاثِ[1].

دِلَالَةُ عَطْفِ الدَّعْوَةِ إِلَى تَحْكِيمِ الرَّسُولِ ﷺ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ﴾:

تَعْظِيمُ حُكْمِ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي حَيَاتِهِ وَتَحْكِيمُ سُنَّتِهِ بَعْدَ وَفَاتِهِ

المُراد بتَحْكِيم الرَّسولِ ﷺ تحكيمُ ذاتِه؛ لأنَّ القومَ المُخْبَرَ عنهم كانوا منَ المُنَافِقِين، وهُم بالمَدِينَةِ في حَيَاةِ الرَّسولِ[2] ﷺ، ولأنَّه ﷺ هو المُخْبِرُ عَنِ اللّهِ تعالَى وحُكْمِهِ، والواسطةُ في معرفة حُكْمِ اللّه سُبحانَهُ.

وفي هذا العَطْفِ إشارةٌ إلى تحكيم سنَّتِه بعدَ وفاتِه ﷺ، وأنَّ سُنَّتَهُ ﷺ لا تَنْفَكُّ عَن كِتَابِ اللّهِ تعالَى في التَّشريعِ والتَّحكِيمِ على حدٍّ سواءٍ.

سِرُّ الْإِظْهَارِ فِي مَوْضِعِ الْإِضْمَارِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ﴾:

النِّفَاقُ مِنْ أَعْظَمِ أَسْبَابِ الْإِعْرَاضِ عَنْ أَحْكَامِ الشَّرْعِ

المنافقونَ في قولِ اللّهِ تعالَى: ﴿رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ هُمُ الزَّاعِمُونَ المَذْكُورُونَ في الآيةِ السَّابقة، فقَدْ صُرِّحَ في هذهِ الآيَةِ بِمَا دلَّت عَلَيْهِ الَّتي قبلها مِنْ نِفَاقِ هؤلاء الَّذين يَرْغَبون عَن حُكْمِ كتابِ اللّهِ تعالَى

(1) الشَّعراوي، تفسير الشَّعراوي: 4/2365.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 5/106.

وحُكْم رسُولِهِ ﷺ إلى حُكْم الطَّاغوت مِن أَصْحَابِ الأَهْوَاءِ، ونَاهِيكَ بِمَنْ فَعَل ذَلِكَ فِي عَهْدِ الرَّسولِ ﷺ[1].

وفي قَوْلِهِ سُبحانَهُ: ﴿رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ﴾ إظْهَارٌ في مقامِ الإِضْمَارِ؛ إذ مقتضى الظَّاهِرِ أن يَرِدَ النَّظْمُ القرآنيُّ: (رأيتَهم يصدُّون عنكَ صدودًا)، ولكن عُدِلَ عن الإضمارِ إلى الإظْهَار؛ لِلتَّسجيلِ عَلَيْهِمْ بِالنِّفاق وذمِّهم بهِ، ولِلْإِشْعَارِ بعلَّة الحُكْم، أي: رَأَيْتَهُمْ لِنِفَاقِهِم ﴿يَصُدُّونَ﴾[2]، وفي ذلك كشفٌ لِحَالِهِم وحالِ أَمْثَالِهِمْ بالنَّصِّ، ويُبنَى عَلَيْهِ مَا بَعْدَهُ مِنَ الْإِعْرَاضِ وَالصَّدِّ، وهُوَ أَثَرُهُ[3].

دِلَالَةُ التَّأْكِيدِ بِالْمَصْدَرِ الْمُنَكَّرِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا﴾:

شِدَّةُ انْحِرَافِ الْمُنَافِقِينَ بِإِظْهَارِهِمْ قُوَّةَ الْإِعْرَاضِ عَنِ التَّحَاكُمِ إِلَى الشَّرْعِ

قول الله تعالَى: ﴿يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا﴾، أي: يُعْرِضُونَ إعراضًا عنك، وذِكْرُ المصدر يُرادُ به التَّأكيدُ والمُبَالَغَةُ، وتنكيرهُ يُقوِّي هذه الدِّلالَةَ، والمعنَى: يصدُّونَ عنكَ صُدودًا أيَّ صُدودٍ[4].

والصُّدود والصَّدُّ: الانْصِرَافُ والامْتِنَاعُ عَنِ الشَّيء[5]، وهو أشدُّ مِنَ الإعْرَاضِ، وزادَهُ شدَّةً إيرَادُهُ منكرًا؛ لِيَكُونَ وَصْفًا مبيِّنًا لِسُلُوكِ هؤلاء المنافقين، ولِإِفَادَةِ تَعْظِيمِ هذا الصُّدود وتَفْخِيمِهِ[6].

وقد جاءَ قولُهُ سُبحانَهُ: ﴿يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا﴾، تكملة لمادَّة التَّعجيبِ بِبَيَانِ إعْرَاضِهم صَرِيحًا عنِ التَّحاكُم إلى كِتَابِ الله تعالَى ورسُولِهِ ﷺ إِثْرَ بَيَانِ إِعْرَاضِهم عَن ذَلِكَ ضِمْنَ التَّحاكُم إِلَى الطَّاغُوتِ[7].

(1) رضا، تفسير المنار: 5/184.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 3/66.
(3) رضا، تفسير المنار: 5/184.
(4) الرَّازي، مفاتيح الغيب: 10/122.
(5) الرَّاغب، مفردات ألفاظ القرآن: (صد).
(6) الآلوسي، روح المعاني: 3/66، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 5/106.
(7) الآلوسي، روح المعاني: 3/66.

وفي قَوْلِه ﷻ: ﴿يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا﴾ جِناسُ الاشْتِقَاقِ، وفيه بيانُ شدَّة إعراضِ أهل النِّفاقِ عن الشَّرْعِ والتَّحاكمِ إليهِ.

تَوْجِيهُ الْمُتَشَابِهِ اللَّفْظِيِّ:

اخْتِلَافُ حَالِ الْمَدْعُوِّينَ بَيْنَ مُشْرِكٍ جَاهِلِيٍّ، وَمُنَافِقٍ مُدَّعٍ لِلْإِيمَانِ

بَيْنَ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا﴾، وَقَوْلِهِ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُواْ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ﴾:

جاء في سُورَةِ الْمَائِدَة قولُه تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُواْ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ﴾ [المائدة: 104]، علَى الاكْتِفَاءِ بِقَوْلِهِ: ﴿إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾، وهُنا وردَ قولُهُ سُبحانَهُ: ﴿إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ﴾ مَعَ اسْتِوَائِهما في دُعاء المُخَالِفين ممَّن ذُكِرَ قبل كلِّ آيةٍ مِنْهُما إلى مُتَابَعَةِ الحقِّ والرُّجوع إِلَيْهِ.

ونُكْتَةُ التَّغايُرِ بينَهُمَا: أنَّ حالَ المَدْعُوِّين مختلِفٌ، فإنَّ هذه الآيةَ في مُنَافقٍ ويهُودِيٍّ تخاصَما، وتحاكمَا إلى الكاهنِ، ورَضِيَا بِحُكْمِهِ، فالمُرَادُ بِالْآيَةِ: المُنَافِقُون؛ لأنَّهم المُظهِرون أنَّهم آمَنُوا بما أُنزل على محمَّدٍ ﷺ وعلَى مُوسَى عليه السلام، قائِلُونَ ذلك بألْسِنَتِهم، ولكون ذلك نُطْقًا بألسنتهم عُبِّر عَنْهُ بالزَّعْم، وكنَّى بالطَّاغوت عنِ الكَاهِنِ، ثُمَّ قال تعَالَى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ﴾ أي: لِلْحُكْم بينَهُم بِمَا أنزل اللّه؛ صَدُّوا عنهُ ونَفَرُوا إلى التَّحاكم عندَ الكاهنِ، وأمَّا آيةُ المائدة؛ فَمَبْنِيَّة على مَا تقدَّمها مِن مُرْتَكبات أهلِ الجاهليَّة وما سَنُّوه تقليدًا أو اتِّباعًا لعمرو بن لحيٍّ الخُزاعِيِّ وأشباهِهِ ممَّن غَيَّرَ مِلَّةَ إبراهيمَ عليه السلام، فدَانَ بِفِعْلِهِمْ فِي البَحيرة[1]

(1) البَحيرة: النَّاقة إذا نتجت خمسة أبطن، فإذا كان الخامس ذكرًا، نحروه، فأكله الرِّجال والنِّساء، وإن كان الخامس أنثى، بحروا أذنها، أي: شقُّوه، وكانت حرامًا على النِّساء لحمها ولبنها، ينظر: القُرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 6/336.

والسّائبة[1] والوصيلة[2] والحام[3]، فالضَّمير مِن قوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾ راجع إلى القائلينَ بهَذِهِ الأشياء المُتَّبعين فيهَا لآبائِهم، فَبَيَّنَ اللّه تَعَالَى وحَكَمَ فيها بقولِهِ: ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ﴾ [المائدة: 103] إلى قوله: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۖ﴾، فَحُكْمُ هذه الأشياء بَيِّنٌ واضحٌ مِنْ كِتَاب اللّه تعالَى لا يَفْتَقِرُ في تعرُّفه إلى غير سَمَاعِه إذا حَصَلَ التَّصديق بِهِ، وسَوَاءٌ أَسَمِعَ ذلك مِنْهُ ﷺ أَمْ مِن غَيْرِهِ؛ لِتَوَاتُر نَقْلِه، فَلِهَذَا لم يُذكَر هُنا دُعَاءٌ إلى زائِدٍ على المُنْزَل، بخلافِ آية النِّساء؛ فهِيَ في قضيَّةٍ تَخَاصُم لا بدَّ مِنَ التَّحاكُم فيها إلى مُجْتَهِدٍ يَفْصِلُ فيها بما فهَّمه اللّه تعالَى من كِتابه، والآتي به ﷺ هُوَ المُبَيِّنُ ما فِيهِ والمَعْصُومُ فِيمَا بَيَّن مِنْهُ ويَحْكُمُ بِهِ، والقضيَّة واقعةُ حالٍ، فإليهِ ﷺ المَرْجِعُ؛ فلِهَذَا قالَ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ﴾[4].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الصَّدّ وَالإِعْرَاض:

الصَّدُّ: هُو المنْع عَن قَصْدِ الشَّيءِ خاصَّةً، ولهذا قَالَ اللّه تَعَالَى: ﴿وَهُمۡ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ﴾ [الأنفال: 34]، أي: يَمْنَعُونَ النَّاسَ عَن قَصْدِه[5].

والإِعْرَاضُ: الإضرَابُ عَنِ الشَّيء، يُقال: أخذت عَرْضًا، أي: جانبًا غيرَ الجانب الَّذي هو فيه[6].

ويأتي الصَّدُّ، بمعنًى قريبٍ منَ الإعْرَاضِ، مِنْ ذَلِكَ قولُه تعالى: ﴿رَأَيۡتَ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودٗا﴾، فالصَّدُّ: هو العُدُولُ عَنِ الشَّيْء بقصد الصَّرْف وَالمنْع، والإعرَاضُ أَعَمُّ مِنْهُ[7].

الصَّدُّ هُوَ الْعُدُولُ عَنِ الشَّيْءِ بِقَصْدِ الْمَنْعِ، وَالإِعْرَاضُ أَعَمُّ؛ إِذْ هُوَ الإِضْرَابُ عَنِ الشَّيْءِ

(1) السَّائبة: البعير يُسيَّب بِنَذْرٍ يكون على الرَّجل، إن سلَّمه الله من مرض، أو بلَّغه مَنْزِلَهُ أن يفعل ذلك، فلا تُحبس عن رعي ولا ماء، ولا يركبها أحدٌ، ينظر: القُرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 6/336.

(2) الوصيلة: الشَّاة تلد ستَّة أبطُن، فإذا ولدت السَّابع جُدعت وقُطِعَ قَرْنُها، فيقولون: قد وَصَلَتْ، فلا يذبحونها ولا تُضرب ولا تُمنع مهما وردت على حوض، ينظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 3/211.

(3) الحام: فحل الإبل يَضْرِبُ الضِّراب المعدود، فإذا قضى ضِرابه وَدَعُوهُ للطَّواغيت، وأعفوه عن الحَمْل، فلم يحمل عليه شيء، وسمَّوه: الحامي، ينظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 3/208.

(4) ابن الزُّبير، ملاك التَّأويل: 1/106 - 107.

(5) العسكريّ: الفروق اللُّغوية، ص: 114.

(6) المناوي، التَّوقيف، ص: 56.

(7) الكفويّ، الكُلِّيات، ص: 28.

﴿فَكَيۡفَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةُۢ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنۡ أَرَدۡنَآ إِلَّآ إِحۡسَٰنٗا وَتَوۡفِيقًا ٦٢﴾ [النساء: 62]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الصَّدُّ عَنِ التَّحاكُمِ إِلَى الشَّرْعِ مُوجِبٌ غَضَبَ اللهِ تَعالَى وَسَخَطَهُ

لَمَّا ذَكَرَ اللهُ تعالى حالَ المُنَافِقينَ أنَّهم يتحَاكَمُون إلى الطَّاغوت مع أنَّهم أُمِروا بالكُفْرِ بِهِ، ويَصُدُّون عنِ الرَّسول ﷺ مع أنَّهم أُمِروا بطاعتِه؛ ذَكَرَ بَعْدَ هذا ما يَدُلُّ على شِدَّةِ الأحوَالِ عَلَيْهِم بِسَبَبِ هذهِ الْأَعْمَالِ السَّيِّئَة في الدُّنيا والآخِرَة، فقَالَ: ﴿فَكَيۡفَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةُۢ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ﴾، أي: فكَيْفَ حَالُ تلك الشِّدَّة وحالُ تلك المُصِيبَةِ[1]، فهُوَ تَفْرِيعٌ عَلَى قولِهِ سُبحانَهُ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيۡتَ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودٗا﴾؛ لأنَّ الصُّدود عَن ذَلِكَ يُوجِبُ غضبَ اللهِ تعالَى عَلَيْهِم، فيُوشِكُ أَن يُصِيبَهُمُ اللهُ سُبحانَهُ بمُصِيبَةٍ مِن غَيْرِ فِعْلِ أَحَدٍ، فيَجِيئُونَ يَعْتَذِرُونَ بأنَّهم ما أرَادُوا بالتَّحاكُم إلَى أَهْلِ الطَّاغوت إلَّا قَصْدَ الإحسانِ إلَيْهِم، وتأليفِهم إلَى الإيمَانِ والتَّوفيقِ بينَهُم وبَيْنَ المُؤْمِنين[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مُّصِيبَةُۢ﴾: أصل(صَوَبَ) يدلُّ على نُزول شيْءٍ واسْتقرارِهِ قرارَهُ، تقول يُقال: أصاب السَّهمُ؛ إذا وصلَ إلى المَرْمَى بالصَّواب، والمصيبةُ أَصْلُهَا في الرَّمْيَةِ، ثُمَّ اختُصَّت بالنَّائبةِ والنَّكبة، والمُصِيبَةُ: الأمْرُ المَكْرُوهُ ينْزِل بالإنسانِ، يُقَالُ: مُصِيبَةٌ، ومَصُوبَةٌ، ومُصَابَةٌ، وَالمعنى في قولِهِ تعالى: ﴿إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةُۢ﴾: أخَذَتْهُم نَائِبَةٌ وشدَّةٌ[3].

(1) الرَّازي، مفاتيح الغيب: 10/122.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 5/107.
(3) الجوهريّ، الصِّحاح، والرَّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، والسَّمين، عمدة الحُفَّاظ: (صوب)، والهرري، حدائق الرُّوح والرَّيحان: 3/48.

2) ﴿وَتَوْفِيقًا﴾: أصل (وفق) دالٌّ على مُلاءمة شَيْئَيْن، يُقال: اتَّفَقَ الشَّيْئَانِ، أي: تَقارَبا وَتَلاءَما، وَوَافَقْتُ فُلَانًا ووَفَقْتُه ووَفِقَنِي، وَذَلِكَ إِذَا صَادَفَنِي وَلَقِيَنِي. وَيُقَال: وَفِقَ أَمرَه يَفِقُ؛ إذا وَجَدَهُ مُوافقًا، والمعنى في قولِهِ سُبحَانَهُ حكايةً عَنْهُمْ: ﴿إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا﴾ مَا أَرَدْنَا بتحاكُمِنا إلى غَيْرِكَ إلَّا الفَصْلَ بالوَجْهِ الحسَنِ والتَّوفيقَ بَيْنَ الخَصْمَيْنِ[1].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

فكَيْفَ يَكُونُ حَالُ المُنافقِينَ؛ إذَا حلَّت بِهِمْ مُصيبَةٌ بِسَبَبِ خُبْثِ نفُوسِهِم وسُوءِ أَعْمَالِهِم، ثُمَّ جاؤوكَ أيُّها الرَّسولُ مُعتذِرِينَ إِلَيْكَ يحْلِفُون باللهِ: مَا قَصَدْنَا بِتَحَاكُمِنا إلى غيرِكَ إلَّا الإِحْسَانَ وطلَبَ التَّوفيق بَيْنَ المُتَنَازِعِين[2].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

دِلَالَةُ الِاسْتِفْهَامِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَكَيْفَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ﴾:

تهديد أَهْلِ النِّفَاقِ بِوُقُوعِ الْمَصَائِبِ عَلَيْهِمْ، وَتَبْشِيرُ أَهْلِ الْإِيمَانِ بِمَا يَحُلُّ بِأَعْدائِهِمْ

الاسْتِفْهَامُ بِـ (كيف) صوَّر حالَ عَجْزِهِمُ التَّامِّ عند مُفاجأتِهِم بالمُصِيبَةِ، وكَيْفَ: اسمُ استفهام مَبْنِيٌّ على الْفَتْحِ في محلِّ نَصْبٍ حَالٌ، أي: فكَيْفَ يَصْنَعُونَ؟ أو فكَيْفَ تَرَاهُم؟ ويَجُوزُ أن تَكُونَ خَبَرًا لِمُبْتَدَأٍ مَحْذُوفٍ، أي: فكيفَ صُنْعُهُمْ أو حالُهُم؟ وحُذِفَ الْمُبْتَدَأُ لِدِلَالَةِ سِيَاقِ الكلامِ عَلَيه[3]، وفي هذا الاسْتِفْهَام وَعِيدٌ لَهُمْ على فِعْلِهِم، وأنَّهم سَيَنْدَمُونَ عَلَيْهِ عِنْدَ حُلُولِ بَأْسِ اللَّهِ تعالَى حِينَ لَا يَنْفَعُهُمُ النَّدم، ولا يُغْنِي عَنْهُمُ الاعتِذَارُ[4]، فأَخْرَجَ كُلٌّ مِنَ الاسْتِفْهَامِ والحَذْفِ الوعيدَ إلى التَّهويل[5].

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (وفق)، وابن منظور، لسان العرب: (وفق)، والزَّبيديّ، تاج العروس: (وفق)، وأبو السّعود، إرشاد العقل السليم: 2/196.

(2) لجنة من علماء الأزهر، المُنتخب في تفسير القرآن الكريم، ص: 119، ونُخبة من أساتذة التَّفسير، التَّفسير المُيَسَّر، ص: 88، وجماعة من علماء التَّفسير، المُختصر في تفسير القرآن الكريم، ص: 88.

(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 5/107.

(4) أبو حيَّان، البحر المحيط في التفسير: 3/690.

(5) البِقاعيّ، نظم الدُّرر: 5/314، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 5/107.

وفي هَذَا الاسْتِفهَام بِشَارة للنَّبيِّ ﷺ، فإنَّه تعالى لَمَّا أَخْبَرَ عَنِ المنافِقِين أنَّهم رَغِبُوا في حُكْم الطَّاغوت، وكرِهُوا حُكْمَ الرَّسولِ ﷺ؛ بَشَّرَ الرَّسولُ ﷺ أنَّهُ سَتُصِيبُهُمْ مَصَائِبُ تُلْجِئُهُمْ إِلَيْه، وإلى أن يُظْهِرُوا لَهُ الإيمَانَ بِه، وإلى أن يَحْلِفُوا بأنَّ مُرادَهُمُ الإِحْسَان والتَّوفيق، فمِن عَادَةِ الْعَرَبِ عِنْدَ التَّبشير والإنذارِ أَن يَقُولُوا: كَيْفَ أَنْتَ إِذَا كَانَ كذَا وَكَذَا؟[1].

دِلَالَةُ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَكَيْفَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةُۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ بَيْنَ الِاعْتِرَاضِ وَالتَّفْرِيعِ:

الْأَعْمَالُ السَّيِّئَةُ مُوجِبَةٌ لِحُلُولِ الْمَصَائِبِ

يُجوزُ أن يكُونَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَكَيْفَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةُۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ اعتراضًا، فهو كلامٌ وقَعَ في الْبَيْنِ، وما قبلَ هَذِهِ الآيةِ متَّصِلٌ بِمَا بَعْدَهَا: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا﴾، ﴿ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا﴾، يعني: أنَّهم في أوَّل الأمْر يصدُّون عنك أشدَّ الصُّدود، ثُمَّ بعد ذلك يَجِيئُونَك، ويَحْلِفُونَ باللهِ كذبًا على أنَّهم ما أرَادُوا بذلك الصَّدِّ إلَّا الإحسَانَ والتَّوفيقَ، وعلى هذا التَّقدير يكون النَّظمُ متَّصِلًا، وقولُهُ: ﴿فَكَيْفَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةُۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾، واقعٌ في الْبَيْنِ كَالْكَلَامِ الأجنبيِّ، وهو المسمَّى: اعْتِرَاضًا، ونظيرُهُ قولُ الشَّاعر:

إِنَّ الثَّمَانِينَ – وَبُلِّغْتَهَا – قَدْ *** أَحْوَجَتْ سَمْعِي إِلَى تُرْجُمَان[2]

فقولُهُ: (وبلِّغتَها) كلامٌ أَجْنَبِيٌّ وقع في الْبَيْنِ، إلَّا أنَّ هذا الكلامَ الأجنبيَّ شَرْطُهُ أن يكُونَ لَهُ مِن بَعْضِ الوجُوه تعلُّقٌ بذلك المَقْصُودِ،

(1) الرَّازي، مفاتيح الغيب: 10/123.

(2) هذا البيت لعوفِ بْنِ مُحَلِّمٍ الخزاعي من قصيدة من بحر السريع، وشاهد الاعتراض فيه: بُلِّغْتَها: إنَّ التاءَ تاءُ الْمُخاطَبِ المفتوحة، اعتراضٌ لطيفٌ يخاطبُ بها عوفٌ ممدوحَه عبدَ الله بن الطاهر، جاءت دعاءً للممدوح بطول العمر، ينظر: رشدي حسن، شعراء عباسيون، ص: 132.

كمَا في هَذَا الْبَيْتِ، فإنَّ قولَهُ: (بُلِّغْتَهَا) دُعَاءٌ لِلْمُخَاطَب، وتلطُّف في القولِ مَعَهُ، والآية أيضًا كذلك؛ لأنَّ أوَّلَ الآية وآخرَهَا في شَرْحِ قبَائِحِ المُنَافِقِين وفضَائِحِهم وأنواعِ كَيْدِهم ومَكْرِهِم، فإنَّ الآية أَخْبَرَتْ بأنَّه تعالى حكَى عَنْهُمْ في أوَّلِ الآيَةِ أنَّهم يَتَحَاكَمُونَ إِلَى الطَّاغُوت مع أنَّهم أُمِرُوا بالكُفْرِ بِهِ، ويصدُّون عنِ الرَّسول مع أنَّهم أُمِرُوا بطاعته، فذكَرَ بَعْدَ هذا مَا يدلُّ على شدَّة الأحوَالِ عَلَيْهِم بِسَبَبِ هذه الأعمال السَّيِّئة في الدُّنيا والآخرة، فقال: ﴿فَكَيْفَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾، أي: فكيفَ حَالُ تِلْكَ الشِّدَّة وحالُ تِلْكَ المُصِيبَةِ؟ فهذَا تَقْرِيرُ هَذَا الوَجْهِ[1].

الصُّدُودُ عَنْ حُكْمِ اللهِ تَعَالَى وَشَرْعِهِ مُوجِبٌ غَضَبَ اللهِ تَعَالَى

ويحتَمِلُ أن يَكُونَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَكَيْفَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ تَفْرِيعًا على قَوْلِه: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا﴾؛ وذلكَ لأنَّ الصُّدود عَن ذلك يُوجِبُ غضَبَ اللهِ تعالَى عَلَيْهِم، فَيُوشِكُ أن يُصيبَهُم اللهُ بِمُصِيبَةٍ مِن غَيْرِ فِعْلِ أَحَدٍ، مثل: انْكِشَافِ حالِهم لِلْمُؤْمِنِين، فيُعْرَفُوا بِالْكُفْرِ، فَيُصْبِحُوا مهدَّدِينَ، أو مُصِيبَةٍ مِن أَمْرِ اللهِ تعالى رَسُولَهُ والمُؤْمِنِينَ بِأَنْ يُظْهِروا لَهُمُ العَدَاوَةَ، أو يَقْتُلُوهُم لِنِفَاقِهِم، فيَجِيئُوا يَعْتَذِرُونَ بأنَّهم ما أَرَادُوا بالتَّحاكم إلى أَهْلِ الطَّاغوت إلَّا قَصْدَ الإحسَانِ إِلَيْهِم وتأليفِهم إلى الإيمَان والتَّوفيق بينَهم وبَيْنَ المُؤْمِنين، وهذا وَعِيدٌ لَهُمْ؛ لأنَّ ﴿إِذَآ﴾ لِلْمُسْتَقْبَلِ، فَالْفِعْلَانِ بعدَها وهُمَا: ﴿أَصَٰبَتْهُم﴾ و﴿جَآءُوكَ﴾ مُسْتَقْبَلانِ معنًى، وهُوَ مِثْلُ قَوْلِه تعالَى: ﴿۞لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾ مَّلْعُونِينَ ۖ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓاْ أُخِذُواْ وَقُتِّلُواْ تَقْتِيلًا ﴿٦١﴾﴾ [الأحزاب: 60 - 61][2].

(1) الرَّازي، مفاتيح الغيب: 10/122، والبيضاويّ، أنوار التنزيل: 2/81، والواحدي، الوجيز، ص: 271.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 5/107.

دِلَالَةُ ضَمِيرِ الْغَائِبِ فِي قَوْلِهِ: ﴿أَصَبَتْهُم﴾ وَ﴿أَيْدِيهِمْ﴾:

تَخْصِيصُ الْمُنَافِقِينَ دُونَ غَيْرِهِمْ بِنُزُولِ الْمَصَائِبِ

تَصْدِيرُ الْآيَةِ بِاسْتِفْهَامٍ يُصَوِّرُ حالَ تخبُّطِ المنافقينَ الشَّديد حينَ يَنْتَقِمُ مِنْهُم الجبَّارُ بتِلْكَ المُصيبة الَّتي تَنْزِلُ بِهِمْ خاصَّة؛ عقوبةً لهم بِنِفَاقِهِمْ وكُرْهِهِمْ حُكْمَ الله تعالَى[1]، فذلكَ بِمَا قدَّمت أَيْدِيهم مِنْ جِنَايَاتٍ؛ مِنْ جُمْلَتِها التَّحاكُمُ إِلَى الطَّاغوت[2]، وقد خَصَّصَ ضَمِيرُ الغائِب في ﴿أَصَبَتْهُم﴾ و﴿أَيْدِيهِمْ﴾ المنافِقِينَ بِنُزُولِ المَصَائِبِ لِجَمْعِهِم صنُوفَ المَعَايِبِ.

نُكْتَةُ الْمَجَازِ الْعَقْلِيِّ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَكَيْفَ إِذَآ أَصَبَتْهُم مُّصِيبَةٌ﴾:

تَعْظِيمُ الْمَصَائِبِ النَّازِلَةِ بِالْمُنَافِقِينَ وَتَهْوِيلُهَا

الفاعِلُ الحقيقيُّ لِلْفِعْلِ (أَصَابَ) هُوَ اللهُ الجبَّارُ الْمُنْتَقِمُ سُبْحَانَهُ، أي: (أَصَابَهُم اللهُ بِمُصِيبَة)[3]، وإسنادُ الفِعْلِ إلى المُصيبَةِ هُنا فيه مِنَ التَّهويل الشَّيءُ العَظِيمُ؛ حيثُ جُعِلَت المُصِيبَةُ نَفْسُهَا هِيَ المُتَرَبِّصَة بِهُم، تُرِيدُ فُرْصَةً لِلانْقِضَاضِ عَلَيْهِم جَزَاء مَا قدَّمت أَيْدِيهم، فَفِي إِسْنَادِ الفِعْلِ إلى المُصِيبَةِ على طَرِيقَةِ المَجَازِ الْعَقْلِيِّ تَهْوِيلٌ وتعظيمٌ[4].

دِلَالَةُ حَرْفِ الْعَطْفِ ﴿ثُمَّ﴾ فِي قَوْلِهِ تَعَالى: ﴿ثُمَّ جَآءُوكَ﴾:

التَّشْرِيكُ فِي الْحُكْمِ بَيْنَ الْمُصِيبَةِ وَالِاعْتِذَارِ

حرفُ العَطْفِ ﴿ثُمَّ﴾ حَقَّقَ معنَى التَّشريكِ في الحُكْم في هذهِ الآية الْكَرِيمةِ الَّتي صُدِّرَتْ بِالاستفهَام عَن حَالِهِم وَقْتَ إِصَابةِ المصيبةِ إيَّاهم بِافْتِضَاحِهِم بِظُهُورِ نفاقِهِم: ﴿ثُمَّ جَآءُوكَ﴾ لِلاعْتِذَارِ عمَّا صَنَعُوا مِنَ القَبَائِح، وهو عَطْفٌ على ﴿أَصَبَتْهُم﴾، والمُرادُ مِنْهُ: تَفْظِيعُ حَالِهِم وتَهْوِيلُ ما دَهَمَهُمْ من خطْب، واعتِرَاهُمْ مِنْ شدَّة الأمر عندَ إِصَابَة المُصيبة وعِنْدَ الْمَجِيءِ لِلاعْتِذَارِ، والاعتذارُ أَشَدُّ على النَّفس مِنَ المُصِيبَةِ أحيانًا، فهي إذًا حِكَايَةٌ عَنْهُم[5].

---

(1) السُّيوطيّ، الدُّرُّ المنثور: 2/583.

(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السليم: 2/195.

(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 5/107.

(4) البناني، سورة النِّساء: دراسة بلاغيَّة تحليلية: 2/447.

(5) أبو السُّعود، إرشاد العقل السليم: 2/195 والبناني، سورة النساء: دراسة بلاغية تحليلية: 1/163.

وهكذا يكُونُ الكَشْفُ لِنِفَاقِهِم مُصِيبَةً بِالنِّسبة لَهُمْ، فَهُم يَرَوْنَ النِّفاق نفعًا لهم، فَبِهِ يَسْتَفِيدُونَ مِنْ أحكَامِ الْإِسْلَامِ وإِجْرَائِها وتَطْبِيقها عليهم، وإذا افْتَضَحَ نِفَاقُهم يَشْعُرُونَ بالمُصِيبَة[1].

دِلَالَةُ التَّقْيِيدِ بِالْجُمْلَةِ الْحَالِيَّةِ فِي قَوْلِهِ: ﴿ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا﴾:

تَهْدِيدُ الْمُنَافِقِينَ عَلَى أَفْعَالِهِمْ، وَأَنَّ مَآلَ أَمْرِهِمْ إِلَى النَّدَمِ حِينَ لَا يَنْفَعُهُمُ النَّدَمُ

جُمْلَةُ ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ﴾ حَالِيَّة، سِيقَت لِبَيَانِ حالِهم بعدَ فَضِيحَتِهم وانْكِشَافِ نِفَاقِهم وكَذِبِهم، أي: يُقْسِمُونَ بِاسْمِ اللّٰهِ تعَالى، قائِلِينَ: وَاللّٰهِ ﴿إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا﴾، أي: مَا قَصَدْنا بالتَّحاكُم إلى غيرِكَ إلَّا إحسانًا وإصلاحًا في مُعَامَلَتِنا، وتوفيقًا بينَهم وبينَ خَصْمِهم بالصُّلح أو الجَمْع بينَ مَنْفَعَةِ الخَصْمَيْنِ، وقالوا: نحنُ نَعْلَم أنَّك لا تَحْكُم إلَّا بمُرِّ الحقِّ لا تُرَاعِي فيه أحدًا، فلم نَرَ ضَررًا في استِمَالَة خصُومِنا بقَبُول حُكم طواغِيتِهم لَا إِسَاءَةً بكَ، وإلَّا توفيقًا بينَ الخَصْمَيْنِ وقطعًا لِلْمُنَازَعَة بينَهُما، وجمعًا بين مَنْفَعَتِنَا ومنفعتِهم لا مُخالفةً لكَ[2]، فلا تؤاخِذْنا بما فَعَلْنا.

وهذا وعيدٌ لَهُم علَى ما فَعَلُوا، وأنَّهم سَيَنْدَمُونَ عَلَيْهِ حينَ لَا يَنْفَعُهُمُ النَّدمُ، ولا يُغْنِي عَنْهُمْ[3].

نُكْتَةُ الْقَصْرِ فِي قَوْلِهِ: ﴿إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا﴾:

إِمْعَانُ الْمُنَافِقِينَ فِي الْبَاطِلِ مَعَ ادِّعَائِهِمْ سُلُوكَ طُرُقِ الْحَقِّ

لَمْ يَكْتَفِ أهلُ النِّفاقِ بادِّعاء إرَادَتِهم الإصْلاحَ في الحالِ التِي افْتَضَحُوا فيها، بلِ ادَّعوا أنَّ جميعَ أَحْوَالِهم مَبْنِيَّةٌ على إرادَةِ الْإِحْسَانِ والتَّوفِيق، فَقَالَ اللّٰهُ تعالَى حِكَايَةً عَنْهُمْ: ﴿إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا﴾ أي: ما أردنَا في جَمِيعِ أَحْوَالِنَا وبجميعِ أَفْعَالِنَا إلَّا الْإِحْسَانَ وَالتَّوفيقَ، وهذه الحالُ المخصُوصَةُ التِي فضحهُمُ اللّٰه

(1) الشَّعراوي، تفسير الشَّعراوي: 4/2367.

(2) الهرريّ، حدائق الروح والريحان: 6/172، ورضا، تفسير المنار: 5/186.

(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السليم: 2/196.

تعالى فيها داخلَةٌ تحت هذا العمُومِ المُدَّعَى، وهذا إمعانٌ مِنْهُم في الباطِلِ وادِّعاءُ خِلافِ الواقِعِ.

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الإِحْسَان وَالْفَضْل:

الْإِحْسَان: النَّفع الحسَنُ، وهُوَ فِعْلُ مَا ينفع غَيْرَهُ بِحَيْثُ يَصِيرُ الآخَرُ حَسنًا بِهِ، كإِطْعَامِ الجائعِ، أَو يَصِيرُ الْفَاعِلُ بِهِ حَسنًا بِنَفسِهِ، وأمَّا الفَضْلُ؛ فهو النَّفع الزَّائد على أقلِّ المِقدار، وقد خُصَّ الإحسانُ بالفَضْلِ، ولَم يَجِبْ مِثْلُ ذَلِكَ في الزِّيادة؛ لأنَّه جرى مَجْرَى الصِّفة الغالبة[1].

الْإِحْسَانُ أَعَمُّ مِنَ الْفَضْلِ، وَهُوَ نَفْعٌ حَسَنٌ، وَالْفَضْلُ نَفْعٌ زَائِدٌ

كما أنَّ الإحسان قد يَكُونُ واجبًا وغيرَ وَاجِبٍ، والفَضْلُ لَا يَكُونُ وَاجِبًا على أحدٍ، وإنَّما هو ما يُتَفَضَّلُ به مِن غَيْرِ سَبَبٍ يُوجبه[2].

(1) العسكريّ، الفروق اللُّغوية، ص: 23، والكفويّ، الكُلِّيات، ص: 53.
(2) العسكريّ، الفروق اللُّغوية، ص: 24.

﴿أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُ ٱللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمۡ فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ وَعِظۡهُمۡ وَقُل لَّهُمۡ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ قَوۡلَۢا بَلِيغٗا ٦٣﴾ [النساء: 63]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الإِعْلَامُ بِشَأْنِ الْمُنَافِقِينَ وَمَا يُصْنَعُ بِهِمْ بَعْدَ ذِكْرِ أَعْمَالِهِمُ الصَّادِرَةِ عَنْهُمْ

لَمَّا ذكرَ اللّه ﷻ بَعْضَ مَا يَصْدُرُ مِنَ الْمُنَافِقِينَ مِنَ التَّناقضات، وهُم غيرُ مُحْتَشِمِينَ وَلَا هَائِبِينَ، قال مُعْلِمًا بِشَأْنِهِم، ومُعْلِمًا لما يُصْنَعُ بهم[1]: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُ ٱللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمۡ فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ وَعِظۡهُمۡ وَقُل لَّهُمۡ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ قَوۡلَۢا بَلِيغٗا﴾، فمَا في قُلوب هَؤلَاءِ المُنافقين كبيرٌ جِدًّا لا يَعْرِفُهُ كمَا هُوَ إِلَّا اللّه تَعالى[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَعِظۡهُمۡ﴾: أَصْلُ الوَعْظِ: تَذْكيرٌ بِالخيْرِ مع تَخْويفٍ وتَذْكيرٍ بِالعَواقِبِ، فالوعْظُ والعِظَةُ والمَوْعِظَةُ: تَذكيرُكَ الإنسانَ بِما يُلَيِّنُ قَلْبَهُ من ثَوابٍ وعقابٍ، والوَعْظُ: التَّذكيرُ بِالخير فِيمَا يَرِقُّ له القَلْبُ[3].

2) ﴿بَلِيغٗا﴾: أصل مادَّةِ (بَلَغَ): الوُصولُ إلى الشَّيءِ، ومِنْهُ بلاغةُ الكلامِ؛ وهو: أنْ يكُونَ صَوَابًا في موضوعِ لُغتِه، وطِبقًا لِلْمَعْنَى المَقْصُودِ به، وصِدْقًا في نفْسِه، وقولُه: ﴿بَلِيغٗا﴾ أي: قَويًّا يبلغُ شِغَافَ قُلُوبِهم؛ لبَلاغَتِه وفَصَاحتِه، ومعنَى قولِه تعالَى: ﴿وَقُل لَّهُمۡ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ قَوۡلَۢا بَلِيغٗا﴾ أي: قُلْ لَهُمْ قولًا مُؤَثِّرًا في النَّفْسِ واصِلًا إلى كُنْهِ المُرادِ مُطابقًا لِمَا سِيقَ لَهُ مِنَ المَقْصُود[4].

(1) البِقاعي، نظم الدُّرر: 5/315.
(2) رضا، تفسير المنار: 5/186.
(3) الخليل، العَينْ، والجوهَريّ، الصِّحاح، وابنُ فارِس، مَقاييسُ اللُّغة، والرَّاغِب، المُفردات، وابنُ منظور، لِسانُ العَرَب: (وعظ).
(4) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرَّاغب، المفردات، والسَّمين، عمدة الحُفَّاظ: (بلغ)، أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 2/196.

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

عِلْمُ اللهِ تَعَالَى بِمَا تُضْمِرُهُ صُدُورُ الْمُنَافِقِينَ

أُولَئِكَ الَّذين يَعْلَمُ اللهُ تعالَى حقيقةَ ما يُضْمِرُونَهُ في قلُوبِهم مِنَ النِّفاق والقَصْدِ الرَّديء، فاتْرُكْهُم - أيها الرسول ﷺ - وأَعْرِضْ عَنْهُم، وبيِّن لهم حُكْمَ اللهِ سُبحانَهُ مُرَغِّبًا ومُرَهِّبًا، وقُلْ لَهُمْ قولًا مؤثِّرًا فِيهِمْ، زَاجِرًا لهم، يَصِلُ إِلَى أَعْمَاقِ نُفُوسِهِم[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

نُكْتَةُ تَعْرِيفِ الْمُسْنَدِ إِلَيْهِ بِالْإِشَارَةِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُ ٱللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمۡ﴾:

فَضْحُ الْمُنَافِقِينَ بِتَمْيِيزِهِمْ وَتَعْيِينِهِمْ، مَعَ التَّنْبِيهِ عَلَى بُعْدِ مَنْزِلَتِهِمْ فِي الْكُفْرِ وَالنِّفَاقِ

اسمُ الْإِشَارَةِ ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ﴾ في قَوْلِهِ: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُ ٱللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمۡ﴾ راجعٌ إلى المنافقين، ومَا في ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ﴾ مِن مَعْنَى البُعد يُرادُ به التَّنبيهُ عَلَى بُعدِ مَنزلتِهم في الكُفْر والنِّفاق[2]، كما أنَّ تعريفَ المسنَدِ إليهِ باسْمِ الإشَارَةِ فيهِ تَمْييزُهُمْ للسَّامعين أكملَ تَمْييزٍ؛ لأنَّه قَد أُورِدَ مِن صِفَاتِهم مَا جعلهم بمنزِلَةِ المُشَاهَدِينَ، وفيه أيضًا: تَنْبيهٌ على أنَّ المشارَ إليْهِم جَدِيرونَ بالحُكم - الَّذي سيُذكَر - سببِ مَا تقدَّم مِن أَحْوَالِهِم[3].

دِلَالَةُ الْمَجَازِ الْمُرَكَّبِ فِي قَوْلِهِ: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُ ٱللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمۡ﴾:

تَهْدِيدُ الْمُنَافِقِينَ وَتَوَعُّدُهُمْ بِمَا يَسُوؤُهُمْ

قولُ اللهِ تَعَالَى: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُ ٱللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمۡ﴾ جملةٌ خبريَّةٌ أُريدَ بها فضحُ الْمُنَافِقِينَ، وإخراجُ خَبَايَا نُفُوسِهم، والجملةُ خارجةٌ مخرجَ المجازِ المُرْسَلِ المركَّبِ؛ إذِ المرادُ بها التَّهديدُ والوعيدُ، وهو لَازِمٌ مِنْ لوازِمِ الْإِخبَارِ كمَا دلَّ عليه السِّياقُ.

(1) لجنة من علماء الأزهر، المُنتخب في تفسير القرآن الكريم، ص: 120، ونُخبة من أساتذة التَّفسير، التَّفسير المُيَسَّر، ص: 88، وجماعة من علماء التَّفسير، المُختصر في تفسير القرآن الكريم، ص: 88.

(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 2/196.

(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 5/87.

نُكْتَةُ التَّعْبِيرِ بِالِاسْمِ الْمَوْصُولِ ﴿مَا﴾ فِي قَوْلِهِ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُ ٱللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمۡ﴾:

شِـدَّةُ انْـحِـرَافِ الْمُنَافِقِينَ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا

﴿مَا﴾ من قولِ اللهِ سُبحانَهُ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُ ٱللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمۡ﴾ اسمٌ موصولٌ، والمرَادُ: يعلمُ اللهُ تعالَى النِّفاقَ الذِي في قُلُوبِهِم، إلَّا أنَّه لم يُصرَّحْ بالنِّفاقِ؛ للإيماءِ إلى عظيمِ الانحرَافِ الذي في قلوبِهِم، فإنَّ في الاسمِ الموصولِ إبهامًا يُؤَهِّلُهُ لإفادَةِ التَّعظيمِ والتَّهويلِ، وفي عَدَمِ التَّصريحِ بنِفَاقِهِم وضعٌ لَهُمْ في مقامِ الاضطرَابِ حَتَّى يَبْقَوْا على نِيرَانِ الْوَجَلِ[1].

دِلَالَةُ الْفَاءِ فِي قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ﴾:

التَّـأْكِـيـدُ عَـلَى حُصُولِ الْمَخَازِي السَّـابِـقَـةِ مِـنَ الْمُـنَـافِـقِـينَ وَوُقُوعِهَا مِنْهُمْ

الْفَاءُ في قول اللهِ تعالى: ﴿فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ﴾ هي الفاء الفصيحَةُ، وهي التي تُفْصِحُ عَن شَرْطٍ مقدَّرٍ، فقولُهُ سُبْحَانه: ﴿فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ﴾ جوابُ شرطٍ محذوفٍ، والتَّقدير: إذا كانَ حَالُهم كذلك؛ فأَعْرِضْ عَن قَبُولِ مَعْذِرَتِهم، ويجُوزُ أن يَكُونَ الْمُرَادُ: فأَعْرِضْ عَن عِقَابِهِم لِتَحْصِيلِ مَصْلَحَةِ اسْتِبْقَائِهِم، ولا تُظْهِر لهم عِلْمَكَ بما في بَوَاطِنِهم، ولا تَهْتِك سِتْرَهُم؛ حتَّى يَبْقَوْا على وَجَلٍ وحَذَرٍ[2].

وفي حَذْفِ الشَّرط وجُملته دليلُ تأكيدِ حُصُوله؛ إذْ هُوَ مِنَ الْمُسَلَّمَات الَّتي يَصِلُ إليها الذِّهن مِنْ غيرِ حَاجَةٍ إلى ذِكْرِها، فإنَّ الأَمْرَ بالإِعْرَاضِ عَنْهُم يُشِيرُ إِلَى ذَلِكَ[3]، فكَما أَعْرَضُوا وصَدُّوا عَنِ الحقِّ والتَّحاكم إِلَيْهِ، فَأَعْرِضْ عَنْهُم وصُدَّ عَنْهُمْ، جَزَاءً وِفاقًا.

أَسْرَارُ حُرُوفِ الْجَرِّ الْوَارِدَةِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَعۡلَمُ ٱللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمۡ فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ وَعِظۡهُمۡ وَقُل لَّهُمۡ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ قَوۡلَۢا بَلِيغٗا﴾:

حَرْفُ الجرِّ (في) جاء لِمَعْنَيَيْنِ مُخْتَلِفَيْنِ:

(1) الآلوسي، روح المعاني: 3/67.

(2) الزَّمخشريّ، الكشَّاف: 1/527، وأبو السّعود، إرشاد العقل السليم: 2/196.

(3) البناني، سورة النساء: دراسة بلاغية تحليلية: 2/338.

تَوْضِيحُ الْمَعَانِي وَتَعْمِيقُهَا فِي النُّفُوسِ مُبَالَغَةٌ فِي الْـوَعْـظِ وَالزَّجْرِ

أحدُهُما: في قوله تعالى: ﴿مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾، فهُوَ هُنَا للظَّرفيَّة المكانيَّة، وإن كان ذِكْرُ القلبِ وما يحتويهِ مِنَ الأسرار يُعدُّ مكانًا على جهةِ المجازِ.

والآخَرُ: في قَوْلِهِ سُبحانَهُ: ﴿وَقُل لَّهُمْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ﴾، وحرف الجرِّ (في) تدلُّ على السَّببيَّة، فيكون المعنى: قل لهم في مَعْنَى أَنْفُسِهم الخبيثَة، وقُلُوبِهم المطويّة على النِّفاق قولًا بليغًا، وأنّ اللّه يعلم ما في قُلُوبِكُم، لا يَخْفَى عَلَيْهِ، فلا يُغْنِي عنكم إِبْطَانُهُ، فأَصْلِحُوا أنفسَكُم، وطهِّروا قلوبكُمْ، ودَاوُوها مِن مَرَض النِّفاق، ويجوزُ أن تَكُونَ (في) هُنَا للظَّرفيَّة المكانيَّة، والمعنَى: قُل لَهُمْ خَاليًا بِهِمْ، لَيْسَ معهم غَيْرُهُم، مُسارًّا لَهُمْ بالنّصيحة؛ لأنَّها في السِّرِّ أنجَعُ، وفي الْإِمْحَاضِ أَدْخَلُ[1]، وفي اقْتِرَانِهَا بِقَوْلِه: ﴿قَوْلًۢا بَلِيغًا﴾ يُقوِّي دلالةَ (في) على الظَّرفيَّةِ المكانيَّةِ المجازيَّة، فالقولُ يَصِلُ إلى الأعماقِ، ويَتَغَلْغَلُ دَاخِلَ أَنْفُسِهم؛ لِيَقْتَلِعَ جُذُورَ النِّفاق من أصلِهَا.

و(اللَّام) في ﴿لَّهُمْ﴾ أفادَتْ مَعْنَى التَّبليغ الَّذي أُلْزِمُوا به، وحُوسِبُوا عَلَيْهِ، وَوَجْهُ اختِيَارِ هذَا الحَرْفِ: دِلَالَتُه علَى معانٍ عِدَّةٍ، مِنْهَا: الاخْتِصَاصُ وَالتَّنبيهُ وَالتَّعجُّبُ[2].

بَرَاعَةُ إِيجَازِ الْقَصْرِ فِي قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا﴾:

مِنْ صُوَرِ الْبَلَاغَةِ الْقُرْآنِيَّةِ تَنْوِيعُ الْمَعَانِي مَعَ وَجَازَةِ الْمَبَانِي

قَوْلُ اللّهِ تَعالَى: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾، أي: أَعْرِضْ عَن مُعاقبتهم، وكذا عن شَغْلِ البالِ بِهِم، وكذا عَن قَبُولِ أَيْمَانهم الكاذِبَةِ[3]، وقولُهُ سُبحانَهُ: ﴿فِيٓ أَنفُسِهِمْ﴾، أي: خاليًا بهم لَيْسَ مَعَهُم غَيْرُهما[4].

(1) الزَّمخشريّ، الكشَّاف: 1/527، والسَّمين، الدُّرُّ المصون: 4/16.
(2) البناني، سورة النساء: دراسة بلاغية تحليلية: 1/173.
(3) ابن عطيَّة، المُحرَّر الوجيز: 2/73.
(4) أبو السُّعود، إرشاد العقل السليم: 2/196.

أمَّا قوله تعَالَى: ﴿قَوْلًا بَلِيغًا﴾، فالمرادُ: قُلْ لَهُم قولًا مُؤَثِّرًا فِيهم، يَبْلُغُ منهم مَا يَزْجرُهم عَنِ العَوْدَةِ إلى مَا فَعَلُوا[1] بَالِغًا إلى أَنْفُسِهم مُتَغَلْغِلًا فيها[2]، ويَحْتَمِلُ أن يكونَ المرادُ الزَّجرَ والرَّدعَ والكفَّ بالبلَاغَةِ مِنَ القَوْلِ، أو أنَّه تَوَعُّدٌ لهُمْ بِالقَتْلِ إنِ اسْتَدَامُوا على حا النِّفاق[3]، وتعدُّد المعاني المُحْتَملةِ مع صحَّةِ الحَمْلِ على جميعِهَا هُو ضربٌ من ضرُوبِ الإيجَازِ؛ فإنَّ الآيةَ دلَّت على معانيَ متكاثرَةٍ بألفاظٍ يسيرَةٍ.

نُكْتَةُ المَجَازِ المُرْسَلِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَأَعْرِضْ﴾:

تَصْوِيرُ تَبْكِيتِهِمْ فِي صُورَةٍ مَحْسُوسَةٍ مُشَاهَدَةٍ

في قَوْلِ اللّه تَعَالَى: ﴿فَأَعْرِضْ﴾ مجازٌ مُرْسَلٌ علاقتُهُ: المَلْزُوميَّةُ؛ إذْ إنَّ حقيقَةَ الإعرَاضِ الرَّفضُ وعدَمُ الالْتِفَاتِ، فَعُبِّرَ عنْهُ بملزوم مَعْنَاهُ وأُريدَ اللَّازِمُ، فالَّذي لا يَلْتَفِتُ إلى الشَّيء هُوَ مُعْرِضٌ عَنْهُ، وَوَجْهُ اختيارِ التَّعبير بالمجاز في فعل الْإِعْرَاضِ: التَّصويرُ الْحَركيُّ فيها بِمَا يُنْبِئُ عَن تَبْكِيتِهِم[4].

سِرُّ تَقْدِيمِ الْجَارِّ وَالْمَجْرُورِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقُل لَّهُمْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا﴾:

أَهَمِّيَّةُ الْعِنَايَةِ بِإِصْلَاحِ الْأَنْفُسِ

يجوزُ أن يكونَ قَوْلُهُ: ﴿فِيٓ أَنفُسِهِمْ﴾ متعلِّقًا بِقَوْلِهِ: ﴿بَلِيغًا﴾، وإنَّما قُدِّم الجارُّ والمَجْرُورُ؛ اهْتِمَامًا بإصْلَاحِ أَنْفُسِهم، وفيه تهديدٌ لَهُمْ عَلَى وَجْهٍ يبلُغُ صَميمَ قُلوبِهم، معَ مَا في هَذَا التَّقديم مِن مُرَاعَاةِ التَّناسُبِ الصَّوْتِيِّ في الْفَاصِلَةِ؛ إذْ لَوْ أُخِّرَ لَفَاتَ ذَلكَ التَّناسُبُ[5].

انْطِوَاءُ نُفوسِ المُنَافِقِينَ على المَذَامِّ والمَخَازِي

ويجوزُ أنْ يَتعلَّق الجارُّ والمجرُور ﴿فِيٓ أَنفُسِهِمْ﴾ بفعل القَوْلِ - ﴿وَقُل لَّهُمْ﴾ - ، أي: قُلْ لَهُم قولًا في شأنِ أَنْفُسِهم، وعلى هذا فيكُونُ قَوْلُهُ: ﴿وَقُل لَّهُمْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا﴾ بمنزِلَةِ الشَّرحِ لِلْوَعْظِ المذكورِ قبلُ

(1) أبو حيَّان، البحر المحيط: 3/691.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 5/108.
(3) ابن عطية، المُحرَّر الوجيز: 2/73.
(4) البناني، سورة النساء: دراسة بلاغية تحليلية: 2/421.
(5) الزَّمخشري، الكشَّاف: 1/527، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 5/108.

في قَوْلِه: ﴿وَعِظْهُمْ﴾، وفيهِ ذِكْرٌ لِأهمِّ ما يَعظُهم فِيهِ، وهُوَ نُفُوسُهم الَّتي عَلِمَ اللَّه تعالَى مَا انطوتْ عليهِ مِنَ المذامِّ، وعلى هذا فَيَكُونُ المُرَادُ الوعظَ وما يَتعلَّق به[1].

دِلَالَةُ التَّعْبِيرِ بِقَوْلِهِ: ﴿فِيٓ أَنفُسِهِمْ﴾:

قولُ اللّهِ تَعَالَى: ﴿وَقُل لَّهُمْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ﴾ أَيْ: قُل لَهُمْ خَالِيًا بِهِم، بحيثُ لَا يَكُونُ مَعَهُم أَحَدٌ مِن غيرِهِم؛ لأَنَّهُ أَدْعَى إِلَى قَبُولِ النَّصيحة، وذلكَ رجَاءَ هِدَايَتِهم وإسلامِهم.

النَّصِيحَةُ فِي السِّرِّ أَقْوَى تَأْثِيرًا فِي نَفْسِ المَنْصُوحِ

وفي التَّعبيرِ بـ ﴿فِيٓ أَنفُسِهِمْ﴾ بدلًا مِنْ (خَالِيًا بِهِم) يُرْشِدُ إِلَى مَعَانٍ شتَّى تُعَاضِدُ الموقِفَ وتصوِّره؛ لِمَا في حَرْفِ الجرِّ (في) مِن مَعْنَى الظَّرفيَّة المفيدَة الكِتْمَانَ المُنَاسِبَ لِحَالِ النِّفاق وحالِ النُّصْحِ معًا[2].

نُكْتَةُ التَّتْمِيمِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَوْلًۢا بَلِيغًا﴾:

وُصِفَ القولُ بكونِهِ بليغًا في قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَوْلًۢا بَلِيغًا﴾، والمَعْنَى: قولًا يَبلُغُ إِلَى قُلُوبِهِم أَلَمُهُ، أو بَالِغًا[3] في زَجْرِهِمْ، ولكن لَمَّا كان المُرادُ تَعْظِيمَ هذَا القول لاحْتِوَائِهِ عَلَى النُّصح والتَّوجيه؛ جِيء بِهَذَا التَّتْمِيم، لِيَزِيدَ المَعْنَى تَمَكُّنًا وَبَيَانًا[4].

تَعْظِيمُ شَأْنِ القَوْلِ المُتَضَمِّنِ النُّصْحَ وَالتَّوْجِيهَ

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الْوَعْظ والنُّصْح:

الوَعْظُ: هُو التَّذكير بالخَيْرِ فِيمَا يَرِقُّ له القَلْبُ، ومِنْهُ المَوْعِظَةُ، يُقالُ: وعَظَهُ يَعِظُهُ وَعْظًا وعِظَةً وموعِظَةً، أي: ذكَّره بما يُلَيِّنُ قلبَهُ مِنَ الثَّواب والعقابِ، فاتَّعظ[5]، فَهُو تذكيرٌ مُقْتَرِنٌ بِتَخْوِيفٍ[6].

الْوَعْظُ تَذْكِيرٌ بِالْخَيْرِ مَعَ زَجْرٍ وَتَخْوِيفٍ، والنُّصْحُ أَعَمُّ

(1) ابن المنيرِّ، الانتصاف: 1/527، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 5/108.

(2) الآلوسي، روح المعاني: 3/67، والبناني، سورة النساء: دراسة بلاغية تحليلية: 2/456.

(3) على هذا الوجهِ يجوزُ أن يكون في الآية مجازٌ عقلّي، علاقته الفاعليَّة، ويُخَرَّجُ الكلامُ على معنى تعظيمِ النُّصح والتَّوجيه أيضًا.

(4) أبو حيَّان، البحر المحيط: 3/708.

(5) الفيروزآبادي، القاموس المحيط: (وعظ).

(6) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة: (وعظ)، والجرجانّي، التعريفات، ص: 253.

أمَّا النَّصِيحَة؛ فَهِيَ كلمَةٌ جامِعَةٌ لِحِيَازَةِ الْحَظِّ لِلْمَنْصُوحِ لَهُ[1]، وَهِيَ مَأْخُوذَةٌ مِنَ النُّصْح، وهُوَ إِخْلَاصُ العمَلِ عَن شَوَائِبِ الفَسادِ[2]، فالنَّصِيحَة أعمُّ مِنَ المَوْعِظَةِ؛ إذْ هِيَ دُعَاءٌ إِلَى مَا فِيهِ الصَّلاح، ونهيٌ عَمَّا فيه الفسَادُ[3].

(1) الزَّبيديّ، تاج العروس: (نصح).
(2) الجرجانّي، التَّعريفات، ص: 241.
(3) المناويّ، التَّوقيف، ص: 325.

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ جَآءُوكَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسۡتَغۡفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابٗا رَّحِيمٗا ٦٤﴾ [النساء: 64]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا أمَر اللهُ ﷻ بطاعة الرَّسولِ ﷺ في قَوْلِه: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ﴾ [النِّساء: 59]، ثمَّ حكى أنَّ بعضَهم تحاكَمَ إلى الطَّاغوتِ ولمْ يَتَحَاكَمْ إلى الرَّسولِ ﷺ، وبيَّن قُبحَ طريقِه وفسادَ منهجِه؛ رغَّب بهذه الآية مرَّةً أخرى في طاعةِ الرَّسول ﷺ، فقال سُبحانهُ: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ﴾[1].

التَّرْغِيبُ فِي طَاعَةِ الرَّسُولِ ﷺ بَعْدَ تَبْكِيتِ المُنَافِقِينَ وَفَضْحِهِمْ

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿إِذ ظَّلَمُوٓاْ﴾: أصلُ الظُّلم: الجَوْرُ ومُجاوَزَة الحدِّ، ثمَّ كَثُرَ ذَلِك، حَتَّى سُمِّي كلُّ عَسْف: ظُلمًا، والظُّلم: وَضْعُ الشَّيء في غير مَوْضِعِه الَّذي يَحِقُّ أَنْ يُوضَعَ فيه، يُقال: ظَلَمَ يَظْلِمُ ظَلْمًا وظُلمًا، فهو ظالمٌ وظَلومٌ، وأَوَّل مَا يَهُمُّ الإنسان بالظُّلم، فقد ظَلَمَ نَفْسَهُ[2].

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

وما بعَثْنَا من رَسُولٍ من رُسُلِنا إلَّا ليُستجَابَ لَهُ، بأَمْرِ اللهِ تعالى وقضَائِه، ولَوْ أنَّهم حينَ ظلَمُوا أنفسَهُم بارْتِكَاب المعَاصِي جَاؤُوكَ - أيها الرسول ﷺ - في حَيَاتِكَ مُقِرِّين بِمَا ارْتَكَبُوه نادِمِينَ تائِبِينَ،

سَعَةُ مَغْفِرَةِ اللهِ تَعَالَى وَرَحْمَتِهِ بِالْعِبَادِ؛ حَيْثُ يَقْبَلُ تَوْبَةَ المُخَالِفِينَ لِلرُّسُلِ إِذَا تَابُوا

(1) الرَّازي: مفاتيح الغيب: 10/124.

(2) ابن دريد، جمهرة اللُّغة، وابن منظور، لسان العرب، والفيروزآبادي، القاموس المحيط، والزَّبيديّ، تاج العروس: (ظلم)، وأبو السّعود، إرشاد العقل السَّليم: 1/408، والبَيْضاويّ، أَنوارُ التَّنْزيل: 1/160.

وطَلَبُوا المغفرةَ مِنَ اللهِ تعالَى، وطَلَبْتَ المغفرةَ لَهُمْ؛ لوَجَدُوا اللهَ ﷻ كَثِيرَ قَبُولِ التَّوبةِ رَحِيمًا بعِبَادِه[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

دِلَالَةُ الْقَصْرِ بِالنَّفْيِ وَالِاسْتِثْنَاءِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ﴾:

التَّشْنِيعُ عَلَيْهِمْ بِعَدَمِ إِقْبَالِهِمْ عَلَى طَاعَةِ اللهِ تَعَالَى وَطَاعَةِ رَسُولِهِ ﷺ

افتُتِحت هذِهِ الآيَةُ الْكَرِيمَة بِتَمْهِيدٍ جَمَعَ بينَ النَّفي والاستِثْنَاءِ على طَرِيقَةِ القَصْرِ؛ لبيَانِ خَطَئِهم باشْتِغَالِهم بِسِتْرِ نَارِ جِنَايَتِهم بِهَشِيمِ اعتذَارِهم الْبَاطِل، وعدم إطفائها بمَاءِ التَّوبة، أي: ومَا أَرْسَلْنَا رَسُولًا مِنَ الرُّسل لشَيْءٍ من الأشياء إلَّا لِيُطَاعَ بِسَبَبِ إِذْنِه تعَالى، وأمْرِهِ الْمُرْسَلَ إِلَيْهِم أَنْ يُطِيعُوه؛ لأنَّه مُؤَدٍّ عَنْهُ عَزَّ شأنُه، فطاعَةُ الرَّسُولِ طَاعَةٌ للهِ تعالَى ومَعْصِيتُه مَعْصِيَتُهُ[2].

والقَصْرُ هُنا قَصْرُ الغايَةِ من إِرْسَالِ الرُّسلِ - وهو المَوْصُوف- على أَمْرِ الطَّاعةِ بِإِذْنِ اللهِ تعالَى - وهي الصِّفة - ، والنُّكتةُ في التَّعبير بالقصْرِ: النَّعْيُ عليهم في غَفْلَتِهِمْ عَنْ هذا الأمْرِ البَيِّنِ، فأُنْزِلُوا مَنْزِلَةَ الجاهِلِ الَّذي يُناسبه اسْتِخْدَامُ (مَا) وَ(إلَّا)؛ لأنَّ حالَهم تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ بذلك[3].

سِرُّ اخْتِيَارِ لَفْظَةِ الْإِذْنِ وَنُكْتَةُ الِالْتِفَاتِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ﴾:

بَيَانُ وُجُوبِ طَاعَةِ الرَّسُولِ ﷺ وَبَيَانُ جَلَالَتِهِ وَعَظِيمِ مَنْزِلَتِهِ

الْإِذْنُ في قولِهِ تعالَى: ﴿بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ﴾ بمعنَى الأَمرِ، وحَسُنَت العبارَةُ بالإِذْنِ دونَ الأمْرِ؛ إِذْ بِالْإِرْسَالِ تَجِبُ طَاعَتُه؛ وإن لم يَنُصَّ علَى الأمرِ بِذَلِكَ.

(1) لجنة من علماء الأزهر، المُنتخب في تفسير القرآن الكريم، ص: 120، ونُخبة من أساتذة التَّفسير، التَّفسير المُيَسَّر، ص: 88، وجماعة من علماء التَّفسير، المُختصر في تفسير القرآن الكريم، ص: 88.

(2) الآلوسّي، روح المعاني: 3/68.

(3) البناني، سورة النِّساء: دراسة بلاغيَّة تحليليَّة: 2/321.

ويَصِحُّ تَعَلُّق الباءِ مِنْ قَوْلِه: ﴿بِإِذْنِ﴾ بـ ﴿أَرْسَلْنَا﴾، والمعنى: وما أَرْسَلْنَا بأمْرِ الله، أي: بِشَرِيعَتِهِ وعبَادَتِه مِن رَسُولٍ إلَّا لِيُطاع، ويجُوزُ تَعَلُّقها بـ ﴿لِيُطَاعَ﴾، وهو الأظْهَرُ، والمَعْنَى: ومَا أَرْسَلْنَا مِن رسُولٍ إلَّا ليُطاع بأمْرِ الله بطاعتِهِ أو بتَيْسِيرِهِ وتوفِيقِه سُبْحَانَهُ في طَاعَتِه[1].

وفي قولِهِ: ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِۚ﴾ تَنْبِيهٌ علَى جَلَالَةِ الرُّسل، فطَاعَتُهُم جاءَت بِأَمْرِ اللهِ تعالَى، فمَن خَرَجَ عَن طَاعَتِهِم، أو رَغِبَ عَن حُكْمِهِم؛ خَرَجَ عن حُكْمِنا وسنَّتنا، وارتَكَبَ الآثام، فَسُنَّتُنا في هذا الرَّسول كسُنَّتنا في الرُّسل قبله، وأنت - يا أيُّها الرَّسولُ - مِنْهُم، تَجِبُ طاعتُكَ، وتَتَعيَّن إجابَةُ الدَّعوةِ إلَيْكَ[2].

وفي قولِ الله تَعَالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِۚ﴾ الْتِفَاتٌ مِنَ التَّكلُّم إلى الغَيْبَة؛ فإنَّ قولَه: ﴿أَرْسَلْنَا﴾ أسلوبُ تكلُّم، وكان مُقْتَضَى الظَّاهر أَنْ يَرِدَ النَّظْمُ القُرآنيُّ: (وما أَرْسَلْنَا مِن رَسُولٍ إلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِنَا)، لَكِنْ عُدِلَ عنه إلى الغَيْبَةِ في قوله: ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِۚ﴾؛ إذِ الاِسْمُ الظَّاهر بمنزلة الغَائِب، والنُّكْتَةُ في هذا العدُولِ: مَا فيهِ مِن إظْهَار الاسْم الأحْسَنِ (الله)، فإنَّ في التَّصريح به إيماءً إلى تَعظيم شَأْنِ الإذْنِ وإظْهَار مكانَةِ الرَّسُولِ المَأْمُورِ بِطَاعَتِه[3].

نُكْتَةُ تَعْلِيقِ الشَّرْطِ بِالْحَرْفِ (لَوْ) فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ﴾:

جَاءَ مَطْلَعُ هذِهِ الآيَةِ الكَرِيمَةِ - وهو قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ﴾ - تَوْبِيخًا لِلْمُنَافِقين؛ لأنَّهم لَمْ يَكْتَفُوا بإعراضِهِمْ عَن تَحْكِيم الرَّسولِ ﷺ، حتَّى زَادُوا فَصَدُّوا عمَّن قالَ لَهُمْ: ﴿تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ﴾، فناسَبَ ذلكَ مَجِيءُ أسلُوبِ الشَّرط بعدَها؛ ليكونَ ذلك بيانًا لِسَبَبِ غضَبِ الرَّبِّ عَلَيْهِمْ وهو رَحْمَنٌ رَحِيمٌ، فَلَوْ أنَّهم اسْتَفَاقُوا حينئذٍ مِن غُلَوائِهِمْ؛ لَعَلِمُوا أنَّ إرادتَهُم التَّحاكُمَ إلى الكفَّار والكهَنَةِ جَرِيمةٌ يَجِبُ الاستغفَارُ مِنْهَا، ولكنَّهم

بَـيَـانُ أَنَّ غَـضَـبَ الـلـهِ تَـعَـالَى عَلَيْهِمْ كَـانَ بِـسَـبَـبِ مُـخَـالَـفَـتِـهِـمْ وَتَرْكِهِمُ التَّوْبَةَ

(1) ابن عطيَّة، المُحرَّر الوجيز: 2/74، والآلوسي، روح المعاني: 3/68.
(2) ابن عطيَّة، المُحرَّر الوجيز: 2/74، والهرريّ، حدائق الرُّوح والرَّيحان: 6/175.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 3/68.

أصرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا، وفي ذِكْرِ (لَوْ) وَجَعْلِ ﴿لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ جوابًا لها: إشَارَةٌ إِلَى أنَّهم لمَّا لَم يَفْعَلُوا؛ حُرِموا الغُفْران[1]، ولذا جاء تَعْلِيقُ الشَّرط بِالْحَرْفِ (لَو).

نِكَاتُ الِالْتِفَاتِ مِنَ الْخِطَابِ إِلَى الْغَيْبَةِ فِي قَوْلِهِ: ﴿جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّـهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ﴾:

تَفْخِيمُ شَأْنِ شَفَاعَةِ النَّبِيِّ ﷺ وَإِيرَادُ عِلَّةِ قَبُولِهَا

جاءَ الِالْتِفَاتُ في قولِ اللهِ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ﴾، وكان مقتضَى الظَّاهِرِ: (وَاسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ) بأسلوبِ الخطاب؛ ليكون مطابقًا لأسلوبِ الخطاب في قوله قبلُ: ﴿جَآءُوكَ﴾، والنُّكْتَةُ في هذا الالتفاتِ إجلالُ رَسُولِ اللهِ ﷺ لِمَا في هذا الاسمِ الظَّاهرِ مِن التَّشريفِ والتَّنويهِ بوصْفِ الرِّسالة، وأنَّهم إذا جاؤوك؛ فقد جاؤوا مَن خَصَّهُ اللهُ تعالَى بِرِسَالَتِه، وأكْرَمَهُ بِوَحْيِه، وجعله سفيرًا بينَهُ وبينَ خَلْقِه، ومَن كانَ كَذلِكَ؛ فإنَّ اللهَ تعالَى لا يَرُدُّ شفاعَتَهُ، وهذا ما دعَا إلى العُدُولِ عَنْ لَفْظِ الخِطَابِ إلى لَفْظِ الغَيْبَةِ[2]، ففيهِ تَفْخِيمٌ لِشَأْنِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فهو كقولِهم: حَكَمَ الأميرُ بِكَذَا، بدلًا مِنْ: حكمتَ.

وفِيهِ تَنْبِيهٌ على أنَّ شَفاعةَ مَنِ اسمُه الرَّسولُ مِنَ اللهِ تعالَى بمكانٍ، وإيماءٌ إلَى أنَّ مِن حقِّ الرَّسولِ أنْ يَقبَلَ اعتذارَ التَّائِبِ - وإنْ عَظُم جُرمُه - ويَشْفَعَ له، وأنَّ مِن مَنْصِبِه أنْ يشفعَ في كبائرِ الذُّنوبِ، وعلى أنَّ هذا الوَصْفَ الشريفَ - وهو إرسالُ اللهِ إيَّاه - موجبٌ لطاعتِه، وتعظيمٌ لاستغفارِه وشَفَاعَتِه ﷺ؛ حيثُ أَسْنَدَهُ إلَى لفظٍ مُنْبِئٍ عَن علوِّ مرتبَتِه، فيكُونُ فِيهِ معَ تفخيمِ شأنِ تلكَ الشَّفاعةِ: إيرادٌ لِعِلَّةِ قَبولها[3].

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 5/110.
(2) الرَّازي، مفاتيح الغيب: 10/127.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 3/68.

إظْهَارُ مَزِيَّةِ الِاسْتِغْفَارِ إِذَا كَانَ صَادِرًا عَنِ الرَّسُولِ ﷺ

وفي هذا النَّوعِ مِن الالتِفاتِ خصوصيَّةٌ؛ وهي اشتمالُه على ذِكرِ صِفةٍ مناسبةٍ - وهيَ الرِّسالةُ - لِمَا أُضِيف إليهِ - وهُوَ الاسْتِغْفَارُ لِمَن عَظُمتْ ذُنوبُهم - ، وذلك زائدٌ على الالتِفاتِ بذِكرِ الأعلامِ[1]، فدَلَّ على أنَّ هذا الاستغفارَ لَهُ مَزيَّةٌ، وهي كونُه صادرًا عَنِ الرَّسولِ بوَصْفِه رَسُولًا.

بَيَانُ أَنَّ التَّحَاكُمَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ مِنْ حُقُوقِ الرِّسَالَةِ

كمَا أنَّ مِن نِكَاتِ هذَا الِالْتِفَاتِ وضْعَ الاسمِ الظَّاهِرِ ﴿ٱلرَّسُولُ﴾ موضِعَ الضَّمير، وهو مُشْعِرٌ بأنَّ حقَّ الرَّسولِ ﷺ عَلَيْهِمْ في التَّحاكُمِ إليه، إنَّما كانَ له بأنَّه رسولُ اللّهِ، وأنَّه مأمورٌ بأنْ يحكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بما أراه اللّهُ في وحْيِه، وما هَدَاهُ إِلَيْهِ في اجْتِهَادِه، ولو أنَّهم اعتَدَوْا في مَعْصِيتِهم على حقوقِه الشَّخصيَّةِ، كأكْلِ شيءٍ مِن مَالِه بغيرِ حقٍّ؛ لقَالَ: (وَاسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ)، فإنَّ التَّوبةَ عنِ المعاصِي المتعلِّقةِ بحقوقِ النَّاس لا تكونُ مقبولةً ولا صحيحةً إلَّا بعدَ استرضاءِ صاحِبِ الحقِّ، وهذا أظهرُ مِن جَعْلِ نُكتةِ وضْعِ الظَّاهِرِ موضِعَ الضَّمير إجلالَ منصبِ الرِّسالةِ، والإيذانَ بقَبولِ استغفارِ صاحِبِ هذا المنصبِ الشَّريفِ، وعدمِ ردِّ شفاعتِه؛ لأنَّ المنصبَ هُوَ هُوَ في شَرَفِهِ وعُلوِّه، ولكنَّ اللّهَ لا يَغفِرُ لِلْمُنافقينَ؛ إذا لَمْ يَتُوبُوا - وإنِ استغفرَ لهم الرَّسولُ - ؛ لأنَّ اللّهَ تعالى قالَ لَهُ فيهِمْ: ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾ [التَّوبة: 80][2].

نُكْتَةُ تَقْدِيمِ الْجَارِّ وَالْمَجْرُورِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ﴾:

حَصْرُ مَنْفَعَةِ هَذَا الِاسْتِغْفَارِ الْعَظِيمِ عَلَيْهِمْ وَتَرْغِيبُهُمْ فِي تَحْصِيلِهِ

في تَقْدِيم الجارِّ والمجْرُورِ ﴿لَهُمْ﴾ على الفَاعِلِ ﴿ٱلرَّسُولُ﴾ في قولِه تَعَالَى: ﴿وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ﴾ دلالةٌ على قَصْرِ مَنْفَعَةِ هذَا الاسْتِغْفَارِ العَظِيمِ عَلَيْهِم، فقد قُصِرَ استِغْفَارُ الرَّسولِ ﷺ - وَهُوَ صِفَةٌ -

(1) ابن المنيِّر: الانتصاف: 1/528، والسمين، الدُّرُّ المصون: 4/18 - 19، والبيضاويّ، أنوار التَّنزيل: 2/81.
(2) رضا، تفسير المنار: 5/190.

عليْهم، وهُم مُتَّصفون بهِ قَصْرًا إضافيًّا ممَّا فيهِ زيادةُ تَرْغيبٍ لَهُمْ في طَلَبِهِ والحِرْص عليْهِ، كَمَا يدلُّ على عِظَم مَنْفَعَتِهم بِهِ[1].

دِلَالَةُ التَّذْيِيلِ بِذِكْرِ وَصْفَيِ التَّوْبَةِ وَالرَّحْمَةِ عَلَى وَجْهِ الْمُبَالَغَةِ:

تَرْغِيبُ السَّامِعِينَ فِي الْمُسَارَعَةِ إِلَى التَّوْبَةِ وَالِاسْتِغْفَارِ وَتَنْدِيمُ الْمُنَافِقِينَ بِفَوَاتِ هَذِهِ النِّعْمَةِ عَلَيْهِمِ

هذا التَّذييل دالٌّ على الجَزْم بأنَّ اللّه تعالى يَقبل توبةَ التَّائب مَهْمَا عَظُمَ ذَنْبُه؛ لأنَّه سُبحانَهُ لَمَّا ذكَر عَنْهُمُ الاسْتِغْفَارَ؛ قالَ بعدَهُ: ﴿لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾، أي: مُبالغًا في قَبُولِ تَوْبَتِهم والتَّفضُّل عليهم بالرَّحْمَة[2]، وهذا الجوابُ فِيهِ فضلُ ترغيبٍ للسَّامعين في المُسَارَعَةِ إلى التَّوبة والاسْتِغْفَار، ومزيدُ تَنْدِيمٍ لأولئك المنافقين عَلَى مَا صَنَعُوا؛ لأنَّ ظهورَ تباشيرِ قَبولِ التَّوبةِ وحصُولَ الرَّحمةِ لهم ومُشَاهَدتَهم آثارَهُما: نعمةٌ زائدةٌ عليهما، موجبةٌ كمالَ الرَّغبةِ في تحصيلها وتمامِ الحسرةِ على فَوَاتِها[3]، وفيه إيذانٌ بفَخَامَةِ القَبُولِ والرَّحمة[4].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الطَّاعَة وَالْعِبَادَة:

الطَّاعَةُ مُطْلَقُ الِانْقِيَادِ، وَالْعِبَادَةُ الْخُضُوعُ لله تَعَالَى مَحَبَّةً وَتَعْظِيمًا

الطَّاعَةُ: الانْقِيَادُ، وهِيَ الفعلُ الواقعُ على حَسَبِ ما أَرَادَهُ المريدُ، إذَا كَانَ المُرِيدُ أَعْلَى رُتْبَةً مِمَّن يَفْعَلُ ذَلِك، يُقال: طَاعَهُ يَطُوعه؛ إذا انقَادَ مَعَهُ، ومَضَى لأَمْرِه، وأكثرُ ما تُطْلَقُ الطَّاعَةُ على الِائْتِمَارِ لِمَا أُمِرَ[5].

والْعِبَادَةُ: هِي غايةُ الخضُوعِ مع المحبَّة والتَّعظيم، ولا تُسْتَحَقُّ إلَّا بغاية الْإِنْعَام، ولهذَا لا يَجُوزُ أَن يُعْبَدَ غيرُ اللّه تعالى، ولا تكون العبَادَةُ إلَّا مع المعرفةِ بِالْمَعْبُودِ، ولا تكون إلَّا لِلْخَالِقِ، كمَا قَالَ تَعَالَى:

(1) البناني، سورة النِّساء: دراسة بلاغيَّة تحليليَّة: 2/326.
(2) الرَّازي، مفاتيح الغيب: 10/127 وأبو السّعود، إرشاد العقل السليم: 2/197.
(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السليم: 2/197.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 3/68.
(5) ابنُ فارِس، مَقاييسُ اللُّغَة، والرَّاغِب، المُفْردات: (طوع)، والعَسْكَرِيّ، الفُروقُ اللُّغَويَة، ص: 221.

﴿أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ۝٣﴾ [نوح: 3]، فَجَعَلَ الْعِبَادَةَ وَالتَّقْوَى لِلَّهِ وَحْدَهُ، وَجَعَلَ الطَّاعَةَ لِلرَّسُولِ[1].

فالطَّاعة: هي مُوَافَقَةُ الْأَمْرِ، وهِيَ أعمُّ مِنَ العِبَادَةِ؛ لأنَّ العبادةَ غَلَبَ اسْتِعْمَالُهَا في تَعْظِيمِ اللهِ تعالَى غايةَ التَّعظيم[2].

(1) ابْنُ تَيْمِيَّة، مَجْموعُ الفَتاوى: 3/108.
(2) الكُفَوِيّ، الكُلِّيات، ص: 583.

﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [النساء: 65]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

ذِكْرُ مُوجِبَاتِ الإِيمَانِ بَعْدَ ذِكْرِ مَوَانِعِهِ

لَمَّا ذكَرَ اللهُ ﷻ: أنَّ إبَاءَ المنافِقِينَ لقبولِ حُكْمِ النَّبيِّ ﷺ والاعترافِ بالذَّنب لَدَيْهِ سببٌ مانعٌ لَهُم مِنَ الإيمان؛ قال مُؤَكِّدًا الكلامَ غايةَ التَّأكيد بالقَسَمِ المُؤَكِّدِ لإثبَاتِ مَضْمُونِه[1]: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ﴾، فليسَ الأَمْرُ كَمَا يَزْعُمُونَ مِن أنَّهم آمَنُوا، وهُم يُخَالِفُونَ حُكْمَه[2].

❁ شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

1) ﴿فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾: أصْلُ (شجر) تدلُّ علَى تداخُلِ الشَّيءِ بَعْضِه في بعضٍ، وسُمِّيَ الشَّجَرُ: شَجرًا؛ لدُخُولِ بعضِ أَغْصَانِه في بعضٍ، والشِّجار والمشاجَرَة والتَّشاجُرُ: المُنَازَعَةُ، وشَجَر بَينَهُم الأَمرُ يَشْجُر شَجْرًا؛ إذَا تَنَازَعُوا فِيهِ، واختلَط بَيْنَهُمْ، وكُلُّ شيءٍ خالفَ بَعْضُه بَعْضًا؛ فقَدِ اشْتَبَكَ واشْتَجَرَ، وقولُهُ تَعَالَى: ﴿فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ معنَاهُ: فِيمَا اخْتلَفُوا فِيهِ[3].

2) ﴿حَرَجًا﴾: أصْلُ الحَرَج: تجمُّع الشَّيء وضِيقُه، وقَدِ استُعملَ في الشَّكِّ؛ لأَنَّ النَّفْس تَقلقُ مِنْهُ، وَلَا تَطْمَئِنُّ، والحَرَج أيضًا: الإثْمُ؛ لأنَّه يُوقِعُ في الضِّيق، والحَرَجُ: الضِّيق، وَمَكانٌ حَرِجٌ وحَرِيج: ضَيِّق، وَرجل حَرَج وحَرِج: ضَيِّقُ الصَّدْر، وقولُهُ سُبحانه: ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا﴾ أَيْ: شكًّا وضِيقًا[4].

---

(1) البِقاعي، نظم الدُّرر: 5/317.

(2) الهرريّ، حدائق الرُّوح والرَّيحان: 6/177.

(3) ابن قُتيبة، غريب القرآن، ص: 130، والأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرَّاغب، المفردات: (شجر)، وابن الجوزيّ، تذكرة الأريب، ص: 67، وابن الهائم، التِّبيان، ص: 140.

(4) ابن قُتَيبة، غريب القرآن، ص: 130، وابن دريد، جمهرة اللُّغة، والأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرَّاغب، المفردات، وابن منظور: لسان العرب، والزَّبيديّ: تاج العروس: (حرج).

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

فَوَرَبِّكَ، لا يُعَدُّونَ مُصدِّقين بالحقِّ مُذْعِنِينَ لَهُ حقًّا؛ حتَّى يتحَاكَمُوا إِلَى الرَّسولِ ﷺ في حيَاتِه، وإلى شَرْعِه بعدَ وفَاتِه، في كلِّ ما يَحْصُلُ بينَهُم من خِلَافٍ، ثُمَّ يَرْضَوْا بِحُكْمِ الرَّسُولِ ﷺ، ولا يكُونُ في صُدُورِهِم ضِيقٌ مِنْهُ، ولا شَكٌّ فيه، ويُذْعِنُوا لَكَ إذعَانَ المُؤْمِنِين المصدِّقين بانْقِيَادِ ظَوَاهِرِهم وبَوَاطِنِهم[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

سِرُّ تَقْدِيمِ النَّفْيِ عَلَى الْقَسَمِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ﴾:

تَقْدِيمُ النَّفْيِ وَتَكْرَارُهُ اهْتِمَامٌ بِهِ وَتَقْوِيَةٌ لَهُ

صُدِّرتِ الآيَةُ الكَرِيمَةُ بِنَفْيِ أَصْلِ إيمَانِ المُنَافِقين، وهذا ما أفادَهُ تَقْدِيمُ حَرْفِ النَّفي (لا)[2]، ثُمَّ إتباعه بالقسَم وجوَابِه، وقُدِّم حرْفُ النَّفي (لَا) على القسَمِ؛ اهتمامًا بالنَّفي، ثُمَّ كُرِّرَ بعدُ توكيدًا[3]، وأصلُ الكَلَامِ: (فَوَرَبِّك لا يُؤْمِنُون)، والعَرَبُ تَأْتِي بحرفِ النَّفي قبلَ القَسمِ؛ إذا كان جوابُ القسم مَنفيًّا؛ للتَّعجيلِ بإفادةِ أنَّ ما بعدَ حرْفِ العطفِ قَسَمٌ على النَّفي لِمَا تضمَّنَتْه الجملةُ المعطوفُ عليها؛ فتقديمُ النَّفي يُرَادُ بهِ الاهْتِمَامُ بالنَّفي، ويكثُر أَن يَأْتُوا مع حرْفِ النَّفي بعدَ العاطف بحرفِ نفيٍ مِثلِه في الجواب؛ لِيَحْصُلَ مع الاهتمامِ التَّأكيدُ، فتقديم حرفِ النَّفي على القسَمِ في قَوْلِه: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ﴾ اهتمامٌ بالنَّفي وإظْهَارٌ لِقوَّته[4].

---

(1) لجنة من علماء الأزهر، المُنتخب في تفسير القرآن الكريم، ص: 120، ونُخبة من أساتذة التَّفسير، التَّفسير المُيَسَّر، ص: 88، وجماعة من علماء التَّفسير، المُختصر في تفسير القرآن الكريم، ص: 88.

(2) ذهب بعضُ أهلِ العلم إلى أنّ: (لا) مزيدةٌ لتَّأكيد معنى القَسَمِ لا لتأكيد النَّفي في جوابه، لأنَّها تُزاد في الإثبات أيضًا، كقوله تعالى: {فَلَآ أُقْسِمُ بمواقع النجوم} [الواقعة: 75]، وهذا ما اختاره الزَّمخشري وجماعةٌ في: (لا) التي تُذْكَر قبلَ القسم، وقال جماعةٌ مِنَ العلماء: هِيَ مَزِيدَةٌ لتأكيد النَّفي في الجواب، ولتأكيد القَسَمِ إن لم يكن نَفْي، وهو الأظهر: يُنظر: الزَّمخشري، الكشَّاف: 1/528، والآلوسي، روح المعاني: 3/68.

(3) الزَّمخشري، الكشَّاف: 1/528 - 529، وأبو حيّان، البحر المحيط: 3/692 - 695، وأبو السّعود، إرشاد العقل السليم: 2/197.

(4) ابن عطيَّة، المُحرَّر الوجيز: 2/74، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 5/110.

نُكْتَةُ الِالْتِفَاتِ مِنَ الْغَيْبَةِ إِلَى الْخِطَابِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿٦٤﴾ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾:

تَعْظِيمُ قَدْرِ النَّبِيِّ ﷺ وَتَعْظِيمُ حُكْمِهِ

في قولِ اللّه تَعَالَى: ﴿وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿٦٤﴾ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ التفاتٌ من الغَيْبَةِ إلى الخطابِ، وذلك أنَّ قولَهُ سُبحَانه: ﴿وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ﴾ أسلوبُ غَيْبَةٍ؛ لِمَا تَقَرَّر مِن أنَّ الاسمَ الظَّاهِرَ بمنزِلَةِ الغَائبِ، ثُمَّ نُقِلَ الكلامُ إلى الخطَابِ في قوله ﷻ: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ﴾، و﴿يُحَكِّمُوكَ﴾، والسِّرُّ فيهِ: تعظيمُ النَّبيِّ ﷺ، وزادَهُ تعظيمًا إضافةُ اسمِ (الرَّبِّ) إلى كافِ الخِطاب[1]، فلا أحَدَ يَبْلُغُ مَنزلتَهُ ﷺ هذه، وفيهِ زيادةُ تأكيدٍ على حَاجَتِهم جَميعًا لتَحْكِيمِهِ ﷺ في كافَّة أمُورِهم.

وجِيءَ بِصِيغَةِ التَّحكيم مع أنَّه ﷺ حاكمٌ بأَمْرِ اللّه سُبْحَانَهُ إيذانًا بأنَّ حقَّهم أن يَجْعَلُوهُ حَكَمًا فيما بَيْنَهُمْ، ويرْضَوا بِحُكْمِه[2].

ولهَذَا فإنَّ مَن عَدَلَ عَنْهُ إلى سِوَاهُ في الْحُكْم؛ فقد عدَلَ عَنِ الكَمَالِ إِلَى النَّقص، وهذا ما يُوجِبُ إِخْرَاجَهُ مِنَ الإيمان، والإيمانُ رأسُ مالِ الصَّالحين من عِبادِ اللّه تعالَى، حتَّى تحصُلَ لهم غايةٌ من أشرفِ الغايات، وهي اللُّجوءُ إلى رسولِ اللّه ﷺ وتحكيمُه فيما نشَب بينَهُم من خِلافٍ[3]، وهذا الحُكْمُ لا يَقْتَصِرُ على مُعَاصِرِي النَّبيِّ ﷺ، بل يَدْخُلُ فِيهِ الخلقُ كافَّةً في كلِّ زمانٍ ومكَانٍ[4].

نُكْتَةُ الْحَذْفِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ﴾:

في قَوْلِه تعالَى: ﴿حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ﴾ محذوفٌ، دلَّ عليه عَطْفُ جُمْلَةِ:

(1) أبو حيَّان، البحر المحيط: 3/692 - 695.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السليم: 2/197.
(3) الشَّوكاني، فتح القدير: 1/559، والدَّرويش، إعراب القرآن وبيانه: 2/250.
(4) الآلوسّي، روح المعاني: 3/69.

﴿ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيۡتَ﴾، فإنَّها معطوفَةٌ على مقدَّر يَنْسَاقُ إليهِ الكلامُ، والمَعْنَى: حتَّى يحكِّموك، فتَقْضِيَ بَيْنَهُم، ثُمَّ لا يَجِدُوا في أنفسِهم حرجًا ممَّا قضيتَ، وفي قوله: ﴿قَضَيۡتَ﴾ حذفٌ آخَرُ؛ وهو ما يَطْلُبُه الْفِعْلُ مِن مَعْمُولٍ، والتَّقديرُ: (قَضَيْتَ بِهِ)، أو (مِنْ قَضَائِكَ)، والقيمةُ البلاغيَّة مِن ذلك تَكْمُن في دِلَالَةِ الكلام بَعْضِه على بعضٍ بِحَيْثُ يَبْدُو المحذُوفُ ظاهرًا مُحَقَّقًا في الذِّهن، فلَمْ تَكُنْ ثَمَّتَ حاجةٌ إلى التَّصريح بلفظِهِ[1].

تَحْقِيقُ الْمَعْنَى فِي الذِّهْنِ يُغْنِي عَنِ التَّصْرِيحِ بِلَفْظِهِ الدَّالِّ عَلَيْهِ

بَرَاعَةُ الِاسْتِعَارَةِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ﴾:

قولُ اللهِ تَعَالَى: ﴿فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ﴾، أَيْ: فِيمَا اخْتَلَفَ بينَهُم مِنَ الْأُمُورِ واخْتَلَطَ، ومِنْهُ سُمِّيَ الشَّجرُ شجرًا؛ لتَدَاخُلِ أَغْصَانِهِ، وقِيلَ لِلْمُنَازَعَةِ: تَشاجُرٌ؛ لأنَّ المُتنازعين تَخْتَلِفُ أقوالُهم، وتَتعارض دعَاوِيهم، ويَخْتَلِطُ بعضُهم ببَعْضٍ[2]، فاسْتُعِيرَ مَا اشْتَبَكَ وتضَايَقَ مِنَ الشَّجرِ لِلْمُنازعَةِ الَّتي يدخُلُ بِهَا بعضُ الكلام في بعضٍ، مِنْ بابِ اسْتِعَارَةِ المَحْسُوسِ لِلْمَعْقُولِ عَلَى سَبِيلِ الِاسْتِعَارَةِ التَّصريحيَّة، ثُمَّ استُعمِلَ اللَّفْظُ عَامًّا في كُلِّ أمرٍ وقَعَ بَينهم فِيهِ نِزَاعٌ وَتَجَاذُبٌ[3].

تَصْوِيرُ التَّنَازُعِ وَاخْتِلَافِ الْأَقْوَالِ فِي صُورَةِ الْمُشْتَبِكِ الْمَحْسُوسِ

دِلَالَةُ حَرْفِ الْعَطْفِ (ثُمَّ) فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيۡتَ﴾:

لَمَّا كانَ الإذعَانُ لِلْحُكْمِ بِمَا يُخَالِفُ الهوى في غايةِ الشِّدَّة على النَّفس؛ أشار إليه بأداةِ التَّراخي[4] (ثُمَّ) المُعَبِّرَةِ عَن أنَّ ما بَعْدَهَا أشدُّ ممَّا قَبْلَها؛ لأنَّ ما بعدها هُنَا: هُو مُخالفةُ الهَوَى والْإِذْعَانُ بِمَا يُطابقُ رَغْبَةَ النَّفس، فالمقصُودُ: تعليقُ إيمَانِهم عَلَى تَحْكِيمِهم

بَيَانُ أَنَّ الْإِيمَانَ لَا يَتِمُّ بِمُجَرَّدِ التَّحْكِيمِ حَتَّى يَكُونَ صَادِرًا عَنْ رِضًا وَاطْمِئْنَانٍ وَطِيبِ نَفْسٍ

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السليم: 2/197، والشَّوكاني، فتح القدير: 1/558، والبناني، سورة النِّساء: دراسة بلاغيَّة تحليليَّة: 2/336.

(2) الآلوسّي، روح المعاني: 3/69.

(3) أبو حيَّان، البحر المحيط: 3/695.

(4) البقاعيّ، نظم الدرر: 5/317.

رَسُولَ اللّه ﷺ في مُشَاجَرَتِهم واسْتِسْلَامِهم التَّامِّ في قَبُولِ حُكْمِه عَن طِيبِ نَفْسٍ وَرِضًا، فلم يَكتفِ سبحانَه بذلك حتَّى قالَ: ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيۡتَ﴾، فضمَّ إلى التَّحكيم أمرًا آخرَ، وهو عدَمُ وجودِ أيِّ حرجٍ في صُدُورِهم، فلا يكون مجرَّدُ التَّحكيم والإذعانِ كافيًا، بل لا بدَّ أنْ يكون نابعًا مِن صُدورِهم، صادرًا عن رِضًا واطمئنانٍ وطِيب نفْسٍ، وهذا أجملُ تصويرٍ لِلْعَلَاقةِ الَّتي يجِبُ أنَّ تترسَّخَ بينَ رَسُولِ اللّه ﷺ وَالْمُؤْمِنينَ[1].

بَلَاغَةُ الِاسْتِعَارَةِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا﴾:

تَصْوِيرُ الْأُمُورِ الْمَعْنَوِيَّةِ بِالصُّوَرِ الْحِسِّيَّةِ أَقْرَبُ لِلْفَهْمِ وَأَعْلَقُ بِالذِّهْنِ

قولُ اللّه تعالَى: ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا﴾، أي: ضِيقًا وشَكًّا؛ وَمِنْهُ قِيلَ للشَّجَرِ الْمُلْتَفِّ: حَرَجٌ وحَرَجَة، وجَمْعُهَا: حِرَاج[2]، وهِيَ هُنَا اسْتِعَارَةٌ تَصْرِيحِيَّة؛ حَيْثُ أُطْلِقَ اسمُ الحرَج الَّذي هو مِن وَصْفِ الشَّجَرِ إذا تَضَايَقَ عَلَى الْأَمْرِ الَّذي يشقُّ على النَّفس؛ لِلْمُنَاسَبَةِ الَّتي بينَهُمَا، وَهُوَ الضِّيقُ في كُلٍّ[3]، وفي هذه الاسْتِعَارَةِ إِخْرَاجُ الأمْرِ الْمَعْنَوِيِّ في قَالَبِ الْمَحْسُوسِ؛ ليكونَ أَعْلَقَ بِالذِّهْنِ وأوضَحَ فِي الْفِكْرِ.

بَرَاعَةُ الْجِنَاسِ فِي قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمٗا﴾:

بَيَانُ أَنَّ التَّسْلِيمَ الْكُلِّيَّ لِشَرْعِ اللهِ تَعَالَى وَحُكْمِهِ، والانْقِيَادَ التَّامَّ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا هُوَ دَلِيلُ الْإِيمَانِ

قولُ اللّهِ تَعَالَى: ﴿وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمٗا﴾، أي: يُذْعِنُوا إذعانًا تامًّا، وينقَادُوا ظاهرًا وباطنًا، انقيادَ الواثقِ المطمئنِّ إلى سَلامةِ موقفِ رَسُولِ اللّه ﷺ، وضُمَّ إلَى ﴿وَيُسَلِّمُواْ﴾ المصدرُ المؤكِّدُ ﴿تَسۡلِيمٗا﴾ علَى طَرِيقَةِ الْجِنَاسِ الْمُغَايِرِ، فَـ ﴿تَسۡلِيمٗا﴾: مَصْدَرٌ مُؤَكِّد، أي: ويسلِّمون لِحُكْمِكَ تسليمًا لا يُدْخِلُونَ عَلى أنفسهم شكًّا ولا شُبْهَةً فيه[4]، وهو دليلُ الإيمَانِ وعُنْوَانُه.

(1) الشَّوكاني، فتح القدير: 1/559، والدَّرويش، إعراب القرآن وبيانه: 2/250.
(2) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 5/269.
(3) أبو حيَّان، البحر المحيط: 3/708.
(4) القنَّوجي، فتح البيان: 3/167.

وقد بيَّن اللهُ تَعَالَى في آيةٍ أُخْرَى أنَّ قولَ المُؤْمِنِينَ مَحْصُورٌ في هذَا التَّسليم الكلِّيِّ، والانقيادِ التَّامِّ ظاهرًا وباطنًا لِما حَكَمَ بِهِ ﷺ، وهِيَ قولُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۚ﴾ [النور: 51][1].

والحَاصلُ: أنَّ اللهَ ﷻ أَقْسَمَ في هذهِ الآيَةِ الكَرِيمَةِ بِنَفْسِهِ الكَرِيمَةِ المقدَّسة، أنَّه لا يُؤْمِنُ أَحَدٌ حتَّى يحكِّم رَسُولَهُ ﷺ في جَمِيعِ الأُمُورِ، ثُمَّ يَنْقَاد لِمَا حَكَم بِهِ ظاهرًا وباطنًا، وَيُسَلِّمُ بِهِ تَسْلِيمًا كُلِّيًّا مِن غير مُمَانَعَةٍ ولا مُدَافَعَةٍ ولا منَازَعَةٍ، وهكذا لا يَثْبُت الإيمانُ لعبدٍ حتَّى يقَعَ مِنْهُ هذا التَّحكيمُ، ولا يَجِدُ حرجًا في صَدْرِهِ بِمَا قضى عليه، والتَّسليمُ لحُكم اللهِ تعالَى وشرعِه تسليمًا لا يُخَالِطُه ردٌّ، ولا تشوبُه شائبةٌ، فسُبْحَانَ قائلِ هذا الكلامِ[2].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الْحَرَج وَالضِّيق:

الْحَرَجُ: هُوَ الشَّديدُ الضِّيقِ في قَوْلِ أهل اللُّغة[3]، قَالَ الزَّجَّاج: (الحَرَجُ في اللُّغة: أَضْيَقُ الضِّيقِ)[4].

الْحَرَجُ أَخَصُّ مِنَ الضِّيقِ، وَهُوَ أَشَدُّهُ وأَضْيَقُهُ

والحَرَجُ: ضِيقٌ لَا مَنْفَذَ فيهِ، مَأْخُوذٌ مِنَ الْحَرَجَةِ؛ وَهِيَ الشَّجَرُ الملتفُّ حتَّى لا يمكن الدُّخولُ فيهِ، ولا الخُرُوج مِنْهُ[5]، وقدِ اجْتَمَعَ اللَّفظانِ في قولِهِ تَعَالَى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ [الأنعام: 125]، فقد ذُكِرَ لَفْظُ الضِّيق والحَرَج معًا؛ إذْ إنَّهُ لَمَّا لَم يَكُنْ لَفْظُ الضِّيق وافيًا في بيانِ المَقْصُود؛ جِيءَ بِلَفْظِ الْحَرَج؛ لأنَّ في الحرَج مِنْ مَعْنَى شِدَّة الضِّيق، ما لَيْسَ في اللَّفْظِ الآخرِ، فالْحَرَجُ هُوَ المُتَزَايِدُ في الضِّيق، فيكونُ أخصَّ مِنَ الضِّيق، فكلُّ حَرَجٍ ضِيقٌ مِنْ غَيْرِ عَكْسٍ[6].

(1) الشِّنقيطي، أضواء البيان: 1/246.
(2) الشوكاني، فتح القدير: 1/559، والدَّرويش، إعراب القرآن وبيانه: 2/250.
(3) الأزهري: تهذيب اللُّغة: (حرج).
(4) الزَّجاج: معاني القرآن وإعرابه: 2/290.
(5) العسكري، الفروق اللُّغويَّة، ص: 305.
(6) السمين، الدُّرُّ المصون: 5/142.

﴿وَلَوۡ أَنَّا كَتَبۡنَا عَلَيۡهِمۡ أَنِ ٱقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ أَوِ ٱخۡرُجُواْ مِن دِيَٰرِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٞ مِّنۡهُمۡۖ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡ وَأَشَدَّ تَثۡبِيتٗا ٦٦﴾ [النّساء: 66]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

أهميَّة الإذعان لأمر الله، وندرة استجابة المنافقين له

لَمَّا كانت هذه الآيةُ متَّصلةً بما تقدَّم من أمر المُنافقينَ، وترغيبِهم في الإخلاص، وتركِ النِّفاق[1]، وقد بيَّنت الآياتُ السَّابقةُ أحوالَ المُنافقينَ، وصفاتِ الإيمان، وأنَّ مَظهر قوَّة الإيمان إطاعةُ الله ورسولِه، والرُّجوعُ إلى الكتاب والسُّنَّة عند الاختلاف، وتحكيمُهما في كلِّ أمور الحياة الَّتي تحتاج إلى حُكْم وفصْلٍ؛ بيَّن في هذه الآيةِ: أنَّ الَّذين يُذعنون لأمر الله ونهْيه، حتَّى في النَّفس وتركِ الأهل، قليلون، وليسوا كثيرين، وهُمُ الَّذين تقومُ عليهم قوَّة الأمَّة[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱخۡرُجُواْ﴾: الخاءُ والرَّاءُ والجِيمُ: أَصلان يدلُّ أحدُهما على النَّفاذِ عَنِ الشَّيءِ[3]، والخروج نقيض الدُّخول[4]، وخرج خروجًا: برزَ من مقرِّه، أو حالِه، سواء أكان المقرُّ دارًا، أم بلدًا، أم غير ذلك؛ بسببٍ من نفْسِه، أو بسببٍ خارج عنه[5]، والمُراد بالخروج مِنَ الدِّيار في الآية الكريمة: الهجرةُ مِنَ البلد منصرفين للجهاد في سبيل الله تعالى، والخروج مِنَ الأوطان إلى أماكنَ فيها استجابةٌ لأمرِ الله[6].

(1) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 10/129.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 4/1746.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (خرج)، والأَصْلُ الأَخَر: الْخَرَج، وهو لَوْنَانِ بَيْنَ سَوَادٍ وَبَيَاض، يُقَال: نَعَامَةٌ خَرْجَاءُ وَظَلِيمٌ أَخْرَج، وهما أصلان يُمْكِنُ الْجَمْعُ بَيْنَهُمَا، إِلَّا أَنَّ ابن فارس في "مقاييسه" سَلَكَ طَرِيقَ التَّقسيم والتَّوضيح.
(4) الخليل، العين: (خرج).
(5) الرَّاغب، المفردات: (خرج).
(6) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 4/1747، طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 3/204.

2) ﴿دِيَٰرِكُم﴾: الدَّالُ والواوُ والرَّاءُ: أصلٌ واحدٌ يدلُّ على إحداقِ الشَّيء بالشَّيء من حَواليه[1]، ومنه الدَّار: وهي كلُّ مَوضِع حلَّ به قومٌ، وهو اسمٌ جامعٌ للعَرْصَةِ، والبناء، والمحلَّة[2]، وهي المنزل، وسُمِّيت بذلك اعتبارًا بالحائط الَّذي يدور حولها، أو من كثرة حركات النَّاس ودورانهم فيها، وقد تُسمَّى بها - على التَّوسُّعِ - البلدة، والصُّقع، والدُّنيا، والقَبِيلة[3]، وكل ما جاء في القرآن بلفظ (دار) و(ديار) مضافًا؛ فهو من دُور هذه الدُّنيا[4]، والدِّيار في الآية الكريمة: هي مَحِلُّهم، ومَوضِعُ إقامتهم.

3) ﴿يُوعَظُونَ﴾: الواوُ والعينُ والظَّاءُ: كلمةٌ واحدةٌ، فالوَعظُ: التَّخويفُ، والعِظَةُ والموعظة الاسمُ منه: وهو تذكيرُك إيَّاه الخيرَ ونحوَه ممَّا يرقُّ له قلبُهُ، ويلينُ من ثَواب وعقاب[5]، والوَعظُ: النُّصحُ والتَّذكيرُ بالعواقب[6]، وهو أيضًا: زجرٌ مقترنٌ بتخويف[7]، ومن معانيه: ألَّا تُنشِئَ حُكمًا للسَّامع، بل تَعظه بتنفيذ ما عُلِم له من قبلُ[8]، وخلاصةُ المعنى: كلُّ كلامٍ، أو عملٍ يُنَبَّه به الإنسانُ إلى عواقب ما يفعلُه، أو ما هو مُقدِمٌ عليه ليتوقَّفَ عنه، وكأنَّ الأصل في معنى التَّركيب: أنَّه خاصٌّ بالزَّجر عمَّا له عواقب سيِّئة حسبُ، ثمَّ عُمِّم في الحضِّ على ما له ثوابٌ[9].

4) ﴿تَثۡبِيتٗا﴾: الثَّاءُ والباءُ والتَّاءُ: كلمةٌ واحدةٌ تدلُّ على دَوام الشَّيء، يُقالُ: ثَبَتَ ثَباتًا وثُبوتًا[10]، وتَثَبَّت في رأيه وأَمرِه؛ إذا لم يَعجَل، وتَأَنَّى فيه، واستَثبَتَ في أمره: إذا شاوَرَ، وفحص عنه[11]، والمعنى المحوريُّ للثَّبات هو: متانةُ ارتباط الشَّيء المتنقِّل بما لُزَّ به، أو قام عليه لا يتحَلْحَل، كما يرْسَخُ الرَّحلُ على ظهْر الجَمل بالثَّبات، ومنه الثُّبوت في المكان رسوخًا حقيقيًّا[12].

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (دور).
(2) الخليل، العين: (دور).
(3) ابن سيده، المحكم: (دور)، والرّاغب، المفردات: (دار).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقيُّ المؤصَّل: (دور - دير)
(5) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة، ابن سيده، المحكم: (وعظ).
(6) الجوهريّ، الصّحاح: (وعظ).
(7) الرَّاغب، المفردات: (وعظ).
(8) الشَّعراويّ، تفسير الشَّعراويّ: 7/4348.
(9) جبل، المعجم الاشتقاقيُّ المؤصَّل: (وعظ).
(10) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (ثبت).
(11) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة: (ثبت).
(12) جبل، المعجم الاشتقاقيُّ المؤصَّل: (ثَبَتَ).

ومعنى قوله تعالى: ﴿وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا﴾: التَّحْقِيقُ وَالتَّصْدِيقُ لِإِيمَانِهِمْ[1].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

الخيريَّة والتَّثبيت جزاء الطَّاعة، والاستجابة للموعظة

يخبرُ تعالى أنَّه لو فرَضَ على هؤلاءِ المنافقين - المتحاكمين إلى الطَّاغوتِ - الأوامرَ الشاقَّة على النُّفوس، نحو أنْ يأمرهم أن يَقتلَ بعضُهم بعضًا، وبالخروج منِ الأوطان لصعُبَ ذلك عليهم، ولم يفعله إلَّا الأقلُّون منهم، وحينئذٍ يظهر كفرُهم وعنادُهم، فلمَّا لم نفعل ذلك رحمةً منَّا على عبادنا، بل اكتفينا بتكليفهم في الأمور الهيِّنة اليسيرة، فليقابلوها بالإخلاص، وليتركوا التَّمرُّد، والكِبْرَ، والعناد حتَّى ينالوا خير الدَّارين[2]؛ فإنَّ جزاء قَبول الموعظة الخيريَّة في عاجل دنياهم، وآجل معادهم، والتَّثبيت لهم في أمورهم وأقوى لإيمانهم[3].

وترشد الآية الكريمة إلى: أنَّ المؤمن في الحقيقة من يسلِّم تسليمًا، وفي ذلك تنبيهٌ على قصورِ كثيرٍ منَ النَّاس ووهنِ إسلامهم[4]، وفي الآية أيضًا دليلٌ على صعوبة الخروج منَ الدِّيار؛ إذ قرنه اللّه تعالى بقتل الأنفُس[5].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

المُفتتحُ توبيخٌ للمنافقين؛ لكثرة تلوُّنهم، وتحريضٌ للمؤمنين؛ لامتثال الأوامر

وجهُ وصل الآية بما قبلَها:

ابتدأ بقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ﴾ موبِّخًا المُنافقينَ، أي: لو شدَّدنا عليهم التَّكليف؛ لَمَا كان منَ العجب ظهور عنادهم، ولكنَّا رحمناهم بتكليفهم اليُسرَ، فليخلصوا، ويذروا عنادهم، وكِبْرهم، فإنَّها مناط الخيريَّة في الدَّارين[6]، وفي هذا توبيخٌ عظيمٌ[7]، ووجهه

(1) البغوي، معالم التنزيل: 2/246.
(2) الرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 10/129.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 8/528.
(4) الرَّاغب، تفسير الرَّاغب: 3/1307، والآلوسّي، روح المعاني: 5/73.
(5) أبو حيَّان، البحر المحيط: 3/297.
(6) الرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 10/129.
(7) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 1/530.

أنَّه لا يمتثلُ أمرَ اللّه إلَّا القليلُ منهم[1]، وهي على هذا الوجه يصلحُ خطابُ المنافقين؛ لأن يكون تحريضًا للمؤمنين على امتثال الرَّسول، وانتفاء الحَرَج عنهم من أحكامه، فإنَّه سبحانه لم يكلِّف عباده إلَّا اليُسرَ: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة: 185]، كلُّ هذا محمول على أنَّ المُراد بقتل النُّفوس أن يقتل أحد نفسَه بنفسِه[2].

وجه التَّوبيخ التَّنبيه على ضعف إيمان المنافقين

نبَّه تعالى في هذه الآية على ضعف عقيدة المنافقين، ووهن إيمانهم، وهشاشة مبادئهم، فالمؤمنُ الحقُّ هو من يُذعِنُ لأمر خالقه، ويسلِّم فيما يأمر تسليمًا[3].

براعةُ المَقطعِ في مَطلَع الآية:

وجه البراعة تهيئة لانتقال الكلام إلى التَّحريض على الجهاد

تُلْمَسُ براعة المقطع في هذا المطلع في التَّهيئة لانتقال الكلام إلى التَّحريض على الجِهاد الآتي في قوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ﴾، وأنَّ المُراد بـ﴿ٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ ليقتل بعضكم بعضًا، فإنَّ المؤمنين يقاتلون قومَهم وأقاربَهم منَ المشركين في الجِهاد المأمور به بدليل قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ﴾[4].

بديعُ الافتتاح بصحَّة التَّفسير:

وجه صحَّة التَّفسير ليتخصَّص من احتمالات المعنى المُراد

قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا﴾ هو من أنواع صحَّة التَّفسير[5]، فالمكتوب عليهم هو المفسر؛ لأنَّه يحتمل أنْ يكون ما فُسِّرَ به، ويحتمل غيره، وهذا الاحتمال يحتاج إلى التَّفسير؛ ليتخصَّص من احتمالات المعنى المُراد، والتَّفسير قوله: ﴿أَنِ ٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ أَوِ ٱخْرُجُواْ مِن دِيَـٰرِكُم﴾[6].

(1) أبو حيَّان، البحر المحيط: 3/297.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 5/114.
(3) الرَّاغب، تفسير الرَّاغب: 3/1307.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 5/114.
(5) "صحة التَّفسير: وهي أن يضع الشَّاعر معاني يريد أن يذكر أحوالها في شعره الَّذي يصنعه، فإذا ذكرها أتى بها من غير أن يخالف معنى ما أتى به منها، ولا يزيد أو ينقص"، ينظر: ابن قدامة، نقد الشّعر، ص: 48.
(6) الإندونيسي، الشّامل في بلاغة القرآن: 1/243.

نكتةُ الالتفات إلى ضمير التَّكلُّم:

الالتفاتُ فيه تعظيمٌ لشأنِ الكاتبِ والمكتوب

سياقُ الكلام في الآية السَّابقة ومختتم الَّتي قبلها جاء التَّعبير فيه بضميري الغيبة، والخطاب بوصفه خاصًّا بالنَّبيِّ ﷺ: ﴿لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿٦٤﴾﴾ [النساء: 64]، ﴿فَلَا وَرَبِّكَ﴾ [النساء: 65]، ﴿وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [النساء: 65]، وانتقل هنا - في هذه الآيةِ - من تشريف النَّبيِّ ﷺ إلى تعظيم نفسه جلَّ في علاه، فهو ﷻ الَّذي يقدِّرُ القتلَ على النُّفوسِ، والإخراجَ من الأوطان، وهو الآمر بهما، فلا يَقْدر أحدٌ على وقوعهما سواه، وأكَّد ذلك التَّعظيم بـ ﴿أَنَّا﴾، وبإضافة فرْضِ هذه الواجبات - لو أرادها - إليه تعالى شأنه، وتقدَّست أفعالُه؛ لِعظَمِ شأن الأمرين، ولاختصاصهما بقدرته، وبتعْديةِ فعلِ الكتابة بـ (على) فهو أمرٌ مُنزَّل، محلُّ سرعة الاستجابة، والامتثال.

سرُّ التَّعبير بـ﴿وَلَوۡ﴾:

يدلُّ التَّعبير بـ (لو) على أنَّ امتناع وقوع التَّكليف؛ إذ لا يكلِّف اللهُ نفسًا إلَّا وسعها

تعدُّ (لو) حرف شرطٍ في الامتناع أو في غَيْر الإمْكان، وتدلُّ على امتناع الجوابِ لامتناع الشرط، والتَّعبير بها مفيدٌ أنَّ التَّكليف لا يقع هاهنا، فاللّه تعالى لو يكلِّف ذلك التَّكليف؛ لثقُل التَّكليف إلَّا على عدد قليل من النَّاس[1]، والتَّكليفات الشَّرعيَّة لا تكون إلَّا فيما يطاق من غير مشقَّة مجهدة؛ لأنَّ اللّه تعالى يقول: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ﴾ [البقرة: 286]، ويقول: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلۡعُسۡرَ﴾ [البقرة: 185]. فهذا الدِّينُ ميسَّرٌ لينهض به كلُّ ذي فطرة سويَّة، واللّه ﷻ الَّذي فرض على الإنسان تكاليف هذا الدِّين يعلم أنَّها داخلة في مقدور الإنسان، وهو لم يشرِّع هذا الدِّينَ للقلائل الممتازين من النَّاس، وقتلُ النَّفس، والخروجُ من الدِّيار، مثالان للتَّكاليف الشاقَّة الَّتي لو كتبت على النَّاس ما فعلها إلَّا قليلٌ منهم، وهي لم تكتب؛ لأنَّه ليس المراد من التَّكاليف أن

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 4/1747.

يعجز عنها عامَّة النَّاس أو ينكُلوا عنها، بل المراد أن يقدر عليها الجميعُ ويؤدُّوها[1].

معنى الضَّمير في: ﴿عَلَيْهِمْ﴾:

الضَّمير في قوله: ﴿كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ﴾ فيه قولان:

رحمة الله بعباده تكليفهم بالأحكام السَّهلة، فمن شكره إخلاص العمل

الأول: أنَّه عائد إلى المنافقين؛ لأنَّه تعالى كَتبَ على بني إسرائيل أن يَقْتلوا أنفسهم، وكَتبَ على المهاجرين أن يخرجوا من ديارهم، فالمعنى: ولو أنَّا كتبنا القتل والخروج من الوطن على هؤلاء المنافقين ما فعله إلَّا قليلٌ منهم رياء وسمعة، وحينئذٍ يصعب الأمر عليهم، وينكشف كفرهم، فإذا لم نفعل ذلك بل كلَّفناهم بالأشياء السَّهلة، فليتركوا النِّفاق، وليقبلوا الإيمان على سبيل الإخلاص، وهو قول ابن عباس ومجاهد، واختيار أبي بكر الأصمِّ والقَفَّال.

الثاني: أنَّ المرادَ لو كتبَ اللهُ على النَّاس ما ذكر لم يفعله إلَّا قليلٌ منهم، فلمَّا لم يفعل - سبحانه - ذلك رحمةً بعباده، بل اكتفى بتكليفهم بالأمور السَّهلة، فعليهم أن يُقْبلوا عليها بإخلاصٍ حتَّى ينالوا خيرَ الدَّارين.

وعلى التَّقدير الثَّاني التَّقدير دخل تحت هذا الكلام المؤمن والمنافق[2].

جمال الإتْباع بصحَّة التَّقسيم:

استيفاءُ صحَّة التَّقسيم في وجهي المشقَّة

اندرجَتْ في صحَّة التَّفسير في الآيةِ الكريمة صحَّةُ التَّقسيم[3]، وذلك باستيفاء وَجهَي المشقَّة المؤلمين، وهما: قتل النَّفس، والإخراج منَ الدِّيار، ودليلُ صعوبة الخروج منَ الدِّيار أنَّ الله تعالى قرنه بقتل الأنفس[4].

(1) الصافي، الجدول: 3/84.

(2) الرازي، مفاتيح الغيب: 10/130، طنطاوي، التفسير الوسيط: 3/204.

(3) "صحَّة الأقسام: عبارة عن استيفاء المتكلِّم أقسام المعنى الَّذي هو آخذ فيه، بحيث لا يغادر منه شيئًا"، ينظر: ابن أبي الإصبع، تحرير التَّحبير، ص: 173.

(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/297.

وجه المقابلة بين القتل والإخراج:

الجسم دار الرُّوح، والوطنُ دارُ الجسم

عمليَّة القتْل قرينةٌ لعمليَّة الإخراج منَ الدِّيار، فساعة يُقتل الإنسان، فيعيش الألم، وساعة يخرج من وطنه فيتألَّم، وكلاهما شاقٌّ على الإنسان، ويعْسُر تحمُّله إلَّا مَن صبَّره الله[1]، فـ"الجسم دار الرُّوح، والوطنُ دارُ الجسم"[2].

علَّة تقديم قتل النَّفس على الإخراج مِنَ الدِّيار:

نفي القيام بالفعل يناسبُه البدء بالأشقِّ منه

قتلُ النَّفس أشقُّ وأصعبُ مِنَ الإخراج مِنَ الدِّيار، فالأصل في المستحبَّات بقاء النَّفس؛ دوامًا للحياة، وطول أمل، والقتلُ إزهاق لها، وانتفاءٌ لوجودها، والإخراج مشقَّةٌ مع بقائها، فهي أهونُ في المشقَّة، ولذلك قدَّم الأصعب على الأهون صعوبةً، بدليل قرينة إتْباعهما بجملة: ﴿مَّا فَعَلُوهُ﴾، ونفي القيام بالفعل يناسبُه البدءُ بالأشقِّ منه.

سرُّ التَّعبير بالخروج:

التَّعبير بالخروج قصْدٌ إلى المهاجرين والمجاهدين

المُراد بالخروج منَ الدِّيار: الهجرة، أي: كتبنا عليهم هجرة منَ المدينة، وخروجًا من الدِّيار، وفي هذا تنويهٌ بالمُهاجرين والمُجاهدين[3].

عِلَّةُ توحيد الضَّمير في ﴿مَّا فَعَلُوهُ﴾:

بيانُ اتِّحاد جنس الفعل، وإن اختلفت ضروبُه

الضَّمير في قوله: ﴿مَّا فَعَلُوهُ﴾ شاملٌ القتلَ والخروجَ معًا؛ لأنَّ الفعل جنسٌ واحدٌ، وإن اختلفَت ضرُوبُه[4]، وفيه إلماحٌ إلى قربهما في المشقَّة على المرء بحسب ما أشيرَ إليه.

وجهُ القراءتين في ﴿إِلَّا قَلِيلٌ﴾:

قرأ ابن عامر بالنَّصب، وقرأ الباقون من القرَّاء العشرةِ بالرَّفع[5]، "من رفع؛ فعلى تكرير الفعل، كأنَّه قال: ما فعلوه، ما فعله

(1) الشَّعراويّ، تفسير الشَّعراويّ: 4/2379.
(2) رضا، تفسير المنار: 5/195.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 5/114.
(4) الرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 10/130.
(5) ابن الجزريّ، النَّشر: 2/250.

إلَّا قليل منهم، ومن نصب؛ فعلى الاستثناء، كأنَّه قال: استثنى قليلًا منهم"[1]، أي: إلَّا فعلًا قليلًا ممَّا يُوعَظونَ به من اتِّباع رسول اللَّه ﷺ وطاعته، والانقياد لما يراه ويحكم به؛ لأنَّه الصَّادق المصدوق الَّذي لا ينطق عنِ الهوى[2]، ويتحقَّقُ الجمع بين القراءتين دون أدنى تكلُّف، فالاستثناء كان مدحًا وثناءً للَّذين فعلوا هذه التَّكاليف بالرَّغم من ثقلها عليهم، والرَّفع على البدل من الواو في ﴿مَّا فَعَلُوهُ﴾، والمعنى: ما فعله إلَّا قليلٌ منهم ممَّن استجاب لأمر اللَّه[3].

من فعل التَّكليف برغم ثقلِه يستحقُّ الثَّناء، والمدْح

نكتة التَّعبير عنِ التَّكليف بالوعْظ:

ومعنى: ﴿مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ﴾ عُلِم من قوله: ﴿فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ وَعِظۡهُمۡ﴾ [النِّساء: 63]، أي: ما يؤمرون به أمرَ تحذيرٍ وترقيقٍ، أي: مضمون ما يوعظون؛ لأنَّ الوعظَ هو الكلام والأمر، والمفعول هو المأمور به، أي: لو فعلوا كلَّ ما يبلِّغهم الرَّسول، ومن ذلك الجِهاد والهجْرة[4].

معنى الوعظ ما يؤمرون به أمرُ تحذيرٍ وترقيقٍ

سُمِّي هذا التَّكليف والأمر وعظًا؛ لأنَّ تكاليفَ اللَّه تعالى مقرونةٌ بالوعد والوعيد، والتَّرغيب والتَّرهيب، والثَّواب والعقاب، وما كان كذلك فإنَّه يسمَّى وعظًا[5]، ومن هنا سُمِّيت أوامرُ اللَّه تعالى ونواهيه: مواعظَ[6].

التَّعبير بالوعظ؛ لأنَّ تكاليفَه تعالى مقرونةٌ به

وجوهُ تعْدية الوعْظِ بالباء:

الوعظُ: هو التَّذكار بما يحلُّ بمن خالف أمرَ اللَّه تعالى مِنَ العقاب، فالمُوعَظُ به: الجُمل الدَّالَّة على ذلك، ولا يمكن حملُه على هذا الظَّاهر؛ لأنَّهم لم يؤمروا بأن يفعلوا المُوعَظَ به، وإنَّما عرَضَ لهم شرح ذلك بما خالف الظَّاهر؛ لأنَّهم علقوا به بقوله: ﴿مَا

(1) الأزهريّ، معاني القراءات: 1/311.
(2) الزَّمخشريّ، الكشَّاف: 1/530.
(3) ابن زنجلة، حجة القراءات، ص: 206 - 207.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 5/114.
(5) الرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 10/131.
(6) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/198.

﴿يُوعَظُونَ﴾، على طريقة ما يفهم من قولك: وعظتُك بكذا، فتكون الباء الباء: للتَّعدية، قد دخلَتْ على الشَّيءِ المُوعَظ به، وهي الجملة الدَّالَّة على الوعَظ.

الباء للسَّببيَّة، والمعنى ولو أنَّهم فعلوا الشَّيء الَّذي يوعظون بسبب تركه

تحتملُ الباءُ معنى: السَّببيَّة، فيُحملُ اللَّفظ حينها على الظَّاهر، ويصحُّ المعنى على تقدير: ولو أنَّهم فعلُوا الشَّيء الَّذي يُوعظون بسببه، أي: بسبب ترْكِهِ، ودلَّ على حذف ترْكِهِ قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُواْ﴾، ويبقى لفظ ﴿يُوعَظُونَ﴾ على ظاهرِه، ولا يحتاج إلى ما تأوَّلوه[1].

وجهُ الخيريَّة، وعلَّة التَّعبير عنها:

حصولُ الخيريَّة في الدُّنيا والآخرة، أو المبالغة فيها

قوله: ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ يحتملُ أنْ يكون المعنى: أنْ يحصلَ لهم خيْرًا الدُّنيا والآخرة، ويحتمل أنْ يكونَ المعنى المبالغة والتَّرجيح، وهو أنَّ ذلك أنفع لهم وأفضل من غيره؛ لأنَّ قولنا: "خير" يُستعمل على الوجهين جميعًا[2].

عبَّرَ بالخيريَّة لبيان تحقُّق وقوعها، وتوكيد ذلك

أكَّد تحقُّق الخيريَّة بالفعل (كان): الدَّالِّ على تحقُّق الوقوع في الماضي المؤكَّد بلام التَّوكيد، والتَّعبير عنه بالمصدر ﴿خَيْرًا﴾، ثمَّ نسبته ﴿لَّهُمْ﴾: فيه مَزيد ترغيبٍ لهم به كونه مخصَّصًا بهم، "فتمتدُّ الخيريَّة في عاجلهم وآجلهم"[3].

بلاغة التَّعبير عنِ التَّثبيت بالمصدر:

المصدريَّة أقْوى في الدَّلالة على حدث التَّثبيت

معنى التَّثبيت: يحتمل أنَّه التَّثبيت على الإيمان وعدم الاضطراب فيه، ويحتمل أنَّه تثبيتهم ببقائهم بين أعدائهم، ولعزَّتهم وحياتهم الحقيقيَّة، فإنَّهم إنَّما يكرهون القتال استبقاءً لأنفسهم، ويكرهون المهاجرة حبًّا لأوطانهم، فعلَّمهم الله أنَّ الجِهاد والتغرُّب فيه أو في

(1) أبو حيَّان، البحر المحيط: 3/298.

(2) الرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 10/131، وذهب ابن عاشور إلى أنَّ المُراد بالخير خير الدُّنيا، وبالتَّثبيت التَّثبيت فيها، بدليل قوله عاطفًا عليه: ﴿وَإِذًا لَّآتَيْنَٰهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجْرًا عَظِيمًا ۝٦٧﴾ [النِّساء: 67]، ينظر: ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 5/115.

(3) الزَّمخشريّ، الكشَّاف: 1/530.

غيره أشدُّ تثبيتًا لهم؛ لأنَّه يذودُ عنهم أعداءَه[1]، وفي ذلك عُسْرٌ ناسبَهُ صيغةُ التَّفعيل الدَّالِّ على المبالغة.

سرُّ تقويةِ التَّثبيت بالشِّدَّة:

تقفيةُ الشِّدَّة بالتَّثبيت؛ ليكون في الأخذ بالتَّكليف تثبيتٌ على الحقِّ

في قوله: ﴿وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا﴾ بالغَ في التَّعبير عنِ التَّثبيتِ بالشِّدّة وقوَّاه؛ ليكون في الأخذ بالتَّكليف الَّذي يُطاق تثبيتٌ على الحقِّ، للتَّمكين مِنَ الاستمرار عليه، فالاستمرار على فعلِ ما هو حقٌّ يثبِّته ويقرِّب الغاية منه[2]؛ لكونه أشدَّ لتحصيل عملهم، ونفي جهْلِهم، وأثبتَ لأعمالهم، واجتناءِ ثمرة فعالهم[3].

علَّة تقديم الخيريَّة على التَّثبيت:

تقديمُ تحصيلِ الخير؛ لأنَّه سابقٌ لطلب بقائه

إنَّ الإنسان يطلبُ أوَّلًا تحصيلَ الخير، فإذا حصَّله؛ فإنَّه يطلب أن يصير ذلك الحاصل باقيًا ثابتًا، فقوله: ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ إشارة إلى الحالة الأولى، وقوله: ﴿وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا﴾ إشارة إلى الحالة الثَّانية[4].

بلاغة عودِ الضَّمير في الآية:

الجمع بين الخاصِّ والعامِّ في الضَّمير؛ ليشملَ المؤمنَ والكافرَ

الضَّمير في قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُواْ﴾ مختصٌّ بالمُنافقينَ، ومرجع الضَّمير في ﴿عَلَيْهِمْ﴾ إلى المُنافقينَ، ويجوز عوده إلى النَّاس كافَّة، المؤمن والمنافق، ويكون المُراد بـ(القليل) المؤمنين، ولا يبعد أن يكون أوَّل الآية عامًّا، وآخرها خاصًّا[5].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

البيت، والمنزل، والمسكن، والدَّار:

البيت خاصٌّ بالمبيت ليلًا، والمَنزِل مَوضِعُ النُّزول

أصلُ البيت: مَأوى الإنسان باللَّيل؛ لأنَّه يُقال: بات: أقام باللَّيل،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 5/114.
(2) الرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 10/131، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 4/1748.
(3) الرَّاغب، تفسير الرَّاغب: 3/1307.
(4) الرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 10/131، وأبو حيّان، البحر المحيط: 3/298.
(5) الرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 10/130، والقاسميّ، محاسن التّأويل: 3/214.

ثمَّ قد يُقال للمسكن: بيت من غير اعتبار اللَّيل فيه، فالبيوت بالمسكن أخصُّ[1]، والمَنزِل: مَوضِعُ النُّزول[2].

المسكن مظنَّة الاستيطان مِنَ السُّكون

السُّكون: ثبوت الشَّيء بعد تحرُّك، ويُستعمل في الاستيطان نحو: سكن فلان مكان كذا، أي: استوطنه، واسم المكان: مَسْكَنٌ، والجمع: مساكن[3].

الدَّار اسم عامٌّ جامع للبناء بيتًا، ومحلَّةً، وبلدةً، وهو أنسبُ لسياق الهجرة

الدَّار: اسم جامع للعَرْصة والبناء والمحلَّة، وكلُّ مَوضِع حلَّ به قوم؛ فهو دارهم[4]، ثمَّ تسمَّى البلدة: دارًا، والصِّقع دارًا، والدُّنيا دارًا[5].

فكان استخدام لفظ "الدِّيار" في الآيةِ الكريمة أنسب لسياق الهجرة، والإخراج من عموم محلِّ السُّكنى: بيتًا، وسكنًا، ومنزلًا، وبلدًا.

العمل، والفعل:

يُستعمل الفعلُ لمَا يكون دُفعةً واحدةً

من وجوه التَّفريق بين العمل والفعل: أنَّ العمل يُستعملُ لمَا يمتدُّ زمانُه، وأمَّا الفعل؛ فيكون دُفعةً واحدةً[6]، ولذلك اختار لفظ الفعل؛ لأنَّه يُستعمل لمَا يكون دفعةً واحدة، وهو أنسب لفعلي قتل النَّفس أو الخروج مِنَ الدِّيار المتعاقبين في الآية الكريمة من غير فاصل بينهما.

فعلا قتلِ النَّفس والخروج أفعالٌ بدنيَّة لا صلة لها بجارحة اللِّسان

(العمل): كلُّ أداءِ مُهِمَّةٍ من جارحةٍ، أمَّا (الفعل)؛ فهو تعلُّق كلِّ جارحة غير اللِّسان بالحدث، فالعملُ هو شغل الجارحة بالحدث المطلوب منها، لكنَّ الفعل هو: شغل جارحةٍ غير اللِّسان بالعمل المطلوب منها[7]، ولخصوصيَّة الفعل اختير في الآية الكريمة؛ لكون

(1) الرَّاغب، المفردات: (بيت).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (نزل).
(3) الرَّاغب، المفردات: (سكن).
(4) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة: (دور - دير).
(5) الرَّاغب، المفردات: (دار).
(6) السُّيوطيّ، معترك الأقران: 3/604.
(7) الشَّعراويّ، تفسير الشَّعراويّ: 3/1849.

فعلي: قتلِ النَّفس، والخروج منَ الدِّيار أفعالًا بدنيَّة لا صلة لهما بجارحة اللِّسان.

إيثار لفظ الفعل وصفٌ لصنيعهم بالجهل

الفعلُ: التَّأثير من جهة مؤثِّر، وهو عامٌّ لمَا كان بإجادة أو غير إجادة، ولمَا كان بعلم أو غير علم، وقصد أو غير قصد، ولمَا كان منَ الإنسان، والحيوان، والجمادات[1]. وإيثار لفظ الفعل وصفٌ لصنيعهم بالجهل؛ لاتِّسامهم بعدم الإجادة، وعدم العلم.

(1) العسكريّ، الفروق اللُّغويَّة، ص: 134، والرَّاغب، المفردات: (فعل).

﴿وَإِذَا لَّآتَيۡنَٰهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجۡرًا عَظِيمٗا ٦٧﴾ [النّساء: 67]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا بيَّن اللّٰه أنَّ الإخلاص في الإيمان خيرٌ ممَّا يريدُ المنافقون منَ النِّفاق، وأكثر ثباتًا وبقاءً؛ بيَّن أنَّه خير في نفسه، فضلًا عن كونه مستعقبًا للخيرات العظيمة من أجرٍ وثواب كبيرين[1]، كأنَّه قِيلَ: ماذا يكون من هذا الخير والتَّثبيت؟ قال: هو أن نؤتيهم من لدنَّا أجرًا عظيمًا، ونهديهم صِراطًا مُستَقيمًا[2]، فما أنْ تَشرعَ بالمسير بخطوةِ البدءِ، سيتبعه العون منَ اللّٰه، ويتبعه التَّثبيت على المضي في الطَّريق، ويتبعه الأجر العظيم، وتتبعه الهداية إلى الطَّريق المستقيم.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَجۡرًا﴾: الهمزة والجيم والرَّاء: أَصلان يمكنُ الجمعُ بينهما بالمعنى، فالأَوَّلُ: الكِراءُ على العمل، والثَّاني: جَبرُ العَظمِ الكَسيرِ، فأَمَّا الكِراءُ؛ فالأَجرُ والأجرَةُ، والمعنى الجامع بينهما: أنَّ أُجرَة العامِل كأنَّها شَيءٌ يُجبر به حالُه فيما لحِقه من كَدٍّ فيما عمله، فالأجرُ والأجرَةُ: ما أُعطِيتَ مِن أجرٍ في عمل[3]، قال الخليل: "الأجرُ جزاء العمل"[4]، فالأجرة إذًا: أَثَرٌ، أو حصيلةٌ لجُهد مادِّيٍّ فيه صَنْعة، وهو ما يُحَصِّله العامل من صاحب العمل لقاء العمل[5]، ومعنى اللَّفظة في الآية الكريمة: الجزاء.

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

لو قام المكلَّفون بما كلِّفُوا، واستجابوا لما أُمِروا به، وفعلوا ما وعِظُوا به، وأدَّوا حقَّ اللّٰه تعالى، فسيزيدُ ثباتهم على الحقِّ، وينالون الخير، وإنَّ لهم من لدنه تعالى فوق ذلك ثوابًا وافرًا لا حدود لسَعته، ولا يقدِرُ عليه غيره، وأجرًا عظيمًا، وهو الجنَّة[6].

(1) الرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 10/131.
(2) الخازن، لباب التَّأويل: 1/397.
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (أجر).
(4) الخليل، العين: (أجر).
(5) جبل، المعجم الاشتقاقيُّ المؤصَّل: (أجر).
(6) الواحديّ، التَّفسير الوسيط: 2/77، والخازن، لباب التَّأويل: 1/397، وأبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 4/1749.

وترشد الآية الكريمة والَّتي بعدها إلى: أنَّ جزاء الامتثال لأوامر الباري فضلٌ لا يُدرك كُنهه، وأجرٌ لا يُقدَّرُ عَدُّه، وأعطيات من الوهَّاب المنَّان.

من عظيم مِننِ الواهبِ سبحانه استتباعُ التَّثبيت بالأجرِ العظيم

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

وجُوهُ وصْلِ المَطْلَع بما قبله:

تحتمل ﴿وَإِذًا﴾ أن تكون جوابًا لسؤالٍ مُقدَّر، كأنَّه قِيل: وماذا يكون لهم أيضًا بعد التَّثبيت؟ فقيل: وإذًا لو ثبتوا لآتَيناهُم؛ لأنَّ (إذًا) جوابٌ وجزاءٌ[1]، وإظهارها لتحقيق أنَّ هذا الجزاء الأخير ترتَّب على الجزاء السَّابق[2].

فائدةُ الاستئناف التَّشوُّقُ لمعرفة ما بعد التَّثبيتِ من أجْر

ويحتمل أن تكون جملة ﴿وَإِذًا لَّآتَيْنَٰهُم مِّن لَّدُنَّآ﴾ معطوفة على جواب (لو)، والتَّقدير: لكان خيرًا وأشدَّ تثبيتًا ولآتيناهم... إلخ، ووجود اللَّام الَّتي تقع في جواب (لو) مُؤْذِنٌ بذلك، وأمَّا واو العطف فلِوصْلِ الجملة المعطوفة بالجُملة المعطوف عليها، وتكون (إذًا) في معنى جوابٍ لكلامٍ سبقَها، ولا تختصُّ بالسُّؤال، فأُدخلَت في جواب (لو) بعطفها على الجواب تأكيدًا لمعنى الجزاء، فقد أجيبت ﴿وَلَوْ﴾ في الآية بجوابين في المعنى؛ لأنَّ المعطوف على الجواب جواب، ولا يحسن اجتماع جوابين إلَّا بوجود حرف عطف[3].

العطف لوصل الجملة المعطوفة بالجملة المعطوف عليها؛ تأكيدًا لمعنى الجزاء

علَّة تعظيمه تعالى بالضَّمير(نا):

ذكر تعالى نفسَه بصيغة العظمة المتمثِّل بـ(نا) في قوله: ﴿لَّآتَيْنَٰهُم﴾، وقوله: ﴿مِّن لَّدُنَّآ﴾، والمعطي الحكيم؛ إذا ذكر نفسه

ذكرُه تعالى نفسه باللَّفظ الدَّالِّ على العظمة دلالة على عِظم العطيَّة

(1) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 1/530.

(2) الآلوسّي، روح المعاني: 5/74 - 75، وقد ردَّ العلامة ابن عاشور توجيه الزَّمخشريّ، ومن تبعه منَ المفسِّرين بقوله: "والحقُّ أنَّ ما صار إليه في الكشَّاف تكلُّف لا داعي إليه إلَّا التزام كون: (إذًا) حرفًا لجواب سائل، والوجه أنَّ الجواب هو ما يتلقَّى به كلام آخر سواء أكان سؤالًا أم شرطًا أم غيرهما"، ينظر: ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 5/115، مستندًا إلى توجيه أبي حيَّان، البحر المحيط: 3/299، والآلوسيّ، روح المعاني: 5/75.

(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 5/115.

باللَّفظ الدَّالِّ على عظمةٍ عند الوعدِ بالعطيَّة دلَّ ذلك على عظمةِ تلك العطيَّة[1]، فعظَمَةُ الهبة من عظمةِ الواهب.

صيغة التَّعظيم فيها توكيدٌ للإيتاء، وحتميَّة تحقُّقه

المعنى: فإذا فعلوا ما يوعظون به؛ آتيناهم بما لنا منَ العظمة إيتاءً مؤكَّدًا لا مرية فيه[2]، فالعظيم سبحانه لا يُخْلِف وعدًا، ويجازي المرء بما يستحقُّ.

علَّة التَّعبير بالإتيان دون غيره:

الإتيان يُقال باعتبار القصد، والإيصال إلى المنتهى

المجيء أعمُّ منَ الإتيان، ويُقال اعتبارًا بالحصول، أمَّا الإتيان؛ فيُقال باعتبار القصد[3]، ويُلاحظ في المجيء نقلُ الشَّيء من جانب البدء، والإتيان يلاحظ فيه إيصاله إلى المنتهى، فإنَّ ابتداء المجيء هو جناب المُرسَل، ومنتهى الإتيان هو المُرسَل إليه[4].

نكتة لَدُنِّيَّةِ الأجر:

عطاءُ الباري خاصٌّ لا يوصف قدْره، ولا يُدرك كُنْهه

يدلُّ التَّخصيص في قوله: ﴿مِّن لَّدُنَّآ﴾على التَّوكيد، والمبالغة في الإعطاء، كما في قوله: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ٦٥﴾ [الكهف: 65]، فلا يَعْرِفُ أحدٌ مبدأه، ولا يبلغ منتهاه[5]. وهذا شرف إضافيٌّ لهذا الجزاء، وهو جزاء يعلو على كلِّ جزاء منَ النَّاس، فيستهان في سبيله كلُّ أذى[6]؛ "لأنَّه تعالى لا يكاد ينسب إلى نفسه منَ النِّعم إلَّا ما كان أجلَّها قدرًا وأعظمها خطرًا"[7]، فهو عطاءُ تفضُّلٍ من عنده[8]، خاصٌّ لا يُدركُ كُنْهه، ولا تكلُّفَ فيه بالتَّطلُّب.

سرُّ تقديم شبه الجملة على المفعول:

تقديمُ ﴿مِّن لَّدُنَّآ﴾ على المفعولِ الصَّريحِ ﴿أَجْرًا﴾ للعناية بالمقدَّم

(1) الرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 10/132.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 5/319.
(3) الرَّاغب، المفردات: (جاء).
(4) البروسوي، روح البيان: 3/211.
(5) الرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 10/132، والآلوسّي، روح المعاني: 5/74.
(6) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 4/1749.
(7) الرَّاغب، تفسير الرَّاغب: 3/1309، والقونويُّ وابن التّمجيد، حاشيتان على البيضاويّ: 7/217.
(8) الزَّمخشريّ، الكشَّاف: 1/530.

والتَّشويق إلى المؤخَّر، فإنَّ تأخير ما حقَّه التَّقديمُ يُبقي النَّفسَ مترقِّبةً له، متلهِّفةً لهيئته، فإذا وردها يتمكَّن عندها فضلُ تمكُّنٍ[1].

تقديم شبه الجملة؛ للعناية بالمقدَّم والتَّشويق إلى المؤخَّر

فائدةُ تنكيرِ لفظ (الأجْر):

في تنكير (الأجر) مِنَ المبالغة ما لا يخفى[2]، فهذا التَّنكير يشير إلى أنَّه غير محدود بحدود، فهي عظمةٌ أقصى ما يصل إليه الخيال[3]؛ لكونه استغراقًا لعموم الأجر، وذلكم وصفُ عطاء التَّفضُّل منه جلَّ في قدرته.

في تنكيرُ الأجْرِ مبالغةٌ في عظمته، وسعة حدِّه، واستغراقٌ لعمومه

بلاغة تعظيم (الأجر):

في قوله: ﴿أَجْرًا عَظِيمًا﴾ وصفَ اللّٰه تعالى هذا الأجرَ بالعظيم، والشَّيء الَّذي وصفه أعظم العظماء بالعظمة لا بدَّ أن يكون في نهاية الجَلالة، فقد قال ﷺ عنِ الجنَّة أنَّ فيها: "ما لا عين رأَت، ولا أذن سمعَت، ولا خطر على قلب بشر"[4]، "ووصفُه بالعِظم باعتبار الكثرة، أو باعتبار الشَّرف"[5]، ولذلك استدعى حشدًا من أدوات تحقيقها؛ ليرغِّب في الطَّاعة كالتَّنبيه بـ(إذا)، والإتيان بصيغة العظمة(نا) و(لدن) مع العظمة، والوصف بالعظيم[6].

وصفُ الأجر بالعظمة تأكيدٌ لعظمة الجزاء، واعتبارٌ بالكثرة، أو بالشَّرف

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الأجر، والثَّواب، والجزاء:

الأجر: ما يعود من ثواب العمل دنيويًّا كان أو أخرويًّا، ولا يُقال الأجر إلَّا في النَّفع دون الضُّرِّ، بخلاف الجزاء؛ فإنَّه يُقال في النَّافع

اختير الأجر لخصوص معناه بالجزاء نفعًا في الدُّنيا والآخرة

(1) أُفيد في توجيه هذا المُعطى البلاغيِّ من أبي السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 7/124 في أحد المَواضِع المشابهة.
(2) النِّيسابوريّ، غرائب القرآن: 2/441.
(3) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 4/1749.
(4) البخاريّ، الحديث رقم: (4779)، مسلم، الحديث رقم: (2824).
(5) أبو حيَّان، البحر المحيط: 3/299.
(6) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 5/319.

والضَّارِّ[1]، وكذلك الإثابة؛ إذ تُستعمل في المحبوب والمكروه[2]، ومن هنا تستبينُ قصديَّة اختيار لفظ "الأجر العظيم" دون غيره ممَّا يقاربه؛ لكون الحديث في الآية الكريمة وما يعقبها خاصًّا بالعطايا الدُّنيويَّة والأخرويَّة، دون العقوبات، فاختير ما كان خالص المعنى لذلك.

(1) الرَّاغب، المفردات: (أجر).

(2) الرَّاغب، المفردات: (ثوب).

﴿وَلَهَدَيْنَٰهُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٦٨﴾﴾ [النّساء: 68]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا ذكر تعالى ما وعدَهم بعد الخير والتَّثبيت من إيتائهم الأجر العظيم؛ جاءت هذه الآيةُ الكريمة استكمالًا لعظيم الأجر، بإظهار مزيد النِّعمة، ومديد المنَّة، وسابغ الفضل بالهداية إلى الطَّريق المستقيم[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَلَهَدَيْنَٰهُمْ﴾: الهاءُ والدَّالُ والحرفُ المعتلُّ: أَصلان، أَحدُهما: التَّقدُّمُ للإِرشاد، ومنه قولُهُم: هَدَيْتُهُ الطَّريقَ هِدايَةً، أَي: تَقَدَّمتُه لأُرشِدَه[2]، فالهدى: نقيضُ الضَّلالة[3]، وهو: الرَّشادُ والدَّلالةُ، يؤنَّث، ويذكَّر، وهَدَيتُه الطَّريق والبيت هِدايَةً، أي: عرَّفته، وهدى واهتدى بمعنًى[4]، "والجمهور الأعظم ممَّا في القرآن مِنَ التَّركيب هو بمعنى: التَّوجيه إلى سبيل الرُّشد خاصَّة، سواء ذُكِر المهدِيُّ إليه أم لم يذكر"[5].

2) ﴿صِرَٰطًا﴾: الصَّادُ والرَّاءُ والطَّاء: هو مِن باب الإِبدال؛ لأنَّ أصله بالسِّين من"سَرَطَ"[6]، فالسِّرَاطُ: لغةٌ في الصِّراط[7]، ومعناه: المنهاج الواضح[8]، والطَّريق المستقيم، والمُستَسهل[9]، والسَّبيل الواضح[10]، فالسَّبيل الواضح يمرُّ سالِكُه فيه مرورًا سهلًا سريعًا بلا عقبات تُرَيِّثُه، وليس في القرآن من هذا التَّركيب إلَّا كلمة (سِراط)، وقد رُسِمَت في المصحف بالصَّاد، وأصلها اللُّغويُّ بالسِّين[11].

(1) الخازن، لباب التَّأويل: 1/397.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (هدي).
(3) الخليل، العين: (هدي).
(4) الجوهريّ، الصِّحاح: (هدى).
(5) جبل، المعجم الاشتقاقيُّ المؤصِّل: (هدى).
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (صرط).
(7) الجوهريّ، الصّحاح: (سرط).
(8) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (سرط).
(9) الرَّاغب، المفردات: (صرط)، (سرط).
(10) ابن سيده، المحكم: (سرط).
(11) جبل، المعجم الاشتقاقيُّ المؤصِّل: (سرط).

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

من مديد العطايا والهبات الهداية إلى الطَّريق المستقيم

يخبرُ اللّه تعالى بالثَّمرة الرابعةِ لمن أجاب داعيَ الحقِّ، وقام بالأوامر على مأْتاها الأكمل، وتجنَّب النَّواهي على وجهها الأمثل؛ إذ يوفِّقه اللّه تعالى إلى طريقه المستقيم الَّذي لا اعوجاج فيه، ليصل بذلك إلى القرب منَ اللّه تعالى، فإنَّ الَّذي يتقرَّب إلى اللّه تعالى بالطَّاعات يصل إلى إدراكِ حقائق العبوديَّة، وهذه الثَّمرةُ عمومٌ بعد خصوص؛ لشرف الهداية إلى الصِّراط المستقيم، من كونها متضمِّنةً للعلم بالحقِّ، ومحبَّته وإيثاره والعملِ به، وتوقُّف السعادة والفلاح على ذلك، فمن هُدِيَ إلى صراط مستقيم؛ فقد وُفِّقَ لكلِّ خير واندفع عنه كلُّ شرٍّ وضَيْرٍ[1].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ الوصل بالعطف:

في الوصلِ إتمامٌ للنِّعمة، واستكمالٌ للفضل

وجهُ عطف الهداية على ما قبله إتمامٌ لعظيم الأجر، وكمال الفضل الإلهيِّ في الهبات والعطايا؛ إذ أعقب تمام الأجر بأشرف طريق، هو الطّريق المستقيم.

سِرُّ تنكير الصِّراط:

إفادةُ استغراقِ عموم معناه دينًا حقًّا، وطريقًا إلى الجنَّة والأعمال الصَّالحة

في تنكير "الصِّراط" إشارةٌ إلى أنَّه غير محدَّد بحدود، ففُسِّر الصِّراط: بأنَّه الإيمان المؤدِّي إلى الجنَّة[2]، وهو الدِّين الحقُّ، أو هو الطَّريق من عَرَصَة القيامة إلى الجنَّة[3]، أو هو الطَّريق إلى الجنَّة، أو الأعمال الصَّالحة[4]، أو هو مَوطِن من مَواطِن القيامة، أو هو طريق العمل الصَّالح على الوجه الصَّحيح، أو هو نفسه الصِّراط المذكور

(1) السعديّ، تيسير الكريم الرحمن، ص: 89، وأبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 4/1749.
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/75.
(3) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 10/131 - 132.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/299.

في سورة الفاتحة[1]، أو المعنى: لفتحنا لهم طرق العلم والهداية، ولا شكَّ أنَّ الطَّاعة مفتاح المعارف بعد تعاطي أسبابها[2].

علَّةُ تأخير الهداية على استحصال الأجر:

تعديدُ نِعَمِ الله عليهم دون ترتيب، ولكونها عمومًا بعد خصوص

جاء ترتيبُ هذه الآية على هذا النَّظم، مع أنَّ الهداية تسبقُ إعطاء الأجر؛ لأنَّ المقصد إنَّما هو تعداد ما كان الله ينعم به عليهم دون ترتيب، فالمعنى: ولهديناهم قبلُ حتَّى يكونوا ممَّن يُؤتى الأجر[3]، وكذلك هذا التَّأخير لهذه الثَّمرة؛ لكونها عمومًا بعد خصوص، ولشرف الهداية إلى الصِّراط المستقيم، من كونها متضمِّنةً للعلم بالحقِّ، ومحبَّتِه وإيثاره والعملِ به، وتوقُّف السَّعادة والفلاح على ذلك[4].

يُحمل على الترتيب إذا فسِّرَت الهداية بهداية التَّوفيق والإلهام

إذا فُسِّرتِ الهداية إلى الصِّراط هنا: بأنَّه طريق الجنَّة، أو الأعمال الصَّالحة؛ فإنَّه يظهر التَّرتيب[5]؛ لكونهما من متمِّمات الأجر، ومكمِّلات النِّعمة.

فالصِّراط - الَّذي هو الطَّريق من عرصة القيامة إلى الجنَّة - إنَّما يحتاج إليه بعد استحقاق الأجر، فكان حمل لفظ الصِّراط في هذا المَوضِع على هذا المعنى أولى[6]؛ لأنَّ الأجر العظيم هو المؤدِّي إلى الجنَّة[7]، ولأنَّه مذكور بعد استحقاق الأجر[8].

وجه المقابلة بين فِعْلي الإيتاء والهداية:

الإيتاء الإعطاء، والهدايةُ إرشادٌ بلطف

الإيتاء: الإعطاء، والهداية: دلالةٌ بلطف، وهي الإرشاد إلى الخيرات قولًا وفعلًا[9]. وكلُّ موضع ذكره الله بـ﴿لَّآتَيۡنَٰهُم﴾ فهو

(1) رضا، تفسير المنار: 5/197.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 5/115.
(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/75.
(4) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 89.
(5) أبو حيَّان، البحر المحيط: 3/299.
(6) الرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 10/131 - 132.
(7) الخازن، لباب التَّأويل: 1/397.
(8) النِّيسابوريّ، غرائب القرآن: 2/441.
(9) الرَّاغب، تفسير الرَّاغب: 1/60.

أبلغ من كلِّ موضع ذكر فيه ﴿أُوتُواْ﴾ [النساء: 44]؛ لأنَّ ﴿أُوتُواْ﴾ [النساء: 44] قد يقال؛ إذا أُوتي مَن لم يكن منه قَبول، و﴿لَّآتَيۡنَٰهُم﴾ يقال فيمَن كان منه قَبول[1]، ومن مِنَنِهِ ﷻ منحُ الهِباتِ بلطفٍ، وإنزال العطايا بيُسْرٍ، فذلكم أرقُّ للقلوب، وأسكنُ للنُّفوس.

بلاغة الاستعارة في لفظ (الصِّراط):

وجه الاستعارة تصوُّرُ أنَّ الصِّراط طريقٌ يبتلعُه سالكُه، أو يبتلعُ هو سالكَه

أصل لفظ الصِّراط من: سرطتُ الطَّعام، وزردْتُه؛ إذا ابتلعتُه؛ لِأَنَّهُ إِذَا سُرِطَ غَابَ، وَالسِّرَاطُ مُشْتَقٌّ مِنْ ذَلِكَ؛ لِأَنَّ الذَّاهِبَ فِيهِ يَغِيبُ غَيْبَةَ الطَّعَامِ الْمُسْتَرَطِ[2]، وسُمِّي الطَّريق بذلك تصوُّرًا أنَّه: إمَّا أن يبتلعَه سالكُه، وإمَّا يبتلعُ هو سالكَه، فقد قِيلَ: فلان أكلتْهُ المفازةُ؛ إذا أضمرَته، أو أهلَكَته[3]، فشبَّهَ المنهج القويم بالطَّريق، وحذف المُشبَّه على سبيل الاستعارة التَّصريحيَّة التَّبعيَّة.

وجه الاستعارة تضمَّن معنى الحقِّ الموصل إلى رضا الله تعالى

ولفظُ "الصِّراط" مُستعارٌ لمعنى: الحقِّ الَّذي يبلغ به مدركه إلى الفوز برضاء الله؛ لأنَّ ذلك الفوز هو الَّذي جاء الإسلام بطلبه[4]، فرضوانُ الله أسمى المطالب وأعلاها.

براعة وصف الصِّراط بالمستقيم:

الطَّريق المستقيم هو أقصر الطُّرق للوصول إلى الغاية

لفظُ (المستقيم): اسم فاعل من استقام، مطاوعُ قوَّمْتُه فاستقام، والمستقيم: الَّذي لا عِوَج فيه ولا تعاريج، وأحسن الطُّرق الَّتي تكون مستقيمةً هي الجادَّة؛ لأنَّ الطَّريق المستقيم باستقامته ووضوحه يكون أقرب إلى المكان المقصود من غيره، فلا يضلُّ فيه سالكُه، ولا يزيغُ، ولا يتردَّد، ولا يتحيَّر، ولا يتخبَّط[5].

لفظ (المستقيم) هنا مستعارٌ للحقِّ البيِّن الَّذي لا يخالطُه

(1) الرَّاغب، المفردات: (أتى).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سرط).
(3) الرَّاغب، تفسير الرَّاغب: 1/63.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/190.
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/191.

شُبْهة باطلٍ، أو تشويش زيغٍ، فهو كالطَّريق الواضح الَّذي لا تتخلَّله بنايات[1].

فـــي لـفـظ الاستقامة وجه استعارة للحقِّ الـبـيِّن الَّـذي لا يخالطُه شُبهة باطل

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الصِّراط، والطَّريق، والسَّبيل:

الفرق بين هذه الألفاظ: أنَّ "الصِّراط هو الطَّريقُ السَّهل، قال الشَّاعر[2]:

حشونا أَرضهم بِالخَيلِ حتَّى *** تركناهم أذلَّ مِنَ الصِّراط

الـصِّـراط هو الطَّريق السَّهل، والـطَّـريـق لا يَقتضي السُّهولة

وهو مِنَ الذُّلِّ خلاف الصُّعوبة، وليس منَ الذُّلِّ خلاف العزِّ، والطَّريق لا يقتضي السُّهولة، والسَّبيل: اسم يقع على ما يقع عليه الطَّريق، وعلى ما لا يقع عليه الطَّريق، تقول: سبيل اللّٰه وطريق اللّٰه، وتقول: سبيلك أَن تفعل كذا، ولا تقول طريقك أَن تفعل كذا، ويُرَاد به سبيل ما يَقصِدهُ، فيضاف إِلى القاصد، ويُراد به القَصد، وهو كالمحبَّة في بابه، والطَّريق كالإرادة"[3].

واستقامة الصِّراط قرينة اليسر؛ إذ باستقامته يكون أقرب إلى المكان المقصود من غيره، فلا يضلُّ فيه سالكُه، ولا يتردَّد ولا يتحيَّر، وكذلك هي الهداية وضوحًا، ويسرًا، وبيانًا، ومن هنا اختير - في السِّياق القرآنيِّ - لفظ "الصِّراط"؛ ليناسب مَطلَع الآية الكريمة وختامها.

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/191.

(2) نسب ابن جرير في جامع البيان: 1/128، هذا البيت إلى أبي ذؤيب، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 1/147 إلى عامر بن الطفيل، والسيوطي، الإتقان: 1/155 إلى عبيد بن الأبرص، ولم نقف عليه في دواوينهم، ويروى مطلع الصَّدر بالآتي: (وطِئنا، شحنَّا، حشونا).

(3) العسكريّ، الفروق اللّغويَّة، ص: 298.

﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَـٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّـٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَـٰٓئِكَ رَفِيقٗا ٦٩﴾ [النّساء: 69]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

بعد أن ذكر الله ﷻ في الآيات السَّابقة فضْلَ الطَّاعة وجزاءها؛ وهَبَ لهم في هذه الآية الكريمة جزاءً آخرَ، هو كرمُ الصُّحبة في الدُّنيا والآخرة، فهم إذ يسيرون في الصِّراط المستقيم الموصل إلى الله؛ يكونون في قافلة الأطهار، وما أحسنها رفقة طاهرة كريمة طيِّبة![1]، فالآية تَكرارٌ للأمر بطاعة الله وطاعة الرَّسول بعد أن بدأها بـ ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ﴾ ﴿ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ٥٩﴾ [النّساء: 59]، ثمَّ ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ﴾ [النّساء: 64] مزيِّفًا - فيما بينهما - طريقةَ الَّذين تحاكموا إلى الطَّاغوت، وصدُّوا عنِ الرَّسول، ورغَّب بعدها في تلك الطَّاعة بالوعدِ بالتَّثبيت، والأجر العظيم، والهداية إلى الطَّريق المستقيم، وتكرار الأمر تأكيدٌ له، وحثٌّ عليه بمرافقة الَّذين أنعم الله عليهم من النَّبيِّين والصِّدِّيقين والشُّهداء والصَّالحين[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَٱلصِّدِّيقِينَ﴾: الصَّادُ والدَّالُ والقافُ: أَصلٌ يدلُّ على قوَّةٍ في الشَّيء قولًا وغيرَه، مِن ذلك الصِّدق: خلافُ الكذب، سُمِّيَ لِقوَّته في نفسه؛ ولأَنَّ الكذبَ لا قوَّةَ له، فهو باطلٌ، وأَصلُ هذا مِن قَولِهم: شيءٌ صَدْقٌ، أَي: صُلْبٌ، والصِّدِّيق: المُلازِمُ للصِّدق[3]، ومَن يُصَدِّقُ بكلِّ أمرٍ لله والنَّبيِّ ﷺ لا يتخالجُه شكٌّ في شيء[4]، والدَّائم التَّصديق الَّذي يُصَدِّقُ قولَه بالعمل[5]، ويُقالُ لِمَن يكثر منه الصِّدق، ولا يكذب قطُّ، أو لِمَن لا يتأتَّى منه الكذب لتعوُّده

(1) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 4/1750.
(2) الرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 10/132 - 133.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (صدق).
(4) الخليل، العين: (صدق).
(5) الجوهريّ، الصّحاح: (صدق).

الصِّدق، أو لِمَن صدَق بقولِه واعتقادِه، وحقَّقَ صدقه بفعله، فالصِّدِّيقون هم قوم دون الأنبياء في الفضيلة[1]، ومصداقًا لذلك صيغ اللَّفظُ على هيئة المبالغة؛ ليدلَّ على عُمق الإيمان وقوَّته، فهم ذو إيمان صُلب لا تُلِينه الفتن والشَّدائد[2]، وحقيقٌ بأن يكونوا من أتباع الأنبياء، وأَصحاب رسول الله[3] ﷺ.

2) ﴿ٱلشُّهَدَآءِ﴾: الشِّينُ والهاءُ والدَّالُ: أَصلٌ يدلُّ على حضورٍ وعلمٍ وإعلامٍ، لا يَخرُجُ شيءٌ مِن فروعه عن هذا الأصل[4]، والشَّهيد: المقتول مجاهدًا في سبيل اللَّه تعالى. وسُمِّيَ شهيدًا لقيامه بشهادة الحقِّ حتَّى قُتل في سبيل الله، أو لأنَّه يشهدُ كرامةَ الله تعالى له في الآخرة[5]، أو لأَنَّ روحه تشهد الجنَّة عَقِيب القَتل[6]، أو لحضور الملائكة إيَّاه شاهدة له بالجنَّة، أو لأنَّ روحه تشهد عند الله، أو لأنَّه حيٌّ عند ربِّه، كأنَّه شاهدٌ حاضرٌ[7].

3) ﴿وَٱلصَّٰلِحِينَۚ﴾: الصَّادُ واللَّامُ والحاءُ: أَصلٌ واحدٌ يدلُّ على خلاف الفساد[8]، فالصّلاحُ: نقيض الطَّلاح[9]، وأصلح الشَّيء بعد فساد: أَقامه، والصَّالحون جمع: صالح، وهو: الَّذي يؤدِّي إلى الله ﷻ ما افتُرض عليه، ويؤدِّي إلى النَّاس حقوقَهم[10]، وكلُّ من صلح عمله، أو كلُّ مَن صلُحَت سريرته وعلانيته[11]، وبه تُفسَّر اللَّفظة في الآية الكريمة.

4) ﴿رَفِيقًا﴾: الرَّاءُ والفاءُ والقافُ: أَصلٌ واحدٌ يدلُّ على مُوافقةٍ ومُقاربةٍ بلا عُنفٍ، فالرِّفقُ: خلافُ العُنفِ، واللُّطفُ وحُسن الصَّنيع[12]، ولين الجانب ولطافة الفعل، هذا هو الأَصلُ، ثمَّ يُشتقُّ منه كلُّ شيءٍ يدعو إلى راحةٍ وموافقةٍ[13]، وقد ترفَّق عليه، وارتفق:

(1) الرّاغب، المفردات: (صدق).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (صدق).
(3) الماورديّ، النُّكت والعيون: 1/504، والسَّمعانيّ، تفسير القرآن: 1/446.
(4) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (شهد) بفتح الهاء وكسرها.
(5) الماورديّ، النُّكت والعيون: 1/504 - 505.
(6) السَّمعانّي، تفسير القرآن: 1/446.
(7) الرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (شهد).
(8) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (صلح).
(9) الخليل، العين: (صلح).
(10) ابن سيده، المحكم: (صلح).
(11) الماورديّ، النُّكت والعيون: 1/505.
(12) ابن دريد، جمهرة اللّغة: (رفق).
(13) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (رفق).

توكَّأ[1]، واشتقاقه مِنَ الباب للموافقة، ولأنَّهم إذا تماشَوا، تَحاذَوا بمرافقهم[2]، أو لأنَّ كلَّ واحد أصبح متَّكأً للآخر، ورفيقُكَ: الَّذي تجمعه وإيَّاك رُفقةٌ واحدة، في سفر يُرافقكَ، وقد تَرافَقوا وارتفَقوا فهم رفقاء، الواحد رفيق، والصَّاحب قريبٌ يؤنسُ، ويعينُ، ويجعل الحياة طيِّبة، وهذا كلُّه نفعٌ، وتيسير[3]، وقوله تعالى: ﴿وَحَسُنَ أُوْلَـٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾، أي: رُفقاء في الجنَّة[4].

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

من عظيم العطاء مصاحبة خير الرُّفقاء

ومَن يستجب لأوامر اللّه بأداء الفرائض، واجتناب النَّواهي، ويتَّبِعْ هديَ رسوله محمد ﷺ في السُّنن الّتي سنَّها؛ فأولئك الَّذين عَظُم شأنهم وقدرهم بالهداية والتَّوفيق في الدُّنيا، وكانوا في صحبة مَن أنعم اللّه تعالى عليهم بالجنَّة مِنَ النَّبيِّين، والصِّدِّيقين الَّذين كمُل تصديقهم بما جاءت به الرُّسلُ، اعتقادًا وقولًا وعملًا، والشُّهداءِ في سبيل اللّه، والصَّالحين من المؤمنين، وحَسُنَ هؤلاء رفقاء في الجنة[5]، وألمح القرطبيُّ إلى أنَّ هذه الآية الكريمة هي مصداقُ قوله ﷺ: "خير الرُّفقاء أربعة"؛ لهذا لم يذكر اللّه تعالى هنا إلَّا أربعة[6].

ونقلتْ أُمُّنا عائشةُ رضي الله عنها سببَ نزولها بقولها: "جاء رجلٌ إلى رسول اللّه ﷺ، فقال: يا رسول اللّه إنَّك لأحبُّ إليَّ من نفسي وأهلي وولدي، وإنِّي لأكون في البيت، فأذكُرك، فما أصبر حتَّى آتيك، فأنظر إليك،

(1) ابن سيده، المحكم: (رفق).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (رفق).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (رفق).
(4) الخليل، العين: (رفق).
(5) الخازن، لباب التَّأويل: 1/397، ونخبة من العلماء، التفسير الميسَّر، ص: 89.
(6) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 5/272، والحديث أخرجه ابن ماجه، في سننه، الحديث رقم: (2827) واللفظ له، والطبراني، المعجم الأوسط: 7/14، والقُضاعي، مسند الشهاب: 2/224، باختلاف يسير، وصحَّح إسناده الألبانيّ، صحيح الجامع، الحديث رقم: (7850).

وإذا ذكرتُ موتي وموتك؛ عرفتُ أنَّك إذا دخلتَ الجنَّة رُفعْتَ مع النَّبيِّين، وإنِّي إذا دخلتُ الجنَّة خشيتُ ألَّا أراك، فلم يرُدَّ رسول الله ﷺ شيئًا حتَّى نزل جبريل عليه السلام بهذه الآية"[1].

وترشدُ الآيةُ الكريمة إلى: أحقِّيَّة خلافة أبي بكر رضي الله عنه، وذلك أنَّ الله تعالى لمَّا ذكر مراتب أوليائه في كتابه بدأ بالأعلى منهم، وهم النَّبيُّون، ثم ثنَّى بالصِّدِّيقين، ولم يجعل بينهما واسطة، وأجمع المسلمون على تسمية أبي بكر الصِّدِّيق رضي الله عنه صدِّيقًا، كما أجمعوا على تسمية محمَّد ﷺ رسولًا[2].. وتهدي أيضًا إلى: الحثِّ على الطَّاعة والتَّرغيب فيها، فإنَّ خصوصَ السَّبب لا يَقدَحُ في عُموم اللَّفظ، فالآية عامَّة في حقِّ جميع المكلَّفين[3].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

بيان الوصل بالاستئناف في المَطلَع:

قال العماديُّ: "كلامٌ مستأنفٌ فيه فضلُ ترغيبٍ في الطَّاعة، ومزيدُ تشويقٍ إليها ببيان أنَّ نتيجتَها أقصى ما ينتهي إليه همَمُ الأممِ، وأرفعُ ما يمتدُّ إليه أعناقُ عزائمِهم من مجاورة أعظمِ الخلائقِ مقدارًا، وأرفعِهم منارًا، متضمِّنٌ لتفسير ما أُبهم في جواب الشَّرطيَّة السَّابقة، وتفصيل ما أجمل فيه"[4].

في الاستئناف البيانيِّ فضلُ ترغيبٍ في طاعة الله، ومزيدُ تشويقٍ إليها

ويجوز أن تكون هذه الآية تذييلًا لجملة: ﴿وَإِذَا لَّآتَيۡنَٰهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجۡرًا عَظِيمٗا﴾، وإنَّما عُطِفَت باعتبار إلحاقها بجملة: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ﴾ على جملة: ﴿وَلَوۡ أَنَّهُمۡ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ﴾[5].

وتذييل لجملة إيتاء الأجر

(1) أسباب النُّزول، ص: 111، وقال الحافظ ابن حجر، العجاب في بيان الأسباب: 2/914: "رجاله موثقون"، ينظر:لوادعيّ، الصّحيح المسند من أسباب النُّزول، ص: 79 - 80.

(2) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 10/134 - 135، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 5/273.

(3) ابن عادل، اللّباب: 6/476.

(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/198.

(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 5/116.

بلاغة صيغة التَّعبير عنِ الطَّاعة:

التَّعبير بالمضارع أمـارةُ ديمومةِ فعل الطَّاعات وتجدُّدِها

عبَّر عنِ الاستجابةِ لطاعة اللهِ ورسولِه ﷺ بصيغة المضارع: ﴿وَمَن يُطِعِ﴾؛ لتقرير معنى ديمومة الطَّاعات، واستمرارها وتجدُّدها كلَّ حين، وذلكم خُلُقُ الطَّائعِ الحقّ وصفتُه.

صوغ الطَّاعة على هيئة الجزم إلماحٌ بحتميَّة التَّنفيذ، وعدم العصيان

وفي مجيء لفظ الطَّاعة بصيغة الجزم ﴿يُطِعِ﴾ فعلًا للشَّرط إلماحٌ بحتميَّة الخضوع، والتَّنفيذ، وعدم العصيان، وقطعيَّة الإذعان للأوامر والنَّواهي؛ ذلك أنَّ المُرادَ بالطَّاعة الانقيادُ التَّامُّ والامتثال الكامل لجميع الأوامر والنَّواهي[1]، فهي أمارةُ الاتِّصاف بتمام معناها، أي: ألَّا يَعصي اللهَ ورسولَه[2].

علَّة تكرار فعل الطَّاعة:

الطَّاعة أساسُ حُسن المثوبة، وتكرارها تحريضٌ عليها، ودعوةٌ إليها

أورد تعالى ذكر الطَّاعة فيما مضى من آيات تصريحًا: في قوله: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ﴾ [النِّساء: 64] ومعنًى: في قوله: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيۡتَ﴾ [النِّساء: 65]، وكرَّر ذكر الطَّاعة ههنا، فقال: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ﴾؛ "لأنَّ هذه الطَّاعة هي الأساس في هذه الأجزية المجزية، الرَّافعة السَّامية الهادية، وفي تكرارها تحريضٌ عليها، ودعوةٌ إليها"[3].

سرُّ نسبة الطَّاعة مقرونةً باسمه تعالى، واسم رسوله:

إظهار اسمه الكريم مظنَّة عناية بالطَّاعة، وإتْباعُها بذكر الرَّسول تشريفٌ له

إظهارُ اسمه تعالى في مورد ذكر الطَّاعة مظنَّة عناية، واهتمام بها بوصفها موئلًا للقربات، وطريقًا للنَّجاة، وسبيلًا لتحصُّل المكرمات، وإتباعها بذكر الرَّسول معرَّفًا بأل العهديَّة الدَّالَّة على النَّبيِّ محمَّد ﷺ تشريفٌ له، وتكريمٌ، وإعلاءٌ لمكانته بتوحيد طاعة

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/198.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 5/116.
(3) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 4/1750.

اللّه تعالى وطاعته، وتجريدِ اتِّباعه، والاهتداءِ بهديهِ، فطاعتُه من طاعةِ اللّه سبحانه.

جمال التَّعبير باسم الإشارة:

قوله: ﴿فَأُوْلَـٰٓئِكَ﴾ إشارةٌ إلى المطيعين، والجمعُ باعتبار معنى ﴿وَمَن يُطِعِ﴾، كما أنَّ الإفرادَ في فعل الشَّرطِ باعتبار لفظِها، وما فيه من معنى البُعد مع القُرب في الذِّكر؛ للإيذان بعلوِّ درجتِهم، وبُعد منزلتِهم في الشَّرف[1]، فصيغة البُعْد مع ﴿ٱلَّذِينَ﴾؛ للتَّفخيم والتَّعظيم[2].

الإشارة للبعيد فيها التَّفخيم والتَّعظيم بعلوِّ درجتهم ورفعة منزلتهم في الشَّرف

جيء باسم الإشارة في جملة جواب الشَّرط؛ للتَّنبيه على استحقاقهم، وجدارتهم بمضمون الخبر عنِ اسم الإشارة لأجل مضمون الاتِّصافِ بتَمامِ مَعْنى الطَّاعَةِ الَّذي قبل اسم الإشارة[3].

اسم الإشارة فيه التَّنبيه على جدارتهم بمضمون الخبر

توجيه معنى المعيَّة:

كون المطيعين مع الأصناف الكريمة الأربعة، أنَّهم في دار واحدة، ومُتنعَّم واحدٍ، وكلٌّ من فيها قد رُزِق الرِّضا بحاله، وذهب عنه أنْ يعتقد أنَّه مفضولٌ، وإنْ كان أهلُ الجنَّة تختلف مراتبهم على قدر أعمالهم، وعلى قدر فضل اللّه على من شاء[4]، فالمعيَّةُ المذكورة هي معيَّة المنزلة في الجنَّة، وإن كانتِ الدَّرجات متفاوتة، فليس المرادُ بالمَعِيَّةِ التّساوي في الدَّرَجةِ والمنَزلةِ؛ فدلَّت ﴿مَعَ﴾ على أنَّ مكانةَ مدخولِها أرسخُ وأعرفُ، وفي الحديث "أنت مع من أحببت"[5].

الدار واحدة، والمُتنعَّم واحد، وتفاوت الدَّرجات ومدخول المعيَّةِ أرسخُ وأعرف

وتحتملُ المعيَّة هنا كونهم يُرفعون إلى منازل من فوقهم من الأنبياء والصِّدِّيقين والشُّهداء والصَّالحين متى شاؤوا تكرُمةً لهم،

رفعُ المُطيعين إلى منازل الأعلى مرتبة، والعكس

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/198.
(2) القونويُّ وابن التّمجيد، حاشيتان على البيضاويّ: 7/218.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 5/116.
(4) ابن عطيَّة، المحرّر الوجيز: 2/76.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 5/116، والحديث الشريف أخرجه البخاري، الحديث رقم: (6167)، ومسلم، الحديث رقم: (2639).

ثمَّ يعودون إلى منازلهم، أو: أنَّ الأعلى منزلةً ينزلون إلى من دونهم منزلةً ليتذاكروا نعمةَ الله عليهم[1]، فليس المُرادُ كون الكلِّ في درجة واحدة؛ لأنَّ هذا يقتضي التَّسويةَ في الدَّرجة بين الفاضل والمفضول، بل المُراد كونهم في الجنَّة بحيث يتمكَّن كلُّ واحد منهم من رؤية الآخر، وإن بَعُد المكانُ؛ لأنَّ الحجاب إذا زال؛ شاهد بعضهم بعضًا، وإذا أرادوا الزِّيارة والتَّلاقي؛ قَدَروا عليه[2].

بلاغة حذف المُنعَمِ به:

الإشعارُ بقصور العبارة عن تفصيل المُنعَمِ به وبيانه

عند قوله تعالى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم﴾ تَرْكُ ذكرِ المُنعَم به، والاكتفاءُ بذكر المُنعَم عليهم؛ للإشعار بقصور العبارة عن تفصيله، وبيانه[3]، فعطاء الله وثوابُه لايوفِّيه وصفٌ، ولا يُحيطه كمٌّ.

الإنعامُ بحذف المُنعَمِ به دلَّ على عميم نِعمِ الله، وخيراته دنيا وأخرى

أطلقَ تعالى الإنعامَ بحذف المُنعَم به؛ ليشمل كلَّ إنعام؛ لأنَّ مَن أنعم الله عليه بنعمة الإسلام لم تبقَ نعمةٌ إلَّا أصابته، واشتملت عليه، ولا خيرٌ إلا أحاط به[4].

براعةُ إظهار فاعل النِّعمة:

إكرامُ المُنعَم عليه، والإشادةُ به، ورفع قدره

إنّ ذِكرَ فاعل النِّعمة في قوله تعالى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم﴾، وإضافتها إليه تعالى مُصرَّحًا باسمه الكريم؛ فيه إكرامُ المُنعَم عليه، والإشادةُ بذكره، ورفعُ قدره ممَّا ليس في حذفه، فإذا رأيت مَن قد أكرمه مَلِكٌ وشرَّفه، ورفعَ قدره، فقلت: هذا الَّذي أكرمه السُّلطان، وخَلَعَ عليه، وأعطاه ما تمنَّاه، كان أبلغَ في الثَّناء والتَّعظيم من قولك: هذا الَّذي أُكرم، وخُلِع عليه، وشُرِّف، وأُعطِي،

(1) أبو حيَّان، البحر المحيط: 3/299.
(2) الرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 10/133.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/198.
(4) الخفاجي، عناية القاضي: 1/136.

فأضاف سبحانه إلى نفسه أكملَ الأمرين، وأسبقَهما، وأقواهما، وهذه طريقة القرآن في إسناد الخيرات والنِّعم إليه[1].

إضافةُ الإنعام إلى الله تعالى تفضُّلٌ منه، وتمنُّنٌ

وفي إضافة النِّعمة إليه باسمه تعالى دليلٌ على أنَّ الهداية إلى الطَّاعة محضُ نعمة، وتفضُّلٌ منه تعالى[2]، وإن سُعيَ له، وكُدَّ في استحصال أسبابه، وفي ذلك ترغيبٌ يبعث النُّفوس على الاجتهاد، وبذلِ الوِسع دون الاعتماد.

علَّة ذِكر الرَّسول ﷺ دون الأنبياء عليهم السلام:

تحقُّقُ أنَّ طاعتَه ﷺ متضمِّنةٌ لطاعتهم

في قوله: ﴿مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ بيانٌ للمُنعَم عليهم، ويندرج تحته سائرُ الأنبياء عليهم الصَّلاة والسَّلام مع أنَّ الكلامَ في بيان حكم طاعة نبيِّنا ﷺ لتحقُّقِ أنَّ طاعته ﷺ متضمِّنةٌ لطاعتهم؛ لاشتمالِ شريعتِه الَّتي لا تتغيَّرُ بتغيُّر الأعصار على شرائعهم[3].

بلاغة لفظ الصِّدِّيق:

الصِّدِّيق المُبَالِغُ في الصِّدق، ومَن عادَتُه الصِّدق

(الصِّدِّيق) صيغةُ مبالغة على وزنِ (فِعِّيل) مِنَ الصِّدْق، وقِيل: مِنَ الصَّدَقَة[4]. والصِّدِّيق المبالِغُ في الصِّدق[5]، حتَّى أضْحتْ عادتُه الصِّدق، ومن غلب على عادتِه فعلٌ، ووصِفَ بذلك الفعل، قِيل فيه: (فِعِّيلٌ) مبالغةً؛ ولذلك قِيل هذا الوصفُ في كلِّ مَن صدَّق بكلِّ الدِّين، لا يتخالجه فيه شكٌّ[6].

سرُّ توحيد التَّمييز(الرَّفيق):

التَّمييز المُفردُ دلالة على قوَّة الرُّفقة، وشدَّة القُرب

وحَّد (الرَّفيق) وهو صفة لجمعٍ؛ لأنَّ الواحد في التَّمييز ينوب عنِ الجماعة[7]؛ ولأنَّ الرَّفيق والرَّسول تذهب به العرب إلى الواحد وإلى

(1) ابن القيّم، تفسير القرآن الكريم، ص: 16.
(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/38.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/198 - 199.
(4) ابن عطيَّة، المحرّر الوجيز: 2/76.
(5) السَّمعانّي، تفسير القرآن: 1/446.
(6) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 10/133.
(7) الواحديّ، التّفسير الوسيط: 2/78.

الجمع قال تعالى: ﴿إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ١٦﴾ [الشّعراء: 16]، فبيَّن تعالى أنَّ الأنبياء والصِّدِّيقين والشُّهداء والصَّالحين يكونون له كالرُّفقاء من شدَّة محبَّتهم له، وسرورهم برؤيته، والمعنى: حسُن كلُّ واحد منهم رفيقًا[1]؛ لأنَّ الرَّفيق هو الصَّاحب الَّذي يلازمك في عمل أو سفر، وسمِّي رفيقًا؛ لأنَّك ترتفق به وتستعين، ويعاون كلٌّ منكما صاحبه، ويأنس به في العمل، والسَّفرِ، والملازمة بشكل عامٍّ[2].

توحيد التَّمييز دلالة على أنَّ جميع الرُّفقاء بمعنى رفيق واحد

يحتمل المعنى: أنَّ جميع المذكورين في ذلكم المشهد كلٌّ واحدٌ، بمعنى: هم بمنزلةِ رفيقٍ واحد؛ دلالةً على قوَّة الرُّفقة، وشدَّة القُرب، "وإنَّما أفرد؛ لأنَّ الحُسنَ في ذات الرُّفقة، ولأنَّ المصاحبة إفراديَّة، فكلُّ واحد يصاحب الآحاد والجميع، فهم جميعًا في معنى رفيق واحد، لتشاكُلِ النُّفوس وتوافقها"[3].

نكتةُ العدول مِنَ الصَّاحب إلى الرَّفيق:

ملمحُ اللِّين واللَّطافة يناسب اجتماع الممدوحين الأربعة في لفظ الرَّفيق

الرَّفيق: الصَّاحب، وسمِّي الصَّاحب رفيقًا للارتفاقِ به وبصحبته، ويُقالُ للجماعة في السَّفر: رُفْقَةٌ؛ لارتفاق بعضهم ببعض[4]، فالرِّفقُ: اللُّطْفُ واللِّينُ، وهو ضِدُّ العُنْفِ والشِّدّة، ويأْتي بِمعنى: اليُسْرِ والسُّهُولَةِ، وأصْلُه: النَّفْعُ[5]، ومعناه: اللُّطفُ والْمُبَالغَة في الْبرِّ على أحسن وجوهه، وَكَذَلِكَ الرِّفْق في كلِّ أَمر أَخذه بِأَحْسَن وجوهه وأقربها، والمداراةُ مع الآخرين، ولينُ الجانب، وصاحبه يسمَّى رفيقًا، وملمحُ اللِّين واللَّطافة يناسب الممدوحين الأربعة واجتماعهم، ويناسب جوَّ الآيات البادي فيها ملمح اللِّين والسُّهولة واليُسر المتمثِّل بألفاظ الإيتاء، والهداية.

(1) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 10/136.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 4/1753.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 4/1753.
(4) الواحديّ، التّفسير الوسيط: 2/78، والرّازيّ، مفاتيح الغيب: 10/136.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة، عياض، مشارق الأنوار: (رفق).

وجهُ ترتيب منازل الممدوحين:

رُتِّبت منازلُ الممدوحين بحسب شرفهم، ومكانتهم منَ الأعلى إلى الأدنى

الأنبياء الفائزون بكمال العلم والعمل المتجاوزون حدَّ الكمال إلى درجة التَّكميل[1]، لا بُدَّ هم المقدَّمون، ثمّ إنَّ الشَّهيد قد يكون صدِّيقًا، وقد لا يكون، ومعنى الصِّدِّيق الَّذي كان أسبقَ إيمانًا من غيره، وكان إيمانه قدوةً لغيره، فثبتَ أنَّ كلَّ مَن كان صدِّيقًا كان شهيدًا، وليس كلُّ مَن كان شهيدًا كان صدِّيقًا، ثمَّ إنَّ كلَّ مَن كان شهيدًا كان صالحًا، وليس كلُّ مَن كان صالحًا كان شهيدًا، فالشَّهيدُ أشرف أنواع الصَّلاح، فثبت أنَّ أفضل الخلق هم الأنبياء عليهم السلام، وبعدهم الصِّدِّيقون، وبعدهم مَن ليس له درجة إلَّا محض درجة الشَّهادة، وبعدهم مَن ليس له إلَّا محض درجة الصَّلاح[2]، فجاء ترتيبُ المُنعَم عليهم - على هذا القول - على حسب التَّنزُّل منَ الأعلى إلى الأدنى. وفي هذا ترغيبٌ للمؤمنين في طاعة الله وطاعة رسوله ﷺ، حيث وعدوا بمرافقة أقرب عباد الله إلى الله، وأرفعهم درجات عنده، وأعلاهم منزلة[3].

براعة التَّرقِّي في العطايا:

مناطُ التَّرقِّي في العطايا التَّرقِّي في المنازل

وعدَ تعالى في الآيتين المتقدِّمتين أهلَ الطَّاعة بالأجر العظيم، والثَّواب الجزيل، والهداية إلى الصِّراط المستقيم، ثمَّ ذكر في هذه الآية وعدهم بكونهم مع الَّذين أنعم الله عليهم منَ النَّبيِّين والصِّدِّيقين والشُّهداء والصَّالحين، وهذا الَّذي وقع به في الختم لا بدَّ أن يكون أشرف وأعلى ممَّا قبله[4]، ومناطُ التَّرقِّي في العطايا بحسب التَّرقِّي في المنازل وفاق خيرات الأعمال، وتعدُّد الطَّاعات، وصدق النِّيَّات، وفي هذا ترغيب للمؤمنين في الطَّاعة، والاستزادة منها ليترقُّوا في الدَّرجات، وينالوا نصيبًا منَ القربات.

(1) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 2/82.
(2) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 10/135.
(3) أبو حيَّان، البحر المحيط: 3/300.
(4) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 10/133.

بلاغة جملة التَّذييل:

التَّذييل تقريرٌ لمَا قبلَه، مؤكِّدٌ للتَّرغيب والتَّشويق

تُعَدُّ الآيةُ الكرية جملةَ تذييلٍ مقرِّرٍ لمَا قبلَه؛ لتأكيدِ التَّرغيب والتَّشويق[1] في العمل الصَّالح الَّذي يوصل المسلم إلى صحبة هؤلاء الكرام[2].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الرُّفقة، والصُّحبة، والصَّداقة:

الرُّفقة شدَّة الملازمة، وعدم ذهاب المسمَّى مع لين، ولطافة الفعل

الصَّاحب الملازم، ولا يُقال في العُرف إلَّا لمن كثُرت ملازمتُه[3]، والصَّداقة: صدق الاعتقاد في المودَّة[4]، أمَّا الرُّفقة والرَّفيقُ؛ فهو الَّذي تجمعه وإيَّاك رُفقةٌ واحدة، في سفر يُرافقكَ، وَلِأَنَّهُمْ إِذَا تَمَاشَوْا؛ تَحَاذَوْا بِمَرَافِقِهِمْ، فإذا تفرَّقوا؛ ذهب عنهم اسم الرُّفقة، ولا يذهب اسم الرَّفيق، وتُسمَّى الرِّفقة ما داموا منضمِّين في مَجلس واحد ومسير واحد، وقد تَرافَقُوا وارتفَقُوا فهم رُفقاء، الواحد رفيق، وصاحبٌ رفيقٌ: ليِّن الجانب لطيف الفعل مِنَ الرِّفق[5]، فاختيار الرَّفيق أنسب لسياق الآية الكريمة لشدَّة الملازمة، والمُوَافَقَة وَالمُقَارَبَة، وعدم ذهاب المسمَّى، وإن حصل تفرُّقٌ، فضلًا عن صفتي اللِّين، ولطافة الفعل الَّتي تناسب المصطفَيْنَ الأخيار.

---

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/199.

(2) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 3/210.

(3) الرّاغب، المفردات: (صحب).

(4) الرّاغب، المفردات: (صدق).

(5) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة: (رفق).

﴿ذَٰلِكَ ٱلۡفَضۡلُ مِنَ ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمٗا ٧٠﴾ [النّساء: 70]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا ذكَرَ اللّهُ كلَّ ما ترتَّب على طاعة اللّه، وطاعة الرَّسول ﷺ من أجر عظيم، وهداية إلى الصِّراط المستقيم، ورفقة مع الأخيار الأبرار أشار في هذه الآيةِ الكريمة إلى أنَّ ذلك الجزاءَ هو فضلٌ منَ اللّه تعالى العليِّ الكبير[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلۡفَضۡلُ﴾: الفاءُ والضَّادُ واللَّامُ: أَصلٌ صحيحٌ يدلُّ على زيادةٍ في شيءٍ، والفضلُ: هو الزِّيادةُ والخيرُ، والإفضالُ: الإحسانُ[2]، وأفضَلَ فلان على فلانٍ: أنالَه من فضلِه، وأَحسَنَ إليه[3]، والفواضل: الأيادي الجميلة[4]، فالفضل: الزِّيادة عنِ الاقتصاد، وذلك ضربان: محمود: كفضل العلم والحلم، ومذموم: كفضل الغضب على ما يجب أن يكون عليه[5]، وكلُّ نعم اللّه ﷻ فَضلٌ منه[6]، وفضل اللّه في الآية نِعَمُه الَّتي مَنَّ بها على عباده منَ التَّثبيت، والأجر العظيم، والهداية، ومرافقة المقرَّبين المصطَفَينَ الأخيار.

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

في معنى الآية الكريمة وجهان: أحدهما أنَّ جزاء مَن يطيع اللّه ورسوله هو الفضل الكامل الَّذي لا يعلوه فضل، فإنَّ الصُّعود إلى إحدى تلك المراتب في الدُّنيا، وما يتبعه من مرافقة أهلها، وأهل من

تُنال الأُعْطياتُ بفضل منَّان الأرض والسَّموات

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 4/1754.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (فضل).
(3) الخليل، العين: (فضل).
(4) ابن دريد، جمهرة اللّغة: (فضل).
(5) الرّاغب، المفردات: (فضل).
(6) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (فضل).

فوقها في الآخرة، هو منتهى السَّعادة، فيه يتفاضل النَّاس فيَفْضُلُ بعضهم بعضًا، وهو منَ اللّه تفضَّل به على عباده، وثانيهما: أنَّ ذلك الفضل الَّذي ذكره مِن جزاء المطيعين هو منَ اللّه تعالى[1].

وترشدُ الآية الكريمة إلى: بيان أنَّ المرء لن ينال تلك الدَّرجة العظيمة بطاعته، وإنَّما ينالها بفضل اللّه ﷻ، وبِرَحْمَتِهِ، فهُوَ الَّذِي أَهَّلَهُمْ لِذَلِكَ، لَا بِأَعْمَالِهِمْ[2]، وكون الجزاء بفضل اللّه فيه إشارة إلى أنَّ العمل وحده لا يستوجب العطاء، وأنَّ الطَّاعة فيها مصلحة للعباد[3].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغة التَّعبير باسم الإشارة:

التَّعبير باسم الإشارة تقرير ما للمطيعين مِنَ الأجر والفضل

في الابتداء بـ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارةٌ إلى ما للمطيعين مِنَ الأجر، ومزيد الهداية، ومرافقة المُنعَم عليهم، أو إلى فضل هؤلاء المُنعَم عليهم ومزيَّتهم[4].

بديع نسبة الفضل إليه:

نَسبَ تعالى الفضل إلى نفسه؛ تفخيمًا لأمره، وتنبيهًا على تفرُّد علمه

بيَّن اللّه تعالى أنَّ ذلك الفضل الَّذي ذكره بقوله: ﴿أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم﴾ هو منَ اللّه على الإطلاق لا من غيره، فنُسبَ إلى نفسه؛ تفخيمًا لأمره[5]، وتنبيهًا على أنَّه هو أعلم بمقادير الفضل وأعرف وأدرى، وقد حكم بأنَّ الفضل المعتدَّ به هو ذاك[6].

يجوز أن يكون ﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾ خبر الابتداء هو، ويجوز أن يكون مبتدأ، و﴿ٱلْفَضْلُ﴾ خبره، كقولك: ذاك هو الرَّجل، وهذا هو المال، تنبيهًا على كماله؛ فإنَّ الشَّيءَ إذا عَظُم أمره؛ يوصف باسم جنسه،

(1) رضا، تفسير المنار: 5/202.
(2) البغويّ، معالم التّنزيل: 2/248، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 2/357.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 4/1754.
(4) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 2/83.
(5) الرَّاغب، تفسير الرَّاغب: 3/1315، والرّازيّ، مفاتيح الغيب: 10/137.
(6) الرّاغب، تفسير الرَّاغب: 3/1316.

كقوله: ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ لَهِيَ ٱلۡحَيَوَانُۚ﴾ [العنكبوت: 68][1]، والتَّقدير: ذلك هو الفضل منَ اللّه، ومعناه: أنَّ ذلك الثَّواب لكمال درجته كأنَّه هو الفضل منَ اللّه، وأنَّ ما سواه فليس بشيءٍ[2].

فضل المُنْعِم سبحانه تامٌّ كاملٌ، وما سواه ليس بشيءٍ

قصديَّة التَّعبير عنِ الجزاء بلفظ الفضل:

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡفَضۡلُ مِنَ ٱللَّهِۚ﴾ ردٌّ على تقدير مُعترِض على وجوب استواء أهل الطَّاعة والنَّبيِّين في منازل الآخرة، لبيان الفرق بينهم في الدُّنيا، فذكر اللّه تعالى أنَّ ذلك بفضله لا بوجوبٍ عليه[3]، ولا رادَّ لفضله إذا أنعم، وجازى، وأكرم.

إيثار لفظ الفضل للتَّذكير بأنَّ استواء المنزلة بفضله لا بوجوبٍ عليه

كون الجزاء بفضل اللّه فيه إشارة إلى أنَّ العمل وحده لا يستوجب العطاء، إنَّما هو من فضل اللّه تعالى.

التعبير بـ"الفضل" إشارة إلى أنَّ العمل وحده لا يستوجب العطاء، إنَّما هو من فضل الله تعالى

فإن قال قائل: أو ليس بالطَّاعة وصلوا إلى ما وصلوا إليه من فضله؟

قيل له: إنَّهم لم يطيعوه في الدُّنيا إلَّا بفضله الَّذي تفضَّل به عليهم، فهداهم به لطاعته، فكلُّ ذلك فضل منه تعالى ذكره[4]، فقد صحَّ أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: "لا يُنجِي أَحَدَكُم عَمَلُهُ، قَالوا: ولا أَنتَ يا رَسولَ اللّهِ؟ قال: ولا أَنا إلَّا أَن يَتَغَمَّدَني اللّهُ منه برحمةٍ، فَسَدِّدوا، وقارِبوا، واغدوا، وروحوا، وشَيءٌ مِنَ الدُّلجَةِ، - أي: من قيام اللَّيل-، والقَصدَ القَصدَ تَبلُغوا"[5].

سرُّ تعريف جزئَي جملة الفضل:

تعريفُ الجزأين في قوله: ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡفَضۡلُ مِنَ ٱللَّهِۚ﴾ يفيد الحصْر،

التَّعريف حصْرٌ ادِّعائيٌّ أُريد به المبالغة في قوَّة هذا الفضل

(1) الرّاغب، تفسير الرَّاغب: 3/1315.
(2) الرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 10/137.
(3) ابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 2/76.
(4) ابن جرير، جامع البيان: 7/217.
(5) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 4/1754، والحديث الشريف أخرجه البخاري، الحديث رقم: (6463)، ومسلم، الحديث رقم: (2816).

وهو حصْرٌ ادِّعائيٌّ؛ لأنَّ فضل اللّه أنواع، وأصناف، ولكنَّه أُريد المبالغة في قوَّة هذا الفضل، ووصف عظَمته، فهو كقولهم: أنت الرَّجل[1].

علَّة إدخال الباء في لفظ الجلالة:

إدخال الباء للدَّلالة على الأمر في (وكفى)، ولتأدية معنى مطلق التَّسليم

أُدخلَت الباء على اسم اللّه في قوله: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا﴾؛ لتدلَّ على الأمر الَّذي في قوله: ﴿وَكَفَىٰ﴾، وفيه معنى أن يقول: فسلِّموا لفعل اللّه وتفضُّله بدل الاعتراض عليه، واكتفوا بعلمه في ذلك وغيره[2]، فدخول الباء مُشعِرٌ بأنَّ قوله: ﴿وَكَفَىٰ﴾ مُتضمِّنٌ للفعل (اكتفِ)، والتَّقدير: اكتفِ باللّه عليمًا بطاعة المطيعِ منهم ومعصيةِ العاصي، فإنَّه لا يخفى عليه شيء من ذلك.

توجيهُ فاصلة الآية الكريمة:

علم الله تعالى بكيفيَّة الطَّاعة، ومجازاتها، فيه ترغيبٌ بتحقُّقها على وجهها الأكمل

في قوله تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا﴾ موقعٌ عظيم في توكيد ما تقدَّم منَ التَّرغيب في طاعة اللّه؛ لأنَّه تعالى نبَّه بذلك على أنَّه يَعْلَم كيفيَّة الطَّاعة، وكيفيَّة الجزاء، والتَّفضُّل، وذلك ممَّا يُرغِّبُ المكلَّف في كمال الطَّاعة، والاحتراز عنِ التَّقصير فيه[3].

التَّذييل فيه إشارة إلى علم الله تعالى بما لا يعلمه النَّاس من فضل وجزاء

التَّذييل بقوله: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا﴾ للإشارة إلى أنَّ الَّذين تلبَّسوا بهذه المنقبة، وإن لم يعلمهم النَّاس، فإنَّ اللّه يعلمهم، والجزاء بيده، فهو يوفِّيهم الجزاء على قدر ما علم منهم[4]، فهو سبحانه يعلم من يستحقُّ فضله وعطاءه، ومن لا يستحقُّ، وأنَّ الطَّاعة هي طاعةٌ للعليم بكلِّ شيء، فالطَّاعة فيها مصلحة للعباد[5].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 5/116.
(2) ابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 2/76.
(3) الرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 10/137.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 5/116.
(5) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 4/1754.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذۡرَكُمۡ فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعٗا ٧١﴾ [النّساء: 71]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

بعد أن أرشد اللّه تعالى المسلمين إلى ما به أمنهم الدَّاخلي أراد توجيههم إلى ما به أمنهم مع الخارجين عنهم المخالفين لهم في الدِّين، وذلك إمَّا بمعاهدات تطمئنهم على دينهم وأنفسهم ومصالحهم، وإمَّا باتِّقاء شرِّهم بالقوَّة[1]، فاستأنف منتقلًا إلى التَّحريض على الجهاد في إشارة إلى تهيئة غزوة من غزوات المسلمين[2]، والتَفَتَ إلى المُؤْمِنِينَ؛ مُلَذِّذًا لَهم بِحُسْنِ خِطابِهِ، ونادِبًا إلى الجِهادِ مَعَ الإرْشادِ إلى الاسْتِعْدادِ لَهُ[3]، بالقيام بإحياء دينه وإعلاء دعوته، فعلَّمهم مباشرة الحروب[4]، فأعقب التَّرغيب في الطَّاعات بذكر الجهاد؛ لأنَّه أشقُّ الطَّاعات؛ ولأنَّه أعظم الأمور الَّتي بها يحصل تقوية الدِّين[5].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿خُذُواْ﴾: الهمزةُ والخاءُ والذَّالُ: أَصلٌ واحدٌ تَتَفَرَّع منه فروعٌ مُتقاربةٌ في المعنى، والأَصلُ: حَوزُ الشَّيءِ وجَبيُه وجَمعُه[6]، وذلك تارةً بالتَّناول، وتارة بالقهر[7]، والأخذ خلاف العطاء، وهو التَّناول[8]، ومعنى الأمر بالأخذ في الآية الكريمة: احزموا، واستعدُّوا بأنواع الاستعداد[9]، وتيقَّظوا، واحترزوا منَ الأعداء[10].

(1) رضا، تفسير المنار: 5/203.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 5/117.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 5/323.
(4) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 5/273، وأبو حيّان، البحر المحيط: 3/302.
(5) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 10/137.
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (أخذ).
(7) الرَّاغب، المفردات: (أخذ).
(8) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (أخذ).
(9) ابن عطيَّة، المحرّر الوجيز: 2/77.
(10) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 2/83، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/200.

2) ﴿حِذۡرَكُمۡ﴾: الحاءُ والذَّالُ والرَّاءُ: أَصلٌ واحدٌ، وهو مِنَ التَّحَرُّز والتَّيَقُّظ، ورجلٌ حَذِرٌ: مُتَيَقِّظٌ مُتَحَرِّزٌ، والحاذر: المُتَأَهِّب[1]، والحَذَرُ: احتراز من مخيف[2]، وكلُّ مفردات التَّركيب القرآنيَّة هي بمعنى: التَّحرُّز[3]، والحذر في الآية الكريمة: هو الاحتراز عمَّا يُخاف[4]، أو هو: ما يُحذَر به كالحزم والسَّلاح[5]، وفُسِّر بمعنى: أسلحتكم[6].

3) ﴿فَٱنفِرُواْ﴾: النُّون والفاءُ والرَّاءُ أَصلٌ: صحيحٌ يدلُّ على تَجافٍ وتباعُدٍ[7]، والنَّفْرُ: الانزعاج عنِ الشَّيء وإلى الشَّيء، كالفزع إلى الشَّيء وعنِ الشَّيء[8]، والاستنفار: الاستنجاد والاستنصار[9]، والخروج للقتال[10]. ومعنى: انفِروا في الآية الكريمة: اخرجوا مجدِّين مصمِّمين[11].

4) ﴿ثُبَاتٍ﴾: الثُّبات: جمع الثُّبَة، وهي الجماعة المنفردةُ منَ النَّاس[12]، وهي مأخوذة من (ثاب)، أَي: عاد ورجع، والمعنى المحوريُّ له: "تجمُّع المتفرِّق تجمُّعًا جزئيًّا هنا وهنا، أو مرَّة بعد أخرى: كتجمُّع الماء في الحوض مرَّة بعد أخرى، وتجمُّع النَّاس فِرَقًا"[13]، ومعنى قول الله تعالى: ﴿فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ﴾، فانفروا عُصَبًا إذا دُعيتم إلى السَّرايا، أَو دُعيتم لتنفروا جميعًا، أو جماعاتٍ في تَفرِقة: وكلُّ فِرقة: ثُبَة، أو انفروا في السَّرايا فِرَقًا، أي: فِرقة فِرقة وعُصبة عُصبة منَ الفرسان[14].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

يأمرُ اللهُ المؤمنين بالحذر، واتِّقاء أذى الأعداء بالتَّأهُّبِ للِّقاء، والاحتراس ليس

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حذر).
(2) الرَّاغب، المفردات: (حذر).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيُّ المؤصَّل: (حذر).
(4) الآلوسّي، روح المعاني: 5/79.
(5) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 2/83.
(6) الرَّاغب، تفسير الرّاغب: 3/1316.
(7) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (نفر).
(8) الرَّاغب، المفردات: (نفر).
(9) ابن الأثير، النِّهاية: (نفر).
(10) جبل، المعجم الاشتقاقيُّ المؤصَّل: (نفر).
(11) ابن عطيّة، المحرِّر الوجيز: 2/77.
(12) الرَّاغب، المفردات: (ثبا).
(13) جبل، المعجم الاشتقاقيُّ المؤصَّل: (ثبو).
(14) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة: (ثوب - ثيب) وجبل، المعجم الاشتقاقيُّ المؤصَّل: (ثبو).

بالقعود في الدِّيار، بل بالاستعداد لمواجهة الأعداء في الميدان، والنُّفرة للحرب، جماعةً بعد جماعة، تمرُّ بالثُّغور الَّتي تواجه الأعداء، أو تلاقي من تستطيع لقاءه منهم، أو إذا تكاثف العدوُّ في مكان، وأصبحت لا تكفيه جماعة الجند العامل، فلينفر الجندُ كلُّه، وليتقدَّم للميدان جميعًا[1].

الاستعداد للحرب بالحذرِ، وبالنَّفرةِ جماعاتٍ وجمعًا

وترشدُ الآية الكريمة إلى: وجوب المبادرة إلى الخيرات كلِّها كيفما أمكن قبل الفوات، وذلك على مقتضى إطلاق لفظها؛ لكونها نزلَت في الحرب[2].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

بيانُ وجه مناداة المؤمنين:

(يا): حرفٌ وُضِع في أصله لنداء البعيد، وأمَّا نداءُ القريب؛ فبالهمزة، فإذا نُودي به القريب المُفاطن؛ فذلك للتَّأكيد المؤذن بأنَّ الخطاب الَّذي يتلوه معنيٌّ به جدًّا[3]، فينزل لذلك المخاطبُ منزلةَ الغافل تهييجًا وإلهابًا ليتلقَّاه بشَراشِره ومجامعِ قلبه[4].

للتَّأكيد بأنَّ الخطاب الَّذي يتلوه معنيٌّ به جدًّا

نادى اللَّه تعالى عباده بهذا التَّركيب ها هنا وفي غيره من مَواضِع القرآن؛ للدَّلالة على أنَّ ما يتلوه من خطاب خاصٌّ بأوامره ونواهيه، وعظاته وزواجره، ووعده ووعيده، وغيره من أمور عظام، وخطوب جسام، ومعانٍ عليهم أن يتيقَّظوا لها، ويميلوا بقلوبهم وبصائرهم إليها، وهم عنها غافلون، فاقتضَتِ الحال أن ينادَوْا بالآكدِ الأبلغِ، ولذلك كثُر في كتاب اللَّه النِّداء على هذه الطَّريقة ما لم يكثر في غيره[5].

استقلال النِّداء بأوجهٍ مِنَ التَّأكيد، وأسبابٍ مِنَ المبالغة

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 4/1756.
(2) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 2/83.
(3) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 1/89.
(4) الطيبي، فتوح الغيب: 2/282.
(5) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 1/90.

وجـــه نـــداء المؤمنين أمرُهم بالجهاد، وتهيئة لوازمه

ناداهم تعالى في المَطلَع باسم الإيمان على عادته تعالى؛ إذا أراد أن يأمر المؤمنين بشأنٍ ما، أو ينهاهم عنه[1].

سرُّ وصفهم بالمؤمنين:

فـيـه تـنـشـيـطٌ لهم، وحثٌّ على مراعاة ما يعقُبه منَ الأمر

وصفَهم تعالى بالإيمان إثرَ تَعدادِ ما يوجبه ويقتضيه؛ تنشيطًا لهم، وحثًّا على مراعاة ما يعقُبه منَ الأمر[2]، وإرشادًا لهم إلى التَّحوُّط بأمور الجهاد، وقواعد الحرب.

نكتة تقديم الحذر على النُّفرة:

ابـتـدأ بـالـحـذر للحثِّ على اتِّقاء خـدع الأعـداء، وعـدم الاغـترار بالهدنة

ابتدأ بالأمر بأخذِ الحذر، وهو أكبر قواعد القتال لاتِّقاء خدع الأعداء، والحذر: هو توقِّي المكروه، ومعنى ذلك: ألَّا يغترُّوا بما بينكم وبين العدوِّ من هدنة صلح الحديبيَّة؛ فإنَّ العدوَّ وأنصارَه يتربَّصون بهم الدَّوائر، ومن بينهم منافقون مندسُّون بينكم، هم أعداء في صورة أولياء، وهم الَّذين عنوا بقوله: ﴿وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ﴾ إلى قوله: ﴿فَوْزًا عَظِيمًا﴾[3].

قدَّم الحذر؛ لأنَّ النُّفرة غاية له، ومتمِّم

فرَّعَ على أخذ الحذر ما هو الغاية له، والمقصد منه، أو المُتمِّم له، فقال: ﴿فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعًا﴾[4].

بلاغة المجاز والاستعارة في التَّعبير بالأخذ:

الحذر لا يؤخذ على الحقيقة، وإنَّـمـا يـصـحُّ الأخـذ عـلى ما يـتـأتَّى إمساكه بالأيدي

قوله: ﴿خُذُواْ حِذْرَكُمْ﴾ استعارة ومجاز؛ لأنَّ الحذر لا يؤخذ على الحقيقة، وإنَّما يصحُّ الأخذ على ما يتأتَّى إمساكه بالأيدي منَ الأجسام، كالأسلحة المتعاطاة والآلات المستعملة، وما يجري مَجْرى ذلك، والمُراد: تمسَّكوا بالحذر، وأديموا استشعاره، كما تتمسَّكون بالشَّيء الَّذي تشتمل عليه أكفُّكم، وتتعلَّق به أناملكم[5].

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/302.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 1/179.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 5/117 - 118.
(4) رضا، تفسير المنار: 5/206.
(5) الرَّضّي، تلخيص البيان، ص: 52 - 53، والإندونيسي، الشّامل في بلاغة القرآن: 1/244.

لفظ ﴿خُذُواْ﴾ استعارة لمعنى شدَّة الحذر وملازمته؛ لأنَّ حقيقة الأخذ تناول الشَّيء الَّذي كان بعيدًا عنك، ولمَّا كان النِّسيان والغفلة يشبهان البُعد والإلقاء كان التَّذكُّر والتَّيقُّظ يشبهان أخذ الشَّيء بعد إلقائه، كقوله: ﴿خُذِ ٱلۡعَفۡوَ﴾ [الأعراف: 199]، وقولهم: "أخذ عليه عهدًا وميثاقًا"[1].

وجه الاستعارة التَّعبير عن شدَّة الحذر، وملازمتِه

معنى ﴿خُذُواْ حِذۡرَكُمۡ﴾: تيقَّظوا واستعدُّوا للأعداء، إشارة إلى أنَّ الحذر منَ الجزم، وهو ضبط الرَّجل أمره، ففيه استعارة مكنيَّة وتخييليَّة[2]، حيث شُبِّه التَّيقُّظ والتَّنبُّه بشيء محسوس من شأنه أن يؤخذ، فحذفه، وأسند شيئًا من لوازمه، وهو الأخذ إلى المُشبَّه.

الحذر بمعنى الجزم، استعارة مكنيَّة وتخييليَّة

التَّعبير بأخذ الحذر بين الحقيقة والكناية:

يجوز أن يُستفاد معنى التَّيقُّظ والاستعداد من لفظ: ﴿خُذُواْ حِذۡرَكُمۡ﴾ على طريق الكناية من أخذ الحذر بمعنى: السِّلاح، ولو بالتَّشبيه بذكر لازم من لوازم التَّيقُّظ فذكَرَ اللَّازم، وأُريد به الملزوم الَّذي هو التَّيقُّظ والاستعداد، هذا على أن يكون المُرَادُ بالحذر: المعنى المصدريَّ، فتعلُّق الأخذ به حينئذٍ يكون على التَّشبيه، ولذا قِيل في تفسيره: كأنَّهم جعلوا الحذرَ الآلةَ، وأمَّا إذا كان المُراد به ما يحذر له، أي: ما يتَّقي به، يكون الحذر اسمًا لا مصدرًا، فالتَّعلُّق حينئذٍ حقيقة لا مجاز مبنيٌّ على التَّشبيه كالأوَّل، فالمُراد به على الثَّاني الحزم، والسِّلاح على الاستعارة بالكناية؛ لأنَّ بهما يُحذرُ، ويُتَّقي، والقرينة ﴿خُذُواْ﴾[3].

الحذر على الحقيقة الحزمُ، وعلى الكناية السِّلاح وآلة الوقاية

علَّة الاحتراز مِنَ المخوِّف:

احترز من ذكر المخوِّف، كأنَّه جعل الحذر آلته الَّتي يقي بها نفسه، ويعصم بها روحه، والمعنى: احذروا واحترزوا منَ العدوِّ، ولا تمكِّنوه من أنفسكم، فانفروا إذا نفرتم إلى العدوِّ[4].

جعل الحذر آلته الَّتي يقي بها نفسه؛ فاحترز مِنَ المخوِّف

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 5/118.
(2) القونويُّ وابن التّمجيد، حاشيتان على البيضاويّ: 7/223.
(3) القونويُّ وابن التّمجيد، حاشيتان على البيضاويّ: 7/223، والقاسميّ، محاسن التّأويل: 3/221.
(4) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 1/532.

وجه الكناية في ﴿ثُبَاتٍ﴾:

الكناية التَّعبير عنِ السَّرايا

معنى ﴿ثُبَاتٍ﴾: جماعات متفرِّقات، فهي كناية عنِ السَّرايا، وهي العصابة مِنَ النَّاس[1]، فهو أمرٌ منه تعالى بالخروج إلى الجهاد جماعةً جماعة، وسَريَّة بعد سَريَّة، أو كتيبة واحدة مجتمعة أدَّى معناها لفظ ﴿جَمِيعًا﴾[2].

حكمةُ الأمر بالخروج للجهاد جماعات، وجمعًا:

إظهارٌ للجُرْأة في السَّرايا، وإيقاعٌ للمهابة في الجَمْع، ومبالغةٌ في التَّحرُّز عنِ الخطر

في قوله: ﴿ثُبَاتٍ﴾، معنى: جماعات متفرِّقين سريَّة بعد سريَّة، وفرقة بعد فرقة؛ وفي ذلك إظهارٌ للجرأة، وقوله: ﴿أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعًا﴾، أي: مجتمعين كلَّكم كوكبة واحدة؛ إيقاعًا للمهابة بتكثير السَّواد، ومبالغة في التَّحرُّز عنِ الخطر[3].

وجه الطِّباق بين ﴿ثُبَاتٍ﴾ و﴿جَمِيعًا﴾:

الطِّباق بين اللَّفظين قوَّى دلالة التَّخيير

بين لفظي: ﴿ثُبَاتٍ﴾ و﴿جَمِيعًا﴾ طباقُ[4] إيجابٍ في الجَمْع بين الشَّيء وضدِّه تصوير لحالة التَّخيير في النُّفرة بين أن يكونوا عصَبًا متفرِّقين، وبين أن يكونوا جمعًا متَّحدين.

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/77، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 5/274.
(2) أبو حيَّان، البحر المحيط: 3/302.
(3) القاسميّ، محاسن التَّأويل: 3/221.
(4) الإندونيسّي، الشّامل في بلاغة القرآن: 1/244.

﴿وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا ٧٢﴾ [النّساء: 72]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا تقدَّم ذكر المُنافقينَ؛ ذكر في هذه الآية تحذير المؤمنين من قَبول مقالاتهم، وتثبيطهم عنِ الجهاد[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿لَّيُبَطِّئَنَّ﴾: الباءُ والطَّاءُ والهمزةُ: أَصلٌ واحدٌ، وهو البُطءُ في الأَمر[2]، وأَبطَأَ عليه الأَمرُ: تَأَخَّرَ[3]، والبُطءُ: نقيض السُّرعة[4]، وتأخَّر الانبعاث في السَّير[5]، فالمعنى المحوريُّ للبطء هو: ثِقَلُ حركةِ الشَّيء وانتقاله، وكأنَّما أصلُ ذلك ثقلُ جِرْمِه من ضخامة[6]، ومعنى ﴿لَّيُبَطِّئَنَّ﴾، أي: ليتثاقلَنَّ، وليتأخَّرنَّ، وليتخلَّفَنَّ عنِ الجهاد[7].

2) ﴿أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ﴾: الصَّادُ والواوُ والباءُ: أَصلٌ صحيحٌ يدلُّ على نُزول شيءٍ واستِقراره قَرارَه، ومنه الصَّوبُ، وهو نُزولُ المطرِ، والنَّازل صَوبٌ[8]، وفي دائرة هذا الأصل تدور معاني اللَّفظتين، فأصابته مصيبة، أي: أخذته، فهو مُصاب[9]، والإصابة في الخير تكون اعتبارًا بالصَّوب، أي: بالمطر، وفي الشَّرِّ تكون اعتبارًا بإصابة السَّهم، وكلاهما يرجعان إلى أصل النُّزول والاستقرار[10]، والإصابة: النُّزول بالشَّيء واللَّحاق به خيرًا كان

(1) أبو حيَّان، البحر المحيط: 3/302.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (بَطَأَ).
(3) ابن سيده، المحكم: (بطأ).
(4) الجوهريّ، الصّحاح: (بطأ).
(5) الرَّاغب، المفردات: (بَطَأَ).
(6) جبل، المعجم الاشتقاقيُّ المؤصَّل: (بطأ).
(7) النَّسفيّ، مدارك التَّنزيل: 1/372، جبل، المعجم الاشتقاقيُّ المؤصَّل: (بَطأ).
(8) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (صوب).
(9) الجوهريّ، الصِّحاح: (صوب).
(10) الرَّاغب، المفردات: (صوب).

النَّازل أم شرًّا، ثمَّ كثر في الشَّرِّ[1]، والمصيبة أصلها في الرَّمية، ثمّ اختصَّت بالنَّائبة[2]، نحو: ﴿أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ﴾؛ وهي الأمر المكروه ينزل بالإنسان[3]، وهي النَّازلة، وكلمةُ (مصيبة) لم تُستعمل في القرآن إلَّا في التَّعبير عمَّا يعُدُّه الإنسان شرًّا[4].

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

التَّحذير من المرتبطين بالحظوظ والمصالح، ومن تثبيط المُرجفين

يخبِرُ اللّه عن ضعفاء الإيمان المتكاسلين عن الجهاد الَّذين يتثاقلون عن القتالِ في سبيل اللّه ضَعْفًا وخَوَرًا وجُبْنًا، فهم لم تستقرَّ عقائدُهم على وصف واحد، فكانوا مرتبطين بالحظوظ والمصالح، فإذا رأوا مكروهًا نازلًا على المسلمين؛ شكروا، قال الواحد منهم: الحمد للّه الَّذي حَفِظني من متابعتهم، فكان يصيبني ما أصابهم، فقد حفظني اللّه حين لم أكن حاضرًا مع أولئك الَّذين وقع لهم ما أكرهه لنفسي، وسرَّه تخلُّفه عنكم[5].

وترشدُ الآية الكريمة إلى: أنَّ أداة النَّصر تهيئة أسبابه، ومعالجة آفاته الَّتي من أهمِّها إرجاف المُنافقينَ، وتوهينهم العزائمَ والهممَ.

الإِيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

بيان توجيه الخطاب إلى المؤمنين:

الخطابُ لكشف المُنافقينَ المندسِّين بينهم

الخطابُ موجَّهٌ لعسكر رسولِ اللّه ﷺ كلِّهم، المؤمنين منهم والمُنافقينَ[6]، وقد وجَّه القرآنُ الخطابَ إلى المؤمنين لكي يكشف لهم عنِ المُنافقينَ المندسِّين في صفوفهم لكي يحذروهم[7].

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (صوب).
(2) الرّاغب، المفردات: (صوب).
(3) ابن الأثير، النّهاية: (صوب).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (صوب).
(5) القشيريّ، لطائف الإشارات: 1/346، والسعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 89، ونخبة من العلماء، التفسير الميسر، ص: 89.
(6) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/200.
(7) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 3/215.

علَّة توكيد المَطلَع بـ﴿وَإِنَّ﴾:

الحديث في الآية السَّابقة عن تحذير المؤمنين، وأُكِّد مطلع الجملة هنا بـ﴿وَإِنَّ﴾ المشدَّدة؛ لأنَّ فعل الإبطاء مستبعدُ الوقوع ممَّن اتَّصف بالإيمان، فهو غريبٌ عند المُخاطَب[1].

فعل الإبطاء عن القتالِ مستبعدُ الوقوع ممَّن اتَّصف بالإيمان

وجهُ جعل المنافق قسْمًا منَ المؤمنين بقوله ﴿مِنكُمْ﴾:

عبَّرَ بـ: ﴿مِنكُمْ﴾؛ لاجتماع المُنافقينَ مع أهل الإيمان في النَّسب والاختلاط، أي: ممَّن يعيشون معكم، ويساكنونكم، ويرتبطون معكم برباط القَرابة، ويتظاهرون بالإسلام، فلقد كان المنافقون في المدينة تربطهم بالمؤمنين الصَّادقين روابط متعدِّدة، كما هو معروف في التَّاريخ الإسلاميِّ[2]، ويحتمل معنى ﴿مِنكُمْ﴾: من أهل دينكم[3].

أُدرج المنافق مع المؤمنين لاجتماعه معهم في الدِّيْن والمساكنة والقرابة

ويجوز أنَّه تعالى جعلهم منَ المؤمنين بحسب الظَّاهر؛ لأنَّهم كانوا في الظَّاهر متشبِّهين بأهل الإيمان، أو كأنَّه قيل: يا أيُّها الَّذين آمنوا في زعمكم ودعواكم، كقوله حكايةً عن المشركين في شأن النَّبيِّ ﷺ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ﴾ [الحِجر: 6][4].

ولتشبُّههم بأهل الإيمان ظاهرًا

بيان المراد بقوله: ﴿لَّيُبَطِّئَنَّ﴾:

يجوز أن يُراد المُنافقونَ، أو أريد بهم ضُعفاء المؤمنين الَّذين يتثاقلون عنِ الخروج إلى أن يتَّضح أمرُ النَّصر[5].

المبطِّئون هم المنافقون، أو ضعفاء المؤمنين المتثاقلون

وجه تعدية فعل الإبطاء، ولزومه:

وفي مَعْنى ﴿لَّيُبَطِّئَنَّ﴾ قَوْلانِ: أحَدُهُما: لَيُبَطِّئَنَّ هو بِنَفْسِهِ، وهو قَوْلُ ابْنِ عَبَّاسٍ. والثَّاني: لَيُبَطِّئَنَّ غَيْرَهُ، قالَهُ ابْنُ جُرَيْجٍ[6]، ومن

في التَّعدية إبطاءُ الآخر، وفي اللُّزوم إبطاءُ النَّفس

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/38.
(2) البغويّ، معالم التّنزيل: 2/248، والرّازيّ، مفاتيح الغيب: 10/138، وطنطاويّ، التّفسير الوسيط: 3/215.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 5/119.
(4) البغويّ، معالم التّنزيل: 2/248، والرّازيّ، مفاتيح الغيب: 10/138.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 5/119.
(6) ابن الجوزي، زاد المسير: 1/431.

توجيهات المفسِّرين: أنَّ فعل الإبطاء إمَّا متعدٍّ بسبب التَّشديد؛ فيكون المفعول محذوفًا، أي: ليُبَطِّئَنَّ غيرَه، أي: يُثَبِّطُه ويُجبنُه عنِ القتال، وعنِ الغزو، كما ثبَّط المنافق عبدُ الله بن أُبيٍّ ناسًا يوم أُحد، وإمَّا لازم؛ فقد جاء بطَّأ بالتَّشديد بمعنى: أبطَأ، أي: ليتكاسلَنَّ، ليتثاقلَنَّ، وليتخلَّفَنَّ عنِ الجهاد[1].

على وجهي التَّعدية واللُّزوم صحَّ الوَصفُ بالنِّفاق

إن حُمِلَ على أنَّه منَ الإبطاء والتَّثاقل؛ صحَّ في المُنافقينَ؛ لأنَّهم كانوا يتأخَّرون عن الجهاد، ويتثاقلون، ولا يُسرعون إليه، وإن حُمِلَ على تثبيط الآخر؛ صحَّ أيضًا فيهم، فقد كانوا يثبِّطون كثيرًا منَ المؤمنين بما يوردون عليهم من أنواع التَّلبيس، كقوله تعالى: ﴿لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُواْ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ﴾ [التَّوبة 47]، وقوله: ﴿وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِي ٱلْحَرِّ﴾ [التوبة 81]، فكلا الوصفين موجودان في المُنافقينَ[2].

توجيه معنى اللَّامين في الآية:

اللَّام الأولى لتوكيد الخبر، والثَّانية للقسم

اللَّام المفتوحة في ﴿لَمَن﴾ للابتداء، وهي اللَّام المزحلقة، دخلت على اسم ﴿وَإِنَّ﴾ المشدَّدة لفصل الظَّرف بينهما، وتدخل توكيدًا للخبر، واللَّام في ﴿لَّيُبَطِّئَنَّ﴾ جواب قسم محذوف تقديره: وإنَّ منكم أيُّها القوم لَمَن والله ليبطِّئنَّ، أو لَمَن أقسم بالله ليبطِّئنَّ[3]، وفي الجمع بين اللَّامين مزيد توكيد للخبر.

علَّة حشد التَّوكيدات في الخبر:

الذي يُتلقَّى بالاستغراب أخرى بحشد التَّوكيدات

أُكِّد الخبرُ بأقوى المؤكِّدات؛ لأنَّ هذا الخبر من شأنه أن يُتلقَّى بالاستغراب[4]. وتوكيدُه مظنَّةُ تحقُّقه؛ لذا ذكر فيها ستَّة أنواع منَ

(1) الرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 10/139، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 2/83، والنِّيسابوريّ، غرائب القرآن: 2/446.

(2) الرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 10/139، ومن المفسِّرين من ردَّ معنى حمل غيرهم على البطء، فإنَّ الخطاب للمؤمنين، وهذا لا يصدر عن مؤمن، ورضا، تفسير المنار: 5/207.

(3) ابن جرير، جامع البيان: 8/539، والزّمخشريّ، الكشّاف: 1/459 - 1/532.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 5/119.

التَّوكيدات: أوَّلها: كلمة ﴿وَإِنَّ﴾ وهي للتَّأكيد، وثانيها: اللَّام الدَّاخلة على الموصول ﴿لَمَن﴾؛ وهي الدَّاخلة توكيدًا للخبر، وثالثها: القسم المُضمر؛ فإنَّ تقدير الكلام (وإنَّ منهم واللّه ليبطِّئنَّ)، ورابعها: اللَّام الثَّانية الدَّاخلة على جواب القسم في الفعل ﴿لَّيُبَطِّئَنَّ﴾، وخامسها: النُّون المؤكِّدة في قوله: ﴿لَّيُبَطِّئَنَّ﴾، وسادسها: الجملة الاسميَّة، فبجماع المؤكِّدات السِّتَّة تحقَّق معنى: أنَّ أمر الإبطاء ثابت في فعل المُنافقينَ المندسِّين بينكم، فاحذروهم، فالخطب جلل[1].

حشدُ التَّوكيدات إشـــارةٌ إلى مزاولة التَّبطئة الـكـامـلـة، والإصرارِ عليها

يشي تركيبُ الجملة كلِّها: ﴿وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ﴾ بما اشتمل عليه من أساليب توكيد بشتَّى المؤكِّدات بأنَّ هؤلاء المجموعة منَ المبطِّئين - وهم معدودون منَ المسلمين - ﴿مِنكُمْ﴾ يزاولون عملية التَّبطئة كاملة، ويصرُّون عليها إصرارًا، ويجتهدون فيها اجتهادًا، بما يوحي بشدَّة إصرارهم على التَّبطئة، وشدَّة أثرها في الصَّفِّ المسلم، وشدَّة ما يلقاه منها، ومن ثَمَّ يسلِّط السِّياق الأضواء الكاشفة عليهم، وعلى دخيلة نفوسهم، ويرسم حقيقتهم المنفِّرة.

بلاغة التَّعريض والإنكار في لفظ الإبطاء:

التَّـعـريـض والإنـكـار؛ لكون داعـي التَّثاقلِ النِّفاقَ أو الجبنَ

معنى(بطَّأ) بالتَّضعيف: تثاقل في نفسه عن أمر، وهو الإبطاء عنِ الخروج إبطاء بداعي النِّفاق أو الجُبْن، والإخبارُ بذلك يستتبع الإنكار عليه، والتَّعريض به، مع كون الخبر باقيًا على حقيقته؛ لأنَّ مستتبعاتِ التَّراكيب لا تُوصفُ بالمجاز[2].

فائدة تشديد الإبطاء:

المـبـالـغـة في الفعل، وتَكراره

صيغ فعل الإبطاء مشدَّدًا؛ للدَّلالة على مبالغتهم في هذا الفعل، وتكرارهم إيَّاه مرَّةً بعد مرَّة بسبب نفاقهم، وسوء نيَّاتهم[3].

(1) هذا المُعطى البلاغيُّ مُستنبطٌ من معنى قول الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 18/405 - 406.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 5/119.
(3) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 10/138، رضا، تفسير المنار: 5/207.

وجه المناسبة بين فعل الإبطاء، والإصابة بالمصيبة:

اضطرابُ المنافق وسوء نيّته

قوله: ﴿فَإِنْ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ﴾ تفريعٌ عن ﴿لَّيُبَطِّئَنَّ﴾؛ إذ إنَّ هذا الإبطاء يجرُّ للمنافق تارةً الابتهاج بالسَّلامة، ويجرُّ له تارةً الحسْرة والنَّدامة[1].

التَّعبير عن جماعة المبطِّئين بالإفراد:

التَّعبير بالمفرد فيه معنى الانفراد في الإحساس الَّذي اختصُّوا به

نُقل عن ابن جنِّي: أنَّ المعنيَّ في قوله: ﴿وَإِنَّ مِنكُمۡ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ﴾ ليس رجلًا واحدًا، ولكن معناه أنَّ هناك جماعةً هذا وصفُ كلِّ واحدٍ منهم، فلمَّا كان جمعًا في المعنى؛ أُعيد الضَّمير إلى معناه دون لفظه[2]، وفي هذا التَّعبير عن هذه الجماعة المنافِقَة أو ضعيفة الإيمان بالمفرد اتِّباعٌ للفظ (مَنْ) الَّذي يجوز عود الضَّمير عليه مفردًا، وإشارةٌ إلى معنى الانفراد في الإحساس الَّذي اختصُّوا به، ولم يشاركوا أحدًا في إحساسهم بالألم أو السُّرور[3].

دلالة الفاء في (إنْ) الشَّرطيَّة:

دلالة الفاء ترتيبُ مضمون الكلام على ما قبله

الفاء الدَّاخلة على (إنْ) الشَّرطيَّة لترتيب مضمونها على ما قبلها؛ فإنَّ ذِكرَ التَّبطئة مستتبِعٌ لذكرِ ما يترتَّب عليها، كما أنَّ نفسَ التَّبطئة مستدعيةٌ لشيء ينتظرُ المُبطئُ وقوعَه[4]، وهي مُشعرة بتقدير محذوف قبلها: وإنَّ منكم مَن ليبطِّئنَّ، فيتقاعس عنِ الخروج، فتحدث المصيبة.

بلاغة التَّذييل في الفاصلة:

وجه التَّذييل توبيخُ المبطِّئين، وحثُّهم على تطهير نفوسهم

شرح اللّه في جملة التَّذييل حال هذا القسم منَ الضُّعفاء؛ توبيخًا لهم، وإزعاجًا إلى تطهير نفوسهم وتزكيتها، فقال: ﴿فَإِنْ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَالَ قَدۡ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيَّ إِذۡ لَمۡ أَكُن مَّعَهُمۡ شَهِيدٗا﴾، فَشُكْرُهُ للّه على عدم شهوده لتلك الحرب دليل على ضعف إيمانه[5].

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 5/119.

(2) السّيوطيّ، نواهد الأبكار: 3/173، ولم أقف على نصّ كلام ابن جنّي في كتبه المطبوعة التي تيسّرت لي.

(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 4/1759.

(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/200.

(5) رضا، تفسير المنار: 5/207.

وجه دخول ﴿قَدۡ﴾:

معنى أنعم في: ﴿قَالَ قَدۡ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيَّ﴾: الإنعامُ بالسَّلامة؛ فإن كان منَ المُنافقينَ فوصفُ ذلك بالنِّعمة ظاهر؛ لأنَّ القتل عندهم مصيبة محضة؛ إذ لا يرجون منه ثوابًا، وإن كان من ضِعاف المؤمنين؛ فهو قد عدَّ نِعمة البقاء أولى من نِعمة فضل الشَّهادة لشدَّة الجبن، وهذا من تغليب الدَّاعي الجبلِّيِّ على الدَّاعي الشَّرعيِّ[1]، ودخول (قد) تحقيقٌ لمعنى: الإنعام بالسَّلامة للعلَّة السَّابقة.

تحقيق معنى الإنعام بالسَّلامة تغليبٌ للدَّاعي الجبلِّيِّ على الدَّاعي الشَّرعيِّ

دلالات لفظ الشَّهيد:

الشَّهيد على كون المراد المُنافقينَ: إمَّا بمعنى: الحاضر المُشاهد للقتال، وإمَّا تهكُّمٌ من هذ المنافق الحاضر على المؤمنين، مثل قوله: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُواْ عَلَىٰ مَنۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾ [المنافقون: 7]، ويكون المُراد بالشَّهيد: معناه الشَّرعيَّ، وهو القتيل في الجهاد[2].

الشَّهيد هو الحاضر المُشاهد للقتال، أو القتيل في الجهاد

براعة فنِّ الفرائد في لفظ الإبطاء:

لفظة ﴿لَّيُبَطِّئَنَّ﴾ فريدة من نوعها، ولا نظيرَ لها في قوَّة الفصاحة، وسموِّ درجاتِ البلاغة والرَّوعة، وهي مختارة هنا بكلِّ ما فيها من ثقل وتعثُّر، وإنَّ اللِّسان ليتعثَّر في حروفها وجرسها، حتَّى يأتي على آخرها، فلا ينهيها إلَّا ببطءٍ، وهو يشدُّها شدًّا يُشعر بمعنى: التَّبطئة المراد في الآية، لتصوِّر من ثمَّ الحركة النَّفسيَّة المُصاحبة لها تصويرًا كاملًا بهذا التَّعثُّر والتَّثاقل في جرسها، وذلك من بدائع التَّصوير الفنِّيِّ في القرآن الَّذي يرسم حالة كاملةً بلفظة واحدة[3].

لفظ (ليبطّئنّ) رسمٌ لحالة تثاقل وتباطؤ كاملةً بلفظة واحدة

براعة الجناس الاشتقاقيِّ:

في قوله: ﴿فَإِنۡ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ﴾ تجنيس المغاير بحسب تعبير

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 5/119.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 5/119.
(3) الإندونيسي، الشّامل في بلاغة القرآن: 1/244.

جمال التَّعبير، والتَّشوُّق لبيان كنهِه

أبي حيَّان[1]، وهو نفسه الجناس الاشتقاقيُّ؛ إذ بين اللَّفظتين المذكورتين الاشتقاق الواحد، وفيه اقتضابٌ، وهو يكسب التَّعبير جمالًا وحسنًا باتِّحاد الجَرْس، وتناسق الإيقاع، وإحداث ميلٍ للنَّفس نحو التَّشوُّق، والإصغاء لطبيعة المصاب، ونوعه، وكيفيَّة تنصُّل المنافقين منه.

(1) أبو حيَّان، البحر المحيط: 3/305.

﴿وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ ٱللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُنۢ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُۥ مَوَدَّةٌ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧٣﴾﴾ [النّساء: 73]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا حكى اللّهُ في الآية السَّابقة ما يكشف عن دواخل النُّفوس من الحظوظ والمصالح الشَّخصيَّة لدى أهلِ النِّفاقِ، بفخرهم إذا رأوا مكروهًا نازلًا على المسلمين؛ ذكر في هذه الآيةِ وجهًا آخر للنِّفاق مرتبطًا بما قبله، فيه استكمالٌ لصورة الإرجاف، وحبِّ الدُّنيا، وتقديم مصلحة النَّفس وطمعها على الهدف الأسمى، فإن كان الفرح ديدنهم، إذ لم تصبهم النَّوازل، فإنَّ الحسدَ والحسرةَ حالهم جرَّاء فوت الفضل.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مَوَدَّةٌ﴾: "الواوُ والدَّالُ: كلمةٌ تدلُّ على محبَّةٍ، وَدِدتُهُ: أَحبَبْتُهُ، ووَدِدتُ أَنَّ ذاك كان؛ إذا تَمَنَّيته"[1]، فالودُّ: محبَّةُ الشَّيء، وتمنِّي كونه[2]، والوَدودُ – من أسماء اللّه تعالى – وهو المحبُّ لعباده يصلهم، ويُمِدُّهم برحمته، والَّذي خَلَق الوُدَّ، فأسكنه قلوب خَلْقِه[3]، وفُسِّرت المودَّة في الآية الكريمة بالمعرفة[4]، والصِّلة في الدِّين، والمعرفة بالصُّحبة[5]، والصُّحبة، والمحبَّة[6].

2) ﴿فَأَفُوزَ﴾: الفاءُ والواوُ والزَّايُ: أصلٌ يدلُّ على كلمتين مُتضادَّتين: فالأُولى النَّجاةُ، والأُخرى الهَلكة، وفاز بالأَمر؛ إذا ذهب به، وخَلُص، ويُقالُ لِمَن ظَفِرَ بخيرٍ، وذهب به[7]، فالفَوزُ: الظَّفَرُ بالخير، والنَّجاة منَ الشَّرِّ[8]، وهو: الظَّفر بالخير مع حصول السَّلامة[9]،

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ود).
(2) الرَّاغب، المفردات: (ودد).
(3) ابن منده، كتاب التوحيد: 422، جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (ودد).
(4) البغويّ، معالم التّنزيل: 2/249.
(5) القاسميّ، محاسن التّأويل: 3/222.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 5/120.
(7) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (فوز).
(8) الخليل، العين: (فوز).
(9) الرَّاغب، المفردات: (فوز).

وسائر ما في القرآن منَ هذا التَّركيب: هو الفوز بمعنى: النَّجاة، وما يلزمها منَ التَّنعُّم بنِعَم الجنَّة[1].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

تتمَّة التَّحذير من عقائد المُنافقينَ

الخطاب موجَّهٌ إلى المؤمنين بأنَّكم إن نِلْتم نصرًا وغُنْمًا بفضل اللّه تعالى؛ فلا يفكِّر المنافقون في سروركم، ولا يحمدون اللّه على نصركم، ولكن يفكِّرون في أمانيهم، وما ينالهم من خير يرجونه، أو آلام يتجنَّبونها، فيتمنَّوْن أن لو كانوا معكم؛ ليفوزوا الفوز العظيم الَّذي نلتموه من غير أن يأبهوا بآلامكم ومسرَّاتكم، ليقولنَّ الواحدُ منهم - حاسدًا متحسِّرًا، كأن لم تكن بينكم وبينه مودَّة في الظَّاهر، ولو كانت ضئيلة -: يا ليتني كنت معهم، فأظفر بما ظَفِروا به من النَّجاة والنُّصرة والغنيمة، وهذا شأن الَّذي يحبُّ نفسه فقط، ولا يفكِّر في الجماعة الَّتي يعيش فيها[2].

وترشدُ هذه الآية الكريمة والَّتي قبلها إلى: أنَّ عامَّة النَّاس لا يعدُّون منَ الدُّنيا إلَّا أعراضها، فيفرحون بما ينالهم منها، ولا منَ المحن إلَّا مصائبها، فيتألَّمون بما يصيبهم منها[3].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

فائدة التَّعبير بجملة الشَّرط في المَطلَع:

نسبةُ إصابة الفضل إلى اللّه تعالى منَ العادات الشَّريفة التَّنزيليَّة

الشَّرطُ في المَطلَع إظهارٌ لأَثرِ نفاقِهم، فقد افتتح الآية بجملة الشَّرط؛ لِكون مضمونِها لمقصدِهم أوفقَ، وأَثر نفاقِهم فيها أظهر[4].

وجهُ نسبة إصابة الفضل إلى الله تعالى:

نسبة إصابة الفضل إلى جناب اللّه تعالى دون إصابة المصيبة

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (فوز).
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 4/1759، ونخبة من العلماء، التفسير الميسر، ص: 89.
(3) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 3/1321.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/200.

مِنَ العادات الشَّريفة التَّنزيليَّة، كما في قوله سبحانه: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ۝٨٠﴾ [الشّعراء: 80][1]، فهو الملك الأعلى الَّذي كلُّ شيء بيده[2].

وجه التَّعبير بإصابة الفضل على طريق المجاز:

التَّعبير بإصابة الخير في قوله: ﴿أَصَٰبَكُمْ فَضْلٌ﴾ مع أنَّهم نالوه؛ للإشارة إلى أنَّ ذلك إرادة اللّه تعالى، فإن أصابكم ما يؤلمكم فبإرادته، وإن نلتم من خير فبإرادته، وبتفضُّله[3].

التَّعبير بإصابة الخير مع أنَّهم نالوه؛ للإشارة إلى أنَّ ذلك إرادة الله تعالى

أُسند الفعل مجازًا إلى ما لا يصحُّ وقوعه منه حقيقة في ﴿أَصَٰبَكُمْ فَضْلٌ﴾[4]، واستُعمل في الخير اعتبارًا بالصَّواب، أي: بالمطر، كما استُعمل في الشَّرِّ اعتبارًا بإصابة السَّهم، وكلاهما يرجعان إلى أصل العموم[5].

التَّعبير بإصابة الفضل؛ للدَّلالة على شدَّته

علَّة تنكير الفضل:

أُريد بتنكير الفضل في قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَصَٰبَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ نوعٌ مِنَ الفضل[6]واحدٌ، فكيف إن كثُرَ؟ فالتَّنكير فيه مفيد التَّهويل والتَّعظيم.

تنكير الفضل؛ لإرادة نوع واحد منه

سرُّ التَّوكيد في ﴿لَيَقُولَنَّ﴾:

أكَّد قوله: ﴿لَيَقُولَنَّ﴾ باللَّام الموطِّئة للقسم، وبنون التَّوكيد؛ تنبيهًا على غريب حالته حتَّى ينزل سامعها منزلة المُنكر لوقوع ذلك منه[7]، وتنبيهًا على فرط تحسُّره[8]، وكأنَّ هذا المبطِّئ متلهِّفٌ على

التَّوكيد للتَّنبيه على حالة المنافق، وفرطِ تحسُّره على ما فاته

(1) أبو السّعود، إرادة العقل السّليم: 2/200.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 5/325.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 4/1759.
(4) أبو حيَّان، البحر المحيط: 3/306.
(5) الآلوسّي، روح المعاني: 27/186.
(6) السَّكَّاكّي، مفتاح العلوم، ص: 241، والزّركشّي، البرهان: 2/363.
(7) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 5/119.
(8) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 2/83.

ما فاته منَ الغنيمة لا طلبًا للمثوبة[1]، فلمَّا كان تحسُّره إنَّما هو على فوتِ الأغراض الدُّنيويَّة أكَّد قوله: ﴿لَيَقُولَنَّ﴾، أي: في غيبتكم[2].

بلاغةُ التَّشبيه بـ﴿كَأَن﴾:

﴿كَأَن﴾ المخففَّة من الثَّقيلة، مضمَّنة معنى: التَّشبيه، ولكنَّها ليست كالثَّقيلة في الحاجة إلى الاسم والخبر، وإنَّما تجيء بعدها الجمل[3]، فهي مخفَّفة منَ الثَّقيلة واسمها محذوف، أي: كأنَّه[4].

هـذا التَّشبيه مَسوق مساق زيادة التَّنديم والتَّحسير

وشَبَّه حالَهم - في حين هذا القول - بحال من لم تسبق بينه وبين المُخاطَبين مودَّة حقيقيَّة أو صوريَّة، فاقتضى التَّشبيه أنَّه كان بينه وبينهم مودَّة من قبل هذا القول، ووجه هذا التَّشبيه أنَّه لمَّا تمنَّى أنْ لو كان معهم، وتحسَّر على فوات فوزه لو حضر معهم، كان حاله في تفريطه رفقتهم يُشبه حالَ من لم يكن له اتِّصال بهم، بحيث لا يشهد ما أزمعوا عليه منَ الخروج للجهاد، فهذا التَّشبيهُ مَسوقٌ مَساق زيادة تنديمه وتحسيره، أي: أنَّه الَّذي أضاع على نفسه سببَ الانتفاعِ بما حصل لرفقته منَ الخير، أي: أنَّه قد كان له منَ الخلطة مع الغانمين ما شأنه أن يكون سببًا في خروجه معهم، وانتفاعِه بثواب النَّصر، وفخره، ونعمة الغنيمة[5]؛ لأنَّه لو كان ذا مودَّة؛ لقال حال المصيبة: يا ليتها لم تُصبْهم! ولو كنتُ معهم؛ لدافعتُ عنهم، وحال الظَّفر: لقد سرَّني عزُّهم، ولكنَّه لم يجعل محطَّ همِّه في كلتا الحالتين غير المطلوب الدُّنيويِّ[6].

بلاغة التَّنكير في لفظ المودَّة:

ذكْرُ المودَّة هنا نكرةً منفيَّةً في سياق التَّشبيه في أوج البلاغة الأعلى، فهي كلمة لا تدرِكُ شأوها أخرى، ولا تنتهي إلى غورها في

(1) النَّسفيّ، مدارك التّنزيل: 1/373.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 5/325.
(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/78.
(4) النَّسفيّ، مدارك التّنزيل: 1/373.
(5) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 5/325، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 5/120.
(6) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 5/325.

التَّأثير؛ ذلك بأنَّ قائلَ ذلك القول الَّذي لا يقولُه من كان بينَه وبين المؤمنين مودّةٌ ليس معدودًا منَ المؤمنين الَّذين هم إخوةٌ، بعضُهم أولياء بعض، فكيف يَصدر عن أحدٍ منهم مثلُ ذلك القول، وذلك التَّمنِّي؟ الَّذي يُشعر بأنَّ صاحبه لا يرى نعمةَ اللّه، وفضلَه على المؤمنين نعمة وفضلًا عليه، وهو لا يعقل أنْ يصدُر عمَّن كان بينه وبينهم مودَّة ما، ولو قليلة في زمن ما، ولو بعيدًا، أي: إنَّ قليلًا منَ المودَّة كان في وقت ما ينبغي أن يمنع عن مثل ذلك التَّمنِّي، وفي هذا منَ التَّقريع والتَّوبيخ بألطف القول وأرقِّ العبارة ما لا يقدر على مثله بلغاء البشر[1]، فتنكيرُ المودَّة لبيان تصغيرها[2].

التَّنكير مُشعرٌ أنَّ قليلًا منَ المودَّة كان ينبغي أن يمنع مثل تمنِّيهم

لفظ المودَّة بين الاستعارة والحقيقة:

آثر لفظ المودَّة؛ لأنَّ المُنافقينَ كانوا يبالغون في إظهار الودِّ والشَّفقة والنَّصيحة للمؤمنين[3]، فالمودَّة: الصُّحبة والمحبَّة، ويجوز أن يكون إطلاقُها على سبيل الاستعارة الصُّوريَّة؛ إن كان المراد به المنافق، وإمَّا أن تكون حقيقة؛ إنْ أريد ضعفاء المؤمنين[4].

وجه الاستعارة إرادة المنافق، ووجه الحقيقة إرادة ضعفاء المؤمنين

بيانُ تقدير التَّقديم في جملة التَّشبيه:

قِيل: إنَّ في قوله: ﴿كَأَن لَّمْ تَكُنۢ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُۥ مَوَدَّةٌ﴾ تقديمًا وتأخيرًا، تقديره: (فإن أَصابَتكم مصيبة، قال: قد أنعم اللّه عليَّ؛ إذ لم أكن معهم شهيدًا، كأَن لم تكن بينكم وبينه مودَّة)، أي: معاقدة ومعاهدة على الجهاد، وقيل: أَراد به: مودَّة الصُّحبة، ثمَّ ابتدأ: ﴿وَلَئِنْ أَصَٰبَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ ٱللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُنۢ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُۥ مَوَدَّةٌ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ بحذف جملة التَّشبيه[5].

وجهُ تقدير التَّقديم مناسبة نفي المودَّة للإصابة بالمصيبة

(1) رضا، تفسير المنار: 5/208.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 4/1759.
(3) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 5/326.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 5/120.
(5) السَّمعانّي، تفسير القرآن: 1/447.

براعة دلالات الاعتراض بجملة التَّشبيه:

جماع الدِّلالات التَّنبيهُ على ضَعف عقيدتهم، وسوء نيَّتهم، وتأكيدٌ لذمِّهم

في قوله: ﴿كَأَن لَّمْ تَكُنۢ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُۥ مَوَدَّةٌ﴾ أقوال: الأوَّل: أن يكون حكاية عنهم، أي: ليقولنَّ لمن يثبِّطكم: كأن لم تكن بينكم وبين محمَّد مودَّة، حيث لم يستعينوا بكم، ثمَّ يقولون: (يا ليتنا كنَّا معهم)، فيكون القول الأوَّل منهم إثارة للشَّرِّ، والقول الثَّاني منهم إظهارًا للحسد، والثَّالث: أنَّ ذلك اعتراض متعلِّق بالجملة الأولى، وتقديره يقولون: قد أنعم اللّه عليَّ إذ لم أكن معهم شهيدًا، كأن لم تكن بينكم وبينهم مودَّة، أي: قولهم ذلك قولُ من ليس بينكم وبينهم مواصلة دينيَّة، أي: نفى هذه المودَّة، وإنَّما يريد أن يكون معكم لمجرَّد المال، أو للحسد؛ وذلك تنبيهٌ على ضعف عقيدتهم، وسوء نيَّتهم[1]، وتأكيدٌ لذمِّهم[2].

وجهُ معنى نفي المودَّة التَّهكُّم بحالهم

كان المنافقون يوادُّون المؤمنين، ويصادقونهم في الظَّاهر، ويبغون لهم الغوائل في الباطن، فنفي تقدُّم المودَّة منهم: الظَّاهر أنَّه تهكُّم؛ لأنَّهم كانوا أعدى عدوٍّ للمؤمنين، وأشدَّهم حسدًا لهم، فكيف يوصفون بالمودَّة إلَّا على وجه العكس تهكُّمًا بحالهم[3].

نفيُ "المودَّة" يُظهِرُ زيادةً في قُبح فِعلهم

قال ابن عطيَّة: "المنافِقُ يعاطِي المؤمنين المودَّةَ، ويعاهِدُ على التزام كلف الإسلام، ثمَّ يتخلَّفُ نِفاقًا وشكًّا وكفرًا باللّه ورسوله، ثُمَّ يتمنَّى عندما ينكشِفُ الغَيبُ الظَّفر للمؤمنين، فعلى هذا يجيء قوله تعالى: ﴿كَأَن لَّمْ تَكُنۢ﴾ التفاتةً بليغةً، واعتراضًا بين القول والمقول بلفظٍ يُظهِرُ زيادةً في قُبح فِعلهم"[4].

بيَّن الفخر الرَّازيُّ: أنَّ الجملة اعتراضٌ في غاية الحُسن؛ لأنَّ مَن أحبَّ إنسانًا؛ فَرِحَ لفرحه، وحزن لحزنه، فإذا قلب القضيَّة؛ فذلك

(1) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 3/1320 — 1321، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 2/83.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 5/325.
(3) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 1/533، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/201.
(4) ابن عطيَّة، المحرّر الوجيز: 2/77 - 78.

إظهارٌ للعداوة الَّتي لا يُقدِمُ عليها الإنسان إلَّا في حقِّ الأجنبيِّ العدوِّ؛ فحكى تعالى سرورَ المنافقِ الشَّديد عند نكبة المسلمين؛ بسبب أنَّه كان متخلِّفًا عنهم، ثمَّ أراد أن يَحكي حُزنَه، ويظهر غمَّه الشَّديد عند غلبة المسلمين؛ بسبب فواته الغنيمة، فَقَبْلَ أنْ يَذكُرَ الكلام بتمامِه ألقى قوله: ﴿كَأَن لَّمْ تَكُن﴾، والمراد التَّعجُّب، كأنَّه يقول: انظروا إلى ما يقوله هذا المنافق، كَأَن لم تَكُن بينكم وبينه مودَّةٌ ولا مخالطةٌ أصلًا[1]. وقرأ ابْن كثير وَحَفْصٌ ورويسٌ عن يعقوبَ ﴿تَكُن﴾ بالتَّاء، وقرأ الباقون بالياء التَّحتيَّة ﴿يَكُن﴾، وسبب الاختلاف بين القراءتين: مراعاة التَّأنيث المجازيِّ في ﴿مَوَدَّةٌ﴾، أو أنَّ الْمَوَدَّة والودَّ بِمَعْنى وَاحِد، كَمَا كَانَت الموعظة بِمَعْنى: الْوَعْظ، كما قَالَ الله ﷻ: ﴿فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ [البقرة: 275]، أو كما قَالَ علماءُ الْبَصْرَة: بسبب الفصل بَين الاسْم وَالْفِعْل بفاصل؛ صَار الْفَاصِل كالعوض من التَّأْنِيث[2].

المراد من جملة الاعتراض التَّعجُّب من قول المنافق

لقد فقدوا الإحساس الاجتماعيَّ الَّذي يحقِّق مودَّةً أيًّا كان مقدارها بين المتعاشرين، أو المتجاورين، أو المتجانسين فقدًا تامًّا، وهذا شأنُ كلِّ من ينفصل عن جماعته بالإحساس، والأنانيَّة الخسيسة[3].

جملة الاعتراض إشارةٌ إلى فقدهم الإحساس الاجتماعيَّ فقدًا تامًّا

يجوز أن يكون معنى الجملة ﴿لَيَقُولَنَّ﴾ المثبطُ منَ المُنافقينَ وضَعَفة المؤمنين: كأن لم تكن بينكم وبين محمَّدٍ مودَّةٌ، حيث لم يستصحِبكم في الغزو حتَّى تفوزوا بما فاز ﴿يَٰلَيْتَنِي كُنتُ مَعَهُمْ﴾، وغرضُه إلقاءُ العداوة بينهم وبين النَّبيِّ ﷺ وتأكيدُها[4].

الغرض من جملة الاعتراض إلقاءُ العداوة بينهم وبينه ﷺ

فائدة جملة الاعتراض:

من فوائد الجملة المُعترِضة أنَّها تؤثِّر في نفس مَن يتذوَّقها التَّأثير

(1) الرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 10/139 - 139.
(2) ابن زنجلة، حجة القراءات: 208، وابن الجزري، النشر: 2/250.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 4/1759 - 1760.
(4) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/201.

دعوة إلى التَّأمُّل والتَّفكُّر ومعاتبة النَّفس أملًا في التَّوبة

الَّذي لا يدنو من مثله النَّبز بالألقاب، والطَّعن بهُجَر القول، التَّأثير الَّذي يحمل صاحبه على التَّأمُّل، والتَّفكُّر في حقيقة حاله، ومعاتبة نفسه، فإن كان فيه بقيَّة منَ الرَّجاء؛ تاب إلى ربِّه، ورجع كلُّه إلى حقيقة دينه[1].

وجه مباشرة حرف النِّداء (يا) لحرف التَّمنِّي (ليت):

التَّنبيه لأمر عظيم، أو تقدير منادًى محذوف

في حرف النِّداء (يا) قولان: أحدُهما: - وهو قولُ الفارسيِّ - أنَّها لمجرَّدِ التَّنبيه، فلا يُقَدَّر منادًى محذوفٌ، ولذلك باشَرَتِ الحرفَ. والثَّاني: أنَّ المنادى محذوفٌ، تقديرُه: يا قوم، أو يا هؤلاء ليتني[2]، ووجهُ التَّنبيه فوتُ أمرٍ عظيمٍ يجرُّ عليهم المنفعة عُبِّر عنه بالفضل.

دلالة اتِّباع الفعل (أفوز) بالمصدر، والوصف بـ﴿عَظِيمًا﴾:

تلهُّف المبطِّئ على ما فاته، ورغبته بجريان المقادير على وَفْق مراده

يتمنَّى هذا المبطِّئُ أنْ لو كان معَ الجيش ليفوز فوزًا عظيمًا، وهو الفوزُ بالغنيمة، والفوز بأجر الجهاد، حيث وقعتِ السَّلامة والفوز برضا الرَّسول، ولذلك أتبع ﴿فَأَفُوزَ﴾ بالمصدر، والوصف بـ﴿عَظِيمًا﴾، ووجهُ غريبِ حالهِ أنَّه أصبحَ متلهِّفًا على ما فاته بنفسه، وأنَّه يودُّ أن تجريَ المقادير على وَفق مراده، فإذا قعد عنِ الخروج لا يصيبُ المسلمين فضل منَ اللّه[3].

الإشارةُ إلى أنَّ شأن الحسود استعظامُ الخير الَّذي ينال المؤمنين

في قوله تعالى: ﴿فَوْزًا عَظِيمًا﴾ إشارةٌ إلى أنَّ استعظام الخير الَّذي ينال المؤمنين: هو شأن الحسود غير المحبِّ[4].

بلاغة الجناس الاشتقاقيِّ:

في قوله: ﴿فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ تجنيس مغاير[5]، أو اشتقاقي، أو مماثل، وهو محسِّنٌ بديعيٌّ يُكسب التَّعبير جمالًا وحُسنًا، باتِّحاد

(1) رضا، تفسير المنار: 5/208.
(2) العكبريّ، التِّبيان: 1/372، والسّمين، الدُّرّ المصون: 4/34.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 5/119 - 120.
(4) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 4/1760.
(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/305.

الجَرْس، وتناسق الإيقاع، وإحداث ميلٍ للنَّفس نحو التَّشوُّق والإصغاء لطبيعة الفوز، ونوعه، وكيفيَّته، وصورة عظمته.

حسن التَّعبير، والتَّشوُّق لبيان طبيعة الفوز

بلاغة تَكرار الفاصلة في الآيتين:

تَكرار لفظ ﴿عَظِيمًا﴾ في فاصلة هذه الآية والآيةِ التَّاليةِ؛ ليقابل بين تمنِّيهم غير المستحقِّ بالفوز العظيم، وبين إيتائه تعالى للمستحِقِّ منَ المؤمنين المجاهدين الصَّادقين الأجر العظيم، وشتَّان بين عِظَم ما يتمنَّون باطلًا أو حسدًا، وعِظَم منح الله من أجر مستحَقٍّ، وأنَّ عظيم ما تمنَّيتموه هو استحقاقٌ منَ الله تعالى للصَّادقين من المجاهدين لا للمُنافقينَ.

بيان أنَّ عظيم ما تمنَّيتموه هو استحقاقٌ للصَّادقين لا المنافقين

﴿۞فَلۡيُقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشۡرُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا بِٱلۡأٓخِرَةِۚ وَمَن يُقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقۡتَلۡ أَوۡ يَغۡلِبۡ فَسَوۡفَ نُؤۡتِيهِ أَجۡرًا عَظِيمٗا ٧٤﴾ [النّساء: 74]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا ذمَّ تعالى المبطِّئين في الجهاد؛ عاد إلى التَّرغيب فيه[1] للمؤمنين الَّذين يؤثرون ما عند اللّه تعالى في دار الجزاء على الكسب والغنيمة، وعلى الفخر بالقوَّة والغلب[2]، ولمَّا بيَّن أنَّ محطَّ حال القاعد عنِ الجهاد الدُّنيا؛ عُلِم أنَّ قصد المجاهد الآخرة، فسبَّب عن ذلك قوله: ﴿۞فَلۡيُقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾[3].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَشۡرُونَ﴾: الشِّينُ والرَّاءُ والحرف المعتلُّ: أصولٌ ثلاثةٌ: أَحدُها يدلُّ على تعارضٍ مِنَ الاثنين في أَمرَينِ أَخذًا وإِعطاءً ومُماثلةً، وهو قولهم: شَرَيتُ الشَّيءَ واشتَرَيتُه؛ إذا أَخَذته مِن صاحِبه بثمنه، ورُبَّما قالوا: شَرَيتُ، إذا بِعتُ[4]؛ لأنَّ الشِّراء والبيع يتلازمان، فالمشتري دافع الثَّمن، وآخذ المُثمَّن، والبائع دافع المُثمَّن، وآخذ الثَّمن[5].

ومنَ المماثلة جاء معنى الشِّراء المشهور؛ وذلك للمماثلة بين المُشترَى وثمنه في القيمة، علمًا بأنَّ هذه المعاملة بدأت مبادلة؛ ولهذا استُعمل اللَّفظ في البيع والشِّراء معًا؛ لأنَّ الأمر يؤول إلى شيء بمثله، وكلُّ ما جاء في القرآن الكريم مِنَ الفعل (شرى يشري)؛ فالمراد به البيع، والفعل (اشترى - يشتري) يراد به الاشتراء بالمعنى المشهور، أي: أخذ السِّلعة، ودفع الثَّمن[6].

(1) الرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 10/140.
(2) رضا، تفسير المنار: 5/209.
(3) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 5/326.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (شرى).
(5) الرَّاغب، المفردات: (شرى).
(6) جبل، المعجم الاشتقاقيُّ المؤصَّل: (شرى).

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

يحثُّ اللّه المتقدِّمين للقتال في سبيل اللّه كي تكونَ كلمة اللّه هي العليا، الَّذين لا ينظرون إلى مغنم يبتغونه، ولا مال يريدونه، وهم المؤمنون الصَّادقون الَّذين يبيعون الحياة الدُّنيا ومتعها وشهواتها رغبةً عنها، بالآخرة رغبة فيها، ومن يقاتلْ في سبيل اللّه؛ لتكون كلمته هي العليا، فيُقتلْ شهيدًا، أو يظهَرْ على عدوِّه، ويظفر به، فسيعطيه اللّه ثوابًا عظيمًا، وهو الجنَّة وما فيها من جنَّات وعيون، ونعيمُها ثابت دائم، ومعها رضوان اللّه[1].

شرف الجهاد في سبيل الله حقيقٌ بمن يشري الدُّنيا بالآخرة

وترشدُ الآيةُ الكريمة إلى: أنَّ الَّذين يعيشون مع جماعة المؤمنين، ولا يحسُّون بإحساسهم، لا يخرجون إلى قتال، وإنَّما يخرج إلى القتال الَّذين يؤثرون على أنفسهم، ويقدِّمونها للّه تعالى رجاء ما عنده، فهؤلاء هم القوَّة، وهم العماد في الحروب والشَّدائد[2].

الإِيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

بيان وصل الآية بما قبلها بالفاء:

الفاء: إمَّا للتَّفريع، تفريع الأمر على الآخر، أي: فرَّع ﴿۞فَلۡيُقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ على ﴿خُذُواْ حِذۡرَكُمۡ فَٱنفِرُواْ﴾

الحثّ على ترك ما حكي عنهم آنفًا

وإمَّا هي فاء فصيحة، أفصحت عمَّا دلَّ عليه ما تقدَّم من قوله: ﴿خُذُواْ حِذۡرَكُمۡ﴾، وقوله: ﴿وَإِنَّ مِنكُمۡ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ﴾؛ لأنَّ جميع ذلك اقتضى الأمر بأخذ الحذر، وهو مهيَّأٌ لطلب القتال، والأمر بالنَّفير، والإعلام بمن حالهم حال المتردِّد المتقاعس، أي: فإذا علمتم جميع ذلك، فالَّذين يقاتلون في سبيل اللّه هُمُ الَّذين يشرون الحياة الدُّنيا بالآخرة لا كل أحد[3].

الفاء هي الفصيحة، أفصحت عمَّا دلَّت عليه الآية السَّابقة

(1) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 4/1760، جماعة من العلماء، المختصر في تفسير القرآن الكريم، ص: 89.
(2) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 4/1760.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتّنوير: 5/121.

الفاء للتَّعقيب؛ لـــــترك مـا كـانـوا عـليـه مـنَ التَّثبيط، ولـيـعـقِّـبـوه بالقتال في سبيل الله

يصحُّ في الفاءِ أن تكون في جوابِ شرطٍ مقدَّرٍ، أي: إنْ بطَّأ هؤلاءِ عنِ القتال؛ فليقاتِلِ المُخلِصون الباذلون أنفسَهم في طلب الآخرة، أو الَّذين يشترونها، ويختارونها على الآخرة، وهم المبطِّئون، فالفاءُ للتَّعقيب، أي: لِيتركوا ما كانوا عليه منَ التَّثبيط والنِّفاق، وليعقِّبوه بالقتال في سبيل اللّٰه[1]، و﴿فَلۡيُقَٰتِلۡ﴾: أمرٌ لِمَن يُبَطِّئ، وهم الَّذين يشرون، فحُثُّوا على ترك ما حكي عنهم في الآية المتقدِّمة، وأن يجاهدوا في سبيل اللّٰه[2].

قدَّم الظَّرف على الفاعل للاهتمام به

فائدة تقديم الظَّرف على الفاعل:

في قوله تعالى: ﴿فَلۡيُقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أمرٌ للمؤمنين، وقدَّم الظَّرف على الفاعل للاهتمام به، والعناية بمضمونه[3].

العناية بالظَّرف للتَّنبيه على أنَّ هذا النَّوع منَ القتال هو المعتدُّ به عند الله

قوله ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ تنبيه على أنَّ هذا النَّوع منَ القتال هو المعتدُّ به عند اللّٰه تعالى؛ لأنَّ المؤمن الصَّادق لا يقاتل من أجل فخر، أو مغنم، أو اغتصاب حقِّ غيره، وإنَّما يقاتل من أجل أن تكون كلمةُ اللّٰه هي العليا، وكلمةُ الَّذين كفروا هي السُّفلى[4].

بيان الاستعارة في لفظ السَّبيل:

استعارة السَّبيل لـديـن الـلـه بجامع الاهتداء إلى المقصود

قوله: ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ استعارةٌ تصريحيَّةٌ: حيث استعار السَّبيل الَّذي هو محلُّ المرور لدين اللّٰه بجامع الاهتداء إلى المقصود[5].

علَّة إسناد القتال إلى الَّذين يشرون الحياة الدُّنيا بالآخرة:

إسناد القتال المأمور به إلى أصحاب هذه الصِّلة وهي: ﴿ٱلَّذِينَ يَشۡرُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا بِٱلۡأٓخِرَةِۚ﴾؛ للتَّنويه بفضل المجاهدين في سبيل اللّٰه، والثَّناء عليهم، وتحقير المبطِّئين؛ لأنَّ في الصِّلة إيماءً إلى علَّة

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/201.
(2) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 3/1322.
(3) الشّوكانّي، فتح القدير: 1/562.
(4) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 3/217.
(5) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 14/356، والإندونيسّي، الشّامل في بلاغة القرآن: 1/245.

الخبر، أي: يبعثهم على القتال في سبيل الله بذلهم حياتهم الدُّنيا لطلب الحياة الأبديَّة، وفضيحة أمر المبطِّئين حتَّى يرتدعوا عنِ التَّخلُّف، وحتَّى يكشف المنافقون عن دخيلتهم[1].

الإسنادُ للتَّنويهِ بفضل المقاتلين في سبيل الله، وتحقيرِ المبطِّئين

نكتة الاكتفاء بذكر غايتي حالتي المجاهد:

وصفَ اللهُ ثوابَ المقاتل في سبيل الله، فذكرَ غايتي حالتيه، واكتفى بالغايتين عمَّا بينهما كالأسر مثلًا، وذلك أنَّ غاية المغلوب في القتال أن يُقتَل، وغايةَ الَّذي يَقتُل، ويَغنم أن يتَّصف بأنَّه غالبٌ على الإطلاق[2]، وإذا كان الأجرُ حاصلًا على كلا التَّقديرين لم يكن عملٌ أشرفَ مِنَ الجهاد في سبيل الله[3].

غاية المغلوب في القتال أن يُقتَل، وغاية الَّذي يَقتُل، ويَغنم أن يتَّصف بأنَّه غالبٌ

اقتصر على القتل والغلبة فحسْبُ، ولم يزد: أوْ يُؤْسَرْ؛ إبايَةً من أن يذكر لهم حالة ثالثةً ذميمة لا يرضاها الله للمؤمنين، وهي حالة الأسر، فسكت عنها؛ لئلَّا يذكرها في مَعرِض التَّرغيب، وإن كان للمسلم عليها أجر عظيم أيضًا إذا بذل جهده في الحرب فغلب؛ إذِ الحرب لا تخلو من ذلك[4].

لم يزد حالةَ الأسر تأبِّيًا مِنْ أنْ يذكرَ حالةً ذميمةً لا يرضاها الله للمؤمنين

علَّة تعقيب القتال بالقتل، أو الغلبة:

لم يقتصر على قوله: ﴿وَمَن يُقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، بل عقَّبه بقوله: ﴿فَيُقۡتَلۡ أَوۡ يَغۡلِبۡ﴾؛ تنبيهًا على أنَّ من تحرَّى القتال سواء قَتَل أم قُتِل، غَلَب أم غُلِب، فقد وقع أجرُه على الله[5].

التَّنبيهُ على أنَّ من تحرَّى القتال؛ فقد وقع أجره على الله

في تعقيب القتال بأحد الأمرين تنبيهٌ على أنَّ المجاهد ينبغي أنْ يثْبتَ في المعركة حتّى يُعِزَّ نفسه بالشَّهادة، أو يُعِزَّ الدِّين بالظَّفر والغلبة، وألَّا يكون قصده بالذَّات إلى القتل، بل إلى إعلاء الحقِّ

التَّنبيهُ على وجوب الثَّبات في المعركة حتَّى ينال الحُسنيين

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 5/121 - 122.
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/78.
(3) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 10/140.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 5/122.
(5) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 3/1323.

وإعزاز الدِّين[1]، والإشعار بأنَّ المجاهدَ حقُّه أن يوطِّن نفسَه بنيل إحدى الحُسنيين، ولا يخطرَ بباله القسمُ الثَّالثُ أصلًا[2]، وحثُّه على الثَّبات، ولو كان العدوُّ أكثر منَ الضِّعف[3].

بيان تقدير الكلام بـ(يَقتُل أو يُقْتَل):

دفـــعُ تـوهُّـم الـسَّـامـع أنَّ التزام الغلبة في المعركة في كلِّ حال سائغ

قُدِّرتِ الجملة في وجهٍ بمعنى: (يَقتل أو يُقتل أو يغلِب)؛ لئلَّا يتوهَّم السَّامع أنَّ التزام الغلبة، والبَراح منَ المعركة في كلِّ حال سائغ[4].

بيان العدول منَ الوعد على القتال إلى القتل أو الغلبة:

الـــوعـــد عـلى القتال وعدٌ على مـا يـفـضي إليه من قتل وغلبة

الوعد مِنَ اللّه تعالى على القتال، وجُعل على القتل أو الغلبة؛ لأنَّ القتال يفضي غالبًا إلى القتل، فصار الوعد على القتال وعدًا على ما يُفضي إليه، والقتال على ما يستحقُّه منَ الوعد؛ إذا أفضى إلى القتل، والغلبة أعظم[5].

بلاغة المجاز والاستعارة في لفظ الشِّراء:

استبدال الحياة الدُّنيا بالآخرة مـجـاز مُـرسَـل علاقته الإطلاق، أو استعارة

والشِّراء – ها هنا – مَجَاز عنِ الاستبدال، بمعنى: أنَّهم لمَّا تركوا الحياة الدُّنيا، وآثروا الآخرة؛ جُوزُوا أجرًا عظيمًا، واستُعمل ﴿يَشْرُونَ﴾ هنا في معنى البذل والاستبدال مجازًا، والمعنى: ومنَ النَّاس من يبذل نفسه للهلاك في سبيل اللّه، أي: هلاكًا في نصر الدِّين، وهذا أعلى درجات الإيمان؛ لأنَّ النَّفس أغلى ما عند الإنسان[6].

أو هو استعارة مكنيَّة، حيث يبيعون الفانية بالباقية، فاستُعير لفظ الشِّراء للمبادلة، وهو من لطيف الاستعارات[7].

(1) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 2/84.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/201.
(3) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 5/327.
(4) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 3/1323.
(5) الماورديّ، النّكت والعيون: 1/506.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/273.
(7) الإندونيسّي، الشّامل في بلاغة القرآن: 1/244.

براعة التَّعبير بلفظ الشِّراء على طريق الأضداد:

﴿يَشۡرُونَ﴾ مضارع شَرَى، ويكون بمعنى: (باع واشترى) منَ الأضداد، فإن كان بمعنى (يشترون)، فالمراد منَ الموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾: المنافقون الَّذين أُمروا بترك النِّفاق، والمجاهدة معَ المؤمنين، والفاء للتَّعقيب، أي: ينبغي بعد ما صدر منهم منَ التَّثبيط والنِّفاق تركُه، وتدارك ما فات منَ الجهاد بعد، وإن كان بمعنى: (يبيعون)؛ فالمراد منه المؤمنون الَّذين تركوا الدُّنيا، واختاروا الآخرة، وأُمروا بالثَّبات على القتال، وعدم الالتفات إلى تثبيط المبطِّئين[1].

على معنى يشترون؛ فالمراد المنافقون، وعلى معنى يبيعون؛ فالمراد المؤمنون

نكتة تقديم القتل على الغلبة:

قدَّم القتلَ على الغلبة للإيذان بتقدُّمه في استتباع الأجر، روى أبو هريرةَ رضي الله عنه أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: "تكفَّل الله تعالى لمَن جاهد في سبيله لا يُخرجُه إلَّا جهادٌ في سبيله، وتصديقُ كلمتِه أن يُدخِلَه الجنَّةَ، أو يُرجِعَه إلى مسكنه الَّذي خرج منه مع ما نال من أجر وغنيمة"[2].

تقديمُ القتل للإيذان بتقدُّمه في استتباع الأجر

قدَّم سبحانه القتل على الغلب؛ للإيذان بأنَّ حرص المجاهد المخلص على الاستشهاد في سبيل الله أشدُّ من حرصه على الغلب والنَّصر[3].

للإيذان بأنَّ حرص المجاهد على الاستشهاد أشدُّ من حرصه على الغلب

أشرف الحالتين ما بُدِئَ به من ذكر الاستشهاد في سبيل الله، ويليها أنْ يقتلَ أعداء الله، ودون ذلك الظَّفر بالغنيمة، ودون ذلك أن يغزو، فلا يصيب، ولا يُصاب، ولفظُ الجهاد في سبيل الله يشمل هذه الأحوال[4].

البدء بأشرف حالات الجهاد

---

(1) الآلوسّي، روح المعاني: 5/81.

(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/201، والحديث أخرجه البخاريّ في صحيح برقم: (3123)، ومسلم، الحديث رقم: (1876).

(3) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 3/218.

(4) أبو حيَّان، البحر المحيط: 3/307.

نكتة التَّعبير بحرف التَّنفيس:

أجرُ يوم القيامة للمقاتل في سبيل الله عظيمٌ

ذهب ابن عرفة إلى أنَّ التَّنفيس إنَّما هو في الأجر العظيم لا في مُطلَق الأجر، أي: سنؤتيه يوم القيامة أجرًا عظيمًا[1].

التَّنفيس لتأكيد نيل الجزاء في المستقبل

و(سوف) هنا لتأكيد نيل الجزاء (الأجر العظيم) في المستقبل، وأكثر استعمالاتها في القرآن لتأكيد الوقوع في القابل، ولذا لا تدخل على النَّفي[2]، وربَّما دلَّ التَّعبير بـ ﴿فَسَوْفَ﴾ على طول عمر المجاهد غالبًا[3].

بلاغة التَّعبير بنون العظمة، والالتفات من ضمير الغائب إلى المتكلِّم:

العظمة مظنَّة عِظَم المجازاة، وحتميَّة تحقُّقه

انتقل من قوله: ﴿وَمَن يُقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقۡتَلۡ أَوۡ يَغۡلِبۡ﴾ إلى قوله: ﴿فَسَوۡفَ نُؤۡتِيهِ﴾ عن طريق الالتفات من ضمير الغائب (هو) إلى ضمير المتكلِّم (نحن) المعظِّم نفسه بنون العظمة[4]، المناسب لِعِظَم عطاياه، ومِنَحه، وهباته جزاءً لمن يشري أعزَّ ما يملك في سبيل الله، والإشارة إلى حتميَّة تحقُّقه بوعد لا خُلْف فيه بما له من العظمة المحيطة بالخير والشَّرِّ[5].

نكتة تنكير الأجر، ووصفه بالعِظَم:

الإشعار بأنَّه أجرٌ عميمٌ لا يُحيط بمقداره تعيينٌ أو تعريفٌ

نكَّر - سبحانه - الأجرَ ووصفَه بالعِظَم؛ للإشعار بأنَّه أجْرٌ لا يحدُّه تعيينٌ، ولا يبيِّنه تعريفٌ، مهما يكن دقيقًا لا يُقادَرُ قَدرُه، ولا يعلم مقداره إلَّا الله تعالى[6]، جزاءَ الاجتهاد في إعزاز دين الله[7] سبحانه وتعالى.

وصف الأجر في قوله: ﴿فَسَوۡفَ نُؤۡتِيهِ أَجۡرًا عَظِيمًا﴾ بالعظيم

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/39.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 4/1761.
(3) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 5/327.
(4) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/201.
(5) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 5/326.
(6) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/201، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 4/1761، طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 3/218.
(7) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 5/327.

من حيث كونه ثوابًا للآخرة، اعتبارًا بعرض الدُّنيا، كما وصف الثَّمن بالقليل[1].

عِظَمه بوصفه ثوابًا للآخرة، اعتبارًا بعرَض الدُّنيا

وعدَ اللّه المؤمن بالأجر العظيم غَلَبَ أو غُلِبَ؛ ترغيبًا له في القتال وتكذيبًا لقولهم: ﴿قَدۡ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيَّ إِذۡ لَمۡ أَكُن مَّعَهُمۡ شَهِيدٗا﴾ [النِّساء: 72][2].

ترغيبٌ في القتال، وتكذيبٌ لمقالة المُنافقينَ

(1) الرَّاغب، تفسير الرّاغب: 3/1323.

(2) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 2/84.

﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾﴾ [النِّساء: 75]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

المناسبة بين الحثّ على الجهاد، وبين تقريعِ المتقاعسين وطمأنة المستضعفين

لَمَّا أمرَ اللّهُ ﷻ في الآية السَّابقة المؤمنين بالجهادِ في سبيلِه، لإعلاءِ كلمةِ اللّه العظيم، ونصرِ دينِه القويم، ووعدَهم بإحدى الحُسنيين، إمّا بالنّصر المبين، وإمّا بالأجر المكين، ، جاءَ بيانُ اللّه في هذه الآية، لِيحُثَّهم على الجهاد، ويلومهم على تركه، إذ لا عذرَ لقادرٍ مستطيعٍ، في أن يُسهمَ في نشرِ التّوحيدِ، والعدلِ الرّشيدِ، خاصّة أنَّ فئةً من ضعفاء المسلمين، قد نالهم أعظمُ الظُّلم من أعدائهم، فاستغاثوا باللّه، سائلين الفكاك من القرية الظّالم أهلها، لعلّهم يجدون ملجأ أو منجى من القهر والطّغيان.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ﴾: الضَّعفُ: خلاف القُوَّة، وقد ضَعُفَ فهو ضعيفٌ.والضَّعفُ قد يكونُ في النَّفس، وفي البَدَن، وفي الحال، والضَّعفُ والضُّعفُ لغتان. وقيل: الضَّعفُ: في الرَّأي، والضُّعفُ: في البَدَن. قال تعالى: ﴿وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا﴾ [الأنفال: 66]، وقوله تعالى: ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾﴾ [النِّساء: 28]، أي: يَستميلُه هواه[1]، واستَضعفتُه: وجدتُه ضعيفًا، كما في الآية الَّتي معنا، ويُقابِلُ الاستضعافُ الاستكبارَ في قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لِلَّذِينَ

(1) الفيروزآبادي، القاموس: (ضعف).

ٱسۡتُضۡعِفُوٓاْ﴾ [سبأ: 33][1]، واستضعفه: أي قهره لضعفه، قال الله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلۡمُسۡتَضۡعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلۡوِلۡدَٰنِ﴾ [النّساء: 98]: يعني الّذين ضَعُفوا عن الهجرة، وأمّا قوله: ﴿كُنَّا مُسۡتَضۡعَفِينَ﴾ [النّساء: 97]، فيقال: إنّها في قوم مخصوصين أسلموا خفاءً ولم يهاجروا مع الطّاقة على الهجرة[2]، وقال ابن الأثير: يقال: تضعّفته واستضعفته بمعنى الّذي يتضعفّه النّاس، ويتجبّرون عليه في الدّنيا للفقر، ورثاثة الحال[3].

2) ﴿وَلِيّٗا﴾: الولاءُ والتَّوالي: أن يَحصُلَ شيئان فصاعدًا حصولًا ليس بينهما ما ليس منهما، ويُستعارُ ذلك للقُرب من حيث المكان، ومن حيث النِّسبة، ومن حيث الدِّين، ومن حيث الصَّداقة والنُّصرة والاعتقاد[4]، والوَليُّ والمَولَى يُستعملان في ذلك، كلُّ واحدٍ منهما يُقالُ في معنى الفاعل، أي: المُوالي، وفي معنى المفعول، أي: المُوالَى، يُقالُ للمؤمن: هو وليُّ الله (ﷻ)، ولم يُـرِد مَولاه، وقد يُقال: الله تعالى وليُّ المؤمنين ومَولاهم، فمِنَ الأوَّل قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [البقرة: 257]؛ ولذلكَ دَعاه ﷻ المُستضعفون في الآية الَّتي معنا، فقالوا: ﴿وَٱجۡعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيّٗا﴾[5]؛ وكذلك جاء فعل المدح مُضافًا إلى المولى والنّصير، وهو الله ﷻ في قوله تعالى: ﴿نِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ ٤٠﴾ [الأنفال: 40]، وجاء الأمر بالاعتصام بالله، وهو المولى والنَّصير في قوله تعالى: ﴿وَٱعۡتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ فَنِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ ٧٨﴾ [الحجّ: 78]، ونفى الله تعالى الوِلاية بين المؤمنين والكافرين في غير آية، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَۘ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٥١﴾ [المائدة: 51].

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

يُحرِّضُ ﷻ في هذه الآية الكريمة، عبادَه المؤمنين على الجهاد في سبيله، وعلى السَّعي في استنقاذ المُستضعَفينَ بمكَّةَ منَ الرِّجال والنِّساء والصِّبيان، المتبَرِّمين منَ المُقام بها؛ بسبب ظُلم الكفَّار لهم؛ ولذلك فهم يدعون ربَّهم أن يُسخّرَ لهم من عنده سبحانه وليًّا

(1) الرّاغب، المفردات: (ضعف).
(2) نشوان الحِميري، شمس العلوم: (الاستضعاف).
(3) الزَّبيديّ، تاج العروس: (الاستضعاف).
(4) الرّاغب، المفردات: (ولى).
(5) الرّاغب، المفردات: (ولى).

تحريض المؤمنين على القتال، لإعلاء كلمة الله، ونصرة المستضعفين

وناصرًا[1]، وأن يخرجهم من تلك البلدة الظّالم أهلها، وأن يسخّر لهم من عنده من ينصرهم، وينقذهم ممّا هم فيها[2].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

الاستفهام الإنكاريُّ والالتفاتُ، وأثرُهما في تجلية المعنى:

إفادة سياق النّظم بيان ضرورة الجهاد في سبيل إعلاء كلمة الله

قوله: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ استفهامٌ إنكاريٌّ، أي: لا شيءَ لكم في حال لا تُقاتلون، والمُرادُ: أنَّ الَّذي هو لكم، هو أن تُقاتِلوا، فهو بمنزلة أمر، أي: قاتِلوا في سبيل الله لا يَصُدُّكم شيءٌ عنِ القتال[3]. وجاء هذا الخطاب للمأمورين بالقتال على طريقة الالتفات عمَّا سبق؛ مبالغةً في التَّحريض عليه، وتأكيدًا لوجوبه[4]، ومِن هذا القبيل قوله تعالى: ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدۡ أُخۡرِجۡنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبۡنَآئِنَاۖ﴾ [البقرة: 246]، وهذا الكلام من بني إسرائيلَ، بدليل ما ورد في صَدر الآية: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلۡمَلَإِ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعۡدِ مُوسَىٰٓ﴾ [البقرة: 246]، ولكنَّهم تقاعسُوا وتَخاذلُوا عنِ القتال الَّذي كانَت دعوتُهم إليه مجرَّدَ أُمنيّةٍ لا رصيدَ لها في الواقع، بدليل ما وردَ في ذَيل الآية نفسِها: ﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقِتَالُ تَوَلَّوۡاْ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنۡهُمۡۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ٢٤٦﴾. وقولُه: ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، أي: لأجل دينه ولمرضاته، فحرفُ ﴿فِي﴾ للتَّعليل.

ضرورة تخليص فئات المُستضعفين من أذى الكافرين الظّالمين

دلالة توالي المعطوفات، في قوله: ﴿ٱلۡمُسۡتَضۡعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلۡوِلۡدَٰنِ﴾:

قولُه: ﴿وَٱلۡمُسۡتَضۡعَفِينَ﴾ في عطفِه على ما قبلَه وجهان: الأوَّلُ: عطفٌ على اسم الجلالة ﴿ٱللَّهِ﴾؛ أي: في سبيل المُستَضعفين، وهو تخليصُهم منَ الأَسر، وصَونُهم منَ المشركين وأَذاهم[5]. والثَّاني:

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 1/466.
(2) حومد، أيسر التّفاسير، ص: 568.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتَّنوير: 5/122.
(4) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 1/734.
(5) العكبريّ، التبيان: 1/187.

عطفٌ على (السَّبيل) بحذف المضاف؛ أي: في خلاص المُستَضعَفين[1]، ويجوز أن يكون لفظ ﴿وَٱلۡمُسۡتَضۡعَفِينَ﴾ منصوبًا على الاختصاص، فإنَّ سبيلَ الله يَعُمُّ أبواب الخير، وتخليصُ ضُعَفاء المؤمنين من أيدي الكَفَرَة أَعظمُها وأخصُّها[2]، والمُستَضعَفونَ همُ الَّذين يَعُدُّهُمُ النّاسُ ضعفاء، و(السِّين والتَّاء) للحُسبان، وأرادَ بهم مَن بقيَ منَ المؤمنين بمكَّةَ منَ الرِّجال الَّذينَ مَنعَهمُ المشركونَ منَ الهِجرة، وهُمُ الَّذين كان رسول الله ﷺ يدعو لهم فيقولُ: "اللَّهُمَّ أَنجِ الوليدَ بنَ الوليد، وسَلَمةَ بنَ هشام، وعيَّاشَ بنَ أبي ربيعةَ، والمُستضعَفينَ منَ المؤمنين"[3].ورُوِيَ عنِ ابن عبّاس (رضي الله عنهما) أنَّه قال: "أَنا وأُمِّي مِنَ المُستَضعَفين"[4]. وقوله تعالى: ﴿وَٱلۡوِلۡدَٰنِ﴾؛ تسجيلًا بإفراط ظُلمهم، حيثُ بلغَ أذاهُمُ الولدانَ غيرَ المكَلَّفين؛ إرغامًا لآبائِهم وأُمَّهاتِهم، ومَبغضَةً لهم لمكانهم؛ ولأنَّ المُستَضعَفينَ كانوا يُشرِكونَ صِبيانَهم في دُعائهمُ استنزالًا لرحمة الله بدعاء صغارهم الَّذين لم يُذنِبوا، وذلك كُلُّه للمبالغة في الحثِّ على القتال. وقد غُلِّبَ الذُّكورُ على الإناث، فأُطلِقَ الوِلدانُ على الوَلائد أيضًا، وكما يُقالُ: الآباءُ والإخوة[5].

الموصوليّة والوصف، وأثرُهُما في توضيح المعنى:

بيان ظلم المشركين للمؤمنين، وضرورة دفع الظّلم عن المؤمنين

قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا مِنۡ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهۡلُهَا﴾: ﴿ٱلَّذِينَ﴾: اسمٌ موصول، وفيه وجهان إعرابيَّان: الأوَّلُ: مجرورٌ، وفيه حالتان: إحداهُما: الجرُّ على أنَّه صفةٌ للمُستَضعَفين. والثَّانيةُ: الجرُّ لِمَا في حيِّز البيان[6]، الثَّاني: النَّصبُ بإضمار (أعني)[7]، والقرية:

(1) الزَّمخشريّ، الكشَّاف: 1/542.
(2) الزَّمخشريّ، الكشَّاف: 1/542.
(3) البخاريّ، الصحيح، الحديث رقم: 804.
(4) البخاريّ، الصحيح، الحديث رقم: 1357.
(5) الزَّمخشريّ، الكشَّاف: 1/543.
(6) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 1/735.
(7) العكبريّ، التبيان: 1/187.

هي مكَّة، سألوا الخروجَ منها لمَّا كُدِّرَ قُدسُها من ظُلم أَهلها، أي: ظُلم الشِّرك وأهلِه للمؤمنين، فكراهيةُ المُقام بها من جهة أنَّها صارَت يومئذٍ دارَ شِركٍ ومُناوأةٍ لدين الإسلام وأهله؛ ومن أَجل ذلك أَحلَّها اللهُ لرسوله ﷺ أن يُقاتِلَ أهلَها[1]، قولُه: ﴿ٱلظَّالِمِ أَهۡلُهَا﴾، (الألفُ واللَّامُ) بمعنى: الَّتي، أي: الَّتي ظَلمَ أهلُها المؤمنين. ولم يُؤنَّث اسمُ الفاعل ﴿ٱلظَّالِمِ﴾، وإن كان نَعتًا للقرية في اللَّفظ؛ لأنَّه قد عمل في الاسم الظَّاهر المذكَّر، وهو (أهلُ)، وكُلُّ اسم فاعلٍ إذا جرى على غيرِ مَن هو له، فتذكيرُه وتأنيثُه على حَسَبِ الاسم الظَّاهر الَّذي عَمِلَ فيه[2]، وكذلك "إنَّما خُفضَ ﴿ٱلظَّالِمِ﴾؛ لأنَّه نعتٌ(صفة) للأهل، فلمَّا عادَ الأهلُ على القرية، كان فعلُ ما أُضيفَ إليها بمنزلة فعلها، كما تقولُ: مررتُ بالرَّجل الواسعة دارُه، ومررتُ برجُلٍ حسنةٍ عينُه "[3]، ومن هنا كان للموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾ تعبير بالإجمال عن ألوان المستضعفين رجالًا ونساءً وولدانًا، وهو ما يصوّر الظّلم الصُّراح، والطّغيان البَواح، الّذي سُلّط على الرّقاب، حتّى ضجّت الحناجر بالجأر إلى الله أن يتيحَ لهم الخروج من ذلك الظّلم الغشوم، الّذي ناءت به الكواهل، وضاقت به النّفوس، فجاء الوصف بالموصول، مستوعبا لأصناف المظلومين، وجاء الوصف بظلم أهل مكّة، منبئًا عن فداحة المعاناة الّتي وصلت إلى المستوى الّذي لا يقدرون على احتماله، حتّى طلبوا الخروج من مكّة، وهي موئل حبّهم، ومَناط قداستهم، ومَدرج صباهم، وقد عبّر النّبيّ ﷺ عن حبّه لها عند الهجرة فقال: "قَدْ عَلِمْتُ أَنَّكِ خَيْرُ أَرْضِ اللَّهِ، وَأَحَبَّ الْأَرْضِ إِلَى اللَّهِ، وَلَوْلَا أَنَّ أَهْلَكِ أَخْرَجُونِي مَا خَرَجْتُ"[4].

أثر التَّأخير والتَّكرير في جلاء المعنى وبيانه في هذه الآية:

في قوله تعالى: ﴿وَٱجۡعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيّٗا﴾ كلا الجارَّين ﴿لَّنَا﴾ و﴿مِن لَّدُنكَ﴾ مُتعلِّقٌ بقوله: ﴿وَٱجۡعَل﴾؛ لاختلاف معنَيَيهما، وتقديمُ المجرورَين على المفعول الصَّريح؛ لإظهار الاعتناء بهما، وإبراز الرَّغبة في المؤَخّر بتقديم أحواله، فإنَّ تأخيرَ ما حقّه التَّقديمُ عمَّا هو من أحواله المرغِّبة فيه يُورثُ شَوقَ السَّامع لمَا يُقال، ويُنبئ عن كمال رغبة المتكلِّم فيه،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 5/123.
(2) العكبريّ، التبيان: 1/187.
(3) الفرّاء، معاني القرآن: 1/277.
(4) الصّنعانّي، المصنّف: 5/26.

مـــن دلائـــل الرَّغبة، المبالغة الملحّة في حصول المـأمـول، بكثرة السّول

واعتنائه بحصوله لا محالة، وتقديمُ (اللَّام) على ﴿مِن﴾ للمُسارعة إلى إبراز كون المسؤول نافعًا لهم، مرغوبًا فيه لديهم، ويجوز أن تتعلَّق كلمة ﴿مِن﴾ بمحذوف وقعَ حالًا مِن ﴿وَلِيًّا﴾، قُدِّمَت عليه لكونِه نَكِرة، وهذا الكلامُ يَصدُقُ بعينه على قوله تعالى: ﴿وَٱجۡعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا﴾، وتكريرُ الفعل، ﴿وَٱجۡعَل﴾ ومُتعلَّقَيه؛ للمبالغة في التَّضرُّع والابتهال. وأشارتِ الآية إلى أنَّ الله ﷻ استجابَ دعوتَهم، وهيَّأ لهم النّصرَ بيد المؤمنين، كما عبَّرَت عنه الآيةُ التَّالية، بقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ﴾[1].

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 1/735 - 736.

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓاْ أَوۡلِيَآءَ ٱلشَّيۡطَٰنِۖ إِنَّ كَيۡدَ ٱلشَّيۡطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ٧٦﴾ [النِّساء: 76]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

المناسبة بين الحثّ على الجهاد، والقتال المحّض لله لا للشّيطان

لَمَّا حثَّ بيانُ اللّه المؤمنين على الجهاد في سبيله، والذَّود عنِ المُستَضعَفينَ منَ المؤمنين في مكّةَ من بَطشِ الكَفَرةِ من أهلِها، وساق لنا أدعيّةَ المُستضعَفِينَ بطلب الوِلاية والنُّصرة منَ اللّه، جاءَت هذه الآية الكريمة، لتحدّد الفرق بين من يقاتل في سبيل اللّه ومن يقاتل في سبيل الطّاغوت، وأنّهما لا يستويان مثلا، وتؤكّد أمر اللّه للمؤمنين بأن يقاتلوا أهل الكفر والشّرك الّذين يتولَّون الشّيطان، ويطيعون أمره، ويركنون إليه؛ لأنّ تدبير الشّيطان لأوليائه كان ضعيفًا، وأنّ تزيينه لهم كان سخيفًا[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلطَّٰغُوتِ﴾: مِنَ الفعل طَغِيَ، كرضِيَ، طَغيًا وطُغيانًا، بالضَّمِّ والكسر: جاوزَ القَدرَ، وطَغَوتُ وطَغَيتُ طُغْوانًا[2]، وأَطغاهُ كذا، حملَه على الطُّغيان، وارتَفعَ، وغَلا في الكفر، وأَسرَفَ في المعاصي والظُّلم[3]، وذلك تَجاوُزُ الحَدِّ في العصيان، قال تعالى: ﴿ٱذۡهَبۡ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ٢٤﴾ [النَّازعات: 17]، والطَّغوَى: الاسم منه، قالَ تعالى: ﴿كَذَّبَتۡ ثَمُودُ بِطَغۡوَىٰهَآ ١١﴾ [الشَّمس: 11]؛ تَنبيهًا أنَّهم لم يُصدِّقوا إذا خُوِّفوا بعقوبة طُغيانهم[4]، والطَّاغوت: عبارةٌ عن كلِّ مُتعدٍّ، وكلِّ

(1) نخبة من أساتذة التّفسير، التّفسير الميسّر، ص: 90.
(2) الفيروزآبادي، القاموس: (طَغِيَ).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (طغا).
(4) الرّاغب، المفردات: (طغى).

معبودٍ من دُون اللّه، ويُستَعملُ في الواحد والجمع، قال تعالى: ﴿فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ﴾ [البقرة: 256]، وقال سبحانه: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ﴾ [النّساء: 60]، ولما كان هو عبارةً عن كلِّ مُتعدٍّ، سُمِّيَ السَّاحرُ والكاهِنُ والمارِدُ منَ الجِنّ، والصَّارفُ عن طريق الخير طاغوتًا، ووزنُه فيما قِيلَ: فَعَلوتٌ، نحو: جَبَروتٌ ومَلَكوتٌ، وقِيلَ: أصلُه: طَغَوُوت، ولكن قُلِبَ لامُ الفعلِ، نحو: صَاعِقةٌ وصَاقِعةٌ، ثمَّ قُلبَ الواوُ ألفًا لِتَحرُّكِه وانفتاح ما قَبلَه[1].

2) ﴿ٱلشَّيۡطَٰنِۖ﴾: وهو كلّ عاتٍ من الإنس والجنّ والدّواب، قال جرير:

أَيَّامَ يَدْعُونَنِي الشَّيْطَانَ مِنْ غَزَلٍ *** وَهُنَّ يَهْوَيْنَنِي إِذْ كُنْتُ شَيْطَانَا[2]

وَعَلَى ذَلِكَ فُسِّرَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿طَلۡعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ٦٥﴾ [الصّافات: 65][3]، وكلمةُ (الشَّيطان) لها أصلان: الأوَّلُ: منَ الفعل (شَطَطَ)، أي: بَعُدَ، والشَّيطانُ قد بَعُدَ عنِ الحقِّ؛ بتكبُّره على أمر اللّه تعالى بالسُّجود لآدمَ عليه السلام، كما قال تعالى: ﴿وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰ وَٱسۡتَكۡبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٣٤﴾ [البقرة: 34]. الثَّاني: منَ الفعل (شَطَنَ)، فالشَّيطانُ: نونُه أصليَّةٌ، وقيل: إنَّها زائدة، فإن جُعلَ (فَيعَالًا) من قولِهم: (تَشَيطَنَ) الرَّجُلُ صَرَفتَه، وإن جَعلتَه من تَشَيَّطَ لم تصرفْه؛ لأنَّه فَعلان[4].

3) ﴿كَيۡدَ﴾: الكَيدُ: ضَربٌ منَ الاحتيال، وقد يكونُ مَذمومًا ومَمدُوحًا، وإن كان يُستَعملُ في المَذموم أكثر، وكذلك الاستدراجُ والمَكر، ويكونُ بعضُ ذلك محمودًا، قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ كِدۡنَا لِيُوسُفَۖ﴾ [يوسف: 76][5]. وقولُه تعالى: ﴿وَأُمۡلِي لَهُمۡۚ إِنَّ كَيۡدِي مَتِينٌ ١٨٣﴾ [الأعراف: 183]. قال بعضُهم: أراد بالكَيد العذاب[6]، والصَّحيح: أنَّه هو الإملاءُ والإمهالُ المؤدِّي إلى العقاب، كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا نُمۡلِي لَهُمۡ لِيَزۡدَادُوٓاْ إِثۡمٗاۖ﴾ [آل عمران: 178]، وقولِه تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي كَيۡدَ ٱلۡخَآئِنِينَ ٥٢﴾ [يوسف: 52]، خَصَّ فيه الخائنينَ تنبيهًا إلى أنّه قد يَهدي كيدَ من لم يقصِد بكيده خيانة، كَكَيدِ يوسُفَ بأخيه، وقوله: ﴿لَأَكِيدَنَّ أَصۡنَٰمَكُم﴾ [الأنبياء: 57]؛ أي:

(1) الرّاغب، المفردات: (طغى).
(2) الجوهريّ، الصّحاح: (شطن).
(3) ابن فارس، معجم مقاييس اللّغة: (شطن).
(4) الفيروزآبادي، القاموس: (شطط) و(شطن).
(5) الرّاغب، المفردات: (كيد).
(6) يُروَى عن ابن عبّاس: (رضي الله عنهما) قولُه: "كيدُ الله: العذابُ والنِّقمة"، يُنظر: السُّيوطي، الدُّرُّ المنثور: 3/618.

لَأُريدَنَّ بها سُوءًا[1]، والكيدُ من الخلق هو الحيلة والسّيئة، ومن الله التّدبير بالحقّ لمجازاة أعمال الخَلْق، أو إبطال خطّة الخصم، قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مِن كَيۡدِكُنَّۖ إِنَّ كَيۡدَكُنَّ عَظِيمٞ ٢٨﴾ [يوسف: 28][2].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

شتّان بين مقاتل في سبيل الله، ومقاتل في سبيل الشّيطان

بيَّن الله تعالى في هذه الآية الكريمة أنَّ المؤمنينَ حقًّا، هُمُ الَّذين يُقاتِلونَ في طاعة الله ورضوانه، وأنّ الكافرين يُقاتلون في إرضاء الشَّيطان وأعوانه، وعليه حفّز الله تعالى المؤمنين على قتال أعدائه، ليُقاتِلوا المُوالينَ للشَّيطان، مُبيِّنًا أنَّ مكرَ الشَّيطانِ ضعيفٌ، لا يقوَى أمام إيمان المؤمنين وصِدقهم معَ الله[3]، فالله ينصر عباده على أعدائه، والعاقبة دائما للمتّقين.

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

أثر العطف في إثراء المعنى، في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ﴾:

شَحذَ الهِمَم للجهاد في سبيل الله، وبيان ضَعف الكيد وخسرانه

هذا الكلامُ المبتدأُ سِيقَ لترغيب المؤمنين في القتال، وتَشجيعِهم ببيان كمال قُوَّتِهم، بإمداد الله تعالى ونُصرته، والمؤمنون يُقاتلونَ لغاية نبيلة رفيعة، وهي نشرُ دين الله، وإعلاءُ كلمته[4]، وفي هذا البيان الجليل إشارةٌ قويّةٌ، بأنَّ الله تعالى استجابَ دعوةَ أولئك المُستضعَفينَ، وهيَّأَ لهم النَّصرَ القريبَ المُبينَ، على أيدي المؤمنين الصَّادقين. وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ﴾ عطفٌ على ما سبقَه، ولكن مع تَغايُرِ هُويَّة المعطوف والمعطوف عليه، فهُويَّة المعطوف عليه الإيمان، والقتال طاعةً للرَّحمن، والمعطوفُ هُويَّتُه الكُفرُ، والطُّغيان، والقتالُ في سبيل الشَّيطان؛ فأيُّ الفريقينِ أحقُّ بالنَّصر والفتح المبين؟!

(1) الرّاغب، المفردات: (كيد).
(2) أحمد مختار عمر، معجم اللّغة العربيّة المعاصرة: (كيد).
(3) ابن كثير، تفسير القرآن الكريم: 1/466.
(4) الزَّمخشريّ، الكشَّاف: 1/543.

التَّفريع بالفاء وأثره في جلاء المعنى وترابط السّياق:

الدّلالة على أنّ كيد الشّيطان ضعيف منذ كان الشّيطان

جاء التَّفريع بالفاء[1]، في قوله تعالى: ﴿فَقَٰتِلُوٓاْ أَوۡلِيَآءَ ٱلشَّيۡطَٰنِۖ إِنَّ كَيۡدَ ٱلشَّيۡطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾؛ لبيان استِتباع ما قبلَ الفاء لمَا بعدَها، وذُكرَ بهذا العنوان؛ للدَّلالة على أنَّ ذلك نتيجةٌ لقتالهم في سبيل الشَّيطان، والإشعارِ بأنَّ المؤمنين أولياءُ اللّه تعالى؛ لأنَّ قتالَهم في سبيله، وكلُّ ذلك لتأكيد رغبة المؤمنين في القتال، وتَقويةِ عزائمهم عليه، فإنَّ وِلايةَ اللّه تعالى عَلَمٌ في العزَّة والقوَّة، كما أنَّ وِلايَةَ الشَّيطان مَثَلٌ في الذِّلَّة والضَّعف، فكأنَّه قِيلَ: إذا كان الأمر كذلك؛ فَقاتِلوا يا أولياء اللّه أولياءَ الشَّيطان، ثمّ صُرِّحَ بالتَّعليل، فقيل: ﴿إِنَّ كَيۡدَ ٱلشَّيۡطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾، أي: بالقيّاس إلى قُدرة اللّه تعالى، ولم يتعرّضِ السِّياقُ لبيان قُوَّة جنابه ﷻ إيذانًا بظُهورها، وهذا المعنى الجليلُ، أفادَه وجودُ ﴿كَانَ﴾ الَّتي تفيد في هذا الموقع التَّأكيدَ ببيان أنَّه منذُ كان كذلك، فالمعنى: أنَّ كَيدَ الشَّيطان - منذُ كان - كانَ مَوصوفًا بالضَّعف[2].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الشَّيطان والطَّاغوت:

إن كانَت كلمة (الشَّيطان) تعني كلَّ عاتٍ متمرِّدٍ منَ الإنس والجنِّ والدَّوابِّ، وعلى رأسِهم إبليسُ (لعنهُ اللّه)، لكن ليس بالضَّرورة أن يُعبَد من دون اللّه، كما هو الحال في معنى (الطَّاغوت)[3]؛ ولِذلك

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 5/123.

(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 1/736.

(3) "قال اللّيث وأبو عبيدة والكسّائي وجماهير أهل اللّغة الطّاغوت كلّ ما عبد من دون الله تعالى، قال الواحديّ: الطّاغوت يكون واحدا وجمعا، ويؤنّث ويذكر، قال الله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدۡ أُمِرُوٓاْ أَن يَكۡفُرُواْ بِهِۦ﴾ [النّساء: 60]، فهذا في الواحد، وقال تعالى في الجمع ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخۡرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِۗ﴾ [البقرة: 257]، وقال في المؤنّث: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱجۡتَنَبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعۡبُدُوهَا﴾ [الزّمر: 17]، قال في المصباح: وهو في تقدير: (فعلوت) بفتح العين، لكن قدّمت اللّام موضع العين، واللّام واو محرّكة، مفتوح ما قبلها، فقلبت ألفا، فبقي في تقدير: (فعلوت)، وهو من الطّغيان"، ينظر: عبد الباقي: المسند الصّحيح للإمام مسلم: (هامش التّحقيق): 1/163.

جاءَت كلمة (الطَّاغوت) في سياق وصف الكافرينَ، بأنَّهم يُقاتلونَ في سبيل الطَّاغوت، أي: في سبيلِ كلِّ مَن يَعبُدونَهم من دون الله، في حين جاءَت كلمة (الشَّيطان) في سياق أمر المؤمنين، بقتال أولياء كلِّ عاتٍ مُتمرِّد وأنصاره، وكلُّ أولئك هم جنودُ إبليس(لعنهُ الله)، وإن كانوا لا يعبُدونَهم من دون الله، لكنَّهم طُغاةٌ عُتاةٌ مُتجبِّرونَ مُتكبِّرونَ على خَلق الله؛ ولِذلك وسَمَهُمُ اللهُ بالكَيدِ، ولكنَّه كَيدٌ ضعيفٌ؛ لأنَّه قائمٌ في أصلِه على ضَعف، وكلُّ قائمٍ على غير دين الله وشريعة الله، فهو ضعيف لا محالة، وإن بدا قويًّا مُتماسكًا في ظاهرِه، لكنَّ باطنَه ولُبَّه هَشٌّ، وهو زائلٌ بلا ريب.

الكَيْد والمَكر:

قال اللّيث: قال شيخنا: "وظاهر كلامهم أنّ الكيد والمكر مترادفان، وهو الظّاهر، وقد فرّق بينهما بعض فقهاء اللّغة، فقال: الكيد: المضرّة، والمكر: إخفاء الكيد وإيصال المضرّة، وقيل: الكيد: الأخذ على خفاء، ولا يُعتبر فيه إظهارُ خلاف ما أبطنه، ويعتبر ذلك في المكر"[1]، والمَكرُ مثلُ الكَيدِ، في أنَّه لا يكونُ إلَّا مع تَدبُّرٍ وفِكرٍ، إلَّا أنَّ الكَيدَ أَقوى منَ المكر، والشَّاهدُ أنَّه يتعدَّى بنفسه، والمكرُ يتعدَّى بحرف، فيُقالُ: كادَه يَكيدُه، ومَكَرَ به، ولا يُقالُ: مَكَرَهُ، والَّذي يتعدَّى بنفسه أقوى، والمكرُ أيضًا: تقديرُ ضَرَر الغير من أن يُفعَلَ به، ألَا ترى أنَّه لو قال له: أَقدِرُ أن أفعلَ بك كذا، لم يكن ذلك مَكرًا، والكَيدُ: اسمٌ لإيقاع المكروه بالغير قَهرًا، سواء عُلِمَ أم لا، والشَّاهدُ قولُك: فلانٌ يُكايِدُني، فَسَمَّى فعلَه كيدًا، وإن عَلِمَ به[2]، وممَّا تقدَّمَ بيانُه يظهرُ جليًّا أنَّ استخدامَ البيان الإلهيِّ لكلمة (الكَيد) أَوفَرُ حظًّا، وأَقومُ قيلًا في السِّياق القرآنيِّ الَّذي وردَت فيه، فالَّذي يَكيدُ هو الشَّيطانُ بنفسه، وهو مادّةُ الشَّطَط، والشَّطَن في البُعد عنِ الحقِّ غايةَ البُعد، والإيغال في الباطل، والضَّلال غايةَ الإيغال.

(1) الزّبيديّ، تاج العروس: 9/122.

(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 508.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓاْ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ۚ وَقَالُواْ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ ۗ قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧٧﴾﴾ [النِّساء: 77]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

المناسبة بين نصرة المستضعفين، وبين التّنديد بالخوف والرّكون إلى الدّنيا الغرور

لمَّا هيَّأ الله ﷻ النَّصرَ للمُستَضعَفين بأيدي المجاهدين في سبيله، وأَعلمَهم أنَّ كيدَ الشَّيطان كان ضعيفًا، جاء بيان الله في هذه الآية لِيُخبرَنا بأنَّ الَّذين أُمروا بالقتال منَ المؤمنين بعد فترةٍ منه، بسبب ضَعفِ شوكتِهم وقلَّة عدَدِهم وعُدَّتِهم، وقد كانوا يَرجونَه ويَودّونَه، إذا بهم يَجزَعون ويخافون منه، ويَأملونَ تأخيرَه إلى أجلٍ آخَر، ويذكّره بضآلة الدّنيا، وأنّ الآخرة خير وأنعم، وأنّ الله لا يظلم أحدًا، بل سوف يوفّي كلّ أحد جزاءَ ما عمِلت يداه.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿كُفُّوٓاْ﴾: الكفُّ: كفُّ الإنسان، وهي ما بها يَقبِضُ ويَبسُطُ، وكَفَفتُه: أَصَبتُ كَفَّهُ، وكَفَفتُهُ: أَصَبتُه بالكفِّ ودفعتُه بها، وتُعورِفَ الكَفُّ بالدَّفع على أيِّ وجهٍ كان، بالكَفِّ كان أو غيرها[1]، وقوله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً﴾[2] [التَّوبة: 36]، قِيل: معناه: كافِّين لهم كما يُقاتلونَكم كافِّين،

(1) الرّاغب، المفردات: (كف).

(2) وقولُه: ﴿كَآفَّةً﴾ مُشتقٌّ من كِفّة الشيَّء، وهي حرفُه، وإنَّما أُخِذَ من أنَّ الشيَّء إذا انتهى إلى ذلك كفَّ عنِ الزّيادة، ولا يجوزُ أن يُثَنَّى ولا يُجمع، ولا يُقال: قاتلوهم كافَّان ولا كافَّات، كما أنَّك إذا قلتَ: قاتلوهم عامَّةً لم تُثنّ ولم تُجمع، وكذلك خاصَّةً، وهذا مذهبُ النَّحويين، ينظر: الزَّجّاج، معاني القرآن: 2/446.

واستَكَفَّ الشَّمسَ: دَفَعها بِكفِّه، وهو أن يضعَ كفَّه على حاجبه مُستظلًّا منَ الشَّمس ليَرى ما يطلُبُه[1].

2) ﴿كُتِبَ﴾: من الكَتْبُ: وهو ضَمُّ الحروف بعضها إلى بعض بالخطّ، وقد يُقالُ ذلك للمضموم بعضها إلى بعضٍ باللَّفظ، فالأصل في الكتابة: النَّظمُ بالخطِّ، لكن يُستعارُ كلُّ واحدٍ للآخر، ولهذا سُمِّيَ كلامُ اللّه وإن لم يُكتَب كتابًا، كقوله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ﴾ [البقرة: 1 - 2]، والكتاب في الأَصل مصدرٌ، ثمَّ سُمِّيَ المكتوبُ فيه كتابًا، والكتابُ في الأصل اسمٌ للصّحيفة مع المكتوب فيه، ويُعبَّرُ عنِ الإثبات، والتَّقدير، والإيجاب، والفَرض، والعَزم بالكتابة.وقوله تعالى: ﴿وَكَتَبۡنَا عَلَيۡهِمۡ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفۡسَ بِٱلنَّفۡسِ﴾ [المائدة: 45]، أي: أَوجَبنا وفَرضنا[2]، وهو كما في الآية الَّتي معنا: ﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقِتَالُ﴾ و﴿رَبَّنَا لِمَ كَتَبۡتَ عَلَيۡنَا ٱلۡقِتَالَ﴾، فـ﴿كُتِبَ﴾ و﴿كَتَبۡتَ﴾ كلاهما بمعنى: الإيجاب والفَرض. وقوله تعالى: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا﴾ [التَّوبة: 51].وكَتبَ هنا بمعنى: ما قدَّره اللّه وقَضاه، قال الجعدي:

يَا ابْنَةَ عَمِّي كِتَابُ اللّهِ أَخْرَجَنِي *** عَنْكُمْ وَهَلْ أَمْنَعَنَّ اللّهَ مَا فَعَلَا[3]

وقوله تعالى: ﴿أَمۡ عِندَهُمُ ٱلۡغَيۡبُ فَهُمۡ يَكۡتُبُونَ ۝٤١﴾ [الطُّور: 41]؛ فذلك إشارةٌ إلى العلم والتَّحقُّق والاعتقاد[4].

3) ﴿خَشۡيَةَ﴾: خَشِيَهُ، خَشيًا: خافَه، وهو خَاشٍ وخَشٍ[5]، والخَشيةُ: أشدُّ الخوف، وهي أعلى مرتبةً منه، والخشيةُ: خوفٌ مَشوبٌ بتعظيم المَخشِيِّ، صادرٌ عن علم ويقين صادق، ومعرفة بعظَمتِه، وإن كان الخاشي قويًّا[6]؛ ولِذلك خُصَّ العلماءُ بالخشية في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: 28]، وتكون بمعنى علمت، وهو من المجاز، قال الشّاعر:

وَلَقَدۡ خَشِيتُ بِأَنَّ مَنۡ تَبِعَ الهُدَى *** سَكَنَ الجِنَانَ مَعَ النَّبِيِّ مُحَمَّدِ

(1) الرّاغب، المفردات: (كف).
(2) الرّاغب، المفردات: (كتب).
(3) الجوهريّ، الصّحاح: (كتب).
(4) الرّاغب، المفردات: (كتب).
(5) الفيروزآبادي، القاموس: (خَشَي).
(6) الزَّملكانّي، البرهان الكاشف، ص: 91، والكفوي، الكليّات، ص: 317.

وقوله تعالى: ﴿فَخَشِينَآ أَن يُرۡهِقَهُمَا طُغۡيَٰنٗا وَكُفۡرٗا ٨٠﴾ [الكهف: 80]، قال الأخفش: معناه كرهنا[1]، والأصل أنّ الخشية من الله هي الخوف منه، ومن ذلك قول عنترة:

وَلَقَدۡ خَشِيتُ بِأَنۡ أَمُوتَ وَلَمۡ تَدُرۡ *** لِلۡحَرۡبِ دَائِرَةٌ عَلَى ابۡنَيۡ ضَمۡضَمِ[2]

4) ﴿أَجَلٖ قَرِيبٖۗ﴾: الأَجَلُ: المُدَّة المضروبة للشَّيء، قال تعالى: ﴿وَلِتَبۡلُغُوٓاْ أَجَلٗا مُّسَمّٗى﴾ [غافر: 67]، ويُقالُ: دَينُه مُؤَجَّلٌ، وقد أَجَّلتُه: جعلتُ له أَجَلًا. ويُقالُ للمُدَّة المضروبة لحياة الإنسان: أَجَلٌ؛ فيُقالُ: دنا أَجَلُه؛ عبارةٌ عن دُنُوِّ الأَجل. وأصلُه: استيفاءُ الأَجَل، أي: مُدَّةُ الحياة[3]، والتّأجيل: تحديدُ الأجل وقد أجَّله، وفي العُباب: التّأجيل: ضرب من الأجل، وفي التّنزيل: ﴿كِتَٰبٗا مُّؤَجَّلٗاۗ﴾ [آل عمران: 145][4]، واستأجلتُه أي: طلبتُ منه الأجل، فأجّلني إلى مدّة تأجيلا: أي أخّرني، والآجلة: الآخرة ضدّ العاجلة، وهي الدّنيا[5].

5) ﴿مَتَٰعُ﴾: المتاعُ: انتفاعٌ مُمتدُّ الوقت، يُقالُ: مَتَعَ النَّهارُ، ومَتَعَ النَّباتُ: إذا ارتفعَ في أوّل النَّبات، ويُقالُ: مَتَّعَه الله بكذا، وأَمتعَه، وتمتَّعَ به، قال تعالى: ﴿وَمَتَّعۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ حِينٖ ٩٨﴾ [يونس: 98]. ويُقالُ لمَا يُنتفَعُ به في البيت: مَتاع، وكلُّ ما يُنتفع به على وجهٍ ما فهو متاعٌ ومُتعةٌ، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَٰعَهُمۡ﴾ [يوسف: 65]، أي: طعامَهم أو وِعاءَهم، وكلاهما متاع، وكلُّ مَوضِعٍ ذُكِرَ فيه التَّمتُّع أو متاع في الدُّنيا، فعلى طريق التَّهديد، وذلك لمَا فيه من معنى التَّوسُّع، واستَمتَعَ: طلبَ التَّمتُّع، قال تعالى: ﴿رَبَّنَا ٱسۡتَمۡتَعَ بَعۡضُنَا بِبَعۡضٖ﴾ [الأنعام: 128]، وقوله تعالى: ﴿وَلَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُسۡتَقَرّٞ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٖ ٣٦﴾ [البقرة: 36] تنبيهًا إلى أنّ لكلِّ إنسانٍ في الدُّنيا تَمتُّعًا مُدَّةً مَعلومة[6].

6) ﴿فَتِيلٗا﴾: الفَتيلُ: المَفتولُ، وسُمِّيَ ما يكون في شِقِّ النَّواة فتيلًا؛ لكونه على هيئته، يُقالُ: فَتَلتُ الحَبلَ فَتلًا. وفي قوله تعالى في الآية الَّتي معنا: ﴿وَلَا تُظۡلَمُونَ فَتِيلًا﴾، الفَتيلُ: هو ما تَفتِلُه بين أصابعك من خَيطٍ أو وَسَخ، ويُضرَبُ به المَثَلُ في الشَّيء الحقير[7]، ولا أَحقَرَ منَ الدُّنيا، ومتاعِها، وطُلَّابِها، قال الشّاعر:

(1) الجوهريّ، الصّحاح: (خَشَي).
(2) نشوان الحِميري، شمس العلوم: (الخشية).
(3) الرّاغب، المفردات: (أجل).
(4) الرّاغب، المفردات: (أجل).
(5) الزَّبيديّ، تاج العروس: (أجل).
(6) الرّاغب، المفردات: (متع).
(7) الرّاغب، المفردات: (فتل).

أَعَاذِلَ بَعْضَ لَوْمِكِ لَا تُلِحِّي *** فَإِنَّ اللَّوْمَ لَا يُغْنِي فَتِيلَا[1]

وعن ابن السّكّيت: أنّه قال: (القطمير) القشرة الرّقيقة على النّواة، و(الفتيل) ما كان في شقّ النّواة، وبه سمّيت فتيلة السّراج، قال الأزهريّ: "وهذه الأشياء تضرب كلّها أمثالا للشّيء التّافه الحقير القليل، أي لا يظلمون قدرها"[2].

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

الخوف من القتال لا يؤخّر الأجل، والآخرة خير من الدّنيا لمن اتّقى وعمل

كان المؤمنون في ابتداء الإسلام وهم بمكّةَ مأمورين بالصَّلاة والزَّكاة، وكانوا مأمورين بمُواساة الفقراء منهم، والصَّفح والعَفو عنِ المشركين، وكانوا يَوَدُّونَ لو أُمِروا بالقتال ليَشتَفوا من أعدائهم، ولم يكنِ الحالُ مُناسبًا حينذاك؛ بسبب قِلَّة عددهم أمام أعدائهم، وكونهم في بلد حرام، لم يكن الأمر بالقتال فيه ابتداءً، ومع هذا لَمَّا أُمِروا، وهم في المدينة بما كانوا يأمُلونَه، جَزِعَ بعضُهم منه، وخافوا من مواجهة النَّاس خوفًا شديدًا، وقالوا: لولا أُخِّرَ فرضُ القتال إلى مُدَّةٍ أُخرى، فأجابهم الله تعالى بأنَّ مَتاعَ الدُّنيا قليلٌ أمام جَنب الآخرة، الَّتي هي خيرٌ للمتَّقين[3].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

الاستفهام التَّعجُّبيُّ، وأثرُه في توضيح المعنى:

إحجامُ فئة منَ المسلمين عنِ الجهاد بعد شدَّة رغبتهم في مباشرته

قولُه تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ وهذه الرّؤيةُ بصريَّةٌ حقيقيَّةٌ، في قوله: ﴿تَرَ﴾، وهذا الاستفهامُ تعجيبٌ لرسول الله ﷺ من إحجامهم عنِ القتال؛ ذلك أنَّهم كانوا حُرَّاصًا عليه، بحيث كادوا يُباشِرونَه كما يُنبِئُ عنه الأمرُ بكفِّ الأيدي، فإنَّ ذلك مُشعِرٌ بكونهم بصدد بَسطها

(1) الأنباريّ، الزّاهر: 1/253.
(2) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: 1/253.
(3) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 1/466 - 467.

إلى العدوِّ بحيثُ يكادون يسطون بهم[1]، وقولُه تعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ يُفيدُ أنَّ الرَّسول ﷺ لم يُؤمَرْ بقتالهم، وجاء بناء القول للمفعول، مع أنَّ القائل هو الرَّسول ﷺ ؛ للإيذان بكون ذلك بأمر الله ﷻ، ولأنَّ المقصود بالذَّات والمعتَبَرَ في التَّعجيب إنَّما هو كمالُ رغبتهم في القتال، وكونهم بحيثُ احتاجوا إلى النَّهي عنه، وإنَّما ذُكِرَ في حيِّز الصِّلة الأمرُ بكفِّ الأَيدي لتحقيقه وتصويره على طريقة الكناية، فلا يتعلَّقُ ببيان خصوصيَّة الأمر غَرَض، وإنَّما وقع ذلك منهم لا شكًّا في الدِّين ولا رغبةً عنه؛ بل نفورًا عنِ الإخطار بالأرواح، وخوفًا منَ الموت بمُوجَب الجِبِلَّة البشريَّة.

أسلوب العطف وأثره في ترسيّة المعنى المسوق في الآية:

أفاد العطفُ بيانَ تغيُّر الحال، من التّوق للجهاد إلى التّقاعُس

جاء هذا القول عطفًا على ﴿قِيلَ لَهُمۡ كُفُّوٓاْ أَيۡدِيَكُمۡ﴾ باعتبار مدلوله الكنائيّ؛ إذ حينئذٍ يتحقَّقُ التَّبايُنُ بين مَدلولَيِّ المعطوفَين، وعليه يدورُ أمرُ التَّعجيب كما تقدَّم آنفًا؛ ذلك أنَّ قوله تعالى: ﴿إِذَا فَرِيقٞ مِّنۡهُمۡ يَخۡشَوۡنَ ٱلنَّاسَ﴾ جاء جوابًا لقوله: ﴿فَلَمَّا﴾، وقوله: ﴿فَرِيقٞ﴾ مبتدأ، و﴿مِّنۡهُمۡ﴾ مُتعلِّقٌ بمحذوف وقع صفةً له، و﴿يَخۡشَوۡنَ﴾ خبرُه، وقد أفاد السّياق، حالة التّردّد والتّذبذب التي أصابت الحالة المعنوية والنفسية للمؤمنين، فقد كانوا يتوقون إلى القتال في سبيل الله، فلمّا كتب عليهم ما طلبوه، فترت الهمم، وتأخّرت الإرادة عن مأمور الله، فكانت الآية تذكيرا لمن نسي، حتّى يعود إلى رشده، ويلتزم أمر ربّه.

دلالة ﴿إِذَا﴾ الفجائيَّة، في قوله تعالى: ﴿إِذَا فَرِيقٞ مِّنۡهُمۡ يَخۡشَوۡنَ ٱلنَّاسَ﴾:

لا ينفع حذرٌ من قدر، والله خيرٌ حفظًا

وتصديرُه بـ﴿إِذَا﴾ المفاجِئَة، لبيان مُسارعتِهم إلى الخشية، حيث تفاجأ فريقٌ منهم، خشيةً من مغبّة الحرب الضّروس، وخوفًا من

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 1/736 - 737.

الكفَّارَ أن يقتلُوهم، ولعلَّ توجيهَ التَّعجيب إلى الكُلِّ، مع صدور الخشية عن بعضهم؛ للإيذان بأنَّه ما كان ينبغي أن يَصدُرَ عن أحدهم ما يُنافي حالتَهم الأُولى[1]، و﴿إِذَا﴾ ظرفُ مكان، وظرفُ المكان في مثل هذا يجوز أن يكون خبرًا للاسم الَّذي بعده، وهو ﴿فَرِيقٌ﴾، ويكون قوله ﴿مِّنْهُمْ﴾ صفةَ ﴿فَرِيقٌ﴾، ويكون قوله ﴿يَخْشَوْنَ﴾ حالًا[2]، والعاملُ في الظَّرف على هذا الاستقرار.

دلالة إضافة المصدر (الخشية) إلى لفظ الجلالة (الله):

خشية الله رسوخ وهداية، وخشية النّاس وهمٌّ وغواية

قوله تعالى: ﴿كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ هو من إضافة المصدر إلى لفظ الجلالة، وهو إعرابيا مفعول منصوب على التّعظيم، ومحلُّ قوله ﴿كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ منَ الإعراب النَّصب على الحال منَ الضَّمير في ﴿يَخْشَوْنَ﴾ أي: يَخشَونَ النَّاس مِثلَ أهل خشية الله؛ أي: مشبّهين لأهل خشية الله، وقوله: ﴿أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً﴾ بمعنى: أو أشدَّ خشيةً من أهل خشية الله، و﴿أَشَدَّ﴾ معطوفٌ على الحال[3]، وإضافة الخشية إلى الله، يوحي بأنّ الخشية لا تكون على الحقيقة إلّا منه، وأنّ خشية النّاس عرضٌ ومرضٌ، ولئن استشعر هؤلاء المهزومون نفسيًّا، خشيةً في نفوسهم للنّاس رغم أنّهم مؤمنون، فإنّها كخشية الله ظاهرا، ولكنّها في الحقيقة لا تدانيها، فإنّ مشابهة صفة الخالق وفعله، بصفة المخلوقين وأفعالهم، غير ممكنة، فلا وجهَ للمقارنة بين الخشيتين، والمعنى بحاجة إلى تدبّر، قال النّسفيّ: "يخافون أن يقاتلهم الكفّار كما يخافون أن ينزل الله عليهم بأسَه، لا شكًّا في الدّين ولا رغبةً عنه، ولكن نفورًا عن الإخطار بالأرواح، وخوفًا من الموت. قال الشّيخ أبو منصور رحمه الله: هذه خشية طبع، لا أنّ ذلك منهم كراهة لحكم الله وأمره اعتقادًا، فالمرء مجبولٌ على

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 1/737.
(2) العكبريّ، التبيان: 1/187.
(3) الزّمخشريّ، الكشَّاف: 1/543.

كراهة ما فيه خوف هلاكه غالبًا، وخشية اللّه من إضافة المصدر إلى المفعول ومحله النّصب على الحال من الضّمير في يخشون أي يخشون النّاس مثل خشية اللّه، أي مُشبهين لأهل خشية اللّه"[1].

معاني (أو) العاطفة، وأثرها في دلالة هذه الآية:

حروف العطف تربط المباني، وتفسّح المعاني

كلمةُ (أو) فيها وجهان: الأوَّلُ: أنّها للتّنويع على معنى أنَّ خشيةَ بعضهم كخشية اللّه، وأنَّ خشيةَ بعضهم أشدُّ منها، والثّاني: للإبهام على السَّامع، وهو قريبٌ ممّا في قوله تعالى: ﴿وَأَرۡسَلۡنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلۡفٍ أَوۡ يَزِيدُونَ ١٤٧﴾ [الصّافّات: 147][2]، وانتصَبَ ﴿خَشۡيَةً﴾ على التّمييز لنسبة ﴿أَشَدَّ﴾، والمعنى يخشَوْنهم مُشْبِهين لأهل خشيةِ اللّه تعالى، وقوله تعالى: ﴿أَوۡ أَشَدَّ خَشۡيَةً﴾ عطفٌ عليه، بمعنى: أو أشدَّ خشيةً من أهل خشيةِ اللّه، أو على أنَّه مصدرٌ مؤكّدٌ على جعل الخشيةِ ذاتَ خشيةٍ، مبالغةً كما في (جدّ جِدُّه)، أي يخشَوْنهم خشيةً مثلَ خشيةِ اللّه أو خشيةً أشدَّ خشيةً من خشية اللّه.

الاستفهام، وأثره في تجلية المعنى في السّياق:

أفاد الاستفهام إيضاح حال مريدي إرجاء القتال ومقالهم

قولُه: ﴿رَبَّنَا لِمَ كَتَبۡتَ عَلَيۡنَا ٱلۡقِتَالَ﴾ يعني: هلَّا أخَّرتنا، يُريدونَ المُهلة إلى وقتٍ آخَر، قريبٍ منَ الوقتِ الَّذي فُرِضَ عليهم فيه القتال، وقولُهم ذاك لا يعني الاعتراضَ على حُكمه تعالى، والإنكارَ لإيجابه؛ بل على طريق تمنّي التَّخفيف؛ ولِذلك جاء قولُه: ﴿لَوۡلَآ أَخَّرۡتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖۗ﴾، استزادةً في مُدَّة الكفِّ، واستمهالًا إلى وقتٍ آخر؛ حذرًا منَ الموت. وقد جُوِّزَ أن يكون هذا ممَّا نطقَت به ألسنةُ حالِهم، دون أن يَتفوَّهوا به صريحًا[3]، وهذا على أنَّ القائلَ بلسان المقال أوِ الحال، هم بعضُ صحابة رسول اللّه ﷺ، وذلك أنَّ هناك أقوالًا

(1) النّسفيّ، مدارك التّنزيل: 1/375.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 1/738.
(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 1/738.

سوى هذا القول في شأن مَن قال هذا القول: الأوّلُ: أنَّ المرادَ بهم اليهود، فقد نزلَتِ الآيةُ فيهم، والثَّاني: أنَّها في قومٍ منَ المؤمنين، لم يكونوا راسخين في العلم، والثَّالثُ: أنَّهمُ المنافقون[1]؛ لأنَّ قوله: ﴿لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ﴾، لا يَليقُ بالمؤمنين، وكذلك خشية من غير اللّه تعالى، لا تليق بهم؛ لذلك فالقولُ الأخيرُ أشبَه بالسِّياق، وألزَمُ بالمصير إليه، لمَا هو معلومٌ من لسان حال المنافقين ومقالهم، في عديد منَ المَواقِف الَّتي ذكرَها بيانُ اللّه تعالى في كتابه الكريم.

أسلوبُ التَّوبيخ، والعطفُ، وأثرُهما في توضيح المعنى:

تأكيد التزام الأمر بالجهاد، وأنَّه لا يُنقَصُ لأحد ثواب

هذا جوابٌ عن قولهم: ﴿لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍۗ﴾ سواءٌ أكانَ قولُهم لسانيًّا، وهو بيِّنٌ، أم كان نفسيًّا؛ لِيَعلموا أنَّ اللّه أطلعَ رسولَه ﷺ على ما تُضمِرُه نفوسُهم، أي: أنَّ التَّأخير لا يفيد، والتَّعلُّقَ بالتَّأخير لاستبقاء الحياة لا يوازي حظَّ الآخرة، وبذلك يَبطُلُ ما أرادوا منَ الفتنة على قول: إنَّهم المنافقون بقولهم: أخَّرتَنا إلى أَجَلٍ قريب[2]. وتنكيرُ ﴿قَلِيلٌ﴾؛ للتّقليل والتّحقير، وإنَّما قِيلَ: ﴿لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾؛ حثًّا لهم على اتِّقاء العصيان، والإخلال بواجب التَّكليف، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾، عَطفٌ على مُقدَّرٍ يَنسحِبُ عليه الكلام، أي: تُجزَونَ ولا تُنقَصُونَ أَدنى شيء من أجور أعمالكم الَّتي مِن جُملتِها مَسعاكم في شأن القتال، فلا ترغبوا عنه[3]، وحلَّ هذا القولُ في مَوقِع زيادة التَّوبيخ الَّذي اقتضاه قوله: ﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾، أي: لا تُنقَصونَ شيئًا من أعماركم المكتوبة، فلا وَجهَ للخوف، وطلب تأخير فرض القتال.

حرّم الله الظّلم على نفسه، وحرّمه على عباده، لكيلا يظّالموا

دلالات نفي الظّلم عنِ الله، في قوله: ﴿وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾:

ويمكن أن يكون معنى نفي الظُّلم هنا، أنَّهم لا يُظلَمون بنقص

(1) ابن جرير، جامع البيان: 5/171، وابن الجوزيّ، زاد المسير: 2/134.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 5/127.
(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 1/738.

ثواب جهادهم، فيكونُ موقعُه مَوقعَ التَّشجيع؛ لإزالة الخوف، ويكونُ نصبُ ﴿فَتِيلًا﴾ على النِّيابة عنِ المفعول المطلق، ويمكن أن يكون المعنى: أنَّهم لا يُظلَمون بنقص أقلِّ زمن من آجالهم، ويَجيءُ على هذا التَّفسير أن يُجعَلَ ﴿تُظْلَمُونَ﴾ بمعنى تُنقَصون، كقوله تعالى: ﴿وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا﴾ [الكهف: 33]، أي: كلتا الجنَّتين من أُكُلها، ويكون ﴿فَتِيلًا﴾ مفعولًا به، أي: لا تُنقَصون من أعماركم ساعة، فلا مُوجِبَ للجُبن[1]، وتنكيرُها أفاد التّقليل والتّحقير، وفي قوله: ﴿وَلَا تُظْلَمُونَ﴾ قراءتان: الأُولى: بتاء الخطاب على أنَّه أمَرَ الرَّسولَ ﷺ أن يقوله لهم، والثَّانية: بياء الغَيبة على أن يكون ممَّا أخبرَ اللّه به رسوله ﷺ لِيبلِّغَه إليهم[2].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الكَفّ والإمساك والمنع:

الكَفُّ عنِ الفعل هو الامتناعُ عن مُوالاة الفعل، وإيجاده حالًا بعد حال، خلافُ الانبساط فيه، يُقال: كفَّ عنِ القتال، كما يُقال: كفَّ عن شرب الماء، وأصل الكَفِّ: الانقباضُ والتَّجمُّع، وتُعورِفَ الكفُّ بالدَّفع على أيِّ وجهٍ كان، وفيما تدعو الشَّهوة إليه، وفيما لا تدعو إليه[3]، والإمساك: حَبسُ النَّفس عنِ الفعل، ونَقيضُه الإرسال[4]، والمنعُ يكون عن إيجاد الفعل[5]، وليس يُضادُّ القَدرة؛ بل ليس يُسمَّى منعًا إلَّا إذا كان مع القُدرة، فليس هو منَ العَجز في شيء[6]، وهو يُستعملُ فيما له قصدٌ، وفيما ليس له قصدٌ، فيُقالُ: منعَ الحائطَ عنِ المَيل، مع أنَّ الحائطَ لا قصدَ له، ويُقالُ: منعَ الأبُ ابنَه منَ ارتكاب المعصية، وهذا فيه توجُّهٌ وقَصد[7]. وممَّا تقدَّم بيانُه، يظهرُ أنَّ استخدام البيان الإلهيِّ لفعل الأمر ﴿كُفُّوٓاْ﴾ أولى بالسِّياق من صاحبَيه (أمسِكوا) و(امنَعوا)؛ لأنَّ اللّه تعالى أَمرَهم أن يَقبِضوا أيديَهم عنِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 5/127.

(2) الأولى: قراءة الجمهور، والثَّانية: قراءة ابن كثير، وحمزة، والكِسائي، وخَلَف، وأبي جعفر، ورَوح عن يعقوب، ينظر: راجح، القراءات العشر المتواترة، ص: 90.

(3) الرّاغب، المفردات: (كف)، العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 517.

(4) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 517.

(5) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 516.

(6) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 352.

(7) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 311.

القتال، فلا يُقدِموا عليه بأيِّ وجه منَ الوجوه، وبأيِّ حالٍ منَ الأحوال، مع حُبِّ نفوسهم للقيام به، وتَلَهُّف قلوبهم للإسراع إليه، وهذه كُلُّها من معاني الكفّ.

(فُرِضَ) و(كُتِبَ):

الفَرضُ لغةً: الحَزُّ في الشَّيء، وهو أيضًا ما أَوجَبَه اللّه تعالى، سُمِّيَ بذلك؛ لأنَّ له معالمَ وحدودًا، وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿١١٨﴾﴾ [النِّساء: 118] أي: مُقتطعًا محدودًا. و(فَرَضَ) اللّه علينا كذا، و(افترضَ) أي: أَوجبَ، والاسمُ: الفريضة[1]، ولكنَّ البيان الإلهيّ استخدم الفعل ﴿كُتِبَ﴾ لمراعاة الأَصل في الكَتْب والكتابة، وهي الضَّمُّ للحروف بعضها إلى بعضٍ بالخطِّ واللَّفظ، مع شُمولِ الكلمة لدلالاتٍ عديدة، لا يَسَعُها الفعلُ (فُرِضَ)، كالإثبات، والتَّقدير، والإيجاب، والفَرض، والعَزم، والتَّحقُّق، وهذه كُلُّها تَصلُحُ في السِّياق، فأمرُ اللّه لهم بالقتال في سبيله مُثبتٌ، ومُقدّرٌ، وواجبٌ، ومُحقَّقٌ.

الخَشية والخَوف:

وأمَّا (الخَوفُ) فإنَّه توقُّعُ مكروه عن أَمَارةٍ مَظنونةٍ أو معلومة، فإذا تَيقَّنَ الضَّرَرَ لم يكن خائفًا من وقوعه[2]، والخوفُ يكون غالبًا من ضَعف الخائف، وإن كان المُخَوَّفُ أمرًا يَسيرًا، وشَيئًا هَيِّنًا، كما قد يكون عن تسلُّط بالقهر والإرهاب، كما قال تعالى: ﴿يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٠﴾﴾[3] [النَّمل: 10]، وإذا كانتِ الخشية أعلى مَرتبةً منَ الخوف؛ بل هي أشدُّ الخوف، وهي خوفٌ مَشوبٌ بتعظيم المَخشِيِّ، وإن كان الخاشي قويًّا[4]؛ عَلِمنا يقينًا أنَّ ما أتى به سياق النَّصّ القرآنيّ، هو الأَوجَبُ والأَوفى، من كلمة (الخوف)، أو أيِّ كلمةٍ أُخرى، يُظَنُّ أنَّها مرادفةٌ لها، فلا تُؤدِّي بدلَها المعنى كاملًا.

فأولئك الَّذين تَخاذَلوا عنِ الجهاد بعد طَلَبهم له، ما كان حُجَّتَهم إلَّا أنَّه أصابتهم رِعدةٌ من مواجهة أعدائهم، وهم أكثرُ منهم عَدَدًا، وأقوى عُدَّةً، وقد يكون الموت منهم قابَ قوسَين أو أَدنى، ولم يتسلَّل حينذاك إلى قلوبهم مجرَّدُ الخشية؛ بل يُصوِّرُ بيانُ اللّه

(1) ابن منظور، لسان العرب: (فرض).
(2) الجرجانّي، التَّعريفات، ص: 54.
(3) الزَّركشّي، البرهان: 4/78 - 79.
(4) الزّركشّي، البرهان: 4/78.

حالَهم في الخشية، فهي ليسَت كخَشيتِهم منَ اللّه فَحَسب؛ بل أشدَّ خشيةً من خشيتهم للّه، وهذه طامَّةٌ كبرى، وصاخَّةٌ عظمى.

الفَتيل والقِطمير:

وأمَّا القِطمير: فهو الفُوقَةُ الَّتي في النَّواة، وهي القِشرة الرَّقيقة الَّتي تحيط بها وتُغلِّفها[1]، كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمۡلِكُونَ مِن قِطۡمِيرٍ ١٣﴾ [فاطر: 13]، فالفَتيلُ الَّذي في شقِّ النَّواة، هو أصغر حجمًا منَ القِطمير الَّذي هو غلافُها، إضافةً إلى أنَّه ما يُفتَلُ بين الأصابع من خَيطٍ أو وَسَخ، ويُضرَبُ به المَثَلُ في الشَّيء الحقير[2]؛ ولذلك فاستخدامُ البيان الإلهيِّ لكلمة ﴿فَتِيلًا﴾ أَقوى دلالةً في تعبير سياق النَّصِّ القرآنيِّ من كلمة ﴿قِطۡمِيرٍ﴾، فأولئك الَّذين دَعاهم بيانُ اللّه للجهاد في سبيله لن يُظلَموا يوم القيامة، ولن يُنقَصوا من أُجور أعمالهم ومنها الجهاد شيئًا، ولو قَدْرَ ذاكَ الفتيل البسيط الَّذي في شِقِّ النَّواة.

(1) الفيروزآبادي، القاموس: (قَطْمَرَ).
(2) الرّاغب، المفردات: (فتل).

﴿أَيْنَمَا تَكُونُواْ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍۗ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَۚ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِۖ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٨﴾﴾ [النّساء: 78]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لا رجـــاء في الدّنيا، ولا فوت في الآخرة، وكلّ طارئ فمن الله بقضاء وقدر

لَمَّا قرَّر بيان اللّه في الآية السَّابقة، أنَّ الدُّنيا متاعٌ زائلٌ، وأنَّ الآخرةَ هي دار الخير والقرار، وذلك بعد أن خَشيَ بعض المؤمنين أو غيرُهم منَ المنافقين القتالَ خوفًا منَ الموت، جاء بيان اللّه هنا في هذه الآية الكريمة، ليضعَ النِّقاطَ على الحروف في شأن الموت الَّذي يَغشَى النَّاسَ جميعًا أينما كانوا، إضافةً إلى حقيقةٍ أُخرى، وهي أنَّ الحسنةَ والسَّيئةَ بخلق اللّه تعالى، وما على الإنسان إلَّا أن يفقهَ حديث القرآن في كلِّ ما يُسطِّرُه بيانُه الجليلُ من حقائق وأحكام هذا الدِّين العظيم، ومن غاب عنه ذلك، فهو من الذّين لا يفقهون حديثا.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ﴾: من درك، والإدراك: اللّحوق. يقال: مشيت حتّى أدركته، وعشت حتى أدركت زمانه. وأدركته ببصري، أي رأيته. وأدرك الغلام وأدرك الثمر، أي بلغ[1]، يُقالُ: أَدرَكتُ الشَّيءَ أُدرِكُه إدراكًا، إذا بَلَغْتَه. وتَدارَكَ القومُ: لَحِقَ آخِرُهُم أوَّلَهم، فأمَّا قوله تعالى: ﴿بَلْ أَدْرَكَ عِلْمُهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ﴾[2] [النّمل: 66] فهو من هذا؛ لأنَّ علمَهم أَدرَكَهم في الآخرة فلم يَنفعهم[3]، ورجلٌ درّاك: مدرك لما يرومه. قالت الخنساء:

(1) الجوهريّ، الصّحاح: (درك).
(2) على قراءة ابن كثير وأبي عمرو ويعقوب وأبي جعفر، ينظر: ابن الجزري، النشر: 339/2.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (درك).

اذْهَبْ فَلَا يُبْعِدَنْكَ اللهُ مِنْ رَجُلٍ *** دَرَّاكِ ضَيْمٍ وَطَلّابٍ بِأَوْتَارِ[1]

2) ﴿بُرُوجٍ﴾: (البُروجُ): منَ الفعل (بَرَجَ)، والباء والرَّاء والجيم أصلان: أحدُهما: البُروزُ والظُّهورُ، والآخرُ: الوَزَرُ والمَلجأُ، فمِنَ الأوَّلِ البَرَجُ: وهو سَعَةُ العين في شدَّة سوادِ سودِها وشدَّة بياض بياضِها، ومنه: التَّبرُّجُ، وهو إظهارُ المرأة محاسنَها، والأصل الثَّاني: وهو البُرجُ، واحدُ بُروج السَّماء، وأَصلُ البُروج الحصونُ والقصورُ، كما في الآية الَّتي معنا: ﴿وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾، ويُقالُ: ثوبٌ مُبَرَّجٌ: إذا كان عليه صُوَرُ البُروج[2]. والمعنى المراد بالآية: الحصون والقصور الظَّاهرة والبارزة، وهي كذلك مَلجَأ لمن يَسكنُها أو يأوي إليها.

3) ﴿مُّشَيَّدَةٍ﴾: (شَيَدَ) الشِّين والياء والدَّال أصلٌ واحدٌ، يدُلُّ على رفع الشَّيء، يُقالُ: شِدتُ القَصرَ أَشِيدُهُ شَيدًا، وهو قَصرٌ مَشِيدٌ، أي: مَعمولٌ بالشِّيد، وسُمِّيَ شِيدًا؛ لأنَّ به يُرفَعُ البناءُ، يُقالُ: قصرٌ مَشِيدٌ، أي: مُطوَّلٌ[3]، يُقَال: أشدتُّ الْبُنيان فَهُوَ مُشاد، وشيّدته فَهُوَ مُشيّد، إذا رفعتَه وأطلتَه، وَأمّا الْبناء المَشِيد، فَمن قَوْله تَعَالَى: ﴿وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾﴾ [الحجّ: 45]، فَإِنَّهُ من غير الْمُشيّد، هَذَا هُوَ الَّذِي بُنِيَ بالشّيد - وَهُوَ الجصّ -[4]، قال الشّاعر:

شَادَهُ مَرْمَرًا وَجَلَّلَهُ كِلْسًا *** فَلِلطَّيْرِ في ذُرَاهُ وُكُورُ[5]

4) ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ﴾: صاب: يَصيبُ، مُصيبَةٌ، ومَصوبَةٌ، ومُصابَةٌ، والجمعُ: مَصايِبُ، ومَصَاوِبُ، وهو الأمر المكروه يَنزِل بالإنسان. ويُقالُ: صابَ السَّهمُ من باب: باعَ، لغةٌ في (أصابَ)[6]. والمصيبةُ: ما يلائمُ الطَّبع كالموت ونحوه[7]. وهي اسمٌ لكلِّ ما يَسوءُ الإنسان[8]، والمصيبة تضادّ النّعمة، فهي يعبّر بها عن كلّ ما يسوء من الطّوارئ، ممّا ينال الإنسان في

(1) الزمخشريّ، أساس البلاغة: (درك).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (برج).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (شيد).
(4) الهرويّ، غريب الحديث: (شيد).
(5) الزّبيديّ، تاج العروس: (شيد).
(6) ابن منظور، لسان العرب: (صوب).
(7) الجرجانّي، التّعريفات: 1/278.
(8) المناويّ، التّعاريف: 1/660.

نفسه وبدنه وأحواله، وهي من الألفاظ الّتي تصلح للحالتين، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِن تُصِبۡهُمۡ حَسَنَةٞ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةٞ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنۡ عِندِكَۚ﴾ [النّساء: 78]، فاستعمل البيان القرآنيّ الفعل ﴿تُصِبۡهُمۡ﴾ مع الحسنة والسيّئة، بنفس الصّيغة[1].

5) ﴿يَفۡقَهُونَ﴾: من(فَقَهَ): الفاء والقاف والهاء، أصلٌ واحدٌ صحيحٌ، يدلُّ على إدراك الشَّيء والعلم به، تقولُ: فَقِهتُ الحديثَ أَفقَهه، وكلُّ عِلمٍ بشيء فهو فِقهٌ، ثمَّ اختصَّ بذلك علمُ الشَّريعة، فقيلَ لكلِّ عالمٍ بالحلال والحرام: فَقيهٌ. وأَفقَهتُكَ الشَّيءَ: إذا بَيَّنتُه لك[2]، والفقه: العلم في الدّين. يقال: فقُه الرّجلُ يَفقُه فِقهًا، فهو فقيه، وفَقِهَ يَفقَهُ فِقهًا إذا فهم، وأفقهته: بيّنت له، والتّفقّه: تعلّم الفقه[3].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

يخاطبُ اللّه ﷻ عبادَه، فيقولُ لهم: إنَّكم صائرون إلى الموت لا محالة، ولا ينجو منه أحدٌ منكم، حتَّى لو كنتُم في قصورٍ مَنيعة، ومنازلَ مشيّدة رفيعة[4]، وفي هذا ترغيبٌ في الجهاد في سبيل اللّه، فلا ينفعُ القاعدين عنِ الجهادِ قُعودُهم، ولا يَزيدُ في أجلهم تركُهُم للجهاد، ثمَّ يُخبرُ اللّه عنِ المعارضين لرسله، أنَّهم كانوا إذا جاءَهم خَصبٌ وكَثرةُ أموال وأَولاد، قالوا: هذه من عند اللّه، وإذا أصابَهم جَدبٌ، وفقرٌ، ومرضٌ، وموتُ أولادٍ وأحباب، قالوا: هذا بسبب ما جِئتَنا به يا محمَّدُ ﷺ ، يَطَّيَّرون به ﷺ [5]، ولكنَّ اللّه يُجيبُهم في بيانه الجليل، فيقول لهم: إنَّ الحسنة والسَّيئة، والخير والشَّرّ بقضاء

لا منجى من القدر مهما كانت الحصون، وإذا أراد الله فلا فرار من المنون

(1) الزَّبيدي، تاج العروس: (حسن).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (فقه).
(3) الخليل، العين: (فقه).
(4) النَّحاس، معاني القرآن: 2/134.
(5) هذا ما كان عليه المنافقون واليهود، وما قالوه لمَّا قدِمَ رسولُ الله ﷺ المدينة، ينظر: ابن جرير، جامع البيان: 5/174، وابن أبي حاتم، تفسير القرآن العظيم: 3/1008.

اللّه وقَدَره، ويُوبِّخُهم على عدم فهمهم وإدراكهم لحقائق تلك الأمور الَّتي ما كانَت لولا كفرُهم باللّه، وإعراضُهم عن شريعته[1].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

تلوين الخطاب بالالتفات، وأثرُه في جلاء المعنى ودقَّة الدّلالات:

تـأكـيـدُ أهـميَّـة الآخـــرة، وأنَّ المـــوت حقيقة لازمة لازِبة

كلامٌ مبتَدأ مَسوقٌ من قبله تعالى، بطريق تلوين الخطاب، وصَرفِه من رسول اللّه ﷺ إلى المُخاطَبين؛ بطريق الالتفات، اعتناءً بإلزامهم إثرَ بيان حقارة الدُّنيا، وعُلُوِّ شأن الآخرة بواسطته[2] ﷺ، وهو يخاطبهم بقوله: "أينما تكونوا في الحضَر والسّفرِ، يدرِكْكم الموتُ الّذي لأجله تكرهون القتالَ، زعمًا منكم أنّه من مظانِّه، وتُحبُّون القعودَ عنه على زعم أنّه مَنْجاةٌ منه"[3]، و"لمّا أخبر أنّ الحذر لا يغني من القدر، أتبع ذلك بالالتفات إلى الغيبة، إعراضًا عن خطابهم ببعض غضب؛ لأنّهم جمعوا إلى الإخلال بتعظيمهم للّه تعالى، الإخلال بالأدب مع الرّسول ﷺ الّذي أرسله ليطاع بإذن اللّه، فقال: فإن أصابتهم حسنة، أي شيء يعجبهم، ويحسن وقعه عندهم، من أيّ شيء كان، قالوا هذه من عند اللّه، أي الّذي له الأمر كلّه، وإن أصابتهم سيّئة، ممّا يسوؤهم، قالوا هذه من عندك، أي من جهة حلولك في هذا البلد، تطيّرًا بك. قال البقاعيّ: "ولما كان هذا أمرًا فادحًا، وللفؤاد محرقًا وقادحًا، سهّل عليه بقوله: ﴿قُلْ كُلٌّ﴾ أي من السّيئة والحسنة في الحقيقة دنيويّة كانت أو أخرويّة ﴿مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾"[4].

أسلوب الشّرط، وأهميّته في قوله: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُواْ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ﴾:

لن ينقص الأجل خوض الحروب، ولا معالجة الخطوب

﴿أَيْنَمَا﴾ اسم شرط جازم في محلّ نصب على الظّرفية المكانيّة

(1) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 146 - 147.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/204.
(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/204.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 5/335.

متعلّق بمحذوف، خبر تكونوا المقدّم إذا كانت ناقصة أو بجواب الشّرط إذا كانت تامّة، وتكونوا فعل الشّرط، والواو فاعل، أو اسم تكونوا، و﴿يُدۡرِكۡكُّمُ ٱلۡمَوۡتُ﴾ جواب الشّرط[1]، و(ما) يَكثرُ دخولُها على (أين) الشَّرطيَّة، لتُقوِّيَ معناها في الشَّرط، ويجوز حذفها[2]، ويمكن أن يكون قوله: ﴿أَيۡنَمَا تَكُونُواْ﴾ قد وقع موقعَه (أينما كنتُم)، أو على أنَّه كلامٌ مُبتدَأ، و﴿أَيۡنَمَا تَكُونُواْ﴾ مُتَّصلٌ بـ﴿وَلَا تُظۡلَمُونَ﴾، أي: لا تُنقَصونَ شيئًا ممَّا كُتِبَ من آجالكم أينما تكونوا في ملاحم الحروب، ومعارك الخطوب، وفي لفظ (الإدراكِ) إشعارٌ بأنَّهم في الهرب منَ الموت، وهو مُجِدٌّ في طلبهم[3].

الوجوه المُحتمَلة لأداة الشّرط (لو)، في قوله: ﴿وَلَوۡ كُنتُمۡ فِي بُرُوجٖ مُّشَيَّدَةٖۗ﴾:

حـــدوث المـوت مـــع وجـــود المانع، دليل على حدوثه مع عدم وجود المانع

الأوَّل: أداةُ شَرط، وجوابُها محذوف، دلَّ عليه ما قبله؛ أي: ولو كنتُم في بُروجٍ مُشيَّدةٍ يدرِكُكُمُ الموت، والجملةُ معطوفةٌ على جملة مثلها؛ أي: لو لم تكونوا في بروجٍ مُشيَّدة، ولو كنتُم في بروج مُشَيَّدة. وقدِ اطَّردَ حذفُها لدلالة المذكور عليها دلالةً واضحة، فإنَّ الشَّيء إذا تحقَّقَ عند وجود المانع، فَلَأن يتحقَّقَ عند عَدَمِه أَولى، و(لو) فَلَأن يتحقَّقَ عند عَدَمِه أَولى[4]، والثَّاني: أنَّ (لو) بمعنى (إنْ)؛ أي: وإن كنتُم[5]

دلالة الابتداء وحكاية كلام الغائب عنِ المُخاطَب للمُخاطَب:

معاناة الرّسول بالتّشاؤم به، وإســـناد ما يكرهون له

هذا كلامٌ مُبتدأ، جِيءَ به عَقِبَ ما حكى عنِ المسلمين لمَا بينهما منَ المناسبة في اشتمالهما على إسناد ما يكرهونه إلى بعض الأمور، وكراهتهم له بسبب ذلك، والضَّمير يعود إلى المنافقين واليهود، وذلك أنَّهم قالوا: لمَّا قَدِمَ رسول الله ﷺ المدينة: "ما زِلنا

(1) درويش: إعراب القرآن وبيانه: 5/335.
(2) العكبريّ، التبيان: 1/187.
(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/204.
(4) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 1/739.
(5) العكبريّ، التبيان: 1/187.

نَعرِفُ النَّقص في ثمارنا ومزارعنا منذُ قَدِمَ علينا هذا الرَّجلُ ﷺ وأصحابُه "، فأنزل الله تعالى: ﴿وَإِن تُصِبۡهُمۡ﴾، يعني: اليهودَ والمنافقين ﴿حَسَنَةٞ﴾ أي: خَصبٌ، وريفٌ، ورُخصٌ في السِّعر ﴿يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ﴾ لنا، ﴿وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةٞ﴾ أي: جَدبٌ، وغلاءُ الأسعار، وقَحطُ المطَر﴿يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنۡ عِندِكَۚ﴾ أي: شُؤمُ محمَّد ﷺ، وأصحابه[1] ﷺ، والإتيانُ بكاف الخطاب في قوله: ﴿عِندِكَۚ﴾، من قَبيل حكاية كلامهم بحاصل معناه، على حَسَبِ مقام الحاكي والمَحكِيِّ له، وهو وجهٌ مَطروقٌ في حكاية كلام الغائب عنِ المُخاطَب إذا حكى كلامَه لذلك المُخاطَب[2].

الإجمال بالشّرط في قوله تعالى: ﴿وَإِن تُصِبۡهُمۡ حَسَنَةٞ﴾ ﴿وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةٞ﴾:

ما أصاب من نعمة أو بليّة فمن الله لا من سواه

و﴿مَّآ﴾ في قوله: ﴿مَّآ أَصَابَكَ﴾ هي الشَّرطيَّة، و﴿أَصَابَكَ﴾ بمعنى يُصيبُك، والجواب ﴿فَمِنَ ٱللَّهِۖ﴾، ولا يَحسُنُ أن تكون بمعنى (الَّذي)؛ لأنَّ ذلك يقتضي أن يكون المصيب لهم ماضيًّا مُخَصّصًا، والمعنى على العموم، والشَّرط أَشبَه، والتَّقديرُ: فمِنَ الله[3]، والفاء دلّت على محذوف تقديره: فإصابتك منَ الله، وقوله تعالى: ﴿قُلۡ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ﴾ أي: كلُّ واحدةٍ منَ النِّعمة والبَليَّة من جهة الله تعالى، خلقًا وإيجادًا من غير أن يكون لأحد مَدخلٌ في وقوع شيء منهما بوجه منَ الوجوه كما تزعمون؛ بل وقوعُ الأُولَى منه تعالى بالذَّات تَفضُّلًا، ووقوعُ الثَّانية بواسطة ذنوب مَن ابتُلِيَ بها عقوبة، وهذا الجواب المُجمَلُ منه ﷻ في معنى ما قيل ردًّا على أسلافهم من قوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمۡ عِندَ ٱللَّهِ﴾ [الأعراف: 131]، أي: إنَّما سببُ خيرِهم وشَرِّهم، أو سببُ إصابة السَّيِّئة الَّتي هي ذنُوبُهم عند الله، لا عند غيره، حتَّى يُسنِدُوها إليه ويَطَّيَّروا به[4].

(1) وهو قول ابن عبّاس ﷺ، ينظر: ابن جرير، جامع البيان: 5/174، وابن أبي حاتم، تفسير القرآن العظيم: 3/1008.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 5/130.
(3) العكبريّ، التبيان: 1/188.
(4) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 1/740.

تعلَّقَ فعلُ الإصابة بالحسنة والسَّيِّئة، في الآية الكريمة:

لفظ الإصابة بيان لحال الكَفَرَة، وإظهار لكمال السُّخط والغضب عليهم

لقد تعلَّقَ مفهوم فعل الإصابة، بالحسنة والسَّيِّئة؛ ذلك أنَّ المراد بهما هنا ما تعارفَه العربُ من قَبلِ اصطلاح الشَّريعة، بما هو فعلٌ مُلائمٌ وفعلٌ مُنفِّر، وهذا كما في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَٰذِهِۦۖ وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةٞ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓۗ﴾ [الأعراف: 131]، والإصابةُ: حُصولُ حال أو ذات في ذات، يُقالُ: أصابَه مرضٌ، وأصابَته نعمةٌ، وأصابَه سَهمٌ، وهي مُشتقّةٌ من اسم الصَّوب الَّذي هو المطر؛ ولِذلك كان ما يتصرّفُ منَ الإصابة مُشعِرًا بحصول أمر مُفاجىء أو قاهر، وجيءَ في حكاية قولهم: ﴿يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ﴾، و﴿يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنۡ عِندِكَۚ﴾ بكلمة (عند)؛ للدَّلالة على قُوَّة نسبة الحسنة إلى الله، ونسبة السَّيِّئة للنَّبيّ ﷺ؛ أي: قالوا ما يُفيدُ جَزمَهم بذلك الانتساب، ولمَّا أمرَ اللهُ رسولَه ﷺ أن يُجيبَهم، قالَ: ﴿قُلۡ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ﴾؛ مُشاكلةً لقولهم، وإعرابًا عن التَّقدير الأزَليِّ عند الله، أمَّا الحسنةُ والسَّيِّئةُ بالاصطلاح الشَّرعيِّ، وهو يعني ما يتعلَّق بالفعل المُثاب عليه والفعل المُعاقَب عليه، فلا مَحمَلَ لهما هنا؛ إذ لا يكونان إصابتَين، ولا تُعرَفُ إصابتُهما؛ لأنَّهما اعتباران شرعيَّان[1]، وجاء الخطاب في فعل الإصابتَين للحسنة والسَّيِّئة لرسول الله ﷺ، لا لبيان حاله ﷺ؛ بل لبيان حال الكَفَرَة بطريق التَّصوير، ولعلَّ ذلك لإظهار كمال السُّخط والغضب عليهم، والإشعار بأنَّهم لفَرْط جَهلهم وبلادَتهم بمَعزِلٍ عنِ استحقاق الخطاب، ولا سيَّما بمثل هذه الحكمة الأنيقة[2].

إفـــادة نظـم السِّياق المبالغةَ في ذمِّ اليهود والمنافقين

فعل المُقاربة، وأثره في توضيح المعنى، في قوله: ﴿لَا يَكَادُونَ يَفۡقَهُونَ حَدِيثٗا﴾:

قوله: ﴿لَا يَكَادُونَ﴾ يجوز أن يكون جاريًا على نَظائره من اعتبار القلب، أي: يكادون لا يَفقهون، كما في قوله تعالى: ﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 5/130 - 134.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 1/742.

كَادُواْ يَفۡعَلُونَ ﴿٧١﴾ [البقرة: 71]، فيكون فيه استبقاءٌ عليهم في المذَمَّة، ويجوز أن يكون على أصل وضع التَّركيب، أي: لا يُقارِبون فَهمَ الحديث الَّذي لا يَعقِلُه إلَّا الفُطناء، فيكون أشدّ في المذَمَّة[1]، وقوله: ﴿لَا يَكَادُونَ﴾ حال. واللَّامُ في قوله: ﴿فَمَالِ﴾ ليسَت مَوضِع وقفٍ، وهي في التَّحقيق مُتَّصلةٌ بـ ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾، وهي خبرُ المبتدأ[2]، وتنكير لفظ ﴿حَدِيثٗا﴾ قد يفيد التّعميم، أي: لا يفقهون أيّ نوع منَ الحديث مهما كان.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الإدراك واللَّحاق:

يقال: تدارك القوم، أي تلاحقوا، أي لحق آخرهم أوّلهم. ومنه قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعٗا﴾ [الأعراف: 38]، وأصله تداركوا[3]، وأمَّا اللَّحاق فهو بمعنى الإدراك، يُقالُ: لَحِقتُه، ولَحِقتُ به: أدركتُه، قال تعالى: ﴿وَءَاخَرِينَ مِنۡهُمۡ لَمَّا يَلۡحَقُواْ بِهِمۡۚ﴾ [الجمعة: 3]. ويُقالُ: ألحقتُ كذا، وأَلحقُه بمعنى لَحِقَه[4]، وألحقه أيضا، بمعنى لحقه. وفي الدّعاء: "(إنّ عذابك بالكفّار مُلحِق)، بكسر الحاء، أي لا حقٌّ، والفتح أيضا صواب[5]، وممَّا سبق من بيان دَرَك الشَّيء، بأنَّه اللَّحاقُ به، والوصولُ إليه، بحيثُ يبلُغُه ولا يَفوتُه - أدركنا دقَّةَ المعنى في استخدام البيان الإلهيِّ، لكلمة ﴿يُدۡرِككُّمُ﴾ بدل (يَلحقكُم).

البروج المشيّدة، والقصور المَبنيَّة:

سبق في معنى البُروج المشيَّدة، أنَّها الحصون والقصور البارزة الظَّاهرة، المرفوعة البناء المطوَّلة في إشادتها[6]، وفي لسان العرب: "قال الفرّاء: اختلفوا في البروج، فقالواْ: هي النّجوم، وقالوا: هي البروج المعروفة اثنا عشر برجا، وقالوا: هي القصور في السّماء"[7]، قال الكفويّ: "كلّ ما في القرآن من ذكر البروج، فهو الكواكب إلّا ﴿وَلَوۡ كُنتُمۡ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 5/133.
(2) العكبريّ، التبيان: 1/188.
(3) الجوهريّ، الصّحاح: (درك).
(4) الرّاغب، المفردات: (لحق).
(5) الجوهريّ، الصّحاح: (لحق).
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (برج) - (شيد).
(7) ابن منظور، لسان العرب: (برج).

فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍۗ﴾، فإن المراد بها القصور الطوال الحصينة"[1]، وعبارة ﴿بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍۗ﴾ آثر في هذا السّياق القرآنيّ، وهذه المعاني الدّقيقة، لا تعطيها عبارة (قصورٍ مَبنيَّة).

(تُصيبُهم) و(تَمسُّهم):

وأمَّا المسُّ: فهو أقلُّ تَمكُّنًا منَ الإصابة، وكأنَّه أقلُّ درجاتها[2]؛ ولِذلك كانَت أَوقعَ أَثرًا في سياق النَّصِّ القرآنيّ، وهو يُحدِّثنا عن أولئك الَّذين إن تمكَّنتِ الحسنة منهم، أو حلَّت بهم المصيبة، يَنحرِفون عنِ المقصد الأساس في عقيدتِهم الصَّحيحة باللّه، فمَن آمنَ باللّه حقَّ الإيمان لا يُحيلُ الحسنة إليه، ويَصرِفُ السَّيِّئة لرسوله ﷺ؛ لأنَّ الإيمان برسول اللّه ﷺ إيمانٌ باللّه، والإساءةَ لرسول اللّه ﷺ إساءةٌ للّه ﷻ؛ ولِذلك أردفَ بيانُ اللّه؛ فقال ﷻ: ﴿قُلۡ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ﴾.

(يفقهون) و(يعلمون):

وأمَّا العلم فهو من عَلِمَ الشَّيءَ يَعلمُه عِلمًا: عَرَفَه، وهو اعتقاد الشَّيء على ما هو به على سبيل الثِّقة، كان ذلك بعد لَبْسٍ أم لا[3]، وأولئك الَّذين انحرفَت وِجهتُهم عنِ العقيدة السَّليمة في حقيقة قضاء اللّه وقدره، حتَّى قال اللّه تعالى: ﴿قُلۡ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ﴾، كان منَ الأجدَر أن يُناسب هذا السِّياقَ إجراءُ الفعل ﴿يَفۡقَهُونَ﴾ مُصَدَّرًا بالنَّفي، الَّذي يدلُّ على عدم علمهم بشريعة اللّه، وخاصَّةً في قضيَّةٍ عقَديَّةٍ مرتبطةٍ بركن من أركان الإيمان؛ وهي الإيمان بالقضاء والقَدَر خَيرِه وشَرِّه. فهي ليسَت مجرَّدَ علمٍ قد يأتي بعد لَبْسٍ أو عدمه؛ بل بأمر مهمٍّ يحتاج إلى إدراك عميق، وفقه دقيق.

(1) الكفويّ، الكليات: (برج).
(2) ابن المنيِّر، الانتصاف: 459، والفيروزآبادي، القاموس: (مسس).
(3) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 371، والفيروزآبادي، القاموس: (علم).

﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنۡ حَسَنَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٖ فَمِن نَّفۡسِكَۚ وَأَرۡسَلۡنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولٗاۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدٗا ٧٩﴾ [النِّساء: 79]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

العلاقة بين كون المقدور من الله، وتذكير الرّسول بأنّ الذّنوب من معاصي العباد

لمَّا بيَّن الله ﷻ في الآية السَّابقة أنَّ الَّذين يُسنِدُون الحسنة إلى الله، والسَّيِّئة لرسوله ﷺ لا يَملِكون الفَهم الصَّحيح حيال هذه المسألة المُهمَّة من مسائل العقيدة السَّديدة، جاء بيان الله في هذه الآية الكريمة ليُقرِّرَ ما غَفَل عنه أولئك اليهود والمنافقون من أنَّ الحسنة تكون بخلق الله وتقديره، وأنَّ السَّيِّئة تُصيبُ العبد بسبب ذنوبه، وإنْ كانَت بخلق الله وتقديره كذلك؛ ولذلك أرسل الله رسوله ﷺ للنّاس كافَّةً لِيُعلِّمَهم هذه الحقيقة وغيرها منَ الحقائق، ويكفي أنَّ الله تعالى هو الَّذي يَشهدُ بذلك كلِّه.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿رَسُولٗاۚ﴾: أصلُ الرَّسلِ: الانبعاثُ على التُّؤَدَة، ويُقالُ: ناقةٌ رِسلَةٌ: سَهلةُ السَّير، وإبِلٌ مَراسيلُ: مُنبعثةٌ انبعاثًا سَهلًا، ومنه الرَّسولُ المُنبَعِث، وتُصُوِّرَ منه الانبعاث، فاشتُقَّ منه الرَّسول، والرَّسولُ تارةً يُقالُ للقول المُتَحمَّل، وتارةً لِمُتَحمِّل القول والرِّسالة، والرَّسولُ يُقالُ للواحد والجمع، قال تعالى: ﴿لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ﴾ [التَّوبة: 128]. وللمثنّى: ﴿فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٦﴾ [الشُّعراء: 16]. وجمعُ الرَّسولُ رُسُلٌ. وقولُه تعالى: ﴿وَمَا نُرۡسِلُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَۖ﴾ [الأنعام: 48] محمولٌ على رُسُله منَ الملائكة والإنس. وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ﴾ [المؤمنون: 51] عُنيَ به الرَّسولُ وصفوةُ أصحابه، فسمَّاهم رُسلًا؛

لضمِّهم إليه[1]. وقوله تعالى: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُواْ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ﴾ [الفرقان 37]، قال الزّجاجُ يَدُلُّ هذا اللّفظ أنّ قَوْمَ نُوحٍ قد كذَّبوا غير نُوح (عليه السلام) بقَوْلِه الرُّسُلَ، ويجوز أن يُعْنَى به نُوحٌ وحده؛ لأنَّ من كذَّب بِنَبِيٍّ فقد كذَّب بجميعِ الأنبياءِ لأنّه مُخالِفٌ[2].

2) ﴿وَكَفَىٰ﴾: الكفايةُ: ما فيه سَدُّ الخَلَّة، وبلوغ المراد في الأمر، قال تعالى: ﴿وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ﴾ [الأحزاب: 25]، والكُفيَةُ منَ القُوت: ما فيه كِفايةٌ، والجمعُ: كُفًى، ويُقالُ: كافيكَ فلانٌ من رَجُل، كقولك: حَسبُكَ من رَجُل[3]، وقوله في الآية الَّتي معنا: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ أي: كَفَى اللّه شَهِيدًا، ويمكن أن يكون معناه: اكتفِ باللّه شهيدًا[4]، وَقَدْ كَفَى كِفَايَةً، إِذَا قَامَ بِالْأَمْرِ. وَالْكُفْيَةُ: الْقُوتُ الْكَافِي، وَالْجَمْعُ كُفًى، وَيُقَالُ: حَسْبُكَ زَيْدٌ مِنْ رَجُلٍ، وَكَافِيكَ[5]، قال الشّاعر ذو الرّمّة:

أَعَاذِلُ قَدْ جَرَّبْتُ فِي الدَّهْرِ مَا كَفَى *** وَنَظَّرْتُ فِي أَعْقَابِ حَقٍّ وَبَاطِلِ[6]

3) ﴿شَهِيدًا﴾: الشَّهِيدُ[7]: واحد الشّهداء من النّاس، قال اللّه تعالى: ﴿وَٱسْتَشْهِدُواْ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ﴾ [البقرة: 282][8]، ولفظ (شَهِدَ): الشِّين والهاء والدّال، أصلٌ يدلُّ على حضورٍ وعلمٍ وإعلام، لا يَخرجُ شيءٌ من فروعه عنِ الَّذي تقدَّم، من ذلك الشَّهادة، يجمعُ الأصولَ السَّابقة جميعَها، يُقال: شَهِدَ يَشهَدُ شهادةً، والمَشهَدُ: مَحضَرُ النَّاس، وأمّا قوله تعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [آل عمران: 18]، فمعناه: أَعلَمَ اللّهُ (عز وجل)، بيَّنَ اللّهُ، كما يُقالُ: شهدَ فلانٌ عند القاضي؛ إذا بيَّنَ وأعلَمَ لِمَن الحقُّ، وعلى مَن هو[9]، والمعنى هنا قال فيه بعض المفسّرين: بأنّه ثمرة الآية، وهو ردّ التّطيّر والتّشاؤم بالنّبيّ (صلى الله عليه وسلم)، قال أبو السّعود: "أي: فمن أين يتصوّر لك الشّؤم، وقد أرسلت داعيا العموم إلى الخيرات؟

(1) الرّاغب، المفردات: (رسل).
(2) ابن سيده، المحكم: (رسل).
(3) الرّاغب، المفردات: (كفي).
(4) الزَّجّاج، معاني القرآن: 2/57.
(5) الزَّجّاج، معاني القرآن: 2/57.
(6) ديوان ذي الرّمة، ص: 501، وكذلك الخليل، العين: (كفي).
(7) "ولغة تميم: شِهِيد: (بكسر الشّين)، يكسرون فعيلا في كلّ شيء كان ثانيه أحد حروف الحلق، وكذلك: سفلى مضر، ولغة شنعاء، يكسرون كلّ فعيل، والنّصب: اللّغة العالية". [ينظر: الخليل، العين: (شهد)].
(8) نشوان الحِميري، شمس العلوم: 6/3566.
(9) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (شهد).

فأنت منشأ كلّ خير ورحمة، وَكَفى بِاللَّهِ شَهِيدًا، أي: على رسالتك وصدقك، بإظهار المعجزات على يديك"[1]، ومن شهد له الله، فكفى بشهادته شهادة.

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

بيـــان أنّ الحسنات من الله، والسّيّئات من النّفس، وأنّ الله على بلاغ الرّسول شهيد

أخبر الله تعالى في هذه الآية الكريمة، من كتابه المجيد، أنَّ ما أصابَ العبدَ من خيرٍ في دينه ودنياه، فمنَ الله الَّذي يسَّرَه بتيسير أسبابه ومَنَّ به، وما أصابَ العبدَ من ضُرٍّ في دينه ودنياه، فبسبب ذنوبه وكسبه، ثمَّ أخبرَ ﷻ عن عموم رسالة رسوله ﷺ، وأنَّه رسولُ الله حقًّا وصدقًا، وبشهادة الله تعالى، وكفى بها من شهادة[2].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

أسلوب الشَّرط، وأثره في تجليّة المعنى المراد:

الخيرُ منَ الله، والشَّرُّ من ذنوب العباد، والكلُّ بقدر الله وتدبيره

قوله: ﴿مَّآ أَصَابَكَ﴾، ﴿مَّآ﴾ شرطيَّة، و﴿أَصَابَكَ﴾ بمعنى: يُصيبُك، وجوابُ الشَّرط ﴿فَمِنَ ٱللَّهِ﴾، ولا يَحسُنُ أن تكون ﴿مَّآ﴾ بمعنى (الَّذي)؛ لأنَّ ذلك يقتضي أن يكون المصيبُ لهم ماضيًا مُخصّصًا، والمعنى على العموم، والشَّرط أشبَه، والتَّقدير: فهو منَ الله، والفاء في المَوضِعين أفصحت عن محذوف تقديره: فإصابتك منَ الله، وفي الثّانية: فإصابتك من نفسك، ولم يَقُل: (ما أصَبتَ)؛ لأنَّ المراد بالآية الخَصبُ والجدب[3]، ولم يُورد بيانُ الله في هذه الآية كلمةَ (عند) كسابقتها، إيماءً إلى أنَّ ابتداءَ مجيء الحسنة منَ الله، ومجيءِ السَّيِّئة من نَفس المُخاطَب - ابتداءُ المُتسبِّبِ لسبب الفعل، وليس ابتداءَ المُؤثِّر في الأثر[4].

(1) القاسميّ، محاسن التّأويل: 3/231.
(2) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 147.
(3) العكبريّ، التبيان: 1/188.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 5/134.

العطف وأثره في إثراء المعنى، في قوله: ﴿وَأَرۡسَلۡنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولٗاۚ﴾:

هذه الآية عطفٌ على قوله: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنۡ حَسَنَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٖ فَمِن نَّفۡسِكَۚ﴾، وهو رَدٌّ مُفحِمٌ على قولهمُ المُنحرِف: السَّيِّئَةُ من عند محمَّد ﷺ ؛ أي: أنَّك بُعِثتَ مُبَلِّغًا شريعةً وهاديًا، ولستَ مُؤثِّرًا في الحوادث، ولا تدلُّ مقارنةُ الحوادث المُؤلمة على عدم صدق الرِّسالة. ومعنَى ﴿وَأَرۡسَلۡنَٰكَ﴾ بعثناك؛ كقوله تعالى: ﴿وَأَرۡسَلۡنَا ٱلرِّيَٰحَ﴾ [الحِجر: 22]، وهذا هو المُراد بالرَّسول هنا، أي: معناه الشَّرعيُّ، فهو لفظٌ لقَبيٌّ دالٌّ على هذا المعنى؛ ولذلك جاء هذا الخطاب الجليل لبيان جلالة منصبه ﷺ ، ومكانته الرَّفيعة عند الله ﷻ، بعد بيان بطلان زعمِهمُ الفاسد في حقِّه ﷺ ، بناءً على جَهلهم بشأنه الجليل، وقوله: ﴿لِلنَّاسِ﴾ مُتعلِّق بـ ﴿وَأَرۡسَلۡنَٰكَ﴾[1].

إرسال الرّسول تشريف لمكانته، وتبريزٌ لرسالته، وتأكيد لجلالة قدره

دلالة الاستغراق في تعريف لفظ النّاس في قوله: ﴿وَأَرۡسَلۡنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولٗاۚ﴾:

وجاء تعريف ﴿لِلنَّاسِ﴾ للاستغراق، والجارُّ هنا إمَّا مُتعلِّقٌ بـ﴿رَسُولٗا﴾، وقد قُدِّمَ عليه للاختصاص النَّاظر إلى قَيد العموم، أي: مُرسَلًا لكلِّ النَّاس لا لبعضهم فقط، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ﴾ [سبأ: 28][2]، وإمَّا أنَّ الجارَّ مُتعلِّقٌ بالفعل، فـ﴿رَسُولٗا﴾ عندئذٍ حال مؤكَّدَة، وقد جُوِّزَ أن يكون مصدرًا مؤكَّدًا[3]، والمراد بالرّسول هنا معناه الشّرعيّ المعروف عند أهل الأديان، وهو المبلّغ عن الله تعالى، وليس المراد به اسم المفعول بالمعنى اللّغويّ (المرسل بالرّسالة)، قال ابن عاشور: "أي بعثناك مبلّغا لا مؤثّرا في الحوادث، ولا أمارة على وقوع الحوادث السّيئة. وبهذا يزول إشكال مجيء هذه الحال غير مفيدة إلّا التّأكيد، حتّى احتاجوا

الرّسول مبلّغٌ لهداية الله، لا مؤثّر في الحوادث الّتي يسيّرها الله

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 5/134.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 1/742.
(3) العكبريّ، التبيان: 1/188.

إلى جعل المجرور متعلّقا بـــ ﴿رَسُولًا﴾، وأنّه قُدّم عليه دلالة على الحصر، باعتبار العموم المستفاد من التّعريف، كما في (الكشّاف)، أي لجميع النّاس لا لبعضهم، وهو تكلّف لا داعي إليه، وليس المقام هذا الحصر[1].

أثر التّذييل البلاغيّ في جلاء المعنى وترسيّته:

قوله: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾، أي: على رسالتك، بِنَصب المعجزات الَّتي من جُملتها هذا النَّصُّ النَّاطق، والوحيُ الصَّادق، وقوله: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ﴾ مضمّن معنى: اكتفِ بالله، وجاء الالتفاتُ في الخطاب لتربّية المهابة، وتَقوية الشَّهادة، والجملةُ اعتراضٌ تَذييليّ[2].

من شهد له الله، لم يحتج إلى شهادة سواه

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الرَّسول والنَّبيّ:

الفرق بينهما: أنَّ النَّبيَّ هو منَ الإنباء عنِ الشَّيء، وقد يكون من غير تحميل النَّبَأ، والإرسالُ لا يكونُ بتَحميل، وكذلك فالنُّبُوَّةُ يَغلِبُ عليها الإضافةُ إلى النَّبيّ، فيُقالُ: نُبوَّةُ محمَّدٍ ﷺ؛ لأنَّه يستحقُّ فيها الصِّفةَ الَّتي هي طريقة الفاعل، والرِّسالةُ تضاف إلى رسول الله؛ لأنَّه المُرسَلُ بها؛ ولهذا قال: برسالتي، ولم يقل: بنبوَّتي. والفرق الجوهريّ من حيثُ الاصطلاحُ الشَّرعيّ: أنَّ الرَّسول الَّذي يَنزلُ عليه - بوحي اللهِ - كتابٌ منَ الله فيه شريعةٌ يبلِّغُها، إمَّا شريعةٌ تنسخُ جميعَ الشَّرائع الَّتي سبَقتها؛ كشريعة القرآن الكريم الَّتي نَسخَت جميع الشَّرائع قبلها، وإمّا شريعةٌ فيها تعديلُ أحكام شريعة سَبَقتها، كشريعة رسول الله عيسى عليه السلام في الإنجيل الَّتي جاءَت بعد شريعة التَّوراة الّتي نزلَت على رسول الله موسى عليه السلام، كما قال تعالى عن عيسى عليه السلام: ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ [آل عمران: 50]. وأمَّا النَّبيُّ فَمَن بعثه الله تعالى لتقرير شريعة سابقة يدعو النَّاس إليها، كأنبياء بني إسرائيلَ الَّذين كانوا بين موسى وعيسى[3] عليهما السلام.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 5/134.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 1/742.
(3) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 530 - 531.

الكافي والحسيب:

أمَّا الحسيبُ فهو من قولنا: حَسبُه اللّه؛ أي: كافيه، وكفيلٌ به، كما قال تعالى: ﴿وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخۡدَعُوكَ فَإِنَّ حَسۡبَكَ ٱللَّهُۚ﴾ [الأنفال: 62]، والحسيبُ: المُحاسِبُ، أوِ الكافي، مأخوذٌ من قولك: أحسَبَني الشَّيءُ، أي: كَفاني، ومنه قوله تعالى: ﴿عَطَآءً حِسَابًا ٣٦﴾ [النَّبأ: 36] أي: كافيًا[1]، قال المخبّل السّعديّ:

فَلَا يَدْخُلَنَّ الدَّهْرَ قَبْرَكَ حُوبُ *** فَإِنَّكَ تَلْقاهُ عَلَيْكَ حَسِيبُ

وعلى جميع الوجوه، يفسّر قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ حَسِيبًا ٨٦﴾ [النّساء: 86]، قيل: محاسبًا على كلّ شيء، وقيل: عالما بكلّ شيء، وقيل: مقتدرًا على كلّ شيء، وقيل: كافيًا[2]، وكافيك فلان من رجل، كقولك: حسبك من رجل[3]، فكأنَّهما بمعنى واحد، ولكنَّ (الكِفاية) تعطي معنًى أقوى، ودلالةً آكَد، فعندما يُقالُ: كَفاهُ اللّه؛ تعني أنَّ اللّه تكفَّلَ بأمره، وسَدَّ خَلَّتَه، وأَبلَغَه مرادَه في الأمر، فالحسيب والكفيل يشتركان في المعنى ابتداءً، ولكنّ لفظ الحسيب يزيد في الدّلالة، بكونه يؤدّي معنى العلم والقدرة، وهما معنيان لا يؤدّيهما لفظ الكافي.

الشَّهيد والشَّاهد:

وأمَّا الشَّاهدُ فهو بمعنى الحدوث، والشَّهيد: الْحَاضِر للشَّيْء المُحَقِّق لما شهده، إذا سُئِلَ عَنهُ[4]، وهو أيضًا بمعنى الثُّبوت، فإنَّه إذا تحمَّل الشَّهادة، فهو شاهدٌ باعتبار حدوث تحمُّله. فإذا ثبتَ تحمُّله لها زمانَين أو أكثَر، فهو شهيد[5]. وهذا الَّذي ورد في الفرق بين الكلمتَين يؤكِّد أنَّ استخدام البيان الإلهيِّ لكلمة (الشَّهيد) أشدُّ وَطئًا، وأَقوَمُ قيلًا؛ ذلك أنَّها تدلُّ على الثُّبوت، وشتَّان بين الثُّبوت والحدوث الَّذي تدلُّ عليه كلمة (الشَّاهد)، إضافةً إلى أنَّ(الشَّهيد) أصلٌ يدلُّ على حضورٍ وعلمٍ وإعلام، وكلُّ ذلك يفيدُ الثَّبوت القائم على اليقين؛ ولذلك أُسنِدَ في السِّياق إلى اللّه ﷻ.

(1) الرّاغب، المفردات: (حسب).
(2) نشوان الحِميري، شمس العلوم: (الحسيب).
(3) الرّاغب، المفردات: (كفي).
(4) الميورقيّ، تفسير غريب ما في الصّحيحين، ص: 371.
(5) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 292، والجرجانّي، التَّعريفات، ص: 129 - 135.

﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظٗا ٨٠﴾ [النساء: 80]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

حين نفَى اللّهُ - تعالى - عِلَلَ المُنافقين في التَّخلُّفِ عن طاعةِ الرَّسولِ ﷺ إلى أنْ ختَمَ بالشَّهادةِ برسالتِه، قال مُرَغِّبًا مُرَهِّبًا عَلى وجهٍ عامٍّ يُسكِّنُ قلبَ النَّبيِّ ﷺ ويخفِّفُ مِن دَوَامِ عِصيانهم له، دالًّا على عِصْمَتِه في جَميعِ حَرَكاتِه وسَكَناتِه[1]، فهذه الآيةُ كالتّكملةِ لقوله: ﴿وَأَرۡسَلۡنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولٗاۚ﴾، باعتبار ما تَضَمَّنَهُ من ردٍّ اعْتِقادُهُمْ أنَّ الرّسولَ ﷺ مَصْدَرُ السَّيِّئاتِ الّتي تُصيبُهم، ثمّ من قولِه: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنۡ حَسَنَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ﴾.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يُطِعِ﴾: الطَّاعَةُ: الانقِيَادُ والمُوَافَقَةُ، وأَصْلُ الطّاعَةِ مِنَ الطّوْعِ، وهُوَ الخُضُوعُ والتّسليمُ، ومِنْ مَعاني الطّاعَةِ في اللُّغةِ أيضًا: الاستِسْلامُ والتّمَكُّنُ والاتِّباعُ[2].

2) ﴿ٱلرَّسُولَ﴾: المُرْسَلُ، أيْ: حامِلُ الرِّسالَةِ لِيُبَلِّغَها، يُقالُ: أَرْسَلْتُ رَسولًا، أيْ: بَعَثْتُهُ بِرِسالَةٍ يُؤَدِّيها. ومِنْ مَعانيهِ: المَبْعوثُ إلى غَيْرِه[3].

3) ﴿تَوَلَّىٰ﴾: مَصْدَرُ تَوَلَّى، أي: اتَّخَذَه وَلِيًّا، يُقالُ: وَالَى فُلانٌ فُلانًا: إذا أحبَّه، وقَرَّبَهُ، وأَدْنَاهُ إليه. وإذا عُدِّيَ بـ (عَن) لَفظًا أو تَقديرًا اقتضى مَعنى الإعراضِ، وتَركِ قُربِه. فمن الأوّل قولُه تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡۗ﴾ [المائدة: 51]، ومن الثّاني قولُه تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِٱلۡمُفۡسِدِينَ ٦٣﴾ [آل عمران: 63]. والتّولي أيضًا: الاتّخاذُ والاتّباعُ المطلقُ، ومِن معانيه: النُّصرة[4]. ومعنَى التّولي في الآيَةِ هو العِصيانُ وعدمُ طاعَةِ الرّسولِ ﷺ فهو من المعنى الثّاني، إذِ التقديرُ: ومن تولَّى عنك.

(1) أبو حيَّان، البحر المحيط: 5/337.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (طوع).
(3) الأنباري، الزاهر: 1/34، والأزهري، تهذيب اللغة، والزبيدي، تاج العروس: (رسل).
(4) الراغب، المفردات، والزَّبيدي، تاج العروس: (ولي).

4) ﴿أَرۡسَلۡنَٰكَ﴾: الإرْسالُ: على وزن إفْعال، وهو مَصْدَرُ أَرْسَلَ الشَّيءَ، يُرْسِلُهُ، أي: أطلَقَهُ وأَهْمَلَهُ، يُقالُ: أَرْسَلَ النّاقَةَ في المَرعَى، أي: أطلَقَها، والإرسالُ أيضًا: التَّوجِيهُ والبَعثُ، وقد أَرْسَلَ إليهِ رِسالةً، أيْ: وَجَّهَ وبَعَثَ[1].

5) ﴿حَفِيظٗا﴾: الحَفِيظُ: المَوصُوفُ بالحِفْظِ، وحِفْظُ الشَّيء: رِعايَتُهُ وصِيَانَتُهُ مِنَ التَّلَفِ والزَّوَالِ والضَّيَاعِ، وضِدُّهُ: الإهمالُ. ومعنى ﴿عَلَيۡهِمۡ حَفِيظٗا﴾: أَيْ: حارسًا لَهُم ومَسؤولًا عَن إعرَاضِهِمْ[2].

المَعْنَى الإجْمَالِيُّ:

هذه الآيةُ عجيبةٌ في نَظمِها وإيجازِها؛ فقد جمَعت مِنْ أَمْرِ الطَّاعة كلَّ ما جاءَت بهِ الشَّريعةُ بمَصْدَرَيْها: الكِتَابِ والسُّنَّةِ، كما دَلَّت على مَنزلةِ المُطيع؛ لأنَّ الطَّاعةَ يتبعُها رِضَا اللهِ ﷻ ويَتبعُ ذلك الفَوزُ بالنَّعيم المُقيم. ودلالةُ تَعَلُّق الطَّاعَتَيْنِ في سِياقٍ واحدٍ مَعناه أنَّ رسُولَ اللهِ ﷺ لا يأمرُ إلَّا بما أمَر اللهُ به، ولا يَنهى إلَّا عمّا نَهى اللهُ عنه، فكانت طاعتُه في ذلك طاعةَ اللهِ[3].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ الاحتراسِ في الجملةِ الشَّرطيّة:

طاعةُ الرَّسُولِ طاعةٌ للهِ، في كلِّ ما هو تشريعٌ

جاءت الآية كالتَّكملة لقوله: ﴿وَأَرۡسَلۡنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولٗاۚ﴾ [النّساء: 79] باعتبار ما تضمَّنه من رَدٍّ على اعتِقادِهم أنَّ الرَّسول مَصدَرُ السَّيِّئات الَّتي تُصيبُهم، ثمَّ مِن قوله: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنۡ حَسَنَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ﴾ [النساء: 79]، المُؤذِنِ بأنَّ بَينَ الخَالِقِ وبَينَ المَخلُوقِ فَرقًا في التَّأثير، وأنَّ الرِّسالة معنى آخر، فاحترسَ بقوله: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ﴾ عن تَوَهُّم السَّامِعين التَّفرقة بَيْنَ اللهِ ورسولِه في أُمورِ التَّشريع، فأثبتَ أنَّ الرَّسولَ في تبليغِه إنَّما يُبلِّغ عن اللهِ، فأَمْرُه

(1) ابن سيده، المحكم، وابن منظور، لسان العرب: (رسل).
(2) الخليل، العين، وابن منظور، لسان العرب: (حفظ)، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 5/135.
(3) أبو حيان، البحر المحيط: 3/724.

أَمْرُ اللّه، ونَهيهُ نَهيُ اللّه، وطاعتُه طاعةُ اللّه، وقد دلَّ على ذَلك كلِّه قولُه: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ﴾؛ لاشتِمَالِ الآيةِ على إثباتِ كونِه رَسولًا واستِلْزامِها أنَّه يأمرُ ويَنْهَى، وأنَّ ذَلك تبليغٌ لِمُرادِ اللّه تعالى فمن كانَ على بَيِّنةٍ مِن ذلكَ، أو كانَ في غَفلةٍ، فقد بيَّن اللّه له اختلافَ مَقاماتِ الرُّسول[1].

بلاغةُ الالتفاتِ من ضميرِ الخطابِ إلى الاسم الظاهرِ:

في الآيةِ التفاتٌ، فعَبَّر عن النَّبيِّ ﷺ بالاسم الظَّاهر ﴿ٱلرَّسُولَ﴾ دونَ التَّعبيرِ بضَميرِ الخِطابِ؛ للإشعار بالعليَّة - حيثُ لم يَقُلْ: (يُطِعْكَ) - ؛ للإيذانِ بأنَّ مَناطَ كونِ طَاعتِه ﷺ طاعةً له تعالى، ليس خُصوصيَّةَ ذاتِه ﷺ بل مِن حَيثيَّةِ رسالَتِه[2].

الرسالةُ هي مناطُ التَّكليفِ للعبادِ جميعًا

دلالةُ إظهارِ لفظِ الجلالةِ ﴿ٱللَّهَ﴾:

جاء التَّعبيرُ بلفظِ الجلالة مُظهَرًا؛ وذلك لتربيةِ المهابةِ، وتَأكيدِ وُجوبِ الطَّاعةِ بذِكرِ عُنوان الألوهيَّة[3].

بلاغةُ الالتفاتِ من الغائبِ للمخاطَبِ في قولِه: ﴿فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ﴾:

في قوله تعالى: ﴿فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ﴾ التفاتان؛ الأوَّل: بعد ذِكر النَّبيِّ ﷺ بصِيغَةِ الغائب في قوله تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ﴾ التفتت الآيةُ مِنَ الغائبِ للمُخاطَبِ ﴿فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ﴾، وفائدتُه تشريفُ النَّبيِّ ﷺ، بخطابِه بكونِه مرسلًا، بعد ذكرِه على سبيلِ الغَيْبةِ بنعتِ الرَّسولِ، فأفاد الالتفاتُ أنْ لا تعلُّقَ للنَّبيِّ بكونِه رسولًا، وأنَّ عليه أداءَ الرِّسالةِ، وفي ذلك تعليلٌ ضمنيٌّ للطَّاعةِ.

المواجهةُ بالخطابِ مشعرةٌ بعِظَمِ التَّكليفِ

أمَّا الالتفاتُ الثَّاني فهو من الغَيْبةِ في قوله تعالى: ﴿فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ﴾ إلى التَّكلُّمِ في قوله تعالى ﴿فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ﴾ بضَمير العَظَمَة

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 5/135.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 2/206، والآلوسي، روح المعاني: 3/88.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 2/206.

(نا)، فلم يقل: فقد أطاعني، أو: فما أرسلك، وفي الالتفاتِ من الغَيبةِ إلى الخطابِ في الموضعين انتقالٌ إلى الحضور، وفيه ما فيه من المواجهَةِ بالتّكليفِ.

بلاغةُ الاستغناءِ عن حرفِ التَّعديةِ:

إفـــادةُ عـمـومِ الـدَّاخـلـين في التَّولية

معنى ﴿تَوَلَّىٰ﴾: أَعرَضَ، والأَصلُ أن يتعدَّى بحرفٍ، فيُقال: تولَّى فلانٌ عن الإيمان، وتَولَّى إلى الإيمان؛ لأنَّ اللَّفظةَ تتضمَّن إقبالًا وإدبارًا، لكنَّ الاستعمالَ غلبَ عليها في كلام العربِ على معنَى الإعراض والإدبار، حتَّى استُغني فيها عن ذِكر الحرف الَّذي يتضمَّنه[1]، ولم يُذكر حرفُ التَّعديةِ وما يدخُلُ عليه لإفادةِ العموم، فقد جمعَت أنواعَ المُنحرفين عَنِ المِلَّة الصَّحيحةِ جَميعِهم في أَوجَز عِبارةٍ: ﴿وَمَن تَوَلَّىٰ﴾، ويشملُ ذلك طَوائفَ عديدةً من يهودٍ ونصارى ومَجوسٍ ومَلاحدة ومُشركين وعُصاة وغيرهم مِنَ الضَّالين، مع ما فيها من تصويرٍ بليغٍ يَنطِقُ بحركةِ الإعراض والمُباغَضة والجَفاء.

التَّولِّي نتيجةٌ لمَعصِيةِ الرَّسولِ، وهي تصوِّرُ حالَ العاصي:

بـلاغـةُ المـجـازِ المُرسل في قوله تـعـالى ﴿وَمَـن تَوَلَّىٰ﴾

استُعمِل التَّولِّي في الآيةِ مجازًا مرسلًا في العِصيان، وعَدمِ الإصغاء إلى الدَّعوةِ[2]. فذُكِرَ المُسبِّبُ وهو التَّولِّي بدلَ السَّبب وهو العِصيان، إذِ المعصيةُ هي علَّةُ التَّولِّي، سواءٌ أكانت معصيةً قلبيّةً عقديّةً، أو سلوكيَّةً، فهو مجازٌ مرسلٌ علاقتُه المسبَّبيّة، مع ما في المجازِ من بلاغةٍ بديعةٍ في بيانِ حالِ المتولِّين، وتصويرِ حالِهم في التَّوليةِ، وهو ما لا يُحقِّقه لفظُ المعصيةِ.

فائدةُ حذفِ جواب الشَّرط وبيانه بالتَّعليلِ:

ذُكِرَ الشَّرطُ وحُذِفَ الجوابُ؛ لوجُود ما يدلُّ عليه، وتقدير الكلام: ومَنْ تولَّى فأَعْرِضْ عنه، واكتفى بتعليلِ الجَواب بجملةِ

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/82.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتنوير: 5/135.

﴿فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظٗا﴾ بدلًا عن ذكره؛ أي: فأَعْرِضْ عنه؛ لأنَّك لم تُرسَل إلَّا مُبلِّغًا لا حَفيظًا، وجملةُ الشَّرطِ خبرٌ فيه تعريضٌ بهم، وتهديدٌ لهم بأنْ صَرَفه عن الاشتغالِ بهم، فيُعلَم أنَّ اللّٰه سيتولَّى عِقابَهم.

المعرضُ عن طاعةِ الرسولِ معرَضٌ عنه من المرسلِ

سِرُّ تعديةِ فعلِ الإرسالِ بحرفِ الاستعلاء دونَ اللَّام أو إلى:

يتعدَّى الإرسالُ بإلى واللَّام وعلى، فهناك فرقٌ بين (أَرسَلْنَاكَ لَهُم) و(أَرْسَلْنَاكَ إِلَيْهِم) و﴿أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ﴾. فـ(أَرْسَلْنَاكَ لَهُم) تَعنِي التَّبليغَ، و(أَرْسَلْنَاكَ إِلَيْهِم) تعني التَّبليغَ مع زيادةِ التَّأكيدِ على معنى الإيصالِ المقترنِ بالمقصودِ، بينما ﴿أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ﴾ فهي تَعنِي الحملَ على الشَّيءِ، ففيها معنى الإلزام لتَحْمِلَهُم على كَذَا؛ فالنَّبيُّ ﷺ مرسلٌ للنَّاسِ لا على النَّاس؛ فمَنْ شاء فَليُطِعْ ومن شاء فليَعْصِ، كما قال تعالى: ﴿۞لَّيۡسَ عَلَيۡكَ هُدَىٰهُمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُۗ﴾ [البقرة: 272]، وقال في هذا المعنى: ﴿فَذَكِّرۡ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٞ ٢١ لَّسۡتَ عَلَيۡهِم بِمُصَيۡطِرٍ ٢٢﴾ [الغاشية: 21 - 22]، وقال: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِجَبَّارٖۖ﴾ [ق: 45][1].

من رحمةِ اللهِ بنبيِّه أن لم يُسألْه عن إعْراضِ أُمَّتِهِ

بلاغةُ تقديمِ الجارِّ والمجرورِ على الحالِ:

قُدِّم الجارُّ والمجرورُ ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾ على ﴿حَفِيظٗا﴾ وهي حالٌ من الكاف في ﴿أَرۡسَلۡنَٰكَ﴾؛ للعنايةِ والاهتمام، ووَجْهُ ذلك، أنَّ النبيَّ ﷺ كان معتنيًا بقومِه ومن حولَه من النَّاسِ، فأراد اللّٰه ﷻ أن يُخفِّفَ عنه من ذلك التَّكليفِ الزَّائد، فالنفيُ انصبَّ على الجارِّ والمجرورِ، فهو ليس عليهم بحفيظٍ، بخلاف ما لو قال: وما أرسلناك حفيظًا عليهم؛ لفُهِمَ أنَّه ليس حفيظًا على الإطلاقِ، وهذا غير مراد، بالإضافة إلى ما يتبع ذلك من تحسينٍ لفظيٍّ.

النَّبيُّ حفيظٌ على أمَّتِهِ، لا على المُعرِضِين

(1) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 4/2464.

دلالةُ التَّعبيرِ بـ ﴿حَفِيظًا﴾ دون حافظًا:

تبرئةُ الرَّسولِ من ذُنوبِ المعرِضين تسليةً له وإلزامًا لهم

جاء التَّعبيرُ بحفيظ دون حافظ، للمبالغةِ في نفي اللّه تعالى أن يكونَ الرَّسُولُ ﷺ حفيظًا على أحدٍ؛ لأنَّ الرِّسالة لا تَنفكُّ عن الحِفظ، فتَبليغُ الأَحكامِ نوعُ حفظٍ عن المعاصي والآثام، وقوله ﷻ: ﴿أَرْسَلْنَٰكَ﴾ مُخبرًا بما اختصَّ به الرَّسولُ ﷺ بالرِّسالةِ، دون أن يكون حفيظًا على المُعرِضين، ففيه بيانُ المبالغةِ في أن يكونَ رسولُ اللّه حفيظًا على أحدٍ.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الطَّاعَة والقَبُول:

الطَّوْعُ: الانقيادُ، ويضادُّه الكُره، قال ﷻ: ﴿ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ [فصلت: 11]، ﴿وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ [آل عمران: 83]، والطَّاعَةُ مثله لكنَّ أكثر ما تُقال في الائتِمار لما أُمِرَ، والارتسام فيما رُسِمَ. قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ﴾ [النساء: 81]، ﴿طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾ [محمد: 21]؛ أي: أَطِيعُوا، وقد طَاعَ له يَطُوعُ، وأَطَاعَهُ يُطِيعُهُ. قال تعالى: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ [التغابن: 12]، ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: 80][1].

والقبُول: هُوَ عبارَة عَن ترَتُّب المَقصُود على الطَّاعَة، والإجابة أَعمُّ، فَإِنَّهُ عبارَةٌ عَن قطع سُؤال السَّائِل، والقَطع قد يكون بترتّب المَقصُود بالسُّؤال، وَقد يكون بِمثل: سَمِعت سؤالك وأَنا أَقْضِي حَاجَتك.

والقَبُول وإن كَانَ أخصّ من الصِّحَّة والجَوَاز إِلَّا أَنه قد يُذكر، ويُرَاد بِهِ الصِّحَّة والجَوَاز مجَازًا؛ إِذْ كلّ جَائِز صَحِيح لَا يكون مَقبُولًا، وكل مَقبُولٍ لَا يكون جَائِزًا وصحيحًا، وإذا قلت لغيرك: وَهبتك هَذَا الشَّيْء فَقَالَ: قَبِلتُ، سُمّيَ قبولًا، وإذا قبض يُسمّى تقبُّلًا[2].

وعليه فإنَّ الطَّاعَة إِنَّمَا تقع رَغبَة أَو رَهْبة، وأمَّا القَبُول فمثل الإِجَابَة يَقع حِكْمَةً ومصلحةً؛ ولذَلِك حسُنت الصِّفة للّه تَعَالَى بِأَنَّهُ مُجيب وقابل، وَلَا تحسنُ الصّفةُ لَهُ بِأَنَّهُ مُطِيع[3].

(1) الراغب، المفردات: (قبل).
(2) الكفوي، الكليات، ص: 732.
(3) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 223.

التَّولي والإعراض والصَّدّ:

المُتولّي والمُعرِضُ يَشتركانِ في تَرْكِ السُّلوك (القَويم)، إلَّا أنَّ المُعْرِضَ أَسْوَأُ حالًا؛ لأنَّ المُتَولِّي متى نَدِم سَهُلَ عليه الرُّجوع، والمُعرِضُ يَحتاج إلى طَلَبٍ جَديدٍ، وغَايةُ الذَّمِّ الجَمْعُ بينهما، أمَّا الصَّدُّ: فهو العُدُولُ عَنِ الشَّيءِ عَن قِلَى[1].

الرَّقِيب والحَفِيظ:

الرَّقِيب: هُوَ الحَافِظ الَّذِي لَا يغيب عَمَّا يحفظه[2]، فالرَّقيبُ في صِفات اللّه تعالى يتَضمَّن التَّفتيشَ، فهو يَرقُبك لئلَّا يَخفى عليه فِعلك، ويُقال لمن يفتِّش عن أُمورِ صَاحبه أَرَقِيبٌ عليَّ أنتَ؟ وتقولُ: رَاقِبِ اللّهَ؛ أي: اعلَم أنَّه يَراك، فلا يخفَى عليه فعلُك[3].

والرَّقيبُ في نُعوتِ المخلوقِين المُوكَّل بحفظ الشَّيءِ المُترصِّد له، المتحرِّز عن الغفلة[4]، قال تعالى في الملائكة الّذين يحفظون أعمالَ ابن آدم: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾﴾ [ق: 18].

أمَّا الحفيظُ في أسماء اللّه تعالى هو الَّذي لا يَعزُب عن حِفظه الأشياء كلّها مِثقالَ ذرَّة في السّماوات والأرضِ، وقد حَفِظَ السّماوات والأرضَ بقدرته[5]. ﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَاۚ وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾﴾ [البقرة: 255].

والحفيظُ في صِفَاتِ المَخلُوقِينَ هو المُوكَّل بحِفظِ الشَّيء، يُقال: فلانٌ حَفيظُنا عَلَيكُم وحَافِظُنَا[6]؛ لذلك قال تعالى على لسان يوسف عليه السلام: ﴿قَالَ ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾﴾ [يوسف: 55] وممَّا يدلُّ على أنَّ الحفيظ في الخَلْقِ هو الوكيل؛ أنَّ اللّه سبحانه وتعالى أسندَ إلى نفسه (الحفيظ)، وذكر الوكيل في خِطاب النَّبي صلى الله عليه وسلم. في سِياقٍ واحدٍ، وآيةٍ واحدةٍ، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٦﴾﴾ [الشورى: 6].

---

(1) الكفوي، الكليات، ص: 28.
(2) الزجاج، تفسير أسماء الله الحسنى، ص: 51.
(3) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 206.
(4) ابن الجوزي، زاد المسير: 1/367.
(5) ابن منظور، لسان العرب: (حفظ).
(6) ابن منظور، لسان العرب: (حفظ).

ففرَّقَ في هذا الموضع بين اللَّفظين، ومن هنا يُمكِن حملُ الحَفيظِ في صِفة المَخلُوقِينَ على هذا الموضع؛ إذ القُرآن يُفسِّر بعضُه بعضًا، فيكون الحفيظ في صِفتهم بمعنى الوكيل، قال تعالى: ﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِحَفِيظٖ ٨٦﴾ [هود: 86]. وقوله تعالى: ﴿وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظٗا﴾ [النساء: 80][1].

(1) الدوري، دقائق الفروق، ص: 146.

﴿وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُواْ مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ ٱلَّذِى تَقُولُ ۖ وَٱللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ ۖ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٨١﴾﴾ [النساء: 81]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

بعد بيانِ أصناف النَّاس ما بين مطيع ومتولٍّ في الآيةِ السَّابقةِ، جاءتْ هذه الآيةُ لبيان نوعٍ آخر من المتولِّين وهم المنافقون، فالآيةُ تتميمٌ لما قبلها في بيان أحوال النَّاس وموقفهم من طاعةِ الرَّسولِ، وهذه في غاية المناسبةِ، إذِ المقصودُ هو بيانُ صنفٍ يخفى على رسولِ الله ﷺ، وهو ما يُناسبُ الإطنابَ في بيانِ أحوالِهم وأقوالِهم وسلوكِهم، بعد الإيجازِ في بيان المُطيعين والمتولِّين.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ﴾: الطَّاعَةُ: الانقِيَادُ والمُوَافَقَةُ، وأَصلُ الطَّاعَةِ مِنَ الطَّوْعِ وهُوَ الخُضُوعُ وَالتَّسْلِيمُ[1]؛ أي: إذا كانوا عندك يقولُ المُنافِقُون: سَمْعًا وطَاعةً، أو أَمرُك مُطاعٌ.

2) ﴿بَرَزُواْ﴾: البَرْزَةُ: اسمُ مَصدرٍ من بَرَزَ الشَّيءُ يَبْرُزُ بُرُوزًا: إذا ظَهَرَ وخَرَجَ، والبَرَازُ الفَضَاءُ مِنَ الأَرْضِ؛ أَي: خَرَجُوا مِنَ المَكَانِ يَكُونُونَ مَعَكَ فِيهِ إِلَى البَرَازِ مُنصَرِفِينَ إِلَى بُيُوتِهِم. ويُقالُ للمُقاتل: بَرَزَ للقِتَال؛ أي: خَرَجَ[2].

3) ﴿بَيَّتَ﴾: مَصدَرُ (بَيَّتَ) التَّبْييتُ والاسمُ البَيَاتُ، وهو إِمَّا مِنَ البَيْتُوتَة؛ لأَنَّه قَضَاءُ الأَمْرِ وتدبيرُه باللَّيلِ، يُقَالُ: هذا أَمْرٌ بُيِّتَ بِلَيلٍ. وإِمَّا مِنْ أَبْيَاتِ الشِّعر؛ لأَنَّ الشَّاعر يُدَبِّرُهَا ويُسَوِّيهَا في بيته ليلًا[3]. والأَصلُ في التَّبييتِ إنَّما يكونُ في البَيت، والأصلُ أَن تَكُونَ البَيْتُوتَةُ لَيلًا، ومَدَارُ المَادَّة كُلِّها الاستِخفاء، ولَفْظُ ﴿بَيَّتَ﴾ هُنا بِمعنَى قَدَّرَ أَمْرًا في السِّرِّ وأضمَرَهُ؛

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والزبيدي، تاج العروس: (طوع).
(2) الجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب: (برز)، والآلوسي، روح المعاني: 3/89.
(3) الزمخشري، الكشاف: 1/539.

لأَنَّ أَصلَ البَيَاتِ هو فِعلُ شَيءٍ في اللَّيلِ، والعَربُ تَستَعيرُ ذلك إلى مَعنَى الإِسرارِ؛ لأَنَّ اللَّيلَ أَكْتَمُ لِلسِّرِّ، ولذَلكَ يَقُولُونَ: هذا أَمرٌ قُضِيَ بِلَيلٍ؛ أَي: لَم يَطَّلِع عليهِ أَحَدٌ، وقالَ الحارِثُ بنُ حِلِّزَةَ:

أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ بِلَيْلٍ فَلَمَّا *** أَصْبَحُوا أَصْبَحَتْ لَهُمْ ضَوْضَاءُ[1]

4) ﴿طَآئِفَةٌ﴾: الطَّائفةُ: الجَماعَةُ مِنَ النَّاسِ، لا واحدَ لَهَا مِنْ لَفظِها، مثل: فَرِيق، ورَهط، ونفَر، وجمعها: طوائف[2]، والمقصودُ بطائفةٍ في الآيةِ: جماعةٌ مِنَ المنافقين كانُوا عِندَ رَسُولِ اللّه ﷺ. وقالوا: آمنَّا بأفواههم، ولم تُؤْمِنْ قُلُوبُهُم.

5) ﴿غَيْرَ ٱلَّذِى تَقُولُ﴾: القَولُ: كُلُّ لَفظٍ نَطَقَ بِهِ اللِّسانُ تامًّا كانَ أَو ناقِصًا، وفي مَعنَى ﴿غَيْرَ ٱلَّذِى تَقُولُ﴾ وجْهَانِ: الأَوَّل: أَضْمَرُوا غَيرَ مَا قيلَ لَهُمْ. والآخر: أَضمَرُوا غَيْرَ مَا قَالُوا هُم، عَلى مَعنَى أنَّهم أَسَرُّوا غَيرَ مَا أَظهَرُوا وأَضمَرُوا الخِلافَ عَليكَ[3].

6) ﴿يَكْتُبُ﴾: الكِتَابَةُ: مَصدَرُ كَتَبْتُ، واسْتَكْتَبْتُ فلانًا: إذا أَمَرْتَهُ أَنْ يَكْتُبَ لكَ أو اتَّخَذْتَه كاتِبًا، أَيْ: يَكْتُبُهُ في صَحَائِفِ أَعمَالِهِم حَسَبَمَا تَكتُبُهُ الحَفَظَةُ لِيُجَازَوا بِهِ. وَقَالَ الزَّجَّاجُ: يَكتُبُهُ في كِتَابِهِ إِلَيكَ؛ أَي: يُنْزِلُهُ في القُرآنِ ويَعلَمُ بِهِ ويَطَّلِعُ عَلَى سِرِّهِم[4].

7) ﴿فَأَعْرِضْ﴾: الإِعْرَاضُ: الصَّدُّ والتَّوَلِّي والرَّفضُ، ويُطلَقُ الإِعْرَاضُ بِمَعْنَى: الانْصِرَافِ عَنِ الشَّيْءِ بِالقَلْبِ، وضِدُّ الإِعْراضِ: الإِقبَالُ والانقِيَادُ والطَّاعَةُ؛ أَي: لَا تُحَدِّث نَفسَكَ بِالانتِقَامِ مِنهُم. ولَيسَ المَعنَى فَأَعرِضْ عَن دَعوَتِهِم إِلى الإِيمَانِ وعَن وَعظِهِمْ[5].

8) ﴿وَتَوَكَّلْ﴾: التَّوَكُّلُ: هُوَ إِظهَارُ العَجزِ في الأَمرِ والاعْتِمَادُ عَلَى غَيرِكَ؛ أَي: وتَوَكَّل على اللَّهِ في شَأنِهِم، فإِنَّ اللّه يَكفِيكَ مَعَرَّتَهُم، ويَنتَقِم لكَ مِنْهُم إذا قَوِي أَمْرُ الإِسْلَامِ وعَزَّ أنصَارُهُ[6].

9) ﴿وَكِيلًا﴾: يُقَالُ: كَفَاكَ الشَّيءُ يَكفِيكَ. وَقَدْ كَفَى كِفَايَةً، إِذَا قَامَ بِالأَمرِ، والوَكِيلُ هو

(1) ديوان الحارث بن حلزة، ص: 24، والزوزني، شرح المعلقات السبع، ص: 273.
(2) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (طوف).
(3) الواحدي، الوسيط: 6/625، وابن منظور، لسان العرب: (قول).
(4) ابن عباد، المحيط: (كتب)، وأبو حيّان، البحر المحيط: 3/725.
(5) الزمخشري، الكشاف: 1/539، وأبو حيّان، البحر المحيط: 3/725، وابن منظور، لسان العرب: (عرض).
(6) الزَّمخشري، الكشاف: 1/540.

المَوكُولُ إلَيه، وهُوَ فَعِيلٌ بِمَعنَى مَفعُولٌ. وقَالَ ابنُ كيسان: وكَفَى باللّه مُعْتَمَدًا ومَلْجَأً. وَقِيلَ: الوَكِيلُ القَائِمُ بِمَا يُفَوَّضُ إلَيهِ مِنَ التَّدْبِيرِ[1].

❁ المَعْنَى الإجْمَاليُّ:

هذه الآيةُ الكَرِيمَةُ، تَحكِي شأْنًا آخَرَ مِنْ شؤون المُنافقين. وهو إعلانُهُم طَاعَةَ الرَّسُول ﷺ بألسنتهم حينما يكونون معه، فإذا انصَرَفُوا مِن مَجلِسِهِ، وذَهَبُوا بَعِيدًا عَنه، دَبَّرَ زُعماؤُهم خِفيَةً في السِّرِّ - في اللَّيلِ أو النَّهارِ - مُخالفَة أَمْرِهِ ﷺ ونقض الَّذي قالوه بألسنتهم في مَجلِسِه، مُعتقدِينَ أنَّ هذا التَّدبير الخَفِيّ لن يَعلَمَهُ الرَّسولُ ﷺ. وفَاتَهُم أنَّ اللّه يَعلمُ كلَّ مَا يتآمِرُون عَليه، وقد سَجَّلَهُ عليهم، وأنَّه سَيكشِفُه لرسُولِهِ ﷺ وأنَّه سَيُعاقِبهم على هذا النِّفاق في الآخرة أشدَّ العِقَاب[2].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

نكتةُ التَّعبيرِ بضميرِ الغائبِ في قولِه تعالَى: ﴿وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ﴾:

سِمةُ المنافقِ التَّبجُّحُ بالطَّاعةِ والنُّكوصُ إلى خلافِها

عبَّر الحقُّ تعالى بالحديث عن المنافقين في قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ﴾ بضمير الغائبِ، دونُ ذِكرهم والكَشفِ عن ذَواتهم، فلم يقل: وقالتْ طائفةٌ، ونحو هذا، وذلك ازدراءً بهم، وتحقيرًا لحالِهم، وامتهانًا لهم، واستخفافًا بشأنِهم، حتَّى لكأنَّهم أَهون من أن يتَعرَّف عليهم، وأَضأَلَ من أن تظهرَ لهم ذاتيَّة مُميَّزة لهم[3]، وأمرٌ آخرُ وهو الإشارةُ إلى أنَّ هذا القولَ لا يصدُرُ إلّا عن أُناسٍ معروفين ودَيْدَنهم قولُ ما لا يعتقدون.

دلالةُ التَّعبيرِ بلفظِ ﴿طَاعَةٌ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ﴾:

﴿طَاعَةٌ﴾: مَصدَرٌ مَرفُوعٌ على أنَّهُ خَبَرٌ لِمُبتدأٍ مَحْذُوفٍ؛ أَي: أَمْرُنا

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (كفا)، والواحدي، الوسيط: 6/628.
(2) الواحدي، الوسيط: 2/861.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 3/89، والخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 3/844.

أَوْ شَأْنُنا طاعةٌ، ولا يجوز إظهارُ هذا المبتدأ لأنَّ الخبرَ مصدرٌ بدلٌ من اللفظِ بفعلِه، أو مبتدأٌ لخبرٍ محذوفٍ تقديرُه: عندنا طاعةٌ[1]، والإعرابان صحيحان والأوَّل أوضح دلالةً، ومَعنى أَمرُكَ طاعَةٌ أنَّهُ مُطاعٌ، فَجَعَلَ المَصدَر في مَكَانِ اسْمِ المَفعُولِ لِلمُبالَغَةِ، فهوَ يَدُلُّ بِإيجَازِهِ على أَنَّهُم كَانُوا في حَضرَةِ الرَّسُولِ يَدَّعُونَ كمالَ الطَّاعةِ ويُظهِرُونَ مُنتَهَى الانقِيَادِ[2]، أي: أنَّهم لا يُحسنون إلَّا قولَ: ﴿طَاعَةٌ﴾، وفيه بيانٌ شديدِ نفاقِهم وقلَّةِ هوانِهم على أنفسِهم والنَّاس.

قبحُ المنافقِ يكمُنُ في مبالغتِه في إظهارِ الطَّاعةِ، وكتمِ النِّفاقِ

دلالةُ التَّعبير بـ﴿فَإِذَا﴾ في الآية:

الفَاءُ: للتَّعقِيبِ والمُباشَرة؛ أي: بمُجَّرد خُروجِهم مِن عِندكَ بيَّتَ طائفةٌ منهم، وهذا يدلُّ على تمكُّنِ النِّفاقِ من نفوسِهم، و(إذا) ظرفيَّةٌ زَمانيَّةٌ لما يُستقبل متضمِّنةٌ معنى الشَّرطِ، أي: حِينَ يَخرُجُونَ يُبيِّتون كأنَّه بدون فاصلٍ زمانيٍّ، وهذا يكشفُ عن مسارعَتِهم في الكفر وتهالُكِهم عليه، وفيه إعجازٌ غيبيٌّ لما سيصدُرُ عن أولئك المنافقين.

الإخبارُ عنِ المُسارعةِ في الكفرِ إعجازٌ غيبيٌّ

بلاغةُ المَجَازِ المُرسَل في قوله تعالى: ﴿بَرَزُواْ مِنْ عِندِكَ﴾:

في قوله تعالى: ﴿بَرَزُواْ﴾ مجازٌ مُرسَلٌ، والعلاقةُ مُسَبَّبيَّةٌ، بِمعنَى: خَرَجُوا فبرزوا، فالخُروجُ يَنتج عنه بُروزهم وظُهورهم، وهو يُصَوِّرُ الخروجَ بخُرُوجِ الشَّيء مِنَ الضِّيقِ إلى السَّعَةِ، فهو تصويرٌ دقيقٌ مُعْجِزٌ لحالِ هؤلاء المُنافقين، الذين كانوا في مَجلِسِ الرَّسُول ﷺ أشباحًا لا تَكادُ تُرى، حتَّى إذا خَرجُوا مِن مَجلِسِ الرَّسُولِ ﷺ. تَطاوَلَت أعناقُهُم، وشَمخَت أُنُوفُهم، وانتفَضَتْ أجسامُهُم، فإذا هُم أَشبَهُ بالطَّواويس خُيلاءَ وإعجابًا! يَستعرضُون النَّاسَ، ويَعرضُون على أنظارهم هذا الوَجه الجَديد منهم، وكأنَّهم بذلكَ

بروزُ المنافقين يدلُّ على مرضِهم النَّفسيِّ، وطلبِ حبِّ الظّهور

(1) السمين، الدر المصون: 4/50.
(2) رضا، تفسير المنار: 5/232.

يَستَوفُون حظَّهم مِن بُروز الشَّخصية، ذلكَ الحَظّ الَّذي فاتَهم، وُهم يلبسونَ الوَجهَ الآخر، وجهَ الضُّمور والانزواء، الّذي يعيشُون به أكثَر ممَّا يعيشُونَ[1].

سِرُّ التَّعبيرِ بلفظِ ﴿بَيَّتَ طَآئِفَةٌ﴾ بالتَّذكيرِ دون التَّأنيثِ:

تنزيلُ الطَّائفةِ منزلةَ الرَّجلِ الواحد

اتَّفقَ القُرَّاءُ على تَذكيرِ ﴿بَيَّتَ﴾، قَالُوا: لَم يَقُل (بَيَّتَتْ) بتاءِ التَّأنيثِ؛ لأَنَّ تَأنيثَ ﴿طَآئِفَةٌ﴾ غيرُ حَقيقيٍّ؛ ولأَنَّها بمَعنَى الفَريقِ والفَوجِ، وهذا التَّعليلُ كافٍ في بيانِ الجوازِ لا في بيانِ الاختيارِ، والأَصلُ أَنْ يُؤنَّثَ ضَميرُ المُؤنَّثِ، ولَو كانَ تَأنيثُهُ لَفظيًّا، ووَجهُ الاختيارِ هو أَنَّ تَكرَارَ التَّاءِ قَبلَ الطَّاءِ القَريبَةِ منها في المَخرَجِ لَا يَخلُو مِنْ ثِقَلٍ على اللِّسَانِ؛ ولذلكَ تُحذَفُ إِحدَى التَّاءَينِ مِنْ مِثلِ تَتَصَدَّى وتَتَكَلَّمُ، فَيُقَالُ: تَصَدَّى وتَكَلَّمُ[2]، ونكتةُ التَّذكيرِ تنزيلُ الطَّائفةِ منزلةَ الرَّجلِ الواحدِ، فهم على قلبِ رجلٍ منافقٍ واحدٍ.

سِرُّ التَّعبيرِ بلفظِ ﴿بَيَّتَ﴾ دون غيرِه من الألفاظِ:

الإيماءُ إلى أنَّ أعمالَ المنافقين لا تكونُ إلَّا سرًّا

التعبيرُ بـ ﴿بَيَّتَ﴾ فاضحٌ لتدبيرِهم الماكر المستترِ، كاشفٌ عنه؛ فَأَصْلُ الْبَيَاتِ هُوَ فِعْلُ شَيْءٍ فِي اللَّيْلِ، وَالْعَرَبُ تَسْتَعِيرُ ذَلِكَ إِلَى مَعْنَى الْإِسْرَارِ؛ لِأَنَّ اللَّيْلَ أَكْتَمُ لِلسِّرِّ[3]، كما أنّه كاشفٌ عن شدّة خوفهم من رسول الله ﷺ. والمؤمنين معه لغايةٍ لا يَجرُؤون فيها على إعلان عكس ما قالوه.

معنى التَّبعيضِ في قولِه: ﴿مِّنْهُمْ﴾:

القرآنُ يُعلِّمُ وجوبَ العدلِ مع النَّاسِ أجمعين

خَصَّ اللهُ طَائِفَةً مِنَ المُنافِقِينَ بالتَّبييتِ في قوله: ﴿مِّنْهُمْ﴾، وكَلمَة (من) للتَّبعيضِ؛ لأنَّه تَعالى عَلِمَ أنَّ مِنهُم مَنْ يَبقَى على كُفرِهِ

(1) الراغب، المفردات: (برز)، والخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 3/844 - 845.

(2) رضا، تفسير المنار: 5/232، وقَرَأَ الْجُمْهُور: ﴿بَيَّتَ طَآئِفَةٌ﴾ بِإِظْهَارِ تَاء: (بَيَّتَ) مِنْ طَاء: (طَائِفَةٍ)، وَقَرَأَهُ أَبُو عَمْرٍو، وَحَمْزَة، وَيَعْقُوب، وَخَلَفٌ بِإِدْغَامِ التَّاءِ فِي الطَّاءِ تَخْفِيفًا لقرب مخرجيهما، ينظر: ابن خالويه، إعراب القراءات، ص: 85، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 5/136.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 5/136.

ونِفَاقِهِ، ومُنهُم مَنْ يرجعُ عنه ويَتوبُ، فخصَّ مَن يصرُّ على النِّفاق بالذِّكر[1]. ثمّ إنَّ التّفصيلَ الكاشفَ لما سَيراه المنافقون واجتهدُوا في إخفائه كما يقتضيه التّعبيرُ بـ ﴿بَيَّتَ﴾ فيه بشارةٌ للمؤمنين بفضحِ أعدائهم الأخفياء، وفيه دليلٌ على وجوبِ العدلِ في المؤمنين وغيرِهم؛ فإنَّ اللّه كتبه على الجميعِ.

سرُّ التَّعبيرِ بـ: ﴿غَيۡرَ ٱلَّذِي تَقُولُۖ﴾ ومجيءِ الفعلِ مُضارِعًا لا ماضيًا:

مهارةُ المنافقِ في إحداثِ قولين متعاقبين متعارضين في آنٍ واحدٍ

جاء المفعولُ به بلفظ ﴿غَيۡرَ﴾ لبيانِ المخالفةِ التّامةِ بين ما أظهرُوه أمامك، وما قالُوه من ورائك، ثمّ أضيف المفعولُ به إلى الاسم الموصول الخاصِّ لتحديد القول وتعيينه، ثمّ جاء بجملةِ الصّلةِ فعليةً فعلُها مضارعٌ عدولًا عن الماضي، وكان الظّاهرُ أن يُقالَ: غير الذي قالتْ، أي: الطَّائفة، على القولِ بأنَّ فاعل ﴿تَقُولُۖ﴾ يرجع للطَّائفةِ، "فقَد عَدَلَ عَنِ الفعل المَاضِي إلى الفعل المُضارع لقَصدِ الاستمرار"[2]، وفي هذا العدولِ إلاحةٌ إلى أن لم يكن ثمّةَ وقتٌ بين ما قالُوه وتغييره، وهو ما يتّسقُ مع التّعبير بفاءِ التّعقيب من قبل، ففيه بيانٌ لقدرةِ المنافقِ على إحداثِ قولين متعارِضين في وقتٍ واحدٍ، وهو يُشير إلى الحذر ممَّن يستطيعُ تغييرَ قولِه دون أدنى حرَجٍ!

توجيهُ اختلافِ التَّعبير بالاسمِ الموصولِ:

أقوالُ المنافقين مكتوبةٌ عليهم لا تفوتُهم فائتةٌ

يُلحَظُ أنّ التّعبيرَ جاء هنا ﴿غَيۡرَ ٱلَّذِي تَقُولُۖ﴾ بالاسم الموصول الظَّاهر ﴿ٱلَّذِي﴾، وفي جملة الحال بعدها ﴿وَٱللَّهُ يَكۡتُبُ مَا يُبَيِّتُونَۖ﴾ جاء الاسمُ الموصول مُعبَّرًا عنه بأعمّ الموصولات (ما)؛ وذلك لأنَّ ما تقولُه الطَّائفةُ مُحدَّدٌ، بخلافِ ما يُكتبُ عليهم، فهو يعمُّ كلَّ شيءٍ، فهو تهديدٌ لهم ببيان أنّ كلَّ تبييتٍ مكتوبٌ مسجّلٌ، والمرادُ ما يترتّب على الكُتب من العقاب.

(1) الواحدي، الوسيط: 6/627، والرازي، مفاتيح الغيب: 10/150، والدرة، تفسير القرآن الكريم: 2/545.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 3/89، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 5/136.

سرُّ المجيءِ بصيغةِ المضارعِ لفعلِ القولِ:

وتِكرَارُ فِعلِ القَول مَرَّتين بِصيغَةِ المضارع ﴿وَيَقُولُونَ﴾، و﴿تَقُولُ﴾ دلالةٌ على ارتباط الفِعل بالطَّائفة المقصودة، ويؤكّد ذلك تكرارُ فعلتهم الدّنيئة بفعلين مقابلين للفعلين المذكورين آنفًا وهما: ﴿بَيَّتَ﴾ و﴿يُبَيِّتُونَ﴾. وبذلك قد جمَعُوا في حقدهم بين الجهرِ بالقولِ وبالخفاءِ بالتّبييت.

الكناية في جملة الحالِ: ﴿وَٱللَّهُ يَكۡتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ﴾:

التّهديدُ والوعيدُ لكلِّ تَبييتٍ

تضمَّنتِ الجُملة تَهديدًا بإعلامِهم أنَّ اللّه تَعالى لَن يُفلِتَهُم مِن عِقَابِهِ، فَلا يَغُرَّنَّهُم تَأَخُّرُ العَذابِ مُدَّةً. وقَد دَلَّ بِصيغَةِ المُضَارِعِ في قَولِهِ: ﴿يَكۡتُبُ﴾ على تَجَدُّدِ ذلكَ، وأنَّهُ لا يُضَاعُ مِنهُ شَيءٌ[1]، وفي إسنادِ الكتابةِ للذَّاتِ العليّةِ بأهيبِ أسمائه تربيةٌ للمهابةِ، ومبالغةٌ في التّهديدِ لما يترتّبُ على الكتابةِ من عقابٍ شديدٍ، فجملةُ الحالِ كلّها كنايةٌ عن العقابِ الشّديدِ المبنيّ على الرَّصدِ المُحيطِ.

وجه التَّأكيدِ بقوله تعالى: ﴿فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ﴾:

الإعـــراضُ عَـنِ المُنافقين سبيلُ الانتصافِ منهم

قولُه تعالَى: ﴿فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ﴾ مُؤَكِّدٌ لِقَوْلِهِ: ﴿وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظٗا﴾، وهي أيضًا أمرٌ بِعَدَمِ الاكتِرَاثِ بِهِم، وأنَّهُم لَا يُخشَى خِلَافُهُم، أي: تَجافَ عَنهُم، ولا تتصدَّ للانتقامِ مِنهُم. والفاءُ لسببيّة ما قبلَهَا لما بعدَها[2]. وهي مبنيةٌ على جملة الحال مرتّبة عليها، لأنَّ جملة الحال بيّنت رصدَ فعالهم القبيحةِ، وكَنّت عن تهديدهم ووعيدهم، وهذا يُنتجُ معنى كأنّه قيل: إذا كان حسابُهم ومراقبتُهم شأنَ اللّه لا شأنك، فأعرض عن مواجهتِهم، ولا تلتفتْ إليهم، وقد جاءت الفاءُ إلاحةً إلى المسارعةِ في الإعراض وعدم الاكتراث، ويؤيّده استخدام (عن) وما فيها من معنى المجاوزة.

(1) الآلوسي، روح المعاني: 3/89، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 5/136، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 4/1779.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 3/725، والآلوسي، روح المعاني: 3/89، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 5/136.

توجيهُ معنى الواوِ في قولِه تعالى: ﴿وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾:

الإعـــراضُ عن المنافقين مقترنٌ بـالـتَّـوكُّـلِ على الله وحده

إمَّا أن نحمل الواوَ في قولِه تعالى: ﴿وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ على العطْفِ أو الاستئنافِ، فإذا جعلناها عاطفةً على ما قبلها، فبينهما تناسبٌ عجيبٌ، فمع المنافقين إعراضٌ وتفويضُ الأمر إلى الله تعالى؛ فقد بَيَّنَ الحقُّ تَبارَكَ وتعالى لنَبيِّه الكَريمِ مُحمَّد ﷺ أنَّ المُنافِقينَ الَّذينَ يَحضُرونَ مجلِسَكَ، ويُبدُونَ الطَّاعَةَ في الأَمرِ، ثُمَّ يُبيِّتُونَ مَا لَا يُرضَى مِنَ القَولِ، لَكَ في شَأنِهم أَمرَانِ: أَوَّلهما: الإعراضُ والصَّدُّ وعَدَمُ الانتِقَامِ. والآخَر: تَفويضُ الأَمرِ إلى اللّه تَعالى[1]، وهذانِ الأَمران يحصلُ بالأوَّل التَّجاوز عَن أَفعَالهم؛ لذلك كان التَّعبيرُ القُرآنيُّ بـ (عنْ) الَّتي تُفيد التَّجاوز. ويحصلُ بالأَمر الآخر الاستعلاء على كَيدِ هؤلاء المُنافقين، وجاء السِّياق القُرآنيُّ بـ (عَلى) الَّذي يُفِيدُ الاستعلاءَ إشارةً لهذا المعنى اللَّطيف، قال الزَّمخشريُّ: فإنَّ اللّه يكفيكَ مَعرَّتَهم وينتقم لكَ مِنهم إذا قَوِيَ أَمْرُ الإسلام وعَزَّ أَنصَارُهُ[2].

الجملةُ القرآنيَّةُ تـجـري مـجـرى الأمـثـالِ لقوَّتها في الـنَّـفـس واختزالِها

وإذا جعلنا الواو استئنافيَّةً في قولِه تعالى: ﴿وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ فالآيةُ تأخذ مأخذ الأمثالِ؛ فهي تُشعرُ باستقلالِ الجملةِ، إذ هذه الجملةُ من المُمكن أَنْ تُقتَطع مِن سِيَاقِهَا، وأن تَستَقِلَّ بإفادَةِ معناها؛ ولذلك يَشيعُ بعضُها شِيُوع الأَمثال، والَّذي أتاح ذلك هو ذِكر المُسند إليه، ولو كانَ المَذكور هو الضَّمير لارتبطَ بالكلام السَّابق؛ لأنَّ فيه مَرجعَهُ، وهذا الأسلوب يَشيع في القرآن كثيرًا[3].

(1) الآلوسي، روح المعاني: 4/149.
(2) الزمخشري، الكشاف: 1/437.
(3) أبو موسى، خصائص التراكيب، ص: 191.

نكتةُ وضعِ الظَّاهر موضعَ المضمرِ:

وُضع الظّاهرُ موضعَ المضمر في قوله ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ﴾، فلم يقلْ: وكفى به، تأكيدًا لاستقلال الجملة، وإشعارًا بعليّة الحكم، وليتسنّى دخول الباء على المتعجّب منه؛ لأنّ الباء تدخل في فاعل كفى فتفيدُ التعجّبَ نصًّا، والمعنى: ما أكفاه وكيلًا!

فنُّ التَّصديرِ:

في الآية ردُّ العَجز على الصَّدر؛ حيث وافقت كلمة ﴿وَكِيلًا﴾ وهي آخر كلمة في الكلام، وكلمة ﴿وَتَوَكَّلْ﴾ في صدره، وهو جناس اشتقاق أيضًا. كما جاء لَفظُ الجَلالة مُظهَرًا في مقام الإضمار للإشعَارِ بِعِلَّةِ الحُكمِ[1].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

البَروز والخُروج:

البروزُ: خلوصُ الشَّيءِ أو ظُهوره ظُهورًا قويًّا؛ أي: نفاذُه من بين ما يكتنفُه بجَهد وقوة: كما يخلصُ الذّهبُ مما هو شديد الامتزاج به (حال كونه تبرًا) بتعَمُّل. ومن هذا بَرَز الرجل: إذا خرج إلى تلك الأرض البَرَاز، أي: أَبْعَد، قال تعالى: ﴿لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ﴾ [آل عمران: 154] كأنَّ المعنى لَدُفِعُوا إلى الخروج إليها. ومثلها ﴿وَبَرَزُواْ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [إبراهيم: 21]: أُخرجوا من القُبُور مع مَلحَظِ الضِّيق، ومثلها ما في [إبراهيم: 48] و﴿يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ﴾ [غافر: 16]، ﴿فَإِذَا بَرَزُواْ مِنْ عِندِكَ﴾. ومَا لا ينضحُ فيه قيد (الجهد) في الاستعمالات الأخيرة فهو من إسقاطه[2].

أمَّا الخُروجُ فهو النَّفاذُ عن الشَّيءِ، وضِدُّه: الدُّخُول. ومن معانيه الظُّهورُ، ومنه سُمِّي الخوارِج بذلك؛ لِخُروجِهم على النَّاسِ، أَو عن الدِّينِ، أو عن الحَقِّ، أو عن عليٍّ [3] رضي الله عنه.

فالخُروجُ عادةً لا يكتنفُه كثيرُ جهدٍ وقوَّةٍ وضيق، فهو نَفاذٌ من الشَّيء بِسُهُولة، على خِلاف معنى البَروزِ.

---

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 2/207، والآلوسي، روح المعاني: 3/89.

(2) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصَّل: (برز).

(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، والزَّبيدي، تاج العروس: (خرج).

التَّوكُّل والتَّفويض:

يأتي التَّوَكُّلُ على وجهين، يُقال: تَوَكَّلْتُ لِفُلان بمعنى: تَولَّيتُ لَهُ، ويُقَالُ: وَكَّلْتُهُ فَتَوَكَّلَ لي، وتَوَكَّلْتُ عليه بمعنى: اعتمدته قال ﷻ: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝٥١﴾ [التَّوبة: 51][1].

والتفويض يَدُلُّ عَلَى اتِّكَالٍ فِي الأَمرِ عَلَى آخَرَ وَرَدِّهِ عَلَيهِ، ثُمَّ يُفَرَّعُ فَيَرُدُّ إِلَيهِ مَا يُشبِهُهُ. مِن ذَلِكَ فَوَّضَ إِلَيهِ أَمْرَهُ، إِذَا رَدَّهُ. قَالَ اللَّه تعالَى فِي قِصَّةِ مَنْ قَالَ: ﴿وَأُفَوِّضُ أَمۡرِيٓ إِلَى ٱللَّهِۚ﴾ [غافر: 44][2].

وبَينَ التَّوكُّلِ والتفويض علاقة العُمُوم والخُصُوص؛ إذ التَّفويضُ أَوسعُ من معنى التَّوكُّل، والتَّوكُّل أخصُّ من التَّفويض، قال صاحب المنازل[3]: والتّفويضُ ألطفُ إشارةً، وأوسعُ معنًى من التّوكّل، والتّوكّل يكون بعد وقوع السّبب، أمّا التّفويض فإنّه يكون قبل وقوع السّبب وبعده، والتّفويضُ هو عين الاستسلام، أمّا التّوكّل فهو شعبةٌ منه. يعني أنَّ المفوِّض يتبرَّأ من الحول والقوَّة، ويفوِّض الأمر إلى صاحِبه، من غير أن يقيمه مقامَ نفسِه في مصالحِه، بخلاف التوكُّل، فإنَّ الوكالةَ تقتضي أن يقومَ الوكيلُ مقامَ الموكِّل. فالتفويضُ: براءةٌ وخروجٌ من الحول والقوَّة، وتسليمُ الأمر كلِّه إلى مالكه.

(1) الراغب، المفردات: (وكل).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (فوض).
(3) الهروي، منازل السائرين، ص: 45.

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾ [النساء: 82]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا حَكَى عن المنافقين أنواعَ مَكرِهم وكيدِهم، وكان كلُّ ذلك لأجلِ أنَّهم ما كانوا يَعتقِدون كونَه محقًّا في ادِّعاءِ الرِّسالة صادقًا فيه، بل كانوا يعتقدون أنَّه مُفتَرٍ متخرِّصٌ؛ فلا جرَمَ أمَرَهم اللهُ تعالى بأن ينظُروا ويتفكَّروا في الدَّلائلِ الدَّالَّة على صحَّةِ نبوَّتِه، فاحتَجَّ تعالى بالقرآنِ على صحَّةِ نبوَّتِه[1].

1) ﴿يَتَدَبَّرُونَ﴾: التَّدَبُّرُ: النَّظَرُ في عاقِبَةِ الأمرِ، وتَقويمُه على ما يكون فيه صَلاحُ عاقِبَتِه، يُقال: دَبَّرَ الأمرَ: إذا سَاسَهُ ونَظَرَ في عاقِبَتِه ليقَعَ على الوجهِ الأكمَلِ، والتَّدَبُّرُ: التَّفكُّرُ، أي: تَحصيلُ المَعرِفَتَينِ لتَحصيل مَعرِفةٍ ثَالِثَةٍ، وأَصلُ الكلِمَةِ مِن الدُّبُرِ، وأَدبارُ الأمُورِ: عَواقِبُها[2].

2) ﴿ٱلْقُرْءَانَۚ﴾: هُوَ الوَحيُ المُنَزَّلُ عَلى نَبيِّنا مُحمَّد ﷺ. وهُوَ كَلامُ اللهِ - تعالى - غير مخلُوقٍ، وكِتَابُ الإسلَامِ في عَقَائِدِه وعِبَادَاتِه وأَحْكَامِه وآدابِه، المَقرُوءُ المَكتُوبُ في المَصَاحِفِ، وأَصلُهُ مِنْ القُرءِ، وهو: الجَمعُ والضَّمُّ، يُقَالُ: قَرَأَ الشَّيءَ، قُرْءًا وقُرْآنًا، أي: جَمَعَهُ وضَمَّ بَعضَهُ إلى بَعضٍ، ومِنهُ سُمِّي قُرآنًا؛ لأنَّه جَمَعَ الآيات والسُّوَرَ بَعضَهَا إلى بَعْضٍ[3].

3) ﴿لَوَجَدُواْ﴾: الوَجدُ: تَحصُّلُ شَيءٍ ذِي بَالٍ في حَوزَةٍ كانت خَالِيَةً مِنْهُ؛ كَالمَالِ والضَّالَةِ والتَّحقُّقِ المَادِّي عَنْ عَدَمٍ، ومِنْ صُوَرِهِ العُثُورُ عَلى الشَّيءِ في الحَوزَةِ دُونَ مَعرِفَةٍ مُسبَقَةٍ بِذَلكَ، قال تعالى: ﴿قَالُواْ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥۚ﴾ [يوسف: 75]، وقوله تعالى: ﴿وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًاۖ﴾ [آل عمران: 37]، وقوله تعالى: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ﴾ [الكهف: 65]، وفي كُلِّ هذه (وَجَدَ) فِعلٌ تامٌّ مَعنَاهُ: إِصَابَةُ ذَاتِ الشَّيءِ، أي: العُثُورُ عليه في الحَيِّزِ[4].

(1) الرازي، مفاتيح الغيب: 10/151.
(2) الفيروز آبادي، القاموس المحيط، والزَّبيدي، تاج العروس: (دبر).
(3) الخليل، العين، وابن منظور، لسان العرب، والزَّبيدي، تاج العروس: (قرأ).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصَّل: (وجد).

4) ﴿ٱخۡتِلَٰفٗا﴾: الاختِلَافُ: التَّنَازُعُ، يُقَالُ: اخْتَلَفَ القَومُ إِذَا تَنَازَعُوا، فَذَهَبَ كُلُّ وَاحِدٍ إلى غَيرِ ما ذَهَبَ إليهِ الآخَرُ، ويَأتِي الاختِلَافُ بِمَعنَى: الخِلَافِ والمُضَادّةِ والمُعَاكَسَةِ، وضِدُّ الاخْتِلَافِ: الاتِّفَاقُ والتَّسَاوِي، وأَصلُ كَلِمَةِ الاختِلَافِ مِنَ الخِلَافَةِ، وهِيَ مَجِيءُ شَيءٍ بَعدَ شَيءٍ فَيَقُومُ مَقَامَهُ، ومِن مَعَانِي الاختِلَافِ أَيضًا: التَّنَوُّعُ والتَّغَيُّرُ والتَّفَرُّقُ[1]، والمقصودُ به في الآيةِ هو التَّضارُبُ في الحقائِقِ.

5) ﴿كَثِيرٗا﴾: الكَثرَةُ: نَقِيضُ القِلَّةِ، وقَومٌ كَثِيرٌ وهُم كَثِيرُونَ، قَالَ اللَّيْثُ: الكَثرَة نَمَاءُ العَدَدِ. يُقَالُ: كَثُرَ الشَّيءُ يَكْثُر كَثْرَةً، فَهُوَ كَثِيرٌ[2]، والكثيرُ في الآيةِ صفةُ الاختلافِ.

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

الآيةُ الكريمَةُ تنعى على المُنافقينَ والضَّالين ما فَاتَهُم مِنْ خَيرٍ عَظيم، من عدم تدبّرِ القرآن، فالقرآنُ الكريمُ على امتدادِه، وسَعَتِه، وتشعُّب الموضوعاتِ الّتي تَناوَلَها، والقَضَايا الَّتي عَرَضَها، والأَحكَام الَّتي أَصدَرَها، هو في ذَلكَ كلّه على درجةٍ واحدةٍ مِنَ البلاغةِ والبيانِ، ولو كانَ هذا القُرآن مِن عند غَيرِ اللّه، لاختلفَ أُسلُوبُهُ، وتناقَضَت أَحكَامُهُ، وتضارَبت قَضَاياهُ، شأن كلّ عمَلٍ بَشريٍّ، لا يَسلمُ أبدًا مِن مَواطِن القُوَّةِ والضَّعفِ فيه[3].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

غرضُ الاستفهامِ في قوله: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَۚ﴾ الإنكارُ التَّوبيخي:

افتُتحت الآيةُ الكريمةُ بالاستِفهام الإنكاريّ التّوبيخيّ[4]؛ ردًّا على ما أفهمَته الآيةُ السّابقةُ من إنكارهم الرّسالةَ، وأن يكونَ القرآنُ من عند اللّه، وأسلوبُ الاستفهامِ أسلوبٌ حواريٌّ، وهو أعلى في الإقناع من الأسلوب التلقيني.

معنى الفاءِ في قولِه تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَۚ﴾:

الفاءُ إمَّا أن تكونَ فاءَ التّفريعِ على الكلامِ السَّابقِ جملةً، أو العطف على مقدَّرٍ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (خلف).

(2) الراغب، المفردات: (كبر).

(3) الزمخشري، الكشاف: 1/540، والخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 3/845.

(4) أبو حيان، البحر المحيط: 3/725، وأبو السّعود، إرشاد العقل السليم: 2/207، والآلوسي، روح المعاني: 3/89، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 5/137.

محذوفٍ، فمعناها على التَّفريع "على الكَلام السَّابِقِ المُتَعَلِّقِ بهؤلاءِ المُنافِقِينَ أَو الكَفَرَةِ الصُّرَحَاءِ وبِتَوَلِّيهِمُ المُعَرَّضِ بِهِم في شَأنِهِ بقَولِهِ: ﴿وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظٗا﴾، وبقولهم: ﴿طَاعَةٞ﴾، ثُمَّ تَدبير العِصيانِ فيما وُعِدُوا بالطَّاعَةِ في شَأنِهِ. ولمَّا كانَ ذلكَ كُلُّهُ أَثَرًا مِن آثارِ استِبطانِ الكُفرِ، أَو الشَّكِّ، أَوِ اختِيارِ ما هُوَ في نَظَرِهِم أَولَى مِمَّا أُمِرُوا بِهِ، وكانَ استِمرَارُهُم على ذَلِكَ، مع ظُهُورِ دَلَائِلِ الدِّينِ، مُنبِئًا بِقِلَّةِ تَفَهُّمِهِمُ القُرآنَ، وضَعفِ استِفَادَتِهِم، كانَ المَقَامُ لِتَفرِيعِ الاستِفهَامِ عَن قِلَّةِ تَفَهُّمِهِم[1].

الفاءُ محمولةٌ على التَّفريعِ أو العطفِ على مقدَّرٍ محذوفٍ

ومعناها على العطفِ على مُقدّرٍ؛ "أي: أَيُعرِضُونَ عَنِ القُرآنِ فلا يَتَأَمَّلُون فيه، لِيَعلمُوا كَونَهُ مِن عِندِ اللّٰه تعالى بمُشاهَدَةِ ما فيه مِنَ الشَّواهد الَّتي مِن جُملَتِها هذا الوَحيُ الصَّادقُ والنَّصُّ النَّاطقُ بنِفَاقِهِم المَحكيِّ على ما هو عليه[2]، وهذا على تَقديرِ المحذوفِ بعد الهمزةِ على مذهبِ الزَّمخشري.

فائدةُ استعمالِ لفظِ التَّدبُّر بصيغة المضارعِ:

وقد عبّرَتِ الآيةُ بالتَّدبُّر على صيغةِ التَّفعُّلِ، ليدلَّ على تكلُّفِ الفعلِ، وحصولِه بعد جُهدٍ، والتَّدبُّرُ: حصول النَّظرِ في الأمرِ المُتَدَبَّرِ مرَّةً بعدَ مرَّةٍ[3]، ويُؤيِّد ذلك التَّعبيرُ بالفعلِ المضارعِ ﴿يَتَدَبَّرُونَ﴾؛ ليفيدَ الاستمرارَ في الحثِّ على التَّأمُّل الدَّائم في كتابِ اللّٰه العزيز، فَكلامُ اللّٰه لا يَخْلُقُ على كَثرةِ الرَّدِ ولا تَنقَضِي عَجائبُهُ، لما يحويه من التَّناسق المُطلق الشَّامل الكامل[4]، وفائدةُ ذلك: بيانُ قوّةِ القرآنِ في تحدِّي القومِ في إثباتِ أنَّه من عندِ اللّٰه تعالى.

قوَّةُ القرآنِ في إثباتِ أنَّه من عند الله

ومِنَ المُلاحَظ أنَّ اللّٰه تعالى قالَ في هذه الآية: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 5/137.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 2/207.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 3/89.
(4) أبو حيان، البحر المحيط: 3/726، والآلوسي، روح المعاني: 3/90.

ٱلْقُرْءَانَۚ﴾، ولم يَقُل: أَفَلَا يتذَّكرُونَ القُرآنَ، أو أَفَلَا يَتَفَكَّرُونَ القُرآنَ؛ والعِلَّةُ في ذلك أنَّ التَّذَكُّرَ والتَّفَكُّر هو استِحضَارُ أَمرٍ مُستَقبَلٍ يُتوقَّع مَجيئُه، والكُفَّارُ والمنافقون لم يَكُن لَهُم شُعُورٌ بالقُرآن في وَجهٍ؛ لأنَّه يَنزِلُ شَيئًا بَعدَ شَيءٍ[1].

دلالةُ أداةِ الشَّرطِ ﴿وَلَوْ﴾ في الآية:

القُرآنَ مُنزَّهٌ عن الاختلاف وهو دَليلٌ على أنَّهُ مِنْ عِنْدِ الله تعالى

يُعَدُّ مَجيءُ أَداة الشَّرط ﴿وَلَوْ﴾ في الآية الكريمة نُقطَةً مركزيَّة في سِياقِ الآية الكريمَة الَّتي تُفضِي إلى حَقيقةٍ ناصِعَةِ البَيان لا يَختلِفُ فيها اثنان؛ فالشَّرط المقطُوع بانتِفَائه هو كَوْنُ هذا القُرآن مِنْ مَصدَرٍ آخر غَير الله ﷻ، فَلَو فُرض هذا الشَّرط لكانَ الجوابُ وجُود اختلاف كثير في المعنى بالتَّناقُض والتَّخلف عَنِ الصِّدق في الإخبار بالغَيبيَّات أو بَعضِها، وفي النَّظم بالتَّفاوت في الإعجاز، فإذا عَلِمُوا أنَّه من عند الله تعالى بهذا الدَّليل القَطعِيِّ[2] الذي وصَلُوا إليه بأَنفُسِهم بعدَ تَأَمُّلٍ، رُسِّخَ الإيمانُ في نُفوسِهم وحَفِظُوا سَرائرَهُم كما يَحفظونَ عَلانيَتَهُم؛ لأنَّ الأَمرَ بالطَّاعَةِ مُستَوٍ فيه السِّرُّ والعَلَنُ، والقَصدُ مِن هذا الشَّرط لَفْتُ الانتباه إلى أَمْرٍ يُفضِي بهم إلى حَقيقَةِ مَصدر القُرآن الكريم؛ أي: أَلَا يَتدبَّرون انتفاءَ الاختلافِ منه، فيعلمون أنَّه مِنْ عِند الله، وهذا استدلالٌ وَجيزٌ وعَجيبٌ قُصِدَ منه قَطعُ مَعذرَتِهم في استِمرَار كُفرِهم.

وُصِفَ الاختلافُ بالكثيرِ لإثباتِ انعدامِه في القرآنِ

ووُصِفَ الاختِلَافُ بالكَثِيرِ في الطَّرَفِ المُمتَنِع وُقُوعُهُ بِمَدلُولِ ﴿وَلَوْ﴾؛ لِيَعلَمَ المُتَدَبِّرُ أَنَّ انتِفَاءَ الاختِلَافِ مِنْ أَصلِه أَكبَرُ دَليلٍ على أَنَّهُ مِنْ عِندِ الله، فـ ﴿وَلَوْ﴾ رَبَطَتْ هذين الأَمرَين لتَدُلَّ على عدَم تحقُّق وقُوعهما، وأنَّ القُرآنَ الكريم مُنزَّهٌ عنهما، فهو كلامُ اللهِ المَجيدِ[3].

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 4/28.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 5/340.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 5/138.

بلاغةُ التَّعقيبِ بجملةِ الشَّرطِ في قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ﴾:

خُلُوُّ القرآنِ من التّفاوتِ في بلاغتِهِ آيةٌ كبرى على أنّه كلامُ اللهِ

الواوُ إمّا أن تكونَ عاطفةً هذه الجملةِ على الجملةِ الاستفهامية، ليكون جمعًا بين التَّدبُّرِ العامّ والتَّدبُّرِ التّفصيلي، وإمّا أن تكونَ واوَ الحالِ، فتكون قيدًا للتّدبُّر، ويكونَ المعنى: ألا يتدبّرُون انتفاءَ الاختلافِ عنه فيعلمون أنّه من عندِ اللّهِ، جاءت الجملةُ تعقيبًا على ما سبقَ؛ فالجملةُ استدلالٌ وجيزٌ عجيبٌ قُصِدَ منه قطعُ معذرتهم في الاستمرارِ على كُفرهم[1].

سِرُّ استعمالِ لفظ الوجدِ:

الوجدانُ يُطلقُ على أدنى دَرَجَاتِ الإدراكِ

﴿لَوَجَدُواْ﴾ مِن وُجدَانِ الضَّالَةِ، واللَّام للتَّوكيد، وإنَّما قَالَ: وَجَدُوا، ولم يَقُل: لَأَدرَكُوا؛ إشارةٌ إلى أنَّه مِنْ غَير تَأمُّلٍ ولا تَفكُّرٍ، فَكُلُّ مُتَّصِفٍ بالوجدانِ يُدركه من أوَّل وهلةٍ، بخلاف لَفظ الإدراك فإنَّه يشعرُ بأنَّ المعنى حصلَ بعد تأمُّلٍ ونَظَرٍ[2].

فنَّ الاحتجاجِ النَّظريِّ أو المذهب الكلاميّ:

الاحتجاجُ بإثباتِ الاختلافِ في الأغيارِ دليلُ السَّلامةِ في القرآنِ

الضَّميرُ في ﴿فِيهِ﴾ يَعُودُ في الظَّاهرِ عَلى القُرآن الكريم؛ أي: لوجدُوا في القرآن، والظَّرفيَّة هنا مجازيَّة، وَهَذَا فِي عِلْمِ الْبَيَانِ الِاحْتِجَاجُ النَّظَرِيُّ، وَقَوْمٌ يُسَمُّونَهُ الْمَذْهَبَ الْكَلَامِيَّ.

وَوَجْهُ هَذَا الدَّلِيلِ أَنَّهُ لَيْسَ مِنْ مُتَكَلِّمٍ كَلَامًا طَوِيلًا إِلَّا وُجِدَ فِي كَلَامِهِ اخْتِلَافٌ كَثِيرٌ، إِمَّا فِي الْوَصْفِ وَاللَّفْظِ، وَإِمَّا فِي الْمَعْنَى بِتَنَاقُضِ أَخْبَارٍ، أَوِ الْوُقُوعِ عَلَى خِلَافِ الْمُخْبَرِ بِهِ، أَوِ اشْتِمَالِهِ عَلَى مَا لَا يَلْتَئِمُ، أَوْ كَوْنِهِ يُمْكِنُ مُعَارَضَتُهُ. وَالْقُرْآنُ الْعَظِيمُ لَيْسَ فِيهِ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ، لِأَنَّهُ كَلَامُ الْمُحِيطِ بِكُلِّ شَيْءٍ مُنَاسِبٌ بَلَاغَةً مُعْجِزَةً فَائِتَةً لِقُوَى البلغاء، وتظافر صِدْقِ أَخْبَارٍ، وَصِحَّةِ مَعَانٍ، فَلَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ إِلَّا الْعَالِمُ بِمَا لَا يَعْلَمُهُ أَحَدٌ سِوَاهُ[3].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 5/138.
(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/41.
(3) أبو حيان، البحر المحيط: 3/726.

معنى وصفِ الاختلافِ بالكثير دون القليل:

المقصودُ التَّعريضِ بغيرِ القرآنِ لا إثباتُ الاختلافِ في القرآنِ

ونَفيُ الاختِلافِ الكَثيرِ لا يدلُّ على نَفي الاختِلافِ القَليل ضرورةً؛ لأنَّ المُرادَ بإثباتِ الكَثرَة لغيرِ القرآنِ في حال نزولِه مِنْ عندِ غَير اللّه، أما وهو مِنْ عِندِ اللّه فَلا اختِلافَ فيه أَصلًا، فكَثرَةُ الاختلافِ بالنَّظرِ إلى غير اللّه، أمَّا بالنِّسبة للّه تعالى - كما هو الوَاقِع - فقَد خَلا القُرآن مِن كُلِّ اختِلافٍ قَلَّ أو كَثُر فمَعانيه كُلُّها صَحيحَةٌ، سَواء ما احتَمَلَ التَّأويل ومَا لم يَحتمله[1]. ويؤيِّدُ ذلك اصطفاءُ أداة الشّرطِ الدّالةِ على الامتناعِ أصلًا، والمعنى: مادامَ قد امتَنَعَ كونُه من عندِ غيرِ اللّهِ فلا اختلافَ فيه أصلًا.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

التَّدبُّر والتَّفَكُّر:

التَّدبُّرُ صَرفُ القَلبِ بالنَّظَرِ في العَواقِبِ، والتَّفَكُّرُ تَصَرُّفٌ للقَلبِ بالنَّظَرِ في الدَّلائلِ[2]، والتَّدبُّرُ يختصُّ بالقرآنِ المسطورِ، أمَّا التَّفكُّرُ فيختصُّ بالكونِ المنشورِ.

(وَجَدَ) و(أَلْفَى):

وَجَدَ؛ أي: تَحصُّلُ شيءٍ ذي بالٍ في حَوْزةٍ كانت خاليةً منه. كالمالِ والضَّالة والتحقّقِ المادّيِّ عن عدمٍ. ومن صُوَرِه العثورُ على الشّيءِ في الحوزة دون معرفةٍ مسبقةٍ بذلك، ﴿قَالُواْ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِي رَحۡلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥۚ﴾ [يوسف: 75]، ﴿وَجَدَ عِندَهَا رِزۡقٗاۖ﴾ [آل عمران: 37]. وفي كلِّ هذه (وجد) فِعلٌ تامٌّ معناه إصابةُ ذاتِ الشَّيء؛ أي: العُثُور عليه في الحيِّز، ومثلها كثير: [البقرة: 283، النساء: 43، المائدة: 6، التوبة: 57، 79، 91][3].

والإلْفَاءُ: وِجدَانُ شَيءٍ عَلَى حَالَةٍ خَاصَّةٍ من غَيرِ سَعْيٍ لِوجدَانِه، فَالأَكثَرُ أَنْ يَكُونَ مُفَاجِئًا، أَو حَاصِلًا عَن جَهلٍ بِأَوَّلِ حُصُولٍ، كَقَولِه تَعَالَى: ﴿قَالُواْ بَلۡ نَتَّبِعُ مَآ أَلۡفَيۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ﴾ [البَقَرَة: 170][4].

(1) المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام في القرآن الحكيم: 1/220.
(2) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 75.
(3) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصَّل: (وجد).
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/256.

الخِلَاف والاختلاف:

الاختِلافُ مُستَعمَلٌ في قَولٍ بُنِيَ على دَليلٍ، والخِلَاف فيما لا دليلَ عليه. كما أنَّ الاختِلَاف مَا كانَ طريقُهُم وَاحِدًا والمَقصُودُ مُختَلفٌ، والخِلاف مَا كَانَ طريقُهم مُختَلفًا، وهو أَعَمُّ من الضِّدِّ؛ لأنَّ كلَّ ضِدَّين مُختلفان ولا عَكسَ، ولما كان الاختِلَافُ بَينَ النَّاسِ في القَولِ يَقتَضِي التَّنازُعَ استُعير ذلك للمُنازَعَةِ والمُجَادَلَةِ[1].

الكَثِير والكَبِير:

الفَرقُ بينهما أنَّ الكَبير - بالباء المُوحَّدة - بحَسبِ الشَّأن والخَطر، كالجَلِيل والعَظِيم. والكَثير - بالمُثلَّثة - بحَسَبِ الكميَّة والعَدَدِ، فيُقالُ: دارٌ واحِدةٌ كبيرةٌ، ولا يَجوزُ: كثيرةٌ[2].

(1) العيني، البناية في شرح الهداية: 6/297، والحدادي، التوقيف، ص: 158.

(2) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 448.

﴿وَإِذَا جَآءَهُمۡ أَمۡرٞ مِّنَ ٱلۡأَمۡنِ أَوِ ٱلۡخَوۡفِ أَذَاعُواْ بِهِۦۖ وَلَوۡ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنۡهُمۡ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسۡتَنۢبِطُونَهُۥ مِنۡهُمۡۗ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ لَٱتَّبَعۡتُمُ ٱلشَّيۡطَٰنَ إِلَّا قَلِيلٗا ٨٣﴾ [النساء: 83]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا جاءَ في السِّياقِ السَّابقِ وصفُ أقوالِ المنافقين المخالفةِ لاعتقادِهم، ناسبَ أن يذكرَ أفعالَهم السُّلوكيَّةَ المتوافقةَ مع اعتقادِهم؛ لتكونَ دليلًا على نفاقِهم، وعلامةً على ذواتِهم، فهو من عطفِ الحدثِ على الحدثِ؛ للتَّناسبِ بينهما.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلۡأَمۡنِ﴾ ﴿ٱلۡخَوۡفِ﴾: أَصْلُ الأَمْنِ: طَمَأنِينَةُ النَّفسِ وزَوالُ الخَوفِ، والأَمنُ والأَمَانَةُ والأَمَانُ في الأصل مصادر. أي: جاءهُم خَبَرٌ بفتحٍ، وغَنِيمَةٍ. والخَوفُ: مَصدَرُ: خَافَ يخَافُ خَوْفًا وَخِيفَةً وَمَخَافَةً؛ وَمعنَاهُ في لُغَةِ العَرَبِ: الفَزَعُ، و﴿ٱلۡأَمۡنِ﴾ و﴿ٱلۡخَوۡفِ﴾ في الآية يعني: ما يتعلّق بالغزوِ من أحوالِ النَّصرِ والهَزِيمَة[1].

2) ﴿أَذَاعُواْ﴾: الذَيْع: أَن يَشِيعَ الأَمر. يُقَال: أذعناهُ فذاعَ. وَرَجُلٌ مِذْياعٌ: لا يَستَطِيع كِتمان خَبَرٍ. وَقومٌ مَذاييعُ. وقالَ أَبُو إِسحَاق: يَعنِي بِهذا جمَاعَةً من المُنَافِقين، وضَعَفَةً من المُسلمين. قَالَ: ومعنى ﴿أَذَاعُواْ بِهِۦۖ﴾: أَي أَظهَرُوه ونادَوا بِهِ فِي النَّاس، وأَنْشد:

أذاع بِهِ فِي النَّاس حَتَّى كَأَنَّهُ *** بعلياءَ نارٌ أُوقدت بِتَقُوب[2]

3) ﴿رَدُّوهُ﴾: الرَّدُّ: صَرفُ الشَّيءِ، يُقالُ: رَدَّهُ عن طَرِيقِهِ، أي: صَرَفَهُ. ويأْتي بِمعنى المَنعِ والرَّفضِ، وشَيءٌ مَردُودٌ؛ أي: مَرفوضٌ. ورَدَّ فُلانًا: خَطَّأَهُ؛ أي: لَمْ يَقْبَلْهُ. وَمِن مَعانِيهِ أيضًا: الإِعادَةُ والإِرجاعُ، تَقول: رَدَّهُ إلى مَنزِلِهِ؛ أي: أَعادَهُ، ورَدَّ إِلَيهِ جَوابًا، أي: أَرجَعَهُ وأَرسَلَهُ. فمعنى: ﴿وَلَوۡ رَدُّوهُ﴾ أي: فوَّضوا أمرَه وسكتوا عن الخوضِ فيه.

(1) الواحدي، البسيط: 6/633، والراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (أمن)، و(خوف).
(2) الزجاج، معاني القرآن: 2/83، والأزهري، تهذيب اللغة: (ذيع).

4) ﴿أُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ﴾: الوَلَايَةُ: تَوَلِّي الأمرِ. والأَمْرُ: الشَّأن، وجمعه أُمُور لا أوامر، ومصدر أمرته: إذا كلَّفتُه أن يَفعَلَ شيئًا، وهو لفظٌ عامٌّ للأَفعالِ والأَقوالِ كُلِّها. و﴿أُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ﴾: هُم أَصحابُ رَسُولِ اللّه ﷺ ومَنْ اتَّبَعهُم مِنْ أَهلِ العِلمِ، وقِيل: إنَّهم هُمُ الأُمَراءُ، والأُمَراءُ إذا كانوا أولي عِلمٍ ودِينٍ آخذين بما يقوله أَهل العِلمِ، فَطاعَتُهُم فَريضَةٌ[1]، والصَّحيحُ أنَّهم أصحابُ الاختصاصِ والعلمِ في كلِّ علمٍ وفنٍّ.

5) ﴿يَسۡتَنۢبِطُونَهُۥ﴾: الاستِنْبَاطُ: استِفْعالٌ من أَنْبَطَ الماءَ، إنْباطًا: إذا استَخرجَه، وأَصلُهُ مِنَ النَّبَطِ، وهو الماءُ الذي يَخرُجُ مِن البِئرِ أَوَّلَ ما تُحفَرُ، وكُلُّ ما أُظهِرَ بعد خَفاءٍ فَقَد أُنْبِطَ، واسْتُنبِط، ومِن ذلك قَولُهُمْ: اسْتَنبَطَ الفَقيهُ الحُكمَ؛ أي: استَخرَجَه بِاجتِهادِهِ وفَهمِهِ[2]، ومعناه في الآيةِ: يستخرجون ما يليقُ نشرُه من الأخبارِ وما لا يليقُ، فيما يخدمُ مصلحةَ المسلمين.

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

ولو أَنَّ هَؤلاءِ المُنَافِقِينَ، والمُذيعِينَ رَدُّوا الأَمرَ مِن الأَمنِ، والخَوفِ إلى الرَّسُولِ ﷺ وإلى أُولي الأَمرِ، وطَلَبُوا مَعرِفَةَ الحَالِ فِيهم مِن جِهَتِهِم؛ لَعَلِمُوا حَقِيقَةَ ذلكَ منهم، وأَنَّهم أَولَى بالبَحثِ عَنهُ؛ فإنَّهم أَعلَمُ بِما يَنبَغِي أَنْ يُذَاعَ، أو يُكتَم. ثُمَّ في هذه الآية تَأديبٌ لِمَن يُحدِّثُ بكُلِّ ما سَمِعَ، وكَفَى بِهِ كَذِبًا وافتِراءً وزُورًا أَنْ يُحدِّثَ الإنسانُ بِما سَمِعَ قَبلَ تَمحِيصِهِ، والتَّأَكُّدِ مِنْ صِحَّتِهِ. قالَ الرَّسُولُ ﷺ: "كَفَى بِالمَرءِ كَذِبًا أَنْ يُحَدِّثَ بِكُلِّ مَا سَمِعَ"[3].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

دقَّةُ استعمال (إذا) في قولِه: ﴿وَإِذَا جَآءَهُمۡ أَمۡرٞ مِّنَ ٱلۡأَمۡنِ أَوِ ٱلۡخَوۡفِ﴾:

جاءت الجملةُ الشّرطيَّةُ بأداة الشَّرطِ ﴿وَإِذَا﴾: وهي ظرفٌ للزَّمان فيه معنى حتميَّةِ الحُدوث وكَثرَتِهِ؛ لبيانِ أنَّهم بمجرَّدِ مجيءِ الأمرِ إليهم يُذيعونه.

تصويرُ سرعةِ الاستجابةِ في إذاعةِ الأخبارِ لإلحاقِ الضَّررِ بالمؤمنين

(1) الزجاج، معاني القرآن: 2/67، والراغب، المفردات: (أمر)، و(ولي).
(2) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (نبط).
(3) مسلم، الصحيح، الحديث رقم: (5).

فائدةُ اختيارِ ﴿جَآءَهُمۡ﴾ دون مرادفاته في الاستعمال:

الخبرُ الصَّحيح بدون توضيحٍ أشدُّ ضررًا من الكاذبِ أحيانًا

اختير لفظُ المَجيءِ في قولِه: ﴿جَآءَهُمۡ أَمۡرٌ﴾ دون المُرادِفات الاستعماليّة التي تُؤدِّي المعنى من مثل: (إذا سمعوا أمرًا) لإفادةِ تحقُّقِ الأمرِ والتَّيقُّنِ منه باعتبارِه خبرًا من الأخبَارِ، فالمجيءُ هنا مَجَازٌ عُرفيٌّ في سَمَاعِ الأَخبَارِ، والأَمرُ هُنَا الخَبَرُ، بِقَرِينَةِ قَولِهِ: ﴿أَذَاعُواْ بِهِۦۖ﴾[1]، فهم يتيقّنون سماعَ الخبرِ، ثم يُذيعونه، فليس مقصودُهم نقلَ الأكاذيب، بل نقلُ الأخبارِ الصَّحيحةِ التي من شأنِها زَعزَعة المجتمعِ، فالخبرُ الصَّحيحُ إن لم يُفقه على وجهه السَّليم أحدث إرباكًا في المجتمعِ.

اختلافُ المفسِّرين في تعيينِ مرجعِ الضَّميرِ في قولِه: ﴿جَآءَهُمۡ﴾:

الصَّحيحُ أنَّ الضَّميرَ عائدٌ إلى المنافقين

اختُلِفَ في مرجعِ ضَميرُ الجَمعِ في قوله تعالى: ﴿جَآءَهُمۡ﴾ فقيل: رَاجِعٌ إِلَى الضَّمَائِرِ قَبلَهُ، العَائِدَةِ إِلى المُنَافِقِينَ، وهُوَ المُلَائِمُ لِلسِّيَاقِ[2]، وقيل: عائدٌ إلى ضَعَفَةِ المسلمين، وهؤلاءِ نظرُوا إلى الجملةِ الواردة بعدَه: ﴿وَلَوۡ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنۡهُمۡ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسۡتَنۢبِطُونَهُۥ مِنۡهُمۡۗ﴾، وهو ضعيفٌ؛ لأنَّ الحديثَ المحيطَ بالآيةِ سِباقًا ولحاقًا في المنافقين، ودليلهم هذا هو دليلٌ كذلك للقائلين بأنَّ مرجعه المنافقون، وأمَّا ﴿مِنۡهُمۡ﴾ فهي باعتبارِ المجتمع الظَّاهرِ لا باعتبارِ الإيمانِ وعدمِه.

فنُّ الجناسِ البديعيّ:

وقد تضمّنت جملةُ الشَّرطِ جناسًا بَينَ ﴿أَمۡرٌ﴾ ﴿ٱلۡأَمۡنِ﴾، وهو جِنَاسٌ غَيرُ تامٍّ، فالكَلِمتَانِ اختَلَفَتَا في حَرفٍ واحدٍ، والحَرفَانِ المُختَلِفَانِ الرَّاء والنُّون مُتقارِبانِ في المَخرَجِ، إذ كِلاهُما يَخرجُ مِنْ طَرَفِ اللِّسانِ مع ما فَوقَ أُصُولِ الثَّنايا العُليا[3].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 5/139.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 5/139.
(3) العلوي، الطراز: 3/165، والصعيدي، بغية الإيضاح: 4/645.

فنُّ الطِّباقِ البديعي:

في الآيةِ طباقٌ بَينَ ﴿ٱلْأَمْنِ﴾ و﴿ٱلْخَوْفِ﴾، وهو طِبَاقٌ بَينَ اسمَين عن طَريقِ الإيجاب؛ لأنَّ المَعنَيين المُتضادَّين مُثبَتان.

سِرُّ التَّعبيرِ بلفظِ ﴿أَذَاعُواْ﴾:

المُنافقُ مَجبولٌ على الإذاعةِ خيرًا أو شرًّا

جاء جوابُ الشَّرطِ بلفظٍ لم يأتِ في القرآن إلَّا في هذا الموضع، يُقَالُ: أَذَاعَ السِّرَّ وأَذَاعَ بِه، أي: أشَاعَهُ وأفشَاهُ، ومعنى ﴿أَذَاعُواْ بِهِۦ﴾: أظهَرُوه، وهو كلامٌ مَسُوقٌ لِدَفعِ مَا عَسَى يُتوهَّم في بعض الموادِّ مِنْ شَائِبةِ الاختِلافِ بناءً على عَدَمِ فَهمِ المُرادِ ببَيان أنَّ ذلكَ لعَدَمِ وقُوفِهم على مَعنى الكَلامِ، لا لِتَخَلُّفِ مَدلُولِه عنه[1].

معنى الباءِ في قولِه: ﴿أَذَاعُواْ بِهِۦ﴾:

البَاءُ في قولِه: ﴿أَذَاعُواْ بِهِۦ﴾ لِتَوكِيدِ اللُّصُوقِ، كما في: ﴿وَٱمْسَحُواْ بِرُءُوسِكُمْ﴾ [المَائِدَة: 6]، وقيل: الباءُ لِتَضَمُّنِ الإذاعةِ معنى التَّحديثِ وجعلها بمعنى (مع)، وقيل: معنى أذاعُوا بِهِ: فَعَلُوا بِهِ الإِذَاعَةَ، وهو أَبلَغُ من (أَذَاعُوهُ)، والضَّميرُ للمَجيءِ ممَّا لَا يَنبغي تَخريجُ كلامِ اللّٰه تعالى الجليلِ عليه[2]. والضَّميرُ في ﴿بِهِۦ﴾ يَعُودُ إلى ﴿أَمْرٌ﴾، سواءٌ أكان أمنًا أو خوفًا[3].

نكتةُ إظهارِ لفظِ الرَّسولِ دون إضمارِه:

من حقِّ الرَّسولِ أنْ تُردَّ إليه المُشكلاتُ ومستجدَّاتُ الحياةِ

جاءَ قَولُه تعالى: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ﴾ بالإظهارِ دون إضمارِ الرَّسول؛ فوُضِعَ المُظهرُ موضعَ المُضمرِ؛ لأنَّ "عُنوان الرِّسالة مِن مُوجِبَاتِ الرَّدِّ والمُراجعة إلى رَأيه ﷺ وأنَّه مِنْ أَحَقِّ حُقوقِهِ أَنْ يُردَّ إليه في كافَّةِ الأُمور في حَياتِه، وإلى ما جاءَ به مِنْ عند اللّٰه ﷻ بعدَ انتقَالِه إلى الرَّفيقِ الأَعلى"[4].

---

(1) أبو السعود: إرشاد العقل السليم: 2/208.

(2) الآلوسي، روح المعاني: 3/90، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 5/140.

(3) النسفي، مدارك التنزيل: 1/378.

(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 2/208.

علَّةُ مجيءِ الفاعلِ اسمًا موصولًا:

المستنبطونَ إمَّا أن يكونوا من ولاةِ الأمر أو من الرَّادِّين

جاء الفاعلُ اسمًا موصولًا ﴿ٱلَّذِينَ يَسۡتَنۢبِطُونَهُۥ مِنۡهُمۡۗ﴾ في مَوضِع الضَّمير؛ فلم يَقُل: (لَعَلِمُوه)، واختلف المفسِّرون بالمرادِ بهم، فقيل: الرَّادُّون من المنافقين، وقيل: أولو الأمر، فعلى القول الأوَّلِ يكون سببُ التَّعبير بالاسمِ الموصولِ هو الإيذانُ بأنَّه ينبغي أن يكونَ قصدُهم بردِّه إليهم استكشافَ معناه، واستيضاحَ فحواه، أي: لعَلِمه أولئك الرَّادُّون الذين يستنبطونه، أي: يتلقونه ويستخرجون علمه وتدبيرَه منهم، أي من جهة الرَّسول ﷺ وأولي الأمرِ من صحابته رضوانُ اللّه عليهم أجمعين، ولمّا فعلوا في حقه ما فعلوا؛ فلم يقَعْ ما وقع من الاشتباه وتوهّم الاختلافِ[1]، ولزِيَادَةِ تَقرير الغَرَضِ المَسُوق لَهُ الكَلَام، أو لِذَمِّهم، أو للتَّنبيه على خَطَئِهم في الفَحْصِ عن استِخرَاجِ وإظهارِ خَفيّ ذَلكَ الأَمر[2].

وعلى القول الثَّاني يكون "التَّقديرُ: ولَو أنَّ المُنافِقينَ ردُّوه إلى الرَّسُولِ، وإلى أُولي الأَمرِ لكانَ علمُهُ حاصِلًا عندَ مَنْ يَستَنبِطُ هذه الوَقائِعَ مِنْ أُولي الأَمرِ؛ وذلكَ لأَنَّ أُولي الأَمرِ فَريقانِ: بَعضُهُم مَنْ يَكُونُ مُستَنبِطًا، وَبَعضُهُم مَنْ لَا يَكُونُ كَذلكَ، فَقَوْلُهُ: ﴿مِنۡهُمۡ﴾ يَعنِي: لَعَلِمَهُ الَّذينَ يَستَنبِطُونَ المَخفِيَّاتِ مِنْ طَوائِف أُولي الأَمْرِ"[3].

توجيهُ الاسْتِعَارَةِ في قولِه: ﴿يَسۡتَنۢبِطُونَهُۥ﴾:

إجراءُ الاستعارةِ ما بَيْنَ المكنيَّة والتَّمثيليَّة

في قولِه: ﴿يَسۡتَنۢبِطُونَهُۥ﴾: استعارةٌ مكنيةٌ، وقد حذَفَ المشبَّه به وأُتي بشيءٍ مِن لَوازِمِه؛ فقد شَبَّه التَّثبُّت مِنَ الخَبر بَرَدِّه إلى رَسُولِ اللّه ﷺ وأُولي الأَمر باستنباطِ الماء مِنْ حَفيرِه على سَبيلِ التَّخييل، والقَرينَةُ المانِعَةُ مِنْ إرادة المعنى الأَصليّ للاستنباطِ استحالةُ

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 2/208.
(2) القاسمي، محاسن التأويل: 3/235.
(3) الرازي، مفاتيح الغيب: 10/154، والقاسمي، محاسن التأويل: 3/235.

إضافتِه إلى ضَميرِ الخَبَر، ثُمَّ تَرشِيح الاستعارة بالجارّ والمجرور ﴿مِنۡهُمۡ﴾؛ أي: مِنۡ رَسُولِ الله ﷺ وأُولي الأَمرِ.

ويُمكِن إجراؤها على النَّحو الآتي: شُبِّهَتۡ هيئة البَاحثين عن صِحَّة الأخبار والتَّثبُّت منها بحالِ المُنقِّبين عن الماء حتَّى ينبط من قَعر البِئر، والجَامع بينهما الصَّبرُ والمُكابدَةُ والجَلَدُ للوصُولِ إلى الخَبر الحَقيقيّ، وفيه من الحثِّ والإرشادِ ما لا يخفَى[1]. فتكونُ استعارةً تمثيليةً، وتَعْدِيَةُ الفعلِ إلى ضَمِيرِ الأَمرِ على اعتبارِ المَعنَى العُرفيِّ، ولَولا ذلكَ لَقِيلَ: يَستَنبِطُونَ منهُ، كَما هُوَ ظَاهِرٌ، أَو هو على نَزعِ الخَافِضِ[2].

بلاغةُ الالتفات في الآيةِ:

الخِطَابُ في قولِه تعالَى: ﴿وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ﴾ مُوجَّهٌ للطَّائفَةِ المَذكُورَةِ على طَريقَةِ الالتِفَات؛ أي: لَولَا فَضْلُه تَعالى عليكم ورحمتُه بإرشَادِكُم إلى طَرِيقِ الحقِّ الَّذي هو المُرَاجَعَةُ في مَظَانِّ الاشتِبَاهِ إلى الرَّسُولِ ﷺ وأُولي الأَمرِ ﴿لَٱتَّبَعۡتُمُ ٱلشَّيۡطَٰنَ﴾، وعمِلتم بآراءِ المنافقين فيمَا تأتونَ وما تذرونَ، ولم تهتدُوا إلى سُنن الصَّوابِ[3].

العنايةُ بالمُخاطَبين بإظهار رحمةِ الله بهم

جملةُ الشَّرطِ بمثابةِ التَّعليلِ لما بعدَها؛ فوجُودُ فَضْلِ الله تعالى عَليكُم ورحمتِه هو العِلَّةُ في عَدَمِ اتِّباعِكُم الشَّيطانَ.

قيامُ جملةِ الشَّرطِ مقامَ التَّعليلِ

استِثناءٌ ﴿إِلَّا قَلِيلٗا﴾ مِنۡ عُمومِ الأَحوال المُؤذن بها ﴿لَٱتَّبَعۡتُمُ﴾؛ أَي: إلَّا في أَحوالٍ قَليلةٍ، فإن كانَ المُرادُ مِن فَضلِ اللَّهِ ورَحمَتِه ما يَشمل البَعثَةَ فما بَعدها، فالمُرادُ بالقَليلِ: الأَحوالُ الَّتي تَنساقُ إليها النُّفوس في بعض الأَحوالِ بالوازِعِ العَقليِّ أو العَادِيِّ. وإن أُريدَ بالفَضلِ والرَّحمةِ النَّصائحُ والإرشاداتُ فالمُرادُ بالقَليل: ما هو

(1) البنَّاني، سورة النساء دراسة بلاغية تحليلية، ص: 442.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 5/141.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 2/209.

مَعلُومٌ مِنْ قَواعد الإسلام. ولَكَ أَن تَجعلَهُ استثناءً مِنْ ضَميرِ ﴿لَٱتَّبَعۡتُمُ﴾؛ أي: إلَّا قليلًا مِنكُم، فالمُرادُ مِنَ الاتِّباعِ اتِّباعُ مِثل هذه المَكائد الَّتي لا تَرُوجُ على أَهلِ الرَّأي مِنَ المُؤمنين[1].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

المجيء والإتيان:

(جَاءَ) و(أَتَى) يَستَويانِ في الماضي، و(يَأْتِي) أَخَفُّ مِنْ (يَجِيءُ)، وكذَا في الأَمرِ (جِيئُوا بِمِثْلِه) أَثْقَلُ مِنْ (فَأْتُوا بِمِثْلِه)، ولَم يَذكُرِ اللَّهُ إلَّا (يَأْتِي) و(يَأْتُونَ)، وفي الأَمرِ: فَأْتِ، فَأْتِنَا، فَأْتُوا؛ لأَنَّ إسكَانَ الهَمزَةِ ثَقِيلٌ؛ لِتَحريكِ حُروف المَدِّ واللِّين، تَقُولُ: جِيءَ أَثقَلُ مِن ائْتِ، وأَمَّا في المَاضِي فَفِيهِ لَطِيفَةٌ وَهِيَ: أَنَّ (جَاءَ) يُقَالُ في الجَوَاهِرِ والأعيان، وأَتَى في المعاني والأزمان[2].

الخَوف والوَجَل:

وَجِلَ الرَّجُلُ يوجَلُ وجلًا إذا قَلِق ولم يَطْمئن، ويُقالُ: أنا مِنْ هذا على وَجَلٍ ومِنْ ذلكَ على طَمَأنِينَةٍ، ولا يُقالُ على خَوفٍ في هذا المَوضِع، وفي القرآن: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ﴾ [الأنفال: 2]؛ أي: إذا ذُكِرَت عَظَمَةُ اللهِ وقدرتُهُ لم تَطمَئِنَّ قُلُوبُهم إلى ما قَدَّموه مِنَ الطَّاعة، وظَنُّوا أنَّهم مُقصِّرون فاضطربُوا مِن ذلك وقَلِقُوا، فليس الوَجَلُ مِنَ الخَوفِ في شيءٍ، وخَافَ مُتَعَدٍّ، وَوَجِلَ غَير مُتَعَدٍّ، وصِيغَتاهُمَا مُختَلِفَتانِ أيضًا، وذلكَ يدلُّ على فَرْقٍ بينهما في المعنى[3].

الخَشيَة والخَوف:

"الخَشيةُ أخصُّ من الخوفِ؛ فإنَّ الخَشيةَ للعُلَماءِ باللّه تعالى، فهي خَوفٌ مَقرُونٌ بمعرفةٍ، قالَ النَّبيُّ ﷺ: "أَنَا أَعْلَمُكُم باللّه وأَشَدُّكُم له خَشْيَةً"[4]. فالخَوفُ حَرَكَةٌ، والخَشيَةُ انجِمَاعٌ وانقِبَاضٌ وسُكُونٌ. فالخَوفُ لعامَّةِ المؤمنين، والخَشيَةُ للعُلَماءِ العَارفين، والهيبة

(1) الراغب، تفسير الراغب: 3/1355، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 5/142.
(2) الزركشي، البرهان: 4/80 - 81.
(3) الهلال، تفسير القرآن الثري: (الأنعام: 81).
(4) البخاري (6101)، ومسلم (2356).

للمُحبِّين، والوَجَلُ للمُقرَّبين، وعلى قَدر العِلم والمعرفَةِ تكونُ الخَشيَة، وقال الزَّركشي: الخَشيَةُ تكونُ من عِظَمِ المَخشيِّ وإن كانَ الخَاشِي قويًّا، والخَوفُ يَكونُ مِنْ ضَعفِ الخَائِفِ وإن كانَ المَخوفُ أمرًا يَسيرًا[1].

وسُئِلَ ابنُ عَطاء: مَا الفَرقُ بَينَ الخَشيةِ والخَوفِ؟ فَقالَ: الخَشيَةُ مِنَ السُّقوطِ عَن دَرَجاتِ الزُّلفَى، والخَوفُ مِنَ اللّحوق بدركات المَقْتِ والجَفَا، وقال بعضُهُم: الخَشيةُ أدَقُّ والخَوفُ أَصْلَبُ[2].

الإذاعَة والإفْشَاء:

أنَّ معنى ﴿أَذَاعُواْ بِهِۦ﴾؛ أَي: أظهَرُوه ونادَوا بِهِ فِي النَّاس، والمِذْياع: الَّذِي لَا يكتمُ السِّرَّ، وقَومٌ مَذاييعُ. فالإذاعة: التَّحدُّثُ بالأَمرِ بَقَصدٍ وعَلَانِيَةٍ وإِسَاءَةٍ ليعلمَه النَّاسُ[3]. والإفشاءُ: يكون بِالكِتَابَةِ والإِشَارَة والكَلَام، وهو كَثرَةُ الإظهارِ، ومِنهُ أَفْشَى القَومُ إذا كَثُرَ مَالُهم، ولهذا يُقال: فَشَى الخَيرُ في القَومِ أو الشَّر إذا ظَهَرَ بكَثرَةٍ، ولا يَصحُّ إلَّا فيما لا تَصحُّ فيه الكَثرَة، ومِنهُ: تَفَشَّى الشَّيءُ: إذا اتَّسَعَ[4].

الرَّدّ والرُّجُوع:

الرَّدُّ: صَرفُ الشَّيء بذاته، أو بحالةٍ من أَحواله، يُقال: رَدَدْتُهُ فَارْتَدَّ، قال تعالى: ﴿وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ١٤٧﴾ [الأنعام: 147]، فَمِنَ الرَّدِّ بالذَّات قوله تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ﴾ [الأنعام: 28]، ومن الرَّدِّ إلى حالةٍ كان عليها قولُه: ﴿يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ﴾ [آل عمران: 149]. والارْتِدَادُ والرِّدَّةُ: الرّجوع في الطَّريق الَّذي جاءَ منه، لكنَّ الرِّدَّةَ تختصُّ بالكُفرِ.

أمَّا الرُّجُوعُ: فالعَودُ إلى ما كان مِنه البِدْءُ، أو تقدير البِدْءِ مكانًا كانَ أو فِعلًا، أو قولًا، وبذاته كان رُجوعه، أو بجزءٍ من أجزائه، أو بفِعلٍ من أفعاله. فَالرُّجُوعُ: العَودُ، والرَّجعُ: الإعادة[5].

(1) الزركشي، البرهان: 4/78، والكفوي، الكليات، ص: 428.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 7/167.
(3) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (ذيع).
(4) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 286، والكفوي، الكليات، ص: 64.
(5) الراغب، المفردات: (رد)، (رجع).

العِلْم والمعرفَة:

أنَّ المعرِفَةَ أخصُّ مِنَ العِلمِ؛ لأنَّها عِلمٌ بِعَينِ الشَّيءِ مُفَصّلًا عمَّا سِواهُ، والعِلمُ يَكُونُ مُجمَلًا ومُفَصّلًا، فكُلُّ مَعرِفةٍ عِلمٌ وليس كُلُّ عِلمٍ معرفةً؛ وذلك أنَّ لَفظَ المعرِفَة يُفيدُ تَمييز المَعلُوم مِن غَيره، ولَفظُ العِلم لا يُفيد ذَلكَ إلَّا بِضربٍ آخر مِنَ التَّخصيص في ذِكرِ المعلوم. والشَّاهدُ قَولُ أهل اللُّغة: إنَّ العِلْمَ يتعدَّى إلى مَفعولَينِ ليس لكَ الاقتصار على أحدِهما إلَّا أن يكونَ بمعنى المَعرفةِ، ولا تنافي بَينَ تَفسيرِ العِلْم بالمعرفةِ والمعرفة بالعِلْم، وبَينَ أن يكُونَ لكُلٍّ مِنهُما مع ذَلكَ معنًى يختَصُّ بهِ، وإنَّما المقصودُ اشتراكهما في المفهوم الإجمالي المُستَنِد إلى ثُبوتِ معنًى في النَّفس هو حقيقةُ العِلْم والمعرفةِ، وكما يقول الإمام ابنُ حَزْم: فالعِلْمُ والمعرفةُ اسْمان واقِعَان على معنًى واحد، وهو اعتقادُ الشَّيءِ على ما هو عليه وتيقُّنه وارتفاع الشُّكوك عنه[1].

الفَضل والنِّعمَة:

إنَّ فَضلَ اللَّهِ إشَارَةٌ إلَى مَا عِندَهُ مِنَ الخَيرِ، وهُوَ مُستَغنٍ عنهُ، والنِّعمَةُ إشارَةٌ إلى ما يَصِلُ إلى العَبدِ وهُوَ مُحتَاجٌ إلَيهِ؛ لِأَنَّ الفَضلَ في الأَصلِ يُنبِئُ عَنِ الزِّيَادَةِ، وعِندَهُ خَزَائِنُ مِنَ الرَّحمَةِ لَا لِحَاجَةٍ إلَيهَا، ويُرسِلُ مِنهَا على عِبَادِهِ ما لَا يَبقَونَ مَعَهُ في وَرطَةِ الحَاجَةِ بِوَجهٍ مِنَ الوُجُوهِ، والنِّعمَةُ تُنبِئُ عَنِ الرَّأفَةِ والرَّحمَةِ وهو مِنْ جَانِبِ العَبدِ، وفيه مَعنًى لَطِيفٌ وهو تَأكِيدُ الإعطَاءِ[2].

(1) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 80، وابن حزم، الفصل في الملل: 5/68.

(2) الرازي، مفاتيح الغيب: 28/103.

﴿فَقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفۡسَكَۚ وَحَرِّضِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأۡسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأۡسٗا وَأَشَدُّ تَنكِيلٗا ٨٤﴾ [النساء: 84]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا ذكرتِ الآيةُ السّابقةُ إذاعةَ المنافقينَ لأخبارِ الأمنِ والخَوْفِ، وكان القَصْدُ من ذلك تثبيطَ المؤمنين عنِ القتالِ، أمرَ في هذه الآيةِ نبيَّه ﷺ بالقتالِ، وأمرَه بتحريضِ المؤمنين عليه، تحقيقًا لنصرِ اللّه تعالى، فيكون ما بين هذه الآيةِ والآياتِ التي قبلَها المتحدِّثةِ عن القتالِ بيانًا لخطرِ النِّفاق الذي يُهدِّد انتصارَ المؤمنين على أعدائِهم، فإذا كان أعداءُ الأمَّةِ في الخارجِ يُواجَهون بالقتالِ، فإنَّ أعداءَ الأمَّة في الدَّاخلِ يُواجَهون بالصَّبرِ عليهم، واليَقَظةِ لأفعالِهم وأقوالِهم.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿سَبِيلِ﴾: السَّبِيلُ: الطَّريقُ وما وَضَحَ مِنهُ، يُذَكَّرُ ويُؤَنَّثُ، والتَّأنيثُ أغلَبُ. وسَبيلُ اللّهِ: طَريقُ الهُدى الذي دَعا إليه. وأصلُ الكَلِمَةِ يَدُلُّ على امتدادِ شَيءٍ. ومنه الطَّريقُ؛ سُمِّيَ سَبيلًا؛ لامتدادِه. ومِن مَعانيه: السَّبَبُ والوَصلَةُ. وجمعُه: سُبُلٌ[1].

2) ﴿تُكَلَّفُ﴾: التَّكليفُ: مَصدَرُ: كَلَّفَهُ تَكْليفًا؛ أي: أَمَرَهُ بِمَا يَشُقُّ عَلَيهِ، وَتَكَلَّفتُ الشَّيءَ: تَجَشَّمتُهُ، والكُلفَةُ: مَا تَتَكَلَّفُهُ مِنْ نَائِبَةٍ أَو حَقٍّ[2].

3) ﴿وَحَرِّضِ﴾: التَّحْريضُ: التَّحضيضُ والحَثُّ على الشَّيءِ والإحْماءُ عليه، يُقالُ: حَرَّضَهُ على الشَّيءِ، يُحَرِّضُهُ، تَحْريضًا؛ أي: حَثَّهُ وحَضَّهُ عليه، وأَمَرَهُ بِهِ، ويكون في الخَيرِ والشَّرِّ، ومنه: الحَثُّ على القِتالِ وغيرِه. والحارِضُ: الّذي قد قارَبَ الهَلاكَ، ومنه: ﴿حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوۡ تَكُونَ مِنَ ٱلۡهَٰلِكِينَ ٨٥﴾ [يوسف: 85]. والمُحارَضَةُ: المُداوَمَةُ على العَمَلِ، يُقال: حارَضَ فُلانٌ على العَمَلِ: إذا داوَمَ عليه[3].

(1) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (سبل).
(2) الأزهري، تهذيب اللغة، والزَّبيدي، تاج العروس: (كلف).
(3) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (حرض).

4) ﴿يَكُفَّ﴾: الكَفُّ: التَّركُ والمَنعُ، يُقال: كَفَّ الرَّجُلُ عن الأَمرِ، يَكُفُّ كَفًّا؛ أي: انصَرَفَ وامتَنَعَ، وكَفَّ عن الشَّيءِ كَفًّا: إذا تَرَكَه. والكَفُّ أيضًا: اليَدُ، سُمِّيَت بذلك؛ لأنَّها تَكُفُّ صاحِبَها، أو لأنَّها تَقبِضُ الشَّيءَ[1].

5) ﴿بَأْسَ﴾: البَأْسُ: الشِّدَّةُ وما ضَارَعَهَا، والبَأسُ: العَذابُ الشَّدِيدُ. وهو الشِّدَّةُ في الحَربِ، ومِنْه الحَدِيث: "كُنَّا إِذَا اشْتَدَّ البَأْس اتَّقينا بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ" يريدُ الخَوفَ. وَلَا يكونُ إلاّ مَعَ الشِّدَّة، وقَالَ ابنُ سِيدَه: البَأْسُ: الحَربُ، ثمَّ كَثُرَ حَتَّى قيل: لَا بَأْسَ عَلَيك؛ أَي: لَا خَوْفَ[2].

6) ﴿أَشَدُّ بَأْسًا﴾: الشِّدَّةُ: الصَّلابَةُ، يُقال: حَجَرٌ شَدِيدٌ؛ أي: صُلبٌ. وتأْتي بمعنى الإحكام. وكُلُّ شَيءٍ أُحكِمَ فقد شُدّ. والشِّدَّةُ أيضًا: الإِسْراعُ، فيُقالُ: شَدَّ في العَدوِ واشتَدّ شَدًّا: إذا أَسرَعَ. وأَصلُها: القُوَّةُ في الشَّيءِ، يُقالُ: شَدَدْتُ العَقدَ شَدًّا؛ أي: قَوّيتُهُ. والشَّدُّ: الرّبطُ والعَقدُ. ومِن معاني الشِّدَّة: الارْتِفاع والصُّعُوبَةُ والعُسرُ والجَلادَةُ والثّباتُ والنّجدَةُ[3].

7) ﴿تَنكِيلًا﴾: النِّكْلُ: القَيْدُ، وجَمعُهُ أَنْكَالٌ، لأَنَّهُ يَنْكُلُ: أَي يَمْنَعُ. والنِّكْلُ: حَدِيدَةُ اللِّجَام. وَنَكَّلْتُ بِهِ تَنْكِيلًا، وَنَكَّلْتُ بِهِ نَكَالًا، مَعنَاهُ: أَنَّهُ فَعَلَ بِهِ مَا يَمنَعُهُ مِنَ المُعَاوَدَةِ، ويَمنَعُ غَيرَهُ مِنْ إِتيَانِ مِثلِ صَنِيعِهِ[4].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

أَمْرٌ مِنَ اللّه لِرَسُولِهِ بالقتالِ، وهو يَشملُ كُلَّ قَائدٍ، وكُلَّ قَادِرٍ على القِتالِ مِنَ المؤمنين المُخلِصينَ عِندَ إِعلانِ النَّفير، أَنْ يَندَفِعَ ولَو مُنفرِدًا إلى الجِهادِ في سَبيلِ اللّه، فإنَّه غَيرُ مُسؤولٍ في الجهاد إلَّا عَن نَفسِهِ، وعَن حَضِّ المُؤمنينَ عَليه، غَير مُلتَفِتٍ إلى هؤُلاء المُثبِّطِينَ الَّذين يُظهِرونَ الطّاعةَ، ويُضمِرونَ العِصيَانَ، ولا إلى من يُذيعُونَ الأَخبَارَ قَبلَ التَّثَبُّتِ مِنْ صِحَّتِهَا، أَو يُصدِّقُونَها، فيَتقاعَدُون بِسَبَبِهَا عَنِ القِتَال[5].

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب، والزَّبيدي، تاج العروس: (كفف).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن سيده، المحكم، وابن الأثير، النهاية، والزبيدي، تاج العروس: (بأس).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، والجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب: (شدد).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن الأثير، النهاية، وابن منظور، لسان العرب: (نكل).
(5) مجموعة من العلماء، التفسير الوسيط: 2/865.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

براعة الفاءِ في قَولِهِ تَعَالى: ﴿فَقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ في وَصْلِ المعاني:

اختُلف في توجيه الفاءِ في قولِه تعالى: ﴿فَقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، على قولين:

قتالُ أعداءِ الخارجِ يكون بعد مواجهةِ أعداءِ الدَّاخلِ

الأوَّل: الفاءُ واقعةٌ في جوابِ شَرطٍ مَحُذوفٌ يَنسَاقُ إليه النَّظمُ الكَريم؛ أي: إذا كانَ الأَمرُ كما حُكِي مِنْ عَدمِ طَاعَةِ المُنافقينَ وكَيدِهم، وتَقصيرِ الآخَرينَ في مُراعَاةِ أَحكَامِ الإسلام، فَقَاتِلْ أَنتَ وَحدَكَ غَيرَ مُكتَرِثٍ بما فعلوا[1]، وهي الفصيحةُ، أَي: إذَا كانَ كما عَلِمتَ فقاتِل في سَبِيلِ اللّه، وهذا عَودٌ إلى مَا مَضَى مِنَ التَّحرِيضِ على الجِهادِ، وما بَينَهُمَا اعتِرَاضٌ[2].

الثَّاني: أن تكون الفاءُ جوابًا لقوله ﷻ: ﴿وَمَن يُقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقۡتَلۡ أَوۡ يَغۡلِبۡ فَسَوۡفَ نُؤۡتِيهِ أَجۡرًا عَظِيمٗا ٧٤﴾ [النساء: 74]، أي: فقاتل في سبيلِ اللّه كي نؤتيكَ أجرًا عظيمًا، ويَجوزُ أن يَكونَ الأمرُ بالقتالِ مُتَّصلًا بقوله: ﴿وَمَا لَكُمۡ لَا تُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [النساء: 75]، أي: أيُّ شيءٍ لَكُم في تَركِ القِتَال؟ فأَمرَهُ اللّه بالقِتال - ولَو قاتلَ وحدَهُ - ؛ لأنَّه قَد ضَمِنَ لَهُ النَّصرَ[3].

والمعنيانِ اللَّذان اكتنزهما هذا الحرفُ صحيحان، وهو ما يُؤكِّدُ ارتباطَ الآيةِ بسابقِ الكلامِ، فالمعنى هو الأمر بالقتالِ بعد الإغراءِ بالأجرِ العظيم، والصَّبرِ على تثبيطِ المنافقين.

البَدْءُ بالأمرِ بالقتالِ لإسقاطِ المنافقين من الاعتبارِ

وفائدةُ البَدْءِ بالأمرِ بالقتالِ مباشرةً وحذفِ فعلِ الشَّرطِ إسقاطُ المنافقين من الاعتبارِ، فلا وزنَ لهُم في نُصرةِ المؤمنين حتّى يكونَ لهم ذِكرٌ، مع ما فيه من الإيجازِ لتتّجه العنايةُ إلى الجوابِ.

---

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السليم: 2/209، والآلوسي، روح المعاني: 3/93، والقاسمي، محاسن التأويل: 3/238.

(2) الراغب، تفسير الراغب: 3/1357، وأبو حيّان، البحر المحيط: 3/731، والآلوسي، روح المعاني: 3/93، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 5/142، طنطاوي، التفسير الوسيط: 3/239.

(3) الزجاج، معاني القرآن: 2/84.

خصوصُ الخطابِ وإرادةُ العمومِ في قولِه تعالى: ﴿فَقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾:

متابعةُ النَّبيِّ في القتالِ من أعظمِ سُننِ الإسلامِ

الأمرُ خِطابٌ للنَّبيِّ ﷺ والمُرادُ هو وأمّته، وهو مِثَالُ ما يُقالُ لكُلِّ واحدٍ في خَاصَّةِ نَفسِه؛ أَي: أَنتَ يا محمَّدُ وكُلُّ واحدٍ مِنْ أُمَّتِكَ، قُل لَهُ: ﴿فَقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾؛ ولهذَا يَنبَغي لكُلِّ مُؤمنٍ أَن يَستَشعِرَ، أَن يُجاهِدَ ولو وَحدَهُ، ومِن ذلكَ قَولُ النَّبيِّ ﷺ: "لَأُقَاتِلَنَّهُمْ حَتَّى تَنْفَرِدَ سَالِفَتَيَّ"[1]، وقَولُ أَبي بَكرٍ وَقتَ الرِّدَّةِ: ولَو خَالَفَتني يَمِيني لَجَاهَدتُهَا بِشِمَالي[2].

بلاغةُ جملةِ القَصْرِ في قَولِهِ تَعالَى ﴿لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفۡسَكَۚ﴾:

للقُدوةِ دورٌ كبيرٌ في إعلاءِ الهِمَمِ وإصلاحِ المسلمين

جاءت جملةُ القصرِ ﴿لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفۡسَكَۚ﴾ مُقرّرةً مضمونَ ما قبلَها؛ فإنَّ اختصاصَ تكليفه ﷺ بفعل نفسِه من موجباتِ مُباشرته ﷺ للقتالِ وحدَه، وفيه دلالةٌ على أنَّ ما فعَله المنافقون من التّثبيطِ والتّقاعدِ لا يضرُّهُ، ولا يؤاخذ به، فمَعنَى قوله تعالى: ﴿لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفۡسَكَۚ﴾: أَي: لَا تُكَلَّفُ في القِتَالِ إِلَّا نَفسَكَ، فَقَاتِلْ ولو وَحدَكَ. وقِيلَ: المَعنَى إِلَّا طَاقَتَكَ ووُسْعَكَ[3]، وفي هذه الجملةِ بناءُ أُسُسِ القدوةِ القائمةِ على الإيمانِ بالنَّبيِّ ﷺ، وهي أقوى أثرًا من التَّكليفِ العسكريِّ القائمِ على الإلزامِ المادِّيِّ؛ وآثارُه الحميدةُ قائمةٌ في الأمَّةِ إلى يومنا هذا.

سرُّ استعمالِ لفظِ التَّحريضِ في قولِه تعالى: ﴿وَحَرِّضِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ﴾:

القيامُ بفريضةِ القتالِ أصلٌ في الدَّعوةِ إليها

استُعملَ لفظُ التَّحريضِ، وهو: الحثُّ على الشَّيءِ بِكَثرَةِ التَّزيين وتَسهيلِ الخَطْبِ فيه، كأنَّه في الأَصلِ إزالَةُ الحَرَضِ، نحو: مرّضتَه وقذّيتَه؛ أي: أزلتَ عنه المرضَ والقذَى؛ لما فيه من قوَّةِ تحبيبِ المؤمنين وإقناعِهم بالقتالِ، فعليك أيُّها المخاطَبُ أن تنفُضَ عن

(1) البخاري، الحديث رقم: (2731)، و(2732).
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/86، وأبو حيّان، البحر المحيط: 3/731.
(3) أبو حيان، البحر المحيط: 3/731.

أتباعِك الموانِعَ وتزيلَ العَوائق الَّتي تمنعُهُم أن يُقاتِلُوا[1]، وتَحريضُ المؤمنين خاصَّةً على القِتَالِ مِنَ التَّبليغِ النَّبويِّ الَّذي مِنهُ الأَمرُ والنَّهي، هو استِدعَاءٌ سماويٌّ للمُؤمنين الَّذين صَدَقُوا إيمانَهم أن يكونوا مع النَّبيِّ ﷺ وأن يَأخذُوا طَريقَهُ الَّذي أخذه، وفي هذا مَا فيه مِنْ تَكريمٍ لَهُم، ورَفعٍ لِقَدرِهِم[2].

توجيهُ المتشابِهِ اللَّفظيِّ:

بناءُ الأسوةِ في القتالِ يُغني عن ذكرِه

حُذِفَ في هذه الآيةِ المُحَرَّضُ عليه وهو القِتَال، وعِلَّة ذلك أنَّه مَعلُوم من ظَاهِرِ سياق الآية الكريمة، فلمَّا بدأتِ الآيةُ بالأمرِ به، أغنى ذلك عن إعادتِه، ولما فيه من اشتمالِ التَّحريضِ على القتالِ ومقدِّماته، بخلافِ قولِه تعالى في سورةِ الأنفال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ عَلَى ٱلۡقِتَالِۚ﴾ [الأنفال: 65]، فالأمرُ فيه مختلفٌ، إذ جاءَ الأمرُ بتحريضِ المؤمنين في الأنفالِ ابتداءً، لا معطوفًا على أمرِه ﷺ بالقتالِ، أي: حثّهم على القتال ورَغِّبهم فيه؛ لأنَّهم آثمُون بالتَّخلّفِ عنه لفَرضِه عَليهم قبل هذا بسنين، ولا تَعنِّف بِهم[3]؛ ففي الحذفِ إيجازٌ لما استقرَّ عليه الأمرُ من أنّ التّحريضَ ينصرفُ للقتالِ؛ ولأنَّ السّياقَ جارٍ له معتمدٌ عليه.

فائدةُ التَّعبير بـ﴿عَسَى﴾ في قوله: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأۡسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ﴾:

على المسلمِ الإعدادُ والتَّوكلِ على اللهِ في كلِّ الأمور

﴿عَسَى﴾ منه تعالى واجبَةٌ، ومِنَ البَشَرِ مُتَوقّعةٌ مَرجُوَّةٌ ففَضلُ اللّه تعالى يُوجِبُها، فهي هنا مجازٌ استُعملَ ما هو مرجوٌّ متوقَّعٌ فيما هو واجبٌ، والمعنى: قاتلُوا راجينَ النَّصرَ من اللّهِ وكفِّ أذى الكافرين، وكونوا على يقين من نصرِ اللّه لكم، وفي هذا وَعدٌ للمُؤمنينَ بغَلبَتِهم على الكَفَرَةِ، وهي هنا تدلُّ على الإعدادِ والتَّهيئةِ والخَبَرِ والوَعدِ،

(1) الراغب، المفردات: (حرض)، والشعراوي، تفسير الشعراوي: 4/2486.
(2) رضا، المنار: 5/247، والخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 3/848.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 2/210، والآلوسي، روح المعاني: 3/93.

وخَبَرُهُ تعالى حَقٌّ؛ لأنَّه لا يُخلِفُ الميعادَ، والكريمُ إذا أطمَعَ أنجزَ، وإذا رُجِي حقَّق.

وفائدةُ التَّعبير بِعسى تعليمُ المُؤمنينَ الأَدَبَ في القَولِ حتَّى لا يَجزمُوا بأَمرٍ يتعلَّقُ بالمُستقبلِ، بل يُسَدِّدون ويُقاربُون ويُباشرون الأَسبابَ، ثمَّ بعدَ ذلكَ يَتركونَ النَّتائج للّه تعالى[1].

معرفةُ النَّاصرِ تُورِّثُ الطَّمأنينة

وأسندَ فعلَ الكفِّ إلى الضَّميرِ العائدِ على الذّاتِ العليّة لتربيةِ المهابةِ، وتوريثِ الطَّمأنينةِ، بأنَّ الذي سيكفُّ بأسَ الذين كفروا هو اللّه تعالى.

سرُّ التَّعبير بالكفِّ دونَ النَّصرِ:

كفُّ البأسِ طريقُ النَّصرِ والدَّعوةِ بمفهومِها الواسِعِ

وفي التّعبيرِ بكفِّ بأسِ الذين كفروا دون التَّعبيرِ بالنّصرِ عليهم، مع أنَّ النَّصرَ أوضحُ دلالةً وأغرى بالمُخاطَبين، لربطِ المؤمنين بأدوات النَّصرِ، وكيفيَّة تحصيله، فإنَّ كفَّ بأسِ الكافرين هو مقدِّمةٌ للنَّصرِ العظيمِ، ومعرفةُ المؤمنين بطرقِ كفِّ بأسِ الكافرين مِهادٌ للنَّصرِ وغيرِه من أشكالِ الدَّعوةِ بمفهومِها الواسعِ.

فائدةُ إضافةِ البأسِ للاسمِ الموصولِ:

بيانُ شدَّةِ بأسِ الكافرين تمهيدٌ لبيانِ هوانِها

وفي التّعبيرِ بالبأسِ بيانٌ عن شدّةِ الحربِ، وإضافتُه للاسم الموصول بدلَ الاسمِ الصّريحِ فلم يقل: (بأس الكافرين) تأكيدٌ لشدّته؛ لكونه اقتضَى جملةَ صلةٍ بالفعل الماضي لبيانِ استقرار الكفر في قلُوبهم، وللإلماعِ إلى قساوةِ قلُوبِهم وفجاجةِ بأسهم.

تقديمُ البأسِ على النِّكالِ باعتبارِه مقدِّمةً له:

تقديمُ البَأْسِ على النِّكالِ مِنْ تَقديمِ السَّببِ على المُسَبَّبِ؛ لأنَّه إذا حَصَلَ البَأْسُ حَصَلَ النَّكال[2].

---

(1) النسفي، التيسير في التفسير: 5/131، وابن عطية، المحرر الوجيز: 2/86، والرازي، مفاتيح الغيب: 10/158، وأبو السّعود، إرشاد العقل السليم: 2/210، والقاسمي، محاسن التأويل: 3/239، ورضا، تفسير المنار: 5/247، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 5/142 - 143، وطنطاوي، الوسيط: 3/241.

(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/42.

بلاغةُ التّذييلِ في قولِه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأۡسٗا وَأَشَدُّ تَنكِيلٗا﴾:

الجُملةُ اعتراضٌ تذييليٌّ مُقرِّرٌ لِمَا قبلَها، وهي جُملةٌ خَبَرِيَّةٌ، مُرَادٌ بِها التَّقريعُ والتَّهديدُ.

إظهارُ الاسمِ الجليلِ لربطِ القلوبِ وتهيئةِ النّفوس

وجِيءَ باسم الجَلَالة ﴿وَٱللَّهُ﴾ مُظْهَرًا بدَل ضَميره؛ ليفيدَ زِيادَة التَّمكين لمعنى البَأْس والتَّنكيل في نُفوسِ السَّامِعِينَ، ولِتَربيةِ المَهَابةِ، وتَعليلِ الحُكم، وتَقويَةِ استِقلَالِ الجُملَةِ[1]، فإنَّ ذكرَه أقوى في نفوسِ المخاطَبين، وأشدُّ ربطًا لقلوبِهم.

معنى لفظِ ﴿أَشَدُّ﴾ في الآية وبلاغتُه:

واسمُ التَّفضيل ﴿أَشَدُّ﴾ ليسَ على بَابِه في الآية؛ لأنَّ بأسَ المُشركينَ لا قيمَةَ له بجَانب بَأْسِ الله تعالى وقُوَّتِه ونَفَاذِ أَمرِه. وعَذَابُهم لغَيرِهم مِنَ الضُّعَفَاءِ لا وَزنَ لَهُ بجَانب عَذَابِ الله تعالى للظَّالمينَ؛ لأنَّ عذَابَهم لغَيرِهم يُمكن التَّخلُّص منه، أمَّا عَذَابُه ﷻ فلا يُمكِن التَّخلُّصُ منه، والمقصُودُ مِنْ هذا التَّذييل تَهديدُ الكافرينَ بِسُوءِ المَصِير وتَشجيع المؤمنين على قِتالهم، وبِشارتهم النَّصر عليهم[2].

تَكرارُ ذكرِ شدَّةِ التَّنكيل بعد ذكرِ شدَّةِ البأسِ:

وتَكريرُ الخَبَر ﴿أَشَدُّ﴾؛ لِتَأكِيدِ التَّشديد[3]، ولبيانِ استقلالِ شدَّةِ بأسِ الله عن شدّةِ تنكيلِه، فلو قال: (والله أشدُّ بأسًا وتنكيلًا) لم تكن في قوَّة ما جاءت عليه الآية، وفيها زيادةُ تثبيتٍ للمؤمنين وطَمأنةٌ لهم.

تنكيلُ اللهِ بالكافرينَ محاطٌ بإذلالِهم وتحقيرِهم

سرُّ استعمالِ لفظِ التَّنكيلِ:

وفي ذكر التّنكيلِ بيانٌ عن غلبةِ المؤمنين للكافرين على وجه الإذلالِ؛ فالنِّكْلُ في أصلِه هو قَيدُ الدَّابةِ وحَديدةُ اللِّجَامِ؛ فلُحِظَ فيه

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/86.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 5/143، والقاسمي، محاسن التأويل: 3/239، وطنطاوي، الوسيط: 3/241.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 5/143.

عَجزُ المَنكُولِ وهَوانُهُ، فاستُعملَ في مُطلَقِ الإذلَالِ، مُنتقلًا إليه مِنْ مَعنَاهُ الأوَّلِ وهو القَيدُ والغُلُّ، ثُمَّ استُعملَ في كلِّ تَعذِيبٍ بَلَغَ الغَايةَ في الشِّدَّةِ والأَلَم، مع لحظ المعنى الذي أُخِذَ منه، ودلالته ضَربُ الظَّالم بِقُوَّةٍ حتَّى يكونَ عِبرةً لِمِثلِهِ فيَنكُلَ عَنِ الظُّلم، والمقصُود مِن اللَّفظِ في الآية تهديدُ الكافرين وتشجِيعُ المؤمنين[1].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الجِهَاد والقِتَال:

الجَهْدُ والجُهْدُ: الطَّاقة والمشقَّة. فالجهادُ: يَشملُ قِتالَ الأَعدَاءِ، ويَشمِلُ: جِهادَ النَّفْسِ، والشَّيطَان، وجِهادَ المُنافقين. والجِهَادُ: يكونُ بالقُوَّةِ، والحَربِ، والمالِ، والنَّفْسِ، واللِّسانِ، والبَيانِ، والحُجَّةِ، والقَلبِ، وتَحمُّلِ الأَذَى، والصَّبرِ. فالجهادُ: أَوسَعُ مِنَ القِتَالِ.

والقِتَالُ: استعمالُ القُوَّةِ المادّيّة، ويَعني: قِتالَ الكفَّارِ والمشركينَ، والجِهادُ بكلِّ أنواعه في سَبيلِ اللّه، ومِنه جِهَادٌ في اللّه وفيما أَمَرَ أو قَدَّرَ، وأَعظمُ الجِهادِ جِهادُ النَّفسِ وطاعةُ اللّه. وهو أيضًا الدِّفاع عَنِ الدِّينِ، والمالِ، والعِرْضِ، والنَّفسِ أمامَ أيِّ عَدُوٍّ كانَ[2].

الطَّريق والصِّراط والسَّبيل:

قال ابن الكمال: "إنَّها مُتساوية في التَّذكير والتَّأنيث، أمَّا في المعنى فبَينَها فَرقٌ لَطِيف، وهو أنَّ الطَّريق كلُّ ما يَطرقُهُ طارقٌ مُعتادًا كانَ أو غَير مُعتادٍ. والسَّبيلُ مِنَ الطُّرُقِ ما هو مُعتاد السُّلوك. والصِّراطُ مِنَ السَّبيل مَا لا التِواء فيه؛ أي: لا اعوجَاجَ، بل يكون على سَبيلِ القَصدِ فهو أَخَصُّ"[3].

(1) طنطاوي، الوسيط: 3/241، وبنت الشاطئ، التفسير البياني: 1/148، والشعراوي، تفسير الشعراوي: 4/2490.
(2) الهلال، تفسير القرآن الثري الجامع، تفسير آية 39 من سورة الحج.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 5/13.

﴿مَّن يَشۡفَعۡ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٞ مِّنۡهَاۖ وَمَن يَشۡفَعۡ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفۡلٞ مِّنۡهَاۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ مُّقِيتًا ٨٥﴾ [النساء: 85]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا أَمَرَ اللّه تعالى النَّبيَّ ﷺ أن يُحرِّضَ المؤمنين على الجهاد، وذَكَرَ أنَّه ليس عليه وِزْرُ من تمرَّدَ وعَصَى، بَيَّن في هذه الآية أنَّهم حين أَطاعُوه، ولَبّوا دَعوتَه، أَصابَهم مِنْ هذه الطَّاعة خيرٌ كثير، وأنَّ له مِنْ هذا الخَير نصيبًا يستحِقُّ عليه الأجر؛ لأنَّه قد بذَلَ الجُهدَ في تَرغيبِهم فيه، بجَعلِ نفْسِه شفيعًا ونصيرًا لهم في الوصُولِ إلى تَحصيلِ هذه الأغراض الشَّريفة[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿شَفَٰعَةً﴾: الشَّفاعَةُ: هي التوسُّطُ بالقَولِ في وصُول شَخصٍ إلى مَنفَعةٍ مِن المنافع الدُّنيويَّةِ أو الأُخرويَّة، أو خَلَاصِه مِن مَضَرَّةٍ ما[2]، يُقال: شَفَعَ إلى فُلانٍ في أَمرٍ ما شَفاعَةً: إذا طَلَبَ إليه قَضاءَ حاجَةٍ لِلآخرين. وتُطلَقُ على الإِعانَةِ والتَّقوِيَةِ. وأَصلُ الكَلِمَة مِن الشَّفْعِ، وهو: ضَمُّ الشَّيءِ إلى غَيرِه[3].

2) ﴿حَسَنَةً﴾: الحَسَنَةُ اسمٌ جامعٌ لكُلِّ مَا يَسُرُّ مِنْ نِعمَةٍ تَنالُ الإنسانَ في نَفسِه وبَدَنِه وأَحوَالِه، والسَّيِّئَةُ تضادُّها. والحَسَنُ: الجَيِّدُ، وضِدُّهُ: القَبيحُ والسَّيِّء[4].

3) ﴿نَصِيبٌ﴾: النَّصِيبُ: الحَظُّ مِنْ كُلِّ شَيءٍ، أو الحَظُّ المَنصُوبُ؛ أي: المُعَيَّنُ، يُقالُ: هذا نَصِيبِي؛ أي: حَظِّي، ويُقالُ: لِي نَصِيبٌ فيه، أي: جُزءٌ مُعَيَّنٌ مِن الشَّيءِ المَقسُومِ. وتَناصَبَ القَومُ الشَّيءَ: تَقاسَمُوهُ. والجَمعُ: أَنْصِباءُ، وأَنْصِبَةٌ، ونُصُبٌ[5].

(1) الهرري، حدائق الروح والريحان: 6/230، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 5/143.
(2) الراغب، المفردات: (شفع)، وأبو السّعود، إرشاد العقل السليم: 2/210، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 4/1784.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (شفع).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (حسن).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة، والزبيدي، تاج العروس: (نصب).

4) ﴿سَيِّئَةً﴾: الإساءَةُ: مصدرُ أَساءَ، يُسِيءُ، وهي في اللُّغَةِ: خلافُ الإِحْسانُ، يُقالُ: أساءَ الرَّجُلُ إساءةً، خِلاف أحْسَنَ، وأَساءَ الشَّيءَ: أَفْسَدَهُ ولم يُحسِنْ عَمَلَهُ، والإِساءَةُ أيضًا: اسمٌ للظُّلمِ والمَعصِيَةِ[1].

5) ﴿كِفْلٌ﴾: الكَفالَةُ: الضَّمَانُ، والكَفِيلُ: الضَّامِنُ، وتَأْتِي الكَفَالَةُ بِمَعنَى: الإِعَالَةِ والإِحَاطَةِ، والكَفِيلُ: العَائِلُ الذِي يُنفِقُ عَلَى غَيرِه، وأَصلُ الكَفَالَةِ مِنَ الكَفْلِ، وهُوَ تَضَمُّنُ شَيءٍ لِشَيءٍ، وسُمِّيَتْ الإِعَالَةُ كَفَالَةً؛ كَأَنَّ الكَافِلَ تَضَمَّنَ اليَتِيمَ وَضَمَّهُ إِلَيهِ[2]، وقيل: الكِفْلُ: الكَفِيلُ. ونبّه أَنَّ من تحرَّى شرًّا فلَه مِن فِعله كفيلٌ يسلِّمه، كما قِيل: مَن ظَلَمَ فقد أَقام كفيلًا بظلمه، تنبيهًا أَنَّه لا يُمكنه التَّخلُّص من عُقوبتِه[3].

6) ﴿مُّقِيتًا﴾: المُقِيتُ: الحَافِظُ، والرَّقِيبُ، والشَّاهِدُ، والمُقْتَدِرُ. وأَصلُهُ عِندَ أَبِي عُبَيدَةَ: الحَافِظُ، وهُوَ اسمُ فَاعِلٍ مِنْ أَقَاتَ إِذَا أَعطَى القُوتَ، فَوَزنُهُ مُفْعِلٌ وعَيْنُهُ وَاوٌ. واستُعمِلَ مَجَازًا فِي مَعَانِي الحِفظِ والشَّهَادَةِ بِعَلَاقَةِ اللُّزُومِ؛ لأَنَّ مَنْ يُقِيتُ أَحَدًا فَقَد حَفِظَهُ مِنَ الخَصَاصَةِ أو مِنَ الهَلَاكِ، وهُوَ هُنَا مُستَعمَلٌ فِي مَعنَى الاطِّلَاعِ، أو مُضَمَّنٌ مَعنَاهُ[4].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

جاءتِ الآيةُ الكريمةُ على سَبيل البيانِ العامِّ في بيان جزاءِ كُلِّ شَفاعةٍ حَسَنةٍ أو كُلِّ شَفاعَةٍ سَيِّئَةٍ، إلَّا أنَّ المقصودَ بها قَصدًا أوَّليًا تَرغِيبُ المؤمنين في أن يُعاونَ بعضُهم بعضًا على الجِهاد في سَبيل الله، وفي انضمام بعضهم إلى بعضٍ من أَجلِ نُصرةِ الحقِّ، وتهديدِ المنافقين الَّذين كانَ يشفعُ بعضُهم لبعضٍ لكي يأذَن لَهُم النَّبيُّ ﷺ في التَّخلُّف عن الجهاد[5].

ومعنَى الآيةِ العامّ: مَن ينضمَّ إلى غيره معينًا له في فَعْلَةٍ حسنةٍ يكنْ له منها نصيبٌ، ومن ينضمَّ إلى غيره معينًا له في فَعلةٍ سيِّئةٍ تَنَلْه منها شدَّةٌ.

(1) الخليل، العين، وابن منظور، لسان العرب، والزَّبيدي، تاج العروس: (سوأ).
(2) الجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب: (كفل).
(3) الراغب، المفردات: (كفل).
(4) الأزهري، تهذيب اللغة، والزَّبيدي، تاج العروس: (قوت)، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 5/144.
(5) طنطاوي، الوسيط: 3/242.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ التّعبيرِ بقولِه باسم الشَّرطِ الدَّالِّ على العمومِ مع الفِعلِ المُضارِعِ في قولِه تعالى: ﴿مَّن يَشْفَعْ﴾:

كلُّ مَنْ يشفَعْ على الدَّوامِ في الخيرِ فهو ملازمٌ للحمد

بُنِيَتِ الآيةُ الكريمةُ على جُملتي شَرطٍ، وقد جاءتا على طريق المُقابلةِ، وأسلوبُ الشَّرطِ هو المُلائم في مقاماتِ التّعبيرِ عن الجزاءِ المرتّبِ على العملِ. وعُبِّرَ باسم الشَّرطِ ﴿مَّن﴾ لقصد التّعميم، وعُبِّرَ بالفعلِ المضارعِ في فعل الشَّرطِ وجوابِه إلماعًا إلى تجديدِ الثَّوابِ مع تجديد كلِّ شفاعةٍ، وما قيل هنا يُقالُ في الجملةِ المقابلة.

سرُّ البَدْءِ بذكر الشَّفاعةِ الحسنةِ:

الشَّفاعةُ عند الإطلاقِ تنصرفُ للخيرِ

جاءت جملةُ الشَّرطِ في مقابلةِ جملة الشَّرطِ السّابقة، وبُدِئَ بالشَّفاعةِ الحسنةِ؛ لأنَّ الأصلَ في الشّفاعةِ أن تكونَ في الخير، وإطلاقُ الشَّفاعَةِ على السَّعي في الشَّرِّ من بابِ المُشاكَلَةِ؛ لأنَّ الشَّفاعةَ تكون في الوَساطَةِ في الخَير عند الإطلاقِ[1]، ووصفُ الشَّفاعةِ بالحسنةِ هنا تأكيدٌ لها وتمهيدٌ لمقابلتِها السَّيِّئة؛ إذْ لا يُقَالُ: (شَفَعَ) لِلَّذِي سَعَى بِجَلبِ سُوءٍ[2].

فنُّ الطِّباقِ البديعيّ:

بين: ﴿حَسَنَةً﴾ و﴿سَيِّئَةً﴾ طِبَاقٌ كاشفٌ عن بعدِ ما بينهما، فالشَّفاعةُ الحسنةُ تورث الخير والنَّصرَ والإلفةَ بين المؤمنين، والشَّفاعة السَّيِّئة تمزق المجتمعَ المسلمَ وتُنزِل عليه الهزائمَ والجرائم.

سرُّ التَّعبيرِ عن جزاءِ الشَّفاعة الحسنةِ بالنَّصيبِ والسَّيِّئة بالكفلِ:

جزاءُ الخيرِ مضاعَفٌ بالخيرِ، وجزاءُ السُّوءِ مماثلٌ للسُّوءِ

عبَّر عنِ الجزاءِ في جانبِ الشَّفاعةِ الحسنةِ بأنَّه ﴿نَصِيبٌ﴾؛ إيماءً إلى أنَّه قد يكونُ له أجرٌ أكثرُ من ثوابِ مَن شفَع عندَه، وعبَّر بـ﴿كِفْلٌ﴾ عن الجزاءِ في جانبِ الشَّفاعة السيِّئة؛ إشارةً إلى أنَّ مَن

(1) طنطاوي، الوسيط: 3/242.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 5/144.

يَشفَعْ شفاعةً سيِّئةً يكنْ له نصيبٌ من وِزْرها مُساوٍ لها في المِقْدارِ من غَيرِ أنْ يَنقُصَ منه شيءٌ؛ فالنَّصيبُ هو الحظُّ مِن كلِّ شيءٍ، والكِفلُ الحظُّ كذلك، لكن يُستعمَلُ الكِفلُ بمعنى المِثل؛ فيُؤخذُ من ذلك: أنَّ الكفلَ هو الحظُّ المماثِلُ لحظٍّ آخَر[1].

وقيل: عبَّر بـ﴿كِفۡلٌ﴾ عن الجزاءِ في جانبِ الشَّفاعة السيِّئة؛ لأنَّه يُفهَم منه النَّصيبُ ويُفهَمُ أكثرُ مِنه؛ تغليظًا في الزَّجرِ؛ إذ الكِفلُ اسمٌ للنَّصيبِ الّذي عليه يَكونُ اعتمادُ الناسِ في تَحصيلِ المصالحِ لأنفسِهم، ودَفْعِ المفاسِدِ عن أنفسِهم؛ والغَرضُ من قوله: ﴿كِفۡلٌ مِّنۡهَاۖ﴾ التنبيهُ على أنَّ الشفاعةَ المؤدِّيةَ إلى سُقوطِ الحقِّ وقوَّةِ الباطلِ تكونُ عَظيمةَ العِقابِ عِندَ اللهِ تعالى[2].

فنُّ المقابلةِ بين الجُمَلِ:

بين جملتي الشَّرطِ مُقابَلَةٌ لَطيفَةٌ، والمقابلةُ أسلوبٌ يبني العقلَ المُقارِنَ بين الأضداد، والمقارنةُ بين الأشياء خطابٌ ملائمٌ للعقول، وغرضُ المقابلةِ بيانُ ما يستحقُّه كلُّ فريقٍ من الفريقين جزاءً على أفعالِه، وأنَّ قبحَ من يشفع شفاعةً سيِّئةً لا يعني مجازاته فوقَ ما يستحقُّ؛ فإنَّ الجزاء الإلهيَّ مبنيٌّ على الفضلِ في حقِّ المؤمنين والعدلِ في حقِّ الظَّالمين.

دلالةُ التّذييلِ بقولِه تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ مُّقِيتٗا﴾:

اللهُ تعالى يُجازِي على الأعمالِ بِمَا يُناسِبُها مِنْ حُسنٍ أو سُوءٍ

جاءتِ الجملةُ تذييلًا مُقرِّرًا لمضمون الجملةِ السّابقةِ من أوَّل قوله تعالى: ﴿مَّن يَشۡفَعۡ شَفَٰعَةً حَسَنَةٗ﴾؛ لإفادَةِ أنَّ اللهَ يُجازِي على كُلِّ عَمَلٍ بِمَا يُنَاسِبُهُ مِنْ حُسنٍ أو سُوءٍ[3]، "وقوله: ﴿وَكَانَ﴾ مُطلَقًا من غَيرِ أيِّ قَيدٍ؛ ذلكَ بأنَّه كان مِن وَقت كذا أو حَال كذا، يدلُّ على أنَّه كانَ حاصلًا مِن الأَزل إلى الأَبدِ[4].

بلاغةُ استعمالِ اسمِ الله المُقِيتِ في الآية:

تفرّدتِ الآيةُ بالاسمِ الجليلِ (المُقيتِ)، وهو الحَافِظُ، والرَّقِيبُ،

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 2/210، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 5/144.
(2) الراغب، تفسير الراغب: 3/136، والرازي، مفاتيح الغيب: 10/160، والبقاعي، نظم الدرر: 5/348.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 2/210، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 5/144.
(4) الرازي، مفاتيح الغيب: 10/161، والشعراوي، تفسير الشعراوي: 4/2496.

والشَّاهِدُ، والمُقتَدِرُ[1]، واستُعمِلَ مَجازًا في مَعاني الحِفظِ والشَّهادَةِ بعلاقَةِ اللزُّوم؛ لأنَّ مَن يُقِيتُ أحدًا فَقَد حَفِظَهُ مِنَ الخَصاصَةِ أو من الهلاك، وهو هنا مُستَعمَلٌ في معنى الاطِّلاعِ، أو مُضمَّنٌ معناه، كما يَنبئُ عنه تعديتُهُ بحرفِ ﴿عَلَىٰ﴾ وفسَّرَهُ الغَزالي بِمُوَصِّلِ الأَقواتِ؛ فيُؤَوّلُ إلى معنى الرَّازق، إلَّا أنَّه أخصُّ، وبمعنى المُستَولي على الشَّيء القادر عَليهِ، وعليه يدلُّ قوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ مُّقِيتٗا﴾، فيكون راجعًا إلى القُدَرةِ والعِلمِ[2].

المقيتُ هو الحافظُ القادرُ المطَّلعُ على كلِّ شَيْءٍ

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الحَسَن والحَسَنَة والحُسنى:

الحَسَنُ يُقالُ في الأعيانِ والأَحداثِ، وكذلك الحَسَنَة إذا كانت وصَفًا، وإذا كانت اسمًا فمُتعارفٌ في الأحداث، والحُسْنَى لا تُقالُ إلَّا في الأحداث دون الأَعيانِ، والحَسَن أكثَر ما يُقال في تُعارف العامَّة في المُستَحسَن بالبصر، يُقالُ: رَجُلٌ حَسَنٌ وحُسَّان، وامرأةٌ حَسْنَاء وحُسَّانَة، وأكثَر ما جاء في القُرآن مِنَ الحسن فللمُستَحسَنِ من جِهة البَصيرة، وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقَوۡلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحۡسَنَهُۥٓۚ﴾ [الزمر: 18][3].

الشّفاعة والسُّؤال والأمر:

قالَ أهلُ اللُّغةِ: إنْ طَلَبَ الأَدنَى مِنَ الأَعلى لِنَفسِهِ فهو سُؤالٌ، وإنْ طَلَبَ لغَيرِهِ فهو شَفَاعَةٌ، ومنه تُسمَّى الصَّلاةُ على المَيِّتِ شفاعةً؛ لأنَّهم يطلُبون من اللهِ تعالى له الرَّحمةَ، وإنْ طَلَبَ الأَعلى من الأَدنى لنَفسِهِ هو أَمرٌ، وإنْ طَلَبَ لغَيرِهِ فهو شَفاعةٌ، ومنه قول بَريرة للنَّبيِّ ﷺ حينَ أَمرَها بِرَدِّ زَوجها مُغيث: "يا رَسُولَ اللهِ أَتأمُرُ أم تَشفَعُ؟ قال: بَلْ أَشفَعُ، قالَت: فلا حاجَةَ لي فيهِ". وإنْ طَلَبَ المُساوِي من مِثْله لنَفسِهِ فهو التماسٌ، وإنْ طلَبَ لغيرِه فهو شَفاعةٌ[4].

(1) الزجاج، معاني القرآن: 2/86، والواحدي، البسيط: 2/90، والراغب، تفسير الراغب: 3/1365.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 3/94، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 5/144.
(3) الراغب، المفردات: (حسن).
(4) المنذري، فتح القريب المجيب: 14/422.

النَّصِيب والحَظّ:

النَّصِيب يكون في الـمَحبُوب والمَكرُوه، يُقَالُ: وفَّاه اللّه نَصِيبه من النَّعيم أَو من العَذَاب، ولا يُقَالُ: حَظّه من العَذَاب إِلَّا على استِعَارَة بعيدَة؛ لأَنَّ أصلَ الحَظِّ هو مَا يحظُّه اللّه تعالى للعَبد من الخَيرِ، والنَّصيب مَا نصَبَ لَهُ لينالَه سَوَاء كَانَ محبوبًا أَو مَكرُوهًا، ويَجوز أَن يُقَال: الحَظُّ اسمٌ لم يرْتَفع بِهِ المحظوظ، ولهذَا يُذكر على جِهَة المَدحِ، فَيُقَالُ: لفُلَانٍ حَظٌّ، وَهُوَ محظوظٌ، والنَّصيب مَا يُصِيب الإِنسَان من مُقاسمةٍ، سَوَاء ارتَفعَ بِهِ شَأْنُه أم لَا، ولهذَا يُقَالُ: لفُلَان حَظٌّ في التِّجَارَة، ولا يُقَال: لَهُ نصيبٌ فِيهَا؛ لِأَنَّ الرِّبحَ الَّذِي يَنَالهُ فِيهَا لَيسَ عَن مُقاسمةٍ[1].

النَّصِيب والكِفْل:

الكِفْلُ يُستَعمَلُ في الشِّدَّةِ وفي الشَّيءِ الرَّدِيء. قال القَاسِمِيُّ رحمه اللّه: "نكتةُ اختيار النَّصيب في (الحسَنَة)، والكِفْلُ في (السَّيِّئَةِ). والنَّصيبُ يَشملُ الزِّيادَةَ؛ لأَنَّ جَزاءَ الحَسَناتِ يُضاعَفُ، وأمَّا الكِفْلُ فأَصْلُه المَركَبُ الصَّعبُ، ثُمَّ استُعيرَ للمِثلِ المُساوي؛ فلذا اختيرَ إشارةً إلى لُطفهِ بعِبادِهِ، إذ لم يُضاعِفِ السَّيِّئَاتِ كالحسَناتِ. ويُقالُ: إنَّه وإن كان معناهُ الـمِثلَ، لكنَّه غَلب في الشَّرِّ، ونَدَر في غَيرِه، كقوله تعالى: ﴿يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ﴾ [الحديد: 28]، فلذا خُصَّ به السَّيِّئَةُ؛ تطريةً، أي: تحسينًا للعِبارة، وهربًا مِنَ التّكرار"[2].

(1) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 165.

(2) القاسمي، محاسن التنزيل: 3/242.

﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّواْ بِأَحۡسَنَ مِنۡهَآ أَوۡ رُدُّوهَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ حَسِيبًا ٨٦﴾ [النساء: 86]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

أشارتِ الآيةُ السّابقةُ إلى وجوبِ الإعراضِ عن المنافِقين ومُنابذَتِهم قولًا وفعلًا، فجاءت هذه الآيةُ لتبيّنَ أنَّ التّحيةَ ليست من وادي الشّفاعةِ، وأنّ الشّفاعةَ تابعةٌ للعملِ، والتَّحيةَ تابعةٌ للظّاهرِ، فقالَ سبحانَه عاطِفًا على ما تقديرُه: فلا تَشفَعُوا فيهم وأنتُم تعلَمُون سوءَ مقاصدِهم[1].

والتَّحيةُ ترغيبٌ في فرد شائعٍ من أفراد الشَّفاعةِ الحسنةِ إثرَ ما رُغِّبَ فيها على الإطلاق وحُذِّر عما يقابلها من الشَّفاعةِ السَّيِّئَةِ وإرشادٌ إلى توفية حقِّ الشفيعِ وكيفيةِ أدائِه؛ فإنّ تحيةَ الإسلامِ من المسلم شفاعةٌ منه لأخيه[2]، وهي شفاعةٌ ضمنيَّةٌ تتضمَّن الدُّعاءَ، فنبَّه بأدنى درجات الشَّفاعةِ بغرضِ الحثِّ عليها.

ونكتةُ نظمِ هذه الآيةِ مع آياتِ الجهادِ هو التّمهيدُ لمنعِ المؤمنين من قتلِ من ألقَى إليهم السّلامَ في الحربِ ببَيانِ أنَّ لكلِّ مُسلِّمٍ حقًّا يؤدَّى إليه[3].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ﴾: التَّحِيَّةُ: قَولُ: حَيّاكَ اللّهُ؛ أي: أَبقاكَ وأَدامَكَ. وأَصلُها: الدُّعاءُ بِالحَياةِ، يُقالُ: حَيَّاهُ، يُحَيِّيه، تَحِيَّةً، أيْ: دَعا له بالحَياةِ، وقِيلَ أَصلُها: استِقبالُ المُحَيّا وهو الوَجهُ. وتُطلَق على كُلِّ قَولٍ أو فِعلٍ يُؤتَى بِهِ عند اللِّقاءِ بِقَصدِ التّكرِيمِ. ومِن مَعانِيها: التّعظِيمُ، والتّكرِيمُ، والفَرَحُ[4].

2) ﴿حَسِيبًا﴾: الحَسِيبُ: العَلِيمُ وهُوَ صِفَةٌ مُشَبَّهَةٌ، وقِيلَ: الحَسِيبُ هُنَا بِمَعنَى

(1) البقاعي، نظم الدرر: 5/350.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 2/210.
(3) القاسمي، محاسن التنزيل: 3/243.
(4) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (حيّ).

المُحَاسِب. وسُمِّيَت المُجَازَاةُ مُحَاسَبَةً؛ لأَنَّ المُحَاسِبَ يَعُدُّ لِلشّخصِ مَا لَهُ ومَا عَلَيهِ، ومِن مَعاني المُحَاسَبَةِ أَيضًا: التّدبيرُ والكِفَايَةُ[1].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

تُبيِّن الآيةُ حكمَ التَّحيةِ في الإسلام، وأثرَها العظيم في تآلفِ القلوبِ وتقاربِ النُّفوسِ، بعد بيانِ أثَرِ الشَّفاعةِ الحسنةِ والشَّفاعةِ السَّيِّئةِ في المجتمعِ من تمزيقِ ائتلافِه، وهَدْمِ بُنْيانِه، فإنَّ التَّحيةَ من شأنِها أن تبنيَ بعد هدمٍ، وتجمعَ بعدَ تفرقةٍ، فكيف إذا كانت بالأحسنِ؟ واللهُ يجازي عبادَه بالخيرِ خيرًا.

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

غرضُ التَّعبيرِ بإذا الشَّرطِيَّة في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ﴾:

نشرُ التَّحية واجبٌ على المجموعِ وردُّها واجبٌ على الجميعِ

استُعمِلَتْ أداةُ الشَّرطِ ﴿وَإِذَا﴾ والأصلُ أن تكونَ للمقطوعِ بحصولِه، وللكثيرِ الوقوع؛ وذلك للتَّنبيه على أنَّ إلقاءَ التَّحيَّةِ من الأمورِ الواجبةِ على المجتمعِ بأكملِه، وأنَّه لا يجوز أن لا يُحيِّيَ أفرادُ المجتمعِ بعضُهم بعضًا، بحيث يُصبحُ ذلك السُّلوكُ غائبًا بالكُلِّيَّة، ويُفهَمُ منه من وجهٍ آخر، الإخبارُ عمَّا عليه المجتمعُ من إلقاءِ التَّحيَّةِ وما يتركُه ذلك من الأثرِ الحسنِ والمحبَّة بين النَّاس.

نُكتةُ استعمالِ صيغةِ المبني للمفعولِ في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ﴾:

كلُّ من يُلقي التَّحيَّة يُردُّ عليه بالحسنى

إطلاقُ الجُملةِ القرآنيَّة، واستعمالُ صيغةِ المبني للمفعول في قولِه: ﴿حُيِّيتُم﴾ تَسوِّغان القول: بأنَّ الأمرَ فيها عامٌّ يشمل كلَّ فئةٍ من النَّاس تُلقي التَّحيَّةَ ابتداءً، بقطع النَّظر عن الجنس والدِّين والعُمر، فلَفظُ التَّحيَّةِ كِنايةٌ عَنِ الإكرام، فجَميعُ أنواعِ الإكرَامِ تَدخل تحتَ لَفظِ التَّحيَّة[2].

(1) جماعة من علماء التفسير، المختصر في تفسير القرآن الكريم، ص: 91.
(2) الواحدي، البسيط: 7/18، والبقاعي، نظم الدرر: 5/351.

فائدةُ تقديم: ﴿فَحَيُّواْ بِأَحۡسَنَ مِنۡهَآ﴾ على ﴿أَوۡ رُدُّوهَآۗ﴾:

تقديمُ الأحسنِ على المِثْلِ للتَّرغيبِ بالفَضلِ

أَفادَ قَولُهُ: ﴿بِأَحۡسَنَ مِنۡهَآ أَوۡ رُدُّوهَآۗ﴾ التَّخييرَ بَينَ الحالَين، ويُعلَمُ مِن تَقديمِ قَولِهِ: ﴿بِأَحۡسَنَ مِنۡهَآ﴾ أَنَّ ذَلِكَ أَفضَلُ[1]، وهو مِنْ بابِ تَقديمِ الأَفضَلِ على المَفضُولِ، فهي من باب التَّدلِّي.

ومعنى قوله تعالى: ﴿أَوۡ رُدُّوهَآۗ﴾ رُدُّوا مِثلَهَا، وهذا كَقَولِهم: عندي دِرهَمٌ ونِصفُهُ، لظُهور تعذُّر ردِّ ذات التَّحيّة، ودلَّ الأَمرُ على وجُوبِ ردِّ السَّلام، ولا دَلالَةَ في الآية على حُكمِ الابتداءِ بالسَّلام، فذلكَ ثابتٌ بالسُّنَّة للتَّرغيبِ فيه[2].

بلاغةُ الفاصلةِ القرآنيَّة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ حَسِيبًا﴾:

الإسلامُ سَلامٌ وإكرامٌ لكلِّ من سَالَمَهُ

جاء التّذييلُ جملةً اسميةً مشحونةً بالتّوكيداتِ، وبالتّقديمِ المفيدِ التّخصيصَ، وبالتّعبيرِ بـ﴿كَانَ﴾ الدّالةِ على أزليَّتِهِ سبحانه في كونه ﴿حَسِيبًا﴾، وتخصيصُه بهذا الاسم الّذي لم يُذكر سوى ثلاثِ مراتٍ في الذِّكر الحكيم، ولَفْظُ ﴿كُلِّ﴾ في الآيةِ مِنْ أَلفاظِ العُمُومِ القَطعيَّة؛ وذلكَ لأنَّ مَضمُونها لا يَحتمِلُ التَّخصيص، إذ إنَّه يُرادُ بها كلُّ شيءٍ من الأشياءِ تناولًا وحُكمًا، فاللّهُ تعالى مُحاسِبٌ على كُلِّ شيءٍ[3].

دلالةُ استعمالِ اسم الله الحسيب:

مَهما قلَّت الأعمالُ الصَّالحة فهي في ميزانِ الحسيبِ عظيمةٌ

الحَسِيبُ: يَجوزُ كَونُهُ مِنْ أَمثِلَةِ المُبَالَغَةِ، وقد قِيلَ: الحَسِيبُ هُنَا بِمَعنَى المُحَاسِبِ، كالأَكِيلِ والشَّرِيبِ. وعليه يَكُونُ التَّذييلُ وَعدًا بِالجَزَاءِ عَلَى قَدرِ فَضلِ رَدِّ السَّلَامِ، أَو بالجزاء السَّيِّئ عَلَى تَركِ الرَّدِّ مِنْ أَصلِهِ، وقَد أُكِّدَ وَصفُ اللّهِ بِـ(حَسِيبٍ) بِمُؤَكِّدَين: حَرفُ (إِنَّ) وفِعلُ (كَانَ) الدَّالُّ على أَنَّ ذَلِكَ وَصفٌ مقرَّرٌ أَزَلِيٌّ[4].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 5/146.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 5/147.
(3) الزايدي، صيغ العموم وأنواعه، ص: 170.
(4) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/87، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 5/147، طنطاوي، الوسيط: 2/870.

وبالحرف (على) المفيد الاستعلاءَ والتَّمكُّنَ، وفي هذا إشارةٌ إلى تأكيدِ أمر الصِّلةِ بين النَّاس، ووجُوب ردِّ التّحيّةِ على مَن يُسلِّمُ علينا ويُحيِّينا[1].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

التَّحيَّة والسَّلام:

التَّحيَّةُ أعمُّ مِنَ السَّلام، قال المُبرِّد: يَدخل في التَّحيَّةِ: حيَّاك اللّهُ، ولكَ البُشرى، ولَقيتَ الخيرَ، ولا يُقالُ لذلك: سلامٌ، إنَّما السَّلام قولُك: سلامٌ عليكَ، ويكون السَّلامُ في غير هذا الوجه السَّلامةَ مثل: الضَّلالُ والضَّلالةُ، والجَلالُ والجَلالةُ، والسَّلامُ اسمٌ مِنْ أسماءِ اللّهِ، والتَّحيّةُ أيضًا المُلك. فالتَّحيَّة تُقالُ في حقِّ اللّهِ تعالى: التَّحيَّاتُ للّه، وأمَّا السَّلامُ فلا يُقالُ في حقِّ اللّه، والتَّحيَّةُ تعظيمٌ، واللّهُ مُستِحقٌّ للتَّعظيم، وأمَّا السَّلامُ فإنَّه دُعاءٌ، واللّهُ ليسَ بحاجةٍ إلى الدُّعاء[2].

(1) المراغي، تفسير المراغي: 5/111.

(2) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 59، والفوزان، إعانة المستفيد: 2/217.

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا رَيۡبَ فِيهِۗ وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثٗا ٨٧﴾ [النساء: 87]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

في مُنَاسَبَةِ هذهِ الآيَةِ لِمَا قَبْلَهَا ثلاثةُ أوجهٍ:

أحدُها: أنَّ اللهَ تعالَى لَمَّا ذكرَ الإنذارَ والوعيدَ في الآيةِ السَّابقةِ في قولِه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ حَسِيبًا﴾؛ أكّدَ هذا الوعيدَ في هذهِ الآيةِ بالجمعِ بينَ التَّوحيدِ والعدلِ، فإنّ مقتضى التَّوحيدِ والعدلِ أنْ يأخذَ كلُّ ذي حقٍّ حقّهُ، والمرجعُ يوم القيامةِ، فجمعَ بينَ التَّوحيدِ ويومِ القيامةِ اللّذين أنكروهما.

ثانيَها: أنَّ الآيةَ السَّابقةَ لَمَّا كانت في بيانِ أنَّ مَنْ عاملَ المسلمينَ بالظَّاهرِ، فحيّاهُم، فالواجبُ أن يعاملُوهُ بناءً على الظَّاهرِ، فَيَردُّوا عليه بأفضلَ مِنْ تحيّتِه؛ ناسبَ أنْ تأتيَ هذهِ الآيةُ للإشارةِ إلى أنّ البَوَاطِنَ إنَّمَا يَعرِفُهَا اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُو، وإنَّمَا تَنكَشِفُ بَوَاطِنُ الخَلقِ لِلخَلقِ يَومَ القِيَامَةِ؛ تنبيهًا على أنَّ اللهَ لا يُحبُّ أنْ يغترَّ المنافقُ بهذا، وليُتحقَّقَ أنَّ اللهَ له بالمرصادِ[1].

ثالثُهَا: أنَّ اللهَ تعالَى لمّا أمرَ ونَهَى فيما قبل؛ بيّنَ بعدُ أنّه لا يستحقُ العبادةَ سواه، ليعمَلُوا على حسب ما أوجبَه عليهم، وأشارَ إلى أنّ لهذا العملِ جزاءً بِبَيَان وقتِه، وهو يومُ القيامةِ؛ ليجدُّوا فيه ويرغبُوا ويَرْهَبُوا[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ﴾: جذرُ هذه الكلمةِ: الجيمُ والميم والعَيْنُ، وهو دالٌّ عَلَى تَضَامٍّ أشياءَ متجانسةٍ كثيرةٍ، يُقَالُ: جَمَعْتُ الشَّيْءَ جَمْعًا، بمعنَى: ضَمَمْتُ بعضَه إلى بعضٍ، ومنهُ: جمعُ المالِ، وجمعُ النَّاسِ، ولا يكونُ الجمعُ إلّا بعدَ تفرّقٍ، ويُقال: جمعَ اللهُ القُلُوبَ؛ أي: أَلَّفَ

(1) الرَّاغب، تفسير الراغب: 3/1372، والرازي، مفاتيح الغيب: 10/167.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 3/102.

بينَهَا، وجمعَ فلانٌ أمرَه: عزمَ عَلَيهِ، وَجمعَ عَلَيهِ ثِيَابَه: لَبِسهَا، وأَجْمَعَ المسلمونَ على كذَا: اجْتَمَعت آراؤُهم عليه، وَسُمّيَ يَومُ الجُمُعَةِ كذلكَ؛ لاجتماعِ النَّاسِ فيه[1]، ويندرِجُ تحتَ هذا المعنَى الكلّيِّ لمادَّةِ (جمعَ) قولُه تعالَى: ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ﴾ في الآيةِ؛ فإنَّ معناهُ: لَيَضُمَّنَّ اللّهُ تعالَى النَّاسَ جميعًا فيبعثهم مِن بعد موتهم، ويَحشرُهم إلى موقفِ الحسابِ[2].

2) ﴿ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾: أصلُ الكلمةِ: القافُ والواو والميم، وهذا الأصلُ دالٌّ على معنَيَيْنِ كُلّيَّيْنِ، أحدُهما: دالٌّ على جماعةٍ من النَّاسِ، والآخَرُ - وهو المرادُ هنا - دالٌّ على انتصابٍ، والقيامةُ: أصلُها ما يكونُ مِن الإنسانِ من القيامِ دفْعَةً واحدةً، والتاءُ فيها لِلمبالغةِ؛ تنبيهًا على وقوعِها دفعَةً، وهو اسمٌ غلبَ على يومٍ يبعثُ اللّهُ تعالَى عبادَهُ لِحسابِهم؛ وسُمِّيَ بذلك لثلاثةِ أوجهٍ:

أحدها: أنَّ النَّاس يقُومُون فيهِ مِنْ قُبُورِهم للّهِ سُبحانه، كما قالَ اللّه تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ۝٦﴾ [المطففين: 6].

ثانيها: أنَّه تُقَامُ فيهِ الأشهاد، كما قال اللّهُ تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَـٰدُ ۝٥١﴾ [غافر: 51].

ثالثُها: أنَّه يُقَامُ فِيهِ الْعَدْلُ، كما قال اللّه ﷻ: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا﴾ [الأنبياء: 47][3].

3) ﴿رَيْبَ﴾: الرّيبُ: هو الشكُّ معَ التُّهمة، ويُطلق على الشكِّ مع الخوفِ، فالرّيبُ أخصُّ مِنَ الشكِّ، ومنه قولُهُم: رَابَه الأَمرُ؛ إذَا أَدخَلَ عليهِ شَكًّا وَخَوفًا، وظاهرُ كلامِ الرَّاغبِ أنَّ الرَّيبَ لا يُطلَقُ إلّا إذا وقعَ بعدَهُ انكشافٌ أو تُوقِّعَ أنْ يكونَ بعدَهُ انكشافٌ، بخلافِ الشَّكِّ، وَتقولُ العربُ: رَيْبُ الدَّهْرِ؛ أي: صُرُوفُهُ وحوادثُه[4]، وقولُ اللّه تعالى: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾، معناه: لا شكَّ فيهِ في نفسِه، وحقيقةِ أمرِه، وإنْ ارتابَ فيه الكَفَرةُ فَغيرُ ضائرٍ[5].

(1) ابن دريد، جمهرة اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، والزَّبيدي، تاج العروس: (جمع).
(2) ابن جرير، جامع البيان: 8/592.
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرَّاغب، مفردات ألفاظ القرآن، والسمين، عمدة الحفاظ: (قوم)، وابن عثيمين، شرح الأربعين النووية، ص: 356.
(4) الأزهريّ، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، والرَّاغب، المفردات: (ريب).
(5) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/88.

4) ﴿أَصْدَقُ﴾: الصَّاد والدَّال والقافُ تدورُ تصاريفُهَا عَلَى قُوَّةٍ في الشَّيءِ قولًا كان أو غيرَهُ، ومِنْهُ: الصِّدْقُ، وهو ضدُّ الكَذِب، وإنَّما سُمِّيَ الصّدقُ صِدْقًا؛ لِقُوَّتِهِ في نَفسِهِ، ولأَنَّ الكَذِبَ لَا قُوَّةَ لَهُ فهُوَ بَاطِلٌ[1]، والصّدقُ في حقيقتِه أن يكونَ ما يجري على لسان المُخبر موافقًا لما في قلبه، وللأمرِ المخبرِ عنه في وجُودِه[2]، ومعنَى قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾: لا أحدَ أكثرُ صدقًا من اللهِ، فإنَّهُ لا يقعُ في خبرِه كَذِبٌ بوجهٍ[3].

5) ﴿حَدِيثًا﴾: أصلُ الحاءِ والدَّالِ والثَّاءِ تدورُ اشتقاقاتُهُ حولَ كَوْنِ الشَّيءِ الذي لَمْ يَكُنْ، ويُطلَق على كلِّ ما قَرُبَ عهدُه أنَّهُ مُحدَثٌ، والحديثُ: الكَلامُ، وَسُمّيَ القرآنُ حديثًا كمَا قالَ تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا﴾ [الزمر: 23]؛ لِقُرب عهدِ إنزالِه، وكلُّ كلامٍ يبلغُ الإنسانَ من جهةِ السَّمعِ أو وحيِ الإلهام في يقظتِه أو منامِه يُقال له: حديثٌ[4]، والحديثُ: هو الكلامُ الذي يُتحدّثُ به فينتشرُ وَيظهرُ معَ قربِ عهدِهِ بقائلِه، ومنهُ قولُه ﷻ: ﴿فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ﴾ [سبأ: 19]؛ أي: أخبارًا يُتمثّلُ بهم، فإنْ لم يقيّدْ بهذهِ الصِّفةِ بأنْ يُنظرَ إلى ذاتِه فهو كلامٌ، ولهذا سَمّى اللهُ تعالى هنا كلامَه حديثًا؛ لأنَّه في سياقِ الحكم على ما يُتَحَدَّثُ به بالنَّظرِ إلى قائلِه بالصِّدقِ أو غيرِه، والمعنى في الآيةِ: لا أَحدَ أصدقُ مِنَ اللهِ تعالَى خَبَرًا[5].

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

اللهُ تعالى هو المتفرّدُ بالألوهيَّةِ، والمعبودُ الذي لا تنبغي العبادةُ إلَّا لَه، لَيَبعَثَنَّكم مِنْ بعدِ مماتِكم، ولَيَحشُرَنَّكم جميعًا يومَ القيامةِ، فلا تشكُّوا في صحّة ذلك، ولا تَمتَروا في حقيقتِه؛ إذْ لا أحدَ أصدقُ مِنَ اللهِ تعالَى حديثًا فيما أَخبرَ به، وقدْ جمعتْ هذهِ الآيةُ تَمْجِيدَ اللَّهِ، وَتَهْدِيدًا، وتحذيرًا لِمُخَالِفِ أَمْرِهِ، وتَقريرًا لِلإِيمَانِ بِيَومِ البَعثِ، وَرَدًّا لِإِشرَاكِ بَعضِ المُنَافِقِينَ وَإِنكَارِهِمُ البَعثَ[6].

(1) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، والفيومي، المصباح المنير: (صدق).
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/88.
(3) الرَّاغب، تفسير الراغب: 3/1373.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرَّاغب، المفردات، والسمين، عمدة الحفاظ: (حدث).
(5) أبو حيان، البحر المحيط: 4/7.
(6) ابن جرير، جامع البيان: 8/592، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 5/148.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دِلَالَةُ قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ﴾ بَيْنَ الْإِخْبَارِ وَالِاعْتِرَاضِ:

أُلُوهِيَّةُ اللهِ تَعَالَى تَتَضَمَّنُ رُبُوبِيَّتَهُ، وَرُبُوبِيَّتُهُ سُبْحَانَهُ تَسْتَلْزِمُ أُلُوهِيَّتَهُ

تحتملُ هذهِ الجملةُ أنْ تكونَ خبرًا للمبتدأ ﴿ٱللَّهُ﴾، وأنْ تكونَ اعتراضيةً[1]، ويتنوّعُ المعنى لِتنوّعِ الخبرِ.

فعلى الأوَّلِ هي إخبارٌ عن اللّهِ تعالَى بمضمونِ جملةِ التَّوحيدِ؛ لِتقريرِ معنى التَّوحيدِ وتأكيدِهِ، معَ الدَّلالةِ على ثبوتِ مضمونِ جملةِ المبتدأ والخبرِ واستمرارِه؛ لِدلالةِ الجملةِ الاسميَّةِ على الثُّبوتِ، وحينئذٍ يُشعِرُ مضمونُ جملةِ المبتدأ والخبرِ بأمرين:

أحدُهما: توبيخُ المنافقين الذين يُبطنونَ خلافَ ما يُظهرونَ.

والآخَرُ: الإيذانُ بأنَّ مُقْتَضى أنْ يكونَ اللّهُ لا إلهَ إلَّا هوَ، أنْ يكونَ قادرًا على أنْ يجمعَ النّاسَ يومَ القيامةِ، ففيهِ استدلالٌ واحتجاجٌ؛ لأنَّ ألوهيَّةَ اللّهِ تعالى تتضمَّنُ ربُوبيَّتَهُ، كما أنَّ ربوبيَّتَهُ سُبحانه تستلْزِمُ ألوهيَّتَهُ، ولِهذا تضمّنَ الكلامُ تأكيدًا، وفي هذا الوجهِ توبيخٌ أيضًا لِمَنْ لا يُقِرُّ بقدرةِ اللّهِ سُبحانَهُ على جمعِ النّاسِ يومَ القيامةِ، لِوضوحِ الأمرِ وظهورِهِ بعدَ إثباتِ التَّوحيدِ، وممَّا يؤكّدُ ذلك مجيءُ جملةِ الخبَرِ في ثَوْبِ القَصْرِ الحقيقيّ التّحقيقيِّ، وبأشدّ طُرُقِ القَصرِ صَراحةً وأقواها، وهُوَ النّفيُ والاسْتِثْناءُ؛ فلا معبودَ بحقٍّ سِواه، ولا مُستحقَّ للألوهية غيرُه.

وإذا جعلنا قولَهُ: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ﴾ خبرًا لِلاسْمِ الأحسنِ (اللّه)؛ فإنَّ جملةَ القسمِ تكونُ خبرًا ثانيًا، وَالمعنى: اللّهُ سُبحانَهُ المتفرّدُ بالوحدانيةِ قادرٌ على جَمعِكُم يومَ القيامة الآتي لا محالةَ.

وعلى الوجهِ الآخَرِ، وهو أنْ تكونَ جملةُ التَّوحيدِ اعتراضيةً، فيكونُ الخبرُ ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾، ونكتةُ الجملةِ الاعتراضيَّةِ

(1) الزمخشري، الكشاف: 1/545، والرازي، مفاتيح الغيب: 10/167، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/6.

هنا: بيانُ عِظَم قدرةِ اللّهِ تعالَى على جمعِ النَّاسِ كلِّهم يومَ القيامةِ، والتَّنبيهُ على أنَّ اللّه سُبحانَهُ الذي سيُخبَرُ عنه بأنّه يجمعُ العبادَ إلى يوم القيامة هو الذي لا إلهَ إلَّا هو، وفي الاعتراضِ تخصيصُ توحيدِ اللّهِ بمزيدِ تأكيدٍ؛ بعدَ إشعارِ المبتدأ ﴿ٱللَّهُ﴾ بالألوهيَّةِ.

وهذانِ الوجهانِ في محلِّ جملة ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ﴾ صحيحَانِ في أنفُسِهِمَا، وتتنوَّعُ المعاني القرآنيَّةُ تبعًا لاختلافِ حمل الجُمْلَةِ على أحدِ ذَيْنِكَ الوجهينِ، وفي هذا توسيعٌ لِلْمَعَاني وتكثيرٌ لَهَا، مَعَ ما تضمَّنَتْهُ الآيةُ من إيجازٍ في اللَّفْظِ، وحذفِ المُقسَمِ به وأداةِ القَسَمِ للعلم بهما.

دِلَالَةُ حَرْفِ الْجَرِّ ﴿إِلَىٰ﴾ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾، وَمَا يَتَفَرَّعُ عَلَيْهِ مِنَ التَّضْمِينِ وَالِاسْتِعَارَةِ التَّبَعِيَّةِ:

تَصْوِيرُ حَالِ اسْتِمْرَارِ جَمْعِ الْخَلْقِ زَمَانًا وَمَكَانًا

في حرفِ الجرِّ ﴿إِلَىٰ﴾ مِن قولِ اللّه تعالى: ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ وجهانِ:

أحدُهُمَا: أنْ تكونَ على أصلِ دِلالَتِهَا، والمعنى: لَيَجمَعَنَّكم في القُبورِ إلى يوم القيامةِ، وإمّا على تَضْمِين الفعلِ ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ﴾ معنَى: لَيَحْشُرَنَّكُم؛ فلذلكَ حسُنتْ بعدَه ﴿إِلَىٰ﴾، لِيكونَ المعنى: لَيَسُوقَنَّكُم إلى يومِ القيامةِ.

والآخَرُ: أنْ تكونَ ﴿إِلَىٰ﴾ بِمَعْنَى (في)، والمَعنى: لَيَجْمَعَنَّكُم في يومِ القيامةِ[1].

ويمكنُ الجمعُ بينَ هذينِ المَعْنَيَيْنِ، وذلك أنَّهُ لمّا اقْتَضَى ﴿إِلَىٰ﴾ في الأصْلِ: معنَى المسافةِ والامتدادِ إلى نهاية الغايَةِ؛ أفادَ التّعبيرُ بِهَا معنى السّوق والتّجميع زمانًا ومكانًا، فيكونُ الضّمُّ والسَّوْقُ من بدءِ

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/88، والرّازي، مفاتيح الغيب: 10/167، وأبو السّعود، إرشاد العقل السليم: 2/211.

الخَلْقِ ومن جميع الأمكنةِ، وينتهي الجمعُ بانتهاء الغايةِ، وهو يومُ القيامة، فهو تَصْويرٌ لحالِ اسْتِمْرَارِ الجَمْعِ، وقرّرَ مجموعَ هذا التّصويرِ صيغةُ المضارعِ المؤكَّد ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ﴾؛ لإفادة أنَّ الجمعَ مستمرٌّ غيرُ منقطعٍ حالًا فحالًا.

وإيضاحُ ذلك: أنّ لِحَرْفِ الجرّ ﴿إِلَىٰ﴾ موقعًا بديعًا هنا، فإمّا أن يكونَ مُلْمِحًا إلَى أنّ النّظم ضمَّنَ فعلَ الجَمْعِ معنَى الحَشرِ، وأبقى حرفَ الانتهاءِ دليلًا، أَوْ أنَّ ﴿إِلَىٰ﴾ مستعمَلٌ لمعنَى (في)، فيكونُ يومُ القيامة غايةَ الجمعِ ومكانَه في آنٍ واحدٍ، ويكونُ في هذا مِنَ الإيجازِ البالغِ، ويكونُ المجازُ بالاستعارة واقعًا في الحرفِ؛ إذْ شُبِّهَ الوعاءُ الجامعُ بالغايةِ الجامعةِ بجامعِ الإحاطةِ والشّمول في كلٍّ، وذلك على طريقةِ الاستعارَةِ التَّصريحيَّةِ التَّبعيَّةِ.

وأمَّا إذا حُمِلَتْ ﴿إِلَىٰ﴾ في الآيةِ على بابِهَا، فيكونُ في الكلامِ حذفٌ؛ إسراعًا إلى الغايةِ الّتي يكونُ فيها الحسابُ، تناسبًا مع قولِهِ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا ﴿٨٦﴾﴾ [النساء: 86]، ويكونُ تقديرُ المعنى: ليَجمَعَنّكُم في القُبُورِ إلى يَومِ القيامَة.

دِلَالَةُ التَّوْكِيدِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِۗ﴾:

المُبَالَغَةُ فِي تَقْرِيرِ الإِيمَانِ بِالمَعَادِ؛ لِكَوْنِهِ مِنْ أُصُولِ الإِيمَانِ العِظَامِ

لَمَّا كَانَ الاعتقادُ بالحَشرِ يومَ القيامة من أهمِّ أصول الإيمانِ، وكانَ جَائِزًا بِالعَقلِ، وَاجِبًا بِالسَّمعِ، ومقامُ الاستدلالِ يحتاجُ إلى تقريرٍ وتثبيتٍ، ولإبطَالِ إنكَارِ الَّذِينَ أَنكَرُوا البَعثَ؛ أُكِّدَ الكلامُ بأربعةِ مؤكِّدَاتٍ متنوّعةٍ، هي:

أوَّلًا: تأكيدُ مَضْمُونِ جُملةِ ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ﴾ بالقَسَمِ المحذوفِ قَبلَهُ[1] الّذي دلّتْ عليه لامُ القسمِ، وهو أقوى المؤكِّداتِ.

ثانيًا: تأكيدُ فعلِ الْجَمْعِ ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ﴾ بِنُونِ التَّأكيدِ الثَّقيلةِ.

ثالثًا: تأكيدُ الحكمِ الّذي تدلُّ عليه جملةُ المبتدأ والخبرِ بِتَقديمِ المُسنَدِ إِلَيهِ ﴿ٱللَّهُ﴾ عَلَى الخَبَرِ الفِعليِّ ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ﴾ - على القولِ

(1) الزّجاج، معاني القرآن: 2/88 والواحدي، التفسير الوسيط: 2/91، ورضا، تفسير المنار: 5/258، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 5/148.

بخبريَّةِ الفعلِ - ؛ لِتَقويَةِ تَحقيقِ هَذَا الخَبَرِ؛ لِمَا يفيدُه تقديمُ المسندِ إليه على المسندِ الفعليِّ مِنْ تقويةِ الحكم[1]، ووجهُ التَّقويةِ ما في هذا التَّركيب من تَكرارٍ للإسنادِ، فإنَّ الجَمْعَ مسنَدٌ إلى الاِسْمِ الأحسَنِ (اللّه) الذي صُدِّرت الآيةُ به، وأُسنِدَ فعلُ الجَمْعِ أيضًا إلى الضَّميرِ الْمُسْتَتِرِ في ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ﴾، فلمَّا تكرَّر الإسنادُ كان تَقْوِيَةً لِمَضْمُونِ الْجُمْلَة.

رابعًا: تأكيدُ مَضْمُونِ جملةِ ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ بالجُملَةِ بَعدَهُ في قَولِهِ: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾[2].

دِلَالَةُ النَّفْيِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾:

النَّفيُ في قوله تعَالى: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ الْمُرَادُ نَفْيَ أَنْ يَتَطَرَّقَ جِنْسُ الرَّيبِ والشَّكِّ لِمَجيءِ يوم القِيَامَة، إذْ إنَّ يومَ القيامَةِ ممّا لا يَنْبَغِي أنْ يقعَ شكٌّ فيه؛ لِمقتضَى أنَّ اللّه لا إلهَ إلَّا هوَ، والمقصودُ: نفيُ الرَّيْبِ عَنْهُ وإنْ ارتابَ فيهِ الكَفَرَةُ؛ فإنَّ ارتيابَهُمْ غَيْرُ ضائِرٍ.

ثُبُوتُ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مِنْ مُقْتَضَيَاتِ أُلُوهِيَّةِ اللهِ تَعَالَى وَعَدْلِهِ

ويجُوزُ أنْ يكونَ النَّفيُ متوجِّهًا إلى الّذينَ يشكُّونَ في حقيقةِ يومِ القيامةِ، بمَعْنَى: أَنَّ ارْتِيَابَ الْمُرْتَابِينَ لِوَهَنِهِ نُزِّلَ مَنزِلَةَ الجنسِ المَعدُومِ؛ فإنَّ مُقْتَضَى التَّوحيدِ والعدلِ أنْ يَجمَعَ اللّهُ تعالَى الأَوَّلِينَ والآخِرِينَ في عَرَصَاتِ القِيَامَةِ، فَيَنْتَصِفَ لِلمَظْلُومِينَ مِنَ الظَّالِمِينَ[3].

ويجوزُ أن يكون قوله تعالى: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ جملةً خبريَّةً لفظًا، إنشائيةً معنًى، والمرادُ: لا ترتابوا فيه، فتكون الجملةُ مَجَازًا مرسلًا مركَّبًا، والنُّكْتَةُ فيه: أنَّ إخراجَ النَّهي في صورة الخبرِ أبلغُ مِنْ صريحِ النَّهي؛ لأنَّهُ صُوِّرَ كأنَّه سُورع فيهِ الاِمْتِثَالُ وأُخْبِرَ عَنْهُ[4].

تَعْيِينُ مَرْجِعِ الضَّمِيرِ فِي ﴿فِيهِ﴾ مِنْ قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾:

مرجِعُ الضَّميرِ في ﴿فِيهِ﴾ من قول اللّهِ تعالى: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ يحتَمِلُ أوجُهًا:

(1) السكاكي، مفتاح العلوم، ص: 221.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 4/7.
(3) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/88، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 10/167، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 5/148.
(4) السيوطي، معترك الأقران: 1/195.

الْإِيمَانُ بِاللهِ تَعَالَى يَسْتَلْزِمُ الْإِيمَانَ بِكُلِّ مَا أَخْبَرَ بِهِ مِنَ الْبَعْثِ وَالْحِسَابِ وَالْجَزَاءِ وَغَيْرِ ذَلِكَ

أَوَّلُهَا: أَنْ يعودَ الضَّميرُ إلى ﴿يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾، والمعنى: لا ريبَ في يوم القيامةِ؛ لأَنَّ المشركِينَ لم يقِرُّوا بِيَوْمِ القيامَةِ أصلًا، ويَسْتَتْبِعُ ذلكَ أَنْ لَا يُقِرُّوا بتفاصيلِهِ؛ مِنَ البعثِ والحشْرِ، فنَفْيُ الرّيبِ متوجّهٌ إلى يومِ القيامَةِ أوَّلًا وبالذّاتِ، ثمَّ إلى الْجَمْعِ والحشرِ والمُجازاةِ ثانيًا وبالتَّبعِ.

ثانِيهَا: أَنْ يعودَ الضَّميرُ على مَصْدَرِ الْفِعْلِ ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ﴾؛ وهو الجَمْعُ، والمَعْنَى: لَا ريبَ في الجَمْعِ - وهو البعْثُ - يومَ القيامة[1].

ثالثُهَا: أَنْ يعودَ على المفهومِ مِنْ مُجْمَلِ الْخَبَرِ الواردِ في الآيةِ، وهو ظاهر اختيارِ ابنِ جريرٍ[2]، والمعنى: لا ريبَ في ما أحدِّثُكم به؛ ولِهذا أردَفَهُ بِقَوْلِهِ: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾.

وهذه المعاني المحتَمَلَةُ كلُّها متقاربةٌ؛ لأنّ مَنْ آمنَ بيومِ الْقِيَامَةِ وأنَّهُ كائنٌ؛ آمنَ بتوابعِهِ منَ الْبَعْثِ والحَشْرِ والجزَاءِ، ومَنِ اعتقدَ صِدْقَ كلامِ اللهِ تعَالَى؛ آمنَ بِيَوْمِ القيامةِ والْحَشْرِ فيهِ؛ لِأَنَّهُ مِمَّا أخبرَ اللهُ سُبحانَهُ عَنْهُ.

دِلَالَةُ التَّقْيِيدِ بِالْحَالِ أَوِ الصِّفَةِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِۚ﴾:

إِزَالَةُ الشُّبُهَاتِ الْحَائِلَةِ بَيْنَ النَّاسِ وَبَيْنَ إِيمَانِهِمْ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ

قولُ اللهِ تعالَى: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِۚ﴾ يحتمِلُ أَنْ تَكُونَ جملةً حاليَّةً مِنْ ﴿يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾، إذا كانَ الضميرُ في ﴿فِيهِۚ﴾ عائدًا إلى يومِ القيامةِ، والمعنى: لَيَجْمَعَنَّكُم في يومِ القيامةِ حالَ كونِ ذلك اليومِ ممّا لا يَنْبَغِي أَنْ يُشَكَّ فيه؛ لِمقتَضَى التَّوحيد والعدلِ، فَفِيهِ توبيخٌ لِلمنافقينَ الكفّارِ لإِنْكَارِهِم يومَ القِيَامَةِ؛ إِذْ يَقْتَضِي إنكارُه أَنْ لا جَمْعَ للنَّاسِ أصلًا، فَلا شَيْءَ بعدَ الموتِ؛ ولذا ناسبَ التَّأكيدُ المقامَ.

ويجُوزُ أن يكونَ قولهُ سُبحانَهُ: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِۚ﴾ صفةً لِمَصْدَرٍ

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 7/4، والسمين، الدر المصون: 4/59، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 2/88.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 8/592.

مَحْذُوفٍ، إذا كانَ الضَّمير عائدًا إلى الْمَصْدَرِ المفْهُوم مِن ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ﴾، والتَّقْدِيرُ: لَيَجْمَعنّكم إلى يومِ القِيَامَةِ جَمْعًا لا رَيْبَ فيهِ؛ لِيَكُون نَفْيُ الرّيبِ موجَّهًا إلى الجَمْعِ، على اعتبارِ أنَّهم كانوا يشكّونَ في قدرةِ اللّهِ تعالَى على جمعِ النّاسِ كُلّهم يومَ القيامةِ.

والحاصِلُ أنّ الرّيبَ إمّا أن يقعَ في الجمعِ لِكَثْرَةِ مَا يكونُ مِنَ العَدَدِ، فتَكُونُ الجملةُ صفةً تبيّنُ المعنَى وتقرّرُه، ويكونُ الموصوفُ مَحْذُوفًا، والتَّقْدِيرُ: جَمْعًا لا رَيْبَ فِيهِ؛ دَفْعًا لتوهّم عدمِ القدرة على ذلكَ بسببِ كثرة العددِ، فتكون جملةُ ﴿لَا رَيْبَ فِيهِۖ﴾ جَارِيَةً مجْرَى الإطنابِ بالاحتراسِ.

وإما أن يكونَ الشّكُّ متوجِّهًا لذاتِ يومِ القيامةِ، فتكونُ الجملةُ حالًا مِن ﴿يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾، والمعنى: يومُ القيامة غيرُ مشكوكٍ في وقوعِه، أو ممّا ينبغي أن يكونَ كذلك؛ لِتَظَاهُرِ الأدلّةِ العقليّةِ والنّقليةِ والبراهينِ الكونيّةِ على وقوعِه، فوقعت الجملةُ هذا الموقعَ؛ تأكيدًا لِحُصُولِ اليومِ وتحقّقِ الجَمْعِ، وهذا إيجازٌ وفيرُ المَعْنَى.

دِلَالَةُ التَّعْبِيرِ عَنِ الْيَوْمِ الْآخِرِ بِـ﴿يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾:

التَّنْبِيهُ عَلَى عَظِيمِ قُدْرَةِ اللهِ تَعَالَى فِي بَعْثِ النَّاسِ وَحِسَابِهِمْ

سُمِّيَ اليوم الآخِرُ يومَ الْقِيَامَةِ لأوجهٍ:

أوَّلها: أنَّ النَّاسَ يقومونَ من قبورِهم للحسابِ، كما قال اللّه تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ۝٦﴾ [المطففين: 6].

ثانيهَا: أنَّ الأشهادَ تُقامُ فيه، كما قال سُبحانه: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَـٰدُ ۝٥١﴾ [غافر: 51].

ثالثُها: أنَّه يُقَامُ فِيهِ الْعَدْلُ، كما قال اللّه ﷻ: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔاۖ﴾ [الأنبياء: 47].

وفي التَّعبير بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ في قَوْلِه تَعَالى: ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِۖ﴾ دُونَ الْيَوْمِ الآخِرِ؛ إشعارٌ بهَوْلِ القيامِ من القبورِ وعظيمِ قُدرَةِ اللّه تعالى في ذلك الإخراجِ، وفيه إيماءٌ أيضًا إلى الْحِسَابِ الكائِنِ فيه، فَاختيارِ هذا الاسمِ بمنزلَةِ الكنايَةِ عن المَعْنَى الذِي يصلُحُ له هذا الوصفُ.

دِلَالَةُ التَّاءِ فِي لَفْظِ ﴿ٱلْقِيَٰمَةِ﴾:

الْقِيَامُ لِلْحَشْرِ قِيَامٌ لِأَعْظَمِ الْأَهْوَالِ وَأَشَدِّهَا

التّاءُ في لفظ ﴿ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ تدلُّ على المُبَالَغَة، وسببُ لُحُوقِها لفظَ ﴿ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ أَنَّهُ لَمَّا كان آخرُ مَظْهَر من مظاهرِ دُنْيا النّاس أنّهم يَمُوتُونَ وَيُدْخَلُونَ إِلَى قُبُورِهِمْ، وَكانَ القيامُ لِلْحَشْرِ من أذلِّ حالٍ وأضعفِها إلى أشدِّ الأهوالِ وأَعْظَمِها؛ لَحِقَتْهُ تاءُ المبالغة لعظمَةِ هذا القيام، لِكَثْرَةِ أفرادِهِ في ذَلِكَ الْيَوْمِ[1]، ولأنّه يكونُ على دَفْعَةٍ واحدةٍ لكلِّ أهلِ الْمَحْشَرِ إلَّا ما وردَ الدَّليلُ بسَبْقِ قِيامِهِ، كما جاء في الحديثِ أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: "أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَأَوَّلُ مَنْ يَنْشَقُّ عَنْهُ الْقَبْرُ"[2].

بَلَاغَةُ الِاسْتِفْهَامِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾:

لَا أَحَدَ يُسَاوِي صِدْقُهُ صِدْقَ اللهِ تَعَالَى، فَضْلًا عَنْ أَنْ يَكُونَ أَصْدَقَ مِنْهُ

قولُ اللّهِ تعالَى: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾ معطوفٌ على المعنَى، كأنَّه قيلَ: ومنْ أعظمُ مِن اللّهِ تعالى قدرةً، ومَن أصدقُ مِنَ اللّهِ سُبحانَهُ حديثًا.

و﴿وَمَنْ﴾ استفهاميَّةٌ، والاستفهامُ إنكاريٌّ بِمَعْنَى النّفي، ومعناه تقريرُ الخبرِ علَى مَعْنَى الإنكارِ[3]، واستيعابُ النّفي لكلِّ أنواعِ الحديثِ؛ لِدلالةِ ﴿حَدِيثًا﴾ على العموم؛ إذْ إنَّ ﴿حَدِيثًا﴾ نكرةٌ في سياقِ النَّفي، والمعْنَى: لا أحَدَ أصدقُ مِنَ اللّهِ تعالى في كلِّ أنواعِ الحديثِ؛ لِيشملَ هذا الأسلوبُ نفيَ الأصدقِ مِنَ اللّهِ حديثًا، والمساوي لِصدقِه تعَالى، ولو وردَ النَّظْمُ: (لا أصدقَ مِنَ اللّهِ في حَدِيثِه)؛ لَاقْتَضَى نَفْيَ الْأَصْدَقِ فَحسبُ[4].

نُكْتَةُ وَضْعِ الْمُظْهَرِ مَوْضِعَ الْمُضْمَرِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾:

ذُكِرَ الاسمُ الأحسنُ ﴿ٱللَّهِ﴾ في قَوْلِه: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/88، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/7، والشعراوي، تفسير الشعراوي: 4/2507.
(2) مسلم (2278).
(3) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/88، والرازي، مفاتيح الغيب: 10/167.
(4) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/433.

حَدِيثًا﴾، وكان مقتضَى الظَّاهر الإضمارَ، فيأتي النَّظْمُ القرآنيُّ: (ومَنْ أَصدقُ مِنهُ حَديثًا)؛ ليكون على نَسَقِ الضَّميرِ في قولِه: ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ﴾ العائدِ علَى (اللّه) في قولِه قبلُ: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ﴾، ونُكْتَةُ الإظهَارِ كونُ الألوهيَّةِ دالَّةً على علَّةِ الحكم بأصدقيَّةِ حديثِ اللّهِ تعالى، والمعنى: لأنّه حَديثُ اللّهِ تعالَى؛ فلا أَحَدَ أصدقُ مِنْه حَديثًا؛ "لأنَّ دخولَ الكذبِ في حديثِ البشرِ إنَّما علَّتُه الخوفُ والرَّجاءُ أو سوءُ السّجِيَّةِ، وهذه منفيَّةٌ في حقِّ اللّهِ تعالى"[1]؛ لأنَّ اللّه سُبحانَهُ غَنيٌّ عنِ العالَمينَ، فأُقِيم الاسمُ الظَّاهرُ ﴿ٱللَّهِ﴾ مقامَ الضَّمير؛ للإيذان بأنّ مقتضى الألوهيةِ عدمُ جوازِ الكذبِ مِن اللّهِ تعالى؛ فإنَّكُمْ تَقبَلُونَ حَديثَ بَعضِكُم مِنْ بَعضٍ مَعَ احتِمَالِ صِدقِه وكَذِبِه، فَأَن تَقبَلُوا حَديثَ مَن يَستَحِيلُ عَلَيهِ الكَذِبُ في كُلِّ مَا أَخبَرَكُمْ بِهِ مِن طَرِيقِ الأَولَى[2].

الـتّـصْـرِيـحُ بِالِاسْمِ الْأَحْسَنِ (الـلـه) مُشْعِرٌ بِالْهَيْبَةِ مُؤَكِّدٌ الصِّدْقَ

دِلَالَةُ اسْمِ التَّفْضِيلِ ﴿أَصْدَقُ﴾ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾:

اسمُ التَّفضيلِ ﴿أَصْدَقُ﴾ من قولِ اللّه سُبحانهُ: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾ يجُوزُ أنْ يَكُونَ على بابِهِ في المفاضَلَةِ في أصلِ صِدْقِ الكلام، وفي ذلكَ تَوْجِيهَانِ:

أَحَدُهُما: أنَّ مَنْ كانَ كلامُه على قدرِ حاجةِ المُخاطَبِ، وبما ينفعُه في حالِه ومآلِه: أَصدقُ لِلْمُخَاطَبِ ممّن لا يُرَاعِي هذه الحالَ؛ لمطابقَةِ كلامِهِ أحوالَ المُخَاطَبينَ، وكونِهِ موافقًا لِلاعْتِبَارِ المُنَاسبِ لَهم، وليسَ مِنْ كلامٍ أصدق مِنْ كلامِ اللّهِ تعالَى في هذهِ الحالِ؛ لِعِلْمِه سُبحانَهُ بِمَا يحتاجُه المخاطبونَ، وما ينفعُهُم في حالِهم ومآلِهم.

كَـمَـالُ عِـلْـمِ الـلـهِ تَـعَـالَى بِـمَـا يَـحْـتَـاجُـهُ الْمُخَاطَبُونَ وَبِمَا يَـنْـفَـعُـهُـمْ فِي حَالِهِمْ وَمَآلِهِمْ

والآخَرُ: أنَّ الصِّدقَ مِنْ صفةِ القائلِ لا مِنْ صِفَةِ القولِ، والقائلُونَ

(1) ابن عطيّة، المحرر الوجيز: 2/88.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 4/7.

إذا اعتبَرُوا بِأَقْوَالِهم، فمِنْهُم مَنْ يكونُ صدقُه في أحاديثِه أكثرَ، فكأنَّه قيلَ: إذا اعتبرَ الصَّادقون في أقوالِهم، فليسَ فيهم أكثرُ صِدقًا منَ اللّهِ تعالَى؛ فإنَّه لا يقعُ في خبرِه كَذِبٌ بوجهٍ[1].

ويحتملُ أفعلُ التَّفضيلِ هنا أنْ لا يكونَ للمفاضلةِ ولِلتَّمييزِ بينَ كلامٍ صادقٍ وكلامٍ أصدقَ، فإنّ ما كان صِدْقًا مِنَ الحديثِ لا يَتضارَبُ؛ فيكونَ مِنْ بعضِ قائليه أكثرَ صِدْقًا مِنْ قائلٍ آخرَ، ولكنْ لِنعرفَ أنَّ كلامَ اللّهِ لنا كثيرٌ، فالتَّكثيرُ هنا إنَّما يَجيءُ مِنْ جهةِ كثرةِ الكلامِ، لا مِنْ جهةِ أنَّ هناك كلامًا صادقًا وكلامًا أصدقَ[2].

وهذهِ الوجوهُ غيرُ متعارضَةٍ ولا متضارِبَةٍ، بلْ كُلّها صَحِيحَةٌ اجْتِمَاعًا وانْفِرَادًا، وهي مِنْ وجوهِ الإعجازِ البيانيِّ في القرآنِ الكريم.

دِلَالَةُ بِنَاءِ الْجُمْلَةِ عَلَى التَّمْيِيزِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾:

جاءَ قولُ اللّهِ تَعَالَى: ﴿حَدِيثًا﴾ تَمييزًا لِلنِّسبَةِ المفهومَةِ مِنْ قولِه: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ﴾، فهو تفسيرٌ للإبهامِ المضمّنِ فيه، فلو لم يُذكَرْ؛ لَاحتملَ الكلامُ أنْ يكونَ بمعنى: ومَنْ أَصدقُ مِنَ اللّهِ فِعلًا أو حَديثًا أو غيرَهما، فقُصِدَ الإبهامُ أوَّلًا، ثُمَّ جيءَ بالتَّمييزِ إيضاحًا لذلك الإبهامِ؛ لِغرضِ الإبرازِ في صُورَتَيْنِ: مُبْهَمَةٍ ومُفَصَّلَةٍ؛ لِيَتَمَكّنَ الْكَلَامُ فِي النَّفسِ فَضْلَ تمكّنٍ، ولِتكمُلَ لذّةُ العلمِ به[3]، ولِاستدرارِ ذهنِ المخاطَبِ لِتلقّي الكلامِ بتمامِه لتشوّقِه إلى تَفْسِيرِ الْإِبْهَامِ.

تَمْكِينُ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ لِمُهِمَّاتِ الْمَعَانِي فِي نُفُوسِ الْمُخَاطَبِينَ

بَلَاغَةُ التَّذْيِيلِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾:

جاءَ قولُه تَعَالَى: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾ على طَرِيقةِ الإطْنَابِ بالتَّذييلِ، عَقِبَ إخبارِ اللّهِ تعالى بتوحيدِه، وأنَّهُ يجمعُ النَّاسَ إلى يومِ الْقِيَامةِ؛ لِتكونَ جملةُ التَّذييلِ تأكيدًا لمنطوقِ ما أَخبرَ اللّهُ بِهِ

مِنْ تَذْيِيلَاتِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ مَا يَجْرِي مَجْرَى الْأَمْثَالِ

(1) الرَّاغب، تفسير الراغب: 3/1373.
(2) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 4/2509.
(3) السبكي، عروس الأفراح: 1/605، 610.

في هذهِ الآيةِ، فيزدادُ المعنى انشراحًا واتّضاحًا، وورد الاسْمُ الأحسَنُ ﴿ٱللَّهِ﴾ ظَاهرًا غيرَ مضمَرٍ؛ ليُشعِرَ بعليّةِ الحكمِ - كما تقدّمَ - ، ولِتَخْرُجَ جملةُ التَّذييلِ مخرجَ المَثَلِ المستقلِّ بنفسه، فيُمْكِنُ اقتطاعُها، والتحدُّثُ بها؛ فتكون كالمثَلِ يَجْرِي بينَ النَّاسِ.

تَوْجِيهُ المُتَشَابِهِ اللَّفْظِيِّ بَيْنَ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾ وَقَوْلِهِ سُبْحَانَهُ: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّـهِ قِيلًا﴾:

دِقَّـــةُ اخْـتِـيَـارِ الْأَلْفَاظِ الْقُرْآنِيَّةِ الْمُـنَـاسِـبَـةِ لِسِيَاقَاتِهَا

جاء في هذهِ الآيةِ قولُ اللّهِ تعالى: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾، وجاءَ في موضعٍ آخرَ مِنَ السُّورةِ نفسِها قولُه سُبحانَهُ: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا ﴿١٢٢﴾﴾ [النّساء: 122]، ونكتةُ المغايَرةِ بينَهُمَا أنّ الآيةَ الأولى سُبقَتْ بقولِه ﷻ: ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾، ففيها إخبارٌ عن توحيدِ اللّهِ تعالَى، وحديثٌ عنِ البعثِ بعدَ الموتِ وجَمْعِ الخلقِ لِحسابِهم ومُجَازاتِهم على الخيرِ والشَّرِّ، فهو إخبارٌ، والحديثُ يَرِدُ بمعنَى الإخبارِ؛ فكان الأنسب التَّعبير بالحديث في فاصلَةِ الآيةِ، بخلافِ الموضعِ الآخرَ، فقد سُبِقَ بقولِه جلَّ وعلا: ﴿سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ [النساء: 57]، فَفِي الآيةِ ذكْرُ مَا وعدَ اللّهُ تعالَى بهِ المؤمنين مِنَ النَّعيمِ وعظيمِ الإحسانِ. والقيلُ هُنَا: بِمَعْنَى القولِ، وهو مناسِبٌ لِمَعْنَى الوعدِ؛ إذِ الوعدُ يَكُونُ بالقولِ لا بالْخبَرِ، وزادَهُ مناسبةً ما ذَكَرَهُ ابنُ الزُّبيرِ الغرناطيُّ في مناسبةِ ﴿قِيلًا ﴿١٢٢﴾﴾ [النساء: 122]؛ إذْ قال: (فجِيءَ بلفظٍ يوازِنُ المصدرَ عَن قبلِه، وهُمَا ﴿وَعْدَ﴾ [النساء: 122] و﴿حَقًّا﴾ [النساء: 122][1]، ويشابِهُهُما في الخفَّةِ، فسكونُ عينِ الكلمةِ، وعددُ حروفِها كالمصدرين قبلَها، وكأنَّه إنَّما أُريدَ تكرارُ المصدرِ بلفظِه فاستُثْقِلَ التَّكرارُ لِلتَّقارُبِ، وعادةُ العربِ في ذلك، فعدَلَ إلى ما يُجاريه، ويُحرزُ المعنى، ولِتَجْرِيَ المصادرُ الثَّلاثةُ مَجْرَىً واحدًا خِفَّةً ووزنًا إحرازًا لِلتَّناسُبِ والتَّلاؤُمِ)[2].

(1) في المَطْبُوع: (وعدًا وحقًّا)، والأصحُّ ما أُثبتَ ههنا، لأنَّ الكلام عن قولِه سُبحانه: ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا﴾، ولا وجهَ لنصب: (وعدًا) منوَّنةً.
(2) ابن الزبير، ملاك التأويل: 1/108.

﴿۞فَمَا لَكُمۡ فِي ٱلۡمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيۡنِ وَٱللَّهُ أَرۡكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓاْۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَهۡدُواْ مَنۡ أَضَلَّ ٱللَّهُۖ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلٗا ٨٨﴾ [النساء: 88]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

جاءَ قولُ اللّه تعالى: ﴿۞فَمَا لَكُمۡ فِي ٱلۡمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيۡنِ﴾ تفريعًا عَن أَخبَارِ المُنَافِقِينَ الَّتِي تَقَدَّمَت؛ لأَنَّ مَا وُصِفَ مِن أَحوَالِهِمْ لَا يَترُكُ شَكًّا عِندَ المُؤمِنِينَ في خُبث طَوِيَّتِهِم وَكُفرِهِم، ويجُوزُ أن يكونَ تَفرِيعًا عَن قَولِهِ سُبحانَهُ قبلُ: ﴿وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثٗا﴾، وإِذْ قَد حَدَّثَ اللّه عَنْهُمْ بِمَا وَصَفَ مِن سَابِقِ الآيِ، فَلَا يَحِقُّ التَّرَدُّدُ في سُوءِ نَوايَاهُمْ وَكُفرِهِم[1].

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

ما لَكُم تفرَّقتُم في أَمرِ المنافقينَ فِرْقَتين: فرقةً تقولُ بقتالِهم، وأُخْرَى لا تقولُ بذلك، فإِنَّهُ لا يَنْبَغِي التَّرَدُّدُ في كُفْرِهم، مع أنَّ الأدلَّةَ ظاهرةٌ جليَّةٌ، فيجبُ أنْ تَقْطَعُوا بكفرِهم، وأخبرَ سبحانَه عنْ حكمِه وقضائِه فيهم وعدلِه، وأنَّ وقوعَهم في الضَّلالِ كان بسببِ كسبِهم وأعمالِهم، فلا تَختلفوا في أمرِهم بعدَ هذا البيانِ، أَتُرِيدُونَ أنْ تُرشِدوا مَنْ أَضلَّهُ اللّه تعالَى، وتجعلوه مِنَ المُهْتَدِينَ؟، ومَن يُضلِلِ اللّه سُبحانَهُ عنِ الهُدَى، فلنْ تَجِدَ لَهُ طريقًا إلى الحقِّ والهُدَى، ولا سبيلَ إلى إِصْلَاحِه ورَشَادِه[2].

شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

1) ﴿فِئَتَيۡنِ﴾: مثنّى فِئَة، وجِذْرُ الكلمةِ: الفاءُ والهمزةُ والحرفُ المعتلُّ، وهذا الأصلُ دالٌّ على فَجْوةٍ أو شَقٍّ وفَراغٍ في شيءٍ غليظٍ صُلبٍ يَفصِلُه شَطْرَين أو كُتْلتين، وتطلَقُ الفِئَةُ على الفِرقَةِ والجَمَاعَةِ مِنَ النَّاسِ ومِنَ الجيشِ، ولم تأتِ في القرآنِ إلَّا بهذا المَعْنَى، وجمعُ فِئَةٍ: فِئَاتٌ وفِئَونٌ[3].

(1) ابن عاشور: التحرير والتنوير: 5/148.

(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/88، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 2/88.

(3) ابن منظور، لسان العرب: (فأي)، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (فأي)

2) ﴿أَرْكَسَهُم﴾: منَ الرَّكْسِ؛ وهو رَدُّ الشَّيءِ بقَلبِه عَلَى رَأْسِهِ إن كَانَ لَهُ رَأْسٌ، وَرَدُّ أَوَّلِهِ عَلَى آخِرِهِ مَقلُوبًا مُتَحَوِّلًا عَن حَالَةٍ إِلَى أَردَأَ مِنهَا، وأصلُ الرِّكسِ: تَحَوُّلُ الطَّعَامِ والعَلَفِ إِلَى الرَّجِيعِ وَالرَّوَثِ، والمُرَادُ به في الآيةِ: التَحَوُّلُ والانقِلَابُ المَعنَوِيُّ إِلَى الغَدرِ والقِتَالِ؛ أي: مِنْ إِظهَارِ الوَلَاءِ والتَّحَيُّزِ إلى المُسلِمِينَ إلى إِظهَارِ التَّحَيُّزِ إِلَى المُشرِكِينَ، أو مِنَ الإيمانِ إِلَى الشِّركِ، وهو شَرُّ التَّحَوُّلِ والارتِدَادِ المَعنَوِيِّ[1].

3) ﴿تَجِدَ﴾: من وَجَدَ، الواوُ والجيمُ والدَّالُ تدورُ تصاريفُهَا على تحصُّلِ شيءٍ ذي بالٍ في حَوْزةٍ كانت خاليةً منه، كالمالِ، والضَّالةِ، ومِنْ صُوَرِه: العثورُ على الشَّيءِ في الحوزةِ دُونَ معرفةٍ مُسْبَقَةٍ بذلكَ، ويُقال في فعلِهِ: وَجَدَ وِجْدانًا، بمعنَى: حصّلَه وأَلْفَاهُ، وبمَعْنَى: ظَفَرَ به[2].

4) ﴿سَبِيلًا﴾: السِّينُ والباءُ واللَّامُ تدلُّ اشتقاقاتُهَا على امتدادٍ إلى أسفلَ معَ اتِّصالٍ، ومنهُ إسبالُ الإزَارِ، وهو إِرْخَاؤُهُ، وأسبلَ ثيابَه: طوَّلَها وأرسلَها إلى الأرضِ، والسَّبيلُ هو الطَّريقُ الموصِلُ، سواءٌ أكانَ سهلًا أم صَعبًا، ويذكَّرُ ويؤنَّثُ، وهو بهذا المعنى في كلِّ القرآنِ، وإنَّما يختلفُ المرادُ به بِحسبِ السِّياقِ، فيأتي بمعنى الطَّريقِ المادّي، وبمعنى الطَّريقِ المعنويِّ الموصلِ إلى الهدايةِ مجازًا، كمَا في قولِه تعالى: ﴿فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا﴾[3].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

دِلَالَةُ الْفَاءِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿۞فَمَا لَكُمْ فِي ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ﴾:

مَـنْ عَـرَفَ حَـالَ الْمُـنَـافِـقِـينَ لَا يَنْبَغِي لَهُ التَّرَدُّدُ فِي شَأْنِهِمْ

الفاءُ في قولِ اللّه تعالى: ﴿۞فَمَا لَكُمْ فِي ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ﴾ استئنَافيَّةٌ[4]، وتُشعِرُ بمعنى التَّفريعِ وَالسَّببيَّةِ، فهِيَ دالَّةٌ علَى تَفريعِ الاستِفهَامِ الإنكَارِيِّ فِيهَا على مَا قبلَه، والمعنى: إِذَا كَانَ اللّهُ تَعَالَى قَدْ عرّفكم حالَ المنافقين وأَمَرَكُم بِالقِتَالِ في سَبِيلِهِ، وأنَّهُ سيجمعُكُم يومَ القيامةِ لا ريبَ فيه، فَمَا لَكُم تَتَرَدَّدُونَ فِي أَمرِ المُنَافِقِينَ، وَتَنقَسِمُونَ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ركس)، ورضا، تفسير المنار: 5/262.
(2) ابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (وجد).
(3) الأزهري، تهذيب اللغة، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (سَبَل).
(4) الدَّرويش، إعراب القرآن وبيانه: 2/283.

فِيهِم إِلَى فِئَتَين، وكلُّ ما تقدّم أسبابٌ تفيدُ التَّعجُّبَ من حالِ انقسامِ المؤمنينَ في أمرِ المنافقينَ الّذين لا ينبغي الانقسامُ فِيهِمْ.

بَلَاغَةُ الِاسْتِفْهَامِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿۞فَمَا لَكُمْ فِي ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ﴾:

التَّعجيبُ مِنْ حَالِ انْقِسَامِ الْمُؤْمِنِينَ فِي أَمْرِ الْمُنَافِقِينَ

الاستفهامُ في قولِه تعالَى: ﴿۞فَمَا لَكُمْ فِي ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ﴾ ليس استفهامًا حقيقيًّا؛ إذْ حقيقةُ الاستفهامِ: طلبُ العِلْمِ بشيءٍ لم يَكُن مَعْلُومًا مِن قَبْلُ، واللّه سُبحانَهُ لا تخْفَى عليه خافيةٌ، فدلَّ ذلك علَى أنَّه استفهامٌ مجازيٌّ؛ ومعنَاهُ: الْإِنْكَارُ التّوبيخِيّ، والخطابُ عامٌّ لجميعِ المؤمنينَ، ولكن التَّوبيخَ فيه متوجِّهٌ إلى جماعةٍ مِنْهم؛ وهم الّذين يتردَّدُونَ في حالِ المنافِقِينَ، وفيهِ تَعجيبٌ مِن حَالِهم، ولَومُهُم على تردُّدِهِمْ في شأنِهِم[1]، والمَعْنَى: ما شأنُكم انقسمتُم فِرْقَتَين فيما هو ظاهرٌ مِنْ حالِ المنافقينَ؟ فهذا التَّركيبُ (مَا لَكَ) أو (مَا لَكُم) إذَا سيقَ مساقَ الإنكار يَكُونُ لِتوبيخِ مَنْ يأتي فِعلًا مخالفًا، وهو مِنَ الوضوحِ والظُّهورِ ممّا ينبغي أنْ لا يُفعلَ، فَلِظهورِ الأمرِ تضمّنَ معنى التَّعجيبِ واللَّومِ.

نُكْتَةُ إِيجَازِ الْحَذْفِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿۞فَمَا لَكُمْ فِي ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ﴾:

زِيَادَةُ التَّعْجِيبِ مِنْ حَالِ الْمُؤْمِنِينَ الْمُتَرَدِّدِينَ فِي شَأْنِ أَهْلِ النِّفَاقِ

في قولِ اللّه تعالَى: ﴿۞فَمَا لَكُمْ فِي ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ﴾ حذفٌ، تقديرُهُ: فما لَكُمْ في أَمرِ الْمُنَافِقينَ فِرقتين، أو في شَأنِ الْمُنَافِقين[2]، والجارُّ والمجرورُ ﴿فِي ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ متعلّقٌ بمحذوفٍ تقديرُه: تَفْتَرِقُون، وفي هذا الحَذْفِ: إيجازٌ واختصارٌ؛ لِيَتَوَجَّه اللّومُ لِلْوَصْفِ، وهو النّفاقُ، فالخلافُ في أمرِهم وشأنِهم وليسَ في ذَوَاتِهم، لكنْ حُذِفَ المضافُ لِلتَّنبيهِ على أنَّ تفرُّقَهُم كانَ في المَوْصُوفِينَ بالنِّفاقِ؛ تعجيبًا مِنْ حالِ المؤمنينَ الّذين كانوا يتردَّدُونَ في نِفَاقِهم وكُفْرِهم.

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 2/212.

(2) الزمخشري، الكشاف: 1/546، والرازي، مفاتيح الغيب: 10/186، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 2/88.

سِرُّ إِيثَارِ التَّعْبِيرِ بِـ ﴿فِئَتَيْنِ﴾ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿۞فَمَا لَكُمْ فِي ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ﴾:

دلّتْ كلمةُ ﴿فِئَتَيْنِ﴾ من قولِهِ تعالى: ﴿۞فَمَا لَكُمْ فِي ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ﴾ على أنَّ المؤمنينَ تفرَّقوا فِرْقَتَيْنِ في شأنِ المنافقين، فِرقة مِنهُم كَانَت تَذُبُّ عَنهُمْ تحرّزًا مِنْ أنْ يحكمُوا عليهم بالكُفرِ؛ لِمَا رأوا في الظَّاهِرِ مِن تمسّكهم بِالشَّهَادَتَين، وفِرقَة مِنهُم تُبَاينُهُمْ وَتُعَادِيهم لِما عَرَفُوا مِن حَقِيقَتِهم، ومَا ظهَرَتْ لهُمْ مِنْ أدلَّةِ كُفرِهم ونِفَاقِهِمْ[1]، فَنُهُوا عَن ذَلِكَ وَأُمِرُوا بِأَن يَكُونُوا عَلَى نَهجٍ وَاحِدٍ في التَّبَايُنِ والتَّبَرِّي والتَّكفِيرِ، (ومعنَى الافتراقِ مستفادٌ مِن فِئَتَيْنِ)[2].

التَّفَرُّقُ فِي شَأْنِ الْمُنَافِقِينَ مَذْمُومٌ؛ إِذِ النِّفَاقُ رَافِعٌ لِلْخِلَافِ فِي الْحُكْمِ عَنْ أَهْلِهِ

ولم يَرِدِ النَّظْمُ القرآنيُّ: (ما لَكُمْ تَفرّقتُمْ فِئَتَين)؛ تَحَاشِيًا عَن وَصْفِ المؤمنين بالتفرّقِ ظاهرًا؛ فالتفرّقُ مذمومٌ، ولا سيّما أنَّ الخطابَ موجَّهٌ لِلْمُؤْمِنِين.

بَلَاغَةُ الِاسْتِعَارَةِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓاْ﴾:

لمّا كانَ أصلُ الرِّكسِ: الطَّعامَ المتحوِّلَ إلى الرَّجيعِ والرَّوثِ، وهو حالٌ خَسِيسةٌ، متمثّلةٌ في النَّجَاسَةِ، فكان في قولِهِ سُبحانَهُ: ﴿وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓاْ﴾ تشبيهُ حالِ ردّهم إلى الْكُفْرِ أو تَصْيِيرِهم إلى النَّار بعدَ أنْ كان مصيرُهم إلى الجنَّةِ باعتبارِ حَالِهِمُ الأصليَّة[3] بِتَحوّلِ الطَّعامِ إلى الرَّجيعِ؛ فيكونُ مِنْ تصويرِ المعقولِ - وهو التحوُّلُ مِنَ الإيمانِ إلى الكُفرِ - في صورةِ المحسوسِ الّذي هو تحوّلُ الطَّعامِ الطَّيِّبِ إلى الرَّجيعِ؛ فهو استعارةٌ تصريحيّةٌ تبعيَّةٌ، ونُكْتَتُهَا: الإشارةُ إلى تأكيدِ ظهورِ تحوّلِهم الشَّنيعِ، وفيها: زيادةُ تقبيحِ حالِهِم، وبيانُ شِدَّةِ إِصْرَارِهِمْ عَلَى الكُفرِ والباطلِ وعَدَاوَةِ المُسلِمِينَ، وأنَّهُ يبعُدُ

تَصْوِيرُ حَالِ الْمُنَافِقِينَ بِأَقْبَحِ الصُّوَرِ وَأَشْنَعِهَا إِيمَاءً إِلَى تَعَذُّرِ رُجُوعِهِمْ عَنِ النِّفَاقِ

(1) الرازي، مفاتيح الغيب: 10/169.
(2) البيضاوي، أنوار التنزيل: 2/88.
(3) الرازي، مفاتيح الغيب: 10/173، والقونوي، حاشية القونوي على تفسير البيضاوي: 7/254.

رجوعُهُمْ بعد هذه الحالِ إلى الحقِّ؛ إذْ مَن وَقَعَ في شَيءٍ مَنكُوسًا يَتَعَذَّرُ خُرُوجُهُ مِنْهُ عادةً.

دِلَالَةُ الْجُمْلَةِ الْحَالِيَّةِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱللَّـهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓاْۚ﴾:

الجُمْلَةُ في قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓاْۚ﴾ في مَوضِعِ الحَالِ مِنَ الْمُنَافِقِين، فقَدْ أَنْكَرَ اللهُ تَعَالَى عَلَى الْمُؤْمِنين اختِلَافَهُمْ في هَؤلَاءِ الْمُنَافِقِينَ، والحَالُ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ رَدَّهُمْ في الكُفرِ، فتفرّقُ الْمُؤْمِنين في أمرِهِم مُقْتَرِنٌ بإرْكَاسِ اللهِ تعالَى لَهم، فيكونُ أمرُ الْمُنَافِقينَ ظاهرًا، ومَنْ يَرُدُّهُ اللَّهُ إِلَى الكُفرِ لَا يَنْبَغِي أَنْ يُخْتَلَفُ في كُفرِهِ، فأفادت الجملةُ الحاليَّةُ تأكيدَ الإنكارِ الْمَصْحُوبِ بِالتَّعجيبِ واللَّومِ[1].

مَنْ يَرُدُّهُ اللَّهُ تَعَالَى إِلَى الْكُفْرِ لَا يَنْبَغِي أَنْ يُخْتَلَفَ فِي كُفْرِهِ

دِلَالَةُ الْبَاءِ فِي ﴿بِمَا﴾ وَنُكْتَةُ التَّعْبِيرِ بِالْكَسْبِ دُونَ الِاكْتِسَابِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿بِمَا كَسَبُوٓاْۚ﴾:

الباءُ في قولِهِ سُبحانَهُ: ﴿بِمَا كَسَبُوٓاْۚ﴾ سَبَبِيَّةٌ[2]، والمعنى: واللهُ تعالَى أركسَهم وأهلَكهم بسببِ ما كسَبوا، وعُبِّرَ بِـ ﴿كَسَبُوٓاْۚ﴾ دُون (اكْتَسبوا)؛ لِلإشارة إلى أنَّ ارتدادَهم ولُحُوقَهُم بالْمُشْرِكِينَ كان سَهلًا عليهم مِنْ دونِ جُهدٍ يَبذلونَهُ، فَفِيهِ إِيمَاءٌ إلى خُبْثِ طَبْعِهِمْ وَمَيْلِهم إلى الِانْحِرَاف.

خُبْثُ أَهْلِ النِّفَاقِ وَمَيْلُهُمْ إِلَى الِانْحِرَافِ

وحُذِفَ عائِدُ (مَا)، والتَّقدير: بِمَا كَسَبُوه؛ لِيفيدَ أنَّ إِرْكَاسَهم لِعمومِ ما كَسَبُوا؛ لِئلَّا يَخْتَصَّ بِكَسْبٍ خاصٍّ حَدَثَ في وَاقعةٍ معيَّنةٍ.

نُكْتَةُ تَقْدِيمِ الْمُسْنَدِ إِلَيْهِ عَلَى خَبَرِهِ الْفِعْلِيِّ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓاْۚ﴾:

في قولِه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓاْۚ﴾ تكرارٌ للإسنادِ؛ لِإفادةِ تأكيدِ حكمِ نسبةِ مضمونِ الجملةِ، ووجهُ تكرارِ النِّسبةِ أَنَّ الفعلَ ﴿أَرْكَسَهُم﴾ أُسندَ إلى الاسمِ الظَّاهرِ ﴿وَٱللَّهُ﴾؛ إذْ هُوَ خبرٌ

الْمُبَالَغَةُ فِي ذَمِّ الْمُنَافِقِينَ وَتَبْشِيعِ حَالِهِمْ

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 4/8، وأبو السّعود، إرشاد العقل السليم: 2/212.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 2/212.

لِلْمبتدأ، ثُمَّ أُسندَ إلى الضَّميرِ العائدِ إلى اللّهِ تعالَى في ﴿أَرْكَسَهُم﴾؛ فكانَ في هذا التَّركيبِ إسنادُ الفعلِ إلى الاسم الأحسنِ (اللّه) مرّتَيْنِ: مرَّةً إلى صريحِ الاسمِ، وأخرَى إلى ضميرِهِ، كما قرّرهُ علماءُ البلاغةِ في تَقْوِيَةِ الإسنادِ[1]، وزادَ الْجُملةَ قُوَّةً مَجيئُها اسميّةً؛ لتدلَّ على الثّبوتِ - كما هو الأصلُ فيهَا - ، ولتدُلَّ على اللُّزومِ والدَّوامِ بقرينَةِ الذَّمِّ؛ مبالغةً في ذَمِّ الْمُنَافِقِين وتَبْشِيعًا لِحَالِهِم، فتكونُ الجملةُ مؤكِّدةً لِمعنى الإركاسِ مقرّرَةً لَه، وفِيهَا دِلالةٌ علَى أنَّ الإركاسَ إلى الْكُفْرِ بأمرِ اللّهِ تعالَى وحدَه، فاللّهُ هُوَ الذِي أركسَهم في الكفرِ بِسَبَبِ مَا كَسَبُوهُ.

بَلَاغَةُ التَّجْرِيدِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُواْ مَنْ أَضَلَّ ٱللَّـهُ﴾:

في قوله سُبحَانَه: ﴿أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُواْ مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُۖ﴾ تجريدٌ لِلْخِطَابِ بعدَ أنْ خاطَبَ جميعَ المؤمنينَ في قولِه ﴿۞فَمَا لَكُمْ﴾، فَخُصِّصَ هُنَا بالقَائِلِينَ بإيمَانِهم، وفي هذَا التَّجريدِ: المبالغةُ في توبيخِهم ولَومِهم على زعمِهم ذلك، وإشعارٌ بأنَّهُ يؤدِي إلى محاولةِ المُحالِ، وَهُوَ هدايةُ مَنْ أضلَّهُ اللّه تعالى[2].

هِدَايَةُ مَنْ أَضَلَّهُ اللّهُ تَعَالَى مُحَالٌ

دِلَالَةُ الِاسْتِفْهَامِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُواْ مَنْ أَضَلَّ ٱللَّـهُ﴾:

الهمزةُ في قولِهِ تَعَالَى: ﴿أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُواْ مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُۖ﴾ استفهاميَّةٌ، وهذا الاستفهَامُ مجازيٌّ على مَعْنَى الإنكارِ التّوبيخِيِّ المُتَضَمّنِ الإبعادَ والتَّيْئِيسَ مِمَّا أرادَه بعضُ المؤمنينَ، وهو إنكارٌ على الْحُكْمِ بإيمانِهم، ولِيَقْضِيَ بِفَظَاعةِ هذا الحكم؛ كَنَّى بِهِ عن إرادةِ المُحالِ، فكأنّه قال: مَنْ أَرَادَ اللّه تعالَى ضَلَالَهُ، لَا يُرِيدُ أَحَدٌ هدَايَتَهُ؛ لِئَلَّا تَقَعَ إِرَادَتُهُ مخالفةً لإرادة اللّهِ تَعَالَى، ومَنْ قَضَى اللّهُ عَلَيهِ

لَا يَنْبَغِي لِأَهْلِ الْإِيمَانِ أَنْ تَكُونَ إِرَادَتُهُمْ عَلَى خِلَافِ مُرَادِ اللهِ تَعَالَى.

(1) السكاكي، مفتاح العلوم، ص: 221، والمطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 1/223.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 2/212.

بالضَّلَالِ لَا يُمكِنُ إرشَادُهُ[1]، وفيه تَلَطُّفٌ بالْمُخَاطَبِين، والمعنَى: مَا يَنْبَغِي لَكُمْ أَن تُرِيدُوا المُحالَ.

بَرَاعَةُ الْكِنَايَةِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُواْ مَنْ أَضَلَّ ٱللَّـهُ﴾:

في قَوْلِه تعالى: ﴿أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُواْ مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ﴾ كنايةٌ؛ وذلك أنَّهُ جُعِلَ الحُكمُ بإيمانِ المنافِقِين وادِّعاءِ اهتدائهم - وَهُم بمَعْزِلٍ عَن ذَلِكَ - بِمَنْزِلةِ السَّعي في هِدَايتِهم والْإِرَادةِ لَها، فكُنِّيَ عَنِ الْحُكْمِ بإيمَانِهم وَهُمْ في حَالِ الْإِرْكَاسِ بذِكْرِ المُحالِ؛ وهُوَ إرادةُ هِدَايةِ مَنْ أضلَّهُ اللّه تعالَى، وفيه أيضًا تأكيدٌ بِأنّ أولئك المُنَافِقِين سَيَمُوتُون علَى الْكُفْرِ.

اسْتِحَالَةُ هِدَايَةِ مَنْ كَتَبَ اللهُ تَعَالَى عَلَيْهِ الضَّلَالَ.

دِلَالَةُ الطِّبَاقِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُواْ مَنْ أَضَلَّ ٱللَّـهُ﴾:

في قولِ اللّه تعَالَى: ﴿أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُواْ مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ﴾ طباقٌ بينَ الهدايةِ والضَّلالِ، ونُكْتَتُهُ: حَصرُ الأمرِ بينَ هذينِ الطَّريقَين، فالذِي لا يتَّبعُ طريقَ الهدايةِ؛ ليسَ له إلَّا طريقُ الضَّلالِ.

مَنْ لَا يَتَّبِعُ طَرِيقَ الْحَقِّ؛ هُوَ مُتَّبِعٌ طَرِيقَ الْبَاطِلِ.

وفي إسناد الهدايةِ لِلضَّمير الرَّاجعِ إلَى الفِئَةِ المُؤْمنةِ القائلةِ بإيمَانِ المُنَافِقِين، وإسنَادِ الإضلَالِ إلَى اللّه تعالى: تأكيدٌ على اسْتِحَالةِ إيمَانِهم؛ إذْ لَا تُعارِضُ إرادةَ اللّه سُبحانَهُ إرادةُ بَشَرٍ، ويؤيِّدُه توجيهُ الإنكارِ لِلْإرادَةِ، فلم يَرِدِ النَّظْمُ القرآنيُّ: (أَتَهْدُونَ مَنْ أضلَّ اللّه)، بل توجَّهَ الإنكارُ إلى الْإِرَادَةِ لَا إلَى مُتعلَّقها، وهُوَ الهِدَايَة؛ لِلْمُبَالغةِ في الإنكارِ، بِبَيَانِ أنَّه ممَّا لا يُمْكِنُ إرادتُه أَصْلًا، فضلًا عَن إمْكَانِه في نَفْسِه[2].

دِلَالَةُ إِيرَادِ الْمَفْعُولِ ﴿مَنْ﴾ اسْمًا مَوْصُولًا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُواْ مَنْ أَضَلَّ ٱللَّـهُ﴾:

لمْ يَرِدِ النَّظْمُ القرآنيُّ: (أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهدوهُم)؛ لِيَعُودَ الضَّميرُ

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/89، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/8.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 2/212.

إلى الْمُنَافِقِينَ المذكورِينَ قبلُ، كَمَا يَقْتضِيه ظاهِرُ الكلامِ، بَل جِيءَ بِالاسْمِ الْمَوْصُولِ؛ لِتُنْبَنَى عليه جُملةُ صلةٍ تتضمّنُ تعليلَ الإنكارِ التّوبيخيِّ على بَعْضِ الْمُؤْمِنِين الذِينَ قالُوا بِإيمَانِ الْمُنَافِقِين، فقال سُبحانَهُ: ﴿مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ﴾؛ لِتشديدِ الإنكارِ وتأكيدِ استحالةِ الهدايةِ بما هو مذكورٌ في حيِّزِ الصِّلةِ[1].

تَأْكِيدُ اسْتِحَالَةِ هِدَايَةِ مَنْ أَضَلَّهُ اللهُ تَعَالَى

بَرَاعَةُ الِالْتِفَاتِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّـهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا﴾:

في قول اللّه تعالَى: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا﴾ خُروجٌ مِن خِطَابِ الجَمَاعَةِ إلى خِطَابِ الْمُفْرَدِ؛ لِيكونَ إمَّا خطابًا إلى الرَّسُولِ ﷺ، ففيه تَنْبِيهٌ لِلمُختَلِفِينَ في شأنِ الْمُنَافِقِينَ؛ بِأَنَّهُ إذَا لَم يَكُنْ لِلرّسُولِ ﷺ أنْ يجدَ سبيلًا لِمَنْ يُضِلُّه اللّه تعالَى، فَأَحْرَى أَنْ لَا يَكُونَ ذَلِكَ لجَمِيعِ الْمُؤْمِنِين[2]، وإمّا خطابًا موجّهًا إلى كلِّ واحدٍ مِنَ المخاطَبين، فيكون ضميرُ الخطَابِ خارجًا عن أصلِه في الدِّلالةَ على معيَّنٍ؛ قصدًا لإفادَةِ العموم، فيكونُ فيه إشعارٌ بِشُمولِ عدمِ الوجدَانِ لكلِّ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى طَرِيقِ التَّفْصِيلِ وَاحدًا واحدًا[3].

تَحْصِيلُ طَرِيقِ الْهِدَايَةِ ظَفَرٌ بِأَمْرٍ عَظِيمٍ

وعُبِّرَ بِنَفْيِ الوجدانِ دونَ غيرِه؛ لإفادةِ نفيِ تَحْصِيلِ سبيلِ الهدايةِ بأيِّ طريقٍ كانَ، ولِيدلَّ على أنّ وجدانَ طريقِ الهدايةِ ظفَرٌ بأمرٍ ذِي شأنٍ، وجاءَ النَّفيُ بصيغةِ ﴿فَلَن﴾؛ لِيفيدَ تأكيدَ النَّفيِ وتَقْرِيرَه.

دِلَالَةُ تَنْكِيرِ ﴿سَبِيلًا﴾ مِنْ قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا﴾:

نُكِّرَ لفظُ ﴿سَبِيلًا﴾ في قولِه تعالَى: ﴿فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا﴾؛ ليكون دالًّا على العُمُومِ؛ إذِ النَّكرةُ سُبقَتْ بنفيٍ، والمعنَى: مَنْ تَرَكَ سَبِيلَ الهدايَةِ والرّشادِ؛ كَانَ مِن سُنَّةِ اللّه تعالَى أَن يَكُونَ ضَالًّا طولَ حَيَاتِه؛ إذ لَا تَجِدُ لَهُ سَبِيلًا أُخرَى يَسلُكُهَا فَيَهتَدِيَ بِها إلى الحَقِّ[4].

مَنْ أَعْرَضَ عَنْ سَبِيلِ الْهُدَى؛ بَقِيَ فِي عَمَايَاتِ الضَّلَالَةِ

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 2/212.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 4/8.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 2/213.
(4) رضا، تفسير المنار: 5/264.

نُكْتَةُ وَضْعِ الْمُظْهَرِ مَوْضِعَ الْمُضْمَرِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّـهُ﴾:

تَرْبِيَةُ الْمَهَابَةِ بِالتَّصْرِيحِ بِذِكْرِ الِاسْمِ الْأَحْسَنِ (الله)

قالَ اللّهُ تعَالَى: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ﴾ بإظهارِ الاسم الأحسنِ، وكان مقتضَى الظَّاهرِ إضمارَهُ؛ لتقدُّمِ ذِكْرِهِ قريبًا في قولِه تعالَى: ﴿أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُواْ مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُۖ﴾، فلم يَرِدِ النَّظْمُ القرآنيُّ: (وَمَن يُضلّه فلَنْ تَجِدَ لهُ سبيلًا)، وجيءَ بِالاسْم الظَّاهرِ ﴿ٱللَّهُ﴾ لِزيادَة الإيضاحِ والتّقرير في ذِهْنِ المخاطَب في أَنَّ الهدايةَ والضّلالَ بيَدِ اللّهِ سُبحانَهُ، كما أنّ في ذِكْرِ الاسم الأحسَنِ (اللّهِ) تعظيمًا لَهُ سُبحانَهُ وتخويفًا منه[1]، وفي الإظهَارِ تَمْهِيدٌ لجريَانِ الجملةِ مجرَى المثلِ، بخلاف ما لو أُضْمِرَ بأن يُقال: (وَمَنْ يُضِلّه)؛ فلا يصحُّ إجراؤُهُ هذا المُجْرَى.

بَلَاغَةُ التَّذْيِيلِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّـهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا﴾:

جَرَيَانُ كَثِيرٍ مِنْ جُمَلِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ مَجْرَى الْأَمْثَالِ

قولُ اللّهِ تعالى: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا﴾ تذييلٌ مقرِّرٌ لِما تقدّمه مِنَ الْإِنْكَار في قَوْلِه: ﴿أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُواْ مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُۖ﴾، ومؤكِّدٌ لاستحالةِ هدايةِ مَن أضلَّهُ اللّهُ سُبحانَهُ[2]، وهو تذييلٌ جارٍ مَجْرَى المَثَلِ؛ لعدمِ افتقارِهِ إلَى ما قبلَهُ في الكشْفِ عَنْ أَصْلِ مَعْنَاهُ، فكان التَّذييلُ قاعدةً عامّةً سائرةً مسير الأمثَالِ.

وفي الختم بهَذَا التّذييلِ تعليلٌ وتأكيدٌ لِلْإِنْكَار التّوبيخيِّ المذكُورِ في صَدْرِ الآيَةِ ﴿۞فَمَا لَكُمْ﴾، فيَكونُ ختمُ الآيةِ تأكيدًا وتعليلًا لمطلَعِها.

تَوْجِيهُ الْمُتَشَابِهِ اللَّفْظِيِّ بَيْنَ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا﴾ وَنَظَائِرِهَا:

دِقَّةُ اخْتِيَارِ الْأَلْفَاظِ الْمُلَائِمَةِ لِسِيَاقَاتِهَا.

وردَ قولُ اللّهِ سُبحانه: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ﴾ في مواضعَ؛ منها في قوله تعالى: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا﴾، وَقَوْلِهِ سُبحانهُ: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾﴾ [الرَّعد: 33]، وَقَوْلِهِ ﷻ: ﴿وَمَن

(1) السكاكي، مفتاح العلوم، ص: 177.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 2/213.

يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِيٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦۗ﴾ [الشورى: 44]، وَقَوْلِهِ ﷻ: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ ۝٤٦﴾ [الشورى: 46]، ووجهُ التَّغايُرِ بينهَا أنَّ آيةَ النِّساءِ تقدَّمَهَا قولُه تعالى: ﴿أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُواْ مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُۖ﴾، فلمَّا أنكرَ اللّٰه سبحانه على هؤلاء عدمَ قتالِ المنافقِينَ كي يجدوا سبيلًا إلى هدايتهم؛ ناسبَهُ قولُهُ: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا﴾ مراعاةً لذلك المعنى، ولتحْقِيق التَّناسبِ الصَّوتي بفاصلَةٍ لاميَّةٍ.

بخلاف آيةِ سورة الرَّعدِ ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ۝٣٣﴾ [الرَّعد: 33]؛ فقد تقدَّمها قولُهُ تعالى: ﴿بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ مَكْرُهُمْ وَصُدُّواْ عَنِ ٱلسَّبِيلِۗ﴾ [الرَّعد: 33]، فلمَّا كان مَن صُدَّ عن السَّبيلِ قد يجدُ من يهديهِ إليه؛ ناسبَهُ قوله تعالى: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ۝٣٣﴾ مراعاةً لذلك، وتحقيقًا لتناسُبِ الفواصلِ الدَّاليَّةِ.

وأمَّا قوله: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِيٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦۗ﴾ [الشورى: 44]، فسبقَهَا قولُهُ تعالى: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ۝٤٣﴾ [الشورى: 43]، فلمَّا دلَّ ذلك على ولاية اللّٰهِ سُبحانه لمن هدَى بإرشادهم إلى عزائم الأمور؛ ناسبَهُ أن تُنْفَى ولايتُهُ عمَّن أضلَّ، فقال تعالى: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِيٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦۗ﴾ [الشورى: 44].

وأمَّا قول اللّٰه سُبحانه: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ ۝٤٦﴾ [الشورى: 46]، فقد صُدِّرت الآيةُ بقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِۗ﴾ [الشورى: 46]، ردًّا على قولهم المحكيِّ قبلُ: ﴿هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ ۝٤٤﴾ [الشورى: 44]؛ ناسبه قولُه: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ ۝٤٦﴾ [الشورى: 46].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الرِّكْس والنِّكْس:

النِّكسُ: يَدُلُّ على قَلبِ الشَّيءِ، ومنهُ قولُهُم: وقع فلانٌ منكوسًا، أي: وقع عَلَى رَأْسِهِ، والوِلَادُ المَنْكُوسُ: أَنْ يَخرُجَ رِجلَاهُ قَبلَ رَأْسِهِ، فخرج مقلوبًا، ونُكِس المريضُ: عاد في مرضِهِ بعد النَّقه، وَأمّا الرِّكسُ؛ فهو رَدُّ أَوَّلِ الشَّيءِ عَلَى آخِرِهِ مَقلُوبًا مُتَحَوِّلًا عَنْ حَالَةٍ إِلَى أَردَأَ مِنْهَا، فالرِّكْسُ أَبلَغُ مِنَ النِّكْسِ؛ لأنَّه قلبُ الشَّيءِ بردّه إلى حالةٍ أردأ ممّا كان عليه، ففي الرِّكس قلبٌ ورجوعٌ إلى الأقبحِ بعدَ أنْ كانَ في حالٍ حسَنَةٍ؛ ولِهذا سُمّيَ الرَّجيعُ رِكسًا؛

لأنّه رَجَعَ عن حالِ الطَّعَام، وأَرْكَسَهُ أَبْلَغُ مَنْ رَكَسَهُ، وأفادَ الإركاسُ هنا الهلاكَ، وَمَنْ عَبَّرَ بِهِ عَنِ الإِهلَاكِ؛ فَإِنَّهُ أَخَذَ بِلَازِمِ الإِركَاسِ، والنِّكْسُ فيهِ مَعْنَى القلبِ فقط؛ لِأَنَّ النِّكْسَ قلبُ الشيءِ بجعْلِ أَسْفَلِهِ أَعْلَاهُ[1]، فعُبِّرَ في الآية بـ ﴿أَرْكَسَهُم﴾؛ لبيانِ شدَّةِ قبحِ ارتدادِهم بما كسبُوا مِنَ الكفرِ والنِّفاقِ، ففي ﴿أَرْكَسَهُم﴾ معنى الرُّجوع إلى أقبحِ وصفٍ، ويستلزمُ الهلاكَ بعد أنْ كانوا في حالٍ حسنةٍ مِنَ الإيمانِ والهُدى.

(1) الرَّاغب، تفسير الراغب: 3/1374، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/8.

﴿وَدُّواْ لَوۡ تَكۡفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءٗۖ فَلَا تَتَّخِذُواْ مِنۡهُمۡ أَوۡلِيَآءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَخُذُوهُمۡ وَٱقۡتُلُوهُمۡ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡۖ وَلَا تَتَّخِذُواْ مِنۡهُمۡ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرًا ٨٩﴾ [النساء: 89]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا أخبرَ اللّٰه بضلالِ المنافقينَ وثباتِهم عليه؛ أَعلمَ في هذهِ الآيةِ بإغراقِهم في الكُفرِ، ومبالغتِهم فيه، فهم يَتَمَنَّونَ أَنْ تَصيرُوا أَيُّهَا المُسلِمُونَ كُفَّارًا، فكيفَ تُريدُونَ أنْ تهدوا مَنْ أضلّ اللّٰه تعالَى، وقد بَلَغُوا في تَعَصُّبِهِمْ في الكُفرِ إِلَى هَذَا الحَدِّ[1]، وكأنَّ الآيةَ الْكَرِيمَةَ جاءت عَقِيبَ مَا مضَى لِزيادةِ تَعْلِيلِ الْإِنْكَارِ على مَن قالَ بإيمانِهم مِنَ الْمُؤْمِنِين، ولِلتَّأكيدِ على كُفْرِ الْمُنَافِقِين، وهذهِ مُنَاسَبَةٌ متينةٌ بينَ الآيتَيْنِ.

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

رغِبَ المنافقُونَ لو تَكفُرُونَ كَكُفرِهم، وتَكُونُونَ مِثلَهُمْ سَوَاءً، فَهُم لا يَكْتَفُونَ بضلالِهم، بل يَرْجُونَ إضلالَ المُسْلِمينَ، ورَدَّ مَنْ يَسْتَطِيعُونَ ردَّهُ إلى الكُفرِ، فلا تتَّخذوا مِنْهُم أَنصارًا تُوَالُونَهم حتَّى يُؤمِنُوا، وَيحَقِّقُوا إيمانَهم بالهجرةِ في سبيلِ اللّٰهِ تعالَى، فإنْ تولَّوا عنْ أنْ يُهاجِروا، ولَزِمُوا الإقامةَ علَى مَا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ الكُفرِ؛ فَخذُوهمْ أينَما كانُوا، واقتلوهُمْ، ولا تتَّخذُوا منهم مُحِبًّا مُقرَّبًا مِنْ دونِ اللّٰهِ سُبحانَهُ، ولا نَصيرًا يُعينُكم وَيدافعُ عنكمْ[2].

شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

1) ﴿وَدُّواْ﴾: يدلُّ معنى الوُدّ على الحُبّ، وتمنّي حُصولِ الشَّيء، يُقالُ: وَدِدْتُهُ بمعنَى: أَحْبَبْتُهُ، فالودُّ: محبَّةُ الشّيءِ، وتشهّي ما لا مطمعَ فيه، وما لا يُتوقَّع حصولُه، فَيَكْمُنُ في الودّ معنى التَّمنّي، ويتمحّضُ للتّمنّي إذا اقْتَرَنَ بـ(لَوْ)، فيقالُ: وَدِدْتُ أَنَّ ذَاكَ كَانَ كذا، وَوَدِدْتُ لو كان كذا؛ إِذَا تَمَنَّيْتَهُ[3].

(1) الرازي، مفاتيح الغيب: 10/170.

(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/89، ورضا، تفسير المنار: 5/264.

(3) ابن فارس مقاييس اللغة، والسمين، عمدة الحفاظ: (ودد)، والسكاكي، مفتاح العلوم، ص: 303.

2) ﴿أَوْلِيَآءَ﴾ - ﴿وَلِيًّا﴾: الوَلْيُ يَدُلُّ عَلَى قُربٍ، وَجَلَسَ مِمَّا يَلِينِي، أَي: يُقَارِبُنِي، ويعبّر بالوليّ وما يشتقُّ مِنْهُ عن كلِّ ذي علاقةٍ قريبةٍ متمكّنَةٍ، وفي الولايةِ معنى الاختصاصِ والقربِ، وحبِّ الخيرِ لِوليِّهِ، والفعلُ (تَوَلَّى) إذا عُدِّيَ بِنَفْسِه اقْتَضَى معنى الوَلَايَةِ، وإذا عدِّي بـ (عنْ) لفظًا أو تقديرًا اقْتَضَى معنَى الْإِعْرَاضِ وتركِ قُربِهِ، والوَلِيُّ يُطلقُ بمعنى المُناصِرِ، ويطلقُ بمعنى المُحِبِّ الوَدودِ، والنَّهيُ في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ أَوْلِيَآءَ﴾ ﴿وَلَا تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ وَلِيًّا﴾ يُحْمَلَ على المعنَيَيْنِ معًا[1].

3) ﴿يُهَاجِرُواْ﴾، الهَجْرُ: تركُ الشَّيءِ، والإعْرَاضُ عَنْهُ مَكانًا أو خَليطًا، ففي الكلمةِ معنى التَّباعدِ والنَّأيِ، وهي ضدُّ الوَصلِ، وسُمِّي القبيحُ مِنَ الكلامِ هُجْرًا؛ لِكونِه مقتضِيًا لِهجرِهِ، والهجرةُ: مفارقةُ الإنسانِ غيرَه؛ بالبدنِ أو باللِّسانِ أو بالقلبِ، وسُمّيَ المهاجِرُ مهاجرًا؛ لِتركِهِ وطنَهُ، وسُمّيَ مَنْ رفضَ فُضُولاتِ شهواتِه مُهاجِرًا، وصارَ اسمَ مدحٍ في الإسلامِ[2].

4) ﴿سَبِيلِ﴾: السِّين والباءُ واللَّامُ دالَّةٌ على امتدادٍ إلى أسفلَ معَ اتِّصالٍ، ومِنْهُ قولُهم: أسبلَ إزارَهُ؛ إذا أرْخاه، وأسبلَ الفَرسُ ذَنَبَه؛ أي: أَرْسَلَه، وأسبلَ ثيابَه: طوَّلَها، وأرسلَها إلى الأرضِ، والسَّبيلُ هو الطَّريقُ الموصِلُ سواءٌ أكانَ سهلًا أم صَعبًا، ويذكَّرُ ويؤنَّثُ، وهو بهذا المعنى في كلِّ القرآنِ، وإنَّما يختلفُ المرادُ به بِحسبِ السِّياقِ[3]، والمرادُ في الآية: الطَّريقُ المعنويُّ الموصلُ إلى مرضاةِ اللّٰهِ تعالَى، وما أَمَرَ بِسُلُوكِه[4].

5) ﴿تَوَلَّوْاْ﴾: تولَّى عَنِ الشَّيءِ؛ أي: تركَه، وأَعْرَضَ عنه، ويكونُ بمعنى انْصِرَافِ القلبِ عنِ الشَّيءِ، والإعراضِ عنه[5]، والتَّوَلّي في قوله تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ﴾ هُوَ بِمَعْنَى الْإِعْرَاضِ عَنِ الإيمانِ والهجرةِ في سبيلِ اللّٰهِ تعالَى.

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرَّاغب، المفردات ألفاظ القرآن: (ولي)، والعسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 248، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 4/1719.

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (هجر)، والرَّاغب، تفسير الراغب: 3/1378.

(3) الأزهري، تهذيب اللغة: (سب)، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (سبل).

(4) البيضاوي، أنوار التنزيل: 2/88.

(5) الأزهري، تهذيب اللغة، والرَّاغب، المفردات: (ولي).

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

نُكْتَةُ التَّعْبِيرِ بِالْوُدِّ دُونَ الْحُبِّ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ﴾:

الوُدُّ هوَ مَحبَّةُ الشَّيءِ المَقْرُونَةُ بِتَمنّيه[1]؛ والحبُّ يستعملُ في مَا يُوجِبهُ ميلُ الطِّباعِ والحكمَة جَميعًا، والوُدُّ يستعملُ في ميلِ الطِّباعِ إذا ورد بِمَعْنَى التَّمنّي[2]؛ ففيه مَعْنَى التَّشَهِّي، وبِاقْتِرَانِ ﴿لَوْ﴾ بالوُدِّ تَمَحّضَ مَعْنَاهُ للتَّمنّي المَشُوبِ بالحبِّ والتَّشهّي في حصولِ المذكورِ، فناسبَ ذكرُ ﴿وَدُّواْ﴾ لِمناسبةِ السِّياقِ والمقامِ، وأشعرَ هذا اللَّفظُ المقترنُ بـ ﴿لَوْ﴾ بمعانٍ:

أوَّلُهَا: أنَّ ما يودُّونَهُ مِنْ كُفرِ المؤمنين شرٌّ، فيكون ذِكْرُ الودِّ تأكيدًا لِقُبحِ الكفرِ وضَررِه.

ثانيهَا: أنَّ ما يودُّونَهُ نابعٌ ممّا انْطَوَتْ عليهِ طباعُهم السَّيّئَةُ مِنَ الكُفْرِ، فَهُم يتمنّون زوالَ الخيرِ أو انقطاعَه أصلًا عنِ المُؤْمِنِين؛ إشارةً إلى حسَدِهم وبَغيهِم، كما هي حالُ اليهودِ مع المُؤْمِنِين، فالكفرُ مِلّةٌ واحدةٌ.

ثالثُهَا: لمّا كان الودُّ تمنّي ما لا يحصُلُ أبدًا؛ دلّ على أنَّ الكَافِرِينَ كانوا يَعْلَمُون أنْ لا مَطمعَ في كفرِ المؤمنين، ففيه تقريعٌ لِلمنافقين الكافرينَ، وبِشَارةٌ لِلْمُؤْمِنينَ.

رابعُهَا: جيءَ بالْحَرفِ المصدريّ ﴿لَوْ﴾ دُونَ (أنْ) لِما تفيدُه ﴿لَوْ﴾ بِاقْتِرَانِها بالفعلِ الماضِي مِن تمنّيهم كفرَ المؤمنين منذُ الزَّمنِ الماضي، ولو جاءَ النَّظْمُ القرآنيُّ: (يَوَدُّونَ أنْ تَكفُروا)؛ لدلَّ على أنَّ وُدَّهُم كفرَ المُؤْمِنِين إنَّما هُوَ في الزَّمنِ المُسْتَقبلِ، فلمَّا قالَ اللّه تعالَى: ﴿وَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ﴾؛ أشعرَ أنّهم قدْ أَبْطَنُوا لهم السُّوءَ والكفرَ منذُ زمانِ كُفرِهم، فهو قديمٌ.

انْطِوَاءُ الْكَافِرِينَ عَلَى الشَّرِّ وَإِرَادَتِهِ بِالْمُؤْمِنِينَ مُتَجَذِّرٌ قَدِيمٌ

(1) الراغب، تفسير الراغب: 1/282.

(2) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 122.

ولو عُبِّرَ بـ (أَحَبُّوا) بدلًا من ﴿وَدُّواْ﴾؛ لَفَاتَتْ هذهِ النِّكاتُ البلاغيّةُ.

سِرُّ إِيثَارِ الْفِعْلِ الْمُضَارِعِ ﴿تَكْفُرُونَ﴾ دُونَ الْمَصْدَرِ الصَّرِيحِ:

تَمَنِّي الْمُنَافِقِينَ كُفْرَ الْمُؤْمِنِينَ وَتَجَدُّدَهُ فِيهِمْ وَاسْتِمْرَارَهُمْ عَلَيْهِ

لَمْ يَرِدِ المَصْدَرُ الصَّريحُ في قولِهِ تعَالى: ﴿وَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ﴾ بأن يَرِدَ النَّظْمُ القرآنيُّ: (وَدُّوا كُفرَكُمْ)، مع أنّ (لَو) المَصْدَرِيَّة تؤوَّلُ معَ الفعلِ بمَصْدَرٍ، والنُّكْتَةُ في ذلك: أنَّ في التَّعبيرِ بالفعلِ ﴿تَكْفُرُونَ﴾ دِلَالةً على أنّهم كانُوا يتمنَّونَ أنْ يكونَ الكفرُ في قلوبِ أهلِ الإيمَانِ وأفعالِهم، فيظهرُ الكفرُ على أفعالِهم، ويتجدَّدُ حالًا فحالًا معَ الاستمرارِ والدَّوامِ، كما ظَهرَ الكفرُ في أفعالِ المنافقينَ.

دِلَالَةُ حَرْفِ (الْكَافِ) فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ﴾:

أَقْبَحُ الْكُفْرِ مَا كَانَ بَعْدَ نُورِ الْهِدَايَةِ

دلّت الكافُ في قولِه تعالَى: ﴿وَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ﴾ عَلَى وُدّ المنافقينَ أنْ يكون كُفْرُ المؤمنين مماثلًا لكفرِهم مُشَابِهًا له، ولم يُقيَّد كُفْرُهُم بشيءٍ؛ فلم يَرِدْ: (ودّوا لو تكفرون كما كَفَرُوا باللّهِ، أَو كما كفَرُوا بالرَّسُولِ ﷺ، أو كما كفروا بالقرآن)؛ لإفادة العموم، فيشمل التّشبيهُ استيعابَ أنواعِ كُفرِهم، ولمّا كانَ كفرُ المنافقين أقبحَ من كفرِ غيرهم؛ فقد كَانُوا يتمنّونَ لِلْمُؤْمِنِين مثلَ كُفْرِهم القَبِيح؛ لِيَشْعُروا بالرّاحةِ والرِّضا عن كفرِهم بعد حُصولِ ما يتمنّونَه، كما أنّهم أرادوا أقبحَ الكفرِ، فأقبحُهُ ما كان بعد نُورِ الهداية.

بَدِيعُ الْجِنَاسِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ﴾:

تَقْبِيحُ الْكُفْرِ وَتَشْنِيعُهُ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ

ورد جِنَاسُ الاشتقاقِ بين ﴿تَكْفُرُونَ﴾ و﴿كَفَرُواْ﴾؛ لِيميلَ المُخَاطَبُونَ المؤمنونَ إلى الإصغاءِ إلى الكلامِ أكثرَ، وَلِتتشوّفَ النَّفسُ إلى بيانِ مَعْنَاه[1]؛ وفيه تنبيهُ أهلِ الإيمَانِ إِلَى شَنَاعةِ ما يتمنَّاهُ المُنَافِقُون لَهم، وتَقْبِيحُ الْكُفْرِ عندَ المُؤْمِنِين بِتَكْرارِ اللَّفظِ الدالِّ على الشرِّ والقبحِ.

(1) السبكي، عروس الأفراح: 2/282.

دِلَالَةُ الْفَاءِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَتَكُونُونَ سَوَآءً﴾:

مُوَافَقَةُ الْكُفَّارِ فِي أَصْلِ الْكُفْرِ؛ يَجُرُّ إِلَى تَمَامِ مُمَاثَلَتِهِمْ فِيهِ

أفادت الفاءُ في قَوْلِه تعَالى: ﴿فَتَكُونُونَ سَوَآءً﴾ تعقيبَ السّببِ الدَّافعِ للتمنّي، والمعنَى: ودُّوا لو تكفرونَ مِثْلَمَا كفَرُوا لِتكونوا مُتسَاوِينَ معَهم في الكُفرِ وما يقتضيهِ، فودُّهم متوجِّهٌ إلى أَمْرَين:

أحدهُمَا: وُدُّهم كفرَ المؤمنين مثلَ كفرِهم.

والآخَرُ: وُدُّهم أنْ يكونُوا سواءً في الطَّريقةِ والشِّرعةِ، وهذا مترتّبٌ على سابِقِه مُعَاقِبٌ له.

ولمّا دلّت الكافُ في ﴿كَمَا كَفَرُواْ﴾ على المشابهةِ المُشْعرةِ بكونِها في بعضِ الأوصافِ - كمَا هُوَ مُقْتَضَى التَّشبيه - دونَ تمام المماثَلَة؛ أُكِّدَتْ رغبَةَ الكفَّارِ بأنْ يكونَ المؤمنونَ معَهم سواءً في الكُفْرِ، فأُتِيَ بِجُمْلَةِ ﴿فَتَكُونُونَ سَوَآءً﴾؛ لِيدلَّ على أنّهم لَو كفَرُوا، فسَيَكُونُونَ سَواءً شيئًا فشيئًا.

وذهبَ ابنُ عاشور إلى أنّ جُمْلَةَ ﴿فَتَكُونُونَ سَوَآءً﴾ مؤكّدةٌ لِمضمونِ جملةِ ﴿تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ﴾[1]، ومرادُهُ: تأكيدُ بعضِ أوصافِ الكُفْرِ؛ لأنّ كلمةَ ﴿سَوَآءً﴾ أوثقُ في التَّسويةِ التَّامّةِ مِنَ المُشَابَهَةِ التي تفيدُ المِثليَّةَ في بعضِ الأوصافِ دُونَ تمامِها.

دِلَالَةُ الْإِيجَازِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَتَكُونُونَ سَوَآءً﴾:

مَا دَلَّ السِّيَاقُ عَلَى تَعْيِينِهِ يَجُوزُ حَذْفُهُ مِنَ الْكَلَامِ

قولُ اللهِ سُبحانه: ﴿فَتَكُونُونَ سَوَآءً﴾ فيه حذفٌ، والتَّقديرُ: (فَتَكُونُونَ أَنتُمْ وَهُمْ سَوَاءً)، إلَّا أَنَّهُ اكْتُفِيَ بِذِكْرِ المُخَاطَبِينَ عَنْ ذِكرِ غَيرِهِم؛ لِوُضُوحِ المَعنَى بِسَبَبِ تَقَدُّمِ ذِكرِهِم[2]، أو لأنّ المقصودَ أنْ يكونَ المُؤْمِنُونَ سواءً معَ الكافِرِينَ المُنَافِقِين، فكأنّهم هُمُ الأصلُ في كُفْرِهم، ويُرِيدُونَ أنْ يكونَ المُؤمِنُون مِثْلَهم تَمَامًا.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 5/152.

(2) الرازي، مفاتيح الغيب: 10/170.

دِلَالَةُ الْإِطْلَاقِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَتَكُونُونَ سَوَآءً﴾:

طَمَعُ الْمُنَافِقِينَ فِي شِدَّةِ انْحِرَافِ أَهْلِ الْإِيمَانِ حَتَّى يُسَاوُوهُمْ فِي ضَلَالِهِمْ

جَاءَ لَفْظُ ﴿سَوَآءً﴾ مِن قَوْلِهِ تعالَى: ﴿فَتَكُونُونَ سَوَآءً﴾ خَبَرًا لـ﴿فَتَكُونُونَ﴾ وقد حُذِفَ متعلَّق التَّسويةِ، فأفادَ الْعُمُومَ؛ إذْ إنَّ حذف المتعلّق يُؤذِنُ بالعموم.

و﴿سَوَآءً﴾ في الأَصْل: مَصدرٌ واقعٌ مَوقعَ اسْمِ الفَاعِلِ، بمعنى مُسْتَوِينَ؛ ولذلك وُحِّدَ، كالواردِ في نَحْوِ: (رجال عَدْل)[1]، وجاءَ بِصِيغَةِ الْمَصْدَرِ لِمَا في المَصْدَر مِنَ المبالغةِ في موضِعِ الخَبَرِيَّة؛ أي: فتكُونُونَ سَوَاءً في طَرِيقَتِهِم وشِرْعَتِهم؛ أي: في كلّ شيءٍ ممّا هو مِن مُقْتَضَيات الكُفْرِ، ومِنْهُ مَا هُم عَلَيْهِ مِنَ الارْتِكَاسِ والضّلال[2]، فهم يتمنّون كفرَكم لئلَّا يَشْعُرُوا بِفَضْلِكم عَلَيْهِمْ بِسَبَبِ إيمانِكم باللّهِ تعالَى ورسولِه ﷺ، وما يَرَوْنَ لِلْمُؤْمِنِين مِن ظهورٍ في الدُّنيا حسدًا مِنْهُم[3]، ولِيشْعُرُوا بالرِّضا عَن كفرِهم.

وأفاد إطلاقُ ﴿سَوَآءً﴾ عَنْ تَقْيِيدِهِ بمُتَعلّق خاصٍّ: تحذيرَ المؤمنينَ مِنْ أنْ يكُونُوا مثلَ الّذين كَفَرُوا، فالمآلُ هو الارْتِكَاسُ والضَّلالُ والتّيهُ والبعدُ عن اللّهِ سُبحانَهُ.

دِلَالَةُ الْفَاءِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَلَا تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ أَوْلِيَآءَ﴾:

كُفْرُ الْمُنَافِقِينَ سَبَبٌ لِلنَّهْيِ عَنِ اتِّخَاذِهِمْ أَوْلِيَاءَ

الفاءُ في قولِه تعالَى: ﴿فَلَا تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ أَوْلِيَآءَ﴾ هي الْفَاءُ الْفَصِيحَةُ؛ لأنّ ما قبلها سببٌ في النّهي، فهي مفصحةٌ عن شرطٍ مقدّرٍ، والتَّقديرُ: إذَا كَانَ حَالُهُم مَا ذُكِرَ مِن الودادَةِ؛ فَلَا تَتَّخِذُوا مِنهُمْ أَولِيَاءَ حَتَّى يُؤمِنُوا ويُحَقِّقُوا إيمَانَهُم بالهِجرَةِ[4]، وفي هذا الحَذْفِ: فتحٌ لآفاق التّدبّر وإيجازٌ واختصارٌ.

(1) ابن عادل، اللباب في علوم الكتاب: 6/549.
(2) البيضاوي، أنوار التنزيل: 2/88.
(3) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/89.
(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 2/213، والشوكاني، فتح القدير: 1/572.

ويجُوزُ أن يُرَادَ بالفاءِ التّرتيبُ والتَّعقيبُ؛ إذْ إنَّ اللّه تعالَى لَمَّا بيّنَ كُفرَهُمْ وشِدَّةَ غُلُوِّهِمْ فيه - وهو أمرٌ قلبيٌّ عَقَدِيٌّ - ؛ رتّب عليهِ كَيفِيَّةَ مُخَالَطَتِهم، فنَهَاهُم عَنِ اتِّخاذهم أولياءَ حتَّى يُهاجِرُوا في سبيلِ اللّه تعالَى، فأفادت الفاءُ أنّ مجموعَ مَا قبلَها - وهو قولُهُ تعَالى: ﴿وَدُّواْ لَوۡ تَكۡفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءٗ﴾ - سببٌ للنَّهي عن اتِّخاذِ الأولياءِ منهم، وإنّما رُتِّبَ النَّهيُ على المجموعِ الّذي يدلُّ على شناعةِ ما أَبْطَنُوه لِلْمُؤْمنين؛ لِيسهلَ النَّهيُ عن اتِّخاذِهم أولياءَ.

سِرُّ تَقْدِيمِ الْجَارِّ وَالْمَجْرُورِ ﴿مِنۡهُمۡ﴾ عَلَى الْمَفْعُولِ بِهِ ﴿أَوۡلِيَآءَ﴾ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَلَا تَتَّخِذُواْ مِنۡهُمۡ أَوۡلِيَآءَ﴾:

قُدّمَ الجارُّ والمجرورُ ﴿مِنۡهُمۡ﴾ على المفعولِ به ﴿أَوۡلِيَآءَ﴾ مِنْ قولِهِ تَعَالَى: ﴿فَلَا تَتَّخِذُواْ مِنۡهُمۡ أَوۡلِيَآءَ﴾؛ لِلاهْتِمَامِ بِالْمَنْهِيِّ عَنْهُ؛ لأنَّ النَّهيَ لا يتوجَّهُ إلى اتِّخاذِ الأولياءِ، بلْ هو موجَّهٌ إلى أَنْ يكونَ اتِّخاذُ الْكَافِرِينَ أولياءَ، فقُدِّمَ ما هُوَ مَحَلُّ النَّظرِ على الْمَفْعُولِ لِلْعِنَايةِ به، وأفادَ أنَّهُ إذا كانَ الاتِّخاذُ مِنْ غيرِ الكافرين - بأنْ يكونَ الاتخاذُ مِنَ الْمُؤمنينَ - أولياءَ؛ فَهُوَ مَطْلُوبٌ ومَحْمُودٌ.

الْمَنْهِيُّ هُوَ اتِّخَاذُ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ، لَا مُطْلَقُ اتِّخَاذِ الْأَوْلِيَاءِ

وفي تقديم الجارِّ والمجرورِ ﴿مِنۡهُمۡ﴾ علَى المفعولِ بهِ - زيادةً على الاهتمامِ - التَّشويقُ إلى المؤخَّر؛ وهُوَ ﴿أَوۡلِيَآءَ﴾[1].

سِرُّ مَجِيءِ ﴿أَوۡلِيَآءَ﴾ جمعًا منكرًا في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَتَّخِذُواْ مِنۡهُمۡ أَوۡلِيَآءَ﴾:

ورودُ النَّكرةِ في سياقِ النَّهيِ في قَوْلِهِ تعَالى: ﴿فَلَا تَتَّخِذُواْ مِنۡهُمۡ أَوۡلِيَآءَ﴾ يفيدُ العمومَ، ويدلُّ على النَّهي عن اتِّخاذِهم في أيِّ نوعٍ مِن أنواعِ الولايةِ.

اتِّخَاذُ كَافِرٍ وَاحِدٍ وَلِيًّا هُوَ بِمَنْزِلَةِ اتِّخَاذِ جَمِيعِ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ

وَجاءَ ﴿أَوۡلِيَآءَ﴾ بصيغةِ الجمعِ؛ لِمراعاةِ جمعِ المخاطَبين؛ فإنَّ المرادَ نهيُ أنْ يتَّخذَ واحدٌ مِن المخاطَبين وليًّا واحدًا مِنْهُم[2]، فيكونُ

(1) القونوي، حاشية القونوي: 7/255.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 2/213.

الجمعُ على التَّوزيعِ على الأفرادِ؛ إذْ إنَّ مقابلةَ الجمعِ بالجَمْعِ تقتضِي القِسْمَةَ آحادًا، فليسَ المقصودُ النَّهيَ عَنِ اتِّخاذِ الجمعِ، وإجازةِ الواحدِ مثلًا.

ويَجُوزُ أنْ يكونَ المرادُ بصيغةِ الجمعِ إفادةَ أنّ مَنْ يتّخذ واحدًا مِنَ الْكَافِرِينَ وليًّا؛ فَكَأَنَّهُ اتّخذَ الْجَمِيعَ أَوْلِيَاءَ.

سِرُّ التَّعْبِيرِ بِالْمُهَاجَرَةِ دُونَ الْهِجْرَةِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ﴾:

صِيغَةُ (هَاجَرَ) وَمَا اشْتُقَّ مِنْهَا لَمْ تَرِدْ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ إِلَّا فِي مَقَامِ الْمَدْحِ

قولُهُ سُبحانه: ﴿يُهَاجِرُواْ﴾ من الفعلِ (هَاجَر)، وهو على وزنِ (فاعَل)، وَفي هذه الصِّيغةِ معنى المفاعلةِ، فالمهاجِرُ قد هَجَرَ القومَ، وهمْ قد هَجَروهُ؛ لِأنَّهم لم يُؤْمِنُوا باللهِ تعالَى، فصارَ كلُّ مَنْ يفارِقُ قومَهُ في سبيلِ اللهِ يقالُ له: مُهاجِرٌ، فهجرةُ رَسولِ اللهِ ﷺ جاءت؛ لأنَّ أهلَ مكَّةَ هَجَروه أوَّلًا وهجَروا دعوتَه، فاضطرَّ إلَى أنْ يخرجَ ويُهاجرَ[1]، بخلاف (هَجَرَ) فليس فيه من التَّرْكِ إلَّا من طرفٍ واحدٍ.

وصِيغةُ (هاجَرَ) وما اشْتُقَّ منها لم تأتِ في القرآن الكريمِ إلَّا في سياقِ المدح[2].

بَلَاغَةُ الْحَذْفِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾:

الْإِيمَانُ شَرْعًا لَيْسَ اعْتِقَادًا مَحْضًا، بَلْ هُوَ قَوْلٌ وَعَمَلٌ وَاعْتِقَادٌ

قَوْلُهُ تعالَى: ﴿فَلَا تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ أَوْلِيَآءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾، معنَاهُ: فلا تَتَّخذوا منهم أولياءَ حتَّى يُؤمِنُوا ويُهَاجِروا في سبيلِ اللهِ[3]، فَطُوِيَ ذِكْرُ الإيمانِ، وذُكِرَ البرهانُ عَلَيْهِ؛ لِإلْزَامِ الخَصْمِ بطيِّ مناطِ المسألةِ، وذكرِ دليلِ تحقّقها؛ لأنَّ الإيمَانَ قد يدَّعيه مَن لَمْ يتحقَّق بِهِ باطنًا وظاهرًا، فلو عُلِّقَ الحُكْمُ على مطلَقِ الإيمَانِ؛ لادَّعَوْا تحقُّقَهُمْ بِهِ، ولكن نِيطَ الحكمُ بالهِجْرة وهي عملٌ ظاهرٌ، فيكونُ ذِكْرُها دليلًا ظاهرًا على صحَّةِ الإيمَان، فالذي يحقّق

(1) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 4/2530.
(2) الراغب، تفسير الراغب: 3/1378.
(3) الرازي، مفاتيح الغيب: 10/170، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 2/88.

الإيمانَ ويُظهِرُ صِحّتَهُ وصِدقَهُ هو هجرةٌ للهِ تعالَى ورسولِه ﷺ لا لِأغراضِ الدُّنيا.

ويَجُوز أَن يَكُونَ قولُه تعَالَى: ﴿حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾ مِنَ الْكِنَايَةِ عنْ صفةِ الإيمان؛ فيكُون قَدْ ذُكِرَتِ الْهِجْرَةُ مرادًا بهَا لازِمُهَا، وهو الإيمانُ باللّه سُبحانَهُ؛ ونكتَتُهَا: قرنُ الحُكْمِ بدليلِهِ والبُرهانِ عليهِ.

بَلَاغَةُ الِاسْتِعَارَةِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّـهِ﴾:

السَّبيلُ في قولِه تعالى: ﴿حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾ جيءَ بهِ على طريقِ الاستعارةِ التَّصريحيَّةِ الأصليَّةِ، وهي استعارةٌ شهيرَةٌ، وهو مستعارٌ لِلأَمرِ البَيِّنِ، بِمَعنَى الطّريقِ المُوصلِ إلى مَرْضَاة اللّه تعالَى تَشبيهًا لَهُ بِالطَّرِيقِ الجَادَّةِ السالكةِ الواضحةِ، وفي هذَا إشعارٌ بأنّ السَّبيلَ الموصلَ إلى مرضاةِ اللّهِ تعالى واضِحٌ وسالِكٌ.

الطّرِيقُ إِلَى اللهِ تَـعَـالَى وَاضِـحٌ وَسَالِكٌ.

وزادَ هذه الاستعارةَ قبولًا واسْتِحْسَانًا ذِكْرُ المهاجَرَةِ معها، وهي نوعٌ من السَّيْرِ يُناسِبُها ذِكْرُ السَّبيلِ؛ لِافْتِقَارِ السَّيرِ إلى طَريقٍ يُسَارُ عَلَيْهِ، فكان في ذِكْرِ السَّبيلِ ضَرْبٌ مِنَ التَّوريَةِ.

نُكْتَةُ تَقْيِيدِ الْفِعْلِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يُهَاجِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّـهِ﴾:

قُيِّدَ الفعلُ ﴿يُهَاجِرُواْ﴾ بكونِهِ ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، ولَمْ يطلقْهُ بأَنْ يُقْتَصَرَ على ذِكْرِ الْهِجْرَةِ، وذلك أنَّ الانتقالَ مِن دَارِ الكُفرِ إِلَى دَارِ الإِسلَامِ، ومِن شِعَارِ الكُفرِ إلى شِعَارِ الإِسلَامِ، ومِنْ عملِ الكفرِ إلى عملِ الإسلامِ قد يكُونُ لِغَرَضٍ دنيَوِيٍّ، فأَبَانَ قولُهُ تعالى: ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أنَّ المُعتَبَرَ وُقُوعُ تِلكَ الْهِجْرَةِ لأجلِ أَمْرِ اللّه تعالى.

الْهِجْرَةُ فِي سَبِيلِ الـلـهِ تَـعَـالَى بِتَرْكِ دَارِ الْكُفْرِ وَشَعَائِرِ الْكُفْرِ وَأَعْمَالِهِ

وحُذِفَ متعلَّق المهاجرَةِ، لِيَدخُلَ فِيهِ مُهَاجرَةُ دَارِ الكُفرِ، ومُهَاجرَةُ شعائرِهِ وأعمالِهِ[1]، ويلزمُ مِنْ تلك المهاجرةِ الانتقالُ إلى سبيلِ اللّهِ تعالَى وطريقِ مَرضاتِه.

(1) الرازي، مفاتيح الغيب: 10/171.

سِرُّ إِضَافَةِ السَّبِيلِ إِلَى الِاسْمِ الْأَحْسَنِ (الله) فِي قَوْلِهِ: ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّـهِ﴾:

شَرَفُ الْهِجْرَةِ فِي سَبِيلِ اللهِ تَعَالَى

إضافةُ السَّبيل إلى الاسْم الأَحْسَنِ (اللّه) في قوله تعالى: ﴿يُهَاجِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾ يُراد بها تعظيمُ المضافِ، وهو السَّبيلُ، ولازِمُ ذلكَ: تعظيمُ المُهَاجِرِينَ وَرَفْعُ شأنِهم؛ حيثُ سلَكُوا هذا السَّبيلَ الجليلَ.

نُكْتَةُ تَقْدِيمِ الْأَخْذِ عَلَى الْقَتْلِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ﴾:

جَرَيَانُ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ فِي خِطَابِ النَّاسِ عَلَى وَفْقِ مَعْهُودِهِمْ

قُدِّم الأخذُ - وَمِن معَانيه: الأسرُ - على القتلِ في قولِهِ تَعَالَى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ﴾؛ لِتقدّمِه على القتلِ في العادةِ، والقرآنُ يكلّمُ النّاسَ على وفقِ مَعهودِهم، والمرادُ قتلُهم، ولو كانَ دُونَ أَخْذٍ[1].

مُنَاسَبَةُ التَّعبير بِ ﴿حَيْثُ﴾ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْۖ﴾:

(حَيْثُ) لَفْظٌ دَالٌّ عَلَى عُمُومِ الْأَمْكِنَةِ

لمّا كانت ﴿حَيْثُ﴾ تقعُ على الجهاتِ السّتِ، وعلى كلّ مكانٍ؛ أفادت الإبهامَ في الأمكنةِ؛ لِأنّها تصدُقُ عليها جميعًا[2]، ويُفسَّرُ الإبهامُ بما تضَافُ له، وهي هُنَا جملةُ ﴿وَجَدتُّمُوهُمْۖ﴾ وهي مناسبَةٌ عمومَ ﴿حَيْثُ﴾؛ لإفادةِ معنى الوجودِ العمومَ كذلكَ؛ وذلك دالٌّ على الأمرِ بالقتلِ في عُمومِ الأمكنةِ التي يُتَحقّقُ وجودُهم فيها، ولِهذا قال القرطبيُّ: "﴿حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْۖ﴾ عَامٌّ في الأَمَاكِنِ مِن حِلٍّ وَحَرَم"[3]، ونظيرُ هذهِ الآيةِ ما جاءَ في قولِه تَعَالَى: ﴿فَٱقْتُلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ [التوبة: 5]، وليس مِن كلمةٍ في العربيَّةِ تفيدُ هذهِ الدِّلالةَ معَ إيجازٍ مثل لفظِ ﴿حَيْثُ﴾ في هَذَا السّياقِ.

(1) الخفاجي، عناية القاضي: 3/164.
(2) ابن يعيش، شرح المفصل: 3/114.
(3) القرطبي: الجامع لأحكام القرآن: 5/308.

دِلَالَةُ قَوْلِهِ تَعَالَى ﴿وَلَا تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ بَيْنَ التَّأْكِيدِ وَالتَّأْسِيسِ:

قولُ اللّه تعالى: ﴿وَلَا تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ يَحْتَمِلُ أنْ يَكونَ تأكيدًا لِقولِه تعالى قبلُ: ﴿فَلَا تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ أَوْلِيَآءَ﴾؛ والمرادُ: تقريرُ النَّهيِ عنِ اتِّخاذِهم أولياءَ.

الْمُبَالَغَةُ فِي النَّهْيِ عَنْ مُوَالَاةِ الْكَافِرِينَ وَنُصْرَتِهِمْ فِي كُفْرِهِمْ

والأظْهَرُ أنّ ذلك جاءَ على طريقةِ التَّأسيسِ لِمعنًى جديدٍ، فإنَّ قولَه تعالى: ﴿فَلَا تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ أَوْلِيَآءَ﴾ وردَ لِلنَّهيِ عَن موالاةِ الكافرين، ولم يمنعْهم مِن نُصْرتِهم، ثمَّ بيّنَ أنَّهم إنْ تولَّوا؛ أي: ارتدُّوا عمَّا أظهروه مِنَ الإسلامِ، وكشفُوا الغطاءَ بالكُفرِ، فلا يجوزُ أنْ توالُوهم، ولا أنْ تَنْصُرُوهُم بوجهٍ[1]، فأُكِّدَ النَّهيُ عَن موالاةِ الكافرينَ لِعظَمِ أمرِها وشُيوعِها؛ ولأنّ المناصرةَ تَسْتَتْبِعُها سببًا ووُجودًا، وأُتْبِعَتْ بالنَّهيِ عَنِ المُنَاصرةِ، وَأفاد مجموعُ قولِه تعالى: ﴿فَلَا تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ أَوْلِيَآءَ﴾ وقولِه: ﴿وَلَا تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ الأمرَ بِمُجَانَبَتِهم بالكلّيةِ مجانبةً دائمَةً[2].

دِلَالَةُ تَكْرَارِ ﴿وَلَا﴾ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾:

تكرّرت ﴿وَلَا﴾ في قولِهِ تعالَى: ﴿وَلَا تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ لإفادَةِ تأكيدِ النَّهْيِ عنِ اتخاذِ أيِّ واحدٍ مِنْهُم نصيرًا، ودلَّ التَّكرارُ علَى أنَّ النَّهيَ متوجِّهٌ لِكلِّ واحِدٍ مِنْهُمَا على التَّفْصيل؛ لأنّهما قَد لا يَجْتَمِعَانِ، والمَعْنَى: لا تتّخذوا منهم وليًّا، ولا تتّخذوا مِنْهُم نصيرًا، فحُذِفَ الفعلُ ومتعلّقُه، وأُبْقِيَ المفعولُ به إيجازًا في الْكَلَامِ.

التكرارُ لإفادةِ التّأكيدِ والنّهي على التّفصيلِ

نُكْتَةُ تَنْكِيرِ ﴿وَلِيًّا﴾ وَ﴿نَصِيرًا﴾ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾:

ورد كلٌّ مِن ﴿وَلِيًّا﴾ و﴿نَصِيرًا﴾ مِن قولِهِ تعالَى: ﴿وَلَا تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ نَكِرَتَيْنِ في سياقِ النَّهيِ، وأفادَ هذا التَّنكيرُ عمومَ

جَمِيعُ أَنْوَاعِ وِلَايَةِ الْكَافِرِينَ وَنُصْرَتِهِمْ مَنْهِيٌّ عَنْهَا

(1) الراغب، تفسير الرَّاغب: 3/1380 — 1379.

(2) الشهاب، عناية القاضي: 3/325، والقونوي، حاشية القونوي: 7/255.

نَهْيِ المؤمنينَ عنْ أيِّ نوعٍ من أنواعِ الولايةِ والحبِّ والودِّ، وكذا النَّهيُ عن أيِّ نوعٍ من أنواعِ النُّصرةِ سواءٌ أكانت باليَدِ أمْ باللِّسانِ أَمْ بالقلمِ أَمْ بغيرِها، ووجهُ العمومِ: وقوعُ النَّكرةِ في سياقِ النَّهْيِ.

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوۡمِۭ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُم مِّيثَٰقٌ أَوۡ جَآءُوكُمۡ حَصِرَتۡ صُدُورُهُمۡ أَن يُقَٰتِلُوكُمۡ أَوۡ يُقَٰتِلُواْ قَوۡمَهُمۡۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمۡ عَلَيۡكُمۡ فَلَقَٰتَلُوكُمۡۚ فَإِنِ ٱعۡتَزَلُوكُمۡ فَلَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ وَأَلۡقَوۡاْ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمۡ عَلَيۡهِمۡ سَبِيلٗا ٩٠﴾ [النساء: 90]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا أمَرَ اللّهُ تعالَى بقتلِ الكُفَّارِ في قوله: ﴿فَخُذُوهُمۡ وَٱقۡتُلُوهُمۡ﴾؛ استَثنَى في هذهِ الآيَةِ مَن لَهُ عُذرٌ، فَقَالَ: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ﴾[1]؛ فجاءت الآيةُ مصدّرةً بالاسْتِثْنَاءِ الّذي يكونُ مرتبطًا بالكلام الّذي قبله، وَوَجهُ النَّظم والاتِّصَالِ بالآية السّابقة: اقتُلُوا المُنَافِقِينَ الَّذِينَ اختَلَفتُمْ فِيهِم إلَّا إذا هاجرُوا في سبيلِ اللّهِ، أو اتَّصلُوا بِمَن بَينَكُمْ وَبَينَهُمْ مِيثَاقٌ، فدخلُوا فِيمَا دَخَلُوا فِيهِ؛ فَلَهُم حُكمُهُم[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مِّيثَٰقٌ﴾: عَلَى وَزْنِ مِفْعَالٍ مِن وَثِقَ، وهو دالٌّ عَلَى عَقْدٍ وَإحكَام، وهُوَ في الأَصل: حَبلٌ أَوْ قَيد يُشدّ بِهِ الأَسيرُ وَالدَّابَّةُ، ووَثَّقْتُ الشَّيءَ: أَحكَمتُهُ، ووَثِقْتُ بِه أَثِقُ ثِقَةً: سَكَنْتُ إليه، واعتمدتُ عليه، والميثاقُ: العهدُ أو العقدُ المؤكّدُ بيَمِينٍ وعهدٍ، والجَمعُ: المَواثِيقُ - عَلَى الأَصل - بزِنَةِ: المَفَاعِيل[3]، والمِيثَاقُ في الآية هُوَ بِمَعْنَى العهدِ والمُوَادَعة[4].

2) ﴿حَصِرَتۡ﴾: الحَصْرُ: في الأصلِ أنْ يَحْتَبِسَ في الشَّيءِ ما شأنُه التَّسيُّبُ، كالمائع، فلا يتسيَّبُ ولا يَنْطَلِقُ، فالحَصْرُ: هو الحَبسُ والمنعُ والتَّقييدُ عن الحركةِ، وأُطلِقَ الحصرُ على التَّضييقِ؛ لِمَا فيه مِنَ الحَبسِ، وَأَصلُ الحَصْرِ: في المَكَانِ، ثُمَّ تُوُسِّعَ فِيهِ حَتَّى صَارَ في القَولِ، وكلُّ مَنْ ضاقَ صدرُه بأمرٍ؛ فَقَدْ حُصِرَ، ومعنى ﴿حَصِرَتۡ صُدُورُهُمۡ﴾: ضَاقَتْ وانْقَبَضَت[5].

(1) البقاعي، نظم الدرر: 5/357، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 5/152.
(2) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 5/310.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة والراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (وثق).
(4) البغوي، معالم التنزيل: 1/674.
(5) ابن منظور، لسان العرب، والراغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (حصر).

3) ﴿لَسَلَّطَهُمْ﴾: السِّين واللَّامُ والطَّاءُ تدورُ اشتقَاقَاتُهَا على القُوَّةِ والقَهرِ، ومِنْ ذَلِكَ السَّلَاطَةُ، مِنَ التَّسَلُّطِ؛ وهُوَ القَهرُ، ولِذَلِكَ سُمِّيَ السُّلطَانُ سُلطَانًا، والسُّلطانُ: الحُجَّةُ والبُرْهانُ، وسلّطَهُ اللّه تعالى: أعطاهُ القوّة[1]، وقولُهُ تعالى: ﴿لَسَلَّطَهُمْ﴾ بِمعنى: لَقَوَّاهم وأَقدَرَهم على ذلك[2].

4) ﴿ٱلسَّلَمَ﴾: السِّينُ واللَّامُ والميمُ تدلُّ تصاريفُهَا عَلَى صِحَّةِ جِرْمِ الشَّيءِ والْتِئَامِ ظاهرِه في ذاتِه، بِمَعْنَى: عدم تصَدُّعِه، أو تفرُّعِ غيرِه مِنْهُ، فأُطْلِقَ على التّعرّي مِن الآفاتِ الظَّاهرةِ والباطنةِ، والسَّلَامَةُ: أَنْ يَسلَمَ الإنسَانُ مِنَ العَاهَةِ والأَذَى، واللَّهُ ﷻ: هُوَ السَّلَامُ؛ لِسَلَامَتِهِ مِمَّا يَلحَقُ المَخلُوقِينَ مِنَ العَيبِ والنَّقصِ والفَنَاءِ، وسُمِّيَ الإسلامُ: إسلامًا؛ لأَنَّهُ يَسْلَمُ مِنَ الإبَاءِ والامتِنَاعِ، وفيه تَسْلِيمُ النّفسِ للّهِ تعالى، ففيه مَعْنَى الانقيادِ، والسّلَمُ في الآيةِ، بمعنَى: الاستسلامِ والانقيادِ[3].

❁ المَعْنَى الإجْمَاليُّ:

إلَّا الَّذينَ يَتَّصلونَ بقومٍ بينَكم وَبينَهُمْ عهدٌ وموادعةٌ فلا تُقاتلوهُمْ، وكذلكَ الَّذين أَتَوا إليكُم، وقد ضاقتْ صدورُهم، وكَرِهوا أنْ يقاتلوكُمْ حفظًا لِلعهدِ، كما كَرِهوا أنْ يقاتلوا قومَهم؛ لأنَّهم قومُهم، فلم يكُونوا معَكُم، ولا معَ قومِهم ضِدَّكم، فَلا تُقاتلوهُمْ، ولو شاءَ اللّهُ تعالى لَقَوَّاهُمْ وجَرَّأَهُم عليكُم، فَلَقاتَلُوكم معَ أعدائِكم مِنَ المشركينَ، وَلكنَّ اللّه سُبحانَهُ صَرَفَهم عَنْكُم بفضلِهِ ونعمتِهِ، فإنْ تَرَكُوكُم فَلَمْ يُقَاتِلُوكُم، وانْقَادُوا إِلَيْكُم مُسْتَسْلِمينَ، فَليسَ لَكم عَلَيْهِم مِن طريقٍ لِقتالِهم[4].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دِلَالَةُ تَصْدِيرِ الْآيَةِ بِحَرْفِ الِاسْتِثْنَاءِ ﴿إِلَّا﴾ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمِۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ﴾:

قولُهُ تعالَى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ﴾ مسْتَثْنَى مِن قولِهِ سُبحانَهُ: ﴿فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ﴾،

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب، والزَّبيدي، تاج العروس: (سلط).
(2) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 5/310.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (سلم).
(4) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/89 - 90، والمراغي، تفسير المراغي: 5/117.

تَفْصِيلُ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ الْأَحْكَامَ الشَّرْعِيَّةَ بِبَيَانِ مُسْتَثْنَيَاتِهَا

والْمَعْنَى: إلّا الّذين يتّصلُون ويَنْتَهُون إلى قومٍ عاهدُوكُم ولم يُحارِبوكم، وجاءَ تَصْدِيرُ الآيَةِ بأداةِ الاستثناءِ؛ لِبيانِ أنَّ هذهِ الآيةَ مُفَارِقَةٌ من وجهٍ لِمَا سبقَها؛ لِأنّ الاستثناءَ على مَعنى النَّهي عن قتالِ مَنْ يَصِلونَ إلى قومٍ معاهدينَ لكم أو مَنْ جاؤوكُم، وهُم قدْ كَرِهوا قتالَكم، والمَعْنَى: (لَا تُقَاتِلوا مَنْ وَصَفْتُهم كذا وكذا).

نُكْتَةُ الْمُغَايَرَةِ بَيْنَ زَمَنَيِ الْفِعْلَيْنِ ﴿يَصِلُونَ﴾ وَ﴿جَآءُوكُمْ﴾ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ أَوْ جَآءُوكُمْ﴾:

تعْظِيمُ شَأْنِ الْعُهُودِ وَالْمَوَاثِيقِ

وَرَدَ الْفِعْلَانِ ﴿يَصِلُونَ﴾ و﴿جَآءُوكُمْ﴾ في سِياقِ الْمُسْتَثْنَى صِلَةً لِلْمَوْصُولِ، وتَخَالَفَا في الزَّمنِ، فجاءَ الفعلُ ﴿يَصِلُونَ﴾ بصيغةِ المضارعِ الدالِّ على زمنِ الحالِ والاستقبالِ، وإفادةِ تجدّدِ الحدوثِ حالًا فحالًا؛ لِتعظيمِ شأنِ العهدِ والميثاقِ، وليفيدَ استمرارَ النَّهي عن قتلِ المنافقينَ الكَافِرينَ الذين يَتّصلونَ بقومٍ بَينَكُمْ وَبينَهُمْ عَهدٌ؛ فَإِنَّهُم عَلَى عَهدِهِم[1]، وأمّا قولهُ تعالَى: ﴿جَآءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ﴾؛ فهو أمرٌ خاصٌّ لا تعلّقَ له بعهدٍ، وهو يَشْمَلُ المؤمنينَ جميعًا؛ ولذا عُبِّر عَنْهُ بالماضي للإخبارِ عن أمرٍ قد وَقَعَ، فجاء كلُّ لفظٍ في موقِعِه اللَّائِقِ بِهِ.

سِرُّ تَقْدِيمِ الْخِطَابِ ﴿بَيْنَكُمْ﴾ عَلَى الْغَيْبَةِ ﴿وَبَيْنَهُم﴾ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ﴾:

الْمُؤْمِنُونَ أَوْلَى بِالْتِزَامِ الْعُهُودِ مِنْ غَيْرِهِمْ

قال اللهُ تعالَى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ﴾، ولَمْ يَرِدِ النَّظْمُ القرآنيُّ: (بينهم وبينكم ميثاقٌ)، فقُدِّمَ ضَميرُ المخاطبينَ المؤمنينَ على ضميرِ الغائبينَ المُعَاهَدينَ؛ لِبيانِ أهميَّةِ الْمِيثَاقِ والعهدِ عندَ أهلِ الإيمَانِ، وتَنْبِيهًا لِلمؤمنينَ إلى أنَّهُ يَنْبَغِي أنْ يكُونُوا أوّلَ مَنْ يَلْتَزِمُ الْعُهُودَ، كَمَا أنَّ السِّياقَ جارٍ في مُخاطبةِ المُؤمِنِين، فقُدِّمَ الخطابُ على الغيبةِ جرْيًا على ما يقتضِيهِ ظاهرُ السِّياقِ.

(1) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 5/309.

تَعْيِينُ مَا عُطِفَتْ عَلَيْهِ جُمْلَةُ ﴿جَآءُوكُمْ﴾ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمِۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ أَوْ جَآءُوكُمْ﴾:

أَثَرُ الإِعْرَابِ فِي تَوْجِيهِ المَعَانِي القُرْآنِيَّةِ

جملةُ ﴿جَآءُوكُمْ﴾ من قولِهِ تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمِۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ أَوْ جَآءُوكُمْ﴾ فيهَا وجهانِ:

أحدهُمَا: أنْ تكونَ معطوفةً على جملةِ الصِّلةِ، والتَّقديرُ: (إلَّا الذينَ يَصِلونَ إلى قومٍ بينَكمْ وبينَهم ميثاقٌ، أَو إلَّا الذينَ جاؤوكم حَصِرَتْ صدورُهُم)، فيكون الاستثناءُ لصِنْفَيْنِ: الّذين يَصلونَ إلى المُعَاهِدِينَ لِلْمُؤمنينَ فيَدْخُلُونَ فِيهِم، والّذين جاؤُوكم وقد ضاقتْ صدورُهم وكَرِهُوا قِتَالَكم.

والآخَرُ: أَنْ تكونَ معطوفةً على صفةِ ﴿قَوْمٍ﴾، والتَّقديرُ: (إلّا الّذين يَصلونَ إلى قومٍ بينَكم وبينَهم ميثاقٌ أو يَصلونَ إلى قومٍ جاؤوكُم، وقد كَرِهوا قتالَكم)، فيكون الاستثناءُ لِصنفٍ واحدٍ، وهم الّذين يَصلونَ إلى قومٍ غيرِهِمْ، ويَخْتَلِفُونَ بِالْوَصْفِ.

والوجهُ الأوَّلُ هُوَ الأظهرُ، وبِهِ قالَ أكثرُ أهل العلمِ بالتَّفسير[1].

نُكْتَةُ التَّعْبِيرِ بِـ ﴿حَصِرَتْ﴾ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَوْ جَآءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَٰتِلُوكُمْ أَوْ يُقَٰتِلُواْ قَوْمَهُمْ﴾:

اللَّفْظُ القُرْآنِيُّ أَوْسَعُ مَعْنًى وَأَغْزَرُ فَائِدَةً فِي سِيَاقِهِ الذِي وَرَدَ فِيهِ

عُبِّرَ في الآيةِ بـ ﴿حَصِرَتْ﴾ دُونَ (ضَاقَتْ) لِنُكْتَتَيْنِ:

إحداهُمَا: مَا في الحَصْرِ مِنْ معنى زائدٍ على الضِّيقِ؛ فإنَّ الحصرَ هو الحبسُ مع التَّضييقِ والانقباضِ[2]، والمعنى: أو جاؤوكم وقدْ حُبِسَتْ صدورُهم وضاقتْ وانقبضتْ، فلا هُمْ يُرِيدونَ قتالَكم، ولَا هُم يُرِيدُونَ قتالَ قَوْمِهم.

والأُخْرَى: أنَّ الفعلَ (حَصِرَ) لَمَّا كان لا يتعدّى بنفسِه بلْ يتعدّى بـ

(1) الرازي، مفاتيح الغيب: 10/172، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/12، والسمين، الدر المصون: 4/64.
(2) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 114.

(عن) أو بـ (مِنْ)[1]، وقدْ جاءَ في الآيةِ دونَ حرفِ جرٍّ؛ أفادَ أنَّهُ على تَضْمينِ الفعلِ معنى الكَراهةِ[2]، والتَّقديرُ: (كراهةَ أنْ يقاتلوكمْ)، فكانَ في التَّعبيرِ بـ﴿حَصِرَتْ﴾ تكثيرٌ لِلْمَعْنَى بِسَبَبِ التَّضمينِ، وإيجازٌ للألفاظِ، والإيجازُ ملائمٌ لحالِ الضّيقِ؛ فشَاكَلَ اللّفظُ المعنَى.

سِرُّ تَقْدِيمِ كَرَاهَةِ قِتَالِهِمُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى كَرَاهَةِ قِتَالِهِمْ قَوْمَهُمْ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَن يُقَٰتِلُوكُمْ أَوْ يُقَٰتِلُواْ قَوْمَهُمْ﴾:

قُدِّمتْ كَرَاهَةُ قِتَالِهِمُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى كَرَاهَةِ قِتَالِهِمْ قَوْمَهُمْ في قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَن يُقَٰتِلُوكُمْ أَوْ يُقَٰتِلُواْ قَوْمَهُمْ﴾؛ لِبيانِ أنَّ الكراهَتَيْنِ مختلِفَتانِ؛ فقُدِّمَ الأثقلُ على أنفسِهم معَ رَغْبتِهم فيهِ، وأُخِّرَ ما دُونَهُ؛ لبيانِ ضَعْفِ رغبتِهم في قِتَالِ قَوْمِهم؛ لأنّ العادةَ أنْ لا يُقَاتلَ المرءُ قومَه.

جَرَتِ الْعَادَةُ أَنْ لَا يُقَاتِلَ الْمَرْءُ قَوْمَهُ

بَلَاغَةُ الْحَذْفِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَٰتَلُوكُمْ﴾:

وردَ الحذفُ في قولِهِ تعالَى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَٰتَلُوكُمْ﴾ في مَوْضِعَيْنِ:

أحدهُمَا: حذفُ مفعولِ الفعلِ ﴿شَآءَ﴾، وحُكْمُ البلاغةِ أنْ لا يُنَصَّ علَى المحذوفِ في مثلِ هذا الأسلوبِ الكثيرِ الشَّائعِ في القرآنِ الكريمِ، وفيه مِنَ الحُسنِ والغَرابةِ الأمرُ العجيبُ؛ فإنَّ السَّامعَ يعلمُ أنَّ المشيئةَ تتعدّى إلى شيءٍ، فهو ينتظرُ تمامَ الكلامِ، وإنَّ في البيانِ إذا ورَدَ بعد الإبهامِ وبعدَ تحرّكِ النَّفسِ وتشوّقِها إلى معرفتِه لُطفًا ونُبلًا لا يكونُ إذا لم يتقدَّمْ ما يُحرِّكُهَا، فلمّا جِيءَ بجَوابِ ﴿وَلَوْ﴾؛ سكنتِ النَّفسُ بتقديرِ المفعولِ وعرفتْ مقصدَ الكلامِ، ولو رُجِعَ فيه إلى تقديرِ الكلامِ (ولو شاءَ اللّه تسليطَهم عليكُمْ لَسلَّطَهم عليكُم)؛ صِرْنا إلى كلامٍ فيه ضربٌ مِنَ الرَّكاكَةِ، كما أنَّ المحذوفَ هنا لا

عَظِيمُ فَضْلِ اللهِ تَعَالَى عَلَى الْمُؤْمِنِينَ بِمَنْعِ تَسَلُّطِ الْمُنَافِقِينَ عَلَيْهِمْ

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 4/15، والسمين، الدر المصون: 4/68.

(2) أبو حيان، البحر المحيط: 4/14، وأبو السّعود: إرشاد العقل السليم: 2/214.

يَسْتَغْرِبُه السَّامعُ، ولا يُكبِرُه؛ لِتَعلُّقِ مشيئةِ اللّهِ تعالَى بكلِّ ما هو ممكنٌ، فالْبَلَاغَةُ تقتضِي أنْ يُجاءَ بِهِ كذلكَ مَحذوفًا[1].

والآخَرُ: حذفُ الشَّرطِ بتمامِه مِنْ قولِه ﴿فَلَقَٰتَلُوكُمۡۚ﴾، واللَّامُ داخلةٌ على جَوَابِ ﴿وَلَوۡ﴾ عَلَى تقدير تكرَارِ الشَّرطِ، والمَعْنَى: (ولو شاءَ اللّهُ لَسلَّطهم عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللّهُ لَقَاتَلُوكُم)[2]، فأعادَ اللَّامَ مع ﴿فَلَقَٰتَلُوكُمۡۚ﴾؛ لِلإشعارِ بأنَّها جوابٌ آخر لِـ ﴿وَلَوۡ﴾، فهما أمرانِ متعلّقانِ بمشيئةِ اللّهِ تعالَى الّتي وردتْ في سياقِ ﴿وَلَوۡ﴾ الدالَّةِ على تعليقِ حصولِ التَّسليطِ وَالقتالِ بحصولِ مشيئةِ اللّهِ سُبحانَهُ، وقد امتَنَعَ حصولُهُمَا بِفَضْلِ اللّهِ ومنّتِه على المُؤْمِنينَ كما أفادتْه أداةُ الشَّرطِ ﴿وَلَوۡ﴾[3].

وأُتِيَ بالفاءِ في قولِه: ﴿فَلَقَٰتَلُوكُمۡۚ﴾ لإفادة أنّه لو شاءَ اللّهُ تعالَى؛ لكان قِتَالُ المُنَافِقِين لِلْمُؤْمِنِين عَقِبَ تَسْلِيطِهم عَلَيْهِم، ودلَّ على تَقْرِيرِ قتالِ المُنَافِقِين لِلْمُؤْمِنِين مَعْنَى المُفَاعَلَةِ مِنْ صيغةِ ﴿فَلَقَٰتَلُوكُمۡۚ﴾، فالصّيغةُ وإن دلّتْ على المشاركةِ مِنَ الطّرفين، إلّا أنّه عُبِّر بالمقاتلَةِ للإشعارِ بأنّهم الّذين يَبْدَؤُون القتالَ، ففي الكلام بيانُ نِعَمِ اللّهِ ﷻ على المؤمنينَ تفصيلًا مع الإيجازِ في الكلام.

دِلَالَةُ الشَّرْطِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمۡ عَلَيۡكُمۡ فَلَقَٰتَلُوكُمۡۚ﴾:

مِنْ نِعَمِ اللهِ تَعَالَى عَلَى المُؤْمِنِينَ تَضْيِيقُهُ صُدُورَ المُنَافِقِينَ بِقَذْفِ الرُّعْبِ فِيهَا

أشعرتْ جملةُ الشَّرطِ ﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمۡ عَلَيۡكُمۡ فَلَقَٰتَلُوكُمۡۚ﴾ بتعليلِ استثناءِ الطَّائفةِ الأخيرةِ مِن حكمِ الأخذِ والقتلِ، ونَظمِهم في سِلْكِ الطَّائفةِ الأولى الجاريةِ مَجرى المعاهَدين مع عدَمِ تعلّقِهم بنا، ولا بِمَنْ عَاهَدُونا كالطَّائفة الأولى، والمعْنَى: ولَو شَاء اللّهُ لَسَلَّطَهُم عليكم بِبَسْطِ صُدُورِهم وتقويةِ قلوبِهم وإزالةِ الرُّعبِ عنها؛ لِلْإِعْلَامِ بأنّ حَصْرَ صُدُورِهم ما كانَ إلَّا لِقذفِ اللّهِ تعالَى الرُّعبَ فيها[4]، وأنّه كانَ بمشيئةِ اللّهِ سُبحانَهُ، فهو امتنانٌ مِنَ اللّهِ تعالى على المُؤْمِنِين.

(1) الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص: 163 - 164.
(2) الرازي، مفاتيح الغيب: 10/173.
(3) السكاكي، مفتاح العلوم، ص: 246.
(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 2/214، والطيبي، فتوح الغيب: 5/109.

دِلَالَةُ جُمْلَةِ الشَّرْطِ وَالْجَزَاءِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَإِنِ ٱعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْاْ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾:

الْمُبَالَغَةُ فِي النَّهْيِ عَنِ التَّعَرُّضِ لِمَنْ يُسَالِمُ الْمُؤْمِنِينَ

تَضَمَّنتْ جملةُ الشَّرْطِ في قولهِ تعالَى: ﴿فَإِنِ ٱعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْاْ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ﴾ تعلّقَ الجزاءِ بِهِ في قولِهِ: ﴿فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾، وهو أمرُ اللّهِ تعالى بتركِ التَّعرّضِ للمنافقينَ باجتماعِ ثلاثةِ شروطٍ في جملةِ الشَّرطِ؛ وهي ﴿ٱعْتَزَلُوكُمْ﴾، ﴿فَلَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ﴾، ﴿وَأَلْقَوْاْ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ﴾، فإذا فُقد شَرْطٌ امتنَعَ الجَزَاءُ؛ وذلك أنَّ المعلَّقَ بحرف الشَّرْطِ ﴿فَإِن﴾ عَدَمٌ عندَ عدَمِ الشَّرْطِ[1].

وَمِنْ لَطَائِفِ هذا التَّركيبِ الشَّرْطِيِّ أنّ ما في حيّز الشّرط يدلُّ على التَّخلّي، وهو تركُ التَّعرُّضِ، وتَرْكُ القتال، والانقيادُ والاستسلامُ اللَّذان يَسْتَلْزِمَانِ التَّعرّي مِنَ الْأَذَى.

وَجُعِلَ الجَزَاءُ مبنيًّا على المَنْعِ المُقْتَضِي التَّرْكَ، فقال: ﴿فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾، وعدمُ جَعْلِ السَّبيلِ لِلْمُؤْمِنين على المُنَافِقِين: مبالغةٌ في عدمِ التَّعرّضِ لهم؛ فإنّ مَن لا يَمرُّ بِشَيءٍ كيفَ يُتَعَرّضُ لَه[2]؟!، وأفادَ الشَّرطُ والجزاءُ وجوبَ تَركِهِم إذَا تَرَكُوا المُؤمِنِينَ وسَالَمُوهُمْ، وقِتَالِهِمْ إذَا نَاصَبُوهُمُ العدَاءَ.

دِلَالَةُ الْفَاءِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَلَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ﴾:

التَّفْصِيلُ فِي الْمَعَانِي الْمُفْضِيَةِ إِلَى إِرَاحَةِ أَهْلِ الْإِيمَانِ

عُطِفَتِ الْجُمْلَةُ بِالفاءِ في قولِهِ تعالَى: ﴿فَلَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ﴾ على ﴿ٱعْتَزَلُوكُمْ﴾؛ لِمناسبة اسْتِتْبَاعِ تركِ القتالِ على الاعتزالِ، وتركِ التعرُّضِ، والتَّرتُّبِ بالسّببيّةِ عليه، وفُصِّلَ بذِكْرِ اللّازم (لمْ يُقاتلوكُم) معَ أنَّه ظاهرٌ مِن اعتزالِهم؛ لِتأكيدِه وتَقْريرِه؛ ولأَنَّ ذِكرَه هُنَا يُفضي إلى إراحةِ المؤمنينَ، فيتوجّهُ إليهم الجزاءُ بالقَبُولِ والرِّضا، ونظيرُه

(1) الرازي، مفاتيح الغيب: 10/173.
(2) الخفاجي، عناية القاضي: 3/165.

قولُهُ سُبحانَهُ: ﴿لَّا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَلَمۡ يُخۡرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ أَن تَبَرُّوهُمۡ﴾ [المُمتَحَنَة: 8].

نُكْتَةُ التَّعْبِيرِ بِصِيغَةِ الْمُفَاعَلَةِ ﴿يُقَٰتِلُوكُمۡ﴾:

لَا غَضَاضَةَ فِي الرَّدِّ عَلَى مَنْ بَدَأَ الْقِتَالَ؛ لِاسْتِحْقَاقِهِ الرَّدَّ

أفادتْ صيغةُ المفاعلةِ في قَوْلِه تعالَى: ﴿فَلَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ﴾ - وهيَ مفيدَةٌ المشاركَةَ - أنَّ شرطَ تحقّقِ الجزاءِ أنْ يَكُونُوا هُم الّذين يَبْدَؤُونَ الكفَّ عَن قِتَالِ المُؤْمِنِينَ؛ وفي ذلك إيمَاءٌ إلى أنَّهم هُم الّذين بدؤُوا القتالَ أيضًا، فإذا بَدؤُوا بالقتالِ؛ فإنَّهم استحقّوا أن يَرُدَّ المُؤْمِنُونَ عليْهِم، ولا يتأتَّى في هذا المَوْضِعِ التَّعبيرُ بالقتلِ بأَن يَرِد النَّظمُ القرآنيُّ: (فلم يَقْتُلُوكُم)؛ لأنَّ القَتْلَ يقتضِي الإفنَاءَ، وهو غيرُ مرادٍ، بخلافِ المقاتَلَةِ، فلا تقتَضِيه.

دِلَالَةُ الْوَاوِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَلۡقَوۡاْ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَمَ﴾:

لَيْسَ كُلُّ مَنْ تَرَكَ قِتَالَ الْمُؤْمِنِينَ يَكُونُ مُسَالِمًا لَهُمْ

عُطِفَ قولُهُ: ﴿وَأَلۡقَوۡاْ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَمَ﴾ عَلَى قولِه: ﴿فَلَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ﴾؛ لِيفيدَ أنَّ تركَ القتالِ غيرُ الانقيادِ والاستسلامِ؛ لأنَّ الأصْلَ في العطْفِ المغايَرَةُ في المعنَى بينَ الجُمْلتين، فليس كلُّ مَنْ تركَ قتالَ المؤمنين يكُونُ منقادًا إليهم مسالمًا لهم؛ إذْ إنَّ لِتركِ القِتَالِ أسبابًا متكاثِرَةً.

بَلَاغَةُ الِاسْتِعَارَةِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَلۡقَوۡاْ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَمَ﴾:

مِنْ طَرَائِقِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ فِي تَثْبِيتِ الْمَعَانِي إِخْرَاجُهَا فِي صُوَرِ الْمَحْسُوسَاتِ

عُبّر عَن الانقيادِ والاستسلامِ بـ (إلقاءِ السَّلَم) في قولِه تعالَى: ﴿وَأَلۡقَوۡاْ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَمَ﴾، وقُيِّدَ بقولِه: ﴿إِلَيۡكُمُ﴾، فشُبِّه السَّلَمُ بالشّيء المحسوسِ الّذي يُطْرَحُ عندَ المسلَّم له؛ لأنّ مَنْ سلَّمَ شيئًا؛ ألقاهُ وطرحَه عندَ المسلَّم له[1]، فحُذفَ المشبّهُ بهِ ورُمِزَ بشيءٍ مِنْ لوازمِهِ الدَّالَّةِ عليهِ - وهو الإلقاءُ - عَلَى طريقَةِ الاستعارةِ المكنيَّةِ، وأفادتْ هذهِ الاستعارةُ المبالغةَ في الانقيادِ والاستسلامِ للمؤمنينَ.

(1) الخفاجيّ، عناية القاضي: 3/165.

نُكْتَةُ تَقْدِيمِ الْخِطَابِ ﴿لَكُمْ﴾ عَلَى الْغَيْبَةِ ﴿عَلَيْهِمْ﴾ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾:

مِنْ دَقَائِقِ الْبَلَاغَةِ الْقُرْآنِيَّةِ التَّفَنُّنُ فِي التَّقْدِيمِ وَالتَّأْخِيرِ بِمَا يُنَاسِبُ السِّيَاقَاتِ الْمُخْتَلِفَةِ

قُدِّمَ الضَّميرُ الدَّالُّ علَى الخطابِ ﴿لَكُمْ﴾ علَى ضميرِ الغَيْبَةِ ﴿عَلَيْهِمْ﴾ في قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾؛ لِمُنَاسَبَةِ تقدُّم ضميرِ الخطابِ على ضميرِ الغَيبةِ في قولِه: ﴿بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم﴾، واقْتِضَاءِ سياقِ الْمُخَاطَبَةِ، كما أنَّ نَظْمَ الكلامِ يَقْتَضِي هذَا؛ لِأنّ ﴿لَكُمْ﴾ متعلّقٌ بـ﴿جَعَلَ﴾، وَ﴿عَلَيْهِمْ﴾ متعلّقٌ بـ﴿سَبِيلًا﴾.

وأمّا قولُهُ تعالَى: ﴿لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ﴾ إذ قُدّمَ ضميرُ الغَيْبَةِ على ضَمِيرِ الْخِطَابِ؛ فَلأنّ المرادَ: لَو شاءَ اللّه تعالَى لَسَلّطَ المنافقينَ عَلَيْكُم، ولا يصحُّ في نظمِ الكلامِ هنا تقديمُ ﴿عَلَيْكُمْ﴾ عَلَى ﴿لَسَلَّطَهُمْ﴾؛ لِأنّ المعتَبَرَ بالنَّظَرِ هُوَ تعليقُ تسليطِهم على المؤمنينَ بمشيئةِ اللّهِ سُبحانَهُ.

بَلَاغَةُ الِاسْتِعَارَةِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾:

مِنْ طُرُقِ اسْتِيفَاءِ صَاحِبِ الْحَقِّ حَقَّهُ الْمُؤَاخَذَةُ بِاللَّوْمِ وَالْعِقَابِ

السَّبِيلُ في قولِه تَعَالَى: ﴿فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾ مُستَعَارٌ لِلأسبَابِ الْمُؤَاخَذَةِ بِاللَّوم والعِقَابِ؛ فجاء السّبيلُ بِمَعْنَى الطّريقِ المعنويِّ؛ لأنَّ وسائلَ المؤاخذة باللَّوْمِ والْعِقَابِ طرائقُ لِوُصُولِ طَالِبِ الحَقِّ إِلَى مَكَانِ المَحقُوقِ، وهِيَ اسْتِعَارَةٌ تَصْرِيحيَّةٌ.

ولِمُرَاعَاةِ الإطلَاقِ المتقدِّمَ؛ تعلّقَ به حرفُ الاستِعلَاءِ (علَى) دُونَ حَرفِ الغَايَةِ (إلَى)[1].

دِلَالَةُ تَنْكِيرِ ﴿سَبِيلًا﴾ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾:

الْإِيفَاءُ بِشُرُوطِ الْعَهْدِ مُوجِبٌ لِعُمُومِ مَنْعِ الْمُؤَاخَذَةِ

مَجِيءُ كلمةِ ﴿سَبِيلًا﴾ نكرةً في قولِه تَعَالى: ﴿فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾ دالٌّ على العموم؛ وذلك لوقوعِ النَّكرةِ في سياقِ النَّفْيِ، فأفادَ ذلكَ نفيَ المؤاخذةِ بأيِّ طريقةٍ كانت، إذا التزَمُوا الشّروطَ المذكورَةَ.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 5/154: 10/295.

والآيةُ فيها إيماءٌ إلى بشارةٍ عظيمةٍ مِن ربّ العالمين لأهلِ الإيمَانِ؛ "لِأَنَّهُ تَعَالَى لَمَّا رَفَعَ السَّيفَ عَمَّنِ التَجَأَ إِلَى مَنِ التَجَأَ إِلَى المُسلِمِينَ، فَبِأَنْ يَرفَع العَذَابَ فِي الآخِرَةِ عَمَّنِ التَجَأَ إِلَى مَحَبَّةِ اللَّه وَمَحَبَّةِ رَسُولِهِ كَانَ أَولَى"[1].

(1) الرازي، مفاتيح الغيب: 10/171.

﴿سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأۡمَنُوكُمۡ وَيَأۡمَنُواْ قَوۡمَهُمۡ كُلَّ مَا رُدُّوٓاْ إِلَى ٱلۡفِتۡنَةِ أُرۡكِسُواْ فِيهَاۚ فَإِن لَّمۡ يَعۡتَزِلُوكُمۡ وَيُلۡقُوٓاْ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَمَ وَيَكُفُّوٓاْ أَيۡدِيَهُمۡ فَخُذُوهُمۡ وَٱقۡتُلُوهُمۡ حَيۡثُ ثَقِفۡتُمُوهُمۡۚ وَأُوْلَٰٓئِكُمۡ جَعَلۡنَا لَكُمۡ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٗا مُّبِينٗا ٩١﴾ [النساء: 91]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا وصَفَ اللهُ تَعَالَى فِيما تقدَّمَ صِفَةَ المحقّين في المُتاركةِ، المجدّينَ في إلقاءِ السَّلَم؛ نبَّهَ في هذهِ الآيَةِ علَى طَائفةٍ مُخادِعَةٍ لِلْمُؤْمِنينَ ولِقومِهم[1]، قال البقاعي: "ولمَّا كانَ كأنَّه قيلَ: هل بَقِيَ مِنْ أقسامِ المنافقينَ شيءٌ؟ قيل: نعم"[2]، فذكرَ الآيَةَ.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَأۡمَنُوكُمۡ﴾: الأمنُ هو سكونُ القلبِ فتطمئنُّ النَّفسُ، ويزولُ الخوفُ، وذهبَ بعضُ اللُّغويينَ إلى أنّهُ الطَّمأنينةُ عندَ الخوفِ، فالآمنُ هو الذي امتلأَ قلبُه امتلاءً شديدًا بما يُطَمْئِنه، والأمانةُ ضدُّ الخيانةِ، والأمانةُ: هي الوديعةُ الّتي تُحفَظُ في حِرزٍ أوثقَ الحِفْظ، فتطمئنُّ النَّفسُ ويسكنُ القلبُ، ويأتي الأمنُ بمعنَى التَّصديقِ، وهو قريبٌ مِن معنى سُكُونِ القلبِ واطمئنانِ النَّفسِ، ومِنْهُ المُؤْمِنُ؛ لِأنَّ قلبَه يسكنُ لِمَا آمنَ به، ويطمئنُّ به[3]، وقولهُ تعالَى: ﴿يَأۡمَنُوكُمۡ﴾ بمعنَى: تسكُنُ قلوبُهُم وتطمئنُّ نفوسُهم، فلَا تتعرَّضُوا لهم.

2) ﴿ٱلۡفِتۡنَةِ﴾: الفاءُ والتَّاءُ والنُّونُ تدلُّ اشتقَاقَاتُهَا على إذابةِ شيءٍ بالنَّار لِتظهرَ جودتُهُ مِن رداءتِه، كإذابةِ الذَّهبِ والفِضَّةِ، واستُعملَت الفِتنةُ في تمحيصِ حقيقةِ ما في القلوبِ بتعريضِها للشَّدائدِ كَمَا يُصْهَرُ الذَّهبُ أو الفضَّةُ؛ فيمتازُ خَبَثُهما عن جوهرِهما الخالصِ، فصارت الفتنةُ تَدُلُّ عَلَى المِحنةِ، وإيقاعِ الابتِلَاءِ أو التَّعْريض له بالاخْتِبَارِ[4]،

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/91.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 5/359.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرَّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (أمن).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (فتن).

والفِتْنَةُ في قوله تعالَى: ﴿كُلَّ مَا رُدُّوٓاْ إِلَى ٱلۡفِتۡنَةِ أُرۡكِسُواْ فِيهَاۚ﴾ بِمَعْنَى: الابْتِلَاءِ بِالْكُفْرِ، والرَّدِّ عَنِ الإيمانِ[1].

3) ﴿يَعۡتَزِلُوكُمۡ﴾: العَيْنُ والزَّايُ واللَّامُ تدورُ تصريفَاتُهَا على مَعْنَى المفارقةِ والتَّنَحّي بالقلبِ أو بالبدنِ أو بِكِلَيْهِما، ومنه قولُهُم: انْعَزَلَ عَنِ النَّاسِ؛ إذَا تَنَحَّى عَنهُمْ جَانِبًا، والفعلُ (اعْتَزَلَ) يتعدّى بنفسِه، وبحرفِ الجرِّ (عَنْ)، فَيُقَالُ: اعتزلَ الشَّيءَ، واعتزلَ عَنْهُ، بمعنَى: بَعُدَ وَتَنَحَّى وتجنّبَ الشَّيءَ بالبدنِ أو بالقلبِ، و﴿يَعۡتَزِلُوكُمۡ﴾ في الآيَةِ الكريمَةِ هُو بِمَعْنَى الْمُفَارقةِ والتَّنَحِّي بعيدًا[2].

4) ﴿ثَقِفۡتُمُوهُمۡۚ﴾: الثَّاءُ والقافُ والفاءُ تدلُّ تصريفَاتُهَا على تمكّنٍ يُبْلَغُ به أتقنُ أحوالِ الشّيءِ وأحكمُها، ومَنْ تمكّنَ مِن شيءٍ أشدَّ التمَكُّنِ؛ فقد ثَقِفَهُ، وَيُطْلَقُ الثَّقَفُ على الظَفَرِ بالشَّيءِ والتَّمكّنِ مِنْهُ مغلوبًا بعد الطَّلبِ[3]، وقولُهُ تعالَى: ﴿ثَقِفۡتُمُوهُمۡۚ﴾ معنَاهُ: ظَفِرْتُم بِهِم مَغْلُوبِين متمكِّنًا مِنهم[4].

5) ﴿سُلۡطَٰنٗا﴾: السِّينُ واللَّامُ والطَّاءُ تدورُ اشتقَاقَاتُهَا على معنَى التّمكّنِ مِن القوَّةِ والقهرِ؛ ولِهذا أُطلقَ السُّلطانُ على الحجَّةِ والبرهانِ، والسُّلطانُ: الحاكمُ ذو القدرةِ الظَّاهرةِ الواضحةِ، وهُو في قوله تعالى: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكُمۡ جَعَلۡنَا لَكُمۡ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٗا مُّبِينٗا﴾ بمعنى الحُجّة والبُرهانِ[5].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

ستَجِدُونَ قريبًا قومًا آخَرين مِنَ المنافقينَ المخادعينَ، يُظهرونَ الإسلامَ لِرسولِ اللّهِ ﷺ وأصحابِه؛ لِيَطْمَئِنُّوا على أنفسِهم وأموالِهم، ويظهرونَ الكفرَ لقومِهم؛ لِيطمَئِنُّوا على أنفسِهم وأموالِهم ونسائِهم وذَرَارِيهم، كلَّما دَعَاهم قومُهم إلى الكفرِ رجعُوا إلَيْهِ، فإنْ لَمْ يَعْتَزِلْكم هؤلاءِ، ولم يَنْقَادُوا لكم، ولم يتركُوا التعرّضَ لكُم، فخذوهُم واقتلُوهم في أيِّ

(1) ابن جرير، جامع البيان: 8/26، والرَّاغب، تفسير الراغب: 3/1385.
(2) الراغب، المفردات، والفيومي، والمصباح المنير: (عزل).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ثقف)، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (ثقف).
(4) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/92.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب، والزَّبيدي، تاج العروس: (سلط).

مكانٍ لَقيتموهم مِنَ الأرضِ، وأولئكَ الّذين تميّزوا عمّنْ عداهُم قَدْ جعلنا لكم حجةً ظاهرةً في قتالِهم وقتلِهم وأسرِهم أينَما لَقِيتُمُوهم؛ بسببِ إقامتِهِمْ على كُفْرِهم، وخداعِهم المُؤْمِنين[1].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

دِلَالَةُ السِّينِ فِي ﴿سَتَجِدُونَ﴾ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ﴾:

بِشَارَةُ أَهْلِ الإِيمَانِ بِقُرْبِ ظَفَرِهِمْ بِالْمُخَادِعِينَ

لمّا كانَ الوِجدانُ هو تحصّلُ شيءٍ ذي بالٍ، والظَفَرُ بهِ في حَوزةٍ؛ ناسبَ أنْ يُعبِّر به عن وِجدانِ هؤلاءِ القومِ مِنَ المنافقين الّذين تميّزوا من غيرِهم مِنَ الكفَّارِ والمنافقين بشدّةِ مكرِهم وخَديعتِهم وجُبنِهم؛ لِخوفِهم على أنفسِهم وأهليهم وأموالِهم؛ فكأنّه قال: سَتَظْفَرُونَ قريبًا بهؤلاءِ القومِ الذين شأنُهم أشدُّ مِن شأنِ سائرِ المُنَافِقِين في الخديعةِ وفي الجُبنِ، وفي التَّعبير بِشَارةٌ لِلْمُؤْمِنِين بِقُربِ العُثورِ عَلَيْهِم بِوَعدٍ لا شكَّ فيهِ بِدِلَالَةِ حرف التَّنفيسِ الدالِّ على المستقبلِ القريبِ[2].

نُكْتَةُ حَذْفِ الْمَوْصُوفِ وَإِقَامَةِ الصِّفَةِ مُقَامَهُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ﴾:

الْمُنَافِقُونَ وَإِنْ كَانُوا فِئَةً وَاحِدَةً فِي أَصْلِ النِّفَاقِ، لَكِنّ صِفَاتِهِمْ مُتَنَوِّعَةٌ

أصلُ قولِ اللّهِ تعالى: ﴿سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ﴾: (سَتَجِدُونَ قَوْمًا آخرين)، فحُذِفَ الموصوفُ وأُقيمَت الصِّفةُ مُقامَه؛ لأنَّ هذه الفئةَ لمّا كانت تعيشُ بالتَّخفّي والخِدَاعِ؛ ناسبَ أنْ يُحذفَ المَوْصُوفُ الدالُّ على الذَّاتِ وتُذْكَرَ الصِّفةُ؛ لِلإشعارِ بتَخَفِّيهم، وأكَّدَ هذا المعنى مجيءُ الصِّفةِ نكرةً دالّةً على الشّيوعِ، وقد أُتْبِعَتْ بِذِكْرِ أوصافِهم في قَوْلِهِ: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُواْ قَوْمَهُمْ﴾؛ لِتَخْصِيصِهم.

(1) ابن جرير، جامع البيان: 6/27 - 29.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 5/359.

وفي التَّعبير بالصِّفَةِ ﴿ءَاخَرِينَ﴾ إيماءٌ إلى أنّ المُنَافِقِينَ وَإِن كانُوا فئةً واحدةً في جِنْسِ نِفَاقهم، لكنّ صِفَاتِهم متنوّعةٌ، ومَرَاتبَهم في النِّفاقِ كثيرةٌ.

سِرُّ التَّعْبِيرِ بِفِعْلِ الْإِرَادَةِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ﴾:

لَيْسَ لِلْمُنَافِقِينَ هَمٌّ إِلَّا الدُّنْيَا

عُبِّر بفعل الإرادَةِ في قوله تعالَى: ﴿سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ﴾؛ لِمَا في الفعلِ مِن مَعْنَى المقابلةِ بينَ ما يُريدُه المُؤْمِنونَ ومَا يُرِيدُه المنافِقُون، فقد ذَكَرَ اللّٰه تعالَى أنّ المؤمنين يُرِيدُونَ هِدايَةَ المُنَافِقِين، ولَامَهم عَلَى هَذَا، فقالَ سُبحانَهُ: ﴿أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُواْ مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ﴾، وفي هذه الآيَةِ ذَكَرَ ﷻ أنَّ هَمّ المُنَافِقِين هُو الدُّنْيَا، فَهُمْ يُرِيدُونَ أنْ يَأْمَنُوا المُؤْمِنِين علَى أنفسِهم ومالِهم، ويأمَنُوا قَومَهم كذلك، وشتّانَ بينَ الْإِرَادَتَيْنِ.

كما أنّ التَّعبيرَ بالإرَادةِ مشْعِرٌ بعدَمِ تحقُّقِ حصولِهم على مرادِهِمْ.

نُكْتَةُ تَقْدِيمِ أَمْنِهِمُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى أَمْنِهِمْ قَوْمَهُمْ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُواْ قَوْمَهُمْ﴾:

تَفَاوُتُ الْمُنَافِقِينَ فِي دَرَكَاتِ نِفَاقِهِمْ وخِدَاعِهِمْ

وردَ الفِعْلَانِ ﴿يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُواْ﴾ علَى صُورَةٍ واحِدَةٍ ملائمةٍ لِلْوَاقِعِ، فلَفْظُ الفعلَيْنِ متماثِلٌ، ولكنَّ المَقْصُودَ بِهِمَا مختلِفٌ، فذهابُهم إلى المُؤْمِنِين يباينُ ذَهابَهم إلى قَوْمِهم، والأمانُ الذي يُرِيدونَه مِنَ المُؤْمِنِين غيرُ الأمانِ الذي يريدونَه مِن قومِهم، ودلَّ اقترانُ الفِعْلَيْنِ مِنْ غيرِ فاصلٍ بينَهُمَا على أنَّ أمانَهم لا يتِمُّ إلَّا بتحصيلِ الأمَانَيْنِ معًا.

وقُدِّمَ قولُهُ: ﴿يَأْمَنُوكُمْ﴾ عَلَى ﴿وَيَأْمَنُواْ قَوْمَهُمْ﴾؛ لأنّه لمّا كانت هذه الفئةُ مِنَ المُنَافِقِين أشدَّ خوفًا مِنَ المُؤْمِنِين وأكثرَ مُخادعةً لَهُم مِن سَائرِ المنافِقِين؛ ناسبَ أنْ يُقدّمَ الأهمُّ عندَهم، والأعظمُ في

نفوسِهم؛ وهو أنْ يأمَنُوا المُؤْمِنِين، فإذا أَمِنُوا المؤمنِينَ؛ سهُلَ عليهم أنْ يأمَنُوا قومَهم؛ لِموافَقَتِهِم لَهُم في الكُفرِ، ولأنَّ عادةَ الْقَوْمِ عدَمُ مُحَارَبَةِ مَن كانَ مِنْهُم.

وقُدِّمَ ضميرُ الخطَابِ لِلْمُؤْمِنين على ضميرِ الْغَائِبِ لِلْمُنَافِقِين علَى نَسَقِ تقديمِه في السِّياقِ نفسِه؛ فقولُه تعالى: ﴿أَن يَأۡمَنُوكُمۡ وَيَأۡمَنُواْ قَوۡمَهُمۡ﴾ نظيرُ قَوْلِهِ تعالَى قبلُ: ﴿أَن يُقَٰتِلُوكُمۡ أَوۡ يُقَٰتِلُواْ قَوۡمَهُمۡۚ﴾[1]، في أنّ وجهَ التّقديمِ هُوَ أنَّ خوفَ المنافقين مِنَ المُؤْمِنِين أكثرُ من خوفِهم مِن قَومِهم، وحِرْصَهم على أنْ يأمَنُوا المؤمنين أشدُّ مِن حرصِهم على أنْ يأمَنُوا قومَهم، والسّياقُ كلُّه يَجْرِي على هذا النَّسقِ مِنَ التّقديم، كما في قَوْلِهِ: ﴿لَوۡ تَكۡفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ﴾، و﴿بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُم﴾، ولكلّ تقديمٍ خَصوصيّتُهُ ومناسبتُه كما تبيّنَ ذلكَ في مَوْضِعِهِ.

دِلَالَةُ التَّعْبِيرِ بِـ ﴿كُلَّ مَا﴾ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿كُلَّ مَا رُدُّوٓاْ إِلَى ٱلۡفِتۡنَةِ أُرۡكِسُواْ فِيهَاۚ﴾:

أفادت ﴿كُلَّ مَا﴾ في قولِهِ سُبحانَهُ: ﴿كُلَّ مَا رُدُّوٓاْ إِلَى ٱلۡفِتۡنَةِ أُرۡكِسُواْ فِيهَاۚ﴾ عمومَ الوقتِ وتَكرارِ الفعل؛ إذْ لَا يأتِي بعدَها إلَّا فعلٌ، وَيدلُّ عمومُ الوقتِ وما يَقْتَضِيه مِنَ التَّكرارِ على أنّ الرَّدَّ إلى الفِتْنَةِ كَان يَتَكرَّرُ مِنْ غيرِ انقِطاعٍ، وَيتكرّر فعلُ الْإِرْكَاسِ فِيها، فَفِي مَجِيءِ ﴿كُلَّ مَا﴾ تَصْوِيرٌ لِحَالِهم الْمُتَكَرِّرةِ وَقْتًا فوقتًا بينَ الفِتْنَةِ والانْغِمَاسِ فِيهَا.

تَكْرَارُ الْوُقُوعِ فِي الْفِتْنَةِ يُورِثُ الِانْغِمَاسَ فِيهَا؛ فَلَا يَكَادُ يُخْرَجُ مِنْهَا

ولمّا كانَ الرَّدُّ هو رجوعُ الشَّيءِ إلى ما كانَ عليه، والْإِرْكَاسُ هو ردّ الشّيءِ بقَلْبِه عَلَى رَأْسِه، فكانَ فيه مَعْنَى الانْغِمَاسِ؛ ناسبَ أنْ يكونَ الرَّدُّ مَوْصُولًا بالحَرْفِ الدالِّ علَى انْتِهَاءِ الغايةِ (إلى) في قولِه تعالَى: ﴿كُلَّ مَا رُدُّوٓاْ إِلَى ٱلۡفِتۡنَةِ أُرۡكِسُواْ فِيهَاۚ﴾؛ لإفادةِ انتهاءِ ردِّهم

(1) الطيبي، فتوح الغيب: 5/109.

إلى الفتنةِ، وأنْ يكونَ الْإِرْكَاسُ مُقْتَرِنًا بـ (في) الدَّالّةِ على مَعْنَى الظَّرفيَّة؛ لإفادةِ ظرفيَّةِ الْفِتْنَةِ للانغمَاسِ فيها.

بَرَاعَةُ الِاسْتِعَارَةِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أُرْكِسُواْ فِيهَاۚ﴾:

الْمُبَالَغَةُ فِي بَيَانِ قُبْحِ هَذَا الصِّنْفِ مِنَ الْمُنَافِقِينَ

في قولِهِ سُبحانَهُ: ﴿أُرْكِسُواْ فِيهَاۚ﴾ استعارَةٌ تصريحيَّةٌ تبعيَّةٌ؛ إذْ شُبِّهَ حالُ رَدِّهم إلى الْكُفْرِ أو تَصْيِيرِهم إلى النَّار بعدَ أنْ كان مصيرُهم إلى الجنَّةِ باعتبارِ حَالِهِمُ الأصليَّةِ[1] بِتَحوّلِ الطَّعامِ إلى الرَّجيعِ؛ فيكونُ مِنْ تصويرِ المعقولِ - وهو التحوُّلُ مِنَ الإيمانِ إلى الكُفرِ - في صورةِ المحسوسِ الّذي هو تحوّلُ الطَّعامِ الطَّيِّبِ إلى الرَّجيعِ؛ ونُكْتَتُهَا: الإشارةُ إلى تأكيدِ ظهورِ تحوّلِهم الشَّنيعِ، وفيها: زيادةُ تقبيحِ حالِهم، وبيانُ شِدَّةِ إِصْرَارِهِمْ عَلَى الكُفرِ والباطلِ وعَدَاوَةِ الْمُسلِمِينَ، وأنَّهُ يبعُدُ رجوعُهُمْ بعد هذه الحالِ إلى الحقِّ؛ إذْ مَن وَقَعَ في شَيءٍ مَنكُوسًا يَتَعَذَّرُ خُرُوجُهُ مِنْهُ عادةً، وفي هذه الِاسْتِعَارَةِ أيضًا: مزيدُ مبالغةٍ في بيانِ قبحِ حالِ هذا الصِّنفِ مِنَ المنافقين وخُبثِهم؛ لِظهورِ غدرِهم وخداعِهم، واقترنتِ الاستعارةُ هُنَا بِـ ﴿كُلَّ مَا﴾؛ لِيفيدَ استمرارَ إركاسِهم في فتنةِ الكُفرِ.

وقد ذكرَ اللهُ تعالَى الطَّائفةَ الأولى من المنافقين فقال: ﴿وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓاْۚ﴾، فلم يصرّح بموضعِ الإركاسِ، ولمّا كانت هذه الطَّائفةُ أشدَّ من الّتي قبلَها نفاقًا لمكرِها وخداعِها صُرِّحَ بِإركاسِهم هُنَا، فقال سُبحانَهُ: ﴿أُرْكِسُواْ فِيهَاۚ﴾؛ أي: في الفتنةِ، والمعنى: قُلِبوا فيها أقبحَ قلْبٍ وأشنَعَه، وكانوا فيها شَرًّا من كلِّ عدوٍّ شرّيرٍ[2].

وبُنِيَ الفعْلُ ﴿أُرْكِسُواْ﴾ لِمَا لَم يُسمَّ فاعِلُهُ؛ لِلإبهامِ عَلَيْهِم، فلا يَعْلَمُون مَنْ يُرْكِسُهم ويَغْمِسُهم في الكُفرِ؛ تهويلًا وتخويفًا، بخلافِ قولِهِ تعالَى قبلُ: ﴿وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓاْۚ﴾، فقد نُصَّ على الفاعلِ،

(1) الرازي، مفاتيح الغيب: 10/173، والقونوي، حاشية القونوي على تفسير البيضاوي: 7/254.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 2/214.

وهو اللّه ﷻ؛ لأنّه رُتِّبَ عليهِ لَوْمُ المؤمنِين على انْقِسَامِهم طَائِفَتَيْنِ في أمرِ المنافقينَ ولَومِهم على إرَادَتِهم هداية الْمُنَافِقِين، فلأجلِ أن يَقْطَعُوا الأملَ في الأمرِ؛ نُسِبَ إركاسُهم إلى اللّهِ ﷻ على الأصلِ في أنَّ اللّه تعالَى هو الّذي يَهْدِي ويُضلُّ.

بَدِيعُ الْمُقَابَلَةِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوٓاْ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ وَيَكُفُّوٓاْ أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ﴾ **مَعَ الْآيَةِ قَبْلَهَا:**

تَفْصِيلُ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ لِلْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ بِبَيَانِ أَحْوَالِهَا؛ لِئَلَّا يَبْقَى لَبْسٌ فِيهَا

جاءَتْ هذه الآيةِ مُنَاسبةً لِمَا قبلَها في اللَّفْظِ والمَعْنَى، وقد تضمَّنتَا مقابلَةَ ثلاثَةِ معانٍ بثلاثةٍ، وهي:

أوَّلًا: ﴿فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ﴾، فإنَّه مقابلٌ لِقَوْلِهِ قبلُ: ﴿فَإِنِ ٱعْتَزَلُوكُمْ﴾.

ثانيًا: ﴿وَيُلْقُوٓاْ﴾، فإنَّهُ يُقابِلُ قولَهُ: ﴿وَأَلْقَوْاْ﴾؛ وذلك لأنَّ قولهُ: ﴿وَيُلْقُوٓاْ﴾ كان في حيِّزِ النَّفْيِ في قولهِ تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوٓاْ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ﴾، والتَّقدير: ولَم يُلقُوا إليكم السَّلَمَ[1].

ثالثًا: ﴿وَيَكُفُّوٓاْ أَيْدِيَهُمْ﴾، فهو مقابلٌ لِقَوْلِهِ تعالَى: ﴿فَلَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ﴾، ووجهُ المقابَلَةِ ههنا كالذِي قبلَهُ؛ لأنَّ فعلَ الكفِّ في حيِّزِ النَّفْيِ، والمعنى: ولم يكفُّوا أيديَهُمْ؛ وذلك بقتالِكُم.

فهذه ثلاثةُ معانٍ تقابلُ ثلاثةَ معانٍ؛ وهي في الآيةِ الأُولَى: الاعتزالُ، وعدمُ القتَالِ وإلقاءُ السّلم، فبهذه الأجزاء الثّلاثة تمَّ الشّرطُ، وجزاؤُه: عدمُ التعرّضِ لهم بالأخذِ والقتلِ، كما يشيرُ إليهِ قولُهُ تَعَالَى: ﴿فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾، وفي الآية الأخرَى: عدمُ الاعْتِزَالِ، وعدمُ إلقاء السّلم، وعدمُ الكفِّ عَنِ القتال، فبهذه الأجزاءِ الثّلاثة تمَّ الشّرطُ، وجزاؤُه: الأخذُ والقتلُ المصرّحُ به بقَوْلِهِ سبحانه: ﴿فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ﴾[2]، فكانَ ما تضمَّنَهُ الجزاءُ في الآيتينِ الكريمَتَيْنِ معنًى رابعًا تمَّت به المقابَلَةُ.

(1) المحلي والسيوطي، تفسير الجلالين، ص: 117.

(2) الآلوسي، روح المعاني: 3/107.

سِرُّ تَغَايُرِ أَلْفَاظِ الْمُقَابَلَةِ فِي الْآيَتَيْنِ:

دِقَّـــةُ اخْـتِـيَـارِ الْأَلْفَاظِ الْقُرْآنِيَّةِ الْمُنَاسِبَةِ لِأَحْوَالِ الْمُتَحَدَّثِ عَنْهُمْ

اختلفَ التَّعبيرُ في الكلامِ على الْفَرِيقَيْنِ مِنَ الْمُنَافقينَ نَظَرًا إِلَى الحَالِ الْمُتَرَقَّبَةِ مِنْ كُلِّ فَرِيقٍ؛ وهُوَ افتِنَانٌ بَدِيعٌ لَم يَبقَ مَعَهُ اختِلَافٌ في الحُكمِ، ولَكِن صُرِّحَ بِاختِلَافِ الحَالَينِ، وبِوَصفِ مَا في ضَمِيرِ الفَرِيقَينِ، فقالَ عندَ الكلامِ على الصِّنفِ الأوَّلِ مِنَ الْمُنَافِقِينَ في الآيةِ السَّابقةِ: ﴿فَإِنِ ٱعۡتَزَلُوكُمۡ فَلَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ وَأَلۡقَوۡاْ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَمَ﴾، فجاءتِ الصِّيغُ في سياقِ إيجابِ الاعتزالِ، وإيجابِ إلقاءِ السَّلَمِ، ونفيِ المقاتلةِ؛ إذ كانوا مُحِقِّينَ في ذلك مُعْتَقِدينَ له[1]، فكأنّ الأصلَ اعتزالُهم، ونفيُ قتالِهم، وإلقاءُ السَّلَمِ؛ لِمناسبةِ ما ذُكِرَ مِنَ العهدِ أو كراهةِ قتالِ المؤمنينَ، فإنْ فَعَلُوا هذه كلَّهَا؛ فالجزاءُ بطريقةِ النَّفيِ، وهو ﴿فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمۡ عَلَيۡهِمۡ سَبِيلٗا﴾، بالنَّظَرِ إلى أنَّ الغالبَ أنْ يَفْعَلُوا، ولمّا جاءَ سياقُ ذِكْرِ الْمُنَافِقِين الّذين يُترقَّبُ خداعُهم وغَدْرُهم؛ جاءتِ الصِّيغُ مختلفةً، فكانتْ أشدَّ وأحزمَ؛ لأنَّهم كلّما رُدّوا إلى الفتنةِ انْغَمَسُوا فيها، إذ وردتْ على طريقةِ السَّلبِ والتَّجريدِ، فقالَ سُبحانَهُ: ﴿فَإِن لَّمۡ يَعۡتَزِلُوكُمۡ وَيُلۡقُوٓاْ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَمَ وَيَكُفُّوٓاْ أَيۡدِيَهُمۡ﴾؛ فَلِيَحْذَرَ المؤمنُونَ خِدَاعَهم ومَكْرَهم؛ شَرَطَ نفيَ الاعتزالِ وَإلقاءِ السَّلم وَكفِّ الأيدي، وجعلَ الجزاءَ إنْ فُقِدَ شرطٌ من هذهِ الشُّروطِ أخذَهم بقوّةٍ وقتلَهم، وجاءَ ذلكَ بطريقِ الإثباتِ، فقال تعالَى: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكُمۡ جَعَلۡنَا لَكُمۡ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٗا مُّبِينٗا﴾، بالنَّظرِ إلى أنَّ الغالبَ في الْمُخَادِعِين أنْ يَمْكُرُوا ويَتَخَلّوا عَمّا ذُكِرَ؛ فتأمّلْ فصاحةَ الكلامِ وبلاغَتَهُ؛ إذْ ناسبَ حالَ كلِّ طائفةٍ ألفاظُها وصِيَغُها.

نُكْتَةُ تَقْدِيمِ نَفْيِ إِلْقَاءِ السَّلَمِ عَلَى نَفْيِ كَفِّ الْأَيْدِي فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَإِن لَّمۡ يَعۡتَزِلُوكُمۡ وَيُلۡقُوٓاْ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَمَ وَيَكُفُّوٓاْ أَيۡدِيَهُمۡ﴾:

لمّا كانَ شعارُ هذهِ الطَّائفةِ مِنَ المنافقينَ هو الخِداعُ والمَكْرُ؛ ناسبَ

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/92، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 5/155.

أنْ يُقدَّمَ ما يدلُّ على ظُهُورِ انْقِيَادِهم على الكفِّ عنِ القتالِ، وذِكْرُ انقيادِهِمْ أولَى بَعْدَ اعْتِزَالِهم؛ ليُؤمَنَ مَكْرُهُم وخداعُهم، بخلاف الآيةِ المتقدِّمَةِ في سياقِ ذِكْرِ الّذين يَصِلُونَ إلى قومٍ بينَهم وبينَ المؤمنين عهدٌ، أو عن الّذين يكرهونَ قتالَ المؤمنين؛ فقد قُدِّمَ نفي القِتالِ على إلقاء السَّلَم في قولِه تعالَى: ﴿فَإِنِ ٱعۡتَزَلُوكُمۡ فَلَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ وَأَلۡقَوۡاْ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَمَ﴾؛ لأنَّ الأهمَّ فيهَا هُوَ تركُ القتالِ المُستتبِعِ لزومًا لِلاعْتِزَالِ والتّنحّي عنِ المُؤْمِنِينَ، وأمّا إِلْقَاءُ السَّلَم؛ فَلَيْسَ بِبَعِيدٍ عنهم؛ لِمناسبةِ العَهْدِ أو كراهةِ قتالِهِمُ المُؤْمِنِين.

دِقَّةُ تَصَرُّفِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ فِي التَّرَاكِيبِ تَقْدِيمًا وَتَأْخِيرًا

نُكْتَةُ الْكِنَايَةِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَيَكُفُّوٓاْ أَيۡدِيَهُمۡ﴾:

في قوله تعالى: ﴿وَيَكُفُّوٓاْ أَيۡدِيَهُمۡ﴾ كنايةٌ عَن تَرْكِ الْقِتَالِ[1] بِذِكْرِ لازمِه؛ لِيَنْتَقِلَ الذّهنُ فيهِ مِن كفِّ اليَدِ إلى تَرْكِ السِّلاحِ، وَمِنْ تَرْكِ السّلاحِ إلى تركِ القتالِ، كما أنّ كفَّ الأيدي أعمُّ من ترك السّلاحِ، فالأذيّةُ باليَدِ قد تكونُ بغيرِ سلاحٍ؛ فأفادتْ هذهِ الكنايةُ كلَّ هذه المعاني.

تَأْكِيدُ التَّحْذِيرِ مِنَ الْمُنَافِقِينَ الْمُخَادِعِينَ

وأوثِرَ التَّعْبِيرُ بالكِنَايةِ مع هذا الصِّنفِ مِنَ الْمُنَافِقِيَن المخادعين؛ مبالغةً في التَّحذيرِ منهم، لِشِدّةِ مَكرِهم وغَدْرِهم.

دِلَالَةُ ﴿حَيۡثُ﴾ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَخُذُوهُمۡ وَٱقۡتُلُوهُمۡ حَيۡثُ ثَقِفۡتُمُوهُمۡۚ﴾:

لفظةُ ﴿حَيۡثُ﴾ تَقَعُ على الجهاتِ السِّتِّ، وَعلى كلِّ مَكانٍ، فاستعمالُهَا في قَوْلِه تعَالى: ﴿فَخُذُوهُمۡ وَٱقۡتُلُوهُمۡ حَيۡثُ ثَقِفۡتُمُوهُمۡۚ﴾ تفيدُ الإبهامَ في الأَمكنةِ؛ لِوقوعِها عليها جَميعًا[2]، وَأُزيلَ هذا الإبهامُ بالجملةِ بعدَهَا: ﴿ثَقِفۡتُمُوهُمۡۚ﴾، والمَعْنَى: خُذوهُمْ بقوَّةٍ واقْتُلُوهُم في أيِّ مكانٍ تَثْقَفُونَهُم فيهِ، وفي هذا إشارةٌ إلى الْوَعْدِ بِتَيْسِيرِ التَّمْكِينِ مِنْهُمْ[3].

وَعْدُ اللهِ تَعَالَى الْمُؤْمِنِينَ بِتَيْسِيرِ تَمْكِينِهِمْ مِنَ الْمُنَافِقِينَ

(1) الكلام ههنا عَنْ خصوصِ ﴿وَيَكُفُّوٓاْ أَيۡدِيَهُمۡ﴾، وإلاَّ فهذا التَّركيبُ واردٌ في حيِّزِ النَّفْيِ.
(2) ابن يعيش، شرح المفصل: 3/114.
(3) البقاعي، نظم الدّرر: 5/360.

دِلَالَةُ الْفِعْلِ (ثَقِفَ) فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾:

مِنْ أَصْنَافِ الْمُنَافِقِينَ مَنْ يَتَعَذَّرُ كَشْفُ حَقِيقَتِهِ

لمّا كانَ هذا النَّوعُ مِنَ المنافقينَ قد يَتَفَلّتُ وَيَصعُبُ إيجادُهُ، فمَا هُم بِمُخلِصِي الوُدِّ لِلْمُؤْمِنين ولا لِقومِهم؛ لِشدَّةِ مكرِهم وخداعِهم؛ كانتْ كلمةُ ﴿ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾ هي المناسبةُ لِلْمَقَامِ؛ لِمَا في الكلمةِ مِنْ معنى الطَّلَبِ وَالظَّفَرِ بهم، والتَّمكُّنِ منهم مَغلوبينَ مَقهُورِينَ.

نُكْتَةُ التَّعْبِيرِ بِاسْمِ الْإِشَارَةِ ﴿وَأُوْلَٰٓئِكُمْ﴾ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا﴾:

لَوْلَا كَشْفُ اللهِ تَعَالَى الْمُنَافِقِينَ بِبَيَانِ أَوْصَافِهِمْ؛ لَالْتَبَسَ أَمْرُهُمْ غَايَةَ الالْتِبَاسِ

جيءَ باسم الإشارةِ في قولِهِ سُبحانَهُ: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا﴾؛ لتمييزِ المَوْصُوفِين أكملَ تمييزٍ[1]؛ لِحاجةِ المقامِ إليهِ؛ لِأنّهم كانوا يُظْهِرُون لكلٍّ مِنَ المُؤْمِنِينَ والكافرين أنّهم مِنْهُمْ.

وعُبِّرَ باسمِ الإشارةِ الّذي للبُعْدِ؛ لِصعوبةِ التَّعرُّفِ عليهم، لَولا أنْ كشفَهم اللهُ تعالَى ببيانِ أوصافِهم.

وأشعرتْ ميمُ الجمعِ في ﴿وَأُوْلَٰٓئِكُمْ﴾ بظُهورِ الحجّةِ على هذا الصِّنفِ مِنَ المُنَافِقِينَ المخادعينَ لجميعِ المؤمنينَ بِمَا ذُكرَ مِنْ أوصافِهم.

دِلَالَةُ حَرْفِ الْجَرِّ (عَلَى) فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا﴾:

انْكِشَافُ أَمْرِ الْمُنَافِقِينَ يَجْعَلُ أَهْلَ الْإِيمَانِ بِمَنْأًى عَنْ شُبْهَةِ الِاعْتِدَاءِ فِي قِتَالِهِمْ

عُبِّرَ بحرف الجرِّ (علَى) في قوله تعالَى: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا﴾؛ لِإفادةِ تمكُّنِ البُرهانِ القاهرِ الواضحِ على نِفَاقِهم، فاسْتَوْعَبَهُم مِنْ علُوٍّ، وناسبَه ذكرُ ﴿سُلْطَٰنًا﴾؛ لِمَا تدلُّ عليه كلمةُ سُلْطَانٍ من مَعْنَى القَهرِ والحُجَّةِ والبُرهانِ، (فَلَا يُخشَى أَنْ يُنسَبَ المُسلِمُونَ في قِتَالِهم إِلَى اعْتِدَاءٍ)[2]؛ لِوضوحِ الحُجَّةِ على نِفاقِهمْ.

وفي وَصْفِ السُّلطانِ بالمُبين مجازٌ عقليٌّ؛ ونكتَتُهُ: المبالَغَةُ في وَصْفِ الحُجَّةِ عليْهِم بالقُوّةِ والظُّهورِ.

(1) السكاكي، مفتاح العلوم، ص: 183، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 5/155.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 5/155.

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤۡمِنٍ أَن يَقۡتُلَ مُؤۡمِنًا إِلَّا خَطَـٔٗاۚ وَمَن قَتَلَ مُؤۡمِنًا خَطَـٔٗا فَتَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ مُّؤۡمِنَةٖ وَدِيَةٞ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُواْۚ فَإِن كَانَ مِن قَوۡمٍ عَدُوّٖ لَّكُمۡ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَتَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ مُّؤۡمِنَةٖۖ وَإِن كَانَ مِن قَوۡمِۭ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُم مِّيثَٰقٞ فَدِيَةٞ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ وَتَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ مُّؤۡمِنَةٖۖ فَمَن لَّمۡ يَجِدۡ فَصِيَامُ شَهۡرَيۡنِ مُتَتَابِعَيۡنِ تَوۡبَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا ٩٢﴾ [النساء: 92]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الانتقال من بيانِ أَحكامِ معاملة الْـعَـدُوِّ إِلَى أَحْكَامِ مُعَامَلَةِ الْمُسْلِمِينَ

لَمَّا بَيَّنَ اللهُ تَعَالَى أَحْكَامَ المعاملةِ مع الْمُنَافِقِينَ الكفّار المعاهَدين والمخادِعين الَّذِينَ يُظْهِرُونَ الْإِسْلَامَ مكرًا، وَيُسِرُّونَ الْكُفْرَ، وَيُعِينُونَ أَهْلَهُ عَلَى قِتَالِ الْمُؤْمِنِينَ، وكانَ ربَّما قُتِلَ مَنْ لا يَستحقُّ القتلَ بسببِ الإلباسِ؛ نَاسَبَ أَنْ يَذْكُرَ أَحْكَامَ قَتْلِ مَنْ لَا يَحِلُّ قَتْلُهُ مِنْ مُؤْمِنٍ وَمُعَاهَدٍ وَذِمِّيٍّ وَمَا يَقَعُ مِنْ ذَلِكَ خَطَأً، والتَّفَنُّنُ في انتقالِ الغَرضِ - مِنْ بيانِ أَحكامِ أَعْمَالِ الْمُسْلِمِينَ مَعَ الْعَدُوِّ إِلَى أَحْكَامِ مُعَامَلَةِ الْمُسْلِمِينَ بَعْضِهِمْ مَعَ بَعْضٍ - ينشِّطُ السَّامع[1].

فتعلُّق هذه الآية بما قبلها: هو أنَّه لَمَّا ذكر فيما قبلها حُكْم من أسْلم، فمنعه عذرٌ من مقابلة أعداء المسلمين، وحُكْم من لم يُسلم، وإنَّما يريد أن يَسْلَمَ على الفريقين، فأمر في الأولى بالتَّجافي، وفي الثَّانية بقتلهم؛ بيَّن هاهنا خطر قتل المؤمنين، وجعلهم صنفين: مقتولاً خطأ، ومقتولاً عمدًا، فبيَّن حكم الخطأ، وجعل المقتولين ثلاثة أصناف، ثمَّ بيَّن بعدها حكم قتل العمد[2].

(1) الرازي، مفاتيح الغيب: 10/174، ورضا، تفسير المنار: 5/270، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 5/156.
(2) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 3/1398.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿خَطَـًٔا﴾: الخطأُ ضدُّ العَمْدِ، وأصلُ خَطَأ يَدُلُّ عَلَى تَعَدِّي الشَّيْءِ، وَالذَّهَابِ عَنْهُ، وَالخَطَاءُ مُجَاوَزَةُ حَدِّ الصَّوَابِ، والخِطءُ بالكَسْر: أرض يُخْطِئُها المطر، ويُصِيبُ أخرى قُرْبَها، ويدلُّ معنى الكلمة: على العدول عن الجهة وتخطِّي المقصود، وكلُّ من أراد شيئًا، فاتَّفق منه غيره؛ يقال: أخطأ، وإنْ وقع منه كما أراده؛ يقال: أصاب، والخطأ ما فُعل عن غير تعمُّد[1].

2) ﴿فَتَحْرِيرُ﴾: أَصلُ الكلمةِ: حُرٌّ، ويدلُّ على خيارِ كُلِّ شيءٍ وخَالصه، والحُرُّ نقيضُ العبدِ، وتَحريرُ الكتابِ: تقويمُهُ، وحَرَّرْتُ القومَ: أطلقتُهم، وأعتقتُهم عن أَسرِ الحبسِ، وتحريرُ الرَّقبةِ: إعتاقُها، أي: جعلُ الإنسانِ حرًّا[2].

3) ﴿رَقَبَةٍ﴾: أَصْلُ الكلمةِ (رَقَبَ)، وتَدُلُّ عَلَى انْتِصَابٍ لِمُرَاعَاةِ شَيْءٍ، ومِنْ ذَلِكَ الرَّقِيبُ، وَهُوَ الْحَافِظُ، وَمِنْ ذَلِكَ - أيضًا - اشْتِقَاقُ الرَّقَبَةِ الَّتي هي العُنق؛ لِأَنَّهَا مُنْتَصِبَةٌ، وَلِأَنَّ النَّاظِرَ لَا بُدَّ يَنْتَصِبُ عِنْدَ نَظَرِهِ، وعُبِّرَ بها عن الآدميِّ مِنْ تسميةِ الشَّيءِ باسمِ جُزئِه، وغلَبتْ في المملوكِ من الآدميِّين، وكلُّ (رَقَبةٍ) أو (رِقابٍ) في القرآنِ؛ هي بهذا المعنى[3]، إلَّا قوله تعالى: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرۡبَ ٱلرِّقَابِ﴾ [محمَّد ﷺ: 4] فإنَّها تعني: المقاتِلين (بالبناء للفاعل) المُجَيَّشين (بالبناء للمفعول) للحرب.

4) ﴿وَدِيَةٌ﴾: الدِّيَةُ مِنَ الْوَدْيِ، الْأَصْلُ: وِدْيَة، فَحُذِفَتِ الْوَاوُ، وهو مالٌ كان محوزًا يُخرجُه القاتلُ إلى وَليِّ الدَّم؛ لِأنَّه ينقذُ به نفسَه من القصاصِ، ويُعطَى إلى الوليِّ؛ لِيكونَ في حَوْزِهِ، يُقَالُ: وَدَى فُلَانٌ فُلَانًا، أَيْ: أعطى دِيَتَهُ إِلَى وَلِيِّهِ[4].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

لا يحقُّ لِمؤمنٍ الاعتداءُ على أَخيه المؤمنِ وقتلُه بغيرِ حقٍّ، وَلا ينبغي لهُ ذلكَ إلَّا أَنْ يقعَ منهُ القتلُ خطأً مِنْ غيرِ عَمدٍ ولا قَصدٍ، ومَنْ وقعَ منه ذلكَ الخطأُ؛ فيجبُ عليهِ عِتقُ

(1) الراغب، المفردات، والفيروزآبادي، القاموس المحيط، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (خطأ).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والسمين، عمدة الحفاظ: (حرر).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (رقب).
(4) الأزهري، تهذيب اللغة، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (ودي).

رقبةٍ مؤمنةٍ، وتسليمُ ديةٍ مقدَّرةٍ إلى أهلِه، إلَّا أنْ يتصدَّقوا بها عليه، ويعفُوا عنه، فإنْ كانَ هذا المقتولُ خطأً رجلًا مؤمنًا، قد آمنَ - وبَقِيَ في قومِه، وهمْ كَفَرَةٌ عدوٌّ لكم - فلا دِيةَ فيه؛ لأنَّه أهدر دمه بمُقامِه بيْن ظهراني المشركين، فعرَّض نفسه، ولأنَّه لا توارث بين المشركين وقتيلهم المؤمن، والمال حقُّه، ولئلّا يتقوَّى المشركون بالمال على حرب المؤمنين، ولأنَّ اللّه أولى بالمؤمن من نفسه، وقد حكم بذلك.

قتالُ المؤمن كفرٌ، وقتله إثمٌ إلا أنْ يكونَ خَطَأً

وإنَّما كفَّارتُه تحريرُ رقبةٍ مؤمنةٍ، وإنْ كانَ هذا المقتولُ خطأً مؤمنًا، مِنْ قومٍ بينكم وبينَهم عهدٌ وميثاقٌ؛ فعلى قاتلِه دِيَةٌ تُسلَّمُ إلى أهلِه، وعتقُ رقبةٍ مؤمنةٍ، وذهبَ بعضُ المفسِّرينَ إلى أنَّ المقتولَ: إنْ كانَ مِنْ قومٍ معاهدين مؤمنًا أو غيرَ مؤمنٍ؛ فعلى قاتلِه دِيَةٌ تُسلَّمُ إلى أهلِه، وعِتقُ رقبةٍ مؤمنةٍ؛ حفظًا لِمكانةِ العهدِ والميثاقِ، فَمَنْ لم يجدِ العتقَ، ولا اتَّسعَ مالُه له بأنْ لم يجدِ القدرةَ على عتقِ رقبةٍ مؤمنةٍ، فعليهِ صيامُ شهرينِ متتابعينِ، وشَرَعَ اللّهُ لَكُمْ ما ذَكَرَ تَوْبَةً مِنهُ على القاتل، وكانَ اللّه تعالى عَلِيمًا بِأَحْوَالِ عبادِه، حَكِيمًا فِيمَا يَشْرَعُهُ لَكُمْ مِنَ الْأَحكامِ[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

فرادةُ تركيبِ النَّفي:

عبِّرَ بالتَّركيب: (ما كان لك أنْ تفعلَ كذا) في قوله: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا﴾، ولم يقل: (ما كنت لتفعل كذا) مع تقاربهما بوصفهما تعليلين بمعنى؛ لأنَّ أكثر ما يقال الأوَّل فيما كان الإحجام عنه من قبل نفسه[2]؛ دفعًا لرغبة في القتل، أو قصدًا إليه.

النَّفسُ الصَّادقةُ في إيمانها تُحجِمُ عن القتل، ولا ترغب فيه

دلالة صيغة النَّفي بـ﴿وَمَا كَانَ﴾:

لمّا كانَ النَّفيُ بصيغةِ الجُحودِ ﴿وَمَا كَانَ﴾ يُفيدُ نَفيَ الوجودِ؛ دلَّت

(1) ابن جرير، جامع البيان: 9/43، وابن عطية، المحرر الوجيز: 2/94، والبغوي، معالم التنزيل: 1/676.
(2) الراغب، تفسير الراغب: 3/1389.

فـــي صـيـغـة الجحود تغليظُ الـزِّجـر عـن قتل المؤمنِ

هذه الصيغةُ على المبالغةِ في النَّفي، فلا نفيَ أبلغُ مِنْ نفي أصلِ وجودِ الشَّيءِ، والمعنى: مَا وُجِدَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا في حَالٍ مِنَ الْأَحْوَالِ، ولا يحصلُ في الوجودِ أصلًا إلَّا في حَالِ الْخَطَأِ؛ لِتغليظِ الزَّجرِ عنه لِمَا لِلنُّفوسِ عندَ الحظوظِ من الدَّواعي إلى القتلِ[1].

إعـظـامُ قـتـلِ المـؤمـنِ عـمـدًا، فـهـو مـحـظـورٌ البتَّة

وههنا لطيفة بلاغيَّة: وهي أنَّه لمَّا كانَ قتلُ الخطأِ أهونَ من قتلِ العمدِ - وقد أخرجه في صورةِ النَّفيِ المؤكَّدِ بالكونِ - دلَّ الكلامُ على إِعْظَامِ قتلِ الْعَمْدِ وَبَشاعة شَأْنِه، كَمَا تَقُولُ: مَا كَانَ لَكَ - يَا فُلَانُ - أَنْ تَتَكَلَّمَ بِهَذَا إِلَّا نَاسِيًا؟ إِعْظَامًا لِلْعَمْدِ وَالْقَصْدِ مَعَ حَظْرِ الْكَلَامِ بِهِ الْبَتَّةَ[2].

إيثار التَّعبير بنفي الكون على غيره:

قتلُ المؤمن فعل غير مقصود

أوثِرَ نفي الكون بـ(ما) على قولهم: (لا يجوز) في قولهم: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ﴾؛ لأنَّه تركيبٌ يُقال في الأفعال الاختياريَّة المقصودة، فأمَّا الخطأ؛ فلا يقال فيه ذلك.

سببُ إيثارِ المصدرِ المؤوَّلِ على الصَّريحِ:

وجه استحضار صـــورةِ قـتـلِ المـؤمـنِ لتقبيحِ الحالةِ

مَجيءُ المصدرِ المؤوَّلِ بَدَلًا مِنَ المَصدرِ الصَّريحِ في قولِه: ﴿أَن يَقْتُلَ﴾، فلمْ يقلْ: (قتلُ)؛ لِاستحضارِ صورةِ قتلِ المؤمنِ من صيغة الفعلِ المضارعِ، وما فيهِ من الشَّناعةِ وقبحِ الحالةِ تنفيرًا عنه وتقزيزًا منه.

الـزَّجـرُ عـن قتلِ المـؤمـنِ مستمرٌّ في جميعِ الأزمنةِ

لمَّا كانتِ الأَداةُ (أَنْ) تفيدُ الاستقبالَ؛ دلَّ على أنَّ المبالغةَ في الزَّجرِ عن قتل المؤمن مستمرَّةٌ منذ الزَّمن الماضي، أي: قبل نزول هذه الآية بدلالةِ ﴿وَمَا كَانَ﴾ مع زمن الحالِ والمستقبلِ، فأفاد النَّفي بـ﴿وَمَا كَانَ﴾ مع اقترانه بـ﴿أَن يَقْتُلَ﴾ استيعاب النَّفي للزَّمنِ المَاضي والحالِ والمستقبلِ، ومثلُهُ قولُهُ تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾. [الأحزاب: 53].

(1) البقاعي، نظم الدرر: 5/360، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 5/156.

(2) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 5/313، الراغب، تفسير الراغب: 3/1389.

بلاغةُ الحصرِ في الآيةِ:

فـائـدةُ الـحَـصْـرِ الادِّعـائيِّ تأكيدُ المبالغةِ في الزَّجرِ

الحَصْرُ الَّذي تضمَّنهُ هذا الأسلوبُ (ما - إلّا) حصرٌ ادِّعائيٌّ لا حقيقيٌّ؛ لِتأكيدِ المبالغةِ في النَّفي، فقد دلَّ على نفيِ وجودِ قتلِ المؤمنِ لِلمؤمنِ إلَّا على سبيلِ الخطأِ، على سبيلِ المجازِ الحاصلِ من مجموعِ الكلامِ.

إيثار التَّعبير عن لَفْظَي الإيمان بالمُشتقِّ:

سلبُ الإيمانِ مِن قاتلِ المؤمنِ حالَ القتلِ وعصمة دم مَن أظهر الإيمان أو تلفَّظ به جُنَّةً

إيثارُ مجيءِ لفظ ﴿لِمُؤْمِنٍ﴾ صفةً مُقَامةً مُقامَ القاتل الموصوف، وقوله: ﴿مُؤْمِنًا﴾ صفة للقتيل مُشتقَّين؛ يؤذنُ بأنَّ صِفَةَ الْإِيمَانِ فِي الْقَاتِلِ وَالْمَقْتُولِ تُنَافِي الاجْتِمَاعَ مَعَ الْقَتْلِ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ، كما هو الحالُ في مُنَافَاةِ الضِّدَّيْنِ؛ لِقَصْدِ الإعلامِ بِأَنَّ الْمُؤْمِنَ لا يقتل المؤمن، وإِذَا قَتَلَ مُؤْمِنًا؛ فَقَدْ سُلِبَ عَنْهُ الْإِيمَانُ حال القتلِ، وَمَا هُوَ بِمُؤْمِنٍ، عَلَى نَحْوِ قولِ الرَّسولِ ﷺ: "وَلَا يَشْرَبُ الْخَمْرَ حِينَ يَشْرَبُهَا، وَهُوَ مُؤْمِنٌ"[1]، ولاسيَّما أنَّ النَّفيَ قد استوعبَ الأزمنةَ كلَّها كما تقدَّمَ، فيتناولُ زمنَ حالِ القتلِ، وأكَّدَ هذا مجيءُ الفعلِ ﴿يَقْتُلَ﴾ بصيغةِ المضارعِ لتصويرِ بشاعةِ القتلِ، كما تقدَّمَ.

فقوله: ﴿لِمُؤْمِنٍ﴾ في صفة القاتل، يعني: المستقبل لتعاليم دينه، المقيم حالًا واستقبالًا على إسلامه، بما يعني: مضاء نيَّته عزمًا وتصميمًا عليه دون انتقاص، وقوله: ﴿أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا﴾ في حقِّ القتيل، يعني: المُظْهِر لوقته توًّا الدُّخُول فيه، بتلفُّظه بما يُحْسِنُ ممَّا يَدُلُّ عليه، ولو عُدَّ مُقَصِّرًا في العبارة عن الوفاء بالمعنى، أو إفصاح الأداء، لمكان تردُّد العبارة بين إلقاء السَّلام، وإلقاء السَّلم؛ ليدخل فيمن نُهُوا عن قتْله مَنْ ظُنَّ به النُّطقُ بالشَّهادة تعوُّذًا، واعتبارًا بموقف النَّبيِّ العظيم الكريم من صنيع خالد ببني جُذَيْمَةَ، حيث بعثه إليهم، لمَّا لقوه؛ لم يُحسنوا أن يقولوا: أسلمنا، فجعلوا يقولون:

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 5/156.

صبأنا صبأنا، فجعل خالد يقتلهم، فلمَّا بَلغ ذلك رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله وسلّم؛ رفع يديه إلى السَّماء، وقال: "اللَّهمَّ إنِّي أبْرأ إليْك ممَّا صنع خالد"، وبعث عليًّا، فَوَدَى قتْلاهم، وما أتْلَفَ من أموالهمْ حتّى مَيْلَغَةِ الكلْب[1]، وذلك كلُّه منْ أثر مُفادات تمحُّص دلالة اسم الفاعل على الاستقبال في اللُّغة الَّتي نزل بها القرآن الحكيم.

المؤمنُ حَنونٌ شفيقٌ على أخيهِ المؤمِنِ

قال القرطبيُّ: "آثرَ التَّعبيرَ بـ (مؤمن)؛ تَأْكِيدًا لِحَنَانِهِ وَأُخُوَّتِهِ وَشَفَقَتِهِ وَعَقِيدَتِهِ"[2]، ففي كلمةِ (مؤمِن) تأثيرٌ نفسيٌّ على القاتلِ، وتأنيبٌ له على قتلِ المؤمِنِ؛ ولو كانَ خطأً، ولخَصوصيَّة المفردة (مؤمن) عبّرَ الزَّمخشريُّ عن معنى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ﴾ بقوله: "وَما كانَ لِمُؤْمِنٍ وما صَحَّ لَه ولا استقامَ ولا لائِقٍ بحالِهِ"[3].

حمْلُ دلالةِ النَّكرةِ في سياقِ النَّفي:

الإيمان شأنٌ عظيمٌ، ووصف شريفٌ

جاءتِ الصيغةُ نكرةً في سياق النَّفي؛ لتفيدَ العمومَ، فتتناولُ الصِّيغةُ كلَّ مَنْ آمنَ باللّهِ ورسولِهِ، ولو كان أضعفَ الإيمان، بدلالةِ الإطلاقِ، كما دلّتِ الصِّيغةُ على أنَّه لا فرقَ بينَ مؤمنٍ صغيرٍ ولا كبيرٍ ولا غنيٍّ ولا فقير ولا عالمٍ ولا جاهلٍ، فالوصفُ الَّذي علِّق عليه الحكم: هو وصفُ الإيمانِ؛ تعظيمًا لهذا الوصف وتشريفًا له.

بلاغةُ التَّغليبِ في الكلامِ:

في مخاطبةِ الذُّكورِ دونَ الإناثِ تكريمٌ للمرأةِ بدفعِ شأن القتل عنها

جاء الوصفُ بصيغةِ المذكَّر (مؤمن) مخاطِبًا الذُّكورَ على التَّغليب، فاللَّفظ يتناولُ الإناثَ كذلكَ، ولابدَّ له من نكتةٍ معنويَّةٍ، وهي هنا ظاهرةٌ؛ فإنَّ الغالبَ أنْ يقعَ القتلُ من الرِّجالِ دونَ النِّساءِ، كما هو معروفٌ، ولمّا كانَ الكلامُ في سياقِ توبيخِ المؤمنينِ على القتلِ الخطأِ وبيانِ بشاعتِه وقبحِه؛ دلَّ على تكريمِ المرأةِ، فالقتلُ ليسَ مِنْ شأنِها ولا مِنْ وصفِها.

(1) البخاريّ، الصحيح، الحديث رقم: 7189.
(2) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 5/313.
(3) الزمخشريّ، الكشاف: 1/548.

دلالةُ أسلوبِ الاستثناءِ في الكلامِ:

قتلُ المؤمنِ جُرْمٌ لا ينبغي أنْ يقعَ في عمومِ الأحوالِ والأزمنةِ والأمكنةِ

جاء الاستثناءُ متَّصلًا، والتَّقدير: نفيُ الإخبارِ عن وجودِ قتلِ المؤمنِ للمؤمنِ في جميعِ الأحوالِ المستلزم نفي الإخبارِ عن وجودِهِ في جميعِ الأزمنةِ والأمكنةِ إلَّا في حالِ الخطأ غيرِ المقصودِ، وتأكَّدَ عمومُ الأوقاتِ بما تقدّمَ باستيعابِ الأزمنةِ مِن اقترانِ الكلامِ بـ﴿وَمَا كَانَ﴾ و﴿أَن﴾ المصدريَّة، فأشعرَ الكلامُ هنا بنفي وجودِهِ في عموم الأمكنةِ كذلك، فلا ينبغي أنْ يقعَ هذا القتلُ في جميعِ الأحوالِ والأزمنةِ والأمكنةِ.

إيثارُ اختيارِ (المؤمِنِ) دونَ (المسلم):

الإيمان مظهرٌ وجوهر، وهو أدعى لعدم اقتراف هذه الجريمة

أناطَ اللّه تعالى الحُكمَ بما هو في القلبِ، لا بِمَا هو في الظَّاهرِ ليشملَ المَظْهَرَ والجوهر؛ لأنَّ الإيمانَ عملٌ قلبيٌّ، والإسلام أمرٌ ظاهريٌّ[1]؛ لأنَّ مواردَ القتلِ كثيرةٌ ومتنوِّعةٌ، فجَعْلُ الإيمانِ مناطَها أرْجَى لِتركِ القتلِ، كما أنَّه أطلقَ وصفَ المؤمنِ؛ لأنَّ المُرادَ نفيُ أنْ يقعَ القتلُ مِمَّنْ له وصفُ الإيمانِ المُطْلَقِ.

دلالةُ ﴿وَمَن﴾ على عمومِ المؤمنين:

اللَّفظُ عامٌّ في النَّاس، مخصوصٌ بالمؤمنين بقرينة المقامِ

دلَّتْ ﴿وَمَن﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا﴾ على عموم المؤمنينَ، وليس المقصودُ عمومَ النَّاسِ، بقرينةِ السِّياقِ، فالخطابُ في أصْلِه للمؤمنينَ، كما أنَّ ذكرَ تحريرِ الرَّقبةِ المؤمنةِ في الجزاءِ دالٌّ على أنَّ المرادَ عمومُ المؤمنين، فيكونُ اللَّفظُ عامًّا مخصوصًا بالمؤمنين بقرينة المقام.

نكتةُ وضعِ الاسمِ الظَّاهرِ موضعَ الضَّميرِ:

قتلُ المؤمنِ أمرٌ جَلَلٌ يستدعي التَّشنيعَ، والتَّهديد

قال تعالى: ﴿وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا﴾، ولم يقلْ: (وَمَنْ قتلَهُ خطأً)، مع قُرْبِ ذكرِهِ؛ لِيفيدَ ذكرُ الاسمِ الظَّاهرِ تشنيعَ قتلِ المؤمنِ؛ ولو كانَ خطأً، فهُوَ في مقامِ التَّذكيرِ في أنَّ القاتلَ قد قتلَ مؤمنًا، فيكونُ

(1) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 4/2548.

المقتولُ قدْ ترتَّبتْ له حقوقٌ وجبتْ على قاتله، ويكون القاتل مستحِقًّا للجزاءِ المذكورِ.

بلاغةُ تخصيصِ جزاءِ القتلِ بتحريرِ الرَّقبةِ:

حرِّيَّة من كرَّمه اللـه حـيـاةٌ، وعبوديَّتُه وفاةٌ

الأصلُ في الجزاءِ أنْ يكونَ في مقابلِ الشَّرطِ من حيثُ المعنى، فالشَّرطُ للجزاءِ كالسَّببِ للمسبَّبِ، ولمّا جعلَ جزاءَ قتلِ المؤمنِ خطأً هو وجوب تحريرِ رقبةٍ؛ أفادَ أنَّ تحريرَ الرَّقبةِ حياةٌ لها، فالنَّفسُ المستعبدَةُ ميِّتةٌ؛ لِيفيدَ أَنَّ الْحُرِّيَّةَ حَيَاةٌ، وَأَنَّ الْعُبُودِيَّةَ مَوْتٌ، فكأَنَّ مَنْ تَسَبَّبَ في نقصِ نَفْسٍ حَيَّةٍ؛ كَانَ عَلَيْهِ السَّعْيُ في تعويضِ ما نقصَ بِإِحْيَاءِ نَفْسٍ هي كَالْمَيْتَةِ، وَهِيَ الْمُسْتَعْبَدَةُ[1]، ولَمَّا كانَ الأصلُ أنْ تقعَ المجازاةُ عندَ وقوعِ الشَّرطِ[2]؛ دلَّ الكلامُ على الأمرِ بالإسراعِ في تحريرِ الرِّقابِ من العبوديَّةِ، وتشوُّفِ الشَّارعِ إلى تحريرها كلَّ التَّحرُّرِ من العبوديَّة لغير اللّه.

قصديَّة التَّعبير عن العِتْق بالتَّحرير:

ليس المقصود بالعقوبة إيذاء القاتل، وإنَّما نفع العبد

عبَّرَ عن العِتْقِ بالتَّحريرِ؛ "للإشارة إلى أنَّ الحُرِّيَّة مقْصَدٌ من مقاصد الشَّارع الإسلاميِّ، وأنَّ العقوبة ليس المقصود بها إيذاء القاتل، إنَّما المقصود بها نفع العبد، وكذلك كلُّ عقوبة تكون بعتق رقبةٍ لَا يُقصد بها الإيلام، إنَّما يقصد بها تحرير الرِّقاب"[3].

بلاغةُ الحَذفِ في قولِه: ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾:

تحريرُ الرَّقبة أمرٌ عظيمٌ ذو شأنٍ يستحقُّ الحثَّ والتَّرغيب فيه

الحذفُ إمَّا أنْ يكونَ مِنْ حذفِ المبتدأ، أي: فشأنُهُ تحريرُ رقبةٍ، أو فحكمُهُ تحريرُ رقبةٍ، وإمَّا أنْ يكونَ من حذفِ الخبرِ، أي: فعليهِ تحريرُ رقبةٍ، بمعنى: فتحريرُ رقبةٍ مؤمنةٍ واجبٌ عليه، ويأتي هذا الأسلوبُ من الحذفِ في الأمرِ الَّذي يكونُ ذا شأنٍ، وفيه تعظيمٌ للمذكورِ، أي: تحرير الرَّقبةِ.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 5/157.
(2) ابن يعيش، شرح المفصل: 3/124.
(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 4/1799.

فائدة التَّعبير بالجملة الاسميَّة:

تـحـريـرُ الرَّقـبـة أمرٌ حاصلٌ ثابتٌ ينبغي تحصيلُهُ والإسراعُ فيه

ورود قولِه: ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾ على طريقةِ الجملةِ الاسميَّةِ؛ يدلُّ على الثُّبوتِ وحَسْمِ الأمرِ فيه، ومثلُهُ قولُه تعالى: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ [يوسف: 83]، ولمَّا كانَ أمرُ تحريرِ الرَّقبةِ وتسليم الدِّيَةِ لأهلِ المقتولِ شأنًا عظيمًا ثابتًا مُتحقِّقًا، وينبغي تحصيلُهُ والإسراعُ فيه؛ جاءَ على هذهِ الطَّريقةِ.

بديعُ المجازِ المرسَلِ في تَحريرِ الرِّقَبَةِ:

تحريرُ الرَّقبةِ - بوصفها محلَّ الانقياد - حياةٌ للإنسانِ حِسًّا وَمَعنًى

ذكرَ اسمَ الجزءِ ﴿رَقَبَةٍ﴾، وأرادَ الحقيقةَ كلَّها (عِتقَ نَسمةٍ مملوكةٍ)، وآثرَ الرَّقبةَ دونَ غيرِها مِنْ أجزاءِ الجسمِ هنا؛ لِمناسبتِها للمقام، فإنَّهُ لمَّا كانَ الإنسانُ يموتُ بقطعِ الرَّقبةِ، وكانتِ الرَّقبةُ محلَّ الانقيادِ حقيقةً أو حكمًا؛ كانَ تحريرُها حياةً للإنسانِ حِسًّا وَمعنًى.

نكتةُ التَّعبيرِ عن نفس الحرِّ بلفظة الرَّقبة:

المؤمن الصَّادق لَا يجوز له أن يَغُلَّ رقاب العباد، إلَّا لضرورة تقدَّر بقدرها

"عبَّر عن نفس الحرِّ بكلمة الرَّقبة، للإشارة إلى أنَّ الرِّقَّ غلٌّ معنويٌّ في الرِّقاب، وأنَّ المؤمن الصَّادق لَا يجوز له أن يَغُلَّ رقاب العباد، إلَّا لضرورة، والضرورة تقدَّر بقدرها، ولذلك عبَّر ﷺ عن العتق بفكِّ الرَّقبة في آية أخرى، فقال سبحانه وجلَّت كلماته: ﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ۝١١ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ۝١٢ فَكُّ رَقَبَةٍ ۝١٣﴾ [البلد: 11 - 13]"[1].

بلاغةُ مجيءِ الإنشاءِ بصيغةِ الخبرِ:

القرآنُ متشوِّفٌ لتحريرِ العبيدِ

جاءَ قولُه تعالى: ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ﴾ على خلافِ مقتضى الظَّاهرِ؛ إذْ جاءَ بأسلوبِ الخبرِ، والمرادُ تضمينُه معنى الأمرِ، بمعنَى: (فَعَلَيه تحريرُ رقبةٍ مؤمنةٍ ودِيَةٌ مسلَّمَةٌ إلى أهلِه)؛ لِتخييلِ صورةِ تحريرِ الرَّقبةِ في صورةِ الأمرِ الحاصلِ الثَّابتِ، والتَّشوُّف لتحرير الرَّقبة، فمجيءُ الخبرِ في موضعِ الطَّلبِ

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 4/1799.

هنا أبلغ في الدّلالة على السُّرعة في الامتثالِ، كأنَّ هذا من لازم وصفه بالإيمان، وليخلُصَ له وصفه به.

سببُ إيثارِ تركيبِ: (تحرير رقبة):

الإنسان مالكٌ لا مملوكٌ

لَمَّا كَانَ الْإِنْسَانُ في أَصْلِ خلقةِ اللّهِ له خُلِقَ؛ لِيَكُونَ مَالِكًا لِلْأَشْيَاءِ لا مملوكًا، بمقتضى تكريم اللّهِ لَه، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿خَلَقَ لَكُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البَقَرَة: 29]، فَكَوْنُهُ مَمْلُوكًا يَكُونُ صِفَةَ تَكَدُّرٍ مُقْتَضَى الْإِنْسَانِيَّةِ وَتَشَوُّشِهَا، فَلَا جَرَمَ سُمِّيَتْ إِزَالَةُ الْمُلْكِ: تَحْرِيرًا، أَيْ: تَخْلِيصًا لِذَلِكَ الْإِنْسَانِ عَمَّا يُكَدِّرُ إِنْسَانِيَّتَهُ[1].

علَّة الاقتران بين الدِّية المسلَّمة، وتحرير الرَّقبة:

الجمع بين الدِّية، والتَّحرير؛ إشعارٌ بتكميل كلٍّ منهما الكفَّارة

الاقتران في الإيجاب بين الدِّية المسلَّمة، وتحرير الرَّقبة المؤمنة المأمور بهما، إشعارٌ بتكميل كلٍّ منهما الكفَّارة؛ إذ كلٌّ منهما جزء منها بنفسه دون بقيَّتها، وكلٌّ من الجزأين بمفرده نقصٌ عن الرَّدع المُتَوَخَّى للجاني، فالمسألة ردع له، ليس إلّا، ولا نظر فيه لمقابلة النَّفس الَّتي اعتُدي عليها بالإزهاق؛ إذ لا يعيدها إلى الحياة شيء من ذلك، ولا ذلك نفسه؛ لو تمَّ بمجزئ.

دلالةُ تنكيرِ ﴿وَدِيَةٌ﴾:

لا دِيَةَ تُكافئ إزهاقَ روحِ المؤمنِ

جاءَ الاسمُ نكرةً منوّنًا؛ لِيفيدَ التَّنوينُ التَّقليلَ والتَّعظيمَ: فأمّا التَّقليلُ؛ فعلى معنى: أنَّ الدِّيةَ، وإن كانتْ كثيرةً؛ فهي قليلةٌ في مقابلِ قتلِ المؤمنِ وإزهاقِ روحِهِ، وأمَّا التَّعظيمُ؛ فعلى معنى: تفخيم شأنِ الدِّيَةِ، وأنّها، وإنْ كانت لا تكافئ قتلَ المؤمنِ؛ فلابدَّ من تسليمِها، ولاسيَّما أنَّها قُرِنَتْ بتحريرِ الرَّقبةِ، والاقترانُ إشعارٌ بالمقاربةِ بينَهما.

في تنكير الدِّية دفعٌ لإمكان ثبوت قيمتها

لو ذكرت الدِّية معرِفةً؛ للزمَ تقديرُ النَّبيِّ ﷺ بيانًا لمعناها في القرآن، وما جاز تقديرها بغير تقديره، ولا الاتِّفاق على غيرها[2].

(1) الرازي، مفاتيح الغيب: 10/179.
(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 4/1802.

سببُ إيثارِ صيغة اسم المفعول ﴿مُّسَلَّمَةٌ﴾:

الدِّيـة شعـارُ السِلْمِ وَالمُسالَمَةِ

لمّا كانَ في القتل مَظِنَّة أخذِ الثَّأرِ مِنَ القاتلِ؛ جاءَ بصيغةِ اسم المفعولِ؛ ليفيدَ أنَّ المقصودَ: هو وصولُ الدِّيَةِ إلى أهلِه بأيِّ طريقةٍ كانتْ، وليسَ شرطًا أنْ يوصِلَها القاتلُ بنفسِه إلى أهلِ المقتولِ، كما أنَّ مجيءَ الصيغةِ مشتقَّةً من (سَلَّمَ) تُشعِرُ بأنَّ الدِّيَةَ المؤدَّاةَ إلى أهلِ المقتولِ، فيها مَعنى: السِّلم والمسالَمَةِ، وأنَّها تَرضِيَةٌ لأهلِ القتيلِ[1]، وليستْ مقابلَ نَفسِ المقتولِ.

من حسن الأداء عـدمُ تكليف أسـرة المقتول شطط التَّقاضي والمطالبة

وفي التَّعبير بـ: ﴿مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦٓ﴾ ما يومئ إلى وجوب حسن الأداء، بألَّا يكلِّفوا أسرة المقتول شطط التَّقاضي، والمطالبة، فيجمعوا عليها ألمَ الفقْدِ، ووجع المصاب، ومضاضة الشَّكوى والتَّظلُّم والسُّؤال، وهذا مثل قوله تعالى: ﴿فَمَنۡ عُفِيَ لَهُۥ مِنۡ أَخِيهِ شَيۡءٞ فَٱتِّبَاعُۢ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيۡهِ بِإِحۡسَٰنٖۗ﴾ [البقرة: 178][2].

دلالةُ حرفِ الجرِّ ﴿إِلَىٰٓ﴾:

يـجـبُ إيـصـال الـدِّيـة إلى أهل القتيل إظهـارًا لـلـتَّـأسُّـف على فوات نفسه

يفيدُ حرفُ الجرِّ ﴿إِلَىٰٓ﴾ انتهاءَ الغايةِ، بمعنى: أنْ تكونَ الدِّيَةُ واصلةً إلى أهلِه مؤدَّاةً إليهم؛ إظهارًا للتَّأسُّف على فوات نفس القتيل دون قصدٍ إلى قَتله، وإكرامًا للمقتولِ ولأهلِه، ولو قالَ: (مسلَّمةٌ لأهلِه)؛ لما أفادَ ذلك.

ولمواساة أهله، وتخفيف أعباء الحياة عنهم حيث قُتِل كاسبهم حقيقة أو ظنًّا، ومن هو منهم بسبيل التَّخفيف والعون.

بلاغةُ الاستعارةِ في قوله: ﴿إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُواْۚ﴾:

العفوُ كالصَّدقة فضلًا وحثًّا عليه وترغيبًا فيه

جعلَ العفوَ عن الدِّيَةِ صدقةً منهم، فَبَدَلًا مِنْ أنْ يقولَ: (إلَّا أنْ يَعْفوا)، قال: ﴿إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُواْۚ﴾؛ لِيكونَ استعارةً، تشبيهًا لِمَنْ يعفو بالمتصدِّقِ بجامعِ العطاءِ في كلٍّ، وكأنَّ الَّذي يعفو سُلِّمَ الدِّية، وَمَلَكَهَا،

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 5/160.
(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 4/1800.

وأعطاها، والدَّاعي إلى الاستعارةِ بذكرِ الصَّدقَةِ الحثُّ على العفوِ والتَّرغيبُ فيه، والتَّنبيهُ على فضلِه، "وأنَّه جارٍ مُجرى الصَّدَقةِ في استحقاقِ الثَّوابِ الآجلِ بهِ دونَ طلبِ العِوَضِ العاجلِ"[1].

الدَّلالةُ الصَّوتيَّةُ في قولِه: ﴿يَصَّدَّقُواْۚ﴾:

العفوُ عن الدِّيةِ مِنْ أفضلِ الصَّدقاتِ

في إبدالِ تاءِ الافتعالِ صادًا وإدغامها في فاءِ الكلمةِ، مبالغةٌ في معنى التَّصَدُّقِ، بلحاظِ صفتي الفخامة والاستعلاء المتحقِّقتين في حرف الصَّاد، بمعنى: أنَّ العَفْوَ عَنِ الدِّيَةِ تكثيرٌ لِفعلِ التَّصَدُّقِ، فتكريرُ الصَّوتِ مفخَّمًا مُقَوٍّ لِلمعنى.

علَّة التَّعبير بفعل التَّصدُّق تذكيرًا، وتأنيثًا:

أوثِرَ تذكير الفعل وتأنيثه للتَّنويه والإشادة لصعوبة موقف فقد العائل وفوات المال

إنَّ التَّصدُّق بعيد التَّناول من أولياء الدَّم شديد التَّداخل بعضه في بعض؛ لما في أغوار النَّفس من فاجعة القتل وإحضار الأنفس الشُّحِّ به وقته، بيْد أنَّ ذِكْر الفعل في جملة: ﴿إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُواْۚ﴾ مع توالي التَّشديد فيه، يلمح إلى الأجر العظيم بآية سورة الحديد: ﴿إِنَّ ٱلۡمُصَّدِّقِينَ وَٱلۡمُصَّدِّقَٰتِ وَأَقۡرَضُواْ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا يُضَٰعَفُ لَهُمۡ وَلَهُمۡ أَجۡرٞ كَرِيمٞ ١٨﴾ [الحديد: 18]، فالمصَّدِّقون يدخل فيهم المصَّدِّقات بما يغني عن الذِّكر باعتبار أنّ كلًّا أشخاص، والمصَّدِّقات يدخل فيهنَّ المصَّدِّقون بجامع أنَّ الجميع أنفس، لكنَّ اللّه الرَّبّ المؤلى آثر ذكر كلٍّ للتَّنويه والإشادة لصعوبة موقف فقد العائل وفوات المال عصب الحياة بالتَّنازل؛ وقد قوَّى هذا النَّظر الاستثناء، فإنَّه إخراجٌ من القاعدة أو الحُكم، وذكرت آية الحديد أنَّهم أقرضوا اللّه، فهُمُ ادَّخروا ذلك عنده، كأنَّهم بذلك أوثق بما في يد اللّه لهم ممَّا بأيديهم أنفسهم، فجُوزوا بما وُعِدوا به من ثواب وحسن مآب.

وجاء ذكر الصَّدقة والتَّصدُّق مغريًا لأولياء الدّم أن يتزكَّوا بالدُّخول من هذا الباب إلى ديوان الإحسان والعفو؛ كان الذِّكر

(1) الراغب، تفسير الراغب: 3/1395، والقونوي، حاشية القونوي على تفسير البيضاوي: 7/263.

نفسه حاضًّا من وجبت عليه الدِّية في ماله من قاتل خطأ أو عصبةٍ أن يأنفوا من الرُّكون إلى قبول الصَّدقة، وأن يتنزَّهوا عنها؛ وإن ركبوا مراكب صعبة في سبيل أداء الدِّية تخفيفًا وتلطيفًا، وهكذا نلمح مسلكًا لطيفًا في تحضيض القرآن الفريقين على التَّحلِّي بمكارم الأخلاق وفاء وعطاء، وحلمًا وعفوًا وإغضاء، فـ"المؤمن القويُّ خيرٌ وأحبُّ إلى الله من المؤمن الضَّعيف، وفي كلٍّ خير"، كما جاء في الحديث الصَّحيح[1].

في التَّصدُّق إغراء للتَّزكية، وحضٌّ للدُّخول إلى ميدان الإحسان والعفو

دلالةُ الوصفِ بـ﴿عَدُوّ﴾:

عبّرَ بكلمةِ ﴿عَدُوّ﴾ وصفًا للقومِ؛ لأنَّهُ يُطلقُ على المفردِ والمثنّى والجمعِ، والموصوف من قبيل الأوَّل، ومثنَّاه: قومان، وجمعه: أقوام، على عدَّة معانٍ، فالمعنى: اتِّحاد مصدرِ العِداءِ، فهمْ قومٌ قد اتَّحدَ مصدرُ عدائِهم للمؤمنينَ، فكانَ العهدُ معَهُم أقربَ، وأمَّا إنْ تنوَّعَتْ عداوتُهم؛ فيُطلقُ عليهم أَعداءٌ[2].

من الإنعام في العداوة اجتماعهم على قلبِ رجلٍ واحد

والمعنى: أنَّهم في عداوتهم للمؤمنين يكونون يدًا واحدة، على أفجر قلب رجل منهم وألدِّه عداوة.

وأفصح تنكيرُ لفظ العدوِّ عن أنَّ عداوتهم للمؤمنين مبهمة، لا يعرف باعث عليها من قبل المؤمنين، ولا يُدرك لها سرٌّ من جرَّائهم، إلَّا استمساكهم بدينهم، كما قال الله تعالى: ﴿وَمَا نَقَمُواْ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝٨﴾ [البروج: 8]، ﴿إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُواْ لَكُمْ أَعْدَآءً وَيَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ وَوَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ ۝٢﴾ [الممتحنة: 2].

في تنكير العدوِّ إبهامُ نوع العداوة وباعثها

دلالةُ عودِ الضَّميرِ في ﴿كَانَ﴾:

يحتملُ الضَّميرُ في ﴿كَانَ﴾ في قولِهِ: ﴿وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ بَيْنَكُمْ

(1) مسلم، الصحيح، الحديث رقم: 2665.
(2) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 4/2545.

العهدُ بينَ المسلمينَ وغيرِهم يُحَرِّمُ الدَّمَ على الجميعِ

﴿وَبَيۡنَهُم مِّيثَٰقٞ﴾، أنْ يكونَ مرْجعه ﴿مُؤۡمِنٗا﴾، والمعنى: (فإنْ كانَ المؤمِنُ المقتولُ مِنْ قوم)، فيكونُ الكلامُ في مَنْ يُقتَلُ مِنَ المؤمنين، وإليه ذهبَ بعضُ المفسِّرين[1]، ويحتملُ أنْ يكونَ الضَّميرُ عائدًا إلى المقتولِ مطلقًا مِنْ غيرِ قيدِ الإيمانِ، وإليه ذهبَ أكثرُ المفسِّرينَ[2]، فيكونُ الكلامُ في المقتولِ مِنَ المعاهدينَ أو مِنْ أهلِ الذِّمَّةِ، ممَّا يُشعِرُ بأنَّ وجودَ عهدٍ بينَ المسلمينَ وغيرِهم يسوِّي بينَ الجميعِ في الدِّيَةِ والفِدْيَةِ، وفيهِ رعايةٌ لِلعهدِ، وحُرمةٌ لِدمِ المستأمن والمُعاهَد.

نُكتةُ تركِ الاستثناءِ معَ المعاهدِينَ:

مِنْ شَأنِ المؤمنينَ الكرمُ بالعَفوِ وَالمسامحةِ

استثنى في أَمرِ الدِّيَةِ معَ المؤمنين في قولِه: ﴿إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُواْۚ﴾، ولم يستثنِ معَ المعاهَدين؛ لِأَنَّ مِنْ شَأْنِ الْمُؤْمِنِ العَفْوَ وَالسَّمَاحَ، واللهُ يُرَغِّبُهُمْ فِيمَا يَلِيقُ بِكَرَامَتِهِمْ وَمَكَارِمِ أَخْلَاقِهِمْ، وَلَمْ يَسْتَثْنِ مع المعاهَدين؛ لِأَنَّ مِنْ شَأْنِ الْمُعَاهَدِينَ الْمُشَاحَّةَ وَالتَّشْدِيدَ فِي حُقُوقِهِمْ، وَلَيْسُوا مُذْعِنِينَ لِهِدَايَةِ الْإِسْلَامِ، فَيُرَغِّبُهُمْ كِتَابُهُ فِي الْفَضَائِلِ وَالْمَكَارِمِ[3].

لأنَّ التَّصدُّق من أبواب القربات، وشرطها الإيمان والإخلاص؛ لتُقْبل، ويُثاب عليها، ومَن حَكَمَ القرآن عليهم بالكفر، كيف يُرَغَّبُون في الصَّدَقة، ولا حظَّ لهم في الآخرة؟

فكان عدول القرآن عن ذلك بالنِّسبة للذِّمِّيِّين والمعاهَدين شاهدًا ودليلًا أنَّه يُصدِّق بعضُه بعضًا، وأنَّه كلَّه حقٌّ وصدْق، ولا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد، فلا تبديل لكلماته، ولو كان القرآن من عند غير الله؛ لوجدوا فيه ما اكتنف غيره من الاختلاف والاضطراب الموجود في غيره من الكتب

(1) الرازي، مفاتيح الغيب: 10/180.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 9/43، والبغوي، معالم التنزيل: 1/676، والزمخشري، الكشاف: 1/550.
(3) رضا، تفسيرالمنار: 5/273.

الَّتي طمسها، وذهب برونقها وبهائها طغيان التَّحريف من تصحيف وتزييف، وتلكم هي النُّكتة.

بلاغةُ حذفِ المفعولِ في ﴿لَّمۡ يَجِدۡ﴾:

الفعلُ المجزوم ﴿يَجِدۡ﴾ هنا يأخذُ مفعولًا واحدًا، وقد تمَّ حذْفُهُ؛ لِيفيدَ عمومَ المتعلَّقِ، بمعنى: فَمَنْ لَمْ يَجِدِ الرَّقَبَةَ الَّتي يُعْتِقُهَا؛ لِيفيدَ أنَّ فقدانَها قدْ يحصلُ، وهو متوَقَّعٌ، بأنْ ينقطعَ الرَّقِيقُ كَمَا هُوَ مَقْصدُ الإِسْلَامِ، ففي العِبَارَةِ إشعارٌ بِهَذَا المَقْصدِ.

فـــي الـحـذف إشعارٌ بانقطاعِ الـرَّقـيـقِ وفـق مَقْصدِ الإِسْلَامِ

واحترازًا عن توهُّم أنَّ التَّشريع غير صالح لكلِّ زمان ومكان، أو أنَّ أحدًا بوسعه الخروج عن عهدته؛ بظنِّه عدم استمرار سريان أحكامه، فجاء بهذا الشَّرط؛ لأنَّه من لدن العليم الخبير الَّذي أحاط بكلِّ شيء علمًا، ومن جملة ذلك: أنَّه سيأتي يوم لا يجد النَّاس فيه أحدًا في الرِّقِّ، وصدق اللّه العظيم إذ يقول: ﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ أَن يُفۡتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصۡدِيقَ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَتَفۡصِيلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا رَيۡبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٣٧﴾ [يونس: 37].

أَوْ فَمَنْ لَمْ يَجِدِ المَالَ الَّذِي يَشْتَرِيهَا بِهِ مِنْ مَالِكِهَا لِيُحَرِّرَهَا مِنْ رِقِّهِ[1]، والمعنى على عموم نفي الوجدان لأيِّ سببٍ كانَ.

تنوُّعُ المعنى بتنوِّعِ إعرابِ التَّوبة:

تحتملُ كلمةُ ﴿تَوۡبَةً﴾ في قولِه: ﴿تَوۡبَةً مِّنَ ٱللَّهِۗ﴾ ثلاثةَ معانٍ بتنوِّعِ إعرابها[2]:

إنَّ ابتداء قبول الـتَّـوبـة هـو من الله تعالى

1- أنْ تكونَ منصوبةً على أنَّها مفعولٌ لأجلِه، ولمَّا عدّى ﴿تَوۡبَةً﴾ بـ﴿مِّنَ﴾ أفادَ تضمينَ التَّوبةِ معنى القَبولِ[3]، والتقديرُ: شُرِع لَكم جميعُ ذلك توبةً، على معنى: أنَّ ابتداءَ قبولِ التَّوبةِ هوَ من اللّهِ، فَمَنْ تابَ اللّهُ عليهِ؛ قَبِلَ توبتَهُ.

(1) رضا، تفسير المنار: 5/274.
(2) أبو السعود، إرشاد، العقل السليم: 2/216.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 5/162.

2- أنْ تكونَ منصوبةً على المصدريَّةِ، فهي مفعول مطلق، والتَّقديرُ: تابَ عليكم توبةً مِنَ اللّهِ.

3- أنْ تكونَ حالًا مِنَ الضَّميرِ المجرورِ المقدّرِ في (عليهِ) على تقدير: (فمن لم يجد فعليه صيام) والواقع جارُّه شبه الظَّرف خبرًا في الجملة المحذوف مبتدؤها المضاف، أيْ: فعليهِ صيامُ شهرينِ ذا توبةٍ.

علَّة طلب التَّوبة على القتل الخَطأ:

في قتلِ الخطأ تقصيرٌ بعدم الاحتياط، وهو مستدعٍ النَّدم

من المَعلوم أنَّ قتلَ الخَطأ لا يكون معصيةً، ولذلك لا يستوجبُ توبةً من اللّه، لكنَّه قُوِبلَ بالتَّوبة من وجوه: الأول: أنَّ في قتل الخطأ نوعين من التَّقصير، فإنَّ الظَّاهر أنَّه لو بالغ في الاحتياط والاستكشاف؛ لم يصدر عنه ذلك الفعل، ألا ترى أنَّ من قتل مسلمًا على ظن أنَّه كافر حربيٌّ، فلو أنَّه بالغ في الاحتياط، فقوله: ﴿تَوۡبَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ﴾ تنبيهٌ على أنَّه كان مقصِّرًا في ترك الاحتياط.

والوجه الثَّاني: أنَّ قوله: ﴿تَوۡبَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ﴾ راجع إلى أنَّه تعالى أذن له في إقامة الصَّوم مقام الإعتاق عند العجز عنه؛ لأنَّ اللّه تعالى إذا تاب على المذنب؛ فقد خفَّف عنه، فلمَّا كان التَّخفيف من لوازم التَّوبة؛ أطلق لفظ التَّوبة لإرادة التَّخفيف إطلاقًا لاسم الملزوم على اللَّازم.

والوجه الثَّالث: أنَّ المؤمن إذا اتَّفق له مثل هذا الخطأ؛ فإنَّه يندمُ، ويتمنَّى ألَّا يكون ذلك ممَّا وقع، فسمَّى اللّه تعالى ذلك النَّدم، وذلك التَّمنِّي: توبة[1].

براعةُ التَّقسيمِ في الآيةِ:

المؤمن محلُّ تشريفٍ وتكريم

بَدَأَ أَوَّلًا بِالْأَشْرَفِ، وَهُوَ الْمُؤْمِنُ، وَأَهْلُهُ مُؤْمِنُونَ، لَيْسُوا بِحَرْبِيِّينَ وَلَا مُعَاهَدِينَ، ثمَّ ذكرَ المؤمنَ الَّذي يكونُ في القومِ المحاربينَ للمؤمنينَ،

(1) الرازي، مفاتيح الغيب: 10/182.

وذكرَ قتلَ الخطأِ في القومِ المعاهَدينَ؛ إذا قلنا: إنَّ المرادَ قتلُ المؤمنِ للرَّجلِ المعاهدِ غيرِ المؤمنِ، كما ذهبَ إليهِ بعضُ المفسِّرين[1].

توجيه المُتشابِهِ اللَّفظيِّ في الآية:

مِـنْ مَـحَـاسِـنِ نَـظْـمِ الْـكَـلَامِ وَبَـلَاغَـتِـهِ ومُقْتضى حُسْنِ ائتلافِه وبراعةِ صياغتِه

قدّمَ حُكمَ تسليم الدِّيَةِ معَ القومِ الَّذين بينَهم وبينَ المؤمنين ميثاقٌ، فقال: ﴿فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾ وأخَّرَه معَ القَوْمِ المؤمنين؛ إذْ قالَ: ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ﴾، وفيهِ نكاتٌ بلاغيَّةٌ لطيفةٌ ومعانٍ مقصودةٌ، نُوجزُها فيما يأتي:

1- لِلمسارعةِ إلى تسليمِ الدِّيَةِ معَ القومِ المعاهدينَ؛ تَحاشِيًا عنْ توهُّمِ نقضِ الميثاقِ، فَيُغيرُون على المؤمنينَ، وتَحدُث الفتنةُ[2].

2- لِلإشعارِ بِأَنَّ حقوقَ النَّاسِ في معاملةِ غيرِ المؤمنينَ مقدَّمةٌ على حقوقِ اللهِ، وأمَّا حَقُّ اللهِ تَعَالَى فِي مُعَامَلَةِ الْمُؤْمِنِينَ؛ فهو مُقَدَّمٌ عَلَى حُقُوقِ النَّاسِ.

3- فِي عفوِ الْمُعَاهدِ لِلْمُؤْمِنِ بِالدِّيَةِ مِنَّةٌ عَلَيْهِ، واللهُ تعالى وَصَفَ الْمُؤْمِنِينَ بِالْعِزَّةِ، ومقامُ العهدِ ليسَ في موضعِ العفوِ والصَّدقةِ على المؤمنين، فلمْ يَفْتَحْ لِلمعاهدينَ بَابَ هَذِهِ الْمِنَّةِ على المؤمنين.

إنَّ الَّذي يتبادر من عدم فتح الباب له، ما قدَّمناه أنَّه باب قُرب واحتساب، فلا بدَّ فيه من الإيمان والإخلاص، والذِّمِّيُّ مشرك، فلا يصحُّ منه، ولا يُقبل، وزيادة على ذلك لئلَّا يتَّخذ المعاهد ذلك مطمعًا أن يُفَرَّطَ له في شيء من إلزامات الدِّين الحقِّ الواجبة عليه، كأن يُتساهل معه في تحصيل الجزية منه، أو تخفيف مقدارها عليه، أو أن يُتهاون معه في توقيع عقوبة استحقَّها، أو أن يجاهر بمخالفة شعائر الإسلام، كإظهار الفطر في نهار رمضان بين الصَّائمين علانية ونحو ذلك.

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/26.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 2/216.

4- ليؤكِّد أمر تحرير الرَّقبة، وليقرِّره؛ جعله ختام الكلام، كما كان افتتاحًا له، حثًّا على الوفاء به، وَليبقى في ذهنِ المخاطَبِ؛ لِأَنَّهُ أمانةٌ، لا طالبَ لهُ إلَّا اللّٰه[1].

5- في تقديم الدِّية على الكفَّارة إشارةٌ بيانيَّةٌ تؤكِّد حرص الشَّرع على دفع الدِّية لأهل المقتول، ولو كانوا غير مسلمين؛ لأنَّها نُفيتْ في حال القاتل الَّذي ينتمي إلى الأعداء، فكان لابدَّ من توكيدها حتَّى لَا يتردَّد القاتلُ في دفعها إلى غير المسلمين، إن كان بينهم وبين المسلمين ميثاق بمنع الاعتداء[2].

6- وَمِنْ مقتضى حُسنِ ائتلاف النَّظم وبراعةِ صياغتِه: أنْ يُؤخِّرَ الدِّيَةَ معَ الأوّلِ، فلو قالَ: (فَدِيَةٌ مُسلّمة إلى أهلِه إلّا أنْ يصّدَّقوا، وتحريرُ رقبةٍ مؤمنةٍ)؛ لَكانَ فيه مِنْ ضَعفِ النَّظم وفَسادِهِ ما لا يَخفى، وَمِنْ مَحَاسِنِ نَظْمِ الْكَلَامِ وَبلاغتِه: أَنْ يُؤَخِّرَ الْمَعْطُوفَ الَّذِي لَهُ مُتَعَلَّقٌ - وهو هنا ﴿وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ﴾، ومتعلَّقُه الأوَّل ﴿إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ﴾ - عَلَى مَا لَيْسَ لَهُ مُتَعَلَّقٌ: وهو قوله: ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾، وَمَا مُتَعَلَّقَاتُهُ أَكْثَرُ لِصلةِ الدِّيةِ بالاستثناءِ عَلَى مَا مُتَعَلَّقَاتُهُ أَقَلُّ[3].

(1) البقاعي، نظم الدرر: 5/368.
(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 4/1802.
(3) رضا، تفسير المنار: 5/273.

﴿وَمَن يَقۡتُلۡ مُؤۡمِنٗا مُّتَعَمِّدٗا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدٗا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمٗا ٩٣﴾ [النساء: 93]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا ساقَ اللهُ تعالى القتل الخَطَأَ مساقَ ما هو للفاعِلِ منفِّرًا عنْهُ هذا التَّنفيرَ؛ ناسبَ كلَّ المناسبةِ أَنْ يذكرَ مساقَ القتلِ العمدِ الَّذي هو أَشدُّ من الخَطَأِ، وَالْأَفْعَالُ كُلُّهَا لَا تَخرُجُ عَنْ حَالَتَيْ عَمْدٍ وَخَطَأٍ؛ لِيكونَ الكلامُ جاريًا مِنْ ذكرِ الغليظِ إلى الأَغلظِ[1].

القتلُ العَمْدُ وجْهٌ شنيعٌ للقَتْلِ الخَطأ، وفعلٌ أغلظُ

إذ عدم سُكوته عن الأوّل - مع ظهور العذر فيه - مُهَيِّئٌ ومُمَهِّدٌ لحديثه عن الثَّاني الّذي تغلظ العقوبة عليه، ولا عذر فيه، وَلِيُشْعِرَ أنّ اعتناءه بتهذيب أتباع دينه - إذ غالب ما يصدر عنهم هو من الأوَّل (الخطأ) دون الثَّاني (العَمْد) - مقدَّم عنده على نَهْنَهَةِ غيرهم، والتَّوجُّه لتأنيبه وتثريبه، وليكون من سدِّ الذّرائع وحسم مادَّة الشَّرِّ؛ إذ انكفاف المؤمنين عن الاعتداء على حياة غيرهم - ولو خطأ - مقتضٍ صَرْفَ عَدُوِّهم عن الاعتداء على حيواتهم، ذلكم الاعتداء الّذي لا يكون غالبًا إلّا عمدًا وعلى أقلِّ التّقديرات، فلا يكون ذلك بذريعة منهم، فسبحان من هذا كلامه! ﷻ وبحمده، وذلكم من محاسن التَّشريع، وروعة الإعجاز، ودقّة مسالك البيان، وبُعد مراميه في العلاج والإصلاح، وإيجازه المعجز؛ إغراءً بالفضائل، وإزراءً بالرَّذائل وكبْحًا لجماح الأنفس، وقمعًا لانبعاث التُّرَّهات، وقطعًا لتداعي الأهواء.

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

هذهِ الآيةُ فيها مِنَ التَّهديدِ والإيعادِ أمرٌ عظيمٌ، ففيها يُخبِرُ اللهُ عِنْ حكمِ قتلِ المؤمنِ عمدًا في الآخرةِ فقط؛ لِعظَمِه ولِتهويلِ

أمـــرُ القـتـل العَمْد عظيمٌ، يستحقُّ العذاب الـشَّـديـد، والوعيد الأكيد

(1) البقاعي، نظم الدرر: 5/364.

أمرِه، فأيُّ إنسانٍ مسلمًا كان أو غيرَ مسلمٍ يقتلُ مؤمنًا، متعمِّدًا قتلَه، مريدًا إتلافَ نفسِه، فجزاؤُه الَّذي يستحقُّه على اقترافِ تلكَ الجريمةِ الشَّنيعةِ دخولُ جهنَّمَ ماكثًا فيها مُكثًا طويلًا، وأبعدَهُ مِنْ رحمتِه وأخزاهُ، وقدْ هَيَّأَ اللهُ في جهنَّمَ لِمَنْ تَعَمَّدَ قَتْلَ المؤمنِ عذابًا فظيعًا هائلًا، لا يُدرِكُ الإنسانُ غايتَهُ؛ لِشِدَّةِ بشاعتِه، ففي هذهِ الآيةِ تهديدٌ شديدٌ، ووعيدٌ أكيدٌ، لِمَنْ يَجْترِئونَ على سَفكِ دماءِ المسلمينَ بغيرِ حقٍّ[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مُّتَعَمِّدًا﴾: العَمدُ هو شَدُّ القلبِ، أو جمعُ العَزْمِ على قَصْدِ إقامةِ شيءٍ أو إيجادِه، والعمدُ أَنْ تُكَابِدَ أَمْرًا بِجِدٍّ وَيَقِينٍ، فهو فعلُ الشَّيءِ عن إرادةٍ واختيارٍ معَ قصدِ إيجادِهِ يقينًا بمكابدةٍ في الفعلِ، ويضادُّه الخَطَأُ[2]، والمتعمِّد هنا: هو القاصد للقتلِ.

2) ﴿فَجَزَآؤُهُۥ﴾: أصلُ الكلمةِ: جَزَيَ، قُلِبَتِ الياءُ ألفًا لِتحرُّكِها وانفتاحِ ما قبلَها، فصارَت جَزَى، ويدلُّ معنى الكلمةِ: على قِيَامِ الشَّيْءِ مقَامَ غَيْرِهِ وَمُكافأتِه إيَّاهُ، يُقَالُ: جَزَيْتُ فُلَانًا أَجْزِيهِ جَزَاءً، وَجَازَيْتُهُ مُجَازَاةً، والجَزَاءُ: ما فيه الكفايةُ من المقابلةِ، إنْ خيرًا؛ فخيرٌ، وإنْ شَرًّا، فشرٌّ، واستُعْمِلَ الجزاءُ في القرآنِ في مقابلِ الخيرِ والشَّرِّ[3]، كما في قولِه تعالى: ﴿فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الكهف: 88]، وقوله: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ [الشورى: 40].

3) ﴿وَغَضِبَ﴾: الغَضَبُ ثورانُ دمِ القلبِ إرادةَ الانتقامِ، ثمَّ صارَ الغضبُ يَدُلُّ عَلَى شِدَّةٍ وَقُوَّةٍ، والغضبُ ضدُّ الرِّضا، وصيغةُ المبالغةِ (غَضْبَانُ) وصفٌ للذَّكَرِ، ويقالُ للأنثى: غَضْبَى، والغَضَبُ مِنْهُ مَحْمُودٌ وَمَذْمُومٌ: فَالْمَذْمُومُ: مَا كَانَ فِي غَيْرِ الْحَقِّ، وَالْمَحْمُودُ: مَا كَانَ فِي جَانِبِ الدِّينِ وَالْحَقِّ، والغَضَبُ مِن اللَّهِ صفة فعل، آثاره: سُخْطُه عَلَى مَن عَصاه، وإعْراضُه عَنْهُ، وَمُعَاقَبَتُهُ لَهُ[4].

4) ﴿وَلَعَنَهُۥ﴾: يدلُّ معنى اللَّعنِ هنا: على نَفْيٍ أو طَردٍ وإبعادٍ من الحيِّزِ بتخويفٍ وذعرٍ لِعدمِ قبولِ القُربِ، ولَعَنَهُ اللهُ بمعنى: طردَهُ، وأبعدَهُ على سبيلِ السُّخطِ، وذلك

(1) مجمع البحوث الإسلامية: (الأزهر)، التفسير البسيط: 2/882.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (عمد).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: 1/455.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب، والراغب، المفردات: غَضِب.

مِنَ اللّهِ تعالى في الآخرةِ عقوبةٌ، وفي الدُّنيا انقطاعٌ مِنْ قبولِ رحمتِهِ وتوفيقِه[1].

5) ﴿وَأَعَدَّ﴾: أصلُ الكلمةِ (عدد)، ويأتي بمعنى: عدِّ الشَّيءِ، وهو الإحصاءُ، وبمعنى: تهيئةِ الشَّيءِ، ومنه أعدَّ بمعنى: أحضرَ، وأعدّهُ لِكذا بمعنى: هيَّأهُ، وأحضرَهُ، وجعلَهُ مُتَاحًا[2]، وقوله تعالى في الآية: ﴿وَأَعَدَّ لَهُۥ﴾ بمعنى: هيَّأ له عذابًا عظيمًا، وحضّره له.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالة العموم في ﴿وَمَن﴾:

جاء لفظُ ﴿وَمَن﴾ في سياقِ الشَّرطِ، فأفادَ العمومَ[3]، بمعنى: كلِّ مَنْ يصدُرُ منه القتلُ المذكورُ.

فـي الـعـمـوم شمولٌ لكلِّ من يصدُرُ منه القتل

نكتة إيثارِ صيغةِ المضارعِ ﴿يَقْتُلْ﴾:

جاء الفعلُ بصيغةِ المضارعِ؛ لاستحضارِ صورةِ قتلِ المؤمنِ عمدًا بغيرِ حقٍّ؛ تبشيعًا للحالةِ وتقبيحًا لَها، وفي مجيئِه بصيغةِ المضارعِ نكتةٌ أخرى: وهي أنَّه إذا كانَ قتلُ المؤمنِ خطأً مِمَّا لا يحقُّ أنْ يكونَ له وجودٌ أصلًا؛ فقتلُ المؤمنِ عمدًا أولى وأحرى، فجاءَ بصيغةِ المُضارعِ غيرَ متحقّقِ الوقوعِ؛ لِيظهرَ أنَّه مِمَّا لا ينبغي أنْ يقعَ أصْلًا؛ ولأنَّ صيغةَ المُضارعِ للاستقبالِ حالًا ومآلًا، فهي أدلُّ على تبييتِ النِّيَّةِ، وإضمارِ القَصْدِ إلى القتلِ الَّذي قد لا يدلُّ عليه، ولا يفي به الفعلُ الماضي.

الأوْلَى فـي قتلِ المؤمنِ عمدًا ألَّا يكونَ له وجودٌ؛ لبشاعته

دلالة تعليق الحكم بالوصف ﴿مُؤْمِنًا﴾:

أناطَ الوعيدَ بقتلِ مَنْ له وصفُ الإيمانِ مطلقًا عنْ أيِّ قيدٍ؛ لِيجريَ الكلامُ في الفردِ المطلقِ، فأيُّ إنسانٍ يحملُ وصفَ الإيمانِ

الوعيدُ لكلِّ من قـتـلَ المُـتَّـصِـفَ بالإيمانِ مطلقًا

(1) الراغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (لعن).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (عدد)
(3) الرازي، مفاتيح الغيب: 10/183، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 5/166.

يتناولُهُ الوصفُ صغيرًا أو كبيرًا غنيًّا أو فقيرًا ذا إيمانٍ قويٍّ أو ضعيفٍ، بأنْ يكونَ مرتكبًا لِلمعاصي.

ومن معانيه كذلك: أن يكون قتْلُه - وهو المؤمن - لعلّة إيمانه، لم يقتله قاتله إلّا لهذا، فهذا الموجب للوعيد الشَّديد الّذي مبتداه: ﴿فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا﴾ صُعُدًا إلى ما هو أشدُّ إياسًا من رحمة الله، وأبعد قطعًا له عنها: ﴿وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا﴾.

دلالةُ صيغةِ الحالِ ﴿مُّتَعَمِّدًا﴾:

القاتلُ المتعمِّد يتكرَّرُ منه قصدُ الفعلِ؛ استخفافًا وجرأةً

جاءَ قوله: ﴿مُّتَعَمِّدًا﴾ حالًا مِنْ فاعِل ﴿يَقۡتُلۡ﴾، والمعنى على اقترانِ القتلِ بالتَّعمُّدِ، فيكونُ وقتُ القتلِ هو وقت التَّعمُّدِ، ولمَّا كانتْ صيغةُ (تفعُّل) - الَّتي اشْتُقَّ منها اسمُ الفاعلِ، تُفيدُ تكرُّرَ الفعلِ وتكثيرَهُ[1]، ولا يتحقَّق أصلها إلَّا بإقدام متهوِّر، فيه استخفافٌ وجرأةٌ على ما هو قادم عليه؛ قامتْ صيغةُ ﴿مُّتَعَمِّدًا﴾ الدَّالَّةُ على تكرُّرِ مكابَدَةِ قصدِ الفعلِ بجدٍّ، وتكثيرِهِ مقامَ تكرُّرِ القصدِ مِنَ القاتلِ مرَّةً بعدَ مرَّة؛ ولو في لحظاتٍ قصيرةٍ، فكانَ أدعى لِحصولِ الوعيدِ العظيمِ عليهِ.

دلالة اقتران جزاء الشّرط بالفاء:

جزاءُ القاتلِ واقعٌ في وقتِ وقوعِ القتلِ العَمْدِ

الفاء في قولِه تعالى: ﴿فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا﴾؛ للاستحقاق لا للتَّعقيب، فهي أقرب ما تكون للتَّفريعيَّة، وأفادَت اقترانَ ثبوت الجزاء بوقتِ وقوعِ الشَّرطِ، والمعنى: أنَّ ثبوتَ جزاءِ جهنّمَ لقاتلِ المؤمنِ، وما اقترنَ به من أنَّ اللّه غضبَ عليه، ولَعنَهُ، وأعدَّ له عذابًا عظيمًا، كلُّها واقعةٌ في وقتِ وقوعِ قتلِ المؤمنِ؛ تحذيرًا لِلقاتلِ مِن الوقوعِ في قتلِ المؤمنِ، وتهويلًا للأمرِ عليه.

(1) الرضي، شرح الرضي على الكافية: 1/105.

إيثار لفظ جزاء على غيره:

جاء باللَّفظ المشعر باستحقاقه، وهو (الجزاء) دون غيره كـ(العقاب مثلًا)؛ لئلَّا يُتوَهَّمَ أنَّ الجزاءَ غير عادل، لعظمه وكثرته، وشدَّة هوله.

في لفظ الجزاء دفعٌ لتوَهُّمِ عدم عدالته، لعظمه، وشدَّة هوله

علَّةُ مجيءِ الجزاءِ بصيغةِ الجملةِ الاسميَّةِ:

وردَ الجزاءُ بصيغةِ الجملةِ الاسميَّةِ في قولِه: ﴿فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ﴾؛ ليُفيدَ ثبوتَ هذا الجزاءِ لقاتلِ المؤمنِ معَ تأكيدِه وتقريرِه لِمَا تحملُه الجملةُ الاسميَّةُ مِنْ معنى التَّأكيدِ، لا سيَّما ﴿أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفۡسَۢا بِغَيۡرِ نَفۡسٍ أَوۡ فَسَادٍ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعٗا﴾ [المائدة: 32].

وعدُ الله تعالى للقاتلِ ثابتٌ متحقِّقٌ وقوعُه

دلالةُ جزاءِ الشَّرط:

لمَّا كان الجزاء هو بمعنى: الكفاية في المقابلة؛ دلَّ على أنَّ ما ذُكِر من أنواع جزاء الشَّرط ليست أمرًا زائدًا على جزاء قتل المؤمن، بل هو أقلُّ الكفاية في مقابل فعله.

قتلُ المؤمنِ عمدًا أعظمُ مِنْ جميعِ العقوباتِ

دلالةُ مجيءِ الأفعالِ بصيغةِ الماضي:

مجيءُ الأفعالِ (غَضِبَ، لَعَنَ، أَعَدَّ) بصيغةِ الماضي؛ لِتدلَّ على وقوعِ الفعلِ وحصولِه، وتحقُّقِه في حالِ تحقُّقِ الشَّرطِ الَّذي هو قتلُ المؤمنِ عمدًا؛ إذ هو إعلانٌ "صريحٌ في أنَّه تعالى سَيفعلُ به ذلك - لا سيَّما - وقدْ أَخبرَ عنهُ بلفظِ الماضي؛ لِيُعلَمَ أنَّهُ كالواقعِ"[1].

بلاغة التَّقديم في الأفعال:

قدّمَ فَعْلَ الغضبِ على (لعنَ) و(أعدَّ)؛ لإفادةِ تنوُّعِ الوعيد والعقاب على قاتلِ العمدِ في ترتيبٍ تصاعديٍّ يبدأُ بالسُّخْطِ المطلقِ، ثُمَّ الإبعاد من الرَّحمة، ثمَّ تهيئة العذاب العظيم له يوم القيامة.

العقوبةُ المتنوِّعةُ تصاعديَّةٌ للقاتلِ المتعمِّد

(1) النيسابوري، غرائب القرآن: 2/475.

سرُّ مجيءِ الفعلَينِ غيرَ مقيَّدينِ:

عمومُ الغضبِ في الدُّنيا بالإعراض واللَّعن، وفي الآخرة بالعقوبة

جاءَ الفعلانِ ﴿وَغَضِبَ﴾ ﴿وَلَعَنَهُ﴾ مِنْ غيرِ تقييدٍ بكونِهما في الدُّنيا أو في الآخرةِ؛ لِيفيدَا عمومَ الغضبِ في الدُّنيا بالإعراضِ عنه، وفي الآخرة بالعقوبةِ، وعموم اللَّعنةِ في الدُّنيا، وذلك بانقطاعٍ مِنْ قبولِ رحمةِ اللّٰهِ وتوفيقِه، وفي الآخرةِ بعقوبةِ الإبعادِ مِنْ رحمتِه الَّتي هي مِنْ أشدِّ أنواعِ العذابِ.

دلالةُ الفعلِ ﴿وَأَعَدَّ﴾:

العذابُ العظيمُ بانتظار القاتل المتعمِّد

دلَّ الفعل ﴿وَأَعَدَّ﴾ على أنَّ العذابَ حاضرٌ، وقدْ هيَّأه اللّٰه تعالى، فهو متاحٌ لقاتلِ المؤمنِ عمدًا، وَهُوَ لهُ بالمرصاد.

إيثارُ التَّعبير بالمُفرد:

الوعيد للمفرد أشدُّ من الوعيدِ للمجموعِ، وأكثرُ رهبةً

آثرَ التَّعبيرَ بصيغةِ المفردِ الغائبِ؛ لِيكونَ أشدَّ عذابًا للقاتلِ، ولِمَا يحمِلُه مِنْ معنى الإفرادِ في التَّعذيبِ الَّذي هو أشَدُّ ممَّا أنْ يكونَ مع المجموعِ، كما أنَّ تهديدَ المفردِ أكثرُ رهبةً مِنْ تهديدِ المجموعِ.

دلالةُ النَّعتِ في قوله: ﴿عَذَابًا عَظِيمًا﴾:

طابقت دلالةُ التِّنكيرِ الدَّلالةَ المُعجميَّةَ

وصفَ اللّٰه تعالى العذابَ بالعظيم؛ لِيناسبَ الفعلَ العظيمَ والخطبَ الجسيم الَّذي فعلَه القاتلُ المتعمِّدُ، فناسبَ الجزاءُ العملَ، فكأنَّ الوصفَ جاءَ تعليلًا لِما ارتكبَه من الفعلِ العظيم[1]، وجاءَ النَّعتُ نكرةً؛ لِيفيدَ تعظيمَ العذابِ، فأفادت دلالةُ التَّنكيرِ الدَّلالةَ المعجميّةَ مبالغةً في تهويلِ العذاب.

(1) النسفي، مدارك التنزيل: 1/385.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبۡتُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنۡ أَلۡقَىٰٓ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسۡتَ مُؤۡمِنٗا تَبۡتَغُونَ عَرَضَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٞۚ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبۡلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ فَتَبَيَّنُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا ٩٤﴾ [النساء: 94]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

تثبيت من التَبَسَ عليه الحالُ بينَ أمرَي الإقدامِ وَالإحجامِ

لَمَّا كانَ اللهُ تعالى قدْ أَمَرَ بالجهادِ في سَبيلِه، وأكَّدَهُ بأَنواعِ المؤكِّداتِ، وَبيَّنَ قبلَ هذهِ الآيةِ المنعَ الشَّديدَ مِنْ قتلِ العمدِ، وما في قتل الخطأ من المؤاخذة الموجبة للتّثبُّت، والمنع الشَّديد من قتل العَمْد؛ كانَ رُبَّما الْتَبَسَ الحالُ بينَ أمرَي الإقدامِ وَالإحجامِ، فجاءتْ هذهِ الآيةُ بالأمرِ بالتَّثَبُّتِ[1]، تحقيقًا لصيانة الدّم، وتحرُّزًا من القتل بوصفيه الخطأ والعمد، في أكثر المواطن استدعاءً له، والتباسًا على ملابسيه.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ضَرَبۡتُمۡ﴾: فعله المجرَّد عن الضَّمير: ضرب، وهو إيقاعُ شيءٍ على شَيءٍ، والضَّرْبُ في الأَرْضِ: الذّهاب والسَّفرُ فيها لابتغاءِ الخيرِ والرّزقِ، فيكونُ الضَّربُ في الأرضِ استعارةً، أو مِنْ بابِ ضَرْبِ الأرضِ بالأرجلِ[2]، وضربتمْ بمعنى: سافَرتُم، أو جاهدتُم، والمراد في الآية الثَّاني بقرينة قوله: ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾.

2) ﴿فَتَبَيَّنُواْ﴾: أصلُ الكلمةِ: بَيَنَ، وبَانَ الشَّيْءُ وَأَبَانَ؛ إذَا اتَّضَحَ، وَانْكَشَفَ، وَفُلَانٌ أَبْيَنُ مِنْ فُلَانٍ، أَيْ: أَوْضَحُ كَلَامًا مِنْهُ، والبَيانُ: مَا بُيِّنَ بِهِ الشَّيءُ مِنَ الدَّلَالَةِ وغيرِها[3]، وتبيّن الشَّيء: توضَّح، وصار

(1) البقاعي، نظم الدرر: 5/366.
(2) الأزهري، تهذيب اللغة، والراغب، المفردات: (ضرب)
(3) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصَّل.

ظاهرًا، بحيث لا ينازع فيه منازع لوضوحه[1]، و﴿فَتَبَيَّنُواْ﴾ في الآيةِ بمعنى: فاطلبوا بيانَ الأمرِ وانكشافه،[2] وتستوضحوا جليَّته وعلى قراءةِ (فتثبَّتوا)؛ فالمعنى: فتأنَّوا، وتوقَّفُوا حَتَّى تَتَيقَّنوا صِحَّةَ الخَبَرِ[3].

3) ﴿عَرَضَ﴾: العَرَضُ ضدُّ الجَوهرِ، وهو ما لا يكونُ له ثباتٌ ولا استقرارٌ، وقولُهم: الدُّنيا عَرَضٌ حاضِرٌ، أي: لا ثباتَ لَها، وكلُّ ما هو مِنْ طَمعِ الدُّنيا عرَضٌ قَلِيلًا كَانَ أَوْ كَثِيرًا؛ لزواله، ومنه ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنۡيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۚ﴾ [آل عمران: 152]، وقد قال ابن مسعود رضي الله عنه: (فلوْ حلفت يومئذٍ؛ رجوت أن أبرَّ: إنَّه ليس أحد منَّا يريد الدُّنيا، حتَّى أنزل الله عز وجل: ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنۡيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۚ﴾ الحديث: أخرجه الإمام أحمد[4] وذكره ابن كثير عند تفسير الآية، وهو نصٌّ فيما ذهبنا إليه لا يُعْدل به، ولا يُعدل عنه[5].

4) ﴿مَغَانِمُ﴾: جمعُ مَغْنَم مِنَ الغُنْمِ، وهو الظَّفرُ بالشَّيء، والفَوزُ به من غيرِ مشقَّةٍ، والاغتنامُ: انتهازُ الغُنْمِ، يُقَالُ: اغتنَمَ الفُرصةَ، وانتَهزَها، بِمَعْنًى وَاحِدٍ، والغنيمةُ: المالُ الَّذي يُظفَرُ في الحربِ وغيرِها[6]، و﴿مَغَانِمُ﴾ في الآيةِ بمعنى: رزقِ اللّهِ وفواضلِ نِعَمِهِ[7].

5) ﴿فَمَنَّ﴾: الفعل منَّ يمنُّ (مَنًّا)، والاسْمُ: المِنَّةُ، ويقال أيضًا: امْتَنَّ عَلَيْهِ، بمعنى: أَحسنَ، وأَنعمَ، وصنعَ صُنعًا جميلًا، ولا يكونُ الإحسانُ بالأفعالِ منّةً إلَّا إذا كانت ثقيلةً، يقال: مَنَّ عليه؛ إذا أثقلَه بالنِّعمةِ، وَمَنَنْتَ عَلَيْهِ مَنًّا بمعنى: عَدَدْتَ لَهُ مَا فَعَلْتَ لَهُ مِنْ صنَائِعِ المعروفِ والإحسانِ، والمَنُّ مِنَ اللّهِ ممدوحٌ، ومِنَ النَّاسِ مذمومٌ؛ لِأَنَّهُ تَعييرٌ وتكديرٌ، فالنِّعَمُ كلُّها على الحقيقةِ لا تكونُ إلَّا مِنَ اللّهِ تعالى[8].

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب، والسمين، عمدة الحفاظ: (بَيَنَ).
(2) الآلوسي، روح المعاني: 3/114.
(3) ابن زنجلة، حجة القراءات: 1/209.
(4) حديث رقم: 4414.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (عَرَضَ).
(6) الأزهري، تهذيب اللغة، والراغب، المفردات: (غنم).
(7) ابن جرير، جامع البيان: 9/71.
(8) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (منن)، والطيبي، فتوح الغيب: 14/519.

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

المُبَالَغَةُ فِي تَحْرِيمِ قَتْلِ المُؤْمِنِينَ، وَأَمْرُ المُجَاهِدِينَ بِالتَّثَبُّتِ فِيهِ

المَقْصُودُ مِنْ هَذِهِ الآيَةِ المُبَالَغَةُ في تَحْرِيمِ قَتْلِ المُؤْمِنِينَ، وَأَمْرُ المُجَاهِدِينَ بِالتَّثَبُّتِ فِيهِ؛ لِئَلَّا يَسْفِكُوا دَمًا حَرَامًا بِتَأْوِيلٍ ضَعِيفٍ، وفيها ينادي اللّه تعالى - نداءَ تحبُّبٍ وتقرُّبٍ - الَّذين صدَّقوا اللّه ورسولَه وعملُوا بشرعِهِ: إذا خرجتُمْ في الأرضِ مجاهدينَ في سبيلِ اللّهِ؛ فكونوا على بيِّنَةٍ ممَّا تأتونَ، وتتركونَ، ولا تعجَلُوا، ولا تَنْفُوا الإيمانَ عنْ مَنْ استسْلمَ لكمْ، فلمْ يقاتلْكُمْ، مظهِرًا لَكمْ شيئًا مِنْ علاماتِ الإسلامِ؛ لِاحتمالِ أنْ يكونَ مؤمِنًا يُخفِي إيمانَهُ، فتقتلوهُ، طالبينَ بذلكَ متاعَ الحياةِ الدُّنيا، واللّه تعالى عندَهُ مِنَ الرِّزقِ وفواضلِ نعمِهِ ما يُغنيكُمْ بِهِ، كما استخفى هذا - الَّذي قتلتموهُ، وأخذتُمْ مالَهُ بدينِه - مِنْ قومِه أنْ يُظهرَه لَهم؛ حذرًا على نفسِهِ منهم، كذلكَ كنتُمْ في بدءِ الإسلامِ تُخفونَ إيمانَكمْ عن قومِكمْ مِنَ المشركينَ، فَمَنَّ اللّه عليكُم، وأعزَّكمْ بالإيمانِ والقوَّةِ، فكونوا على بيِّنةٍ ومعرفةٍ في أمورِكمْ، إنَّ اللّه تعالى عليمٌ بكلِّ أعمالِكمْ، مطَّلعٌ على دقائِقِ أمورِكمْ، وسيجازيكُمْ عليها[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ النِّداءِ في قولِه: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾:

التَّبيُّن والتَّثبُّت من مقتضيات الإيمان

النِّداءُ على معنى طلبِ إقبالِ المؤمنينَ إلى اللّهِ، ففيهِ تقريبٌ وتودُّدٌ، وجاءَ بالاسمِ الموصولِ دونَ أنْ يقولَ: (يا أيُّها المؤمنون)؛ لِلإشارةِ إلى أنَّ وصفَ الإيمانِ قد حصلَ الاتِّصافُ بهِ منذُ الزَّمنِ الماضي، فيكونُ الطَّلبُ الَّذي يحصلُ بعدَ النِّداءِ أدعى إلى الامتثالِ؛ لِبنائِهِ على الإيمانِ الحاصلِ، ويُشعِرُ البناءُ على وصفِ الإيمانِ أنَّ التَّبيُّنَ المذكورَ مِنْ مقتضياتِ الإيمانِ.

(1) ابن جرير، جامع البيان: 9/70، والرازي، مفاتيح الغيب: 11/191، ولجنة من علماء التفسير، التفسير الميسر/93.

شهادةُ الإسلام، وتحيَّتُه تَكفيان في منعِ القتلِ في الحربِ

ويُشعِرُ النِّداءُ بـ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ أَنَّ الْبَاعِثَ عَلَى قَتْلِ مَنْ أَظْهَرَ قولًا أو فعلًا دالًّا على الْإِسْلَامِ - وإن كانَ الْمُظْهَرُ سمةً قليلةً - مَنْهِيٌّ عَنْهُ، وَلَوْ كَانَ قَصْدُ القَاتِلِ الحِرْصَ عَلَى تَحَقُّقِ أَنَّ وَصْفَ الإِيمَانِ ثَابِتٌ لمن أراد قتله، فَإِنَّ هَذَا التَّحَقُّقَ غَيْرُ مُرَادٍ لِلشَّرِيعَةِ، وَقَدْ نَاطَتْ صِفَةَ الإِسْلَامِ بِقَوْلِ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ، أَوْ بِتَحِيَّةِ الْإِسْلَامِ، وَهِيَ: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ، فيُكتفى بهذا في منع القتل[1]، بالكفِّ عن معالجته، فذلكم التَّثبُّت بسبيل التَّبيُّن.

بلاغةُ الكنايةِ في قولِه: ﴿ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾:

وجه الكناية الإِسْرَاعُ فِي السَّيْرِ في الغزو

الضَّرْبُ في سبيل الله مَعْنَاهُ: السَّيْرُ في الأرضِ بالسَّفَرِ لِلْجِهَادِ والغزو، فإنَّ قوله: ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ تركيبٌ: إذا اقترنَ بالضَّربِ؛ قُصِدَ به الغزوُ والجهادُ قطعًا[2]، وَهُوَ كِنَايَةٌ عَنِ الْإِسْرَاعِ فِي السَّيْرِ في الغزو، فَإِنَّ مَنْ ضَرَبَ إِنْسَانًا كَانَتْ حَرَكَةُ يَدِهِ عِنْدَ ذَلِكَ الضَّرْبِ سَرِيعَةً، فَجُعِلَ الضَّرْبُ كِنَايَةً عَنِ الإِسْرَاعِ فِي السَّيْرِ[3].

دلالةُ الحالِ بينَ التَّقييدِ وبيانِ الغالبِ:

وجوب التَّبيُّن والتَّثبُّت على جهة المبالغة؛ حقنًا للدِّماء واحتياطًا لمن أظهر شيئًا من الإسلام اتِّقاءً واحتماءً

جاء قولُهُ: ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ حالًا من ضمير ﴿ضَرَبْتُمْ﴾، ولا يُقصدُ بالحالِ هنا تقييدُ الضَّربِ، فيكونُ الأمرُ بالتَّبيُّن والتَّثبُّت مخصوصًا بحالِ الحربِ، بل ذُكِرَتِ الحالُ لبيانِ الغالبِ، فإنَّه لَمَّا كَانَ خَفَاءُ هذه الأمور مَنُوطًا بِالْأَسْفَارِ وَالغزوات؛ قَالَ: ﴿إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، وَإِلَّا؛ فَالتَّثَبُّتُ وَالتَّبَيُّنُ لَازِمٌ فِي قَتْلِ مَنْ تَظَاهَرَ بِالْإِسْلَامِ فِي السَّفَرِ وَفِي الْحَضَرِ[4].

سرُّ التَّعبيرِ عن التَّبيُّنِ بصيغةِ (التَّفعُّل):

تدلُّ الصِّيغةُ على معنى الطَّلبِ، فإنّ (تفعَّلَ) هنا بمعنى: استفعل،

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 5/167.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 5/167.
(3) الرازي، مفاتيح الغيب: 2/11.
(4) أبو حيان، البحر المحيط: 4/31.

والمعنى: اطلبوا بيانَ الأمرِ وثباته، ولا تتعجَّلوا فيه عن غيرِ رويَّةٍ[1]، وإنَّما جاء الطَّلبُ بصيغةِ (تفعّل)؛ لإفادةِ التَّكثيرِ والتَّقوِّي، أي: شِدَّة طَلَبِ الْبَيَانِ والتَّأَمُّلِ الْقَوِيِّ[2]، بمعنى: تكثيرِ طلبِ التَّبيُّنِ والتَّثبُّتِ، أي: إنَّه، وإنْ عُلمَ كفرُه، أو أنَّهُ من المحاربين، وغلبَت صحَّتُهُ على الظّنِّ؛ فلابدَّ مِنْ أنْ يُعادَ النَّظرُ فيه قبلَ الإقدامِ، فهذا هو معنى تكثيرِ التَّبيُّنِ والتَّثبُّتِ.

وجوب المبالغةِ في التَّبيُّنِ والتَّثبُّتِ حفظًا لِلدِّماءِ

والمراد منه أيضًا بذلُ الوِسْع، وإن كان فيه شيءٌ من مغالبة النَّفس وقهرها حملًا لها على الإمساك عن رَهَقِ السَّيف، فذلك أحمدُ عاقبةً من إزهاق النَّفس المظنون عصمتها وخلوُّ ساحتها عن موجب الإزهاق.

توجيه القراءاتِ القرآنيَّةِ في لفظ ﴿فَتَبَيَّنُواْ﴾:

التَّثَبُّتُ سَبَبٌ للتَّبيُّنِ وقَلَّمَا يَكُونُ تبيُّنٌ إلَّا بَعْدَ تَثَبُّتٍ

قرأ حمزة والكسائيُّ وخلف بن هشام البزَّار: ﴿فَتَثَبَّتُوا﴾ بالثَّاء المثلَّثة قبلها تاء، والكلمة من التَّثبُّت: وهو التَّوقُّف والتَّطلُّع والنَّظر الفاحص المدقِّق، وقرأ نافع وأبو جعفر وابن كثير وأبو عمرو ويعقوب وابن عامر وعاصم كلُّهم: ﴿فَتَبَيَّنُواْ﴾ من التَّبيُّن: وهو التَّعرُّف والاطِّلاع والاهتداء إلى البيِّنة[3]، ويمكنُ إيجازُ الفرقِ الدَّلاليِّ بينَ القراءتين بما يأتي:

ذهبَ بعضُ المفسِّرينَ إلى أنَّ القراءتين بمعنًى واحدٍ، أو أنَّ المعنيينِ متقاربانِ، فيقالُ للرَّجلِ: لا تعجلْ بإقامةٍ حتَّى تَتَبيَّنَ، وحتَّى تَتَثَبَّتَ؛ لِأَنَّ تَبَيُّنَ الرَّجُلِ لَا يَقْتَضِي أَنَّ الشَّيْءَ بَانَ، بَلْ يَقْتَضِي مُحَاوَلَةً لِلتَّبَيُّنِ، كَمَا أَنَّ (تَثَبَّت) يَقْتَضِي مُحَاوَلَةً لِلتَّثَبُّت، فَهُمَا سَوَاءٌ[4].

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 2/218.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 5/167.
(3) ابن مجاهد، السبعة: 236.
(4) الرازي، مفاتيح الغيب: 11/189.

وذهبَ النَّحَّاسُ والرَّاغبُ الأصفهانيُّ وغيرُهما[1] إلى أنّ قراءةَ ﴿فَتَبَيَّنُواْ﴾ أبلغ من حيثُ المعنى؛ لأنَّ التَّثبُّتَ إنَّما هو لأجل التَّبيُّن، وَالتَّثَبُّتُ إِنَّمَا هُوَ سَبَبٌ لَهُ، فقَلَّمَا يَكُونُ التَّبيُّنُ إِلَّا بَعْدَ تَثَبُّتٍ، وقد يكونُ التَّثَبُّتُ، ولا يكونُ التَّبَيُّنُ، فقد يحصلُ السَّببُ، ولا يحصلُ المسبَّبُ.

ويمكنُ الجمعُ بينَ القراءتينِ بطريقتينِ:

الأولى: بالنَّظرِ إلى مآلِ المعنيينِ والمقصود منهما، فإنَّ مآلَ المعنيينِ: هو النَّهيُ عنِ التَّعجُّلِ بأنْ يكونَ حكمُ المؤمنينَ سليمًا لا خطأَ فيه، فإنَّ طلبَ الشَّيءِ يستلزمُ النَّهيَ عن ضدِّه عُرفًا، ولمّا كانَ مآلُ المعنيين واحدًا؛ فلا تبايُنَ في القراءتينِ، ولا تخالُفَ في المعنى، فقدْ كانَ جمهور المفسِّرين يُتبعونَ معنى ﴿فَتَبَيَّنُواْ﴾ أو﴿فَتَثَبَّتُوا﴾ بقولِهم: (فَلا تتعجَّلوا)[2]، فَمَنْ قرأَ ﴿فَتَبَيَّنُواْ﴾؛ فعلى معنى بيانِ الأمورِ واستيضاحِها والتَّأنِّي فيها، ومآله إلى النَّهيِ عنِ التَّعجُّلِ، ومَنْ قرأَ ﴿فَتَثَبَّتُوا﴾؛ فعلى معنى طلبِ التَّثبُّتِ الَّذي هو خِلَافُ الْإِقْدَامِ، بحيثُ لا يتبدَّلُ الحكمُ، ولا يحتملُ نقيضَ ما بَدَا للمؤمنينَ، ومآلُه إلى النَّهيِ عن التعجُّلِ كذلك، وجاءَ بصيغةِ الإيجابِ دونَ السّلبِ؛ لِمناسبةِ المقامِ الَّذي يقتضي تقريرَ البيانِ والتَّثبُّت مِنَ الحُكمِ لا نفي ضدَّه فحسبُ، وذلك أنّ التَّبَيُّن: هو التّمييز، والتَّثبُّتَ: هو التَّوقُّف.

والأخرى: بالنَّظرِ إلى مراعاةِ المعنى ومراعاةِ اللَّفظِ، مِنْ غيرِ ترجيحٍ لإحداهما على الأخرى في الأبلغيَّةِ، فكلتاهما في أعلى سُدَّة البلاغة في هذا المقام، فيقالُ: إنَّ قراءةَ ﴿فَتَبَيَّنُواْ﴾ أبلغُ مِنْ حيثُ المعنى؛ فإنَّ المقصودَ هو الاتِّضاحُ والانكشافُ بحيثُ لا ينازِعُ فيه منازِعٌ لِوضوحِهِ، وقراءةُ ﴿فَتَثَبَّتُوا﴾ أبلغُ مِنْ حيثُ السِّياقُ واللَّفظُ؛ لِأنَّ التَّثبُّتَ يناسِبُ مقامَ الضَّربِ في سبيلِ اللّهِ، وما يدلُّ عليه الضَّربُ مِن معنى الإسراعِ فيه، وأشعرَ بقريبٍ من هذا المعنى ما نقلَه أبو حيَّانٍ عن أبي عليٍّ الفارسيِّ حينَ رأى أنَّ التَّثَبُّتَ أَشَدُّ اخْتِصَاصًا بِهَذَا الْمَوْضِعِ[3].

ورودُ النَّهي بعدَ الأَمرِ:

وردَ قوله: ﴿وَلَا تَقُولُواْ﴾ بعد قوله: ﴿فَتَبَيَّنُواْ﴾ لاختلافِ الطَّلبين، فالأمرُ بالتَّثبُّتِ يكونُ

(1) النحاس، إعراب القرآن: 1/233، والجصاص، أحكام القرآن: 3/226.
(2) الرازي، مفاتيح الغيب: 11/189، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/31، والجصاص، أحكام القرآن: 3/226.
(3) أبو حيان، البحر المحيط: 4/31.

بالنَّظر العقليِّ، وبالفعل عن طريق التَّحرِّي، والنَّهي ورد عن القول؛ ليشمل مجيءُ الطَّلب بالأمر والنَّهي كلَّ أنواع التَّحرُّز والتَّحفُّظ عن قتل المؤمن خطأً أو عمدًا، كما يشعرُ النَّهيُ عن تركِ التَّبيُّنِ بعدَ الأمرِ به بالتَّأكيدِ والتَّشديدِ[1].

شمولُ الطَّلَبِ كلَّ أنواعِ التحرُّزِ عن الخطأِ

بلاغة التَّعبير عن السَّلام بالإلقاء:

من جماليَّات التَّعبير في الآية قوله: ﴿أَلۡقَىٰٓ إِلَيۡكُمُ﴾؛ إذ فيه إشعارٌ بالاعتناء برفع قيمة كلِّ ما يصدر من ذي حال؛ طلبًا لحقن دمه وسلامة روحه، وإعلاء للسِّلم وإغلاء للحياة، وأنَّ الأسلوب النَّاهي في الآية ما هو إلَّا انبراء للدِّفاع عنه، مُتَبَنٍّ حجَّته، مُقَوٍّ ضعْفه، هكذا يفعل القرآن العظيم، وهو يدلي بهذه المرافعة الآسرة والمدافعة الباهرة، والمحاججة الآمرة في وجه تابعيه في أقوم بيان وأخلده، يقوِّي وهن العائذ اللَّائذ المتّقي القتل بما ينبسُّ به، ولا يُحسن غيره، ويرفع خسيسته، ويُعلِي صوته، وَيُبْلِغ حجَّته، ويكفُّ عنه أعوانه وناصريه من الأتباع، فيا له من دين عظيم، ذي خير عميم، وهَدْي كريم، ونظرٍ قويم، وقلب سليم!

في الإلقاء إشعارٌ بالاعتناء، وطلبٌ لحقن الدَّم، وسلامة الرُّوح

توجيه القراءات القرآنيَّة في لفظي: ﴿ٱلسَّلَمَ﴾، و﴿مُؤۡمِنٗا﴾:

قرأ نافع، وأبو جعفر، وابن عامر، وحمزة وخلف: ﴿ٱلسَّلَمَ﴾ بغير ألف، على معنى: (الوفاض والاستسلام والإعطاء باليد) على حين قرأ ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب وعاصم والكسائيُّ بألف بعد اللَّام هكذا: ﴿ٱلسَّلَٰمَ﴾[2] على معنى: التَّحيَّة، ولكلٍّ من القراءتين ما يتعلَّق به الحكم من أثرٍ في المعنى بديع رفيع نعرض له فيما يأتي:

فالسَّلام يجوز أنْ يكونَ بمعنى: التَّسليم من قولِهم: (السَّلام عليكم)، أو ما هو بِمعناه؛ لِأنَّ التَّسليمَ من علاماتِ الإسلامِ، كما

(1) القونوي، حاشية القونوي على أنوار التنزيل: 7/267.

(2) ابن الجزري، النشر: 2/251.

أَنَّهُ تَحِيَّةُ الْمُؤْمِنِينَ وَعَلَامَةُ الْأَمْنِ وَالاسْتِئْمَانِ؛ لِيكونَ النَّهيُ عن إِنْكَارِ إِسْلَامِ مَنْ يَدَّعِي الْإِسْلَامَ، وَلَوْ بِإِلْقَاءِ تَحِيَّتِهِ، فَكَيْفَ بِمَنْ يَنْطِقُ بِالشَّهَادَتَيْنِ؟ كما أَنَّ إِلْقَاءَ السَّلَامِ قَدْ يَكُونُ إِلْقَاءً لِلسِّلْمِ وَإِيذَانًا بِعَدَمِ الْحَرْبِ[1].

إلقاء السّلام قد يكون جنوحًا للسّلم وقبولًا للسّلْم وإيذانًا بعَدَم الحرب

ويجوز أنْ يكونَ بمعنى: الاستسلامِ، وتجري الاستعارةُ في هذا المعنى على قراءةِ ﴿ٱلسَّلَمَ﴾.

أمَّا القراءة بِفَتْحِ السِّينِ وَاللَّامِ مِنْ غَيْرِ أَلِفٍ[2]؛ فبمعنى: الاستسلامِ وإلقاءِ المَقادةِ إلى إرادَةِ المسلمين[3]، وعلى هذهِ القراءةِ وهذا المعنى تجري الاستعارةُ، فقد عبّرَ عن الانقيادِ والاستسلامِ بـ(إلقاءِ السَّلَم)، وقيَّدَ الإلقاءَ بـ﴿إِلَيۡكُمُ﴾، فشبَّهَ السَّلَمَ بالمحسوسِ الَّذي يُطْرَحُ عند المسلَّم له؛ لِيفيدَ نفيَ تملُّكِهِ له، ولِيكونَ بأمرِ المسلَّم له، لِأَنَّ مَنْ سلَّمَ شيئًا ألقاهُ، وطرحَه عندَ المسلَّم له[4]، فحذفَ المشبَّهَ بهِ، وأبقى المشبَّهَ على طريقة الاستعارةِ المكنيَّةِ، بقرينةِ ﴿أَلۡقَىٰٓ إِلَيۡكُمُ﴾، وأفادتِ الاستعارةُ هنا: أنَّ مطلَقَ الاستسلام - بأيِّ طريقةٍ كانَت بالقول أو بالفعل - يقتضي الإيمانَ، فيتوجَّهُ النَّهيُ إلى نفيِ إيمانِه.

في السَّلَمِ وجهُ استعارةٍ يُفيدُ أنَّ مطلَقَ الاستسلام يقتضي الإيمانَ

انفرد ابن وردان بروايته عن أبي جعفر يزيد بن القعقاع المدنيِّ في أحد وجهيْه أداءً: ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَنۡ أَلۡقَىٰٓ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَمَ لَسۡتَ مُؤۡمِنٗا﴾ بفتح الميم الثَّانية من (مُؤْمَن) على زنة اسم المفعول، مع إبدال الهمز السَّاكن في كلمته هذه واوًا في القراءة تخفيفًا، وهذه القراءة هي لبُّ لباب ما نحن بصدده، والمعنى: أنَّ اللّٰه ينهاهم أن يباعدوا بين مبْتَغي الأمان وبين مُبْتَغَاه، بل عليهم أن يُدْنُوهُ من

في فتح ميم (مؤمن) الثَّانية حثٌّ على العطف، والملاطفة، وتهدئة الرَّوع

(1) رضا، تفسير المنار: 5/282.
(2) ابن مجاهد، السبعة، ص: 236.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 9/70، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/31.
(4) الخفاجي، عناية القاضي: 3/327.

غايته، وأنْ يُهَدِّئوا روْعَه، ويُلقوا إليه ما يلتقط بسماعه أنفاسه، في حسٍّ إنسانيٍّ عاطف ملاطفٍ يشهد أنّ القرآن كتاب الإسلام قد أعلى شأن الحياة ووهبها لكلِّ حريص عليها، وانظر كيف وصاته بالمشركين في آيات كثر، منها هذا الَّذي نحن بصدده، ومنها قوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ۝٦﴾ [التَّوبة: 6]، ويقول: ﴿فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ۝٧﴾ [التَّوبة: 7]

فما أعظمَهُ من هدًى ونور أريد للإنسانيَّة كلِّها وللبشريَّة جمعاء أن تنعم به، وأن تستروح ملتقطة أنفاسها اللّاهثة في ظلاله!

دلالةُ التَّنكيرِ في قولِهِ: ﴿مُؤْمِنًا﴾:

أقـــلُّ وصـــفٍ للإيمان، وأدنى تحقُّقٍ له يُكتفَى بهِ

دلَّ مجيءُ الاسم نكرةً على أنَّ النَّفيَ يستغرقُ عمومَ الوصفِ بالإيمانِ، والمعنى: نفيُ أنْ يكونَ له أيُّ وصفٍ من أوصافِ الإيمانِ؛ وإنْ كانَ قليلًا، والمقصودُ أنَّه ما دامَ قدْ ألقى السَّلامَ على المؤمنينَ، فلا يَحِقُّ لهم نفْيُ الإيمانِ عنهُ، فيُقبَلُ منه هنا ما أظهرَهُ، ويُكتفَى به.

وجه التَّعبير عن الإيمان باسم الفاعل:

الإمـــســـاكُ عن قتل المؤمن مع الـــقـــدرة عليه مـــراقـــبـــةٌ لـلـه، وامتثالٌ لحكمه

دلالة اسم الفاعل على الاستقبال، تجعل قول القائل: ﴿لَسْتَ مُؤْمِنًا﴾: تعدِّيًا بالنَّفي، يجاوز نفي الإيمان عن المقول له في الحال، إلى نفي ذلك عنه في الاقتبال، وذلك في طيِّه شبهة سوء الظّنِّ بالمقول له فيما بدر منه، كأن يُظَنُّ به قول ما قال تعوُّذًا ينطوي فيه الغدر والمخاتلة والخداع، فكان النَّهي عن مباشرة قتله على تلك الحال؛ موحيًا له بأن الكفَّ عنه، والإمساك عن قتله مع القدرة عليه مراقبةً للّه وامتثالًا لحكمه، كِفْلٌ بأن يُلقي في نفسه حبَّ اللّه، والإيقان بجدوى الاعتزاز به وأن يغريَه ذلك بإظهار ما استبطن من أمر إيمانه بإعلانه، وأن تكون تلك الحادثة بارقة شرح الصّدر ونبذ الكفر ولزوم الطُّهر.

إيثار التَّعبيرِ بفعل الابتغاء:

في التَّعبير ذمٌّ لما ظاهرُهُ غنيمةٌ، وحقيقتُه عَرَضُ الحياةِ الدُّنيا

لَمَّا كانتْ كلمةُ (تبتغي) تدلُّ على الضَّالَّةِ المَبْغيَّةِ والحاجةِ المطلوبةِ[1]، وكانت صيغةُ ﴿تَبْتَغُونَ﴾ تدلُّ على الاجتهادِ في الطَّلبِ أو المبالغةِ في معناه، فهي أليق بما نحن فيه إيجازًا ودلالة ووفاء بالمعنى؛ بسببِ مجيئِها على صيغةِ (افتَعَلَ)[2]، فصاروا بسبب فعلِهم كأنَّهم كانوا يبالغونَ في طَلَبِ من لا يَتَبيّنُ حالُه؛ لِحاجةٍ في أنفسِهم، وليس في سبيلِ اللّهِ، ولإفادةِ أنَّ الشَّيءَ المنفَّر عنه بنسبتهم إلى طلبه رغم كونه مذمومًا، شأنه كأنَّه كانَ ضالًّا عنهم، فألفوه، وحَصَلوا عليه رغبةً لأنفسِهم، فظاهرُهُ غنيمةٌ، وحقيقتُه عَرَضُ الحياةِ الدُّنيا.

نكتةُ التَّعبيرِ بـ﴿عَرَضَ﴾:

المعصيةُ تُحوِّلُ وصفَ المالِ من المحمودِ إلى المذمومِ

عبّر عن متاع الدُّنيا بالعَرَضِ، ولم يقلْ مثلا: (غنيمةً)؛ لِما في تركِ التَّبيُّنِ والتَّثبُّتِ من مخالفةٍ لأمرِ اللّهِ تعالى، فتحوّلَ وصفُ المالِ من الغنيمةِ المحمودةِ إلى عَرَضِ الحياةِ الدُّنيا الزَّائلِ المذموم، كما أنَّ ﴿عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ يدلُّ على حُطامِ الدُّنيا الفاني؛ لأنَّه مهما يكن زائل غير ثابت، فهو عارض لَا يدوم[3].

وجْهُ ذكرِ كلمةِ ﴿ٱلْحَيَوٰةِ﴾:

الخروجُ إلى الجهادِ يناقضُ طلبَ عَرَضِ الحياةِ الدُّنيا

ذكرَ كلمةَ ﴿ٱلْحَيَوٰةِ﴾ هنا، ولم يقلْ: (تبتغونَ عَرَضَ الدُّنيا)؛ لِمناسبةِ المقامِ، وهو التَّصريحُ بأنَّ الغايةَ من الإقدامِ على القتلِ من غيرِ تبيُّنٍ أو تثبُّتٍ هو التنعُّم بما هو زائلٌ في هذه الحياة الدُّنيا، وهو مناقضٌ للخروجِ إلى الجهادِ في سبيلِ اللّه، فكأنَّ ذكرَ ﴿ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ تذكيرٌ بأنَّ الضَّربَ في سبيلِ اللّه لا يناسبُ ابتغاء الحياةِ الدنيا؛ لِأنَّهم معرَّضون في الجهادِ إلى الموتِ، فكيف، والمبتغى هنا عَرَضٌ من عروضها، وليس بها كلِّها؟

(1) ابن منظور، لسان العرب: (بغى).
(2) الرضي، شرح الشافية: 1/110.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 4/1809.

إشعارُ جملة الحالِ بعلَّةِ الإقدامِ على القتلِ:

الدَّاعِي إِلَى تَرْكِ التَّثَبُّتِ أَوِ التَّبَيُّنِ هُوَ طَلَبُ عَرَضِ الدُّنْيَا الزَّائِل

تشعرُ جملة الحال: ﴿تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ بأَنَّ الدَّاعِيَ إِلَى تَرْكِ التَّثَبُّتِ أَوِ التَّبَيُّنِ هُوَ طَلَبُكُمْ عَرَضَ الدُّنْيَا، فهو الحامل لهم على القتل[1]، أي: غالبًا لا دائمًا، فكأنَّها جاءت في مقام التَّعليل، ومجيءُ جملةِ الحالِ مشعرة بالتَّعليلِ من لطائفِ القرآنِ الكريمِ.

وجهُ تضمينِ الكلامِ معنى التَّوبيخِ والإنْكارِ:

في معنى التَّوبيخ مبالغةٌ في النَّهي عن التَّعجُّل في القتل

اقتضى هذا الإشعارُ أنْ يتضمّنَ الكلامُ معنى التَّوبيخِ على العجلةِ في القتلِ من غيرِ تبيُّنٍ من حالِ المقتولِ أو تثبُّتٍ منه، والمعنى على المبالغةِ في النَّهيِ والإنكارِ، أي: لا تَبتغُوا عَرَضَ الحياةِ الدُّنيا مِنْ وراءِ القتلِ؛ لأنَّ اللّٰه عندهُ مغانمُ كثيرةٌ[2].

دلالةُ الفاءِ في قوله: ﴿فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ﴾:

قتل المؤمن لأجل الغنيمة جحدٌ لما عند الله من مغانم كثيرة أنفع

لمَّا كانَت الحالُ وقد قدَّمنا أنّها للتّعليل في معنى الإنكارِ والتَّوبيخِ، وهو خبرٌ يتضمَّنُ معنى النَّهيِ، بمعنى: لا تبتغوا عَرَضَ الحياةِ الدُّنيا؛ أتبعَهُ بقوله: ﴿فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ﴾؛ لِتكونَ الفاءُ سببيَّةً بمعنى: أنَّ ما بعدَها مترتِّبٌ على نهيٍ سبقَها؛ فتدلُّ الفاءُ على تعليلٍ لنهيٍ ضمنيٍّ أشعرتْ به جملةُ الحالِ، والتقديرُ: "لا تقتلوا النّاسَ لأجلِ المالِ والغنيمةِ"[3]؛ فعندَ اللّٰهِ مغانمُ متنوِّعةٌ كثيرةٌ، وفيه توجيه إلى أنّ من ترك شيئًا للّٰه في الحرام عوَّضه اللّٰه خيرًا منه في الحلال.

بلاغةُ التَّقديم والتَّأخير في الآية:

المغانمُ الكثيرةُ هي عندَ اللهِ وليست عندَ غيرِه

قدّمَ الظرف (عند) على المغانم في قوله: ﴿فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ﴾؛ لإفادةِ الاهتمامِ والتَّخصيصِ، فالمغانمُ الكثيرةُ هي عندَ اللّٰهِ، وليستْ عندَ غيرِه، فيلزمُ امتثالُ أوامرِ اللّٰهِ والتَّبيُّنُ والتَّثبُّتُ،

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 3/331.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 4/31.
(3) الباليساني، حسن البيان: 2/577.

وفي الكلام وعدٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى للمؤمنين بالمغانم الكثيرةِ بِمَا يَأْتِي بِهِ عَلَى وَجْهِهِ وَمِنْ حِلِّهِ دُونَ ارْتِكَابِ مَحْظُورٍ[1].

بديعُ التَّعبيرِ بصيغةِ المغانم:

جمع الغنيمة وتنكيرُها؛ لإفادة التَّكثيرِ والتَّفخيمِ والمبالغة

تدلُّ صيغةُ منتهى الجموعِ على المبالغةِ والنِّهايةِ في المغانم، وجاءت نكرةً لإفادةِ كثرةِ أنواعِها، ثُمَّ زادها مبالغةً بوصفِها بـ﴿كَثِيرَةٌ﴾ أي: كثيرةُ الأنواعِ وكثيرةُ العددِ وكثيرة البركة، ووردتْ بصيغةِ النَّكرةِ لإفادةِ التَّعظيمِ والتَّفخيم، ففي الوصفِ مبالغةٌ فوقَ مبالغةٍ؛ لِمَا عندَ اللّهِ من مغانمَ كثيرةٍ لا تُحصَى.

علَّةُ إيثارِ ذكرِ حرفِ الجرِّ ﴿مِّن﴾:

الاعتبارُ بتمثُّلِ الحالَةِ واستذكارها بتحديدِ الوقتِ

يدلُّ حرف الجرِّ ﴿مِّن﴾ في قولِه: ﴿مِّن قَبْلُ﴾ على ابتداءِ الغايةِ الزَّمانيَّةِ، ففيهِ إلماح إلى أنْ تعتبروا بحالكم وقت أن كنتم تتخفَّوْن بإسلامكم كما يفعل بعضٌ الآن؛ لِيكونَ أدعى إلى تمثُّلِ الحالةِ وتذكُّرِها، فيقعَ الاعتبارُ بها، ولو لم يذكرْ ﴿مِّن﴾؛ لَدَلَّ على الزَّمنِ الَّذي قبلَ زمنِ التَّحدُّثِ مطلَقًا، فيضعفُ الاعتبارُ في مقامِ تذكُّرِ حدث مقصود ينبني عليه حكمٌ له شأنٌ عظيمٌ.

سرُّ تقديمِ خبرِ (كان):

التَّقديم لتأكيد المشابهة

تقديمُ خبرِ (كان) في قوله: ﴿كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ﴾؛ للقَصْرِ المفيدِ تأكيدَ المشابهةِ بين طرفي التَّشبيه، وذلك إشارةٌ إلى الموصولِ باعتبارِ اتِّصافه بما في حيِّزِ الصِّلةِ، والفاءُ في ﴿فَمَنَّ﴾ للعطفِ على ﴿كُنتُم﴾، أي: مثلَ ذلك الَّذي ألقى إليكم السَّلامَ، كنتم أنتم أيضًا في مبادئِ إسلامِكمْ لا يظهرُ منكم للنَّاسِ غيرُ ما ظهرَ منه لَكم منْ تحيَّةِ الإسلامِ ونحوِها، فَمَنَّ اللّهُ عليكم بأنْ قَبِلَ منكم تلكَ المرتبةَ، وعَصَمَ بها دماءَكم وأموالَكم، ولم يأمُرْ بالتَّفحُّصِ عن سرائرِكُمْ[2].

(1) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 5/340.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 2/218.

نكتةُ إيثارِ ﴿فَمَنَّ﴾ دونَ (فأَنْعَمَ):

المِنَّةُ تكونُ عظيمةً وغيرَ مقطوعةٍ ولا منقوصةٍ

لقد كانَ إظهارُ الإسلامِ بقوَّةٍ - بعدَ التَّخفِّي والخوفِ والرَّهبةِ - من أجَلِّ النِّعَمِ ومِنْ صنائِعِ الإحسانِ العظيمةِ الَّتي أعطاها اللّٰهُ تَفَضُّلًا منه على المؤمنين، بحيثُ قطعَ حاجتَهم، وغيّرَ حالَهم إلى الأَحسنِ، فالمِنَّةُ تكونُ غيرَ مقطوعةٍ ولا منقوصةٍ[1]، وتكون فيما يُستكْثر ويُسْتَعظم، كما يُشعِرُ به معنى لفظِ (مَنَّ)، وكان المقامُ مقامَ تعدادِ نِعَمِ اللّٰهِ على المؤمنين؛ ليَقعَ امتثالُ المؤمنين لِأمرِ اللّٰهِ؛ آثرَ ذكرَ (مَنَّ) دونَ (أَنْعمَ)، وفي الآيةِ إشعارٌ بإعجازِ القرآنِ؛ إذْ في الكلامِ بشارةٌ للمؤمنينَ ببقاءِ ظهورِ الإسلامِ وانتهاءِ أمرِ التَّخفِّي بهِ؛ لِأنَّ المِنَّةَ تأتي في مقامِ دوامِ النِّعمةِ الثَّقيلةِ العظيمةِ.

دلالةُ حرفِ الاستعلاءِ (على):

علوُّ مِنَنِ اللّٰه تعالى تقتضي الشُّكرَ بالامتثال

أفادَ حرفُ الاستعلاءِ (على) في قوله: ﴿فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ﴾ استيعابَ مِنَنِ اللّٰهِ الثَّقيلة على المؤمنين وَعُلُوَّها، مِمَّا يقتضي شكرَها بالامتثالِ لِأمرِ اللّٰهِ.

تكرار ﴿فَتَبَيَّنُواْ﴾ بينَ التَّأكيدِ والتَّأسيسِ:

تعظيمُ شأنِ التَّبيُّنِ والتَّثبُّتِ في العمومِ والخصوصِ

ذهبَ بعضُ المفسِّرينَ إلى أنَّ ﴿فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ الثَّانيةَ تأكيدٌ لِلمبالغةِ في التَّحْذيرِ عَنْ ذَلِكَ الْفِعْلِ ولِتعظيمِ شأنِ التَّبيُّنِ وترتيبِ الحكمِ على ما ذُكِرَ مِنْ حالِهم[2].

وذهب آخرون إلى أنَّ الثَّانيةَ تأسيسٌ، وليس تأكيدًا؛ لِاخْتِلَافِ مُتَعَلَّقِ التَّبَيُّنِ، فالأولى متعلِّقة بالضَّرب في سبيل اللّٰه، والمعنى: فَتَبَيَّنُوا أَمْرَ مَنْ تُقْدِمُونَ عَلَى قَتْلِهِ، والثَّانية متعلَّقة بتذكُّر نعمة اللّٰه، والمعنى: فَتَبَيَّنُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ بِالْإِسْلَامِ[3].

---

(1) الطيبي، فتوح الغيب: 14/519.

(2) الرازي، مفاتيح الغيب: 11/191، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 2/91.

(3) أبو حيان، البحر المحيط: 4/34.

والظَّاهرُ أنَّ الثَّانيةَ غيرُ الأولى، فتكونُ تأسيسًا، ولكنْ مِنْ وجهٍ آخرَ غير الَّذي ذُكرَ، أي: يكونُ الأمرُ بالتَّبيُّنِ أوَّلًا عامًّا ومُمَهِّدًا لما بعدَه، وَلاسيَّما أنَّه مرتَّبٌ على شرطٍ عامٍّ متوقَّعٍ مقيَّدٍ بالظَّرفِ، والمعنى: في وقتِ السَّيرِ في سبيلِ اللّهِ تبيَّنوا، أي: تبيَّنوا المؤمنَ منَ الكافرِ المحاربِ من المعاهَدِ وغيره مِن كلِّ ما يقتضي التَّبيُّنَ في وقت السَّيرِ في الحروبِ، وتعاملوا مع كلِّ ظرفٍ بما يقتضيه، ثُمَّ عطفَ عليه قولَهُ: ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَنۡ أَلۡقَىٰٓ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسۡتَ مُؤۡمِنٗا﴾، أي: قدْ يحدثُ عندَ السَّيرِ في سبيلِ اللّهِ أنْ تروا مَنْ يُلقِي إليكمُ السَّلامَ، فإذا رأيتموه؛ فلا تقولوا لَهُ: لستَ مؤمنًا، فجاءَ بالنَّهي عن أمرٍ خاصٍّ بعدَ الأمرِ العامِّ بقوله: ﴿فَتَبَيَّنُواْ﴾، ثمَّ ذكرَ ﴿فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ الثَّانية مقيَّدةً بالاستيضاح عن أمرِ مَنْ تُقدمونَ على قتلِه مِمَّنْ يُخفِي الإسلامَ خوفًا من قومِه، فيكونُ الأمرُ بالثَّانيةِ أدعى إلى الامتثالِ؛ إذ ترتَّب على قوله: ﴿كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبۡلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ﴾، ومعَ هذا فلا تخلو الثَّانيةُ مِنْ إشعارٍ بتأكيدٍ للأولى؛ لِعمومِ الأولى وخُصوصِ الثَّانيةِ، ولتعظيمِ شأنِ التَّبيُّنِ والتَّثبُّتِ في العمومِ والخصوصِ، فبينهما أمر مشترك، وكلاهما ينفرد بتبيُّنٍ خاصٍّ[1].

بلاغةُ جملةِ التَّذييلِ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا﴾:

في التَّذييل تحذيرٌ من إضمارِ خلافِ الظَّاهرِ

جاءت جملةُ التَّذييلِ تعليلًا لِمَا تقدَّمها[2]؛ لِاقترانِها بـ﴿إِنَّ﴾ الَّتي تقوم مقامَ التَّعليل هنا، وكأنَّ المعنى: إنَّما أوجبَ عليكم ما أوجبَهُ؛ لِأنَّ اللّهَ كانَ ولايزالُ بِمَا تعملونَ خبيرًا، فحذّرَ عن إضمارِ خلافِ الإظهارِ[3].

سرُّ تقديم معمول خبر ﴿كَانَ﴾:

جميع أعمال المؤمن ستعرض على الله تعالى خفيّها وظاهرها، والفيصل ميزان الشَّريعة

قدّمَ معمولَ خبرِ﴿كَانَ﴾ عليهِ؛ ليشعرهم باستخراج أعمالهم، وتقديمها بين أيديهم لمساءلتهم عليها، وليعتنوا بمراقبتها وزنتها بميزان الشَّريعة وضوابطها، ولإفادتهم أنَّها هي لا الذَّوات موضع نظر اللّه ومراقبته ومجازاته[4]، وللدَّلالة على أنَّهم لا يؤاخذون على غير ما

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 4/1811.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 2/219.
(3) النيسابوري، غرائب القرآن: 2/477.
(4) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 4/1811.

صدر عنهم أنفسهم، فعليهم تزكيته بالطَّهارة ومكارم الأخلاق والإخلاص، وتخليته من الرِّياء والسُّمعة؛ لِأنَّ الكلامَ في أعمالِ المؤمنين الخَفيَّةِ والظَّاهرةِ، وفي هذهِ الجملةِ تَحْذِيرٌ عَنْ مُخَالَفَةِ أَمْرِ اللَّهِ، أَي: احْفَظُوا أنفسَكم، وجنِّبوها الزَّللَ الموبِقَ لَكم[1]، ففي الجملةِ معنى العموم من حيث يؤول المصدر المؤوَّل إلى صريح معناه (عملكم)، وهو عامٌّ لم يُنْظَرْ فيه إلى خصوص موقف ما أُمروا فيه بالتَّبيُّن والتَّثبُّت؛ لِتجريَ مُجرى المَثَلِ في التَّحذيرِ والوعيدِ.

علَّةُ تضمين الجملةِ التَّذييليَّةِ للفعل ﴿كَانَ﴾:

تذكير المؤمن وتنبيهُهُ على دوامِ مراقبةِ اللهِ له

وردتْ مثلُ هذهِ الجملةِ في آياتٍ أخرى مِنْ غيرِ (كانَ)، مثلَ قولِه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ١٥٣﴾ [آل عمران: 153]، وقولِه: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ٢٣٤﴾ [البقرة: 234]، وجاء في هذهِ الآيةِ بتضمينِ ﴿كَانَ﴾، وكلُّها تدلُّ على اتِّصافِ اللهِ بكونِه خبيرًا، وهذهِ الصِّفةُ أزليَّةٌ قديمةٌ، ولكنَّ تضمينَ الكلامِ الفعلَ ﴿كَانَ﴾ فيه فائدةٌ يقتضيها المقامُ، وهيَ التَّنبيهُ على استمرارِ لَحظِ المُؤمنِ وصفَ اللهِ بأنَّه خبيرٌ بِمَا تعملونَ، ودوامِ مراقبته ﷻ بسببِ دلالةِ الفعلِ ﴿كَانَ﴾ الدَّالِّ على الحدثِ الماضي المستمرِّ، كي يرقبوا وصفَه تعالى، ويمتثلوا ما يأمر به اللهُ تعالى وما ينهى عنه، ونكتةٌ أخرى تناسبُ مجيءَ ﴿كَانَ﴾ هنا: وهي أنَّه لَمَّا كانَ فعلُهم قد مَضَى، وانقطَعَ؛ جاءَ بـ﴿كَانَ﴾ لِيفيدَ أنَّ ذلك الحدثَ كانَ اللهُ بِهِ خبيرًا، فناسَبَ مجيءُ الفعلِ ﴿كَانَ﴾ مقامَ فعلهم الماضي، ويبقى دوامُ اتِّصافِ اللهِ بكونِه ﴿خَبِيرًا﴾ بقرينةِ المقام؛ لأنَّ أوصافَ اللهِ تعالى ثابتةٌ لا تتغيَّرُ، ولا تتبدَّلُ.

وصف اللهُ بأنَّه ﴿كَانَ﴾، ولا يزال الآن على ما عليه كان، خبيرًا سبحانه بالعمل، والخبرة تقضي أن يجمع إليه كلَّ ما تعلَّق به من نيَّة ونوازع وكيفيَّة ودوافع وملابسات ودواعٍ ومقتضيات وما صحب ذلك من أقوال وأحوال وأموال، ممَّا إذا استصحبه المؤمن؛ كان كفلًا باستقامته حتّى يقام على الرَّبَّانيَّة علمًا وعملًا ومراقبة لله كأنَّه يراه، فتكون حياته زاكية راقية، هادية راضية.

(1) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 5/341.

سرُّ اقتران وصف الخبير بأعمال المؤمنين:

إنَّ الله تعالى لا يخفى عليه شيءٌ في الأرض ولا في السَّماء

اقترن وصف الخبير بأعمال المؤمنين المخاطبين بذلك الخطاب لبيان مراقبة الله تعالى الدَّائمة لأعمالهم، دقيقها وجليلها، ولأحوال نفوسهم خفيِّها ومعلنها، وأنَّه لا تخفى عليه خافية في السَّماء ولا في الأرض[1].

بلاغةُ التَّغليبِ في قولِه: ﴿تَعْمَلُونَ﴾:

مخاطبةُ الخاصِّ أكثر تأثيرًا من مخاطبةِ العامِّ

جاءَ بتاءِ الخِطابِ في قولِه: ﴿تَعْمَلُونَ﴾ على التّغليبِ، فإنَّ الله كانَ بما تعملون خبيرًا، أي: أنتم - أيُّها المؤمنونَ - وجميعُ المكلَّفينَ وغيرُهم[2]، وجاء بطريقةِ الخطابِ للمؤمنين بقرينة المقام، وليكونَ أكثرَ تأثيرًا في نفوسِ المؤمنينَ المُخاطبينَ، فمخاطبةُ الخاصِّ أقوى من مخاطبة العامِّ، ولكلِّ مقامٍ مقالٌ، وليكون ذلك أذكر للحساب، فإنّ من كُلِّف؛ سُئِل.

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 4/1811.
(2) السّكّاكي، مفتاح العلوم: 242.

﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾ دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٩٦﴾﴾ [النّساء: 95 - 96]

مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِمَا قَبْلَهُما:

المناسبة بين المعاتبة على قتل الخطأ، وتبيان فضل المجاهدين على القاعدين

في مناسبة الآية لما قبلها ثلاثةُ أَوْجُهٍ[1]: أحدُها: أنَّ اللّه تعالى لَمَّا رغَّبَ في الجهادِ وأمرَ به، أَتْبَعَهُ بذِكْرِ أحكامِه؛ فحَذَّرَ المسلمين مِنْ قَتْلِ المسلمين، وبَيَّنَ الحالَ في قَتْلِهم خَطأً وَعَمدًا وتأويلًا، ثُمَّ أعقبَ ذلكَ كُلَّهُ ببيانِ فضلِ المجاهِدِ على غيره، وبيّن المفاضلة بين المجاهدين بالأموال والأنفس، وبين القاعدين بلا عذر شرعيّ عن القتال. وثانيها: أنَّ اللّه تعالى لَمَّا عاتبَ المؤمنين على ما بَدَرَ مِنهم مِنْ قَتْلِ مَنْ نَطَقَ بالشَّهادَةِ، وألقى إلى المسلمين السّلم، دون تبيّن حالته، أو السّؤال عن حكم الشّرع في وضعيّته، توقّيًا من أن يقع في قلوب المؤمنين، أنَّ التَّحرُّزَ عنِ الجهادِ بتركِهِ أَوْلى؛ لئلَّا يَقعوا في مثل هذا المحظور بسببِه، فأعقبَ اللّه تعالى ذلك بِبَيانِ فَضْلِ المجاهدِ على غيرِه؛ لإزاحَةِ هذه الشُّبْهَةِ.وثالثُها: أنَّ اللّه سبحانه لَمَّا عاتَبَهم على ما بَدَرَ منهم مِنْ قَتْلِ مَنْ نَطَقَ بالشَّهادةِ؛ أعقبَهُ بِذِكْرِ فضيلةِ الجهاد؛ تنبيهًا على أنَّ مَنْ حاز هذه الفضيلةَ الكبيرةَ؛ فإنَّ عليه الاحترازَ مِنْ تلكَ الهَفوةِ؛ لئلَّا يُخِلَّ بالفضيلةِ الّتي حازها، وفي ذلك تصحيحٌ للمُمَارسات، وعلاجٌ للنّفسيّات، وتحسّبٌ للعثرات القابلات.

(1) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 11/192، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 5/368.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿لَّا يَسْتَوِى﴾: السِّينُ والواوُ والياءُ تَدُلُّ تصاريفُها، على استقامةٍ واعتدالٍ بين شَيْئَيْنِ[1].

ومنهُ قولُهم: مكانٌ سَواءٌ، أيْ: وَسَطٌ، والاِسْتِواءُ: التَّساوي، كقولِهم: استوى زيدٌ وعمروٌ؛ أيْ: تَساوَيا[2]، وقولُه تعالى: ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ﴾ أيْ: لا يَتَساوَيانِ، قال ابنُ جَريرٍ: "لا يَعْتَدِلُ المُتَخَلِّفونَ عَنِ الجهاد في سبيل اللّه"[3]، "وقسّم الشّيء بينهما (بالسّوية). ورجل (سويّ) الخلق، أي (مُسْتَوٍ) و(اسْتوى) من اعوجاج، واستوى على ظهر دابّته أي استقر، و(ساوى) بينهما أي سوّى، و(استوى) إلى السّماء قصد، واستوى أي استولى وظهر، قال الشّاعر:

قَدِ اسْتَوَى بِشْرٌ عَلَى الْعِرَاقِ *** مِنْ غَيْرِ سَيْفٍ وَدَمٍ مُهْرَاقِ[4]

ولفظ ﴿لَّا يَسْتَوِى﴾ يؤدّي معنى في سياقه، مفاده أنّ بين المجاهدين فى سبيل اللّه بأموالهم وأنفسهم، وبين الّذين لم يجاهدواْ بذلك، من ذوي الأعذار، من تفاوت في الفضل والمنزلة عند اللّه، لا يخفى على متدبّر القرآن، والفاقه لمعانيه[5].

2) ﴿ٱلْقَٰعِدُونَ﴾: من القعود يقابل به القيام، ومنه ﴿فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا﴾ [النّساء 103]، ويعبّر عن المتكاسل بالقاعد، ومنه ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ﴾، وعن التّرصّد للشّيء بالقعود، نحو ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ﴾ [الأعراف: 16][6]، والقافُ والعَينُ والدّالُ تدورُ اشتقاقاتُها على رُسُوخٍ يَنْصِبُ ما يَعْلُوهُ، كقواعدِ البيتِ تَنْصِبُها وتُثَبِّتُها، ومنهُ: إطلاقُ القعودِ على الثَّباتِ، كتَسميتهم التّثاقُلَ عَنِ القتالِ والتَّخلُّفَ عنهُ قعودًا؛ لِمَا فيه من ثَباتِ التَّخلُّفِ[7].والقُعُودُ عَنِ الأمر: تَرْكُهُ، والقعودُ لَهُ: الاهتمامُ به[8]، ومِنَ الأوَّلِ قولُه تعالى: ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أيْ: المتخلِّفُون عَنِ القِتالِ، التَّارِكونَ لهُ.

3) ﴿ٱلضَّرَرِ﴾: الضّرُّ: خلاف النّفع، وقد ضرّه وضارّه بمعنى، والاسم الضّرر[9]، الضَّادُ

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (سوي).
(2) الرّاغب، المفردات: (سوا).
(3) ابن جرير، جامع البيان: 9/85.
(4) الرّازيّ، مختار الصّحاح: (سوا).
(5) الخطيب، التفسير القرآنّي للقرآن: 3/873.
(6) المنّاوي، التّوقيف، ص: 274.
(7) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصَّل: (قعد).
(8) الزّمخشريّ، أساس البلاغة: (قعد).
(9) الجوهريّ، الصّحاح: (ضرر).

والرَّاءُ تَدُلُّ تصريفاتُها على معانٍ، منها: ضِدُّ النَّفْعِ[1]، وحقيقَةُ الضُّرِّ: سُوءُ الحالِ؛ إمَّا في نَفْسِه لِقلَّةِ علمٍ وفضلٍ ونَحْوِهما، وإمَّا في بَدَنِه لعَدمِ جارحةٍ، وإمَّا في حالةٍ ظاهرةٍ كقلَّةِ مالٍ وجاهٍ[2]، والضَّرَرُ في قوله تعالى: ﴿غَيْرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ﴾: الزَّمَانَةُ[3]، وأولو الضَّرَرِ: مَنْ بِهِم علَّةٌ تَضرُّهم وتَقْطَعهُم عَنِ الجهادِ[4].

4) ﴿وَٱلْمُجَٰهِدُونَ﴾: الجيمُ والهاءُ والدَّالُ، تَدُلُّ تصريفاتُهُ على المَشقَّةِ[5]، ويأتي بمعنى الطَّاقةِ والوُسْعِ[6]، والمُجاهَدَةُ تُطلَقُ في الشَّرْعِ على اسْتِفْراغِ الوُسْعِ في مُدافعة العَدُوِّ، وهو ثلاثةُ أضربٍ: مجاهدةُ العدوِّ الظَّاهرِ، ومجاهدةُ الشَّيطانِ، ومجاهدةُ النَّفْسِ[7]، وغالبُ مُراداتِ الشَّرعِ في الجهادِ: أنَّهُ محاربةُ الكفَّارِ، وسُمِّيَ بذلكَ؛ لِما فِيهِ مِن اسْتِفْرَاغِما في الوُسعِ والطَّاقةِ من قولٍ أو فعلٍ[8]، ولِما في ذلك مِنَ المشقَّةِ على النّفوس.والمجاهدون في قولِ اللّه تعالى: ﴿وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ الّذين يُحاربونَ الكفَّارَ.

5) ﴿ٱلْحُسْنَىٰٓ﴾: من الحسن وهو ضِدِّ القُبْحِ[9]، والمَحاسِنُ مِنَ الأعمالِ: ضِدُّ المسَاوِئِ، والحَسَنُ: كُلُّ مُبْهِجٍ مرغُوبٍ فيه، وَالحَسَنَةُ: يُعَبَّرُ بها عَن كُلّ ما يَسُرُّ من نعمةٍ تنالُ العبدَ في نفسِه أَو بدنِه ونحوِ ذلكَ، والسَّيِّئَةُ ضدُّها[10]، وقالواْ: امرأة (حسناء) ولم يقولواْ: رجل أحسن. وهو اسم أنّث من غير تذكير، كما قالواْ: غلامٌ أمرد ولم يقولوا: جارية مرداء، فذكّرواْ من غير تأنيث[11]، ومِنْ هذا البابِ: الحُسْنى؛ وهي الجنَّةُ، وضدُّها: السُّوأَى؛ وهي النَّارُ[12]، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿۞لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌۖ﴾ [يونس: 26][13].

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغَة: (ضرّ).
(2) الرَّاغب، المفردات: (ضرّ).
(3) الخليل، العين: (ضرّ).
(4) الواحديّ، التَّفسير البسيط: 7/46، والزَّبيديّ، تاج العروس: (ضر).
(5) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (جهد).
(6) الرَّاغب، المفردات: (جهد).
(7) الرَّاغب، المفردات: (جهد).
(8) ابن الأثير، النِّهاية: (جهد).
(9) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حسن).
(10) الرَّاغب، المفردات: (حسن).
(11) الرازي، مختار الصّحاح: (حسن).
(12) الخليل، العين: (حسن).
(13) الزَّبيديّ، تاج العروس: (حسن).

6) ﴿أَجۡرًا﴾: الأجر: الثّواب. تقول: أجره اللّه يأْجُرُه ويأْجَرَه أجرا[1]، الهَمْزَةُ والجيمُ والرَّاءُ تَدُلُّ اشتقاقاتُها على معنَيَيْن: الكِرَاءِ على العَمل، وجَبْرِ العظمِ الكسيرِ، وبينَ المَعْنَيَيْنِ رابطٌ ينظِمُهُما؛ فإنَّ الأجرةَ بمثابَةِ الشَّيءِ الّذي يُجبَرُ بهِ حالُ العاملِ مقابِلَ ما أصابَهُ من كَدٍّ وجُهْدٍ في عملِه[2].والأجْرُ: ما يعُودُ مِن ثواب العملِ دنيويًّا كان أو أخرويًّا، ولا يُستعمَلُ إلَّا في النَّفْعِ دُون الضّرِّ[3]، والأجرُ في قول اللّه سُبحانه: ﴿وَفَضَّلَ ٱللَّـهُ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلۡقَٰعِدِينَ أَجۡرًا عَظِيمًا﴾، هو ثوابُ العمَلِ الأخرَويُّ.

7) ﴿عَظِيمًا﴾: عظم الشّيءُ عظما: كبر، فهو عظيم[4]، العينُ والظَّاءُ والميمُ تَدُلُّ اشتقاقاتُها على معنى الكِبَرِ والقُوَّة[5]، ويَرِدُ بمعنى الجَسامةِ والصَّلابةِ[6]، وهذا المعنى لازمٌ للأوَّلِ، ومنه سُمِّيَ العَظْمُ عَظْمًا؛ لصَلابتِهِ وقُوَّتِه. ثُمَّ يُستعمَلُ هذا الأصلُ في الضَّخامة المعنويَّة؛ فالعظيمُ مِنَ الأمور: ما لَهُ شأنٌ كبيرٌ.والأجرُ العظيمُ في قول اللّه تعالى: ﴿أَجۡرًا عَظِيمًا﴾ هو الثَّوابُ الجزيلُ الكثِيرُ، وليسَ له مِقدارٌ يَعْرِفُ العبادُ مبلغَهُ[7].

8) ﴿وَمَغۡفِرَةً﴾: الغَيْنُ والفاءُ والرَّاءُ تَدُلُّ أكثرُ تصاريفِها على معنى السَّتْرِ، ومنهُ: الغَفْرُ، وهو السَّتْرُ[8]، وقال الرَّاغبُ: "الغَفْرُ: إلْبَاسُ الشَّيءِ ما يَصُونُه عَنِ الدَّنسِ[9]"، وهو راجعٌ إلى معنى السَّتْرِ.والمَغْفِرَةُ شرعًا: سَتْرُ الذَّنب، والتَّجاوزُ عنهُ[10]، وقال الشّاعر نصيب:

مَنْ ذَا ابْنَ لَيْلَى جَزَاكَ اللّهُ مَغْفِرَةً *** يُغْنِي مَكَانَكَ أَوْ يُعْطِي كَمَا تَهَبُ[11]

9) ﴿وَرَحۡمَةً﴾: وهي الرّقة والتّعطّف، و(المرحمة) مثله، وقد (رحمه) بالكسر (رحمة) و(مرحمة) أيضا و(ترحّم) عليه. و(تراحم) القوم (رحم) بعضهم بعضا[12]، والرَّاءُ

(1) الجوهريّ، الصّحاح: (أجر).
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (أجر).
(3) الرّاغب، المفردات: (أجر).
(4) الجوهريّ، الصّحاح: (عظم).
(5) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (عظم).
(6) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (عظم).
(7) ابن جرير، جامع البيان: 8/542.
(8) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (غفر).
(9) الرّاغب، المفردات: (غفر).
(10) ابن عثيمين، القول المفيد: 1/85.
(11) الأنباريّ، الزّاهر: 2/39.
(12) الرّازي، مختار الصّحاح: (رحم).

والحاءُ والميمُ تَدُلُّ تصاريفُها على الرِّقَّةِ والعَطْفِ والرَّأفةِ[1]، ومنهُ: المَرْحَمَةُ؛ وهي الرَّحْمَةُ، كما قال تعالى: ﴿وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْمَرْحَمَةِ ۝١٧﴾ [البلد: 17]؛ أي: أوصى بعضُهم بعضًا بِرَحْمَةِ الضَّعيفِ، والتَّعطُّفِ عليهِ[2].والرَّحْمَةُ في قوله تعالى: ﴿دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً﴾ صِفَةٌ للهِ تعالى تَقْتَضي الإحسانَ والإنعامَ[3]، وليست هيَ الإحسانَ ذاتَهُ، ولا إرادَتَهُ.

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

تؤكّد الآية الكريمة، أنّه لا يتساوَى مَنْ تَخَلَّفَ عَنِ الجهادِ - مِنْ غيرِ أصحابِ الأعذارِ؛ مِنْ نَحْوِ مَنْ ذَهَبَ بَصَرُهُ، أو منعه مانع قاهر، ومَنْ جاهدَ في سبيل اللّهِ تعالى بالمال والنَّفْسِ؛ فقد فضَّلَ اللّهُ سبحانه مَنْ جاهدَ على مَنْ لم يُجاهِدْ مِنْ أهلِ الأعذارِ، ورَفَعَ منزلتَهُ درجةً في الجنَّةِ عاليةً، وكُلٌّ ممَّنْ جاهدَ بالمالِ والنَّفْسِ، ومَنْ لم يُجاهِدْ مِن أصحابِ الأعذارِ: موعودٌ بالجنَّةِ، وقد فَضَّلَ اللّهُ (ﷻ) مَنْ جاهدَ على مَنْ لَم يُجاهِدْ - وهو غيرُ معذورٍ - بثوابٍ جزيلٍ، وهذا الثَّواب الجزيلُ، هو منازلُ عاليةٌ مِنْ منازلِ الكرامةِ، ومغفرةُ ذُنُوبِهم، ورحمةٌ يَنْعمُونَ بها، ولم يَزَلِ اللّهُ تعالى غفورًا لعبادِهِ المؤمنين رحيمًا بِهِم[4].

لا يستوي مجاهد ناهض في سبيل الله، وقاعد متثاقل عمّا أمره الله

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

خُرُوجُ الخَبَرِ عَنْ دَلَالَتِهِ الأَصْلِيَّةِ:

الجملةُ في قول اللّه تعالى: ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ جملةٌ خبريَّةٌ، يُرادُ بها

تتفاوتُ الدّرجات يوم الدّين، بِحَسَبِ تَفَاوُتِ أَعْمَالِ المؤمنين

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (رحم).
(2) الخليل، العين: (رحم).
(3) ابن عثيمين، مذكرة على العقيدة الواسطيَّة، ص: 23.
(4) ابن جرير، جامع البيان: 9/85 - 99، وأبو المظفَّر السَّمعانيّ، تفسير القرآن: 1/467 - 468، والسّعديّ، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 195، ونخبة من العلماء، التّفسير الميسّر، ص: 94.

الإذْكارُ بما بينَ طبقاتِ المُؤْمِنِين مِنَ التَّفاوتِ العظيمِ والبَونِ البعيدِ، بحَسَبِ تفاوتِ درجاتِ مَساعِيهم في الجهادِ؛ ليكونَ ذلك حاثًّا على الجهادِ في سبيلِ اللّه تعالى، ودافِعًا إليهِ، ومَحرِّضًا عليه، وليأنَفَ القاعدُ ويترفَّعَ بنفسِه عَنِ انحطاط مَرتبتِه، فَتَسْمُوَ همَّتُهُ إلَى الجهادِ، وَتَرْغَبَ نفسُهُ فيه[1]، ودَلالةُ الخبَرِ على التَّذكير بما بين المراتِبِ مِنَ التَّفاوتِ ضربٌ من ضروبِ المجازِ، وهو مجازٌ مُرْسَلٌ مُركَّبٌ.

نُكْتَةُ إِبْهَامِ المَرْتَبَةِ بَيْنَ المُجَاهِدِ وَالقَاعِدِ:

الصَّمْتُ عَنِ الإِفَادَةِ أَزْيَدُ لِلْإِفَادَةِ

في قولِه سبحانه: ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ تصريحٌ بعدمَ تساويهما، دُونَ التَّنصيصِ على أفضليَّةِ المجاهدينَ، وفي هذا إبهامٌ على السَّامعِ، وهو أبلَغُ مِن تحديد المرتبَةِ بينَ المُجاهِدِ والقاعدِ؛ "فالمُتأمِّلُ يَمْشِي معَ فِكْرَتِه، ولا يزالُ يَتَخَيَّلُ الدَّرجاتِ بينَهما[2]"، "فإن قلت: معلوم أنّ القاعد بغير عذر والمجاهد، لا يستويان، فما فائدة نفي الاستواء؟ قلت: معناه الإذكار بما بينهما من التّفاوت العظيم والبون البعيد، ليأنف القاعد ويترفّع بنفسه عن انحطاط منزلته، فيهتزّ للجهاد ويرغب فيه، وفي ارتفاع طبقته، ومثل ذلك واضح في قوله تعالى: ﴿هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزّمر: 9]؟ أريد به التّحريك من حميّة الجاهل وأنفته ليهاب به إلى التّعلّم، ولينهض بنفسه عن صفة الجهل إلى شرف العلم"[3].

الْقُعُودُ عَنِ الجِهَادِ غَيْرُ مُخِلٍّ بِأَصْلِ الإِيمَانِ

فَائِدَةُ تَقْيِيدِ القَاعِدِينَ بِقَوله ﴿مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾:

تقييدُ القاعدين بِكَوْنِهم ﴿مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ لنُكتَتَيْنِ[4]: إحداهما: الإعلامُ ابتداءً بأنَّ وصفَهم بالقُعودِ غيرُ مُخِلٍّ بأصلِ إيمانِهِمْ،

(1) الزَّمخشريّ، الكشَّاف: 1/553 - 554، وأبو السّعود، إرشاد العقل السَّليم: 2/220.
(2) ابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 2/97.
(3) الزّمخشريّ، الكشاف عن حقائق غوامض التّنزيل: 1/554.
(4) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 2/220، والآلوسّي، روح المعاني: 3/117.

والأخرى: الإشعارُ بعِلَّةِ استحقاقِهم الحُسنى - وهي الجنَّةُ - الواردَةَ في قولِه سبحانه: ﴿وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ﴾، "قوله تعالى: ﴿مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾: متعلّق بمحذوف لأنّه حال، وفي صاحبها وجهان، أحدهما: أنّه القاعدون، فالعامل في الحال في الحقيقة ﴿يَسۡتَوِي﴾، والثّاني: أنّه الضّمير المستكنُّ في ﴿ٱلۡقَٰعِدُونَ﴾، لأنّ (أل) بمعنى الّذي، أي: الّذين قعدوا في هذه الحال، ويجوز أن تكون ﴿مِنَ﴾ للبيان"[1]، فالإيمان شرط لحصول المقام مع أهل القرب.

بَلَاغَةُ مَوْقِعِ الِاسْتِثْنَاءِ بِقَوْلِهِ: ﴿غَيۡرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ﴾:

مُـراعـاةُ أَهْـلِ الأَعْـذَارِ وَتَجَنُّبُ مَا يَكْسِرُ قُلُوبَهُمْ

للاستثناء ﴿غَيۡرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ﴾ من قوله تعالى: ﴿لَّا يَسۡتَوِي ٱلۡقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ غَيۡرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ وَٱلۡمُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡۚ﴾ موقعٌ بديعٌ، وله نِكَاتٌ ثلاثٌ[2]: أُولَاها: لئلَّا يَظُنَّ أصحابُ الأعذارِ أنَّهم مَقْصُودونَ بالتَّحريضِ، فيخرجوا لِلْجِهادِ، فيُكلِّفوا إخوانَهم المسلمين مؤونَةَ حَمْلِهم وحمايتِهم دون جَدْوى. ثانيها: لئلَّا يَظُنَّ أصحابُ الأعذار أيضًا أنَّهم مقصودُون بالتَّعريضِ، فيكون ذلك سببًا في انكسارِ نفوسِهم انكسَارًا زائدًا على انْكِسارِها بعجزِهم. ثالثها: أنَّ في استثنائهم إنصافًا لهم، وعُذْرًا لعجزهم عن الجهاد؛ بأنَّهم لو كانوا قادِرين عليه؛ لبادَرُوا إليهِ، لأنّ في نفوسهم توق إلى نصرة دين الله، وحماية بيضة الإسلام، ولكنّ الظّروف الصّحية والأعذار الشّرعيّة منعتهم من ذلك.

نُكْتَةُ التَّعْبِيرِ بِوَصْفِ الجِهَادِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَٱلۡمُجَٰهِدُونَ﴾:

الـجِـهَـادُ مِـنْ أَفْضَلِ الأَعْمَالِ المُـقْـتَـضِـيَـةِ الـتَّـعْـظِـيـمَ وَالتَّبْجِيلَ

جاء التَّعبيرُ عَن هذا الفريقِ مِن أهل الإيمان بوَصْفِ الجِهاد، فقال سبحانه: ﴿لَّا يَسۡتَوِي ٱلۡقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ غَيۡرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ وَٱلۡمُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾؛ لإرادةِ المدحِ؛ إذ إنَّ الجهادَ في الشَّرْعِ

(1) السّمين، الدّرُّ المصون: 4/75.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 5/170.

مِنَ الأعمال العِظَام؛ لِمَا فِيهِ مِنَ المُخاطرةِ بالمُهَجِ الّتي هي أغلَى ما عِنْدَ المَرْءِ، فالمُجاهِدُ وَصْفٌ يقتضي التَّعظيمَ والتَّبجيلَ؛ لتَلَبُّسِهِ بهذا العمَلِ الجليلِ، ولم يُعبَّرْ عَن هذا الفريقِ بالخروجِ، مع كونهِ أنسبَ لِلْوَصْفِ المَذْكُورِ في المَعْطُوفِ عليهِ وهُو القُعُود - كالوراد في قوله سبحانه: ﴿۞وَلَوْ أَرَادُواْ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّواْ لَهُۥ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُواْ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [التوبة: 46] - ؛ للإشعارِ بأنَّ القعودَ كان عَن الجهادِ، ولم يُحْتَجْ إلى التَّصريحِ بمتعلَّق القعودِ؛ رعايةً لِلْقَاعِدِين في الجملة[1].

نُكْتَةُ تَقْدِيمِ القَاعِدِينَ على المُجَاهِدِينَ:

شَرَفُ المُجَاهِدِينَ لِشَرَفِ مَا تَلَبَّسُوا بِهِ مِنْ جَلِيلِ العَمَلِ

في تَقديم القاعدينَ على المُجاهدِين ثلاثُ نِكاتٍ: أُولَاهَا: الإشعارُ ابتداءً بأنَّ التَّفاوُتَ بين المجاهدين والقاعدين ليس مِن جهةِ قصورِ القاعدين، بل لشرف المجاهِدِين؛ وذلك أنَّ المتبادَرَ إلى الذِّهْنِ من عدمِ الاستواءِ بين الشَّيئَين المتفاوتَين سبَبُهُ: قصورُ القاصرِ[2]، وعليه فَتَفْضِيلُ المجاهدين لا يكونُ فِيهِ كبيرُ مدحٍ لهم حينئذٍ؛ لأنَّه يكُون مِن باب: (السَّيْفُ أحدُّ من العصَا)! فقُدِّمَ القاعدونَ؛ لِلتَّنبيه على أنَّ عدمَ الاستواءِ سبَبُهُ شرفُ المجاهدين، معَ فضيلةٍ كائنةٍ في القاعدين، ويؤيِّدُ هذا: وصفُ القَاعِدِين بـ ﴿مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.وثانيها: أنَّ في تقديم القاعدين في الذِّكْرِ زيادةً في مدحِ المجاهدين؛ إذْ يحْصُلُ بذلك التَّرقِّي في إيرادِ الرُّتَبِ والمنازلِ بذِكْرِ المجاهدين بعدُ. وثالثُها: قُدِّمَ القاعدُون على المجاهدين ولم يُؤخَّروا عَنْهُمْ؛ ليتَّصِلَ التَّصريحُ بتفضيلِ المجاهِدِينَ في قوله: ﴿فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾[3].

(1) الآلوسّي، روح المعاني: 3/118.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 2/220.
(3) الآلوسّي، روح المعاني: 3/118.

سِرُّ إِضَافَةِ السَّبِيلِ إِلَى الِاسْمِ الأَعْظَمِ ﴿ٱللَّهِ﴾ فِي قَوْلِهِ: ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾:

سُلُوكُ سَبِيلِ اللهِ تعالى مُوصِلٌ لِرَحْمَتِهِ

إضافةُ السَّبيلِ إلى الاسْمِ الأَعظم ﴿ٱللَّهِ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ يُراد بها تعظيمُ السَّبيلِ، والإشعارُ بأنَّ مَن سلكَهُ وصلَ إلى رَحْمَةِ اللّه تعالى[1]، ومِنْ لازِمِ ذلك: تعظيمُ المجاهدينَ ورفعُ شأنِهم؛ حيثُ سلَكُوا هذا السَّبيلَ الجليلَ.

فَائِدَةُ تَقْيِيدِ المُجَاهَدَةِ بِكَوْنِهَا ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾:

مِنْ أَسْبَابِ رِفْعَةِ الدَّرَجَةِ عِنْدَ اللهِ تَعَالَى الْجِهَادُ فِي سَبِيلِهِ

تَقْيِيدُ المُجَاهَدَةِ بكَوْنِها ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ في قول اللّه تعالى: ﴿لَّا يَسْتَوِي ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾ يُرادُ به مدحُهُمْ بذلكَ، وفيهِ الإشعارُ بعلَّةِ استحقاقِهِمْ عُلُوَّ المنزلةِ، مَعَ ما فيهِ مِن حُسْنِ موضِعِ ﴿سَبِيلِ﴾ في مُقابلِ القُعودِ؛ فَإِنَّ السَّبيلَ مِن شأنِهِ أن يكونَ مَسْلُوكًا، ففيه حركَةٌ تُخالِفُ السُّكونَ المُستفادَ مِنَ القُعودِ[2].

سَبَبُ فَصْلِ قَوْلِهِ: ﴿فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ﴾ عَمَّا قَبْلُ:

مِنْ طَرِيقَةِ القُرْآنِ الكَرِيمِ تَشْوِيقُ المُتَلَقِّي إِلَى الحُكْمِ

فُصِلَ قولُ اللّه تعالى: ﴿فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾ عمَّا قبلَهُ؛ لوقوعِهِ استئنافًا بيانيًّا، وذلك لأنَّ نفيَ المساواةِ بين المجاهدِ والقاعدِ في قوله سبحانه: ﴿لَّا يَسْتَوِي ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾ سَبَبٌ في ترقُّبِ كُلٍّ منهما الأفضليَّةَ؛ وذلكَ لأنَّ المجاهدَ جَادَ بالنَّفسِ والمالِ، والقاعدَ وإنْ فاتَتْهُ فضيلةُ الجهادِ؛ فإنَّهُ يكونُ قد خَلَفَ الغازيَ في أهلِه، وأَحْيَى الدِّينَ بالاشتغالِ بالعلمِ ونحوِ ذلكَ، فأورَثَ ذلكَ سؤالًا في نَفْسِ المُتلقِّي؛ ومَنْ أفضلُ الصِّنفَيْنِ؟ فجاء الجوابُ: ﴿فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ﴾[3]، ويحتَمِلُ أن تكونَ الجملةُ مستأنفةً استئنافًا بيانيًّا،

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 5/370.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 2/220.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 5/370 - 371.

مَسوقًا لتَفصيلِ ما بين الصِّنفَين من التَّفاضُلِ المفهومِ مِنْ ذِكْرِ عدمِ استوائِهما على سبيل الإجمال، فلمَّا نَصَّ اللّه تعالى على عدم تساويهما؛ بعثَ ذلك في نَفْسِ المُتلقِّي سؤالًا: ما كيفيَّةُ التّفاضُلِ وكمِّيَّتُهُ، وكيفَ وقعَ ذلكَ؟ فجاء الجوابُ: ﴿فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾[1].

دلالة ما بين لفظي الجهاد والقتال من عموم وخصوص:

الجهاد أعمّ من القتال، وأخصّ منه، فبينهما عموم وخصوص من وجه، كما يقول المناطقة، فهما يجتمعان في القتال الدّفاع عن الحقّ، والقتال قد يكون في البغي على الحقّ، ولا يكون الجهاد بمقتضى العرف الإسلاميّ إلّا ردّا للاعتداء. والجهاد لا يكون بالقتال وحده، بل يكون ببذل المال في تأييد الحقّ، وبالبيان في الدّعوة إليه، ولذلك يقول النّبي ﷺ: "جاهدوا المشركين بأنفسكم، وأموالكم، وألسنتكم"[2]، فالعموم مكرّس في مفهوم المواجهة الحربيّة بالسّلاح، وهذا هو المألوف في المغالبة بين المتحاربين، بينما الخصوص ظاهر في تعيّن الصّفة المحدّدة لكلّ منهما، ولفظ القتال كلفظ الحرب، موجود في كلّ الملل والنّحل، وفي كلّ اللّغات والبيئات، بينما لفظ الجهاد مصطلح إسلاميّ خاصّ بالحضارة الإسلاميّة وحدها دون سواها.

القتال لا يكون إلّا بالسّيف، بينما الجهاد بالمال والقلم والبيان

تَعْرِيفُ المُسْنَدِ إِلَيْهِ بِالعَلَمِيَّةِ فِي لفظ (اللَّهُ):

جاء المُسنَدُ إليه مُعرَّفًا بالعَلَميَّةِ؛ ولفظ الجلالة أشرف المعارف، وهو"مختصّ باللّه، وأصل اسم اللّه الّذي هو اللّه (إله) ثمّ دخلت عليه الألف واللّام فصار (الإله)، ثمّ تخفّف الهمزة التّخفيف الصّناعيّ، بأن تلين وتلقى حركتها على السّاكن قبلها، وهو لام

مَا فَضَّلَهُ اللهُ تعالى مِنَ الأَعْمَالِ وَالأَشْخَاصِ، عَظِيمٌ بكلّ المقاييس

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/220.

(2) الحديث رواه أبو داود: رقم: (2504)، وأحمد في المسند رقم: (11837)، والنّسائي: رقم: (3096)، عن أنس بن مالك: (رضي الله عنه)، ينظر: أبو زهرة، زهرة التفاسير: 4/1813.

التّعريف، فصار (اِلَاه) بكسر اللّام الأولى وفتح الثّانية، فأدغموا الأولى في الثّانية بعد إسكانها وفخّموها تعظيما"[1]، وهوفي إضافة الفضل إلى عظيم جلاله تعالى، آثر إيرادِ الاسم الأَحْسَنِ والأعظم (اللّه) في قَوْلِه ﷻ: ﴿فَضَّلَ ٱللَّهُ﴾؛ تَعظيمًا لشأنِ هذا التَّفضيلِ؛ إذْ هُوَ صادِرٌ مِن الّذِي لَه صفاتُ الكَمالِ والجَلَالِ[2].

تَوْجِيهُ المُتَشَابِهِ اللَّفْظِيِّ فِي تَقْدِيمِ الأَمْوَالِ عَلَى الأَنْفُسِ وَالعَكْسِ:

قَدَّمَ اللّه سبحانه المالَ على النَّفسِ هَهُنَا، فقال ﷻ: ﴿فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾، وقَدَّمَ النَّفْسَ على المال في قوله جلَّ وعلا: ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾ [التّوبة: 111]؛ وذلك لثلاثة أوجه[3]: أحدُها: أنَّ النَّفْسَ أشرفُ مِنَ المالِ، فَفِي الاشتراءِ قُدِّمَ ذكرُ النَّفْسِ؛ تنبيهًا على أنَّ الرَّغبةَ فيها أشدُّ، بخلافِ الجهادِ فأُخِّرَت النَّفْسُ فيها؛ تنبيهًا على أنَّ المُماكَسَةَ فيها أشدُّ، فلا يَرضى المجاهدُ ببَذْلِها إلَّا في آخر المَراتب.وثانيها: قُدِّمُ المالُ في ذكر الجهادِ؛ لأنَّ الجهاد بالمال أخفُّ على النُّفوس مِنَ الجهاد بالنَّفْسِ، فسُلِكَ في الآية مَسْلَك التَّرقِّي، بخلافِ آية التَّوبةِ فقُدِّمَت النَّفْسُ؛ لذِكْرِ الاسْمِ الأَحْسَنِ فيها (اللّه)، فناسَبَ ذِكر أشرفِ الأمورِ وأعزِّها وهي النُّفوس.ثالثُها: أنَّ اللّه تعالى لمَّا ذَكَرَ التَّفضيلَ؛ اقتضَى شيئًا يتميَّزُ به المُفَضَّلُ، فقَدَّمَ المالَ؛ لأنَّ المالَ ليس عند كلِّ أحدٍ، فيَحصُلُ بالجُودِ بهِ: التَّمايُزُ، بخلاف ما في التَّوبةِ، فهو في شِراءِ اللّهِ تعالى مِنَ المؤمنينَ شيئَين: النَّفْسَ والمالَ، ولمَّا كان كلُّ مؤمنٍ عندَهُ نَفْسٌ؛ قَدَّمها على المالِ.

النَّفْسُ أَشْرَفُ مِنَ المالِ، والجِهَادُ بِالمالِ أَخَفُّ مِنَ الجِهادِ بِالنَّفْسِ

(1) الكفويّ، الكليّات، ص: 173.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 5/371.

(3) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/327، والرّازيّ، مفاتيح الغيب: 11/193، والآلوسّي، روح المعاني: 3/118.

نُكْتَةُ تَنْكِيرِ لفظ ﴿دَرَجَةٗ﴾، في قوله: ﴿فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ عَلَى ٱلۡقَٰعِدِينَ دَرَجَةٗ﴾:

التَّعْظِيمُ بِطَرِيقِ الإِبْهَامِ أَدْخَلُ فِي التَّفْخِيمِ مِنَ التَّصْرِيحِ

تنكيرُ ﴿دَرَجَةٗ﴾ من قول الله تعالى: ﴿فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ عَلَى ٱلۡقَٰعِدِينَ دَرَجَةٗ﴾ يُرادُ به التَّعظيمُ والتَّفخيمُ بطريقِ الإبهام[1]؛ لتَذْهَبَ النَّفْسُ في تَصوُّر عظمتِها وكمالِها كلَّ مَذْهَبٍ، ودَلالَةُ التَّعظيم مُستفادَةٌ بقرينَةِ نِسبةِ التَّفضيلِ لله سبحانه، ووَصْفِ المُفَضَّلِينَ بوصْفِ مدحٍ، "و﴿دَرَجَةٗ﴾ نصب بنزع الخافض، أي بدرجة، أو على المصدر، لأنّه تضمّن معنى التّفضيل، ووقع موقع المرّة منه، أو الحال بمعنى ذوي درجة"[2]، وفي الحالات الثّلاث، تكون الدّرجة ملمحا للمفاضلة المقرّرة من الله لهاته الفئة المضحيّة بالغالي والنّفيس، بمبادرتها إلى الجهاد، فتكون فاضلة على الفئة القاعدة، وذلك مطلق عدل الله في المفاضلة في كلّ شؤون الحياة والعطاء والجزاء.

بَلَاغَةُ الِاسْتِعَارَةِ فِي قوله تعالى: ﴿دَرَجَةٗ﴾:

إِبْرَازُ المَعْنَوِيِّ فِي قَالَبِ الحِسِّيِّ أَوْضَحُ لِلنَّفْسِ وَأَعْلَقُ بِالقَلْبِ

الدَّرجَةُ في الأصل تُستعمَلُ في المُرْتَقَى الحسّيِّ، والدَّرجةُ في قوله تعالى: ﴿فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ عَلَى ٱلۡقَٰعِدِينَ دَرَجَةٗ﴾ مستعارَةٌ للعُلُوِّ المعنويِّ؛ وهو كثرةُ الفَضْلِ، ووَفْرةُ الأجرِ[3]، ونُكتةُ الاستعارةِ: تصويرُ المعنويِّ في صورة الحسِّيِّ؛ ليكونَ أعلقَ بالذِّهْنِ، وأوضحَ للنَّفْسِ.

إِيرَادُ المُسْنَدِ إليهِ عَلَمًا في قوله: ﴿وَكُلّٗا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ﴾:

جاء التَّعبيرُ بالمُسْنَدِ إليه عَلمًا بإيرادِ الاسمِ الأحسنِ (الله) في قولِه سبحانه: ﴿وَكُلّٗا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ﴾؛ تَعظيمًا لأجرِ أهلِ الإيمانِ،

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 2/221، والآلوسّي، روح المعاني: 3/119، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 5/172.
(2) البيضاويّ، أنوار التنزيل: 2/91.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 5/171.

مَنْ جاهدَ مِنْهُمْ ومَنْ لم يُجاهِدْ؛ فهو ثوابٌ وجزاءٌ مِن اللهِ تعالى، المتَّصِفِ بصفات الجلالِ والكمال، والأجرُ يعظُمُ بعظمَةِ مُعْطِيهِ[1]، وذلك بأنْ "وعد الله كلّا ممّن جاهد وقعد عن الجهاد، عجزا منه، مع تمنّى القدرة عليه، المثوبة الحسنى، وهي الجنّة، فكلّ منهما كامل الإيمان مخلص لله في العمل"[2].

تَعْظِيمُ ثَوَابِ أَهْلِ الإِيمَانِ كُلِّهِمْ، تفضّل من الله ومنّة

فَائِدَةُ الِاعْتِرَاضِ بِقَوْلِهِ: ﴿وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾:

قولُ الله سبحانه: ﴿وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ إطنابٌ بالاحْتِرَاسِ[3]، وذلك لأنَّ تفضيلَ المجاهدين على القاعدين قد يُوهِمُ حرمانَ المفضولِ، فدُفِعَ ذلكَ بقوله تعالى: ﴿وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾[4]، "إذا فضَّل تعالى شيئًا على شيء وكلّ منهما له فضل، احترز بذكر الفضل الجامع للأمرين، لئلّا يتوهّم أحد ذمّ المفضّل عليه، كما قال هنا ﴿وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾، وكما قال تعالى في الآيات المذكورة في الصّف في قوله ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾﴾ [الصّف: 13]، وكما في قوله تعالى ﴿لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ﴾ [الحديد: 10]، أي ممّن لم يكن كذلك"[5].

تَفْضِيلُ المُجَاهِدِينَ لا يَقْتَضِي حِرْمَانَ غَيْرِهِمْ

نُكْتَةُ العُدُولِ عَنِ المَصْدَرِ المُوَافِقِ لِعَامِلِهِ (تَفْضِيلًا) إِلَى ﴿أَجْرًا﴾:

لفظ ﴿أَجْرًا﴾ مِن قول الله تعالى: ﴿وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ مصدرٌ مؤكِّدٌ لـ ﴿وَفَضَّلَ﴾، على أنَّه بمعنى أَجَرَ، وإنَّما أُوثِرَ على ما هو مصدرٌ من فِعْلِهِ؛ لِلْإِيذَان بأنَّ ذلك التَّفضيلَ أجرٌ لأعمالِهِمْ، ويَجوزُ أن يكونَ ﴿أَجْرًا﴾ مفعولًا ثانيًا لـ﴿وَفَضَّلَ﴾، بتضمينِ معنى الإعطاءِ فِيهِ، والمعنى: أَعْطَى اللهُ تعالى

مِنْ ثَمَرَاتِ تَفْضِيلِ المُجَاهِدِينَ نَيْلُهُمُ الأَجْرَ الجَزِيلَ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 5/371.
(2) المراغي، تفسير المراغيّ: 5/129.
(3) جعله أبو السُّعود اعتراضًا، والّذي استقرَّ عليه الاصطلاح أنَّ مثل هذا يُسمَّى احتراسًا، وحقيقةُ الاحتراس: أن يُؤتى في كلامٍ يُوهِمُ خلافَ المراد بما يَدْفَعُ ذلك الإِيهَامَ، ينظر: الجناجيّ، البلاغة الصَّافية، ص: 249.
(4) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 195.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 5/371.

المجاهدين زيادةً على القاعدِينَ أَجْرًا عظيمًا[1]، قال ابن عاشور: "عطف ﴿وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾، على جملة ﴿وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ﴾، وإن كان معنى الجملتين واحدا باعتبار ما في الجملة الثّانية من زيادة ﴿أَجْرًا عَظِيمًا﴾، فبذلك غايرت الجملة المعطوفة الجملة المعطوف عليها، مغايرة سوّغت العطف، مع ما في إعادة معظم ألفاظها من توكيد لها"[2]، وهو من فصاحة البيان القرآنيّ.

دَلَالَةُ تَنْكِيرِ ﴿أَجْرًا﴾، في قوله تعالى: ﴿أَجْرًا عَظِيمًا﴾:

عَظَمَةُ الأَجْرِ الَّذِي يَنَالُهُ المُجَاهِدُونَ

نُكِّر ﴿أَجْرًا﴾ من قولِ الله تعالى: ﴿وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ يُرادُ به النَّوعيَّةُ المُسْتَلْزِمَةُ للتَّعظيم، فـ ﴿أَجْرًا عَظِيمًا﴾ أي: نوعًا مِنَ الأَجْرِ لا يَعلم كُنْهَهُ إلّا الله تعالى، وهو ظاهرٌ في إفادتِهِ التَّعظيمَ، وَوَصْفُ الأجرِ بالعِظَم بمنزلةِ التَّوكيدِ المعنويِّ له، وكونه أجرا من العظيم، فلا يكون إلّا عظيما، وعطاء الله في الأجر وغيره، يكون على قدر كماله وغناه وكرمه الّذي لا حدود له، لا على قدر تقديرات البشر القاصرة.

سِرُّ جَمْعِ ﴿دَرَجَٰتٍ﴾وتنكيرها، في قوله تعالى: ﴿دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً﴾:

عُلُوُّ شَأْنِ المُجَاهِدِينَ وَجَزِيلُ ثَوَابِهِمْ الّذي لا يقدّره إلّا الله

جُمِعَ ﴿دَرَجَٰتٍ﴾ في قوله تعالى: ﴿دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً﴾؛ لإفادة التَّكثير والتَّعظيم والتَّفخيم، فأمَّا إفادتُهُ التَّكثيرَ فَظَاهِرٌ، وأمَّا إفادتُهُ التَّعظيمَ والتَّفخيمَ؛ فلِأنَّ الجمعَ لِمَا فيه من معنَى الكَثرةِ تُستعارُ صيغَتُهُ لمعنى القُوَّةِ والعظَمَةِ[3]، ويُقَوِّي دَلالةَ التَّعظيم والتَّفخيم قولُه سبحانه: ﴿مِّنْهُ﴾؛ أي: من الله تعالى، وهذا مُشعِرٌ بفخامَتِها وعُلُوِّ شأنِها[4]؛ فإنَّ الثَّوابَ من العظيمِ عظيمٌ، كما أنّ

(1) الآلوسّي، روح المعاني: 3/119.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 5/172.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 5/172.
(4) الآلوسّي، روح المعاني: 3/119.

تَنْكِيرَ ﴿دَرَجَٰتٍ﴾ في قوله سبحانه: ﴿دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً﴾؛ لبيان أنَّها درجاتٌ كثيرةٌ لَا يَحُدُّها الحَصْرُ، ولا يُعَيِّنُها المِقْدارُ[1]، فأفادَ مجموعُ الجمعِ والتَّنكير: كثرةَ الدَّرجاتِ، وعَظَمَتَها وفخامَتَها.

نُكْتَةُ تَقْدِيمِ المَغْفِرَةِ عَلَى الرَّحْمَةِ، في قوله: ﴿وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً﴾:

قُدِّمَت المغفرةُ على الرَّحمةِ في قوله تعالى: ﴿دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً﴾؛ لنكاتٍ ثلاثٍ: إحداهما: أنَّ المغفرةَ سببٌ في الرَّحمةِ، كما قال الله تعالى: ﴿لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾﴾ [النّمل: 46]، والأصلُ: تقديم السَّبَبِ، وثانيها: أنَّ ذلك يقتضي تقديمَ الرّحمةِ بِدَلالةِ اللُّزومِ - لكونِها مسبَّبًا لِلْمغفرة - ، وتأخيرَهَا بِدَلَالَةِ المُطابقة، فيُفيدُ ذلك الدُّعاءَ بها مرَّتين، وثالثُها: أنَّ في المغفرةِ زوالَ المرهوبِ، وفي الرَّحمةِ تحصيلَ المطلوبِ؛ فكانَ تقديمُ المغفرةِ من باب أنَّ التَّحليةَ قبلَ التَّخليةِ.

التَّخْلِيَةُ قَبْلَ التَّخْلِيَّةِ، مسلكٌ في التَّزكية والتَّرقية

نُكْتَةُ تَكْرَارِ التَّفْضِيلِ بلفظ ﴿فَضَّلَ ٱللَّهُ﴾ في هذه الآية الكريمة:

تَكَرَّر ذِكْرُ تفضيلِ المجاهدين؛ فقد قال الله تعالى: ﴿فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً﴾، وقال سبحانَه: ﴿وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾، وفي سِرِّ هذا التَّكرارِ أَوْجُهٌ[2]: أوَّلُها: الإشعارُ باختلافِ مُتعلَّقِ التَّفضيلِ؛ فالتَّفضيلُ الأوَّلُ بالدَّرجةِ: هو ما يُؤتَوْهُ في الدّنيا من الغنائم، والتَّفضيلُ الآخرُ هو ما يُكرِمُهُم اللهُ تعالى به في الآخرة، ولذا أُفرِدَ الأوَّلُ وجُمِعَ الثَّاني؛ لِلْإيماءِ إلى أنَّ ثوابَ الدُّنيا يسيرٌ في جَنْبِ ثوابِ الآخرةِ، ثانيها: أنَّ ذلكَ إعلامٌ باختلافِ المُفَضَّلِ عليهم؛ فالأوَّلُ: تَفضيلُ اللهِ تعالى لِلْمُجاهِدِين على القاعدين مِن أُولي الضَّرر؛ وذلك حاصلٌ

إِكْرامُ اللهِ تعالى لِلْمُجَاهِدِينَ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ

(1) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 4/1816.

(2) الرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 11/194، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 5/344، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/37، وأبو السّعود، إرشاد العقل السَّليم: 2/221.

بدرجةٍ واحدَةٍ، والثَّاني: تَفضيلُ اللّه سبحانه لِلْمُجاهِدين على القاعِدين مِن غير عُذرٍ؛ وذلك حاصلٌ بدرجاتٍ، وثالثُها: أنَّ فيه تنزيلَ الاختلافِ العنوانيِّ بين التَّفْضِيلَيْنِ، وبين الدَّرجةِ والدَّرجاتِ: منزلةَ الاختلافِ الذَّاتِيّ؛ تمهيدًا لسلوك طريقِ الإبهام ثمَّ التَّفسيرِ؛ رَوْمًا لِمَزِيدِ التَّحقيقِ والتَّقريرِ، ورابعُها: أنَّ التَّكرارَ بقَصْدِ تأكيدِ التَّفضيلِ والمبالغَةِ فيه؛ لبيانِ رِفعةِ المجاهدين وعَظِيم شَأْنِهم.

بَلَاغَةُ الإِطْنَابِ بِالتَّذْيِيلِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾:

قولُ اللّه تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ بعدَ قولِه سبحانه: ﴿دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً﴾: تَذْييلٌ جارٍ مَجْرى المثَلِ؛ لاستقلالِه بالإفادَةِ من غيرِ افتقارٍ إلى ما قبلَهُ في بيانِ معناهُ، وفائدتُهُ: تَقريرُ وعدِ اللّهِ تعالى من المغفرة والرَّحمةِ وتأكيدُه[1]، وفيه حَثٌّ على التَّلبُّسِ بالعمَلِ المُقتضِي لمَغفرةِ اللّه تعالى ورحمتِه، ولفظ ﴿دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ﴾، بدل من ﴿أَجْرًا﴾ بدل الكلّ من الكلّ، مبيّن لكميّة التّفضيل[2]، وفيه إشارة إلى أنّه " ما فضّلهم بذلك إلّا بما اقتضته صفاته، وما هو شأنه في نفسه، فإذا لا بدّ من ذلك الأجر العظيم بأنواعه، ولا مردَّ له"[3].

تَرْغِيبُ أَهْلِ الإِيمَانِ فِي تَحْصِيلِ الأَسْبَابِ المُقْتَضِيَةِ مَغْفِرَةَ اللهِ وَرَحْمَتَهُ

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

المَغْفِرَةُ وَالرَّحْمَةُ:

الفَرْقُ بينَهما مِن أوجهٍ: أوَّلُها: أنَّ أصلَ الغَفْرِ في اللُّغة: السَّتْرُ[4]، وأصلَ الرَّحْمَةِ: الرِّقَّةُ والعَطْفُ[5]، ثانيها: أنَّ أحدَهما سبَبٌ في الآخَرِ، ومالَ ابنُ عَرَفَةَ إلى أنَّ الرَّحمة سببٌ في المغفرة؛ لأنَّ الرِّقَّةَ والعطفَ

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 2/222.
(2) القاسميّ، محاسن التّأويل: 3/285.
(3) رضا، تفسير المنار: 5/287.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (غفر).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (رحم).

تُوجِبُ عادةً سَتْرَ الزَّلَلِ[1]، إلَّا أنَّ ظاهرَ القرآنِ الكريم عكسُه؛ وهو كونُ المغفرة سببًا في الرَّحمة، كما قال الله تعالى: ﴿لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾﴾ [النّمل: 46]، ثالثُها: أنَّ المغفرةَ والرَّحمةَ إذا جُمِعا في مَحَلٍّ واحدٍ؛ انصرفَتِ المغفرةُ لسَتْرِ ما مضى من الذُّنوبِ، والرَّحمةُ لِلْعِصْمة منها فيما يُستقبَلُ[2] إذا كان ذلك جزاءً في الدُّنيا؛ لأنَّ الآخرةَ لا يُتصوَّرُ فيها ذنوبٌ حتَّى يُحتاجَ إلى العِصمةِ منها، رابعُها: أنَّ المغفرةَ فيها زَوالُ المَكْرُوه مِن آثار الذُّنوبِ، والرَّحمةَ فيها تَحصيلُ المطلوبِ[3]، ولذلك كان استعمالهما معًا ذا دلالة وأهميّة.

المَغْفِرَةُ والعَفْوُ:

الفرقُ بينَهما من ثلاثةِ أَوْجُهٍ: أحدُها: أنَّ أصلَ الغَفْرِ في لُغة العربِ: السَّتْرُ[4]، وأصلَ العَفْوِ: المحْوُ وَتَرْكُ الشَّيْءِ[5]، ثانيها: أنَّ الغالبَ استعمالُ العَفوِ في تَرْكِ الواجباتِ، واستعمالُ المغفرةِ في فِعْلِ المحرَّماتِ[6]، ثالثُها: أنَّ أحدَهُما أبلغُ مِنَ الآخَرِ، وقد وقع خِلافٌ في تعيينِ الأبلَغِ منهما على قولَيْنِ: أحدهما: أنَّ العفوَ أبلغُ مِنَ المغفرةِ؛ لأنَّ المغفرةَ تُنْبِئُ عَنِ السَّتْرِ، بخلافِ العَفْوِ فإنَّه مُشعِرٌ بالمَحْوِ، والمَحْوُ أبلغُ من السَّتْرِ[7]، والآخرُ: أنَّ المغفرةَ أبلغُ مِنَ العفوِ؛ لأنَّ المغفرةَ مُتضمِّنَةٌ وِقايةَ المغفورِ له شرَّ ذنبِه، وإقبالَ الغافِرِ عليهِ ورضاهُ عنه، بخلافِ العَفْوِ فإنَّهُ مُتضمِّنٌ لإسقاطِ صاحبِ الحقِّ حقَّهُ ومسامحتِه، فقد يَعْفُو ولا يُقْبِلُ على مَنْ عفا عَنْهُ ولا يرضَى عَنْهُ، وبهذا يكونُ العفوُ تركًا محضًا، والمغفرةُ إحسانًا وفَضلًا وجُودًا[8].

والأوَّلُ أشهَرُ، والاشتقاقُ اللُّغَوِيُّ يَدُلُّ عليهِ.

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/435: 2/258.
(2) ابن عثيمين، شرح ثلاثة الأصول، ص: 19.
(3) ابن عثيمين، تفسير الفاتحة والبقرة: 3/66.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (غفر).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عفو)، وابن الأثير، النِّهاية: (عفا).
(6) ابن عثيمين، شرح العقيدة الواسطيَّة: 1/341.
(7) الصَّفُّوري، نزهة المجالس: 1/88.
(8) ابن تيمية، مجموع الفتاوى: 14/140.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمۡ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمۡۖ قَالُواْ كُنَّا مُسۡتَضۡعَفِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ قَالُوٓاْ أَلَمۡ تَكُنۡ أَرۡضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٗ فَتُهَاجِرُواْ فِيهَاۚ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ٩٧ إِلَّا ٱلۡمُسۡتَضۡعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلۡوِلۡدَٰنِ لَا يَسۡتَطِيعُونَ حِيلَةٗ وَلَا يَهۡتَدُونَ سَبِيلٗا ٩٨ فَأُوْلَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعۡفُوَ عَنۡهُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورٗا ٩٩﴾ [النّساء: 97 - 99]

❁ مُناسَبَةُ الآياتِ لِمَا قَبْلَها:

المناسبة بين أجر المقبلين على الجهاد، وعقاب القاعدين المستكينين

لَمَّا ذَكَرَ اللّهُ تعالى ثوابَ مَنْ أَقْدَمَ علَى الجهاد؛ أَتْبَعَهُ بِعِقابِ مَنْ قَعَدَ عَنْهُ ورَضِيَ بالسُّكونِ في دَارِ الكُفْرِ، والآية عامّة تتناول مجموع المؤمنين الّذين أقاموا بين المشركين، وهم قادرون على الهجرة، وليس لهم في موطنهم قدرة على إقامة أمور دينهم، نظرا للحصار والإيذاء الّذي يتعرّضون له بالغدوّ والإبكار، في جوار الكفّار.

فهم ظالمون لأنفسهم، مرتكبون حراما بالإجماع، وظلمهم لأنفسهم متجسّد في كونهم يتركون الحقّ تقية وخوفا من الأذى المسلّط عليهم، وما يسامون من خسف وما يلاقون من هوان[1]، إلّا من له عذر، فهو معفوٌّ عنه، وذلك كلّه على طريقةِ القرآنِ الكريمِ في ذِكْرِ المُتَقابِلَات؛ كالجمع بينَ الثَّوابِ والعقابِ، والوعدِ والوعيدِ[2].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾: جمع ملك، وهم مخلوقات من عالَم غَيْبِيّ، خَلَقَهُمُ اللّهُ سبحانه مِن نُورٍ، وجعلَهم طائعين لَهُ لا يَعصُون أمرَه[3]،

(1) حومد، أيسر التّفاسير: 1/88.
(2) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 11/195.
(3) ابن عثيمين، شرح العقيدة الواسطيَّة: 1/59.

الملك من الملائكة واحد وجمع، قال الكسّائي: أصله مألك بتقديم الهمزة، من الألوك وهي الرّسالة، ثمّ قلبت وقدّمت اللّام فقيل ملأك، ثمّ تركت همزته لكثرة الاستعمال، فقيل ملك، فلما جمعوه ردوها إليه، فقالوا: ملائكة وملائك أيضا[1]، وسُمُّوا ملائكةً؛ لأنَّهم يُبلِّغُونَ رسائلَ اللّه تعالى إلى مَنْ يشَاءُ مِن عبادِهِ[2]، كما قال اللّه تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا﴾ [فاطر: 1].

2) ﴿ظَالِمِىٓ﴾: الظَّاءُ واللَّامُ والميمُ تَدُلُّ تصاريفُها على حَجْبِ ما يَنْبَغِي أو مَا يُسْتَحَقُّ؛ أي: مَنعه أو انتِقَاصه[3].ومنهُ الظَّلَامُ؛ لحجبِهِ الرُّؤْيَةَ، والأرضُ المظلومةُ: الّتي لم يَنلْها المطرُ[4].والظَّالمُ: المُتَّصِفُ بالظُّلْمِ، والظُّلْمُ: وَضْعُ الشَّيْءِ في غير مَوْضِعه المُخْتَصِّ به، إمَّا بنُقْصانٍ أو بِزِيادَةٍ، وإمَّا بعُدولٍ عَن وَقْتِه أو مكانِه[5]، والظّالم لنفسه هو الّذي يوردها المهالك، بعصيان أمر اللّه، وارتكاب المفاسد الّتي تعود عليها بالسّوء والوبال في الدّارين.

3) ﴿مُسْتَضْعَفِينَ﴾: الضَّادُ والعينُ والفاءُ تَدُلُّ على مَعْنَيَيْنِ: عدم القُوَّةِ، وزيادةِ مِثْلِ الشَّيءِ فيهِ[6].ومِنَ الأوَّلِ: الضَّعْفُ والضُّعْفُ، والضَّعفُ يكون في النَّفْسِ، وفي البدَنِ، وفي الحالِ[7]، والمُسْتَضْعَفُ: الّذي يَتَضعَّفُهُ النَّاسُ، ويَتَجبَّرون عليهِ في الدُّنيا؛ لفَقْرٍ ورَثاثَةِ الحالِ[8]، والمرادُ بالمُسْتَضْعَفِين في قولِه تعالى: ﴿إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ﴾ العَجَزَةُ عَنِ الهِجرةِ، بسبَبِ الإعْسارِ وقِلّةِ الحِيلةِ، وسُوءِ البَصَرِ والمعرفةِ بالطَّريق مِن أرضهم - الّتي هي أرضُ شِرْكٍ - إلى أرض الإسلام[9].

4) ﴿وَٰسِعَةً﴾: الواوُ والسِّينُ والعَيْنُ تدُلُّ تصَارِيفُها على ضِدِّ الضِّيقِ والعُسْرِ[10]، ومِنْهُ

(1) الجوهريّ، الصّحاح: (ملك).
(2) ابن جرير، جامع البيان: 20/434، والأنباريّ، الزّاهر: 2/254.
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصَّل: (ظلم).
(4) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (ظلم)، والزَّبيديّ، تاج العروس: (ظلم).
(5) ابن سِيده، المحكم: (ظلم)، والرَّاغب، المفردات: (ظلم).
(6) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (ضعف).
(7) الرَّاغب، المفردات: (ضعف).
(8) الزَّبيديّ، تاج العروس: (ضعف).
(9) ابن جرير، جامع البيان: 9/101.
(10) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (وسع).

التَّوسيعُ، وهو ضِدُّ التَّضْييقِ[1].ومِنْهُ: السَّعَةُ، وتكونُ في الأمكنَةِ والأحوالِ والأفعالِ[2]، ففي المكانِ؛ نحوُ قولِ اللّه تعالى: ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً﴾، وفي الأحوال: السَّعَةُ بمعنى الغِنى والرّفاهيَةِ[3]، وفي الأفعال، كَسَعَةِ الجُودِ، وفي اتّساع الأرض مجالٌ للمغادرة، وفرصة للهجرة، حيث يفرّ المؤمن بدينه، ليجد الحريّة في العقيدة، والفسحة لممارسة شعائر دينه، دون ضغط ولا مضايقة، وليس المقصود ترك الوطن، لأنّ حبّ الأوطان من صريح الإيمان، وحين يأتي نصر اللّه، وتتاح الفرصة للرّجوع إلى الوطن، يرجع المهاجر أكثر شوقا، وأعمق حبّا لوطنه، وقد قال الشّاعر:

بِلَادٌ أَلِفْنَاهَا عَلَى رَغْمِ مَا بِهَا *** وَقَدْ يُؤْلَفُ الشَّيْءُ الّذِي لَيْسَ بِالحَسَنْ
وَتُسْتَعْذَبُ الأَرْضُ التِّي لَا هَوَا بِهَا *** وَلَا مَاؤُهَا عَذْبٌ وَلَكِنَّهَا وَطَنْ[4].

5) ﴿مَأْوَىٰهُمْ﴾: الهمزةُ والواوُ والياءُ تَدُلُّ تصريفاتُها على مَعْنَيَيْنِ: التَّجمُّعِ، والإشفاقِ[5]، ومِنَ الأوَّلِ التَّأوِّي؛ وهو التَّجمُّعُ، وقولُ العربِ: تأوَّتِ الطَّيرُ؛ إذا انضمَّ بعضُها إلى بعضٍ[6]. والمَأْوَى: المكانُ الّذي يُنْصَرَفُ إليه ويُقامُ فيه[7]، والمَأْوَى في قول اللّه تعالى: ﴿مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ﴾: المَصيرُ الّذي يَأْوُون إليهِ يومَ القِيامَةِ[8]، ولمّا تكون النّار هي المأوى، فقد خسر صاحبها عقباه، وكان في أشدّ العذاب مأواه، وهذا من الأيلولة إلى سوء العاقبة، الّتي بشّعها السّياق، وجعلها عقوبة لهذا الصّنف الخانع المتخاذل.

6) ﴿مَصِيرًا﴾: الصَّادُ والياءُ والرَّاءُ تدورُ اشتقاقاتُها على المآلِ والمَرجِعِ[9]، ومِنْهُ المَصِيرُ؛ وهو المَوضعُ الّذي ترجِعُ إليه المياهُ[10]، والمَصيرُ: المرجِعُ والمآلُ[11].وقولُه تعالى:

(1) الجوهريّ، الصحاح: (وسع).
(2) الرّاغب، المفردات: (وسع).
(3) ابن سِيده، المحكم: (وسع).
(4) الأبشيهي، المستطرف: 3/375.
(5) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (أوى).
(6) الخليل، العين: (أوى).
(7) ابن أبي نصر الحُميديّ، تفسير غريب ما في الصَّحيحين، ص: 266.
(8) ابن جرير، جامع البيان: 7/494.
(9) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (صير).
(10) ابن سيدَه، المحكم: (صير).
(11) الفيُّوميّ، المصباح المنير: (صير).

﴿وَسَآءَتۡ مَصِيرًا﴾ معناه: ساءتْ جَهَنَّمُ لِأَهْلِها الّذين صارُوا إليها مَرجِعًا ومَسْكنًا ومأوًى[1]، وحيث أنّ الإسلام يبغي لأهله العزّة، وسعادة المصير، فإنّ هؤلاء الْقَاعِدينَ المتخلفين عن الجهاد في سبيل الله، ولم يدركوا أنّ أرض الله واسعة، كي يفرّوا من أرضهم إلى أرض أخرى، يأمنون فيها على دينكم؟، وانصاعوا للكفر وظاهروه، قد فقدوا العزّة، وضاعت منهم الكرامة، ولذلك كان مثواهم النّار، وقبح هذا المرجع والمآب[2].

7) ﴿حِيلَةَ﴾: الحاءُ والواوُ واللّامُ تَدُلُّ اشتقاقاتُها على تحرُّكٍ في دَوْرٍ، ومِنْهُ سُمِّيَ العامُ حَولًا؛ لأنَّه يَحولُ، أي: يَدُورُ[3]، ومِنْهُ الحَيلةُ؛ وهي حِجارَة تنحدِرُ مِن جَوَانِب الجَبَل إِلَى أَسْفَله حَتَّى تَكْثرَ، ومِنْ كلام العرب قولُهم: أَتَيْته فَوجدتُ النَّاسَ حولَه كالحَيْلةِ، أَيْ: مُحْدِقين بِهِ كإِحْداقِ تِلْكَ الحِجَارَةِ بِالجَبَلِ[4].ومِن هذا البابِ: الحِيلَةُ؛ لأنَّه يدورُ حوالَي الشَّيءِ ليُدْرِكَهُ[5]، والحِيلَةُ: لَفْظٌ جامِعٌ لأنواعِ أسبَابِ التَّخلُّصِ[6]، واستطاعَةُ الحِيلةِ: وُجْدانُ أسبابِ الهِجرةِ، وما تتَوَقَّفُ عليهِ[7].

8) ﴿عَسَى﴾: عَسَى: كلمةُ ترَجٍّ، وهي دالَّةٌ على قُربٍ وإمكانٍ[8]، وعسى مِنَ اللهِ تعالَى واجبةٌ في القرآنِ الكريمِ كُلِّهِ، إلّا في موضعٍ واحدٍ، وهو قولُ الله تعالى: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبۡدِلَهُۥٓ أَزۡوَٰجًا خَيۡرًا مِّنكُنَّ﴾[9] [التّحريم: 5]، وقال أبو عبيدة: عسى من الله إيجاب، فجاءت على إحدى لغتي العرب، لأن عسى في كلامهم رجاء ويقين، وأنشد لابن مقبل، في معنى ظنّى بهم يقين:

ظَنِّى بِهِمْ كَعَسَى وَهُمْ بِتَنُّوفَةٍ *** يَتَنَازَعُونَ جَوَائِزَ الأَمْثَالِ[10].

(1) ابن جرير، جامع البيان: 9/101.
(2) نخبة من أساتذة التفسير، التفسير الميسر، ص: 94.
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (حول).
(4) ابن سيده، المحكم: (حيل).
(5) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (حول).
(6) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 5/347، والقِنَّوجيّ، فتح البيان: 3/216.
(7) البيضاويّ، أنوار التَّنزيل: 2/92.
(8) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عسو/ي).
(9) الجوهريّ، الصحاح: (عسا).
(10) الجوهريّ، الصحاح: (عسا).

9) ﴿يَعْفُوَ﴾: العَيْنُ والفاءُ والواوُ تَدُلُّ كثيرٌ من تصاريفِها على تَرْكِ الشَّيْءِ[1]، ومنهُ: العَفْوُ؛ وهي الأرضُ الّتي لا أثَرَ فيها[2]، كأنَّها تُرِكَتْ وأُهْمِلَتْ.والعَفْوُ عَنِ الذَّنبِ: تَرْكُ العقُوبَةِ عليهِ[3]، وحقيقةُ العَفْوِ شرعًا: التَّجاوزُ عَنِ العَبْدِ بغُفران ذنُوبه، وَعدمُ مؤاخذتِه بِمَا اقترفَه منها[4]، وفي أسماء اللّه تعالى (العفو) هو فعول، من العفو، وهو التّجاوز عن الذّنب وترك العقاب عليه، وأصله المحو والطّمس، وهو من أبنية المبالغة، يقال: عفا يعفو عفوا، فهو عاف وعفو[5].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

مـآل الـرّاضـين بالذّل والهوان، وقـد كـان لهم أن يهاجروا دون توان

إنَّ الّذين تَقبضُ الملائكَةُ أرواحَهم، وقد ظَلَمُوا أنفسَهم بِتَرْكِهمُ الهجرةَ إلى دارِ الإسلامِ وبقَائِهم في دار الكُفْر، تَقُولُ لَهُم الملائكةُ تَوبيخًا لهم وتَقريعًا: على أيِّ حالٍ كُنْتُم مِن أمرِ دينِكُمْ؟ فيَقُولُون معتذِرينَ: كُنَّا ضُعَفاءَ في أَرْضِنا، عاجِزين عَن دَفْعِ الظُّلم عَن أنفسِنا، فتقُول لَهُمُ الملائكَةُ توبيخًا: أَلَم تَكُنْ أرضُ اللّهِ واسعةً، فتَنْتَقِلُوا مِن أرضِكم إلى دارٍ أخرى، تأمنُونَ فيها على دينِكُمْ؟! فأولئك مَأْوَاهُمُ النَّارُ، تَكون لَهُمْ مَرجِعًا ومَسكنًا يأوون إليهِ يومَ القيامةِ.ويُستثنى مِن هذا الوعيدِ والتَّهديدِ: مَن عَجَزَ عَنِ الهجرةِ مِنَ الرِّجال والنِّساءِ والصِّغارِ، الّذين لا يَقْدِرُون على دَفع الظُّلم عَن أَنْفُسِهم، ولا يَجِدُونَ أسبابَ الهجرة وما تتَوَقَّفُ عليهِ، فهذا الصِّنْفُ مِنَ الضُّعفاء هُم الّذين يَعْفُو اللّهُ تعالى عَنْهُم؛ لِعلمِه سبحانه بحقيقةِ حالِهم، وكانَ اللّهُ ﷻ مُتجاوزًا عَنِ السَّيِّئاتِ ساترًا لها[6].

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عفو).
(2) ابن سِيده، المخصَّص: (عفو).
(3) نشوان الحميريّ، شمس العلوم: (عفو).
(4) الشَّوكَانِي، تحفة الذَّاكرين، ص: 459.
(5) ابن الأثير، النّهاية: (عفا).
(6) ابن جرير، جامع البيان: 9/100 - 111، ومكيُّ بن أبي طالب، الهداية إلى بلوغ النهاية: 2/1440 - 1441، وأبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 4/1817، ونخبة من العلماء، التّفسير الميسّر، ص: 94.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دَلَالَةُ الفِعْلِ ﴿تَوَفَّىٰهُمُ﴾ بَيْنَ المَاضَوِيَّةِ وَالمُضَارَعِيَّةِ:

التَّحْذِيرُ مِنْ تَرْكِ الهِجْرَةِ لِلْقَادِرِ عَلَيْها

الفِعْلُ ﴿تَوَفَّىٰهُمُ﴾ مِنْ قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ متردِّدٌ بين دَلالتَين[1]: إحداهما: أَنْ يَكُونَ فعلًا ماضيًا لَم تَلحقْهُ علامةُ تأنيثٍ؛ لأنَّ لفظَ الملائكةِ مؤنَّثٌ تأنيثًا غيرَ حقيقيٍّ. والأخرى: أن يكونَ فعلًا مضارِعًا، حُذفت إحدَى تاءَيْه تخفيفًا، والأصلُ: (تَتَوَفَّاهُمْ).وعلى الدَّلالَةِ الأُولَى؛ تكونُ الآيةُ إخبارًا عن حالِ أقوامٍ مَضَوا وانقرضُوا، وفيه تعريضٌ على جهةِ التَّحذير لِمَنْ يصنَعُ مثلَ صنيعِهِمْ، أو يكونُ الفِعْلُ الماضِي مُرادًا به الاستقبالُ، لتحقُّقِ وجودِ مَنْ هُوَ بهذا الوصفِ، وإنْ لم تُعَيَّنْ أشخاصُهُمْ.وعلى الدَّلالةِ الأخرى؛ تكونُ الآيةُ عامَّةً في حقِّ كلِّ مَنْ كان بهذا الوصفِ، وحَذْفُ التَّاءِ مِنْهُ مَع كونِه مِنْ باب التَّخفيفِ، إلَّا أنَّ فيهِ إشارةً أيضًا إلَى ما كان عِنْدَهُم مِن نَقْصِ بعضِ المعاني، بما تركُوه مِنَ الهجرةِ إلى أرضِ الإسلامِ، فَنَقْصُهم المعنويُّ دلَّ عليهِ نَقْصُ بناءِ الفعلِ، دَلالةً على جهةِ الرَّمْزِ والإيماءِ.

نُكْتَةُ التَّعْبِيرِ بِـ ﴿تَوَفَّىٰهُمُ﴾ دُونَ (يَمُوتُونَ) أَوْ (يُتَوَفَّوْنَ):

فَظَاعَةُ حَالِ تَارِكِي الهِجْرَةِ مَعَ القُدْرَةِعليها، وسوء مصيرهم عِنْدَ الممات

قولُ اللّه تعالى: ﴿تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ أيْ: تُميتُهم وتَقبِضُ أرواحَهُمْ، فالمعنى: إنَّ الّذين يموتُونَ حالَ كونِهم ظالِمي أنفسِهم، وعُدِلَ عَنِ التَّعبير بـ (يموتُونَ) أو (يُتَوَفَّونَ) إلى ﴿تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾؛ ليكونَ ذلكَ وسيلةً لِبيان فظاعةِ فِتنَتِهم عندَ الموتِ[2]؛ لأنَّ بناءَ الفعل ﴿تَوَفَّىٰهُمُ﴾ يقتضي إظهارَ فاعلِ التَّوفِّي؛ وهو هُنا: الملائكةُ، وفيهِ مِن إدْخَالِ الرَّوْعِ والمهابَةِ ما فِيهِ، إذ ملائكة العذاب سوف لا يترفّقون

(1) الرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 11/195، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 5/345، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 5/372، وأبو زهرة: زهرة التَّفاسير: 4/1817.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 5/173.

بهذا الصّنف من النّاس، وبالتّالي فإنّ عذابهم الذّي سيكون في النّار، يبدأ منذ لحظات الوفاة، فيخرجون من الدّنيا وهم يوبّخون، ويغلظ لهم الملائكة الشّداد الغلاظ في القول، فتبدأ معاناتهم منذ ذلك الحين.

ورود الجَمْعِ مُرادًا بِهِ المُفْرَدُ، في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾:

عِظَمُ شَأْنِ مَلَكِ المَــوْتِ، الّـذي يـبـاشـر خـروج الرّوح

لفظ ﴿ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾ في قولِ اللّه ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمۡ﴾ جمعٌ يُرادُ به المفرَدُ؛ لأنَّ الّذي يُباشِرُ التَّوفِّي هو مَلَكُ الموتِ، كما قال اللّه تعالى: ﴿۞قُلۡ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلۡمَوۡتِ ٱلَّذِي وُكِّلَ بِكُمۡ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ تُرۡجَعُونَ ١١﴾ [السّجدة:]، وإطلاقُ الجَمْعِ على الواحدِ يُقصَدُ به تفخيمُ شأنِ ملَكِ الموتِ[1]، ويُحتَمِلُ أن يكونَ الجمعُ باقيًا على أصلِ دَلالَتِهِ، وتكون اللّامُ فيه لِلْعَهْدِ العلمِيِّ، والمرادُ: الملائكةُ المعاوِنُونَ لملَكِ الموتِ في قبضِ الأَرْوَاحِ[2]، لا جميعُ الملائكةِ.

نُكْتَةُ تَأْكِيدِ الجُمْلَةِ بِـ﴿إِنَّ﴾، في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾:

بَشَاعَةُ المُخَالَفَةِ بِتَرْكِ الْهِجْرَةِ إلى حيث الأمان على العقيدة

أُكِّدتِ الجملةُ في قَوْلِ اللّه ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمۡ﴾ بـ ﴿إِنَّ﴾ اهتمامًا بمضمونِ الخَبَرِ؛ لِما فيه مِن بشاعَةِ المخالفةِ وسوءِ العاقبَةِ، ولا يُرادُ به رَدُّ إنكارِ منكِرٍ، ولا تردُّدِ شاكٍّ، "وفي خبر ﴿إِنَّ﴾ هذه ثلاثة أوجه، أحدها: أنّه محذوفٌ تقديرُه: إنَّ الّذين توفَّاهم الملائكةُ هَلَكوا، والثّاني: أنّه ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ﴾ ودخلت الفاءُ زائدةً في الخبر تشبيهاً للموصول باسم الشّرط، والثّالث: أنّه ﴿قَالُواْ فِيمَ كُنتُمۡۖ﴾، ولا بدّ من تقدير العائد أيضاً أي: قالواْ لهم كذا، و﴿فِيمَ﴾ خبر ﴿كُنتُمۡۖ﴾ وهي (ما) الاستفهاميّة حُذِفت ألفها حين جُرَّتْ"[3].

(1) الزُّحَيلّي، التّفسير المنير: 5/226.
(2) الشِّنقيطيّ، أضواء البيان: 6/185.
(3) السّمين، الدّر المصون: 4/78.

دَلَالَةُ تَعْرِيفِ الِاسْمِ المَوْصُولِ ﴿ٱلَّذِينَ﴾:

بَيانُ سُوءِ عَاقِبَةِ مَنْ لَمْ يُهَاجِرْ، وَالتَّحْذِيرُ مِنْ هَذَا المَسْلَكِ

تعريفُ الاسْم الموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾ في قوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمۡ﴾ يَحتَمِلُ أن يكونَ لِلْعهدِ، والمقصودُ به: أناسٌ معيَّنُونَ، تركُوا الهجرةَ مِن بلاد الكُفْرِ إلى بِلادِ الإسْلَام مَعَ عدمِ تمكُّنِهم مِن إظهار دِينِهم، ويُؤيِّدُهُ حَمْلُ الفعْلِ ﴿تَوَفَّىٰهُمُ﴾ على معنى المُضِيِّ - على ما تقدَّمَ قريبًا - .ويَحتمِلُ أن يَكُونَ التَّعريفُ لِلْجِنْسِ المفيدِ العمومَ، ويُقوِّيه حملُ الفعلِ ﴿تَوَفَّىٰهُمُ﴾ على المُضَارِعِيَّةِ.

نُكْتَةُ التَّعْبِيرِ بِالِاسْمِ، فِي قوله: ﴿تَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمۡ﴾:

الِاسْتِمْرَارُ عَلَى الظُّلْمِ يُوجِبُ التَّغْلِيظَ فِي العُقُوبَةِ

جاء الحالُ ﴿ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمۡ﴾ مِن قولِ الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمۡ﴾ اسمًا، ولم يرِدْ فِعْلًا، بِأَنْ يُقَالَ: (وقد ظَلَمُوا أنفسَهم)؛ لِلْإيماء إلى أنَّ ظُلْمَهُم كان مُسْتَمِرًّا، كما يدلُّ على ذلكَ سِياقُ الذَّمِّ، فموجِبُ العقوبةِ والزَّجْرِ ثابتٌ ولم يكُن عارِضًا، ولذا اشتدَّ عَلَيْهِمُ الوَعيدُ، حينما وُجِهوا بالحجّة الدّامغة، والدّليل الواضح من فعلهم، وقد أقرّوا بذلك، وكانت حجّتهم في التّبرير داحظة.

دَلَالَةُ الِاسْتِفْهَامِ فِي قَوْلِهِ: ﴿فِيمَ كُنتُمۡۖ﴾:

التَّقْصِيرُ فِي إِقَامَةِ شَعَائِرِ الْإِسْلَامِ مُوجِبٌ لِلتَّوْبِيخِ وَالتَّقْرِيعِ

الاسْتِفْهَامُ في قولِ الله تعالى: ﴿قَالُواْ فِيمَ كُنتُمۡۖ﴾ يُرادُ به تَقْرِيعُهم وتوبيخُهم، بتَقْصِيرِهم في إظْهارِ إسْلامِهم، وإقامةِ أحكامِهِ وشعائره[1]، لا حقيقةُ الاستعلام.

ولا يُشْكِلُ عليه أنَّ المُتَوَفَّيْنَ أجابُوا عَنْ سؤالِ الملائكة، وسُؤالُ التَّوبيخ لا يفتَقِرُ إلى جوابٍ؛ لأنَّ قولَهُم: ﴿قَالُواْ كُنَّا مُسۡتَضۡعَفِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ مُحاولَةٌ مِنْهُمْ لإقامةِ عُذْرٍ، يُزِيلُ عَنْهُمُ التَّوبيخَ.

(1) الزَّجّاج، معاني القرآن وإعرابُه: 2/95، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 5/346، والبقاعيّ، نظم الدُّرر: 5/372، والآلوسّي، روح المعاني: 3/121.

سَبَبُ فَصْلِ جُمْلَةِ ﴿قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي ٱلْأَرْضِۚ﴾ عَمَّا قَبْلَها:

تَثْوِيرُ فِكْرِ المُتَلَقِّي لِمَعْرِفَةِ الجَوابِ، مِن إعجاز الخطاب

فُصِلَتِ الجُملةُ ﴿قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي ٱلْأَرْضِۚ﴾ عمَّا قبلُ؛ لأنَّه استئنافٌ بيانيٌّ، فإنَّ الجملةَ السَّابقةَ، وهي قولُ اللهِ سبحانه: ﴿قَالُواْ فِيمَ كُنتُمۡۖ﴾ تبعَثُ في نَفْسِ المُتَلَقّي سُؤالًا؛ وهو: ماذا قالَ أُولَئِكَ المُتَوفَّوْن في الجَوَابِ؟ فَقِيلَ: ﴿قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ﴾[1].

دَلَالَةُ الألف واللَّامِ في قوله ﴿قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي ٱلْأَرْضِۚ﴾:

مِنْ شَأْنِ الواقِعِ في المُخالَفَةِ المُبالَغَةُ في إبْرَازِ عُذْرِهِ

(الْ) في لفظ ﴿ٱلْأَرْضِ﴾ مِن قَوْلِ اللهِ سُبحانه: ﴿قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي ٱلْأَرْضِۚ﴾ يُرادُ بها العهدُ العِلْمِيُّ، والمقصودُ: أرضُ الكُفَّارِ الّتي لم يُفارِقُوها بالهِجْرَةِ عنها إلى أرض الإسلام، وليس المرادُ أنَّهم كانُوا مُسْتَضْعَفِين في عمُوم الأرض، بدَليلِ قَوْلِ المَلَائِكَةِ لَهُمْ بعدُ: ﴿أَلَمۡ تَكُنۡ أَرۡضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٗ فَتُهَاجِرُواْ فِيهَاۚ﴾، وكأنَّهم أَطْلَقُوا الأرضَ في قولِهم: ﴿قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي ٱلْأَرْضِۚ﴾ لِلْإِشَارةِ إلى أنَّها لكثرة الكُفَّارِ فيها هي الأرضُ كُلُّهَا[2]، أو النُّكْتَةُ في ذلك: المبالَغَةُ في إظهار عُذْرِهم، حتَّى كأنَّ الهجرةَ في حقِّهم ليس لها فائدةٌ؛ لوجودِ الاسْتِضْعَافِ في الأرض كُلِّها.

دَلَالَةُ الاسْتِفْهَامِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَلَمۡ تَكُنۡ أَرۡضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٗ﴾:

المُعْتَذِرُ بِعُذْرٍ غَيْرِ صَحِيحٍ يَسْتَحِقُّ التَّبْكِيتَ وَالتَّوْبِيخَ

الاسْتِفْهَامُ في قولِ اللهِ سُبحانه حكايةً عَنِ الملائكةِ قولَهم: ﴿أَلَمۡ تَكُنۡ أَرۡضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٗ فَتُهَاجِرُواْ فِيهَاۚ﴾ يُرادُ به التَّبكيتُ؛ لردِّ ما اعْتَذَرُوا به وتكذيبِهِ؛ إذْ إنَّ ما اعتَذروا به غَيرُ صحيحٍ، فقد كانَت لَهُمُ القُدْرَةُ على الخُرُوج إلى بَعْضِ الأَقْطَارِ الّتي يأمنُونَ فيها على دِينِهم[3]، "فقالوا: كُنَّا مستَضْعَفِين اعْتِذاراً عمَّا وبَّخُوا به، واعتِلالاً بأنَّهم ما كَانُوا قادِرِين على المُهَاجَرة، ثمّ إنّ المَلَائِكَة

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السَّليم: 2/222، والآلوسّي، روح المعاني: 3/121.

(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 5/737.

(3) أبو حيَّان، البحر المحيط: 4/41، والمظهري، التَّفسير المظهريّ: 2/208.

لم يَقْبَلُواْ منهم هذا العُذْر؛ بل ردُّوه عَلَيْهِم، فقالواْ: ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَاۚ﴾ يعني أنكم كنتم قادرين على الخُرُوجِ من مَكَّة إلى بَعْضِ البِلاَدِ التي لا تُمْنَعُون فيها من إظْهَار دِينكُم، فبقيتم بين الكُفَّار لا للعجز عن مُفَارَقَتِهِم، بل مع القُدْرَة على المُفَارَقَة"[1].

تَضْمِينُ فِعْلِ ﴿فَتُهَاجِرُواْ﴾ مَعْنى الضَّرْبِ في الأرض:

وَفْـرَةُ المَعَـانِي وَكَـثْرَتُـهَـا فِـي أُسْـلُـوبِ التَّضْمِينِ

الفِعْلُ ﴿فَتُهَاجِرُواْ﴾ مِن قولِه تعالى: ﴿فَتُهَاجِرُواْ فِيهَاۚ﴾، الأصلُ أن يُعدَّى بـ (إلَى)، فمقتضى الظَّاهر: ألَم تكن أرضُ اللّه واسعةً فتهاجروا إليها، وفي هذا مَسْلَكَانِ: أحدُهما: أن يكونَ من بابِ تناوُبِ الحروف، وأنَّ (فِي) بمعنى (إلَى)[2].والآخَرُ: أن يكونَ ذلك لِلْإِشارة إلى تَضمينِ الفعل معنَى فعلٍ آخرَ، يصلُح لتعديةِ الحرفِ المذكورِ؛ وهو الضَّرْبُ، فيكون المعنى: ألم تكنْ أرضُ اللّهِ واسعةً فتُهاجِرُوا ضَارِبِين في الأرض، إلى حيثُ يَزُولُ عَنْكُمُ المانعُ الّذي يمنعُكم مِن إظهار دينِكُم، وإقامةِ شَرَائعِهِ[3]، وقال أبو البقاء: ﴿أَلَمْ تَكُنْ﴾ استفهام بمعنى التّوبيخ، ﴿فَتُهَاجِرُواْ﴾ منصوبٌ على جواب الاستفهام، لأنَّ النّفيَ صار إثباتاً بالاستفهام[4].

دَلَالَةُ اسْمِ الإِشَارَةِ عَلَى تَمْيِيزِ المُشَارِ إِلَيْهِمْ أَكْمَلَ تَمْيِيزٍ:

بُعْدُ مكانة تَارِكِي الهِجْرَةِ فِي الشَّرِّ، حيث تشبّثوا بدار الكُفْرِ

في التَّعبير عن تاركِي الهجرةِ من بلادِ الكُفر إلى بلاد الإسلام باسم الإشارة (أولئك) في قوله سبحانه: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُۖ﴾: تنبيهٌ على بشاعةِ ما اتَّصفوا به وشناعتِه، بِحَيثُ تَمَيَّزوا عمَّنْ عدَاهُم أكمَلَ تمييزٍ، وَلِلْإِشعار بأنَّهم جديرون بالحُكم الواردِ بعدَهُ؛

(1) ابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 6/590.
(2) ابن أبي زَمنين، تفسير القرآن: 1/400، وابن الجوزيّ، زاد المسير: 457، وابن عادل، اللُّباب في علوم الكتاب: 9/506.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 5/373.
(4) السّمين، الدّر المصون: 4/79.

للصِّفاتِ المذكورةِ قبلُ[1].وقد جاءَ اسمُ الإشارةِ (أولئك) لِلْبَعِيد؛ إِشْعَارًا إلى بُعْدِ مكانتِهِمْ في السُّوء[2].

نُكْتَةُ التَّعْبِيرِ بِالِاسْتِعارَةِ في قولِهِ: ﴿مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ﴾:

مِـــنْ أَنْـــواعِ العَذابِ النَّفْسِيِّ التَّهكُّمُ بِالمُعَذَّبِ

أصلُ كلمةِ المَأْوَى: الموضِعُ الّذي يُنْصَرَفُ إليه ويُقامُ فيه[3]، وذلك يتضمَّنُ معنى الاستقرارِ والاطمئنانِ، فالتَّعبيرُ عَن جهنَّمَ بأنَّها مأوَى في قول الله تعالى: ﴿مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ﴾ هُوَ مِن بابِ الِاسْتِعَارَةِ التَّهكُّميَّةِ، وذلك أشدُّ وَقْعًا على النُّفوسِ؛ لِمَا فيها مِنَ الإِنْزالِ لِقَدْرِ المخاطَبِ والحَطِّ منهُ.

بَلَاغَةُ أُسْلُوبِ التَّقْسِيمِ فِي اسْتِيعابِ الأَقْسَامِ:

الضّعف البشريّ يطال كلّ أصناف الجنس، ولكن لا تكليف على غير مكلّف

اسْتِثْناءُ العاجزينَ مِنَ الرِّجالِ والنِّساء مِنَ المُؤاخَذةِ بتَرْكِ الهجرةِ في قوله سبحانه: ﴿إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً﴾، جارٍ وَفْقَ الظَّاهِرِ؛ لأنَّ الرِّجالَ والنِّساءَ مِن شأنِهم الوقوعُ في الإثمِ والمُخالفةِ؛ لكونهم مُكَلَّفِين، إلَّا أنَّ استثناءَ الوِلْدَانِ مَعَ عدمِ توجُّهِ الوعيدِ إليهم أصلًا - لكون قَلَمِ المُؤاخذةِ مرفوعًا عَنْهُمْ - مُخالِفٌ لمُقتَضى الظَّاهِرِ. وإيرادُ الوُلدانِ ههُنا لاستيعابِ أقسامِ النَّاسِ رجالًا ونساءً وَوِلْدانًا؛ وهو أحدُ صُوَرِ أسلوبِ التَّقسيم[4] في عِلمِ البَديعِ، وفي فائدةِ ذَلكَ مسالِكُ[5]:

الهجرة مطلب كونيّ لا تخلو منه مصْرٌ ولا دهْرٌ:

مردّ التّسريح بها إلى أمور: أوَّلُها: أنَّ المرادَ المبالغةُ في بيانِ وجوبِ الهجرةِ مِنْ بلادِ الكفرِ إلى بلادِ الإسلامِ، حتَّى كأنَّ ذلك - لِتأكُّدِهِ - ممَّا أُمِرَ الولدانُ به.وثانيها: أنْ يكونَ المُرادُ بالوِلْدانِ: مَنْ

(1) طنطاوي، التَّفسير الوسيط: 3/277.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 5/373.
(3) ابن أبي نصر الحُمَيْدِيّ، تفسير غريب ما في الصَّحيحين، ص: 266.
(4) المرادُ به ههنا: استِيفَاءُ أقسَامِ الشيَّءِ بالذِّكْر، وله صُوَرٌ أُخْرَى، يُنظر: الصَّعيديّ، بغية الإيضاح: 4/608.
(5) الخَفاجيّ، عناية القاضي: 3/170، وأبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 4/1820.

قَرُبَ عَهدُه بالصِّغَرِ، مِنْ بابِ المجازِ المُرسَلِ بعَلاقةِ اعتبارِ ما كانَ. وثالثُها: أنْ يكونَ ذلكَ مِن بابِ الكِنايةِ؛ إذِ المقصودُ تكليفُ أولياءِ الولدانِ بإخراجِهم مِنْ ديارِ الكفرِ؛ لعَجْزِهم عَنِ الخُرُوجِ على سَبيلِ الانفرادِ. ورابعُها: أنَّ ذلكَ للإشارةِ إلى أنَّ عَجْزَهم عجزٌ لوالِديهم من الرِّجالِ والنِّساءِ؛ "لأنَّ مِنْ أقوى أسبابِ العَجْزِ وعدمِ الحُنْكَةِ كونَ الرِّجالِ والنِّساءِ مَشْغُولِين بأطفالِهم، مَشْغُوفِين بِهِم، فيَعجزُون عَنِ الهجرةِ بسببِ خوفِ ضَياعِ أطفالِهم وولْدانِهم"[1].

وُجُوبُ الهِجْرَةِ مِنْ بِلَادِ الكُفْرِ إلى بِلَادِ الإِسْلامِ، حلٌّ شرعيٌّ حكيم

بَلاغَةُ الاِسْتِئْنَافِ البَيانِيِّ في قولِهِ: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً﴾:

قولُ اللّه تعالى: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً﴾ جملةٌ مُستأنَفةٌ استئنافًا بيانيًّا؛ تَوضيحًا لمَعْنى الاستضعافِ المَذكورِ قبلُ، وذلك أنَّ قولَ اللّه سبحانه: ﴿إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ﴾ يُورِثُ في نَفْسِ المُتلقِّي سؤالًا؛ وهو: ما حقيقةُ الاستضعافِ الّذي اسْتُثْنِيَ مَنْ اتُّصِفَ به من الوعيدِ الشَّديدِ؟ فجاءَ الجوابُ: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا﴾، ولِئلَّا يَتوهَّمَ مُتوهِّمٌ أنَّ استضعافَ هؤلاءِ كاستضعافِ الطّائفةِ الأُولى الّتي وبَّخَتْهم الملائكةُ، وتُوُعِّدُوا بالعذابِ في جهنَّمَ[2].

الاِسْتِضْعَافُ الّذِي به العُذْرُ، انعدام أَسْبابِ الهِجْرَةِ وَآلياتها

نُكْتَةُ التَّنْكِيرِ في قولِه: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا﴾:

تَنْكِيرُ ﴿حِيلَةً﴾ وَ﴿سَبِيلًا﴾ مِنْ قول اللّه تعالى: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا﴾ يُرادُ به العُمُومُ؛ لوُقوعِهِ في سياقِ النَّفْيِ، والمعنى: أنَّهم لا يَجِدُونَ أيَّ حِيلةٍ، ولا يَهْتَدُون إلى أيِّ سَبيلٍ، وفائدتُهُ: بيانُ خُطورةِ تَرْكِ الهِجْرَةِ، حتَّى إنَّهُ لا تُرجَى النَّجاةُ مِنْ تَبِعاتِ هذا التَّرْكِ إلَّا مَنْ سُدَّتْ عنهُ كلُّ سُبُلِ الخَلاصِ.

خَطَرُ تَرْكِ الهِجْرَةِ مِنْ بِلَادِ الكُفْرِ لِمَنْ لا يَقْدِرُ عَلَى إِظْهَارِ دِينِهِ

(1) أبو حيَّان، البحر المحيط: 4/42.
(2) طنطاوي، التَّفسير الوسيط: 3/277.

سِرُّ إيرادِ ﴿عَسَى﴾ فِي حقِّ المَعْذُورِينَ حَقِيقَةً:

عِظَمُ قَدْرِ الهِجْرَةِ وَخَطَرُ التَّسَاهُلِ فِي استثناء العُذْرِ بِتَرْكِها

النُّكْتَةُ في إيراد ﴿عَسَى﴾ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعۡفُوَ عَنۡهُمۡۚ﴾ مَعَ أنَّ الكلامَ في حَقِّ المَعذورينَ حقيقةً؛ لِلْإشارة إلى أنَّ تَرْكَ الهجرةِ أمرٌ مُضيَّقٌ لا توسعةَ فيه، حتَّى إنَّ المَعذورَ البَيِّنَ عُذْرُهُ له أنْ يقولَ: عَسَى اللّهُ أَنْ يعفوَ عنِّي، ولا يَجزِمُ به، فما الظَّنُّ بغيره؟![1]، وفي هذا تَعظيمٌ لوجوب الهجرةِ، حتَّى إنَّ مَنْ تركَها مع تَحقُّقِ عَدَمِ وجوبِهَا عليه لعُذره ينبغي أنْ يَعُدَّ ذلك ذَنْبًا يَطلُبُ مِنَ اللّه تعالى العفوَ عنه على جهةِ الرَّجاءِ والطَّمَعِ، لا الجَزْمِ والقطعِ[2].واستظْهَرَ الفَخْرُ أنَّ وَجْهَ إيرادِ ﴿عَسَى﴾: "أنَّ المُستَضْعَفَ قَد يَكُونُ قَادِرًا على ذلك الشَّيْءِ مَعَ ضَرْبٍ مِنَ المَشَقَّةِ، وتمييزُ الضَّعْفِ الّذي يَحصُلُ عندَه الرُّخصةُ عَنِ الحَدِّ الّذي لا يَحصلُ عندَه الرُّخْصَةُ شاقٌّ ومُشْتَبِهٌ، فرُبَّما ظَنَّ الإنسانُ بنفسِه أنَّه عاجزٌ عَنِ المُهَاجِرَة، ولا يكونُ كذلك، ولا سِيَّما في الهجرة عَنِ الوطنِ؛ فإنَّها شاقَّةٌ على النَّفْسِ، وبسبَبِ شدَّةِ النَّفْرَةِ قد يَظُنُّ الإنسانُ كونَه عاجزًا مع أنَّه لا يكونُ كذلك، فَلِهَذا المعنى كانتِ الحاجَةُ إلى العَفوِ شديدةً في هذا المَقام"[3].

وفي هذا إيماءٌ إلى أنَّ عفوَ اللّه تعالى عن تَركِهم الهجرةَ عَفْوٌ عزيزُ المَنالِ، فحالُهُم مَعَ عَفْوِ اللّهِ سبحانه، كحالِ مَن لا يَقْطَعُ بحُصولِ العفوِ عنهُ، والمرادُ: تَضييقُ تَحقُّقِ عُذْرِهِمْ؛ لِئلّا يتسَاهلوا في شُرُوطِه؛ اتِّكالًا على عفوِ اللّه سبحانَه[4].

اتِّصافُ اللهِ تَعَالَى بِالعَفْوِ وَالمَغْفِرَةِ أَزَلِيٌّ أَبَدِيٌّ

فَائِدَةُ ذِكْرِ ﴿وَكَانَ﴾ فِي قولِهِ: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا﴾:

ذِكْرُ ﴿وَكَانَ﴾ في قول اللّه تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ دُون قولِه: (واللّه غفورٌ رحيمٌ)؛ لِلْإشعارِ بأنَّ اتِّصافَهُ سُبحانه بهاتَيْن

(1) الزَّمخشريّ، الكشَّاف: 1/556.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 2/224.
(3) الرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 5/134.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 5/177.

الصِّفَتَيْن، قَبْلَ خَلْقِ الخَلْقِ، ثمَّ إنَّ مِنْ شأنِهِ وعادتِهِ (ﷻ)، أن يعفوَ ويغفرَ[1]، وثَمَّ نُكْتَةٌ صوتيَّةٌ في ذكر ﴿وَكَانَ﴾، وهو التَّناسُبُ الصَّوتيُّ؛ إذْ ذكرُ ﴿وَكَانَ﴾ أَوجَبَ نصبَ خبَرِها، وهذا أنسبُ للآياتِ قبلُ وبعدُ.

نُكْتَةُ التَّذْيِيلِ في قولِهِ: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا﴾:

قولُ اللّه تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ إطنابٌ بالتَّذْييلِ[2]، وهوَ تَذْييلٌ جارٍ مَجرى المَثَلِ؛ لاستقلالِهِ بالإفادةِ مِن دُون افتقارٍ إلى ما قبلَهُ في بيانِ المرادِ مِنْهُ، وفائدتُهُ: تقريرُ ما قبلَهُ وتأكيدُهُ بأتمِّ وجهٍ وأعمِّه؛ فإنَّ ما قبلَهُ فيه عفوُ اللّهِ سبحانه على المَعذورين بتَرْكِ الهجرةِ، وهذه الآيةُ عامَّةٌ فيهم وفي غيرِهم[3]، وفيه إيماءٌ إلى أنَّ العفوَ المَرْجُوَّ في قوله تعالى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْۚ﴾ هو عَفْوٌ واقعٌ؛ إذ إنَّه (جلَّ وعلا) لم يزَلْ مُتَّصفًا بِصِفَةِ العَفْوِ والمغفرةِ[4].

عُمُومُ عَفْوِ اللهِ تعالى وَمَغْفِرَتِهِ

تَوْجِيهُ المُتَشَابِهِ اللَّفْظِيِّ بَيْنَ قولِهِ: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْۚ﴾ وَقَوْلِهِ: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْۚ﴾:

وَرَدَ خبرُ ﴿عَسَى﴾ في آية سورة النِّساء بالعفو، فقال سبحانه: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْۚ﴾، ثُمَّ ذُيِّلَتِ الآيةُ باسْمَيِ اللّه: العَفُوِّ والغفورِ، فقال ﷻ: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا﴾، بخِلافِ آيةِ التَّوبةِ؛ فقد جاء خبرُها بذِكْرِ التَّوبةِ، فقال ﷻ: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْۚ﴾ [التوبة: 102]، وذُيِّلَتِ الآيةُ باسْمَيِ اللّه: الغفورِ والرَّحيم، فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ١٠٢﴾ [التوبة: 102].ووَجْهُ المَغايرةِ بينهما: أنَّ آيةَ النِّساءِ تَقَدَّمَها قولُه جلَّ وعلا: ﴿إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا﴾، فلمَّا كان هؤلاءِ قد قَبِلَ اللّه (ﷻ) عُذرَهم، فعَفا عنهم؛ ناسَبَه قولُه: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْۚ﴾، ولمَّا كان مَنْ

دِقَّةُ اخْتِيارِ الأَلْفاظِ في النَّظْمِ القُرْآنِيِّ، من بلاغة القرآن وتفرّده

(1) القاسميّ، محاسن التَّأويل: 3/290 - 291.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السَّليم: 2/224.
(3) طنطاويّ، التَّفسير الوسيط: 3/278.
(4) أبو حيَّان، البحر المحيط: 4/43.

عَفا عَنْ ذَنْبٍ في وقتٍ قد يُعاقِبُ عليهِ في وقتٍ آخرَ؛ ناسبَه أَنْ يُبيِّنَ اللّٰهُ تعالى أنَّ ما عفا عنه يُزيلُهُ، بحيثُ لا يَذكرُهُ أصلًا، فقال: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا﴾.وأمَّا آيةُ التَّوبةِ، فصُدِّرَتْ بقولِ اللّٰهِ تعالى: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُواْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا﴾، فلمَّا كان الاعترافُ بالذَّنبِ أوَّلَ طريقِ التَّوبةِ؛ ناسَبَه قولُهُ: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾، ولمَّا كان مُقتضى الظَّاهِرِ أنْ يُذكَرَ بعدُ اسمُه التَّوابُ، لكنْ أُريدَ تَبشيرُ هؤلاءِ بمغفرةِ اللّٰه تعالى لِمَا تابوا منهُ، وما لم يَتُوبُوا منه؛ ناسَبَ ذلك أن يُذكرَ اسمُه الغَفُورُ، ثُمَّ لمَّا كان مَنْ غَفَرَ السَّيِّئاتِ قد لا يُثيبُ على الصَّالحاتِ؛ كان الأوفقُ أن يُبيِّنَ أنَّهُ سُبحانه يُثِيبُ على الصَّالحِ، وهو مِن مُقتضياتِ رحمتِهِ تعالى، فقال ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٣٤﴾﴾.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الوَفَاة والمَوْت:

الفرقُ بينَهما من وَجْهَيْنِ: أحدها: أنَّ أصلَ الموتِ في اللُّغة: ذهابُ القوَّة من الشَّيءِ[1]، وأصلَ الوَفاةِ: الإكمالُ والإتمامُ[2]. ثانيها: أنَّ الموتَ عند الإطلاقِ يُرادُ به: قَبضُ الرُّوحِ والنَّفْسِ، وأمَّا الوفاةُ؛ فيُطلَقُ على استكمال الأجلِ، واستكمالِ الرِّزْقِ واستيعابِهِ.وبهذَين الوجهَين يتبيَّنُ أنَّ بينَ الموتِ والوفاةِ عُمومًا وخُصوصًا وَجْهيًّا؛ فالوفاةُ أعمُّ مِنَ الموتِ مِن وجهٍ؛ إذ الوفاةُ تُطلَقُ على استكمالِ الأجلِ - وهو الموتُ - وعلى غيرِه، ومنهُ سُمِّيَ النَّومُ وفاةً؛ لأنَّ العبدَ لا ينامُ إلَّا إذا وفَّى اللّٰهُ تعالى له ما كتبَهُ له في ذلك اليومِ مِن رزقٍ، والموتُ أعمُّ مِنَ الوفاةِ من وجهٍ آخرَ؛ إذ إنَّ قَبْضَ الرُّوحِ لا تَدُلُّ على استكمال الأَجَلِ - وإنْ كان الأصلُ دَلالتَها على ذلك - ، فإنَّ اللّٰه تعالى قال: ﴿۞أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُواْ ثُمَّ أَحْيَٰهُمْ﴾ [البقرة: 243]، فأماتَهم اللّٰه تعالى، ثُمَّ أحياهم لِيَسْتَكْمِلُوا آجالَهُم[3].

الوِلْدان والأَطْفال:

الوِلْدان جمعُ وَليدٍ؛ وهو مَن قَرُبَ عهدُه بالوِلادةِ، ويكونُ ذلك قبل أن يَطُرَّ شاربُهُ، فإذا طرَّ شاربُهُ سُمِّيَ غلامًا، ولقُرْبِهم بعهدِ الولادةِ استُعمِلَ هذا اللَّفظُ - الوِلدانُ - في

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (موت).
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (وفى).
(3) زيدان، الفروق اللُّغويَّة في القرآن الكريم، ص: 761.

مقامات الضَّعف؛ لأنَّهم لا يزالون مُحتاجين إلى رعايةٍ، كما في قول اللّه تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ﴾ [النّساء: 75]، وقوله سبحانه: ﴿إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا﴾. ولكونِ الولدانِ في أصغرِ الأطوارِ العُمريَّةِ قال اللّه تعالى في وصف القيامة: ﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا ﴿١٧﴾﴾ [المزّمّل: 17] أي: هو يومٌ يجعل أصغر النَّاسِ - وهم أبعدُ النَّاس عن الشَّيْبِ - شيبًا؛ لشدَّة هولِهِ وكربِهِ.أمَّا الأطفالُ؛ فجمعُ طِفْلٍ، وسُمُّوا بذلك لنُعومةِ أظفارِهم، وبَشَرَةِ أجسادِهم ولينِها، فهم لا يَزالُ يُنظَرُ إليهم كأنَّهم رُضَّعٌ في أحضان أمَّهاتِهم، ولذا ذَكَرَهم اللّه تعالى في هذا السِّياقِ، كما في قوله تعالى: ﴿وَنُقِرُّ فِي ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾ [الحجّ: 5][1].

السَّبِيل والطَّرِيق:

السَّبيلُ هو الطَّريقُ الّذي فيه سهولةٌ، ويُطلَقُ على الطّريق المسلوكَةِ، وَمِنْهُ قولُهم: سبيلٌ سابلَةٌ، أيْ: مَسلوكَةٌ، ولذا اقترنَ السُّلُوكُ مع السَّبيلِ كثيرًا، كما في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿فَٱسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا﴾ [النّحل: 69]، وقولِه سُبْحَانَهُ: ﴿وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾ [طه: 53].ولِسهولَةِ سُلوكِ السَّبيلِ، وردت في القرآنِ الكريم كثيرًا مُرادًا به: ما يُسلَكُ لنيلِ الخيرِ، وأمَّا قولُ اللّه تعالى: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا﴾، كأنَّ المعنى: أنَّهم لا يَهْتَدُونَ إلى طريقٍ يَسْهُلُ عَلَيْهِمْ مِن خلالِهِ الخلاصُ مِن أذى الكُفَّار وقَهْرِهِم.وأمَّا الطَّريقُ؛ فأصلُه مِنَ الطَّرْقِ بالأَرْجُلِ، ثُمَّ استُعيرَ لكلِّ مَسْلَكٍ يَسلُكه الإنسانُ، وهو لا يَستلزِمُ السُّهولَةَ كالسَّبيلِ، والغالبُ في الطَّريقِ إذا أُريد به الخيرُ؛ قُرِنَ بوصفٍ أو إضافةٍ تُخَلِّصُ معناه لذلك، كقوله تعالى: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾﴾ [الأحقاف: 30]، فالسَّبيلُ أَخَصُّ مِنَ الطَّريقِ؛ لأنَّ السَّبيلَ يَستلزِمُ السُّهولةَ بخلاف الطَّريقِ فلا يستلزِمُهَا؛ فهو أعمُّ بِهَذَا الاعتبارِ[2].

(1) زيدان، الفروق اللُّغويَّة في القرآن الكريم، ص: 661 - 664.

(2) العسكريّ، معجم الفروق اللُّغويَّة، ص: 313، والدوري، دقائق الفروق في البيان القرآنّي، ص: 139 - 142، ومحمَّد داود، معجم الفروق الدّلاليَّة في القرآن الكريم، ص: 281 - 284.

﴿۞وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ۚ وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ١٠٠﴾

[النّساء: 100]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

العلاقة بين الترهيب من التقاعس عن الهجرة، والبشارة بما يؤول إليه المهاجر

لَمَّا رَهَّبَ اللّهُ تعالى مِن تَركِ الهِجْرةِ من بلاد الكفرِ إلى بلاد الإسلامِ؛ رَغَّبَ في هذه الآية بما يُسلِّي عمَّا قد يَقذِفُهُ الشَّيطانُ في قلوبِ العبادِ مِنْ أنَّه لوفارقَ رَفاهيَةَ الوطنِ وقع في شِدَّةِ الغُربةِ وضِيقِ العيشِ، وأنَّه ربَّما تَحمَّلَ مَشقَّةَ الخروجِ مِنْ بلَدِهِ بقَصدِ الهجرةِ الشَّرعيَّةِ، فيموتُ قبلَ بلوغِ مَقصِدِه، فيكونُ قد ضيَّعَ رفاهيَةً مُتحقِّقَةً لمصلحةٍ مُتوهَّمَةٍ[1]؛ فذكر أنّه بهجرته مناصرة للحقّ وتأييدا له، سيجد فى الأرض الّتى يسير فيها، مواضع كثيرة، يرغم بها أنف أعداء الحقّ، ويجد سعة الحريّة والإقامة العزيزة، وله بذلك الثّواب والأجر العظيم[2].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مُرَٰغَمًا﴾: المُراغَم: السّعة والمضطرب، والمذهب والمهرب[3]، والرَّاءُ والغينُ والميمُ تَرجِعُ اشتقاقاتُها إلى معنَيَيْن: التُّرابِ والمَذْهَبِ، فَمِنَ الأوَّلِ: الرَّغَامُ؛ وهو التُّرابُ، ومِن الثَّاني: المُراغَمُ؛ وهو المَذْهَبُ والمَهْرَبُ[4]، وأصلُ المُراغَمَةِ: الهِجرانُ، فالمُراغَمُ والمُهاجَرُ: بمعنًى

(1) الرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 11/198، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 5/375.
(2) لجنة من علماء الأزهر، المنتخب في تفسير القرآن الكريم، ص: 127.
(3) الزَّبيدي، تاج العروس: (رغم).
(4) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (رغم).

واحدٍ، وسُمِّيَ المَذْهَبُ والمَهرَبُ: مُراغَمًا؛ وذلك أنَّ الرَّجُلَ كان إذا أسْلَمَ خَرَجَ عَن قومِهِ مُراغِمًا لهم؛ أي: مُغاضِبًا ومُهاجِرًا مُقاطعًا[1]، وتقول: (فعل ذلك على الرّغم من أنفه)، و(رغم أنفي لله ﷻ)، قلت: معناه ذلّ وانقاد لأن أمسّ به التّراب[2]، ومن هذا البابِ المُراغَمُ في قولِ الله تعالى: ﴿يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً﴾؛ فإنَّ المعنى: يجد مُهَاجَرا يُهاجِر إليهِ[3]، ويَحتمِلُ أنْ يكونَ (مُرَاغَما) جامعًا بين الأصلِ؛ فهو يَجدُ مَذهبًا ومَهربًا ومهاجَرًا، وفي ذلك المكانِ تَحصُلُ له مُراغمةُ الأعداءِ، أي: إلحاقُ الذُّلِّ والهَوانِ بِهِمْ، حتَّى كأنَّ أنوفَهم تَلْصَقُ بالتُّراب لهَوانِهم[4].

2) ﴿يُدْرِكْهُ﴾: االإدراك: اللّحوق. يقال: مشيت حتّى أدركته، وعشت حتّى أدركت زمانه، وأدركته ببصري، أي رأيته[5]، والدَّالُ والرَّاءُ والكافُ تَدُلُّ اشتِقاقاتُها على لُحُوقِ شَيءٍ بشَيءٍ، ووُصُولِه إليهِ[6]، ومِنْهُ: تَدارَكَ القومُ؛ إذا لَحِقَ آخرُهم أوَّلَهم، كما في قول الله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعًا﴾ [الأعراف: 38].والدَّرَكُ: لَحَاقُ المُطارِد بالمُطارَد[7]، ومِنْهُ قول الله تعالى: ﴿ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ﴾، كأنَّ الموتَ يُطارِدُ العبدَ حتَّى يُدْرِكَهُ، ولذا قال النّبيُّ ﷺ: "لَوْ أَنَّ ابْنَ آدَمَ هَرَبَ مِنْ رِزْقِهِ كَمَا يَهْرَبُ مِنَ المَوْتِ؛ لَأَدْرَكَهُ رِزْقُهُ كَمَا يُدْرِكُهُ المَوْتُ"[8].

3) ﴿ٱلْمَوْتُ﴾: وهو ضدّ الحياة، وقد مات يموت ويمات أيضا، وأصل ميت مَيْوَتٌ على فَيْعَلٌ، ثمّ أدغم، ثمّ يخفّف فيقال ميت. قال الشّاعر وقد جمعهما في بيت:

لَيْسَ مَنْ مَاتَ فَاسْتَرَاحَ بِمَيْتٍ *** إِنَّمَا المَيْتُ مَيِّتُ الأَحْيَاءِ[9]

والميمُ والواوُ والتَّاء تدورُ تصريفاتُها على ذَهابِ القوَّة في الشَّيءِ، ومِنْهُ: الموتُ؛ وهو

(1) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 117.
(2) الرّازيّ، مختار الصّحاح: (رغم).
(3) ابن أبي زَمَنِين، تفسير القرآن: 1/401.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 5/376.
(5) الجوهريّ، الصّحاح: (درك).
(6) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (درك).
(7) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصَّل: (درك).
(8) رواه أبو نُعيم في حلية الأولياء 7/90، وحسَّنه الألبانيّ في سِلسلة الأحاديث الصَّحيحة (952) وصحيح الجامع (5232).
(9) الجوهريّ، الصّحاح: (درك).

ضدُّ الحياةِ[1]، ومِنْهُ قِيل لسُكون الرِّياحِ: مَوْتٌ[2]، وقيل: ماتتِ النَّارُ؛ إذا خَمَدَت[3]، ومِنْ هذا البابِ قولُ النَّبيِّ ﷺ عنِ الثُّوم والبصل: "مَنْ أَكَلَهُمَا فَلَا يَقْرَبَنَّ مَسْجِدَنَا"، وَقَالَ: "إِنْ كُنْتُمْ لَا بُدَّ آكِلِيهِمَا فَأَمِيتُوهُمَا طَبْخًا"[4]؛ فإنَّ حياةَ هاتَين الشَّجرتَين يُرادُ بهما قوَّةُ رائحتِهما، عندَ طَرَاوَتِهما، بخلاف موتِهما؛ فإنَّهُ إزالةٌ لِتِلْكَ الرَّائحةِ بالطَّبْخِ[5]، والموتُ في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يُدْرِكُهُ ٱلْمَوْتُ﴾، بمعنَى قَبْضِ الرُّوحِ قبضًا لا رَجعةَ لصاحبِهِ في هذه الحياةِ الدُّنيا؛ ولا حاجةَ إلى التعمُّقِ في البَحْثِ عَنْ حقيقةِ الموتِ؛ ولذا قال محمّد رشيد رضا: "ومِنَ العَبَثِ والجهلِ: البحثُ في تعريفِ المَوْتِ، فالمَوْتُ هُو الموتُ المعروفُ لِكُلِّ أحدٍ[6]".

4) ﴿وَقَعَ﴾: يُقَالُ: وَقَعَ الشَّيْءُ وُقُوعًا فَهُوَ وَاقِعٌ[7]، أي سقط من أعلى إلى أسفل، والواوُ والقافُ والعَينُ تَدُلُّ اشتقاقاتُها على سُقوطِ شَيءٍ[8]، ثُمَّ استُعْمِلَ في لازِمِهِ، وهو الثُّبوتُ واللُّزومُ[9]، كالواردِ في قول الله سبحانه: ﴿فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾، أيْ: ثَبَتَ وحصلَ وَوَجَبَ[10]، ومعنى اللّفظ في السّياق: ﴿وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾، أيْ ثبت أجره عند الله تعالى، ثبوت الأمر الواجب[11]، وفيه إشارة إلى أنّ أجر المجاهد "لا يفوته أبدا، ولا يخطئه أبدا، لأنّه أجر مضاف إلى الله، بالوعد الّذي وعده سبحانه للمجاهدين، ولن يخلف الله وعده!"[12].

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (موت).
(2) الصَّغانيّ، التَّكملة والذَّيل والصّلة: (موت).
(3) الزَّمخشريّ، أساس البلاغة: (موت).
(4) رواه أحمد، الحديث رقم: (16247)، وأبو داود، الحديث رقم: (3827)، والنَّسائي في الكبرى، الحديث رقم: (6647)، وهو صحيح كما في تخريج المشكاة: (736).
(5) الطِّيبيّ، الكاشف عن حقائق السُّنن: 3/953.
(6) رضا، تفسير المنار: 4/222.
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (وقع).
(8) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (وقع).
(9) جبل، المعجم الاشتقاقيُّ المؤصَّل: (وقع).
(10) النَّسفي، مدارك التَّنزيل: 1/389، والمراغي، تفسير المراغي: 5/131.
(11) الآية الكريمة نزلت في جندب بن ضمرة حمله بنوه على سرير متوجهاً إلى المدينة، فلما بلغ التنعيم أشرف على الموت فصفق بيمينه على شماله فقال: "اللّهم هذه لك وهذه لرسولك أبايعك على ما بايع عليه رسولك ﷺ" فمات، ينظر: البيضاويّ، أنوار التّنزيل وأسرار التّأويل: 2/93.
(12) عبد الكريم الخطيب: التفسير القرآني للقرآن: 3/881.

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

ومَنْ يُفارِقْ أرضَ الشِّرْكِ وأهلَهَا، فِرارًا بدِينِه منها ومِنْهُمْ إلى أرض الإسلام وأهلِها المسلمين، قاصِدًا وجهَ اللّه تعالى راجيًا فضلَهُ؛ يَجِدْ في الأَرض مكانًا يَنعَمُ فيهِ بِمَا يكونُ سببًا في قُوَّتِه وذِلَّة أعدائِه، مَعَ سَعَةٍ في رزقِهِ، وهَناءٍ في عَيشِه، ومَنْ يَخْرُجْ مِنْ أرضِ الشِّركِ فارًّا بدِينِه إلى دار الإسلام، ثُمَّ تُدْرِكْهُ مَنِيَّتُهُ قبلَ بلوغِه دارَ الإسلام؛ فقدْ ثَبَتَ له ثوابُ عملِه، وجزاءُ هجرتِه وفراقِ وطنِه وعشيرتِه، فَضلًا مِنَ اللّه تعالى وإحسانًا، وكان اللّه سبحانه ساتِرًا ذنوبَ عبادِه، رحيمًا ورفيقًا بهم[1].

مـــن يـهـاجـر بـــصـــدق وإخـلاص، يجد فرجًا ورعاية من ربّ النّاس

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

دَلَالَةُ الخَبَرِ على التَّرْغِيبِ وَتَحْرِيكِ الهِمَّةِ إِلَى مَا يَلْزَمُ تَحْصِيلُهُ:

قولُ اللّه تعالى: ﴿۞وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً﴾ جملةٌ خبريَّةٌ، يُرادُ بها: التَّرغيبُ في الهجرةِ، والتَّأنيسُ لها، وتحريكُ الهِمَّةِ نحوَها، ووَقَعَ التَّرغيبُ بطريقِ الخبَرِ دون الأمرِ؛ لتأكيدِ التَّرغيبِ؛ إذْ فيه إشعارٌ بكونِ ذلكَ المُهَاجَرُ إذا وَصَلَ إليه المُهاجِرُ؛ سَيجِدُ قَطعًا وحَتمًا مِنَ الخَيْرِ والنِّعمة، ما يكونُ سبَبًا لإرْغام أنوفِ قومِه الّذين تَرَكَهم[2].

الـتَّرْغِـيـبُ فِي الهِجْرَةِ مِنْ بِلَادِ الكُفْرِ إِلَى بِلَادِ الإِسْلَامِ

بَلَاغَةُ الِاسْتِعَارَةِ فِي قَوْلِهِ: ﴿سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾:

السَّبيلُ في قولِه تعالى: ﴿۞وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ جيءَ به على طريقِ الاستعارةِ التَّصريحيَّةِ، وهي استعارةٌ مشهورةٌ، وزادَها قبولًا واستحسانًا ذكرُ المُهاجَرَةِ معها، وهي نوعٌ من السَّيْرِ يُناسِبُها ذِكْرُ السَّبيلِ؛ لافتقارِ السَّيرِ إلى طريقٍ يُسارُ عليه، فكان في ذِكْرِ السَّبيلِ ضَرْبٌ مِنَ التَّورية[3].

مِنْ بَلَاغَةِ القُرْآنِ الكَرِيمِ تَرْشِيحُ الأَلْفَاظِ بِأَلْفَاظٍ تُنَاسِبُهَا

---

(1) ابن جرير، جامع البيان: 9/112 - 113، وطنطاوي، التَّفسير الوسيط: 3/279 - 280، ونخبة من العلماء، التّفسير الميسّر، ص: 94.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السَّليم: 2/224، والآلوسّي، روح المعاني: 3/123.

(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 6/180.

سِرُّ تَقْدِيمِ الجَارِّ وَالمَجْرُورِ في قولِهِ: ﴿يَجِدۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُرَٰغَمٗا كَثِيرٗا﴾:

الِاسْتِقْرَارُ فِي الأَرْضِ أَعْظَمُ مَا يُرِيدُهُ المُهَاجِرُ

تقديمُ الجَارِّ والمجرورِ ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ على ﴿مُرَٰغَمٗا﴾ في قولِ اللّٰه تعالى: ﴿۞وَمَن يُهَاجِرۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُرَٰغَمٗا كَثِيرٗا وَسَعَةٗۚ﴾؛ لأنَّ نَفْسَ المُهاجِرِ بعد تركِهِ أرضَهُ ووطَنَهُ تطمَحُ وتَتَطلَّعُ إلى الاستقرارِ في الأرضِ[1]، وأمَّا المُراغَمُ والسَّعَةُ فرِبْحٌ زائدٌ على رأسِ المالِ، ولن يجد المهاجر إلّا السّعة من اللّٰه، والشّاعر يقول:

لَعَمْرُكَ مَا ضَاقَتْ بِلَادٌ بِأَهْلِهَا *** وَلَكِنَّ أَخْلَاقَ الرِّجَالِ تَضِيقُ[2]

نُكْتَةُ تَقْدِيمِ المُرَاغَمَةِ عَلَى السَّعَةِ، في قوله: ﴿مُرَٰغَمٗا كَثِيرٗا وَسَعَةٗۚ﴾:

لَذَّةُ الرُّوحِ أَعْظَمُ مِنْ لَذَّةِ البَدَنِ، والسِّرُّ كلُّ السِّرِّ في الأرواح

قُدِّمَ ذِكرُ مراغَمَةِ الأعداءِ على ذكر سعةِ العَيْشِ؛ لنُكتَتَيْنِ[3]: الأُولَى: أنَّ في مُراغمَةِ الأعداءِ لذَّةَ الرُّوحِ، وفي سَعَةِ العيشِ لذَّةَ البدنِ، ولذَّةُ الرُّوحِ أعزُّ وأعظَمُ.والأخرى: أنَّ ابتهاجَ الإنسانِ الّذي تَرَكَ بلَدَهُ، بسببِ شِدَّةِ ظُلمهم وقَهْرِهم لَهُ بدَوْلَتِهِ، مِن حيثُ إنَّها تَصيرُ سببًا لإرْغامِ أُنوفِ الأعداءِ: أَشَدُّ مِن ابتهاجِهِ بتِلْكَ الدَّولةِ مِن حيثُ صيرُورَتِها سببًا لسَعَةِ العَيْشِ عليهِ.

دَلَالَةُ تَنْكِيرِ ﴿مُرَٰغَمٗا﴾ وَ﴿وَسَعَةٗۚ﴾:

الثَّمَرَاتُ الجَلِيلَةُ لِلْهِجْرَةِ إِلَى بِلَادِ الإِسْلَامِ

تَنْكِيرُ ﴿مُرَٰغَمٗا﴾ وَ﴿وَسَعَةٗۚ﴾ في قولِ اللّٰه تعالى: ﴿يَجِدۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُرَٰغَمٗا كَثِيرٗا وَسَعَةٗۚ﴾ يُرادُ به التَّعظيمُ والتَّكثيرُ، فيكونُ وصفُ المُراغَمِ بالكَثِيرِ في قوله: ﴿مُرَٰغَمٗا كَثِيرٗا﴾ بمنزلةِ التَّأكيدِ المعنويِّ لَهُ، وهو مُراغَمٌ عظيمٌ أيضًا. ووَصْفُ الكَثْرَةِ مُرادٌ مع السَّعَةِ، إلَّا أنَّهُ حُذِفَ اكتفاءً بوصفِ المُراغَمِ به، والتَّقديرُ: يَجِدْ في الأرض مُراغمًا كثيرًا، وسعةً كثيرةً، فالمُراغَمُ والسَّعَةُ موصوفانِ بالكثرةِ والعظَمَةِ؛ مِقْدَارًا وقَدْرًا، والمعنى: "ومن يهاجر ويترك دار إقامته في سبيل

(1) البنّاني، سورة النّساء: دراسة بلاغيّة تحليليّة، ص: 218.
(2) الشّعراويّ، تفسير الشّعراوي: (الخواطر): 4/2583.
(3) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 11/198، والبقاعيّ، نظم الدُّرر: 5/376، وطنطاويّ، التّفسير الوسيط: 3/279.

اللّه تعالى، طالبا ما عنده يجد طرائق كثيرة في الحياة، وإن كان لَا ينالها إلّا ببعض المشقّة، فإنّها قنطرة للرّاحة، وكذلك ينال سعة في رزقه وحياته ودينه، فلا يُضَيَّق في دينه عليه، ولا يعيش في ذلّة وهوان، أو مقتّرا عليه في الرّزق"[1].

بَلَاغَةُ الِاسْتِعَارَةِ فِي قولِهِ: ﴿وَسَعَةً﴾:

السَّعَةُ ضِدُّ الضِّيقِ، وتُطْلَقُ حقيقةً على اتِّساعِ الأمكنةِ، وإطلاقُها على رفاهيَةِ العَيْشِ مجازٌ بالاسْتِعارَةِ[2]؛ ونُكتَتُها: تَصويرُ كثرةِ رِزْقِهِم تصويرًا حِسِّيًّا يَقْرُبُ مِنَ الأذهانِ؛ لأنَّ إدراكَ المحسوساتِ أسهلُ للنَّفْسِ مِن إدراك المعاني.

إدْرَاكُ الحِسِّيَّاتِ أَسْهَلُ مِنْ إدْرَاكِ المَعْنَوِيَّاتِ

ودَلَّ على كَثْرَةِ رِزْقِهِم أيضًا: عدمُ تقييدِ السَّعَةِ، فلم يَرِدْ: سَعَة في المآكل، أو في المشاربِ، أو في حُصُول الأمنِ لهم؛ وذلك لِتَذْهَب النَّفسُ في تصوُّرِ السَّعَةِ كُلَّ مَذْهَبٍ، ولِيشمَلَ ذلك كُلَّ سَعَةٍ مِن مرغوبَاتِهم ومحبوباتِهم.

نُكْتَةُ التَّعْبِيرِ بِـ ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ﴾ دُونَ (وَمَنْ يُهَاجِرْ):

وَرَدَ قولُ اللّه سبحانه: ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ على خلاف مُقْتَضَى الظَّاهرِ؛ فإنَّ مقتضَاه أنْ يُقالَ: (ومَنْ يُهاجِرْ إلى اللّه ورسولِه) دون ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ﴾؛ لأنَّ قبلَها قوله تعالى: ﴿۞وَمَن يُهَاجِرْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، والنُّكْتَةُ في ذلك: بيانُ أنَّ الجزاءَ المذكورَ في قوله ﷻ: ﴿فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ مُترتِّبٌ على مجرَّد الخروجِ من البيتِ بقصد الهجرةِ؛ ولو لم يُباشِرِ الهجرةَ بالفعلِ[3]، بخلاف ما لو قيلَ: ﴿۞وَمَن يُهَاجِرْ﴾؛ فإنَّه يكونُ خاصًّا بِمَنْ باشَرَ الخروجَ مِن بَلَدِهِ، ولم يصِلْ إلى مُهَاجَرِهِ، والأوَّلُ أدخَلُ في بيان سَعَةِ فضلِ اللّهِ سبحانَه على العبادِ.

عَظِيمُ فَضْلِ اللّهِ تَعَالَى عَلَى عِبَادِهِ، لايُعدُّعددًا، ولا يُحصى مددًا

(1) أبو زهرة: زهرة التّفاسير: 4/1822.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 5/180.
(3) الآلوسّي، روح المعاني: 3/123 - 124.

سِرُّ اخْتِيَارِ لَفْظِ البَيْتِ فِي قَوْلِهِ: ﴿مِنۢ بَيۡتِهِۦ﴾:

تَـرْكُ المُهَاجِرِينَ رَغَـدَ العَيْشِ ابْتِغاءَ مَرْضَاةِ اللهِ تَعَالَى، من أجلِّ الطّاعة

في اختيارِ ﴿بَيۡتِهِۦ﴾ إشادةٌ بعِظَمِ مجاهدَةِ هؤلاءِ المهاجرين لأنفسِهم؛ حيثُ تَرَكُوا أعزَّ ما لديهم وهو البيتُ، وما يُشعِرُ به هذا اللَّفظُ (البيت) من معاني الرَّاحةِ والدَّعَةِ والأنسِ بالأهلِ والولدِ، كلُّ ذلك تركوه في سبيل اللّه تعالى، وابتغاءَ مرضاتِه[1]، ولو حُذِفَ ﴿مِنۢ بَيۡتِهِۦ﴾ فجاءَ النَّظْمُ: (ومَنْ يَخرُجْ مُهاجِرًا)؛ لأدَّى ذلك أصلَ المعنَى مع قُصورٍ؛ إذ قد يُتوهَّمُ أنَّ المهاجرَ خرجَ مِن ضِيقِ عَيْشٍ ومشقَّةٍ لم يَتَحمَّلْها، فطلبَ بهجرتِهِ الدُّنيا مع إرادتِهِ وجهَ اللّهِ تعالى، فجاءَ التَّعبيرُ القرآنيُّ: ﴿وَمَن يَخۡرُجۡ مِنۢ بَيۡتِهِۦ﴾؛ للإشعارِ بأنَّه كان في سكينَةٍ وأمانٍ، وعَيْشٍ مع أهلٍ وولدٍ، ومعَ ذلك ترَكَ ذلك كُلَّهُ قاصدًا الهجرةَ، ولا يكونُ ذلك إلَّا لأنَّه مَحَّضَ هجرتَهُ لتكون خالصةً لوجهِ اللّه تعالى، لا يُريد بها شيئًا مِنَ الدُّنيا وحطامِها.

سِرُّ التَّعْبِيرِ بِـ ﴿يُدۡرِكۡهُ ٱلۡمَوۡتُ﴾ دُونَ (يَمُتْ):

لَا يَمْنَعُ المُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللهِ تَعَالَى مِنْ نَعِيمِ الجَنَّةِ إِلَّا المَوْتُ

التَّعبيرُ بـ ﴿ثُمَّ يُدۡرِكۡهُ ٱلۡمَوۡتُ﴾ دون (ثمّ يَمُتْ) فيه إشعارٌ "بمَزِيدِ الرِّضا مِنَ اللّه تعالى، وأنَّ الموتَ كالهَدِيَّة مِنْهُ سُبحانه له؛ لأنَّه سبَبٌ لِلْوُصُولِ إلى النَّعيم المُقيم الّذي لا يُنَالُ إلَّا بالموت"[2]، ولِذَا وقعَ التَّعبيرُ بـ ﴿ثُمَّ﴾ الدَّالَّةِ على التَّراخي؛ تأكيدًا لتلكَ النُّكْتَةِ، وأنَّ مرتبةَ الخُروجِ مِن بيتِهِ دون هذه المرتبَةِ؛ لِما فيها مِنْ تحقيق الغايةِ مِنَ الهجرةِ، وهو الوصولُ إلى رِضا اللّه تعالى، الموجبِ للنَّعيمِ الأبديِّ.

دَلَالَةُ الجُمْلَةِ الخَبَرِيَّةِ: ﴿فَقَدۡ وَقَعَ أَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۗ﴾:

المُهَاجِرُ فِي سَبِيلِ اللهِ تعالى ظَافِرٌ فِي كُلِّ أَحْوالِهِ

الجملةُ في قول اللّه تعالى: ﴿فَقَدۡ وَقَعَ أَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۗ﴾ يُرادُ بها بَعْثُ الطُّمأنينَةِ في قلوبِ المهاجرينَ، وتحفيزُهم على الهجرة وحَثُّهم عَلَيْهَا؛ فإنَّهم ظافرُونَ في كلِّ الأحوالِ، إنْ وَصلوا إلى مهاجَرِهم؛ فقد

(1) البنَّاني، سورة النّساء: دراسة بلاغيّة تحليليّة، ص: 264.
(2) الآلوسّي، روح المعاني: 3/124.

رَاغَمُوا أنوفَ أعدائهم، ووَسَّعَ اللّهُ تعالى عليهم مِنْ رِزقه، وإنْ ماتوا قبلَ وصولهم؛ تفضَّل اللّه سبحانه عليهم بثواب المهاجرين كامِلًا، وجَزَاهُم على ذلك أجرًا عظيمًا، لا يَعلَمُ مِقدارَه إلّا اللّه تعالى[1].

دلالة استعمال الوقوع مكان السّقوط في قوله تعالى: ﴿فَقَدۡ وَقَعَ أَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۗ﴾:

"يقول للعبد: أنت عندما تهاجر إلى أرض اللّه الواسعة، إن أدركك الموت قبل أن تصل إلى السّعة والمراغم، فأنت تذهب إلى رحابي، والمراغم سبب من أسبابي، وأنا المسبّب.ولماذا يستخدم الحقّ هنا ﴿وَقَعَ﴾ بمعنى (سقط)؟، هو سبحانه يلفتنا إلى ملحظ هامّ: حيث يكون الجزاء أحرص على العبد من حرص العبد عليه، فإذا ما أدرك العبد الموت، فالجزاء يسعى إليه، وهو عند اللّه، ويعرف الجزاء مَن يذهب إليه معرفة كاملة"[2]، ووقوع الأجر على اللّه، ملمحٌ لطمأنة المؤمن المهاجر الّذي ضاقت عليه الأرض بما رحبت، وهجر مسقط رأسه، ومأوى أنسه، ليكون في ثقة بأنّ اللّه متكفّل به، ولم يكله إلى أحد سواه، فهو في حماية الّذي لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السّماء، وفي عناية الّذي لا تأخذه سنة ولا نوم، فهو بذلك مطمئنّ على حفظه في الدّنيا، وعلى جزائه في الآخرة.

من كان الله حسبه، كفاه كلّ مهمّة، ووقاه كلّ ملمّة

فائِدَةُ العُدُولِ عَنْ (يُثْبِهُ) إلى قوله: ﴿فَقَدۡ وَقَعَ أَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۗ﴾:

نُكتةُ العُدولِ عَنِ التَّعبير بـ (يُثْبِهُ) إلى ﴿فَقَدۡ وَقَعَ أَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۗ﴾، ما في الثَّاني مِنَ الإيذان بلُزوم الأجر وثبوتِه، كما يَدُلُّ لذلكَ: ﴿وَقَعَ﴾؛ فإنَّها بمعنَى: ثبتَ ولَزِمَ ووَجَبَ، ويَدُلُّ لذلك أيضًا إضافةُ الأجرِ إلى ضميرِ المهاجر ﴿أَجۡرُهُۥ﴾، كأنَّ الأجرَ صارَ مِن مُخْتصَّاتِه الّتي في حيازَتِه.وفي قولِه: ﴿عَلَى ٱللَّهِۗ﴾ إيماءٌ إلى عَظَمَةِ الأجرِ، وأنَّه

ثُبُوتُ أَجْرِ المُهَاجِرِ وَلُزُومُهُ وَعَظَمَتُهُ

(1) طنطاويّ، التَّفسير الوسيط: 3/280.

(2) الشّعراويّ، تفسير الشّعراوي: (الخواطر): 5/2588.

بالقَدْرِ الّذي لا يُدْرِكُ أحدٌ - غيرَ اللّه تعالى - كُنْهَهُ؛ لأنَّه مِنَ اللّه سُبْحانَهُ، المتَّصفِ بالجلالِ والجمال والعَظَمَةِ، والعَطيَّةُ والثَّوابُ يَعْظُمانِ بعظمَةِ المُعْطِي والمُثيبِ[1].

دَلَالَةُ حَرْفِ الجَرِّ ﴿عَلَى﴾ فِي قولِهِ تعالى: ﴿وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۗ﴾:

مِنْ معاني استعمالِ ﴿عَلَى﴾: الدّلالةُ على الوجوبِ واللُّزومِ، ولذا فإنَّ قولَ اللّه سبحانه: ﴿فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۗ﴾ أي: حقَّ له الأجرُ الجزيلُ عندَ اللّه تعالى، وقد تفضَّلَ اللّه (ﷻ) فأوجبَ ذلك الأجرَ على نفسِهِ العَليَّةِ؛ فإنَّ اللّه تعالى لا يجبُ عليهِ شيءٌ إلَّا ما أوجبَهُ على نفسهِ تفضُّلًا مِنْهُ وتكرُّمًا، فصار قولُه: ﴿عَلَى ٱللَّهِۗ﴾ "كأنَّه صار وثيقةً على اللّه تعالى، وذلك كلُّه تأكيدٌ لِتَحَقُّقِ الأجرِ بهذه الهجرةِ[2]".

إِيجابُ اللهِ تَعالى على نَفْسِهِ إِثابَةَ المُهاجِرِ تَفَضُّلًا مِنْهُ وَتَكَرُّمًا

بَلَاغَةُ الِاسْتِعَارَةِ فِي قَوْلِ اللهِ سُبْحَانَهُ: ﴿فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۗ﴾:

في ﴿وَقَعَ أَجْرُهُۥ﴾ مِن قول اللّه تعالى: ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۗ﴾ استعارةٌ مَكنيَّةٌ؛ حيثُ شُبِّهَ الأجرُ بالطَّائرِ، فحُذِفَ المشبَّهُ به، وأُتِيَ بلازِمٍ من لوازِمِه وهو الوقوعُ، والقرينَةُ المانِعَةُ من إرادَةِ المعنى الحقيقيِّ للوقوعِ، وهو السُّقوطُ: عدمُ تأَتِّي إسنادِ الوقوع للأجرِ؛ لأنَّ الوقوعَ من شأنِ الأجسامِ - في الأصل - لا المعاني، ونكتةُ الاستعارةُ: تصويرُ ثبوتِ الأجرِ واستقرارِهِ؛ فإنَّ مِنْ شأنِ الطَّير أَنْ لا يَقَعَ ولا يَسْتَقِرَّ إلَّا في مكانٍ آمنٍ، والجامعُ بَيْنَ المَعْنَيَيْنِ: الاختيارُ الموفَّقُ في كلٍّ[3].

تَصْوِيرُ ثُبوتِ الأَجْرِ وَاسْتِقْرارِهِ تَصْوِيرًا حِسِّيًّا

نُكْتَةُ ذِكْرِ (كَانَ) فِي قولِهِ: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾:

ذِكْرُ (كَانَ) في قول اللّه تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ دُونَ

(1) الآلوسّي، روح المعاني: 3/124.
(2) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 4/1823.
(3) البنَّاني، سورة النّساء: دراسة بلاغيّة تحليليّة، ص: 443.

قولِه: (واللّه غفورٌ رحيمٌ)؛ للإشعارِ بأنَّ اتِّصافَهُ تعالى بِهَذَيْنِ الوَصْفَينِ دائمٌ ثابتٌ في الأزَلِ، ثُمَّ إنَّ ذلك مِنْ شأنِهِ وعادتِهِ سبحانه أنْ يَغْفِرَ ويرحمَ[1].

اتِّصَافُ اللهِ تَعَالَى بِالمَغْفِرَةِ وَالرَّحْمَةِ أَزَلِيٌّ أَبَدِيٌّ

بَلَاغَةُ التَّذْيِيلِ فِي قولِهِ سُبْحانَهُ: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾:

قولُ اللّهِ سُبْحَانَهُ: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ بعد قولِه سبحانه: ﴿فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۗ﴾: تذييلٌ جارٍ مجرى المَثَلِ؛ لكونِهِ مستقلًّا بالإفادَةِ، مِن غير افتقارٍ إلى ما قبلَهُ في بيانِ المرادِ مِنْهُ، وفائدتُهُ: تَقريرُ وَعْدِ اللّهِ تعالى عبادَهُ بالأجر العَظِيم وعمومُهُ، ومِنَ الأجرِ العَظِيمِ: أنْ يغفرَ لَهُمْ ويرحَمَهُمْ.

عُمُومُ مَغْفِرَةِ اللهِ تَعَالَى وَرَحْمَتِهِ

(1) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 4/1823.

﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُواْ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ كَانُواْ لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿١٠١﴾﴾ [النّساء: 101]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

المناسبة بين التّحفيز على الهجرة، وبين التّرخيص بالقصر حالة الخوف

لَمَّا حَثَّ اللّهُ تعالى على الجهادِ، وكان محتاجًا إلى السَّفَرِ في كثيرٍ مِنَ الأحايينِ، وأوجَبَ سبحانَهُ السَّفَرَ لأجلِ الهِجْرَةِ؛ تَركًا لبلاد الكُفْرِ إلى بلاد الإسلام، كما في قوله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ﴾، وبيَّنَ فضلَ هذا السَّفرِ في قوله تعالى: ﴿۞وَمَن يُهَاجِرْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِى ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً﴾، لَمَّا كان الأمر كذلكَ، وكان مُطْلَقُ السَّفرِ مَظِنَّةَ المشقَّةِ، فكيفَ بسفَرِ الجهادِ والهجرةِ، مع ما انضمَّ إلى المشَقَّة فيهما مِن خوفِ الأعداء؛ ذَكَرَ اللّه تعالى تخفيفَ الصَّلاةِ بالقَصْرِ[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ضَرَبْتُمْ﴾: يقال: (ضرب فلان في الأرض)، إذا خرج فيها تاجرا أو غازيا ضربا وضربانا[2]، والضَّادُ والرَّاءُ والباءُ تدور تصاريفُها على غِلَظٍ يُخَالِطُ الشَّيءَ الرِّخوَ أو يُداخِلُه، مداخلةً قويَّةً، فيتَمَاسَكُ أو يَشْتَدُّ، وَمِنْهُ: ضَرْبُ الدَّرَاهم؛ فإنَّ ذلك يحصُلُ بتَجميد الفِضَّة الذَّائبة في قالَب على هيئتِه، ومِنْهُ أيضًا: الضَّرْبُ في الأرض؛ وهو الذَّهاب فيها؛ كأنَّ الضَّاربَ في الأرض يُداخِلُها حتَّى يَغُوصَ فِيهَا[3]، والضَّربُ في الأرضِ في قولِه تعالى: ﴿وَإِذَا

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 5/377.
(2) ابن سيده: المخصّص: 3/304.
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (ضرب).

﴿ضَرَبۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ هو الذَّهابُ فيها بِالسَّفَرِ[1]، وَيَقُولُونَ: إِنَّ الْإِسْرَاعَ إِلَى السَّيْرِ أَيْضًا ضَرْبٌ. قَالَ الشّاعر:

فَإِنَّ الَّذِي كُنْتُمْ تَحْذَرُو *** نَ أَتَتْنَا عُيُونٌ بِهِ تَضْرِبُ[2]

2) ﴿جُنَاحٌ﴾: الجُنَاحُ، الْمِيل إِلَى الْإِثْم، وَقيل: هُوَ الْإِثْم عَامَّة، والجُناحُ، مَا تحمل من الْهم والأذى، أَنْشد ابْن الْأَعرَابِيّ:

ولاقَيْتُ من جُمْلٍ وأَسْبابِ حُبِّها *** جُناحَ الَّذِي لاقَيتُ من تِرْبها قبْلُ[3]

وفي هذا اللّفظ: الجيمُ والنُّونُ والحاءُ تَدُلُّ اشتقاقاتُها على المَيْلِ[4]، ومنه قولهم: جنحَ فلانٌ لكذا؛ إذا مالَ إليهِ، ومِنْهُ قولُ اللّه تعالى: ﴿*وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلۡمِ فَٱجۡنَحۡ لَهَا﴾ [الأنفال: 61]؛ أيْ: "إنْ مالُوا إلى مُسالَمَتِكَ ومُتارَكَتِكَ الحربَ... فمِلْ إليها، وابذُلْ لَهُم ما مالوا إليهِ مِنْ ذلكَ[5]" ومِن هذا البابِ: الجُنَاحُ؛ وهو الإثمُ، سُمِّيَ بذلك؛ لمَيْلِهِ عن طريق الحقِّ[6].

3) ﴿تَقۡصُرُواْ﴾: من القصر، وقَصَر الصّلاة: إذا ترك ركعتين من أربع، قال اللّه تعالى: ﴿فَلَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَن تَقۡصُرُواْ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ﴾، قيل: يعني القصر من أركانها عند الحرب كيف أمكن، وقيل: هو القصر من أربع إلى ركعتين[7]، والقافُ والصَّادُ والرَّاءُ تدورُ تصاريفُها على معنَيَيْنِ؛ أحدهما: ألَّا يبلُغَ الشَّيءُ مَداهُ ونهايتَهُ، والآخرُ: الحَبْسُ[8]، ومِنَ الأوَّلِ قولُهم: قَصُرَ عَنِ الشّيء؛ إذا نَقَصَ مِنْهُ[9]، وَالمرادُ بقَصْرِ الصَّلاةِ: جَعْلُهَا قصيرةً؛ تَرْخِيصًا[10]، وذلكَ بجَعْلِ الصّلاةِ الرُّباعيَّةِ ركعتَيْنِ.

4) ﴿خِفۡتُمۡ﴾: خاف الرّجل يخاف خوفا وخيفة ومخافة، والإخافة: التّخويف. يقال: وجعٌ مخيفٌ، أي يُخيفُ من رآه، وطريقٌ مخُوفٌ، لأنّه لا يخيف وإنّما يخيف فيه قاطع

(1) الرَّاغب، المفردات: (ضرب)، والزَّبيديّ، تاج العروس: (ضرب).
(2) ابن فارس، معجم مقاييس اللّغة: 3/398.
(3) ابن سيده، المحكم: 3/88.
(4) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (جنح)، وابن سيده، المحكم: (جنح).
(5) ابن جرير، جامع البيان: 14/40.
(6) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (جنح).
(7) نشوان الحِميري، شمس العلوم: (قصر).
(8) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (قصر).
(9) الهرويّ، الغريبين: (قصر).
(10) الرَّاغب، المفردات: (قصر).

الطّريق[1]، والخاءُ والواوُ والفاءُ، تَدُلُّ اشتقاقاتُها على الذُّعْرِ والفَزَعِ[2]، والخَوْفُ: ضدُّ الأَمنِ[3]، وحقيقتُهُ: أنَّهُ غَمٌّ يَلحقُ العبدَ مِنْ توقُّعِهِ المكروهَ[4]، فهو خاصٌّ بالزَّمنِ المُسْتَقْبَلِ[5].

5) ﴿يَفْتِنَكُمُ﴾: من فتن، يقال: "فتنتُ الرّجل أفتنه فتنا، وأفتنته إفتانا. واختلف أهل اللغة في فتنت وأفتنت فقال قوم: لا يقال إلا فتنته فهو مفتون وهي اللّغة الكثيرة، وقال آخرون: أفتنتُهُ فهو مُفتنٌ[6]، والفاءُ والتَّاءُ والنّونُ تدورُ تصريفاتُها على إذابة مادَّةِ باطنِ الشَّيءِ، وتحويلِها بإدخالها نارًا حارَّةً، ومِنْهُ إذابةُ الذَّهبِ والفضَّةِ، ومِنْهُ: تحويلٌ معنويٌّ؛ كالافتنانِ بالنِّساء، وذلك بِرِقَّةِ القلوبِ نَحوهنَّ، حتَّى يقعَ المرءُ في المحظورِ[7].ومِنَ البابِ تسميةُ الفَضِيحَةِ: فِتنةً، كما في قول الله تعالى: ﴿وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ﴾[8] [المائدة: 41]؛ لتَحوُّلِ حالِهِ من السَّتْرِ والسَّلامَةِ إلى الكَشْفِ والشَّرِّ، ومِنَ التَّحويلِ قولُ الله تعالى: ﴿إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾، أيْ: يَنْقَضُّوا عليكم حالَ انشغالكم بالصَّلاةِ، فتَتَحوَّلَ حالُكُمْ من متأهِّبينَ إلى مأخوذينَ.

6) ﴿عَدُوًّا﴾: "العدوّ: ضدّ الوليّ، والجمع الأعداء، وهو وصف، ولكنّه ضارع الاسم. يقال: عدوّ بين العداوة والمعاداة، والأنثى عدوة، قال ابن السّكّيت: فعول إذا كان في تأويل فاعل، كان مؤنّثه بغير هاء، نحو رجل صبور، وامرأة صبور، إلّا حرفا واحدا جاء نادرا، قالواْ هذه عدوة الله"[9]. والعَداوَةُ: المُباعدَةُ والخُصُومَةُ[10]، وهو المُخاصِمُ المُباعِدُ، وقد يُتوسَّعُ في معناه فيُطلَقُ على كلِّ مَنْ سرّه مسَاءةُ شخصٍ، أو غَمَّهُ فَرَحُهُ[11]، وهذا يكونُ في الغالبِ لِلْمُخاصِمِ.والعَدُوُّ: اسمٌ يقعُ على الواحد والمثنَّى والجمع، مؤنَّثًا كان ذلك أو مُذَكَّرًا[12].

(1) الجوهريّ، الصّحاح: (خوف).
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (خوف).
(3) ابن دُريد، جمهرة اللُّغة: (خوف).
(4) الكفويّ، الكلّيّات، ص: 428.
(5) الشّنقيطيّ، العذبُ النَّمير: 1/284.
(6) ابن دريد، جمهرة اللّغة: (فتن).
(7) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصَّل: (فتن).
(8) الزَّبيديّ، تاج العروس: (فتن).
(9) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (عدو).
(10) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصَّل: (عدو).
(11) البهوتّي، الرَّوض المُرْبِع، ص: 723.
(12) الخليل، العين: (عدو).

7) ﴿مُّبِينًا﴾: بان الشّيء يبين بيانا، اتّضح فهو (بيّن)، وكذا أبان الشّيء، فهو مُبين، وأبنته أنا، أي أوضحته، واستبان الشّيء ظهر[1]، والباءُ والياءُ والنُّونُ تَدُلُّ تصاريفُها على بُعْدِ شَيْءٍ وانكشافِه[2]، ومِنَ الانكشافِ قولُهم: بانَ الشَّيءُ؛ إذا اتَّضَحَ[3]، وتبيَّنَ؛ إذا ظَهَرَ[4]، والعَدُوُّ المُبينُ: العَدُوُّ البَيِّنُ العداوةِ وظاهرُها[5].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

يقول السّياق إذا سافرتُمْ - يا أهلَ الإيمانِ - في الأرض؛ فلَيْسَ عَلَيْكُم حَرَجٌ ولا إثمٌ في تخفيفِ الصَّلاةِ؛ بجعل الرُّباعيَّةِ رَكْعَتَين، إنْ خِفتُم أن يَنْقَضَّ عليكم الكفّارُ، ويعتدوا عليكم حالَ انشغالِكم بالصَّلاة بالقَتْل والأَسْر؛ فإنَّ الكافرينَ مجاهرُونَ لكم بالعداوةِ، فوجبَ عليكم الحذَرُ منهم[6]، والتّأهّب" فى وجه عدوّ يتربص بهم غفلة، أو يترقب فيهم خللا، ليضرب ضربته، وليبلغ مأربه! والقصر من الصلاة هنا غير القصر فى الصلاة الذي أباحه اللّه فى السّفر عامة، سواء أكان للسّعى فى الرّزق، أو للجهاد فى سبيل اللّه"[7].

قصر الصّلاة في سفر الخوف، تحسّبا لإطباق العدوّ على المؤمنين

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

دَلَالَةُ حَرْفِ الجَرِّ ﴿مِنَ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ﴾:

﴿مِنَ﴾ في قولِ اللّه سبحانه: ﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُواْ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ تَحتمِلُ وَجْهَيْنِ[8]: أوَّلُهما: أَنْ تَكُونَ زائدةً للتَّأكيد، فيكون

تَنَوُّعُ الدّلَالَاتِ بِتَنَوُّعِ مَعَانِي الحُروفِ

(1) الرّازيّ، مختار الصّحاح: (بين).
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (بين).
(3) الجوهريّ، الصحاح: (بين).
(4) الزَّبيديّ، تاج العروس: (بين).
(5) طنطاويّ، التَّفسير الوسيط: 3/283.
(6) ابن جرير، جامع البيان: 9/123، والواحديّ، الوجيز، ص: 285، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 2/393، ونخبة من العلماء، التّفسير الميسّر، ص: 94.
(7) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 3/882.
(8) المنتجب الهمذانيّ، الكتاب الفريد: 2/335، وأبو السّعود، إرشاد العقل السَّليم: 2/225، وطنطاويّ، التَّفسير الوسيط: 3/283.

﴿ٱلصَّلَوٰةِ﴾ مفعولًا به للفعل ﴿تَقۡصُرُواْ﴾. والآخرُ: أنْ تكونَ للتَّبعيض، والمفعولُ به حينئذٍ محذوفٌ، تقديرُه: أنْ تقصرُوا شيئًا مِنَ الصَّلاةِ. وكلٌّ مِنَ الوجهينِ فيه خروجٌ عَنِ الأصلِ؛ فأمَّا الأوَّلُ؛ فبادِّعاء الزِّيادَةِ، والأصلُ خلافُها، وأمَّا الآخرُ؛ فللُزومِ تقديرِ محذوفٍ، والأصلُ: عدمُ الحذفِ. والأوَّلُ أَبْلَغُ؛ لأنَّ زيادَةِ الحرفِ قائمٌ مقامَ تَكرار الجملة مرَّتين أو ثلاثًا، وهو تأكيدٌ حسَنٌ، مناسبٌ لنفي الجُناحِ، في قوله: ﴿فَلَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ﴾؛ فإنَّه واردٌ لدَفعِ ما قد يَخطرُ بِبَالِهِم، أنَّ عليهم نُقصانًا في قصرِ الصَّلاةِ، فنفى الجُناحَ والحرجَ عنهم؛ لتَطيبَ أَنْفُسُهُم بالقصرِ، ويَطمئِنُّوا إليه[1].

دَلَالَةُ (الْ) فِي ﴿ٱلصَّلَوٰةِ﴾، فِي قوله: ﴿مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ﴾:

مِـنْ أَسْبـابِ العَهْدِ العِلْمِيِّ لِلْأَلْفَاظِ البَيَانُ النَّبَوِيُّ لَها

اللَّامُ في ﴿ٱلصَّلَوٰةِ﴾ لِلْعَهْدِ العلميِّ؛ وهي الصَّلاةُ الرُّباعيَّةُ: الظُّهرُ والعَصْرُ والعشَاءُ، وقد عُلِمَ عَهْدُهَا بِسُنَّتِه ﷺ، وعليهِ جرَى عملُ المسلمينَ قاطبةً، أنَّه لا قَصرَ في السَّفَرِ إلَّا لِلصَّلوات الرُّباعيَّةِ دونَ غيرهَا.

سَبَبُ فَصْلِ ﴿إِنَّ ٱلۡكَٰفِرِينَ كَانُواْ لَكُمۡ عَدُوّٗا مُّبِينٗا﴾ عَمَّا قَبْلَهُ:

مِـنْ مَحـاسِـنِ الشَّرِيعَةِ قَرْنُ الأَحْكَامِ بِعِلَلِهَا

فُصِلَ قولُ اللّه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡكَٰفِرِينَ كَانُواْ لَكُمۡ عَدُوّٗا مُّبِينٗا﴾ عمَّا قبلَهُ؛ لوقوعه استئنافًا بيانيًّا؛ فإنَّ قولَه سبحانه: ﴿إِنۡ خِفۡتُمۡ أَن يَفۡتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْۚ﴾، يَبعَثُ في النَّفسِ سؤالًا؛ وهو: ما علَّةُ ذكرِ الكافرينَ في مقام الصَّلاةِ؟ أو أَنَّ تقديرَ السُّؤال: هل بلغَ مِن غَدْرِهم مباغَتَتُنَا في الصَّلاةِ؟ فجاءَ الجوابُ: ﴿إِنَّ ٱلۡكَٰفِرِينَ كَانُواْ لَكُمۡ عَدُوّٗا مُّبِينٗا﴾، وقد روى التّرمذيّ عن أبي هريرة: "أنّ رسول اللّه ﷺ نزل بين ضجنان وعُسفان، فقال المشركون: إنّ لهولاء صلاةً، هي أحبّ إليهم من آبائهم وأبنائهم، وهي العصر،

(1) الزَّمخشريّ، الكشَّاف: 1/558.

فأجمعوا أمركم، فميلواْ عليهم مَيلة واحدة، وإنّ جبريل أتى النّبيّ ﷺ، فأمره أن يقسِم أصحابه شطرين فيُصلى بهم، وتقوم طائفة أخرى وراءهم، وليأخذوا حِذرهم وأسلحتهم، ثم يأتي الآخرون ويُصلّون معه ركعة واحدة، ثم يأخذ هؤلاء حِذرهم وأسلحتهم، فتكون لهم ركعة ركعة ولرسول الله ﷺ ركعتان"[1]، وهذا التّربّص بالمسلمين، وانتظار غفلتهم للانقضاض عليهم، هو سبب تشريع هذه الصّلاة.

الفَرْقُ بَيْنَ تَعْلِيقِ الشَّرْطِ بِـ (إِذَا) وَتَعْلِيقِهِ بِـ (إِنْ):

دِقَّـــةُ اخْـتِـيَـارِ أَدَواتِ الـشَّـرْطِ بِـمَـا يُـنَـاسِـبُ سِيَاقَاتِها

جَاءَ التَّعْبِيرُ في الشَّرط بـ (إذا) في المَوْضِعِ الأوَّلِ في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾، وفي الثَّاني بـ (إن) في قوله سبحانه: ﴿إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾؛ لِكَوْنِ (إذَا) مَوْضُوعةً في الأصلِ لِلْجَزْمِ بوُقُوعِ مَدْخُولِها، و(إنْ) لعدَمِ القَطْعِ في وقوعِ ذلك[2]؛ وهو في غاية التَّناسُبِ في الآية؛ لأنَّه لا يَكادُ يَخْلُو أَهْلُ الإِسْلامِ مِن سَفَرٍ مُسافرٍ منهم، بخلاف خَوفهم من فتنةِ الكافرين لَهُم؛ فإنَّه ليس أمرًا محقَّقًا في كلِّ سفرٍ يُسافِرونَهُ، فجاء التَّعبيرُ فيه بـ (إنْ).

سِرُّ الإِظْهَارِ فِي مَوْضِعِ الإِضْمَارِ، في قوله: ﴿إِنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ كَانُواْ لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾:

الِاخْـــتِراسِ مِـنَ الكُفَّارِ المُحَارِبِينَ، مِـــن حِـكـمـةِ الشَّرعِ في الحذرِ من الخطرِ المبين

في قولِ الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ كَانُواْ لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾ إظهارٌ في موضع الإضمار[3]؛ وكان مقتضى الظَّاهر: (إنْ خِفتم أن يَفْتِنَكُم الّذين كفَرُوا، إنَّهم كانُوا لَكُم عَدُوًّا مُبِينا)، والنُّكْتَةُ في ذلك زيادَةُ التَّنفيرِ؛ لِلِاحْتِرَاسِ منهم، ومِن بَغْيِهم وعُدوانِهم على أهلِ الإِسْلَامِ.

(1) سنن الترمذيّ: 5/243، الحديث رقم: (3035)، وصحّحه الألبانّي في صحيح سنن التّرمذي: 3/42، وسنن أبي داود: 2/15، الحديث رقم: (1242)، وأخرجه أحمد في مسنده: 6/275، والحاكم في المستدرك: 1/336 - 337، وابن رجب في العلل: 1/301.

(2) السُّبكّي، عروس الأفراح: 1/323.

(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 5/379.

نُكْتَةُ العُدُولِ عَنْ (أَعْدَاء) إِلَى ﴿عَدُوًّا﴾، في قوله: ﴿كَانُواْ لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾:

تَـداعِـي أَهْـلِ الـكُـفْـرِ عَـلَى المُسْلِمِينَ، واقع مألوف في تاريخ الإسلام

جَاءَ التَّعبيرُ عَنِ الكافرين بِلَفْظِ الجَمْعِ في موضعَين؛ في قوله تعالى: ﴿أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾، وفي قوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾، ولَمَّا جاءَ وصفُهم بالعداوةِ؛ قَال: ﴿عَدُوًّا مُّبِينًا﴾ دون (أعداء)؛ وذلك لأنَّ لفظَ العَدُوِّ يُطلق على الواحد والمثنَّى والجَمْعِ[1]. وجيءَ بها على هذه الصِّيغةِ للإشارةِ إلى أنَّهم لو تمكَّنُوا منهُم؛ لانقضُّوا عليهمُ انْقِضاضًا واحدًا، وأنَّ الأعداءَ على تفرُّقِهم فيما بينَهُمْ؛ فإنَّهم يكونونَ يدًا واحدةً على المسلِمِينَ، وهذا يَقْتَضِي شدَّةَ الحذَرِ والاِحْتِراسِ منهم.

المؤَكِّداتُ في قولِهِ: ﴿إِنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ كَانُواْ لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾ وَنُكْتَتُها:

شِـدَّةُ عَـداوَةِ أَهْلِ الكُفْرِ لِأَهْلِ الإِسْـلامِ، أمرٌ معهود في كلّ العهود

جاءَتِ الجملةُ في قوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ كَانُواْ لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾، مؤكَّدةً بمؤكِّداتٍ خمسة[2]: أحدُها: ﴿إِنَّ﴾ الدَّالَّةُ على تقويةِ وَصْفِ الكَافِرين بالكُفْرِ، بحيثُ جعلَ الكفرَ مِنْ شأنهم، ومَنْ كانَ كذلك؛ لا يُؤْمَنُ جانِبُهُ. ثانيها: التَّعبيرُ بِـ (كان) المفيدَةِ الدَّاومَ والاستمرارَ، وأنَّ عداوةَ الكُفَّارِ لأهل الإيمانِ قديمَةٌ.ثالثُها: وصفُ الكافرين بالعداوةِ، ومن شَأْنِ العدُوِّ إرادَةُ الشَّرِّ بعدُوِّهِ، ويترقَّبُ مواضعَ غفلَتِهِ ليقضِيَ عليه، ومَن كان هكذا لا يُنتظَرُ منه رحمةٌ أو حِلْمٌ، رابعُها: وصفُ عداوتهم بالظُّهور والسُّفور وعدم الخفاءِ، لِيَحْتَرِسَ المسلمون منهم أشدَّ الاحتراسِ؛ فلا يأمنونَ غَدرَهم. وخامسُها: جاءَ التَّعبيرُ عمَّا تقدَّمَ بالجملةِ الاسميّةِ، المفيدةِ الثَّباتَ والاستمرارَ بقرينةِ التَّحذيرِ.

دَلَالَةُ حَرْفِ الجَرِّ (اللَّامِ) في قولِهِ: ﴿لَكُمْ﴾:

العَاقِبَةُ الحَسَنَةُ لِأَهْلِ الإِيمَانِ

في التَّعبير باللَّام بدلًا مِن (على) في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ

(1) الخليل، العين: (عدو).

(2) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 4/1826، وطنطاوي، التَّفسير الوسيط: 3/283.

﴿كَانُواْ لَكُمۡ عَدُوّٗا مُّبِينٗا﴾؛ لِلْإِيمَاء إلى أنَّ عداوةَ الكُفَّار لأهلِ الإيمان لَمْ تُوجِبْ انتصارَهم عليهمُ انتصارًا مُستمرًّا، فالتَّعبيرُ باللَّام جاء إيماءً إلى أنَّ الكفرَةَ مَغْلُوبونَ[1]، والتّذييل بآخر الآية، تعليلٌ بأنّ استمرارَ الاشتغالِ بالصّلاة مَظِنةٌ لاقتدار العدوّ اللّدود على إيقاع الفتنةِ، بالمهاجمة المباغتة بالإجهاز على المؤمنين في صلاتهم، وهو تعليلٌ لذلك، باعتبار تعلُّقِه بما ذُكر، أو لما يُفهم من الكلام، من كون فتنتِهم متوقَّعةً، فإنّ كمالَ عداوتِهم للمؤمنين من موجبات التعرُّض لهم بسوء[2].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الخَوْف والخَشْيَة:

الفَرْقُ بينَهما مِن وجهين: أوَّلُهُمَا: أَنَّ الخوفَ أعمُّ من الخشيةِ؛ وذلك لأنَّ الخشيةَ خَوْفٌ مَقْرُونٌ بمَعْرِفةٍ وعِلم، بخلاف الخوفِ؛ فَلَا يُشترطُ فيه ذلكَ[3]. والآخَرُ: أنَّ الخشيةَ تكون مِن عِظَمِ المَخْشِيِّ وإِنْ كان الخَاشِي قويًّا، بخلاف الخوف؛ فَإِنَّهُ يكونُ مِنْ ضَعْفِ الخائفِ وإن كان المَخُوفُ أمرًا يَسِيرًا، ولِذا تَرِدُ الخشيةُ غالبًا في حقِّ اللّه تعالى[4]، كما قال سبحانه: ﴿وَيَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلۡحِسَابِ ٢١﴾ [الرّعد: 21]، وذكَرَ المَاوَرْدِيُّ فرقًا آخرَ بينَهما؛ وهو أنَّ الخوفَ فِيمَا ظَهَرَتْ أَسْبَابُهُ، والخشيةَ فيمَا لَم تَظْهَرْ أسبابُه[5].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 5/379.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/226.
(3) الرَّاغب، المفردات، ص: 283، وابن القيّم، مدارج السّالكين: 1/508.
(4) السُّيوطيّ، معترك الأقران: 3/485.
(5) الماوَرديّ، النُّكت والعيون: 3/393.

﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓاْ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُواْ فَلْيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّواْ فَلْيُصَلُّواْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُواْ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَٰحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓاْ أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُواْ حِذْرَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٠٢﴾﴾ [النساء: 102]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

في مُناسبة الآية لما قبلَهَا وجهانِ:

الأوَّلُ: أنَّ اللهَ ﷻ لَمَّا بيَّن في الآيةِ المُتَقَدِّمَةِ حالَ قَصْرِ الصَّلاةِ بحسَبِ الكَمِّيَّة في العددِ؛ بَيَّنَ سُبحانه ههنا حالَها في الكَيْفِيَّة[1].

الآخِرُ: أنَّهُ سبحانهُ لَمَّا أتمَّ بيان القصر في الكَمِّيَّة مَقْرُونًا بالخَوْفِ لِمَا ذُكِرَ، "وكانَ حُضُور النَّبِيِّ ﷺ مظنَّةَ الأمنِ بالتَّأييد بالملائكةِ وَوَعْدِ العِصمةِ مِنَ النَّاس، وما شُهِرَ به مِنَ الشَّجاعة، ونُصِرَ به مِنَ الرُّعبِ وغَيْرِ ذلك مِنَ الأمورِ القاضيَةِ بأنَّ له العاقبة؛ بيَّن ﷻ حالَ الصَّلاة في الكيفيَّة عند الخوف، وأنَّ صلاة الخوف تُفعل عند الأُنس بحضرته، كما تُفعل عندَ الاِسْتِيحَاشِ بِغَيْبَتِهِ ﷺ، فجوازُها لقومٍ ليس هو ﷺ فِيهِم مفهوم موافقة"[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿طَآئِفَةٌ﴾: الطَّاء والواو والفاءُ: تدورُ تصاريفُهَا على دورانِ شَيْءٍ على شيءٍ، وأن يَحُفَّ به[3]، ومِنْهُ قولُ الله تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ﴾ [الحجرات: 9] ومِنْهُ قيلَ

(1) الرَّازيّ، مفاتيح الغَيب: 11/204.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 5/380.
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (طوف).

للسَّيل المُغْرِقِ: طوفَانٌ؛ لغشَيَانِهِ الأشياءَ كُلَّها[1]، وفي التّنزيل العزيز: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ﴾ [الأعراف: 133].

والطَّائفةُ مِنَ النَّاسِ: الجماعةُ مِنْهُم، وليس لها حدٌّ معلومٌ في كلام العرَبِ[2]، وحدَّها جماعةٌ: بأنَّها مِنَ الواحد إلى الألفِ[3].

2) ﴿أَسْلِحَتَهُمْ﴾: السِّينُ واللَّام والحَاء: تدلُّ اشتقاقَاتُهَا على نَفَاذٍ بحدَّة وامتدادٍ، ومِنْهُ: السِّلاحُ، وهو الآلةُ الَّتي يُقاتَلُ بها، كالسَّيف: فإنَّهُ يُنفَذ بِه في بدَنِ العدُوِّ بامتدادٍ، ومثله: الرُّمْحُ والسَّهْمُ[4].

والسِّلَاحُ: مفردٌ، والجمعُ: أَسْلِحةٌ وسُلُحٌ وسُلْحانٌ[5]، ورُبَّما استُعمِلَ السِّلاحُ بمعنَى: الجمعِ، وليس له مفردٌ من لفظِهِ حينئذٍ[6].

3) ﴿حِذْرَهُمْ﴾: الحاءُ والذَّالُ والرَّاءُ تدور تصريفَاتُها على التَّحرُّزِ والتَّيقُّظِ[7]، ومِنْهُ الحَذَرُ: وهو الاحْتِرَازُ عَنْ مُخِيفٍ[8]، والحِذْرُ مِثْلُهُ.

ومِنْهُ قولُ اللّه تعالى: ﴿وَلْيَأْخُذُواْ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ﴾، فإنَّ معناه: التَّحرُّزُ والتَّيقُّظُ[9].

4) ﴿وَدَّ﴾: الواوُ والدَّالُ: تدلُّ اشتقاقاتُهما على المحبَّةِ[10]، وَوُدُّ الشَّيءِ: محبَّتُهُ، وتَمَنِّي حصولِهِ[11]، ومِنْهُ اسم اللّه تعالى: الودودُ، وهو المُحِبُّ لأوليائِهِ[12]المحبوبُ في قلوبهم[13].

وقول اللّه تعالى: ﴿وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ﴾، أي: تَمَنَّوا أَن ينَالُوا مِنْكُمْ غِرَّةً في صلاتكم[14].

---

(1) الفيُّومِيّ، المصباح المنير: (طوف).
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (طوف).
(3) ابن أبي حاتم، تفسير القرآن العظيم: 8/2520.
(4) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصَّل: (سلح).
(5) ابن سيده، المحكم: (سلح).
(6) العسكريّ، التَّلخيص، ص: 323.
(7) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (حذر).
(8) المُناويّ، التَّوقيف: (حذر).
(9) الفَتنِي، مَجمع بحار الأنوار: (حذر).
(10) ابن فارس، مقاييس اللُّغَة: (ودد).
(11) الرَّاغب، المفردات: (ودد).
(12) ابنُ الهائم، التِّبيان، ص: 192.
(13) الفَتني، مجمع بحار الأنوار: (ودد).
(14) النَّسفيّ، مدارك التَّأويل: 1/391.

5) ﴿تَغْفُلُونَ﴾: الغين والفاء واللَّام: أصلٌ صحيح يدلُّ على ترْك الشَّيءِ سهوًا، ورُبَّما أُطْلِقَ على ما كان تركُهُ عن عمدٍ[1]، ومِنْهُ الغَفْلَةُ، وهي: سَهْوٌ يعتري المرء من قلَّة التَّحفُّظ والتَّيقُّظ[2].

ومِنَ التَّرْكِ عن عمدٍ بسبب الإهمال والإعراضِ قولُ اللّه تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ۝١﴾[3] [الأنبياء: 1].

وقولُ اللّه تعالى: ﴿وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ﴾ معناه: ودَّ الكافرون "لو تَشْتَغِلُونَ بصلاتِكُم عَن أَسْلِحَتِكُمُ الَّتي تُقاتلونَهُم بِها... فتَسْهُوْنَ عَنْهَا"[4].

غيْر أنَّه يقال: (غَفِلَ) في السَّهو، و(أغفل) في العمد، أو فيما كان إهمالًا عن ذكر منه للشَّيء.

6) ﴿وَأَمْتِعَتِكُمْ﴾: الميمُ والتَّاء والعَيْنُ: أصل صحيح يَدُلُّ على منفعةٍ وامتدادِ مُدَّةٍ في خيرٍ وقوَّةٍ وكمالِ حالٍ[5].

ومِنْهُ: المَتَاع، وهو في الأَصْل: كلُّ شَيْء يُنتفَع بِهِ، ويُتبلَّغ، ويتزوَّدُ[6]، والأمتعةُ في قول اللّه تعالى: ﴿وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ﴾ هي ما بِها البلاغُ في الأسفارِ[7].

7) ﴿فَيَمِيلُونَ﴾: الميم والياءُ واللَّامُ: تدلُّ اشتِقاقاتُهَا على انحرافٍ في الشَّيء إلى جانبٍ مِنْهُ[8]، ومِنْهُ المَيْلُ، وهو الِانحرافُ عَنِ الجادَّةِ[9].

فإنْ كان خِلقة في الشّيء؛ فـ (مَيَلٌ) - بفتح الياء - وإن كان متقصَّدًا؛ فـ (مَيْلٌ)، بسكون الياء.

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (غفل).
(2) الرَّاغب، المفردات: (غفل).
(3) الفيُّومي، المصباح المنير: (غفل).
(4) ابن جرير، جامع البيان: 9/162.
(5) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (متع)، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصَّل: (متع).
(6) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة: (متع).
(7) ابن جرير، جامع البيان: 9/162.
(8) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (ميل).
(9) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصَّل: (ميل).

ومِنْهُ قيل لِلْمُنْحَرِفةِ الزَّائغة عَن طاعة اللّهِ تعالى: مائلةٌ، كما في قول النَّبيِّ ﷺ: "صِنْفَانِ مِنْ أَهْلِ النَّارِ لَمْ أَرَهُمَا: ... وَنِسَاءٌ كَاسِيَاتٌ عَارِيَاتٌ مُمِيلَاتٌ مَائِلَاتٌ"[1].

وفي قول اللّه تعالى: ﴿فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً﴾ يُرادُ به: عدولُهم عن معسكرِهم إلى جيش المسلمين، والمعنى: يَكُرُّون، ويشدُّونَ عَلَيْكُم[2].

8) ﴿جُنَاحَ﴾: الجيم والنُّونُ والحاء: تدور تصاريفُها على المَيْلِ[3]، ومِنْهُ قولهم: جنحَ فلانٌ لكذا؛ إذا مالَ إِلَيْهِ، ومِنْهُ قول اللّه تعالى: ﴿۞وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا﴾ [الأنفال: 61]، أي: "إن مالُوا إلى مُسَالَمَتِك ومُتَارَكَتِك الحربَ... فمِل إِلَيْهَا، وابذُل لَهُم ما مالوا إِلَيْهِ مِنْ ذلك"[4]، (وسمِّي الجناحان: جناحين لميلهما في الشِّقَّين).

ومِن هذا البابِ: الجُنَاحُ، وهو الإثمُ، سُمِّيَ بذلك؛ لمَيْلِهِ عن طريق الحقِّ[5].

9) ﴿أَذًى﴾: الهمزةُ والذَّالُ والياءُ: تدلُّ اشتقاقاتُها على الشَّيءِ، تَتَكرَّهُهُ، ولا تَقَرُّ عَلَيْهِ[6].

وَكُلُّ ما جاء في القرآنِ الكريمِ مِنَ الأذَى وتصاريفِهِ؛ فمنه ما مِنْ معناه: الإيلام النَّفسيُّ، أو الإيلامُ البدنيُّ غَيْرُ المُبَرِّحِ[7].

ووجهُ الأذَى في المطَر المذكور في قولِه تعالى: ﴿إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ﴾ ما يكون من أثرِ المطرِ الشَّديد عَلَى مَيدانِ الحربِ مِمَّا يَعُوقُ استعمال آلاتِ الحربِ ولقاء الأعداءِ، وإن لم يُوضَعِ السِّلاحُ؛ تعرَّض لِلصَّدأ، وكان ذلك سببًا في تَلَفِهَا[8].

10) ﴿مَّطَرٍ﴾: الميم والطَّاء والرَّاءُ: تدلُّ تصريفَاتُها على انْسكابٍ أو انحدارٍ بقُوَّةٍ أو سُرْعةٍ معَ استرْسَالٍ[9]، ومِنْهُ: المَطَرُ، وهو الماءُ المُنْسَكِبُ مِنَ السَّماءِ[10]، وهو المرادُ في قوله تعالى: ﴿إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ﴾.

---

(1) مسلم، الحديث رقم: (2128).
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 5/187.
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (جنح)، وابن سيده، المحكم: (جنح).
(4) ابن جرير، جامع البيان: 14/40.
(5) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (جنح).
(6) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (أذي).
(7) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (أذى).
(8) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 4/1833.
(9) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصَّل: (مطر).
(10) الرَّاغب، المفردات: (مطر).

11) ﴿مَّرْضَىٰٓ﴾: الميم والرَّاء والضَّادُ: تدورُ اشتقاقاتهَا على ما يخرُجُ به الإنسان عن حدِّ الصِّحَّةِ في أيِّ شيءٍ كان[1]، ومِنْهُ المرض: وهو العِلَّةُ في البَدَنِ، ومَن قامَ به؛ يُقال له: مريضٌ، والجمع: مرضَى ومِرَاضٌ[2]، ومِنْهُ قولُ الله تعالى: ﴿إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ﴾.

12) ﴿عَذَابًا﴾: العَين والذَّالُ والباء: تدلُّ على معانٍ متباينَة، ومِن ألفاظِ هذه المادَّةِ: العذابُ، وهو المتوعَّد به في الآخرة عقوبة، وهو المراد هنا في الآية[3]، والْإِيجَاعُ الشَّديد[4]، يقال: عذَّبه؛ إذا أَوْجَعُهُ إيجاعًا شديدًا، والعذابُ أيضًا: ما يُصيبُ النَّفس مِن ألَمٍ[5].

ويطلق أيضًا على القتل والأسر والجراحة وتوابع ذلك، كما في الآية: ﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾ [التَّوبة: 14]، وعلى الجَلْد، كما في: ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٢﴾ [النور: 2]، وله إطلاقات أخرى كثيرة.

13) ﴿مُّهِينًا﴾: الهاء والواو والنُّون: تدور اشتقاقاتُها على سكونٍ أو سكينة أو ذُلٍّ[6]، والذي في الآية من الذّل، ومعنى مهيناً أي: مخزياً مُذِلاًّ، ومن الذُّلِّ: العذابُ المُهِينُ، وَهُو العذابُ المُذِلُّ يَسْحَقُ نفوسَهم[7].

والهَوانُ ضربَان:

"أحدهما: تذلُّلُ الإنسانِ في نفسِه لِمَا لا يَلْحَقُ به غضَاضَةٌ، فَيُمْدَحُ بِهِ، نحو قوله: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان: 63].

الثَّاني: أن يَكُونَ مِن جهة مُتَسَلِّطٍ مُسْتَخَفٍّ بِهِ، فَيُذَمُّ بِهِ"[8]، نحو قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾، وقوله: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (مرض).
(2) الزَّمخشريّ، أساس البلاغة: 2/205.
(3) الجوهريّ، الصحاح: (عذب).
(4) الرَّاغب، المفردات: (عذب).
(5) نشوان الحِمْيَرِيّ، شمس العلوم: (عذب).
(6) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (هون).
(7) جبل، المعجم الاشتِقَاقيّ المؤصّل: (هون/هين).
(8) الرَّاغب، مفردات ألفاظ القرآن: (هان).

كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَارَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [النّحل: 58-59].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

وإذا كنتَ - أيُّها الرَّسولُ الكريمُ - في ساحةِ القِتَالِ مع أصحابِكَ الخائفِينَ عَدُوَّهم أن يَفْتِنَهُمْ، فأردتَ أن تُصلِّيَ بهم؛ فَلْتَقُم فرقةٌ مِن أصحابك معكَ في صلاتكَ، وليأخذوا سلاحهم، فإذا سجد هؤلاء؛ فليكُنْ باقِي أصحابكَ خلْفَ المُصلِّينَ في مواجهةِ العدوِّ، وتُتِمُّ الجماعة الأولى ركعتَهُمُ الثَّانية، ويُسلِّمون، ثُمَّ تأتي الجماعة الأخرى الَّتي كانت في مواجهةِ العدُوِّ، وَلم تبدأ الصَّلاة؛ فلْيَأْتَمُّوا بك في ركعتِهِمُ الأولى، وهي الثَّانيةُ لك، ثُمَّ يُكْمِلُوا رَكْعَتَهُمُ الثَّانية، ولْيَحذروا مِن عدوِّهم، ولْيَأخذوا أسلحتَهم، فإنَّ الكافرينَ يتمنَّونَ أن تغفُلوا عَن سلاحكم وزَادِكم؛ لِيَحْمِلُوا عَلَيْكُم حَمْلَة واحدَةً، فَيَقْضُوا عَلَيْكُمْ، ويُفْنُوكُمْ، ولا إثم عَلَيْكُم؛ إنْ كان بِكُمْ أذًى مِن مطر أو مِنْ مرضٍ أَن تَتْرُكُوا أسلحتَكُم معَ أَخْذِ الحذَر، إنَّ اللّه تعالى أعدَّ لِجَاحِدِي دِينِهِ عَذابًا يُهِينُهم، ويُخْزِيهِم، ويُذِلُّهم، وهو عذابُ الهَزِيمة والقَتْل والأَسْرِ في الدُّنيا، وَعَذابُ جَهَنَّم في الآخرةِ[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

نُكْتَةُ التَّعْبِيرِ بِأَدَاةِ الشَّرْطِ (إِذَا):

اسْتِحْضَارُ السُّنَّةِ النَّبَوِيَّةِ وَالشَّرِيعَةِ المُحَمَّدِيَّةِ فِي جَمِيعِ الأَحْوَالِ

أداةُ الشَّرط (إذا) تدلُّ في الأصل على تحقُّق وقوعِ مدخولِهَا؛ ولذا كان الغالب في الفعل المُسْتَعْمَلِ معها أن يكُون ماضيًا؛ للدِّلالة على تحقُّق الوقُوع المناسب لِما تُفيده (إذا).

والنُّكتَةُ في التَّعبير بِها في قوله سبحانه: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ﴾، مع أنَّ صلاةَ الخوفِ مشروعةٌ في حياتِهِ ﷺ سواءٌ أكانَ معَ الجَيش أم لا، وبعد مَماتِه ﷺ فوجُوده ﷺ ليس متحقِّقًا في كلِّ الأحوال: الإيماءُ إلى أنَّ قوله تعالى: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ﴾ معناهُ: كنتَ

(1) ابن جرير، جامع البيان: 9/141 - 164، والنَّسفِي، مدارك التَّنزيل: 1/391، والسّعدي، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 198، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 5/188، ونخبة من العلماء، التّفسير الميسّر، ص: 95.

فِيهِم بشريعتك وسُنَّتِكَ[1]، وهذا أمرٌ لا يغيبُ عنِ الجَيْشِ المُسلِمِ، بل هو دائم الحضورِ فيهم.

ويدلّ استعمال (إذا) أيضًا على تحقُّق كونه ﷺ فيهم في وقت البأس والشِّدَّة وفي ساحة الوغى والحرب، ساحة الشَّرف والكرامة، فهو الأسوة الحسنة في الجهاد، فاختار هذا الحرف الدَّالَّ على الشّرط إرادة التَّنبيه بمعناه على مناقب رسول الله وشمائل نبيِّه ومصطفاه، صلَّى الله عليه وآله وصحبه وسلَّم وبارك.

سِرُّ التَّعْبِيرِ بـ ﴿كُنتَ فِيهِمْ﴾:

عُمُومُ الرُّخْصَةِ بِصَلَاةِ الْخَوْفِ لِجَمِيعِ الْأُمَّةِ

جاء التَّعبيرُ بـ ﴿كُنتَ فِيهِمْ﴾ من قولِ الله سبحانه: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ﴾، مع أنَّه لو حُذفت، فقيل: (وإذا أقمتَ لَهم الصَّلاة...)؛ لاستقامَ أصلُ المعنى، وذلك أنَّ (كان) تُفيدُ الدَّوامَ، لا سيَّمَا، وقد قُرِنَتْ بـ ﴿وَإِذَا﴾ المقتضيةِ العمومَ في الأزمِنَةِ، وهِيَ تُمَحِّضُ الفعلَ لِلاستقبالِ؛ وإن كان بلفظ الماضي، وهذا يناسبُ العمومَ في الأشخاصِ، فعموم الأزمنَة قرينَةٌ لِلْعُموم في الأشخاصِ، فأفادَ هذا أنَّ الرُّخْصَةَ بصلاة الخوفِ تَعُمُّ الأمَّةَ جميعًا، وليست خاصَّةً بالنَّبِيِّ[2] ﷺ.

ويدلُّ فعل الكون أيضًا على أنّ الرّسول ﷺ حاضرٌ معهم في كلّ أحوالهم، لا يغيب عنهم ببدنه أو بذكره بينهم.

نُكْتَةُ التَّعْبِيرِ بِـ ﴿فِيهِمْ﴾ بَدَلَ (مَعَهُمْ):

شَرَفُ النَّبِيِّ ﷺ وَرِفْعَةُ مَنْزِلَتِهِ

وتدلّ شبه الجملة ﴿فِيهِمْ﴾هنا على أنّ الأنبياء يبعثون في أواسط أنساب أقوامهم فيكونون محوطين بطيب الأرومة.

وهو أسلوب عامٌّ في جميع الأنبياء عمومًا، فمن ذلك قوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ ۝٧٢﴾ [الصَّافات: 72]، وفي شأن نوح: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/49.
(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/49.

نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾ [العنكبوت: 14]، وفي شأن إبراهيم، وهو الأسوة الحسنة بنفسه: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَۚ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ۝٦﴾ [الممتحنة: 6]، وفي شأن موسى، وقد عمَّ بذلك أنبياء بني اسرائيل جميعًا: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ﴾ [المائدة: 20]، وبخصوص عيسى عليه السلام: ﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْۖ﴾ [المائدة: 117].

دِلَالَةُ اللَّامِ فِي ﴿ٱلصَّلَوٰةَ﴾:

اللَّامُ في ﴿ٱلصَّلَوٰةَ﴾ مِن قول الله تعالى: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ لِلْكَمَالِ، أي: أقمتَ لَهُمُ الصَّلاةَ الكاملَةَ، وهي الصَّلاةُ المفروضَةُ[1].

أَكْمَلُ الصَّلَوَاتِ وَأَعْظَمُهَا الصَّلَوَاتُ المَفْرُوضَةُ

ويحتَمِلُ أن تكون لِلْعَهْدِ العلميِّ؛ وذلك لوجهين:

أحدهما: أنَّ الجاريَ في خطاب الشَّرعِ في قَرْنِ لفظِ الصَّلاةِ بالإقامةِ يُرادُ به الصَّلاةُ المفروضَةُ.

والآخَرُ: أنَّ الصَّلاةَ المفروضَةَ هِيَ الَّتي شُرِعَت صلاةُ الخَوفِ لَهَا؛ لوجودِ الحاجةِ المقتضيَةِ لذلك، دون غيرها مِنَ الصَّلوات.

ولا تعارُضَ بينَ الدِّلالتين السَّابقتين؛ لأنَّ العهدَ لا ينافي الكمالَ.

بَلَاغَةُ الِاحْتِبَاكِ أَوِ الِاكْتِفَاءِ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ﴾:

في قولِ الله سبحانه: ﴿فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓاْ أَسْلِحَتَهُمْۖ فَإِذَا سَجَدُواْ فَلْيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّواْ فَلْيُصَلُّواْ مَعَكَ﴾ أسلوبُ احتباكٍ، وهو المسمَّى: الحذفَ المقابَلِيَّ، ووجهُهُ: أنَّ الله ﷻ قال: ﴿فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ﴾، أي: ولتَقُم الطَّائفة الأخرى تُجاهَ العدوِّ، وقوله تعالى: ﴿وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ

طَيُّ الْكَلَامِ المَفْهُومِ مِنْ سِيَاقِ الْكَلَامِ اخْتِصَارًا

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 5/380.

﴿يُصَلُّواْ فَلۡيُصَلُّواْ مَعَكَ﴾، والطَّائفةُ الأخرى وجاه العَدُوِّ، ولتَكُنْ مِن وراءِ المصلِّينَ، فحُذِفَ مِن كلِّ موضعٍ ما دلَّ عليه مقابِلُهُ، هذا إذا كان الضَّمير في ﴿فَلۡيَكُونُواْ﴾ للطَّائفةِ الأُخرَى الَّتي لم تبدأ بالصَّلاةِ.

فإن كان الضَّمير في ﴿فَلۡيَكُونُواْ﴾ راجعًا إلى الطَّائفة الَّتي صلَّت أوَّلًا، فإنَّ الكلامَ يكون من قَبيلِ الاكتفاءِ؛ لوجودِ الحذفِ مِن جهةٍ واحدة، وهو في قوله سبحانه: ﴿فَلۡتَقُمۡ طَآئِفَةٞ مِّنۡهُم مَّعَكَ﴾، أي: ولتَقُم الطَّائفة الأخرى وِجَاهَ العدوِّ[1].

سِرُّ التَّعْبِيرِ عَنْ عَدَمِ وَضْعِ السِّلَاحِ بِالْأَخْذِ:

لُزُومُ عِنَايَةِ الْمُجَاهِدِ بِاسْتِصْحَابِ سِلَاحِهِ وَالِاسْتِعْدَادِ لِلْعَدُوِّ

الأخذُ في قول الله تعالى: ﴿وَلۡيَأۡخُذُوٓاْ أَسۡلِحَتَهُمۡۗ﴾ يُرادُ به: عَدَمُ الوضع؛ لأنَّ من شأنِ المجاهدِ في ساحةِ القتالِ أن يكونَ آخذًا سلاحَهُ مستعدًّا لما عسَى أن يطرأَ عَلَيْهِ من شأن العدُوِّ، وإنَّما عُبِّر عن عدم الوَضْعِ بالأخذِ؛ لِلْإِشْعَار بالعناية باستصحاب السِّلاحِ حتَّى كأنَّهم يأخذونَها ابتداءً[2].

نُكْتَةُ المجاز المرسل في التَّعْبِيرِ عَنِ الصَّلَاةِ بِالسُّجُودِ:

صَلَاةُ الْخَوْفِ مَظْهَرٌ مِنْ مَظَاهِرِ كَمَالِ الْعُبُودِيَّةِ

السُّجودُ في قول الله تعالى: ﴿فَإِذَا سَجَدُواْ فَلۡيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمۡ﴾ يُرادُ به الصَّلاةُ كلُّها، وهو مجازٌ مرسَلٌ مِن إطلاق الجزءِ وإرادةِ الكلِّ، والمعنى: فإذا صَلَّوا[3]، أي: أتَمُّوا الصَّلاةَ، فليكونوا من وراءِ الطَّائفة الَّتي كانت قبلُ وِجَاهَ العدُوِّ، وَخُصَّ السُّجودُ ههنا بالذِّكْرِ؛ اهتمامًا به ورفعًا لشأنِه، فأقرب ما يكون العبد من ربّه وهو ساجد، ومدحًا لِلْمُجَاهِدين المُصلِّين، فإنَّ السُّجودَ في حالِ الجهادِ وخوفِ انقضاضِ الأعداءِ مع ما فيه من عدَمِ إبصارِ العَدُوِّ حينئذٍ دليلٌ على كمال عبوديَّتِهم لله تعالى.

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 5/380.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 3/130.
(3) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 5/372، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 5/381 - 382.

وإذا كان الضَّمير في قوله: ﴿فَلْيَكُونُواْ﴾ راجعًا إلى الطَّائفةِ الأخرى الَّتي تكون أوَّلًا تُجاهَ العدوِّ، فإنَّ نُكْتَةَ التَّعبير عَنِ الصَّلاةِ بالسُّجودِ؛ لأنَّ السُّجودَ مظنَّةُ هجومِ الأعداءِ لما يظنُّونَهُ من غَفْلَةِ المجاهدِينَ بسبَبِ هيئة السُّجودِ المقتضيَةِ عدمَ التَّنبُّهِ لِلْأَحْوَال الجاريَةِ من حولِهِمْ.

فَائِدَةُ تَكْرَارِ الظَّرْفِ ﴿مَّعَكَ﴾:

إِظْهَارُ عُلُوِّ مَكَانَةِ النَّبِيِّ ﷺ

تكرَّر الظَّرف ﴿مَّعَكَ﴾ في موضعين: أوَّلهما: في قوله تعالى: ﴿فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ﴾، والآخر: في قوله سبحانه: ﴿وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّواْ فَلْيُصَلُّواْ مَعَكَ﴾، ونُكْتَةُ ذلك: التَّنصيص على استمرار صلاة النَّبيِّ ﷺ مع الطَّائِفَتَينِ في صلاةٍ واحدةٍ لَهُ، وذلك إظهارٌ لمكانةِ صلاتِه ﷺ لا سيَّما في مِثْلِ هذه المواقف العَصِيبَةِ[1].

سِرُّ الْمُغَايَرَةِ بَيْنَ ذِكْرِ أَخْذِ السِّلَاحِ فَقَطْ، وَذِكْرِ أَخْذِ الْحِذْرِ وَالسِّلَاحِ مَعًا:

اخْتِصَاصُ الْحَالِ الْأَخْطَرِ بِمَزِيدِ التَّحْذِيرِ

قال الله سبحانه: ﴿وَلْيَأْخُذُوٓاْ أَسْلِحَتَهُمْ﴾، ثُمَّ قال تعالى: ﴿وَلْيَأْخُذُواْ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ﴾، ووجهُ المغايرَةِ بينَهما: أنَّه في أوَّل الصَّلاةِ قلَّ أن يَتَنبَّه العدُوُّ لكون المسلمين في صلاةٍ، بل يظنُّونَهم قائمين؛ لِما تقتضيه الحربُ مِنَ الاستعداد، بخلاف الرَّكعة الثَّانية، فقد بانَ لَهُم كونُهم في صلاةٍ، فيكون هذا داعيًا لهم لِانْتِهَازِ الفُرصة في الِانْقِضَاضِ على المسلمين؛ ولذا خصَّ الله ﷻ هذا الموضع بمزيدٍ مِنَ التَّحذيرِ، فقال: ﴿وَلْيَأْخُذُواْ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ﴾[2].

ولأنَّ تحقيق الخشوع في الصَّلاة والتَّخلِّي أثناءها عن الشَّواغل مظنَّة الانصراف عما كانوا عليه من الحِذْر الَّذي كانوا عليه قبل الدُّخول في الصَّلاة، فأعادهم التَّوجيه إلى مراد الله منهم، وما يحقِّق مرضاته لهم في ذلك.

---

(1) البنَّاني، سورة النساء: دراسة بلاغيَّة تحليليّة، ص: 266.

(2) الرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 11/206، وأبو السّعود، إرشاد العقل السَّليم: 2/226، وطنطاوي، التَّفسير الوسيط: 3/289.

بَلَاغَةُ الْمَجَازِ والكناية فِي الْأَمْرِ بِأَخْذِ الْحِذْرِ:

الْمُبَالَغَةُ فِي الْحِذْرِ وَعَدَمِ الْغَفْلَةِ فِي الْمَوَاطِنِ الْمَخُوفَةِ

في قول الله سبحانه: ﴿وَلْيَأْخُذُواْ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ﴾ عدُّ الحذرِ وهو التَّيقُّظُ آلةً يستعملُها الغَازِي، وفي هذا أسلوبُ الجمعِ[1]، فقد جمعَ الله تعالى بين الحذَرِ والسِّلاحِ في الأخذ، وجُعِلَا مأخوذين[2].والحِذْر يشمل الإعداد المعنويّ، والأسلحة تشمل أنواع الإعداد الماديّ للمعركة.

ففي قوله: ﴿وَلْيَأْخُذُواْ حِذْرَهُمْ﴾، استعارة بالكنايةِ: حيثُ شُبِّهَ الحذَرُ وهو عقليٌّ معنويٌّ بالمحسوسِ الَّذي يَتأَتَّى أخذُهُ وتناوُلُه.

ويَجُوز أن يكون ذلك مِن باب الاستعارة التَّصريحيَّةِ: حيث شُبِّهَ تلبُّسُهم بالحذَرِ بالأخذِ بجامعِ شِدَّةِ الملابَسَةِ والثَّباتِ على الشَّيءِ في كلٍّ[3]، فحُذِفَ المشبَّه، وصُرِّح بالمشبَّهِ به.

ونُكتة الاستعارةِ على الوجهين - المكنيَّة والتَّصريحيَّة - المبالغَةُ في الأمْرِ بالحذَرِ والعناية بهِ وعدم الغفلَةِ عنه.

ويحتَمِلُ أن يُخرَّجَ ذلك على الكِناية، فإنَّ أخذ السِّلاحِ حقيقةٌ في حَمْلِهَا لِلدِّفاعِ بِها عَنِ الدِّين والنَّفس، وأَخْذُ الحَذَرِ كنايةٌ عن شدَّةِ اليقظَةِ ودوامِ التَّرقُّبِ[4].

وهذه الأوجُهُ مع اختلاف تخريجِهَا على أبواب البلاغةِ إلَّا أنَّ مؤدَّاهَا واحدٌ كما هو ظاهرٌ.

فَائِدَةُ ذِكْرِ الْأَمْرِ بِأَخْذِ السِّلَاحِ بَعْدَ الْأَمْرِ بِأَخْذِ الْحَذَرِ:

جِهَادُ الْعَدُوِّ قَائِمٌ عَلَى أَصْلَيْنِ كَفِّ أَذَاهُ، وَقِتَالِهِ

وَرَدَ الأمرُ بأخذ السِّلاح عَقِبَ الأمر بأخْذِ الحذر في قول الله تعالى: ﴿وَلْيَأْخُذُواْ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ﴾، مع أنَّ الأمرَ بأخذ الحذر يستلزِمُ الآخرَ؛ لأنَّ جهاد العدوِّ يقتضي أمرين:

(1) الجَمْع: أَنْ يُجْمَعَ بيَن شيئين مُخْتلفين فصاعِدًا في حُكْمٍ واحدٍ.، العلويّ، الطِّراز: 3/78.
(2) الزَّمخشريّ، الكشَّاف: 1/560، والرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 11/206.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 5/186.
(4) طنطاوي، التَّفسير الوسيط: 3/288.

أحدهما: كفُّ أذاه؛ لئلَّا يَغْلِبَ.

والآخر: قتالُهُ؛ ليُغْلَبَ.

فأُمِرَ المسلمون بأَخْذِ الحذَرِ علَى أنفسِهم؛ لئلَّا يَتَغَفَّلَهم الكفَّارُ، فيغلبُوهم، ثمَّ أُمِرَ المسلمون بأن يأخذوا أسلحتَهم؛ لكي يغلبُوا الكفَّارَ، "فَهُمَا مقدِّمتان نتيجتُهما واحدة: وهي النَّصر على العدُوِّ، بأن يجمعوا بين التَّصدِّي له به، والامتناع منه، فلا يغلبهم"[1].

بَلَاغَةُ إِيجَازِ الْقِصَرِ فِي الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ:

مِنْ بَلَاغَةِ النَّظْمِ الْقُرْآنِيِّ جَمْعُ الْمَعَانِي الْمُتَكَاثِرَةِ فِي الْأَلْفَاظِ الْيَسِيرَةِ

في قول الله تعالى: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓاْ أَسْلِحَتَهُمْۖ فَإِذَا سَجَدُواْ فَلْيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّواْ فَلْيُصَلُّواْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُواْ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْۗ﴾؛ إيجازٌ بالقِصَرِ؛ إذا نُظِرَ إليه بجُمْلَتِه، فهو على وجازتِهِ يحتمِلُ جميعَ كيفيَّاتِ صلاة الخوفِ المذكورة في كتُب الفقه، فإنَّها ستُّ كيفيَّاتٍ أو سبعٌ[2]، فيها مِنَ التَّفريعاتِ والتَّفصيلَاتِ ما يطولُ ذِكْرُهُ، فأُجْمِلَتْ كلُّهَا في جُمَلٍ يسيرةٍ في الآية الكريمة[3].

ويَرى بعضُ أهل العلم أنَّ المنصوصَ عَلَيْهِ في الآية كيفيَّةٌ واحدةٌ، وأحيلَ بيانُ باقي الكيفيَّاتِ إلى السُّنَّةِ النَّبويَّة[4]، وهذا بالنِّسبة إلى ظاهرِ النَّصِّ صحيحٌ، ولكن بالتَّأمُّلِ يُمكن إرجاع كلِّ الصِّفاتِ إلى المذكور في الآية الكريمة.

بلاغة الاستئناف البيانيّ في قَوْلِهِ: ﴿وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ عَمَّا قَبْلُ:

تَوْجِيهُ الْمُجَاهِدِينَ إِلَى مَا يَحْمِلُهُمْ عَلَى الِاحْتِيَاطِ وَالْحَزْمِ

فُصِلَ قولُ الله تعالى: ﴿وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَٰحِدَةً﴾ عن الجملة قبلَهَا؛ لأنَّه استئنافٌ بيانيٌّ واردٌ على سبيلِ التَّعليلِ، وَوَجْهُ ذلك: أنَّ

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/50.

(2) ابن المُنذر، الأوسط: 5/43.

(3) البقاعي، نظم الدُّرر: 5/382.

(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السَّليم: 2/226.

قوله سبحانه: ﴿وَلۡيَأۡخُذُواْ حِذۡرَهُمۡ وَأَسۡلِحَتَهُمۡۗ﴾ يبعث في النَّفسِ سُؤالًا: ما الحكمةُ من تَكْرَارِ الأمر بأخذ السِّلاحِ، والأمرِ بالحذَرِ؟ فجاء الجواب: ﴿وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ تَغۡفُلُونَ﴾، فهو تعليلٌ بأمرٍ قلبيّ يُخرج أضغانهم إلى العلن لأمره بهذه الكيفيَّةِ على هذا الاحتياطِ والحزم[1].

وليس الوَدُّ المذكورُ ههنا مُطْلَقَهُ؛ لأنَّ هذا ظاهرٌ؛ إذ هُوَ من شأنِ كلِّ محاربٍ، وإنَّما المعنى: "أنّهم ودُّوا ودًّا مُسْتَقْرَبًا عندَهُم؛ لظنِّهم أنَّ اشتغالَ المسلمين بأمور دينِهم يُباعد بينَهُم وبين مصالحِ دُنْيَاهم، جهلًا مِنَ المشركين لحقيقةِ الدِّين، فطَمِعُوا أَنْ تُلْهِيَهم الصَّلاة عَنِ الاستعداد لأعدائهم، فنبَّه الله المؤمنين إلى ذلك كَيْلَا يكونوا عند ظنِّ المشركين، وليعوِّدَهُم بالأخذ بالحزم في كُلِّ الأمور، ولِيُرِيَهُم أنَّ صلاح الدِّين والدُّنيا صنوان"[2].

نُكْتَةُ التَّعْبِيرِ بِالِاسْمِ الْمَوْصُولِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾:

شِـدَّةُ مُـعَـادَاةِ الْـكُـفَّـارِ لِأَهْـلِ الْإِسْلَامِ

في التَّعبير بالاسم الموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾ من قول الله تعالى: ﴿وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ تَغۡفُلُونَ عَنۡ أَسۡلِحَتِكُمۡ﴾ دون التَّعبير باسم الفاعل (ودَّ الكافرونَ)؛ إيماءٌ إلى أنَّ هذه الرَّغبةَ في استئصالِ أهل الإسلام هي رغبةُ مَن باشرَ الكُفْرَ زَمَنًا مَا، فكيفَ شأنُ مَن هو متشبِّعٌ بالكُفْرِ غارقٌ فيه؟[3]

ومجيء جملة صلة الموصول (كفروا) فعليّة للدلالة على تكرّر هذه الرّغبة فيهم، وتجدّد كفرهم في كلّ حين.

سِرُّ الِالْتِفَاتِ فِي قَوْلِهِ: ﴿لَوۡ تَغۡفُلُونَ عَنۡ أَسۡلِحَتِكُمۡ﴾:

الْإِقْـبَـالُ عَـلَى الْمُخَاطَبِ أَلْيَقُ بِمَقَامِ التَّحْذِيرِ

في قول الله ﷻ: ﴿وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ تَغۡفُلُونَ عَنۡ أَسۡلِحَتِكُمۡ وَأَمۡتِعَتِكُمۡ فَيَمِيلُونَ عَلَيۡكُم﴾ التفاتٌ مِنَ الغَيْبَةِ إلى الخطاب[4]، وهو خطابٌ للطَّائفَتَين جميعًا، ونكتةُ الالتفاتِ: تقويَةُ عزائمهم،

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 5/381 - 382، وأبو السّعود، إرشاد العقل السَّليم: 2/227، والآلوسي، روح المعاني: 3/131.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 5/187.
(3) البقاعي، نظم الدُّرر: 5/383.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السَّليم: 2/227، والآلوسي، روح المعاني: 3/131.

وزيادةُ ترغيبِهم في الامتثالِ لِما وقعت هذه الجملةُ تعليلًا له؛ وهو أخذ الحِذْرِ والسِّلاح[1]، ولأنَّ أسلوبَ الخطاب أنسَبُ لِمقام التَّحذيرِ؛ لِما فيه مِنَ الإقبالِ على المخاطَبِ إقبالًا ينبئ عن قربه منه قربًا يستتبع التَّلطُّف، ويستلزم التَّعَطُّف.

مغزى إيراد الفعل ﴿فَيَمِيلُونَ﴾ بالمضارعيّة:

وفي التعبير بمادة الميْل، وصيغة المضارعيّة ما يؤكّد تجدّد الرغبة لأهل الكفر بأن يستأصلوا شأفة المسلمين كلّما سنحت لهم الفرصة.

الدلالة على التجدّد الاستمراريّ

دِلَالَةُ حَرْفِ الْجَرِّ (عَلَى) فِي قَوْلِهِ: ﴿فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم﴾:

حرفُ الجرِّ (على) في قول الله سبحانه: ﴿فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً﴾ على أصلِهِ في الدِّلالةِ علَى الاستعلاءِ، وفيهِ إشارةٌ إلى الغَلَبةِ والاستيلاءِ والاستحواذِ[2].

رَغْبَةُ أَهْلِ الْكُفْرِ فِي غَلَبَةِ الْمُسْلِمِينَ وَالِاسْتِيلَاءِ عَلَيْهِمْ

وفيه إيماءٌ إلى تضمينِ الفعل (يَميلون) معنى الكَرِّ والشَّدِّ؛ ولذا عُدِّيَ بـ (عَلَى)، والمعنى: يكُرُّون، وَيشدُّونَ عَلَيْكُم في حال غَفْلَتِكم[3]، فثمرة التضمين هو الجمع بين قوّة الفعليْن: الكرّ والميْل.

سِرُّ التَّعْبِيرِ بِاسْمِ الْمَرَّةِ ﴿مَّيْلَةً﴾:

جاء التَّعبير باسم المرَّة ﴿مَّيْلَةً﴾ في قول الله تعالى: ﴿فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً﴾ كنايةً عَنِ الشِّدَّةِ والقُوَّةِ وسُرْعَةِ الأخذِ، ووجهُ ذلك: أنَّ الفعلَ إذا كان شديدًا قويًّا؛ فإنَّه يأتي بالمقصود مِنْهُ سريعًا دون مُعاودَةٍ، فلا يتكرَّر الفعلُ لتحصيلِهِ، فقوله: ﴿مَّيْلَةً﴾، أي: ميلَةً مستأصِلَةً لا يُحتاج معهَا إلى أخرى[4].

مِنْ مَقَاصِدِ أَهْلِ الْكُفْرِ اسْتِئْصَالُ الْمُسْلِمِينَ وَإِبَادَتُهُمْ

وقوله: ﴿وَاحِدَةً﴾ تأكيدٌ للمَّرةِ المستفادَةِ من صيغةِ (فَعْلَة)؛

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 5/382 - 383.
(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 5/383.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 5/187.
(4) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 5/372، والبقاعي، نظم الدّرر: 5/383، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 5/187.

والغرضُ مِنْهُ: التَّنبيه على أنَّ قصد معنى الكنايةِ؛ لئلَّا يُظنَّ أنَّ المرَّة ﴿مَّيْلَةً﴾ جيء بها لقصد المصدر إرادة التَّأكيد للفعل المُعْتَقِب الفاء في ﴿فَيَمِيلُونَ﴾[1].

بَلَاغَةُ النَّفْيِ بِـ(لَا) النَّافِيَةِ لِلْجِنْسِ:

سَعَةُ رَحْمَةِ اللهِ تَعَالَى بِعِبَادِهِ فِي تَشْرِيعِهِ الْأَحْكَامَ

جاءَ النَّفيُ في قول اللّه سبحانه: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ بـ (لا) النَّافية للجنس، وهي لتوكيدِ النَّفْيِ، ودلالَتُهَا ههنا: على نفي جِنْسِ الجُناحِ قليلِهِ وكثيرِهِ - وهو الحرجُ والإثم - وهذا من سَعَةِ رحمةِ اللّه تعالى بعبادِهِ: حيث خفَّف عَنْهُمْ بوضع السِّلاحِ في حالِ العذر[2].

سرُّ التَّعبير بقوله: ﴿إِن كَانَ بِكُمْ﴾:

تبشير المسلمين بقلّة الأذى الذي يصيبهم

دلّ التّعبير بـ(إن) المستعملة في الأمر نادر الوقوع على أنّ الأذى لن يلحق بكم إلا نادرًا، وفي هذا بشرى للمسلمين وتعجيل مسرّة، وجاء ضمير الجمع في (بكم) على أنّ ما يصيبُ بعضَهم إنّما يصيبهم جميعًا فهم كالجسد الواحد.

نُكْتَةُ تَنْكِيرِ ﴿أَذًى﴾:

الْأَذَى اللَّاحِقُ بِالْعَبْدِ مِنْ مُوجِبَاتِ التَّخْفِيفِ

نُكِّر ﴿أَذًى﴾ مِن قَوْلِ اللّهِ تعالى: ﴿إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ﴾ لإفادةِ العُمُوم؛ إذ إنَّ النَّكرة في سياق الشَّرْطِ تُفيد ذلك.

ويحتمِلُ أن تكون دِلالةُ التَّنكير لِلتَّحقير، والمعنى: إن كان بكم أذًى يسير حقير[3]، والأذى الَّذي فوقَ ذلك مُستفادٌ بطريقِ الأَولويَّةِ والأَحْرَوِيَّةِ.

والوجهانِ مُتآيِلانِ؛ إذ كلٌّ منهما يدلُّ على العموم، إلَّا أنَّ الأوَّلَ يدلُّ عليه بطريقِ اللَّفْظِ، والآخرُ يدلُّ عليه بطريقِ الفَحْوَى.

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 5/187.
(2) البنَّاني، سورة النساء: دراسة بلاغية تحليليّة، ص: 148.
(3) البقاعي، نظم الدُّرر: 5/383.

سِرُّ الْعُدُولِ عَنْ (مَرَضٍ) إِلَى ﴿كُنتُم مَّرْضَىٰٓ﴾:

مِـنْ أَسْـبَـابِ التَّرْخِيصِ شَرْعًا الْمَـرَضُ الْمُحَقَّقُ الثَّابِتُ

عُدِلَ عَنِ التَّعبير بـ (مرض)؛ فلم يرد: (إن كانَ بِكُمْ أذًى مِن مطر أو مرضٍ)، إلى التَّعبير بـ ﴿كُنتُم مَّرْضَىٰٓ﴾؛ لِلتَّنبيهِ علَى أنَّ أدنَى شيءٍ مِنَ المرضِ لا يَكُون رُخصةً[1]، بَلِ المرضُ المحقَّقُ الثَّابتُ الَّذي يصْدُقُ أن يُقال في صاحبِه: كان مريضًا؛ إذ إنَّ (كان) تقتضي الدَّوامَ، ويمكن أن يكون الغرض من هذا العدول التّخفيف على المؤمنين، بأن يكون المرض قديمًا وبقيت آثاره حتّى وقت المعركة، فالمرض قد أصابكم وانتهى ولكنّ بعض آثاره بقيت معكم، أو تُحمل على معنى: كنتم في عداد المرضى لأدنى أذى أصابكم.

بَلَاغَةُ أُسْلُوبِ التَّدَلِّي فِي تَقْدِيمِ الْمَطَرِ عَلَى الْمَرَضِ:

الْمَـصْـلَـحَـةُ الْعَامَّةُ مُقَدَّمَةٌ عَـلَى الْمَصْلَحَةِ الْخَاصَّةِ

قُدِّمَ الأذى المسبَّبُ مِنَ المطر على الأذى المسبَّب مِنَ المرض في قول الله تعالى: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ﴾؛ لأنَّ المطرَ شاغلٌ لِلطَّائفتين كِلتيْهِمَا، بخلاف المرضِ؛ فهو عذرٌ موجِبٌ للرُّخصةِ لخصوص المريضِ[2]، فقُدِّمَ ما فِيهِ المصلحة العامَّةُ على ما فيه المَصلحة الخاصَّةُ على طريقة التَّدَلِّي.

بلاغة التعبير بضمير الجمع في ﴿كُنتُمْ﴾:

الـدلالـة على وحـدة الشعور بين المسلمين

والتَّعبير بقوله: ﴿أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ﴾، مع أنَّ المريض قد يكون فردًا أو أفرادًا، له وجهه الدلاليُّ، فهو إمَّا أن يكون قال: ﴿كُنتُمْ﴾ بضمير الجمع، مشاكلة لقوله: ﴿إِن كَانَ بِكُمْ﴾، فقابل الجمع بالجمع رعاية للمقام، وفي هذا توجيه إلى أنَّهم؛ وإن كانوا مرضى، فإنَّ اجتماع كلمتهم مع ما بكلِّ فرد من وهن المرض وأعراضه النَّازلة، أرهب في العدوِّ وأدخل للرُّعب عليه، أو نقول: جُمِعَ ليكون إحياء للشُّعور العامِّ والإحساس التّامِّ من بعضهم ببعض، تذكيرًا بأنَّهم "في توادِّهم

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 5/383.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 5/188.

وتراحمهم وتعاطفهم مثل: الجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو؛ تداعى له سائر الأعضاء بالحمّى والسَّهر"[1].

بَلَاغَةُ الِاحْتِرَاسِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَخُذُواْ حِذۡرَكُمۡۖ﴾:

وُجُوبُ زِيَادَةِ الْحَذَرِ عِنْدَ وُجُودِ دَوَاعِيهِ

في قول الله تعالى: ﴿وَخُذُواْ حِذۡرَكُمۡۖ﴾ احتراسٌ؛ لأنَّه واردٌ لدفع ما يُتَوَهَّم من أنَّ الله تعالى لَمَّا رَفَع عَنْهُم الحرجَ والإثم في وضع السِّلاح حالَ الأذى مِنَ المطر أو المرض: أنَّه يجوزُ لَهُمُ التَّرخُّص بترك الحذرِ وعدم الانْشِغالِ به، فبيَّن الله تعالى أنَّهم مأمورون بأخذ الحذر، "بَلِ الأمرُ هنا آكد؛ لأنَّ الحذرَ مِنَ العدوِّ حالة عدم السِّلاح أشدُّ مِنْهُ حالةَ حملِ السِّلاح"[2].

فَائِدَةُ تَكْرَارِ الْأَمْرِ بِالْحذرِ:

أَهَمِّيَّةُ التَّيَقُّظِ وَالتَّحَرُّزِ فِي مَقَامَاتِ الْجِهَادِ

وردَ الحذر في هذه الآية الكريمة في موضعين: في قوله ﷻ: ﴿وَلۡيَأۡخُذُواْ حِذۡرَهُمۡ وَأَسۡلِحَتَهُمۡۗ﴾، وفي قوله سبحانه: ﴿وَخُذُواْ حِذۡرَكُمۡۗ﴾، ونُكتَةُ تَكرارِهِ: الإيماءُ إلى أهميَّة التَّيقُّظِ والتَّحرُّزِ في مقاماتِ الجهادِ، وألَّا يَشْغَلَه شيءٌ عن ذلك؛ سواءٌ كان العبدُ حاملًا السِّلاح أم واضعًا له في حال وجودِ عذرٍ من مطرٍ أو مرضٍ[3].

رَدُّ مَقَاطِعِ الْكَلَامِ عَلَى مَطَالِعِهَا:

دِلَالَةُ مَوَارِدِ الْكَلَامِ عَلَى مَصَادِرِهِ أَمَارَةُ عُلُوِّ بَلَاغَتِهِ

هذه الآية الكريمة ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمۡ فَأَقَمۡتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ ناسبَت أوَّلَ آياتِ الجهادِ في هذه السُّورةِ، وهي قولُه سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذۡرَكُمۡ﴾ [النِّساء: 71] مناسبةً ظاهرةً في الأمر بالحذَرِ والأخذ بأسبابه، وهذا مِن باب ردِّ المقَاطع على المطالع[4]، ونُكْتَتُه: الدِّلالة على تأكيد المعاني وتقريرها، وفيه مِن علُوِّ البلاغةِ قدرٌ عظيمٌ؛ إذِ الكلام الجيِّد: هو ما دلَّت مواردُهُ على مصادرِهِ، وارتبطَ مَقطعُهُ بمطلَعِهِ[5].

(1) البخاريّ، الصحيح، الحديث رقم: 6011، مسلم، الصحيح، الحديث رقم: 2586.
(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/51.
(3) البنَّاني، سورة النساء: دراسة بلاغية تحليليّة، ص: 266.
(4) البقاعي، نظم الدُّرر: 5/382.
(5) فيّود، علم البديع، ص: 314 - 315.

دِلَالَةُ التَّعْبِيرِ بِاسْمِ الْفَاعِلِ ﴿لِلْكَٰفِرِينَ﴾:

وردَ التَّعبير باسم الفاعل ﴿لِلْكَٰفِرِينَ﴾ في قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ لِلْإِشَارة إلى أنَّ المقصودَ بهذا الوعيدِ هُمُ الدَّائمونَ على الكُفْرِ الَّذين خُتِمَ لهم بِهِ، لا مَنِ اتَّصفَ به زمَنًا مَا، ثمَّ تابَ مِنْهُ[1].

مَـنْ مَـاتَ عَـلَى الْكُفْرِ؛ لَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ، وَمَنْ تَابَ مِـنَ الْـكُـفْرِ فَمَا دُونَـهُ؛ تَابَ اللهُ تَعَالَى عَلَيْهِ

نُكْتَةُ تَأْكِيدِ عَذَابِ الْكَافِرِينَ:

أُكِّد قولُ الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ بضروبٍ من المؤكِّدَاتٍ[2]:

أحدها: (إِنَّ)؛ فإنَّها تقوِّي النِّسبة في الجملة الاسميَّةِ.

ثانيها: بيانُ أنَّ العذابَ مِنَ الله تعالى، والعذابُ مِنَ العظيمِ في مقام التَّهديد عظيمٌ.

ثالثها: مجيءُ المسنَدِ إِلَيْهِ علمًا، وهو الاسْمُ الأحسن (الله)، وما يُشعِرُ به مِنَ الجلال والهَيْبَةِ، فَفيهِ زيادَةُ بيانٍ لعظَمَةِ العذاب الَّذي يحلُّ بِهِم.

رابعها: التَّعبير بكلمة ﴿أَعَدَّ﴾ بصيغة الماضي، المفيدَةِ أنَّه عذابٌ قد فُرِغَ مِن تهيئَتِه، وهو يستقبِلهُم ولا بدَّ أنَّه نَائِلُهُم.

خامسها: تقديمُ الجارِّ والمجرور ﴿لِلْكَٰفِرِينَ﴾ المفيدُ التَّخصيصَ والقصرَ، وفيه من الدِّلالة على عظمة العذابِ وبلوغِه في الإهانةِ مبلغًا عظيمًا، حتَّى كأنَّ عذابَ غيرِهم مِنَ المُجْرِمين لا يُعدُّ عذابًا بجانِبِ عذابِهِمْ.

سَادِسُها: مجيءُ الجملة اسميَّةً، وما تدلُّ عَلَيْهِ مِنَ الثُّبوتِ، وَمِنَ الدَّوامِ المستفادِ من قرينةِ التَّهديد.

شِـدَّةُ خَـسَـارَةِ الْـكَـافِـرِيـنَ وَالْإِهَـانَـةِ الَّتِي سَيَنَالُونَهَا

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 5/384.

(2) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 4/1834.

سابعها: تكرارُ النِّسبة وما تقتضيه من تأكيدِهَا؛ فإنَّ إعدادَ العذاب نُسبَ إلى اللّه تعالى مرَّتين: أُولَاها: إلى الاسم الأحسن ﴿ٱللَّهَ﴾ في قوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ﴾، والأُخرى: إسنادها إلى الضَّمير الرَّاجع إلى اللّه تعالى في قوله: ﴿أَعَدَّ﴾.

ثامِنُها: تنكير ﴿عَذَابًا﴾ وما يدلُّ عَلَيْهِ مِنَ التَّعظيم والتَّفخيم.

فهذه الأوجُهُ بمجموعِهَا تدلُّ على شدَّة خسارةِ الكافرين، وأليم عقابِهم، ومبلغ الإهانَةِ التي سينالونَهَا.

بَلَاغَةُ تَذْيِيلِ الْآيَةِ بِقَوْلِهِ سُبْحَانَهُ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾:

مناسبَةُ مجيءِ قول اللّه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ بعد الأمر بالحذر في قوله: ﴿وَخُذُواْ حِذْرَكُمْ﴾؛ لأنَّ الأمر بالحذرِ مِنَ العدوِّ قد يُوهم قوَّتَهُ وشدَّتَهُ، فأزال اللّه سبحانَهُ هذا الوهم بأنْ أخبر ﷻ أنَّه يُهين الكُفَّار، ويخذلهم؛ لتقوَى قلوبُ المسلمين، ويعلموا أنَّ ما أُمروا به مِنَ الحذر ليس لِمَا لِلْكُفَّار مِنَ القوَّة والشِّدَّة، وإنَّما لأجل تحصيلِ الخوف في قلوب المسلمين، فيعتنُوا بتحصيل أسباب النَّصْرِ، ولا يُضيِّعوها، وليقوى تضرُّعهم إلى اللّه سبحانه في أن يمدَّهم بنصرٍ مِنْ عنْدِه[1].

فهذه الآيةُ باعتبارِ ختمِ الآيةِ بها: تذييلٌ، قُصِدَ به تشجيعُ أهل الإسلام على مُقاتلة الأعداء[2]، وهي باعتبار دَفْعِ الإيهام الحاصِلِ: احتراسٌ.

تَحْرِيضُ أَهْلِ الْإِسْلَامِ عَلَى قِتَالِ أَهْلِ الْكُفْرِ

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الطَّائِفَةُ وَالْفِرْقَةُ:

درجَ كثيرٌ مِن أصحاب المعجمَاتِ على عدمِ التَّفريقِ بينَ الطَّائفة والفِرقة[3]، ولعلَّهم أرادُوا بذلك التَّقريبَ على عادتِهم في كثيرٍ مِنَ المفرداتِ.

(1) الرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 11/207.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 5/188، وطنطاويّ، التَّفسير الوسيط: 3/290.
(3) الجوهريّ، الصحاح: (فرق).

إلَّا أنَّ بينَهما فرقًا في الاستعمال القرآنيِّ؛ فالفِرْقَةُ: الجماعةُ الكثيرةُ، بخلاف الطَّائفة؛ فإنَّها الجماعة القليلةُ[1]، ويدلُّ لذلك قول اللّه تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ﴾ [التوبة: 122].

فالطَّائفة والفِرقةُ لفظان يَشْتَرِكَان في الدِّلالَةِ على العَدَدِ، ويفترقانِ في أنَّ العددَ في الفِرقة كثيرٌ، وهو في الطَّائفةِ قليلٌ[2].

الْغَفْلَةُ وَالسَّهْوُ:

الفرقُ بينَهُما مِن وجهين[3]:

أحدهما: يقال: غفلت عن هذا الشّيء حتَّى كان، ولا يقال: سهوت عنه حتَّى كان؛ لأنَّك إذا سهوت عنه؛ لم يكن، ويجوز أن تغفل عنه، ويكون.

والآخرُ: أنَّ الغفلة تكون عن فعل غيرك، فتقول: كنت غافلًا عمَّا كان من فلان، ولا يجوز أن تسهو عن فعل غيرك.

الْأَذَى وَالضَّرَرُ:

يَجْمَعُهُما أنَّ كِلَيْهِمَا شَرٌّ وَمكروهٌ يَحلُّ بالعَبْدِ، والفَرْقُ بينَهُما: قال الخطَّابيُّ: الأذى الشَّرُّ الخفيف، فإن زاد؛ فهو ضرر[4].

الْمَطَرُ وَالْغَيْثُ:

ذهب جمعٌ مِن علماء العربيَّةِ في معجماتِهم إلى تعريفِ أحدهما بالآخَرِ[5]؛ ميلًا مِنْهُمْ إلى التَّرادُفِ في ظاهر صنيعِهِم، ويحتَمِلُ أنَّ ذلك منهم تقريبٌ للمعاني دون اعتقادِهم حقيقةَ التَّرادُفِ بينهما.

إلَّا أنَّ الاستعمال القرآنيَّ للَّفظتَين لَه خصوصيَّةٌ تُلْمَحُ مِن سياقاتِهما، فإنَّ (المطر) ورد في القرآن الكريم في سبعةِ مواضعَ كلِّها بمعنى: العذاب، إلَّا في موضعٍ واحدٍ جاء مقرونًا بالأذى، وذلك في قولِه تعالى: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ﴾.

(1) الزَّمخشريّ، الكشَّاف: 2/323.
(2) مُحمّد داود، معجم الفروق الدّلاليَّة في القرآن الكريم، ص: 333.
(3) العسكريّ، الفروق اللُّغويَّة، ص: 98.
(4) الزَّبيديّ، تاج العروس: (أذى).
(5) الخليل، العين: (غيث)، والجوهريّ، الصحاح: (غيث)، والزَّبيدي، تاج العروس: (غيث).

أمَّا (الغيث)؛ فورد في مواضعَ ثلاثةٍ، استُعمِلَت جميعُها في سياق الخيرِ والرَّحمةِ والعناية بمجيئِهِ[1]، مِنْهَا قول الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ۚ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٨﴾﴾ [الشّورى: 28].

وهذا التَّفريقُ بين اللَّفظتين في السِّياق القرآنيِّ يُلخِّصُهُ قولُ سفيانَ بنِ عُيينة رحمه الله: "ما سمَّى اللّه المطرَ في القرآن إلَّا عذابًا، وتسمِّيه العربُ الغيثَ"[2].

وقد وردَ التَّفريقُ بينَهما أيضًا في حديث عبد اللّه بنِ مسعود رضي الله عنه في حكايَتِهِ استسقاءَ النَّبيِّ ﷺ لقُرَيشٍ، فقَد قال رضي الله عنه: "فَدَعَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَسُقُوا الغَيْثَ، فَأَطْبَقَتْ عَلَيْهِمْ سَبْعًا، وَشَكَا النَّاسُ كَثْرَةَ المَطَرِ..."[3]، فعبَّر عمَّا كان فيه كشفٌ لشدَّتهم بالغيث، فلمَّا زادَ عَنِ الحاجَةِ، وخِيفَ مِنْهُ الهَلاكُ سمَّاهُ: مَطَرًا.

(1) مُحمّد داود، معجم الفروق الدّلالية في القرآن الكريم، ص: 353، والدّوري، دقائق الفروق اللُّغويَّة في البيان القرآنّي، ص: 131 — 133، وزيدان، الفروق اللُّغويَّة في القرآن، ص: 720 - 722.

(2) السّيوطي، معترك الأقران: 3/458.

(3) البخاريّ، الحديث رقم: (1020).

﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ ۚ فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَـٰبًا مَّوْقُوتًا ﴿١٠٣﴾﴾ [النساء: 103]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا علَّم اللّه تعالى عبادَهُ ما يفعلونَهُ في الصَّلاةِ حالَ الخوفِ؛ أتبع ذلك بالَّذي يفعلونَهُ بعدها؛ لئلَّا يُظَنَّ أنَّ الصَّلاةَ تُغنِي عن مُجرَّدِ الذِّكرِ[1]، ولئلَّا تنقَطِعَ عبودِيَّةُ المسلِمِ لربِّهِ سُبحانه؛ ولو في المقَامات العَصِيبَةِ، كحال الجهادِ.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿قَضَيْتُمُ﴾: القاف والضَّاد والحرف المعتلُّ: أصل صحيح يدلُّ على إحكامِ أمرٍ وإتقانِهِ وإنفاذِه لجِهَتِهِ[2]، ومِنْهُ القضاءُ بمعنى: الأداء والإنهاء[3]، ومِنَ البابِ: قضاءُ الدَّينِ؛ لأنَّه أداؤُهُ وإيصالُهُ إلى صاحبِهِ[4].

وقضاء الصَّلاةِ في قول اللّه تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ﴾، هو أداؤُها والفراغُ منها[5].

2) ﴿ٱطْمَأْنَنتُمْ﴾: الطَّاء والميم والنُّون: أصْلٌ يدلّ على استواءٍ، أو انخفاضٍ فيما شأنُه الارتفاعُ[6]، وَمِنْهُ: الطُّمأنينةُ، وهي السُّكونُ[7]، وتسمِّي العربُ المكانَ المنخفض مِنَ الأرض: المطمئنَّ[8].

وفِي الطُّمأنينَةِ الواردةِ في قول اللّه تعالى: ﴿فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ﴾ قولان[9]:

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 5/384.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (قضي).
(3) الجوهريّ، الصحاح: (قضى).
(4) الفيّومي، المصباح المنير: (قضي).
(5) البيضاويّ، أنوار التَّنزيل: 2/94.
(6) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصَّل: (طمن).
(7) الفيروزآبادي، القاموس المحيط: (طمن).
(8) الخليل، العين: (طمن).
(9) الماورديّ، النُّكت والعيون: 1/526.

أحدهما: الإقامةُ بعدَ السَّفر.

والآخر: الأمنُ بعد الخوف.

وفي كِلَيْهِمَا معنَى السُّكُونِ، فإنَّ "في الرُّجوع إلى الأوطانِ سكُونًا مِن قَلَاقِل السَّفر واضطراب البدن"[1]، وأمَّا السُّكُونُ في الأَمْنِ بعد الخوف؛ فظاهرٌ.

3) ﴿كِتَٰبًا﴾: الكاف والتَّاء والباء: أصل صحيح واحد يدلُّ على جمعِ شيءٍ إلى شيءٍ[2]، وَمِنْه قولُهم: كَتَبْتُ الكتابَ؛ لِأَنَّهُ يَجْمَعُ حرفًا إِلَى حرْف[3]، وتقول العرب: تكتَّبتِ الخيلُ، أي: تَجَمَّعت[4].

ويُطلق الكتابُ على الخطِّ والكتابةِ، كمَا قال اللّه تعالى عن عِيسَى عليه السلام: ﴿وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾[5] [المائدة: 110].

ويُطلق مرادًا به المكتوبُ، فيكون مِن إطلاقِ المصدَرِ مرادًا به اسمُ المفعول، كقَوْلِهم: لِباس بمعنى: مَلْبُوس، ثُمَّ أُطْلِقَ على الصَّحيفة مَعَ ما كُتِبَ فِيهَا[6].

4) ﴿مَّوْقُوتًا﴾: الواو والقاف والتَّاءُ: تدلُّ تصريفَاتُها على حدِّ شيءٍ وكُنْهِهِ في زمانٍ وغيرِه[7]، ومِنْهُ قولُ اللّه تعالى: ﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَٰتًا ﴿١٧﴾﴾ [النَّبأ: 17] أي: موعدًا محدَّدًا[8]، وتقول العرب: وقْتٌ مَوْقُوتٌ ومُوَقَّتٌ، أي: مَحْدُودٌ[9].

و﴿مَّوْقُوتًا﴾ في قولِ اللّه سُبحانه: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا﴾، أي: فرضًا مؤقَّتًا يُؤَدَّى في أوقاته[10].

---

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 5/189.
(2) ابن دُرَيْد، جمهرة اللّغة: (كتب)، وابن فارس، مقاييس اللُّغة: (كتب).
(3) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة: (كتب).
(4) الجوهريّ، الصحاح: (كتب).
(5) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 3/223.
(6) الهُورِينيّ، المطالع النَّصريّة، ص: 41.
(7) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (وقت).
(8) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (وقت).
(9) ابن سِيده، المخصَّص: 2/402.
(10) السّمعاني، تفسير القرآن: 1/474.

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

فإذا فرغتُم - أيُّها المؤمنون - مِن صلاتِكُم؛ فاذكروا اللّه تعالى على كلِّ أحوالكم: قيامًا وقعودًا ومضطَجِعِينَ على جنوبِكُم بالتَّعظيم له، والدُّعاء لأنفسكم بالنَّصر على عدوِّكم، فإذا سَكَنَت نفوسُكُم: إمَّا بزَوَال الخوفِ عَنْكُم أو قُفُولِكم مِنَ الغزو؛ فأتمُّوا الصَّلاةَ المفروضة على الوجه الأكمل ظاهرًا وباطنًا، غيرَ قاصرِيهَا عن شيءٍ مِن حدودِهَا، ولا تفرِّطوا فيها، فإنَّها واجبة في أوقاتٍ معلومة مُبيَّنَةٍ في الشَّرع[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

نكتة التَّعبير بالفاء في ﴿فَإِذَا﴾:

توالي ذكر المتعلَّق وجمع جزئيَّات المسألة بعضها إلى بعض في الوقت الواحد ركيزة توحُّد العلم، وحسن الفهم وعدم الاختلاف.

من حسن البيان اكتفاؤه عمَّا هو خارج عنه، بربط الموضوع، وحصر أفراده وجزئيَّاته، وجمع مفاداته واستيفاء البيان وقت الحاجة إليه والإصغاء لاستيعابه.

نُكْتَةُ التَّعْبِيرِ بِأَدَاةِ الشَّرْطِ (إِذَا):

جاء الشَّرط في هذه الآيةِ بـ (إذا) فقال سبحانه: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ﴾، وهي مفيدةٌ - في الأصل - القطعَ بوقوع مدخولِهَا، والنُّكْتَةُ في ذلك: التَّفاؤُلُ بتحقُّقِ قضائِهم الصَّلاةَ، أي: إكمالِ أدائهَا، وذلك يقتَضِي سلامَتَهم مِنَ الغيل في المعركَةِ.

الـتَّـفَـاؤُلُ فِي الْمَوَاطِنِ الْمَخُوفَةِ طَرِيقَةٌ قُرْآنِيَّةٌ

وفيه: أنَّهم إن دخلوا فيها - أي: الصَّلاة - أُعينوا عليها، وفيه حصول الإجزاء كيفما تيسَّر لهم، وتأدّى منهم، وفيه سقوط المؤاخذة عنهم على أي وجه كان.

(1) ابن جرير، جامع البيان: 9/164 - 166، والبغويّ، معالم التَّنزيل: 2/281 - 282، والسّعدي، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 198، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 5/188 - 189، ونخبة من العلماء، التّفسير الميسّر، ص: 95.

تَوْجِيهُ الْمُتَشَابِهِ اللَّفْظِيِّ بَيْنَ ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ﴾ وَ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [الجمعة: 10]:

دِقَّـــةُ اخْـتِـيَـارِ الصِّيَغِ الْمُنَاسِبَةِ لِسِيَاقَاتِهَا

وردَ فعلُ القضاء في سورة النِّساء بالبناء لِلْفَاعِل: ﴿قَضَيْتُمُ﴾، وفي سورة الجمعة بالبناء لِلْمَفْعُول: ﴿قُضِيَتِ﴾ [الجمعة: 10]، مع اختلاف جواب الشَّرْطِ فيهما؛ لأنَّ آية سورة النِّساء لمَّا تقدَّمها ذِكْرُ صلاة الخوف، وهو مُفيدٌ عدَمَ سقوطِ الصَّلاة في أيِّ حالٍ مِنَ الأحوال، وكان السِّياقُ مبْنِيًّا على خطاب المؤمنين؛ ناسبَهُ أسلوبُ الخطاب ببناءِ الفعل لِلْفَاعل، وجاءَ الجوابُ بالتَّنصيص على واحدٍ من أعظم أسباب النَّصْرِ على الأعداء، وهو ذكرُ اللّٰه تعالى على كلِّ حالٍ، كما قال سبحانه: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [الأنفال: 45].

بخلاف آية سورة الجمعة؛ فقد تقدَّمها قولُ اللّٰه جلَّ وعلا: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩﴾﴾ [الجمعة: 9]، فبُنِيَ فعل النِّداءِ للصَّلاةِ لِلْمَفْعول: ﴿نُودِيَ﴾، فكان الأنسب بناء ما يتعلَّق بقضائها لِلْمَفْعُول أيضًا، فقال تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ﴾ [الجمعة: 10]، ولمَّا كان ما قبل صلاة الجمعة انقطاعًا عَنِ العمل وقضاء المصالِح؛ كان الأوفَق أن يكون ما بعدها دُعاءً إلى العمل وقضاء المصالِح، فقال ﷻ: ﴿فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ [الجمعة: 10]، ولمَّا كان ذلك قد يُشْغِلُ المرءَ عَنْ ذكر اللّٰهِ تعالى لانشغالِهِ بطلبِ المعاشِ ونحوه؛ ناسبَهُ الأمر بذكر اللّٰه تعالى، فقال سُبحانه: ﴿وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾.

نُكْتَةُ الْمَجَازِ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ﴾:

الذِّكْرُ المرادُ في قول اللّٰه تعالى: ﴿فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ﴾ يَحْتَمِلُ أن

يكونَ عامًّا، ويحتمِلُ أن يكون مرادًا به الصَّلاةُ[1]، بقرينةِ ذكر الصَّلاةِ قبلها في قوله ﷻ: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ﴾، وبعدها في قوله سُبحانه: ﴿فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾[2]، وإطلاقُ الذِّكْرِ على الصَّلاةِ - على هذا الوجه - مِن باب المجاز المرسل بإحدى علاقاته الجزئيَّة أو الحاليَّة أو الملازمة، فإنَّ الذِّكْرَ جزءٌ مِن أجزاء الصَّلاةِ، وهو حالٌّ فيها، وملازم لها، ولازم عنها للنّصِّ: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ [العنكبوت: 45]، وإنَّما اختيرَ التَّعبيرُ عنها بالذِّكْرِ ههنا؛ لمناسبَتِه الاطمئنَانَ المذكورَ بعدُ في قوله: ﴿فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾، كما قال الله تعالى: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ۝٢٨﴾ [الرَّعد: 28].

ذِكْرُ اللهِ تَعَالَى مِنْ أَعْظَمِ أَسْبَابِ اطْمِئْنَانِ الْقُلُوبِ

دِلَالَةُ أُسْلُوبِ التَّقْسِيمِ عَلَى اسْتِيعَابِ أَحْوَالِ الْعَبْدِ:

في قول الله تعالى: ﴿فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ﴾ استيعابٌ لأحوالِ العبْدِ الرَّئيسَةِ[3]؛ وذلك أنَّ حالَ المرءِ لا يخلُو مِن قيامٍ أو قعودٍ أو كونِه على جَنْبٍ، وحالُ المشي ونحوِه مُلْحَقَةٌ بحالِ القيامِ، وحالُ الاستلقاءِ مُلحقةٌ بحالِ كونِه على جَنْبٍ.

وعُدِلَ عَن صريحِ التَّعميمِ مع أنَّه أَوْجَزُ، فلم يأتِ نظمُ الآية: (فاذكرُوا اللهَ في جميع أحوالكم) إلى تفصيل تلكَ الأحوال؛ زيادةً في الحثِّ على ذكرِه، ولئلَّا يُظَنَّ أنَّ بعضَ تلك الأحوال كالكَوْنِ على جَنْبٍ لا يليقُ أَنْ يُذكَرَ اللهُ تعالى عليهَا.

مِنْ مَقَاصِدِ الْعُدُولِ عَنِ الْإِيجَازِ إِلَى التَّفْصِيلِ دَفْعُ تَوَهُّمِ مَا لَا يَصِحُّ

بَلَاغَةُ التَّرَقِّي فِي ذِكْرِ أَحْوَالِ الْعَبْدِ:

رُتِّبت أحوال المرءِ بِذِكْرِ القيام أوَّلًا، ثُمَّ القعود ثانيًا، ثُمَّ الكونِ على جنب أخيرًا، فقال سبحانه: ﴿فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ﴾، وهذا التَّرتيبُ هو على سبيل التَّرقِّي في إيراد العوارِض

قَطْعُ كُلِّ عُذْرٍ يَحُولُ بَيْنَ الْعَبْدِ وَبَيْنَ الِاتِّصَالِ بِرَبِّهِ سُبْحَانَهُ

(1) القِنَّوْجِيّ، فتح البيان: 3/227.
(2) البيضاويّ، أنوار التَّنزيل: 2/94.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 5/384.

الَّتي قد تعرضُ لِلْعبدِ يظنُّها مانعةً له مِن ذكر اللّه تعالَى، ومِنْهَا: الصَّلاةُ، فذكر القعودَ والكونَ على جنبٍ، ولازِمُهُما وُجودُ عذرٍ مانعٍ، وثانيهما أقوى من أوَّلِهِمَا، وقدَّمَ القيامَ قبلَ ذلك تَتميمًا لِلْقِسمةِ؛ ولأنَّه الأصلُ في أحوال العبدِ؛ لكون الإنسانِ مخلوقًا على هيئة الانتصابِ والاستقامَةِ.

فعلى إرادةِ الصَّلاة بِذِكْرِ اللّه تعالى؛ فالتَّرتيبُ فيها ظاهرٌ، وهو موافق لقولِ النَّبِيِّ ﷺ: "صَلِّ قَائِمًا، فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ؛ فَقَاعِدًا، فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ؛ فَعَلَى جَنْبٍ"[1]؛ فالعَبدُ قد يَتوهَّمُ سقوطَ شيءٍ مِنَ الواجباتِ عَلَيْهِ حالَ إصابتِهِ بمرض يُقعده، ويزداد هذا الوهم؛ إذَا أصابه مرضٌ يُعجزه عَنِ القعودِ فضلًا عَنِ القيام، فدُفِعَ الوَهْمُ الأقلُّ، ثُمَّ الَّذي فوقَهُ؛ لقطع كُلِّ عذرٍ يعوقُ العبدَ عَنِ الاتِّصالِ بربِّهِ ﷻ.

مِنْ مَسَائِلِ التَّرْتِيبِ الْأَفْضَلِيَّةُ وَالْأَكْثَرِيَّةُ

وَيحتَمِلُ أن يكون هذا التَّرتيبُ لمراعاةِ أمرين[2]:

أحدهما: أنَّ ترتيبَ الهيئات هُوَ بحسَبِ الأفضليَّة، فقُدِّم الذِّكر قيامًا على الذِّكْر قعودًا، وقُدِّم الذِّكر قعودًا على الذِّكْر اضطِجَاعًا.

والآخر: أنَّهُ وردَ مراعاةً لِلْأَكثر؛ فإنَّ ذِكْرَ اللّهِ تعالى قيامًا أكثرُ مِن ذِكْرِهِ قعودًا، وذِكْرَه قعودًا أكثرُ مِن ذِكْرِهِ اضطِجَاعًا.

تَوْجِيهُ الْمُتَشَابِهِ اللَّفْظِيِّ بَيْنَ ﴿فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْۚ﴾ وَ﴿دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا﴾:

اخْتِلَافُ التَّرْتِيبِ يُرَاعَى فِيهِ سِيَاقُ الْمُرَتَّبَاتِ

في هذه الآيةِ الكريمَةِ ذَكَرَ اللّه تعالى حالَ القيامِ ثُمَّ القعودِ ثُمَّ الكونِ على جنبٍ، فقال سبحانه: ﴿فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْۚ﴾، وفي سورة يونس عُكِسَ ذلك، فقال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا﴾ [يونس: 12]، ووجهُ

(1) البخاريّ، الحديث رقم: (1117).
(2) المطعنيّ، خصائص التَّعبير القرآنيّ: 2/428.

ذلك[1]: أنَّ آية يونُسَ في سياقِ ذِكْر الضُّرِّ اللَّاحق بالعبدِ، فقُدِّمَ حالُ الاضطِجاعِ؛ لكونِ الضُّرِّ فيه بالغًا مبلغًا عظيمًا، فإذا زال بعضُ الضُّرِّ؛ قعدَ المضطَجِعُ، وإذا زال مُعظَمُ الضُّرِّ أو كُلُّه؛ قام القاعِدُ، فكان دعاؤُهُ من أجل تتميم الصِّحَّةِ وإكمال القوَّةِ وحصول التَّصرُّفِ، بخلاف آية النِّساءِ؛ فهي في سياقِ ذِكْرِ الله تعالى، ومِنْهُ الصَّلاةُ، ومِنَ المعلوم أنَّ الصَّلاةَ يَجِبُ فيها القيامُ لِلْمُسْتَطِيع، ثُمَّ يليهِ القعودُ عند العجزِ عَنِ القيام، ثُمَّ الاضطجاعُ عند العجْزِ عَنِ القعودِ، وإن أُريدَ به مُطلق الذِّكْرِ؛ فرُوعِيَ في هذا التَّرتيب الأفضليَّةُ أو الأكثرُ، كما تقدَّم قريبًا.

سِرُّ الْعُدُولِ عَنْ (إِنْ) إِلَى (إِذَا):

عُبِّر بأداة الشَّرط (إِذَا) في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا ٱطۡمَأۡنَنتُمۡ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَۚ﴾، وهي تدلُّ على الجزم بوقوع الشَّرْطِ في أصل وضعِهَا، والاطمئنَانُ المرادُ به: زوالُ الخوف أو الإقامَةُ بعد السَّفَر، وليسَا بالْمُتَيَقَّنَيْنِ؛ لاحتمال الشَّهادة في الحرب والوفاةِ في السَّفر، فكان مقتضى الظَّاهرِ التَّعبير بـ (إِنْ) المفيدة الشَّكَّ في وقوع الشَّرْطِ، والنُّكْتَةُ في العدولِ عن (إِنْ) إلى (إِذَا) التَّفاؤُلُ بالسَّلامَةِ؛ زوالًا لِلْخَوْفِ بالنَّصْرِ في القتالِ، ورجوعًا إلى الأوطانِ بالإقامةِ فيها.

التَّفَاؤُلُ بِالسَّلَامَةِ فِي مَوَاطِنِ الْخَوْفِ مَسْلَكٌ قُرْآنِيٌّ

أَثَرُ تَعَدُّدِ دِلَالَاتِ «الْإِقَامَةِ» فِي وَفْرَةِ الْمَعَانِي:

الفعل ﴿فَأَقِيمُواْ﴾ من قولِ الله تعالى: ﴿فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَۚ﴾ مشتقٌّ مِنَ الإقامةِ، وهي الإتيانُ بالشَّيءِ قائمًا، أي: تامًّا، وهذا المعنَى سيقَ له اللَّفظ المذكورُ على وجهِ التَّمثيل[2]، كقول الله تعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلۡوَزۡنَ بِٱلۡقِسۡطِ﴾ [الرحمن: 9].

وُجُوبُ إِتْمَامِ الصَّلَاةِ وَإِظْهَارِهَا وَالْمُدَاوَمَةِ عَلَيْهَا وَالْحِفَاظِ عَلَى أَفْعَالِهَا

ويحتمِلُ أن يكون مأخوذًا مِنَ التَّقويم، وهو التَّعديل، مِن قولهم:

(1) ابن أبي الأصبع، تحرير التَّحبير، ص: 175.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 5/189.

قوَّمتُ العودَ، أي: عدَّلْتُه، وإقامة الصَّلاة بِهَذا المعنى يُرادُ بها: المحافظةُ على أركانها وشروطها ومستحبَّاتها[1]، ومؤدَّى هذا المعنى قريبٌ مِنَ الَّذي قبلَهُ، وهو الإتيانُ بالشَّيءِ تامًّا.

ويحتمِلُ أيضًا أن يكون ﴿فَأَقِيمُواْ﴾ مشتقًّا مِنَ الإقامة بمعنى: الدَّوام[2]، يُقال: أقامَ الشَّيءَ؛ إذا داومَ عليهِ.

ويحتمِلُ كذلك أن يكون مِنَ الإقامةِ بمعنى: الإظهار، مِن قولهم: أُقِيمتِ السُّوق[3]، فمعنى إقامة الصَّلاة على هذا: إظهارُها، ومن أبيَنِ أوجُهِ إظهارِها: أداؤُها جماعةً في مساجد المسلمين.

وهذه المعاني مع اختلافِهَا حقٌّ؛ لعدمِ التَّعارُضِ بينهَا، فيكون الأمرُ بإقامة الصَّلاةِ: أمرًا بالإتيان بها تامَّةً، ومن صُوَرِ إتمامها: المحافظةُ على أركانها وشروطها وواجباتها ومستحبَّاتها، وأمرًا بالمداومَةِ عَلَيْهَا وإظهارها.

بلاغة الاستئناف البيانيّ في قوله ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ﴾:

قَـرْنُ الْأَحْـكَـامِ بِعِلَلِهَا يُقَوِّي عَلَى الِامْتِثَالِ

فُصِل قولُ اللّه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتۡ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ كِتَٰبٗا مَّوۡقُوتٗا﴾ عمَّا قبلَهُ؛ لوقوعِهِ تعليلًا[4] على جهة الاستئنافِ؛ فإنَّ تَكرارَ ذكرِ الصَّلاةِ بذِكْرِ إتمامِهَا ثمَّ الأمرِ بإقامتها، وبينَهما الأمرُ بذِكْرِ اللّهِ تعالى، ومن جملة ذلك: الصَّلاة، ومجموعُ ذلك يُثير في نفس المتلقِّي سؤالًا، وهو: لِمَ وقع التَّنبيهُ على الصَّلاةِ بأوجهٍ متباينَةٍ، والأمرُ بها في الأمن والخوف والسَّعة والضِّيقِ سفرًا وحضرًا[5]؟ فجاء الجوابُ تعليلًا: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتۡ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ كِتَٰبٗا مَّوۡقُوتٗا﴾.

(1) النَّبراويّ، حاشية على الأربعين النَّوويَّة، ص: 37.
(2) الهرويّ، الغريبين: (قوم).
(3) ابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 1/85.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 5/189.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 5/385.

نُكْتَةُ الْإِظْهَارِ فِي مَوْضِعِ الْإِضْمَارِ:

تَفْخِيمُ شَأْنِ الصَّلَاةِ

في قولِ اللّه ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتۡ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ كِتَٰبٗا مَّوۡقُوتٗا﴾ إظهارٌ في موضِع الإضمار؛ إذ إنَّ مقتضى الظَّاهرِ: (إنَّها كانت...)؛ وذلك لتقدُّمِ ذِكرها في قوله تعالى: ﴿فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَۚ﴾، ونُكْتَةُ ذلك: الإيماءُ إلى تفخيم شأن الصَّلاة والإشعارُ بعظيمِ قدرِهَا[1]، والتَّذكير بكريم آثارها وجليل بركتها.

نُكْتَةُ تَأْكِيدِ جُمْلَةِ ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتۡ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ كِتَٰبٗا مَّوۡقُوتٗا﴾:

التَّفَنُّنُ فِي بَيَانِ عَظَمَةِ قَدْرِ الصَّلَاةِ

أُكِّد قول اللّه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتۡ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ كِتَٰبٗا مَّوۡقُوتٗا﴾ بخمسةِ مؤكِّدَاتٍ[2]:

أحدها: (إنَّ)؛ فإنَّها تقوِّي النِّسْبَةَ في الجُمَلِ الاسميَّةِ، وهو المعبّر عنه بإفادتها التَّوكيد.

ثانيهَا: اسميَّةُ الجملةِ، فإنَّها دالَّةٌ على الثُّبوتِ، ومُفيدَةٌ الدَّوامَ بقرينَةِ ذِكْرِهَا في مقامِ التَّشريعِ.

ثالثُها: ذِكْرُ ﴿كَانَتۡ﴾ في جملة الخبرِ، فإنَّها دالَّةٌ على الدَّوام والاستمرار في المُضِيِّ والاستقبالِ.

رابعُها: التَّعبير عن فَرْضيَّةِ الصَّلاةِ بكونِهَا كِتَابًا، وهو من بابِ الوصفِ بالمَصْدَرِ، فإنَّ لفظ (الكتاب) مصدرٌ للفعل (كَتَبَ)، والوصفُ بالمصدَرِ فيه زيادَةُ توكيدٍ.

خامسُهَا: الإيماءُ إلى حتميَّةِ إقامة الصَّلاةِ بحَرْفِ (عَلَى)، فإنَّه دالٌّ على الوجوبِ والإلزامِ.

ومجموعُ هذه التَّأكيدَاتِ يدلُّ على الاهتمامِ بشأنِ الصَّلاةِ وتعظيمِ قدرِهَا ورفعةِ منزلَتِهَا.

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 5/385.

(2) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 4/1835.

دِلَالَةُ اللَّامِ فِي ﴿ٱلصَّلَوٰةَ﴾:

الْعُرْفُ الشَّرْعِيُّ مِنْ مُعَيِّنَاتِ الْمُرَادِ بِالتَّرَاكِيبِ

اللَّامُ في ﴿ٱلصَّلَوٰةَ﴾ مِن قول الله تعالى: ﴿فَإِذَا ٱطۡمَأۡنَنتُمۡ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَۚ﴾ لِلْعَهْدِ العلميِّ، والمراد: الصَّلواتُ الخمسُ، وذلك أنَّ هذا التَّركيبَ (إقامة الصَّلاةِ) يُستعمَلُ في خطاب الشَّرْعِ بالصَّلوات الخمسِ، المأمور بأدائهنَّ على وجه الائتساء بالنَّبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم نيَّة وكيْفيَّة، أو إخلاصًا واتِّباعًا، أو أداء وإبراء

ويحتَمِلُ أن تكون لِلْعَهدِ الحضُوريِّ، والمرادُ: فأقيمُوا الصَّلاةَ الَّتي دخل وقتُها حينئذٍ[1].

وهما وَجْهَانِ مختلفانِ ظاهرًا، متَّفقانِ مآلًا، وذلك أنَّ الثَّانيَ باعتبارِ تجدُّدِ وقتِ كُلِّ صلاةٍ راجعٌ إلى الأوَّلِ، وفردٌ مِنْ أفرادِهِ.

بَلَاغَةُ الْإِطْنَابِ بِالتَّذْيِيلِ فِي قَوْلِهِ: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتۡ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ كِتَٰبٗا مَّوۡقُوتٗا﴾:

وُجُوبُ الْمُحَافَظَةِ عَلَى الصَّلَاةِ فِي جَمِيعِ الْأَحْوَالِ

وردَ قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتۡ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ كِتَٰبٗا مَّوۡقُوتٗا﴾ في ختامِ الآيةِ الكريمة تذييلًا، وهو تذييلٌ جارٍ مجرى المثلِ؛ لاستقلالِهِ بالإفادةِ، وعدم توَقُّفِهِ على ما قبلَهُ في فهم المرادِ مِنْهُ.

والغرضُ مِن إيرادِ هذا التَّذييل: تعليلُ وجُوب المحافظةِ على الصَّلاةِ، ولو في أوقَاتِ الخَوف[2].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الْقُعُودُ وَالْجُلُوسُ:

ذهب جماعة مِن علماء العربيَّة إلى أنَّ القعودَ والجلوس بمعنًى واحدٍ[3]، ومال آخرون إلى التَّفريقِ بينَهُمَا، فمن أشهر الفروقِ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السَّليم: 2/228.
(2) رضا، تفسير المنار: 5/313.
(3) ابن سيده، المحكم: (جلس).

المذكورةِ: أنَّ الجلوسَ يكون من اضْطِجَاعٍ، والقعودَ يكون من قيام[1]، ولذا ورد في حديث أبي بَكرةَ ﵁ أنَّه قال عَنِ النَّبيِّ ﷺ: "وَكَانَ مُتَّكِئًا، فَجَلَسَ، فَقَالَ: أَلاَ وَقَوْلُ الزُّورِ"[2]، ويقال: قامَ، فقعدَ.

وهذا التَّفريقُ على شهرتِه فيه نَظَرٌ بَيِّنٌ[3]: فإنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: "إِذَا دَخَلَ أَحَدُكُمُ الْمَسْجِدَ؛ فَلَا يَجْلِسْ حَتَّى يَرْكَعَ رَكْعَتَيْنِ"[4]، وفي حديثِ جبريلَ المشهورِ عَن عُمرَ بنِ الخطَّاب ﵁ أنَّه قال: "بَيْنَمَا نَحْنُ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ؛ إِذْ طَلَعَ عَلَيْنَا رَجُلٌ شَدِيدُ بَيَاضِ الثِّيَابِ، شَدِيدُ سَوَادِ الشَّعَرِ، لَا يُرَى عَلَيْهِ أَثَرُ السَّفَرِ، وَلَا يَعْرِفُهُ مِنَّا أَحَدٌ، حَتَّى جَلَسَ..."[6]، فإنَّ الجلوسَ ههنا ليس عَنِ اضطِجاعٍ قطعًا، ووردَ في حديث القبرِ قولُ النَّبيِّ ﷺ: "يَأْتِيهِ مَلَكَانِ، فَيُقْعِدَانِهِ"[7]، وهذا لَيْسَ عن قيامٍ جَزْمًا.

وثَمَّة أقوالٌ أخرَى لا حاجة إلى سَرْدِهَا في وجه التَّفرقَة بينَ الكَلِمَتَيْن، أظهرُهَا: أنَّ القعودَ: يكونُ لِمَا فيه لُبْثٌ وإقامةٌ ما، بخلافِ الجلوس؛ فيَقِلُّ زَمَنُهُ بالنِّسبةِ لِلْقعودِ، ومِنْهُ قيل: قواعدُ البيتِ، ولا يقال: جوالسُهُ[8]، وسُمِّيت الجنَّةُ: مقعد صدقٍ، دون مجلس صدقٍ؛ لأنَّ أهلها خالدُون فيها[9].

أمَّا الْجُلُوس؛ فتصريفاتُه دالَّةٌ على عدَمِ اللُّبْثِ طويلًا، ومِنْهُ قول الله تعالى: ﴿إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُواْ فِي ٱلْمَجَٰلِسِ﴾ [المجادلة: 11].

(1) ابن فارس، الصَّاحبي، ص: 60، والفيوميّ، المصباح المنير: (جلس)، والفيروزآبادي، القاموس المحيط: (قعد).
(2) البخاريّ، الحديث رقم: (5976).
(3) توجيهُ هذا القول: لاشين، صفاء الكلمة، ص: 72 - 73.
(4) مسلم، صحيح مسلم، الحديث رقم: (714).
(6) مسلم، صحيح مسلم، الحديث رقم: (8).
(7) مسلم، صحيح مسلم، الحديث رقم: (2870).
(8) الزَّبيديّ، تاج العروس: (قعد)، والدوري، دقائق الفروق اللّغويّة في البيان القرآنّي، ص: 136 - 137.
(9) الشَّايع، الفروق اللُّغوية وأثرها في تفسير القرآن، ص: 288 - 289.

﴿وَلَا تَهِنُواْ فِي ٱبۡتِغَآءِ ٱلۡقَوۡمِۖ إِن تَكُونُواْ تَأۡلَمُونَ فَإِنَّهُمۡ يَأۡلَمُونَ كَمَا تَأۡلَمُونَۖ وَتَرۡجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرۡجُونَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ١٠٤﴾ [النساء: 104]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لمَّا عُرِفَ أنَّ آيات الجهادِ في هذه السُّورةِ مُعْلِمَةٌ بالحذرِ خوفَ الضَّرر، مرشِدَةٌ إلى إتقانِ المكايدِ للتَّخلُّص مِنَ الخطرِ، وكان ذلك مَظِنَّةَ المبالغَةِ، وهو مَدعاةٌ للتَّواني في شأنِ الجهادِ، قال اللّه تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُواْ فِي ٱبۡتِغَآءِ ٱلۡقَوۡمِۖ﴾؛ منبِّهًا على الجدِّ فيهِ، حاثًّا عَلَيْه، وأنَّه لم يترك في الصَّلاةِ - وهي أعظم أركان الدِّين العمليَّةِ - فضلًا عَنْ غيرها ما يَشْغَلُ عنهُ[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تَهِنُواْ﴾: الواوُ والهاءُ والنُّونُ: كلمة تدلّ على الضّعف[2]، ومِنْهُ قولُ اللّه تعالى: ﴿حَمَلَتۡهُ أُمُّهُۥ وَهۡنًا عَلَىٰ وَهۡنٖ﴾ [لقمان: 14]، جَهْدًا على جَهْدٍ، أي: ضَعُفَت بحملها إيَّاه مرَّةً بعد مرَّة[3].

وقولُ اللّه تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُواْ فِي ٱبۡتِغَآءِ ٱلۡقَوۡمِۖ﴾، أي: ولا تَضْعُفُوا[4].

2) ﴿ٱبۡتِغَآءِ﴾: الباءُ والغَيْنُ والياءُ: أصلان، أحدهما: طلب الشَّيءِ، والآخر: جنس مِنَ الفسادِ، ومِنَ الأوَّلِ: قولُهم: بَغَيْتُ الشَّيء أبغيه، أي: إذا طَلَبْتُهُ[5].

والابتغاءُ: افتعالٌ مِنَ البَغْي، وهذه الصِّيغَةُ دالَّةٌ ههنا على الاجتهاد[6]، فقولُ اللّهِ سُبْحَانَهُ: ﴿وَلَا تَهِنُواْ فِي ٱبۡتِغَآءِ ٱلۡقَوۡمِۖ﴾، أي: في الاجتهادِ في طلَبِهم[7].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 5/385 - 386.
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصَّل: (وهن).
(3) الهرويّ، الغريبين: (وهن).
(4) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 135.
(5) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (بغي).
(6) الحملاويّ، شذا العرف، ص: 32.
(7) الرَّاغب، المفردات: (بغي).

3) ﴿تَأۡلَمُونَ﴾: الهمزة واللَّامُ والميمُ: أصل واحد، وهو الوَجَعُ[1]، ومِنْهُ الألَم، وهو الوجع[2]، أو الوجعُ الشَّديد[3]، والألم أبلغ من الوجع وأشقُّ مِنْ أشَدِّه[4].

وقولُ اللّه تعالى: ﴿فَإِنَّهُمۡ يَأۡلَمُونَ كَمَا تَأۡلَمُونَۖ﴾، أي: يَجدونَ ألم الْجراحِ وَوَجَعَها مِثْلَ مَا تَجِدُونَ[5].

4) ﴿وَتَرۡجُونَ﴾: الرَّاءُ والجيم والحرفُ المعتَلُّ: أصلان متباينان يدلُّ أحدهما: على الأمَلِ، والآخر: على ناحيةِ الشَّيءِ[6]، ومِنَ الأوَّلِ: الرَّجاءُ؛ وهو ظَنٌّ يَقْتَضِي حصولَ ما فيهِ مسَرَّةٌ[7].

وقد يُستعمَلُ الرَّجاء بمعنى: الخوف؛ إذا سَبَقَهُ نفيٌ[8]، بالنَّظَرِ إلى لازِمِه، فإنَّ الرَّاجيَ قد يخافُ عدمَ حصولِ ما يُؤَمِّلُهُ، ومِنْهُ قول اللّه ﷻ: ﴿مَّا لَكُمۡ لَا تَرۡجُونَ لِلَّهِ وَقَارٗا ١٣﴾ [نوح: 13] أي: لا تخافونَ للّه تعالى عَظَمَةً[9].

والرَّجاءُ في قولِ اللّه سُبحانه: ﴿وَتَرۡجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرۡجُونَۗ﴾ بمعنى: الأملِ، والمعنى: وَتَأْمَلُون مِن اللّه مَا لَا يَأْمَلُونَ[10].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

ولا تَضْعُفُوا، ولا تفتروا في طلب عدوِّكم مِنَ الكفَّار، إن تكونوا تتألَّمون مِمَّا ينالُكم مِنَ الجِراح في الدُّنيا مِنْهُم، فإنَّهم يتألَّمون، كما تتألَّمون، وترجون منَ اللّهِ سبحانه الأجرَ وَالثَّوابَ على ما ينالكُم مِنْهُمْ، ما لا يرجون هُمْ على ما ينالُهم مِنْكُمْ، فأَوْلَى بِكُم وأَحْرَى أن تصبِروا على حَرْبِهِم وقِتَالهم مِنْهُمْ على حَرْبِكُم وقتالكم، وكان اللّه ﷻ عَلِيمًا بجميع أحوالِكم، حكيمًا في تدبيره وأَمْرِهِ وشرعِهِ[11].

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (ألم).
(2) الجوهريّ، الصحاح: (ألم).
(3) الرَّاغب، المفردات: (ألم).
(4) عياض، مشارق الأنوار: (ألم).
(5) ابن عُزَيز، نزهة القلوب، ص: 506.
(6) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (رجى).
(7) الرَّاغب، المفردات: (رجا).
(8) الفرَّاء، معاني القرآن: 1/286، والأزهريّ، تهذيب اللّغة: (رجا).
(9) الفرَّاء، معاني القرآن: 3/188.
(10) السّمعانِّي، تفسير القرآن: 1/475.
(11) ابن جرير، جامع البيان: 9/170 — 171، وابن أبي زمَنِين، تفسير القرآن: 1/403، والسّعدي، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 199، ونخبة من العلماء، التّفسير الميسّر، ص: 95.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

سرُّ نهيهم عن الوهن وليس بأيديهم دفعه:

متعاطي السَّبب والمُتَشَبِّه بالواهن في معاملته الأعداء كلاهما مقصود بالنَّهي

فقد نهوا عن وهن القلب، وهو انهيار العزيمة وحلول الفتور، وإن كان الوهن البدنيُّ حاصلًا من إعياء وشدّة أعباء ورهق في الأعضاء، فالمراد من النَّهي توريته بغيره من الشِّدَّة في الطّلب وقوَّة العدوِّ في الملاحقة والإبلاغ في التَّشريد بهم من خلفهم، كما قال تعالى: ﴿فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي ٱلْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [الأنفال: 57].

بلاغة الاستئناف البيانيّ في قوله﴿إِن تَكُونُواْ تَأْلَمُونَ﴾ عَمَّا قَبْلَهَا:

قَرْنُ الحُكْمِ بِعِلَّتِهِ مُحَرِّضٌ عَلَى الِامْتِثَالِ

فُصِلَ قول الله تعالى: ﴿إِن تَكُونُواْ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ﴾ عَنِ الجملةِ قبلَهَا؛ لوقوعه تعليلًا لهَا[1]، فقولُ الله سبحانه: ﴿وَلَا تَهِنُواْ فِي ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ﴾، وكيفَ لا نَهنُ، وقد يصيبُنا جرَّاء السَّفر والقتال تَعَبٌ وجِراحٌ؟ فجاء الجوابُ على طريقةِ الاِسْتِئْنَاف البيانيِّ: ﴿إِن تَكُونُواْ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ﴾، فعلَّل النَّهيَ السَّابق، وفِيه تشجيعٌ لَهُم؛ لأنَّ الَّذي أصابهم مِنَ الآلام والجِراح ليس مختصًّا بِهِم، بَلْ هُو مشترك بَيْنَهُم وبينَ أَهْلِ الكُفْر[2].

دِلَالَةُ النَّهْيِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَلَا تَهِنُواْ﴾:

تَهْوِينُ الأَعْدَاءِ فِي النُّفُوسِ مُحَفِّزٌ لِأَهْلِ الإِيمَانِ عَلَى الجِهَادِ

أسلوبُ النَّهي في قول الله ﷻ: ﴿وَلَا تَهِنُواْ فِي ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ﴾ جارٍ على أصلِهِ من الدِّلالَةِ على الإلزام بالتَّرْك، ويُضافُ إلى ذلك: إرادَةُ التَّشجيعِ على قِتال الأعداء، وتهوينُ الأعداءِ في نفوس المُؤمنين، وما شُرِعَت صلاةُ الخوفِ على صفتِهَا المذكورةِ إلَّا لتحقيق نفيِ الوهنِ في الجهاد[3].

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 5/386، والقِنَّوجيّ، فتح البيان: 3/229.
(2) الآلوسّي، روح المعاني: 3/133.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 5/189.

سِرُّ الْإِضَافَةِ فِي قَوْلِهِ: ﴿ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ﴾:

حَـقَـارَةُ شَـأْنِ الْكُفَّارِ

الإضافةُ في قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُواْ فِي ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ﴾ يُرادُ به تحقيرُ المضافِ إليْهِ ﴿ٱلْقَوْمِ﴾[1]، وهذا المعنَى أنسبُ لغرضِ النَّهي عَنِ الوهَنِ في طلبِهم وقتالِهم، وأوفَقُ لمقام تشجيعِ أهل الإيمان؛ إذْ كانَ شأنُ الكُفَّارِ الَّذين يقاتلونَهم حقيرًا.

دِلَالَةُ اللَّامِ فِي ﴿ٱلْقَوْمِ﴾:

وُجُـوبُ جِـهَـادِ الْكُفَّارِ الْمُحَارِبِينَ

اللَّام في ﴿ٱلْقَوْمِ﴾ من قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُواْ فِي ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ﴾ لِلْعَهْدِ العلميِّ، والمرادُ: قومٌ مَخْصُوصُونَ، وهُمُ الكُفَّار المحاربُونَ، بقرينَةِ سياق الآيةِ ضِمْنَ آيات الجهادِ، وبقرينَةِ ما بَعْدَهُ مِن تتمَّةِ هذه الآيةِ.

سِرُّ التَّعْبِيرِ بِـ ﴿إِن﴾ فِي جَانِبِ الْمُؤْمِنِينَ، وَبِالتَّأْكِيدِ فِي جَانِبِ الْكُفَّارِ:

الـتَّـفَـاؤُلُ فِي مَوَاطِنِ الْخَوْفِ تربية قُرْآنِيَّةٌ

عُبِّر في جانب أهل الإيمان بحرفِ الشَّرط ﴿إِن﴾، فقال سبحانه: ﴿إِن تَكُونُواْ تَأْلَمُونَ﴾، وهي في الأصلِ موضوعةٌ للشَّكِّ في وقوعِ مدخولِهَا، وذلك أنَّ إصابةَ المؤمن بالجراح في القتالِ غيرُ متحقِّقٍ، فقد يسلَمُ، فلا يُصاب بشيءٍ، وإن كان النَّظَرُ إلى مجموعِ المؤمنينَ، فتصوُّرُ عدمِ إصابَةِ أحدٍ قد تكون ممتنعةً، فجاء التَّعبير بـ ﴿إِن﴾ تفاؤُلًا بسلامَتِهم، أو بيانًا لقلَّةِ ما يُصيبُهم مِنَ الآلَامِ في جانبِ الأحوال الَّتي يسلَمُونَ فيها، كما ذَكَرَ أهلُ العلم، نظيرَ ذلك في قول الله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَٰذِهِۦ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ﴾[2] [الأعراف: 131].

عَـدَمُ رَجَـاءِ مَا عِنْدَ اللهِ تَعَالَى يُضَاعِفُ الْآلَامَ

وأكَّد ذلكَ في جانب الكُفَّار، فقال سبحانه: ﴿فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ﴾؛ تحقيقًا لِتَمَحُّضِ ألَمِهم وشدَّةِ وَقْعِه عليهم؛ إذْ لَيْسَ عندَهُم مِن رجاءِ مَا عند الله تعالى ما يُخفِّفُ تلك الآلامَ، ويَحْمِلُهم على تحمُّلها.

(1) البنَّاني، سورة النِّساء: دراسة بلاغيَّة تحليليَّة، ص: 89.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/64 - 65.

وجملة ﴿فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ﴾ سِيقَت مسَاقَ التَّعليل لِلنَّهي عَنِ الوهنِ لأجل الألَم[1].

بَلَاغَةُ ذِكْرِ الْمُسْنَدِ ﴿يَأْلَمُونَ﴾:

وُجُوبُ صَبْرِ أَهْلِ الْإِسْـــلَامِ عَـلَى الْحَقِّ

ذُكر المسنَدُ ﴿يَأْلَمُونَ﴾، وكان يُمكن أن يُقَالَ: (فإنَّهم كذلك) - مثلًا - لكن أُعيدَ ذكرُهُ لَمْحَظٍ بلاغيٍّ لا يَتأَتَّى الاستغناء عَنْهُ، وهو إرادَةُ التَّقرير والإيضاح[2]، وأنَّ الآلامَ الَّتي أصابت المُسْلِمين قَد أصابَ الكُفَّارَ مثلهَا، فإذا صَبَرُوا وهُم علَى الباطِلِ فأحرى بالمُسْلِمين أن يَصْبِرُوا، وهُم عَلَى الحقِّ.

نُكْتَةُ اخْتِيَارِ الِاسْمِ الْأَحْسَنِ (الله):

الـرَّجَـاءُ يَعْظُمُ بِحَسَبِ عَظَمَةِ الْمَرْجُوِّ مِنْهُ

اختِير الاسم الأحسن (اللّه) في قول اللّه تعالى: ﴿وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾؛ لِمَا في هذا الاسم الكريم مِن دِلالتِهِ على صِفات الجلال والجمال والكمال؛ إذْ جميعُ الأسماء الحسنى والصِّفات العُلا تَرجع إليه[3]، فَهُمْ يَرْجُونَ مِنَ الَّذي لَه تِلْكَ العظَمَة والجلال، فرجَاؤُهُم به عظيمٌ؛ إذْ قَدْرُ الرَّجاء يعظُمُ بحسَبِ عَظَمَةِ المَرْجُوِّ مِنْهُ.

سِرُّ حَذْفِ مُتَعَلَّقِ الْفِعْلِ ﴿وَتَرْجُونَ﴾:

حَـذْفُ الْمَفعولِ مُـشْـعِـرٌ هنا بِالْعُمُومِ

حُذف متعلَّقُ الفعل ﴿وَتَرْجُونَ﴾ مِن قول اللّه تعالى: ﴿وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾؛ لإفادَةِ عُمومِ ما يُرْجَى منهُ سُبحانَهُ؛ لأنَّ حذف المتعلَّق مؤذِنٌ بالعمومِ والشُّمولِ، إلَّا أنَّ هذا العمومَ عُرْفِيٌّ مناسبٌ لِلْمَقام؛ لأنَّ مِمَّا يَرجوه العبدُ من ربِّه سُبحانه غفرانَ ذنوبِ وَالدَيْهِ، وصلاحَ ذرِّيَّتِهِ، ونحوَ ذلك، وهذه غيرُ مرادَةٍ ههُنَا؛ لعدم ملاءمَةِ المقامِ لهَا، وإنَّما المرادُ عُمومُ ما يُرجَى، ويُطلب مِنْهُ ﷻ مِنَ

(1) الآلوسّي، روح المعاني: 3/133.

(2) البنَّاني، سورة النِّساء: دراسة بلاغيَّة تحليليَّة، ص: 256.

(3) أشار إِلَيْهِ البقاعيُّ في نظم الدّرر: 5/386.

النَّصر والظَّفر على الأعداء، ورفعةِ الدِّين وقُوَّتِه، والأجرِ والثَّواب في الآخرةِ، ونحوِ ذلك.

بَلَاغَةُ الطِّبَاقِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَۗ﴾:

بَيْنَ ﴿وَتَرْجُونَ﴾ و﴿لَا يَرْجُونَۗ﴾ مِن قول الله ﷻ: ﴿وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَۗ﴾ طباقٌ، وهو طباقُ سَلْبٍ؛ لكَوْنِ المعنيَيْنِ المتضادَّين من لفظٍ واحدٍ، أُثْبِتَ أحدهما ونُفِيَ الآخَرُ.

ومجيءُ أحدِ لفظَي الرَّجاءِ مثبتًا في حقِّ المؤمنين، والآخرِ منفيًّا في حقِّ الكافرينَ "يكونُ وَعْدًا لِلْمُسْلمين بأَنَّ الله ناصرُهم، وبِشارة بأنَّ المشركين لا يرجون لأنفسِهم نصرًا، وأنَّهم آيسون مِنْهُ بما قذف اللهُ في قلوبهم مِنَ الرُّعب، وهذا ممَّا يَفُتُّ في ساعدهم"[1]، فللطِّباقِ أثرٌ عظيمٌ في الحثِّ على الثَّباتِ ورجاءِ النَّصْرِ والظَّفَرِ[2].

وَعْدُ اللهِ تَعَالَى لِلْمُؤْمِنِينَ بِالنَّصْرِ وَتَيْئِيسُهُ الْكُفَّارَ مِنْهُ

نُكْتَةُ الْإِظْهَارِ فِي مَقَامِ الْإِضْمَارِ:

أُظْهِر الاسمُ الأحسن (الله) في قَوْلِه سُبحَانَهُ: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾، وكان مقتضى الظَّاهر إضماره؛ لتقدُّم ذكرِه في قوله ﷻ: ﴿وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَۗ﴾، والنُّكْتَةُ في ذلكَ: إدخالُ المهابَةِ بِذِكْرِ الاسْمِ الجليلِ المتضمِّنِ لصفاتِ الجلال والجمال، ولِلْإِشْعَار بعلَّةِ الحُكْم؛ لأنَّ الألوهيَّةَ مَنْشَأٌ لاتِّصافه سبحانَهُ بصفات الكمالِ.

جَمْعُ الِاسْمِ الْأَحْسَنِ (اللهِ) لِصِفَاتِ الْكَمَالِ وَالْجَلَالِ وَالْجَمَالِ

بَلَاغَةُ الْإِطْنَابِ بِالتَّذْيِيلِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾:

قولُ الله سبحانه: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ تذييلٌ جارٍ مجرى المثَلِ، وذلك لاستقلالِهِ بالإفادَةِ من غير أن يتوقَّفَ فَهْمُ معناهُ على ما قبلَهُ، وفائدتُهُ: تَقريرُ عِلْمِ الله تعالى وحكمتِه.

و﴿وَكَانَ﴾ في الآيةِ جيءَ بها للدِّلالَةِ على تحقُّقِ عِلْمِهِ وحكمتِهِ ودوامِهِمَا.

تَقْرِيرُ سَعَةِ عِلْمِ اللهِ تَعَالَى وَعَظِيمِ حِكْمَتِهِ وَدَوَامِهِمَا

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 5/190.

(2) البنَّاني، سورة النِّساء: دراسة بلاغيَّة تحليليَّة، ص: 474.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الْوَهَنُ وَالضَّعْفُ:

الفرقُ بينَهُما مِن وجوه:

أحدها: أنَّ الْوَهَنَ أخصُّ مِنَ الضَّعْفِ، من جِهَة: أنَّ الوَهَنَ أَشَدُّ الضَّعْفِ[1].

الثَّاني[2]: أنَّ الضَّعفَ ضدُّ القُوَّةِ، وهُوَ ذاتِيٌّ جُبِلَ الضَّعِيفُ عليهِ، يقال: خلقَ اللّٰهُ تعالى فلانًا ضعيفًا، أي: أنَّه طُبِعَ على الضَّعْفِ، كما قال اللّٰه سبحانه: ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ۝٢٨﴾ [النساء: 28]، بخلاف الوَهَنِ؛ فهو أن يفعلَ المَرْءُ فِعْلَ الضُّعَفاءِ، ومنه قول اللّٰه ﷻ: ﴿وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ﴾ [آل عمران: 139]؛ أي: لا تفعلوا فعلَ الضُّعفاءِ، والحالُ أنَّكم أقوياءُ.

فالضَّعِيفُ: فِيهِ ضَعْفٌ مِن أصل الجِبِلَّةِ، والواهِنُ: مَن فَعَلَ فِعْلَ الضُّعفاءِ؛ لنقصٍ في إيمانِهِ أو عزيمَتِهِ.

وفرَّق جماعةٌ مِنْ أهلِ العلم بينَهما: بأنَّ الوهَنَ انكسارُ الجسَدِ ونحوِهِ، بخلاف الضَّعْفِ؛ فهو نقصانُ القوَّةِ[3]، والأوَّلُ أشهرُ.

الْأَلَمُ وَالْوَجَعُ:

بين اللَّفظتين عمومٌ وخصوصٌ مطلَقٌ: وذلك أنَّ الألَمَ أخصُّ مِنَ الوجعِ، فالألَمُ هو الوَجَعُ الشَّديدُ[4].

---

(1) النَّحَّاس، معاني القرآن: 1/491.

(2) العسكريّ، الفروق اللُّغويّة، ص: 115، والرَّاغب، المفردات: (وهن)، وزيدان، الفروق اللُّغويَّة في القرآن الكريم، ص: 680 - 683.

(3) الجصَّاص، أحكام القرآن: 2/326.

(4) الرَّاغب، المفردات: (ألم).

﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِتَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُۚ وَلَا تَكُن لِّلۡخَآئِنِينَ خَصِيمٗا ١٠٥﴾ [النساء: 105]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

في مُناسبة هذه الآية لما قبلها أَوْجُهٌ[1]:

أَوَّلُهَا: أنَّ اللّه ﷻ لَمَّا بيَّن أحوال المنافقين على سبيل الاستقصاء، ثُمَّ اتَّصل بذلك أمر القِتال، وذِكر ما يتعلَّق به من أحكامٍ شرعيَّةٍ، بحكمِ قتل المسلمِ خطأً على ظنِّهِ كافرًا، وبيانِ صلاة السَّفر والخوفِ؛ رجعَ الكلام بعدُ إلى بيانِ أحوال المنافقين، وبيانِ أنَّهم كانوا يحاولُون حملَ النَّبيِّ ﷺ على أن يحكمَ بالباطلِ ويترك الحكمَ الحقَّ، فأطلعَ اللّه ﷻ رسولَه ﷺ على ذلك، وأمرَهُ ألَّا يلتفتَ إِلَيْهِمْ، ولا يقبلَ مقالتَهم في ذا البابِ.

ثانيهَا: أنَّ اللّه سبحانه لَمَّا بيَّنَ الأحكامَ الكثيرة في هذه السُّورة؛ بيَّنَ أنَّ ذلك شرعٌ مُنْزَلٌ من اللّه تعالى، وأنْ ليسَ للنَّبيِّ ﷺ أن يَحِيدَ عن شيءٍ مِن تلك الأحكام طلبًا لرضَا أحدٍ.

والقرآن الكريم وما يراه رسول اللّه ﷺ هما الحكمان المحكِّمان على كلِّ أحد، وأنَّ أحدًا مهما بلغ كفره وضلاله، لا ظلم عليه في شريعة اللّه، وأنَّ النَّبيَّ صلّى اللّه عليه وآله وسلَّم معصوم عن كلِّ ما ينافي الخُلق العظيم الَّذي مدحه اللّه به، وجبله عليه.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿لِتَحۡكُمَ﴾: الحاءُ والكافُ والميم: تدلُّ اشتقاقاتُها على المَنْعِ[2]، وقيَّده الرَّاغبُ بكونِهِ مَنْعًا للإصلاحِ[3].

ومِن هذا الباب قولُ جريرٍ:

أَبَنِي حَنِيفَةَ أَحْكِمُوا سُفَهَاءَكُمْ *** إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمُ أَنْ أَغْضَبَا[4]

(1) الرَّازي، مفاتيح الغيب: 11/211.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (حكم).
(3) الرَّاغب، المفردات: (حكم).
(4) ديوان جرير: (ص: 47).

فإنَّ معناه: امْنَعُوهُم مِنَ التَّعَرُّض لي[1].

ومِنْهُ حَكَمَةُ الدَّابَّةِ؛ لأنَّها تَمْنَعُهَا من مخالفة الرَّاكب[2].

والحُكم في قول اللّه تعالى: ﴿لِتَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ﴾ بمعنى: القضاء[3]، وسُمِّي القضاءُ حكمًا؛ لأنَّ فِيه منع الظَّالِمِ من الظُّلْم[4].

2) ﴿لِّلۡخَآئِنِينَ﴾: الخاء والواو والنُّون: تدُور تصاريفُهَا على التَّنقُّص[5]، وقيَّدَهُ بعض أهل العلم بأنَّه نقصٌ خطيرٌ في خِفْيَة أو لُطْفٍ[6].

والخيانَةُ: أن يُؤْتَمَنَ المَرْءُ، فَلَا يَنْصَح[7]، وسُمِّيت بذلك؛ لأنَّه ينقص ما اؤتُمِنَ عَلَيْهِ فلا يُؤدِّيه كما كان عَلَيْهِ[8]، فالخيانَةُ: نَقْصُ الوفاء[9].

والخائِنُون في قول اللّه تعالى: ﴿وَلَا تَكُن لِّلۡخَآئِنِينَ خَصِيمٗا﴾ هم تاركُو الأمَانَةِ[10].

3) ﴿خَصِيمٗا﴾: الخاء والصَّادُ والميم: أصلان، أحدهما: المنازعة، والثاني: جانب وعاء[11]، والخصيمُ: بمعنى: المخاصِم، كجَلِيسٍ بمعنى: المجالِس، والعَشِير بمعنى: المُعاشِر[12].

والخَصِيم في قول اللّه تعالى: ﴿وَلَا تَكُن لِّلۡخَآئِنِينَ خَصِيمٗا﴾، معناه: لا تكن لَهُمْ مُعِينًا، وعنهم مُدَافِعًا[13].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

إنَّا أنزلنا إليك - أيُّها الرَّسولُ الكريم - القرآنَ مشتملًا على الحقِّ؛ لِتَقْضِيَ بين النَّاس، فتفصِلَ بينهم بما أوحى اللّه تعالى إِلَيْكَ، وبصَّرك به، فلا تخاصِم عمَّنْ عرفتَ

(1) القاسم بن سلاَّم، غريب الحديث: (حكم).
(2) ابن الأثير، النِّهاية: (حكم).
(3) ابن جرير، جامع البيان: 9/175، وابن الجوزيّ، زاد المسير: 1/466.
(4) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة: (حكم).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (خون).
(6) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصَّل: (خون).
(7) ابن سِيده، المخصّص: 1/286.
(8) عياض، مشارق الأنوار: (خون).
(9) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (خون).
(10) ابن الجوزيّ، نزهة الأعين النَّواظر، ص: 282.
(11) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (خصم).
(12) ابن منظور، لسان العرب: (خصم).
(13) البغويّ، معالم التَّنزيل: 2/284.

خيانتَهُ، من مُدَّعٍ ما ليس له، أو منكرٍ حقًّا عليه، ولا تدافِعْ عَنْهُمْ بما أيَّدوه لك مِنَ القولِ المُخالف لِلْوَاقعِ[1].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

نُكْتَةُ التَّعْبِيرِ بِأُسْلُوبِ الْعَظَمَةِ:

عَظَمَةُ اللهِ ﷻ وَعَظَمَةُ كِتَابِهِ

أُورِدَ المسنَدُ إِلَيْهِ ضميرًا دالًّا على العظمة (نَا) في قول الله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ﴾ بيانًا لعظمةِ المُنْزِلِ ﷻ عظمَةً تتقاصرُ دونَها كلُّ عظمةٍ[2]، وإيماءً إلى عظمَةِ المُنْزَلِ، وهو القرآن الكريم، وفيه إشعارٌ بجلالة ما يُذكَرُ بعدَهُ وأهميَّته.

سِرُّ تَقْدِيمِ الْجَارِّ وَالْمَجْرُورِ فِي قَوْلِهِ: ﴿أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ﴾:

مِنْ صُوَرِ تَشْرِيفِ النَّبِيِّ ﷺ إِنْزَالُ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ عَلَيْهِ

قُدِّمَ الجارُّ والمجرور ﴿إِلَيۡكَ﴾ في قول الله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ﴾؛ لإفادَةِ القَصرِ والاختصاصِ، أي: أنزلْنَا الكتابَ إِلَيْكَ خاصَّةً[3]، وفيهِ معنَى التَّشريفِ للنَّبيِّ ﷺ حيث أنزلَ اللهُ العظيمُ هذا الكتابَ العظيمَ إِلَيْهِ وحدَهُ؛ ليكون مبلِّغًا لَهُ عَنِ الله تعالى.

وفيه تنويه بما جعله أهلًا لذلك، من اختصاص الله إيَّاه بالعصمة والكمال، وفيه: أنَّ هذا الكلام توطئة وتهيئة لإنزال العالمين على حكمه، ويتبيَّن المراد من (حكمه المذكور) أنَّه (سُنَّته الشَّريفة) بالجمع بين الآيتين: ﴿أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِتَحۡكُمَ﴾، مع ﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلذِّكۡرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ﴾، فينتج من ذلك أنَّ بيانه حُكم، وبيانه السُّنَّة حكم.

تَوْجِيهُ الْمُتَشَابِهِ اللَّفْظِيِّ بَيْنَ ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ﴾ وَ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ﴾:

يُعَدَّى فعلُ إنزالِ القرآنِ الكريم؛ إذا كان الخطابُ لرَسُول الله

(1) ابن جرير، جامع البيان: 9/175 - 176، والسّعدي، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 199، ونخبة من العلماء، التّفسير الميسّر، ص: 95.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 5/387.

(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 5/387.

بَلَاغَةُ النَّظْمِ الْقُرْآنِيِّ فِي اخْتِيَارِ الْحُرُوفِ لِإِفَادَةِ دَقَائِقِ الْمَعَانِي

ﷺ بـ (إلى) تارةً، وبـ (على) تارةً أخرى: فالأوَّلُ كآية النِّساء: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ﴾، والآخرُ: كقول الله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلۡحَقِّۖ فَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ فَلِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيۡهَاۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِوَكِيلٖ ٤١﴾ [الزمر: 41]، وفي الفرقِ بينَهُما وجهان:

أحدهما: أنَّه حيثُ قُصِدَ تعميمُهُ وتبليغُهُ وانتهاؤُهُ إلى عموم الأمَّةِ؛ قال: ﴿إِلَيۡكَ﴾، وحيث قُصد تشريفُ النَّبيِّ ﷺ وتخصيصُهُ به؛ قال: ﴿عَلَيۡكَ﴾، "وذلك لأنَّ (على) مُشْعِرٌ بالعُلُوِّ، فناسب أوَّلَ مَن جاءَهُ مِنَ العُلُوِّ، وهُوَ النَّبيُّ ﷺ و(إلى) مُشْعِرَةٌ بالنِّهاية، فناسَبَ ما قُصِدَ به هُو وأمَّتُه؛ لأنَّ (إلى) لا تختَصُّ بجهة معيَّنة، ووصوله إلى الأمَّة كذلك لا يختَصُّ بجِهَةٍ مُعَيَّنة"[1].

والآخَرُ: أَنَّ كُلَّ مَوضِع خَاطب اللهُ تعالى نبيَّه ﷺ بقوله: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ﴾؛ ففيه تكليفٌ، وإذا جاء الخطاب بـ ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ﴾؛ ففيه تخفيفٌ[2].

دِلَالَةُ اللَّامِ فِي: (الكِتَبَ):

لَا مُنْتَهَى لِعَظَمَةِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ

اللَّامُ في ﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾ مِن قول الله سبحانه: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ﴾ لِلْكَمالِ، أي: أنزلنا الكتابَ الكاملَ الجامع لكلِّ خَيْرٍ[3].

وفي التَّعبير بـ ﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾ هَهنا دون (القرآن): إشعارٌ بأنَّه مكتوبٌ مدوَّنٌ مسجَّلٌ، وأنَّهُ باقٍ إلى يوم القيامةِ[4].

دِلَالَةُ الْبَاءِ فِي: ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾:

وَفْرَةُ الدِّلَالَةِ بِتَعَدُّدِ مَعَانِي الْحَرْفِ

الباءُ في ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾ من قول الله ﷻ: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ﴾ للملابسَةِ والاتِّصال والمعيَّةِ، وفيه إشعارٌ بأنَّ القرآن الكريم

(1) ابن جماعة، كشف المعاني، ص: 313.
(2) الكرمانّي، البرهان، ص: 217.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 5/387.
(4) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 4/1839.

"مع الحقِّ، وبالحقِّ، وناطقٌ بالحقِّ، ومشتملٌ عَلَيْهِ، ولا شيءَ في هذا الكتابِ إلَّا ما هو حقٌّ، ولا يخالفه إلَّا ما هو باطل"[1].

دِلَالَةُ اللَّامِ فِي ﴿ٱلنَّاسِ﴾:

عُـمُـومُ دَعْـوَةِ النَّبِيِّ ﷺ

اللَّامُ في ﴿ٱلنَّاسِ﴾ من قول الله ﷻ: ﴿لِتَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ﴾ لِاسْتِغْرَاقِ الجِنْسِ، فتشمَلُ جميعَ النَّاسِ؛ لأنَّ دعوةَ النَّبيِّ ﷺ تَعُمُّهُمْ، كما قال اللهُ سُبْحَانَهُ: ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: 158].

بَلَاغَةُ الِاسْتِعَارَةِ فِي قَوْلِهِ: ﴿بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُۚ﴾:

حَقيقةُ الرُّؤيةِ أن تكون بصريَّةً، وهي في قولِه سبحانه: ﴿بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُۚ﴾ عِرفانيَّةٌ؛ فأُطْلِقَت الرُّؤيةُ على العِرفان الْيَقينيِّ؛ لمشابهتِهِ الشَّيءَ المشاهدَ بالبصَرِ[2]، بجامع أنَّ كُلًّا مِنْهُمَا مُدْرَكٌ على وجهِ الجزمِ واليقين، فهو استعارةٌ تصريحيَّةٌ تبعيَّةٌ، ونكتةُ إيرادِ العبارة على وَجْهِ الِاسْتِعَارة: الإيماءُ إلى أنَّ الأصلَ في القضاءِ بين النَّاسِ أن يكُونَ بما يُتَيَقَّنُ، وفِيهِ إيماءٌ إلى أنَّ القضاءَ العادلَ مُفتقِرٌ إلى أمرين: أحدهما: الحقُّ المحكومُ به - وهو هُنا: القرآن الكريمُ - والآخرُ: بصيرةُ القاضِي النَّافذَةُ[3].

بَلَاغَةُ الِالْتِفَاتِ فِي قَوْلِهِ: ﴿بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُۚ﴾:

جَـلَادَلَـةُ الْحُـكْـمِ الـصَّـادِرِ مِـنَ النَّبِيِّ ﷺ

جاءَ التَّعبير بأسلوب الغَيْبَةِ في قوله تعالى: ﴿بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُۚ﴾ - إذ الاسم الظَّاهرُ في حكم الغائب - بعد التَّعبير بأسلوب التَّكلُّم في قوله سبحانه: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ﴾، وكان مقتضى الظَّاهر: (إنَّا أنزلنا إليك الكتاب بالحقِّ لتحكم بين النَّاس بما أَرَيْنَاكَ)، وفي هذا الالتفاتِ نكات[4]:

(1) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 4/1839.
(2) الرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 11/211 - 212، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 5/192.
(3) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 4/1839.
(4) البنَّاني، سورة النِّساء: دراسة بلاغيَّة تحليليَّة، ص: 100 - 101.

إحداها: تعظيمُ الحكم الَّذي يحكم به النَّبيُّ ﷺ إذ إنَّهُ من جهةِ اللّه العظيمِ المتَّصفِ بصفاتِ الجلال والكمال.

عَدَمُ التَّقَدُّمِ بَيْنَ يَدَيْ حُكْمِ اللهِ تَعَالَى

ثانيهَا: إيماءٌ إلى وجوب انتظار الوحي؛ لأنَّ مِن شأنِ الخصومِ إخفاءَ الحقوقِ وجحدَهَا، فيقضي القاضي بظاهرِ الحالِ، وقد يكونُ حكمُهُ خطأً في واقع الأمر - وإن كان معذورًا شرعًا - فعصَمَ اللّه تعالى نبيَّهُ ﷺ عن الزَّلَلِ في مثل هذا بقوله: ﴿بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُۚ﴾.

عَدَمُ الِاغْتِرَارِ بِظَوَاهِرِ الْحَالِ وَاللُّجُوءِ إِلَى اللهِ تَعَالَى عِنْدَ غُمُوضِهِ

ثَالثُها: إرشاد الأمَّةِ إلى الصَّبْرِ والتَّثبُّتِ وعدم الاغترار بظاهر الحالِ، إلَّا عند التّعذُّرِ؛ فالحكم بالظَّاهرِ مُتعيِّنٌ.

رابعُهَا: تعليمُ الأمَّةِ اللُّجوءَ إلى اللّه سبحانه عند غُمُوضِ الأمرِ، والتَّوكُّل عليه ﷻ إذ هو العليمُ الخبيرُ الَّذي لا تخفى عليه خافيةٌ.

دِلَالَةُ الْخِطَابِ وَالنَّهْيِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَلَا تَكُن﴾:

صِحَّةُ تَوْجِيهِ النَّهْيِ لِمَنْ لَا تُتَصَوَّرُ مِنْهُ الْمُخَالَفَةُ

الخطابُ ههنا للنَّبيِّ ﷺ والمرادُ أُمَّتُهُ؛ لأنَّه لا يُتوقَّع مِنْهُ ﷺ خصامٌ عَنِ الخائِنِين[1].

ويحتَمِلُ أن يكون الخطابُ خارجًا عَن أصله في إرادةِ معيَّنٍ؛ لإفادةِ العموم، فيكون الخطابُ لكلِّ من يتأتَّى خطابُهُ على سبيلِ البَدَلِيَّة، وتكون دلالةُ النَّهي مفرَّعةً على وجهين؛ لأنَّ القول بِعُمُوم الخطاب يُدْخِلُ النَّبيَّ ﷺ فتختلِفُ دِلالةُ النَّهي؛ إذا وُجِّهَ إِلَيْهِ عَن دِلَالتِهِ؛ إذا وُجِّه إلى الأمَّة.

فإذا أُريدَتِ الأمَّةُ؛ فالنَّهيُ باقٍ على أصلِهِ في الدِّلالةِ على الإلزام بالتَّرْكِ، وقَد ينضمُّ إلى ذلك معنى النُّصح والإرشادِ.

وإذا أُريدَ النَّبيُّ ﷺ فالنَّهيُ لِلْإلهاب والتَّهييج، ويُراد بهِمَا: كلُّ كَلامٍ دالٍّ على الحثِّ على الفِعْلِ لِمَنْ لا يُتصوَّر مِنْهُ تَركُهُ، وعلى تَرْكِ

(1) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 5/377، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 5/193.

الفعلِ لِمَنْ لا يُتصوَّر مِنْهُ فعلهُ، ولكن يَكُونُ صُدُورُ الأمرِ والنَّهي على جهةِ الإلهاب والتَّهييجِ له على الفِعْلِ والتَّرك فحسْبُ[1].

تَوْجِيهُ المُتَشَابِهِ اللَّفْظِيِّ:

التَّنَاسُبُ السِّيَاقِيُّ أَصْلٌ فِي تَوْجِيهِ عِلَلِ الاِخْتِيَارِ

جاءَت هذه الآيةُ الكريمَةُ: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِتَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُۚ﴾، وجاء في سورة الزُّمر قولُ اللّه سُبحانه: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ ٢﴾ [الزُّمر: 2]، ووجهُ المغايرةِ بينهما بعدُ ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ﴾: أنَّ آية النِّساء تتعلَّق بما كان مِنَ المُسْلِمين حين سألوا النَّبيّ ﷺ أن يُبَرِّئَ طُعمةَ بن أُبَيْرِق مِن تُهمة السَّرقة على مَن خاصمَهُ مِن اليهودِ، فلمَّا كان ذلك حكمًا بما رأَوْهُ دونَ ما يعلَمُهُ اللّه تعالى؛ ناسبَهُ قوله: ﴿لِتَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُۚ﴾، بخلاف آية الزُّمَر؛ فتقدَّمها قول اللّه ﷻ: ﴿تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ ١﴾ [الزّمر: 1]، وهي دالَّةٌ على انفرادِ اللّه سبحانه بكمال العزَّة والحكمةِ، ولمَّا كان انفرادُهُ بذلك يستلزِمُ انفرادَهُ بالعبوديَّةِ وعدمِ الشِّرك به؛ ناسبه قولُه بعدُ: ﴿فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ ٢﴾.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الْخِيَانَةُ وَالْخِدَاعُ:

الفرقُ بينهما من ثلاثةِ أوجُه:

أحدهَا: أنَّ أصل الخيانة في اللُّغةِ: النَّقْصُ[2]، وأصلَ الخداع: إخفاءُ الشَّيءِ أو الفسادُ[3].

ثانيها: أنَّ الخيانَة أخصُّ مِنَ الخداعِ مطلقًا؛ لأنَّ الخيانَةَ خداعٌ في مقام الائتمانِ، والخداعُ أَعَمُّ[4].

(1) العلويّ، الطِّراز: 3/93.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (خون).
(3) الأزهري، تهذيب اللُّغة: (خدع).
(4) ابن عثيمين، شرح العقيدة الواسطيَّة: 1/143.

ثالثُها: أنَّ الخيانَة صفةُ سوءٍ حيثُما كانت؛ لأنَّها - كما تقدَّم آنفًا - خداعٌ في مقام الائتمان، بخلاف الخداعِ؛ فيكون صفةَ نقصٍ وسوءٍ، ويكون صفةَ كمالٍ، كما في قوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ﴾ [النِّساء: 142]، ولم يَرِدْ وصفُ الله ﷻ بالخيانَةِ ولو في مقام المقابلَةِ كما في قوله سبحانه: ﴿وَإِن يُرِيدُواْ خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُواْ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ﴾ [الأنفال: 71]، ولم يقل: خانوا اللّه مِن قبل، فخانَهُمْ؛ لأنَّ الخيانَةَ نقصٌ كيفما كانت، فلا يليقُ وصفُ اللّهِ سُبحانَهُ بها[1].

(1) ابن عثيمين، شرح العقيدة الواسطيَّة: 1/143.

﴿وَٱسۡتَغۡفِرِ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ١٠٦﴾ [النساء: 106]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لمَّا نهى اللهُ رسولَه ﷺ والمؤمنينَ عن الدِّفاعِ عمَّن عُرِفَتْ خيانتُه، والمخاصمةِ من أجلِه؛ بيَّنَ أن أيَّ ميلٍ للخائنين بمنزلةِ الذَّنبِ الَّذي ينبغي الاستغفارُ منه، وأيضًا لمَّا نهى اللهُ تعالى عن إلحاقِ الحَيفِ بالكافر لأجلِ كفرِه، أو لإرضاءِ طرفٍ آخرَ ينتسبُ إلى الإسلامِ؛ بيَّن أنَّ هذا الفعلَ ممَّا ينبغي أنْ يُستغفرَ اللهُ منهُ.

الدِّفاع عمَّن عُرِفَت خيانتُه بمنزلة الذَّنبِ

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَٱسۡتَغۡفِرِ﴾: يدورُ معنى (غفرَ) على تغطيةٍ أو سَتْرٍ يُقصدُ به الحمايةُ وما إليها، والغَفرُ: إلباسُ الشَّيءِ ما يصونُه عنِ الدَّنسِ حمايةً له، وكلُّ شيءٍ سترتَه؛ فقدْ غفرتَهُ، والاستغفارُ: طلبُ ذلك بالمقالِ والفعال، وغفرانُ اللَّهِ الذُّنوبَ: تغطيتُها وسترُها، بأنْ يصونَ العبدَ من أنْ يمسَّه العذابُ[1]، ومعنى ﴿وَٱسۡتَغۡفِرِ ٱللَّهَۖ﴾ في الآية: استغفرِ اللهَ للمذنبينَ من أمَّتِك والمتخاصمينَ في الباطلِ، لا أن تكونَ ذا جدالٍ عنهُم، أو واستغفرِ اللهَ ممَّا هممتَ به، أو أنْ تكونَ صورةُ الخطابِ للرَّسولِ، والمرادُ كلُّ مؤمنٍ يدافعُ عنِ الخائنينَ[2].

2) ﴿غَفُورٗا﴾: من صيغِ مبالغةِ اسمِ الفاعل، على زِنةِ (فَعُول)، مأخوذٌ من الفعلِ (يَغفِر)، والغَفُور: هو الكثير السَّترِ للذُّنوبِ وإنْ كَثُرَتْ وعَظُمَتْ بأنْ يصونَ العبدَ مِنْ أنْ يمسَّهُ العذابُ إلَّا الشِّركَ باللهِ[3].

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (غفر).
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/110، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/57، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 2/95.
(3) الراغب، المفردات، الفيومي، المصباح المنير: (غفر).

3) ﴿رَّحِيمًا﴾: صيغةُ مبالغةٍ من الفعل (يرحمُ)، ويمكنُ أن يُطلقَ على غيرِه تعالى، وأصلُ الرَّحمةِ: الرِّقَّةُ وَالعَطْفُ وَالرَّأْفَةُ، يُقَالُ: رَحِمَهُ يَرْحَمُهُ؛ إِذَا رَقَّ لَهُ، وَتَعَطَّفَ عَلَيْهِ، وَالرَّحِمُ: عَلَاقَةُ القَرَابَةِ، وتراحَمَ القومُ: رَحِمَ بعضُهم بعضًا، والرَّحْمَةُ رِقَّةٌ تقتضي الإحسانَ إلى المَرْحُوم، وإذا وُصفَ به البارِي؛ فليسَ يرادُ بهِ إلَّا الإحسانُ المجرَّدُ دونَ الرِّقَّةِ، فالرَّحمةُ من اللهِ إنعامٌ وإفضالٌ، ومن الآدميِّينَ رِقَّةٌ وتعطُّفٌ[1]، ومعنى الرَّحيم في الآية: المبالِغُ في رحمته لمنِ استغفرَه[2].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

وظيفةُ القاضي أنْ يسمعَ من المتخاصِمَينِ ويقضي بنحوِ ما يسمعُ

استغفرْ للمذنبينَ من أمَّتِكَ والمتخاصمينَ في الباطلِ، لا أنْ تكونَ ذا جدالٍ عنهم، فمحلُّكَ من النَّاسِ أنْ تسمعَ من المتداعيينَ: وتقضي بنحوِ ما تسمع، وتستغفرُ للمذنبِ، أو المعنى: واستغفرِ اللهَ ممَّا هممتَ به من القضاءِ ببراءةِ مَنْ ليسَ ببريءٍ لظاهرِ الحالِ؛ لأنَّ اللهَ غفورٌ رحيمٌ، يغفرُ ذنوبَ التَّائبين ويرحمُهم[3].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالة الهمزة والسِّين والتَّاء في قولِه: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرِ ٱللَّهَۖ﴾:

حروف الزِّيادة بين معنى السُّؤال ومعنى الطَّلب

قولُه تعالى: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرِ ٱللَّهَۖ﴾ تَعبيرٌ فريدٌ لم يَردْ على هذه الصُّورةِ إلَّا في هذا المَوضعِ منَ القُرآن الكريم، وتدلُّ أحرفُ الزِّيادةِ هنا على سؤالِ المغفرةِ من اللهِ أو طلبِها، فإذا كان المعنى: واستغفرِ اللهَ للمذنبينَ من أمَّتك؛ فتكونُ أحرفُ الزِّيادةِ على معنى سؤالِ المغفرة، وإذا كان المعنى: واستغفرِ اللهَ ممَّا هممتَ به، فتكونُ أحرفُ الزِّيادةِ على معنى طلبِ المغفرةِ من اللهِ، ولَمَّا كانَ الهمُّ بالشَّيء ليسَ بذنبٍ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، الجوهري، الصحاح، والرّاغب، المفردات: (رحم).
(2) المراغي، تفسير المراغي: 5/149.
(3) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/110، والبيضاوي، أنوار التّنزيل: 2/95.

حتَّى يستغفرَ منه رسولُ اللّه؛ لعصمتِه من الذُّنوب والنَّقائص دلَّ على أنَّ طلبَ المغفرةِ هنا لزيادةِ ثوابِه ﷺ ولإرشاده إلى التَّثبُّتِ[1].

دلالة التَّعبيرِ بالاستغفار في قولِه: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرِ ٱللَّهَۖ﴾:

عبَّر بالاستغفار دون طلبِ السَّترِ؛ لأنَّ الاستغفار أعمُّ وأشملُ، فإنَّ الاستغفارَ يستلزمُ عدمَ المؤاخذةِ على فعلِ الشَّيءِ، كما أنَّه يشملُ مغفرةَ الذُّنوبِ صغيرِها وكبيرِها، بخلافِ السَّتْرِ الَّذي يدلُّ على تغطيةِ الشَّيء.

الاستغفارُ يستلزمُ عدمَ المؤاخذةِ، ويشملُ مغفرةَ الذُّنوبِ كلِّها

بلاغة الوصلِ في قولِه: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرِ ٱللَّهَۖ﴾:

عُطفتْ هذه الجملةُ على ما قبْلَها بالواوِ؛ لكمالِ الاتِّصال بينها وبين قولِه: ﴿وَلَا تَكُن لِّلۡخَآئِنِينَ خَصِيمٗا﴾، فجمعَ لمناسبةِ الوصلِ بينَ طلبِ النَّهي وطلبِ الامتثالِ؛ للإيذانِ بأنَّ الذَّبَّ عن الخائنينَ ذنبٌ ينبغي الإقلاعُ عنه والاستغفارُ منه.

الانتصارُ لِلخائنينَ ذنبٌ ينبغي الاستغفارُ منه

دلالةُ توجيهِ الخطابِ في قولِه: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرِ ٱللَّهَۖ﴾:

يُحتَملُ أن يكونَ الخطابُ موجَّهًا إلى الرَّسول ﷺ والمعنى كما تقدَّم من أنَّ المرادَ: واستغفرِ اللّه للمذنبينَ من أمَّتك، أو: واستغفرِ اللّه ممَّا هممتَ به، ويُحتَملُ أن يكون الخطابُ جاريًا على أسلوب توجيه الخطاب إلى الرَّسول، والمراد بالأمر غيره، فأرشدهم إلى ما هو أنفع لهم، وهو استغفار اللّه ممَّا اقترفوه[2]، أو أنَّه لم يقصِد مخاطبًا معيَّنًا؛ لِيفيدَ العمومَ، وجاء بطريقِ الخطابِ؛ ليكونَ أشدَّ تأثيرًا في المخاطبين، والمرادُ: طلبُ الاستغفارِ مِنْ كلِّ مَنْ يذبُّ عن الخائنين، ويدافعُ عنهم للإيذانِ بعِظمِ معصيتِه.

طلبُ الاستغفارِ مِنْ كلِّ مَنْ يذبُّ عن الخائنين؛ للإيذانِ بعِظمِ معصيتِه

مناسبة إسنادِ الاستغفار إلى الاسم الجليل ﴿ٱللَّهَ﴾:

أُسنِدَ الاستغفارُ إلى الاسمِ الجليلِ ﴿ٱللَّهَ﴾ دونَ أن يقولَ هنا:

(1) الخفاجي، عناية القاضي: 3/346.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 5/193.

استحضارُ مقامِ الألوهيَّة موجبٌ لِاجتنابِ الانتصارِ للخائنين

(واستغفروا ربَّكُم) للإشعار بعظمِ ذنبِ الانتصارِ للخائنينَ والدِّفاعِ عنهم، وأنَّ استحضارَ مقامِ الألوهيَّةِ موجبٌ لاجتنابِه والاستغفارِ منه؛ إنْ وقع.

حسنُ التَّذييل في قولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾:

1. تصديرُ الجملة الاسميَّة بـ(إنَّ) يدلُّ على أنَّها في مقامِ التَّعليل لما قبلها، للإرشادِ إلى أنَّ سببَ سؤالِ المغفرةِ أو طلبِها، وسببَ قبولِ الاستغفارِ؛ لأنَّ اللّٰه كانَ غفورًا رحيمًا.

تأكيدُ الله تعالى قَبولَ توبةِ المُستغفِرينَ

2. أكَّدَ سبحانَه اتِّصافَه تعالى بهاتَيْن الصِّفتَيْن بأربعةِ مُؤكِّداتٍ؛ للإشعارِ بأهمِّيَّتها، أوَّلها: (إنَّ) الَّتي تفيدُ تأكيدَ مضمونِ الجملةِ كلِّها، وثانيها: (كانَ) الَّتي تُفيدُ الاستمرارَ المقتضي للتَّأكيدِ، وثالثُها: صِيغةُ المبالغةِ في غفورٍ ورحيم، ورابعُها: الجُملةُ الاسميَّةُ[1].

تعظيمُ معصيةِ الانتصارِ للخائنين

3. أفادت (إنَّ) مع تتابعِ التَّأكيداتِ إقامةَ الواقعِ في معصيةِ الانتصارِ للخائنين مقامَ الإنكار، فكأنَّ الواقعَ فيها في مقام المنكرِ؛ لأنْ يغفرَ اللّٰه له أو أنْ يرحمَه؛ للإشعارِ بعظَمِ المعصيةِ وهولِها، لِيكونَ من إقامةِ الكلامِ على خلافِ مُقتضى الظَّاهر.

التَّلذُّذ بذكر الاسم الجليل تقريبٌ لمغفرةِ اللهِ ورحمتِه

4. وضعُ الظَّاهرِ وهو الاسمُ الجليلُ ﴿ٱللَّهَ﴾ موضعَ المُضمرِ في قولِه تعالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾؛ فلَمْ يقلْ: (إنَّه كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا)؛ لتربيةِ المهابةِ، وللتَّلذُّذِ بذكره سبحانَه؛ لأنَّه في مقامِ الاستغفارِ المُقتضي طلبَ المغفرةِ والرَّحمةِ.

5. جاء قولُه تعالى: ﴿كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾؛ لإفادة استمرارِ اتِّصافِ اللّٰهِ تعالى بهذين الوصفين الكريمين الجميلين، وظهورِ آثارِهما بين المستغفرينَ وبين النَّاس.

6. عبَّر بصيغتي المبالغة ﴿غَفُورًا رَّحِيمًا﴾؛ للدَّلالة على كثرة مغفرتِه

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 4/1840.

تعالى وكثرةِ رحمتِه، فهو واسعُ المغفرةِ وواسعُ الرَّحمةِ، فإنَّه يغفرُ الذُّنوبَ صغيرَها وكبيرَها، ويرحمُ جميعَ المستغفرين، ورحمتُه سبقت غضبَه، ولم يقلْ: (غافر أو راحم)، بصيغة اسم الفاعلِ؛ لمناسبةِ المقامِ لمعنى المبالغةِ، وللإشعارِ بعظمِ ذنب المناصرين للخائنين.

الله تعالى يغفرُ الذُّنوبَ جميعها، ويرحمُ جميعَ المستغفرين

7. تضمَّنت جملة التَّذييل الحثَّ على أن يطلبَ النَّاسُ مغفرةَ اللهِ ورحمَتَه، لمجيئها على معنى التَّأكيدِ المُقتضي التَّنبُّه إلى مضمونِ الجملةِ.

8. لمَّا كانتْ جملةُ التَّذييلِ على معنى العمومِ والكلِّيَّةِ؛ كانت بمنزلةِ المَثَلِ في حكايتِها والتَّمثيلِ بها.

المتشابه اللَّفظي:

كلُّ ما ورد في القرآن الكريم عند اجتماعِ الوصفينِ (غَفُور ورَحِيم) هو بتقديم وصفِ المغفرةِ على وصفِ الرَّحمة إلَّا في آيةِ سورةِ سبأ، وقدَّم قولَه: ﴿غَفُورًا﴾ على ﴿رَّحِيمًا﴾ في هذهِ الآيةِ؛ لنكاتٍ هي: لأنَّ المغفرةَ للمكلَّفين منَ البشرِ، وحيثما وردَ ذكرُ المكلَّفين متقدِّمًا؛ تقدَّمَ الغفورُ على الرَّحيم، ولأنَّ المغفرةَ سلامةٌ، والرَّحمةَ غنيمةٌ، والسَّلامةُ مطلوبةٌ قبلَ الغنيمةِ، وللإشعارِ بأنَّ غفرانَ الذُّنوبِ سببٌ لنيلِ رحمتِه تعالى، ولِلإشارة إلى أنَّ مغفرتَه لعبادِه رحمةٌ منه، وليست عن ضَعفٍ منه، فهو الغَفورُ لعبادِه الرَّحيمُ بهم.

وأمَّا في سورة سبأ؛ فقد قُدِّمَ الرَّحيمُ على الغفورِ في قولِه تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَاۚ وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ ۝٢﴾ [سبأ: 02]؛ لِأَنَّ الكلامَ هنا مُنتظِمٌ في سلكِ تعدادِ أَصنافِ الخَلقِ مِنَ المكلَّفينَ وغَيرِهِمْ، من الحيوانِ والنَّباتِ وغيرِهما، فالرَّحمةُ شَملتهُمْ جميعًا، ولِلإشارةِ إلى أنَّ كلَّ ما يلِجُ، وما يخرجُ، وما ينزِلُ، وما يعرُجُ: هو برحمتِه، وَأمَّا الْمغفرَةُ؛ فتَخصُّ بعضًا ممَّنْ يقترفُ الذُّنوبَ منَ المكلَّفين، والعمومُ قبلَ الخصُوصِ بِالرُّتبةِ، كما أنَّه إذا اجتمعَ العامُّ والخاصُّ؛ قُدِّمَ العامُّ غالبًا[1].

(1) الزركشي، البرهان: 3/249.

﴿وَلَا تُجَٰدِلۡ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخۡتَانُونَ أَنفُسَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ١٠٧﴾ [النساء: 107]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

النهيُ عن المحاججةِ عمَّنْ تعمَّدَ الخيانةَ

لمَّا نهى اللّه تعالى عن الخصام لأيِّ خائنٍ، وهو مَنْ وقعتْ منه خيانةٌ ما؛ أتبعهَ النَّهيَ عن المجادلةِ عمَّن تعمَّدَ الخيانةَ؛ لِيكونَ على سبيلِ التَّرقِّي في النَّهي.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تُجَٰدِلۡ﴾: الجَدَلُ: مصدرُ جدلتُ الحَبلَ أجدِلُه وأجدُلُه؛ إذا فتلتُه، فكأنَّ المتجادلين يفتل كلُّ واحدٍ الآخرَ عن رأيه، وذهبَ بعضُهم إلى أنَّ أصلَه منَ المُصارعةِ والإلقاءِ على الجَدَالَةِ، وهي الأرضُ، فكأنَّ كُلًّا منهما يريد أنْ يصرعَ صاحبَه، والاسمُ: الجَدَلُ، والجدالُ: هو المفاوضةُ على سبيل المنازعةِ والمغالبةِ وشدَّةٍ في الخصومةِ، ففيه قوَّةٌ واستحكامٌ وامتدادٌ في الخِصامِ والكلام[1]، ومعنى ﴿وَلَا تُجَٰدِلۡ﴾ في الآية: لَا تُحَاجِجْ عَنِ الَّذِينَ يختانونَ أَنْفُسَهُمْ.

2) ﴿يَخۡتَانُونَ﴾: الاختيانُ: افتعالٌ من الخيانة، جذرُه اللُّغويُّ: (خون)، وأصلُ معنى الخيانة: التَّنَقُّصُ في خفيةٍ أو لطفٍ، يُقَالُ: خَانَهُ يَخُونُهُ خَوْنًا، وَذَلِكَ نُقْصَانُ الوَفَاءِ، ولأنَّ الخيانةَ نقصٌ في الأمانةِ أطلقت على مخالفةِ الحقِّ بنقض العهدِ في السِّرِّ، والاختيانُ: مراودةُ الخيانةِ، بتحرُّكِ شهوةِ الإنسانِ لِتحرِّي الخيانةِ في خفيةٍ، وخانَه في كذا: أُؤْتُمِنَ فلمْ ينصَحْ، ومعنى ﴿يَخۡتَانُونَ أَنفُسَهُمۡۚ﴾: يجعلونها خائنةً بارتكابِ الخيانةِ[2].

(1) ابن دريد، جمهرة اللغة، والراغب، المفردات، والسمين، عمدة الحفاظ، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (جدل).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، وابن الجوزي، تذكرة الأريب، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (خون).

3) ﴿يُحِبُّ﴾: الحُبُّ: نقيضُ البُغض، ويدور معنى الكلمةِ على تجمُّعِ الشَّيء وتمكُّنِه وتلازُمِه، والحبُّ: هو تعلُّقُ القلبِ بالمحبوبِ، وملازَمَتُه إيَّاه ماديًّا أو روحيًّا، ومحبَّةُ اللهِ للعبدِ: هي توفيقُه للإيمانِ ولِقربِه منه تعالى وإثابتُه على الطَّاعاتِ، وثناؤُه عليه، أو يُقالُ: محبَّةُ اللهِ للعبدِ: هي شأنٌ من شؤونِه سبحانَه تليقُ بذاتِه الكريمةِ، وهي تتضمَّنُ معنى الرِّضوانِ، وتستلزمُ فيضَ رحمتِه، ومِنَحَ غُفرانِه[1].

4) ﴿خَوَّانًا﴾: صِيغةُ مبالغةٍ من خائنٍ، وجذره اللُّغويُّ: (خون)، ومعنى الخوَّان في الآيةِ: المُبالِغُ في الخيانةِ الَّذي يُصرُّ عليها.

5) ﴿أَثِيمًا﴾: صِيغةُ مبالغةٍ، من آثِم، وأصلُ معناه: البُطءُ والتَّأَخُّرُ، ومنه ناقةٌ آثمةٌ، أَيْ: متأَخِّرَةٌ لِحملِها الثَّقيل، والإثمُ الذَّنبُ، وهو مشتقٌّ منْ ذلكَ؛ لأَنَّ ذَا الإثم بَطيءٌ عن الخيرِ، متَأَخِّرٌ عنهُ، وكأنَّ الذُّنوبَ الَّتي يقترفُها الأثيمُ ينوءُ بها حَمْلًا، وقد أَثِمَ الرَّجلُ بالكسر إثمًا ومَأْثَمًا؛ إذا وقعَ في الإثمِ، فهو آثِمٌ وأَثيمٌ، والأثيمُ: هو المنهمكُ في الذُّنوبِ، ولا يقلعُ عنها[2].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

في هذه الآيةِ، نهى اللهُ تعالى عنِ المُجادَلةِ والدِّفاعِ عنِ الَّذين يخونون أنفسَهم؛ لأنَّ اللهَ تعالى لا يحبُّ الخائنَ المصرَّ على خيانتِه، والآثمَ المُصرَّ على ذنبِه.

لا يحبُّ اللهُ الخائنَ المصرَّ على خيانتِه والآثمَ المُصرَّ على ذنبِه

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغة مجيء الكلام على خلاف مقتضى الظَّاهر في قوله: ﴿وَلَا تُجَٰدِلۡ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخۡتَانُونَ أَنفُسَهُمۡۚ﴾:

لمَّا كانَت المحاججةُ عن الَّذين يخونونَ أنفسهم، لا يُتَرَقَّبُ صُدُورُها مِنَ الرَّسُولِ ﷺ دلَّ على أنَّ المرادَ بخطابِ النَّهيِ العمومُ، ويدخلُ فيه أصحابُ النَّازلةِ دخولًا أوَّليًّا، لتقريرِ توبيخِهم، وأفادَ الخطابُ

التَّهديدُ الشَّديدُ لِمَنْ يعينُ على الخيانة أو يرغِّبُ فيها

(1) الراغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (حبب)، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 4/1843.

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والجوهري، الصحاح، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (أثم)، والآلوسي، روح المعاني: 5/141.

العمومَ؛ لأنَّ الحقَّ تبارك وتعالى إذا نهَى عن شيءٍ؛ فإنَّه لا يقتضِي أن يكونَ المُخاطَبُ قدِ ارتكبَ ما يُوجبُ النَّهيَ، وجاء بصيغة الخطابِ للرَّسولِ ﷺ مع أنَّه أكملُ الخلقِ وأعدلُهم؛ لتنبيهِ المؤمنين على وجوبِ الاحتراس؛ حتَّى لا يقعوا في الدِّفاعِ عنِ الآثمين الخاطئين، وللمُبَالَغَةِ فِي التَّحْذِيرِ مِنْ هذه الخلَّةِ المَعْهُودَةِ مِنَ الحُكَّامِ، وفي الآية تهديدٌ شديدٌ لِمَنْ يعينُ على الخيانةِ، أو يرغِّبُ فيها[1].

نكتة تعدية الفعل ﴿وَلَا تُجَٰدِلۡ﴾ بحرف الجرِّ ﴿عَنِ﴾:

النَّهيُ عن مجادلة المؤمنين من أجلِ الدِّفاعِ عن الخائنين

ورد الفعل (جادل) متعدِّيًا إلى المفعولِ بنفسِه مثل قولِه تعالى: ﴿يُجَٰدِلُونَكَ فِي ٱلۡحَقِّ﴾، ووردَ متعدِّيًا بحرف الجرِّ ﴿عَنِ﴾، كما في هذه الآية، ونكتة تعديتِه بالحرف: هي أنَّه لمَّا كان الخطاب للمؤمنين، وكان الجدالُ واقعًا بينهم، فيمَن دافعَ عن أبي طعمة، وخاصمَ عنه؛ ضمّن قوله: ﴿وَلَا تُجَٰدِلۡ﴾ النَّهي عن جدالِ المؤمنين، وعن الدِّفاعِ عن الَّذين يختانونَ أنفسَهم؛ ليكونَ من إيجازِ التَّعبيرِ وتكثيرِ المعنى، والمعنى: لا تخاصمْ عن الَّذين يختانونَ أنفسَهم بالمجادلةِ[2].

بلاغةُ الاستعارة في قوله: ﴿وَلَا تُجَٰدِلۡ﴾:

المجادلُ يبالغ في حبكِ الكلامِ لإقناعِ الخصوم

لمَّا كان أصلُ الجدلِ: هو فتلُ الحبلِ وإبرامُه ولَيُّه بغيةَ تقويتِه وإحكامِه ومدِّه؛ استُعيرَ هنا على طريقةِ الاستعارةِ التَّصريحيَّةِ التَّبعيَّةِ للكلامِ الممتدِّ الَّذي يبالغُ قائلُه في حبكِه لإقناعِ الخصومِ، والجامعُ بين المستعارِ منه والمستعارِ: هو الإحكامُ والامتدادُ.

مناسبة التَّعبير بالاسم الموصول في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَخۡتَانُونَ أَنفُسَهُمۡۚ﴾:

الخائنُ مكشوفٌ؛ وإنْ تستَّرَ

عبَّر بالاسم الموصول لبيان أنَّ صلةَ الموصولِ معلومةُ الانتسابِ عندَ المخاطبين، فالَّذين يختانونَ أنفسَهم، وإن كانوا يتحرُّون خيانَتَهم في خِفيةٍ ولُطفٍ، ولكنَّهم معروفونَ عندهم، فهو مكشوفٌ؛

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/110، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/57، ورضا، تفسير المنار: 5/325.

(2) ابن جرير، جامع البيان: 9/190.

وإن تستَّرَ، ولم يذكرِ اسمَ الخائنِ لاستهجانِ التَّصريحِ باسمِه، كما أنَّ ذكرَ الاسم الموصول مع صلته بيَّن وجهَ النَّهي عن الجدالِ عنهم وسببه، مع ما صاحبَ الكلامَ من إهانتِهم[1].

مناسبة إسناد الفعل إلى الجماعة في قوله: ﴿يَخْتَانُونَ﴾:

الخائِنُ لغيرِه خائنٌ لنفسِه

أُسندَ الفعلُ في قولِه تعالى: ﴿يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ﴾ إلى واو الجماعة، "مع أنَّ الَّذي نزلتْ فيه الآيةُ واحدٌ؛ لوجهَين: أحدهما: للإشعارِ بأنَّ كلَّ من شهدَ للسَّارقِ أو للخائن بالبراءة، أو أعانَه؛ فهو شريكٌ له في الوصفِ والحكمِ، ليكونَ تهديدًا لمن أعانَه، والثَّاني: أنَّه جمعَ؛ ليتناولَ من نزلت فيه الآيةُ، وكلَّ منْ خانَ خِيانَتَه، والمعنى: فلا تخاصمْ لخائنٍ قطُّ، ولا تُجادلْ عنهُ[2].

نكتةُ التَّعبيرِ بصيغةِ الافتعالِ في قولِه: ﴿يَخْتَانُونَ﴾:

الخائنُ قدْ خانَ نفسَه مرَّتَينِ

عبَّر بصيغةِ الافتعالِ ﴿يَخْتَانُونَ﴾، والمرادُ (يخونون)؛ لِما تدلُّ عليه صيغةُ الافتعال هنا مِن الإشعارِ باجتهادهم في تحصيلِ الخيانةِ، وطلبِهم لها بمزاولة أسبابها وبتَّكلُّفِهم لها من أجلِ تحصيلِها، لمخالفتها للفطرةِ وللطَّبيعة الإنسانيَّة، ولمَّا نسبَ الخيانةَ إلى النَّفسِ؛ ناسبَ التَّعبيرَ بصيغة دالَّةٍ على التَّكلُّف، فإنَّ خيانةَ النَّفسِ أشدُّ، ويتطلَّبُ الأمرُ افتعالًا، فجاء بهذه الصِّيغة؛ لِقَصْدِ المُبَالَغَةِ في الخِيَانَةِ، ولولا أنَّه بيَّتَ النيَّةَ عليها؛ لما خانَ، فالتَّعبيرُ بصيغةِ الافتِعالِ يُشعرُ بأنَّ الخيانةَ لا تقعُ إلَّا مكرَّرةً، لأنَّه يَعزمُ عليها أوَّلًا، ثمَّ يفعلُها، فأدنى تلبُّسِه بها أن يكونَ قد خانِ من نفسِه مرَّتين[3].

بلاغة التَّعبير في قولِه: ﴿يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ﴾:

الخائنُ لغيرِه خائنٌ لنفسه

لَمَّا كانتِ الخيانةُ تكونُ للآخَر؛ كانت نسبةُ الخيانةِ إلى النَّفسِ

(1) السكاكي، مفتاح العلوم/181 - 182.

(2) الزمخشري، الكشاف: 1/562، والبقاعي، نظم الدرر: 2/313.

(3) الرضي، شرح الشافية: 1/109، والبقاعي، نظم الدرر: 2/313، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 5/194، والشعراوي، تفسير الشعراوي: 5/2610.

عدولًا عن مقتضى الظَّاهر، فيُحتملُ أنْ تكونَ على المجاز؛ إذ جُعلتْ معصيةُ العُصاةِ خيانةً منهم لأنفسِهم، كما جُعلت ظلمًا لها؛ لرجوع وبالِ الخيانةِ وضررِها عليهم بالفضيحةِ في الدُّنيا والعقوبةِ في الآخرةِ، ويحتملُ أنْ تكونَ استعارةً تصريحيَّةً تبعيَّةً؛ إذ شُبِّهتِ المعصيةُ بالخيانةِ للنَّفسِ بجامعِ الضَّرر، ثمَّ حُذِفَ المشبَّهُ، وصُرِّحَ بالمشبَّه به بصيغة الفعلِ لإفادة الاستمرارِ، فسُلِكَ الكلامُ على طريقةِ الاستعارة مبالغةً في خيانتهم، وإثباتًا لها بالدَّليلِ.

خيانة الواحدِ خيانةٌ للمجتمع

وأيضًا لمَّا كان المؤمنون متَّصلين بالدِّين، وقد يكونُ بينهم اتِّصالٌ بالنَّسبِ، فتكونُ خيانةُ واحدٍ منهم بمنزلةِ خيانة النَّفس، فالمعنى: يخونون بني قومِهم وأهلَ دينِهم؛ لرجوعِ الضَّررِ عليهم جميعًا، وهو يُشبهُ قولَه تعالى: ﴿ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ﴾ [البقرة: 85] وغيرَ ذلك منَ الآياتِ الَّتي عُبِّرَ بها عنِ المجموعِ بالنَّفسِ[1].

نكتة التَّعبير بالفعل المضارعِ: ﴿يَخْتَانُونَ﴾:

لإفادةِ استمرارِ تجدُّدِ تعمُّدِ الخيانةِ حالًا فحالًا، فمنْ خانَ مرَّةً؛ قد يعودُ، ويخونُ مرّاتٍ كثيرةً.

حسنُ التَّذييلِ في قولِه تعالى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا﴾:

تضمَّنَت جملةُ التّذييلِ فوائدَ لغويَّة وبلاغيَّة، هي:

1. أفادت (إنَّ) تأكيدَ مضمونِ الجملةِ للاهتمامِ بشأنِها والاعتناءِ بها.

2. جاءت (إنَّ) في مقامِ تعليلِ النَّهي عن الجدالِ عن الَّذينَ يختانونَ أنفسَهم، فبعدَ أن أومأت جملةُ الصِّلةِ بوجهِ النَّهي عن المخاصمةِ عنهم؛ جاءت جملةُ التَّذييلِ لبيانِ السَّببِ الأهمِّ والأعمِّ للنَّهي[2].

3. دلَّت الجملةُ الاسميَّةُ على ثباتِ مضمونِ الجملةِ ودوامِهِ.

---

(1) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 3/354، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 2/95، وأبو السّعود، إرشاد العقل السليم: 2/229، والقونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 7/291، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 5/194.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 5/393.

4. لمَّا كانَ الخبرُ فعلًا في قولِه: ﴿لَا يُحِبُّ﴾؛ دلَّ على تقويةِ الحكم بسببِ تكرارِ الإسنادِ وتأكيدِه بما تقوَّى به، كما دلَّ الإخبارُ بالفعلِ على تجدُّدِ انتفاءِ حُبِّه تعالى لِمَن اتَّصفَ بهذين الوصفين القبيحين.

5. أفادَ النَّفيُ بـ﴿لَا﴾ استمرارَ انتفاءِ حبِّ اللهِ تعالى لِمَنْ يتَّصفُ بهذينِ الوصفينِ.

6. عبَّرَ بـ﴿مَن﴾ الموصولةِ الدَّالَّةِ على العُموم خلافَ (الَّذي) الدَّالَّةِ على التَّنصيصِ في المُوصوليَّةِ[1]؛ ليشملَ انتفاءَ محبَّةِ اللهِ لكلِّ خوَّانٍ أثيمٍ، ويندرجُ فيه من نزلَت فيه الآيةُ ومن أعانَهُ اندراجًا أوَّليًّا.

7. أفادَ تعبيرُ: ﴿كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا﴾ ذمَّ الوصفَين وقبحَهما وذمَّ الاستمرارِ في الاتِّصافِ بهما، وإشعارًا بظهورِ آثارِهما في النَّاسِ.

الخوَّانُ لا يحبُّه اللهُ أبدًا

8. خصَّ صيغتي المبالغة: ﴿خَوَّانًا أَثِيمًا﴾ الدالَّتين على التَّكثير في الخيانةِ والإثم بالمداومةِ عليهما أو تعظيمِهما لشدَّة قُبحِهما بنفي المحبَّة، معَ أنَّه ﷻ لا يُحبُّ الخائنَ والآثمَ أيضًا بأنْ يقعَ الفعلُ منهما مرَّةً واحدةً، فخصَّ الصيغتين للتَّعريضِ بأصحابِ النَّازلةِ الَّذين نزلَت فيهم هذه الآياتُ، وللإشعارِ بعظيم فعلِهم، وللتَّنبيه على أنَّ من يتحرَّى خيانةً، ولا يستمرُّ عليها بأنْ يأتيَ بها مرَّةً واحدةً، ونحوَ ذلك ممَّا يجيءُ من الخيانةِ بغير قصدٍ أو على غفلةٍ؛ فهو مُعرَّضٌ أنْ يُقلعَ، فيحبُّه اللهُ تعالى، ومتى استمرَّ عليها؛ صارَ مطبوعًا على قلبِه، لا يُقلِعُ، أو كانت خيانتُه عظيمةً، فلا تُرجى له المحبَّةُ، فإذًا الخائنُ قد يكونُ محبوبًا على وجهٍ، والخوَّانُ لا يكونُ محبوبًا أبدًا[2].

9. كما دلَّ التَّعبيرُ بصيغتي المبالغةِ ﴿خَوَّانًا أَثِيمًا﴾ على أنَّ مراتبَ المبالغةِ في الخيانةِ والإثمِ متفاوتةٌ[3].

10. متى وقع الذَّمُّ على وصفٍ؛ لزمَ أن يكونَ المدحُ في ضدِّه؛

(1) الأزهري، شرح التصريح: 1/163.
(2) الراغب، تفسير الراغب: 3/1428، وابن عطية، المحرر الوجيز: 2/110، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/57.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 5/394.

مـــدحُ الأمـانـةِ والتَّرغيبُ فيها

فدلَّ على مدحِ الأمانةِ والتَّرغيبِ فيها، وأَنَّ اللّٰهَ يحبُّ أهلَ الأمانةِ والاستقامةِ[1].

الخيانةُ سببٌ لحصولِ الإثمِ

11. قدَّمَ الخوَّانَ على الأثيم؛ لأنَّ فيه دفعًا للضُّرِّ عنِ البريء، وجلبًا للنَّفعِ إليه؛ ولأنَّ الخيانَةَ سببٌ لحصولِ الإثم، ومراعاةً لِلفاصلَةِ القرآنيَّةِ، كما أنَّ صِيغةَ (فَعَّال) أكثرُ مبالغةً من (فَعِيل)، فقدَّم الأشدَّ[2].

12. في جملةِ التَّذييل بديعُ تشابُهِ الأطرافِ، فناسبَ ذكرَ الخوَّانِ والأثيم لِمَا تقدَّمَ في الآيةِ في قولِه: ﴿وَلَا تُجَٰدِلۡ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخۡتَانُونَ أَنفُسَهُمۡۚ﴾، فلمَّا أرادَ أن يُخبرَ عن حالِهم؛ ختمَ الكلامَ بما يُناسبُ ابتداءَه في المعنى[3].

(1) رضا، تفسير المنار: 5/325.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 2/313، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/58.

(3) الإسكافي، درة التنزيل: 1/352، والسبكي، عروس الأفراح: 2/234.

﴿يَسۡتَخۡفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسۡتَخۡفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمۡ إِذۡ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرۡضَىٰ مِنَ ٱلۡقَوۡلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطًا ١٠٨﴾ [النساء: 108]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

إيضاحُ أوصافِ الَّذين يختانونَ أنفسَهم

لمَّا ذكرَ اللهُ تعالى في الآية السَّابقةِ ﴿ٱلَّذِينَ يَخۡتَانُونَ أَنفُسَهُمۡۚ﴾، وكانَ فيه إجمالٌ يحتاجُ إلى إيضاحٍ وبيانٍ؛ جاءت هذه الآية بيانًا للَّذين يختانونَ أنفسَهم، ولهذا لم يعطِفْها على ما سبقَها، وأيضًا يُحتملُ أن تكون هذه الآيةُ بمنزلةِ التَّعليلِ لوصفِهم بأنَّهم يختانونَ أنفسَهم ولنفي محبَّةِ اللهِ لهُم[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَسۡتَخۡفُونَ﴾: يدور معنى الخِفْيَةِ على الاستتارِ، فيُقالُ: خَفِيَ الشَّيءُ يَخْفَى، وأَخفيتُهُ، وهو في خِفيَةٍ وخَفَاءٍ؛ إذا سترتَه، وأَخْفَيْتُهُ: أوليتُه خَفاءً، وذلك إذا سترتُه، ويقابلُ به الإبداءُ والإعلانُ، والخَفَاءُ: اسمٌ لِما يُسترُ به كالغطاء، واستخفيتُ من فلان، أي: تواريتُ، واستترتُ[2]، ومعنى يَستخفُون في الآيةِ: يَستترُون[3].

2) ﴿يُبَيِّتُونَ﴾: البيتُ هو مأوى الإنسانِ باللَّيلِ ومآبُهُ الَّذي يرجعُ إليه؛ ليسكنَ فيه، وصيغَ الفعلُ منه على معنى العملِ في اللَّيلِ، فيُقالُ: بيَّتُوا هذا العَمَلَ بَياتًا، أي: عملُوه ليلًا، والبَيتوتةُ: دُخولُكَ في اللَّيل، تقولُ: بِتُّ أصنَعُ كذا؛ إذا كان باللَّيل، ويقال لكلِّ فعل دُبِّر فيه باللّيل: بُيِّتَ، ومنه بُيِّتَ الأمرُ؛ إذا دُبِّر ليلًا، والبَياتُ والتَّبييتُ: أنْ تأتيَ العدوَّ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 5/394، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 5/194.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (خَفِيَ)
(3) الواحدي، التفسير البسيط: 7/76.

ليلًا، كأنَّك أخذتَه في بيتِه، ومعنى ﴿يُبَيِّتُونَ﴾ في الآية: يُدبِّرون التَّدابيرَ السَّيِّئَةَ ليلًا بأنْ يزوِّروا ويغيِّروا في القولِ[1].

3) ﴿يَرْضَىٰ﴾: الرِّضا يدلُّ على خلافِ السُّخطِ، تقولُ: رضِي يرضَى رِضًى، وهو راضٍ[2].

4) ﴿يَعْمَلُونَ﴾: العَمَلُ: كلُّ فعلٍ يكونُ ممَّن له إرادةٌ بقصدٍ، ويوصفُ به عملُ الجوارحِ كالقولِ، وعملُ القلبِ، فهو أخصُّ منَ الفعلِ من وجهٍ بسببِ اقترانِه بالقصدِ، ولأنَّ الفعلَ قد يُنسبُ إلى الحيواناتِ الَّتي يقعُ منها فعلٌ بغيرِ قصدٍ، وقد يُنسبُ إلى الجماداتِ، والعَمَلُ قلَّما يُنسبُ إلى ذلك، كما أنَّ العملَ أعمُّ من الفعلِ لتعلُّقِه بالجوارحِ والقلبِ، فبينهما عمومٌ وخصوصٌ وجهيٌّ[3]، و﴿يَعْمَلُونَ﴾ في الآية بمعنى: تعملونَ الأعمالَ الخبيثةَ المُنكرَةَ الرَّديئةَ[4].

5) ﴿مُحِيطًا﴾: أصلُ معنى الكلمةِ: يدورُ على أنْ يكونَ الشَّيءُ طائفًا بالشَّيءِ مُحدقًا به في استدارةٍ تامَّةٍ، وتُستَعملُ الإحاطةُ في الأجسامِ، ومنه الحائطُ: وهو الجدارُ الَّذي يَحُوطُ بالمكانِ، وفي المعاني، مثل: (أحطتُ علمًا بكذا) ومنه قولُهُ تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا ﴿١٢٦﴾﴾ [النِّساء: 126][5]، و(محيطًا) في الآيةِ بمعنى: أنَّه تعالى عالمٌ بأعمالِهم مُحصِيها عليهم[6].

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

يستترونَ من النَّاسِ ممَّا أتوا بهِ من الخيانةِ؛ خوفًا من اطِّلاعِهم على أعمالِهم السَّيِّئةِ القبيحةِ، ولا يستترونَ من اللهِ تعالى، ولا يستحيونَ منه، وهو عزَّ شأنُه معَهم بعلمِه، مطَّلعٌ عليهم حينَ يدبِّرون - ليلًا - التَّدابيرَ السَّيِّئة، ممَّا لا يرضى من القولِ فيغيِّرونَه عن وجهه، ويكذِّبونَ فيه؛ لقصدِ الإخفاءِ، وكان اللهُ - تعالى - محيطًا بجميعِ أقوالِهم وأفعالِهم، لا يخفى عليه منها شيءٌ[7].

(1) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (بيت).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (رضي).
(3) الراغب، المفردات، والسمين، عمدة الحفاظ: (عمل).
(4) ابن جرير، جامع البيان: 2/243.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (حوط).
(6) ابن جرير، جامع البيان: 2/243.
(7) ابن جرير، جامع البيان: 2/243، ونخبة من العلماء، التفسير الميسر/96.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

نكتة التَّعبيرِ بقوله: ﴿يَسۡتَخۡفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾:

عبَّر بـ﴿يَسۡتَخۡفُونَ﴾؛ للدَّلالة على أنَّ الَّذين يختانونَ أنفسهم كانوا يستترون من النَّاس حياءً وخوفًا؛ لِقبحِ ما يعملون، وَفِي ذَلِكَ تَوۡبِيخٌ عَظِيمٌ وَتَقۡرِيعٌ، حَيۡثُ يَرۡتَكِبُونَ ٱلۡمَعَاصِيَ مُسۡتَتِرِينَ بِهَا عَنِ النَّاسِ إِنِ اطَّلَعُوا عَلَيۡهَا، وَدَخَلَ مَعَهُمۡ فِي ذَلِكَ مَنۡ فَعَلَ مِثۡلَ فِعۡلِهِمۡ، وأفادتِ الهمزةُ والسِّينُ والتَّاءُ معنى: طلبِ الاستتارِ وتحرِّيه والمبالغةِ فيه[1].

الخائنون يتحرَّون الاستتار من النَّاس حياءً وخوفًا لقبحِ ما يعملون

مناسبة التَّعبير بالنَّاس دون القوم:

لَمَّا كانَ لفظُ النَّاس أعمَّ من القومِ؛ لأنَّ القومَ هم أهلُ الرَّجلِ وجماعتُه؛ أشعرَ التَّعبيرُ بشدَّةِ خوفِهم وعظيم جهلِهم، فهمْ يريدونَ أنْ يَستترُوا من كلِّ النَّاسِ، فإنَّ (الـ) في ﴿ٱلنَّاسِ﴾ للجنس المفيد للاستغراق؛ للإيذانِ بأنَّ طبعَ الخوَّانِ الأثيم هو تحرِّي الاستتارِ والتَّخفِّي، ولم يقلْ: من عيونِ النَّاس، كما هو شأنُ التَّخفي غالبًا؛ للإشعارِ بأنَّهم يستخفونَ من أنْ يعلمَ بهم النَّاسُ بأيِّ طريقةٍ من طرائقِ العلم، ولهذا ناسبَه ذكرُ جملةِ التَّذييلِ كما سيأتي.

الخائنون يستخفونَ من أنْ يعلمَ بهم جميعُ النَّاسِ بأيِّ طريقةٍ من طرائقِ العلم

بلاغةُ الجمعِ بينَ الطِّباق والمشاكلةِ في قوله: ﴿يَسۡتَخۡفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسۡتَخۡفُونَ مِنَ ٱللَّهِ﴾:

جمعَ بين الفعلين على طريق طباق السَّلبِ؛ لبيان حالِ الخائنين أشدَّ بيانٍ وأوضَحَه، لما يتَّصفون به منَ الخداعِ والحيلةِ، وسُلِكَ لفظ ﴿وَلَا يَسۡتَخۡفُونَ﴾ على طريقِ المشاكلةِ للأوَّل في لفظه دونَ معناه؛ لوقوعه في صحبته، فإنَّ لفظَ ﴿يَسۡتَخۡفُونَ﴾ المثبت يدلُّ على استتارهم من النَّاس، ولَمَّا امتنعَ أنْ يعتقد أحدٌ يؤمنُ باللهِ أنَّه يستطيعُ أنْ يستخفيَ من اللهِ؛ لأنَّه غيرُ متصوَّرٍ؛ كان هذا الأمرُ قرينةً على

بيانُ حالِ الخائنين أشدَّ بيانٍ لكثرةِ خداعِهم وحِيَلِهِمْ

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 4/58، والقونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 7/291.

أنَّ لفظَ ﴿وَلَا يَسۡتَخۡفُونَ﴾: إمَّا كنايةٌ عنِ الاستحياءِ والخوفِ، وإمَّا مجازٌ مرسلٌ عنهما، بأنْ ذكرَ السَّببَ، وأرادَ المسبَّبَ[1].

بلاغة الاستعارة في قوله: ﴿وَلَا يَسۡتَخۡفُونَ مِنَ ٱللَّهِ﴾:

لمَّا كان لفظ ﴿وَلَا يَسۡتَخۡفُونَ﴾: إمَّا كنايةً وإمَّا مجازًا مرسلًا؛ كان التَّعبير به في المشاكلة على طريقِ الاستعارة، للإشعار بأنَّ من لا يستحي من الله، ولا يخافُ منه بمنزلةِ الَّذي لا يستخفي من الله، وكلُّ مشاكلةٍ استعارةٌ، ولا عكسَ[2].

بلاغةُ التَّعريضِ في قولِه تعالى: ﴿وَلَا يَسۡتَخۡفُونَ مِنَ ٱللَّهِ﴾:

أفاد الإخبارُ عن أنَّ الذين يختانونَ أنفسهم بأنَّهم لا يستخفون من الله: التَّعريضَ بأنَّ الأحقَّ بالاستحياءِ والخوفِ منه هو الله تعالى، فهو أولى بالاستحياءِ منه بألَّا يراهم حيثُ يكرهون أنْ يراهم أحدٌ من خلقِه، فَكَانَ يَنۡبَغِي أَنۡ تُستَرَ الۡقَبَائِحُ عَنۡهُ بِعَدَمِ ارۡتِكَابِهَا[3].

الاستحياء من الله ألَّا يراكَ ترتكبُ القبائحَ

سِرُّ التَّعبيرِ بالاسم الجليل ﴿ٱللَّهِ﴾ في قولِه: ﴿وَلَا يَسۡتَخۡفُونَ مِنَ ٱللَّهِ﴾:

لأنَّ المقامَ مقامُ مهابةٍ وإجلالٍ وتعظيم؛ ولأنَّ مقامَ الألوهيَّة يؤذنُ بامتناعِ تصوُّرِ الاستتارِ عن الله، ليكونَ اللَّفظُ على الكنايةِ أو المجازِ كما تقدَّم.

مقامُ الألوهيَّة يؤذن بامتناع تصوُّر الاستتارِ عنِ اللهِ

بلاغةُ الجمعِ بينَ المجازِ والتَّتميم في قوله: ﴿وَهُوَ مَعَهُمۡ﴾:

سُلِكَ الكلامُ في الجملة الحاليَّة: ﴿وَهُوَ مَعَهُمۡ﴾ على سبيلِ المجازِ؛ لقصدِ استيعابِ الأحوالِ وتعميمها، وللمبالغةِ في المعنى، فإنَّ معيَّةَ اللهِ لهم بمعنى: أنَّ علمَه تعالى وقدرتَه ورؤيتَه لا تنفكُّ عنهم، مقترنة بهم في كلِّ أحوالِهم، ومنها في حالِ استخفائِهم من النَّاس

(1) الواحدي، التفسير البسيط: 7/76، والخفاجي، عناية القاضي: 3/346، والقونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 7/291، والآلوسي، روح المعاني: 5/141.، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 5/194.

(2) السبكي، عروس الأفراح: 2/239.

(3) ابن جرير، جامع البيان: 9/191.

وتبييتهم ما لا يرضى من القولِ، وكفى بهذا زاجرًا للإنسان عن المعاصي، ولَمَّا كانت الجملةُ الحاليَّةُ مشعرةً بتأكيدِ أحقيَّةِ الله تعالى بالاستحياء منه؛ لأَنَّ حياءَ الإنسانِ ممَّنْ يصحبُهُ أَكثرُ منْ حيائِهِ وحدَه، وبالمبالغةِ في التَّهديدِ والزَّجر عن الاختيان والمعصية وفي تفظيعِ ما فعلوه، وبالإنكارِ عليهِمْ والتَّغليظِ لِقبحِ فعلهمْ، وبالتَّعجيبِ من معصيتهم، وهم يعلمون أنَّ الله معهم؛ كانت الجملة على معنى الإطنابِ بالتَّتميم، فجمعتْ جملةُ الحالِ بين الإيجاز بالمجاز، والإطنابِ بطريقِ التَّتميم، ليبرزَ الكلامُ في معرضِ الاعتدالِ نظرًا إلى اختصارِه من وجهٍ وإلى إطنابِه من آخرَ، وكأنَّه جمعَ بينَ متنافيين في أبرعِ تعبيرٍ وألطفِه[1].

معيَّةُ اللهِ بمعنى أنَّ علمَه تعالى وقدرتَه ورؤيتَه مقترنةٌ بهم في كلِّ أحوالِهم

مناسبةُ التَّعبيرِ بالظَّرف ﴿إِذۡ﴾:

لَمَّا كان الظَّرف(إِذۡ) يأتي لما فيه شأنٌ؛ ناسبَ مجيئه هنا لبيان عِظَمِ ما كانوا يبيِّتونه في ذلك الوقتِ، والمعنى: يستخفون من النَّاس، ولا يستخفون من الله في وقتِ عِظَمِ تبييتهمْ ما لا يرضى من القولِ، ومجيء (إِذۡ) للتَّعليل[2] كما يشعرُ به السِّياقُ في هذه الآية يفيدُ أنَّ المعنى: لَمَّا كانوا يبيِّتون في اللَّيلِ ما لا يرضاه ﷻ من القولِ؛ ناسبَ وصفهم بأنَّهم يستخفونَ من النَّاس، ولا يستخفونَ من الله، وأفاد مجيءُ الفعلِ مضارعًا ﴿يُبَيِّتُونَ﴾ مع أنَّ (إِذۡ) ظرفٌ لِمَا مضى لِتصوير حالِهم فيما مضى وقتًا فوقتًا على نحو قصد الاستمرار حالًا فحالًا.

تعظيمُ قبحِ تبييتِ الخيانةِ وتدبيرِها

مجاز التَّعبير في قولِه: ﴿يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرۡضَىٰ مِنَ ٱلۡقَوۡلِۚ﴾:

لَمَّا كان القول باللَّفظِ؛ كان تسميةُ ما حدَّثوا به أنفسَهم من رمي البريءِ والحلفِ الكاذبِ وشهادةِ الزُّورِ قولًا من بابِ المجازِ المرسلِ؛

قبحُ تحديثِ النَّفسِ برمي البريءِ والحلفِ الكاذبِ وشهادةِ الزُّورِ

(1) السكاكي، مفتاح العلوم/284، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/62، والسيوطي، قطف الأزهار: 2/748.
(2) ابن هشام، مغني اللبيب: 1/274.

إذ سمّاَه باعتبارِ ما يكونُ؛ لعلمِه تعالى بأنَّهم سيتكلَّمون به، وقد يكون على الحقيقة بأن يكون الخوَّانُ وأصحابُه قد اجتمعوا في اللَّيل، ورتَّبوا كيفيَّةَ الحيلةِ والمكرِ، فسمَّى اللّٰه تعالى كلامَهم ذلك بالقولِ المبيَّتِ الَّذي لا يرضاه[1].

سِرُّ التعبيرِ بالفعلِ: ﴿يُبَيِّتُونَ﴾:

تضمين الفعل (يُبَيِّتونَ) معاني متعدِّدة

آثرَ القرآنُ الكريمُ الفعلَ ﴿يُبَيِّتُونَ﴾؛ لِمَا يتضمَّنُه اللَّفظُ من معانٍ مجتمعةٍ، هي: أنْ يكونَ التَّدبيرُ ليلاً لِما فيه من معنى الاستتار، وأنْ يكونَ التَّدبيرُ كيدًا عظيمًا وسوءًا قبيحًا، واللَّيلُ ساترٌ له، وأنْ يكونَ في خفاءٍ عن النَّاس، وفي مكانٍ محصورٍ كالبيتِ لئلَّا يطَّلعَ عليه أحدٌ.

نكتة التَّعبيرِ بقوله: ﴿لَا يَرۡضَىٰ﴾:

ما لا يرضاه اللهُ لايحبُّه

لَمَّا كان نفيُ الرِّضا يقتضي السُّخطَ، والسُّخطُ يقتضي نفيَ المحبَّةِ، فكأنَّه قال ما لا يرضى من القولِ، وما لا يحبُّه، وأيضًا لَمَّا كانَ المقامُ هنا لبيانِ ما يُعَدُّ لهؤلاءِ الخائنِينَ منَ العقوبةِ والانتقامِ؛ ناسبَه نفيُ رضاه تعالى عمَّا يبيِّتون، فهم في موضعِ سُخطِ اللّٰهِ وغضبِه.

نكتة مجيء الاسم الموصول وصلته: ﴿مَا لَا يَرۡضَىٰ مِنَ ٱلۡقَوۡلِۚ﴾:

للإشعار بأنَّهم يعلمون أنَّ اللّٰه تعالى لا يرضى قولهم، فإنَّ جملة الصِّلة تكون معلومة الانتساب عند المخاطبين، والمعنى: أنَّهم كانوا يبيِّتون القول عامدين له مصرِّين عليه مع علمِهم بأنَّ اللّٰه لا يرضاه.

حسن التَّذييل في قوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطًا﴾:

مكرُ الخائنين وخداعُهم ظاهرٌ في علمِ الله

تضمَّنت جملة التَّذييل فوائدَ لغويَّةً وبلاغيَّةً، هي:

1. أفادتْ جملةُ التَّذييلِ الوعيدَ للخائنين، مِنْ حيثُ إنَّهم وإنْ

(1) الزمخشري، الكشاف: 1/563، والرازي، مفاتيح الغيب: 11/214.

كانوا يخفونَ كيفيَّةَ المكرِ والخداع عن النَّاس إلّا أنَّها كانت ظاهرةً في علمِ اللّه؛ لأنَّهُ تعالى محيطٌ بجميع المعلوماتِ لا يخفى عليه سبحانَه منها شيءٌ[1].

2. أفاد تعبيرُ ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطًا﴾ استمرارَ ثباتِ اتِّصاف اللّهِ تعالى بأنَّه بما يعملون محيطٌ، واستمرارَ ظهورِ آثارِ هذا الوصفِ الجليلِ في الدُّنيا والآخرة.

3. عبَّر بالمصدر المؤوَّل ﴿بِمَا يَعۡمَلُونَ﴾ دون الصَّريح؛ لإفادة تصويرِ حالهم، وهم يعملون مقترنًا بإحاطة اللّه بعملِهم؛ تحقيقًا للوعيدِ، وللإيذانِ بالعموم، والمعنى: واللّه محيطٌ بكلِّ عملٍ من أعمالِهم بأيِّ وصفٍ كان، وأيضًا لما يدلُّ عليه الفعل المضارعُ من استمرارِ تجدُّد عملهم واستمرارِ إحاطةِ اللّه به.

4. قدَّم ﴿بِمَا يَعۡمَلُونَ﴾، وهو معمولُ خبرِ ﴿وَكَانَ﴾ عليه؛ لإفادة الاهتمامِ والاعتناء به، لمناسبته للمقام، فإنَّ السِّياقَ في ذمِّ عملِ الخائنين.

5. في جملة التَّذييل استعارة تمثيليَّة في قوله: ﴿مُحِيطًا﴾، والمعنى: كما لا يفوت المحاط به المحيط به؛ لا يفوته تعالى أيُّ شيء من ذواتِهم وأحوالِهم الظَّاهرة والخفيَّة، ويحتمل أن يكون كنايةً عن العلم بما يعملون من جميعِ جوانبه بالشَّيء وعنِ التَّمكُّن منهم، والقدرةِ عليهم وعلى إهلاكِهم[2].

6. لَمَّا كانتْ جملةُ التَّذييلِ على معنى العمومِ والكلِّيَّةِ؛ كانت بمنزلةِ المَثَلِ في حكايتِها والتَّمثيلِ بها.

بديع تشابه الأطراف:

مناسبةُ ختمِ الآيةِ أوَّلها

جاء ختم الآية بما يناسب الابتداء بها، فإنَّه لَمَّا قال ﴿يَسۡتَخۡفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسۡتَخۡفُونَ مِنَ ٱللَّهِ﴾؛ دلَّ على أنَّهم كانوا غافلين عن إحاطةِ علمِ اللّه بهم، فجاء ختم الآية وعيدًا لهم وتوبيخًا على فعلِهم القبيحِ، فناسبَ ختمُ الآية أوَّلَها.

(1) الرازي، مفاتيح الغيب: 11/214.

(2) أبو حيان، البحر المحيط: 4/58، والخفاجي، عناية القاضي: 3/347، والقونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 7/292، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (حوط).

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الإحاطة والعلم:

الإحاطةُ من جهةِ العلم والقدرة والتَّمكُّن، والعلمُ من جهة المعلومِ لا غير

ورد في هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطًا﴾، كما ورد في آية أخرى قوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٖ مُّحِيطٗا ١٢٦﴾ [النِّساء: 126]، وجاء في آية أخرى الوصف بالعلم، فقال: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٗا ٤٠﴾ [الأحزاب: 40]، فعبَّر بوصف الإحاطة مرَّةً وبوصف العلم مرَّة أخرى، والفرق بين الاستعمالين: راجع إلى مقتضى الحالِ وسياق الآيات، فإذا كان السِّياق في بيانِ كمالِ علمِ الله، وأنَّه يعلمُ كلَّ أفعال العباد وأحوالِهم وشؤونهم؛ آثر ذكرَ العلم، ومنه قوله تعالى: ﴿أَحَاطَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عِلۡمَۢا ١٢﴾ [الطَّلاق: 12]، أي: أحاطَ بها علمُه من جميع وجوهه الَّتي يصحُّ أنْ يُعلَمَ بها، كما لا يفوت المحاطَ المحيطُ، وإذا كان السِّياقُ في بيانِ إحصاءِ الأعمالِ أو حفظِها، وأنَّها بعلمِه وفي مقدروه، وأنَّه سيجازيهم بها، فهي بمنزلة ما قبض القابضُ عليه في إمكانِ تصريفِه وتمكُّنِه منه؛ آثرَ ذكرَ الإحاطة، فالإحاطةُ: تكونُ من جهةِ العلم والقدرة والتَّمكُّن، والعلم: يكون من جهة المعلومِ لا غير[1].

(1) الراغب، المفردات: (حيط)، والعسكري، الفروق اللغوية، ص: 94.

﴿هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلۡتُمۡ عَنۡهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيۡهِمۡ وَكِيلٗا ١٠٩﴾ [النساء: 109]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

تحذيرُ المؤمنين من مناصرة الخائنين؛ لأنَّها لا تُجديهم نفعًا

لمَّا وبَّخَ اللهُ تعالى الخائنينَ على جهلِهم، وأوعدَهم على اختيانِهم؛ حذَّرَ المؤمنينَ من مناصرتِهم والتَّعصُّبِ لهم ولأهلِ المعاصي مبيِّنًا أنَّها لا تُجديهم شيئًا، مخوِّفًا لهم بما يكون عليه حالُهم يومَ القيامة، وأيضًا لمَّا نهى اللهُ تعالى عن المجادلةِ عن الَّذينَ يختانون أنفسَهم، كأنَّ سائلًا سأل: وهل تنفعهم المجادلةُ عنهم؟ فأجابَ بهذهِ الآيةِ بمعنى: لا تجادلْ عن الَّذين يختانونَ أنفسَهم؛ لأنَّ المجادلة لن تنفعَهم؛ لِتكونَ الآيةُ على سبيلِ الاستئناف البيانيِّ[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلۡحَيَوٰةِ﴾: مصدرُ حيا يحيا، جذرُه اللُّغويُّ: (حيي)، والأصلُ في معناه: أنَّه قوَّةٌ ساريةٌ تتمثَّلُ في الحِسِّ والنُّموِّ، والحياة ضدُّ الموتِ[2]، ويُطلقُ لفظُ الحياةِ على القوَّةِ النَّاميةِ الموجودةِ في النَّباتِ والحيوانِ، ومنه قيل: نبات حَيٌّ، قال ﷻ: ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ﴾، والحياةُ الدُّنيا هي الَّتي دنت، وهي مقابلةٌ للحياةِ الآخرة الَّتي تأخَّرت، وصارَ لفظُ الحياة؛ إذا أطلقَ علمًا على الحياة الدُّنيا لكثرة الاستعمال.

2) ﴿ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾: أصلُها ما يكونُ منَ الإنسان منَ القيام دفعةً واحدةً، أُدخلَ فيها الهاءُ تنبيهًا على وقوعِها دفعةً واحدةً، وهي اسمٌ من أسماءِ الآخرةِ، وهو اليومُ الَّذي يقومُ فيه النَّاسُ لربِّ العالمينَ، وهو يومُ البَعْث[3].

3) ﴿وَكِيلٗا﴾: صِيغةُ مبالغةٍ على زنة (فَعِيل)، وَالوَكَلُ: الرَّجُلُ الضَّعِيفُ، وَالتَّوَكُّلُ مِنْهُ،

(1) البقاعي، نظم الدرر: 5/395، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 5/195.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (حيي).
(3) الأزهري، تهذيب اللغة: (قوم).

وهو إِظْهَارُ العَجْزِ في الأَمْرِ، وَالاِعْتِمَادُ عَلَى غَيْرِكَ فيه، وَوَاكَلَ فُلَانٌ؛ إِذَا ضَيَّعَ أَمْرَهُ مُتَّكِلًا عَلَى غَيْرِهِ، والتَّوْكِيلُ: أن تعتمدَ على غيرك، وتجعلَه نائبًا عنك[1]، والمعنى في الآية: "ومن يتولَّى عنهم في خصومةِ ربِّهم يومَ القيامة"[2].

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

لا أحدَ يُحاجُّ اللهَ عن الخائنين يومَ القيامةِ، ولا أحدَ يكونُ وكيلًا بالخصومةِ لهم

ها أنتم أيُّها المؤمنون أو هبْ أنَّكم أيُّها المؤمنونَ - حاجَجْتم عن الخائنينَ وحاولتُم تبرئتَهم في الحياةِ الدُّنيا، فَمَنْ يحاجِجِ اللهَ عنهم يومَ القيامةِ عندَ الحسابِ أمْ مَنْ يتولَّى خصومةَ ربِّهم عنهم، أيْ: فلا يمكنُ أنْ يحاجَّ هناك أحدٌ عنهم، ولا أنْ يكونَ وكيلًا بالخصومةِ لهم[3].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

مناسبةُ تصدير الكلام بـ(ها) التَّنبيه في قولِه: ﴿هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ﴾:

التَّعجيبُ من حالِ الخائنين والنَّكيرُ عليهم بتنبيهِهم لقبحِ حالِهم

عبَّر بـ(ها) في صدرِ الآيةِ؛ لِتنبيه المخاطبين إلى أمرٍ ذي شأنٍ، وإنَّما يجيء مثلُ تركيب ﴿هَٰٓأَنتُمۡ﴾، في موضعِ التَّعجُّبِ والنَّكيرِ والتَّنبيهِ عمَّا يضلُّ عنه الإنسانُ أو يغفلُ، فلمَّا اقترنَ بالهاءِ ضميرَ المخاطبين، وقال: ﴿هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ﴾؛ كان تنبيهًا على حالِهم الَّتي غفلوا عنها، وكأنَّهم قد شُغِفوا بها، وتعجيبًا ممَّا فعلوه ونكيرًا عليهم، وهي حالةُ الجدالِ عن الخائنين والدِّفاع عنهم في الحياة الدُّنيا، ولهذا لا يقتصر في هذا الأسلوبِ على قوله: ﴿هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ حتى يُضمَّ إليه حالةٌ ما، بجملةٍ تأتي بعد هذا التَّركيبِ هي في محلِّ تعجُّبٍ ممَّا غفلوا عنه، وفي التَّركيب تأكيدٌ للتَّنبيهِ والتَّعجيبِ من حالِهم

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (وكل).
(2) ابن جرير، جامع البيان: 9/193.
(3) المراغي، تفسير المراغي: 5/150.

بإعادة (ها) مع اسمِ الإشارة ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾[1]، وفيه تنبيهٌ آخرُ دلَّ عليه السِّياقُ، كما سيأتي في بلاغةِ الالتفاتِ، فتتابعتْ ثلاثةُ تنبيهاتٍ؛ للإيذانِ بخطرِ ما وقعوا فيه من المجادلةِ عن الخائنين.

بلاغة الإسناد في قوله: ﴿هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ﴾:

أنتم: مبتدأ، وهؤلاء: خبرٌ، ونكتةُ مجيء الكلامِ على خلافِ مقتضى الظَّاهر، بالإخبارِ عن الضَّمير باسمِ الإشارةِ، هي تقريرُ مصادفةِ المجادلينَ بالوصفِ الذي همّ عليه والمقرَّر عندَهم وعندَ المخاطبين، وتمييزُهم أكملَ تمييزٍ على سبيلِ اتِّحادِ وصفِ مجادلتِهم عن الخائنين مع المسندِ إليه (أنتم)، والمعنى: أنتم هؤلاء المعروفون بأوصافِكم، وليس غيركم، كمَن يفعلُ فعلًا قبيحًا غير مرضيٍّ، فتقول له: أنت هذا، ولتنبيههم على خطأِ مجادلتهم عن الخائنين؛ ألحق الكلام بـ(ها) التَّنبيه مع ما تدلُّ عليه من التَّعجيب من أمرِهم والنَّكير عليهم كما تقدَّم كما أنَّ الإخبارَ عن الضَّمير المخاطَبِ باسمِ الإشارة؛ فيهِ تنبيهٌ لِلمخاطَبِ على حالِه التي يستقبِحُها من غيرِه، بتنزيلِه منزلةَ غيره، فمَنْ يستقبحْ حالةَ غيرِه؛ ينبغِ أنْ يستقبحَها مِنْ نفسِه[2].

مَنْ يستقبحْ حالةَ غيرِه ينبغي أنْ يستقبحَها مِنْ نفسِه

بلاغةُ الالتفاتِ في قولِه: ﴿هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ﴾:

انتقلَ الكلامُ على أسلوبِ الالتفاتِ منَ الغَيبةِ في قولِه: ﴿يَسۡتَخۡفُونَ﴾ إلى الخطابِ، فقال: ﴿هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ﴾، وغرضُه: تنبيهُ السَّامِع للإصغاء إليه للعنايةِ والاهتمامِ بما سيخبرُ عنه ولِتلوينِ الخطاب، ليكونَ أكثرَ تطريةً للكلامِ؛ وللإيذانِ بأنَّ تعديدَ جنايتِهم يُوجبُ مشافهتَهم بالتَّوبيخِ والتَّقريعِ[3].

تعدُّدُ الجنايات يوجبُ المشافهةَ بالتَّوبيخِ والتَّقريعِ

(1) الراغب، تفسير الراغب: 2/621، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/271.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/586، وأبو حيّان، البحر المحيط: 3/200.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 2/230.

مجاز الاستعارة التَّصريحيَّة في قوله: ﴿جَٰدَلۡتُمۡ﴾:

الجدالُ فيه إطالةٌ للكلامِ وامتدادٌ فيه

تقدَّم أنَّ الجدال هو استعارة تصريحيَّة تبعيَّة مأخوذٌ من فتلِ الحبلِ وليِّه وإبرامِه بجامعِ الإحكامِ والامتدادِ، لِمَا في الجدالِ من إطالةِ الكلامِ وامتدادِه.

مناسبة التَّعبير بقوله: ﴿جَٰدَلۡتُمۡ عَنۡهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾:

لا ينبغي للمؤمنين أنْ يدافعوا عن الخائنين ومَنْ يناصرُهم

وردت هذه الجملة مستأنفةً مبيِّنةً لِمَا أُجملَ في قوله: ﴿هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ﴾، فهي لبيانِ الوصفِ أو الحالةِ الَّتي وقع التَّنبيهُ عليها والتَّعجيبُ منها، وللإشعارِ بأنَّ المؤمنين لا ينبغي أنْ يدافعوا عن الخائنين ومَنْ يناصرُهم، وعبَّر بالفعلِ الماضي ﴿جَٰدَلۡتُمۡ﴾؛ لِيؤكِّدَ وقوعَ المجادلةِ عن الخائنين ومَنْ معهم، وتحتمل أنْ تكونَ صلةً عندَ مَنْ يجعل ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ اسمًا موصولًا؛ ليكونَ مجموعُ الاسمِ الموصولِ وصلتِهِ خبرًا عن (أَنتُمۡ)[1].

مجاز الإخبارِ في قوله: ﴿جَٰدَلۡتُمۡ عَنۡهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾:

مجيءُ الخبرِ على معنى التَّهديدِ والوعيدِ للمجادلينَ عن الخائنينَ

هذه الجملة وإن كانت خبرًا عن أمرٍ مضى؛ لكنَّها تتضمَّنُ تهديدًا لِمَن يجادلُ عن الخائنين، ويدافعُ عنهم؛ لمجيءِ الجملةِ في سياقِ الإنكارِ على حالةِ الجدالِ، فهو أسلوبٌ خبريٌّ مستعملٌ في معنًى مجازيٍّ[2].

نكتة إيثار المجادلة على المخاصمة:

أيُّ دفاعٍ عن الخائنين هو بمنزلةِ أشدِّ المخاصمة عنهم

لَمَّا كانت المجادلةُ هي أشدَّ المخاصمة[3]؛ عبَّر بقوله: ﴿جَٰدَلۡتُمۡ﴾، للإيذان بأنَّ أيَّ دفاعٍ عن الخائنين هو بمنزلة أشدِّ المخاصمة عنهم، أو لِتنبيه المؤمنين إلى أنَّهم قد وصلوا في الدِّفاعِ عن الخائنين وأعوانهم إلى أبلغ المخاصمة عنهم.

(1) الزمخشري، الكشاف: 1/563، والرازي، مفاتيح الغيب: 11/214.
(2) المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 1/228.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 2/230.

مناسبةُ تقييدِ الجدالِ بقولِه: ﴿فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾:

للإشعار بأنَّه قد يكون سببُ الدِّفاعِ عن الخائنين هو ما يقعُ من أسبابِ المعاشِ في الحياة الدُّنيا، وأيضًا للتَّنبيه على أنَّهم وإنْ لم يفتضحوا بسببِ جدالِكم عنهم، ولكنَّهم سينكشفونَ، ويفتضحون قريبًا، وأنَّ حالَهم ستَنْجلِي يومَ القيامةِ لقِصَرِ الحياة الدُّنيا وقربِ نهايتِها، وفي الآيةِ تَحذيرٌ لِمَنْ امتهنَ مهنةَ المُحاماةِ في أنْ يتَّقيَ اللّٰه في اختيارِ قضاياه، وألَّا يدافعَ عن شخصٍ ظهرَت خيانتُه لدينِه وأمَّتِه وبلدِه.

فضح الخائنين وانكشاف أمرهم سيكونُ قريبًا

دلالةُ الفاءِ في قولِه: ﴿فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنۡهُمۡ﴾:

تدلُّ الفاءُ على السَّببيَّةِ، والمعنى: إنَّ مجادلتَكم عن الخائنينَ في الحياة الدُّنيا سببٌ للحسابِ عليها يومَ القيامة ووقوع الحكومةِ بينَ يدي اللّٰهِ الجليلِ، ففي الكلامِ تحذيرٌ للمؤمنين من المجادلةِ عنهم[1].

المجادلةُ عن الخائنين سببٌ للحسابِ عليها يومَ القيامة

مناسبةُ ذكر الاسم الجليل في قوله: ﴿فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنۡهُمۡ﴾:

ذُكِرَ الاسمُ الجليلُ ﴿ٱللَّهَ﴾ لتربية المهابةِ والرَّدعِ تمهيدًا لاجتنابِ الجدلِ المذمومِ، وللإشعارِ بجلالِ الموقفِ، وهيبةِ السُّؤالِ للمُجادِلين، وفيه زجرٌ لمن يحاولُ الدِّفاعَ عمَّن ظهرتْ خيانتُه، وبانَ إجرامُه.

هيبةُ اللّٰه تقتضي الانتهاء من الجدال للخائنين

نكتةُ العدولِ عن المقابل إلى قوله: ﴿يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾:

عُدِلَ في الكلامِ عن ذكر مقابلِ: ﴿ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾، فلم يقلْ: (فمَنْ يجادلُ اللّٰه عنهم في الحياةِ الآخرةِ)؛ لِيكونَ على تمامِ الطِّباقِ، وألمحَ إلى الطِّباق بذكرِ يوم القيامة؛ لأنَّ يومَ القيامةِ هو من الحياةِ الآخرة؛ فهو داخلٌ في أصلِ الدِّلالة[2]، فعبَّر بيوم القيامة؛ لأنَّه الاسم الَّذي يجمع كلَّ الأوصاف الأخرى الَّتي وصف بها ذلك اليوم كالحاقَّةِ والقارعةِ والصَّاخَّةِ والطَّامَّةِ، فهو الاسم الأعمُّ والأشملُ،

يومُ القيامة هو الاسمُ الَّذي يجمعُ كلَّ الأوصافِ الَّتي وُصِفَ بها ذلكَ اليومُ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 5/395، والقونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 7/292.
(2) المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 1/228.

ولهذا أقسم ربُّنا سبحانَه بهذا الاسم دونَ غيرِه، فقال: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ ۝١﴾ [القيامة:1]، فتندرجُ فيه كلُّ أوصاف ذلك اليوم العظيم المَهولِ، كما أنَّ التَّعبير بيومِ القيامة فيه إشارةٌ إلى قيامِ النَّاس إلى ربِّ العالمين وانقطاعِ الأسبابِ عن الخائنين وعن جميعِ الخلقِ وإلى قصرِ مدَّة الحساب، وانكشافهم في ذلك اليومِ، وهو المقصودُ من السِّياقِ، ففيه مناسبةٌ لمقامِ توبيخِ الخائنين ومناصريهم لردعهم عن استمرارِهم في الخيانة.

مجازُ الاستفهامِ في قولِه تعالى: ﴿فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾:

أفادَ الاستفهامُ هنا المبالغةَ في النَّفي وإنكار وقوعِ الجدالِ عن الخائنين يومَ القيامة، على سبيلِ المجازِ، ففيه مزيدٌ منَ التَّأنيبِ والتَّوبيخِ والتَّقريعِ لهم، وفيه وعيدٌ للخائنين بتعذيبِهم وعقابِهم، والمعنى: لا أحدَ يدافعُ عنهم يومَ القيامةِ، كما أفادَ الاستفهامُ الإنكاريُّ: تقريرَ أنَّ اللّه تعالى يعلمُ حقيقةَ الأمرِ، فلا يمكنُ أن يُلْبَسَ عليه سبحانَه بجدالٍ ولا غيرِه[1].

لا أحدَ يدافعُ عن الخائنين يومَ القيامةِ، فاللهُ يعلمُ حقيقتَهم

بديعُ الجناسِ في ﴿جَٰدَلۡتُمۡ﴾ و﴿يُجَٰدِلُ﴾:

تضمَّنتِ الآيةُ بديعَ الجناسِ النَّاقصِ في قوله: ﴿جَٰدَلۡتُمۡ﴾ و﴿يُجَٰدِلُ﴾[2]، وفيه تزيينٌ لفظيٌّ وتحسينٌ في الكلام، وإشعارٌ بأنَّ الذين جادلوا عنهم في الحياة الدُّنيا لن يستطيعوا أن يجادلوا الجدال نفسه يوم القيامة، لمجيئه بلفظه، وسُلِكَ البديعُ في الكلام لتنبيه المخاطبِ إلى الإصغاءِ إلى الكلامِ، وليتشوَّف إليه.

الَّذين جادلوا عن الخائنين في الحياة الدُّنيا لنْ يستطيعوا أنْ يجادلوا الجدالَ نفسَه يومَ القيامةِ

دلالةُ ﴿أَم﴾ في قوله تعالى: ﴿أَم مَّن يَكُونُ عَلَيۡهِمۡ وَكِيلًا﴾:

تحتمل ﴿أَم﴾ أن تكون منقطعةً، فهي بمعنى: (بل)للإضرابِ

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/111، والرازي، مفاتيح الغيب: 11/214، وأبو السّعود، إرشاد العقل السليم: 2/230، والقونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 7/292.

(2) أبو حيان، البحر المحيط: 4/62.

الانتقالي، ليكون قوله: ﴿مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾ على سبيلِ التَّرقِّي في تيقُّن وقوعِ الوعيدِ والعذابِ عليهم وتقريرِه، بمعنى: أنَّ نفي الوكيلِ عنهم أشدُّ وعيدًا من نفيِ المجادلِ عنهم يومَ القيامةِ، فلا أحدَ يتحمَّلُ تبعاتِ جرائمِهم، كما تحتمل أنْ تكون متَّصلةً، والمعنى: تقريرُ نفي المجادلة عن الخائنين يومَ القيامةِ، وأن يكون عليهم وكيل يومئذٍ، والنَّفي على الإنكار[1].

نفيُ الوكيلِ عنهم أشدُّ وعيدًا من نفيِ المجادلِ عنهم يومَ القيامةِ

مجازُ الاستفهامِ في قولِه: ﴿أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾:

أفاد الاستفهامُ هنا كذلك المبالغةَ في النَّفي؛ لإنكارِ أن يكون على الخائنين وكيلٌ يومَ القيامة، على سبيلِ المجازِ، ودلَّ اسمُ الاستفهام ﴿مَّن﴾ على العمومِ، بمعنى: لا أحدَ يكونُ عليهم وكيلًا، مضمِّنًا معنى الإنكارِ، وفي الاستفهام تهديدٌ ووعيدٌ للخائنين.

تضمينُ الاستفهامِ معنى التَّهديدِ والوعيدِ للخائنينَ

نكتة مجيء حرف الجرِّ (عَلَى) في قوله: ﴿عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾:

لَمَّا كانَ الوكيلُ فيه معنى: الرِّعايةِ والعنايةِ والحفظِ، فيكون فيه معنى: التَّمكُّن من الموكِّل واستعلائه عليه للقيامِ بجميعِ شؤونِه وحاجاتِه؛ عبَّر بـ(عَلَى) دون (لَهُم).

مجازُ التَّعبيرِ في قوله: ﴿وَكِيلًا﴾:

لَمَّا كان الوكيلُ هنا بمعنى: المحامي الذي يحميهم من سخطِ اللهِ ومن عذابه؛ لأنَّ من وُكِلَ الأمرُ إليه يحافظ عليه، ويعتني به؛ كان التَّعبيرُ بالوكيل بلازمِ معناه على سبيل المجاز المرسل، بعلاقةِ السَّببيَّة، لتكثير المعنى وتوسيعِه، وليكونَ بمنزلة الحجَّة والدَّليل على نفي المحامي عنهم من عذاب الله.

إقامةُ الحجَّةِ على نفيِ المحامي عن الخائنين من عذابِ اللهِ

مناسبةُ عدمِ التَّقييدِ بيومِ القيامة في قوله: ﴿أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾:

لَمَّا كانَ من أعظمِ المحاسِنِ كفُّ الإنسانِ عمَّا لا علمَ له به، وكانَ

(1) الخفاجي، عناية القاضي: 3/347، والقونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 7/292، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 5/195.

تعميمُ الإنكارِ عن مَنْ يكونُ وكيلًا عن الخائنين؛ ليشملَ الحياةَ الدُّنيا ويومَ القيامة

المرادُ تعميمَ الإنكارِ عمَّنْ يكونُ وكيلًا عن الخائنين وإطلاقَه عن التَّقييدِ؛ ليشملَ الحياةَ الدُّنيا ويومَ القيامة، وللإشعار بأنَّ المؤمنين لم يقع منهم إلَّا المجادلة عن الخائنين لإخبارِه عنها بصيغة الماضي، لأجلِ هذا كلِّه لم يقيِّدِ الجملةَ بيومِ القيامةِ، كما قيَّد الجملةَ التي سبقتها، فنبَّه على قبحِ المجادلةِ عنهم بقصور علم الخلائق[1].

(1) البقاعي، نظم الدرر: 5/396.

﴿وَمَن يَعۡمَلۡ سُوٓءًا أَوۡ يَظۡلِمۡ نَفۡسَهُۥ ثُمَّ يَسۡتَغۡفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ١١٠﴾ [النساء: 110]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

المخرجُ من الذُّنوب بالتَّوبة من كلِّ سوءٍ

لمَّا نهى اللّه تعالى في الآيةِ السَّابقةِ عن الجدالِ عن الخائن والانتصار له، وحذَّر من الوقوعِ فيه، وتمكَّنَ الوعيدُ وقضتِ العقولُ بألَّا مُجادِلَ للّه، ولا وكيلَ يقومُ بأمورِ العُصاة عنده؛ عقَّبَ ذلك بهذه الآيةِ الَّتي تفتحُ بابَ العفوِ، وتحملُ هذا الرَّجاءَ العظيمَ، ونبَّههم إلى المخرجِ من الذَّنبِ بأنْ ندبَ إلى التَّوبة من كلِّ سوءٍ؛ ليدخلَ فيه الجدالُ عن الخائنين دخولًا أوَّليًّا[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿سُوٓءًا﴾: السُّوءُ نعتٌ لكلِّ شيءٍ رديءٍ أو آفةٍ أو داء، وساء الشَّيءُ: قَبُح؛ فهو سيِّئٌ، ورَجُلٌ أَسْوَأُ، أي: قَبِيحٌ، وامْرَأَةٌ سَوْآءُ، أَيْ: قَبِيحَةٌ، وَلِذَلِكَ سُمِّيَتِ السَّيِّئَةُ سَيِّئَةً، وَسُمِّيَتِ النَّارُ: سُوأَى؛ لِقُبْحِ مَنْظَرِهَا، والسُّوء: ما يحصلُ للإنسانِ منَ الغمِّ والهمِّ من أمورِ الدِّنيا والآخرةِ، وما يَعرضُ له منَ الأمورِ النَّفسيَّةِ كفقدِ المالِ والجاهِ وغيرِه[2]، ومعنى السُّوءِ في الآية: الذَّنْبُ أو الأمر القبيح، أي: من يعملْ ذنْبًا، أو من يعمل أَمرًا قبيحًا يسوءُ به غيره[3].

2) ﴿يَظۡلِمۡ﴾: يدورُ معنى الظُّلم في اللُّغةِ على حجبِ ما يَنبغي، أو ما يُسْتَحقُّ بمنعِه أو انتقاصِه، كمَنْعِ الضَّوءِ في حالة الظُّلمةِ، وكمنعِ المطرِ عنِ الأرض المظلومةِ، فهو وضعُ الشَّيءِ في غيرِ موضعِه

(1) البقاعي، نظم الدرر: 5/396.
(2) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات: (سَوَأَ).
(3) ابن جرير، جامع البيان: 9/194.

المُختصِّ به، إمَّا بنُقصانٍ أو بزيادةٍ، وإمَّا بعدولٍ عن وقتِه أو مكانِه، ومن هذا يقال: ظَلَمْتُ السِّقَاءَ؛ إذا تناولتُه في غير وقتِه، ويقال فيما يكثر وفيما يقلُّ من التَّجاوز، ولهذا يستعمل في الذَّنب الكبير، وفي الذَّنب الصَّغير، ومعنى يظلم نفسه: أن يعدلَ عن الطَّاعةِ ويقترفَ الذُّنوبَ التي يُغضِبُ بها اللّه، ويستحقَّ بسببِها عقابَه[1].

3) ﴿يَجِدِ﴾: يأتي الفعل وجدَ بمعنى: الإصابةِ، وبمعنى: العِلمِ، أي: وجود الشَّيء على صفَةٍ أو حال، أي: العلم بوجودها فيه، فهو بمعنى الشَّيء يُلفيه، وهو المقصودُ هنا، والمعنى المحوريُّ له: هو تحصُّلُ شيءٍ ذي بالٍ في حَوْزةٍ كانت خاليةً منه، كالمالِ والضالَّةِ، والتحقُّقُ عن عدمٍ، أو العلمُ بأمرٍ ذي بالٍ على حالٍ أو صفةٍ لم يكن عالمًا به[2]، ومعنى ﴿يَجِدِ﴾ في الآية "أي: يجدُ عِنْدَه المَغْفِرةَ والرَّحْمَةَ، فجعلَ المَغْفِرَةَ كالمَوردِ يردُه التَّائِبُ المُستَغْفِرُ"[3].

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

التَّرغيبُ في الاستغفارِ لمَن أساءَ إلى غيرِه أو ظلمَ نفسَه

مَنْ يعملْ عملًا سيِّئًا قبيحًا، أو يظلمْ نفسه بما يُوجبُ العقوبةَ منَ اللّه، ثمَّ يستغفرِ اللّه نادمًا على ما عمل، راجيًا مغفرتَه وسترَ ذنبِه؛ يجدِ اللّه تعالى غفورًا لجميعِ ذنوبِه رحيمًا متفضِّلًا عليه.

الإِيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

نكتةُ التَّعبيرِ باسم الشَّرطِ ﴿وَمَن﴾:

اسمُ الشَّرطِ يفيدُ عمومَ الشَّرطِ وعمومَ الجزاء

عبَّر بـ ﴿وَمَن﴾ لإفادة عمومِ الشَّرطِ، فليس الأمرُ مختصًّا بأصحابِ الحادثةِ التي نزلت فيهم هذهِ الآياتُ، وهم ويدخلون في عمومِ الشَّرطِ دخولًا أوَّليًّا، وإذا كانَ الشَّرطُ على معنى العمومِ؛ كان الجزاءُ مثلَه يفيدُ العمومَ، والمعنى: استغراق الشَّرطِ كلَّ فردٍ

(1) الأزهري، تهذيب اللغة، والراغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (ظلم).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (وجد).
(3) ابن عادل، اللباب في علوم الكتاب: 7/11.

ممَّن يعملُ سوءًا، أو يظلمُ نفسَه، ثمَّ يستغفر اللّه، واستغراق وجدانِ مغفرة اللّه ورحمته وتعميمِه لكلِّ فردٍ من أفرادِ الشَّرط ممَّن تحقَّق بالاستغفار.

بلاغة التَّعبير بأسلوب الشَّرط:

حصولُ مغفرةِ اللهِ ورحمتِه في وقتِ وقوعِ الاستغفار

لمَّا كان الشَّرطُ بمنزلة السَّببِ لوقوعِ الجزاءِ، وكانَ الجزاءُ مقترنًا بوقوعِ الشَّرط من غيرِ مهلةٍ؛ دلَّ الكلامُ على اقترانِ مغفرة اللّه ورحمته بحصولِ الاستغفار من عملِ السُّوء أو من ظلم النَّفسِ باقتراف المعصيةِ، أي: إنَّ حصولَ مغفرةِ اللّهِ تعالى للتَّائبِ ورحمتِه به في وقتِ وقوعِ الاستغفار من عملِ السُّوءِ أو ظلمِ النَّفسِ.

نكتةُ العطفِ في قوله: ﴿وَمَن يَعۡمَلۡ سُوٓءًا أَوۡ يَظۡلِمۡ نَفۡسَهُۥ ثُمَّ يَسۡتَغۡفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾:

التَّوبةُ مقبولةٌ عن جميعِ الذُّنوبِ سواء كانت كفرًا أم قتلًا، أم غصبًا للأموال

لمَّا كان لفظ ﴿سُوٓءًا﴾ نكرةً، فيشملُ كلَّ قبيحٍ من المعاصي صغيرًا أو كبيرًا ممَّا يتعدَّى إلى النَّاسِ، فيورثُ الهمَّ والغمَّ، وكان ظلم النَّفس يشملُ كلَّ ذنبٍ صغيرٍ أو كبيرٍ ممَّا يختصُّ بالإنسانِ، ولا يتعدَّى إلى الآخر؛ دلَّ عمومُ الشَّرطِ على أنَّ التَّوبةَ مقبولةٌ عن جميعِ الذُّنوبِ سواء كانت كفرًا أم قتلًا، أم غصبًا للأموال؛ لأنَّ قوله: ﴿وَمَن يَعۡمَلۡ سُوٓءًا أَوۡ يَظۡلِمۡ نَفۡسَهُۥ﴾ استغرقَ جميعَ الذُّنوبِ والمعاصي، ويحتملُ أنْ يكونَ معنى السُّوء: كلَّ معصيةٍ تسوءُ صاحبَها وغيرَه؛ لأنَّ السَّيِّئَةَ تسوءُ صاحبَها أيضًا بالهمِّ والغمِّ حالًا أو مآلًا، ويكون معنى ﴿يَظۡلِمۡ نَفۡسَهُۥ﴾ فعلَ المعصيةَ الَّتي يقتصرُ ضررُها على النَّفسِ، فيكونُ العطفُ بـ﴿أَوۡ﴾ من عطفِ الخاصِّ على العامِّ؛ لِيفيدَ المبالغةَ والاهتمام بأثرِ الذَّنبِ على النَّفسِ؛ لأنَّه منشأُ كلِّ سوءٍ وضررٍ[1]، وذهبَ بعضُ المفسِّرين إلى أنَّ السُّوءَ هو كلُّ ذنبٍ دونَ الشِّركِ، وظلمُ النَّفسِ يكونُ بالشِّركِ باللّهِ تعالى، أو أنْ يكونَ

(1) الزمخشري، الكشاف: 1/563، والرازي، مفاتيح الغيب: 11/215، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 5/196.

السُّوءُ للصَّغائرِ، وظلمُ النَّفسِ للكبائر، وبالجملةِ فهما متغايرانِ بسببِ العطفِ[1].

مناسبة إيثار لفظ السُّوء في الآية:

وإنَّما خصَّ ما يتعدَّى إلى الآخر باسمِ السُّوء - سواءٌ أكانَ السُّوء بمعنى: كلِّ قبيحٍ من المعاصي التي تتعدَّى إلى الآخر أم التي تكون للنَّفس وللآخر - لأنَّ السُّوءَ يكونُ في الأكثر إيصالًا للضَّرر إلى الآخر، والضَّررُ سوءٌ حاضرٌ، ويشيرُ التَّعبيرُ بالسُّوء إلى أنَّه يورثُ الغمَّ والحزنَ للآخر، فأمَّا الذَّنب الَّذي يخصُّ الإنسان؛ فذلك في الأكثر لا يكون ضررًا حاضرًا؛ لأنَّ الإنسانَ لا يوصلُ الضَّررَ إلى نفسِه[2].

عملُ السُّوء يورثُ الهمَّ والغمَّ للآخر

نكتةُ التَّعبيرِ بقولِه: ﴿يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ﴾:

للإشعار بأنَّ الإنسانَ إنْ عملَ معصيةً؛ فإنَّه وضعَ نفسَه في غيرِ موضعِها، وانتقص حقَّها، فظلمَها بالمعصية، وأنَّ العدلَ مع النَّفسِ: في طاعةِ اللّٰه، وظلمَ النَّفس: في معصيةِ اللّٰه.

مَنْ عملَ معصيةً؛ انتقصَ من حقِّ نفسِهِ، وظلمَها بالمعصيةِ

مناسبةُ تقديمِ ﴿يَعْمَلْ سُوٓءًا﴾ على ﴿يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ﴾:

قدَّم ما يكونُ ضررُه على الآخر على ما يكون مختصًّا بالنَّفسِ، ؛ لأنَّ الإضرارَ بالآخر أقبحُ وأشدُّ.

الإضرارُ بالآخر أقبحُ وأشدُّ من الإضرارِ بالنَّفسِ

مناسبةُ العطفِ في جملة الشَّرط:

لمَّا كانَ العطفُ بـ﴿ثُمَّ﴾ على معنى التَّشريك بين المعطوفِ والمعطوفِ عليه بمعنى: اجتماعِهما؛ كانَ قولُه تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ﴾ دالًّا على أنَّ الجزاء لا يتحقَّق من دون استغفارٍ صادقٍ.

الاستغفارُ الصَّادقُ سببٌ لمغفرةِ اللّٰه ورحمتِه

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 2/96، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/59، وأبو السّعود، إرشاد العقل السليم: 2/230.

(2) الرازي، مفاتيح الغيب: 11/215، والقونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 7/292.

دلالةُ حرفِ العطفِ ﴿ثُمَّ﴾:

رفعةُ مقامِ الاستغفارِ وعلوُّ مكانتِه عندَ اللهِ

أفادت (ثمَّ) هنا معنى: التَّراخي في الرُّتبة والمكانةِ، للإشعار برفعة مقامِ الاستغفار وعلوِّ شأنِه عندَ اللّه تعالى.

بلاغة الاستعارة في قوله تعالى: ﴿يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾:

اللهُ أكرمُ من أن يَردَّ توبةَ عبده؛ إذا لجأَ إليه

في قولِه تعالى: ﴿يَجِدِ ٱللَّهَ﴾ استعارةٌ تصريحيَّةٌ تبعيَّةٌ؛ إذِ استعارَ الفعلَ ﴿يَجِدِ﴾ الَّذي يكون بمعنى وجدانِ الشَّيءِ على حالةٍ ممَّا يُرغبُ فيه على سبيلِ الظَّفَرِ به ومشاهدتِه، وبيانُه أنَّ اللّه تعالى لمَّا أعدَّ الغفرانَ والرَّحمةَ للمستغفرين التَّائبين؛ كانوا كالواجدين لمطلوب عظيم قد ظفروا به، وتحقَّقوا من الحصولِ عليه، وكَأَنَّ ٱلْمَغْفِرَةَ وَالرَّحْمَةَ مُعَدَّانِ لِطَالِبِهِمَا، مُهَيَّآنِ لَهُ، مَتَى طَلَبَهُمَا؛ وَجَدَهُمَا بتحقيقِ الاستغفار، وكأنَّ التَّوبةَ ورودٌ على رحمة اللّه وقربٌ من اللّه، وإذا وجدهما؛ سيظفر بما يحصل عليه، فأطلق الوجدان على تحقيق المغفرةِ والرَّحمةِ على وجهِ الاستعارة، ومن مناسباتِ الاستعارة بـ﴿يَجِدِ﴾: الإشعارُ بمشاهَدةِ التَّائبِ لآثارِ المغفرةِ والرَّحمةِ مثلَ: كراهةِ الذَّنبِ والرَّغبةِ في الأعمالِ الصَّالحة؛ لِتكونَ مشاهدةُ هذهِ الآثارِ نعمةً زائدةً على نعمة المغفرةِ والرَّحمة، ومن فوائدها هنا: تحقيقُ مغفرةِ اللّه ورحمتِه للمستغفرِ وتأكيدُ حصولِهما، بطريقِ الإثبات بالدَّليل، وَهَذِهِ ٱلْآيَةُ فِيهَا لُطْفٌ عَظِيمٌ وَوَعْدٌ كَرِيمٌ لِلْعُصَاةِ؛ إِذَا ٱسْتَغْفَرُوا ٱللَّهَ[1].

من لطائف الحذفِ في قوله: ﴿يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾:

تعميمُ المغفرةِ والرَّحمةِ لكلِّ طالبٍ لهما ودوامهما

لمَّا قال اللّه تعالى في جملةِ الجزاءِ: ﴿يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾؛ كان المعنى: يجدِ اللّه غفورًا رحيمًا لَه، فحذف قيدَ (لَه)؛ لدلالةِ الكلام عليه، فإنَّه لا معنى للتَّرغيب في الاستغفار إلَّا إذا كان

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/111، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/59، وأبو السّعود، إرشاد العقل السليم: 2/230، ورضا، تفسير المنار: 5/326، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 5/196.

المرادُ ذلك، وأيضًا لإفادةِ العمومِ وثبوتِ الوصفين ودوامِهما بما دلَّ عليه الإطلاقُ[1].

سرُّ التَّعبيرِ بقوله: ﴿غَفُورًا رَّحِيمًا﴾:

قبولُ التَّوبةِ من كلِّ تائبٍ بفضلِ اللهِ وإنعامِهِ

ورد الوصفان على صيغةِ المبالغةِ بمعنى: كثيرِ الغفرانِ وكثيرِ الرَّحمة، وذلك كنايةٌ عن استغراقِ الوصفين لكلِّ مستغفرٍ تائبٍ وعن تعجيلِهما وظهورِ آثارِهما، كما يدلُّ عليه السِّياقُ، فيصير المعنى: يجدِ اللهَ غافرًا له راحمًا له؛ لأنَّه عامُّ المغفرةِ والرَّحمةِ، فلا يخرجُ منها أحدٌ استغفرهُ، وتابَ إليه، ولا يتخلَّفُ عنه شمولُ مغفرتِه ورحمتِه زمنًا، فكانتْ صيغةُ ﴿غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ مع الفعلِ ﴿يَجِدِ﴾ دالَّةً على القبولِ من كلِّ تائبٍ بفضلِ اللهِ.

سِرُّ التَّعبيرِ بـ ﴿يَعْمَلْ﴾ دونَ (يفعل):

المغفرةُ لمن عملَ الذَّنبَ من غيرِ قصدٍ ألصقُ ممَّن عمله بقصدٍ

عبَّرَ بـ ﴿يَعْمَلْ﴾ دونَ (يفعل)؛ للإشارةِ إلى كمالِ مغفرتِه وعفوِه، فالعملُ: يكونُ بقصدٍ غالبًا، والفعلُ: يكونُ بغيرِ قصدٍ، فإذا كانتِ المغفرةُ تأتي لمن عملَ السُّوءَ بقصدٍ، واستغفَر؛ فغُفرَ له، فكيف بمن وقعَ منه الذَّنبُ من غيرِ قصْدٍ، فالمغفرةُ به ألصقُ.

سرُّ تتابعِ الفعلِ المضارعِ في قولِه: ﴿يَعْمَلْ﴾ ﴿يَسْتَغْفِرِ﴾ ﴿يَجِدِ﴾:

عبَّرَ بالمضارعِ في قولِه: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا﴾؛ للإشعارِ باستمرارِ الاستغفارِ وتجدُّدِه حالًا فحالًا، كلَّما عملَ سوءًا، أو ظلمَ نفسَه، واستمرارِ مغفرةِ اللهِ له ورحمتِه به.

بلاغةُ مجيءِ الكلامِ على خلافِ مقتضى الظَّاهر:

المغفرةُ والرَّحمةُ وصفانِ لا يشاركُهُ فيهما غيرُهُ سبحانَه

ذكرَ الاسمَ الجليلَ، وأظهرَه في مقامِ الإضمارِ في قوله: ﴿يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾، فجاء الكلامُ على خلافِ مقتضى الظَّاهر، إذ لم يأتِ بالضَّمير معَ قربِ ذكرِ الاسمِ الجليل، فلمْ يقلْ: (يَجِدِه

(1) الرازي، مفاتيح الغيب: 11/215.

غَفُورًا رَّحِيمًا)، وفائدةُ ذكرِ الاسمِ الجليلِ: التَّربيةُ بالمهابةِ لنفوسِ السَّامعين، والتَّلذُّذ بذكرِهِ سبحانه؛ لِمناسبةِ مقامِ المغفرةِ والرَّحمةِ بعدَ الاستغفار، وأيضًا لمَّا كانَ الاسمُ الجليلُ ﴿ٱللَّهَ﴾ مختصًّا به تعالى؛ آذنَ بأنَّ المغفرةَ والرَّحمةَ وصفانِ لا يشاركُهُ فيهما غيرُهُ سبحانَه.

﴿وَمَن يَكۡسِبۡ إِثۡمٗا فَإِنَّمَا يَكۡسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا ١١١﴾ [النساء: 111]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

ولَمَّا ندبَ إلى التَّوبةِ في الآية السَّابقةِ، ورغَّبَ فيها؛ بيَّنَ أنَّ ضررَ إثمِهِ لا يتعدَّى نفسَه، ووبالَه راجعٌ عليه لا على غيرِه حثًّا على التَّوبة وتهييجًا إليها؛ لِمَا جُبِلَ عليه كلُّ أحدٍ من محبَّةِ نفعِ نفسِه ودفعِ الضُّرِّ عنها[1].

ضررُ الإثمِ لا يتعدَّى صاحبَه ووبالُه راجعٌ إليه

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَكۡسِبۡ﴾: يدلُّ الكسبُ على ابتغاءِ الشَّيءِ وطلبِهِ والحصولِ عليه، ممَّا فيهِ اجتلابُ نفعٍ، وتحصيلُ حظٍّ، كَكَسْبِ المالِ، وقد يستعملُ فيما يَظنُّ الإنسانُ أنَّه يجلبُ منفعةً، ثمَّ استجلبَ به مضرَّةً، والكَسْبُ يُقالُ فيما أخذَه لنفسِهِ ولغيرِهِ، والاكْتِسَابُ لا يقالُ إلَّا فيما استفدتَه لنفسِكَ[2]، ومعنى ﴿يَكۡسِبۡ﴾ في الآية: يأت ذنبًا عامدًا له عالمًا به[3].

2) ﴿إِثۡمٗا﴾: يدورُ معنى الإثمِ: على البطءِ والتَّأخُّرِ لثقلِ الشَّيءِ أو لحملِه الثَّقيل، ومنه ناقةٌ آثمةٌ، أيْ: متأخِّرَة، والإثمُ مشتقٌّ من ذلك؛ لأنَّ ذا الإثم بطيءٌ عن الخير متأخِّر عنه؛ لما اقترفه من الوزرِ، وكأنَّ الذُّنوبَ التي يقترفُها الأثيمُ ينوءُ بها حَمْلًا، و﴿إِثۡمٗا﴾ في الآية بمعنى: الذَّنب أو الوِزر، لثقلِ الذَّنب على صاحبه، ولأنَّه يُبطِئُه عن الثَّواب[4].

(1) البقاعي، نظم الدرر: 5/397.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، والجوهري، الصحاح: (كسب).
(3) ابن جرير، جامع البيان: 9/196.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، والجوهري، الصحاح، وحسن جبل، المعجم الاشتقاقي: (أثم).

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

وبالُ الذَّنبِ على فاعلِه وضرُّه وعارُه على نفسِه

ومن يأت ذنبًا على عَمْدٍ منه له ومعرفةٍ به، فإنَّما يجترحُ وبالَ ذلك الذَّنبِ وضرَّه وعارَه على نفسه، دون غيره، وكان اللّٰه عليمًا بأمر عباده حكيمًا في قضائِه وتدبيرِه[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

مناسبةُ الوصلِ بالواو في الآية:

التَّرغيبُ في التَّوبةِ والتَّحذيرُ من تركِها

عُطفتْ هذه الآيةُ على ما قبْلَها بالواو؛ لمناسبةِ الجمعِ بينهما في التَّرغيبِ في التَّوبةِ وللتَّحذيرِ من أنَّ مَنْ لا يستغفرِ اللّٰه؛ يعاقبْه اللّٰه عقابًا شديدًا، ومن مناسباتِ الوصلِ: توافق الآيتين في أسلوبِ الشَّرط.

دَلالةُ اسم الشَّرط ﴿وَمَن﴾ في قولِه تعالى: ﴿وَمَن يَكْسِبْ﴾:

الإنسانُ لا يحملُ إثمَ غيرِه عليه

عبَّرَ بـ ﴿وَمَن﴾؛ لإفادة عمومِ الأشخاص في الحُكم، ولمَّا كان كلُّ إنسانٍ غيرَ حاملٍ لشيءٍ من إثمِه على غيرِه؛ لأنَّه يكسبُه على نفسه؛ دلَّ بلازمِ فائدةِ الكلامِ على أنَّه غيرُ حاملٍ لشيءٍ من إثمِ غيره عليه، لأنَّ إثمَ غيرِه يحملُه صاحبُه على نفسِه.

بلاغة الاستعارة في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾:

الإثمُ لا نفعَ فيه ولا ربحَ، لفضيحةِ الآثمِ في الدُّنيا وخزيِه في الآخرة

عبَّر بـ﴿يَكْسِبْ﴾ على طريقة الاستعارةِ العناديَّةِ التَّهكُّميَّة، فالأصلُ في الكسبِ ما يُجَرُّ به نفعٌ وخيرٌ، وفيه معنى الرِّبحِ، فاستعارَه لما يجلبُ ضرًّا وخسارةً، تنبيهًا أنَّ صاحبَه يُقدِّرُ فيما تحرَّاه أنَّه يكسبُ خيرًا، وينتفعُ به، والحالُ أنَّه يكسبُ شرًّا، ويكونُ وبالُه عليه عقوبةً وعذابًا في الدُّنيا والآخرةِ، فأفادَتِ الاستعارةُ التَّهكُّميَّةُ أنَّ ما يُتوهَّمُ فيه الخيرُ من الإثم ليس هو إلَّا شرًّا خالصًا وضُرًّا سيِّئًا،

(1) ابن جرير، جامع البيان: 9/196.

فكأنَّ صاحبَ الإثم قد أُسقطَ في يديه لِمَا خابَ ظنُّه فيه من فضيحةٍ له في الدُّنيا، ومهانتِه بينَ النَّاسِ، ومن خزيِه في الآخرة وعظَمِ عقوبتِه عندَ اللّهِ تعالى[1].

دلالةُ التَّعبيرِ بالفعلِ المضارع ﴿يَكْسِبْ﴾:

للإشعارِ بأنّ صاحبَ الإثمِ مستمرٌّ عليه على سبيلِ التَّجدُّدِ والحدوثِ، وكأنَّه قد تعوَّدَ عليه، لكسبِه الإثمَ حالًا فحالًا.

دلالةُ التَّنكيرِ في قوله: ﴿إِثْمًا﴾:

لَمَّا كان تنكيرُ الاسمِ في سياقِ الشَّرطِ يفيدُ العمومَ؛ دلَّ على أنَّ المرادَ بالإثم: أيُّ إثم، كان صغيرًا أو كبيرًا، قليلًا أو كثيرًا متعدِّيًا ضررُه إلى الآخر أو قاصرًا على صاحبِه، فيُستفادُ من العموم في قوله: ﴿وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا﴾، عمومُ الأشخاصِ والآثامِ والأحوالِ الَّتي يقع فيها كسبُ الآثام، ويندرجُ تحتَ هذا العمومِ وتوبيخِه من نزلت فيهم هذه الآياتُ[2].

استغراقُ معنى الإثمِ لِمَا كانَ صغيرًا أو كبيرًا، قليلًا أو كثيرًا متعدِّيًا ضررُه أو قاصرًا

بلاغةُ اتِّحادِ الشَّرطِ والجزاءِ في الآية:

لَمَّا كان الأصل في الجزاء أن يكون مغايرًا للشَّرط؛ كان الجزاء في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾ على خلافِ مقتضى الظَّاهر، فإنَّ مَنْ يحمل إثمًا؛ يحمله على نفسه، فيكونُ المقصودُ من الجزاء لازمَ فائدته، ويكونُ للجزاءِ معنيان: أحدهما: فإنَّما يكسبُه على نفسه لا على غيره، ويقوِّيه مجيءُ لفظ (نفسه) أي: لا على غيرِه، أي: لن يحملَ غيرُه إثمَه عنه، والثَّاني أن تكونَ عاقبةُ الإثمِ عائدةً عليه، لا تتعدَّاه إلى غيرِه، فيكون معنى الضَّمير العائد إلى الإثم في قوله: ﴿فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ﴾ مغايرًا لدلالةِ الإثم المذكور؛ لإفادتِه الحكمَ اللَّاحِقَ عنِ المعصيةِ جزاءً للذَّنبِ، فيكون في الضَّمير

التَّحذيرُ من تعريضِ النَّفسِ للعقابِ والعذابِ عاجلًا وآجلًا

(1) الراغب، تفسير الراغب: 3/1423.

(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/111.

الاستخدامُ البلاغيُّ، ونكتةُ العدولِ إلى اتِّحاد الشَّرط والجزاء: تفخيمُ الجزاءِ والمبالغةُ فيه، وكأنَّ الجزاء لا يقادَرُ قدرُه، فيذكر، والمعنى: أنَّ الجزاء هو الكاملُ البالغُ النِّهايةِ في تعظيمِ خطرِ كسب الإثم وتحمُّل عاقبتِه ووبالِه[1]

براعةُ القصرِ بـ﴿فَإِنَّمَا﴾ في قولِه تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾:

لمَّا عبَّر بـ(إنَّما)؛ دلَّ على أنَّ تحمُّلَ صاحبِ الإثم إثمَه بأنْ يكونَ وبالُه وعاقبتُه عليه، لا تتعدَّاه إلى غيرِه حكمٌ منكشفٌ جليٌّ لا يحتاج إلى دليلٍ؛ لظهورِه في نفسِ الأمرِ، فهو بمنزلةِ الحقيقةِ الثَّابتةِ، فيعرفُه صاحبُ الإثمِ وغيرُه، ليفيدَ المبالغةَ في توبيخِه لعلمِه بعاقبةِ ما يعملُ، والمعنى: ما يكسبُ صاحبُ الإثمِ إثمَه إلَّا على نفسِه، ليفيدَ انحصارَ عقوبةِ كسبِه الإثمَ على نفسِه؛ ليكونَ من قصْرِ الموصوفِ على الصِّفةِ على طريقة القصرِ الإضافيِّ.

توبيخُ صاحبِ الإثم لعلمِه بأنَّ وبالَ إثمِه عليه

نكتةُ التَّعبيرِ بالنَّفس في قولِه: ﴿فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾:

لمَّا كان الكسبُ بمعنى: جلبِ منفعةٍ أو ربحٍ إنَّما يكونُ لِلنَّفس برغباتها وشهواتها؛ عبَّر بالنَّفسِ لمناسبَتِه للسِّياق، للإشعارِ بأنَّ مآلَ كسبِ الإثم إلى النَّفس الَّتي رغبوا في تحصيل لذَّةِ المنفعةِ لها، ففي الكلامِ توبيخٌ وتقريعٌ على ما أبطنوه في كسبِ الإثم.

كسبُ الإثمِ لتحقيقِ رغباتِ النَّفسِ وشهواتِها

نكتة التَّعبيرِ بحرف الجرِّ ﴿عَلَىٰ﴾ في قولِه تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾:

عبَّرَ بحرف الجرِّ ﴿عَلَىٰ﴾ المفيدِ لِلاستعلاءِ، على معنى: أنَّ كسبَ الإثمِ يورثُ اسْتِعْلَاءَه على صاحبِه وَاسْتِيلَاءَهُ وَقَهْرَهُ لَهُ[2].

كسبُ الإثمِ يورثُ استيلاءَه عليه وقهرَه له

بديعُ الجناس في قوله: ﴿يَكْسِبْ﴾ و﴿يَكْسِبُهُۥ﴾:

تضمَّنت الآيةُ الجناسَ التَّامَّ في الفعل (يكسب)[3]، للإشارة

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/111، والزركشي، البرهان: 2/369، والسبكي، عروس الأفراح: 2/246.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 4/60.
(3) أبو حيان، البحر المحيط: 4/62.

إلى أنَّ الَّذي يكسب خطيئةً أو إثمًا؛ فإنَّ عينَ ما كسبَه سيكونُ وبالًا عليه.

حسنُ التَّذييل في قوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾:

1. دلَّ التَّعبير بـ(كان) على دوام اتِّصافِ اللّه بالعلمِ والحكمةِ وعلى ظهورِ آثارِ علمِه وحكمتِه في النَّاس.

2. ناسبت جملة التَّذييل ما تقدَّمها في الآية؛ للإشعارِ بأنَّ اللّه تعالى يَعْلَمُ جَمِيعَ مَا يَكْسِبُ، لَا يَغِيبُ عَنْهُ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ، ومجازاته بأن يكون وبالُ إثمِه عليه لا يتعدَّاه إلى غيره بِمَا تَقْتَضِيهِ حِكْمَتُهُ ﷻ.

3. قدَّم ﴿عَلِيمًا﴾ على ﴿حَكِيمًا﴾ للإشارة إلى علمِه بِذَلِكَ الإِثْمِ وَإِلَى مَا يَسْتَحِقُّ عَلَيْهِ فَاعِلُهُ[1].

4. لَمَّا كانتْ جملةُ التَّذييلِ على معنى العمومِ والكلِّيَّةِ؛ كانت بمنزلةِ المَثَلِ في حكايتِها والتَّمثيلِ بها.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الذَّنب والإثم:

يسمَّى الذَّنب ذنبًا اعتبارًا لِمَا يحصلُ من عاقبته

سُمِّيَ الإثمُ إثمًا؛ لأنَّه يُبطِّئ عن الخير، وفيه معنى التَّعمُّد ويشمل التعدِّيَ إلى الآخر

عبَّرَ في الآية الكريمة بالإثم دونَ الذَّنْب؛ لوجودِ فرقٍ بينَهما، فالذَّنْبُ في الأصلِ: هو الأخذُ بذَنَبِ الشَّيءِ، يقال: ذنبْتُه: أصبتُ ذنَبَه، ويُستعملُ في كلِّ فعلٍ يُستوخمُ عُقباه اعتبارًا بذنَب الشَّيءِ، ولهذا يُسمَّى الذَّنْبُ تبعةً، وعقوبةً اعتبارًا لما يحصلُ من عاقبته[2].

والإثمُ في اللُّغة معناهُ: البُطءُ والتَّأخُّرُ عنِ الخير، مأخوذٌ من قولهم: ناقةٌ آثمةٌ، أي: متأخِّرةٌ في سيرِها، فالإثمُ: يُبطِّئ عن الخير، وفيه معنى: التّعمّد، كما تقدّم في شرحِ المفردات، ويشمل السوءَ المتعدّي إلى الغيرِ وظلمَ النّفس القاصرِ على النّفسِ، فيستحقُّ عليه

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 4/59 - 60.
(2) الراغب، المفردات: (ذنب).

صاحبُه الذّمَّ واللَّومَ، ويُطلقُ كذلك على الفعلِ الذي تَنفرُ منه النَّفسُ، ولا يطمئنُّ إليه القلبُ[1]، فعبَّر بالإثم دونَ الذَّنب في الآية؛ لما يقتضيه السِّياق ومقامُ الكلام، وبيانُه أنَّه لمَّا كان المرادُ تعميمَ الكلام ليشملَ السُّوء وظلم النَّفس اللَّذين وردا في الآية السَّابقة، والإيذانَ بأنَّ صاحبَ المعصيةِ يتأخَّرُ عن الثَّواب، ولن يفوزَ به، وأنَّ وبالًا عظيمًا سيصيبُه بسبب معاصيه الَّتي يقترفها عمدًا؛ عبَّر بالإثمِ دونَ الذَّنب.

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 1/469، و4/59.

﴿وَمَن يَكۡسِبۡ خَطِيٓـَٔةً أَوۡ إِثۡمٗا ثُمَّ يَرۡمِ بِهِۦ بَرِيٓـٔٗا فَقَدِ ٱحۡتَمَلَ بُهۡتَٰنٗا وَإِثۡمٗا مُّبِينٗا ١١٢﴾ [النساء: 112]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

رمـــيُ الـــبريءِ بـــالإثـــمِ أشـــدُّ عـــقـــوبـــةً مـن اقترافِه

لَمَّا ذكرَ في الآيةِ السَّابقةِ ما يقترفُه الإنسانُ من إثم يخصُّه، ولا يتعدَّى إلى غيرِه؛ "أتبعَهُ بذكر ما يُعدِّيه إلى غيرِه، فذكرَ السَّيِّئ ثمَّ الأسوأ[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿خَطِيٓـَٔةً﴾: يدور معنى الخطيئة على تَعَدِّي الشَّيْءِ، وَالذَّهَابِ عَنْهُ، ويقال: أخطأ؛ إذا فعل خلاف الصَّواب، وإذا أذنب؛ لأنَّه يترك وجهَ الخيرِ ويتجاوزُه، وَالخَطِيئَةُ: الذَّنْبُ، والجمع: الخطيئات والخطايا، ويُقالُ: أخطأ؛ إذا سلكَ سبيلَ خطأ عامدًا أو غيرَ عامد[2]، ومعنى الخطيئةِ في الآية: هي الذّنْبُ الَّذي يكونُ بين العبدِ وربِّه[3].

2) ﴿يَرۡمِ﴾: الرَّمي: هو الإلقاءُ، ونبذُ الشَّيء باليدِ، يقالُ: رَمَيْتُ الشَّيءَ مِنْ يَدي رميًا، أَي: أَلْقَيْته، وأَرْمَى الشَّيءَ مِنْ يدهِ أَلقاه، وكلُّ شَيْءٍ رميتَه من يدِك من حجرٍ أَو سهمٍ فهو رَمِيٌّ، فَإذا ألقيتَ شَيْئًا عَن شَيْء؛ قلتَ: أرميتُه عَنهُ إرماءً، ويكون الرَّمي في الأعيان كالسَّهمِ والحجرِ، نحوُ: ﴿وَمَا رَمَيۡتَ إِذۡ رَمَيۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾، وفي المقالِ كناية عنِ الشَّتمِ كالقذفِ، نحوُ قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ أَزۡوَٰجَهُمۡ﴾[4]، ومعنى ﴿يَرۡمِ بِهِۦ بَرِيٓـٔٗا﴾: إلقاءُ كلامٍ يحملُ تُهمًا تُصيبُ المتَّهمَ البريء، وتُؤذِيه"[5].

(1) البقاعي، نظم الدرر: 5/398.
(2) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (خطأ)
(3) النيسابوري، إيجاز البيان: 1/255.
(4) ابن دريد، جمهرة اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (رَمِيَ).
(5) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (رميَ).

3) ﴿بَرِيٓـًٔا﴾: صفة مشبَّهةٌ، ويدور معنى البراءةِ: على سلامةِ الحيِّ وخلوصِه ممَّا يكتنفُه أو ينقصُه، ومنه التَّنزُّهُ أو التَّخليصُ من الدَّيْنِ والعَيْبِ والتُّهمةِ، وكلُّ ما يظنُّ أنَّه شرٌّ، ومنه البُرْءُ: وهو السَّلَامَةُ مِنَ السُّقْمِ، والمرضِ، والبراءةُ منَ الشَّيء: التَّخلُّصُ والتَّباعدُ والتَّنزُّهُ[1]، والبريءُ في الآيةِ: هو الْمُتَّهَمُ بِالذَّنْبِ، وَلَمْ يُذْنِبْ[2].

4) ﴿ٱحْتَمَلَ﴾: يَدُلُّ الحملُ عَلَى إِقْلَالِ الشَّيْءِ، يُقَالُ: حَمَلْتُ الشَّيْءَ أَحْمِلُهُ حَمْلًا، والحَمْلُ: مَا كَانَ فِي بَطْنٍ بما تحملُه من ولدٍ، أو مَا كَانَ عَلَى ظَهْرٍ أَوْ رَأْسٍ بما تحملُه من أثقالٍ أَوْ عَلَى رَأْسِ شَجَرٍ بما تحملُه من الثَّمر أو في السَّحاب بما تحمله من الماء[3]، ومعنى ﴿ٱحْتَمَلَ﴾ في الآية: تكليفُ النَّفس حمْلَ وزرِ البُهتانِ بافترائِه على البريءِ[4].

5) ﴿بُهْتَٰنًا﴾: يدور معنى البهتانِ على كلِّ قولٍ أو فعلٍ مستبشعٍ يتعاطاهُ صاحبُه ظلمًا بالقولِ أو باليدِ أو بالرِّجلِ من تناوُلِ ما لا يجوزُ، والمشيُ إلى ما يَقبُحُ بحيثُ يُتحيَّرُ منه لفظاعته وبطلانِه، والبهتانُ هو الباطلُ الَّذي يُدهشُ، ويتحيَّرُ من وقوعِه وبُطلانِه، ويطلَقُ على الكذبِ الفظيعِ المبالغِ في قبحِه الذي يُحيَّرُ منه سامعُه ويدهشُه لفظاعتِه، فالبهتانُ أن ترميَ إنسانًا بأمرٍ منكرٍ، وهو بريءٌ منه، ومعنى ﴿بُهْتَٰنًا﴾ يعني: افتراءً باطلًا يُتَحَيَّرُ من بطلانِه، ففيه إثمُ ارتكابِ الخطيئةِ، وجُرْمُ رميِ البريءِ مع العلمِ ببراءتِه[5].

6) ﴿مُّبِينًا﴾: اسمُ فاعلٍ منْ (أبان يُبينُ إبانة)، ويدورُ معنى البيانِ على البُعدِ والانكشافِ والظُّهورِ، ومنه بَانَ كذا؛ إذا انفصلَ وظهرَ ما كان مستترًا منه، وبانَ الشَّيءُ وأَبانَ؛ إذا اتَّضحَ وانْكشفَ، وفُلانٌ أَبْيَنُ من فُلانٍ، أَي: أَوضحُ كلامًا منْهُ[6].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

بيَّنَ اللّٰه في هذه الآيةِ أنَّ مَن يأتِ ذنْبًا بلا قصدٍ غيرَ متعمِّدٍ له، أو ذنْبًا قاصدًا له عامدًا إليه، ثمَّ يَجني جنايةً أُخرى، بأنْ يتَّهمَ بهذا الذَّنبِ الَّذي اقترفه من هو بريءٌ منه؛

(1) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (برأ).
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 4/60.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (حمل).
(4) رضا، تفسير المنار: 5/327.
(5) الأزهري، تهذيب اللغة، والسمين، عمدة الحفاظ، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (بهت).
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (بين).

تحريمُ خيانةِ غيرِ المسلمين

فقد احتملَ بعملِه ظلمًا وفريةً عظيمةً وإثمًا ظاهرًا بيِّنًا، ولمَّا كانت الآيةُ نزلت في طعمةَ الَّذي رمى اليهوديَّ بالسرقةِ، وهو منها بريءٌ دلَّ على تحريمِ خيانةِ غيرِ المسلمين[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دَلالةُ اسم الشَّرط ﴿وَمَن﴾ في قوله: ﴿وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا﴾:

إلقاءُ التُّهمِ على الآخرِ جريمةٌ شرعيَّةٌ ومفسدةٌ مجتمعيةٌ

عبَّرَ بـ﴿وَمَن﴾ للدَّلالةِ على العُمومِ، ويندرج فيه من نزلت فيهم هذه الآيات اندراجًا أوَّليًّا[2].

بلاغة الاستعارة في قوله: ﴿وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا﴾:

عبَّر بـ﴿يَكْسِبْ﴾على طريقةِ الاستعارة العناديَّةِ التَّهكُّميَّة، كما تقدَّم في الآية السَّابقة، وسُلِكَ في الكسبِ هنا عطف الإثم على الخطيئة، لتشمل الاستعارة التَّهكُّميَّة ما يقترفه الإنسانُ من الخطيئة كذلك.

مناسبة العطف بـ﴿أَوْ﴾ في قولِه: ﴿خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا﴾:

الخطيئةُ هي المعصيةُ الصَّغيرةُ، والإثمُ الذَّنبُ الَّذي يكونُ عن عمدٍ في الصَّغائر والكبائر

لمَّا كانَ العطفُ يقتضي المغايرة بين المعطوف والمعطوف عليه؛ دلَّ على أنَّ الخطيئة هنا غير الإثم، وجاء بـ(أو) لاحتمالِ وقوعِ واحدٍ منهما أو وقوعهما معًا، فـ(أو) هنا مانعةُ خلوٍّ في سياقِ الشَّرط، والخطيئةُ: هي المعصيةُ الصَّغيرةُ التي تقعُ خطأً من غير عمدٍ، ويكون ضررُه قاصرًا على صاحبِه، والإثمُ: الذَّنبُ الذي يكونُ عن عمدٍ المُتعدِّي إلى الآخر كالظُّلمِ والقتلِ، ويكونُ في الصَّغائر والكبائر، ويحتملُ أن يكون المرادُ بالإثم هنا المعصيةَ الكبيرةَ، أو الَّتي تكونُ عن عمدٍ بقرينةِ مقابلتِه بالخطيئةِ التي يُرادُ بها المعصيةُ الصغيرةُ أو التي لا تكونُ عن عمدٍ، والمقابلةُ مخصِّصةٌ للمعنى[3].

(1) رضا، تفسير المنار: 5/327.

(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/60.

(3) الرازي، مفاتيح الغيب: 11/39، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 2/96، والقونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 7/293، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 5/196.

دلالة التَّنكير في قوله: ﴿خَطِيٓـَٔةً أَوۡ إِثۡمٗا﴾:

التَّنكيرُ لتهويلِ خطرِ الخطيئةِ وتهويلِ خطرِ الإثمِ

أفاد التَّنكيرُ في اللَّفظين التَّهويلَ والتَّفخيمَ، بمعنى: تهويلِ خطرِ الخطيئةِ وتهويلِ خطرِ الإثمِ، كما أنَّ مجيءَ النَّكرةِ في سياقِ الشَّرطِ يفيدُ العمومَ، بمعنى: مَنْ يكسبْ أيَّ خطيئةٍ أو أيَّ إثمٍ.

نكتة التَّعبير بالضَّمير المفردِ في قولِه: ﴿ثُمَّ يَرۡمِ بِهِۦ﴾:

التَّعبيرُ بالضَّميرِ المفردِ أوفى لحقِّ اللَّفظِ والمعنى

لَمَّا كان المعطوفُ والمعطوفُ عليه في قوله تعالى: ﴿خَطِيٓـَٔةً أَوۡ إِثۡمٗا﴾ في حكم المثنَّى؛ كان رجوع الضَّمير بالإفراد على خلاف مقتضى الظَّاهر، وفائدته إما ليكون عائدًا على واحدٍ من المذكورين من غير تعيين، لأنَّ المعطوف بـ(أو) يَجُوزُ أَنْ يَعُودَ الضَّمِيرُ فيه عَلَى الْمَعْطُوفِ عَلَيْهِ وَعَلَى الْمَعْطُوفِ، وتذكيره لتغليبِ الإثمِ على الخطيئة، كأنَّه قيلَ: (ثمَّ يرم بأحدهما)، وإمَّا ليفيد العمومَ، وهو الأولى لظاهر السِّياقِ، بأنْ يكونَ عائدًا على أثرِ المصدرِ المفهومِ من الفعلِ (يكسب)، أي: (ثمَّ يرم بما كسبَه)، ليشمل الرَّمي بأحدهما أو بكليهما معًا أو بالتَّتابع بينهما، ولو أتى بالضَّمير مثنًّى؛ لكان المراد الرَّميَ بالخطيئة والإثم معًا، وهو أحدُ الأنواعِ الثَّلاثة، لأنَّه إمَّا أن يرميَ بالخطيئة فقط، أو بالإثم فقط، أو بهما معًا، فكانَ التَّعبير بالضَّمير المفردِ أوفى لحقِّ اللَّفظ والمعنى[1].

مناسبةُ تقديمِ الخطيئةِ على الإثم:

لَمَّا كانت الخطيئةُ أقلَّ قبحًا وذمًّا من الإثم؛ قُدِّمت عليه، ولمناسبة قربِ الضَّمير المفرد المذكَّر من الإثم؛ ليكونَ أبلغَ تأليفًا ونظمًا.

نكتةُ العطفِ بـ﴿ثُمَّ﴾ في قولِه تعالى: ﴿ثُمَّ يَرۡمِ بِهِۦ بَرِيٓـٔٗا﴾:

عبَّر بـ(ثمَّ) دون الفاء هنا، لإفادة معنى التَّراخي في الإبعادِ، لبيانِ بُعْدِ مرتبةِ البهتانِ من ارتكاب الإثم نفسه؛ ليكون على سبيلِ المبالغةِ والتَّرقِّي في الظُّلمِ[2].

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 4/60، وأبو السّعود، إرشاد العقل السليم: 2/230، والخفاجي، عناية القاضي: 3/348.
(2) الخفاجي، عناية القاضي: 3/348.

بلاغةُ الاستعارةِ في قولِه: ﴿يَرۡمِ بِهِۦ بَرِيٓـٔٗا﴾:

المبالغةُ في توبيخِ من يرمي البريءَ بالإثمِ وتقريعِه

سُلكَ في الكلام طريقُ الاستعارةِ التَّصريحيَّة التَّبعيَّة في التَّعبير بالرَّمي عن قذفِ البريءِ بالذَّنبِ، فأصلُ الرَّمي أنْ يكونَ باليدِ بإلقاءِ حجارةٍ أو سهمٍ ونبذه[1]، فشبَّه هذا الرَّميَ بقذفِ البريءِ بالذَّنب ونسبتِه إليه، بجامعِ نبذِ المُرمى عن النَّفسِ، ومقاربة الذَّنبِ للحجارة أو السَّهم في الأذى، وفي الإصابةِ؛ للمبالغةِ في توبيخِ الرَّامي وتقريعِه، ولبيانِ قبحِ ما يقترفُه بالإثبات والحُجَّة.

بلاغةُ الاستعارةِ في قولِه: ﴿فَقَدِ ٱحۡتَمَلَ بُهۡتَٰنٗا وَإِثۡمٗا مُّبِينٗا﴾:

الـذُّنـوبُ أثـقـالٌ يتَّخذها صاحبُها حِمْلًا لَه

شبَّه حملَ الذُّنوبِ ووزرَها بالأحمالِ الَّتي يحملها الإنسانُ على ظهرِه أو على رأسِه، بجامعِ الثِّقلِ والإجهادِ والأذى، وكأنَّه هو الَّذي طلبها واتَّخذَها حملًا له، وتسبَّب فيها، لما تدلُّ عليه صيغةُ (افتعل) من معنى الطَّلبِ والاتِّخاذِ والتَّكلُّفِ والتَّسَبُّبِ[2]، ثمَّ حذف المشبَّه به ووجه الشبه وذكر المشبَّه؛ ليكونَ على طريق الاستعارة التَّصريحيَّةِ التَّبعيَّةِ؛ لتعظيمِ جرمِه وتقبيحِه[3]، ووصفُ الذُّنوبِ بأنَّها أثقالٌ يحملُها صاحبُها واردٌ في القرآن، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَيَحۡمِلُنَّ أَثۡقَالَهُمۡ وَأَثۡقَالٗا مَّعَ أَثۡقَالِهِمۡۖ﴾ [العنكبوت: 13].

مناسبةُ العطفِ في الشَّرط في قولِه: ﴿وَمَن يَكۡسِبۡ خَطِيٓـَٔةً أَوۡ إِثۡمٗا ثُمَّ يَرۡمِ بِهِۦ بَرِيٓـٔٗا﴾:

دلَّ العطفُ بالواو بين الفعلين: ﴿يَكۡسِبۡ﴾ و﴿يَرۡمِ﴾ على قصدِ التَّشريكِ بينهما واجتماعهما، بمعنى: أنَّ ترتُّبَ الجزاءِ منوطٌ بتحقُّقِ كسبِ الخطيئةِ أو الإثمِ ورميِ البريءِ بهِ.

(1) الزمخشري، أساس البلاغة: (رميَ).
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 4/60.
(3) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/111، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/60، والبقاعي، نظم الدرر: 5/398.

دلالةُ الفاءِ في جوابِ الشَّرطِ في قوله: ﴿فَقَدِ ٱحۡتَمَلَ بُهۡتَٰنٗا﴾:

رامي البريءِ له عقوبتان تحمُّلُ البهتانِ وتحمُّلُ الإثمِ

أفادت الفاءُ ترتُّبَ الجزاءِ على الشَّرطِ بمعنى: أنَّ عقوبة البهتانِ والإثمِ مسبَّبَة عن اجتماعِ كسبِ الخطيئةِ أو الإثمِ ورمي البريءِ به، والمعنى: فله عقوبتان: تحمُّلُ البهتانِ وتحمُّلُ الإثمِ، وأكَّد هذا باقتران الفاء بـ(قد) الَّتي تفيدُ التَّحقيقَ، لمناسبتِه لمقامِ المبالغةِ في تحمُّل البهتانِ والإثمِ.

براعةُ الكلامِ بينَ اتِّحادِ الشَّرطِ والجزاءِ والمجازِ المرسَلِ:

إعادة الشَّرط في الجزاء هنا على معنى البالغِ النِّهايةَ في العقوبة

يحتملُ أسلوبُ الشَّرطِ في هذهِ الآيةِ أنْ يكونَ على سبيلِ اتِّحادِ الشَّرطِ والجزاءِ؛ لِيكونَ من بابِ تكريرِ الشَّرطِ والجزاء، وكأنَّ الجزاءَ لا يقادَرُ قدرُه، فيذكرُ لعظمِه، فهو البالغُ النِّهايةَ في العقوبةِ، كما مرَّ في الآية السَّابقة؛ إذْ جُعلَ جزاءُ العقوبةِ العظيمةِ أمرًا ظاهرَ اللُّزوم لرميِ البريءِ بالخطيئة أو الإثمِ، وهذا الأسلوبُ كثيرٌ في القرآن، وهو أسلوبٌ عربيٌّ بليغٌ، كقولِ العربِ: (مَنْ أدركَ مرعَى الضَّمانِ فقدْ أدركَ)، أي: فقدْ أدركَ المرعَى، بمعنى: ليس بعدَ مرعى الضَّمانِ مرعى[1]، ويحتملُ أنْ يكون من المجازِ المرسلِ بذكر السَّببِ الظَّاهرِ وإرادةِ المسبَّبِ؛ فإنَّه لمَّا ذُكرَ تحمُّلُ الرَّامي البهتانَ والإثمَ؛ لزمَ له بالغُ العقوبةِ في الحياةِ الدُّنيا ويومَ القيامةِ، وإنَّما ذكرَ السَّبب لبيانِ استحقاق الرَّامي العقوبةَ العظيمةَ وإثباتها بالحجَّة والدَّليل.

مناسبةُ مجيءِ العطفِ في الجزاءِ في قولِه: ﴿فَقَدِ ٱحۡتَمَلَ بُهۡتَٰنٗا وَإِثۡمٗا مُّبِينٗا﴾:

معصيةُ الَّذي يرمي البريءَ معصيتان وله عقوبتان

دلَّ وقوعُ العطفِ في الجزاء على اجتماع عقوبةِ البهتانِ والإثمِ على من يرمي البريءَ بالخطيئة أو بالإثمِ، والتَّشريك بينهما؛ للتَّنبيهِ على أنَّ من يرمي بأحدهما بريئًا؛ فهو في استحقاقِ العقابِ سواء، وإن كان

(1) الزمخشري، الكشاف: 1/455، والطيبي، فتوح الغيب: 3/233، والخفاجي، عناية القاضي: 3/89، 348.

ارتكابُ الخطيئةِ ليس مثلَ ارتكابِ الإثم، وعلى أنَّ من يرمي البريءَ يحصلُ له بذلك معاقبةُ مرتكبِ البهتان، ومعاقبةُ مرتكبِ الإثم، فلمَّا أراد الرَّامي تحميلَ البريءِ عقوبةَ العاجلةِ، جعلَ اللّٰه له عقوبتين، وذلك تعظيمٌ لاتِّهام البريءِ بما ارتكبَه غيرُه عمدًا كان أو خطأ[1].

مناسبةُ تقديمِ البهتانِ على الإثمِ:

البهتانُ أعظمُ قبحًا وعقوبةً من الإثمِ

قَدَّمَ الْبُهْتَ لِقُرْبِهِ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا﴾؛ ليكونَ بمنزلةِ المقابلِ له، وَلِأَنَّهُ ذَنْبٌ أَفْظَعُ مِنْ كَسْبِ الْخَطِيئَةِ أَوِ الْإِثْمِ، ولأنَّ صاحبَ البُهتانِ مذمومٌ في دُنياه أشدَّ الذَّمِّ، ومعاقَبٌ في آخرتِه أشدَّ العقابِ، فقدَّم الأقبحَ على القبيحِ[2].

نكتةُ وصفِ الإثمِ بقولِه: ﴿مُّبِينًا﴾:

وصفَ الإثمَ بكونِه مبينًا، بصيغة اسم الفاعلِ، أي: واضحًا جليًّا، بمعنى: أنَّ الإثمَ المُرمَى به البريءُ يبيِّنُ بنفسِه براءتَه، وهو مُبينٌ لمعرفة الرَّامي بخيانة نفسِه وبراءةِ المرمى به، ولأنَّ اللّٰه ﷻ أجرى عادتَه الجميلةَ أنْ يظهرَ براءةَ المقذوفِ به يومًا ما بطريقٍ من الطُّرقِ، ولو لبعضِ النَّاسِ[3].

نكتةُ وَصفِ الإثمِ دونَ البُهتان:

البهتانُ لا يُقادَرُ قــدرُه لعظيمِ إثمِه وعقوبته

لَمَّا كان البهتان أمرًا عظيمًا، وجميعُ العقلاء ينكرون على صاحبه، وهو كَذِبٌ محرَّمٌ في سائرِ الأديانِ؛ اكتُفي في بيان عِظَمِ البهتانِ بالتَّنكير التفخيميِّ، كأنَّه قيل: (بهتانًا لا يقادَرُ قدرُه، وإثمًا مبينًا)، كما أنَّ وصفَ الإثمِ بكونه مبينًا بمنزلة وصفِ البهتانِ به؛ لأنَّهما عبارةٌ عن أمرٍ واحدٍ لاجتماعِهما في الجزاء، فكأنَّه وصفَ البهتانَ بوصفين[4].

---

(1) الراغب، تفسير الراغب: 3/1433.

(2) أبو حيان، البحر المحيط: 4/60.

(3) البقاعي، نظم الدرر: 5/398.

(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السليم: 2/230، والآلوسي، روح المعاني: 5/143.

﴿وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكَ وَرَحۡمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٞ مِّنۡهُمۡ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيۡءٖۚ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمۡ تَكُن تَعۡلَمُۚ وَكَانَ فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكَ عَظِيمٗا ١١٣﴾ [النساء: 113]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

عصمةُ النَّبيِّ ﷺ بفضلِ اللهِ ورحمتِهِ

ولمَّا وعظَ ﷻ في هذه النَّازلةِ وذكرَ أعمالَ الخائنين وأوصافَهم وأحكامَهم؛ بيَّن نعمته على نبيِّه ﷺ في عصمته عمَّا أرادوه من مجادلتِه عن الخائن، وهو الحاكمُ بينَ الخصمين؛ إثباتًا لنبوَّتِه وتأييدًا له بالعصمة، بفضلٍ من اللهِ ورحمةٍ[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَضۡلُ﴾: يدورُ معنى الفضلِ على الزِّيادةِ في الشَّيء، وهو ضدُّ النَّقْص، وأكثرُ ما يُستعملُ الفضلُ في الزِّيادة في الخير وفي ما هو محمودٌ، فإن كان في ما هو مذمومٌ فيُقالُ: الفُضولُ، والفَضْلةُ: البقيَّةُ من الشَّيْء، والإفضالُ: الإحسانُ، والفواضل: الأَيادي الجسيمة، وهذا من المجاز، والفضيلةُ: الدَّرَجةُ الرَّفيعَةُ في الفَضْل، وفضلُ اللهِ الزِّيادةُ في القدرِ والمنزلةِ، وكلُّ عطيَّة لا تلزم من يعطي؛ يُقالُ لها: فَضْلٌ، وفضلُ اللهِ على نبيِّه عطيَّتُه من الخيرِ في القدرِ والمنزلةِ، وما اختصَّ به ﷺ من العصمة والتَّوفيق، وهو المرادُ في الآية[2].

2) ﴿لَهَمَّت﴾: أصلُ معنى الهمِّ يدورُ على ذوبانِ الشَّيءِ، ومنه انهَمَّ الثَّلجُ، والشَّحْمُ، والبَرَدُ: ذاب، والهَمُّ: الحُزْنُ الَّذي يُذيبُ

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 5/398.

(2) ابن قتيبة، غريب القرآن/19، والأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (فضل).

الإنسانَ، وأهَمَّه: أَقْلقَه وحَزَنه، وهمَّه السَّقمُ والمرض: أذابَه وأذهبَ لحمَه، ويُقالُ: همَّ بالشَّيْءِ يَهمُّ همًّا؛ إذا أراده ونواه وعزم عَلَيْهِ، أَو حدَّث بِهِ نَفسَه[1]، ومعنى ﴿لَهَمَّت﴾ في الآية: لَجَعَلَتْهُ هَمَّهَا وَشُغْلَهَا حَتَّى تُنَفِّذَهُ[2].

3) ﴿طَّآئِفَةٌ﴾: جذرُه اللُّغويُّ (طوف)، وأصلُ معناه: دَوَرَانُ الشَّيْءِ على الشَّيْءِ، وأَنْ يُحَفَّ بِهِ، يُقَالُ: طَافَ بِهِ، وبِالبَيْتِ، يَطُوفُ طَوْفًا وَطَوَافًا، والطَّوافُ المشيُ حولَ الشَّيءِ، ومنه: الطَّائِفُ لمن يدورُ حولَ البيوتِ، والطَّائفةُ القطعةُ من الشَّيء، وتطلقُ الطَّائفةُ على الْجَمَاعَةِ مِنَ النَّاسِ، وتَقَعُ عَلَى الْوَاحِدِ، كأَنَّه أَرادَ نَفْسًا طَائِفَةً[3]، والمرادُ بالطَّائفةِ في الآيةِ القومُ الَّذين نزلت فيهم الآياتُ السَّابقةُ، وهم قومُ طُعمةَ بنِ الأُبيرق[4].

4) ﴿يُضِلُّوكَ﴾: الضَّلالُ: هو ضياعُ الشيءِ، وذهابُه في غيرِ حقِّه، ولهذا وُسِمَ الضَّلالُ بالعُدول عنِ الطَّريق المستقيم، والمنهجِ القويم عمْدًا كان أو سَهوًا، يسيرًا كان أو كثيرًا، والضَّلالُ ضدُّ الهُدَى، وضلَّ في الأَمرِ ضلالاً؛ إذَا لمْ يَهتدِ لَهُ، وضلَّ في الأَرْضِ ضلالًا؛ إذا لمْ يهتدِ للسَّبيلِ[5]، ويُضلُّوكَ في الآية بمعنى: يُخَطِّئُوكَ فِي الْحُكْمِ الحقِّ، وَيُلْبِسُوا عَلَيْكَ الْأَمْرَ[6].

5) ﴿يَضُرُّونَكَ﴾: الضَّرَرُ النُّقصانُ يدخُلُ في الشَّيءِ، تقول: دَخَلَ عليه ضَرَرٌ في ماله، أي: نقصَ ماله، والضَّرُّ والضُّرُّ لُغَتَانِ: ضِدُّ النَّفْعِ، وذهب بعضُ اللُّغويين إلى التَّفريقِ: فقيلَ: كُلُّ مَا كَانَ مِنْ سُوءِ حَالٍ وَفَقْرٍ أَو شِدَّةٍ فِي بَدَنٍ فَهُوَ ضُرٌّ، وَمَا كَانَ ضِدًّا لِلنَّفْعِ فَهُوَ ضَرٌّ، ومن الضُّرِّ سُوءُ الحالِ لنقصٍ دخل فيه، إمَّا في النَّفس؛ لقلَّة العلم والفضلِ والعفَّة، وإمَّا في البدنِ؛ لعدم جارحةٍ ونقصٍ فيه، وإمَّا في الحالةِ الظَّاهرةِ من قلَّةِ مالٍ وجاهٍ[7]، ومعنى إضرارِه ﷺ أن يَبتعدَ عنِ الحقِّ، وهو لم يحصُلْ، فإنَّ اللهَ ﷻ عصمَك، وما خطَرَ ببالِك كان اعتمادًا منك على ظاهرِ الأمرِ، لا مَيلًا في الحُكمِ[8].

(1) الجوهري، الصحاح، والراغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (همم).
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/112.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (طوف).
(4) السمعاني، تفسير القرآن: 1/477.
(5) ابن دريد، جمهرة اللغة، والراغب، المفردات: (ضلل).
(6) البغوي: معالم التنزيل: 1/700.
(7) الخليل، العين، وابن منظور، لسان العرب: (ضرر).
(8) البيضاوي، أنوار التنزيل: 2/96.

6) ﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾: هو القرآنُ الكريمُ[1].

7) ﴿عَظِيمٗا﴾: يدور معنى عِظَم الشَّيءِ على الكِبَرِ والقوَّةِ، وعَظُمَ الشَّيءُ أصلُه: كبُرَ عظمُه، ثمَّ استعيرَ لكلِّ كبيرٍ، فأُجريَ مجراه محسوسًا كان أو معقولًا، عينًا كان أو معنًى[2]، ومعظم الشَّيء: أكثره، وعَظُم عِظَمًا كبُرَ، فهو عظيمٌ[3]، و﴿عَظِيمٗا﴾ في الآية بمعنى: (كبيرًا كثيرًا).

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

لولا أنَّ اللهَ خصَّك بالفضلِ، وهو النُّبوَّةُ والتَّأييدُ بالعصمةِ، ورحمتُه لك ببيانِ حقائقِ الأمورِ وإعلامِك بها؛ لعزمتْ جماعةٌ من الَّذينَ يخونونَ أنفسَهم أنْ يُزلُّوك عن طريقِ الحقِّ وعن الحكمِ العدلِ، وما يُزلُّونَ بذلك إلَّا أنفسَهم، وما يقدرونَ على إيذائِك وإيقاعِ الضَّررِ بكَ، لعصمةِ اللهِ لكَ، وأنزلَ اللهُ عليك القرآنَ والسُّنَّةَ المبيِّنةَ له، وعلَّمَكَ ما لم تكنْ تعلمُه مِن قبلُ من أمورِ الدِّينِ والأحكامِ وغيرِهما، وكان ما خصَّكَ اللهُ به من فضلٍ ونعمةٍ أمرًا عظيمًا[4].

الإِيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

نكتة التَّعبير بأداةِ الشَّرطِ ﴿وَلَوۡلَا﴾:

تحقُّقُ فضلِ اللهِ ورحمتِه على رسولِه ﷺ

دلَّ التَّعبيرُ بأداة الشَّرط ﴿وَلَوۡلَا﴾ على القطعِ بامتناعِ وقوعِ ما همُّوا له من إزالة رسولِ اللهِ ﷺ من الحكم بالحقِّ؛ لتحقُّقِ ما خصَّ اللهُ رسولَه ﷺ من فضلِه ورحمتِه بالنُّبوَّةِ والعصمةِ، والقصدُ بيانُ تحقُّقِ فضلِ اللهِ ورحمتِه على رسولِه وإثبات القطعِ بامتناعِ إزالةِ رسولِه عن الحقِّ، لاستمرارِ فضلِ اللهِ عليه ورحمتِه من غيرِ انقطاعٍ.

دلالةُ الإضافةِ على التَّخصيص:

تعظيمُ فضلِ اللهِ ورحمتِهِ التي خصَّها اللهُ لرسولِه

في قوله: ﴿فَضۡلُ ٱللَّهِ﴾ إضافةُ العامِّ: وهو ﴿فَضۡلُ﴾، إلى الخاصِّ:

(1) البغوي، معالم التنزيل: 1/700.
(2) الراغب، المفردات: (عظم).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، والجوهري، الصحاح: (عظم).
(4) ابن جرير، جامع البيان: 9/199، والرازي، مفاتيح الغيب: 11/216.

وهو ﴿ٱللَّهِ﴾، وأفادت إضافةُ التَّخصيصِ هنا: تعظيمَ الفضلِ والرَّحمةِ التي خصَّها اللهُ لرسولِه وكونها أمرًا إلهيًّا، ودلَّ عليه التَّقييدُ بقولِه: ﴿عَلَيْكَ﴾، ولهذا عبَّر المفسِّرون عن الفضل بالنُّبوَّةِ أو العصمةِ وما هو في معناهما[1].

نكتةُ التَّعبيرِ بالمصدرِ في قولِه: ﴿فَضْلُ ٱللَّهِ﴾:

عبَّرَ بالمصدرِ ﴿فَضْلُ﴾ دونَ الفعلِ؛ للدَّلالةِ على سعتِه ولما يقتضيه من آثاره المتكثِّرة، وكونِه فضلًا ثابتًا.

مناسبةُ مجيءِ حرفِ الجرِّ في قوله: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ﴾:

استيعابُ فضلِ اللهِ المعظَّمِ على رسولِه ﷺ وتمكُّنه منه

عُبِّرَ بـ﴿عَلَيْكَ﴾ لما يدلُّ حرف الاستعلاء (على) على معنى الاستيعاب والتَّمكُّن، وتعظيمِ الفضلِ لرفعتِه وما يُشعر به من نزولِه من علوٍّ، والمعنى: استيعابُ فضلِ اللهِ المعظَّمِ على رسولِه ﷺ وتمكُّنه منه، وكُرِّرَ ﴿عَلَيْكَ﴾ في الآية مرَّتين كما سيأتي.

نكتةُ تقديمِ الفضلِ على الرَّحمة:

لولا رحمةُ اللهِ؛ لَمَا تفضَّلَ على أحدٍ من خلقِه

لأنَّ فضلَ اللهِ بسببِ رحمتِه، فلولا رحمةُ اللهِ لما تفضَّلَ على أحدٍ من خلقِه.

حذفُ القيدِ بينَ الإيجازِ والتَّعميمِ في قوله: ﴿وَرَحْمَتُهُۥ﴾:

رحمةُ اللهِ لرسولِه فيها معنى الخَصوصيَّةِ والتَّعظيمِ المناسبين للمقامِ

يحتملُ أنْ يكونَ الكلامُ على الإيجازِ بحذفِ القيدِ، أي: الجارِّ والمجرورِ (عليكَ) أو (بكَ) بعد قوله: ﴿وَرَحْمَتُهُۥ﴾، والتَّقدير: ورحمتُه عليكَ أو ورحمتُه بكَ، فحُذِفَ لِقرينةِ السِّياقِ بدلالةِ المذكور في قولِه ﴿فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ﴾، فتكونُ الرَّحمةُ في الآيةِ ممَّا خصَّ اللهُ به رسولَه من رحمةٍ ليست كسائرِ النَّاسِ، ففيها معنى الخَصوصيَّةِ والتَّعظيمِ المناسبين لمقامِ نبيِّه وحبيبِه ﷺ كما يحتملُ أنْ يكونَ على معنى تعميمِ رحمتِه، فيكونُ الفضلُ ممَّا اختصَّ به رسولُ اللهِ ﷺ ورحمتُهُ به ممَّا عمَّتْهُ، وشملتْهُ كما تعمُّ جميعَ المؤمنينَ.

(1) ابن جرير، جامع البيان: 9/199، وابن عطية، المحرر الوجيز: 2/112، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/16.

بلاغة المجاز في قوله: ﴿يُضِلُّوكَ﴾:

سعيُ المضلِّين لإزالة المؤمنين عن الحكمِ الحقِّ مع علمِهم بحقيقته

عبَّر بقوله: ﴿يُضِلُّوكَ﴾ للإشعار بأنَّهم أرادوا أنْ يُضلُّوك عن القضاء بالحقِّ، ويزيلوكَ عنه مع علمهم بكُنهِ الأمرِ وحقيقتِه، فمعنى ﴿أَن يُضِلُّوكَ﴾: أن يخطِّئوك في الحُكْمِ، فيكون مجيءُ لفظِ الضَّلالِ على المجاز، لتهويلِ فعلِهم ولِلمبالغة في تعظيمِ ما همُّوا به[1]، فالإضلالُ هنا ليس من باب الحقيقةِ، بل من المجازِ.

نكتةُ التَّعبيرِ بقوله: ﴿لَهَمَّت﴾:

نفي تأثيرِ الهمِّ إيذانٌ بنفيِه بالكلِّيَّةِ

قد يُقالُ: إنَّ الهمَّ قد وقعَ منهم، فكيف ينفي همَّهم؟ لأنَّ التَّعبير بأسلوب الشَّرط بـ(لولا) يدلُّ على القطع بامتناع وقوعِ الجزاءِ لوقوع الشَّرط، فيكون نفيُ الهمِّ على خلافِ مقتضى الظَّاهر، ونكتتُه أنَّه إنَّما نفى همَّهم مع أنَّ المنفيَّ إنَّما هو تأثيرُه فقط إيذانًا بانتفاء تأثيرِه بالكلِّيَّة[2].

مناسبةُ مجيءِ الكلامِ على خلافِ مقتضى الظَّاهرِ:

عصمةُ اللهِ لرسولِه تبطلُ كيدَ الكائدين وضلالَهم

أُسندَ الهمُّ إلى الطَّائفةِ، واللَّفظ على العموم؛ لِيكون على خلاف مقتضى الظَّاهر ليشملَ أهلَ النَّازلة وغيرَهم، أي: ولولا عِصمةُ اللهِ لك؛ لكانَ في النَّاس من يشتغلُ بإضلالِك، ويجعلُه همَّ نفسِه، أي: كما فعلَ هؤلاء، لكنَّ العصمةَ تُبطلُ كيدَ الجميعِ، فيَبقَى الضَّلالُ في حيِّزِهم[3].

بديعُ الجناسِ في قوله: ﴿يُضِلُّوكَ﴾ و﴿وَمَا يُضِلُّونَ﴾:

مناسباتُ الألفاظِ تحدثُ ميلًا وإصغاءً وتشوُّفًا إلى الكلامِ

ورد الجناس النَّاقص في الآيةِ لتحسينِ الكلامِ وتزيينه؛ ليميل المخاطَبُ إلى الإصغاءِ إلى الكلام، فإنَّ مناسبةَ الألفاظِ تحدثُ ميلًا وإصغاءً إليها؛ ولأنَّ اللَّفظَ المشتركَ إذا حُمِلَ على معنًى، ثمَّ جاءَ

(1) الواحدي، الوسيط: 2/114.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 2/231.
(3) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/112.

والمرادُ به معنىً آخرُ كان للنَّفسِ تشوُّفٌ إليهِ، وللتَّنبيهِ إلى أنَّهم قد أصابهم عينُ ما همُّوا به؛ نكايةً بهم وتقريعًا لهم وتوبيخًا[1].

بلاغةُ القصرِ في قوله: ﴿وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡۖ﴾:

طريق النَّفي والاستثناء يُسلَكُ معَ مَنْ يعلمُ المتكلِّم أنَّ المخاطبَ مخطئٌ فيه، وهو مصرٌّ على خطئه[2]، وبيانُه في الآية أنَّه لمَّا كانتْ هذهِ الطَّائفةُ تعلمُ أنَّ رسولَ اللّه صلَّى اللّهُ عليه سلَّم على الحقِّ، وتعلمُ أنَّها بإلباسها على نبيِّ اللّهِ ﷺ تعدلُ عن الطَّريقِ المستقيم؛ أبرزَ الكلامَ في معرضِ مَنْ يعتقدُ أنَّهُ على الصَّوابِ؛ ليكونَ على خلافِ مقتضى الظَّاهر؛ توبيخًا لهم وتقريعًا، فكأنَّه قيل: ليسوا قادرينَ على الإضلالِ، وما يُضلُّونَ إلَّا أنفسَهمْ.

الخائنونَ ليسوا قادرينَ على الإضلالِ، وما يُضلُّونَ إلَّا أنفسَهمْ

سببُ إيثارِ النَّفي بـ(ما) دونَ غيرِها من أدوات النَّفي:

لمَّا كانت (ما) كثيرًا ما تكون ردًّا على كلامٍ أو ما نزِّلَ هذهِ المنزلةَ، وكان النَّفي بها آكدَ من غيرِها، ودالًّا على الاستمرارِ لقرينةِ السِّياق[3]؛ عُبِّرَ بها في أسلوبِ القصرِ لتأكيد ضلالِهم واستمرارِه.

تأكيدُ ضلالِ الخائنين واستمرارِه

دلالةُ الفعلِ المضارعِ ﴿يُضِلُّونَ﴾:

أفادَ مجيءُ الفعلِ بصيغة المضارعِ استمرارَهم في الضَّلال، لتجدُّدِه حالًا فحالًا، والمعنى: ازدادوا ضلالًا على ضلالِهم بما همُّوا به.

دلالةُ الاعتراض في قوله: ﴿وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيۡءٖۚ﴾:

وردت الجملتان المعطوفَتان على سبيل الإطنابِ بالاعتراض[4]، ونكتةُ مجيئِهِ في الجملة الأولى: ﴿وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡۖ﴾ هي لدفع توهُّمِ قدرتِهم على الإلباسِ على رسولِ اللّهِ ﷺ ولتأكيدِ إثباتِ

دفعُ توهُّمِ قدرةِ الخائنينَ على الإلباسِ على رسولِ اللهِ ﷺ ونفيُ أيِّ ضررٍ عنه

(1) السبكي، عروس الأفراح: 2/282.
(2) السكاكي، مفتاح العلوم/294.
(3) السامرائي، معاني النحو: 4/192، 194.
(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 2/231.

ضلالِهم واستمرارِهم عليه، وسببُ مجيئِه في الجملةِ الثَّانية، لِلتَّنبيه على نفي أيِّ ضررٍ يصيبُ رسولَه ﷺ منهم في الماضي أو في المستقبل، وفيه تأكيدٌ لإثبات نبُوَّتِه ﷺ وعصمتِه[1].

سببُ إيثارِ النَّفي بـ(ما) في قولِه: ﴿وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيْءٍ﴾:

(مـا) آكـدُ من غيرِها في النَّفي؛ ولـهـذا لا تـزادُ (مِـن) إلَّا معها من أداواتِ النَّفي

تقدَّم أنَّ (ما) كثيرًا ما تكون ردًّا على كلامٍ أو ما نُزِّلَ هذه المنزلةَ، فعُبِّرَ بها هنا للرَّدِّ على ما كانوا يعتقدونَه من قدرتِهم على الإضرارِ بنبيِّ الله ﷺ كما أنَّها آكدُ من غيرِها في النَّفي، وتفيدُ هنا استمرار نفي إضرارِهم برسولِ الله ﷺ لدلالتها على النَّفي المطلق بقرينة السِّياق وتأكيدِ النَّفي بـ(مِن).

دلالةُ (مِن) في قوله: ﴿وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيْءٍ﴾:

إعـجـازٌ قـرآنيٌّ بعصمةِ رسولِ الـلـهِ ﷺ من الضُّرِّ والأذى في المستقبلِ

لَمَّا كانَ حرف الجرِّ ﴿مِن﴾ دالًّا عَلَى الْعُمُومِ نَصًّا؛ لمجيئه في سياق النَّفي بـ(ما)، وكانت (ما) دالَّةً على استمرارِ النَّفي كما تقدَّم كان المعنى: لَا يَضُرُّونَكَ قَلِيلًا وَلَا كَثِيرًا، لا في الحالِ وفي المستقبل، فيكونُ وعدًا بالعصمة في المستقبل، وفيه إعجازٌ قرآنيٌّ بعصمة رسولِ اللهِ ﷺ من الضُّرِّ والأذى في المستقبل، وقد كان[2].

مناسبةُ مجيءِ قولِه تعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ﴾:

لا يليقُ بحكمةِ الله ألَّا يعصمَ رسـولَـه عـن الـوقـوعِ في الضَّلالاتِ أو أنْ يصيبَه ضرٌّ يمنعُ من التَّبليغ

لَمَّا كانَ قولُه تعالى: ﴿وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيْءٍ﴾ بيانًا لعصمة رسولِه ﷺ في المستقبل؛ أفادَ ما بعدَه تأكيدَ هذهِ العصمةِ وتقريرَها، وبيانُه أنْ يُقالَ: لَمَّا أنزلَ عليك الكتابَ والحكمةَ، وأمركَ بتبليغِ الشَّريعةِ إلى الخلقِ؛ فكيف يليقُ بحكمتِه ألَّا يعصمكَ عن الوقوعِ في الشُّبُهاتِ والضَّلالاتِ، أو أنْ يصيبَك ضرٌّ يمنعُ من التَّبليغِ والإنذارِ، وأيضًا

(1) السبكي، عروس الأفراح: 1/617.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 4/61.

في هذهِ الجملةِ زيادةُ تقرير معنى قولِه: ﴿وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكَ وَرَحۡمَتُهُۥ﴾، وبيانٌ لأعظمِ أنواعِ فضلِه ورحمتِه[1].

بلاغةُ الإظهارِ في موضعِ الإضمارِ في قولِه: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ﴾:

تربيةُ المهابةِ من اللهِ في نفوس السَّامعين

فذُكرَ الاسمُ الجليلُ في بداية الآية، وكان الظَّاهرُ أن يُعبَّرَ بالضَّمير لقربِ المذكورِ، فجاء الكلامُ على خلاف مقتضى الظَّاهرِ بوضع الاسمِ الجليلِ ﴿ٱللَّهُ﴾ موضعَ المُضمَرِ؛ لتربيةِ المهابةِ في نفوسِ السَّامعِين، ولِتعظيمِ ما أنزلَ اللهُ، وما علَّمَ رسولَه ممَّا لم يكن يعلمُ، ولأنَّه في مقامِ الامتنانِ وتأكيدِ العصمةِ والحفظِ، فاقتضى نسبةُ الفعلِ إلى الاسمِ الجليلِ الدَّالِّ على الألوهيَّة.

مناسبةُ مجيءِ حرفِ الجرِّ (على) في قولِه: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ﴾:

تمكُّنُ القرآنِ من النَّبيِّ ﷺ والتَّنبيه على علوِّ شأنِه

عُبِّرَ بـ﴿عَلَيۡكَ﴾ لما يدلُّ عليه حرف الاستعلاء (على) على معنى الاستيعابِ والتَّمكُّنِ، فلم يقل: (وأنزل إليكَ الكتابَ)؛ لإظهار تمكُّنِ المنزَّلِ من النَّبيِّ ﷺ واستيعابِه للذَّاتِ الشَّريفةِ، وللإشارةِ إلى علوِّ شأنِ الكتابِ ورفعتِه وعلوِّ شأنِ المنزَّل عليه.

سببُ إيثارِ ذكرِ الكتابِ دونَ القرآنِ:

فعبِّرَ بالكتابِ الَّذي هو القرآنُ لمناسبةِ لفظِ الكتابِ للحكمةِ والعلمِ.

دلالة (ال) في ﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾:

القرآنُ هو الكتابُ الكاملُ في معانيه وأحكامِه وبلاغتِه

تحتملُ (الـ) أن تكونَ لاستغراقِ أوصافِ الكمالِ، بمعنى: أنزلَ اللهُ عليك الكتابَ الكاملَ في معانيه وأحكامِه وبلاغتِه، وكأنَّه هو المنفردُ باستحقاقِ وصفِ الكتابِ، كما تحتملُ (الـ) أنْ تكونَ للعهدِ العلميِّ، بمعنى: الكتابِ المعهودِ الَّذي يعلمُه المخاطبونَ والنَّاسُ.

(1) الرازي، مفاتيح الغيب: 11/216/م ابن عاشور، التحرير والتنوير: 5/197.

دلالةُ (ال) في قوله: ﴿وَٱلۡحِكۡمَةَ﴾:

كمالُ الحكمةِ في السُّنَّة النَّبويَّةِ

إذا كان المرادُ من الحكمة سُنَّةَ رسولِ اللهِ ﷺ فإمَّا أنْ تكونَ (الـ) لاستغراقِ الأوصافِ بمعنى: كمالِ الحكمةِ في السُّنَّة النَّبويَّةِ، أي: في ما كانَ في غيرِ الكتابِ أي القرآن، وإمّا أنْ تكونَ للعهد العلميِّ بمعنى السُّنَّةِ المعهودةِ عندَ المخاطَبين، وإذا كانَ المرادُ من الحكمةِ معرفةَ أسرارِ القرآنِ وحقائقِه، فتكونُ (الـ) استغراقيَّةً لأفرادِ المعارفِ والأسرارِ التي أطلعَها اللهُ تعالى لرسوله الكريم ﷺ.

دلالة (ما) في قوله: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمۡ تَكُن تَعۡلَمُۚ﴾:

لولا إعلامُ اللهِ رسولَهُ خفيَّاتِ الأمورِ وأمورَ الدِّينِ وأحكامَ الشَّرعِ لَمَا علمَها

تفيدُ (ما) هنا: العمومَ؛ ليشملَ أخبارَ القرونِ السَّابقةِ، وعلمَ أَسْرَارِ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ وغيرِها من الأشياءِ والأحوالِ ممَّا خصَّ اللهُ به رسولَه ﷺ من العلم، والمقامُ مقامُ تخصيصٍ، والمعنى: علَّمكَ بالوحي من خفيَّاتِ الأمورِ الَّتي من جملتِها وجوهُ إبطالِ كيدِ المنافقين، أو من أمور الدِّين وأحكامِ الشَّرع، ولولا إعلامُهُ إيَّاكَ إيَّاها لَما تعلَّمتَها[1]

دلالةُ صيغةِ الفعل ﴿وَعَلَّمَكَ﴾:

تكثيرُ المعلوماتِ الَّتي علَّمها اللهُ رسولَهُ حبًّا له ﷺ وتكريمًا

دلَّ مجيءُ الفعلِ على صيغة (فعَّل) على تكثير ما علَّمَه اللهُ لرسولِه ﷺ، كما تُشعرُ صيغةُ الخطابِ بالتَّودُّدِ والتَّحبُّبِ والتَّقريب.

بديعُ الجناسِ في قوله: ﴿وَعَلَّمَكَ﴾ و﴿تَعۡلَمُۚ﴾:

وردَ في الآية الجناسُ النَّاقصُ في قوله: ﴿وَعَلَّمَكَ﴾ و﴿تَعۡلَمُۚ﴾، لتزيين الكلامِ وتحسينِه، ليتشوَّفَ المخاطبُ إلى الإصغاء إلى الكلامِ والميلِ إلى سماعِه والانتباهِ إليه، فإنَّ اللَّفظَ المشتركَ؛ إذا حملَ على معنى، ثم جاءَ والمرادُ به معنًى آخر كانَ للنَّفسِ تشوُّفٌ إليه[2].

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 2/62، وأبو السّعود، إرشاد العقل السليم: 2/231.
(2) السبكي، عروس الأفراح: 2/282.

بديعُ طباق السَّلب:

في قولِه تعالى: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُۚ﴾ طباق السَّلب، بين ﴿وَعَلَّمَكَ﴾ و﴿لَمْ تَكُن تَعْلَمُۚ﴾، ليزيد المعنى حُسنًا بزيادة تنبيهٍ بما تفضَّل اللّٰه به على رسولِه الكريمِ ﷺ[1].

مناسبةُ التَّرتيبِ في الامتنان:

الـقـرآنُ منبعُ الحكمِ والعلومِ

ذكرَ اللّٰه تعالى امتنانَه على حبيبِه محمَّدٍ ﷺ في قوله: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمۡ تَكُن تَعۡلَمُۚ﴾، ونكتةُ مجيئِه بهذا النَّسقِ هو أنَّ اللّٰه تعالى رتَّبَ فضْلَه على رسولِه ﷺ بحسبِ الأصلِ وما يترتَّبُ عليه، فبدأَ بالكتابِ، وهو القرآنُ، ثمَّ ذكرَ الحكمةَ المترتِّبةَ على القرآنِ، وهي السُّنَّةُ أو معرفةُ أسرارِ القرآنِ وحقائقِه، ثمَّ ذكرَ العلم، وهو مرتَّبٌ على الحكمة؛ لِبيان آياتِ الامتنانِ بذكر الأعلى مكانةً ومنزلةً وفضلًا، ثمَّ ما يترتَّبُ عليه، فالقرآنُ منبعُ الحكمِ والعلومِ.

حسنُ التَّذييلِ في قوله: ﴿وَكَانَ فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكَ عَظِيمٗا﴾:

تضمَّنت جملة التَّذييلِ فوائدَ لغويَّةً وبلاغيَّةً، هي:

1. أفاد التعبير بـ(كان) استمرارَ فضلِ اللّٰه على رسولِه ﷺ وعدمَ انقطاعِه بعد موتِه؛ إذ يذكرُه المؤمنون، ويصلُّون عليه ﷺ كلَّ وقتٍ وحينٍ، وينتفعون من سُنَّتِه، فلهُ الثَّوابُ المستمرُّ الدَّائمُ، كما أفادَ التَّعبيرُ بـ(كان) ظهورَ آثارِ فضلِ اللّٰهِ على رسولِه بينَ النَّاس واستمرارِه.

2. لمَّا كان أصلُ الخطابِ أن يكونَ لمعيَّنٍ، ويُتركَ لغيرِ معيّنٍ للحملِ على العموم؛ ليكونَ على خلاف مقتضى الظَّاهرِ لنكتة شمولِ الخطابِ كلَّ مؤمنٍ، للإشعار بأنَّ كلَّ مؤمنٍ قد خصَّه اللّٰه بفضلٍ عظيم؛ ليكونَ موجبًا لزيادةِ محبَّةِ اللّٰهِ وشكرِه.

(1) السبكي، عروس الأفراح: 2/225.

3. أفاد التَّعبيرُ بحرف الاستعلاء (على) في قوله: ﴿عَلَيْكَ﴾ تأكيدَ استيعابِ فضلِ اللّٰهِ على رسولِه ﷺ وتمكُّنِه منه.

4. لمَّا تصدَّر الآية قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ﴾ بما يدلُّ على إثباتِ فضلِ اللّٰهِ ورحمتِه على نبيِّه ﷺ كانت جملة التَّذييلِ بمنزلة ردِّ العجزِ على الصَّدر[1].

5. لمَّا جاءت جملةُ التَّذييل بعدَ بيانِ فضلِ العلم، وأنَّه من فضلِ اللّٰه؛ كانَ مِنْ أَعْظَمِ الدَّلَائِلِ عَلَى أَنَّ الْعِلْمَ أَشْرَفُ الْفَضَائِلِ وَالْمَنَاقِبِ، وَذَلِكَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى مَا أَعْطَى الْخَلْقَ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا، وَنَصِيبُ الشَّخْصِ مِنْ عُلُومِ الْخَلَائِقِ يَكُونُ قَلِيلًا، ثُمَّ إِنَّهُ سَمَّى ذَلِكَ الْقَلِيلَ: عَظِيمًا، وذلكَ يدلُّ على غايةِ شرفِ العلم[2].

6. لمَّا كانتْ جملةُ التَّذييلِ على معنى العمومِ والكلِّيَّةِ؛ كانت بمنزلةِ المَثَلِ في حكايتِها والتَّمثيلِ بها، ولعلَّ هذه الجملةَ من أعظم ما يُتَمثَّلُ به في بيان امتنانِ المنَّانِ وعظيمِ فضلِه، ولاسيَّما أنَّها مُشعِرةٌ بقربِ التَّخاطبِ.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 5/197.

(2) الرازي، مفاتيح الغيب: 11/217.

﴿۞لَّا خَيۡرَ فِي كَثِيرٖ مِّن نَّجۡوَىٰهُمۡ إِلَّا مَنۡ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوۡ مَعۡرُوفٍ أَوۡ إِصۡلَٰحِۭ بَيۡنَ ٱلنَّاسِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوۡفَ نُؤۡتِيهِ أَجۡرًا عَظِيمٗا ١١٤﴾ [النِّساء: 114]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

أشارتِ الآيات السَّابقة إلى وجود جماعة مِنَ البشر تعمل على تدابير الشَّرِّ للاضطراب والإخلال المجتمعيِّ بسبب واقعة طعمَة بن أبَيْرق، وأنَّ اللّه مبطلٌ مكرهم وتدبيرَهم، ثمَّ جاءَت هذه الآية؛ لتشيرَ أنَّ الشَّرَّ لا يدبَّر إلَّا في خفاء، وطبيعة النَّاس تعلن الخير، وتخفي الشَّرَّ، وهذا التَّدبير للشَّرِّ حدث فيه تناجٍ وتسارر للكلام[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿لَّا خَيۡرَ﴾: (خَيَرَ) أَصْله: الْعَطْف وَالْمَيْل، ثمَّ يحْمَل عَلَيْهِ، فَالْخَيْر: خِلَاف الشَّرِّ؛ لِأَنَّ كلَّ أَحَدٍ يَمِيل إِلَيْه، وَيَعْطِف عَلَى صَاحِبِهِ[2]، فالخير: ما يرغب فيه الكلّ، كالعقل مثلًا، والعدل، والفضل، والشَّيء النَّافع، وضدّه الشَّرّ، والمعنى في الآية: لا نفْعَ[3].

2) ﴿نَّجۡوَىٰهُمۡ﴾: جذر الكلمة هو: (نَجَو)، نجاه نَجْوًا ونَجْوى، وأحد أصلَيْ الكلمة يدلّ على سَتْرٍ وَإِخْفَاءٍ[4]، والنَّجوى، والنَّجا: السِّرّ، والنَّجوى، والنَّجا: المتسارّون، وفي التَّنزيل: ﴿وَإِذۡ هُمۡ نَجۡوَىٰٓ﴾ [الإسراء: 47]، وقوله: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجۡوَىٰ ثَلَٰثَةٍ﴾ [المجادلة: 7]، يكون على الصِّفة والإضافة، وناجى الرَّجل مناجاة، ونجاء: سارَّه، وانتجى القوم، وتناجوا: تسارّوا، والجمع: أنجية[5]، فمعنى النَّجوى في الكلام: ما يتفرَّد به الجماعة والاثنان سرًّا كان أو ظاهرًا[6].

3) ﴿مَعۡرُوفٍ﴾: جذر الكلمة هو عَرَفَ: وعَرَفت الشَّيء مَعرِفَةً وعِرفانًا، وأَمرٌ عارفٌ،

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 4/1854.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (خير).
(3) الرّاغب، المفردات: (خير).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نجو).
(5) ابن سيده، المحكم: (نجو).
(6) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (نجو).

معروفٌ، والعرف: المعروف[1]، و(المعروف) ضدّ المنكَر، و(العرف) ضدّ النّكر، يقال: أولاه عرفًا، أي: معروفًا[2]، والمعروف اسمٌ لكلِّ فعلٍّ يعرف بالعقل أو الشَّرع حسنه، قال تعالى: ﴿يَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ﴾ [آل عمران: 104]، والعرف والمعروف مِنَ الإحسان[3].

4) ﴿إِصۡلَٰحٖ﴾: الصَّلاح ضدّ الفساد، وهما مختصَّان في أكثر الاستعمال بالأفعال، وقوبل في القرآن تارة بالفساد، وتارة بالسَّيِّئة، قال تعالى: ﴿خَلَطُواْ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَءَاخَرَ سَيِّئًا﴾ [التَّوبة: 102]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَا﴾ [الأعراف: 56]، والصّلح يختصّ بإزالة النِّفار بين النَّاس، يقال منه: اصطلحوا وتصالحوا[4].

5) ﴿ٱبۡتِغَآءَ﴾: جذر الكلمة هو (بَغَيَ)، وله أَصْلَانِ: أَحَدهمَا: طَلَب الشَّيْءِ، وَالثَّاني: جِنْسٌ مِنَ الْفَسَادِ، فالْأَوَّل – وهو المراد هنا – بَغَيْت الشَّيْءَ أَبْغِيه؛ إِذَا طَلَبْته، وَيقَال: بَغَيْتكَ الشَّيْءَ؛ إِذَا طَلَبْته لَكَ، وَأَبْغَيْتكَ الشَّيْءَ؛ إِذَا أَعَنْتكَ عَلَى طَلَبِهِ[5]، والبِغيَة الحال الَّتي تبغيها[6].

6) ﴿مَرۡضَاتِ﴾: يقال: رضي، يرضَى، رضًا: فهو مرضيٌّ ومَرضوٌّ، ورضا العبد عنِ اللّه: ألَّا يكره ما يجرى به قضاؤه، ورضا اللّه عنِ العبد: هو أن يراه مؤتَمِرًا لأمره، منتهيًا بنهيه[7]، والمعنى هنا: رضا اللّه.

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

حذَّر اللّه في هذه الآية من المسارَرَة في سياق الكلام على أولئك المتناجين المبيِّتين للمكيدة، وجعل الكلام شاملًا للَّذين يرمون الأبرياء أيضًا، يغمّون النَّاس ويحزنونهم، ولذلك أخَّره، وذكره بصورة قاعدة تشريعيَّة عامَّة تشملهم وغيرهم على نهج القرآن في مثل ذلك؛ إذ لا نفع في كثير من كلام النَّاس سرًّا فيما بينهم، إلَّا إذا كان حديثًا داعيًا إلى بذل المعروف من الصَّدقة، أو الكلمة الطيبة، أو التَّوفيق بين النَّاس، ومن يفعل تلك الأمور طلبًا لرضا اللّه تعالى راجيًا ثوابه، فسوف نؤتيه ثوابًا جزيلًا واسعًا[8].

(1) الخليل، العين: (عرف).
(2) الرّازي، مختار الصّحاح: (عرف).
(3) الرّاغب، المفردات: (عرف).
(4) الرّاغب، المفردات: (صلح).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات: (بغى).
(6) ابن دريد، جمهرة اللّغة، الجوهريّ، الصّحاح: (بغى).
(7) الرّاغب، المفردات: (رضي).
(8) الموصلّي، أولى ما قيل: 3/123 - 124، ونخبة من العلماء، التفسير الميسر، ص: 97.

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالة الاستئناف بقوله تعالى: ﴿۞لَّا خَيۡرَ فِي كَثِيرٖ مِّن نَّجۡوَىٰهُمۡ﴾:

علم الله بأحوال المتناجين

جاءَت هذه الجملة استئنافيَّة ابتدائيَّة؛ لإفادة حكم النَّجوى وحالات المتناجين، وجاءَت تعليقًا على ما سبق من أحداث واقعة أبناء طعمَة بن أبيرق - وأيضًا - لتأسيس تشريع عامٍّ للحفاظ على وحدة المجتمع، وترابط أبنائه، وللتنديد بطبيعة بعض حالات النَّجوى؛ لأنَّها لا تكون في الغالب إلَّا للشَّرِّ والإفساد، وللدَّلالة على أنَّ النَّجوى في أغلب حالاتها قليلة الخير كثيرة الشَّرِّ، وهي مظهر من مظاهر الإثم والعدوان[1].

دلالة مجيء المسند إليه نكرةً ومنفيًّا في قوله تعالى: ﴿۞لَّا خَيۡرَ فِي كَثِيرٖ مِّن نَّجۡوَىٰهُمۡ﴾:

كثيرٌ من حالات التَّناجي لا تأتي بخير

للدَّلالة على كثرة حالات التَّناجي بين النَّاس - وأيضًا - إلى ترك حالات النَّجوى كلِّها أو عامَّتها، فإن كان لابدَّ منها؛ فتكون في صدقة أو معروف أو إصلاح، فقدَّم المسند إليه ونفاه، وجاء به نكرة، فأفاد تخصيصه، وحقّ المعرَّف حَمله على وجه تقوية الحكمِ، وحَقّ المنكَر حمله على وجه التَّخصيص.

وفي دلالة النَّفي معانٍ تحفظ على المجتمع ألفته ووحدته؛ لأنَّ الكثير من حالات النَّجوى تبعث الرِّيبة في مقاصد المتناجين، وأنَّها لا تغلب إلَّا على أهل الرَّيب والشّبهات، بحيث لا تصير دأبًا إلَّا لأولئك، فمن أجل ذلك نفى اللّه الخير عن أكثر النَّجوى[2]، وقد أفردت ثلاثة أقسام من أفعال الخير: إمَّا لإيصال المنفعة، وإمَّا لدفع المضرَّة[3].

دلالة خروج النَّفي إلى معنى التَّنبيه والتَّوبيخ:

خرج النَّفي إلى معنى التَّنبيه والتَّوبيخ، لمَّا كان قوم طعْمة قد

(1) الموصلّي، أولى ما قيل: 3/124 - 125.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 5/199.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 1/484.

ناجَوا النَّبيّ ﷺ في الدَّفع عنه، فنبَّههم سبحانه وغيرهم على ما ينبغي أن يقع به التَّناجي، ويحسن فيه التَّفاؤل والتَّجاذب على وجه ناهٍ عن غيره أشدَّ نهي، بقوله تعالى: ﴿۞لَّا خَيۡرَ فِي كَثِيرٖ مِّن نَّجۡوَىٰهُمۡ﴾؛ أي: نجوى جميع المناجين[1]، وفي فحوى خطاب الآية تنبيه شديد للنَّاس جميعًا، قد يصل إلى معنى التَّوبيخ، لمنِ اعتاد هذا الفعل، وكثَّرَه دون اكتراث إلى فحوى التَّنبيه فيه، فقال: ﴿كَثِيرٖ﴾؛ ليشير إلى الاعتياد بلا اكتراث، وخطورة هذا الطَّبع البشريِّ.

أعمال الظَّاهر يلزم لها رعاية أحوال الباطن في إخلاص النِّيَّة

دلالة استعمال (لا) النَّافية للجنس:

استعملت في قوله: ﴿۞لَّا خَيۡرَ﴾؛ لأنَّها أقوى في الدَّلالة على نفي الخيريَّة عن كثير منَ التَّناجي، وسبب ذلك: أنَّ ما بعدها نكرة في سياق النَّفي، فأفاد العموم.

قوَّة دلالتها في نفي الخيريَّة

سرّ العدول عنِ التَّعبير بالشَّرِّ إلى نفي الخير:

آثر القرآن الكريم التَّعبير بنفي الخير بدلًا من ذكر الشَّرِّ في قوله تعالى: ﴿۞لَّا خَيۡرَ فِي كَثِيرٖ مِّن نَّجۡوَىٰهُمۡ﴾؛ لأنَّ لفظ الخير محبوب للنَّفس، بخلاف الشَّرِّ فهو مكروه، وأيضًا فيه دعوة إلى فعل الخير، وتحذير من فعل الشَّرِّ في النَّجوى؛ لأنَّه مذموم في كلِّ أحواله.

حسن لغة القرآن تعليمٌ للدّعاة

دلالة التَّعبير بالظَّرفيَّة في قوله تعالى: ﴿فِي كَثِيرٖ﴾:

عبَّر بالظَّرفيَّة ﴿فِي﴾ للدَّلالة على أنَّ عدم الخيريَّة في حالات التَّناجي تغلغل؛ إذ فيها تَغَلغل الظَّرف في المظروف.

تَغَلغل الظَّرف في المظروف

سرّ اختيار لفظ ﴿كَثِيرٖ﴾ دون غيره:

لفظ (بعض) مثلًا لا يؤدِّي المعنى المراد؛ لأنَّه يصدق على القليل والأقلِّ، وعلى الجزء منَ الكلِّ، بخلاف لفظ ﴿كَثِيرٖ﴾ في سياق الآية، فهو يشير إلى الجواب لسؤال يرد في الخاطر، كم نسبة التَّناجي

الكثرة تكون في الحالات والأعداد

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 5/400.

الّتي لا خير فيها ؟ فكان قوله: ﴿كَثِيرٍ﴾ جوابًا على هذا التَّساؤل بأنَّ الأغلب لا خير فيها؛ لأنَّ الكثرة تكون في الحالات والأعداد.

دلالة الكناية في قوله: ﴿لَّا خَيْرَ﴾:

الاحتراس في الحكم صفة قرآنيَّة وأخلاق إيمانيَّة

معنى ﴿لَّا خَيْرَ﴾ أنَّه شرٌّ، بناء على المتعارف في نفي الشَّيء أن يراد به إثبات نقيضه؛ لعدم الاعتداد بالواسطة، كقوله تعالى: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾ [يونس: 32]، ولأنَّ مقام التَّشريع إنَّما هو بيان الخير والشَّرِّ[1]، فإن لم يكن خيرًا؛ فهو من قبيل الشَّرِّ.

وقد نفى الخير عن كثير من نجواهم، أو متناجيهم، وهي كناية عن موصوف؛ إذ علم من مفهوم الصِّفة أنَّ قليلًا من نجواهم فيه خيرٌ، ولا يخلو حديث النَّاس من تناج فيما فيه خير.

وفائدة هذه الكناية: تظهر في افتراضنا أنَّه لو قال: "الشَّرّ في نجواهم"؛ لشمل ذلك كلَّ تفصيلات مناجاتهم، وكلَّ عبارة يقولونها، وجعلها كلَّها في خانة الشَّرِّ، لكنَّه لمَّا كنَّى بقوله: ﴿۞لَّا خَيْرَ﴾ منح الموضوع بعدًا آخر؛ إذ قد يضمَّن كلامهم ببعضٍ من عبارات الخير، أو ما يحقِّق نفعًا محدودًا، لكنَّ مضمون كلامهم على إجماله وفي كلِّيَّته لا يخرج منه حصيلة خير، فلو قال: "الشَّرّ في نجواهم"؛ لدلَّ ذلك على أنَّ كلَّ تفصيلات كلامهم، وكلَّ جملة يقولونها، هي من قبيل الشَّرِّ، وهذا قد يصدق، أو لا يصحّ على حالات النَّجوى بينهم.

سرّ التَّعبير بالإضمار في قوله ﴿نَّجْوَىٰهُمْ﴾:

توظيف الحدث الخاصّ في بناء المجتمع

اختلف في عود الضَّمير (هم) على الخاصِّ أو العامِّ في قوله: ﴿نَّجْوَىٰهُمْ﴾؛ فذهب بعضهم إلى أنَّ الضَّمير في ﴿نَّجْوَىٰهُمْ﴾ عائد على قوم طعمة الَّذين تقدَّم ذكرهم، قاله: ابن عبَّاس وغيره. وقال مقاتل: هم قوم منَ اليهود ناجَوا قوم طعمة، واتَّفقا معهم على التَّلبيس على الرَّسول ﷺ في أمر طعمة[2].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 5/199.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/63.

وذكر ابن عاشور أنَّ الضَّمير الَّذي أضيف إليه "نجوى" ضمير جماعة النَّاس كلِّهم نظير قوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّهُمۡ يَثۡنُونَ صُدُورَهُمۡ لِيَسۡتَخۡفُواْ مِنۡهُۚ أَلَا حِينَ يَسۡتَغۡشُونَ ثِيَابَهُمۡ يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَۚ﴾ [هود: 5]، وليس عائدًا إلى ما عادَت الضَّمائر الَّتي قبله في قوله: ﴿يَسۡتَخۡفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [النِّساء: 108]؛ لأنَّ المقام مانع من عوده إلى تلك الجماعة؛ إذ لم تكن نجواهم إلَّا فيما يختصّ بقضيَّتهم، فلا عموم لها يستقيم معه الاستثناء في قوله: ﴿إِلَّا مَنۡ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوۡ مَعۡرُوفٍ أَوۡ إِصۡلَٰحِۭ بَيۡنَ ٱلنَّاسِۚ﴾[1].

وذكر أبو حيَّان الأندلسيّ أنَّ الآية جاءَت عامَّة، فاندرج أصحاب النَّازلة، وهم قوم طعمة في ذلك العموم؛ لكون الماضي والمغاير تشملهما عبارة واحدة[2].

دلالة إضافة الضَّمير إلى النَّجوى في قوله ﴿نَّجۡوَىٰهُمۡ﴾:

التَّربية الفرديَّة تأسيسٌ لتربية المجتمع كلِّه

من دلالات إضافة الضَّمير: أنَّه عائد على النَّاس أجمع، وذلك من سياق الآيات الَّتي دلَّت على العموم، وفي عمومها يندرج أصحاب النَّازلة، وهذا منَ الفصاحة والإيجاز المضمَّن الماضي والغابر في عبارة واحدة[3]، وعلى هذا فالمقصود منَ الآية: تربية اجتماعيَّة دعَت إليها المناسبة، فإنَّ شأن المحادثات والمحاورات أن تكون جهرة؛ لأنَّ الصَّراحة من أفضل الأخلاق لدلالتها على ثقة المتكلِّم برأيه، وعلى شجاعته في إظهار ما يريد إظهاره من تفكيره، فلا يصير إلى المناجاة إلَّا في أحوال شاذَّة يناسبها إخفاء الحديث، فمَن يناجي في غير تلك الأحوال؛ رمي بأنَّ شأنَه ذميم، وحديثه فيما يَستحيي من إظهاره[4].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 5/198.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/65.
(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/112.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 5/198 - 199.

معنى حرف العطف ﴿أَوْ﴾:

تشريك المعنى في العطف

عرض العلماء لمعاني هذا الحرف، وجعلوا منها التَّقسيم، وهو على نحو قولك: (الكلمة: اسم، أو فعل، أو حرف)، ويمكن أن تكون بمعنى: الواو، كقوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾﴾ [الصّافّات: 147]، ومن أحسن شواهده: حديث أبي هريرة رضي الله عنه: أنَّ رسول الله ﷺ كان على جبل حراء فتحرَّك، فقال رسول الله ﷺ: "اسكن حراء فما عليك إلَّا نبيٌّ، أو صدِّيق، أو شهيد"، وعليه النَّبيّ ﷺ، وأبو بكر، وعمر، وعثمان، وعليٌّ، وطلحة، والزّبير، وسعد بن أبي وقَّاص،[1] رضي الله عنهم.

وفي مسند الإمام أحمد ورد قوله: "اهدأْ فما عليك إلَّا نبيٌّ أَو صدِّيقٌ أَوشهيد"[2]، ويمكن أن يكون ﴿أَوْ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍ بَيْنَ ٱلنَّاسِۚ﴾ قد أفاد معنى (الواو).

وجه ذكر قوله: ﴿أَوْ مَعْرُوفٍ﴾ بعد (صَدَقَةٍ):

الاهتمام بها لعظم شأنها في مصالح العباد

أتى بذلك للتَّدليل على فائدة مهمَّة تؤخَذ منَ السِّياق؛ لتدلَّ على أنَّه يجوز أن يقرن بين الخاصِّ والعامِّ، فقرن هنا المعروف، بما هو أخصّ منه فقال: ﴿۞لَّا خَيْرَ فِى كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍ بَيْنَ ٱلنَّاسِۚ﴾ [النِّساء: 114]، فالملاحظ أنَّ الآية في تركيبها غايرت بين المعروف والصَّدقة والإصلاح بين النَّاس، ونظير ذلك قوله: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِۗ﴾ [العنكبوت: 45] فقد غاير بينهما، ودخلت الفحشاء في المنكَر في قوله: ﴿وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِۚ﴾ [آل عمران: 104]؛ ثمَّ ذكر مع المنكَر اثنين في قوله: ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْيِۚ﴾ [النَّحل: 90]، فجعل البغي هنا مغايرًا لهما، وقد دخل في المنكر في ذينك الموضعين[3].

(1) مسلم، الحديث رقم: (6328).
(2) الإمام أحمد، المسند، الحديث رقم: (9430).
(3) ابن تيميّة، الإيمان، ص: 131.

وممَّا يذكر في هذا المقام أنَّ الصَّدقة تشمل الفرض والتَّطوع، والمعروف عامٌّ في كلِّ برٍّ، فـ(المعروف) لفظ يعمّ الصَّدقة والإصلاح، ولكن خصَّا بالذِّكر اهتمامًا بهما؛ إذ هما عظيما الغناء في مصالح العباد[1].

وفي الحديث قوله ﷺ: (كلّ كلام ابن آدم عليه لا له، إلَّا أمر بمعروف أو نهي عن منكر أو ذكر الله)[2]، وحدَّث سفيان الثَّوريّ بهذا الحديث أقوامًا، فقال أحدهم: ما أشدَّ هذا الحديث! فقال له: ألم تسمع: كلّ معروف صدقة، وأنَّ منَ المعروف أن تلقى أخاك بوجه طلق[3].

فيندرج تحت المعروف الصَّدقة والإصلاح. لكنَّهما جرِّدا منه، واختصَّا بالذِّكر اهتمامًا؛ إذ هما عظيما الشَّأن في مصالح العباد.

فائدة العطف بـ﴿أَوْ﴾:

اللفّ والنَّشر في ترتيب المعطوفات

عطف بـ﴿أَوْ﴾ مبالغة في تجريدهما، حتَّى صار القِسم قسيمًا[4]، وبحسب ذلك يظهر وجهٌ خاصٌّ من قبيل اللَّف والنَّشر، فصار المعروف لفًّا لنشر الصَّدقة والإصلاح بين النَّاس، ولكنَّه أخَّر الإصلاح، وخصَّه بالنَّاس، مع أنَّ الصَّدقة والمعروف هي للنَّاس أيضًا؛ لينتظم في فنٍّ بلاغيٍّ آخر، هو فنّ التَّرقِّي، وما يكتنفه في النَّصِّ منَ المعاني الجديدة.

دلالة التَّرتيب في هذه الأفعال:

الارتقاء في معاني أفعال الخير هو ارتقاءٌ مجتمعيٌّ

هذا التَّرتيب على تفسير المعروف بالفرد يكون للارتقاء في معاني أفعال الخير؛ كما روي ذلك عن ابن عبَّاس ومقاتل، فارتقى في ترتيبها، وهذا هو الأولى في ذكر الصَّالح منَ الأعمال والحثِّ

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/112.
(2) التّرمذيّ، السنن، الحديث رقم: (2412)، وقال: حسن غريب.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/64.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/64.

عليها، فارتقى المعنى منَ الصَّدقة إلى الفرض إلى الإصلاح بين النَّاس، وذلك باعتباره أعلى درجات الأعمال الصَّالحة لما فيه من صلاح المجتمع والأمَّة، وقال ﷺ: "ألا أخبركم بأفضل من درجة الصَّلاة والصِّيام والصَّدقة، قالوا: بلى، قال: إصلاح ذات البين، وفساد ذات البين هي الحالقة"[1].

وبحسب ذلك - أيضًا - يمكن أن يفهم الكلام على التَّرقِّي من جهة أخرى، فقد ذكر ثلاثة أنواع لأعمال الخير، من أصغرها إلى أكبرها، ومن أدناها أثرًا إلى أعلاها شأنًا وقيمة؛ لأنَّ عمل الخير بإيصال المنفعة؛ إمَّا جسمانيًّا: وهو إعطاء المال، وإليه الإشارة بقوله: بصدقة، وإمَّا روحانيًّا: وهو تكميل القوَّة النَّظريَّة بالعلوم، أو القوَّة العمليَّة بالأفعال الحسنة، ومجموعها عبارة عنِ الأمر بالمعروف، وإليه الإشارة بقوله: أو معروف[2]، وإمَّا أن يكون بدفع المضرَّة، وإليه الإشارة بقوله: أو إصلاح بين النَّاس[3].

دلالة البدء بالصَّدقة على تفسيرها بالواجب:

المجتمع النَّاهض يترقَّى أفراده في صنائع المعروف والإصلاح

دلَّ البدء بالصَّدقة على تفسيرها بالواجب، وإطلاق المعروف على ما يتصدَّق به على سبيل التَّطوّع[4]، وبحسب هذا المعنى يكون التَّدلِّي في معاني الإصلاح بحسب الكثرة والقلَّة في أفعال الخير ممَّا يفعله النَّاس؛ لأنَّ الآية وصفٌ لأعمالهم، فاقتضى أن يفعل ذلك جماعة منهم بقوله: ﴿إِلَّا مَنْ أَمَرَ﴾، فيكون الأمر بالصَّدقة يعمل به طيف كبير منَ النَّاس؛ باعتباره الواجب، فيلتزم في أوانه النَّاس، أمَّا المعروف؛ فيكون الأقلَّ باعتبار الصَّدقة على سبيل التَّطوّع، وأمَّا الإصلاح بين النَّاس؛ فيقتصر على فئة قليلة جدًّا منَ المصلحين والعلماء.

وظاهر قوله: ﴿أَوْ إِصْلَٰحٍۭ بَيْنَ ٱلنَّاسِۚ﴾ أنَّه في كلِّ شيء يقع فيه اختلاف ونزاع، أو هو خاصٌّ بالإصلاح بين طعمة واليهوديِّ المذكورين[5].

---

(1) الإمام أحمد، المسند، وإسناده صحيح.
(2) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 11/33.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/66.
(4) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/597.
(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/64.

ومع حالة أخرى للتَّدلِّي: فهذه الثَّلاثة تضمَّنتِ الأفعال الحسنة، وبدأ بأكثرها نفعًا؛ وهو إيصال النَّفع إلى الآخرِ، ونبَّه بالمعروف على النَّوافل الَّتي هي منَ الإحسان، والتَّفضّل، والإصلاح بين النَّاس على سياستهم، وما يؤدِّي إلى نظم شملهم[1].

التَّناوب في اقتراح أفعال الخير كبيرها وصغيرها، من الدَّعوة إلى إصلاح العقول والقلوب

وجه ذكر العامِّ بعد الخاصِّ، ثمَّ الخاصِّ بعد العامِّ

تظهر دلالة ذكر العامِّ بعد الخاصِّ، ثمَّ الخاصِّ بعد العامِّ في قوله: ﴿إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ﴾؛ لأنَّه لمَّا خصَّ الصَّدقة لعزَّة المال في ذلك الحال؛ عمَّم بقوله: ﴿أَوْ مَعْرُوفٍ﴾، أيَّ معروف كان، ممَّا يبيحه الشَّرع من صدقة وغيرها، فذكر الخاصَّ ثمَّ ذكر العامَّ، وفائدة ذلك: أنَّه حينما يذكر (الصَّدقة) تتَّجه الأنظار والقلوب نحو هذا العمل الجليل الَّذي هو التَّصدّق بالمال، ولعلَّ ذلك العمل يختصّ به أهل الأموال أكثر من غيرهم، فعندما يقول: ﴿أَوْ مَعْرُوفٍ﴾ فقد عمَّم في ذكر أنواع الخير، فشمل المعروف النَّاسَ جميعًا، فكلّ عمل صالح هو معروف حتَّى إن كان كلمة طيِّبة يقولها، أو ابتسامة يطلقها، وقوله ﷺ مشهود في ذكر المعروف: "لا تحقرنّ منَ المعروف شيئًا، ولو أن تلقى أخاك بوجه طلق"[2]، فشمل كلَّ خير يمكن أن يقوم به الإنسان، وشمل النَّاس جميعًا من أهل المعروف والخير، ثمَّ انتقل من هذا العامِّ منَ المعروف إلى ذكر أخصِّ أنواع المعروف؛ وهو إصلاح ذات البين، ولمَّا كان في إصلاح ذات البين من جلالة القدر، وعظيم الشَّأن؛ نبَّه على عظيمه بتخصيصه بقوله: ﴿أَوْ إِصْلَٰحٍ بَيْنَ ٱلنَّاسِۚ﴾، وما ذاك التَّحوّل منَ الخاصِّ إلى العامِّ، ثمَّ منَ العامِّ إلى الخاصِّ إلَّا للتَّنبيه على عظيم الصَّدقة، والمعروف، والإصلاح، وجعلها محاور

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/66.
(2) مسلم، الحديث رقم: 6783.

رئيسة، وعناوين كبرى، تندرج تحتها أفعال الخير كلّها، فيكون المعنى: لا خير في كثير من نجواهم، ومن أراد الخير من أبوابه؛ فعليه بالصَّدقة، والمعروف، والإصلاح بين النَّاس.

ونجد في تحوّل الأسلوب بين العامِّ والخاصِّ؛ تنبيهًا لترك ما لا خير فيه، وإرشادًا وترغيبًا في أفعال الخير، وتعريفًا بمحاورها الرَّئيسة، وحثًّا على العمل بها، فذكر النَّاس عامَّة، فقد بيَّن ﷺ أنَّ غير المستثنى منَ التَّناجي لا خير فيه، وكلّ ما انتفى عنه الخير كان مجتنبًا[1].

وذكْر الخاصَّ بعد العامِّ وجهٌ من وجوه الإطناب، فيذكر لما له من مزيَّة تفرّده دون سواه منَ العامِّ، وفيه منَ المزايا البلاغيَّة العظيمة الَّتي تحرِّك مكامن النَّفس، وتعيد بناء الفكرة الذِّهنيَّة بما يتوافق مع الشَّرع من عمل الخير ونبذ الشَّرِّ، فتجعل ذلك كلَّه محتوى في صورة فنِّيَّة بأسلوب بلاغيٍّ معجز.

بلاغة الإيجاز في قوله: ﴿أَوۡ مَعۡرُوفٍ﴾:

الإيجاز في قوله: ﴿إِلَّا مَنۡ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوۡ مَعۡرُوفٍ أَوۡ إِصۡلَٰحِۭ بَيۡنَ ٱلنَّاسِۚ﴾، أي: أمر بمعروف، ولم يقل: أمر بمعروف أو نَهَى عن منكر؛ مع أنَّ النَّهي عنِ المنكر ملازم للأمر للمعروف في مَواضِع كثيرةٍ منَ القرآن الكريم، ومن أمثلة ذلك قوله تعالى: ﴿يَأۡمُرُهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَىٰهُمۡ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ﴾ [الأعراف: 157]، وقوله: ﴿كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ تَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَتَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ﴾ [آل عمران: 110]، وقوله: ﴿وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ﴾ [التّوبة: 71]، إذ يدخل في المعروف كلّ خير، وفي المنكر كلّ شرٍّ[2].

يدخل في المعروف كلّ خير، وفي المنكر كلّ شرٍّ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 5/400.

(2) ابن تيميّة، الإيمان، ص: 131.

بلاغة الاستثناء، وفروق المعاني:

تظهر بلاغة الاستثناء، وذلك بناء على اختلاف العلماء في المراد بالاستثناء بين الاتِّصال والانقطاع، والمعاني المترتِّبة على ذلك في قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ﴾، والتَّقدير: إلَّا نجوى مَن أمَرَ بصدقة[1]، على سبيل الاستثناء المتَّصل، وهو مجمل يَصْدق على كلِّ نجوى تصدر منهم فيها نفع، وليس فيها ضرر، أو بلا تقدير، أي: لَكِن من أَمر بصدقة، أي: على سبيل الاستثناء المنقطع، إن كانتِ النَّجوى بمعنى: المتناجين، وهو مستثنى من كثير، فحصل من مفهوم الصِّفة، ومفهوم الاستثناء قسمان منَ النَّجوى، يثبت لهما الخير، ومع ذلك فهما قليل من نجواهم[2]، والمعنى: لا خير في كثير من نجواهم إلَّا فيمن أمر بصدقة، كقولك: لا خير في القوم إلَّا نفر منهم، والثَّاني: أن تجعله تبعًا للنَّجوى، كما تقول: لا خير في جماعة منَ القوم إلَّا زيد، إن شئت؛ أتبعت زيدًا الجماعة، وإن شئت؛ أتبعه القوم[3].

وقال الزَّمخشريّ: "إلَّا نجوى من أمر على أنَّه مجرور بدل من (كثير)، كما تقول: لا خير في قيامهم إلَّا قيام زيد، ويجوز أن يكون منصوبًا على الانقطاع، بمعنى: ولكن من أمر بصدقة ففي نجواه الخير"[4].

وقد نظر ابن عطيَّة إلى تقدير الكلام من جهة المستثنى منه، فقال: وتحتمل اللَّفظة في هذه الآية أن تكون الجماعة، وأن تكون المصدر نفسه، فإن قدَّرناها الجماعة، فالاستثناء متَّصل، كأنَّه قال: لا خير في كثير من جماعاتهم المنفردة المتسارَّة إلَّا من أمر بصدقة، وإن قدَّرنا اللَّفظة المصدر نفسه، كأنَّه قال: لا خير في كثير من تناجيهم، فالاستثناء منقطع بحكم اللَّفظ، ويقدَّر اتِّصاله على حذف مضاف، كأنَّه قال: (إلَّا نجوى من)، وقال بعض المفسِّرين: النَّجوى كلام الجماعة المنفردة كان ذلك سرًّا أم جهرًا[5].

(1) الأخفش، معاني القرآن: 1/266.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 5/199.
(3) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 11/33.
(4) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/597.
(5) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/112.

أخرج القرآن هذه الثَّلاثة بطريق الاستثناء مع أنَّها أخرجت ابتداءً بمفهوم الصِّفة:

التَّفصيل بعد الإجمال منهج سديد في الدَّعوة والتَّربية

أخرج القرآن هذه الثَّلاثة، وجعلها قِسمًا أخرجه الاستثناء، وهي: الصَّدقة، والمعروف، والإصلاح بين النَّاس، وهذه الثَّلاثة لو لم تذكر؛ لدخلَت في القليل من نجواهم الثَّابت له الخير في قوله: ﴿۞لَّا خَيۡرَ فِي كَثِيرٖ مِّن نَّجۡوَىٰهُمۡ﴾، فلو اكتفى بذلك لعلم أنَّ قليلًا من نجواهم هو منَ الخير، فلمَّا ذكرت بطريق الاستثناء علمنا أنَّ نظم الكلام جرى على أسلوب بديع، فأخرج ما فيه الخير من نجواهم ابتداءً بمفهوم الصِّفة، ثمَّ أريد الاهتمام ببعض هذا القليل من نجواهم، فأخرج من كثير نجواهم بطريق الاستثناء، فبقي ما عدا ذلك من نجواهم، وهو الكثير موصوفًا بأن لا خير فيه، وبذلك يتَّضح أنَّ الاستثناء متَّصلٌ، وأن لا داعي إلى جعله منقطعًا، والمقصد من ذلك كلِّه الاهتمام والتَّنويه بشأن هذه الثَّلاثة[1].

سرّ عطف قوله تعالى: ﴿وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ﴾ على ما سبق:

العمل لا يكون له روحٌ إلَّا بالنِّيَّة الصَّحيحة

لأنَّه لمَّا كان التَّقدير: فمَن أمر بشيء من ذلك؛ فنجواه خيرٌ، وله عليها أجر، عطف عليه قوله: ﴿وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ﴾، أي: الأمر العظيم الَّذي أمر به من هذه الأشياء، ويكون ﴿ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ﴾؛ لأنَّ العمل لا يكون له روحٌ إلَّا بالنِّيَّة الصَّحيحة؛ فقال: ﴿فَسَوۡفَ نُؤۡتِيهِ﴾، أي: في الآخرة بوعد لا خلف فيه ﴿أَجۡرًا عَظِيمٗا﴾[2].

دلالة الاحتباك في الآية:

الحوار الصَّريح خير وسيلة لحلِّ المشاكل

في الآية احتباك، والتَّقدير: (لا خير في كثير من نجواهم ولهم عليها إثمٌ إلَّا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين النَّاس فنجواه خير ومَن يفعل ذلك ابتغاء مرضاة اللّه، فسوف نؤتيه أجرًا عظيمًا)،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 5/200.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 5/401.

وفائدة هذا الاحتباك: الإيجاز أوَّلًا، ثمَّ بيان أنَّ موضوعات النَّجوى فيها منَ التَّداخلات ما يكون أغلبها ليس في خير، وقد يكون المعنى المراد في النَّجوى أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح، لكن يداخل تلك الموضوعات كثير منَ الغيبة والقدح وغيرها، فيمتزج أحيانًا الخير بالشَّرِّ، فجاء أسلوب الاحتباك ليعكس واقع حال النَّجوى، ولبيان أنَّ أسلوب المناجاة أسلوب استثنائيٌّ، وينبغي أن يعمل المجتمع بالحِوار الصَّريح.

وقد ألزمتِ الآية في هذا الخبر الأفراد والمجتمعات تقليل هذا الأسلوب في التَّعامل، إلَّا في أحوال خاصَّة يكون في النَّجوى ما يضمن المعروف والإصلاح.

دلالة الجملة الاعتراضيَّة في قوله: ﴿وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ﴾:

صدق النِّيَّة لله باب القبول

دلَّتِ الجملة الاعتراضيَّة على الوعد بالثَّواب على فعل المذكورات؛ إذا كان لابتغاء مرضاة اللّه، فدلَّ على أنَّ كونَها خيرًا وصف ثابت لها لما فيها منَ المنافع، ولأنَّها مأمور بها في الشَّرع، إلَّا أنَّ الثَّوابَ لا يحصل إلَّا عن فعلها ابتغاء مرضاة اللّه، كما في حديث: "إنَّما الأعمال بالنِّيَّات"[1]، فاحترس بذكر من يفعل هذه الأفعال الصَّالحة منَ التَّصدّق والمعروف والإصلاح بين النَّاس أن يكون بنيَّة ابتغاء الثَّواب عند اللّه ومرضاته، فإنَّ اللّه سيؤتيه الأجر العظيم والثَّواب الجزيل جزاء عمله ونيَّته، ومفهوم المخالفة يدلّ على أنَّ من يفعل ذلك ابتغاء شيء دون مرضاة اللّه؛ فلن يؤتيه اللّه الأجر والثَّواب؛ لأنَّه لم يفعله طلبًا لذلك الأجر، فيعطي اللّه من طلب أجره وثوابه دون غيرهم.

سرّ تكرار ﴿مَنۡ﴾:

يفيد هذا التَّكرار التَّوكيدَ

تكرَّرت ﴿مَنۡ﴾ في الآية، فقال تعالى: ﴿إِلَّا مَنۡ أَمَرَ﴾، وقوله: ﴿وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ﴾، وقد يفيد هذا التَّكرار التَّوكيدَ، إن كانت الثَّانية

(1) البخاريّ، رقم: (54)، ومسلم، الحديث رقم: (1907).

قصد منها الإشارة إلى الشَّخص نفسه في الأولى، فيكون مَن يفعل هو نفسه مَن أمر، وهذا هو كمال المعروف، أو كان الآمر هو نفسه المطاع في قومه، فيأتمرون بأمره، فيطلق الفعل على غير فاعله على سبيل المجاز العقليِّ، وهذا التَّغاير بين الأمر والفعل منح الموضوع مساحة واسعة في التَّفعيل والتَّطبيق.

وجه الالتفات الفعليّ بين ﴿أَمَرَ﴾ و﴿يَفْعَلْ﴾:

التَّواصل بين الأمر والفعل والانتقال منَ الأوامر إلى الأفعال

النَّاظر في الآية يجد الانتقال بين الأمر والفعل، حيث التفتَ منَ الفعل الماضي في قوله: ﴿إِلَّا مَنْ أَمَرَ﴾ إلى الفعل المضارع في قوله: ﴿وَمَن يَفْعَلْ﴾ على اعتبار أنَّ الآمر في الأولى هو الفاعل في الثَّانية، وفائدة هذا الالتفات: التَّواصل بين الأمر والفعل أوَّلًا؛ والانتقال منَ الأوامر إلى الأفعال ثانيًا؛ إذِ التفتَ منَ الأمر، وهو في الماضي؛ ليجعل المخاطب يقف على تفعيل ذلك الأمر، وجعله فعلًا مؤثِّرًا، فقال: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ﴾، ثمَّ ما في الفعل المضارع من فائدة التَّجدّد والاستمرار، فلعلَّ أمرًا واحدًا تكون نتيجته أفعالًا كثيرةً، وخصَّ من أمَرَ بهذه الأشياء، وفي ضمن ذلك أنَّ الفاعل أكثر استحقاقًا منَ الآمر، وإذا كان الخير في نجوى الأمر به؛ فلا يكون في مَن يفعله بطريق الأولى[1].

فإن قيل كيف قال ﴿إِلَّا مَنْ أَمَرَ﴾، ثمَّ قال ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ﴾؟

وجوابه: أنَّه ذكر الأمر بالخير ليدلَّ به على فاعله؛ لأنَّ الآمر بالخير لمَّا دخل في زمرة الخيريين كان دخول فاعل الخير فيهم من باب أولى، ويجوز أن يراد: ومن يأمر بذلك، فعبَّر عنِ الأمر بالفعل؛ لأنَّ الأمر أيضًا فعل منَ الأفعال[2]، وهذا على سبيل المجاز.

ويضاف إلى ذلك أنَّ المقصود التَّرغيب في الفعل، وفيه إشارة

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/66.
(2) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 11/34.

إلى أنَّه يجوز أن يعَبَّر عنِ الأمر بالفعل، إذ هو يكَنَّى به عن جميع الأشياء، كما إذا قيل: حلفت على زيدٍ وأكرمته، وكذا وكذا، فتقول: نعم ما فعلت[1].

بلاغة المجاز في معنى (الأمر) في قوله: ﴿إِلَّا مَنْ أَمَرَ﴾:

وتظهر بلاغة المجاز في قوله تعالى: ﴿أَمَرَ بِصَدَقَةٍ﴾؛ فالمعنى: حثَّ، وحضَّ عليها[2].

يعبَّر بالفعل عنِ الأمر، كما يعبَّر به عن سائر الأفعال

فلمَّا ذكر أنَّ الخير في قوله: ﴿مَنْ أَمَرَ﴾؛ ذكر ثواب من فعل، ويجوز أن يريد: ومَن يأمر بذلك، فيكون التَّقدير: إلَّا من أمر بصدقة... ومن يأمر بذلك طلبًا لرضا الله، فيعبَّر بالفعل عنِ الأمر، كما يعبَّر به عن سائر الأفعال، وهو على سبيل المجاز المرسَل، وعلاقته المسَبَّبيَّة، والمجاز في ﴿أَمَرَ﴾ بمعنى: القول أو الفعل أو التَّوجيه.

وجه الكناية في قوله: ﴿أَمَرَ﴾:

تأتي هذه المعاني من إيحاءات لفظ (الأمر) في قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أَمَرَ﴾، فالمعنى: أنَّ من يأمر له القدرة على تنفيذ أفعال الخير تلك، أو أنَّ له التَّأثير والسّلطان على جعل الآخرين يأتمرون بأمره، ويحتكمون إلى قوله، فيفهم من ذلك أنَّ النَّجوى في الخير تكون لأكابر القوم، مِمَّن يملكون زمام المجتمع، وحركة تنفيذ الإصلاح بين النَّاس، فيأمرون بالصَّدقة والمعروف والإصلاح بين النَّاس فيستجاب لهم في ذلك كلِّه، فيكون مَن يأمر، هم أكابر القوم، ومَن يفعل هم مَن يستجيبون لأوامرهم من أهل الخير والصَّلاح.

الدَّلالة على التَّأثير والسّلطان؛ إذ يحتاج الحقّ لإقامته إليهما

بلاغة الالتفات في القراءات:

قوله: ﴿فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ﴾ قرأه أبو عمرو، وحمزة، وخلف بالياء التَّحتيَّة ﴿يُؤْتِيهِ﴾ على ظاهر قوله: ﴿ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ﴾[3]، وقرأ

الالتفات إلى مراعاة النَّاس انقلاب في أفعال الخير فيه مفاسد

(1) الآلوسّي، روح المعاني: 5/145.
(2) ابن الجوزيّ، زاد المسير: 1/470، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/64.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 5/200.

الجمهور: ﴿نُؤۡتِيهِ﴾[1] بنون العظمة على الالتفات منَ الغيبة في قوله: ﴿مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ﴾ إلى التَّكلّم[2]. ونكتة هذا الالتفات تصوير هذا العطاء بأعظم ما يكون عليه، واستحضار عظمة الله ﷻ ساعة إيتاء الأجر؛ ليناسب ما بعده من قوله: ﴿نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ﴾، فيكون إسناد الثَّواب والعقاب إلى ضمير المتكلِّم العظيم، وهو أبلغ من إسناده إلى ضمير الغائب، ومن قرأ بالياء؛ لحظَ الاسم الغائب في قوله: ﴿ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ﴾، وفيه دليل على أنَّه لا يجزي منَ الأعمال إلَّا ما كان فيه رضا الله تعالى، وخلوصه لله دون رياء ولا سمعة[3].

والتَّنكير والتَّنوين في قوله: ﴿أَجۡرًا عَظِيمٗا﴾ مناسب لمقام العظمة في الآية الكريمة.

وجه الوصل في قوله: ﴿وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ﴾:

الوصل بين الجملتين لاتِّفاقهما في الخبريَّة

الواو في قوله: ﴿وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ﴾ للوصل بين الجملتين لاتِّفاقهما في الخبريَّة، فلمَّا أخبر في الأولى بانتفاء الخيريَّة عن أفعال النَّجوى في مجالس النَّاس واستثنى منها ثلاثة أقسام، أو أركان، أو صور رئيسة من أفعال الخير، وصله بخبر آخر ترغيبًا في الأوَّل بما يتضمَّنه، فارتقى بتلك الأقسام، فجعلها ابتغاء مرضاته سبحانه، فقال: ﴿فَسَوۡفَ نُؤۡتِيهِ أَجۡرًا عَظِيمٗا﴾، وفي ذلك ما فيه من تحويلات الفكر لدى المتلقِّين، فلا يؤجر فاعل الخير إلَّا أن تكون أفعاله ابتغاء مرضاته سبحانه، فاندرج مع السّموِّ المجتمعيِّ سموًّا في النِّيَّة والنَّفس، وزاد على فعل الخير عبادة خفيَّة، هي إصلاح النِّيَّة، وابتغاء رضاء الله تعالى.

(1) ابن مجاهد، السّبعة، ص: 237.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 5/200.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/66.

سرّ الإشارة بأداة البعد ﴿ذَٰلِكَ﴾ في: ﴿وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ﴾:

التَّشويق إلى الارتقاء إلى منازل مرضاة الله

أشار بأداة البعد ﴿ذَٰلِكَ﴾ مع قرب العهد به؛ للإيذان بعلوِّ منزلته، ورفعة شأنه، وترتيب الوعد على فعله[1]، ثمَّ ما في ذلك التَّشويق للارتقاء إلى منازل مرضاة الله سبحانه، قال مجاهد: هذه الآية عامَّة للنَّاس يريد أنَّه لا خير فيما يتناجى فيه النَّاس، ويخوضون فيه منَ الحديث إلَّا ما كان من أعمال البرِّ، ثمَّ بيَّن أنَّ ذلك إنَّما ينفع مَن ابتغى به ما عند الله[2]، وفي ذلك ضمانٌ للفرد وللمجتمع وحصانةٌ لهما في مسألتين: الأولى: ضمان عمل الخير، والأخرى: ضمان صحَّة التَّصرّف، واتِّباع أصول الأداء وخطواته بما يرضي الله سبحانه.

سرّ التَّأكيد بالمصدر في قوله: ﴿ٱبۡتِغَآءَ﴾:

رضاء الله هو الهدف الأسمى في حياة المؤمنين

أكَّد هذه الخيريَّة وعلَّلها بقوله: ﴿ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ﴾؛ لأنَّ مَن فعل خيرًا دون ابتغاء مرضاة الله؛ فليس له على الله شيء منَ الأجر والثَّواب؛ لأنَّه لم يفعلها ابتغاء رضاء الله وثوابه.

وصِيغَتِ العِلَّة بصيغة المصدر ﴿ٱبۡتِغَآءَ﴾ لتأكيد عمق الهدى الَّذي يقصده فاعل الخير، وزاد في ذلك العمق جمع كلمة ﴿مَرۡضَاتِ﴾، وإضافتها إلى لفظ الجلالة ﴿ٱللَّهِ﴾، فكان الجزاء بقدر عظيم ورد وصفه في قوله: ﴿فَسَوۡفَ نُؤۡتِيهِ أَجۡرًا عَظِيمًا﴾، وهو فوق ما يمكن تقديره عند البشر، فتوسَّع في وصفه دون ذكر تفاصيله، وأكَّد بأداة التَّأكيد ﴿فَسَوۡفَ﴾، وأتبعها بنون العظمة، ونكَّرَ في قوله: ﴿أَجۡرًا﴾ و﴿عَظِيمًا﴾؛ لتعظيم ذلك الأجر، وتشويقًا إليه، وإلى تحصيله.

والمعنى: أنَّ هذه الأقسام الثَّلاثة منَ الطَّاعات، وإن كانت في غاية الشَّرف والجلالة، إلَّا أنَّ الإنسان إنَّما ينتفع بها إذا أتى بها لوجه الله، ولطلب مرضاته، فأمَّا إذا أتى بها رياءً وسمعةً، فانقلبت لتكون منَ المفاسد، وذلك تبعًا لفساد النِّيَّة، وهذه الآية من

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/332.

(2) الواحديّ، الوجيز، ص: 289.

أقوى الدَّلائل على أنَّ المطلوب منَ الأعمال الظَّاهرة رعاية أحوال القلب في إخلاص النِّيَّة، وعدم الالتفات إلى غرضٍ سوى طلب رضوان الله تعالى[1].

حكمة التَّعبير بالمفعول لأجله ﴿ٱبۡتِغَآءَ﴾:

أولاً: للدَّلالة على الحرص على ابتغاء رضا الله في الأعمال، والأفعال، والأقوال.

ثانيًا: أنَّ الابتغاء يحمل معنى: الاجتهاد في الطَّلب، والمراد هنا: بذل الجهد في البعد عنِ المناجاة والمسارَّة مهما كان الأمر؛ لأنَّها في الغالب لا خير فيها.

ثالثًا: وللحرص على بذل الجهد في الأمور الثَّلاثة المذكورة؛ لتعلّق مصالح العباد بها.

التَّعبير بالمصدر الميميّ ﴿مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ﴾ دون المصدر (الرِّضا):

تصوير المعنى واقعًا قائمًا متحقِّقًا

يصوِّر المصدر الميميّ المعنى واقعًا قائمًا متحقِّقًا في الوجود، أمَّا المصدر غير الميميِّ؛ فيصوِّر المعنى مجرَّدًا، والمثال على ذلك: كلمة (مقال)، فإذا كانت هذه الكلمة بمعنى: (القول)؛ فإنَّ التَّعبير به يصوِّر معنًى مجرَّدًا من غير نظرٍ إلى كونه تحقَّق وجوده أم لا، أمَّا كلمة (مقال)؛ فتصوِّر معنًى وجد وتحقَّق، أو في صورة الوجود المتحقِّق، وعلى ذلك يكون معنى قوله: ﴿وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ﴾ أنَّهم فعلوا هذه الأشياء طالبين رضا الله تعالى، واعتبروه حقيقة مؤكَّدة تصوَّروا حقيقة وجوده، فمن أجله بذلوا كلَّ الجهد في تحقيق الأمور الثَّلاثة.

دلالة استخدام ﴿فَسَوۡفَ﴾ بدلًا منَ (السِّين):

تعليم المسلمين عدم استعجال الثَّواب

آثر القرآن الكريم استخدام ﴿فَسَوۡفَ﴾ بدلاً منَ السِّين؛ لتعليم المسلمين عدم استعجال الثَّواب.

سرّ اختيار الفعل ﴿نُؤۡتِيهِ﴾ بدلًا من (نعطيه):

الجزاء منحة إلهيَّة

آثر القرآن الكريم الفعل ﴿نُؤۡتِيهِ﴾ بدلًا من نعطيه؛ لأنَّه المناسب للسِّياق في مقام الأجر العظيم، وهو منَ المعاني العظيمة الَّتي يستخدم فيها فعل الإيتاء.

(1) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 11/34.

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

نَجْوى، ومسارَّة:

والفرق بين النَّجوى والسِّرِّ؛ أنَّ النَّجوى اسم للكلام الخفيِّ الَّذي تناجي به صاحبك، كأنَّك ترفعه عن غيره، وذلك أنَّ أصل الكلمة الرِّفعة، ومنه النَّجْوة منَ الأرض، وسمِّي تكليم اللّه تعالى موسى عليه السلام مناجاة؛ لأنَّه كان كلامًا أخفاه عن غيره، والسِّرّ: إخفاء الشَّيء في النَّفس، ولو اختفى بستر، أو وراء جدار، لم يكن سرًّا، ويقال: في هذا الكلام سرٌّ؛ تشبيهًا بما يخفى في النَّفس، ويقال: سرِّي عند فلانٍ، أي: ما يخفيه في نفسه من ذلك، ولا يقال: نجواي عنده، وتقول لصاحبك: هذا سرٌّ ألقيه إليك، تريد المعنى الَّذي تخفيه في نفسك، والنَّجوى: تتناول جملة ما يتناجى به منَ الكلام، والسِّرِّ: يتناول معنى ذلك، وقد يكون السِّرّ في غير المعاني مجازًا، تقول: فعل سرًّا، وقد أسرَّ الأَمرَ، والنَّجوى لا تكون إلَّا كلامًا[1].

(لا خير) و(لا نفع):

استعمل القرآن الكريم النَّفع والخير في قوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ﴾ [الأعراف: 188]، فنفى نسبة النَّفع إلى نفسه، ونسبه إلى اللّه، فقال: ﴿لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا﴾ [الأعراف: 188]، ثمَّ قال: ﴿وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ﴾ [الأعراف: 188]، فالخير معروف مقدَّر عند الإنسان بما يستعين به على حياةٍ أفضل، أمَّا النَّفع؛ فهو من قبيل الغيب، ولا يعلم مواضع النَّفع إلَّا اللّه، فالنَّفع: ما يستعان به في الوصول إلى الخيرات، وما يتَوَصَّل به إلى الخير فهو خيرٌ، فالنَّفع خيرٌ، وضدّه الضّرّ، قال تعالى: ﴿وَلَا يَمۡلِكُونَ لِأَنفُسِهِمۡ ضَرّٗا وَلَا نَفۡعٗا﴾ [الفرقان: 3][2].

ولمَّا قال: ﴿۞لَّا خَيۡرَ فِي كَثِيرٖ مِّن نَّجۡوَىٰهُمۡ﴾ بيَّن أنَّ مقاصد النَّجوى لم تكن مقاصد خير، ولو كانت مقاصد خير لمدحت كما مدحت الصَّدقة، ومدح المعروف والإصلاح.

الفعل والعمل:

الفعل كناية عن كلِّ عمل متعدٍّ أو غير متعدٍّ، مأخوذ من فعل يفعل فَعلًا وفِعلًا؛

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 63.
(2) الرّاغب، المفردات: (نفع).

فالفعل هو التَّأثير في الشَّيء من جهة مؤثِّر، أمَّا العمل فمأخوذ من عمِل يعمل عملًا، والعمل: إيجاد الأثر في الشَّيء، ويأتي لما فيه امتداد منَ الزَّمن وإبطاء؛ كأن يقال: فلان يعمَل الطِّين خزفًا، ويعمل الخوص زِمْبِيلًا، ولا يقال: يفعل ذلك؛ لأنَّ المراد من ذلك الشَّيء هو إيجاده[1].

ومنَ الفروق - أيضًا - أنَّ العمل أخصّ منَ الفعل؛ فهو يجيء في العمل الصَّالح والسَّيِّئ.

ومنَ الفروق - أيضًا - أنَّ الفعل يكون بقصد وبغير قصد، بخلاف العمل، فهو لا يصدر إلَّا عن قصد.

الأجر والجزاء:

الأجر في اللّغة له معنيان: جزاء العمل، وجبر العظم المكسور، ويجمع بين المعنيين أنَّ أجرة العامل بمنزلة تعويض يتلقَّاه جزاء ما بذله من كدٍّ وجهد؛ فهذا التَّعويض كأنَّه شيء يجبر به، كما يجبر العظم المكسور، أمَّا الجزاء فهو المقابلة على الخير بالثَّواب، وعلى الشَّرِّ بالعقاب، وأصله الغَناء والكفاية، والجزاء يكون مماثلًا مساويًا للمجزيِّ عنه؛ لأنَّ أصل الجزاء في كلام العرب القضاء والتَّعويض، هذا معناهما في معاجم اللّغة، أمَّا في الاستعمال القرآنيِّ؛ فالأجر لابدَّ أن يسبقه عمل وجهد وبذل، قال تعالى: ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ﴾ [سبأ: 47]، وقال تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا﴾ [العنكبوت: 27]، وقد يكون الأجر في الآخرة، قال تعالى: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ﴾ [البقرة: 112]، وقد يكون الأجر منَ النَّاس، كما في قوله: ﴿قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾ [القصص: 25]، والأجر لا يكون إلَّا في الخير غالبًا، أمَّا الجزاء؛ فيأتي ليدلَّ على ما فيه الكفاية منَ المقابلة، نحو قوله: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ [الشّورى: 40].

ومنَ الفروق أيضًا أنَّ الجزاء يكون في الخير والشَّرِّ، قال تعالى: ﴿جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [البيّنة: 8]، وقوله: ﴿ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ [الإسراء: 98].

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 136.

المحتويات

الجزء الخامس	**7**
سورة النساء	**9**
- [النّساء: 24]	10
- [النِّساءُ: 25]	29
- [النِّساء: 26]	51
- [النِّساءُ: 27 - 28]	59
- [النساء: 29 - 31]	69
- [النِّساءُ: 32]	86
- [النساء: 33]	94
- [النِّساءُ: 34]	101
- [النِّساءُ: 35]	123
- [النِّساءُ: 36]	133
- [النِّساءُ: 37 - 39]	147
- [النساء: 40 - 42]	162
- [النِّساء: 43]	182
- [النساء: 44]	193
- [النِّساء: 45 - 46]	202
- [النِّساء: 47 - 48]	230
- [النِّساءُ: 49 - 50]	252
- [النِّساء: 51]	260
- [النّساء: 52]	265
- [النساء: 53 - 55]	273
- [النّساء: 56]	289
- [النّساء: 57]	297
- [النّساء: 58]	305
- [النّساء: 59]	313
- [النساء: 60]	323
- [النساء: 61]	337
- [النساء: 62]	343
- [النساء: 63]	350
- [النساء: 64]	357
- [النساء: 65]	364
- [النّساء: 66]	370
- [النّساء: 67]	382
- [النّساء: 68]	387
- [النّساء: 69]	392
- [النّساء: 70]	403
- [النّساء: 71]	407
- [النّساء: 72]	413
- [النّساء: 73]	421
- [النّساء: 74]	430
- [النِّساء: 75]	438
- [النِّساء: 76]	444
- [النِّساء: 77]	449
- [النِّساء: 78]	460
- [النِّساء: 79]	469
- [النساء: 80]	475
- [النساء: 81]	483
- [النساء: 82]	493
- [النساء: 83]	500
- [النساء: 84]	509
- [النساء: 85]	517
- [النساء: 86]	523
- [النساء: 87]	527
- [النساء: 88]	540
- [النساء: 89]	551
- [النساء: 90]	563
- [النساء: 91]	573
- [النساء: 92]	583
- [النساء: 93]	601
- [النساء: 94]	607
- [النّساء: 95 - 96]	623
- [النّساء: 97 - 99]	640
- [النّساء: 100]	656
- [النّساء: 101]	666
- [النساء: 102]	674

- [النساء: 103] 695
- [النساء: 104] 706
- [النساء: 105] 713
- [النساء: 106] 721
- [النساء: 107] 726
- [النساء: 108] 733
- [النساء: 109] 741
- [النساء: 110] 749
- [النساء: 111] 756
- [النساء: 112] 762
- [النساء: 113] 769
- [النِّساء: 114] 780

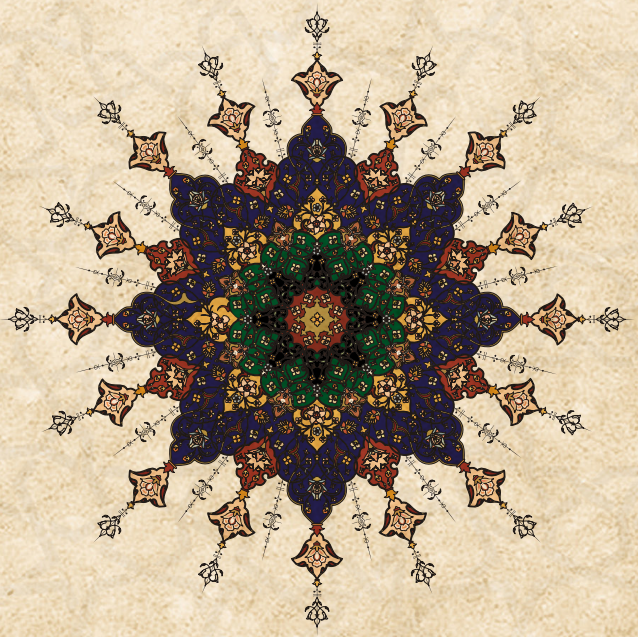

مجمع القرآن الكريم بالشارقة

موسوعة التفسير البلاغي

المُجَلَّدُ الثَّامِنُ

سورة النساء من الآية 115 إلى الآية 25 من سورة المائدة

موسوعة التفسير البلاغي

Government of Sharjah حكومة الشارقة
مجمع القرآن الكريم بالشارقة
HOLY QURAN ACADEMY IN SHARJAH

موسوعة التفسير البلاغي

المجلد الثامن

سورة النساء من الآية 115 إلى الآية 25 من سورة المائدة

نخبة من علماء مجمع القرآن الكريم بالشارقة

منشورات القاسمي
AL QASIMI PUBLICATIONS
2023

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثامن، سورة النساء من الآية 115 إلى الآية 25 من سورة المائدة
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1444هـ - 2023م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2023م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: سورة النساء من الآية 115 إلى الآية 25 من سورة المائدة [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2023.
مج. 8 ، 804 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-798-60-6
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 8 : سورة النساء من الآية 115 إلى الآية 25 من سورة المائدة.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث ج- المستغانمي، امحمد صافي

الترقيم الدولي : 978-9948-798-60-6
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-8115353 بتاريخ 2023/03/22م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الجُزْءُ الخَامِسُ

سُورَةُ النِّسَاءِ

﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ١١٥﴾

[النّساء: 115]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

بعد أن بيَّن اللّه وعده بالجزاء الحسن للَّذين يتناجون بالخير، ويبتغون بنفع النَّاس مرضاة اللّه تعالى، بيَّن وعيده لأولئك الَّذين يتناجون بالشَّرِّ، ويبيِّتون ما يكيدون به للنَّاس، والَّذين يقولون للرَّسول: طاعة، ثمَّ يبيِّتون غير ذلك مبيّنًا ذلك بصورة قاعدة عامَّة على نهج القرآن في مثله، ناظرًا إلى أولئك الَّذين يظهرون الطَّاعة، فإذا خرجوا بيَّتوا غير الَّذي يقولون، فقال: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ﴾[1]، ولا سيَّما أنَّ هذه الآية، وما قبلها في شأن طعمة بن أبيرق لمَّا رأى أنَّ اللّه تعالى هتك ستره، وبرَّأ اليهوديَّ عن تهمة السَّرقة؛ ارتدَّ، وذهب إلى مكَّة[2].

ولمَّا تكلَّمتِ الآية السَّابقة عن شرط قبول الأعمال الصَّالحة بأن تكون ابتغاء مرضاة اللّه حتَّى تقبل، ويثاب عليها فاعلها؛ جاءَت هذه الآية لتضيف شرطًا آخر، وهو اتِّباع الرَّسول ﷺ في قبول الأعمال، وحذَّرَت من مخالفته وما عليه جماعة المسلمين.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يُشَاقِقِ﴾: جذر الكلمة هو (شَقَق): شققْت الشَّيء أشقّه شقًّا، وكلّ قطعة منه شقَّة يجمع ذلك الثَّوب والخشبة وما أشبههما، والشّقَّة: البعد، والمشاقَّة: العداوة[3]، الشَّقّ: الصَّدع البائن، أو غير البائن، أو الصَّدع عامَّة[4]، أو الخرم الواقع في الشَّيء، يقال: شققته بنصفين[5]، والمعنى المحوريّ: صَدْع الشيء الشَّديد صَدْعًا نافذًا إلى عمقه،

(1) الموصلّي، أولى ما قيل: 3/125.
(2) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 11/34.
(3) ابن دريد، جمهرة اللّغة: (شقق).
(4) ابن سيده، المحكم: (شقق).
(5) الرّاغب، المفردات: (شقق).

والشِّقاق: الخلاف، والصِّيغة هنا للمبالغة؛ لأنَّ الخلاف من جانبهم هم مع معاودة وتَكْرار، وكذلك كلّ ما كان سياقه مشاقَّةً للَّه ورسولِه، وهو كل (شاقَّ) و(يشاقِّ)[1].

2) ﴿ٱلرَّسُولَ﴾: أصل الرَّسل: الانبعاث على التُّؤدَة، ويقال: ناقة رسلَة: سهلة السَّير، وإبلٌ مراسيل: منبعثة انبعاثًا سهلًا، ومنه الرَّسول المنبعث، وتصوّر منه تارة الرِّفق، فقيل: على رسلك؛ إذا أمرته بالرِّفق، وتارة الانبعاث، فاشتقَّ منه الرَّسول، وجمع الرَّسول: رسلٌ، ورسل اللّه تارة يراد بها الملائكة، وتارة يراد بها الأنبياء[2]، وهو هنا: عَلَمٌ على النَّبيِّ محمَّد ﷺ.

3) ﴿ٱلْهُدَىٰ﴾: مصدر للفعل الثّلاثي هَدى يهدي، وجذره اللّغويّ من (هدي)، ومعناه يقوم على أصلين: أحدهما: "التَّقدّم للإرشاد، والآخر: بَعْثَة لَطَفٍ... مَا أَهْدَيْتَ مَنْ لَطَفٍ إِلَى ذِي مَوَدَّةٍ"[3]، وهما متقاربان في معناهما؛ لذلك فقد ذكر الرَّاغب في معنى الهدى: "الهداية دلالة بلطف"[4].

والمذكور في الآية هدى اللّه: هو بمعناه الاصطلاحي؛ وهو هداية اللّه تعالى للإنسان، ومعنى هدى اللّه في الآية "يعني: أنَّ هدى اللَّه الَّذي هو الإسلام هو الهدى بالحقِّ، والَّذي يصحّ أن يسمَّى هدًى، وهو الهدى كلّه ليس وراءه هدًى"[5].

4) ﴿وَنُصْلِهِۦ﴾: جِذر الكلمة هو: (صَلَى)، وأحد أصليه: النَّار وَمَا أَشْبَهَهَا مِنَ الْحمَّى، والصَّلى: الحَطَب، والنَّار، واسمٌ للوَقود؛ إذا اصطلى به القوم[6]، وأصل الصَّلْي لإيقاد النَّار، ويقال: صَلِيَ بالنَّار أو بكذا: إذا بليَ بها، واصطلى بها، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿١٢﴾﴾ [الأعلى: 12]، وقوله: ﴿وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾﴾ [النّساء: 10][7]، وصَلَى الكافر النَّارَ، فهو يَصلاها، أي: قاسَى حرَّها وشدَّتها.

(1) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (شقق).
(2) الرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (جاء).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (هدي).
(4) الرّاغب، المفردات: (هدي).
(5) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/316.
(6) الخليل، العين: (صلى).
(7) الرّاغب، المفردات: (شقق).

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

يبيِّن اللّه في هذه الآية أنَّ من يبَايِن الرَّسول ﷺ معاديًا له، فيفارقه على العداوة من بعد ما تبيَّن له أنَّه رسول اللّه ﷺ، وأنَّ ما جاء به من عند اللّه يهدي إلى الحقِّ وإلى طريق مستقيم، ويتَّبع طريقًا غير طريق أهل الإيمان، وما هم عليه من الحقِّ، ويسلك منهجًا غير منهجهم، نتركه وما استعان به، وما توجَّه إليه، فلا نوفقه للخير، ولا يغني عنه ذلك منَ اللّه شيئًا، فجهنَّم هي مصيره ومسكنه[1].

❁ الإِيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغة الوصل في قوله: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ﴾:

تظهر بلاغة الوصل في إظهار أسلوبٍ من أساليب القرآن الكريم أنَّه يواصل بين النَّقيضين، كأسلوب للدَّعوة إلى الهداية، وبيان التَّفاوت بين أحوالها، وإظهار الحقِّ ونكران الباطل.

ويتَّضح هذا المعنى البلاغي في التَّطبيق على قوله: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ﴾؛ إذ هو موصول بقوله: ﴿وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ﴾، ومناسبته المقابلة بين الموقفين والفئتين منَ النَّاس، منَ المؤمنين والمنكرين، منَ العاملين ابتغاء مرضاة اللّه والمشاققين للّه ولرسوله، فعطف قوله: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ﴾ على ﴿وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ﴾ مناسبةً لذكر الرَّسول بعد ذكر اللّه، وابتغاء مرضاته؛ ليحترس مِن أنَّ مَن يفعل بعض الأفعال منَ التَّصدّق والمعروف والإصلاح، ثمَّ يشاقق الرَّسول تعنّتًا، فإنَّ اللّه يولِّه ما تولَّى، ويصله جهنَّم، فأفاد العطف بين المتناقضين هذا المعنى؛ فمَن يفعل من أفعال الخير هذه معلنًا أنَّها ابتغاء مرضاة اللّه، فيكون قد حقَّق الشَّرط الأوَّل في القبول، فبيَّنت الآية أنَّ مرضاة اللّه لا تكون إلا باتِّباع الرَّسول، ثمَّ بيَّنت مصير مَن يشاقق الرَّسول، فقال تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ﴾.

دلالة اختيار ﴿وَمَن﴾ في: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ﴾ دون غيرها:

آثر القرآن التَّعبير بلفظ ﴿وَمَن﴾ الَّذي يفيد العموم مع أنَّ الآية على رأي كثير منَ المفسِّرين نزلَت بسبب طعمة بن أبيرق؛ لأنَّه ارتدَّ، وسار إلى مكَّة.

(1) ابن جرير، جامع البيان: 5/277.

توظيف الحدثِ الخاصِّ في تربية المجتمع

وعلى هذا يكون التَّعبير بـ﴿وَمَن﴾ ليتناول منِ اتَّصف بهذه الصِّفات إلى يوم القيامة[1].

ويدخل أمر طعمة في هذا العموم دخولاً أوليًّا، ومن أسرار (مَن) وضع قاعدة عامَّة في تربية المجتمع وتحذيره من مشاقَّة الرَّسول ﷺ، ومنها بيان علوِّ قدره ﷺ إذ جعل مَن يشاقِقه فقد ضلَّ سواء السَّبيل في دنياه، وساء مصيره في أخراه.

سرّ إتيان الفعل ﴿يُشَاقِقِ﴾ بالفكِّ هنا:

الفكّ إشارةٌ إلى أنَّ كلًّا منهما في شقٍّ عنِ الآخر

جاء الفعل ﴿يُشَاقِقِ﴾ بالفكِّ هنا، وفي الأنفال: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ [الأنفال: 13]، وجاء بالإدغام في سورة الحشر: ﴿وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ﴾ [الحشر: 4]؟

ومجيء الفعل بالفكِّ يفيد أنَّ مَن خالف رسول الله ﷺ صار في شِقٍّ غير شِقِّ المؤمنين؛ فكأنَّ كلَّ قافٍ منهما تشير إلى ناحية، وأيضًا لدلالتها على وجود الانفكاك بين الرَّسول ﷺ، ومَن خالفه؛ فلم يَعد هناك التحامٌ بين المنشقِّ والمسلمين.

وقال الخطيب في حكمة الفكِّ والإدغام: إنَّ (الـ) في الاسم الكريم (الله) بخلافها في الرَّسول، واللَّزوم يقتضي الثِّقل؛ فخفَّفه بالإدغام فيما صحبته الجلالة بخلاف ما صحبه لفظ الرَّسول[2].

وذهب بعض العلماء أنَّ ذلك من قبيل اللّغات.

ولكن بالتَّأمّل في دراسة موضوع الفكِّ والإدغام في هذا الموضوع، تجد أسرارًا لهذه الظَّاهرة؛ فعندما تنظر إلى مَوضِع سورة الأنفال مثلًا تجد أنَّ الفعل جاء مفكوكًا مع أنَّ الأصل الإدغام، وكما هو في سورة النِّساء، ولا يوجد داعٍ لغويٍّ للإبقاء على الفكِّ، لذلك

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/112.
(2) الآلوسّي، روح المعاني: 5/146.

المتأمِّل للآيات في سياقها يجد لطائف نبعَت من هذا الفكِّ؛ فآية سورة الأنفال جاءَت في الحديث عن موقف قريش منَ النَّبيِّ ﷺ ودعوته، ومشاقَّتهم كانت ظاهرة وواضحة، ويؤكِّد ذلك أنَّهم قاتلوا رسول الله ﷺ وجهَّزوا الجيوش؛ فكان إظهار الحرفين مناسبًا لظهور عداوتهم، ومشاقَّتهم، وأيضًا في سورة النِّساء على رأي مَن قال: إنَّها نزلت في طعمة بن أبيرق الَّذي كانت مشاقَّته ظاهرةً وواضحة؛ لأنَّه ارتدَّ عنِ الإسلام، وممَّا يذكر في هذا المقام في سياق إتيان الفعل مفكوكًا؛ أنَّه إشارة إلى تعليقه بالمجاهرة، ولأنَّ السِّياق لأهل الأوثان، وهم مجاهرون، وقد جاهر سارق الدَّرعين الَّذي كان سببًا لنزول الآية[1]، فقابل هنا بين ما ذكر منَ المسارَّة، وهي النَّجوى، ثمَّ ما حدث منَ المجاهرة في الإثم، ومشاقَّة الرَّسول ﷺ.

وفي الفكِّ إشارةٌ إلى أنَّ كلًّا منهما في شقٍّ عنِ الآخر؛ فأهل مكَّة في شقٍّ منَ الأرض، ورسول الله ﷺ والمسلمون في شقٍّ آخر، وهذا الأمر كناية عنِ البعد.

أمَّا موضع سورة الحشر فجاء بالإدغام، والإدغام في اللّغة معناه الإدخال، وعداوة اليهود ومشاقَّتهم لرسول الله ﷺ عداوةٌ دخيلة مخفيَّة؛ فكانوا يألِّبون المشركين على رسول الله ﷺ من وراء ستار، فجاء الفعل مدَّغمًا ليبرز هذه المعاني.

سرّ التَّعقيب بقوله: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ﴾ بعد الآية السَّابقة:

بلاغة المقابلة

جاءَت هذه الآية بعد الآية السَّابقة؛ لتظهر بلاغة المقابلة بين الثَّواب العظيم والعذاب الأليم؛ لأنَّه لمَّا رتَّب ﷻ الثَّواب العظيم على الموافقة؛ رتَّب العقاب الشَّديد على المخالفة والمشاققة، وَوَكَّلَ المخالف إلى نفسه بقوله تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ﴾، فيكون بقلبه أو شيء من فعله في جهة غير جهته على وجه المقاهرة[2]، فقابلتِ الآيتان بين المؤمنين الصَّادقين، المسلِّمين أمورهم لله، الطَّائعين للرّسول، وما يكون في ذلك من صلاح الحياة أفرادًا وجماعات، وبين مَن يدَّعون إصلاح الحياة، ثمَّ هم لا يؤمنون بالله، ويحادّون الرَّسول، أو أنَّهم

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 5/401.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 5/401.

يعلنون إيمانهم بالله، وما يفعلونه ابتغاء مرضاة الله، ثمَّ يشاققون الرَّسول فيما يأمر به، وفيما ينهى عنه، فجاء لفظ ﴿يُشَاقِقِ﴾ لبيان الشِّقِّ الَّذي يحدثه هؤلاء بين الله ورسوله، وبين القرآن والسّنَّة، والمشاقَّة: المخالفة المقصودة، مشتقَّةٌ منَ الشِّقِّ، وهو الصَّدع في الشيء؛ لأنَّ المخالف كأنَّه يختار شقًّا يكون فيه غير شقِّ الآخر.

دلالة التَّعبير بالفعل المضارع في قوله: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ﴾:

تَكرار المعاصي وتنويعها مؤشِّرٌ خطير في حياة الأفراد والجماعات

عبَّر بالمضارع رحمة منه سبحانه بتقييد الوعيد بالاستمرار، وهذا واضح في الفعل ﴿يُشَاقِقِ﴾، و﴿وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، فـ(واو العطف) تفيد مطلق المشاركة، وزمن الفعل المضارع ﴿وَيَتَّبِعْ﴾ تدلَّان على الاستمرار والتَّجدّد في إظهار بوادر تلك المشاقَّة، فكلَّما شاقَّ العاصي الرَّسولَ كانت تلك المشاقَّة إيغالًا في طريق غير المؤمنين، فهما حالان متداخلان منَ المشاقَّة واتِّباع سبيل الكفر، فاستحقَّ بذلك صاحبها أشنعَ العقوبة وأسوأها.

دلالة التَّعبير بلفظ ﴿ٱلرَّسُولَ﴾

كمال شناعة المشَاقَّة والمخالفة

جاء التَّعبير بلفظ الرَّسول؛ لإظهار كمال شناعة ما اجترؤوا إليه منَ المشَاقَّة، والمخالفة لله ورسوله ﷺ.

اقتصار نسبة المشاقَّة للرَّسول دون لفظ (الله) مع ورودها في مواطن أخرى:

جعل له مقام التَّشريع والطَّاعة

اقتصر على نسبة المشاقَّة للرَّسول ﷺ لبيان علوِّ قدره ﷺ وأنَّ الله جعل له مقام التَّشريع والطَّاعة، فمَن يشاققه كمَن يشاقق الله.

فائدة الإتيان بالفعل ﴿تَبَيَّنَ﴾ على وزن تَفَعَّلَ:

تصوير شدَّة وضوح الأمر والحقِّ

جاء الفعل الماضي ﴿تَبَيَّنَ﴾ على وزن (تَفَعَّلَ)؛ لتعميق معنى الاستهجان، مع تصوير شدَّة وضوح الأمر والحقِّ وبيانهما، وموجبات الإيمان، فقال: ﴿تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ﴾؛ إذ علم أنَّ الهداية مع الرّسول، وباتّباع سبيل المؤمنين، لكنَّه مع ذلك كان له طريق غير طريقهم، وشقَّ له سبيلًا غير سبيل الرَّسول.

وأيضًا؛ لأنَّ الفعل ﴿تَبَيَّنَ﴾ يقيم الحجَّة على مَن يشاقق الرَّسول بأنَّ فعله هذا لم يكن جهلاً أو لعدم معرفة؛ لأنَّ التَّبيّين يحمل معنى الظّهور والوضوح، وهذا لا يكون إلَّا عن علم ومعرفة، ويؤكِّد ذلك وجود لفظ ﴿بَعْدِ﴾ الَّذي يدلّ على وجود فترة زمنيَّة مع الإسلام.

وجه تقديم الجارّ والمجرور في قوله: ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ﴾:

إفـــادة معنى الاختصاص

أفاد تقديم الجارِّ والمجرور ﴿لَهُ﴾ معنى الاختصاص؛ فأصل العبارة: من بعد ما تبيَّن الهدى له، فقدَّم الجارَّ والمجرور للاختصاص أيضًا، فضلًا عن كون الهدى معرَّفة باللَّام العهديَّة الَّتي تزيد الموقف على هؤلاء استهجانًا وتقبيحًا.

دلالة الإتيان بـ ﴿مِنۢ﴾ في قوله: ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ﴾:

لمَّا كانت مهمَّة الرَّسول ﷺ واضحة في سياق تعليم الشَّريعة الَّتي لم تكن معلومة قبل الإيحاء بها إليه، أتى بـ ﴿مِنۢ﴾ تقييدًا للتَّهديد بما بعد الإعلام بذلك، فقال: ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا﴾، ولو حذفَت لفهم اختصاص الوعيد بمنِ استغرق زمان البعد بالمشاققة.

دلالة الاحتراس في قوله: ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ﴾:

هدي النبيِّ ﷺ في غاية الظّهور

فائدة الاحتراس؛ بيان أنَّ ما جاء به النَّبيّ ﷺ في غاية الظّهور؛ لذلك عَبَّر عنه بالهدى في قوله: ﴿تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ﴾، أي: الدَّليل الَّذي هو سببه[1]، فيحتمل قوله: ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ﴾ أن يكون أراد به من بعد ما آمن بالرَّسول، فتكون الآية وعيدًا للمرتدِّ.

ومناسبتها هنا أن طعمة بن أبيرق صاحب القصَّة المتقدِّمة؛ لمَّا افتضح أمره ارتدَّ، ولحق بمكَّة، ويحتمل أن يكون مرادًا به من بعد ما ظهر صدق الرَّسول بالمعجزات، ولكنَّه شاقَّه عنادًا ونواء للإسلام[2]، فإنَّه قد شاقَّ الرَّسول، واختار سبيل الضَّلال، واتَّخذ له سبيلًا غير

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 5/402.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 5/200 - 201.

سبيل المؤمنين، مع ما تبيَّن له أنَّ سبيل الرَّسول هو سبيل الهداية والصَّلاح، وتكون هذه الجملة احتراسًا أنَّ مَن لم تصله الرِّسالة فلا يقع تحت هذه العقوبة، وإنَّما يكون أمره إلى اللّه.

سرّ التّعقيب بقوله: ﴿وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ على الجملة السَّابقة:

التَّلازم بين مشاقَّة الرَّسول واتِّباع غير سبيل المؤمنين

عقَّب بها لتأكيد الجملة قبلها؛ للتَّلازم بين مشاقَّة الرَّسول واتِّباع غير سبيل المؤمنين؛ ولإخراج اتِّباع غير سبيل المؤمنين في غير الكفر، مثل اتِّباع سبيل يهود خبير في غراسة النِّخيل، أو بناء الحصون، فلا يحسن أن يقال فيه: اتَّبع غير سبيل المؤمنين[1].

ومن فوائد التَّعقيب: الحيطة لحفظ الأمَّة الإسلاميَّة بعد الرّسول ﷺ.

سرّ التَّعبير بقوله: ﴿سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾:

الإيمان صار صفة راسخة للمؤمنين

عبَّر به لأنَّ المراد طريق ﴿ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾، أي: الَّذين صار الإيمان لهم صفة راسخة، وسبيل كلِّ قوم طريقتهم الَّتي يسلكونها في وصفهم الخاصِّ على سبيل الاستعارة التَّصريحيَّة، فذكر المشبَّه به، وحذف المشبَّه، وهو الأعمال الصَّالحة الَّتي تدلّ في عمومها على الإيمان، فالسَّبيل مستعارٌ للاعتقادات، والأفعال، والعادات على سبيل الاستعارة التَّصريحيَّة الَّتي يلازمها، ولا يبتغي التَّحوّل عنها، كما يلازم قاصد المكان طريقًا يبلغه إلى قصده، قال تعالى: ﴿قُلۡ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ﴾ [يوسف: 108]، ومعنى هذه الآية نظير معنى قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّواْ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡهُدَىٰ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗا وَسَيُحۡبِطُ أَعۡمَٰلَهُمۡ ٣٢﴾ [محمّد: 32].

دلالة الكناية في قوله: ﴿وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾:

قوله: ﴿سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ تفهم على أنَّها كناية عنِ الدِّين الحنيفيِّ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 5/201.

الّذي يكون عليه المؤمنون اعتقادًا، وتشريعًا، وأخلاقًا... بمعنى: أنَّ ذلك المشاقق يتَّبع غير الدِّين الحنيفيِّ، وفائدة هذه الكناية: جمْع الأمر كلِّه في مفهوم واضح هو دين الإسلام، بما فيه الإيمان وأركانه، والعمل بموجب التَّشريع، فبهذه الكناية يختصر الأمر كلَّه.

جمْع الأمر كلِّه في مفهوم واضح هو دين الإسلام

وجه الجمع بين قوله: ﴿وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ مع مشاقَّة الرَّسول:

جمع بينهما على سبيل التَّوكيد والتَّشنيع، وإلَّا فمَن يشاقِق الرَّسول؛ هو متَّبع غير سبيل المؤمنين ضرورة، ولكنَّه بدأ بالأعظم في الإثم، وأتبع بلازمه توكيدًا[1].

الجمع للتَّوكيد والتَّشنيع

ومن فوائد الجمع: أنَّ الشَّافعيَّ وغيره استدلَّ بهذه الآية على أنَّ الإجماع حجَّة، وقال الزَّمخشريّ: هو دليل على أنَّ الإجماع حجَّة لا يجوز مخالفتها، كما لا يجوز مخالفة الكتاب والسّنَّة؛ لأنَّ اللّه تعالى جمع بين اتِّباع سبيل غير المؤمنين، ومشاقَّة الرَّسول في الشَّرط، وجعل جزاءه الوعيد الشَّديد، فكان اتِّباعهم واجبًا كموالاة الرَّسول[2].

ومن فوائده - أيضًا - أنَّه استدلَّ بهذه الآية على وجوب عصمة الرَّسول ﷺ، وعلى أنَّ كلَّ مجتهد يسقط عنه الإثم.

وقوله: ﴿وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ ليس مغايرًا لقوله: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ﴾، بل هو أمرٌ لازمٌ لمشاقَّة الرَّسول، وذلك على سبيل المبالغة والتَّوكيد، وتفظيع الأمر وتشنيعه.

والآية بعد هذا كلِّه هي وعيد الكفَّار، فلا دلالة فيها على جزئيَّات فروع مسائل الفقه[3].

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/67.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/597 - 598.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/67.

دلالة الالتفات في قراءة قوله ﴿نُوَلِّهِۦ﴾ و﴿وَنُصۡلِهِۦ﴾:

تعدَّدتِ القراءات في قوله: ﴿نُوَلِّهِۦ﴾ و﴿وَنُصۡلِهِۦ﴾، فقرئ: ﴿وَنُصۡلِهِۦ﴾ بفتح النّون من صَلاه، وقرأ ابن أبي عَبْلة: "يولِّه ويصله" بالياء فيهما، وهي قراءة شاذَّة؛ جريًا على قوله: (فسوف يؤتيه) بالياء، وفيها التفات منَ الحاضر ﴿نُؤۡتِيهِ﴾ إلى الغائب (يولِّه).

وفائدة هذا الالتفات: أنَّه لمَّا ذكر: ﴿وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ﴾؛ تناجى بالخير ممَّا فيه صدقة ومعروف وإصلاح؛ بيَّن أنَّ أجره مضمون، وثابت عند الله، فقال: ﴿فَسَوۡفَ نُؤۡتِيهِ أَجۡرًا عَظِيمًا﴾، وحاضر أجره.

ولكنَّه لمَّا ذكر من يتَّبع غير سبيل المؤمنين، قال: (يولِّه) و(يؤته) على الغائب؛ لبيان إعراض الله تعالى عن أفعال هؤلاء في شقاقهم الرَّسول، واتِّباع غير هدى الله، فأعرض عنهم سبحانه، وتوعَّدهم مع ذكر ضمير الغيبة[1].

بلاغة التَّقابل بين الأفعال في قوله: ﴿يُشَاقِقِ﴾ و﴿وَيَتَّبِعۡ﴾، ﴿نُوَلِّهِۦ﴾ و﴿وَنُصۡلِهِۦ﴾:

مشاققة الرسول تعني التَّخلِّي عن الهدى، وتؤدِّي إلى أسوأ العواقب وأرداها

قوله: ﴿نُوَلِّهِۦ﴾ و﴿وَنُصۡلِهِۦ﴾ فعلان مضارعان يبتدئان بنون العظمة، ويختمان بهاء الغائب؛ للتَّعبير عن عقابين: أوَّلهما: في الدّنيا، والآخر: في الآخرة، فتصوِّر نون العظمة والمضارع جاهزيَّة ذلك الجزاء والعقاب، وأنَّه مرتبط ارتباطًا تلازميًّا بالفعلين المضارعين السَّابقين: ﴿يُشَاقِقِ﴾ و﴿وَيَتَّبِعۡ﴾، ومقابلة الفعلين بالفعلين ممكنة هنا؛ لأنَّ ﴿يُشَاقِقِ﴾ و﴿وَيَتَّبِعۡ﴾ مسندان إلى الغائب المفرد، والفعلان: ﴿نُوَلِّهِۦ﴾ و﴿وَنُصۡلِهِۦ﴾ مسندان إلى المتكلِّم المعظَّم، ثمَّ إنَّ الفعلين ﴿يُشَاقِقِ﴾ و﴿وَيَتَّبِعۡ﴾ يدلّ الأوَّل منهما على الصّعوبة،

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/67.

ويدلّ الثَّاني على السّهولة على عكس الفعلين: ﴿نُوَلِّهِۦ﴾ و﴿وَنُصۡلِهِۦ﴾؛ فيدلّ الأوَّل على سهولة الأمر تركًا وإيكالًا للنَّفس، ويدلّ الثَّاني على الصّعوبة لقوله: ﴿وَنُصۡلِهِۦ﴾، وما في ذلك من معنى القوَّة والشِّدَّة في إصلاء جهنَّم.

بلاغة اللَّفِّ والنَّشر في قوله: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ﴾ ﴿وَيَتَّبِعۡ﴾ ﴿نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ﴾:

مشاقة الرَّسول مصيرها الخسران في الدّنيا، والعذاب في الآخرة

قوله: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ هذا لفٌّ؛ لأنَّ اللّه تعالى جمع بين اتِّباع غير سبيل المؤمنين، ومشاققة الرَّسول في الشَّرط، وجعل جزاءه الوعيد الشَّديد، فكان اتِّباعهم واجبًا كموالاة الرَّسول[1]، ثمَّ قال: ﴿نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ﴾ وهذا نَشْره؛ لأنَّ ﴿مَا تَوَلَّىٰ﴾ تضمَّن مشاققة الرَّسول، واتِّباع غير سبيل المؤمنين.

وفائدة هذا الفنِّ هنا تذكير بما تولَّى؛ لبيان استحقاق الجزاء بقوله: ﴿وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ﴾، وبيان إطلاق الحرِّيَّة في اتِّخاذ القرار، وأنَّ العقاب يكون في الآخرة، وبيان رفع يد اللّه عنه، ومنع رحمته وكرمه.

بلاغة التَّدلِّي في الآية:

مشاققة الرَّسول عواقبها أليمة في الدّنيا والآخرة

الآية بأسرها تندرج في معنى التَّدلِّي؛ لأنَّ مشاققة الرَّسول لابدَّ أن تؤدِّي إلى الانحدار والهبوط، فكان التَّدلِّي بأمور منها اتِّباع غير سبيل المؤمنين، والتَّولية للنَّفس وإصلاء الجحيم، فقوله تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ﴾ ﴿وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا﴾؛ فذكر الفعل الأوَّل المؤدِّي إلى الانحدار، والانحدار هنا قد يكون فرديًّا، وقد يكون مجتمعيًّا، وقد يكون أمميًّا أيضًا، فالمجتمع الَّذي يشاقق الرَّسول،

(1) النّسفيّ، مدارك التّنزيل: 1/396.

هو كالفرد الَّذي يفعل هذا الفعل؛ لكنَّه ذكر المفرد؛ لبيان الأنموذج الَّذي تبدأ منه المعضلة المجتمعيَّة، ولبيان الأنموذج القريب منَ الأذهان والفهم، فقال: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ﴾؛ هذا فضلًا عن كون الآية نزلَت في حادثة معيَّنة، ثمَّ عمَّمَ المعنى على الجميع، وبيَّن بعدها الدَّرجة الثَّانية في الانحدار، فقال: ﴿وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾، وقد شاع عند كثير من علماء أصول الفقه الاحتجاج بهذه الآية؛ لكون إجماع علماء الإسلام على حكم منَ الأحكام حجَّة.

ثمَّ قال: ﴿نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ﴾؛ لبيان تخلِّي العناية الإلهيَّة عنه، وتركه في ظلمات التَّخبّط والعتوِّ الَّتي اختارها لنفسه؛ عتوًّا وعلوًّا، وهذه هي المرحلة الثَّالثة منَ التَّدلِّي، ونظيرها قوله تعالى: ﴿وَيَمُدُّهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ١٥﴾ [البقرة: 15]، وقوله: ﴿فَلَا تَعۡجَلۡ عَلَيۡهِمۡۖ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمۡ عَدّٗا ٨٤﴾ [مريم: 84]، ثمّ قال: ﴿وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ﴾، أي: يوم القيامة، فيكون له ما اختاره، وما تمكَّن من تحصيله في الدّنيا، وتكون له النَّار يوم القيامة، وهي المرحلة الأخيرة من فنِّ التَّدلِّي؛ إذ ستكون له فرصة التَّولِّي لِمَا يشاء، والتَّمتّع بما يشاء في الدّنيا ممَّا قدِّرَ له في ذلك، قال تعالى: ﴿وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلدُّنۡيَا نُؤۡتِهِۦ مِنۡهَا وَمَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ٢٠﴾ [الشّورى: 20]، ثمَّ تكون العبرة في الآخرة أنَّه سبحانه سيصليه عذابَ جهنَّم، فتكون هذه المحطَّة الأخيرة، والموضع الأسوأ الَّذي يمكن أن ينحدر إليه إنسان، فأشارت الآية إلى ذلك بقوله: ﴿وَسَآءَتۡ مَصِيرٗا﴾.

احتراس ثانٍ في قوله: ﴿وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾:

حاجة الفرد إلى أن يكون ضمن فئة مؤمنة

كأنَّ فائدة عطف اتِّباع غير سبيل المؤمنين على مشاققة الرَّسول: الحيطة لحفظ الجامعة الإسلاميَّة بعد الرَّسول، فقد ارتدَّ بعض العرب بعد الرّسول ﷺ، وقال الحطيئة - وَهوَ مخضرم أدْرك الْجَاهِلِيَّة وَالْإِسْلَام، فَأسلم ثمَّ ارْتَدَّ، وَقَالَ فِي ذَلِك[1]:

أطعنا رسول الله إذ كان بيننا***فيا لعباد الله ما لأبي بكر[2]

فكانوا ممَّن اتَّبع غير سبيل المؤمنين، ولم يشاقّوا الرَّسول في

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 5/201.

(2) المبّرد، الكامل: 1/307، والصفدي، الوافي بالوفيات: 11/54.

حياته، لكنَّهم شاقّوه بعد مماته[1]، فجاءت أهمِّيَّة الاحتراس في قوله: ﴿وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾؛ كي لا يتوهَّم أنَّ مشاقَّة الرَّسول تكون في حياته فحسب، وإنَّما هي قائمة إلى يوم القيامة؛ إذ إنَّ اتِّخاذ غير سبيل المؤمنين هي امتدادٌ لمشاقَّته ﷺ.

دلالة الكناية في قوله: ﴿نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ﴾:

عظيم سوء حال هؤلاء لمَا أصابهم منَ الإثم

لعلَّ من أعظم النَّوازل على الفرد أن يوكَلَ إلى نفسه... فإن رجع إلى اللّه؛ نجا... وإلَّا فقد ساء مصيرًا.

ومعنى قوله: ﴿نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ﴾ الإعراض عنه، أي: نتركه وشأنه لقلَّة الاكتراث به[2]، و﴿نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ﴾، أي: بعظمتنا في الدّنيا والآخرة نكله إلى ما اختار لنفسه، وعالج فيه فطرته الأولى خِذْلانًا منَّا له[3].

وفي العبارة ما فيها من عظيم سوء حال هؤلاء لمَا أصابهم منَ الإثم العظيم؛ وهو مشاقَّة الرَّسول، فانحدر بهم إلى أسوأ حالٍ وأرداها في الآخرة، وهي دار القرار.

وجه إتْباع الجملة الأولى: ﴿نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ﴾ بقوله: ﴿وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ﴾:

ظهور المقابلة في قوله ﴿نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ﴾

أتبع الجملة الأولى بالجملة الثَّانية؛ لبيان حال من شاقَّ الرَّسول، واتَّبع غير سبيل المؤمنين في الدّنيا، فذكر حاله فيها، وحاله في الآخرة، أمَّا حال الدّنيا؛ فإنَّ اللّه تعالى يتخلَّى عن رعايته، فيخسر العناية الإلهيَّة الَّتي هي محطّ التَّوفيق والسَّداد في الأقوال والأفعال، وهي سابغة بفضل اللّه وكرمه على عموم خلقه، ثمَّ أتبع ذلك ببيان الوجه الثَّاني منَ المقابلة، وهي حاله في الآخرة، فقال: ﴿وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ﴾؛ فعطف التَّولية على إصلاء النَّار؛ لبيان أنَّ الثَّاني هو

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 5/201.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 5/201.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 5/402.

النَّتيجة الحتميَّة للأوَّل، وهو زوال كلِّ ما كان يتصوَّر أنَّه خيرٌ له، فبيَّن أنَّه أسوأ ما يمكن أن يصل إليه إنسانٌ في دركات الشّرِّ؛ فقال: ﴿وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا﴾.

فائدة جناس الاشتقاق في قوله: ﴿نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ﴾:

الـجـزاء يكون باختيار الإنسان نفسه

في قوله: ﴿نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ﴾ جناس اشتقاق بين ﴿نُوَلِّهِۦ﴾ و﴿تَوَلَّىٰ﴾، وفائدته: بيان أنَّ الجزاء يكون باختيار الإنسان نفسه، فهو يختار ما يشاء منَ الجزاء والمصير، وهذا من صميم العدل الإلهيِّ في حسابهم وجزائهم على ما فعلوا، فقوله: ﴿نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ﴾؛ أي: ندعه وَفْق ما قدَّرناه من السّنن الكونيَّة الَّتي خلقناها، يتفاعل معها كيف يشاء، ثمَّ يأتي يوم القيامة، فيأخذ جزاءه في جهنَّم؛ لمشاقَّته الرَّسول، واتِّخاذه غير سبيل المؤمنين سبيلًا.

بلاغة التَّذييل في قوله: ﴿نُوَلِّهِۦ﴾:

وتظهر بلاغة التَّذييل في قوله تعالى: ﴿نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ﴾؛ حيث جاءَت جملة خبريَّة تقريريَّة موقعها منَ الآية التَّذييل؛ بفعلها الدَّالِّ على الذَّمِّ، وتمييزها بلفظة ﴿مَصِيرًا﴾، كلّ ذلك للتَّنفير من هذه الفعلة المشينة، فصارت العبارة كالمختصر لمَا قبلها من مشاقَّة الرَّسول، واتِّباع غير سبيل المؤمنين.

فائدة الإطناب في قوله: ﴿وَسَآءَتۡ مَصِيرًا﴾:

الوعيد الشَّديد للمتَّخذِ غير سبيل المؤمنين، والتَّخويف للنَّاس

جاء قوله: ﴿وَسَآءَتۡ مَصِيرًا﴾ بعد قوله: ﴿وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ﴾، وهي كافية في بيان العذاب؛ لكنَّ أسلوب القرآن أطنب، وتوسَّع في وصف حال من يصلى جهنَّم، وبَيَّنَ حالها في ذلك، فقال: ﴿وَسَآءَتۡ مَصِيرًا﴾.

وفائدة هذا الإطناب: الوعيد الشَّديد أوَّلًا لمَن اتَّخذ له سبيلًا غير سبيل المؤمنين، والتَّخويف الشَّديد ثانيًا للنَّاس عمومًا.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(يشاقق) و(يعارض) أو (يحادد):

قال: ﴿يُشَاقِقِ﴾، ولم يقل: (يحادد)؛ لأنَّ المشاققة هي التَّفريق بين اللّه ورسوله في الاعتقاد، كأن يدَّعي الإيمان باللّه دون الرَّسول، أو أن يعمل بالقرآن دون السّنَّة، أمَّا قوله: (يحادد) فهو رفض التَّشريع بأكمله، ومعاداته، قصدًا وعمدًا، ولذلك قال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَـٰٓئِكَ فِى ٱلْأَذَلِّينَ ۝٢٠﴾ [المجادلة: 20].

وقد وردت ﴿يُشَاقِقِ﴾ في الأنفال، في قوله: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ [الأنفال: 13]، ووردَت (يحادد) في التَّوبة، فقال: ﴿مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ﴾ [التّوبة: 63].

(نصليه جهنم) و(ندخله جهنَّم):

الصِّلَى: يكون بالنَّار، وأحسن منَ الصِّلاء في الشِّتاء، وصلي النَّار، وصلي بها، قال تعالى: ﴿يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ ۝١٢﴾ [الأعلى: 12]، وتصلَّاها، وتصلَّى بها، وشاة مَصلِيَّة: مَشوِيَّة[1]، ففي قوله: ﴿وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ﴾ بيان لجانب العذاب فيها، وتخويف ووعيد لمَا سيصيب جلودهم ولحومهم منَ الحرق والشِّواء، فتكون أبلغ من قوله: (وندخله جهنّم)، فالإصلاء أنسب مع ذكر جهنَّم لمَا في جهنَّم منَ الشِّدَّة، ووردَت في القرآن موصوفة بالشِّدَّة، كقوله تعالى: ﴿حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء: 98] أو قوله: ﴿وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ﴾، ولو قال: (وندخله جهنَّم)؛ لم يظهر تخيّل معنى العذاب وصورة الصَّلي على أجسادهم، ولم ترد في القرآن الكريم (ندخله جهنَّم)، وورد قوله تعالى: ﴿يُدْخِلُهُ نَارًا﴾ [النّساء: 14].

السَّبيل والطَّريق:

السَّبيل في اللّغة: الطَّريق، وسمِّي بذلك؛ لامتداده، فأصل مادَّة (سَبَلَ) الدَّلالة على الامتداد، وكثر استعماله في الطَّريق الَّذي فيه سهولة، أمَّا الطَّريق في اللّغة فهو المسلك؛ لأنَّ الأقدام تتركه، أي: تطؤه، والبعض يعَبِّر بالسَّبيل على الطَّريق، والطَّريق على السَّبيل، ولكنَّ النَّاظر في آيات القرآن الكريم يجد أنَّ كلمة سبيل وردَت في القرآن كثيرًا، وجاءَت في أكثر مواضعها مضافة إلى لفظ الجلالة، ولعلَّ ما رشَّحها لهذا هو ملمح السّهولة،

(1) الزّمخشريّ، أساس البلاغة: (صلي).

حيث تعبِّر عن وضوح المسلك إلى اللّه، وسهولته على السَّالكين؛ كما جاءَت مضافة إلى المؤمنين للإشارة إلى السّهولة والوضوح في سبيل المؤمنين، بخلاف الطَّريق فقد ورد في القرآن في مواضع قليلة، وهو يدلّ على المسلك الَّذي يسلكه الإنسان، محمودًا كان أم مذمومًا، فوصف في القرآن بالطَّريق المستقيم، وهو طريق محمود، وجاء وصفًا لطريق جهنَّم، وهو طريق مذموم، وعلى هذا فالطَّريق أعمّ منَ السَّبيل.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ١١٦﴾ [النّساء: 116]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

بعد أن ذكر اللّه مشاققة الرَّسول، ومصيرَ من يشاقق الرَّسول، ويتَّبع غير سبيل المؤمنين؛ علَّل في هذه الآية جزاء هذه المشاقَّة، المتضمِّنة للشِّرك، والنَّاشئة عنه؛ بيانًا لفظاعة الشِّرك، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾، ممَّا يَشِي إلى أنَّ مشاققة الرَّسول تؤدِّي إلى الشِّرك؛ لأنَّ مَن ترك ما جاء به الرَّسول ﷺ وهو توحيد اللّه وطاعته، فقد أشرك.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَغۡفِرُ﴾: جِذر الكلمة هو: (غَفَر)، غفره يغفره غفرًا وغفرانًا: ستره، وصفح عنه، وأصل الغفر: السِّتر[1]، والمغفرة اسم منه، والعرب تقول: اصبغ ثوبك بالسَّواد، فهو أغفَر لوسخه، وغفر الشَّيب بالخضاب، واغْفِره، والغفر والمغفرة: التَّغطية على الذّنوب، والعفو عنها[2]، والغَفر: إلباس الشَّيء ما يصونه منَ الدَّنس، واستغفرت اللّه: سألته المغفرة، واغتفرت للجاني ما صنع، والغفران والمغفرة منَ اللّه: هو أن يصونَ العبدَ من أن يمسَّه العذاب[3].

2) ﴿يُشۡرَكَ﴾: جِذر الكلمة هو: (شرك)، والمعنى المحوريّ: لزوم الشَّيء الشَّيءَ إمساكًا بجامع دقيق أو لطيف، كما يمسك الشِّراك النَّعلَ، والشَّرَك الصَّيدَ[4]، وأشرك باللّه تعالى، وهو من أهل الشِّرك[5]، والشِّرْك اسمٌ من أشرك باللّه، وهو أن يعبد المخلوق كما يعبد اللّه، أو يعظَّم كما يعظم اللّه، أو يصرف له نوعٌ من خصائص الرّبوبيَّة، أو الألوهيَّة، مثل: عبادة الأصنام[6].

---

(1) الحمويّ، المصباح المنير: (غفر).
(2) ابن سيده، المحكم: (غفر).
(3) الرّاغب، المفردات: (غفر).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (شرك).
(5) الخليل، العين، وابن سيده، المحكم، والزّمخشريّ، أساس البلاغة، والفيومي، المصباح المنير: (شرك).
(6) ابن تيمية، مجموع الفتاوى: 13/19، وابن القيم، إعلام الموقعين: 1/413.

3) ﴿ضَلَّ﴾: جذر الكلمة هو: (ضلَّ)، أَصْلٌ صَحِيحٌ يَدلّ عَلَى مَعْنًى وَاحِدٍ، وَهوَ ضَيَاع الشَّيْءِ وَذَهَابه في غَيْرِ حَقِّه، يقَال: ضَلَّ يَضِلّ وَيَضَلّ، لغَتَانِ، وَكلّ جَائِرٍ عَنِ الْقَصْدِ ضَالٌّ[1]، وضلَّ في الأمر ضلالًا؛ إذا لم يهتدِ له، والضَّلال: العدول عنِ الطَّريق المستقيم، ويضادّه الهداية.

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

يخبر اللّه تعالى أنَّه لا يغفر لمَن أشرك به، ومات على ذلك؛ لتضمّنه القدح في ربِّ العالمين وفي وحدانيَّته، ويغفر ما دون ذلك منَ الشِّرك لمَن يشاء من أهل التَّوحيد، وهذه المشيئة في حقِّ مَن لم يتب من ذنوبه، أمَّا من تاب: إن شاء؛ غفر له، وإن شاء؛ عذَّبه، ثمَّ بيَّن جزاء مَن يشرك باللّه بأن ضلَّ عنِ الحقِّ ضلالًا بعيدًا؛ لأنَّه ذهب عن طريق التَّوحيد، فحرِم الخير كلَّه؛ لأنَّ الشِّرك أعظم أنواع الضَّلال[2].

الشِّرك أعظم الذّنوب وأنواعِ الضَّلال

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

وجه عدم عطف هذه الجملة على ما سبق:

لم تعطف هذه الجملة؛ لأنَّها استئنافيَّة، إذ جعلت تمهيدًا لمَا بعدها من وصف أحوال شركهم، ولبيان أنَّ المراد باتِّباع غير سبيل المؤمنين، هو اتِّبَاع سبيل الكفر من شركٍ وغيره، وللتَّحذير منَ الشِّرك بكلِّ صوره[3].

استئنافيَّة تمهيدٌ لمَا بعدها

دلالة التَّوكيد بحرف ﴿إِنَّ﴾ في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ﴾:

جاءَت ﴿إِنَّ﴾ في أوَّل الآية؛ لتوكيد الخبر، لقصد دفع احتمال المجاز أو المبالغة في الوعيد، والغرض: التَّشنيع على الَّذين فضَّلوا الشِّرك على الإيمان.

توكيد الخبر وقصد دفع احتمال المجاز

(1) الخليل، العين: (ضلل)، وابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات: (ضلّ).
(2) القنّوجيّ، فتح البيان: 3/241.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 5/202.

فائدة تقديم لفظ الجلالة (الله) على حرف النَّفي:

التَّوحيد هو الأصل والشِّرك أمر طارئ عليه

قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ﴾ لفظ الجلالة ﴿ٱللَّهَ﴾ مسند إليه، جاء بعد التَّوكيد بـ﴿إِنَّ﴾، وتقدَّم على حرف النَّفي ﴿لَا﴾، ثمّ أخبرتِ الآية عنه بجملة فعليَّة، فأفاد ذلك تقوية حكم الإسناد، فزاد التَّعبير توكيدًا وقوَّة، وهذا هو الحال ومقتضاه؛ إذِ المقام مقام جدٍّ ومفاصلة بين الإيمان وعدمه، وممَّا يذكر في ذلك أنَّ تقديم لفظ الجلالة ﴿ٱللَّهَ﴾ يدلِّل على أنَّ التَّوحيد هو الأصل، وأنَّ الشِّرك أمر طارئ على الأصل، وفيه إشارة إلى تربية المهابة في قلوب السَّامعين؛ لأنَّ لفظ الجلالة يجمع صفات الجلال والجمال والكمال، بخلاف الشِّرك فهو نقصٌ وضعفٌ وباطل، ثمَّ أتبع ذلك بصورةٍ بديعيَّةٍ نشأَت عن طباق السَّلب.

التَّشابه بين الآيتين:

السِّرّ في اتِّفاق الآيتين في صدرهما واختلافهما في عَجزهما

يجد النَّاظر في هذه الآية أنَّها اتَّفقَت في صدرها مع الآية السَّابقة في السّورة نفسها - الآية (48) - وهي قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ إِثۡمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾﴾ [النساء: 48]؛ إذ تشابهتِ الآيتان في مطلعيهما وموضوعهما، واختلفتا في التَّذييل، ويرجع ذلك إلى سياق الآيتين، واختلاف المخاطَبين فيهما، فالآية الثَّامنة والأربعون كانت تخاطب أهلَ الكتاب، وهم قومٌ عرفوا الإيمان بالله؛ إذ ذكر قبلها قوله: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبٗا مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ [النّساء: 44]، وقوله بعدها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ ءَامِنُواْ بِمَا نَزَّلۡنَا مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبۡلِ أَن نَّطۡمِسَ وُجُوهٗا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدۡبَارِهَآ أَوۡ نَلۡعَنَهُمۡ كَمَا لَعَنَّآ أَصۡحَٰبَ ٱلسَّبۡتِۚ وَكَانَ أَمۡرُ ٱللَّهِ مَفۡعُولًا ﴿٤٧﴾﴾ [النّساء: 47]، فنبَّههم على أنَّ شركهم بالله هو افتراءٌ منهم، أمَّا في هذه الآية ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ ضَلَّ

﴿ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾، فإنَّ الخطاب فيها قصِدَ منه ابتداءً المنافقون الَّذين عاشوا مع المؤمنين، وعرفوا رسول اللّه ﷺ فقال تعالى: ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ﴾ [النساء: 115]، فهؤلاء ضلّوا بشركهم وانضمامهم إلى مجتمع الكفر والشِّرك ضلالًا بعيدًا، فهم قد عرفوا طريق الحقِّ وسبيل المؤمنين، ولكنَّهم شاققوا الرَّسول، واختاروا غير سبيله، فضلّوا فلا يرجى صلاحهم، فقال: ﴿ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾[1].

التَّوكيد بالتَّكرار، وبـ﴿إِنَّ﴾:

الآية استئناف ابتدائيٌّ، جعل تمهيدًا لما بعده من وصف أحوال شركهم، وتعقيب الآية السَّابقة بهذه مشير إلى أنَّ المراد باتِّباع غير سبيل المؤمنين اتِّباع سبيل الكفر من شركٍ وغيره، فَعَقَّبَه بالتَّحذير منَ الشِّرك، وأكَّده بـ﴿إِنَّ﴾ للدَّلالة على رفع احتمال المبالغة أو المجاز، غير أنَّ الآية السَّابقة ذيَّلها بقوله: ﴿وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ إِثۡمًا عَظِيمًا ۝٤٨﴾ [النّساء: 48]، وذيَّل هذه بقوله: ﴿فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾، وإنَّما قال في السَّابقة: ﴿فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ إِثۡمًا عَظِيمًا ۝٤٨﴾؛ لأنَّ المخاطَب فيها أهل الكتاب، بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ ءَامِنُواْ بِمَا نَزَّلۡنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم﴾ [النّساء: 47]، فنبِّهوا على أنَّ الشِّرك من قبيل الافتراء تحذيرًا لهم منَ الافتراء، وتفظيعًا لجنسه.

الشِّرك بالله افتراءٌ عليه سبحانه، وكذب على النَّفس، وعدوانٌ على الخلق

وأمَّا في هذه الآية؛ فالكلام موجَّهٌ إلى المسلمين فنبِّهوا على أنَّ الشِّرك منَ الضَّلال؛ تحذيرًا لهم من مشاقَّة الرَّسول وأحوال المنافقين[2].

فائدة تكرار صدر الآيتين:

في تكراره فائدتان؛ الأولى: أنَّ عمومات الوعيد وعمومات الوعد متعارضة في القرآن الكريم، وأنَّه تعالى ما أعاد آية من آيات الوعيد بلفظ واحد مرَّتين، وقد أعاد هذه الآية دالَّةً على العفو والمغفرة بلفظ

الدِّلالة على العفو والمغفرة بلفظ واحد في سورة واحدة

(1) الإسكافي، درّة التّنزيل: 1/404، وابن الزبير، ملاك التّأويل: 1/105.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 5/202.

واحد في سورة واحدة[1]، وقد جاء التَّكرير للتَّأكيد[2]، فهذا يدلّ على أنَّه تعالى خصَّ جانب الوعد والرَّحمة بمزيد التَّأكيد، وذلك يقتضي ترجيح الوعد على الوعيد[3].

والأخرى: أنَّ الآيات المتقدِّمة قبلها إنَّما نزلَت في سارق الدِّرْع، وقوله: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ﴾ إنَّما نزلَت في ارتداده، ولمَّا ارتدَّ؛ كفر، وأشرك بالله فصار محرومًا من رحمة الله، وأكَّد ذلك بشرحه لأمر الشِّرك، وجعله عظيمًا عند الله[4].

وممَّا يذكر في فوائد التَّكرار أنَّ قتل النَّفس وقع بين الآيتين، وهذا دليل على أنَّ القاتل له توبة.

دلالة التَّعبير بـ﴿مَا﴾ في قوله: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ﴾:

كلّ ذنب قابل للغفران إلَّا الشِّرك بالله

اختار في وصف الغفران ﴿مَا﴾ - وهي اسم موصول مبنيٌّ في محلِّ نصب مفعول به - لأنَّها تفيد العموم، وفي هذا إشارة إلى أنَّ ما دون الشِّرك، وإنكار الرِّسالة يكون تحت غفران الله تعالى، وفي هذا بشارة للمؤمنين بأنَّ الله يغفر ذنوبهم مهما عظمَت؛ لذلك عَدَّ بعض العلماء هذه الآية أنَّها أرجى آية في القرآن الكريم.

سرّ التَّعبير بالمصدر المؤوَّل في قوله: ﴿أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾ دون الصَّريح:

لا يغفر الله ذات الشِّرك، ويغفر للمشرك؛ إذا تاب

للدَّلالة على أنَّ الله ﷻ لا يغفر ذات الشِّرك، ولكن يغفر للمشرك؛ إذا تركه، وتاب عنه؛ لذلك أضيف نفي الغفران إلى الشِّرك لا إلى من تَلَبَّس به.

دلالة اختيار ﴿دُونَ﴾ في قوله: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ﴾:

تبشيع المعاصي وذمّها

لمَّا كان لفظ ﴿دُونَ﴾ يحمل معنى: التَّحقير والتَّقليل؛ فأطلقه

(1) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 11/36 - 37.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/599.
(3) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 11/36 - 37.
(4) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 6/45.

على المعاصي الَّتي تحت الشِّرك؛ لأنَّ الشِّرك معناه إلغاء الوحدانيَّة، وأيضًا لذمِّ المعاصي؛ فلفظ الـ(دون) يبَشِّع المعاصي، فيجعل العاصي دون الطَّائع.

دلالة تأكيد الخبر بحرف (قد):

الاهتمام بأمر الشِّرك وما ينتج عنه

أكَّد الخبر هنا بحرف (قد) اهتمامًا به؛ لأنَّ المواجه بالكلام هنا المؤمنون[1]. وهم لا يشكّون في تحقّق ذلك، ولمَّا كان الشِّرك من أعظم الكبائر كان الضَّلال النَّاشئ عنه بعيدًا عن الصَّواب؛ لأنَّ غيره منَ المعاصي، وإن كان ضلالًا لكنَّه قريب من أن يراجع صاحبه الحق؛ لأنَّ له رأس مال يرجع إليه؛ وهو الإيمان، بخلاف المشرك، ولذلك قال تعالى: ﴿يَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلۡبَعِيدُ ١٢﴾[2][الحج: 12]، وناسب هنا ذكر الضَّلال لتقدّم الهدى قبله.

طباق السَّلب في قوله: ﴿لَا يَغۡفِرُ﴾ وقوله: ﴿وَيَغۡفِرُ﴾:

أخطر ما يفعله الإنسان الإشراك بالله سبحانه

في الآية طباق السَّلب في قوله: ﴿لَا يَغۡفِرُ﴾ الَّتي ابتدأ بها الخبر؛ إذ نفى المغفرة عن كلِّ أحوال الإشراك به سبحانه، لكنَّه وسَّع مساحة مغفرته سبحانه، فجعلها ما دون الشِّرك من أفعال الإثم رحمة منه بعباده، فقال: ﴿وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ﴾، فاشتمل الخبر على طباق السَّلب الَّذي أفاد إظهار عظيم شأن الله سبحانه، والإيمان به، وأنَّ الإيمان بالله وحده هو سرّ القبول وأساسه، ثمَّ بيَّن سعة رحمته سبحانه لعباده ممَّن يقترفون الآثام دون الإشراك بالله شيئًا، فبيَّن أنَّ رحمته ومغفرته وسعَت كلَّ إنسان لا يشرك به شيئًا.

دلالة الالتفات منَ المبنيِّ لمَا لم يسمَّ فاعله إلى المبنيِّ للمعلوم:

قوله تعالى: ﴿أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ﴾، ثمَّ قال: ﴿لِمَن يَشَآءُۚ﴾، فتحوَّل منَ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 5/202.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/68.

البناء لمَا لم يسمَّ فاعله، وهو (يشرَك) إلى البناء للمعلوم الغائب في قوله: ﴿لِمَن﴾، بمعنى: للَّذي يشاء، ودلالته على المعلوم واضحة.

تجاهل المشاقين للرَّسول والالتفات إلى مَن لا يشرك بالله

وفائدة هذا الالتفات: تجاهل ﴿وَمَن يُشْرِكْ﴾ والصَّدّ عنه، والالتفات إلى مَن لا يشرك بالله، حتَّى وإنِ ارتكب الآثام والأخطاء، فإنَّ الله يغفرها له؛ لبيان أنَّ مسألة التَّوحيد مفصليَّة، وأن لا مغفرة قطعًا مع مَن يشرك بالله.

دلالة الاحتراس في قوله: ﴿لِمَن يَشَآءُ﴾:

مشيئة الله هي المِفصَل في كلِّ مغفرة سوى الإشراك

احترس بقوله: ﴿لِمَن يَشَآءُ﴾؛ لأنَّه لو اكتفى بقوله: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ﴾؛ لفهم المعنى أنَّه سبحانه يغفر كلَّ ما دون ذلك للجميع، فلا يبقى شيء يحاسِب عليه الله ممَّا يفعله الخلق سوى الإشراك بالله، لكنَّه احترس عن هذا المعنى بقوله: ﴿لِمَن يَشَآءُ﴾؛ فتكون مشيئته سبحانه هي المِفصَل في كلِّ مغفرة لمَنِ ارتكب إثمًا دون الإشراك.

الإيجاز بأساليب منوَّعة من جميل البديع القرآنيِّ:

الآية فيها لفٌّ ونشر خفيٌّ

ذكر الإشراك وعاقبته، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾، وذكر ما دونه وإمكان مغفرته، فقال: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾، فهذا اللَّفّ، وأمَّا النَّشر؛ فقد بيَّن الإشراك وحاله، فقال: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾، فعلم محذوف لوصف مَن لا يشرك بالله، وتقديره: لمَن لا يشرك، وتقديره: ومَن لا يشرك؛ فهو قريب إلى الإيمان والهداية، وبهذا التَّقدير يكتمل النَّشر في الآية.

حكمة إظهار لفظ الجلالة في موضع الإضمار في: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ﴾:

حفاوة الله بعباده كبيرة والمشرك حَرَمَ نفسَه منها

أظهر لفظ الجلالة؛ لأنَّه لو قال: (ومَن يشرك به) على إضمار لفظ الجلالة لفهم المعنى من السِّياق، لكنَّه صرَّح به، وأظهره في موضع الإضمار، فقال: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ﴾؛ لبيان عظيم شأن ذلك الإثم، والتذكير بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾، فقال: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ﴾، فاندرج في النَّصِّ الوعيد والتَّهديد.

دلالة الإتيان بهذه الآية بعد الآية السَّابقة:

التَّعظيم لأهل الإسلام، وتوعّد مَن نابذهم

عقَّب القرآن بهذه الآية؛ لأنَّه لمَّا كان فاعل الشِّرك بالله بعد بيان الهدى هم أهل الكتاب، ومَن أضلّوه منَ المنافقين، بما ألقَوْه إليهم منَ الشّبه، فردّوهم إلى ظلام الشِّرك والشَّكِّ بعد أن علموا حقيقة التَّوحيد؛ حسن إيلاؤه قوله ﷻ معلِّلًا تعظيمًا لأهل الإسلام، وحثًّا على لزوم هديهم، وذمًّا لمَن نابذهم، وتوعّدًا له، إشارة إلى أنَّ مَن خرق إجماع المسلمين صار حكمه حكم المشركين، فكيف بمَن نابذ المرسلين، ثمَّ دلَّ على نفوذ أمره بقوله: ﴿لِمَن يَشَآءُ﴾[1].

سرّ التَّعبير بالفعل المضارع في: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ﴾:

المشرك يوقع هذا الفعل الشَّنيع مداومًا على تجديده

عبَّر بالفعل المضارع لدلالة التَّجدّد والاستمرار، أي: إنَّ المشرك يوقع هذا الفعل الشَّنيع مداومًا على تجديده[2]، ولذلك فهو راكب متن الضَّلالة، فلن يغفر له إلَّا إذا أقلع عن شركه.

وعلى هذا يفهم منَ الآية أنَّ مَن يتوقَّف عن هذا الفعل الشَّنيع، ويؤمن، فإنَّ الله يغفر له.

فائدة جناس الاشتقاق في قوله: ﴿ضَلَّ ضَلَٰلًا﴾:

زيادة التَّوكيد في وصف الضَّلال

في قوله: ﴿ضَلَّ ضَلَٰلًا﴾ جناس اشتقاق، أفاد زيادة التَّوكيد في وصف الضَّلال؛ لبيان عظيم الإثم الَّذي وقع فيه مَن جعَل لله نِدًّا، وهو الإشراك الَّذي لا مغفرة فيه، وكأنَّ الضَّلال قد أحاط بالمشرك، فلا مفكَّ له منه، إلَّا بإنابة صادقة.

الاستعارة في قوله: ﴿ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾:

الموغل في طريق البعد موغل في ضلاله وإشراكه

تكون الاستعارة في قوله تعالى: ﴿ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾؛ ذلك أنَّ (البعيد) أريد به القويّ في نوعه الَّذي لا يرجى لصاحبه اهتداء، فاستعير له

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 5/403.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 5/404.

البعيد؛ لأنَّ البعيد يقصي الكائن فيه عنِ الرّجوع إلى حيث صدر[1]، فكلَّما أوغل في طريق البعد أوغل في ضلاله وإشراكه.

دلالة التَّذييل في: ﴿وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا﴾:

فبعد أن بيَّن خطورة الإشراك بالله، وأنَّه لا مغفرة مع الإشراك قطعًا، ذيَّل ببيان مصير مَن يشرك، ولا يعتبر بمقدِّمات الآية الكريمة، فقال: ﴿وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا﴾، فأخبر بأنَّ الشِّرك ضلال بعيد، يأخذ صاحبه في سبل المتاهة والضَّياع.

الشِّرك يأخذ صاحبه في سبل المتاهة والضَّياع

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(لَا يَغفِر) و(لا يعفو):

اختار القرآن الكريم مادَّة (الغفران) دون غيرها، وذلك لما تحمله من معانٍ:

أولاً: يأتي الغفران بمعنى التّجاوز في الدّنيا عنِ المؤاخذة باتِّباعهم غير سبيل المؤمنين، إذا عادوا إلى حظيرة الإيمان.

ثانيًا: ولأنَّ الغفران يحمل معنى التَّسامح، ولا سيَّما إذا كانتِ الآية على رأي بعض المفسِّرين أنَّها في المنافقين من أهل الكتاب.

ثالثًا: ولأنَّ الغفران من معانيه: التَّجاوز عنِ المعاصي في الآخرة طالما أنَّها بعيدة عنِ الشِّرك.

رابعًا: ولأنَّها بشارة للعصاة؛ لأنَّ الله يغفر ذنوبهم.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 5/202.

﴿إِن يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثٗا وَإِن يَدۡعُونَ إِلَّا شَيۡطَٰنٗا مَّرِيدٗا ١١٧﴾ [النِّساء: 117]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

بعد أن ذكر الشِّرك وأهلَه في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ﴾، ثمَّ ذكر مآلهم، فقال: ﴿وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا﴾، ذكر هنا سفاهة ما يعبدون من دون الله تعالى، فقال: ﴿إِن يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثٗا وَإِن يَدۡعُونَ إِلَّا شَيۡطَٰنٗا مَّرِيدٗا﴾، وبذلك تكون الآية ذكرَت ما آلَت إليه تلك العقول منَ الانحطاط؛ لأنَّهم تركوا عبادة الله، ولجؤوا إلى عبادة الأوثان أو الشَّياطين، وبعد أن حذَّر منَ الشِّرك، وبيان عواقبه، ذكر هنا صورًا من ضلال المشركين، وهي: عبادة مَن لا يتصوَّر عبادته عاقل مدرك إدراكًا خاليًا منَ التَّأثّر بالباطل، وخضوعهم المطلق للشَّيطان[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَدۡعُونَ﴾: الدّعاء من (دعوته) إذا سألته، وإذا استغثته، قال تعالى: ﴿قَالُواْ ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ﴾ [البقرة: 70]، أي: سَله، وقال تعالى: ﴿بَلۡ إِيَّاهُ تَدۡعُونَ﴾ [الأنعام: 41]، أي: لم تفزعوا إلَّا إليه[2]، وهذا من الشِّرك في عبادة الله؛ لأنَّه دعاء غير الله مع الله فيما لا يقدر عليه إلَّا الله، والالتجاء إليه، والاستغاثة به؛ لكشف الشَّدائد، أو جلب الفوائد[3]، والمعنى هنا: ما يعبد المشركون.

2) ﴿شَيۡطَٰنٗا﴾: مشتقٌّ من شَطَنَ، أي: تباعد، ومنه: بئرٌ شَطون، أو من: شاط يشيط؛ إذا احترق غضبًا، فالشَّيطان مخلوقٌ منَ النَّار، كما دلَّ عليه قوله: ﴿وَخَلَقَ ٱلۡجَآنَّ مِن مَّارِجٖ مِّن نَّارٖ ١٥﴾ [الرَّحمن: 15]، ويطلق الشَّيطان على كلِّ عارمٍ منَ الجنِّ والإنس والحيوانات، قال تعالى: ﴿شَيَٰطِينَ ٱلۡإِنسِ وَٱلۡجِنِّ﴾ [الأنعام: 112][4].

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 4/1862.
(2) الرّاغب، المفردات: (دعو).
(3) ابن جرير، جامع البيان: 10/159، وابن القيم، مدارج السالكين: 1/375.
(4) الرّاغب، المفردات: (شطن).

3) ﴿مَّرِيدًا﴾: جذر الكلمة هو (مَرَد)، وهو أَصْلٌ صَحِيحٌ يَدلّ عَلَى تَجْرِيدِ الشَّيْءِ مِنْ قِشْرِهِ أَوْ مَا يَعْلوه مِنْ شَعْرِهِ، ويلزم من هذا الأصل عدم التَّمكّن من الإمساك بالشَّيء، فيخرج عن الطَّاعة، كالمَرود والمارد من الخيل: الَّذي يجيء، ويذهب نشاطًا، أي: من شدَّته، والمارد من الرِّجال: العاتي الشَّديد، ومَرَد على الشَّرِّ وتمرَّد: عتا وطغى، تمرَّد علينا: عتا، والمارد والمريد: الخبيث المتمرِّد الشِّرِّير، فهذا كلّه من لازم المعنى الأصليِّ[1]، ومعنى المرود: أن يبلغ الغاية الَّتي يخرج بها من جملة ما عليه في ذلك الصِّنف[2].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

عـبـادة فـاقـد صفات الكمال

ما يعبد المشركون، ولا يتَّجهون في عبادتهم، وضراعتهم من دون اللّه تعالى ذي الجلال والإكرام إلَّا إلى إناثٍ قد استبدلوهنَّ بعبادة اللّه؛ فهم قد تركوا عبادة القويِّ القادر إلى عبادة العاجز الَّذي لا يستطيع حماية نفسه، ورفْع الضّرِّ عنه، وما يعبدون إلَّا شيطانًا قد عتى، وتجرَّد منَ الخير، وبلغ في الفساد والإفساد حدًّا كبيرًا، وبذلك لا يكون منه إلَّا الشَّرّ[3].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالة الكناية بالدّعاء عنِ العبادة في قوله: ﴿إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا﴾:

الـــدّعـــاء هـو العبادة

جاء التَّعبير القرآنيّ بقوله: ﴿إِن يَدْعُونَ﴾، بمعنى: يعبدون[4]، ويكون المراد ما يعبدون من دون اللّه، ويتَّخذونه إلهًا إلَّا مسمَّيات تسمية الإناث، وكنَّى بالدّعاء عنِ العبادة؛ لأنَّ من عبد شيئًا دعاه

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (مرد).
(2) ابن سيده، المحكم: (مرد).
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 4/1862.
(4) ابن الجوزيّ، زاد المسير: 1/472.

عند حوائجه ومصالحه، والدّعاء أبلغ العبادة ومخها وأسها؛ لأنَّ فيه معنى التَّوسّل والتَّضرّع، وطلب تحقيق الغايات، ثمَّ إنَّهم ما يعبدونه إلَّا لغاية دعائهم في تحقيق الحاجات، ويدعونهم ساعة الملمَّات، فكنَّى بالدّعاء عنِ العبادة؛ لشمول ذلك كلِّه.

سرّ التَّعبير عنِ العبادة بالدّعاء في قوله: ﴿يَدۡعُونَ﴾:

ذكر العامّ وهو الدّعاء ليشمل الخاصَّ معه، وهو العبادة

ورد الدّعاء في القرآن الكريم بمعنى: العبادة في مواضع عديدة، وذلك قوله في سورة الأَنعام: ﴿قُلۡ أَنَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [الأنعام: 71]، يعني: أنعبد من دون الله، وقال في سورة يونس: ﴿وَلَا تَدۡعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [يونس: 106]، يعني: لا تعبد من دون الله، وقال في سورة الإسراء: ﴿ضَلَّ مَن تَدۡعُونَ﴾ [الإسراء: 67]، أي: تعبدون، وقال في سورة الشّعراء: ﴿فَلَا تَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ﴾ [الشعراء: 213]، يعني: لا تعبد مع الله إلهًا آخر، وقال في سورة الفرقان: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ [الفرقان: 68]، يعني: لا يعبدون، وقال فيها أيضًا: ﴿لَوۡلَا دُعَآؤُكُمۡۖ﴾ [الفرقان: 77]، أي: لولا عبادتكم.

وسبب ورود الدّعاء بمعنى العبادة؛ أنَّ كثيرًا منَ المشركين لا يعبدون أصنامهم إنَّما يدعونهم، فذكر العامَّ؛ وهو الدّعاء، وشمل الخاصَّ معه، وهو العبادة، ولو ذكر العبادة لتوهِّم أنَّ مَن يدعون غير الله تضرّعًا وتوسّلًا يخرجون عن دائرة الإشراك أو عبادة الشَّيطان.

الكناية ومعنى التَّبكيت في قوله: ﴿إِلَّآ إِنَٰثٗا﴾:

ذكر العلماء لذلك بعض التَّعليلات:

معاني التَّعبير عنِ الآلهة الَّتي يعبدونها بالإناث

منها: أنَّ العرب كانت لهم أصنام يعبدونها، وكانوا يحَلّون الأصنام بأنواع الحليِّ، ويسمّونها أنثى، وإناث جمع أنثى، قال ابن عبَّاس، والحسن، وقتادة: المراد الخشب والحجارة، فهي مؤنّثات لا تعقل، فتكون ﴿إِنَٰثٗا﴾ كناية عنها، فمنها يصنعون أصنامهم، فيخبر عنها، كما يخبر عنِ المؤنَّث مِنَ الأشياء، فيجيء قوله: ﴿إِلَّآ إِنَٰثٗا﴾

عبارة عنِ الجمادات، وفيه تبكيت لهم، وقال أبو مالك والسّدِّيّ وابن زيد وغيرهم: كانتِ العرب تسمِّي أصنامها بأسماء مؤنَّثة كاللَّات والعزَّى ومناة ونائلة، كما كانت تسمَّى - أيضًا - بأسماء مذكَّرة: كهبل، وذي الخلصة، وقال الحسن: لم يكن حيٌّ من أحياء العرب إلَّا ولهم صنم يعبدونه، يسمّونه أنثى بني فلان، وفي هذا تعبيرهم بالتَّأنيث؛ لنقصه وخساسته.

ومنها: أنَّهم كانوا يقولون عن أصنامهم: (بنات اللّه)، تعالى اللّه عمَّا يقولون علوًّا كبيرًا.

ومنها: للتَّحقير من شأنها؛ لأنَّها منفعلة، وليست فاعلة، وأكثر ما عبدته العرب منَ الأصنام كانت أشياء منفعلة غير فاعلة، فبكَّتهم اللّه تعالى، أنَّهم مع كونهم فاعلين من وجه، يعبدون ما ليس هو إلَّا منفعلًا من كلِّ وجه، وعلى هذا نبَّه إبراهيم - عليه السلام - بقوله: ﴿لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا ﴿٤٢﴾﴾ [مريم: 42][1].

وجه اصطفاء كلمة ﴿إِنَٰثًا﴾:

تقبيح الإشراك باللّه تعالى

هذه اللَّفظة تقبِّح الشِّرك والمشرك باللّه؛ لأنَّه أشرك مع اللّه ما هو كالإناث الَّتي تحتاج إلى من يحميها، ولا تحمي أحدًا، وتشير إلى الضَّعف والعجز؛ فكيف بعاقل يعبد أو يشرك مع اللّه مَن يحتاج إلى مَن يحميه؟

الالتفات في القراءات:

دلالة الالتفات في تعدّد القراءات

أفاد هذا الالتفات؛ أنَّه لا ينبغي الدّعاء إلَّا للّه تعالى؛ لأنَّ الدّعاء له شرط لصحَّة الإيمان والاعتقاد، ويلزم الإعراض عن دعاء كلِّ واحد إلَّا اللّه.

وقرأ أبو رجاء: (إن تدعون) بالتَّاء على الخطاب[2]، وهي قراءة

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/68 - 69.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/69.

شاذَّة، فيكون في الآية على هذه القراءة التفات من الغائب في قوله: ﴿وَمَن يُشْرِكْ﴾ إلى الخطاب في قوله: (تدعون).

أمَّا على قراءة الجمهور ﴿يَدْعُونَ﴾؛ فلا التفات فيها.

وفي مصحف عائشة ﵂: (إلَّا أوثانًا)، جمع وثن، وهو الصَّنم.

وقرأ بذلك أبو السِّوار والهنائي، وقد اجتمعَت في هذا اللَّفظ ثماني قراءات[1].

وجه تكرار أسلوب الحَصر مرَّتين في: ﴿إِن يَدْعُونَ﴾:

كلّ ما يدْعى من دون الله أنموذجٌ لشيطان

دلَّ الحصر على أنَّ كلَّ ما يدعوه الإنسان من دون الله، هو أنموذج لشيطان يكون معه الخسران المبين.

قوله: ﴿وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا﴾، الحصر الثَّاني بعد قوله: ﴿إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا﴾، وهو الحصر الأوَّل، والمراد به إبليس، قاله: الجمهور، وهو الصَّواب؛ لأنَّ ما قاله بعد ذلك مبيِّن أنَّه هو، وقيل: الشَّيطان المعيَّن بكلِّ صنم أفرد لفظًا، وهو مجموع في المعنى الواحد، يدلّ على الجنس، فذكر الواحد، وأراد الكلَّ، ويحتمل أن يكون لعنه الله صفة، وأن يكون خبرًا عنه، وقيل: هو دعاء، ولا يتعارض الحَصران؛ لأنَّ دعاء الأصنام ناشئ عن دعائهم الشَّيطان، لمَّا عبدوا الشَّيطان أغراهم بعبادة الأصنام.

علَّة تأخير ذكر الشَّيطان وعبادته عن عبادة الأصنام:

عبادة الشيطان تدعو إلى عبادة الأصنام

أخَّر ذكر الشَّيطان وعبادته على عبادة الأصنام الإناث؛ لأنَّهم لمَّا عبدوا الشَّيطان؛ أغراهم بعبادة الأصنام، وعلى هذا المعنى يكون الكلام التفاتًا منَ الجمع إلى المفرد.

دلالة عودة الضَّمير في قوله: ﴿إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا﴾:

يعود الضّمير على مشركي العرب، ودلَّ الحصر على التَّعجّب

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/70.

منهم، وقد علم النَّاس حال المرأة بينهم، وقد حرموها من حقوق كثيرة، واستضعفوها، فالحَصر في قوله: ﴿إِن يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثٗا﴾ قصر ادِّعائيٌّ؛ لأنَّه أعجب أحوال إشراكهم.

القصر الادِّعائيّ الـــذي فيه تعجيبٌ من أحوال المشركين

وكانتِ العزَّى لقريش، وكانت مناة للأوس والخزرج، ولا يخفى أنَّ معظم المعاندين للمسلمين يومئذٍ كانوا من هذين الحيَّين: مشركو قريش، هم أشدّ النَّاس عداء للإسلام، ومنافقو المدينة ومشركوها، هم أشدّ النَّاس فتنة في الإسلام.

نسبة الدّعاء إلى الأصنام

نسب الدّعاء إلى الأصنام على طريق المجاز، وليس على الحقيقة؛ لأنَّ دعاء الأصنام ناشئ عن دعائهم الشَّيطان، لمَّا عبدوه؛ أغراهم بعبادة الأصنام.

الاستعارة في: ﴿إِن يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثٗا وَإِن يَدۡعُونَ إِلَّا شَيۡطَٰنٗا مَّرِيدٗا﴾:

الاستعارتان تعكسان حالات التَّنوّع والتَّجدّد في الاستجابة للشَّيطان

في الآية استعارتان في الدّعاءين؛ فالأوَّل: عبادة، والآخر: طواعية، فدعاء الشَّيطان هنا: استعارة تصريحيَّة، بمعنى: الاستجابة والطَّاعة، ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيۡكُم مِّن سُلۡطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوۡتُكُمۡ فَٱسۡتَجَبۡتُمۡ لِيۖ﴾ [إبراهيم: 22]، وقوله: ﴿مَّرِيدٗا﴾، يعني: عاتيًا صلبًا في غَوايته، مغاليًا في انحرافه، متجرِّدًا للشَّرِّ والغَواية، فدلَّ على حالة تمرّدهم؛ لمَّا استجابوا له[1].

ونسبة دعائهم الأصنام هو على سبيل المجاز، وأمَّا في الحقيقة؛ فهم يدعون الشَّيطان[2]، والمجاز هنا استعارة تصريحيَّة، وفائدة الاستعارتين في كلمة ﴿يَدۡعُونَ﴾ واختلافهما: أنَّهما تعكسان حالات التَّنوّع والتَّجدّد في الاستجابة للشَّيطان، وتصوِّران حالات النَّاس من غير المؤمنين، وطريقة انصياعهم

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/114.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/70.

إلى مصدر الشَّرِّ كلِّه؛ وهو الشَّيطان المريد، واللّجوء إليه في جميع أحوالهم، وأفعالهم، وأقوالهم:

دلالة ذكر: ﴿مِن دُونِهِۦٓ﴾ مع أنَّ المعنى يفهم دونها:

المناسبة في ذكر العبادة والدّعاء

دلَّ قوله: ﴿مِن دُونِهِۦٓ﴾ على أنَّ الَّذي يدعو من دون اللّه، هو من سفَّه عقله، وقوَّض طاقاته، وانحدر في غياهب الضَّلال والجهل.

ولمَّا كان المنافقون هم المقصودين بالذَّات بهذه الآيات، وكان أكثرهم أهل أوثان؛ فناسب التَّعبير لعبادة الأوثان عنِ العبادة بالدّعاء إشارة إلى أنَّ كلَّ معبود لا يدعى في الضَّرورات، فيسمع، فعابده قد سفَّه عقله، وانحدر في غياهب الجهل.

ولمَّا كان كلّ شيء دونه ﷻ؛ لأنَّه تحت قهره؛ قال محتقرًا لمَا عبدوه: ﴿مِن دُونِهِۦٓ﴾، أي: وهو الرَّحمن، كون أنَّ من يدعوهم لا يسمعون دعاءهم، قال تعالى: ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُواْ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُواْ مَا ٱسْتَجَابُواْ لَكُمْۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْۚ﴾ [فاطر: 14]، ولمَّا كانت معبوداتهم أوثانًا متكثِّرة، وكلّ كثرة تلزمها الفرقة والحاجة والضَّعف، مع أنَّهم كانوا يسمّون بعضها بأسماء الإناث، ويقولون في الكلِّ: إنَّها بنات اللّه، قال: ﴿إِلَّآ إِنَٰثًا﴾، أي: فجعلوا أنفسهم للإناث عبادًا، وهم يأنفون من أن تولد لهم البنات.

هذا مع أنَّ مادَّتي (أنث) و(وثن) يلزمهما في نفسهما الكثرة والرَّخاوة والفرقة، وكلّ ذلك في غاية البعد عن رتبة الإلهيَّة[1].

بلاغة قصر القلب في الآية:

آلهتهم لا تستحقّ أن تسمَّى آلهة لنقصها وانحطاطها

تظهر بلاغة هذا القصر في قوله: ﴿وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا﴾، وأنَّ هذا قصر قلب؛ لاعتقادهم أنَّها آلهة، ومعنى القصر: ما هي إلَّا غير آلهة لما لها منَ النَّقص، فقد قلب وعكس عليهم

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 5/405.

اعتقادهم، ثمَّ أتمَّ ذلك ببيان حقيقة ما يعبدون، فقال: ﴿وَإِن يَدْعُونَ﴾؛ أي: ما يعبدون في الحقيقة ﴿إِلَّا شَيْطَٰنًا﴾، أي: لأنَّه هو الآمر لهم بذلك، المزيَّن لهم، ﴿مَّرِيدًا﴾، أي: عاتيًا صلبًا عاصيًا ملازمًا للعصيان، مجرَّدًا من كلِّ خير، محترقًا بأفعال الشِّرِّ، بعيدًا من كلِّ أمن، من: شاط وشطن، ومرد: بفتح عينه وضمِّها[1].

دلالة التَّعبير عن إبليس بالشَّيطان:

المبالغة وتقرير صفته المنَفِّرة بالتَّنكير

جاء التَّعبير عن إبليس بالشَّيطان؛ لأنَّ أذاه تعدَّى إلى غيره حيث أضلَّ النَّاس، فعبدوا من دون الله أوثانًا، وكان هو الآمر لهم، وجاء نكرة للدَّلالة على تقرير هذا الوصف؛ لأنَّ النَّكرة إذا وصفت؛ تعلَّق هذا الحكم فيها بالوصف، فيكون تنكيرها ووصفها لتقرير هذا الوصف في الذِّهن، والمراد به هنا: إبليس، ذكر هنا باسم الشَّيطان؛ لما لهذا الاسم من مدلول منفِّر[2].

علَّة وصْفِ الشَّيطان بالمَريد:

تقرير من لا لَبْس في شَرِّه

المَريد: على وزن (فعيل) مأخوذٌ من (مَرَدَ)، ويطلق في اللّغة على معانٍ عدَّة:

منها: مَرَد على الشَّرِّ، قال تعالى: ﴿وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ مَرَدُواْ عَلَى ٱلنِّفَاقِ﴾ [التّوبة: 101].

ومنها: من يخرج على الطَّاعة، ومن ذلك: مارد، ومتمرِّد.

ويطلق على من ظهر شرّه، وتجرَّد مِنَ الخير، من قولهم: شجر أمرد؛ إذا تعرَّى منَ الورق، ومنه الأمرد؛ لتجرّده منَ الشَّعر[3].

لكلِّ هذه المعاني وصف الشَّيطان بالمريد؛ لأنَّها تصدق عليه، فهو قد تعوَّد الشَّرَّ، وهو قد عتى، وقد خرج عنِ الطَّاعة لله تعالى، وقد تجرَّد من كلِّ خير.

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 5/405.
(2) الرّاغب، المفردات: (شطن).
(3) الرّاغب، المفردات: (مرد).

وعلى هذا؛ فالمريد هو المتمرِّد العاتي، والتَّعبير هنا بقوله: ﴿مَّرِيدًا﴾؛ عبَّر بصيغة (فعيل)، فهو صفة مشبَّهة مشتقَّة من (مَرِدَ) - إذا عتا في العصيان - الَّتي هي للمبالغة في سياق ذمِّهم؛ تنبيهًا على أنَّهم تعبَّدوا لما لا إلباس في شرارته؛ لأنَّه شرٌّ كلّه[1].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الدّعاء والنِّداء:

ذهب البعض إلى عدم التَّفريق بينهما، وقال: الدّعاء كالنِّداء، لكن بالبحث والتَّدقيق تبيَّن أنَّ النِّداء يختلف عنِ الدّعاء من نواحٍ عديدة:

أولاً: النِّداء قد يقال بـ(يا) أو (أيا)، ونحو ذلك من غير أن يضمَّ إليه الاسم، والدّعاء لا يكاد يقال إلَّا إذا كان معه الاسم.

ثانيًا: يستعمل النِّداء استعمال التَّسمية نحو: دعوت ابني زيدًا، أي: سمَّيته، والدّعاء يأتي بمعنى السّؤال والاستغاثة، ويأتي بمعنى: الحثِّ على قصد الشَّيء.

ثالثًا: النِّداء رفع الصَّوت وظهوره، بخلاف الدّعاء قد يكون سرًّا وعلانية.

رابعًا: ومنَ الفروق - أيضًا - أنَّ الدّعاء طلب الفعل، والنِّداء إجابة الصَّوت.

خامسًا: أنَّ الدّعاء للقريب، والنِّداء للبعيد.

سادسًا: أنَّ الدّعاء يكون في التَّضرّع والعبادة، بخلاف النِّداء؛ فيكون فيهما وفي غيرهما، بدليل نداء فرعون في قوله: ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِۦ﴾ [الزّخرف: 51] فهو لمجرَّد النِّداء[2].

الشَّيطان وإبليس:

أوَّلًا: من ناحية الاشتقاق: إبليس مشتقٌّ من أبلس، أي: يئس وندم، أو من أبلس، بمعنى: سكت؛ لانقطاع حجَّته، أمَّا الشَّيطان؛ فمشتقٌّ من شيط أو شطن، أي: بعد عن رحمة الله، فبينهما فرق من ناحية مأخذ الكلمة.

ثانيًا: من ناحية الاستعمال القرآنيّ؛ نجد أنَّ إبليس يطلق على المخلوق الَّذي رفض

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 5/406.
(2) الرّاغب، المفردات: (دعا - ندا).

السّجود لآدم، أمَّا الشَّيطان؛ فيطلق على من أغوى غيره بالشَّرِّ والفساد، سواء كان منَ الجنِّ أم منَ الإنس، وممَّا يؤكِّد ذلك أنَّ القرآن في قصَّة طلب السّجود لآدم، وامتناع هذا المخلوق عنِ السّجود، سمَّاه القرآن (إبليس)؛ لأنَّ شرَّه هنا على نفسه، ولم يتعدَّ إلى غيره؛ حيث عاقبه اللّه باللَّعن والطَّرد إلى يوم القيامة، وهذا ظاهر في مشهد طلب السّجود لآدم منَ الملائكة، وامتناع إبليس من ذلك في العديد من سور القرآن، وكلّها بلفظ إبليس، ولم يرد بلفظ الشَّيطان.

لكن لمَّا تعدَّى شرّه إلى غيره بالإغواء والإغراء لآدم، وهذا واضح في إغرائه لآدم وزوجه لمَّا وسوس لهما بالأكل منَ الشَّجرة، وأزلَّهما، قال اللّه تعالى: ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيۡطَٰنُ عَنۡهَا﴾ [البقرة: 36]، وقال: ﴿فَوَسۡوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾ [الأعراف: 20]، فهنا عبَّر بالشَّيطان دون إبليس؛ لأنَّ أذاه تعدَّى إليهما.

﴿لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ١١٨﴾ [النّساء: 118]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

بعد أن ذكر في الآية السَّابقة ما يعبدون من دون اللّه، فقال: ﴿إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا﴾؛ ناسب أن يتبعها بلعنة ما يعبدون من دون اللّه، وهو الشَّيطان الرَّجيم؛ إذ هو الَّذي سوَّل للمشركين عبادتها، كما حكى تعالى عنه بقوله: ﴿وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿لَّعَنَهُ﴾: اللَّعن: الطَّرد والإبعاد على سبيل السّخط، وهو منَ اللّه تعالى في الآخرة عقوبة، وفي الدّنيا انقطاع من قبول رحمته وتوفيقه، ومنَ الإنسان دعاء على غيره، قال تعالى: ﴿أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ١٨﴾ [هود: 18]، وقال تعالى: ﴿وَٱلْخَٰمِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ٧﴾ [النّور: 7]، واللّعْنَة: الَّذي يلعَن كثيرًا، والتَعَنَ فلان: لعن نفسه، والتَّلاعن والملاعنة أن يَلْعن كلّ واحد منهما نفسَه أو صاحبَه[1].

2) ﴿مَّفْرُوضًا﴾: جِذر الكلمة هو: (فَرَض)، والفَرض: الإيجاب، تَفرِض على نفسك فَرضًا، والفريضة: الاسم، وفرائض اللّه: حدوده[2].

وفرضت الشَّيء أفرضه فرضًا، وفرَّضته للتَّكثير: أوجبته، وقوله تعالى: ﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَٰهَا وَفَرَضْنَٰهَا﴾ [النّور: 1][3]، والفرض: ما أوجبه اللّه تعالى، وسمِّي بذلك؛ لأنَّ له معالمَ وحدودًا، والمِفرَض: الحديدة الَّتي يحزّ بها[4].

ومعنى قوله تعالى: ﴿نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾، يعني: مقتَطَعًا محدودًا.

(1) الرّاغب، المفردات: (لعن).
(2) الخليل، العين: (فرض).
(3) ابن سيده، المحكم: (فرض).
(4) الجوهريّ، الصّحاح: (فرض).

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

سعي الشَّيطان في إغواء العباد وتـزيـين الـشَّـرِّ لهم

يبيِّن الله ﷻ أنَّه لَعَنَ الشَّيطان وطرده من رحمته؛ لتمرّده على الله وعلى أوامره، وذكر ما يدلّ على استحقاقه لهذا اللَّعن أنَّه يسعى لإبعاد العباد عن رحمة الله، وأعلن ذلك صراحة، وقال لربِّه حين لعنه: والله لأتَّخذنَّ من عبادك نصيبًا في إغوائهم قولًا وعملًا أجعلهم أولياء لي، ويكونون من حزبي، وحزبه من أصحاب السَّعير.

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالة الفعل الماضي في قوله: ﴿لَّعَنَهُ ٱللَّهُ﴾:

لعنة الله على الشَّيطان قديمة قدم خلق آدم

الفعل الماضي دلالته على القدم والثَّبات ورسوخ اللَّعنة؛ إذ لا تبديل لحكم الله فيه، ثمَّ بيَّن سبب استحقاقه لهذا اللَّعن ما فيه من كفر وجرأة على الله.

دلالة البدء بقوله: ﴿لَّعَنَهُ ٱللَّهُ﴾:

التَّحذير الشَّديد مـن اتِّـبـاع الشَّيطان

هذا البدء له دلالة لغويَّة ومعنويَّة؛ فمن ناحية اللّغة تعدَّدت وجوه الإعراب له، فإمَّا أن يكون صفةً وإمَّا خبرًا أو دعاءً، وهذا يدلِّل على جزالة استخدام الجملة في بدء الآية، ومن ناحية المعنى: تفيد التَّحذير الشَّديد ليعلم من اتَّبعه، ومن اتَّخذه وليًّا، أنَّ مصيره كمصيره.

فائدة عطف قوله: ﴿وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ﴾ على ما سبق:

إصرار الشَّيطان عـلى الـعـداوة والإضلال

عطفتِ الجملة على ما سبق للدَّلالة على إصراره على العداوة والإغواء لبني آدم؛ فكان المعنى: وعزَّتك لأجتهدنَّ في إبعاد عبادك كما أبعدتني، وأكَّد ذلك بالقسم الوارد في قوله: ﴿وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ﴾.

دلالة التَّعبير بالفعل ﴿وَقَالَ﴾:

استـخـدام الشَّيطان المقال والـفِـعـال في جذب ذرِّيَّة آدم إلى الشَّرِّ

لمَّا طرده الله تعالى من جنَّته ورحمته؛ بسبب معصيته جعل إبليس عمله في الحياة مصادمة الخير، وجذب ذرِّيَّة آدم إلى الشَّرِّ، واستخدم في ذلك المقال والفِعال.

دلالة التَّعبير بالفعل ﴿لَأَتَّخِذَنَّ﴾:

إقسام الشَّيطان على إضلال بني آدم

يدلّ هذا التّعبير بهذا التَّأكيد على سيطرته على من اتَّبعه، وتمكّنه منهم في فعل ما يريد؛ لأنَّ الأخذ معناه: حوز الشَّيء وتحصيله؛ فكأنَّهم صاروا في ملكيَّته يتصرَّف فيهم كيف يشاء.

وجه قوله: ﴿مِنْ عِبَادِكَ﴾:

حرص الشَّيطان على إضلال الصَّالحين

اختار لفظ ﴿مِنْ عِبَادِكَ﴾ دون (من خلقك)؛ لأنَّ الخلق أعمّ، فيشمل آدم وذرِّيَّته، وغير ذلك منَ المخلوقات، وعداوة إبليس مقصورة على آدم وذرِّيَّته.

ولم يقل: (من عبيدك)؛ لأنَّ العباد هم هدف غوايته وإضلاله؛ لأنَّهم آمنوا وأسلموا لله ربِّ العالمين طواعيةً وحبًّا؛ فأطاعوا أوامر الله، واجتنبوا نواهيه، أمَّا العبيد الَّذين لم يسلموا؛ فهم من جنوده أصلًا، فلا يحتاجون إلى إغواء أو إضلال.

دلالة التَّعبير بـ"النصيب" في قوله: ﴿نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾:

محاولة الشَّيطان إظهار نفسه في صفة الملك والقوَّة

النَّصيب: هو المقدار المعيَّن، والمراد أن يأخذ جزءًا من عباد الله، وهذا واضح في دلالة التَّعبير بالنَّصيب، وأنَّه يحاول أخذ قدرٍ كبيرٍ منَ الخلق، ويجعلهم من أتباعه كأنَّهم من نصيبه، وهو بذلك يريد أن يظهر نفسه في صفة الملك والقوَّة، ويجوز أن يكون المراد أنَّه يأخذ نصيب الشَّرِّ الموجود في الإنسان، من قوله: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ۝١٠﴾ [البلد: 10].

وجه وصف النَّصيب بقوله: ﴿مَّفْرُوضًا﴾:

قطع الشَّيطان العباد عن أصل فطرتهم

اختار وصف (الفَرْض) الَّذي يشير إلى القطع؛ فكأنَّه قطعهم عن أصلهم الَّذي ولدوا عليه، وهو الفِطرة الإيمانيَّة، وهذا يشير إلى الجهد الَّذي فعله الشَّيطان في قطع جزءٍ منَ العباد عن أصلهم، وأيضًا يشير إلى معنًى مفاده تحقيق وظيفة إبليس، وكأنَّها واجبةٌ عليه.

وفيه إشارة إلى أنَّ الَّذين أخذهم إبليس لديهم استعداد واضح؛ لأنَّهم انحازوا إليه؛ لأنَّ معنى (الفرض): المنحاز[1].

التوفيق بين ﴿نَصِيبًا﴾ المشعر بالقلَّة، وظاهر الآيات المفيدة كثرة أتباعه:

لا يوجد تعارض بين دلالة (النَّصيب)، وظاهر الآيات الَّتي تدلّ على الكثرة من نحو قوله تعالى: ﴿لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ۝٦٢﴾ [الإسراء: 62]، وقوله: ﴿فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٢٠﴾ [سبأ: 20]؛ لأنَّ المراد "أنَّ التَّفاوت إنَّما يحصل في نوع البشر، أمَّا إذا ضممتَ أنواع الملائكة مع كثرتهم إلى المؤمنين؛ كانتِ الكثرة للمؤمنين، وأيضًا فالمؤمنون وإن كانوا قليلين في العدد؛ نصيبهم عظيمٌ عند الله تعالى، والكفَّار والفسَّاق وإن كانوا كثيرين؛ فهم كالعدم[2]"، ولكنَّ أبا حيَّان لا يرى ذلك، ويقول: "إنَّ لفظ (نصيب) لا يدلّ على القليل ولا الكثير، بدليل قوله تعالى: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ﴾ [النِّساء: 7] "[3].

دلالة تكرار قوله: ﴿نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾ في سورة النِّساء:

وقد ورد قوله: ﴿نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾ في موضعين منَ القرآن الكريم، وكلا الموضعين في سورة النِّساء، أوَّلهما قوله في وصف الميراث: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ ۚ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ۝٧﴾ [النِّساء: 7]، والنَّصيب: النِّسب الَّتي شرَعها الله تعالى في الميراث مثل: السّدس، والثّلث، والنِّصف، والثّلثين، وغيرها، فهي أنصبة ثابتة معلومة ومفروضة، وأمَّا الموضع الثَّاني؛ فهي هذه الآية، وموضوعها: خطاب إبليس لله ﷻ قوله: ﴿وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾، أي: ليكونَنَّ ممَّن يتَّبعني منَ الإنس والجنِّ نصيبًا لي أتَّخذهم أولياء، فيتركون ولاية الله، ويلجؤون إلى ولاية الشَّيطان.

ولو نظرنا إلى الموضعين من منطلق واحد؛ لوجدنا أنَّ الشَّيطان يقسم بأنَّه سيكون له ميراثٌ معلومٌ من عباد الله، كما أنَّ ميراث النَّاس من أمواتهم معلوم، وأنَّه نصيب وحِصَّة منَ النَّاس، كما أنَّ النَّاس لهم أنصباء من مواريث أوليائهم المتوفِّين، ووجه الشَّبه بين

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/352.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/70.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/352.

الحالتين أيضًا: يدلّ على أنَّ هؤلاء الَّذين أقسم الشَّيطان على أن يكونوا نصيبًا له: أموات، والشَّيطان وليّهم ووارثهم، كما أنَّ النّاس يرثون أمواتهم تمامًا.

تأكيد إبليس على نصيبه المفروض من بني آدم:

جلافة الخطاب النَّاشئة عن خبث التَّفكير

الشَّيطان - لعنه اللّه - قال: لأتَّخذن من عبادك حظًّا مقدَّرًا معيَّنًا، وهم الَّذين يتَّبعون خطواته، ويقبلون وساوسه[1]، وذلك عن طريق العلم الَّذي خلقه اللّه في الشَّيطان الَّذي أيقن بمقتضاه أنَّ فيه المقدرة على فتنة البشر وتسخيرهم، وكانت في نظام البشر فرص تدخل في خلالها آثار فتنة الشَّيطان، فذلك هو النَّصيب المفروض، أي: المجعول بفرض اللّه وتقديره في أصل الجبلَّة، وليس قوله: من عبادك إنكارًا منَ الشَّيطان لعبوديَّته للّه، ولكنَّها جلافة الخطاب النَّاشئة عن خباثة التَّفكير المتأصِّلة في جبلَّته، حتَّى لا يستحضر الفكر منَ المعاني المدلولة إلَّا ما له فيه هوى، ولا يتفطَّن إلى ما يحفّ بذلك منَ الغلظة، ولا إلى ما يفوته منَ الأدب والمعاني الجميلة، فكلّ حظٍّ كان للشَّيطان في تصرّفات البشر من أعمالهم المعنويَّة: كالعقائد والأفكار الشِّرِّيرة، ومن أعمالهم المحسوسة: كالفساد في الأرض، والإعلان بخدمة الشَّيطان: كعبادة الأصنام، والتَّقريب لها، وإعطاء أموالهم لضلالهم، كلّ ذلك منَ النَّصيب المفروض[2].

وجه: ﴿نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾ دون: (نصيبًا معلومًا):

الإيجاب يقال اعتبارًا بوقوعه وثباته

قال: ﴿نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾؛ أي: فرضه هو لنفسه، ويمكن أن يكون المعنى: (نصيبًا كثيرًا)، ولو قال: (نصيبًا معلومًا)؛ لكان المعنى أنَّه نصيب محدَّد، يعلمه الجميع، ولا ينكرونه، لكنَّ الإيجاب يقال اعتبارًا بوقوعه وثباته، والفرض بقطع الحكم فيه، قال تعالى:

(1) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 11/38.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 5/204.

﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَٰهَا وَفَرَضْنَٰهَا﴾ [النّور: 1]، أي: أوجبنا العمل بها عليك، وقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ [القصص: 85]، أي: أوجب عليك العمل به[1].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

اللَّعن والطَّرد:

اللَّعن: الطَّرد والإبعاد على سبيل السّخط، وهو منَ اللّه تعالى في الآخرة عقوبة، وفي الدّنيا انقطاع من قبول رحمته وتوفيقه، ومنَ الإنسان دعاء على غيره، قال تعالى: ﴿أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٨﴾﴾ [هود: 18]، وقال تعالى: ﴿وَٱلْخَٰمِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٧﴾﴾ [النّور: 7].

الطَّرد: هو الإزعاج والإبعاد في جفاءٍ وغلظة على سبيل الاستخفاف[2].

ويؤكِّد ذلك ما ورد في القرآن الكريم من ذكر اللَّعن مع الشَّيطان، ومع الَّذين يكتمون ما أنزل اللّه منَ البيِّنات والآيات في هذا كثيرة؛ أمَّا الطَّرد؛ فجاء في حديث القرآن عن طلب المشركين منَ الرَّسول ﷺ طرد ضعفاء المؤمنين عن مجالسهم، وجاء النَّهي في القرآن عن ذلك؛ لعظم فضلهم، وعلوِّ منزلتهم، والآيات في هذا كثيرة.

الحظّ والنَّصيب:

ذهب البعض إلى عدم الفرق بينهما؛ فقال: الحظّ في اللّغة: النَّصيب والجدّ، وهو النَّصيب منَ الفضل والخير.

والنَّاظر في آيات القرآن الكريم يجد أنَّ لفظ (الحظِّ) في استعمالاته جاءَت في سياق الفضل والخير منَ الثَّواب.

أمَّا النَّصيب في اللّغة: الحظّ منَ الشَّيء، يقال: هذا نصيبي، أي: حظِّي، فهو يستعمل في الخير والشَّرِّ، ولذلك يكون أعمَّ منَ الحظِّ، وآيات القرآن شاهدة على ذلك، فمنِ استعماله في الخير، قوله تعالى: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ﴾ [النِّساء: 7]، ومنِ استعمالاته في الشَّرِّ قول اللّه تعالى عن أهل النَّار: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴿٤٧﴾﴾ [غافر: 47][3].

---

(1) الرّاغب، المفردات: 1/630.

(2) ابن منظور، لسان العرب، والرّاغب، المفردات: (طرد) - (لعن).

(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حظظ) - (نصب)، والرّاغب، المفردات: (حظ) - (نصب).

﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾﴾ [النّساء: 119]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

بعد أن أقسم الشَّيطان على اتِّخاذ نصيبٍ منَ العباد لإضلالهم في الآية السَّابقة؛ ناسب أن يذكر في هذه الآية أساليبه في تحقيق ذلك النَّصيب المفروض، فذكر طرقه في الإضلال والوسوسة والانحراف عن شرع اللّه وفطرته، ثمّ حذَّر اللّه منِ اتِّخاذه وليًّا؛ ومنَ الخسران المبين الَّذي سيصيب من والاه.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمْ﴾: جِذر الكلمة هو (ضلَّ)، وضَلَّ يَضِلّ، إذا ضاعَ، يقال: ضَلَّ يَضِلّ[1]، والضَّلال: العدول عنِ الطَّريق المستقيم، ويضادّه الهداية، وضلَّ في الأمر ضلالًا؛ إذا لم يهتد له، وضلَّ في الأرض ضلالًا؛ إذا لم يهتدِ إلى السَّبيل، ويقال الضَّلال لكلِّ عدول عنِ المنهج عمدًا كان أم سهوًا، يسيرًا كان أم كثيرًا[2].

2) ﴿وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ﴾: جِذر الكلمة هو: (منى)، والتَّمنِّي: تقدير شيء في النَّفس، وتصويره فيها، وذلك يكون عن تخمين وظنٍّ، فلمَّا كان أكثره عن تخمينٍ؛ صار الكذب له أملك، فأكثر التَّمنِّي تصوُّر ما لا حقيقة له، قال: ﴿أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ﴿٢٤﴾﴾ [النّجم: 24]، وقوله: ﴿فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ﴾ [البقرة: 94]، ولمَّا كان الكذب تصوّر ما لا حقيقة له، وإيراده باللَّفظ؛ صار التَّمنِّي كالمبدأ للكذب، فصحَّ أن يعبَّر عنِ الكذب بالتَّمنِّي، ومنه قوله: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ﴾ [البقرة: 78]، قال مجاهد: معناه إلَّا كذبًا[3]. والأمنيَّة واحدة الأمانيِّ، تقول: تمنَّيت الشَّيء، ومنَّيت غيري تمنيةً، وفلانٌ يتمنَّى الأحاديث، أي: يفتعلها، وهو مقلوب منَ المَين، وهو الكذب[4].

(1) الخليل، العين: (ضلل).
(2) الرّاغب، المفردات: (ضل).
(3) الرّاغب، المفردات: (منى).
(4) الجوهريّ، الصّحاح: (منا).

3) ﴿فَلَيُبَتِّكُنَّ﴾: جِذر الكلمة هو: (بَتَك)، والبَتْك: قطع الشَّيء، وأصله: قبضك على الشَّيء على شعر أو ريش، أو نحو ذلك، ثمَّ تجذبه إليك فينبَتِك من أصله، أي: ينقطع، وينتتف، وكلّ طاقة من ذلك في كفِّك: بِتكةٌ[1]، وبَتَك الحبلَ: قطعه، وسيفٌ باتِكٌ وبَتوكٌ: قاطعٌ[2].

4) ﴿فَلَيُغَيِّرُنَّ﴾: جذر الكلمة: (غَيَر) له أصلان: أحدهما: سِوى الشَّيء وَخِلَافه، والمعنى المحوريّ: تحوّل الشَّيء لحدَة تخالطه تحوّلًا تامًّا أو كالتَّامِّ[3]، والتَّغيير يقال على وجهين: أحدهما: لتغيير صورة الشَّيء دون ذاته، يقال: غيَّرت داري؛ إذا بنيتُها بناءً غير الَّذي كان، والآخر: لتبديله بغيره، نحو: غيَّرت دابَّتي؛ إذا أبدلتها بغيرها[4]، وللعلماء في هذا التَّغيير نحو عشرة أقوال، يشمل أكثرَها تغيير الأبدان عمَّا خلقها اللَّه عليه، وإفساد الفطرة التي فطر اللَّه النَّاس عليها.

5) ﴿خَلْقَ ٱللَّهِۚ﴾: والخلق يقال: في معنى المخلوق، والخَلق والخلق في الأصل واحد، لكن خصَّ الخَلْق بالهيئات والأشكال والصّور المدرَكةِ بالبصر، وخصَّ الخلق بالقوى والسَّجايا المدرَكَة بالبصيرة، قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾ [القلم: 4][5].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

يخبر اللَّه تعالى عن صور غَواية الشَّيطان لعباد اللَّه؛ وذلك بطرق عديدة، وهي كما قال: ولأصرفَنَّ مَن تبعني منهم عن الحقِّ، ولأعِدَنَّهم بالأماني الكاذبة والباطلة، ولأدعونَّهم إلى تقطيع آذان الأنعام وتشقيقها لِما أزيِّنه لهم من الباطل، وهو ما كانوا يفعلونه بالأنعام من وَسْمها لأصنامهم وخرافاتهم، وذلك بشقٍّ مخصوص في الآذان، أو قطع مخصوص لبعضها، ولأدعونَّهم إلى تغيير خلق اللَّه في الفِطْرة، وهيئة ما عليه الخَلْق، ومن يستجب للشَّيطان، فينحدر مع غَوايته، ويترك هدايةَ اللَّه، ويتَّخذه ناصرًا له من دون اللَّه القويِّ العزيز؛ فقد هلك هلاكًا بيِّنًا في معاشه ومعاده[6].

(1) الخليل، العين: (بتك).
(2) الزّمخشريّ، أساس البلاغة: (بتك).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (غير).
(4) الرّاغب، المفردات: (غير).
(5) الرّاغب، المفردات: (خلق).
(6) الموصلّي، أولى ما قيل: 3/128 - 129، ونخبة من العلماء، التفسير الميسر، ص: 97.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

وجه عَطْف الجملة على ما قبلها

بـيـانٌ لما عاهد عليه الشَّيطان نفسه الشِّرِّيرة

عطفتِ الجملة على ما قبلها؛ لأنَّ الآية بيانٌ لما عاهد عليه الشَّيطان نفسه الشِّرِّيرة، من أنَّه سيتَّخذ نصيبًا من بني آدم، وطريق ذلك هو الإضلال والأماني الكاذبة.

دلالة توالي لامات القسم:

إصرار الشَّيطان عـلى إضـلال النَّاس

توالَت لامات القسم في قوله: ﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ﴾؛ لإظهار إصراره على إضلال النَّاس، واعتَبر ذلك هدفَه الوحيد؛ فعدَّد أساليبه، ونوَّع طرقه من أجل هدفه، وجميعها في معنى التَّحدِّي والإصرار على فعلها، وجميع ما أقسم عليه الشَّيطان هنا من قبيل الشِّرك بالله، أو ما يؤدِّي إليه؛ ولذلك ناسب قوله: ﴿وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا﴾.

بيان سرِّ التَّرتيب في هذه الأساليب:

وسـائـل الـشَّـيـطـان في إحكام سيطرته على نصيبه من بني آدم

بدأ بالإضلال، وذلك في قوله: ﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمْ﴾، أي: عن طريقك السَّويِّ بما سلَّطتني به منَ الوساوس، وتزيين الأباطيل ﴿وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ﴾، يعني: كلَّ ما أقدر عليه منَ الباطل من عدم البعث وغيره من طول الأعمار، وبلوغ الآمال، منَ الدّنيا والآخرة، بالرَّحمة والعفو والإحسان، ونحوه ممَّا هو سبب للتَّسويف بالتَّوبة.

وقوله: ﴿وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ﴾، أي: الَّذي له الحكمة الكاملة، وذلك بأنواع التَّغيير من تغيير الفطرة الأولى السَّليمة إلى ما دون ذلك من فقء عين الحامي، ونحو ذلك، وهو إشارة إلى ما حرَّم أهل الجاهليَّة على أنفسهم بالتَّقريب للأصنام منَ السَّائبة وما معها، المشار إلى إبطاله في أوَّل المائدة بقوله: ﴿أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ [المائدة: 1]، المصرَّح به في آخرها

بقوله: ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ﴾ [المائدة: 103]، ويكون التَّغيير بالوشم والوشر، ويدخل فيه كلّ ما خالف الدِّين، فإنَّ الفطرة الأولى داعية إلى خلاف ذلك حتَّى أدخلوا فيه تشبيه الرِّجال بالنِّساء في التَّخنّث، وما يتفرَّع عنه في تشبيه النِّساء بالرِّجال في السَّحق، وما نحا فيه نحوَه[1]، فضلًا عمَّا طوَّره اليوم أهل الاختصاص، وما أحدثوه من تغيير في الجينات الوراثيَّة، وما أطلقوا عليه بالهندسة الوراثيَّة[2].

الكناية في قوله: ﴿فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾:

آثـــر التَّـعـبـير بالبتك لكونه أخـــصَّ مـن القطع

عبَّر بالبتك، وإن كان بمعنى القطع، إلَّا أنَّ القطع أعمّ؛ إذِ البتك يستخدم في تشقيق آذان الأنعام، كما ذكر القرآن في شأن البَحِيرة والسَّائبة ونحوها ممَّا كانوا يثبتون فيه حكمًا؛ بسبب آلهتهم، وبغير ذلك[3]، ولمَّا كان قد علم ممَّا طبعوا عليه منَ الشَّهوات والحظوظ الَّتي هيَّأتهم لطاعته، وكانت طاعته في الفساد عند كلِّ عاقل في غاية الاستبعاد؛ أكَّد قوله: ﴿فَلَيُبَتِّكُنَّ﴾؛ أي: يقطِّعن تقطيعًا كثيرًا ﴿ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾، ويشقِّقونها؛ علامة على ما حرَّموه على أنفسهم[4].

دلالة ذكر العامِّ بعد الخاصِّ:

أشـكـال صـور التَّغيير في خلق الله سبحانه

ذكر قوله تعالى: ﴿وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِۚ﴾ بعد قوله: ﴿فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾؛ وهو من قبيل ذكر العامِّ بعد الخاصِّ، فذكر الأنموذج والمثال الَّذي كان كثيرًا في فترة من فترات المجتمعات العربيَّة، ثمَّ عمَّم، فذكر القاعدة الشَّاملة لكلِّ عمل فيه تغيير لخلق اللّٰه الَّذي يشبه تبتيك آذان الأنعام، وهي كثيرة، وقد دخل في عمومه ما جعله اللّٰه تعالى للإنسان من شهوة الجماع؛ ليكون سببًا للتَّناسل على وجه مخصوص،

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 5/407.

(2) فتمكّنوا من إحداث تغييرات في النّتائج، فما كان لأغراض البحث العلمي فلا حرج، وما كان بهدف التّلاعب ومحادّة الخالق سبحانه، فهو من قبيل ما ذكرته الآية في هذه الأقسام، فنتج عن أفعالهم كائنات غير متوازنة في خلقها، وشكلها، وقدرتها على الاستمرار في الحياة الطّبيعيّة، بسبب تلاعب الإنسان بكتاب الخلق، بلا حكمة، ممّا اكتشفوه منَ الجينات، ومسؤوليتها في طبيعة الوراثة.

(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/114.

(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 5/406.

فاستعان به في السِّفاح واللِّواط، فذلك تغيير خلق اللّه، وكذلك المخنَّث وتشبّهه بالنِّساء، والفتاة إذا ترجَّلَت متشبِّهة بالفتيان، وكلّ ما حلَّله اللّه، فحرَّموه، أو حرَّمه تعالى، فحلَّلوه، وعلى ذلك: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا﴾ [يونس: 59]، وإلى هذه الجملة أشار المفسِّرون، ولهذا قالوا: هو تغيير أحكام اللّه، وقيل: معاقبة الولَّاة بعض الجناة بقطع الآذان، وشقِّ المناخر، وكَلِّ العيون، وقطع الأنثيين، ومن فسَّر بالوشم، أو الخصاء، أو غير ذلك ممَّا هو خاصٌّ في التَّغيير، فإنَّما ذلك على جهة التَّمثيل لا الحصر[1].

وفي حديث عيَّاض المجاشعيِّ: "وإنِّي خلقت عبادي حنفاء كلَّهم، وإنَّ الشَّياطين أتتهم، فاجتالتهم عن دينهم، فحرَّمت عليهم ما أحللت لهم، وأمرتهم أن يشركوا بي، ما لم أنزِّل به سلطانًا، وأمرتهم أن يغيِّروا خلقي"[2].

علَّة البدء بأمر التَّبتيك مع اندراجه في عموم التَّغيير:

الاســتــدراج لمَا يكون بعده منَ التَّغيير العامِّ

بدأ بالأمر بالتَّبتيك، وإن كان مندرجًا تحت عموم التَّغيير؛ ليكون ذلك استدراجًا لمَا يكون بعده منَ التَّغيير العامِّ، واستيضاحًا من إبليس طواعيتهم في أوَّل شيء يلقيه إليهم، فيعلم بذلك قبولهم له، فإذا قبلوا ذلك أمرهم بجميع التَّغييرات الَّتي يريدها منهم، كما يفعل الإنسان بمَن يقصد خداعه: يأمره أوَّلًا بشيء سهل، فإذا رآه قد قبل ما ألقاه إليه من ذلك؛ أمره بجميع ما يريد منه، وإقسام إبليس على هذه الأشياء ليفعلنَّها يقتضي علم ذلك، وأنَّها تقع: إمَّا لقوله تعالى: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [ص: 85]، وإمَّا لكونه علم ذلك من جهة الملائكة، وإمَّا لكونه لمَّا استنزل آدم علم أنَّ ذرِّيَّته أضعف منه[3].

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/72.
(2) مسلم، الحديث رقم: (7309).
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/72 - 73.

دلالة حذف مفعول الفعل ﴿وَلَآمُرَنَّهُمۡ﴾:

سرعة إجابة أصحاب الأهواء لأوامر الشَّيطان

قوله تعالى: ﴿وَلَآمُرَنَّهُمۡ﴾ مفعول (آمرَ) الثَّاني محذوف، أي: ولآمرنَّهم بالتَّبتيك، فيبتِّكنَّ، ولآمرنَّهم بالتَّغيير، فليغيِّرنَّ، وحذف لدلالة ما بعده عليه، وفيه إيجازٌ، ودلالة على سرعة إجابة هؤلاء لأوامر الشَّيطان، فهم منساقون في برنامجه، منفِّذون لأوامره، قابلون بأفكاره، عازمون على تحقيقها، وقرأ أبيٌّ: وأضلنَّهم وأمنِّينَّهم وآمرنَّهم، فتكون جملًا مقولة، لا مقسمًا عليها[1].

سرّ وجود لام الأمر في قوله: ﴿فَلَيُبَتِّكُنَّ﴾ بعد قوله: ﴿وَلَآمُرَنَّهُمۡ﴾:

تمكّن الشَّيطان من أتباعه الَّذين امتثلوا أمره

دلَّ وجودها بعد قوله: ﴿وَلَآمُرَنَّهُمۡ﴾ على تمكّنه من أتباعه الَّذين امتثلوا أمره بأن يبتِّكوا آذان الأنعام؛ فأمرهم فامتثلوا، وممَّا يؤكِّد ذلك أنَّ العرب في جاهليَّتهم كانوا يقطعون آذان الأنعام الَّتي يجعلونها لطواغيتهم علامة على أنَّها محرَّرة للأصنام، فكانوا يشقّون آذان البحيرة والسَّائبة والوصيلة، فكان هذا الشَّقّ من عمل الشَّيطان؛ إذ كان الباعث عليه غرضًا شيطانيًّا[2].

دلالة تكرار قوله: ﴿وَلَآمُرَنَّهُمۡ﴾:

إصرار الشَّيطان على إضلال النَّاس

تكرَّرت جملة ﴿وَلَآمُرَنَّهُمۡ﴾ في موضعين هما: في تغيير خلق اللّه، فذكر الخاصَّ أوّلًا، وهو تبتيك آذان الأنعام، وهو يدخل في تغيير خلق اللّه، ثمَّ ذكر العامَّ، وهو قوله: ﴿فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلۡقَ ٱللَّهِۚ﴾، وفائدة ذلك بيان إصرار الشَّيطان على إضلال النَّاس بإغوائهم وارتكابهم الأفعال الشَّنيعة الَّتي تشتمل على تحدِّي اللّه تعالى في خلقه، وتغييره، وهي من أخطر الأعمال الَّتي تؤكِّد مرجعيَّة هؤلاء إلى الشَّيطان وولايتهم له.

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/72.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 5/205.

دلالة اختيار التَّعبير بـ﴿خَلۡقَ ٱللَّهِۚ﴾ دون فطرة الله:

الخلق أعمّ؛ ليشمل الأشكال، والسَّجايا

اختار التَّعبير بـ﴿خَلۡقَ ٱللَّهِۚ﴾ دون فطرة اللّه؛ لأنَّ خلق اللّه أعمّ، فيشمل ما كان بالهيئات والأشكال والصّور، وما كان بالقوى والسَّجايا، بخلاف الفطرة، فهي مقصورة على الدِّين والإيمان، وما فعله أتباع الشَّيطان لم يقف عند حيِّز الشَّكل والهيئة، بل شمل الجانب الماديَّ والمعنويَّ، وما فعله العرب في الجاهليّة بالأنعام دليل على ذلك؛ فهو فاقدٌ الأخلاقَ والرَّحمة.

ففي الجانب الماديِّ وقع التَّغيير لدواعٍ سخيفة مردّها إلى عبادة الأصنام مثل: فقء عين الحامي: وهو البَعير الَّذي حمى ظهره منَ الرّكوب لكثرة ما أنسلَ، ومثل: قطع آذان الأنعام؛ فكانوا يشقّون آذان البحيرة والسَّائبة والوصيلة، ومنه ما يرجع إلى أغراض ذميمة كالوشم؛ إذ أرادوا به التَّزيّن، وهو تشويهٌ، ووسم الوجوه بالنَّار، ويدخل في معنى تغيير خلق اللّه المعنويِّ وضع المخلوقات في غير ما خلقها اللّه له، وهو منَ الضَّلالات الخرافيَّة، كجعل الكواكب آلهة، وجعل الكسوفات والخسوفات دلائل على أحوال النَّاس، ويدخل فيه تسويل الإعراض عن دين الإسلام الَّذي هو دين الفطرة، والفطرة خلق اللّه، فالعدول عنِ الإسلام إلى غيره تغيير لخلق اللّه[1].

بيان بلاغة فنِّ التَّدلِّي في الآية:

الانحدار في دركات الآثام تبدأ مِنَ الرِّضا بأقلّها

تظهر بلاغة فنِّ التَّدلِّي في قوله تعالى: ﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمۡ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمۡ وَلَءَامُرَنَّهُمۡ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ وَلَءَامُرَنَّهُمۡ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلۡقَ ٱللَّهِۚ﴾ في الأقسام الَّتي أقسم إبليس عليها: أوَّلها: اتِّخاذ نصيب من عباد اللّه، وهو اختياره إيَّاهم. والثَّاني: إضلالهم، وهو صرفهم عنِ الهداية وأسبابها. والثَّالث: تمنِيَته لهم، وهو التَّسويل؛ لأنَّ صاحب الأمانيِّ يشغل عقله وفكره في استخراج المعاني الدَّقيقة والحيل والوسائل

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 5/205.

اللَّطيفة في تحصيل المطالب الشَّهوانيَّة[1]، ولا تنحصر الأمانيّ في نوع واحد؛ لأنَّه يمَنِّي كلَّ إنسان بما يناسب حاله، من طول عمر، وبلوغ وطر، وغير ذلك، وهي كلّها أمانيّ كواذب باطلة، أو الأمانيّ: تأخير التَّوبة، أو هي: اعتقاد أن لا جنَّة ولا نار، ولا بعث ولا حساب،[2] والرَّابع: أمره إيَّاهم النَّاشئ عنه تبتيك آذان الأنعام، وهو فعلهم بالبحائر؛ إذ كانوا يشقّون آذان النَّاقة؛ إذا ولدت خمسة أبطن[3]. والخامس: أمره إيَّاهم النَّاشئ عنه تغيير خلق الله تعالى.

وعمدة أمر الشَّيطان إنَّما هو بإلقاء الأمانيِّ في القلب، وأمَّا تبتيك الآذان وتغيير الخلقة؛ فذاك من نتائج إلقاء الأمانيِّ في القلب، ومن آثاره، فلا جرم أنْ نبَّه الله تعالى على ما هو العمدة في دفع تلك الأمانيِّ، وهو أنَّ تلك الأمانيَّ لا تفيد إلَّا الغرور، والغرور هو أن يظنَّ الإنسان بالشَّيء أنَّه نافع ولذيذ، ثمَّ يتبيَّن اشتماله على أعظم الآلام والمضارِّ، وجميع أحوال الدّنيا كذلك، والعاقل لا يلتفت إلى شيء منها[4].

ويظهر واضحًا فنّ التَّدلِّي في ترتيب هذه الجمل المقسم عليها في غاية منَ الفصاحة، وعلى طريقة أسلوب التَّدلِّي، فبدأ أوَّلًا باستخلاص الشَّيطان نصيبًا منهم، واصطفائه إيَّاهم، ثمَّ ثانيًا بإضلالهم، وهو عبارة عمَّا يحصل في عقائدهم منَ الكفر، ثمَّ ثالثًا بتمنِّيهم الأمانيَّ الكواذب والإطماعات الفارغة، ثمَّ رابعًا بالأفعال، بتبتيك آذان الأنعام: هو حكم لم يأذنِ الله فيه، ثمَّ خامسًا بتغيير خلق الله، وهو شامل للتَّبتيك وغيره منَ الأحكام الَّتي شرعها لهم، فيكون بين تبتيك آذان الأنعام، وتغيير خلق الله كالعلاقة بين الخاصِّ والعامِّ.

دلالة جناس الاشتقاق بين ﴿لَأَتَّخِذَنَّ﴾ و﴿يَتَّخِذِ﴾:

ولمَّا كان القسم المحوريّ هو قسم الشَّيطان باتِّخاذه نصيبًا مفروضًا، من عباد الله، أي: من خلقه المكلَّفين، وسمَّاهم بعباد الله؛ لأنَّه كان منَ الأَولى أن يكونوا كذلك عبادًا لله لا عبادًا للشَّيطان، ثمَّ عدَّد في هذه الآية أساليب هذا الاتَّخاذ، فذكر الإضلال

(1) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 11/40.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/600.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/71.
(4) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 11/40.

والأمانيَّ والأوامر، وقال بعدها: ﴿وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيۡطَٰنَ وَلِيّٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾، فجعل اتِّخاذ الشَّيطان وليًّا يكون باتِّباع هذه الأفعال، فأفاد جناس الاشتقاق بين ﴿لَأَتَّخِذَنَّ﴾ و﴿يَتَّخِذِ﴾ بيان محاور الاتِّخاذ الَّتي ذكرناها آنفًا منَ الإضلال والأمانيِّ والأوامر، والتَّنبيه عليها، والتَّحذير منها، فقال: ﴿فَقَدۡ خَسِرَ﴾، أي: من تابعه في ذلك؛ لأنَّه صار للشَّيطان وليًّا.

الإصـــرار مـنَ الـشَّـيـطـان على اتِّـخـاذ الـنَّـاس أولياء

دلالة التَّعبير بالفعل ﴿يَتَّخِذِ﴾:

جاء التَّعبير بالاتِّخاذ في قوله: ﴿وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيۡطَٰنَ وَلِيّٗا﴾ في مقابلة ﴿لَأَتَّخِذَنَّ مِنۡ عِبَادِكَ﴾؛ لأنَّه لمَّا اصطفاهم لنفسه؛ فكأنَّهم قبلوا ذلك الاتِّخاذ، وانفعلوا له، وامتثلوا أمره، فرضوا بعبادته، واتَّخذوه وليًّا.

المطيع للشَّيطان يـرضى بـالـذِّلَّـة والمهانة

وجه التَّعبير بقوله: ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾:

وقوله: ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ قيد لازم؛ لأنَّه لا يمكن أن يتَّخذ الشَّيطان وليًّا إلَّا إذا لم يتَّخذِ الله وليًّا، ولا يمكن أن يتَّخذ الشَّيطان وليًّا، ويتَّخذ الله وليًّا؛ لأنَّهما طريقان متباينان، لا تجتمعان هدًى وضلالة.

لا يجتمع حبّ الله والشَّيطان في قلب واحد

سرّ التَّعبير بالجملة الشَّرطيَّة في: ﴿وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيۡطَٰنَ وَلِيّٗا﴾:

جاءتِ الجملة الشَّرطيَّة للتَّحذير منِ اتِّباع الشَّيطان، وبيان فظاعة ما يفعله هؤلاء منَ الضَّلال، وبيان ما يفعلونه من كبار الإثم منطلقين من أصلٍ واحدٍ، هو الشَّرك بالله سبحانه، واتِّخاذ الشَّيطان وليًّا.

الـتَّـحـذيـر مـنِ اتِّـبـاع الشَّيطان وبـيـان فـظـاعـة صنيعه

دلالة أسلوب الشَّرط في قوله: ﴿فَقَدۡ خَسِرَ خُسۡرَانٗا مُّبِينٗا﴾:

هذا الأسلوب دالٌّ على أنَّ الشَّيطان لا يرضى من أتباعه إلَّا بالكفر والاتِّباع لدعوته، فلمَّا دعاهم إلى تبتيك آذان الأنعام، وتغيير خلق الله، إنَّما دعاهم إليه لمَا يقتضيه منَ الدِّلالة على استشعارهم

من اتَّخذ ولاية الشَّيطان خسر ولاية الرَّحمن

بشعاره، والتَّديّن بدعوته، وإلَّا فإنَّ الشَّيطان لا ينفعه أن يبتك أحدٌ أذن ناقته، أو أن يغيِّر شيئًا من خلقته، إلَّا إذا كان ذلك للتَّأثّر بدعوته[1].

ويضاف إلى ذلك أنَّ من فعل ما أمره الشَّيطان به، وترك ما أمره الرَّحمن به، صار كأنَّه اتَّخذ الشَّيطان وليًّا لنفسه، وترك ولاية اللّه تعالى.

دلالة التَّعبير بالخسران دون غيره:

طاعة الله تفيد المنافع العظيمة الدَّائمة

عبَّر به؛ لأنَّ طاعة اللّه تفيد المنافع العظيمة الدَّائمة الخالصة من شوائب الضَّرر، بخلاف طاعة الشَّيطان، فالمنافع فيها مشوبة بالهموم والأحزان والآلام الغالبة، فمَن رغب في ولاية الشَّيطان؛ فاته أشرف المطالب وأجلّها، وهذا هو الخسران المطلق.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

التَّغيير والتَّبديل:

التَّغيير يقال على وجهين: أحدهما: لتغيير صورة الشَّيء دون ذاته، يقال: غيَّرت داري؛ إذا بنيتها بناءً غير الَّذي كان، والآخر: لتبديله بغيره، نحو غيَّرت دابَّتي؛ إذا أبدلتها بغيرها[2].

أمَّا التَّبديل؛ فهو جعل شيء مكان آخر، وهو أعمّ منَ العِوَض؛ فإنَّ العِوَض هو أن يصير لك الثَّاني بإعطاء الأوَّل، والتَّبديل قد يقال للتَّغيير مطلقًا، وإن لم يأتِ ببدله، والآيات ظاهرة في ذلك[3].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 5/206.
(2) الرّاغب، المفردات: (غير).
(3) الرّاغب، المفردات: (بدل).

﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ١٢٠﴾ [النّساء: 120]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لمَّا ذكر القرآن دعاوى الشَّيطان في الإغواء، وبيَّن فظاعة ما يفعله الشَّيطان في إضلال النَّاس عن عبادة اللّه وحده، وبيَّن إصرار الشَّيطان على أن يأخذ نصيبه منهم، وبيَّن لهم الخسران المبين الَّذي سيصيب منِ اتَّبع أهواءه، وانقاد إلى وساوس الشَّيطان، نبَّه هنا على أنَّ أساليب الشَّيطان هي الوعود والأمانيّ فحسب، وأنَّ وعوده غرور وأكاذيب، كأن يخوِّفهم بالفقر حتَّى لا يصلوا رحمًا، ولا ينفقوا في خير.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَعِدُهُمْ﴾: جِذر الكلمة هو: (وعد)؛ الوَعد والعِدَة يكونان مصدرًا واسمًا. والموعِد: موضع التَّواعدِ، وهو الميعاد. والمَوعِد مصدر وَعَدته، وقد يكون الموعِد وقتًا للعِدَة[1]، والوعد يستعمل في الخير والشَّرِّ[2]، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ﴾ [إبراهيم: 22]، وقوله: ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ﴾ [البقرة: 268]، فإذا أسقطوا الخير والشَّرَّ قالوا في الخير: الوعد والعِدَة، وفي الشَّرِّ: الإيعاد والوَعيد[3].

2) ﴿غُرُورًا﴾: جِذر الكلمة هو: (غَرَر)؛ وغرَّة المال: الجمال والخيل والعبيد، أي: خياره، وعيش غرير، كما يقال: عيش أبله، وأقبل السَّيل بغرَّاته، وهي نفَّاخاته[4]، يقال: غررت فلانًا: أصبت غِرَّته، ونِلت منه ما أريده، والغِرَّة: غفلةٌ في اليقظة، والغِرار: غفلةٌ مع غفوة، وأصل ذلك منَ الغرِّ؛ وهو الأثر الظَّاهر منَ الشَّيء، وغَرّ الثَّوب أثر كسره، وقيل: اطوه على غَرِّه، وغَرَّه كذا غرورًا: كأنَّما طواه على غَرِّه[5]، قال: ﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ٦﴾ [الانفطار: 6]، وقوله: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ١٩٦﴾ [آل عمران: 196]، وقوله: ﴿يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ﴾ [الأنعام: 112].

(1) الخليل، العين: (وعد).
(2) الرّاغب، المفردات: (وعد).
(3) ابن دريد، جمهرة اللّغة، الجوهريّ، الصّحاح: (وعد).
(4) الزّمخشريّ، أساس البلاغة: (غرر).
(5) الرّاغب، المفردات: (غرر).

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

بيَّن الله في هذه الآية إغراءَ الشَّيطان لأوليائه بوعوده الباطلة، بأن يكون لهم نصيرًا ممَّن أرادهم بسوء، ويعدهم بأنَّهم إذا أنفقوا في سبيل الله؛ افتقروا، قال تعالى: ﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلۡفَقۡرَ﴾ [البقرة: 268]، ولم يقف عند ذلك، بل يفتح لهم الآمال الكاذبة والأمانيَّ الباطلة بالظَّفر على أعدائهم، والفوز في الآخرة، وكلّ ذلك وهم وباطل لا حقيقة له.

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالة الاستعارة في قوله: ﴿يَعِدُهُمۡ﴾:

تـأثـير الـوعـد بـالـبـاطـل في الـنّـفـوس الضَّعيفة

اختيار الفعل ﴿يَعِدُهُمۡ﴾ يحمل أهمَّ أساليب الشَّيطان الخبيثة في التَّأثير في النّفوس الضَّعيفة، والأفئدة الصَّاغية إليه، وهذا واضح في إيحاءات الفعل ﴿يَعِدُهُمۡ﴾، فمعناه: أن يخيَّل إليهم ما يصل إلى قلوبهم بالوسوسة في شيءٍ منَ الأباطيل، ويكون ذلك في التَّأثير بالنَّفس بما يؤدِّي إلى الإحساس بأنَّ ذلك الأمر قريب المنال، فيكون ذلك كالوعد، وهو استعارة تصريحيَّة؛ أنَّه قريب الحصول، وأنَّه لا درك في تحصيله، وأنَّه إن لم يحصل كان في فواته ضرر، فيسعون في تحصيله، فيضيع عليهم في ذلك الزَّمان، ويرتكبون فيه ما لا يحلّ منَ الأهوال والهوان، ﴿وَيُمَنِّيهِمۡۖ﴾، أي: يزيِّن لهم تعليق الآمال بما لا يتأتَّى حصوله[1]، ثمَّ بيَّن ذلك بقوله: ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾، فتمَّم المعنى بما يناسب المشبَّه، فتكون الاستعارة تصريحيَّة مجرَّدة، وفائدتها: ردّ الفكر الَّذي أصابه التَّصديق بالوعد إلى حقيقة التَّخييل الَّذي نهجه الشَّيطان في وعوده وإغوائه.

عدم عطف هذه الجملة على ما سبق:

كـثـرة وعـود الـشَّـيـطـان لأتباعه

جاء قوله: ﴿يَعِدُهُمۡ وَيُمَنِّيهِمۡۖ﴾ استئنافًا لبيان أنَّه أنجز عزمه، فوعد ومنَّى، وهو لا يزال يَعِد ويمنِّي، فلذلك جيء بالمضارع، وإنَّما

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 5/407.

لم يذكر أنَّه يأمرهم فيبتِّكون آذان الأنعام، ويغيِّرون خلق اللّه؛ لظهور وقوعه لكلِّ أحد[1].

ويمكن أن يكون معنى (يأمرهم) كثرة وعوده لهم فيشوِّقهم لتحقّقها لهم، فيستجيبون، فيكون وعدهم له كالأمر لاشتراكهما في ضمان تحقّق الطلب، فتكون على سبيل الاستعارة.

دلالة الفعل المضارع:

استمرار متابعة الشَّيطان لأوليائه

عبَّر بالفعل المضارع ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ﴾؛ لإفادة التَّجدّد والاستمرار في متابعة الشَّيطان لأوليائه حتَّى يظلّوا في ولايته، ولا يخرجوا من حزبه.

دلالة التَّعبير بالأمانيّ بعد الوعد في: ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ﴾:

الأماني طعم الشَّيطان للانغماس في الشَّهوات

جاء التَّعبير بالأمانيِّ بعد الوعد؛ لأنَّه العمدة عند الشَّيطان، وذلك بإلقاء الأمانيِّ في القلب، وبها يصل إلى الغرور؛ لأنَّ فتح باب الأمانيِّ يوقع الإنسان في الحرص وطول الأمل؛ فبذلك ينال منَ الدّنيا وأهلها، وينغمس في شهواتها.

فضح الله أساليبَ الشَّيطان

لمَّا كان الوعد والتَّمنِّي من أمور الباطن أخبر اللّه عنه بها؛ فبيَّن أنَّ ما يعدهم به منَ الأمور الباطلة والزَّخارف الكاذبة ما هو إلَّا من باب الغرور.

دلالة طباق السَّلب في ﴿يَعِدُهُمْ﴾ و﴿وَمَا يَعِدُهُمُ﴾:

وعود الشَّيطان مزيَّفة كلّها، فلا تحتمل الصَّدق قطعًا

بين قوله تعالى: ﴿يَعِدُهُمْ﴾، وقوله: ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ﴾ طباق سلب أفاد ذلك الغرور الَّذي هو يعدهم به فعلًا، فلا يعدهم حقًّا، إنَّما يعدهم تزيينًا وغرورًا، فمِثل ذلك وعود الشَّيطان، إذ جعلها كلَّها من قبيل الغرور والتَّزييف.

دلالة التَّضمين في الفعل ﴿يَعِدُهُمْ﴾:

بلاغة التَّضمين

ضمِّن الفعل ﴿يَعِدُهُمْ﴾ معنى يغرّهم، وفائدته: أنَّ وعود الشَّياطين لا حقيقة لها؛ لذلك فهي على سبيل الإغراء فحسب، ولا شيء أكثر من ذلك.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 5/206.

بلاغة الاستثناء والحصر في قوله: ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾:

وعود الشَّيطان غرور كامل

أفاد الحصر أنَّ الغرور الكامل يكون في وعوده لأتباعه، فلا يكون فيها صدقٌ؛ لأنَّ ما يراه أتباعه صدقًا سيؤول جزاؤه يوم القيامة عذابًا وسعيرًا، ثمَّ يقول لهم يوم القيامة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمۡ وَعۡدَ ٱلۡحَقِّ وَوَعَدتُّكُمۡ فَأَخۡلَفۡتُكُمۡۖ﴾ [إبراهيم: 22].

دلالة الإظهار في موضع الإضمار في: ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾:

التَّنبيه على مزيد النّفرة من الشَّيطان

أظهر في موضع الإضمار تنبيهًا على مزيد النّفرة، فقال: ﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾؛ ولزيادة البيان والتَّذكير بأنَّ الشَّيطان لا يحقِّق لهم شيئًا ممَّا يعدهم به، إلَّا أنَّه يغريهم بزخرف منَ الحياة الدّنيا، وذكر (الشَّيطان) فيه مناسبة لذكر (الغرور)[1].

التَّعبير بـ ﴿غُرُورًا﴾، ولم يقل: (كذبًا):

تضمّنه معنى تزيين الباطل والخداع والمكر

أتى بقوله: ﴿إِلَّا غُرُورًا﴾؛ لأنَّه يحمل معنى تزيين الباطل خداعًا، ومكرًا، وتلبيسًا، وإظهارًا لما لا حقيقة له، أو له حقيقة سيِّئة، فيزيِّنها له، ويغريه بها، فيجعلها في أبهى الحقائق وأشرفها، وألذِّها إلى النَّفس، وأشهاها إلى الطَّبع، فإنَّ مادَّة: (غر) و(رغ) تدور على الشَّرف، والحسن، ورفاهة العَيش[2]. فيدخل في الغرور التَّزيين، فيكون معنى الغرور: كذبًا مزيَّنًا، قال تعالى: ﴿يُوحِي بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ زُخۡرُفَ ٱلۡقَوۡلِ غُرُورًاۚ﴾ [الأنعام: 112].

بينما يصف الكذب في القرآن في صريحه، كفعل الكافرين من تكذيب المرسلين، أو تكذيب الرِّسالات، فقال تعالى: ﴿فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ [الأنعام: 157]، قال تعالى: ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوۡ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٢١﴾ [الأنعام: 21]، فيأتي التَّكذيب ممَّن جهر بالعداوة، بينما يأتي الغرور ممَّن خبَّأ العداوة، وأعلن المودَّة والقرب.

(1) البقاعي، نظم الدرر: 5/408.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 5/408.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنۡهَا مَحِيصٗا ١٢١﴾ [النّساء: 121]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

بعد أن بيَّن أنَّ وعود الشَّيطان كلَّها من قبيل الكذب والغرور؛ ناسب أن يذكر هنا مصير مَن لا يأبهون إلى ذلك كلِّه من تحذيرات اللّه لهم، فيتَّبعون الشَّيطان، ويصغون إليه ابتغاء زخرف القول غرورًا، ومستجيبين لما يعدهم به.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مَأۡوَىٰهُمۡ﴾: جِذر الكلمة هو: (أوى)، المأوى: مصدر أوى يأوي أويًا ومأوى، وهو كلّ مكان يأوي إليه شيء ليلًا أو نهارًا[1]، تقول أوى إلى كذا: انضمَّ إليه، قال تعالى: ﴿إِذۡ أَوَى ٱلۡفِتۡيَةُ إِلَى ٱلۡكَهۡفِ﴾ [الكهف: 10]، وقوله: ﴿مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُ﴾ [آل عمران: 197]، اسم للمكان الَّذي سيأوون إليه[2].

2) ﴿مَحِيصٗا﴾: جِذر الكلمة هو: (حَيَص)، حاص عنه يحيص حيصًا، وحيوصًا ومحيصًا، أي: عدل وحادَ، يقال: ما عنده محيص، أي: مَحِيدٌ ومَهرَبٌ[3]، يقال: هو يَحيص عنِّي، أي: يحيد، وهو يحايصني، وما لك من هذا الأمر مَحِيص[4]، وحاص عنِ الشَّرِّ: حاد عنه، فسلم منه.

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

مصير من أطاع الشَّيطان

سجَّل القرآن مصير هؤلاء المغرورين، فقال: هؤلاء الَّذين اتَّخذوا الشَّيطان وليًّا من دون اللّه، مصيرهم الَّذي يصيرون إليه نار جهنَّم، ولا يجدون عنها ملجأ ولا مفرًّا، بل هم فيها خالدون.

الإِيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالة الإتيان باسم الإشارة:

الخسران الأكبر أن يحشر الإنسان مع الظَّالمين

جيء باسم الإشارة في قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُ﴾؛ لتنبيه

(1) الجوهري، الصِّحاح: (أوى).
(2) الرّاغب، المفردات: (أوى).
(3) الجوهري، الصِّحاح: (حيص).
(4) الخليل، العين: (حيص).

السَّامعين إلى ما يَرِد بعد اسم الإشارة منَ الخبر، وأنَّ المشار إليهم أحرياء به عقب ما تقدَّم من ذكر صفاتهم[1]، فكان الخبر عظيمًا: أنَّ مأوى هؤلاء الَّذين تحدَّثت عنهم الآية السَّابقة مآلهم خطير، فليحذر أهل العقول.

دلالة تقديم الجارِّ والمجرور في: ﴿وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا﴾:

تخصيص حال أهل النَّار الَّذي لا يشبهه حال

قدَّم الجارَّ والمجرور ﴿عَنْهَا﴾؛ تخصيصًا لحالها الَّذي لا يشبهه حال قطعًا، والمحيص: المراغ والملجأ، من حاص، إذا نفر وراغ، وفي حديث هرقل "فَحَاصوا حَيصَةَ حمرِ الوَحشِ إلى الأبوابِ"[2]، والمحيص: المَعدِل والمفرّ، وهذه الآية تحتمل وجهين: أحدهما: أنَّه لا بدَّ لهم من ورودِها، الثَّاني: التَّخليد الَّذي هو نصيب الكفَّار، وهذا غير بعيد؛ لأنَّ الضَّمير في قوله: ﴿وَلَا يَجِدُونَ﴾ عائد إلى الَّذين تقدَّم ذكرهم، وهم الَّذين قال الشَّيطان فيهم: ﴿لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿١١٨﴾﴾ [النّساء: 118]، والأظهر أنَّ الَّذي يكون نصيبًا للشَّيطان هم الكفَّار[3].

سرّ العدول منَ المصدر إلى الفعل المضارع في: ﴿وَلَا يَجِدُونَ﴾، ومنَ الإثبات إلى النَّفي:

التَّجدّد في أنواع العذاب لأهل النار

انتقل في قوله: ﴿مَأْوَاهُمْ﴾ منَ المصدر إلى الفعل المضارع، في قوله: ﴿وَلَا يَجِدُونَ﴾، ومنَ الإثبات إلى النَّفي في الموضعين نفسيهما، وفي ذلك معنى التَّجدّد في أنواع العذاب النَّاتج عن معنى الفعل المضارع، وأنَّهم كلَّما بحثوا عن مأوى وموضع راحة وتخفيف منَ العذاب تناوب عليهم تجدّد العذاب، ولا يجدون محيصًا ومخرجًا ومفرًّا منَ العذاب، فتتناوب عليهم هذه الحال.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 5/206.
(2) البخاريّ، الصحيح، الحديث رقم: 7.
(3) الرّازي، مفاتيح الغيب: 11/41.

التَّعبير بقوله: ﴿مَأۡوَىٰهُمۡ﴾ دون (مستقرِّهم أو مقامهم):

خـــــــداع استقرارهم

عبَّر بالمأوى هنا؛ لأنَّه المكان الَّذي يلجأ إليه الإنسان، طلبًا للسَّكينة والرَّاحة، ليلًا أو نهارًا[1]، فكلَّما ظنّوا أنَّهم سيلجؤون إلى مكان منها، ليكون مأوًى لهم منَ العذاب؛ وجدوا في مأواهم ذلك أشدَّ العذاب، وهذا مناسب لوصف ﴿مَحِيصًا﴾.

ختم التَّذييل بقوله: ﴿مَحِيصًا﴾:

تـنـاكـر أهـل الـنَّـار وخِـذلان بعضهم

لمَّا أخبر تعالى أنَّ المكان الَّذي يأوون إليه، ويستقرّون فيه، هو جهنَّم، وأنَّهم لا يجدون عنها مراغًا يروغون إليه؛ جاء قوله: ﴿مَحِيصًا﴾ لبيان حالهم الّتي هم فيها، كأنَّهم حمر الوحش الَّتي حاصت، إذا اشتدَّ بها الأمر، وضاق بها المكان، فيتناكرون بعضهم لبعض، ويخذل بعضهم بعضًا.

(1) الجوهري، الصِّحاح: (أوى).

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٗاۚ وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلٗا ١٢٢﴾ [النِّساء: 122]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

بعد أن ذكر سبحانه حال الَّذين اتَّخذوا الشّيطان وليًّا، وما سيؤول إليه حالهم يوم القيامة، وأنّهم سيدخلون جهنَّم، ولا يجدون عنها محيصًا؛ أردف مصيرهم بمصير المؤمنين الَّذين يعملون الصّالحات، فبيّن استكمالًا لنهج القرآن في المقابلة أنّ جزاءهم الجنان يوم القيامة، وأنَّهم سيخلدون فيها أبدًا.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَعۡدَ﴾: جذر الكلمة هو: (وَعَدَ)، والمعنى المحوريُّ: الاحتواء على ما يوجد مستقبلًا زائدًا عن الحال؛ أخْذًا من قولهم: أرض واعدة؛ إذا رُجِي خَيْرُها من المطَر والأَعْشاب، وسَحَابٌ واعدٌ: كأنه يَعِد بالمطر، ومنه: وعده بالأمر: قال له: إنَّه يُجْريه له، أو يُنِيلُه إيَّاه[1]، والوَعْدُ يكون في الخير والشّرِّ[2]، فإذا أسقطوا الخير والشّرَّ؛ قالوا في الخير: الوَعدُ والعِدَةُ، وفي الشَّرِّ: الإيعاد والوعيد[3]، يُقال: وعدته بنفع أو ضُرٍّ وعدًا وموعدًا وميعادًا، والوعيد في الشّرِّ خاصّة، قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمۡ وَعۡدَ ٱلۡحَقِّ وَوَعَدتُّكُمۡ فَأَخۡلَفۡتُكُمۡۖ﴾ [إبراهيم: 22]، وقوله: ﴿أَفَمَن وَعَدۡنَٰهُ وَعۡدًا حَسَنًا﴾ [القصص: 61]، ومن الوعد بالشّرِّ قوله: ﴿وَيَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلۡعَذَابِ وَلَن يُخۡلِفَ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥۚ﴾ [الحج: 47]، وذلك وعيد[4].

2) ﴿أَصۡدَقُ﴾: جذر الكلمة هو: (صدق)، والمعنى المحوريُّ: صلابةٌ أو قوَّةٌ في باطن الشَّيء مع شِدَّة تماسُك جِرْمه؛ أخْذًا من قولهم: رُمْح صَدْق بالفتح: صُلْب، وصَدْقُ

(1) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصَّل: (وعد).
(2) الجوهري، الصّحاح، والراغب، المفردات: (وعد).
(3) الجوهري، الصّحاح: (وعد).
(4) الراغب، المفردات: (وعد).

الكعوب (وهي عُقَد الأنابيب)، أي: صُلْبها، وسَيْفٌ صَدْقٌ: صُلب، وثوبُ صِدْق بالكسر والإضافة، أي: جَيِّد، وعين صَادقة: صُلبة صحيحة[1]، وصَدَقْتَه: قلتَ له: صِدْقًا، وكذلك من الوعيد إذا أوقعتهم؛ قلت: صَدَقْتَهم، وهذا رجلُ صِدقٍ، بمعنى: نِعمَ الرَّجلُ هو[2]، والصَّدقُ: الكامل من كلِّ شيء، والصِّدِّيق من يُصَدِّقُ بكلِّ أمرٍ لله والنّبيِّ ﷺ، لا يتخالجه شكٌّ في شيء[3]، والصّديق: المصدِّق، وفي التّنزيل: ﴿وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌۖ﴾ [المائدة: 75]، أي: مبالغة في الصِّدق[4].

3) ﴿قِيلًا﴾: جذر الكلمة هو: (قَوَلَ) القاف والواو واللَّام: أصل واحد صحيح، وهو القول من النُّطق، يقال: قال يقول قولًا، والمقولُ: اللِّسان، ورجل قولة وقوَّال: كثير القول[5]، القول: الكلام، ويقال: إنّ لي مقولًا، ما يسرُّني به مقول، وهو لسانه.

والقيل مصدر كالقول.

المعنى العامُّ للآية:

بعد أن توسّع في ذكر الوعيد في القطعة القرآنيَّة السّابقة؛ أردف هنا بالوعد، كما هو نهج القرآن وسنَّته المعهودة، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، فأتبع الإيمان بالعمل، وقوله: ﴿سَنُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ﴾ وعْدٌ من الله جزاء إيمانهم وأعمالهم الصَّالحة، وقوله: ﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ قد تعدّدَ ذكر أنهار الجنَّة في القرآن الكريم ووصفها، ثم قال: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ﴾، فدلَّ الخلود على الدَّوام في طول المكث المطلق، ثم أتبعها بقوله: ﴿أَبَدٗاۖ﴾؛ ليفيد التَّأبيد، وقوله: ﴿وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٗاۚ﴾ تأكيد لصدق الوعد وحقيقته، ثم قال: ﴿وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلٗا﴾، أي: لا أحد أصدق من الله قولًا ووعدًا، أمّا أولئك المغرورون المُعرضون عن شريعة الله؛ فقد اغترُّوا بخداع الشّيطان، ووقعوا في أحبولته[6].

وعن سبب نزول الآية: فقد رُوي عن أبي صالح قال: جلس أهل الكتب أهل التَّوراة

(1) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصَّل: (صدق).
(2) الخليل، العين، وابن سيده، المُحكم، والزَّمخشري، أساس البلاغة: (صدق).
(3) الخليل، العين: (صدق).
(4) ابن سيده، المُحكم: (صدق).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قول).
(6) الموصلّي، أولى ما قيل: 3/131.

والإنجيل وأهل القرآن، كلُّ صنفٍ يقول لصاحبه نحن خير منكم، فنزلت: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾، وقال مسروق وقتادة: احتجَّ المسلمون وأهل الكتاب، فقال أهل الكتاب: نحن أهدى منكم، نبيُّنا قبل نبيِّكم، وكتابنا قبل كتابكم، ونحن أولى بالله منكم، وقال المسلمون: نحن أهدى منكم وأولى بالله، نبيُّنا خاتم الأنبياء، وكتابنا يقضي على الكتب الَّتي قبله، فنزلت، ثم أظهر الله حجَّة المسلمين على من ناوأهم من أهل الأديان بقوله: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، وبقوله: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا﴾ الآيتان[1].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغة المقابلة واقتضاء الوصل:

تعقيب الإنذار بالبشارة، والوعيد بالوعد

قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ عطف على جملة: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ﴾ [النِّساء: 121]؛ جريًا على عادة القرآن في تعقيب الإنذار بالبشارة، والوعيد بالوعد[2]، ويكون في ذلك مقابلة بين فريقين: الأوَّل: ﴿مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا ﴿١٢١﴾﴾ [النِّساء: 121]، والثَّاني: ﴿سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾، وشتّان بين الفريقين، وأنّ كُلًّا منهما استوفى حقَّه ونصيبه ممَّا قدّم في الحياة الدُّنيا، ويمكن أن تكون الواو في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ استئنافيَّة؛ لأنَّ العطف يشرك المعطوف عليه في المعنى والإعراب، فلمّا كان ما قبله بيانًا لمصير الَّذين اتخذهم الشَّيطان أولياء ونصيبًا؛ فإنَّ بين المعنيين مقابلة بيِّنة.

ومقتضى هذه المُقابلة أنَّه لمَّا ذكر ما للكافرين ترهيبًا؛ أتبعه ما لغيرهم ترغيبًا، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، أي: بوعد لا خُلف فيه ﴿سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾[3].

(1) النِّيسابوري، غرائب القرآن: 2/501.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 5/207.
(3) البقاعيّ، نظم الدُّرَر: 5/408.

التَّرغيب في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾:

لتطمئنَّ له قلوبهم، وتنشط نفوسُهم في أعمال الصَّالحات

لمَّا أخبر تعالى عن الكفَّار الَّذين اتَّخذوا الشَّيطان وليًّا من دون اللّه، وأنَّهم إلى جهنَّم صائرون؛ اقتضى ذلك كلُّه التَّحذير، فذكر هنا حالة المؤمن والتَّرغيب فيها، وأنَّ المؤمنين سيدخلهم اللّه تعالى جنَّات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدًا، ولعلَّ ذلك غاية التَّرغيب بحالهم[1]، وذلك من مقتضيات الدِّعاية إلى الدِّين الحقِّ، وإلى حفاوة اللّه بالمؤمنين يوم القيامة، وبيان أنّ جزاءهم سيكون من لدن خالق الكون، وأنَّ ذلك الخبر هو من قبيل الغيب الَّذي يُهدى للمؤمنين في الدُّنيا؛ لتطمئنَّ له قلوبهم، وتنشط أرواحهم في أعمال الصَّالحات.

إيجاز الحذف في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾:

للاختصار، وإفادة العموم، وللجمع بين الإيمان والعمل الصَّالح دون فاصل

في قوله: ﴿ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ إيجاز بالحذف؛ فقد حُذفت متعلَّقات الإيمان، وهي أركان الإيمان: الإيمان باللّه وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشرِّه، ودليل ذلك: أنّه ذكر أركان الإيمان كلّها أو بعضها في مضمون النَّص، فقد سُبقت الآية بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ﴾ [النساء: 116]، وبذكر مشاققة الرَّسول ﷺ، كما أنّ ذكر جهنَّم والجنَّة والاعتقاد بهما، هو من قبيل الإيمان باليوم الآخر، وذكرهما من قبيل الغيب والإيمان به، وسيأتي بعد هذه الآية ذكر إبراهيم كرمزٍ للرُّسُل، وذكر الكتاب وأهل الكتاب، ثمَّ إنَّ فحوى جميع ما ذُكر يُعزِّز قضيَّة الإيمان بالقدر خيره وشرِّه، وحُذِفَ الموصوفُ، واكتُفي بالصِّفة، في قوله: ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، وقدّم الإيمان على العمل، وهو من قبيل تقديم الأصول على الفروع؛ إذ الإيمان شرط لضمان الثَّواب على الأعمال، ولا ينفع العمل بلا إيمان.

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/115.

بلاغة الإطلاق والتَّقييد في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾:

الإيمان هو أساس الأعمال الصَّالحات

فالوعد بالجنَّة، والرَّحمة في الآخرة، والسَّلامة من العذاب عُلِّقَت باسم الإيمان المطلق، والمقيَّد بالعمل الصالح ونحو ذلك، وهذا أنّ المطلق يدخل فيه فعل ما أمر اللّه به ورسوله[1]، والمؤمن؛ إذا آمن باللّه، فقد التزم شرائع الإسلام والإيمان.

بلاغة الوصف بصيغة الماضي:

الدّلالة على القبول والثَّبات

وقد وصفت الآية الكريمة تلك البشرى للمؤمنين إيمانًا وعملًا صالحًا، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، وبصيغة الماضي الدّالَّة على القبول والثَّبات، فرتّب العمل الصّالح على الإيمان إقرارًا وتصديقًا، ويمتدُّ الوصف إلى أولئك الَّذين آمنوا، وعملوا الصّالحات قبل الإسلام، ففي الأمم السَّابقة مؤمنون وعاملون وأنبياء ومرسلون.

السِّرُّ في الاستغناء بالصِّفة عن الموصوف في قوله: ﴿ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾:

تنبيهٌ إلى أنَّ المهمَّ في الأعمال كونُها صالحةً

وفي حذف الموصوف: وهي الأعمال، والاكتفاء بالصِّفة: وهي الصَّالحات؛ تنبيهٌ إلى أنَّ المهمَّ في الأعمال كونُها صالحة، وهو ما يستدعيه السِّياق.

كما أنَّ حذف الموصوف والاستغناء بالصِّفة إشارة إلى تنوُّع هذه الأعمال وكثرتها.

والعمل إنَّما يكون صالحًا؛ إذا توافر فيه شرطان: الأوَّل: الإخلاص للّه ﷻ، قال ﷺ: "قال اللّه ﷻ: أنا أغنى الشُّركاء عن الشِّرك، مَن عمل عملًا أشرَكَ معي فيه غيري؛ ترَكتُه وشِركَه"[2]، والشَّرط الثَّاني: متابعة الرَّسول ﷺ قال ﷺ: "من عمل عملًا ليس

(1) ابن تيميّة، الإيمان: 273.

(2) مسلم، الحديث رقم: (2985).

عليه أمرُنا؛ فهو ردٌّ"[1]، وفي لفظ: "من أحدَثَ في أمرنا هذا ما ليس منه؛ فهو ردٌّ"[2].

ويجمع الشَّرطين قولُ الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾، أي: ومن أحسن دينًا ممَّن أخلص العمل لله، وهو متَّبِع لرسول الله ﷺ وقال تعالى: ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾ [لقمان: 22].

وسمِّيت الأعمال الصَّالحة بهذا الاسم؛ لأنَّ بها صلاحَ أمر الإنسان في دينه ودنياه وأخراه، وبها يكون صالحًا لدخول الجنَّات وجوار اللهِ ربِّ العالمين.

أهمِّيَّة تكرار الخبر في الوعد والوعيد:

توكيدًا وتذكيرًا

ورد هذا خبرًا عمَّا سيؤول إليه أمر الموحِّدين؛ لاكتمال الصُّورة لدى المتلقِّين بعد أن علموا ما سيؤول إليه حال الكافرين، فقد أخبر الله سبحانه في القرآن في مواضعَ عديدةٍ سبقت هذا الموضع، إلَّا أنّه أعاده هنا توكيدًا وتذكيرًا، فهو سبحانه يُدخل العباد الجنّة بالإيمان والعمل في آيات كثيرة، منها قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [البقرة: 25]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [البقرة: 227]، وقوله: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ﴾ [آل عمران: 57]، وفي النِّساء قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ [النِّساء: 57]، وكما هو بَيِّنٌ، فإنَّ هذه الآية مكرَّرة في هذه السُّورة، وقد أعاد هذه الآية دالَّة على العفو والمغفرة بلفظ واحد في سورة واحدة، وقد اتَّفقوا على أنَّه لا فائدة في التَّكرير

(1) مسلم، الحديث رقم: (1718).
(2) البخاريّ، الحديث رقم: (2697).

إلَّا التَّأكيد، فهذا يدلُّ على أنَّه تعالى خصَّ جانب الوعد والرَّحمة بمزيد التَّأكيد، وذلك يقتضي ترجيح الوعد على الوعيد[1].

دلالة نون العظمة في قوله: ﴿سَنُدۡخِلُهُمۡ﴾:

تشريفًا لهم وتعظيمًا لمنزلتهم عند الله

أسند الفعل إلى نون العظمة؛ اعتناء بأنَّه تعالى هو الَّذي يتولَّى إدخالهم الجنَّة، وتشريفًا لهم، فهو المالك، وهو الضَّامن سبحانه... ولمَّا رتَّب تعالى مصير من كان تابعًا لإبليس إلى النَّار لإشراكه وكفره وتغيير أحكام الله تعالى؛ رتَّب هنا دخول الجنَّة على الإيمان وعمل الصَّالحات[2]، وقال: ﴿سَنُدۡخِلُهُمۡ﴾ باعتبار ولائهم لله ولرسوله، فقابل موالاة الشَّيطان وما يلحقها من الخسران في الدّارين، بموالاة الله ورسوله، وما يتبعها من خيري الدُّنيا والآخرة، وقد وردت هذه الجملة الفعليَّة خبرًا عن الاسم الموصول ﴿وَٱلَّذِينَ﴾، وممَّا قوَّى حكم الإسناد في الجملة، وزادها تمكينًا: وجودُ السِّين، ونون العظمة في الفعل.

سرُّ التَّنكير والجمع لقوله: ﴿جَنَّٰتٖ﴾:

للتَّعظيم والتَّفخيم والتَّكثير

أدَّى التَّنكير للجنَّات إلى أن يمنحها معنى التَّعدُّد والتّنوُّع؛ تفخيمًا لتلك الجنّات وتعظيمًا لمن وُعد بها، ومن ستكون داره يوم الجزاء، فيتَّسع المعنى مع التَّنكير؛ ليشمل ما لا عين رأت، ولا أذنٌ سمعت، ولا خطر على قلب بشر، كما ورد في حديث رسول الله ﷺ قوله: "إِنَّ اللَّهَ ﷻ قَالَ: أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ"[3]، وقد ورد وصف الجنَّات في مواضع عديدة من القرآن الكريم.

دلالة المضارع في قوله: ﴿تَجۡرِي﴾:

في قوله: ﴿تَجۡرِي﴾ استحضار لصورة السُّرعة، والتَّجدُّد، وما يحدثه فعل الجريان من النّقاء الدَّائم، ومعلوم - بحسب ما هو

(1) الرّازي، مفاتيح الغيب: 11/220.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/74.
(3) الإمام أحمد، المسند: 8143.

عالق في أذهان المُخاطبين - أنَّ رداءة الماء تنتج عن ركوده، وإن كانت أنهار الجنان بحال غير حال الدُّنيا، إلَّا أنَّ أوصاف القرآن تأتي لما اعتاده النَّاس في سُنن الحياة الَّتي يعيشون؛ لتبقى صور التَّشبيهات فعَّالة ومؤثِّرة في الجواهر والقُلوب، وقد ورد وصف أنهار الجنَّة في قوله: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ۖ﴾ [محمد: 15]، فهذه الأنهار مُتجدِّدة العطاء مستمرَّة التَّدفُّق، لا ينفدُ ماؤها، ولا يكدَّر صفاؤها، بل يبقى متجدِّدًا غير آسنٍ، كما ذكر القرآن الكريم.

التَّجدُّد والاستمرار واستحضار الصُّورة

بلاغة الإجمال في قوله: ﴿جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾:

فالوصف مجمل في كلِّ الجنَّات الَّتي تجري من تحتها الأنهار، وما يُخيَّل للسّامع من روعة الصُّورة من الأشجار والظِّلال والنَّعيم والثِّمار والتَّنوُّع والجمال، وقل: ما شئت في وصف هذا الحال، وما لذلك كلِّه من آثار الرّاحة النَّفسيَّة الَّتي تُرافق حال القارئ، أو السّامع للآية، ثُمّ حال السّعادة والرَّفاه التي يعيشها أهل الجنَّة.

تُتيح فرصة التَّأمُّل وتنشيط الخيال؛ ليذهب القلبُ فيه كلَّ مذهب

المجاز العقليّ[1] في قوله: ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾:

في قوله: ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ أُسند الجري إلى الأنهار، وهذا من المجاز العقليّ؛ لأنَّ الفاعل الحقيقيَّ هو الماء، لكنَّه جعل الأنهار هي الجارية، فقد أسند الفعل إلى غير فاعله، وعلاقته المكانيَّة، وفائدة هذا المجاز: أنَّه خُيِّل للسَّامع أنّ الأماكن هي الَّتي تجري، والإعلام بعذوبة الماء الَّذي يجري، فمعلوم أنَّ الماء الجاري يزداد عذوبة بجريانه؛ إذ يطرد الزَّبد عنه، وقرَّبَ وبعَّضَ بقوله: ﴿مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾، أي: لريِّ أرضها، فحيثما أجرى منها نهر؛ جرى[2].

المبالغة في جريان الماء، وإيجاز القول، وإثارة الخيال

(1) هو إسناد الفعل أو ما في معناه إلى غير ما هو له، لعلاقة، مع وجود قرينة تمنع إرادة الإسناد الحقيقي.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرَر: 5/409.

سرُّ التَّعبير بالأبديَّة مع الخلود في قوله: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۖ﴾:

زيـــادة تأكيد لبقاء أهل الجنَّة في الجنَّة

قوله: ﴿أَبَدًاۖ﴾ بعد ﴿خَٰلِدِينَ﴾ زيادة تأكيد لبقاء أهل الجنَّة في الجنَّة، وإنَّهم ما هم منها بمُخرجين[1]، فأكَّد الخلود، ودلَّ على أنَّه لا ينتهي عند حدٍّ بقوله: ﴿أَبَدًاۖ﴾، وقد تكرَّر هذا الوعد في القرآن الكريم مرَّات كثيرة، وأهمُّها قوله: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۖ لَّهُمۡ فِيهَآ أَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞۖ وَنُدۡخِلُهُمۡ ظِلّٗا ظَلِيلًا ٥٧﴾ [النِّساء: 57]، وقوله: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ﴾ [المائدة: 119]، وقوله: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ٢٢﴾ [التوبة: 22]، وقوله: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ٩﴾ [التّغابن: 9].

قال: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ﴾، ولمَّا كان الخلود يطلق على مجرَّد المكث الطَّويل؛ دلَّ على أنَّ الخُلود المقصود هو خلود دائميٌّ، فقال: ﴿أَبَدًاۖ﴾، ثمَّ أكَّد ذلك بأنَّ الواقع يطابقه، وهو يطابق الواقع، فقال: ﴿وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٗاۚ﴾، أي: يطابقه الواقع، فلا يكون إلَّا ما وعد الله به صدقًا[2].

التَّأكيد والتِّقديم في قوله: ﴿وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٗاۚ﴾:

التَّصديق بوعد الله طمأنة لقلوب المؤمنين

وقوله: ﴿وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٗاۚ﴾ مصدران: الأوَّل: مؤكِّدٌ نفسه، والثَّاني: مؤكِّدٌ غيره؛ لأنَّ قوله: ﴿سَنُدۡخِلُهُمۡ﴾ وعدٌ منه تعالى، ومضمونه هو مضمون وعد الله، وأمَّا ﴿حَقّٗاۚ﴾؛ فمضمونه أخصُّ من مضمون الوعد؛ لأنَّ الوعد من حيث هو وعدٌ يحتمل أن يكون حقًّا، وألَّا يكون، فمضمونهما متغايران تغاير الجنس والنَّوع[3].

سرُّ التَّأكيد في قوله: ﴿وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلٗا﴾:

وقوله: ﴿وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلٗا﴾ القيل والقول واحد، أي: لا أحد أصدق قولًا من الله، وهي جملة مؤكِّدة أيضًا لما قبلها، وفائدة

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/74.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرَر: 5/410.
(3) النيسابوري، غرائب القرآن: 2/501.

هذا التَّوكيد المبالغة فيما أخبر به تعالى عباده المؤمنين، بخلاف مواعيد الشَّيطان وأمانيه الكاذبة المخلفة لأمانيه[1]، وقوله: ﴿وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٗاۚ﴾: لمَّا ذكر أنَّ وعد الشَّيطان هو غرور باطل؛ ذكر هنا أنَّ هذا الوعد منه تعالى هو الحقُّ الَّذي لا ارتياب فيه، ولا شكَّ في إنجازه، و﴿وَٱلَّذِينَ﴾ مبتدأ، و﴿سَنُدۡخِلُهُمۡ﴾ الخبر، وانتصب ﴿وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٗاۚ﴾ على أنَّه مصدر مؤكِّدٌ غيره، فوعد الله مؤكِّدٌ قوله: ﴿سَنُدۡخِلُهُمۡ﴾، و﴿حَقّٗاۚ﴾ مؤكِّدٌ وعد الله[2].

المبالغة فيما أخبر به تعالى عباده المؤمنين

دلالة الاستفهام في قوله: ﴿وَمَنۡ أَصۡدَقُ﴾:

وقوله: ﴿وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلٗا﴾ استفهامٌ بمعنى: النَّفي، أي: لا أحد أصدق منه، وهو تأكيد ثالث، وفائدة هذه التّوكيدات: مقابلة مواعيد الشّيطان الكاذبة لقرنائه بوعد الله الصّادق لأوليائه[3].

بمعنى النَّفي، أي لا أحد أصدق منه

ذكر ابن عاشور هنا: أنَّ الاستفهام إنكاريٌّ، والقيل: القول، وهو اسم مصدر بوزن فعل يجيء في الشَّرِّ والخير[4]، ويصدق ذلك؛ إذْ جاء الاستفهام معارضًا لمواعيد الشّيطان.

نكتة التَّقديم في قوله: ﴿وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلٗا﴾:

وأصل الجملة: ومن أصدق قولًا من الله؟ فقدَّم الجارَّ والمجرور ﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾ على التَّمييز ﴿قِيلٗا﴾، وفائدتها: توكيد وقوع وعد الله، وافتضاح وعود غير الله؛ فلا يكون إلَّا ما يريد الله سبحانه.

التَّذييل في قوله: ﴿وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلٗا﴾:

وجملة: ﴿وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ﴾ تذييل للوعد وتحقيق له، أي: هذا من وعد الله، ووُعود الله وعود صدق؛ إذ لا أصدق من الله قيلًا، فالواو: اعتراضيَّة؛ لأنَّ التَّذييل من أصناف الاعتراض، وهو

ترغيبًا في تحصيل وعده الكريم، وتحذيرًا من مواعيد الشّياطين الكاذبة

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/74.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/74.
(3) النسفي، مدارك التّنزيل: 1/398.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 5/207.

اعتراض في آخر الكلام، وانتصب ﴿قِيلًا﴾ على تمييز نسبة من أصدق من اللّه[1]؟ قال أبو السُّعود: "والمقصود من الآية معارضة مواعيد الشّياطين الكاذبة لقُرنائه، بوعد اللّه الصّادق لأوليائه، والمبالغة في تأكيده ترغيبًا للعباد في تحصيله"[2].

فجملة ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا﴾ مؤكِّدة غاية في البلاغة، أتت تذييلًا لما سبق؛ لتضيف إليه مزيدًا من التَّوثيق[3].

الاستعارة التَّمثيليَّة في قوله: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا﴾:

رسوخ الإيمان بصدق وعد الله، واستقرار ذلك في الذِّهن

وجملة ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا﴾ جارية مجرى المثل، وهي على سبيل الاستعارة التَّمثيليَّة، فيكون مورد المثل قديمًا بقدم وعد اللّه تعالى، وتكون العبارة القرآنيَّة مثلًا لكلِّ حدث يُذكِّر بصدق وعد اللّه تعالى، فيقول القائل: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا﴾، فهي استعارة تمثيليَّة، أفادت رسوخ الإيمان بصدق وعد اللّه، واستقرار ذلك في الذِّهن، والتَّذكير كذلك بوعود اللّه في القرآن الكريم والسُّنَّة الصّحيحة بأنَّها جميعها من قبيل أصدق الوعود، فلا يتخلَّف وعد عن ذلك قطعًا.

وكَانَ الْأَصْلُ تَكرارَ الصِّدقِ بِلَفظِهِ، فَاستُثقلَ التَّكرَارُ لِلتَّقارُبِ، فَعُدِلَ إِلى مَا يُجَارِيهِ خِفَّةً، ولتُجرى المصادر الثَّلاثة مجرًى واحدًا خِفَّةً وَوَزنًا؛ إحرازًا للتَّنَاسُبِ[4].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

القيل والحديث:

وفي قوله: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا﴾ إخبار بأنَّ حديثه وأخباره وأقواله في أعلى مراتب الصِّدق، بل أعلاها، فكلُّ ما قيل في العقائد

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 5/207.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/235.
(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/115.
(4) الزّركشي، البرهان: 2/395.

والعلوم والأعمال، ممَّا يناقض ما أخبر اللّه به، فهو باطل لمناقضته للخبر الصّادق اليقين، فلا يمكن أن يكون حقًّا[1].

وقد ورد نظير الآية في سورة النِّساء قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا ۝٨٧﴾ [النِّساء: 87]، وهذه الآية مطلعها قوله: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِۗ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا ۝٨٧﴾ [النساء: 87]، ثم تكرَّر هنا الأسلوب نفسه، فقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّاۚ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا﴾ [النساء: 122]، فجاء في الأولى ﴿حَدِيثًا ۝٨٧﴾ [النساء: 87]: عندما شمل الخطاب النَّاس جميعًا، فلمّا توجَّه الخطاب إلى المؤمنين؛ ذكر ﴿قِيلًا﴾، وقد ورد (القِيلُ) في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿وَقِيلِهِۦ يَٰرَبِّ﴾ [الزّخرف: 88]، وقوله: ﴿إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا ۝٢٦﴾ [الواقعة: 26]، وقوله: ﴿وَأَقْوَمُ قِيلًا ۝٦﴾ [المزمل: 6].

والحديث: هو الخبر المُتوارد بين النَّاس؛ فذكر قوله: ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِۗ﴾ [النساء: 87]، وهو خطاب للنَّاس جميعًا، وهذا الخبر أكثر انتشارًا وتساؤلًا بين النَّاس، فهو من قبيل الحديث بينهم، وكلُّ كلام يبلغ الإنسان من جهة السّمع، أو الوحي في يقظته أو منامه، يُقال له: حديثٌ[2].

أمَّا القول؛ فتسمَّى القصيدة والخُطبة ونحوهما: قولًا، كما يقال للمتصوّر في النَّفس قبل الإبراز باللَّفظ: قولٌ، فيقال: في نفسي قول لم أظهره، قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ فِيٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُۚ﴾ [المجادلة: 8]، فجعل ما في اعتقادهم قولًا، كما أنَّه يُقال للعناية الصّادقة بالشَّيء[3]، والمِقْوَلُ: اللِّسان[4]، والقيل: اسم للجمع[5]، أمَّا سبب ورود (قيلًا) في الآية؛ فذلك لاشتمالها على أخبار مؤكَّدة تأكيدات متوالية، فذكْرُ ﴿قِيلًا﴾ مرتبط بسبب التَّكثير من التَّأكيد؛ لأنَّه في مقابلة وعد الشّيطان، ووعد الشّيطان موافق للهوى الَّذي طُبعت عليه النُّفوس، فلا تنصرف عنه إلَّا بعسر شديد[6].

(1) السّعدي، تيسير الكريم الرحمن: 1/191.
(2) الراغب، المفردات: (حدث).
(3) الراغب، المفردات: (قول).
(4) الخليل، العين: (قيل).
(5) ابن سيده، المُحكم: (قيل).
(6) البقاعيّ، نظم الدُّرَر: 5/410.

﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ١٢٣﴾ [النِّساء: 123]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

بعد أن ذكر مآل المؤمنين في الآية السَّابقة، وما هم فيه من الخير والخلود؛ ناسب في هذه الآية أن يذكر أنَّ هذا الوعد الكريم إنَّما يكون بالاستحقاق لا بالأمانيِّ، فقال: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِۗ﴾؛ إذ كانوا يرون أنفسهم أنَّهم شعب الله المختار، قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥۚ﴾ [المائدة: 18]، فذكرهم هنا بقوله: ﴿وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِۗ﴾.

وما أشدّ التئام الآية بما سبق من الآيات المحذِّرة منهم: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يَشْتَرُونَ ٱلضَّلَٰلَةَ﴾ [النِّساء: 44] إلى قوله: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرًا ٤٥﴾ [النِّساء: 45]، إشارة إلى أنَّ مقصود المنافقين من مشايعة أهل الكتاب ومتابعتهم إنَّما هو الولاية والنُّصرة، وأنّهم قد ضيَّعوا منيتهم، فاستنصروا بمَن لا نصرة له، وتركوا من ليست النُّصرة إلَّا له[1]، ثمّ قال هُنا: ﴿وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّـهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿بِأَمَانِيِّكُمْ﴾: الْمِيمُ وَالنُّونُ وَالْحَرْفُ الْمُعْتَلُّ: أَصْلٌ وَاحِدٌ صَحِيحٌ، يَدُلُّ عَلَى تَقْدِيرِ شَيْءٍ وَنَفَاذِ الْقَضَاءِ بِهِ، ومِنْهُ قَوْلُهُمْ: مَنَى لَهُ الْمَانِي، أَيْ: قَدَّرَ الْمُقَدِّرُ[2]، وامتنيتُ الشّيء: اختلقته، والمَنَى: القصد، وتَمَنَّى الشَّيءَ: أرادَه، ومَنَاه إيَّاه وبه: وهي المُنْيَة، وتمنَّى الكتاب: قرأه، وكتبه، وفي التَّنزيل: ﴿إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ﴾ أي: قرأ، وتلا، وقال الشَّاعر:

تَمَنَّى كتابَ اللّهِ أَوَّلَ لَيْلِه *** وآخِرَه لاقَى حِمامَ المَقادِرِ[3]

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرَر: 5/411.

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (مني).

(3) الزّجّاجيّ، الأمالي: 1/20، والبيت من الكامل، أنشده في اللِّسان والمقاييس: (منى)، وسيرة ابن هشام، ص: 370، من دون نسبة، وهو لحسَّان بن ثابت في تفسير أبي حيان: 6/382، وليس في ديوانه.

وأنا راضٍ بِمَنَى اللّه: بقدره، وتقول: ساقه المَنَى إلى دَرْكِ المُنَى[1]، والتَمَنِّي: تَشَهِّي حصول الأمر المرغوب فيه، والأُمْنِيَّةُ: الصُّورة الحاصلة في النَّفس من تمنِّي الشَّيء، وتَمَنَّى: كَذَب، وَتَمَنَّى الحديثَ: اخترعه[2]، ولمّا كان الكذِبُ تصوُّرَ ما لا حقيقةَ له وإيراده باللّفظ؛ صار التَّمنِّي كالمبدأ للكذب، فصحَّ أن يُعبّر عن الكذب بالتَّمنِّي[3].

2) ﴿سُوٓءَا﴾: جذر الكلمة هو: (سوأ)، والسُّوء نعت لكلِّ شيء رديء، والسُّوء: اسم جامعٌ للآفات والدَّاء، وتقول: ساء ما فعل فلان صنيعًا يسوء، أي: قَبُح صنيعُه صنيعًا، والسَّيِّئ والسَّيِّئة: عملان قبيحان، يصير السّيِّئ نعتًا للذَّكَر من الأعمال، والسَّيِّئة للأنثَى[4]، وساءَهُ ضدُّ سَرَّه، وقُرئ: ﴿عَلَيۡهِمۡ دَآئِرَةُ ٱلسَّوۡءِۖ﴾ [الفتح: 6] بالضَّمِّ[5]، أي: الهزيمة والشَّرُّ، وقُرئ بالفتح[6] من المَساءةِ[7].

والمفتوح غَلَب في أن يضاف إليه ما يراد ذمُّه، وأمَّا (السُّوء) بالضَّمِّ؛ فجارٍ مجرى الشَّرِّ الَّذي هو نقيض الخير[8].

3) ﴿يُجۡزَ﴾: جذر الكلمة هو (جزي)، جزى يجزي جزاء، أي: كافأ بالإحسان وبالإساءة، وتَجازيتُ ديني: تقاضيته[9]، واللّه يجزيك عنِّي، ويجازيك، قال لبيد[10]:

وإذا جُوزيت قرضًا فاجْزِه *** إنَّما يَجْزِي الفَتَى لَيْسَ الْجَمَلْ

ومنه جزية أهل الذِّمَّة؛ لأنَّها تقضي عنهم، يقال: أدُّوا جزيتهم وجزاهم[11]، ومن المجاز: جزتك الجوازي، أي: أفعالك، أي: وجدت جزاء ما فعلت، أو ألطاف اللّه وأسباب رحمته[12].

(1) الزّمخشري، أساس البلاغة: (مني).
(2) ابن سيده، المُحكم: (مني).
(3) الراغب، المفردات: 1/780.
(4) الخليل، العين: (سوأ).
(5) وهي قراءة الجمهور، ينظر: ابن الجزري، النَّشر: 2/280.
(6) وهي رواية شاذَّة، قرأ بها هارون عن أبي عمرو، ومجاهد والحسن، ينظر: ابن خالويه، المختصر: 142.
(7) الرّازيّ، مختار الصِّحاح: (سوأ).
(8) الزمخشري، الكشاف: 3/136.
(9) الخليل، العين: (جزي).
(10) البيت من بحر الرَّمل، وهو للبيد بن أبي ربيعة، وهو في ديوانه ص: 123.
(11) الزّمخشري، أساس البلاغة: (جزي).
(12) الزّمخشري، أساس البلاغة: (جزي).

المعنى العامُّ للآية:

لمّا أخبر تعالى عمَّا أعدَّ للكافرين ولمن أضلَّهم من العقاب، وعمَّا أعدَّ للمؤمنين من الثَّواب، وكان الكافرون يمنُّون أنفسهم الأمانيَّ الفارغة من أنَّه لا تبعة عليهم في التَّلاعب بالدِّين، لا في الدُّنيا ولا في الآخرة، ويشجِّعهم على ذلك أهل الكتاب، ويدَّعون أنَّهم أبناء اللّه وأحبَّاؤه، لا يؤاخذهم بشيء، ولا يدخل الجنَّة إلَّا من كان هودًا أو نصارى، أو من شفعوا فيه[1]؛ بيّن تعالى أنَّ هذا الوعد الكريم إنَّما يكون بالاستحقاق لا بالأمانيِّ، فقال: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾، ثمَّ قرَّر الحقُّ في ذلك بصورة قاعدة عامّة، فقال: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾؛ لأنَّ الجزاء بحسب سنَّة اللّه تعالى أثر طبيعيٌّ للعمل، فإن كان سيِّئًا يصيب روح صاحبه، ويُكيِّفها بكيفيَّة سيِّئة تنال بها العقاب، فيعود عليه بالوبال والنّكال، من أيِّ مِلَّة أو عنصر كان، ﴿وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾، ولا يكون أحد وليًّا أو ناصرًا لأحد يوم القيامة غير اللّه تعالى، ولا تنفعهم ولاية أحد أو نصره يوم القيامة إلَّا ولاية اللّه ونصره[2].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغة الاستئناف الابتدائيِّ:

للتَّنويه بفضائل الأعمال

قوله تعالى: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾: "استئناف ابتدائيٌّ للتَّنويه بفضائل الأعمال، والتَّشويه بمساويها، وأنَّ في ﴿لَّيْسَ﴾ ضميرًا عائدًا على الجزاء المفهوم من قوله: ﴿يُجْزَ بِهِۦ﴾، أي: ليس الجزاء تابعًا لأمانيِّ النَّاس ومشتهاهم، بل هو أمر مقدَّر من اللّه تعالى تقديرًا بحسب الأعمال، وممَّا يؤيِّد أن يكون قوله:

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرَر: 5/410.
(2) الموصلّيّ، أولى ما قيل: 3/131.

﴿لَّيۡسَ بِأَمَانِيِّكُمۡ﴾ استئنافًا ابتدائيًّا: أنَّه وقع بعد تذييل مشعر بالنِّهاية، وهو قوله: ﴿وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلٗا﴾، وممَّا يرجِّحه: أنَّ في ذلك الاعتبار إبهامًا في الضَّمير، ثم بيانًا له بالجملة بعده، وهي: ﴿مَن يَعۡمَلۡ سُوٓءٗا يُجۡزَ بِهِۦ﴾، وأنَّ فيه تقديم جملة: ﴿لَّيۡسَ بِأَمَانِيِّكُمۡ﴾ عن موقعها الَّذي يُتَرَقَّبُ في آخر الكلام، فكان تقديمُها إظهارًا للاهتمام بها، وتهيئةً لإبهام الضَّمير، وهذه كلُّها خصائص من طرق الإعجاز في النَّظم"[1].

دلالة الباء في قوله: ﴿بِأَمَانِيِّكُمۡ﴾:

دلالة الباء الملابسة

الباء في قوله: ﴿بِأَمَانِيِّكُمۡ﴾ للملابسة، أي: ليس الجزاء حاصلًا حصولًا على حسب أمانيِّكم، وليست هي الباء الَّتي تزاد في خبر ليس؛ لأنَّ أمانيَّ المخاطبين واقعة لا منفيَّة، والأمانيُّ موجودة لدى المُخاطبين، وقد تلبّست الأمانيُّ بهم، وأصبحت جزءًا من حيّز حياتهم وتفكيرهم.

والأمانيُّ: جمع أمنيَّة، وهي اسم للتَّمنِّي، أي: تقديرُ غيرِ الواقعِ واقعًا، وكأنَّ ذكر المسلمين في الأمانيِّ لقصد التَّعميم في تفويض الأمور إلى ما حكم الله ووعد، وأنَّ ما كان خلاف ذلك لا يُعتدُّ به، وما وافقه هو الحقُّ، والمقصد المهمُّ هو قوله: ﴿وَلَآ أَمَانِيِّ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِۗ﴾، على نحو: ﴿وَإِنَّآ أَوۡ إِيَّاكُمۡ لَعَلَىٰ هُدًى أَوۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ٢٤﴾ [سبأ: 24]، فإنَّ اليهود كانوا في غرور: ﴿وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامٗا مَّعۡدُودَةٗۚ﴾ [البقرة: 80]، وقد سمّى الله تلك أمانيّ عند ذكره في قوله: ﴿تِلۡكَ أَمَانِيُّهُمۡۗ﴾ [البقرة: 111]، أمَّا المسلمون؛ فليس في عقيدتهم مثل ذلك[2].

دلالة الخطاب في قوله تعالى: ﴿لَّيۡسَ بِأَمَانِيِّكُمۡ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِۗ﴾:

عدالة التَّشريع الإلهيّ

قال: ﴿لَّيۡسَ بِأَمَانِيِّكُمۡ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِۗ﴾، فذكر فئتين، وهو من قبيل طباق الشُّمول؛ إذ شمل بهذا الطِّباق النَّاس جميعًا، فعدل

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 5/208.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 5/209.

عن التَّعبير: ليس بأمانيِّ أحدٍ ﴿مَن يَعۡمَلۡ سُوٓءٗا يُجۡزَ بِهِۦ﴾، إلى الفصل بذكر المُخاطبين من المؤمنين على الأرجح، والفئة الأخرى من أهل الكتاب.

وقال الزَّمخشريُّ في ﴿لَّيۡسَ﴾: ضمير وعد اللّه، أي: ليس ينال ما وعد اللّه من الثَّواب بأمانيِّكم ولا أمانيِّ أهل الكتاب، والخطاب للمسلمين؛ لأنَّه لا يتمنَّى وعد اللّه إلَّا من آمن به، ولذلك ذكر أهل الكتاب معهم لمشاركتهم لهم في الإيمان، وعن الحسن قال: إنَّ قومًا أَلْهَتْهُم أمانيُّ المغفرة[1]، حتَّى خرجوا من الدُّنيا، ولا حسنة لهم، وقالوا: نُحسن الظَّنَّ باللّه، وكذبوا، لو أحسنوا الظَّنَّ به؛ لأحسنوا العمل.

ويحتمل أن يكون الخطاب للمشركين لقولهم: إن كان الأمر كما يزعم هؤلاء؛ لنكونَنَّ خيرًا منهم وأحسن حالًا: ﴿لَأُوتَيَنَّ مَالٗا وَوَلَدًا ٧٧﴾ [مريم: 77]، ﴿إِنَّ لِي عِندَهُۥ لَلۡحُسۡنَىٰۚ﴾ [فصّلت: 50][2].

والرَّأي الَّذي نميل إليه: "أنَّ الآية الكريمة تخاطب النَّاس جميعًا، سواء أكانوا مؤمنين أم مشركين أم من أهل الكتاب؛ لأنَّ الآية الكريمة تضع لهم جميعًا قاعدة عامَّةً، وهي أنَّ الوصول إلى ثواب اللّه ورضاه لا يُنال بالأمانيِّ والأحلام، وإنَّما يُنال بالإيمان والعمل الصَّالح"[3].

السِّرُّ في حذف اسم ﴿لَّيۡسَ﴾:

تقوية الخبر المنفيّ، وأنَّ المدار على العمل

في حذف اسم ﴿لَّيۡسَ﴾ وإضمارِ ما يعود عليه إشارةٌ إلى أهمِّيَّة الخبر المنفيِّ، وهو عدم نفْع الأمانيِّ لأصحابها.

هذا، وقد وقع الاختلاف فيما يعود الضَّمير عليه: فمنهم من جعله عائدًا على الوعد بدخول الجنَّة، أي: ليس دخول الجنّة بأمانيِّكم، أو يعود على الإيمان المفهوم من قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [النِّساء: 122][4]، كما ذهب إليه الحسن، أو يعود على ما وقعت فيه محاورة المؤمنين وأهل الكتاب، أو ما قالته قريش وأهل الكتاب، وقال الحوفيُّ: اسم ﴿لَّيۡسَ﴾ مضمر فيها

(1) الزّمخشري، الكشّاف: 1/600.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/75.
(3) طنطاوي، التفسير الوسيط: 3/320.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/75.

على معنى: ليس الثَّواب عن الحسنات ولا العقاب على السَّيِّئات بأمانيِّكم؛ لأنَّ الاستحقاق إنَّما يكون بالعمل، لا بالأمانيِّ، وقال أبو البقاء: ﴿لَّيۡسَ﴾ مضمر فيها، ولم يتقدَّم له ذكر، وإنَّما دلَّ عليه سبب الآية، وذلك أنَّ اليهود والنَّصارى قالوا: نحن أصحاب الجنَّة، وقال المشركون: لا نبعث، فقال: ليس بأمانيِّكم، أي: ليس ما ادَّعيتموه بأمانيِّكم[1].

الفصل لشبه كمال الاتِّصال في قوله: ﴿مَن يَعۡمَلۡ سُوٓءٗا يُجۡزَ بِهِۦ﴾:

بيانٌ للنَّفي المُجمل قبله

جملة: ﴿مَن يَعۡمَلۡ سُوٓءٗا يُجۡزَ بِهِۦ﴾ استئناف بيانيٌّ ناشئ عن جملة: ﴿لَّيۡسَ بِأَمَانِيِّكُمۡ﴾؛ لأنَّ السَّامع يتساءل عن بيان هذا النَّفي المجمل.

ولهذا الاستئناف موقع من البلاغة، وخصوصيَّة تفوت بغير هذا النَّظم الَّذي فسَّرناه، وجعل صاحب "الكشاف" الضَّمير المستتر عائدًا على وعد الله، أي: ليس وعد الله بأمانيِّكم؛ فتكون الجملة من تكملة الكلام السَّابق حالًا من وعد الله، وتكون جملة ﴿مَن يَعۡمَلۡ سُوٓءٗا يُجۡزَ بِهِۦ﴾ استئنافًا ابتدائيًّا محضًا[2].

التَّعميم في قوله: ﴿سُوٓءٗا﴾:

الخطاب بذكر السُّوء يكون لأهله ممَّن اعتادوا على أفعاله

ردَّ الله تعالى على الفريقين بقوله: ﴿لَّيۡسَ بِأَمَانِيِّكُمۡ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِۗ﴾، ثُمَّ ابتدأ الخبر الصَّادق من قبله بقوله: ﴿مَن يَعۡمَلۡ سُوٓءٗا يُجۡزَ بِهِۦ﴾، وجاء هذا اللَّفظ عامًّا في كلِّ سوء، فاندرج تحت عمومه الفريقان المذكوران، واختلف المتأوِّلون في تعميم لفظ هذا الخبر، ولكن على العموم؛ فقد أفاد شمول كلِّ من يعمل سوءًا، ولا يظنُّ أنَّ أحدًا معصومٌ عن عمل السُّوء إلَّا الأنبياء عليهم السلام.

دلالة العموم في الآية الكريمة: ﴿مَن يَعۡمَلۡ سُوٓءٗا يُجۡزَ بِهِۦ﴾:

الكافر والمؤمن مجازًى بالسُّوء يعمله

قال الحسن بن أبي الحسن: هذه الآية في الكافر، وقرأ: ﴿يُجَزَىٰ

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/75.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 5/208.

﴿إِلَّا ٱلۡكَفُورُ﴾[1] [سبأ: 17]، قال: والآية يعني بها: الكفَّار، ولا يعني بها: أهل الصَّلاة، وقال: والله ما جازى أحدًا بالخير والشَّرِّ إلَّا عذَّبه، ولكنَّه يغفر ذنوب المؤمنين، وقال ابن زيد: في قوله تعالى: ﴿مَن يَعۡمَلۡ سُوٓءٗا يُجۡزَ بِهِۦ﴾: وعد الله المؤمنين أن يكفِّر عنهم سيِّئاتهم، ولم يَعد أولئك، يعني: المشركين، وقال الضَّحَّاك: ﴿مَن يَعۡمَلۡ سُوٓءٗا يُجۡزَ بِهِۦ﴾ يعني بذلك: اليهود والنّصارى والمجوس وكفَّار العرب[2].

وفي قوله: ﴿مَن يَعۡمَلۡ سُوٓءٗا يُجۡزَ بِهِۦ﴾ هذا تخصيصٌ للَّفظ في الآية، قال ابن عبَّاس وسعيد بن جبير: "قوله تعالى: ﴿مَن يَعۡمَلۡ سُوٓءٗا﴾، معناه: من يكُ مشركًا"، والسُّوء هنا: الشِّرك، فهو تخصيص لعموم اللَّفظ من جهة أخرى؛ لأنَّ أولئك خصَّصوا لفظ ﴿مَن﴾، وهذان خصَّصا لفظ السُّوء، وقال الجمهور: لفظ الآية عامٌّ، والكافر والمؤمن مجازًى بالسُّوء يعمله، فأمّا مجازاة الكافر؛ فالنَّار، لأنّ كفره أوبقه، وأمَّا المؤمن؛ فبنكبات الدُّنيا، قال أبو بكر الصِّدِّيق رضي الله عنه: لمَّا نزلت: ﴿مَن يَعۡمَلۡ سُوٓءٗا يُجۡزَ بِهِۦ﴾؛ قلت: يا رسول الله، ما أشدّ هذه الآية! فقال: يا أبا بكر، أما تحزن؟ أما تمرض؟ أما تصيبك اللَّأواء؟ فهذا بذلك، وقال عطاء بن أبي رباح: لمَّا نزلت هذه الآية؛ قال أبو بكر: جاءت قاصمة الظَّهر، فقال النَّبيُّ ﷺ: إنَّما هي المصيبات في الدُّنيا، وقالت بمثل هذا التّأويل عائشة[3] رضي الله عنها.

المسائل المهمَّة تطلب زيادة تأكيد وتنبيه

فائدة زيادة التَّأكيد:

وقوله: ﴿وَلَا يَجِدۡ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا﴾، فعموم العبارة وقعت في مقام زيادة تأكيد، لردِّ عقيدة من يتوهَّم أنّ أحدًا يغني عن

(1) ورواية حفص عن عاصم بالنُّون وكسر الزَّاي، ونصب الكفور هكذا: ﴿وَهَلۡ نُجَٰزِيٓ إِلَّا ٱلۡكَفُورَ ١٧﴾ [سبأ: 17]، وأمَّا هذه، فبضمِّ الياء وفتح الزَّاي، مبنيًّا للمفعول، والكفورُ بالرَّفع، وهي قراءة متواترة، نُسبت إلى نافع وابن كثير وأبي عمرو وابن عامر وأبي بكر عن عاصم وأبي جعفر، ينظر: ابن مجاهد، السَّبعة، ص: 529، وابن الجزري، النشر: 2/350.

(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/116.

(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/116.

عذاب اللّه[1]، وتقديم قوله: ﴿مِن دُونِ ٱللَّـهِ﴾ زيادة تأكيد على أنَّ الولاية والنُّصرة يوم القيامة لا تكون إلَّا باللّه، ومن اللّه سبحانه، وأنَّ ما تُعقد عليه الأمانيُّ عند أولئك الَّذين يُمنِّيهم الشَّيطان، ويعدهم، فإنَّما يعدهم الكذب والزُّور، قال تعالى حكايةً عن الشَّيطان: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ﴾ [إبراهيم: 22].

التّناسب في قوله: ﴿وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾:

قطع الأمل في النَّجاة

والوليُّ هو المولى، أي: المشارك في نسب القبيلة، والمراد به المدافع عن قريبه، والنَّصير الَّذي إذا استنجدته؛ نصرك، أو الحليف، وكان النَّصر في الجاهليَّة بأحد هذين النَّوعين[2]، وقد ناسب هنا ذكر الوليّ والنَّصير لهدف إفهام النّاس أن لا ناصر يومها ولا معين إلَّا اللّه سبحانه، فأفاد التَّناسب ما يخطر على البال في سُبُل النُّصرة والإعانة، فإنّها جميعها مُلغاة، إلَّا بإذن اللّه وبفضله سبحانه.

دلالة المجاز في قوله: ﴿يُجْزَ بِهِۦ﴾:

الجزاء من جنس العمل

قال: ﴿يُجْزَ بِهِۦ﴾، وهو يُجزى بالعقاب، وفيها مجازٌ بين السُّوء والعقاب، وهي علاقة السّببيَّة، وفائدته: بيان أنَّ الجزاء من جنس العمل، وأنَّه ليس ثمَّة بشر إلَّا وسيجزى بما قدّم من الخير خيرًا، ومن الشّرِّ شرًّا، وهذه قاعدة عامَّة شاملة تجري على النَّاس جميعًا، أو تكون على سبيل المشاكلة.

المُشاكلة في قوله: ﴿يُجْزَ بِهِۦ﴾:

العدل الإلهيُّ المُطلق المنسجم مع قوانين الحياة والنَّفس الإنسانيَّة

قال: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾، وهو في الحقيقة لا يُجزى بالسُّوء نفسه، وإنَّما يُجزى بما يستحقُّه، فمن يعمل السَّيِّئة؛ يُجزَ بها، ومن عمل الحسنة؛ يُجز بها، أي: يُجزَ بما يستحقُّ من السُّوء أو الحُسن على حسب أعماله، وفائدة فنِّ المشاكلة: هو بيان الجزاء العادل،

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 5/209.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 5/209.

فإنَّه يُجزى المُسيءُ بالسُّوء على السّيِّئة بالمقدار الَّذي يستحقُّه، فالسَّيِّئة من الكبائر يُجازى عليها عقابًا كبيرًا، والسّيِّئة من الصَّغائر يُحاسب على قدر ما فعله، وهكذا ضمن أسلوب المُشاكلة المقياس الدّقيق، لكلِّ عقوبة أو إثابة.

دلالة المضارع في قوله: ﴿يَجِدۡ﴾:

الاستمرار والتَّجدُّد المُوحيان بالحَيرة وخيبة الأمل

صيغة المضارع في الفعل المنفيِّ في قوله: ﴿وَلَا يَجِدۡ﴾ دلَّت على الاستمرار والتَّجدُّد اللَّذين يوحيان، ويصوِّران حالة البحث الدَّؤوب عن الوليِّ النّاصر، فقال: ﴿وَلَا يَجِدۡ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرًا﴾، فلا يجدون من دون اللّه أحدًا وليًّا أو ناصرًا إلَّا اللّه[1].

دلالة قوله: ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾:

تنهار يوم القيامة جميع قوى المخلوقات

ولمَّا كان كلُّ أحد قاصرًا عن عظيم شأن اللّه وقدرته سبحانه؛ عبّر بقوله: ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾، أي: الَّذي حاز جميع العظمة، ﴿وَلِيّٗا﴾ أي: قريبًا، يفعل معه ما يفعل القريب من المدافعة عنه والنُّصرة والتَّأييد، ﴿وَلَا نَصِيرًا﴾، أي: ينصره في وقت طلب النُّصرة منه[2]، والتَّقديم للاهتمام؛ لبيان عظيم الموقف يوم القيامة، حيث تُنصب الموازين في موقف عظيم، فلا يجد المُسيء له وليًّا ولا نصيرًا.

سرُّ العدول عن: (أولياء وناصرين) إلى: ﴿وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرًا﴾:

نفيُ الجنس نفيٌ لأفرادِه

يختصر إفراد الوليِّ والنَّاصر المشهد في كلمات: إذ إنَّهم لمَّا استدعوا الأولياء والنُّصراء، فلم يجدوا أحدًا؛ عُلم أن لا وليَّ ولا ناصر إلَّا اللّه، فمن أقرَّ قانون القبول والجزاء هو الوليُّ وحده، وهو النَّاصر وحده، فأفرد لفظ الوليِّ والنَّاصر استغراقًا لنفي جنسه قاطبةً.

بلاغة تذييل الآية الكريمة:

تأكيد المعنى

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَجِدۡ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرًا﴾ تذييلٌ

(1) أبو حيَّان، البحر المحيط: 4/76.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرَر: 5/411.

قُصد به تأكيد ما قبله: من أنَّ ثواب الله لا يُنال إلَّا بالإيمان والعمل الصَّالح، وأنَّ عقابه سيحلُّ بمن يعمل السُّوء.

أي: إنَّ من يعمل السُّوء، سيجازى به، ولا يجد هذا المرتكب للسُّوء أحدًا سوى الله سبحانه يلي أمره، ويحامى عنه، ولا نصيرًا ينصره، ويحاول إنجاءه من عقاب الله تعالى[1].

(1) طنطاوي، التفسير الوسيط: 3/321.

﴿وَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ وَلَا يُظۡلَمُونَ نَقِيرٗا ١٢٤﴾ [النساء: 124]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

بعد أن بيّن النِّظامَ العامَّ في عمل السُّوء وجزائه، فقال: ﴿لَّيۡسَ بِأَمَانِيِّكُمۡ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِۗ﴾؛ بيَّن في هذه الآية النِّظام العامَّ في عمل الصّالحات وجزائها، فقال: ﴿وَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ وَلَا يُظۡلَمُونَ نَقِيرٗا﴾، وهي الأعمال الَّتي تصلح بها النُّفوس ممَّا جاء عن الله ﷻ في الأوامر والنَّواهي[1]، وقد جمعت الآيتان شروط صحَّة العمل، فالعمل لا يكون صحيحًا مقبولًا عند اللَّه إلَّا إذا توافرت فيه هذه الشُّروط: وهي الإيمان والتَّوحيد والإخلاص، فيقصد بعمله وجه اللَّه تعالى، ثم أن يكون متابعًا للنَّبيِّ ﷺ فيكون عمله مهتديًا بشريعته[2] ﷺ.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَعۡمَلۡ﴾: الْعَيْنُ وَالْمِيمُ وَاللَّامُ: أَصْلٌ وَاحِدٌ صَحِيحٌ، وَهُوَ عَامٌّ فِي كُلِّ فِعْلٍ يُفْعَلُ[3]، وهو كلُّ فعل يكون من الحيوان بقصدٍ، فهو أخصُّ من الفعل[4]:

2) ﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾: الصَّادُ وَاللَّامُ وَالْحَاءُ: أَصْلٌ وَاحِدٌ يَدُلُّ عَلَى خِلَافِ الْفَسَادِ، يُقَالُ: صَلُحَ الشَّيْءُ يَصْلُحُ صَلَاحًا، وَيُقَالُ: صَلَحَ بِفَتْحِ اللَّامِ[5]، والصَّلاح: ضدُّ الفساد، وهما مختصَّان في أكثر الاستعمال بالأفعال:

3) ﴿ذَكَرٍ﴾: الذَّكر: ضدُّ الأنثى، قال تعالى: ﴿وَلَيۡسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلۡأُنثَىٰۖ﴾ [آل عمران: 36][6]، والذَّكَر محرَّكة، والذَّكير من الحديد: أَيْبسُه وأشدُّه وأجوده، وبذلك سُمِّيَ السَّيف:

(1) الموصلّي، أولى ما قيل: 3/131.
(2) الجربوع، الأمثال القرآنيّة القياسيّة: 2/542.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عمل).
(4) الراغب، المفردات: (عمل).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (صلح).
(6) الراغب، المفردات: (ذكر).

مُذَكَّرًا، أي: شَفْرتُه حديدٌ ذَكَر، والمعنى المحوريُّ: قوَّة الشَّيء وصلابة مادَّته بحيث ينفذ: كالحديد الفولاذ، يُزاد في السَّيف وغيره؛ لينفذ، ولا ينثني، والذَّكر خلاف الأنثى أصْلب وأخشن منها[1].

4) ﴿أُنثَىٰ﴾: الْأُنْثَى: خِلَافُ الذَّكَرِ، وَيُقَالُ: سَيْفٌ [أَنِيثٌ] الْحَدِيدِ؛ إِذَا كَانَتْ حَدِيدَتُهُ أُنْثَى، وأرض مِئْنَاث وأَنِيثَة: سهلة مُنْبِتَة خليقة بالنَّبات ليست غليظة بَلَد (أي: قطعة أرض خالية) أنيث: ليّن سهل.

والمعنى المحوريُّ: لِيْنٌ أثناء الشَّيء وعدم غلظها وصلادتها، كالأرض السَّهلة المتسيِّبة التُّربة اللَّيِّنَتُها، ومنه: حديد أنيث: غير ذكير، فالأنيث من الحديد: هو الَّذي يُسمَّى الحديد المطاوع، والذَّكِير منه: هو الصُّلب[2].

5) ﴿نَقِيرًا﴾: جذر الكلمة هو: (نقر)، والنَّقيرُ: نكتة في ظهر النَّواة، منها تنبت النَّخلة، والنَّقيرُ: أصل خشبة ينقر، فينبذ فيه، والنَّقْرُ: ضرب الرَّحى ونحوه بالمنقار، والنَّقَّارُ: الَّذي ينقش الرَّكب واللَّجم والرَّحى[3]، وفائدة هذا المعنى: أنَّ هذا العمل مهما صغُر حتَّى لو كان بمقدار نُقرة، فإنَّهم لا يُظلَمُونَه:

المعنى العامُّ للآية:

والآية في معرض الرَّدِّ على فرية: أنَّهم أبناء الله وأحبَّاؤه[4]؛ إذ أبان اللَّهُ حُجَّةَ الْمُسلمينَ عَلَى مَنْ نَاوأَهم من أَهلِ الْأَدْيَانِ بقولهِ تَعَالَى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾، وَبِقولهِ تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ﴾ الْآيَتانِ[5]، وجعل منها قاعدة عمَّمها في الجزاء للنَّاس جميعًا، فقال: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ﴾، فذكر العمل الصّالح، ثم أتبعه بشرط الإيمان، فقال: ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾، فإن كان الإيمان قد اختلَّ منه بعض ما جاء به الدِّين الحقُّ؛ فهو كالعدم، فعقَّب هذه الآية بقوله: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا﴾، والمعنى:

(1) جبل، المعجم الاشتقاقي: (ذكر).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقي: (أنث).
(3) الخليل، العين: (نقر).
(4) الزّرقاني، مناهل العرفان: 2/271.
(5) النيسابوري، أسباب نزول القرآن: 182.

أنَّ الفوز في جانب المسلمين؛ لا لأنَّ أمانيَّهم كذلك، بل لأنَّ أسباب الفوز والنَّجاة متوافرة في دينهم[1]، فقال: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ وَلَا يُظۡلَمُونَ نَقِيرٗا﴾، أي: ولا يُنقصون شيئًا منها، وإن كان في القلّة، مثل: نقير النَّواة، وفي هذه الآية وما قبلها من الموعظة ما يهدم صروح الأمانيِّ من جهلاء المسلمين الَّذين يعتمدون على الشَّفاعة والقرابين، والَّذين يظنُّون أنَّ مجرَّد الانتماء إلى الإسلام أو الصُّلحاء كفيل بالنَّجاة[2].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

اكتمال اللَّفِّ والنَّشر مع الآية السَّابقة:

العمل الصّالح جوهرة الإيمان، والإخـــــلاص ضمانه

هذه الآية بأكملها جزء من النَّشر الَّذي أقرَّته الآية السَّابقة، فقوله تعالى: ﴿لَّيۡسَ بِأَمَانِيِّكُمۡ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِۗ﴾ هذا لفٌّ، وقوله: ﴿مَن يَعۡمَلۡ سُوٓءٗا يُجۡزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدۡ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا ١٢٣ وَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، وهذا هو النَّشر، وفائدة هذا اللَّفِّ والنَّشر: الإعلام بأنَّ النَّجاة لا تكون بأمانيِّ النَّاس منكم أو من أهل الكتاب، فالتَّقدير: ليس النَّجاة بأمانيِّكم ولا أمانيِّ أهل الكتاب، ثم تستكمل الآية الكريمة المعنى إيضاحًا في بيان ما يوجب العقاب، فيقول: ﴿مَن يَعۡمَلۡ سُوٓءٗا يُجۡزَ بِهِۦ﴾، ثم يبيِّن سبل الثَّواب، فيقول: ﴿وَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ﴾.

الْعَكْسُ[3] بين الآيتين:

الآية في عموم الإيمان والعمل الصَّالح[4]، فقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 5/209.
(2) الموصلي، أولى ما قيل: 3/132.
(3) العكس: هُو أَنْ يُؤتى بِكلامٍ يُقَدَّمُ فيه جُزء، ويُؤَخَّرُ آخر، ثمَّ يقدَّم المؤَخَّر، وَيؤَخَّر المقدَّمُ، ينظر: الزَّرقانّي، مناهل العرفان: 2/283.
(4) الزَّرقانّي، مناهل العرفان: 2/283.

الـتَّـــلازم بين الإيمان والعمل الـصَّـــالـح في الواقع

ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾ قُدِّم العمل الصالح على الإيمان، وفي الآية التَّالية: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ عكس نظم الأُولى؛ لتقديم العملِ في الأُولى عَلى الإيمان، وتأخيره في الثَّانية عن الإسلام[1].

الجناس غير التَّامّ بين ﴿وَمَن﴾ و﴿مِن﴾:

الإيـــحـــاء بمشاكلة العمل الصَّالح لصاحبه

قوله: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ﴾، بين ﴿وَمَن﴾ و﴿مِنَ﴾ الأولى أو ﴿مِن﴾ الثَّانية جناس، فـ﴿وَمَن﴾: اسمٌ يدلُّ على الإنسان العامل للصَّالحات، سواءٌ أكان شرطًا أم موصولًا، و﴿مِنَ﴾: حرفٌ يشير إلى العمل الصَّالح، سواءٌ أكان لابتداء الغاية أم للجنس، فإنَّ كلًّا منهما مركَّب من حرفين الميم والنُّون، وتشابه جِرْمهما يشير إلى مشاكلة العمل الصَّالح لصاحبه، وكلُّ إناء بالَّذي فيه يرشح، كما قال تعالى: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا ﴿٨٤﴾﴾ [الإسراء: 84].

دلالة ﴿مِن﴾ في موضعيها في الآية الكريمة:

الرِّفق بالعباد

﴿مِنَ﴾ الأولى: هي للتَّبعيض، فائدتها: الرِّفق بالعباد؛ لأنَّ الصّالحات على الكمال لا يطيقها البشر، واشترط مع فعلها الإيمان؛ لأنَّه لا يُقبَل عملٌ إلَّا به[2].

وأنَّ كلَّ واحد لا يتمكَّن من عمل كلِّ الصَّالحات، وإنَّما يعمل منها ما هو تكليفه وفي وسعه، وكم مُكلَّف لا يلزمه زكاة ولا حجٌّ ولا جهاد، وسقطت عنه الصَّلاة في بعض الأحوال على بعض المذاهب، وذكر الطَّبريُّ: أنَّ ﴿مِنَ﴾ زائدة، أي: ومَنْ يعمل الصَّالحات، وزيادة (مِن) في الشَّرط ضعيف، ولا سيَّما بعدها معرفة، و﴿مِن﴾ الثَّانية لتبيين الإبهام في: ﴿وَمَن يَعْمَلْ﴾.

(1) السيوطي، الإتقان: 3/319، والسيوطي، معترك الأقران: 1/308.
(2) السّيوطيّ، معترك الأقران: 2/307.

وعندي أنَّ ﴿مِنَ﴾ الأُولى لم تخرج عن معناها الأصليِّ، وهو ابتداء الغاية، أي: ومن يعمل شيئًا من بداية ما يُقال له: عملٌ صالحٌ، وهذا تعظيمٌ لكلِّ عملٍ صالحٍ؛ وإن كان صغيرًا، ويؤكِّده قولُ النَّبيِّ ﷺ: "لَا تَحْقِرَنَّ مِنَ الْمَعْرُوفِ شَيْئًا، وَلَوْ أَنْ تُعْطِيَ صِلَةَ الْحَبْلِ، وَلَوْ أَنْ تُعْطِيَ شِسْعَ النَّعْلِ، وَلَوْ أَنْ تُفْرِغَ مِنْ دَلْوِكَ فِي إِنَاءِ الْمُسْتَسْقِي، وَلَوْ أَنْ تُنَحِّيَ الشَّيْءَ مِنْ طَرِيقِ النَّاسِ يُؤْذِيهِمْ، وَلَوْ أَنْ تَلْقَى أَخَاكَ، وَوَجْهُكَ إِلَيْهِ مُنْطَلِقٌ، وَلَوْ أَنْ تَلْقَى أَخَاكَ، فَتُسَلِّمَ عَلَيْهِ، وَلَوْ أَنْ تُؤْنِسَ الْوَحْشَانَ فِي الأرض، وَإِنْ سَبَّكَ رَجُلٌ بِشَيْءٍ يَعْلَمُهُ فِيكَ، وَأَنْتَ تَعْلَمُ فِيهِ نَحْوَهُ؛ فَلَا تَسُبَّهُ، فَيَكُونَ أَجْرُهُ لَكَ، وَوِزْرُهُ عَلَيْهِ، وَمَا سَرَّ أُذُنَكَ أَنْ تَسْمَعَهُ؛ فَاعْمَلْ بِهِ، وَمَا سَاءَ أُذُنَكَ أَنْ تَسْمَعَهُ؛ فَاجْتَنِبْهُ"[1].

دلالة الفعل المضارع ﴿يَعْمَلْ﴾:

المُـداومـة على الأعـمـال الصَّالحة

الفعل المضارع ﴿يَعْمَلْ﴾ معناه: طلب المداومة على العمل، وتجدُّد أنواع الأعمال، ثمّ بيّن أنَّ الأعمال هي من قبيل الصَّالحات، فحسب، فقال: ﴿مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، فأفاد أنواع الصَّالحات الَّتي لا يمكن حصرها... وجعل ركيزة الإيمان هي الفاصل والحَكَم.

ولمَّا أبدى جزاء المسيء تحذيرًا؛ أولاه أجر المحسن تبشيرًا، فقال: ﴿وَمَن يَعْمَلْ﴾، وخفَّف تعالى عن عباده بقوله: ﴿مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، ولمَّا عمَّمَ بقوله: ﴿مِنَ﴾؛ صرَّح بما اقتضته في قوله: ﴿مِن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ﴾، وقيَّد ذلك بقوله: ﴿وَهُوَ﴾، أي: والحال أنَّه ﴿مُؤۡمِنٞ﴾؛ ليكون بناؤه الأعمال على أساس الإيمان ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾، أي: العالُو الرُّتبة[2].

العدول من المبنيِّ للفاعل إلى المبنيِّ للنَّائب عن الفاعل في قراءة ﴿يُدۡخَلُونَ﴾:

وقرأ الجمهور ﴿يَدۡخُلُونَ﴾ بفتح التَّحتيَّة وضمِّ الخاء[3]، من الثُّلاثيِّ(دخل)، وقرأه بعضُهم بضمِّ التَّحتيَّة وفتح الخاء[4] على

(1) الإمام أحمد، المسند، الحديث رقم: (15955).

(2) البقاعيّ، نظم الدُّرَر: 5/411.

(3) وهي قراءة ابن عامر ونافع وحمزة والكسائيّ وعاصم برواية حفص، وخلف، ينظر: الداني، التيسير، ص: 97، وابن الجزري، النشر: 2/252.

(4) وهي قراءة ابن كثير وأبي عمرو وأبي بكر عن عاصم وأبي جعفر ويعقوب وروح، ينظر: ابن الجزري، ، النشر: 2/252.

البناء للنَّائب من (أُدْخِلَ)، وفيها إشارة إلى أنَّ دخولهم الجنَّة محض كرم، وعظيم فضل من اللّه تعالى، لا بأعمالهم الصَّالحات؛ وإن كانت أعمالهم سببًا فيه، وفي رفع درجاتهم، كما أخبر النَّبيُّ ﷺ: "مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ يُدْخِلُهُ عَمَلُهُ الْجَنَّةَ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: وَلَا أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: "وَلَا أَنَا، إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللَّهُ بِرَحْمَتِهِ"[1].

وقراءة الجمهور ﴿يَدْخُلُونَ﴾ بالبناء للفاعل تشير إلى تصوير هذا الإكرام، وذاك الفضل العظيم في دخولهم الجنَّة؛ حيث ذلَّل لهم الصِّعاب، ويسَّر لهم الأسباب، فعملوا الصَّالحات، فكانت تلك الأعمال سببًا في دخولهم الجنَّة، والمُنْعِم واحدٌ في الحالين، وهو الرَّحمن ذو الجلال والإكرام.

دلالة الطِّباق في قوله: ﴿مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ﴾:

العموم والمساواة

قوله تعالى: ﴿مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ﴾ تأكيد للعموم المفهوم مِن ﴿مِن﴾، فضلًا عن دلالة المساواة عند اللّه بين الذَّكر والأنثى، والرَّدُّ على من حَرَمَ المرأة حظوظًا كثيرة من العمل والخير والتَّفاعل في المجتمع، فقد جاء القرآن متبنِّيًا قضيَّة المساواة أمام اللّه في تقديم الصَّالحات والخير.

وكثيرًا ما أردف القرآن ذِكْرَ الأنثى مع الذَّكَرِ، أو المرأة مع الرَّجُلِ، والآيات في ذلك كثيرة.

الحَمْل على اللَّفظ في قوله: ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾:

يوزن الإيمان بعيدًا عن جنس صاحبه

جملة: ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ حال من الضَّمير المستتر في ﴿يَعْمَلْ﴾ العائد على ﴿وَمَن﴾، وهو في اللَّفظ مفرد؛ ولذلك جاء الضَّمير في صدر الجملة الحاليَّة مفردًا؛ لنكتة بلاغيَّة، وهي الإشارة إلى هذا العمل المؤسَّس على الإيمان، ولا قيمة لإنسان مهما يكن قدره من دون إيمان، كما أنَّه لا التفات إلى جنس أو لون أو لغة.

(1) الطبراني، الأوسط: 6/332.

الاختصاص والتَّتميم في قوله: ﴿وَهُوَ مُؤۡمِنٞ﴾:

الإيـــمـــان هـو المـرآة العاكسة الـشّـاهـدة على أعـمـال كـلّ ذكر أو أنثى

وردت هذه العبارة القرآنيَّة أيضًا في سورة النَّحل: ﴿مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ﴾ [الآية 97]، كما أنَّ العبارة تكرَّرت في سورة غافر في قوله: ﴿وَمَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ﴾ [الآية 40].

والتَّتميم: في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ﴾، فتكرَّرَ التَّتميم هنا مرَّتين، الأولى: في قوله تعالى: ﴿مِن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ﴾؛ لأنَّ (مَن) الشَّرطيَّة تفيد العموم، فكان لا بدَّ من تتميمها بذلك للتَّأكيد، وإزالة وهم التخصيص، جريًا على معتقدات العرب القديمة في تفضيل الذَّكر على الأنثى وإيثاره بكلِّ ما هو خير[1]، والثَّانية: قوله: ﴿وَهُوَ مُؤۡمِنٞ﴾ جملة حاليَّة، فقوله: ﴿وَهُوَ مُؤۡمِنٞ﴾ تتميم في غاية الحُسن[2]، وقيد في عمل الإنسان؛ لأنَّه لو عمل من الأعمال الصَّالحة ما عمل، فلا ينفعه إلَّا إذا كان مؤمنًا، قال الزَّمخشريُّ: وإذا أبطل الله الأمانيَّ، وأثبت أنَّ الأمر كلَّه معقود بالعمل الصَّالح، وأنَّ من أصلح عمله، فهو الفائز، ومن أساء عمله، فهو الهالك؛ تبيَّن الأمر، ووضح، ووجب قطع الأمانيّ، وحسم المطامع، والإقبال على العمل الصَّالح، ولكنَّه نُصْحٌ لا تَعِيَه الآذان، ولا تُلْقَى إليه الأذهان[3]، والَّذي تدلُّ عليه الآية أنَّ الإيمان شرط في الانتفاع بالعمل؛ لأنَّ العمل شرط في صحَّة الإيمان[4].

فالجملة اعتراضيَّة مؤكِّدة أنَّ أسباب الفوز والنَّجاة متوقِّفة على الإيمان، وجاءت كلمة الإيمان هنا مجملة لمعنى أركان الإيمان كلِّها؛ إذ لا يصحُّ تجزئة الإيمان، والجملة اسميَّة تدلُّ على الثَّبات.

(1) صافي، الجدول: 14/384.
(2) الزّركشي، البرهان: 3/70، والسّيوطي، معترك الأقران: 280.
(3) الزّمخشري، الكشّاف: 1/600.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/76.

دلالة الفعل المضارع في قوله: ﴿فَأُوْلَـٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ﴾:

استحضار صورة سعادتهم حين يدخلون الجنَّة

اسم الإشارة (أولئك) مبتدأ، والخبر جملة فعليَّة ﴿يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ﴾؛ لتقوية حكم الإسناد، والجمع يدلُّ على كثرة الدّاخلين، والمُضارع يدلُّ على تجدُّد الدُّخول مجاميع وزرافات، ويُصَوِّر فرحتهم حين يدخلون الجنَّة، ومن تمام سعادتهم أنَّهم يُوفَّون أجورهم أضعافًا مضاعفة، ويوقنون بعدالة المَلِك ﷻ، ثم يبيّن أنَّه على الرَّغم من كثرتهم وتواليهم إلَّا أنَّه سبحانه أعلم بكلِّ دقيقة في أفعالهم وحياتهم، فلا يُظلمون شيئًا، فتُجدَّد ضمان الحقوق مهما صغُرت بقوله: ﴿وَلَا يُظۡلَمُونَ نَقِيرًا﴾.

السِّرُّ في تخصيص الصَّالحين بأنَّهم لا يُظلمون وغيرهم مثلهم في ذلك:

نفيُ النُّقصان في الفضل دليلٌ على نفيه في العدل

مجازاة الصَّالحين تكون بإثابتهم على أعمالهم، وما يتبعُها من إخلاص وإتقان وغير ذلك ممَّا لا يُقدِّرُه الملَكان، وإنَّما يجزيهم اللّه عليه بفضله، ولن يُنقصهم شيئًا ممَّا لم يَطَّلِع عليه أحدٌ غيره، وهذا المعنى ممَّا يُحَسِّن تخصيصهم بنفي النقصان عنهم، وينتفي عن غيرهم من باب أولى.

وقد ذكر الزَّمخشريُّ لذلك وجهين، أحدهما: أن يكون الرَّاجع في: ﴿وَلَا يُظۡلَمُونَ﴾ لعمَّال السُّوء وعمَّال الصَّالحات جميعًا، والثَّاني: أن يكون ذكره عند أحد الفريقين دالًّا على ذكره عند الآخر؛ لأنَّ كلا الفريقين مجزيَّان بأعمالهما لا تفاوت بينهما، ولأنَّ ظلم المسيء أن يُزاد في عقابه، وأرحم الرَّاحمين معلوم أنَّه لا يزيد في عقاب المجرم، فكان ذكره مستغنًى عنه، وأمَّا المحسن؛ فله ثواب، وتوابع للثَّواب من فضل اللّه، هي في حكم الثَّواب، فجاز أن ينقص من الفضل؛ لأنَّه ليس بواجب، فكان نفي الظُّلم دلالةً على أنَّه لا يقع نقصان في الفضل[1].

(1) الزمخشري، الكشاف: 1/568.

بلاغة الاستعارة في قوله: ﴿نَقِيرًا﴾:

تصوير المعنويّ بالمحسوس لتوضيح كمال العدل

﴿نَقِيرًا﴾، أي: عملًا قليلًا كالنَّقير، والنَّقير: ما في ظهر النَّواة من تلك الوقبة الصَّغيرة جدًّا، ﴿نَقِيرًا﴾، فهو فعيل، بمعنى: مفعول[1]، فشبَّه القليل من العمل الصَّالح بأقلِّ ما يمكن أن يتصوّره إنسان على سبيل الاستعارة التَّصريحيَّة؛ إذ صرَّح بالمشبَّه به: وهو (النَّقير)، وحذف المشبَّه: وهو (العمل القليل)، وفائدة هذه الاستعارة: استحضار ما يمكن أن يمرَّ بخاطر السَّامعين من صغر حجم العمل المُتقبَّل عند الله سبحانه في قوله: ﴿مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، كي لا يستهين، وينكر أحد صغر العمل ما دامت النِّيّة صحيحة، وحاكمها الإيمان بالله سبحانه.

بلاغة الكناية عن العدم في قوله: ﴿وَلَا يُظۡلَمُونَ نَقِيرًا﴾:

عظيم العدل الإلهيّ

وعموم قوله: ﴿وَلَا يُظۡلَمُونَ نَقِيرًا﴾ كناية عن عظيم العدل الإلهيِّ، والإحاطة بكلِّ مخلوقاته سبحانه تقديرًا وعلمًا، و﴿نَقِيرًا﴾: نائب مفعول مطلق، أي: ظلمًا مقدار نقير[2]، أي: لا يظلم الله المطيع منهم بنقص شيء ما، ولا العاصي بزيادة شيء ما، كنَّى بها عن العدم، وهذا على ما يتعارفه النَّاس، وإلَّا فالله تعالى له أن يفعل ما يشاء، فإنَّ مِلكه - ومُلكه عامٌّ - لا يتصوَّر منه ظلم كيفما فعل[3]، فالمراد هنا: المعنى المجازيُّ كناية عن الضَّئيل الحقير والتَّافه الَّذي لا قيمة له[4].

الحمل على المعنى في قوله تعالى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ﴾:

التَّفضُّل والإنعام

في قوله: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ﴾ جاء اسم الإشارة مجموعًا، والمشار إليه معنى (مَن) الشَّرطيَّة؛ لأنَّه لفظ عامٌّ، يدخل فيه المفرد

(1) صافي، الجدول: 5/181.
(2) الخرّاط، المجتبى من مشكل إعراب القرآن: 1/201.
(3) البقاعيّ، نظم الدُّرَر: 5/412.
(4) بنت الشّاطئ، الإعجاز البياني للقرآن: 487.

والمثنَّى والجمع، والمذكَّر والمؤنَّث، فحُمِل هنا على المعنى، وعُبِّر عنه بالجمع؛ للإشارة إلى الفرق بين مقام العمل وإيمان صاحبه، ومقام الإنعام ودخول الجنَّة، فالأوَّل: يناسبه التَّعبير بالمفرد، والحمل على اللَّفظ كما سبق، والآخر: يناسبه التَّعبير بالجمع، والحمل على المعنى؛ لأنَّ دخول الجنَّة محض فضل وكرم، ولأنَّ السَّعادة كلَّ السَّعادة في دخولهم الجنَّة زُمَرًا زُمَرًا، فالتَّعبير بالجمع أنسب في الجزاء، وسُبْحَانَ مَنْ إِذَا وَعَدَ؛ وَفى، وَإِذَا تَوَعَّدَ؛ عَفَا!

سرُّ العدول عن (شيئًا) إلى ﴿نَقِيرًا﴾:

آثر التَّعبير هنا بالنَّقير، وفي مواضع أخرى بالشَّيء، كما في قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ وَلَا يُظۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا ٦٠﴾ [مريم: 60].

وقد تكرّر ﴿نَقِيرًا﴾ هنا بعد أن وردت قبلها في قوله: ﴿أَمۡ لَهُمۡ نَصِيبٞ مِّنَ ٱلۡمُلۡكِ فَإِذٗا لَّا يُؤۡتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا ٥٣﴾ [النِّساء: 53]، والنَّقير بحسب ما ورد في معاجم اللُّغة: هي نقرة النَّواة، أو البؤرة الَّتي نتجت عن فعل دقيق، فالنَّقيرُ: نكتة في ظهر النَّواة منها تنبت النَّخلة، أو البؤرة الَّتي تتضمَّن، وتكمن فيها طاقة، كنقرة النَّواة الَّتي تتضمَّن طاقة كامنة تخرج منها حياة نخلة باسقة، أو هي أثر من طاقة تفعَّلت، فأنجزت هذا النَّقير، فالنَّقيرُ كذلك: أصل خشبة ينقر، فينبذ فيه، والنَّقْرُ: ضرب الرَّحى ونحوه بالمنقار، وهذا متوافق مع دقَّة الأعمال وصِغَرها وكوامنها في النَّفس، فهي تشمل نيَّات البشر الخفيَّة، مثل: الطَّاقة الكامنة في نواة التَّمرة، أو نقرة طائر وما بذل من طاقة.

أمَّا (شيئًا)؛ فإنَّها لا تحوي من تلك المعاني، سوى أنَّها تدلُّ على الشَّيء القليل الدَّقيق مهما يكن، فهي أعمُّ؛ إذْ إنَّها جاءت في سياق يشمل كثيرًا من المستثنين الدَّاخلين في قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾، فناسب شمول السِّياق عموم (شيء)، كما ناسب مكيَّة السُّورة.

وناسب أن يذكر النَّقير في معرض الحديث عن الأفعال والأقوال والأعمال للدَّلالة على أقلِّ طاقة يمكن أن تبذل في حسنة أو سيِّئة، فيكون الجزاء من جنس العمل، فأفعال النَّاس يمكن تشبيهها بالنَّقير لاحتواء الطَّاقة والحركة والفعل الكامن في النَّقير، كما ناسب ذكرُه مدنيَّةَ السُّورة؛ حيث السِّياقُ الخاصُّ من جهة، وشُيُوعُ النَّخيل من جهة أُخرى.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

النَّقير والفتيل والقطمير:

تجتمع حقيقة هذه الثَّلاثة في النَّواة، فالنَّقير: النُّقرة في ظهر النَّواة الَّتي تنبت منها النَّخلة، والفتيل: هو الخيط الأبيض الدَّقيق في شقِّ النَّواة، والقطمير: هو الغشاء الرَّقيق الملتفُّ حول النَّواة، وقد خصَّ القرآن الكريم كلًّا منها في السِّياق المناسب لها على النَّحو الآتي:

أوَّلًا: ذكر النَّقير في القرآن الكريم في سورة النِّساء مرَّتين: أولاهما في قوله: ﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ ٱلْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا ﴿٥٣﴾﴾ [النساء: 53]، والأخرى: هنا في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾.

ثانيًا: وذكر الفتيل ثلاث مرَّات على النَّحو الآتي:

1- في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم ۚ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٤٩﴾﴾ [النِّساء: 49].

2- وفي قوله تعالى: ﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧٧﴾﴾ [النِّساء: 77].

3- وفي قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا۟ كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَٰمِهِمْ ۖ فَمَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَٰبَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧١﴾﴾ [الإسراء: 71].

ثالثًا: وذكر القطمير في قوله تعالى: ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۚ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾﴾ [فاطر: 13].

ومن خلال تدبُّر السِّياقات المختلفة لهذه الآيات الكريمات يتَّضح لنا سرُّ اصطفاء كلِّ لفظة في سياقها، فالنَّقير يعبِّر عن نقص شيء من الخير بمقدار هذه النُّقَيْرة الَّتي في ظهر النَّواة، وهو مناسب لسياق آيتي سورة النِّساء، حيث إنَّه جاء في الآية الأولى في سياق الَّذين أوتوا نصيبًا من الكتاب (وهم بعض أهل الكتاب من اليهود)، لو أنَّهم - فرضًا -

أُعطُوا نصيبًا من الملك؛ فلن يؤتوا النَّاس منه شيئًا، ولو بمقدار النُّقَيْرَة في ظهر النَّواة لشدَّة بخلهم وحرصهم، أي: إنَّهم لن يُنفقوا ممَّا عندهم شيئًا.

وفي الآية الَّتي معنا الخاصَّة بالمؤمنين الَّذين يعملون الصَّالحات لن يُظلموا ممَّا قدَّموا من الخير، ولو بمقدار النَّقِير؛ فناسب في الآيتين لفظ (النَّقير) السِّياق من وجهين:

الأول: أنَّ النَّقير أثرٌ دائمٌ في النَّواة، وهؤلاء اليهود لن ينفقوا شيئًا ذا أثرٍ، ممَّا يُرجى من صاحب المُلك، على فرض إتيانهم الملك، وكذا المؤمنون الَّذين يعملون الصَّالحات يدخلون الجنَّة، ولا ينقصون من حسناتهم شيئًا.

الآخر: هو مثل يُضرب للشَّيء الضَّئيل، ولكن يُرجَى منه الخير، كما تنبت من النَّقير النَّخلة، كما في عمل المؤمنين، أو يفترض منه الخير، كما في أهل الكتاب.

وقد يكون النَّقير مثَلًا ضُرِب للشَّيء القليل ممَّا يُكال، ولو بمقدار ما يوضع في هذه النُّقَيْرَة.

وناسب لفظ (الفتيل) سياق كلِّ آية من آياتها الثَّلاث، وذلك من وجهين:

الأول: أنَّ الفتيل ملتفٌّ حول نفسه بامتداد شقِّ النَّواة، وهذا مناسب لنظر المزكِّي لنفسه، فإن كان له حقٌّ - ولو بمقدار الفتيل - لن يُنقصَه، وكذا من أخذ من متاع الدُّنيا القليل، ولبس لباس التَّقوى، لن يُظلم حقُّه، إنْ خيرًا؛ فخيرٌ، وإنْ شرًّا؛ فشرٌّ، وكذا مَن أوتي كتابه بيمينه يوم القيامة يقرؤون كتابهم، ولا يظلمون شيئًا، ولو بمقدار الفتيل، وما أشبهه بالكتاب الملفوف.

والآخر: مناسبة ذكر الفتيل في نفي الظُّلم عمَّن هو في الدُّنيا أو في الطَّريق إلى الآخرة؛ لما في الفتيل من معنى الامتداد في شَقِّ النَّواة، ومناسبة ذكر النَّقير في نفي الظُّلم عمَّن يدخلون الجنَّة؛ لما في أعمالهم من أثرٍ دائم؛ إذْ إنَّهم صاروا في دار التَّشريف لا التَّكليف.

وقد يكون الفتيل مثلًا ضُرِب للشَّيء القليل مِمَّا يوزن، ولو بقدر هذا الفتيل الخفيف اللَّطيف؛ ولذا فسَّره كثيرٌ منهم[1] بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّـهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖۖ﴾ [النِّساء: 40].

(1) كأبي حيان، في البحر المحيط: 3/673.

كما ناسب لفظ القطمير سياقَ الآية الكريمة من وجهين:

أوَّلهما: أنَّ القطمير هو الأنسب للمثل المضروب في نفي امتلاك الأصنام شيئًا، حيث إنَّه يُمْكن فصْلُه عن النَّواة وحوزُه، وهو معنى المِلْك، ولا يُمكن فصل النَّقير عن نواته، كما يَصعب نزع الفتيل غالبًا، وسُمِّيَ بهذا الاسم؛ لأنَّه إذا أراد الإنسان استخراجَه؛ انفتل.

والآخر: أنَّ المُلْك كلَّه لله، فكيف يعبدون أصنامًا لا تملك شيئًا، ولا تخلُق شيئًا، ولو بقدر الغِشاء الرَّقيق الَّذي حول النَّواة؟ وهذه اللُّفافة الرَّقيقة الَّتي خلقها الله، وجعلها حول النَّواة، بينها وبين الثَّمرة، كأنَّها كُسوة لها، وأمَّا الأصنام الَّتي مِن صُنْعهم يعبدونها من دون الله؛ فهي لا تملك ما تملكه تلك النَّواة المخلوقة لله تعالى.

كما أنَّ ذكرَ القطمير مناسب لقدرة الله المطلقة، وعجز المخلوق عن خَلْق شيء، ولو قطميرًا، فناسب ذلك اسم السُّورة (فاطر)، كما ناسب أهدافها، من آثار القدرة الإلهيَّة، وآيات الله الكونيَّة؛ فهذه النَّواة من آيات الله الدَّالَّة على قدرته وحكمته وربوبيَّته.

وما أجملَ قولَ الشَّاعر[1]:

فيا عجبًا كَيْفَ يُعْصى الإلـ *** ـهُ أمْ كَيْفَ يَجْحَدُهُ الجَاحِدُ

ولله في كلِّ تحريكَةٍ *** وفي كلِّ تَسكينَةٍ شاهِدُ

وَفِي كُـلِّ شَيءٍ لَـهُ آيَـةٌ *** تَـدُلُّ عَلَى أنَّهُ الْوَاحِـدُ

(1) نسبت إلى أبي العتاهية، من البحر المتقارب، وهي في ديوانه، ص: 45، وقد نسبت إلى لبيد بن ربيعة، وهي غير موجودة في ديوانه المطبوع.

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًاۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ١٢٥﴾ [النساء: 125]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

ولمّا بيَّن تعالى أنَّ أمر النَّجاة منوطٌ بالعمل الصَّالح والإيمان معًا؛ ناسب هنا أن يتبعه ببيان درجة الكمال في ذلك، وهو الدِّين القيِّم، فقال: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾[1]، فليس أحد أحسن دينًا ممَّن أسلم وجهه لله، فيخلص له التّوجُّه، واتَّبع ملَّة إبراهيم، منحازًا إليها حنيفًا مائلًا عن الوثنيَّة أو ما شاكلها من دروب الإشراك وطرائقه.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَٱتَّبَعَ﴾: جذر الكلمة هو: (تبع) التَّابع: التَّالي، ومنه التَّتبُّعُ والمتابعة، والاتِّباع، يتبَعه: يتلوه، والتَّتَبُّعُ: فعلك شيئًا بعد شيء، تقول: تتبَّعتُ علمه، أي: اتَّبعت آثاره، قال سيبويه: تَتَبَّعَه اتِّباعًا؛ لأنَّ (تَتَبَّعْت) في معنى: اتَّبَعت[2]، وقال القطَّامي:

وخيرُ الأمرِ ما استَقبَلْتَ مِنْهُ *** وَليس بأن تتبَّعه اتِّباعا[3]

وفي التَّنزيل: ﴿ثُمَّ ٱتَّبَعَ سَبَبًا ٨٩﴾ [الكهف: 89]، ومعناها: تبع، أي: لحق، وأدرك[4].

2) ﴿حَنِيفًاۗ﴾: جذر الكلمة هو: (حنف) الحَنَفُ: مَيْلٌ في صدر القَدَم، ورجلٌ أَحْنَفُ، ورجلٌ حَنْفاءُ، ويقال: تَحَنَّفَ فلان إلى الشَّيء تحنُّفًا؛ إذا مال إليه، والحَنيفُ - في قولٍ - المُسلمُ الَّذي يستَقبِل قِبْلَةَ البَيت الحَرام على مِلَّةِ إبراهيم حَنيفًا مُسْلِمًا[5]، والقول الآخر: الحنيفُ كلُّ من أَسْلَمَ في أمر الله، فلم يلتوِ في شيءٍ منه، وأَحَبُّ الأديان إلى اللهِ الحَنيفيَّة السَّمْحة، وهي مِلَّة النَّبيِّ ﷺ لا ضيقٌ فيها ولا حرج[6].

(1) رضا، تفسير المنار: 5/375.
(2) سيبويه، الكتاب: 4/82، وفيه: "لأنَّ تَتَبَّعْتُ واتَّبَعْتُ في المعنى واحدٌ".
(3) الدّينوري، الشّعر والشّعراء: 2/714.
(4) ابن سيده، المُحكم: (تبع). وهي قراءة نافع وأبي جعفر وابن كثير وأبي عمرو ويعقوب.
(5) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، والزّمخشري، أساس البلاغة: (تبع).
(6) الخليل، العين: (تبع).

3) ﴿خَلِيلًا﴾: جذر الكلمة هو: (خلل)، واخْتُلَّ إلى فلانٍ، أي: احتيج إليه، من الخَلَّة، وهي الحاجة، والخَلَّةُ: الخَصْلَةُ، والخِلُّ: الرَّجلُ الخليل[1]، والخِلُّ والخَليل وَاحِد، وَكَذَلِكَ الخلَّة أَيْضًا، والخُلَّة: الْمَوَدَّة[2]، والخليل في كلام العرب: الصَّاحب الملازم الَّذي لا يخفى عنه شيء من أمور صاحبه، مشتقٌّ من الخِلال، وهو النَّواحي المتخلِّلة للمكان، قال تعالى: ﴿فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ﴾ [النور: 43]، وقوله: ﴿وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا ۝٣٣﴾ [الكهف: 33]، هذا أظهر الوجوه في اشتقاق الخليل، وتطلق الخُلَّة - بضمِّ الخاء - على الصُّحبة الخالصة، قال تعالى: ﴿لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ﴾ [البقرة: 254].

❁ المعنى العامُّ للآية:

قوله: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾، ومن أحسن دينًا: أحكم دينًا، دلَّ على الدِّين المقبول عند الله تعالى، ﴿مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ﴾، أي: أخلص عمله لله، وقيل: فوَّض أمره إلى الله، ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾، أي: موحِّد، فتوجَّه إلى الله، ولم يتوجَّه إلى غيره، وقوله: ﴿وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا﴾، يعني: دين إبراهيم عليه السلام، حنيفًا: مسلمًا مخلصًا، قال ابن عبَّاس: ومن دين إبراهيم: الصَّلاة إلى الكعبة، والطَّواف بها، ومناسك الحجِّ، وإنما خصَّ بها إبراهيم؛ لأنَّه كان مقبولًا عند الأمم أجمع، وقيل: لأنَّه بعث على ملَّة إبراهيم، وزيدت له أشياء[3]، وقوله: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾: صفيًّا، والخُلَّة: صفاء المودَّة، أي: اصطفاه لتوحيده وإقامة دينه، وكان كامل الحُبِّ لله، وقد تخلَّل ذلك الحُبُّ روحَه؛ ولذلك عادى أباه وقومه في حبِّه تعالى والإخلاص له، وقيل: المعنى: أنَّه خصّه بكرامات تشبه كرامات الخليل عند خليله[4].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالة الواو في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ﴾:

الواو: استئنافيَّة، "لمَّا بيّن الله تعالى أنَّ الجنَّة لمن يعمل من الصَّالحات، وهو مؤمن؛

(1) الخليل، العين: (خلل).
(2) ابن دريد، جمهرة اللغة: (خلل).
(3) البغويّ، معالم التّنزيل: 1/705.
(4) الموصلّي، أولى ما قيل: 3/132 - 133.

استئنافيَّة شرحًا للإيمان وبيان فضله

شرح الإيمان، وبيَّن فضلَه، فقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا﴾، يعني: ومن أحكم دينًا"[1].

"والأظهر أنَّ الواو للحال من ضمير يدخلون الجنَّة الَّذي (ماصَدَقهُ)[2] المؤمنون الصَّالحون، فلمَّا ذكر ثواب المؤمنين؛ أعقبه بتفضيل دينهم"[3].

الإيجاز بالقصر في الآية الكريمة:

جمعت المقاصد والأغـــراض في الاعتقاد والعمل

حيث عبّرت الآية الكريمة عن دين الإسلام تعبيرًا مختصرًا، ولكنَّه يشمل كلَّ ما فيه، فهو مبنيٌّ على أمرين: الاعتقاد والعمل، أمَّا الاعتقاد؛ فإليه الإشارة بقوله: ﴿أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ﴾؛ لأنَّ الإسلام هو الانقياد والخضوع، والوجه أحسن أعضاء الإنسان، فالإنسان إذا عرف بقلبه ربَّه، وأقرَّ بربوبيَّته وبعبوديَّة نفسِه؛ فقد أسلم وجهه لله، وأمَّا العمل؛ فإليه الإشارة بقوله: ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾، ويدخل فيه فعل الحسنات وترك السَّيِّئات، فتأمَّلْ في هذه اللَّفظة المختصرة واحتوائها على جميع المقاصد والأغراض[4].

فقد اشتملت هذه الكلمات العشر على الدِّين كلِّه أصلًا وفرعًا مع التَّرغيب بالمدح الكامل لمتَّبعه، وإفهام الذَّمِّ الكامل لغيره[5]، وهذا من جميل الإيجاز في الآية الكريمة.

جناس الاشتقاق بين ﴿أَحْسَنُ﴾ و﴿مُحْسِنٌ﴾:

لـــلـــحُـــسْـــنِ ولـــلإحـــســـان جـــوهـــر واحـــد يدور فلكه حول الإيمان

جناس الاشتقاق أو التَّجنيس المغاير[6]في قوله: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا﴾ ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾، وفائدة هذا الاشتقاق: بيان أنَّ الإحسان يؤدِّي

(1) الخازن، لباب التأويل: 1/431.
(2) الماصدق عِنْد المناطقة: الْأَفْرَاد الَّتِي يتَحَقَّق فِيهَا معنى الْكُلِّيّ، المعجم الوسيط: باب الصاد.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 5/210.
(4) الرازي، مفاتيح الغيب: 11/45.
(5) البقاعيّ، نظم الدُّرَر: 5/413.
(6) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/78.

إلى أحسن الدِّين بعد إسلام الوجه لله، فيكون الإحسان هنا: حسن الأخلاق ومكارمها، وأنَّ الأخلاق الَّتي منبعها الإسلام هي شطر الدِّين، ومن ذلك قوله ﷺ: "إِذَا جَاءَكُمْ مَنْ تَرْضَوْنَ دِينَهُ وَخُلُقَهُ؛ فَزَوِّجُوهُ، إِلَّا تَفْعَلُوا؛ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الأرض وَفَسَادٌ كَبِيرٌ، وَفِي رِوَايَةٍ: عَرِيضٌ، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، وَإِنْ كَانَ فِيهِ؟[1] قَالَ: إِذَا جَاءَكُمْ مَنْ تَرْضَوْنَ دِينَهُ وَخُلُقَهُ؛ فَأَنْكِحُوهُ، قَالَهَا ثَلَاثَ مَرَّاتٍ"[2]، فالدِّين والأخلاق متلازمان للأمثل من الأحوال ممَّن استحقَّ المدح من الله، والتّشريف بأحسن السُّبل الَّتي يمكن أن يختارها الإنسان.

الاستفهام الإنكاريُّ في قوله: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا﴾:

مدح من فعل ذلك على أتمِّ وجه

والاستفهام إنكاريٌّ، وهو في معنى النَّفي، والمقصود مدح من فعل ذلك على أتمِّ وجه،[3]، فلمَّا ذكر ثواب المؤمنين؛ أعقبه بتفضيل دينهم، فقال: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا﴾، ويدلُّ على استبعاد أن يكون أحدٌ أحسن دينًا ممَّن ﴿أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا﴾، وفي هذا الاستفهام تنبيهٌ على أنَّ ذلك منتهى ما تبلغه القوَّة البشريَّة[4]، فذلك أسمى ما يمكن أن يحقِّقه الإنسان في صحَّة التَّديُّن والتَّعبُّد، ومع ذلك فهو ممكنٌ مُتاح لجميع النَّاس، أن يلتزموا هذا الأسلوب المُرغَّب فيه الَّذي مدحه الله تعالى في كتابه، فيكون الفرد على أتمِّ وجه وأكمله، كما جاءت بهم الرُّسل عليهم السلام.

الكناية في قوله: ﴿أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ﴾:

نبّهت على شَرَفِ المَنبَع وفوزِ المتَّبِع

لمَّا كان المُرادُ الإخلاصَ الَّذي هو أشرف الأشياء، عبَّر عنه بالوجه الَّذي هو أشرف الأعضاء، فقال: ﴿وَجْهَهُۥ﴾، أي: قياده، أي: الجهة الَّتي يتوجَّه إليها بوجهه، أي: قصده كلُّه الملازم للإسلام نفسه لله،

(1) أَيْ: شَيْءٌ مِنْ قِلَّةِ الْمَالِ أَوْ عَدَمِ الْكَفَاءَةِ، ينظر: المباركفوري، تحفة الأحوذي: 3/151.
(2) عبد الجبار، الجامع الصحيح للسُّنن والمسانيد: 34/374.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 3/148.
(4) البيضاوي، تفسير البيضاوي: 2/99.

فلا حركة له، ولا سكنة إلَّا فيما يرضاه؛ لكونه الواحد الَّذي لا مثل له، فهو حصر بغير صيغة الحصر، فأفاد فساد طريق مَن لفت وجهه نحو سواه باستعانة أو غيرها[1].

وإسلام الوجه له تعالى: توجُّه القلب إليه، وعبَّر عنه به؛ لأنَّ الوجه أعظم مظهر لما في النَّفس من الإقبال أو الإعراض، والسُّرور أو الكآبة إلى نحو أولئك، وتوجيهه له: جعله يتوجه إليه وحده في طلب حاجته، وإخلاص عبوديَّته؛ إذ هو المستحقُّ للعبادة القادر على الأجر والثَّواب[2].

وإسلام الوجه كناية عن صفة تمام الطَّاعة والاعتراف بالعبوديَّة، وهو أحسن الكنايات؛ لأنَّ الوجه أشرف الأعضاء، وفيه ما كان به الإنسان إنسانًا، وفي القرآن ﴿فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِۗ﴾ [آل عمران: 20]، والعرب تذكِّر أشياء من هذا القبيل كقوله: ﴿لَنَسْفَعًا بِٱلنَّاصِيَةِ ١٥﴾ [العلق: 15]، ويقولون: أخذ بساقه[3]، أي: تمكَّن منه، وكأنَّه تمثيل لإمساك الرُّعاة الأنعام، ويقولون: ألقى إليه القياد، وألقى إليه الزِّمام، وقال زيد بن عمرو بن نفيل: يقول: أنفي لك عانٍ راغم، ويقولون: يدي رهْن لفلان، وأراد بإسلام الوجه الاعتراف بوجود اللّه ووحدانيَّته[4].

وخصَّ الوجه بالإسلام للّه تعالى؛ لِمَا يشتمل عليه من السّمع والبصر والتَّذوُّق والشَّمِّ، فهو مجمع الحواسِّ، وهو بمنزلة المقود للإنسان، فإذا أسلم هذا العضو؛ فبقيَّة الأعضاء تبع له ومنقادة لأوامره ونواهيه، وهذا من أسرار البلاغة والبيان والدِّقَّة المتناهية في التَّعبير القرآنيِّ الكريم[5].

دلالة التَّقييد في قوله: ﴿وَٱتَّبَعَ﴾:

ولمَّا كان هذا ينتظم مَن كان على دين أيِّ نبيٍّ كان قبل نسخه؛ قيَّده بقوله: (واتَّبع) أي: بجهد منه ﴿مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ﴾ الَّذي اشتهر عند جميع الطَّوائف أنَّه ما دعا إلَّا إلى اللّه ﷻ وحدَه، وتبرَّأ ممَّا سواه من فلك وكوكب وصنم وطبيعة وغيرهم، قال تعالى: ﴿إِنِّي

(1) البقاعي، نظم الدرر: 2/323.

(2) الهرري، حدائق الروح والريحان: 8/426.

(3) وفي الحديث: «يَا أَيُّهَا النَّاس، مَا بَالُ أَحَدِكُمْ يُزَوِّجُ عَبْدَهُ أَمَتَه، ثُمَّ يُرِيدُ أَنْ يُفَرِّقَ بَيْنَهُمَا، إِنَّمَا الطَّلَاقُ لِمَنْ أَخَذَ بِالسَّاقِ»، أي: الطَّلاق حقُّ الزَّوج الَّذي له أن يأخذ بساق المرأة لا حقُّ للولي، ينظر: ابن ماجه، سُنن ابن ماجه، الحديث رقم: (2081): 1/672.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 5/210.

(5) صافي، الجدول: 5/184.

بـــذل الـجُـهـد وصـرف الطَّاقة لـلـوصـول إلى الحقِّ

﴿وَجَّهۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ حَنِيفٗاۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٧٩﴾ [الأنعام: 79]، حال كون ذلك المتَّبع ﴿حَنِيفٗاۖ﴾ أي: ليِّنًا سهلًا ميَّالًا مع الدَّليل، والمِلَّة: ما دعت إليه الفطرة الأولى بمساعدة العقل السَّليم من كمال الإسلام بالتَّوحيد[1]، ويحتجُّ بقوله: ﴿وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۗ﴾ من يرى شرعه لازمًا لنا؛ ما لم يرد ناسخٌ في شرعنا[2].

التَّرقِّي وتصعيد المعاني في قوله: ﴿وَهُوَ مُحۡسِنٞ﴾:

الإحـســان هو أرقــى درجــات الإيمان

قوله: ﴿وَهُوَ مُحۡسِنٞ﴾ الواو للحال، والجملة حاليَّة، من الضَّمير المستتر في (أسلَمَ)، وقُصِد منها اتِّصافُه بالإحسان حين إسلامِه وجهَه لله، أي: خلع الشِّرك قاصدًا الإحسان، أي: راغبًا في الإسلام؛ لما رأى فيه من الدَّعوة إلى الإحسان، وقد ذكر قبل ذلك في الآية السَّابقة جملة حاليَّة مثلَها، وهو قوله: ﴿وَهُوَ مُؤۡمِنٞ﴾، وصاحب الحال هو الضَّمير المستتر في ﴿يَعۡمَلۡ﴾، وقد ترَقَّى من الإيمان إلى الإحسان؛ للتَّنبُّه على أنَّه في أعلى درجات الإيمان، والإحسان أن تعبد الله كأنَّك تراه؛ فإن لم تكن تراه؛ فإنَّه يراك.

ثُمَّ الترقِّي إلى الاتِّباع، فهو ترقٍّ تصعيديٌّ، يدلُّ على كمال الدِّين، وشموله كلَّ ما يُصلح الحياة، ولعلَّ هذا النَّوع من التَّرقِّي نادر مهمٌّ.

ومعنى ﴿وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۗ﴾: أنَّه اتَّبَعَ شريعة الإسلام الَّتي هي على أسس ملَّة إبراهيم، فهذه ثلاثة أوصاف، بها يكمل معنى الدُّخول في الإسلام، ولعلَّها هي: الإيمان، والإحسان، والإسلام، ولك أن تجعل معنى أسلم وجهه لله: أنَّه دخل في الإسلام، وأنَّ قوله: ﴿وَهُوَ مُحۡسِنٞ﴾: مخلص راغب في الخير، وأنَّ اتِّباع ملَّةِ إبراهيم عُني به التَّوحيد[3]، وهذا الفهم يفيد التَّرقِّي أيضًا.

(1) صافي، الجدول: 5/413.
(2) السّيوطيّ، الإكليل: 101.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 5/211.

وتقدَّم أنَّ حنيفًا معناه: مائلٌ عن الشِّرك أو متعبِّدٌ، يقال: حنف في الطَّريق؛ إذا استقام عليه، فكلُّ من سلك طريق الاستقامة؛ فهو حنيف[1].

العدول عن (مستقيمًا) إلى ﴿حَنِيفًا﴾:

إبـــــراز دور مجاهدة النَّفس

قوله: ﴿حَنِيفًا﴾، أي: مائلًا عن الأديان الباطلة كلِّها: من اليهوديَّة والنَّصرانيَّة والوثنيَّة إلى الدِّين الحقِّ السَّمح الَّذي هو التَّوحيد، وهو حال من المضاف إليه، وهو إبراهيم، فيكون الفعل دالًّا على مجاهدة النَّفس، وكفِّ نشاطها عن الميل والإصغاء إلى الشَّيطان ووسوسته.

كما أنَّ وصفه بالحنيفيَّة يدلُّ على عِظَم مكانة التَّخلِّي قبل التَّحَلِّي، فقد نشأ إبراهيم في بيئة تصنع الأصنام، وتعبدها، وموافقة الرُّشد الَّذي آتاه الله إيَّاه مع الفطرة السَّليمة الممنوحة له ولغيره، وكذلك حال كلِّ مؤمن يقتدي بإبراهيم عليه السلام أنَّه يكون حنيفًا، متجدِّد الميل، مستمرَّ المُتابعة للنَّفس، أمّا "مستقيمًا"؛ فإنَّ الاستقامة هي استقامة الدِّين، وأنَّ المؤمن يخطو خطوات مرسومة له في خطوات الدِّين وتشريعاته وحدوده، فيذهب إبراز دور النَّفس هنا، والمُجاهدة والتَّفاعل مع المُغريات، ورفضها والميل عنها.

وقوله: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبۡرَٰهِيمَ خَلِيلٗا﴾ عطف ثناء إبراهيم على مدح من اتَّبع دينَه زيادةَ تنويه بدين إبراهيم، فأخبر أنَّ الله اتَّخذ إبراهيمَ خَليلًا[2].

الإظهار في موضع الإضمار في قوله: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبۡرَٰهِيمَ خَلِيلٗا﴾:

لتفخيم شأنه، والتَّنصيص على أنَّه الممدوح

قوله: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبۡرَٰهِيمَ خَلِيلٗا﴾، إظهار في موضع الإضمار، فقال: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبۡرَٰهِيمَ خَلِيلٗا﴾ ولم يقل: اتّخذه الله خليلًا، على

(1) أبو الحسن القيرواني، النُّكت في القرآن: 193.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 5/211.

أنَّ المراد بالخليل لازم معنى الخُلَّة، وليست هي كخُلَّة النَّاس مُقتضية المساواة أو التَّفضيل.

وإظهاره - عليه السلام - في موضع الإضمار؛ لتفخيم شأنه، والتَّنصيص على أنَّه الممدوح[1]، والتَّصريح بالمقصود، والاحتراس من الإبهام، ولإعلاء قدره، والتَّنويه بذكره[2].

بلاغة الكناية في قوله: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبۡرَٰهِيمَ خَلِيلٗا﴾:

التَّرغيب في اتِّباع ملّة إبراهيم عليه السلام

ولمَّا كان التقدير ترغيبًا في هذا الاتِّباع، فقد جعل الله سبحانه وتعالى مِلَّة إبراهيم أحسن الملل، وخلقه يوم خلقه حنيفًا؛ عطف عليه قوله: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ﴾، أي: الملك الأعظم أخذ من معين بذلك مجتهد فيه ﴿إِبۡرَٰهِيمَ خَلِيلٗا﴾؛ لكونه كان حنيفًا، فالجملة كُلُّها كناية عن التَّرغيب في اتِّباع ملَّة إبراهيم عليه السلام.

والمراد بالخليل في قوله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبۡرَٰهِيمَ خَلِيلٗا﴾ [النِّساء: 125] مجاز عن اصطفائه، واختصاصه بكرامة تشبه كرامة الخليل عند خليله[3]، والجمهور: على أنَّها من الخُلَّة، وهي المودَّة الَّتي ليس فيها خلل[4].

أو المراد منها الكناية عن عبوديَّة إبراهيم في جملة: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾، فأطلق الخليل، وأريد لازم معنى الخُلَّة، وليست هي كخلَّة النَّاس مقتضية المساواة أو التَّفضيل[5].

نوع الجملة ودلالتها في قوله: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبۡرَٰهِيمَ خَلِيلٗا﴾:

اعتراضيَّة؛ لتأكيد وجوب اتِّباع مِلَّته

قوله: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبۡرَٰهِيمَ خَلِيلٗا﴾ هي جملة اعتراضيَّة لا محلَّ لها من الإعراب، كنحو ما يجيء في الشِّعر من قولهم: والحوادث

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السليم: 2/236.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرَر: 5/414.
(3) الزمخشري، الكشاف: 1/569.
(4) أبو حيان، البحر المحيط: 4/77.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/264.

جَمَّةٌ[1]، وفائدتها: تأكيد وجوب اتِّباع مِلَّته؛ لأنَّ من بلغ من الزُّلفى عند الله أن اتَّخذه خليلًا؛ كان جديرًا بأن تُتَّبع مِلَّتُه وطريقتُه[2].

مناسبة التَّذييل في الآية الكريمة:

التَّرغيب العظيم في هذا الدِّين

جاء قوله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبۡرَٰهِيمَ خَلِيلٗا﴾ تذييلًا للآية الكريمة، وفيها أنَّه لمَّا ذكر مِلَّة إبراهيم، ووصفه بكونه حنيفًا، ثم قال عَقِيبَه: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبۡرَٰهِيمَ خَلِيلٗا﴾ أشعر هذا بأنَّه سبحانه إنَّما اتَّخذه خليلًا؛ لأنَّه كان عالمًا بذلك الشَّرع آتيًا بتلك التَّكاليف، وممَّا يؤكِّد هذا قوله: ﴿۞وَإِذِ ٱبۡتَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٖ فَأَتَمَّهُنَّۖ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامٗاۖ﴾ [البقرة: 124]، وهذا يدلُّ على أنَّه سبحانه إنَّما جعله إمامًا للخلق؛ لأنَّه قد أتمَّ تلك الكلمات.

وإذا ثبت هذا؛ فنقول: لمَّا دلَّت الآية على أنَّ إبراهيم عليه السلام إنَّما كان بهذا المنصب العالي، وهو كونه خليلًا لله تعالى بسبب أنَّه كان عاملًا بتلك الشَّريعة؛ كان هذا تنبيهًا على أنَّ من عمل بهذا الشَّرع لا بدَّ أن يفوز بأعظم المناصب في الدِّين، وذلك يفيد التَّرغيب العظيم في هذا الدِّين[3]، فالتَّذييل جيء به للتَّرغيب في اتِّباع مِلَّته عليه السلام، والإيذان بأنَّه نهاية في الحُسن[4].

(1) وردت هذه الجملة كثيرًا في الشِّعر، ومنه قول كُثَيِّر عزَّة:

فَيَا لَيْتَ شِعْري والحَوَادِثُ جَمّةٌ *** مَتَى تَجْمَعُ الأَيَّامُ يوماً بها شَملا

وهو من البحر الطويل، وهو في ديوانه، ص: 125، قوله: والحوادث جَمَّة، أي: كثيرة، جملة اعتراضيَّة.

(2) الزّمخشري، الكشّاف: 1/602.

(3) الرازي، مفاتيح الغيب: 11/46.

(4) الآلوسي، روح المعاني: 3/148.

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٖ مُّحِيطٗا ١٢٦﴾ [النِّساء: 126]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لمَّا أوعد المشركين بعذاب النَّار خالدين فيها، ووعد المؤمنين بالنَّعيم الدَّائم في الجنان خالدين فيها؛ ناسب هنا أن يُذكِّر بقدرته سبحانه على إنجاز وعده ووعيده، وللتَّدليل على أنَّه المستحقُّ وحده لإسلام الوجه له والتَّوجُّه إليه، في كلِّ حال، ولنفي شبهة المناسبة أو المقاربة في اتِّخاذ الله إبراهيم خليلًا.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿شَيۡءٖ﴾: جذر الكلمة هو (شيأ)، الشَّيء: قيل: هو الَّذي يصحُّ أن يُعلم، ويُخبَر عنه كثير من المتكلِّمين، هو اسم مشترك المعنى؛ إذ استُعمل في الله وفي غيره، ويقع على الموجود والمعدوم، وهو عبارة عن الموجود، وأصله: مصدر شاء، وإذا وُصف به تعالى؛ فمعناه (شاء)، وإذا وصف به غيره؛ فمعناه: المَشِيءُ، وعلى الثَّاني قوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ [الرعد: 16]، والشيء هنا بمعنى: المفعول، وقوله: ﴿قُلۡ أَيُّ شَيۡءٍ أَكۡبَرُ شَهَٰدَةٗۖ﴾ [الأنعام: 19]، فهو بمعنى: الفاعل، كقوله: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ ١٤﴾ [المؤمنون: 14][1].

2) ﴿مُّحِيطٗا﴾: جذر الكلمة هو: (حوط)، حاط يَحُوطُ، والاسم: الحِيطة، يقال: حاطَهُ حيطةً؛ إذا تعاهده[2]، والحائط الجدار الَّذي يحوط بالمكان، والإحاطة تقال على وجهين، أحدهما: في الأجسام، نحو: أحطَّ بمكان كذا، أو تستعمل في الحفظ، نحو قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءٖ مُّحِيطُۢ ٥٤﴾ [فصِّلت: 54]، أي: حافظ له من جميع جهاته، وتستعمل في المنع نحو: ﴿إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمۡۖ﴾ [يوسف: 66]، أي: إلا أن تُمنعوا، والثَّاني: في العلم نحو قوله: ﴿أَحَاطَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عِلۡمَۢا ١٢﴾ [الطَّلاق: 12]، والإحاطة بالشَّيء علمًا هي أن تعلم وجوده وجنسه وكيفيَّته وعرضه المقصودَ به، وبإيجاده وما يكون به ومنه وذلك ليس إلَّا لله تعالى[3].

(1) الراغب، المفردات: (شيأ).
(2) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة: (حوط).
(3) الراغب، المفردات: (حوط).

المعنى العامُّ للآية:

ختمت الآيات السَّابقة بقوله: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا﴾؛ للتَّذكير بقدرته على إنجاز وعده ووعيده، في الآيات الَّتي قبلها، وللتَّدليل على أنَّه المستحقُّ وحده لإسلام الوجه له والتَّوجُّه إليه، في كلِّ حال، ولنفي ما ربَّما يسبق إلى الأذهان من اللَّوازم العادية، في اتِّخاذ الله إبراهيم خليلًا، كأن يتوهَّم أحد أنَّ هنالك شيئًا من المناسبة أو المُقاربة، فبيّن تعالى أنَّ كلَّ ما في السّموات والأرض ملكٌ له ومن خلقه[1]، وهو مع ذلك قادر على ما يريد من إقرار وتبديل، ولذلك قال: ﴿وَكَانَ ٱللَّـهُ﴾، أي: المَلِك الَّذي له الكمال كلُّه، وقوله: ﴿بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا﴾، أي: منهما ومن غيرهما ﴿مُّحِيطًا﴾ علمًا وقدرة، فمهما زاد؛ كان في وعده ووعيده للمطيع والعاصي، لا يخفى عليه أحد منهم، ولا يعجزه شيء[2].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغة القصر في قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۚ﴾:

من الأمور الدَّاخلة في حقيقتهما والخارجة عنهما المتمكِّنة فيهما من أولي العلم وغيرهم، أي: كلُّها له تعالى خَلْقًا ومِلكًا وتَصَرُّفًا لا شِركةَ لِغيره في شيءٍ منها بوجه من الوجوه[3]، أي: كلُّها مِلك له تعالى، ومختصَّة به، فله أن يلزم من شاء من مملوكاته بما شاء من تكليفاته، وليس لأحدٍ أن يقول: المال مالي أتصرَّف به كيف شئتُ[4].

الكونُ كلُّه لله تعالى خَلْقًا ومِلكًا وتَصَرُّفًا لا شِركةَ لِغيره في شيءٍ منها

وتقديم اسم الجلالة المجرور باللَّام مفيد للقصر، أي: له لا لغيره، فيفيد قصرها على كونها لله لا لغيره، من باب قصر الصِّفة على الموصوف.

سرُّ التَّعبير بـ﴿مَا﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۚ﴾:

وعبَّر بـ﴿مَا﴾ - وإن كان ثَمَّ من يعقل - لأنَّ الغالب إنَّما هو جماد،

تغليب غير العقلاء على العقلاء، وتقرير لكمال قدرته تعالى

(1) رضا، تفسير المنار: 5/395.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرَر: 5/415.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/272.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 2/62.

ويقلُّ من يعقل من حيث قلَّةُ أجناسه؛ إذْ هي ثلاثة: ملائكة، وإنس، وجنٌّ، وأجناس الآخرين كثيرة[1].

وكلمة ﴿مَا﴾ لتغليب غير العقلاء على العقلاء، فهو تقرير لكمال قدرته سبحانه على جميع الأشياء، وبيان لاندراج الكلِّ تحت ملكوته، يتصرَّف فيه كيفما يشاء إيجادًا وإعدامًا وإثابةً وعقابًا[2].

طباق الشُّمول في قوله: ﴿مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾:

الإحاطة بما في السّموات وما في الأرض

لمَّا أخبر بمن يحبُّه، ومن يبغضه، وبما يرضيه، وما يغضبه، وكان ربَّما توهَّم عدم القدرة على أخذه لغير ما أخذ، وجعله لغير ما جعل، أو تعنَّت بذلك متعنِّت، فظنَّ أنَّ في الكلام دخلًا بنوع احتياج إلى المحالة أو غيرها؛ قال: ﴿وَلِلَّهِ﴾، أي: والحال أنَّه للمختصِّ بالوحدانيَّة، فلا كفُوء له، ﴿مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾، ولمَّا كان السِّياق للمنافقين والمشركين؛ أكَّد، فقال: ﴿وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ من إبراهيم -عليه السلام- ومن غيره إشارة إلى أنَّه التامُّ المُلك العظيم المِلك، فلا يعطي إلَّا من تابع أولياءه، وجانب أعداءه، ولا يختار إلَّا من علمه خيارًا[3]، والعبارة طباق بين السّموات والأرض، تدلُّ على السِّعة والشُّمول، فإنَّه سبحانه له كلُّ شيء، وهو خالقه.

التَّذييل في الآية الكريمة:

العالَم مملوك لله، وعلى المملوك طاعة مالكه

وقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٖ مُّحِيطًا﴾ تذييل لما قبلها؛ فقد حملت التَّبكيت للَّذين ادَّعوا الخيريَّة والأفضليَّة عند الله سبحانه، وما قدروا الله حقَّ قدره؛ إذ إنَّ لله ما في السَّموات وما في الأرض، وأنَّه سبحانه محيط بكلِّ شيء، فلا يغيب عن علمه أمر، فلمَّا تقدَّم ذكر عامل السُّوء وعامل

(1) ابن عطيَّة، المحرر الوجيز: 1/389.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/155.
(3) البقاعيّ، نظم الدُّرَر: 5/414.

الصَّالحات؛ أخبر بعظيم مُلكه ومِلكه بجميع ما في السَّموات، وما في الأرض، والعالم مملوك له، وعلى المملوك طاعة مالكه، ومناسبة هذه الآية لما قبلها ظاهرة لما ذكرناه، ولما تقدَّم ذكر الخلَّة؛ فذكر أنَّه مع الخلَّة عبد الله، وأنَّ الخلَّة ليست لاحتياج، وإنَّما هي خلَّة تشريف منه تعالى لإبراهيم - عليه السلام - مع بقائه على العبوديَّة[1].

التَّذييل في قوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٖ مُّحِيطٗا﴾:

تقرير مضمون امتلاك الله تعالى للكون كلِّه

قوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٖ مُّحِيطٗا﴾ تذييلٌ مقرِّر لمضمون ما قبله؛ فقد أحاط سبحانه كلّ شيء علمًا، وأحاطت قدرته بكلِّ شيء تسييرًا لأقدارها، وضمانًا لأحوالها، فلا يخرج شيء عن إرادته أو عن اختياره، ﴿وَرَبُّكَ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخۡتَارُۗ﴾ سبحانه، فهو سبحانه يخلق، ويُبدع، ويُعلِّم، "وقد أحاط علمه بجميع المعلومات، وبصره بجميع المبصرات، وسمعه بجميع المسموعات، ونفذت مشيئته وقدرته بجميع الموجودات، ووسعت رحمته أهل الأرض والسَّموات، وقهر بعزِّه وقهره كلَّ مخلوق، ودانت له جميع الأشياء"[2].

دلالة التَّنكير في قوله: ﴿بِكُلِّ شَيۡءٖ﴾:

عموم الإحاطة بكلِّ شيء

كلمة (كلٍّ) الدّالَّة على العموم والإحاطة، وأكَّد ذلك، وعمَّق معناه: كلمة ﴿شَيۡءٖ﴾ بمدلولها وتنكيرها، فمقتضى القدرة المُطلقة أن يكون كلُّ شيء في محطِّ قدرته وعلمه سبحانه.

الاستعارة في قوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٖ مُّحِيطٗا﴾

وفي: ﴿مُّحِيطٗا﴾ عبّر به عن العلم بالشَّيء من جميع جهاته، والحذف في عدَّة مواضع[3]، فشبَّه العلم بالإحاطة، وهي استعارة مكنيَّة، وفائدتها: بيان سعة علمه، وأنَّه حائز على كلِّ الأثر في الحياة، وأن لا شيء يخرج عن دائرة حكمته سبحانه.

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/78.
(2) السّعدي، تفسير الكريم الرحمن: 1/206.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/78.

﴿وَيَسۡتَفۡتُونَكَ فِي ٱلنِّسَآءِۖ قُلِ ٱللَّهُ يُفۡتِيكُمۡ فِيهِنَّ وَمَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ فِي يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِي لَا تُؤۡتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرۡغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ وَٱلۡمُسۡتَضۡعَفِينَ مِنَ ٱلۡوِلۡدَٰنِ وَأَن تَقُومُواْ لِلۡيَتَٰمَىٰ بِٱلۡقِسۡطِۚ وَمَا تَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِهِۦ عَلِيمٗا ١٢٧﴾ [النِّساء: 127]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

قال الإمام الرَّازيُّ في بيان صلة هذه الآية بما قبلها:

"اعلم أنَّ عادة الله تعالى في ترتيب هذا الكتاب الكريم وقع على أحسن الوجوه، وهو أن يذكر شيئًا من الأحكام، ثُمَّ يذكر عَقِيبَه آيات كثيرة في الوعد والوعيد والتَّرغيب والتَّرهيب، ويخلط بها آيات دالَّةً على كبرياء الله وجلال قدرته، ثم يعود مرَّة أخرى إلى بيان الأحكام، وهذا أحسن أنواع التَّرتيب وأقربها إلى التَّأثير في القلوب؛ لأنَّ التَّكاليف بالأعمال الشَّاقَّة لا يقع في موقع القبول، إلَّا إذا كان مقرونًا بالوعد والوعيد، والوعد والوعيد لا يؤثِّر في القلب، إلَّا عند القطع بغاية كمال من صدر عنه الوعد والوعيد، فظهر أنَّ هذا التَّرتيب أحسن التَّرتيبات اللَّائقة بالدَّعوة إلى الحقِّ.

إذا عرفت هذا؛ فنقول: إنَّه سبحانه ذكر في أوَّل هذه السُّورة أنواعًا كثيرة من الشَّرائع والتَّكاليف، ثم أتبعها بشرح أحوال الكافرين والمنافقين، واستقصى في ذلك، ثُمَّ ختم تلك الآيات الدَّالَّة على عظمة جلال الله وكمال كبريائه، ثم عاد بعد ذلك إلى بيان الأحكام، فقال: ﴿وَيَسۡتَفۡتُونَكَ فِي ٱلنِّسَآءِۖ﴾ إلى آخر الآية[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَيَسۡتَفۡتُونَكَ﴾: جذر الكلمة هو (فتي)، والفُتيا والفتوى: الجواب عمّا يشكل من الأحكام، ويقال: استفتيته فأفتاني بكذا، قال: ﴿فَٱسۡتَفۡتِهِمۡ أَهُمۡ أَشَدُّ خَلۡقًا﴾ [الصّافات: 11]،

(1) الرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 11/233.

﴿فَٱسۡتَفۡتِهِمۡ أَلِرَبِّكَ ٱلۡبَنَاتُ﴾ [الصَّافات: 149]، وقوله: ﴿أَفۡتُونِي فِيٓ أَمۡرِي﴾ [النَّمل: 32][1]، وأفتاه في الأمر: أبانه له، والفتيا والفتوى: ما أفتى به الفقيه[2]، وأصل فَتْوَى: فتيا، الْيَاء مَقْلُوبَة عَن الْوَاو للخفَّة، وأفتى يُفْتِي إِفْتَاء واستفتى يستفتي استفتاء، والإفتاء: تَبْيِين الْمُبْهم، والاستفتاء: السُّؤَال من الإفتاء[3].

2) ﴿وَتَرۡغَبُونَ﴾: جذر الكلمة هو: (رغب)، تقول: إنَّه لوَهُوبٌ لكلِّ رَغيبةٍ، أي: مَرْغُوب فيها، وجمعها: رَغائِبُ، ورَغِبَ رَغْبةً ورَغْبَى على قياس شكوى، ورجل رغيبٌ: واسع الجوفِ أكولٌ، وقد رَغُبَ رَغابةً ورُغْبًا[4]، وأصل الرّغبة: السّعة في الشَّيء، يُقال: رَغُب الشَّيءُ: اتَّسع، وحوض رغيب، والرَّغبة والرَّغبُ والرَّغبى: السّعة في الإرادة، قال تعالى: ﴿وَيَدۡعُونَنَا رَغَبٗا وَرَهَبٗاۖ﴾ [الأنبياء: 90]، فإذا قيل: رغب فيه وإليه؛ يقتضي الحرص عليه، قال تعالى: ﴿إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ٥٩﴾ [التَّوبة: 59]، وإذا قيل: رَغِبَ عنه؛ اقتضى صرف الرَّغبة عنه والزُّهد فيه، قال تعالى: ﴿وَمَن يَرۡغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبۡرَٰهِـۧمَ﴾ [البقرة: 130].

3) ﴿وَٱلۡمُسۡتَضۡعَفِينَ﴾: جذر الكلمة هو (ضعف)، ضَعُفَ يضعُفُ ضَعْفًا وضُعْفًا: خلاف القوّة، قال تعالى: ﴿ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلۡمَطۡلُوبُ ٧٣﴾ [الحج: 73]، ويقال: الضَّعْفُ في العقل والرَّأي، والضُّعْفُ في الجسد، ويقال: هما لغتان جائزتان في كلِّ وجهٍ، تقول: رأيت به ضَعْفًا، وفَعَلَ ذاك من ضُعْفٍ شديد[5]، ورجل مضعوف: ضعيف الرَّأي، وقد ضعف ضعفًا[6]، والضّعف قد يكون في النَّفس وفي البدن وفي الحال[7]، قال تعالى: ﴿وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمۡ ضَعۡفٗاۚ﴾ [الأنفال: 66]، وقال: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ﴾ [القصص: 5].

4) ﴿بِٱلۡقِسۡطِۚ﴾: جذر الكلمة هو: (قسط)، والإِقْساطُ: العدل في القِسمة والحُكم، وتقول: أَقسَطْتُ بينهم، وأَقسَطْتُ إليهم، والقِسْطُ: الحصّة الَّتي تنوبه، وتقسَّطوا بينهم الشّيء، أي: اقتسموه بالتَّسوية، فكلُّ مقدارٍ قَسْطٌ في كلِّ شيء، والقِسطاسُ والقُسطاسُ:

(1) الراغب، المفردات: (فتي).
(2) ابن سيده، المُحكم: (فتي).
(3) الأحمد نكري، جامع العلوم في اصطلاحات الفنون: 3/12.
(4) الخليل، العين: (رغب).
(5) الخليل، العين: (ضعف).
(6) الزَّمخشري، أساس البلاغة: (ضعف).
(7) الراغب، المفردات: (ضعف).

أقوم الموازين[1]، قَالَ اللّه تعَالَى: ﴿قُلۡ أَمَرَ رَبِّي بِٱلۡقِسۡطِۖ﴾، وَهُوَ من المَصَادِرِ المَوْصُوفِ بهَا كالعَدْلِ، يُقال: مِيزانٌ قِسْطٌ ومِيزانانِ قِسْطٌ، ومَوازِينُ قِسْطٌ، يَسْتَوِي فيهِ الواحدُ والجَمِيعُ، وقولُهُ تَعَالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلۡمَوَٰزِينَ ٱلۡقِسۡطَ﴾، أَي: ذواتِ القِسْطِ، أَي: العَدْل، وَفي أَسْمَائِه تَعَالَى الحُسْنَى: المُقْسِطُ: هُوَ العادِلُ، ويُقَال: الإِقْسَاطُ: العَدْلُ في القِسْمَة فَقَط، أَقْسَطْتُ بَينهم، وأَقْسَطْتُ إِليهم، فَفِي الحَدِيث: "إِذا حَكَمُوا؛ عَدَلُوا، وإِذا قَسَمُوا؛ أَقْسَطُوا" أَي: عَدَلُوا في القسمة[2].

❁ المعنى العامُّ للآية:

يُطلب النَّاس منك - أيُّها النَّبيُّ - أن تبيّن لهم ما أشكل عليهم فَهْمُه من قضايا النِّساء وأحكامهن، قل: اللّه تعالى يبيِّن لكم أمورهنَّ، وما يتلى عليكم في الكتاب في يتامى النِّساء اللَّاتي لا تعطونهنَّ ما فرض اللّه تعالى لهنَّ من المهر والميراث وغير ذلك من الحقوق، وتحبُّون نكاحهنَّ، أو ترغبون عن نكاحهنَّ، ويبيِّن اللّه لكم أمر الضُّعفاء من الصِّغار، ووجوب القيام لليتامى - وهم الَّذين مات آباؤهم، وهم دون سنِّ البلوغ - بالعدل، وترْكِ الجور عليهم في حقوقهم، ﴿وَمَا تَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِهِۦ عَلِيمٗا﴾، لا يخفى عليه شيء منه ولا من غيره[3].

وفي البخاريِّ عن عائشة ﵂ عن سبب نزول قوله: ﴿وَيَسۡتَفۡتُونَكَ فِي ٱلنِّسَآءِۖ﴾ الآية: "قالت: هو الرَّجل تكون عنده اليتيمة، هو وليُّها ووارثها، فأشركته في ماله، حتَّى في العذق، فيرغب أن ينكحها، ويكره أن يزوِّجها رجلًا، فيشركه في ماله بما شركته، فيعضلها، فنزلت هذه الآية"[4].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

عموم التَّناسب بين الأحكام والوعد والوعيد والتَّرغيب والتَّرهيب:

هذه الآية الكريمة أنموذج لما كان ﷻ قد رتَّب هذا الكتاب عليه من ذكر أحكام

(1) الخليل، العين: (قسط).
(2) الزبيدي، تاج العروس: (قسط).
(3) نخبة من أساتذة التفسير، التفسير الميسّر: 98.
(4) البخاريّ، الحديث رقم: 4600.

من الأصول والفروع، ثُمَّ يفصِّلها بوعد ووعيد وترغيب وترهيب، وينظِّمها بدلائل كبريائه وجلاله وعظيم برِّه وكماله، ثُمَّ يعود إلى بيان الأحكام على أبدع نظام؛ لأنَّ إلقاء المراد في ذلك القالب أقرب إلى القبول، والنَّظم كذلك، فالتَّكليف بالأعمال الشَّاقّة لا تنقاد له النُّفوس إلَّا إذا كان مقرونًا ببشارة ونذارة، وذلك لا يؤثِّر إلَّا عند القطع بغاية الكمال لمن صدر عنه ذلك المقال، ولا ينتقل مع ذلك من أسلوب إلى آخر إلَّا على غاية ما يكون من المناسبة بين آخر كلِّ نوع وأوَّل ما بعده بكمال التَّعلُّق لفظًا ومعنًى، وفعل ﷻ في هذه السُّورة في أحكام العدل الَّذي بدأ السُّورة به في المواصلة الَّتي مبناها النِّكاح والإرث وغير ذلك ممَّا اتَّصل به - كما بيّن - إلى أن ختم هنا بالإسلام المثمر لقبول ذلك[1].

أجدر بالتَّأثير في القلوب وأقرب إلى القبول

نكتة ردِّ العجُز على الصَّدر:

هذه الآية إشارة إلى ما مضى في صدر هذه السُّورة، وهو قوله تعالى: ﴿وَءَاتُواْ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحۡلَةٗۚ﴾ [النِّساء: 4]، وقوله: ﴿وَءَاتُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰٓ أَمۡوَٰلَهُمۡۖ﴾ [النِّساء: 2]، وقوله: ﴿وَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا تُقۡسِطُواْ فِي ٱلۡيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ [النِّساء: 3]، قالت عائشة رضي الله عنها: نزلت هذه الآية - تعني: ﴿وَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا تُقۡسِطُواْ فِي ٱلۡيَتَٰمَىٰ﴾- أوَّلًا، ثُمَّ سأل ناس بعدها رسول الله ﷺ عن أمر النِّساء، فنزلت: ﴿وَيَسۡتَفۡتُونَكَ فِي ٱلنِّسَآءِۖ قُلِ ٱللَّهُ يُفۡتِيكُمۡ فِيهِنَّ﴾[2]، وهي من قبيل ردِّ العجز على الصَّدر؛ لما تضمَّنته من علاقة في المعنى وسبب النُّزول.

الاستعانة بالماضي في استشراف المستقبل

الإجمال في قوله: ﴿وَيَسۡتَفۡتُونَكَ فِي ٱلنِّسَآءِۖ﴾:

ومن الآيات المناظِرة قوله تعالى: ﴿يَسۡتَفۡتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفۡتِيكُمۡ فِي ٱلۡكَلَٰلَةِۚ﴾، والاستفتاء ليس في ذوات النِّساء، وإنَّما هو عن شيء

الشُّمول في السُّؤال والفُتيا مؤشِّر قدرة التَّشريع على توحيد المجتمع

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرَر: 5/415.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/83.

من أحكامهنَّ، ولم يبيِّن، فهو مجمل، ومعنى يفتيكم فيهن: يبيِّن لكم حال ما سألتم عنه وحكمه[1]، وفائدة هذا الإجمال: شمول النِّساء جميعًا وأحكامهنَّ.

تقديم المسند إليه في قوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُفۡتِيكُمۡ فِيهِنَّ﴾:

تخصيصٌ له، وتكريمٌ للنِّساء

يأتي جواب هذا الاستفتاء في قوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُفۡتِيكُمۡ فِيهِنَّ﴾، فجاء الأمر إلى رسول الله ﷺ بـ ﴿قُلِ﴾: إنَّ الله تعالى سيفتيكم فيهنَّ، فقدّم فيها المسند إليه لفظ الجلالة (الله)؛ تمييزًا وتخصيصًا له، وما ذاك إلَّا تكريمٌ للنِّساء ولشأنهنَّ، وتنبيهٌ للرِّجال إلى إعادة النَّظر فيما يفعلونه من غمط حقوقهنَّ والتَّجاوز عليهنَّ، فيظهر عِظَم هذا الأمر، فتقديم اسم الجلالة للتَّنويه بشأن هذه الفتيا[2]، ولمَّا كان المقام بكثرة الاستفتاء محتاجًا إلى زيادة الاعتناء؛ قال: ﴿قُلِ ٱللَّهُ﴾ آمرًا معبِّرًا بالاسم الأعظم منبِّهًا على استحضار ما ذكر أوَّل السُّورة ﴿يُفۡتِيكُمۡ﴾، أي: يبيِّن لكم حكمه ﴿فِيهِنَّ﴾، أي: الآن لأن تقوموا لهنَّ بالقِسط[3].

وفي تقديم اسم الجلالة على الفعل المضارع عدول من الجملة الفعليَّة (يفتيكم الله) إلى الجملة الاسميَّة ﴿ٱللَّهُ يُفۡتِيكُمۡ﴾ وهذا يدلُّ على أنَّ الثُّبوت والدَّوام هو الأنسب للمقام؛ لأنَّ الله هو الخالق، ﴿أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ ١٤﴾ [الملك: 14]، فهو يعلم ما يَصْلُح لخلقه، وما يُصْلِح خلْقَه.

دلالة المضارع في قوله: ﴿ٱللَّهُ يُفۡتِيكُمۡ﴾:

شرعة الله شاملة متجدِّدة العطاء صالحة لكلِّ عَصْرٍ ومِصْر

مع إفادة تقديم اسم الجلالة ﴿ٱللَّهُ﴾ من تقوية حكم الإسناد، فقد حمل الفعل المضارع معنى: الوعد المستمرِّ، ليرجع بالمؤمنين إلى

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/81.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 5/213.
(3) البقاعيّ، نظم الدُّرَر: 5/417.

كتاب الله تعالى، في أحكام النِّساء الَّتي يسألون عنها، فقال: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُفۡتِيكُمۡ فِيهِنَّ وَمَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ فِي يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ﴾؛ ليمتزج هذا الإكرام بجميع ما يُتلى على المؤمنين من آيات الله البيِّنات، فيستحضر عظيم شأن تلك الفُتيا، ودلالتها على الشُّمول لشؤون النِّساء كلِّها.

دلالات إعراب﴿وَمَا﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ﴾:

وردت في إعراب ﴿وَمَا﴾ في الآية عدَّة وجوه:[1]

1- في محلِّ جرٍّ، معطوفة على الهاء في قوله: ﴿فِيهِنَّ﴾، وأجاز الزمخشريُّ أن يكون مجرورًا على القسم، كأنَّه قيل: قل اللَّه يفتيكم فيهنَّ، وأقسم بما يُتلى عليكم في الكتاب، والقسم أيضًا لمعنى التَّعظيم، وليس بسديد أن يعطف على المجرور في: ﴿فِيهِنَّ﴾؛ لاختلاله من حيث اللَّفظ والمعنى.

وعلى هذا الوجه تظهر بلاغة إعرابها في دلالة القسم على التَّأكيد، وتعظيم ما يتلى عليهم.

2- مفعول به لفعل محذوف تقديره: ونبيِّن لكم ما يُتلى عليكم.

وفي إعرابه مفعولًا لفعل محذوف إشارة إلى وضوح الفتوى، وتجلية وجه إشكالها.

3- في موضع الرَّفع، وهو أقوى الوجوه، وفيه ثلاثة أوجه:

الوجه الأول: معطوفة على ضمير الفاعل في يفتيكم، أي: وكذلك يفتيكم الَّذي يُتلى عليكم، ويفتي بمعنى: يبيِّن، وإسناد الفُتيا لما يتلى على سبيل المجاز.

والثاني: معطوف على لفظ الجلالة في قوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُ﴾، وهو بمعنى الوجه الأول.

والثالث: مبتدأ، والخبر محذوف، تقديره: وما يُتلى عليكم في الكتاب يبيِّن لكم.

وحُذف لدلالة ما قبله عليه، وعلى هذا التَّقدير يتعلَّق في الكتاب بقوله: ﴿يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ﴾، أو تكون في موضع الحال من الضَّمير في ﴿يُتۡلَىٰ﴾[2].

وعلى كلٍّ فإنَّ هذا التنوُّع في أوجه إعراب (ما) يُضفي ضوءًا على أثر الإعراب في فهم معاني القرآن الكريم، وعِظم إعجازه، وبلاغة إيجازه.

(1) الزّمخشري، الكشّاف: 1/569، وصافي، الجدول: 5/189.

(2) الزّمخشري، الكشّاف: 1/569.

دلالة الفعل المضارع في قوله: ﴿يُتۡلَىٰ﴾:

تجدُّد تلاوته، وتفعيل معانيه إلى قيام السّاعة

﴿وَمَا﴾، أي: مع ما ﴿يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ﴾، أي: تتجدَّد فيكم تلاوته إلى آخر الدَّهر سيفًا قاطعًا وحكمًا ماضيًا جامعًا ﴿فِي ٱلۡكِتَٰبِ﴾ أي: فيما سبق أوَّل السُّورة في قوله: ﴿وَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا تُقۡسِطُواْ فِي ٱلۡيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾، وغير ذلك ﴿فِي يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ﴾، أي: في شأن اليتامى من هذا الصِّنف ﴿ٱلَّٰتِي لَا تُؤۡتُونَهُنَّ﴾، أي: بسبب التوقُّف في ذلك، وتكرير الاستفتاء عنه، وقد تكرَّرت صيغ المضارع في الآية، فقال: ﴿يُتۡلَىٰ﴾، و﴿تُؤۡتُونَهُنَّ﴾، ﴿وَتَرۡغَبُونَ﴾، و﴿تَقُومُواْ﴾، و﴿تَفۡعَلُواْ﴾.

الإسناد المجازيُّ في إسناد الإفتاء إلى التِّلاوة:

ما يُتلى من الكتاب بمنزلة إفتاء الله تعالى

وقوله: ﴿وَمَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ﴾ عطف على اسم الجلالة، أي: ويفتيكم فيهنَّ ما يُتلى عليكم في الكتاب، أي: القرآن، وإسناد الإفتاء إلى ما يُتلى: إسناد مجازيٌّ؛ لأنَّ ما يُتلى دالٌّ على إفتاء اللّه، فهو سبب فيه، فآل المعنى إلى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُفۡتِيكُمۡ فِيهِنَّ﴾، بما يُتلى عليكم في الكتاب، والمراد بذلك بما تُلي عليهم من أوَّل السُّورة، وما سيتلى بعد ذلك، فإنَّ التذكير به وتكريره إفتاء به مرَّة ثانية، وما أتبع به من الأحكام إفتاء أيضًا.

وضع المضارع موضع الماضي:

التَّراسل بين الماضي والحاضر يُسهم في تحقُّق المستقبل

قوله: ﴿وَمَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ﴾، فعلى ما قاله المفسِّرون وما نُقل عن عائشة؛ يكون ﴿يُفۡتِيكُمۡ﴾ و﴿يُتۡلَىٰ﴾ فيه وضع المضارع موضع الماضي؛ لأنَّ الإفتاء والتِّلاوة قد سبقت، وفي ذكر المُضارع هنا فائدة تجديد الانتباه إلى ما يُتلى في الكتاب في يتامى النِّساء.

دلالة لفظ ﴿ٱلۡكِتَٰبِ﴾ وأثره في المعنى:

حقوق اليتامى من عظائم الأمور

الكتاب بمعنى: القرآن[1]، وقيل: المراد بالكتاب اللَّوح المحفوظ؛ تعظيمًا للمتلوِّ عليهم، وأنَّ العدل والإنصاف في حقوق اليتامى من عظائم الأمور المرفوعة الدَّرجات عند الله، الَّتي يجب مراعاتها والمحافظة عليها، والمخلُّ ظالم متهاون بما عظَّمه الله.

إضافة الخاصِّ إلى العامِّ:

الإشارة إلى أهمِّيَّة قضايا النِّساء لاسيَّما اليتامى

والإضافة في ﴿يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ﴾ من باب إضافة الخاصِّ إلى العامِّ؛ لأنَّ النِّساء ينقسمن إلى: يتامى وغير يتامى[2]، وقال الزَّمخشريُّ: الإضافة في ﴿يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ﴾ هي بمعنى: إضافة الشَّيء إلى جنسه[3]، وفائدة ذلك: توجيه النَّظر إلى مسائل اليتامى من النِّساء، مع الإشارة إلى أهمِّيّة قضايا النِّساء جميعًا.

ويجوز الفصل وإتباع الجنس لما قبله، والَّذي يظهر في ﴿يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ﴾ أنَّها إضافة على معنى اللَّام، ومعنى اللَّام: الاختصاص.

قراءة شاذة في قوله تعالى ﴿فِي يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ﴾:

قرأ أبو عبد الله المدنيُّ: في (ييامى النِّساء) بياءين[4]، وخرَّجه ابن جِنِّي على أنَّ الأصل: أيامى، فأبدل من الهمزة ياء، كقولهم: باهلة بن يعصر، وإنَّما هو ابن أعصر[5]، و(أيامى) جمع: أيِّم، على وزن (فَعِيل)، وهو مِمَّا اختصَّ به المعتلُّ، وأصله: أيايم كَسَيَايد جمع: سَيِّد، قُلبت اللَّام موضع العين، فجاء أيامى، فأبدل من الكسرة فتحة، انقلبت الياء ألفًا لتحرُّكها وانفتاح ما قبلها، وقال ابن جنِّي:

(1) السِّيوطيّ، معترك الأقران: 3/265.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/84.
(3) الزّمخشري، الكشّاف: 1/569.
(4) هي قراءة شاذة، قرأ بها الضَّبِّيُّ عن أبي عبد الله المدنّي، كما في ابن خالويه، المختصر، ص: 29، وابن جنِّي، المحتسب: 1/200.
(5) ابن جنِّي، المحتسب: 1/200.

ولو قال قائل: كسر أيِّم على أَيْمَى على وزن سَكْرَى، ثم كسر أَيْمَى على أَيَامَى؛ لكان وجهًا حسنًا[1].

ويظهر أثر هذه القراءة في معنى الآية الكريمة، حيث إنَّها من جذر آخر، وهو (أيِّم) ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَنكِحُواْ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ﴾ [النُّور: 32]، والأيِّم من النِّساء: الَّتي لا زوج لها بكرًا كانت أو ثيِّبًا، وهي أوسع دائرة من ﴿يَتَـٰمَى ٱلنِّسَآءِ﴾.

بلاغة الكلام المُوجَّه:

وصف الواقع، وردع الظَّالم، وتعظيم حقِّ النِّساء

في هذه الآية الكلام الموجَّه: وهو الَّذي يحتمل معنيين متضادَّين، وذلك في قوله: ﴿وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ﴾، فهنَّ إمَّا جميلات أو دميمات، حسب تقدير حرف الجرِّ المحذوف: (في) أو (عن)[2]، قال أبو عبيدة: ﴿وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ﴾، هذا اللَّفظ يحتمل الرَّغبة والنُّفرة: فالمعنى في الرَّغبة: في أن تنكحوهنَّ لمالهنّ أو لجمالهنَّ، والنُّفرة: ترغبون عن أن تنكحوهنّ لقبحهنَّ، فتمسكوهنَّ رغبةً في أموالهنَّ، والأوَّل قول عائشة - رضي الله عنها - وجماعة، وكان عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - يأخذ النَّاس بالدَّرجة الفضلى في هذا المعنى، فكان إذا سأل الوليَّ عن وليَّته، فقيل: هي غنيَّة جميلة؛ قال له: اطلب لها من هو خيرٌ منك، وأعُودُ عليها بالنَّفع، وإذا قيل: هي دميمة فقيرة؛ قال له: أنت أولى بها، وبالسَّتر عليها من غيرك، و﴿ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ﴾ معطوف على ﴿يَتَـٰمَى ٱلنِّسَآءِ﴾، والَّذي تُلي فيهم قوله تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَـٰدِكُمْ﴾ [النِّساء: 11] الآية، وذلك أنَّ العرب كانت لا تورِّث الصَّبيَّة ولا الصَّبيَّ الصَّغير، وكان الكبير ينفرد بالمال، وكانوا يقولون: إنَّما يرث من يحمي الحوزة، ويردُّ الغنيمة، ويقاتل عن الحريم، ففرض الله تعالى لكلِّ واحد حقَّه[3].

(1) ابن جني، المحتسب: 1/200.
(2) صافي، الجدول: 5/181.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/85.

ويجوز أن يكون خطابًا للأوصياء، كقوله: ﴿وَلَا تَتَبَدَّلُواْ ٱلۡخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِۖ﴾ [النِّساء: 2] وقيل: ﴿وَٱلۡمُسۡتَضۡعَفِينَ﴾ هنا: العبيد والإماء[1].

بلاغة إيجاز الحذف في قوله: ﴿وَتَرۡغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ﴾:

جبْرُ الخاطر، وتهذيب النَّافر

هذه العبارة تضمَّنت على إيجاز حذف، فتقدير المعنى: وترغبون عن أن تنكحوهن[2]، وهو حرف (عن) مركَّب من حرفين، فلا ثِقل فيه من جهة اللَّفظ، ولكنَّه أثقل من الجبال على قلب اليتيمة من النِّساء؛ إذا سمعته، فراعى القرآن الكريم ذلك، فعدل عنه إلى المصدر المؤوَّل من (أن والفعل) الَّذي يحتمل معنى (في)؛ ليفتح باب الأمل، والتَّفاؤل لهنَّ؛ ولو احتمالًا، وفي الوقت ذاته فيه تهذيب لهذا النَّافر من نكاح اليتيمة؛ حتَّى لا يظلمَها بأكل حقِّها الماديِّ، أو بكسر خاطرها تصريحًا أو تلميحًا، مستندين على ما جاء في حديث السَّيِّدة عائشة رضي الله عنها، قالت: "هو الرَّجل تكون عنده اليتيمة، هو وليُّها ووارثها، فأشركته في ماله حتَّى في العذق، فيرغب أن ينكحها، ويكره أن يزوِّجها رجلًا، فيشركه في ماله بما شركته، فيعضلها، فنزلت هذه الآية"[3]، وفي هذا الحذف عدم ذكر الرَّغبة عنهُنَّ رأفة بهنَّ.

ولحذف حرف الجرِّ بعد ﴿وَتَرۡغَبُونَ﴾ هنا موقع عظيم من الإيجاز وإكثار المعنى، أي: ترغبون عن نكاح بعضهن، وفي نكاح البعض الآخر.

الاستعارة في قوله: ﴿وَأَن تَقُومُواْ﴾:

أهمِّيَّة شؤون هؤلاء اليتامى من النِّساء

جعل الاستعداد النَّفسي والذِّهنيَّ والحرص على أداء الحقوق: كمن يقوم واقفًا متأهِّبًا مستعدًّا لأداء مهمَّة مفصليَّة، فذكر المشبَّه به، وحذف المشبَّه على سبيل الاستعارة التَّصريحيَّة، وفائدتها:

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/85.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 5/195.
(3) البخاريّ، الحديث رقم: (4600).

إبانة أهمِّيَّة شؤون هؤلاء اليتامى من النِّساء، وجعل ذلك كفعل دائم مستمرٍّ لدلالة الفعل المضارع على التَّجدُّد والاستمرار.

ردُّ العجُز على الصّدر في قوله: ﴿وَأَن تَقُومُواْ لِلۡيَتَٰمَىٰ بِٱلۡقِسۡطِۚ﴾:

التَّهويل من ظلم اليتامى

قال: ﴿وَأَن تَقُومُواْ لِلۡيَتَٰمَىٰ بِٱلۡقِسۡطِۚ﴾، وتوالت الآي بَعْدُ على هذا المعنى، فقدّم القِسط ليناسب ما ذكر[1]، وقوله: ﴿وَأَن تَقُومُواْ لِلۡيَتَٰمَىٰ بِٱلۡقِسۡطِۚ﴾ هو في موضع جرٍّ عطفًا على ما قبله، أي: وفي أن تقوموا، والَّذي تُلي في هذا المعنى قوله تعالى: ﴿وَلَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَهُمۡ إِلَىٰٓ أَمۡوَٰلِكُمۡۚ﴾ [النِّساء: 2] إلى غير ذلك ممَّا ذُكِر في مال اليتيم، والقِسط: العدل، فتكون العبارة: ﴿وَأَن تَقُومُواْ لِلۡيَتَٰمَىٰ بِٱلۡقِسۡطِۚ﴾ من قبيل ردِّ العجز على الصّدر، وقال الزَّمخشريُّ: ويجوز أن يكون منصوبًا بمعنى: ويأمركم أن تقوموا، وهو خطاب للأئمَّة في أن ينظروا لهم، ويستوفوا لهم حقوقهم[2]، ولا يخلُّوا أحدًا يهتضمهم، ويحتمل أن يُرفع، ﴿وَأَن تَقُومُواْ﴾ بالابتداء، وخبره محذوف، أي: خير لكم، وإذا أمكن حمله على غير حذف بكونه قد عطف على مجرور؛ كان أولى من إضمار ناصب، كما ذهب إليه الزَّمخشريُّ، ومن كونه مبتدأ قد حُذف خبره[3].

دلالة الاقتصار على فعل الخير في قوله: ﴿وَمَا تَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِهِۦ عَلِيمٗا﴾:

الخير هو الذي رغَّب فيه

قوله: ﴿وَمَا تَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِهِۦ عَلِيمٗا﴾ لمَّا تقدَّم ذكر النِّساء، ويتامى النِّساء، والمستضعفين من الولدان، والقيام بالقسط؛ عقَّب ذلك بأنَّه تعالى يعلم ما يفعل من الخير بسبب من ذكر، فيجازي عليه بالثَّواب الجزيل، واقتصر على ذكر فعل الخير؛

(1) السّيوطي، معترك الأقران: 3/142.
(2) الزّمخشري، الكشّاف: 1/570.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/85.

لأنَّه هو الَّذي رغَّب فيه، وإن كان تعالى يعلم ما يفعل من خير ومن شرٍّ، ويجازي على ذلك بثوابه وعقابه[1]، فلمَّا كان التَّقدير: فما تفعلوا في ذلك من شرٍّ، فإنَّ اللّٰه كان به عليمًا وعليكم قديرًا؛ عطف عليه قوله ترغيبًا: ﴿وَمَا تَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ﴾، أي: في ذلك أو في غيره ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ﴾، أي: الَّذي له الكمال كلُّه، وقوله: ﴿كَانَ بِهِۦ عَلِيمٗا﴾، أي: فهو جدير - وهو أكرم الأكرمين وأحكم الحاكمين - بأن يعطي فاعله على حسب كرمه وعلوِّ قدره، فطيبوا نفسًا، وقرُّوا عينًا[2].

بلاغة التَّنكير في قوله: ﴿وَمَا تَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ﴾:

تعميم أفعال الخير وتمييزها من غيرها

قوله: ﴿وَمَا تَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ﴾: جمع كلَّ أنواع الخير مهما تكن كثيرة، وحصرها في علم اللّٰه تعالى وإحاطته سبحانه، وفائدته: طمأنة العاملين أنَّ ما يفعلونه سيُجازَون به؛ لأنَّه - سبحانه - قد أودع أعمالهم في علمه، ثم ما في ذلك من جانب الكرامة لهم والتَّشريف لأعمال الخير أن جعلها اللّٰه في رعايته وعلمه.

فقوله: ﴿مِنۡ خَيۡرٖ﴾ للتَّبعيض يدلُّ على القلَّة، فمهما يكن العمل قليلًا إلَّا أنَّ النِّيَّة فيه موجبة له الجزاء الحسن على حُسنه، أو السَّيِّئ على إساءته.

التَّقديم في قوله: ﴿كَانَ بِهِۦ عَلِيمٗا﴾:

الحثُّ على عمل الخير، والإعلام بأهميَّته مهما يكن

في قوله تعالى: ﴿كَانَ بِهِۦ عَلِيمٗا﴾: قدَّم الجارَّ والمجرور ﴿بِهِۦ﴾ للاهتمام، بما يقدِّمون من خير وترغيب فيه، وأصل الجملة: (كان عليمًا به)، وفائدة هذا التّقديم الحثُّ على عمل الخير والانصراف عن أعمال السُّوء، فإنَّ كلَّ ما يقدِّمه الإنسان سيدخل في حيِّز العلم الإلهيِّ، فكان جديرًا بالنَّاس الحرص على متابعة النَّفس والأعمال، والقيام على ذلك.

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/85.
(2) البقاعي، نظم الدّرر: 5/418.

ردُّ العجز على الصَّدر:

تأكيد المعاني المتقدِّمة

قد ألمَّت الآية بخلاصة ما تقدَّم من قوله: ﴿وَءَاتُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰٓ أَمۡوَٰلَهُمۡۖ﴾ إلى قوله: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبٗا ٦﴾ [النساء: 6]، وكذلك أشارت هذه الآية إلى ما تقدَّم بقوله هنا: ﴿فِي يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِي لَا تُؤۡتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ﴾، فأشار إلى قوله: ﴿وَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا تُقۡسِطُواْ﴾ إلى قوله: ﴿فَكُلُوهُ هَنِيٓـٔٗا مَّرِيٓـٔٗا ٤﴾ [النِّساء: 3][1].

التَّكميل والإدماج:

كلُّهم ضُعَفاء، فألحقوا بالنِّساء

وقوله: ﴿وَٱلۡمُسۡتَضۡعَفِينَ﴾ عطف على يتامى النِّساء، وهو تكميل وإدماج؛ لأنَّ الاستفتاء كان في شأن النِّساء خاصَّة، والمراد المستضعفون والمستضعفات، ولكن صيغة التَّذكير تغليب، وكذلك الولدان، وقد كانوا في الجاهليَّة يأكلون أموال مَن في حجرهم من الصِّغار[2]، والنِّساء والمستضعفون والولدان جميعًا مشتركون في الضَّعف وقلَّة الحيلة.

حسن الانتقال في الآية الكريمة:

الالتئام والتَّوافق بين موضوعات الآية والعناية بها

في قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُفۡتِيكُمۡ فِيهِنَّ﴾ ذِكْرُ الله تعالى، ثُمَّ انتقل إلى ذكر الكتاب، فقال: ﴿وَمَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ فِي يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ﴾، ثم انتقل إلى فعل الخير، فقال: ﴿وَمَا تَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِهِۦ عَلِيمٗا﴾، وقد انسجم هذا الأسلوب مع معاملة النِّساء بالإحسان فضلًا عن إكرامهنَّ؛ لما في حسن الانتقال من الاستمرار على الكرم، والتَّنويع فيه، والتَّلطُّف في إكمال الخير حتَّى التَّمام.

التَّذييل في قوله: ﴿وَمَا تَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِهِۦ عَلِيمٗا﴾:

فعل الخير لا يفنى أثره، والله يضاعف لمن يشاء

فبعد أن رغَّب في فعل الخير فيما استفتوا فيه رسول الله ﷺ، فقال: ﴿وَيَسۡتَفۡتُونَكَ فِي ٱلنِّسَآءِۖ قُلِ ٱللَّهُ يُفۡتِيكُمۡ فِيهِنَّ﴾، ثُمَّ فصَّل في

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 5/213.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 5/214.

أفعال الرِّجال مع يتامى النِّساء؛ ذيّل الآية بقوله: ﴿وَمَا تَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِهِۦ عَلِيمٗا﴾؛ لبيان عظيم الجزاء الَّذي يجزيه اللّه تعالى عليه.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(يستفتونك) و(يسألونك):

الاستفتاء في موضوع يقتضي وجود قانون سابق في الموضوع نفسه، ولكن أُشكل على المستفتين أمره، فهم يطلبون الفَتوى، فجاء التَّعبير القرآنيُّ: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُفۡتِيكُمۡ فِيهِنَّ وَمَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ﴾.

أمَّا ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ﴾ [مثلا: البقرة: 189]؛ فذلك لأنَّ السُّؤال على خلاف الاستفتاء، لا يحتاج قبله إلى تشريع سابق، بل هو طلب لمعرفة قد تقتضي تشريعًا جديدًا.

والاستفتاء: طلب الفَتْوى أو الفُتْيَا، وهي إخبار عن أمر يخفى عن غير الخواصِّ، وفيه تبيين المُشْكِل، ولمَّا كان المسؤول عنه أمرًا محتاجًا إلى إعمالِ نظرٍ؛ أُطلق على الاستفهام عنه فعلُ الاستفتاء[1].

القسط والعدل:

إنَّ الْقِسْط هُوَ العدْل البيِّن الظَّاهِر، وَمِنْه سُمِّي الْمِكْيَال: قِسطًا، وَالْمِيزَان: قِسطًا؛ لِأَنَّهُ يصوِّر لَك الْعدْل في الْوَزْن، حَتَّى ترَاهُ ظَاهرًا، وَقد يكون من العدْل مَا يخفى، وَلِهَذَا قُلْنَا: إِنَّ الْقِسْط: هُوَ النَّصِيب الَّذِي بُيِّنت وجوهُه[2].

وقد ناسب لفظ ﴿بِٱلۡقِسۡطِ﴾ دون (العدل)؛ لأنّ العدل عامٌّ، ويكون على الغالب مرتبطًا بين عموم النّاس، وفي شؤون حياتهم كلِّها، أمَّا القسط؛ فهو واقع في تقسيم ما تحتاجه المخلوقات كلُّها؛ لتستمرَّ على ديمومتها، وهذا مثاله: القيُّوميَّة للّه تعالى على هذا الكون، فالقسط يحتاج إلى قيَّوميَّة، قال تعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلۡعِلۡمِ قَآئِمَۢا بِٱلۡقِسۡطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ١٨﴾ [آل عمران: 18]؛ ولذلك ناسب قوله: ﴿وَأَن تَقُومُواْ لِلۡيَتَٰمَىٰ بِٱلۡقِسۡطِۚ﴾، فذكر ارتباط القسط بالقيام؛ للتَّرغيب في تحرِّي العدل، وإظهاره لليتامى؛ ليعرفوا حقوقهم، ولا يمنع الإقساط في ذلك من الإعلان عن استيفاء اليتامى حقوقَهم، حتَّى ينفي الرِّيبة عن نفسه.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 5/214.

(2) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 234.

﴿وَإِنِ ٱمۡرَأَةٌ خَافَتۡ مِنۢ بَعۡلِهَا نُشُوزًا أَوۡ إِعۡرَاضٗا فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَآ أَن يُصۡلِحَا بَيۡنَهُمَا صُلۡحٗاۚ وَٱلصُّلۡحُ خَيۡرٞۗ وَأُحۡضِرَتِ ٱلۡأَنفُسُ ٱلشُّحَّۚ وَإِن تُحۡسِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا ١٢٨﴾ [النساء: 128]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

تعقيبُ الإفتاء السَّابق بإفتاء لاحق يُجَلِّي الأمر في حال التَّنافر والتَّباغُض

لَمَّا صار النَّاس يَتزوَّجون ذواتِ الأموالِ من اليتامى ويُضاجِرون بعضَهنَّ، عقَّبَ تعالى ذلك بالإفتاءِ في أحوالِ المشاقَّةِ بين الأزواج[1]، فهذه الآيةُ عَطفٌ لبقيَّةِ إفتاء اللّه تعالى؛ وهي من جُملة ما أخبَر اللّه تعالى أنَّه يفتيهم به في النِّساء ممَّا لم يتقدَّمْ ذِكرُه[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿بَعۡلِهَا﴾: زوجها؛ فالبَعْلُ هو الزّوجُ، يقُال: بَعَلَ يَبْعَلُ بَعْلًا وبُعولة فهو بَعْل، والبَعْل في الأصل: الصَّاحِبُ، وبَعْلُ الشَّيْء: سيِّدُه ومالكه، ويدلُّ على القوَّة؛ ولهذا سمِّيَ الذكر بعلًا لقوّتِه وفحولتِه؛ وذلك أنَّهم تَصَوَّروا من بعل المرأة لَمَّا كان مستوليًا عليها ومستعليًا لقوّتِه أنَّه مالكُها القائم عليها[3].

2) ﴿نُشُوزًا﴾: بُغضًا وجفاء، من نشز الشَّيءُ ينشُز نشوزًا، أي: ارْتَفَعَ، ويُقال: نَشَزْتَ نُشُوزًا، إذا أَشْرَفْتَ على نَشَازٍ من الأَرْض وَهُوَ مَا ارْتَفَعَ وظهَرَ، وأَصْلُ النَّشْزِ: الارتفاعُ والعُلوُّ، والنُّشوز: بُغضُ المرأةِ للزَّوج، أو بُغضُ الزَّوجِ للمَرأة؛ يُقال: نشَزت عليه، أي: ارتفعَتْ عليه، ونَشَزَ عليها زَوْجُها: إذا ضَرَبَها وجَفَاها[4].

(1) البِقاعي، نظم الدُّرر: 5/421.

(2) الرَّازي، مفاتيح الغيب: 11/235، وابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 5/214.

(3) الخليل، العين، باب العين واللّام والباء، وابن دريد، جمهرة اللُّغة، والأزهري، تهذيب اللُّغة، وابن فارس، مقاييس اللُّغة، والسَّمين، عمدة الحفَّاظ: (بعل)، وابن عزيز، غريب القرآن، ص: 122، وابن الهائم، التِّبيان، ص: 110.

(4) الخليل، العين، (باب الشِّين والزَّاي والنُّون)، والأزهري، تهذيب اللُّغة، وابن عبَّاد، المحيط، والجوهري، الصِّحاح، وابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرّاغب، المفردات: (نشز)، وابن عزيز، غريب القرآن، ص: 472، وابن الهائم، التِّبيان، ص: 138، والكَفَوِيّ، الكليات، ص: 915.

3) ﴿إِعۡرَاضٗا﴾: صدودًا، يُقال أَعْرَضَ عَنْهُ إِعْرَاضًا: أي صَدَّ، ووَلَّاهُ ظَهْرَه، وأصل (عرض) يَدُلُّ على العَرْضِ الَّذِي يُخَالِفُ الطُّولَ، وعليه تدور اشتقاقاته، فالإعراض: هو أن تولِّيَ الشَّيء عُرْضَكَ، أي: جانبَك، ولا تُقبِلَ عليه[1].

4) ﴿جُنَاحَ﴾: يدور معنى جنح على الميلِ والعدوانِ والعدولِ عن القصد، وسمي الجناحان جناحين لِميلهما في الشِّقَين، وجِنْحُ القوم: ناحيتهم، وجَنَحت السفينة جُنوحًا: انتهت إلى الماء القليل فلزِقَتْ بالأرض فلم تمض، والجوانح الأضلاع؛ لأنها مائلة، والجُناحُ: الميلُ عن الجادةِ الصَّواب المستقيمةِ إلى الإثم، ثمَّ أُطلِقَ على الجناية والإثم، ونفي الجُناح بمعنى نفي الإثم[2].

5) ﴿وَأُحۡضِرَتِ﴾: أي: أُلزِمت، وجُعِلتْ حاضرةً له مطبوعةً عليه، كأنَّه مُلازِمٌ لها لا يُفارقها؛ لأنَّها جُبلت عليه، وأصل (حضَر) يدل على إيراد الشَّيء، ووُرودِه ومشاهدتِه[3]، فيكون معنى إحضار الأنفس الشُّحَّ جعلَها حاضرة له مَطبوعةً عليه[4].

6) ﴿ٱلشُّحَّۚ﴾: الإفراطُ في الحِرص، وهو بُخلٌ مع حِرصٍ، يُقال: شَحِحْتَ تَشَحُّ، وشَحَحْتَ تَشُحُّ وتَشِحُّ، ورَجُل شَحيحٌ وقَوْمٌ شِحاحٌ وأَشِحَّةٌ، وأصلُ (شحح) يدلُّ على المنْع؛ يُقَالُ: تَشَاحَّ الرَّجُلان على الأَمر، إذا أراد كُلُّ واحد منهما الفَوْزَ بِهِ ومَنْعَهُ من صاحبه[5].

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

بيان خيريَّة التَّصالح عند حدوث التَّباغض بين الزَّوجين

وإن امرأةٌ عَلِمَتْ من زوجها تَرَفُّعًا عنها، وعَدَمَ رغبة فيها فلا إثم عليهما أَنْ يتصالحا على ما تَطيبُ به نفُوسُهُما من القسمة أو النَّفقة، والصُّلح أولى وأفضل، وقد جُبِلت النُّفوس على الحرص

(1) ابن سيده، المحكم، وعياض، مشارق الأنوار، والرَّازي، مُختار الصِّحاح، وابن فارس، مقاييس اللُّغة، والزَّبيديّ، تاج العروس: (عرض)، وابن عزيز، غريب القرآن، ص: 111، وابن الهائم، التِّبيان، ص: 291، والكَفَوِيّ، الكليات، ص: 28.

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، ووجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (جنح).

(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والسَّمين، عمدة الحُفَّاظ: (حضر)، وابن الجوزي، زاد المسير: 1/482، والشِّنقيطيّ، أضواء البيان: 1/316.

(4) البيضاويّ: أنوار التَّنزيل: 2/101.

(5) الجوهري، الصِّحاح: مادَّة: (شحح)، والرّاغب، المفردات، والأزهريّ، تهذيب اللُّغة، وابن فارس، مقاييس اللُّغة: (شحَّ)، وابن قُتيبة، غريب القرآن، ص: 469، وابن الجوزيّ، تذكرة الأريب، ص: 73.

والبُخل، وإن تُحسنوا مُعاملة زَوْجاتِكُمْ وتخافوا اللّه فيهن بامتثال أوامره واجتناب نواهيه، فإنَّ اللّه خبيرٌ بأعمالكم لا يخفى عليه شيء، وسيُجازيكم عليها[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

مناسبة التّعبير بأداة الشّرط (إن):

نشوز الزّوجِ أو إعراضُه أو التّخوُّفُ منهما ممّا ينبغي أن يكونَ نادر الوقوع

لمّا كانت ﴿وَإِنِ﴾ تستعمل لما هو نادر الوقوع؛ لأنَّ الأصلَ في (إنْ) الخلوُّ عن الجزم بوقوعِ الشّرط[2]، دلَّ مجيئها هنا على أنَّ الكلامَ على خلاف مقتضى الظّاهر للجزم بوقوعِ النّشوز أو الإعراضِ في الواقعِ، كما هو في العادة؛ ولهذا عبّر بالفعل الماضي ﴿خَافَتْ﴾ للإشعارِ بتحقّق وقوعِه في العادةِ، وفائدة التّعبير بـ﴿وَإِنِ﴾ في مقام تحقُّق الوقوع أمرانِ: أحدهما بيان أنَّ نشوز الزّوجِ أو إعراضه أو التّخوُّفَ منهما ممّا ينبغي أن يكونَ نادر الوقوع، والثّاني تصوير أنَّ نشوزَ الزّوجِ أو إعراضه لا يصلحُ إلّا لمجرَّد الفرضِ والارتياب، وكأنَّه واجبُ الانتفاء؛ لمخالفتِه مقتضى الصّواب، فالأصلُ ألّا يقع من الزّوجِ ما يجعل المرأةَ تخاف من نشوزه أو إعراضِه، إكرامًا للزّوجة وتقريرًا لمكانتِها، وللإشعارِ بأنَّ نشوز الزّوجِ خروج عن الأصل الذي يقوم به نظام الفطرة، وتطيب به المعيشة.

الصُّلحُ بسببِ تحقُّقِ التّخوّف من النشوز أو الإعراضِ وليس على أساسِ الوسوسة

دلالة حذف المُسْنَد بعد (إن) الشَّرطيَّة:

لمّا كانت (إنْ) الشّرطيةُ لا تدخل إلّا على فعل أفاد دخولُها على الاسم ومجيء الفعل في حيّزه تقويةَ الحكم وتقريرَه؛ لما يدلُّ الكلامُ عليه من تقدير تكرار الجملة، أي (إنْ خافَت امراةٌ خافَتْ)؛ لتأكيدِ وقوعِ التّخوّف وتحقُّقِه؛ للاحتراس من بناء الحكم على أساس

(1) لجنة من عُلماءِ الأزهر، المنتخَبُ في تفسير القرآنِ الكريم، ص: 133، ونُخبة من أساتذة التَّفسير، التَّفسير المُيَسَّر، ص: 99، وجماعَةٌ من علماء التَّفسير، المُختَصَر في تفسير القرآن الكريم، ص: 99.

(2) السكاكي، مفتاح العلوم، ص: 240، والتفتازاني، المطول، ص: 319 - 320.

الوسوسة التي تكثر عند النساء، أو الوهمِ الذي يقع بسبب انشغال الرّجلِ بالمعيشة، وهو من إيجاز القرآن البديع[1].

دلالة مجيء النكرة في سياق الشّرط في قوله: ﴿وَإِنِ ٱمۡرَأَةٌ خَافَتۡ﴾:

جميعُ النّساء سواءٌ في وجوب الإصلاح عند نشوز الزّوج

دلَّ مجيء النّكرة في سياق الشّرطِ على عمومِها، بمعنى أيِّ امرأة كانت غنيَّةً أو فقيرةً كبيرةً أو صغيرةً، أيّ بأيِّ وصفٍ كانت.

سرُّ التّعبيرِ بِالخَوْفِ في قَوْلِهِ تَعالى: ﴿وَإِنِ ٱمۡرَأَةٌ خَافَتۡ﴾:

المبادرة إلى حلِّ النِّزاعاتِ الزّوجيَّة عند ظهور أماراتِها

لمّا كانَ الخوف هو تَوَقُّعَ أمرٍ مُحزن أو مُسيءٍ؛ دلَّ على ضرورةِ المُبادرةِ بِعلاجِ النُّشوزِ بالصّلحِ بِمجرَّدِ ظُهورِ أماراتِهِ؛ لأنَّ الخوفَ لا يحصل إلا عند ظهور الأماراتِ الدالة على وقوعِ المخوِّف؛ لِيكونَ قطعًا للأمرِ قبلَ حصولِه بتلافي أسبابه؛ فإنَّ الأسبابَ إنْ وقعت ربّما استعصى عليه تَدارُكُها[2][3].

سِرُّ التَّعبير بـ(البعل) بدل الزَّوجِ:

النّشوز قطعٌ لرابطةِ الزّوجية

يحتمل أن يكون سبب التّعبير بالبعل هنا لِمَا يدلُّ عليه من معنى الذُّكورة والقوَّةِ لمناسبتِه نشوز الزّوج لقوَّتِه؛ ليشعرَ بضعفِ المرأةِ مقابل نشوزه أو إعراضِه، كما يحتمل أن يقالَ إنَّه كانَ البعل مأخوذًا من المُباعلة والبِعال بمعنى القوة والفحولة كنايةً عن الجماع والملاعبة، دلَّ على أنَّ المرادَ هنا هو الرَّجُلُ المُتهيئ لنكاح الأنثى المتأتي له ذلك[4]، عبَّر بالبعل هنا للتّذكير بتَعَطُّل تلك الصِّفة بين الزّوجين بسببِ النُّشوز والإعراض، ولما كان البعل هو الرجل المُتهيئ للمرأة صَحَّ اقترانه مع تَزَيُّن المرأة؛ لأنَّه في مقابلِه؛ إذ تهيؤ الرَّجُل للملاعبة يقابله تهيؤ المرأة بالزِّينة؛ لذا قال تعالى: ﴿وَلَا يُبۡدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ﴾ [النُّور: 31].

---

(1) رضا، تفسير المنار: 5/363.

(2) ابن جرير، جامع البيان: 8/298، والزمخشري، الكشاف: 1/507، وابن عطيّة، المحرر الوجيز: 2/48، والرازي، مفاتيح الغيب: 10/73، وأبو حيان، البحر المحيط: 3/628.

(3) الشّعراوي، تفسير الشّعراوي: 5/2682.

(4) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 104.

نكتة التّقديم والتّأخير في قوله: ﴿مِنۢ بَعۡلِهَا نُشُوزًا أَوۡ إِعۡرَاضٗا﴾:

الإرشـــادُ إلى المبادرة والإسراعِ إلى الإصلاح

قدّم الجار والمجرور على المفعول به للعناية والاهتمام به، وليكون المفعول ﴿نُشُوزًا أَوۡ إِعۡرَاضٗا﴾ معقَّبًا بطلب الإصلاحِ من غيرِ فاصلٍ، للإرشادِ إلى المبادرة والإسراعِ إلى الإصلاح.

مناسبة العطفِ بين النّشوز والإعراض في قوله: ﴿وَإِنِ ٱمۡرَأَةٌ خَافَتۡ مِنۢ بَعۡلِهَا نُشُوزًا أَوۡ إِعۡرَاضٗا﴾:

وقـــوعُ واحـــدٍ من النُّشوز أو الإعـــراض كـافٍ في المـبـادرة إلى الصُّلحِ

لمّا كان المراد من النشوز إظهار الخشونة في القول أو الفعل أو فيهما، والتَّجافي عن الزّوجةِ كراهةً لها ومنعًا لحقوقها، وكان المراد من الإعراض أن يقِلَّ مجالستها ومحادثتها ومؤانستَها، دلَّ العطف بـ﴿أَوۡ﴾ على التّقابل بينهما، وعلى أنَّ وقوعَ واحدٍ منهما كافٍ في المبادرةِ إلى الصُّلحِ، فكيف إذا اجتمعا!؟، وقدّمَ النّشوزَ الذي هو أشدُّ على الإعراضِ الذي هو أخفّ، لتهويلِ أمرِ النّشوز وتعظيمِه[1].

دلالة وقوع الفاء في جواب الشَّرطِ في قوله: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَآ أَن يُصۡلِحَا﴾:

أفادت الفاء الحثَّ على التّعقيب من غيرِ مهلةٍ في الإصلاحِ بين المرأة وزوجها.

بلاغةُ الاستعارة التَّمثيليَّة في قوله تعالى: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَآ أَن يُصۡلِحَا﴾:

لفتُ الانتباه إلى خـيريَّـة الصُّلح للمُبادرة إليه

صيغةُ قوله تعالى: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَآ﴾ إمّا أن تكونَ من صيغ الإباحة، والمعنى على الظاهرِ، فهي إذنٌ للزَّوجَيْنِ في صُلح يقع بينهما، وقد عُلِمَ أنَّ الإباحة لا تُذْكر إلا حيث يُظَنُّ المنع، وإمّا أن تكون استعارةً تمثيليَّةً حيث شُبِّهت هيئة من ترك الصُّلح واستمر في النُّشوز والإعراض بهيئة من ترك الصُّلْحَ عن عمد لظنِّه أنَّ في الصُّلح جُناحًا، والغرضُ من مجيء الكلامِ على سبيلِ الاستعارة التَّحريضُ على الصُّلح، ولفتُ الانتباه إلى خيريَّتِه؛

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 2/101، والقونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 7/319.

للمُبادرة إليه، والأخذِ في أسبابِه، من الإغضاء عن الهفوات، ومُقابلة الغلظة باللِّين[1].

نُكتةُ النَّفي بلا النَّافية للجنس في قوله: ﴿فَلَا جُنَاحَ﴾:

عبَّر عن نفي الإثم بصيغة (لا) النّافية للجنسِ، والمعنى نفي أي نوعٍ من أنواعِ الجُناح؛ لكيلا يَتوهَّم أحدُ الزَّوجينِ أنَّ في التَّساهل عن بعض حَقِّه باقتطاعِه للآخرِ إثمًا، والصُّلح يقتضي أن يتسامح أحد الفريقين في جزءٍ من حقِّه؛ لينال خيرًا أكثر ممَّا تسامح فيه، فإذا تركت المرأةُ بعض حقِّها لتدوم العشرة بالمعروف فذلك لَا إثم فيه بل فيه الخير[2].

بيان أنَّ الحقوق المُتنازَل عنها بَيْنَ الزَّوجين للإصلاح ليس فيها جناح ولا إثم

فائدة ذكر المُسند ﴿يُصْلِحَا﴾:

أفادَ مجيءُ المسندِ بصيغة المضارعِ الحثَّ على الصلحِ بين الزّوجينِ واستمرارِه حالًا فحالًا، للإشعارِ بأنَّ تجدُّدَ الخلافات الزّوجيَّة فيما هو من طبيعةِ البشرِ، لايمنعُ من المبادةِ إلى الصُّلحِ بل يُحَثُّ عليه.

إرادة تجديد الصُّلح واستمراره بتجدُّد مُقتضاه

دلالة التَّعبير بالظَّرف (بين) في قوله تعالى: ﴿أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا﴾:

في ذِكْرِ الظَّرف ﴿بَيْنَهُمَا﴾ إشارةٌ إلى أنَّ الأحسنَ أن يكونَ التَّصالحُ بالرِّضا منهما وبانشراح صدرهما لا بالإكراهِ من غيرهم، وفيه تنبيهٌ على أنَّه ينبغي أن يكون الصُّلْحُ المُبْرَمُ سرًّا بين الزَّوجين، لا يُطلِعان النَّاس عليه، بل يَستُرانه عنهم[3].

التَّنبيه على أنَّ الصُّلح ينبغي أن يكون سرًّا بين الزَّوجين ابتداء

مناسبة تتابع التَّأكيدات في قوله تعالى: ﴿أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ﴾:

دلّت الآية على شدَّة التَّرغيب في هذا الصُّلح بتتابعِ المؤكّداتِ

إظهار أهميَّة الصُّلح، وتأكيد خصوصيَّته وخيريَّته

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 5/215.
(2) أبو زُهرة، زَهرة التَّفاسير: 4/1883.
(3) القونوي، حاشية البيضاوي: 7/319، والآلوسي، روح المعاني: 3/156.

لأهميَّته، وهي ثلاثُ مؤكِّدات: المَصْدرُ المُؤكِّدُ في قوله: ﴿صُلۡحًاۚ﴾، والإظهارُ في مقام الإضمارِ في قوله: ﴿وَٱلصُّلۡحُ خَيۡرٞۗ﴾؛ لتمييز الصُّلح من غيرِه ولتعظيمِه، والإخبارُ عن الصُّلحِ بالخيرِ الذي يدلُّ على فعل سجية أخبرَ عنه بأنَّه خير[1].

القراءات القرآنية وتكثير المعنى:

قرأ حمزة والكسائي وعاصم ﴿يُصۡلِحَا﴾ بضم الياء وكسر اللام وحذف الألف، وهو من الإصلاح، وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر ﴿يَصَّلَحَا﴾ بفتح الياء وشدِّ الصاد وألف بعدها، وهو من التصالح، ويَصَّالَحا في الأصل هو يتصالحا، سُكِّنَت التَّاء وأدغمتْ في الصَّاد، ومَن قرأ ﴿يُصۡلِحَا﴾ فوجهه أن الإصلاح يكون عندَ التنازع، كما يقال: أصلحت ما بين القوم، وضدُّه الإفساد، ويكون الفعل متعدِّيًا ومفعوله محذوف، وتقدير الكلام: أن يصلحا الأمرَ أو الحالَ بينهما صلحًا، وكأنَّ النّشوز والإعراض إفسادٌ ينبغي إصلاحه، ومن قرأ ﴿يَصَّلَحَا﴾ وهو الاختيار عند الأكثرين قال: أن يصَّالحا معناه يتوافقا، والفعل لازمٌ، وهو أليق بالسِّياق؛ لأنَّ المعنى بأنْ تسقِطَ له بعضَ المهر أو كلَّه أو مؤنة النفقة، أو القَسْم، أو تهبَ له شيئًا تستميله به[2].

نكتةُ التّعبير باسم المصدرِ المؤكِّد ﴿صُلۡحًاۚ﴾:

الحثُّ على أيِّ صلحٍ كانَ وإن تكرَّر

أفاد التّعبيرُ باسمِ المصدرِ المؤكِّدِ نكرةً من غيرِ وصفٍ ولا إضافةٍ ولا تقييدٍ بعددٍ - الإيذانَ بالتّحريضِ على أيِّ صلحٍ كانَ والحثِّ عليه، فيتناولُ أقلَّ ما يطلقُ عليه صلحٌ وأعظمَه وأكملَه، وأيضًا يتناولُ الصلحَ مرَّةً أو أكثرَ من غيرِ حصرٍ بعددٍ.

براعة الإطناب بالاعتراض في قوله: ﴿وَٱلصُّلۡحُ خَيۡرٞۗ﴾:

الصُّلحُ خيرٌ بمنزلةِ المثلِ لعمومِ المعنى

أفادت جملة الاعتراض تأكيد التّرغيب في المصالحة، وجاءت جملةً اسميَّةً؛ للدَّلالة على ثبات خيريَّة الصُّلح سواء أكان المراد منه الصُّلح المعهود في الآية بين الزَّوجين أو الصُّلح مطلقًا، كما تؤذن

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 5/217.

(2) ابن مجاهد، السبعة، ص: 238، والرازي، مفاتيح الغيب: 11/135، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 2/101، وابن التمجيد، حاشية على تفسير البيضاوي: 7/319.

هذه الجملة بوصف التّذييل لتكون بمنزلةِ المثَلِ لإمكانِ استقلالِها في المعنى وعمومِها وكلّيَّتها.

دلالة (أل) في قوله: ﴿وَٱلصُّلۡحُ خَيۡرٞۗ﴾ بين العهدية والجنسية:

كلُّ صلحٍ خيرٌ

تحتمل (أل) في ﴿وَٱلصُّلۡحُ﴾ أن تكون عهديَّة؛ لسبقِها بلفظِ ﴿صُلۡحًاۚ﴾، فلمّا أعادَ اللَّفظ معرَّفًا دلَّ على أنَّه عينُ الأول، والمعنى: الصلح بين الزوجين خيرٌ من الفرقة، وتحتمل أن تكون للعموم، والمعنى كلُّ صلحٍ خيرٌ على الإطلاقِ، فهو الذي تسكن إليه النفوس ويزول به الخلافُ، ويدخل فيه الصلح بين الزّوجين دخولًا أوّليًّا لمناسبة ورودِه في السياق[1].

دلالة لفظ ﴿خَيۡرٞۗ﴾ بين الصِّفةِ المشبَّهةِ والتّفضيل:

الـتَّرغـيـبَ في الصُّلح، والحثَّ عليه

يحتمل لفظ ﴿خَيۡرٞۗ﴾ أن يكون وصفًا فلا يرادُ منه التّفضيل، أي بيان أنَّه من الخيور كما أن الخصومة من الشُّرور، وهو يناسبُ مجيء (أل) في الصلح على معنى العموم، ويؤيّده مجيء الجملة اعتراضيَّةً وفي مقام التّذييل؛ ليكون الكلامُ عامًّا في الصلح وفي الخير، أي كلُّ صلحٍ خيرٌ، تنبيهًا أنَّ ما ذكر في سياق الكلامِ منه فهو إذَنْ خيرٌ، ويحتمل أن يكون اسم تفضيل، والمفضَّل عليه، وهو النُّشوز والإعراض أو الفرقة، إذْ جُعلَ له خيريَّةٌ على سبيل الفرضِ والتَّقديرِ، أي: إنْ أمكنَ أن يكونَ فيه خيرٌ فهذا أخيرُ منه، وإلَّا فلا خيريةَ فيما ذكر، فيكون التّعبيرُ بمنزلةِ الاستدلالِ على نفي أيِّ خيرٍ في النّشوز أو الإعراضِ فيما قد يتوهّمه الأزواج، وهو يناسبُ مجيء (أل) بمعنى العهد، أي الصّلح بين الزوجين خير من الفرقة بينهما؛ ولكونِه في سياق التّذييل جاريًا مجرى المثلِ؛ لاستقلالِهِ بالإفادَةِ، فيدلُّ على العمومِ استلزامًا[2].

(1) الزمخشري، الكشاف: 1/571، وابن عطية، المحرر الوجيز: 2/120، والرازي، مفاتيح الغيب: 11/236.
(2) الراغب، تفسير الراغب: 4/182، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 2/111، وابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 5/216.

براعة الإطناب بالاعتراض في قوله: ﴿وَأُحۡضِرَتِ ٱلۡأَنفُسُ ٱلشُّحَّۚ﴾:

تمهيد العذر في المماكسة والمشاحّة بعدَ الصُّلحِ

قوله: ﴿وَأُحۡضِرَتِ ٱلۡأَنفُسُ ٱلشُّحَّۚ﴾ جملةٌ اعتراضيَّةٌ، وأفاد هذا التَّعبيرُ أنَّ الأنفسَ مطبوعةٌ على الشحِّ لا تنفكُّ عنه أبدًا، وفي جعلِ الأنفس حاضرةً للشحِّ دونَ العكسِ مبالغةٌ في الوصفِ؛ ولكون الفعلِ من أفعال الجبلَّة بُنِي فعله للمجهول على طريقة العرب في بناء كلّ فعل غير معلوم مِن الفاعل للمجهول، كقولهم: شُغف بفلانة، واضطُرّ إلى كذا، وأصل الكلام أحضرَتِ الأنفسُ الشحَّ، والمراد أن الأنفسَ جعلت الشحَّ كالأمر المجاور لها الحاضر بين يديها اللَّازم لها، والغرض من هذا الاعتراض تمهيدُ العذر في المماكسةِ والمشاقَّة بعدَ الصُّلحِ، فإنَّه لا تكاد نفسُ المرأةِ تسمح بالتّقصيرِ بحقِّها، ولا تكاد نَفْسُ الرَّجلِ تسمح بأن يُمسِكَها ويقومَ بحقِّها إذا رغب عنها وأحبَّ غيرها[1].

سِرُّ تغيير النَّظم بين الجملة الاسميَّة والجملة الفعليَّة في قوله: ﴿وَٱلصُّلۡحُ خَيۡرٞۗ وَأُحۡضِرَتِ ٱلۡأَنفُسُ ٱلشُّحَّۚ﴾:

ثبات خيريَّة الصُّلح بجميع وُجوهه، وبيان تَحقُّق الشُّح ورسوخه في النَّفس

جاءت الجملة الاعتراضيَّة الأولى اسميَّةً ﴿وَٱلصُّلۡحُ خَيۡرٞۗ﴾، لبيانِ ثباتِ هذا الوصفِ وديمومتِه، في حينَ جاءت الجملة الاعتراضية الثَّانية: ﴿وَأُحۡضِرَتِ ٱلۡأَنفُسُ ٱلشُّحَّۚ﴾ فعلية ماضوية؛ للإشارة إلى أن الأنفس مجبولة على الشح أي البخل والحرص، وأن هذا أمر محقَّقٌ في النفس الإنسانية إلَّا من عصمه اللّه تعالى، والجامع بينهما هو التّرغيب في المصالحة واستمرارِها وتجاوز العثراتِ فيها.

براعة الالتفات في قوله تعالى: ﴿وَإِن تُحۡسِنُواْ وَتَتَّقُواْ﴾:

الخطاب هنا للأزواجِ فيكون التفاتًا من خطابِ الزَّوجاتِ إلى خطاب الأزواج، بطريق الالتفات؛ لقصد استمالتهم وترغيبهم في

(1) الزَّمخشري، الكشَّاف: 1/571، والرَّازي، مفاتيح الغيب: 11/236، والبِقاعيّ، نظم الدُّرر: 5/423، وابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 5/217.

حسن معاملة نسائهم، وللإشعارِ بأن سلوك طريق الصُّلح معهن يكونُ بالإحسانِ والتّقوى، مع ما في هذا الالتفات من التَّعريض بالشَّحيح في كونه ليس مُحسنا ولا مُتَّقيا، ويحتمل أن يكون الخطابُ للرّجالِ والنّساء فيكون في الخطاب التفاتٌ وتغليبٌ بسببِ إيرادِ ضميرِ المذكَّرِ. ونكتة مجيء التّغليبِ التَّنبيه أنَّ الزوجَ أخصُّ بالإحسانِ والتّقوى من المرأةِ لتسبّبه بالنّشوز أو الإعراضِ، ويستفاد من النّظم بطريق الاقتضاء أنَّه لو خاف الرّجل نشوز زوجته أيضًا فلا جناحَ عليهما في الإصلاح[1].

ترغيب الأزواج في الإحسانِ إلى نسائهم وسلوك طريق الصُّلح معهن

مناسبة تقديم الإحسان على التقوى:

لمّا كان الصّلح ودوامُه يقتضي الإنعامِ والعطاء قبل اتقاء النقصِ وترك النّشوز والإعراض ناسب تقديم الإحسان على التّقوى لتمكّن الإحسان في تحصيلِ الصُّلحِ وتأثير التّقوى في منع حصول النُّشوز أو الإعراضِ مرةً أخرى. كما أنَّ لفظ التَّقوى منبئٌ عن كون النُّشوز والإعراض ممَّا يُتوقَّى منه[2].

في الإحسان تحصيلُ الصُّلحِ وفي التّقوى منعُ حصول النُّشوز أو الإعراضِ مرةً أخرى

سرُّ تخصيص العمل بالذِّكر في قوله تعالى: ﴿بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾:

قوله: ﴿بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾: فيه اختصاصٌ؛ حيث خَصَّ الْعَمَلَ بالذِّكرِ[3]؛ إذ هو مناطُ الحساب، وأيضًا فالعَملُ يَشمَلُ الفعلَ والتَّرك؛ إذ التَّرْكُ فِعلٌ.

بيان أنَّ العمل مناط الحساب

دلالة الكناية عن الموصوف في قوله: ﴿خَبِيرًا﴾:

قوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرًا﴾: فيه كنايةٌ عن وعيدٍ؛ لأنَّ الخبيرَ بفاعلِ السُّوء - وهو قَديرٌ - لا يُعوِزُه أن يُعذِّبَه على ذلك، وقد أُكِّدَ هذا الوعيد بـ﴿فَإِنَّ﴾، و﴿كَانَ﴾، مع ما في ذكر الاسم الجليل من تربية المهابة في النُّفوس[4].

الوعيد الأكيد لمن أساء في فعله بالشُّحِّ وتَرْكِ الصُّلْحِ

(1) الرازي، مفاتيح الغيب: 11/237، والبِقاعيّ، نظم الدُّرر: 5/423، وأبو السعود، إرشاد العَقْل السّليم: 2/239، والقونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 7/321.

(2) أبو السعود، إرشاد العَقْل السّليم: 2/239.

(3) أبو حيَّان، البحر المحيط: 4/106.

(4) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 5/228.

الوعد الكريم لمن أحسن واتّقى في عمله

نكتة المجاز المُرسل في قوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا﴾:

لمّا كان الجزاءُ على الإحسانِ والتّقوى يكون بالثَّواب كانَ قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ من إقامة السَّبب مقام المُسَبَّبِ بطريقِ المجاز المرسلِ، بمعنى: إن تحسنوا وتتقوا فيجازيكم ويثيبكم على ذلك البتةَ؛ لاستحالة أن يُضيِّعَ أجرَ المحسنين. ونكتة التّعبير بطريق المجاز المرسلِ هي الإشعار بأهميَّة السَّبب في تربية الإحسان والتّقوى واستدامتهما لتحصيلِ الثوابِ الحسن، وأيضًا لتعظيم الثَّواب وتفخيمه وكأنَّه مما لا يكادُ يوصف، وترتيبُ الوعد الكريم على ذلك من لُطْفِ الاستمالة والتَّرغيب في حسن المعاملة[1].

المتشابه اللفظي:

لمّا كان ما يقع بين الزّوجين ربما دقَّ علمه عن إدراك غير العليم الخبير وخفي على غير الزّوجين، قال هنا ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا﴾، فهو أشدُّ مبالغةً من قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ۝٨﴾، [المائدة: 8]، لأن الآية الأخيرة في سياق الحمل على قصدِ العدل مع من بين قومهم وبين المسلمين شدة عداوة، فالأمر يكون ظاهرًا في الغالب[2].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

البعل وَالزَّوْج:

الزَّوج يُقال لكلِّ واحدٍ من القرينين من الذّكر والأنثى في الحيوانات المتزاوجةِ زَوْجٌ، ولكلّ قرينين فيها وفي غيرها زوج، كالخفّ والنّعل، ولكلّ ما يقترن بآخر مماثلٍ له أو مضادٍّ: زوج[3]، قال تعالى:

(1) أبو السُّعود، إرشاد العَقْل السّليم: 2/239، والآلوسي، روح المعاني: 3/157.
(2) البقاعي، نظم الدّرر: 6/42.
(3) الرَّاغب: المفردات، ص: 384.

﴿فَجَعَلَ مِنۡهُ ٱلزَّوۡجَيۡنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ ٣٩﴾ [القيامة: 39]، وقال: ﴿قُلۡنَا ٱحۡمِلۡ فِيهَا مِن كُلّٖ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ﴾ [هود: 40]، أَنَّ الرَّجُل لَا يكون بَعْلًا للمرأَة حَتَّى يدْخل بهَا؛ وذلك أن البِعال النِّكَاح والمُلاعبة، وأَصْلُ الكَلِمَة القيام بِالأَمر، ومنه يُقال للنَّخل إِذا شَرِبَ بعُروقه ولم يحتج إِلى سَقْيٍ: بعلٌ، كأنَّه يقوم بمصالح نفسه[1].

الجُناح والإثم والذَّنب:

الجناح مُطلق الميل، والإثمُ الذَّنب الذي عليه تَبِعَةٌ، ومن الذُّنوب ما لا تَبِعَةَ فيه

الجناح هو الإثم والجناية، ولم يرد في القرآن الكريم إلَّا منفيًّا بـ(لا) أو بـ(ليس)، بمعنى نفي الإثم أو الجنايةِ، ويُسلَكُ به مع مَن يتوهَّم الإثم في فعلٍ أو قولٍ لما يوحي به ظاهرُه، فيأتي بنفي الجناحِ لنفيِ الإثمِ عن الفعلِ أو القولِ وإفادة جوازِه، أي بالمعنى العامِّ للجواز سواءٌ أكان إباحةً أو ندبًا أو وجوبًا، ولمّا كان المراد في هذه الآية دفع توهّم المنع من إعطاء المرأة شيئًا لِزوجها أو دفعَ توهّم الإثم في أخذِ البعلِ ذلك العطاء عبَّر بـ﴿فَلَا جُنَاحَ﴾ لإفادة نفي الإثم، أي ليس ذلك رشوةً[2]، فاختلف سياق التّعبير بنفي الجناحِ عن نفي الإثم أو الذنب، وقد تقدَّم بيان الفرق بين الإثم والذَنبِ قريبًا في تفسير الآية 111 من هذه السُّورة بِما يغني عن إعادته.

البخل والشُّحّ:

الشُّحُّ شِدَّة الحرص على الشَّيء، والبُخْل ثمرة الشُّحِّ

الفرق بينهما أن الشح الحرص على منع الخير، ففيه معنى اللؤم، والبخل منع الحق، فلا يقال لمن يؤدي حقوق اللّٰه تعالى: بخيل. أو يقال: الشُّحُ شِدَّة في الحرص على الشَّيْءِ وطلَبِه، وجَشَعِ النَّفس عَلَيْهِ، كما أنَّ البُخْل بالمال: منعُ إنفاقِهِ بعد حصوله، وحُبُّه، وإمسَاكُه، فيكون المرء شحيحًا به قبلَ حصوله، بخيلا بعدَ حصُولِه، فالشُّحُّ يدعو إلى البخل فهو أشدُّ منه، والشحُّ كامِن في النَّفْسِ، فمَنْ

(1) العسكريّ، الفروق اللُّغويَّة، ص: 283، والكفويّ: الكليَّات، ص: 249.
(2) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 7/319.

بَخِلَ فقد أطاعَ شحَّه، ومَن لَمْ يَبْخَل فقد عَصَى شُحَّه ووُقِيَ شرَّه، وذلك هو المفلح ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٩﴾ [الحشر: 9]؛ فالبخل ثمرةُ الشُّحِّ[1]، فلمّا كان الشُّحُّ بمعنى الحرصِ على منعِ الخير، وكان الصلح هو الخير، عبَّر عن مانعِ الصُّلحِ بإحضار الأنفس الشحِّ دون البخل.

(1) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 176، وابْنُ القَيِّم، الوابل الصيب، ص: 33.

﴿وَلَن تَسۡتَطِيعُوٓاْ أَن تَعۡدِلُواْ بَيۡنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوۡ حَرَصۡتُمۡۖ فَلَا تَمِيلُواْ كُلَّ ٱلۡمَيۡلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلۡمُعَلَّقَةِۚ وَإِن تُصۡلِحُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ١٢٩﴾ [النساء: 129]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

ذكـــر بعـض أحـوال الرِّجال مـع زوجـاتـهـم حـال الجـمـع بَيْنَهُنَّ بعد ذكر أحوالهم مَعَهُنَّ حال الإفراد

لَمَّا ذكَر ﷻ أنَّ الوقوفَ على الحقِّ فضلًا عن الإحسانِ - وإنْ كانت المرأةُ واحدةً - متعسِّرٌ، أتبَعَه أنَّ ذلك عند الجمعِ بين أكثرَ مِن واحدةٍ أعسرُ، فقال تعالى: ﴿وَلَن تَسۡتَطِيعُوٓاْ أَن تَعۡدِلُواْ بَيۡنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوۡ حَرَصۡتُمۡۖ﴾، وأيضًا هذه الآية فتوى أخرى غير الفتاوى المبينة في الآيتين قبلها، والمستفتون عنها هم الذين كان عندهم زوجتان أو أكثر، لبيانِ عذرِ النّاس في النِّساء[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿حَرَصۡتُمۡۖ﴾: الحِرْصُ: شدَّة الْإِرَادَة والشَّرَهِ إلى المطلوب، وقد حَرَصَ على الشَّيء يحرِص، فهو حَريصٌ؛ إذا اشتدَّت إِرَادَته لَهُ، وأصل الحِرْصِ يَدُلُّ على الإفراط في الرَّغبة والإرادةِ للشَّيْءِ، يُقال: حَرَصَ على كذا يحرِص عليه إذا أَفْرَطَ في محبَّتِه وإمساكِه[2].

3) ﴿فَتَذَرُوهَا﴾: فتتركوها، من وذر يذر، وقد أماتت الْعَرَب ماضيه ومصدره فَإِذا أُرِيد الْمَاضِي قيل تركته فَلَا يَقُولُونَ وَذَرْتُهُ، وَلَا يسْتَعْمل مِنْهُ اسْم فَاعل، ويَذَرُ الرَّجُلُ الشَّيءَ يتخلَّى عنه مع إهماله؛ لعدم الاعتناء بشأنه، ومنه الوذرة: قطعة من اللَّحم، وتَسْميتُها بذلك لِقلَّةِ الاعتداد بها[3].

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 5/424، ورضا، تفسير المنار: 5/365.
(2) الجوهري، الصِّحاح: (حرص)، ، وابن سيده، المحكم، ، والسَّمين، عُمدة الحُفَّاظ، ، وابن فارس، مقاييس اللُّغة: (حرص).
(3) الخليل، العين، وابن عباد، المحيط، وابن فارس، مقاييس اللُّغة، والسَّمين، عُمدة الحُفَّاظ، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (وذر).

4) ﴿كَٱلۡمُعَلَّقَةِۚ﴾: المُعَلَّقةُ من النّساءِ: الَّتِي فُقِدَ زوجُها، والعَلَقُ: التَّشبُّثُ بالشَّيء، يُقال عَلِقَ الشَّيء بالشَّيء، والخَصْمُ بالخصم عُلوقا: تشبّث، وأصلُه: أن يُناطَ الشَّيءُ بالشَّيء العالي، والمعنى هنا تشبيه المرْأَة التي لَا يُنصِفها زوجُها ولا يُحسِن مُعاشرتَها وَلَا يخلِّي سبيلَها، بذلك، فَهيَ لا أيِّمٌ وَلا ذاتُ بعل؛ كأنَّ أمرها ليس بمُستَقِرٍّ[1].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

الدَّعوة إلى الإصلاح والتَّقوى حال حصول الميلِ والجفوة

ولن تَقْدِروا - أيُّها الأزواج - على تحقيق العدل التَّامِّ بين الزَّوجات في الميل القلبيِّ، مهما بذلتم في ذلك من الجُهد؛ فلا تُعرضِوا عن المرغوب عنها كلَّ الإعراض، فتتركوها كالمرأة التي ليست بذات زوج ولا هي مُطلَّقة فتأثموا، وإن تُصلحوا أعمالكم فتعدلوا في قَسْمكم بين زوجاتكم، وتُراقبوا اللّه تعالى وتخشَوه فيهن، فإن اللّه يغفر لكم ويَرحمكم؛ إذْ من شأنه المغفرةُ والرَّحمة[2].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

سرُّ إيثار النَّفي بـ ﴿وَلَن﴾ دون غيرها من حروف النَّفي:

المبالغة في انتفاء العدل من جميع وجوهه

تدلُّ (لن) على نفي استطاعة العدل بين النّساء والمبالغة فيه، ولمّا كانت (لن) لنفي المستقبل أفادت أنَّه كلَّما تزوَّج الرجل زوجتين فأكثر عسُر عليه العدلُ بينهنَّ.

سرُّ التّعبير بالمصدر المؤول في قوله: ﴿أَن تَعۡدِلُواْ﴾:

عبَّر بالمصدر المؤول لتأكيد نفي استطاعة العدل بين النساء في المستقبل بعد أن نُفيَ بـ(لن)، ولإفادة دلالتِه على نفي العدل مطلقًا من غيرِ أيِّ معنى زائدٍ عليه من الهيئات المصاحبةِ له، أي

(1) الرّاغب، المفردات، والأزهريّ، تهذيب اللُّغة، وابن فارس، مقاييس اللُّغة، والسَّمين، عُمدة الحُفَّاظ، والزَّبيديّ، تاج العروس: (علق)، وابن الحدَّاد، كتاب الأفعال: 1/220، وابن الجوزيّ، تذكرة الأريب، ص: 74.

(2) لجنة من عُلماءِ الأزهر، المنتخَبُ في تفسير القرآنِ الكريم، ص: 133، ونُخْبة من أساتذة التَّفسير، التَّفسير المُيَسَّر، ص: 99، وجماعَةٌ من علماء التَّفسير، المُختَصَر في تفسير القرآن الكريم، ص: 99.

العدل المستوي في الأفعال والأقوال والمحبة حتى لا يقع ميل البتَّة ولا زيادة ولا نقصان فيما يجب لهن، وهو متعذر، كما أن ورود الفعل هيَّأ لدخول ضمير الجمع (الواو) عليه لتأكيدِ النّفي عن جميعِ المخاطبين[1].

العدلُ الكاملُ هو الاستواء في الأفعال والأقوال والمحبة بينَ الزّوجات

بلاغة التّعبير بضمير الخطاب في قوله تعالى: ﴿وَلَن تَسۡتَطِيعُوٓاْ أَن تَعۡدِلُواْ﴾:

لمّا كان أصل الخطاب أن يكون لمعيَّن ويترك لغيرِ معيَّن لقصدِ العموم، دلَّ على أنَّ المرادَ في الخطاب في قوله تعالى: ﴿وَلَن تَسۡتَطِيعُوٓاْ أَن تَعۡدِلُواْ﴾ عمومُ الرِّجالِ، فجاء على خلافِ مقتضى الظّاهر، فلا يريد به مخاطبًا معيَّنًا؛ قصدًا إلى أنَّ بيانِ أنَّ كلَّ مَن له أكثر من امرأة لا يستطيع أن يعدل بينهنَّ، وأنَّ الأمر لا يختصُّ بزوجٍ دونَ زوجٍ آخر[2].

كلُّ مَن له أكثر من امرأة لا يستطيع أن يعدل بينهنَّ

نكتة التّعبير بنفي الاستطاعة في قوله تعالى: ﴿وَلَن تَسۡتَطِيعُوٓاْ أَن تَعۡدِلُواْ﴾:

عبَّر بنفي الاستطاعة لدلالة الفعل ﴿تَسۡتَطِيعُوٓاْ﴾، على معانٍ مجتمعة تناسب العدلَ بين النّساء ممّا هو في سياق الكلام، فالاستطاعة تفيد معنى اللين والانقياد والقدرة[3]، فأشعر التّعبير بالاستطاعة إلى أنَّ العدل بين النساء يقتضي انقياد الزّوج بقلبه وجوارحه للعدلِ بين زوجاته، مع لينِه في الأمر لمناسبة التعامل مع النساء وقدرته على هذا الأمر، فعبَّر بـ﴿وَلَن تَسۡتَطِيعُوٓاْ﴾ دون (لن تقدروا) لمناسبةِ المقامِ والسّياق.

العدل بين النساء يقتضي انقياد الزّوج بقلبه وجوارحه للعدلِ بين زوجاته

براعة التّعبير في قوله: ﴿وَلَوۡ حَرَصۡتُمۡۖ﴾:

جاءت ﴿وَلَوۡ﴾ الوصليَّة هنا لوصل ما بعدها بما قبلها لتقوية نفي الاستطاعة وتقريرِها، فهي تأتي لاستقصاء جميعِ الأحوال

الحرصُ على العدلِ لا يناسب تعدّد الزوجات لصعوبته

(1) الزمخشري، الكشاف: 1/572، وابن القيم، بدائع الفوائد: 1/92.
(2) السكاكي، مفتاح العلوم، ص: 180.
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (طوع).

التي يقع فيها توخّي العدل[1]، لتدلَّ على أنَّ المرادَ امتناعُ استطاعة إظهار العدل بين النّساء في كلِّ الأحوالِ حتَّى في حالةِ حرصكم عليه لانتفاء الاستطاعة عليه؛ ولإشعارِها بالتّقليل أفادت قلَّةَ حرصِ الرّجالِ على العدل بين النّساء، فكأنَّ الحرصَ على العدلِ لا يناسب تعدّد الزوجات لصعوبته.

دلالة النَّهي الوارد بعد النَّفي:

الإرشـــــاد إلى تحـرِّي العـدل وتعويد النَّفس عليه

لمّا كان النّهي يَرِدُ لِما هو في الإمكانِ والمقدور دلَّ على أنَّ المراد بالنّهي عن كلِّ الميلِ هو أن يفعل فعلا يقصده من التَّفضيل وهو يقدر ألّا يفعله، فهذا هو كُلُّ المَيْلِ، وإن كان في أمر حقير، وأيضًا لمّا كان النّهي موجّهًا إلى ﴿كُلَّ ٱلْمَيْلِ﴾ دلَّ على أنَّ مطلق الميل غير مقدور على تركه فلم يُكلَّفْ به، ولمّا توجّه النّهي إلى الذوات في قوله: ﴿فَلَا تَمِيلُواْ﴾ دلَّ على أنَّ المعنى أنَّكم لستم منهيين عن حصول التفاوت في الميل القلبي؛ لأنَّ ذلك خارج عن وسعكم، ولكنَّكم منهيُّون عن إظهار ذلك التَّفاوت في القول والفعل، فكأن الكلام بتقدير: فَلا تَمِيلُوا النَّوعَ الذي هو كلُّ الميل وهو المقصود من قول أو فعل،[2].

دلالة نفي الشّمول في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَمِيلُواْ كُلَّ ٱلْمَيْلِ﴾:

إمـكـانُ وقـوعِ بعض الميلِ إلى المحبوبة الذي لا يوجبِ أن يجعلَ الأخرى كالمعلَّقة

لمّا كان النّهي بمعنى النّفي، وكان وقوع ﴿كُلَّ﴾ في حيِّز النفي أو النّهي يفيدُ أنَّ النَّفي أو النّهي موجَّهٌ إلى الشُّمول خاصَّةً ويفيدُ بمفهومه ثبوت الفعل لبعض الأفراد، دلَّ هنا على أنَّ النّهي موجّهٌ إلى كمالِ الميلِ وجميعِه؛ ليفهم منه إمكانُ وقوعِ بعض الميلِ إلى المحبوبة الذي لا يوجبِ أن يجعلَ الأخرى كالمعلَّقة، وفي النّهي ضربٌ من التّوبيخ لِمن يميلُ كلَّ الميلِ[3].

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 2/103.
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/121، والبقاعي، نظم الدرر: 5/424، وأبو حيان، البحر المحيط: 4/89.
(3) الزمخشري، الكشاف: 1/572، وابن هشام، مغني اللبيب: 1/265.

بلاغة الإيجاز بالحذف:

من بديع الإيجاز وروعة التّعبير في القرآن الكريم

في الجملة من بديع الإيجاز وروعة النَّظم ما لا يخفى، فإنّه لمّا كان السّياق في بيان أمرِ مَنْ لا يقعُ العدلُ معها، طوى ذكر المحبوبةِ لحصولِها على ما تريدُ وأظهرَ ذكرَ ما قد يقع الظُّلمُ عليها اهتمامًا بشأنها، فقال ﴿فَلَا تَمِيلُواْ كُلَّ ٱلۡمَيۡلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلۡمُعَلَّقَةِۚ﴾، والتّقدير: فَلا تميلوا كُلَّ الميل إلى إحداهنَّ فتُعرضوا بذلك عن الأخرى فتَذَروها كالمُعَلَّقَةِ، فطوى الجار والمجرور (إلى إحداهنَّ) وجملة (فتعرضوا بذلك عن الأخرى)، أو يكون التّقدير: فَلا تميلوا كُلَّ الميل إلى إحداهنَّ فتذروا الأخرى كالمُعَلَّقَةِ، فيكون مُتعلَّق تميلوا مُقدَّرًا بإحداهن، وضمير فتذروها المنصوب يعود على المميلِ عنها لِدلالة السياق عليه[1].

دلالة الفاء في الموضعين من قوله: ﴿فَلَا تَمِيلُواْ كُلَّ ٱلۡمَيۡلِ فَتَذَرُوهَا﴾:

لا تميلوا كلَّ الميلِ لأنَّه سيكون سببًا لأن تذروا الزّوجة كالمعلَّقة

أفادت الفاء الأولى ترتُّبَ ما بعدها على ما قبلها، أي ترتُّب النّهي على الإخبار بنفي الاستطاعة في أن يعدل الأزواج بين زوجاتهم، والمعنى لأنّكم لن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء فلا تميلوا كلَّ الميل. وتحتمل أن تكون الفاء الفصيحة بتقدير شرطٍ من سياق الكلام، وتقديره: إن لم تعدلوا بين النّساء فلا تميلوا كل الميل، وأما الفاء الثانية فتحتمل أن تكون سببيَّةً بمعنى ترتّب ما بعدها على ما قبلها، ويكون الفعل ﴿فَتَذَرُوهَا﴾ منصوبًا بـ(أن) مضمرة أي: لا تميلوا كلَّ الميلِ؛ لأنَّه سيكون سببًا لأن تذروها كالمعلَّقة. وتحتمل أنْ تكون عاطفة لجملة على جملة بمعنى التشريك في النّهي؛ ليكون النّهي موجّهًا إلى قوله: ﴿فَتَذَرُوهَا﴾، والمعنى لا تميلوا كلَّ الميلِ ولا تذروها كالمعلَّقة، ففي الأول نَهْيٌ عن الجمع بينهما، وفي الثاني نهيٌ عن كلٍّ على حِدَتِه وهو أبلغُ[2].

(1) السمين، الدر المصون: 4/111، ورضا، تفسير المنار: 5/365، وابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 5/218.
(2) العكبري، التبيان: 1/396، والسمين، الدرّ المصون: 4/111.

سِرُّ التَّعبير بـ﴿فَتَذَرُوهَا﴾ دونَ(فتتركوها):

الإيماء إلى حال من تركها زوجها ومال إلى غيرها على الوصف المذكور

يَذَرُ الرَّجُلُ الشَّيءَ أي يتخلَّى عنه مع إهماله؛ لعدم الاعتناء بشأنه، والفعل الماضي من يذر لم يستعمل في العربية، ويُقال: فلان يذر الشَّيء، أي: يَقْذِفُه لقلَّة اعتداده به، ومنه الوَذْرَةُ: القطعة من اللَّحم، وتَسْمِيتُها بذلك لِقِلَّةِ الاعتداد بِها[1]؛ فكأنَّ الرَّاغب عن زوجته على هذه الصِّفة قد تَركها تَرْكَ المُهْمِل لها وهو غَير مُبال ولا معتدٍّ بها؛ لاهتمامه وشغله بِغَيرها.

بلاغة التَّشبيه في قوله تعالى: ﴿فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِۚ﴾:

تصوير اضطراب المرأة المتروكة وعدم استقرارها تنبيها للرَّجل لترك الظُّلم ونهيه عنه

وردَ هنا التَّشبيه المركَّب الذي تكون صورته منزوعةً من متعدّدٍ؛ فذكرَ الزَّوجة التي يُؤثِر زوجُها عليها ضرَّتها ويتركُها مُهملة غيرَ معتدٍّ بها لا هي مطلَّقةٌ فتتزوّج ولا هي ذات زوج فيوفّيها حقَّها بالوطء؛ ليشبّهها بالشَّيء المعلَّق من شيء؛ لأنَّه في حالٍ لا على الأرض استقرَّ ولا على ما علَّق منه[2]، ووجه الشّبه نفيُ الاستقرارِ والخطر الذي يصيب الزّوجةَ والمعلَّقَ، والغرضُ من التّشبيه تصويرُ اضطرابِ المرأةِ وقلقِها بتركِها من غيرِ قيامٍ بحقوقِها، وفيه توبيخٌ للزوجِ لكي يتركَ ظلمَها ويُحسنَ إليها رحمةً بها.

مناسبة حذف المفعول في قوله: ﴿تُصْلِحُواْ وَتَتَّقُواْ﴾:

حذف المفعول لإفادة العموم

حُذِفَ المفعول في الفعلين لإفادة العموم، ليشملَ كلَّ أمرٍ من أمورِ الإصلاحِ مادِّيًّا ومعنويًّا، وليشمل التّحقُّق بالتقوى في جميع الشؤون والأحوال، لمنعِ الظّلم.

مناسبة التّعبير في قوله: ﴿تُصْلِحُواْ وَتَتَّقُواْ﴾:

عُبِّرَ بـ﴿تُصْلِحُواْ﴾ للإشعارِ بأنَّ كلَّ الميلِ عن الزوجة وانتفاء العدل في القسم أو ترك الزوجة معلَّقةً كلُّ هذا فيه إفسادٌ، والمعنى

(1) الخليل، العين، وابن عبَّاد، المحيط، والسَّمين، عُمدة الحُفَّاظ، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (وذر).
(2) ابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 2/121، وأبو حيَّان، البحر المحيط: 4/106.

(إنْ تُصلحوا ما مضى من ميلكم وتتداركوه بالتَّوبة)، وعبَّر بـ﴿وَتَتَّقُواْ﴾ لما تؤذن به التّقوى من استمرارِ الإصلاحِ ودوامِه، والمعنى (وإن تتَّقوا الجورَ أو كلَّ ما يمنع الإفساد في المستقبل)، وعُبِّرَ بصيغة المضارع لتصوير حالة الإصلاحِ والاتِّقاء ولإفادة استمرارهما حالًا فحالًا[1].

الإصلاح ضدُّ الإفساد والتّقوى تؤذن باستمرارِ الإصلاح

مناسبة الجزاء للشّرط في قوله: ﴿وَإِن تُصۡلِحُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾:

عُبِّر بـ﴿وَإِن﴾؛ للإيذانِ بصعوبةِ الإصلاحِ والاتِّقاء بعد كلِّ الميلِ، وكأنَّه في مقام ما هو نادرُ الحصولِ، ففيه إشعارٌ بالحثِّ على ترك كلِّ الميلِ من أوّلِ الأمر لئلَّا يقع فيما يصعب تحصيلُه، ولمّا كان المرادُ من الجزاء أنْ ينال الزَّوج مغفرةَ اللّه ورحمتَه بسببِ الإصلاحِ والاتِّقاء كان التّعبير بقوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾ دالًّا على عظيم المغفرة وسعة الرّحمة التي ينالها من يصلح ويتقي، فجاء بوصف اللّه الجليل للتّعبيرِ عن تحصيل المغفرة والرّحمة، وعُبِّر بـ﴿كَانَ﴾ للإشارة إلى ظهور آثارِ الوصفين على مَنْ يصلحُ ويتّقي، ودوامِ اتّصافِ اللّه تعالى بهما.

مَـــن يـصـلـح ويـتَّـقـي يـنـالُ عظيم المغفرة وسعةَ الرّحمة

توجيه المُتشابه اللَّفظي بين قوله: ﴿وَإِن تُحۡسِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا﴾ **وقوله:** ﴿وَإِن تُصۡلِحُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾:

مقام الآية الأولى فيما كان بين المرأة وزوجها إذا رأت تعاليًا منه وإعراضًا عنها بترك حديثها أو مؤانستها أو مضاجعتها لأي أمرٍ من أمورها، وأرادت استمالتَه إليها وبقاءَه معها، وكينونتها في عصمته فلا جُناح عليها أن تعطي شيئًا من نفسها، وتترك بعض حقِّها كي تُؤثِرَ ضرَّتها في القسمة، أو تترك هي حظَّها كما فعلت السَّيدة سودة

مـنـاسـبـة ذكـر علـم الـلـه بعد ذكـــر أعـــمـــال عباده

(1) البِقاعي: نظم الدُّرر: 5/425، والرَّازي، مفاتيح الغيب: 11/237، والهرري: حدائق الرُّوح والرَّيحان: 6/394.

- رضي الله عنها - بإيثارها السَّيدة عائشة بليلتها، أو تهب له من مالها شيئًا لا جناح عليها في هذا، ولا على زوجها في قبول ذلك منها، وإن كان الطَّمع يأتي من إسقاط حقٍّ أو تَنَقُّصُه؛ لما جُبلت عليه النُّفوس، وإليه الإشارة بقوله: ﴿وَأُحۡضِرَتِ ٱلۡأَنفُسُ ٱلشُّحَّۚ﴾، ثُمَّ قال تعالى: ﴿وَإِن تُحۡسِنُواْ وَتَتَّقُواْ﴾ فندب كلًّا منهما إلى الإحسان والتَّقوى، والزَّوج أخصُّ بذلك وأولى، وأن يحتمل كلٌّ منهما من صاحبه ويصبر فإنَّ اللّٰه مُطَّلعٌ عليه خبير بما يُكِنُّه ويُخفيه؛ ولأنَّ مَقصود هذه الآية ما ذُكِرَ كان من المُلائم أن تُخْتَمَ بما خُتِمت به من أنَّ اللّٰه تعالى خبيرٌ بأفعال عباده الظَّاهرة والباطنة.

مناسبةُ ذكر مغفرة الله تعالى ورحمته بعد ذكر ما لا يستطيعون تحقيقه من العدل

أمَّا الآية الثَّانية فمَقامها أنَّ العدل التَّام بين الزَّوجات لا يُستطاع؛ لأنَّ الإنسانَ لا يملكُ قلبَه، فإنْ عَدَلَ في القسمة والمحادثة والإنفاق والنَّظر وبشاشة الوجه وجميل المُلاقاة وفرضنا اجتهاده في هذا كُلِّهِ حتَّى تحصل المساواة لم يقدر أن يميل بقلبه إلى كُلِّهِنَّ على حال سواء: ﴿فَلَا تَمِيلُواْ كُلَّ ٱلۡمَيۡلِ﴾ بل على الإنسان أن يجتهد؛ ﴿فَتَذَرُوهَا كَٱلۡمُعَلَّقَةِۚ﴾ لا مُمسَكَة ولا مُطَلَّقَةً، ثُمَّ قال تعالى: ﴿وَإِن تُصۡلِحُواْ وَتَتَّقُواْ﴾ والمُراد ما استطعتم وكان في إمكانكم فإنَّ اللّٰه يغفر لكم ما سوى ذلك فإنْ لم تكن المغفرة هَلَكَ المكلَّف؛ لذا من المناسب أن تُخْتَمَ بما خُتِمت به من قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورٗا﴾، فورد أعقاب كل آية بما يُناسِبُ[1].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(يذر) و(يدع):

يدع: هو أن يترك الشيء مع الاهتمام به والحرص عليه، و(الوديعة) عند الشخص المؤتمن حرصا عليها؛ ويذر: هي أن

(1) ابن الزُّبير، ملاك التَّأويل: 1/110.

يتخلى عن الشيء مع إهماله؛ لعدم الاعتناء بشأنه، يقال: فلان يذر الشَّيء، أي: يقذفه لقلة اعتداده به ومنه الوَذْرَةُ: قطعة من اللَّحم، وتَسْمِيتُها بذلك لِقِلَّةِ الاعتداد بِها[1].

الـــــودع تـــرك الـــــشيء مـع الاهـــتـــمـــام والإذراء تركه مع إهماله

(1) الخليل، العين، وابن عبَّاد، المحيط، والسَّمين، عُمدة الحُفَّاظ، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (وذر).

﴿وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦۚ وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمًا ١٣٠﴾

[النساء: 130]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

ذِكْرُ الفُرْقَةِ وجوازها بعد تَعَذُّرِ الصُّلح بين الزَّوجين

لَمَّا ذكر الله تعالى جواز الصُّلح - إن أراد الزَّوجانِ ذلك -، ذكر في هذه الآية قسيمَه وهو جوازُ المفارقةِ إنْ رَغِبَا فيها، ووعَدَ أن يُغنيَ كلَّ واحدٍ منهما من سَعتِه، فقال: ﴿وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦۚ﴾[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿سَعَتِهِۦۚ﴾: إفضاله وغِناه، وتدور اشتقاقات (وسع) على انفساح وانبساط، يُقال: وَسِعَهُ الشَّيْءُ يَسَعُهُ سَعَةً، وَاللّٰه الْوَاسِعُ أي الْغَنِيُّ، وَيُقَالُ: (أَوْسَعَ) اللّٰه عَلَيْكَ أَيْ أَغْنَاكَ، والسّعة: نقيض الضِّيق وَالْعُسْرِ، والمعنى هُنا: يُغْنِ اللّٰه الزَّوجَ والمرأةَ المُطَلَّقة من سَعَةِ فضله[2].

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

إذا افْتَرَقَ الزَّوجان بعد تَعَذُّرِ الصُّلح بينهما يُوَسِّعِ الله عليهما من فضله ورِزْقِهِ

وإنْ وقَعَتْ الفُرقة بين الرَّجُل وامرأتِه بطلاقٍ أو خُلْعٍ أغْنَى اللّٰه كُلًّا منهما من فضله الواسع، فإنَّه ﷻ واسع الفضل والمِنَّة، حكيم فيما يقضي به بين عباده يضع الأمور في مواضعها[3].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

سِرُّ تقييد الشَّرط بـ(إن) من بين أدوات الشَّرط:

لمّا كانت (إنْ) تَدُلُّ على عدم الجزم بوقوع الشَّرط في الزَّمن

(1) الرَّازي، مفاتيح الغيب: 11/238.

(2) الرَّاغب، المفردات، وابن عبَّاد، المحيط في اللُّغة، والرَّازي، مُختار الصِّحاح، وابن فارس، مقاييس اللُّغة، وابن الأثير، النِّهاية، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (وسع)، وابن جرير، جامع البيان: 9/294.

(3) لجنة من عُلماءِ الأزهر، المنتخَبُ في تفسير القرآنِ الكريم، ص: 133، ونُخْبة من أساتذة التَّفسير، التَّفسير المُيَسَّر، ص: 99، وجماعَةٌ من علماء التَّفسير، المُخْتَصَر في تفسير القرآن الكريم، ص: 99.

المستقبل، عُبِّرَ بـ(إنْ) التي عُلِّقت بالفعل المضارعِ الدالِّ على احتمالِ الوقوعِ، وأنّه ينبغي أن يكونَ نادرَ الحصولِ؛ ليكون الكلامُ على خلافِ مقتضى الظّاهر، بمعنى الحثِّ على عدم الاستعجالِ في طلبِ التّفريق، ترغيبًا في الصُّلحِ واستدامةِ الزّواجِ.

الدَّعوة إلى وجوب التَّريُّث وعدم الاستعجال في اتخاذ الزَّوجين قرار المُفارقة

دلالة التَّعبير بلفظ ﴿يَتَفَرَّقَا﴾ بدل يتطلَّقا:

لمّا كانَ التّفريقُ يشعرُ بالتّشتُّتِ والوحشة عُبِّرَ به للتّنبيه على وجوب التَّريُّث والتَّفكُّر قبلَ الإقدام على التّفريقِ، وأيضًا لمّا نُسِبَ الْفِعْلُ إِلَيْهِمَا دلَّ عَلَى أَنَّ لِكُلٍّ مِنْهُمَا مَدْخَلًا فِي التَّفَرُّقِ[1].

تأكيد الدَّعوة إلى التَّريُّث في قرار التّفرُّق المُشعر بالوحشة والتَّشتُّت

نكتة التّعبير بصيغة التفعّل في قوله تعالى: ﴿يَتَفَرَّقَا﴾:

عبِّر بصيغة تفعّل للإشعارِ بأنَّ تفرُّقَ الزّوجين فيه تكلّف ومشقَّة، والأولى تركُه.

دلالة الحذف والتَّنكير في قوله: ﴿يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا﴾:

حذف المضاف إليه من ﴿كُلًّا﴾ للإيجاز، وللإشعارِ بنفي وجودِ أيِّ علاقةٍ بينهما بعدَ التّفريقِ؛ ولهذا لم يقل كلًّا منهما، والمعنى يغني اللّه كلَّ واحدٍ منهما من سعتِه.

تسلية من الله لكلّ من الزَّوجين بعد الطَّلاق بالسَّعة بعد الضِّيق والحرج

براعةُ التّعبير في قوله: ﴿يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ﴾:

قيّد قوله: ﴿يُغْنِ ٱللَّهُ﴾ بقوله: ﴿مِّن سَعَتِهِۦ﴾، فتوسّع المعنى بالتّقييد، وهذا من بديع نظم القرآن، وبراعةِ بلاغتِه، والمعنى: يغني اللّه كلًّا من سعة رحمتِه أو من سعةِ قدرتِه أو من سعةِ غناه أي يغني اللّه كلًّا عيشًا أهنأ من عيشه؛ لأنَّه تعالى واسعُ الغنى، فجاء الوعدُ بإغنائهما من سعته تسليةً لكلٍّ منهما بعد التّفريقِ، ويحتمل أن يكون المعنى يجعلُ كلَّ واحدٍ منهما مستغنيًا عن الآخر بفضلِه ويكفيه مُهمّاتِه، إذا قصدَا الفرقَةَ تخوُّفًا مِنْ تركِ حقوقِ اللّه الَّتي أَوجبَها[2].

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 4/90.

(2) الماورديّ، النُّكت والعيون: 1/534، والزمخشري، الكشاف: 1/573، والرازي، مفاتيح الغيب: 11/238، وأبو السعود، إرشاد العَقْل السّليم: 2/240.

حسنُ التَّذييل في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمًا﴾:

1. هذه الجملةُ تذييلٌ وتَنْهِيَةٌ للكلام في حكم النِّساء[1].

2. أفادت جملة التّذييل دوام اتّصاف اللّه بالوصفَين الجليلين وظهور آثارِهما في النّاس.

3. ورد في الآية الجناس النّاقص بين قوله تعالى ﴿سَعَتِهِۦ﴾ و﴿وَٰسِعًا﴾، والواسع وصفٌ عامٌّ في الغنى والقُدرة والعلم وسائر الكمالات[2].

4. كما ناسب السياقُ ذِكْرَ وصفِ الحِكمة، وهو وضع الشَّيء موضع ما يُناسِبُ؛ للإشعارِ بأنَّ التّفريقَ قد يكون مناسبًا لكلٍّ منهما[3].

5. لمّا كانت جملةُ التّذييل على معنى العمومِ والكلّية ناسب أن تكون كالمثل في حكايتها والتّمثل بها.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الافتراق والتفرق:

التَّفَرُّق للأبدان، والافـــتراقُ في الكلام

الافتراق خِلاف الجماعة والاجتماع، قال تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ﴾ [آل عمران: 103]، أي: بعد الاجتماع، فالافتراق نقيض الاجتماع[4]، ومن علماء اللُّغة من يجعل التَّفَرُّقَ للأبدان، والافتراقَ في الكلام؛ فيُقال: فَرَّقتُ بين الكلامَين فافترقا وفرَّقت بين الرَّجلين فَتَفَرَّقا[5].

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 5/219.
(2) أبو حيَّان، البحر المحيط: 4/90.
(3) الرَّاغب، تفسير الرَّاغب: 4/186.
(4) ابن منظور: لسان العرب، والجوهري، الصحاح: (فرق).
(5) الخطابي، غريب الحديث: 2/207، وابن القيِّم، بدائع الفوائد: 4/217.

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَلَقَدۡ وَصَّيۡنَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَإِيَّاكُمۡ أَنِ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ وَإِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدٗا ١٣١﴾

[النساء: 131]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

تعقيب ذِكْرِ الفُرقة بين الزَّوجين بذكر سَعَةِ مُلك الله ترغيبًا في سؤاله وتذكيرًا بعظيم إفضاله

لمَّا ذكر تعالى آية التّفرُّق وختمها بذكر صِفَتَي السَّعة والحكمة وكرر الحث على التقوى في هذه الجمل في سياق الشرط بقوله: ﴿وَإِن تُحۡسِنُواْ وَتَتَّقُواْ﴾ [النساء: 128] ﴿وَإِن تُصۡلِحُواْ وَتَتَّقُواْ﴾ [النساء: 129] ناسب أن تأتي هه الآية ببيان سعة ملك الله تعالى، وأنَّ وصيَّته بالتَّقوى مؤكَّدة، فالذي له ما في السَّماوات وما في الأَرض قادرٌ على أن يُغنيَ كلَّ أحدٍ من سَعَتِهِ فلا يتعذر عليه الإغناء بعد الفرقة، ولا الإيناس بعد الوحشة، فجاءت هذه الآية للتَّنبيه على كمال سعة ملك الله وعظم قدرته وعلى أنَّ الأهمَّ هو التّقوى[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَصَّيۡنَا﴾: أمرنا وعهدنا، يُقال: وصّيتُه توصية، وأوصيته إيصاءً: عَهِدْت إليه، والوصيَّة التَّقدُّم إلى الغير بما يَعمل به مُقترنًا بوعظٍ، والوصيَّة من الله فَرْضٌ لأنَّها عهد وتكليف وإلزام، وأصل (وَصى) يدلُّ على وَصْلِ شيءٍ بشيءٍ، والوصيَّة من هذا القياس، كأنَّه كلام يُوصَى أي يُوَصَلُ، والمعنى هنا: ولقد أمرنا أهل الكتاب، وأمرناكم وقلنا لكم ولهم[2].

(1) البِقاعيّ، نظم الدُّرر: 5/426، وابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 5/219.

(2) ابن سيده، المحكم: (وأص)، والسَّمين، عُمدة الحُفَّاظ، وابن فارس، مقاييس اللُّغة، والزَّبيديّ، تاج العروس، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (وصى)، وابن جرير، جامع البيان: 9/295.

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

ولله وحدَه مُلك ما في السَّماوات وما في الأرض ومُلك ما بينهما، ولقد عَهِدنا إلى أهل الكتاب من اليهود والنَّصارى، وعَهِدنا إليكم بامتثال أوامر الله واجتناب نواهيه، وبيَّنَّا لكم أنَّكم إن تجحدوا وحدانيَّة الله تعالى وشرعه فإنَّه سبحانه غني عنكم، لأنَّ له جميع ما في السَّموات والأرض، وكان الله غنيًّا عن خَلْقِه، حميدًا في صفاته وأفعاله ومع كونه غَنِيًّا عنكم يَحْمَدُ لكم إيمانكم[1].

الله سبحانه هو المالك لخلقه، متصرِّفٌ فيهم بالأمر والنَّهي، غَنِيٌّ عنهم ومع غِناه عنهم يَحْمَدُ إيمانهم

الإِيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالة واو الاستئناف في قوله: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾:

لمّا كانت الواو استئنافيَّةً دلَّت على أنَّ الجملة مستأنَفةٌ، فهي منبِّهةٌ على كمالِ سَعتِه، وعِظَم قُدرتِه، وهذا تمجيد لله تعالى، وتذكير بأنّه ربّ العالمين، وكناية عن عظيم سلطانه واستحقاقِه للتَّقوى[2].

بيان عِظَمِ سلطان الله الموجب لطاعته وتقواه

بلاغة التّغليبِ في قوله: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾:

جاء بلفظ ﴿مَا﴾ التي لغيرِ العاقل تغليبًا لما لا يعقل على مَنْ يعقل؛ لأنَّ الغالب فيما حوته السَّماوات والأرض إنَّما هو جماد وحيوان، لا يعقل، وأجناس ذلك كثيرة، وأما العاقل فأجناسه قليلة إذ هي ثلاثة: إنسٌ وجنٌّ وملائكة[3].

تغليب غير العاقل من المخلوقات لِكونهم أكثر الموجودات

بلاغة تقديم المسند في قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾:

تدلُّ اللَّام في قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ﴾ على الاختصاص بطريق الخلق والمُلْكِ[4]، وقد أُكِّدَ هذا الاختصاص بتقديم المسندِ (لله)؛

(1) لجنة من عُلماءِ الأزهر، المنتخَبُ في تفسير القرآنِ الكريم، ص: 134، ونُخْبة من أساتذة التَّفسير، التَّفسير المُيَسَّر، ص: 99، وجماعَةٌ من علماء التَّفسير، المخْتَصَر في تفسير القرآن الكريم، ص: 99.

(2) أبو السُّعود، إرشاد العَقْل السّليم: 2/240، وابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 5/219 - 221.

(3) ابن عطِيَّة المحرِّر الوجيز: 1/389، وأبو حيّان، البحر المُحيط: 2/750.

(4) البيضاويّ، أنوار التَّنزيل: 1/165، والقونويّ، حاشية القونويّ: 5/494.

الذي يُفيد الحصر، فهي لله خَلْقًا ومُلكا، لا لغيره أصلا؛ لا استقلالا ولا اشتراكًا، وأكَّده أيضا بالتَّكرار في قوله: ﴿وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ تفصيلًا وتنبيهًا وتوكيدًا[1]، وبالطِّباق بين لفظتَي ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ و﴿ٱلْأَرْضِ﴾.

تأكيد قصر واختصاص الملك والخلق لله رب العالمين

نكتة التّعبير بـ﴿مَا﴾:

لمّا كانت ﴿مَا﴾ اسمًا موصولًا أعمَّ من (الذي) عُبِّر بها لمناسبة سَعَةِ ملكِه تعالى وعظمتِه.

دلالة تخصيص ذكر السَّماوات والأرض دون سائر المخلوقات:

خَصَّ النَّظمُ الكريم السَّماوات والأَرض بالذِّكر من بين المخلوقات؛ لأنَّها أعظم ما يُرَى من المخلوقات، وقَدَّمَ السَّماوات لعِظَمِهَا[2].

التَّخصيص والتَّقديم للدَّلالة على التَّعظيم

بلاغة الالتفات في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا﴾:

سُلِكَ الكلامُ أوَّل الآية على الغيبة فقال: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ للإشعارِ بأنَّ الملك متعلِّق بالألوهيَّة، ثمَّ عدلَ إلى التكلِّم فقال: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا﴾ بنونِ تعظيمِ المتكلِّم؛ لاستدرارِ سمع المخاطبين، ولبيانِ عظم الوصيَّة، وللمبادرة إلى العملِ بها، ثمَّ عاد إلى الغيبة فقال: ﴿أَنِ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾؛ للإيذانِ بأنَّ التَّقوى متعلِّقةٌ بالله وحده وأنّها من أمرِ الألوهيَّة، أي الذي لا يطاق انتقامه؛ لأنَّه لا كفؤَ له، ففي ذكر الاسم الجليل مع التّقوى إجلالٌ وتعظيمٌ وتخويف.

تعظيمُ أمرِ الوصيّة بالتّقوى والمبادرةُ إلى العملِ بها

دلالة قولِه تعالى: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا﴾:

أكّد الكلامَ بـ(اللام) الموطِّئة للقسمِ و(قد)؛ للإشعارِ بأنَّه لم يزل يوصي بفعل الخير، ولتأكيد العهد بالوصيّة، ولكيلا يتوهّمَ أحدٌ أنَّ ما تقدَّم من أحكامِ النّساء ليس فيه خيرٌ، وأنَّ أداء الحقوقِ والواجبات من التّقوى.

أداءُ حقوقِ النِّساء من التَّقوى

(1) أبو حيّان، البحر المُحيط: 2/767.
(2) أبو حيّان، البحرُ المُحيط: 2/750.

سِرُّ التَّعبير بالوصيَّة بَدَلَ الأمر بالتَّقوى:

الوصيَّة تتضمّنُ جوامعَ الخير الكثير

جعل الأمرَ بالتَّقوى وصيةً؛ لأنَّ الوصيَّة قولٌ يتضمّنُ جوامعَ الخير الكثير، معَ إيجازِ القول مع الاهتمامِ بحفظها وأدائها؛ إذْ يُقصد منها وَعْيُ السَّامع، واستحضارُه كلمة الوصيَّة في سائر أحواله، والتَّقوى تجمع الخيرات؛ لأنَّها امتثال الأوامر واجتناب المناهي، ولذلك قالوا: ما تَكَرَّرَ لفظٌ - غير الأعلام كاسم الله - في القرآن ما تكرَّر لفظ التَّقوى[1].

دلالة التّعبيرِ بالاسم الموصول في قوله: ﴿وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾:

إيتاءُ الكتاب من الله سببٌ للتَّقوى

عُبِّر بالاسم الموصول؛ لِيكون إحضاره في ذهن السّامعِ بوساطة جملة الصِّلة ﴿أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾ التي يُعلمُ انتسابُها إلى معيَّن؛ للإيماء إلى وجه الأمر بالتّقوى، والمعنى إيتاءُ الكتاب من الله سببٌ للتَّقوى، والكتابُ اسم للجنس يتناول الكتب السماوية كلَّها[2].

دلالة تقديم ذكر أهل الكتاب بالوصيَّة:

إلهاب هِمَمِ المسلمين للإقبال على التَّقوى وتحقيقِها أسوة بمن سبقهم

الإخبار بأنّ الله أوصى الذين أوتوا الكتاب من قبلُ بالتَّقوى مقصودٌ منه إلهاب هِمَمِ المسلمين للتَّهَمُّم بتقوى الله؛ لئلَّا تَفْضُلَهُم الأممُ الذين من قبلهم من أهل الكتاب، فإنَّ لِلتَّأسِّي أثرًا بالغًا في النُّفوس، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ [البقرة: 183]؛ لأنَّ العلم بالمُشاركة في الأمر يَكون أدعى للقبول، وأهون على النَّفس[3].

فائدة بناء الفعل للمفعول في إيتاء الكتاب:

بُنِيَ الفعل ﴿أُوتُواْ﴾ للمفعول؛ لأنَّ القصد بيان كونهم أهلَ علم

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 5/220.
(2) الزمخشري، الكشاف: 1/573.
(3) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 5/220، والبِقاعيّ، نظم الدرر: 5/426.

ليُرغِّبَ فيما أوصوا به، ودلالة على أنَّ العلم في نفسهِ مُهَيئٌ للقبول، ولإفادة أنَّ وصيتهم أعمُّ من أن تكون في الكتاب، أو على لسان الرَّسول من غير كتاب[1].

الاعتناء بشأن العلم في كونه مُحققًا للتَّقوى

نكتة العطف في قوله: ﴿وَإِيَّاكُمْ﴾:

للإشعارِ بأنّ الوصيَّةَ بالتَّقوى قديمة ما زال يوصى اللّه بها عباده، فلستم بها مخصوصين، والمعنى: ووصَّيناكم مثلَ ما وصَّيناهم؛ لأنَّ النّاسَ بالتَّقوى يُسعدون عنده، وبها ينالون النَّجاة في العاقبة[2].

الوصيَّةَ بالتَّقوى قديمة ما زال يوصى اللّهُ بها عباده

دلالة ﴿أَنِ﴾ في قولِه تعالى: ﴿أَنِ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ﴾:

لمّا كانت التَّوصيةُ في معنى القول دلَّ على أنَّ (أنْ) مفسِّرةٌ للإجمالِ الذي تضمّنه لفظ ﴿وَصَّيْنَا﴾[3]، فكأنَّ تقوى اللّه مضمّنةٌ في لفظ ﴿وَصَّيْنَا﴾، ثمَّ ذكرها مرَّةً أخرى تفصيلًا، لزيادة تقريرِ المعنى وتأكيدِه.

تأكيدُ العمل بالتّقوى

سِرُّ بناء الشَّرط بـ﴿وَإِن﴾ الشرطية في قوله تعالى: ﴿وَإِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾:

بُنِيَ الشَّرط بـ (إنْ) لاستبعاد تَصَوُّر الكفر عن أي إنسان عاقل يُدرك بوعيه وحِسِّه أنَّه - سبحانه - مالك الملكوت الغَني عن عباده الذي لا يَضُرُّه كُفْرُ خلقه ولا معاصيهم، والذي تصريف أمور خَلْقِهِ بيده - سبحانه - وله ما في السَّماوات وما في الأرض.

استبعاد تَصَوُّر الكفر ممَّن أدرك سَعة ملك الله وغِناه

بلاغة التّعبير بين التّخصيص والتّغليب في قولِه: ﴿وَإِن تَكۡفُرُواْ﴾:

يُحتمَلُ أنْ يكونَ الخطاب لِمَنْ وَقَعَ لَهُ الْخِطَابُ بِقَوْلِهِ: ﴿وَإِيَّاكُمْ﴾، وَهُمْ هَذِهِ الْأُمَّةُ، فيفيد تخصيص الخطاب بالمخاطبين من أمَّة تنزيل القرآن وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ شَامِلًا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَلِلْمُخَاطَبِينَ،

أمّة القرآن هي الأولى بالتّقوى

(1) البِقاعيّ، نظم الدرر: 5/427.
(2) الزمخشري، الكشاف: 1/574، والبِقاعيّ، نظم الدرر: 5/427.
(3) الزمخشري، الكشاف: 1/574.

فيكون فيه بلاغة التّغليب؛ لتنبيه أمّة التّنزيل بأنّهم هم الأولى بأنْ يتّقوا اللّه[1].

نكتة التَّعبير بالكفر في مقابلة التّقوى في قوله: ﴿وَإِن تَكۡفُرُواْ﴾:

لمّا قابل الكفر بالأمر بالتَّقوى، دلَّ على أنَّ التَّقوى المأمورَ بها هنا منظورٌ فيها إلى أساسِها، وهو الإيمانُ باللّه ورُسُله وما فيها من جوامعِ الخير، أي باعتبارِ المجموع؛ للإشعارِ بأنَّ تركَ العملِ بالتّقوى بمجموعِها موجبٌ للكفرِ، وأنَّ أساسَ التّقوى الإيمانُ باللّه وبرسلُه.

أساسُ التّقوى الإيمانُ باللهِ ورسلِه

بلاغة الإيجاز بالحذف في قوله تعالى: ﴿وَإِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾:

تقدير الجواب المحذوف: (وإن تكفروا فإن اللّه غني عن تقواك وإيمانكم، فإنَّ له ما في السَّماوات وما في الأرض)، ولكن اكتُفِيَ في الآية بتعليل الجواب: ﴿فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ عنه؛ لتهويل الجزاء وتفخيمه، وللإيذان بأنّه تعالى لا يتضرَّرُ بعصيان من يعصونه، والتّقدير إن تكفروا فاعلموا أنَّ للّه ما في السماوات وما في الأرض، ولم يذكر (فاعلموا) لإثبات الوصف سواءٌ علموا أو لم يعلموا، ليكون في مقام الزّجرِ عن الكفر، ويؤيد ذلك القصدُ بتذييلِها بقوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدٗا﴾[2].

الاكتفاء بتعليل الجواب كناية عن كمال غناه عن خلقه

حسنُ التَّذييل في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدٗا﴾:

1. أفادت جملة التّذييل ثبات اتّصاف اللّه بكونه غنيًّا حميدًا، وظهور آثار هذين الوصفين في النّاس.

2. ذُكِرَ هذان الوصفان الجليلان مقترنين هنا؛ للإيذان بأنَّ الذي له ما في السماوات وما في الأرض قادر على أن يغني كلَّ أحد من سعته، وأنّ مِن تمامِ غناه أنَّه تعالى كاملُ الأوصاف، وللإيذانِ

تأكيد كمال غنى اللّه عن خلقه واستحقاقه للمحامد سواء شكر النَّاس أم كفروا

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 4/91.

(2) التحرير والتنوير: 5/220.

بأنه تعالى محمودٌ في ذاتِه حمِدوه أو لم يحْمَدوه؛ فلا يتضرَّر بكفرهم ومعاصيهم كما لا ينتفع بشكرهم وتقواهم، وإنما وصّاهم بالتقوى لرحمته لا لحاجته، وهذا تمجيد للّه تعالى، وتذكير بأنَّه رب العالمين[1].

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الإنذار والوصية:

الإنـــذار زجـر وتخويف للغير، والوصية أعمُّ

الْإِنْذَار معناه التَّخويف في الإبلاغ، وأَصل الإِنذار الإِعلام. يُقَالُ: أَنذَرْتُه أُنْذِرُه إِنْذارًا إذا أَعلَمته، فأَنا مُنْذِر ونَذير أَي مُعْلِم ومُخوِّف ومُحذِّر[2]، فالإنذار لا يكون إلا بالزَّجر عن القبيح وما يعتقد المنذر قبحه، ولا يكون إلا من المرء لغيره وتكون الوصية منه لنفسه ولغيره، فيقال: أوصيت نفسي كما يقال: أوصيت غيري، ولا يقال: أنذرت نفسي، والوصية تكون بالحسن والقبيح؛ لأنه يجوز أن يوصي الرَّجلُ الرَّجل بفعل القَبيح كما يوصي بفعل الحسن، ولا يجوز أن ينذره إلا فيما هو قبيح، كما أن النَّذارة نقيض البشارة وليست الوصية نقيضة البشارة[3].

(1) أبو السعود، إرشاد العَقْل السّليم: 2/241، وابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 5/220.
(2) ابن منظور، لسان العرب، والزَّبيديّ، تاج العروس: (نذر).
(3) العسكريّ، الفروق اللُّغوية، ص: 78.

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ١٣٢﴾

[النساء: 132]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

تَكرار تذكير العِباد بشمول مُلك الله لمخلوقاته بعد ذِكْرِ غِناه عنهم

أعادَ الله ﷻ تذكيرَ عباده بكونِه مالكَ السَّمواتِ والأرضِ؛ أي: العوالمِ كلِّها؛ ليتمثَّلوا عظمتَه، ويستحضروا الدَّليلَ على غناه وحمدِه؛ فيعلَموا أنَّه إذا كان قد توكَّل بإغناءِ كلٍّ مِن الزَّوجين إذا أقامَا حدودَه في تفرُّقِهما، فإنَّه قادرٌ على ذلك، كما أنَّه قادرٌ على إنجازِ كلِّ ما وعَد وأوعَد به، فيجبُ أن يكتفوا به في التَّوكُّلِ لهم[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَكِيلًا﴾: كفيلا قَيِّما بِجَميعِ مَا خَلَق؛ مُشْتَقٌّ من (وكل) تقول ووكلتُ فلَانا الى كذا أَكِلُه وكلًا ووُكولًا، وَتقول: كِلْني إلى كذا أي دَعْنِي أقِم بِهِ، وأصل (وكل) يدلُّ على اعتمادِ غيرك في أمرك، وعلى هذا المعنى تدور اشتقاقات هذه الكلمة، ومنه التَّوَكُّل وهو إظهار العجز في الأمر والاعتماد على غيرك، وواكل فلان: إذا ضَيَّعَ أمره مُتَّكِلًا على غيره، والوكيلُ في أسماء الله ﷻ: القَيِّم الكَفيل بِأَرْزَاقِ العِباد، وسُمِّيَ الوكيل لأنَّه يُوكل إليه الأمر كُلُّهُ، وحقيقتُه أنَّه يستقلُّ بأمر المَوكولِ إليه[2].

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

إلى الله يُوكل الأمر كُلُّهُ

اللّه وحده المالك لكلِّ المخلوقات، الكفيلُ بها والقَيِّمُ عليها، وله وحدَه ملك ما في السَّماوات وما في الأرض، فهو المُسَيْطِرُ والمُسَيِّر

(1) رضا، تفسير المنار: 5/369.

(2) ابن دريد، جمهرة اللُّغة، والأزهري، تهذيب اللُّغة، وابن فارس، مقاييس اللُّغة، وابن منظور، لسان العرب، وابن الأثير، النِّهاية: (وكل).

والمدبّر، المُسْتَحِقُّ أن يُطاع، وكفى به سُبحانه قائمًا بشؤون خلقه حافظًا لها[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

نكتة مجيء الواو الاستئنافية في قوله: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۚ﴾:

لمّا كانت الواو استئنافيَّةً دلَّ على أنَّ الكلام مستأنف مسوقٌ للمخاطبين توطئةً لما بعده من الجملة الشرطية وتمهيدًا لما يحكمُ بها[2].

بلاغة إيجازِ القصر في قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۚ﴾:

في الجملة تخصيص ما في السماوات وما في الأرض لله تعالى، بمعنى أنَّ له سبحانه ما فيهما من الخلائق خلقًا ومُلكًا يتصرف فيهم كيفما يشاء إيجادًا وإعدامًا وإحياءً وإماتة[3].

لله ما في السماوات وما في الأرض خلقًا ومُلكًا يتصرف فيهمْ كيفما يشاء

مناسبة الإطناب في قوله: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾:

لمّا كان قوله ﴿وَكِيلًا﴾ تمييزًا، فالكلامُ على معنى الإطناب لتوخّي الإجمال والتّفصيل، فإنَّ المسند إليه موصوفٌ بكونه وكيلًا؛ لأنَّ الاسم الجليل (اللّه) متّصف بجميع كمالات صفات الجلال والجمال، فلمّا جاء التّمييز ﴿وَكِيلًا﴾ كأنَّه فصّل ما أجمله في الاسم الجليل من وصفِ الوكيل[4].

إفادة التّمييز الإطناب في الكلام لتقرير المعنى

بلاغةُ التّذييل في قولِه تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾:

لمّا كان اللّه مالك السماوات والأرض، أي العوالم كلها، فإنَّه قادر على إنجاز كلِّ ما وعد وأوعد به، فيجب أن يكتفوا به في التَّوكل لهم، بحفظهم وتدبيرِ أمورِهم، ويُستعمل الوكيل بمعنى المهيمن والمسيطر

الاكتفاء بالله في التّوكّل

(1) لجنة من عُلماءِ الأزهر، المنتخَبُ في تفسير القرآنِ الكريم، ص: 134، ونُخْبة من أساتذة التَّفسير، التَّفسير الميُسَّر، ص: 99، وجماعَةٌ من علماء التَّفسير، المُخْتَصَر في تفسير القرآن الكريم، ص: 99.

(2) أبو السُّعود، إرشاد العَقْل السّليم: 2/241.

(3) أبو السُّعود، إرشاد العَقْل السّليم: 2/241.

(4) السكاكي، مفتاح العلوم، ص: 284.

والرَّقيب، وفي جملة التّذييل معنى العمومِ والكلّيَّة فهي في مقامِ المَثَلِ لإمكانِ التَّمثُّلِ بها[1].

نكتة تَكرار جملة ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾:

تكررت جملة ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ وفي كلٍّ مرَّة لها دلالة مقصودة تختلف عن الأخرى، فكُرِّرتِ العبارةُ ثلاث مرات وسبقتها جملة نظيرتهن: وهي ما تقدم من قوله: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٖ مُّحِيطٗا ١٢٦﴾ [النساء: 126]. فحصل تكرارها أربع مرات في كلام متناسق.

تقريرٌ لِمَا هو موجِبُ تَقْواه ليتَّقوه، فيُطيعوه ولا يعصُوه، وتأكيد ذلك

فأما الأولى السابقة فهي واقعة موقع التعليل لجملة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾ [النساء: 116]، ولقوله: ﴿وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ١١٦﴾ [النساء: 116]، والتذييل لهما، والاحتراس لجملة ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبۡرَٰهِيمَ خَلِيلٗا ١٢٥﴾ [النساء: 125] وذكرت الثَّانية في بدايةِ الآية (131) تسليةً للإنسان عما فاته، وتنبيهًا على موضع الرجاء لهذين المفترقين، وذكرَت الثَّالثة: لبيانِ أنَّ وصيَّته لرحمته لا لحاجته وأنَّهم إنْ كفروا به لا يضروه شيئًا، ففيه تنبيهٌ على استغنائه عن العباد، ومقدمة للخبر بكونه غنيًّا حميدًا، وذكرَت الرّابعة للدَّلالة على كونه غنيًّا وليكونَ مقدِّمةً للوعيد، وبيانُ وجه الإعادة عمومًا أنَّه وإذا كان الدليل الواحد دليلا على مدلولات كثيرة فإنه يحسن ذكر ذلك الدليل ليستدل به على أحد تلك المدلولات، ثم يذكره مرة أخرى ليستدل به على الثاني، ثم يذكره ثالثا ليستدل به على المدلول الثالث، والمرجعُ في تعيين المراد هو السِّياق، وهذه الإعادة أحسن وأولى من الاكتفاء بذكر الدليل مرة واحدة؛ لأنه عند إعادة ذكر الدليل يخطر في الذهن ما يوجب العلم بالمدلول، فكان العلم

(1) رضا، تفسير المنار: 5/369.

الحاصل بذلك المدلول أقوى وأجلى، فظهر أن هذا التكرير في غاية الحسن والكمال[1].

أَسْرارُ ختم الآيات الثَّلاث بما خُتِمَتْ به من أوصاف الله تعالى:

بيان تمام إحسان الله تعالى لخلقه وتفضُّله عليهم وحفظه لهم مع غناه عنهم في كل ذلك

في الآية الأولى إذنٌ للرَّجل والمرأة في أنْ يتفرّقا بطلاق بعد عدم انقيادهما لحُسن المعاشرة ﴿وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ﴾ أي: يرزقُه زوجًا خيرًا من زوجه وعيشًا أَهْنأ من عَيْشِهِ[2]، ولمَّا قال: ﴿يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ﴾ ناسب هذا ذِكْرُ ما يقتضي من صفاته عموم وجوه الإحسان، وأنَّه هو الذي يغني المحتاج منهما؛ لأنَّه لا نفاد لما عنده - سبحانه - فإنّهما بعد الفرقة يَرْجُوان الغنى من عنده؛ لأنَّه سُبحانه واسعُ الرِّزق وواسع المقدرة فإنَّ لله ما في السَّماوات وما في الأرض وأرزاق العباد من جملتها، وأنَّه سبحانه المُنفرد بِعِلْم وَجْهِ الحكمة في تآلُفهم وتفرُّقهم؛ لذا كان من المناسب أن تُختم الآية الأولى بقوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمًا﴾ عَقَّب ما تقدَّمه من قوله: ﴿وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ﴾ فهو سُبحانه كثير العطاء، جَمُّ الإحسان عليم بخفيات مصالح العباد، ثُمَّ أتبع بما يُلائِمُ ذلك ويزيده وضوحًا من إخباره تعالى من أنَّ السَّماوات والأرض وما فيهما ملكه، فقال: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾، ثُمَّ أتبع سُبْحانه بما يرجع إلى عموم إحسانه إلى من تقدَّم من المخاطبين بِكُتُبِهِ المُنَزَّلة رحمةً لعباده وإحسانًا كما أحسن إلى المواجهين بهذا الكتاب، فقال: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾، وَأَعْلَمَ - سُبحانه - أنَّه مُحْسِنٌ بذلك إليهم؛ لأنَّ تقواهم إيَّاه تعالى تُثْمِرُ لهم السَّلامة من عذابه، والنَّجاة من أليم عقابه، وأنَّه ليس به إلى تقواهم من حاجة، ولا تعود إليه سبحانه من ذلك منفعة

(1) الراغب، تفسير الراغب: 4/187، وابن عطية، المحرر الوجيز: 2/122، والرازي، مفاتيح الغيب: 11/239، وأبو حيان، البحر المحيط: 4/92.

(2) الزَّمخشريّ، الكشاف: 1/573.

إذ هو الغنيُّ عنهم وعن عبادتهم فقال: ﴿وَإِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ فهو الغنيُّ عنكم وعن عبادتكم، والكُلُّ ممن في السَّماوات والأرض مُلكٌ له سبحانه وتحت قهره، وفي قبضته يفعل فيهم ما يشاء ولا يكون منهم إلا ما يشاؤه ويريده وهو الغني الحميد، ثُمَّ أَكَّدَ بقوله: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ لِمَا بُنِيَ عَلَيۡهِ من قوله: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾، أي حافظًا لجميع ذلك، مُنفردًا بتدبيره، فختام الآيات بهذا هو المناسب[1].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الحفيظ والوكيل:

الحفيظ أعمُّ من الوكيل من جهة الشَّيء المحفوظ

الوكيل في صفات اللّه بمعنى المُتولِّي القائم بتدبير خلقه؛ لأنَّه مالك لهم رحيم بهم، مهيمنٌ عليهم[2]، والحفيظ: الحارس ومن يُجعل إليه نظر غَيْرِه وحفظه، وهو بمنزلة الوكيل إلَّا أنَّ الوكيل يكون مجعولًا له الحِفظ من جانب الشَّيء المحفوظ، والحفيظُ أعمُّ؛ لأنَّه يكون من جانبه ومن جانب مواليه، ولكلِّ وصفٍ جليلٍ سياقُه ومقامُه[3].

(1) ابن الزُّبير، ملاك التَّأويل: 1/110.
(2) العسكريّ، الفروق اللُّغوية، ص: 577.
(3) ابن عاشور: التَّحرير والتَّنوير: 7/421.

﴿إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأۡتِ بِـَٔاخَرِينَۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرٗا ١٣٣﴾ [النساء: 133]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

بيان كمال تَصَرُّف الله في مخلوقاته بعد بيان كمال ملكه لهم

لَمَّا تَقرَّر في الآية السَّابقة شمول ملك اللّٰه وتمام قدرته أنتجَ قولَه: ﴿إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ﴾[1]، فإذا علمتم أيُّها النَّاس أنَّ للّٰه ما في السَّماوات وما في الأرض يَتصرَّف فيه كيف شاء، فاعلموا أنَّه إن يشأ يُذهبكم بعذاب ينزله بكم، أو أمَّةٍ قوية يُسلِّطُها عليكم، فإنَّه يُذهبُكم ويأتي بآخرين[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يُذۡهِبۡكُمۡ﴾: يُفنيكم ويُهْلِكُكم، والذَّهاب المُضيُّ يُقال ذهب الشَّيء يذهب ذهابًا وذهوبًا، ويستعمل ذلك في الأعيان والمعاني، ويُعَبَّرُ به عن الموت، وأصل(ذهب) يدلُّ على انتقال الشَّيء من مكان إلى آخر ومضيِّه والمُراد هُنا هو المعنى الكنائي وهو الإفناءُ والإهلاك[3].

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

كمال تَصَرُّف الله تعالى في مخلوقاته حَسب مَشيئته وقُدرته

إن يشأ اللّٰه يُهلكُّم أيُّها النَّاس ويأت بآخرين غيركم يُطيعون اللّٰه ولا يعصونه، وهو ذو الجلال، قدير على ذلك وعلى كلِّ شيءٍ[4].

(1) البِقاعيّ، نظم الدُّرر: 5/429.
(2) رضا، تفسير المنار: 5/369.
(3) الأصفهانّي، المفردات، والسَّمين، عُمدة الحُفَّاظ، وابن فارس، مقاييس اللُّغة، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (ذهب)، والكفوي، الكُلِّيَّات، ص: 993، وابن جرير، جامع البيان: 9/298.
(4) لجنة من عُلماءِ الأزهر، المنتخَبُ في تفسير القرآنِ الكريم، ص: 134، ونُخْبة من أساتذة التَّفسير، التَّفسير المُيَسَّر، ص: 99، وجماعَةٌ من علماء التَّفسير، المُخْتَصَر في تفسير القرآن الكريم، ص: 99.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغة حذف المفعول في قوله تعالى: ﴿إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ﴾:

حُذِفَ مفعول ﴿يَشَأۡ﴾ لعلمِ السّامعِ أنَّ ههنا شيئًا تقتضي مشيئته له أن يكونَ أو ألّا يكون، والتقدير (إنْ يشأ إفناءَكم وإيجادَ آخَرين يذهبْكم)، فيقدَّرُ المفعولُ بما دلَّ عليه جواب الشّرط، ومن البلاغةِ أنْ يأتيَ المفعولُ في مثلِ هذا الأسلوبِ محذوفًا، فإنَّ البيانَ إذا وردَ بعدَ الإبهامِ وبعدَ التّحريكِ له أبدًا لطفًا ونبلًا لا يكونُ إذا لم يتقدَّم ما يحرِّك[1].

البُعد عن مواجهة المُخاطَبين بلفظ الإفناء والإهلاك الشَّديد

نكتة التّعبير بقوله: ﴿يُذۡهِبۡكُمۡ﴾:

عُبِّر بالفعل ﴿يُذۡهِبۡكُمۡ﴾ دون (يُفنِكُم) أو (يَستأصِلْكُمْ) لما يؤذنُ به لفظ ﴿يُذۡهِبۡكُمۡ﴾ من معنى الإبعاد والاستبدال؛ للإشعار بأنَّه إنّما يذهبكم بسبب كفركم باللّه ورسله، ولهذا عطف عليه ما يدلُّ على الاستبدال في قوله: ﴿وَيَأۡتِ بِـَٔاخَرِينَۚ﴾.

دلالة الفعل (يُذْهِبْكُمْ) على معنى الإبعاد والاستبدال

سِرُّ الاعتراض بالنِّداء في قوله: ﴿أَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾:

لمّا جاء الاعتراض بقوله تعالى: ﴿أَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ بين متعاطفين متلازمين دلَّ على العنايةِ به وبالخبرِ، ولأنَّ النّداء بصيغة (النّاس) دلَّ على تعميم الكلام الذي جاء على سبيل الخطاب، ولتنبيه المخاطبين وتوقيفهم لتحضر أذهانهم، ولتخويفهم بأنَّ اللّه تعالى قادر على إفنائهم وإيجاد ناس آخرين يكونون خيرًا منهم في تلقي الدِّين[2].

تخويف وتنبيه لجميع النَّاس على خطر مُخالفة أمر الخالق ﷻ

نكتة العطف في جواب الشّرط في قوله: ﴿يُذۡهِبۡكُمۡ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأۡتِ بِـَٔاخَرِينَۚ﴾:

عطف ﴿وَيَأۡتِ بِـَٔاخَرِينَۚ﴾ على ﴿يُذۡهِبۡكُمۡ﴾ على معنى أنَّ الإتيان

(1) عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص: 163 - 164، وأبو السعود، إرشاد العَقْل السّليم: 2/241.

(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/122، وابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 5/221.

بآخرين لا يكون حتّى يكونَ إذهابُكم؛ ليكون الشّرط في قوله: ﴿إِن يَشَأۡ﴾ سببًا للإتيان بآخرين بوساطةِ كونه سببًا لإذهابِكم، بمعنى جَعْلِ جزاءِ الشّرط المعطوف عليه سببًا في المعطوف، فلا يكون إتيانٌ بآخرين قبل إذهابِكم، ففيه تخويفٌ وتهويلٌ للمُخالفين لأوامر اللّه[1].

لا يكون إتيانٌ بآخرين قبل إذهابِكم

بديع المقابلة بين قوله تعالى: ﴿يُذۡهِبۡكُمۡ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ و﴿وَيَأۡتِ بِـَٔاخَرِينَۚ﴾:

لمّا كان الإذهاب سببًا في الإتيان بآخرين جاء الفعلان على طريق المقابلة لتنبيه السامعين على عظم الخيرِ الذي هم فيه، بالمقارنة بين ما هم فيه وما سيحرمونه لو أذهبهم اللّه وأبعدهم، وأنَّهم إنْ لم يشكروا هذه النّعم أبدلهم اللّه بآخرين، ويكون المعنى إن استمررتم على الشِّرك أو كان منكم الكفر بعد الإيمان، فإنَّ اللّه تعالى بمقتضى سننه في الفطرة الإنسانيَّة يفنيكم بإذهاب قوتكم وسيطرة الفساد عليكم، ويجيء من بعدكم من ينصر الحق، ويكون النَّص كقوله تعالى: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوۡاْ يَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمۡثَٰلَكُم ٣٨﴾، وكقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾[2].

توبيخ المشركين وتهديد المرتدين عن الدِّين

نكتة التّعبير بقوله: ﴿بِـَٔاخَرِينَۚ﴾:

لمّا كان مدلولُ (آخر) هو من مدلولِ جنس ما تقدّمه، فَلَوْ قُلْتَ: جَاءَ زَيْدٌ وَآخَرُ مَعَهُ، أَوْ مَرَرْتُ بِامْرَأَةٍ وَأُخْرَى مَعَهَا، أَوِ اشْتَرَيْتُ فَرَسًا وَآخَرَ لم يكن (آخر) إلَّا بعضًا من جنسِ ما عطفَ عليه، فلا يجوز أن يُوصَف بكلمة آخر موصوفٌ لم يتقدمه ذكر مقابل له أَصْلًا، فلا تقول: جاءني آخر، من غير أن تتكلَّم بشيءٍ قبل؛ لأنَّ معنى آخر

مناسبة اللَّفظ لسياق الكلام

(1) الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص: 234.
(2) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 4/1892.

معنى مُغاير في الذَّات مجانس في الوصف لمّا كان ما قابله الضمير في ﴿يُذۡهِبۡكُمۡ﴾ وصرّح بالمرادِ في قوله: ﴿أَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ دلَّ على أنَّ المقصود من ﴿بِـَٔاخَرِينَۚ﴾ هو ناس آخرون. ولو قال: (ويأتِ بغيركم) لاحتمل أن يكون بناسٍ غيركم أو بخلقٍ غير خلقِ بني آدم غيركم، لأنَّ (غَيْرًا) تَقَعُ عَلَى الْمُغَايِرِ في جِنْسٍ أَوْ في صِفَةٍ، فَتَقُولُ: اشْتَرَيْتُ ثَوْبًا وَغَيْرَهُ، فَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ ثَوْبًا، وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ غَيْرَ ثَوْبٍ[1].

سِرُّ تقديم الجارِّ والمجرور في قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا﴾:

الاهتمام بمَوْضِعِ الحكم وتمكينه في النَّفس

قُدِّم الجارُّ والمجرور في قوله (عَلَى ذَلِكَ)؛ لمَوْضِعِ الاهتمام وهو التَّغييرُ والتَّبديل، الذي يستبعدونه لفرط إحساس المشركين بقوَّتهم، وغرورهم بدولتهم، واستضعافهم لشأن المؤمنين الصَّادقين[2].

دلالة التَّذييل بوصف القُدْرة مع المُبالغة:

بيان اقتدار الله تعالى على التَّغيير والتَّبديل تخويفًا للمخالفين

قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا﴾، قديرًا على إذهابكم والإتيان بآخرين، وأتى بصيغة المُبالغة في القُدرة؛ لأنَّه تعالى لا يمتنع عليه شيء أراده، وهذا وعيدٌ لهم وتخويفٌ[3]، فالتَّعبير بصِيغة (فعيل)؛ للمبالغةِ وتبيينِ بليغِ القدرةِ، وأنَّه سبحانه لا يُعجِزُه مُرادٌ[4].

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 4/93، والتحرير والتنوير: 5/222.
(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 4/1892.
(3) البحر المحيط في التفسير: 4/93.
(4) الزمخشري: الكشاف: 1/574، والبيضاوي: أنوار التنزيل: 2/102، وأبو حيان: البحر المحيط: 4/93.

﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنۡيَا فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا ١٣٤﴾ [النساء: 134]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

بيان كمال مُلك والثَّواب في الدَّارين بعد بيان سعة الملك وكمال التَّصرف

لمَّا كان في سياق الكلام السَّابق تهديدٌ بليغٌ وتعريفٌ بِسعة المُلك وكمال التَّصرف، وكان مدار أحوال المُتشاحِّين في الإرث وحقوق الأزواج وغيرِها الأمرَ الدُّنيويَّ[1]؛ استعجالًا لمنافعِ الدُّنيا على خيراتِ الآخرة، نبَّهَهم الله تعالى إلى أنَّ خيرَ الدُّنيا بيده، وخير الآخرة أيضًا، فإنِ اتَّقَوه نالُوا الخَيْرَيْنِ، فقال: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنۡيَا فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۚ﴾[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ثَوَابَ﴾: جزاء، يُقَالُ: أَثابَه يُثِيبه إِثابةً، وثوابا: جازاه، فالثَّواب هو الجزاء على العمل، ويكون فِي الخير والشَّرِّ، وأصل (ثوب) يدلُّ على العَوْدِ وَالرُّجوع، فسمي ما يرجع من الجزاء إلى العامل من خير وشر ثوابا[3].

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

ثواب الدَّارين بيد الله فليُطلبْ منه وحده

من كان منكم - أيُّها النَّاس - يُريد بعمله ثواب الدُّنيا فقط، فَلْيَعْلَمْ أنَّ الله عنده ثواب الدُّنيا والآخرة، فليَطلب ثوابُهما من الله وحدَه، وهو وحده الذي يملك النَّعيمَين، وكان الله سميعًا لأقوالكم، بصيرًا بأفعالكم، وسيجازيكم عليها[4].

---

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 5/430.

(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 5/223.

(3) ابن دريد، جمهرة اللُّغة، والجوهري، الصِّحاح، وابن منظور، لسان العرب، وابن فارس، مقاييس اللُّغة، والسَّمين، عمدة الحفَّاظ، والزَّبيديّ، تاج العروس: (ثوب)، وابن قُتيبة، غريب القرآن، ص: 60.

(4) لجنة من عُلماءِ الأزهر، المنتخَبُ في تفسير القرآنِ الكريم، ص: 134، ونُخْبة من أساتذة التَّفسير، التَّفسير المُيَسَّر، ص: 99، وجماعَةٌ من علماء التَّفسير، المُخْتَصَر في تفسير القرآن الكريم، ص: 99.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

أسرار إيجاز الحذف في جواب الشَّرط عند قوله تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنۡيَا﴾:

جواب الشَّرط في قوله تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنۡيَا﴾ محذوف تدلُّ عليه علَّته؛ وحُذِفَ لقصد أن يذهب السَّامع كل مذهب ممكن، فلا يتصور مطلوبا ولا مكروها، يكون عليه من يريد الحياة الدنيا إلا ويجوز أن يكون الأمر أعظم منه، بخلاف ما لو اقتصر على ذكر شيءٍ من الجزاء، فربما خف أمره عنده، فأفاد الحذف مع التّخويف والتّعظيم والتّفخيم عمومَ التّقدير[1].

تعليم للمؤمنين ألّا يصُدَّهم الإيمان عن طلب ثواب الدُّنيا فالكلُّ من فضل الله

بلاغة قوله تعالى: ﴿فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۗ﴾:

إنّما عُبِّر بهذا الجواب الذي هو على خلاف مقتضى الظّاهر ليكونَ تَبْكِيتًا لِلْإِنْسَانِ وتوبيخًا له؛ حَيْثُ اقْتَصَرَ عَلَى أَحَدِ السُّؤَالَيْنِ مَعَ كَوْنِ الْمَسْئُولِ وهو الله تعالى مَالِكًا لِلثَّوَابَيْنِ، وَحَثَّ عَلَى أَنْ يَطْلُبَ مِنْهُ تَعَالَى مَا هُوَ أَكْمَلُ وَأَفْضَلُ مِنْ مَطْلُوبِهِ، فَمَنْ طَلَبَ خَسِيسًا مَعَ أَنَّهُ يُمْكِنُهُ أَنْ يَطْلُبَ نَفِيسًا فَهُوَ دَنِيءُ الْهِمَّةِ، فجاء الجواب تعريضًا بمن يريدُ الأخسَّ ومدحًا لمن يريد الآخرة، والمعنى: مادام عند الله ثواب الدنيا والآخرة فما له يطلب أحدهما دون الآخر والذي يطلبه أخسُّهما، وأيضًا وَمَنْ أَرَادَ بِعَمَلِهِ ثَوَابَ الْآخِرَةِ آتَاهُ اللهُ مِنَ الدُّنْيَا مَا أَحَبَّ وَجَزَاهُ الْجَنَّةَ فِي الْآخِرَةِ[2]، وفي الآية تذكيرٌ للمؤمنين بألّا يلهيهم طلب خير الدنيا الخسّيسة الفانية عن طلب الآخرة النفيسة الباقية، إذ الجمع بينهما أفضل، وكلاهما من عند الله، وأيضا تعليمٌ للمؤمنين ألّا يطلبوا خير الدنيا من طرق الحرام، فإن في الحلال سعة لهم ومندوحة، إذ الخير كلُّه بيد الله[3].

تذكير المؤمنين بألّا يُلهيهم طلب خير الدُّنيا الفانية عن طلب الآخرة الباقية

(1) السبكي، عروس الأفراح: 1/593.

(2) البَغَويّ، معالم التنزيل: 1/712، والزمخشري، الكشاف: 1/574، وأبو حيان، البحر المحيط: 4/93.

(3) ابن عاشور: التَّحرير والتَّنوير: 5/223، وأبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 4/1893.

دلالة فاء الجواب في قوله تعالى: ﴿فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۚ﴾:

قد يقال: عنده تعالى ثوابُ الدنيا والآخرة، سواء حصلت هذه الإرادة أو لم تحصل، فلِمَ وقعت الفاء جوابًا للشّرط؟ والجواب أنّه جاء للتّذكير بما عنده تعالى لتعظيمه وتفخيمه، والتقدير، فعند اللّه ثواب الدنيا والآخرة له إن أراده[1].

بلاغة التَّذييل بذكر السَّمع والبصر على سبيل المبالغة:

استحضار مراقبة الله في سائر الأقوال والأفعال

وردت جملة التّذييل لإفادة ثبات الوصفين الجليلين للّه تعالى وظهور آثارهما في النّاس، ولمناسَبتهما لسياق الآية، فيجب على النّاس أن يعلموا أن اللّه سميعٌ بالغ السَّمع لكلِّ قولٍ وإنْ خفي، نَفْسيًّا كان أو لسانيًّا لأقوال العباد في مخاطباتهم ومناجاتهم، ﴿بَصِيرًا﴾ أي بالغ البصر بجميع أمورهم في جميع حالاتهم، فيجب عليهم أن يراقبوه في أقوالهم وأفعالهم، فذلك الذي يعينهم على تزكية نفوسهم، والوقوف عند حدود العدل والفضيلة التي يستقيم بها أمر دنياهم، ويستعدون به للحياة الأبدية في آخرتهم[2].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الأجر والثواب:

الأجر وزيادة عوض

الأجر هو جزاء العمل الذي يكون فيه عقد أو ما يجري مجراه، والشَّاهد أنَّك تقول: ما أَعْمَلُ حتَّى آخذ أجري ولا يصحُّ أن تقول حتى آخذ ثوابي، أمَّا الثَّواب فقد اشتهر في الجزاء على الحسنات، والأجرُ يُقال في هذا المعنى، ويُقال فيما معناه المعاوضة بالانتفاع[3].

(1) الزمخشري، الكشاف: 1/574، والرازي، مفاتيح الغيب: 11/240.
(2) رضا، تفسير المنار: 5/370، والبقاعي، نظم الدُّرر: 5/431.
(3) الزَّبيديّ، تاج العروس: 10/25.

﴿۞يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلۡقِسۡطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ أَوِ ٱلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَۚ إِن يَكُنۡ غَنِيًّا أَوۡ فَقِيرٗا فَٱللَّهُ أَوۡلَىٰ بِهِمَاۖ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلۡهَوَىٰٓ أَن تَعۡدِلُواْۚ وَإِن تَلۡوُۥٓاْ أَوۡ تُعۡرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا ١٣٥﴾ [النساء: 135]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا سَبَقَ الْأَمْرُ بِالْعَدْلِ مَعَ النِّسَاءِ فِي مُعَامَلَتِهِنَّ؛ أُتْبِعَ بِالْعَدْلِ الْعَامِّ فِي الْأَحْكَامِ كُلِّهَا

في مناسبَةِ هذه الآيةِ لمَا قبلَهَا وجهانِ:

أوَّلُهَا: إنَّ اللهَ سُبحانَهُ لَمَّا مَنَعَ النَّاسَ عَن أَن يُقَصِّرُوا عَن طَلَبِ ثَوَابِ الدّنيَا، وأَمَرَهُم أَن يَكُونُوا طَالِبِينَ ثَوَابَ الآخِرَةِ في قولِهِ تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنۡيَا فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۚ﴾ [النساء: 134]؛ ذَكَرَ عَقِيبَهُ هَذِهِ الآيَةَ، وَبَيَّنَ أَنَّ كَمَالَ سَعَادَةِ الإنسَانِ في أَن تَكُونَ جميعُ أحوَالِهِ للّه تعالى، فقال سُبحانَهُ: ﴿۞يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلۡقِسۡطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ﴾.

ثَانِيهَا: أَنَّهُ تَقَدَّمَ في هَذِهِ السُّورَةِ أَمرُ النَّاسِ بالقِسطِ، فقَالَ: ﴿وَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا تُقۡسِطُواْ فِي ٱلۡيَتَٰمَىٰ﴾، وأمرَهُم بالإشهاد على دَفعِ أَموَالِ اليَتَامَى إِلَيهم، وأَمَرَهُم بَعدَ ذَلِكَ ببَذلِ النَّفسِ والمَالِ في سَبِيلِ اللّه، فجاءَت هَذِهِ الآيةُ بمنزِلَةِ التَّأكيدِ لِكُلِّ مَا جَرَى ذِكْرُهُ في هَذِهِ السُّورَةِ مِنَ الأوامِرِ والنَّواهِي[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿قَوَّٰمِينَ﴾: (قوم) أصلٌ يَدُلُّ على انْتِصَابٍ أَوْ عَزْمٍ[2]، و(قوّام) صِيغَةُ مبالغةٍ مِن (قَائِمٍ)، والقائمُ بالشّيء هو الكَفِيلُ بِهِ الذي يَأْتِي

(1) الرازي، مفاتيح الغيب: 11/240 - 241.

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قوم).

بهِ علَى وَجْهِه[1]، وقولُه تعالَى: ﴿۞يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلۡقِسۡطِ﴾ "أَمْرٌ مِنْهُ تَعَالَى لِجَمِيعِ الْمُكَلَّفِينَ بِأَنْ يَكُونُوا مُبَالِغِينَ فِي اخْتِيَارِ الْعَدْلِ وَالِاحْتِرَازِ عَنِ الْجَوْرِ وَالْمَيْلِ"[2].

2) ﴿بِٱلۡقِسۡطِ﴾: (قسط) أَصْلٌ يَدُلُّ على الْعَدْلِ، ومِنْهُ: أَقْسَطَ الرَّجلُ؛ فهو مُقْسِطٌ[3]، أي: عادِلٌ، و"القِسْطُ والإِقساطُ: العَدْلُ، يُقَالُ: أقسط الرَّجُلُ يُقسِط إقساطًا؛ إذا عدل وأَتَى بالقسطِ"[4].

3) ﴿غَنِيًّا﴾: (غ ن ي) أَصْلٌ يدُلُّ عَلَى الْكِفَايَةِ، وَالْغِنَى: ضدُّ الفَقْرِ، والغَنِيُّ: الذي لا يَحْتَاجُ إلى أحدٍ في شَيْءٍ[5]. والغِنَى: "عَدَمٌ إِلَى الِاحْتِيَاجِ إِلَى شَيْءٍ، وَهُوَ مَقُولٌ عَلَيْهِ بِالتَّفَاوُتِ، فَيُعْرَفُ بِالْمُتَعَلِّقِ، كَقَوْلِهِ:

كِلَانَا غَنِيٌّ عَنْ أَخِيهِ حَيَاتَهُ *** .....

وَيُعْرَفُ بِالْعُرْفِ، يُقَالُ: فُلَانٌ غَنِيٌّ، بِمَعْنَى لَهُ ثَرْوَةٌ يَسْتَطِيعُ بِهَا تَحْصِيلَ حَاجَاتِهِ مِنْ غَيْرِ فَضْلٍ لِأَحَدٍ عَلَيْهِ، فَوِجْدَانُ أُجُورِ الْأُجَرَاءِ غِنًى، وَإِنْ كَانَ الْمُسْتَأْجِرُ مُحْتَاجًا إِلَى الْأُجَرَاءِ؛ لأنّ وِجْدَانَ الْأُجُورِ يَجْعَلُهُ كَغَيْرِ الْمُحْتَاجِ، وَالْغِنَى الْمُطْلَقُ لَا يَكُونُ إِلَّا للّه تَعَالَى"[6].

4) ﴿فَقِيرًا﴾: (ف ق ر) أَصْلٌ يَدُلُّ عَلَى انْفِرَاجٍ فِي شَيْءٍ، ومِنْهُ: فقارُ الظَّهْرِ، وتقولُ العربُ: رجلٌ فَقيرٌ مِنَ المالِ؛ إذَا كان لا شَيْءَ لَهُ[7]، وهُوَ "الْمُحْتَاجُ، إِلَّا أَنَّهُ يُقَالُ: افْتَقَرَ إِلَى كَذَا، بِالتَّخْصِيصِ، فَإِذَا قِيلَ: هُوَ فَقِيرٌ؛ فَمَعْنَاهُ فِي الْعُرْفِ: أَنَّهُ كَثِيرُ الِاحْتِيَاجِ إِلَى فَضْلِ النَّاسِ، أَوْ إِلَى الصَّبْرِ عَلَى الْحَاجَةِ؛ لِقِلَّةِ ثَرْوَتِهِ، وَكُلُّ مَخْلُوقٍ فَقِيرٌ فَقْرًا نِسْبِيًّا، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَٱللَّهُ ٱلۡغَنِيُّ وَأَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُۚ﴾ [محمّد ﷺ: 38][8].

5) ﴿أَن تَعۡدِلُواْۚ﴾: الْعَيْنُ وَالدَّالُ وَاللَّامُ أَصْلَانِ كَالْمُتَضَادَّيْنِ؛ أَحَدُهُمَا: يَدُلُّ عَلَى اسْتِوَاءٍ،

(1) الواحدي، البسيط: 7/140.
(2) الرازي، مفاتيح الغيب: 11/241.
(3) الجوهري، الصحاح، وابن فارس، مقاييس اللغة: (قسط).
(4) الزّجاج، معاني القرآن وإعرابه: 2/117.
(5) الجوهري، الصحاح: (غنى)، وابن فارس، مقاييس اللغة: (غني)، وابن منظور، لسان العرب: (غنا).
(6) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 5/227.
(7) الجوهريّ، الصحاح، وابن فارس، مقاييس اللغة: (فقر).
(8) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 5/227.

وَالْآخَرُ: يَدُلُّ عَلَى اعْوِجَاجٍ[1]، وَقَوْلُهُ: ﴿فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُواْۚ﴾ معناهُ: "أَنْ تَعْدِلُوا عَن إِقَامَتِهَا لِمَن تُؤَدُّونهَا لهُ أو عَلَيْهِ"[2]. وجمهورُ أهل التَّفسيرِ على أنّ قولَهُ تعالَى: ﴿أَن تَعْدِلُواْۚ﴾ مِنَ العُدُولِ؛ وهُوَ المَيْلُ والجَوْرُ[3].

6) ﴿تَلْوُۥٓاْ﴾: (لوي) أَصْلٌ يَدُلُّ عَلَى إِمَالَةٍ لِلشَّيْءِ، يُقَالُ: لَوَى يَدَهُ يَلْوِيهَا، وَلَوَى بِرَأْسِهِ؛ إذا أَمَالَهُ[4]، وهُوَ مِن اللّيّ في الشّهادَةِ والمَيْلِ إِلَى أَحَدِ الْخَصْمَيْنِ[5]، والمرادُ: (تَحْرِيفُ الكَلَامِ، أَيْ: تَلْوُوا عَنِ الحُكْمِ بالعَدْلِ، أو عَنِ الشّهادة بالحقِّ، أو تُعْرِضُوا عن صاحِبِ الحقِّ، أو عَنِ المَشْهُود لَهُ بالحَقِّ)[6].

7) ﴿تُعْرِضُواْ﴾: (عرض) أصل يدلّ على العرضِ الذي يخالف الطول، ومِنهُ قولهم: أعرضْتُ عَنِ الْأَمْرِ، وأَعْرَضَ بِوَجْهِهِ؛ أي: صدَّ عَنْهُ وولّاه عرضَه[7]. والْإِعْرَاضُ في قوله تعالى: ﴿تُعْرِضُواْ﴾ يُرادُ به "الِامْتِنَاعُ مِنَ الْقَضَاءِ وَمِنْ أَدَاءِ الشَّهَادَةِ، وَالْمُمَاطَلَةُ فِي الْحُكْمِ مَعَ ظُهُورِ الْحَقِّ"[8].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

التّجرد عن كلّ حظ وهوى لإقامة العدالة

يا أيُّها الذين آمَنُوا بِاللّه واتَّبَعُوا رَسُولَهُ ﷺ، كُونُوا قَائِمِين بالعَدْلِ في جميعِ أَحْوَالِكُمْ، مُؤَدِّين الشّهادةَ بالْحَقِّ مع كلّ أحدٍ، ولَو اقْتَضَى ذلكَ أن تُقِرُّوا على أنفُسِكُم بالحَقِّ أو علَى وَالِدِيكُم أَوِ الْأَقْرَبِينَ مِنْكُمْ، وَلَا تُرَاعُوا الغَنِيَّ لِغِنَاهُ، ولا الفَقِيرَ رَحْمَةً لَهُ بزعْمِكُمْ، بَلِ اشْهَدُوا بالحقِّ على مَن كَانَ، فاللّه سُبحانَهُ أَوْلَى بِالْفَقِيرِ والغَنِيِّ مِنْكُمْ وأَعْلَمُ بِمَصَالِحِهِمَا، فلا تَتَّبِعُوا الأَهْوَاءَ في شَهَادَتِكُم؛ لِئَلَّا تَمِيلُوا عنِ الحقّ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عدل).
(2) السّمين، عمدة الحفاظ: (عدل).
(3) الواحدي، التفسير البسيط: 7/142.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (لوي)، والرّاغب، المفردات: (لوى).
(5) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 118.
(6) الواحدي، التفسير البسيط: 7/142، والبَغَويّ، معالم التّنزيل: 1/712، والنّيسابوري، إيجاز البيان: 1/257، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 2/102، وابن جزي، التسهيل: 1/213.
(7) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (عرض).
(8) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 5/228.

فِيهَا، وإن حَرَّفْتُمُ الشّهادَةَ بِأَدَائِهَا على غَيْرِ وَجْهِهَا، أو أَعْرَضْتُم عَن أَدَائِهَا؛ فإنَّ اللّه تعالَى كان بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا[1]، وهذه الآيةُ قد جمعَتْ أَصْلَي التَّحاكُم: القضَاء والشَّهادَة[2].

❁ الْإِيْضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالْبَلَاغِيُّ:

نُكْتَةُ النِّدَاءِ بِـ (يَا) فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ﴾:

عَظَمَةُ اللهِ ﷻ وَعَظَمَةُ خِطَابِهِ

جَاء التَّعْبِيرُ فِي النِّداءِ بـ (يَا) في قَوْلِ اللّه تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ﴾، وهي أَكْثَرُ حُرُوفِ النِّدَاءِ اسْتِعْمَالًا، وهُي أَصْلُ حُرُوفِ النِّدَاءِ، وإذا حُذِف حَرْفُ النِّدَاءِ لَا يُقَدَّرُ غَيْرُ (يا) وَلِكَوْنِهِ أَصْلًا مُشْتَرِكًا لِنِدَاءِ الْقَرِيبِ وَالْبَعِيدِ.

ونداءُ اللّه سبحانه لعبادِهِ بـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا﴾ نِدَاءٌ مِنَ الخالِقِ إلى المَخْلُوقِ؛ فَحقيقٌ أَنْ يَكُونَ بأداةِ النِّداء التِي لِلْبَعِيدِ.

وَفِي التَّعبير بأداة النِّداء لِلْبَعِيد نِكاتٌ:

أُولَاهَا: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا وَمَا مَعَهُ مِنْ ضَمَائِرِ الْجَمْعِ يُؤْذِنُ بِأَنَّ الْحَادِثَةَ تَتَعَلَّقُ بِجَمَاعَةِ الْمُؤْمِنِينَ كُلِّهِمْ.

ثَانيها: افْتِتَاحُ الْخِطَابِ بِالنِّدَاءِ لِلاهْتِمَامِ بِمَا سَيُلْقَى إِلَى الْمُخَاطَبِينَ قَصْدًا لِإِحْضَارِ الذِّهْنِ لِوَعْيِ مَا سَيُقَالُ لَهُمْ، فَنَزَّلَ الْحَاضِرَ مَنْزِلَةَ الْبَعِيدِ، فَطَلَبَ حُضُورَهُ بِحَرْفِ النِّدَاءِ الْمَوْضُوعِ لِطَلَبِ الْإِقْبَالِ.

ثالثها: عِظَمُ شأن جواب النِّداءِ؛ وهو الأمر بالعدلِ وإقامَةِ الشَّهادَةِ على وَجْهِهَا والبُعْدِ عَن كِتْمَانِهَا.

والنِّداءُ بِـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا﴾ فيه ضَرْبٌ مِنْ تَقْوِيةِ النِّداءِ، وَوَجْهُ ذلكَ: أَنَّ (أَيّ) لا يُفْهَمُ المرادُ مِنْهَا إلَّا باسمٍ بعدَهَا يُزِيلُ غُموضَهَا، فجاء

(1) ابن سعدي، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 208، وجماعة من العلماء، المختصر في تفسير القرآن الكريم: 1/100.
(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 5/225.

بالاسم الموصول منادى بعدها، وَجُعِلَ طَرِيقُ تَعْرِيفِ الْمُنَادَى طَرِيقَ الْمَوْصُولِيَّةِ لِمَا تُؤْذِنُ بِهِ الصِّلَةُ مِنَ الاسْتِعْدَادِ لِامْتِثَالِ مَا يَأْمُرُهُمْ بِهِ اللّه تَعَالَى، لِأَنَّ ذَلِكَ أَخَصُّ صِفَاتِهِمْ تِلْقَاءَ أَوَامِرِ اللّه تَعَالَى وفي هذا انتقالٌ مِنَ الْإِبْهَامِ إلى الْإِيضَاحِ والْبَيَانِ، وفي هذا نَوْعُ تَوْكِيدٍ.

وفي اقترانِهِ بِـ (ها) التَّنبيهِ: زيادةٌ في التَّوكيدِ؛ إِذِ النِّداءُ في الأَصْلِ يُرادُ به التَّنبيهُ.

بَلَاغَةُ التَّعْبِيرِ بِالنِّدَاءِ بِصِفَةِ الْإِيمَانِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾:

فِي النِّدَاءِ بِصِفَةِ الْإِيمَانِ إِيذَانٌ بِمَشَقَّةِ التَّكْلِيفِ، وَفِيهِ مِنَ اللَّذَّةِ مَا يُخَفِّفُ مَشَقَّةَ الطَّاعَةِ

افْتُتِحَتْ هذه الآيةُ بالنِّداءِ، فقالَ جلّ شَأْنُهُ: ﴿۞يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ﴾، وجاء المُنادى بهذا الوصفِ إيذانًا منه ﷻ على أَنَّ الْمَوْصُوفِينَ بِهَذِهِ الصِّلَةِ مِنْ شَأْنِهِمْ أَنْ يَتَقَبَّلُوا مَا سَيُؤْمَرُونَ بِهِ، بما يليه من مشقّةِ التّكليفِ، فيكونُ النّداءُ بعنوانِ الإيمانِ تخفيفًا لمشقّةِ الطّاعةِ، والمعنى: ليكُنْ إيمانُكم مقتضِيًا مِنْكُمُ المبالغَةَ والاجتِهَادَ فِي الْقِيَامِ بالعَدْلِ والاسْتِقَامَةِ[1].

وكيفما قلَّبت كتابَ اللّه تعالَى فستجدُ أنّ النّداءَ بهذا الوصفِ يكُونُ تخصيصا بالمؤمنين وتذكيرا لهم بعهد الإيمان وما يقتضيه من صبر على مشقّةِ التّكليفِ، ولذا أُعْقِبَ بالأمْرِ: ﴿كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ﴾، وهُو تكليفٌ شديدٌ، كما قال العارفُونَ: لذّةُ النّداءِ خفّفتْ مشقّةَ الطّاعةِ.

نُكْتَةُ حَذْفِ مُتَعَلَّقِ الْإِيمَانِ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾:

حَقِيقَةُ الْإِيمَانِ مُسْتَقِرَّةٌ فِي نُفُوسِ الْمُؤْمِنِينَ، وَهُمْ مُقِرُّونَ بِجَمِيعِ مَا يَجِبُ الْإِيمَانُ بِهِ

حُذفَ متعلَّقُ الفعلِ ﴿ءَامَنُواْ﴾ من قول اللّه تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ وهو الْمُؤْمَنُ بِهِ، وفي ذلك مَسْلَكَانِ:

أحدُها: ظهورُ أفرادِ المؤمَنِ به؛ وذلك لأَنَّ لِلْإِيمَانِ حقيقةً شرعيَّةً معروفةً، فإذا أُطْلِقَ لفظُهُ؛ انصرَفَ الذِّهْنُ إلى تلكَ الحقيقةِ، مِن غَيْرِ احتياجٍ إلى التَّنصيص على الْمُتَعَلَّقِ.

(1) القاسمي، محاسن التأويل: 3/368.

والآخر: إرادَةُ العمُوم؛ وذلك لأنَّ حَذْفَ المعمول مؤذِنٌ بالْعُمُوم، والمعنى: آمَنُوا بجميع ما يجبُ الإيمانُ به شَرْعًا.

ويصحُّ إرادةُ الوجهين معًا؛ لعدم التَّنافي بينَهُما؛ فمعنى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾: الذين جاؤوا بالإيمانِ المشهورةِ دِلَالتُهُ، المَعْرُوفَةِ أفرادُهُ؛ وهي كلُّ ما يَجِبُ الإيمَانُ بِهِ شَرْعًا.

سِرُّ التَّعْبِيرِ بِصِيغَةِ الْمُبَالَغَةِ ﴿قَوَّٰمِينَ﴾:

قولُهُ جَلَّ شَأْنُهُ: ﴿۞يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ﴾: جاء خَبَرُ كان بِصِيغَةِ الْمُبَالَغَة؛ للدِّلَالَةِ على الْأَمْرِ بتَكْرَارِ الْقِيَام وَدَوَامِه[1]، فَـ "صِيغَةُ ﴿قَوَّٰمِينَ﴾ دَالَّةٌ عَلَى الكَثْرَةِ الْمُرَادِ لَازِمُهَا، وهُوَ عَدَمُ الإخلَالِ بِهَذَا القِيَام في حَالٍ مِنَ الأَحوَالِ"[2]، فلا يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ مِنْهُمْ جَوْرٌ مَا[3]؛ وذَلِكَ ممّا زادَ التّكليفَ مشقّةً، فلم يَرِدِ النَّظْمُ القرآنيُّ: (كُونُوا قَائِمِينَ بالقِسْطِ)، أَيْ: مُقْتَضَى إيمَانِكم الْمُبَالَغَةُ والاجتهادُ في القيام بالعَدْلِ والاسْتِقَامة؛ إذْ بِهِ انْتِظامُ أمْرِ الدّارَيْنِ الْمُوجِبِ لثَوَابِهما[4].

وُجُوبُ لُزُومِ الْعَدْلِ فِي جَمِيعِ الْأَحْوَالِ وَالِاجْتِهَادِ فِي الْقِيَامِ بِهِ

وفي التَّعبير بالجَمْعِ إيماءٌ إلى ضَرُورةِ التَّعاونِ والتَّآزُر، وفيه معنَى التَّوزيع؛ لأنَّ الخطَابَ للذينَ آمنُوا وهُمْ جَمْعٌ، فكانَ في جَمْعِ ﴿قَوَّٰمِينَ﴾ دِلَالَةٌ على أن كلَّ واحدٍ مَأْمُورٌ بالعَدْلِ؛ لأنَّ مقابلَةَ الْجَمْعِ بِالْجَمْعِ تَقْتَضِي الْقِسْمَةَ آحَادًا.

نُكْتَةُ التَّعْبِيرِ بِالْقِسْطِ دُونَ الْعَدْلِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ﴾:

وقعَ التَّعبيرُ بلفظ القِسْطِ دُونَ العَدْلِ في قولِه تعالَى: ﴿كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ﴾؛ لأنَّ لفظَ القِسطِ مختصٌّ في الدِّلَالَةِ عَلى العَدلِ

الْقِسْطُ أَخَصُّ مِنَ الْعَدْلِ؛ لِاخْتِصَاصِهِ بِالْعَدْلِ فِي الْحُكْمِ

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/122، والقُرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 5/410، والقنّوجي، فتح البيان: 3/261.

(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 5/224.

(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/94.

(4) القاسمي، محاسن التأويل: 3/368.

فِي الحُكم، بخِلاف العَدلِ؛ فَهُوَ أَعَمُّ مِن ذَلِكَ، فاختيرَ لكونِه الأنسَبَ لسياقِ الآيةِ، وَيَدُلُّ على ذلك تَعْقِيبُهُ بِقَوْلِه: ﴿شُهَدَآءَ لِلَّهِ﴾، فهُوَ بِمَنْزِلَةِ التَّرشِيحِ لِلَفْظِ القِسْطِ؛ لكونِ الشَّهَادَةِ مِنْ عَلَائِقِ الْقَضَاءِ وَالْحُكْمِ[1].

دِلَالَةُ تَكْرَارِ الْأَخْبَارِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ﴾:

الْحُكْمُ بِالْعَدْلِ لَا يَكْمُلُ إِلَّا بِكَوْنِ الشَّهَادَةِ للهِ تَعَالَى

تكرَّرَ الخَبَرُ في قولِ اللّه تعالَى: ﴿۞يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ﴾، فإنَّ ﴿قَوَّٰمِينَ﴾ خبرٌ أوَّل، و﴿شُهَدَآءَ﴾ خبرٌ ثانٍ، وكان الخبرُ الثَّاني متمِّمًا لِلأمْرِ بالْقِيَامِ بِالْعَدْلِ، وذلك لأنَّ الحكمَ بالعَدْلِ لا يَكْمُلُ حتَّى تكونَ الشَّهادةُ للّه خالصَةً لوجهِه.

نُكْتَةُ تَقْيِيدِ الشَّهَادَةِ بِكَوْنِهَا لله سُبْحَانَهُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿شُهَدَآءَ لِلَّهِ﴾:

عِظَمُ شَأْنِ الشَّهَادَةِ، وَالتَّحْرِيضُ عَلَى تَحْصِيلِ الْإِخْلَاصِ فِيهَا

قُيِّدَتِ الشَّهادةُ بكونِها للّه تعالى في قولِه جلَّ شَأْنُهُ: ﴿شُهَدَآءَ لِلَّهِ﴾؛ تذكيرًا لَهُمْ بِعَظَمَتِهِ ﷻ، تَعْظِيمًا لأمرِ العَدْلِ، وأنَّهُمْ بحِفْظِهِمْ لهُ يكُونونَ مِن شُهَدَاءِ اللّه تعالَى[2]، وفي هذا إِنْهَاضٌ لَهُمْ وإِلْهَابٌ لِتَحْصِيلِ الْإِخْلَاصِ، وفِيهِ بَيَانُ عِظَمِ الشَّهادَةِ.

سِرُّ تَقْدِيمِ الْأَمْرِ بِالْقِسْطِ عَلَى جَعْلِ الشَّهَادَةِ لله تَعَالَى فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ﴾:

الشَّهَادَةُ قَوْلٌ، وَالْقِيَامُ بِالْقِسْطِ قَوْلٌ وَفِعْلٌ

قُدِّمَ الْأَمْرُ بِالْقِسْطِ عَلَى جَعْلِ الشَّهَادَةِ للّه سُبحانَهُ في قولِه ﷻ: ﴿۞يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ﴾؛ لوجهَيْنِ:

أحدُهمَا: أنّ القِيَامَ بِالقِسطِ أَعَمُّ، والشَّهَادَةَ أَخَصُّ.

والآخَرُ: أَنَّ القِيَامَ بِالقِسْطِ فِعلٌ وقَولٌ، والشَّهَادَةَ قَولٌ فَقَط[3].

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 5/225.
(2) الرّاغب، تفسير الراغب: 4/192.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/94.

تَوْجِيهُ المُتَشَابِهِ اللَّفْظِيِّ بَيْنَ قَوْلِهِ: ﴿قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ﴾ وَقَوْلِهِ: ﴿قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِۖ﴾:

دِقَّـــةُ الْـبَـيَـانِ الْقُرْآنِيِّ فِي انْتِقَاءِ مَـرَاتِـبِ الْأَلْـفَـاظِ تَقْدِيمًا وَتَأْخِيرًا

قالَ اللّه تعالى: ﴿۞يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ﴾، وقال في موضع آخرَ: ﴿كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِۖ﴾ [المائدة: 8]، فرُوعِيَ في آية النِّساءِ لفظُ ﴿قَوَّٰمِينَ﴾، فناسبهُ اقترَانُهُ ﴿بِٱلْقِسْطِ﴾، ورُعِيَ في المائدة الاسم الأحسن؛ فقُدِّمَ[1].

وذكر ابن الزُّبير: أنَّ آيةَ النِّساء سيقتْ مع آياتٍ فيهَا الأَمْرُ بالعَدْلِ والقِسْطِ، كما في قوله تعالى: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ١٢٣﴾ [النساء: 123]، وقال بعدَها: ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي ٱلنِّسَآءِۖ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ فِي يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلْوِلْدَٰنِ وَأَن تَقُومُواْ لِلْيَتَٰمَىٰ بِٱلْقِسْطِۚ﴾، ثم توالت الآيات على هذا المعنى، فكان الأنسب تقديم قوله: ﴿بِٱلْقِسْطِ﴾.

بخلاف آية المائدة؛ فإنَّ قبلها الأمرُ بالطَّهارة، ثم أمر اللّه تعالى بتذكُّر نِعَمِهِ على عبادِهِ والوقوفِ مع ما عهدِ به سُبحانه إليهم، وأمر بتقواهُ، فكان الأنسب أن يَرِدَ: ﴿كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ﴾، ثمَّ أتبعَ ذلك بما بُنِيَ عليه من الشهادةِ بالقسْطِ[2].

سِرُّ التَّعْبِيرِ عَنِ الْإِقْرَارِ بِالشَّهَادَةِ عَلَى النَّفْسِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾:

الْإِقْرَارُ وَالشَّهَادَةُ كِـلَاهُـمَـا طَـرِيـقٌ لِإِقَامَةِ الْحُقُوقِ

الإقرارُ: هُوَ إضَافَةُ الإنْسَانِ لغيرِهِ شيئًا على نفسِهِ، وهو عكسُ الشَّهادَةِ؛ فإنَّها إضافَةُ الإنسَانِ شيئًا لغَيْرِهِ على غيرِهِ، وتخالِفُهُمَا الدَّعْوَى؛ فهي إضافةُ الإنسَانِ شيئًا لنفسِهِ على غيرِهِ[3]، ففي قولِ

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/61.
(2) ابن الزبير، ملاك التأويل: 1/111.
(3) ابن عثيمين، الشَّرح الممتع، 15/473.

اللّه تعالَى: ﴿شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ﴾ ذِكرٌ للإقرَارِ بلفظِ الشَّهادَةِ؛ وإنَّما عُبِّر عن الإقرارِ بكونِهِ شهادةً لأحدِ وجهين:

أوَّلُهما: اشتراكُ الإقْرَار والشَّهادَةِ في كونِهما سبيلًا لإقامَةِ الْحُقُوقِ، فأمَرَ اللّه تعالى المؤمنَ أن يَشْهَدَ على نفسه بالحقّ؛ بأنّ يُقِرّ على نَفْسِه، وسُمِّيَ شهادةً لكونِهِ موجبًا لِلْحَقّ عَلَيْهِ، ولأنّ الإقرَارَ في مَعْنَى الشّهادَةِ عَلَيْهَا بِإِلْزَام الحَقِّ لَهَا[1]. "فكأنّه قيل: ولو كان لأحدٍ عَلَيْكُم حَقّ فَأَقِرّوا به عَلَى أَنْفُسِكُم"[2].

والآخَرُ: أن يكون ذلك تَغْلِيبًا؛ إذْ قد ذُكِرَ مع الأنفُسِ الوالدَانِ والأقرَبُون، فقال سُبحانه: ﴿شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ أَوِ ٱلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَۚ﴾.

دِلَالَةُ التَّعْبِيرِ بِـ﴿وَلَوۡ﴾ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ﴾:

جاءَ التَّعبيرُ بـ ﴿وَلَوۡ﴾ في قولِهِ سُبحانَهُ: ﴿كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلۡقِسۡطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ أَوِ ٱلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَۚ﴾ لكونِ الغالبِ في شهادَةِ الْإِنْسَانِ عَلَى نَفْسِهِ أَنَّهُ لَا يُقيمُها؛ وذلكَ لِمَا جُبِلَ عَلَيْهِ العَبْدُ مِنْ مُحَابَاةِ نَفْسِهِ وَمُرَاعَاتِهَا؛ فلأجْلِ ذلك نُصَّ على هذهِ الحالِ ونُبِّهَ عليهَا[3]، فإنَّ المَرْءَ إذَا أقَامَ الحقَّ على نفسِهِ؛ فهو لإقامَةِ الحقِّ عَلَى غيره أقدَرُ.

وُجُوبُ إِقَامَةِ الْعَدْلِ فِي جَمِيعِ مَا يُشْهَدُ فِيهِ

دِلَالَةُ حَرْفِ الْجَرِّ ﴿عَلَىٰٓ﴾ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَوۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ﴾:

المعنى المركزي لحرفِ الجرِّ (عَلَى): هو الاستعلاءُ، وهنا جاءت للاستعلاء المجازي الذي يفيد وجوب فعل الشيء في قَوْلِهِ تعالَى: ﴿كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلۡقِسۡطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ﴾ مشعرٌ بأنَّ

مَشَقَّةُ الْإِقْرَارِ عَلَى النَّفْسِ وَشِدَّتُهُ عَلَيْهَا

(1) الرّاغب، تفسير الراغب: 4/191، والزمخشري، الكشاف: 1/575، والخازن، لباب التأويل: 1/437.

(2) الواحدي، التَّفسير البسيط: 7/140، وابن عطية، المحرر الوجيز: 2/122 - 123، والرازي، مفاتيح الغيب: 11/241، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 2/102، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/94.

(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/94 - 95.

متعلَّقَهُ فيه شدَّةٌ وكُلفةٌ عَلَى الْمَجْرُورِ بِهِ، والمعْنَى: "وَلَوْ كَانَ قَضَاءُ الْقَاضِي مِنْكُمْ وَشَهَادَةُ الشَّاهِدِ مِنْكُمْ بِمَا فِيهِ ضُرٌّ وَكَرَاهَةٌ لِلْقَاضِي والشَّاهِدِ، وَهَذَا أَقْصَى مَا يُبَالِغُ عَلَيْهِ فِي الشِّدَّةِ وَالْأَذَى؛ لأنّ أَشَقَّ شَيْءٍ عَلَى الْمَرْءِ مَا يَنَالُهُ مِنْ أَذًى وَضُرٍّ فِي ذَاتِهِ"[1]، فأفادَ حَرْفُ الاسْتِعْلَاءِ أنَّ الشّهادَةَ علَى النَّفْسِ واجِبَةٌ وإنْ لَحِقَهَا ضرَرٌ بالشَّاهدِ وكانَتْ وَبَالًا عَلَى نفسِهِ في ظاهِرِ الحالِ[2].

بَلَاغَةُ إِيجَازِ الْحَذْفِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾:

الجارُّ والمَجْرُورُ ﴿عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾ في قَوْلِهِ جلّ شَأْنُهُ: ﴿شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾ متعلّق بِمَحذُوفٍ، والتَّقدير: (وَلَوْ كانَتِ الشَّهَادَةُ على أَنْفُسِكُم أو آبائكُم أو أقَارِبِكُم)[3]، فحُذِفَتْ كانَ مع اسمِهَا، وهذا الحذفُ بعد (لَوْ) كَثِيرٌ في لغةِ العربِ، ومنهُ: ائْتِنِي بِتَمْرٍ وَلَوْ حَشَفًا، أَيْ: ولَوْ كَانَ التَّمْرُ حَشَفًا[4].

مِنَ التَّفَنُّنِ فِي الْقَوْلِ التَّصَرُّفُ فِيهِ بِالْحَذْفِ مِنْ غَيْرِ إِخْلَالٍ بِمَقْصُودِهِ

في قوله سُبحانَهُ: ﴿وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾ حذْفٌ آخَرُ - على بعض آراء أهل العلم - وهو حذفُ جوابِ (لَوْ)، والتَّقدير: ولو كانتِ الشَّهادةُ على أنفسِكُمْ؛ فاشهَدُوا بِهَا. لوجبت الشهادة عليكم.

والتَّصرُّفُ في الكلامِ بالحذفِ مِن غَيْرِ إِخْلَالٍ بالمعنَى مِنْ بَلِيغِ الْقَوْلِ وأعلاهُ.

بَلَاغَةُ الوصل فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾:

ذهبَ بَعضُ أهلِ العلمِ إلى أنَّ (لو) في مِثلِ هذِهِ المواضعِ لا يُقصَد منها الشرطُ، وإنَّما يُقصَدُ مِنها المُبالغةُ والإتيانُ بِالفعلِ على كُلِّ حالٍ، فجَعلَها وصليّةً، كقوله ﷺ: التَمِسْ ولو خاتمًا مِنْ حَديدٍ. والتَّقديرُ: ولو كان المُلتَمِسُ خاتمًا... وليس المعنى ههنا للشرطِ وإنما المعنى المبالغة في حَضّ الرّاغبينَ بِالزَّواجِ بِتَقديمِ هَديةٍ للنّساءِ قبل استحلالِهِنَّ بالزّواج

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 5/225.
(2) الواحدي، التَّفسير البسيط: 7/140، والنيسابوري، غرائب القرآن: 2/512.
(3) الزمخشري، الكشاف: 1/575.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/95.

مَهما افتَقَروا وضاقَتْ ذاتُ أيدِهِمْ، على أنّ تَقديمَهم شَيئًا أثمَنَ مِنَ الحديدِ أولى إذا كانَ يسرًا.

والذي يَبدو لنا أنّ تذوُّقَ المَعنى بها على أنَّها وصلية يُحلّقُ بخَيالِ المُخاطبِ إلى أبعادٍ كبيرةٍ، فكأنَّهُ يأمُرُ المُؤمنينَ بأداءِ الشَّهادةِ ويَأمرُهُمْ بالعَدلِ وإقامةِ القِسطِ مَهما ثَقلَ الأمرُ عَليهِمْ أو كَلّفَ مِنْ ثمنٍ. قالَ ابنُ عاشورٍ في (لو) في مَوضعٍ ما مِن سورةِ البَقرةِ: "وَ (لَوْ) وَصْلِيَّةٌ لِلتَّنْبِيهِ عَلَى أَقْصَى الْأَحْوَالِ الَّتِي هِيَ مَظِنَّةُ تَفْضِيلِ الْمُشْرِكَةِ، فَالْأَمَةُ الْمُؤْمِنَةُ أَفْضَلُ مِنْهَا حَتَّى فِي تِلْكَ الْحَالَةِ وَقَدْ مَضَى الْقَوْلُ فِي مَوْقِعِ لَوْ الْوَصْلِيَّةِ وَالْوَاوِ الَّتِي قَبْلَهَا وَالْجُمْلَةِ الَّتِي بَعْدَهَا عِنْدَ قَوْلِهِ تَعَالَى: أَوَلَوْ كانَ آباؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلا يَهْتَدُونَ [البَقَرَة: 170]"[1].

والمعنى في سورةِ النِّساءِ على ما قَدّمناهُ في مِنْ قَبلُ وهُو المُبالغةُ المُستفادةُ مِنْ (لو) الوَصليّةِ، فكأنّهُ يقولُ: "وَلَو على قيبلتكم أَوْ وَالِدَيْكُمْ وَقَرَابَتِكُمْ. وَمَوْقِعُ الْمُبَالَغَةِ الْمُسْتَفَادَةِ مِنْ (لَوْ) الْوَصْلِيَّةِ أَنَّهُ كَانَ مِنْ عَادَةِ الْعَرَبِ أَنْ يَنْتَصِرُوا بِمَوَالِيهِمْ مِنَ الْقَبَائِلِ وَيَدْفَعُوا عَنْهُمْ"[2].

نُكْتَةُ التَّدَلِّي فِي تَرْتِيبِ الْمَشْهُودِ عَلَيْهِمْ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ﴾:

لَا يَجُوزُ أَنْ يَحُولَ دُونَ الْعَدْلِ صِلَاتُ الْقُرْبَى وَالْعَصَبِيَّةِ

جَاء اسْتِقْصَاءُ الْمَشْهُودِ عَلَيْهِم فِي قَوْلِه: ﴿وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ﴾، فِي منتهَى البلاغةِ والحُسْنِ؛ إذْ بُدِئَ بالأنْفسِ، فقال سُبحانَهُ: ﴿وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾، فإنَّهُ لا شَيْءَ أَعَزُّ عَلَى الْإِنْسَانِ مِنْ نَفْسِهِ، ثُمَّ ثُنِّيَ بِالْوَالِدَيْنِ وَهُمَا أَقْرَبُ إِلَى الْإِنْسَانِ وَسَبَبُ نَشْأَتِهِ، وَقَدْ أُمِرَ بِبِرِّهِمَا وَتَعْظِيمِهِمَا، ثُمَّ ثَلَّثَ بِالْأَقْرَبِينَ وَهُمْ مَظِنَّةُ الْمَحَبَّةِ وَالتَّعَصُّبِ، وَإِذَا كَانَ هَؤُلَاءِ قَدْ أُمِرَ بِالْقِسْطِ والشَّهَادَةِ عَلَيْهِمْ بِالْحَقِّ، فغيرُهُمْ من الأجَانِبِ أَوْلَى وأَحْرَى[3]، فَتَرْتِيبُ الْمَشْهُودِ عَلَيْهِم جَاءَ عَلَى طَرِيقَةِ التَّدَلِّي.

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 2/362.

(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 5/225.

(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/95، وابن جزي، التسهيل: 1/213، والقنّوجي، فتح البيان: 3/261.

والغرض مِن ذلكَ الحثُّ والتَّحريضُ عَلَى حِفْظِ الحُقُوقِ في الْأَمْوَالِ وغيرِهَا[1].

سِرُّ التَّنْصِيصِ عَلَى الْآبَاءِ وَالْأَقْرَبِينَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَۚ﴾:

وُجُوبُ إِقَامَةِ الشَّهَادَةِ بِالْحَقِّ وَلَوْ عَلَى الْوَالِدَيْنِ، وَلَا يَدْخُلُ ذَلِكَ فِي عُقُوقِهِمَا

ظاهِرُ التَّصريحِ بِوُجُوبِ الشَّهادةِ على النَّفْسِ في قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾ يُغْنِي عن ذِكْرِ الآباءِ والأقْرَبينَ؛ لأنَّه إذا وَجبَتِ الشَّهادةُ على النَّفْسِ؛ فالشَّهادةُ علَى الآباء والأقْرَبين أَوْلَى بالوجُوبِ، إلَّا أنَّهُ نُصَّ عليهِمَا مِن بابِ الاحْتِرَاسِ؛ لئلَّا يَتوهَّمَ أحدٌ أنَّ إقرارَ العبْدِ على نفسِهِ إنَّما جازَ لكونِهِ حقًّا لهُ، فهو أميرُ نفسِهِ فيه، بخلاف الآباءِ والأقْرَبينَ؛ فقد يتوهَّمُ عدمَ جوازِ ذلكَ؛ لما يَلْحَقُهُ بسببِ ذلك مِنَ الملامَةِ والمسبَّةِ والمعرَّةِ[2].

فَقَوْلُهُ سُبحانَهُ: ﴿أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ﴾ داخِلٌ في حيّز المُبَالَغَةِ بِإِقَامَةِ الشّهادة والإقْرَارِ، ولا عِبْرَةَ بِغَضَبِهِمَا إذَا كانَتِ الشّهَادَةُ عَلَيْهِمَا بِحَقٍّ[3]، فَتَقَعُ نَفْسُ الْمُؤْمِنِ في حَرَجٍ بينَ حقّيْنِ: حَقِّ البرِّ بالوَالِدَيْنِ، وحقِّ إقامَةِ الشّهادَةِ، فجَاءَ قوله سُبحانَهُ: ﴿وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَۚ﴾ لرفْعِ هذَا الْحَرَجِ، ولبيَانِ أنَّ الشَّهادةَ عليهِمَا لا ينافِي البِرَّ بهِمَا؛ إذِ اللّه تعالى هو الآمِرُ بالشَّهادةِ عليهما والآمرُ ببرِّهِمَا، ولا يأمُرُ اللّه ﷻ بالأمرَيْنِ المتضادَّيْنِ.

سَبَبُ فَصْلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا﴾ عَمَّا قَبْلَهُ:

لَا اعْتِبَارَ فِي إِقَامَةِ الشَّهَادَةِ إِلَى حَالِ الْمَشْهُودِ عَلَيْهِ

فُصِلَ قولُ اللّه تَعَالَى: ﴿إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا﴾ عمَّا قبلَهُ؛ لوقوعِهِ استئنافًا واقعًا موقعَ العلّةِ لِمَجْمُوعِ الجُملةِ قبلَهُ، وهي قولُهُ سُبحانَهُ: ﴿كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ

(1) القُرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 7/173.
(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 5/226.
(3) الصّاوي، حاشية الصّاوي: 1/236.

﴿ٱلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَۚ﴾[1]، وفي ذلكَ دَفعٌ للدَّاعِي إلى عَدَمِ إقامةِ الحقِّ في الشّهادةِ؛ فإنّ الدّاعِيَ لذلك أَمْرَانِ: الخوفُ أَوِ الشّفقةُ، فالخوف سَبَبٌ للتّساهُلِ في الشَّهادة على الغَنِيِّ، والشَّفقَةُ داعٍ للتَّغاضِي في الشَّهادَةِ على الفقيرِ.

سَبَبُ اختيار الشرط بـ﴿إن﴾ في قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِن يَكُنۡ غَنِيًّا أَوۡ فَقِيرٗا﴾:

اللهُ سُبْحَانَهُ أَعْلَمُ بالنَّاسِ مِنْ أَنْفُسِهِمْ

استَعمَلَ البَيانُ القُرآنيُّ الشَّرطَ بـ ﴿إن﴾ لِما فيها مِنْ عَدمِ القَطعِ والجَزمِ في الحُكمِ الذي بَعدَها، وإنَّما يكونُ استِخدامُها فيما قَدْ يَقعُ وفيما قَدْ لا يَقعُ فَقالَ تعالى: ﴿إِن يَكُنۡ﴾، وقَدْ أشارَ أبو حَيّان إلى خُصوصيّةِ الشَّرطِ بـ(إنْ) في قَولِهِ تَعالى: ﴿وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةٞ﴾ [الأعراف: 131] فقال: "وَأَتَى الشَّرْطُ بِـ إِنْ في إِصَابَةِ السَّيِّئَةِ وَهِيَ لِلْمُمْكِنِ إِبْرَازًا أَنَّ إِصَابَةَ السَّيِّئَةِ مِمَّا قَدْ يَقَعُ وَقَدْ لَا يَقَعُ وَجْهُهُ رَحْمَةُ اللهِ أَوْسَعُ"[2] فلمَّا كانَ اللهُ أعلَمُ بعبادِهِ وما يَكونُ مِنهُمْ، وعَلِمَ بسابِقِ علمِهِ أنَّ مِنهُمْ مَنْ يَحيدُ عَنِ الحَقِّ والقِسطِ عَصبيّةً ومِنهُم غَيرَ ذَلكَ استخدَمَ لذلِكَ ما يُفيدُ الشَّيءَ وعَدمَهُ.

نُكْتَةُ إِضْمَارِ اسْمِ كَانَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِن يَكُنۡ غَنِيًّا أَوۡ فَقِيرٗا﴾:

اللهُ سُبْحَانَهُ أَرْحَمُ بِالْخَلْقِ وَأَعْلَمُ بِمَصَالِحِهِمْ

في حذفِ اسْمِ (كانَ) من قَوْلِهِ سُبحانَهُ: ﴿إِن يَكُنۡ غَنِيًّا أَوۡ فَقِيرٗا﴾ توسيعٌ لِلْمُرَادِ؛ ليشملَ كلَّ مَنْ له صِلَةٌ بإقامةِ الشّهادة، والمَعْنَى: إن يكن المشهودُ عليه غنيًّا؛ فلا يُخَافُ مِنْهُ فيُراعَى لأجل غِنَاهُ، وإن يكُنْ المشهودُ عليهِ فقيرًا؛ فلا يُشفقُ عَلَيْهِ فيُراعَى من أجل فقْرِهِ[3]؛ فإنَّ اللهَ تعالَى هو الآمِرُ بشهادَةِ الحقِّ عليْهِم، وهو سُبحانَهُ أعلَمُ بمصالِحِ الخَلْقِ وأرْحَمُ بهِمْ.

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 5/226.

(2) أبو حيان، البحر المحيط: 5/147.

(3) الواحدي، البسيط: 7/141، والقُرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 5/413، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 2/102، والعكبري، التبيان: 1/397.

دِلَالَةُ الطِّبَاقِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا﴾:

اسْتِقْصَاءُ الْأَوْصَافِ التِي هِيَ مَظِنَّةٌ لِعُدُولِ الْمَرْءِ عَنْ إِقَامَةِ الْحَقِّ

بين ﴿غَنِيًّا﴾ و﴿فَقِيرًا﴾ في قوله تَعَالَى: ﴿إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا﴾ طِبَاقٌ، وهو طباقُ إيجابٍ، وله أثرٌ بالغٌ في اسْتِيفَاءِ المَانِعَيْن مِن الشَّهادةِ بالحقِّ؛ وهُمَا الخَوْفُ والشَّفَقَةُ، فإنَّهُ لَمّا اسْتُقْصِيَ جَمِيعُ ما يُشْهَدُ عليه، بالنَّصِّ على النّفسِ والوَالِدَيْن والأقْرَبِينَ؛ اسْتُقْصِيَ بالطّباقِ الصِّفَاتُ التي هِيَ مظنّةُ لِعُدولِ المَرْءِ عَن إقامة الحقِّ.

وَذكر سُبحانَهُ صِفَتَي الفَقْرِ والْغِنَى لِنَهْيِ الشُّهَداءِ عَنِ التّأثُّر بأحْوَالِ مَن يُشهَدُ عَلَيْه، والتّقديرُ: (إن يَكُن المشهُودُ عَلَيْه غَنِيًّا فلا يمنَعُ الشّهادةَ عليه لغِنَاه طلبًا لرِضَاه، أو فَقيرا فلا يَمْنَعُهَا ترحّمًا عليْه)[1]، فَلَمَّا أَبْطَلَتِ الْآيَةُ الَّتِي قَبْلَهَا التَّأَثُّرَ لِلْحَمِيَّةِ؛ أبطَلَتْ هذه الآيَةُ التّأثُّرَ بِالْمَظَاهِرِ، وَالْمَقْصُودُ مِنْ ذَلِكَ التّحْذِيرُ مِنَ التّأَثُّرِ بِأَحْوَالِ المشْهُودِ عَلَيْه[2].

نُكْتَةُ إِيجَازِ الْحَذْفِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا﴾:

وُجُوبُ أَدَاءِ الشَّهَادَةِ وَتَحْرِيمُ كَتْمِهَا

﴿إِن﴾ في قوله سُبحانَهُ ﴿إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا﴾ شرطيَّةٌ، وجوابُ الشَّرطِ محذوفٌ، والتّقدير: (إن يَكُنِ المَشْهُودُ عليه غنيًّا؛ فلا تَمْتَنِعْ مِنَ الشّهادةِ تَعْظِيمًا له، وإن كان فقيرًا؛ فلا تَمْتَنِعْ مِن الشّهادة عَلَيْه إشفاقًا عَلَيْه؛ فإنّ اللّه أَوْلَى بالغنيّ والفقير)[3]، وفي حذفِ جوابِ الشّرطِ إيمَاءٌ إلى أنّه لا يَنْبَغِي أن يكُونَ الامتناعُ عن الشّهادةِ كائنًا في واقع النّاسِ، فكانَ حَذْفُهُ مِنَ اللَّفْظِ إشعَارًا بِتَحَتُّم إعدَامِهِ في الوَاقِع.

نُكْتَةُ إِقَامَةِ دَلِيلِ الْجَوَابِ مُقَامَ الْجَوَابِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا﴾:

لَا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ النَّظَرُ فِي أَحْوَالِ الْعِبَادِ صَارِفًا عَنْ إِقَامَةِ الْحَقِّ

قولُ اللّه تَعَالَى: ﴿فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا﴾ لا يَصِحّ أن يكُونَ جَوَابًا للشّرطِ في قَوْلِهِ سُبحانَهُ: ﴿إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا﴾؛ لكونِ الشّرطِ سِيقَ

(1) النسفي، مدارك التنزيل: 1/404، وابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/61.
(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 5/226.
(3) ابن جزي، التسهيل: 1/213.

لِإيجَابِ الشّهادَةِ علَى الصِّنفَيْنِ المَذْكُورَيْنِ، فقولهُ تعالَى: ﴿فَٱللَّهُ أَوۡلَىٰ بِهِمَاۖ﴾ ليس جوابَ الشَّرْط، وإنَّما هو دليلٌ على الجَوابِ وعِلَّةٌ لَهُ، والتَّقدير: إن يكُن غنيًّا أو فقيرًا؛ فلا تَهْتَمُّوا لأمرِهِمَا حالَ التَّقاضِي؛ إذْ إنَّ اللّه تعالى أَوْلَى بالنَّظَرِ في حالِهِمَا، والواجب عليهم النَّظَرُ إلى ما كُلِّفْتُمْ به وهو الحقُّ[1].

نُكْتَةُ دلالة الضمير العائد على المثنى فِي قَوْلِهِ تَعَالَى ﴿فَٱللَّهُ أَوۡلَىٰ بِهِمَاۖ﴾:

الضميرَ في "بهما" ليس عائدًا على الغني والفقير المذكورين أولًا، بل على جنسَيْ الغني والفقير المدلولِ عليهما بالمذكورَيْن، تقديرُه: وإنْ يكنِ المشهودُ عليه غنيًا أو فقيرًا فليشهد عليه، فاللّه أَوْلى بجنسَي الغني والفقير، ويَدُلُّ على هذا قراءة أُبَيّ: (فاللّه أَوْلى بهم) أي بالأغنياء والفقراءِ مراعاةً للجنس"[2].

دَوَامُ عِنَايَةِ اللهِ تَعَالَى بِعِبَادِهِ فِي الْخَلْقِ وَالشَّرْعِ

دِلَالَةُ الْجُمْلَةِ الِاسْمِيَّةِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَٱللَّهُ أَوۡلَىٰ بِهِمَاۖ﴾:

جاءَ دليلُ الجوابِ - وهو قولُه تَعَالَى: ﴿فَٱللَّهُ أَوۡلَىٰ بِهِمَاۖ﴾ - معبَّرًا عنه بالجملةِ الاسْمِيَّةِ؛ للدِّلالةِ على ثُبُوتِ هذه الْأَوْلَوِيَّةِ واسْتِمْرَارِهَا مِنَ اللّه تعالَى لعبادِه بِمَا يُغْنِيهِمْ عن نظْرَةِ العبَادِ لَهُمْ خوفًا مِنْهُمْ أو عليهِمْ.

مِنْ أَعْظَمِ الْأَسْبَابِ الْحَامِلَةِ عَلَى تَرْكِ الْعَدْلِ اتِّبَاعُ الْهَوَى

دِلَالَةُ النَّهْيِ عَنِ اتِّبَاعِ الْهَوَى بَعْدَ الْأَمْرِ بِالْعَدْلِ:

الْأَمرُ بالعدْلِ في صدْرِ الآيةِ ﴿كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلۡقِسۡطِ﴾ يستلزمُ النَّهْيَ عن الجَوْرِ والظُّلْم؛ لِمَا عُلِمَ من أنَّ الأمرَ بالشَّيءِ يستَلْزِمُ النَّهْيَ عَن ضدِّه، فقولُهُ سُبحانه: ﴿فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلۡهَوَىٰٓ أَن تَعۡدِلُواْۚ﴾ تصريحٌ بذلكَ المفهوم، ونكْتَةُ هذا التَّصريح: بيانُ السَّببِ الحاملِ على تَرْكِ إقامةِ العدلِ والدّافع له، وفيه إيماءٌ إلى أنَّ الهَوَى وكَراهِيَّةَ العَدْلِ قَرِينَانِ؛ ولهذا لَمَّا أَمَرَ اللّه سُبحانَهُ بِالقِيَامِ بِالعَدْلِ وَبِالشَّهَادَةِ لِقصْدِ

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 5/227.

(2) السمين، الدر المصون: 4/116.

مَرْضَاةِ اللّه تعالَى؛ نَهَى عَنِ اتِّبَاعِ الْهَوَى[1]، ولَمّا قالَ: ﴿إِن يَكُنۡ غَنِيًّا أَوۡ فَقِيرٗا فَٱللَّهُ أَوۡلَىٰ بِهِمَاۖ﴾ (فَرَّعَ عَلَيْهِ قَوْلَهُ: ﴿فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلۡهَوَىٰٓ أَن تَعۡدِلُواْۚ﴾، فَجَعَلَ الْمَيْلَ نَحْوَ الْمَوَالِي وَالْأَقَارِبِ مِنَ الْهَوَى، وَالنَّظَرَ إِلَى الْفَقْرِ وَالْغِنَى مِنَ الْهَوَى)[2].

دِلَالَةُ الْحَذْفِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلۡهَوَىٰٓ أَن تَعۡدِلُواْۚ﴾:

الْحَذْفُ طَرِيقٌ لِتَوْسِيعِ الْمَعَانِي وَتَكْثِيرِهَا

جاءَ التَّركيبُ في قَوْلِهِ تعَالَى: ﴿فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلۡهَوَىٰٓ أَن تَعۡدِلُواْۚ﴾ مُحْتَمِلًا لمعانٍ عدّة؛ إذْ يجُوزُ أن يكونَ في الْكَلَام حذفٌ، والتَّقديرُ: فلا تتّبعُوا الهَوَى، واتّقُوا ألاّ تعدِلُوا، ويكون النَّهْيُ دليلًا على الأمرِ المحذوفِ.

ويحْتَمِلُ أن يكُونَ المصدرُ المؤوّلُ مفعولًا لأجله، ويكونُ التّقديرُ: فلا تتّبعُوا الهوى كَرَاهِيَّةَ العدلِ، أو: اتركُوا الهَوَى لأجلِ تحقيقِ العَدْلِ، أو انتهُوا خوفَ أن تجُوروا أو محبّةَ أن تُقْسِطُوا[3]، وهذا المصدرُ وقعَ تعليلًا للنّهي.

ولا تعارُضَ بين هذه التَّقديرَاتِ، بل إنَّ احتمالَ التَّركيبِ القرآنيِّ لهَا يُفيدُ توسيعَ المَعَاني مع وجازَةِ اللّفظ.

دِلَالَةُ الْخِطَابِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِن تَلۡوُۥٓاْ أَوۡ تُعۡرِضُواْ﴾:

الْأَمْرُ بِالْعَدْلِ وَالتَّحْذِيرُ مِنْ ضِدِّهِ عَامٌّ لِكُلِّ الْعِبَادِ

الأصلُ في الخِطَابِ أن يكونَ لمعيَّن، والخطابُ في قولِه: ﴿وَإِن تَلۡوُۥٓاْ أَوۡ تُعۡرِضُواْ﴾ لا يُرادُ به قومٌ معيَّنُونَ، وإنَّما المرادُ به عمومُ العِبَادِ، فيكون الخِطَابُ خرجَ عن أصلِهِ في إرادةِ المعيَّنِ قصدًا لإفادَةِ الشُّمولِ.

والآيةُ تشمَلُ "القضاءَ والشَّهادةَ، والتَّوسُّطَ بين النَّاسِ، وكلّ إنسان مأخوذٌ بأنْ يَعْدِلَ"[4].

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/96.
(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 5/227.
(3) الواحدي، البسيط: 7/142، والرّاغب، تفسير الراغب: 4/191، وابن عطية، المحرر الوجيز: 2/123، والنيسابوري، غرائب القرآن: 2/512، والثعالبي، الجواهر الحسان: 2/315 - 316.
(4) الثعالبي، الجواهر الحسان: 2/316، وابن جزي، التسهيل: 1/213.

نُكْتَةُ حَذْفِ مُتَعَلِّقِ الْفِعْلَيْنِ ﴿تَلْوُۥٓاْ﴾ وَ﴿تُعْرِضُواْ﴾:

شُمُولُ النَّهْيِ لِكُلِّ مَيْلٍ عَنِ الْحَقِّ

حُذِفَ متعلّق الفِعْلَيْنِ ﴿تَلْوُۥٓاْ﴾ و﴿تُعْرِضُواْ﴾ لإفادَةِ العُموم؛ إذْ إنَّ حذفَ المتعلَّقِ مؤذِنٌ بذلك، فيكون صالحًا لتَقْدِيرِ متعلّقه المَحْذُوفِ مَجْرُورًا بِـ (عَن)، أو مجرورًا بِـ (علَى)، فَيَشْمَلُ مَعَانِيَ العُدُولِ عن الحقِّ في الحُكْم، والعدولِ عن الصّدقِ في الشّهادةِ، أو التّثاقلِ في تَمْكِينِ المُحِقِّ مِن حقِّه، وأداءِ الشّهادةِ لطالِبِهَا.

دِلَالَةُ التَّعْبِيرِ بِجُمْلَةِ الشَّرْطِ وَنُكْتَةُ حَذْفِ جَوَابِهِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِن تَلْوُۥٓاْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾:

أَحْكَامُ اللهِ تَعَالَى عَهْدٌ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْعِبَادِ؛ فَمَنْ أَخَلَّ بِشَيْءٍ مِنْهَا اسْتَحَقَّ الْعُقُوبَةَ

قولُ اللّه جلّ وعلَا: ﴿وَإِن تَلْوُۥٓاْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ جملةٌ شرطيَّةٌ يُرادُ بها التَّهديدُ، وصيغَتْ بصورةِ التّعليقِ، لإبرازِهَا في صورةِ العَقْدِ، فمن أخَلَّ بالشَّرطِ فلَوَى أو أعرضَ؛ فإنَّ جزاءَهُ ثابتٌ مُسْتَمِرٌ بما دلَّ عليهِ جوابُ الشّرطِ المَحْذوفُ؛ إذِ التَّقدير: يعاقبُكُم على ذلك؛ لأنَّ اللّه كان بما تعلَمُون خَبِيرًا[1].

التَّهْدِيدُ بِالْمُبْهَمِ أَشَدُّ فِي الْوَعِيدِ؛ إِذْ إِنَّ النَّفْسَ تَذْهَبُ فِي تَصَوُّرِهِ كُلَّ مَذْهَبٍ

وحُذِفَ جواب الشّرط؛ لما في حذفه في سياق التَّهديد مِن زيادةٍ في الوعيدِ؛ حيث إنّ التّهديد بالمُبْهَم الذي يخفَى على المخاطَبِ يجعل النَّفس تؤوِّله بأنواعٍ من السّوء كثيرةٍ، فتستدعي صورًا متعدِّدةً من العذاب، فيتحقّق التّهديد بأتّم صُورةٍ.

نُكْتَةُ إِقَامَةِ دَلِيلِ جَوَابِ الشَّرْطِ مُقَامَ جَوَابِ الشَّرْطِ الصَّرِيحِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِن تَلْوُۥٓاْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾:

أَيُّ الشَّهَادَةِ أَوِ الْإِعْرَاضُ عَنْهَا مُوجِبٌ لِلْعُقُوبَةِ

قولُ اللّه تَعَالَى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ ليسَ هُوَ جوابَ الشّرطِ في قوله تعالى: ﴿وَإِن تَلْوُۥٓاْ أَوْ تُعْرِضُواْ﴾، وإنَّما هُوَ دَلِيلٌ على الْجَوَابِ المَحْذُوف، والتَّقديرُ: وإن تلْوُوا أن تعرضُوا يُعَاقِبْكُم؛ لأنَّ اللّه سُبحانَهُ كان بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا[2]، وإنَّمَا حُذِفَ الجوابُ وسِيقَ

(1) الصّاوي، حاشية الصّاوي: 1/236.
(2) الصّاوي، حاشية الصّاوي: 1/236.

الْإِخْبَارُ بِعِلْمِ اللّه تَعَالَى دَليلًا عليهِ؛ لِتأكيدِ مَا جَاءَ الشّرطُ لِأَجْلِهِ - وَهُوَ التّهْدِيدُ - وَالْمُبَالغَةُ فِيهِ.

بَلَاغَةُ الْكِنَايَةِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا﴾:

عِلْمُ اللهِ تَعَالَى بِأَعْمَالِ الْعِبَادِ يَقْتَضِي مُجَازَاتَهُمْ عَلَيْهَا

الجملةُ في قولِ اللّه تعالَى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا﴾ إخبارٌ مِنَ اللّه تَعَالَى بأنّه يَعْلَمُ جميعَ مَا يَفْعَلُونَ، وهو لفظٌ يُرادُ به لازِمُ هذا العِلْمِ يومَ القِيَامَةِ؛ وهو المجازاةُ على هذه الأعمالِ[1]، فالجملة خرجَتْ مخرجَ الكنايةِ عن الوعيدِ والتَّهديد؛ إذِ الخبيرُ بفاعلِ الشَّرِّ والسُّوءِ وهو قديرٌ، لَا يُعْجِزُهُ أَنْ يعاقبَهُ عَلَى ذَلِكَ[2].

فكَان في إِتْبَاعِ جُمْلَةِ الشّرطِ بهذِهِ الجُمْلَةِ زيادةٌ في التّهديدِ والْوَعِيدِ.

فِي التَّعْبِيرِ بِالْجُمْلَةِ الِاسْمِيَّةِ تَقْوِيَةٌ لِلْمَعْنَى وَتَأْكِيدٌ لَهُ، وَإِشْعَارٌ بِقُوَّةِ التَّهْدِيدِ

وعُبِّرَ عن هذا الوعيدِ بالجملةِ الاسميَّةِ إشعارًا بِثُبُوتِ عِلْمِهِ ﷻ ودوامِهِ، وتَقْوِيَةً لِلْخَبَرِ؛ إِعْلَامًا بقوّةِ عِلْمِهِ علَى وَجْهِ الحَقِيقَةِ.

وفي تصديرِ الجملةِ بـ (إِنَّ) تقويةٌ لهذا المعنَى.

سِرُّ تَعْرِيفِ الْمُسْنَدِ إِلَيْهِ بِالْعَلَمِيَّةِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا﴾:

مُنَاسَبَةُ اسْمِ (اللهِ) لِمَقَامَاتِ التَّرْغِيبِ وَالتَّرْهِيبِ؛ لِتَضَمُّنِهِ صِفَاتِ الْجَلَالِ وَالْكَمَالِ وَالْجَمَالِ

عُرِّفَ المسنَدُ إليه بالعلميَّةِ، فجيءَ بالاسم الأحسَنِ ﴿ٱللَّهَ﴾ مِنْ قولِهِ تعالَى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا﴾؛ لِمَا يتضمَّنُهُ الاسمُ الأحسنُ مِن صفاتِ الجلالِ والكمَالِ، فالتَّعبيرُ به أبلَغُ في التَّهديدِ وتأكيد الوَعِيدِ، وإدخالِ الرَّهبَةِ في قلوبِ المخاطَبِينَ، فضلا عمّا يفيدُهُ استخدامُ العلمِ مِنَ قَصرٍ واختِصاصٍ.

نُكْتَةُ التَّعْبِيرِ عَنْ مُتَعَلَّقِ عِلْمِ اللهِ تَعَالَى بِالِاسْمِ الْمَوْصُولِ (مَا) فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا﴾:

(مَا) في ﴿بِمَا﴾ مِنْ قولِ اللّه جَلّ شأنُهُ: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ

(1) الخازن، لباب التأويل: 1/437، وابن جزي، التسهيل: 1/213.
(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 5/228.

عُـمُـومُ عِـلْـمِ الـلـهِ تَـعَـالَى بِأَحْوَالِ الْعِبَادِ وَأَعْمَالِهِمْ

﴿خَبِيرًا﴾ اسمٌ موصولٌ، ووقعَ التَّعبيرُ بِهِ لإفادَةِ العمولِ والشُّمولِ، فعِلْمُهُ سُبحانَهُ متعلّقٌ بِجميعِ أعمالِ العبَادِ، ومِنْ جُملَتِهَا مَا تقدَّمَ ذِكْرُ ما له صِلَةٌ بتحريفِ الشَّهادةِ والإعراضِ عَنْهَا[1]، فلا يَخْفَى عَلَيْهِ مِمَّا عَمِلُوا شيءٌ.

دِلَالَةُ الْبَاءِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾:

دِقَّـةُ عِـلْـمِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَشِـدَّةُ إِحَاطَتِهِ بِأَعْمَالِ عِبَادِهِ

والبَاءُ في قولِهِ تعالَى: ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ دالَّةٌ على الملابَسَةِ، وذلك مُفيدٌ أنَّ علْمَهُ سُبحانَهُ مُتَلَبِّسٌ بِمَا عَمِلُوا؛ إيماءً على دقَّةِ عِلْمِهِ، وشِدّتِهِ في الإحاطَةِ بِمَا اجْتَرَحُوا.

دِلَالَةُ تَقْدِيمِ مَا حَقُّهُ التَّأْخِيرُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾:

عَـظَـمَـةُ الْـعَـدْلِ وَعُلُوُّ مَكَانَتِهِ

قُدِّمَ معمولُ الخبرِ ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ على الخبَرِ في قوله سُبحانَهُ: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾، والْأَصْلُ: (كانَ خَبِيرًا بِمَا تَعْمَلُونَ)؛ لإرادَةِ الاهتمامِ لا لإرادَةِ التَّخصيصِ، فإنَّ علمَهُ سُبحانَهُ يشمَلُ كلَّ معلومٍ وليس مختصًّا بأعمالِ العبَادِ.

ووجهُ الاهتمامِ كونُ السِّياقِ في بيانِ شأنِ لَيِّ الحقِّ والإعراض عن الإقرارِ بِهِ أو الشَّهادَةِ عليهِ، وهي مِنْ جُملةِ أعمالِ العبادِ، وفي ذلك إيماءٌ إلى تعظيمِ العَدْلِ وإعلاءِ مَكَانَتِهِ.

كما أنَّ في التَّقديمِ مراعاةً للتَّناسُبِ اللَّفْظِيِّ لأواخِرِ الآيِ؛ إذْ لو جرَى الكلامُ على أصلِهِ في التَّرتيبِ؛ لفاتَ هذا التَّناسُبُ.

سِرُّ التَّعْبِيرِ بِـ﴿كَانَ﴾ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾:

ثُبُوتُ عِلْمِ اللهِ تَعَالَى أَزَلًا وَأَبَدًا

في التَّعبير بـ ﴿كَانَ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ إِشْعَارٌ بأنَّ اتِّصافَهُ تعالى بالعِلْمِ دائمٌ ثابتٌ في الأزَلِ، ويُقوِّي تأكُّدَهُ وثبوتَهُ مجيءُ الفعْلِ بصِيغَةِ المَاضِي.

(1) أبو السعود، إرشاد العَقْل السّليم: 2/242.

وإذا أُكِّدَ العلمُ ههنا؛ تأكَّدَ ما سيقَت الجملةُ لأجلهِ وهو التَّهديدُ والوَعيدُ.

نُكْتَةُ التَّعْبِيرِ بِالْفِعْلِين الماضي ﴿كَانَ﴾ والْمُضَارِعِ ﴿تَعْمَلُونَ﴾ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾:

الله يعلم بسابق علمه أعمالَ البشر وما يقترفون من عمل

جاء التعبير القرآني بالجملة الاسمية الكبرى التي وقع خبرها جملة فعلية فعلها ماض للدلالة على الماضي الزمني الذي يفيده الفعل الناقص (كان) بصيغة الماضي، وليقطع شكّ المتشككين وتردد المترددين أكّده بـ(إنّ) وهو بذلك يخبرنا أن الله سبحانه يعلم من الأزل ما تعملون من عمل.

وجاءَ الفعلُ ﴿تَعْمَلُونَ﴾ مِنْ قَوْلِه سُبحانَهُ: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ بصيغةِ المُضارِعِ لإفادة التَّجدُّدِ الاستمراريِّ؛ إذْ إنَّ أفعالَ العبادِ ليسَتْ منقطِعةً، وإنَّما تصدُرُ مِنْهُم الأعمالُ المقصودَةُ حالًا بعدَ حالٍ، ومن جُملة أعمالهم ما له صِلَةٌ بما سيقَتْ الآيةُ لَهُ، وهو الشَّهادَةُ وتوابِعُها؛ فإنَّها متجدِّدَةٌ في العبادِ؛ فهم يشهدُونَ، ويَلْوُون الحقَّ، ويُعرضُونَ؛ فكانَ التَّعبيرُ بالفعلِ المُضَارِعِ أَنْسَبَ للتّعبير عَن هذه الأحوَالِ.

سِرُّ إِيثَارِ اسْمِهِ سُبْحَانَهُ الْخَبِيرِ دُونَ الْعَلِيمِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾:

اسْمُ اللهِ تَعَالَى (الْخَبِيرُ) أَخَصُّ مِنْ اسْمِهِ (الْعَلِيمِ)؛ إِذِ الْخَبِيرُ الْعَالِمُ بِبَوَاطِنِ الْأُمُورِ

أُوثِرَ التَّعبير باسمِهِ تعالَى (الخَبِير) في قولِهِ جلَّ وعلَا: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ دونَ اسمِهِ (العليم)؛ لأنَّ "الخُبْرَ هو العلمُ بِكُنْهِ المَعْلُومَات على حقائِقِهَا، ففِيهِ معْنًى زائدٌ على الْعِلْم... و(خَبِيرٌ) من قَوْلِكَ: خَبَرْتُ الشّيءَ؛ إذا عرفْتَهُ مبالغَةً"[1]، فدلّ اسمُ (الْخَبِيرِ) على المُبَالَغَةِ في العِلْمِ؛ لأنّه يتعلّق بالمعرفَةِ الدَّقِيقَةِ،

(1) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 93.

والخبيرُ أيضًا هو العالِمُ ببواطنِ الأمورِ، وهذا أنسَبُ لسياقِ التَّهديد والوعيدِ.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الْقِسْط وَالْعَدْل:

الْقِسْطُ أَخَصُّ مِنَ الْعَدْلِ مُطْلَقًا؛ لِاخْتِصَاصِهِ بِالْعَدْلِ الظَّاهِرِ الْبَيِّنِ فِي الْحُكْمِ

الفرقُ بين القِسْطِ والعدْلِ مِنْ وجهين:

أحدهما: أنَّ الْقِسْطَ هُو العَدْلُ البيِّنُ الظّاهِرُ، ومِنْهُ سُمِّيَ كُلٌّ مِنَ الْمِكْيَالِ والميزَانِ: قِسْطًا؛ لكونِهِ يُصوِّرُ العدْلَ حتَّى يُرَى ظاهرًا، بخلافِ العَدْلِ فقد يكون خفيًّا[1].

والآخَرُ: أنَّ القِسطَ مختصٌّ في الدِّلَالَةِ عَلى العَدلِ في الحُكمِ، بخِلاف العَدلِ؛ فَهُوَ أَعَمُّ من ذَلِكَ.

ومن هذين الوَجْهَيْنِ يتبيَّنَ أنَّ القِسْطَ أخصُّ مطلقًا من العَدْلِ، فكلُّ قِسْطٍ عدلٌ، وليس كلُّ عدلٍ قِسْطًا.

ومن هُنا أوثِرَ لفظُ القِسْطِ في قوله سُبحانه: ﴿كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ﴾؛ لكون القِسْطِ مختصًّا بالعَدلِ في الحُكمِ، وهو أنسبُ لمقامِ ذِكْرِ الشَّهادةِ، ولِيَكُونَ العدلُ مُحَقَّقًا على وجه الظّهورِ.

الْخَبِير وَالْعَلِيم:

اسْمُ اللهِ الْخَبِيرِ أَخَصُّ مِن اسْمِهِ الْعَلِيمِ؛ لِكَوْنِ الْخُبْرِ أَخَصَّ مِنَ الْعِلْمِ

اسمُ اللّه الخَبِير أخصُّ من اسمِهِ العليم؛ وذلك أنَّ العليم يدلُّ على الْعلم المطلق فَقَط، بخلافِ الخَبِيرِ؛ فإنَّهُ يدلُّ على عِلْمِهِ ببواطنِ الْأُمُورِ[2]، والخُبْرُ هو العلمُ بِكُنْهِ المَعْلُومِ عَلَى حَقِيقَتِهِ، فَكانَ فيهِ مَعْنًى زائدٌ على مطلَقِ الْعِلْمِ.

إذ إن الخبير هو العالم بالخبر والمطّلع على حقيقته، الذي لا تخفى عليه خافية، والخبر هو الكلام الذي يفيد به المتكلم السامع

(1) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 234، والرازي، مفاتيح الغيب: 9/485.
(2) أبو حامد الغزالي، المقصد الأسنى، ص: 41.

واقعة من الواقعات، فلمّا كان البيان القرآنيّ يتحدَّثُ عن أفعالكم التي حدَثت منكم أيها الناس استخدم لتلك الدلالة اسم اللّه الخبير الذي لا يخفى عليه شيء مما جرحتموه آناء الليل وأطراف النهار فإذا علمتم ذاك فلا تكتموا الشهادة في الدنيا لأنَّ اللّه يعلمها ويحاسبكم عليها في الآخرة. وهو الأنسبُ لِسياق التّهديد والْوَعِيدِ.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَـٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَـٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبۡلُۚ وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱللَّهِ وَمَلَـٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَـٰلَۢا بَعِيدًا ١٣٦﴾ [النساء: 136]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

مِنْ أَعْظَمِ مَا يَحْمِلُ عَلَى الْقِسْطِ الرُّسُوخُ فِي الْإِيمَانِ

لَمَّا أمَرَ اللّه تعالَى بالقِسْطِ في الآية السابقة؛ أمَرَ سُبحانَهُ في هذه الآيةِ بالْحَامِلِ علَى ذلكَ وهو الإيمانُ[1]، فلا يكونُ الإنسانُ قائمًا بالقسْطِ إلَّا إذا كان راسخًا في الإيمانِ، ولهذا أُرْدِفَ ما ذُكِرَ بقولِهِ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ﴾[2].

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

الْحَثُّ عَلَى دَوَامِ الْإِيمَانِ وَالثَّبَاتِ عَلَيْهِ

يا أيُّها الذِينَ آمَنُوا اثْبُتُوا علَى إيمَانِكُمْ باللّه تعالَى وبِرَسُولِهِ ﷺ، وبِالْقُرْآنِ الذي أنزلَهُ عَلَى رَسُولِهِ محمَّدٍ ﷺ، وبِالْكُتُبِ المنزلَةِ علَى الرُّسلِ مِن قَبْلِهِ، ومَنْ يَكْفُرْ بما يجبُ الإيمانُ بِهِ؛ من الإيمانِ باللّه تعالَى وبِمَلَائِكَتِهِ وبِكُتُبِهِ وبِرُسُلِهِ وبِيَوْمِ القِيَامَةِ؛ فَقَدْ بَعُدَ عَنِ الطَّرِيقِ المُسْتَقِيمِ بُعْدًا عَظِيمًا[3].

الإِيضاحُ اللُّغَوِيُّ والبَلاغِيُّ:

سِرُّ افْتِتَاحِ الْآيَةِ بِالنِّدَاءِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾:

الافتتاحُ بالنّداءِ تنبيهٌ إلى عظيمِ الأمرِ المذكورِ بعدَه

افْتُتِحَت الآيةُ الكريمةِ بالنِّداءِ في قولِهِ ﷻ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾؛ لِمَا في هذا النّداءِ من اللَّذَّةِ المخفِّفَةِ مشقّةَ الطَّاعَةِ؛ ولِهَذَا افْتُتِحَتِ الآيةُ بِهِ.

وفِيهِ تنبيهٌ وطلبُ إقبالٍ بعنايةٍ واهتمامٍ.

(1) البقاعي، نظم الدرر: 5/434.

(2) النيسابوري، غرائب القرآن: 2/512 - 513، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/97 - 98.

(3) جماعة من العلماء، المختصر في تفسير القرآن الكريم: 1/100.

نُكْتَةُ النِّدَاءِ بِوَصْفِ الْإِيمَانِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾:

الْوَصْفُ بِالْإِيمَانِ إِلْهَابٌ عَلَى الاسْتِمْسَاكِ بِهِ

وَصْفُ الْمُنَادَى بالإيمانِ في قولِهِ تعالَى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ مع أنّه يتحقّقُ بالمطلوبِ بعدهُ فِيهِ إلهابٌ وتهييجٌ على الاسْتِمْسَاكِ بالْوَصْفِ، والْحِرْصِ على تَحْصِيلِه، وَفِي النّداءِ بعنوانِ الإيمانِ تَعْجِيلٌ بالْبِشَارةِ وتكريمٌ للمخاطَبِينَ.

دِلَالَةُ الْأَمْرِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾:

الْأَمْرُ بِلُزُومِ الْإِيمَانِ وَالدَّوَامُ عَلَيْهِ

في قولِهِ جَلّ شَأْنُهُ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ﴾ أُعْقِبَ النّداءُ بوصفِ الإيمانِ: بطلبِ الإيمانِ، ظاهرُ ذلك مُشْعِرٌ أنّه أمرٌ بتحصيلِ الحَاصِلِ، وتحصيلُ الحاصلِ محالٌ.

والأمرُ في قولِهِ تعالَى: ﴿ءَامِنُواْ﴾ له مسلَكَانِ:

أحدُهُمَا: أن يكون الخطاب لغَيْرِ الْمُسْلِمِينَ، منافقِينَ كانُوا أم أهلَ كتابٍ، فلا إِشْكَالَ حينئذٍ في أَمْرِهِم بالإيمَانِ.

فأمَّا المنافقُونَ؛ فلأنَّ إيمَانَهُمْ الذي أظهرُوهُ لا عبرَةَ بهِ؛ لعدمِ الصِّدْقِ فيه، ولكونِهِ قولًا باللِّسانِ فحسبُ حالَ لقائِهِم بالمؤمنِينَ، ولا وجودَ له في نفسِ الأمْرِ، فكان أمرُهُم بالإيمَانِ على ظاهِرِهِ من طلبِ تحصيلِهِ.

وأمَّا أهل الكتابِ، فوُصِفُوا - على هذا الوجهِ - بالإيمَانِ؛ لأنَّهم آمنُوا بِمُوسَى وعِيسَى عليهما السلام، والمعنَى: يا منْ آمنَ بِنَبِيٍّ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ، آمِنُوا بمحمّدٍ ﷺ، ويُشكِلُ عليه العطفُ في قولِهِ: ﴿وَٱلْكِتَـٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ﴾، إلّا أن يُجَابَ عَنْهُ، بأنَّ المعنى: آمِنُوا بِمَا لَم تُؤمنوا بِهِ؛ لكونِهِمْ كانُوا يُؤمِنُون ببعضِ الكتابِ ويكفُرُون ببعضٍ[1].

والقولُ بأنَّ الخِطَابَ لغيرِ المسلمينَ مخالِفٌ لظاهِرِ النِّداءِ في

(1) الواحدي، التفسير البسيط: 7/145، وابن عطية، المحرر الوجيز: 2/124، والرّاغب، تفسير الراغب: 4/194 - 195، والخازن، لباب التأويل: 1/437.

قوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾؛ فإنَّ هذا الوصفَ مختصٌّ بأهلِ الإيمَانِ الشَّرعِيِّ المعتدِّ بهِ.

والمسلَكُ الآخرُ: أن يكونَ الخطابُ للمُسْلِمينَ، وهو الذي يُؤيِّدُهُ السِّياقُ وطَريقةُ القرآنِ الكريمِ في استعمالِ وصفِ الإيمَانِ، ويكون المعنى: "أقيمُوا واثبُتُوا ودُومُوا عليهِ"[1]، كقولهِ تعالَى خطابًا للنَّبيِّ ﷺ: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾؛ أي: اثبُتْ على عملك[2]، ويجُوزُ أن يكونَ معنَى قولِهِ تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ﴾: آمِنُوا تَفْصيلًا بَعْدَ إيمانِكُم إجمالًا، ويؤيِّدُه تفصيلُ المطلوبِ ﴿بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَـٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَـٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبۡلُۚ﴾.

وكلُّ هذه المَعَاني أثارَهَا النّظمُ بِمَجيئِه على هذا النّمطِ، وهِيَ معانٍ غيرُ متعارضةٍ، وكلُّ معنًى لهُ نوعٌ مِنَ المُخَاطَبين، فإذا جُمِعَتْ هذه المعاني؛ اتّسعَ عددُ المُخَاطَبين، فما أعظمَه مِنْ إيجازٍ، ومَا أغزَرَهُ مِنْ معنًى.

عِلَّةُ إِفْرَادِ الرَّسُولِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾:

بَـيَـانُ عَـظَـمَـةِ الـنَّـبِـيِّ ﷺ وَشَرَفِهِ

أُفْرِدَ لَفْظُ الرّسُول في قولِهِ جلّ شأنُهُ: ﴿ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَـٰبِ﴾؛ لأنَّ المرادَ بهِ نبيُّنَا محمَّدٌ ﷺ، ويُقوِّي ذلك: أنَّه نُصَّ على القرآن الكريم في قولهِ: ﴿وَٱلۡكِتَـٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾، فإنَّه هو المرادُ بالكتابِ، وأُفرِدَ النَّبيُّ ﷺ بالذِّكرِ تشريفًا له وتعظيمًا، كما أنَّه زِيدَ تعظيمًا وتشريفًا لقَرْنِ اسمِهِ باسمِ اللّه تعالى.

سِرُّ مُغَايَرَةِ صِيغَةِ الْفِعْلِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱلۡكِتَـٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَـٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبۡلُۚ﴾:

عُبِّرَ بِالْفِعْلِ المضعّفِ ﴿نَزَّلَ﴾ في الْقُرْآنِ الكريمِ، فقال تعالى:

(1) الواحدي، التفسير البسيط: 7/145، والرّاغب، تفسير الراغب: 4/194.

(2) الواحدي، التفسير البسيط: 7/146.

﴿وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾؛ لِنُزُولِهِ مُفَرَّقًا مُنَجَّمًا حسَبَ الوَقَائِعِ.

بخلافِ الكتُبِ السَّابقةِ، فقد عُبِّرَ عنها بالْفِعْلِ ﴿أَنزَلَ﴾، فقال سُبحانه: ﴿وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِن قَبۡلُۚ﴾؛ وذلكَ لِنُزُولِ كُلٍّ مِنْهَا جملةً واحدةً.

قال الزّمخشريُّ: "فإن قلت: لم قيل: ﴿نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾، وَ﴿أَنزَلَ مِن قَبۡلُۚ﴾؟ قلتُ: لأنّ القرآنَ نَزَلَ مفرّقا منجّمًا في عِشْرينَ سنَةً، بخِلَافِ الكتُبِ قَبْلَهُ"[1].

دِلَالَةُ اللَّامِ فِي ﴿وَٱلۡكِتَٰبِ﴾ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِن قَبۡلُۚ﴾:

وُجُوبُ الْإِيمَانِ بِالْكُتُبِ الْمُنْزَلَةِ جميعِها

اللّامُ في (الْكِتَابِ) من قولِهِ تعَالَى: ﴿وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِن قَبۡلُۚ﴾ يُرادُ بها استغراقُ الجنسِ، فتشمَلُ أفرادَهُ الْمُنْدَرِجَةَ تحتَه، فهو مفردٌ في اللَّفْظِ، ولكنَّه في المعنَى جمعٌ، فقولهُ ﷻ: ﴿وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِن قَبۡلُۚ﴾ يُرادُ به كلُّ كتابٍ أنزلَهُ على الأنبياء، وإنَّما صلُحَ اللَّفظُ لإفادةِ العمُوم؛ لكونِ الكتابِ اسمَ جنسٍ[2]، ويُؤيِّدُ ذلكَ ورُودُهُ مَجْمُوعًا بعدُ في قَوْلِهِ تعالَى: ﴿وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ﴾.

دِلَالَةُ التَّعْبِيرِ بِالْجُمْلَةِ الشَّرْطِيَّةِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱللَّهِ﴾:

فِي تَوَلِّي اللهِ تَعَالَى عِقَابَ الْمُخَالِفِينَ إِدْخَالُ الْمَهَابَةِ عَلَى قُلُوبِ الْعِبَادِ

افتتحتِ الآيةُ بالنّداءِ ثُمّ الطّلب، وخُتمت بالتّهديدِ والوعيدِ لِمَنْ لَمْ يَمْتَثِلْ، فاتَّسقَ المطلعُ والمقطَع.

وجَاءَت جملةُ التّهديدِ بأُسْلُوبِ الشّرطِ، فقال سُبحانَهُ: ﴿وَمَن

(1) الزمخشري، الكشاف: 1/576.

(2) الواحدي، التفسير البسيط: 7/146، والرازي، مفاتيح الغيب: 11/244، والزمخشري، الكشاف: 1/575، والنسفي، مدارك التنزيل: 1/405، والخازن، لباب التأويل: 1/437، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/98.

يَكۡفُرۡ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا﴾، ليكونَ التَّركيبُ مفيدًا ضربًا من ضُروبِ التَّعاقُدِ بين العبدِ وبين ربِّهِ تعالَى، فالمُعَاقِبُ عَلَى ارتكابِ الشّرطِ هُو اللّه ﷻ، وفي ذلكَ مِنْ إدخالِ المهابَةِ على قلوبِ العبادِ مَا فِيهِ.

عِلَّةُ تَغَايُرِ أَفْرَادِ الْإِيمَانِ بَيْنَ الطَّلَبِ وَالْوَعِيدِ:

الْكُفْرُ بِوَاحِدٍ مِنْ أَرْكَانِ الْإِيمَانِ كُفْرٌ بِهَا جَمِيعِهَا

لَمَّا أَمَرَ اللّه - ﷻ - بالْإِيمَانِ في قَوْلِهِ تعالَى: ﴿ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ﴾؛ ذكَرَ ثلاثَةً من أركانِهِ، إلَّا أنَّه لمّا توعَّدَ على الكُفْرِ؛ ذكَرَ خَمْسَةً من أركانِ الإيمَانِ، فقال سبحَانُه: ﴿وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾، وذلك أنَّه اكْتُفِيَ أوَّلًا بالثّلاثةِ؛ لمَا يلزمُ منهَا مِنَ الإيمانِ بالملائكةِ وباليومِ الآخرِ، ولأنه قد يدّعي إنسانٌ مَا أنّه يُؤمنُ بالثّلاثةِ، ثمّ إنّه ينكرُ الملائكةَ واليومَ الآخرَ لتأويلاتٍ فاسدةٍ؛ نُصَّ على أنّ مُنكرَ الملائكةِ والقيامةِ كافرٌ باللّه تعالَى[1].

نُكْتَةُ تَغَايُرِ التَّرْتِيبِ بَيْنَ الرَّسُولِ وَالْكِتَابِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ﴾، وَقَوْلِهِ سُبْحَانَهُ: ﴿وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ﴾:

الرُّتَبُ تَخْتَلِفُ بِاخْتِلَافِ الِاعْتِبَارَاتِ

قُدّمَ في الْأَمْرِ بالإيمان بالرسولِ ﷺ على الْكِتَابِ، فقال تعالَى: ﴿ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ﴾، وفي الْوَعِيدِ عُكِسَ ذلك، فقُدِّمَ الكتابُ، فقال سُبحانَهُ: ﴿وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ﴾، ونكتةُ هذَا القَلْبِ: أنّ الكتابَ مقدّمٌ على الرَّسُولِ في مَرْتَبَةِ النّزولِ مِنَ الْخَالِقِ إلى الخَلْقِ، بخلافِ حالِ العُروجِ فإنَّ الرّسولَ مقدّمٌ على الْكِتَابِ[2].

سِرُّ إِيثَارِ الْجَمْعِ عَلَى الْمُفْرَدِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ﴾:

جاءَ لَفْظُ الرَّسُولِ والْكِتَابِ مجموعَيْنِ في قَوْلِهِ ﷻ ﴿وَكُتُبِهِۦ

(1) الرازي، مفاتيح الغيب: 11/243، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/98 - 99، والنيسابوري، غرائب القرآن: 2/513، وأبو السعود، إرشاد العَقْل السّليم: 2/243، والقنّوجي، فتح البيان: 3/265.

(2) الرازي، مفاتيح الغيب: 11/243، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/99، والنيسابوري، غرائب القرآن: 2/513، وأبو السعود، إرشاد العَقْل السّليم: 2/243.

وَرُسُلِهِۦ﴾ وقد سبقَ ذِكْرُهُمَا مُفْرَدَيْنِ في قولِه تعالَى: ﴿ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ﴾؛ لأنّ الكُفْرَ بِوَاحِدٍ مِنْهَا كُفْرٌ بالجميعِ[1]، والسّياقُ اللّغويُّ يُنَاسِبُ كلّ موضع؛ فقد ذُكِرَ الرَّسُولُ أوَّلًا لِذِكْرِ الكتابِ الذي أُنْزِلَ عَلَيْه، وذُكِرَتِ الرُّسُلُ ثانيًا لِذِكْرِ الكتُبِ جُمْلَةً، فتَاسَبَهُ الجمعُ[2].

الـتَّـفَـنُّنُ فِي التَّصَرُّفِ بِاللَّفْظِ إِفْـرَادًا وَجَمْعًا لِمُرَاعَاةِ السِّيَاقِ

نُكْتَةُ تَعْلِيقِ جَوَابِ الشَّرْطِ عَلَى الْإِفْرَادِ لَا عَلَى مَجْمُوعِ الْأَرْكَانِ:

جواب الشّرطِ في قَوْلِه تعالَى: ﴿فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ ليسَ مُرَتَّبًا على الْكُفْرِ بِمَجْمُوعِ قولِه تَعَالَى: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾، بَل المَعْنَى: ومَنْ يَكْفُرْ بِوَاحِدٍ مِنْ ذَلِكَ، فالْكُفْرِ بِوَاحِدٍ مِنْهَا كَافٍ في اسْتِحْقَاقِ الوَعِيدِ؛ إذ الإيمَانُ بِكلِّ واحدٍ أَصْلٌ مِنْ أُصُولِ الدِّينِ وركنٌ من أركانِ الإيمَانِ[3]، فالإخلالُ بواحدٍ بمنزلةِ الإخلالِ بالجَمِيعِ، والنُّكْتَةُ في ذلك: المبالَغَةُ في الوَعِيدِ والتّحذيرِ مِنَ التّهاوُنِ في أَمْرِ الْإِيمَانِ بِهَذِهِ الْأَرْكَانِ جميعها.

الْكُفْرُ بِرُكْنٍ مِنْ أَرْكَـانِ الْإِيـمَـانِ بِمَنْزِلَةِ الْكُفْرِ بِهَا جَمِيعِهَا

ويُقوِّي دِلالةَ المُبَالَغَةِ تأكيدُ جملةِ جوابِ الشَّرْطِ في قولِه: ﴿فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾، بـ (قَدْ)، والتَّعبيرِ بالفعلِ الْمَاضِي الدَّالِّ على تَحقُّقِ الوقوعِ، وبالتَّأْكِيدِ بالمفعُولِ الْمُطْلَقِ المبيّنِ للنوعِ.

دِلَالَةُ وَصْفِ الضَّلَالِ بِالْبُعْدِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾:

وُصِفَ الضَّلَالُ بِالْبُعْدِ في قَوْلِه تعالَى: ﴿فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾؛ لِلدِّلَالَةِ أنّه بُعدٌ عَنِ الحقِّ؛ بِحَيْثُ يتعذَّرُ العَوْدُ مِنْهُ إِلَى سَوَاءِ السَّبيلِ[4]، فجَاءَ الوصْفُ تَبْيِينًا لبشَاعَةِ الضَّلَالِ، وإشَارَةً إلى اسْتِحَالَةِ عَوْدِهم إلى الإيمَانِ.

تَبْشِيعُ ضَـلَالِ مَـنْ كَـفَـرَ بِأَصْـلٍ مِـنْ أُصُـولِ الْإِيمَانِ

(1) أبو السعود، إرشاد العَقْل السّليم: 2/243، والقنّوجي، فتح البيان: 3/265.
(2) القنّوجي، فتح البيان: 3/264.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/98، والصّاوي، حاشية الصّاوي: 1/236.
(4) البيضاوي، أنوار التنزيل: 2/103، وأبو السعود، إرشاد العَقْل السّليم: 2/243، والقنّوجي، فتح البيان: 3/265.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ٱزۡدَادُواْ كُفۡرٗا لَّمۡ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغۡفِرَ لَهُمۡ وَلَا لِيَهۡدِيَهُمۡ سَبِيلَۢا ١٣٧﴾ [النساء: 137]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لَـيْـسَ بَـعْـدَ الْإِيـمَـانِ إِلَّا الضَّلَالُ

لمّا رغَّبَ الله سُبحانَهُ في الْإيمَانِ والدَّوام عليه في قولِهِ تعالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِن قَبۡلُۚ﴾؛ بيَّنَ فسَادَ طَريقَةِ مَن يَكْفُرُ بَعْدَ إيمانِهِ، فقالَ سُبحانَهُ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ٱزۡدَادُواْ كُفۡرٗا﴾[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿لِيَهۡدِيَهُمۡ﴾: مِنْهُ قولُهم: هَدَيْتُهُ الطَّريقَ، أي: تقدَّمْتُهُ لأُرْشِدَهُ، ومِنْهُ الهُدَى: ضدُّ الضَّلالَةِ[2].

والهدايةُ شَرْعًا ضربَانِ:

أحدُهما: هدايةُ إرشَادٍ ودِلالَةٍ.

والآخَرُ: هدايةُ توفيقٍ وإلهامٍ[3].

والمُرَادُ بالهدايَةِ المنفيَّةِ في قَوْلِ الله سُبحانَهُ: ﴿وَلَا لِيَهۡدِيَهُمۡ سَبِيلَۢا﴾ هدايةُ التَّوفيقِ، وإلَّا فإنَّ هدايةَ الإرشَادِ والدِّلالَةِ حَاصِلَةٌ لَهُم، وبِهَا تَقُوم الحُجَّةُ عَلَيْهِم[4].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

يُخْبِرُ اللهُ تَعالَى أنَّ مَن تكرّر مِنْهُمُ الكُفْرُ بعدَ الْإِيمَانِ، بِأَنْ آمنُوا

(1) الرازي، مفاتيح الغيب: 11/244، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/99، والنيسابوري، غرائب القرآن: 2/513.

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (هدي).

(3) البرَّاك، شرح العقيدة الطَّحاويَّة، ص: 79.

(4) السّعدي، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 209.

ثمّ ارْتَدُّوا عَنْهُ إلى الكفرِ، ثمّ آمَنُوا، ثمّ ارتدّوا عَنْهُ، وأصَرُّوا على كفرهِمْ ومَاتُوا عَلَى هذا الكفرِ؛ لَم يَكُنِ اللّه تعالَى ليغفرَ لَهُمْ ذُنُوبَهم، ولا لِيُوفِّقهم إلَى الطّريق المُسْتَقِيم المُوَصِّل إليهِ سُبحانَهُ[1].

عَاقِبَةُ الْإِصْرَارِ عَلَى الْكُفْرِ الْحِرْمَانُ مِنْ مَغْفِرَةِ اللهِ تَعَالَى وَهِدَايَتِهِ

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

سِرُّ تَعْرِيفِ الْمُسْنَدِ إِلَيْهِ بِالْمَوْصُولِيَّةِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾:

وفي التَّعبيرِ بالاسْمِ الموصولِ توسِيعٌ للمعَاني القرآنيَّة، فَيَصْدُقُ على اليهودِ الّذين تقدَّم ذِكْرُهُم في سورتَي البقرةِ وآلِ عمران، وعلى خصوصِ مَن آمنَ ثمّ عَبَدَ العِجْلَ، ثمّ عَبَدَ العُزَيْرَ، وعلى المنافقين[2]، وكلُّ ذلك لا يمتنعُ ولا يَتَعَانَدُ، فكلُّ منْ صَدَقَتْ عليهِ جملةُ الصّلةِ؛ كان داخلًا في استحقاقِ العقوبةِ، وهذا مِن الإيجازِ البديعِ.

تَعْلِيلُ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ لِلْأَحْكَامِ؛ لِتَخْرُجَ مَخْرَجَ الْعُمُومِ

سِرُّ عَطْفِ الْجُمَلِ بِـ﴿ثُمَّ﴾ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ٱزْدَادُواْ كُفْرًا﴾:

عُطِفَت جُملُ الصِّلَةِ في قولِهِ تعالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ٱزْدَادُواْ كُفْرًا﴾ بـ﴿ثُمَّ﴾ وهو حرفٌ دالٌّ على التَّراخِي الزَّمني يُخبِر عن حال المنافقين في أمم متعددة، وكأنه يقول (إنَّ الَّذينَ آمَنُوا بالتوراة وبموسى ثُمَّ كَفَرُوا من بعد مُوسى ثُمَّ آمَنُوا بعيسى - ﷺ - وبالإنجيل ثُمَّ كَفَرُوا من بعده ثُمَّ ازْدادُوا كُفْرًا بمحمد - ﷺ - وبالقرآن لَمْ يَكُنِ اللّه لِيَغْفِرَ لَهُمْ على ذلك)

بَيَانُ أَنَّ انْحِرَافَ الْمُرْتَدِّينَ كَانَ عَنْ قَصْدٍ مِنْهُمْ لِلضَّلَالِ

وجاءت الأفعَالُ في هذه الآيةِ بصيغةِ المُضِيِّ؛ للدِّلالةِ على تَحَقُّقِ وقُوعِهَا مِنْهُمْ.

لِلإِيمَاءِ إِلَى ثَبَاتِ حَالِ الْمُنَافِقِينَ عَلَى اخْتِلَافِ الْأَزْمَانِ وَالْأُمَمِ

وفي بِنْيَةِ الجُمْلةِ بِهَذَا البِنَاءِ إعلانٌ لِاسْتِحْقَاقِهِمُ الْحُكْمَ، فمعنَى

(1) جماعة من العلماء، المختصر في تفسير القرآن الكريم: 1/100.

(2) الواحدي، التفسير البسيط: 7/147، وابن عطية، المحرر الوجيز: 2/124 - 125، والنّيسابوري، إيجاز البيان: 1/258، وابن جزي، التسهيل: 1/213، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/99، والثعالبي، الجواهر الحسان: 2/316.

قولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ٱزۡدَادُواْ كُفۡرٗا﴾، أنّ "مَن تكرّرَ منه الإيمانُ بَعْدَ الكفرِ، والكفرُ بعدَ الْإيمَانِ مرّاتٍ كثيرةً؛ يدلُّ على أنّه لا وَقْعَ لِلْإيمَانِ في قَلْبِه، ومَن كانَ كذَلِكَ لا يَكُونُ مُؤْمِنًا باللّه إيمانًا صَحيحًا"[1].

جَمَالِيَّةُ الطِّبَاقِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ﴾:

زِيَــادَةُ تَبْشِيعِ صُورَةِ الْمُرْتَدِّينَ

بين قولِه تعالَى: ﴿ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ﴾ طباقُ إيجابٍ، وَتَكْرَارُ الطِّباقِ بينَ ﴿ءَامَنُواْ﴾ و﴿كَفَرُواْ﴾ يُصَوِّرُ تذبذبَهم في الدِّين، وذَلِكَ مِمَّا يُسْهِمُ في زِيَادَةِ تَبْشِيعِ صُورَتِهم وقُبْحِ فِكْرَتِهم.

دِلَالَةُ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ ٱزۡدَادُواْ كُفۡرٗا﴾:

مِنْ أَسْبَابِ الرِّدَّةِ عَدَمُ الرُّسُوخِ فِي الْإِيمَانِ

وُصِفَ المتنقِّلُون بينَ الإيمانِ والكفرِ بالازديادِ في الكفرِ، فقال ﷻ: ﴿ثُمَّ ٱزۡدَادُواْ كُفۡرٗا﴾، وفي هذا إشعارٌ بأنَّ ازدِيَادَهُمْ في الكفرِ هُوَ اسْتِهْزَاؤُهم وتَلَاعُبُهم بِالْإيمَانِ قَصْدًا[2].

والْمُرَادُ مَنْ تكرّرَ مِنْهُمُ الكفرُ بعدَ الإيمانِ، وليس المقصودُ بيانَ عدَدٍ خاصٍّ، وإنَّما المرادُ مطلقُ التَّكرارِ، وفي ذلك إيمَاءٌ بتردُّدِهم وتمرُّدِهم على الحقِّ[3].

وفي وصفِهِمْ بالازدِيادِ والكفرِ إشارَةٌ إلى الشُّبه التي تغتَالُهمْ بعدَ كُلِّ إيمَانٍ؛ لعدَمِ رسوخِهِمْ فيه، فَهُم يَكْفُرُونَ بأسبَابٍ جَدِيدَةٍ، فيَزِيدُ كُفْرُهُم في كلِّ مرَّةٍ.

نُكْتَةُ إِيثَارِ التَّعْبِيرِ بِالْفِعْلِ ﴿ٱزۡدَادُواْ﴾ دُونَ (زَادُوا):

زِيَــادَةُ كُفْرِهِمْ مَعَ كُلِّ رِدَّةٍ عَنِ الْإِيمَانِ

أُوثِرَ التّعبيرُ بالفِعْلِ (ازْدَادَ) في قَوْلِه: ﴿ثُمَّ ٱزۡدَادُواْ كُفۡرٗا﴾ بِصِيغَةِ الافْتِعَالِ الدّالّةِ علَى الْمُبَالَغَةِ في إتيان الفعل، دونَ التَّعبير بالفعلِ (زَادَ)؛ لِلدِّلالَةِ علَى مبالغتهم في كُفْرِهِمْ وتَرَدُّدِهِمْ، وهُو

(1) الخازن، لباب التأويل: 1/438.
(2) الخازن، لباب التأويل: 1/438.
(3) النيسابوري، غرائب القرآن: 2/513.

مشْعِرٌ بأنّ هذا الازدِيادَ في الكفْرِ حاصِلٌ معَ كُلِّ ردَّةٍ عَنِ الإيمَانِ، وفيهِ إيماءٌ إلى اسْتِمْرَارِهِم علَى الْكُفْرِ واطّرَادِ ازْدِيَادِهِمْ فِيهِ.

سرُّ نفي الْكَوْنِ دُونَ نَفْيِ الْفِعْلِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ﴾:

دخولُ النّفي على فعل الكَوْنِ في قولِهِ تَعَالَى: ﴿لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ﴾ فيهِ مبالغةٌ في النّفْيِ.

نَفْيُ الْمَغْفِرَةِ وَالْهِدَايَةِ عَنْهُمْ نَفْيًا مُؤَكَّدًا مُبَالَغًا فِيهِ؛ بِسَبَبِ شِدَّةِ كُفْرِهِمْ وَإِصْرَارِهِمْ عَلَيْهِ

وَاللّامُ في ﴿لِيَغْفِرَ﴾ لامُ الجحودِ، والجحودُ أبلغُ النّفْيِ، فالنّفيُ داخلٌ على إرادةِ المغفرةِ وإرادةِ الهِدَايَةِ، ونفيُ إرادتِهمَا أبلغُ من نَفْيِ المغفرةِ والهدايةِ، "فَفَرقٌ بَينَ: لَم يَكُن زَيدٌ يَقُومُ، وبَينَ لَم يَكُن زَيدٌ لِيَقُومَ؛ فَالأَوَّلُ لَيسَ فِيهِ إلَّا انتِفَاءُ القِيَامِ، والثَّاني فِيهِ انتِفَاءُ الإِرَادَةِ والإِيتَاءِ لِلقِيَامِ، ويَلزَمُ مِنَ انتِفَاءِ إِرَادَةِ القِيَامِ نَفيُ القِيَامِ"[1]، وعليه فقولُهُ تعالى: ﴿لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ﴾ يقتضِي "أنَّ هؤلاءِ مختومٌ علَيهم مِنْ أوَّلِ أمرهم؛ ولذلك تردَّدوا، ولَيسَتْ هذه العبارةُ مِثلَ أن يقول: لاَ يَغفِرُ اللّه لَهُم، بل هي أشَدُّ، فتأمَّل الفَرقَ بينَ العبارَتَينِ؛ فإنّه من دقيقِ غَرَائِبِ الفَصَاحَةِ الَّتي في كتابِ اللّه سبحانه"[2].

بَلَاغَةُ الْحَذْفِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ ٱزْدَادُواْ كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ﴾:

الْمُبَالَغَةُ فِي التَّنْفِيرِ مِنَ الرِّدَّةِ

هذا الحسمُ والحَتْمُ في النّظْمِ اقْتَضَى عندَ جُمْهُورِ العلماءِ تقديرَ محذوفٍ في قولِهِ تَعَالى: ﴿ثُمَّ ٱزْدَادُواْ كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ﴾ أي: ثمَّ ماتُوا على الكفرِ، استنادًا إلى ما هُوَ "مَعلُومٌ من هَذِهِ الشّريعَةِ؛ أَنَّهُ لَو آمَنَ وَكَفَرَ مِرَارًا، ثُمَّ تَابَ عَنِ الكُفرِ وَآمَنَ وَوَافَى تَائِبًا، أَنَّهُ مَغفُورٌ لَهُ مَا جَنَاهُ في كُفْرِهِ السَّابِقِ، وإنْ تَرَدَّدَ فِيهِ مِرَارًا"[3]، وحُذِفَ من الكلامِ ما يُفيدُ ترتُّبَ الجزاءِ على الموتِ على الكفْرِ؛ للمبالَغَةِ في التَّنفيرِ من الرِّدَّةِ، حتَّى كأنَّ شأنَ المرتدِّ أن يموتَ على كُفْرِهِ.

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/100.
(2) الثعالبي، الجواهر الحسان: 2/317.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/100.

ويجُوزُ حَمْلُ الْجُمْلَةِ على قوم مُعَيَّنِين عَلِمَ اللّه تعالَى مِنْهُمْ عدَمَ الهدايةِ؛ لأنّ مَن كانَ هذا حالَه؛ لا يُرجَى مِنْهُ الثّباتُ على الْإيمَانِ.

تَعْرِيفُ الْمُسْنَدِ إِلَيْهِ بِالْعَلَمِيَّةِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ﴾:

انْتِفَاءُ الْمَغْفِرَةِ عَلَى وَجْهِ الْقَطْعِ وَالْجَزْمِ لِمَنْ مَاتَ عَلَى الْكُفْرِ

عُرِّف المسنَد إليه بالعلميَّةِ في قوله تعالَى: ﴿لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ﴾ فجيءَ بالاسم الأحسَنِ (اللّه) لما فيه معنى الألوهيَّةِ، وفي التَّصريح بعُنْوَانِ الألوهيّةِ إِضْفَاءُ الْهَيْبَةِ والعَظَمَةِ على هذَا الحُكْم.

نُكْتَةِ مَجِيءِ الْمُسْنَدِ جُمْلَةً فِعْلِيَّةً فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا﴾:

لَا مَطْمَعَ لِلْكَافِرِ فِي مَغْفِرَةِ اللهِ تَعَالَى وَهِدَايَتِهِ

جاءَ المسندُ في قولِهِ جلّ شأنُهُ: ﴿لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا﴾ جملةً فعليةً فِعْلُها مُضَارِعٌ مَسْبُوقٌ بـ (لَمْ) النّافية.

دِلَالَةُ نَفْيِ الْمَغْفِرَةِ وَالْهِدَايَةِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا﴾:

نَفْيُ الْمَغْفِرَةِ وَالْهِدَايَةِ يُرَادُ بِهِ نَفْيُ مَلْزُومِهِمَا وَهُوَ الْإِيمَانُ الْخَالِصُ

عُبِّر بنفي المغفرَةِ والهدايَةِ في قَوْلِهِ تعالَى: ﴿لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا﴾ عن نَفْيِ مَلْزُومِهِمَا؛ وهو الإيمَانُ الخالِصُ الثّابتُ، والمرادُ: إنّ مَنْ تكرّرَتْ مِنْهم الرِّدَّةُ، وعُهِد مِنْهُمْ الازْدِيَادُ في الْكُفْرِ وَالْإِصْرَارُ عَلَيْهِ، فهؤلاء يُسْتَبْعَدُ مِنْهُمْ أن يصْدُرَ مِنْهُمْ مَا يَسْتَحِقُّونَ بِهِ مغفرةَ اللّه تعالَى وهدايتَهُ[1]؛ لأنَّ اللّه تعالى يَغْفِرُ لكلّ مُسْتَغْفِرٍ ويَقْبَلُ التّوبةَ عَنْ عِبَادِهِ، ولكنَّ الآيةَ خرجتْ مخرجَ الغالبِ؛ وهو أنَّ من كانَتْ حاله الاضطرابَ وكثرة التَّنقُّلِ من الإسلَام إلى الكُفْرِ؛ لم يكُنْ للإيمَانِ في قلبِهِ وقْعٌ ورُسوخٌ، وأنّه يَمُوتُ علَى الْكُفْرِ، وَلَيْسَ المَعْنَى أنّه لو أتَى بالإيمَانِ الصَّحِيحِ لَم يَكُنْ مقبولًا، بلِ المرادُ الاسْتِبْعَادُ والاستِغْرَابُ.

(1) الزمخشري، الكشاف: 1/577، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 2/103.

وهذا كحال الفَاسِق الذِي يَتُوبُ، ثُمّ يَرْجِعُ إلى الفِسْقِ، ثُمَّ يَتُوبُ ثمّ يَرْجِعُ؛ فإنّه غالبَ حالِهِ أن يموت على الفِسْقِ ولا يُرْجَى له الثَّباتُ[1].

نُكْتَةُ تَنْكِيرِ (السَّبِيلِ) فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا﴾:

نُكِّرَ لفظُ السَّبيلِ في قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا﴾ للدِّلالَةِ عَلَى تَخْلِيَتِهِمْ وأَنْفُسَهُم بالكلّيَّةِ؛ فهُوَ لا يَهْدِيهم أيَّ سَبيلٍ فيهِ هِدَايَةٌ؛ لكون السَّبيلِ واردًا في سياقِ النَّفْيِ، فقَدْ أَوْكَلَهُم إلَى أَنْفُسِهِم؛ مبالغَةً في نَفْيِ الْهِدَايَةِ عَنْهُمْ.

مَنْ تَرَكَ الثَّبَاتَ عَلَى الْإِيمَانِ؛ أَوْكَلَهُ اللهُ تَعَالَى إِلَى نَفْسِهِ فَيَضِلُّ

(1) النيسابوري، غرائب القرآن: 2/514.

﴿بَشِّرِ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا ١٣٨﴾ [النساء: 138]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

التَّصْرِيحُ بِاسْمِ الْمُنَافِقِينَ بَعْدَ ذِكْرِ أَوْصَافِهِمْ

لَمَّا كانت الصِّفاتُ التِي تقدَّم ذِكْرُهَا في الآيات السَّابقة تصدُقُ على المنافِقِينَ؛ بيَّن اللّه تعالى جزاءَهُمْ في هذه الآيةِ، فقال سُبحانه: ﴿بَشِّرِ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ﴾[1].

والآيةُ استئنافٌ، سيقَتْ تعقيبًا على الآيةِ السّابقةِ، وتأكيدًا لنيلِ هؤلاءِ المتردّدين بينَ الإيمانِ والكفرِ أشدَّ أنواعِ العذابِ.

شَرْحُ الْمُفْرَدَاتِ:

1) ﴿بَشِّرِ﴾: الْبَاءُ والشِّين والرَّاء تدورُ اشتقاقَاتُهَا على ظُهور الشَّيء مَعَ حُسْنٍ وجَمَال[2].

و﴿بَشِّرِ﴾ مِن قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿بَشِّرِ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ﴾: فِعْلُ أَمْرٍ مِنَ البِشارةِ، وبَشَّرَ النَّاسَ: أنبأهم بخبر سارٍّ فأسعدهم. وقد تستخدم البشارة فيما يسيء من قبيل التهكم. كقوله تعالى: ﴿يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسۡمُهُۥ يَحۡيَىٰ﴾ وكقوله تهكما من الكافرين: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقۡتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيۡرِ حَقّٖ وَيَقۡتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡقِسۡطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ٢١﴾.

قال الشريف الجرجاني: إنَّ البِشَارة هِيَ الخَبَرُ السَّارُّ وحدَهُ، واستعمَالُه في غيرِهِ مِن بابِ التَّهَكُّم[3].

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

بشِّر أيُّها الرَّسُولُ الْمُنَافِقِينَ الذين يُظهِرُونَ ما لا يُبْطِنُون؛

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 5/437 - 438.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بشر).
(3) الشَّريف الجرجانيّ، التَّعريفات، ص: 45، والْمناويّ، التَّوقيف، ص: 78.

فيظْهِرُونَ الإيمانَ ويُبطِنُونَ الْكُفْرَ؛ بأنَّ لَهُمْ عندَ ربِّهِمْ يومَ القِيَامَةِ عَذَابًا شديدَ الإيلَامِ[1].

جَـزَاءُ الْمُنَافِقِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

عِلَّةُ فَصْلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ عَمَّا قَبْلَهُ:

فُصِلَ قولُه تعالَى: ﴿بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ عمَّا قبلَهُ؛ لوقُوعِهِ استئنافًا بيانيًّا، وهو المسمَّى: شبهَ كمالِ الاتِّصالِ، وذلك أنَّ قولَهُ سُبحانَهُ: ﴿بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ وقعَ جوابًا عن سؤالٍ يُفْهَمُ من الجملةِ قبلَهُ، كأنَّ سائلًا سألَ بعد أن سمعَ أوصافَهُمْ: ما جزاءُ هؤلاء؟ فجاء الجوابُ: ﴿بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾[2].

التَّنْدِيدُ بِأَعْمَالِ الْمُنَافِقِينَ وَالتَّهَكُّمُ بِهِمْ

بَلَاغَةُ الِاسْتِعَارَةِ التَّهَكُّمِيَّةِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾:

جاء أسلوبُ التّهكم بالمُنَافِقِينَ في قولِهِ تَعَالَى: ﴿بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ لقاءَ استهزائِهم بالمؤمنين على حدّ فضح اللّه لَهُمْ بقَوْلِهِ: ﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾﴾ [البقرة: 14]، وفي ﴿بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ استعارةٌ تهكُّميَّةٌ؛ حيثُ استعارَ البِشَارةِ للنِّذارةِ بجامعِ ضدِّ المشابهَةِ، ثُمَّ اشتُقَّ من البِشارةِ بمعنى النِّذارةِ الفعلُ ﴿بَشِّرِ﴾، ونكتةُ الاستعارة: ملاءمَةُ حالِهِم؛ إذْ كانُوا يستهزئُون بإظهارهم ضِدَّ ما يُضْمِرُونَ[3]، وهذا أنسبُ ما يكونُ لحالِ المخاطَبين، كما أنّه خطابٌ يَشْفِي صدورَ قومٍ مُؤْمِنِينَ.

إِظْهَارُ الْإِيمَانِ وَإِضْمَارُ الْكُفْرِ تَهَكُّمٌ مِنْهُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ، فَلَاءَمَهُ التَّهَكُّمُ بِهِمْ

وقرينَةُ الاستعارةِ ذِكْرُ ﴿ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾، فذلك الذي أَوْجَبَ حَمْلَها على التَّهَكُّم، فكان إطلاقُ البِشَارةِ على ما هو شرٌّ خالصٌ لهم: تهكّمًا بِهِمْ[4].

---

(1) جماعة من العلماء، المختصر في تفسير القرآن الكريم: 1/100.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 5/437.

(3) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 5/233.

(4) القنّوجي، فتح البيان: 3/267.

دِلَالَةُ التَّأْكِيدِ فِي قَوْلِهِ: ﴿بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾:

الْمُبَالَغَةُ فِي تَحْقِيقِ التَّهَكُّمِ بِأَهْلِ النِّفَاقِ

أُكِّدَ قولُه تعالَى: ﴿بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ بـ (أنَّ) واسميَّةِ الجملةِ، وبناءِ الجملةِ على القَصْرِ؛ مبالغةً في تحقيقِ التَّهَكُّمِ بهم الواردِ في صدْرِ الآيَةِ، وتأكيدًا لسوءِ مآلِهِمْ.

سِرُّ تَقْدِيمِ مُتَعَلَّقِ الْمُسْنَدِ عَلَى الْمُسْنَدِ إِلَيْهِ فِي قَوْلِهِ: ﴿بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا﴾:

بُلُوغُ الْعَذَابِ الَّذِي يَنَالُ الْمُنَافِقِينَ مَبْلَغًا عَظِيمًا

قُدِّمَ متعلّق المسنَدِ في قَوْلِهِ تعالَى: ﴿بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ على المسنَدِ إِلَيْهِ؛ لإفَادَةِ القصْرِ، فقُصِرَ العذابُ الأليمُ عليْهِم، وهو مِنْ قَصْرِ الصِّفةِ على الموصوفِ قصرًا ادِّعائيًّا؛ لأنَّ اللهَ سُبحانَهُ توعَّد غيرَهُمْ بالعذابِ الأليم، ونكتةُ القصرِ: إفادَةُ أنَّ إيلامَ هذا العذاب قد بلغَ الغايةَ، حتَّى كأنَّ غيرَهُ بالنِّسبةِ إليهم ليس بمؤلِمٍ.

﴿ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۚ أَيَبۡتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلۡعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلۡعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعٗا ١٣٩﴾ [النساء: 139]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

تَحْذِيرُ المُؤْمِنِينَ مِنْ سُلُوكِ سَبِيلِ المُنَافِقِينَ

في هذهِ الآيَةِ اسْتِمْرَارٌ لِسَرْدِ صِفَاتِ المُنَافِقِينَ؛ فإنَّ اللّه تعالَى لمّا بيّنَ صفاتِ المُنافقين بتَرَدُّدِهم في الإيمَانِ، وأعقَبَ ذلكَ ببيانِ مآلِهِمْ مُتَهَكِّمًا بِبِشَارَتِهم بالعَذَابِ الأليم؛ بيّنَ في هَذِهِ الآيةِ أَبْرَزَ مَا يتّصفُون به، وهُوَ مُوَالاةُ الكافِرين تَكْمِلَةً لِبَيَانِ ضَلَالِهِمْ، وتحذيرًا لأهل الإيمَان أن يسلُكُوا مَسْلَكَهُمْ، فيُوَالِي بعضُ ضُعَفَائِهِمُ الكفَّارَ دُونَ المُؤْمِنِينَ؛ لأجل المنفعَةِ العاجلَةِ[1].

شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

1) ﴿ٱلۡعِزَّةَ﴾: العَيْنُ والزَّاي تدلُّ اشتقاقَاتُهُ عَلَى شِدَّةٍ وَقُوَّةٍ، والعِزَّةُ: حالةٌ مانعة للإنْسَانِ مِنْ أَنْ يُغلَبَ، مِن قَوْلِهم: أرضٌ عَزَازٌ، أَيْ: صُلْبَةٌ، ومِنْهُ قولُ اللّه تعالى: ﴿أَيَبۡتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلۡعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلۡعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعٗا﴾"[2].

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

الْقُوَّةُ وَالْعِزَّةُ للهِ تَعَالَى وَحْدَهُ

استحقَّ المنافقونَ العذابَ الأليمَ؛ لكونِهم اتَّخذوا الكفّار أولياءَ وأَنْصَارًا وأعوانًا مِن دُونِ المُؤْمِنِينَ، أَيَطْلُبُونَ بموالاتِهم القُوَّةَ والمَنَعَةَ عِنْدَهُمْ لِيَرْتَفِعُوا بِهَا؟! فإنَّ القُوّةَ والمَنَعَةَ كُلّها للّه تعالَى[3].

(1) الهرري، حدائق الروح والريحان: 6/416.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات: (عز)، والرَّاغب، تفسير الراغب: 4/198.
(3) جماعة من العلماء، المختصر في تفسير القرآن الكريم، ص: 100.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دِلَالَـةُ الْوَصْفِ بِالِاسْمِ الْمَوْصُولِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَۚ﴾:

بَـيَـانُ عِـلَّـةِ اسْـتِـحْـقَـاقِ الْمُنَافِقِينَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ

﴿ٱلَّذِينَ﴾ في قَوْلِهِ جَلَّ شَأْنُهُ: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَۚ﴾ في محلِّ نصبٍ صِفَةٌ لـ ﴿ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ من قولِهِ سُبحانه: ﴿بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾، حيثُ "نصَّ سبحانه مِنْ صفاتِ المنافِقِينَ على أشدِّها ضررًا، وهي موالاتُهُم الكافِرِينَ، واطّراحهم المُؤْمنينَ، ونبَّه على فسادِ ذلكَ؛ لِيَدَعَهُ مَنْ عسَى أنْ يَقَعَ في نَوْعٍ منه مِنَ المُؤْمنين غَفْلَةً أوْ جهالةً أوْ مسامحةً"[1]، وإنّمَا جاءَ وصفُهم ذَلِكَ بالاسْمِ الْمَوْصُولِ "لِإِفَادَةِ تَعْلِيلِ اسْتِحْقَاقِهِمُ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ، أَيْ: لِأَنَّهُمُ اتَّخَذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ"[2].

نُكْتَةُ التَّعْبِيرِ بِالْفِعْلِ الْمُضَارِعِ ﴿يَتَّخِذُونَ﴾:

تَـقْـبِـيـحُ حَـالِ الْمُـنَـافِـقِـينَ وَتَشْنِيعُهَا

جَاءَ الفعْلُ في جملَةِ الصِّلَةِ في قولِهِ تعَالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَۚ﴾ فعلًا مضارعًا؛ تَقْبيحًا لحالهم إذْ تلبَّسُوا باتّخَاذِ أَوْلِيَاء مِن دُون المؤمنينَ، فأفادَ الْمُضَارِعُ إحضَارَ حَالِهِمُ الشَّنِيعة في أذهَانِ المخاطَبِينَ؛ لتَنْفِير أهْلِ الإيمَانِ مِن سُلُوكِهَا.

دِلَالَةُ الطِّبَاقِ بَيْنَ ﴿ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ وَ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَۚ﴾:

اخـتـيـارُ الـضِّـدِ الْقَبِيحِ آيَةٌ عَلَى فَسَادِ الْعَقْلِ وَرِقَّةِ الدِّينِ

في قولِ اللّه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَۚ﴾ طباقُ إيجابٍ بينَ الْكَافِرِينَ والمُؤْمِنِينَ، وكان يصحُّ المعنَى لو اكتُفِيَ بذِكْرِ الوَلِيّ المُتَّخَذ، بأن يقال: (الّذين يتّخذُون الكافرين أولياءَ)، وفيه من القُبْحِ ما فيه، ولكنَّ التّصريحَ بالمتروكِ كانَ أبينَ لقُبْحِهم، وأفضحَ لِسُوءِ صَنيعِهم، وآكدَ في استحقاقِهم أشدَّ العذابِ.

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/101، والثعالبي، الجواهر الحسان: 2/317.
(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 5/234.

بَلَاغَةُ الِاسْتِفْهَامِ التَّوْبِيخِيِّ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ﴾:

تَوْبِيخُ مَنْ طَلَبَ الْعِزَّةَ عِنْدَ مَنْ لَا يَمْلِكُهَا

الاستفهامُ في قولِهِ تعالَى: ﴿أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ﴾ اسْتِفْهَامٌ إِنْكَارِيٌّ تَوْبِيخِيٌّ، يُرادُ بِهِ تَقْرِيعُهم ولَوْمُهم على سُوءِ اختيارِهم[1]، "وفي ذَلِكَ إِيمَاءٌ إلى أَنَّ المُنَافِقِينَ لَم تَكُن مُوَالَاتُهُم لِلمُشرِكِينَ لِأَجلِ المُمَاثَلَةِ في الدِّينِ والعَقِيدَةِ؛ لأَنَّ مُعظَمَ المُنَافِقِينَ مِنَ اليَهُودِ، بَل اتَّخَذُوهُم لِيَعتَزُّوا بِهِم على المُؤمِنِينَ، وإِيمَاءٌ إلى أَنَّ المُنَافِقِينَ شَعَرُوا بِالضَّعفِ فَطَلَبُوا الاعتِزَازَ، وفي ذَلِكَ نِهَايَةُ التَّجهِيلِ والذَّمِّ"[2].

وفي هَذا الاستِفهَامِ أيضًا إشعارٌ بأَنَّهُم لَا عِزَّةَ لَهُم، فَكَيفَ تُبتَغَى العِزَّةُ عندَ من لا يملكُهَا؟ وفيه دلالَةٌ على خُبثِ مَقصدِهِم، وهُو طَلَبُ العِزَّةِ بِالكُفَّارِ والاستِكثارِ بِهِم[3].

نُكْتَةُ تَقْدِيمِ الظَّرْفِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ﴾:

الْمُبَالَغَةُ فِي ذَمِّ الْمُنَافِقِينَ وَتَوْبِيخِهِمْ

قُدِّم الظَّرْفُ (عِنْدَ) من قولِ اللّه تعالَى: ﴿أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ﴾، وأصل الكلام: (أَيَبْتَغُونَ العزّةَ عِنْدَهُم)، وفي تقديمِ الظَّرفِ ﴿عِندَهُمُ﴾ على المَفْعُولِ بِهِ ﴿ٱلْعِزَّةَ﴾ دلالة على التّخصيص، كأنّهم ظنّوا أنّ العزّةَ لا تكُونَ إلَّا عِنْدَ هؤلاءِ، ولهذا طلبُوهَا مِنْهُمْ دونَ غيرِهِمْ، وفيهِ هذَا مبالغَةٌ في ذمِّهم وتوبيخِهِمْ.

دِلَالَةُ الْفَاءِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾:

مَهْمَا طَلَبَ الْمَرْءُ الْعِزَّةَ؛ فَلَنْ يَجِدَهَا إِلَّا عِنْدَ اللهِ تَعَالَى

قُرِنَتِ الجملةُ في قَوْلِهِ تعالَى: ﴿فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ بالفاءِ الدَّالَّةِ على التّفريعِ؛ إِذْ نشأتْ عَنِ الاسْتِفْهَامِ، فالجملةُ "تعليلٌ لما يفيدُه الاستفهامُ الإنكاريُّ مِن بُطلانِ رأيِهم وخَيْبَةِ رجائِهم؛ فإنّ انْحِصَارَ جميعِ أفرادِ العزّةِ في جَنَابِهِ عزّ وعَلَا؛ بحيث لا ينالُها إلّا أَوْلِيَاؤُه الّذين كُتِبَتْ لَهُمُ العِزّةُ والغَلَبَةُ، قال تَعَالَى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/101، وأبو السعود، إرشاد العَقْل السّليم: 2/244، والصّاوي، حاشية الصّاوي: 1/237.

(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 5/234.

(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/101.

وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾، يَقْضِي بِبُطْلَانِ التّعزُّزِ بِغَيْرِهِ ﷺ، واستحالةِ الانتفاعِ به"[1].

فَائِدَةُ تَقْيِيدِ قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱلۡعِزَّةَ لِلَّهِ﴾ بِالْحَالِ ﴿جَمِيعًا﴾:

إِثْبَاتُ الْعِزَّةِ للهِ تَعَالَى فِي حَالِ الِاسْتِقْصَاءِ؛ يَسْتَلْزِمُ نَفْيَهَا عِنْدَ غَيْرِهِ

قُيِّدَ قولُهُ تعالَى: ﴿فَإِنَّ ٱلۡعِزَّةَ لِلَّهِ﴾ بِالْحَالِ ﴿جَمِيعًا﴾؛ لِنَفْيِ جميع أفرادِ العزَّة عن الكَافرينَ، فكيفَ يطلُبُها المنافقُونَ عِنْدَهُمْ؟! والمرادُ: "أنَّه لا تُطْلَقُ صفةُ العزّةِ إلّا للّه ﷻ؛ لأنّه لا يُعتدّ بعزّة أحدٍ مع عزّتِه تعالى، لصغرِها واحتقارِها في صفةِ عزّتِه، ولأنّه المقوِّي لجميعِ مَن لَهُ القوّةُ مِنْ خلقِه، فجميعُ العزّةِ له؛ لأنّه عزيزٌ بعزِّه، ومُعزُّ مَن عزَّ مِن عبادِه، فلَهُ العزّةُ جميعًا مِن كلّ وجهٍ"[2].

دِلَالَةُ التَّعْبِيرِ بِالْجُمْلَةِ الِاسْمِيَّةِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَإِنَّ ٱلۡعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾:

ثُبُوتُ الْعِزَّةِ للهِ تَعَالَى ثُبُوتًا دَائِمًا

جَاءَتِ الْجُمْلَةُ في قولِه سُبحانَهُ: ﴿فَإِنَّ ٱلۡعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ اسميَّةً؛ للدّلالةِ على ثبُوتِ العزّةِ ودوَامِهَا عندَ اللّه تعالى؛ "والمَقصُودُ مِنْ هَذَا التّهييجُ على طَلَبِ العِزَّةِ مِنْ جَنَابِ اللّه، والالتِجَاءُ إلى عُبُودِيَّتِه، والانتِظَامُ في جُملَةِ عِبَادِهِ المُؤمِنِينَ الَّذِينَ لَهُمُ النُّصرَةُ في هَذِهِ الحَيَاةِ الدُّنيَا، ويَومَ يَقُومُ الأَشهَادُ"[3].

(1) أبو السعود، إرشاد العَقْل السّليم: 2/244، والقنّوجي، فتح البيان: 3/267.
(2) الواحدي، التفسير البسيط: 7/153.
(3) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 2/435.

﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾﴾ [النساء: 140]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

سَدُّ الشَّرِيعَةِ الإِسْلَامِيَّةِ طُرُقَ الْكُفْرِ وَالنِّفَاقِ بِتَحْرِيمِهَا

لمّا بيَّن الله تعالَى سَبيلَ المُنَافِقينَ في التّذَبْذُب بيْنَ الإيمَانِ والكُفْرِ، وحذَّرَ مِن اتّخاذ الكافِرينَ أولِيَاءَ لِلاعْتِزَازِ بِهِم، وبيَّنَ أنَّ العزّةَ لله تعالَى وَحْدَهُ؛ بيَّنَ سُبحانَهُ في هذِهِ الآيَةِ تَحْرِيمَ مُجَالسَةِ الخَائِضِينَ في آياتِ الله تعالَى كُفْرًا واسْتِهْزَاءً؛ لأنَّها طَرِيقُ الكُفْرِ والنِّفَاقِ.

شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

1) ﴿يَخُوضُوا۟﴾: الخاءُ والواوُ والضَّادُ تدلُّ اشتقَاقَاتُهَا عَلَى تَوَسُّطِ شَيْءٍ وَدُخُولٍ، يُقَالُ: خُضْتُ الْمَاءَ وَغَيْرَهُ، وخاضَ القومُ في الحَدِيثِ وتَخاوَضوا، أي: تَفاوَضوا فيه، وأكثَرُ مَا في القُرآنِ الكريمِ وَرَدَ فِيمَا يُذَمُّ الشُّروع فيه[1]، وقولُهُ تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ﴾ معناهُ: "حتَّى يَشْرَعُوا في كلامٍ غَيْرِ الْكُفْرِ والاسْتِهْزَاءِ بالقُرآنِ"[2].

"أصْل الخَوْض المشيُ في الماءِ وتحريكُه ثُمَّ اسْتُعْمِلَ في التَّلَبُّسِ بالأمر والتَّصَرُّفِ فِيهِ، أي رُبَّ مُتَصَرِّفٍ في مالِ الله تَعالى بِما لا يَرْضاهُ الله، والتَّخَوُّضُ تفعُّل مِنهُ، وقِيلَ: هُوَ التَّخْلِيطُ في تَحْصِيلِهِ مِن غَيْرِ وجْهِهِ كَيْفَ أمكن. وفي حَدِيثٍ آخَرَ: يَتَخَوَّضُون في مالِ الله تَعالى. والخَوْضُ: اللَّبْسُ في الأمر. والخَوْضُ مِنَ الكَلامِ: ما فِيهِ

(1) الجوهري، الصحاح: (خوض)، وابن فارس، مقاييس اللغة: (خوض)، والرّاغب، المفردات: (خوض).
(2) النسفي، مدارك التنزيل: 1/406.

الكَذِبُ والباطِلُ، وقَدْ خاضَ فِيهِ. وفِي التَّنْزِيلِ العَزِيزِ: وإذا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آياتِنا"[1].

قال الراغب: الخوض هو الشروع في الماء والمرور فيه. ويُستعار في الأمور وأكثر ما ورد في القرآن ورد فيما يُذَم الشروع فيه[2].

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

النَّهْيُ عَنْ مُجَالَسَةِ الطَّاعِنِينَ فِي آيَاتِ اللهِ تَعَالَى

وقد نَزَّل الله عَلَيْكُمْ - أيُّها المُؤْمِنُونَ - في كتَابِهِ العزيزِ أنَّكُم إذَا كنتُمْ في مَجْلِسٍ، وسَمِعْتُم فِيهِ مَن يَكْفُرُ بآياتِ الله تعالَى ويَسْتَهْزِئُ بها؛ فيجِبُ عَلَيْكُم مُفَارَقَتُهُمْ والانْصِرَافُ عَن مُجَالَسَتِهِم، حتَّى يَتَحَدَّثُوا في حديثٍ غَيْرِ الكُفْرِ بآياتِ الله سُبحانَهُ والاستهزَاء بِهَا، إنَّكُمْ إذا جَالَسْتُمُوهُم حالَ كفرِهِم واستهزَائِهِمْ بعْدَ سمَاعِكُم ذَلِكَ مِثْلُهُم في مُخَالَفَةِ أَمْرِ الله تعالَى؛ لأنَّكُم عَصَيْتُم الله تعالَى بِجُلُوسِكُم كمَا عَصَوُا الله سُبحانَهُ بِكُفْرِهِمْ، إنَّ الله سَيَجْمَعُ المُنَافِقِينَ الذينَ يُظْهِرُونَ الإِسْلامَ ويبطِنُونَ الكُفْرَ معَ الكَافِرِينَ في نَارِ جهنَّمَ في الآخرَةِ[3].

الإيضاحُ اللُّغَوِيُّ والبَلاغِيُّ:

تَعْيِينُ المُخَاطَبِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ﴾:

شُمُولُ الخِطَابِ لِكُلِّ مَنْ أَظْهَرَ الإِيمَانَ صَادِقًا أَوْ مُنَافِقًا

الخِطَابُ في قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ﴾ لكُلِّ مَنْ أظهَرَ الإِيمَانَ مِن محقّق ومنافِقٍ؛ لأنّه إذا أظْهَرَ الإيمَانَ؛ فقَد لَزِمَهُ أن يمتَثِلَ أوامِرَ كتابِ الله تعالَى بحسَبِ ظاهرِ حالِهِ[4]، ويكونُ القرآنُ الكريمُ قد التفتَ عَنِ الحديثِ عَنِ المُنَافِقِينَ في قَوْلِهِ تعالَى: ﴿بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ إلى الحديثِ عَنْهُمْ وعنْ غَيْرِهِم.

ويجُوزُ أن يكونَ الخِطابُ لِلْمُسْلِمِينَ، فيكون خطابَ تشريفٍ؛ إذْ

(1) ابن منظور، لسان العرب: (خوض).
(2) الرّاغب، المفردات: (خوض).
(3) جماعة من العلماء، المختصر في تفسير القرآن الكريم، ص: 100.
(4) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/125، والقُرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 5/417، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/102.

"فيه دِلالةٌ على أنّ المنزّلَ على النّبيِّ ﷺ وإنْ خُوطِبَ به خاصّةً منزّلٌ على الأمّة"[1].

سِرُّ الِالْتِفَاتِ فِي خِطَابِ الْمُنَافِقِينَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ﴾:

الْإِنْكَارُ وَالتَّوْبِيخِ بِطَرِيقِ الْخِطَابِ أَوْقَعُ فِي النَّفْسِ وَأَشَدُّ عَلَيْهَا.

يجُوز أن يكونَ الخطَابُ في الآية للمنافِقِينَ وَحْدَهُمْ، فيكون في الآيَةِ التفاتٌ مِنَ الْغَيْبَةِ في قولِه تعالَى: ﴿أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ﴾ إلى الْخِطَاب: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ﴾، وفي هذا الالتفَاتِ تشديدٌ لتوبيخِهِمْ الذي يقتَضِيهِ تَعْدَادُ جِنَايَاتِهِم وجرائِمِهم[2]، وذلك أنَّ الإنكَارَ والتَّوبيخَ بطريقِ الخِطابِ أوقَعُ في النَّفْسِ وأشدُّ عليهَا.

ويجُوزُ أن تكون الجملةُ ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ﴾ حالًا من الضَّمير في ﴿يَتَّخِذُونَ﴾، فَيَكُونُ ضَمِيرُ الْخِطَابِ في قَوْلِه: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ﴾ خِطَابًا للمذكُورِينَ في صِلَةِ الموصولِ مِنْ قَوْلِه: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ﴾ عَلَى طَرِيقَةِ الِالْتِفَاتِ، "كَأَنَّهُمْ بَعْدَ أَنْ أُجْرِيَتْ عَلَيْهِمُ الصِّلَةُ صَارُوا مُعَيَّنِينَ مَعْرُوفِينَ، فَالْتُفِتَ إِلَيْهِمْ بِالْخِطَابِ؛ لِأَنَّهُمْ يَعْرِفُونَ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ تِلْكَ الصِّلَةِ، فَلَعَلَّهُمْ أَنْ يُقْلِعُوا عَنْ مُوَالَاةِ الْكَافِرِينَ. وَعَلَيْهِ فَضَمِيرُ الْخِطَابِ لِلْمُنَافِقِينَ، وَضَمَائِرُ الْغَيْبَةِ لِلْكَافِرِينَ"[3]، وكلُّ ذلك له في السّياقِ ما يؤيّدُه، وهو مِن لطائفِ مَوْقِعِ الآيةِ الكريمة؛ ليتّجه النَّهْيُ إلى الْفِعْلِ نفسِه بصَرْفِ النَّظَرِ عمَّنْ يَصْدُرُ مِنْهُ هَذَا الفعلُ القَبِيحُ.

الْوَظِيفَةُ التَّرْكِيبِيَّةُ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ﴾:

بَيَانُ قُبْحِ فِعْلِهِمْ؛ إِذْ عَرَفُوا النَّهْيَ وَأَصَرُّوا عَلَى الْمُخَالَفَةِ

جاءَ التَّعبيرُ بِالْجُمْلَةِ الحَاليَّةِ في قولِه تعالَى: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ﴾؛ لبَيَانِ عِلْمِهِم بِحُرْمَةِ ذَلِكَ وأنّهُمْ قَد نُهُوا عنْهُ، فهي مُفِيدةٌ "لكِمَالِ قباحةِ حالِهم ونهاية اسْتِعْصَائِهم عليْهِ سُبْحَانَهُ؛

(1) أبو السعود، إرشاد العَقْل السّليم: 2/244، والقاسمي، محاسن التأويل: 3/373.

(2) أبو السعود، إرشاد العَقْل السّليم: 2/244.

(3) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 5/234.

بِبَيَانِ أنّهم فعلُوا ما فعلُوا مِن مُوالاةِ الكَفَرَةِ مع تحقُّقِ ما يَمْنَعُهُم مِن ذَلِكَ، وهُوَ وُرُودُ النَّهْيِ الصَّرِيحِ عَن مُجَالَسَتِهِم المُسْتَلْزِمِ لِلنَّهْيِ عن مُوالاتِهِم عَلَى أبلغِ وجهٍ وآكدِه، كأنّه قيلَ: تَتَّخِذُونَهُمْ أولياءَ والحالُ أنَّه تعالَى قد نزّل عليكُمْ قَبْلُ هَذَا بِمَكَّةَ"[1]، وفي ذلكَ إيمَاءٌ إلَى إصْرَارِهِم عَلَى المُخَالفَةِ وَاجْتِرَاحِ الإِثْمِ بالمخالطَةِ.

دِلَالَةُ اللَّامِ فِي ﴿ٱلْكِتَٰبِ﴾ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ﴾:

اللّامُ في ﴿ٱلْكِتَٰبِ﴾ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ﴾ لِلْعَهْدِ العِلْمِيِّ، ويجُوزُ أن يكون العهدُ حضوريًّا، أي: في هذا الكتابِ الحاضِرِ أمامَكُمْ، والمعنَى: ما أنزلناهُ فيمَا تقدَّمَ تَنْزِيلُهُ مِنَ الكتابِ، وهو نَهْيُ اللّه تعالى المُسْلِمِين عن القعودِ مع الذينَ يكفُرُون بآياتِ اللّه تعالَى ويستهْزِؤُونَ بهَا، وهو الواردُ قوله: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ﴾ [الأنعام: 68]، وهذه الآيةُ من سورةِ الأنعام، وهي مكيَّة، فامتنعَ المُسْلِمُون عنِ القعودِ معهم، ولمّا قدِمُوا المدينةَ كانُوا يجلِسُون مع اليهودِ والمنافِقِين، وكانَ اليهودُ يَسْتَهْزِئُون بالقرآنِ، فنزلَتْ هذهِ الآيةُ[2].

الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ يُفَسِّرُ بَعْضُهُ بَعْضًا

تَوْجِيهُ المُتَشَابِهِ اللَّفْظِيِّ بَيْنَ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ﴾ وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا﴾:

قال اللّه تعالى: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ﴾، وقال في آية الأنعام: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٨﴾﴾ [الأنعام: 68]، فذكَرَ الحكمَ في سورةِ النِّساءِ وأنَّ مخالِطَهُم على الوجهِ

الْأَحْكَامُ الشَّرْعِيَّةُ تُلَائِمُ اخْتِلَافَ الْأَزْمِنَةِ وَالْأَمْكِنَةِ وَالْأَحْوَالِ

(1) أبو السعود، إرشاد العَقْل السّليم: 2/244.

(2) الواحدي، التفسير البسيط: 7/154، والقاسمي، محاسن التأويل: 3/373.

المذكورِ مثلُهم، ولم يُذْكَر ذلك في سورة الأنعام، ووجه التَّغايُرِ بينهما: أنَّ كلَّ موضعٍ ملائمٌ لحالِ المسلمِينَ وقتَها، فما أُنزل بمكّة لاءَمَ حالَ المسلمين حينَهَا، وما أُنزل بالمدينةِ لاءَمَ حالَ المسلمين وقتَها، وهذا هو الأوفَى في الخطابِ القرآنيّ الّذي يُلائم الأحوالَ والأزمنةَ والأمكنةَ؛ وذلك أنَّ الله تعالى "لم يَحْكُمْ بكفرِ المسلمين بمكّةَ لمجالسةِ المشركين الخائضِين، وحَكَمَ بنفاقِ هؤلاء بالمدينةِ لمجالسةِ أحبارِ اليهودِ الخائضين؛ لأنّ مجالسةَ أولئكَ المسلمين كانت للضّرورة، وفي أوانِ ضَعفِ الإسلامِ، ولم يردْ نهيٌ بعدُ، ومجالسةَ هؤلاءِ المنافقين كانت في وقتِ الاختيارِ، وقوّةِ الإسلام، وبعدَ وُرودِ النَّهي"[1].

وَبَيْنَ الآيَتَيْنِ المتقدِّمتين - آية النِّساء وآية الأنعام - فرقٌ في الفعلِ المستعمَلِ فيها، ففي سورة النِّساء: ﴿أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا﴾، وفي الأنعام: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا﴾، وهذا الاختِلافُ يتكاملُ في بيانِ أنّ "مدارَ الإعراضِ عنهم هو العلمُ بِخَوْضِهِم في الآيات؛ ولذلك عبّر عن ذلك تارةً بالرّؤيةِ، وأخرى بالسّماعِ"[2].

دِلَالَةُ تَعْلِيقِ الشَّرْطِ بِـ﴿إِذَا﴾ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَلَا تَقْعُدُواْ مَعَهُمْ﴾:

الْمُبَادَرَةُ إِلَى الْإِعْرَاضِ عَنِ الْكَافِرِينَ حَالَ اسْتِهْزَائِهِمْ بِالْآيَاتِ

جاءَ التَّعبيرُ بـ﴿إِذَا﴾ في قولِه تعالَى: ﴿إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُواْ مَعَهُمْ﴾ للدّلالةِ على النَّهي الحازمِ القَطعيّ فإنَّ الشَّرطَ بـ (إذا) يُفيدُ القَطعَ بوجوبِ فِعلِ جَوابِ المشروطِ على المُخاطبِ، فَضلًا عمّا في (إذا) مِنْ دلالةٍ زمنيةٍ يُستفاد منها مَعنى (وَقْتِ السَّمَاعِ)، وعُلِّقَ بِهِ النَّهْيُ عنِ القُعُودِ مَعَهُمْ، والمَعْنَى: قومُوا عَنْهُم وقْتَ سَمَاعِكُم الكُفْرَ، وذلك لِيتَّجِهَ الأمرُ إلى تنفيذِ الإعراضِ عَنْهُم علَى وَجْهِ القطع والحزم والجزم، كمَا تُعْلِنُ عَنْهُ الفَاءُ في صَدْرِ الجَوَابِ.

سِرُّ إِضَافَةِ الْآيَاتِ إِلَى الِاسْمِ الْأَحْسَنِ ﴿ٱللَّهِ﴾ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾:

تَعْظِيمُ آيَاتِ اللهِ تَعَالَى وَتَهْوِيلُ شَأْنِ الْكُفْرِ بِهَا

في إضافَةِ الآياتِ إلى الاسم الأحْسَنِ ﴿ٱللَّهِ﴾ في قولِه تعالَى: ﴿إِذَا

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/103، والنيسابوري، غرائب القرآن: 2/515.

(2) أبو السعود، إرشاد العَقْل السّليم: 2/244، والقاسمي، محاسن التأويل: 3/373.

﴿سَمِعۡتُمۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ تشريفٌ للمضافِ وهو الآياتُ، وفيه بيانٌ لخطَرِهَا وعظيمِ شأنِهَا، وتهويلُ أمر الكُفْرِ بهَا[1]، وفي الإضافَةِ أيضًا: تربيةٌ لِلْمَهَابَةِ، وتَشْنِيعٌ لكلِّ فعلٍ أو قولٍ يُخالفُ مقتضَى هذه المَهابةِ.

تَشْرِيفُ الْأُمَّةِ بِنِسْبَةِ تَنْزِيلِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ عَلَيْهِمْ

نُكْتَةُ جَمْعِ ضَمِيرِ الْخِطَابِ ﴿عَلَيۡكُمۡ﴾ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقَدۡ نَزَّلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ﴾:

أنزلَ اللّه سُبحانَهُ القرآنَ الكريم على نبيِّهِ محمَّدٍ ﷺ، كما ورد في آياتٍ كثيرةٍ، منها قولُهُ: ﴿نَزَّلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ﴾ [آل عمران: 3]، وفي آية النِّساءِ جاءَ ضميرُ الخِطاب جمعًا، فقال سُبحانهُ: ﴿وَقَدۡ نَزَّلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ﴾، وفي ذلكَ دِلالةٌ على أنّ ما أُنْزِلَ على النّبيّ ﷺ وإنْ خُوطِبَ بِهِ خاصّةً؛ فهو مُنَزّلٌ عَلَى الْأُمّةِ[2]، وفي هذا تَشْرِيفٌ لِلْأُمّةِ بِنِسْبَةِ التّنزيلِ عَلَيْهِم؛ إذ هُمُ مقْصُودُونَ بوجوبِ امتثالِ الأحْكَامِ.

تَعْلِيقُ الْأَحْكَامِ بِالْأَفْعَالِ لَا بِالذَّوَاتِ

سِرُّ بِنَاءِ الْفِعْلِ لِلْمَفْعُولِ ﴿يُكۡفَرُ﴾ وَ﴿وَيُسۡتَهۡزَأُ﴾ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يُكۡفَرُ بِهَا وَيُسۡتَهۡزَأُ بِهَا﴾:

بُنِيَ الفعلُ ﴿يُكۡفَرُ﴾ وَ﴿وَيُسۡتَهۡزَأُ﴾ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يُكۡفَرُ بِهَا وَيُسۡتَهۡزَأُ بِهَا﴾ للمفعولِ؛ اهتمامًا بِالْحدَثِ بقطْعِ النّظر إلى صدورِهِ مِنْ مُعَيَّن، مُبَالغَةً في إظهارِ قبح الفعل بصرف النظر عن الفاعل كائنا من كان، وبيانًا بأنَّهُ نَهيٌ عامٌّ عن مخالطة كلِّ مَنْ صدرَ مِنْهُ هذا الفعلُ.

وُجُوبُ إِظْهَارِ الْغَضَبِ لِلّهِ تَعَالَى

بَلَاغَةُ الْكِنَايَةِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَلَا تَقۡعُدُواْ مَعَهُمۡ﴾:

جاء جوابُ الشَّرْطِ مُقْتَرِنًا بالفاءِ في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَقۡعُدُواْ مَعَهُمۡ﴾؛ لكَوْنِ الجوابِ طلبًا، وقد توجّهَ النَّهيُ إلى القُعودِ، والمرادُ بهِ الرِّضا بصنيعِهم؛ ليكونَ النّهيُ أبلغَ، فالنّهي عنِ القعُودِ معَهُم على

(1) أبو السعود، إرشاد العَقْل السّليم: 2/244.

(2) أبو السعود، إرشاد العَقْل السّليم: 2/244، والقاسمي، محاسن التأويل: 3/373.

الرِّضا بِمَا هُم عليهِ[1]، ووجهُ أبْلَغِيَّتِهِ: أنَّه لو جاء النَّظْمُ القرآنيُّ: (فلا ترضوا بما يقولون)؛ لَما اقتضَى ذلك مفارقَتَهُمْ، بخلاف ما ورد في الآيةِ، فإنَّ الأمرَ بِمُفَارقَتِهِمْ وعدم الرِّضَا بصنيعِهِمْ، وذلك دالٌّ علَى وُجُوبِ إظهارِ الْغَضَبِ للّه تعالَى، فخرج قولُهُ تعالى: ﴿فَلَا تَقْعُدُواْ مَعَهُمْ﴾ مخرجَ الكنايَةِ عن عدمِ الرِّضا.

دِلَالَةُ ﴿حَتَّىٰ﴾ فِي قَوْلِهِ ﴿حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ﴾:

﴿حَتَّىٰ﴾ في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ﴾ يُرادُ بها الغايةُ، وفي ذلكَ كَشْفٌ عَن نَهْجِ الْإِسلَامِ في أنَّ النَّهي موجّهٌ لِلْفِعْلِ، لا لِخصوصِ الْفَاعلِينَ، فـ ﴿حَتَّىٰ﴾ "غَايةٌ لِتَركِ القُعُودِ مَعَهُم، ومَفهُومُ الغَايَةِ: أنَّهُم إذَا خَاضُوا في غَيرِ الكُفرِ والاستِهزَاءِ؛ ارتَفَعَ النَّهيُ، فَجَازَ لَهُم أَنْ يَقعُدُوا مَعَهُم"[2].

طَرِيقَةُ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ تَوْجِيهُ النَّهْيِ لِلْأَفْعَالِ لَا لِخُصُوصِ الْفَاعِلِينَ

براعةُ الاسْتِعَارَةِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ﴾:

في قولِهِ سُبحانَهُ: ﴿حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ﴾ استعارَةٌ مكنيَّةٌ، وهذه الاستعارةُ تصوّرُ قبحَ الكافرينَ والمُنَافقين؛ حيث شُبِّهَ الْمَخُوضُ فيهِ (الحديثُ) بالوَحْلِ، ثمّ حُذِفَ المشبَّهُ بهِ، ورُمِزَ له بشيءٍ من لوازمِه وهو ﴿يَخُوضُواْ﴾، وفيها مِن تَجْسيدِ القُبحِ ما فيها، كما أنَّ هذه الاستعارةَ شنّعت عَلَيْهِم في كفرِهِمْ واستهزائِهم بآيَاتِ اللّه تعالَى، فإذا كانت أحاديثُهم كلُّها تُشْبِهُ الوَحْلَ، فكَيْفَ يكونُ قُبْحُ أحاديثِهم في الكفرِ بآياتِ اللّه سُبحانَهُ والاستهزاءِ بها؟!!

كَلَامُ الْكُفَّارِ قَبِيحٌ فِي الْعَادَةِ، وَاسْتِهْزَاؤُهُمْ بِآيَاتِ اللهِ تَعَالَى أَقْبَحُ كَلَامِهِمْ

عِلَّةُ فَصْلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ﴾ عَمَّا قَبْلَهُ:

فُصِلَ قولُه تعالَى: ﴿إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ﴾ عمَّا قبلَهُ؛ لأنَّها سيقَتْ مساقَ التَّعليلِ للنَّهيِ والأمرِ بِخطابِ الْعَقلِ بِمَا يُلائِمُه؛ لأنّ الأمرَ ثقيلٌ، والنَّهيَ أثقلُ، فيخفّفهُما التّعليلُ؛ لِمَا فيهِ مِنَ الإقناعِ بالنَّهي،

تَعْلِيلُ الْأَحْكَامِ يُخَفِّفُ مَشَقَّةَ التَّكْلِيفِ

(1) الواحدي، التَّفسير البسيط: 7/155.

(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/103، وابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 5/235.

والمعنَى: "إنّكم إنْ فعلتُم ذلكَ، وقعدتُم معهُم، ولم تنتَهُوا، فأنتُم مثلُهم في الكفرِ واستتباعِ العذابِ"[1].

بَلَاغَةُ التَّشْبِيهِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ﴾:

الـرَّاضِي بِالْمُنْكَرِ يَـأْخُـذُ حُـكْـمَ فَاعِلِهِ

في التّشبيهِ الواردِ في قولهِ تعالَى: ﴿إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ﴾ تَهْدِيدٌ ناتجٌ ممّا يترتّبُ على التلّبس بصُورَةِ المشبّهِ به مِنَ العذابِ الشّديدِ المتوعَّدِ به في القرآن الكريم لمنْ نافقَ وكفرَ باللّه تعالَى؛ ذلك أن حُكمَ الرّاضِي بالمُنكرِ يأخذُ حكمَ فاعلِه، فقد "حَكَمَ تَعَالَى بِأَنَّهُم إِذَا قَعَدُوا مَعَهُم وهُم يَكفُرُونَ بآيَاتِ اللّه ويَستَهزِئُونَ بهَا، وهُم قَادِرُونَ على الإنكَارِ مِثلُهُمْ في الكُفرِ؛ لأَنَّهُم يَكُونُونَ رَاضِينَ بالكُفرِ، والرِّضَا بالكُفرِ كُفرٌ"[2].

وواضِحٌ أنّ "هَذِهِ المُمَاثَلَةَ لَهُم خَارِجَةٌ مَخرَجَ التّغليظِ والتَّهديدِ والتَّخويفِ، ولَا يَصِيرُ المُؤمِنُ مُنَافِقًا بِجُلُوسِهِ إلى المُنَافِقِينَ، وأُرِيدَ المُمَاثَلَةُ في المَعصِيَةِ، لَا في مِقدَارِهَا، أي: أَنَّكُم تَصِيرُونَ مِثلَهُم في التّلَبُّسِ بِالمَعَاصِي"[3]، فالمُمَاثَلَةُ لَيسَت من جميعِ الوجوهِ في جَمِيعِ الصِّفَاتِ، ولَكِنَّهُ من باب الإلزَام، فشُبِّهَ بِحُكمِ الظَّاهِرِ مِنَ المُقَارَنَةِ، كَمَا قَالَ: فَكُلُّ قَرِينٍ بِالمُقَارِنِ يَقْتَدِي[4].

دِلَالَةُ ﴿إِذًا﴾ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ﴾:

ثُـبُـوتُ الْمُـمَـاثَـلَـةِ بِـالْمُـشَـارَكَـةِ فِي الْأَفْعَالِ

بُنِيَتِ المماثلَةُ في قولِهِ تعالَى: ﴿إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ﴾ علَى الْإيجَازِ الْبَلِيغِ، وذلكَ بيّنٌ من تَنْوِينِ ﴿إِذًا﴾؛ فقد «جُعِلَ جَوَابُ القُعُودِ مَعَهُمُ المَنهِيِّ عَنهُ أَنَّهُم إِذَا لَم يَنتَهُوا عَنِ القُعُودِ مَعَهُم يَكُونُونَ مِثلَهُم في الاستِخفَافِ بِآيَاتِ اللّه؛ إِذْ قَالَ: ﴿إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ﴾ فَإِنَّ ﴿إِذًا﴾

(1) أبو السعود، إرشاد العَقْل السّليم: 2/245، والقنّوجي، فتح البيان: 3/269.

(2) الواحدي، التفسير البسيط: 7/154 - 155، والزمخشري، الكشاف: 1/578، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/103، والخازن، لباب التأويل: 1/439، والقنّوجي، فتح البيان: 3/270.

(3) القُرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 5/418، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 2/104، والنسفي، مدارك التنزيل: 1/406، وابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 5/236.

(4) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/126.

حَرْفُ جَوَابٍ وَجَزَاءٍ لِكَلَامٍ مَلفُوظٍ بِهِ أَو مُقَدَّرٍ، والمُجَازَاةُ هُنَا لِكَلَامٍ مُقَدَّرٍ دَلَّ عَلَيهِ النَّهيُ عَنِ القُعُودِ مَعَهُم، فَإِنَّ التَّقدِيرَ: إِن قَعَدتُمْ مَعَهُم إِذَن إِنَّكُم مِثلُهُم"[1].

نُكْتَةُ إِفْرَادِ الْمِثْلِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ﴾:

إفرادُ لفظِ المثلِ في قولهِ تَعالَى: ﴿إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ﴾، وَوُرُودُ المشبَّهِ والمشبَّهِ به مجموعَيْنِ إشعارٌ بالاتّحادِ بينَ الفِعْلِ والرّضَا به، وفي ذلك زيادةُ تغليظٍ وتخويفٍ وتهديدٍ، وحثٌّ على الإسراعِ في امتثالِ النَّهْيِ، وإظهارِ الغَضَبِ للّه تعالَى.

زِيَادَةُ تَغْلِيظِ الْمَنْهِيِّ عَنْهُ وَتَقْبِيحِهِ

سِرُّ التَّعْبِيرِ عَنِ الْمُمَاثَلَةِ بِالْجُمْلَةِ الِاسْمِيَّةِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ﴾:

سيقَتْ جملةُ المماثلَةِ في قَوْلِهِ جَلّ شأنُهُ: ﴿إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ﴾ اسميَّةً للدِّلالَةِ على لزومِ وصفِ المماثَلَةِ لهُمْ ما دامُوا مجالِسينَ لهُمْ حالَ صدورِ الباطلِ مِنْهُمْ؛ مِنَ الكُفْرِ بالآياتِ والاستهزاءِ بهَا.

وصُدِّرت الجملةُ بـ (إِنَّ) المؤكِّدَةِ؛ للدِّلالَةِ علَى تحقُّقِ هذهِ المماثَلَةِ.

تَحْقِيقُ الْمُمَاثَلَةِ لِأَهْلِ الْبَاطِلِ حَالَ مُجَالَسَتِهِمْ

عِلَّةُ فَصْلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ عَمَّا قَبْلَهُ:

فُصِلَ قولُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ عمَّا قبلَهُ؛ لوقوعِه موقعَ الجوابِ عَن سؤالٍ أَثَارَتْهُ الجملةُ السّابقةُ، فبينَها وبينَ مَا قبلَها شبهُ كَمَالِ الاتِّصَالِ، فإنَّ اللّه تعالى لمَّا قال: ﴿إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ﴾؛ أَوْرَثَ ذلك سؤالًا عمَّا تتحقَّقُ بِهِ المماثلةُ، وعَنْ سببِها؟؛ فجاء الجوابُ في قوله سُبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾، والمعنَى: "اجتماعُكُم بِهِمْ هُنا سببٌ في اجتماعِكُم بِهِم في جهنّم"[2]، فالجوابُ: "تعليلٌ لكونِهم

الْمُمَاثَلَةُ فِي الْفِعْلِ تَقْتَضِي الْمُمَاثَلَةَ فِي الْعِقَابِ

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 5/236.

(2) القاسمي، محاسن التأويل: 3/374.

مثلَهم في الكفرِ بِبَيَانِ مَا يَسْتَلْزِمُه مِنْ شِرْكتِهم لَهُم في العذابِ"[1]، وفيه زيادةُ تأكيدٍ على التَّحذيرِ من مجالستِهم وقتَ الاستهزاءِ، فالآية سيقت مساقَ الوعيدِ؛ تأكيدًا للتَّحذير مِنْ مُجَالَسَتِهِمْ وَمُخَالَطَتِهِمْ[2].

وجاءت هذه الجملةُ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ اسميَّةً؛ إشعارًا بلزومِ جَمْعِهِمْ ودَوامِهِ، وإيمَاءً إلى خلودِ المنافقينَ كخلودِ الكافرينَ؛ إذ لو لم يكونُوا خالدينَ ما استمرَّ جَمْعُهُمْ.

وأُكِّدَ مضمونُ الجملةِ بـ (إنَّ) تقويةً لهذا المعنَى وترشيحًا لهُ.

سِرُّ التَّعْبِيرِ بِاسْمِ الْفَاعِلِ ﴿جَامِعُ﴾ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ﴾:

تَحَقُّقُ جَمْعِ اللهِ تَعَالَى الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ

جاءَ خبرُ ﴿إِنَّ﴾ في قَوْلِهِ تعالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ﴾ اسمَ فاعلٍ دونَ الْفِعْلِ؛ لدِلَالَةِ ذلك علَى تَأْكِيدِ الجَمْعِ وحُصُولِه بالتّعبير بِمَا يفيدُ مَعْنَى المُضِيِّ بدلَ الاستقبالِ، فإضافَةُ اسْمِ الفاعِلِ دليلٌ علَى المُضِيِّ، ولمّا كانَ الحَدَثُ مُسْتَقبلًا؛ فإنَّ الْإِخْبَارَ عَنْهُ بالمَاضِي يَدُلّ على تحقّق وقوعِهِ،

والمعنى (إنَّ اللّه جامعٌ المنافقين والكافرين) وطرح التنوين استخفافا، وذلك كثير في لغة العرب وفي القرآن الكريم،

وأراد (جامعٌ) بالتّنوين؛ لأنّه لم يجمعهم قبل، ولكن حذف التّنوين استخفافًا من اللّفظ، وهو مراد في المعنى[3].

واستُعمِلَ اسمُ الفاعلِ مِنْ دونِ الفعلِ للدِّلالةِ على هذا المَعنى لِما في اسمِ الفاعِلِ من دِلالةٍ على المُطلقِ مِنْ دونِ اقترانِه بقرينةٍ زمنيّةٍ، ولا سيَّما أنَّ معناهُ مَعنى النَّكرةِ التي تُفيدُ الإطلاقَ أيضًا، وكأنَّهُ يقولُ: إنَّ اللّه قادرٌ على أن يَجمعَهُم في كلِّ زمانٍ ووَقتٍ.

(1) أبو السعود، إرشاد العَقْل السّليم: 2/245.

(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/104، والثعالبي، الجواهر الحسان: 2/317.

(3) الواحدي، التفسير البسيط: 7/156، والرازي، مفاتيح الغيب: 11/247، والقُرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 5/418.

وصُرِّحَ بمكانِ الجَمْعِ في قوله تعالَى: ﴿فِي جَهَنَّمَ﴾ زيادةً في التَّخْويفِ والتَّرهيبِ.

وفي تقييد الجَمْعِ بالحالِ ﴿جَمِيعًا﴾ تأكيدٌ لِجَمْعِهِم، فَهُمْ مَجْمُوعُونَ في الحَشْرِ، ولكنَّهُ يَجْعَلُهُم في النّارِ قُرَنَاءَ جَمْعًا خاصًّا؛ إشعارًا بمَزِيدٍ مِنَ العَذَابِ.

نُكْتَةُ تَقْدِيمِ الْمُنَافِقِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾:

قُدِّمَ ذِكْرُ المُنَافِقِينَ على الكافرينَ في قَوْلِهِ تعَالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾؛ تشديدًا للوعيدِ والتَّهديدِ على المخاطِبينَ[1]. كأنَّ المُنَافِقين هُمُ المَقْصُودُون بالجَمْعِ؛ لأنَّه قد عُلِمَ أنَّ الكَافِرينَ في النّار، ثُمَّ أُلْحِقَ بِهِمُ المُنَافِقُونَ، فكان الجَمْعُ مقصُودًا لَهُمْ.

لَمَّا كَانَ الْمُنَافِقُونَ مَعْدُودِينَ فِي الْمُسْلِمِينَ بِحَسَبِ الظَّاهِرِ؛ قُدِّموا تَشْدِيدًا عَلَيْهِمْ

سِرُّ وَضْعِ الْمُظْهَرِ مَوْضِعَ الْمُضْمَرِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾:

وُضِعَ الظّاهِرُ موضِعَ المُضْمَرِ في قولِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾، وكان مقتضَى الظَّاهِرِ: (إنّ اللّه جامِعُهُم والكافرين)؛ والنُّكْتَةُ في ذلك: التَّسجيل عليهِمْ بنفاقِهِم، وتعليلُ الحُكْمِ بخلودِهِم وقَرْنِهِمْ بالكافرينَ[2]، فاللّه تعالى لَم يَحْكُمْ عَلَيْهِم بذَلِكَ الجَزَاءِ إلّا لِنِفَاقِهِمْ وليسَ لِذَوَاتِهِمْ.

الـنِّـفَـاقُ مِـنْ أَسْـبَـابِ اسْـتِـحْـقَـاقِ الْخُلُودِ فِي جَهَنَّمَ

جَمالُ الْجِنَاسِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾:

بينَ ﴿جَامِعُ﴾ و﴿جَمِيعًا﴾ في قوله تعالى: ﴿جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ جناسُ اشْتِقَاقٍ؛ وفي هذا تَقْوِيَةٌ لِلْمَعْنَى بِإِيقَاعِهِ على السَّمْعِ مرّتين؛ لفتًا للنّظرِ إِلَيْهِ، فإنّه المقصُودُ بِالْإِخْبَارِ في النّصِّ، وهُوَ جَمْعُهُمْ في جهنَّمَ لِلْعذابِ.

تَـأْكِـيـدُ قَـرْنِ الْمُنَافِقِينَ مَعَ الْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ

(1) أبو السعود، إرشاد العَقْل السّليم: 2/245.

(2) أبو السعود، إرشاد العَقْل السّليم: 2/245.

﴿ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمۡۖ فَإِن كَانَ لَكُمۡ فَتۡحٞ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓاْ أَلَمۡ نَكُن مَّعَكُمۡ وَإِن كَانَ لِلۡكَٰفِرِينَ نَصِيبٞ قَالُوٓاْ أَلَمۡ نَسۡتَحۡوِذۡ عَلَيۡكُمۡ وَنَمۡنَعۡكُم مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۚ فَٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ وَلَن يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لِلۡكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ سَبِيلًا ١٤١﴾ [النساء: 141]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

بعد أن بيَّنَتِ الآياتُ السَّابقة بعضَ الصِّفات القلبيَّةِ للمنافقين، من التَّردد والتّذَبْذُب بين الإيمانِ والكُفر، وتعزُّزِهم بالكفر، ووَلايتهم للكافرين - بيَّن هنا بعضَ أحوالهم الفعليَّة الدالَّةِ على بعض ما تُكنُّه صدورُهم؛ لعلهم بها يُعرفون، فيحذرَهم المؤمنون، فإن خَفِيتْ عَلَيْهِمْ؛ فاللّه يحكم بينكم في الدارينِ، ولن يَخذُلَ اللّه أولياءَه أبدًا.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَتَرَبَّصُونَ﴾: (رَبَصَ) أَصْلٌ يَدُلُّ عَلَى الِانْتِظَارِ، التّربّص: الانتظار بالشّيء، سلعة كانت يقصد بها غلاءً، أو رخصًا، أو أمرًا ينتظر زواله أو حصوله[1]، وينتظر به يومًا[2]، ﴿ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمۡ﴾ أي "ينتظرون بكم دوائر الزمان"[3]، وهو ما "يتجدّد لكم من ظفر أو إخفاق"[4].

2) ﴿فَتۡحٞ﴾: أصل يدل على خلاف الإغلاق. الفتح: إزالة الإغلاق والإشكال، ويقال فتح القضية فتحًا: فصل الأمر فيها وأزال الإغلاق عنها، وقوله: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ١﴾ فإنه يحتمل النُّصْرَةَ والظفر والحكم[5]. والمراد هنا: الظفر والظهور على العدوّ.

3) ﴿نَصِيبٞ﴾: (نصب) أصل يدلّ على إقامة شيء وإهداف في استواء. والنّصيب:

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (ربص).
(2) الواحدي، البسيط: 7/156.
(3) ابن جزي، التسهيل: 1/214.
(4) الزمخشري، الكشاف: 1/578، والنسفي، مدارك التنزيل: 1/406.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (فتح).

الحظّ من الشّيء، كأنّه الشّيء الذي رُفع لك وأُهدف، الحظّ المنصوب، أي: المُعَيَّن[1]، والمعنى المراد هنا، كما قال ابن عباس: يريد ظفرًا على المسلمين، يعني دَولة وظهورًا عَلَيهم[2].

4) ﴿نَسۡتَحۡوِذۡ﴾: (حَوَذَ) أَصْلٌ مِنَ الْخِفَّةِ وَالسُّرْعَةِ وَانْكِمَاشٍ فِي الْأَمْرِ، استحوذ العير على الأتان، أي: استولى على حَاذَيْهَا، أي: جانبي ظهرها[3]، يقال أحوذ الشيء، إذا جمعه وضمَّه، ومنه يقال: استحوذ على كذا، إذا حواه، هذا هو الأصل، ثم جعلوا الاستحواذ بمعنى الاستيلاء على الشيء؛ لأنَّ المستولي على الشيء بمنزلة المحيط به"[4]، فقالوا للكفرة: "ألم نغلبكم ونتمكّن من قتلكم وأسركم فأبقينا عليكم"[5].

5) ﴿وَنَمۡنَعۡكُم﴾: أصل واحد هو خلاف الإعطاء، ويقال في الحماية، ومنه مكان منيع، وقد منع، وفلان ذو منعة: أي عزيز ممتنع على من يرومه، قال تعالى: ﴿أَلَمۡ نَسۡتَحۡوِذۡ عَلَيۡكُمۡ وَنَمۡنَعۡكُم مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۚ﴾[6]، والمعنى المراد هنا أَيْ بِتَخْذِيلِنَا إِيَّاهُمْ عَنْكُمْ، وَتَفْرِيقِنَا إِيَّاهُمْ مِمَّا يُرِيدُونَهُ مِنْكُمْ"[7].

6) ﴿سَبِيلًا﴾: (سبل) أصل يدلّ على امتداد شيء، السّبيل: الطريق الذي فيه سهولة، وجمعه (سُبُل)، ويستعمل لكلّ ما يتوصّل به إلى شَيْءٍ خيرًا كان أو شرًّا، ويعبّر به عن المحجّة؛ ﴿قُلۡ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ﴾[8]، والمراد به هنا الحجّة[9].

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

يخبر اللّه تعالى أنّ من صفات المنافقين أنّهم "ينتظرون ما يحصل لكم من خير أو شرّ، فإن كان لكم نصر من اللّه وغنمتم، قالوا لكم: ألم نكن معكم؟ شهدنا ما شهدتم! لينالوا

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (نصب).
(2) الواحدي، البسيط: 7/157، والبَغَويّ، معالم التّنزيل: 1/714.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (حوذ).
(4) الواحدي، البسيط: 7/157، والرّاغب، تفسير الراغب: 4/203.
(5) الزمخشري، الكشاف: 1/578، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 2/104، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/104.
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (منع).
(7) القُرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 5/419.
(8) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (منع).
(9) ابن جرير، جامع البيان: 9/324.

من الغنيمة، وإن كان للكافرين حظّ قالوا لهم: ألم نتولّ شؤونكم ونُحِطْكم إحاطة العناية والنّصرة ونحمِكم من المؤمنين بإعانتكم وتخذيلهم؟! فالله يحكم بينكم جميعًا يوم القيامة، فيجازي المؤمنين بدخول الجنّة، ويجازي المنافقين بدخول الدّرك الأسفل من النّار، ولن يجعل الله بفضله للكافرين تسلّطًا على المؤمنين، بل سيجعل العاقبة للمؤمنين"[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغة كمال الاتصال في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمۡ﴾:

تربص المنافقين بالمؤمنين وترقب الحوادث

لم تعطف هذه الجملة على الآية السابقة؛ لشدة الاتصال بينهما، فقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمۡ﴾ الآية بدلٌ من قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۚ﴾. ويجوز أن تكون نعتًا للمنافقين على اللفظ؛ فتكون مجرورة المحل[2]، وكونها صِفَةً لِلْمُنَافِقِينَ فقط أولى إذ هم المتربّصون دون الكافرين"[3]، وفيه "إشارة كاشفة لموقف المنافقين، وهو موقف التربّص والانتظار لما ينجلي عنه الموقف فيما يدور بين المؤمنين والكافرين من صراع"[4].

نكتة تلوين الخطاب:

في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمۡ﴾تلوين للخطاب، وتوجيه له إلى المؤمنين، بتعديد بعضٍ آخر من جنايات المنافقين وقبائحهم[5].

التربّص هو المكث في المكان، ويدلُّ على الِانْتِظَارِ وَتَرَقُّبِ الْحَوَادِثِ

دلالة التّربّص في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمۡ﴾:

معنى التّربص هو المكث في المكان، ويدلُّ على حال المنافقين وفعلِهم، فهم جاثمون في أماكنهم، ثابتون فيها، لا يقدِّمون للمسلمين نفعًا، ولا

(1) جماعة من العلماء، المختصر في تفسير القرآن الكريم: 1/101.
(2) السّمين، الدر المصون: 4/123.
(3) أبو السعود، إرشاد العَقْل السّليم: 2/245.
(4) الخطيب، التفسير القرآني: 3/939.
(5) أبو السعود، إرشاد العَقْل السّليم: 2/245.

يدفعون عنهم ضرًّا، وفي الوقت ذاته يترقَّبون الحوادث، فهم في توتُّر دائم، فعبّر عن انتظارهم مآلات الصّراع بين المؤمنين والكافرين بالتّربّص دلالة على ترقّبهم ذلك وعلى إثره يحدّدون وجهتهم.

سر التعبير باسم الموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾:

في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمۡ﴾ عبّر عن المنافقين بالاسم الموصول؛ للترهيب من تعاطي هذا السلوك من المنافقين، ولتحذير المؤمنين منهم، ولتعيين المُتحدث عنهم.

عبّر عنهم بالموصول إظهارًا لقبائح سلوكهم في الصّلة

دلالة التعبير بالفعل المضارع ﴿يَتَرَبَّصُونَ﴾:

في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمۡ﴾ عبّر عنهم بالفعل المضارع؛ لأنّ هذا الفعل يدل على صفات سلوكية تمكنت من المنافقين في عداوتهم للمؤمنين وخبث بواطنهم، وذلك واضحٌ في تعبير القرآن عنهم بالفعل (يتربصون) الذي يشير إلى أنهم في موقف المنتظر للشماتة بالمسلمين والترقب لهزيمتهم دائمًا وأبدًا؛ ففي كل غزوة أو معركة يتربصون بالمسلمين مترقبين هزيمتهم.

عبّر عن سلوكهم بالفعل المضارع دلالة على تجدّد خبثهم وسوء طويتهم

سرُّ العدول عن الفعل (ينتظرون) إلى ﴿يَتَرَبَّصُونَ﴾:

آثر القرآن الكريم التعبير بالفعل (يتربصون) هنا دون ينتظرون، مع استعمال (ينتظرون) في سياق آخر، يناسب الوعيد الشديد للكافرين، في نحو قوله تعالى: ﴿فَهَلۡ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثۡلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِهِمۡۚ قُلۡ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُنتَظِرِينَ ١٠٢﴾ [يونس: 102]؛ وذلك لوجود فرق بينهما؛ فالتّربّص فيه طول انتظار، بخلاف الانتظار فزمنه قصير وطويل، ومن ثمَّ يسمَّى المتربّص بالطّعام وغيره متربّصًا؛ لأنّه يطيل الانتظار لزيادة الربح[1].

عبّر بالفعل يتربّصون لما فيه من دلالة على طول الانتظار، إظهارًا لشدّة انتظارهم

ويضاف إلى ذلك أنَّ التربُّص أشدُّ من الانتظار؛ لأنَّه أثقل لفظًا منه، يؤكِّد هذا أنَّ المواطن التي ورد فيها التربُّص في القرآن الكريم

(1) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 76.

يلمح فيها الثِّقل على النَّفس والتَّرقب، كقوله تعالى: ﴿يَتَرَبَّصۡنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرۡبَعَةَ أَشۡهُرٖ وَعَشۡرٗاۖ﴾ [البقرة: 234]، فهذا أمر فيه ثقل على المرأة وطول انتظار، و في هذه الآية: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمۡ﴾ عبّر بذلك؛ فإنّ عداء المنافقين للمسلمين دفين؛ فمن أجله يتربّصون بالمؤمنين ويتحملون ثقل الانتظار من أجل تحقيق مآربهم في هزيمة المسلمين.

كما نلحظ أنَّ المنتظِر غير مقيَّدٍ بمكان أو بحال؛ لأنَّ اشتقاقه من النَّظر، فالانتظار من الترقُّب والتفحُّص والتأمُّل، فالزمن بالنسبة للمنتظِر لازم عن ترقُّبه مرادَه، وليس كذلك المتربِّص؛ لأنَّ الأصل فيه الجثوم والمُكث في المكان، على حال معيَّن، لا يخلو من التوتُّر والقلق، فهو مُقَيَّدٌ بمكان وزمان وحال.

وعلى هذا فالملاحظ أن التربص يفترق عن الانتظار؛ لأن الانتظار قد يكون أمده قصيرًا أو طويلًا بخلاف التربص فيحمل في الغالب معنى الأمد الطويل أو الثَّقيل، ويكون غالبًا في غير المحبوب.

دلالة حرف الجر (الباء) في قوله ﴿بِكُمۡ﴾:

الباء للإلصاق للدّلالة على شدّة تربُّص المنافقين بالمسلمين

دل حرف الباء على أنَّ المنافقين ملاصقون للمسلمين، ويعيشون معهم ولا يستطيع المسلمون فصلهم عن المجتمع؛ لأنهم متداخلون فيه.

كما يشير إلى حرص المنافقين على إظهار الصفات التي بها يَنْضَوُونَ إلى المجتمع الإسلاميّ؛ حتى لا ينكشف أمرُهم، أو يَفْتَضِحَ حالُهم، فهم يقْبَعُون في أماكن المسلمين، ويجْثُمون مترقِّبينَ مآلات الأمور.

دلالة (كاف) الخطاب في قوله ﴿بِكُمۡ﴾ بدلًا من التعبير بالمؤمنين:

دلّ كاف الخطاب على أنّ المراد بالمخاطبين المؤمنون في زمن النّبيِّ ﷺ، وهذا ما تؤكّده الأحداث التي وقعت للمسلمين في زمنه ﷺ في غزوة أحد و غيرها، إذْ لمّا تغلّب المشركون على المسلمين؛ فرح

دلّ كاف الخطاب على إرادة المسلمين زمان البعثة، وإشارة إلى علوّ رتبتهم عند الله تعالى

المنافقون وشمتوا بالمسلمين، وهذا لا يمنع أن يكون هذا السلوك مع المؤمنين على العموم. وفيه إشارة إلى علو قدر المؤمنين عند ربهم فهم محل خطابه.

كما يشير ضمير الخطاب هنا إلى دقَّة معرفة المنافقين بالمؤمنين الخُلَّص، بحيث لا يلتبس عليهم واحد منهم؛ وذلك مستفاد من أنَّ الضَّمائر أعرف المعارف، لأنَّها لا تفتقر إلى أن توصف كغيرها من المعارف، وهو قول سيبويه[1].

وفي وضع المنافقين موضعَ اسم الموصول المفتقر إلى صلته مواءمة لحالهم من التستُّر والخفاء والضعف، كما أنَّ التعبير عن المؤمنين بضمير المخاطبين إشعار بظهورهم و قوّتِهم.

دلالة الفاء في قوله: ﴿فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ﴾:

تفصيل بعد إجمال، وإفصاح عن غرضهم من التّربّص

الفاء في قوله تعالى: ﴿فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ "لترتيب مضمونِه على ما قبلها؛ فإنّ حكايةَ تربُّصِهم مستتبعة لحكاية ما يقع بعد ذلك، كما أنّ نفس التّربُّص يستدعي شيئًا ينتظر المتربّصُ وقوعَه"[2]. و"هذه الجملة والتي بعدها حكاية لتربّصهم"[3]. ويضاف إلى ذلك أنَّ هذه الفاء تفصيليَّة[4]؛ لسبقها بمُجمل.

السّرّ في التّعبير بـ (إن) الشّرطيّة دون (إذا):

صرّح بـ (إنْ) للدّلالة على أنّ المنافقين يستبعدون ظفر المسلمين، إظهارًا لخبث طويّتهم

اختار التعبير القرآني (إن) بدلًا من (إذا) في قوله تعالى: ﴿فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ لوجود فرق بينهما؛ فـ (إذا) تفيد تحقّق الوقوع، ولا تدخل إلا على الشّيء المتيقّن، ووقوعه كثير بخلاف (إن) فَهِيَ تفيد الشّك في الوقوع، وتشير إلى أنّه قليل، وهذا المعنى واضحٌ في سلوك المنافقين؛ فكأنهم يشكّون في وقوع النّصر للمسلمين

(1) ابن الأنباري، أسرار العربيّة، ص: 244.
(2) أبو السعود، إرشاد العَقْل السّليم: 2/245.
(3) القنّوجي، فتح البيان: 3/271.
(4) الهرري، حدائق الروح والريحان: 6/435.

ويستبعدونه؛ لأنّهم يرون أنّ المسلمين في وضع الضّعف والهزيمة، وفي هذا دليل على كراهِيَةِ أهل النّفاق للإسلام وأهله.

تقديم الخبر في قوله تعالى: ﴿فَإِن كَانَ لَكُمۡ فَتۡحٞ مِّنَ ٱللَّهِ﴾:

قدم الخبر ﴿لَكُمۡ﴾، وأصل الكلام: (فإن كان فتحٌ من اللّه لكم)؛ للدّلالة على اختصاص الفتح بالمسلمين لتفصيل الشّرط، وَ تبيينِ موقفهم منه، ويشير إلى سلوك نفسيٍّ لدى المنافقين؛ فهم يخادعون المؤمنين ويتربّصون بهم، ومع ذلك يريدون أن يكون لهم موقف إذا انتصر المسلمون، وظهر ذلك في تقديم الخبر ﴿لَكُمۡ﴾ في الذّكر.

قدّم المسند للدّلالة على سلوك المنافقين في حالة اختصاص الفتح بالمسلمين

سرّ التّعبير عن النّصر بالفتح في جانب المؤمنين:

قوله تعالى: ﴿فَإِن كَانَ لَكُمۡ فَتۡحٞ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ عبّر عن النّصر في جانب المؤمنين بأنّه فتحٌ؛ "لأنّ الفتح فصل بين الحقّ والباطل، ولأنّه من وراء نصر المؤمنين فتح الطّريق لكي يدرك النّاس الإسلام، ويدخل فيه من أراد، ولأنّ النّصر للمؤمنين دائم، وقد عبّر سبحانه عن الفتح أنّه يجيء من اللّه وفي ذلك معنى الدّوام؛ لأنّ الذي يجيء به هو اللّه القائم على كلّ شيء فهو باقٍ ما بقيت الأسباب التي تُتّخذ للنّصر"[1]، ويضاف إلى ذلك أنّه عبّر بالفتح عمّا يحصل للمسلمين؛ لأنّه انتصار دائم.

تعظيمًا لأمر الإيمان وأهله، فهو فصل بين الحق والباطل

فعبّر البيانُ القرآنيُّ بالفتح عمّا يحصل للمسلمين؛ لأنّه انتصار دائم، وفيه إشارة إلى أنّ هذا النّصر هو فتح لأبواب الخير وطرق الهداية، وعبر عمّا يحدث للكافرين بالنّصيب؛ فلم يقل إنّ انتصارهم فتحٌ، ولكنّه قدرٌ من النّصر قلّ أو كثر، ولا يمكن أن يكون فتحًا؛ لأنّه لا ينصر الباطل نصرًا دائمًا؛ تنبيهًا على أنّ الذي حصل للكافرين من نصرٍ في معركة من المعارك هو من الدَّوْلَةِ في طبيعة الحرب؛ لأنّها سِجال.

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 4/1913.

دلالة التنكير في قوله: ﴿فَتۡحٞ مِّنَ ٱللَّهِ﴾:

نكّر الفتح؛ لأنّ سلوك المنافقين كان يتكرّر مع كلّ فتح، فالتّنكير للتّكثير

دل التنكير على أن المنافقين يستغلون الفرص، ويريدون النّفع لأنفسهم، ولو كان الأمر صغيرًا، وليس كبيرًا، وفيه دلالة على أنّ سلوكهم لم يكن ليتوقّف عن فتح واحد بعينه، بل كانوا يفعلون ذلك مع كلّ غزوة، ويصدّق ذلك الفعل المضارع ﴿يَتَرَبَّصُونَ﴾ فهو تربّص مستمرّ متجدّد مع كل موقعة ينتج عنها فتح للمؤمنين أو نصيب للكافرين.

ولا مانع من إفادة التَّنكير - هنا - التعظيمَ مع التَّكثير، باعتبارين مختلفين؛ فعلى اعتبار أنّ فتح أيِّ بلد للإسلام يعدُّ فتحًا عظيمًا، كما أنَّ وصفه بقوله: ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ يكفي في اكتسابه العظمة، وباعتبار أنَّ الفتوحات كثيرة يفيد التكثير، وليس تنكير ﴿نَصِيبٌ﴾ كتنكير ﴿فَتۡحٞ﴾؛ لاحتمال دلالة (نصيب) على القلة، أو التحقير.

دلالة التعبير بالفتح دون النصر:

الفتح أعمُّ من النّصر، لتعلّقه بالمادّيات والمعنويّات

عبّر بالفتح دون النّصر؛ لأنّ معناه أعمّ؛ فالفتح يكون ماديًّا ومعنويًّا؛ فمنه فتح الباب بمعنى إزالة إغلاقه، ومنه فتح القُفل ونحو ذلك، ويرد بمعنى القضاء والحكومة، وبمعنى إرسال الرّحمة. ومن الفتح المعنويّ، فتح أبواب النّصر وأبواب الغنيمة والظّفر بها بخلاف النّصر؛ فإنّه بمعنى المعاونة والمناصرة[1]. فالملاحظ أنّ إطلاقات الفتح في القرآن متعدّدة، بخلاف مادة نصر.

سرّ وصف الفتح بكونه: ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾

وصف الفتح بكونه من الله تعالى تعظيمًا له، وإشارة إلى دوامه

دلّ هذا التّعبير على عظمة هذا الفتح، وأنّه يحمل معانيَ عديدة؛ لأنّه من اللّه؛ فهو "مُقَدِّرُهُ وَمُرِيدُهُ بِأَسْبَابٍ خَفِيَّةٍ وَمُعْجِزَاتٍ بَيِّنَةٍ"[2]. "وفيه تذكير للمؤمنين بأنّ ما كان لهم من نصر فهو من عند اللّه،

(1) الفيروزآبادي، بصائر ذوي التمييز: (فتح)، (نصر).
(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 5/237.

بتأييده لهم، وإلقاء الرّعب في قلوب الكافرين"[1]. وفيه إشارة إلى معنى الدّوام؛ لأنّ الذي يجيء به هو اللّه القائم على كلّ شيء فهو باقٍ ما بَقِيَتِ الأسباب التي تتّخذ للنّصر[2].

حكاية القرآن لقولهم التّقريري: ﴿قَالُوٓاْ أَلَمۡ نَكُن مَّعَكُمۡ﴾:

إعلان لقبيح طويّتهم، فطبيعة النّفاق، القول بلا عمل

هذا القول يشير إلى فضح وجه المنافقين الكالح؛ لأنّهم كانوا مع المؤمنين في المعركة بأجسادهم يمشون بها في تثاقل وانحراف، والحرب دائرة، والقتال مستعر؛ فلا عمل يصدر منهم، بل يقفون عند حيِّز القول الأجوف[3].

سرُّ العدول عن الإخبار إلى الإنشاء في قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ نَكُن مَّعَكُمۡ﴾ بدلًا من قولهم: (كنا معكم):

عبّروا عن غرضهم بأسلوب التّقرير لتأكيده وزيادة الإيهام

فالاستفهام في قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ نَكُن مَّعَكُمۡ﴾ "معناه أنّنا كنّا معكم مؤكّدين ذلك بالاستفهام، وهو الذي يسمّى الاستفهام التّقريريّ، وهو في أصله للنّفي، وهو داخل على النّفي، وهو: لم نكن معكم، فهو نفي لهذه القضية، ونفيُ النّفيِ إثباتٌ، ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ نَسۡتَحۡوِذۡ عَلَيۡكُمۡ﴾"[4]، فجاء التّعبير بهذا التركيب الإنشائيِّ؛ ليشير إلى أنّهم يحاولون تَأْكِيدَ وجودهم الجسديِّ؛ فكأنّهم أدركوا أنّ المؤمنين أنكروا وجودهم لعدم تقديمهم ما يدلّ على الأثر الفاعل؛ فحاولوا إزالة هذا الشّعور بهذا الأسلوب المؤكِّد على كينونة وجودهم.

دلالة التعبير بالمصاحبة في قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ نَكُن مَّعَكُمۡ﴾:

اختار القرآن الكريم التّعبير بالمصاحبة التي يدلّ عليها (مع) في قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ نَكُن مَّعَكُمۡ﴾ للإشارة إلى سلوك المنافقين في مثل

(1) الخطيب، التفسير القرآني: 3/940.
(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 4/1913.
(3) الخطيب، التفسير القرآني: 3/939.
(4) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 4/1913.

هذه المواقف؛ فهم يريدون الاستفادة في مواطن النّصر من الغنائم؛ لأنّ الغنيمة لا تكون إلّا لمن حضر؛ فأرادوا إثبات حضورهم ليتحقق شرط الأخذ من الغنيمة. وفيه إشارة إلى سماحة الإسلام أنّه يعامل المنافق بظاهره فيعامل معاملة المسلم؛ فيأخذ حظّه من الغنيمة.

دلّت المصاحبة على أنّ الحضور في المعركة شرط لأخذ الغنيمة

بلاغة العطف:

قوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ﴾ عطفت هذه الجملة على قوله تعالى: ﴿فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾؛ لأنّها وما قبلها تفصيل لتربّص المنافقين المذكور.

عطف الجملة على ما قبلها لأنّها تفصيل للتّربُّص

دلالة التعبير بـ (إن) في قوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ﴾:

دلّ التّعبير بـ (إن) على موقف المنافقين إذا دارت معركة بين المسلمين والكافرين؛ فإنَّهم يحاولون أن يقفوا موقفًا يخدم مصالحهم، ولا يحسمون النّتائج لصالح الكافرين؛ لأنّهم يعلمون قوَّة المسلمين وتأييد اللّه تعالى لهم؛ فلا يريدون الظّهور بالعداء للمسلمين مع وجودهم فيهم، بل يقفون موقفًا انتهازيًّا.

عبّر بأداة الشّرط (إن) الدّالّة على الشّك لما علموا من قوّة المسلمين

سرّ تقديم المسند في قوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ﴾:

قدّم خبر كان على اسمها، فلم يقل: (وإن كان نصيب للكافرين)؛ لمزيد الاهتمام من المنافقين بالكافرين؛ وكأنّهم يريدون أن يعلنوا من طرف خفيٍّ أنّهم مع الكافرين ويوالونهم.

قدّم خبر كان (للكافرين) لبيان زيادة المنافقين بهم

الغرض من الاستفهام:

عبّر بالاستفهام في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ﴾ لتقرير معيّتهم، أي" أنّنا كنّا معكم مؤكّدين ذلك بالاستفهام، وهو الذي يسمّى الاستفهام التّقريريّ، وهو في أصله للنّفي، وهو داخل على النّفي، وهو: لم نكن معكم، فهو نفي لهذه القضية، ونفيُ النّفيِ إثباتٌ، ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ﴾"[1].

عبّر بالاستفهام التّقريريّ لتأكيد معيّتهم للمؤمنين، وزيادة الإيهام

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 4/1913، وابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 5/237.

علة تسمية ظفر المسلمين فتحًا وظفر الكافرين نصيبًا:

تعظيمًا لأمر الإيمان وأهله، وذمًّا لشأن الكفر وأهله

سمّى ظفرَ المسلمين فتحًا، وظفر الكافرين نصيبًا "تعظيمًا لشأن المسلمين، وتخسيسًا لحظِّ الكافرين؛ لأنّ ظفر المسلمين أمر عظيم تفتح لهم أبواب السّماء حتّى ينزل على أوليائه. وأمّا ظفر الكافرين، فما هو إلا حظٌّ دنيّ، ولمظة من الدّنيا يصيبونها"[1]؛ "فإنّه مقصور على أمر دُنيويّ سريعِ الزّوال"[2].

سر التعبير بنصيب دون الحظ:

عبّر عن ظفرهم بالنّصيب دون الحظّ، لأنّ النّصيب يقع في الخير والشّرّ

آثر القرآن الكريم التّعبير بالنّصيب دون الحظّ؛ لأنّ النّصيب يكون في المحبوب والمكروه، والنّاظر في استعمالات القرآن الكريم يجد أنّ لفظ الحظّ يرد في الفضل والخير، قال تعالى: ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ۝٣٥﴾ [فصلت: 35] بخلاف النصيب؛ فيرد في جانب الخير وجانب الشّرّ، قوله تعالى: ﴿فَهَلۡ أَنتُم مُّغۡنُونَ عَنَّا نَصِيبٗا مِّنَ ٱلنَّارِ ۝٤٧﴾ [غافر: 47]، فالمراد بالنّصيب هنا، القسط من العذاب. إذًا فالملاحظ وجود فرق في الاستعمال القرآنيِّ بين النّصيب والحظّ؛ فيرد النصيب في الشرِّ، ولذلك استعمل النّصيب هنا مع الكافرين.

دلالة الاستفهام في قوله: ﴿أَلَمۡ نَسۡتَحۡوِذۡ عَلَيۡكُمۡ﴾:

أكّدوا امتنانهم على الكافرين بأسلوب التّقرير

عبّروا بأسلوب الاستفهام التّقريريّ إظهارًا لمنّتهم على الكافرين، وتأكيدًا لما كانوا يُبْدونَهُ في سلوكهم مع الفريقين، "ومراد المنافقين بهذا الكلام إظهار المنّة على الكافرين، أي: فاعرفوا لنا الحقَّ في هذا عليكم"[3].

دلالة الإخبار بالمعيّة مع المؤمنين دون الكافرين:

النّاظر في هذه الآية: ﴿أَلَمۡ نَكُن مَّعَكُمۡ وَإِن كَانَ لِلۡكَٰفِرِينَ نَصِيبٞ قَالُوٓاْ أَلَمۡ نَسۡتَحۡوِذۡ عَلَيۡكُمۡ﴾ يجد مغايرة في قول المنافقين مع

(1) الزمخشري، الكشاف: 1/578 - 579، والنسفي، مدارك التنزيل: 1/406 - 407، وأبو السعود، إرشاد العَقْل السّليم: 2/245.
(2) البيضاوي، أنوار التنزيل: 2/104.
(3) الواحدي، البسيط: 7/158، والبَغَويّ، معالم التّنزيل: 1/714، والخازن، لباب التأويل: 1/439.

المؤمنين، حيث قالوا ﴿أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ﴾، وقالوا مع الكافرين ﴿أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ﴾، فاختلف التّعبير القرآني الصّادر عن المنافقين مع الكافرين؛ لاختلاف المواقف؛ فهم مع المؤمنين لهم وجود ومعايشة، ومساكنة، بل ويصلّون معهم إذا لزم الأمر؛ فالمعيّة ظاهرة، لذلك وظّفوها في طلب منفعتهم، بخلاف الأمر مع الكافرين فهو مختلف؛ لأنّهم لا يستطيعون إعلان المعيّة الظّاهرة، وإن كانوا مؤيّدين لهم في الباطن حتّى لا ينكشف أمرهم ويَفْتَضِحَ وجوههم.

عبّروا بالمعيّة لأنّ حياتهم مع المؤمنين فيها مُساكَنةٌ

سر التّعبير بالاستحواذِ دون غيره:

عبّر في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ﴾ بفعل الاستحواذ، إشارة إلى معنى الاستيلاء والتّمكن من فعل الشيء؛ فالمنافقون يمنّون على الكافرين، وأنّ ما نالوه من نصيب هو بسبب ما فعلوه معهم. وفيه إشارة إلى قيادة المنافقين للكافرين أخذًا من المعنى اللُّغويّ الذي يدلّ على السَّوق العنِيف لِحادي الإبل؛ فالكافرون في نظرهم بمنزلة الإبل التي تساق بعنف، وممّا يدلّ على ذلك وجود الجار والمجرور (عليكم) فهو يحمل معنى الاستعلاء، ويؤكّد هذا ما ذكره الشيخ أبو زهرة: "أن كلمة استحوذ معناها: أحطنا بحاذيكم أي جانبيكم، وهذا كناية عن الإحاطة بهم للحماية والمنع"[1].

عبّر بالاستحواذ للدّلالة على الاستيلاء والتّمكّن من الفعل

كيفية الاستحواذ:

تعدّدت آراء العلماء في كيفية استحواذ المنافقين، وخلاصتها ما ذكره الرَّازي بأنّ معناه: أَلَمْ نَغْلِبْكُمْ وَنَتَمَكَّنْ مِنْ قَتْلِكُمْ وَأَسْرِكُمْ، ثُمَّ لَمْ نَفْعَلْ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ، وَنَمْنَعْكُمْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ بِأَنْ ثَبَّطْنَاهُمْ عَنْكُمْ، وَخَيَّلْنَا لَهُمْ مَا ضَعُفَتْ بِهِ قُلُوبُهُمْ، وَتَوَانَيْنَا فِي مُظَاهَرَتِهِمْ عَلَيْكُمْ، فَهَاتُوا لَنَا نَصِيبًا مِمَّا أَصَبْتُمْ[2].

تظاهر المنافقين لكل طائفة بأنهم معهم دون الأخرى

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 4/1914.

(2) الرازي، مفاتيح الغيب: 11/247 - 248.

صدّ المنافقين للكفار عن الإسلام

يظهر هذا الصّدّ في تفسير استحواذ المنافقين في تنفير الكفّار واليهود من الإسلام، وهذا المعنى ذكره الإمام الرازي فقال: "الْمَعْنَى أَنَّ أُولَئِكَ الْكُفَّارَ وَالْيَهُودَ كَانُوا قَدْ هَمُّوا بِالدُّخُولِ فِي الْإِسْلَامِ، ثُمَّ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ حَذَّرُوهُمْ عَنْ ذَلِكَ وَبَالَغُوا فِي تَنْفِيرِهِمْ عَنْهُ وَأَطْمَعُوهُمْ أَنَّهُ سَيَضْعُفُ أَمْرُ مُحَمَّدٍ وَسَيَقْوَى أَمْرُكُمْ، فَإِذَا اتَّفَقَتْ لَهُمْ صَوْلَةٌ عَلَى الْمُسْلِمِينَ قَالَ الْمُنَافِقُونَ: أَلَسْنَا غَلَبْنَاكُمْ عَلَى رَأْيِكُمْ فِي الدُّخُولِ فِي الْإِسْلَامِ وَمَنَعْنَاكُمْ مِنْهُ وَقُلْنَا لَكُمْ بِأَنَّهُ سَيَضْعُفُ أَمْرُهُ وَيَقْوَى أَمْرُكُمْ، فَلَمَّا شَاهَدْتُمْ صِدْقَ قَوْلِنَا فَادْفَعُوا إِلَيْنَا نَصِيبًا مِمَّا وَجَدْتُمْ. وَالْحَاصِلُ أَنَّ الْمُنَافِقِينَ يَمُنُّونَ عَلَى الْكَافِرِينَ بِأَنَّا نَحْنُ الَّذِينَ أَرْشَدْنَاكُمْ إِلَى هَذِهِ الْمَصَالِحِ، فَادْفَعُوا إِلَيْنَا نَصِيبًا مِمَّا وَجَدْتُمْ"[1].

إيثار التعبير بالمؤمنين دون المسلمين:

آثر التّعبير بعنوان الإيمان دون الإسلام إخراجًا للمتظاهرين بالإسلام

في قوله تعالى: ﴿وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ آثر القرآن الكريم التّعبير بـ ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ دون المسلمين؛ لإخراج المنافقين الذين يتظاهرون بالإسلام، كما فعل هؤلاء من خلال سياق هذه الآية، حيث قالوا للمؤمنين: ﴿أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ﴾.

بلاغة العطف المنع على الاستحواذ:

وصل بين الجملتين لكمال الاتّصال؛ لأنّهما من قائل واحد

عطف قوله تعالى: ﴿وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ على قوله: ﴿نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ﴾؛ لشدّة الاتّصال بينهم؛ لأنّهما مقول المنافقين، ولأنّ المنع جزءٌ من الاستحواذ؛ فهو من باب عطف الخاصّ على العام.

سرّ التعبير بالمنع دون الكف:

عبّر بالمنع دون الكفّ؛ لأنّ المنع يقال في الحماية، ومنه مكان منيع، وفلانٌ ذو منعة، أَيْ: عزيز ممتنع على من يرومه، بخلاف الكفّ فهو بالدّفع على أَيِّ وجهٍ كان، بالكفّ كان أو بغيره، ولذلك

(1) الرازي، مفاتيح الغيب: 11/247 - 248.

فالكفّ أعمّ من المنع؛ لأنّ المنع الأصل فيه الحماية، وقد لا تصل إلى المواجهة، بخلاف الكفّ؛ فقد يصل إلى المواجهة بالقتال، وعلى ذلك فالكفّ أقوى من المنع، ولذلك نجد أن المنافقين استخدموا التعبير بالمنع؛ لأنّه يراد به هنا "إِمَّا مَنْعٌ مَكْذُوبٌ يُخَيِّلُونَهُ الْكُفَّارَ وَاقِعًا وَهُوَ الظَّاهِرُ، وَإِمَّا مَنْعٌ تَقْدِيرِيٌّ وَهُوَ كَفُّ النُّصْرَةِ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ، وَالتَّجَسُّسُ عَلَيْهِمْ بِإِبْلَاغِ أَخْبَارِهِمْ لِلْكَافِرِينَ، وَإِلْقَاءُ الْأَرَاجِيفِ وَالْفِتَنِ بَيْنَ جُيُوشِ الْمُؤْمِنِينَ، وكلّ ذَلِك ممّا يُضْعِفُ بَأْسَ الْمُؤْمِنِينَ إِنْ وَقَعَ، وَهَذَا الْقَوْلُ كَانَ يَقُولُهُ مَنْ يَنْدَسُّ مِنَ الْمُنَافِقِينَ فِي جَيْشِ الْمُسْلِمِينَ فِي الْغَزَوَاتِ، وَخَاصَّةً إِذَا كَانَتْ جُيُوشُ الْمُشْرِكِينَ قُرْبَ الْمَدِينَةِ مِثْلَ غَزْوَةِ الْأَحْزَابِ"[1].

الأصل في المنع الحماية ولو في الظاهر، والكف يحتمل المواجهة

سر التعبير بالمضارع في قوله: ﴿وَنَمۡنَعۡكُم﴾:

عبّر بالمضارع للإشارة إلى زعم المنافقين بأنّهم يمتلكون القوّة في منع المؤمنين عنهم في الحال والمستقبل.

عبّر بالمضارع للدّلالة على التّجدّد والاستمرار، تنزيلًا على زعم المنافقين

سر الجمع بين الاستحواذ والمنع:

جمع القرآن الكريم بينهما؛ للدّلالة على شدة ميل المنافقين إلى الكفار، فلم يكتفوا بواحدة منهما، بل أرادوا تأكيدَ شدة ميلهم إلى الكافرين، كأنَّهم يقولون لهم نحن الذين صنعنا لكم هذا النّصر، وذلك بأن أرخينا لكم العنان، وثبّطنا المؤمنين عنكم، وهذا يؤكد شدة ميلهم إلى الكفار، حيث اكتفوا مع المؤمنين بالمعيَّة فقط ﴿قَالُوٓاْ أَلَمۡ نَكُن مَّعَكُمۡ﴾.

صلة المنافقين بالكفار وثيقة

التّعبير عن الحكم بالفعل المضارع:

عبّر عن حكمه تعالى في قوله جلّ شأنه: ﴿فَٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ﴾ بالفعل المضارع الدّالّ على الحدوث والتّجدّد اعتباريًّا "أي باعتبار ظهور الحكم وبروز متعلّقه، وإلّا فالحكم قديم أزليٌّ"[2].

الحكم تقدير قديم، وظهوره حادث عند تعلّقه بالنّاس

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 5/237.

(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/63.

الغرض من الإخبار بالحكم بينهم يوم القيامة:

تسلية المؤمنين وتأنيسهم، وإنذار المنافقين وتحذيرهم

قوله جلّ شأنه: ﴿فَٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ﴾ جاءت هذه الجملة تسلية للمؤمنين وتحذيرًا للمنافقين؛ ذلك أن الله يحكم بينكم جميعًا "حكمًا يليق بشأن كل منكم من الثّواب والعقاب؛ فلا يغترّ المنافقون بحقن دمائهم في الدّنيا لتلفّظهم بالشّهادة؛ لِما له تعالى في ذلك من الحكمة؛ فيوم القيامة لا ينفعهم ظواهرهم"[1]، وإنما أجَّل الله الحكم ليوم القيامة؛ لإنصاف المؤمنين من المنافقين "ففي هذا اليوم تنكشف الحقائق وتظهر الضّمائر، وإنْ حقنوا في الدّنيا دماءهم وحفِظوا أموالَهم بالتّكلم بكلمة الإسلام نفاقًا"[2]؛ والله سبحانه وليّ المؤمنين "سيقطع ما بين الفريقين، وسيكون المؤمنون في النّعيم، وأولياء الشّيطان في الجحيم"[3].

سر الاكتفاء بقوله ﴿يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ﴾ دون (وبينهم):

اكتفى بذكر ضمير المؤمنين إشارة انتفاء أهليتهم بالذّكر

الأصل في التحكيم أن يكون بين طرفين، والمراد هنا بين المؤمنين والمنافقين، لكن التعبير القرآني لم يشر إلى المنافقين على رأي من يقول إنّ الضّمير في قوله: ﴿بَيۡنَكُمۡ﴾ يعود إلى المؤمنين، والسبب في عدم ذكر المنافقين والكافرين، الإشعار بأنهم ليسوا أهلًا للذكر، ولا وزن لهم؛ كما قال ربنا: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَزۡنٗا ١٠٥﴾ [الكهف: 105]، وإنما الشأن في هذا اليوم للمؤمنين وحدهم؛ فهم أصحاب هذا اليوم يجنون ما به من ثمرات[4].

سرّ التّعبير بالجملة الاسمية في قوله: ﴿فَٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ﴾:

عبّر عن حكمه تعالى بالجملة الاسميّة للدّلالة على ثبوت حكمه، تأكيدًا لطمأنة المؤمنين

جاءت الجملة الاسمية؛ للدلالة على ثبوت الحكم لله ﷻ؛ فلا حكم إلا له، قال تعالى: ﴿إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۖ﴾ [الأنعام: 57]، وفيه إشارة إلى زجر المنافقين والكافرين، وطمأنة المؤمنين بأنه لا معقّب لحكمه.

(1) القاسمي، محاسن التأويل: 3/376.
(2) القنّوجي، فتح البيان: 3/272.
(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 4/1914.
(4) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 2/904.

إيثار تعليق الحكم بيوم القيامة:

آثر التّعبير بالحكم، والمراد لازمُه؛ فيثيب أحبّاءه، ويعاقب أعداءه، وأمّا في الدنيا فأنتم وهم سواء في العصمة، "﴿فَٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ﴾ حكمًا يليق بشأن كلٍّ منكم من الثّواب والعقاب، وأمّا في الدّنيا فقد أُجْرِيَ على من تفوَّه بكلمة الإسلام حُكمُه، ولم يضع السّيفَ على من تكلّم بها نفاقًا"[1].

علّق إجراء الحكم بيوم القيامة لأنّ الدّنيا دار بلاء لا دار جزاء

سرُّ التعبير بيوم القيامة دون غيره من الأوصاف:

أسماء يوم القيامة في القرآن كثيرة؛ كالحاقّة والقارعة والصّاخة والطّامّة وغير ذلك، وهي ليست مترادفة؛ لأنّ اسم يوم القيامة هو الاسم الأصل لهذا اليوم، وما عداه أوصاف له؛ يؤكّد ذلك أنّه ورد فيما يقرب من سبعين آية، بخلاف الأوصاف الأخرى فلم ترد إلا قليلًا؛ إذ كلّ واحد منهما يصف اليوم من جانب خاصّ، بخلاف اسم يوم القيامة فهو الاسم العلم، والباقي له صفات. وفيه إشارة إلى أنه البداية لما بعده، قال تعالى: ﴿يَوۡمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٦﴾ [المطففين: 6] للحساب وللجزاء.

عبّر عن يوم البعث بالقيامة لأنّه الاسم العلم لذلك اليوم

بلاغة عطف الوعد على الحكم:

قوله تعالى: ﴿وَلَن يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لِلۡكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ سَبِيلًا﴾ عطفت هذه الجملة على ما قبلها لشدّة الاتّصال بينهما؛ فَهِيَ بمثابة بيان نتيجة الحكم الوارد في قوله تعالى: ﴿فَٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ﴾، فحكم بأنَّه لن يجعل للكافرين على المؤمنين سبيلًا.

وعد الله للمؤمنين بأن تكون يدهم هي العليا ويد الكافرين هي السّفلى

دلالة مجيء الوعد في فاصلة الآية:

ختم الآية بقوله جلّ شأنه: ﴿وَلَن يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لِلۡكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ سَبِيلًا﴾ بهذا الوعد؛ لتثبيت المؤمنين، ودحضِ أوهام المنافقين

(1) أبو السعود، إرشاد العَقْل السّليم: 2/245.

والكافرين؛ لأنَّ المؤمنين يعيشون بين "عَدُوٍّ مُجَاهِرٍ بِكُفْرِهِ. وَعَدُوٍّ مُصَانِعٍ مُظْهِرٍ لِلْأُخُوَّةِ، سالكًا مسلك النّفاق فأظهر أقصى درجات المكر والحيلة، وهذا يُثِيرُ مَخَاوِفَ فِي نُفُوسِ الْمُسْلِمِينَ وَقَدْ يُخَيِّلُ لَهُمْ مَهَاوِيَ الْخَيْبَةِ فِي مُسْتَقْبَلِهِمْ. فَكَانَ مِنْ شَأْنِ التَّلَطُّفِ بِهِمْ أَنْ يُعْقِبَ ذَلِكَ التَّحْذِيرَ بِالشَّدِّ عَلَى الْعَضُدِ، وَالْوَعْدِ بِحُسْنِ الْعَاقِبَةِ، فَوَعَدَهُمُ اللَّهُ بِأَنْ لَا يَجْعَلَ لِلْكَافِرِينَ، وَإِنْ تَأَلَّبَتْ عِصَابَاتُهُمْ. وَاخْتَلَفَتْ مَنَاحِي كُفْرِهِمْ، سَبِيلًا عَلَى الْمُؤْمِنِينَ"[1].

ختم الآية بوعد المؤمنين بنفي ظهور الكافرين عليهم تثبيتًا لهم وتلطّفًا بهم

إيثار النَّفي بـ (لن):

في قوله جلّ شأنه: ﴿وَلَن يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لِلۡكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ سَبِيلًا﴾ آثر القرآن الكريم النّفي بـ (لن) لِما تحمله من ردّ على المنافقين فيما أمّلوه ورجوه وانتظروه من زوال دولة المؤمنين، وفيما سلكوه من مصانعتهم الكافرين خوفًا على أنفسهم منهم، إذا هم ظهروا على المؤمنين، وفيه تثبيت للمؤمنين، ووعد كريم بأنّ الله تعالى لن يسلّط الكافرين على المؤمنين فيستأصلوهم بالكليّة. وإن حصل لهم ظفر حينًا ما، وهذا التّأويل روعي فيه سابق الآية ولا حقها.

آثر النّفي بـ (لن) الدّالّ على المستقبل قطعًا لآمال المنافقين، وتثبيتًا للمؤمنين

توجيه نفي ظهور الكافرين على المؤمنين:

قوله تعالى: ﴿وَلَن يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لِلۡكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ سَبِيلًا﴾ هذا خبر بوعد الله الكريم، والخبر من الله ﷻ حاصلٌ لا محالة، والواقع أنّنا نرى أن الكافرين يتسلّطون على المؤمنين في بلادهم وأبدانهم، أجاب ابن العربيّ على ذلك بأنّ المراد لَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا يَمْحُو بِهِ دَوْلَةَ الْمُؤْمِنِينَ، وَيُذْهِبُ آثَارَهُمْ، وَيَسْتَبِيحُ بَيْضَتَهُمْ[2].

المنفيّ هو غلبتهم باستئصال شأفتهم واستباحة بيضتهم

ذهب بعض العلماء إلى أنّ المنفيّ الحجّة في الآخرة؛ لأنّه عطف على قوله: ﴿فَٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾[3]، "قال يسيع

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 5/238.
(2) ابن العربي، أحكام القرآن: 1/510.
(3) الواحدي، البسيط: 7/159.

الحضرمي: كنت عند عليّ بن أبي طالب (رضي الله عنه) فقال له رجل: يا أمير المؤمنين أرأيت قول الله تعالى: ﴿وَلَن يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لِلۡكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ سَبِيلًا﴾ كيف ذلك وهم يقاتلوننا ويظهرون علينا أحيانًا؟ فقال عليّ (رضي الله عنه): معنى ذلك: يوم القيامة يكون الحكم، وبهذا قال أهل التّأويل"[1]. وذهب بعضهم إلى أَنَّ ذلك في الدُّنْيَا، وَالْمَعْنَى أَنَّ حُجَّةَ الْمُسْلِمِينَ غَالِبَةٌ عَلَى حُجَّةِ الْكُلِّ، وَلَيْسَ لِأَحَدٍ أَنْ يَغْلِبَهُمْ بِالْحُجَّةِ وَالدَّلِيلِ[2]، ولعل هذا هو الأوفق.

المنفيّ هو ظهورهم عليهم بالحجّة والغلبة في الاحتجاج

سر التعبير بالجعل دون غيره:

في قوله تعالى: ﴿وَلَن يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لِلۡكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ سَبِيلًا﴾ عبّر بالجعل دون غيره لإفادة معنى المنّة على المؤمنين؛ لأنّ (جعل) بمعنى (صيّر وحوّل)؛ فالأصل أن تكون الغلبة والنّصر للمؤمنين، لكن قد يتعرّض المسلمون للغلبة من الكافرين في موقعة ما؛ فهذا أمر طارئ بسبب المعاصي، وعدم الأخذ بالأسباب، ولن يحوّل الله تعالى وعده للمؤمنين في قوله جلّ شأنه: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيۡنَا نَصۡرُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٤٧﴾ [الروم: 47].

عبّر بالجعل دون غيره للدّلالة على محض الامتنان

دلالة إسناد الجعل إلى الله تعالى في هذه الآية:

أسند الجعل إلى الله تعالى؛ لإفادة طمأنة المؤمنين، وتثبيتهم في معاركهم مع الكافرين؛ لأن اسم الجلالة يجمع صفات الجمال والجلال ومن معانيها، قهر الكافرين، مع ما فيه من المهابة والتّعظيم.

أسند الجعل المنفيّ لله تعالى للمهابة والتّعظيم، طمأنة للمؤمنين

السّرّ في نفي غلبة الكافرين دون إثبات غلبة المؤمنين:

نفى سبيل الكافرين على المؤمنين في قوله تعالى: ﴿وَلَن يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لِلۡكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ سَبِيلًا﴾ دون إثبات السّبيل للمؤمنين، بأن

(1) ابن جرير، جامع البيان: 9/324، وابن عطية، المحرر الوجيز: 2/126.

(2) الزّجاج، معاني القرآن وإعرابه: 2/122، والرازي، مفاتيح الغيب: 11/248، والخازن، لباب التأويل: 1/439.

يقول: (ويجعل اللّه السّبيل للمؤمنين على الكافرين)؛ لأنّه هو الأصل، أمّا وجود سبيل للكافرين على المؤمنين فهو طارئ موقوت وعارض إلى زوال، وفيه إشارةٌ إلى قوّة الكافرين، وأنّهم يملكون من القدرة على النّصر والتّمكّن من المؤمنين، وهذا ما حدث في غزوة أحد وغيرها من الغزوات، وهذا لا يعني وجود سبيل للكافرين على المؤمنين.

لم يصرّح بغلبة المؤمنين؛ لأنّه الأصل وانتصار الكافرين طارئ

سر المقابلة بين الكافرين والمؤمنين في فاصلة الآية:

قابل بين الوصفين في قوله تعالى: ﴿لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، إشارة أنّ سبب انتفاء الجعل هو هذا الوصف، فإنّ اللّه تعالى لن يجعل للكافرين بوصف الكفر سبيلًا للظّهور على المؤمنين بوصف الإيمان. إذًا الوصف بالكفر مقابل وصف الإيمان هو السّبب في نفي ولاية الكفّار على المؤمنين الذين تحقّقت فيهم صفة الإيمان، الذي يترتّب عليه نصر اللّه للمؤمنين.

التّصريح بالصّفتين، إظهارًا لسبب امتناع ظهورهم على المؤمنين

إيثار التّعبير بلفظ السبيل دون غيره:

في قوله تعالى: ﴿وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ اختار ﴿سَبِيلًا﴾ دون غيره؛ لأنه عام يطلق على كل ما يتوصل به، ومنه القهر والحجة، "وَالْمُرَادُ بِالسَّبِيلِ طَرِيقُ الْوُصُولِ إِلَى الْمُؤْمِنِينَ بِالْهَزِيمَةِ وَالْغَلَبَةِ"[1].

آثر التّعبير بلفظ السّبيل لأنّه عامّ يطلق على ما يتوصّل به إلى الحجّة والظّفر وغيره

فائدة التّنكير في لفظ السّبيل:

في قوله تعالى: ﴿وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ جاء لفظ السّبيل نكرة للتّعميم، فيشمل كلّ سبيل يؤدّي إلى الظّهور معنويًّا أو مادّيًّا.

جاء لفظ السّبيل نكرة؛ ليشمل كلّ أنواع السّبل المؤدّية إلى الظّهور معنويًّا أو مادّيًّا

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 5/238.

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الفتح والنّصر:

عبر بالفتح دون النصر؛ لأن معناه أعمّ؛ فالفتح يكون ماديًّا ومعنويًّا؛ فمنه فتح الباب بمعنى إزالة إغلاقه، ومنه فتح القُفل ونحو ذلك، ويرد بمعنى القضاء والحكومة، وبمعنى إرسال الرّحمة. ومن الفتح المعنويّ، فتح أبواب النّصر وأبواب الغنيمة والظّفر بها بخلاف النّصر؛ فإنّه بمعنى المعاونة والمناصرة[1]. فالملاحظ أنّ إطلاقات الفتح في القرآن متعدّدة، بخلاف مادة نصر.

الفتح أعمُّ من النّصر، لتعلّقه بالمادّيّات والمعنويّات، وهو أنسب لمقام الآية حيث طمع المنافقون في الغنائم وهي تقع في الفتح

"النّصر: الإغاثةُ والإظهارُ على العدوّ. ومنه: نصر الله الأرض غاثها. والفتح: فتح البلاد"[2]، والذي يناسب الآية (الفتح) لأنّه يتحقّق بفتح البلاد كثير من الغنائم والفَيْءِ، وهذا أدعى إلى طمع المنافقين في التَّربُّصِ والمطالبةِ بسهم من تلكم الغنائم.

الحظّ والنّصيب:

النّصيب يكون في المحبوب والمكروه، يقال: وفَّاه الله نصيبه من النّعيم أو العذاب، ولا يقال حظّه من العذاب؛ لأنّ أصل الحظّ هو ما يحظّه الله تعالى للعبد من الخير، والنّصيب: ما نصب له ليناله سواءٌ كان محبوبًا أو مكروهًا[3].

النّصيب يكون في الشرّ والخير، والحظّ في الخير، وذكر النّصيب في الآية؛ لأنّه جاء مع الكافرين

آثر القرآن الكريم التّعبير بالنّصيب دون الحظّ؛ لأنّ النّصيب يكون في المحبوب والمكروه، والناظر في استعمالات القرآن الكريم يجد أنّ لفظ الحظّ يرد في الفضل والخير، قال تعالى: ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ۝٣٥﴾ [فصلت: 35] بخلاف النصيب؛ فيرد في جانب الخير، كقوله تعالى: ﴿مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا﴾

(1) الفيروزابادي، بصائر ذوي التمييز: (فتح)، (نصر).
(2) الزمخشري، الكشاف: 4/810.
(3) العسكري، الفروق العسكرية، ص: 186.

وَمَن يَشۡفَعۡ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفۡلٞ مِّنۡهَاۖ﴾ [النساء: 85]، و يأتي في الشر كقوله تعالى: ﴿فَهَلۡ أَنتُم مُّغۡنُونَ عَنَّا نَصِيبٗا مِّنَ ٱلنَّارِ ٤٧﴾ [غافر: 47]، فالمراد بالنصيب هنا، القسط من العذاب. إذًا فالملاحظ وجود فرق في الاستعمال القرآنيّ بين النصيب والحظ؛ فيرد النصيب في الشر، ولذلك استعمل النّصيب هنا مع الكافرين.

الانتظار والتّربّص:

التّربّص انتظار يطول، فناسب الآيـــة لـطـول انتظار المنافقين

"التَّرَبُّص: طولُ الِانْتِظَار، يكون قصير المدَّة وطويلها وَمن ثمَّ يُسمّى المتربّص بِالطَّعَام وَغَيره متربّصًا؛ لِأَنَّهُ يُطِيل الِانْتِظَار لزِيَادَة الرِّبْح، وَمِنْه قَوْله تَعَالَى: ﴿فَتَرَبَّصُواْ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٖ ٢٥﴾ [المؤمنون: 25] وَأَصله من الرّبصة وَهِي التلبّث يُقَال مَا لي على هَذَا الْأَمر ربصة أَي تلبّث فِي الِانْتِظَار حَتَّى طَال"[1]. وفي الآية الكريمة دلّت على أنّ انتظار المنافقين يطول؛ فأنْ يحيق بالمؤمنين دائرة من دوائر السّوء يلزمه الانتظار حتّى يطول؛ لأنّ القتال لا يقع إلّا قليلًا.

(1) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 76.

﴿إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمۡ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلٗا ١٤٢﴾ [النساء: 142]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

ما زال الحديث موصولًا عن صفات المنافقين؛ فذكر في الآيات السابقة أنّهم يتربّصون بهم الدّوائر، ويريدون أن ينالوا من الغنائم من غير أن يعملوا، وقلوبهم مع الكافرين، ثم جاءت هذه الآية لتذكر وصفًا آخر لأهل النّفاق، وهو أنّهم يظنّون أنّ أعمالهم مستورة، وأنّ النّاس عنهم غافلون، بل إنّه ليصل بهم فرط غرورهم إلى أن يظنّوا أنّ اللّه تعالى لَا يعلم ما يسرّون وما يعلنون، ويعاملوا النّاس على أساس هذه الخديعة[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يُخَٰدِعُونَ﴾: (خدع) أصل واحد وهو إخفاء الشّيء، مأخوذٌ من خدع الضّب: أي استتر في جحره[2]، و"الخداع أن يحاول المخادع حمل الغير على تغيير اعتقاده فيه، بحيث يعتقد فيه الخير، وليس أهلًا لهذا الاعتقاد، فيوهمه أنّ أمره على ما يحبّ، وهو على ما يكره، أو أن يُظهرَ من الأفعال ما يُخْفِي أمرَه، ويستر حقيقتَه، بغية تضليل من يعامله"[3].

2) ﴿كُسَالَىٰ﴾: (كَسَلَ) أَصْلٌ وَهُوَ التَّثَاقُلُ عَنِ الشَّيْءِ الذي لا ينبغى التثاقل عنه وَالْقُعُودُ عَنْ إِتْمَامِهِ، وَالْفُتُورُ عنه[4]، ﴿قَامُواْ كُسَالَىٰ﴾، أي "يقومون متثاقلين متقاعسين، كما ترى من يفعل شيئًا على كُرْه، لا عن طيب نفس ورغبة"[5].

3) ﴿يُرَآءُونَ﴾: "﴿يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ﴾ معنى الرّياء: إظهارُ الجميل ليراه النّاس، لا لاتّباع

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 4/1915.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (خدع).
(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 4/1915.
(4) أ ابن فارس، مقاييس اللغة: (كسل)، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/108.
(5) الواحدي، البسيط: 7/160، والزمخشري، الكشاف: 1/579.

أمر اللّه"[1]، "وهو من الرّؤية البصرية التي جاء بها غالب مواضع هذا التركيب في القرآن "[2].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

يخبر اللّه تعالى أنّ المنافقين يخادعون اللّه بإظهار الإسلام وإضمار الكفر، والحقيقة أنّه تعالى هو خادعهم؛ لأنّه عصم دماءهم مع علمه بكفرهم، وأعدّ لهم أشدّ العقوبة في الآخرة، ومن صفاتهم أنّهم إذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى كارهين لها، وهم لا يذكرون اللّه إلا قليلًا؛ لأنّهم يذكرونه إذا رأوا المؤمنين وحسب[3].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالة فصل الآية عمَّا قبلها وعدم عطفها:

فصل الجملة لأنّها جاءت جوابَ سؤالٍ عن الدّافع من تربّصهم

لم تعطف هذه الجملة على ما قبلها؛ لأنها جاءت جوابًا لسؤال نشأ عن سلوك المنافقين في الآية السابقة من الحالة المضطربة والقلقة في سلوك المنافقين؛ فيقولون للمؤمنين عند الفتح والنصر ﴿أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ﴾، ويقولون للكافرين عندما يكون لهم نصيب من النّصر ﴿قَالُوٓاْ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ﴾ الآية؛ فكانت هذه الآية بمثابة الجواب عن هذا السؤال، إنهم يفعلون ذلك مخادعة للمؤمنين وجهلًا منهم بصفات العليم الخبير.

دلالة الاستئناف:

استئناف لبيان فيه مزيدٌ من كشفِ قبائحهم

قوله جلّ شأنه: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ﴾ استأنف لبيان "طرف آخرَ من قبائح أعمالِهم أي يفعلون ما يفعل المخادِعُ من إظهار الإيمانِ و إِبْطانِ نقيضِه"[4].

(1) الواحدي، البسيط: 7/160، والقُرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 5/422.
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (رأى).
(3) جماعة من العلماء، المختصر في تفسير القرآن الكريم: 1/101.
(4) أبو السعود، إرشاد العَقْل السّليم: 2/245 - 246.

سر التّأكيد بـ ﴿إِنَّ﴾ في بدء الآية:

بيّن ابن عرفة الغرض من التّأكيد بـ (إنّ)؛ فقال: "إنّما يصحّ إذا كان المخاطب منكرًا وطرأت عليه مخايل الإنكار، والتّأكيد هنا مصروف إلى ظنّهم أنّ خداعهم مؤثّر ونافع لهم"[1]. "وَتَأْكِيدُ الْجُمْلَةِ بِحَرْفِ (إِنَّ) لِتَحْقِيقِ حَالَتِهِمُ الْعَجِيبَةِ وَتَحْقِيقِ مَا عَقَبَهَا مِنْ قَوْلِهِ: وَهُوَ خادِعُهُمْ"[2].

أخبر بالجملة المؤكّدة لتحقيق حالتهم العجيبة

السّرّ بالتّعبير عن النّفاق بالخداع:

قوله جلّ شأنه: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ﴾ وصف ما يقومون به بأنّه خداع، والعلاقة بينهما ظاهرة؛ لأنَّ المخادع يظهر خلاف ما يبطن، والمنَافِقَ يظهر الإيمان ويبطن الكفر، "والمعنى: أنهم يعملون عمل المُخادع بما يظهرونه ويبطنون خلافه من النفاق"[3].

لمّا أبطنوا الكفر وأظهروا خلافه من الإيمان كان ذلك خداعًا

علّة التّعبير في المسند بالفعل المضارع:

أخبر عن خداعهم في قوله جلّ شأنه: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ﴾ بالفعل المضارع ﴿يُخَٰدِعُونَ﴾ للدّلالة على التّجدّد والحدوث والاستمرار، فهم لا يفعلون ذلك مرّة واحدة، بل يكرّرونه مستمرّين به، مبالغة في تقبيح فعلهم.

أخبر بالفعل المضارع للدّلالة على الاستمرار، وإصرارهم على تكرار الخداع، مبالغة في تقبيح فعلهم

دلالة اختيار صيغة يخادعون دون يخدعون:

اختار القرآن صيغة المفاعلة ﴿يُخَٰدِعُونَ﴾ التي تفيد المشاركة في الفعل دون صيغة (يخدعون)؛ لأنّ المفاعلة تأتي للمغالبة والمنافسة، ومن المعلوم أنّ الفعل إذا كانت فيه منافسة لمن يقوم به كان أبلغ وأحكم منه إذا مارسه وحده من غير منافسة، وذلك بزيادة قوّة

عبّر بصيغة المفاعلة للدّلالة على المبالغة في إحداث الفعل

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/64.
(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 5/239.
(3) الواحدي، البسيط: 7/159.

الدَّاعي إليه والتّنافس فيه، و في هذا إشارة أيضًا إلى مبالغة المنافقين في أمر الخداع.

أضاف الخداع لله تعالى وأراد أنّهم يخدعون المؤمنين:

نسب خداع المؤمنين لله تعالى تشريفًا لهم، وتعظيمًا لشأن المقصود بالخداع

قوله جلّ شأنه: ﴿إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ﴾ لا يجوز أن يتصوّر الخداع لله رب العالمين؛ لأنه يعلم الباطن والظاهر، ولا يخفى عليه شيء، فإنّما هم يخادعون النّبي ﷺ "بإظهارهم له الإيمانَ وإبطانِهم الكفْرَ، فجعل الله ﷻ مخادعة النّبي ﷺ مخادعة له"[1]، وفي جعل ذلك خداعًا لله تنبيه إلى: "فظاعة فعلهم فيما تحرّوه من الخديعة، إذ هم بمخادعتهم للرّسول إنّما يخادعون الله، وعظم شأن المقصود بالخداع وهو الرسول ﷺ، وأنّ معاملته بذلك كمعاملة الله به"[2]، وتقدير الكلام: "يخادعون رسُولَ الله ويخادعون أولياءَ الله، فإن أريد الأوّل فالتّشريف من جهة واحدة وهو التّعبير باسم الله عن اسم رسول الله، وإن أريد الثّاني فالتّشريف من جهتين، لأنّه تشريف لأولياء الله، والتّشريفُ لأوليائه تشريف لرسوله من باب أحرى"[3].

دلالة تسمية فعل المنافقين خداعًا لله:

أطلق الخداع على فعلهم إظهارًا لقباحة سلوكهم

سمى الله ذلك خداعًا؛ لبيان فظاعة فعلهم فيما صنعوه وتحروه من الخديعة. والمراد به إظهارهم الإيمانَ وإبطانهم الكفرَ؛ ليحقنوا دماءهم وأموالهم ويفوزوا بسهم من الغنائم، فسمّى فعلهم هذا خداعًا؛ لأنّ صورته صورة الخداع، ولا يجوز حمله على الحقيقة؛ لأنّ الله ﷻ لا يخفى عليه صنع المنافقين، بل لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السّماء[4].

(1) الزّجاج، معاني القرآن وإعرابه: 2/122 - 123، والواحدي، البسيط: 7/159.
(2) الهرري، حدائق الروح والريحان: 6/424، والخازن، لباب التأويل: 1/440.
(3) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/64، والصاوي، حاشية الصّاوي: 1/238.
(4) الطّنطاوي، الوسيط: 1/55.

بلاغة الإيجاز بحذف المضاف:

حـذف المضـاف (رسـول) وأقيم المـضـاف إلـيـه (الـلـه) مقامه تفظيعًا لعملهم

نسب خداعهم لله تعالى وهو خداع للنّبيّ ﷺ؛ إذ "نسق الكلام: يخادعون رسول الله، فحذفت كلمة الرّسول، وأقيم المضاف إليه وهو الله تعالى مقام المضاف تفظيعًا لعملهم، وإعلاء لقدر الرّسول والمؤمنين"[1]. "ومخادعَةُ المنافقين: هي لأولياءِ الله، ففِي الكلامِ حَذْفُ مُضَافٍ؛ إذْ لا يقصد أحَدٌ من البشر مخادَعَةَ الله سبحانه"[2].

المجاز بإسناد الخداع لله تعالى:

ذكر الخداع وأراد المجازاة، فتركهم مـعـصـومـي الدّماء في الدّنيا، وأعدّ لهم سوء المـنـقـلـب يـوم القيامة

نُسب الخداع لله تعالى في الآية من باب الاستعارة، حيث استعار اسم الخداع للمجازاة[3]؛ فالمراد بقوله: ﴿وَهُوَ خَٰدِعُهُمۡ﴾ أي "مجازيهم بالعقاب على خداعهم"[4]. "وهو فاعل بهم ما يفعل الغالب في الخداع حيث تركهم معصومي الدّماء والأموال في الدّنيا وأعدّ لهم الدّرك الأسفل من النّار في الآخرة، ولم يُخْلِهم في العاجل من فضيحة وإحلال بأس ونقمة ورعب دائم"[5]. ويجوز أن يكون الكلام من باب الاستعارة التّمثيليّة على استدراج الله إياهم، والمعنى: أَيْ فَقَابَلَهُمْ بِمِثْلِ صَنِيعِهِمْ، فَكَمَا كَانَ فِعْلُهُمْ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ الْمُتَّبِعِينَ أَمْرَ اللهِ وَرَسُولِهِ خِدَاعًا لله تَعَالَى، كَانَ إِمْهَالُ اللهِ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا حَتَّى اطْمَأَنُّوا وَحَسِبُوا أَنَّ حِيلَتَهُمْ وَكَيْدَهُمْ رَاجَا عَلَى الْمُسْلِمِينَ، و في هذا تشبيهٌ بِفعل المخادع جَزاءً وِفَاقًا. فَإِطْلَاقُ الْخِدَاعِ عَلَى اسْتِدْرَاجِ اللهِ إِيَّاهُمُ اسْتِعَارَةٌ تَمْثِيلِيَّةٌ[6].

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 4/1916 - 1917.
(2) الثعالبي، الجواهر الحسان: 2/319.
(3) الهرري، حدائق الروح والريحان: 6/443.
(4) الواحدي، البسيط: 7/160، والبَغَويّ، معالم التّنزيل: 1/714.
(5) الزمخشري، الكشاف: 1/579، والنسفي، مدارك التنزيل: 1/407، وأبو السعود، إرشاد العَقْل السّليم: 2/246.
(6) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 5/239.

الجناس الاشتقاقيّ في: ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمۡ﴾:

جماليّة الجناس في الألفاظ، وتأكيدُ المعنى إيقاظًا لهم

وفيه دلالة على جمال التّعبير اللّفظيّ بإيراد ألفاظ من جذر واحد في جملة واحدة، ولكن المراد في كل منهما مختلف. مع تَأكيدِ اللّفظ المكرّر الثّاني، فيقع التّنبيه عليه فيهتمّ به السّامع، إيقاظًا لهم وردعًا عن سوء فعلهم.

دلالة التّعبير بصيغة الفعل مع المنافقين، وبالاسم مع الله تعالى:

عبّر عن خداعهم بالفعل لحدوثه وزواله، وبصيغة الاسم في جزائهم لثبوته وتحققّه

عبّر عن خداعهم بالفعل على صيغة المفاعلة في قوله تعالى: ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمۡ﴾، وعبّر عن الخداع المسند للّه تعالى بالاسم الدّالّ على الثّبوت فقال جلّ شأنه: ﴿وَهُوَ خَٰدِعُهُمۡ﴾؛ "للدّلالة على الغلب، وأنّ اللّه تعالى لَا محالة كاشف أمرهم ومزيل مغبّة خداعهم، ومحاسبهم لَا محالة على ما يرتكبون"[1].

دلالة عطف ﴿وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾ على ما قبلها:

عطف كسلهم في الصّلاة على خداعهم لأنّهما أبرز صفاتهم، وبيانٌ لوجه من وجوه خداعهم

عطف قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ﴾ على قوله جلّ شأنه: ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمۡ﴾؛ لاشتراكهما في كونهما من صفات المنافقين، وفيه إشارة إلى تفسير خداعهم للمسلمين بالتظاهر بإقامة الصلاة معهم.

دلالة اختيار ﴿وَإِذَا﴾ بدلًا من (إن) في قوله: ﴿وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾:

عبّر بـ (إذا) لتحقّق وقوع الحدث، فقيامهم إلى الصّلاة بكسلٍ حقيقة لا مجاز

عبر بـ ﴿وَإِذَا﴾ التي تفيد تحقّق الوقوع إلى أداء المنافقين لصلاة الفرض من باب التّظاهر للمسلمين، وخداعهم بأنّهم يصلّون معهم، بخلاف (إن) التي تفيد الشّك في الوقوع؛ فلو قال: وإن قاموا إلى الصّلاة، لفهم أنّهم يصلّون بعض الصّلوات دون الأخرى، وعند ذلك ينكشف أمرهم.

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 4/1917.

دلالة تخصيص الصلاة بالذّكر دون غيرها من العبادات:

الصّلاة أظهر شرائع الإسلام

عبّر عن خداعهم وأعقبه بذكر شريعة من شرائع الإسلام ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمۡ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ﴾، وهي الصّلاة؛ وإنّما خصّها بالذّكر؛ لأنّها العنوان الأكبر الذي به يعرف إسلام المرء من عدم إسلامه؛ فلو لم يصلّوا وتركوها جحودًا لكان ذلك كفرًا صريحًا.

إيثار التّعبير بحرف الجرّ ﴿إِلَى﴾ دون (اللام):

نهاية فعل المنافقين هو القيام إلى الصَّلاةِ ولا يبتغون من ورائها أجرًا

آثر القرآن الكريم التعبير بحرف الجر ﴿إِلَى﴾ الذي يفيد انتهاء الغاية، بخلاف (اللام) التي تفيد معنى الاستحقاق والعلّة، فلو قال: (وإذا قاموا للصلاة)، لفهم أنّهم قاموا من أجل الصلاة نفسها، والواقع أنّهم لا يفعلون ذلك لأجل الصّلاة، بل يريدون أن يكونوا مشاركين للمؤمنين في حضور الصلاة للمراءاة؛ فغايتهم تنتهي عند حضورها فقط.

دلالة (ال) في الصلاة:

كان كسلهم في كلّ صلاة فرضًا ونفلًا

دلّت (ال) في الصّلاة على العموم؛ فلم تحدّد صلاة بعينها، لذلك كان رياؤهم على العموم يدخل الفرض والنّفل، يؤكّد هذا ما قاله بعض العلماء أنّ الآية "دلّت على أَنَّ الرِّيَاءَ يَدْخُلُ الْفَرْضَ وَالنَّفْلَ، لِقَوْلِ اللّه تَعَالَى: ﴿وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ﴾ فَعَمَّمَ. وَقَالَ قَوْمٌ: إِنَّمَا يَدْخُلُ النَّفْلَ خَاصَّةً، لِأَنَّ الْفَرْضَ وَاجِبٌ عَلَى جَمِيعِ النَّاسِ وَالنَّفْلُ عُرْضَةٌ لِذَلِكَ. وَقِيلَ بِالْعَكْسِ، لِأَنَّهُ لَوْ لَمْ يَأْتِ بِالنَّوَافِلِ لَمْ يؤاخذ بها"[1].

سرُّ العدول عن (أقاموا الصلاة) إلى ﴿قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾:

لَمَّا كان إقامُ الصلاة معناه أداؤها في وقتها على وجهها الصحيح

(1) القُرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 5/424.

بخشوع، وكان ذلك ديدن المؤمنين الخُلَّص، عدل البيان القرآني المعجز عن ذلك، واكتفى بصفتهم حال قيامهم متكاسلين؛ لينفي عنهم صفة الإيمان، وليثبت أنَّ قيامهم رئاء الناس حائلٌ بينهم وبين الصلاة، كما حالت (إلى) بين قيامهم والصلاة، فكأنَّ قيامهم في جانب، والصلاة في جانب آخر.

لإثبات انفصالهم عن صفة المؤمنين، وانقطاعهم عن حقيقة الصلاة

وإذا تأمَّلْت (أقاموا الصلاة) المعدول عنها، علمت اتصال الإقامة بالصلاة، ورأيت المؤمنين المتمثِّلين في (واو الجماعة) هم الذين أقاموها، وظلوا ضميرًا مجموعًا.

وشتَّان بين من يُقيم الصلاة ولا يكاد يُرى، ومن قام بجسده إلى الصلاة؛ ليراه النَّاس، وهو أبعدُ النَّاس عن إقامتها!

دلالة تكرار الفعل ﴿قَامُواْ﴾ في قوله: ﴿قَامُواْ كُسَالَىٰ﴾:

لما كان التّعبير بإقامة الصلاة في قوله: ﴿وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾ يفهم منه أنه صفة مدح؛ لأنّ القرآن يثني على المؤمنين بهذا الوصف، فأعاد ذكره في قوله: ﴿قَامُواْ كُسَالَىٰ﴾ لتحديد صفة القيام ودفع اللّبس الذي قد يرد من تخصيص الإقامة بالثّناء على المؤمنين.

كرّر فعل القيام، وقَرَنَهُ بصفة الكسل نفيًا بأن يكون صفة ثناء

العدول عن (صلَّوا) إلى ﴿قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾:

عدل السّياق عن قوله: (وإذا صلَّوا) مع أنَّه أخصر؛ لئلَّا يُثبت لهم صلاةً أصلًا، وليُبعِد شُبهة كون الكسل ناشئًا عن إرهاق بدنيّ، فهذا يعتري الإنسان السَّويّ، وإنَّما هو ناشئٌ عن مرض قلبيّ، ووهن عقديّ.

وصفهم بالكسل للدّلالة على أنّهم لا يحتسبون الأجر عند الله تعالى؛ لفقدانهم الإيمان

سرّ وصف المنافقين بصفة الكسل في الصّلاة:

سرُّ ذلك أنَّهم يستثقلونها في الحال، ولا يرجون بها ثوابًا، ولا من تركها عقابًا، ولا يوجد داعٍ للفعل في نظرهم إلا خوف الناس، لذلك وقع فعلهم على وجه الكسل والفتور[1].

(1) الرازي، مفاتيح الغيب: 6/79.

دلّ هذا الوصف على مظهر المنافقين في أداءِ الطاعات عمومًا والصلاة خصوصًا؛ فهم لا يقومون بِأداء الطاعات إلا كسالى متثاقلين؛ فلا إيمان يبعثهم ولا نشاط يحركهم لأداءِ الصلاة على حقيقتها، بل يريدون مظهرًا يحفظون به وجودهم مع المسلمين[1]. "أي لا يرجون لها ثوابًا، ولا يخافون على تركها عقابًا"[2]. فوصفهم بالكسل عن الصّلاة لعدم الدّاعية في قلوبهم، وأنّ مقصدهم من ذلك النّجاة من النّبيّ ﷺ وأصحابه[3].

دلالة الحال اللازمة في قوله: ﴿كُسَالَىٰ﴾:

الأصل في المؤمن أن يقيم الصلاة بنشاطٍ؛ لأنّه مقبل على ربّه بحبّ وعزيمة، ولذلك ذمّ الله المنافقين؛ لأنّهم يأتون الصلاة متململين كارهين، وأصبح ذلك حالهم، فقوله تعالى: ﴿كُسَالَىٰ﴾ "حَالٌ لَازِمَةٌ مِنْ ضَمِيرِ ﴿قَامُواْ﴾؛ لأَنَّ ﴿قَامُواْ﴾ لَا يَصْلُحُ أَنْ يَقَعَ وَحْدَهُ جَوَابًا لِـ ﴿وَإِذَا﴾ الَّتِي شَرْطُهَا ﴿قَامُوٓاْ﴾؛ لِأَنَّهُ لَوْ وَقَعَ مُجَرَّدًا لَكَانَ الْجَوَابُ عَيْنَ الشَّرْطِ، فَلَزِمَ ذِكْرُ الْحَالِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغْوِ مَرُّواْ كِرَامًا ﴿٧٢﴾﴾ [الفرقان: 72]»[4].

من صفات المؤمنين إقامة الصلاة بنشاط وحب

إيثار التّعبير بالاسم ﴿كُسَالَىٰ﴾ دون يتكاسلون في قوله: ﴿قَامُواْ كُسَالَىٰ﴾:

آثر القرآن وصف كسالى بالاسميّة؛ للإشارة إلى لزومهم الكسل والفتور في قيامهم إلى الصلاة سواء كانوا في حالة جهد وتعب أو في دعة وراحة؛ فالكسل والفتور ليس ناتجًا عن ضعف بدني، وإنّما هو ضعف إيمانيّ ملازم له.

آثر التّعبير عن الكسل بالاسم للدّلالة على ثبوت هذا الوصف فيهم مع الصّلاة، ونفيًا لأن يكون كسلًا طارئًا

فائدة الفصل والاستئناف في: ﴿يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ﴾:

لم تعطف هذه الجملة على ما قبلها للإشارة إلى أنّها جواب

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 4/1917.
(2) الواحدي، البسيط: 7/160، والبَغَويّ، معالم التّنزيل: 1/714، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 2/104.
(3) الصاوي، حاشية الصّاوي: 1/238.
(4) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 5/240.

لسؤال نشأ من الجملة السّابقة، فقيل: ما الدَّاعي لقيامهم إلى الصّلاة كسالى؟ فكان الجواب: يراءون الناس، فهي جملة مستأنفة "لِبَيَانِ جَوَابِ مَنْ يَسْأَلُ: مَاذَا قَصْدُهُمْ بِهَذَا الْقِيَامِ لِلصَّلَاةِ وَهَلَّا تَرَكُوا هَذَا الْقِيَامَ مِنْ أَصْلِهِ، فَوَقَعَ الْبَيَانُ بِأَنَّهُمْ يُرَاءُونَ بصلاتهم النَّاس"[1].

استأنف لأنّ مضمون الجملة جواب عن سبب كسلهم في الصّلاة

السّر بذكر الرّياء بعد ذكر الكسل:

قوله جلّ شأنه: ﴿يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ﴾ أخبر بأنهم "لا يقومون إلى الصّلاة إلّا لأجل الرّياء والسّمعة، لا لأجل الدّين ولا يرون أنّها واجبة عليهم"[2]، فهم يقصدون النّاس بصلاتهم ولا يريدون بها وجه اللّه[3]. وَ لمّا أخبر عن كسلهم بالصّلاة، كان ذلك إيماء إلى حقّ لديهم وإن كان قليلًا، فكونهم يصلّون - في ظاهِرِ الأَمْرِ - فضيلةٌ وإن كانوا متَّصفينَ بالكسل، فجاء الإخبار بأنّهم يراءون في الصّلاة لتأكيد انتفاء إيمانهم، وكون صلاتهم خاليةً من أيِّ فضيلةٍ، فهو تعقيبٌ للتّأكيد.

أخبر بالرّياء بعد الكسل تأكيدًا لانتفاء إيمانهم

دلالة التعبير عن الرياء بصيغة المفاعلة:

اختار القرآن الكريم هذه الصيغة؛ لإفادة وقوع المفاعلة من الجانبين؛ فالْمُرَائِي يُرِي النَّاسَ تَجَمُّلَهُ بِأَفْعَالِ الطَّاعَةِ، وَهُمْ يُرُونَهُ اسْتِحْسَانَ ذَلِكَ الْعَمَلِ"[4].

المرائي يُري النّاسَ عملَه، وهم يُرُونَهُ اسْتِحْسَانَ فعلِه

سر العدول عن الاسميَّة في وصف المنافقين إلى الفعليَّة: ﴿يُرَآءُونَ﴾:

آثر التّعبير بالفعل ﴿يُرَآءُونَ﴾ بدلًا من الاسمية (مراءون)؛ للإشارة إلى تجدد هذا الفعل لأنّ الصّلاة متكرّرة، وما تعلّق بها فإنّه يتكرّر كذلك، ولمّا كان الرّياء أمرًا نفسيًّا يدلّ على مرض

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 5/240.
(2) الخازن، لباب التأويل: 1/440.
(3) الواحدي، البسيط: 7/161.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/109.

صاحبه من طلب ثناء النّاس بعمله؛ عبّر بالفعل الدّالّ على تجدّد طلب هذا الثّناء من النّاس مع كلّ عمل يعملونه.

آثـر التّعبير بالفعل المضارع إشارة إلى تجدّد فعلهم، لأنّ الصّلاة متكرّرة وما تعلّق بها فإنّه يتكرّر أيضًا

دلالة لفظ الناس في قوله ﴿يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ﴾:

المراءاة تدلّ على أنّ المقصود بالعمل النّاس، وإنّما أظهر لفظ النّاس في النصِّ على أنّهم يقصدون النّاس بعملهم، وفي ذلك زيادة من تأكيدِ انتفاء الإيمان، فغايتهم النّاس، وليس اللّه تعالى، وَ فيه إشارة إلى أن المرائي لما كان يبحث عن الشهرة؛ أرادَ إطلاع الناس جميعهم على كل عمل يعمله بشتى الوسائل بغية الشّهرة.

دلالة عطف قوله تعالى: ﴿وَلَا يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلٗا﴾:

الوصل عطفًا على الجملة قبله لبيان كيفيّة كسلهم

قوله جلّ شأنه: ﴿وَلَا يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ معطوف على قوله: ﴿يُرَآءُونَ﴾[1]، وذلك لشدة الاتصال بينهما؛ فالأعمال التي تفعل رياء، لا يذكر اللّه فيها، وإنّما يذكر النّاس، وبذلك تكون هذه الجملة مؤكّدة للمعنى السّابق، وفيه بيان لصفة الكسل، فهو قلّة ذكرهم اللّه تعالى.

سر التعبير بنفي الذكر عنهم إلا القليل:

الإخبار بالحقيقة كما هي، فِيهِ إنصافُ القرآن ولو مع عدوه وخصمه

عبر بنفيِ الذّكر عنهم إلا قليلًا من باب الإنصاف، وبيان الواقع؛ فمع نفاقهم لم ينفِ عنهم الذّكر مطلقًا، بل أثبت لهم القليل، ولعلّ ذلك في الصّلاة الفرضية فقط.

سر التّعبير بالذّكر مكان الصلاة:

الذّكر شامل لكلّ أنواع الذّكر، والصّلاة على الأخصّ لأنها أهمّ موضع للذّكر

قوله جلّ شأنه: ﴿وَلَا يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ عبّر بالذّكر من باب العموم؛ ليشمل كلّ أنواع الذّكر فرضها ونفلها، والصّلاة من الذّكر؛ فتدخل فيه دخولًا أوّليًّا.

(1) أبو السعود، إرشاد العَقْل السّليم: 2/246.

دلالة التعبير بالفعل المضارع المنفيّ ﴿وَلَا يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلٗا﴾:

عبّر بالفعل المضارع المنفيّ للدّلالة على استمرار انتفاء الذّكر الكثير، فحالهم لا يتغيّر

قوله جلّ شأنه ﴿وَلَا يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ نفى الذّكر عنهم بالفعل المضارع، للدّلالة على استمرار النّفي لصفة كثرة الذّكر، فهم وإن ذكروا الله في الصّلاة مواطن الشّدّة، فإنّهم لا يزيدون على موجب الاضطرار.

السّرّ في إثبات قلّة ذكرهم بالحصر دون الإخبار بالقلّة:

عبّر عن قلّة ذكرهم بالقصر لبيان أنّهم يفعلون ذلك اضطرارًا لا حبًّا لله تعالى

عبّر عن إثبات صفة القلّة في ذكرهم بقوله: ﴿وَلَا يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ فعدل إلى أسلوب القصر لإفادة عدم حبهم للذّكر والطاعة، ولم يقل: (ويذكرون الله قليلًا)؛ فهم إنّما يذكرون اضطرارًا وخوفًا؛ حتّى لا ينكشف أمرهم، بخلاف التّعبير بالذّكر القليل؛ فهو صفة مدحٍ للذّاكر وإن كان قليلًا، وقد يعذر في قلّة ذكره لأسباب لا قِبَلَ له بها؛ كمرض ونحوه، لكن هذا القليل فيه حبّ لله واعتراف بفضله.

دلالة حذف الموصوف في قوله تعالى: ﴿إِلَّا قَلِيلٗا﴾:

حذف الموصوف للدّلالة على العموم، فالذّكر نفسُهُ قليلٌ وكذلك وقته

حُذف الموصوف في الآية؛ لإفادة العموم فقد يراد به الذّكر القليل، أو الزّمن القليل، والمعنى المراد أنّهم لَا يَذْكُرُونَ اللّه فِي سَائِرِ أَحْوَالِهِمْ إِلَّا حَالًا قَلِيلًا أَوْ زَمَنًا قَلِيلًا[1].

سر وصف ذكرهم لله تعالى بالقلة:

ذكرهم اللهَ تعالى قليلٌ، بحسب ما يقتضيه حضورهم مع النّاس

وصف القرآن ذكرهم لله تعالى بالقلة؛ لأنّهم لا يذكرون الله إلا ذكر رياء، "ليدفعوا به عن أنفسهم القتل والسّباء وسلبَ الأموال، لا ذكر موقن مصدّق بتوحيد الله، مخلص له الرّبوبيّة. فلذلك سمّاه الله ﴿قَلِيلٗا﴾؛ لأنّه غير مقصود به الله، ولا مبتغًى به التّقرّب إلى الله، ولا مرادٌ به ثواب الله وما عنده"[2]، فهم يذكرون الأذكار التي

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 5/240.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 9/331.

يُضطرُّون إليها "من نحو التّكبير وما يظهر، دون القراءة والتّسبيح؛ لأنّهم يعملونه للنّاس"[1].

السّرّ في عدم مدحهم بهذا الذّكر:

لم يمدحهم الله على ذكرهم هذا؛ "لأنّه لا يجري على قلوبهم إلَّا قليلًا، لَا يلبث أن يطفئه النّفاق، وإذا قامت في قلوبهم شعلة من الإيمان بالله لَا تلبث أن تخبو لغلبة أهوائهم؛ وذلك لأنّ هؤلاء المنافقين يعرفون الله تعالى، ويدركون معاني الإيمان، ولكن غلبت عليهم شِقْوَتُهم، فكفروا به إذ عرفوه، ومن كانت هذه حاله يعتريه أحيانًا تذكّر لله تعالى وعظمته، ولكنّه تذكّر لَا يكون معه إيمان مثمر، ولا تصديق مذعن، فلا خير فيه، ولا ثواب عليه، ولا يمدحون بذلك القدر من الذّكر، الذي لَا يجدي"[2].

لـم يـمـدحـهـم الله على ذكرهم هـــذا؛ لأنـــه لا تُجْنى منهُ ثَمرةُ الإيمان ولا حبّ الله

دلالة الاستثناء:

دل الاستثناء على أن زمان الذكر قليل؛ لأنه وقت الصّلاة وحسب، أو أنّ الذّكر ذاته قليل في الصّلاة، ويكون "الِاسْتِثْنَاءُ إِمَّا مِنْ أَزْمِنَةِ الذِّكْرِ، أَيْ إِلَّا وَقْتًا قَلِيلًا، وَهُوَ وَقْتُ حُضُورِهِمْ مَعَ الْمُسْلِمِينَ، إِذْ يَقُومُونَ إِلَى الصَّلَاةِ مَعَهُمْ حِينَئِذٍ فَيَذْكُرُونَ اللهَ بِالتَّكْبِيرِ وَغَيْرِهِ، وَإِمَّا مِنْ مَصْدَرِ يَذْكُرُونَ، أَيْ إِلَّا ذِكْرًا قَلِيلًا فِي تِلْكَ الصَّلَاةِ الَّتِي يُرَاءُونَ بِهَا، وَهُوَ الذِّكْرُ الَّذِي لَا مَنْدُوحَةَ عَنْ تَرْكِهِ مِثْلَ: التَّأْمِينِ، وَقَوْلِ رَبَّنَا لَكَ الْحَمْدُ، وَالتَّكْبِيرِ، وَمَا عَدَا ذَلِكَ لَا يَقُولُونَهُ مِنْ تَسْبِيحِ الرُّكُوعِ، وَقِرَاءَةِ رَكَعَاتِ السِّرِّ"[3].

دلالة الاستثناء على قلة زمان الذكر لأنه وقت الصّلاة وحسب، أو على قلة الذكر فيها

دلالة اختلاف التعبير بين موضع سورة البقرة وموضع سورة النساء:

قال تعالى في سورة البقرة: ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [البقرة:

(1) الواحدي، البسيط: 7/161.

(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 4/1918 - 1919.

(3) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 5/240.

9]، وقال في سورة النساء ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمۡ﴾؛ فالملاحظ في سورة البقرة عطف ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [البقرة: 9] على لفظ الجلالة بخلاف موضع النساء؛ فلم يرد فيه ذلك؛ ولعل السبب في عطف ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [البقرة: 9] في سورة البقرة أنَّها سُبقت بقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾ [البقرة: 8] الآية، ومعلوم من السياق أنَّ هذا القول صادر من المنافقين للذين آمنوا خداعًا لهم؛ فناسب في موضع البقرة ذكر ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [البقرة: 9] بخلاف موضع سورة النساء؛ فسبقه قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱلۡكَٰفِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ١٤٠﴾ [النساء: 140]، ولم يرد ذكر الخداع صراحة للمؤمنين، لذلك لم يرد ذكرهم في الآية.

ومما يذكر في هذا المقام أنَّ موضع سورة النساء عُبر فيه بالاسمية في جانب خداع الله لهم.

ويضاف إلى ما ذكر سابقًا أنَّه لمَّا كان الجزاء من جنس العمل، وكان خداع الله لهم - بمعنى مجازاتهم ومعاقبتهم - أمرًا ثابتًا لا شك فيه، ناسب التعبير بالاسمية التي تدل على الثبوت والاستمرار.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الرّياء والنّفاق:

"النِّفَاق إِظْهَار الْإِيمَان مَعَ إسرار الْكفْر. والرّياء إِظْهَار جميل الْفِعْل رَغْبَةً في حمد النَّاس، لَا في ثَوَاب الله تَعَالَى، فَلَيْسَ الرِّيَاء من النِّفَاق في شَيْء فَإِن اسْتعْمل أَحدهمَا في مَوضِع الآخر فعلى التَّشَبُّه وَالْأَصْل مَا قُلْنَاهُ"[1] فالرّياء كالنّفاق، ولكنّه أعمّ[2]، لكونه يقع في الأعمال وفي العقائد.

الرّياء أعمّ من النّفاق، وهو أنسب في السّياق لأنّه ذكر الصّلاة، فهم أظهروا العمل الجميل ابتغاء الثّناء

وغالب استعمالات الرياء في القرآن الكريم وردت في مواطن الإنفاق، قال تعالى: ﴿كَٱلَّذِي يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾ [البقرة: 264] ونحو

(1) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 228 - 229.
(2) الرّاغب، تفسير الراغب: 4/205.

ذلك من الآيات؛ فالمرائي لا ينفق ماله طلبًا لرضا اللّٰه وثواب الآخرة، بل ليقول الناس إنه سخي كريم، أمّا النّفاق فقد ورد في كثير من آيات القرآن، وكلّها تدور حول إظهار الإيمان وإبطان الكفر، ولذلك يشتركان في الإظهار والإبطان مع اختلاف متعلّق كل منهما.

والرّياء ناسب الآية لأنّهم وإن كانوا منافقين إلّا أنّهم أظهروا العمل الجميل وَأَرَوا النّاس ما يستحسنونه ابتغاء تحقيق رِضَا النّاس عنهم.

﴿مُّذَبۡذَبِينَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلٗا ١٤٣﴾ [النساء: 143]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لما بينت الآيات السابقة أن المنافقين أمرهم عجيب؛ فمرة يدَّعون أنهم مع أهل الإيمان و في ولايتهم إن وجدوا لهم الغلبة والنصر على الكافرين، وينتمون إلى الكفرة إن وجدوا أنهم غلبوا المسلمين، وكان لهم نصيب من الغنائم، جاءت هذه الآية لتصف هذه الحالة للمنافقين فهم في اضطراب دائم، أيخرجون من الكفر إلى الإيمان، أم يبقون على ما هم عليه من هذا النفاق؛ فكان وصف القرآن دقيقًا لهم بقوله: ﴿مُّذَبۡذَبِينَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِۚ﴾[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مُّذَبۡذَبِينَ﴾: (ذَبَّ) أصلٌ يدلّ على الاضْطِرَابِ وَالْحَرَكَةِ[2]. الذَّبْذَبَةُ: نَوْسُ الشَّيْءِ الْمُعَلَّقِ فِي الْهَوَاءِ. ذَبْذبه: جعله يضطرب، وَالرَّجُلُ الْمُذَبْذَبُ: الْمُتَرَدِّدُ بَيْنَ أَمْرَيْنِ[3]، وحقيقة المذبذب الذي يُذبُّ عن كلا الجانبين، أي يذاد ويُدفع فلا يقرّ في جانب واحد، إلّا أنّ الذّبذبة فيها تكرير ليس في الذّبّ، كأنّ المعنى: كلّما مال إلى جانب ذُبَّ عنه"[4]، ﴿مُّذَبۡذَبِينَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ﴾، أَيْ: مُتَرَدِّدِينَ مُتَحَيِّرِينَ بَيْنَ الْكُفْرِ وَالْإِيمَانِ[5].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

يخبر الله تعالى أنّ هؤلاء المنافقين "متردّدون في حَيرة، فلا هم مع المؤمنين ظاهرًا وباطنًا ولا مع الكافرين، بل ظاهرهم مع المؤمنين وباطنهم مع الكافرين، ومن يضلل الله فلن تجد له طريقًا لهدايته من الضلال"[6].

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 4/1919.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ذبّ).
(3) الواحدي، البسيط: 7/161، والرّاغب، تفسير الراغب: 4/205.
(4) الزمخشري، الكشاف: 1/580، والصاوي، حاشية الصّاوي: 1/238.
(5) البَغَويّ، معالم التّنزيل: 1/715.
(6) جماعة من العلماء، المختصر في تفسير القرآن الكريم: 1/101.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغة كمال الاتِّصال في قوله: ﴿مُّذَبۡذَبِينَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِۚ﴾:

فصل لبيان مزيد من أحوال المنافقين وصفاتهم

جاء قوله تعالى مفصولًا عمّا سبق: ﴿مُّذَبۡذَبِينَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِۚ﴾؛ فلم تعطف؛ لأنّها في موقع الحال من فاعل ﴿يُرَآءُونَ﴾، فهي من تمام صفات المنافقين؛ فوصفوا بأنهم كسالى وبأنهم مراؤون ومذبذبون.

دلالة صيغة المفعول:

سلّط عليهم ما جعلهم يسقطون في الحيرة

المُذبذب بفتح الذال هو الذي يُذَبُّ عن كلا الجانبين، أي: يرد ويدفع فلا يقر في جانب واحد، والصيغة التي وردت هنا ﴿مُّذَبۡذَبِينَ﴾، إذِ المفعولُ "يَقْتَضِي فَاعِلًا قَدْ ذَبْذَبَهُمْ وَصَيَّرَهُمْ مُتَحَيِّرِينَ مُتَرَدِّدِينَ وَإِذَا كَانَتْ تِلْكَ الذَّبْذَبَةُ لَا بُدَّ لَهَا مِنْ فَاعِلٍ، وَثَبَتَ أَنَّ فَاعِلَهَا لَيْسَ هُوَ العبدَ ثَبَتَ أَنَّ فَاعِلَهَا هُوَ اللّٰه تَعَالَى، فَثَبَتَ أَنَّ الْكُلَّ مِنَ اللّٰه تَعَالَى"[1].

علم اللّٰه أنَّ في قلوبهم مرضًا، فزادهم اللّٰه مرضًا، ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٨﴾ [آل عمران: 108]

السّرّ في التّعبير عن النّفاق بقوله: ﴿مُّذَبۡذَبِينَ﴾:

آثر وصف المنافق بالتّردّد لبيان اضطرابه وأنّه فاقد للطمأنينة والاستقرار

هذا اللفظ من فرائد القرآن الكريم، ولم يُشْتَقَّ من مادته (ذ ب ب)، إلا لفظ (الذُّباب) في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٞ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخۡلُقُواْ ذُبَابٗا وَلَوِ ٱجۡتَمَعُواْ لَهُۥۖ وَإِن يَسۡلُبۡهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيۡـٔٗا لَّا يَسۡتَنقِذُوهُ مِنۡهُۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلۡمَطۡلُوبُ ٧٣﴾ [الحج: 73] ولم يرد (مذبذبين) إلا في هذا الموضع من القرآن في حديثه عن المنافقين وطباعهم؛ فهم لا يحملون عقيدة، لا الإيمان ولا الكفر الذي هو من اعتقادهم الخاطئ؛ فهم يتردّدون بينهما لا اعتقادًا

(1) الرازي، التفسير الكبير: 11/250.

فيهما ولا اعتناقًا لهما، وإنّما يتخفَّون فيهما عن أعين النّاس؛ لأنّ قلوبهم مطبوع عليها عدم الإيمان فهي شاذّة في طبيعتها، وهذا التّفرد في اللّفظ مناسبٌ لهذا السّلوك الشّاذّ.

وما أقبح أن يتَّصف الإنسان بوصف لم يُسَمَّ به إلا الذُّبابُ، يسقط في الطعام " (هكذا عرّفوه) فقد لَحَظُوا فيه دِقّته وحِدَّة اندفاعه ولَدْغَه أحيانًا، والاشمئزازَ منه[1].

إيثار هذه المادة ﴿مُّذَبۡذَبِينَ﴾ دون متردّدين:

آثر القرآن ﴿مُّذَبۡذَبِينَ﴾ دون مترددين؛ لأنّ الذّبذبة سلوك مذموم في كلّ أحواله، فطبيعة صاحبه التّطفل على الآخرين بحثًا عن مصالحه وحسب؛ فلا هو صريحٌ في كفره، ولا ملتزمٌ بدعواه، بخلاف التّردّد فهو سلوك ينبئ عن ضعف العزيمة، وقلّة الخبرة في اتّخاذ القرار، لكنّه لا يذمّ في كلّ أفعاله.

آثـــر الـوصـف بالذّبذبة لما فيه من الذمّ بدلالته على الاضطراب

والتذبذب من صفات المنافقين الأصيلة، حالة قلبيَّة مَرَضيَّة، وما ينتج عنها من سلوكٍ شاذٍّ هو لازمٌ لهذا المرض، نحو قوله تعالى: ﴿وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ إِذَا فَرِيقٞ مِّنۡهُم مُّعۡرِضُونَ ٤٨ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلۡحَقُّ يَأۡتُوٓاْ إِلَيۡهِ مُذۡعِنِينَ ٤٩ أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرۡتَابُوٓاْ أَمۡ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَرَسُولُهُۥۚ بَلۡ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٥٠﴾ [النور: 48 - 50]، وقوله: ﴿فَهُمۡ فِي رَيۡبِهِمۡ يَتَرَدَّدُونَ ٤٥﴾ [التوبة: 45].

وعلى كلٍّ فالتَّذبذب ليس من شيم المؤمن، فينبغي أن يكون المُسْلم ذا يقينٍ قلبيّ، وعقلٍ رشيدٍ، وعزْمٍ قويّ، وتوكُّلٍ على الحيِّ الذي لا يموت، فإن اعتراه تردُّد في أمرٍ فعليه بالمشورة والاستخارة.

الدّلالة الصوتية لهذه الصيغة:

ذبذب على وزن فعلل، مكوَّنٌ من مقطعين؛ فكأنّ كلّ مقطع

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (ذبب).

منهما يشير إلى طرف من الطّرفين؛ فكلّما مال إلى جانب ذبّ عنه، وفيه إشارة أخرى إلى ذمّ هذا السّلوك؛ لدلالته على عدم الاستقرار والاضطراب.

تكرار المقطع الصّوتيّ (ذَبْ ذَبْ) يدلّ على التّناوب، إلماحًا إلى سلوك المنافقين

فائدة التّعبير بالظّرف في قوله: ﴿بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾:

عبّر تعالى عن توسّطهم بالذّبذبة في قوله جلّ شأنه: ﴿مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ فالتّعبير بكلمة ﴿بَيْنَ﴾ "الدّالّ على المكان الذي يكون بين أمرين مؤدّاه أنّهم يكونون في مكان متوسّط بين الأمرين، وهذا التّوسّط معنويّ، من حيث إنّهم يدركون الحقّ ويعرفونه، ولكن لَا يدخلون في وسط أهله، ولا يعرفون اللّه تعالى حقّ معرفته"[1].

توسّطهم معنويّ، فهم في حالة متردّدة بين الإيمان والكفر

دلالة التعبير باسم الإشارة ﴿ذَٰلِكَ﴾ في قوله تعالى: ﴿بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾:

المنافقون متردّدون بين الإيمان والكفر، "وذلك إشارةٌ إلى الإيمان والكفرِ المدلولِ عليهما بمعونة المقام"[2]، فأشار إلى المؤمنين والكافرين، أخذًا من قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، "وإذا جرى ذكر الفريقين فقد جرى ذكر الكفر والإيمان"[3].

أشار إلى الإيمان والكفر المفهومين من السّياق

السرُّ في توحيد اسم الإشارة، مع أنَّ المشار إليه أمران:

توحيد اسم الإشارة - مع أنَّ المشار إليه أمران - على تأويل: ما ذكر، وما تقدّم؛ للاختصار في الكلام، كما جعلوا "فَعل" نائبًا عن أفعال جمَّةٍ تُذكر قبله: تقول للرجل: نِعْمَ مَا فَعَلْتَ، وقد ذكر لك أفعالًا كثيرة وقصةً طويلة، كما تقول له: ما أحسن ذلك[4].

المشار إليه مؤول بـ (ما ذُكر) اختصارًا، ولفتَ انتباهِ المخاطب إلى حالهم

على أنَّ (ذا) موضوع لجنس ما يشار إليه، والذي موضوع لجنس

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 4/1919 - 1920.
(2) أبو السعود، إرشاد العَقْل السّليم: 2/246.
(3) الواحدي، البسيط: 7/162.
(4) الزمخشري، الكشاف: 1/149.

ما عُرف بصلة، فهو صالح للإطلاق على الواحد والمثنى والجمع والمذكر والمؤنث، وإنَّ ما يقع من أسماء الإشارة والموصولات للمثنَّى نحو: (ذان) وللجمع نحو (أولئك)، إنَّما هو اسم بمعنى المثنى والمجموع، لا أنَّه تثنية مفرد، وجمع مفرد، فذا يشار به للمثنَّى والمجموع، ولا عكس؛ فلذلك حسن استعمال المفرد منها للدلالة على المتعدد[1].

كما في قوله تعالى: ﴿بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَۖ﴾ [البقرة: 68]، وقوله: ﴿وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ١٥٠﴾ [النساء: 150]، وقوله: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ١١٠﴾ [الإسراء: 110].

تكرار اسم الإشارة في قوله: ﴿لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِۚ﴾:

تكرّر اسم الإشارة في قوله جلّ شأنه: ﴿لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِۚ﴾ "إشارة إلى الفريقين اللذين تقدّم ذكرهما، وهما: الكافرون والمؤمنون"[2]. "وَالْمُرَادُ بِأَحَدِ الْمُشَارِ إِلَيْهِمُ الْمُؤْمِنُونَ، وَبِالْآخَرِ الْكَافِرُونَ"[3]، والمراد بيان حقيقة تذبذبهم، "أي لَا مع المؤمنين ولا مع المنافقين بأنّ المراد لَا هم مع المؤمنين في الحقيقة ولا هم مع الكافرين في ظاهر الأمر"[4]، والقصد من ذلك التّذبذب في قوله جلّ شأنه: ﴿مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾[5].

إشارة إلى ما تقدّم ذكره، وهما المؤمنون والكافرون، لبيان معنى التّذبذب

السّرّ في التّعبير عن المؤمنين والكافرين باسم الإشارة:

في قوله جلّ شأنه: ﴿لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِۚ﴾ كرّر اسم الإشارة للفريقين من غير تعيين المراد بالأوّل وبالثّاني، ولم يقل: (لا إلى المؤمنين ولا إلى الكافرين)؛ لأنَّهُ أراد الاهتمام بنفي

عبّر عن الفريقين بالإشارة دون الوصف، اهتمامًا بنفي معيّتهم لأحد غير أهوائهم

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 1/512.
(2) الواحدي، البسيط: 7/163.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/111.
(4) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/65.
(5) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 5/241.

انتمائهم ومعيّتهم لأحد بغض النّظر عن حقيقته؛ إظهارًا لخبث أنفسهم وطويّتهم.

السّرّ في تكرار النّفي في قوله سبحانه ﴿لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِۚ﴾:

كـــرّر الـنّـفـي لـلـدّلالـةِ على إضاعةِ الأمرين، تـحـقـيرًا لـهـم، وتـنـفـيرًا من صحبتهم

تكرّر حرف النّفي للدّلالة على نفي انتساب المنافقين إلى المؤمنين وإلى الكافرين؛ لأنّهم "لَا يَعْتَقِدُونَ الْإِيمَانَ فَيُعَدُّوا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، وَلَمْ يُقِيمُوا عَلَى إِظْهَارِ الْكُفْرِ فَيُعَدُّوا مَعَ الْكَافِرِينَ"[1]. "يعني ليسوا من المؤمنين حتّى يجب لهم ما يجب للمؤمنين، وليسوا من الكفّار فيؤخذ منهم ما يؤخذ من الكفّار"[2]، فدلَّ تكرار النّفي على بيان أنهم أضاعوا الأمرين لبيان اضطرابهم، و"الْمَعْنَى أَنَّهُمْ أَضَاعُوا الْإِيمَانَ وَالِانْتِمَاءَ إِلَى الْمُسْلِمِينَ، وَأَضَاعُوا الْكُفْرَ بِمُفَارَقَةِ نُصْرَةِ أَهْلِهِ، أَيْ كَانُوا بِحَالَةِ اضْطِرَابٍ وَهُوَ مَعْنَى التَّذَبْذُبِ. وَالْمَقْصُودُ مِنْ هَذَا تَحْقِيرُهُمْ وَتَنْفِيرُ الْفَرِيقَيْنِ مِنْ صُحْبَتِهِمْ لِيَنْبِذَهُمُ الْفَرِيقَانِ"[3].

واعلم أنَّ نفي وصفين بحرف "لا" قد يستعمل في إفادة إثبات وصف ثالث، هو وسط بين حالَي ذينِك الوصفين، مثل ما في هذه الآية، ...وقد يستعمل في إرادة مجرَّد نفي ذينك الوصفين؛ لأنَّهما مما يطلب في الغرض الواردين فيه ولا يقصد إثبات وصفٍ آخرَ وسطٍ بينهما، وهو الغالب كقوله تعالى: ﴿فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ۝٤٢ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ۝٤٣ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ۝٤٤﴾ [الواقعة: 42 - 44][4].

بلاغة حذف متعلّق حرف الجرّ ﴿إِلَىٰ﴾:

حـذف متعلّق حـــرف الـجـرّ لـدلالـة المـقـام عليه، إيجازًا في اللفظ

جاء الحرف (إلى) في قوله جلّ شأنه: ﴿لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِۚ﴾ بلا متعلّق، فحذف متعلّقه، وهو معنى الذّهاب، وهو المراد

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/111.
(2) الخازن، لباب التأويل: 1/440.
(3) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 5/241 - 542.
(4) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 1/532، 533.

بالنّفي وقد حُذِفَ "أَيْ لَا ذَاهِبِينَ إِلَى هَذَا الْفَرِيقِ وَلَا إِلَى الْفَرِيقِ الْآخَرِ"[1]، وإنّما حذفه إيجازٌ في العبارة، وهو لبّ البلاغة.

مناط الذمّ في نفي كونهم من الكافرين:

في قوله جلّ شأنه: ﴿لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ نفى كونهم من الكافرين، وهذه صفة مدح، فكيف يذمّهم على كونهم غير كافرين؟ وجوابه "إِنَّ طَرِيقَةَ الْكُفَّارِ وَإِنْ كَانَتْ خَبِيثَةً إِلَّا أَنَّ طَرِيقَةَ النِّفَاقِ أَخْبَثُ مِنْهَا، وَلِذَلِكَ فَإِنَّهُ تَعَالَى ذَمَّ الْكُفَّارَ فِي أَوَّلِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ فِي آيَتَيْنِ، وَذَمَّ الْمُنَافِقِينَ فِي بِضْعَ عَشْرَةَ آيَةً، وَمَا ذَاكَ إِلَّا أَنَّ طَرِيقَةَ النِّفَاقِ أَخْبَثُ مِنْ طَرِيقَةِ الْكُفَّارِ، فَهُوَ تَعَالَى إِنَّمَا ذَمَّهُمْ لَا لِأَنَّهُمْ تَرَكُوا الْكُفْرَ، بَلْ لِأَنَّهُمْ عَدَلُوا عَنْهُ إِلَى مَا هُوَ أَخْبَثُ مِنْهُ"[2].

النّفاق أشرّ من الكفر؛ لأنه كفر وزيادة من الخداع، وسوء الأخلاق، وخبث الطّويّة

دلالة التّعقيب على تذبذبهم بقوله: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا﴾:

جاءت الجملة في قوله تعالى: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا﴾ عقب قوله جلّ شأنه: ﴿مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾؛ لاتّصالها بما قبلها، وللدّلالة على أنّ فاعل هذه الصفة (الذّبذبة) هو اللّه تعالى.

اتّصال الكلام أنّ الذّبذبة متعلّقة بفعل الله تعالى؛ لأنّ المنافقين ليسوا أهلًا لهداية الله تعالى

دلالة التّعقيب بالشّرط ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا﴾:

عبّر بالشّرط لبيان أنّ الهداية متعلّقة باللّه تعالى، فمن شاء اللّه تعالى له الضّلال انتفت عنه سبل الهداية على وجه القطع، فجاء ذلك تفسيرًا لكونهم متذبذبين، فإنّ الهداية غير متحقّقة لهم؛ لأنهم تقلبوا في وجوه النفاق، وفَسادِ وجودهم الدينيّ؛ فلم يعودوا صالحين للعودة إلى الطبيعة البشرية السليمة.

عبّر بالشّرط للدّلالة على تعلّق انتفاء سبل الهداية بانتفاء أسبابها من الله تعالى

دلالة نسبة الإضلال إلى الله تعالى:

قوله تعالى: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا﴾ أسند اللّه الضّلال إلى ذاتهِ الجليلة؛ لبيان ضلال المنافقين، وذلك من " قبيل

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 5/241.

(2) الرازي، مفاتيح الغيب: 11/250.

المجاز؛ من حيث إنّه تركه في غيّه، ولم يسدّ عليه طريق الشّرّ؛ لأنّه استمرأ الرّذيلة، وسار في طريق الضّلال إلى النّهاية، فكان ضلاله بعيدًا، واللّه تعالى يهدي من أراد لنفسه الخير، وسلك سبيل الرّشاد، فإنّ اللّه تعالى يوصله إلى طريق النّجاة"[1]، فاللّه تعالى علم انتفاء استعدادهم لقبول الهداية؛ فخلاهم وغيهم.

فقدوا الاستعداد للهداية فخلّاهم وغيّهم

دلالة النفي بـ (لن) في قوله: ﴿فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا﴾:

دلّ الإتيان بـ (لن) في قوله: ﴿فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا﴾ في جواب الشّرط، و لن تفيدُ نفي المستقبل؛ فدلّ ذلك على أنّ من شاء اللّه له الضّلال فإن الهداية منتفية عنه على طول الزّمان إلّا أن يشاء اللّه تعالى.

عبّر بحرف النّفي الدّالّ على الاستقبال دلالة على استمرار انتفاء سبل الهداية

إيثار التّعبير بلفظ السبيل دون غيره:

في قوله تعالى: ﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا﴾ اختار ﴿سَبِيلًا﴾ دون غيره؛ لأنه عام يطلق على كل ما يتوصل به، فالذي كتب اللّه عليه الضلال؛ لعلمه الأزلي بأنه يستحق ذلك، لن يفتح له سبيلًا يوصله إلى الهداية.

آثر التّعبير بلفظ السّبيل لأنّه الطّريق الذي يتوصّل به إلى الهداية

ولأنَّ السبيل يدلُّ على الامتداد، وهو مناسب للمقام؛ حيث إنَّ هؤلاء الضالِّين في تِيه يعمهون، لن يصلوا إلى الهداية، ولو امتدَّ بهم المسير، ففيه ما فيه من التيئيس وخيبة الأمل.

فائدة التّنكير في لفظ السّبيل:

في قوله تعالى: ﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا﴾ عبّر عن سبل الهداية نكرة؛ والمراد تعميم النّفي، فيشمل كلّ سبل الهداية، وفي ذلك تأكيد لتحقّق الضّلال وانتفاء الهداية عنهم.

جاء لفظ السّبيل نكرة؛ ليشمل كلّ أنواع السّبل التي تحقّق الهداية للدّلالة على تأكيد الضّلال

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 4/1920.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡكَـٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ عَلَيۡكُمۡ سُلۡطَـٰنٗا مُّبِينًا ١٤٤﴾

[النساء: 144]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا ذَمَّ الْمُنَافِقِينَ في الآية السابقة بِأَنَّهُمْ مَرَّةً إِلَى الْكَفَرَةِ، وَمَرَّةً إِلَى الْمُؤمنين مِنْ غَيْرِ أَنْ يَسْتَقِرُّوا مَعَ أَحَدِ الْفَرِيقَيْنِ نَهَى الْمُؤمنين في هَذِهِ الْآيَةِ أَنْ يَفْعَلُوا مِثْلَ فِعْلِهِمْ فقال: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكافِرِينَ أَوْلِياءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ"[1]، أي: لا تتخلَّقوا بأخلاق المنافقين؛ فلا تتولوا الكفار من دون أهل ملتكم ودينكم فتكونوا كمن أوجبت له النَّار من المنافقين"[2].

شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿تَتَّخِذُواْ﴾: (أخذ) أصل يدلّ على حَوزِ الشّيء وجبيه وجمعه، خلاف العطاء، وهو التّناول. والاتخاذ، افتعال منه، ويعبر عن الأسير بالأخيذ والمأخوذ[3].

2) ﴿سُلۡطَـٰنٗا﴾: السلطان، (سلط) أصل يدلّ على القوة والقهر، والسّلطان: الحجّة، وسمّيت الحجة سلطانًا؛ وذلك لما يلحق من الهجوم على القلب، لكن أكثر تسلطه على أهل العلم والحكمة من المؤمنين، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُجَـٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَـٰنٍ﴾ [غافر: 35]، وقال تعالى: ﴿أَتُرِيدُونَ أَن تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ عَلَيۡكُمۡ سُلۡطَـٰنٗا مُّبِينًا﴾[4]، والمقصود: الحجة البينة، والمعنى: أَتُريدونَ أَن تَجْعَلُواْ لله عَلَيْكُمْ في عقابكم حجّة بموالاة الكفّار، أي: أنّكم إذا واليتموهم صارت الحجّة عليكم في العقاب"[5].

(1) الرازي، مفاتيح الغيب: 11/250.
(2) الخازن، لباب التأويل: 1/440.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (أخذ).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (سلط).
(5) الواحدي، البسيط: 7/164 - 165.

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

"يقول لهم جلّ ثناؤه: يا أيّها الذين آمنوا بالله ورسوله، لا توالوا الكفَّار فتؤازروهم من دون أهل ملَّتكم ودينكم من المؤمنين، فتكونوا كمن أوجبت له النّار من المنافقين. ثمّ قال جلّ ثناؤه: متوعدًا من اتخذ منهم الكافرين أولياء من دون المؤمنين، إنْ هو لم يرتدع عن موالاته، وينزجر عن مُخَالَّته أن يلحقه بأهل ولايتهم من المنافقين الذين أعدَّ الله لهم عذابًا أليمًا، ثم قال سبحانه محذرًا ﴿أَتُرِيدُونَ﴾ أيّها المتّخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ﴿أَن تَجْعَلُواْ لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا﴾، حجّة، باتّخاذكم الكافرين أولياء من دون المؤمنين، فتستوجبوا منه ما استوجبه أهلُ النفاق الذين وصف لكم صفتهم، وأخبركم بمحلّهم عنده"[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

الغرض من الاستئناف: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَۚ﴾:

لمّا انتهى بيان حال المنافقين استأنف بخطاب المؤمنين، فالجملة مستأنفة؛ "لِأَنَّهَا تَوْجِيهُ خِطَابٍ بَعْدَ الِانْتِهَاءِ مِنَ الْإِخْبَارِ عَنِ الْمُنَافِقِينَ بِطَرِيقِ الْغَيْبَةِ"[2]، للتّحذير من موالاة الكافرين والمنافقين، ومن الوقوع في النّفاق.

استئناف للتّحذير من موالاة الكافرين

دلالة افتتاح الجملة بالنّداء:

نبّه المؤمنين على مضمون الجملة؛ لأنَّها أندى وأنفذ في تنفيذ المراد، وتشير إلى أهميّة الأمر المنادى به؛ فهو مهم وخطير، فعليكم أن تجمعوا قلوبكم وعقولكم لتلقيه وتنفيذه مهما كلفكم من المصاعب.

افتتح الجملة بالنّداء لزيادة التّنبيه على مضمون الخطاب

(1) ابن جرير، جامع البيان: 9/336.
(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 5/242.

بلاغةُ التّعبير بالنّداءِ بصفة الإيمان:

نـاداهـم بصفة الإيـمـان، لما في الـتّـكـلـيـف من مشقّة، تخفيفًا لـهـا بـــوازع الإيمان

قوله جلّ شأنه: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡكَـٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۚ﴾ جاء المُنادى بهذا بصفة الإيمان، فلا شيء أعلى من الإيمان، وهذا الأسلوب تكرَّر في القرآن كثيرًا، وذلك في الأوامر والنواهي والوعد والوعيد إلى غير ذلك، ومنه ما هو معنا في هذه الآية من النَّهي عن أن يتّخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين؛ لذلك ناداهم ربّنا بهذا النّداء بكلّ ما فيه من عناصر التّوكيد؛ لتحمّل الأعباء التي يكلّفون بها، ومنها عدم اتّخاذ الكفار أولياء.

دلالة إيثار استعمال الاسم الموصول:

عـبّر عـنـهـم بالموصول إشارة إلى مـضـمـون الـصّـلـة، ليبني النّهي عليه

عبّر عنهم بالاسم الموصول "الذين" لإظهار صفة الإيمان في سياق النّهي عن اتّخاذ الكافرين أولياء، فقد "نادى بالموصول للإشارة إلى أن الإيمان يقتضي ألا يكون ولاء المؤمن لغير المؤمنين"[1].

دلالة النهي في قوله: ﴿لَا تَتَّخِذُواْ﴾:

الـغـرض من التّعقيب بالنّهي عـن مـولاة الكافرين، بعد ذمّ ذلك لكونه مـن صـفـات المنافقين

جاء هذا النّهي من الله لعباده المؤمنين عن " أن يتخلَّقوا بأخلاق المنافقين، الذين يتخذون الكافرين أولياءَ من دون المؤمنين، فيكونوا مثلهم في ركوب ما نهاهم عنه من موالاة أعدائه"[2]، وبذلك يستحقون العقاب إن هم فعلوا ذلك.

إيثار التّعبير بالاتخاذ:

اصطفى القرآن الكريم مادة الاتخاذ في قوله ﴿لَا تَتَّخِذُواْ﴾ في هذا المقام؛ لأنها على وزن افتعال؛ فهي تدل على التكلف للمبالغة في تحصيل المطلوب، وهذا له دلالة مهمة في تكوين إيمان الفرد وإيمان الأمة، ذلك أن المؤمن قد يتعرض لموقف يضطر فيه إلى موالاة

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 4/1921.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 9/336.

الكافرين؛ فطلب القرآن منك أيها المؤمن أن تبذل كل الوسع في عدم اتخاذهم أولياء مهما يكلفك من مشاقّ إلا عند حد الاضطرار.

آثـر الـتّـعـبير بصيغة الاتّخاذ لما فيها من دلالة عـلى الـتّـكـلـف والاجتهاد

دلالة التعبير بقوله: ﴿لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ بدلًا من لا توالوا الكافرين:

قوله جلّ شأنه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ﴾ نهى عن اتّخاذ الكافرين أولياء، ولم ينهَ عن مولاتهم بعبارة مباشرة فلم يقل: (لا توالوا الكافرين)؛ للمبالغة في النّهي، فالمنهيّ عنه هو الاتّخاذ بما فيه من دلالة على التّكلف والاضطرار والتّصنع، فنهى عن ذلك السّلوك وهو غير سلوك الموالاة.

مـبـالـغـة في النّهي، بالنّهي عـن أسـبـاب الموالاة

سر التعبير بالأولياء دون نصراء:

عبر بالأولياء؛ لأن المراد بالولاية هنا النّصرة والانتماء إلى جماعة الكافرين، وبهذا المعنى جاء النّهي عنه، وهو التبعية والنصرة، وذلك أمر منهيٌّ عنه باتفاق، ولوجود فرق بين الوليِّ والنصير؛ فالولاية تكون بإخلاص المودّة، والنصرة تكون بالمعونة والتقوية[1].

نهى عن الولاية دون الـنّـصـرة لأنـهّـا تـدلّ على الانتماء والودّ

بلاغة الاستئناف:

قوله جلّ شأنه: ﴿أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُواْ لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا﴾ استئناف لبيان الجزاء المعدّ لمن لم ينتهِ عن موالاة الكافرين، "لِأَنَّ النَّهْيَ عَنِ اتِّخَاذِ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِمَّا يَبْعَثُ النَّاسَ عَلَى مَعْرِفَةِ جَزَاءِ هَذَا الْفِعْلِ"[2]، وفيه تشهير بسلوك المنافقين، ويحمل معنى التّهديد لهم بتسليط مقت الله وعقابه.

الاستئناف لبيان جـزاء الـنّـهـي عـن المـوالاةِ، وَالـتَّـشـهـير بالمنافقين

دلالة الاستفهام في قوله تعالى: ﴿أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُواْ لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا﴾:

هذا الاستفهام يتضمن إنكارًا للوقوع أي لَا يقع منهم، ولا يصحّ

(1) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 214.

(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 5/243.

الاستفهام للإنكار والتّوبيخ والتّحذير والإنذار

أن يقع، ويتضمّن التّحذير والإنذار[1]، والمعنى: "إنّكم إن فعلتم ذلك فقد جعلتم للّه حجّة في عقابكم، وتسليط ذنوبكم عليكم وتخلّيه عن نصركم؛ فإنّ نصر اللّه لَا يكون إلّا لمن يطلب النّصرة من اللّه وحده، ولن ينصر اللّه من يستنصر بغير اللّه كما قال تعالى: ﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ ۝٧﴾ [محمد ﷺ: 7]"[2].

السّرّ في توجيه الإنكار إلى الإرادة دون الفعل:

توجيهُ الإنكار إلى الإرادة، مبالغةٌ في إنكار ولاية الكافرين، وتهديدٌ لهم

قوله جلّ شأنه: ﴿أَتُرِيدُونَ أَن تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ عَلَيۡكُمۡ سُلۡطَٰنٗا مُّبِينًا﴾ تسلّط الإنكار على الإرادة "دون متعلَّقها بأن يقال: (أتجعلون) للمبالغة في إنكارِه وتهويلِ أمرِه ببيان أنَّه مما لا يصدُر عن العاقل إرادتُه فضلًا عن صدور نفسِه كما في قوله ﷻ: ﴿أَمۡ تُرِيدُونَ أَن تَسۡـَٔلُواْ رَسُولَكُمۡ﴾"[3]، فالتّعبير بالإرادة يدلّ على أنّ هذا السلوك منهم في موالاة الكافرين ليس من باب الهمّ ولا من باب الخواطر، إنما هو عزم منهم وصل إلى درجة الوقوع، وفيه تهديد وردع لهم عن تلك الموالاةِ.

سرُّ ذكرِ السّلطان في سياق النّهي عن الموالاة:

ذكر السّلطان في سياق التّهديد، للدّلالة على أنّ استحقاق العذاب حتميٌّ إذا وقعت الموالاة

في قوله جلّ شأنه: ﴿أَتُرِيدُونَ أَن تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ عَلَيۡكُمۡ سُلۡطَٰنٗا مُّبِينًا﴾ ذكر السّلطان في سياق التّهديد والرّدع عن موالاتهم؛ إشارة إلى أنّ استحقاقهم العذاب بسبب الموالاة أمر حتميٌّ لا شكّ فيه، "وَالْمَعْنَى: أَنَّهُ يَأْخُذُكُمْ إِنْ وَالَيْتُمُ الْكُفَّارَ بِانْتِقَامٍ مِنْهُ، وَلَهُ عَلَيْكُمْ فِي ذَلِكَ الْحُجَّةُ الْوَاضِحَةُ؛ إِذْ قَدْ بَيَّنَ لَكُمْ أَحْوَالَهُمْ وَنَهَاكُمْ عَنْ مُوَالَاتِهِمْ"[4].

إيثار التّعبير بالسلطان دون الحجّة في قوله تعالى: ﴿سُلۡطَٰنٗا مُّبِينًا﴾:

في قوله جلّ شأنه: ﴿أَتُرِيدُونَ أَن تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ عَلَيۡكُمۡ سُلۡطَٰنٗا مُّبِينًا﴾

(1) القنّوجي، فتح البيان: 3/277.
(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 4/1921.
(3) أبو السعود، إرشاد العَقْل السّليم: 2/246.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/112.

آثر التّعبير بالسّلطان دون الحجّة؛ لكونه أبلغ في الدّلالة على قوّة الحجّة، فهو يحمل معنى زائدًا عن الحجّة؛ لأنّه مأخوذ من السّلطة بمعنى القوّة، ومنه السّليط لقوّة اشتماله، والسّلاطة لحدّة اللّسان[1]. فآثر القرآن هنا السّلطان دون الحجة؛ للمبالغة في التّهديد.

آثر التّعبير بالسّلطان لكونه أبلغ في الاحتجاج، مبالغة في التّهديد

دلالة اختيار التذكير على التّأنيث في: ﴿سُلۡطَٰنٗا مُّبِينٗا﴾:

يجوز في لفظ (السلطان) التّذكير والتّأنيث، فمن ذكَّر ذهب به إلى البرهان والاحتجاج، ومن أنَّث ذهب به إلى الحجَّة، واختير التّذكير في الآية "لِأَنَّهُ وَقَعَ الْوَصْفُ فَاصِلَةً، فَهَذَا هُوَ الْمُرَجِّحُ لِلتَّذْكِيرِ عَلَى التَّأْنِيثِ"[2]، والتّذكير هو الأشهر وهي لغة القرآن[3].

يجوز فيه التّذكير والتّأنيث، وذُكِّر للنّسق الصّوتي، وحفاظًا على الفاصلة

دلالة التعبير بالمصدر المؤول ﴿أَن تَجۡعَلُواْ﴾:

عبّر بالمصدر المؤوّل ﴿أَن تَجۡعَلُواْ﴾ في قوله جلّ شأنه: ﴿أَتُرِيدُونَ أَن تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ عَلَيۡكُمۡ سُلۡطَٰنٗا مُّبِينٗا﴾ والمصدر المؤوّل يراعى فيه مع الحدث الإشارةُ إلى الزمن، بعد فعل الإرادة، للدّلالة على استمرار حدوث الحجّة عليهم بسبب الموالاة، وكأنّهم تجدّدت موالاتهم للكافرين؛ فالعقوبة تأتي على هذه الموالاة المتجدّدة، وفي هذا إشارة إلى إخراج حكم الضّرورة التي تلجئ الإنسان إلى الموالاة ظاهرًا مع أعدائه.

عبّر بالمصدر المؤوّل للدّلالة على استمرار حدوث الحجّة عليهم بسبب الموالاة

دلالة الجار والمجرور في قوله ﴿عَلَيۡكُمۡ﴾:

أفاد الجار والمجرور ﴿عَلَيۡكُمۡ﴾ في قوله جلّ شأنه: ﴿أَتُرِيدُونَ أَن تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ عَلَيۡكُمۡ سُلۡطَٰنٗا مُّبِينٗا﴾ بما فيه من دلالة على الاستعلاء على قوّة تمكّن السّلطان منهم، إيغالًا في التّهديد، وزيادة في التّرهيب.

عبّر بحرف الجرّ (على) للدّلالة على قوّة الحجّة إيغالًا في التّهديد

(1) الكفويّ، الكليات، ص: 493.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/112.
(3) القنّوجي، فتح البيان: 3/277، والهرري، حدائق الروح والريحان: 6/441.

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الحجّة والسّلطان:

السّلطان أخصّ من الحجّة، فهي قوّة الحجّة والتّنفيذ

أصل السّلطان من السّلطة وَالقوّة، ومنه السّليط لقوّة اشتماله، والسّلاطة لحدّة اللّسان[1].

أما الحُجّة فهي البرهان؛ لأنّ الحجّة في كلام العرب ما يقصد به إثبات المخالف، بحيث لا يجد منه تخلّصًا، وعلى هذا فالسّلطان أقوى من الحجّة؛ لأنّه يحمل معنى زائدًا على الحجّة، وهو القوّة في التّنفيذ، ولذلك آثر القرآن هنا السّلطان دون الحجة؛ لبيان قدرته ﷻ في تنفيذ عقابه؛ فلا يمنعه مانع.

وفيه إشارة إلى أن موالاة الكافرين ظاهرة وواضحة؛ لأنها استنصار بغير المؤمنين، يترتب عليه العقاب الأليم؛ فكأنهم قدَّموا حجَّة قويَّة على عقاب اللّه.

(1) الكفويّ، الكليات، ص: 493.

﴿إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ فِي ٱلدَّرۡكِ ٱلۡأَسۡفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمۡ نَصِيرًا ١٤٥﴾ [النساء: 145]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لمّا نهى الله ﷻ في الآية السابقة عن أفعال المنافقين، والتَّحذير من الاتصاف بصفاتهم، وما تحمله من خطورة على المؤمنين، بيَّن في هذه الآيات الجزاء المعدَّ للمنافقين بأنَّهم في أسفل طبقات جهنم جزاءً وفاقًا على كفرهم وخداعهم للمؤمنين.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلدَّرۡكِ﴾: كالدَّرج، لكن الدرج يقال اعتبارًا بالصعود، والدرك اعتبارًا بالحدور "وَالدَّرَكُ: اسْمُ جَمْعِ دَرَكَةٍ، ضِدُّ الدَّرَجِ اسم جَمْعِ دَرَجَةٍ. وَالدَّرَكَةُ الْمَنْزِلَةُ فِي الْهُبُوطِ. فَالشَّيْءُ الَّذِي يُقْصَدُ أَسْفَلُهُ تَكُونُ مَنَازِلُ التَّدَلِّي إِلَيْهِ دَرَكَاتٍ، وَالشَّيْءُ الَّذِي يُقْصَدُ أَعْلَاهُ تَكُونُ مَنَازِلُ الرُّقِيِّ إِلَيْهِ دَرَجَاتٍ"[1]، و﴿ٱلدَّرۡكِ ٱلۡأَسۡفَلِ﴾ الطّبق الذي في قعر جهنّم، والنّار سبع دركات؛ سمّيت بذلك لأنّها متداركة متتابعة بعضها فوق بعض"[2]، "وكلّ طبَق من أطباق جهنم دَرَك"[3].

2) ﴿نَصِيرًا﴾: (نَصَرَ): أَصْلٌ يَدُلُّ عَلَى إِتْيَانِ خَيْرٍ وَإِيتَائِهِ. وَنَصَرَ اللهُ الْمُسْلِمِينَ: آتَاهُمُ الظَّفَرَ عَلَى عَدُوِّهِمْ، يَنْصُرُهُمْ نَصْرًا[4]، ﴿وَلَن تَجِدَ لَهُمۡ نَصِيرًا﴾ أي "مانعًا يمنعهم من عذاب الله، من جهة شفاعة أو غير ذلك من وجوه النصر المتوهّم أنّه ينفعهم"[5].

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

أخبر الله تعالى عن الجزاء المعدّ للمنافقين؛ لسوء أعمالهم، وفساد أرواحهم، فهم كائنون يوم القيامة في الدّرك الأسفل من النّار، فهي دَرَكات، وهم في أسفلها، ولا شكّ

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 5/244.
(2) الزمخشري، الكشاف: 1/581.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 9/338.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نصر).
(5) الواحدي، البسيط: 7/167، والبَغَويّ، معالم التّنزيل: 1/715.

أنّهم يستحقّون ذلك، ولن يُغْنِيَ عنهم موالاتهم للكافرين؛ فلن ينفعوهم يوم القيامة، ولن يَدْفَعُوا عنهم العذاب.

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

السّرّ في فصل الجملة عن سابقتها:

فصل الجملة عن سابقها للرجوع في الحديث إلى المنافقين

في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ جاءت الجملة مفصولة ولم تعطف على ما قبلها؛ لأنها جملة مستأنفة...؛ فهي عود على أحوال المنافقين، والعذاب المُعَد لهم[1].

التعريض بالمنافقين غير المصرَّح بهم:

تصفية المؤمنين وتخلية قلوبهم مما قد يعرض لها من ولاية الكافرين

الانتقال من نهي المؤمنين أن يتخذوا الكافرين أولياء إلى الإخبار المؤكَّد بأنَّ المنافقين هم أشدُّ عذابًا من الكافرين تعريض بمن اتَّصف بصفات المنافقين، وتحذير لهم من الوقوع في براثن النفاق.

كما أنَّ فيه تلوينًا للخطاب؛ فإنَّه انتقل من نداء المؤمنين، ونهيهم عن موالاة الكافرين، إلى الإخبار المؤكَّد عن شدة عذاب المنافقين.

"فإنَّ الانتقال من النَّهي عن اتِّخاذ الكافرين أولياء إلى ذكر حال المنافقين يُؤْذِنُ بأنَّ الذين اتَّخذوا الكافرين أولياءَ معدودون من المنافقين، فإنَّ لانتقالات جُمَل الكلام معانيَ لا يُفيدها الكلامُ؛ لِما تدلُّ عليه من ترتيب الخَواطر في الفكر"[2].

الإخبار بالجملة الاسميّة المؤكّدة بـ ﴿إِنَّ﴾:

أخبر بالجملة الاسميّة المؤكّدة دلالةً على قوّةِ الخبر وتأكيدِ تحقّقه

عبّر عن مصير المنافقين في قوله جلّ شأنه: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ بالجملة الاسميّة الدّالّة على ثبوت المعنى وتأكيده؛ دلالة على قوّة الخبر وتأكيد تحقّقه، وأضاف له مزيدًا من التأكيد بالافتتاح بـ (إنّ). "وَتَأْكِيدُ الْخَبَرِ بِـ (إِنَّ) لِإِفَادَةِ أَنَّهُ لَا مَحِيصَ لَهُمْ عَنْهُ"[3].

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 5/244.
(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 5/243.
(3) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 5/244.

دلالة الألف واللّام في: ﴿إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ﴾:

الخطاب يتناول المنافقين المعهودين، وكلّ من سلك مسلكهم

تعددت الأقوال في المراد بالألف واللام في (المنافقين) بين العموم والخصوص، "قال ابن عرفة: الألف واللّام إمّا للعهد، فلا يتناول منافقي الجنس، وإمّا للجنس فتتناولهم، والظّاهر عدم تناول اللّفظ لهم؛ لأنّ أولئك معصيتهم أشدّ لمشاقتهم رسول الله ﷺ واستهزائهم به"[1].

نكتة العدول عن تعريف المنافقين بالموصوليَّة إلى الاسم الصريح:

إثبات الحكم المذكور لمن ظلَّ على نفاقه إلى الممات ولم يتب منه

نلحظ ذكر المنافقين في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ﴾ بالاسم الصريح، ولم يُعرِّفْهم باسم الموصول، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَلِيَعۡلَمَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٦٦ وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْۚ﴾ [آل عمران: 166 - 167]، فتأمَّل كيف عرَّف المؤمنين بـ (ال)، وذكر المنافقين باسم الموصول وصلته؟!

وقوله: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ﴾ [الحشر: 11]؛ وذلك لأنَّ الاسم الموصول (الذين) مفتقر إلى صلته، وجملة الصلة فعليَّة، تدلُّ على التجدُّد والحدوث، فيتناسب مع آيتي (آل عمران والحشر)؛ لعلَّهم يثوبون ويرجعون، ولا يتناسب مع الحكم عليهم بالعذاب في الدرك الأسفل من النَّار إلا الاسم الصريح، وتعريفهم بـ (ال)، فالاسم يدل على الثُّبوت والدَّوام، فمن ثبت منهم على نفاقه، ولم يتب منه، كان داخلًا في الحكم المذكور.

السّرّ في تعيين عذاب للمنافقين:

لبيان أنّ عذابهم أشدّ، تغليظًا عليهم

ذكر القرآن الكريم مكان العذاب المُعدّ لهم؛ للتّغليظ عليهم فعذابهم أشدّ من الكفّار؛ "وإنّما كان كذلك لأنّهم أخبث الكفرة؛ إذ ضمّوا إلى الكفر استهزاء بالإِسلام وخداعًا للمسلمين"[2]، وهم

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/66.

(2) الزمخشري، الكشاف: 1/581، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 2/105، والقاسمي، محاسن التأويل: 3/381.

بنفاقهم وتستّرهم أَشَدُّ تَمْكِينًا مِنْ أَذَى الْمُسْلِمِينَ"[1]؛ حيث كانوا أقدر على الاطّلاع "عَلَى أَسْرَارِ الْمُسْلِمِينَ ثُمَّ يُخْبِرُونَ الْكُفَّارَ بِذَلِكَ فَكَانَتْ تَتَضَاعَفُ الْمِحْنَةُ مِنْ هَؤُلَاءِ الْمُنَافِقِينَ، فَلِهَذِهِ الْأَسْبَابِ جَعَلَ اللّه عَذَابَهُمْ أَزْيَدَ مِنْ عَذَابِ الْكُفَّارِ"[2].

السّرّ في اختيار الدّرك الأسفل في عقاب المنافقين:

جعلهم أسفل النّار لبيان أنّهم في غاية البعد ونهاية الطّرد عن رحمة الله تعالى

اختار الدرك الأسفل؛ لبيان أنّ المنافقين في غاية البعد؛ "فهم فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ من نار جهنّم، وهي (أدراك) بعضها فوق بعض طبقة على طبقة، أعلاها هي جهنّم وقد يسمى جميعها باسم الطّبقة العليا، فالمنافقون الذين يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر هم في أسفل طبقة من النّار؛ لأنّهم أسوأ غوائل من الكفّار وأشدّ تمكّنًا من أذى المسلمين"[3]. ومما يذكر في سر اختيار الدرك الأسفل للمنافقين أنه أخفى ما في النار، وأستره وأخبثه؛ كما أن كفر المنافقين أخفى الكفر وأخبثه.

ولأنَّهم طلبوا العزَّة من غير اللّه، فأذلَّهم اللّه، فالدَّرك الأسفل مع كونه أشدَّ النَّار عذابًا، هو أعظمه إذلالا وتنكيلًا، فالجزاء من جنس العمل.

الدّرجات والدّركات:

الدّرك باعتبار الهبوط، أطلق على منازل النّار والدّرج باعتبار الصّعود أطلق على منازل الجنّة

عبّر القرآن الكريم عن منازل أهل الجنّة بالدّرجات، وعن منازل أهل النّار بالدّركات، " قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: الدَّرْكُ لِأَهْلِ النَّارِ كَالدَّرَجِ لِأَهْلِ الْجَنَّةِ، إِلَّا أَنَّ الدَّرَجَاتِ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ، وَالدَّرَكَاتِ بَعْضُهَا أَسْفَلَ مِنْ بَعْضٍ"[4]. فقوله جلّ شأنه: ﴿فِي ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ﴾

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/113.
(2) الرازي، مفاتيح الغيب: 11/251.
(3) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/128.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/112.

يعني منازل أهل النار[1]؛ فأطلق الدّركات على منازل النّار، لأنّ العرب قالوا: "لِكُلٍّ مَا تَسَافَلَ أَدْرَاكٌ. يُقَالُ: لِلْبِئْرِ أَدْرَاكٌ، وَلِمَا تَعَالَى دَرَجٌ، فَلِلْجَنَّةِ دَرَجٌ، وَلِلنَّارِ أَدْرَاكٌ"[2]. "

دلالة إمساس الألفاظ أشباهَ المعاني:

يتجلَّى إمساس اللفظ شبهَ معناه هنا في أمرين:

أولهما: توالي الحركات المفتوحة في اللفظين، "وذلك أنَّهم لمَّا جعلوا الألفاظ دليلة المعاني؛ فأقوى اللَّفظ ينبغي أن يقابَل به قوَّة الفعل"[3]، فتوالي الحركات في (درجات ودركات) لتوالي الأفعال، الأُولى في ترقٍّ وصعود، والأخرى في تسفُّل وانحدار.

الجيم في (درج) تشبه التجمُّع الخفيف المنتقل شيئًا بعد شيء، والكاف في (درك) تشبه التسفُّل المنضغط الغائر

والآخر: مقابلة اللفظ بما يشاكل صوتَه من الحدث، وفيه يقول ابن جني:

"فأما مقابلة الألفاظ بما يشاكل أصواتَها من الأحداث، فباب عظيم واسع، ونهج مُتَلَئِبٌّ[4] عند عارفيه مأموم؛ وذلك أنَّهم كثيرًا ما يجعلون أصواتَ الحروف على سمت الأحداث المعبَّر بها عنها، فيعدِّلونها بها ويحتذونها عليها، وذلك أكثر مما نقدره، وأضعاف ما نستشعره"[5].

فكلٌّ من (درك ودرج) يتماثلان في الحرفين الأوَّلَيْنِ (در)، وهذا الفصل منهما يعبِّر عن جريان المائع ونحوه بتوالٍ واسترسال، ويختلفان في الحرف الأخير؛ فالجيم مجهورة، تشير إلى تجمُّع خفيف أو لطيف، له حدَّة ما، وتركيب حروف (درج) تعبِّر عن الانتقال اللطيف شيئًا بعد شيءٍ في ترقٍّ، والكاف من (درك) مع

(1) الصاوي، حاشية الصّاوي: 1/238.
(2) القُرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 5/425.
(3) ابن جني، الخصائص: 2/157.
(4) الطريق المُتَلَئِبّ: هو المستقيم الممتدّ.
(5) ابن جني، الخصائص: 2/159.

أنَّها أضعف من الجيم، فهي مهموسة والجيم مجهورة، إلا أنَّ صوتَ الكاف يدلُّ على ضغط غَئُوريّ، يؤدِّي هنا إلى اللُّصوق، ويعبِّر التركيب معها عن الاسترسال حتَّى اللِّحاق بشيء أو الالتحام به[1].

دلالة الوصف بالأسفل:

دلّ وصف الدّرك بالأسفل على أنّهم في نهاية قعر جهنّم، إسفارًا عن شدّة عذابهم

معنى قوله جلّ شأنه: ﴿فِي ٱلدَّرۡكِ ٱلۡأَسۡفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ أي هم في أقصى قعرها[2]، فدلّ وصف الدّرك بالأسفل على أنّه أقساها عذابًا؛ لأنّه يتكاثف عليه ما فوقه من طبقات؛ ولأنّ أعمق النّيران أشدّها توهجًا وأكثرها لهيبًا، وهذا هو المناسب للمنافقين الذين مردوا على النّفاق واستمرؤوه حتى صار وصفًا لهم[3].

دلالة التّصريح بالنّار دون وصف من أوصاف جهنم:

صرّح بمكانهم وباسم النّار، للنّص على ذلك؛ وللتّهويل في سوء مصيرهم

آثر التّصريح عن عذابهم بكونه في الدّرك الأسفل وبكونه في النّار، دون سائر الأسماء للنّص على أنّهم في الطبقة السّفلى من النّار؛ تهويلًا لسوء مصيرهم، وتهديدًا لهم، وهذا الأنسب للمنافقين؛ لأنَّهم أوغلوا في إفساد المجتمع وفي الكفر بالله وبرسوله ﷺ.

بلاغة التّذييل:

ذيّل الآية بما يؤكّد سوء مصيرهم، فلا محيص لهم عن العذاب

قوله جلّ شأنه: ﴿وَلَن تَجِدَ لَهُمۡ نَصِيرًا﴾ تذييل صُدّر بالنّفي الذي يلمح فيه التّأبيد (لن) للدّلالة على تقطع الأسباب بينهم وبين من والوهم من الكافرين؛ فلا ينصرونهم، ولا يملكون لهم شفاعة، ففي التّذييل " تَأْكِيدٌ للوَعِيدِ، وَقَطْعٌ لرَجَائِهِمْ، لِأَنَّ الْعَرَبَ أَلِفُوا الشَّفَاعَاتِ وَالنَّجَدَاتِ فِي المَضَايِقِ. فَلِذَلِكَ كَثُرَ فِي الْقُرْآنِ تَذْيِيلُ الْوَعِيدِ بِقَطْعِ الطَّمَعِ فِي النَّصِيرِ وَالْفِدَاءِ وَنَحْوِهِمَا"[4].

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (درك)، (درج).
(2) النيسابوري، غرائب القرآن: 2/520.
(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 4/1923.
(4) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 5/244.

بلاغة نفي النّصير عن طريق نفي وجوده، في قوله: ﴿وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾:

قوله تعالى: ﴿وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ أخبر بنفي وجدان النّصير؛ للدّلالة على انتفائه بعد الطّلب مبالغة في انتفائه، فهو "موضع لَا ينفع فيه النّصير؛ فلذلك لم يقل: (ولم يكن لهم نصير)"[1]، فدلّ هذا الفعل على نفي وجود للنّصير، فضلًا عن نفي النّصير؛ فكأنّهم يبحثون عن النّصير فلا يجدون؛ لأنَّ المقام ليس مظنّة لوجود نصراء، ولو تكلّفوا طلبهم بالبحث والتنقيب، لذلك "نفَى اللّه تعالى عنهم نفيًا مؤكّدًا، أن يكون لهم نُصراء"[2]، أو شفيعٌ "يخلّصهم من ذلك الدرك"[3].

ليس المقام مظنّة وجود نصراء، فلا تجدهم ولو تكلّفت طلبهم

الغرض من النّفي:

الغرض من نفي ذلك تهديدُ المنافقين[4]، وتأييس من وجود ناصر ينصرهم وينقذهم من عذاب اللّه، "فإنّه يعني: ولن تجد لهؤلاء المنافقين، يا محمّد، من اللّه إذا جعلهم في الدَّرك الأسفل من النّار ناصرًا ينصرهم منه، فينقذهم من عذابه، ويدفع عنهم أليمَ عقابه"[5].

التّهديد والتّأييس بنفي من ينصرهم من عذابه، وبيانٌ لتقطّع الأسباب بينهم

دلالة الخطاب في قوله: ﴿وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾:

الخطاب في قوله: ﴿وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ للنّبي ﷺ، وهو الذي ذاق آثار نفاقهم، وذاق المؤمنون معه مرارة ذلك النّفاق؛ لأنّ في ذلك تثبيتًا للمؤمنين، حتّى لَا يتزلزل أحدٌ منهم بعمل المنافقين الذي مردوا عليه، ولم يتراجعوا عنه، ولأنّهم أرادوا بالنّفاق الاستنصار بغير دولة الحقّ، لتفوز دولة الباطل على النّبيّ ﷺ، فذكر اللّه تعالى لنبيّه أنّه لن يجدهم منصورين عليه أبدًا لأنّهم لَا ناصر لهم[6].

تسلية النبي ﷺ بنفي ظهور المنافقين

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/66.
(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 4/1925.
(3) القنّوجي، فتح البيان: 3/278.
(4) الرازي، مفاتيح الغيب: 11/251.
(5) ابن جرير، جامع البيان: 9/339.
(6) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 4/1925.

دلالة تنكير ﴿نَصِيرًا﴾:

نفي النّصرة عنهم في يوم القيامة على وجه الاستقصاء

جاء ذكر النّصير في قوله تعالى: ﴿وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ بصيغة التّنكير؛ للدّلالة على نفي النّصرة عمومًا عن المنافقين، فلن ينصرهم أحدٌ ممّن كانوا يستنصرون بهم، ولن يجدوا من يبحث لهم عن نصير في هذا الموقف؛ لأنّ النُّصْرَةَ تكون للّه وحده.

ونفي النُّصرة عن المنافقين يشمل الدُّنيا والآخرة، وإن كان السِّياق دالًّا على الآخرة، بقرينة ذكر قوله: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾، "وإنَّ هؤلاء لن يكون لهم نصيرٌ يوم القيامة؛ لأنَّه للّه وحده، ولن يجدوا نصيرًا يُخْلِصُ في النُّصرة لهم في الدُّنيا؛ لأن النِّفاقَ يسلب الثِّقة عنهم، فلا ينصرهم أحد ممن يستنصرون بهم، بل إنَّهم يستخدمون شرَّهم، ولا يعطونهم خيرًا، وما وجدنا منافقًا في الماضي أو الحاضر يخون قومَه، ويَنال نُصرةً صحيحةً ممَّن ينافق لأجلهم، فتلك سنة اللّه تعالى في المنافقين"[1].

سر تقديم الجار والمجرور في قوله: ﴿وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾:

للدّلالة على الاختصاص، نفيًا لوجود من يختصّهم بالنّصرة في ذلك الموقف

قوله: (لهم) جار ومجرور متعلِّق بـ ﴿نَصِيرًا﴾، وهو في الأصل صفته، فلمَّا قدِّم عليه أُعرب حالًا، ويبدو أنَّ سرَّ تقديمه هو الدلالة على اختصاصهم بهذه العقوبة المعنوية، وهي فقدان النَّصير، فضلًا عن العقوبة الحسيَّة بأنَّهم في الدرك الأسفل من النار، وفي هذا تبكيت وتقريعٌ للمنافقين، وتحذيرٌ لمن تسوِّل له نفسه أن يسلك مسلكهم.

دلالة اختيار (نصير) بدلًا من (الولي):

النّصير أعم من الوليّ، فنفي النّصير أبلغ في التّقريع

اختار النصير دون الولي؛ لوجود فرق بينهما؛ فالولي هو القريب والحليف، أما النصير: فكل من يعين أحدًا يُراد به ضُرٌّ، وأيضًا؛ لأن الولي قد يضعف عن النُّصرة، والنَّصير قد يكون أجنبيًّا عن

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 4/1925.

المنصور، كما يكون من أقربائه، وعلى ذلك فالنَّصير أعمُّ من الولي، وبذلك تكون الآية نفت عن المنافقين الولاية والنصرة معًا.

السرُّ في ذكر النَّصير وحدَه، ولم يجمع معه الولي:

مراعاة لخطاب النبي ﷺ، وَتسلية له عمَّا فعلوه معه من جرائم

قوله: ﴿وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ هو الموضع الوحيد الذي جاء فيه نفي النصير بـ ﴿وَلَن﴾، وبصيغة الخطاب ﴿تَجِدَ﴾ للنبيّ ﷺ، وذلك تسلية له وتسرية عمَّا فعلوه معه من جرائم وخيانة ومؤامرات؛ فكم استعزُّوا بموالاة الكافرين، وكم استنصرهم المسلمون، فخذلوهم.

وفي غير هذه الآية الكريمة جاء النفي بـ(لا)، وبصيغة الخبر، فالسِّياقُ في غيرها إخبار عن خِزيهم وخيبة رجائهم، فهم يبحثون عن وليٍّ؛ ليخلّصهم ولو بفداء، فلم يجدوا، فيبحثون عن نصير؛ ليدافع عنهم، أو ينقذهم، فلم يجدوا، فالجمع بين الولي والنصير في غير الآية التي معنا يناسب المقام؛ للدلالة على استنفادهم كلّ الحيَل، واليأس من نجاتهم كقوله تعالى: ﴿وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾﴾ [النساء: 123]، وقوله: ﴿وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧٣﴾﴾ [النساء: 173]، وقوله: ﴿وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧﴾﴾ [الأحزاب: 17]، وقوله: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٦٥﴾﴾ [الأحزاب: 65]، وقوله: ﴿وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوَلَّوُا۟ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾﴾ [الفتح: 22].

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَٱعۡتَصَمُواْ بِٱللَّهِ وَأَخۡلَصُواْ دِينَهُمۡ لِلَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ وَسَوۡفَ يُؤۡتِ ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَجۡرًا عَظِيمٗا ١٤٦﴾ [النساء: 146]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لمَّا ذكر الله ﷻ في الآية السَّابقة أنَّ المنافقين في الدرك الأسفل من النَّار، بما أركسوا من الشرِّ، وأغلقوا باب الهداية عليهم، حتَّى إنَّ رجوع المشرك عن شركه أقرب من رجوع المنافق عن نفاقه، ومع كلِّ ذلك لم يغلق الله الباب أمامهم، إن أرادوا العودة والأوبة إلى الله، فجاءت هذه الآية لإعلان فتح باب التوبة للمنافقين الذين التزموا بشروط التوبة فأصلحوا واعتصموا بالله وأخلصوا دينهم لله إذا فعلوا ذلك قبل الله منهم وأثابهم أجرًا عظيمًا[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَأَصۡلَحُواْ﴾: أصلٌ يدلّ على خلاف الفساد، وهما مختصان في أكثر الاستعمال بالأفعال، وقوبل في القرآن تارة بالفساد، وتارة بالسيئة، قال تعالى: ﴿خَلَطُواْ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَءَاخَرَ سَيِّئًا﴾ [التوبة: 102]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَا﴾ [الأعراف: 56][2].

2) ﴿وَٱعۡتَصَمُواْ بِٱللَّهِ﴾: (عَصَمَ) أَصْلٌ يَدُلُّ عَلَى إِمْسَاكٍ وَمَنْعٍ وَمُلَازَمَةٍ. العِصْمَةُ: أَنْ يَعْصِمَ الله تعالى عَبْدَهُ مِنْ سُوءٍ يَقَعُ فِيهِ. اعْتَصَمَ الْعَبْدُ بِاللَّه تَعَالَى، إِذَا امْتَنَعَ. وَاسْتَعْصَمَ: الْتَجَأَ[3]. "﴿وَٱعۡتَصَمُواْ بِٱللَّهِ﴾ وثقوا به والتجأوا إليه"[4]. "وثقوا به كما يثق المؤمنون الخُلَّص"[5]، "﴿وَٱعۡتَصَمُواْ بِٱللَّهِ﴾، يقول: وتمسَّكوا بعهد الله"[6].

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 4/1925.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (صلح).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عصم).
(4) الواحدي، البسيط: 7/167.
(5) الزمخشري، الكشاف: 1/581.
(6) ابن جرير، جامع البيان: 9/340.

3) ﴿وَأَخۡلَصُواْ﴾: (خلص) أصل يدلّ على تنقيةِ الشّيء وتهذيبه، الخالص مازال عنه شوبه بعد أن كان فيه، قال تعالى: ﴿وَنَحۡنُ لَهُۥ مُخۡلِصُونَ ١٣٩﴾ [البقرة: 139][1].

4) ﴿دِينَهُمۡ﴾: يقال: دِنتُ الرجل: أخذت منه دينا، وأدنته جعلته دائنًا وذلك بأن تعطيه دينًا، والدين، يقال للطاعة والجزاء، واستعير للشريعة، والدين كالملة، لكنَّه يقال باعتبار الطَّاعة والانقياد للشريعة[2].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

فتح اللّه تعالى في هذه الآية باب التوبة للمنافقين الذين رجعوا إلى اللّه بالتوبة من نفاقهم، وأصلحوا باطنهم، وتمسَّكوا بعهد اللّه، وأخلصوا عملهم للّه بلا رياء، فأولئك المتَّصفون بهذه الصِّفات مع المؤمنين في الدُّنيا والآخرة، وسوف يعطي اللّه المؤمنين ثوابًا جزيلًا[3].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغة الاستثناء:

فتح باب الأمل والرجاء للمنافقين

دل الاستثناء في قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَٱعۡتَصَمُواْ بِٱللَّهِ وَأَخۡلَصُواْ دِينَهُمۡ لِلَّهِ﴾ على فتح باب الأمل والرّجاء في النّجاة من المصير الذي ذكره اللّه تعالى للمنافقين الذين فيهم بقية من خير، حثًّا لهم على التّوبة والنّدم.

السّرّ في التّعبير بالموصول دون الوصف:

عبّر عنهم بالموصول للتّنبيه على المعنى المضمّن في الصّلة وهي شروط التّوبة

لو قال: (إلّا التّائبين والمصلحين والمعتصمين والمخلصين) لدلّ على أنّهم أربعة أصناف، وهذا ليس مرادًا، بل المراد أنّ من نافق وأراد التّوبة فعليه أن يأتي بهذه الشّروط الأربعة المعبّر عنها بالأفعال الأربعة، فعبّر بالموصول لإظهار شروط توبتهم المعبّر عنها في الصّلة.

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (خلص).
(2) الراغب، المفردات: (دين).
(3) جماعة من العلماء، المختصر في تفسير القرآن الكريم: 1/101.

دلالة إتْبَاعِ التوبة بالإصلاح:

ذكـر الإصـلاح شرطًا لأنّهم قد أفسدوا في وقت نفاقهم

أتبع التوبة بالإصلاح في قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ﴾ لإيجاب أن يصلحوا "ما أفسدوا من أسرارهم وأحوالهم في حال النّفاق"[1]، وذلك بالتوجيه إلى الأعمال الصالحة التي هي مظهر الإذعان والتوبة؛ فليست التوبة كلامًا باللسان، ولكنها طهارة للوجدان، وهذا لا يتأتى إلا بإصلاح النفس، وتقوية عزيمتها بعدم الإفساد بين الناس[2].

إيثار التّعبير بالإصلاح دون الصّلاح:

آثـر التّعـبير بـالإصـلاح لأنّ الـنّـفـاق فـيه إفساد والتّوبة عـنـه تـتـحـقّق بإصلاح الفاسد

آثر التّعبير القرآنيُّ الإصلاح دون الصّلاح؛ لأنّ الصّلاح أمر ذاتيٌّ لا يتعدى إلى الغير، وما فعله المنافقون من خداع للمؤمنين وموالاة للكافرين تعدّى أذاه إلى المؤمنين؛ فأراد القرآن لكي يضمَّهم إلى المؤمنين أن يقيموا الدّليل على أنَّهم أصلحوا أنفسهم، وذلك بإصلاح ما أفسدوه، وترك ما اكتسبوه من موالاتهم الكافرين وخداعهم المؤمنين.

السّرّ في التّعبير بصيغة الاعتصام:

عـبّر بصيغة الافـتـعـال عن العصمة دلالةً عـلى وجـوب الاجتهاد وبذل الوسع

في قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَٱعۡتَصَمُواْ بِٱللَّهِ وَأَخۡلَصُواْ دِينَهُمۡ لِلَّهِ﴾ عبّر عن اعتصامهم في قوله: ﴿وَٱعۡتَصَمُواْ﴾ بصيغةِ الافتعال؛ لأنّ الاعتصام يعني التمسُّك بالشيء، وذكر ذلك ضمن الشّروط لما فيه من تكلّف الاعتصام والاجتهاد فيه، ليكون نقيضًا لتذبذبهم المذكور سابقًا.

دلالة جعل الإخلاص من شروط التوبة:

لأنّ أعمال النّفاق رياء يخلو من الإخلاص، فأمرهم بنقيض الرّياء" وأخلصوا طاعتَهم وأعمالهم التي يعملونها لله، فأرادوه بها،

(1) النسفي، مدارك التنزيل: 1/409.
(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 4/1926.

ولم يعملوها رئاءَ النّاس، متقرِّبين بها إلى الله، مريدين بها وجه الله. فذلك معنى إخلاصهم لله دينهم[1].

لما كانوا مرائين في صلاتهم اشترط عليهم الإخلاص لصحّة توبتهم

وجه اشتراط التّوبة والإصلاح والاعتصام والإخلاص على المنافقين:

دلالة هذا الاشتراط في توبة المنافقين مناسبة لجرمهم؛ لأنه "لَمَّا كَانَ الْمُنَافِقُ مُتَّصِفًا بِنَقَائِصِ هَذِهِ الْأَوْصَافِ مِنَ الْكُفْرِ وَفَسَادِ الْأَعْمَالِ وَالْمُوَالَاةِ لِلْكَافِرِينَ وَالِاعْتِزَازِ بِهِمْ وَالْمُرَاءَاةِ لِلْمُؤْمِنِينَ، شَرَطَ فِي تَوْبَتِهِمْ مَا يُنَاقِضُ تِلْكَ الْأَوْصَافَ وَهِيَ التَّوْبَةُ مِنَ النِّفَاقِ، وَهِيَ الْوَصْفُ الْمُحْتَوِي عَلَى بَقِيَّةِ الْأَوْصَافِ مِنْ حَيْثُ الْمَعْنَى. ثُمَّ فَصَّلَ مَا أَجْمَلَ فِيهَا، وَهُوَ الْإِصْلَاحُ لِلْعَمَلِ الْمُسْتَأْنَفِ الْمُقَابِلِ لِفَسَادِ أَعْمَالِهِمُ الْمَاضِيَةِ، ثُمَّ الِاعْتِصَامُ بِاللهِ فِي الْمُسْتَقْبَلِ وَهُوَ الْمُقَابِلُ لِمُوَالَاةِ الْكَافِرِينَ وَالِاعْتِمَادُ عَلَيْهِمْ فِي الْمَاضِي، ثُمَّ الْإِخْلَاصُ لِدِينِ اللهِ وَهُوَ الْمُقَابِلُ لِلرِّيَاءِ الَّذِي كَانَ لَهُمْ فِي الْمَاضِي"[2].

لما كانت إساءتهم وكفرهم وضررهم أشدّ زاد عليهم في شرائط التّوبة

السّرّ في ذكر الإخلاص ضمن شرائط توبتهم:

الناظر في الآية يجد أنّ الذي يتوب ويصلح ويعتصم بالله يكون قد استوفى أركان الصّلاح؛ فلماذا خصّ الإخلاص بالذّكر؟ جوابه إنّما خصّه بالذّكر ليؤكّد ضرورة الإخلاص في التّوبة عن النّفاق، والإخلاص محله القلب؛ فتوبة القلب غير توبة الجوارح؛ لأنّ توبة الجوارح تكون بكفِّها عن المعاصي، وتوبة القلب بأن يكفَّ عن مجال نفاقه بأن يخلص قلبه لله[3].

خصّ الإخلاص بالذّكر لأنّ مقرّه القلب، تنقيةً للقلب من النفاق

دلالة الإشارة في قوله: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾:

أتى باسم الإشارة (أولئك) إشارة إلى الصّفات الواردة ضمن صلة الموصول؛ إيماء إلى أنّها السّبب في التّوبة عليهم، فجيء "بِاسْمِ

الإشارة إلى الموصول للتنبيه على المعنى المضمّن في الصّلة، وصيغة البعد لبيان علوّ المنزلة

(1) ابن جرير، جامع البيان: 9/341.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/113.
(3) الشّعراويّ، تفسير الشعراوى، ص: 2757.

الْإِشَارَةِ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ﴾ لِزِيَادَةِ تَمْيِيزِ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ تَابُوا، وَلِلتَّنْبِيهِ عَلَى أَنَّهُمْ أَحْرِيَاءُ بِمَا سَيَرِدُ بَعْدَ اسْمِ الْإِشَارَةِ"[1].

الإشارة بصيغة البعد:

وصيغة البعد لبيان علوّ المنزلة

جاء باسم الإشارة في قوله جلّ شأنه: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ﴾ دالًّا على البعد، للإيذان ببعد المنزلة وعلوّ الطبقة. أي: "لعلوّ رتبتهم بهذه الأمور لا يكونون في درك من النّار فضلًا عن الأسفل، بل مع المؤمنين المستمرّين على الإيمان بلا نفاق. أي: معهم في درجات الجنان"[2]، وأفاد ذلك التعظيم لتلك الدّرجة المشار إليها بالعد التّحريضَ على التّوبة، والتّرغيب فيها[3].

دلالة (الفاء) في قوله: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾:

عبّر بالفاء الرّابطة للدّلالة على أنّ المتّصف بالصّفات السّابقة قد كمل إيمانه

عبّر بالفاء الرّابطة في قوله تعالى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ﴾ للدّلالة على أنّ مَنْ أوفى بالشّروط المذكورة في قوله جلّ شأنه: ﴿ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَٱعۡتَصَمُواْ بِٱللَّهِ وَأَخۡلَصُواْ دِينَهُمۡ لِلَّهِ﴾ وحصّلها؛ فقد كمل إيمانه؛ فقال: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ من باب تأكيدِ الأداءِ والالتزام، فهي ربطت بين السّبب والنّتيجة.

دلالة (ال) في قوله: ﴿ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ﴾:

من عهد منهم الإيمان وشهروا به ولم يشبهم من النّفاق شيء

الألف واللام للعهد، والمراد بهم المؤمنون المعهودون "الذين لم يصدر عنهم نفاق أصلا منذ آمنوا، وإلّا فهم أيضًا مؤمنون، أي معهم في الدرجات العالية من الجنة"[4].

دلالة ذكر المعيّة مع المؤمنين:

في قوله تعالى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ﴾ ذكر جزاء من يأتي

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 5/244، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 4/1927.
(2) أبو السعود، إرشاد العَقْل السّليم: 2/247، والقنّوجي، فتح البيان: 3/279، والقاسمي، محاسن التأويل: 3/381.
(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 4/1927.
(4) أبو السعود، إرشاد العَقْل السّليم: 2/247.

بالشّروط المذكورة في الآية بأنّه ينال صحبة أخيار النّاس فذكر "الله ﷻ هذه المعيّة للمؤمنين لشرف الصّحبة مع الأخيار الأبرار، بعد طلبهم النّصرة من الأشرار الكفّار، فهذا دليل على الرّفعة في الصّحبة بعد الانخفاض فيها، كما ارتفعوا عند الله"[1]، وفيه إشارة إلى أنّ المؤمنين مُتَّبعون وهذا تشريف لهم، وأنّ المنافقين بعد تحقيق شروط التّوبة هم تبع للمؤمنين[2].

الجزاء الحسن للمؤمنين أصل ولمن تاب من المنافقين تبعٌ

سر التعبير بمعيّتهم للمؤمنين دون وصفهم بالمؤمنين:

عبّر تعالى عن قبول توبتهم بقوله جلّ شأنه: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ﴾، ولم يقل: (أولئك من المؤمنين) أو: (أولئك هم المؤمنون)؛ فلم يحكم عليهم بصفة الإيمان مع أنّهم آمنوا "تنفيرًا مما كانوا عليه من عظم كفر النفاق، وتعظيما لحال من كان ملتبسا بها"[3]، وفيه تشريف للمؤمنين وتبكيت للمنافقين[4].

أعرض عن مباشرتهم بالخطاب تَنْفِيرًا من حالهم، وتشريفًا للمؤمنين

دلالة التّعبير بحرف التّنفيس (سوف) دون السّين:

عبّر في قوله جلّ شأنه: ﴿وَسَوۡفَ يُؤۡتِ ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَجۡرًا عَظِيمٗا﴾ عن جزاء المؤمنين يوم القيامة بحرف التّنفيس (سوف) الدّالّ على المستقبل؛ "لِأَنَّ إِيتَاءَ الْأَجْرِ هُوَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ، وَهُوَ زَمَانٌ مُسْتَقْبَلٌ لَيْسَ قَرِيبًا مِنَ الزَّمَانِ الْحَاضِرِ. وَقَدْ قَالُوا: إِنَّ سَوْفَ أَبْلَغُ فِي التَّنْفِيسِ مِنَ السِّينِ"[5]. وفيه إشارة إلى ترغيب المنافقين في التوبةِ؛ بالإشارة إلى الجزاء الموعود.

لمّا كان إيتاء الأجر مستقبلًا في الدّنيا أو الآخرة عبّر عنه بالتّنفيس

الإظهار في مقام الإضمار:

أخبر عن المؤمنين بالاسم الظّاهر في قوله تعالى: ﴿وَسَوۡفَ يُؤۡتِ

أظهر الاسم للتّنبيه على أهمّيّة صِفَةِ الإيمان وتوكيدها

(1) الزمخشري، الكشاف: 1/581، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 4/1927.
(2) النيسابوري، غرائب القرآن: 2/520.
(3) الهرري، حدائق الروح والريحان: 6/429.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/114.
(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/114، وابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 5/244.

ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَجۡرًا عَظِيمًا﴾ فقال: ﴿ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ بدلًا من الضمير (هم)، فلم يقل: (وسوف يؤتيهم اللّه أجرًا عظيمًا)؛ للتّنبيه على أهميّة صِفَةِ الإيمان وتأكيدها، وليتناول عموم المؤمنين؛ فكلُّ مؤمن موعود بالأجر العظيم، وفيه تلطّف بالمنافقين الذين تابوا وألحقوا مع المؤمنين بأنَّهم عند إعطاء الأجر ينادون بالمؤمنين. وممَّا يذكر في ذلك، الإشارة إلى أنّه "أخلص ذلك الأجر للمؤمنين وهُمْ رُفَقَاؤُهُمْ، فَيُشَارِكُونَهُمْ فِيهِ وَيُسَاهِمُونَهُمْ"[1].

دلالة تنكير الأجر:

عظّم الأجر بالتّنكير وبالتّصريح بصفة العظمة

نكّر الأجر، والتّنكير هنا للتّعظيم، فكأنّه قد أكّد عظم هذا الأجر مرّتين؛ مرّة بما تضمّنه معنى التّنكير، ومرّة أخرى بالتّصريح بوصف العظم، وإنّ جزاء اللّه لعظيمٌ أيَّ عِظَم"[2].

المراد بوصف الأجر بالعظمة:

الجنّة دار الرّحمة وكلّ ما فيها فهو أجرٌ عظيم، كالخلود والرّضوان

وصف الأجر بكونه عظيمًا، لمقابلة وصف عذاب المنافقين بكونه في الدّرك الأسفل، فالأجر العظيم "درجات في الجنّة، كما أعطى الذين ماتوا على النِّفاق منازل في النّار، وهي السّفلى منها؛ لأنّ اللّه جلّ ثناؤه وعد عباده المؤمنين أن يؤتيهم على إيمانهم ذلك، كما أوعد المنافقين على نفاقهم ما ذكر في كتابه"[3].

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الأجر والجزاء:

الأجر لعمل سابق، والجزاء تعويضٌ مساوٍ،

الأجر في اللغة له معنيان: جزاء العمل، وجبر العظم المكسور، ويجمع بين المعنيين أنّ أجرة العامل بمنزلة تعويض يتلقّاه جزاء ما بذله من كدٍّ وجهد؛ فهذا التّعويض كأنّه شيءٌ يُجبر به كما يجبر العظم المكسور.

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/114.
(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 4/1927.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 9/341 - 342، وابن عطية، المحرر الوجيز: 2/128، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/114.

أمّا الجزاء: فهو المقابلة على الخير بالثّواب وعلى الشّر بالعقاب، والجزاء يكون مماثلًا مساويًا للمجزي عنه؛ لأنّ أصل الجزاء في كلام العرب، القضاء والتّعويض.

والأجر لابد أن يسبقه عمل وجهد وبذل، ولا يكون إلا في الخير غالبًا، أما الجزاء فيأتي ليدلّ على المقابلة. فعبّر بالأجر لأنّه لن يكون مساويًا ولا مكافئًا لسعة كرمه تعالى، ولأنّهم قدّموا الإيمان والتّوبة التي استحقّوا بها أن ينالوا هذا الأجر.

فعبّر بالأجر لسبق ما قدّموا من إيمان وتوبة، ولأنّ أجرَ اللّه تعالى أعلى من استحقاق عملهم.

الإيتاء والإعطاء:

الإيتاء للأشياء الكثيرة، والإعطاء للقليل منها

الإيتاء يُستعمل في الشيء الكثير وعظيم الشأن، كالملك والحكمة، وللرحمة والقرآن العظيم كما في قوله تعالى: ﴿وَءَاتَىٰنِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ﴾ [هود: 28]، وقوله جلّ شأنه: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾﴾ [الحجر: 87] بينما يستعمل الإعطاء في الشّيء القليل، قال تعالى: ﴿وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ ﴿٣٤﴾﴾ [النجم: 34]، مع ملاحظة أنَّه لم يرد العطاء دالًّا على الشّيء الكثير إلا إذا وُجد ما يدلّ على ذلك، كما في قوله: ﴿وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾﴾ [الإسراء: 20] وقوله ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ﴿٥﴾﴾ [الضحى: 5]، فأسند فعل الإعطاء فيهما إلى اللّه سبحانه، ولما كان الإيتاء فيه قوة ليست في الإعطاء، آثر التّعبير به هنا.

﴿مَّا يَفۡعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمۡ إِن شَكَرۡتُمۡ وَءَامَنتُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ١٤٧﴾ [النساء: 147]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لمّا ذكر جزاء المنافقين في الآية السابقة واستثنى التّائبين، بيّن هنا أنّه لا يعذبهم؛ لأنَّه لا ينتفع من عذابهم بشيء؛ فقال سبحانه: ﴿مَّا يَفۡعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمۡ إِن شَكَرۡتُمۡ وَءَامَنتُمۡۚ﴾، فإنّه لا حاجة للّه ﷻ في أن يعذّبكم؛ لأنّ ذلك لا يجلب لنفسه نفعًا، ولا يدفع عنه ضرًّا؛ فهو غنيٌّ عن عذاب خلقه؛ إذا قاموا بالشّكر والإيمان.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿شَكَرۡتُمۡ﴾: (شكر) أصل الشّكر: الثَّناءُ على الإنسان بمعروف يوليكه، وهو الرّضا باليسير، وإظهار النّعمة، وَدَابَّةٌ شَكُورٌ إِذَا أَظْهَرَتْ مِنَ السِّمَنِ فَوْقَ مَا تُعْطَى مِنَ الْعَلَفِ، ويضاده: الكفر، وهو نسيان النعمة وسترها[1].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

"ما يصنع اللّه، أيها المنافقون، بعذابكم، إن أنتم تُبتم إلى اللّه ورجعتم إلى الحقّ الواجب للّه عليكم، فشكرتموه على ما أنعم عليكم من نِعمه في أنفسكم وأهاليكم وأولادِكم، بالإنابة إلى توحيده، والاعتصام به، وإخلاصكم أعمالَكم لوجهه، وترك رياء النّاس بها، وآمنتم برسوله محمّد ﷺ فصدَّقتموه، وأقررتم بما جاءكم به من عنده فعملتم به؟ فلا حاجة به إلى تعذيبكم، بل يشكر لكم ما يكون منكم من طاعةٍ له وشكر، بمجازاتكم على ذلك بما تقصر عنه أمانيّكم، ولم تبلغه آمالكم"[2].

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (شكر)، والقُرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 5/427.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 9/342 - 343.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالة الفصل والاستئناف:

استئناف لبيان أن علّة التّعذيب إنما هي مجازاة الكفر

الجملة في قوله تعالى: ﴿مَّا يَفۡعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمۡ إِن شَكَرۡتُمۡ وَءَامَنتُمۡۚ﴾ فصلت عمّا قبلها؛ لأنّها "استئناف مسوق لبيان أنّ مدار تعذيبهم وجودًا وعدمًا إنّما هو كفرهم لا شيء آخر؛ فيكون مقرّرًا لما قبله من إثابتهم عن توبتهم"[1].

دلالة الاستفهام:

استفهام معناه التّقرير والنّفي، فهو يقرّر انتفاء عذاب المؤمنين الشّاكرين

دلالة الاستفهام في قوله تعالى: ﴿مَّا يَفۡعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمۡ﴾ على معنى التّقرير والنفي، والمراد: لا يعذب الله شاكرًا ولا مؤمنًا؛ فالاستفهام "أُرِيدَ بِهِ الْجَوَابُ بِالنَّفْيِ فَهُوَ إِنْكَارِيٌّ، أَيْ لَا يَفْعَلُ بِعَذَابِكُمْ شَيْئًا"[2]؛ حيث حسنت توبتكم، "وإنّما المقصود حمل المكلّفين على فعل الحسن، وترك القبيح؛ لينالوا السّعادة العظمى، فمن امتثل وأطاع فكيف يليق بكرمه تعذيبه"[3].

السّرّ في نفي الكلام بالاستفهام دون الإخبار:

جاء النّفي بأسلوب الاستفهام للمبالغة

دلّ الاستفهام على النّفي في قوله تعالى: ﴿مَّا يَفۡعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمۡ﴾ ولم يأت النّفي بصيغة الإخبار، فلم يقل: (إنّ الله لا يعذّبكم)؛ لأنّ النّفي بالاستفهام مفيد "للنّفي على أبلغِ وجهٍ وآكدِه، أيّ أيُّ شيء يفعل الله سبحانه بتعذيبكم؟ أيَتَشَفَّى به من الغيظ، أم يُدرك به الثّأر، أم يستجلب به نفعًا، أم يستدفع به ضررًا؟ كما هو شأن الملوك وهو الغنيّ المتعالي عن أمثال ذلك"[4].

خصوص المخاطب وعمومه:

الخطاب عامّ للنّاس، وقد يُخصُّ به المنافقون

جاء الخطاب في قوله تعالى: ﴿مَّا يَفۡعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمۡ إِن شَكَرۡتُمۡ

(1) أبو السعود، إرشاد العَقْل السّليم: 2/247.
(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 5/245.
(3) النيسابوري، غرائب القرآن: 2/520.
(4) أبو السعود، إرشاد العَقْل السّليم: 2/247، والقاسمي، محاسن التأويل: 3/383.

﴿وَءَامَنتُمۡۚ﴾ صالحًا أن يكون للأمّة جميعًا، أو خاصًّا بالمنافقين "قال الكلبي: ﴿مَّا يَفۡعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمۡ﴾ يعني المنافقين. وقال ابن عباس في رواية عطاء: ما يريد اللّه بعذاب خلقه"[1].

بلاغة الالتفات:

وقد يُخصُّ به المنافقون على الالتفات رفقًا بهم ودعوة لهم

إذا كان المراد بالخطاب في قوله تعالى: ﴿مَّا يَفۡعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمۡ﴾ خصوص المنافقين، فإنّه يكون "عَلَى طَرِيقَةِ الِالْتِفَاتِ مِنَ الْغَيْبَةِ إِلَى الْخِطَابِ ارْتِفَاقًا بِهِمْ"[2]، فقد خاطبهم في الآية السابقة بصيغة الغائب في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ فِي ٱلدَّرۡكِ ٱلۡأَسۡفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ ما لحقه، فتوجيه الخطاب لهم بقوله تعالى: ﴿مَّا يَفۡعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمۡ﴾ يكون من الالتفات، رفقًا بهم ودعوة لهم.

دلالة تقديم الشكر على الإيمان:

الشّكر يؤدّي إلى الإيمان، لأنّ النّعمة تبعث على التّفكّر وشكرها، وهذا يقود إلى الإيمان

تقديم الشّكر على الإيمان، في قوله تعالى: ﴿إِن شَكَرۡتُمۡ وَءَامَنتُمۡۚ﴾، فإن قيل ما علّة ذلك؟ "قيل: لأنّه عَنَى به معرفة النّعمة التي يتوصّل بها إلى معرفة المنعم، ومعرفة المنعم هي الإيمان، فإذًا الشّكر على هذا الوجه مقدّم على الإيمان؛ لأنّه أرفع منه وهو لا ينفكُّ عن الإيمان، والإيمان قد ينفكُّ عنه"[3]، ولأنّ من له عقلٌ ينظر إلى ما عنده من النّعم العظيمة في خَلقه وخُلقه؛ فيشكر على ذلك؛ "فهذا الشّكر المجمل مُقَدَّمٌ عَلَى الْإِيمَانِ، فَلِهَذَا قَدَّمَهُ عَلَيْهِ فِي الذِّكْرِ"[4]. ومن دواعي تقديم الشكر على الإيمان "أنّ العبد ينظر إلى النّعم فيشكر عليها ثم يؤمن بالمنعم فكان الشّكر سببًا للإيمان: متقدِّمًا عليه"[5].

(1) الواحدي، البسيط: 7/169.
(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 5/245.
(3) الرّاغب، تفسير الراغب: 4/209، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 4/1928.
(4) الرازي، مفاتيح الغيب: 11/252 - 253.
(5) ابن جزي، التسهيل: 1/214.

دلالة عطف ﴿وَءَامَنتُمۡۚ﴾ على ﴿شَكَرۡتُمۡ﴾:

عطف الإيمان على الشّكر في قوله تعالى: ﴿إِن شَكَرۡتُمۡ وَءَامَنتُمۡۚ﴾، من باب "عطف خاصٍّ على عامٍّ، أو مسبَّب على سببٍ، لأن الشّكر سبب في الإيمان، فإنّ الإنسان إذا تذكّر نعم اللّه حملته على الإيمان"[1].

عطف الإيمان على الشّكر عطفَ العامّ على الخاصّ، والمسبَّب على السّبب

وفيه إشارة إلى منزلة الشكر؛ إذ إنَّه صَرْف القلب بالكليَّة إلى المنعم، واعتقاد بأنَّه وليُّ النعم ومولِيها، واعتراف باللسان، وعمل بالأركان، كما قال سبحانه: ﴿ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗاۚ وَقَلِيلٞ مِّنۡ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ١٣﴾ [سبأ: 13].

الإيجاز بحذف جواب الشّرط:

قوله تعالى: ﴿إِن شَكَرۡتُمۡ وَءَامَنتُمۡۚ﴾ شرط، ولكنّه حذف جوابه؛ حيثُ "يَدُلُّ عَلَيْهِ مَا قَبْلَهُ أَيْ: إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ فَمَا يَفْعَلُ بِعَذَابِكُمْ"[2]، فلمّا دلّ عليه الكلام حذفه إيجازًا، والإيجاز معدن البلاغة ولبّها.

الحذف تعويلًا على دلالة السّياق على المحذوف

بلاغة التّذييل:

ختمت الآية بقوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمٗا﴾ تذييلًا "بما يدلّ على الثّواب والنّعيم لأهل الإيمان، ومن ينضمّ إليهم من التّائبين"[3]. وذكر الصّفة الأهم لمضمون الآية في التّذييل وهي أنّ شأن اللّه تعالى الدّائم أنّه مثيب الطّائع، عليم بموضع طاعته.

تذييل ببيان صفات الله تعالى إزاء شكر عباده وإيمانهم

السّرّ في وصف الله تعالى بالشّكر، والشّكر من صفات العباد:

وصف اللّه تعالى نفسه بأنه شاكر؛ لأنه يقبل القليل من عباده، ويجازي عليه الأجر الكثير، "فَالشُّكْرُ مِنَ اللّه تَعَالَى هُوَ الرِّضَا

وصف الله تعالى بالشّكر للدّلالة على أنّه يقبل القليل من عباده، ويجازي عليه الأجر الكثير

(1) الصاوي، حاشية الصّاوي: 1/238.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/114، وأبو السعود، إرشاد العَقْل السّليم: 2/247، والقاسمي، محاسن التأويل: 3/383.
(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 4/1928.

بِالْقَلِيلِ مِنْ عِبَادِهِ، وَإِضْعَافُ الثَّوَابِ عَلَيْهِ، وَالشُّكْرُ مِنَ الْعَبْدِ: الطَّاعَةُ، وَمِنَ اللّٰه: الثواب"[1].

استعار الشكر للدّلالة على الثّواب:

عبّر عن ثوابه تعالى بالشّكر تشريفًا للطّاعة والمطيع، وبيان منّته وفضله

في قوله جلّ شأنه: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾ ذكر الشّكر وأراد أنّه يثيب عباده، فسمّى " ثواب الطائعين شكرًا منه، وذلك إجلال للطاعة، وتشريف للمطيع، ومنّة وفضل منه سبحانه فوق منته وفضله، وأنَّ هذا تعليم لنا لنشكر للمحسن"[2]، فالمراد من ذكر صفة الشّكر "فِي حَقِّهِ تَعَالَى كَوْنُهُ مُثِيبًا عَلَى الشُّكْرِ"[3].

إيثار التّعبير بصيغة الفاعل على المبالغة:

أعرض عن صيغة المبالغة ليبيّن أنّه يقبل أقلّ العمل تفضّلًا منه

عبّر تعالى عن شكره باسم الفاعل دون صيغة المبالغة، فلم يقل: (شكورًا)؛ " لِيَدُلَّ عَلَى أَنَّهُ يَتَقَبَّلُ وَلَوْ أَقَلَّ شَيْءٍ مِنَ الْعَمَلِ، وَيُنَمِّيهِ"[4].

الجناس الاشتقاقيّ في: ﴿إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا﴾:

جمال التّعبير اللّفظيّ بإيراد ألفاظ من جذر واحد في جملة واحدة

جاء في الآية لفظان من جذر واحد وهما قوله: ﴿شَكَرْتُمْ﴾، و﴿شَاكِرًا﴾ على طريقة الجناس الاشتقاقيّ، تأكيدًا لِمَعْنَى الشّكر بتكرار مادّته اللغوية.

دلالة وصفه ﷻ بالعلم:

دعوة للإخلاص لعلمه بالسّرائر

وصف نفسه بالعلم؛ لتربية المهابة، ولأخذ الحيطة في العمل؛ فهو سبحانه عليم بما تصنعون، يعلم جميع الجزئيَّات قبل الكليَّات؛ فهما عنده سواء؛ فليحذر المنافقون والذين يخالفون أمره بأنَّ العقاب بهم موصول، فإنّ اللّٰه تعالى عليم "بمن آمن وشكر فيجازيه، ومن كفر فيعاقبه"[5].

(1) البَغَويّ، معالم التّنزيل: 1/716، وابن عطية، المحرر الوجيز: 2/128، والقُرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 5/427.
(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 4/1928.
(3) الرازي، مفاتيح الغيب: 11/253، والخازن، لباب التأويل: 1/441.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/115، والهرري، حدائق الروح والريحان: 6/431.
(5) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/67.

إيثار التّعبير بصفة ﴿عَلِيمًا﴾ بدلًا من (عالم):

آثر التّعبير بـ (عليم) للدّلالة على المبالغة في علمه سبحانه؛ فهو يعلم "جميع المعلومات التي مِنْ جملتها شكركم وإيمانكم فيستحيل أن لا يوفيكم أجوركم[1].

(1) أبو السعود، إرشاد العَقْل السّليم: 2/247.

الجُزْءُ السَّادِسُ

﴿۞ لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا ١٤٨﴾ [النِّساء: 148]

۞ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا أخبرَ بيانُ اللّه تعالى في الآية السَّابقة أنَّ اللّه - ﷻ - لا يتشفَّى بعذابِ عبادِه، ولا يَنتفعُ بعقابِهم، بلِ العاصي لا يَضُرُّ إلَّا نَفْسَه، والمطيعُ هو الَّذي ينتفعُ بطاعته؛ جاءتْ هذه الآيةُ لتُقرِّرَ أنَّ اللّه تعالى يبغُضُ من يجْهرُ بالسُّوءِ من الأقوال، فذلكَ يُنافي شكرَ اللّه وشكرَ عبادِه، إلَّا من ظُلِم، فإنَّه يجوزُ أنْ يجهرَ بالسُّوءِ لمن ظلمَه، وجَهرَ بالسُّوءِ في حقِّه، دونَ أن يَزيدَ على مَظْلمتِه، أو يتعدَّى على غيرِ ظالمِه، فاللّه ﷻ سميعٌ لكلِّ ما يمكنُ سماعُه من جَهْرٍ وغيرِه، عليمٌ بكلِّ ما يمكنُ أنْ يُعلَم، فسيُحاسبُ المُسيء، وينتصرُ للمظلوم[1].

۞ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلْجَهْرَ﴾: الجِيْمُ والهاءُ والرَّاء أصلٌ واحدٌ: ضدُّ السِّرِّ، وهو إعلان الشَّيء وكشفه، وإظهاره، وعلوُّه، وهو من قولهم: وجهٌ جهيرٌ، أي: ظاهرُ الوضاءة، ويقال: جهرتُ بالكلام أعلنت به، وأبديته، ورجلٌ جهير الصَّوت، أي: عاليه[2]، فهو"يُقال لظهور الشَّيء بإفراطِ حاسَّة البصر أو حاسَّة السَّمع"[3]، فالمراد بالجَهر في الآية: ما يبلغ إلى أسماع النَّاس[4]، برفع الصَّوت بالدُّعاء على الظَّالم أو ذكر ما فيه من السُّوء تظلُّمًا منه[5]، فهو" إعلان لَا خفاء فيه، ونشر هذا الكلام بين النَّاس، وإذاعته بين ربوعهم"[6].

2) ﴿بِٱلسُّوٓءِ﴾: هي من بابِ القُبْح، تقولُ: رجلٌ أَسْوَأُ، أي: قبيحٌ، وامرأةٌ سَوْءَاءُ، أي:

(1) البقاعي، نظم الدُّرَر: 5/447 - 448.
(2) الخليل، العين، وابن دريد، جمهرة اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، والسمين، عمدة الحفاظ، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (جَهَرَ).
(3) الرّاغب، المفردات: (جهر).
(4) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/6.
(5) البروسوي، روح البيان: 2/312.
(6) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 4/1930.

قبيحةٌ، ولذلكَ سُمِّيتِ السيِّئةُ سيِّئة، وسُمِّيتِ النَّارُ سُوْءَى، لقُبحِ منظرِها[1]. والسُّوء في الآية: الفضائح، والقبائح[2]، أو هو الأمر المؤلم المذموم[3]، وكلُّ ما يمسُّ المجتمع، ويترتَّب عليه شرٌّ وأذى، فهو من السُّوء[4].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

يُخبرُ اللّه تعالى عبادَه بأنَّه لا يُحبُّ أن يَدْعُوَ أحدٌ على أحدٍ إلَّا أن يكون مظلومًا، فإنَّه قد أرْخَصَ له أنْ يَدعُوَ على مَنْ ظَلَمه، واللّه ﷻ يسمعُ أقوالَهم، ويعلمُ أحوالهم، فلْيحذَروا أنْ يتكلَّموا بما يُغضبُ ربَّهم، فيعاقبهم[5]، وترشد الآيةُ العِبَادَ إلى التَّخلُّق بأخلاق اللّه تعالى من الإغضاء عن الجاني والتعطُّف فيما بين الإخوان[6].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغة النَّفي بـ(لا):

تدخل (لا) على الفعل المضارع، فلا تقيِّده بزمن على الأرجح، أو أنَّها تخلِّصه للاستقبال، وقد تكون للاستمرار، وذلك نحو قوله تعالى: ﴿۞لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ﴾ [النساء: 148][7]، وتخليصه للاستقبال دلالة استمراره حكمًا يحثُّ عليه، ويوجِّه إليه.

النَّهي عن الجَهْر بسوء القول حكمٌ مستمرٌّ، ومتجدِّد

بلاغة الكناية في الآية:

قولُه تعالى: ﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ عدمُ محبَّته تعالى لشيءٍ كنايةٌ عن سَخَطِه[8]، ودلالة السَّخط أقوى في الرَّفض، وأشدُّ في عدم الرِّضا.

وجه الكناية التَّعبيرُ عن السُّخطِ بعدمِ المحبَّةِ لقولِ السُّوء

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: 3/113، وابن منظور، لسان العرب: (سَوُءَ).
(2) الرازي، مفاتيح الغيب: 11/253.
(3) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/67.
(4) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 4/1929.
(5) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 1/508، والسَّعدي، تفسير الكريم الرَّحمن، ص: 168.
(6) الطيبي، فتوح الغيب: 5/209.
(7) السامرائي، معاني النحو: 4/206.
(8) أبو السُّعود، إرشاد العَقْل السّليم: 1/804.

بيان معنى الباء:

الجهر يتعدَّى بما يتعدَّى به الرَّفع

الباءُ في ﴿بِٱلسُّوٓءِ﴾: للتَّعدية، مُتعلِّقةٌ بالجَهْر، وفي موضعِهما وجهان: أحدُهُما: نصبٌ، تقديرُه: لا يُحبُّ أنْ تجهرُوا بالسُّوء، والثَّاني: رفعٌ، تقديرُه: أن يُجهَرَ بالسُّوء؛ ولأنَّ معنى جهرَ: رفَعَ صَوته بِهِ؛ عُدِّيَ بما يتعدَّى به؛ لأنَّهُ في مَعْنَاهُ[1].

دلالة ﴿مِنَ﴾ في الآية:

سوءُ القول عامٌّ يشملُ الإعلان عن كلِّ فعل فاحش

﴿مِنَ﴾ في قوله: ﴿مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾: "بيانيَّة، وهي بيان لنوع السُّوء بأنَّه من القول، وذلك يشمل كلَّ إعلانٍ للأعمال القبيحة، والتَّرامي بها، فيشمل القذف والسِّباب وإعلان المعاصي والجرائم، وتفصيل القول فيها من غير حاجة إلى بيانها، ولا إقامة حقٍّ في إعلانها، فإنَّ ذلك كلَّه من سوء القول وفاحشه"[2].

التَّقييدُ بالجَهرِ بالسُّوء وبالقول:

دَلالةُ التَّقييدِ بالجَهْرِ وبالقول، الصِّلةُ بحدوثِ الضُّرِّ من عدمِه، وما يترتَّبُ عليه من أذى

ذكرَ بيانُ اللّه الجهرَ دونَ السِّرِّ؛ لأنَّ الجهرَ هو الَّذي يَبْلُغُ إلى أسماعِ النَّاس؛ لدلالته على علوِّ الصَّوت؛ إذْ ليس السِّرُّ بالقولِ في نَفْسِ النَّاطق ممَّا ينشأُ عنه ضُرٌّ.

وذكرَ التَّقييدَ بالقولِ لا بالفعل؛ لأنَّ قولَ السُّوء أضعفُ من فعلِه والقيامِ به في حقِّ النَّاس؛ ولذلكَ كان السُّوءُ بالفعلِ أشدَّ تحريمًا من غيرِه[3].

دَلالةُ الاسْتثناءِ في الآية:

قولُه: ﴿إِلَّا مَن ظُلِمَ﴾، في هذا الاسْتثناءِ قولان، أحدُهما: أنَّه متَّصل، والثَّاني: أنَّه مُنقطِع، وإذا قيلَ: بأنَّه مُتَّصل؛ فقيل: هو مستثنَى من (أحَد) المقدَّرِ الَّذي هو فاعلٌ للمصدر، فيجوزُ أنْ تكونَ

(1) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 286 - 287.
(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 4/1930.
(3) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/6.

﴿مَن﴾ في محلِّ نصبٍ على أصلِ الاسْتثناء، أوْ رفعٍ على البَدَلِ من (أحَد)، وهو المختار، ولو صُرِّحَ به؛ لقيل: لا يُحِبُّ اللّه أنْ يجهرَ أحدٌ بالسُّوءِ إلَّا المظلومُ رفعًا، أوِ المظلومَ نصبًا.

أفادَ الاسْتثناءُ حصرَ الجهرِ بالسُّوءِ من القولِ بمَنْ ظُلِمَ

والوجه الثَّاني: أنَّه اسْتثناءٌ مُنقطِع، تقديرُه: لكنْ مَنْ ظُلِمَ؛ له أنْ ينتصِفَ من ظالمِه بما يُوازي ظُلامتَه، فتكونُ ﴿مَن﴾ في محلِّ نصبٍ على الاسْتثناءِ المنقطِع[1]، وأيًّا كان؛ فإنَّ الاستثناءَ حصَرَ إباحة الجَهرِ والشِّكاية بالمظلوم.

وقُرِئَ: ﴿إِلَّا مَن ظُلِمَ﴾[2] بفتح الظَّاءِ واللَّام، على معنَى: لكنَّ الظَّالمَ اجْهروا له بالسُّوءِ من القول، ويكونُ موضعُه النَّصبَ فقط على الاسْتثناء، وهو وجهٌ حَسَن[3].

نكتة إظهار الاسم الأعظم:

في إظهار الاسم الأعظم ترغيبٌ، وترهيبٌ

إظهار اسمه الأعظم - جلَّ في علاه - في مواطن القدرة والتَّمكين من عادات القرآن، "ولمَّا كان القول ممَّا يُسمع، وكان من الظُّلم ما قد يخفى، قال مرغِّبًا مرهِّبًا: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ﴾، أي: الذي له الإحاطة الكاملة"[4]، وسُبِق بـ﴿وَكَانَ﴾ إمعانًا في تحقُّقه، ووقوعه.

فاصلةُ الآيةِ ومفادُ ما أوحتْ به:

في قولِه: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا﴾ عطفٌ على ﴿لَا يُحِبُّ﴾، وهو تَذْييلٌ مُقرِّرٌ؛ لما يُفيدُه الاسْتثناء، أي: إنَّ اللّه سميعٌ لجميعِ المسموعاتِ، فيندرجُ فيها كلامُ المظلومِ والظَّالم، وعليمٌ بجميعِ المعلوماتِ الَّتي من جُملتِها حالُ المظلومِ والظَّالم[5].

في الفاصلة تقريرُ الوصفين للهِ تعالى مع تحذيرِ الظَّالمين

(1) العكبري، التبيان: 1/200، والسَّمين، الدُّرُّ المصون: 4/134 - 135.
(2) وهي قراءة شاذَّة، ذكرتُها لإفادة المعنَى، ينظر: ابن جنّي، المحتسب: 1/203، وابن خالويه، مختصر في شواذّ القرآن، ص: 29- 30.
(3) الزَّجاج، معاني القرآن: 2/126، وقال رحمه الله: "لا أعلمُ النَّحويين ذكروه".
(4) البقاعي، نظم الدّرر: 5/447.
(5) أبو السُّعود، إرشاد العَقْل السّليم: 1/804.

سرُّ تقديم العليم على السَّميع:

في هذا التَّذييلِ تحذيرٌ للظَّالمِ بأنَّ اللّٰه يسمعُ ما يصدُرُ منه، ويعلمُ به[1]، وذكرَ ﴿عَلِيمًا﴾ بعد ﴿سَمِيعًا﴾ لقصْدِ التَّعميم في العِلْم؛ تحذيرًا من أنْ يظنُّوا أنَّ اللّٰه غيرُ عالمٍ ببعضِ ما يصدُرُ منهم[2].

فـي التَّذييل، وتقديم العلم تحذيرٌ من سوء الظَّنِّ بالله

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

المحبَّة، والرِّضا، والإرادة(3):

المحبَّة: أكثر من الرِّضا، والرِّضا: أكثر من الإرادة، فهذه كلُّها صفات للذَّات العليَّة مرتَّبة في القوَّة، فالإرادة: تتعلَّق بالخلق والتكوين، فما أراده اللّٰه تعالى يقع، وما لا يريده لا يمكن أن يقع، فلا يمكن أن يقع من أفعال الإنسان ما لَا يريده ربُّ العالمين، ولا يمكن أن يفعل الإنسان شيئًا لَا يريده العليم الخبير الَّذي لَا تخفى عليه الأنفس، وما تكنُّ الصُّدور، أمَّا الرِّضا؛ فمعناه بالنسبة للذَّات العليَّة أن يكون العمل أو القول محلَّ قبوله ﷻ والمجازاة عليه؛ ولذلك لا يُتصوَّر أن يفعل العباد ما يغضبون اللّٰه به ﷻ وقد جاءت في القرآن الكريم عبارات صريحة بأنَّ اللّٰه تعالى يغضب على عباده لأفعال فعلوها، وأنَّه تعالى لَا يرضى عن بعض أفعال عباده، كالكفر، والرِّضا: لَا يكون إلَّا لأعمال المتَّقين، وهو أعلى أنواع الثَّواب الَّذي يثيب اللّٰه تعالى به عباده؛ ولذلك قال سبحانه بعد ذكر نعيم الجنة: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُۚ﴾.

الـحـبُّ أبلغ الرِّضا، وأقصى درجـاتـه، ويكون في مرتبة الغضب بغضًا لسوء القول

والحُبُّ: مرتبة فوق الرِّضا، أو هي أبلغ الرِّضا، وقد وعد اللّٰه تعالى أهل الإيمان الحقِّ الصَّادق بأنَّهم ينالون محبَّته، وهي أقصى درجات الرِّضا، ومع أنَّ المحبَّة من النَّاحية الإيجابيَّة أقصى درجات

(1) الشَّوكاني، فتح القدير: 1/838.
(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/7.
(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 4/1929.

الرِّضا، هي من النَّاحية السَّلبيَّة تكون في مرتبة الغضب، فمعنى ﴿۞لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ﴾: أنَّ الله تعالى يبغض الجهر بالكلام الَّذي هو سوء في ذاته، ويسيء النَّاس، ويؤذي الفضيلة، فإنَّ ذلك إعلان سيِّئ الأعمال، وقبيح الأقوال.

الإفشاء، والإِظْهَار، والجَهْر، والكشف، والإعلان[1]:

الجهر مبالغة في إظهار الشَّيء وفشوّه، وإعلاء الصَّوت

الإفشاء: كَثْرَة الْإِظْهَار، وَمِنْه أفشى الْقَوْم؛ إذا كثر مَالهُم، ومنه يُقَال: فَشَا الخَيْرُ فِي الْقَوْم أَو الشَّرُّ؛ إذا ظهر بِكَثْرَة، والإظهار: يسْتَعْمل فِي كلِّ شَيْء، والإفشاء لَا يَصحُّ إِلَّا فِي مَا لاتصحُّ فِيهِ الْكَثْرَة، وَلَا يَصحُّ فِي غير ذَلِك، أَلا ترى أَنَّك تَقول: هُوَ ظَاهِرَة الْمُرُوءَة، وَلَا تَقول: كثير الْمُرُوءَة.

والجَهْر: عُمُوم الْإِظْهَار وَالْمُبَالغَة فِيهِ، ألا ترى أَنَّك إذا كشفت الْأَمر للرَّجل وَالرَّجلَيْن؛ قلتَ: أظهرتُه لَهما، وَلَا تَقولُ: جهرتُ بِهِ، إِلَّا إذا أظهرته للْجَمَاعَة الْكَثِيرَة، فيزول الشَّكُّ، وَلِهَذَا قَالُوا: ﴿أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾، أَي: عيَانًا لَا شكَّ مَعَه، وَأَصله: رفع الصَّوْت، يُقَال: جَهَرَ بِالْقِرَاءَةِ؛ إذا رفع صَوته بهَا، وَفِي الْقُرْآن: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾ [الإسراء: 110]، أَي: بِقِرَاءَتِك فِي صَلَاتك، وَصَوت جهير: رفيع الصَّوْت.

والْكَشْفُ: مضمَّن بالزَّوال، وَلِهَذَا يُقَال لله ﷻ: كاشف الضُّرِّ، وَلم يجز فِي نقيضه: سَاتِر الضُّرِّ؛ لِأَنَّ نقيضه من السَّتْر لَيْسَ متضمِّنًا بالثَّبات، فيجري مجْرَاه فِي ثبات الضُّرِّ، كَمَا جرى هُوَ فِي زَوَال الضُّرِّ، والجهر غير مضمَّن بالزَّوال.

والإعلان: خلاف الكتمان، وَهُوَ إِظْهَار الْمَعْنى للنَّفس، وَلَا يَقْتَضِي رفع الصَّوْت بِهِ، والجهر يَقْتَضِي رفع الصَّوْت بِهِ، وَمِنْه: يقال: رجل

(1) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 286 - 287.

جهير وجهوريٌّ؛ إذا كَانَ رفيع الصَّوْت، وممَّا عُرِضَ: فإنَّ اختيار لفظ (الجهر) أنسب لسياق الآية بوصف المظلوم قد نفد صبره، فتراه يلجأ إلى رفع الصَّوت مبالغةً تناسب ما وقع عليه من أذى، ولا يناسب هذا المعنى: الإفشاءُ، ولا الكشف، ولا الإظهار، ولا الإعلان.

السُّوء والقُبْح:

السُّوء قرين الأقوال، والقبح قرين الأفعال

السُّوء: المكروه، يُقالُ: ساءَه يَسوؤه سوءًا؛ إذا لقيَ منه مَكروهًا، وهو مأخوذٌ من أنَّه يسوءُ النَّفسَ بما قرَّبه لها، وأمَّا القَبيحُ؛ فقد تلتذُّ نفسُ صاحبِهِ به، كالزِّنا وشُربِ الخمرِ والغَصْب[1].

والقُبْحُ: بالضَّمِّ والفتحِ ضدُّ الحُسْن، وقبَّحَهُ اللّٰه: نَحَّاهُ عنِ الخَيْر، وأَقْبَحَ: أتَى بِقَبيح، واسْتَقْبَحَه: ضدُّ اسْتحسَنَه، وقَبَّحَ عليه فِعْلَهُ تقبيحًا: بَيَّنَ قُبْحَه[2]، وَضُحَ من بيانِ الفرقِ بين كلمتي (السُّوء) و (القَبيح): أنَّ الثَّانيةَ أوسعُ مَدلولًا من الأولى، وأنَّ (القَبيحَ) قد تتلذَّذُ النَّفْسُ به بخلافِ (السُّوء).

والبيانُ الإلهيُّ يحدِّثُنا عن أمرٍ خاصٍّ: وهو الجهرُ بالسُّوء من القول، وقد يجهرُ صاحبُ قولِ السُّوء به، وهو لا يجدُ لذّةً به، كما في القَبيح، وكأنَّ القبيحَ يَنحدِرُ بمعناه للأفعالِ أكثرَ من الأقوال، والسُّوءَ يتوجَّه بمعناه للأقوالِ أكثرَ من الأفعال.

(1) العسكري، الفروق: 1/287.
(2) الرَّازي، مختار الصِّحاح، والفيروزآبادي، القاموس المحيط: (قَبُحَ).

﴿إِن تُبۡدُواْ خَيۡرًا أَوۡ تُخۡفُوهُ أَوۡ تَعۡفُواْ عَن سُوٓءٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوّٗا قَدِيرًا ١٤٩﴾ [النِّساء: 149]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

"لمَّا كانت معاقد الخيرات على كثرتها منحصرة في قسمين: إيصال النَّفع إبداء وإخفاء، ودفع الضَّرر، فكان قد أشار ﷻ إلى العفو، وختم بصفتي السَّمع والعلم؛ قال مصرِّحًا بالنَّدب إلى العفو والإحسان، فكان نادبًا إليه مرَّتين: الأولى: بطريق الإشارة لأولي البصارة، والثَّانية: بطريق العبارة للرَّاغبين في التِّجارة"[1]، أي: بعدَ أنْ نَهَى عنِ الجَهرِ بقولِ السُّوء، ورخَّصَ للمظلومِ أنْ يجهرَ رادًّا ظُلامَتَه؛ ندَبَ هنا المُرَخَّصَ لهم إلى العَفْوِ وقولِ الخَيْر[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تُبۡدُواْ﴾: بَدَا الشَّيءُ بُدُوًّا وبَدَاءً، أي: ظهَرَ بيِّنًا، قالَ تعالى: ﴿وَبَدَا لَهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْ﴾ [الزُّمر: 48]، وكما في الآيةِ الَّتي معنا: ﴿إِن تُبۡدُواْ خَيۡرًا﴾ أي: تُظهِروه[3].

2) ﴿تَعۡفُواْ﴾: العَفْوُ: القَصْدُ لِتناوُلِ الشَّيء، يُقالُ: عَفَاهُ واعْتفاه، أي: قَصدَه مُتناولًا ما عندَه، وعَفَوْتُ عنه: قَصَدتُ إزالةَ ذَنْبِه صارفًا عنه، فالعَفْوُ: هو التَّجافي عنِ الذَّنْب[4]، كما في الآيةِ الَّتي معنا: ﴿أَوۡ تَعۡفُواْ عَن سُوٓءٖ﴾.

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

يُوجِّهُ اللّه تعالى عبادَه، ويُربِّيهم غلى خُلُق التَّسامحِ قائلًا لهم: إنْ تُظهِروا خيرًا، أو أَخْفيتُموهُ، أو عفوتُم عمَّن أساءَ إليكم؛ فإنَّ ذلكَ ممَّا يُقرِّبُكم عندَ اللّه، ويُجزِلُ ثوابَكم لدَيْه، فإنَّ من صفاتِه ﷻ: أن يَعفُوَ عن عبادِه مع قُدرتِه على عقابِهم[5]، فالآية الكريمة

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 5/448.
(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/7.
(3) الرَّاغب، المفردات، ص: 113.
(4) الرَّاغب، المفردات، ص: 574.
(5) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 1/509.

ترشدُ إلى أنَّ "معاقد الخير على كثرتها محصورة في أمرين: صِدْقٍ مع الحَقِّ، وخُلُقٍ مع الخَلْقِ، والَّذي يتعلَّق مع الخَلْقِ محصورٌ في قسمين: إيصال نفع إليهم، ودفع ضرر عنهم، فقوله: ﴿إِن تُبْدُواْ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ﴾ إشارة إلى إيصال النَّفع إليهم، وقوله: ﴿أَوْ تَعْفُواْ﴾ إشارةٌ إلى دفع الضَّرر عنهم، فدخل في هاتين الكلمتين جميع أنواع الخير وأعمال البِرِّ"[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغة التَّرقِّي في الخِطاب:

إظهارُ الإحسان لمن ظلمَ أعلى من إخفائه، والعفو عنه

في الآية الكريمة ترقٍّ في الخطاب بخصوص معاملة الظَّالم الَّذي يكون إبداءُ الخير إليه، وإظهارهُ أعلى من إخفائه، ثم إخفاؤه أعلى من العفو عن السُّوء، فالإحسان العامُّ في الظَّاهر لمن ظلمك أعلى، ثم الإحسان إليه في السِّرِّ، ثم العفو عن الظُّلم الَّذي هو أنبلُ الخير[2]، فحثَّ ﷻ على الأحبِّ إليه، والأفضل عنده، والأدخل في باب الكرم: ﴿إِن تُبْدُواْ خَيْرًا﴾، أي: من قول أو غيره، ﴿أَوْ تُخْفُوهُ﴾، أي: تفعلوه خفية ابتداء، أو في مقابلة سوء فعل إليكم؛ ولمَّا ذكر فعل الخير أتبعه نوعًا منه هو أفضله، فقال: ﴿أَوْ تَعْفُواْ عَن سُوٓءٍ﴾ أي: فعل بكم[3].

دلالة العطفِ وتكراره:

أفادَ العطفُ التَّرغيبَ في إظهارِ الخيرِ وإخفائِه على سواء

عطفَ بيانُ اللّه: ﴿أَوْ تُخْفُوهُ﴾ على: ﴿إِن تُبْدُواْ خَيْرًا﴾؛ لزيادةِ التَّرغيبِ حتَّى لا يَظنَّ العبادُ أنَّ الثَّوابَ على إبْداءِ الخيرِ خاصَّة، كقولِه تعالى: ﴿إِن تُبْدُواْ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة: 271][4]، فالضَّميرُ المنصوبُ في ﴿تُخْفُوهُ﴾

(1) الرازي، مفاتيح الغيب: 11/254.
(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/67.
(3) البقاعي، نظم الدُّرر: 5/448.
(4) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 8/7.

عائدٌ على ﴿خَيْرًا﴾، والمرادُ به أعمالُ البرِّ كلُّها، ويمكنُ أنْ يعودَ ضميرُ ﴿تُخْفُوهُ﴾ على ﴿بِٱلسُّوٓءِ﴾، أي: أو تُخْفوا السُّوء، ولكنَّ هذا العَوْدَ بعيد[1].

دلَّ عطفُ العَفْوِ عن السُّوءِ على ما قبلَه على بيانِ منزلة العفو العالية

عطفَ بيانُ اللّه قولَه تعالى: ﴿أَوْ تَعْفُواْ عَن سُوٓءٍ﴾ على إبداءِ الخير وإخفائِه اعْتدادًا به وتنبيهًا على مَنْزلتِه، وأنَّ له مكانًا في بابِ الخيرِ وسيطًا، والدَّليلُ على أنَّ العفْوَ هو الغرضُ المقصودُ بذكرِ إبداءِ الخيرِ وإخفائِه قولُه تعالى في ذَيْلِ الآية: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾ أي: يعفو عن الجانينَ مع قُدرتِه على الانْتقام، فعليكُم أنْ تقتدوا بسُنَّةِ اللّه العَفُوِّ القدير[2].

وجه المغايرة في عطف (العفو):

ما زادَ عبدٌ بعفوٍ إلَّا عِزًّا

غاير في حرف العطف(الواو)، فعطف (العفو) بـ (أو) مع دخوله في الخير بقسميه: الإظهار والخفاء؛ للاعتداد به، والإعلاء من شأنه، والتَّنبيه على منزلته، والحثِّ عليه بوصفه من الخير بمكان مرتفع[3].

التَّعبير عن الفاصلة بجملة جوابِ الشَّرط:

الاتِّصافُ بصفةِ العفو تخلُّقٌ بكمالات صفة الباري

إيرادُ قولِه تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾ في مَعْرِضِ جوابِ الشَّرطِ؛ يدلُّ على أنَّ العُمدةَ هو العفوُ معَ القُدرة، أي: كانَ مبالِغًا في العَفْوِ معَ كمالِ قُدرتِه على الانْتقام، فالعفوُ تخلُّقٌ بالكمال؛ لأنَّه من صفاتِ اللّه، وصفاتُ اللّه غايةُ الكمالات[4]، ويمكنُ أنْ تكونَ جملةُ: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾ دليلَ جوابِ الشَّرط، وهو عِلَّةٌ له، وتقديرُ الجواب: يعفو عنكم عندَ القُدرةِ عليكم، كما أنَّكم فعلتُمُ الخيرَ

(1) السَّمين، الدُّرُّ المصون: 4/138.
(2) الزَّمخشري، الكشَّاف: 1/576.
(3) القاسمي، محاسن التأويل: 3/387.
(4) أبو السُّعود، إرشاد العَقْل السّليم: 1/804.

جَهرًا وخُفيةً، وعَفَوتُم عندَ المقدرةِ على الأخذِ بحقِّكم؛ لأنَّ المأذونَ فيه شرعًا يُعَدُّ مقدورًا للمأذون[1].

سرُّ الختام بصفتي العفو والقدرة:

الإنسان قرين الذَّنب لضعفه؛ فهو أولى بأن يتخلَّق بالعفو

لمَّا كان تركُ العِقاب لا يُسمَّى عفوًا إلَّا إذا كان من قادرٍ؛ قال تعالى مذكِّرًا العبادَ بذنوبهم إليه وقدرته عليهم: ﴿قَدِيرًا﴾، أي: بالغ العفو عن كلِّ ما يريد العفو عنه من أفعال، والقدرة على كلِّ ما يريد، ومَنْ يريد، فالَّذي لا ينفكُّ عن ذنبٍ وعجزٍ أولى بالعفو طمعًا في عفو القادر عنه، وخوفًا من انتقامه منه، وتخلُّقًا بخلقه العظيم، والاقتداء بسنَّته[2]، وصيغةُ المبالغة من القُدْرة، وهي كلمة (قدير) هي الَّتي تدلُّ على إجزال المثوبة، وعلى التَّرغيب في العفو[3].

بيان المتشابه اللَّفظي:

اختيارُ كلِّ لفظ يناسب السِّياق والمعنى

قال تعالى هنا: ﴿إِن تُبْدُواْ خَيْرًا﴾، وفي الأحزاب: ﴿إِن تُبْدُواْ شَيْـًٔا﴾ [الأحزاب: 54]، وذلك أنَّ آية النِّساء وردتْ بعد قوله تعالى: ﴿۞لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ﴾، فذكر أنَّ الله لا يحبُّ الجهر بالسُّوء، ولذا قال بعدها: ﴿إِن تُبْدُواْ خَيْرًا﴾ [النِّساء: 149] أي: إن تُظهروا خيرًا، هو عكس الجهر بالسُّوء، فالله سبحانه لا يُحبُّ السُّوء ولا الجَهْر به بخلاف الجَهْر بالخير.

وأمَّا في آية الأحزاب؛ فالسِّياق يتعلَّق بعلم الله بالأشياء الخافية والظَّاهرة، فقد قال قبلها: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ﴾ [الأحزاب: 51]، وقال: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيبًا ۝٥٢﴾ [الأحزاب: 52]، وختم الآية بقوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ۝٥٤﴾ [الأحزاب: 54]، ومعنى الآية: إنَّه يستوي عنده السِّرُّ والجهر، فناسبَ أن يقول: ﴿إِن تُبْدُواْ شَيْـًٔا أَوْ تُخْفُوهُ﴾ [الأحزاب: 54]، لا أن يقول: ﴿إِن تُبْدُواْ خَيْرًا﴾ [النِّساء: 149].

(1) ابن عاشور، التَّحريرُ والتَّنوير: 6/7.
(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 5/449.
(3) رضا، تفسير المنار: 6/6.

فضلًا عن ذلك؛ فإنَّ لفظة (شيء) ناسبت ما وقع قبلها وبعدها، فوضع كلَّ لفظة في مكانها المناسب لها، ويزادُ على ذلك أنَّ الجوَّ التَّعبيريَّ لكلِّ سورة في هاتين السُّورتين يقتضي وضعَ كلِّ لفظة من هاتين اللَّفظتين في موضعها، ذلك أنَّ كلمة (خير) تردَّدتْ في سورة النِّساء اثنتي عشرة مرَّة، ولم ترد في سورة الأحزاب إلَّا مرَّتين، وأنَّ كلمة (شيء) تردَّدتْ في سورة النِّساء اثنتي عشرة مرة، وتردَّدت في سورة الأحزاب ستَّ مرَّات، فإذا كان الكلام يقتضي اختيار إحدى هاتين اللَّفظتين لكلِّ آية؛ فمن الواضح أنْ تختار كلمة (خير) لآية النِّساء، وكلمة (شيء) لآية الأحزاب، فاقتضى التَّعبير اختيار كلِّ لفظة من جهتين: جهة المعنى والسِّياق، وجهة اللَّفظ.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

البُدُوّ والظُّهور:

الظُّهورُ: يكونُ بقصدٍ وبغيرِ قصد، تقولُ: اسْتَتَرَ فُلان، ثمَّ ظَهَر، ويدلُّ هذا على قصدِه للظُّهور، ويُقالُ: ظهرَ أمرُ فُلان، وإن لم يقصدْ لذلك، فأمَّا قولُه تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ [الرُّوم: 41]، فمعنَى ذلكَ: الحدوث، وكذلكَ قولُك: ظهرتْ في وجهِه حُمرة، أي: حدثتْ، ولم يَعْنِ أنَّها كانتْ فيه، فظهرتْ[1].

والبُدُوُّ: هو الظُّهورُ البيِّن[2]، أي: الَّذي لا يَعْتَريه أيُّ خَفاء، فهو كالشَّمسِ عندَ إشراقِها، ويُضافُ إليه أنَّه يكونُ بغيرِ قصد، فعندما تقولُ: بدا البرقُ، وبدا الصُّبحُ وبدا لي في الشَّيء؛ لأنَّكَ لم تَقصِدْ للبدوِّ[3]، ولمَّا كان الحديث عن شأن ظاهرٍ، ومخفيٍّ؛ فالبُدُوُّ أنسبُ له؛ لكونه ظهورًا بيِّنًا، مبالغًا فيه.

العَفْو والصَّفح:

العَفْوُ: تركُ عقوبةِ المُذْنِب، والصَّفحُ: تركُ لومِه، ويدلُّ عليه قولُه تعالى: ﴿فَٱعْفُواْ وَٱصْفَحُواْ﴾ [البقرة: 109] تَرفِّيًا في الأمرِ بمكارمِ

التَّدرُّجُ في التَّغاضي من الحَسَنِ إلى الأَحْسنِ حكمةٌ جليلةٌ لتعامُلِ العبادِ فيما بينَهم

(1) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 344.
(2) الرَّاغب، المفردات، ص: 113.
(3) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 344.

الأخلاقِ من الحَسَنِ إلى الأَحْسن، ومن الفَضْلِ إلى الأفْضَل، والصَّفحُ باعتْبارِه تركُ اللَّومِ والتَّثريب، فهو أَبْلغُ من العَفْوِ، وقد يَعفُو الإنسانُ، ولا يَصْفَح[1].

والبيانُ الإلهيُّ يُحفِّزُ العبادَ على العَفْوِ عن السُّوء، كما قالَ تعالى: ﴿أَوْ تَعْفُواْ عَن سُوٓءٍ﴾، وذلكَ بتركِ العقوبةِ فيما بينَهم بعدَ التَّجافي عن الذَّنبِ القائم، فإذا حصلَ ذلكَ الأدْنَى؛ فحَسَن، ليُرجَى بعد ذلكَ الأَعْلى بالصَّفحِ، وهو الأَحْسن.

(1) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 362، والكفوي، الكليّات: 3/120، 183، 240.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٖ وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٖ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ١٥٠ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ حَقّٗاۚ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا ١٥١﴾ [النِّساء: 150 - 151]

مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِمَا قَبْلَهُما:

لَمَّا ندبَ بيانُ اللّه في الآيةِ السَّابقةِ إلى العفوِ وقولِ الخَيْر، وخَتَمها بصفتي العفوِ والقُدرة؛ شرعَ في بيانِ أحوالِ من لا يُعفَى عنه من أهلِ الكتابِ وخاصَّة اليهود، وبيانِ أنَّهم هُمُ الَّذين أضلُّوا المنافقينَ بما يُلقونَ إليهم من الشُّبَه، فبيَّنَ أنَّهم يستُرونَ ما عندَهم من العلم باللّه تعالى في كتابِهم، وفَضحَ عقيدتَهمُ الباطلةَ في رُسُلِ اللّه، فهم يُكذِّبونَ ببعضِ الرُّسُل، ومنهم محمَّدٌ وعيسى - عليهما الصَّلاةُ والسَّلام - ويُصدِّقونَ ببعض، كإيمانِ اليهودِ بموسى وغيرِه - عليهم السلام - فيتَّخذونَ بذلكَ طريقًا إلى الكفر، ولذلكَ استحقُّوا أنْ يكونوا بهذا السَّبيل ومُقدِّماتِه من الكافرينَ الَّذين أعدَّ اللّه لهم يومَ القيامةِ العذابَ المُهين، ويَدخُلُ معهم في هذا الحكمِ الإلهيِّ المنافقونَ الَّذين هم على شاكلتِهم في حقيقة ما انطوتْ عليه قلوبُهم من الكفر[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يُفَرِّقُواْ﴾: الفَرْقُ يُقاربُ الفَلْقَ، لكنَّ الفَلْقَ: يُقالُ اعْتبارًا بالانْشقاق، والفَرْق: يُقالُ اعتبارًا بالانْفصال، قالَ تعالى: ﴿وَإِذۡ فَرَقۡنَا بِكُمُ ٱلۡبَحۡرَ﴾ [البقرة: 50]، وقد جمعَهما قولُ اللّه تعالى: ﴿فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرۡقٖ كَٱلطَّوۡدِ ٱلۡعَظِيمِ ٦٣﴾ [الشُّعراء: 63]، والفريقُ: الجماعةُ المتفرِّقةُ عن آخَرين، قالَ تعالى: ﴿فَرِيقٞ فِي ٱلۡجَنَّةِ وَفَرِيقٞ فِي ٱلسَّعِيرِ ٧﴾ [الشُّورى: 7]، وفَرَقْتُ بين الشَّيئَيْن: فصلتُ بينَهما، سواءٌ كان ذلكَ بفَصْلٍ يُدركُه البَصَر، أم بفصْلٍ تُدركُه البَصيرة، قالَ تعالى: ﴿فَٱفۡرُقۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ ٢٥﴾ [المائدة: 25]، والتَّفريقُ أصلُه للتَّكثير، ويُقالُ

(1) البقاعي، نظم الدُّرَر: 5/450 - 451.

ذلكَ في تَشْتيتِ الشَّمْلِ والكلمة، وقولُه تعالى: ﴿وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾، أي: يُظهرونَ الإيمانَ باللّه، ويكفرونَ بالرُّسُلِ خلاف ما أمرَهم اللّه به[1].

2) ﴿سَبِيلًا﴾: السَّبيلُ: الطَّريقُ الَّذي فيه سُهولَة، وجمعُه سُبُل، قالَ تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾ [الزّخرف: 10]، والسَّبيلُ: اسْمُ جِنْسٍ إذا أُطْلِقَ؛ يختصُّ بما هو الحقُّ، كما في قولِه تعالى: ﴿لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [الزُّخرف: 37] يعني به: طريقَ الحقِّ.

ويُستعمَلُ السَّبيلُ لكلِّ ما يُتوصَّلُ به إلى شيءٍ خيرًا كانَ أوْ شرًّا، فمن الأوَّل: قولُه تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ﴾ [النَّحل: 125]. ومن الثَّاني: قولُه تعالى: ﴿وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ۝٥٥﴾ [الأنعام: 55][2]، وقولُه تعالى: ﴿وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾ أي: طَريقًا ومَسْلَكًا لكفرِهم باللّه ورُسُلِه[3].

3) ﴿وَأَعْتَدْنَا﴾: أعدَّهُ لأمرِ كذا: هيَّأَهُ له، والاسْتعدَادُ للأمر: التَّهيُّؤُ له، فإذا قيلَ: أَعْدَدْتُ هذا لك، أي: جعلتُه بحيثُ تعدُّه، وتتناولُه بِحسَبِ حاجتِك إليه، قالَ تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم﴾ [الأنفال: 60]، ويأتي بمعناه قولُه تعالى: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ۝١٦١﴾ وبمعنى: هيَّأنا[4].

4) ﴿مُّهِينًا﴾: هو فَعيلٌ من المَهانَة، يُقالُ: مَهَنَ يَمْهَنُ مَهانَةً، ومَهَنْتُه مَهْنًا والماهِنُ: الخادمُ، وقد مَهَنَ القومَ يَمْهَنُهُم، أي: خَدَمَهم، وامْتهنْتُ الشَّيء: ابْتَذلتُه، ورجلٌ مَهين، أي: حَقير[5]، والهوانُ على وَجْهَيْن:

أحدُهما: تَذَلُّلُ الإنسانِ في نَفْسِه لما لا يلحقُ به غَضاضَة، فيُمدَحُ به، قالَ تعالى: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان: 63].

الثّاني: أنْ يكونَ من جهةِ مُتسلِّطٍ مُستَخِفٍّ به، فَيُذَمُّ به، وعلى الثَّاني: قولُه تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ﴾ [الأنعام: 93][6]، وقولُه تعالى في الآية الَّتي معنا: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾.

---

(1) الرّاغب، المفردات، ص: 632 - 633.

(2) الرّاغب، المفردات، ص: 395، والفيروزآبادي، القاموس المحيط: (سَبَلَ).

(3) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 1/509، والرازي، مختار الصّحاح، والفيروزآبادي، القاموس المحيط: (عَدَدَ).

(4) الرّاغب، المفردات، ص: 550 - 551.

(5) الرّازي، مختار الصّحاح، والفيروزآبادي، القاموس المحيط: (مَهَنَ).

(6) الرّاغب، المفردات، ص: 849.

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

يتوعَّدُ اللّه ﷻ الكافرينَ به وبرُسُلِه، من اليهودِ والنَّصارَى حيث فرَّقوا بين اللّه ورُسُلِه في الإيمان، فآمنوا ببعضِ الأنبياءِ، وكفروا ببعض، واتَّبَعوا ما أَلْفَوْا عليه آباءهم لا عن دليلٍ قادَهم إلى ذلك، فإنَّهم لا سبيلَ لهم إلى ذلك، بل بمجرَّدِ الهوَى والعصبيَّة، فاليهودُ - عليهم لعائنُ اللّه - آمنوا بالأنبياءِ إلَّا عيسى ومحمَّدًا - عليهما الصَّلاةُ والسَّلام - والنَّصارَى آمنوا بالأنبياءِ، وكفروا بخاتِمهم وأشرَفِهم محمَّدٍ ﷺ، والسَّامرةُ لا يؤمنون بنبيٍّ بعدَ يُوشعَ خليفةِ موسى بنِ عمران ﷺ والمجوسُ يُقالُ: إنَّهم كانوا يؤمنونَ بنبيٍّ لهم، يُقال له: زَرادِشْت، ثمَّ كفروا بِشَرعِه، فرُفِعَ من بين أظْهُرِهم، والمقصودُ أنَّ مَنْ كفرَ بنبيٍّ من الأنبياءِ؛ فقد كفرَ بسائرِ الأنبياء، فإنَّ الإيمانَ واجبٌ بكلِّ نبيٍّ بعثَه اللّه إلى أهلِ الأرض، فمَن ردَّ نُبُوَّتَهُ للحسَدِ أوِ العصبيَّةِ أوِ التَّشهِّي؛ تبيَّن أنَّ إيمانَه بمن آمنَ به من الأنبياءِ ليس إيمانًا شرعيًّا، إنَّما هو عن غَرَضٍ وهوَى، أو أرادَ أن يَخْلِطَ بين ما أتَى به الأنبياءُ من ربِّهم، فيظهرَ بدينٍ بشريٍّ جديدٍ مُبتدَع، فهو أشدُّ بلاءً وأسوأُ مَسْلكًا، وأولئك هم جميعًا أهلُ كُفرٍ محقَّقٍ - لا محالةَ - بمنِ ادَّعَوُا الإيمانَ به، وكما اسْتهانوا بمن كفروا به، واتَّبعوا أهواءهم وأغراضًا خبيثةً بما اعْتقدوه، وفعلُوه، فإنَّ اللّه أعدَّ لهم يومَ القيامةِ عذابًا فيه غايةُ العذابِ والإهانةِ والإذْلال[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

نكتة الإخبار بالاسم الموصول:

أفادَ الموصولُ بيانَ قُبحِ ما عليه أهلُ الكتابِ من الكفر

في قولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾ عبَّرَ عن الكافرينَ بطريقِ الموصولِ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ دونَ الاسْم؛ لما في الصِّلةِ من الإيماءِ إلى وجهِ الخير، ومن شَناعةِ صَنيعِهم؛ ليُناسِبَ الإخبارَ عنهم باسْمِ الإشارةِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ في صَدْرِ الآيةِ الثَّانية، والمرادُ من ﴿ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ﴾ هنا: اليهودُ والنَّصارَى، والأَظْهرُ أنَّ المرادَ بهم اليهودُ خاصَّة؛ لأنَّهم المختلِطونَ بالمسلمينَ والمنافقين، وكان كثيرٌ من المنافقين يهودًا[2].

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 1/509 - 510.
(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/8.

سرُّ حذف خبر إنَّ:

في حذف الخبر توسُّعٌ في تصوُّر شناعة المعاني

ذهب الرَّازيُّ إلى أنَّ "في خبر إنَّ قولين: أحدهما: أنَّه محذوف، كأنَّه قيل: جمعوا المخازي. والثَّاني: هوقولُه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾، والأوَّل أحسن؛ لوجهين: أحدهما: أنَّه أبلغ؛ لأنَّه إذا حذف الجواب؛ ذهب الوهم كلَّ مذهب من العيب، وإذا ذكر؛ بقي مقتصرًا على المذكور، والثَّاني: أنَّه رأس الآية، والأحسن ألَّا يكون الخبر منفصلًا عن المبتدأ"[1].

مجيءُ فعل الكُفْر بصيغةِ المُضارع:

تجدُّدُ الكفر مبعثُ الذَّمِّ

جاءتْ صيغةُ المضارعِ ﴿يَكۡفُرُونَ﴾ هنا للدَّلالةِ على أنَّ أمرَ الكفرِ مُتجدِّدٌ فيهم ومُستمرٌّ؛ لأنَّهم لو كفروا في الماضي، ثمَّ رجَعوا؛ لما كانوا أحْرياءَ بالذَّمِّ[2].

الإيمان مرغوبٌ فيه، مأمورٌ به، والكفرُ منهيٌّ عنه

عبَّر عن كفرهم هنا بلفظ المضارع، وعبَّر عن إيمان بعضهم في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾ [النِّساء: 152] بلفظ الماضي؛ لأنَّ الإيمان مأمور مطلوب به، فجعل كالواقع المحقَّق، والكفر منهيٌّ عنه، فجُعل كأنَّه لم يقع[3].

علَّة التَّعبير عن الرُّسل بالجمع:

دلَّ جمعُ الرُّسلِ ذمَّ جميعِ الكافرينَ بهم

عبَّر عن الرُّسل بصيغةِ الجمع؛ لأنَّ اليهودَ كفروا بعيسى ومحمَّدٍ - عليهما الصَّلاةُ والسَّلام - والنَّصارَى كفروا بمحمَّدٍ ﷺ، فجَمَعَ الرُّسُلَ باعْتبارِ مجموعِ الكفَّار، أو أرادَ بالجمعِ الاثْنَيْن، أو أرادَ بالإضافة معنَى: الجِنْس، فَيَسْتوي فيه صيغةُ الإفرادِ والجمع؛ لأنَّ المقصودَ ذمُّ مَنْ هذه صفتُهم بدونِ تعيينِ فريق[4].

(1) الرازي، مفاتيح الغيب: 11/255.
(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/8.
(3) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/67.
(4) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/8.

تكرارُ فعلِ الإرادةِ بصيغةِ المُضارع:

أُطلقتِ الإرادةُ في قولِه تعالى: ﴿وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾، وأريدَ بها المحاولةُ؛ ليفرِّقوا بين اللّه ورُسُلِه، لكنَّهم لم يَبلغُوا ما أرادوا من ذلكَ لسبَبيْن: الأوَّلُ: أنَّه أمرٌ صعبُ المنال، فاللّه تعالى حافظُ دينِه، ولنْ يُمكِّنَهم من تحقيقِ مُرادِهم.

لن يفلحَ أهل الكتاب في التَّفريقِ بينَ اللهِ ورُسُلِه، مهما تجدَّدت محاولاتهم

والثَّاني: أنَّ اللّه تعالى قالَ: ﴿وَيُرِيدُونَ﴾، فهم ما زالوا يُحاولون؛ لأنَّ التَّعبيرَ بالمضارعِ يُفيدُ التَّجدُّدَ والاسْتمرار، ولو تحقَّق مُرادُهم، وأُنْجِزَتْ إرادتُهم؛ لَقالَ: (فرَّقُوا بينَ اللّه ورُسُلِه) بالماضي، وهذا لم يتمَّ لهم، ولن يتمَّ[1].

بلاغةُ الاسْتعارةِ في الآية:

في زَعْمِ أهلِ الكتابِ أنَّهم مؤمنون باللّه، ولكنّ نَفْيَ رسالةِ بعضِ أنبيائِه مُنافٍ تمامَ المنافاةِ لزعمِهم ذاك، ولذلكَ جاءَ بيانُ اللّه تعالى على طريقِ الاسْتعارةِ التَّمثيليَّة؛ ليُشبِّه الأمرَ المُتخيَّلَ في نفوسِهم بما يُضمِرُه مُريدُ التَّفريقِ بين الأولياءِ والأحْباب، فهي تَشْبيهُ هيئةٍ معقولةٍ بهيئةٍ معقولة، والغرضُ من التَّشبيهِ: تَشْويشُ المُشَبَّه؛ إذْ قد عَلمَ النَّاسُ أنَّ التَّفرقةَ بين المتَّصلينَ ذَميمَة[2].

لأهلِ الكتابِ غرضٌ خبيثٌ في التَّفريقِ بينَ اللهِ ورُسُلِه

دلالة المُتشابه اللَّفظي:

هذه الآيةُ الكريمةُ في معنَى الآياتِ الَّتي وردتْ في سورةِ البقرة، في قولِه تعالى: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾﴾ [البقرة: 136]، وقولِه تعالى: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾ [البقرة: 285]، وفي سورةِ آل عمران في قولِه تعالى: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾﴾ [آل عمران: 84]، إلَّا أنَّ تلكَ الآياتِ: في التَّحذيرِ من التَّفريقِ بين الرُّسُل، والآيةَ هذه: في التَّحذيرِ من التَّفريقِ بين اللّه وبعضِ رُسُلِه،

التَّفريقُ بين الرُّسُلِ مآلُهُ إلى التَّفريقِ بين اللهِ ورُسُلِه

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/9.
(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/9.

﴿وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾، والَّذي حَدَا بنا لذكرِ التَّشابُهِ مع وجودِ هذا الفَرْقِ بين آيةِ سورة النِّساء، وآياتِ سورتي البقرةِ وآلِ عمران، هو أنَّ مآلَ الجميعِ واحد؛ لأنَّ التَّفريقَ بين الرُّسُلِ يَسْتلزِمُ التَّفريقَ بين اللّه وبعضِ رُسُلِه، والحكمَ بكفرِ الجميعِ كذلكَ، وهو واضحٌ لا مَحالة[1].

دلالة الضَّمير في ﴿وَرُسُلِهِۦ﴾:

أفادَ الضَّمير معنَى العهدِ لا العُمُوم

في قولِه تعالى: ﴿وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾ أُضيفَ الجمعُ في: ﴿وَرُسُلِهِۦ﴾ إلى الضَّمير (الهاء)؛ فأفادَ هنا العَهْدَ لا العُمُومَ بالقَرينة، وهي قولُه تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ﴾[2].

سِرُّ عطْفِ الجُمَلِ:

أهلُ الكتابِ مُستحقُّونَ لكلِّ وصفٍ مُضَمَّنٍ في هذه الجُمَلِ على حِدَةٍ

عَطَفَ بيانُ اللّه تعالى الْجُمَلَ الثَّلاثة: ﴿وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾ بالواوِ على جملةِ صلةِ (الَّذين) - وإنْ كانَ بعضُها سببًا لبعض - إشارةً إلى أنَّهم جديرونَ بالوصفِ بكُلٍّ منها بانْفرادِه، وأنَّ كلَّ خَصْلةٍ كافيةٌ في نِسْبةِ الكُفرِ إليهم، وقدَّمَ نتيجتَها، وخَتَمَ بالحُكْمِ بها على وجهٍ أَضْخَمَ، تَفْظيعًا لحالِهم[3].

نكتة إعادة لفظ الرُّسل:

في الإعادة دفعٌ لتوهُّم التَّفريق بين الله وجماعة الرُّسل

استعلمَ الرَّاغب عن ذلك وأجاب بما نصَّه: "إن قيل: لِمَ أعاد ذكر الرُّسل، ولم يقل: بين اللّه وبينهم، فيكون أوجز؟ قيل: لما عنى أنَّهم يفرِّقون بين اللّه ورسله وبعض رسله، وعنى بقوله: ﴿يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾ كلَّ رسله؛ لأنَّ كلَّ من كفر ببعضهم؛ كفر بكلِّهم، فلو لم يعد ذكرهم؛ لاقتضى أن يكون معناه: يفرِّقون بين اللّه وبين جماعة

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/10.
(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/10.
(3) البُقاعي، نظم الدُّرَر: 5/450 - 451.

الرُّسل، فإنَّ المضمر لا يفيد إلَّا ما يفيد مظهره، فأعاد ذكرهم؛ لمَّا كان الأوَّل عامًّا والثَّاني خاصًّا"[1].

وجه الاستئناف في جملة القول:

علَّة الاستئناف البيانيِّ التَّفريق بين الله ورسوله

ذهبَ ابن عاشور إلى أنَّ جملة: ﴿وَيَقُولُونَ نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٖ وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٖ﴾ واقعةٌ في معنى الاستئناف البيانيِّ للتَّفريق بين اللّٰه ورسُلِهِ، ولكنَّها عُطِفتْ؛ لأنَّها شأنٌ خاصٌّ من شؤونهم؛ إذ مدلولها قولٌ من أقوالهم الشَّنيعة، ومدلولُ ﴿وَيُرِيدُونَ﴾ هيئةٌ حاصلةٌ من كفرهم، وهو علَّة حسن العَطْف باعتبار المغايرة، ولو في جُملة واحدة، ولو فُصِلتْ؛ لكانَ صحيحًا[2].

نكتة التَّعبير بالتَّركيب ﴿بَيۡنَ ذَٰلِكَ﴾:

أهـلُ الكتاب أتـبـاعُ هـوًى وسبيلٍ عِوَجٍ عن الحقِّ

﴿بَيۡنَ﴾ في قولِه تعالى: ﴿وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾، يجوزُ أنْ يكونَ منصوبًا بمحذوف؛ إذْ هو حالٌ من ﴿سَبِيلًا﴾، وأُشيرَ بـ﴿ذَٰلِكَ﴾، وهو للمفرد، والمرادُ به البيْنِيَّة، أي: بين الكفرِ والإيمان[3]؛ رغبةً، وهوًى، وسبيلَ ميلٍ عن الحقِّ.

ويمكنُ أن يُرادَ به هنا معنَى: التَّثنية، أي: بينَهما، والأصلُ في ﴿ذَٰلِكَ﴾: أنْ يقعَ بمعنَى المفردِ والتَّثنيةِ والجمعِ[4].

علَّةُ الإشارة للبعيد:

أفـادتِ الإشـارةُ للبعيد بيانَ بُعدِ أهلِ الكتابِ عنِ الحقِّ

أشارَ إلى البعيد في قولِه تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾؛ تعبيرًا عن بُعدِ الَّذينَ يُريدونَ تَلْفيقَ دينٍ جديدٍ بعيدٍ عن الإيمان الحقِّ باللّٰه ورُسُلِه؛ لكونهم أرادوا سبيلًا بين سَبيلَيْن، فأنتَجَ ذلكَ قولَه بالإشارة: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾، أي: البُعَداءُ البُغَضاء[5].

---

(1) الرّاغب، تفسير الراغب: 4/212.
(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/10.
(3) السَّمين، الدُّرُّ المصون: 4/138 - 139.
(4) العكبري، التبيان: 1/200.
(5) البُقاعي، نظم الدُّرَر: 5/450 - 451.

علَّة الإخبار بالإشارة:

أفـادَ الإخبـارُ بـالإشـارةِ إلى أنَّ ما يَعقبها مُتحقِّقٌ بالحُكْمِ المُقـرَّرِ لمن كـانَ قبلَها

قولُهُ تعالى: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ حَقّٗاۚ﴾ - في وجهٍ - خبرُ (إنَّ)، والإشارةُ بـ ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ﴾ إلى أصحابِ تلكَ الصِّلةِ الماضية، وموقعُ الإشارةِ هنا لقصدِ التَّنبيهِ على أنَّ المشارَ إليهم لاسْتحضارِهم بتلكَ الأَوْصافِ أحْرياءُ بما سيُحكَمُ عليهم من الحُكْمِ المعاقِبِ لاسْمِ الإشارة؛ لكون "هؤلاء الَّذين قالوا ذلك القول، وجحدوا ذلك الجحود بسبب هذه الأقوال وتلك الأحوال كافرون كفرًا لا مجال للشَّكِّ فيه"[1].

وجوهُ إعراب ﴿حَقّٗاۚ﴾:

أفـادتْ وجـوهُ الإعـرابِ تأكيدَ كُفرِ أهلِ الكتاب

في قولِه تعالى: ﴿حَقّٗاۚ﴾ أَوْجُهٌ عَديدَة:

أحدُها: أنَّه مصدرٌ مؤكِّدٌ لمضمونِ الجملةِ قَبْلَه[2]، والثَّاني: أنَّه حالٌ من قولِه: ﴿هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾، أي: أولئكَ همُ الكافرونَ من غيرِ شكٍّ[3]، وهذا يُشبِهُ أنْ يكونَ تفسيرًا للمصدرِ المؤكَّد، والحقُّ هنا: ليس يُرادُ به ما يُقابلُ الباطل؛ بل المرادُ به أنَّه ثابتٌ لا محالةَ، وأنَّ كفرَهم مقطوعٌ به. والثَّالثُ: أنَّه نعتٌ لمصدرٍ محذوف، أي: الكافرون كفرًا حقًّا[4]، وفي الأحوال الثَّلاثة أثبتَ لفظ ﴿حَقّٗاۚ﴾ الكُفرَ لأهل الكتاب المتَّصفين بالأوصاف السَّابقة، بيد أنَّ في وجه المصدرية مزيدَ توكيدٍ لكفرهم.

بلاغة حشد المؤكِّدات على حكم الكفر:

تأكيدُ قَصْرِ الكُفْرِ بـأهـلِ الكـتـابِ وضُرَبائِهم

أكَّد ﷻ الحكمَ عليهم بالكفر بثلاثة مؤثِّرات، أوَّلها: الإتيان بكلمة ﴿هُمُ﴾ الدَّالَّة على تأكيد الحكم، وتأكيدِ قَصْرِ صِفَةِ الكُفْرِ على مَنْ تقدَّمَ ذكرُهم، وهو قصرٌ ادِّعائيٌّ مجازيٌّ[5]، وثانيها: بتعريف طرفي

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 4/1938.
(2) الزَّمخشري، الكشَّاف: 1/576، والعكبري، التبيان: 1/200.
(3) العكبري، التبيان: 1/200.
(4) السَّمين، الدُّرُّ المصون: 4/139، وأبو السُّعود، الإرشاد: 1/805.
(5) وهو القَصْرُ الَّذي ينزلُ فيه ما عدا المقصور عليه، وهو ما يكون القصرُ بالإضافة إليه منزلة المعدوم، ينظر: حسن عبد الرزَّاق، البلاغة الصَّافية، ص: 165.

الجملة إنعامًا في تشخيصهم، ومبالغة في تأكيد وصف الكفرِ فيهم، وإثباتًا بأنَّهم لَا يخرجون عن دائرة الكفار، ويسارعون فيها، ولا ينتقلون منها، فهم أوغل في الكفر من الَّذين لا يؤمنون بكتاب ولا رسول ولا رسالة، ومِثْلُ هذا القصرِ يدلُّ على كمالِ الموصوفِ في تلك الصِّفةِ المقصورة، والمبالغةِ في بيانِ أنَّ كفرَهُم قدِ اشْتمَلَ على أحوالٍ عديدةٍ من الكُفْر، وعلى سَفَالةٍ في الخُلُق، أو سَفَاهةٍ في الرَّأي بمجموعِ ما حُكيَ عنهم من تلكَ الصِّفات، فإنَّ كلَّ خَصْلةٍ منها إذا انْفرَدتْ؛ هي كُفْر، فكيف بها؛ إذا اجْتمعت[1]؟

كفرهم يقينيٌّ، وصفتُهم فيه الكمال

ثالثًا: التَّعبير بكلمة ﴿حَقًّا﴾، أي: أنَّ كفرهم ثابت قد ثبت وحقَّ حقًّا، فهم الكاملون في الكفر، وحقًّا تأكيد لمضمون الجملة، أي: هم الذين كفروا كفرًا حقًّا ثابتًا يقينًا لَا شكَّ فيه[2]، وفي ذلك مبالغةٌ في إظهار كفرهم، وإبراز سوء أخلاقهم، وقُبح صفاتهم.

في التَّوكيد إزالة للتردُّد في عقولهم

وكان ذلك التَّوكيد حيث مظنَّة التردُّد في عقول الَّذين قالوا ذلك القول، فقد حسبوا بقولهم وإرادتهم أنَّهم يرضونه بذلك، فبيَّن اللّه سبحانه أنَّه لَا وسط بين الإيمان الكامل والكفر في شيء، وخصوصًا أنَّ جحود هؤلاء ببعض الرُّسل انبعث من حقد دفين، وتفريقهم بين الأجناس حتَّى في مقام الرِّسالة، وقد قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥۗ﴾، وإنَّهم بهذا الكفر يحسدون النَّاس على ما آتاهم اللّه من فضله؛ إذ إنَّها كانت في اليهود وأشباههم الَّذين رفضوا النَّبيَّ محمَّدًا، لأنَّه عربيٌّ، وليس بعبريٍّ، وحيث كان التَّردُّد؛ وجبَ تأكيدُ الحقِّ، ليزول التَّردُّد، ويتَّبع التَّابع عن بيِّنة ويقين[3].

فائدةُ وضعِ الْمُظْهَرِ مَوْضِعَ الْمُضْمَر:

في قولِه تعالى: ﴿وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ﴾، أي: (لهم)، وإنَّما وُضِعَ

(1) ابن عاشور، التَّحريرُ والتَّنوير: 6/11 - 12، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 4/1938.
(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 4/1938.
(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 4/1939.

التَّذكير بحكم كفرِ أهلِ الكتاب، وذمِّهم، وبيان مصيرِهم

المُظهَرُ ﴿لِلْكَٰفِرِينَ﴾ مكانَ المُضمَرِ ذمًّا لهم، وتذكيرًا لوصفِهم أو لجميعِ الكافرين، وهم داخلونَ في زُمرتِهم دُخولًا أَوَّليًّا[1]، ففي الإظهار عذابٌ مهينٌ تشملهم فيه الإهانةُ والمذلَّة والضِّعة[2].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

التَّفريق والتَّقسيم:

أهلُ الكتاب حاولوا قطعَ الصِّلة بين الله ورسوله

التّفريقُ: قَطْعُ الاتِّصالِ بين شيئَيْنِ أو أكثر لما عَرَفتَ، وذلك لا يَستدعي تقدُّمَ ما يتناول، والتَّقسيمُ: جعلُ الشَّيء أقسامًا، وذلكَ يَسْتدعي تقدَّمَ ما يتناولُ الأقسام، نحو: الكلمةُ: اسْمٌ، وفعلٌ، وحَرْف[3]، ويكونُ لكلِّ قسمٍ ارْتباطٌ بما قبلَه وبما بعدَه، فالتَّفريقُ الَّذي يقْتضي قطعَ أيِّ اتِّصالٍ بين الأشياء، هو الَّذي ناسبَ سياقَ الآيةِ في بيانِ ما فعلَه أهلُ الكتاب من إيمانِهم ببعضِ الرُّسُلِ وتكذيبِهم ببعض، وبذلكم كفروا باللّه تعالى الَّذي أمرَ عبادَه بضرورةِ الإيمانِ بجميع الرُّسُل، وهي عقيدةُ المؤمنِ المسلمِ الحقِّ، قالَ تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ﴾ [البقرة: 285].

السَّبيل والطَّريق والصِّراط:

السَّبيل بما يكتنفه من أسباب يحتمل الصُّعوبة والسُّهولة

الصِّراطُ: هو الطَّريقُ السَّهل، والطَّريقُ: لا يقتضي السُّهولة، والسَّبيلُ: اسْمٌ يقعُ على ما يقعُ عليه الطَّريقُ، وعلى ما لا يقعُ عليه الطَّريق، تقولُ: سبيلُ اللّه، وطريقُ اللّه، وتقولُ: سَبيلُكَ أنْ تفعلَ كذا، ولا تقولُ: طريقُك أنْ تفعلَ به، ويُرادُ به سبيلُ ما يَقصِدُه، فيُضافُ إلى القاصِد، ويُرادُ به القَصْدُ - وهو كالمحبَّةِ في بابِه - والطَّريقُ كالإرادة[4].

(1) أبو السُّعود، الإرشاد: 1/805.
(2) رضا، تفسير المنار: 6/8.
(3) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 129، والكفوي، الكُلِّيَّات: 2/21، 3/353.
(4) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 313، والكفوي، الكلِّيات: 3/36، والجرجاني، التَّعريفات، ص: 145.

والسِّياقُ القرآنيُّ في الآيةِ الكريمةِ يُحدِّثُنا عن أهلِ الكتابِ الَّذين بإيمانِهم ببعضِ الرُّسُل وكُفرِهم ببعضٍ يتَّخذونَ ذلكَ سبيلًا، أي: ما يقصِدونَه هُمْ، وهو قَصْدٌ للكفرِ باللّه، وهذا السَّبيلُ قد يكونُ سهلًا، وقد يكونُ صعبًا، بما يكتنفُه من الأسبابِ الموجبةِ للسُّهولةِ والصُّعوبة، وهذه المعاني تصدُقُ على كلمةِ ﴿سَبِيلًا﴾، ولذلكَ كانَ إيرادُها في سياقِ الآيةِ أنسبَ من كلمتي (الصِّراط) و(الطَّريق).

(أَعْتَدَ) و(هيَّأ):

الإعـــدادُ يـوائِـم بين تـنـاوُلِ الأمرِ وتدبيره، وتحقُّقِ الحاجةِ إليه

الهَيْئَةُ: الحالةُ الَّتي يكونُ عليها الشَّيء، محسوسةً كانت أو مَعقُولة، لكن في المحسوسِ أكثر، قالَ تعالى: ﴿أَنِّيٓ أَخۡلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ﴾ [آل عمران: 49][1]، ويحتمل معنى: الإصلاح، فهيَّأَهُ تَهْيِئَةً وتَهْييئًا: أَصْلَحهُ[2].

أمَّا الإعدادُ للأمرِ؛ فجَعْلُه بحيثُ يكونُ تناوُلُه وترتيبُه وتدبيرُه بما يُلائمُ، ويُحقِّقُ الحاجةَ إليه، والنَّتيجةَ المَرْجُوَّةَ منه، وبهذا المعنَى: أعدّ اللّه للكافرينَ العذابَ المُهينَ جزاءً لهم.

وهذا الإعدادُ هو بالمنظورِ البشريِّ، لا أنَّ اللّه يحتاجُ لحصولِ شيءٍ بالاسْتعدادِ أو الإعْدادِ له، وإنَّما النَّتيجةُ والمصيرُ يُناسبُ ما قدَّمَه الكافرون لأنفُسِهم من التَّفريقِ بالإيمانِ بينَ اللّه ورُسُله، وصناعتِهم لدينٍ جديدٍ مُلَفَّقٍ من اليهوديَّة، والنَّصرانيَّة، والبُوذيَّة، بعيدٍ كلَّ البُعدِ عن دينِ اللّه الحقِّ، وهو الإسلام الَّذي قالَ اللّه عنه: ﴿وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٨٥﴾ [آل عمران: 85].

فـــي الاعـــتـــداد معنى الادِّخار

لفظ: ﴿وَأَعۡتَدۡنَا﴾، هو تعبيرٌ قرآنيٌّ اختصَّ القرآن به؛ لأنَّ اعتدَّ من العَتَاد، والتَّخريج اللَّفظي: هيَّأنا لهم عتادًا، وهو عذاب

(1) الرَّاغب، المفردات، ص: 850.
(2) الفيروزآبادي، القاموس المحيط: (هَيَأَ).

جهنَّم، وقد ذكر الرَّاغب أنَّ العَتَادَ: ادِّخار الشَّيء قبل الحاجة إليه كالإعداد؛ ليُلمحَ في المعنى: أنَّ هؤلاء الكافرين ادُّخِرَ لهم العذاب المذل جزاء استكبارهم[1].

المُهين والذَّليل:

المُهينُ: هو المستَضْعَفُ، وفي القرآن: ﴿مِن سُلَٰلَةٖ مِّن مَّآءٖ مَّهِينٖ ٨﴾ [السَّجدة: 8]، وهو الضَّعيف، وهو فعيلٌ من المَهانَة، وهو كنايةٌ عنِ الضَّعفِ في مَهنته؛ لأنَّه يُقالُ: المَهينُ من المَهْنةِ، وهي العملُ والخِدْمَة[2]، والرَّجلُ المَهين، أي: الحَقير[3].

فـــي عـــذاب الكافرين إهانةٌ يستحقُّونها لصغر حالهم

والذُّلُّ: ما كانَ عن قَهْر، ومتى كانَ من جهةِ الإنسانِ نفسه لنَفْسِه؛ فمَحْمود، قالَ تعالى: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [المائدة: 54]، والذِّلُّ: ما كان بعدَ تَصَعُّبٍ وشماسٍ من غيرِ قهر، يُقال: ذَلَّ يَذِلُّ ذِلًّا، ويقالُ: الذُّلُّ والقُلُّ، والذِّلَّةُ والقِلَّة، قالَ تعالى: ﴿تَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٞۚ﴾ [المعارج: 44][4].

والعذابُ المهينُ الَّذي أعدَّه اللّٰه للكافرين، فيه إهانةٌ لهم، وأيُّ إهانة؟ ولذلكَ أُطلقتْ كلمةُ المَهين على الرَّجُلِ الحَقير، وهو أَلْزَمُ بالكافرين من غيرِهم، وهو ما يناسبُ سياقَ الآيةِ الكريمة.

(1) الراغب، المفردات: (عتد)، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 4/1939.
(2) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 523، والرَّازي، مختار الصِّحاح: (مَهَنَ).
(3) الرَّازي، مختار الصِّحاح، والفيروزآبادي، القاموس: (مَهَنَ).
(4) الرَّاغب، المفردات، ص: 330، والفيروزآبادي، البصائر: 3/17.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمۡ يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ أُوْلَٰٓئِكَ سَوۡفَ يُؤۡتِيهِمۡ أُجُورَهُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ١٥٢﴾ [النِّساء: 152]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا بيَّن الله ﷻ ما أعدَّ للَّذين يُريدونَ أنْ يُفرِّقوا بين الله ورُسُلِه، ويَبتدِعوا دينًا جديدًا ومَسلَكًا بعيدًا عن الحقِّ من العذابِ المُهين؛ بيَّنَ هنا في الآيةِ الكريمةِ ما أعدَّ لأَضْدادِهم من أهلِ طاعته الَّذين لم يُفرِّقوا في اعْتقادِهم بين أحدٍ من رُسُله، من الرُّتبِ العاليةِ والأجورِ العظيمة، والمغفرةِ التَّامَّةِ والرَّحمةِ الواسعة[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يُؤۡتِيهِمۡ﴾: الإتْيانُ: مجيءٌ بسهولة، ومنه قيلَ للسَّيلِ المارِّ على وجهه: أَتِيٌّ وأَتاوِيٌّ، والإتْيانُ يُقالُ للمجيءِ بالذَّاتِ وبالأمرِ وبالتَّدبير، ويُقالُ في الخيرِ والشَّرِّ وفي الأعيانِ والأعْراض.

والإيتاء: الإعطاءُ[2]، وخُصَّ دفعُ الصَّدقةِ في القرآن بالإيتاء، كما في قولِه تعالى: ﴿وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِۖ﴾ [الأنبياء: 73][3]، وقولِه تعالى هنا: ﴿سَوۡفَ يُؤۡتِيهِمۡ أُجُورَهُمۡۚ﴾ أي: يُعطيهِم.

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

أخبرَ الله تعالى في بيانِه الجليلِ أنَّ أمَّةَ محمَّدٍ ﷺ، همُ الَّذينَ يُؤمنونَ بكلِّ كتابٍ أَنْزلَه الله، وبكلِّ نبيٍّ بعثَه الله، ثمَّ أخبرَ تعالى بأنَّه قد أعدَّ لهمُ الجزاءَ الجَزيلَ والثَّوابَ الجليلَ والعطاءَ الجميل، على ما آمنوا بالله ورُسُلِه، وسَيغفرُ ذُنوبَهم، ويَرحمُهم بواسعِ رحمتِه[4].

(1) البقاعي، نظم الدُّرَر: 5/452 - 453.
(2) الخليل، العين: (أَتَو).
(3) الرَّاغب، المفردات، ص: 60 - 61، وابن منظور، اللِّسان: (أَتَى).
(4) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 1/510.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

وجهُ المُقابلةِ والإيماءِ:

أفادَ السِّياقُ مقابلةَ الكافرينَ بالمؤمنين، والثَّناءَ على مَنْ آمنَ مِنْ أهلِ الكتاب، ووعدَهم بالمغفرةِ والرَّحمة

قولُه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾ هو من عادةِ القرآنِ في مُقابلةِ المُسيئينَ بالمُحسِنين، والنَّذارةِ بالبِشارة، وفي ذكرِ ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ إيماءٌ إلى مَنْ آمنَ مِنْ أهلِ الكتابِ كعبدِ الله بنِ سلام رضي الله عنه وخاصَّةً بعدَ ذكرِ ضلالِهم، ولِمَا اقْتضاهُ تذييلُ الجُملةِ بقولِه: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾، أي: غفورًا لهم ما سَلَفَ من كُفْرِهم، رحيمًا بهم[1].

والقولُ في الإتيانِ بالموصولِ وباسْمِ الإشارةِ في هذه الجملةِ: كالقولِ في مُقابلِه، كما تقدَّمَ بيانُه في موضِعه.

علَّةُ دخولِ ﴿بَيْنَ﴾ على ﴿أَحَدٍ﴾:

دلَّ السِّياقُ عُمومَ (أَحَد) في إيمانِ المؤمنينَ بجميعِ الرُّسُل

كيفَ جازَ دُخولُ ﴿بَيْنَ﴾ على ﴿أَحَدٍ﴾ في قولِه تعالى: ﴿وَلَمْ يُفَرِّقُواْ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ﴾ وهو يَقْتَضي شيئَيْنِ فَصاعِدًا؟ الجوابُ: هو أنَّ أحدًا عامٌّ في الواحدِ المذكَّرِ والمؤنَّثِ وتَثنيتِهما وجَمعِهما، فيُرادُ به العُموم، كما تقولُ: ما رأيتُ أحدًا فتَقصِدُ العُموم، فالمعنَى هنا: ولم يُفرِّقوا بين اثْنَيْنِ منهم أو بينَ جماعة، كما في قولِه تعالى: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ [الأحزاب: 32][2].

وكأنَّ هذا النَّظمَ اخْتيرَ كذلكَ للمبالغةِ بأنْ لو أنَّ الواحدَ يمكنُ فيه التَّفرِقة، فكانَ الإيمانُ بالبعضِ دونَ البعضِ كفرًا[3].

سرُّ تكرار اسم الإشارة:

الجزاء من الله تعالى وحده، ولا فرق بين الأنبياء

تكرار ذكرهم بالإشارة في قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ﴾؛ للتوكيد بأنَّ الإذعان الكامل هو من غير استعلاء، وجحود، وحقد، وعدم التفرقة بين الأنبياء، وهو وحده الَّذي جعل لهم ذلك الجزاء[4].

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/12.
(2) الزَّمخشري، الكشَّاف: 1/576.
(3) البقاعي، نظم الدُّرَر: 5/452.
(4) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 4/1940.

نكتة التَّعبير بـ(سوف):

أفادَ الاستقبالُ في (سوفَ) كمالَ التَّحقُّقِ والوُقوع

أفادَ قولُه تعالى: ﴿سَوۡفَ يُؤۡتِيهِمۡ أُجُورَهُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾: أنَّ إيتاءَ أجورِ المؤمنينَ كائنٌ لا محالة، وكاملٌ كما هو كمالُ إيمانِهم باللّه ورُسُلِه، ودونَ تفريقٍ بين أيِّ رسولٍ، وهو وإنْ تأخَّرَ، فالغرضُ به توكيدُ الوعدِ وتَثبيتُه، لا كونُه متأخِّرًا[1]، وقد أتَى بيانُ اللّه بالأداةِ الَّتي هي أكثرُ حروفًا وأشدُّ تَنْفيسًا؛ لأنَّ هذا السِّياقَ لأهلِ الإيمانِ المجرَّدِ الشَّاملِ لمن لم يكنْ له عمل؛ ولذا أضافَ الأجورَ إليهم، وختمَ بالمغفرة؛ لئلَّا يحصُلَ لهم بأسٌ، وإنْ طالَ المدَى[2]، فأكَّد اللّه ﷻ الجزاء والثَّواب بالتَّعبير بسوف الدَّالَّة على تأكيد الفعل في الزَّمن المستقبل[3]، فالتَّصدير بسوف لتأكيد الوعدِ والدَّلالةِ على أنَّه كائنٌ - لا محالةَ - وإن تراخى[4].

سرُّ عدم وصف الإيمان بالحقِّ:

وصف إيمان البشر بالكمال مظنَّة الاغترار

لم يقل تعالى في هؤلاء: (إنهم هم المؤمنون حقًّا)، كما قال في أولئك: إنِّهم هم الكافرون حقًّا؛ لئلَّا يتوهَّم متوهِّم أنَّ كمال الإيمان موجودٌ، وقد يتحقَّق، وإنْ لم يترتَّب عليه لازمه من الهدى والعمل الصَّالح، فيغترُّ بذلك، وقد وقع النَّاس في مثل هذا على كثرة ما ينافيه، ويردُّه من آيات القرآن، أمَّا المؤمنون حقًّا؛ فقد بيَّن اللّه وصفهم في غير هذا الموضع، كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَإِذَا تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ٣ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ لَّهُمۡ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمۡ وَمَغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ٤﴾ [الأنفال: 2- 4][5].

(1) الزَّمخشري، الكشَّاف: 1/576.
(2) البقاعي، نظم الدُّرَر: 5/452 - 453.
(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 4/1941.
(4) أبو السعود، إرشاد العَقْل السّليم: 2/249.
(5) رضا، تفسير المنار: 6/9.

للمؤمن الحقِّ مثوبةٌ تناسبُ علوَّ الدَّرجات

وههنا نكتةٌ بلاغيَّة في متشابه اللَّفظ الخاصِّ بتوفية الأجور بين آية الأنفال وآية النِّساء، ذكرها محمد رشيد رضا بقوله: "وتأمَّل الفرق بين الوعد في هذه الآية الأخيرة من هذه الآيات، والوعد في الآية التي نفسِّرها؛ تجده عظيمًا، فإنَّه تعالى أثبت لهؤلاء الذين هم المؤمنون حقًّا الدَّرجات العلا عند ربِّهم، والرِّزق الكريم، بلام الملك، جزاءً على ما أثبت لهم من أصل شجرة الإيمان وفروعها، وأمَّا أولئك الذين أثبت لهم الأصل فقط، وهو الإيمان بالله ورسله بلا تفرقة بينهم، فإنَّما وعدهم بأنَّه يعطيهم أجورهم، أي: بحسب حالهم في العمل"[1].

توجيهُ القراءاتِ القرآنيَّةِ:

إنَّ الَّـذي يُـؤتي المؤمنينَ أجورَهم هو اللهُ وحدَه

في قولِه تعالى: ﴿يُؤْتِيهِمْ﴾ قراءتان[2]:

الأُولى: ﴿يُؤْتِيهِمْ﴾ بياءِ الغائب، والضَّميرُ عائدٌ إلى اسْم الجلالةِ في قولِه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾. والثَّانيةُ: ﴿نُؤْتِيهِمْ﴾ بنونِ العَظَمة.

وفي كلتا القراءَتَيْنِ تأكيدٌ بأنَّ الَّذي يتولَّى إيتاءَ الأُجورِ العظيمَةِ للمؤمنينَ بإيمانِهم بالله وجميعِ رُسُلِه: هو الله - سبحانه - لا أحدَ سِواه، مع أنَّ الإيتاء بنون العظمة ﴿نُؤْتِيهِمْ﴾ مزيدُ تشريفٍ للمُعْطينَ.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الإيْتاء والإعْطاء:

الإعطاءُ: هو اتِّصالُ الشَّيءِ إلى الآخذِ له، ألَا ترى أنَّكَ تُعطي زيدًا المالَ؛ ليَرُدَّه إلى عمرو، وتُعطيه؛ ليتَّجِرَ لكَ به، وهذا هو الأصلُ في الإعطاء[3]، والإعطاءُ لا يَقْتضِي إخراجَ المُعطي من الملك[4].

(1) رضا، تفسير المنار: 6/9 - 10.

(2) الأولى: قراءة حفص عن عاصم، والثَّانية: قراءة الباقين من العشرة، ينظر: محمَّد كريِّم راجح، القراءات العشر المتواترة، ص: 102.

(3) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 59.

(4) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 83.

وأمَّا الإيتاءُ؛ فهو مجيءٌ بسهولة، وهو أوسعُ في دَلالاتِه من الإعطاء، وهو وإن كانَ قد خُصَّ بدفعِ الصَّدقةِ في القرآن[1]، فهو من هذا الوجهِ تمليكٌ للمُعْطَى، فإنَّ اللّه تعالى يؤتي عبادَه المؤمنين به وبجميعِ رُسُلِه أجرَهم بسهولةٍ في اعْتقادٍ يؤجَرونَ عليه تمليكًا منه تعالى لهم فضلًا منه وإحسانًا، وبذلك يكونُ الفعلُ (يُؤتيهِم) أوْفى بالسِّياقِ من الفعلِ (يُعطيهِم).

(1) الرَّاغب، المفردات، ص: 60 - 61.

﴿يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ۚ ثُمَّ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ ۚ وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿١٥٣﴾ وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَٰقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا۟ فِى ٱلسَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿١٥٤﴾﴾ [النِّساء: 153 - 154]

مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِمَا قَبْلَهُما:

لَمَّا بيَّن اللّه تعالى في الآيةِ السَّابقةِ كمالَ إيمانِ المؤمنينَ باللّه برُسُلِ اللّه قاطبةً، وما أعدَّه لهم من الرُّتَبِ العاليةِ والأجورِ العظيمة؛ عادَ بيانُ اللّه هنا في هاتيْنِ الآيتيْنِ مُندِّدًا بأهلِ الكتابِ الَّذين فرَّقوا بينَ اللّه ورُسُلِه، ولم يؤمنوا بجميعِ الرُّسُل، مُستعرضًا على وجهِ الخصوصِ مَطالبَ اليهودِ العَجيبةِ واقْتراحاتِهمُ المعبِّرةَ عن غايةِ سُوءِ أدبِهم مع اللّه ﷻ، سواء منها ما طالبوا به رسولَ اللّه محمَّدٍ ﷺ من إنزالِ كتابٍ من السَّماء، أمْ بما سبقَ منهم بسؤالِ نبيِّهم موسى عليه السلام بأنْ يُريَهمُ اللّه عَيانًا من غير سِتْرٍ ولا حِجاب، وبكفرِهم باتِّخاذِهِمُ العجلَ إلهًا لهم من دونِ اللّه، وما حلَّ بهم من عذابٍ - بسببِ طُغيانهم - بإهلاكِهم بالصَّاعقة، ثمَّ عَفْوِ اللّه عنهم، وبرفعِ اللّه لجبلِ الطُّورِ فوقَهم حين امْتَنعوا من الالْتزامِ بأحكامِ التَّوراة، وأُمِروا بدخولِ الأرضِ المقدَّسةِ ساجدينَ أذلَّاءَ للّه ﷻ، وألَّا يَعتدُوا في يومِ السَّبتِ بالصَّيد فيه، وأخذِ اللّه الميثاقَ الغليظَ المؤكَّدَ عليهم في ذلكَ كلِّه.

وفي ذلك كلِّه تسليةٌ لرسولِ اللّه ﷺ في أنَّ عادةَ اليهودِ التَّعنُّت، ودَيْدَنَهُم الكفر، وأنَّهم أغْرَقُ النَّاسِ في غِلَظِ الأكبادِ وجَلافةِ الطَّبائع، بدءًا بأسلافِهم وانتهاءً بهم وبمن يخلُفُهم إلى يومِ القيامة[1].

(1) البقاعي، نظم الدُّرَر: 5/454.

شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

1) ﴿ٱلصَّٰعِقَةُ﴾: الصَّاعِقةُ والصَّاقِعةُ يَتقاربان، وهما الهَدَّةُ الكبيرة، إلَّا أنَّ الصَّقْعَ يُقالُ في الأجسامِ الأرضيَّة، والصَّعقَ في الأجسام العُلويَّة، قالَ بعضُ أهلِ اللُّغة: الصَّاعقةُ على ثلاثةِ أَوْجُه: الأوَّلُ: المَوتُ: كما في الآيةِ الَّتي معنا: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ﴾. والثَّاني: العَذابُ: كقولِه تعالى: ﴿أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ١٣﴾ [فُصِّلت: 13]. والثَّالثُ: النَّار: كقولِه سُبحانه: ﴿وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ﴾ [الرَّعد: 13].

وما ذُكر فهو أشياءُ حاصلةٌ من الصَّاعقة، فإنَّ الصَّاعقةَ: هي الصَّوتُ الشَّديدُ من الجوِّ، ثمَّ يكونُ منها نارٌ فقط، أو عذاب، أو مَوْت، وهي في ذاتِها شيءٌ واحد، وهذه الأشياءُ تأثيراتٌ منها، ويُقالُ: صَعِقَ الرَّجلُ صَعْقةً وتَصْعاقًا: غُشيَ عليه[1].

2) ﴿ٱتَّخَذُواْ﴾: الأَخْذُ: حَوْزُ الشَّيءِ وتحصيلُه، وذلكَ تارةً بالتَّناوُل، نحو: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ﴾ [يُوسف: 79]، وتارةً بالقَهْر، كقولِه تعالى: ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [البقرة: 255].

والاتِّخاذُ: افْتعالٌ من الأَخْذِ إلَّا أنَّه أُدْغِمَ بعدَ تَلْيينِ الهمزةِ وإبدالِ التَّاء، ويُعدَّى إلى مفعولَيْن، ويَجري مَجْرى الجَعْل، وقولُه تعالى في الآيةِ الَّتي معنا: ﴿ثُمَّ ٱتَّخَذُواْ ٱلْعِجْلَ﴾، أي: جَعلُوه إلهًا، فعبدُوه من دونِ اللّه الأَحَدِ ﷻ.

3) ﴿سُلْطَٰنًا﴾: السَّلاطَةُ: التَمكُّنُ من القَهْر، يُقالُ: سَلَّطْتُهُ، فَتَسَلَّط، قالَ تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾ [الحشر: 6]، ومنهُ سُمِّيَ السُّلطانُ، والسُّلطانُ يُقالُ في السَّلاطَة، قال تعالى: ﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا﴾ [الإسراء: 33]، وسُمِّيت الحُجَّةُ: سُلْطانًا، قالَ تعالى - كما في الآية الَّتي معنا - : ﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا﴾، أي: حُجَّةً بَيِّنةً واضحةً ظاهِرةً[2].

4) ﴿لَا تَعْدُواْ﴾: العَدْو: التَّجاوزُ ومنافاةُ الالْتئام، والاعْتداءُ: مُجاوزَةُ الحقِّ، قالَ تعالى: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ﴾ [النِّساء: 14]، ومنه قولُه تعالى في الآيةِ الَّتي

(1) الرَّاغب، المفردات، ص: 484 - 485، والرَّازي، مختار الصِّحاح: (صَعَقَ).
(2) الرَّاغب، المفردات، ص: 420، والفيروزآبادي، القاموس المحيط: (سَلَطَ).

معنا: ﴿لَا تَعۡدُواْ فِي ٱلسَّبۡتِ﴾، أي: لا تَعتَدُوا، وذلكَ بأخْذِهمُ الحيتانَ على جهةِ الاسْتحلال[1].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

يُخْبِرُنا اللّه تعالى بأنَّ اليهود، سَألُوا رسولَ اللّه ﷺ أنْ يَرْقَى إلى السَّماءِ، وهُم يَرَوْنَه، فيُنَزِّلُ عليهم كتابًا مكتوبًا فيما يدَّعيه يدُلُّ على صدْقِه دفعةً واحدةً، كما سألوا من قبلُ موسى عليه السلام سؤالًا أكبرَ من هذا السُّؤال، فقالوا: يا موسى أرِنا اللّه عَيانًا، فأخذتْهمُ الصَّاعقةُ بسببِ جَراءتِهم على اللّه، وسوءِ أدبِهم معه ﷻ، ثمَّ صَنَعُوا عِجْلًا بيدِ أشْقاهمُ السَّامريِّ - من بعدِ ما جاءتْهمُ المعجزاتُ الباهراتُ الواضحات - وعَبدوهُ من دونِ اللّه، ثمَّ عفا اللّه عنهم، ولم يَسْتأصلْهم، وقد آتَى اللّه - ﷻ - نبيَّه موسى حُجَّةً بيِّنة.

ورفعَ اللّه فوقَهم جبلَ الطُّورِ لَمَّا لم يلتزِموا أحكامَ التَّوراة بعدَ أخذِ العهْدِ عليهم بالْتزامِها، وأمرَهُمُ اللّه أنْ يدخُلوا بيتَ المقدسِ ساجدينَ للّه، ولا يَظلِمُوا أنْفُسَهم باصْطيادِهمُ الحيتانَ في يومِ السَّبت، وأخذَ اللّه عليهمُ العهدَ الموثَّقَ الأكيدَ في ذلكَ كلِّه في التَّوراة[2].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

أفادتْ صيغةُ المضارعِ التَّعجيبَ من تعنُّتِ اليهود في كُفرِهم وسوءِ أدبِهم

نكتة التَّعبير عن السُّؤال بالمضارع:

جاءتْ صيغةُ المضارعِ في قولِه تعالى: ﴿يَسۡـَٔلُكَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾؛ لبيانِ علَّتَيْن من عِلَلِ اليهودِ الكثيرةِ والقَبيحة، أوَّلُهما: اسْتحضارُ حالتِهمُ العجيبةِ في هذا السُّؤالِ الَّذي طَرحوه أمامَ رسولِ اللّه ﷺ،

(1) الرَّاغب، المفردات، ص: 553 - 554، والفيروزآبادي، القاموس المحيط: (عَدَا).

(2) وردَ أنَّ كعب بن الأشرف، وفنحاص بن عازر قالا لرسولِ الله ﷺ: إن كنت نبيًّا صادقًا فأتِنا بكتابٍ جملةً من السَّماء، كما أتى به موسى، فأنزلَ الله تعالى: ﴿يَسۡـَٔلُكَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ الآية، ينظر: ابن جرير، جامع البيان: 6/6، وابن أبي حاتم، تفسير القرآن العظيم: 4/1103، والواحدي، أسباب النزول، ص: 189.

حتَّى كأنَّ السَّامعَ أو القارئَ يراهم وهم يَسألون، كقولِه تعالى: ﴿وَيَصۡنَعُ ٱلۡفُلۡكَ﴾ [هود: 38]، وقولِه: ﴿بَلۡ عَجِبۡتَ وَيَسۡخَرُونَ ١٢﴾ [الصَّافَّات: 12]. وثانيهما: للدَّلالةِ على تكرارِ السُّؤال وتجدُّدِه مَرَّةً بعدَ أُخْرَى بأنْ يكونوا أَلَحُّوا في هذا السُّؤالِ لقصدِ الإعْنات.

والمقصودُ على كلا الاحْتمالَيْنِ: التَّعجيبُ من هذا السُّؤال، ولذلكَ قالَ بعدَه: ﴿فَقَدۡ سَأَلُواْ مُوسَىٰٓ﴾[1].

دلالة الفاء في الجواب:

قولُه تعالى: ﴿فَقَدۡ سَأَلُواْ مُوسَىٰٓ أَكۡبَرَ مِن ذَٰلِكَ﴾ في هذه الفاءِ قولان، أحدُهما: أنَّها جوابٌ لشرطٍ مُقدَّرٍ، معناه: إنِ اسْتكبرتَ ما سألوه منك؛ فقد سألُوا موسى أكبرَ من ذلك[2].

ويمكنُ أنْ يكونَ تعليلًا للجواب، أي: فلا تُبالِ بسؤالِهم وتَشْطيطِهم، فإنَّها عادتُهم فقد سألُوا موسى أكبرَ من ذلك[3].

السُّؤال من التَّكبُّر لا من طلب الحقِّ، وذلك من عاداتهم

علَّة نسبة السُّؤال إلى الحاضرين:

وإنَّما أُسنِدَ السُّؤالُ إليهم، وإنْ وجدَ من آبائهم في أيَّامِ موسى عليه السلام وهم النُّقباءُ السَّبعون؛ لأنَّهم كانوا على مذهبِهم وراضينَ بسؤالِهم لهم ومُضاهينَ لهم في التَّعنُّت، ولهم في ذلكَ عِرْقٌ راسِخٌ[4]، و﴿أَكۡبَرَ﴾: صفةٌ لمحذوف، أي: سؤالًا أكبرَ من ذلك.

أبناءُ اليهود في كلِّ عهدٍ على آثار آبائهم مقتدون

دلالةُ الجُملة التَّفسيريَّة، والصِّفة:

قولُه تعالى: ﴿فَقَالُوٓاْ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهۡرَةً﴾ هذه الجملةُ مُفسِّرةٌ لِكِبَرِ السُّؤالِ وعَظَمتِه.

و﴿جَهۡرَةً﴾: هي من صفةِ القَوْلِ أوِ السُّؤال، أو من صفةِ السَّائلين، أي: فقالوا مُجاهِرين، أو: سألوا مُجاهِرين، فتكونُ في محلِّ نصبٍ

أفادَ سياقُ الجُملةِ خُطورةَ سؤالِ اليهودِ ولاسيَّما مُجاهرتهم به

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/13.
(2) الزَّمخشري، الكشَّاف: 1/577.
(3) ابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 2/131.
(4) أبو السُّعود، الإرشاد: 1/806.

على الحالِ من المرفوعِ في ﴿أَرِنَا﴾، أي: حالَ كونِكَ مُجاهرًا لنا في رؤيتهِ غيرَ مُخْفٍ رؤيتَه، أوْ على المصدر[1].

نكْتةُ العَطْفِ بـ ﴿ثُمَّ﴾:

قولُه تعالى: ﴿ثُمَّ ٱتَّخَذُواْ ٱلْعِجْلَ﴾ حرفُ ﴿ثُمَّ﴾ عُطِفتْ به جملةُ: اتِّخاذِهمُ العِجْل، المفيدُ في عَطْفِه معنَى التَّراخي الرُّتَبيِّ، فإنَّ اتِّخاذَهمُ العجلَ إلهًا أَعْظمُ جُرْمًا ممَّا حُكِيَ قبلَه، ومع ذلكَ عفَا اللّه عنهم، وآتَى موسى سُلطانًا مبينًا، أي: حُجَّةً واضحةً عليهم في تمرُّدِهم[2].

اتِّخاذ اليهود العجلَ إلهًا أَعْظمُ جُرْمًا ممَّا حُكِيَ قبلَه

وفيه بيانُ كمال جهالاتهم وإصرارهم على كفرهم، وجحدهم نِعَمَ ربِّهم، فإنَّهم ما اكتفوا بعد نزول التَّوراة عليهم بطلب الرُّؤية جهرة، بل ضمُّوا إليه عبادة العجل، وذلك يدلُّ على زيغهم، وغاية بعدهم عن طلب الحقِّ والدِّين[3].

في الاتِّخاذ بيانٌ لكمال جهالتهم، وجحدهم نعم ربِّهم

سرُّ التَّعبير بالظَّرف (فوق):

يجوزُ أنْ يكونَ: ﴿فَوْقَهُمُ﴾ في قولِه تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَٰقِهِمْ﴾ ظرفًا لـ ﴿وَرَفَعْنَا﴾، وأنْ يكونَ حالًا من: ﴿ٱلطُّورَ بِمِيثَٰقِهِمْ﴾.

و﴿ٱلطُّورَ بِمِيثَٰقِهِمْ﴾: في موضعِ نصبٍ مُتعلَّقٍ بـ ﴿وَرَفَعْنَا﴾، تقديرُه: بنَقْضِ ميثاقِهم، والباءُ في ﴿بِمِيثَٰقِهِمْ﴾ للسَّببيَّة، والمعنَى كاملًا: ورفَعْنا فوقَهمُ الجبلَ؛ تخويفًا لهم وتحذيرًا بسببِ نَقْضِهمُ الميثاق[4].

رَفْعُ الجبلِ حِسًّا فوقَ اليهودِ تخويفٌ لنَقضِهمُ العَهْدَ مع الله

العطفُ والحال، وأثرُهما في تجليةِ المعنَى:

قولُه تعالى: ﴿وَقُلْنَا لَهُمُ ٱدْخُلُواْ ٱلْبَابَ سُجَّدًا﴾ عُطِفَ على قولِه: ﴿وَرَفَعْنَا﴾، وقولُه: ﴿سُجَّدًا﴾ حال، أي: ادْخلوا البابَ حالَ كونِكم ساجِدين[5].

أفادَ العطفُ والحالُ بيانَ أمرِ اللهِ لليهود بدخولِ بابِ بيتِ المقدسِ في حالةِ سُجودٍ وذُلٍّ للهِ تعالى

(1) العكبري، التبيان: 1/200، والسَّمين، الدُّرُّ المصون: 4/140.
(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/15.
(3) الرازي، مفاتيح الغيب: 11/257.
(4) العكبري، التبيان: 1/200.
(5) العكبري، التبيان: 1/200.

التَّعبير عن الدُّخول بالأمر:

في الأمر بدخول باب المدينة مطأطئي الرُّؤوس بهيئة السَّاجدين أمارة الخضوع حِسًّا، وهو دليل على الخضوع والإذعان لأوامر اللّه تعالى، وفيه تصريح بالطَّاعة المطلقة الَّذي يتضمَّنه الأمر بالدُّخول سجَّدًا مطأطئي الرُّؤوس خاضعين قد ذهب عنَّا الكبرياء[1].

الطَّاعة المطلقة، والإذعـــان لأمر الله واجبة على المؤمن

نكتة تكرار فعل القول:

وتكرَّر قوله تعالى: ﴿وَقُلْنَا﴾؛ لبيان تأكيد الأمر، ونسبته إليه[2] ﷻ.

القول لله تعالى مؤكَّدًا

توجيه القراءات القرآنيَّة:

قولُه تعالى: ﴿لَا تَعْدُواْ﴾: فيه ثلاثُ قراءات[3]:

الأُولى: ﴿لَا تَعَدُّواْ﴾ بفتحِ العَيْن وتشديدِ الدَّالِ المضمومة، أصلُه: لا تَعْتَدُوا، والاعْتداءُ افْتعالٌ من العَدْو، يُقالُ: اعْتدَى على فُلان، أي: تجاوزَ حدّ الحقِّ معه، فلمَّا كانت التَّاءُ قريبةً من مَخْرج الدَّال، ووقعتْ مُتحرِّكَةً، وقبلَها ساكن؛ تهيَّأَ إدْغامُها، فَنُقِلَتْ حركتُها إلى العَيْنِ السَّاكنةِ قبلَها، وأُدغِمَتْ في الدَّال إدْغامًا لقصدِ التَّخفيف، ولذلكَ جازَ في كلامِ العربِ إظهارُها، فقالوا: تعتَدُوا وتَعَدُّوا؛ لأنَّها وقعتْ قبلَ الدَّال، فكانتْ غيرَ مجذوبةٍ إلى مَخْرجه، ولو وقعتْ بعد الدَّالِ؛ لوجَبَ إدْغامُها في نحوِ أَدَّان.

والثَّانيةُ: ﴿لَا تَعْدُّواْ﴾ بسكونِ العَيْن وتشديدِ الدّال.

والثَّالثةُ: ﴿لَا تَعْدُواْ﴾ بسكون العَيْنِ وتخفيفِ الدَّالِ، مضارعٌ مجزومٌ من العَدْو، وهو العُدْوَان[4].

أفادتِ القراءاتُ القرآنيَّةُ اعْتداءَ اليـــهـــودِ في تَـحـايُـلـهـم في الـصَّـيـدِ يـومَ السَّبت

---

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 4/1946.

(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 4/1946.

(3) الأولى قراءةُ وَرْش عن نافع، والثَّانيةُ قراءَ قالون، وأبو جعفر، ولقالون أيضًا اخْتلاسُ فتحةِ العين مع تشديد الدَّال، والثَّالثةُ قراءة الباقين من العشرة، ينظر: محمَّد كريِّم راجح، القراءات العشر المتواترة، ص: 102.

(4) العكبريّ، التبيان، ص: 200، والسَّمين، الدُّرُّ المصون: 4/141، وابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/16، ويرى العكبريّ، والسَّمين أنَّ القراءة الثَّانية ضعيفة، لأنَّه جمع بين ساكنَيْن على غيرِ حدِّهما، وليس الثَّاني حرفَ مدٍّ، وهو ما لا يراه النَّحويُّون، ولكنَّ تَضعيف القراءة عند النَّحويين أو غيرهم لا يُعوَّلُ عليه، خاصَّةً إذا كانت القراءة متواترة، لأنَّ القراءة سُنَّةٌ مُتَّبَعة، فهي حاكمةٌ لا محكومة.

علَّة إضافة الأخذ إلى الذَّات العليَّة:

الله يتولَّى أمرَ عباده وجزاءهم

وأضاف ﷻ الأخذ إلى ذاته العليَّة في قوله: ﴿وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾ "تقوية له، وتأكيدًا، فإنَّ ذا الجلال والإكرام العليم الخبير هو الَّذي أخذه، وهو الَّذي يتولَّى أمرهم؛ إن نكثوا في أيمانهم، وأنَّه سيأخذهم أخذ عزيز مقتدر"[1].

سرُّ تقديم شِبهِ الجُملة:

في التَّقديم قصرُ الميثاقِ عليهم

في تقديمِ الجارِّ والمجرور ﴿مِنْهُم﴾ على ﴿مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾ قَصْرٌ على أَخْذِ الميثاقِ من اليهود لا من غيرِهم، وفيه تأكيدٌ على حصولِه.

بلاغة الكنايةِ:

أفادتِ الكنايةُ قوَّةَ العهدِ الَّذي أخذَهُ اللهُ على اليهود، ومن ثَمَّ نَقْضهم له

المرادُ بالميثاقِ في قولِهِ تعالى: ﴿وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾: العَهْد، وَوَصْفُه بالغَليظ، أي: القَويُّ، والغِلَظُ من صفاتِ الأجسام، فاسْتُعيرَ لقوَّةِ المعنَى، وكُنِّيَ به عن تَوَثُّقِ العهد؛ لأنَّ الغِلَظَ يسْتلزمُ القُوَّة، والمرادُ جِنْسُ الميثاقِ الصَّادقِ بالعهودِ الكثيرةِ الَّتي أُخذَتْ عليهم، والمقصودُ من هذا البيانِ إظهارُ تَأَصُّلِهم في اللَّجاجِ والعِنادِ من عَهْدِ أنبيائهم؛ تسليةً للنَّبيِّ ﷺ على ما لَقِيَ منهم، وتمهيدًا لقولِه القادمِ: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ﴾ [النِّساء: 155][2].

في غِلَظِ الميثاق فطمُ نفوسِهم عن الشَّهوات

وغلَّظ الميثاق، وشدَّد في موضوعه؛ لكونه أمرهم بالطَّاعة المطلقة، وكلَّفهم تكليفات شديدة، لإفراطهم في الفساد، فكان السَّبيلُ لفطْم نفوسهم عن الشَّهوات، وتربيتها على الضَّبط والعمل الصَّالح أن ينصَّ على تحريم أمور كثيرة[3].

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 4/1947.
(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/16.
(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 4/1947.

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الصَّاعقة والعَذاب والنَّار والمَوت:

الصَّاعقةُ مرادةٌ في الآية بوصفها سببًا لأصناف العذاب الأخرى

ذكرَ البيانُ الإلهيُّ الصَّاعقَةَ، ولم يذكرْ أيًّا من المفرداتِ السَّابقة، وهي وإن كانتْ تحُلُّ محلَّها، لكنَّ سياقَ النَّصِّ القُرآنيِّ في الآيةِ الكريمةِ أرادَ أنْ يذكرَ المُؤثِّرَ لا الأثَر، والسَّببَ لا المسبَّب، فالموتُ والعذابُ والنَّارُ هي تأثيراتٌ للصَّاعقة[1]، ويمكنُ أنْ تحصُلَ جميعُها مع بعضِها، فتُصيبُ الإنسانَ النَّارُ المُحرقةُ الَّتي تُسبِّبُ العذابَ ثمَّ الموت، أوْ تحدُثُ كلُّ واحدةٍ مُنفرِدَة، فالسِّياقُ ذكرَ الأساسَ وهو الصَّاعقةُ، وهي الصَّوتُ الشَّديدُ من الجوِّ الَّذي يكونُ منها النَّارُ أوِ العذابُ أوِ الموتُ أوْ جميعُها مُتلاحقةً - كما تقدَّم - لِيُصيبَ القلوبَ ذلكَ الخوفُ الهالِع، والجَزَعُ الخالِع، لما أنَّ اليهودَ طَغَوْا في ظُلمِهم، وسَدَرُوا في غَيِّهم، وتكبَّروا وتعنَّتوا، فلم يَرْعَوُوا، ولم يَتوبُوا.

(اتَّخذ) و(أَخَذ) و(عَبَد):

اليهودُ افْتعَلوا أَخْـذَ العِجْلِ للعبادة، ولم يعبدُوه مباشرةً

الاتِّخاذُ: أخذُ الشَّيء لأمرٍ يستمرُّ فيه، مِثْل: الدَّارِ يتَّخذُها مَسْكنًا، والدَّابَّةُ يتَّخذُها قَعْدَة، ويكونُ الاتِّخاذُ التَّسميةَ والحُكْم، ومنه قولُه تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً﴾ [الفرقان: 3]، أي: سمَّوْها بذلك، وحكَموا لها به، وكما في الآيةِ الَّتي معنا: ﴿ثُمَّ ٱتَّخَذُواْ ٱلْعِجْلَ﴾.

الأخذُ: مصدرُ أخذتُ بيدي، ويُستَعار، فيُقالُ: أخذَه بلسانِه؛ إذا تكلَّم فيه بمكروه، وجاءَ بمعنَى العذابِ في قولِه تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ﴾ [هود: 102]، وقولِه تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ﴾ [المؤمنون: 41][2].

والعبادةُ: مصدرُ (عَبَدَ)، وهي غايةُ الخُضوع، ولا تُستحَقُّ إلَّا

(1) الرَّاغب، المفردات، ص: 485.

(2) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 29.

بغايةِ الإنعام، ولهذا لا يجوزُ أنْ يُعبَدَ غيرُ اللّه تعالى، ولا تكونُ العبادةُ إلَّا معَ المعرفةِ بالمعبود[1].

والسِّياقُ القرآنيُّ في الآيةِ الكريمةِ اسْتخدمَ فعلَ ﴿ٱتَّخَذُواْ﴾ - وهو الأَلْيَقُ بالسِّياق - الَّذي هو افْتعالٌ من الأَخْذ، فاليهودُ افْتعَلوا أَخْذَ العِجْلِ للعبادة، ولم يعبدُوه مباشرةً إلَّا بعدَ أنْ سوَّلَ لهمُ السَّامريُّ، ونزَغَ في قلوبِهم أنَّ هذا العجلَ هو إلهُهُم، كما أوضحَ بيانُ اللّه ذلكَ في قولِه تعالى: ﴿قَالَ فَإِنَّا قَدۡ فَتَنَّا قَوۡمَكَ مِنۢ بَعۡدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ ٨٥﴾ [طه: 85]، وقولِه تعالى: ﴿قَالُواْ مَآ أَخۡلَفۡنَا مَوۡعِدَكَ بِمَلۡكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلۡنَآ أَوۡزَارٗا مِّن زِينَةِ ٱلۡقَوۡمِ فَقَذَفۡنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلۡقَى ٱلسَّامِرِيُّ ٨٧ فَأَخۡرَجَ لَهُمۡ عِجۡلٗا جَسَدٗا لَّهُۥ خُوَارٞ فَقَالُواْ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمۡ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ ٨٨﴾ [طه: 87 - 88]. وقولِه تعالى: ﴿قَالَ فَمَا خَطۡبُكَ يَٰسَٰمِرِيُّ ٩٥ قَالَ بَصُرۡتُ بِمَا لَمۡ يَبۡصُرُواْ بِهِۦ فَقَبَضۡتُ قَبۡضَةٗ مِّنۡ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذۡتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتۡ لِي نَفۡسِي ٩٦﴾ [طه: 95 - 96].

السُّلطان والبُرهان:

البُرهانُ: إظهارُ صحَّةِ المعنَى وإفسادُ نقيضِه[2]، والسُّلطانُ: إظهارُ ما يتسلَّطُ به على نَقيضِ المعنَى بالإبْطال[3]، وهو الحُجَّة، حتَّى أنَّها سُمِّيتْ به، كما في الآيةِ: ﴿سُلۡطَٰنٗا مُّبِينٗا﴾ أي: حُجَّةً واضِحة.

في السُّلطان إبطالٌ لكلِّ ما يُناقِضُ المعنَى الحقَّ في دعوى اليهود في العِجْل

ولذلكَ اسْتعمل سياقُ الآيةِ الكريمةِ كلمةَ (سُلطانًا) بدلَ (بُرهانًا)؛ لأنَّ فيه إبطالًا لكلِّ ما يُناقِضُ المعنَى الحقَّ، ممَّا ادَّعاهُ اليهودُ في العِجْل، فكانَ أنْ آتَى اللّه موسى عليه السلام الحُجَّةَ المبيِّنة، قالَ جلّ جلاله: ﴿أَفَلَا يَرَوۡنَ أَلَّا يَرۡجِعُ إِلَيۡهِمۡ قَوۡلٗا وَلَا يَمۡلِكُ لَهُمۡ ضَرّٗا وَلَا نَفۡعٗا ٨٩﴾ [طه: 89]، وقالَ عزّ وجلّ: ﴿وَٱنظُرۡ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِي ظَلۡتَ عَلَيۡهِ عَاكِفٗاۖ لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِي ٱلۡيَمِّ نَسۡفًا ٩٧ إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ وَسِعَ كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمٗا ٩٨﴾ [طه: 97 - 98].

(1) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 349.
(2) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 108، والجرجاني، التَّعريفات، ص: 35.
(3) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 108، والكفوي، الكليَّات: 3/3.

السلطانُ قدرةٌ، وقـوَّةٌ، وسلطةٌ وقد وهبها الله موسى عليه السلام

والسَّلطان: هو القدرة، وهو السَّلطة، وقد أعطى الله ﷻ موسى عليه السلام القوَّة التي تدفع الباطل، وتزيل المضلَّل، فأعطاه المعجزات الباهرات البيِّنة الواضحة الَّتي تبيِّن الحقَّ، وتزيلُ الشُّبهة، وأعطاه القوَّة التي غلب بها فرعون طاغية الدُّنيا في عصره[1]، وليس شرطًا في البرهان أن يضمن معنيي القدرة والقوة، فهو إظهارٌ للحجَّة بهما أو بدونهما، بخلاف لفظ السُّلطان المقترن بهما ملازمة، وذلكم وجهٌ في إيثاره في قوله: ﴿وَءَاتَيۡنَا مُوسَىٰ سُلۡطَٰنٗا مُّبِينٗا﴾ على غيره.

(لا تَعْدُوا) و (لا تَتَجاوزوا):

اليهود تجاوزوا حـــدودَهـــم، وارتـكـبُـوا كـلَّ شنيعةٍ، وظلم

جازَ الموضعَ: سَلَكه وسارَ فيه، وأجازَه: خَلَّفَه وقَطَعَه، والمجازُ من الكلام: ما تجاوزَ مَوضِعَه الَّذي وُضِعَ له، والحقيقةُ مالم يتجاوزْ ذلك، وأجازَ له، أي: سوَّغَ له ذلك[2]، فالتَّجاوز تعدٍّ للشَّيء من غير اعتداء، أو عدوان.

أمَّا ﴿تَعۡدُواْ﴾؛ فهي بمعنَى: الاعْتداء، أي: مجاوزةُ الحقِّ[3]، ولذلكَ وردتْ في سياقِ العِصيانِ للّه ورسوله، والعاقبة الوَخَيْمَة، كما قالَ تعالى: ﴿وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدۡخِلۡهُ نَارًا خَٰلِدٗا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٞ مُّهِينٞ ١٤﴾ [النِّساء: 14].

وقدْ تعدّى اليهودُ حدُودَ اللّه ورسولِه، وتَحايَلوا على أوامرِ اللّه، فَجاوَزوا الحقَّ، وطَغَوْا، وبَغَوْا، وهذه المعاني أَلْصَقُ بالسِّياقِ القُرآنيِّ وأوْفَى بالْمُرادِ منه، ممَّا لا تَفي به كلمةُ (التَّجاوز) الَّذي قد يكونُ بالخيرِ، أو بالشَّرِّ.

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 4/1946.
(2) الرَّاغب، المفردات، ص: 212، والرَّازي، مختار الصِّحاح: (جَوَزَ).
(3) الرَّاغب، المفردات، ص: 554، والفيروزآبادي، القاموس: (عَدَا).

﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ
بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا
يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا
﴿١٥٦﴾ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا
قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى
شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا
﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾ وَإِن مِّنْ أَهْلِ
ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ
شَهِيدًا ﴿١٥٩﴾﴾ [النساء: 155 - 159]

❁ مُناسَبَةُ الآياتِ لِمَا قَبْلَها:

لمّا ذَكَر الآياتِ الّتي تدُلُّ على تعنّتِ أهل الكتابِ ومُطالبتهم بأشياءَ على سبيل العناد والإلحاد، وأخذ الله منهم عَهدًا مُؤكَّدًا على أخذ التّوراة بقوّة، والعملِ بها، عقّب ذلك بالآيات الّتي تُبيّن ما حلّ بهم من عقاب الله وغضَبه وطرْدِهم من رحمته، وأهمِّ الأسبابِ الموجِبَةِ لذلك من نقْضِ الميثاقِ الّذي أخَذَه الله عليهم، وكُفْرِهم بآيات الله الدّالّة على صدقِ أنبيائِه، وقتْلِهم الأنبياءَ بغَير ذَنْب، وقولِهم: قلوبُنا مغَلّفةٌ فلا يَصِلُ إليها شيءٌ من دعوةِ الأنبياء، وكُفْرِهم بعيسى عليه السلام والإنجيلِ، واتّهامِهم السّيّدةَ مريمَ البتولَ بالفاحشة، وزعْمِهم أنّهم قتَلوا عيسى بنَ مريمَ عليه السلام، وهذه كلُّها فظائعُ سبَّبَتْ لهم الطّرْدَ منْ رحمةِ الله والطَّبْعَ على القلوبِ.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿غُلْفٌۢ﴾: أصْل الغُلف غِشْيَانُ شَيءٍ لِشَيءٍ، وتَغطِيته بغطاء يحجبُه ويحجبُ عنه ما حوله، وغُلْف: جمع أغْلَف، ومعناه: قلوبُنا مغطّاة عمّا تدعونا إليه فلا نفهَمُه، كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ﴾ [فصّلت: 5].

أو غُلْف جمع غِلاف وأصْله غُلُف، فخفّف وسطُه بتسكين اللّام، ومعناه: أنّهم قالوا: قلوبُنا أوعيةٌ للعلم لا تَسمع علمًا إلّا وَعَتْه إلّا ما تقولُه، أي كأنهم يرون أنّ ما يقُولُه النبيُّ ﷺ ليس بعِلْم[1].

2) ﴿طَبَعَ﴾: الطَّبْعُ: أن تُصَوِّر الشّيء بصورةٍ مّا، وهو الأثرُ الحاصلُ عن نقش، كَطَبْعِ الدّراهم بالسّكّةِ، وهو أعمُّ من الخَتْم وأخصّ من النّقْش؛ يقال: "خَتَمْتُ كذا" في الاستيثاق من الشّيء والمنْع منه؛ نظرًا إلى ما يحصل من المنْع بالخَتْم على الكتُب والأبواب، ويقال: طبَعَ اللّه على قَلْب الكافر؛ أي: خَتَمَ عليه فلا يَعي وعظًا، ولا يُوَفَّق لخيرٍ[2].

3) ﴿بُهْتَنًا﴾: أصل البُهت: الدَّهَش والحَيرة لشدّةٍ أو قهْر، والبُهتانُ: الافتراءُ والكذِبُ الّذي يُبهَت منه سامعُه فظاعةً وشَناعةً، ويُتَحَيَّرُ من عِظَمِه؛ يُقال: قد بَهَتَ فلانٌ فلانًا إذا كَذَبَ علَيه، وقد بُهِت الرّجُلُ يُبْهَتُ إذا تَحَيَّر[3]. والمعنى هنا: افتراء اليهود على مريم بما نسبوه إليها من الزنى.

4) ﴿صَلَبُوهُ﴾: الصَّلْبُ: هو تعليقُ الإنسانِ للقَتْل، والصَّليبُ: أصْله الخَشَب الّذي يُصْلَبُ عليه. وأصْل الصَّلب شدّة الشّيء وقوّته وتماسُكه، والصُّلْب هو الشّيء الشّديد، والصَّلابة: الشِّدّة، ومنه صُلْب الرّجل وهو ظَهره، ولقوّته قالوا: ظاهَرَه إذا عاوَنَه كأنّه ساعَدَه بأقوى ما فيه وأشَدِّه.

وسمّي الظَّهر صُلبًا لأنّه يَخرجُ منه ما يُشْبه الصّليبَ، وهو الوَدَك، ومنه سُمِّي المصْلوبُ مصْلوبًا لِما يسيلُ من وَدَكِه عند صَلْبه؛ أو لأنّه يُشَدُّ صُلْبُه على الخَشَب غالبًا[4].

5) ﴿شُبِّهَ﴾: أي: مُثِّلَ، وأصل الشَّبَه: تقارُبٌ في اللّون والشّكْل الظّاهر، ويقال: شِبْهٌ وشَبَهٌ وشَبيهٌ نحو مِثْل ومَثَل ومَثيل؛ وحقيقتُها في المماثلة من جهة الكَيفيّة، كاللّون والطّعم، وكالعَدالة والظّلم. والشُّبْهَةُ: ما يُخيّل للإنسانِ أنّه الحَقيقَةُ والأمرُ بخلافها، بأنْ لا يتَميّز أحدُ الشّيئَين من الآخر لما بَينَهما من التّشابه، عَينًا كان أو معنًى[5].

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والراغب، المفردات، والسّمين، عمدة الحفّاظ، جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (غلف)، والرّاغب، تفسير الرّاغب: 1/256 - 257.

(2) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 1/89، والسّمين، عمدة الحفّاظ: (طبع).

(3) الزّجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 2/103، وابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، والسّمين، عمدة الحفّاظ، جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (بهت)، والرّاغب، تفسير الرّاغب: 4/217.

(4) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، والسّمين، عمدة الحفّاظ، جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (صلب).

(5) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، والسّمين، عمدة الحفّاظ، جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (شبه).

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

لعَنَ اللّه أهل الكتاب، وغضِبَ عليهم، بسبب نقضِهم للميثاق الّذي واثَقَهم اللّه به؛ فأحلّوا ما حرّمه عليهم، وحرّموا ما أحلّه لهم، وبكفرِهم بآيات اللّه وحُجَجِه الدّالَّة على صدق أنبيائه، وكفرِهم بمحمّد خاتمِ النّبيّين ﷺ، وقتلِهم الأنبياء الّذين أُرسلوا لهدايتهم، وقولِهم قلوبُنا في غلافٍ؛ فلا يصل إليها شيءٌ ممّا جاء به الرّسولُ ﷺ ولا يؤثّر فيها، أو هي أوعيةٌ مليئةٌ بالعلم فليسَتْ في حاجة إلى شيءٍ جديدٍ منه؛ وليس الأمرُ كما زعموا، بل طمسَ اللّه على قلوبهم بكفرهم، وختَم عليها؛ فلا يصلُ إليها نورُ الهدى والإيمان، فلا يؤمن إلا القليل منهم؛ كعبد اللّه بن سَلامٍ وأمثالِه.

وكذلك لعنهم اللّه بسببِ كفرِهم بعيسى والإنجيلِ، ورمْيهم مريمَ البتولَ الطّاهرةَ بما نسبوه إليها من الزِّنى، وهي بريئة منه، وبادّعائهم أنّهم قتلُوا المسيحَ عيسى بنَ مريمَ رسولَ اللّه، ووصْفِهم لعيسى عليه السلام بالرّسالة تهكّمًا به، والقرآنُ وصَفَه بأنّه ابنُ مريم رسولُ اللّه للرّدّ على من يزعم أنّه الإلهُ أو ابنُ الإله، تعالى اللّه عما يقولون علوًّا كبيرًا.

وما قتلوا عيسى وما صَلبوه على زعمِهم الفاسد، بل صلبوا رجلًا شبيهًا به ظنًّا منهم أنه هو.

وإنّ الّذين اختلفُوا في شأن عيسى من أهل الكتاب لفي شكٍّ منه وحَيْرة، أهو المصلوبُ أم غيرُه؟ ما لهم من علمٍ قاطعٍ بقَتْله، لكنّهم يتّبعون الظّنَّ والشّكَّ في أمره.

وعيسى عليه السلام - في قول جمهور المفسّرين - رفَعَه اللّه إلى السّماء بروحِهِ وجسَدِه، وخلَّصه من الذين كفروا، وسيَنزل آخرَ الزّمان، يَحكمُ بالقُرآن، ويَقتُلُ الخِنزير، ويَكسِرُ الصّليب، كما ثبت في الصّحيحين[1]، وكان اللّه - ولا يزال - عزيزًا لا يُغالَب أبدًا، فهو الّذي أنقَذَ عيسى عليه السلام من كَيْد اليهود، وعصَمَ مُحمّدًا ﷺ من النّاس جميعًا، حكيمًا في كلِّ أمر.

وما من أحدٍ من أهلِ الكتابِ المعاصرينَ لنزول عيسى عليه السلام آخِرَ الزّمان إلّا لَيؤمِننّ به

(1) لفظ الحديث: «وَالَّذي نَفْسي بِيَدِه، لَيوشِكَنَّ أَنْ يَنْزِلَ فِيكُمْ ابْنُ مَرْيَمَ حَكَمًا مُقْسِطًا، فَيَكْسِرَ الصَّليب، وَيَقْتُلَ الخِنْزير، وَيَضَعَ الجِزْيَة، وَيَفيضَ المَالُ حَتّى لا يَقْبَلَهُ أَحَدٌ»، أخرجه البخاري، الحديث رقم: (2222)، ومسلم، الحديث رقم: (155).

إيمانًا صحيحًا قبْلَ موتِ عيسى، أو قبْلَ موتِ ذلك الكتابيِّ، ويومَ القيامةِ يكونُ عليهم شَهيدًا، يَشْهَدُ بإيمانِهم به أو بكفرِهم به.

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالة الباء و(ما) في: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم﴾:

الباءُ للسَّببيّة و(ما) للتأكيد والتّهويل والتعظيم

قوله تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ﴾: الفاءُ للاستئناف، ووجهُ الاستئناف كما بيّنه الطّبريّ أَنَّ الَّذينَ أَخَذَتهُمُ الصّاعِقَةُ إنَّما كانوا عَلى عَهدِ موسى، والَّذينَ قَتَلوا الأَنبياءَ والَّذينَ رَمَوا مَريَمَ بِالبُهتانِ العَظيمِ وقالوا: قَتَلنا المَسيحَ، كانوا بَعدَ موسى بِدَهرٍ طَويلٍ، ولَم يُدرِكِ الَّذينَ رَمَوا مَريَمَ بِالبُهتانِ العَظيمِ زَمانَ موسى ولا مَن صُعِقَ مِنْ قَومِهِ[1].

والباءُ حرفُ جرٍّ يفيدُ السّببيّةَ؛ أي: فبسببِ نقضِهم ميثاقَهم... و(ما): صلة[2] تفيدُ التّأكيدَ؛ أي: فبنقضهم، أو أنّها نكرةٌ تامّةٌ بمعنى شيء[3]؛ فتفيدُ التّهويلَ والتّعظيمَ، بدلالة إبهامها، كأنّه لا توجدُ كلمةٌ تعبّر عن عِظَمِ وهول اللّعن النّاشئ عن عِظَمِ وهولِ نقضِهم الميثاقَ الغليظَ الذي أُخِذَ منهم.

الإيجازُ في حذفِ متعلّق الجار والمجرور في: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ﴾:

عِظَمُ العقوبةِ وتَهويلُها

متعلّق الجارّ والمجرور محذوفٌ تقديره: لَعَنّاهُمْ وسَخِطنا عَلَيهِم، والحَذفُ أَفخَمُ لأَنَّه عِندَ الحَذفِ يَذهَبُ الوهمُ كُلَّ مَذهَبٍ، ودَليلُ المَحذوفِ أَنَّ هَذِهِ الأَشياءَ المَذكورَةَ مِن صِفاتِ الذَّمِّ فتدُلُّ عَلى

(1) ابن جرير، جامع البيان: 7/648.

(2) أطلق عليها سيبويه اسم الزّيادة من حيث زال عملها، ينظر: ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 1/533. من مصطلحات النّحاة قولهم في بعض كلمات القرآن: زائدٌ، أو يقولون: لغوٌ على مصطلح البصريّين، أو يقولون: صلة أو يقولون: حشو على مصطلح الكوفيّين، هذه المصطلحات الّتي أطلقوها تتعلّق بقضيّة الإعراب، ولا تتعلّق بقضية المعنى، أي: لا تتعلّق بالإعراب التّفسيريّ وإنّما بالإعراب الصّناعيّ، بمعنى الرّفع والنّصب والخفض، وما سبب ذلك، وهو قضيّة تأثير العوامل في المعمولات، فهم يقولون: زيادة أو لغو أو حشو أو صلة، لأنّ العامل قبلها يتطلّب المعمول بعدها، وهي لا تأثير لها فيه، ينظر: الإعجاز اللغويّ في القرآن الكريم، جامعة المدينة، ص: 381.

(3) النيسابوري، إيجاز البيان: 1/260.

اللَّعنِ[1]، وقد جاء المحذوفُ مصرَّحًا به في آية أخرى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ﴾ [المائدة: 13]. وهذا فيه إيجازٌ بالحذف. وإنّما تَرَكَ ذِكرَ (لَعَنّاهُمْ) لِدَلالَةِ قَولِهِ: ﴿بَل طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾ عَلى مَعنى ذَلِكَ؛ إذْ كانَ مَنْ طُبِعَ عَلى قَلبِهِ فقَد لُعِنَ وسُخِطَ عَلَيهِ[2]؛ ولأَنَّ تِلكَ الجِناياتِ المَذكورَةَ بعد قوله تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ﴾ عَظيمَةٌ جِدًّا؛ لِأَنَّ كُفرَهُم بآياتِ اللّه، وقَتلَهُمُ الأَنبياءَ، وإنكارَهُمْ لِلتَّكليفِ بِقَولِهِمْ: ﴿قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ﴾ أَعْظَمُ الذُّنوبِ، وذِكرُ الذُّنوبِ العَظيمَةِ إنَّما يَليقُ أَنْ تُفَرَّعَ عَلَيهِ العُقوبَةُ العَظيمَةُ[3].

وذهب صاحبُ الكشّاف إلى أنّ (ما) أفادت الحصرَ زيادةً على معنى التّوكيدِ؛ أي: ما لعنّاهُم إلّا بسببِ نقضِهم ميثاقَهم، وما عطف عليه من الكفرِ وقتْلِ الأنبياءِ وغيرِ ذلك، والحقُّ أنّها مؤكّدَةٌ، أمّا معنى الحصرِ فهو مسْتَفادٌ من تقْديمِ الجارّ والمجرورِ على العامل، لا من زيادةِ (ما)؛ فقدّم نقضَ الميثاقِ والكفرَ بآياتِ اللّه، وقتلَ الأنبياءِ لإفادةِ الحَصْر[4].

و﴿مِّيثَٰقَهُمْ﴾: عُهودهُمُ الَّتي عاهَدوا اللّه أَنْ يَعمَلوا بِما في التَّوْراةِ[5]، وفيها أنّ اللّه ﷻ أخذ عليهم الميثاق في أنْ يُبَيّنوا ما أنْزل عليهم من ذكْر النّبيِّ ﷺ وغيره، قال اللّه ﷻ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ﴾ [آل عمران: 187][6].

دلالةُ العطفِ بالواو في قوله: ﴿وَكُفْرِهِم﴾:

الاتّصافُ بكلّ واحدةٍ من المتعاطفاتِ واجتماعُها في الموصوفين بها

﴿وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾: آياتُ اللّه: حُجَجُه وبَراهينُه، من الكتُب والمُعجزاتِ الَّتي شاهَدوها عَلى أَيدي الأَنْبياءِ[7] عليهم السلام.

والعطفُ بالواو في ﴿وَكُفْرِهِم﴾ ﴿وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ﴾، ﴿وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ﴾، ﴿وَبِكُفْرِهِمْ﴾، ﴿وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ﴾، ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا﴾ لإفادةِ اتّصافِهم بكلٍّ من تلك الأوصافِ استقلالًا وقصدًا،

(1) الرازي، مفاتيح الغيب: 11/258.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 7/648.
(3) الرازي، مفاتيح الغيب: 11/258.
(4) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/431، 585، والطّيبيّ، فتوح الغَيب: 4/321، والسّامرائّي، معاني النحو: 3/102 - 103..
(5) ابن جرير، جامع البيان: 7/645.
(6) الزّجّاج، معاني القرآن: 2/127.
(7) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 2/447.

فكلٌّ واحدة منها بانفرادها مُوجبَةٌ للعقوبةِ ولحوقِ العذاب، فما ظنُّك بعقوبتها إذا اجتمَعَت[1].

وفي قوله: ﴿وَكُفۡرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ مجازٌ مرسلٌ؛ إذا حمَلنا الآياتِ على الكتُب السّماويّة؛ لأنّهم كفَروا بالقُرآن والإنجيل دون غيرهما.

بلاغةُ التّعبيرِ بالمصدَرِ في قوله: ﴿وَقَتۡلِهِمُ ٱلۡأَنۢبِيَآءَ بِغَيۡرِ حَقّٖ﴾:

هذا الصَّنيعُ من إجرامِهم واجترائهم على مقامِ الأنبياءِ الكرامِ عليهم السلام، وعبّر بالمصدر (قَتْل)؛ ليدلَّ على أنّ الاجتراءَ على القتْلِ صار لهم خُلُقًا وصِفَةً راسخةً، بخلاف التّعبير بالمضارعِ ﴿وَيَقۡتُلُونَ﴾ [البقرة: 61]، [آل عمران: 21، 112] الّذي ربّما دلّ على العُروض[2].

ثبوتُ جريمةِ القتلِ عليهم، وتأصُّلُها في أخلاقِهم السّيئةِ

سرُّ التّعبيرِ بجمعِ الكثرة ﴿ٱلۡأَنۢبِيَآءَ﴾:

جاء بجمع ﴿ٱلۡأَنۢبِيَآءَ﴾ هنا وفي سورة آل عمران آية: (112) بصورة جمْع الكثرة – وقد جاء في سورة البقرة آية: 61، وآل عمران آية: 21، بصورة جمْع القلّة ﴿ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ – لِيدلّ على كَثرَةِ إجرامِهم واجترائِهم عَلى أَنبياءِ اللّه، فإنَّهُم قَتَلوا جمعًا غَفيرًا مِنَ الأَنبياءِ عليهم السلام بِغَيرِ حَقٍّ[3].

كثرةُ جرائِمِهم مع الأنبياءِ واجترائِهم على مقامِهم

نكتةُ المجازِ المُرسلِ لعلاقةِ الكليّة:

وفي ﴿وَقَتۡلِهِمُ ٱلۡأَنۢبِيَآءَ﴾ مجازٌ مرسلٌ؛ حيث أُطلِقَ الكلُّ وأريدَ البعضُ؛ لأنَّ من اجْتَرَأ على قتْل نبيّ اجْتَرأ على قتْل سائِرِ الأنبياء.

وفيه إشارَةٌ إلى كراهيةِ الخير وسدِّ باب الإيمان عنهم وعن غيرهم؛ لأنّ الأنبياءَ سببُ الإيمان، وفي محوِ السّببِ محوُ المسبَّب[4].

تهويلُ القتلِ وشناعته، فقتْلُ بعضِ الأنبياءِ كقتلهم جميعًا

(1) الآلوسّي، روح المعاني: 1/154.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرَر: 2/349.
(3) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 2/447.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرَر: 2/349.

فائدةُ قوله: ﴿بِغَيْرِ حَقٍّ﴾، ونفي مفهومِ المُخالَفَةِ[1]:

الإشـــارةُ إلى شناعَةِ أفعالِهم وما بلغوه من الظلم

وقوله: ﴿بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ ليس قيدًا؛ لأنّ قتْل الأنبياءِ لا يمكن أن يكونَ بحقٍّ أبدًا، وإنّما قال ﴿بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ للإشارةِ إلى شناعةِ أفعالهم، وعِظَم شرّهم، وأنّهم قد بلغُوا الغايةَ في الظّلم والفجور والتّعدّي، وفعلوا ما فعلُوا إرضاءً لأحقادِهم وأهوائهم، وأنّهم لا يبالُون أكان فعلُهم حقًّا أم باطلًا. وقد أشار صاحبُ الكشّافِ إلى هذا المعنى بقوله: "فإن قلتَ: قتْلُ الأنبياءِ لا يكون إلّا بغير الحقّ فما فائدةُ ذكره؟ قلتُ: معناه أنّهم قتلوهم بغير الحقّ عندهم، لأنّهم لم يَقتُلوا ولا أفسدُوا في الأرض فيُقتَلوا، وإنّما نَصَحُوهم ودَعَوْهم إلى ما ينفعُهم فقتلوهم، فلو سُئِلُوا وأنصَفوا من أنفسهم لم يَذكروا وجهًا يستَحِقّ به الأنبياءُ القَتْل عندهم"[2].

سرُّ اختصاصِ تنكير كلمةِ ﴿حَقٍّ﴾:

الزّيادةُ في ذمِّهم وتبشيعُ فعلهم

وتنوين ﴿حَقٍّ﴾ للتّنكير ليشملَ أيَّ حقٍّ كبيرٍ أو صغيرٍ؛ لأنّ الأنبياءَ معصومُون من كلّ نقيصَةٍ، ومُبرَّؤون من كلّ دَنِيّةٍ، فلا يتوجّهُ عليهم حقٌّ لا يُؤدّونه[3].

وجاءت كلمةُ ﴿حَقٍّ﴾ هاهنا وفي آل عمران [آل عمران: 21، 112، 181] نكرةً عامّةً، وفي سورة البقرة ﴿ٱلْحَقِّ﴾ [البقرة: 61] معرّفةً معلومةً؛ فكلمةُ ﴿ٱلْحَقِّ﴾ المعرّفةُ في آية البقرة تدلُّ على أنّهم كانوا يقتلُون الأنبياءَ بغير الحقّ الّذي يدعُو إلى القتل، والحقُّ الّذي يدعو إلى القَتْل معروفٌ معلومٌ.

وأمّا النّكرةُ فمعناها أنّهم كانوا يقتلُون الأنبياءَ بغير حقٍّ أصلًا،

(1) مفهوم المخالفة: ما دلّ عليه اللّفظ في غير محلّ النُّطق، ينظر: ابن الحاجب، مختصر في الأصول، ص: 142، والشوكاني، إرشاد الفحول: 2/36.

(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/146.

(3) البقاعيّ، نظم الدّرَر: 2/349.

لا حَقَّ يدعُو إلى قتْلٍ ولا غيره؛ أي: ليس هناك وجهٌ من وجوهِ الحقّ الّذي يدعو إلى إيذاءِ الأنبياء فضلًا عن قتْلِهم.

والقصدُ من التّنكير الزّيادةُ في ذمِّهم وتبشيعِ فعلهم أكثر ممّا في التّعريف؛ وذلك لأنّ التّنكيرَ معناه أنّهم قتلوا الأنبياءَ بغير سببٍ أصلًا؛ لا سببَ يدعو إلى القتل ولا غيره، فمقامُ التّشنيع والذَّمّ هاهنا أشدُّ وأكبرُ منه هناك، وكلاهما شنيعٌ وذميمٌ، وهو موافقٌ لسياقِ الآياتِ، فكان التّنكيرُ أَلْيَقَ في سياق الآيات الثلاث في آل عِمرانَ وآية النّساءِ، والتَّعريفُ أليقَ في آيةِ البقرة[1].

وجهُ البلاغةِ في وصفِ القلوب بالغُلفِ:

التيئيسُ من إيمانهم والاستهزاء من توجيه الدَّعوة لهم

في قوله: ﴿وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۚ﴾ كناية عن عدم قبولهم دعوة الأنبياء عليهم السلام، فعَبّرَ بالغلافِ عن عدمِ العلم والفهم، وإجابتهم هذه للنّبيّ ﷺ إمّا تيئيسًا له من إيمانهم به واستجابتهم له، وإمّا استهزاءً بتوجيه الدّعوة إليهم.

و﴿غُلْفٌۚ﴾ فيها وجهان:

الأوّل: ﴿غُلْفٌۚ﴾ بسكون اللّام، جمع (أَغْلَف) كأحمر وحُمْر وأصفر وصُفْر، والمعنى على هذا: لا ذنْب لنا؛ لأنّ قلوبنا خُلِقَتْ وجُبِلت مُغَشَّاةً، لا يَصِلُ إليها الحقُّ، استعارةً من الأغلف الّذي لم يُخْتَنْ[2].

وهذه فريةٌ عظيمةٌ على الله ﷻ، واتّهامٌ له بالظّلم؛ إذ يرون أنّ الله هو الذّي خلقها مغشاةً بأغطيةٍ، مطبوعًا عليها؛ لذلك لا يصل إلى قلوبهم ما جاء به النّبيّ ﷺ ولا تفقهُ قلوبُهم ما جاء به أنبياءُ الله.

وهذا كقوله تعالى حكاية عن أمثالهم: ﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ﴾ [فصّلت: 5]، وذلك أنّ الأهواءَ إذا سيطرت على القلوب

(1) السّامرّائي، أسرار البيان في التعبير القرآني.
(2) السّمين، الدّرّ المصون: 1/500.

سدّت مسامعَ الإدراكِ الصّحيح، فتَكون لهم قلوبٌ لا يفقهون بها؛ لذلك جاءهم الرّدّ والتّكذيب من اللّه تعالى بقوله: ﴿بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾، واللّه خلقَ قلوب النّاس على الفطرة، فيها قابليّة الخير وقابليّة الشّرّ، و«كلٌّ ميسّرٌ لما خُلق له»[1].

والثّاني: غلُف بضمِّ اللّامِ وهو جمع (غِلاف)، ويكونُ أصلُ اللّامِ الضّمَّ فخُفِّفَ نحو: كتاب وكُتُب، وبها قرأ ابن عبّاس، والمعنى على هذه القراءة أنَّ قلوبَنا أوعيةٌ للعلمِ فهي غيرُ محتاجةٍ إلى علمٍ آخر، والتّغليفُ كالتّغشِيَة في المعنى[2]. وهو تشبيهٌ بليغٌ، صوّروا قلوبهم بأوعية وُضع عليها غلاف مُحكَم يمنع أن يُخرجَ العلمَ، ويَمنع أن يُدخِل إليه غيره، استكبارًا منهم وتزكيةً لأنفسهم؛ إذ يرون أنّهم وصلوا إلى مرتبة من العِلْمِ لا يحتاجون فيها إلى علم النّبيّ ﷺ، وما يجيء به من وحي السّماء.

دلالةُ الإضرابِ، وبلاغةُ الردّ:

إضرابٌ عن قبولِ اعتذارِهم

ردّ اللّه على اليهود وكذَّبهم بأن تكون قلوبُهم مخلوقةً غير قابلة للحقِّ كما ادّعَوا؛ لأنّه خلقها على الفطرة والتّمكّن من قبول الحقّ[3]، فهُم الّذين اختاروا الكفرَ على الإيمان، فقال: ﴿بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾.

و﴿بَلْ﴾ حرفُ إضرابٍ وعطفٍ؛ أي: ليس الأمرُ كما قالوا[4]؛ وهذا إضرابٌ عن قبولِ اعتذارهم، وردُّه عليهم بأنّ طبعَ اللّه على قلوبهم مجازاةً لهم على كفرهم.

وعلى المعنى الثّاني لـ﴿غُلْفٌۢ﴾ يكون الإضرابُ ردًّا لادّعاءِ العلم بالنّبوّات، لمَا أصابهم من غرور وكِبْر حجَبَهُم عن إدراك ما جاءت به الرّسالاتُ الإلهيّةُ، وما دعاهُم إليه خاتمُ النّبيّين سيّدُنا محمّدٌ ﷺ.

(1) جزء من حديث أخرجه البخاريّ، الحديث رقم: (4949)، ومسلم، الحديث رقم: (2647).
(2) السّمين، الدّرّ المصون: 1/501.
(3) الطِّيبي، فتوح الغَيب: 2/570.
(4) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 2/371.

سرُّ التَّعبيرِ بالطَّبعِ على القَلبِ:

إحكامُ إغلاقِهِ بحيث لا يدخلُ إليه خيرٌ ولا يخرجُ منه شرٌّ

الطّبعُ على القلبِ هو إحكامُ إغلاقِه؛ بحيث لا يدخلُ إليه خيرٌ ولا يخرجُ منه شرٌّ. واشتقاقُه إمَّا من الطَّبْعِ بتسكين الباءِ، ومن معانيه: الطّبْعُ والطَّبيعةُ: الخَليقةُ والسَّجيّةُ الَّتي جُبِلَ عَلَيها الإنسانُ. وطَبَعَ الدِّرهَمَ والسَّيفَ وغَيرَهُما يطْبَعُه طبْعًا: صاغَه. والطّبْعُ: الخَتمُ، وهُوَ التّأثيرُ في الطّينِ ونَحوِهِ[1].

وإمَّا من الطَّبَع بفتح الباءِ، وهُوَ تَلطيخُ القلْبِ بالأَدناس، وأَصلُ الطّبَع الصَّدَأُ يَكثُرُ عَلى السَّيفِ وغَيرِه... ثُمَّ استُعيرَ فيما يُشبِهُ ذَلِكَ مِنَ الأَوزارِ والآثامِ وغَيرِها مِنَ المَقابِحِ[2].

واشتقاقُها من الطَّبَع أَلْيَقُ، فيكون تشبيهُ قلوبِهم الفاسدةِ بالكفر بالحَديدِ الفاسدِ بالصَّدَأ.

العدولُ عن الظَّاهرِ (قُلُوبهم) إلى الضّمير (ها):

لتجنّبِ التّكرارِ، ولوُضوحِهِ

في قوله: ﴿عَلَيْهَا﴾ عدول عن الظّاهر (قلوبهم) إلى الضّمير (ها)، لتجنّب التّكرارِ ولوُضوحِهِ، وجملة: ﴿بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾ فيها إطنابٌ، جاءت اعتراضيّةً بين معطوفين، وهو إطنابٌ بليغٌ جيء به على وجهِ الاستطرادِ مسارعةً في الرّدّ عليهم.

والباء في ﴿بِكُفْرِهِمْ﴾ للسَّببيّةِ؛ أي: بسببِ كُفرِهم.

بلاغةُ التّعبيرِ في قوله: ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾:

استعمالُ القلَّةِ في معنى العَدَمِ

جاءت الفاءُ لترتيبِ ما بعدَها على ما قبلَها في قوله: ﴿فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾؛ أي: أنّه ترتّبَ على تغليفِ قلوبهم عن الحقِّ ألَّا يُؤمنوا بِهِ، و(لا) نافيةٌ، نفى عنهم الإيمانَ اعتبارًا بالحقائقِ، ثمّ أثبتَ لهم إيمانًا قليلًا، اعتبارًا بظاهرِ أقوالهم؛ حيث قالوا: نُؤمن ببعضٍ، لكنّ ذلك المقدارُ غيرُ مُعتدٍّ به[3].

(1) ابن منظور، لسان العرب: (طبع).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (طبع).
(3) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 4/217.

فتكونُ ﴿قَلِيلًا﴾ صفةً لمصدر محذوفٍ، تقديره: إيمانًا قليلًا، أو تكون صفة لظرفٍ محذوفٍ تقديرُه: زمانًا قليلًا، ودلالتُه على المصدر أقوى من دلالته على الزّمان.

ولا يجوزُ أن يكونَ منصوبًا على الاستثناءِ من فاعل ﴿يُؤْمِنُونَ﴾؛ أي: قليلًا منهم فإنّهم يؤمنون؛ لأنَّ الضّميرَ في ﴿فَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ عائدٌ على المطبوعِ على قلوبِهم، ومن طُبِع على قلبه بالكفر فلا يقعُ منه الإيمان[1]. ومن نظرَ إلى عَودِ الضّمير على اليهودِ عمومًا أجاز النّصبَ على الاستثناءِ؛ أي: إلّا قليلًا منهم قد آمنُوا كعبدِ اللّه بن سَلامٍ وأمثالِه. فتكون قِلَّةُ الإيمانِ كِنايَةً عَنْ قِلَّةِ أَصحابِه.

ويَجوزُ أَن يَكونَ ﴿قَلِيلًا﴾ هُنا مُستعمَلًا في مَعنى العَدَم؛ فَإِنَّ القِلَّةَ تُسْتَعمَلُ في كَلام العَرَبِ بمعنى العَدَم على ما حكى سيبويه من قولهم: أرضٌ قَلَّ ما تُنبِتُ كذا، وهي لا تُنبِتُه جملةً. والمعنى: فلا يُؤمِنونَ أَبَدًا فَهُوَ مِنْ تَأكيدِ الشَّيءِ بِما يُشبِهُ ضِدَّهُ.

بلاغةُ التّكرارِ في قوله: ﴿وَبِكُفْرِهِمْ﴾:

تنوُّعُ الكُفرِ حسبَ السِّياقِ

أعاد ذكرَ الكفرِ منسوبًا إليهم في هذه الآية: ﴿وَبِكُفْرِهِمْ﴾، بعد قوله في الآية السّابقة: ﴿وَكُفْرِهِم﴾، وقوله فيها: ﴿وَبِكُفْرِهِمْ﴾؛ لتكرُّر الكفر منهم وتعدّد مُتَعَلَّقاتِه؛ فإنّهم كفَرُوا بموسى عليه السلام، ثمّ كفَرُوا بعيسى عليه السلام، ثمّ كفَرُوا بمحمّدٍ ﷺ، فعطفَ بعضَ كفرِهم على بعض[2].

قال الآلوسي: "﴿وَبِكُفْرِهِمْ﴾ عطفٌ على ﴿وَكُفْرِهِم﴾ الّذي قبله، ولا يتوهّمُ أنّه من عطفِ الشّيءِ على نفسه ولا فائدةَ فيه؛ لأنّ المرادَ بالكفر المعطوفِ: الكفرُ بعيسى عليه السلام، والمرادَ بالكفر المعطوفِ عليه: إمّا الكفرُ المطلقُ، أو الكفرُ بمحمّد ﷺ لاقترانه بقوله تعالى: ﴿قُلُوبُنَا غُلْفٌۚ﴾، وقد حكى اللّه عنهم هذه المقالةَ في مواجهتِهم له ﷺ في مواضعَ، ففي العطفِ إيذانٌ بصلاحيّةِ كلٍّ من الكُفرين للسَّببيّةِ"[3].

(1) السّمين، الدّرّ المصون: 4/144.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/124.
(3) الآلوسّي، روح المعاني: 3/185.

ويجوزُ أن يكونَ قوله: ﴿وَبِكُفْرِهِمْ﴾ معطوفًا على قوله: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم﴾، وكرّرَ حرفَ الجرّ للتّأكيد.

سرُّ تَسمِيَةِ الرَّمي بالزّنى بهتانًا:

تبرئة الله تعالى للسّيّدة مريم عليها السلام من افتراءات الحاقدين

البُهتانُ: مصدرٌ من قولك بَهَتَه إذا قابَلَه بأمرٍ مُبْهِتٍ يَحارُ معه الذِّهْنُ، وهو رميٌ بباطل. والبُهْتانُ العَظيمُ رَميُهُم مَرْيَمَ عليها السلام وهي صفوةُ اللّه على نساءِ العالمين، بأمرٍ عظيم وهو الزِّنى: ﴿وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا﴾، مع رُؤيَتِهِمُ الآيَةَ في كَلامِ عيسى عليه السلام في المَهدِ، وقد عجزت عقولُهم عن إدراكِ قدرة اللّه على خلق إنسان من غير أبٍ[1].

ولَولا الآيَةُ لَكانوا في قَولِهِم جارينَ عَلى حُكمِ البَشَرِ في إنكارِ حَملٍ مِنْ غَيرِ ذَكَرٍ. ووُصِفَ بِالعِظَمِ لِأَنَّهُم تَمادَوا عَلَيهِ بَعدَ ظُهورِ الآيَةِ وقِيامِ المُعجِزَةِ بِالبَراءَةِ[2].

نكتةُ وصفِ البُهتانِ بالعِظَم:

كنايةٌ عن تبرئةِ السَّيّدَةِ مريمَ عليها السلام

قَد جاءَت التَّسمِيَةُ بـ "البُهتان العَظيم" كذلك في طَعن المُنافقينَ في السّيّدة عائِشَةَ رضي الله عنها، في حادثة الإفك، إذ قال تعالى: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾﴾ [النّور: 16]؛ وذَلِكَ يَدُلُّ عَلى أَنَّ الَّذينَ يَطعَنونَ في عائِشَةَ رضي الله عنها بِمَنزِلَةِ الّذين يطعنون في مريم[3] عليها السلام.

وفي تسمية اللّه لقولهم فيما حكاه عنهم: ﴿بُهْتَٰنًا عَظِيمًا﴾ كنايةٌ عن تبرئةِ اللّه تعالى للسّيّدة مريم عليها السلام؛ إذ البهتانُ رميٌ بالباطل والكذب، والمتّهمُ به بريءٌ منه، وقد جاء في حديث الغِيبَة: «إِنْ كانَ فيهِ ما تَقولُ، فَقَدِ اغْتَبْتَهُ، وإِنْ لَمْ يَكُنْ فيهِ فَقَدْ بَهَتَّهُ»[4].

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/125.
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/132.
(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/132، والرازي، مفاتيح الغيب: 11/259، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/125.
(4) مسلم، الحديث رقم: (2589).

التّفاخُرُ بالجريمةِ والاجتهادُ في تَحصيلِها

خروجِ الخبر إلى معنى الاستهزاءِ في قولهم: ﴿رَسُولَ ٱللَّهِ﴾:

﴿وَقَوۡلِهِمۡ إِنَّا قَتَلۡنَا ٱلۡمَسِيحَ عِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾، ﴿وَقَوۡلِهِمۡ﴾؛ أي: وبسببِ قولِهم هذا القولَ المؤْذِن بالجرأة على الباطلِ والاستهزاء بآيات اللّه.

وهذا إقرارٌ منهم بجريمةِ القتل، ويدلُّ على رغبتِهم في قتلِ - عيسى عليه السلام - واجتهادِهم في تحصيل ذلك، وهذه جنايةٌ منهم لأنّهم قتلُوا الّذي قتلوه - وهو المشبَّهُ به - على أنّه نبيّ[1]، وقد كذّبَهم اللّه في هذه الدّعوى فقال: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ﴾.

والمَسيحُ كانَ لَقَبًا لِعيسى عليه السلام لَقَّبَهُ بِهِ اليَهودُ تَهَكُّمًا عَلَيهِ؛ لأَنَّ مَعنى المَسيحِ في اللُّغَةِ العِبرِيَّةِ المَلِك[2]، وهُوَ لَقَبٌ قَصَدوا مِنهُ التَّهَكُّمَ، فَصارَ لَقَبًا لَهُ بَينَهُم. وقَلَبَ اللّه قَصدَهُم تَحقيرَهُ فَجَعَلَهُ تَعظيمًا لَهُ[3]. والمسيحُ معناه المباركُ، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيۡنَ مَا كُنتُ﴾ [مريم: 31]. وابنُ مريم: نسبُهُ، والمسيحُ لقبٌ، والابنُ صِفةٌ[4].

ووصفُهُ بالرّسالةِ، هل هو من تتمّةِ كلامِهم- مع كفرهم به - أم من كلامِ اللّه تعالى؟

الظّاهِرُ أَنَّ جملة ﴿رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ مِن قَولِهِم، قالوا ذَلِكَ عَلى سَبيلِ الاستِهزاءِ والتهكُّم، زعمًا منهم أنّه لو كان رسولًا لما قدَروا على قتلِه، وهذا الاستهزاءُ كَقَولِ اللّه تعالى حكايةً عن قول فِرعَونَ: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِيٓ أُرۡسِلَ إِلَيۡكُمۡ لَمَجۡنُونٌ ٢٧﴾ [الشّعراء: 27] وقَولِهِ حكاية عن قوم شُعَيبٍ له: ﴿إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلۡحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ٨٧﴾ [هود: 87]. ، وكَقَولِ كُفّارِ قُرَيشٍ لمحمّد ﷺ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِي نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ إِنَّكَ لَمَجۡنُونٌ ٦﴾ [الحِجر: 6].

ويَجوزُ أَنۡ يَكونَ مِن كَلامِ اللّه تَعالى، وَضَعَ الذِّكرَ الحَسَنَ مَكانَ ذِكرِهِمُ القَبيحِ في الحِكايَةِ عَنهُ رَفعًا لِعيسى عليه السلام، كَما كانوا يذكرونَهُ بِهِ[5].

---

(1) الزّجّاج، معاني القرآن: 2/128.

(2) قال ابن الأنباري: "وأما المسيح عيسى بن مريم عليه السلام، فإن في تفسير معنى (المسيح) سبعة أقوال"، ينظر: الزاهر في معاني كلمات الناس: 1/388، ثم سردها، وقال السُّهيلي: "وأصح ما قيل في معنى المسيح على كثرة الأقوال في ذلك أنه الصديق بلغتهم ثم عربته العرب"، ينظر: السهيلي، الروض الأنف: 7/510.

(3) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/19.

(4) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/363.

(5) الرازي، مفاتيح الغيب: 11/260، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/125.

دلالةُ تَكرارِ النَّفيِ وأثرُهُ في جَرْسِ الآيةِ الكريمةِ وقوّة مَعنَاها:

زيـــادةُ بيـانٍ، وقُوّةُ برهانٍ

تكرَّرت ﴿وَمَا﴾ النافية في الآية الكريمةِ ثلاثَ مرّاتٍ في قوله: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ﴾، وقوله: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا﴾، وهذا التّكرارُ ضاعفَ من جَرْسِ الصَّوتِ بالنَّفي؛ فنَبرُ المقطعِ الأوّلِ في ﴿وَمَا﴾ النّافية في مواضِعها الثلاثة يُشعرُ المخاطَبَ بقوة الخِطابِ، وغضبِ المتكلِّمِ من التُّهمَةِ المُدَّعاة من دون بيِّنة.

بلاغةُ الردِّ على مزاعِمِ اليَهودِ في قتلِ عيسى عليه السلام وصَلْبِه:

النَّصُّ الصَّريحُ في نفي الصَّلْبِ بعد نفي القتْلِ

قوله تعالى ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾: ردٌّ على مزاعِمِهم الكاذبةِ الّتي تفاخَرُوا بها بأنّهم قتَلُوا عيسى عليه السلام وصَلَبُوه، والحقُّ أنّهم قتَلُوا رجلًا آخرَ يُشبِهُ عيسى عليه السلام في الخِلقة، فظنّوه إيّاه وقتلُوه وصلبُوه. والواوُ حاليّةٌ؛ أي: والحالُ أنّهم ما قتَلُوه، وعطفَ عليه ﴿وَمَا صَلَبُوهُ﴾ لتأكيدِ نفي الصّلبِ عنه بعد نفي القتلِ؛ لأَنَّ الصَّلبَ قَد يَكونُ دونَ القَتلِ، فَقَد كانوا رُبَّما صَلَبوا الجانيَ تَعذيبًا لَهُ ثُمَّ عَفَوا عَنهُ.

ولأنّ النّصارَى واليهودَ يدّعُون أنّه صُلِبَ، فلا بدّ من النّصِّ على نفي الصّلبِ، ليكون ردًّا على هذِهِ الدّعوى، ولو اقتصر على نفي القتلِ ما كان التّصريحُ بردّ الدّعوى، ولو نُفِيَ الصّلبُ فقط ما اقتضى نَفيَ القتل، فكان النّسقُ البليغُ مقتضيًا نفيَهُما معًا[1].

والمَشهورُ في الاستِعمالِ: أَنَّ الصَّلبَ هُو أَنْ يوثَقَ المُعَدُّ لِلقَتلِ على خَشَبَةٍ بِحَيثُ لا يَستَطيعُ التَّحَرُّكَ، ثُمَّ يُطعَنُ بالرُّمحِ أَو يُرمى بالسَهمِ، وكَذَلِكَ كانوا يَزعُمونَ أَنَّ عيسى صُلِبَ ثُمَّ طُعِنَ بِرُمحٍ في قَلبِهِ[2].

وقد نُسِبَ القتلُ المنفيُّ إليهم، مع أنّ القتلَ والصّلبَ كان من حاكمِ الرّومان، ولكنْ بتحريضِ اليهودِ؛ وذلك لأنّهم هم الّذين

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/20، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 4/1951.
(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/20.

ألحّوا في طلبِ القتل؛ فالمحرِّضُ قاتلٌ، والشّاهدُ الكاذبُ قاتلٌ، وكلُّ متسبِّبٍ يُعَدُّ قاتلًا، وهؤلاء قامُوا بكلّ ذلك[1].

دلالةُ الاستدراكِ في قوله: ﴿وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمۡۚ﴾:

رفعُ توهّمِ القتْل والصَّلب

جُملَةُ ﴿وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمۡۚ﴾: استِدراكٌ لرفع تَوَهّمهم أَنَّهُم قَتَلوهُ؛ فبيَّن لهم بالاستدراك أنَّهم توهَّموا أنَّهم قتلوه، فظنّوا المقتولَ المصلوبَ هو المسيحَ، وما كان هو، بل كان المصلوبُ المقتولُ غيرَه، فخُيِّلَ إليهم أنّه قُتِلَ وصُلِبَ، وما كان كذلك.

تعيينُ المُسندِ إلى المبنيِّ للمفعولِ ودلالتِه:

الفعلُ (شُبِّه) مُسنَدٌ إلى الجارِّ والمَجرورِ؛ أي شُبِّه لهُم خبرُ صَلْبِه

وقوله ﴿شُبِّهَ﴾ مبنيٌّ للمجهول، وفي إسنادِه وجهان:

أحدهما: أنّه مُسنَدٌ إلى الجارِّ والمَجرورِ؛ أي: شُبِّهَ لِليَهودِ الأَوَّلينَ والآخِرينَ خَبَرُ صَلبِ المَسيحِ، فالتَبَس عليهم الأمرُ حيثُ ظنّوا المقتولَ عيسى كما أوهمهم بذلك أحبارُهم، فاشتَبَهَ عَلَيهِمُ الكَذِبُ بِالصِّدقِ، وهُوَ كَقَولِكَ: خُيِّلَ إِلَيهِ، ولُبِّسَ عليه؛ كَأَنَّهُ قيلَ: ولَكِن وَقَعَ لَهُمُ الشَّبَه.

والثّاني: مُسنَدٌ إلى ضَميرِ المَقتولِ لأَنَّ قَولَهُ: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ﴾ يَدُلُّ عَلى أَنَّهُ وَقَعَ القَتلُ عَلى غَيرِهِ؛ أي: ولكن شُبِّه لهم مُشَبَّهٌ بِالمَسيحِ فقتلوه، فَصارَ ذَلِكَ الغَيرُ مَذكورًا بِهَذا الطَّريقِ، فَحَسُنَ إِسنادُ شُبِّهَ إِلَيهِ.

ويكونُ قَولُهُ: ﴿شُبِّهَ﴾ فِعلًا مَبنِيًّا لِلمَجهولِ، مُشتَقًّا مِنَ الشَّبَهِ، وهُوَ المُماثَلَةُ في الصّورَةِ. وحُذِفَ المَفعولُ الَّذي حَقُّهُ أَن يَكونَ نائِبَ فاعل ﴿شُبِّهَ﴾، وضَميرُ ﴿لَهُمۡۚ﴾ عَلى هَذا الوَجهِ عائِدٌ إِلى الَّذينَ قالوا: ﴿إِنَّا قَتَلۡنَا﴾، وهُم يَهودُ زَمانِهِ؛ أَي: وَقَعَتۡ لَهُمُ المُشابَهَة[2].

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 4/1951.

(2) الرازي، مفاتيح الغيب: 11/260، والسّمين، الدّرّ المصون: 4/145، وابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/21.

بلاغةُ التّأكيدِ في الآيةِ الكريمةِ:

كـثرةُ المـؤكّـداتِ تدلُّ على أهمّيّةِ المؤكَّدِ

في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنۡ عِلۡمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينَۢا﴾: أسلوبُ توكيدٍ بـ﴿وَإِنَّ﴾ المؤكِّدة ولامِ الابتداءِ (المُزَحلَقَةِ)، وكثرةُ المؤكّداتِ تدلُّ على أهمّيّةِ المؤكَّدِ.

وقَولُهُ ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ﴾: يَدُلُّ عَلى وُقوعِ خِلافٍ في شَأْنِ قَتلِ المَسيحِ، والخِلافُ فيهِ بين اليهودِ والنّصارى، بل بَينَ النّصارى أنفسِهم، فبعضُهم يَقولُ: قَتَلَتهُ اليَهودُ، وبَعضُهُم يَقولُ: لَمْ يَقتُلوهُ، ولَكِن قَتَلوا يَهوذا الإسْخِرْيوطِيَّ الَّذي شُبِّهَ لَهُم بِالمَسيحِ.

وغالبُ هؤلاءِ المُختَلِفين في شَأْنِهِ غَيرُ مُؤمِنينَ بِصَلبِهِ، بَل يُخالِجُ أَنفُسَهُمُ الشَّكُّ، ويَتَظاهَرونَ بِاليَقينِ، وما هُوَ بِاليَقينِ، فَما لَهُم بِهِ مِن عِلْمٍ قاطِعٍ إلّا اتِّباعَ الظَّنِّ[1]، فالشّكُّ والتّردّدُ غالبُ أحوالِهم، وقد يصِلُون إلى الظّنِّ في بعض أحوالهم، لكن لا يرقَى إلى العِلْمِ واليَقين.

فاتّباعُ المنهجِ الظّنّيِّ في تقصّي الحقائقِ أوصلَهُم إلى الشّكِّ، ولم يُوصلهم إلى العِلْمِ اليقينيِّ الّذي تطمئنُّ النّفسُ إلى نتائجِهِ.

دلالةُ النَّفيِ والاستثناءِ في قوله: ﴿مَا لَهُم بِهِۦ مِنۡ عِلۡمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّۚ﴾:

تأكيدُ نفي العِلْمِ عنهُم

قدّم قوله: ﴿مَا لَهُم بِهِۦ مِنۡ عِلۡمٍ﴾ على الاستثناء؛ لأنّ المقصودَ من هذا الكلام نفيُ العلم عنهم[2].

واستثناءُ الظّنّ من العِلْمِ في الآية استثناءٌ منقطعٌ؛ إذ الظّنُّ رجحانُ أحد الطّرفين، فهو استثناءٌ من غير جنس العِلْمِ، والتّقدير: لكنّهم يتّبعون الظّنّ[3].

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/22.
(2) الطِّيبي، فتوح الغَيب: 5/222.
(3) الزّجّاج، معاني القرآن: 2/128، والزّمخشريّ، الكشّاف: 1/587.

وذهبَ ابنُ عطيّة إلى أنّه استثناءٌ متّصلٌ، على معنى أنّ الظّنَّ والعِلْمَ يضمّهما جنسٌ واحدٌ، وهما من معتقدات النّفس، وقد يقولُ الظّانُّ على طريق التّجَوُّز: علْمي في هذا الأمرِ أنّه كذا، وهو يَعني ظَنَّه[1].

دلالةُ عودِ الضَّمير في قوله: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا﴾:

التهكُّمُ بالزاعمين صلبه

وضَميرُ النّصْبِ (الهاء) في ﴿قَتَلُوهُ﴾ عائِدٌ إلى عيسى ابْنِ مَريَمَ عليه السلام؛ أي: أنّهم لم يقتُلُوا عيسى يقينًا.

أو عائِدٌ إلى العِلْمِ مِن قَولِهِ تَعالى ﴿مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ﴾، كما تقول: قتلت هذا الأمر علمًا، فتكونُ كلمة ﴿يَقِينًا﴾ عَلى هَذا تَمْييزًا لِنِسْبَة[2]. أو هي عائدةٌ على الظّنِّ، والمعنى: وما صحَّ ظنُّهُم عندهم ولا تحقّقُوه يقينًا[3].

و﴿يَقِينًا﴾: تأكيدٌ لقوله: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ﴾ كقولك: ما قتلوه حقًّا، أي: حُقَّ انتفاءُ قتْلِه حقًّا، وقيل: هو من قولهم: قتلتُ الشّيءَ علمًا ونَحَرْتُه علمًا إذا تَبالغَ فيه علمُك. وفيه تهكُّم؛ لأنَّه إذا نفى عنهم العلْمَ نفيًا كلّيًّا بحرف الاستغراق (ما)، ثمّ قيل: وما علمُوه علمَ يقينٍ وإحاطةٍ لم يكُن إلّا تهكُّمًا بهم[4].

الاختلافُ في إعرابِ كلمة ﴿يَقِينًا﴾ وأثرُه في المعنى:

وفي نصب ﴿يَقِينًا﴾ عدة أوجه: أهمها:

الأول: أنّه نعتٌ لمصدرٍ محذوفٍ؛ أي: ما قَتَلوه قَتلًا يَقينًا؛ فيكون نائبًا عن المفعول المطلق.

الثاني: أنَّه حالٌ منصوبةٌ من واوِ الجماعةِ في ﴿قَتَلُوهُ﴾؛ أي: وما قتَلُوه مُتيقِّنين لقتْله أنَّه عيسى عليه السلام كما ادَّعَوا.

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/134.
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/134.
(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/134.
(4) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/588.

الثالث: أنَّه منصوبٌ بفِعلٍ مِن لفظه حُذِف للدَّلالة عليه؛ أي: ما تيقَّنوه يقينًا، ويكون مؤكِّدًا لمضمون الجملةِ المنفيّةِ قبله[1].

دلالةُ الوقفِ على قوله: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ﴾ والابتداء بقوله: ﴿يَقِينًا﴾:

ذكر أبو عمرٍو الدَّاني الوقفَ على قوله: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ﴾، وقال: وهو قولُ أحمدَ بن موسى اللُّؤلؤيّ، والتَّقديرُ فيما بعده: (يقينًا لَيَرْفَعَنَّه الله)، فحذفَ القسمَ، واكتفى منه بقوله: ﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيۡهِۚ﴾[2].

و أوردَه ابنُ عطيّة وجهًا في الأداءِ، نسَبَه إلى قومٍ من أهلِ اللّسانِ، وهو أنّ الكلامَ يتمُّ عند قوله: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ﴾، ويبتَدأُ بـ﴿يَقِينًا﴾ على أنَّه مصدرٌ مؤكّدٌ للنَّفي في قوله ﴿وَمَا قَتَلُوهُ﴾، والمعنى: يُخبركم يقينًا، أو يَقُصُّ عليكم يقينًا، أو أيقِنُوا بذلك يقينًا[3].

بلاغةُ الإضرابِ في رفع عيسى عليه السلام:

تكريمُ اللهِ لأنبيائِه وعبادِه المخلِصِين

﴿بَل﴾: إضرابٌ بيانيٌّ، فيه ردٌّ لزعمِهم القتْلَ، والمعنى: بلْ إنّه لم يُقتل، وأنّ الله رفعَهُ إليه.

﴿رَّفَعَهُ ٱللَّهُ﴾: الرَّفْعُ عبارةٌ عن إبْعادِه عَنْ هَذا العالَمِ إلى عالَمِ السّمواتِ، رَفعَ قُربٍ وزُلفى. وظاهرُ القول أنّ الرّفعَ كان بجسدِهِ وروحِه، لا بروحِه فقط، فلَم يَظفَرُوا بِهِ، وبهذا جاء التّفسيرُ المأثور، وعليه أكثرُ المفسّرين، وأيّدته رواياتُ السّنّة[4].

وفي سورة آل عمران: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ [آل عمران: 55]. وقد اختلفت أقوالهم في ﴿مُتَوَفِّيكَ﴾ [آل عمران: 55] على أقوال: والّذي رجّحَه الطّبريُّ بقولِه: إنّي قابِضُكَ مِنَ الأَرضِ ورافِعُكَ إلَيَّ، لِتَواتُرِ الأَخبارِ عَن رَسولِ الله ﷺ أَنَّهُ قال: «يَنْزِلُ عيسى ابنُ مَريَمَ فَيَقتُلُ الدَّجّالَ»[5]. ومَن حمَلها على الوفاة

(1) السّمين، الدّرّ المصون: 4/148.
(2) الداني، المكتفى في الوقف والابتدا، ص: 231.
(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/134، وابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/23.
(4) ابن جرير، جامع البيان: 5/447.
(5) ابن جرير، جامع البيان: 5/451.

ذكرَ لها معانيَ منها: مُتَوَفّيكَ بَعدَ إنْزالي إيّاكَ إلى الدُّنيا؛ وهَذا مِنَ المُقَدَّم الَّذي مَعناهُ التَّأخيرُ، والمُؤَخَّرِ الَّذي مَعناهُ التَّقديمُ[1]؛ أي: رافعُك إليَّ ومتَوَفّيك.

فائدةُ الجارِّ والمَجرورِ في قوله: ﴿إِلَيۡهِۚ﴾:

زيادةُ تَشريفٍ وتكريمٍ

(إلى) من قوله: ﴿إِلَيۡهِۚ﴾ تفيدُ الانتِهاءَ، والضّميرُ عائدٌ إلى اسم الجلالة ﴿ٱللَّهُ﴾ وهذا غايةُ التّشريفِ والقُربِ والزُّلفى أنْ رَفَعَهُ اللّه إلَيهِ؛ يعني إلى سمائِهِ وكرامتِه، وعيسى عليه السلام حيٌّ في السّماء الثّانيةِ على ما تضمّنه حديثُ الإسراء في ذِكْر ابنَي الخالةِ عيسى ويحيى عليهما السلام، وقد أوردَه البخاريُّ وغيرُه في حديث المعراج[2]، وهو هناك مقيمٌ حتّى يُنزله اللّه لِقَتلِ الدَّجّال، ولِيَملأ الأرضَ عَدلًا، ويحيَا فيها أربعين سَنةً، ثمّ يموتُ كما يموتُ البَشَرُ[3].

مناسبةُ الفاصلةِ لمعنى الآيةِ الكريمة:

اللّهُ العزيزُ يُعِزُّ أولياءَه، والحكيمُ الّذي يفعلُ كلَّ أمرٍ بِحِكمَةٍ ولِحِكمَةٍ

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ﴾: كان: بمعنى الأزلِ والأبدِ؛ فهي في حقّ اللّه تعالى لا ينصرفُ زمانها إلى الماضي، بل مستمرّةٌ؛ أي: كان ولا يزالُ.

﴿عَزِيزًا حَكِيمًا﴾: جاء تذييلُ الآية بهذَينِ الاسمينِ الكريمين ليناسبَ أوّلَها وهو ﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيۡهِۚ﴾؛ فإنَّه لمّا عزَّ فقد حقَّ لِعزِّه أن يُعزَّ أولياءَه، ويدفع عنهم ما يؤذيهم، ويحفظَهم من سوءِ مُغالبيهم ومَكرِهم، ولمّا كان حكيمًا؛ فقد أتْقن صُنع هذا الرّفع فجعله فِتنةً للكافرين، وتبصرةً للمؤمنين[4].

بلاغةُ القصرِ بالنَّفيِ والاستثناء:

﴿وَإِن مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ﴾: ﴿وَإِن﴾ هنا نافيةٌ بمعنى (ما) و﴿مِّنۡ أَهۡلِ﴾ يجوز فيه وجهان: أحدهما: أنّه صفةٌ لمبتدأ محذوفٍ، والخبرُ

(1) ابن جرير، جامع البيان: 5/451.
(2) البخاري، الحديث رقم: (3887).
(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/134.
(4) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/24.

الجملةُ القسَميّةُ المحذوفةُ وجوابُها، والتّقديرُ: وما أحدٌ من أهل الكتاب إلّا واللّه ليؤمِنَنَّ به.

التّحريضُ على المسارعةِ إلى الإيمانِ قبل أن يُضْطَرُّوا إليه

والثّاني: أنّه في محلِّ الخبر، وجملة ﴿لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ﴾ جملةٌ قَسَميّةٌ واقعةٌ صفةً لموصوفٍ محذوفٍ تقديره: وإنْ من أهل الكتابِ أحدٌ إلا ليؤمِننَّ به[1].

﴿إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ﴾: وفيه أسلوب قَصْرٍ بـ (إن) النّافية و(إلّا) يفيدُ التّوكيدَ والتّخصيصَ. والضّمير الأوّل: ﴿بِهِۦ﴾ يرجع لعيسى عليه السلام، والضّمير الثّاني: ﴿مَوْتِهِۦ﴾ يرجع لعيسى عليه السلام أيضًا، أو يرجعُ إلى الكتابيّ.

دلالةُ القَسَمِ في قوله: ﴿لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ﴾:

مِنَّةٌ مِنَ اللّهِ امتنَّ بها على عيسى عليه السلام

قوله تعالى ﴿لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ﴾: جملةٌ قَسَميّةٌ وقعت صفةً لموصوفٍ محذوفٍ؛ أي: وما من أهل الكتابِ أحدٌ إلا ليؤمِننّ بعيسى عليه السلام قبل أن تَزهَقَ روحُه بأنّه عبدُ اللّه ورسولُه، ولاتَ حينَ إيمانٍ لانقطاعِ وقتِ التّكليفِ، ويعضّده بأنّه قُرِئ (لَيُؤْمِنُنَّ قَبْلَ مَوْتِهِم) بضمّ النّون، لِما أنّ (أحدًا) في معنى الجمعِ... والإخبارُ بحالهم هذه وعيدٌ لهم وتحريضٌ على المسارعة إلى الإيمان به قبل أن يُضْطرُّوا إليه مع انتفاءِ جَدْواه[2].

وهَذِهِ مِنَّةٌ مِنَ اللّه امتنّ بها عَلى عيسى عليه السلام؛ إذ جَعَلَ أَعداءَهُ لا يَخرُجونَ مِنَ الدُّنيا إلّا وقَد آمَنوا بِهِ جَزاءً لَهُ عَلى ما لَقِيَ مِن تَكذيبِهِم[3].

وقيل: كلَا الضّميرين لعيسى، والمعنى: وما من أهلِ الكتابِ الموجودين عند نزولِ عيسى عليه السلام أحدٌ إلا ليؤمِننَّ به قبلَ موتِهِ.

(1) السّمين، الدّرّ المصون: 4/148 - 149.

(2) أبو السّعود، إرشاد العَقْل السّليم: 2/252، وقراءة: (لَيُؤْمِنُنَّ قَبْلَ مَوْتِهِم) قراءة شاذّة، وظّفها لترجيح الرّأي الأوّل، وهو عَود الضمير على الكتابيّ.

(3) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/24.

تخصيص يوم القيامة بعموم شهادة عيسى عليهم

بلاغةُ التَّقديمِ في قوله: ﴿وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيۡهِمۡ شَهِيدٗا﴾:

قدّم الظّرفَ ﴿وَيَوۡمَ﴾ والجارَّ والمجرورَ ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾، وهو يفيدُ التّخصيصَ، كما حذفَ معمولَ ﴿شَهِيدٗا﴾ ليفيدَ العمومَ، فيشهدُ على صغيرِ أعمالِهم وكبيرِها.

﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰاْ وَقَدْ نُهُواْ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦١﴾﴾ [النساء: 160- 161]

مُناسَبَةُ الآيَتيْنِ لِمَا قَبْلَهُما:

بعد أنْ بينتِ الآياتُ السّابقةُ جانبًا من قبائحِ أفعالِ اليهودِ ورذائلِ أقوالِهم، يُخبرُ اللّه تعالى بشيءٍ من عقوبةِ ذلك، وهو أنّه حرّمَ على الّذين هادُوا طيّباتٍ كانت حلالًا لهم؛ وذلك بسببِ ظُلمِهم وبما اقترَفُوه من آثامٍ عظيمةٍ، ومنكراتٍ قبيحةٍ، وبسببِ صدِّهم النّاسَ وأنفسَهم عن اتّباع الحقِّ، وأكلِ أموال النّاس بالباطلِ، لعلَّهم يرجعُون إلى طريقِ الهدايةِ.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿هَادُواْ﴾: هادَ يَهودُ هَودًا: تاب ورجَعَ. وأصل الهَوْدِ: الرّجوع برفق، ومنه: التَّهْويدُ، وهو مشْيٌ كالدّبيب، وصار الهَوْدُ في التّعارف: التّوبة. وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ﴾ [البقرة: 62] أي: رجعُوا وتابُوا. وقال تعالى: ﴿إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَۚ﴾ [الأعراف: 156]؛ أي: تُبْنَا، وقيل: سَكَنّا. ومنه الهَوادة: وهي السّكونُ والموادعةُ، وتهوَّد في مشيتِه: إذا مَشَى مشيًا رفيقًا تشبيهًا باليهود في حركَتِهم عند القراءةِ. ويقال: هادَ فلانٌ: إذا تحرّى طريقةَ اليَهودِ في الدّين[1].

2) ﴿حَرَّمْنَا﴾: أَصْل الحرَم: المَنْعُ والتَّشديدُ. وهو حيّزٌ ممنوعٌ تابعٌ لشيءٍ، والحرامُ هو الشّيءُ الممنوعُ منه؛ إمّا بتسْخير إلهيٍّ، وإمّا بشريٍّ، وإمّا بمنعٍ قَهريٍّ، وإمّا بمنعٍ من جهة العقلِ أو من جهَة الشّرع، أو من جهَة من يُرتَسَمُ أمرُه. والحَرَامُ الشّرعيّ: نقيضُ الحَلالِ، وهو ما حرّمه اللّه؛ أي: منَع مِنْه، أو جعَله ممنوعًا ويأثَم من يتخطّى إليه، والتّحريمُ هنا من جهةِ الشّرع عقوبةً لهم[2].

(1) الرّاغب، المفردات، والسّمين، عمدة الحفّاظ: (هود).

(2) ابن فارس: مقاييس اللغة، والراغب: المفردات، السّمين، عمدة الحفّاظ، جبل: المعجم الاشتقاقيّ: (حرم).

3) ﴿طَيِّبَٰتٍ﴾: أصل الطَّيِّبِ: ما تستلذُّه الحواسُّ، وما تستلذُّه النّفس، والطّعامُ الطَّيِّبُ شرعًا: ما كان متناولًا من حيثُ ما يجوزُ، وبقدْر ما يجوزُ، ومن المكان الّذي يجوزُ؛ فإنّه متى كان كذلك كان طَيِّبًا عاجلًا وآجلًا لا يُستَوخَم، وإلّا فإنّه وإن كان طَيِّبًا عاجلًا لم يَطِبْ آجلًا[1].

4) ﴿وَبِصَدِّهِمْ﴾: صَدَّ يَصُدُّ صُدُودًا، وصَدًّا. والصُّدُودُ والصَّدُّ قد يكون انصرافًا عن الشّيء وامتناعًا، كقوله تعالى: ﴿يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ۝٦١﴾ [النّساء: 61]، وقد يكون صرفًا ومنْعًا كقوله تعالى: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَصَدَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [النّمل: 24]، والصَّدّ: شيءٌ كثيفٌ، أو صُلْبٌ قويٌّ يعترضُ فيوقف النَّفاذَ؛ كالصُّدّ وهو الجَبَل بالنِّسبة للسّائرِ باتّجاهٍ، أو الصُّدَّين وهما ناحيتا الشِعْب أو الوادي بالنِّسبة للماءِ أو النّاس؛ فهما معترضان قويّان لا يُنْفَذُ منهما. والصدُّ هنا صدُّهم أنفسهم وغيرهم[2].

5) ﴿ٱلرِّبَوٰاْ﴾: الرِّبا: في الأصل الزِّيادةُ والنَّماءُ والعُلُوُّ. تقول: رَبَا يَربُو. والرِّبا: من ذواتِ الواو، وشذّت إمالتُه قياسًا لا استعمالًا، وكتبتْ في المصحف بواوٍ بعدها ألف، وتثنّى رِبَوَان بالواوِ عَلى الأصلِ، وقَد يُقالُ رِبَيان عَلى التَّخْفيف، والرِّبا: الزّيادةُ على رأسِ المالِ، لكن خُصَّ في الشّرع بالزّيادةِ على وجهٍ دونَ وجهٍ، وباعتبار الزّيادة قال تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَيۡتُم مِّن رِّبٗا لِّيَرۡبُوَاْ فِيٓ أَمۡوَٰلِ ٱلنَّاسِ﴾ [الرّوم: 39]؛ أي لِيَزيد بما يؤخَذ من أموالِهم استغلالًا لحاجَتهم ﴿فَلَا يَرۡبُواْ عِندَ ٱللَّهِۖ﴾ [الرّوم: 39]؛ أي: فإنّه لا يَزيدُ على الحَقيقةِ بل ينقُصُ؛ لأنّ هذه الزّيادةَ تمحَقُه كلَّه[3].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

أخبرَ تعالى أنّه حرّمَ على أهل الكتابِ كثيرًا من الطّيّباتِ الّتي كانت حلالًا لهم، وهذا تحريمُ عقوبةٍ لهم بسببِ ظلمهم واعتدائِهم وما ارتكبوه من الذُّنوب العظيمة، وبصدِّهم أنفسَهم والنّاسَ عن سبيلِ الله، فحجَبُوهم عن الهدى، وكتَمُوا البشارةَ بالنّبيِّ ﷺ

(1) الرّاغب: المفردات، السّمين، عمدة الحفّاظ: (طيب).
(2) ابن فارس: مقاييس اللّغة: (صدَّ)، الرّاغب: المفردات، السّمين، عمدة الحفّاظ: (صدد)، جبل: المعجم الاشتقاقيّ: (صدد - صدى).
(3) ابن فارس: مقاييس اللّغة: (رَبَى - ربأ)، الرّاغب: المفردات: (ربو)، والسّمين، عمدة الحفّاظ: (ربو)، والفيومي، المصباح المنير: (ربو)، جبل: المعجم الاشتقاقيّ: (ربو - ربي).

وأوصافِه كما وردت عندَهُم، وبسببِ أخذِهم الرّبا من غيرِهم وأكلِه معتقدين حِلّه، وبسببِ أكلهم أموالَ النّاسِ بطريقِ الرِّشوةِ والنَّصْبِ والاحتيالِ والغِشِّ ونحو ذلك، فعاقبَهُم في الدّنيا من جنسِ فعلِهم فمنعهم من كثيرٍ من الطّيّباتِ الّتي كانت حلالًا عندهم، وصار هذا التّحريمُ عامًّا، وفي الآخرةِ هيأ لهم عذابًا ذا إهانَةٍ ومذلّةٍ.

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

فريدَةُ تركيبِ قولِه: ﴿فَبِظُلْمٍ﴾، ودلالَتُها:

لمناسبةِ تفرُّدِهم بأنواعٍ من الظُّلمِ العظيمِ

دخولُ الفاءِ العاطفةِ على باءِ السَّببيَّةِ الجارَّةِ لكلمة (ظُلْم) لم يرِدْ إلَّا في هذا الموضعِ من القرآن الكريم.

ولمَّا اختصَّ اليهودُ بهذا الظُّلم البيّنِ - من نقضِ الميثاق، وكفرهم بآياتِ اللّه، وبُهتانهم على مريم، وقولهم إنَّا قتلنا المسيح - ناسبَ التّعبير بهذا التركيبِ الفريد، وهو قوله: ﴿فَبِظُلْمٍ﴾ الّذي يُلَخِّصُ جرائمَهُم، ويفضحُ قبائحَهم في وصفٍ جامعٍ، يُعَدُّ سببًا في إيقاع العقوبةِ بهم في الدُّنيا والآخرَةِ.

دلالةُ الفاءِ في قوله: ﴿فَبِظُلْمٍ﴾:

العطفُ لطولِ الكلامِ بين البدلِ والمُبدلِ منه

ذكر بعضهم أنَّ قوله: ﴿فَبِظُلْمٍ﴾ بدلٌ من قوله ﴿فَبِمَا﴾ بإعادةِ العامل. فيقال: لو كان بدلًا لما دخلت عليه فاءُ العطفِ؛ لأن البدلَ تابعٌ بنفسِه من غير توسُّط حرفِ عطفٍ، وأُجيب عنه بأنه لَمَّا طالَ الكلامُ بين البدلِ والمُبدل منه أعادَ الفاءَ للطّولِ، ذكر ذلك أبو البقاءِ والزَّجاجُ والزَّمخشريُّ وأبو بكرٍ وغيرُهم[1].

دلالةُ الباءِ، ومتعلَّق الجارِّ والمَجرورِ:

قوله: ﴿فَبِظُلْمٍ﴾ بدلٌ من قوله سبحانه: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم﴾، وإليه ذهب الزّجاجُ، وتعقبّه في البحرِ بأنَّ فيه بُعْدًا؛ لكثرة الفواصلِ بين

(1) السمين، الدر المصون: 4/142.

البدل والمبدل منه؛ ولأنَّ المعطوفَ على السَّبب سببٌ؛ فيلزم تأخُّر بعض أجزاء السَّببِ الّذي للتّحريمِ عن التَّحريمِ؛ فلا يمكنُ أن يكونَ جزءَ سببٍ أو سببًا إلّا بتأويل بعيدٍ؛ وبيانُ ذلك أنَّ قولَهم ﴿عَلَىٰ مَرۡيَمَ بُهۡتَٰنًا عَظِيمٗا ١٥٦ وَقَوۡلِهِمۡ إِنَّا قَتَلۡنَا ٱلۡمَسِيحَ﴾ - متأخِّرٌ في الزّمان عن تحريم الطيِّباتِ عليهم، وقد يتكلّف لحلِّه بأنَّ دوامَ التّحريمِ في كلِّ زمن كابتدائه، وجعل العَلامة الثّانية (الفاء) في ﴿فَبِظُلۡمٖ﴾ على هذا التّقدير تكرارًا للفاء في ﴿فَبِمَا نَقۡضِهِم﴾ عطفًا على ﴿وَأَخۡذِهِمُ﴾ [النساء: 154]، أو جزاء شرطٍ مقدَّر، ولو جعلت الفاءُ للعطف على ﴿فَبِمَا نَقۡضِهِم﴾ كما في قولك: بزيد وبحسنِهِ، أو فبحسنِهِ، أو ثمّ حسنه افتتنتُ، لم يحتج إلى جعله بدلًا، وجوّز أبُو البقاء وغيرُه التعلّقَ بمحذوفٍ دلَّ عليه قوله تعالى: ﴿بَلۡ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيۡهَا بِكُفۡرِهِمۡ﴾[1].

الباءُ للسَّببيَّة، والجارُّ والمجرورُ متعلّقٌ بـ(حرَّمْنا)

دلالةُ تنوينِ التّنكير في قوله: ﴿فَبِظُلۡمٖ﴾:

وتنوينُ التّنكير في ﴿فَبِظُلۡمٖ﴾ للتعظيم؛ أي: بسببِ ظلم عظيم لا بسببِ شيءٍ آخرَ كما زعَموا أنّها كانت محرّمةً على مَن قَبْلَهم[2].

التّعظيمُ والتّهويلُ للظلمِ الّذي صَدَر منهُم

نكتةُ تقديم الجارِّ والمجرورِ في قوله: ﴿فَبِظُلۡمٖ﴾:

قَدَّمَ السَّبَبَ وهو (الظُّلم) عَلى المُسَبَّبِ وهو (تحريم الطّيِّبات)؛ تَنْبيهًا عَلى فُحشِ الظُّلم وتَقبيحًا لَهُ وتَحذيرًا مِنهُ[3]. وهو يُفيدُ الحَصْرَ؛ أَي: حَرَّمَ عَلَيهِم ذَلِكَ بِسَبَبِ الظُّلم لا بِسَبَبٍ آخَرَ، وقَد أَبهَمَ ما حَرَّمَ عَلَيهِم هُنا؛ لأَنَّ الغَرَضَ مِنَ السِّياقِ العِبرَةُ بِكَونِهِ عُقوبَةً لا بَيانُهُ في نَفسِهِ، كَما أَبهَمَ الظُّلمَ الَّذي كانَ سَبَبًا لَهُ؛ لِيَعلَمَ القارِئُ والسّامِعُ أَنَّ أَيَّ نَوعٍ مِنَ الظُّلمِ يَكونُ سَبَبًا لِلعِقابِ في الدُّنيا قَبلَ الآخِرَة[4].

التّنبيهُ عَلى فُحشِ الظُّلمِ وتَقبيحُه والتَّحذيرُ مِنهُ

(1) الآلوسي، روح المعاني: 3/184.
(2) القِنّوجي، فتحُ البيان: 3/294.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/133.
(4) رضا، تفسير المنار: 6/50.

سرُّ التّعبيرِ بـ﴿ٱلَّذِينَ هَادُواْ﴾:

إيــذانٌ بكمالِ عِظَمِ ظُلْمهم

والتّعبيرُ بـ﴿ٱلَّذِينَ هَادُواْ﴾: - وهم الّذين تابُوا ورجَعُوا عن عبادةِ العجل - إيذانٌ بكمالِ عِظَمِ ظُلمِهم، بتذكير وقوعه بعد تلك التّوبة الهائلة، إثر بيانِ عِظَمِه بالتّنوين التّفخيميِّ؛ أي: بسببِ ظلمٍ عظيمٍ خارجٍ عن حدودِ الأشباهِ والنّظائرِ صادرٍ عنهم، حَرَّمْنا عَلَيهِم طَيِّباتٍ أُحِلَّتْ لَهُم ولمن قَبلَهم، لا لشيءٍ غيرِه كما زعَمُوا[1].

سببُ العدولِ عن الضَّميرِ إلى الاسمِ الظّاهرِ ﴿ٱلَّذِينَ هَادُواْ﴾:

صُــدورُ الظُّـلْـمِ عَــنِ الَّـذيــنَ تابُوا عن عبادةِ العجل مَحَلُّ اسْتِغرابٍ

وعدل عن الضّمير (فَبِظُلْمِهِمْ) إلى الاسم الظّاهر ﴿ٱلَّذِينَ هَادُواْ﴾ حَتّى تَأْتِيَ الضّمائِرُ مُتَتابِعَةً مِنْ قَولِه: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِمْ﴾؛ ولِأَجلِ بُعدِ الضّميرِ في الجُملَةِ المُبدَلِ منها، وهِيَ: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم﴾، ولِأَنَّ في المَوصولِ وصِلَتِهِ ما يَقتَضي التّنَزُّهَ عَنِ الظُّلمِ لَو كانوا كَما وَصَفوا أَنفُسَهُم، فَقالوا: ﴿إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: 156] فَصُدورُ الظُّلمِ عَنِ الَّذينَ هادوا مَحَلُّ اسْتِغرابٍ[2].

سرُّ ذكرِ الطّيباتِ ههنا مُجملةً وفي سورة الأنعام مفَصَّلةً:

سيــاق ســورة الأنـعـام ناسب التفصيلَ، وهنا ناسبَ الاقتضابَ

الطَّيِّباتُ الّتي حُرِّمت على اليهود وردت هنا مجملةً، وفسرتها آيةُ الأنعام وهِيَ ما ذُكِرَ في قَولِه تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿١٤٦﴾﴾ [الأنعام: 146]. وقرأ ابْن عَبّاسٍ: (طَيِّباتٍ كانَتْ أُحِلَّتْ لَهُمْ)[3].

وهذا الإجمالُ المذكورُ هنا في سورة النّساءِ يناسب سياق تَعداد العقوبات والجزاء الذي وقع عليهم؛ بسبب عصيانهم وارتكابهم المحرَّمات، دون الخوض في تفصيل ما كان حِلًا لليهود؛ تفضُّلًا من

(1) الآلوسّي، روح المعاني: 3/189.
(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/26.
(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/135، وهي قراءة شاذة.

اللّه ونعمة. وأمَّا ما جاء مفَصَّلًا في سورة الأنعام فإنَّه يناسب تفصيل المحرَّمات التي ادَّعى المشركون أنها ممَّا حُرِّم عليهم من الأنعام، فبيَّن لهم النبيُّ ﷺ: أني لا أجد فيما أوحى اللّه إليَّ شيئًا محرمًا على مَن يأكله ممَّا تذكرون أنه حُرِّم من الأنعام، إلا أن يكون قد مات بغير تَذْكيةٍ، أو يكون دمًا مُراقًا، إلى آخر ما حرَّمه اللّه، ثم طلب اللّه تعالى إلى رسوله أن يذكر لهؤلاء المشركين - أيضًا - ما حَرَّمه على اليهود من البهائم والطير بصفة موسَّعة، فناسب المقام التفصيل أوَّلًا فيما زعمه المشركون محرَّمًا، والتفصيل ثانيًا فيما حرَّمه تعالى على اليهود؛ لكون التحريم المذكور على اليهود عقوبة مِنه سبحانه لهم، بسبب أعمالهم السيئة.

عِلَّةُ تقديمِ الجارِّ والمجرورِ على المفعولِ في: ﴿حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ﴾:

وتقديمُ الجارِّ والمجرور ﴿عَلَيْهِمْ﴾ على المفعول به ﴿طَيِّبَٰتٍ﴾ يفيدُ التّخصيصَ؛ إذ خُصُّوا بالتّحريم دون غيرهم من الأمم والأنبياءِ كما زعَمُوا.

إفادةُ التَّخصيص بالتّحريم على اليهود دون غَيرِهم من الأممِ

نكتةُ عطفِ الخاصِّ على العامّ:

بعد ظلمهم المذكور في الآية السابقة خصَّص أفعالًا لهم قد أسرفوا فيها، فقال تعالى: ﴿وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰاْ وَقَدْ نُهُواْ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾، وهو من عطفِ الخاصّ على العامّ، وتخصيصُ الأشياء الثّلاثةِ المذكورةِ بعد ظلمهم العامّ تعظيمًا لها؛ فنبّه تعالى أنّهم لمّا أسرفُوا وصارُوا يظلِمُون، ويصدّون عن سبيلِ اللّه، حرّمَ عليهم بعضَ الأطعمةِ، ليكونَ ذلك عقوبةً لهم من وجهٍ، وتهذيبًا يقمَعُ شهوتَهُم من وجهٍ آخرَ[1].

إفادةُ التّعظيمِ والمبالَغةِ في الظّلمِ

أثر إعرابِ كلمة ﴿كَثِيرًا﴾ في المعنى بقوله: ﴿وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا﴾:

في إعراب ﴿كَثِيرًا﴾ ثلاثة أوجه؛ أظهرُها: أنّه مفعولٌ به؛ أي:

(1) الراغب، تفسير الرّاغب: 4/224 - 225.

بصدِّهم ناسًا أو فريقًا أو جمعًا كثيرًا، وقيل: نصبُه على المصدريّة؛ أي: صَدًّا كثيرًا. وقيل: على ظرفيّة الزّمان؛ أي: زمانًا كثيرًا[1]. وفي كلِّ هذه الأوجه إيجازٌ.

دلالةُ قوله: ﴿وَأَخۡذِهِمُ ٱلرِّبَوٰاْ وَقَدۡ نُهُواْ عَنۡهُ﴾:

تأكيدُ قُبحِ فِعلِهِم وسوءِ صَنيعِهِم

وجملةُ ﴿وَقَدۡ نُهُواْ عَنۡهُ﴾: جُملَةٌ حاليَّةٌ تُفيدُ تَأكيدَ قُبحِ فِعلِهِم وسوءِ صَنيعِهِم؛ إذْ ما نَهى اللّه عَنهُ يَجِبُ أَنْ يُبعَدَ عَنهُ. قالوا: والرِّبا مُحَرَّمٌ في جَميعِ الشَّرائِعِ[2].

سرُّ التّرتيبِ في أنواعِ الظُّلمِ المذكورِ:

الارتقاءُ بالمعاني من الأهَمِّ إلى المُهِمِّ

وقد بُدِئَ في أَنواعِ الظُّلمِ بما هُو أَهَمُّ، وهُو أَمرُ الدّينِ، وهُوَ الصَّدُّ عَن سَبيلِ اللّه، ثُمَّ بِأَمرِ الدُّنيا وهُوَ ما يَتَعَلَّقُ بِهِ الأَذى في بَعضِ المالِ، ثُمَّ ارْتَقى إلى الأَبلَغِ في المالِ الدُّنْيَوِيِّ وهُوَ أَكلُهُ بالباطِلِ؛ أَي مَجّانًا لا عِوَضَ فيهِ.

وفي ذِكرِ هَذِهِ الآيَةِ امتِنانٌ عَلى هذه الأُمَّةِ؛ حَيثُ لَم يُعامِلهُم مُعامَلَةَ اليَهودِ فيُحَرِّمَ عَلَيهِم في الدُّنيا الطَّيِّباتِ عُقوبَةً لَهُم بِذُنوبِهِمْ[3].

وضعُ الاسمِ الظّاهرِ موضعَ الضَّميرِ في: ﴿وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ مِنۡهُمۡ﴾:

التَّنبيهُ على علّةِ الحكمِ

وضعُ الاسم الظّاهرِ موضعَ الضَّميرِ؛ للتّنبيهِ على علّةِ الحكمِ؛ إذْ إنَّ الاسمَ الظّاهرَ يدلُّ عليها؛ فحسبُ الكفرِ ذنبًا يستَحِقّون به العذابَ الأليمَ.

وللإشعار بالعلّيّة، وللمقدَّرِ من نحو اللّعنةِ وضربِ الذِّلّةِ والمسكنةِ واستحقاق غضبِ اللّه، وما أشبه ذلك ليَجمَع لهم نكالَ الدّارين، وإنّما ذكَر معلولَ الوُسطى وهو ﴿حَرَّمۡنَا﴾؛ لكونِه أخفَّ من الأخرى[4].

(1) السّمين، الدّرّ المصون: 4/151.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/133.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/134.
(4) الطِّيبي، فتوح الغَيب: 5/227.

﴿لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ مِنۡهُمۡ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَۚ وَٱلۡمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَۚ وَٱلۡمُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ أُوْلَٰٓئِكَ سَنُؤۡتِيهِمۡ أَجۡرًا عَظِيمًا ١٦٢﴾ [النساء: 162]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

بعد أنْ بيّن اللّه قبائحَ اليهودِ ومعايبَهم وجزاءَهم عليها، وأنّه عذابٌ شاملٌ للكلّ، ذكرَ الممدُوحين منهم، المُستَثنِين من استحقاقِ العذابِ، وهم فئةٌ مؤمنةٌ من الرّاسخين في علم التّوراةِ، الّذين تحقّقُوا من أمرِ النبيِّ ﷺ وعلاماتِه المذكورة عندَهُم، فآمنوا إيمانًا صادقًا باللّه، وبما أنزلَ إلى محمّدٍ ﷺ وإلى بقيّة الرّسلِ السّابقين، وهم لا يفرّقون بين أحدٍ منهم، وأدّوا فرائضَ اللّه، أولئك سينالون من ربّهم أجرًا عظيمًا وهو الجنّة.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلرَّٰسِخُونَ﴾: أي: الثّابتون المستقِرّون، والرّسوخُ في الأصل: ثبوتُ الشّيءِ بتمكّنٍ، ثمّ استُعير ذلك لمنْ تحلّى بالعِلْمِ واختلطَ به لحمُه ودمُه، فيتَحقّق عنده تحقّقًا، إذا عرضَتْ له شُبهة لم يختلِج لها قلبُه ولم يتلعْثَم لها لسانُه، وكان ابن عباسٍ رضي الله عنه يَصِفُ نفسَه بذلك، ويقول: "أنا منَ الرّاسِخين في العلْم" وصدَقَ، وهذا منه إخبارٌ لا تزكيةٌ - رضي الله عنه -[1].

2) ﴿ٱلۡعِلۡمِ﴾: العَينُ واللّامُ والميمُ أَصلٌ صَحِيحٌ وَاحِدٌ، يَدُلُّ عَلَى أَثَرٍ بِالشَّيءِ يَتَمَيَّزُ بِهِ عَن غَيرِهِ، مِن ذَلِكَ العَلَامَةُ، وهِيَ مَعرُوفَةٌ[2].

ومن ذلك المعنى المحوريِّ أُخِذَ معنى العِلْم وهو: "الاعتقادُ الجازمُ الثّابتُ المُطابق للواقعِ"؛ فكونُه اعتقادًا هو أنّه مَعْنًى أو حكمٌ تربّى في القلبِ أخذًا من دلالةٍ أو لافتٍ قويّ

(1) الرّاغب، المفردات، والسّمين، عمدة الحفّاظ: (رسخ).وينظر قول ابن عباس في تفسير الآية: 7 من سورة آل عمران: ابن جرير، جامع البيان: 5/220، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 2/11.

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (علم).

أو حجّة قويّة، وكونُه جازمًا يؤخذ من قوة اللّافتِ، وكونُه ثابتًا يُؤخذ من ثباتِ اللّافتِ واللّفْتِ، وكونُه مطابقًا للواقع يرجعُ أيضًا إلى قوّةِ اللّفت ودقّتِه[1].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

استثنى اللّه من استحقاقِ العذابِ الرَّاسخين في العِلْمِ الثّابتين فيه من اليهود، وهم المؤمنون إيمانًا صادقًا باللّه وبما أنزل عليك، وبما أنزل على مَن قبلَك مِن الرّسل، وخصَّ المقيمين الصّلاةَ منهم المؤدّين لها تامّة الشّروطِ والأركان، والمُؤتون زكاةَ أموالِهم لمن يستحقّها، والمُؤمنون باللّه واليومِ الآخر إيمانًا حقيقيًّا، هؤلاءِ الموصُوفُون بهذه الصّفاتِ، وهي صفاتُ المؤمنين إيمانًا حقًّا البعيدين في درجات الكمال، سيؤتيهم ربُّهم أجرًا عظيمًا من عندِه.

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

حُسنُ الاستِدراكِ في قوله: ﴿لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ﴾:

الاســـتـــدراك داخِـــلٌ بَـــينَ الكفر وعقابه، والإيمان وجزائه

﴿لَٰكِنِ﴾: استِدراكٌ ناشئٌ عَلى ما يوهِمُهُ الكَلامُ السّابقُ ابتِداءً من قَوله: ﴿يَسۡـَٔلُكَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ [النّساء: 153] مِنۡ تَوَغُّلِهِمۡ في الضّلالَةِ حَتّى لا يُرجى لِأَحَدٍ مِنهُم خَيرٌ وصَلاحٌ، فاستُدرِكَ بِأَنَّ الرّاسِخينَ في العِلْمِ مِنهُم لَيْسوا كَما تُوُهِّمَ، فهُم يُؤمِنونَ بِالقُرآنِ مِثلُ: عَبدِ اللّه بنِ سَلامٍ و مُخَيْريقٍ[2].

ومَجيءُ ﴿لَٰكِنِ﴾ هُنا في غايَةِ الحُسنِ، لأَنَّها داخِلَةٌ بَينَ نَقيضَينِ وجَزائِهِما، وهُمَا: الكافِرونَ والعَذابُ الأَليمُ، والمُؤمِنونَ والأَجرُ العَظيمُ[3].

وذِكْرُ العِلْمِ الرّاسخ والإيمان الّذي يفتحُ القلبَ للنّور، بوصفهما طريقًا إلى المعرفةِ الصّحيحةِ.

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (علم).
(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/28.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/134.

نكتةُ تخصيصِ المُقِيمِينَ الصّلاةَ بالذّكر:

للتّنويهِ بهم وبيانِ فضلِ الصّلاة

﴿وَٱلْمُقِيمِينَ﴾: في إعرابها أقوال: أظهرُها: أنّه منصوبٌ على القطْع الّذي يُفيد المدح، أي: وأمْدَح، أو أعني، أو أخصُّ المُقيمين، وهذا القطعُ مفيدٌ لبيان فضل الصّلاة، وإبرازِ قيمةِ إقامتِها في هذا الموضعِ، فكثر الكلامُ في الوصف بأن جعل في جملة أخرى، وعلى هذا الوجه يجبُ أن يكونَ خبرُ ﴿ٱلرَّٰسِخُونَ﴾ هو جملة: ﴿يُؤْمِنُونَ﴾، وليس: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ﴾؛ لأنَّ القطعَ إنَّما يَكونُ بعدَ تمامِ الكلام... وعلى القطع خرَّج سيبويه ذلك[1].

وقال الزَّمخشريُّ: "ولا يُلتَفَتُ إلى ما زَعَموا من وقوعه لحنًا في خطّ المُصحف، وربّما التفتَ إليه مَن لم ينظُر في (الكتاب)، ولمْ يَعرفْ مذاهبَ العرَب وما لهم في النّصبِ على الاختِصاصِ من الافتِنان، وغَبِيَ علَيهِ أنّ السّابقينّ الأوّلينَ الّذينَ مَثَلُهُم في التّوراةِ ومثَلُهُم في الإنجيلِ كانوا أبعدَ همةً في الغَيرةِ على الإسلامِ وذبِّ المطاعِنِ عنه مِن أن يَتْركوا في كتابِ اللّه ثُلمَةً ليَسُدّها مَن بعدَهم، وخَرقًا يَرْفوهُ مَن يَلْحَقُ بهم"[2].

عِلَّةُ تخْصيص عبادتي الصَّلاةِ والزّكاةِ بالذكرِ:

شرفهما وتعدّي منفعتهما

وخصَّ هاتين العبادتين بالذّكر هنا لأنَّ الصّلاةَ أشرفُ الطّاعاتِ البدنيّةِ، كما أنَّ الزّكاةَ أشرفُ الطّاعاتِ الماليّةِ، وقد اشتملتا على الإخلاص للمعبود والإحسان إلى العبيد[3].

دلالةُ اسمِ الإشارة ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ في: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا﴾:

علوُّ مرتبةِ المشارِ إليهم

بيّن ﷻ جزاءَ هؤلاء المؤمنين، فقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا﴾، وأشار إليهم بإشارةِ البعيد ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ التي تدلُّ على علوّ مرتبةِ المشار إليه؛ أي: أولئك الّذين نالوا هذه الخصالَ كلّها، فآمَنوا بكلّ الأنبياءِ وتهذّبت

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/395، 396.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/582.
(3) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 103.

ضمائرُهم بالصّلاة، وتعاونُوا فيما بينهم بالزّكاة، وآمنوا باللّه تعالى حقّ الإيمان، وصدّقوا بالبعثِ والنّشور، وصبرُوا في السّرّاء والضّرّاء، هؤلاء المتَّصفُون بهذه الصّفاتِ يستحقُّون بسَبَبِها جزاءً عظيمًا.

دلالةُ كثرة التأكيداتِ في قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ سَنُؤۡتِيهِمۡ أَجۡرًا عَظِيمًا﴾:

بيانُ منزلتِهم برسوخ العلم والإيمان الكامل عند الله

وقد أكّدَ ذلك الجزاءَ بثلاثةِ مؤكِّداتٍ:

أوّلها: السّين في قوله: ﴿سَنُؤۡتِيهِمۡ﴾؛ لأنّها لتأكيدِ الوقوع في المستقبل.

وثانيها: إسنادُ العطاءِ إلى اللّه تعالى القادر على كلِّ شيءٍ، وهو لا يخلفُ الميعاد.

ثالثها: تنكيرُ الأجر، ووصْفُه بالعظمةِ، فهو أجرٌ عظيمٌ لا يجري في خيال البشر، ويعلَمُه خالقُ البشر[1].

وقرأ جمهور القرّاء ﴿سَنُؤۡتِيهِمۡ﴾ بنون العظَمة، على الالتفاتِ من الغَيْبة إلى التّكلّم، والفاعل ضميرٌ مستترٌ وجوبًا تقديره (نحن) يعود على اللّه تعالى.

وقرأ حمزة، وخلف العاشر: ﴿سَيُؤۡتِيهِمۡ﴾ بالياء التحْتيّة، وذلك جريًا على السّياق، والفاعل ضميرٌ تقديره (هو) يعود على اللّه تعالى[2].

بلاغةُ المقابلةِ[3] بين المؤمنين وأجرِهم، والكافرين وعذابِهم:

بيانُ فضلِ المؤمنين وجزائهم، بعد ذكر الكافرين وعذابِهم

بعد ما ذكر اللّه جزاءَ الكافرين في قوله تعالى: ﴿وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ مِنۡهُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ بيّنَ جزاءَ المؤمنين في قوله: ﴿وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ أُوْلَٰٓئِكَ سَنُؤۡتِيهِمۡ أَجۡرًا عَظِيمًا﴾؛ فقابل معنيين بمعنيين، قابلَ الكفرَ بالإيمان، والعذابَ الأليمَ بالأجرِ العظيم؛ ليتَّضحَ الفرقُ بين من يشرحُ اللّه صدرَه للإيمان، ويعملُ بما يعلَمُ، ومن طَبَعَ اللّه على قلبِه، وافْتَرى على اللّه زورًا وبهتانًا.

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 4/1961.

(2) ابن الجزري، النشر: 2/253، ومخيسن، الهادي شرح طيبة النشر: 2/165.

(3) عرف القَزْويني المقابلة بقوله: "هي أن يؤتى بمعنيين متوافقين أو أكثر ثم بما يقابل ذلك على الترتيب"، ينظر: القزويني، التلخيص، ص: 352.

﴿۞إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيۡمَٰنَۚ وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا ١٦٣﴾ [النساء: 163]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الـــــردّ عـلى طـالـبـي كـتـاب مـن الـسّـمـاء، بـــأنّ الـرّسـل مؤيّدون بالوحي والاصطفاء

لَمَّا حَكى اللّه تعالى عن اليهود أنَّهم سألوا النَّبيَّ ﷺ أن يُنزِّل عليهم كتابًا من السَّماء يُثْبت نبوَّته، وكان هذا منهم عِنادًا ولِجاجًا، وذكَر جملة من جرائمهم وقبائحهم ومصيرهم؛ واستثنى الرّاسخين في العلم، الّذين يؤمنون بالمنزل عليه، وعلى من قبله، ويعبدون اللّه، ويؤمنون بالآخرة، جاء الرَّدُّ على طلبهم ذاك، فأخبر سبحانه أنَّه أرسل النّبيَّ محمَّدًا ﷺ، كما أرسل من تقدّمه من الأنبياء، سواء منهم من ذُكر في القرآن، أم لم يُذكر، وأظهر على يديه المعجزات، كما أظهرها على أيديهم، فهم مشتركون في ثبوت النُّبوَّة بالوحي إليهم على اختلاف أنواع الوحي، وتصديق نبوَّتهم بالمعجزات، وكان هذا كافيًا في إثبات نبوَّتهم، دون حاجة إلى إنزال كتابٍ من السّماء[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَوۡحَيۡنَآ﴾: أصل الوَحْي: إعْلامٌ في خَفاءٍ وسرعة، يُقالُ: وَحى إلَيْهِ بالكَلام يَحِي وَحْيًا، وَأَوْحى يُوحِي إيحاءً، فالوَحْيُ: الإشارَةُ، والوَحْيُ: الكِتابُ والرِّسالَةُ، وَكُلُّ ما أَلْقَيْتَهُ إلى غَيْرِكَ حَتّى عَلِمَهُ، فَهو وَحْيٌ كَيْفَ كانَ، سواء كان بالكلام على سبيل الرّمز والتّعرُّض، أم بصوتٍ مجرَّدٍ عن التَّركيب أم بإشارة بعض الجوارح وبالكتابة.

والوَحْيُ: هو ما يُلقيه اللّه تعالى إلى أنبيائه، وهو أنواعٌ، يشير إلى

(1) الرازي، مفاتيح الغَيب: 11/266.

بعضها قوله تعالى: ﴿۞وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحۡيًا أَوۡ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوۡ يُرۡسِلَ رَسُولٗا فَيُوحِيَ بِإِذۡنِهِۦ مَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٞ ٥١﴾ [الشُّورى: 51][1].

2) ﴿وَٱلۡأَسۡبَاطِ﴾: جمعُ سِبْط، وهو ولَدُ الوَلَدِ، وأصله: من سبَط، أي: امتدّ، وتَتَابَعَ، كأنَّه امتداد للفروع والنّسب، وهم أسباط إسحاق، والسِّبط في بني إسرائيل بمنزلة القبيلة في العرب، فهُمْ في وَلَدِ يعقوبَ، كالقبائل في وَلَدِ إسماعيل، وهم اثنا عشر سبطًا من اثنَي عشر ولدًا ليعقوب عليه السلام وسُمُّوا بالأسباط؛ لأنَّه كان من كلِّ واحد منهم سِبط، أي: أمَّة عظيمة، واشتقاقُهم من السَّبْط، وهو: التّتابعُ، سُمُّوا بذلك؛ لأنَّهم أمَّة متتابعون، وقيل: هو مَقْلوبٌ من البَسْط، وقيل: مِن السَّبَط: بالتَّحريك جمع: سَبَطة، وهي الشَّجرة الَّتي أصلها واحدٌ، وأغصانها كثيرةٌ، فسُمُّوا بذلك لكثرتهم[2].

3) ﴿زَبُورٗا﴾: أصل الزَّبْرِ: إِحْكامُ الشَّيْءِ وَتَوْثيقُهُ، بقِراءَةٍ وَكِتابَةٍ ونحو ذَلِكَ؛ لأنَّ الكتابة تحتاج إحكامًا، وتوثَّق بها الأشياء، والزَّبْرُ: إحكام العمل في البئر، تقول: بئر مزبورة؛ إذا كانت مطويَّة بالحجارة، والزَّبْر: إحْكام الكتاب، يقال: زَبَرْتُ الكتاب: كتبته كتابة غليظة، وخُصَّ الزَّبورُ بالكتاب المنزَّل على داود عليه السلام وجمعه: زُبُر، قيل: الزَّبور: اسم لكلِّ كتاب ليس فيه أحكام، ولذلك سمِّي ما نزل على داود زبورًا؛ إذ لم يكن فيه أحكام، بل أمثال وعظات[3].

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

يُخاطِبُ اللّه تعالى نبيَّه ﷺ، بأنَّه أَوْحى إليه مِثلَ ما أوحى إلى نوحٍ والأنبياء مِن بعدِه، وأوحى إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاقَ ابنَي إبراهيم، ويعقوبَ بن إسحاق، والأنبياء من الأسباطِ أولادِ يعقوب، وفيهم يوسف النَّبيُّ، وعيسى، وأيُّوب، ويونسُ، وهارون، وسُليمان،

كما أوحى الله إلى الأنبياء السّابقين، أوحى يقينا إلى خاتم المرسلين

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، والسّمين، عمدة الحُفّاظ: (وحي)، والقُرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 6/15.

(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة الرّاغب، المفردات، والسّمين، عمدة الحُفّاظ: (سبط)، والرّاغب، تفسير الرّاغب: 1/322، والسّمين، الدّرّ المصون: 2/138.

(3) الزّجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 2/132، وابن فارس، مقاييس اللّغة الرّاغب، المفردات، والسّمين، عمدة الحُفّاظ: (زبر).

وأعطى داودَ عليه السلام كتاب الزَّبور، فيه التَّحميد والتَّمجيد والثَّناء على الله عز وجل.

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

ورود التّعبير بالضّمير (نا) خمس مرّات، وتأكيده بضمير عظمة الذّات:

الوحي عامل مشترك بين النّبيين، وبين رسول الختام الأمين

﴿إِنَّآ﴾ إنَّ: حرف ناسخ يفيد التّوكيد، و(نا): ضمير متَّصل بصيغة الجمع؛ لتعظيم الوحي والمُوحى إليه، وهذا التَّأكيد يفيد الاهتمامَ بهذا الخبر، أو تنزيلَ المردود عليهم منزلةَ مَن يُنكر كيفيَّةَ الوحي لغير موسى من الرُّسل[1].

دلالة الفصل وأثره في المعنى، في قوله: ﴿إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ﴾:

النّبوّة المحمّديّة الخاتمة، تتويج للرّسالات السّابقة

فصلت هذه الجملة عمَّا قبلها؛ لأنَّها جملة استئنافيَّة، جاءت للرَّدِّ على اليهود في طلبهم أن يُنزِّل عليهم كتابًا من السَّماء جملة واحدة[2]، وقد جاء هذا النّص مربوطًا في المعنى بطلبهم أن يُنزِّل الله عليهم كتابًا من السّماء،، ففي هذه الآية بيان بأنّه تعالى أوحى إلى محمّد ﷺ، و أنّه ليس بدعا من الرُّسل، بل هو في تلقّي الوحي، لا يختلف عنهم البتّة[3].

إيثار استعمال الفعل ﴿أَوۡحَيۡنَآ﴾ عوضا عن الفعل (أرسلنا):

الوحيُ كلامُ الله المقدّس، والإرسالُ تبليغٌ للمنهج المكرّس

اختار التَّعبير بالفعل ﴿أَوۡحَيۡنَآ﴾ دون أرسلنا؛ لأنَّ الوحي يختلف عن الإرسال، فمعناه: إعلام في خفاء؛ لأنَّ أصله الإشارة السَّريعة، وذلك يكون بالكلام على سبيل الرَّمز، وقد يكون بصوت مجرَّدٍ عن التَّركيب، و بإشارة بعض الجوارح وبالكتابة، وأكثر ما ورد في القرآن الكريم، بمعنى كلام الله تعالى الّذي ألقاه إلى أنبيائه ورسله عن طريق جبريل، بخلاف الإرسال؛ فإنَّه يكون ببعث من له اختيار

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/31.
(2) الجمل، حاشية الجمل على الجلالين: 1/447.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 4/1963.

نحو إرسال الرُّسل، ويكون في الأشياء الممنوعة والمكروهة، وقد يكون ذلك بالتَّسخير، كإرسال الرِّيح والمطر.ويُلاحظ في الوحي - أيضًا - معنى السُّرعة كما سبق، بخلاف الإرسال؛ فهو على التُّؤدة؛ ولأنَّ الوحي أعمُّ لتعدُّد صوره؛ كما ورد ذلك في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحۡيًا أَوۡ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوۡ يُرۡسِلَ رَسُولٗا فَيُوحِيَ بِإِذۡنِهِۦ مَا يَشَآءُۚ﴾ [الشورى: 51]؛ ولأنَّ الوحي - أيضًا- يلزم منه الإرسالُ، وعلى ذلك فالوحي أعمُّ من الإرسال.

دلالة تعدِّي الفعل (أوحى) بحرف الجرّ (إلى) دون حرف (اللَّام):

الوحي هداية السّماء للأرض لبيان ما شرّعه من ممنوع وفرض

يَجِدُ النَّاظر في القرآن الكريم أنَّ الفعل (أوحى) تعدَّى بحرف الجرّ (إلى) في أكثر مواضعه، والمراد به كلام اللّه تعالى الّذي ألقاه إلى أنبيائه ورسله عن طريق جبريل، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ﴾ [يوسف: 3]، وقد يَرِدُ بمعنى: الإلهام، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَرۡضِعِيهِۖ﴾ [القصص: 7]، وبمعنى: الإشارة، كما في قوله تعالى: ﴿فَأَوۡحَىٰٓ إِلَيۡهِمۡ أَن سَبِّحُواْ بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا ١١﴾ [مريم: 11]، و(إلى) في جميع هذه المواضع بمعنى: انتهاء الغاية، أي: انتهاء الوحي ووصوله إلى من يوحى إليه، بخلاف تعدِّيه بحرف اللّام، في قوله تعالى: ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوۡحَىٰ لَهَا ٥﴾ [الزّلزلة: 5] في سورة الزّلزلة؛ فهو بمعنى: الأمر والإذن.

وعلَّل أبو حيَّان سِرَّ التَّعدية بـ (اللّام) بمراعاة الفاصلة، ولعلَّ ذلك يكون له وجه في مراعاة الجانب الصَّوتي في السُّورة؛ فهو أشدُّ تأثيرًا في القلوب.

وعلَّلَ ابن عاشور سِرَّ اختيار (اللّام) في قوله: ﴿أَوۡحَىٰ لَهَا ٥﴾ [الزّلزلة: 5] بتضمينه معنى: قال. وعلى ذلك كان المناسب تعدِّي الفعل أوحى بـ (إلى)؛ لأنَّه الأوفق في إبلاغ كلام اللّه تعالى إلى أنبيائه ورسله؛ فهو غاية في ذاته.

سرّ تقديم النَّبيّ الخاتم في المقال، مع تأخّره عن الأنبياء في الإرسال:

من تقدّم عند الله ذكره علا في الملإ الأعلى قدره

﴿إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ﴾: فيه تخصيص رسول الله ﷺ بالخطاب، وفيه تكذيب للَّذين قالوا: ما أنزل الله على بشر من شيء بعد موسى[1]، وحذَف المفعول به اختصارًا لوضوحه وعدم لَبْسه، أي: أوحينا إليك القرآن. مع الإشارة إلى أنَّ البشريَّة جمعاء مطالبة بالإيمان به، وبما جاء به جملة وتفصيلًا، وفيه إشارة - أيضًا- إلى نسخ الشَّرائع السَّابقة والعمل بشريعته ﷺ.

مخاطبة النّبيّ بكاف الخطاب، ليدفع عنه الغلوّ في الارتياب:

الوحي إليه على رأس النّبوات دليل على ما أوتيه من فضائل وتكرمات

تدلُّ كاف الخطاب على علوِّ قدره ﷺ وعلوِّ مكانته، فإذا كانت اليهود تستعلي عن قبول دعوته ﷺ بحجَّة تكليم الله لموسى؛ فقد جاءت كاف الخطاب هنا، لتدلَّ على هذا المعنى وزيادة؛ لأنَّ خطاب الله لنبيِّه ﷺ يدلُّ على قربه وعظيم منزلته عند ربِّه. وفيه إشارة إلى أنَّه ﷺ مبعوثٌ لأهل الكتاب لإرشادهم وتعليمهم وزجرهم عن المخالفات.

بلاغة التَّشبيه للوحي إليه، بالوحي للنَّبيِّين مع اختلاف أزمانهم:

الوحي معينٌ لا ينتهي مددُه، ولا ينقطعُ سندُه

قوله تعالى: ﴿كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ﴾، أي: أوحينا إليك إيحاءً، مثل: إيحائنا إلى نوح، والنَّبيِّين من بعده، وهو تشبيه مرسَل مفصّل: حيث إنَّ تخصيص نوح بالذِّكر للتّشريف، وتخصيص بعض الأنبياء بالذِّكر لإظهار فضلهم، والتّشبيه بجِنس الوحي، وإنِ اختلفتْ أنواعه، واختلف الموحى به[2].

سرُّ البدء بنوح عليه السلام، قبل سائر الأنبياء العظام:

وبدأ بذكر نوح عليه السلام لأنَّه كان أبا البشر، مثل: آدم عليه السلام قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلۡبَاقِينَ ٧٧﴾ [الصَّافَّات: 77]، والكلُّ يعرفه بالأخبار المتواترة، وسُمِّيَ آدم الأصغر، ولأنَّه أوَّل نبيٍّ من أنبياء

(1) الواحديّ، الوسيط: 2/140.
(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/31.

الشَّريعة، وأوَّل أولي العزم من الرُّسل، وكان أطول الأنبياء عُمرًا، وجُعلتْ معجزتُه في نفسه؛ لأنَّه عُمِّر ألفَ سنة، ولم تنقص له قوَّة، كما صبر على أذى قومه، وقاسى الشَّدائد منهم على طول عمره، وهو أوَّل من عذِّبت أمَّته لردِّهم دعوته[1]، وفي هذا تهديد لمنكري الوحي، أن يحلَّ بهم ما حلَّ بقوم نوح (عليه السلام).

نـــوح أطـــول الأنـبـيـاء دعـوة ومـعـاتـبـة، وأكـثرهـم صبرا ومغالبة

دلالة عدم ذكر الموحى به، في قوله: ﴿أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾:

لم يذكر الموحى به؛ لإفادة العموم، فيشمل القرآن والسُّنَّة، ولأنَّه معلومٌ لديهم؛ فهو علم لا يحتاج إلى ذكر لمعرفتهم به، ومعنى: ﴿أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾، أي "بكلامنا وأوامرنا ونواهينا وهداياتنا.. كما أوحينا إلى نبيّنا نوح وإلى سائر الأنبياء الّذين جاءوا من بعده"[2]، وما أوحي إلى النّبيّ ﷺ وإلى سائر الأنبياء، معلوم المضمون، لأنّ الدّين عند الله الإسلام، والمنهج في التّوحيد والعبوديّة واحد، وما يختلف هو الشّرائع المميّزة لكلّ رسالة عن أختها.

الأنـبـيـاءُ أبـنـاءُ عَـلَّات، أبُـوهُـم واحدٌ وأُمّهاتُهُم شتّى

دلالة اختيار حرف (الكاف) في قوله: ﴿كَمَآ أَوْحَيْنَآ﴾ دون لفظ (مِثل):

اختار الكاف دون مِثل؛ للإشارة إلى عدم الاتِّفاق في كلِّ أمور الوحي؛ لأنَّ مِثل تعني: الاتِّفاق في الذَّات والصِّفة، وهذا يخالف تعدُّد صور الوحي والموحى به؛ لذلك كان التَّشبيه بالكاف؛ لأنَّه يلمح بعض وجوه التَّشبيه، ولا يلزم الاتِّفاق في كلِّ الجوانب.

كـاف التّشبيه فارقة في الدّلالة عن المعنى الممثّل له بها

دلالة التَّعبير بالفعل الماضي، في قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ﴾:

الفعل الماضي يدلُّ على تحقُّق الوقوع، وفي هذا إشارة إلى أنَّ نبوَّته ﷺ، أمرٌ قديم قدَّره الله أزلًا، وليس اجتهادًا، ولا ادِّعاءً، وفي هذا ردٌّ على المعاندين والمعارضين من أهل الكتاب والمشركين.

الـــرّســـولُ ﷺ مُقرّرٌ إرساله في الأزل، ولا مدعاة لما يُثارُ من جدل

(1) الشّربيني، السّراج المنير: 1/345.

(2) محمّد سيّد طنطاويّ، التّفسير الوسيط للقرآن الكريم: 3/390.

دلالة التّعبير بـ (ما) دون الّذي في قوله: ﴿كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ﴾:

لا ريب أنّ القرآن حقٌّ يؤثر، وقيم لا تنكر

عبر بـ (ما) دون الّذي؛ لأنَّها أعمُّ، فتحتمل أن تكون مصدريَّة، والمعنى: كوحينا الّذي أوحيناه، ولا تحتاج إلى تقدير عائد، ويجوز أن تكون موصولة بمعنى: (الّذي)، ويكون العائد محذوفًا تقديره: كالَّذي أوحيناه إلى نوح[1]، وفي حالتيها المقدّرتين، تفيد أنّ الموحى منسوب إلى اللّه، وعظم القرآن في فحواه، بقدر عظمة من أنزله وآتاه.

دلالة البدء بذكر نوحٍ في التَّشبيه، دون غيره من الأنبياء:

نوح رمز لطول المعاناة، والدّعوة في صبر وأناة

لأنَّ دعوة نوح (عليه السلام) تمثّل دعوة عامَّة لكلِّ البشر آنذاك، ورسول اللّه ﷺ دعوته عامَّة لكلِّ البشر، فوجد وجه جامعٌ بينهما في عموم الرِّسالة، وأيضًا في تحمُّل الأذى من المدعوِّين، وفيه إشارة لتهديد المعاندين والمعارضين من اليهود والمشركين بإنزال العذاب عليهم، كما أنزله اللّه على قوم نوح (عليه السلام).

دلالة عطف ﴿وَٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ بدون ذكر فعل الوحي:

النّبيؤون يتلو بعضهم بعضا، في الوحي والبلاغ

لم يذكر فعل الوحي مرَّة ثانية مع النَّبيين - كما سبق ذكره - إمَّا اكتفاءً بما سبق، أو للإشارة إلى أنَّ بعض النَّبيِّين كان متَّبعًا للرُّسل الّذين سبقوه، فليس لهم شريعة مستقلَّة، بل هم تابعون لهم فيما أنزله اللّه عليهم.

دلالة التَّعبير بلفظ ﴿وَٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ دون لفظ(المرسلين):

النّبوّة تشريف، والرّسالة تكليف

عبَّر بالنَّبيِّين؛ لأنَّهم أعمُّ من الرُّسل؛ فكلُّ رسول نبيٌّ، وليس كلُّ نبيٍّ رسولاً، ولأنَّ الأنبياء ليس لهم شرع جديد؛ فهم لا يكلَّفون بالتَّبليغ، وإذا فعلوا؛ يكون من باب الأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر، ممّا يقتضيه الصّلاح، وتتطلّبه الغيرة على حرمات اللّه.

(1) الجمل، حاشية الجمل على الجلالين: 1/447.

دلالة التَّعبير بلفظ ﴿وَٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ دون لفظ (الأنبياء):

الأنبياء صفوة من الكرام، والكرام قلّة في الأنام

عبَّر بالنَّبيِّين هنا؛ لأنَّ المقام يناسبه التَّعبير بجمع القلَّة؛ فلم يذكر كلَّ الأنبياء، بدليل قوله بعد ذلك، ﴿وَرُسُلًا قَدۡ قَصَصۡنَٰهُمۡ عَلَيۡكَ مِن قَبۡلُ وَرُسُلًا لَّمۡ نَقۡصُصۡهُمۡ عَلَيۡكَۚ﴾، والرُّسل تشمل الأنبياء.

سرُّ ذكر بعض الأنبياء بأسمائهم بعد ذكرهم إجمالًا:

دلالة عطف الخاصّ على العامّ

وخَصَّ بعضَ النَّبيِّين من بعد نوح بالذِّكر؛ لشهرتِهم، وعلوِّ مقامِهم عند أهل الكتاب، والمقام مقام تسلية لقلب النَّبيِّ ﷺ وتأسٍّ، كأنّه يقول له: لك أسوةٌ بالنّبوات السَّالفة، فتأسَّ بهم، كما قال تعالى: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَۚ﴾ [هود: 120][1]، وذكر أسماء بعض الأنبياء من عطف الخاصِّ على العامِّ.

دلالة تكرار الفعل ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ﴾ ثلاث مرّات في الآية:

الوحي يقين وعرفان، وتجلٍّ بعوارف الإيمان

كرَّر الفعل ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ﴾ لمزيد تقريرِ الإيحاء، والتَّنبيه على شرف هؤلاء الرُّسُل والنَّبيِّين الَّذين ذكر أسماءهم، و على أنَّهم طائفةٌ خاصّة مستقلَّة بنوعٍ مخصوصٍ من الوحي، و"حقيقة الوحي الإلهيّ: عرفان يجده الشّخص من نفسه، مع اليقين بأنّه من قبل الله بواسطة أو بغير واسطة"[2].

دلالة تكرار الفعل ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ﴾ مع (إبراهيم)، بعد ذكره مع نوح:

نوحٌ آدمُ الثّاني، وإبراهيمُ رمزٌ لتجديد المعاني

كُرِّر الفعل ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ﴾ مع إبراهيم (عليه السلام)، ولم يُكتفَ بذكره سابقًا للإشعار بوجود فترة زمنيَّة كبيرة بين نوح وإبراهيم - عليهما السلام - وفيه إشارة إلى أصالة كلٍّ منهما في أمر الوحي، فنوح عليه السلام يمثِّل مرحلة فاصلة في حياة البشريَّة، فهو أبو البشريَّة الثَّاني، وأمَّا إبراهيم

(1) الطِّيبي، فتوح الغَيب: 5/231.
(2) وهبة الزّحيلّي، التّفسير الوسيط: 1/414.

عليهم السلام فهو أبو الأنبياء جميعًا؛ لذلك استقلَّ كلٌّ منهما بفعل الوحي، وعطفت الجملتان على بعضهما، ودخلتا في حكم التّشبيه[1].

ضمّ أبناء إبراهيم وأسباطه إليه، مع أنّ الصّحف لم تنزل إلّا عليه:

بيان ما لإبراهيم من مآثر ورثها الكابر عن الكابر

لأنَّهم كلِّفوا بالعمل بما أنزل على إبراهيم عليه السلام فهم داخلون تحت شريعته، والمعنى في الآية: أوحينا إليك القرآن، كما أوحينا إلى إبراهيم، و"كما أوحينا إلى ابنه إسماعيل، وابنه إسحاق، وكما أوحينا إلى يعقوب بن إسحاق، وكما أوحينا إلى الأسباط وهم أولاد يعقوب"[2].

دلالة تقديم (عيسى) على (أيُّوب)، مع تقدُّمه في الزَّمان عليه:

يقدّم النّبيّ في الذّكر والثناء، بتميّزه في الاصطفاء والعطاء

قدَّم عيسى عليه السلام على من بعده تحقيقًا لنبوّته، وقطعًا لما ذكره اليهود فيه[3] وردًّا على اليهود الَّذين كفروا به، وكذَّبوه، وأنّه روح الله ومعجزة الخلّاق القدير، الّذي أوجده من أمّ بلا أب، وكان محور الجدل حيًّا وميّتًا، ونال من الشّهرة الواسعة، وحاز من الأتباع والحواريين، مالم ينله أيّوب ولم يحزه كثير من الأنبياء أمثاله، فلم يكن مستغربًا أن يقدّم عيسى على أيّوب في السّياق.

دلالة ذكر جمع من الأنبياء والرُّسل في آية واحدة:

جرى الاعتقاد والعمل بأنّ لا تفريق بين الرّسل

دلَّ هذا الجمع الكريم للرُّسل على إقامة الحجَّة على مَن يفرِّقون بين رسل الله، ويقولون: نؤمن ببعضٍ، ونكفر ببعض، كيف ذلك، وكلُّهم يحملون الهداية والرَّحمة إلى عباد الله تعالى، فكيف تقبلون على بعضهم، وتكفرون ببعضهم؟ وفيه إشارة لإقامة الدَّليل العقليِّ على نبوَّته صلى الله عليه وسلم، من خلال جمع الوحي بينه وبين نوح عليه السلام والنَّبيِّين من بعده، فكما أوحى الله إليهم، واعترفتم، وصدقتم، كذلك أوحى الله إلى رسولنا صلى الله عليه وسلم[4].

(1) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 3/391.
(2) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 3/391.
(3) أبو السّعود، إرشاد العَقْل السّليم: 2/255.
(4) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 2/1010.

دلالة التَّعبير بقوله: ﴿وَءَاتَيْنَا﴾ دون قوله: (أوحينا):

يشبه الزَّبورُ القرآنَ في أنّه أنزل مثله منجَّمًا

التَّعبير بـ﴿وَءَاتَيْنَا﴾ دون (أَوْحَيْنَا)؛ لأنَّها معطوفة على ﴿وَأَوْحَيْنَآ﴾ داخلة في حكمها، ولأنَّ إيتاء الزَّبور من باب الإيحاء، أي: وكما آتينا داود زبورًا آتيناك القرآن، وإيثاره ﴿وَءَاتَيْنَا﴾ على (أوحينا) إلى داود؛ لتحقُّق المماثلة في أمر خاصٍّ، وهو إيتاء الكتاب بعد تحقُّقها في مطلق الإيحاء[1]، ولعلَّ اختصاص الزَّبور بالذِّكر؛ لأنَّه لم ينزل على داود جملة واحدة، بل نزل منجَّمًا كالقرآن[2]، وذهب البعض في تعليل ذلك إلى" أنَّ الزَّبور لم يكن من كلمات اللّه الموحَى بها، وإنَّما كانت إلهامات ومشاعر فاض بها قلب داود في مقام الولاء والخشوع للّه، فكانت ترانيم جرت على لسانه؛ ليمجِّد اللّه بها، ويرفعها إليه في صلوات خاشعة، أشبه بالمأثور من دعاء النَّبيِّ ﷺ في مواقف صلواته للّه، وتسبيحه له، ولهذا أضيفت إليه، فسمِّيت: مزامير داود"[3].

من أسرار ترتيب الأنبياء في الذّكر والتّنزّل والتّكريم:

جمَع في النّبيّ الخاتم، ما تفرّق في الأنبياء الأكارم

ذكر تعالى في هذه الآية اثنَي عشر نبيًّا بأسمائهم، وأجملَ ذكر باقيهم، وذكر بعض أولي العزم وبعضًا من غيرهم، وذكر بعضهم على التَّرتيب، وذلك أنَّه أراد أن يبيِّن أنَّه أوحى إليه، كما أوحى إليهم، وخصَّه بما خصَّ كلَّ واحد منهم به تفضيلًا له وتشريفًا، وأنَّه جرى معهم مثل ما جرى معه، فذلك من الحساب المغني بجملته عن التفصيل؛ فذكر نوحًا الَّذي هو أوَّل أولي العزم من الرُّسل والنَّبيِّين ومَن بعده مجملًا، ثمَّ فصَّل النَّبيِّين: فذكر إبراهيم الَّذي كان أوَّل النَّبيِّين من أولي العزم بعد نوح، وذكر معه من جرى منه

(1) أبو السّعود، إرشاد العَقْل السّليم: 2/255.
(2) النيسابوريّ، غرائب القرآن: 2/530.
(3) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 2/1011.

مجرى أبعاضه في كونهم تابعين له، وهم إسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط، ثمّ ذكر آخر أولي العزم: وهو عيسى، ثمَّ الأواسط: أيُّوب ويونس وهارون، ثمّ ذكر من أوتي الكتاب مجملًا: وهو داوود، فالزَّبور اسم كتابه، وأفرد ذكر موسى من حيث إنَّه خُصَّ بالتَّكلُّم، وكلُّ هذه الفضائل كانت للنَّبيِّ ﷺ [1].

المقارنة في ترتيب الأنبياء، بين ما ورد في سورتَي النِّساء والأنعام:

ترتيب الأنبياء مرتبط بالتّنزّل والإنعام على الرّسل الكرام

ترتيب الأنبياء هنا اختلف عن ترتيبهم في سورة الأنعام في قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾﴾ [الأنعام: 83 - 86]، وذلك أنّ آية النِّساء هنا نزلت ردًّا على قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ﴾ [النساء: 153]، وردًّا على قول المشركين: ﴿حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ۗ﴾ [الإسراء: 93] فبيّن هنا أنَّه لم ينزل على كلِّ الأنبياء كتابًا، بل بعضهم بوحي من غير كتاب، وبعضهم بوحي وكتاب، وبعضهم بوحي وصُحُف، فقدَّم نوحًا لعدم نزول كتاب عليه مع نبوّته، وأجمل النَّبيِّين من بعده، ثمَّ فصّلهم: فقدَّم إبراهيم لإنزال صحفه، وتلاه بمن لا كتاب له، ثمَّ قدَّم عيسى للإنجيل، ثمَّ تلاه بمن لا كتاب له، وهم: أيُّوب ومَن بعده، ثمَّ قدّم داود وزبوره، وتلاه بمن لا كتاب له ممَّن قصّهم أو لم يقصَّهم، ثمَّ ذكر موسى لبيان أنَّ تشريفه للأنبياء ليس بالكتاب، ولذلك خصَّ بعضهم بما شاء من أنواع الكرامات: إمَّا بتكليم أو إسراء، أو إنزال كتاب، أو صحيفة، فناسب هذا التّرتيب

(1) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 4/230 - 231.

ما تقدَّم. أمَّا آيات الأنعام؛ فساقها في سياق نِعَمِه على إبراهيم، ومَن ذكره مِن ذرِّيّته، ففرَّق بين كلٍّ اثنين منهم، بما اتَّفق لهما من وصف خاصٍّ بهما: فداوود وسليمان بالملك والنُّبوَّة، وأيُّوب ويوسف بنجاتهم من الابتلاء: ذاك بالمرض، وهذا بالسِّجن، وموسى وهارون بالأخوَّة والنُّبوَّة، وزكريَّا ويحيى بالشِّهادة، وعيسى وإلياس بالسِّياحة، وإسماعيل واليسَع بصدق الوعد، ويونس ولوط بخروج كلٍّ منهما من قرية مَن بعث إليه، ونجاة يونس من الحوت، ولوط من هلاك قومه[1].

(1) ابن جماعة، كشف المعاني، ص: 143 - 145.

﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾﴾ [النّساء: 164]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

التّعقيب بأنّ من الرّسل من لم يذكر، وأنّ موسى هو الكليم من البشر

لمَّا ذكر الله ﷻ في الآية السَّابقة عددًا من الأنبياء الَّذين أُرسلوا إلى أقوامهم، وكان ذلك بالبدء مع نوحٍ (عليه السلام) والختم بأنبياء بني إسرائيل؛ جاءت هذه الآية لتبيِّن أنَّ ما ذُكر قبل ذلك، ليس العدد الكليَّ للأنبياء والرُّسل، فمنهم من قصَّ الله خبره مع قومه على الرَّسول ﷺ، ومنهم من لم يقصص الله خبره على رسولنا ﷺ.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿قَصَصْنَٰهُمْ﴾: القصُّ: تتبُّع الأثر، يقال: قصصت أثره، والقصص: الأثر، قال تعالى: ﴿فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾﴾ [الكهف: 64]، ويقال لما يبقى من الكلأ، فيُتتبَّع أثره: قصيص، والقصص: الأخبار المتتابعة، قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ﴾ [آل عمران: 62][1].

2) ﴿وَكَلَّمَ﴾: الكَلْمُ: التَّأثير المُدرك بإحدى الحاسَّتين، فالكلام مدركٌ بحاسَّة السَّمع، والكَلْمُ بحاسَّة البصر، وكَلَمْتُه: جرحته جراحةً بان تأثيرها، والكلامُ يقع على الألفاظ المنظومة وعلى المعاني الَّتي تحتها مجموعة، وعند النحويِّين يقع على الجزء منه اسمًا كان أو فعلًا أو أداة، وأيضًا هو المعنى المركَّب الَّذي فيه الإسناد التَّامُّ، وعند كثيرٍ من المتكلِّمين لا يقع إلَّا على الجملة المركَّبة المفيدة، وهو أخصُّ من القول[2].

(1) الراغب، المفردات: (قصص).
(2) الرّاغب، المفردات: (كلم)، والجرجانّي، التّعريفات، ص: 185.

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

أخبر اللّه رسوله في هذه الآية: أنَّه أَوْحى إلى رُسلٍ قد قصَّ عليه نبأهم في القرآن قبلَ أن تنزلَ هذه الآيات، وأَوْحى إلى رسل آخَرينَ، لم يَقْصُص عليه أخبارهم في كتابه، وقد خصَّ موسى عليه السلام فجعله كليمه، يكَلِّمه دون واسطةٍ.

مـن الـرّسـل - كموسى الكليم - مَن قُصّ خبره، ومنْهم منْ لم يُقصص أثرُه

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

علّة ذكر قصص بعض الأنبياء، دون بعضها الآخر:

عبَّر بالفعل ﴿قَصَصْنَٰهُمْ﴾؛ لإقامة الحجَّة على المشركين وأهل الكتاب بذكر ما يعرفون وترك ما لا يعرفون، وقصص البشر يعتريها الزّيف، ويخالطها الخيال الكاذب، المجانف للواقع، بينما قصص القرآن عن الأنبياء وأقوامهم، هي قصص صادقة، نابعة من توصيف لواقع حدث فعلا، وأنّ البحوث التّاريخيّة، قد وصلت إلى نتائج، تنطبق بصدق وواقعيّة على ما ذكره القرآن في إعجاز أثير، ووصف دقيق منقطع النّظير، وهو ما يؤكّد صدقيّة القرآن، وتطابقة مع الآثار والحفريات والأخبار، بما لا يدع مجالا للشّكّ، ولا منفذًا للطّعن في أيّ قصّة من قصص القرآن.

دلالـة التّعبير بـ (الـقـصّ) في قـولـه تـعـالى ﴿قَصَصْنَٰهُمْ﴾

دلالة حذف متعلّق ﴿قَصَصْنَٰهُمْ﴾، وأثره في المعنى:

حذف المضاف إليه اختصارًا، والمعنى: قصصنا عليك أخبارهم في القرآن من قبل إنزال سورة النِّساء، يعني: في السُّوَر الأخرى الَّتي أنزلت قبلها، وسورةُ النِّساء من أواخر السُّوَر نزولًا، والواقع أنّ القصّة الواحدة قد تذكر بصيغ شتّى في مواضع مختلفة من القرآن، ولكنّها تعرض القصّة من زوايا مختلفة، يكمّل بعضها بعضًا، في دقّة رائعة.

قـصـص سـورة النّساء يتكامل مع ما قصّه الله في ثنايا القرآن

دلالة العدول عن الظَّاهر إلى الضَّمير، في قوله: ﴿قَصَصْنَٰهُمْ﴾:

إيراد الضّمير في السّياق يعتبر تلافيا للإطناب والتّكرير

عدل عن الظَّاهر إلى الضّمير في قوله: ﴿قَصَصْنَٰهُمْ﴾؛ لسبق ذكرهم في الآية السَّابقة في قوله: ﴿۞إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ﴾ الآية، " وقولهم ﴿قَدۡ قَصَصۡنَٰهُمۡ عَلَيۡكَ﴾، أي وقصصنا رسلاً كما قالواْ، وفرّعوا عليه، إنَّ قولَه تعالَى ﴿قَدۡ قَصَصۡنَٰهُمۡ﴾ على الوجه الأوّل منصوبٌ على أنّه صفةٌ لرسلاً، وعلى الوجه الثّاني لا محلَّ له من الإعراب"[1].

سرُّ ذكر الله تعالى لهؤلاء الأنبياء دون سواهم:

كثرة الأنبياء في بني إسرائيل، علامة انحراف دائم عن التّنزيل

ذَكَرَ اللّه تَعالى هؤلاء الأَنْبياءَ الَّذينَ اشْتُهِروا عِنْدَ بَني إِسْرائيلَ؛ لِأَنَّ المَقْصودَ مُحاجَّتُهُمْ[2]، وبنو إسرائيل كثرت أنبياؤهم، لكثرة جنوحهم إلى الضّلال، ونسيانهم ما ذكّرواْ به على التّوالي، فكانت الرّسل تتعاقب فيهم، ليرجعوهم إلى الجادّة، وليذكّروهم ما نسوا من هداية اللّه وكتابه.

دلالة إيثار استعمال ﴿قَصَصۡنَٰهُمۡ﴾ دون غيرها:

القصّ قيافة الأثر بذكر تفاصيل الخبر

آثر القرآن الكريم الفعل ﴿قَصَصۡنَٰهُمۡ﴾ في هذا السِّياق؛ لأنَّه يدلُّ على تتبُّع الأثر، وهذا يعني: الإتيان بكلِّ تفاصيل القصَّة في صغيرها وكبيرها، وفي ظاهرها وفي باطنها ولا يتأتَّى ذلك من الحكاية أو الإخبار؛ لأنَّه لا يلزم فيهما الإتيان بكلِّ التَّفاصيل، وممَّا يؤكِّد ذلك حرص القرآن الكريم على هذه المادَّة اللُّغويَّة (قصص) في حديثه عن قصص السَّابقين؛ فيقول سبحانه في قصَّة يوسف (عليه السلام): ﴿نَحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ﴾ [يوسف: 3]، وقال ربُّنا عن القصص كلِّه: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡقَصَصُ ٱلۡحَقُّۚ﴾ إلى غير ذلك من الآيات الَّتي ورد فيها لفظ القصص، وفي هذا دليل على صدق نبوَّته صلى الله عليه وسلم.

(1) أبو السّعود، إرشاد العَقْل السّليم إلى مزايا الكتاب الكريم: 2/225.
(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/35.

دلالة التَّنكير في قوله تعالى: ﴿وَرُسُلًا﴾:

استعمال القصص القرآنيّ للّفظ الأثير في المكان الجدير

جاء التَّنكير؛ ليدلَّ على كثرة الرُّسل الَّذين قصَّ الله نبأهم في القرآن الكريم على رسولنا - ﷺ، وذلك واضحٌ في آيات القرآن، حيث ذكر قصَّة آدم (عليه السلام)، وهو أبو البشريَّة منتهيًا إلى قصَّة عيسى (عليه السلام)، وهو آخر أنبياء بني إسرائيل، وقد وردت قصص كثيرة في محكم التّنزيل، وجاءت القصّة الواحدة في مواضع شتّى من القرآن، في روعة إحكام، ومتانة سبك، وقوّة بلاغة، ومتانة أسلوب.

دلالة الإتيان بـ ﴿قَدْ﴾ في قوله: ﴿قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ﴾:

القصص القرآنيّ، صدق ودقّة وعبر

دلَّ الإتيان بـ ﴿قَدْ﴾ على تحقيق القصِّ كاملًا بكلِّ صوره وأشكاله، حتَّى لا يبقى لمتوهِّم توهُّم، في ذكر بعض مشاهد القصص دون بعضه، وفي هذا ردٌّ على اليهود في عدم اعترافهم بنبوَّته ﷺ، و"المعنى على حَذْف مضاف، أي: قصصنَا أخبارَهُمْ، فيكون ﴿قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ﴾ لا محلَّ له؛ لأنّه مفسِّرٌ لذلك العاملِ المضمَرِ، ويُقَوِّي هذا الوجه قراءةُ أبَيٍّ: (وَرُسُلٌ) بالرّفع في الموضعين، والنّصبُ هنا أرجحُ من الرّفع؛ لأنّ العطف على جملة فعليّة، وهي: ﴿وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا﴾"[1]، وتبقى (قد) والجملة الفعليّة بعدها، تؤكّد ملمحيّة القصّ بالحقّ، لمزيد من التّدليل على صدق القرآن، ومصداقيّة سيّد ولد عدنان.

دلالة التَّعبير بـ (نون العظمة) في قوله: ﴿قَصَصْنَٰهُمْ﴾:

لا يحيط بعلم غابر الزّمان إلّا مسيِّر الأكوان

التَّعبير بـ (نون العظمة) له دلالة واضحة في هذا السِّياق، ذلك أنَّ سير الأنبياء مع أقوامهم ممتدَّة في تاريخ الزَّمان وتعاقب الأيَّام، ولا يدَّعي أحد أنَّه عايش هذا الزَّمان بطوله وعمقه، حتّى يخبر بما فيه؛ فإذا ثبت عجز البشر؛ فلا يبقى إلَّا ربُّ البشر الَّذي خلق

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/35، وقراءة أبيّ رضي الله عنه هذه: قراءة شاذّة.

الزّمان والمكان وما فيهما. وفيه إشارة بالرَّدِّ على كفَّار مكَّة الّذين قالواْ: إنَّ هذا القصص من باب أساطير الأوَّلين.

دلالة عدم ذكر العامل في قوله: ﴿وَرُسُلًا﴾:

تقدير عامل النّصب يرجّح المعنى المقصود

لم يُذكر عامل النَّصب، وتقديره: أرسلنا رسلًا، والقرينة عليه قوله سبحانه: ﴿أَوْحَيْنَآ﴾ السَّابق لاستلزامه الإرسال، وهو معطوفٌ عليه، داخلٌ معه في حكم التَّشبيه[1].

سرُّ التَّعبير بالجارِّ والمجرور في قوله تعالى: ﴿عَلَيْكَ﴾:

الإخبار بالقصص من علم الله المنزل، لنبيّ الختام المرسل

عبَّر القرآن الكريم بالجارّ والمجرور ﴿عَلَيْكَ﴾؛ لإفادة علوِّ قدره ﷺ، وعلوِّ قدر ما أُنزل عليه. وفيه إشارة إلى إعلامه ﷺ، بأخبار إخوانه من الأنبياء والرُّسل، وهذا يدلُّ على عظيم قدره عند ربِّه، حيث جمع له كلَّ العلوم المتعلِّقة بالأنبياء مع أقوامهم.

فائدة الإتيان بقوله تعالى: ﴿مِن قَبْلُ﴾:

القصص القرآن حقّ ورشد، من قبل ومن بعد

لمَّا كانت صيغة الفعل الماضي قد تستعمل في المستقبل للدَّلالة على تحقُّق الوقوع، كما في قوله سبحانه: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ [النّحل: 1]، ومعلوم أنَّه لم يأتِ بعد؛ فلدفع هذا التَّوهُّم قيَّد الفعل الماضي ﴿قَصَصْنَٰهُمْ﴾ عليك بقوله: ﴿مِن قَبْلُ﴾، والمراد: من قبل هذه السُّورة، وذلك كما وقع في سورة الأنعام وسورة هود والشُّعراء وغيرهم من السُّور المكيَّة، وفي هذا إشارة إلى أنَّ ترتيب السُّور في القرآن ترتيب معجز؛ لأنَّ السُّور الَّتي سبق الحديث عنها مكيَّة، وسورة النِّساء مدنيَّة، ومعلوم أنَّ المكيَّ نزل قبل المدنيِّ؛ فكانت القبْليَّة هنا دقيقة في موضعها.

دلالة التَّعبير بقوله: ﴿وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾:

ذكر قصص بعض الرّسل، مُغنٍ عن ذكر الباقين

وَإِنَّما تَرَكَ اللهُ أَنْ يَقُصَّ عَلى النَّبيِّ ﷺ أَسْماءَ كَثيرٍ مِنَ الرُّسُلِ لِلاكْتِفاءِ بِمَنْ قَصَّهُمْ عَلَيْهِ؛ لِأَنَّ المَذْكورينَ هُمْ أَعْظَمُ الرُّسُلِ والأَنْبِياءِ

(1) الآلوسّي، روح المعاني: 3/192.

قَصَصًا ذاتَ عِبَرٍ[1]. ولِأَنَّ حِكْمَةَ ذِكْرِ الرُّسُلِ، وَفَوائِدَ بَيانِ قَصَصِهِمْ لَهُ ﷺ لا تَتَحَقَّقُ بِقَصَصِ أُولَئِكَ المَجْهولِ حالُهُمْ وَحالُ أُمَمِهِمْ، عِنْدَ قَوْمِهِ وَجيرانِ بَلَدِهِ مِنْ أَهْلِ الكِتابِ[2].

دفع توهُّم تعارض آيتي النّساء وهود، بالقصّ وعدمه:

تثبيت فؤاد النّبيّ ﷺ، من أعظم مقاصد القصص القرآنيّ

النَّاظر في الآيتين لا يجد بينهما تعارضًا؛ لأنَّ آية سورة النِّساء مبنيَّة على ذكر الرُّسل الَّذين لهم قصص مع أقوامهم تحمل العِبَر والعظات، وهذا لا يعارض قوله تعالى: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ [هود: 120]؛ إذ المعنى: وكلُّ نبأ نقصُّه عليك من أنباء الرُّسل هو ما نُثَبِّتُ بِهِ فُؤادَكَ فـ (ما) في موضع رفع خبر لمبتدأ محذوف، فلا يقتضي اللَّفظ قصَّ أنباء جميع الأنبياء، كما أنَّ المراد بالكلِّ هنا بعضٌ منهم، كما في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا﴾ [البقرة: 260]، وقوله تعالى: ﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ [النَّمل: 23][3].

سرُّ الجمع بين الإثبات والنَّفي فيما قصّ ومالم يقصص:

لله حكمة فيما قَصَّ، وله حكمة فيما لم يَقْصُصْ

في قوله: ﴿قَصَصْنَٰهُمْ﴾، و﴿لَّمْ نَقْصُصْهُمْ﴾: طباق السَّلب؛ لأنَّ الثَّاني منفيٌّ، وهو مع ذلك يفيد الدِّلالة على عموم الأنبياء بوضوح، ووضوح الكلام وجماله بذكر الشَّيء وضدِّه، والطِّبق أكسب الجملة إيقاعا جذّابا، ونغمة دالّة على المقصود بجمال وروعة.

دلالة التَّعبير بـ ﴿لَّمْ﴾ دون (لن) في قوله: ﴿لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾:

نفي الخاصّ لا يستلزم نفي العامّ

التَّعبير بـ ﴿لَّمْ﴾ دون (لن) في قوله: ﴿لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾، يرفع توهُّم عدم علمه ﷺ بأعداد الأنبياء والرُّسل؛ لأنَّه ورد في الخبر أنَّ الرُّسل ثلاثمئة وثلاثة عشر، والأنبياء مئة ألف وأربعة وعشرون ألفًا مع اختلاف الرِّوايات في العدد، وعلى ذلك فلا تنافي بين الآية

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/35.
(2) رضا، تفسير المنار: 6/58.
(3) الرازي، أسئلة وأجوبة عن غرائب آي التنزيل، ص: 214.

وما ورد في الخبر؛ لأنَّ نفي قصِّهم من قبل لا يستلزم نفي قصِّهم مطلقًا؛ لأنَّ نفي الخاصِّ لا يستلزم نفي العامِّ؛ فيمكن أن يكون قصُّهم عليه ﷺ بعد، فعلمهم، فأخبر بما أخبر، على أنَّ القبْليَّة تفهم من الكلام ولو لم تكن في القابل؛ لأنَّ (لم) في المشهور إذا دخلت على المضارع؛ تقلب معناه بالمضيِّ، على أنَّ القصَّ ذكر الأخبار، ولا يلزم من نفي ذكر أخبارهم له - عليهم السلام - نفي ذكر عددهم مجرَّدًا من ذكر الأخبار والقصص، ولذلك لم تستعمل (لن)؛ لأنَّها تفيد النَّفي المؤبَّد، وبذلك اندفع توهُّم بعض من توهَّم أنَّ الآية نصٌّ في عدم علمه ﷺ بعدد الأنبياء والرُّسل[1].

دلالة العدول عن العطف إلى ذكر الفعل، في قوله: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا﴾:

تكليم موسى عليه السلام، من علوّ القدر وشرف المقام

عدل القرآن عَنِ العَطْفِ إلى ذِكْرِ الفِعْلِ ﴿وَكَلَّمَ﴾؛ لِأَنَّ لِهَذا النَّوْعِ مِنَ الوَحْيِ مَزِيدَ أَهَمِّيَّةٍ، وهو مَعَ تِلكَ المَزِيَّةِ لَيْسَ إِنْزالَ كِتابٍ مِنَ السَّماءِ[2]، وفيه بيان ما خَصَّ به موسى عليه السلام من التّكليم من بين سائر الأنبياء باستثناء نبيِّنا ﷺ، وهذا منتهى مراتب الوحي، ولم يكن ذلك قادحًا في نبوَّة سائرِ الأنبياء - عليهم السلام - فكيف يُتوهَّم كونُ نزول التَّوراة عليه جملةً قادحًا في صحَّة نبوَّةِ من أنزل عليه الكتابُ مفصّلًا؟

دفع توهُّم أفضليَّة موسى المكلّم، على نبيِّنا المعظّم:

أوتي نبيّ الختام، ما لم يؤته أحد من الأنام

قوله تعالى: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا﴾، مع أنَّه يدلُّ على منتهى مراتب الوحي، فلا مرتبة فوقه في العلوِّ، حيث كان التكلُّم بلا واسطة ملك؛ فلا يلزم من ذلك التَّفضيل على نبيِّنا ﷺ، لأنَّ الله فضَّله بأن أعطاه مثل ما أعطى كلَّ واحد من الأنبياء، وزاد عليهم[3]: حيث كان تكليم موسى بالوادي المقدّس وعلى جبل الطُّور، وكان تكليم رسول

(1) الآلوسي: روح المعاني: 6/17.
(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/35.
(3) الشّربيني، السّراج المنير: 1/346، وأبو السّعود، إرشاد العَقْل السّليم: 2/256.

اللّه ﷻ قاب قوسين أو أدنى في السَّماء العليا، كما في أوَّل سورة النّجم. فأوحى اللّه تعالى إلى رسوله ﷺ، كما أوحى لباقي الأنبياء (عليهم السلام)، ومنهم: نوح وإبراهيم وعيسى، وآتاه القرآن، مثل ما آتى داود الزَّبور، وكلَّمه، كما كلَّم موسى، ورفعه إلى مكان أعلى ممَّا رفع عليه موسى، وكلُّ هذه الأشياء - الَّتي ينبغي الإيمان بها - أعطاها اللّه تعالى للرَّسول ﷺ، فسقطت بذلك حجَّة الكافرين[1]، ويمكن أن يقال: إنَّ ما خصَّ اللّه به موسى هو تخصيص إضافيٌّ؛ لأنَّ اللّه فضَّل نبيِّنا ﷺ، بأن أعطاه ما لم يعطِ أحدًا قبله؛ كالرُّؤيا على ما قيل، وغير ذلك[2].

دلالة الإتيان بالمصدر في قوله تعالى: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا﴾:

أتى بالمصدر ﴿تَكۡلِيمٗا﴾؛ لتأكيد الفعل، وبيان أنَّه تكليم مباشر ومن وراء حجاب، وليس بواسطة مَلَك، وليعلم أنَّ اللّه كلَّمه حقيقة وخاطبه خطابًا، وليحسم توهُّم المجاز، والتَّكلُّمُ صفة للّه تعالى حقيقة من غير كيفيَّة[3]، قالَ الفَرَّاء: "العَرَبُ تُسَمِّي ما وَصَلَ إِلى الإِنْسانِ: كَلامًا، بِأَيِّ طَريقٍ وَصَلَ، ما لَمْ يُؤَكَّدْ بِالمَصْدَرِ، فَإِذا أُكِّدَ به؛ لَمْ يَكُنْ إِلَّا حَقيقَةَ الكَلامِ"[4].

إثبات الحقيقة ونفي المجاز في التّكليم الّذي فُضِّل به موسى وفاز

دلالة الجمع بين الفعل والمصدر في قوله: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا﴾:

جُمع بينهما؛ لإبراز بعض مواطن الجمال في الآية، الَّتي تجمع بين جمال المبنى والمعنى، ومن ذلك ما بين ﴿وَكَلَّمَ﴾، ﴿تَكۡلِيمٗا﴾: من جناس اشتقاق مغاير؛ لاتِّفاقهما في مادَّة (كلم)، وإحدى الكلمتين اسمٌ، والأخرى فعلٌ.وفي ﴿تَكۡلِيمٗا﴾، ﴿حَكِيمٗا﴾ سجع مطرَّف، حيث تتَّفق الفاصلتان في التَّقفية، وتختلفان في الوزن.

السّجع المطرَّف، وأثره في جمال الجملة

(1) د.فاضل السّامرائي، لمسات بيانية لسور القرآن الكريم.
(2) القونويّ، حاشية القونويّ على البيضاويّ: 7/361.
(3) الجُرجانّي، دَرْجُ الدُّرر: 2/644.
(4) أبو السّعود، إرشاد العَقْل السّليم: 2/256.

﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ١٦٥﴾ [النّساء: 165]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

بيان أنّ الرّسل المذكورين مبشّرون ومنذرون، فلا عذر بعد بلاغ

ولمّا أورد مواكب الأنبياء والمرسلين في الأمم السّابقة، مَن سمَّى منهم، ومن لم يُسَمِّ منهم؛ بيّن في هذه الآية: أنَّهم قاموا بما أمرهم اللّه به من البشارة والنِّذارة، وأنَّه لم تبق حجَّة لمحتجٍّ أن يقول: ﴿مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٖ وَلَا نَذِيرٖۖ﴾ [المائدة: 19].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿حُجَّةُۢ﴾: أصل الحجِّ: القصد، والحُجَّةُ: الدَّليلُ والبُرْهانُ، والوَجْه الَّذي يكون بِهِ الظّفر عِنْد الخُصومَة، وَالدَّلالة المبيِّنة للمحَجّة، أي: المقصد المستقيم الَّذي يقتضي صحَّة الأمر، وَإِنَّما سمِّيت حُجَّة؛ لِأَنَّها تُحَجُّ، أَي: تُقصَد؛ لِأَنّ القَصْد لَها وإليها، وَكَذَلِكَ مَحَجَّة الطَّريق: هِيَ المَقْصد والمسلك[1].

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

ما من رسول إلّا بَشَّرَ وذكّر، وحينها قد أعذر من أنذر

هؤلاء الرُّسل أرسلهم اللّه إلى النّاس مبشِّرين لأهل الطَّاعة بسعادة الدّارين، ومنذرين للعصاةِ والمكذِّبين بالشَّقاء في الدّارين؛ وذلك حتّى لا يكونَ للنَّاس أيُّ عُذرٍ يحتجُّون به عند اللّه بعدَ إرساله الرُّسل: ﴿فَيَقُولُواْ رَبَّنَا لَوۡلَآ أَرۡسَلۡتَ إِلَيۡنَا رَسُولٗا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٤٧﴾ [القصص: 47]، وكان اللّه عزيزًا لا يغلبه متعنِّت ولا مكابر، حكيمًا في كل صنع صنعه.

(1) الخَليل، العَين، والأزهري، تهذيب اللغة، والرَّاغب، المفردات، والسّمين، عمدة الحُفّاظ، وابن منظور: (حجّ)، لسان العرب: (حجج).

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالة الجمع بين البشارة والنِّذارة، في قوله تعالى: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾:

لا حجَّة للعباد على الله، بعد إرسال الرُّسل بهداه

جمع بينهما للدَّلالة على بيان مهمَّة الرُّسل في البشارة والنِّذارة، فقوله: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ﴾، أي: مخبرين أقوامهم بما يسرُّهم، والسُّرور يؤدِّي إلى تغيُّر يبدو على وجه الإنسان وبشَرَته، ﴿وَمُنذِرِينَ﴾: من الإنذار، وهو: الإعلام المصاحَب بالتَّخويف، والزَّجر عن القبيح، وهذا مناسب لوظيفة الرسل، بخلاف الأنبياء؛ فوظيفتهم بين قومهم إظهار الصلاح؛ ليكونوا قدوة بين قومهم، فيسترشد بهم من سلمت فطرته، ويقتدي بهم من يريد الصَّلاح.

دلالة حذف متعلَّق قوله تعالى: ﴿مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ في الآية:

من زاوَلَ الصّالحات نجا، ومن اقترف السّيئاتِ هلك

حذف متعلَّق مبشِّرين اختصارًا، والتّقدير: مبشِّرين المؤمنين الّذين يعملون الصّالحات بالجنَّة، والنَّجاة من النَّار، فيكون الثَّواب لمن أطاع، وحذف متعلَّق منذرين اختصارًا، والتَّقدير: منذرين الكافرين والعاصين وغيرهم بالنَّار، فيكون العقاب لمن عصى، وقد "نصب على المدحِ أو بإضمار أرسلنا أو على الحال، بأن يكون رسلاً موطئاً لما بعده أو على البداية من رُسلاً الأوّلِ أي مبشّرين لأهل الطّاعةِ بالجنّة ومنذرين للعُصاة بالنّار"[1].

دلالة تقديم مبشِّرين على منذرين في قوله: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾:

من مقاصد الإسلام تقديم البشارة على النّذارة

قدَّم البشارة على النِّذارة؛ لأنَّها تسعد القلوب وتطيِّب الخواطر، وتجعل المدعوِّين يقبلون على ما يلقيه النَّبيُّ ﷺ، عليهم، ويشير إلى اطمئنان المكلَّف بثواب ما يفعله من الطَّاعة، ولأنَّ البشارة وعد، والإنذار وعيد، والوعد مقدَّمٌ على الوعيد.

سرُّ التَّعبير بالرُّسل دون النَّبيِّين، عكس ما في سورة البقرة:

آثر التَّعبير بالرُّسل هنا، وبالنَّبيِّين في سورة البقرة؛ لأنَّ

(1) أبو السّعود، إرشاد العَقْل السّليم إلى مزايا الكتاب الكريم: 2/256.

التّخصيص في السّياق يؤكّد خصوصيّة الأمّة المحمّديّة

السِّياق مختلف؛ فسياق سورة البقرة مبنيٌّ على العموم بدليل قوله سبحانه: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ [البقرة: 213]؛ لذلك ناسب التَّعبير بالنَّبيِّين دون المرسلين؛ لأنَّ النَّبيَّ أعمُّ من الرّسول؛ فناسب العموم في النَّبيِّين العموم في لفظ (أمَّة)؛ أمَّا موضع سورة النِّساء؛ فمبنيٌّ على التَّخصيص؛ لأنَّه سبق هذا الموضع قوله تعالى: ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ﴾ الآية؛ فناسب التَّعبير هنا بالرُّسل للتَّوافق في السِّياق وتأكيد التَّخصيص.

دلالة الإتيان بقوله: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾:

حجّة الكفران بعد بلاغ الرّسل داحضة

جاءت هذه الجملة لتشير إلى لطف اللّه ورحمته بعباده، حيث لم يدعهم إلى عقولهم؛ ليتعرَّفوا عليه سبحانه، بل رفد هذه العقول بذلك النُّور الهادي الَّذي حمله إليهم رسل اللّه؛ ليكونوا على هدًى وبصيرة؛ فلا عذر لمعتذر ولا حجَّة لكافر[1].

دلالة التَّعبير بلفظ النَّاس في قوله: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ﴾:

الإسلام دين الحقائق، وحجّته قائمة على كلّ الخلائق

جاء التَّعبير القرآنيُّ بلفظ النَّاس؛ لإفادة الاستغراق، فيشمل النَّاس جميعًا، المشركين وأهل الكتاب من اليهود والنَّصارى؛ فالكلُّ مطالبٌ بالإيمان باللّه ورسله، فلا حجّة لهم، أي لا "مَعذرةٌ يعتذرون بها قائلين لَوْلا أرسلتَ إِلَيْنَا رَسُولاً، فيبيّنَ لنا شرائعَك، ويعلّمنا ما لم نكن نعلم من أحكامك، لقصور القوةِ البشريةِ عن إدراك كلياتِها[2].

دلالة التَّعبير بلفظ ﴿حُجَّةٌۢ﴾، دون لفظ (احتجاج):

الحجّة مبكّتة للمخالف

جاء التَّعبير القرآنيُّ بلفظ ﴿حُجَّةٌۢ﴾ دون أن يقول: (احتجاج)؛ لأنَّ الحجَّة في كلام العرب ما يقصد به إثبات المخالف، بحيث لا يجد منه تخلُّصًا، ولذلك يقال للَّذي غلب مخالفه بحجَّته: قد حجَّه، وأمَّا الاحتجاج؛ فهو إتيان المحتجِّ بما يظنُّه حجَّة، ولو مغالطة، يقال:

(1) الخطيب، التّفسير القرآنّي للقرآن: 2/1012.

(2) أبو السّعود، إرشاد العَقْل السّليم إلى مزايا الكتاب الكريم: 2/256.

احتجَّ، ويقال: حاجَّ؛ إذا أتى بما يظنُّه حجَّة، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ﴾ [البقرة: 258]؛ فالحجَّة لا تطلق حقيقة إلَّا على البرهان والدَّليل النَّاهض، المبكت للمخالف[1].

دلالة الإطناب في قوله: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ﴾:

الإطناب المفيد في السّياق يجلي المعنى ويجمّله

في الجملة إطناب، حيث عبَّر عن المقصود بلفظ زائد عليه لفائدة، وهي بيان العلَّة في البشارة والنِّذارة، "وهذا من كمال عزّته تعالى وحكمته، أن أرسل إليهم الرّسل، وأنزل عليهم الكتب، وذلك أيضا من فضله وإحسانه، حيث كان النّاس مضطرّين إلى الأنبياء أعظم ضرورة، تقدّر، فأزال هذا الاضطرار، فله الحمد وله الشّكر"[2].

سرُّ التَّعبير بحرف الاستعلاء، في قوله: ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾:

ما كان على الله فهو أمان وفلاح

عبّر بأداة الاستعلاء ﴿عَلَى﴾؛ ليفيد أنَّ المراد بالحجَّة: هي الحجَّةُ واجبةُ القبول، على المَلك الَّذي اختصَّ بجميع صفات الكمال، في ألَّا يعذِّب عصاتهم؛ لأنَّ الحُجَّة قد تطلق على مطلق العذر، ولو كان مردودًا[3]، و" هو إشارة إلى ألطاف اللّه، ورحمته بعباده، حيث لم يدعهم إلى عقولهم ليتعرّفوا إليه، ويستقيموا على سبيله، بل رفد هذه العقول، بذلك النّور الهادي الّذي حمله إليهم رسل اللّه، لتكون رؤيتهم لآيات اللّه واضحة، وطريقهم إليه مشرقا"[4].

دلالة التّنكير في قوله: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ﴾:

عدلُ الله تعالى أن لا حجّة بعد إقامة الحجّة

جاء لفظ الحُجَّة منكَّرًا؛ لقطع معاذير النَّاس، فلا يجدون عذرًا، يعتذرون به قائلين: ﴿لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا﴾ [طه: 134]؛ لذلك كان المراد إقامة الحجَّة البيِّنة والدَّلالة القاطعة الَّتي تدلُّ عَلى صِدْقِ

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 2/46.
(2) السّعديّ: تيسير الكريم الرّحمن في تفسير كلام المنّان، ص: 214.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرَر: 2/372.
(4) عبد الكريم الخطيب، التّفسير القرآنّي للقرآن: 3/1012.

المُدَّعي وَأَحَقِّيَّةِ المُعْتَذِرِ، لأنَّها تَقْتَضي عَدَمَ المُؤَاخَذَةِ بِالذَّنْبِ أَوِ التَّقْصيرِ، والمُرادُ هُنا: العُذْرُ البَيِّنُ الَّذي يوجِبُ التَّنَصُّلَ مِنَ الغَضَبِ والعِقابِ[1]، "فإذا أخذ الكافر بكفره، فذلك هو الحكم الّذي حكم به الكافر على نفسه، ورضيه لها، فلا عذر لمعتذر، ولا حجّة لكافر"[2].

دلالة التَّعبير بقوله تعالى: ﴿بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ﴾:

حكم أهل الفترة وكلِّ من لم تبلغه الدَّعوة

دلَّ هذا التَّعبير على أن اللّه تعالى يحبُّ الإعذارَ من النَّاس؛ ولذلك أرسل الرُّسل: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ﴾، ولولا إرسالُ الرُّسل؛ لكان للنّاس أن يحتجُّوا في الآخرة على عذابهم، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولٗا ١٥﴾ [الإسراء: 15]، وهذا حكم أهلِ الفَترة وكلِّ مَن لم تَبلُغْه الدَّعوة[3]، فاللّه منصف لعباده، رحيم بهم، ولا يعذّب إلّا بعد إرسال الرّسول.

دلالة الإظهار في مقام الإضمار في قَوْلِهِ: ﴿بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ﴾:

ما جرى مجرى المثل، حسُن به التّعبير وجَمُل

أظهر في مَقام الإضْمارِ، فلم يقل: (بَعْدَهُمْ)؛ لِلاهْتِمامِ بِهَذِهِ القَضِيَّةِ واسْتِقْلالِها في الدَّلالَةِ عَلى مَعْناها؛ حَتّى تَسيرَ مسْرى الأَمْثال[4].

سرُّ التَّعبير بالظَّرف ﴿بَعۡدَ﴾ دون الجارّ في (من بعد):

تقريرات الله وأحكامه تستغرق الزّمان برمّته

عبّر بالظَّرف ﴿بَعۡدَ﴾ في قوله تعالى: ﴿بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ﴾، وأسقط الجارَّ، فلم يقل: (مِنْ بَعْد)؛ ليفيد استغراقَ النَّفي لجميعِ الزَّمان الَّذي يوجد بعد إرسالِ الرُّسل وتبليغهم للنَّاس[5].

من لطائف التَّذييل بلفظي: (العزيز الحكيم):

جاء هذا التَّذييل؛ لبيان الصِّفة الإلهيَّة المتجلِّية على العباد في هذا المقام المناسب؛ لما ورد في صدر الآية من إرسال الرُّسل؛ لإقامة

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/39.
(2) عبد الكريم يونس الخطيب، التّفسير القرآنّي للقرآن: 3/1012.
(3) رضا، تفسير المنار: 6/60.
(4) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/43.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرَر: 2/372.

الحجَّة على النَّاس، "ونعلم أنّ الحقّ لا يجرّم سلوكاً إلّا بنصّ، وقبل أن يعاقب فهو يضع القواعد الّتي لا يصحّ الخروج عنها"[1].

الـلـه الـعـزيـز الـحـكـيـم، قبل أن يعاقب يُشَرِّع الضّوابط

دلالة الإتيان بوصفي العزيز والحكيم:

جاء تذييل الآية بالعزيز الحكيم؛ لأنَّه أراد أن يقطع بإرسال الرُّسل احتجاج من يقول: لو بعث إليَّ الرَّسول؛ لآمنت، فهو -تعالى- عزيزٌ، لا يغالِبه شيء، ولا حُجَّة لأحد عليه، وهو مع ذلك حكيم، تصدر أفعاله عن حكمة، فكذلك قطع الحُجَّة بالرُّسل حكمة منه تعالى[2].

لا يصلح في هذا المقام إلّا وصفا العزّة والحكمة

(1) البقاعيّ، نظم الدّرَر: 2/372.

(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/138.

﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشۡهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيۡكَۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلۡمِهِۦۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَشۡهَدُونَۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ١٦٦﴾ [النساء: 166]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

تتميم المنزل إلى الأنبياء برسالة محمّد الصّادقة والصّحيحة

لَمَّا ذكَر اللّه تعالى الوحي إلى الأنبياء والمُرسَلين - عليهم الصَّلاة والسَّلام أجمعين - في الآيات السَّابقة؛ نوَّه في هذه الآية بمزيَّةٍ للموحى به إلى رسول اللّه ﷺ، وهي شهادته تعالى على تلك الرِّسالة بصحَّتها وصِدق ما جاء فيها، كما شهدت بذلك ملائكة اللّه الأطهار، وَكَفى بِاللّه شَهيدًا على ذلك.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَشۡهَدُ﴾: الشّهود، والشَّهادة: الحضور مع المشاهدة: إمَّا بالبصر أو بالبصيرة، وقد يقال للحضور مفردًا، قال تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِۚ﴾ [الأنعام: 73]، لكن الشُّهود بالحضور المجرد أولى، والشَّهادة مع المشاهدة أولى، والشَّهادة: قول صادر عن علمٍ حصل بمشاهدة بصيرةٍ أو بصر، وشهدت: يقال على ضربين: أحدهما: جارٍ مجرى العلم، وبلفظه تقام الشَّهادة، ويقال: أشهد بكذا، والثَّاني: يجري مجرى القسم، فيقول: أشهد باللّه أنَّ زيدًا منطلق، فيكون قسمًا، وقد يُعبَّر بالشَّهادة عن الحكم نحو: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٞ مِّنۡ أَهۡلِهَآ﴾ [يوسف: 26]، وعن الإقرار، نحو: ﴿وَلَمۡ يَكُن لَّهُمۡ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمۡ فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمۡ أَرۡبَعُ شَهَٰدَٰتِۭ بِٱللَّهِ﴾ [النور: 6]، وعلى الإخبار نحو: ﴿وَمَا شَهِدۡنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمۡنَا﴾ [يوسف: 81]، أي: ما أخبرنا.

وعلى هذا فالشَّهادة في الشّريعة: إخبارٌ عن عيان بلفظ الشَّهادة في مجلس القاضي بحقٍّ لآخر على آخر؛ فالإخبارات ثلاثة: إمَّا

بحقٍّ لآخر على آخر، وهو الشَّهادة، أو بحقٍّ للمخبر على آخر، وهو الدَّعوى، أو بالعكس، وهو الإقرار[1].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

شـهـادة الـلـه والملائكة بصدق مـا أنـزل على محمّد ﷺ

في هذه الآية يشهد الله على نبوَّته ﷺ، قائلًا له: إنْ يكفُرْ بك مَن كفَر، ويجحد بأنَّ الله ما أنزل على بشر من شيء بعد موسى عليه السلام فإنَّ الله يَشهَدُ بما أَنزله عليك من كتاب عظيم، هو القُرآن الكريم، فإنَّه أَنزله تعالى بعِلمه، والملائكةُ كذلك يَشهدونَ على صِدق ما جِئتَ به؛ فلا يَحْزُنْكَ تكذيبُ مَن كذَّب، ولا كُفرُ مَن كَفَر، وحَسْبُك بربِّك ﷻ شاهدًا على صدقك وصِدق ما جئتَ به.

❁ الإِيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالة الابتداء بالاستدراك، في قوله: ﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشۡهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيۡكَۖ﴾:

شـهـادة الـلـه لا تعدلها شهادة

معلومٌ أنَّ (لكن) لا يبتدأ بها؛ لأنَّها استدراك على ما سبق، ولكنَّه بدأ بها هنا؛ لأنَّ هذه الآيات بأسرها جوابٌ عن قوله: ﴿يَسۡـَٔلُكَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيۡهِمۡ كِتَٰبٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِۚ﴾ [النساء: 153]، وهذا الكلام من اليهود يتضمَّن أنَّ هذا القرآن ليس كتابًا نازلًا عليهم من السَّماء، فكأنَّه قيل: إنَّهم وإن شهدوا بأنَّ القرآن لم ينزل عليه من عند الله، لكن الله يشهد بأنَّه نازلٌ عليه منه سبحانه.

وافتتح بها - أيضًا- ردًّا على اعتراضهم على نبوَّته، لمَّا قال القرآن له: ﴿۞إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ﴾؛ قالوا: ما نَشْهَدُ لَكَ بِهَذا، فنزل: ﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشۡهَدُ﴾، وَشَهادَةُ الله خَيْرٌ مِنْ شَهادَتِهِمْ؛ لأنَّه شهد بِما أَنْزَلَهُ إِلَيْهِ، وفي ذلك: إِثْباتٌ بِإِظْهارِ المُعْجِزاتِ، كَما تَثْبُتُ الدَّعاوى بِالبَيِّناتِ[2].

(1) الشّريف الجرجانّي، التّعريفات، 129.

(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/592، وأبو حيّان، البحر المحيط: 1/101، 4/140، وابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/44.

المجاز المرسل في التَّعبير عن نزول القرآن بالشَّهادة:

شهادة الله للقرآن بالصّدق وللرّسول بالنّبوّة

عبَّر القرآن عن النُّزول بالشَّهادة على سبيل المجاز المرسل؛ لأنَّ القرآن الكريم معجزٌ في لفظه وفي معناه، فعجز الأوَّلون والآخرون عن معارضته، فكان ذلك إعجازًا للقرآن، وإظهار المعجزة شهادة بكون المدَّعي صادقًا، ولمَّا كانت شهادته إنَّما عرفت بواسطة إنزال القرآن، لا جرم إن قال: ﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشۡهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيۡكَۖ﴾، أي: يشهد لك بالنُّبوَّة بواسطة هذا القرآن الَّذي أنزله إليك[1].

دلالة ﴿لَّٰكِنِ﴾ في قوله تعالى: ﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشۡهَدُ﴾:

الاستدراك نتيجة عناد أهل الكتاب وغلوّهم

لَكِنْ: حَرْفُ اسْتِدْراكٍ، يخالف ما قَبْلَه ما بَعْدَه، والاسْتِدْراكُ بـ﴿لَّٰكِنِ﴾ يَقْتَضي تَقَدُّمَ جُمْلَةٍ مَحْذوفَةٍ؛ لِأَنَّ (لَكِنْ) لا يُبْتَدَأُ بِها، فالتَّقْديرُ ما رُوِيَ في قصَّة الآية، وهي أنَّ أهل الكتاب سألوه إنزالَ الكتابِ من السَّماءِ، وتعنّتوا بذلك.

دلالة التَّعبير بالإظهار في مقام الإضمار، في الآية:

ورود لفظ الجلالة زجر للمعاندين، وتثبيت للمؤمنين

عبَّر بالإظهار بلفظ الجلالة (الله) دون الإضمار؛ فلم يقل: لكنَّه يشهد؛ لأنَّ المقام هنا مقامُ ردٍّ على المنكرين والمتعنِّتين من أهل الكتاب الَّذين طلبوا أن ينزل عليهم كتابًا من السَّماء جملة واحدة؛ فالإظهار مناسبٌ لزجرهم وردعهم عن تعنُّتهم، وفيه إشارة إلى إثبات نبوَّته ﷺ، وشهادة لشريعته بالصّحّة والصّدق.

دلالة التَّعبير بالشَّهادة دون العلم، في قوله: ﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشۡهَدُ﴾:

الشَّهادة تجري مجرى القسم على صدق النّبوّة

عبَّر بالشَّهادة في قوله: ﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشۡهَدُ﴾؛ لأنَّ الشَّهادة أعمُّ من العلم، فكلُّ شهادة فيها علم، ولا يلزم في كلِّ علم شهادة، ويؤكِّد هذا ما ذكره الرَّاغب بقوله: "والشَّهادة: قول صادرٌ عن علمٍ حصل بمشاهدة بصيرة أو بصر". وأيضًا إنَّه في موطن إقامة الحجَّة لا

(1) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 6/102.

يكتفى من الشَّاهد أن يقول: أعلمُ، بل يحتاج أن يقول: أشهدُ، وهذا دليلٌ على قوَّة التَّعبير بالشَّهادة دون العلم، ولأنَّ الشَّهادة تجري مجرى القسم، وفي ذلك من أسباب التَّأكيد على نبوَّته ﷺ، فكأنَّ القرآن أقسم على نبوَّته.

دلالة تعدِّي الفعل ﴿يَشْهَدُ﴾ بالباء دون (على):

شهادة الله إقرارٌ بصحّة المُنْزَل ومصداقيّته على المدى

آثر القرآن الكريم تعدية الفعل ﴿يَشْهَدُ﴾، بالباء دون (على)، مع استعمال القرآن الكريم لهذا الأسلوب في قوله: ﴿قَالُواْ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَاۖ﴾، وقوله: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ﴾الآية، ﴿وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِۦ﴾، وذلك لوجود فرق بينهم؛ فالفعل (شهد): إذا تعدَّى بـ (على)؛ فيعني: الإقرار والاعتراف، ومجرور (على) فيه هو المشهود ضدُّه، بخلاف شهد: إذا تعدَّى (بالباء)؛ فإنَّه يعني: الإدلاء بالشَّهادة، ومجرور الباء فيه هو منطوق الشَّهادة، وهذا هو المناسب لسياق الآية.

دلالة التَّعبير بالفعل المضارع، في قوله: ﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ﴾:

شهادته تعالى لا تحول ولا تزول

عبَّر بالفعل المضارع للدَّلالة على استمرار شهادته سبحانه، على صدق رسالته ﷺ وما أنزل عليه؛ فكلَّما اعترض المعترضون، وجادل المعاندون؛ كانت شهادة الله لرسوله المستمرَّة بمنزلة التَّثبيت والتَّقوية.

دلالة (الباء) في قوله: ﴿بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَۖ﴾:

شهادة الله بحقِّية ما أنزله، إثبات لنبوَّة محمّد ﷺ

الجارُّ والمجرور في قوله: ﴿بِمَآ أَنزَلَ﴾ متعلِّقٌ بـ ﴿يَشْهَدُ﴾، والباء صلة، والمشهود به هو الحقِّية، ويجوز أن يكون المشهود به هو النُّبوَّة، وتعلُّق ﴿بِمَآ أَنزَلَ﴾ تعلّق الآليّة، أي: يشهد بنبوَّتك بسبب ما أنزل إليك، لدلالته بإعجازه على صدقك ونبوَّتك، والمعنى فيهما مآله واحد؛ لأنَّ شهادته سبحانه بحقِّية ما أنزله من القرآن بإظهار المعجز المقصود منه إثبات نبوَّته ﷺ [1].

(1) الآلوسّي، روح المعاني: 6/19.

دلالة العدول عن الإيحاء إلى الإنزال في قوله: ﴿بِمَآ أَنزَلَ إِلَيۡكَۖ﴾:

الإنـزال خـاصٌّ، والمـقـام يناسبه التَّخصيص

عدل القرآن الكريم عن التَّعبير بقوله: (بما أوحاه إليك) إلى ﴿أَنزَلَ إِلَيۡكَۖ﴾، مع أنَّ السِّياق السَّابق استخدم التَّعبير بالفعل ﴿أَوۡحَيۡنَآ﴾ أكثر من مرَّة؛ لأنَّ المقام هنا مقام ردٍّ على المنكرين والمعاندين الَّذين طلبواْ إنزال كتاب من السَّماء غير القرآن ليؤمنوا؛ فجاء التَّعبير بالإنزال ليبطل شبهتهم، وليقيم الحجَّة على صدق ما أنزله على رسولنا ﷺ في أنَّ الكتاب الّذي أنزله هو كتاب اللّه، واللّه يشهد بإنزال كتابه، وأيضًا أنَّ الوحي عامٌّ، والإنزال خاصٌّ، والمقام يناسبه التَّخصيص دون التَّعميم.

دلالة التَّعبير بالفعل الماضي ﴿أَنزَلَ﴾ دون المضارع:

ما أنزله الله من قبل أو من بعد كلّه حقّ لا ريب فيه

عبِّر بالماضي الَّذي يفيد تمام نزوله، لتغليب ما نزل من القرآن على ما لم ينزل، وتكون الشَّهادة على ما نزل موجبة للشَّهادة على ما لم ينزل؛ لأنَّ جهة الإنزال واحدة وجهة الشَّهادة واحدة، وعليه يكون المراد بقوله: ﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشۡهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيۡكَۖ﴾ جميع القرآن لا القدر الَّذي نزل وقت محاجَّة أهل الكتاب، وفيه بشارةٌ للنَّبيِّ ﷺ، باكتمال نزول القرآن رغم عناد المعاندين، واقتراحات المكذِّبين.

دلالة تعدِّي الفعل ﴿أَنزَلَ﴾ بـ (إلى) دون (على):

تشريف المُنـزَّل مـن الـقـرآن، والمُـنـزَّل عليه بإيقان

دلَّ تعدِّي الفعل ﴿أَنزَلَ﴾ على انتهاء التَّبليغ للأمَّة؛ لأنَّ (إلى) تدلُّ على انتهاء الغاية، والانتهاء يكون من جميع الجهات، وهذا مناسب لمقام التَّبليغ، بخلاف تعدِّي الفعل بحرف الجرِّ (على) الَّتي تفيد الاستعلاء؛ فتركيبها مع الفعل ﴿أَنزَلَ﴾ يدلُّ على أنَّ النزول من جهة العلوِّ دون سائر الجهات، وهذا يدلُّ على تشريف وتكريم المُنزَّل والمُنزَّل عليه.

سرُّ التَّعقيب بقوله: ﴿أَنزَلَهُۥ بِعِلۡمِهِۦۖ﴾ على الجملة السَّابقة:

أعقب الكلام بقوله: ﴿أَنزَلَهُۥ بِعِلۡمِهِۦۖ﴾؛ لأنَّه لمَّا قال قبلها: ﴿يَشۡهَدُ

﴿بِمَآ أَنزَلَ إِلَيۡكَۖ﴾؛ بيَّن هنا صفة ذلك الإنزال، وهو أنَّه تعالى أنزله بعلم تامٍّ وحكمة بالغة[1].

القرآن منزل بعلم الله التّام، وحكمته البالغة

دلالة التَّعبير بالإضمار عن القرآن في قوله: ﴿أَنزَلَهُۥ بِعِلۡمِهِۦۖ﴾:

عبَّر بالضَّمير، وهو يعود على القرآن الكريم، وذلك لشهرته ولمعرفة أهل الكتاب به، وفي هذا إشارة إلى تفخيمه وتعظيمه، "أنزله بعلمه، بأنّك أهل للاصطفاء والإرسال، وبكلّ ما تحتاج إليه البشريّة في إكمالها وإسعادها، إذ حوى أعظم تشريع تعجز البشريّة لو اجتمعت أن تأتي بمثله"[2].

بالقرآن المنزل بعلم الله، تسعد البشريّة

دلالة (الباء) في قوله: ﴿بِعِلۡمِهِۦۖ﴾:

دلَّت (الباء) في قوله: ﴿بِعِلۡمِهِۦۖ﴾ على وصف القرآن الكريم بغاية الحسن، ونهاية الكمال، وهذا مثل ما يقال في الرَّجل المشهور بكمال الفضل والعلم؛ إذا صنَّف كتابًا محكمًا، يقال: إنَّما صنَّف هذا الكتاب بكمال علمه وفضله، يعني: أنَّه اتَّخذ جملة علومه آلة ووسيلة إلى تصنيف هذا الكتاب، ويدلُّ ذلك على وصف هذا التَّصنيف بغاية الجودة ونهاية الحسن، فكذا هاهنا يقال: إنَّ القرآن الكريم بكمال علم اللّٰه بلغ الغاية في الإعجاز[3].

القرآن الكريم بلغ في الإعجاز منتهاه، بكمال علم الله

دلالة اقتران إنزال القرآن بالعلم، في قوله: ﴿أَنزَلَهُۥ بِعِلۡمِهِۦۖ﴾:

دلَّ اقتران الإنزال بالعلم على أنَّ القرآن الكريم نزل بعلمه سبحانه، فلا يتطرَّق إليه أيُّ خلل؛ لأنَّه يعلم متى نزل، وعلى من نزل، فلا يمكن أن يقع فيه اختلافٌ أو ادِّعاء نقص أو زيادة؛ لأن اللّٰه أنزله بعلمه؛ فمن ادَّعى فيه زيادة أو نقصًا؛ فهو جاهل بحقيقة علم اللّٰه تعالى، وهذه المعاني لا تتأتَّى إلَّا من صفة العلم دون غيرها

القرآن يحوي من عِلم الله ما يريد أَنْ يُطْلِعَ العِبادَ عَلَيْهِ

(1) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 6/102.
(2) أبو بكر الجزائريّ، أيسر التّفاسير لكلام العلّي الكبير: 1/576.
(3) الرازي، مفاتيح الغيب: 6/103.

من الصِّفات. وممَّا يذكر في هذا المقام في سرِّ اختيار العلم في قوله: ﴿بِعِلۡمِهِۦۖ﴾، الإشارة إلى أنَّ القرآن فيهِ عِلمُهُ الَّذي أَرادَ أَنۡ يُطۡلِعَ العِبادَ عَلَيۡهِ، مِنَ البَيِّناتِ والهُدى والفُرۡقانِ، وَما يُحِبُّهُ اللّه، وَيَرۡضاهُ، وَما يَكۡرَهُهُ، وَيَأۡباهُ، وَما فيهِ مِنَ العِلمِ بِالغُيوبِ مِنَ الماضي والمُسۡتَقۡبَلِ، وَما فيهِ مِنۡ ذِكۡرِ صِفاتِهِ تَعالى المُقَدَّسَةِ الَّتي لا يَعۡلَمُها نَبِيٌّ مُرۡسَلٌ وَلا مَلَكٌ مُقَرَّبٌ، إِلَّا أَنۡ يُعۡلِمَه اللّه بِها، كَما قالَ تَعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ﴾ [البَقَرَة: 255][1].

اختلاف مرجع الضَّمير واختلاف الإعراب في ﴿بِعِلۡمِهِۦۖ﴾:

من بلاغة القرآن المحكم، كثرة المعاني مع قلَّة الكلام

﴿بِعِلۡمِهِۦۖ﴾ في موضع نصب على الحال: إمّا من المفعول: وهو الهاء في ﴿أَنزَلَهُۥ﴾، أي: أنزله ملتبسًا بعلمه، أو معلومًا، أو أنزله، وهو معلومُه، أو من الفاعل، وهو المستتر في ﴿أَنزَلَهُۥ﴾، أي: أنزله، وهو عالم بأنَّك أهل لإنزاله إليك، أو أنزله، وهو عالم به، رقيب عليه، حافظ له، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ٩﴾ [الحِجر: 9][2].

دلالة عطف شهادة الملائكة على شهادة الله في قوله: ﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَشۡهَدُونَۚ﴾:

عناية الله سبحانه برسوله الأكرم، وبمَرْسولِه الأعظم

قوله تعالى: ﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَشۡهَدُونَۚ﴾، عُطِفَت شَهادَةُ المَلائِكَةِ عَلى شَهادَةِ اللّه؛ لِزِيادَةِ تَقۡريرِ هَذِهِ الشَّهادَةِ بِتَعَدُّدِ الشُّهودِ، وَلِأَنَّ شَهادَةَ اللّه مَجازٌ في العِلمِ، وَشَهادَةَ المَلائِكَةِ حَقيقَةٌ، وكثرة سوق الأدلَّة على إثبات الشَّيء تدلُّ على العناية به، وعلى عظم المشهود عليه؛ لأنَّ الأمور العظيمة لا يستشهد عليها إلَّا الخواص؛ كما قال تعالى في الشَّهادة على التَّوحيد: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلۡعِلۡمِ قَآئِمَۢا بِٱلۡقِسۡطِۚ﴾ [آل عمران: 18].

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 2/476.
(2) المنتجب الهمذاني، الكتاب الفريد: 2/383.

دلالة إظهار الفعل مع الملائكة في قوله: ﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَشۡهَدُونَۚ﴾:

شهادة الملائكة تأكيد لصدق المُنْزَل وحقيّته

إِظْهارُ فِعْلِ ﴿يَشۡهَدُونَۚ﴾ مَعَ وُجودِ حَرْفِ العَطْفِ لِلتَّأْكِيدِ[1]، والمعنى: يَشْهَدُونَ بِما أَنْزَلَ اللّه إِلَيْكَ بأَنَّه حقٌّ وصدْق، وبأنَّك رسولُ اللّه، وقوله: ﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَشۡهَدُونَۚ﴾، " أي بذلك، مبتدأوخبر، والجملة عطفٌ على ما قبلَها، وقيل حالٌ من مفعول أنزله أي أنزله، والملائكةُ يشهدون بصدقه وحقِّيّتِه"[2].

دلالة تأخير الفعل، في قوله تعالى: ﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَشۡهَدُونَۚ﴾:

شهادة الله وملائكته للنّبيّ ﷺ وكتابه، ضمان لِرِفْعَتِهِ وبقائه

أُخِّر الفعل ﴿يَشۡهَدُونَۚ﴾، ولم يأتِ مقدَّمًا على لفظ الملائكة؛ لبيان أنَّ شَهادَةَ المَلائِكَةِ تَبَعٌ لِشَهادَةِ اللّه؛ لأنَّها هي الأصل، وَقَدْ عَلِمَ النَّبيُّ ﷺ، بِشَهادَةِ اللّه لَهُ؛ إِذْ أَظْهَرَ عَلى يَدَيْهِ المُعْجِزات، وهَذا عَلى سَبيلِ التَّسْلِيَةِ لَهُ عَنْ تَكْذيبِ اليَهودِ، أي: إِنْ كَذَّبَكَ اليَهودُ، وَكَذَّبوا ما جِئْتَ بِهِ مِنَ الوَحْيِ؛ فلا تُبالِ، فإِنَّ اللّه يَشْهَدُ لَكَ، وَمَلائِكَتُهُ، فَلا تَلتَفِتْ إِلى تَكْذيبِهِمْ، وَلا يَحْزُنْكَ تَكْذيبُ مَنْ كَذَّبَكَ، وَخِلافُ مَنْ خالَفَكَ[3].

دور التّقديم والتّأخير في التّذكير والتّأنيث:

مراعاة أصل الملائكة في التّذكير، وطبيعة التّأنيث في جمع التّكسير.

لفظ ﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾: جمع تكسير[4]، يجوز فيه التّذكير والتّأنيث، وفي الاستعمال القرآنيّ نجد أنَّه إذا جاء الفعل من حيث الرُّتبة بعد ذكر الملائكة؛ فإنَّه يأتي بصيغة التّذكير ﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَشۡهَدُونَۚ﴾، وكقوله تعالى: ﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَدۡخُلُونَ﴾ [الرَّعد: 23]، وقوله تعالى: ﴿ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَضۡرِبُونَ﴾ [الأنفال: 50]، بخلاف مجيئه على التّرتيب الأصليِّ بحيث يأتي الفعل ثمَّ الفاعل، فإنّ الفعل يأتي بالتَّأنيث مع لفظ الملائكة، مثل

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/44 - 45.

(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/44 - 45.

(3) ابن جرير، جامع البيان: 7/694، والزّمخشريّ، الكشّاف: 1/592، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/141.

(4) كلّ جمع تكسير، فهو مؤنث في استعمال العرب، قال الزّمخشري: "إنَّ قَوْمِي تَجَمَّعُوا وَبِقَتْلِي تَحَدَّثُوا لَا أُبَالِي بِجَمْعِهِمْ كُلُّ جَمْعٍ مُؤَنَّثُ". أي وجوبا أو جوازا. ينظر: محمّد بن عليّ الصّبان، حاشية الصّبّان على شرح الأشمونيّ: 2/77.

قوله تعالى: ﴿فَنَادَتۡهُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾ [آل عمران: 39]، وقوله تعالى: ﴿وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾ [الأنبياء: 103]، وغيرها.

دلالة التَّعريف في لفظ ﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾:

شهادة الملائكة الكرام، دليل على ما للنّبيّ ﷺ من الإعظام

دلَّ التَّعريف في لفظ ﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾ على العموم، فهو يشير إلى أنَّ جنس الملائكة يشهدون بصدق نبوَّتك وبما أنزل عليك؛ فلا يختصُّ ذلك بنوعٍ من الملائكة دون نوع، فملائكة السَّموات السَّبع، وملائكة العرش والكرسيّ، كلُّهم مجتمعون، يشهدون بصدق نبوَّتك يا رسول الله.

دلالة التَّعبير بالفعل المضارع في قوله: ﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَشۡهَدُونَۚ﴾:

شهادة الملائكة موثوقة، بوثوق هذه المخلوقات الطّاهرة

عبَّر بالفعل المضارع للدَّلالة على تجدُّد شهادة الملائكة واستمرارها بصدق رسالته، وهذا واضحٌ في إتيانهم لإعانته ﷺ، في كلِّ مواقف حياته، ولا سيَّما في الشَّدائد كما حدث معه، عندما ذهب إلى الطَّائف، وكذَّبه أهلها وآذوه، وكما في غزوة بدر إلى غير ذلك ممَّا يؤكِّد دوام شهادتهم من الشَّهادة حضورًا وتصديقًا.

دلالة دخول (الباء) على لفظ الجلالة في قوله: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾:

كلُّ الشَّهادات مهما كان وثوقها، فهي تبعٌ لشهادة الله

قوله: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾، " تقديره: وكفَى اللّه شهيداً، لكنّه دخلَتِ الباءُ لتدُلَّ على أنَّ المراد اكتفوا باللّه"[1]، وقددخلت الباء على لفظ الجلالة؛ لتؤكِّد الكلام، ولتجمع بين لفظ الماضي ومعنى الأمر، والمعنى: اكتفِ بشهادة اللّه، وإن لم يشهد غيرُه؛ لأنَّ التّصديق بالمعجزة هو الشّهادة حقًّا، ﴿قُلۡ أَيُّ شَيۡءٍ أَكۡبَرُ شَهَٰدَةٗۖ قُلِ ٱللَّهُۖ﴾ [الأنعام: 19]، فإذا شَهِدَ لَكَ بِالصِّدْقِ رَبُّكَ؛ لَمْ يَضُرَّكَ تَكْذِيبُ مَنْ كَذَّبَكَ[2]، وفي دخولها إشارةٌ إلى التَّفريق بين الاكتفاء بشهادة اللّه وشهادة الملائكة؛ فكلُّ الشَّهادات بعد شهادة اللّه تبعٌ لها.

(1) الثّعالبيّ، الجواهر الحسان: 2/330.

(2) ابن جرير، جامع البيان: 7/694، والزَّجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 2/134، والزّمخشريّ، الكشّاف: 1/592.

دلالة إظهار لفظ الجلالة في قوله: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾:

شهادة الألوهيّة عظمة وكمال

أظهر لفظ الجلالة؛ لإدخال الرَّوع على السَّامع وتربية المهابة في قلوب المعاندين والمعارضين، ولفظ الجلالة أعظم الأسماء، وأقواها دلالة على عظمة المولى وجلاله.

سرُّ التَّعبير بـ ﴿شَهِيدًا﴾ دون شاهد في قوله: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾:

من شهد له الله فحسبه

آثر التَّعبير بلفظ ﴿شَهِيدًا﴾ دون شاهد؛ لأنَّ لفظ شهيد أبلغ من لفظ شاهد، فصيغة فعيل تدلُّ على الاستمرار والدَّوام، وفي هذا مزيد عناية برسول الله ﷺ، " وقوله تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾، هو دفع لشبهة من يقع في وهمه أن شهادة الملائكة تزكيّة لشهادة الله وتقوية لها.. تعالى الله عن ذلك علوّا كبيرا[1].

دلالة تقديم المسند إليه في قوله: ﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَشۡهَدُونَۚ﴾:

شهادة الملائكة حقّ وصدق، وهي حجّة على النّاس أن يأخذوا بها

قُدِّم المسند إليه للتَّقوى، والمعنى: والملائكة يشهدون بنبوَّتك؛ فلا يحتاجون إلى دليل[2]، والمعنى: "والملائكة يشهدون أن هذا الكتاب هو من عند الله، وأنّك الرّسول المتخيّر، وشهادة الملائكة قائمة على الحقّ، لأنّهم لا يعرفون الكذب، ولا يتعاملون به.. فهم إذا شهدوا على شيء، كان حجّة على النّاس أن يأخذوا بهذه الشّهادة"[3].

جناس الاشتقاق، وتنوُّع مواطن الجمال في اللَّفظ والمعنى:

المحسّنات اللّفظيّة تزيّن السّياق، وتبيّن المقصود بجلاء

وهذا واضح في السُّور الآتية بين: ﴿يَشۡهَدُ﴾، و﴿يَشۡهَدُونَۚ﴾، و﴿شَهِيدًا﴾: جناس اشتقاق مغاير لاتفاقِ الكلماتِ في مادَّة (شهد)، واختلافها في الاسميَّة والفعليَّة.

دلالة ردّ العجز على الصَّدر، في قوله: ﴿يَشۡهَدُونَۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾:

وفي قوله: ﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَشۡهَدُونَۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ ردُّ العجز

(1) عبد الكريم الخطيب، التّفسير القرآنّي للقرآن: 3/1014.
(2) القونويّ، حاشية القونويّ على البيضاويّ: 7/363.
(3) عبد الكريم الخطيب، التّفسير القرآنّي للقرآن: 3/1014.

شــهــادة الــلــه أصــل أصــيــل، وشهادة الملائكة تابعة لها

على الصَّدر: حيث وافق آخرُ كلمة في الكلام آخرَ كلمة في صدره، "وشهادة الملائكة تبع لشهادة اللّه تعالى، وشهادتهم تكون يوم القيامة، يوم الحساب والعقاب، فشهادة اللّه تعالى للنبي وعليهم، وشهادة الملائكة عليهم يوم الحساب والعقاب"[1]، ولأهميّة الشّهادة وقيمتها، ردّ منها العجز على الصّدر، فالتأم المعنى وتكامل.

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 4/1969.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ قَدۡ ضَلُّواْ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا﴾ [النّساء: 167]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

المناسبة بين الرسالة المحمّدية الواجبة الاتّباع، وبين الصّدود والضّلال

لَمَّا أخبر سبحانه في الآيات السَّابقة عن رسالة الرُّسل (عليهم الصَّلاة والسَّلام)، وأخبر برسالة خاتمهم ﷺ، وشهِد بها، وشهِدتْ ملائكتُه، وأزال شبهات أهل الكتاب؛ لزم من ذلك ثبوتُ الأمر المقرَّر والمشهود به، فوجَب تصديقُهم، والإيمانُ بهم واتِّباعُهم، جاءت هذه الآية؛ لتبيِّن أنَّهم أصرُّوا على الكفر، ولم يقف الأمر عند كفرهم، بل صدُّوا، ومنعوا غيرهم عن الدُّخول في دين الإسلام؛ لذلك بيَّن اللّه لهمْ سُوءَ عاقِبَةِ أمرهم والمصير الَّذي ينتظرهم؛ زجرًا عن مثل حالهم وتقبيحًا لما أبدوه من ضلالهم[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَصَدُّواْ﴾: الصَدُّ: إِعْراضٌ وَعُدولٌ وَمَيْلٌ إِلى أَحَدِ الجانِبَيْنِ، صَدَدْتُ فُلانًا عَنِ الأَمْرِ؛ إِذا عَدَلتهُ عَنْهُ، والصُّدودُ والصَّدُّ: قد يكون انصرافًا عن الشَّيء وامتناعًا، وقد يكون صرفًا ومنعًا[2]. ومعنى ﴿وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، أي: صرفوا أنفسهم وغيرهم عن الدُّخول في الإسلام؛ لأنَّ الّذي يصدُّ غيره قد ابتدأ بصدِّ نفسه[3].

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

من كفر بالله ورسوله وصدّ عن سبيله، فقد ضلّ ضلالا بعيدا

إنَّ الّذين كفروا باللّه وبرسوله وبالقرآن، ومنعوا النَّاس من الدُّخول في الإِسلام، واتِّباع طريق الهدى والفلاح بإِلقاءِ الشُّبهات

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرَر: 2/373، ورضا، تفسير المنار: 6/64.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحُفّاظ: (صدد).
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 4/1970.

في قلوبهم، خرجوا عن الحقِّ والصّواب وبعُدوا عنه بُعدًا عظيمًا إلى أَقصى نهايات البعد عن الطّريق المستقيم، فمن كفر؛ فقد بَعُدَ عن الحقِّ، ومن أَضلَّ غيرَه؛ فقد زاد بُعدُه، وكلَّما استمرّ على الضّلال والإضلال وإغواء المهتدين، وإثارة الشُّبهات حول دينهم؛ فقد أَوغل في البعد عن الطّريق السّويِّ.

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالة عدم عطف هذه الآية على ما قبلها:

لم تعطف هذه الآية على ما قبلها؛ لأنَّها كلامٌ مستأنف جاء لبيان أحوال الذين كفروا، وصدُّوا عن سبيل الله بعد أن شهد الله على صدق نبوَّة رسوله وعلى ما أُنزل عليه؛ لذلك لم يذكر حرف العطف؛ لأنَّ الآية جاءت لبيان أحوالهم.وعلى ذلك إذا وُصف أهل الكفر بالضَّلال؛ ثبت نقيضه لأهل الإيمان، وهو الهداية.

الإيمان بالله ورسوله دليل الهدى، والكفر طريق الضَّلال

دلالة بدء الآية بـ﴿إِنَّ﴾ في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾:

افتُتِحت الآية بحرف التَّأكيد ﴿إِنَّ﴾ للفت الانتباه، والاهتمام بالخبر الَّذي تحمله الآية في الحكم على الَّذين كفروا، وصدُّوا عن سبيل الله، وفيه إشارة إلى إصرار أهل الكتاب على عدم الإيمان، بعد وجود ما يُطمع في إيمانهم من شهادة الله، وشهادة الملائكة على صدق نبوَّته ﷺ.

الكفران والصّدود مظهران للعناد والجحود

دلالة التَّعبير بـ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ دون لفظ (الكافرين):

جاء التَّعبير بلفظ الَّذين كفروا دون لفظ الكافرين؛ للإشارة إلى فريق منهم ميؤوسٍ من إيمانه، وهم اليهود، وفي ذلك إشارة إلى كمال ذمِّهم واستحقاقهم لهذا الوصف ﴿ٱلضَّلَٰلُ ٱلۡبَعِيدُ ١٨﴾ [إبراهيم: 18] بسبب كفرهم وصدِّهم عن دين الله ومنهج محمَّد ﷺ، بعدما سبق من الشَّهادة على صدق نبوَّته ورسالته ﷺ.

من الكفر ما تشتدّ وطأته، ويتفاقم أذاه

دلالة التَّعبير بالفعل الماضي ﴿كَفَرُواْ﴾ في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾:

عبَّر بالفعل الماضي الَّذي يدلُّ على تحقُّق الوقوع وثبوته، وفي هذا إشارة إلى أنَّ كفرهم برسول الله ﷺ راسخٌ في قلوبهم، حتَّى أفقدهم التَّفكير في الإيمان به ﷺ، ويدلُّ على التَّنفير من الوصف بالكفر، ولو كان لكفر النِّعمة.

من الكفر واقعٌ معهود، ومتوقَّعٌ مشهود

دلالة حذف متعلَّق الفعل ﴿كَفَرُواْ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾:

حذف متعلَّق الكفر؛ لأنَّ القصد الإشارة إلى عموم كفرهم، لدفع توهُّم إيمانهم بموسى(عليه السلام)، فعدم إيمانهم برسول الله ﷺ، يلزم منه عدم الإيمان بموسى؛ لأنَّهم فرَّقواْ بين رسل الله، والتّفريق بينهم كفر، ويجوز أن يكون المراد في حذف متعلَّق الكفر أنَّهم كفروا بالله، وبما أنزَل، وجحدوا بنبوَّة محمَّد ﷺ، وكتب الله ورسله وحذفت هذه الصِّلة اختصارًا للعلم بها.

الإيجازُ للعلم بالمحذوف، وقصد العموم

دلالة التَّعبير بالصَّدِّ دون المنع، في قوله: ﴿وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾:

آثر القرآن الكريم التَّعبير بالفعل ﴿وَصَدُّواْ﴾ دون غيره؛ لأنَّ الصَّدَّ: هو المنع وصرف النَّاس عن الدُّخول في الإسلام، واتِّباع الرَّسول ﷺ، وهذا المنع بشرط أن يكون هذا المنع شديدًا؛ لأنَّ الصَّدَّ من الجبل ما يحول بينك وبين ما تريد لشدَّته، ومنه الصَّديد الَّذي حال بين اللَّحم والجلد من القيح؛ فكلُّ هذه المعاني تدلُّ على أنَّ الصَّدَّ أقوى من المنع، وممَّا يزيد هذا المعنى بيانًا أنَّ البنية اللُّغويَّة في مادَّة الصَّدِّ أقوى منها في مادَّة المنع؛ لأنَّ بعض صفات الصَّدِّ تدلُّ على الشِّدَّة، وممَّا يؤكِّد هذا المعنى استعمال القرآن الكريم هذا الفعل مع كفَّار مكَّة في صدِّ الرَّسول ﷺ، عن المسجد الحرام عند أداء العمرة، قال تعالى: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾، دلالة التَّعبير بالفعل الماضي ﴿وَصَدُّواْ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ

تمكَّن الصّدّ عن سبيل الله من قلوبهم، حتَّى صار ديدنَهم ومطلبهم

﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ﴾ عبَّر بالفعل الماضي للدَّلالة على أنَّ صدَّهم عن دين اللّه ليس أمرًا عفويًّا؛ بل هو أمر تمكَّن في قلوبهم حتَّى صار وظيفة لبعضهم، فلا عمل لهم إلَّا الصَّدُّ عن سبيل اللّه.

دلالة حذف المفعول للفعل ﴿وَصَدُّواْ﴾:

تقدير المحذوف، منهج في اللّغة العربيّة مألوف

حُذِفَ المَفعولُ لِقَصدِ التَّكثيرِ[1]، وكأنَّ المعنى: أنَّهم صدُّوا كلَّ من أراد الدُّخول في الإسلام؛ فلم يقف أمر الصَّدِّ لمن كان من جنسهم أو كان على دينهم؛ بل همُّهم الصَّدُّ لكلِّ من تسوِّل له نفسه التَّفكير في الإسلام، فضلًا عن الدُّخول فيه.

دلالة الجمع بين الكفر والصَّدِّ في الآية الكريمة:

أغلب الآيات الجامعة بين الكفر والصَّدِّ وردت في السُّور المدنيَّة

قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، أشار فيها القرآن الكريم إلى أنَّ اليهود ومن على شاكلتهم، لم يقفوا عند حدِّ الكفر، بل ضمُّوا إلى كفرهم الصَّدَّ، وهذا هو مسلك اليهود مع الرَّسول ﷺ، ودعوته وفي هذا إشارةٌ إلى أنَّ الكفرة على صنفين: صنف منهم بقيَ على كفره، وصنف جمع مع الكفر الصَّدَّ، وهذا واضح في دور اليهود في تأسيس الدولة الإسلاميَّة في المدينة المنورة، يؤكِّد ذلك أن أغلب الآيات التّي جمعت بين الكفر والصَّدِّ، جاءت في السُّور المدنيَّة باستثناء ورود موضع سورة النَّحل، وهي مكيَّة، حيث ذكر فيها الجمع بين الكفر والصَّدِّ، وهي في سياق مشركي مكَّة؛ لأنَّهم لم يقفواْ عند حيِّز الكفر، بل صدُّواْ كلَّ من يبحث عن الدَّعوة الإسلاميَّة في الجزيرة العربيَّة.

دلالة الضَّلال البعيد في قوله: ﴿قَدۡ ضَلُّواْ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا﴾:

ختمت الآية بهذا الوصف؛ لأنَّ كفرهم باللّه ورسوله، وصدَّهم عن دينه بعد شهادة اللّه في قوله: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ وصل إلى

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/46.

حدِّ المبالغة في العدول عن الطَّريق المستقيم والمنهج القويم؛ لذلك ناسب وصفهم بالضَّلال البعيد، وفي هذا إشارة إلى عِظَم جرمهم وعمق ضلالهم[1].وَصْفُ الضَّلالِ بِالبَعيدِ - مَعَ أَنَّ البُعْدَ مِنْ صِفاتِ المَسافاتِ - هُوَ اسْتِعارَةُ البُعْدِ لِشِدَّةِ الضَّلالِ وكَمالِهِ في نَوْعِهِ، بِحَيْثُ لا يُدْرَكُ مِقْدارُ ضلال من ضلوا؛ لأنَّهم ابتعدوا كثيرًا عن طريق الهداية والحقِّ.

علاقة عَجُز الآية بصدرها، وأثر ذلك في المعنى

بلاغة الاستعارة التَّصريحيَّة، في قوله تعالى: ﴿وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾:

آثر التَّعبير بلفظ ﴿سَبِيلِ﴾ في قوله: ﴿سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ عن دين الله من باب الاستعارة التَّصريحيَّة، فقد استعار السَّبيل الَّذي يدلُّ على امتداد وسعة وسهولة ويسر لدين الله، وفيه إشارة إلى هؤلاء الَّذين كفروا، وصدُّوا، ولم يقف أمرهم على الصَّدِّ عن دين الإسلام؛ بل صدُّوا عن كلِّ سبيلٍ يتوصَّل به إلى الخير عمومًا، وإلى الإيمان بالنَّبيِّ ﷺ خصوصًا، فأنكروا نعته في التَّوراة، وقالوا: لا نعرفه في كتابنا، وأنَّ شريعة موسى(عليه السلام) لا تنسخ، وأنَّ الأنبياء لا يكونون إلَّا من أولاد هارون وداود (عليهما السلام)[2].

الصُّدُّودُ قطعٌ متعمّدٌ لكلِّ سبيلٍ يتوصَّل به إلى الخير والهداية

دلالة الاستعارة بإطلاق الضَّلال على الكفر:

إِطْلاقُ الضَّلالِ عَلى الكُفْرِ اسْتِعارَةٌ مَبْنِيَّةٌ عَلى اسْتِعارَةِ الطَّريقِ المُسْتَقيمِ لِلإيمانِ[3]، ففيه تشبيه حالهم بحال الَّذين يسيرون في بيداء، وقد ضلُّوا الطَّريق، فكلَّما ساروا؛ بَعُدوا عن الجادَّة، وكان سيرهم ضلالًا بعيدًا عن سواء الصِّراط، لا يجدون من يهديهم إليه، وهم بهذا قد تعدَّوا الضَّلال، ضلال أنفسهم، إلى الضَّلال البعيد، حيث أضلُّوا غيرهم.

الضَّلال البعيد انحراف عن الهدى بإضلال الآخرين

(1) مجمع البحوث، التَّفسير الوسيط: 2/983.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 6/22.
(3) ابن عاشور، التَّحريرُ والتَّنوير: 6/46.

دلالة الإتيان بـ ﴿قَدۡ﴾ في قوله: ﴿قَدۡ ضَلُّواْ﴾:

دلَّت ﴿قَدۡ﴾ – وهي تفيد التَّحقيق –، على أنَّهم حقَّقوا الضَّلال في أنفسهم بمعناه اللُّغويِّ والشَّرعيِّ؛ فهم ابتعدواْ عن أسباب الهداية؛ فضلًا عن الهداية نفسها، يؤكِّد هذا أنَّ الفعل الماضي – الَّذي يدلُّ على تحقُّق الوقوع، استعمله القرآن في رسوخ صفة الضَّلال فيهم.

من الـهـلاك المـبـين، رسـوخ صـفـة الـضّـلال المهين

من مواطن الجمال جناس الاشتقاق، في قوله: ﴿ضَلُّواْ ضَلَٰلَۢا﴾:

في قوله تعالى: ﴿ضَلُّواْ ضَلَٰلَۢا﴾ جناس اشتقاق مغاير؛ لاتِّفاقهما في مادَّة (ضلل)، واختلافهما في الاسميَّة والفعليَّة، وعبَّر بذلك؛ لأنَّهم جمعوا بين الضَّلال والإضلال، فالمضلُّ يكون أوغل في الضَّلال وأبعد عن الإقلاع عنه؛ بخلاف الضَّالِّ، فهو ضالٌّ في نفسه، لم يتعدَّ إلى غيره.

هناك فـرق بين الضّال والمضلّ، وكلاهما هالك لا محالة

دلالة الجمع بين الاسميَّة والفعليَّة في قوله: ﴿قَدۡ ضَلُّواْ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا﴾:

دلَّ ذلك على فعل الضَّلال في زمن ما؛ فقد يفهم من التَّعبير بالفعليَّة أنَّهم ضلُّوا في زمن دون زمن؛ فجاءت الاسميَّة لإفادة وصفهم بالضَّلال على وجه الثُّبوت والاستمرار في الضَّلال، ولذلك إذا تأمَّلنا البنية الصَّوتيَّة للفعل (ضلَّ – ضلالاً)؛ فسنجد أنَّ حرف الضَّاد بصوته المُفخم الشَّديد، هو الصَّوت المحوريُّ للكلمتين، وهو مناسبٌ لشدَّة الظَّلام الَّذي يعيشه هؤلاء الضَّالُّون.

أثـــر الـبـنـيـة الـصّـوتـيّـة في المـنـاسـبـة بين المبنى والمعنى

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ لَمۡ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغۡفِرَ لَهُمۡ وَلَا لِيَهۡدِيَهُمۡ طَرِيقًا ١٦٨ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٗا ١٦٩﴾ [النساء: 168 - 169]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

المناسبة بين حال أهل الكفر والضّلالة، وبين مصيرهم المحتوم في جهنّم

لمّا كان المعنى في الآية السَّابقة عن الَّذين كفروا، وصدُّوا، وحكم عليهم القرآن بالضَّلال البعيد، وكان من المعلوم أنَّ من ضلَّ قد يعود إلى الهدى، ويستغفر الله، فيغفر الله له؛ بيَّن تعالى هنا في هذه الآية: أنَّ الذين كفروا، وظلموا، لم يكن الله ليغفر لهم؛ لأنَّهم ضيَّعوا ما آتاهم الله من نور الآيات وباهر المعجزات، فاستحكم الكفر فيهم، فكان جزاؤهم الخلود في جهنَّم.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿طَرِيقَ﴾: الطَّريقُ: السَّبيل الَّذي يُطْرَقُ بالأَرْجُلِ، أي: يُضرب، قال تعالى: ﴿فَٱضۡرِبۡ لَهُمۡ طَرِيقٗا فِي ٱلۡبَحۡرِ يَبَسٗا﴾ [طه: 77]، وعنه استعير كلُّ مسلك يسلكه الإنسان في فِعْلٍ، محمودًا كان أو مذمومًا[1]، والطَّارق: السالك للطَّريق، لكن خُصَّ في التَّعارف بالآتي ليلًا؛ فقيل: طرق أهله طروقًا، وعبَّر عن النَّجم بالطَّارق؛ لاختصاص ظهوره باللَّيل[2].

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

تقرير مصير من كفروا وصدّوا عن السّبيل، بأنّه لا غفران لهم ولا هداية

بيَّن الله تعالى في هذه الآية أنَّ الَّذ ين كفروا بالله وكتابه ورسوله، وظَلموا أنفسَهم بعدمِ إيمانهم، وظلموا غيرَهم بالصّدِّ عن سبيل الله، وارتكبوا المآثم، وانتهكوا المحارم؛ لم يكُن الله؛ ليغفرَ لهم

(1) الرّاغب، المفردات، والسّمين، عمدة الحُفّاظ: (طرق).
(2) الرّاغب، المفردات: (طرق).

ذُنوبهم إن ماتوا من غير توبة، ولم يكن ليُوَفِّقَهم لسلوكِ الطَّريق القويم الَّذي يوصل لجنَّته ونعيمه، لكنَّه سيوصلهم إلى الجزاء على أعمالهم، وهو طريق جهنَّم، طريق الكافرين الظَّالمين؛ ليخلدوا فيها خلودًا أبديًّا، وكان هذا الجزاء هيِّنًا سهلًا على اللّه تعالى، فهو قادر على كلِّ شيء.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالة الفصل في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ﴾:

من كفر بالله هلك، ومن ضلّ عن سبيله أفك

الهداية للخَير يستحقُّها أهل الإيمان والتَّوبة دون غيرهم من الكفَّار والظَّالمين، وفصلت هذه الآية عمَّا قبلها؛ لأنَّها بيانٌ للجملة السَّابقة: ﴿قَدْ ضَلُّواْ ضَلَٰلًا بَعِيدًا﴾؛ لأنَّ السَّامع يترقَّب معرفة جزاء هذا الضَّلال، فبيَّنته هذه الجملة[1]؛ فكانت هذه الآية لذكر وعيدهم.

دلالة الجمع بين الكفر والظّلم في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ﴾:

الكفر والظّلم كلاهما مفسدة في الدّنيا، وهلاك في الآخرة

جمعت الآية بينهما؛ لبيان أنَّ اليهود لم يقفوا عند حيِّز الكفر في عدم الدُّخول في الإسلام، وعدم الإيمان بالنَّبيِّ ﷺ بل تعدُّوا ذلك إلى وضع البشارات المكتوبة عندهم في غير موطنها ووظَّفوها في غير وظيفتها؛ فأنكروا نبوَّته ﷺ وكتموا صفاته المذكورة في التَّوراة والإنجيل؛ لذلك كان التَّعبير بالظُّلم الذي هو وضع الشَّيء في غير موضعه، وهم قد وضعوا الآيات والبشارات في غير موضعها.

دلالة تأخير الظُّلم عن الكفر، في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ﴾:

الظّلم مرتعه وخيم، ترجع عقباه إلى النّدم

دلَّ تأخير الفعل ﴿وَظَلَمُواْ﴾ عن الفعل ﴿كَفَرُواْ﴾، ولم يتقدَّم عليه بأن يقال: ظلموا وكفروا؛ لتعدُّد معاني الظُّلم؛ فقد يراد به ظلم النَّفس، وظلم النَّبيِّ ﷺ والمسلمين، وعلى هذا يكون المراد بالذين كفروا: (أهل الكتاب)، وقد يراد به: الشِّركُ - كما هو شائعٌ في

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/47.

استعمال القرآن - كقوله: ﴿إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ ١٣﴾ [لقمان: 13]؛ فيكون من عطف الأخصِّ على الأعمِّ في الأنواع[1].

دلالة الاتِّفاق والاختلاف في أوصاف الكافرين في الآيتين:

كلُّ كفر وصدود عن السّبيل، فهو ظلم للنّفس وللغير

النَّاظر في الأوصاف في الآية الأولى: يجد الكفرَ والصَّدَّ عن طريق الحقِّ، والأوصاف في الآية الثَّانية: هي الكفر والظُّلم، فاشتركتا في الكفر، واختلفتا في الصّدِّ والظُّلم، وهما متلاقيان؛ لأنَّ الإعراضَ عن الحقِّ ظلمٌ للنَّفس، ومنعُ الآخر من الحقِّ ظلمٌ له، والأذى والفتنة في الدِّين ظلم لا ريب فيه.

بلاغة حذف المفعول في الفعلين: ﴿كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ﴾:

الإيجازُ للعلم بالمحذوف، وقصد العموم والتَّكثير

كَفَرُوا باللّه، وبما أنزَل، وجحدوا بنبوَّته ﷺ، والكتب والرُّسل، وحذفت هذه الصِّلة اختصارًا للعلم بها، وظَلَمُوا أنفسهم أو غيرهم بالكفر وارتكاب المعاصي والآثام والمحرَّمات، وبكتمان نبوّته ﷺ، وبصدِّ النَّاس عن دين الإسلام وإلقاءِ الشُّبهات في قلوبهم، وظلموا أنفسهم بالخروج عن طاعة اللّه ورسوله، وغير ذلك من جرائمهم الَّتي لا تُحصى[2]، وكذلك: لم يكن اللّه ليغفر لهم ذنوبهم؛ إذا ماتوا على الكفر والظُّلم، ولم يتوبوا إلى اللّه، ويكفُّوا عن ظلمهم.

فائدة وضع الظَّاهر موضع المضمر، في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾:

التَّنديد بأفعال الّذين كفروا، وإقامة الدَّليل على الحكم عليهم

وضع الظَّاهر الموصول وصِلته - في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ دون أن يذكر ضميرهم، هو تنديدٌ بأفعالهم، وتهديد لهم، وذكر الدَّليل على الحكم بذكر الصِّلة[3].

دلالة التَّعبير بـ﴿لَمۡ﴾ في قوله: ﴿لَمۡ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغۡفِرَ لَهُمۡ﴾:

دلَّت ﴿لَمۡ﴾ على استحالة تعلُّق المغفرة بالكافر الَّذي مات على

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/47.
(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/47.
(3) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/47.

من مات على الكفر، فلا غفران له، ولا عفو عنه

كفره، ويكون المعنى: لم يكن اللّه ليغفر لهم؛ لأنَّهم ماتوا على الكفر والظُّلم، ولم يتوبوا إلى اللّه، ويكفُّوا عن ظلمهم، والمقصود (لن يغفر اللّه لهم ما داموا على كفرهم، ولن يهديهم طريق النّجاة، وما كان من شأنه - سبحانه - أن يغفر لأمثالهم وهم في ضلالهم)[1].

دلالة صيغة الجحود في قوله: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ﴾:

إناطة الحكم بالوصف لا بالشّخص

دلَّت هذه الصّيغة في قوله تعالى: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ﴾، على تحقيق النَّفي، وقد نفت عن اللّه أن يغفر لهم؛ تحذيرًا من البقاء على الكفر والظُّلم؛ لأنَّ هذا الحكم نيط بالوصف، ولم ينط بأشخاص معروفين، فإن هم أقلعوا عن الكفر والظُّلم لم يكونوا من الَّذين كفروا وظلموا[2].

دلالة التَّعبير بالفعل ﴿لِيَغْفِرَ﴾ لابلفظ (يغفر):

لا عذاب إلّا بكفر، ولا غفران إلّا بتوبة

عبَّر بالفعل ﴿لِيَغْفِرَ﴾ المقرون باللّام؛ لتوكيد النَّفي، وتدعى هذه اللَّام عند النُّحاة: لامَ الجُحودِ لسبقها بكون منفيٍّ، وَأَنَّ الإِتْيانَ بِها أَبْلَغُ مِنَ الإِتْيانِ بِالفِعْلِ المُجَرَّدِ عَنْها، فجاءت العبارة أقوى من الإخبار المجرَّد، أنَّه لا يغفر[3].

دلالة حذف مفعول ﴿لِيَغْفِرَ﴾:

تعميم عدم الغفران، على أصحاب الكفران

حذف مفعول الفعل ﴿لِيَغْفِرَ﴾؛ لإفادة العموم، حيث تعلَّق فعل المغفرة بوصفي الكفر والظُّلم، والمراد نفي المغفرة للكافرين الَّذين ماتوا على الكفر، وللظَّالمين الذين ظلموا بكل صور الظُّلم؛ إذا لم يتوبوا منها.

دلالة نفي المغفرة دون نفي العفو؛ في قوله: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ﴾:

اختار نفي المغفرة دون نفي العفو؛ لأنَّ المغفرة تتعدَّد معانيها، فتدلُّ

(1) لجنة من علماء الأزهر، المنتخب في تفسير القرآن الكريم، ص: 141..
(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/47.
(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/138، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/141.

على السَّتر وعلى التَّسامح وعلى عدم المؤاخذة على الذَّنب، وكلُّ معنًى من هذه المعاني مناسبٌ لتفسير الظُّلم على اختلاف صوره من المعاصي والشِّرك، وعلى هذا، لا يؤدِّي لفظ العفو المعنى المقصود في السِّياق من العقاب الَّذي أعدَّه الله للكافرين وللظَّالمين؛ فلن يسترهم لا في الدُّنيا ولا في الآخرة، ولن يترك مؤاخذتهم على ذنوبهم.

مع الكفر لا وجود للمغفرة، ولا مجال للمعذرة

دلالة التَّعبير بالفعل المضارع ﴿يَكُنِ﴾ في الآية:

التَّعبير بالفعل المضارع ﴿يَكُنِ﴾، في قوله تعالى: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ﴾، مع أنَّ المعنى يفهم من غيره، لكنَّه وضع؛ ليفيد نفي المغفرة، ذلك أن (لم) إذا دخلت على المضارع حوَّلته إلى الماضي الَّذي يدلّ على تحقُّق الفعل، والمراد هنا: ثبوت عدم المغفرة لهم ورسوخها، مع العلم أنَّ الدَّلالة على الزَّمن في الفعل ﴿يَكُنِ﴾ غير مرادة؛ لأنَّه لا زمن مع الله.

لا دلالة على الزَّمن في الفعل (كان) لأنَّه لا زمن مع الله

دلالة الإضمار في قوله تعالى: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ﴾:

دل الإضمار في قوله تعالى: ﴿لَهُمْ﴾ على التَّهوين من شأنهم، وأنَّهم لا وزن لهم عند الله تعالى، مع كلِّ ما يظهرونه في الدُّنيا من الزَّعامة والرِّياسة من خلال ظلمهم وصدِّهم عن سبيل الله، قال تعالى: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾﴾ [الكهف: 105].

من جاهر بالكفران، لاقى من الله الهوان

إيثار التَّعبير بـ (لا) دون (لم) في قوله: ﴿وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا﴾:

آثر التّعبير بـ (لا) في قوله: ﴿وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾﴾؛ لأنَّها نافية مؤكِّدة لحرف (لم) الّذي دلَّ على نفي المغفرة لهم وحدها، ولنفي هدايتهم وحدها، فكيف إذا اجتمعا؟ فيكون نفيهما معًا أولى وآكد - لا سيَّما - وأنَّ الطَّريق عادة ما يكون صعبًا إلّا إذا اقترن بوصف أو إضافة، كالمستقيم مثلًا، والتَّنوين: للتَّنكير، تعني: أيَّ طريق يوصل إلى الهدى.

من اهتدى هداه الله، ومن ضلّ أضلّه الله

بلاغة الاستعارة التّصريحيّة، في قوله تعالى: ﴿وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا﴾:

دلالة الكناية، في التَّعبير عن الدِّين بالطَّريق

في قوله: ﴿وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا﴾ استعارة تصريحيَّة، حيث شبّه المنهج والمسلك بالطَّريق، والمعنى: "لن يغفر اللّه لهم ما داموا على الكفر، ولن يهديهم طريق النّجاة"[1]، وقد عبَّر بذكر الطَّريق عن الدِّين من باب الكناية، ومعنى الكلام: لم يكن اللّه ليوفِّقهم للإسلام، ولكنَّه يخذلهم عنه إلى طريق جهنَّم، وهو الكفر[2].

دلالة التَّنكير في قوله: ﴿طَرِيقًا﴾:

سرُّ الجمع بين نفي المغفرة ونفي الهداية

التَّنكير يفيد الشُّيوع والعموم، والمراد: نفي الهداية لأيِّ طريق خير، بل يُهْدَونَ إلى طريق جهنَّم، وذلك لعدم استعدادهم للهداية إلى الحقِّ والأعمال الصَّالحة[3]، وقد جُمع بين نفي المغفرة ونفي الهداية في حقِّ الكافرين الّذين ظلموا؛ للدَّلالة على أنَّهم متعنِّتون، مكابرون، يضعون الشَّيء في غير موضعه[4].

بلاغة القصر في الآية في قوله تعالى: ﴿إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ﴾:

إفادة جملة واحدة معنى جملتين

﴿إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ﴾، إلَّا: أداة استثناء جاءت بعد نفي، فأفادت الحصر والقصر، أي: سيهديهم يوم القيامة طريق جهنَّم، ولن يهديهم طريقًا سواها.

دلالة الاستثناء في قوله: ﴿إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ﴾:

لا طريق لمن عاند وأثم، إلّا طريق جهنّم

دلَّ الاستثناء على تأكيد الشَّيء بما يشبه ضدَّه؛ لأنَّ الكلام مسوقٌ للإنذار، وفيه رائحة إطماع؛ لأنَّه إذا سمع المستثنى؛ تبيَّن أنَّه من قبيل الإعذار، والمعنى: أنَّ اللّه تعالى لا يوصلهم إلى طريق إلّا طريق جهنَّم.

(1) إبراهيم القطان: تيسير التّفسير، ص: 367.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 6/32.
(3) أبو السّعود، إرشاد العَقْل السّليم: 2/258.
(4) الطيبي، فتوح الغيب: 5/236.

دلالة اختيار الفعل المنفي ﴿وَلَا لِيَهۡدِيَهُمۡ طَرِيقًا﴾:

التَّعبير عن الهداية من قبيل المشاكلة اللَّفظيَّة

اختار التَّعبير بالفعل المنفيِّ ﴿وَلَا لِيَهۡدِيَهُمۡ﴾؛ لأنَّ الهداية لها معانٍ عدَّة، ومنها الدَّلالة، وهو المناسب مع الطَّريق، ويكون اختياره من باب التَّهكُّم والسُّخرية؛ لأنَّ الدَّلالة على جهنَّم ليس من باب الهداية المرادة، بل هو التّردِّي في الهاوية، وكان التَّعبير عن الهداية من قبيل المشاكلة اللَّفظيَّة؛ لأنَّ الهداية في الأصل لا تكون إلّا إلى طريق الخير والسَّلامة، فاستعمالها مع طريق جهنَّم إنَّما هو من باب التَّهكُّم بهم، والاستهزاءِ بسوءِ اختيارهم الَّذي أوصلهم إلى مثل هذا المصير، وهذا التّهكُّم مثل ما جاء في قوله تعالى: ﴿فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ٢١﴾ [آل عمران: 21][1].

دلالة ذكر لفظ ﴿أَبَدٗاۚ﴾ في قوله: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ﴾:

حكم الله تعالى بالخلود الأبديِّ للكافرين في النّار

دلَّ ذكر ﴿أَبَدٗاۚ﴾ على التَّفريق بين من يمكثون للعذاب، وهم العصاة، وبين من يخلدون فيها، وهم الكفرة؛ لأنَّ الخلود: معناه المكث الطَّويل، ووصف سبحانه العذاب بأنَّه عذاب خالد ممتدٌّ، فهم خالدون في العذاب، وأكَّد الخلود بالأبديَّة، وهذا يدلُّ على بقاء العذاب، وأصل المخلَّد: الّذي يبقى مدَّة طويلة، والأبد: مدَّة الزَّمان الممتدِّ الَّذي لا يتجزَّأ، وأهل النَّار تبقى أجسامهم في شقاء وعذاب أليم، لا تبليها النَّار، ولا يفنيها العذاب، ولا يذهب بالحساسيَّة فيها توالي الاكتواء: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتۡ جُلُودُهُم بَدَّلۡنَٰهُمۡ جُلُودًا غَيۡرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمٗا ٥٦﴾ [النّساء: 56]، وكلُّ ذلك في الذين ماتوا على كفرهم، ولم يتوبوا من شركهم.

دلالة التَّعبير باسم الإشارة في قوله: ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٗا﴾:

عبَّر باسم الإشارة للدَّلالة على استحضار الصُّورة الّتي يكون

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 4/1973، وجماعة من العلماء مجمع البحوث، التّفسير الوسيط: 2/984.

قـــدرة الـلـه لا يعجزها شيء، ولا يحجب عنها مستور

عليها الكافرون في جهنَّم، وأيضًا لتجمع بين نفي المغفرة ونفي الهداية من خلال الإشارة،

سرُّ اختيار وصف (جهنَّم) دون غيرها من أوصاف النَّار:

بئس العقيدة الكفر، وبئس المصير النّار

اختار هذا الوصف دون غيره من الأوصاف كالسَّعير والجحيم؛ لأنَّه المناسب لهؤلاء الكفرة الَّذين صدُّوا وظلموا، وكانوا يتجهَّمون في وجهه ﷺ، وفي وجه أصحابه؛ فناسب أن يعاقبوا بمثل فعلهم من تجهُّم؛ جهنَّم لهم جزاءً وفاقًا.

دلالة ختام الآية بقوله: ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾:

تأبيد الخلود يسيرٌ على الله

وجاء ختام الآية بهذه الجملة؛ ليبيِّن لهم أنَّ الله تعالى غالب على كلِّ شيء، وأنّ عذابهم أمر يسير عليه، لإبطال زعمهم في أنَّهم لا يقدر عليهم أحد[1]، كما يتصوَّر الَّذين لا يعرفون الله حقَّ معرفته، والَّذين يرون في رؤسائهم وقادتهم أنَّهم في مقامٍ عزيزٍ لا ينال؛ لذلك كان إدخالهم في جهنَّم أمرًا سهلًا هيِّنًا على الله، فهو لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السِّماء.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

السَّبيل والطَّريق:

لقد قال الله تعالى في ختام الآية السَّابقة: ﴿وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا ﴿٣٧﴾﴾، وقال هنا: ﴿وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾﴾، فاختلف الجزاء المُعدُّ لكلٍّ منهم، حيث نفى هدايتهم إلى السَّبيل في الأولى، وفي الثَّانية نفى هدايتهم إلى الطَّريق، ولكي يتَّضح سرَّ الاختلاف لابدَّ أوَّلًا من ذكر الفرق بين السَّبيل والطَّريق. فالسَّبيلُ: الطَّريق الممتدُّ الَّذي فيه سهولة ووضوح، وأصل دلالته على الامتداد، وهو يذكّر ويؤنَّث، وجمعه: سُبُلٌ، ويستعمل السَّبيلُ لكلِّ ما يتوصَّل به إلى شيء، خيرًا

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 4/1974.

كان أو شرًّا، قال تعالى: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾ [النّحل: 125]، ﴿قُلۡ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ﴾ [يوسف: 108]، وكلاهما واحد، لكن أضاف الأوّل إلى المبلَّغ، والثّاني إلى السَّالك بهم، وقوله: ﴿يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ﴾ [المائدة: 16] أي: طرق السَّلامة المؤمِّنة من العقوبة، وقيل: طرق الجنَّة: إمَّا طرُقها حقيقةً، وإمَّا الأسباب الَّتي يتوصَّلون بها إلى الجنَّة من الأعمال الصّالحة[1].والطَّريقُ: السَّبيل الَّذي يُطْرَقُ بالأَرْجُلِ، أي: يُضرب، قال تعالى: ﴿فَٱضۡرِبۡ لَهُمۡ طَرِيقٗا فِي ٱلۡبَحۡرِ يَبَسٗا﴾ [طه: 77]، وعنه استعير كلُّ مسلك يسلكه الإنسان في فِعْلٍ، محمودًا كان أو مذمومًا[2].

والفرق بينهما: أنَّ السّبيل والطَّريق يدلَّان على كلِّ مسلك يسلكه الإنسان محمودًا كان أو مذمومًا، أمَّا السّبيل؛ فأغلب استعماله في الخير، ولا يكاد اسم الطّريق يراد به الخير إلّا مقترنًا بوصف أو إضافة تخلِّصه لذلك، كقوله تعالى: ﴿يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٣٠﴾ [الأحقاف: 30]، والطّريق لا يقتضي السُّهولة، وبخلاف السّبيل؛ فإنَّه يتميّز بالوضوح والسُّهولة واليسر[3]، وبناءً على ذلك: يقال: بأنَّ الآية الأولى خُتمت بنفي هداية السَّبيل لهؤلاء المنافقين، للدَّلالة على أنَّ اللّه نفى عنهم الهداية لكلِّ مسالك الخير؛ لأنَّ اسم السَّبيل أغلب وقوعه في الخير وسبل السَّلامة، بخلاف الطَّريق؛ فلا يراد به ذلك إلَّا إذا كان مقرونًا بوصفٍ يدلُّ على الحقِّ والخير، كما في قوله تعالى: ﴿يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٣٠﴾ [الأحقاف: 30]؛ بخلاف الآية الثَّانية؛ فقد جاءت في شأن الَّذين كفروا، وظلموا، وأمرهم يختلف عن الَّذين ورد ذكرهم في الآية الأولى؛ لوجود فرقٍ بين من كفر بعد إيمان، ومن كفر، ولم يتقدَّم منه إيمان؛ فحال من كفر بعد إيمان أشنع حالًا من الكافر ابتداءً؛ لذلك ناسب في الآية الأولى نفي الهداية لأيِّ سبيل، بخلاف الَّذين كفروا ابتداءً؛ فنفى هدايتهم لأيِّ طريق، والسَّبيل أعمُّ من الطَّريق.

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، والسّمين، عمدة الحُفّاظ: (سبل).
(2) الرّاغب، المفردات، والسّمين، عمدة الحُفّاظ: (طرق).
(3) البقاعي، دلالة البرهان القويم: 4/1373.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلۡحَقِّ مِن رَّبِّكُمۡ فَـَٔامِنُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ وَإِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا ١٧٠﴾ [النساء: 170]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

العلاقة بين صدق دين الرّسول ونهجه وبين الدّعوة إلى هدايته

لَمَّا أجابت الآيات السَّابقة عن شُبَه اليهودِ، وبيَّنت فسادَ طريقتهم، وأظهرت صدق الرَّسول ﷺ وصحّة دينه؛ ناسب أن يتوجَّه الخطاب العامُّ الَّذي يعمُّهم، ويعمُّ غيرَهم في الدَّعوة إلى دينه ﷺ، والإيمان به وبرسالته[1].

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

الدّعوة إلى اتّباع الحقّ الّذي جاء به الرّسول، ومن كفر فالله غنيّ عنه

خاطَب الله تعالى جميعَ المكلَّفين، بأنَّ ما جاءهم به رسولُ الله ﷺ هو الحقُّ من عنده جلَّ وعلا، فعليهم أن يُؤمنوا به، وهذا الإيمان خيرٌ لهم في الدّارين ممَّا هم عليه من الجحود والتّكذيب، فإنْ أَبَوْا إلَّا الكفر، فإنَّ الله غنيٌّ عنهم وعن إيمانهم، فهو الَّذي يملك السَّموات والأرض وجميع ما فيهنَّ، مُلكًا وخلقًا وعبيدًا، ولا يَنْقُصُ كفرُهم من ملك الله وسلطانه شيئًا، والله عَلِيمٌ بما أنتم صائرون إليه من الهداية أو الغواية، والطّاعة أو المعصية، حَكِيمٌ في أمره ونهيه وتدبيره[2].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغة النِّداء بقوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ يا: أداة نداء، والنِّداء بـ (يا) يكون للبعيد،

(1) أبو السّعود، إرشاد العَقْل السّليم: 2/258.

(2) جماعة من علماء التفسير، المختصر في تفسير القرآن الكريم، ص: 104.

ثمَّ يزاد عليها (ها) الَّتي تفيد التَّنبيه، وينادى بها للبعيد حِسيًّا، وللبعيد معنويًّا أيضًا، والنِّداء من اللّه تعالى إلى النَّاس كافَّة، قال ابن عباس: يريد المشركين[1]، والعبرة بعموم اللَّفظ.

النِّداء بالآكد الأبلغ، أظهر في السّياق وأعمق

وكثر النِّداء في القرآن بـ ﴿يَـٰٓأَيُّهَا﴾؛ لاستقلاله بأوجه من التَّأكيد وأسباب من المبالغة؛ لأنَّ كلَّ ما نادى اللّه تعالى له عباده: من أوامره ونواهيه، وعظاته وزواجره، ووعده ووعيده، واقتصاص أخبار الأمم الدَّارجة عليهم، وغير ذلك ممَّا أنطق به كتابه؛ أمور عظام، وخطوب جسام، ومعانٍ عليهم أن يتيقَّظوا لها، ويميلوا بقلوبهم وبصائرهم إليها، وهم عنها غافلون، فاقتضت الحال أن ينادَوا بالآكد الأبلغ[2].

دلالة التَّعبير بلفظ (النَّاس) في قوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾:

منهج القرآن إقامة الحجّة على أهل الكتاب

ورد التَّعبير بلفظ ﴿ٱلنَّاسُ﴾ عن أهل الكتاب في قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾، لأنَّ الحُجَّة إذا قامت عليهم بشهادة اللّه تعالى على صدق نبوَّته ﷺ، وعلى ما جاء به، والملائكة من بعده شهدوا؛ دلَّ ذلك على أنَّ غيرهم من باب أولى تقوم عليهم الحُجَّة.

دلالة الإتيان بالنِّداء، بعد الحديث عن الصّدِّ والظّلم:

نداء الله فتح لباب الأوبة إلى حظيرة الإيمان

لمَّا ذكر اللّه في الآيات السَّابقة صورًا من عناد أهل الكتاب والمشركين وتعنُّتهم، وذكر الوعيد الَّذي سيلقونه إن لم يتوبوا من كفرهم، وهو الخلود في جهنَّم؛ نادى عليهم ليفتح لهم الباب للعودة إلى حظيرة الإيمان، وهذا دليلٌ على رحمته بخلقه، حيث ناداهم تنبيهًا لهم، وتوجيهًا لقلوبهم نحو التَّصديق بنبوَّته ﷺ.

دلالة بدء النِّداء من غير ﴿قُلْ﴾، خلاف ما ورد في بعض الآيات القرآنيّة:

لذّة المناداة كلذّة المناجاة، كلاهما قرب ووصل بالله

إنّ دلالة بدء النِّداء من غير ﴿قُلْ﴾، كما ورد في بعض الآيات نحو قوله تعالى: ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى﴾ [يونس: 104]،

(1) الواحديّ، الوسيط: 2/141.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/90.

يلمح فيه أنّه: لمَّا كانت هذه الآية تحمل أمرًا بالتَّكليف، وهو الإيمان، في قوله: ﴿فَـَٔامِنُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ﴾، والتَّكليف فيه مشقَّة على النَّفس، وهذا يقتضي وجود ما يعبِّر عن راحة تقابل هذا التَّكليف، وتلك الرَّاحة تظهر في مناداته سبحانه عليهم بذاته، عند ذلك يتحوَّل التَّكليف الشَّاقُّ إلى يسير؛ لأنَّه يشعر بلذَّة المناداة من قبل ربِّه.

دلالة اختيار لفظ ﴿ٱلنَّاسُ﴾ دون (البشر) في قوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾:

خطاب الله للنّاس توجيه وتحديد لأصول العلاقة بالله

اختار لفظ النّاس؛ لأنَّه اسم عامٌّ لبني آدم، ففيه إشارة إلى عموم رسالته ﷺ، فلا يقف عند أهل الكتاب ولا المشركين، بل كلُّ من يصدق عليه لفظ النّاس؛ مطالبٌ بالإيمان به وبما أنزل عليه، ولم يستعمل لفظ (البشر)، ومعناه الإنسان الواحد رجلا كان أو امرأة، ويقال للجمع بشر، ولفظ البشر لا يصلح هنا للمناداة، لأنّ أصل الدّلالة للفظ (بَشَر)، من ظهور الشّيء مع حسن وجمال، وسمّي البشر بشرا لظهورهم[1]، والخطاب بلفظ النّاس أولى، وهو معهود في الخطاب القرآنيّ، لتذكير النّاس بما يصلح أمرا أو نهيا أو تنبيها، ولذلك أثر هذا اللّفظ في موقعه من الآية.

دلالة الإتيان بـ ﴿قَدۡ﴾ في قوله: ﴿قَدۡ جَآءَكُمُ﴾:

أثَرُ تأكيد الكلام بجملة من المؤكِّدات

دلَّت ﴿قَدۡ﴾ على التَّأكيد والتَّحقيق لنبوَّته ﷺ، وهي بمنزلة التَّأكيد بتكرير الشَّهادة، والتّقرير لِأَحَقِّيَّة المشهودِ به، والتّمهيدِ لما يعقُبه من الأمر بالإيمان.

دلالة التَّعريف في لفظ ﴿ٱلرَّسُولُ﴾ في قوله: ﴿جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ﴾:

دلالة التَّعبير بالرّسول دون النَّبيِّ في الآية

قوله: ﴿جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ﴾: دلالة التَّعريف في لفظ ﴿ٱلرَّسُولُ﴾، للعلم به، ولِأَنَّ أَهْلَ الكِتابِ قَدْ بُشِّروا بِهِ، وَكانوا يَنْتَظِرونَ بِعْثَتَهُ، وكان اختيار التَّعبير بـ ﴿ٱلرَّسُولُ﴾؛ لتأكيد وجوب طاعته، وللإشارة

(1) أحمد بن فارس، معجم مقاييس اللّغة: (بشر).

إلى أنَّه له شرع جديد مستقلٌّ، مصدَّقٌ ومهيمنٌ على ما سبق من الكتب، ولو عبَّر بالنَّبيِّ، لتوهَّم أهل الكتاب أنَّه تابعٌ لشريعتهم.

دلالة التَّعبير بلفظ الرُّبوبيَّة في قوله: ﴿مِن رَّبِّكُمْ﴾:

إرسال الرُّسل للتَّربية والتّعليم من عطاءات الرُّبوبيَّة

عبَّر بلفظ الرُّبوبيَّة مع الإضافة إلى ضمير المخاطَبين للإيذان بأنَّ ذلك لتربيتهم وتبليغِهم إلى كمالهم اللَّائقِ بهم، ترغيبًا لهم في الامتثال بما بعده من الأمر[1]، ولأنَّ لفظ الرُّبوبيَّة مع إضافته إلى ضمير المخاطبين، فيه تقوية لدواعي إقبالهم على التَّصديق بما جاء به الرَّسول ﷺ، وفيه ترغيبٌ للإيمان بالله ﷻ؛ لأنَّه هو الخالق والمربِّي لهم.

دلالة (الباء) في قوله: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾:

دلالة التَّعبير عن القرآن بالحقِّ، دون لفظ آخر

دلَّت هذه الباء، على أنَّ كلَّ ما جاء به الرَّسول حقٌّ، لا يعتريه الباطل، وصدق ليس فيه كذب، وبذلك يخرج ما نُسب إلى الرَّسول ﷺ، وقد عبَّر عن القرآن بلفظ (الحقِّ)؛ ليردَّ على مزاعم أهل الكتاب والمشركين، وللإشارة إلى ثبوته وعدم تغييره؛ لأنَّ معنى الحقِّ: الشَّيء الثَّابت الذي لا يتغيَّر ولا ينسخ، وفي ذلك إشارة إلى نسخ الكتب السَّابقة، لما أصابها من التَّحريف والتَّغيير والنّسخ.

دلالة الإتيان بالفاء في قوله: ﴿فَـَٔامِنُواْ خَيْرًا لَّكُمْۚ﴾:

الإيمان سعادة في العاجلة، وفوز في الآجلة

الفاء سببيَّة؛ للدَّلالة على تأكيد إيجاب ما قبلَها لما بعدَها، أي: فآمنوا به، وبما جاء به من الحقِّ[2]، أو الفاء فصيحة؛ لإفصاحها عن شرط مقدَّر، والتَّقدير: إذا كان الأمر كما عرفتم؛ فآمِنوا؛ يكن الإيمان خيرًا لكم؛ لأنَّه يزكِّيكم، ويطهِّركم من الأدناس الحسِّيّة والمعنويَّة، ويؤهِّلكم للسّعادة الأبديَّة[3].

(1) أبو السّعود، إرشاد العَقْل السّليم: 2/258.
(2) أبو السّعود، إرشاد العَقْل السّليم: 2/258.
(3) رضا، تفسير المنار: 6/66.

دلالة الإتيان بالأمر ﴿فَـَٔامِنُواْ﴾ دون (انتهوا):

من متطلّبات الإيمان الإقبال على الطّاعة، و الازدجار عن المعصيّة

جاء التّعبير بالإيمان؛ لأنَّ صدر الآية ذكر سبب الإيمان، وهو مجيء الرَّسول بالحقِّ، فناسب التَّعبير بالإيمان، أمَّا الآية الثَّانية؛ فجاءت بعد قوله تعالى: ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ﴾ [النّساء: 171]، فلمَّا نهاهم عن الشِّرك والتَّثليث؛ ناسبه الإتيان بالنَّهي في قوله: ﴿ٱنتَهُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ﴾ [النّساء: 171].

ثمرة تنوُّع الأوجه الإعرابيّة في السّياق الواحد:

كثرة المعاني في الكلام القليل، من بلاغة البيان الأصيل

اختلفت أقوال النُّحاة في إعراب ﴿خَيۡرٗا﴾: فأعربها الكسائيُّ: خبرًا لكان المحذوفة مع اسمها، والتَّقدير: فآمِنوا؛ يكن الإيمان خيرًا لكم، وأمَّا الخليل وسيبويه؛ فيقدِّران: واهتدوا بالإيمان؛ خيرًا لكم، أي: ممَّا أنتم عليه، وقال الفرَّاء: فآمِنوا إيمانًا خيرًا لكم، فانتصابه على أنَّه صفة لمصدر محذوف[1].

دلالة التَّعبير بـ (إنْ) في قوله: ﴿وَإِن تَكۡفُرُواْ﴾:

الأصل الفطرة، والكفر انسلاخ من فطرة الإيمان

عبّر بقوله: ﴿وَإِن﴾الشّرطيَّة الَّتي تفيد الاحتمال والظَّنّ، وفي إيثار التَّعبير بها دلالة على أنَّ الأصل عدم الكفر، بتكذيب الرَّسول ﷺ، وما جاء به، ويقابلها العكس.

دلالة حذف جواب الشَّرط في قوله تعالى: ﴿وَإِن تَكۡفُرُواْ﴾:

الآية تحوي تهديدا وإنذارا ووعيدا للكافرين المعاندين

جواب الشَّرط محذوف دلَّ عليه الخبر: ﴿فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾، وهذا خبر يدلُّ على الاستغناء، والتقدير: فهُوَ سبحانه غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَعَنْ إيمانِكُمْ، ومَنْ هذا شأنُه، فهو قادرٌ على تعذيبكم بكفركم لا محالة، أو: فمن كان كذلك؛ فهو غنيٌّ عنكم وعن غيركم لا يتَضرَّر بكفركم، ولا ينتفع بإيمانكم، أو: فمَنْ كان كذلك؛ فله عبيدٌ يعبُدونه، وينقادون لأمره[2]، وفي الآية: تهديد وإنذار ووعيد للكافرين.

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 2/388.

(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/139، وأبو السّعود، إرشاد العَقْل السّليم: 2/259.

دلالة عدم الإتيان بالموصول والظَّرف مع لفظ ﴿وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾:

قصد التّنصيص على الإفراد شرط في ذكر المحذوف المراد

في قوله: ﴿فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾، يلاحظ عدم الإتيان بالموصول والظَّرف مع لفظ ﴿وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾، بينما جيء بها مع لفظ ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾، وقد أجاب الزَّركشيُّ بقوله: "حيث قُصد التَّنصيص على الإفراد؛ ذكر الموصول والظَّرف، وحيث قُصد أمر آخر؛ لم يذكر الموصول إلَّا مرَّة واحدة؛ إشارة إلى قصد الجنس وللاهتمام بما هو المقصود في تلك الآية، ومثل لذلك بموضع سورة الرَّحمن، قوله تعالى: ﴿يَسۡـَٔلُهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ [الرحمن: 29]، والمقصود منها: عُلوُّ قدرة الله تعالى وعلمه وشأنه، ولم يقصد إفراد السَّائلين"[1].

من مواطن الجمال في الآية، طباق الإيجاب:

الجمع بين جمال المبنى والمعنى، من بلاغة القرآن الأسمى

بين ﴿فَـَٔامِنُواْ﴾ و ﴿تَكۡفُرُواْ﴾ طباق إيجاب؛ لأنَّ اللَّفظَين موجبان غير منفيَّيْن، وقد جاء الإيمان في سياق الأمر، بينما جاء الكفر في سياق الشَّرط الدَّالِّ على التَّهديد والوعيد.

من لطائف التَّذييل بالعليم الحكيم:

علمه بخلقه وحكمته في تدبيره، ظاهرة في تعبيره

واللّه عَلِيمٌ بخلقه، لا يَخْفى عَلَيْهِ مِنْ أَعْمالِ عباده المؤمنين والكافرين شيء، حَكِيمٌ في جميع أفعاله وتدبيراته[2]، وجاء ختام الآية بوصف اللّه بالعليم المحيط الّذي لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السَّماء، وبالحكمة وحسن التَّدبير والإبداع في ملكوت السَّموات والأرض، فمِن مقتضى علمه ألّا يخفى عليه ضلال الضَّالين، ولا هداية المهتدين، ومِن مقتضى حكمته أن يجزي بالكفر عذابًا، وبالإيمان نعيمًا، وأن يجعل من عباده: المؤمنَ المهتدي، والضالَّ الغاوي[3].

(1) الزّركشّي، البرهان، ص: 73.
(2) الرّازيّ، مفاتيح الغَيب: 11/270.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 4/1977.

دلالة تقديم ﴿عَلِيمًا﴾ على ﴿حَكِيمًا﴾ في آخر الآية الكريمة:

اختيار ألفاظ مسك الختام، موحيّةً بفحوى بلاغة الكلام

قدَّم ﴿عَلِيمًا﴾ على ﴿حَكِيمًا﴾ في الآية؛ وهي قوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾، وذلك لمناسبة سياق الكلام مع أهل الكتاب؛ فالله يعلم ما في نيَّاتهم من سؤالهم للرَّسول ﷺ، بنزول كتابٍ من السَّماء؛ تعجيزًا له ﷺ، وهو تعالى حكيمٌ في تقديره عذابَ الكافرين والظَّالمين.

﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ ٱنتَهُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٞۘ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا ١٧١﴾ [النّساء: 171]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لمّا ذكرَتِ الآياتُ السّابقةُ الرّدَّ على غُلوِّ اليهودِ في عيسَى (عليه السلام)، مِن حَطِّ رُتبتِه، والكفرِ به، والسَّعي في قتْله وصَلْبه، واتّهامِ أمِّه البتولِ، أتْبعَ ذلك بالرّدِّ على غُلوِّ النّصارى، الّذين أفْرَطُوا في رفْع رتْبتِه، وادّعاءِ أُلوهيّتِه، أو أنّه ابنُ الإله، أو ثالثُ ثلاثة، وطالَبَهم بالاعتدالِ في أحكامِهم ومواقِفِهم.

ضرورةُ الالتزامِ في وصفِ المسيحِ وأمِّه، بما نصّت عليه الآيةُ وأكّدَهُ القرآنُ

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿لَا تَغۡلُواْ﴾: أصلُ الغُلُوّ: المجاوزةُ للشّيءِ والزّيادةُ. يُقالُ: غَلا السّعرُ، وغَلا في القَدْر والأمْرِ، وغَلا السّهمُ: يَغْلو، باتّفاق الفعلِ في كلِّ ذلك، وأوقعُوا الفَرقَ بين المعاني في المصادر؛ فقالوا: في السّعر: غَلاءً، وفي القَدْر والأمرِ: غُلُوًّا، وفي السّهم: غَلْوًا، والغُلُوُّ الزِّيادَةُ في عَمَلٍ على المُتَعارَفِ مِنْه، بِحَسَبِ العَقْل أوِ العادَةِ أوِ الشَّرْع، وقد يكون الغُلوّ إفراطًا، أو تفريطًا، والغُلُوُّ في الدِّين: التّشَدُّدُ فيه ومُجاوَزَةُ الحَدِّ بالتّنطّع في البحْثِ عن بواطنِ الأشياءِ، والكشْفِ عن عِللها، وغوامضِ مُتَعَبَّداتِها، وقولُه تعالى: ﴿لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ﴾ معناه لا تُجاوِزوا فيه القَدْرَ الّذي حُدَّ لكم[1].

(1) ابن فارس، معجم مقاييس اللّغة: (غلوي)، الرّاغب، المفردات: (غلا)، والسّمين، عمدة الحُفّاظ، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (غلو).وابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/290.

2) ﴿ٱلۡمَسِيحُ﴾: اسمٌ مُشتركٌ بين الدّجالِ وعيسَى (عليه السلام)، ويُطلقُ ابتداءً على عيسى بنِ مريم، لأنّه كان بمعجزةِ اللّه يمسحُ على الأكمهِ والأبرصِ، فيُشفَى كأنّه لم يُصبْه بأسٌ، وقيل لسبب أنّه عند ولادتِه من بطنِ أمِّه، كان ممسوحًا أي لم يكنْ عليه منَ الدّمِ وماءِ النِّفاس ما يكونُ عادةً على المولودِ عند الوضع، وقال البعضُ: "إنّ المسيحَ بمعنى الصّديقِ، أو لأنّ باطنَ قدمِه كان سويًّا، أو لأنّه كان يسُوحُ في الأرضِ كثيرًا، وهذا وجهُ اشتراكٍ بينه وبين الدّجّال"[1].

3) ﴿وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ﴾: الرُوحُ خلْقٌ مِنْ خَلْقِ اللّه، لَمْ يُعْطِ علْمَهُ أحدًا؛ وفي قولِه تعالى: ﴿يُلۡقِي ٱلرُّوحَ مِنۡ أَمۡرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ﴾ [غافر: 15]، قال الزّجّاجُ: جاء في التّفسيرِ أنَّ الرُّوحَ الوحْيُ أو أمْرُ النّبوّةِ؛ ويُسمَّى القرآنُ رُوحًا، ابْنُ الأَعرابي: الرُّوحُ الفَرَحُ. والرُّوحُ: القُرْآنُ. والرُّوحُ: الأَمرُ. والرُّوحُ: النَّفْسُ"[2]، والرّوحُ مُؤنّثٌ إذا كَانَ بِمَعْنى النَّفس، ومذكّرٌ إذا كَانَ بِمَعْنى المُهجة[3]، قَال الأَزهري: وكذلك قَوْلُه في عِيسَى: ﴿وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ﴾، أَي رَحْمةٌ مِنْهُ تَعَالَى[4].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

تفنيدُ عقائدِ أهلِ الكتابِ الباطلةِ في تأليهِ المسيحِ وتقْديسِه:

يُخاطبُ اللّه أهلَ الكتابِ بأنْ يعْتدِلُواْ، ولا يُجاوِزُواْ الحقَّ في الدِّين، وفي اللّه ورسُلِه، فيُفرِطُواْ في حبِّ عيسى عليه السلام، فيرفَعُواْ شأنَه إلى ادّعاءِ ألوهيتِه، أو كما قالواْ: إنّه إلهٌ أو ابنُ إله أو ثالثُ ثلاثةٍ، ثمّ بيّنَ لهم حقيقةَ عيسَى عليه السلام بأنّه بشَرٌ خرَجَ مِن بَشَرٍ فهو ابنُ مريم، وأنّه رسولُ اللّه، وهذا تكذيبٌ لمن كفرَ برسالتِه، وأنّه كلمةُ اللّه الّتي ألقاها إلى مريمَ، وأنّه روحٌ مبتدأةٌ منَ اللّه، وهذا ردٌّ على منِ ادّعى أنّه ابنُ الإله، ودعاهُم إلى الإيمان باللّه وحده، المنزّهِ عنِ الصّاحبة والولدِ، ونهاهم عن ضلالِ الاعتقادِ والقولِ بالتّثليثِ، فلو أراد اللّه أن يتّخذ ولدًا لاصطفَى ممّا يخلقُ ما يشاءُ، فلَه ملكُ السّموات والأرض، ومن فيهنّ

(1) نكري، دستور العلماء: 4/60.
(2) ابن منظور، لسان العرب: (روح).
(3) الكفويّ، الكليّات، ص: 471.
(4) الزَّبيديّ، تاج العروس: (روح).

وما فيهنّ، لكنّه إلهٌ واحدٌ أحدٌ، لم يلدْ ولم يُولَد، وهو وكيلُ كلِّ شيءٍ، وكفَى به وكيلًا.

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

إطلاق العامِّ وإرادة الخاصِّ في الآيةِ:

﴿يَـٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَـٰبِ﴾ الخطابُ لأهلِ الكتابِ، وهو لفظٌ عامٌّ يشملُ (اليهود والنّصارى)، ويراد به هنا (النّصارى)، من بابِ إطلاق العامّ وإرادة الخاصّ، بدليل قولِه تعالى بعده: ﴿وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ﴾ وهذه مقالةُ النّصارى خاصّةً، ففي الآية مجازٌ مرسلٌ، واختيارُ هذا اللّفظ (أهل الكتاب) تعريضٌ بهم حيث خالفُواْ ما نصَّ عليه كتابُهم، منَ القولِ الحقِّ في اللّه وأنبيائِه[1].

المـــرادُ بلفظِ (أهـل الكتـاب) التّعريضُ بهم، لمخالفةِ نصِّ كتابِهم

دَلالةُ الاستعارةِ في قولِه: ﴿لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ﴾:

﴿لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ﴾ استعارَ لفظَ الغُلوِّ في الدِّين، وهو تَجاوُزُ الحَدِّ الَّذي حَدَّدَهُ الدّينُ، من غلَيان الماء في المِرْجلِ، وارتفاعِه عن حدِّه، أو مِنْ غَلْوَةِ السَّهْمِ، وهي مُنْتَهى انْدِفاعِهِ، كنايةٌ عن مجانبةِ الحقّ والاعتدالِ، والزّيادةِ في الدِّين ما ليس منه.

الغُلوُّ في الدِّين أصلٌ لكثيرٍ منَ الضّلالاتِ

وإنّما كان نهيُهُم عَنِ الغُلُوِّ لِأَنَّهُ أَصْلٌ لِكَثيرٍ مِنْ ضَلالاتِهِمْ، وجاء في قوله تعالى: ﴿لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ﴾ عطفُ الخاصِّ ﴿وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ﴾ على العامِّ ﴿لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ﴾؛ للاهتمامِ بالنّهيِ عنِ الافتراءِ الشَّنيعِ[2]، وتكرارُ ﴿لَا﴾ يُفيدُ التّوكيدَ.

تعْديةُ القَولِ بـ﴿عَلَى﴾ لتضمُّنِه معنَى الافتراءِ:

وعدّى القول بـ﴿عَلَى﴾ فقال ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾؛ لأنّ القولَ هنا يتضمّنُ معنى الافتراءِ والكذبِ، كما قالَ تَعالى: ﴿وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ﴾

حُججُ المفترين على الله في تأليهِ المسيحِ واهيةٌ ومتهافتةٌ

(1) أبو السّعود، إرشاد العَقْل السّليم: 2/259، وابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/50.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوي: 6/50..

[آل عمران: 78]، وفوقَ ذلك إنّها لا تعتمدُ على الحقِّ الثّابتِ، والبرهانُ القاطعُ قائمٌ في أنّ عيسَى وُلِد، والإله لا يولَد، وعيسَى كان يأكلُ ويشربُ، والإلهُ ليس كذلك، وقد زعمُواْ أنّهم قَتلُوه، والإلهُ لا يُقتلُ، وزعمُواْ أنّه قُتِلَ افتداءً للخليقةِ عن عصيانِ آدمَ للّه تعالى، وليسَ منَ المعقولِ أن يفتَدِيَ اللّه الخَليقةَ عن عصيانِ أبيها، بتَمْكينِهم من قَتْل ابنِه في زعمِهم، فإنّ ذلك القَتلَ جريمةٌ أشدُّ وأشنعُ، وإذا كانتِ الأُولى تحتاجُ إلى فِداءٍ، فالثّانيةُ لا يُغني عنها فِداءٌ، ولكنْ هكذا سَوّغ لهم الوهمُ[1]، قال صاحب (محاسن التّأويل): "لو كان إلهًا لما توارَى منهم خائفًا من قتلهم له؛ لأنّ الإله هو خالقٌ لهم ولعملِهم، وعالمٌ بزمن قدرتِهم عليه، فكيف يفرُّ وهو يعلم وقتَ موته؟ وهو خالقُ الموت والحياة؟ ثمّ إنّه يحتملُ أنّ اللّه تعالى ألقى شبهَه على شيطانٍ، أو ماردٍ من مرَدَةِ الجنّ ليخلِّصَ نبيَّه ورسولَه من أيدي أعدائِه، ويرفعَه إليه محفُوظًا مكرّمًا، كما أجرى على يديه إحياءَ الموتى، وخَلقَه من غير أبٍ، وأبرأَ الأكمهَ والأبرصَ، لا سِيّما وهو بزعمِهم إلهُ العالَمِ وخالقُ الإنسِ والجنِّ وبني آدمَ، فأيُّ ضرورةٍ تدعُو لإثباتِ أنواعِ الإهانةِ والعذابِ، على ما زعمواْ لربّ الأرباب، مع وجود التّناقضِ فيما نقلتْه أناجيلُهم، في هذا الفصلِ والبابِ"[2]، وممّا نُقل في هذا المضمارِ ما يُنسبُ للدّميريّ (ت: 699هـ)، حيث يقولُ:

عَجَبًا لِلْمَسِيحِ بَيْنَ النَّصَارَى *** وَإِلَى أَيِّ وَالِدٍ نَسَبُوهُ!
أَسْلَمُوهُ إِلَى اليَهُودِ وَقَالُواْ *** إِنَّهُمْ بَعْدَ ضَرْبِهِ صَلَبُوهُ
فَإِذَا كَانَ مَا يَقُولُونَ حَقًّا *** وَصَحِيحًا فَأَيْنَ كَانَ أَبُوهُ؟
حِينَ خَلَّى ابْنَهُ رَهِينَ الأَعَادِي *** أَتُرَاهُمْ أَرْضَوْهُ أَمْ أَغْضَبُوهُ؟
فَلَئِنْ كَانَ رَاضِيًا بِأَذَاهُمْ *** فَاحْمَدُوهُمْ لِأَنَّهُمْ عَذَّبُوهُ
وَلَئِنْ كَانَ سَاخِطًا فَاتْرُكُوهُ *** وَاعْبُدُوهُمْ لِأَنَّهُمْ غَلَبُوهُ[3].

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 4/1978.

(2) القاسمي، محاسن التّأويل: 3/408.

(3) الأبيات منسوبةٌ إلى عبد العزيز الدّميريّ الدّيريني، من شعراء العصر المملوكّي، (ت: 699هـ)، على خلاف في ذلك، والشّاعرُ عالمٌ ومفسّرٌ وأديبٌ ذو قدْرٍ رفيعٍ عند من ترجمُوا له، وله منظومةٌ مطوّلةٌ بعنوان: (التّيسير في علم التّفسير). القاسمي، محاسن التّأويل: 3/408.

الفرقُ بين الاستثناءِ بلفظِ (إلّا) ولفظِ (غير) في السّياقِ:

ورودُ النّهـــي عنِ الغُلوِّ دليلٌ على ولـوغِ أهلِ الكتابِ فيه

﴿إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ﴾ أداةُ حصرٍ، وقصرٍ، أي: فقط قُولُواْ الحقَّ، وهو الأمرُ الثّابتُ الّذي لا يتغيّرُ، وقَوْلُ الحقِّ هو تَنْزيهُهُ تعالى عَنِ الشَّريكِ والوَلَدِ والحُلولِ والاتِّحادِ[1]، ووصْفُه بما وصَفَ به نفسَه، ووصَفَتْه به رسُلُه، وهذا مثلُ قولِه تعالى في سورة المائدة: ﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ﴾ [المائدة: 77]، أي: لا تَغْلُواْ في دينِكم غُلُوًّا غيرَ الحَقِّ المعروفِ، أي: غُلُوًّا باطلًا.

وجاءتْ آيةُ النّساء في سياقِ القَول: ﴿وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ﴾، وآيةُ المائدة جاءتْ في سياق اتّباعِ أهواءِ قومٍ، كما أنّ آيةَ النّساء جاءت بالاستثناء بـ﴿إِلَّا﴾، وآيةُ المائدة بـ(غَيرَ)، وهي تُفيدُ المغايرةَ؛ فآيةُ المائدة: ﴿لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ﴾: تشملُ معنى ﴿وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ﴾، وقد تكونُ لمعنًى آخرَ هو عدمُ اتّباعِ أهواءِ قومٍ؛ وقريبٌ من هذا لو قُلنا: لا تَعبدْ إلّا اللّه، ففيهِ الأمرُ بعبادةِ اللّه فقط، ولو قُلنا: لا تَعبُدْ غيرَ اللّه: ففيهِ نهيٌ عن عبادةِ غيرِ اللّه، ومتضمِّنةٌ الأمرَ بعبادةِ اللّه تعالى وحدَه.

التّوكيدُ بأسلوبِ القَصْر، وأثرُه في المعنى:

قصرُ الموصوفِ على الصّفةِ في الآية

﴿إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ﴾، فلفظُ ﴿إِنَّمَا﴾ أسلوبُ قَصْرٍ يُفيدُ التّوكيدَ، وهو من قصْرِ الموصوفِ على الصّفةِ حيثُ قصَرَ المسيحَ على صِفاتٍ ثلاثٍ: صِفةِ الرّسالةِ، وصفةِ كونِه كلمةَ اللّه أُلقِيَتْ إلى مَريمَ، وصفةِ كونِه روحًا من عند اللّه؛ والقصدُ من هذا القصرِ إبطالُ ما أحْدَثَه غُلُوُّهم في هذه الصّفاتِ، غُلُوًّا أخْرجَها عن كُنهِها؛ فعيسى مقصورٌ على صفةِ الرِّسالةِ، وصفةِ الكلمةِ، وصفةِ الرّوحِ، لا يتجاوزُ ذلكَ إلى

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/142.

ما زادوهُ على تلكَ الصِّفاتِ، من كونِ المسيحِ ابنًا للّه، واتِّحادِ الإلهيّةِ به، وكونِ مريمَ صاحبةً[1]، تعالى اللّه عن ذلكَ عُلُوًّا كَبيرًا.

وهذه الجملةُ مَسوقةٌ لتعليلِ النَّهي، عنِ القَولِ الباطلِ، مبيِّنةٌ للمُرادِ من قولِ الحقِّ قبلَها، لذلكَ فُصِلَتْ عنها من غيرِ عطفٍ بالواو.

الدّلالةُ البلاغيّةُ لتعدّدِ الصّفات لعيسى بنِ مريمَ عليه السلام:

﴿ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ﴾ أي هذا نسَبُه وليس له نسبٌ غيرُ هذا، ومَنْ كانَ مَنْسوبًا بِوالِدَتِه كَيْفَ يَكونُ إلَهًا!، و﴿رَسُولُ ٱللَّهِ﴾ فهو مقصورٌ على رُتبة الرِّسالة لا يتَخطّاها، ﴿وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ﴾ سُمِّي عيسَى عليه السلام كلمة اللّه؛ لكونِه مخلوقًا بالكلمة (كن)، من غيرِ واسطةِ أبٍ ولا نطفةٍ؛ كما في قولِه تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٖ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ٥٩﴾ [آل عمران: 59]، أُطلق السّببُ وأُريدَ المسبَّبُ.

سُمِّي عيسَى كلِمة الله؛ لأنّه مخلوقٌ بكلمة (كُنْ)، من غير أبٍ ولا نُطفةٍ

إضافةُ (الكلمة) إلى الله، وتأخّرُها عن وصف الرّسالةِ، في قولِه ﴿رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ﴾:

وإضافةُ الكلمةِ إليه تعالى إضافةُ تخصيصٍ وتكريم؛ فهو مِن أشرفِ عبادِ اللّه وأكرمِهم عليه، وهذه الإضافةُ كما في قولِه تعالى: ﴿وَطَهِّرۡ بَيۡتِيَ﴾ [الحج: 26]، وقولِه: ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ﴾ [الأعراف: 73]، وقدّمَ كونَه عليه السلام رسولَ اللّه في الذِّكر مع تأخُّرِه في الوجودِ عن كونِه كلمَتَه تعالى، وروحًا منه؛ لتَحقيقِ الحَقِّ منْ أوَّلِ الأمرِ بما هو نَصٌّ فيه لا يَحتملُ التّأويلَ، وتعيينِ مآلِ ما يَحتمِلُه، وسدِّ بابِ التّأويلِ الزّائغ[2].

وصفُ المسيحِ بالنَّصِّ الّذي لا يَحتملُ التّأويلَ، وسدُّ بابِ التَّضليلِ والزَّيغِ

ومعنى ﴿أَلۡقَىٰهَآ﴾: أمَرَ بها الملائكةَ، أو أَعْلَمَها بها وأَخْبَرَها، وأصْلُ الإلقاءِ: طرْحُ الشّيءِ حيثُ تَلْقاهُ، أي: تراهُ، ثمَّ صارَ اسْمًا لكلِّ طَرْحٍ[3].

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/51 - 52.
(2) أبو السّعود، إرشاد العَقْل السّليم: 2/260.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (لقي)، وابن جرير، جامع البيان: 7/703 - 704، والرّاغب، المفردات: (لقي).

دَلالةُ ذكْرِ اسمِ (مريم) صريحًا في القُرآن، دُون سائرِ نساءِ العالمين:

تشريفُ مريمَ في القرآنِ الكريم تشريفٌ للمرأةِ الصّالحةِ إلى يومِ الدّين

ومريمُ ابْنَةُ عمرانَ سُمّيَتْ باسمها سورةٌ من سُوَر القرآنِ الكريم، ووَرَدَ اسمُها العلَمُ صريحًا في القرآن، وقد ذكرَ القُرطبيُّ لطيفةً في ذلك، قال: لَمْ يَذْكُرِ اللّه ﷻ امْرَأَةً وسَمّاها باسْمِها في كِتابِهِ إلّا مَرْيَمَ ابْنَةَ عِمْرانَ، فَإِنَّهُ ذَكَرَ اسْمَها في نَحْوٍ مِنْ ثَلاثينَ مَوْضِعًا لِحِكْمَةٍ ذَكَرَها بعضُ الأشياخِ؛ فإنّ الملوكَ والأشرافَ لا يَذْكُرونَ حَرائِرَهُمْ في المَلَإِ، ولا يَبْتَذِلونَ أَسْماءَهُنَّ، بَل يُكَنّونَ عَنِ الزَّوْجَةِ بِالعُرْسِ والأَهْلِ والعِيالِ، ونَحْوِ ذَلِكَ، فَإِنْ ذَكَرُوا الإِماءَ لَمْ يُكَنُّوا عَنْهُنَّ، ولَمْ يَصونُوا أَسْماءَهُنَّ عَنِ الذِّكْرِ والتّصْريحِ بِها، فَلَمّا قالَتِ النَّصارى في مَرْيَمَ ما قالَتْ، وفي ابْنِها صَرَّحَ اللّه بِاسْمِها، ولَمْ يُكَنِّ عَنْها بِالأُمُوَّةِ والعُبودِيَّةِ الَّتي هِيَ صِفَةٌ لَها، وأَجْرى الكَلامَ عَلى عادَةِ العَرَبِ في ذِكْرِ إِمائِها[1].

تنكيرُ لفظِ ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ لتقدير أنّها روحٌ نفيسةٌ شريفةٌ:

الكنايةُ عن نفخةِ جبريلَ بالرّوحِ، لكون المسيحِ متكوِّنًا منّ النّفخِ لا منَ النُّطفةِ

﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ كنايةٌ لطيفةٌ عنِ النّفخةِ الّتي نفخَ بها جبريلُ عليه السلام في دِرْعِ مريمَ فحمَلَتْ بإذن اللّه تعالى بعيسَى عليه السلام، قال تعالى: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا﴾ [الأنبياء: 91]، سُمِّي النّفخُ روحًا؛ لأنّه ريحٌ تخرجُ منَ الرُّوح، وقد جرت العادةُ بأنّهم إذا أرادوا وصفَ شيءٍ بغايةِ الطّهارةِ والنّظافةِ، قالوا إنّه روحٌ؛ ولمّا كان عيسَى عليه السلام متكوِّنًا منَ النّفخِ لا منَ النُّطفةِ وُصِفَ بالرُّوح، ونُكِّرَ ﴿وَرُوحٌ﴾ لِأَنَّ المَعْنى عَلى تَقْديرِ صِفَةٍ، أَيْ: وروحٌ شَريفَةٌ نَفيسَةٌ من قِبَله تعالى[2]، وأضاف الرّوحَ إليه تعالى تشريفًا؛ لأنّها كانت بأمرِه وتقديرِه.

حرف (مِنْ) لابتداء الغاية مجازًا؛ لأنّ عيسَى روحٌ بدأ منَ الله مخلوقًا بالنّفخةِ:

و(مِنْ) في قوله: ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ لابتداء الغايةِ مجازًا، وليستْ

(1) القُرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 6/21 - 22.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/143.

تبعيضيّةً، كما زعم بعضُ النّصارى أنّ عيسَى جزءٌ منَ اللّه[1]، كما قال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مِّنۡهُۚ﴾ [الجاثية: 13]، أي روحٌ بدأَ منَ اللّه تعالى بالنّفخةِ الّتي نفخَ بها جبريلُ عليه السلام، أو الرّوحُ مُرسلٌ من عند اللّه تعالى، ونافخٌ بإذنه.

ما في الأَناجيلِ أنّ المسيحَ لا علاقةَ له بالألوهيّةِ ولا بالبُنوّةِ

وآثرَ هذين الوصفَيْن: (كلمة) و(روح)، لورودِهما في كُتبِهم ودورانِهما على ألسنةِ حواريِّيهم، ومعناهما بيّنٌ لديهم، ثُمّ فُهمَا خطأً، فَأُريدَ التَّنْبيهُ عَلى ذَلِكَ الخَطَأ في التَّأْويلِ، أَيْ أَنَّ قُصارَى ما وَقَعَ لَدَيْكُمْ مِنْ كَلامِ الأَناجيلِ، هو وَصْفُ المَسيحِ بِكَلِمَةِ اللّه وبِرَوْحِ اللّه، ولَيْسَ في شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ ما يُؤَدِّي إِلى اعْتِقادِ أَنَّهُ ابْنُ اللّه وأَنَّهُ إِلهٌ[2].

الفاءُ الفصيحةُ وأسلوبُ الاحتراسِ يُجلّيان الأمرَ بالإيمان النّقيِّ من كلِّ زعمٍ فاسدٍ:

الفاءُ الفصيحةُ؛ في قولِه تعالى: ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۖ﴾، أَيْ: إذا وَضَحَ كُلُّ ما بَيَّنَهُ اللّه مِنْ وَحْدانِيَّتِه، وتَنْزيهِه، وصِدْقِ رُسُلِه ﴿فَـَٔامِنُواْ﴾، وقد أُمِروا بالإيمان باللّه مع كونِهم مُؤمنين به؛ لأنَّهم لَمّا وصَفُوا اللّه بما لا يَليقُ، فقد أَفسدُوا إيمانَهم، وليكونَ الأمرُ بالإيمان باللّه، تمهيدًا للأمرِ بالإيمانِ برُسله جميعِهم، وهو المقصودُ، وهذا بمنزلة الاحتراسِ، عن أن يتوهَّمَ مُتوهِّمون أن يُعرضُوا عنِ الإيمان برسالة عيسَى عليه السلام، مبالغةً في نفْيِ الإلهيّةِ عنه[3].

الأمرُ بتجديدِ الإيمانِ وتنقيّتِه منَ الشّوائبِ والأباطيلِ

﴿وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ﴾، نهاهُم عنِ النّطق بِهَذِهِ الكَلِمَةِ، ولَعَلَّها كانَتْ شِعارًا لِلنَّصارى في دينِهِمْ، كَكَلِمَةِ الشّهادَةِ عِنْدَ المُسْلِمينَ، والمَقْصودُ النَّهْيُ عَنِ النُّطْقِ بها بدلالتِها الاعتقاديّة[4]، و﴿ثَلَٰثَةٌۚ﴾ فيه إيجازٌ بحذف المبتدأ، وحَذْفُهُ لِيَصْلُحَ لِكُلِّ ما يَصْلُحُ تَقْديرُهُ مِنْ

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 4/143، وأبو السّعود، إرشاد العَقْل السّليم: 2/295.
(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/53.
(3) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/53 - 54.
(4) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/54.

مَذاهِبِهِمْ مِنَ التَّثْليثِ، فَإِنَّ النَّصارى اضْطَرَبوا في حَقيقَةِ تَثْليثِ الإِلَهِ، واختلفُوا في كيفيّته[1]؛ وقدَّر صاحبُ الكشّاف المبتدأ المحذوفَ على تقديرين، قال: فإنْ صَحَّتِ الحكايةُ عنهم، أنّهم يقولون: هو جوهرٌ واحدٌ ثلاثةُ أقانيمَ، أُقْنومِ الأبِ، وأُقْنومِ الابنِ، وأُقْنومِ رُوحِ القدس؛ وأنّهم يريدون بأُقنوم الأب: الذّاتَ، وبأُقنوم الابن: العِلْمَ، وبأُقنوم رُوحِ القدس: الحياةَ، فتقديرُه: اللّه ثلاثةٌ، وإلّا فتقديرُه: الآلهةُ ثلاثةٌ.

الأمـــرُ بـتركِ المناهي اللّفظيّةِ الّـتـي تُـعـارضُ جَوهرَ الوحيِ، وتَفترِي على الله الكذبَ

قال: والّذي يدلُّ عليه القرآنُ التّصريحُ منهم، بأنّ اللّه والمسيحَ ومريمَ ثلاثةُ آلهة، وأنّ المسيحَ وَلَدُ اللّه من مريمَ، ألا ترى إلى قولِه: ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [المائدة: 116]، ﴿وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ [التّوبة: 30][2].

وقولُه: ﴿ٱنتَهُواْ خَيْرًا لَّكُمْ﴾ تأكيدٌ للنّهي، في قولِه: ﴿وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌ﴾، وفي التّعبيرِ بقولِه: ﴿ٱنتَهُواْ﴾ دليلٌ على أنّهم لم يَعتَنِقوا ما يدَّعون اعتقادًا جازمًا، بل إنّهم إن فكّرُوا غيّرُوا، و﴿خَيْرًا﴾ منصوبٌ على أنّه خبرُ كان المقدّرةِ، على مذهب الكِسائيّ وأبي عُبَيدة، ففيه إيجازٌ بحذفِ العامل؛ أي: انتهُوا يكنِ الانتهاءُ خيرًا لكم؛ لأنّكم تَخرُجون من حَيرةِ الأوهام، إلى تفكيرِ العقولِ، وتُدركون الحقَّ، وتُذعِنون له، وتَكُونُونَ مُؤمنينَ بالمسيحِ حقًّا وصِدقًا[3].

قصرُ الأُلوهيّةِ على الله وحدَه:

اتّخاذُ الولدِ دليلُ الضّعف، وأَمارةُ الحُدوثِ، واللهُ مُنزَّهٌ عن ذلك

﴿إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾، أسلوبُ قصْر بـ ﴿إِنَّمَا﴾؛ للدّلالةِ على انفرادِ اللّه تعالى بالألوهيَّةِ، وأنَّ اللّه تعالى هو الإلهُ وحْدَه، وجاء

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/54.

(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/593 - 594.

(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 4/1983 - 1984م، قال أبو حيّان: "في تَقْدِيرِ النَّاصِبِ ثَلَاثَةُ أَوْجُهٍ: مذهبُ الخليل، وَسِيبَوَيْه، (وَأْتُوا خَيْرًا لَكُمْ)، وَهُوَ فِعْلٌ يَجِبُ إِضْمَارُه، وَمَذْهَبُ الكِسَائِيِّ وَأَبِي عُبَيْدَة: يَكُنْ خَيْرًا لَكُمْ، وَيُضْمَرُ إِنْ يَكُنْ وَمَذْهَبُ الفَرَّاءِ إِيمَانًا خَيْرًا لَكُمْ وَانْتِهَاءً خَيْرًا لَكُمْ، بِجَعْلِ خَيْرًا نَعْتًا لِمَصْدَرٍ مَحْذُوفٍ، يَدُلُّ عَلَيْهِ الفِعْلُ الَّذِي قَبْلَهُ"، ينظر: أبو حيان، البحر المحيط: 4/142.

بقولِه: ﴿وَٰحِدٌۖ﴾ لزيادة تأكيد القصرِ؛ أي: المعبودُ بحقٍّ ليس إلّا واحدًا، وهو اللّه تعالى، ووحدانيّتُه تكونُ في الذّات والصّفاتِ والعُبوديّةِ، والواحدُ لا يتَجَزّأ، ولا يكونُ منه ولدٌ، أو يكونُ له والدٌ، ﴿سُبۡحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٞۘ﴾، أي: تنزّهَ اللّه تعالى، عن أَن يكون له ولدٌ؛ لأَنّ اتّخاذَ الولدِ دليلُ الضّعف، وأَمارةُ الحُدوث، وصِفةُ العاجزِ المحتاجِ، إلى مَن يُعينُه في حياته، ويَخْلُفُهُ بعد مماته، واللّه ﷻ منزَّهٌ عن كلِّ ذلك[1]، ومُنزَّهٌ عمّا لا يليقُ به من كلِّ نقْصٍ.

﴿لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ﴾: فيه تقديمُ ما حقُّه التّأخيرُ، وهو شبْهُ الجملة ﴿لَهُۥ﴾؛ لإفادة القصْر في انفرادِ اللّه تعالى وحدَه بالمُلك، والجملةُ مُستأنَفَةٌ مَسوقَةٌ لتَعليلِ التّنزيهِ، أي: إذا كانَ يَمْلِكُ جميعَ ما فيهما، فكيف يُتَوَهّمُ حاجتُه إلى وَلَدٍ.

وبين ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ و﴿ٱلۡأَرۡضِ﴾ طباقٌ، وقدّمَ السّمواتِ على الأرض، لعِظَم خَلْقِها.

وكرّرَ ﴿وَمَا فِي﴾ على عادة القرآنِ حين يريدُ أن يتكلّمَ عن أهلِ الأرضِ بشيءٍ ما يخصُّهم، فإنّه يكرّر كلمة (ما في)، فيقول: ﴿مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ﴾ وإلّا فيقولُ: (مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ).

ويُلاحَظ في كلّ موضعٍ نزَّه اللّه فيه نفسَه عنِ الوَلَد، ذكَرَ كونَهُ مَلِكًا ومالكًا، لما في السّمَوات والأَرض، لِيَكونَ دليلًا عليه، إذِ المعْنى: تَنَزَّه اللّه عنْ أَنْ يكونَ له وَلَدٌ؛ لأنّ له ما في السّمواتِ وما في الأَرض[2]، وهو غنيٌّ عنهم.

مناسبةُ التّذييلِ باللّه الوكيلِ:

اللّه وحدَه كافٍ في تدبيرِ المخلوقاتِ، ولا يَحتاجُ إلى وَلَدٍ يُعينُه

﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا﴾ أَي: كفى باللّه قيّمًا على خلقِه، ومدَبّرًا لهم، فهو وحدَه سبحانَه كافٍ في تدبيرِ المخلوقاتِ، وفي حِفْظِ هذا الكونِ، فلا يَحتاجُ إلى وَلَدٍ يُعينُه، ولا إلى إلهٍ آخرَ يُدبّر أَمْرَ الكونِ معَهُ[3]، وهذه مناسَبةٌ لطيفَةٌ في تذْييلِ الآية.

(1) مجموعة من المؤلفين، التّفسير الوسيط: 2/991.
(2) الرّازي، مفاتيح الغيب: 11/272.
(3) الرّازي، مفاتيح الغيب: 11/272، ومجموعة من المؤلفين، التّفسير الوسيط: 2/992.

﴿لَّن يَسۡتَنكِفَ ٱلۡمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبۡدٗا لِّلَّهِ وَلَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ٱلۡمُقَرَّبُونَۚ وَمَن يَسۡتَنكِفۡ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَيَسۡتَكۡبِرۡ فَسَيَحۡشُرُهُمۡ إِلَيۡهِ جَمِيعٗا ١٧٢ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمۡ أُجُورَهُمۡ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضۡلِهِۦۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسۡتَنكَفُواْ وَٱسۡتَكۡبَرُواْ فَيُعَذِّبُهُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا ١٧٣﴾ [النّساء: 172 - 173]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لا يستنكفُ الملائكةُ عنِ العبوديّة لله، فكيْف يسْتنكفُ عَنْها المسيحُ؟

لَمّا أَقامَ الحُجَّةَ عَلى أَنَّ عيسى رسولُ اللّه، وكلمتُه وروحٌ منه، ولا يصحُّ بحالٍ أَنْ يَكونَ ابْنًا للّه، مهما أُوتي منَ الإخبار عَنِ المُغَيَّبات، أو أتى بِخَوارِقِ العاداتِ، أخبَرَ عنه أنّه عبدٌ للّه، ولا يأنَفُ من هذه العبوديّةِ، وكذلك الملائكةُ المقرّبونَ الّذين هم أكملُ حالًا في العلومِ والقُدرةِ لا يَسْتَنْكِفون عَنْ عُبودِيَّةِ اللّه، فَكَيْفَ يَسْتَنْكِفُ المَسيحُ عَنْها[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

الاستنكافُ الأَنَفَةُ منَ الشّيءِ والإعراضُ عنه

1) ﴿يَسۡتَنكِفَ﴾: الاستنكافُ: الأَنَفَةُ منَ الشّيءِ؛ أي لن يَأْنَفَ، وأصلُه في اللّغة من نَكَفَ الدَّمْعَ، إذا مسَحَه بأُصبعِه عن خدّه، ونحّاه أَنَفَةً مِنْ أَنْ يُرى أثَرُ البُكاء عليه، أو من النَّكَف: جَمْعُ نَكَفَةٍ، وهِيَ غُدَّةٌ في أَصْلِ اللَّحْيِ، ثُمَّ قيسَ عَلى هَذا فَقيلَ: نَكِفَ مِنَ الأَمْرِ واسْتَنْكَفَ، إذا أَنِفَ مِنْهُ؛ وكأنّه لَمّا أَنِفَ أَعْرَضَ عَنْهُ، وأَراهُ أَصْلَ لَحْيِه، كَما يُقالُ أَعْرَضَ إذا وَلّاهُ عارِضَهُ، وتَرَكَ مُواجَهَتَهُ، والأَنِفُ مِنْ هَذا، كَأَنَّهُ شَمَخَ بِأَنْفِهِ دونَهُ[2].

(1) الرّازي، مفاتيح الغيب: 11/273.

(2) الزّجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 2/136، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (نكف)، والرّاغب، تفسير الرّاغب: 4/239، وابن الهائم، التّبيان، ص: 145.

2) ﴿ٱلۡمُقَرَّبُونَۚ﴾: جمع مقرَّب: اسم مفعول من قرَّب مأخوذ من قرُب: وهو خلاف البعد، يقال: قَرُبْتُ منه أقْرُبِ وقَرِبْتُه أقرَبُهُ قُرْبًا وقُرْبَانًا، وقرَّب الشَّيْء قرَابَة وقربا وقربة وقربى ومقربة دنا فَهُوَ قريب وَيُقَال قرب مِنْهُ وَقرب إِلَيْهِ ويستعمل القرب في المكان وفي الزمان، وفي النِّسْبَة، وفي الحِظْوَة، والرِّعاية والقُدْرة[1].

3) ﴿وَيَسۡتَكۡبِرۡ﴾: الاستكبارُ: طلبُ التّكبُرِ لغيرِ استحقاقٍ، والكِبْرُ والتَّكَبُّرُ والاسْتِكْبارُ تتقارَبُ في المعنى، فالكِبْرُ: العَظَمَةُ، وهي إعجابُ الإنسانِ بنَفْسِه، وذلك أن يَرى نفسَه أكبرَ من غَيْرِه، والتّكبُّرُ يوصَفُ به مَن يتَشَبّعُ بما لَيس لَه، ولا يَملِكُ مُؤهّلاتِه، ويتَكَلّفُ ذلك، وهذا في أوصافِ النّاسِ كقولِه تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلۡبِ مُتَكَبِّرٖ جَبَّارٖ ٣٥﴾ [غافر: 35]، وأعظمُ التّكبّرِ التّكبّرُ على اللّه بالامتناعِ منْ قَبولِ الحَقّ، والإذعانِ له بالعِبادَةِ.

الاستكبارُ افتعالُ التّكبُرِ لغيرِ استحقاقٍ، تعاليًا وفخرًا

والاسْتِكْبارُ أن يتحَرّى الإنسانُ، ويطلبَ أن يصيرَ كَبيرًا، ويتَشَبّعَ مِن ذلكَ فيُظهرَ مِن نفسِه ما لَيس لَه، وجميعُ ما وَرَدَ في القرآنِ العظيمِ منَ الاستكبارِ من هذا النّوعِ، كما قالَ تعالى: ﴿أَبَىٰ وَٱسۡتَكۡبَرَ﴾ [البقرة: 34][2].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

لن يَأنَفَ المسيحُ أو يتَعاظمَ أو يتَرَفّعَ أن يكونَ عبدًا للّه، فإنّ أوّلَ كلمةٍ جرى بها لسانُه وهو في مهْدِه: ﴿إِنِّي عَبۡدُ ٱللَّهِ﴾ [مريم: 31]، كما لا يَستنكِفُ الملائكةُ المقرّبُون منَ اللّه ﷻ أن يكونُوا عبيدًا للّه، يُقرّون بعُبوديّتِه ويُذعِنون له، ومَن يسْتنكفْ عن عبادةِ اللّه، ويسْتكبرْ عن طاعتِه وطاعةِ رسُلِه، فموعِدُهُم الحشرُ بين يدَيه، يومَ يبْعَثُهُم جميعًا

المسيحُ عبدُ الله ورسولُه، ولن يستنكفَ عنِ العبوديّةِ لله الواحدِ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب الأصفهاني، مفردات ألفاظ القرآن، المعجم الأوسط: قرب.

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، السّمين، عمدة الحُفّاظ: (كبر)، والرّاغب، تفسير الرّاغب: 4/240.

فيُنَبِّئُهم بما عملوا؛ فأمّا الّذين آمَنوا وعَمِلوا الصّالحاتِ، وعَبَدوا اللّه حَقَّ عِبادتِه، فإنّه يُوَفّيهم ثوابَ أعمالِهم وافيًا تامًّا، ويضاعفُ حسناتِهم أضعافًا مُضاعَفَةً، ويَزيدُهم من واسعِ فضْلِه، ممّا لا عَيْنٌ رَأتْ ولا أُذُنٌ سَمِعَتْ، ولا خَطَرَ عَلى قَلْبِ بشَرٍ، وأمّا مَن أَنِف وامتَنَع واستَكْبَر عن عِبادَتِه، فيُعذِّبُه اللّه عَذابًا مُؤلمًا، ولن يَجِدَ له مَن يتَولّاه، أو ينْصُرُه من دونِ اللّه.

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

الاستنكافُ من أمراضِ القُلوبِ التي تصُدُّ عنِ الحقّ:

﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ﴾: الاستنكافُ عملٌ قلبيٌّ؛ وذلك بأنْ يكونَ الإنسانُ عنده أَنَفةٌ وكبرياءُ قلبيَّةٌ تحجزُه عن عبادةِ اللّه، استُعيرَ من نكَفَ الدَّمْعُ، والنّكَفُ: عَمليّةٌ حِسّيّةٌ، تتمَثّلُ في مسْحِ الدَّمْعِ بأُصْبُعِه مِن خَدِّه، مخافةَ أن يَراه النّاسُ باكيًا؛ لأنّ البُكاءَ منَ الرّجلِ يُعَدّ ضَعفًا، أو نَقصًا، فيُحاوِلُ عدمَ إظهارِ دمْعِهِ للنّاس.

التّنكيرُ في قولِه (عبدًا لله) أظهرُ في العُبوديّة، وأمعنُ في التّواضعِ

وقال بعدها: ﴿عَبْدًا لِّلَّهِ﴾، ولم يقُل (عبْدَ اللّه)؛ لأنَّ التّنكيرَ هنا أظهرُ في العُبوديّة، أي: عبدًا من جُملةِ العَبيد، ولو قال: (عبد اللّه) لأوْهَمتِ الإضافةُ أنَّه العبدُ الخصّيصُ (الأخصُّ مِن الخاصِّ)، أو أنَّ ذلك اسمٌ عَلَمٌ له[1]، والجملةُ استئنافيّةٌ، مُقَرِّرةٌ لما سَبَقَ منَ التّنزيه[2].

عطْفُ الملائكةِ على المسيحِ؛ لأنّهم قيلَ عنهم أبناءُ الله، وكذلك المسيحُ:

﴿وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾، عَطَفَ المَلائِكَةَ عَلى المَسيح، ليَشمَلَ كُلَّ مَن ادُّعِيَتْ لَهُ بُنُوَّةٌ للّه، إذ قالوا: (الملائكةُ بناتُ اللّه)، وقَدْ تَقَدَّمَ قَبْلَهُ قَوْلُهُ: ﴿سُبْحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ﴾، وتَقَدَّمَ أَيْضًا قَوْلُهُ: ﴿لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾، ومِنْ أَفْضَلِ ما في السَّمَواتِ المَلائِكَةُ، والملائكةُ كانتْ تُعْبَدُ من دونِ اللّه، كما كانَ

تخصيصُ الملائكةِ المقرَّبينَ بالذّكر؛ لكونِهم الأرفعَ درجةً، والأعلَى منزلةً

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/59.
(2) أبو السّعود، إرشاد العَقْل السّليم: 2/260.

المسيحُ يُعبَدُ كذلك؛ فأخْبَرَ أنّ أولئِكَ الّذين تعبُدونَهم أنتم لم يسْتَنْكِفوا عن عبادتي؛ فكَيف تَسْتنكِفون أنتم!

وفي هذا تهديدٌ ووعيدٌ للمُشرِكين، وقدْ جاءَ التّهديدُ صريحًا في قولِه بعدَه: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْتَنكَفُواْ وَٱسْتَكْبَرُواْ فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾[1]، وتكرارُ (لا) النّافيةِ يفيدُ التّوكيدَ في عدَمِ الاستنْكافِ والتّكبُّرِ.

الإيجاز بالحذف:

في قوله تعالى ﴿وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَۚ﴾ إيجاز بالحذف، أي ولا الملائكة المقربون أن يكونوا عبيدا لله، فحذف ذلك لدلالة ﴿عَبْدًا لِّلَّهِ﴾ عليها[2]، فكان في عطف ﴿وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَۚ﴾ على ﴿ٱلْمَسِيحُ﴾ إغناء عن إعادة هذه الجملة، وتركٌ للإطالة بتكرار ما هو ميسور فهمه وقريب إدراكه.

وفي الآية استطرادٌ؛ وهو أن يشْرَعَ المتكلّمُ في شيءٍ من فُنونِ الكلامِ، ثمّ يسْتمرُّ عليه فيَخرُجُ إلى غَيره، ثمّ يَرجِعُ إلى ما كان علَيه من قبلُ[3]، فأوّلُ الكلامِ ذكَر فيه الرّدَّ على النّصارى الزّاعِمين بُنُوَّةَ المسيحِ، ثمَّ استَطْرَدَ في الرّدّ على العربِ الزّاعمين بُنُوَّةَ الملائكةِ[4].

طِباقُ السّلْبِ بين قولِه: ﴿يَسْتَنكِفَ﴾ وقولِه: ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ﴾:

الفرقُ بين الاستنكافِ والاستكبارِ في الآيةِ

﴿وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ﴾، الاستنكافُ: هو التّكبّرُ والامتناعُ أنَفَةً؛ فهو أشدُّ منَ الاستكبارِ، ويتمثّلُ الاستنكافُ بعدمِ الإقرارِ بالعبوديّةِ، والاستكبارُ بعدمِ القيامِ بالطّاعَة تكَبُّرًا، وفي قولِه تعالى: ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ﴾ و﴿يَسْتَنكِفْ﴾، طِباقُ السّلْبِ.

عودةُ الضّميرِ في قوْلِه: ﴿فَسَيَحْشُرُهُمْ﴾، إلى مقدَّرٍ معْلومٍ، دلَّ عليْه المُفرّعُ عليْهِ:

﴿فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا﴾، الضّميرُ في قَوْلِه: ﴿فَسَيَحْشُرُهُمْ﴾ عائِدٌ

(1) الماتريديّ، تأويلات أهل السنة: 3/430، وابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/60 - 61.
(2) الزمخشري: 1/597، والكشاف الرازي، مفاتيح الغيب: 11/273، وأبو حيان، البحر المحيط: 4/145.
(3) العلويّ، الطّراز: 3/8.
(4) السّيوطي، معترك الأقران: 1/47.

إلى مقدَّرٍ مَعْلوم مِنَ المَقام، أَيْ فَسَيَحْشُرُ النّاسَ إِلَيْهِ جَميعًا، دَلَّ عَلَيْهِ التّفْصيلُ المُفَرَّعُ عَلَيْهِ وهو قَوْلُهُ: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، كأنّه قال: ومَن يَستَنكفْ عن عِبادته ويَستَكبرْ، ومَن لم يَسْتنكِفْ عن عِبادته ولم يستَكْبِر؛ فسَيحشُرُهم إليه جميعًا[1]، وهذا اكتفاءٌ؛ وهو أن يَقتضيَ المقامُ ذِكْرَ شيئَيْنِ، بَيْنَهُما تَلازُمٌ وارتباطٌ، فَيُكْتَفى بأَحَدِهما عنِ الآخر لنُكتةٍ بلاغيّة[2]، وتقديمُ الجارّ والمجرور ﴿إِلَيْهِ﴾، يفيدُ الحصْرَ، أي: إلَيه وحدَه لا إلى غيره، و﴿جَمِيعًا﴾: مِن ألفاظِ التَّوكيدِ.

دلالةُ ﴿فَأَمَّا﴾ الشّرطيّةِ التّفصيليّةِ على التّوكيد، بعد فاءِ الفصيحةِ:

﴿فَأَمَّا﴾: الفاءُ فاءُ الفصيحةِ، و(أمّا): حرف شرطٍ وتفصيلٍ يفيدُ التّوكيدَ؛ فأمّا الشّرطُ للزومِ الفاءِ بعدَها، كقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۝٩﴾ [الضّحى: 9]، وأمّا التّفصيلُ لِما أَجْمَلَه المتكلِّمُ وادَّعاه المخاطَبُ فهو غالبُ أحوالِها، كقولِه تعالى: ﴿أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِي ٱلْبَحْرِ﴾ [الكهف: 79]، وقدْ تأتي لغيرِ تفصيلٍ أصْلًا نحو: (أمّا زيدٌ فمُنطَلِقٌ)، وأمّا التّوكيدُ فقد ذكَره صاحبُ الكشّاف بقوله: (أمّا) حرفٌ فيه معنى الشّرطِ، ولذلك يُجابُ بالفاءِ، وفائدتُه في الكلامِ، أن تعطيَه فضلَ توكيدٍ، تقول: (زيد ذاهب)، فإذا قصدتَ توكيدَ ذلك، وأنّه لا محالةَ ذاهبٌ، وأنّه بصددِ الذّهاب، وأنّه منه عزيمةٌ، قلتَ: (أمّا زيدٌ فذاهبٌ)، ولذلكَ قالَ سيبويهِ في تفسيره: مهما يكُنْ مِن شيءٍ فزيدٌ ذاهبٌ، وهذا التّفسيرُ دلَّ على فائدتَين: بيانِ كونِه توكيدًا، وأنّه في معنى الشّرطِ[3].

الجزاءُ لصنفين (الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ) و(الَّذِينَ اسْتَنْكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا)

تقديمُ الثّوابِ على العقابِ، تفضيلًا للأخيارِ، وحسرةً على الأشرارِ:

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾: هذا بيانٌ للفريقِ الّذي لم

(1) الماتريديّ، تأويلات أهل السنة: 3/430، وابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/61.
(2) السّيوطيّ، معترك الأقران: 1/242.
(3) سيبويه، الكتاب: 3/137، والزّمخشريّ، الكشّاف: 1/117، وصافي، الجدول: 6/259.

يُذكَرْ في الإجمالِ السّابقِ (وهو الفريقُ الّذي لم يَستَنْكِف)، قُدِّم على بيانِ حالِ ما يقابلُه؛ إبانةً لفضلِه، ومسارعةً إلى بيانِ كونِ حشْرِه أيضًا معتَبَرًا في الإجمالِ، وإيرادُه بلفظِ الإيمانِ والعَملِ الصّالحِ، لا بوَصفِ عدمِ الاستنكافِ والاستكبارِ؛ للتّنبيهِ على أنّه المسْتَتْبِعُ لما يَعْقُبُه منَ الثّمَرات[1]، فالإيمانُ والعملُ الصّالحُ أساسُ العبادةِ للّه؛ والعملُ يُصَدّقُ الإيمانَ.

دَلالةُ إيرادِ عبارةِ الإيمانِ والعملِ الصّالحِ، دون عدمِ الاستنكافِ والاستكبارِ

وقَدَّمَ ثَوابَ المُؤْمِنينَ عَلى عِقابِ المُسْتَنْكِفينَ، تقديمَ تفضيلٍ؛ ولِأَنَّهُمْ إذا رَأَوْا أَوَّلًا ثَوابَ المُطيعينَ، ثُمَّ شاهَدوا بَعْدَهُ عِقابَ أَنْفُسِهِمْ، كانَ ذَلِكَ أَعْظَمَ في الحَسْرةِ[2].

أصلُ الدّلالةِ في التّوفيةِ، في قولِه: ﴿فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ﴾:

﴿فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾، والتَّوْفِيَةُ أَصْلُها إعْطاءُ الشَّيْءِ وافِيًا، أَيْ زائِدًا عَلى المِقْدارِ المَطْلوبِ، ولَمّا كانَ تَحَقُّقُ المُساواةِ يَخْفى لِقِلَّةِ المَوازينِ عِنْدَهُمْ، ولِاعْتِمادِهِمْ عَلى الكَيْلِ، جَعَلوا تَحَقُّقَ المُساواةِ بِمِقْدارٍ فيهِ فَضْلٌ عَلى المِقْدارِ المُساوي، أُطْلِقَتِ التَّوْفِيَةُ عَلى إعْطاءِ المُعادِلِ، وتُقابلُ بالخُسرانِ وبالغَبْنِ، قالَ تَعالى حِكايَةً عَنْ شُعَيْبٍ: ﴿۞أَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ ١٨١﴾ [الشُّعَراء: 181]، ولِذَلِكَ قالَ هُنا: ﴿وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾، وهَذِهِ التَّوْفِيَةُ والزِّيادَةُ يَرْجِعانِ إلى تَقْديرٍ يَعْلَمُهُ اللّه تَعالى[3].

التّوْفيةُ أُطلقتْ على إعْطاءِ المُعادِلِ، ويقابلُها الخُسرانُ والغَبْنُ

جناسُ الاشتقاقِ في قولِه تعالى: ﴿فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾:

﴿أُجُورَهُمْ﴾: بيانُ مِنَّةِ اللّه ﷻ؛ حيث سمَّى الثّوابَ أجرًا، كأنَّه استأجَر أُجراءَ يعملونَ فيأْجُرُهم، مع أنَّ فائدةَ العَملِ، تعودُ للعاملِ نفْسِه، لا لِمَن دفَعَ الأجْرَ، ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْتَنكَفُواْ وَٱسْتَكْبَرُواْ فَيُعَذِّبُهُمْ

(1) أبو السّعود، إرشاد العَقْل السّليم: 2/262.
(2) الرّازي، مفاتيح الغيب: 11/274.
(3) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/61 - 62.

عَذَابًا أَلِيمًا﴾، أي: مُؤلِمًا شديدَ الإيلام، بما وجَدوا من لَذاذةِ التّرفُّعِ والتّكبُّرِ[1]، وفي قولِه تعالى: ﴿فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا﴾ جناسُ الاشتقاق، وفي قولِه ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْتَنكَفُواْ وَٱسْتَكْبَرُواْ﴾ تفصيلٌ مُتّصلٌ، وهو كلُّ كلامٍ وقعَ فيه (أمّا، وأمّا)[2].

من عظيمِ فضلِ الله على العِباد استيفاءُ الأجورِ حسبَ الأعمالِ

تكرارُ حرفِ (لا) في قولِه: ﴿وَلَا يَجِدُونَ لَهُم﴾ إلى قولِه: ﴿وَلَا نَصِيرًا﴾ يفيدُ التّوكيدَ:

﴿وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾، أي: لا يَجدونَ حالًا ولا مآلًا، وليًّا قريبًا يتولّى أمورَهم، فيدفعُ العذابَ عنهم، ولا نَصيرًا يمنعُهم منه، والوِلايةُ تقتضي إخلاصَ المَوَدّة، والنّصرةُ معونةٌ سواءٌ كان معها الوِلايةُ أو لم تكنْ[3].

الوِلايةُ والنُّصرةُ لا يجدُها إلّا أهلُ الإيمانِ

وهذا تيئيسٌ لَهُمْ إذْ قَدْ عُرِفَ عِنْدَ العَرَبِ وغَيْرِهِمْ، مِنْ أُمَمِ ذَلِكَ العَصْرِ، الاعْتِمادُ عِنْدَ الضّيقِ عَلى الأَوْلِياءِ والنُّصَراءِ، لِيَكُفُّوا عَنْهُمُ المَصائِبَ بِالقِتالِ أَوِ الفِداءِ؛ ولِذَلِكَ كَثُرَ في القُرآنِ نَفْيُ الوَلِيِّ والنَّصيرِ والفِداءِ، قال تعالى: ﴿فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ ۗ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٩١﴾﴾ [آل عمران: 91][4]، وقولُه: ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٠٧﴾﴾ [البقرة: 107]، وقولُه: ﴿وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٨﴾﴾ [الشّورى: 8]، و(النّصيرُ): فَعيلٌ بمعنى فاعِلٍ أو مَفْعولٍ؛ لأنّ كلّ واحدٍ من المتناصِرَيْن ناصرٌ ومنصورٌ[5]، وتكرارُ حرفِ (لا) يفيدُ التّوكيدَ، وفصَلَ الولاءَ عنِ النّصرِ؛ لأنّه قد يكونُ هناك وَليٌّ، ولا يستطيعُ النُّصْرَةَ، وفي قولِه تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرَر: 2/379.
(2) ابن أبي الأصبع، بديع القرآن، ص: 145.
(3) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 4/243.
(4) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/62.
(5) ابن الأثير، النّهاية: 5/64.

فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْتَنكَفُوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾، مُقابلةٌ بين حالِ المؤمنينَ وحالِ المستكبرينَ.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيّةُ:

الاستنكاف والاستكبار:

الاستنكافُ ليس مجرد الأنفة، وإنما هو الامتناع والانقباض عن الشيء حميَّة وعزة[1]، أو هو التنزه عن السوء ودفعه عن النفس[2] فهو دال على شدة الترفع على الشّيء بتصوّر نقصان فيه، ومنبئ عن الأَنَفَة من لحوق العيب والنقصِ من المستنكَفِ عنه[3]، وأما الاستكبار فهو التّرفّع على الشيء بتصوّر المستكبر رفعةً في نفسه.

فالتعبير بالفعل المنفي ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ﴾ في شأن المسيح، لكون النصارى يرَوْن في مقام العبودية نقصًا يلحق المسيحَ، وأن اللّائق بمقامه الترفّع عنه، وهو ما ينسجم مع كون الاستنكاف أصله النَّكْف (بسكون الكاف) الدّالّ على التنحية والإزالة لما يُستحيا منه، أو (النَّكَف) الدال على السوء الذي يتنزه الإنسان عن الاتصاف به، فالمعنى على الأول: (لن يأنف المسيح عن العبودية ولن يتنزه عنها فليست مما يستحيا منه ليأنف المسيح عنها كما تزعمون، والمعنى على الثاني لن يتبرأ المسيح من وصف العبودية إذ ليس فيها ما يسوءه ولا يعيبه)[4].

وأما المغايرة بين ﴿يَسْتَنكِفْ﴾ و﴿وَيَسْتَكْبِرْ﴾ في توعّد المشركين بالعذاب، فلبيان شمول الوعيد كلَّ صور الامتناع عن عبادة اللّه؛ سواء منها ما كان لترفع المستنكف عنها وأنفته منها توهما أن

(1) هذا على رأي الخليل ينظر: الخليل، العين: (نكف).
(2) هذا على رأي المبرد، ينظر: تهذيب اللغة: (نكف).
(3) أبو السعود، إرشاد العَقْل السّليم: 2/549.
(4) الشوكاني، فتح القدير: 1/625، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 4/1986، 1987، ففيهما بعض المقاربة لما تم تقريره.

فيها نقصا يلحق به، أو سوءا يجب التنزه عنه، أو ما كان لتوهم الرفعة في نفسه بالتكبر على العبادة وإن لم يكن مع هذا التكبر أنفة، فلهذا كان عطف ﴿وَيَسْتَكْبِرْ﴾ على ﴿يَسْتَنكِفَ﴾ تأسيسا[1].

الاستكبار والتكبر:

الاستكبار أصلُه طلبُ التكبر بغير استحقاقٍ له وهو: أَنْ يَجْعَلَ الْإِنْسَانُ نَفْسَهُ كَبِيرَةً فَوْقَ مَا هِيَ؛ غُرُورًا وَإِعْجَابًا، فَيَحْمِلُهَا بِذَلِكَ عَلَى غَمْطِ الْحَقِّ، سَوَاءٌ كَانَ لله أَوْ لِخَلْقِهِ وَعَلَى احْتِقَارِ النَّاسِ، وأما التكبر فقد يكون باستحقاق، وذلك إذا كان طلبا لعزة النفس والتلطف عن الأغراض الدنيوية، فلذلك جاز في صفة الله تعالى المتكبر، ولا يجوز المستكبر، لأن أفعاله الحسنة - جل وتقدس - كثيرة وزائدة على محاسن غيره[2].

وقد جاءت الآية بالتعبير بـ ﴿وَيَسْتَكْبِرْ﴾ المتضمن معنى طلب التكبّرِ للإيذان بأن مآلَه محضُ الطلبِ دون حصولِ المطلوب، إشعارًا بأنْ ليس هناك شيءٌ سوى الطلبِ والاستكبارِ، وكأن هؤلاء الكفار يطلبون التكبر والترفع على عبادة الله، لكنّ طلبهم ذلك مآله الذل والخسران، فهم مقهورون مربوبون لله كرهًا إن لم يختاروا العبودية طوعًا.

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/76، والشوكاني، فتح القدير: 1/625، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 4/1986، 1987.
(2) الراغب الأصفهاني، مفردات ألفاظ القرآن: كبر، أبو السعود، إرشاد العَقْل السّليم: 2/549، ورضا، تفسير المنار: 6/80.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُم بُرۡهَٰنٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ نُورٗا مُّبِينٗا ١٧٤ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَٱعۡتَصَمُواْ بِهِۦ فَسَيُدۡخِلُهُمۡ فِي رَحۡمَةٖ مِّنۡهُ وَفَضۡلٖ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَيۡهِ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا ١٧٥﴾ [النّساء: 174 - 175]

مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِمَا قَبْلَهُما:

الإسلامُ برهانٌ للمُهتدِين مكينٌ، ونورٌ للمُعتصمين به مبينٌ

بعد أنْ أَوْرَدَ البيانُ القرآنيُّ الحُجَّةَ عَلى جَميعِ الفِرَقِ مِنَ المُنافِقينَ والكُفّارِ واليَهودِ والنَّصارى، وأَجابَ عَنْ جَميعِ شُبُهاتِهِمْ، عَمَّمَ الخِطابَ ودَعا جَميعَ النّاسِ إلى الاعْتِرافِ بِرِسالَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ، والنّورِ المُبينِ الّذي جاءَ بِه، ولَمّا قَرَّرَ عَلى كُلِّ العالَمينَ كَوْنَ مُحَمَّدٍ رَسولًا وكَوْنَ القُرْآنِ كِتابًا حَقًّا يَجمعُ بإعجازِهِ وحُسْنِ بيانِه بَينَ تحْقيقِ النّقْلِ وتَبصيرِ العَقْلِ، فلمْ يَبْقَ لأحَدٍ منَ المدْعوّينَ بِهِ نوعُ عُذْرٍ، أَمَرَهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ أَنْ يَتَمَسَّكوا بِشَريعَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ ووَعَدَهُمْ عَلَيْهِ بسَعادَةِ الدّارَين.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

البُرهانُ هو القُرآنُ المبينُ الّذي يُستدلُّ بِهِ على صِحّةِ النُّبُوّةِ ودَلائِلِها

1) ﴿بُرۡهَٰنٞ﴾: البُرهانُ: هو الحُجَّةُ والدّليلُ القاطعُ؛ إذ به قِوامُ الدّعوى وصُلوحُها؛ لأنّه يُؤيّدُها فتَقْوى وتَغْلِبُ، وبدونه تكونُ دعوى فارغةً، قال تعالى: ﴿قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ﴾ [البقرة: 111]. والبُرهانُ: الدّليلُ الّذي يوقِعُ اليقينَ، قالَ الرّاغبُ: والبُرهانُ أَوْكدُ الأدّلةِ، وهو ما يقْتَضي الصّدقَ أبَدًا لا مَحالةَ، واخْتلفوا في نونِه هلْ هي أصليّةٌ أم زائدةٌ؟ وقد ذكَرَها الرّاغبُ وغَيرُه تحتَ مَدْخَل (بره)[1]، والبُرهانُ هنا ما يُبَرْهَنُ بِهِ على المطْلوبِ، والمرادُ بِهِ القُرآنُ الدّالُّ على صِحّةِ نُبُوّةِ النّبيِّ ﷺ، أو دَلائِلُ النُّبُوّةِ[2].

(1) الرّاغب، المفردات: (بره)، والسّمين، عمدة الحُفّاظ: (برهن)، جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (بره - برهن).
(2) أبو السّعود، إرشاد العَقْل السّليم: 2/262، وابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/62.

2) ﴿وَٱعۡتَصَمُواْ بِهِۦ﴾: أَصْلُ العَصْمِ: الإمساكُ والمَنْعُ والملازمَةُ، فَكُلُّ مانِعٍ شَيْئًا، فَهُوَ عاصِمُهُ، والمُمْتَنِعُ بِهِ مُعْتَصِمٌ بِهِ، والعِصْمَةُ: كُلُّ شَيْءٍ اعْتَصَمْتَ بِهِ، ولِذَلِكَ قيلَ لِلْحَبْلِ: عِصامٌ، ولِلسَّبَبِ الَّذي يَتَسَبَّبُ بِهِ الرَّجُلُ إلى حاجَتِهِ: عِصامٌ، قال تعالى: ﴿وَمَن يَعۡتَصِم بِٱللَّهِ﴾ [آل عمران: 101] يَعْني: ومَنْ يَتَعَلَّقْ بِأَسْبابِ اللّه، ويَتَمَسَّكْ بِدينِهِ وطاعَتِهِ، وقالَ: ﴿وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا﴾، أي: وتَمَسَّكوا بِدينِ اللّه الَّذي أَمَرَكُمْ بِهِ، والاعْتِصامُ: التَّمسّكُ بالشّيء، وقولُه تعالى: ﴿وَٱعۡتَصَمُواْ بِهِۦ﴾ الاعتصامُ بِهِ: التَّمسّكُ بسَبَبِه، وطلبُ النّجاةِ والمَنَعَةُ به، والضّميرُ يعودُ على اللّه تَعالى، أو على النّورِ المُبينِ، وهو القرآنُ[1].

❁ المَعْنَى الإجْمَالِيُّ:

يُخاطِب اللّه تَعالى جَميعَ النّاسِ أَنَّهُ قَدْ جاءَهُمْ مِنْهُ بُرْهانٌ عَظيمٌ، وهو الدَّليلُ القاطِعُ للعُذْرِ؛ وهو المُعْجزةُ الّتي تَشهدُ بِصِدقِ النّبيّ ﷺ، والنّورُ المُبينُ الواضِحُ المُزيل لِلشُّبُهاتِ.

لا نجاةَ إلّا بالتّمسّك بهداية الله، والتّصديقِ ببُرهانِه السّاطعِ الواضحِ

فالّذينَ صَدَّقوا باللّه اعتِقادًا وقَولًا وعَملًا واستَمْسَكوا بالنّورِ الّذي أُنزل إليهم، سَيَدُلُّهم ويُوفِّقُهم لِسُلوكِ الطّريقِ القَويمِ الموصِلِ إلى مَرْضاتِه؛ فيَهديهم في الدّنيا إلى دينٍ قَويمٍ لا عِوَجَ فيه، ويُثيبُهم على ذلك في الآخِرةِ رحمةً منه وفَضلًا وإحْسانًا، وهي الجَنَّةُ والكَرامَةُ.

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

عُمومُ الخطابِ متناسِقٌ، مع عُمومِ الرّسالة وعالميّتِها:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾: خِطابٌ لِعُمومِ النّاسِ في خِتامِ السّورةِ، يُوافِقُ مُبتَدَأها الّذي خاطَبَ عُمومَ النّاسِ أيْضًا، فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ﴾، [النّساء: 01]، وجاءَ في البَدْءِ التّذكيرُ بِبَدْءِ الخَليقةِ، وحُرمَةِ

القرآنُ ذكرٌ للعالمين، وهدايةٌ للنّاسِ أجمعينَ

(1) ابن جرير، جامع البيان: 5/634، 643، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/141، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، والسّمين، عمدة الحُفّاظ: (عصم).

الرَّحِم الّتي تَجْمعُهم، وذكّرهم هنا في خاتِمَةِ السّورة، بوَحدةِ الدّينِ الخاتم، وضرورةِ التّمسّكِ بالشّريعةِ الخاتِمَة، حتّى تَحْسُنَ خاتمَةُ الحَياةِ، ويكونَ الجمعُ في النّهاية في جنّاتِ النّعيم، معَ النّظَرِ إلى وجْهِ اللّه الكَريم، ويَتَرَتَّبُ على عُمومِ الخِطابِ عُمومُ رسالةِ النّبيّ ﷺ، وأنَّ القُرآنَ الكَريمَ نازلٌ لجَميعِ النّاسِ، وليسَ للمُؤمِنينَ فَحَسْب.

﴿قَدْ جَآءَكُم﴾: قَدْ: تُفيدُ التّحقيقَ، وتَعْدِيَةُ الفعلِ (جاءَ) إلى ضَميرِ المُخاطَبينَ، وهو تَرْغيبٌ لَهُمْ في الإيمانِ؛ لِأَنَّ الَّذي يَجيءُ مُهْتَمًّا بِناسٍ، يَكونُ حَقًّا عَلَيْهِمْ أَنْ يَتَّبِعوهُ، و﴿جَآءَكُم﴾ على وجه المجاز، أي: ظهرَ فيكم[1].

ذكْرُ الرّبوبيّةِ في قولِه تعالى: ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾ فيه تقويةٌ لمعنى البُرهانِ:

بُرْهانُ الرّسولِ الشّاملُ، لتَحْقيقِ الحَقِّ وإبْطالِ الباطِلِ

﴿بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾: البُرهانُ: الحُجّةُ النّيّرَةُ الواضحَةُ الّتي تُعطي اليقينَ التّامَّ، وقد تعدّدتْ أقوالُ أهلِ التّفسيرِ فيه؛ قال ابنُ عبّاس: يريدُ بالبُرهانِ: النّبيَّ ﷺ وما جاءَ بِه مِنَ البَيان؛ وإنّما قيل للنّبيّ ﷺ برهانٌ؛ لما معَه منَ المعْجزةِ الّتي تَشهدُ بِصِدْقِه[2]، وكما قال الرّازيّ: لِأَنَّ حِرْفَتَهُ إقامَةُ البُرْهانِ عَلى تَحْقيقِ الحَقِّ وإبْطالِ الباطِلِ[3].

أو أنّ الآيةَ إشارةٌ إلى محمّدٍ رسولِ اللّه ﷺ، والمعنى: قدْ جاءكُم مُقْتَرنًا بمُحمّدٍ بُرهانٌ منَ اللّه تَعالى، على صِحّة ما يَدعُوكُم إليه، وفسادِ ما أنْتم عليه منَ النِّحَل[4].

أو المرادُ به القرآنُ الدّالُّ على صِحّة نُبُوَّةِ النّبيِّ ﷺ، المُثبِتُ لِما فيهِ منَ الأحْكام الّتي مِن جُملتِها إثْباتُ حَقّيّة الحقِّ، وبُطلانِ الباطل، أو دلائلُ النُّبُوَّة والمعْجزاتُ الّتي أظْهَرها، أو هو دينُ الحقِّ الّذي أتى بِه[5]، وهذهِ المعاني تتَعاضدُ ولا تتنافَرُ، ويُقَوّي بعضُها بعضًا،

(1) السّمرقنديّ، بحر العلوم: 1/360، وابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/49، وينظر تفسير الآية: (170) من سورة النّساء.
(2) الواحديّ، الوسيط: 2/144.
(3) الرّازي، مفاتيح الغيب: 11/274.
(4) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/141.
(5) أبو السّعود، إرشاد العَقْل السّليم: 2/262.

وتدُلُّ على عَظَمَةِ هذا البُرهانِ، وتجْتمعُ على النّبيّ ﷺ وما جاء بِه، وتنوينُه للتّفْخيم والتّعْظيم.

وذكْرُ الرّبوبيّةِ في قوله تعالى: ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾، فيه تقويةٌ لمعنى البُرهان؛ لأنّ ذلك الدّليلَ إذا كان قد جاء من عند اللّه، فلا بدّ أن يكونَ بُرهانًا صادقًا، مُقنِعًا لطالبِ الحَقّ، والّذي قوّاه التّعبيرُ بـ ﴿قَدْ﴾، وبالمجيءِ في قولِه تعالى ﴿قَدْ جَآءَكُم﴾، أي: أنّه أتاكُم كالأمرِ المحْسوسِ المؤكَّد، الّذي يُرى ويُحَسّ، فهُو قائمٌ بين أيديكُم، وحجَّةٌ عليكم[1].

وإضافةُ الرّبّ إلى ضميرِ المخاطَبين، للإيذانِ بأنّ ذلك لتَربيَتِهم وتبْليغِهم، إلى كمالِهم اللّائقِ بِهم، تَرغيبًا لهُم في الامتثالِ بما بعدَه منَ الأمْر[2].

منْ أسْرارِ القرآن أنّ برهانَه يُؤثِّرُ في السّامعِ، ولو كان لا يُجيدُ العربيّةَ:

﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾ عبّر بِنونِ العَظَمة الّتي تُناسِبُ عظَمَة هذا النّورِ المبينِ، وهو القرآنُ الكريمُ، أنزَلْناهُ ﴿إِلَيْكُمْ﴾ أيّها المؤمِنون خاصّةً، وإلى النّاسِ عامّةً، وسَمّاه ﴿نُورًا﴾؛ لأنّه يَتَبَيّن به الأحكامُ، كما تَتَبيّنُ الأشياءُ بالنّور، ولِأَنَّهُ سَبَبٌ لِوُقوعِ نورِ الإيمانِ في القَلْبِ، و﴿مُّبِينًا﴾ أي: واضِحًا في نفسِه، مُوَضّحًا لغَيره[3]؛ فهو بنَفسِه نورٌ واضحٌ، وكلُّ مَن يَطّلعُ علَيه يراهُ نورًا، لا يَحتاج برهانًا لذلك، ولا يَخفى إلّا على مُسْتكبِرٍ، فبُرهانُه ذاتِيٌّ، يُؤثِّرُ في مَن يسمعُه، حتّى في الّذين لا يُجيدون لغَتَه، وهذا منْ أسْرارِ هذا الكتابِ الكريمِ المعْجِز.

القرآنُ نورٌ ينوِّر القلوبَ بالإيمان، ويقودُ إلى طاعةِ الرَّحمنِ

الاعْتِصامُ بِالله اسْتِعارَةٌ لِلالتزامِ بِدينِهِ:

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُواْ بِهِۦ﴾: لفظ ﴿فَأَمَّا﴾ الفاء:

الّذينَ آمَنوا واعتَصَموا بالله في نعيمٍ وفضلٍ وهدايةٍ

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 4/1991: 1992.
(2) أبو السّعود، إرشاد العَقْل السّليم: 2/262.
(3) الواحديّ، الوسيط: 2/144، والبقاعيّ، نظم الدّرَر: 2/379.

استئنافيّةٌ، و أمّا: حرفُ شرطٍ وتفصيلٍ، تقتضي التّقسيمَ، وقد ذكَر القِسمين في الآية السّابقة (173)؛ ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، يقابلُهم ﴿ٱلَّذِينَ ٱسۡتَنكَفُواْ وَٱسۡتَكۡبَرُواْ﴾، وهنا اكتَفى بذكْرِ الفَريقِ الأوّلِ، وهُم الّذينَ آمَنوا باللّه واعتَصَموا به، ولمْ يذكُرِ الفريقَ الثّاني للتّهويلِ؛ لأنّ مَصيرَهم قد عُرِفَ، من بيانِ منزلةِ الفريقِ الأوّلِ، كَأنّه يقولُ: وأمّا الّذينَ كَفَروا، فَلا تَسَلْ عَنْهُم، ولأنّه بعدَ كلِّ هذا البيانِ الحقّ، وإزاحةِ الشُّبُهاتِ عنِ العُقولِ والقُلوبِ، ليسَ أمامَ العاقلِ إلّا الإيمانُ باللّه، والاعتصامُ به، ومَن عَطّل عَقْلَه، وأغْلَقَ قلبَه عنِ الإيمانِ والاعتصامِ، فليسَ جَديرًا بأن يُذكَرَ، والإهمالُ به أولى.

وقد ذكَر ﷻ وصْفَين لِلّذين اهتَدَوا بهذا النّورِ؛ أوّلُهما: أنّهم آمَنوا باللّه تعالى، وثانيهما: أنّهم اعتَصَموا به، والاعْتِصامُ: افْتِعالٌ مِنْ عَصَمَ، وهو طَلَبُ ما يَعْصِمُ، أيْ يَمْنَعُ، وصيغةُ الافتعالِ تدُلُّ على الاجتهادِ في ذلك، والاعْتِصامُ بِاللّه اسْتِعارَةٌ لِلالتزامِ بِدينِهِ[1].

تنوّعُ تأويلِ عودةِ الضّميرِ في الآيةِ دليلٌ على ثراءِ اللّغةِ وعُمقِ الدّلالةِ فيها:

الاعتصامُ بالقرآنِ اعتصامٌ باللّه

والضّميرُ في قولِه ﴿بِهِۦ﴾، يعودُ على اللّه تعالى، وهو أقربُ مذكورٍ، ومثلُه قَوْلُه تعالى: ﴿وَٱعۡتَصَمُواْ بِٱللَّهِ﴾ [النّساء: 146]، في أنْ يُثَبِّتَهم على الإيمانِ ويصونَهم عن نزغِ الشّيطانِ، أو يعودُ على القُرآنِ الّذي تَضَمَّنَه قولُه تعالى: ﴿نُورٗا مُّبِينٗا﴾، والاعتصامُ به: التّمسُّكُ بسَبَبِه وطلبُ النّجاةِ والمَنَعَةُ به، عنِ الوُقوعِ في المَحْذورِ، فهو عِصمةٌ لِمَنْ تمَسَّكَ به، يَعْصِمُ كما تَعصِمُ المعاقلُ والحُصونُ[2]، والاعْتِصامُ بِكِتابِ اللّه اعْتِصامٌ بِاللّه وبِنَبِيِّهِ ﷺ[3].

المؤمنونَ المعتصِمونَ باللّه موعودُون بالرّحْمَةِ والفضْلِ والهِدايةِ:

وعْدُ اللّه، واللّه لا يُخلِفُ الميعادَ

﴿فَسَيُدۡخِلُهُمۡ فِي رَحۡمَةٖ مِّنۡهُ وَفَضۡلٖ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَيۡهِ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا﴾: هذا جزاءُ الّذينَ آمَنوا باللّه واعتَصَموا به؛ وَعَدَهم بِأُمورٍ ثَلاثَةٍ: الرّحْمَةِ والفَضْلِ والهِدايَةِ. وقولُه ﴿فَسَيُدۡخِلُهُمۡ﴾، أي بوَعْدٍ لا خُلْفَ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرَر: 2/380، وابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 4/31، 6/63.
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/141، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/149.
(3) القُرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 6/27.

فيه، والفاءُ: للتّعقيبِ والمباشَرةِ، ولعلَّ السّينَ ذُكرتْ؛ لتُفيدَ مع تحقيقِ الوَعْدِ الحثَّ على المثابَرةِ والمداوَمةِ على العَمَلِ؛ إشارةً إلى عِزَّة ما عندَه[1] ﷻ.

لفظُ (الرّحمةِ) مجازٌ مرسَلٌ؛ علاقتُه الحالّيّةُ:

﴿فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ﴾، قالَ ابْنُ عَبّاسٍ: الرّحْمَةُ الجَنَّةُ[2]، وتنوينُ رحمةٍ للتّفخيم، وجاءتْ بصيغةِ النَّكِرة لتَشْمَلَ الكثيرَ، والرّحمةُ لا يحُلّ فيها الإنسانُ، لأنّها معنى من المعاني، وإنّما يحُلّ في مكان تنزّلها وهو الجنّةُ؛ فاستعمالُ الرّحمةِ في مكانِها مجازٌ مرسَلٌ؛ أُطلِقَ فيه الحالُّ، وأُريدَ المحلُّ، فعلاقتُه الحالّيّةُ، أي سيُدخلُهم في جنّته، بمَحْضِ رَحْمته ورضْوانِه، لا بشَيءٍ استوجَبوه، وفي هذا السّياقِ ذكَرَ الإيمانَ والاعتصامَ باللّه، فجاءتِ الرّحمةُ مُنَكَّرةً، لتُفيدَ التّفخيمَ والتّكثيرَ، فهي رحمةٌ خاصّةٌ، وجاءَ الوعدُ معَها بالسّينِ الّتي تُفيدُ الاستقبالَ، وفي سورةِ الجاثيةِ: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُدۡخِلُهُمۡ رَبُّهُمۡ فِي رَحۡمَتِهِۦۚ﴾ [الجاثية: 30]، عرّف الرّحمةَ مع الإيمانِ والعملِ الصّالحِ، وهذه رحمتُه العامّةُ، وناسَب أن يأتيَ معَها ﴿فَيُدۡخِلُهُمۡ﴾.

الجنّةُ رحمةُ اللهِ، كتَبَها لأهلِ الإيمانِ والاعتصامِ به

﴿وَفَضۡلٍ﴾ للتّفخيم، أي: وفَضلٍ فخْمٍ، يُعطِيه لِعبادِهِ:

﴿وَفَضۡلٍ﴾: الفضْلُ: الإحسانُ الزّائدُ على الأجْر، ولَوْ كانَ في مُقابَلَةِ العَمَلِ لَما كانَ فضلًا، وتنوينُ فضلٍ للتّفخيم، أي: وفَضلٍ عَظيم، يَتَفَضَّلُ عَلى عِبادِهِ بثَوابِه، يعلَمون أنّه زيادة، لا سببَ لهم فيه، فيَتَفَضَّلُ عَلَيْهِمْ بما لا عَيْنٌ رَأَتْ، ولا أُذُنٌ سَمِعَتْ، ولا خَطَرَ على قلبِ بشَر[3]، وعبَّرَ عن إفاضةِ الفضْلِ بالإدْخالِ مَجازًا.

يَتَفَضَّلُ اللهُ عَلى عِبادِهِ بثَوابٍ زائدٍ بعدَ إكرامِهم بالأجْرِ

الضّميرُ في قولِه ﴿إِلَيۡهِ﴾ عائدٌ عَلى الله تَعالى، وذَلِكَ عَلى حَذْفِ مُضافٍ:

﴿وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَيۡهِ صِرَٰطًا مُّسۡتَقِيمًا﴾: أي يُرشِدُهم ويوفِّقُهم، والضّميرُ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرَر: 2/280.
(2) الرّازي، مفاتيح الغيب: 11/274.
(3) الرّازي، مفاتيح الغيب: 11/274، والقُرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 6/28.

الـهـدايـةُ إلى الـصِّـراط المُسْتَقيم مسلكٌ لسعادَةِ الدّارَين

في ﴿إِلَيْهِ﴾ عائدٌ عَلى اللّه تَعالى، وذَلِكَ عَلى حَذْفٍ مُضافٍ، وهذا هو الظّاهِرُ؛ لِأَنَّهُ المُحَدَّثُ عَنْهُ، أي: يَهْديهِمْ إلى عِبادَتِهِ، أو يَهْديهِمْ إلى صِراطِهِ ودينِه، أو يكونُ المَعْنى: يَهْديهِمْ صِراطًا مُسْتَقيمًا، لِيَصِلُوا إِلَيْهِ، أَيْ إلى اللّه، وذَلِكَ هو مُتَمَنّاهُمْ، إِذْ قَدْ عَلِموا أَنَّ وعدَهم عِنْده، أو يعودُ الضّمير على الرّحْمَةِ والفَضْلِ، لِأَنَّهُما في مَعْنى الثّوابِ، أو يعودُ عَلى القُرْآنِ[1]، وتقديمُ ﴿إِلَيْهِ﴾ لإفادَةِ الحَصر، والصِّراطُ المُسْتَقيمُ، هو الإسلامُ الّذي يُوصِلُهُم للغاية، وهي سعادَةُ الدّارَين؛ فهو الطّاعةُ في الدّنيا، ودخولُ الجنّة في الآخِرَة[2].

وشبّه الدّينَ الحَقَّ بالصّراطِ المسْتقيم، ثمّ حذَفَ المشبَّهَ، وأبقى المشبَّهَ به، على سبيلِ الاستِعارةِ التّصريحيّةِ، وتقديمُ ذِكرِ الوعْدِ بإدخال الجَنَّةِ على الوعْدِ بالهدايةِ إليه على خِلافِ التّرتيبِ في الوُجودِ بين المَوْعودَين؛ للمسارعةِ إلى التّبشير بما هو المقصدُ الأصليُّ[3].

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/149، وابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/63.

(2) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 4/244.

(3) السّمرقنديّ، بحر العلوم: 1/362، وأبو السّعود، إرشاد العَقْل السّليم: 2/263.

﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَٰلَةِ ۚ إِنِ ٱمْرُؤٌا۟ هَلَكَ لَيْسَ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَهُۥٓ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ ۚ وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَتَا ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ ۚ وَإِن كَانُوٓا۟ إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَآءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۗ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا۟ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿١٧٦﴾﴾ [النّساء: 176]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

ذكر الكلالة بعد بشارة المعتصمين بالجنّة والفضل والهداية

على العموم، فقد تكلم السّياق في أول السّورة في أحكام الأموال، وختم آخرها بذلك، ليكون الآخر مشاكلًا للأوّل، وأحكام الأموال سواء كانت في الحقوق العامّة أو الخاصّة، أو في المواريث، كحالة الكلالة، والمناسبة بين معاملة الورثة بحسب الحالات، تضبطها جميعًا أحكام الله في المواريث، وحكم الكلالة قد بُيِّن بعضه في آية الشّتاء، من صدر سورة النّساء، ثمَّ إنَّ النّاس ما لبثوا أن سألوا رسول الله ﷺ عن صورة مغايرة، مِن صور الكلالة، فنزلَت هذه الآية الكريمة، إجابة للسّؤال، وإكمالًا لحكم الكلالة وتفصيلًا لها[1]، والعلاقة بين الآيتين مرتبطة بوحدة الموضوع، والسّؤال الاستفساريّ الّذي يراد منه التّوسع في فهم الكلالة، وإيضاح ما يطرأ من حالات، وما يفترض من احتمالات، يرتبط فيها هذا بذاك[2]، والظّاهر أنّ الصّلة بين الآية قيد التّفسير، وما سبقها من آيات فصاح، وتراكيب ملاح، فيها الدّعوة إلى الإيمان بالله والاعتصام به، والالتزام

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/13.

(2) أشار الفخر الرّازيّ إلى علاقة خاتمة السُّورة بأوَّلها بذكر نكتة لطيفة فقال: " واعلم أنَّ في هذه السُّورة لطيفة عجيبة، وهي أنَّ أوَّلها مشتملٌ على بيان كمال قدرة الله تعالى فإنَّه قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ [النّساء: 1]، وهذا دالٌّ على سعة القُدرة، وآخرها مشتمل على بيان كمال العلم، وهو قوله: ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٢٥﴾﴾ [المائدة: 176] وهذان الوصفان هما اللَّذان بهما تَثبتُ الرُّبوبيَّة والإلهيَّة والجلالة والعزَّة، وبهما يجب على العبد أن يكون مطيعًا للأوامر والنَّواهي منقادًا لكلِّ التَّكاليف"، ينظر: الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 11/12.

بأحكامه وتشريعاته، ضرورة لا مناص منها، ولا مندوحة عنها، بل إنّ الالتزام بهذه الأحكام يؤدّي إلى رحمة اللّه وهدايته للنّأي عن الضّلال، والهداية إلى صراط اللّه المستقيم.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَسْتَفْتُونَكَ﴾: أي: يطلبون منك الفتيا، والإفتاء: جواب السّائل عمّا يُشكِل عليه، ومنه المُفتي؛ لأنّه يُزيل إشكال المسائل، ويُوضِّح الأحكام. الفُتيا والفتوى بمعنى: الإفتاء، وجمع الفتيا فِتًى[1]، وفي التسهيل: "يَسْتَفْتُونَكَ أي يطلبون منك الفتيا، ويحتمل أن يكون هذا الفعل طلبا للكلالة، ويفتيكم أيضًا طلب لها، فيكون من باب الإعمال وإعمال العامل الثّاني على اختيار البصريين، أو يكون يستفتونك مقطوعًا عن ذلك فيوقف عليه، والأوّل أظهر"[2]، والفتوى في الإسلام من أخطر المهامّ وأرفع المناصب، لأنّ المفتي مؤتمن على الأحكام الشّرعيّة الّتي بها، تحفظ الحقوق وترعى المصالح.

2) ﴿ٱلْكَلَٰلَةِ﴾: كَلَّ يَكِلُّ كُلولًا: ضَعُفَ وأَعيا فهو كالٌّ. وكلَّ السَّيف: لم يقطع فهو كليل. والكَلال: التَّعَب والإعياء. وكَلالة: الّذي لم يُخَلِّف ولدًا ولا والدًا يَرِثُه بل يَرِثُه ذوو قرابته. والكلمة إمَّا مصدرٌ بمعنى الكلال؛ وهو ذهاب القوَّة مِنَ الإعياء، فاستُعيرَت للقرابة مِن غير جهة الولد والوالد؛ لأنَّها بالإضافة إلى قرابتها كالَّةٌ ضعيفةٌ منَ الكلال، وهو الإعياء، فكأنَّه يصير الميراث إلى الوارث من بعد إعياء. قال الأعشى:

فآلَيتُ لا أَرْثِي لها مِن كَلالَةٍ***ولا مِن وَجًى حتّى نُلاقِي مُحَمَّدًا[3].

وإمَّا مشتقّة من تَكَلله النَّسب: أحاط به، وإذا لم يَترُك والدًا ولا ولدًا فقدِ انقطع طرفاه، وهما عمودا نسبه، وبقي موروثه لمَن يتكلله نسبه، أي: يحيط به من نواحيه كالإكليل. ومنه روضٌ مكلَّلٌ بالزَّهر[4]، و"قيل: إن أصل الكلالة في اللغة ما لم يكن من النّسب لحًّا، أي: لاصقًا بلا وساطة، وقيل: إنّه ما عدا الوالد والولد من القرابة، وقيل: ما عدا الولد فقط"[5].

(1) السَّمين، عمدة الحفَّاظ: (فتي).
(2) ابن جزي، التسهيل: 1/218.
(3) الأعشى، ديوان الأعشى، ص: 216.
(4) أبو حيَّان، البحر المحيط: 3/406.
(5) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 2/398.

3) ﴿ٱمۡرُؤٌاْ﴾: رجلٌ أو إنسان. والمُثَنَّى: مَرآن، والجمع: رجال. والمرأة: مؤنَّث المرء. ويُقال: امرؤ للرَّجل، وامرأة: للأُنثى،، قال الشّاعر:

أَكُلَّ امْرِئٍ تَحْسِبِينَ امْرَأً***وَنَارٍ تُوَقَّدُ بِاللَّيْلِ نَارَا[1].

وفي الحديث أنّ رسول الله ﷺ قال: (إنّما الأعمال بالنّيات، وإنّما لكلّ امرئ ما نوى)، وفي التّنزيل: ﴿كُلُّ ٱمۡرِيِٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٞ ٢١﴾ [الطّور: 21].

4) ﴿يَرِثُهَآ﴾: يَرِثه وِرثًا ووِرَاثَةً وإِرثًا: انتقل إليه ماله بعد وفاته، فهو وارث، والمال موروث. والورث: الموروث مِن مال أو عقار. والتُّراث: ما يُخَلِّفه الميِّت لورثته. والميراث: تَرِكَة المَيِّت. والفعل يتعدَّى بـ(مِن)، و(عَن)، يُقال: وَرِثَ فلانٌ فُلانًا، منه وعنه. وجمع (ميراث): مواريث، قال الشَّافِعِي رحمه الله: وكان معقولاً عن الله (ﷻ)، ثمّ عن رسول الله ﷺ، ثمّ في لسان العرب، وقول عوامّ أهل العلم ببلدنا: أنّ امرأً لا يكون موروثاً أبداً، حتّى يموت، فإذا مات كان موروثًا"[2]، الميراث أصله مِوْراثٌ، انقلبت الواو ياءً لكسرة ما قبلها. والتُّراثُ أصل التاء فيه واو، تقول: ورثت أبي، وورثت الشيء من أبي، أرِثُهُ بالكسر فيهما، ورثًا ووراثة وإرثًا، الألف منقلبة من الواو، وَرِثَةً الهاء عوض من الواو[3].

5) ﴿حَظِّ﴾: الحظُّ: النَّصيب المُقدَّر[4]، الحظّ: النّصيب، وزاد الأزهريّ عن اللّيث بن المظفّر: من الفضل والخير. والجَدُّ، والبَخت. وجمعه: حظوظ، وأحاظٍ، وأُحظٍ، أبو زيد: يقالُ: رجلٌ حَظِيظٌ جَديد: إذا كان ذا حظٍّ من الرِّزق. أبو عمروٍ: رجلٌ محظوظ ومجدود، وقال: يقال: فلانٌ أحظُّ من فُلانٍ وأجدُّ منه، وقال الفرَّاء: أحْظَيت فلاناً على فلان، من الحُظوة والتّفضيل[5].

6) ﴿ٱلۡأُنثَيَيۡنِۖ﴾: مُثَنَّى الأُنثى. والأُنثى: خلاف الذَّكر، ويُجمَع على إناث. وأُنُثٌ: جمعُ إناث. ويُقال: آنَثَتِ المرأة، إذا ولدَت أنثى، فهي مُؤنِثٌ.

(1) الأحمد نكري، دستور العلماء: 3/152.
(2) الشّافعي، تفسير الإمام الشّافعيّ: 2/536.
(3) الجوهريّ، الصّحاح: (ورث).
(4) الرَّاغب، المفردات: (حظّ).
(5) القاسم بن سلّام، الغريب المصنّف: 1/378.

7) ﴿يُبَيِّنُ﴾: أي: يُظهِر. ويُقال: أَبَنتُ الأَمر وبَيَّنتُه: أَظهرتُه بَيانًا وتِبيانًا. " الباء والياء والنُّون أصلٌ واحدٌ، وهو بعد الشَّيء وانكشافه، فالبين: الفراق، يُقالُ: بان يبينُ بَينًا وبينونةً. والبيون: البئر البعيدة القعر. والبِين: قطعة مِنَ الأرض قدرُ مدِّ البصر. وبان الشَّيءُ وَأَبان، إذا اتَّضح وانكشف. وفلان أبين من فلان، أي: أَوضحُ كلامًا منه "[1]، وما يبيّنه الله هو محض الحقّ والنّفع للإنسان، وهو الوقاء الّذي تتّقي به الإنسانيّة الضّلال، فلا تزلّ بها القدم، في متاهات لا حدود لها، ولا نهاية لمفاسدها، وسوء عواقبها.

8) ﴿تَضِلُّواْ﴾: "الضَّلال ضدّ الهدى"[2]، والضَّلَّة: الحيرة. والضّآلّ: الّذي ينحرف عن دين الله، والحائر، والجمع: ضُلاَّل، وضآلّون. والضَّلول: الضّآل، ورجلٌ مُضَلَّل: أي لا يوفَّق لخير، صاحبُ غَواياتٍ وبَطالاتٍ. وفلان صاحب أَضاليلَ، الواحدةُ أُضلُولةٌ"[3]، وفي الأثر: "لَوْلَا أنَّ الله لَا يُحِب ضَلَالَة العَمل مَا رَزَأْنَاكُمْ عِقَالاً"، بُطْلَانَ العمَل وضَياعه، مَأْخُوذٌ مِنَ الضَّلَال: الضَّيَاعِ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى ﴿ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [الكهف: 18][4]، والمعنى المراد هنا في قوله تعالى: ﴿أَن تَضِلُّواْ﴾، أي: تُخطئواْ في قسمة التَّركة.

9) ﴿عَلِيمٌ﴾: عَلِمَ الشّيء يَعلَمه علمًا: عرفه وتيقَّنه، فهو عالم وعليم، والجمع: علاَّم. والعليم: الكثير العِلْم، وهي مِن صيغ المبالغة، "ومِن صفات الله ﷻ: العليم والعالم والعلَّام، قال الله ﷻ: ﴿وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ۝٨١﴾ [يس: 81]، وقال: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ [الرّعد: 9]، وقال: ﴿عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ۝١٠٩﴾ [المائدة: 109]، فهو الله العالم بما كان وما يكون قبل كونه، وبما يكون ولمَّا يكن بعد قبل أن يكون، لم يزل عالمًا ولا يزال عالمًا بما كان وما يكون، ولا يخفى عليه خافية في الأرض ولا في السَّماء، أحاط علمه بجميع الأشياء باطنها وظاهرها، دقيقها وجليلها على أتمّ الإمكان، ويجوز أن يُقال للإنسان الَّذي علَّمه الله علماً مِنَ العلوم: عليم، كما قال يُوسف للملك: ﴿إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ۝٥٥﴾ [يوسف: 55]"[5].

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (بين).
(2) الفيروزآبادي، بصائر ذوي التَّمييز: (ضلّ).
(3) الخليل، العين: (ضلّ).
(4) ابن الأثير، النّهاية: (ضلل).
(5) ابن منظور، لسان العرب: (علم).

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

بيان الفتوى المؤصّلة، في مسألة الكلالة المفصّلة

يسألونك أيّها الرّسول عنِ الكلالة، إذا مات امرؤ، ولم يكن له والد ولا ولد، فمَن يرثه؟ فقل لهم: إذا مات الإنسان الّذي ليس له والد ولا ولد، وله أخت واحدة (شقيقة أو لأب)، فلها نصف الميراث، فإن كانتا أختين (شقيقتين أو لأب) فلهما الثّلثان، وإن ماتتِ الأخت، وليس لها والد ولا ولد، فيرث أخوها جميع تركتها، فإن كان الورثة إخوة رجالًا ونساءً فللذّكر مثل حظّ الأنثيين، يبيّن اللّه لكم قسمة المواريث عامّة والكلالة خاصّة لئلّا تحيدوا عنِ الحقّ، ولئلّا تقسّموا بأهوائكم، واللّه عليم بما يشرّعه لكم وبما فيه مصلحتكم، وعليم بمَن يمتثل لتشريعه، ومَن لا يمتثل فيحاسب كلًّا بما يستحقّ.

❁ الإِيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالة تصدير جملة الاستفهام بالفعل المضارع الدّال على المستقبل:

تكرار السّؤال، لأهمِّيّة المسؤول عنه، والعناية بمعرفة حكمه

والتَّعبير بالمضارع في مادَّة السُّؤال، طريقة شائعة في النَّصِّ القرآنيّ، نحوقوله تعالى: ﴿۞يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِۖ﴾ [البقرة: 189]، ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَۖ﴾ [البقرة: 219]؛ وكذلك وردت هذه الصّيغة، في مواقع أخرى كثيرة من القرآن، لأنَّ شأن السُّؤال أن يتكرَّر، فشاع إيراده بصيغة المضارع، وهذا يدلّ على أهمِّيّة المسؤول عنه لدى السّائلين، وعنايتهم بمعرفته؛ والاطّلاع على حكمه وحكمته، والكلالة قد تكرَّر فيها السُّؤال، باستفتاء النّبيّ فيها، في قوله تعالى: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي ٱلْكَلَٰلَةِۚ﴾، ومرّة قال: ﴿وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَٰلَةً أَوِ ٱمْرَأَةٌ﴾ [النساء: 12]، قبل نزول الآية وبعدها[1].

أثر الإيجاز بالحذف في قوله تعالى: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ﴾:

وحذف الأوّل لدلالة الثّاني عليه، واستيفاء النّهاية لما ورد في البداية

في قوله: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ﴾ إيجاز بحذف الجارّ والمجرور، والتَّقدير: (يستفتونك في الكلالة)، وحُذِف تجنُّبًا للتَّكرار، واكتفاءً بذكره في

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/3.

قوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُفۡتِيكُمۡ فِي ٱلۡكَلَٰلَةِۚ﴾، والحذف منَ الأوّل لدلالة الثّاني عليه، ملمح في البيان موجود في كلام العرب، لكنّ الأصل أن يحذف منَ الثّاني لدلالة الأوّل عليه، و ما جاءَت عليه الآية عدول عن ذلك الأصل، وإشارة إلى كثرة ما سألوا عنه، وكان منه شأن الكلالة وغيره، ولكنّ الجواب جاء بشأن الكلالة خاصّة لأهمّيّته، ولأنّ فيه تتمّةً لحكم سبق في صدر السّورة عنِ الكلالة، وكانتِ البداية خاصّة بالإخوة والأخوات لأمّ، والنّهاية خاصّة بالإخوة والأخوات الأشقّاء أو لأب.

بلاغة التّعبير بفعل الأمر ﴿قُلِ﴾، في قوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُفۡتِيكُمۡ فِي ٱلۡكَلَٰلَةِۚ﴾:

إسناد الفُتيا في الكلالة إلى الخالق، إشارة إلى أنّها حكم اللّه بين الخلائق. في التّعبير بفعل الأمر ﴿قُلِ﴾ فصل بين السّؤال والجواب؛ لبيان كمال المعنى دون لَبس ولا غموض، كما أنّه تهيئة للجواب الّذي أمَر اللّه تعالى رسوله ﷺ بتبليغه فور تلقّيه دون تأجيل، وهذا يدلّ على أهمِّيَّة الرِّسالة، وأنَّها رسالة خاصَّة منَ اللّه تعالى، فيجب أن تُنقل عَقِب نزول الوحي بها، وهذا ما كان يفعله الرَّسول ﷺ مع كلّ ما كان يُوحَى إليه، ثمّ إنّ في إسناد الفُتيا إلى اللّه تعالى في قوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُفۡتِيكُمۡ فِي ٱلۡكَلَٰلَةِۚ﴾؛ إشارة إلى أنَّ أحكام الأسرة مُستَمَدَّة منَ اللّه تعالى بلا واسطة[1]، وأنّه لم يوكّل أحدًا بالفتوى فيها، بل تولّى بيانها بنفسه، ببليغ عبارة، وتفصيل أنصبة، وتحديد من يرث ومن يحجب، و حيث أنّه تعالى هو المُشَرِّع لتلك الأحكام، ففي ذلك الإسناد تأكيد على وجوب الالتزام بالفُتيا، وبتعميم الحكم بها، وبقاء ذلك ودوامه على المدى.

دلالة الاستئناف البيانيّ، في قوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُفۡتِيكُمۡ فِي ٱلۡكَلَٰلَةِۚ﴾:

جملة ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُفۡتِيكُمۡ فِي ٱلۡكَلَٰلَةِۚ﴾، جملة مستأنفة، استئنافًا بيانيًّا، وهي جواب عن سؤال مقدّر، مفاده: (ماذا أقول؟أو ماذا أفتي؟)، ويأتي الجواب من اللّه حاملًا التّشريع في أمر الكلالة، وقد كان أمرها مُشْكِلًا، ووردت في ذلك روايات وأخبار، وهكذا كلُّ جملةٍ ربطها بما قبلها شبه كمال الاتّصال[2].

تفصيل ما استعصى على الأفهام، مبسوط في كتاب الله العلّام

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 4/1996.

(2) صافي، الجدول: 6/222، وأبو حيّان، البحر المحيط: 3/406.

سرُّ ورود لفظ الجلالة ﴿ٱللَّهُ﴾ في قوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُفۡتِيكُمۡ﴾:

إيثار التّعبير بمقام الألوهيّة دون مقام الرّبوبيّة من بلاغة هذه الآية

قال تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُفۡتِيكُمۡ فِي ٱلۡكَلَٰلَةِۚ﴾، ولم يقل (قل أنا أفتيهم)؛ لئلّا يلتبس على المُخاطَبين أنَّ القائل هو الرَّسول (ﷺ)، فالتَّعبير القرآنيّ يدلُّ صراحة على مصدر الفُتيا دون لَبس ولا غموض، وأفاد تقديم المسند إليه (لفظ الجلالة): ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُفۡتِيكُمۡ فِي ٱلۡكَلَٰلَةِۚ﴾ القَصر، أي: قصر الفُتيا في الكلالة، وفي غيرها من أحكام المواريث على الله تعالى، فقد طلب السَّائلون الفُتيا في الكلالة، وجاءهم الرَّد بأنَّ الله تعالى هو الّذي يفتيهم فيها وفي غيرها، مِن أحكام المواريث لا غيره[1]، وأوثر التّعبير بوصف الألوهيَّة؛ لإضفاء المهابة على الخبر، ولمناسبته مقام التَّشريع، أمَّا التّعبير بالرُّبوبيَّة فيتناسب ومقام العطاء والامتنان، وخصوصيّة الإنعام والرِّعاية والتَّربية؛ لذا أوثر التّعبير بوصف الألوهيَّة على التّعبير بوصف الرُّبوبيَّة في الآية، ممّا يتطلّبه السِّياق والمقام.

أسلوب القصر وأثره في معنى الآية ودقّتها:

أحكام الميراث صالحة لكلّ زمان، وتشريع الله خالد على مدى الأزمان

لفظ الجلالة في قوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُفۡتِيكُمۡ فِي ٱلۡكَلَٰلَةِۚ﴾ يفيد القصر، بتقديم المسند إليه (الفاعل) على المسند (الفعل)، في هذه الجملة الفعليّة، ومردّ المعنى إلى أنّ الفتوى في مثل هذا الأمر، (وهو الكلالة)، لا تطيقها عقول البشر، ولا يأتي بها في مثل تلك الدّقة الرّاقية، والضّمان الوافي لحقوق الورثة، إلّا أمر إلهيٌّ محيط بأحوال البشر في السّر والعلانيّة، كما يدلّ هذا التّقديم للفاعل في قوله ﴿ٱللَّهُ يُفۡتِيكُمۡ﴾، على ثبوت تلك الأحكام الإلهيَّة، واستقرار العمل بها في التّشريع الإسلاميّ، منذ نزولها وحتّى يرث الله الأرض ومن عليها، وتأكيد عدم نسخها كما يوحي به التَّعبير بالجملة الاسميَّة الدّالّة على الثّبوت، ممّا يشير بوضوح وجلاء إلى أنّ مصدر التّشريع راسخ

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 4/2002.

بيقين لا يحتمل ريبًا، وأنّ الأحكام الشّرعيّة تبقى صالحة على المدى، لضمان الحقوق، وفضّ النّزاعات بين المتخاصمين على الميراث.

جناس الاشتقاق وأثره في المعنى المُساق:

المجانسة في الألفاظ تكسب الجملة رونقًا وعذوبة

بين قوله تعالى (يَسْتَفْتُونَكَ)، وقوله (يُفْتِيكُمْ) جناس اشتقاق[1]، وهو ممّا يلحق بالجناس، وليس هو نفس الجناس؛ لأنّ المعنى فيها غير مختلف، ومثاله ماذكره الشّيخ شمس الدّين بن الصّائغ، في شرحه على البردة، لما انتهى إلى قول المصنّف:

ظَلَمْتُ سُنَّةَ مَنْ أَحْيَا الظَّلَامَ إِلَى***أَنِ اشْتَكَتْ قَدَماهُ الضُّرَّ مِنْ وَرَمِ

قال: ظلمت وظلام جناس اشتقاق، وهو كقوله تعالى: ﴿وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ﴾ [النّمل: 44]، قلت: أمّا ظلمت وظلام فاشتقاق بلا خلاف، وأسلمت مع سليمان جناس مطلق، لأنّه لم يرجع في المعنى إلى أصل واحد، وهو أعظم شواهد البديعيين على الجناس المطلق[2].

السّرُّ في بناء الشّرط على ﴿إِنِ﴾، وإيثار التّعبير بقوله: ﴿ٱمْرُؤٌاْ﴾:

دقّة السّياق في تقسيم المواريث، تتلاءم مع دقّته في التّعبير

وأوثر التَّعبير بأداة الشَّرط ﴿إِنِ﴾؛ للدّلالة على قلَّة حدوث حالة الكلالة في الواقع، و سرّ التّعبير بلفظ ﴿ٱمْرُؤٌاْ﴾ بدلًا من (رجل) في قوله: ﴿إِنِ ٱمْرُؤٌاْ هَلَكَ﴾ بلفظ ﴿ٱمْرُؤٌاْ﴾؛ لما فيه من عموم، بحيث يشمل الجنسين: الرَّجل والمرأة، والسّياق هو الّذي يُخصّص أحدهما، وأوثر التّعبير بها في قوله تعالى: ﴿إِنِ ٱمْرُؤٌاْ هَلَكَ﴾؛ لأنَّ حكم الكلالة ليس مقصورًا على الرَّجل فحسب، بل يشمل المرأة أيضًا؛ لذا عُبِّر باللَّفظ الأعمّ الّذي يشملهما، ولو قال: (إنْ رَجُلٌ هَلَكَ)؛ فلربَّما تُوُهِّم أنَّ حكم الكلالة مقصور عليه وحده، وهذا غير

(1) جناس الاشتقاق: هو أن يجمع اللّفظين الاشتقاق، ينظر: الخطيب، الإيضاح: 4/76، وقد عَدَّه ممّا يلحق بالجناس، ولم يكن هو الجناس ذاته، لأنّ شرط الجناس تماثل الكلمتين لفظًا واختلافهما معنى، والمعنى في جناس الاشتقاق ليس مختلفًا كما هنا في: (يستفتونك) و(يفتيكم)، وكون الأولى في الطّلب، والثّانية في الجواب ليس اختلافًا في معنى المادّة، ولكنّ جاء الاختلاف من زيادة السّين والتّاء في الأولى.

(2) ابن حجّة الحمويّ، خزانة الأدب: 1/64.

مراد، أمَّا في آية الكلالة الأولى في بداية السُّورة في قوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَٰلَةً أَوِ ٱمْرَأَةٌ﴾ [النّساء: 12] فقد أوثر التّعبير بـ(رَجُلٍ)؛ بالمطابقة بين كلمتي رجل وامرأة.

سرُّ التّعبير بلفظ الهلاك، في قوله: ﴿إِنِ ٱمْرُؤٌاْ هَلَكَ﴾:

التّعبير بـ﴿هَلَكَ﴾ في قوله: ﴿إِنِ ٱمْرُؤٌاْ هَلَكَ﴾، المتّصل بمادّة الهلاك الّتي تدلّ على الفناء، وانقطاع الأثر، فإنّه يتوافق مع دلالة كلمة ﴿ٱلْكَلَٰلَةِۚ﴾، فهنا الرّجل مات، وانقطع لعدم وجود ذرّيّة من بعده ترثه، ومع أنّ الهلاك هو الموت في اللّغة، كما جاء في القاموس، فإنّ كلًّا منهما نقض البيّنة، وإبطال الحاسّة سوى أنّ في التّعبير بالهلاك خصوصيّة لا توجد في الموت؛ هي إبطال اللّذة والمنفعة؛ فالفعل ﴿هَلَكَ﴾ على هذا، هو الأنسب للكلالة الّتي تبطل فيها المنفعة، وتنقطع اللّذة دون ذرّيّة الميّت؛ لأنّه لا ذرّيّة له، وفي التّعبير به عِبرة لَمن كان له مال، وليس له ذرّيّة، حتّى ينفق، ويتصدّق قبل أن يهلك، فتنقطع اللّذة، وتبطل المنفعة عنِ الأصول والفروع.

إذا مات ابن آدم انقطع عمله، ولم ينفعه في الآخرة أمله

سرّ الاقتصار على نفي الولد، مع أنّ نفي الوالد مُعتَبَرٌ في الكلالة:

جاء قوله تعالى: ﴿إِنِ ٱمْرُؤٌاْ هَلَكَ﴾ استئنافًا مُبيِّنًا للفُتيا، أي: لتفصيل الحكم، وقدّم المسند إليه ﴿ٱمْرُؤٌاْ﴾ على الفعل؛ للتّنبيه عليه، والاهتمام به مع تأكيد نسبة الفعل إليه، والتّعبير بـ﴿وَلَدٌ﴾ قَيد في الحكم؛ حيث إنَّ الحكم المذكور هنا، يتوقّف على عدم وجود الولد، أي: الابن؛ لأنَّ الابن يُسقط الأختَ، ويَحجب ميراث أخيها عنها، واقُتصر على ذكر نفي الولد، مع أنّ نفي الوالد أيضًا مُعتبرٌ في الكلالة ثقةً بظهور الأمر، ودلالة تفصيل الورثة عليه[1]. وأيضًا؛ لأنّه "يجوز أن يدلّ بحكم انتفاء الولد على حكم انتفاء الوالد؛ لأنَّ الولد أقرب إلى الميّت منَ الوالد، فإذا ورث الأخ عند انتفاء الأقرب،

التَّعبير بـ(ليس له ولد) قَيدٌ في الحكم

(1) أبو السّعود، إرشاد العَقْل السّليم: 2/168.

فأولى أن يرث عند انتفاء الأبعد، ولأنَّ الكلالة تتناول انتفاء الوالد والولد جميعًا، فكان ذكر انتفاء أحدهما دالًّا على انتفاء الآخر"[1].

الواو بين العطف و الحاليَّة، في قوله: ﴿وَلَهُۥٓ أُخۡتٞ فَلَهَا نِصۡفُ مَا تَرَكَۚ﴾:

المراد بالأخت هنا الأخت الشّقيقة أو الأخت لأب

والواو في قوله: ﴿وَلَهُۥٓ أُخۡتٞ﴾ يحتمل الحال والعطف، ولكلّ منهما معنى، فالعطف يعني أنّ الكلالة في: ﴿إِنِ ٱمۡرُؤٌاْ هَلَكَ﴾ مقيّدة بقيدين: انتفاء الولد، ووجود الأخت، وهذا الاعتبار قد يوهم أنّ هذه هي الصّورة الواحدة للكلالة، لكن اعتبار الحاليّة، يعني: (إنِ امرؤ هلك حالة وجود أخت له فلها النّصف)، بشرط انتفاء الولد، وهذا المعنى أدقّ وأدلّ على وجود حالات أخرى للكلالة، كما ورد في الآية، فكون الواو للحال، وجملة ﴿وَلَهُۥٓ أُخۡتٞ﴾ حاليّة، هو الأولى في قوله: ﴿وَلَهُۥٓ أُخۡتٞ﴾، أي: شقيقة لأب وأمّ، أو غير شقيقة لأب فقط، بقرينة مخالفة نصيبها لنصيب الأخت للأمّ المقصودة في آية الكلالة الأولى، وبقرينة قوله: ﴿وَهُوَ يَرِثُهَآ﴾، ولأنَّ الأخ للأمّ لا يرث جميع المال إن لم يكن لأخته للأمّ ولدٌ، إذ ليس له إلّا السُّدس؛ ولأنَّه جُعِلَ أخوها عصبةً، وابن الأمّ لا يكون عصبةً.

النَّكرات دالّة على العموم؛ لوقوعها في سياق الشَّرط:

تعبير قرآنيّ ذو إيجاز رائق بديع

النَّكرات في كلمات: ﴿ٱمۡرُؤٌاْ﴾، ﴿وَلَدٞ﴾، ﴿أُخۡتٞ﴾ في قوله: ﴿إِنِ ٱمۡرُؤٌاْ هَلَكَ لَيۡسَ لَهُۥ وَلَدٞ وَلَهُۥٓ أُخۡتٞ فَلَهَا نِصۡفُ مَا تَرَكَۚ وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمۡ يَكُن لَّهَا وَلَدٞۚ﴾ تفيد العموم؛ لوقوعها في سياق الشَّرط المُفيد للعموم، فهي لا تدلُّ على أشخاص معيَّنين، بل تدلُّ على أجناس مدلولاتها، فليس مقصودًا بها شخص معيَّن، قد هلك؛ ولا أختٌ معيَّنةٌ قد ورِثَت؛ لأنَّ الفُتيا؛ أو حكم الكلالة ليس مقصورًا على السَّائل أو الطّالب للفتيا فقط، فالعِبرة ليست بخصوص اللّفظ، لكنّ بعموم السَّبب، كما يقول أهل الأصول.

(1) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 1/319.

دور الإيجاز، في تجلية التّطبيق على الكلالة، وإيضاح الدّلالة:

وجوب التّدقيق في عودة الضّمير، لتنويع المعنى واستثمار المفهوم

ولمّا قال تعالى: ﴿وَهُوَ يَرِثُهَآ﴾ علم مِن قوله: ﴿يَرِثُهَآ﴾ أنَّ الأُخت إن توفِّيَت، ولا ولد لها، يرثها أخوها، والأخ هو الوارث في هذه الصُّورة، وهي عكس الَّتي قبلها، فالتَّقدير: ويرث الأختَ امرؤٌ إن هلكت أخته، ولم يكن لها ولدٌ، وعُلِمَ معنى الإخوة من قوله: ﴿وَلَهُۥٓ أُخۡتٌ﴾، وهذا إيجازٌ بديعٌ، ومع غاية إيجازه، فهو في غاية الوضوح، فلا يُشكِلُ بأنَّ الأختَ كانَت وارثةً لأخيها، فكيف عاد عليها الضَّمير، بأن يرثها أخوها الموروث، وتصير هي موروثةً؛ لأنَّ هذا لا يفرضه عالمٌ بالعربيَّة، وإنَّما يتوهَّم ذلك لو وقع الهلك وصفًا لامرئ؛ بأن قيل: المرءُ الهالكُ يرثه وارثه، وهو يرث وارثه، إن مات وارثه قبله، والفرق بين الاستعمالين رشيق في العربيَّة[1].

ما فائدة قوله: ﴿ٱثۡنَتَيۡنِ﴾ مع أنَّ لفظ ﴿كَانَتَا﴾ لا يُفسَّر إلَّا بهذا العدد؟

للأختين وما فوق الاثنتين الثُّلثان مِن تركة أخيهنَّ الميّت كلالة

سُئِلَ الأخفش عن فائدة ذكر العدد في قوله: ﴿ٱثۡنَتَيۡنِ﴾ و﴿كَانَتَا﴾ لا يُفسَّر إلَّا بهذا العدد، في قوله تعالى: ﴿فَإِن كَانَتَا ٱثۡنَتَيۡنِ فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَۚ﴾، فأجاب بقوله: "أفادَتِ العدد العاري عنِ الصّفة؛ لأنَّه يجوز في ﴿كَانَتَا﴾ صغيرتين، أو حرَّتين، أو صالحتين، أو طالحتين، فلمّا قال: ﴿ٱثۡنَتَيۡنِ﴾ فإذًا إطلاقُ العدد على أيّ وصف كانتا عليه ﴿فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ﴾ مِن تركة أخيهما الميّت"[2]، والمعنى: "فإن كان لَمن يموت كلالةً أختان، وما فوق الاثنتين مِنَ الأخوات يكون لهنَّ الثُّلُثان مِن تركته فرضًا"[3]، قال الخفاجيّ: "وما قيل إنّه ذكر أحد الجزأين لينتقل الذّهن منه إلى الجزء الآخر، غير ظاهر فانظره. قوله: (الضّمير لمن يرث بالأخوّة الخ) جواب سؤال مشهور، وهو أنّ الخبر لا بدّ أن يفيد غير ما يفيده المبتدأ، ولهذا لا يصحّ (سيّد الجارية

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/9.
(2) ابن الجوزيّ، زاد المسير: 2/266.
(3) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/445.

مالكها)، وضمير التّثنية دالّ على الاثنينيّة، فلا فائدة في الإخبار باثنتين، وقد دفع بوجوه منها ما ذكره الأخفش من أنّ الأثنينيّة، تدلّ على مجرّد التّعدّد من غير تقييد بكبر وصغر، أو غير ذلك من الأوصاف، فكأنّه قيل إنّهما يستحقّان ما ذكر، بمجرّد التّعدد من غير اعتبار أمر آخر، وهذا مفيد وردّ بأنّ ضمير التّثنية يدلّ على ذلك أيضا"[1].

تغليب المذكّر على المؤنّث في قوله: ﴿وَإِن كَانُوٓاْ إِخۡوَةٗ رِّجَالٗا وَنِسَآءٗ﴾[2]:

حكم العصبات مِـــنَ الـبـنـين وبـنـي الـبـنـين والإخـــوة إذا اجتمع ذكورهم وإناثهم

وفي قوله تعالى: ﴿وَإِن كَانُوٓاْ إِخۡوَةٗ رِّجَالٗا وَنِسَآءٗ﴾ تغليب المذكّر على المؤنَّث، وأصل التَّعبير: وإن كانوا إخوةً وأخواتٍ رجالًا ونساءً، فغلّب المذكَّر؛ للاختصار، ولكنّه فسَّر ما في التّغليب من إجمال بقوله: ﴿رِّجَالٗا وَنِسَآءٗ﴾؛ لمنع اللّبس والتّوهّم، وهذا حكم العصبات منَ البنين وبني البنين والإخوة، إذا اجتمع ذكورهم وإناثهم، أُعطي الذَّكر مثل حظِّ الأنثيين"[3].

تخصيص السّنة لعموم سياق الآية، رفعًا للّبس في الحكم الشّرعيّ:

الإخـوة الأشقّاء يحجبون الإخوة لأب حـجـب إسقاط

حين يكون الميت أخا أو أختا، والورثة عدد من الإخوة والأخوات، ففي هذه الحالة، يقول الفقهاء، بأنّ التّركة تقسّم بينهم للذّكر مثل حظّ الأنثيين، على أنّ ظاهر الآية، يفيد أنّه لا فرق بين الإخوة الأشقّاء والإخوة لأب، في أنّهم يشتركون في التّركة، إذا اجتمعوا، ولكن هذا الظّاهر غير مراد، فقد خصّصت السّنة هذا العموم، فقدّمت الأشقاء على الإخوة لأب. فإذا ما اجتمع الصّنفان حجب الإخوة الأشقّاء الإخوة لأب[4].

(1) الخفاجيّ، عِنَايةُ القَاضِي: 3/208.

(2) التَّغليب: "حقيقته إعطاء الشيَّء حكم غيره، أو إطلاق لفظه عليهما إجراءً للمُختلفين مجرى المُتَفقين"، ينظر: الزّركشّي، البرهان: 2/302، والتّغليب أنواع، فمنه تغليب المذكَّر على المؤنّث، وتغليب المتكلّم على المُخاطَب، والمُخاطَب على الغائب، وتغليب العاقل على غيره، وتغليب المتَّصِف بالشّيء على غير ما لم يَتَّصِف به، وتغليب الأكثر على الأقل، ينظر: مطلوب، معجم المصطلحات البلاغيَّة، ص: 394.

(3) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/427.

(4) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 3/412.

الإيجاز بالحذف، وتعدُّد تقدير المحذوف، وأثره في المعنى:

الاستئناف البيانيّ مراعاة للحركة النّفسيّة للمستمعين

وفي قوله تعالى: ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ أَن تَضِلُّواْۗ﴾ إيجاز بحذف المفعول، تقديره: يبيّن اللّه لكم حكم الكلالة أو أحكامه وشرائعه الَّتي مِن جملتها حكمها، وقوله: ﴿أَن تَضِلُّواْۗ﴾، أي: كراهة أن تضلُّواْ بحذف المضاف، وهذا رأي البصريّين، ورأي الكوفيّين تقدير (اللّام) و(لا)، أي: لئلّا تضلُّوا[1]، والجملة في محلّ نصب على الحال، أو مستأنفة بيانيّة[2]، والثّاني هو المُرجّح؛ لأنّ صاحب الحال غامض، ولأنّ في الاستئناف البيانيّ مراعاة للحركة النّفسيّة للمستمعين، وكأنّه لمّا انتهى من حكم الكلالة استشرفتِ النّفوس لمعرفة سبب العودة للكلالة بالبيان، فلبَّى الخطاب القرآنيّ حاجة النّفوس واستشرافها، فقال: ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ أَن تَضِلُّواْۗ﴾، أي: هذا البيان المتجدّد لحكم الكلالة لكيلا تضلّوا أو تحاروا، وحتّى لا يلتبس أمر الكلالة عليكم، وهذا مِن انسجام النّظم القرآنيّ مع حاجات النّاس وواقعهم.

العدول عنِ الإضمار إلى الإظهار، ودلالته في السّياق:

جملة الفاصلة تأخذ صفة الاستقلال؛ في خصوص الآية وعمومها

وفي قوله: ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ أَن تَضِلُّواْۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾، عدول عنِ الإضمار إلى الإظهار، بذكر اسم اللّه الأعظم، الجامع لصفات الكمال مِنَ الجلال والجمال؛ حيث كان الظَّاهر أن يُقال: (يُبَيِّن اللّه لكم وهو بكلّ شيء عَلِيمٌ)؛ وذلك لإضفاء مزيد مِنَ المهابة على الخبر، حيث تأخذ جملة الفاصلة صفة الاستقلال؛ ليتعدّد عطاؤها من جهة عموم العلم، وخصوص هذه الحالة.

التّذييل لتعليل الأحكام بقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾:

وقع قوله: ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾ تذييلًا لتعليل الأحكام الواردة في السّورة، بما فيها حكم الكلالة، والمعنى: واللّه يعلم مصالح عباده

(1) أبو السّعود، إرشاد العَقْل السّليم: 2/264.

(2) درويش، إعراب القرآن: 2/397.

في المبدأ والمعاد، وفيما كلَّفهم به منَ الأحكام، أمَّا إيراد شبه الجملة ﴿بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾؛ فلأنَّها صيغة شاملة لمعنى عبارة (كلّ شيء)، كما يدلّ عليه التّعبير بكلمة العموم ﴿بِكُلِّ﴾، والتّنكير في ﴿شَيۡءٍ﴾، فتناول السّياق علمه بما شرع من أحكام، وعلمه بمواقف النّاس من شرائعه، "والله (تعالى) عليم بكلّ شيء، لا تخفى عليه خافية من أحوالكم، وسيحاسبكم على أعمالكم، فيجازي المتّبع لشرعه بالثّواب العظيم، ويجازي المخالف له بالعذاب الأليم"[1].

إيـــراد شبـه الجملة شاملة لمعنى (كلّ شيء)

تقسيم التّركة بالأهواء، خروج عن منهج ربّ الأرض والسّماء:

تتضمّن تلك الآية الكريمة، تحذيرًا من أن يقسِّم النّاس التّركة بأهوائهم؛ وذلك بنسبة التّشريع إلى الله سبحانه، في ابتداء الآية ونهايتها، فقال سبحانه في بدايتها: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُفۡتِيكُمۡ﴾، فنسب القول إليه سبحانه، فلا يحقّ لأحد أن يشرّع لنفسه، أو أن يحكم ويقسّم بهواه، وقال في نهايتها: ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾، فكان ذلك تحذيرًا لكثير منَ النّاس الّذين يحرمون الأخوات من حقّهم في الميراث، أو الّذين يقسّمون ما يملكون في حياتهم، بغرض حرمان شخص بعينه منَ الميراث بعد وفاتهم، و الواجب تبيين هذه المعاني للنّاس، حتّى لا يضلّوا أو يحيدوا عمّا شرعه الله.

حـرمـان الـوارث مـن حـقّـه في المـيراث، اعتداء على شرع الله

دلالة اختيار اسم الله في قوله ﴿عَلِيمٞ﴾، دون غيره منَ الأسماء الحسنى:

اختيار اسم الله العليم دون غيره منَ الأسماء الحسنى، يدلُّ على كمال العلم، في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾، إذْ بهذين الاسمين الجليلين من أسماء الله تعالى الحسنى، تثبُتُ الرُّبوبيَّة والألوهيَّة والجلالة والعزَّة، ولذلك وجب على العبد أن يكون مطيعًا لأوامر خالقه ونواهيه، منقادًا لكلّ التّكاليف[2]، كما أنَّ في التَّعبير

الجـهـر والـسّـرّ عـنـد الـلـه سـواسـيـة، فلا تـخـفـى عـنـه خافية

(1) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 3/413.

(2) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 11/122.

باسم ﴿عَلِيمٌ﴾ ترهيبًا مِن مخالفته سبحانه ووعيدًا؛ فهو سبحانه الّذي لا يخفى عليه أَمر مَن خالف بقول أو فعل، أو نيَّة، فالجهر والسّرّ عنده سبحانه سواء.

حكمة تأْخير آية الكلالة إلى نهاية السّورة؛ لتعلّقها بتمام ما سلف:

تناسب الآيات بلاغة وجيهة، وحكمة رشيدة

بيَّن صاحب "نظم الدُّرر" سرَّ تأخير هذه الآية الكريمة، إلى نهاية السّورة بقوله: "والحاصل أنَّ تأخير هذه الآية إلى هنا لمَا تقدَّم من أنَّ تفريق القول فيما تأباه النُّفوس، وإلقاءه شيئًا فشيئًا باللُّطف والتَّدريج، أدعى لقبوله، وللإشارة إلى شدَّة الاهتمام بأمر الفرائض، بجعل الكلام فيها في جميع السُّورة: أوَّلها وأثنائها وآخرها، والتَّخويف مِن أن يكون حالهم كحال المنافقين في إضلال أهل الكتاب لهم؛ بإلقاء الشُّبهة وأخذهم منَ الموضع الَّذي تهواه نفوسهم، ومضَت عليه أوائلهم، وأُشربته قلوبهم، والتَّرهيب مِن أن يكونوا مثلهم في الإيمان ببعضٍ والكفر ببعضٍ؛ فيؤدّيهم ذلك إلى إكمال الكفر؛ لأنَّ الدّين لا يتجزَّأ بل مَن كفر بشيءٍ منه كفر به جميعه، ومِن هنا ظهرَت مناسبة آخر هذه السُّورة لأوَّلها؛ لأنَّ أوَّلها مشيرٌ إلى أنَّ النّاس كلَّهم كشيء واحد، وذلك يقتضي عدم الفرق بينهم إلّا فيما شرّعه اللّه، وآخرُها مشيرٌ إلى ذلك بالتَّسوية بين النّساء والرّجال في مُطلق التَّوريث بقرب الأرحام، وإنِ اختلفتِ الأنصِباء"[1]، وقد اختُتِمَت سورة النّساء بذكر الأموال وأحكام الميراث، كما افتُتِحَت بذلك؛ ليحصل التّوافق بين بدايتها وخاتمتها، قال البقاعيّ: "وما أشدّ مناسبة ختامها بإحاطة العلم، لما دلّ عليه أوّلها من تمام القدرة، فكان آخرها دليلاً على أوّلها، لأنّ تمام العلم مستلزم لشمول القدرة"[2].

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 5/356.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 5/356.

سُورَةُ المَائِدَةِ

سُورَةُ المَائِدَةِ

التّعريف العامّ بالسّورة:

سورة المائدة مدنيّة باتّفاق العلماء[1]، ورُوي أنّها نزلت منصرفَ النبيّ ﷺ من الحديبية، بعد سورة المُمتَحنة، فيكون نزولُها بعد الحديبية بمدّة؛ لأنّ سورة الممتحنة نزلت بعد رجوع رسول الله ﷺ إلى المدينة من صلح الحديبية، وقد جاءته المؤمناتُ مهاجراتٍ، وطلب منه المشركون إرجاعهنّ إليهم؛ عملاً بشروط الصّلح، وكانت هذه الفترة من الأهميّة بمكان؛ لأجل استكمال تشريعات الإسلام المتّصلة بوجود الأمّة وهويتها[2].

وبعض الأحداث الواردة في السّيرة النّبويّة تشير إلى أنّ بعضَ سورة المائدة كان نزوله قبل معركة بدر، فقد أخرج البخاريّ عن عبد الله، قال: «قال المقداد يوم بدر: يا رسول الله، إنّا لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ٢٤﴾ [المائدة: 24] ولكنِ امْضِ ونحن معك، فكأنّه سُرّي عن رسول الله ﷺ»[3].

وقد اختُلف في عدّ آيها؛ "فهي مئة وعشرون آية في الكوفيّ، وعشرون وآيتان في المدنيَّيْنِ والمكيّ والشاميّ، وعشرون وثلاث في البصريّ"[4]، وخلافهم في ذلك في ثلاثة مواضع، حيث عدّ الشاميّ والبصريّ قوله تعالى: ﴿أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ﴾ [المائدة: 1] ، وقوله تعالى: ﴿وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖۚ﴾ [المائدة: 15] فاصلَتيْنِ، وعدّ البصريّ قوله تعالى: ﴿فَإِنَّكُمۡ غَٰلِبُونَۚ﴾ [المائدة: 23] فاصلةً[5].

---

(1) القول المُشتهر في مدنيّة السّور القرآنيّة محمول على ما نزل بعد الهجرة؛ فالسّورة مدنيّة بهذا الاعتبار، ولا يضرّ مدنيّتَها ما أورده الإمام البخاريّ في باب قوله تعالى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ﴾ [المائدة: 3] بسنده عن عمر بن الخطّاب ﷺ قال: «إني لأعلم حيث نزلت وأين نزلت وأين رسول الله - ﷺ - حين أنزلت يوم عرفة» أخرجه: البخاري، الجامع المسند الصّحيح المختصر صحيح البخاريّ، حديث رقم: (4606).

ويُنظر: حكاية الإجماع على مدنية السورة: ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/143، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 6/30.

(2) البقاعي، مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور: 2/104، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 6/69.

(3) البخاري: صحيح البخاري، التفسير، قوله: ﴿فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ٢٤﴾ [المائدة: 24]: 6/51: الحديث رقم: (4609).

(4) الداني، البيان في عدّ آيِ القرآن: 1/149.

(5) القاضي، نفائس البيان شرح الفرائد الحسان، ص: 34.

أسماء السورة الكريمة:

ولسورة المائدة عدّة أسماء، وهي:

1) المائدة: لما روي عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، قال: «آخر سورة أنزلت المائدةُ»[1]. وروي أيضًا عن جبير بن نفير، قال: «دخلت على عائشة فقالت: هل تقرأ سورة المائدة؟ قال: قلت نعم. قالت: فإنّها آخر سورة نزلت، فما وجدتم فيها من حلال فاستحلّوه، وما وجدتم فيها من حرام فحرّموه»[2].

2) العقود: وهو من أشهر أسمائها الاجتهادية، قال السيوطي: "والمائدة تسمى - أيضًا - العقود"[3]. حتّى إنّه قد قيل: إنّ هذه التّسميةَ أدلُّ على موضوع السّورة الواسع من تسمية المائدة؛ لأنّ قضايا العقود تشمل أغلب السورة، بخلاف قصة المائدة التي لم تستغرق سوى أربعِ آيات.

3) المنقِذَة: لأنّها تنقِذُ صاحبها من أيدي ملائكة العذابِ[4].

4) الأخيار: وهو من أسمائها الاجتهاديّة، وقد روي عن الصحابة رضي الله عنهم أنّهم كانوا يسمّون سورة المائدة بسورة (الأخيار)[5]؛ وذلك لأنّ مقصودها الوفاء بما هدى إليه الكتابُ، ودلّ عليه ميثاق العقل من توحيد الخالق ورحمة الخلائق شكرًا لنعمه واستدفاعًا لنقمة، والالتزام بهذه العقود من شيم الأخيار، ولذا سمّيت بهذا الاسم[6].

5) الأحبار: لورود ذكر الأحبار فيها دون غيرها في قوله تعالى: ﴿يَحۡكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسۡلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلۡأَحۡبَارُ﴾ [المائدة: 44]، وهم العلماء، جمع حَبْرٍ وحِبْر بالفتح والكسر[7].

سبب تسمية السّورة باسم (المائدة):

وسمّيت السورة بهذا الاسم؛ لأنّ قصّة المائدة من الموضوعات التي تفرّدت بها السورة،

---

(1) الترمذي، سنن الترمذي، تفسير القرآن، ومن سورة المائدة، 5/150: رقم الحديث: (3063).

(2) النَّسائي، السنن الكبرى، التفسير، اليوم أكملت لكم دينكم، 10/79: الحديث رقم: (11073). وينظر: أبو عبيد، فضائل القرآن، ص: 239.

(3) السيوطي، الإتقان في علوم القرآن: 1/192.

(4) مكي بن أبي طالب، الهداية إلى بلوغ النهاية: 3/1827، وابن عطية، المحرر الوجيز: 2/143.

(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 6/69.

(6) البقاعي، نظم الدرر: 6/2.

(7) أبو حيان، البحر المحيط: 4/258.

وهي أعجبُ ما ذكر فيها؛ لاشتمالها على آياتٍ كثيرة ولُطْفٍ عظيم لمن آمن، وعُنفٍ شديد لمن كفر، فهو أعظم دواعي قَبول التّكاليف، كما أنّ مضمون القصّة يبيّن أنّ من زاغ عن الطّمأنينَةِ بعد الكشف الشّافي والإنعام الوافي نوقِش الحساب؛ فأخذه العذاب[1].

تـوالي الإنـعـام وبـيـان الأحـكـام مـائـدة الـلـه لـعـبـاده، مدعاة لمناقشة الحساب لكلّ من يرتاب

من هنا؛ جاءت السّورة معتنية بمُحاجّة أهل الكتاب في نقضهم العهود، وبالردّ على مزاعمهم، وتفنيد شُبههم وتصحيح تصوّرهم الاعتقاديّ، وبيان ما وصلوا إليه من تضييع الأمانة، ونسيان العهد، كيف وقد أَرْصَدَ الله تعالى لهم قولَه: ﴿إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١١٥﴾﴾ [المائدة: 115]، ثمّ - وفي المقابل - بيّن الله تعالى جملة من الأحكام التي شرعها، مما امتنّ الله بها على عباده المؤمنين، كي يتحقّق لهم إكمال الدين وإتمام النعمة بوفائهم بالعهد.

خَصائصُ السّورَة الموضوعيّةِ والأسلوبية:

امتازت سورة المائدة عن غيرها من سور القرآن الكريم بخصائص أسلوبيّة وأخرى موضوعيّة على النحو الآتي:

خصائص السورة الموضوعيّة:

تـقـريـر مسائلَ في أصول الدّين وفروعِه

انفردت السورة الكريمة بتقرير مسائلَ في أصول الدّين وفروعِه، نحوَ بيانِ إكمال الله ﷻ للمؤمنين دينَهمُ الّذي ارْتضى لهم، وإتمامِ نعمته عليهم بالإسلام، والامتنانِ على النبيّ ﷺ بالعصمة من أذى النّاس، لقوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ ۚ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ۚ﴾ [المائدة: 3].

أحكام التشريع

كما حَفلت السّورة الكريمة بجملة من الأحكام التشريعيّة، ما دعا معه ابن تيميةَ إلى وصف سورة المائدة بقوله: "سورة المائدة

(1) البقاعي، نظم الدرر: 6/2، والقاسمي، محاسن التأويل: 4/3.

أجمعُ سورة في القرآن لفروع الشرائع من التّحليل والتّحْريم والأمر والنهي"[1].

عصمة الشريعة الإسلامية

واختصّت سورة المائدة ببيان هَيْمنة الكتاب على غيره، وبعصمة النبيّ ﷺ من القتل، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ [المائدة: 48].

جملة من أحكام وموضوعات لم ترد في غير سورة المائدة

وانفردت السورة بجملة من الأحكام التي لم تَرِدْ في غيرها من سور القرآن الكريم، نحو تحريم جملة من الأطعمة، كالمنخنقة والموقوذة والمترديّة والنّطيحة وغيرها، والكشف عن حكم ما تمسكه الجوارح المعلّمة، كما وانفردت بذكر الأحكام المتعلّقة بطعام أهل الكتاب ونكاح المحصنات منهم، وآية الوضوء، والتّيمّم، وبتقرير حدّ السرقة، وأحكام القصاص فيما دون النّفس، والأذان، وحكم ما ذُبح على النّصب، وحكم الاستقسام بالأزلام، وببيان حكم صيد المُحْرِم، وحكم الوصيّة، وعادات أهل الجاهليّة في التّعامل مع الإبل، وانفردت السورة الكريمة بذكر مشهد حِواريّ فريد في آخر السّورة الكريمة بين الله ﷻ والمسيح عليه السلام.

ومن الموضوعات الّتي امتازت بها سورة المائدة: حديثُها عن العهود والمواثيق الواردة في ستة مواضع من السورة[2]، وكذلك تناولُها لقضايا الحكم، سواءً المسندة منها إلى النبيّ[3] عليه السلام، أو المتعلّقةُ بقضايا تطبيق حكم الله ﷻ على وجه العموم، وذلك في سبعة مواضع من السورة الكريمة[4].

وانفردت السورة كذلك بذكر آيات الحاكميّة الثلاث: ﴿وَمَن لَّمْ

(1) ابن تيمية، مجموع الفتاوى: 14/199.
(2) آية: 1، 7، 12، 13، 14، 70 من سورة المائدة.
(3) آية 42 ثلاث مرات، آية 43، آية 48، آية 49 من سورة المائدة.
(4) آية 45، 44، 43، 1، آية 47 مرتان، آية 95 من سورة المائدة.

﴿يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ [المائدة: 44][1]، إذ إنّ حاكميّة الله تعالى اقْتضَتِ الوفاءَ بعهوده ومواثيقه، وإنّ الخروج عنها يمثّل نقضًا وعدم وفاء لها.

فضلًا عن انفراد سورة المائدة بذكر مشاهد قصصيّة لم تَرِدْ في غيرها من سور القرآن الكريم، مثل: قصّة بني إسرائيل الّذين رفضوا دخول الأرضِ المُقَدَّسةِ، فكان نُكولُهُم بمثابة الإحجام في موضع الإقدام، فلم يستجيبوا لطلب موسى عليه السلام لهم بدخولها، ﴿يَٰقَوۡمِ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡأَرۡضَ ٱلۡمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِي كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمۡ وَلَا تَرۡتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدۡبَارِكُمۡ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ٢١﴾ [المائدة: 21] ، وقصة النُّكول لم تذكر إلا في سورة المائدة.

وكذلك قصةُ ابنيْ آدمَ؛ فجاءت هذه القِصّة في مَعْرِضِ بيان أنّ بني إسرائيل أشدّ النّاس إسرافًا في القتل، وأكثرهم فسادًا في الأرض، لا سيّما وقد خُتِمت القصة بتعقيب الله عز وجل: ﴿مِنۡ أَجۡلِ ذَٰلِكَ كَتَبۡنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفۡسَۢا بِغَيۡرِ نَفۡسٍ أَوۡ فَسَادٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعٗا وَمَنۡ أَحۡيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحۡيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعٗاۚ وَلَقَدۡ جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرٗا مِّنۡهُم بَعۡدَ ذَٰلِكَ فِي ٱلۡأَرۡضِ لَمُسۡرِفُونَ ٣٢﴾ [المائدة: 32] .

كما وانفردت السورة الكريمة بعرض قصة المائدة التي طلب فيها الحواريّون من عيسى عليه السلام سؤال ربه إنزال مائدة من السماء، قال تعالى: ﴿إِذۡ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ هَلۡ يَسۡتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيۡنَا مَآئِدَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِۖ قَالَ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ١١٢ قَالُواْ نُرِيدُ أَن نَّأۡكُلَ مِنۡهَا وَتَطۡمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعۡلَمَ أَن قَدۡ صَدَقۡتَنَا وَنَكُونَ عَلَيۡهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ١١٣ قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلۡ عَلَيۡنَا مَآئِدَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدٗا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةٗ مِّنكَۖ وَٱرۡزُقۡنَا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ١١٤ قَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيۡكُمۡۖ فَمَن يَكۡفُرۡ بَعۡدُ مِنكُمۡ فَإِنِّيٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابٗا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدٗا مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١١٥﴾ [المائدة: 112-115]

وكلّ ما ذكر من خصائصَ موضوعيّةٍ للسّورة يتظافر بكلّ زمام إلى مائدة عطايا الله تعالى، وإلى قيام حجّته على عباده ليظهر من خلالها خُلوص قصّة المائدة لموضعها، ووفائها بنظمها البديع في سورتها.

❁ الخصائصُ الأسلوبيّةُ للسّورةِ:

احتوت سورةُ المائدة على ستّة عشر نداءً خوطب بها المؤمنون دون غيرهم؛ فهم أسرع

(1) الآيات: 44، 45، 47.

النّداءات الإلهية للمؤمنين

النّاس استجابةً لله ﷻ، وأكملُ النّاس انقيادًا لحكم الله ﷻ، وأشرح النّاس صدرًا بخطابه.

وقد شكّلت هذه النّداءات نسيجًا متكاملاً من التّنبيهات للمكلَّف، فهي بمثابةِ وصيّة إلهيّة بين العبد وربّه، حيث رسمت له طريقًا متكاملًا في مسيرته التكوينيّة، فكلّ نداء يعدّ تنبيهًا يقفُ المكلّف عنده، كي يتعرّف على ما فيه وما يرسمه له، بل يمكنُ القولُ بأنّ كلّ نداء منها قد اشتمل على أمرٍ، أو نهيٍ، أو تشريعٍ، أو توجيهٍ، ممّا يؤكّد عنايةَ السّورة الكريمة بتربية المؤمنين، والأخذ بنواصيهم نحوَ المنهجِ القويم؛ بغية إعدادهم لحَمل أمانة التّكليف وعِمارة الأرض.

نداء الله تعالى محمّدًا ﷺ تسلية له وتثبيتًا على منهج الحق

وممّا يجدر التنبّهُ إليهِ عند تتّبع الآيات المفتتحة بالنّداء في السّورة الكريمة، تشريف الله ﷻ لرسوله الكريم محمّد ﷺ، إذ ناداه بوصف الرّسالة في موضعيْن من سورة المائدة، لم يرد في غيرها من سور القرآن الكريم، حيث ورد الموضع الأوّل عند قوله تعالى:

﴿۞يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحۡزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَلَمۡ تُؤۡمِن قُلُوبُهُمۡۛ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْۛ سَمَّٰعُونَ لِلۡكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوۡمٍ ءَاخَرِينَ لَمۡ يَأۡتُوكَۖ يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ مِنۢ بَعۡدِ مَوَاضِعِهِۦۖ يَقُولُونَ إِنۡ أُوتِيتُمۡ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمۡ تُؤۡتَوۡهُ فَٱحۡذَرُواْۚ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتۡنَتَهُۥ فَلَن تَمۡلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗاۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمۡۚ لَهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ٤١﴾ [المائدة: 41] ، وذلك في سياق التّسْرِيَةِ عن النبيّ ﷺ وشرح صدره الكريم، ممّا عسى أن يُحزنه من طَيْشِ اليهود واستخفافهم، ونفاقِ المنافقين وسوء طواياهم[1]، وأمّا الموضع الثاني فهو قوله تعالى: ﴿۞يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٦٧﴾ [المائدة:

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 6/194 - 195.

67] ، وقد جاء في سياق امْتِنان الله ﷻ على رسوله محمّد ﷺ بأنْ: "آمَنَهُ من مَكْرِ اليهود والنصارى، وأَمَرَه بإظهار التّبليغ من غير مبالاة منه بهم"(1).

وممّا يذكر كذلك من خصائص السورة الأسلوبيّة: انفرادها بجملة من الألفاظ التي لم ترد مادّتها اللّغويّة في القرآن الكريم سوى في سورة المائدة، وقد وُظّفت الانفرادات اللّفظيّة في السورة الكريمة لتحقيق غرضَيْن رئيسَيْن:

التشريع حقٌّ خالص لله تعالى

أولًا: تقرير حقّ الله ﷻ الخالص في التشريع، حيث عبّر بالألفاظ الفريدة نحوُ: ﴿وَٱلْمُنْخَنِقَةُ﴾ [المائدة: 3] و﴿وَٱلْمَوْقُوذَةُ﴾ [المائدة: 3]، و﴿وَٱلنَّطِيحَةُ﴾ [المائدة: 3]، و﴿ذَكَّيْتُمْ﴾ [المائدة: 3] في سياق الكشف عمّا يحِلّ ويَحْرُمُ من المطعومات، حيث كان أهل الجاهليّة يستحلّونها ولا يرون في تناولها أيَّ حرجٍ، وأمّا لفظ: ﴿ذَكَّيْتُمْ﴾ [المائدة: 3]، فقد جاء مُكمّلًا لما شُرع مِن تحريم هذه الأصناف ؛ فعُبِّر به عما جاز أكله ممّا لَحِقَتْه التّذكية قبل موته.

كما ورد لفظ: ﴿وَرِمَاحُكُمْ﴾ [المائدة: 94]، في سياق اختبار المؤمنين بإرسال شيء من الصّيد يسهل عليهم أخذ بعضه بأيديهم وسلاحهم ؛ ليعلم ﷻ من يخافه منهم غائبا عن نظر النّاس، من غير مراء ولا رياء، وإنّما خوفًا من الله عزّوجلّ، وطاعةً له في سرّه.

وانفردت السورة كذلك بلفظ ﴿سَآئِبَةٍ﴾ [المائدة: 103]، حيث وردت اللفظة في سياق "بيان ضلال أهل الجاهليّة فيما حرّموه على أنفسهم، وما شرعوه لها بغير إذنٍ من ربّهم، وما قلّد فيه بعضُهم بعضًا على جهلهم، إذ جعلوا الدّابّة مُنْفَلِتَةً عن كلّ قيدٍ، هائمةً في المرعى كيفما تشاء ... فلا تُردّ عن حوض ولا علف، وذلك إذا ولدت خمسة أبطن"(2).

(1) الرازي، مفاتيح الغيب: 12/401.
(2) الراغب، المفردات في غريب القرآن: 1/431.

إيقاف الخلق عند حدود الله تعالى:

وأمّا الغرض الثّاني المستلهمُ مِن تَفرُّد سورة المائدة ببعض الألفاظ فهو الكشف عن منهج القرآن الكريم في تربية المؤمنين، وتوجيههم، نحو الوقوف عند حدود الله ﷻ واجتناب نواهيه.

جملة من ألفاظٍ انفردت بها السورة:

اللفظ: ﴿يَتِيهُونَ﴾ [المائدة: 26]، فقد جاء في سياق ذمّ الله ﷻ لبني إسرائيل، وإنزال العقوبة بهم جرّاء عصيانهم لله ﷻ، ومخالفتهم لأمر نبيّ الله موسى عليه السلام بدخول الأرض المقدَّسة، بل ونكوصهم على أعقابهم؛ فحرّم الله ﷻ عليهم دخولها أربعين سنة، وكتب عليهم التِّيه[1].

كما وعبّر بلفظ ﴿يَبۡحَثُ﴾ [المائدة: 31] في سياق الحديث عن الجريمة وبواعثها في النّفس البشرية، والكشف عن بشاعتها وضرورة الوقوف في وجهها، والعقاب لفاعلها، ومقاومة دوافعها الّتي تحرّك النّفس للإقدام عليها.

وانفردت سورة المائدة بلفظ ﴿يُنفَوۡاْ﴾ [المائدة: 33]، حيث جاءت هذه المفردة في سياق الحديث عن حدّ الحِرابة، فعُبّر بها عن إحدى العقوبات التي تَقرّرَ وقوعُها على من يحارب الله ﷻ ورسوله الكريم، ويسعى في الأرض فسادًا، وذلك إمّا بالقتل أو الصّلب أو تقطيع الأيدي والأرجل من خلاف أو النّفي من الأرض، حيث فُوّض لأولي الأمر الاجتهادُ فى تقدير العقوبة بقدر الجريمة .

وانفردت السّورة الكريمة بلفظ ﴿وَمِنۡهَاجٗاۚ﴾ [المائدة: 48]، والّذي ورد في سياق أمر الله ﷻ لنبيه محمّد ﷺ بأن يحكم بين أهل الكتاب بما أنزل الله ﷻ، وألّا يتبع في ذلك أهواءهم؛ فقد جعل الله ﷻ لكلّ أمّة شِرعةً ومنهاجًا؛ فأمّا الشريعة "فما جاء من أحكام تكليفيّة يجب العمل بها أمرًا ونهيًا وندبًا وإباحةً، وأمّا المنهاج فهو الطريق الواضح لتنفيذها وبيان مجملها وتفصيل أحكامها الجزئيّة[2]".

(1) التّيه على معنييه: إن أريد به المعنى الحقيقي من الذهاب في الأرض إلى غير مقصد معلوم، أو قُصِد به المعنى المجازيُّ، نحوَ افتراق الكلمة وقلّة اجتماع الرأي، ينظر: ابن عطية، المحرّر الوجيز، ص: 531.

(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 4/2227.

وانفردت السورة الكريمة بلفظي ﴿قِسِّيسِينَ﴾ [المائدة: 82] و﴿وَٱلْأَحْبَارُ﴾ [المائدة: 63/44]، وذلك في سياق عرض القرآن الكريم لأحوالِ أهل الكتاب في عداوتهم للمؤمنين أو محبتّهم لهم، ومقدار تلك المحبة والعداوة، وبيّنت بأنّ منهم قسّيسين ورهبانًا وأحبارًا يعرفون حقيقة دينهم ؛ فلا يستكبرون على الحق حين يتبيّن لهم .

وانفردت السورة بذكر لفظ ﴿ٱلْكَعْبَةِ﴾ [المائدة: 95]: فقد ورد مرتين في السورة، وذلك في قوله تعالى: ﴿هَدْيًا بَٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ﴾ [المائدة: 95]، وقوله تعالى: ﴿۞جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ﴾ [المائدة: 97]. ولم ترد هذه التسمية إلا في سورة المائدة.

وانفردت السورة ببعض الصيغ والاشتقاقات التي تفرّدت بها عن غيرها من السور حتّى لو شاركتها في بعض اشتقاقاتها مثل: ﴿بِٱلْعُقُودِۚ﴾ [المائدة: 1]، ﴿ٱلْقَلَٰٓئِدَ﴾ [المائدة: 2]، ﴿غُرَابًا﴾ [المائدة: 31]، ﴿أَكَّٰلُونَ﴾ [المائدة: 42]، ﴿شَنَـَٔانُ﴾ [المائدة: 2]، ﴿كَفَّارَةٌ﴾ [المائدة: 45]، ﴿وَٱلْأَنفَ﴾ [المائدة: 45]، ﴿وَٱلسِّنَّ﴾ [المائدة: 45]، ﴿ءَآمِّينَ﴾ [المائدة: 2] وغيرها.

جملة من التراكيب التي انفردت بها السورة:

وقد انفردت سورة المائدة بجملة من التراكيب التي لم ترد في غيرها من السور القرآنية، نحو تركيب: ﴿فَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ﴾ [المائدة: 14] والذي ورد في موضعين من سورة المائدة [1]، وذلك في سياق ذمّ اليهود والنّصارى بسبب نقضهم العهود التي أُخِذت عليهم من الله ﷻ، وبيان ما ترتّب على ذلك من إنزال العقوبة بهم في الدنيا وتوعدهم إيّاها في الآخرة.

كما وانفردت سورة المائدة بتركيب ﴿ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ﴾ [المائدة: 21]، والذي ورد في سياق أمر الله ﷻ بني إسرائيل بدخول الأرض المقدسة، وذلك عقيب تذكيرهم بما أنعم الله عزوجل عليهم من النعم الوفيرة.

وانفردت سورة المائدة كذلك بتركيب ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾ [المائدة: 50]، حيث جاء المركّب في سياق التوبيخ لبني إسرائيل لإعراضهم عن حكم الله ﷻ، وتمسكهم بحكم الجاهلية المبني على محض الجهل وصريح الهوى.

(1) وذلك في قول الله ﷻ: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةًۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦۚ﴾ [المائدة: 13]، وقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذْنَا مِيثَٰقَهُمْ فَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ﴾ [المائدة: 14] .

وسورة المائدة هي السورة الوحيدة التي ورد فيها تركيب، وذلك في قوله تعالى: ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ﴾ [المائدة: 41].

وهي السورة الوحيدة التي ورد فيها تركيب (لومة لائم)، وذلك في قوله تعالى: ﴿يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ﴾ [المائدة: 54].

كما وانفردت سورة المائدة بقوله ﴿عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ [المائدة: 105] وذلك في سياق أمر الله ﷻ المؤمنين الاهتمام بإصلاح أنفسهم بالعلم النافع والعمل الصالح، وما يترتّب على ذلك من القيام بإرشاد الناس وتعليمهم ؛ فإنّهم إن فعلوا ذلك لن يضرّهم ضلال من ضلّ عن الصّراط السويّ.

وتفرّدت سورة المائدة بأسلوب الرفع أثناء الحديث عن (الصابئين)، وذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٩﴾﴾ [المائدة: 69]، بخلاف سورتي البقرة والحجّ.

❁ المحور الذي تدور حوله موضوعات سورة المائدة:

تعدّدت اتّجاهات العلماء في تقرير المحور الذي تدور عليه سورة المائدة، ولكنّها على تنوّعها تدور حول الوفاء والتّمام، وذلك من خلال الوفاء بالعقود وبيان مكمّلات الدِّين من أحكام الحلال والحرام، قال الزركشيّ: " وأمّا سورة المائدة فسورة العقود، وبهنّ تمام الشرائع قالوا، وبها تمّ الدين، فهي سورة التكميل"[1].

فمحور سورة المائدة يدور حول إرساء قواعد المنهج الربانيّ في بناء المجتمع المسلم، الذي تكون فيه الحاكميّة لله ﷻ وحده، فيدرك فيه المرء دوره في الالتزام بعهوده ومواثيقه، والقيام بواجبه في تبليغ دعوة الله ﷻ والشهود بذلك على الأمم، ولذلك فالسورة قامت على حثّ المؤمنين على الوفاء بكافّة عهودهم العقديّة والتشريعيّة، ونَعَتْ على أهل الكتاب نقضَهم المتكرّر لهذه العهود عبر تاريخهم الطويل مع أنبيائهم.

(1) الزركشي، البرهان في علوم القرآن: 1/261 - 262 والسيوطي، أسرار ترتيب القرآن، ص: 77.

المناسبات بين سورة المائدة وجاراتها من السور:

تقع سورة المائدة بين سورتيّ النّساء والأنعام، فترتيبها في المصحف الشريف الخامسة.

حيث جاءت السورة الكريمة عقيب سورة النّساء التي تناولت مقوّمات التّشريع الإسلاميّ الصالح لتدبير شؤون الإنسانيّة جمعاء، من خلال عناصره الثلاثة: المُشرّع، والتشريع، والمكلّفين، فأكثرت السورة من ذكر صفات هذا المُشرّع القائمة على العلم والحكمة والمغفرة والرحمة، والعدل، ونفي الظلم مطلقًا وغيرها من الصفات الجليلة التي ذكرتها السورة وبيّنت مقاصد الشّريعة الخمسة، التي تكفل تحقيق مطالب الإنسان في كلّ زمان ومكان.

لأجل ذلك فإن سورة النساء قد أشارت لجملة من العقود الصريحة والضّمنية، فالصريح منها نحو: عقد النكاح، وعقد الصداق، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ عَقَدَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ فَـَٔاتُوهُمۡ نَصِيبَهُمۡۚ﴾ [النساء: 33] ، وكذلك عقد المعاهدة والأمان في قول الله ﷻ: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوۡمِۭ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُم مِّيثَٰقٌ أَوۡ جَآءُوكُمۡ حَصِرَتۡ صُدُورُهُمۡ أَن يُقَٰتِلُوكُمۡ أَوۡ يُقَٰتِلُواْ قَوۡمَهُمۡۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمۡ عَلَيۡكُمۡ فَلَقَٰتَلُوكُمۡۚ فَإِنِ ٱعۡتَزَلُوكُمۡ فَلَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ وَأَلۡقَوۡاْ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمۡ عَلَيۡهِمۡ سَبِيلٗا ٩٠﴾ [النساء: 90] ، وقوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ مِن قَوۡمِۭ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُم مِّيثَٰقٞ فَدِيَةٞ﴾ [النساء: 92].

وأما الضمنيّ نحو: عقد الوصية، والوديعة والوكالة، والعارية، والإجارة، وغير ذلك مما هو داخل في عموم قوله تعالى: ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا﴾ [النساء: 58].

فناسب أن يُعقب ذلك بسورة مفتتحة بالأمر بالوفاء بالعقود التي فُرغ من ذكرها في سورة النساء، وكأن السورتين قد اتحدتا في تقرير الفروع الحكمية[1].

كما واشتملت السورتان الكريمتان على أوجه من محاجّة أهل الكتاب من اليهود والنصارى، وطائفة من الوصايا العامة، نحو: القيام بالقسط، والشهادة بالعدل، من غير محاباة لأحد أو انحياز لطرف دون سواه، وذلك في قول الحق ﷻ في سورة النساء: ﴿۞يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلۡقِسۡطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ أَوِ ٱلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَۚ إِن يَكُنۡ غَنِيًّا أَوۡ فَقِيرٗا فَٱللَّهُ أَوۡلَىٰ بِهِمَاۖ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلۡهَوَىٰٓ أَن تَعۡدِلُواْۚ وَإِن تَلۡوُۥٓاْ أَوۡ

(1) السيوطي، أسرار ترتيب القرآن، ص: 95.

تُعۡرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا ﴿١٣٥﴾﴾ [النساء: 135]، وقوله ﷻ في سورة المائدة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْۚ ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴿٨﴾﴾ [المائدة: 8] .

مشتركات موضوعية بين سورتي النساء والمائدة

وأمّا ما يتعلّق بباب التشريع، فإنّ السورتيْن الكريمتيْن قد تعرّضتا لقضايا الحكم بما أنزل الله، ففي سورة النّساء قال الله سبحانه و تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِتَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُۚ وَلَا تَكُن لِّلۡخَآئِنِينَ خَصِيمٗا ﴿١٠٥﴾﴾ [النساء: 105] ، وأمّا في سورة المائدة فقد قال الله ﷻ: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَا ٱلتَّوۡرَىٰةَ فِيهَا هُدٗى وَنُورٞۚ يَحۡكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسۡلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلۡأَحۡبَارُ بِمَا ٱسۡتُحۡفِظُواْ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ عَلَيۡهِ شُهَدَآءَۚ فَلَا تَخۡشَوُاْ ٱلنَّاسَ وَٱخۡشَوۡنِ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗاۚ وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾ وَكَتَبۡنَا عَلَيۡهِمۡ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفۡسَ بِٱلنَّفۡسِ وَٱلۡعَيۡنَ بِٱلۡعَيۡنِ وَٱلۡأَنفَ بِٱلۡأَنفِ وَٱلۡأُذُنَ بِٱلۡأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلۡجُرُوحَ قِصَاصٞۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٞ لَّهُۥۚ وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [المائدة: 44-45]، بل إنّ السّورتين الكريمتين قد تعانقتا في نفي صفة الإيمان عن المحكوم الذي يأنف عن الإذعان لحكم الله ﷻ، ويتولّى عنه ويرفض قبوله، فقد قال الله عزوجل في سورة النساء: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيۡتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمٗا ﴿٦٥﴾﴾ [النساء: 65]، وقال ﷻ في سورة المائدة: ﴿وَكَيۡفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوۡرَىٰةُ فِيهَا حُكۡمُ ٱللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوۡنَ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَۚ وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [المائدة: 43].

ارتباط سورة المائدة بسورة الأنعام

وترتبط سورة المائدة بسورة الأنعام بما تعرّضَت له من حقيقة الألوهية وما تقتضيه من إفراد العبودية لله ﷻ؛ وأنّه وحده سبحانه من له الحكم والتشريع، وبالمجمل فسورة الأنعام تدور حول

الاحتجاج لأصول الدين، وتقرير عقيدة الإسلام، ونقض عقائد الشرك وبيان فسادها، والرد على شُبه أصحابها.

فضلًا عن عناية كلا السورتيْن الكريمتيْن بتقرير أصول العقيدة، والردّ على شبه الكافرين وتفنيد مزاعمهم؛ فسورة المائدة معظمها في محاجّة أهل الكتاب، وسورة الأنعام معظمها - بل كلّها - في محاجّة المشركين.

ولمّا كان من مقصود سورة المائدة إبطال مزاعم النصارى في تأليه عيسى عليه السلام، ناسب أن تُعَقّب سورة المائدة بسورة الأنعام التي يدور قطب رحاها على إثبات الصانع وإرساء قواعد التوحيد ودعائم دلائله[1].

كما أنّ كلا السورتين قد تعرضتا لذكر أحكام الأطعمة المحرمة، بيد أنّ سورة المائدة قد فصّلت في ذلك، بينما أتت سورة الأنعام على ذكر الأطعمة المحرّمة على وجه الإجمال.

وممّا يجدر التنبّه إليه في هذا المقام اشتراك السورتيْن الكريمتيْن في عرض مشاهد من يوم الحشر.

(1) الآلوسي، روح المعاني: 4/73.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ أُحِلَّتۡ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلۡأَنۡعَٰمِ إِلَّا مَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ غَيۡرَ مُحِلِّي ٱلصَّيۡدِ وَأَنتُمۡ حُرُمٌۗ إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ مَا يُرِيدُ ١﴾ [المائدة: 1]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

افتُتِحَتِ السّورة الكريمة بنداءٍ عامّ للمؤمنين المتّبعين منهاج رسول ربّ العالمين ليوفوا بالعقود، وليَقفوا عند حدود الشّرع وأحكامه، المقضيّةِ بإرادته وعلمه، بعد أنْ قرّر في آخر تذييل وترصيع جميل، قولَه الجليل: ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ ١٧٦﴾ [النّساء: 176] ففَصَلَ بها الحقُّ سبحانه بين السّورتين في رَويّ عزيز غير معهود في سورة النساء.

وهذا فيه حسن اختتام لسورة النّساء، وفيه براعة تسليم وجمال توطيءٍ إلى سورة احتوت أحكامًا تشريعيّةٍ وضعها الربّ العليم بكل شيء، وقد تكرّر جذر (علم) في سورة المائدة سبعًا وعشرين مرة بصيغ متعدّدة، ممّا يدلّ على أهميّة العلم لأهله إن انتفعوا به.

وتتجلّى براعة التسليم لما بين موضوعات السورتين من انسجام، - وقد ذكر قبل في تناسب السورتين آنفًا - ، ومن ذلك أنّ سورة النّساء في خواتيمها قرّرت الاعتصام بالله تعالى بما جاء من عنده من بُرهانٍ ونور مبين، وأنّ سورة المائدة في مُفتَتَحِها استكملت ذلك ببيان سبيل تحقيق ذلك الاعتصام، وهو الوفاء.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَوۡفُواْ﴾: وَفَى وأَوفَى، فهو وَفِيٌّ، ومن مشتقاته الوفاء وهو: إتمامُ العهد، وإكمالُ الشَّرط. ويقولون: أوفيتُكَ الشَّيءَ، إذا قضَيتَه إيَّاه وافيًا، وتوفَّيتُ الشَّيء واستوفَيتُه، إذا أَخَذتَه كلَّه حتَّى لم تَترُك منه شيئًا، ومنه يُقالُ للميِّت: توفَّاه الله، والوافي: الّذي بلغ التّمام. يُقال: درهم وافٍ، وكيل وَافٍ، وأَوفَيتُ الكيل والوزن، قال تعالى: ﴿وَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ إِذَا كِلۡتُمۡ﴾ [الإسراء: 35]. والقرآن جاء بأوفى، نحو قوله تعالى: ﴿وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ﴾ [البقرة: 40]، ﴿وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمۡ﴾ [النّحل: 91]، ﴿بَلَىٰۚ مَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ﴾ [آل عمران: 76]،

﴿وَٱلۡمُوفُونَ بِعَهۡدِهِمۡ إِذَا عَٰهَدُواْۖ﴾ [البقرة: 177]، ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذۡرِ﴾ [الإنسان: 7]، ﴿وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِۚ﴾ [التّوبة: 111][1].

2) ﴿بَهِيمَةُ ٱلۡأَنۡعَٰمِ﴾: البهيمة: كلّ ذات أربع في البرّ والبحر. وقِيل: ما لا نطق له، وذلك لمَا في صوته منَ الإبهام،. فالبهيمة شاملة للأنعام وغيرها، فمن ثمّ حسُنت إضافتها للأنعام؛ لإفادة البيان كشجر الأراك. وأصل المادّة الدّلالة على عدم المسموع، لمَا في ذلك الشّيء منَ الاستغلاق، والشّيء المبهم: كلّ ما عسر إدراكه على الحاسّة إن كان محسوسًا، وعلى الفهم إن كان معقولاً، وأبهمتُ الشّيء، أي: جعلته مبهمًا، وأبهمتُ الباب: أغلقته إغلاقًا لا يُهتدى لفتحه، ومنه اللّيل البهيم لشدّة سواده؛ وذلك أنّه قد أبهم أمره لظلمته، أو لأنّه يبهم ما يعرض فيه فلا يدرك[2]، والجمع: بهائم، و﴿ٱلۡأَنۡعَٰمِ﴾: هي الإبل والنَّعم خاصّة بالإبل والبقروالغنم والجواميس، والمعنى المراد: أُحِلُّ لكم أكل البهيمة منَ الأنعام.

3) ﴿بِٱلۡعُقُودِۚ﴾: العَقدُ لغة: الجمع بين الشَّيئين بما يَعسُر انفصال أحدهما عنِ الآخر، كعقدة الحبل بالحبل، ثمّ يسمّى العهد، وما يؤكّده النّاس بينهم منَ الأمانات والمواثيق عقدًا لإحكامه. والعَقدُ: الضَّمان، والعهد، والجمل المُوَثَّق الظَّهر[3]، فالعهد أعمّ منَ العقد؛ لأنّ العقد التزام على سبيل الإحكام، والعهد فيه إلزام، وفيه التزام على سبيل الإحكام، "خَاطب الله - جلّ وعزّ - الْمُؤمنِينَ بِالْوَفَاءِ بِالْعُقُودِ الَّتِي عقدهَا عَلَيْهِم والعقود الَّتِي يَعقدها بعضُهم على بعضٍ، على مَا يُوجِبهُ الدِّين. قَالَ: والعُقود: العهود، واحدُها عَقْد، وَهِي أوكدُ العهود. يُقَال: عهِدتُ إِلَى فلانٍ فِي كَذَا وَكَذَا، فتأويله ألزمتُه ذَلِك، فَإِذا قلت: عاقدتُه أَو عَقَدتُ عَلَيْهِ، فتأويله أَنَّك ألزمته ذَلِك باستيثاق"[4].

4) ﴿يُتۡلَىٰ﴾: يُقرأ عليكم في القرآن ممَّا حُرِّم عليكم، وأنشد الفرّاء:

بَشَرْتُ عِيالِي إِذْ رَأَيْتُ صَحِيفَةً *** أَتَتْكَ مِنَ الْحَجَّاجِ يُتلَى كتابُها[5].

قالَ الرّاغبُ: "التِّلاوَةُ تَخْتَص باتِّباعِ كُتُبِ اللَّهِ الْمُنْزَلَةِ تارَةً بالقِراءَةِ، وتارَةً بالارْتِسامِ،

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (وفى).
(2) السَّمين، عمدة الحفَّاظ: (بهم).
(3) الزَّجّاج: معاني القرآن: 2/13، والفيروزابادي، القاموس المحيط، الأزهريّ، تهذيب اللّغة، الجوهريّ: الصّحاح: (عقد).
(4) الأزهريّ: تهذيب اللّغة: 1/134.
(5) الأنباريّ، الزّاهر: 2/128.

لَمَا فِيهِ مِن أَمْرٍ ونَهْيٍ، وتَرْغيبٍ وتَرْهيبٍ، أَو مَا يُتَوهّمُ فِيهِ ذلِكَ، وَهُوَ أَخَصُّ مِن القِراءَةِ، فكلُّ تِلاَوَةٍ قِراءَةٌ وليس كلّ قراءة تلاوة"[1]، والمعنى: "﴿إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾: إلّا ما حرم ما يتلى عليكم من القرآن، وإلّا ما يتلى عليكم آية تحريمه"[2].

5) ﴿ٱلصَّيْدِ﴾: قال الرَّاغب: "الصَّيدُ: مصدر صاد، وهو تناول ما يظفر به ممّا كان ممتنعًا، وفي الشّرع: تناول الحيوانات الممتنعة، ما لم يكن مملوكًا، والمتناول منه ما كان حلالًا، وقد يسمّى المَصِيدُ صيداً، بقوله تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ﴾ [المائدة: 96]، أي: اصطياد ما في البحر، وأمّا قوله: ﴿لَا تَقْتُلُوا۟ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ﴾ [المائدة: 95]، وقوله: ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَٱصْطَادُوا۟﴾ [المائدة: 2]، وقوله: ﴿غَيْرَ مُحِلِّى ٱلصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ﴾، فإنّ الصَّيد في هذه المَواضِع مختصّ بما يؤكل لحمه، فيما قال بدلالة ما رُوِي: (خمسة يقتلهنّ المحرم في الحلّ والحرم: الحيّة والعقرب والفأرة والذّئب والكلب العقور"[3]، فهذه الأشياء تحدّد الأشياء المحرّمة مطلقًا، وما عداها حلال، لكن صيدها ممتنع في الحرم.

6) ﴿حُرُمٌ﴾: وحُرُم جمع حرام، وهو المُحرِم بالحَجِّ، ويُقال: "أَحرَمَ الرَّجُلُ بالحجّ؛ لأَنَّه يَحرُمُ عليه ما كان حلالًا له منَ الصَّيد والنّساء وغير ذلك. وأحرَمَ الرَّجُلُ: دخل في الشَّهر الحرام، قال الرّاعي النّميريّ:

قَتَلُوا ابنَ عفَّانَ الخَلِيفَةَ مُحْرِمًا *** فمضى ولَم أرَ مِثلَهُ مَقتولا"[4].

7) ﴿يَحْكُمُ﴾: حَكَمَ يحكُم حُكمًا: قضى، وفَصَل في الأمر فهو حاكِم، وحَكَّمنا فُلاناً أمرَنا: أي: يحكُمُ بيننا. وحاكَمناه إلى اللّه: دَعَوناه إلى حُكم اللّه، وكلُّ شيء مَنَعْتَه من الفَساد، فقد [حَكَمْتَهُ] وحَكَّمته وأحكَمْتَه، قال جرير:

أبني حَنيفةَ أَحكِمُوا سُفَهاءكُم *** إنّي أخافُ عليكُمُ أن أَغْضَبا[5].

(1) الرّاغب: المفردات: (تلو).
(2) الأبياريّ: الموسوعة القرآنية: 9/364.
(3) الحديث عن عائشة عنِ النّبي ﷺ، قال: «خمس فواسق يُقتلن في الحلّ والحرم: الحيّة، والغراب الأبقع، والفأرة، والكلب العقور، والحُدَيَّا»، مسلم، الحديث رقم: (1198)، وينظر: الرّاغب، المفردات: (صيد).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حرم).
(5) ديوان جرير: 1/466، وكذلك: الخليل، العين: (حكم).

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

الأمـر بالـوفـاء بالـعـقـود، مع الله والعباد، الـتـزامًـا بـما هـدى، وانـتـهـاءً عمّا نهى

يا معشر المؤمنين الّذين صدَّقوا بالله وبرسوله، وفُّواْ بما عاهدتم عليه ربّكم منَ الإيمان والطّاعة، والامتثال لما شرع لكم، وبما عاهدتم عليه النّاس منَ المواثيق و العهود الدّوليّة، وعقود النّكاح والبيع وسائر المعاملات، والتزموا بما أحلّ الله لكم، وبما حرّم منَ المطعومات والمشروبات ممّا جاء منصوصًا عليه في هذه السّورة الكريمة، ولا تحلُّوا ولا تحرّموا بهواكم، ولكن بما شرّع الله؛ فإنّه سبحانه أعلم، ويقضي بما يشاء بوفْق حكمه وعلمه بما ينفع وما يضرّ، إن الله يحكم ما يشاء في ملكه، ويقضي وَفْق حكمته وعدله، فالالتزام بذلك، طريق النّجاح في الدّنيا، والفلاح في الآخرة.

❁ الإِيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالة التَّعبير بالاسم الموصول، في قوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾:

وفـاء المؤمنين بالعقود، أمرٌ في شريعة الإسلام معهود

يُلحظ في صياغة الآية الكريمة إيثار التَّعبير بالاسم الموصول في قوله تعالى في صدر الآية: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾، حيث لم يقل: (يا أيّها المؤمنون)؛ وذلك للإشارة إلى أنَّ الإيمان ليس أمرًا طارئًا، يمرُّ بالإنسان فترة منَ الزَّمن، لكنَّه أَمر يتجدّد بتجدّد الفعل حتّى ينفّذ المؤمن الأحكام الّتي جاء بها العقد الإيمانيّ[1]، وللإشارة كذلك إلى أنّ الإيمان يزيد وينقص، وأنّه يحتاج إلى تعهُّد ورعاية حتّى يبقى مُتجدّدًا وراسخًا.

النّداء بغرض المدح وأثره في تجليّة المعنى المقصود في الآية:

قوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾، هو نداء، والنّداء في القرآن على سبع مراتب منها ما تكرّس له الغرض في مطلع هذه الآية، وهو المدح، والنّداء هنا من جوامع الكلم، لأنّه بمدحه لهم بقوله:

(1) الشَّعراويّ، تفسير الشَّعراوي: 5/2888.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾، يعني صدّقواْ، ولم يقل بأي شيء صدّقوا، فيكون معناه الّذين صدّقوا بوحدانيّة الله تعالى، وصدّقواْ بمحمّد ﷺ وبالقرآن، وصدّقواْ بجميع الرّسل، وبالبعث، والحساب، والجنّة، والنّار[1]، وفي نداء الله تعالى المُخاطَبين بوصف الإيمان إشارة إلى أنّ الوفاء بالعقود من مقتضيات الإيمان، وفي هذا حَثٌّ على التزام الأمر وتنفيذه، والوفاء بالعهود، باعتباره من شعائر الإيمان، ومن أخلاق المؤمنين، لأنّ نقض العهود، وعدم الالتزام بالمواثيق، من صفات المنافقين، الّذين إذا حدّث أحدهم كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا ائتمن خان.

نـــداء الـلـه المـؤمـنـين في ظاهره تكليف، وفـي بـاطـنـه تشريف

براعة الاستهلال في افتتاح السّورة بالأمر بالإيفاء بالعقود:

وفي افتتاح السُّورة الكريمة بالأمر بالإيفاء بالعقود براعة استهلال[2]؛ لأنّه مُشعِرٌ بأنّه سترد بعده أحكامٌ وعقود، كانَت عُقِدَت منَ الله على المؤمنين إجمالًا وتفصيلًا، ذكَّرهم بها؛ لأنَّ عليهم الإيفاء بما عاهدوا الله عليه، وافتتاح السّورة بها، من بلاغة المؤدّى وجميل التّعبير، قال القرطبي: "وهذه الآية مما تلوح فصاحتها وكثرة معانيها على قلة ألفاظها لكلّ ذي بصيرة بالكلام، فإنّها تضمنت خمسة أحكام: الأوّل: الأمر بالوفاء بالعقود، الثّاني: تحليل بهيمة الأنعام، الثّالث: استثناء ما يلي بعد ذلك، الرّابع: استثناء حال الإحرام فيما يصاد، الخامس: ما تقتضيه الآية من إباحة الصّيد لمن ليس بمُحرِم"[3]، "فالعقد هو كلّ ما يلتزمه المؤمنون، سواء أكان في الأحكام التّكليفيّة أم من العهود الّتي يلتزم بها العباد،

وجـــوب رعـايـة الـعـقـود مع الـخـالـق، وحـفـظـهـا مع المخلوق

(1) السّمرقنديّ، بحر العلوم: 1/365.

(2) وحكى النقاش أن أصحاب الكندي قالوا للكندي: أيها الحكيم اعمل لنا مثل هذا القرآن فقال نعم أعمل مثل بعضه فاحتجب أياما كثيرة ثم خرج فقال: والله ما أقدر عليه ولا يطيق هذا أحد إني فتحت المصحف فخرجت سورة المائدة فنظرت فإذا هو قد أمر بالوفاء ونهى عن النكث وحلل تحليلا عاما ثم استثنى استثناء بعد استثناء ثم أخبر عن قدرته وحكمته في سطرين ولا يستطيع أن يأتي أحد بهذا إلا في أجلاد: (أي في مجلّدات)، ينظر: ابن عطية، المحرّر الوجيز: 2/145.

(3) القُرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 1/365.

وبذلك تشمل ما يعقده الإنسان مع غيره من عقود واجبة الوفاء"[1]، وهي تستغرق كلّ مناحي الحياة، بما فيها من معاملات ومبادلات.

جملة ﴿أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ﴾ مطلقة، وما لا دليل على تقييده، فهو مطلق:

إنّ جملة ﴿أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ﴾، " أساس تقدّم عليه العقود في الإسلام، وهي تفيد بقوّة ورشاقة، أنّه يجب على كلّ مؤمن، أن يفي بما عقده وارتبط به، وليس لأحد أن يقيّد ما أطلقه الشّارع إلّا بنصّ منه، فكلّ قول أو فعل يعدّه النّاس عقدًا، فهو عقد، يجب أن يوفوا به، كما أمر تعالى، ما لم يتضمّن تحريم حلال، أو تحليل حرام، ممّا ثبت في الشّرع، كالعقد بالإكراه، أو على إحراق دار أحد، أو شجرة بستان، أو على الفاحشة، أو على أكل شيء من أموال النّاس بالباطل، كالرّبا والميسر والرّشوة"[2].

كلّ ما يعدّه النّاس عقَدا، فهو عقد جائز إلّا ما حرّم بنصّ قطعيّ

ارتباط المعنى اللُّغويّ بالمعنى الشّرعيّ في لفظ (عقد):

نلاحظ التَّرابط الوثيق بين المعنيين: اللُّغويّ والشّرعيّ لكلمة (عَقد)، فالعَقد لغة: رَبط لطرفي شيء، ومنه العُقدَة، فهو في الأصل يُطلَق على المعاني المحسوسة، ثمّ استُعير للمعنويّات، قال الرَّاغب: "العَقدُ: الجمع بين أطراف الشّيء، ويُستعمل ذلك في الأجسام الصّلبة، كعقد الحبل وعقد البناء، ثمّ يُستعار ذلك للمعاني نحو: عَقْد البيع، والعهد، وغيرهما، فيُقال: عاقدته، وعَقَدتُه، وتعاقَدنا، وعَقَدتُ يمينه"[3]، ويُطلَق شرعًا على الأحكام الواجبة الطّاعة؛ لأنّها تشمل معنى الرَّبط"، ولمّا كان الإيمان عبارةً عن معرفة اللّه تعالى بذاته، وصفاته، وأحكامه، وأفعاله، وكان مِن جملة أحكامه، أنَّه يجب على جميع الخلق إظهارُ الانقياد للّه تعالى في جميع تكاليفه،

الانقياد لله تعالى في جميع تكاليفه، مُدْرَجٌ ضمن معاني العقد

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 4/2008.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 4/2008.
(3) الرَّاغب، المفردات: (عقد).

وأوامره، ونواهيه، فكان هذا العقدُ أحدَ الأمور المُعتبرة في تحقُّق ماهيَّة الإيمان، فلهذا قال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ﴾، يعني: يا أيّها الَّذين التزمتُم بإيمانكم أنواع العقود والعهود، في إظهار طاعة اللّه أوفوا بتلك العقود، وإنَّما سمّى اللّه تعالى هذه التَّكاليف عقودًا، كما في هذه الآية؛ لأنَّه تعالى ربطها بعباده، كما يُربَطُ الشَّيء بالشَّيء، بالحبل المُوَثَّق، وحاصل الكلام في هذه الآية أنَّه أمر بأداء التَّكاليف فعلًا وتركًا"[1]، وأنّ مصطلح عقد، يجمع الدّلالتين اللّغويّة والفقهيّة معًا.

التَّعريف في العقود للاستغراق، في قوله: ﴿أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ﴾:

العقد التزام بين طرفين، ويطلق على كلّ ما يكون به التّعامل

والتَّعريف في العقود للاستغراق، فيشمل العقود الَّتي بين المسلمين وربّهم، مِن توحيده، والإذعان لشريعته، وطاعته، وطاعة رسوله، ويشمل أيضًا العقود الَّتي عاقد المسلمون عليها المشركين، ويشمَل كذلك العقود الَّتي يتعاقدها المسلمون بينهم من عقود الأمانات والمعاملات، ويندرج في هذا العموم كلُّ عقد مع إنسان كأمان، والدّية، والنِّكاح، والبيع، والشّركة، والهبة، والرَّهن، والعتق، وتدبيرٍ، وتخييرٍ، وتمليكٍ، ومصالحةٍ، ومزارعةٍ، والطّلاق، والشِّراء، والبيع، والإجارة[2]، من ذلك ما قاله الشّافعي (رحمه اللّه): "إذا عقد المتبايعان بيعًا بما يجوز، فافترقا عن تراض، لم يكن لأحدهما ردّه إلّا بعيب أو بشرط خيار"[3].

لفظ الأمر في قوله ﴿أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ﴾ يدلّ على الوجوب:

الالتزام بمقتضى العقود بالالتزام والصّيانة، من متطلّبات الأمانة

والوفاء: "هو القيام بمقتضى العهد، وكذلك الإيفاء. والعقد: هو العهد المُوَثَّقُ، كما قال الحطيئة:

(1) الرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 12/123.
(2) أبو حيَّان، البحر المحيط، ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/43.
(3) الأزهري، الزّاهر في غريب ألفاظ الشّافعيّ، ص: 131.

قَومٌ إذا عَقَدوا عَقدًا لِجارِهِمُ *** شَدُّوا العِناجَ وشَدُّوا فَوقَهُ الكَرَبا[1].

وأصله الجمع بين الشَّيئين بحيث يَعسُرُ الانفصال"[2]، " فالعقد هو كلّ ما يلتزمه المؤمنون، سواء أكان في الأحكام التّكليفية أم من العهود الّتي يلتزم بها العباد[3]، والأمر في قوله ﴿أَوۡفُواْ﴾ للوجوب؛ لتعلّقه بعهد اللّه، وعهد اللّه واجب النّفاذ، وتعقيبه بالحلّ والحرمة، ثمّ تعاضد الأوامر الّتي جاءَت في هذا الشّأن كقوله تعالى: ﴿وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمۡ﴾ [النّحل: 91]، كلّ هذا يدلّ على أنّ الأمر للوجوب.

دلالة الاستعارة التّصريحيّة في قوله تعالى: ﴿أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ﴾:

المراد بالعقد هنا، " العقد الموثّق، شبّه العهد الموثّق بالحبل، فاستعير لفظ المشبّه به للمشبّه على سبيل الاستعارة التّصريحيّة، فالعهد إلزام، والعقد التزام، على سبيل الإحكام، ولمّا كان الإيمان عبارة عن معرفة اللّه بذاته وصفاته وأحكامه وأفعاله، وكان من جملة أحكامه، أنّه يجب على جميع الخلق، إظهار الانقياد للّه تعالى، في جميع تكاليفه وأوامره ونواهيه، وكان العقد أحد الأمور المعتبرة، في تحقيق ماهيّة الإيمان، قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ﴾.. وإنّما سمّاها عقودًا لأنّه ربطها كما يربط الشّيء بالشّيء بالحبل الوثيق"[4].

العقد أمانة في الذّمّة، وهي تقتضي ربطًا ووثاقة من الطّرفين

التّشبيه في ربط إلزام الله لأحكامه بالتزام العباد بها، كربط الحبل بالحبل:

يلاحظ التّشبيه في هذه الآية، حيث شبّه الإلزام والإلتزام الجاريين بين اللّه وعباده، بربط حبل بحبل، لأنّ العقود حقيقة في الرّبوط"[5]، وعادة ما يشبّه العقد الموثق "بعقد الحبل ونحوه، وهي عقود اللّه الّتي عقدها على عباده، وألزمها إيّاهم من مواجب

عقود الله محكمة وثيقة، والوفاء بها ملزم

(1) العِناج: خيطٌ أو سيّر يُشدُّ في أسفل الدَّلو، ثمَّ يُشدُّ في عروتها، والكرب: الحبل الّذي يُشدّ على الدَّلو، والبيت في ديوان الحطيئة، ص: 7، والجواليقي، شرح أدب الكاتب، ص: 240.

(2) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 2/133.

(3) أبوزهرة: زهرة التّفاسير: 4/2008.

(4) القونوي، حاشيّة القونوي على تفسير البيضاويّ: 7/378.

(5) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 7/114.

التّكليف، أو ما عقد اللّه عليكم، وما تعاقدتم بينكم، والظّاهر أنّها عقود اللّه عليهم في دينه من تحليل حلاله، وتحريم حرامه"[1].

دلالة بناء الفعل (أُحِلَ) لمَا لم يُسمَّ فاعله، في قوله: ﴿أُحِلَّتۡ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلۡأَنۡعَٰمِ﴾:

الخبر يُفَصِّل اللّفظ المُجمَل في الآية الكريمة

بُنِي الفعل (أُحِلَ) لمَا لم يُسمَّ فاعله؛ لأنّ الفاعل معلوم، ولأنّ المُخاطَبين - وهم المؤمنون - يُقرُّون بأن لا مُنعم إلاّ اللّه تعالى، ولا مُشَرِّع غيره. وفي الآية إخبار لعباده المؤمنين، بأنَّه أحلَّ لهم ما حرّم على اليهود، قال تعالى: ﴿أُحِلَّتۡ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلۡأَنۡعَٰمِ﴾؛ لُطفًا منه سبحانه بعباده المؤمنين ورحمةً وكرمًا.

والعقود كلمة مجملة تشمل جميع الأحكام الإلهيّة، وكذلك ما بين النّاس من عهود ومواثيق حلالًا، وجاء قوله: ﴿أُحِلَّتۡ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلۡأَنۡعَٰمِ﴾ مُفصِّلًا لهذا الإجمال.

المناسبة بين الوفاء بالعقود، وحلّ بهيمة الأنعام للمؤمنين:

التّفصيلُ بعد الإجمال، مُفيدٌ في إيضاح الأحكام

المناسبة بين قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ﴾ وقوله: ﴿أُحِلَّتۡ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلۡأَنۡعَٰمِ﴾ ظاهرة، "فعلى كلّ مؤمن أن يفي بما عقده وارتبط به، من قول أو فعل، وكلّ عقد، وكلّ وعد، وكلّ عهد، وكلّ ميثاق، إنّما هو عقد بين طرفين اللّه ثالثهما، فمن نقضَه فقد أخلّ بالوفاء مع ربّه"[2]، وحيث إنَّ المراد بالعقود عهود اللّه على المؤمنين في تحليل حلاله، وتحريم حرامه، فقد بدأ بالمُجمَل في مطلع السّورة، ثمّ أتبعه بالمُفَصَّل الّذي أبان فيه تحليل الأنعام، ممّا يجسّده قوله: ﴿أُحِلَّتۡ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلۡأَنۡعَٰمِ﴾، وفي هذا الخبر امتنان منَ اللّه تعالى على عباده الّذين آمنوا، بما أعطاهم ابتداء، وبما أحلّ لهم، ممّا كان محرّمًا على من قبلهم،

(1) النّسفي، مدارك التنزيل: 1/423.
(2) القطّان: تيسير التّفسير: 1/373.

وهو ممزوج بالإرشاد والتّوجيه، كدأب القرآن في لفت أذهان المؤمنين للشّكران.

دلالة أسلوب الإضافة في قوله تعالى ﴿بَهِيمَةُ ٱلۡأَنۡعَٰمِ﴾ على البيان:

الإفراد للبَهِيمَة لإرادة جنس البهائم، والجمع للأَنعَمِ لشمول أنواعها

البهيمة مِن ذوات الأرواح ما لا عقل له مطلقًا، وهي كلُّ ذات أربع في البرِّ والبحر، وسُمِّي ﴿بَهِيمَةُ﴾؛ لعدم تمييزه، وإبهام الأمر عليه، أو لأنَّ أمر كلامها وأحوالها أُبهِمَ على غالب الخلق، و الخطاب لكلّ من التزم الإيمان على وجهه التّامّ، وكماله العامّ، وقد كانت للعرب سنن في الأنعام، "كانوا يحرّمون في الجاهليّة على أنفسهم، بعض الحيوان لأوهام ورثوها، لم يأت بها دين، ولم يتصوّرها عقل، وليس للتّحريم سبب يدركه أهل العقول، فجاء نصّ تحليل بهيمة الأنعام للإباحة مع القيد، فهي حلال بشرط ألّا تكون ممّا يتلى تحريمه[1]، والإضافة في قوله: ﴿بَهِيمَةُ ٱلۡأَنۡعَٰمِ﴾ بيانيَّة، بمعنى أنّ تقدير: (مِن بهيمة الأنعام)، وذلك من باب إضافة الشّيء إلى جنسه، كقولهم: ثوب خزٍّ، وعُود أراك، أي: من خزٍّ، وعود من أراك، والتّقدير هنا: أُحِلَّ لكم أكل البهيمة مِنَ الأنعام، وفائدة هذه الإضافة هنا الإشعار بعلَّة الحكم المُشترَكة بين المُتضايفين، كأنَّه قِيلَ: أُحِلَّت لكم البهيمة المُشبَّهة بالأنعام الَّتي بُيِّنَ إحلالها فيما سبق لكم، المماثلة لها في مَناط الحُكم[2]، وقد جاءت ﴿بَهِيمَةُ﴾ مفردة لإرادة جنس البهائم، وجاءَت ﴿ٱلۡأَنۡعَٰمِ﴾ جمعًا للاستغراق، فلا تخصّ ما تعارف عليه بعض العرب من إطلاق النَّعم على الإبل، ولكن تشمل ما تعارف عليه أكثر أهل اللّغة، من إطلاقها على البقر والإبل والغنم..إلخ.

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 4/2013.

(2) الآلوسّي، روح المعاني: 6/50.

سرُّ تقديم الجارّ والمجرور﴿لَكُم﴾ على نائب الفاعل، ﴿بَهِيمَةُ ٱلۡأَنۡعَٰمِ﴾، في الآية:

قُدِّم الجارّ والمجرور﴿لَكُم﴾ على نائب الفاعل ﴿بَهِيمَةُ﴾ في قوله: ﴿أُحِلَّتۡ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلۡأَنۡعَٰمِ﴾؛ لإظهار العناية بالمقدَّم، لمَا فيه من تعجيل المسرَّة والتَّشويق إلى المؤخَّر، فإنَّ ما حقُّه التَّقديم إذا أُخِّرَ تبقى النَّفسُ مترقِّبة إلى وروده، فيتمكَّن عندها فضل تمكُّن[1]، وقد يفيد تقديم الجارّ والمجرور ﴿لَكُم﴾ الاختصاص، أي: أُحِلت لكم بهيمة الأنعام على إطلاقها لكم دون غيركم من اليهود، فيكون القصر إضافيّا؛ فإنّ الله تعالى حرّم عليهم طيّبات كانَت حلالًا بسبب ظلمهم، وقال تعالى: ﴿فَبِظُلۡمٖ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمۡنَا عَلَيۡهِمۡ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتۡ لَهُمۡ﴾ [النّساء 160]، وقال: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمۡنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٖۖ وَمِنَ ٱلۡبَقَرِ وَٱلۡغَنَمِ حَرَّمۡنَا عَلَيۡهِمۡ شُحُومَهُمَآ﴾ [الأنعام: 146].

شريعة الإسلام نسخت كلّ ما كان خصوصيّة لليهود في موانع الأحكام

الاحتراز بذكر المضاف إليه، في قوله تعالى: ﴿أُحِلَّتۡ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلۡأَنۡعَٰمِ﴾:

نجد دقَّة التّعبير القرآنيّ واضحة في قوله تعالى: ﴿أُحِلَّتۡ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلۡأَنۡعَٰمِ﴾، بذكر المضاف إليه، حيث لم يقل: (أُحِلَّت لكم البهيمة)؛ لأنَّ البهيمة كما - سبق الإشارة إليه - اسم لكلّ ذات أربع من ذوات الأرواح في برٍّ أو بحرٍ، وإنَّما أُضيفت البهيمة إلى الأنعام؛ ليُعرَف جنس الأنعام وما أُحلَّ منها، ولو أُفرِدَت فقيل: (أُحِلَّت لكم البهيمة) بحذف المضاف إليه، لدخل فيه كلّ ما يحلُّ وما يَحرُم منَ البهائم المُفترسة كالسّباع وغيرها، أي: لوقعَت على الأنعام وعلى غيرها ممّا حظر وحرّم، فأضافها إلى الأنعام؛ ليعرف جنس البهيمة؛ لذا كان الاحتراز بذكر المضاف إليه فقال: ﴿أُحِلَّتۡ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلۡأَنۡعَٰمِ﴾[2].

ما حرّم الله إلّا ما فيه خطر، ولا منع إلّا ما فيه ضرر

(1) أبو السُّعود، إرشاد العَقْل السّليم: 4/2.
(2) الواحديّ، البسيط: 7/216.

الاستثناء في قوله: ﴿إِلَّا مَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ﴾ استثناءٌ من بهيمة الأنعام:

ما يتلى في القرآن ممّا حرّم الرّحمن، دليل على ثبات الأحكام وخلودها

والاستثناء في قوله: ﴿إِلَّا مَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ﴾ استثناء من بهيمة الأنعام، والمعنى: إلّا ما يُتلى عليكم في القرآن تَحريمه، أو" إلّا مُحرَّمَ ممّا يتلى عليكم من قوله تعالى ﴿حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةُ﴾ ونحوَه، أو إلّا ما يُتلى عليكم آيةُ تحريمه[1]، وفي نوع المستثنى (ما)، قولان: أحدهما: أنّه مستثنى متّصل، والثّاني: أنّه منقطعٌ وهو المرجّح؛ لأنَّ المستثنى ليس من جنس البهيمة، حسب ما فُسِّر به المتلوُّ عليهم[2]، ولم يبيِّن هنا ما هذا الَّذي يُتلى عليهم المستثنى من حلّيَّة بهيمة الأنعام؛ ولكنَّه سبحانه بَيَّنَه بعد ذلك بقوله: ﴿حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحۡمُ ٱلۡخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلۡمُنۡخَنِقَةُ وَٱلۡمَوۡقُوذَةُ وَٱلۡمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيۡتُمۡ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ﴾ [المائدة: 3]، فالمذكورات في هذه الآية الكريمة، كالموقوذة والمُتردِّية، وإن كانت منَ الأنعام؛ فإنَّها تحرّم بهذه العوارض[3].

ملمحيّة الاستثناء من الاستثناء، في قوله: ﴿غَيۡرَ مُحِلِّي ٱلصَّيۡدِ وَأَنتُمۡ حُرُمٌۗ﴾:

أصل المعنى (غير الصّيد المحلّ)، بمعنى دخل في الحلّ، أو صار ذا حلّ

يلحظ فيه الاستثناء ممّا يليه، وقد أبطل إباحة الصّيد في الحرم، لأنّه مستثنى من الحرم الّذي هو مستثنى من الإباحة، قال ابن عطيّة: قد خلط النّاس في هذا الموضع في نصب لفظ الاستثناء ﴿غَيۡرَ﴾، وقدّروا تقديرات كلّها غير مرضيّة، لأنّ الكلام على اطّراده متمكّن استثناء بعد استثناء، وقال أبو حيّان: إنّما عرض الإشكال في الآية، حتّى اضطرب النّاس في تخريجها، من كونه رسم ﴿مُحِلِّي﴾ بالياء، فظنّوا أنّه اسم فاعل من أحلّ، وأنّه مضاف إلى الصّيد إضافة اسم الفاعل المتعدّي إلى المفعول، وأنّه جمع حذف منه النّون

(1) أبو السّعود، إرشاد العَقْل السّليم: 3/2.
(2) السَّمين، الدُّرُّ المصون: 4/184، ودرويش، إعراب القرآن: 4/401.
(3) الشّنقيطيّ، أضواء البيان: 1/257.

للإضافة وأصله: (غير محليّن الصّيد)، والّذي يزول به الإشكال، ويتّضح المعنى، أن يجعل قوله (غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ) من باب قولهم: (حسان النّساء)، والمعنى (النّساء الحسان)، وكذا هذا أصله: (غير الصّيد المحلّ)، والمحلّ صفة للصّيد لا للنّاس، ووصف الصّيد بأنّه محلّ، إمّا على معنى: دخل في الحلّ، كما تقول (أحلّ الرّجل)، أي دخل في الحلّ، و(أحرم الرّجل): دخل في الحرم، أو على معنى (صار ذا حلّ)، أي: حلالاً بتحليل اللّه"[1].

علّة إثبات لفظ ﴿بَهِيمَةُ﴾ في سورة المائدة، دون سورة الحجّ:

ما زيد في إطار التّشابه من لفظ، يكون وجوده فارقًا بين السّياقين

قوله تعالى: ﴿أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾، وقوله: ﴿وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ﴾ [الحجّ: 30]، نتساءل: لِمَ أُثبت لفظُ ﴿بَهِيمَةُ﴾ في سورة المائدة، ولم يُثبَت في سورة الحجّ؟والجواب: هو أنّ ذلك كان لاختلاف المقصود في الآيتين الكريمتين، وبيان ذلك أنَّ اسم الأنعام إنَّما يقع على الأصناف الأربعة: الإبل، والبقر، والضَّأن، والماعز، ولمَّا كانت آية سورة الحجّ مُتعلّقة بما أمر به الحاجُّ في قوله: ﴿ثُمَّ لْيَقْضُواْ تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُواْ نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُواْ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ۝٢٩﴾ [الحجّ: 29]، والأمر بتعظيم تلك الحرمات، والشَّعائر الدّينيَّة في قوله: ﴿ذَٰلِكَۖ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦۗ﴾ [الحجّ: 30] وصل بها ما يحلُّ به أكل لحمه للمُحرِم حال إحرامه، فقال تعالى: ﴿وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ﴾ [الحجّ: 30]، ولم يكن ليناسب هذا المَوضِع ما ورد في آية المائدة من قوله: ﴿أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾؛ لأنَّ المراد ببهيمة الأنعام الوحشيُّ. وقال الزّمخشريّ في أحد تفسيريه: "الظِّباء وبَقَر الوَحش"[2]، ونحوها، ووجه وقوعها في آية المائدة؛ لأنَّ آية المائدة من آخر ما نَزَل، وقد تضمَّنت متمّمات منَ الأحكام، كآية الوضوء، والتَّيمم،

(1) السّيوطي، نواهد الأبكار: 3/233.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/320.

وتفاصيل الصَّيد، واستيفاء المحرّمات منَ المأكولات والمشروبات، فناسب هذا ذكر حلِّيّة بهيمة الأنعام؛ إذ لم يذكره اللّه في غيرها على ما ورد هنا في تحرير ذلك، وبيان العوارض الّتي قد تَحرُم لأجلها، وذلك قوله تعالى: ﴿حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةُ وَٱلدَّمُ﴾، ثم أتبع بقوله: ﴿حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةُ وَٱلدَّمُ﴾ [المائدة: 3]؛ لأنَّ هذه العوارض تكثر في الوحشيّ؛ لمخالفة حاله في التَّذكية، وما تحلُّ به الإنسيَّة منَ الأنعام، ثمّ أتبع ذكر ما يعرض ممّا ذكر وقعتِ الإشارة بقوله: ﴿إِلَّا مَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ﴾، ثمّ أشار قوله: ﴿غَيۡرَ مُحِلِّي ٱلصَّيۡدِ وَأَنتُمۡ حُرُمٌۗ﴾ إلى ما أفصح به قوله تعالى: ﴿وَحُرِّمَ عَلَيۡكُمۡ صَيۡدُ ٱلۡبَرِّ مَا دُمۡتُمۡ حُرُمٗاۗ﴾ [المائدة: 96] فوضح تناسب كلّ، مع ما ورد فيه[1].

ترادف جملتين حاليتين لبيان المستثنى، والتّدرج في صيغ التّحريم:

تنوّع الأحكام بتنوّع الأحوال والظّروف، مسلك في التّشريع مفيد

لوحظ ترادفُ جملتين حاليتين، في قوله تعالى: ﴿غَيۡرَ مُحِلِّي ٱلصَّيۡدِ﴾، وقوله: ﴿وَأَنتُمۡ حُرُمٌۗ﴾؛ وهما لبيان المستثنى، والتّقدير: (أحللنا لكم بعض الأنعام في حال امتناعكم منَ الصّيد وأنتم مُحرمُون)، وجملة ﴿غَيۡرَ مُحِلِّي ٱلصَّيۡدِ﴾، حالٌ منَ الضَّمير في ﴿لَكُم﴾، وجملة ﴿وَأَنتُمۡ حُرُمٌۗ﴾ في مَوضِع الحال مِن ضمير ﴿مُحِلِّي﴾، "وهذا نسجٌ بديعٌ في نظم الكلام، استُفيدَ منه إباحةٌ وتحريمٌ: فالإباحة في حال عدم الإحرام، والتَّحريم له في حال الإحرام"، وفائدة تقييد إحلال بهيمة الأنعام، بجملتي الحال، أنَّ حُرمةَ الصَّيد في حالة الإحرام من مَظانّ حاجتهم إلى إحلال غيره حينئذٍ، كأنَّه قِيلَ: أُحِلَّت لكم الأنعام مُطلَقًا، حال كونكم ممتنعين عن تحصيل ما يغنيكم عنها، و في بعض الأوقات، أنتم محتاجون إلى إحلالها.

الوفاء بالعقُود ليس شرطًا لإباحة بهيمة الأنعام:

الإباحة للحلال الطّيب، منهج تربويّ في الحلّ والحرمة

والوفاء بالعقود، ليس شرطًا لإباحة حلّ بهيمة الأنعام؛ فاللّه تعالى لم يجعلِ الوفاء بالعقود شرطًا للإباحة، ولا أخرجه مَخرَج المجازاة، ولكنَّه وجَّه الخطاب إلينا بلفظ الإيمان، لتحفيز المؤمنين

(1) ابن الزبير، ملاك التَّأويل: 1/230 - 232.

وتهيِّئتهم نفسيًّا، لاستقبال ما يؤمرون به إباحة أو منعًا، والإباحة عامَّة يخاطب بها جميع المكلَّفين، كفّارًا كانوا أم مؤمنين، وكذلك كلُّ ما أباحه الله تعالى للمؤمنين، فهو مُباحٌ لسائر المكلَّفين، كما أنَّ كلَّ ما أوجبه وفرضه، فهو فرضٌ على جميع المكلّفين، إلّا أن يخصَّ بعضهم دليلٌ يستثني مخاطبته بذلك؛ وكذلك قلنا: إنَّ الكفّار مستحقُّون للعقاب على ترك الشَّرائع كما يستحقُّون العذاب على ترك الإيمان[1]، وما أباحه الله، هو الطّيب النّافع، وما حرّمه هو النّجس الضّار، وقد أثبتت التّجارب المخبريّة، والكشوفات العلميّة ذلك، بما يزيد المؤمنين إيمانا مع إيمانهم.

فلسفة التّدرّج في التّحريم، وأثرها في ترسيخ الاقتناع، ودوام الامتناع:

الله لطيفٌ بعباده، يُظهرُ لهم شفقته عند المنع، ورحمته عند الإباحة

تدرَّج القرآن في أسلوب التّحريم، فنجد أوّل شيء حُرِّم، هو الصّيد بالنّسبة إلى المُحرِم، والقرآن لم يأت بصيغة التّحريم، ولكن بنفي التّحليل، في قوله: ﴿غَيۡرَ مُحِلِّي ٱلصَّيۡدِ﴾، ثمّ جاء قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحِلُّواْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾، ثمّ ﴿حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةُ﴾، وهذا أسلوب تربويّ تعليميّ في سنّ القوانين والتّشريعات: مفاده التَّدرّج في صيغة المنع؛ مجاراة للطّبيعة الإنسانيّة الّتي تتمرّد على منعها ممّا تعوّدته، وقد قيل: (كلّ ممنوع مرغوب)، وقيل: (لكلّ امرئ من دهره ما تعوّدا)، فتحتاج النّفس البشريّة، إلى التّرفُّق والتّدرّج في صيغ المنع، وهو مسلك تربويّ حكيم.

ثمّ إنّ نفي التّحليل في قوله: ﴿غَيۡرَ مُحِلِّي ٱلصَّيۡدِ﴾، وقوله: ﴿لَا تُحِلُّواْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾، وإن كان فيه ترفّق وتلطّف في المنع والتّحريم، فإنّه يفيد من جهة أخرى، أنّه ليس لأحد أن يحلّل أو يحرّم من نفسه، وأن يعلم أنّ المشرّع هو الله ﷻ عن طريق الوحي، وهو أرحم بعباده من الأمّ بولدها.

(1) الجَصَّاص، أحكام القرآن: 2/321.

جملة التَّذييل لتعليل الحكم، بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ مَا يُرِيدُ﴾:

الله حكيمٌ فيما شـرّع وأبـان، لا يعترض على حكمته إنسٌ ولا جانٌّ

قال ابن عبّاس في قوله تعالى﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ مَا يُرِيدُ﴾: يُحِلُّ ويُحَرِّمُ، وقِيلَ: يحكم فيما خلق بما يريد على الإطلاق، وهذه الجملة جاءَت مُقوِّيةً لهذه الأحكام الشَّرعيّة المخالفة لمعهود أحكام العرب، مِنَ الأمر بإيفاء العقود، وتحليل بهيمة الأنعام، وما ورد من أحكام، آخرها استثناء الصَّيد في حالة الإحرام، وتضمُّن ذلك حلَّه لغير المُحرم، ثمّ ختْمها بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ مَا يُرِيدُ﴾، فموجب الحكم والتَّكليف، ومناط الهدى والتّنزيل، هو إرادة اللّه الجليل، وهو تعالى لا اعتراض على أمره، ولا مُعقِّبَ لحكمه[1].

التّعبير بإيجاز القِصَرِ البليغ، عن أحكام خمسة وردت في السّياق:

مـن خصائص القرآن الإيجاز، المفضي إلى تأكيد مافيه من إعجاز

جاءَتِ الآية الكريمة في سياق إيجاز القِصَر، فعبَّرت عنِ المعاني الكثيرة بألفاظ قليلة، من غير حذف، في مستوى منَ الإيجاز المعجز، وبيان ذلك أنّها اشتملت على خمسة أحكام في آية واحدة: الأوّل: الأمر بالوفاء بالعقود، وذلك في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ﴾، والثّاني: تحليل بهيمة الأنعام، وذلك في قوله: ﴿أُحِلَّتۡ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلۡأَنۡعَٰمِ﴾، والثّالث: استثناء بعض الأنواع إجمالاً ممّا أتى تفصيله في الآية الّتي تليها في: ﴿إِلَّا مَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ﴾، والرّابع: استثناء حال الإحرام فيما يُصاد في ﴿غَيۡرَ مُحِلِّي ٱلصَّيۡدِ وَأَنتُمۡ حُرُمٌۗ﴾. الخامس: ما يُفهم منَ الآية الكريمة من إباحة الصّيد لمن ليس بمُحرِم[2].

(1) أبو حيَّان، البحر المحيط: 3/418، والقُرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 6/36.
(2) ابن عطيَّة، المحرّر الوجيز، ص: 506.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحِلُّواْ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهۡرَ ٱلۡحَرَامَ وَلَا ٱلۡهَدۡىَ وَلَا ٱلۡقَلَـٰٓئِدَ وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلۡبَيۡتَ ٱلۡحَرَامَ يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّن رَّبِّهِمۡ وَرِضۡوَٰنٗاۚ وَإِذَا حَلَلۡتُمۡ فَٱصۡطَادُواْۚ وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ أَن صَدُّوكُمۡ عَنِ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ أَن تَعۡتَدُواْۘ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ٢﴾ [المائدة: 2]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبلَها:

المناسبة بين تحريم صيد المحرم، وبيان بعض أحكام المحرم والمتحلّل

في الآية السّابقة استثناء لبعض ما أحلَّ سبحانه على سبيل الإبهام، وفي هذه بيان لِما أُجمِلَ، قال صاحب نظم الدُّرر: "ولمّا استثنى بعضَ ما أحلَّ على سبيل الإبهام؛ شرع في بيانه؛ ولمّا كان منه ما نهى عنِ التَّعرُّض له لا مُطلَقًا، بل ما يَبلُغُ محلَّه، بدأ به؛ لكونه في ذلك كالصَّيد؛ وقدَّم على ذلك عموم النَّهي عنِ انتهاك معالم الحجّ المُنبَّه عليه بالإحرام، أو عن كلِّ مُحرَّم في كلّ مكان وزمان؛ فقال - مكرِّرًا لندائهم؛ تنويهًا بشأنهم؛ وتنبيهًا لعزائمهم؛ وتذكيرًا لهم بما ألزموه أنفسهم"[1]، كما أنَّه لمّا بيَّن سبحانه "حُرمَةَ إحلال الحرَم الَّذي هو من شعائر الحجّ عقَّب - جلَّ شأنه - ببيان إحلال سائر الشَّعائر[2]، فالمناسبة بين الآيتين قويّة؛ لفظاً بإعادة النّداء ذاته، ومضموناً بالتّشريع المشتمل على الحلال والحرام، لقضيّة مشتركة بين الآيتين.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿شَعَـٰٓئِرَ﴾: الشَّعائر مفردها: شعيرة، وهي فعيلة بمعنى مُفعَلَة،

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 6/7 - 8.
(2) الآلوسّي، روح المعاني: 6/48.

والمُشعَرة: المُعلَمة، وكلُّ شيء أُعلِم فقد أُشعِر، و كلّ شيء جعل علمًا على شيء، أو أُعلم بعلامة، جاز أن يسمّى شعيرة، وشعائر اللّه مناسك الحجّ، أي: علاماته، والشّعيرة من شعائر الحجّ، وهو أعمال الحجّ من السعي والطَّواف والذبائح، كل ذلك شعائر الحجّ[1]، والبَدَنَةُ التي تُهْدَى إلى بيت اللّه تسمّى شعائر؛ لأنّها مُشعَرةٌ بالدّم، ومنه قول الكميت:

نُقَتِّلُهُمْ جِيلًا فَجِيلًا تَرَاهُمُ *** شَعَائِرَ قُربانٍ بِهِمْ يُتَقَرَّبُ[2].

والشَّعائر: هي ما جُعِل شِعارًا وعَلَمًا للنُّسك، مِن مواقف الحجّ ومرامي الجمار، والمطاف، والمَسعى، والأفعال الّتي هي علامات الحجّ يعرف بها منَ الإحرام، والطّواف، والسّعي، والحَلق، والنَّحر، وعموما "شعائر اللّه متعبّداته، واحدتها شعارة ويقال شعيرة، وإنّما هي إعلام لطاعته"[3].

2) ﴿ٱلشَّهۡرَ ٱلۡحَرَامَ﴾: "الشَّهر الحرام، هو الشَّهرُ الَّذي كانَتِ العرب تُعَظِّمه، وتُحَرِّمُ القتال فيه، قال تعالى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثۡنَا عَشَرَ شَهۡرٗا فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوۡمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ مِنۡهَآ أَرۡبَعَةٌ حُرُمٞۚ﴾ [التّوبة: 36]، فقِيلَ: هي ذو القعدة وذو الحجَّة والمحَرَّمُ ورجبٌ، فقوله: ﴿وَلَا ٱلشَّهۡرَ ٱلۡحَرَامَ﴾ يجوز أن يكون إشارةً إلى جميع هذه الأشهر، كما يُطلَق اسم الواحد على الجنس، ويجوز أن يكون المراد هو رجبٌ؛ لأنَّه أكمل الأشهر الأربعة في هذه الصّفة"[4].

3) ﴿ٱلۡهَدۡيَ﴾: أصله الهدىّ مشدّد، من هديت الهَدْيَ أهديه، فهو هديّ، ثمّ خفّف..و الهدي يكون من الإبل والبقر والغنم[5]، وقال ثعلب: الهَدْي، بالتّخفيف، لغة أهل الحجاز، والهديّ، بالتثقيل، لغة بني تميم، وقد قرئ بالوجهين جميعًا (حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ)[6]، والهَديُ ما أُهدِيَ إلى بيت اللّه، مفردها: هَديَةٌ، وهَدِيَّةٌ، وجمعها هَدِيٌّ. قال الفرزدق:

حَلَفْتُ بربّ مَكَّةَ وَالمُصَلّى *** وَأَعْنَاقِ الهَدِيِّ مُقَلَّدَاتِ[7].

(1) الخليل، العين: 1/251.
(2) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة: (شعر)، والواحديّ، البسيط: 7/222.
(3) الأزهري، الزّاهر في غريب ألفاظ الشّافعي، ص: 121.
(4) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 11/128، و11/129.
(5) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 11/128، و11/129.
(6) ابن سيده، المحكم: 11/128 - 129.
(7) البيت للفرزدق من ديوانه، ص: 108، وينظر كذلك الواحديّ، البسيط: 7/222.

4) ﴿ٱلْقَلَٰٓئِدَ﴾: القلائد جمع قلادةٍ، وهي ما جُعِل في العُنُق سواء عنق إنسان، أم بَدَنَة أمْ كَلب[1] والمراد بها هنا: الهدايا المُقلَّدة الّتي تُهدَى إلى البيت الحرام، قَالَ الزَّجَّاجُ: "كانُوا يُقَلِّدونَ الإبلَ بِلِحَاءِ شَجَرِ الحَرَم، ويَعْتَصِمُون بذلك من أعدائهم، وَكَانَ المُشْرِكُون يَفعَلُون ذلك، فأُمِرَ المُسْلِمُونَ بأَن لَا يُحِلُّوا هذه الأَشياءَ الَّتِي يَتَقَرَّب بهَا المُشْرِكون إِلى اللّه تَعَالَى، ثمَّ نُسِخَ ذلك"[2].

5) ﴿ءَآمِّينَ﴾: أَمَّ، يَؤُمّ، اؤْمُمْ، فهو آمّ وإمام، والمفعول مَأْموم، قاصدين البيت الحرام[3]، والآمُّ هُوَ القاصد، وَمِنْه قَوْله تَعَالَى: ﴿وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ﴾[4].

6) ﴿وَرِضْوَٰنًا﴾: رَضِيَ يَرضَى رِضًا، فهو راضٍ و مَرضِيٌّ ومَرضُوٌّ، ومَفعولُه مَرضِيٌّ عنه. وأصل الكلمة يدلُّ على خلاف السُّخط. ورضا العبد عنِ اللّه: أن لا يكره ما يجري به قضاؤه، ورضا اللّه عنِ العبد: هو أن يراه مُؤتمرًا لأمره، ومنتهيًا عن نهيه[5].

7) ﴿حَلَلْتُمْ﴾: أي: منَ الإحرام، وحَلَّ من إحرامِه يَحِلُّ حِلاًّ وأَحَلَّ: خرج مِنْهُ وَفِي التَّنْزِيل: ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَٱصْطَادُوا۟﴾، وَقَالَ زُهَيْر:

جَعَلْنَ القَنانَ عَن يمينٍ وحَزْنَهُ *** وَكَمْ بالقَنانِ مِنْ مُحِلٍّ ومُحْرِم[6].

وأصل الحَلّ: حَلّ العُقدة، ومنه قوله ﷻ: ﴿وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴿٢٧﴾﴾ [طه: 27]. وحلَّ الدَّينُ: وَجَبَ. والحِلُّ ما جاوز الحرم. ورجل مُحِلٌّ منَ الإحلال، ومُحرِمٌ منَ الإحرام[7]، حلَّتِ المرأةُ: خرجت من عدّتها، حلَّ المُحرِمُ: جاز له ما كان ممنوعًا أثناء إحرامه، خرج من إحرامه[8].

8) ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ﴾: لا يَحمِلَنَّكُم، وجَرَمَ فلانٌ: أذنَب، وارتكب الإثم، وأجرم عليهم وإليهم جريمة: جنى جِناية. وجَرَمَ الرَّجلَ: حَمَّلَه جُرمًا. والمعنى هنا: لا يَحمِلَنَّكم بُغضُ

(1) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة: (قلد).
(2) الزّبيديّ، تاج العروس: (قلد).
(3) أحمد مختار، معجم اللّغة العربيّة المعاصرة: (أمم).
(4) الزَّبيديّ، تاج العروس: (أمم).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (رضي).
(6) ابن سيده، المخصّص: (بَاب فَعَلْت وأَفْعَلت): 4/339.
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (حلّ).
(8) أحمد مختار، معجم اللّغة العربيّة المعاصرة: (حلل).

قوم على ترك العدل ﴿شَنَـَٔانُ﴾: أي: بُغضُ، يُقال: شَنِئت الرَّجُل أشنؤه شنأً، وشنآنًا، وشُنأً، ومشنأةً، إذا أبغضتَه،

9) ﴿تَعۡتَدُواْۚ﴾: الاعتداء: مجاوزة الحدِّ، والظُّلمُ، وأَصل المادَّة يدور حول التَّجاوز، وعدا عليه عَدواً وعَداءً وتَعَدَّى واعتَدَى، كُلّه: ظَلَمه. والعَداءُ: الظُّلم وتجاوز الحدّ.. وعدا الأَمرَ يَعدُوه وتَعَدَّاه: تجاوزه، والتَّعدّي: مجاوزة الشَّيء إلى غيره، يُقالُ: عَدَّيتُه فتَعَدَّى، أَي: تجاوز. وقد قالتِ العرب: اعتدى فلانٌ عنِ الحقِّ، واعتدى فوق الحقّ، كأنّ معناه: جاز عنِ الحقّ إلى الظُّلم، وعدَّى عنِ الأَمر: جازه إلى غيره وتركه[1].

10) ﴿ٱلۡإِثۡمِ﴾: الإثم: الذَّنبُ. يُقال: أَثِمَ يَأثَمُ إِثمًا وأثامًا فهو آثِمٌ وأَثيمٌ وأَثِمٌ وأَثومٌ، أي: محتملٌ للآثام. وقولهم: تَأَثَّم، أي: خرج منَ الإثم، فتفعَّلَ للسَّلب كتحرَّج وتحنَّث وتحوَّب، أي: خرج منَ الحرج والحنث والحوب[2]، "وأَثَمَهُ اللّه في كذا يَأْثُمُهُ ويَأْثِمُهُ، أي عَدَّه عليه إثماً، فهو مَأْثُومٌ. وأنشد الفرّاء:

فَهَلْ يَأْثُمَنِّي اللّه فِي أَنْ ذَكَرْتُها *** وعَلَّلْتُ أَصْحَابِي بِهَا لَيْلَةَ النَّفْرِ[3].

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

التّحذير من استباحة الشعائر والاعتداء، والدّعوة إلى التّعاون والتّقوى

ينادي اللّه الّذين آمنوا باللّه وصدقّوا رسوله، أن اعملوا بمقتضى إيمانكم، فلا تتعدُّواْ حدود اللّه، ولا تستحلّوا حرماته، ولا تبادروا إلى القتال في الأشهر الحُرم، ولا إلى الاعتداء على هدي الأنعام الموجّه للبيت الحرام، ولا تستحلّوا قتال من قصدواْ البيت الحرام ابتغاء رضوان اللّه ورحمته، وأمّا الحجّاج والمعتمرون، فليحاذر أحدهم الصّيد وهو مُحْرِم، و إذا تحلّل فلا حرج عليه، كما حذّر السّياق من مقابلة سيّئة الاعتداء بمثلها، وحثّ على العَدل مع النّفس والغير، والتّعاون بين المؤمنين، والالتزام بتقوى اللّه ربّ العالمين، لأنَّه شديد العقاب لمَن عصى أوامره، وارتكب نواهيه.

(1) ابن منظور، لسان العرب: (عدا).
(2) السَّمين، عمدة الحفَّاظ: (أثم).
(3) الجوهريّ: الصّحاح: (أثم).

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

سرّ تكرار عبارة النّداء بقوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ في هذه الآية وسابقتها:

لقد "أُعيد الخطاب بالنّداء، بقوله ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، وتوجيه الخطاب إلى الَّذين آمنواْ، في الآية الأولى، ليلتزمواْ" بِالوَفَاءِ بِمَا عَقَدُوهُ، وَارْتَبَطُوا بِهِ مِنْ قَوْلٍ أَوْ فِعْلٍ كَمَا أَمَرَ اللّه تَعَالَى "[1]، وفي الآية الثّانية، كرّر نفس النّداء الموجّه للمؤمنين، داعيا إيّاهم عدم اسْتباحة حُرْمَة شَعَائِرِ اللّه، ونبذ الإعتداء والثّأر والصّدّ عن المسجد الحرام، وما يتعلّق به من الممنوعات الّتي تُكسِب اللّعنة والآثام، ومع أنَّ الّذين آمنواْ، لا يُظَنُّ بهم إحلالُ المُحرَّمات، يدلُّ على أنَّ المقصود النَّهيُ عنِ الاعتداء على الشَّعائر الإلهيَّة الَّتي يأتيها المشركون كما يأتيها المسلمون"[2]، في ذلك الأوان.

النّداء يؤدّي في كلّ سياق مكرّر ما يطلبه الله من المنادى

إضافة الشّعائر إلى لفظ الجلالة للتّشريف، في قوله تعالى﴿شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾:

أُضيفتِ الشّعائر إلى لفظ الجلالة (اللّه)، في قوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحِلُّواْ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾؛ لتشريفها، وللتَّهويل من إحلالها واستباحتها، "وإحلالها أن يُتهاون بحرمتها، ويُحالُ بينها وبين المُتَنَسِّكين بها"[3]، وفي هذا المضمار قال ابن عبّاس (رضي الله عنهما): ﴿شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾: "مناسك الحجّ"؛ وكان المشركون يحجُّون، ويعتمرون، ويهدون، وينحرون، ويُعظِّمون مشاعر الحجّ، فأراد المسلمون أن يُغيرُواْ عليهم، فقال اللّه تعالى: ﴿لَا تُحِلُّواْ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾؛ ولا تُحِلُّوا الشَّهر الحرام بالقتال فيه، وعَبَّر هنا عن الأشهر الحرم بالمفرد؛ لإرادة الجنس، أي: جنس الأشهر، والمعنى: لا تستحلُّوها للقتال ولا للغارة، ولا تبدّلوها وفق أهوائكم[4]، إلّا في حالة الاعتداء في الأشهر

التّعبير عنِ الأشهر الحرم بالمفرد؛ لإرادة جنس الأشهر

(1) الجوهريّ: الصّحاح: (أثم).
(2) ابن عطيَّة، المحرّر الوجيز، ص: 506، وابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/83.
(3) أبو السّعود، إرشاد العَقْل السّليم: 3/3.
(4) القُرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 6/38.

الحرم، فيكون الرّد ﴿ٱلشَّهۡرُ ٱلۡحَرَامُ بِٱلشَّهۡرِ ٱلۡحَرَامِ وَٱلۡحُرُمَٰتُ قِصَاصٞۚ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ بِمِثۡلِ مَا ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡۚ﴾ [البقرة: 194]، ولا يزال الخطاب بهذه الآية، ممتدًّا عبر الزّمان والعصور لكلّ مَن تُسوّل له نفسه التّعرّض بأذى لقاصدي بيت اللّه الحرام.

الاستعارة ودلالتها في قوله تعالى: ﴿لَا تُحِلُّواْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾:

استعار السّياق لفظ ﴿تُحِلُّواْ﴾، حيث جعل شعائر اللّه كالشّيء المربوط الذّي يحلّ، وحذف المشبّه به، وجاء بشيء من لوازمه، وهي ﴿تُحِلُّواْ﴾، والحلّ هو حقيقة في الأجسام لانتهاك حرماتها، عَن ابْن عَبَّاس في قَوْله ﴿لَا تُحِلُّواْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾ قَالَ: "كَانَ الْمُشْرِكُونَ يحجّون الْبَيْت الْحَرَام، ويهدون الْهَدَايَا ويعظمون حُرْمَة المشاعر وينحرون في حجّهم، فَأَرَادَ الْمُسلمُونَ أَن يُغيرُوا عَلَيْهِم فَقَالَ اللّه ﴿لَا تُحِلُّواْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾، وَفِي قَوْله ﴿وَلَا ٱلشَّهۡرَ ٱلۡحَرَامَ﴾ يَعْنِي لا تستحلّوا قتالاً فِيهِ"[1].

لا حـــرب فـــي الحـجّ، احتراما لشعائر الله

دلالة المجاز المرسل في قوله تعالى: ﴿وَلَا ٱلشَّهۡرَ ٱلۡحَرَامَ﴾:

يلاحظ هنا مجاز مرسل في قوله تعالى: ﴿وَلَا ٱلشَّهۡرَ ٱلۡحَرَامَ﴾، ذلك أنّ المراد هو القتال، وقد أطلق المحلّ، والمراد هو الحالّ، والشّهر الحرام اسم للجنس، والمعنى: "كذلك الشهرُ الحرام ... لا تنتهكوا حرمة هذه الأشهر، وهي: ذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم، ورجب، فلا تحاربوا فيها"[2].

الشّهر الحرام ظـرف لـلأمـان الـعـامّ، فيُنهى عـــن انـتـهـاك حرمته

سرُّ تخصيص قوله ﴿وَلَا ٱلۡهَدۡيَ﴾ بالذّكر في الآية الكريمة:

والمقصود بالهَدي في قوله: ﴿وَلَا ٱلۡهَدۡيَ﴾ ما يُهدَى إلى البيت الحرام مِن ناقة أو بقرة أو شاة؛ لِينتفع بها مساكين الحرم، وخصّ الهدي بالذّكر مع دخوله في الشّعائر؛ وذلك في قوله تعالى: ﴿وَلَا

(1) االسّيوطيّ، الدّرّ المنثور: 3/7.
(2) القطّان، تيسير التّفسير، ص: 374.

المقصود بالهدي ما يُهدَى إلى البيت الحرام من الأنعام

﴿ٱلْهَدْىَ وَلَا ٱلْقَلَٰٓئِدَ﴾ من ذكر الخاصّ بعد العامّ تشريفًا لها واعتناء بها؛ لأنّ في الهَدي نفعًا للنَّاس، وهو من أعظم الشّعائر، حيث إنَّ فيه بذلًا بما تَضِنُّ النَّفسُ به[1]، والقلائد خاصّة لها أهميّة؛ لكونها معلَّمة ظاهرة، وهي مرتبطة بما يقدّم إلى اللّه العظيم.

التّخصيص بعد التّعميم، في قوله: ﴿وَلَا ٱلْهَدْىَ وَلَا ٱلْقَلَٰٓئِدَ﴾:

ورود القلائد معطوفًا على الهَدي، زيادة في تعظيمه

وخُصَّتِ القلائد بالذِّكر، فقوله ﴿وَلَا ٱلْقَلَٰٓئِدَ﴾، أي ذوات القلائد، والمعنى" ولا تنزعوا القلائد، وهى العلامات التّى توضع في الأعناق، إشعارًا بقصد البيت الحرام، وأنّها ستكون ذبيحة في الحجّ"[2]، وقد سمّي الهَدي باسم ما يُعَلّم به من تسمية الشّيء باسم مَحَلّه، على سبيل المجاز المُرسَل؛ وذلك للتّنبيه على أهمّيّة ذلك الجزء (القلائد) في الدّلالة على حرمته؛ لأنّه مسوق لفقراء الحرم، فيكون في هذه التّسمية تشنيع على من يَتعرّض لها بأذى أو سلب ونهب.وقد قيل بأنّه كناية عنِ الهَدْي المقلَّد أو المعلَّم من غلبة الصّفة على الموصوف فصارت كناية عنه، فكأنّ الهَدي ذُكر مرّتين: الأوّلى باسمه الصّريح الحقيقيّ، والثّانية بصفته على سبيل المجاز أو الكناية[3]، والكناية أظهر وأقوى؛ لأنّها دعوى مقرونة بالدّليل، أي أنّه هدي بدليل اقترانه بعلامة أو قلادة.

وحاصل هذا أنّ اللّه تعالى نهى عنِ استحلال الهدي جملة، ثمّ نهى عنِ استحلال قلائدها زيادة تأكيد ومبالغة في التّنبيه على

(1) الآلوسّي، روح المعاني: 6/38.

(2) لجنة من علماء الأزهر، المنتخب في تفسير القرآن الكريم، ص: 144.

(3) المجاز المُرسَل: هو الكلام المستعمل في غير المعنى الذي وضع له، لعلاقة غير المشابهة: مع قرينة مانعة من إرادة معناه الوضعي. ينظر: الهاشمي، جواهر البلاغة: 1/274، وعلاقة المحليّة كما في ﴿ٱلْقَلَٰٓئِدَ﴾، حيث ذكرها، وقُصد محلّها، والمكان الّذي وُضعَت فيه، وهو الهدي، وأمّا "الكناية هي ترك التصريح بذكر الشّيء على ما ذكر ما يلزمه لينتقل من المذكور على المتروك، كما نقول: (فلان طويل النّجاد)، لينتقل منه على ما هو ملزوم وهو طول القامة، ينظر: السكاكي، مفتاح العلوم، ص: 402، و(القلائد) كناية عن موصوف، هو الهدي، وإرادة المجاز المُرسَل يجعل القلائد وسيلة إبانة للمقصود الأهمّ، وهو الهدي، وإرادة الكناية يجعل القلائد هي المقصود الأهمّ، وهذا هو الأنسب للتّخصيص بعد التّعميم، أي: ذكر القلائد بعد الهدي.

حرمة التّعرّض للهدي، وهي البُدن، بأذًى، فإذا نهى عنِ التّعرّض لمجرَّد قلائد الهَدي الّتي تُعَلَّم به من نِعَال أو لحاء شجر أو غيرهما، فالنَّهي عنِ التَّعَرُّض لذواتها من باب أولى، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا يُبۡدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾ [النّور: 31]، فإذا كان اللّه تعالى نهى النّساء عن إبداء زينتهنّ، فُهِمَ قطعًا النّهي عن محلّ تلك الزّينة، فالنَّهي جاء بالأسلوب الكنائيّ المُصَوِّر، والمؤكِّد للمعنى المراد، وهو: ولا تُحِلُّوا قلائدها فضلًا أن تُحِلُّوها[1].

دلالة المجاز المرسل في قوله تعالى: ﴿وَلَا ٱلۡقَلَٰٓئِدَ﴾:

تخصيص الهدي بالقلائد، جزء من تعظيم الآمر به

يلاحظ هنا أيضا، كما في الشّهر الحرام، مجاز مرسلٌ في قوله تعالى: ﴿وَلَا ٱلۡقَلَٰٓئِدَ﴾، ذلك أنّ المراد هو الهدايا، وقد أطلق الحالُّ، والمراد هوالمحلّ، وهو عكس سابقه في موضعه، والقلائد "فيها ثلاثة أقاويل: أنّها قلائد الهدْي، وهو قول ابن عبّاس، وكان يرى أنّه إذا قلّد هديه، صار مُحرِماً. والثّاني: أنّها قلائد من لحاء الشّجر، كان المشركون إذا أرادوا الحجّ قلّدوها في ذهابهم إلى مكّة، وعَوْدهم ليأمنواْ، وهذا قول قتادة. والثّالث: أنّ المشركين كانواْ يأخذون لحاء الشجر من الحرم إذا أرادوا الخروج منه، فيتقلدونه ليأمنواْ، فَنُهواْ أن ينزعوا شجر الحرم فيتقلّدوه، وهذا قول عطاء"[2].

قوله: ﴿وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلۡبَيۡتَ ٱلۡحَرَامَ﴾، دون أن يقول: ولا آمِّينَ مَكَّةَ ؟

حكمة النّهي عن منع الكفّار من قصد البيت الحرام، ثمّ نسخه

وجاء قوله تعالى: ﴿وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلۡبَيۡتَ ٱلۡحَرَامَ﴾ عطفًا على قوله: ﴿شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾، والتّقدير: (ولا تَحِلُّوا قاصدي البيت الحرام) والمقصودالحجّاج، فالمراد قاصدوه لِحَجِّهِ؛ لأنَّ البيت لا يُقصدُ إلّا للحجّ، ولذلك لم يَقل: ولا آمِّينَ مكَّة؛ لأنَّ مَن قَصدَ مكَّةَ قد يَقصِدُها لتجارة ونحوها، فدلّ ذِكْرُ البيت الحرام على قصد الحجّ، ومِن جملة

(1) النَّسفيّ، مدارك التّنزيل، ص: 269.
(2) الماوردي، النّكت والعيون: 2/7.

حُرمَةِ البيت حُرمَة قاصده، والمراد هنا المشركون القاصدون البيت الحرام للحجّ؛ لأنَّ آمِّينَ البيت منَ المؤمنين مُحرَّمٌ أذاهم في حالة قصد البيت وغيرها منَ الأحوال[1]، وقد كان المؤمنون والمشركون يَحُجُّون البيت الحرام، فنهى الله تعالى المؤمنين أن يمنعوا أحدًا منَ الكفّار من حجِّ البيت أو التَّعرُّض له، ثمّ نُسِخَ هذا الحُكم بقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُشۡرِكُونَ نَجَسٞ فَلَا يَقۡرَبُواْ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ بَعۡدَ عَامِهِمۡ هَٰذَاۚ﴾ [التّوبة: 28]، وقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلۡمُشۡرِكِينَ أَن يَعۡمُرُواْ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلۡكُفۡرِۚ﴾ [التّوبة: 17]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعۡمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾ [التّوبة: 18]، فنفى سبحانه المشركين منَ المسجد الحرام[2].

الجملة الحاليَّة، وبيان صفة القوم المُوصَى بعدم إيذائهم:

جاء قوله: ﴿يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّن رَّبِّهِمۡ وَرِضۡوَٰنٗاۚ﴾ جملة حاليّة، أو صفة؛ لبيان علَّة النَّهي عنِ التَّعرُّض للحجَّاج بسوء، ولو كانوا مشركين، فقد نهى تعالى أن يُتَعَرَّضَ لقوم هذه صفتهم أو هذا حالهم؛ استنكارًا أن يُتعرَّض لمثلهم. ووجه النَّهيِ عنِ التَّعرُّض للحجيج بسوءٍ، وإن كانوا مشركين؛ لأنَّه تكثر تلاوة القرآن الكريم في تلك المواسم، فيسمعون القرآن، وتقوم عليهم الحجَّة، ولأنَّ الحالة الَّتي قصدوا فيها الحجَّ، وتلبَّسوا عندها بالإحرام، حالة خير، وقرب منَ الإيمان بالله، وتذكُّر نعمه، فيجب أن يعانواْ على الاستكثار منها؛ لأنَّ الخير يتسرَّب إلى النَّفس رويدًا، كما أنَّ الشَّرَّ يتسرَّب إليها كذلك، ولذلك سيجيء عَقِبَ هذه الآية، قوله: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ﴾[3].

ما كان من الآية في حقّ مُسلمٍ فهو مُحكَمٌ، و ما في حقّ كافرٍ فهو منسوخ

معنى الفضل المبتغى، وسرّ تنكيره، في قوله ﴿يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّن رَّبِّهِمۡ﴾:

الفضل هو خير الدّنيا، وخير الدّنيا يحتمل أن يكون صلاح العمل،

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 4/85.
(2) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 5/16.
(3) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/85.

طلب الرّزق لا ينافي أداء الشّعائر، والقرب من الله بهما معًا

ويحتمل أن يكون الرّزق والرّبح في التّجارة، واستبعد ابن عاشور الاحتمال الثّاني إلّا إذا أُريد به تمكينهم من إبلاغ السّلع إلى مكّة[1]، يعني أن يكون القصد أساسًا هو الرّبح، ويفصل في هذا قوله تعالى في أثناء الكلام عنِ الحجّ في سياق آخر: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُواْ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [البقرة: 198]، ومعناه كما ورد في التّفسير الميسّر: "ليس عليكم حرج في أن تطلبواْ رزقًا من ربّكم، بالرّبح في التّجارة في أيام الحجّ"، وأكثر المفسّرين على هذا المعنى.

دلالة الرّضوان في قول الرّحمن: ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَانًا﴾:

مَن قَصَد باب الله تعالى وفضله المكنون، لا يخيب ولا يهون

وفي التّعبير بوصف الرّضوان إشارة إلى تشريفهم، والإشعار بحصول مُبتغاهم، وللإشارة إلى إحسانه تعالى إليهم؛ لأنَّ مَن قصد بابه تعالى كان مُحترَمًا باحترام ما قصده، والسِّرُّ فيه تأكيد النَّهي والمبالغة في استنكار المنهيّ عنه[2]، قال ابن عبّاس (رضي الله عنهما) في تأويل معنى هذه الجملة: يعني: أنّهم يترضُّون اللّه بحجّهم، وقال بعض العلماء: إنَّ المشركين كانواْ يقصدون بحجّهم ابتغاء رضوان اللّه، وإن كانواْ لا ينالون ذلك، ففير بعيد أن يثبت لهم بذلك القصد نوع منَ الحُرمة، وقال بعض أهل المعاني: معنى قوله ﴿وَرِضْوَانًا﴾، أي: على زعمهم وفيما يظنّون؛ لأنّ الكافر لا ينال الرّضوان، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ﴾ [طه: 97]، وقوله تعالى: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ۝٤٩﴾ [الدّخان: 49]؛ وذلك على حكاية قولهم: نطلب الرّضوان[3]، وأكثر أهل العلم ومنهم ابن عبّاس والحسن ومجاهد وقتادة، على أنّ هذه الآية نُسِخَت بقوله تعالى: ﴿فَٱقْتُلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ [التّوبة: 5]، وقوله تعالى: ﴿فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا﴾ [التّوبة: 28]، فلا يجوز أن يَحجّ مشرك، ولا يأمن الكافر بالأشهر الحرم

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/85.
(2) القاسميّ، محاسن التّأويل: 7/1804.
(3) الواحديّ، البسيط: 7/229.

والهَدي، والقلائد، والحجّ[1]، وهذا النّسخ هو الأرجح، لاستبعاد أن يكون هذا الأمر ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ﴾، قُصد به المشركون، والمرجّح أن يكون استئنافًا خُصّ به ﴿وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلۡبَيۡتَ ٱلۡحَرَامَ﴾ من المؤمنين؛ لحاجتهم فيما بينهم إلى هذا الحثّ، ولا سيّما أنّ الكلّ في الحجّ يكون مشغولًا بنفسه، ذاهلًا عن أصحاب الحاجات، وقد يؤثر نفسه على غيره، ولهذا جمع بين البرّ والتّقوى، والعبرة على كلّ حال بعموم اللّفظ، لا بخصوص السّبب.

سرُّ التّعبير بـ(إذا) دون (إن) في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا حَلَلۡتُمۡ فَٱصۡطَادُواْۚ﴾:

كان التّعبير بقوله: (إذا)؛ لأنَّ تحلُّل المُحرِم بعد قضاء المناسك، أمر مؤكّد الوقوع؛ لذا ناسبته أداة شرط تدلّ على تحقّق وقوع فعل الشّرط، وهي (إذا)، بخلاف (إنْ) الّتي تدلّ على الشّكّ في وقوع الفعل، وهذا لا يتناسب مع المعنى هنا، والارتباط بين التّحلل وإمكانيّة الاصطياد، مسألة حكميّة لها ظرف زمانيّ، حقّقه وجود الأداة الشرطيّة (إذا)، ببيان ووضوح.

العلاقة بين التّحلّل من الإحرام والاصطياد، متاحة في إطارها الزّماني

الغرض من الأمر في قوله: ﴿فَٱصۡطَادُواْۚ﴾، غايته التّيسير:

الغرض منَ الأمر في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا حَلَلۡتُمۡ فَٱصۡطَادُواْۚ﴾ الإباحة، وليس للوجوب؛ لأنَّ الصَّيد مُباحٌ أصلًا، ولكنّه يُحَرَّم تحريمًا مؤقّتًا بحالة التَّلَبُّس بالإحرام، فإذا انفكّ المُحرِم من تلك الحالة عاد الحُكم بالصّيد لأصله، وهو الإباحة بعد حظره لعارض، قال الزّجّاج: "قوله: ﴿وَإِذَا حَلَلۡتُمۡ فَٱصۡطَادُواْۚ﴾: هذا اللّفظ أمرٌ، ومعناه الإباحة، لأنّ اللّه (ﷻ) حرّم الصّيدَ على المحرم، وأباحَه لَهُ إذَا حَلَّ من إحْرامه، ليس أنّه واجب عليه إذا حَلَّ أن يصطاد، ومثله قوله: (فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ)[الجمعة: 10]، تأويله أنّه أبيح لكم بعد الفراغ من الصّلاة، ومثل

الأمر بالاصطياد بعد التّحلّل، للإباحة لا للوجوب؛

(1) أبو عبيدة، النّاسخ والمنسوخ، ص: 189، وابن جرير، جامع البيان: 6/60 - 61.

ذلك في الكلام: (لا تَدْخُلَنَ هذه الدّار حتى تُؤدّي ثمنها، فإذا أديت فَادْخُلْها)، تأويله: فإذا أدّيت فقد أُبيح لك دُخولها"[1].

جملة الشّرط متمّمة للجملة المنفيّة في الآية الأولى:

ملاحظة التّقابل مع التّناسب بين الآيتين، في حرمة الصّيد وحلّه

وجملة الشّرط في قوله﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَٱصْطَادُواْ﴾ تتمّة أو تأكيد للجملة المنفيّة في الآية الأولى ﴿غَيْرَ مُحِلِّي ٱلصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ﴾، ولهذا عدّ ابن عاشور ما بينهما اعتراضًا بين معنيين متّصلين[2]، ولم يتّصلِ الشّرط بالنّفي في الآية الأولى، فيقول مثلًا: ﴿غَيْرَ مُحِلِّي ٱلصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ﴾، ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَٱصْطَادُواْ﴾؛ ذلك لأنّ الجزء الأوّل منَ المعنى ﴿غَيْرَ مُحِلِّي ٱلصَّيْدِ﴾ حرام مستثنى من حلال قبله ﴿أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾، والجزء الثّاني: ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَٱصْطَادُواْ﴾ حلال مستثنى من حرام قبله ﴿لَا تُحِلُّواْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَلَا ٱلْهَدْيَ وَلَا ٱلْقَلَٰٓئِدَ﴾، ويترتّب على هذا نوع منَ التّقابل مع التّناسب والتّوازن بين الآيتين في الحلّ والحرمة، ثمّ إنّه لا يخفى على المتدبّر انضمام الجملة الشّرطيّة ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَٱصْطَادُواْ﴾ في المعنى للجملة المنفيّة ﴿غَيْرَ مُحِلِّي ٱلصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ﴾.

دلالة عطف جملة ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ﴾؛ على ﴿لَا تُحِلُّواْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾:

توجيه قراءتين

وجاء قوله تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ أَن تَعْتَدُواْ﴾ معطوفًا على قوله تعالى: ﴿لَا تُحِلُّواْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾؛ لزيادة تقرير مضمون النَّهي، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو ﴿إِن صَدُّوكُمْ﴾ بكسر الهمزة، على أنَّها شرطيَّة، والباقون بفتحها على أنَّها للتّعليل، وهذه القراءة تشير إلى صدّ المشركين المؤمنين عنِ العُمرة عام الحديبيّة، وتنتهي عنِ الاعتداء عليهم عام حجَّة الوداع

(1) الزّجاج، معاني القرآن وإعرابه: 2/143.
(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 81/6.

الّذي نزلَت فيه السّورة انتقامًا منهم لأجل اعتدائهم السّابق. والمعنى على هذه القراءة: لا يحملنَّكم بُغض قوم وعداوتهم على أن تعتدوا عليهم؛ لأنَّهم صدُّوكم عنِ المسجد الحرام، والمعنى على القراءة الثّانية: أنَّه لا يُباح للمسلمين أن يعتدوا على أعدائهم إن صدّوهم عنِ المسجد الحرام، والشّرط على معنى الماضي بتقدير الكون، أي: إن كانوا صدُّوكم عنِ المسجد الحرام[1]، وهذا التّوجيه يجعل القراءتين بمعنى واحد؛ وهو وقوع الصّدّ عنِ المسجد الحرام في الماضي، لكنّ الظّاهر أنّ قراءة الكسر - وهي قراءة سبعيّة صحيحة - تجعل (إن) شرطيّة، وتقلب الماضي على معنى الاستقبال، وقد جاء في مصحف عبدالله بن مسعود (إن يصدّوكم)[2]، فتكون قراءة فتح (أن) المصدريّة دالّة على ما قد وقع منَ الصّدّ عنِ المسجد الحرام، عام الحديبيّة، وقراءة الكسر على افتراض ما قد يقع منه مستقبلًا، وإن كان مستبعدًا حسبما تدلّ (إن)، لكن فيها إشارة إلى التّأكيد على حرمة بيت الله الحرام، وعدم قتال مَن يصدّ عنه؛ منعاً لإراقة الدّماء في بيت الله الحرام.

سرُّ الفصل بين النَّهيين، في: ﴿وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلۡبَيۡتَ﴾ ﴿وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ﴾:

بقاء حُرمة التَّعرُّض لسائر الآمِّين، ودلالته على تسامح المسلمين

كان الظّاهر أن يُقال: ﴿وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلۡبَيۡتَ ٱلۡحَرَامَ يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا﴾ ﴿وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ﴾، لكن جاء النَّظم القرآنيّ بتأخير قوله تعالى: ﴿وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ﴾ عن مُتعلِّقه في قوله تعالى: ﴿وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلۡبَيۡتَ ٱلۡحَرَامَ يَبۡتَغُونَ﴾، وذلك بالفصل بين النَّهيين بالشَّرط في قوله: ﴿وَإِذَا حَلَلۡتُمۡ فَٱصۡطَادُواْۚ﴾؛ لبيان أنَّ حُرمة الاعتداء باقية ما دام المذكورون - المشركون الصَّادُّون عن سبيل الله - متلبّسين بشعائر الحجّ أو العمرة، وأنّها لا تنفكّ منهم بزوال إحرامهم، كانتهاء حرمة الاصطياد عمّن انفكّ من إحرامه، وبذلك يُعلَمُ بقاء حُرمة التّعرّض لسائر الآمِّين بالطَّريق الأَوْلَى[3].

(1) رضا، تفسير المنار: 6/128.
(2) ابن خالويه، إعراب القراءات السّبع وعللها: 1/142.
(3) أبو السّعود، إرشاد العَقْل السّليم: 3/5.

إيثار التّعبير بلفظ (جَرَمَ) على (كَسَبَ) في قوله ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ﴾:

لا يحملنّكم بُغضُ كفّار الحديبيّة عنِ أن تعتدواْ عليهم

وأوثر التّعبير بالفعل (جَرَمَ) على الفعل (كَسَب) مع تشابههما في المعنى، وفي التَّعدِّي إلى مفعول واحد وإلى اثنين، حيث يُقالُ: جَرَمَ ذنبًا نحو كسبه، وجَرَمتُه ذنبًا، قطع لكسبه[1]، لذا كان في إيثار التّعبير بـ(جَرَمَ) زيادة تنفير منَ الاعتداء على قاصدي البيت منَ المشركين؛ تعظيمًا لشعائر اللّه، وليس مراعاة لذواتهم، وقوله: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾، أي: لأن صدّوكم، بإضمار لام التّعليل، والجملة عِلَّة للشّنآن، والمعنى: لا يحملنّكم بُغضَ كفّار مكّة يوم الحديبيّة عنِ المسجد الحرام أن تعتدواْ عليهم بالقتل، وأخذ المال؛ "لأنَّ هذه السّورة نزلَت بعد قصَّة الحديبية، فكانَ الصَّد قد تقدَّم"[2].

دلالة حذف الجار والمجرور والضّمير (عليهم) في قوله: ﴿أَن تَعْتَدُواْ﴾:

علّة منع الاعتداء، بالمحافظة على تعظيم الشّعائر،

وفي قوله: ﴿أَن تَعْتَدُواْ﴾ إيجاز بحذف الجارّ والمجرور والضّمير، والتّقدير: عليهم، وقد أومأ الحذف إلى أنّ العِلَّة الحقيقيّة مِن نهي المسلمين عنِ الاعتداء على المشركين الآمِّين البيت الحرام؛ إنَّما هي المحافظة على تعظيم الشَّعائر، لا مَنعُ وقوعه على المشركين مراعاةً لجانبهم.

علَّة النَّهي بقوله تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ﴾:

النَّهي عن أسباب الشّيء ومسالكه، نهيٌ عنه بالطّريق البرهانيّ

جاء النّهي هنا عنِ الاعتداء على أكمل وجه وأبلغه وآكده؛ فالنّهي وإن بدا في ظاهره أنّه نهي عن الشّنآن عن فعل الاعتداء على المُخاطَبين، أي: صدوره عنهم، لكنّه في الحقيقة نهيٌ لهم عنِ الاعتداء بأبلغ صورة عن طريق الكناية؛ لأنّ النّهي عن أسباب الشّيء ومباديه المؤدّية إليه، نهي عنه بالطّريق البرهانيّ، وتعطيل

(1) الآلوسّي، روح المعاني: 6/56.
(2) الخازن، لباب التّأويل: 1/433.

للسّبب، وقد يُوجَّه النّهي إلى المسبّب، ويُراد به النّهي عنِ السّبب، كما تقول لمخاطبك: (لا أسمعنّ صوتك ههنا)، تريد بهذا نهيه عن عدم الكلام[1]، والنَّهي في الآية هنا دليل دامغ على أنّ المقصود في قوله تعالى: ﴿وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلۡبَيۡتَ ٱلۡحَرَامَ﴾ هم المشركون.

إيثار الدّعوة لعدم الاعتداء، عن الدّعوة لكتمان البغض، مراعاة للمشاعر:

"إنّ اللّه تعالى لا يمنع مواجيد النّاس أو يكبت مشاعرهم ووجدانهم وضمائرهم وقلوبهم الّتي تنفعل بالبُغض والكُره؛ لأنّه يعلم أنّ ذلك ممّا لا يطيقه الإنسان؛ لأنّها أمور عاطفيّة، والعواطف لا يُقَنَّن لها بتشريع؛ لذا لم يقل سبحانه: (اكتموا بُغضكم)، لكنّه نهاهم عنِ الاعتداء، أي: لا يحملكم كرههم وبغضهم على أن تعتدوا عليهم. وعندما يسمع الكافر أنّ اللّه تعالى يوصي مَن آمن به على مَن كَفَر به، ماذا يكون موقفه؟ إنّه يلمس رحمة الرَّبّ، وفي ذلك لذع للكافر؛ لأنَّه لم يُؤمِن"[2].

العواطف لا يُقَنَّن لها بتشريع، فتراعى ظواهر الأعمال للعدل مع النّفس

علاقة جملة ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ﴾ بما قبلها:

جاء قوله: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾ تعليلًا للنَّهي في قوله: ﴿وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ﴾، وكان مقتضى الظّاهر أن تكون الجملة مفصولة، ولكنَّها عُطِفَت؛ "ترجيحًا لما تضمَّنته مِنَ التَّشريع على ما اقتضَته منَ التَّعليل، يعني: إنَّ واجبكم أن تتعاونوا بينكم على فعل البرّ والتَّقوى، وإذا كان هذا واجبهم فيما بينهم كان الشَّأن أن يُعِينوا على البرّ والتَّقوى؛ لأنَّ التَّعاون عليها يُكسِبُ محبَّة تحصيلها، فيصير تحصيلها رغبة لهم، فلا جرم أن يُعينوا عليها كلَّ ساعٍ إليها، ولو كان عدوًّا، والحجُّ برٌّ فأعينوا عليه وعلى التَّقوى، فهم وإن

ترجيحُ ما تضمَّنته الآية منَ التَّشريع، على ما اقتضته منَ التَّعليل

(1) أبو السّعود، إرشاد العَقْل السّليم: 3/5.
(2) الشّعراويّ، خواطر الشّعراويّ: 5/2903.

كانوا كفّارًا، يعاونون على ما هو برٌّ؛ لأنَّ البرَّ يهدي للتَّقوى، فلعلَّ تكرُّر فعله يُقرِّبهم منَ الإسلام، ولمّا كان الاعتداء على العدوّ، إنَّما يكون بتعاونهم عليه نُبِّهوا على أنَّ التَّعاون لا ينبغي أن يكون صدًّا عنِ المسجد الحرام"[1].

علاقة لفظ ﴿ٱلۡبِرِّ﴾ بلفظ ﴿وَٱلتَّقۡوَىٰۖ﴾ في التّعاون في مناسك الحجّ:

النّهي عن التّعاون على الإثم والعدوان، يقوّي الأمر به على البرّ والتّقوى

لا شكّ أنّ الحجّاج يكون فيهم الشّيخ الكبير، ويكون فيهم الضّعفاء وأصحاب العاهات، فيحتاجون إلى مَن يساندهم، ويتعاون معهم في قضاء حوائجهم، وهذا منَ التّعاون على البرّ، أمّا التّعاون على التّقوى، فيكون بأن ينصح بعضهم بعضًا، ويرشد بعضهم بعضًا للمناسك والمشاعر، وينهى بعضهم بعضًا عنِ المنكر، وعموم اللّفظ يجعله يتّسع لأكثر من هذا حتّى يشمل الحجّاج وغيرهم، في بلد اللّه الحرام، وفي غيرها منَ البلاد، ويؤيّده النّهي بعده، في قوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِۚ﴾ [المائدة: 2]، ويحسن الأخذ بمغزى عموم اللّفظ؛ وهو تربية المؤمنين على التّآزر والتّضامن والتّعاون، ونبذ العصبيّة والأنانيّة والكراهيّة الدّافعة للإثم والعدوان، وبهذا تسود المجتمع المسلم روح المحبّة والتّراحم والتّكافل.

سرُّ تقديم البرّ على التَّقوى، في قوله: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ﴾:

البرُّ أعمُّ مِنَ التَّقوى، ولذلك قدّم في سياق الآية الآنفة

قال القُشَيريّ: "البرُّ فعل ما أمِرت به، والتّقوى تَركُ ما زُجِرَت عنه. ويُقال: البرُّ: إيثار حظّه سبحانه، والتّقوى: تَركُ حظّك. ويُقال: البرُّ موافقة الشّرع، والتّقوى: مخالفة النَّفس"[2]، وقُدِّم البرُّ على التّقوى؛ لأنّ البرَّ يتناول الواجب والمندوب إليه، والتّقوى رعاية الواجب، فالبرُّ هنا أعمّ فقُدِّم[3].

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/88.
(2) القُشَيريّ، لطائف الإشارات: 1/398.
(3) ابن عطيّة، المُحرّر الوجيز، ص: 510.

كما أنَّ البرَّ فيه معنى الأمر والتّبشير، والتّقوى فيه معنى النَّهي والتّخويف؛ فقدّم البرّ لمعناه وتناسبه مع معنى التّعاون، ويُضاف أيضًا أنَّ لفظ البرّ فيه معنى الخير والفرح، والتّقوى فيه معنى الحذر والشِّدَّة، وتقديم البرّ أولى.

وأخيرا: أُخِّر لفظ التّقوى عنِ البرّ؛ ليتناسب مع النَّهي بعدها مباشرة، وهو ما يفهم من قوله تعالى: ﴿وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِۚ﴾.

بلاغة المقابلة في قوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِۚ﴾:

المقابلة من بديع البديع، وهي مؤثّرة في جلاء المعنى وجماله

إنّ الاعتداء والتّعاون على البرّ والتّقوى ضدّان، وعندما يُذْكَر أمر يَرِدُ على الخاطر ضدّه؛ ولذا أمر اللّه تعالى بالتّعاون على البرّ والتّقوى، بعد النّهي عن الاعتداء.

والتعاون على البرّ: معناه تبادل المعونة، ويكون في الخير بمد يد المعونة في الشّدائد، وكلّ يجود بما عنده لأخيه، وقد نهى سبحانه عن التّعاون على الإثم والعدوان، فنهى عن الإثم الّذي تكون مغبّته على صاحبه، أو تفسد قلبه، وعن العدوان على غيره"[1]، وكانت هذه المقابلة في غاية البيان والتّعبير عن المطلوب، أمرًا ونهيًا.

النُّكتة في تقديم الإثم على العدوان، مع كونهما معًا ضررًا ومفسدة:

تقديم التَّحلية على التَّخلية، منهج في التّربيّة والتّزكية

قُدِّمَ الإثم على العدوان؛ في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِۚ﴾، لعمومه، وشموله، ووقوعه في جانب ذات اللّه سبحانه، أمَّا الاعتداء فهو على الآخرين، فهو وإن كان أشدَّ حُرمة إلَّا أنّ مَن يمتنع عنِ الإثم والمعصية للّه فلن يرجعه عن ذلك شيء، والتّرتيب في الآية بحسب النّهي، منَ الأشدّ إلى الشّديد؛ ليناسب النّهي، قال الآلوسيّ: "وعن سهل أنّ الْبِرِّ الإيمان، وَالتَّقْوى السّنة، والْإِثْمِ الكفر،

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 4/2026.

وَالْعُدْوانِ البدعة"[1]، والإثم مقدّم لذلك؛ لأنّه الطّريق إلى العدوان، ومن تجرّأ على الله بالإثم كان تجرّؤه على النّاس بالعدوان، فنهى الله تعالى عن أوّل الطّريق وآخره، ثمّ إنّ الحديث في أوّل الآية عن مخالفة بين العبد وربّه، ثمّ انتقل الحديث إلى مخالفة بين النّاس وبعضهم، فناسب ذلك أن يقدّم الإثم على العدوان، ليؤكّد المعنى السّابق في الآية الكريمة.

وجه ارتباط التّذييل في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ بما قبله:

العدول عن المُضمَر إلى الظّاهر؛ لتربية المهابة وترسيّتها

وجه ارتباط التّذييل في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ بما قبله، فقد جاء تعليلًا لِما قبله منَ الأمر بالتّعاون على البرّ والتّقوى، والنّهي عنِ الإثم والعدوان، وأكّد هذا التّعليل بإنَّ واسميّة الجملة؛ لتوكيد مضمونه، وتقوية استقلال جملته، وفي هذه الجملة التّذييليّة قدرٌ كبير منَ التّحذير؛ لردع كلّ آثم متجاوز في حقّ الله، وفي حقوق العباد، وأُعيد لفظ الجلالة في ختام الآية الكريمة في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾، حيث كان منَ الظّاهر أن يُقال: واتّقوا الله إنّه شديد العقاب، من باب العدول عنِ المُضمَر إلى الظّاهر؛ لتربية المهابة في نفوس المؤمنين حثًّا لهم على الامتثال لأوامره سبحانه، واجتناب نواهيه.

من مشتبه النّظم[2]:

علّة اختصاص المائدة بإضافة اسم الرّبّ إليهم، في قوله: ﴿فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ﴾:

والسّؤال: لِمَ اختُصَّت سورة المائدة بإضافة اسم الرّبّ تعالى إليهم بخلاف السّورتين؟ والجواب: إنّ آية المائدة مَبنيَّة على تأنيسٍ وتقريبٍ واستلطافٍ، وقد تضمّن الوصف بالرّبوبيَّة في قوله: ﴿مِّن

(1) الآلوسّي، روح المعاني: 3/240.

(2) قال تعالى: ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَٰنًا﴾ [المائدة: 2]، وقال: ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا﴾ [الفتح: 29]، وقال: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا﴾ [الحشر: 8].

رَّبِّهِمۡ﴾ هذه المعاني الثّلاثة، وقد استفيد التّأنيس مِن افتتاح الآية الكريمة بالخطاب بوصف الإيمان، أمَّا آية الفتح فلم يُذكَر فيها تخويف مِن مُرتَكَب محظور، ولا بُنِيَت على ذلك، ولم يكن هناك داعٍ لما يستدعى التّأنيس كما في آية المائدة، وهذا مع أنّ المذكورين في آية الفتح أعظم الأمّة قَدرًا وأعلاهم مَنزِلة، وهم أهل المزيَّة والاختصاص، فلم تُبنَ الآية إلّا على مدحهم، وبيان مزيّتهم الّتي لا يدركها غيرهم، ولم يكن فيها تخويف، يدعو إلى تأنيس مَن خوطب بها، كما في آية المائدة، وعلى ذلك وردَت آية الحشر منَ الثّناء والمدحة، ولم يتخللها نهي ولا تخويف ولا ورود تفضيل بذكر مخالفي تلك الأحوال، فقال تعالى: ﴿لِلۡفُقَرَآءِ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ﴾ إلى قوله: ﴿يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ٨﴾ [الحشر: 8]، وبهذا يتّضح الوجه في ورود كلّ مَوضِع بما يناسبه، وإن عُكِس الوارد فيها لَنَبا به المقام والسّياق[1].

مِن متشابه النَّظْم[2]:

اشتراك الآيتين في الحثّ على مكارم الأخلاق، وافترقا في الأمر بترك الاعتداء

الآيتان المقصودتان، هما قوله تعالى: ﴿وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ أَن صَدُّوكُمۡ عَنِ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ أَن تَعۡتَدُواْۘ﴾ [المائدة: 2]، وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْۚ﴾[المائدة: 8]، فالملاحظ أنّ الآيتين اتفقتا على وصيّة المؤمنين، وحضّهم على مكارم الأخلاق، والعفو عمّن تَقَدَّمَت منه إساءة أكسبت بغضه، فاستوتِ الآيتان في أمر المؤمنين بمكارم الأخلاق، ثمّ اختلف تعليق ما حُذِّروا منه، فقيل في الآية الأولى: ﴿أَن تَعۡتَدُواْۘ﴾، وفي الآية الثّانية: ﴿عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْۚ﴾، والاعتداء أشدّ وأعظم من عدم العدل، فما السّرّ في حذف (على) منَ الآية الأولى، وإثباتها في الآية الثّانية ؟ ولماذا ذكر الاعتداء في الأولى، والعدل في الثّانية؟ وما مناسبة كلّ لسياقه؟ والجواب على ذلك: أنّ الآية الأولى ورد فيها الإفصاح عن علَّة البغضاء الحاملة

(1) ابن الزبير، ملاك التّأويل: 1/233 - 234.

(2) الآيتان المطلوبتان، هما قوله تعالى: ﴿وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ أَن صَدُّوكُمۡ عَنِ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ أَن تَعۡتَدُواْۘ﴾ [المائدة: 2]، وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْۚ﴾ [المائدة: 8].

على الرّغبة في الانتصار والانتقام، وهي صدّهم عنِ البيت عام الحديبيّة، وذلك قوله تعالى: ﴿أَن صَدُّوكُمْ﴾، أي: مِن أجل ﴿أَن صَدُّوكُمْ﴾، أي: مَنَعوكم، فـ﴿أَن﴾ هنا مصدريّة في موضع المفعول له، فلمّا وقع الإفصاح بسبب الشّنآن ناسب النَّظم الإفصاح بالعقوبة عليه، وهو الاعتداء بالانتقام، ومجازاة السَّيّئة بالسَّيّئة، لولا ما دعا سبحانه إليه منَ التَّخَلُّق الإيمانيّ المشروع للمؤمنين تقديمه واختياره، فقيل: ﴿أَن تَعْتَدُواْ﴾، أي: لا يحملنَّكم ذلك على أن تعتدوا، أي: على الاعتداء. ولمَّا لم يَرِد في الآية الثّانية إفصاح بجريمة، بل بُنِيَت على أَمر المؤمنين بالعدل، فقال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ﴾، فلمّا أُمروا بالعدل ناسب ذلك وصيّتهم، وأمرهم ألَّا يحملهم شيءٌ على ترك العدل الّذي أُمروا به، فقيل: ﴿عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ﴾، فاتَّضح بهذا علَّة الحذف والإثبات في كلتا الآيتين[1]. أمّا حذف (على) في الأولى، وذكرها في الثّانية فسببه أنّ الذّكر يفيد التّوكيد، فذكر ﴿عَلَىٰٓ﴾ في الآية الثّانية؛ لأنّها آكد؛ ذلك أنَّ الآية الأولى في حالة وقعَت ومضَت، وهي حالة عارضة، وذلك في قوم صدّوهم عنِ المسجد الحرام، وهي في أهل مكّة، وذلك عام الحديبية. أمَّا الآية الثّانية فهي نهيٌ عن حالة مستديمة إلى يوم القيامة، وهي النَّهي عن عدم العدل، ثمّ إنَّ الاعتداء يدخل في عدم العدل؛ لأنّه اعتداء، فدخلت الآية الأولى في الثّانية، فالثّانية آكد وأعمّ وأشمل فجاء فيها بـ﴿عَلَىٰٓ﴾، وحذفها منَ الأخرى[2].

(1) ابن الزبير، ملاك التَّأويل: 1/235 - 236.

(2) السّامرائّي، أسئلة بيانيّة في القرآن الكريم، ص: 51.

﴿حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحۡمُ ٱلۡخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلۡمُنۡخَنِقَةُ وَٱلۡمَوۡقُوذَةُ وَٱلۡمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيۡتُمۡ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن تَسۡتَقۡسِمُواْ بِٱلۡأَزۡلَٰمِۚ ذَٰلِكُمۡ فِسۡقٌۗ ٱلۡيَوۡمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمۡ فَلَا تَخۡشَوۡهُمۡ وَٱخۡشَوۡنِۚ ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ فَمَنِ ٱضۡطُرَّ فِي مَخۡمَصَةٍ غَيۡرَ مُتَجَانِفٖ لِّإِثۡمٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٣﴾ [المائدة: 3]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا قال تعالى في أوَّل السُّورةِ: ﴿أُحِلَّتۡ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلۡأَنۡعَٰمِ﴾، ثمَّ ذَكَرَ فيه استثناءَ أشياءَ تُتلَى عليهم في قَوْلِه: ﴿إِلَّا مَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ﴾؛ ذَكَرَ هنا تلك الصُّورَ المستثناةَ مِنْ ذلك العموم، فهذه الآيةُ الكريمةُ تفصيلٌ لقوله تعالى في الآية الأولى مِن هذه السُّورةِ، وهو قولُه: ﴿إِلَّا مَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ﴾، حيثُ ذَكَرَ في هذه الآيةِ سائرَ المُحرَّماتِ من اللُّحوم، وهي عَشرةٌ.

ويقال أيضًا: لَمَّا بيَّن الله تعالى في الآية السَّابقة تحريمَ الصَّيْدِ في وقتٍ مُعَيَّنٍ، ومكانٍ مُعَيَّنٍ، وحالٍ مُعَيَّنةٍ، وهذا في البيتِ الحرام، وفي الأشهرِ الحُرُم المُخَصَّصةِ للحَجِّ، كما قال تعالى: ﴿ٱلۡحَجُّ أَشۡهُرٞ مَّعۡلُومَٰتٞۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلۡحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي ٱلۡحَجِّۗ وَمَا تَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ يَعۡلَمۡهُ ٱللَّهُۗ وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيۡرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ١٩٧﴾ [البقرة: 197].

بيَّنَ الله تعالى في هذه الآيةِ المُحَرَّماتِ من الحيوان الَّذي كان في أَصْله حلالًا، ولكنْ كان سَبَبُ التَّحريم مُقْترنًا بهلاكه، ممَّا يُهْلَكُ بِمَوتٍ مِنْ غيرِ ذَبْحٍ، كذلكَ بعضُ أجزائه، وبَيَّنَ تحريمَ حيواناتٍ أُخرى، وبعضَ الأفعالِ الَّتي تَقترنُ بالذَّبْح عندَ الَّذين أباحوا المَيْسِرَ لأنفسهم؛ لذا قالَ: ﴿حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحۡمُ ٱلۡخِنزِيرِ﴾[1].

(1) ابن منظور، لسان العرب: (دمي).

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلْمَيْتَةُ﴾: الموت: زوال القوَّة النَّامية والقوَّة الحاسَّة الموجودة في الحيوان، والميتة من الحيوان: ما زال روحه بغير تزكية[1]، ويدور المعنى المِحوريُّ لهذه المادَّة حول: التَمَدُّدِ مع هُمُودٍ وسُكونٍ وذهابِ الحِدَّةِ المُعتادةِ، كالأرضِ المَوَاتِ، وقد قالَ تعالى عن الأرض في الإنْباتِ: ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾ [الحجّ: 5]، وكذلك الصّرَعُ والمَوتُ والنَّومُ، وسكونُ الرِّيحِ، وذهابُ حِدَّةِ الحَرِّ والبَرْدِ، فكُلُّ ذلكَ فيهِ تَمَدُّدٌ وهُمُودٌ.

ومِنَ المجاز: رَجُلٌ مَوْتانُ الفؤادِ: غيرُ ذكيٍّ ولا فَهِم، وماتَ الرَّجلُ: خَضَعَ للحَقِّ، فمن الموت ضدُّ الحياة: ﴿وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [آل عمران: 157]، والمَيْتَةُ: ما لم تُدْرَكْ تَذْكيتُه ممَّا يُؤكَلُ، و﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ﴾[2]: الحيَوانُ الَّذي تُفارِقُه الحياةُ مِنْ دونِ ذَبْحٍ.

2) ﴿وَٱلدَّمُ﴾: الدَّمُ مِنَ الأَخْلاطِ: مَعْرُوفٌ، وَقالَ أبو إِسْحاقَ: أَصلُه: دَمَيٌ، قالَ: وَدَليلُ ذَلِكَ قَوْلُهُ: دَمِيَتْ يَدُه[3]، وجمعُه: دِماءٌ، قال تعالى: ﴿لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ﴾ [البقرة: 84]، وقد دَمِيَت الجِراحَةُ، وفَرَسٌ مَدْمِيٌّ: شديدُ الشُّقْرَةِ، كالدَّم في اللَّونِ، والدُّمْيَةُ: صُورةٌ حَسنةٌ، وشَجَّةٌ داميةٌ[4]، والدَّمُ هُنا هو: الدَّمُ المُهْرَاقُ، أي: المَسْفُوحُ، وهو الَّذي يُمْكِنُ سَيَلانُهُ، كما صُرِّحَ بهِ في آيةِ الأنعامِ، حَمْلًا لِمُطْلَقِ هذهِ الآيَةِ على مُقَيَّدِ آيَةِ الأنْعامِ، وهو الَّذي يَخْرُجُ مِن عُرُوقِ جَسَدِ الحَيَوانِ، بِسَبَبِ قَطْعِ العِرْقِ وما عليهِ مِنَ الجِلْدِ، وهو سائِلٌ لَزِجٌ، أحْمَرُ اللَّوْنِ، مُتَفاوِتُ الحُمْرَةِ، باخْتِلافِ السِّنِّ، واخْتِلافِ أصْنافِ العُرُوقِ[5].

3) ﴿أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾: رُفِعَ فيه الصَّوتُ بتَسميَةِ غيرِ اللّه، أو ما ذُبِحَ لغيرِ اللّه، وأصْل (هَلَّلَ): يَدُلُّ على رفْعِ صوتٍ، ومنه قولهم: أَهَلَّ بالحجِّ: رَفَعَ صوتَه بالتَّلبيَةِ، واسْتِهْلالُ الصَّبِيِّ، أيْ: صوتُه، وقوله: ﴿وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾ أي: ما ذكر عليه غير اسم اللّه، وهو ما كان يذبح لأجل الأصنام[6].

---

(1) الراغب، المفردات: (موت).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (موت).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (دمي).
(4) الرّاغب، المفردات: (دم).
(5) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/89.
(6) الراغب، المفردات: (هلل).

4) ﴿وَٱلۡمُنۡخَنِقَةُ﴾: الَّتي تموتُ خَنْقًا: وهو حَبْسُ النَّفَسِ، سواءٌ فَعَلَ بها ذلكَ آدَميٌّ، أم اتَّفَقَ لها ذلكَ في حَجَرٍ أو شجرةٍ أو حَبْلٍ أو نحوِه، وأصلُ (خَنَقَ): يدلُّ على ضِيقٍ، والمُنْخَنِقَةُ، يقالُ: خَنَقَهُ فاخْتَنَقَ وانْخَنَقَ، والانْخِناقُ: انْعصارُ الخِناقِ في العُنُقِ[1].

5) ﴿وَٱلۡمَوۡقُوذَةُ﴾: وَقَذَهُ: ضَرَبَهُ حتَّى استَرْخَى، وأشرفَ على الموتِ، وَوَقَذَ الشَّاةَ: ضَرَبَها بالخَشَبِ حتَّى تموتَ[2]، والمَوقُوذَةُ: المقتولةُ بالضَّربِ، والوَقْذُ: الإيلامُ بالضَّرْبِ، وأصْلُ (وَقَذَ): يَدُلُّ على ضَرْبٍ بخَشَبٍ، الوَقَائِذُ: حِجَارةٌ مفروشةٌ، واحدتُها وَقيذَةٌ، والمعنى المِحْوَريُّ: صَدمٌ بقوَّةٍ، يضغطُ المُنْتَبِر، فيُرِقُّه، كالحجارةِ المذكورةِ، كأنَّها ضُغِطَتْ، فانْفَرَشَت.

6) ﴿وَٱلۡمُتَرَدِّيَةُ﴾: رَدِيَ في الهُوَّةِ رَدًى وتَرَدَّى: تَهَوَّرَ، وأَرْدَاهُ اللّٰه ورَدَّاه فَتَرَدَّى: قَلَبَهُ فانْقَلَبَ، وفي التَّنْزِيلِ العَزِيزِ: ﴿وَمَا يُغۡنِي عَنۡهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ ١١﴾ [الليل: 11]، قِيلَ: إذا ماتَ، وقِيلَ: إذا تَرَدَّى في النَّارِ، مِنْ قولِهِ تعالى: ﴿وَٱلۡمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ﴾، وهيَ: الَّتي تَقَعُ مِنْ جَبَلٍ، أَو تَطيحُ في بِئْرٍ، أَو تَسْقُطُ مِنْ مَوضِعٍ مُشْرِفٍ، فتَموتُ، وقالَ اللَّيْثُ: التَّرَدِّي: هو التَّهَوُّرُ في مَهْواةٍ[3]، وَالْمُتَرَدِّيَةُ: الواقِعةُ مِنْ جَبَلٍ أو حائطٍ، أو في بِئْرٍ، يُقالُ: تَرَدَّى؛ إذا سَقَطَ، وأصلُه: يَدُلُّ على رمْيٍ أو تَرامٍ، وما أشبهَ ذلكَ.

7) ﴿وَٱلنَّطِيحَةُ﴾: المَنْطوحةُ الَّتي نَطَحتْها شاةٌ أو بقرةٌ، فماتَتْ.

8) ﴿ذَكَّيۡتُمۡ﴾: يقول ابن فارس: "الذَّالُ والكافُ والحرفُ المُعتَلُّ أَصْلٌ واحدٌ مُطَّرِدٌ مُنقاسٌ، يَدُلُّ على حِدَّةٍ في الشَّيءِ ونَفَاذٍ، ومِنَ الباب: ذَكَّيْتُ الذَّبيحَةَ أُذَكِّيها[4]"، وذكَّيتُ الشَّاةَ: ذَبَحتُها، وحقيقةُ التَّذكيةِ: إخراجُ الحرارةِ الغَريزيَّةِ، لكنْ خُصَّ في الشَّرعِ بإبطالِ الحياةِ على وجهٍ دون وجهٍ، ويَدُلُّ على هذا الاشتقاقِ قولُهم في المَيِّتِ: خامِدٌ وهامِدٌ، وفي النَّارِ الهامِدَةِ: مَيِّتَةٌ[5]"، ومعنى ﴿ذَكَّيۡتُمۡ﴾: على ما سبق: أيْ: إلَّا ما أَدْرَكْتموهُ وفيهِ بَقيَّةُ حياةٍ، يَضطرِبُ اضطرابَ المَذبوحِ وذَكَّيْتُموه[6]".

(1) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة، وابن منظور، لسان العرب: (خنق).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (وقذ).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (ردي).
(4) ابن فارس، المقاييس: (ذكا).
(5) الراغب، المفردات: (ذكا).
(6) الآلوسّي، روح المعاني: 6/57.

9) ﴿ذُبِحَ﴾: الذَّبح: أصل الذَّبح: شقُّ حلق الحيوان[1]، وذبَحْتُم، فَقَطَعْتُم أَوْداجَه، وأنهَرْتُم دمَه.

10) ﴿ٱلنُّصُبِ﴾: الحَجَر، أو الصَّنَم الَّذي يَذْبحونَ عنده، أو يُنصَبُ للعبادةِ، وجمْعُه: أَنْصابٌ، وقيلَ: النُّصُبُ جَمْعٌ، مُفردُه نَصِيبٌ، وأصلُ (نصب): يَدُلُّ على إقامةِ شيءٍ، وإهْدافٍ في اسْتواءٍ، والنُّصُبُ: جَمْعُ نِصابٍ، مثلَ: حِمار وحُمُر، وجائزٌ أنْ يكونَ واحدًا، وجَمْعُهُ: أَنْصابٌ، مثلَ: طُنُب وأطناب[2].

11) ﴿تَسْتَقْسِمُواْ﴾: القسمُ: إفراز النصيب، يقال: قسمت كذا قَسمًا وقِسمة، واستقسمته: سألته أن يقسم، ثمَّ قد يستعمل في معنى قَسم، قال تعالى: ﴿وَأَن تَسْتَقْسِمُواْ بِٱلْأَزْلَٰمِ﴾[3]، وقال الأزهريُّ: "قولُه: ﴿وَأَن تَسْتَقْسِمُواْ بِٱلْأَزْلَٰمِ﴾ معناهُ: تَطْلُبوا مِنْ جِهَةِ الأَزْلامِ، وما كُتِبَ عليها ما قُسِمَ لكم مِنْ أحدِ الأمرَينِ[4]". وأنشد لِلَبيدِ:

فقُولا لَهُ إن كَانَ يَقْسِمُ أمره *** أَلَمَّا يَعِظْك الدَّهْرُ أمُّكَ هَابِلُ[5].

12) ﴿بِٱلْأَزْلَٰمِ﴾: جمْعُ زَلَم وزُلَم، وهي: القِداحُ الَّتي كانوا يَضربونَ بها على المَيسرِ ويَستَقْسِمون بها، أو هي سِهامُ العربِ، وأصل (زلم): يَدُلُّ على نحافةٍ ودِقَّةٍ في ملاسةٍ "وأمَّا الأَزْلامُ في قوله: ﴿وَأَن تَسْتَقْسِمُواْ بِٱلْأَزْلَٰمِ﴾؛ فهي أسماءُ هذه القِداحِ الَّتي كانت لقريشٍ في الجاهليَّة، وقد زُلِّمَتْ، أيْ: سُوِّيَتْ، ووُضِعَتْ في الكعبةِ، يقومُ بها سَدَنَةُ البيتِ، فإذا أرادَ الرَّجُلُ أمرًا؛ أتى السَّادِنَ، فقال له: أَخْرِجْ إليَّ زَلَمًا، فيُخرجُه، فإنْ خَرَجَ قَدَحُ الأمرِ؛ مضى على ما عَزَمَ عليه، وإنْ خَرَجَ قَدَحُ النَّهيِ؛ قَعَدَ عمَّا أرادَه، وربَّما كان مع الرَّجلِ زَلَمانِ قد وَضَعَهما في قِرابه، فإذا أرادَ الاسْتِقسامَ؛ أخرجَ أحدَهما[6]"، وقال الحُطَيئةُ:

لا يَزْجُرُ الطَّيرُ إنْ مرَّتْ بِه سُنُحًا ***ولا يُفِيضُ على قِسْمٍ بأَزْلامِ[7].

(1) الراغب، المفردات: (ذبح).
(2) الزَّجَّاج، معاني القرآن: 2/146.
(3) الراغب، المفردات: (قسم).
(4) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: 3/2961.
(5) ديوان لَبيد، ص: 254، والبيتُ من قصيدة يرثي فيها النّعمان بن المنذر، والمراد بـ: (أُمُّكَ هابِلُ): الدُّعاء، يقال: هَبَلَته أمُّه، أي: ثكلته.
(6) الواحديّ، التّفسير البسيط: 7/252.
(7) ديوان الحُطَيئة، ص: 227.

أيّ: تَطلُبوا عِلمَ ما قُسِمَ لكم، والاسْتِقسامُ بها: أن يُضرَبَ بها، ثمَّ يُعمَلَ بما يَخْرُجُ فيها من أمْرٍ أو نهيٍ، وأُخِذَ الاسْتقسامُ من القَسْمِ، وهو النَّصيبُ، كأنَّه طَلَبُ النَّصيبِ.

13) ﴿فِسْقٌ﴾: خروجٌ عن حدودِ الشَّرع، من قولهم: فَسَقَ الرُّطَبُ؛ إذا خرَج عن قِشْرِه، والفُسُوقُ: الخروجُ من الطَّاعة إلى المعصِيَة، والخروجُ من الإيمانِ إلى الكُفرِ[1].

14) ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ﴾: فلا تَخافوهم، والخَشْيةُ: أكثرُ ما تكونُ عَنْ عِلمٍ بما يُخشَى منه، وقيلَ: هي خوفٌ يشوبُه تعظيمٌ، وأصلُ خَشِيَ: فواتٌ بالكلِّيَّةِ، يدلُّ على خوفٍ وذُعْرٍ.

15) ﴿مَخْمَصَةٍ﴾: أي: مَجاعةٍ؛ مُشتقَّةٌ من خَمْصِ البَطْنِ، أي: ضُمورِه، وأصلُ (خمص): يدلُّ على الضُّمْرِ والتَّطامُنِ، والخَمْصُ والمَخْمَصَةُ: خَلاءُ البَطْنِ من الطَّعامِ جُوعًا، وأنشدوا:

يرى الخُمص تعذيبًا وإن يلق شِعبةً *** يَبِتْ قلبُه من قلَّة الهمِّ مُبْهَمَا[2].

وأصله من الخَمص: الَّذي هو ضمور البطن، يقال: رجل خَميص وخُمصان، وامرأة خَميصة وخُمصانة، والجمع خمائص وخُمصانات، قال الأعشى:

تبيتُون في المَشْتَى مِلاءً بُطونُكمْ *** وجاراتُكُمْ غَرْثَى يَبِتْنَ خَمَائِصا[3].

16) ﴿مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ﴾: أصلُ الجَنَفِ: المَيْلُ ميلًا ظاهِرًا، والعُدولُ عن الحقِّ[4]، ومعناه هنا: مُنحرِفٌ مائلٌ إلى ذلك، متعمِّدٌ بأنْ يأكُلَ بعدَ زوالِ الضَّرورة، أو يأكُلَ فوقَ الشِّبَع.

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

حَرَّمَ اللهُ عليكم ما ماتَ مِنْ حيوانٍ دونَ ذَكاةٍ، وحَرَّمَ عليكم الدَّمَ المسفوحَ، ولَحْمَ الخنزيرِ، وما ذُكِرَ عليه اسْمٌ غيرُ اسمِ اللهِ عند الذَّبحِ، والمَيْتَةُ بالخَنْقِ، والمَيْتَةُ بالضَّرْبِ، والسَّاقطةُ مِنْ مكانٍ عالٍ، والمَيْتَةُ بنَطْحِ غيرِها لها، وما افترَسه سَبُعٌ، مِثْلُ: الأسدِ والنَّمرِ والذِّئْبِ، إلَّا ما أَدْرَكتموهُ حيًّا من المَذْكوراتِ وذَكَّيْتموه، فهو حلالٌ لكم، وحَرَّمَ عليكم ما كان ذبحُه للأصنام، وحَرَّمَ عليكم أنْ تَطْلبوا ما قُسِمَ لكم من الغيبِ بالأقداحِ، وهي

(1) الرَّاغب، المفردات: (زلم).
(2) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (خمص)، والسَّمين، عمدة الحُفّاظ: (خمص)، والبيت لحاتمٍ الطّائي، في ديوانه، ص: 82.
(3) البيت في ديوان الأعشى، ص: 321، والواحديّ، التّفسير البسيط: 7/241.
(4) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (جَنَفَ).

حجارةٌ، أو سِهامٌ مكتوبٌ فيها: (افعل) (لا تفعل)، فيَعْمَلُ بما يخرُجُ له منها، فَفِعْلُ تلك المُحرَّماتِ المذكورةِ خُروجٌ عن طاعة الله، فاليومَ يَئِسَ الَّذين كفروا مِن ارتدادكم عن دِين الإسلام؛ لِمَا رأَوا مِنْ قوَّته، فلا تَخافوهم وخافوني وَحدي، اليومَ أكملْتُ لكم دِينكم الَّذي هو الإسلامُ، وأتممْتُ عليكم نعمتي الظَّاهرةَ والباطنةَ، واخترْتُ لكم الإسلامَ دِينًا، فلا أَقْبَلُ دِينًا غيرَه، فمَنْ أَلجأتْهُ الضَّرورةُ إلى أكْلِ شَيءٍ من المحرَّماتِ الَّتي ذَكَرَها اللهُ في الآيةِ، غيرَ مُريدٍ للحرامِ، فله تَناوُلُ ما يَدْفَعُ حاجتَه، واللهُ غفورٌ رحيمٌ.

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالة فصل هذه الجملة عمَّا قبلها:

من مقاصد الشَّريعة الحفاظ على الفرد والمجتمع

فُصلت هذه الجملة عمَّا قبلها؛ لأنَّها اسْتِئْنافٌ بَيانيٌّ فيه شُرُوعٌ في بَيانِ المُحَرَّماتِ الَّتي أُشِيرَ إليْها بِقَوْلِهِ سُبْحانَهُ: ﴿أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ [المائدة: 1]، وهي بَيانٌ لِما لَيْسَ بِحَلالٍ مِنَ الأنْعامِ، وَكُلُّها مِن قَبيل المطعوم؛ إلَّا الأخير، وهو الاستقسامُ بالأزلام.

دلالة التَّحريم في قوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ﴾ دون المنع:

عبَّر بالتَّحريم دون المنع؛ لوجود فرقٍ بينهما: فالحرام: هو الممنوع منه، إمَّا بتسخيرٍ إلهيٍّ، وإمَّا بشريٍّ، وإمَّا بمنعٍ قهريٍّ، وإمَّا بمنعٍ من جهة العقل، أو من جهة الشَّرع، أو من جهة من يُطاع أمره.

وأمَّا المنع؛ فهو أن تحول بين الرَّجل وبين الشَّيء الذي يريده.

ولأنَّ الحرام يترَّتب عليه عقوبة بخلاف المنع، وضدُّه الحلال، وعلى ذلك فالتَّحريم: ضدُّه التَّحليل، والمنع: ضدُّه العطاء، ولأنَّ التَّحريم منه التَّحريم القدريُّ: كما في قوله: ﴿۞وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ﴾ [القصص: 12]، والشَّرعيُّ: كما في هذه الآية وغيرها.

دلالة التَّعبير بالفعل الماضي ﴿حُرِّمَتْ﴾ دون المضارع:

عبَّر القرآن الكريم بالفعل الماضي ﴿حُرِّمَتْ﴾ للدَّلالة على أنَّ هذه المحرَّمات أمرٌ قدَّره الله أزلاً، وهو موجود في كلِّ الشَّرائع السَّماويَّة؛

لأنَّها ممَّا تعافه النُّفوس، ولا تقبله الطِّباع السَّليمة، وفيه إشارة إلى الالتزام بتطبيق ما حرَّم اللّه، فلا ينبغي الاعتداء على المحرَّمات بتحليلها، ولا بتركها بدعاوى باطلة؛ لأنَّ العقل السَّليم يوافق تحريم الشَّرع، ويؤكِّد ذلك استعمال القرآن الكريم لهذا الفعل في كلِّ المحرَّمات كما في سورة البقرة والنِّساء والمائدة والأنعام والنَّحل، وغيرها من السُّور.

سِرُّ بناء الفعل لِما لم يُسمَّ فاعلُه في قوله تعالى: ﴿حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمۡ﴾:

بُنِيَ الفعلُ لِما لم يُسمَّ فاعلُه في قوله: ﴿حُرِّمَتۡ﴾؛ لِلْعِلْم بالفاعل، ولِأنَّ الخِطابَ للمؤمنين الَّذين يعلمون أنَّهُ لا مُحَرِّمَ إلَّا اللّه؛ وللإشْعار بِأنَّ هَذِهِ الأشْياءَ لِشِدَّة قَذارَتِها، كَأنَّها مُحَرَّمَةٌ بِنَفْسِها[1].

دلالة حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه في قوله: ﴿حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةُ﴾:

المقصود من تحريم هذه المذكورات تحريمُ أكلِها

التَّحريم ليس صفة للأعيان، والأعيان ليست موردًا للتَّحليل والتَّحريم ولا مصدرًا، وإنَّما يتعلَّق التَّكليف بأفعال المكلَّفين، لكنَّ الأعيان لَمَّا كانت موردًا للأفعال؛ أُضيف الأمر والنَّهي والحكم إليها، وعُلِّق بها مجازًا على معنى الكناية بالمحلِّ عن الفعل الذي يحلُّ به.

والمعنى المراد على ذلك: تَحْرِيمُ أكل هَذِهِ المَذْكُوراتِ؛ لِأنَّهُ المَقْصُودُ مِن مَجْمُوعِ هَذِهِ المَذْكُوراتِ هُنا، وهي أحْوالٌ مِن أحْوالِ الأنْعامِ تَقْتَضِي تَحْرِيمَ أكْلِها[2]؛ فحُذِفَ المضافُ، وأُقيمَ المضافُ إليه مقامَه.

سرُّ إدماج لحم الخنزير في المحرَّمات مع أنَّه ليس من أنواع الأنعام:

أُدْمِجَ فِيها مع أنَّه ليسَ مِن أنْواعِ الأنْعامِ؛ لِاسْتِيعابِ مُحَرَّماتِ الحَيَوانِ[3].

المراد بـ (ال) في قوله: ﴿حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةُ﴾:

المراد بـ (الـ) الجنسيَّة، والمعنى في قوله: ﴿حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةُ﴾: تَحْرِيمُ أكْلِ المَيْتَةِ، وهي ما فارَقَهُ الرُّوحُ حَتْفَ أنْفِهِ مِن

(1) الراغب، المفردات: (حرم)، والبقاعيّ، نَظْم الدُّرَر: 6/11.
(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/90.
(3) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/90.

غَيْرِ سَبَبٍ خارِجٍ عَنْهُ، "وهي في عُرْفِ الشَّرْعِ: ما ماتَ حَتْفَ أَنْفِهِ، أَوْ قُتِلَ على هَيْئَةٍ غيرِ مَشْروعةٍ، إمَّا في الفاعِلِ أَوْ في المفعولِ، فَدَخَلَ فِيها: المُنْخَنِقَةُ والمَوْقُوذَةُ والمُتَرَدِّيَةُ والنَّطِيحَةُ، وما عَدا عَلَيْها السَّبُعُ[1]".

دلالة تقديم الجارِّ والمجرور في قوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ﴾:

قُدِّم الجارُّ والمجرور للاختصاص، ولإظهار امتنان اللّه تعالى على المؤمنين بتحريم هذه المذكورات الَّتي تحمل الأذى والضَّرر لهم.

دلالة عطف قوله تعالى: ﴿وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ﴾ على الميتة:

نُكتة ذِكْرِ الخاصِّ بعدَ العامِّ

عُطفت؛ لأنَّ هذه المعطوفات المذكورة هنا داخلةٌ في حُكْم المُحَرَّمات، وخصَّها بالذِّكر مِن قَبيلِ ذِكْرِ الخاصِّ بعدَ العامِّ (الميتة)، والغَرَضُ من ذِكْرها بخُصوصها: "هو الرَّدُّ على أهل الجاهليَّةِ؛[2]"؛ لأنَّهم كانوا يأكلونَها، ولِئلَّا يَغْتَرَّ أحدٌ باستباحةِ بعضِ العرب لها في الجاهليَّة، ولِئلَّا يَشْتَبِهَ فيها بعضُ النَّاسِ؛ لأنَّ لِموتِها سببًا معروفًا، جاء التَّحريم؛ ليرفع هذا الاشتباه، وبَدَأَها بالمُنْخَنِقَة، وهي الَّتي تموتُ بالخَنْقِ، سواءٌ بنَفْسها: كإدخالِها رأسَها في شيءٍ ضَيِّقٍ، فتَعْجِزُ عن إخراجه حتَّى تموتَ، أو بخَنْقِ غيرِها لها، والمعنى: وحَرَّمَ عليكم - أيضًا- أكْلَ المُنْخَنِقَةِ، والمَوْقُوذَةِ، وهي: الَّتي تُضرَبُ بشَيءٍ ثقيلٍ غيرِ مُحَدَّدٍ حتَّى تموتَ، كالَّتي تُضرَبُ بِعَصًا أو حَصًى أو خَشَبةٍ.

والمُتَرَدِّيَةُ، وهي الَّتي تَسقُطُ مِنْ مَوضِعٍ عالٍ، فتموتُ بذلكَ، أيْ: وحَرَّمَ عليكم - أيضًا- أكْلَ المُتَرَدِّيَةِ.

وَالنَّطِيحَةُ، وهي: الَّتي ماتتْ بسَبَبِ نَطْحِ غيرِها لها، أيْ: وحَرَّمَ عليكم - أيضًا - أكْلَ المَنْطوحة.

(1) القاسِميّ، مَحاسن التَّأويل: 7/1808.
(2) الجَمَل، الفتوحات الإلهيَّة: 1/460.

إعجازٌ علميٌّ في القرآن الكريم:

حكمة تحريم الميتة والدَّم

حِكْمةُ تحريمِ المَيْتةِ والدَّم: الضَّرُّ والاسْتِقذارُ، "ولِكُلِّ تحريمٍ حِكْمةٌ قد تكونُ ظاهرةً، وقد تكونُ خافيةً، والقرآنُ الكريمُ نَزَلَ على نبيٍّ أُمِّيٍّ، في أمَّةٍ أُمِّيَّةٍ، لا تَعرِفُ المسائلَ العِلْمِيَّةَ الشَّديدةَ التَّعقيدِ، وطَبَّقَ المؤمنونَ الأوائلُ تعاليمَ القرآنِ؛ لأنَّ اللّٰه الَّذي آمنَّا به إلهًا هُوَ مُشَرِّعُها، وهو يريدُ صِيانةَ صَنْعتِه"[1].

وقد اكتشف العلم الحديث بعضًا من حِكم هذا التَّحريم، وذلك من خلال البحوث الَّتي أجراها: أنَّ الميتة تنمو فيها البكتريا الضَّارَّة، كما أنَّ الدَّم تنمو فيه البكتريا بشكل أسرع، خاصَّةً مع كثرته، وهي بطبيعتها تؤدِّي إلى إصابة الإنسان بالأمراض؛ لذلك كان القرآن الكريم سبَّاقًا في تحريم أكل الميتة والدَّم حفاظًا على النَّفس البشريَّة، والحفاظ عليها من مقاصد هذا الدِّين.

دَلالة (ال) في كلمة ﴿وَٱلدَّمُ﴾:

حمل المطلق على المقيَّد

(الـ) في كلمة ﴿وَٱلدَّمُ﴾ في قوله تعالى: ﴿حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحۡمُ ٱلۡخِنزِيرِ﴾: للعهد، وهو الدَّمُ المخصوصُ بصِفته، وهو أنْ يكونَ مسفوحًا، أمَّا ما كان منه غيرَ مسفوحٍ؛ فليس بمُحَرَّم؛ بدليل قوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٖ يَطۡعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيۡتَةً أَوۡ دَمٗا مَّسۡفُوحًا أَوۡ لَحۡمَ خِنزِيرٖ فَإِنَّهُۥ رِجۡسٌ أَوۡ فِسۡقًا أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦۚ فَمَنِ ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ١٤٥﴾ [الأنعام: 145].

فقُيِّد الدَّم بالمسفوح حملًا على آية سورة الأنعام السَّابقة؛ لأنَّه من القواعد العلميَّة: أنَّ المطلق يحمل على المقيَّد؛ إذا اتَّحد الحكم والسَّبب، والحكم هنا: التحريم؛ لأنَّ المراد به: المسفوح؛ ليخرج ما خالط اللَّحم، وهو غير مُحرَّم، وكانَ أهْلُ الجاهِلِيَّةِ يَجْعَلُونَهُ في المَباعِرِ[2]، ويَشْوُونَهُ، ويَأْكُلُونَهُ.

(1) الشَّعراوي، تفسير الشّعراوي: 5/2915، ولمزيد من التفصيل، ينظر: موقع الهيئة العالمية للإعجاز العلمي.
(2) المباعر: الأمعاء، يُجعَلُ فيها الدَّمُ بعد فَصْده، ويُشْوى للضّيف.

وصـــف الـــدَّم بالمسفوح، كما في سورة الأنعام يـــؤكِّـــد صـــدق حـــديـث رســـول الـلـه الـــوارد في تـحـلـيـل الـكـبـد والطِّحال

وأَمَّا ما كان قد صار في معنى اللَّحمِ، كالكَبَدِ والطِّحال؛ فَمُباحان؛ لأنَّهما دَمان غيرُ مسفوحَين، ولقوله ﷺ: "أُحِلَّتْ لنا مَيتتان، ودَمان: الكبد والطِّحال، والسَّمك والجراد[1]"، وما كان في اللَّحم غير مُنْسَفِحٍ؛ فإنَّ ذلك غيرُ حرامٍ؛ لإجماع الجميع على ذلك.

دَلالة ذِكْر اللَّحم وإضافته إلى الخِنْزير في الآية الكريمة:

وذُكِرَ اللَّحْمُ، وأضيفَ إلى الخنزير في قوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ﴾؛ ليَدُلَّ على عموم تحريمه، فاللَّحْمُ يتناولُ شَحْمَهُ وعَظْمَهُ وسائرَ أجزائِه، وخُصَّ لَحْمُهُ مَعَ أنَّ سائرَ أجزائِه أيْضًا في حُكْمِه؛ لأنَّهُ مُعْظَمُ ما يُؤْكَلُ مِنَ الحَيَوانِ وسائر أجزائِه بِمَنزِلَةِ التَّابِعِ لَه، وأيضًا: فإنَّ تحريمَ الخنزير لَمَّا كانَ مُبْهَمًا؛ اقتضى ذلك تحريمُ سائرِ أجزائِه كالمَيْتَةِ والدَّم، وخصَّه بالذِّكر؛ لأنَّ بعضهم كان يفضِّله على سائر اللُّحوم، فربَّما استعظموا وقوع تحريمه، فذكره لزيادة التَّغليظ.

وفي هذا إشارة إلى إخبار القرآن الكريم عن بعض الشُّعوب الَّتي تأكل لحم الخنزير بشراهة.

وفيه إشارة إلى تحريم لحم الخنزير الأهليِّ منه والبرِّي، يؤكِّد ذلك ما قاله الطَّبَريُّ: "وأمَّا قوله: ﴿وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ﴾؛ فإنَّه يعني: وحَرَّمَ عليكم لحمَ الخنزير: أهليَّهُ وبَرِّيَّهُ، فالمَيْتَةُ والدَّمُ: مَخْرجُهما في الظَّاهر مَخْرجُ عُموم، والمرادُ منهما الخصوصُ، وأمَّا لحمُ الخنزيرِ؛ فإنَّ ظاهرَه كباطنِه، وباطنَه كظاهره، حرامٌ جميعُه، لم يُخَصَّصْ منه شيءٌ[2]"؛ لأنَّ لحمه مأوى للطُّفيليَّات والبكتريا والفيروسات الَّتي يصدرها إلى الإنسان ممَّا ينتج عنه الإضرار بالإنسان في بدنه ودينه.

(1) ابن ماجه، السنن، الحديث رقم: (3314).

(2) ابن جرير، جامع البيان: 4/406، و لمزيد من التفصيل، ينظر موقع الهيئة العالمية للإعجاز العلمي.

البلاغة في متشابه النَّظْمِ القرآنيِّ:

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٧٣﴾﴾ [البقرة: 173].

وقال تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا۟ بِٱلْأَزْلَٰمِ ۚ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ ۗ ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ ۚ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِى مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

سرُّ التَّعبير بأسلوب القصر ﴿إِنَّمَا﴾ في موضع البقرة دون موضع المائدة:

جاء التَّعبير القرآنيُّ بأسلوب القصر ﴿إِنَّمَا﴾ في قوله: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ﴾ [البقرة: 173]؛ لأنَّ (إنَّما) تجيء في الكلام؛ لإثبات المذكور ونفي ما سواه، وكان القصر مناسبًا للسِّياق في سورة البقرة، حيث سبق قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾ [البقرة: 172] وأفادت الإباحة على الإطلاق؛ لذلك عقَّبها بـ ﴿إِنَّمَا﴾ الحاصرة للمحرَّمات.

وفيه مراعاةٌ لحال المخاطبين في تحريم بعض المطعومات، وهي قليلة بالنِّسبة للإباحة المطلقة في الآية السَّابقة، بخلاف موضع سورة المائدة؛ فهي من آخر ما نزل، فيلزم فيها الإخبار عن المحرَّمات؛ لأنَّ المخاطب فيها أهل الإيمان الَّذين يسارعون في تطبيق شرع الله باحثين عن الكمال والتَّمام.

سرُّ التَّعبير بالبناء للفاعل في موضع البقرة في قوله: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ﴾، وبالبناء للمفعول في موضع المائدة:

جاء موضع سورة البقرة على الأصل؛ لأنَّ الجملة تأتي في أصلها على البناء للفاعل، ولا يتغيَّر الأسلوب للبناء للمفعول إلَّا لعلَّة كما في سورة المائدة، وقبلها في سورة النِّساء في المحرَّمات من النَّسب والرَّضاعة؛ لأنَّ المستوى الإيمانيَّ عند المؤمنين يجعلهم يعلمون أنَّه لا مُحرِّم إلَّا الله، بخلاف موضع سورة البقرة؛ فأغلب الحديث فيها عن أهل الكتاب، وهم يزعمون لأنفسهم التَّحليل والتَّحريم عن طريق علمائهم؛ لذلك كان البناء للفاعل لإثبات أنَّ التَّحريم لا يكون إلَّا لله.

السِّرُّ في تقديم الجارِّ والمجرور ﴿بِهِۦ﴾ على ﴿لِغَيۡرِ ٱللَّهِۖ﴾ في قوله: ﴿وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيۡرِ ٱللَّهِۖ﴾، وسِرُّ تأخيره في آية المائدة في قوله: ﴿وَمَآ أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾:

المقامُ في سورة البقرة على ما رَزَق اللهُ عبادَه مِن الطَّيِّباتِ، فلمَّا كان المقامُ الرِّزقَ والطَّعامَ، والأمرَ بِأَكْلِ الطَّيِّباتِ؛ قَدَّمَ الجارَّ والمجرورَ ﴿بِهِۦ﴾، والضَّميرُ يعودُ على ما يُذْبَحُ، وهو طعام، فكان مناسِبًا للمَقام: أمَّا المقامُ في آيةِ المائدةِ؛ ففيه إشارةٌ إلى مَنْ يُحلِّلُ، ويُحَرِّمُ غيرَ الله تعالى، ويزعمون أنَّهم شُركاءُ لله، فجاء الكلامُ على التَّحليل والتَّحريم ومَنْ بِيَدِه ذلكَ، ورَفْض أيِّ جِهَةٍ تُحَلِّلُ، وتُحَرِّمُ غيرَ الله تعالى، فإنَّ اللهَ يحكم ما يريد؛ لِذا قُدِّمَ في البُطْلان، فقال: ﴿وَمَآ أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾، ثُمَّ إنَّه سبحانه جاءَ بِذِكْر اسمِه تعالى، فقال: ﴿وَٱذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَيۡهِۖ﴾، فناسَبَ ذلك تقديمُ بطلانِ ذِكْر غيرِ الله تعالى، فأخَّرَ الجارَّ والمجرورَ في آية المائدة، فقال: ﴿وَمَآ أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾[1].

السِّرُّ في زيادة المُحرَّمات في سورة المائدة على المُحَرَّمات في سورة البقرة، وتخصيصها بقوله: ﴿فَمَنِ ٱضۡطُرَّ فِي مَخۡمَصَةٍ غَيۡرَ مُتَجَانِفٖ لِّإِثۡمٖ﴾:

إنَّ آيةَ سورة المائدة مِنْ آخِر ما نَزلَ مِن القرآن، فَوَرَدَ فيها استقصاءُ ما حُكِمَ بتحريمه، وإلحاقُه بالمَيْتة والدَّم ولحمِ الخنزير، وأردفَ الكلامَ بقوله: ﴿فَمَنِ ٱضۡطُرَّ فِي مَخۡمَصَةٍ غَيۡرَ مُتَجَانِفٖ لِّإِثۡمٖ﴾؛ تَتْميمًا لِحال المضطرِّ، ومَظِنَّةُ الاضطرار زيادةٌ على ما ورد في آية البقرة؛ لِيرتفعَ ما عسى أنْ يكونَ باقيًا فيها مِن إجمالٍ أو إشكالٍ؛ لِيَتوافَقَ مع قوله: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ﴾[2].

نُكتة ذكر قوله: ﴿فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۚ﴾ [البقرة: 173] في البقرة، ولم يذكر ذلك في آية المائدة؟

ذكر القرآن الكريم التَّعبير بقوله: ﴿فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۚ﴾ [البقرة: 173] مع أنَّه معلومٌ ضمنًا للدَّلالة على أنَّ نفي الإثم عن المضطرِّ فيما يتناوله من هذه المحرَّمات منوط بحالة الاضطرار، فإذا تناول ما أزال به الضَّرورة؛ فقد عاد التَّحريم، كما كان، فالجائع يأكل من هذه المحرَّمات؛ إن لم يجد غيرها أكلًا يغنيه عن الجوع، وإذا خاف أن تستمرَّ به الحاجة، كمن

(1) ابن الزبير، ملاك التَّأويل: 1/107 - 108، والسّامرّائي، التّعبير القرآنّي، ص: 73.
(2) ابن الزبير، ملاك التّأويل: 1/109، وابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 2/121.

توسَّط صحراء في سفرٍ، ويكاد اليقين عنده يصل إلى ذروته في عدم وجود طعام يأكله؛ فلا إثم عليه أن يتزوَّد من بعض هذه الأشياء حفاظًا على نفسه.

أما موضع سورة المائدة؛ فالضَّرورة فيها أقلُّ، وذلك لوجود أسبابٍ لبعض المباحات لم تكن في سورة البقرة، مثل حِلِّ طعام أهل الكتاب وصيد الكلب المُعَلَّم؛ ولذلك كان نَفْيُ الإثمِ في المائدة تَضْمينًا لا تصريحًا؛ "لأنَّ قولَه: ﴿غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٧٣﴾﴾ [البقرة: 173] يَدُلُّ أنَّه لا إثمَ عليه[1]".

دَلالة توسُّط قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾ بين هذه المحرَّمات:

عِظَمُ خطر الشِّرك على صاحبه وعلى المجتمع

توسَّط قولُه تعالى: ﴿وَمَآ أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾ مع اختلاف علَّة تحريمه حيث إنَّ تحريم الميتة والدَّم ولحم الخنزير كان لِأَجل الصِّحَّةِ والنَّظافةِ، أمَّا المُحَرَّمُ هنا؛ فهو لِسَببٍ دينيٍّ مَحْضٍ؛ لأنَّه توجُّهٌ إلى غير الله، وعلى هذا يكون المرادُ به ما ذُبِحَ، وما نُحِرَ على غير ذِكْر الله تعالى، من المخلوقات الَّتي يُعَظِّمُها النَّاسُ تعظيمًا دِينِيًّا، ويَتقرَّبون إليها بالذَّبائح، والإهلالُ: رَفْع الصَّوت، يقالُ: أَهَلَّ فلانٌ بالحَجِّ؛ إذا رَفَعَ صوتَه بالتَّلبية له، ومنه: اسْتَهَلَّ الصَّبِيُّ؛ إذا رَفَعَ صوتَه بالصُّراخ عند الولادةِ، وكانوا يَذبحون لأصنامهم، فيَرفعون أصواتَهم بقولهم: باسمِ اللَّاتِ أو العُزَّى.

وحِكْمةُ تحريم الأكلِ من هذا أنَّه مِنْ عبادةِ غيرِ الله تعالى، فالأكلُ منه مُشاركةٌ لأهله، ومُشايعةٌ لهم عليه، وهو مِمَّا يجبُ إنكارُه لا إقرارُه.

دلالة تسمية الذَّبح في الآية إهلالًا:

سمَّى التَّعبير القرآنيُّ الذَّبح في الآية إهلالًا؛ لأنَّهم كانوا إذا أرادوا ذبح ما يتقرَّبون به لأصنامهم وأوثانهم؛ ذكروا عند الذَّبح اسم الصَّنم، وجهروا به؛ فسمِّي كلُّ ذابحٍ جهر بالتَّسمية، أو لم

(1) الكِرْمانيّ، أسرار التَّكرار في القرآن، ص: 39.

يجهر: مُهِلًّا، كما سمِّي الإحرام: إهلالًا؛ لرفع المحرمين أصواتهم عند التَّلبية؛ حتَّى صار اسمًا له، وإن لم يرفع عنده صوت.

وعلى هذا فرفعُ الصَّوتِ ليس هو عِلَّةَ التَّحريم، ولا شَرْطًا له، بلْ هو لبيان الواقع، وإنَّما سببُ التَّحريم: أنَّه مِنْ عبادةِ غيرِ الله تعالى[1]، فالتَّحريمُ هنا ليس في ذات الحيوانِ، وإنَّما لِمَا صَحِبَه مِنْ عَمَلٍ، فيه شِرْكٌ بالله تعالى، وفسوقٌ عن أَمْرِه سبحانه.

وهذه الجملةُ تُشيرُ إلى عِظَمِ خَطَرِ الشِّرْكِ، وأنَّه يُؤَثِّرُ حتَّى في الذَّبائح؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾.

دَلالةُ التَّاء اللَّاحقة بالموصوفات في قوله: ﴿وَٱلۡمُنۡخَنِقَةُ وَٱلۡمَوۡقُوذَةُ وَٱلۡمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ﴾:

الصِّفات إذا لَمْ تُذْكر موصوفاتُها، ولم تكن جاريةً عليها تغلب عليها الاسميَّةُ، فتَلْحَقُها التَّاء

والنَّطيحةُ بمعنى: المَنْطوحة، نَحْو: لِحْيَةٌ دَهِينٌ، وكَفٌّ خَضيبٌ، بمعنى: مَدْهونة ومَخْضوبة؛ لأنَّ فَعيلةَ يَستوي فيه المُذَكَّرُ والمُؤَنَّثُ، والتَّاءُ في كلمات ﴿وَٱلۡمُنۡخَنِقَةُ وَٱلۡمَوۡقُوذَةُ وَٱلۡمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ﴾ للنَّقْلِ، "لنَقْلها من الوصفيَّة إلى الاسميَّةِ، فإنَّ الصِّفاتِ إذا لَمْ تُذْكَرْ موصوفاتُها، ولم تكنْ جاريةً عليها تَغلبُ عليها الاسميَّةُ، فتَلْحَقُها التَّاءُ؛ لِتَدُلَّ على غلبة الاسميَّةِ عليها، وعدم احتياجها إلى الموصوف، وكُلُّ ما لَحِقَتْهُ هذه التَّاء يَستوي فيه المُذَكَّرُ والمؤنَّثُ[2]".

بلاغة الإيجاز والمجاز في قوله: ﴿وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ﴾:

إيجازٌ بِحذْف الجارِّ والمجرور

وفي قوله: ﴿وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ﴾ إيجازٌ بِحذْف الجارِّ والمجرورِ، تقديرُه: (مِنْه)، أي: وما أكَلَ مِنهُ السَّبُعُ؛ لِأنَّ ما أكَلَهُ السَّبُعُ، فَقَدْ نَفِدَ، ولا حُكْمَ لَهُ، وإنَّما الحُكْمُ لِلْباقي.

دلالة التَّعبير بالسَّبع دون الذِّئب أو الأسد:

اختار التَّعبير بالسَّبع؛ لأنَّه اسْمٌ يَقَعُ عَلى ما لَهُ نابٌ، ويَعْدُو عَلى

(1) الماوردي، النكت والعيون: 1/222، ورضا، تفسير المنار: 6/136.
(2) الخفاجيّ، عناية القاضي: 2/192.

الإنسانِ والدَّوابِّ ويَفْتَرِسُها، مِثْل: الأسَدِ وما دُونَهُ، "قالَ قَتادَةُ: كانَ أهْلُ الجاهِلِيَّةِ إذا جَرَحَ السَّبُعُ شَيْئًا، فَقَتَلَهُ، وأكَلَ بَعْضَهُ؛ أكَلُوا ما بَقِيَ، فَحَرَّمَهُ اللّٰه تَعالى[1]"

دلالة نسبة الأكل إلى السَّبع دون الافتراس في قوله: ﴿وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ﴾:

استثناء الكلب المُعَلَّم

أسند الأكل إلى السَّبع دون الافتراس؛ لوجود فرق بينهما، فأصل الافتراس في اللُّغة: الكسر ودقُّ العنق، بخلاف الأكل؛ فقد يفترس، ولا يأكل، وعلى ذلك، فالمرادُ هنا: تحريمُ أَكْلِ ما افْتَرَسَهُ السَّبُعُ من الحيوان حتَّى ماتَ، سواءٌ أَكَلَ منه السَّبُعُ أمْ لم يأكلْ؛ لأنَّه افتَرَسَهُ لِيأكلَه، وهنا مجازٌ مرسلٌ بعَلاقة السَّببيَّة، حيثُ أطلق السَّببَ، وأرادَ المُسبَّبَ؛ لعلَّةٍ بلاغيَّةٍ، وهي الاحترازُ، أي: استثناءُ الكلبِ المُعَلَّم الَّذي أطلَقَه صاحبُه؛ لِيصطادَ له، وَسَمَّى عند إطلاقِه، فهو يَفترِسُ لا لِيأكلَ، بلْ لِمَنْ أطلقَه.

أَمَّا إذا افترسَ الكلبُ ما أُطْلِق عليه، بأنْ أَكَلَ هو أكثرَه؛ فإنَّ الباقيَ لا يَحِلُّ لِمَنْ أَطْلَقَه[2].

دَلالةُ الاستثناء في قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ﴾:

وقد تَعدَّدتِ الأقوالُ في بيان نوعِ الاستثناءِ في قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ﴾[3]، والَّذي عليه الجمهورُ أنَّهُ اسْتِثْناءٌ مُتَّصِلٌ من المُحَرَّماتِ السَّابقةِ في قولِهِ: ﴿وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ﴾[4].

---

(1) ابن جرير، جامع البيان: 4/410.

(2) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 5/2031.

(3) عَدَّدَ الفخرُ الرَّازيُّ هذه الأقوال، فَذَكَرَ القولَ الأوَّل، وبَقِيَّة الأقوال، فقال: "والقَوْلُ الثَّانِي: إنَّ هَذا الاِسْتِثْناءَ مُخْتَصٌّ بِقَوْلِه: ﴿وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ﴾.
والقَوْلُ الثَّالِث: إنَّهُ اسْتِثْناءٌ مُنْقَطِعٌ كَأنَّهُ قِيل: لَكِنْ ما ذَكَّيْتُمْ مِن غَيْرِ هَذا، فَهو حَلالٌ.
والقَوْلُ الرَّابِع: أنَّهُ اسْتِثْناءٌ مِنَ التَّحْرِيمِ لا مِنَ المُحَرَّمات، يَعْنِي: حَرَّمَ عَلَيْكم ما مَضى إلَّا ما ذَكَّيْتُمْ، فَإنَّهُ لَكم حَلالٌ، وعَلى هَذا التَّقْدِيرِ يَكُونُ الِاسْتِثْناءُ مُنْقَطِعًا أيْضًا"، ينظر: مفاتيح الغيب: 11/134.

(4) السَّمين، الدُّرُّ المصون: 4/196، والخازن، لِباب التَّأويل: 1/433.

فإنَّ هذه المذكوراتِ تَعَلَّقَتْ بها أحوالٌ تُفْضي بها إلى الهلاك، فإذا هَلَكَتْ بتلك الأحوالِ؛ لم يُبَحْ أكلُها؛ لأنَّها حينئذٍ مَيْتةٌ، وإذا تَداركوها بالذَّكاة قبل الفواتِ؛ أُبيحَ أكلُها[1]".

سرُّ التَّعبير بقوله: ﴿إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ﴾ دون إلَّا ما ذبحتم(2):

لأنَّ أَصْلَ التَّذْكِيَةِ الإِتْمَامُ، يُقالُ: ذَكَّيْتَ النَّارَ؛ إِذَا أَتْمَمْتَ إِشْعالَها، والمعنى: إلَّا ما أَدْرَكْتُمْ ذَكَاتَهُ مِنْ هذه الأشياءِ، أيْ: ما أَدْرَكْتُم فيه الرُّوحَ، أي: يلحقها، وفيها بقيَّة تشخب معها الأوداج، وتضطرب اضطراب المذبوح لوجود الحياة فيها قبل ذلك، وإلَّا فهي كالميتة.

وعلى ذلك: فالمُرادُ هُنَا: إِتْمامُ فَرْيِ الأَوْدَاجِ، وَإِنْهارُ الدَّمِ[3]، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَا أَنْهَرَ الدَّمَ، وَذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ؛ فَكُلْ، غَيْرَ السِّنِّ وَالظُّفُرِ»[4]، ولوجود فرقٍ بين التَّذكية والذَّبح، يؤكِّد ذلك أنَّ الآية الكريمة ذكرت لفظتَي: (التَّذكيةَ والذَّبحَ) في قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ﴾، فَدَلَّ ذلك على أنَّ هناك فرقًا بينها، وإليك البيانَ:

الذَّبْحُ: هو شَقُّ حَلْقِ الحيوانِ، يُقالُ: ذَبَحْتُ الشَّاةَ ذَبحًا، قال الرَّاغبُ: "أصلُ الذَّبْحِ: شَقُّ حَلْقِ الحيواناتِ، والذِّبْحُ: المَذْبوحُ، قال تعالى: ﴿وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ١٠٧﴾ [الصَّافات: 107]، وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً﴾ [البقرة: 67]، وتُسمَّى الأخاديدُ من السَّيل: مذابحَ"، وأمَّا التَّذكيةُ؛ فقد مَرّ معناها، ونَلْحَظُ ما يأتي:

أوّلًا: أنَّ التَّذكيةَ لم تُذكرْ في القرآن الكريم إلَّا مرَّةً واحدةً، وهي وصفٌ لذَبحِ ما أحلَّه اللّه تعالى، وهو في حالة اضطرابٍ لا في حالة استقرارٍ، وذلكَ مثل: المُنخنقةِ والموقوذةِ والمُتردِّيةِ والنَّطيحةِ، وما أَكَلَ السَّبُعُ، بشَرط أنْ يُدرَكَ، وفيه حياةٌ، كما سبق.

ثانيًا: أنَّ التَّذكيةَ فيها معنى: سَيَلانِ الدَّم، وإخراجِ الحرارةِ الغريزيَّةِ، ولا يكونُ ذلك كذلك إلَّا بحركةٍ بعد الذَّبحِ، يُعلَمُ مِنْ خلالها أنَّه لم يَمُتْ.

ثالثًا: ذُكِرَ (الذَّبح) تسعَ مرَّاتٍ في القرآن الكريم؛ ففي قصَّة البقرة مرَّتين: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً﴾ [البقرة: 67]، ﴿قَالُوا۟ ٱلْـَٔـٰنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ فَذَبَحُوهَا

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/92.

(2) نصر سعيد، مقدّمة في فرائد القرآن، ص: 516، والجمل، حاشية الجمل: 1/461.

(3) البَغَويّ، معالم التّنزيل: 2/6.

(4) البُخاريّ، الحديث رقم: (3075)، ومسلم، الحديث رقم: (1968).

وَمَا كَادُواْ يَفۡعَلُونَ ﴿٧١﴾ [البقرة: 71]، وفي قصَّة الذَّبيح مرَّتين: ﴿يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ﴾ [الصَّافات: 102]، ﴿وَفَدَيۡنَٰهُ بِذِبۡحٍ عَظِيمٖ ﴿١٠٧﴾﴾ [الصَّافات: 107]، وفي قصَّة هُدهد سليمانَ مرَّةً: ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابٗا شَدِيدًا أَوۡ لَأَاْذۡبَحَنَّهُۥٓ أَوۡ لَيَأۡتِيَنِّي بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ ﴿٢١﴾﴾ [النَّمل: 21]، و4 – فيما حرَّمه اللّٰه: ﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ﴾، وفي وصف ظلم فرعونَ وعملِه: ﴿يُذَبِّحُ أَبۡنَآءَهُمۡ وَيَسۡتَحۡيِۦ نِسَآءَهُمۡۚ﴾ [القصص: 4]، وفي تعداد النِّعم على بني إسرائيل، حيث نجَّاهم اللّٰه من عمل آل فرعون بهم حيث كانوا ﴿يَسُومُونَكُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبۡنَآءَكُمۡ وَيَسۡتَحۡيُونَ نِسَآءَكُمۡۚ﴾ [البقرة: 49]، وجاءت الآية نفسها على لسان موسى عليه السلام: ﴿وَيُذَبِّحُونَ﴾ [إبراهيم: 6] بزيادة الواو للمبالغة في تعداد النِّعم.

ومن هذه المواضع نستطيع القولَ: بأنَّ الذَّبح نُسب مرَّة إلى الحيوانِ، ومرَّةً إلى الإنسان، ولا تُنسَبُ التَّذكيةُ للإنسانِ "المذبوح" بحال.

كما وُصِفَ المحرَّمُ بالمذبوح، ولا يُوصَفُ المُحرَّمُ بالمُذكَّى، كما أنَّ الذَّبح يُقالُ لشَقِّ الحلق؛ ولو بعدَ الموت، ولا يُقالُ عنه: إنَّه ذُكِّيَ إلَّا إذا كان فيه حياةٌ، وخرج منه الدَّمُ بعد التَّذكية.

البنية اللُّغوية لقوله: ﴿ذَكَّيۡتُمۡ﴾ تحمل معنى التَّذكية:

النَّاظر في حروف (ذَكَيَ) يجد أنَّها تحمل معناها: فالذَّالُ: تُعبِّرُ عَنْ ثَخينٍ رَطْبٍ، أو غَضٍّ ينفذ، وذلكَ أَخْذًا مِنْ قولهم: شَفْرةٌ أذُوذٌ، تَقطعُ الشَّحْمَ والكَبِدَ[1]، وهذا المعنى يتَّفِقُ وبدايةَ التَّذكيةِ، حيثُ تُوضَعُ الشَّفرةُ الحادَّةُ على الحُلقوم والمري، كما تُعبِّرُ الكافُ: عَنْ تماسكٍ في الأثناءِ مع حِدَّةٍ أو دِقَّةٍ[2]، وهذا المعنى يتناسَبُ ونفاذَ الشَّفرةِ في الحلقوم والمري بحِدَّةٍ، وتسرُّبِ الدَّمِ من الذَّبيحةِ بحرارة جسمِها – كما هو معروف – مع تماسُكِ ما في أجزاءِ الرَّأسِ، والحرفُ المعتلُّ (الياء): يعبِّرُ عن تماسُكِ المُمْتدِّ شيئًا واحدًا، وهذا يُعبِّرُ عن المرحلة الأخيرة من التَّذكيةِ، حيثُ إدراكُ الذَّبيحةِ قبلَ موتِها، وهو نوعٌ من التَّماسُك.

(1) جبل، الدَّلالات القرآنيَّة، ص: 67.
(2) جبل، الدَّلالات القرآنيَّة، ص: 75.

السِّرُّ في مجيء ﴿ذَكَّيْتُمْ﴾ في هذا الموضع دون غيره:

ذُكرَ هذا التَّركيبُ الفريدُ في سورة العقود، وهذا التَّحريمُ والتَّحليلُ في الذَّبائح وغيرِها مِن صميم العقودِ القائمةِ على الإيمان، واستثناءُ هذا النَّوع من المُحرَّم فيهِ رحمةٌ بالعباد، وهو مُتناسِبٌ مع إكمال الدِّين، وإتمامِ النِّعمةِ، يعني: "خُلوصَها ممَّا يُخالِطُها مِن الحَرَجِ والتَّعَبِ[1]".

سِرُّ التَّعبير بصيغة الماضي في قوله: ﴿إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ﴾:

جاء التَّعبيرُ بصيغة الماضي: ﴿إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ﴾ لمُوافقةِ الماضي قبلَه مِنْ أوَّلِ الآية: ﴿حُرِّمَتْ﴾، وصيغةُ الماضي -هنا- تُناسِبُ الذَّكاةَ، وهي حالة ليست ذاتًا، يعني: أنَّها تتعلَّقُ بما فيه حياةٌ، ولا تَتعلَّقُ بالحيوان الميِّت، فلو جاءَ بصيغةِ المضارع "تُذَكُّونَ"؛ لجازَ تَعَلُّقُهُ بما سَبَقَ، ولو بعدَ موتِه.

دلالة تحليل الذَّبيحة المذكَّاة بالاستثناء بدلًا من التَّعبير بالأمر في نحو قوله: ﴿فَكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾:

النَّاظر في هذه الآية يلحَظُ أنَّ تحليلَ الذَّبيحةِ (المُذكَّاة) هنا جاء بطريق الاستثناء من السَّابق، ولم يأتِ بطريق الأمرِ مثلًا، كقوله: ﴿فَكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾ [الأنعام: 118]؛ لأنَّ الآيةَ الكريمةَ تتحدَّثُ عن المحرَّم ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ﴾، فهذا النَّوعُ مِنَ ﴿وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ﴾ يجبُ التَّأكُّدُ من حياته قبل الذَّبح، فإنْ كانَ فيهِ حياةٌ أثناءَ الذَّبحِ؛ حَلَّ أكلُه، وتُعرَفُ الحياةُ بِحَرَكَةِ يدِها أو رِجلِها أو ذَنَبِها، أو جريانِ نفَسِها، أو نحوِ ذلك، فإذا صارتْ في حال النَّزْعِ، ولم تُحرِّكْ يَدًا ولا رِجلًا؛ فإنَّها في هذه الحالةِ تُعدُّ ميتةً، ولا تُفيدُ فيها الذَّكاةُ.

دلالة الخطاب في قوله: ﴿ذَكَّيْتُمْ﴾:

دلَّ الخطاب في قوله: ﴿ذَكَّيْتُمْ﴾ على أنَّ الأمر المذكور في التَّذكية يَخُصُّ المسلمينَ، ويُشيرُ بالمُخالفةِ إلى تحريمِ ما ذَبَحَهُ غيرُ المُسلِم، ممَّا لم يُذكرِ اسمُ اللّه عليه، فكأنَّ الآيةَ الكريمةَ تُشيرُ إلى التَّعقُّلِ والحكمةِ ومُراعاةِ الشَّرعِ، ولو لم يكنْ ثمَّةَ وقتٌ.

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/106.

معنى الاستعلاء في قوله: ﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ﴾:

الاستعلاءُ في قوله: ﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ﴾ يُحْتَمَلُ أنْ يكونَ حقيقيًّا، والمقصودُ: تحريمُ الذَّبْحِ على الحجارة الَّتي كانت تُعظِّمُها العربُ، ويُحتمَلُ أنْ يكونَ الاستعلاءُ مجازيًّا، وتكونَ ﴿عَلَى﴾ بمعنى: اللَّام، والمعنى: تحريمُ الذَّبْحِ تَعظيمًا للنُّصُبِ، ومِن أَجْله.

سِرُّ العدول عن (اللَّام) إلى ﴿عَلَى﴾ في قوله: ﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ﴾:

سِرُّ العُدولِ عَنْ حرفِ الاختصاصِ: (اللَّام) إلى حرف الاستعلاء: ﴿عَلَى﴾ إنْ قُدِّرَ الاستعلاءُ مَجازيًّا: هو الإشارةُ إلى مكانةِ تلك الحِجارةِ عند المشركين، الَّتي كان يعبدونها، ويُعظِّمونها، ويَذبحون تَقَرُّبًا لها، وأنَّ تلك الحِجارةَ اسْتَعْلَتْ عليهم، واسْتبدَّتْ بِعقولهم، وهَيمنَتْ عليها؛ حيثُ يأتون إليها صاغرين مُنقادين؛ لِيذبحوا ذبائحَهم تعظيمًا لتلكَ الحجارةِ الصَّمَّاء، وفي هذا نَعْيٌ لِعقولِ المشركين، وتَسْفيهٌ لأفعالهم، وحُرِّمَ فِعْلُ ذلك على المسلمينَ؛ لِمَا فيه مِن الشِّرْك، ولأنَّه مَظْهَرٌ مِنْ مظاهرِ الوَثنيَّة.

وقد عَلَّلَ صاحبُ التَّحريرِ والتَّنويرِ العُدولَ إلى حرف الاستعلاءِ بقوله: "﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ﴾ بِحَرْفِ ﴿عَلَى﴾، ولَمْ يَقُلْ: وما ذُبِحَ لِلنُّصُبِ؛ لِأنَّ الذَّبيحَةَ تُقْصَدُ لِلْأَصْنامِ والجِنِّ، وتُذْبَحُ عَلى الأَنْصابِ، فَصارَتِ الأَنْصابُ مِن شَعائِرِ الشِّرْك[1]".

سرُّ عطف قوله: ﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ﴾ على قوله: ﴿وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾:

لأنَّ ما ذُبِحَ على النُّصُبِ وإن كان مِنْ جِنْسِ ما أُهِلَّ به لِغَير الله؛ فبينهما فرق؛ لأنَّ ما ذبح على النُّصب يُذْبَحُ بَقَصْدِ العبادةِ لغير وَجْهِ الله تعالى، لكنَّه أَخَصُّ منه، فما أُهِلَّ به لغير الله قد يكون ذُبِح لِصَنَمٍ من الأصنام بعيدًا عنه وعن النُّصُب، وما ذُبِحَ على النُّصُبِ؛ لا بُدَّ أنْ يُذْبَحَ على تلك الحجارةِ أو عِنْدَها، ويُنْشَرُ لَحْمُه عليها، فَعُلِمَ مِنْ هذا ومِمَّا قبلَه: أنَّ المُحَرَّماتِ عَشرَةٌ بالتَّفصيل، وأربعةٌ بالإجمال، وكما خَصَّ المُنْخَنِقةَ وما عُطِفَ عليها من المَيْتاتِ بالذِّكْر بسَبَبٍ خاصٍّ معروفٍ؛ لِئلَّا يَغترَّ أَحَدٌ باستباحة أهلِ الجاهليَّة لها.

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/89.

دلالة ذكر ﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ﴾ في سورة المائدة:

ذكر تحريم الذَّبح على النُّصب، وذلك من عطفه على المحرَّمات المذكورة قبله، مع أنَّ هذه السُّورةَ نزلت بعد أنْ مَضَتْ سنون كثيرةٌ على الإسلام، وقد هجرَ المسلمون عبادةَ الأصنام، وأنَّ في المسلمين كثيرين كانوا قريبي عهدٍ بالدُّخول في الإسلام، وهم وإنْ كانوا يَعلمون بُطلانَ عبادةِ الأصنام، أوَّلُ ما يَعلمونه مِن عقيدة الإسلام، فقد كانوا مع ذلك مدَّةَ الجاهليَّةِ لا يَختصُّ الذَّبحُ على النُّصب عندَهم بذبائح الأصنام خاصَّةً، بل يكونُ في ذبائح الجِنِّ ونحوِها من النُّشُرات وذبائحِ دَفْعِ الأمراض ودَفْعِ التَّابِعَةِ عَنْ وِلْدانهم، فقالوا: كانوا يَسْتَدْفِعون بذلك عَن أنفسهمُ البَرَصَ والجُذامَ ومَسَّ الجنِّ، وبخاصَّةٍ الصِّبْيانَ[1].

بلاغة التَّخصيص في قوله: ﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ﴾:

وقوْلُه تعالى: ﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ﴾ جُزْءٌ مِمَّا أُهِلَّ به لغيرِ الله، لكنْ خُصَّ بالذِّكر بَعدَ جِنسِه؛ لشُهرةِ الأَمْرِ، وتَعظيمِ النُّفوسِ له، ولإزالة وَهْمِ مَنْ توهَّمَ أنَّه قد يَحِلُّ بقصْدِ تعظيمِ البيتِ الحرامِ إذا لم يُذكَرِ اسمُ غيرِ الله عليه، قالَ ابنُ كَثِيرٍ: "فَنَهى اللهُ المُؤْمِنِينَ عَنْ هَذا الصَّنِيعِ، وحَرَّمَ عَلَيْهِمْ أكْلَ هَذِهِ الذَّبائِحِ، حَتَّى ولَوْ كانَ يُذْكَرُ عَلَيْها اسْمُ اللهِ؛ لِمَا في الذَّبْحِ عِنْدَ النُّصُبِ مِنَ الشِّرْكِ الَّذي حَرَّمَهُ اللهُ ورَسُولُه[2]".

دلالة التَّعبير عن الأصنام بالنَّصب في قوله تعالى: ﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ﴾:

عبَّر عن الأصنام بالنُّصب؛ لأنَّ الصَّنم يُنصب ويرفع ليعظَّم ويعبد.

سرُّ الوصل في قوله تعالى: ﴿وَأَن تَسْتَقْسِمُواْ بِٱلْأَزْلَٰمِ﴾:

معطوف على المُحرَّم قبلَه؛ لأنَّه من الخُرافات والأوهام الَّتي لا يَركن إليها إلَّا ضعيفُ العقل

والاسْتقسامُ طَلَبُ القِسْمَةِ، وكان المشركون يَسألونَ الأزْلامَ بأنْ تُقَسِّمَ لهم[3].

وقد حرَّم اللهُ تعالى الاستقسامَ بالأزلامِ؛ لأنَّه فيه ادِّعاءٌ بمعرفة الغيب، ولا فَرْقَ بين ذلك وبين قولِ المُنَجِّمين: لا تَخْرُجْ مِنْ أجل نَجْمِ كذا، واخْرُجْ مِنْ أجلِ طلوعِ نجْمِ كذا؛ لأنَّ اللهَ ﷻ يقول: ﴿وَمَا تَدْرِى

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/95.

(2) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 5/41، والجمل، حاشية الجمل: 1/461.

(3) المُبرِّد، مجاز القرآن: 1/153.

﴿نَفۡسٞ مَّاذَا تَكۡسِبُ غَدٗاۖ﴾ [لقمان: 34]، وذلكَ دخولٌ في عِلْمِ اللّه ﷻ الَّذي هو غيبٌ، فهو حرامٌ كالأزلام الَّتي ذَكَرَها اللّه[1].

دلالة عطف قوله: ﴿وَأَن تَسۡتَقۡسِمُواْ بِٱلۡأَزۡلَٰمِۚ﴾ على ما قبله:

وقد ذَهَبَ الطَّاهِرُ بنُ عاشورٍ إلى أنَّ ظاهرَ السِّياقِ يَقتضي أنْ يكونَ قولُه: ﴿وَأَن تَسۡتَقۡسِمُواْ بِٱلۡأَزۡلَٰمِۚ﴾ معطوفًا على ما قَبْلَه؛ "لأنَّ الشَّأْنَ في العَطْفِ التَّناسُبُ بَيْنَ المُتَعاطِفاتِ، فلا جَرَمَ أنَّ هَذا المَعْطُوفَ مِن نَوْعِ المُتَعاطِفاتِ الَّتي قَبْلَهُ، وهي المُحَرَّمُ أكْلُها، فالمُرادُ هُنا النَّهْيُ عَنْ أكْلِ اللَّحْمِ الَّذي يَسْتَقْسِمُونَ عَلَيْهِ بِالأزْلامِ، وهو لَحْمُ جَزُورِ المَيْسِرِ؛ لِأنَّهُ حاصِلٌ بِالمُقامَرَةِ، فَتَكُونُ السِّينُ والتَّاءُ في تَسْتَقْسِمُوا مَزِيدَتَيْنِ كَما هُما في قَوْلِهِمْ: اسْتَجابَ، واسْتَرابَ، والمَعْنى: وأنْ تَقْسِمُوا اللَّحْمَ بِالأزْلامِ[2]".

هنا عَطْفٌ على مُحَرَّماتِ الطَّعامِ الَّتي كان أهلُ الجاهليَّة يستحلُّونها عَمَلًا آخرَ مِن خُرافاتِهم، فقال: ﴿وَأَن تَسۡتَقۡسِمُواْ بِٱلۡأَزۡلَٰمِۚ﴾، أيْ: وحُرِّمَ عليكم أنْ تَطلبوا عِلْمَ ما قُسِمَ لكم، أو تَرجيحَ قِسْمٍ مِنْ مطالبكم على قِسْمٍ بالأزلام، كما تفعلُ الجاهليَّةُ، وجَعَلَ بعضُهم هذا من مُحَرَّماتِ الطَّعام.

القرآن يبطل التَّطيُّر والكهانة والعيافة والعرافة:

سبب تحريم الاستقسام بالأزلام

أمَّا سببُ تحريمِ الاستقسامِ بالأزلامِ؛ فقد قيلَ: لأنَّه طَلَبٌ لِعِلْمِ الغَيْبِ الَّذي استأثَرَ اللّه به؛ لأنَّهم يطلبون معرفة القسم، أي: يطلبون تمييز ما يريدون الشُّروع فيه، ولأنَّ الاستقسام بالأزلام من الخُرافات والأوهامِ الَّتي لا يَرْكَنُ إليها إلَّا مَنْ كان ضعيفَ العقلِ، يفعلُ ما يفعلُ من غيرِ بيِّنةٍ ولا بصيرةٍ، ويَتركُ ما يتركُ عن غيرِ بَيِّنَةٍ ولا بصيرةٍ، ويجعلُ نفسَه ألعوبةً للكهنة والسَّدَنة، ويتفاءلُ، ويتشاءمُ بما لا فَأْلَ فيه ولا شُؤْمَ، فلا غروَ أن يُبْطِلَ ذلك دينُ العقلِ والبصيرةِ والبرهانِ، كما أَبطلَ التَّطَيُّرَ والكهانةَ والعيافةَ والعرافةَ، وسائرَ خرافاتِ الجاهليَّةِ، ولا يَليقُ ذلك كلُّه إلَّا بجهل الوثنيَّةِ وأوهامِها.

(1) ابن الجَوْزِيّ، زاد المسير: 2/185.

(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/96، والجمل، حاشية الجمل: 1/461.

دلالة التَّعبير بالمصدر المؤوَّل في قوله: ﴿وَأَن تَسۡتَقۡسِمُواْ بِٱلۡأَزۡلَٰمِۚ﴾ دون المصدر الصَّريح:

عبَّر بالمصدر المؤوَّل الَّذي يلمح فيه الزَّمن مع الحدث، بخلاف المصدر الصَّريح الَّذي يدلُّ على مجرَّد وقوع الحدث، وفي هذا إشارة إلى أنَّ الاستقسام بالأزلام أو بما هو مثلها أمرٌ يقع فيه صِغارُ العقولِ كِبارُ الأوهامِ في كلِّ زمانٍ ومكانٍ، وعلى عهد كلِّ دينٍ من الأديان، يَسْتَنُّون بِسُنَّة مشركي الجاهليَّة، ولا تطمئنُّ قلوبُهم إلَّا بخرافات الوثنيَّة، فإنْ لم يَسْتقسموا بالأزلامِ؛ اسْتقسموا بما هو مثلُها وما في معناها، ولكنَّهم يُسَمُّون عَمَلهم هذا اسمًا حسنًا، كما يَفعلُ بعضُ المسلمين حتَّى عصرِنا هذا[1].

سِرُّ ترتيب المُحَرَّمات في الآية الكريمة:

التَّدرُّج فيما تأنفه النَّفس البشريَّة والطِّباع السَّويَّة

وقد استوقفني طويلًا سِرُّ ترتيبِ المُحَرَّماتِ في الآية الكريمة، وراجعْت كَمًّا هائلًا من التَّفاسير القديمة والحديثة، لعلِّي أجدُ إجابةً شافيةً، أو إشارةً إلى سِرِّ هذا التَّرتيب؛ لكنَّي لم أَجِدْ أحدًا الْتَفَتَ إلى هذا التَّساؤلِ، وبعدَ تدبُّرٍ طويلٍ هُديتُ إلى أنَّ تَرتيبَ المُحَرَّماتِ هنا جاءَ على حَسَب ما تأنَفُه النَّفسُ الإنسانيَّةُ، وتأباه الطِّباعُ السَّويَّةُ؛ حيثُ بَدَأَ التَّحريمُ بالأشدِّ، فالأَقَلِّ شِدَّةً، فممَّا لا شكَّ فيه أنَّ أَكْلَ المَيْتة أَشَدُّ مِن أَكْلِ الدَّم وأغلَظ، وأكلُ الدَّم تَنفِرُ مِنْه النُّفوسُ أكثرُ مِنْ أكلِ لحم الخنزير، ولْنَقِس على هذا أكلَ المنخنقة والموقوذة والمتردِّية وما أكل السَّبُعُ؛ حيث نلحظ أنَّ أَكْلَ الموقوذة أخفُّ وَطْأةً من أَكْلِ المُنْخَنِقة، وهكذا.

ولعلَّ هذا التَّرتيبَ مقصودٌ به لَذْعَ تلك الطَّبيعةِ المُستوحشةِ الَّتي كان عليها العربُ في جاهليَّتهم في طُعومهم، وكيفَ أنَّها انفكَّت عن الطَّبيعة الإنسانيَّة البشريَّة السَّوِيَّة؛ فأقبلت تلتهم كلَّ ما تجده من مأكول، دون نظرٍ لأيِّ اعتباراتٍ صحيَّةٍ أو نفسيَّةٍ أو حتَّى بشريَّة.

ويضاف إلى ذلك في بيان سرِّ التَّرتيب: أنَّه يكون على نوعين: إمَّا

(1) رضا، تفسير المنار: 6/149.

أن يكون ترتيبًا تصاعديًّا أو تنازليًّا، أو يكون التَّحريم مؤبَّدًا أو مؤقَّتًا لعلَّة؛ فإذا نظرنا إلى التَّرتيب في هذه الآية؛ وجدنا أنَّها جمعت الأمرين معًا، فقدَّمت ما كان تصاعديًّا في شدَّة الضَّرر، وما كان تحريمه مؤبَّدًا؛ فبدأ بالميتة؛ لأنَّها أشدُّ ضررًا على الإنسان وصحَّته، ولأنَّ ملابسة النَّاس للميتة والأكل منها هو الأكثر من تناول الدَّم المسفوح؛ لذا كان تقديم الميتة على الدَّم، وأمَّا لحم الخنزير؛ فوجوده في المنطقة العربيَّة كان قليلًا؛ لذلك كان ذكره بعد تحريم الدَّم المسفوح من باب بيان كمال التَّشريع، ولأنَّ رسالة الإسلام عالميَّة، وليس من بيان الواقع؛ لأنَّ العرب لم تكن تربِّيه وتقتنيه لاختلاف طبيعة المناخ، فمناخ الجزيرة العربيَّة لا يتواءم مع طبيعة تربية الخنزير؛ لذلك كان التَّنصيص على تحريم اللَّحم، وفي هذا سدٌّ للذَّرائع، فمع أنَّه لا يُربَّى فقد يُؤتى بلحمه؛ لذلك حرَّم القرآن أكل لحمه.

وبعد ذلك حُرم طعام المذبوح لغير الله، وجاء فاصلًا بين المحرَّم على التَّأبيد، والمحرَّم لعلَّة موقوتة، وبدأه بالمنخنقة، وقدَّمها على ما بعدها؛ لأنَّ نسبة وقوع المنخنقة أكثر من التي بعدها، فمنها ماهو بفعل الإنسان، كما كان يفعل بعض أهل الجاهليَّة، فكانوا يخنقون الشَّاة، فإذا ماتت؛ أكلوها، ومنها الخنق بحبل الصَّائد، ومنها بفعل الشَّاة نفسها حيث تدخل رأسها بين عودين في شجرة، فتختنق، فتموت، أمَّا الموقوذة؛ فنسبة وجودها أقلُّ؛ لأنَّ الحفاظ على بهيمة الأنعام أمر مطلوب، وضربها حتَّى تموت ليس أمرًا طبيعيًّا، ونسبته أقلُّ، وهكذا كلُّ صنف يأتي من هذه الأصناف؛ نسبته أقلُّ من سابقه؛ لذلك كان التَّرتيب هنا - في هذه الأنواع من قوله: ﴿وَٱلْمُنْخَنِقَةُ﴾ وما بعدها - ترتيبًا تنازليًّا لقلَّة كلِّ صنفٍ عن سابقه.

سِرُّ الفَصْل بين تلك المُحَرَّمات من المأكول من الحيوان بقوله تعالى: ﴿وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾:

كان الظَّاهرُ أنْ يقالَ: (حُرِّمَت عَلَيكُم المَيتَة وَالدَّم وَلَحمُ الخنزير وَالمُنخَنِقَة وَالمَوقُوذَة وَالمُتَرَدِّيَة وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُع إِلَّا مَا ذَكَّيتم وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُب)، ﴿وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾. لكنَّه فصل بين تلك المُحَرَّمات بقوله: ﴿وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾؛ ليكونَ بمنزلة ميزانٍ، ووَاسطةِ عقْدٍ بين تلك المُحَرَّماتِ العشرة الواردةِ في الآية الكريمة، هذا الفَصْلُ أوقفَ تتابعَ ذِكْرِ المُحَرَّماتِ وتلاحقِها، بجملةٍ تُصَحِّحُ عقيدةَ المسلمين مِن أيِّ شائبةِ شِرْك؛ فالتَّحريمُ السَّابقُ و اللَّاحقُ في ذات الحيوان المأكول، أمَّا التَّحريمُ هنا؛ فليس في ذات

الحيوانِ، وإنَّما لِما صَحِبَه مِنْ عَمَلٍ فيهِ شِرْكٌ باللّه تعالى، وكما كانت تلك الجملةُ الفاصلةُ بمنزلة الدَّليلِ والمُرشدِ والبيانِ، وكان لها دورُها في تَبطيء سُرْعةِ السِّياق وتَدَفُّقِه، بجملة تَأَمُّلِيَّةٍ تصحيحيَّةٍ لمفهوم خاطىء، دَرَجَ عليه المخاطَبون رِدْحًا من الزَّمن في جاهليَّتهم.

دلالة ختام المحرَّمات بقوله: ﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُواْ بِٱلْأَزْلَٰمِ﴾:

جاءت تلك الجملتان: ﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُواْ بِٱلْأَزْلَٰمِ﴾ خِتامًا للمُحَرَّمات المذكورة، مع أنَّها لا تتعلَّقُ بذات الحيوان المأكولِ، وإنَّما تتعلَّقُ بعقيدة المسلم في وجوب توجيهِ تعظيمِه إلى اللّه تعالى خالقِه وحده، سبحانه، وليس لِبَشَرٍ ولا لِحَجَر، كما يُفهَمُ من قوله تعالى: ﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ﴾، كما كان ختامُ المُحَرَّمات - أيضًا- بجملة مُطَهِّرةٍ لعقيدةِ المخاطبين والمُؤمنين جميعًا من الخُرافات والضَّلالات، كما يدلُّ عليه مفهومُ قوله تعالى: ﴿وَأَن تَسْتَقْسِمُواْ بِٱلْأَزْلَٰمِ﴾.

وهكذا رأينا هذا التَّرتيبَ العجيبَ لتلك المُحَرَّماتِ العشرةِ، وكيف كان دورُ تلك الجُمَلِ الثَّلاثِ المُشارِ إليها في تَهدئة السِّياقِ، وفي التَّأكيد على أنَّ الإسلامَ دِينٌ ودُنْيا، وأنَّه ليس مُجَرَّدَ صلواتٍ محصورةٍ فقط في المساجد، وإنَّما هو الدِّينُ الشَّاملُ الَّذي يُراعي مُتطلَّباتِ الرُّوحِ والجسدِ والعقلِ.

نُكْتة التَّعبير باسم الإشارة في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ﴾:

اسم الإشارة راجع إلى الاستقسام بالأزلام خاصَّة، وهو مرويٌّ عن ابن عباس رضي الله عنهما وقيل: إلى جميع ما تقدم؛ لأنَّ معناه: حرَّم عليكم تناول الميتة، وهكذا فرجع اسم الإشارة إلى هذا المقدَّر.

وهذا الرَّأي الأخير الموافق للقاعدة؛ لأنَّه إذا أمكن حمل اسم الإشارة على كلِّ ما سبق؛ حُمل عليه.

دلالة تعريف المسند إليه باسم الإشارة:

عُرِّفَ المسنَدُ إليه باسم الإشارة؛ لتشخيصه، ولِلتَّنْبِيهِ عَلَيْهِ؛ حتَّى يَقَعَ الحُكْمُ عَلى مُتَمَيِّزٍ مُعَيَّنٍ.

وأشيرَ إلى المُحرَّماتِ المذكورةِ في الآية الكريمة باسم الإشارة للبعيد؛ لكونِها شديدةَ الخُبْثِ؛ ولِتعظيم النَّهْيِ عنها[1].

(1) الجمل، حاشية الجمل: 1/1461، والبِقاعيّ، نَظْم الدُّرَر: 6/14.

سرُّ وصف الوقوع في المحرَّمات بالفسق في قوله: ﴿ذَٰلِكُمۡ فِسۡقٌۗ﴾:

اختار وصف الفسق؛ لأنَّ معناه: الخُرُوجُ مِن مَكانٍ مُحْتَوٍ جامِعٍ، يُقالُ: فَسَقَتِ الرُّطَبَةُ؛ خَرَجَتْ مِن قِشْرِها، واسْتُعْمِلَت اللَّفْظَةُ في الشَّرْعِ، فِيمَنْ يَخْرُجُ مِنَ احْتِواءِ الأمْرِ الشَّرْعِيِّ وإحاطَتِهِ[1]، والفِسْقُ: الخُرُوجُ عَنِ الدِّينِ، وعَنِ الخَيْرِ، وهو المناسب هنا؛ لأنَّ أكل الميتة - وما عطف عليها- خروجٌ عن الفطرة الإيمانيَّة، وأنَّ الذَّبح على النُّصب والاستقسام بالأزلام خروجٌ عن منهج الدِّين.

دلالة موقع قوله تعالى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمۡ فَلَا تَخۡشَوۡهُمۡ وَٱخۡشَوۡنِۚ﴾ بين آية المحرَّمات وآية الرُّخصة ﴿فَمَنِ ٱضۡطُرَّ فِي مَخۡمَصَةٍ﴾:

الاعتراض لتأكيد معنى التَّحريم

جاءت هذه الآية معترضة بَيْنَ آيَةِ المُحَرَّماتِ المُتَقَدِّمَةِ، وبَيْنَ آيَةِ الرُّخْصَةِ الآتِيَةِ، وهي قَوْلُهُ: ﴿فَمَنِ ٱضۡطُرَّ فِي مَخۡمَصَةٍ﴾؛ لأنَّ اقْتِرانَ الآيَةِ بِفاءِ التَّفْرِيعِ يَقْضِي بِاتِّصالِها بِما تَقَدَّمَها، ولا يَصْلُحُ لِلِاتِّصالِ بِها إلَّا قَوْلُهُ: ﴿حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةُ﴾ الآيَة.

ومُناسَبَةُ هَذا الِاعْتِراضِ: هي" أنَّ اللَّهَ لَمَّا حَرَّمَ أُمُورًا كانَ فِعْلُها مِن جُمْلَةِ دِينِ الشِّرْكِ، وهي ما أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ، وما ذُبِحَ عَلى النُّصُبِ، وتَحْرِيمُ الِاسْتِقْسامِ بِالأزْلامِ، وكانَ في كَثِيرٍ مِنها تَضْيِيقٌ عَلَيْهِمْ بِمُفارَقَةِ مُعْتادِهِمْ، والتَّقْلِيلِ مِن أقْواتِهِمْ، أعْقَبَ هَذِهِ الشِّدَّةَ بِإيناسِهِمْ بِتَذْكِيرِ أنَّ هَذا كُلَّهُ إكْمالٌ لِدِينِهِمْ، وإخْراجٌ لَهم مِن أحْوالِ ضَلالِ الجاهِلِيَّةِ، وأنَّهم كَما أُيِّدُوا بِدِينٍ عَظِيمٍ سَمْحٍ، فِيهِ صَلاحُهم، فَعَلَيْهِمْ أنْ يَقْبَلُوا ما فِيهِ مِنَ الشِّدَّةِ الرَّاجِعَةِ إلى إصْلاحِهِمْ؛ فالبَعْضُ مَصْلَحَتُهُ راجِعَةٌ إلى المَنافِعِ البَدَنِيَّةِ، والبَعْضُ مَصْلَحَتُهُ راجِعَةٌ إلى التَّرَفُّعِ عَنْ حَضِيضِ الكُفْرِ، وهو ما أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ، وما ذُبِحَ عَلى النُّصُبِ، والِاسْتِقْسامُ بِالأزْلامِ ذَكَّرهم بِفَوْزِهِمْ على مَن يُناوِيهِمْ، وبِمَحاسِنِ دِينِهِمْ وإكْمالِهِ، فَإنَّ مِن إكْمالِ الإصْلاحِ إجْراءَ الشِّدَّةِ

(1) ابن عطِيَّة، المُحَرّر الوجيز، ص: 510.

عِنْدَ الاقْتِضاءِ، وذُكِّرُوا بِالنِّعْمَةِ عَلى عادَةِ القُرْآنِ في تَعْقِيبِ الشِّدَّةِ بِاللِّينِ، وكانَ المُشْرِكُونَ زَمانًا، إذا سَمِعوا أحْكامَ الإسْلامِ؛ رَجَوْا أنْ تَثْقُلَ عَلى المُسْلِمِينَ، فَيَرْتَدُّوا عَنِ الدِّينِ، ويَرْجِعُوا إلى الشِّرْكِ، كَما قالَ المُنافِقُونَ: ﴿لَا تُنفِقُواْ عَلَىٰ مَنۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّواْۗ﴾ [المنافقون: 7]، فَلَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الأحْكامُ؛ أنْزَلَ اللَّهُ هَذِهِ الآيَةَ بِشارَةً لِلْمُؤْمِنِينَ، ونِكايَةً بِالمُشْرِكِينَ[1]".

دلالة التَّعبير باليوم بدلًا من الآن في قوله: ﴿ٱلۡيَوۡمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمۡ﴾:

عبَّر باليوم دون (الآن)؛ لأنَّها تُستعمل للزَّمن الحاضر، كما قال اللّه لفرعون عند الغرق: ﴿ءَآلۡـَٔـٰنَ وَقَدۡ عَصَيۡتَ قَبۡلُ﴾، أمَّا لفظ اليوم؛ فله أكثر من إطلاق؛ لذلك ليس المقصودُ بـ﴿ٱلۡيَوۡمَ﴾ في قوله: ﴿ٱلۡيَوۡمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمۡ فَلَا تَخۡشَوۡهُمۡ وَٱخۡشَوۡنِۚ﴾ يومًا بعينه، وإنَّما "أرادَ به الزَّمانَ الحاضرَ، وما يتَّصلُ به ويُدانيه من الأزمنةِ الماضيةِ والآتيةِ، كقولكَ: كنت بالأمس شابًّا، وأنت اليومَ أشيبُ، فلا تريدُ بالأمس اليومَ الَّذي قبل يومِك، ولا باليومِ يومَك، والمعنى: يَئِسَ الَّذينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ، يَئِسوا منه أنْ يُبْطِلوه، وأنْ تَرْجِعوا مُحَلِّلِينَ لهذه الخبائثِ بعد ما حُرِّمَتْ عليكم، وقيل: يئسوا مِنْ دِينكم أنْ يَغلبوه؛ لأنَّ اللَّهَ ﷻ وَفَّى بوعده مِنْ إظهاره على الدِّين كلِّه، فَلا تَخْشَوْهُمْ بعدَ إظهارِ الدِّين، وزوال الخوفِ من الكفَّار وانقلابهم مغلوبين مقهورين، بعدَ ما كانوا غالبين، واخْشَوْنِي، وأَخْلصوا لي الخَشيةَ[2]"، وهذا من باب المعرفة الَّتي يراد بها النَّكرة.

ويجوز أن يكون المراد باليوم، اليوم الحاضر الذي نزلت فيه الآية في حجَّة الوداع، وعلى ذلك؛ فاختيار لفظ اليوم هو المناسب لدلالته على أكثر من معنى، وفي كلِّها أمر الامتنان على المسلمين ظاهرٌ في كلِّ أزمنتهم.

دلالة التَّعبير بالفعل ﴿يَئِسَ﴾ بدلًا من القنوط في قوله تعالى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمۡ﴾:

عبَّر باليأس دون القنوط؛ لوجود فرق بينهما: فاليأس معناه في اللُّغة: انتفاء الطَّمع، والقنوط: اليأس من الخير[3].

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/99.
(2) الزّمخشريّ، الكشَّاف: 1/322.
(3) الرّاغب، المفردات: (يئس)، و(قنط).

والنَّاظر في آيات القرآن الكريم يجد فرقًا بينهما: فاليأس يأتي دائمًا في مواضع الكفر، وأنَّه أكثر ما يصدر عن الكافرين؛ لأنَّ اليأس نقيض الرجاء، بل هو انقطاع الرجاء عمومًا، والكافر لا يرجو بعثًا ولا نشورًا ولا حياةً آخرة، بل هو منقطع عن ذلك كلِّه؛ لذلك ناسب مجيئه في هذه الآية؛ لأنَّ السِّياق يدلُّ على عموم انقطاع الرَّجاء للكافرين في أن يعود المسلمون إلى ما كانوا عليه من ارتكاب المحرَّمات قبل تحريمها أو يطمعون في فتور انتشار الدِّين، وارتداد متَّبعيه، يؤكِّد هذا أنَّ الفعل (يئس) يتعدَّى بـ (من) إلى الشَّيء الذي كان مرجوًّا من قبل، وكان المشركون وأعداء الإسلام يرجون عدم ظهوره، فقطع رجاؤهم في إزهاق الدِّين.

أمَّا القنوط؛ فهو اليأس من الخير خاصَّةً؛ لذا جاء مقترنًا في القرآن الكريم باليأس من رحمة الله وفضله، قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ﴾ [الشورى: 28]، وقال تعالى: ﴿لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ [الزمر: 53]، فالملاحظ أنَّ القنوط يقع في خطاب المؤمنين في عدم اليأس من رحمة الله تعالى، ورحمته تعالى نوعٌ من الخير؛ لذا وقع القنوط معها.

وممَّا يدلُّ على أنَّ اليأس غير القنوط: اقترانهما في التَّركيب، قال تعالى: ﴿لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ ﴿٤٩﴾﴾ [فصلت: 49].

وعلى ذلك فاليأس يختلف عن القنوط؛ لأنَّه يُستعمل للأمر الذي لا يقع، ولا يرجى وقوعه، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا۟ مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْقُبُورِ ﴿١٣﴾﴾ [الممتحنة: 13] إلى غير ذلك من الآيات التي تؤكِّد هذا المعنى.

سرُّ التَّعبير بـ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ دون الكافرين في قوله: ﴿ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمْ﴾:

عبَّر بـ ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ دون الكافرين؛ لأنَّ الفعل ﴿كَفَرُوا۟﴾ يفيد عمل الكافرين وإصرارهم على وجوده؛ فكلَّما عُرض عليهم الإيمان؛ كفروا، وهو المناسب لسياق الآية؛ لأنَّهم بذلوا كل الأسباب لردِّ الدَّعوة الإسلاميَّة بكلِّ الوسائل الَّتي اتَّبعوها من الصَّدِّ والظُّلم والمشاقَّة، بخلاف وصف الكافرين، وإن كان وصفًا لازمًا إلَّا أنَّه لا يلزم منه بذل الأسباب في رفض الدَّعوة والعمل على إجهاضها وعدم ظهورها.

دلالة التَّعبير بالفعل الماضي ﴿كَفَرُواْ﴾:

عبَّر بالفعل الماضي للدَّلالة على أنَّ الكفر رسخ في قلوبهم وتمكَّن منها.

دلالة التَّعبير بالدِّين في قوله: ﴿مِن دِينِكُمۡ﴾ دون شريعتكم:

عبَّر بلفظ الدِّين في قوله: ﴿مِن دِينِكُمۡ﴾؛ لأنَّه أعمَّ، فيشمل الإسلام والإيمان والشَّريعة، بخلاف لفظ الشَّريعة؛ فهو جزء من الدِّين، وفيه إشارة إلى نسخ الأديان السَّابقة وما تحمله من شرائع؛ لأنَّه لو قال شريعتكم؛ لتوهِّم أهل الكتاب بقاء دينهم وشريعتهم.

سِرُّ العدول عن صيغة الحَصْر إلى صيغتَي الإثباتِ والنَّفْيِ في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَخۡشَوۡهُمۡ وَٱخۡشَوۡنِۚ﴾:

وقد أفادَ التَّعبيرُ بقوله تعالى: ﴿فَلَا تَخۡشَوۡهُمۡ وَٱخۡشَوۡنِۚ﴾: القَصْرَ، وعَدَلَ عن قول: (فإيَّايَ فاخشوني) إلى ما عليه النَّظمُ القرآنيُّ: بجُملتَي نفيٍ وإثباتٍ؛ لأنَّ مدلولَ كِلتا الجملتينِ مقصودٌ، فلا يَحْسُنُ حَذْفُ إحداهما، ولأنَّ التَّعبيرَ المذكور هنا هو المناسب للسِّياق؛ بخلاف فإيَّاي فاخشوني، وإن كان يحمل معنى النَّفي والإثبات؛ فمعناه: فإيَّاي فاخشوني، ولا تخشوا غيري، فهذا المعنى مأخوذٌ من الإدماج، أمَّا سياق سورة المائدة؛ فمبنيٌّ على التَّفصيل والإيضاح في بناء عقيدة المسلم، ولا سيَّما أنَّها من آخر ما نزل.

دلالة الفاء في قوله: ﴿فَلَا تَخۡشَوۡهُمۡ وَٱخۡشَوۡنِۚ﴾:

الفاء تدلُّ على التَّفريع، والمعنى المراد: تفريع النَّهي عن خشية المشركين في قوله: ﴿فَلَا تَخۡشَوۡهُمۡ﴾ على الإخبار عن يأسهم من أذى الدِّين؛ لأنَّ يأس العدوِّ من نوال عدوِّه يزيل بأسه، ويُذهب حماسه، ويقعده عن طلبه، فلمَّا أخبر الله في هذه الآية عن يأس الَّذين كفروا؛ طمأن المسلمين من بأس عدوهم، فقال: ﴿فَلَا تَخۡشَوۡهُمۡ وَٱخۡشَوۡنِۚ﴾[1].

طباق السَّلب في قوله: ﴿فَلَا تَخۡشَوۡهُمۡ وَٱخۡشَوۡنِۚ﴾:

في الجملة طباق السَّلب، فقد جمع بين فعل واحدٍ، فالطَّرف الأوَّل: نَهيٌّ ﴿فَلَا تَخۡشَوۡهُمۡ﴾، والطَّرف الثَّاني: أَمْرٌ ﴿وَٱخۡشَوۡنِۚ﴾، وليس الطِّباق بين عدم خشية الكافرين،

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/101.

وخشية الله، فإنَّ الَّذي بينهما تلازم لا تقابل، بل الطِّباق بين مُطلق خشية الكافرين، وخشية الله.

دفع ما ظاهره التَّعارض بين الأمر والنَّهي في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَخۡشَوۡهُمۡ وَٱخۡشَوۡنِۚ﴾:

لا تنافٍ ولا تعارضٌ بين آيات القرآن الكريم

الَّذي يقرأ الآية قد يتوهَّم بوجود تعارض في أسلوب الآية، حيث اشتملت على النَّهي والأمر، ولكن بالتَّأمُّل والتَّدبُّر يتَّضح أنَّه لا تعارض فيها، ذلك أنَّه مِنَ المعلوم أنَّ الخَشية لا يُنهى عنها، ولا يؤمر بها من جهة واحدة من جهةٍ واحدة، بل لا بدَّ أن يكون ذلك من جهتين كما في الآية، فقد نهى عنها في قوله: ﴿فَلَا تَخۡشَوۡهُمۡ﴾ باعتبار كونها للكافرين، أي: فلا تخشوا الكافرين، وأمر بها باعتبار كونها لله في قوله: ﴿وَٱخۡشَوۡنِۚ﴾، فالتَّنافي بينَ النَّهي والأمر إنَّما هو باعتبار أصلهما لا باعتبار مادَّة استعمالهما.

معنى الخشية في قوله: ﴿فَلَا تَخۡشَوۡهُمۡ وَٱخۡشَوۡنِۚ﴾:

الخَشْيَةُ: خوفٌ مع تَعظيمِ المخشيِّ ومحبَّته، وليست مرادفة لمعنى الخوف؛ لأنَّ الخوف أعمُّ من أن يكون من مرهوبٍ مُعَظَّم محبوب أو مرهوبٍ مُبْغضٍ ذميم، أو فيه مهانة لا عظمة فيه، ولذلك عبَّر عن الأخيار بالنسبة لله تعالى بالخشية دون الخوف، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْۗ﴾ [فاطر: 28]، وقوله تعالى: ﴿وَخَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ بِٱلۡغَيۡبِۖ﴾ [يس: 11].

دلالة التَّعبير بالضَّمير في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَخۡشَوۡهُمۡ﴾ دون الاسم الظَّاهر (الكافرين):

عبَّر بالضمير دون الاسم الظَّاهر للتَّهوين من شأن الكافرين وعدم الاهتمام بهم؛ لأنَّهم صاروا في حكم الغيبة وزالت قوَّتهم، ولم يعد لهم ظهور في الجزيرة العربية.

سرُّ إثبات الياء في ﴿وَٱخۡشَوۡنِ﴾ في آية البقرة، وحذفها في موضعي المائدة ﴿وَٱخۡشَوۡنِۚ﴾:

النَّاظر في موضع سورة البقرة يجد أنَّ الفعل لحقته ياء المتكلِّم ﴿وَٱخۡشَوۡنِ﴾ بينما لم تلحق الفعل ﴿وَٱخۡشَوۡنِۚ﴾ في موضعي المائدة.

فقال سبحانه في موضع البقرة: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡ فَلَا تَخۡشَوۡهُمۡ وَٱخۡشَوۡنِي﴾ [البقرة: 150]، وقال في المائدة: ﴿ٱلۡيَوۡمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمۡ فَلَا تَخۡشَوۡهُمۡ وَٱخۡشَوۡنِۚ﴾، وقوله: ﴿فَلَا تَخۡشَوُاْ ٱلنَّاسَ وَٱخۡشَوۡنِ﴾ [المائدة: 44].

من القواعد المقرَّرة أنَّ زيادة المبنى تدلُّ على زيادة المعنى، فموضع البقرة لحقته الياء؛ للدَّلالة على شدَّة التحذير من خشية النَّاس؛ لأنَّ سياق سورة البقرة سبقته أحداث عظيمة، وذلك من ظلم المشركين الذي بلغ الغاية القصوى في إيذاء المسلمين في شعائر دينهم، وصوَّر القرآن هذا الظُّلم بقوله: ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذۡكَرَ فِيهَا ٱسۡمُهُۥ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَآۚ﴾ [البقرة: 114]، وما فعل الكفَّار ذلك إلَّا لقوَّتهم، فدلَّ ذلك على أنَّ الخشية منهم ظاهرة وواضحة.

وأيضًا وقع حادث تحويل القبلة، وهذا الحدث نتج عنه هزَّة عنيفة في نفوس المسلمين، بسبب قوَّة اليهود في المدينة المنورة، واستعمالهم لوسائل التشكيك، فكان مناسبًا إثبات الياء؛ ليقطع من قلوب المسلمين كلَّ وسائل الخشية من البشر عمومًا ومن اليهود خصوصًا، وأن يثبت الخشية الكاملة لله ربِّ العالمين دون غيره.

أمَّا موضع المائدة الذي معنا، وهو الموضع الأول؛ فقد جاء وسط الحديث عن الأطعمة المحرَّمة في قوله تعالى: ﴿حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحۡمُ ٱلۡخِنزِيرِ﴾ ﴿فَلَا تَخۡشَوۡهُمۡ وَٱخۡشَوۡنِۚ﴾، فالتحذير فيها أقلُّ؛ لأنَّ قوَّة المسلمين قد ظهرت، وأنَّ شوكتهم قد قويت، فمجال الخشية من الكفَّار؛ أصبح ضعيفًا؛ لذلك ناسب حذف الياء.

أمَّا الموضع الثَّاني في سورة المائدة؛ فجاء في سياق الحديث عن التَّوراة، وما اشتملت عليه من الهدى والنُّور في قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَا ٱلتَّوۡرَىٰةَ فِيهَا هُدٗى وَنُورٞۚ﴾ [المائدة: 44] الآية، فلا يوجد في سياقها عوامل التَّأثير التي يظنُّ منها الخشية، كما في موضع البقرة وموضع المائدة الأوَّل، فناسب حذف الياء.

دلالة التَّعبير بالخشية دون الخوف في قوله: ﴿فَلَا تَخۡشَوۡهُمۡ وَٱخۡشَوۡنِۚ﴾:

عبَّر بالخشية؛ لأنَّها أعلى من الخوف، فهي أشدُّ الخوف، مأخوذة من شجرة خَشِيَّة؛ إذا كانت يابسة، وذلك فوات بالكلِّيَّة، والخوف من قولهم: ناقةٌ خوفاء؛ إذا كان بها داء،

وذلك نقصٌ، وليس بفوات، ومن ثمَّ خصَّت الخشية بالله تعالى في قوله: ﴿وَيَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلۡحِسَابِ ٢١﴾ [الرعد: 21].

وعلى هذا كان التَّعبير بالخشية هنا هو الأوفق في سياق الآية دون الخوف؛ لأنَّ الخشية تكون من عظم المخشيِّ، وإن كان الخاشي قويًّا، والخوف يكون من ضعف الخائف، وإن كان المُخَوَّف أمرًا يسيرًا[1].

وممَّا يذكر في سرِّ التَّعبير بالخشية دون الخوف: أنَّ الخشية حذرٌ من أمرٍ قد وقع، والخوف حذر من أمر لم يقع[2].

دلالة تقديم الجارِّ والمجرور في قوله: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي﴾:

تقديمُ الجارِّ والمَجْرُورِ لِلْإيذانِ مِن أوَّلِ الأمْرِ بِأنَّ الإكْمالَ لِمَنفَعَتِهِم ومَصْلَحَتِهِم

قُدِّم الجارُّ والمَجْرُورُ على المفعولِ الصَّريحِ في قوله: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي﴾؛ للتَّعجيل ببِشارة المخاطبين، و"لِلْإيذانِ مِن أوَّلِ الأمْرِ بأنَّ الإكْمالَ لِمَنفَعَتِهِم ومَصْلَحَتِهِم، كما في قولِهِ تَعالى: ﴿أَلَمۡ نَشۡرَحۡ لَكَ صَدۡرَكَ ١﴾ [الشّرح: 1]، والمعنى: أتْمَمْتُها بِفَتْحِ مَكَّةَ، ودُخُولِها آمِنِينَ ظاهِرِينَ، وهَدْمِ مَنارِ الجاهِلِيَّةِ ومَناسِكِها، والنَّهْيِ عَنْ حَجِّ المُشْرِكِ، وطَوافِ العُرْيانِ، أوْ بِإكْمالِ الدِّينِ والشَّرائِعِ، أوْ بِالهِدايَةِ والتَّوْفِيقِ[3]".

دفع ما يوهمه ظاهر قوله تعالى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ﴾، بأنَّ الله تعالى لم يَرْضَ لهم الإسلامَ قبلَ ذلك اليوم، وليس كذلك؛ لأنَّ الإسلامَ لم يَزَلْ دِينًا مَرْضِيًّا للنَّبيِّ ﷺ ولأصحابِه الكرام، رضوانَ الله عليهم، مِنْ عند الله منذُ أُرْسِلَ النَّبيُّ ﷺ فكيفَ نُفَسِّرُ هذا الاستشكالَ؟

الجواب: مِن وجهينِ: الأوَّلِ نَحْويٍّ، وهو: أنَّ قولَه: ﴿ٱلۡيَوۡمَ﴾ ظرفٌ

(1) الزركشي، البرهان: 4/78.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 2/44.
(3) أبو السُّعود، إرشاد العَقْل السّليم: 3/6.

للجملتَين الأُوليَين: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي﴾، لا للجملةِ الثَّالثةِ: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ﴾؛ لأنَّ الواوَ الأولى للعطفِ، والثَّانيةَ للابتداءِ، أمَّا الثَّالثةُ: فهي مُطلقةٌ غيرُ مُؤقَّتةٍ[1].

أمَّا الجوابُ الثَّاني: فهو يتَّصلُ بالمعنى العامِّ المرادِ؛ فقد قال تعالى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ﴾، وهو سبحانه لم يَزَلْ راضيًا بدِين الإسلامِ فيما مضى قبلَ نزولِ هذه الآية الكريمة؛ لأنَّه سبحانَه، لم يَزَلْ يَصْرِفُ نبيَّه ﷺ وعبادَه المؤمنين مِنْ حالٍ إلى حالٍ، ويَرتقي بهم مِنْ درجةٍ إلى درجةٍ أعلى منها، حتَّى أكملَ لهم شرائعَ الدِّين ومعالمَه، وبلغَ بهم أقصى مراتبِه، وأعلى درجاتِه، ثمَّ أنزلَ عليهم هذه الآيةَ: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ﴾، يعني: بالصِّفَةِ الَّتي هو عليها اليومَ، مِن اكتمالِ الفرائضِ والسُّننِ والحدودِ والأحكامِ والحلالِ والحرامِ، ولم يَنْزِلْ بعدَ هذه الآيةِ الكريمةِ حلالٌ ولا حرامٌ ولا شيءٌ من الفرائضِ، إذًا فالصِّفةُ الَّتي عليها الدِّينُ وقتَ نزولِ الآيةِ هي نهايةُ الكمالِ، والمخاطبون عليه الآنَ مُطالبون بالتزامه، وعدمِ مفارقته.

وقد أجمعَ المفسِّرونَ على أنَّ المرادَ باليوم ههنا: يومَ عرفة - وكان يوم الجمعة - بعد العصر في حجَّة الوداع سنةَ عشرٍ، والنَّبيُّ ﷺ واقفٌ بعَرفات على ناقته القصواء[2].

دلالة مجيء جملة ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ﴾:

تعليلٌ لعدم الخشية من الكفَّار

جاءت جملةُ ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ﴾ تعليلًا لجملتَي الإثباتِ والنَّفي في قوله: ﴿فَلَا تَخۡشَوۡهُمۡ وَٱخۡشَوۡنِۚ﴾.

دلالة إعادة لفظ ﴿ٱلۡيَوۡمَ﴾ في قوله: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ﴾:

أعاده لتعداد المنن والنِّعم على المؤمنين، فجعل يأس الَّذين كفروا من عدم تمكُّنهم من إبطال الدِّين وعدم إظهاره، وعدم خشية المسلمين منهم نعمةً مستقلَّة، وجعل إكمال الدِّين وإتمام

(1) الرَّازيّ، من غرائب آي القرآن، ص: 66.

(2) ابن جرير، جامع البيان: 4/419، والواحديّ، التَّفسير البسيط: 7/254.

النِّعمة، وارتضاء الإسلام للمسلمين دينًا، فكلٌّ منهم نعمة مستقلة يُذكر بها في ذلك اليوم.

دلالة التَّعبير بالدِّين دون الشَّريعة في قوله: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ﴾:

عبَّر بالدِّين؛ لأنَّه أعمُّ من الشَّريعة، فيشمل كلَّ ما كلَّف الله به الأمَّة من العقائد والأعمال والتشريعات، وما تحمله من الأخلاق والنُّظم والمعاملات.

سِرُّ إضافة الدِّين إلى المخاطبين في قوله تعالى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ﴾:

أضيف (الدِّين) إلى المخاطبين في قوله: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ﴾ حيثُ لم يقلْ: (أكملت لكم دِيني)؛ لترغيب المخاطبِين في تَحَمُّلِ تكاليفِ هذا الدِّينِ القويمِ وتَبِعاته، والذَّبِّ عن حِياضه، فهو دينُهم الَّذي أكملَه لهم وارتضاهُ، ولأنَّهم هم القائمون به، المُقيمون له.

دلالة إضافة النِّعمة إليه سبحانه في قوله: ﴿وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي﴾:

أضيفَت النِّعمةُ إليه سبحانه في قوله: ﴿وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي﴾؛ لتَشريفها؛ لأنَّه هو وَلِيُّها ومُسْديها، والمُنْعِمُ بِها عليهم، فهي نِعْمَةٌ حَقًّا، وهم قابِلُوها[1].

سِرُّ وَصْف الدِّين بالكمال في قوله: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ﴾:

وَصْفُ الدِّينِ الَّذي اختارَه الله تعالى لِعباده بالكمال؛ للإيذان بأنَّ الدِّينَ الَّذي اختارَه الله تعالى لَهُم لا نَقْصَ فيه، ولا عَيْبَ ولا خَلَلَ، ولا شيءَ خارجٌ عن الحكمة بوجْهٍ، بل هو الكاملُ في حُسْنه وجلالته.

سرُّ وصف النِّعمة بالتَّمام في قوله تعالى: ﴿وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي﴾:

وُصِفت النِّعْمةُ بالتَّمام في قوله: ﴿وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي﴾؛ إيذانًا بدَوامها واتِّصالِها، وأنَّه لا يَسْلُبُهم إيَّاها بعدَ إعطائها، بل يُتِمُّها لهم بالدَّوام في الدَّارَين.

دلالة تعدية الفعل ﴿أَكۡمَلۡتُ﴾ بحرف اللَّام في قوله: ﴿أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ﴾:

تعديةُ فِعْلِ الكمال بحرف الاختصاص

أتى في الكمال باللَّام المُؤذنة بالاختصاص، وأنَّه شيءٌ خُصُّوا به

(1) ابن القَيِّم، تفسير ابن القَيِّم: 2/100.

دونَ الأمم، وفي هذا دلالة على كمال العناية الإلهيَّة بالمؤمنين، حيث تولَّى اللّه سبحانه إكمال الدِّين لهم، فلم يكل ذلك إلى ملكٍ مقرَّب أو نبيٍّ مرسل.

وممَّا يدلُّ على علوِّ ذلك الكمال: تفرُّد هذه المادَّة اللُّغويَّة بهذا التَّركيب؛ فلم يرد في القرآن الكريم إلَّا مرَّة واحدة في قوله: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ﴾.

دلالة تعدية الفعل ﴿وَأَتۡمَمۡتُ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي﴾ بحرف (على):

تعدَّى الفعل ﴿وَأَتۡمَمۡتُ﴾ بـ(على)؛ لأنَّها بمعنى: الاستعلاء، وفي هذا إشارة إلى علوِّ هذه النِّعمة، وأنَّهم لا دخل لهم فيها، فهي محض فضل من اللّه ﷻ، وأنَّها تلبَّستهم، وأحاطت بهم من كلِّ جانب، وهذا التَّركيب القرآنيُّ يؤكِّد معنى إتمام النِّعمة، وذلك بأنَّ اللّه وصل لهم نعمة الدُّنيا بنعمة الآخرة، بخلاف تعدِّيها بـ (إلى)، كما في قوله: ﴿ثُمَّ أَتِمُّواْ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيۡلِۚ﴾ [البقرة 187]، فالإتمام غايته زمانية، وهكذا كلُّ تركيب تعدَّى بحرف يؤدِّي معناه من خلال ذلك الحرف.

دلالة التَّعبير بالفعل الماضي ﴿وَأَتۡمَمۡتُ﴾ دون المضارع، كما في قوله: ﴿وَلِأُتِمَّ نِعۡمَتِي عَلَيۡكُمۡ﴾:

عبَّر بالماضي لمناسبة سياق سورة المائدة، فهي من أواخر ما نزل من القرآن، فأُريد من التَّعبير بالماضي تحقُّق ثبوت النِّعمة، وفي هذا بشارة للمؤمنين بأنَّ نعم اللّه عليهم متحقِّقة، ولن تزول، وفيه تعريضٌ بالكافرين بأنَّهم لن يستطيعوا سلب المؤمنين النِّعم الَّتي أنعم اللّه بها هو عليهم؛ لأنَّ التَّعبير بالماضي يدلُّ على رسوخها وتمكُّنها، أمَّا التَّعبير بالمضارع في سورة البقرة؛ فهو مناسبٌ لسياق السُّورة بتبشير المؤمنين بفتح مكَّة، وانتشار الإسلام في جزيرة العرب كلِّها، ومنع المشركين من حجِّ بيت اللّه الحرام، إلى غير ذلك من النِّعم التي تحقَّقت للمسلمين بعد ذلك.

دلالة تأخير المفعول في قوله: ﴿وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي﴾ دون تقديمه، كما في موضع البقرة:

أخَّره؛ لأنَّ المقام يقتضي ذكر المُنعم عليهم قبل ذكر النِّعمة، ولأنَّ ذكر المُنعم عليهم، يلزم منه وجود النِّعمة، بخلاف موضع سورة البقرة؛ فقدَّم الحديث عن النِّعمة من باب البشارة للمؤمنين، بما يمنحهم اللّه من نِعَمٍ كانوا ينتظرونها، ويطلبونها من مثل: فتح مكَّة والانتصار على اليهود، وخلوِّ الجزيرة العربية من الشِّرك، كلُّ ذلك ناسب تقديم النِّعمة على المُنعم عليهم.

الفرق بين الكمال والتَّمام في قوله: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي﴾:

الكمال أخصُّ بالصِّفات والمعاني، وأمَّا الإتمام؛ فيكون في الإيمان والمعاني

النَّاظر في الآية القرآنيَّة يجد أنَّ الكمال له معنى يميِّزه من التَّمام، فالكمال صفة تتوجَّه إلى الأعراض، وأمَّا التَّمام؛ فصفةٌ تتوجَّه إلى الجواهر والأعيان، يؤكِّد ذلك ما ذكره ابنُ قيِّم الجَوزيَّةِ في الفرقِ بين الكمالِ والإتمامِ بقوله: "الكمالُ أخصُّ بالصِّفاتِ والمعاني، ويُطلَقُ على الأعيانِ والذَّواتِ، ولكن باعتبار صفاتِها وخواصِّها، وأمَّا الإتمامُ: فيكونُ في الإيمانِ والمعاني، ونِعَمُ اللّٰه أعيانٌ وأوصافٌ ومَعانٍ.

وهذا المعنى الذي ذكره ابن القيِّم يؤكِّد على الفرق بينهما وعدم ترادفهما، فكلُّ لفظ منهما له معنًى يختلف عن الآخر، فالتَّمام لنفي النَّقص، والكمال لنفي العيب والنَّقص منه، وعلى ذلك فالكمال أبلغ؛ لأنَّ التَّتميم يرد على النَّاقص فيتمَّمه، والتَّكميل يرد على التَّامِّ، فيكمله، فهو أمرٌ زائدٌ على التَّمام[1]، ويظهر ذلك الفرق جليًّا في قوله تعالى: ﴿فَمَن لَّمۡ يَجِدۡ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٖ فِي ٱلۡحَجِّ وَسَبۡعَةٍ إِذَا رَجَعۡتُمۡۗ تِلۡكَ عَشَرَةٞ كَامِلَةٞۗ﴾ [البقرة: 196]، فكاملة هنا أبلغ من تامَّة؛ لأنَّ التمام في العدد قد عُلم بإضافة الثَّلاثة إلى السَّبعة، لكن قد يرد احتمال نقصٍ في الأوصاف، فجاء التَّعبير بالكمال لنفي هذا النَّقص.

وممَّا يؤكِّد الفرق بينهما أنَّ الكمال استعمل في أمر الرَّضاع، قال تعالى: ﴿۞وَٱلۡوَٰلِدَٰتُ يُرۡضِعۡنَ أَوۡلَٰدَهُنَّ حَوۡلَيۡنِ كَامِلَيۡنِۖ﴾ [البقرة: 233] ولم يقل: تامَّين؛ للإشارة إلى حصول الغرض الأهمِّ، وهو ما يتعلَّق بمصلحة الرَّضيع.

وممَّا يدلِّل على وجود الفرق بينهما أنَّهما وردا متعاطفين في هذه الآية التي معنا ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي﴾، والعطف يقتضي المغايرة[2].

وبناءً على هذا يفهم السِّرُّ في اختلاف التَّعبير بهما في الآية الكريمة، فقال: ﴿أَكۡمَلۡتُ

(1) أبو حيان، البحر المحيط، (بتصرف): 6/447.
(2) الزركشي، البرهان: 4/84.

لَكُمۡ دِينَكُمۡ﴾، ولم يقل: (أتممت)؛ لإفادة أنَّ الدِّين كامل في نفسه في كلِّ وقت، فالشَّرائع النَّازلة من عند الله في كلِّ وقتٍ كانت كافية للفترة الزَّمنيَّة التي نزلت فيها، فهي كاملة مستقرَّة إلى أن يحدث نسخٌ أو زيادة، ثمَّ أنزل الله الشَّريعة كاملة مستقرَّة إلى آخر الزَّمان، فالدِّين كامل في كلِّ وقت، فهو كمال مخصوص بزمنه، وأمَّا ما ذكر في هذه الآية؛ فهو كمال إلى يوم القيامة.

وأمَّا التَّعبير بقوله: ﴿وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي﴾، ولم يقل: (أكملت)؛ لإفادة أنَّ النِّعمة كانت ناقصة، وإنَّما تمَّت في هذا اليوم بكمال الدِّين الذي استوفى أسبابه وغاياته[1].

سِرُّ التَّعبير بالفعل ﴿وَرَضِيتُ﴾:

أوثِرَ التَّعبيرُ بالرِّضا منسوبًا إلى الله تعالى؛ مع أنَّ الأمرَ هنا أمرُ إيجابٍ وتكليفٍ، للإشارة إلى أنَّ المؤمن الَّذي يبلغُ درجةَ المحبَّةِ لله تعالى يُطيعُه ويَنقادُ له؛ لأنَّ فيه مرضاتَه مِنْ غير نَظَرٍ إلى التَّكليف الَّذي يَتَضَمَّنُ الثَّوابَ والعقابَ[2].

أبديَّة الدِّين الإسلامي؛ لأنَّ الله ارتضاه لنا دينًا

ومعنى ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ﴾: رضيتُ الاستسلامَ لأوامري، والانقيادَ لِمَا شَرَعْتُ لكم مِن أحكام، وما يجبُ عليكم التزامُه من فرائضَ ومعالمَ وحدودٍ.

دلالة تعدِّي الفعل (رضي) باللام دون الباء في قوله: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ﴾:

الرضا بالشيء: الركون إليه وعدم النُّفرة منه، ويقابله السُّخط، فقد يرضى أحدٌ شيئًا لنفسه، فيقول: رضيت بكذا، وقد يرضى شيئًا لغيره، فهو بمعنى اختياره له، واعتقاده مناسبته له؛ فيعدِّي باللَّام للدَّلالة على أنَّ رضاه لأجل غيره، كما تقول: اعتذرت له، وفي الحديث: «إن الله يرضى لكم ثلاثًا»[3].

(1) الرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 6/125.
(2) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 5/2034.
(3) ابن عاشور: التحرير والتنوير: 6/107.

وعلى هذا؛ فتعدِّي الفعل باللام دلَّ على اختياره سبحانه لنا الدِّين، وعبَّر عن اختياره بالرِّضا للدَّلالة على أنَّ المتَّبعين له ﷺ، ومن لم يتبعوه سخط الله عليهم.

دلالة تقديم الجارِّ والمجرور ﴿لَكُمُ﴾ في قوله: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾:

قدَّم الجارَّ والمجرور للدَّلالة على الاختصاص، أي: اختصَّ الله الأمَّة المسلمة بهذا الدِّين الإسلاميِّ، فذكر الإسلام مع الأمم السَّابقة كان وصفًا، ومع هذه الأمَّة دينًا.

دلالة التَّعبير بالفعل الماضي ﴿وَرَضِيتُ﴾:

عبَّر بالفعل الماضي الذي يدلُّ على تحقُّق الوقوع، فهو يشير إلى أنَّ هذا الدِّين الذي ارتضاه لنا دين أبديٌّ لا يبطله شيئًا بعد ذلك، ولا ينسخ أحكامه دين آخر.

سرُّ توسُّط إتمام النِّعمة بين الكمال والرضا في قوله: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾:

توسَّط إتمامُ النِّعمة بين الكمال والرضا للإشارة إلى دور الأمَّة في الحفاظ على كمال الدين في أحكامه والرِّضا بمنهاجه، فالتَّقصير فيهما نقصان للتَّمام.

مناسبة قوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ﴾ لما قبلها:

عـــــودة إلى الحـديـث عن المُحَرَّمات

قال البقاعيُّ: "ولَمَّا تَمَّتْ هَذِهِ الجُمَلُ الاعْتِراضِيَّةُ، الَّتي صارَ ما بَيْنَها وبَيْنَ ما قَبْلَها وما بَعْدَها - بإحْكامِ الرَّصْفِ، وإتقانِ الرَّبْطِ - مِنَ الامْتِزاجِ أشَدَّ مِمَّا بَيْنَ الرُّوحِ والجَسَدِ، المُشِيرَةُ إلى أنَّ هَذِهِ المُحَرَّماتِ هي الَّتي تحَقّق بها أهْلُ الكُفْرِ كَمالَ المُخالَفَةِ، فَأيِسُوا مَعَها مِنَ المُواصَلَةِ والمُؤالَفَةِ؛ رَجَعَ إلى تَتِمَّاتٍ لِتِلْكَ المَحْظُوراتِ، فَقالَ مُسَبِّبًا عَنِ الرِّضا بِالإسْلامِ الَّذي هو الحَنِيفِيَّةُ السَّمْحَةُ المُحَرِّمَةُ لِهَذِهِ الخَبائِثِ؛ لِإضْرارِها بِالبَدَنِ والدِّينِ"[1].

دلالة الفاء في قوله: ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ﴾:

والفاءُ في قوله: ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِى مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ﴾ هي الفاءُ الفصيحةُ، أَفْصحَتْ عن شَرْطٍ تقديرُه: فَإنْ خَشِيتُمُ الهَلاكَ في مَخْمَصَةٍ.

(1) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 6/17.

وقد بَيَّنَ صاحبُ التّحريرِ والتّنويرِ عِلَّةَ تقديرِ الفاءِ الفصيحة بقوله: "لِأَنَّهُ لَمَّا تَضَمَّنَتِ الآياتُ تَحْرِيمَ كَثِيرٍ مِمَّا كانُوا يَقْتاتُونَه، وقَدْ كانَتْ بِلادُ العَرَبِ قَلِيلَةَ الأَقْواتِ، مُعَرَّضَةً لِلْمَخْمَصَةِ عِنْدَ انْحِباسِ الأَمْطارِ، أوْ في شِدَّةِ كَلَبِ الشِّتاءِ، فَلَمْ يَكُنْ عِنْدَهم مِن صُنُوفِ الأَطْعِمَةِ ما يَعْتاضُونَ بِبَعْضِهِ عَنْ بَعْضٍ، فَلا جَرَمَ أنْ يَكُونَ تَحْرِيمُ كَثِيرٍ مِن مُعْتادِ طَعامِهِمْ مُؤْذِنًا بِتَوَقُّعٍ مِنهم، أنْ يُفْضِيَ ذَلِكَ إلى امْتِدادِ يَدِ الهَلاكِ إلَيْهِمْ عِنْدَ المَخْمَصَةِ، فَناسَبَ أنْ يُفْصِحَ عَنْ هَذا الشَّرْطِ المُغْرِبِ عَنْ أحْوالِهِمْ، بِتَقْدِيرِ: فَإنْ خَشِيتُمُ الهَلاكَ في مَخْمَصَةٍ"[1].

دلالة حذف الشَّرط في قوله: ﴿فَمَنِ ٱضۡطُرَّ فِي مَخۡمَصَةٍ﴾:

حذفُ الشَّرط هنا يَتناسَبُ وضِيق المَقام، مقام افتراض الضّرورة والحاجة، فممَّا لاشكَّ فيه أنَّ هذا المقامَ يتطلَّبُ الإيجازَ واختصارَ الكلامِ، وتعيينَ المرادِ مِنْ أخصرِ طريقٍ.

سرُّ بناءِ الفعل للمفعولِ في قوله: ﴿فَمَنِ ٱضۡطُرَّ﴾:

اختُصَّ الفعلُ (اضطُرَّ) بالبناء للمفعول؛ لإفادة سَلْبِ القدرةِ عن الفعل، فَضلًا عن التَّعميم المفهوم مِن حذف الفاعلِ، وهو سببُ الاضطرارِ، ولتَربية المُراقبةِ الإلهيَّةِ في نفوسِ المؤمنين؛ حيثُ لا يُقدِّرُ تلك الضَّرورة بقَدْرها إلَّا صاحبُها.

دلالة التَّعبير بالإضرار دون الحاجة أو الإكراه ونحوها في قوله: ﴿فَمَنِ ٱضۡطُرَّ فِي مَخۡمَصَةٍ﴾:

يَبَيِّن حال الجوع الَّـــذي يبيح للإنسان أكلَ ما حُرِّم عليه

اختار هذا الفعل؛ لأنَّ صيغته تحمل معنى الافتعال من الضَّرر ومادَّتُه تَدورُ حول الضِّيقِ، وهذه الصِّيغةُ تَدُلُّ على التَّكلُّف، فالاضطرارُ: تكلُّفُ ما يَضرُّ بمُلْجِئٍ يُلْجَأ إليه، والضَّرَرُ المُلجِئُ هنا: هو المَخْمَصَةُ، أي: المَجاعةُ الَّتي تُلجِئُ الإنسانَ إلى أكلِ ما تَعافه نفسُه، مثلُ أكلِ المَيْتةِ أو غيرِها.

وممَّا يذكر في سرِّ إيثار الاضطرار دون الحاجة: أنَّ الحاجة أقلُّ من الاضطرار؛ لأنَّ الضَّرورة حمل الإنسان على ما يضرُّ به، ومعنى

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/100.

ذلك: أنَّ الإنسان بلغ حدًّا إن لم يتناول الممنوع هلك أو قارب الهلاك، بخلاف الحاجة؛ فهي ما يحتاجه الفرد أو الجماعة للتَّوسعة ورفع الضِّيق، إمَّا على جهة التَّأقيت أو التَّأبيد، وعلى ذلك فهي أقلُّ من الاضطرار؛ لأنَّه لا يتأتَّى الهلاك بفقدها.

سرُّ التَّعبير بالمخمصة دون الجوع في قوله: ﴿فَمَنِ ٱضۡطُرَّ فِي مَخۡمَصَةٍ﴾:

آثر التَّعبير القرآنيُّ المخمصة دون الجوع؛ لوجود فرق بينهما: حيث تطلق على الجوع الشَّديد الذي يورث خمص البطن، أي: ضموره، بخلاف الجوع الذي هو ضدُّ الشَّبع، وهو الإحساس الذي يصيب الإنسان والحيوان بسبب خلوِّ المعدة من الطَّعام.

لذلك عبَّر القرآن الكريم بالمخمصة هنا؛ لأنَّها تشير إلى حالة الاضطرار الشَّديد الذي يؤدِّي إلى الهلاك الذي أباح اللّٰه بسببه الأكل من الميتة؛ لذلك كانت المخمصة هي الأدقُّ في هذا السِّياق.

دلالة تنوُّع حال المضطرِّ في سورة البقرة وسورة المائدة:

تنوُّع حال المضطر في سورة البقرة، وذلك في قوله: ﴿فَمَنِ ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ﴾ [البقرة: 173] الآية، بخلاف موضع سورة المائدة؛ فجاء قوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱضۡطُرَّ فِي مَخۡمَصَةٍ غَيۡرَ مُتَجَانِفٖ لِّإِثۡمٖ﴾، فالملاحظ أنَّ موضع البقرة اختلف عن موضع المائدة، ويرجع سبب ذلك التَّنوُّع إلى أنَّ موضع سورة البقرة جاء في سياق التَّعريض بالمشركين الذين اتَّخذوا من دون اللّٰه أندادًا، وحرَّموا ما أحلَّ اللّٰه، وكلُّ ذلك من البغي والعدوان؛ لذلك ناسب التَّعبير هناك: ﴿غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ﴾، فنفى البغي والعدوان؛ لأنَّهم كانوا يقعون فيه، بخلاف موضع المائدة؛ فهي من آخر ما نزل، وذكر قبل موضع الاضطرار كمال الدِّين وتمام النِّعمة، وهذا يؤدِّي إلى البعد عن البغي والعدوان عمومًا وعن الأكل من المحرَّمات خصوصًا.

دلالة التَّعبير بقوله: ﴿غَيۡرَ مُتَجَانِفٖ لِّإِثۡمٖ﴾:

يدلُّ هذا التَّعبير على أنَّ المضطرَّ لا يقع في أكل المحرَّمات إلَّا إذا شارف على الهلاك، فكان قوله غير متجانف مؤكِّدًا لذلك؛ لأنَّ معناه غير مائلٍ إلى هذه المحرَّمات، إلَّا إذا خاف على نفسه الهلاك، ولم يكن ثمَّة سبيل إلى طعام غير هذا الطَّعام الخبيث، فيأخذ منه بقدر ما يحفظ حياته، ولا يميل عليه ميل المتشهِّي له المستطيب لأكله؛ لأنَّ هذه المحرَّمات، الأكل منها بغير سبب وصف بالإثم، وهو عين هذه المحرَّمات.

دلالة التعبير عن المحرَّمات بالإثم:

عبَّر عنها بالإثم؛ لأنَّ أكلها في غير اضطرار من أكبر المحرَّمات؛ لذا عبَّر القرآن عنها بالإثم تقبيحًا لها وتنفيرًا منها[1].

دَلالة الجارِّ والمجرور في قوله: ﴿فَمَنِ ٱضۡطُرَّ فِي مَخۡمَصَةٍ﴾:

دلَّ الجارُّ والمجرور على أنَّ المراد بالاضطرارِ هو الوقوعُ في الضَّرورة، أي: المَجاعة، ودَفْعُ الإنسانِ إلى ما يَضرُّه، وحَمْلُه عليه، وهو صيغةُ افْتِعالٍ من الضَّرَرِ، وقد دَلَّنا حرفُ الظَّرفيَّةِ في قوله: ﴿فِي مَخۡمَصَةٍ﴾ على حال الجُوع الَّذي يُبيحُ للإنسان أكلَ ما حُرِّمَ عليه، وهو الجوعُ القاتلُ الَّذي يُحيطُ به إحاطةَ الظَّرْف بالمَظروف، ولا يَجِدُ له حَلًّا، ولا منه مَلاذًا إلَّا أكلَ ما ذُكِرَ، وحالُ كونِه: ﴿غَيۡرَ مُتَجَانِفٖ لِّإِثۡمٖ﴾، أي: كارِهٍ له، وغيرَ مائلٍ إليه، فيُباحُ للمضطرِّ حينئذٍ أنْ يأكلَ ما يُبْقي عليه حياتَه، وما يَسُدُّ رَمَقَه.

دلالة دخول الفاء في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾:

دخلت الفاء؛ لأنَّ جواب الشَّرط جملة اسميَّة توجب الاقتران بها، وذهب البعض إلى أنَّ قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ أغنى عَن جَوابِ الشَّرْطِ؛ لِأنَّه كالعِلَّةِ لَه، وهي دَليلٌ عَلَيْهِ، والتَّقْديرُ: فَمَنِ اضْطُرَّ في مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجانِفٍ لِإثْمٍ؛ فَلَه تَناوُلُ ذَلِكَ، فإنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رحيمٌ، كما قال في الآية نظيرتِها: ﴿فَمَنِ ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ١٧٣﴾ [البقرة: 173].

دَلالة الصِّيغة في صفتَي المغفرة والرَّحمة في قوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾:

الغفورُ: هو عظيمُ المغفرةِ، ودائمُ المغفرةِ، فهو الَّذي يسترُ العيوبَ، ويغفرُ الذُّنوبَ، وصيغةُ (فَعُول) تَدُلُّ على المبالغةِ في كمال المغفرةِ وشُمولِها، وقد وردَ في القرآن الكريم بهذه الصِّيغة إحدى وتسعين مرَّةً، واقترنَ باسم اللّه (الرَّحيم) في كثيرٍ من الآيات، ومنها الآيةُ الَّتي معنا، واقترانُهما في خِتامها يدلُّ على رفع الحرج والإثم، فهو غفورٌ لِمَنْ فعلَ ذلك مُضطرًّا، رحيمٌ بكم؛ حيثُ رَفَعَ الحَرَجَ عنكم، ورحيمٌ بكم؛ حيثُ نفى عنكم الإثمَ و الأذى بأكْلِ شيءٍ من المَيْتةِ، أو ممَّا حرَّم.

(1) عبد الكريم يونس الخطيب، التفسير القرآني: 2/1034.

دلالة تقديم اسم الله الغفور على الرَّحيم:

وتقدَّمَ اسمُ اللّه (الغفور) على (الرَّحيم) في جميع الآيات، ما عدا آيةً واحدةً، تقدَّمَ فيها (الرَّحيم) على (الغفور)، وهو قولُه تعالى: ﴿يَعۡلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا يَخۡرُجُ مِنۡهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعۡرُجُ فِيهَاۚ وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلۡغَفُورُ ۝٢﴾ [سبأ: 2].

وتقديمُ (الغفور) على (الرَّحيم) يُعطي دَلالةً على عظيمِ رحمتِه في سَتره على عبده، وعظيمِ حبِّه له، ففي مغفرتِه رحمةٌ، فلم يسترْه لِيفضحَه، أو لِيستدرجَه، وإنَّما سَتَرَه ليَرحمَه.

وأمَّا تقديمُ (الرَّحيم) على (الغفور) في آية سبأ[1]، فهناك عدَّةُ أمورٍ تُعَدُّ إشاراتٍ لعلَّةِ التَّقديمِ، منها ما يلي:

أ - مَطلَعُ السُّورةِ خالِصٌ في الحديث عن اللّه تعالى، فتَقديمُ الرَّحيمِ مناسِبٌ لبيانِ صفاتِه سبحانه، ورحمتُه تَسبِقُ غضبَه، وسترُه مِن جنس رحمتِه.

ب - بيانُ أنَّ رحمتَه لعبدِه ظاهرةٌ في نِعمه عليه في الدُّنيا والآخرة، فهو رحيمٌ بهم، حيثُ لم يَجعلْ لغيره سُلطانًا عليهم، ولم يكنْ له وَليٌّ من الذُّلِّ.

ج - عِلْمُ اللّه بكلِّ شيء، سواء كان داخلًا في الأرض أم خارجًا منها، وكذلك بالنِّسبة للسَّماء، ما يَنْزِلُ من السَّماءِ وما يعرُج فيها... في هذا العلمِ رحمةٌ قبل السَّتْرِ، فهذا السَّتْرُ إنْ لم يكنْ عَنْ علمٍ تامٍّ؛ لم يكن رحمةً، ولم تَصِحَّ له ثمَّة فائدة، فلذا يُطمئِنُ اللّه عبادَه بتقديم (الرَّحيم) على (الغفور).

د - تقديمُ الرَّحمةِ يَتناسَبُ مع تقديمِ ﴿مَا يَلِجُ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [سبأ: 2] و﴿وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [سبأ: 2]؛ لأنَّ الوُلوجَ والنُّزولَ لأيِّ شيءٍ، كنزول الرَّحمة مِنْ أعلى إلى أسفلَ، وتأخيرُ المغفرةِ يتناسَبُ مع تأخيرِ: ﴿وَمَا يَخۡرُجُ مِنۡهَا﴾ [سبأ: 2] و﴿وَمَا يَعۡرُجُ فِيهَاۚ﴾ [سبأ: 2]؛ لأنَّ هذا السِّترَ العظيمَ للعبدِ خروجٌ من الذَّنب والعَيب، وعُروجٌ في سماءِ العفوِ والصَّفحِ.

تناسب الفاصلة مع مضمون الآية الكريمة:

خَتْمُ الآية الكريمة بصفتَي اللّه تعالى: الغفور الرَّحيم، مُناسِبٌ لمَضمونِ الآية، حيثُ إنَّ

(1) نصر سعيد، تلك الجنّة، ص: 313، وما بعدَها.

مَطلَعَها تحريمٌ لبعض المَطعومات، وقد يُضطرُّ أحدُكم في أكل شيء ممَّا حُرِّم عليه؛ فلا إثمَ عليه في ذلك.

وممَّا يذكر في سرِّ تناسب الفاصلة أنَّها في اختيار صفة المغفرة والرحمة في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، وجود إشارة مضيئة تكشف عن أنَّ إباحة هذه المحرَّمات في حال الاضطرار لا ينفي عنها خبثها، ولا يرفع الإثم للمتلبِّس بها، ولكن رحمة الله ومغفرته هما اللَّتان تمحوان عن المضطرِّ خبثها وإثمها، وفي هذا دعوة لصرف النَّفس عن هذه الخبائث وتجنُّبها ومحاذرة الوقوع فيها مالم يكن مضطرًّا، فرحمته ومغفرته تغسل ما علق به من درن[1].

(1) عبد الكريم الخطيب، التفسير القرآني: 2/1035.

﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْۖ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُۖ فَكُلُواْ مِمَّآ أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَٱذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهِۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ٤﴾ [المائدة: 4]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا ذكَر تعالى ما حرَّمه في الآيةِ المتقدِّمةِ من الخبائثِ الضارَّة لمُتناوِلِها - إمَّا في بدَنِه، أو في دِينه، أو فيهما - واستثنى ما استَثْناه في حالةِ الضَّرورةِ؛ شرَع في بيانِ ما أحلَّه لهم، فقال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْۖ﴾.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلطَّيِّبَٰتُ﴾: الطَّيِّبُ لُغَةً: المُستَلَذُّ، والحلالُ المأذونُ فيه، يُسمَّى أيضًا طيِّبًا؛ تَشبيهًا بما هو مُستَلَذٌّ؛ لأنَّهما اجتمعا بانتفاء المَضرَّةِ[1]، والطَّعام الطَّيِّب في الشَّرع: ما كان متناولًا من حيث ما يجوز، ومن المكان الذي يجوز؛ فإنَّه متى كان كذلك كان طيِّبًا عاجلًا وآجلًا لا يُستوخم.

2) ﴿ٱلْجَوَارِحِ﴾ أي: الصَّوائِدِ أو الكَواسِب -كالكِلابِ والفُهودِ والصُّقورِ وأشباهِها - وهي ما صِيدَ به من سِباعِ البَهائِمِ والطَّير، وأصلُ الاجتراح: الاكتسابُ، والمُفردُ: جارحةٌ، والكَلْبُ الضَّاري جارحةٌ، سُمِّيَت جوارحُ؛ لأنَّها كواسِبُ أنفسِها، مِنْ: جَرَحَ واجْتَرَحَ؛ إذا اكْتَسَبَ[2].

3) ﴿مُكَلِّبِينَ﴾، أي: أصحابَ ضَوارٍ وكلابٍ، وَالمُكَلِّبُ: الَّذي يُعلِّمُ الكلبَ، ويُقالُ: رجلٌ مُكلِّبٌ وكَلَّابٌ، أي: صاحبُ صيدٍ بالكِلابِ، ويقالُ للصَّائد مُكَلِّب؛ لأنَّه يُعَلِّمُ الكَلْبَ الصَّيْدَ، قال الشَّاعرُ:

فبادَرَهُ عند الصَّبَاحِ مُكَلَّبٌ*** أزلُّ كَسِرحَان الهَزيمة أَغْبرُ[3].

(1) الواحديّ، التّفسير البسيط: 7/262.
(2) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة: (جَرَحَ)، وابن قُتَيْبَة، غريب القرآن، ص: 139.
(3) ابن منظور، لسان العرب: (كَلب)، والشّاعر غير معروف.

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

ولمَّا ذَكَرَ اللهُ ما حَرَّمَ أكلَه؛ ذَكَرَ ما أباحَ أكْلَهُ، فقال: يَسألُكَ - أيُّها الرَّسولُ - صحابتُكَ عمَّا يُباحُ لهم أكْلُه من الأطعمةِ، قل - أيَّها الرَّسول - : أَحَلَّ اللهُ لكم ما طابَ من المآكلِ، وأكلَ ما صادَتْهُ المُدرَّباتُ مِنْ ذواتِ الأنيابِ كالكِلاب والفُهود، وذواتِ المَخالِبِ كالصُّقورِ؛ إذا عَلَّمُوها، ودَرَّبوها على طريقةِ الصَّيد، يُعلِّمونها ممَّا امتنَّ اللهُ عليهم من العِلم بآدابِ الصَّيد، حتَّى صارت إذا أُمِرَتْ؛ ائْتَمَرَتْ، وإذا زُجِرَتْ؛ انْزَجَرَتْ، فلْيَأكلوا ممَّا أمسكْنَه لأجْلِهم، ولْيَذكروا اسمَ اللهِ عليها عندَ إرسالِها للصَّيد، واتَّقوا اللهَ بامتثال أوامره، والكَفِّ عن نواهيه، إنَّ اللهَ سريعُ الحسابِ للأعمالِ.

الإِيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالة فَصْل جملة ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْۖ﴾ عن الآية قبلها:

والفَصْلُ في قوله: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْۖ﴾ عن الآية قبلَها؛ إمَّا أنْ يكونَ للاستئناف البيانيِّ النَّاشئِ عن جملةِ ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ﴾ وقولِه: ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِى مَخْمَصَةٍ﴾، وإمَّا أنْ يكونَ الفَصْلُ للاستئناف الابتدائيِّ؛ للانتقالِ من بيان المُحَرَّمات إلى بيان الحلال بالذَّات، وإنْ كان السُّؤالُ لم يَقَعْ، وإنَّما قُصِدَ به توقُّعُ السُّؤالِ، كأنَّه قيلَ: إنْ سألوكَ، وعليه فالمضارعُ بمعنى: الاستقبالِ؛ لِتَوقُّعِ أنْ يَسألَ النَّاسُ عمَّا أُحِلَّ لهم بعد أنْ سمعوا ما حُرِّمَ عليهم، فالنُّفوسُ تتوجَّهُ إلى الإحاطة به، وإلى معرفة ما يُمكنُ أنْ يكونَ قد حُرِّمَ عليهم من غير ما عُدِّد لهم في الآيات السَّابقة.

الاستئناف البيانيُّ أو الاستئناف الابتدائيُّ

سرُّ التَّعبير بالمضارع: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْۖ﴾:

أمَّا دَلالةُ المضارع على معنى الاستئناف البيانيِّ؛ فهي تُجَدِّدُ السُّؤالَ، أيْ: تُكرِّرُه، أو تَوقُّعُ تكرُّرِه[1].

التَّعبير بالمضارع لاستحضار صورة الحدث في الذِّهن، وللدَّلالة على تجدُّد السُّؤال

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/110.

وأوثرَ التَّعبيرُ بالمضارع هنا على التَّعبير بالماضي؛ لاستحضار صورة الحَدَثِ في الذِّهْنِ؛ تَمهيدًا لتَمْكين الإجابةِ في النَّفْس عند وُرودها، "كما دَلَّ التَّعبيرُ بالمُضارِعِ في قوله: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ﴾ على تجدُّد السُّؤالِ، وهذا يدلُّ على حِرْص الصَّحابة - رضوان الله عليهم - على التَّحرِّي مِن جَلِيَّة ما سَكَتَ عنه القرآنُ الكريمُ، فلم يَكْتَفُوا بدَلالة المَفهومِ، حتَّى اسْتوضحوه، وجعلوه بالاستفهام عنه منطوقًا[1]".

دلالة التَّعبير بالضَّمير في قوله: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ﴾:

عبَّر عن المؤمنين بالضَّمير في ﴿يَسْـَٔلُونَكَ﴾؛ ليشمل من سأل تصريحًا أو تلميحًا، ولرفع الحرج عن السَّائلين.

دلالة استعمال الاستفهام في قوله: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْۖ﴾:

بدأت الآيةُ الكريمةُ باستفهام حقيقيٍّ، وذلك في قوله: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْۖ﴾[2]، والمطلوبُ بهذا الاستفهام معرفةُ ما أَحَلَّ اللّه تعالى لعباده من المطعومات، وقد نَشَأَ هذا السُّؤالُ نتيجةَ ذِكْرِ المُحَرَّماتِ في الآية السَّابقةِ، حيثُ عُدِّدَتْ فيها عشرةٌ من المَطْعوماتِ المُحَرَّماتِ.

دلالة إيثار الاستفهام بـ﴿مَاذَآ﴾ على (ما) في قوله: ﴿مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْۖ﴾:

وفي إيثارِ الاستفهامِ بـ﴿مَاذَآ﴾ على (ما)، حيثُ لم يَقُلْ: (ما أُحِلَّ)؛ لتَفخيم شأن المستفهَم عنه، وزيادةُ المبنى مِن دَلالات زيادة المعنى[3].

سرُّ بناء الفعل ﴿أُحِلَّ﴾ للمفعول:

وبُنِي الفعلُ لِلْمَفْعُولِ في قوله: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْۖ﴾؛ ليكونَ طِبْقَ سُؤالِهم؛ ولِعَدَمِ تَعلُّقِ الغرضِ بكونه مِن سائلٍ مُعَيَّنٍ.

لِعَدم تَعلُّق الغَرَض بكونه مِن سائل مُعَيَّنٍ

نكتة العدول في الآية الكريمة من (لنا) إلى ﴿لَهُمْۖ﴾:

السُّؤالُ يتضمَّنُ معنى: القولِ، فهو حكايةٌ لقولهم، وعَدَلَ عن (لنا) إلى ﴿لَهُمْۖ﴾؛ مراعاةً لضمير الغائب في ﴿يَسْـَٔلُونَكَ﴾، فهنا

الـتـفـات من الـتَّـكـلُّـم إلى الغيبة للتَّنبيه

(1) عبد العظيم المَطْعَنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام في القرآن الحكيم: 1/239.

(2) قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ فِي عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ وَزَيْدِ بْنِ الْمُهَلْهِلِ الطَّائِيَّيْنِ، قَالاَ: يَا رَسُولَ الله إِنَّا قَوْمٌ نَصِيدُ بِالْكِلَابِ وَالْبُزَاة، فَمَاذَا يَحِلُّ لَنَا مِنْهَا؟ فَنَزَلَتْ هَذِهِ الآيَة، ينظر: الواحديّ، أسباب نزول القرآن، ص: 194.

(3) المَطْعَنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام في القرآن الحكيم: 1/239.

التفاتٌ من التَّكلُّم إلى الغيبة؛ للتَّنبيهِ وتوجيهِ الذِّهن، ولأنَّ السِّياقَ حكايةٌ عنهم، كما يُقالُ: أقسِمُ لَيفعلنَّ كذا.

دلالة التَّعبير بقوله: ﴿قُلْ﴾ في قوله تعالى: ﴿قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ﴾:

وأَمَرَ اللّٰه تعالى رسولَه ﷺ أنْ يتولّى الجوابَ في قوله: ﴿قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ﴾؛ لأنَّ النَّبيَّ ﷺ هو المُبَلِّغُ للرِّسالة، وهو المُبَيِّنُ لهم والمُرْشِد، وهو المَرْجِعُ، ومِمَّا يتَّفِقُ مع مقام الرِّسالة أنْ يكونَ هو المُجيبَ، لكنْ إذا كان اتِّجاه النَّاس إلى ربِّهم بالضَّراعةِ تَسْقُطُ الواسطةُ بين اللّٰه تعالى وعبادِه، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾﴾ [البقرة: 186][1].

دلالة الجواب بقوله: ﴿قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ﴾ مع أنَّ الطَّيِّبات غير معلومة:

جاء قوله: ﴿قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ﴾ جوابًا لسؤالهم ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْ ۖ﴾؛ لأنَّ المرادَ بالطَّيِّبات هنا الذَّبائِحُ، والعربُ تُسَمِّي الذَّبيحةَ: طَيِّبًا، وتُسَمِّي المَيْتَةَ: خبيثًا، فصار المرادُ معلومًا، لكنَّه مخصوصٌ كغيره من العموميَّات[2].

وتطلق الطَّيِّبات على ما لَمْ تَسْتَخْبِثْهُ الطِّباعُ السَّليمَةُ، ولَمْ تَنْفِرْ عَنْهُ، ومِن مَفْهُومِهِ حَرُمَ مُسْتَخْبَثاتُ العَرَبِ[3].

دلالة تكرار الفعل ﴿أُحِلَّ﴾ في قوله: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْ ۖ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ﴾:

كرَّر الفعل ﴿أُحِلَّ﴾ للدَّلالة على أنَّ أمر التَّحليل والتَّحريم أمْرٌ شرعيٌّ ينبغي الوقوف عنده، وفيه إشارة إلى الامتنان والإعلام بأنَّ ما أحلَّه اللّٰه لهم هو الطَّيِّب دون غيره، وفي هذا إبطال لما كانت تفعله العرب من تحريم ما لا موجب لتحريمه أو تحليل ما هو خبيث.

دلالة تقديم الجارِّ والمجرور ﴿لَكُمُ﴾ على المفعول في قوله: ﴿قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ﴾:

قدَّم الجارَّ والمجرور للعناية بالسَّائلين، ولرفع الحرج عنهم، ولإزالة الوحشة التي أصابتهم من ذكر المحرَّمات العشرة قبل ذلك.

---

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2037.

(2) الرازيّ، من غرائب آي التّنزيل، ص: 66.

(3) البَيْضاوي، أنوار التّنزيل: 1/136.

دلالة التَّعبير عن الحلال بالطَّيِّبات في قوله: ﴿قُلۡ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ﴾:

عبَّر بالطَّيِّبات؛ لأنَّها تحمل في معناها الحلال؛ لأنَّ أصل معنى الطَّيِّب: الطَّهارة والزَّكاة، ومن له أثرٌ حسنٌ في النَّفس، ولمَّا كان كذلك؛ أُطلق على الحلال؛ لأنَّ حلَّه علامة على حسنه وسلامته من المضرَّة، ولذلك كان ذكر الوصف بالطَّيِّب من الأطعمة علَّةً للتحليل، وأفاد أنَّ الحرام ضدُّه، وهو الخبيث، يدلِّل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ﴾ [الأعراف: 157].

دلالة حذف الموصوف وبقاء الصِّفة في قوله: ﴿أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ﴾:

حذف الموصوف، وهو الأطعمة، وأبقى الصِّفة للدَّلالة على تمكُّن وصف الطَّيِّب فيها، أي: في ذات الطَّعام، فلا يكون ضارًّا، ولا ممَّا تكرهه الطِّباع، وتأنف منه النُّفوس، ولا يكون منافيًا للدِّين، وكلُّ من اجتمعت فيه هذه الصِّفات لا يحرمه الدِّين؛ لأنَّه موافق للفطرة والعقل.

بلاغة العطف في قوله: ﴿وَمَا عَلَّمۡتُم مِّنَ ٱلۡجَوَارِحِ﴾:

عطف على الطَّيِّبات بتقدير مضافٍ

﴿وَمَا عَلَّمۡتُم مِّنَ ٱلۡجَوَارِحِ﴾: عَطْفٌ عَلى ﴿ٱلطَّيِّبَٰتُ﴾ بِتَقْدِيرِ مُضافٍ، أيْ: وصَيْدُ ما عَلَّمْتُمُوهُ[1]، ويكون ذلك عطف المفرد، يدلُّ عليه قوله: ﴿فَكُلُواْ مِمَّآ أَمۡسَكۡنَ عَلَيۡكُمۡ﴾، وتكون (ما) على هذا موصولة، و(فاء) ﴿فَكُلُواْ﴾ للتَّفريع، ويجوز أن يكون من باب عطف الجمل، وتكون (ما) شرطيَّة، وجواب الشَّرط ﴿فَكُلُواْ مِمَّآ أَمۡسَكۡنَ﴾[2].

دلالة تسمية الكواسب من السِّباع ونحوها بالجوارح:

﴿ٱلۡجَوَارِحِ﴾: الكَواسِبُ مِن سِباعِ البَهائِمِ والطَّيْرِ - كالكَلْبِ والفَهْدِ والعُقابِ والصَّقْرِ والبازِيِّ والشَّاهِينِ - وسُمِّيت جوارحًا؛ لِأنَّها تَجْرَحُ لِأهْلِها، أيْ: تَكْسِبُ لَهم، ومفردُها: جارِحَةٌ، تَقُولُ العَرَبُ: فُلانٌ جَرَحَ أهْلَهُ خَيْرًا، أيْ: كَسَبَهم خَيْرًا، وفُلانٌ لا جارِحَ لَه، أيْ: لا كاسِبَ،

(1) أوْ مُبْتَدَأٌ، عَلى أنّ: (ما) شَرْطِيَّةٌ، وجَوابُها: (فَكُلُوا).

(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/114.

ومِنهُ قَوْلُه تعالى: ﴿وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ﴾ [الأنعام: 60] أيْ: كَسَبْتُمْ، وقِيلَ: سُمِّيَتْ جَوارِحُ؛ لِأنَّها تَجْرَحُ الصَّيْدَ عِنْدَ إمْساكِهِ غالبًا[1].

سِرُّ عطف قوله: ﴿وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ﴾ على ما قبله:

عطف قولُه: ﴿وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ﴾ على ما قبله؛ "لأنَّ طَيِّبَه قد يَخفى مِنْ جهة خفاءِ معنى الذَّكاةِ في جرح الصَّيدِ، لاسِيَّما صيِّدُ الجوارحِ، وهو مَحَلُّ التَّنبيهِ هنا الخاصُّ بصيد الجوارحِ[2]".

دلالة التَّعبير بقوله ﴿مُكَلِّبِينَ﴾:

عبَّر بقوله: ﴿مُكَلِّبِينَ﴾: وهي حالٌ من الضَّمير المُتَّصل في ﴿عَلَّمْتُم﴾ لبيان نوع التعليم، وهو تعليم المُكلِّب، "والمُكَلِّبُ: مُؤَدِّبُ الجَوارِحِ ومُضْرِيها بِالصَّيْدِ، مُشْتَقٌّ مِنَ الكَلْبِ؛ لِأنَّ التَّأْدِيبَ كَثِيرًا ما يَقَعُ فِيهِ، أوْ لِأنَّ كُلَّ سَبُعٍ يُسَمَّى كَلْبًا؛ لِقَوْلِهِ ﷺ في حَقِّ عُتْبَةَ بْنِ أبِي لَهَبٍ، حِينَ أرادَ سَفَرَ الشَّامِ، فَقالَ النَّبِيُّ ﷺ: «اللهمَّ سَلِّطْ عَلَيْهِ كَلْبًا مِن كِلابِك»، فَأكَلَهُ الأسَدُ.

ومن دلالة التَّعبير بها: المُبالَغَةُ في التَّعْلِيمِ لِما أنَّ الِاسْمَ المُكَلَّبَ لا يَقَعُ إلَّا عَلى النَّحرير في عِلْمِهِ[3]".

دلالة التَّعبير بالمكلِّب دون المعلِّم:

عبر بالمكلِّب دون المعلم؛ لأنَّ المرادَ من المُكَلِّب مُعَلِّمُ الجوارح ومؤدِّبُها، وهو أَعَمُّ مِن أنْ يكونَ مُؤَدِّبًا للكلب ولغيرِه، لكنْ اشتُقَّ له اسمٌ من الكلب؛ لأنَّ التَّأديبَ للكلبِ أكثرُ وآثرُ، ولأنَّ الكلبَ شاملٌ لجميع أنواع السِّباعِ، ومنها جوارحُ الطُّيور[4].

فائدة ذكر ﴿مُكَلِّبِينَ﴾ بعد قوله: ﴿وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ﴾:

وقد يُوهَمُ أنَّ في ذِكْرِ قولِه: ﴿مُكَلِّبِينَ﴾ بعدَ قوله: ﴿وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ﴾ تكرارًا؛ إذْ إنَّ المُكَلِّبَ هو المُعَلِّمُ من كلاب الصَّيد، لكنْ ليس في هذا تَكرارٌ؛ لأنَّ مِن معاني المُكلِّب - أيضًا- أنَّه المُضْري للجارح والمُغْري له، وبناءً على هذا التَّفسير، لا يكونُ قولُه: ﴿مُكَلِّبِينَ﴾

(1) القاسميّ، مَحاسن التَّأويل: 7/1843.
(2) الطَّاهر ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/114.
(3) أبو السّعود، إرشاد العَقْل السّليم: 2/8.
(4) الكازرونّي، حاشية الكازرونّي على تفسير البيضاويّ: 1/136.

من ذكر الخاصِّ بعد العامِّ

تَكرارًا، وعلى التَّفسير الأوَّل يمكنُ التَّأويل بأنَّه مِنْ ذكر الخاصِّ بعدَ العامِّ؛ لأنَّ غالبَ صيدِهم كان بالكِلاب، فَأَخرَجَه مَخْرَجَ الغالِبِ الواقعِ منهم[1].

بلاغة الفصل في قوله تعالى: ﴿تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُۖ﴾:

كمال الاتِّصال بينها وبين ما قبلها

فُصلت جملةُ ﴿تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُۖ﴾؛ لأنَّها استئنافٌ، والمراد: ممَّا علَّمكم اللّه من الحيل وطرق التَّعليم والتَّأديب، فإنَّ العلم بها إلهامٌ من اللّه تعالى، أو مكتسبٌ بالعقل الذي هو منحة منه، أو ممَّا عرَّفكم أن تعلموه من اتِّباع الصَّيد بإرسال صاحبه وانزجاره بزجره وانصرافه بدعائه، وإمساك الصَّيد عليه، وعدم أكله منها[2].

دلالة تكرار مادة العلم في قوله: ﴿وَمَا عَلَّمۡتُم مِّنَ ٱلۡجَوَارِحِ﴾، وقوله: ﴿تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُۖ﴾:

كرَّر مادة العلم؛ للإشارة إلى أنَّه على كلِّ آخذٍ علمًا" ألَّا يَأْخُذَه إلَّا مِن قِبَل أهْلِه عِلْمًا وأبْحَرِهم دِرايَةً، وأغْوَصِهم عَلى لَطائِفِه وحَقائِقِه، واحْتاجَ إلى أنْ تُضْرَبَ إلَيْهِ أكْبادُ الإبِلِ، فَكَمْ مِن آخِذٍ مِن غَيْرِ مُتْقِنٍ، فَقَدْ ضَيَّعَ أيَّامَهُ، وعَضَّ عِنْدَ لِقاءِ النَّحارِيرِ أنامِلَهُ[3]".

وفيه إشارة إلى دقَّة التَّحرِّي في الأكل من صيد الكلاب المرسلة، فلا بدَّ وأن تكون معلَّمة تعليمًا دقيقًا، فلا يكتفى المكلِّب بتعليمه مرَّة أو مرَّتين، بل لا بدَّ من التَّأكُّد أنَّه تعلَّم، فإذا أمره؛ ائتمر بأمره، وانزجر بزجره، وتعلَّم الإمساك عليه؛ لأنَّ ذلك يتعلَّق بأمر المطعومات، وهي من الخطورة في الشَّرع بمكان.

(1) محمّد بن أبي بكر الرّازيّ، من غرائب آي التّنزيل، ص: 66.
(2) أبو السعود، إرشاد العَقْل السّليم: 3/8.
(3) الزَّمَخشريّ، الكَشَّاف: 1/323.

سرُّ تأنيث الضَّمير وجمعه في قوله: ﴿تُعَلِّمُونَهُنَّ﴾:

"أَنَّثَ الضَّميرَ في ﴿تُعَلِّمُونَهُنَّ﴾؛ مُراعاةً لِلَفْظِ الجَوارِح، إذْ هو جَمْعُ جارِحَة[1].

دَلالة (مَنْ) في قوله: ﴿فَكُلُواْ مِمَّآ أَمۡسَكۡنَ عَلَيۡكُمۡ﴾:

و(مِن) لِلتَّبْعِيضِ، وهذا تبعيضٌ شائعُ الاستعمالِ في كلام العربِ عند ذِكر المُتناولات، كقوله: ﴿كُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦٓ﴾، وليس المقصودُ النَّهيَ عن أكل جميعِ ما يَصيدُه الصَّائدُ، ولا أنَّ ذلك احتراسٌ عن أكل الرِّيشِ والعَظْمِ والجِلدِ والقرونِ؛ لأنَّ ذلك كلَّه لا يَتوهَّمُه السَّامع حتَّى يَحترسَ منه[2].

سرُّ العدول عن (اللَّام) إلى (على) في قوله: ﴿فَكُلُواْ مِمَّآ أَمۡسَكۡنَ عَلَيۡكُمۡ﴾:

وعُدِّيَ الفعلُ (أمسك) بحرف الاستعلاءِ، وكان الظَّاهرُ أنْ يَتعدَّى بحرفِ الاختصاص، فيقالُ: أَمْسَكْنَ لكم، ولعلَّ هذا مقصودٌ بما يُوحي به الحرفُ من معنى الاستعلاءِ، أنَّ ما اصطادَتْه تلك الجوارحُ لأصحابها، لا يَحِلُّ أكلُه إلَّا بشروطٍ، منها: وجوبُ ذِكْرِ اسمِ الله تعالى عندَ إطلاقِ الجوارحِ، أو بعدَ اصطيادِ الفريسةِ، وعدم أكل الكَلْب المُعَلَّم منها، وما يَسْتَتْبِعُ هذا من التَّبِعةِ، لوجوب التَّحرِّي مِنْ تَحقُّقِ تلك الشُّروط - المبثوثة في كُتُب الفقه - قَبْلَ أكلِها، وما يُمثِّلُه هذا مِن مسؤوليَّةٍ، تُمثِّلُ ثِقَلًا وعِبْئًا على أصحابِ تلك الجوارحِ المُدَرَّبةِ، وهذا ما جَسَّدَه حرفُ الاستعلاءِ في صورةٍ جَلِيَّةٍ، ولا يَخفى أنَّ الاستعلاءَ - بناءً على هذا المعنى - مجازيٌّ، أمَّا لو قيلَ: (مِمَّا أَمْسَكْن لَكُم) بحرفِ الاختصاص، فقد يُفهَمُ منه إباحةُ الأكلِ مِمَّا تَصطادُه تلك الجوارحِ، دون قَيْدٍ أو شَرْطٍ - وهذا ينافي الواقع - بما يدلُّ عليه هذا الحرفُ من معنى التَّمَلُّكِ والاختصاص.

دلالة التَّعبير بـ ﴿مِمَّآ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَكُلُواْ مِمَّآ أَمۡسَكۡنَ عَلَيۡكُمۡ﴾:

احتراس بليغ

في قوله: ﴿مِمَّآ﴾ بدل (ما): احتراسٌ بليغٌ؛ لاستبعادِ إرادةِ غيرِ المقصود؛ لأنَّه لو قيلَ: (فَكُلوا ما أَمْسَكن عليكم)؛ لجاز أَكْلُ كلِّ ما أمسكَتْهُ الجوارحُ، وهذا لا يجوز شرعًا؛ لأنَّ مِمَّا أمسكَتِ

(1) ابن عطيَّة، المُحَرِّر الوجيز، ص: 516.

(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/116.

الجوارحُ ما لا يجوزُ أكلُه، كأنْ تأكل الجارحةُ ممَّا أمسكَتْهُ، فلا يجوزُ أكلُ ما تبقَّى منه، ولو كان كثيرًا[1].

دَلالة الأمر في قوله تعالى: ﴿فَكُلُواْ مِمَّآ أَمۡسَكۡنَ عَلَيۡكُمۡ﴾:

الأمر في ﴿فَكُلُواْ مِمَّآ أَمۡسَكۡنَ عَلَيۡكُمۡ﴾ للإباحَة، والمَعْنى: كُلُوا مِنَ الصَّيْدِ الَّذي أَمْسَكْنَ لأجلكم، "وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَأَبُو هُرَيْرَةَ - رضي الله عنهما - وَالنَّخَعِيُّ وَقَتَادَةُ وَابْنُ جُبَيْرٍ وَالشَّافِعِيُّ وَأَحْمَدُ وغيرُهم: المَعْنَى: وَلَمْ يَأْكُلْ، فَإِنْ أَكَلَ؛ لَمْ يُؤْكَلْ مَا بَقِيَ؛ لِأَنَّهُ أَمْسَكَ عَلَى نَفْسِهِ، وَلَمْ يُمْسِكْ عَلَى رَبِّهِ، كما وردَ في الحَديثِ الشَّريف الَّذي رواه عَديٌّ، وأخرجه مُسْلِمٌ: أَنَّهُ سَأَلَ رَسُولَ اللهِ ﷺ عَنِ الكَلْبِ المُعَلَّمِ، فَقَالَ: (وَإِذَا أَكَلَ؛ فَلَا تَأْكُلْ، فَإِنَّمَا أَمْسَكَ على نفسه)[2].

تنزيل غير العاقل منزلة العاقل بِتَعَلُّمِها الصَّيد كأنَّها عاقلات

وفي قوله: ﴿مِمَّآ أَمۡسَكۡنَ عَلَيۡكُمۡ﴾ نُزِّلَ غيرُ العاقل منزلةَ العاقلِ؛ حيثُ عُبِّرَ عن الجوارحِ، وهي غيرُ عاقلٍ بجمعِ المُؤنَّثِ السَّالمِ، فقال: ﴿مِمَّآ أَمۡسَكۡنَ﴾؛ لأنَّها بتعلُّمِها الصَّيدَ، وإتقانِها له صارت كأنَّها عاقلاتٌ، وجاء هذا الإطلاقُ على سبيل الاستعارة التَّصريحيَّة، حيثُ شُبِّهَ افتراسُ الجوارحِ، وهي غيرُ عاقلةٍ بِصَيدِ العاقلِ، بجامعِ المَهارة والإتقان في كُلٍّ منهما.

سرُّ التَّعبير بالإمساك دون الصَّيد في قوله: ﴿مِمَّآ أَمۡسَكۡنَ عَلَيۡكُمۡ﴾:

عبَّر بالإمساك دون الصَّيد؛ ليشير إلى حالة الإمساك المخصوص على صاحبه، بخلاف الصيد؛ فقد يكون بإمساك وبغير إمساك، كأن يرى صيدًا لم يصدْه هو، وعند ذلك يكون صيده على غير المعتاد، ودلَّ التَّعبير بالإمساك - أيضًا- على أنَّه من شروط حلِّ الصَّيد إمساكه على صاحبه.

دلالة الفاء في قوله: ﴿فَكُلُواْ مِمَّآ أَمۡسَكۡنَ عَلَيۡكُمۡ﴾:

الفاء فيها تكون فصيحةً إن جعلت (ما) في قوله: ﴿وَمَا عَلَّمۡتُم﴾ موصولة، وتكون رابطة للجواب إن جعلتها شرطيَّة.

(1) المَطْعَنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام في القرآن الحكيم: 1/240.
(2) القُرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 3/35.

دَلالة الأمر في قوله تعالى: ﴿وَٱذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَيۡهِۖ﴾:

والأمر في قوله: ﴿وَٱذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَيۡهِۖ﴾ للوجوب، أي: بِذِكْرِ اسم الله تعالى عَلى الصَّيْدِ، ومَعْناهُ: أنْ يَذْكُرَهُ عِنْدَ الإرْسالِ؛ لِأنَّهُ قَدْ يَمُوتُ بِجُرْحِ الجارِحِ، وأمَّا إذا أمْسَكَهُ حَيًّا؛ فَقَدْ تَعَيَّنَ ذَبْحُه، فَيَذْكُرُ اسْمَ اللّه عَلَيْهِ حِينَئِذٍ.

بلاغة التَّعبير بالذِّكر في قوله: (اذكروا) دون التَّسمية:

عبَّر بالذِّكر لأنَّه أعمُّ، فيشمل الذِّكر بالقلب والذِّكر باللِّسان، وكلُّ واحد منهما ضربان: ذكر عن نسيان وذكرٌ لا عن نسيان، بل عن إدامة الحفظ[1]، بخلاف التَّسمية؛ فهي جزءٌ من الذِّكر، وأيضًا فيه إشارة بأنَّه لو استحضر الذِّكر بقلبه، ونسيه بلسانه يكون ذاكرًا لله على المذبوح، وفيه إشارة - أيضًا- إلى معنى العبادة.

بلاغة التَّعبير بالضَّمير في (عليه) بدلًا من الظَّاهر في قوله: ﴿وَٱذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَيۡهِۖ﴾:

من جمال الأسلوب القرآنيِّ التَّعبير بالضَّمير ليؤدِّي أكثر من معنى، وهذا من جمال الإيجاز، فالضَّميرُ في: ﴿عَلَيۡهِۖ﴾ في قوله: ﴿وَٱذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَيۡهِۖ﴾، إمَّا أنْ يرجعَ إلى ﴿وَمَا عَلَّمۡتُم مِّنَ ٱلۡجَوَارِحِ﴾، أي: التَّسميةُ عند الإرسال على الصَّيد، وإمَّا أنْ يرجعَ إلى قوله: ﴿مِمَّآ أَمۡسَكۡنَ﴾، والمعنى: وسَمُّوا عليه؛ إذا أَدْرَكْتُم ذَكاتَه[2].

ومِمَّا يدلُّ عليه التَّعبير بالضَّمير: الإشارة إلى المذبوح الذي ذكر اسم الله عليه لا شبهة، وللتفريق بينه وبين ما يحتمل وجود شبهة كالممسوك عند الإرسال على الصَّيد.

نكتة ذكر كلمة ﴿ٱسۡمَ﴾ مضافة إلى لفظ الجلالة:

الواجب عند التَّذكية ذكر اسم الجلالة دون غيره

وذِكرُ كلمةِ ﴿ٱسۡمَ﴾ مضافةً إلى لفظ الجلالة في قوله: ﴿وَٱذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَيۡهِۖ﴾ له مَغزًى بلاغيٌّ دقيقٌ؛ إذ إنَّ الواجبَ ذِكْرُه في تذكية الذَّبائح والصَّيدِ هو لَفْظُ الجلالة (اللّه) بعينه، لا اسمٌ آخرُ من أسمائه تعالى الحسنى، ولو قيلَ: واذكروا اللّه؛ لأجزأَ ذِكْرُ أيِّ اسمٍ

(1) الراغب، المفردات: (ذكر).

(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/324، والقُرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 3/35.

مِن أسمائه الأخرى، ولكنْ لَمَّا قال: ﴿ٱسۡمَ ٱللَّهِ﴾؛ تَعيَّنَ أنْ يكونَ المذكورُ هو لفظُ الجلالةِ (اللّه)، وهذا مِن دِقَّة البيانِ القرآنيِّ المُعْجِز[1].

الإظهار في مقام الإضمار لتعليلِ الحُكمِ:

جملة خبريَّة مؤكَّدة للتَّخويفِ من اجتنابِ التَّقوى

وإظهارُ الاسمِ الجليلِ (اللّه) في موقعِ الإضمار؛ لتَربيةِ المَهَابة في نفوس المخاطبِين، وتعليلِ الحُكم؛ لأنَّ المقامَ مقامُ تشريعٍ وتَحَرِّي الحلالِ؛ فناسَبَ ذلك إظهارُ اسم الجلالة في المواضع الثَّلاثة: ﴿وَٱذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَيۡهِۗ﴾، ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ﴾، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾؛ لأنَّه أدعى للطَّاعةِ والإذعانِ.

دلالة فصل قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾ عمَّا قبلها:

فُصِلَتْ هذه الجملةُ عمَّا قبلها لكمالِ الانقطاعِ؛ لاختلاف الجملتَين خبرًا وإنشاءً، فما سبقَتْها إنشائيَّةٌ، وهذه خبريَّةٌ لفظًا ومعنًى.

سرُّ التَّعبيرِ بقوله: ﴿سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾ خلافًا لفاصلة الآية السَّابقة:

ختمت الآية بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾؛ كناية عن سرعة تحقُّق الحساب وتحقُّق وقوعه في يوم القيامة وقربه، وفيه إشارة إلى علمه ﷻ بأحوال النَّاس في تناول المباح من الطَّيِّبات، ولا سيَّما من الكلاب المُعلَّمة، والنَّاس فيها بين محسن ومسيء، فإذا علم المرسل لكلبه المُعلَّم بأنَّ المُحاسب على حقيقة التَّذكية والتزام شروطها: هو اللّه ﷻ الذي لا تخفى عليه خافية؛ التزم الدِّقَّة في التزكية.

وفيه إشارة إلى العدالة النَّاجزة للمحسن وللمسيء، فيجازى المحسن على إحسانه ويعاقب المسيء على إساءته.

دلالة التعبير بالجملة الاسميَّة:

عبَّر بالجملة الاسميَّة للتَّأكيد، والغرضُ منها التَّهديدُ والتَّخويفُ من اجتنابِ التَّقوى، وأنَّ مَنْ لم يتَّقِ اللّه؛ فإنَّ اللّه سَرِيعُ الْحِسَابِ، أي: إنَّ اللّه تعالى سيُحاسِبُكم على أعمالِكم، وقولُه: ﴿سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾ يتضمَّنُ سُرعةَ التَّنفيذِ مِن وجهٍ، وسرعةَ الوقتِ من وجهٍ آخَرَ.

(1) المَطْعَنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام في القرآن الحكيم: 1/241.

دلالة الإتيان بقوله: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ﴾ عقب قوله: ﴿وَٱذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَيۡهِۖ﴾:

جاء قوله: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ﴾ بعد الأمر بذكر اسم الله لتحذير الَّذين يرسلون كلابهم للصَّيد من الوقوع في أكل الحرام، بأن يأتي الكلب بصيد لم يرسله عليه، أو أن يكون الكلب غير مؤتمرٍ بأمره، إلى غير ذلك من الحالات التي يشتبه فيها الحلال بالحرام، ولا يكون فاصلًا بينهما إلَّا تقوى الله؛ لأنّها تشمل الظَّاهر والباطن.

﴿ٱلۡيَوۡمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُۖ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حِلّٞ لَّكُمۡ وَطَعَامُكُمۡ حِلّٞ لَّهُمۡۖ وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ إِذَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحۡصِنِينَ غَيۡرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِيٓ أَخۡدَانٖۗ وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلۡإِيمَٰنِ فَقَدۡ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٥﴾ [المائدة: 5]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

أولًا: أنَّهُ تَعالى أخْبَرَ في الآيَةِ المُتَقَدِّمَةِ أنَّهُ أحَلَّ الطَّيِّباتِ، وكانَ المَقْصُودُ مِن ذِكْرِهِ الإخْبارَ عَنْ هَذا الحُكْمِ، ثُمَّ أعادَ ذِكْرَهُ في هَذِهِ الآيَةِ، والغَرَضُ مِن ذِكْرِهِ أنَّهُ قالَ: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي﴾، فَبَيَّنَ أنَّهُ كَما أكْمَلَ الدِّينَ، وأتَمَّ النِّعْمَةَ في كُلِّ ما يَتَعَلَّقُ بِالدِّينِ، فَكَذَلِكَ أتَمَّ النِّعْمَةَ في كُلِّ ما يَتَعَلَّقُ بِالدُّنْيا، ومِنها إحْلالُ الطَّيِّباتِ، والغَرَضُ مِنَ الإعادَةِ: رِعايَةُ هَذِهِ النُّكْتَةِ[1].

بيْنَ هذه الآيةِ وما قبلَها مناسبةٌ، غير سَرْدِ أحكامِ الطَّعامِ، وبيانِ أحكامِ الحلالِ والحرامِ: وهي أنَّ سببَ مشروعيَّةِ التَّذكيةِ التَّفصِّي[2] مِنْ أكلِ المشركين للميْتةِ، وسببُ التَّشديدِ في التَّسميةِ على الطَّعامِ مِنْ صيدٍ وذبيحةٍ: هو إبعادُ المسلمين عمَّا كان عليه المشركون من الذَّبحِ لغيرِ اللّٰه تعالى، بالإهلالِ به لأصنامهم، أو وَضعِها على النُّصُبِ، واستبدالِ اسمِ اللّٰه وحدَه بتلك الأسماءِ الَّتي سَمَّوْها هم وآباؤهم، ما أنزلَ اللّٰه بها من سُلطانٍ، لِيُطهِّرَهم مِنْ كلِّ ما كانوا عليه من أدرانِ الشِّركِ.

ثانيًا: ولمَّا كان أهلُ الكتابِ في الأصلِ أهلَ توحيدٍ، ثمَّ سَرَتْ إليهم نزغاتُ الشِّركِ ممَّنْ دَخَلَ في دينهم من المشركين، ولم يُشدِّدوا في الفصلِ بينهم وبينَ ماضيهم، وكان هذا مظِنَّةَ التَّشديدِ في مُؤاكلةِ أهلِ الكتابِ ومُناكحتهم، كما شُدِّدَ في أكلِ ذبائحِ مشركي العربِ ونكاحِ نسائِهم؛ بيَّنَ اللّٰه لنا في هذه الآية: ألَّا نعامِلَ أهلَ الكتابِ

(1) الفخر الرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 11/146.

(2) تَفَصَّ مِنَ الشَّيْءِ: تَخَلَّص، وأَصل التَّفَصِّي: أَن يَكُونَ الشَّيْءُ فِي مَضِيقٍ، ثُمَّ يَخْرُجَ إِلى غَيْرِهِ.

معاملةَ المشركين في ذلك، فأحلَّ لنا مؤاكلتَهم، ونكاحَ نسائِهم، فقال: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُۖ﴾.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ﴾: امرأةٌ حَصَانٌ وحَاصِنٌ، ويُقالُ: حَصانٌ للعفيفة، ولِذاتِ حُرمةٍ، وقال تعالى: ﴿وَمَرۡيَمَ ٱبۡنَتَ عِمۡرَٰنَ ٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا﴾ [التّحريم: 12]، وأَحصنت وحَصَّنَت، قال اللّه تعالى: ﴿فَإِذَآ أُحۡصِنَّ فَإِنۡ أَتَيۡنَ﴾ [النّساء: 25]، أي: تَزَوَّجْنَ، أُحصِنَّ: زُوِّجْنَ، والحَصانُ في الجملة: المُحصَنَةُ؛ إمَّا بعفَّتِها، أو تَزوُّجها، أو بمانعٍ مِن شرفها وحُرِّيَّتِها، ويقالُ: امرأةٌ مُحْصِنٌ ومحصَنٌ، فالمُحصِنُ يقالُ: إذا تُصُوِّر حَصَنُها مِنْ نفسها، والمُحْصَنُ، يقالُ: إذا تُصُوِّرَ حَصَنُها من غيرِها، وقولُه ﷻ: ﴿وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِ مُحۡصَنَٰتٍ غَيۡرَ مُسَٰفِحَٰتٍ﴾ [النّساء: 25]، وبعده: ﴿فَإِذَآ أُحۡصِنَّ فَإِنۡ أَتَيۡنَ بِفَٰحِشَةٖ فَعَلَيۡهِنَّ نِصۡفُ مَا عَلَى ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ مِنَ ٱلۡعَذَابِۚ﴾ [النّساء: 25]، ولهذا قيل: المُحصنات: المُزوَّجات، تَصَوُّرًا أنَّ زوجَها هو الَّذي أَحصنَها، و﴿۞وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ [النّساء: 24] بعدَ قولِه: ﴿حُرِّمَتۡ﴾ [النّساء: 23]، بالفَتح لا غير[1]، وفي سائر المواضع بالفتح والكسر؛ لأنَّ اللَّواتي حُرِّمَ التَّزَوُّجُ بِهِنَّ المُزَوَّجَاتُ دونَ العفيفاتِ، وفي سائر المواضعِ يَحْتَمِلُ الوَجْهَيْنِ.

2) ﴿مُحۡصِنِينَ﴾: أي: متزوِّجين وأعفَّاءَ بالنِّكاحِ، وأصلُ الحِصْنِ: الحِفظُ والحِياطةُ والحِرْز.

3) ﴿مُسَٰفِحِينَ﴾: والتَّسافُحُ والسِّفاحُ والمُسافحةُ: الزِّنَى وَالفُجُورُ، وَفي التَّنْزِيلِ: ﴿مُحۡصِنِينَ غَيۡرَ مُسَٰفِحِينَ﴾؛ وأَصلُ ذَلِكَ مِنَ الصَّبِّ، تَقُولُ: سافَحْتُه مُسافَحةً وسِفاحًا[2]، وهو الزَّاني، أو المجاهِرُ بالزِّنى، الّذي يَصُبُّ ماءَه حيثُ اتَّفقَ، مِن سَفَحْتُ القِربةَ؛ إذا صَبَبْتُها، وسُمِّي الزِّنى سِفاحًا؛ لأنَّه يُسافَحُ فيه، أي: يَصُبُّ الرَّجلُ النُّطفةَ، وتَصُبُّ المرأةُ النُّطفةَ، وأصلُ (سفح): يدلُّ على إراقةِ شيءٍ.

4) ﴿وَلَا مُتَّخِذِيٓ أَخۡدَانٖۗ﴾: وهو جمْع خِدْن، وهو الزَّاني سرًّا، أو مُصاحِبٌ وصَديقٌ، أو

(1) أي: في القراءات المتواترة، وقد قرئ في الشَّاذّ: (والمحصِنات) بالكسر، ونسبت إلى طلحة بن مصرِّف، ورواية عن يعقوب، وروي عن علقمة الكسر في القرآن كلِّه، كما في الزَّمخشريّ، الكشَّاف: 1/390، والبحر المحيط: 3/214.

(2) ابن منظور، لسان العرب: (سفح).

خليلٌ في السِّرِّ، ويُطلَقُ كذلك على الحبيبِ والرَّفيق، وأكثرُ ذلك يُستعملُ فيمَن يصاحبُ بشهوةٍ، يُقال: خِدْنُ المرأةِ وخَدينُها، وأصل (خدن): المصاحَبة، والتَّركيبُ يُعبِّرُ عن المُداخلة والمباطنة، ففي المُخادنة عن السِّرِّيَّة والتَّخفِّي ما ليس في المصادقَةِ، ويُصَدِّقُ ذلك: أنَّ النُّونَ تُعبِّرُ عن امتدادِ شيءٍ في باطنٍ، و(خدن) تُعبِّرُ عن التَّجوُّف الممتدِّ، فكأنَّ الخِدْنَ يَدْخُلُ في باطن مَنْ يُخادِنُه، فهذا يُعطي شدَّةَ التَّداخلِ، كما يُعطي خَفَاءَ هذه العلاقةِ، أيْ: سِرِّيَّتَها، وعَدَمَ الجهرِ بها[1].

5) ﴿حَبِطَ﴾: أي: بطَلَ، فالحَبَطُ: البُطلانُ والألَمُ، وأصلُه: أن تُكثرَ الدَّابَّةُ أكلًا حتَّى يَنتفخَ بطنُها، فتموتَ، قَالَ الأَزهريُّ: وَلَا أَرى حَبْطَ العَمل وبُطْلانَه مأْخوذًا إِلَّا مِنْ حبَطِ البَطْنِ؛ لأَنَّ صَاحِبَ البَطْنِ يَهْلِكُ، وَكَذَلِكَ عملُ المُنَافِقِ يَحْبَطُ، غَيْرَ أَنَّهم سَكَّنُوا الباءَ مِنْ قَوْلِهِمْ: حَبِطَ عَمَلُهُ يَحْبَطُ حبْطًا، وَحَرَّكُوهَا مِنْ حَبِطَ بَطْنُهُ يَحْبَطُ حَبَطًا، كَذَلِكَ أُثْبِتَ لَنَا[2].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

أخبَرَ تعالى عن بعضِ مظاهرِ إسباغِ نِعمِه، وإكمالِ دِينه، وتيسيرِ شَرعِه، ومِنْ ذلك أنَّه -سبحانه- أَحَلَّ لأهلِ الكِتاب من اليهودِ والنَّصارى ذبائِحَ المسلمين، فلهم أنْ يطْعِموهم مِنها، وأَحَلَّ للمسلمين التَّمتُّعَ بالطَّيِّباتِ، وأَحَلَّ لهم أكْلَ ذبائِحِ أهلِ الكِتاب من اليهودِ والنَّصارى، ونِكاحَ الحرائرِ العفيفاتِ من المؤمناتِ، والحرائرِ العفيفاتِ من الكتابيَّات؛ إذا أَعْطَوهُنَّ مُهورَهنَّ، في حالِ كونِ الأزواجِ أعِفَّاءَ بالنِّكاح، غيرَ مُعلِنين بالزِّنى، ولا متَّخذينَ عشيقاتٍ يزنونَ بهنَّ في السِّرِّ، فكما شَرَطَ العِفَّةَ عن الزِّنى في النِّساء، كذلك شَرَطَها في الرِّجال، وأَخْبَرَ اللهُ تعالى أنَّ مَنْ كفَر به، وكَفَرَ بما يجبُ الإيمانُ به؛ فقد بَطَلَ عمَلُه، وتوعَّدَه بأنَّه في الآخِرة من الهالِكينَ.

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالة بدء الآية بالظَّرف ﴿ٱلۡيَوۡمَ﴾ في قوله تعالى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُۖ﴾:

بدأت الآية بالظَّرف للإعلان عن أهمِّيَّة هذا اليوم في حياة الأمَّة الإسلاميَّة، وتكرَّر

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (خدن).

(2) ابن منظور، لسان العرب: (حبط).

سماحة الشَّريعة الإسلاميَّة

ذكره قبل ذلك مرَّتين بالتَّأكيد على أهمِّيَّته، وعلى اختلاف الأحداث الواقعة فيه، وفيه إشارة إلى تذكير المؤمنين بفضل الله عليهم فيما بيَّن لهم من أمر دينهم، وفيما شرع لهم من أحكام الحلال والحرام؛ ليكون دستورها لإقامة حياة كريمة.

استشكال من خلال دلالة (ال) في قوله تعالى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أُحِلَّ لَكُمۡ﴾:

يستَشكِلُ البعض إحلالَ الطَّيِّباتِ في ذلك اليوم، على القول بأنَّ المرادَ به يومُ عرفةَ، لأنَّ جلَّها ذُكِرَ في بعض السُّور المكِّيَّةِ.

ويُجابُ: بأنَّ المرادَ أنَّها كانت حلالًا بالإجمال، فلمَّا حَرَّمَ الله يومَ إنزالِ هذه السُّورةِ أنواعَ الخبائثِ الَّتي تَدخلُ في عُموم الميْتةِ، كما تقدَّمَ في الآية السَّابقة، وكانت العربُ تَسْتحلُّها، ونفى تحريمَ البَحيرةِ والسَّائبةِ والوَصيلةِ والحامي مِنْ طيِّبات الأنعام، وكانت العربُ تُحَرِّمُها؛ صار حِلُّ الطَّيِّباتِ مُفَصَّلًا تَمَامَ التَّفْصيلِ، وحكمُه مُسْتَقِرًّا دائمًا، فهذا هو المرادُ بالنَّصِّ، وقيلَ: إنَّه تمهيدٌ لِمَا بَعْدَه[1].

وممَّا يجاب به على هذا الاستشكال أيضًا: أنَّ هذا اليوم هو اليوم الذي تمَّت فيه أحكام الشَّريعة واستوفت غايتها، وتمَّ إحكام الحدود بين الحلال والحرام، والطَّيِّب والخبيث، فكانت مظروفيَّة هذا اليوم هي الحاجز الفاصل بين الحلال والحرام في كثير من العادات والأعمال التي كان المسلمون متلبِّسين بها، وتعقَّبها الإسلام واحدة واحدة، وبهذا لم يكن لأحدٍ بعد هذا اليوم أن يحلَّ أو يحرِّم ما أحلَّت الشَّريعة أو ما حرَّمت[2].

للعلم به وللتَّنبيه على الشَّيء المُحلِّ

سِرُّ بناء الفعل لِما لَم يُسمَّ فاعلُه:

قوله: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُۖ﴾ بُنِي الفعلُ ﴿أُحِلَّ﴾ لِما لَم يُسمَّ

(1) رضا، تفسير المنار: 6/147.

(2) عبد الكريم الخطيب، التفسير القراني: 3/1039.

فاعلُه؛ لأنَّ الغَرَضَ هو بيانُ الحِلِّ؛ لا كَوْنُه مِن مُحِلٍّ مُعَيَّنٍ، ولأنَّ المُخاطَبِينَ يَعْلَمُونَ أنَّهُ لا مُحِلَّ إلَّا اللّه، ولا مُشَرِّعَ إلَّا هو سبحانه.

سِرُّ التَّعبير بالماضي:

وعُبِّرَ بالفعل الماضي ﴿أُحِلَّ﴾ دون المضارع (يُحِلُّ)؛ للتَّأكيد على ثبوت حُكْم الإحلال، وأنَّه لا يُنْسَخُ أبدًا، وهذه بُشْرى للمؤمنين.

دَلالة التَّعبير عن الطَّيِّبات بالحِلِّ:

والتَّعبيرُ عن الطَّيِّبات بِالحِلِّ؛ لِزَوالِ الإثْمِ، ومُلاءَمَةِ الطَّبْعِ، وتعريفُهُ بـ (الـ)؛ للإشارة إلى كمالها في الطِّيبِ، وأُعيد الكَلامُ عَلى الطَّيِّباتِ؛ لِيُبْنى عَلَيْهِ قَوْلُهُ: ﴿وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ﴾.

دلالة تعقيب الآية السَّابقة بهذه الآية ﴿ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ﴾:

عقِّب بهذه الآية؛ لأنَّه لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى مَا حَرَّمَهُ عَلَى عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ مِنَ الخَبَائِثِ، وَمَا أَحَلَّهُ لَهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ، قَالَ بَعْدَهُ: ﴿ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ﴾.

إعادة الحُكْم للتَّأكيد

دلالة عطف قوله: ﴿وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ﴾ على ما قبلها:

عطفت هذه الآية على ما قبلها للدَّلالة على حلِّ ذبائح أهل الكتاب من اليهود والنَّصارى؛ لأنَّ ما قبلها هو حكم عامٌّ في حلِّ الطَّيِّبات.

ذَبَائِحُ أهلِ الكتابِ حَلَالٌ لِلْمُسْلِمِينَ؛ لِأَنَّهُمْ يَعْتَقِدُونَ تَحْرِيمَ الذَّبْحِ لِغَيْرِ اللَّهِ

وفسَّر ابْنُ عَبَّاسٍ طعام أهل الكتاب بذَبَائِحِهم، وَهَذَا أَمْرٌ مُجْمَعٌ عَلَيْهِ بَيْنَ العُلَمَاءِ: أَنَّ ذَبَائِحَهُمْ حَلَالٌ لِلْمُسْلِمِينَ؛ لِأَنَّهُمْ يَعْتَقِدُونَ تَحْرِيمَ الذَّبْحِ لِغَيْرِ اللّه، وَلَا يَذْكُرُونَ عَلَى ذَبَائِحِهِمْ إِلَّا اسْمَ اللّه، وَإِنِ اعْتَقَدُوا فِيهِ تَعَالَى مَا هُوَ مُنَزَّهٌ عَنْ قَوْلِهِمْ، تَعَالَى وَتَقَدَّسَ[1].

وفيه إشارة إلى إثبات الرُّخصة في تناول طعامهم؛ لِكَثْرَةِ مُخالَطَةِ المُسْلِمِينَ أَهْلَ الكِتابِ، فَلَوْ حَرَّمَ اللّه عَلَيْهِمْ طَعامَهم؛ لَشَقَّ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ.

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 5/77.

دلالة إعادة حكم حلِّ الطَّيِّبات في قوله تعالى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُۖ﴾:

وأُعيدَ الحُكْمُ بِحِلِّ الطَّيِّبات بعد ذِكْره في الآية السَّابقة؛ "لِلتَّأْكِيدِ والتَّوْطِئَةِ لِما بَعْدَه، وسَبَبُ ذِكْرِ اليَوْمِ يُعْلَمُ مِمَّا ذُكِرَ أمْسِ، وقالَ النَّيْسابُورِيُّ: فائِدَةُ الإعادَةِ أنْ يُعْلَمَ بَقاءُ هَذا الحُكْمِ عِنْدَ إكْمالِ الدِّينِ واسْتِقْرارِهِ، والأوَّلُ أوْلى[1]"، وأيضًا؛ للامْتنان، ولدَعوة عِبادِ اللّٰه إلى شُكْرِه تعالى، والإكثارِ مِن ذِكْرِه؛ حيثُ أباحَ لهم ما تَدعوهم الحاجةُ إليه، ويَحْصُلُ لهم الانتفاعُ به مِن الطَّيِّبات[2].

دلالة التَّعبير بلفظ الطَّعام دون غيره:

نكتة التَّعبير بالعامِّ المراد به الخاصُّ: استمالة أهل الكتاب، فلَمَّا كانَتِ الطَّيِّباتُ أعَمَّ مِنَ المَآكِلِ؛ عَبَّرَ بِالطَّعامِ؛ لأنَّه شامِلٌ لِما ذُبِحَ ولغَيْرِهِ، وإنْ كانَ المَقْصُودُ المَذْبُوحَ لا غَيْرَهُ.

دلالة الوصف بـ ﴿أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾:

دلَّ التَّعبير بـ ﴿أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ على أنَّه سبب الحِلِّ لطعامهم، ومعلومٌ أنَّ أهل الكتاب كانوا أبعد من مشركي العرب في أكل الميتة والذَّبح لغير اللّٰه، وفي تحليل طعام أهل الكتاب استمالة لهم[3].

دلالة التَّعبير بـ ﴿أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ دون أهل الكتاب في قوله: ﴿وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾:

عبَّر في حلِّ طعام أهل الكتاب بـ ﴿أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ للإشارة إلى من يدينون بالتَّوراة والإنجيل، ولإخراج من لم يدينوا، ويعترفوا بكتابهم، ولذلك كان الصَّحابة - رضوان اللّٰه عليهم - يأكلون من طعام النَّصارى في الشَّام بغير نكير، ولم ينقل عن أحد منهم خلاف إلَّا في بني تغلب؛ لأنَّهم لا يعرفون عن دينهم شيئًا، ولا يدينون به.

دلالة بناء الفعل ﴿أُوتُواْ﴾ لما لم يُسمَّ فاعله في قوله: ﴿أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾:

بُنِي الفعل لما لم يُسمَّ فاعله؛ لأنَّه لَمْ يَتَعَلَّقْ بِذِكْرِ مُؤْتِيهِ غَرَضٌ[4]؛ فبَنى الفِعْلَ لِلْمَجْهُولِ، فَقالَ: ﴿أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾.

(1) الآلوسّي، روح المعاني: 6/14.
(2) السَّعْديّ، تيسير الكريم الرّحمن: 2/134.
(3) محمّد رشيد رضا، تفسير المنار: 6/177.
(4) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 6/24.

دلالة تقديم الجارِّ والمجرور في قوله: ﴿أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ﴾:

قدَّم الجارَّ والمجرور من باب الامتنان على المؤمنين، وإظهار فضل اللّه عليهم في توسعة تحليل الطَّيِّبات، وأنَّهم المقصودون بهذا الحلِّ.

سِرُّ العدول عن الفعل (أُحِلَّ) إلى المصدر (حِلٌّ):

ولعلَّ السِّرَّ في العُدول عن الفعل ﴿أُحِلَّ﴾ في قوله تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ﴾ إلى المصدر ﴿حِلٌّ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمۡ﴾ يرجعُ إلى أنَّه كما كان تبادلُ الأطعمةِ والمَنكوحات مَظنَّةً أنْ يُقابلَ بالإنكارِ؛ أُكِّدَ ذلك لإزالةِ هذا الوهمِ، وقَطْعِ الطَّريقِ على الغُلاةِ أن يُحَرِّموا باجتهادهم وأهوائِهم، ومن المعلوم أنَّ التَّعبيرَ بالمصدر فيه من التَّوكيدِ والمبالغةِ في المعنى ما ليس في الفعل.

التَّعبير بالمصدر فيه من التَّوكيد والمبالغة في المعنى ما ليس في الفعل

دلالة عطف ﴿وَطَعَامُكُمۡ حِلٌّ لَّهُمۡ﴾ على ما قبلها:

دلَّ هذا العطف على إباحةِ إطعام المسلمين أهلَ الكتاب مِن طَعامهم[1]، وفي هذا إشارة إلى سماحة هذا الدين الإسلاميِّ في تعامله مع أهل الكتاب.

دلالة تقديم طعام الذين أوتوا الكتاب على طعام المسلمين:

قُدِّمَ قولُه: ﴿وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمۡ﴾ على قوله: ﴿وَطَعَامُكُمۡ حِلٌّ لَّهُمۡ﴾؛ لأنَّ الحِلَّ الأوَّلَ أهمُّ للمخاطبين من الحِلِّ الثَّاني، فقُدِّمَ الأهمُّ بالنِّسبة لهم.

وفيه إشارة إلى مراعاة التَّشريع لظروف المسلمين عند سفرهم لبلاد أهل الكتاب، ومخالطتهم لهم في العمل والتجارة.

سرُّ العدول عن لفظ الحلال إلى الحلّ:

في قوله تعالى: ﴿وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمۡ وَطَعَامُكُمۡ حِلٌّ لَّهُمۡ﴾ عدل عن لفظ الحلال إلى الحلِّ للإشارة إلى أنَّه كان حلالًا في الأصل، و قد طَرَأَ عليه التَّحريمُ لعِلَّةٍ، وها هو ذا قد عادَ حلالًا على أصله، ففيه اسْتِمالَةٌ لأهلِ الكتابِ.

(1) ابن جُزَيّ، التّسهيل في علوم التّنزيل، ص: 214.

بلاغة الإيجاز في قوله: ﴿وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ﴾:

حـــذف الخبر لدلالة ما قبله عليه

وذِكْرُ ﴿وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ﴾ في الجملة الأولى تَوْطِئَةٌ وتَمْهِيدٌ لِقَوْلِهِ: ﴿وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ﴾.

قولُه: ﴿وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ﴾ عَطْفٌ عَلى ﴿ٱلطَّيِّبَٰتُ﴾، أوْ مُبْتَدَأٌ حُذِفَ خَبَرُه؛ لِدَلالَةِ ما قَبْلَه عَلَيْه، أيْ: حِلٌّ لَكم، والمُرادُ بِـ ﴿مُحۡصَنَٰتٌ﴾ العَفِيفاتُ عَنِ الزِّنى، كَما قالَ تَعالى في الآيَةِ الأُخْرى: ﴿مُحۡصَنَٰتٍ غَيۡرَ مُسَٰفِحَٰتٍ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخۡدَانٖۚ﴾ [النِّساء: 25]، وذَكَرَهُنَّ هُنا؛ تَوْطِئَةً وتَمْهِيدًا لِقَوْلِه: ﴿وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ﴾، والمُرادُ بِهِنَّ العفيفاتُ الحَرائِرُ.

والإحْصانُ مُشْتَقٌّ مِنَ المَنعَة، ومِنهُ (الحِصْنُ)، وهو مُتَرَتِّبٌ بِأرْبَعَةِ أشْياءَ: الإسْلام والعِفَّةِ والنِّكاحِ والحُرِّيَّةِ، فَيَمْتَنِعُ في هَذا المَوْضِعِ أنْ يَكُونَ الإسْلامَ؛ لِأنَّهُ قَدْ نَصَّ أنَّهُنَّ مِن أهْلِ الكِتابِ، ويَمْتَنِعُ أنْ يَكُونَ النِّكاحَ؛ لِأنَّ ذاتَ الزَّوْجِ لا تَحِلُّ، ولَمْ يَبْقَ إلَّا الحُرِّيَّةُ والعِفَّةُ، فاللَّفْظَةُ تَحْتَمِلُهُما[1].

سِرُّ عَطْف تبادل الأطعمة ومنكوحات أهل الكتاب على تحليل الطَّيِّبات بالواو:

قبلَ ذِكْرِ الغرضِ مِنْ عطفِ تبادلِ الأطعمةِ ومنكوحاتِ أهلِ الكتابِ على تحليل الطَّيِّباتِ بالواو في الآية الكريمة في قوله تعالى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُۖ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حِلّٞ لَّكُمۡ وَطَعَامُكُمۡ حِلّٞ لَّهُمۡۖ وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ﴾، يُشارُ أوَّلًا إلى أنَّ الواوَ بطبيعتها كما يقولُ الزَّمخشريُّ: "تقع بين الجملتَين، لِتَفْصِلَ بين معنيَيهما، فتكونُ لكلِّ واحدةٍ ذاتُ معنًى مُستقلٍّ، وتتميَّزُ منه[2]".

ومِنْ ثَمَّ يُمكنُ القولُ: بأنَّ عطفَ تبادلِ الأطعمةِ ومنكوحاتِ أهلِ الكتابِ على تحليلِ الطَّيِّباتِ بالواو خاصَّةً، له دَلالةٌ ضِمنيَّةٌ كنائيَّةٌ، وهي أنَّ ذلك الأمرَ، أي: حِلُّ منكوحاتِ أهل الكتابِ وإنْ كان حلالًا؛ إلَّا أنَّه شيءٌ يُغايرُ الطَّيِّباتِ، وهذا يُؤكِّدُ أنَّ في تخصيصِ

(1) ابن عَطِيَّة، المُحَرَّر الوجيز، ص: 517.

(2) د.محمّد أبو موسى، البلاغة القرآنيّة في تفسير الزّمخشريّ، ص: 360، مكتبة وهبة، القاهرة.

المُحصناتِ بكونهنَّ من المؤمناتِ في قوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِۚ﴾ [النِّساء: 20]، لا يُرادُ مِنْ ورائِه مفهومُ المخالفةِ، وإنَّما هو مَسوقٌ لبيانِ الأفضليَّةِ.

ولا تعارضَ بَيْنَ هذه الآيةِ وبَيْن قولِه: ﴿وَلَا تَنكِحُواْ ٱلْمُشْرِكَٰتِ﴾ [البقرة: 221]؛ لأنَّ هذه في الكتابيَّات، والأخرى في المشركات، وقد جعل بعضُ النَّاس هذه ناسخةً لتلك، وقيلَ: بالعكس[1].

سرُّ التَّعبير بـ ﴿إِذَآ﴾ دون (إن) في قوله: ﴿إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾:

عبَّر بـ (إذا) دون (إن) في قوله: ﴿إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾؛ للتَّأكيد على وجوب المَهْر؛ لأنَّ (إن) تفيد الشَّكَّ في الوقوع، وهذا غير مقبول في أمر الزَّواج في شريعة الإسلام.

دلالة تسمية المهور أجورًا في قوله: ﴿إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾:

وسُمِّيَتْ المُهورُ هُنا (أُجُورًا) مَجازًا في مَعْنى: الأعْواضِ عَنِ المَنافِعِ الحاصِلَةِ مِن آثارِ عُقْدَةِ النِّكاحِ.

والأُجُورُ: المُهُورُ، وسُمِّيَتْ هُنا ﴿إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ (أُجُورًا) مَجازًا في مَعْنى: الأعْواضِ عَنِ المَنافِعِ الحاصِلَةِ مِن آثارِ عُقْدَةِ النِّكاحِ، عَلى وجْهِ الاسْتِعارَةِ أوِ المَجازِ المُرْسَلِ، والمَهْرُ: شِعارٌ مُتَقادِمٌ في البَشَرِ، لِلتَّفْرِقَةِ بَيْنَ النِّكاحِ وبَيْنَ المُخادَنَةِ، ولَوْ كانَتِ المُهُورُ أُجُورًا حَقِيقَةً؛ لَوَجَبَ تَحْدِيدُ مُدَّةِ الِانْتِفاعِ ومِقْدارِهِ، وذَلِكَ مِمَّا تنزَّه عَنْهُ عُقْدَةُ النِّكاحِ[2].

دلالة تقييد الحلِّ بإيتاء الأجور في قوله: ﴿إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾:

قُيِّد الحلُّ بإيتاءِ الأُجُورِ في قوله: ﴿إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾؛ للحَثِّ عَلى ما هو الأوْلى، ولِتَأْكِيدِ وُجُوبِها، وأنَّ مَن تَزَوَّجَ امْرَأةً، وعَزَمَ عَلى ألَّا يُعْطِيَها صَداقَها؛ كانَ في صُورَةِ الزَّانِي، وتَسْمِيَةُ المَهْرِ بِالأجْرِ يَدُلُّ عَلى أنَّ الصِّداقَ لا يَتَقَدَّرُ، كَما أنَّ أقَلَّ الأجْرِ لا يَتَقَدَّرُ في الإجاراتِ[3].

(1) ابن جُزَيّ، التَّسهيل لعلوم التَّنْزيل، ص: 214.
(2) الطّاهر ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/124.
(3) الفخر الرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 1/148.

دَلالة الحالَيْنِ في قوله: ﴿مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍۗ﴾:

المقصود الأعظم من النِّكاح هو الإحصانُ

وقولُه: ﴿مُحْصِنِينَ﴾ حالٌ مِن فاعِلِ آتَيْتُمُوهُنَّ، أيْ: حالَ كَوْنِكم أعِفَّاءَ بِالنِّكاحِ، وكَذا قَوْلُهُ تَعالى: ﴿غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ﴾، وقِيلَ: هو حالٌ مِن ضَمِيرِ مُحْصِنِينَ، وقِيلَ: صِفَةٌ لِمُحْصِنِينَ، أيْ: غَيْرَ مُجاهِرِينَ بِالزِّنى، ﴿وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍۗ﴾، أيْ: ولا مُسِرِّينَ بِهِ، والخِدْنُ: الصَّدِيقُ يَقَعُ عَلى الذَّكَرِ والأُنْثى، وهو إمَّا مَجْرُورٌ عَطْفًا عَلى ﴿مُسَٰفِحِينَ﴾، و﴿وَلَا﴾ صِلَةٌ؛ لِتَأْكِيدِ النَّفْيِ المُسْتَفادِ مِن ﴿غَيْرَ﴾، أي: حالَ كَوْنِكم أعِفَّاءَ بِالنِّكاحِ، غَيْرَ مُجاهِرِينَ بِالزِّنى.

دلالة الاتِّفاق في الأوصاف المطلوبة في الرِّجال والنِّساء من خلال قوله تعالى: ﴿مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍۗ﴾، وقوله: ﴿مُحْصَنَٰتٍ غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍۚ﴾:

عدالة التَّشريع بين الرَّجل والمرأة في الزَّواج

تظهر هذه العدالة في اشتراط الإحصان والعفَّة في كلٍّ من الرَّجل والمرأة، ويؤكِّد هذا ما قاله ابْنُ كَثِيرٍ: "كَما شَرَطَ الإحْصانَ في النِّساءِ - وهي العِفَّةُ عَنِ الزِّنى - في قوله تعالى: ﴿مُحْصَنَٰتٍ غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍۚ﴾ [النّساء: 25]، كَذَلِكَ شَرَطَها في الرِّجالِ في قوله تعالى: ﴿غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍۗ﴾، وهو أنْ يَكُونَ الرَّجُلُ - أيْضًا - مُحْصَنًا عَفِيفًا، ولِهَذا قالَ: ﴿غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ﴾، وهُمُ الزُّناةُ الَّذينَ لا يَرْتَدِعُونَ عَنْ مَعْصِيَةٍ، ولا يَرُدُّونَ أنْفُسَهم عَمَّنْ جاءَهُمْ، ﴿وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍۗ﴾، أيْ: ذَوِي العَشِيقاتِ الَّذينَ لا يَفْعَلُونَ إلَّا مَعَهُنَّ، وهَذا وإنْ كانَ يُشْبِه النِّكاحَ مِن جِهَةِ عَدَمِ التَّعَدُّدِ؛ إلَّا أنَّهُ يُخالِفُهُ مِن جِهَةِ التَّسَتُّرِ، وجَهْلِ النَّسَبِ، وخَلْعِ بُرْقُعِ المُرُوءَةِ، ولِذَلِكَ عَطَفَه عَلى قَوْلِهِ: ﴿غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍۗ﴾؛ سَدًّا لِمَداخِلِ الزِّنى كُلِّها[1]" ولذا كان المقصود الأعظم من النِّكاح هو الإحصان.

(1) ابن كَثير، تفسير القرآن العظيم: 5/84.

دلالة الإتيان بقوله: ﴿غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍۗ﴾:

لَمَّا كان الإحصان له معانٍ متعدِّدة؛ فيطلق على العفَّة وعلى الزَّواج، وعلى الإسلام، والمراد هنا التَّأكيد على أمر العفَّة؛ أكَّد ذلك بقوله: ﴿غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍۗ﴾.

سرُّ العدول عن أن يقول: (ومن لم يؤمن) إلى قوله: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾:

إيثارُ التَّعبيرِ بقوله: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ على: (ومن لم يؤمن)؛ لأنَّ توجيهَ الكفرِ لنَفْسِ الإيمانِ يَجعلُ الإيمانَ شيئًا مُشَخَّصًا، كأنَّه ذاتٌ أو عَلَمٌ من الأعلام، ومن المعلوم أنّ العَلَمِيَّةَ والتَّشخيصَ يَنفِيان التَّكرارَ، فمعنى ذلك: أنَّ الإيمانَ شيءٌ واحدٌ لا يتكرَّرُ، محصورٌ في المعتقدات السَّليمةِ الصَّحيحةِ، والأحكامِ الحَقَّةِ، وغيرُه باطلٌ، وكأنَّ إطلاقَ لفظِ الإيمانِ ونسبته لغير الإسلام غيرُ مُتَصَوَّرٍ ولا مقبولٍ؛ لأنَّه عَلَمٌ مُتَشَخِّصٌ مُنْحَصِرٌ، ومُحَدَّدُ النِّسبةِ، وإيجادُ نسبةٍ أو علاقةٍ بينَ الإيمانِ وبينَ دينٍ غيرِ الإسلامِ هو مَحْضُ ادِّعاءٍ باطلٍ، ووهمٌ وخيالٌ، فإطلاقُ لفظِ الإيمانِ باشتقاقاته وتراكيبه وصِيَغِه هو لفظٌ خالصٌ لا يَتَّجهُ إلَّا لهذا الدِّينِ الحقِّ، وإسقاطُه في غير حَيِّزه المحصورِ المُحَدَّدِ هو تَجَوُّزٌ، لا يُطابِقُ الحقيقةَ، ولا يَمُتُّ إليها بِصِلَةٍ.

دلالة التَّعبير بالفعل ﴿حَبِطَ﴾ في قوله: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ﴾:

تشبيه ضَياع ثواب الأعمال الصَّالحة

عبَّر بالفعل ﴿حَبِطَ﴾ ومعنى الحبوط: فَسادُ شَيْءٍ كانَ صالِحًا، ومِنهُ: سُمِّيَ الحَبَطُ -بِفَتْحَتَيْنِ- مَرَضٌ يُصِيبُ الإبلَ من جَرَّاءِ أكْلِ الخُضَرِ في أوَّلِ الرَّبيعِ، فَتَنْتَفِخُ أمْعاؤُها، ورُبَّما ماتَتْ، وفِعْلُ: (حَبِطَ) يُؤْذِنُ بأنَّ الحابِطَ كانَ نافعًا صالِحًا، فاستحالَ إلى ضرٍّ وفَسادٍ، والمُرادُ مِنَ الفَسادِ هُنا: الضَّياعُ والبُطْلانُ، وهو أشَدُّ الفَسادِ، فَدَلَّ فِعْلُ (حَبِطَ) عَلى أنَّ الأعْمالَ كانت صالِحَةً، وحَذْفُ الوَصْفِ لِدَلالَةِ الفِعْلِ عَلَيْهِ، وهَذا تَشْبِيهٌ لِضَياعِ الأعْمالِ الصَّالِحَةِ بِفَسادِ الذَّواتِ النَّافِعَةِ، ووَجْهُ الشَّبَهِ: عَدَمُ انْتِفاعِ مُكْتَسِبِها مِنها، والمُرادُ: ضَياعُ ثَوابِها، وما يَتَرَقَّبُهُ العامِلُ مِنَ الجَزاءِ عَلَيْها والفَوْزِ بِها.

والمُرادُ: التَّحْذِيرُ مِنَ الارْتِدادِ عَنِ الإيمانِ، والتَّرْغِيبُ في

الدُّخُولِ فِيهِ كَذَلِكَ؛ لِيَعْلَمَ أَهْلُ الكِتابِ أنَّهم لا تَنْفَعُهم قُرُباتُهم وأعْمالُهم، ويَعْلَمَ المُشْرِكُونَ ذَلِكَ[1].

دَلالة فاصلة الآية الكريمة:

وخُتِمَتْ هَذِهِ الآيَةُ بِقَوْلِه تَعالى: ﴿وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلۡإِيمَٰنِ فَقَدۡ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾؛ للتَّنفيرِ مِن نِكاحِ الكِتابيَّة بَعْدَ إحْلالِهِ؛ إشارَةً إلى أنَّ الوَرَعَ الابتعادُ عنه؛ امْتِثالًا لِلْآياتِ النَّاهِيَةِ عَنْ مُوادَّةِ المُحادِّ؛ لِئَلَّا يَحْصُلَ مَيْلٌ، فَيَدْعُوَ إلى المُتابَعَةِ، أوْ يَحْصُلَ ولَدٌ، فَتَسْتَمِيلَهُ لِدِينِها[2].

وفيها إشارة للتَّنْبِيهِ عَلى أنَّ إباحَةَ تَزَوُّجِ نِساءِ أهْلِ الكِتابِ لا يَقْتَضِي تَزْكِيَةً لِحالِهِن، ولَكِنَّ ذَلِكَ تَيْسِيرٌ عَلى المُسْلِمِينَ[3].

وفيها تعظيمٌ لِشَأْنِ ما أحَلَّهُ اللّه وما حَرَّمَهُ، وتَغْلِيظٌ عَلى مَن خالَفَ ذَلِكَ.

(1) الطّاهر ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/124.
(2) البَقاعيّ، نَظْم الدُّرَر: 6/28.
(3) الطّاهر ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/125.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ إِلَى ٱلۡمَرَافِقِ وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ وَأَرۡجُلَكُمۡ إِلَى ٱلۡكَعۡبَيۡنِۚ وَإِن كُنتُمۡ جُنُبٗا فَٱطَّهَّرُواْۚ وَإِن كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوۡ جَآءَ أَحَدٞ مِّنكُم مِّنَ ٱلۡغَآئِطِ أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمۡ تَجِدُواْ مَآءٗ فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدٗا طَيِّبٗا فَٱمۡسَحُواْ بِوُجُوهِكُمۡ وَأَيۡدِيكُم مِّنۡهُۚ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجۡعَلَ عَلَيۡكُم مِّنۡ حَرَجٖ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمۡ وَلِيُتِمَّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ٦﴾ [المائدة: 6]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

المناسبة بين العهود وماحرَّم على العبيد، وبين الصَّلاة والطَّهارة وضوءًا وتيمُّمًا

لَمَّا افتتَح اللّه تعالى السُّورةَ بالأمْرِ بإيفاءِ العهودِ، وذكَر تحليلًا وتحريمًا في المطعَمِ والمنكَحِ، واستقْصَى ذلك، وكان النَّوعانِ معامَلاتٍ دُنيويَّةً بين النَّاس بعضِهم من بعضٍ، انتقلَ منها إلى المُعامَلاتِ الأُخرويَّةِ الَّتي هي بين العبدِ وربِّه ﷻ، ولَمَّا كان أفضلَ الطَّاعاتِ بعد الإيمانِ الصَّلاةُ، والصَّلاةُ لا تُمكنُ إلَّا بالطَّهارةِ؛ بدأَ بالطَّهارةِ، علمًا بأنَّ الصَّلَاةَ ومُقَدِّماتِها مِنَ الطَّهارَة والوُضُوء والتَّيمُّم، مِن جُملَة الوفَاء بالعُهود مع اللّه سُبحَانَه، لقَولِه تَعَالى بَعد آية الوضُوء مُبَاشَرَة: ﴿وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِي وَاثَقَكُم بِهِۦٓ إِذۡ قُلۡتُمۡ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾، مِمَّا يَجعَلُها دَاخِلةً تحت مَا أمَرَ اللّه بِه في افتِتَاح السُّورَة من قوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ﴾ [المائدة: 1].

شَرْحُ المُفرداتِ:

1) ﴿ٱلۡمَرَافِقِ﴾: جمْع مِرْفَق، وهو مَوْصِلُ الذِّراعِ في العَضُد، وسُمِّي مِرفقًا؛ لأنَّه يُستراحُ في الاتِّكاءِ عليه، يُقال: ارتفق الرَّجُل؛ إذا اتَّكأ

على مِرفقِه في جُلوسِه، والمِرْفَق من الإِنْسَان والدَّابَّة: مَوْصِل الذِّراع في العَضُد، والمِرْفَق: الأَمر الرَّافق بك، وَكَذَلِكَ فُسِّر في التَّنْزِيل، وَقَالَ البصريُّون: بل المِرْفَق في الْوَجْهَيْنِ جَمِيعًا، والكوفيُّون يَقُولُونَ: مَرْفِق الإِنْسَان[1]، عن أبي الهيثم أنَّه قال: المرفق: ما جاوز إبرة الذِّراع الَّتي من عندها يذرع الذِّراع، قال: والقبيح: رأس العضد الَّذي يلي المرفق، قال: وزُجَّ المرفق ما بين القبيح وبين إبرة الذِّراع، وهو المكان الَّذي يرتفق عليه المتَّكئ؛ إذا ألقم راحته رأسه، وثنَّى ذراعه، واتَّكأ عليه، وهو الحدُّ الَّذي ينتهي إليه في غسل اليد[2].

2) ﴿جُنُبًا﴾ أي: إنْ أصابتْكم الجَنابةُ؛ سُمِّيت الجنابةُ بذلك؛ لكونِها سببًا لتجنُّب الصَّلاةِ في حُكم الشَّرعِ، وأصل (الجُنُب): البُعد، "وَرجل جُنُبٌ، وَامْرَأَة جُنُبٌ، من قوم جُنُبٍ، هَذَا أَعلَى اللُّغَات الْمُذكَّر والمؤنَّث وَالْجمع وَالْوَاحد فِيهِ سَوَاء؛ إِذا أَصَابَته جَنَابَة، وَقد أجنب الرَّجل؛ إِذا أَصَابَته الْجَنَابَة"[3]، وفي الحديث، قَالَت عَائِشَة: "كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُصبح جُنبًا مِن قرافٍ غير احْتِلَام"[4]، أَي: مِن جماع ومواقعة[5].

3) ﴿ٱلْغَآئِطِ﴾: هو كنايةٌ عن قَضاءِ الحاجةِ، والغائطُ: المطمئِنُّ منَ الأرضِ، وجُعِلَ كنايةً عن قضاءِ الحاجةِ؛ لأنَّهم كانوا إذا أرادوا قَضاءَ الحاجةِ؛ أتَوا غائطًا منَ الأرضِ، ففَعلوا ذلِك فيه، فقِيل لكلِّ مَن قضَى حاجتَه: مُتغوِّط، وأُطْلِقَ الغائطُ على العَذِرَة نفْسِها، وأصْل (غوط): يدلُّ على اطمئنانٍ وغَور[6]، كَانَ الْكسائيُّ يَقُول: "إِنَّمَا سمِّي الْغَائِط: غائطًا؛ لِأَنَّ أحدهم كَانَ إِذا أَرَادَ قَضَاء الْحَاجة؛ قَالَ: حَتَّى آتِي الْغَائِط، فأقضي حَاجَتي، وَإِنَّمَا أصل الْغَائِط المطمئنُّ من الأَرْض، قَالَ: فَكثر ذَلِك فِي كَلَامهم، حَتَّى سمُّوا غَائِط الْإِنْسَان بذلك، وَكَذَلِكَ العَذِرة، إِنَّمَا هِيَ فنَاء الدَّار، فسمِّيت بِهِ؛ لِأَنَّهُ كَانَ يُلقي بأفنية الدُّور"[7].

4) ﴿فَتَيَمَّمُواْ﴾: اقصدوا الصَّعيد الطَّيِّب للتَّيَمُّم بدلًا عنِ الوضوء أو الغُسل، وتَعمَّدوا، وأصلُ التَّيمُّم: قصْدُ الشَّيء وتعمُّده، ومنه قوله تعالى: ﴿فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا﴾، فالتَّيمُّم

(1) ابن دريد، جمهرة اللُّغة: (رفق).
(2) الأزهري، الزاهر في غريب ألفاظ الشَّافعيّ، ص: 24.
(3) ابن دريد، جمهرة اللُّغة: (جنب).
(4) الحربي، غريب الحديث: 4/323، والزمخشري، الفائق: 3/185.
(5) الأنباريّ، الزّاهر: 1/465.
(6) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (غوط).
(7) ابن سلام، غريب الحديث: (حرج).

فِي التَّفْسِير وَالْكَلَام: التَّعمُّد للشَّيْء، وَيُقَال مِنْهُ: أمَّمت الشَّيْء أؤُمُّه أمًّا، وتأمَّمته وتيمَّمته، وَمَعْنَاهُ كُلُّه: تعمَّدته، وقصدت لَهُ، قَالَ الْأَعْشَى:

تَيَمَّمْتُ قَيْسًا وَكَمْ دُونَهُ***مِنَ الأَرْضِ مِنْ مَهْمَهٍ ذِي شَزَنْ[1].

وقوله: ﴿فَتَيَمَّمُواْ﴾ أَي: اقْصدُوا لِصَعِيدٍ طَيِّبٍ، ثُمَّ كَثُرَ اسْتِعْمَالُهُمْ لِهَذِهِ الْكَلِمَةِ حَتَّى صَارَ (التَّيَمُّمُ) مَسْحَ الْوَجْهِ وَالْيَدَيْنِ بِالتُّرَابِ، (وَيَمَّمَ) الْمَرِيضُ، (فَتَيَمَّمَ) لِلصَّلَاةِ[2].

5) ﴿صَعِيدًا﴾: أيْ: ترابًا، المادَّة تدور حَوْل الارتفاع والعُلُوِّ والارتقاء، فيقال: صَعِد يصْعَد صُعودًا: عَلا، والصُّعُد: العُلُوُّ، والصُّعود: الارتقاء إلى أعلى، والصَّعيدُ: الغُبارُ الَّذي يَصعَد؛ منَ الصُّعود، ويُطلق - أيضًا- على وجْه الأرض، فسُمِّي التُّرَابُ صَعيدًا؛ للإشارة إلى ما يَجبُ في التُّراب الصّالِح للتَّيمُّم من ضَرورَة قابليّته للإثَارَة والصُّعود على هَيئة الغُبَار، ولَو كان مُلتَصِقًا بِالأرْض؛ فَإنّه لا يَصلُحُ للتَّيمُّم، قال ذو الرِّمَّة:

قَدِ اسْتَحَلُّوا قِسْمَةَ السُّجُودِ***وَالمَسْحَ بِالأَيْدِي مِنَ الصَّعِيدِ[3].

6) ﴿حَرَجٍ﴾: أي: ضِيق وإثم، وأصل الحرَج: تجمُّع الشَّيء وضيقُه، وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: "حَدِّثُوا عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَلَا حَرَجَ"[4]، يَقُولُ: لَا إِثْمَ عَلَيْكُمْ؛ إِنْ لَمْ تَفْعَلُواْ[5]، ويقال: حرجًا: شاكًّا، قال كعب بن مالك الأنصاريُّ:

فَتَكُونَ عِنْدَ الْمُجْرِمِينَ بِزَعْمِهِمْ***حَرَجًا وَيَفْقَهُهَا ذَوُو الْأَلْبَابِ[6].

وَقَالَ اللَّيْث: "أَحْرَجْتُ فلانًا: صَيَّرْتُه إِلَى الحَرَج، وَهُوَ الضِّيقُ، وَقَالَ غَيْرُه: أَحْرَجْتُ فلانًا، أَي: أَلْجَأْتُه إِلَى مَضِيق، وَكَذَلِكَ أَحْجَرْته، وأَجْرَذْتُه بِمَعْنى وَاحِد، وَقَوْلهمْ: رجل مُتَحَرِّج، كَقَوْلِك: رجل مُتأثِّم ومُتَحوِّب ومُتَحَنِّث: يُلْقِي الحَرَجَ والإِثْمَ والحُوبَ والحِنْثَ عَن نَفسه"[7].

(1) ابن منظور، لسان العرب: 1/156.
(2) الرَّازيّ، لسان العرب: 1/156.
(3) ديوان ذي الرِّمَّة: 1/339 - 340، وكذلك: الخليل، العين: 1/290.
(4) هذه العبارة جزء من حديث: البخاريّ، الحديث رقم: (3461).
(5) الحربي، غريب الحديث: 1/339 - 340، وكذلك: الخليل، العين: 1/290.
(6) ديوان كعب بن زهير، ص: 236، وكذلك: الأنباريّ، الزّاهر: 1/236.
(7) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (حرج).

7) ﴿فَٱغۡسِلُواْ﴾: الإسالةُ، مصدر غَسَل، والغُسل بالضَّمِّ: اسمٌ للطَّهارة منَ الخباثةِ والحيض والنِّفاس، ويطلق الغَسْلُ على تطهير الشَّيء وتَنْقِيَتِه، غسلت الشَّيء غُسلًا بالفتح، والاسم الغُسْلُ بالضَّمِّ، يقال: غُسْلٌ وغسل... والغَسولُ: الماء الَّذي يُغْتَسَلُ به، وكذلك المُغْتَسَلُ، قال الله تعالى: ﴿هَٰذَا مُغۡتَسَلُۢ بَارِدٞ وَشَرَابٞ ٤٢﴾ [ص: 42]، والمُغْتَسَلُ أيضًا: الَّذي يُغْتَسَلُ فيه[1].

8) ﴿وَٱمۡسَحُواْ﴾: إِمْرارُ اليَدِ عَلَى الشَّيء السَّائِلِ، وَإِمرار الشَّيء بَسْطًا، وَمَسْحُهُ بيدي مَسْحًا، ويعني هذا: أنَّ الغَسل لا بُدَّ فيه من إسَالة الماء على العُضو لتَطهيرِه و تَنقيته، و أنَّ المسح يُكتَفى فيه بإمرار اليد على العُضو، وَمِن الحديث: «تَمَسَّحُوا بِالْأَرْضِ، فَإِنَّهَا بِكُمْ بَرَّةٌ»[2]، أَرَادَ بِهِ التَّيمُّم، وَقِيلَ: أَرَادَ مُبَاشَرَة تُرَابها بالجِبَاه فِي السَّجُود مِنْ غَيْرِ حائلٍ، وَيَكُونُ هَذَا أَمْرَ تَأْدِيبٍ واسْتِحْباب، لَا وُجُوب[3].

9) ﴿ٱلۡكَعۡبَيۡنِۚ﴾: مُثَنّى الكَعب، وهو العَظم النَّاتئ عند مُلتَقى السَّاق والقَدَم، وفي كُلِّ قَدَم كَعبان عند يُمنتها و يُسرتها[4]، قال أَبُو عبيد: الكَعْبانِ: العَظْمانِ النَّاشِزَان فَوق ظهر القَدَم، قَالَ الْفَارِسِيُّ: وَهُوَ مِمَّا اعْتَقَب عَلَيْهِ المثالان، قَالُوا: كُعُوب وكِعَاب، وَقَالُوا فِي القَلِيل: أَكْعُبٌ، ثَابت، وَفِي كلِّ رجل كَعْبانِ، وهما عَظْما طَرفِ السَّاق وملتقى الْقَدَمَيْنِ[5].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

موجبات الوضوء والغسل والتَّيمُّم تخفيفًا حالة السَّفر والمرض وانعدام الماء

ينادي الله الَّذين آمنوا: أن إذا أردْتُم القيامَ لأداءِ الصَّلاةِ، وكنتم مُحْدِثين حدثًا أصْغَرَ؛ فاغسلُوا مواضع الوضوء، وإن كنتم مُحْدِثِينَ حدثًا أكبرَ بِجنابةٍ؛ فَتَطَهَّروا بالاغتسال منه قبْل الصَّلاة، وإن كنتم مَرضى، تخافُون مِن زيادة المرضِ أو تأخُّرِ شفائه، أو كنتم مُسافرين، أو كنتم مُحْدِثِينَ حدثًا أصغرَ بقضاء الحاجة مثلًا، أو مُحْدِثِينَ حدثًا أكبرَ بمُجامَعةِ النِّساء، ولم تجدوا ماءً لتتطهَّرُوا به؛

(1) الجوهريّ، الصّحاح: (غسل).
(2) الحربي، غريب الحديث: 1/220، والزمخشري، الفائق: 3/336/ وابن الأثير، النِّهاية: 4/327.
(3) ابن الأثير، النِّهاية: 4/327.
(4) الفيروزآباديّ، القاموس المحيط: (كعب).
(5) ابن سيده، المخصَّص: (القدم).

فامسحوا وجوهَكم، وامسحُوا أيديَكم من الصَّعيد، فاللّه لا يريد أن يُضَيِّق عليكم في أحكامِه عامَّة، وفي أحكام الصَّلاةِ والطَّهارةِ خاصَّةً، بأن يُلْزِمَكُم استعمالَ الماء المُؤَدِّي إلى ضررِكم، بل رَخَّص لَكُم التَّيَمُّمَ تَوسعةً عليكم، ورحمةً بكم؛ إذ جعلَه بديلًا للماء في الطَّهارة، عند تعذُّره، لمرضٍ أو لفقدِ الماء؛ إتمامًا لِنِعْمَته عليكم، لعلَّكم تشكرون ربَّكُم بطاعته، في اتِّباع أوامرِه، واجتنابِ نواهِيه.

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

المجازُ المرسَلُ وأثرُه في إبرازِ المعنى في قوله تعالى: ﴿إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾:

مَنْ أراد الصَّلاةَ؛ بادرَ إليها طاعة لله، بكلِّ وسائل الطَّهارة الأصليَّة والبديلة

في الآية الكريمة مجاز في قولِه تعالى: ﴿إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾، وهو من المجاز المرسَل، وعلاقتُه المسبَّبيَّةُ، والمعنى: (إذا أردتمُ القيامَ إلى الصَّلاة)، فَعُبِّر عن إرادةِ القِيامِ بالقيامِ؛ لأنَّ القيامَ متسبِّبٌ عنِ الإرادة ونتيجةٌ عنها، كما في قولِه تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأۡتَ ٱلۡقُرۡءَانَ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ٩٨﴾ [النَّحل: 98]، أي: إذا أردتَ القراءةَ، فلمَّا كان الفعلُ مُتَسَبَّبًا عنِ القدرةِ والإرادةِ؛ أُقيم المسبَّبُ مقامَ السَّببِ، وفي التَّعبير بالمجازِ إيجازٌ، وللتَّنبيهِ على أنَّ مَن أراد الصَّلاةَ، يجب أن يبادِرَ إليها، بحيث لا ينفكُّ الفعلُ عنِ الإرادةِ، ويَجوزُ أنْ يكونَ المرادُ: إذا قَصَدْتمُ الصَّلاةَ؛ لأنَّ التَّوجُّهَ إلى الشَّيءِ والقيامَ إليه قَصْدٌ له[1]، وفي هذا المجازِ: "إشارةٌ إلى أنَّه ينبغي أن تكونَ هذه الإرادةُ إرادةً فاعلةً، حتَّى كأنَّها لا تلبثُ أن تُترجَمَ إلى حدثٍ وفعلٍ، وفي ذلك طَرْدٌ للأماني المُتقاعسةِ"[2]، والمقصود بالإرادة: النِّيَّةُ، وهي واجبةٌ في الطَّهارة، وهذا مذهبُ مالكٍ والشَّافعيِّ، وأكثرِ العلماء، وظَاهِرُ الآيَةِ يَقْتَضِي وُجُوبَ الوُضُوءِ عِنْدَ كُلِّ مَرَّةٍ يُرِيدُ القِيَامَ إِلَى الصَّلَاةِ، لَكِنْ أَعْلَمَنَا بِبَيَانِ السُّنَّةِ وَفِعْلِ

(1) قال شيخ زاده: " ويحتمل أن يكون القيام إلى الصَّلاة مجازًا عن قصد الصَّلاة وإرادتها، على طريق ذكر الملزوم وإرادة اللاَّزم، لأنَّ قصد الصَّلاة من لوازم القيام، متوجِّهًا إلى الصَّلاة، فقيل: إذا قمتم متوجِّهين إلى الصَّلاة، وأريد: (إذا قصدتم الصَّلاة)"، ينظر: شيخ زاده: حاشية على تفسير البيضاويّ: 3/482.

(2) أبو موسى، التّصوير البيانّي، ص: 353.

النَّبِيِّ ﷺ أَنَّ المُرَادَ مِنَ الآيَةِ: ﴿إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾، وَأَنۡتُمۡ عَلَى غَيۡرِ طُهۡرٍ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لَا يَقۡبَلُ اللهُ صَلَاةَ أَحَدِكُمۡ إِذَا أَحۡدَثَ؛ حَتَّى يَتَوَضَّأَ»[1].

دلالة حرف الجرِّ (إلى) في تحديد معنى القيام في قوله: ﴿إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾:

التَّهيُّؤ لأداء الصَّلاة على الوجه المراد شرعًا، من تمام العبوديَّة والتَّبتُّل

إنَّ حَرف الجرِّ ﴿إِلَى﴾ في قولِه: ﴿إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾ يشيرُ إلى تَضمِين القِيام مَعنَى السَّعي والنُّهوض، أي: إذا نَهَضتُمُ إلى الصَّلاة، وسَعيتُم إليها؛ فتَطَهَّرُوا، فلَيس المُرادُ بالقِيام هُنا: القِيامَ في الصَّلاة، ولكنِ القيامَ إليها والسَّعيَ لأدائِها، وهو تَعبيرٌ يَدُلُّ على ما يَنبَغي للصَّلاة من نَشاطٍ و نُهوضٍ وسَعيٍ و جِدٍّ، "من باب إطلاق المسبِّب وإرادة السَّبب، للإيجاز وللتَّنبيه على أنَّ الشَّأن في المؤمنين: أن يكونوا دائمًا على ذكر من إرادتها، وعدم الإهمال في أدائها، وإنَّما قلنا: المراد بالقيام إلى الصَّلاة: إرادتها؛ لأنَّه لو بقي الكلام على حقيقته؛ للزم تأخير الوضوء عن الصَّلاة، وهذا باطل بالإجماع، وليس المراد بالقيام: انتصاب القامة أو ما يشبه ذلك، بل المراد به: الاشتغال بأفعال الصَّلاة وأقوالها وكلِّ ما يتعلَّق بذاتها"[2].

سِرُّ التَّعبير بـ (إذا) الدَّالَّة على تيقُّن الوقوع في قوله: ﴿إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾:

الصَّلاة تقوم على نيَّة قصديَّة، وممارسة عمليَّة تعبُّديَّة

التَّعبيرُ بأداة الشَّرط ﴿إِذَا﴾ في قولِه تعالى: ﴿إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغۡسِلُواْ﴾، إشارة إلى أنَّ الأُمَّةَ ستكون طاعتها في اتِّباع المأمور، وامتثالها في أداء المفروض، متجسِّدًا في الانصياع للأمرِ الواردِ في الآيةِ الكريمةِ؛ لأنَّ الأصلَ في (إذا) تيقُّنُ وقوعِ الفعل الماضي بعدها، كقولِه تعالى: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١﴾ [النَّصر:

(1) البخاريّ، ، الحديث رقم: (135).
(2) طنطاويّ، التَّفسير الوسيط: 4/58.

]، وتدلُّ أيضًا على تَيَقُّن الإرادةِ، أي: النِّيَّةِ وتأكُّدِها، بل ووجوبِها عند القيام بأيِّ عمل، لما ورد في الحديث الصَّحيح: «إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّةِ، وَلِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى»[1].

الفرق بين التَّعبيرين في قوله: ﴿إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾ و﴿وَإِن كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ﴾:

استعمال الأداة في موضعها دقَّة تعبير، وروعة بيان، وتآلف نغم

الأداة (إذا) تدخل على ما هو حاصل ومنتظر، والأداة (إنْ) تدخل على ما هو متوقَّع ومحتمل؛ لذا فهم بأنَّ الصَّلاة حاصلة دائمًا دون تخلُّف، أمَّا الجنابة المعبَّر عنها بالأداة (إنْ)؛ فهي شيء طارئ، وليس دائمًا، "وهذا من دقَّة التَّعبير، واختيار الكلام ليناسب المعنى، وقد بلغ القرآن المنتهى في هذا المجال، فلو حاول الإنسان أن يستبدل كلمة من القرآن الكريم بمرادف لها أو بديل عنها، حتَّى ولو كان لها مئة مرادف؛ فإنَّه لن يجد أنسب منها في موضعها من الآية، سواء من ناحيةِ المعنى، أم التُّناسق، أم النَّغم المتآلف في آيات القرآن الكريم"[2].

دلالةُ جوابِ الشَّرط بعد الأداة وفعل الشَّرط في قوله: ﴿فَٱغۡسِلُواْ﴾:

الآيـة مقيَّدة بقرينة دلالة الحال على معنى (إذا قمتم إلى الصَّلاة وأنتم محدثون).

يدلُّ جوابُ الشَّرطِ ﴿فَٱغۡسِلُواْ﴾ بعد (إذا) الظَّرفيَّة الدَّالَّة على وقوع الفعل في المستقبل، وجملة ﴿فَٱغۡسِلُواْ﴾: لا محلَّ لها؛ لأنَّها جواب شرط غير جازم، على أنَّ الوضوءَ شرطُ الصَّلاة، فلا تصحُّ إلَّا به، وظاهِرُ الآيَةِ يُوجِبُ الوُضُوءَ عَلى كُلِّ قائِمٍ إلى الصَّلاةِ، وإنْ لَمْ يَكُنْ مُحْدِثًا، والإجْماعُ عَلى خِلافِهِ[3]، وتعليقًا على قول الآلوسيِّ بأنَّ ظاهر الآية يفيد وجوب الوضوء على كلِّ قائم إلى الصَّلاة، وإن لم يكن محدثًا؛ نظرًا إلى عموم الَّذِينَ آمَنُوا من غير اختصاص

(1) الإمام أحمد، المسند: 1/303.
(2) صافي، الجدول: 5/288.
(3) القُرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 6/94.

بالمحدثين، لكنَّ الإجماع على خلاف ذلك؛ لما أخرجه مسلم بأنَّ النَّبيَّ ﷺ صلَّى الصَّلواتِ الخمسَ يوم الفتح بوضوء واحد، وسأله عمر، فقال: «عمدًا فعلتُه، يا عمر»، قال الطنطاويُّ: "يعني: بيانًا للجواز، فاستحسن الجمهور كون الآية مقيَّدة، والمعنى: (إذا قمتم إلى الصَّلاة، وأنتم محدثون)، بقرينة دلالة الحال"[1].

الأمرُ في قوله: ﴿فَٱغۡسِلُواْ﴾ للوجوبِ أو النَّدْبِ، على حَسَب أحوالِ المتُوضِّئ:

والأمر في قولِه تعالى: ﴿فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ﴾ للوجوب بالنِّسبة للمُحْدِثين حَدَثًا أصغرَ، فإذا أراد أحدُهم الصَّلاةَ؛ وجبَ عليه الوضوءُ للصَّلاة، أمَّا بالنِّسبة للمُتَطَهِّر؛ فالأمرُ له بالنَّدْب للوضوء عند كُلِّ صلاةٍ، وهذا ما كان يفعله عليُّ بنُ أبي طالب رضي الله عنه وكان يتلو هذه الآيةَ الكريمةَ، وهذا ما كان يفعله عبدُ الله بنُ عُمر - رضي الله عنهما - وهذا مذهب الجمهور.

الوضوء الواجب والمندوب، كلاهما طاعة ومثوبة

اختلاف العلماء في دخول المرافق في الغسل في قوله: ﴿وَأَيۡدِيَكُمۡ إِلَى ٱلۡمَرَافِقِ﴾[2]:

قال بعض العلماء: إنَّ المرفق داخل في مسمَّى اليد؛ لأنَّ اليد من رأس الأنامل إلى الإبط، وقال زفر: إنَّ (إلى) لانتهاء الغاية، والمنتهى غير النِّهاية، فلا يتعيَّن غسل النِّهاية، ومذهب الزَّجاج: أنَّ المرفق: اسم لما جاوز طرف العظم، فإنَّه هو المكان الَّذي يرتفق به، أي: يتَّكأ عليه، ولا نزاع في أنَّ ما وراء أطراف العظم لا يجب غسله، واستدلُّوا بقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَتِمُّواْ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيۡلِۚ﴾ [البقرة: 187]، فإنَّ النَّهار منفصل عن اللَّيل في الحسِّ، ولا شكَّ في أنَّ امتياز المرفق

الخلاف الفقهيُّ مردُّه إلى التَّأويل اللُّغويِّ، لارتباط الأحكام الشَّرعيَّة باللُّغة

(1) طنطاويّ، التَّفسير الوسيط: 4/58.

(2) قولُه تعالى: ﴿وَأَيۡدِيَكُمۡ إِلَى ٱلۡمَرَافِقِ﴾، قيل: بمعنى: (مع)، كقوله تعالى: ﴿وَيَزِدۡكُمۡ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمۡ﴾ [هود: 52]، وهذا قول ضعيف، والصَّحيح: أنَّها لانتهاء الغاية، وإنَّما وجب غسل المرافق بالسُّنَّة، لأنَّه ما لا يتمُّ الواجب إلَّا به فهو واجب، إذ لا بدَّ من غسل المرافق، ليتمَّ غسل الأيدي، والخلاف بين الأئمَّة قائم على تأويل كلٍّ منهم لمعنى: (إلى) كما اختلفوا في تأويل: (الباء) في قوله تعالى: ﴿وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ﴾، فالشَّافعيُّ قال: هي للتَّبعيض، وبه أخذ أبو حنيفة، وعدَّ مالك الباء للتَّوكيد، بمعنى: بكلِّ رؤوسكم، وهو قول للإمام أحمد، ينظر: صافي، الجدول: 5/287، 5/288.

عن السَّاعد ليس منفصلًا معيَّنًا، وإذا كان كذلك، فليس إيجاب الغسل إلى حيِّز، أولى من إيجابه إلى حيِّز آخر، فوجب القول بغسل كلِّ المرفق، وقال بعضهم: النِّهاية غير المتناهي، وغسل المرافق لم يفهم من الآية الكريمة، وإنَّما فهم من فعله ﷺ، وعليه؛ فالمرفق خارج عن الغسل[1].

دلالات التَّعبيرِ بحرف الانتهاء ﴿إِلَى﴾ في قولِه تعالى: ﴿وَأَيۡدِيَكُمۡ إِلَى ٱلۡمَرَافِقِ﴾:

اعتبار دخولِ (إلى) في الحُكْمِ وخُرُوجِها منه أمْرٌ يَدُورُ مَعَ الدَّلِيلِ

قولُه تعالى: ﴿وَأَيۡدِيَكُمۡ إِلَى ٱلۡمَرَافِقِ﴾، ذهب الجُمْهُورُ إلى دُخُولِ المِرْفَقَيْنِ في المَغْسُولِ، ولِذَلِكَ قِيلَ: ﴿إِلَى﴾ بِمَعْنى (مَعَ)[2]، كَما في قَوْلِهِ تَعالى: ﴿وَيَزِدۡكُمۡ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمۡ﴾ [هود: 52]، وقِيلَ: إنَّما تُفِيدُ مَعْنى الغايَةِ مُطْلَقًا، وأمَّا دُخُولُها في الحُكْمِ، أوْ خُرُوجُها مِنهُ؛ فَلا دَلالَةَ لَها عَلَيْهِ، وإنَّما هو أمْرٌ يَدُورُ عَلى الدَّلِيلِ الخارِجِيِّ، كَما في: (حَفِظْتُ القرآن مِن أوَّلِهِ إلى آخِرِهِ)، وقَوْلِهِ تَعالى: ﴿فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيۡسَرَةٖۚ﴾ [البقرة: 280]، فَإنَّ الدُّخُولَ في الأوَّلِ والخُرُوجَ في الثَّاني مُتَيَقَّنٌ، بِناءً عَلى تَحَقُّقِ الدَّلِيلِ، وحَيْثُ لَمْ يَتَحَقَّقْ ذَلِكَ في الآيَةِ، وكانَتِ الأيْدِي مُتَناوِلَةً لِلْمَرافِقِ؛ حُكِمَ بِدُخُولِها فِيها احْتِياطًا، وقِيلَ: (إلى) مِن حَيْثُ إفادَتُها لِلْغايَةِ تَقْتَضِي خُرُوجَها، لَكِنْ لَمَّا لَمْ تَتَمَيَّزِ الغايَةُ هَهُنا عَنْ ذِي الغايَةِ؛ وجَبَ إدْخالُها احْتِياطًا[3]، ومعنى آخر للتَّعبير بحرف الانتهاء ﴿إِلَى﴾ في قولِه: ﴿وَأَيۡدِيَكُمۡ إِلَى ٱلۡمَرَافِقِ﴾:

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 2/423.

(2) نلاحظ: "أنَّ الكعبين داخلان مع الرِّجلين في وجوب الغسل، قالوا: لأن: (إلى) هنا بمعنى: (مع)، ولأنَّ بعض علماء اللُّغة وعلى رأسهم سيبويه، قد قرَّروا أنَّ ما بعد إلى إذا كان من نوع ما قبلها، دخل في الحدّ، وإذا لم يكن من نوعه لم يدخل، وهنا ما بعد إلى من نوع ما قبلها، فوجب دخوله في الحدّ، ولأنَّ جعل ما قبل المرفقين حدًّا، لا يصلح أن يكون علامة واضحة على ذلك، ومن شأن العلامات أن تكون واضحة، وهذا لا يتأتَّى إلَّا بغسل المرفقين والكعبين، وفضلًا عن كلِّ ذلك، فالمعروف من وضوء النَّبيِّ ﷺ أنَّه كان يغسل المرفقين والكعبين، قال القُرطبيّ: وهذا هو الصَّحيح، لما رواه الدَّارقطنيُّ عن جابر: «أنَّ النَّبيَّ ﷺ كان إذا توضَّأ، أدار الماء على مرفقيه». ينظر: طنطاويّ، التفسير الوسيط: 4/60.

(3) النَّسَفي، مدارك التنزيل: 1/272، وأبو السُّعود، إرشاد العَقْل السّليم: 2/10.

هو الإشارةُ إلى اتِّصال العُضْوين: اليدِ والمِرْفَق، وأنَّهما بمنزلة جُزءٍ واحدٍ في وجوبِ غَسلِهما، وشُمولِ الغُسْل لَهُما[1].

تعدُّدُ آراء الفقهاءِ وأهلِ اللُّغة في دلالةِ الباءِ في قوله: ﴿وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ﴾:

=اخـــتـــلافُ الفقهاءِ في قَدْرِ المَـمْـسـوحِ في الرَّأسِ، وعلاقته بمدلولِ الباء

الباءُ في قولِه تعالى: ﴿وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ وَأَرۡجُلَكُمۡ إِلَى ٱلۡكَعۡبَيۡنِۚ﴾ منَ المواضعِ الَّتي التبستْ فيها دلالتُها على اللُّغَويِّينَ والفقهاءِ، واختلفُوا في معناها بناءً على الحُكْم الشَّرْعيِّ في الآية الكريمة بالمسحِ على الرُّؤوس، فاللُّغويُّون يَرون أنَّ الباءَ هنا لم تنفَكَّ عن دلالتِها على أصلِ معناها، وهو الإلصاقُ، واختاره ابن هشام والزَّمخشريُّ، ووافقَهم مِنَ الفقهاء مَن يُفْتي بوجوبِ المسحِ على جميع الرَّأسِ، وفي قول بعضهم: إنَّها زائدة، وهو رأي ابنِ جِنِّي؛ لأنَّ الفعل ﴿وَٱمۡسَحُواْ﴾ يتعدَّى إلى مجروره بنفسه[2]، وبه قال أبو البقاء العكبريُّ، وأنكر ما سوى ذلك، وقال شهاب الدِّين القرافيُّ: "إذا قلت: مسحت بالمنديل، وكتبت بالقلم، وطفت بالبيت؛ فمن المعلوم أنَّك ما مسحت بكلِّ المنديل، ولا كتبت بكلِّ القلم، ولا طفت بكلِّ البيت، علوًّا وسفلًا، وظهرًا وبطنًا، وإنَّما مسحت ببعض ذا، وكتبت ببعض ذا، وطفت بظاهر ذا"[3]، "وقد أخذ مالك وأحمد بالاحتياط، فأوجبا الاستيعاب، وأخذ الشَّافعيُّ باليقين، فأوجب أقلَّ ما يقع عليه اسم المسح، وأخذ أبو حنيفة ببيان رسول الله ﷺ وهو ما روي أنَّه مسح على ناصيته، وقدَّر النَّاصية بربع الرَّأس"[4]، ومن حيث الاستدلال اللُّغويُّ، فقد رَأَى الشَّافعيَّةُ والحنفيَّةُ: أنَّها للتَّبعيض، والمعنى: وامسحوا بعضَ رؤوسِكم، والمالكيَّةُ يرون أنَّها - الباء -

(1) أمَّا القولُ بأنَّ حروفَ المعاني ينوبُ بعضُها عن بَعْض، فقد نَبَّه الزَّجَّاجُ إلى خَطَأ هذا بقوله: "فهذا لا يجوزُ أن يقال: إنَّ بعضَ الحروف منَ المعاني بمعنى الآخَر، لكنَّ الحَرْفَيْنِ قد يتقاربان، فيظنُّ الضَّعيفُ العِلْم باللُّغة، بأنَّ معناهما واحدٌ، وليس كذلك"، ينظر: الزَّجَّاج، معاني القرآن: 2/132.

(2) عبد الحيِّ حسن، من حروف المعاني، ص: 41.

(3) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 2/418.

(4) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 2/418.

زائدةٌ؛ لتقويَةِ تعلُّقِ العاملِ بالمعمولِ، والتَّركيبُ يدلُّ على مسحِ كلِّ الرَّأس، والبعضُ داخلٌ فيه، فللأخذِ بالأحوطِ يجبُ مسحُ الكُلِّ[1].

بيان قول الآمدي بأنَّ التَّبعيضَ هنا، مجازٌ مرسَلٌ، بإطلاق الكلِّ وإرادة الجزء:

سرُّ العُدول عن تعديَةِ الفعلِ بنفسِه إلى تعديةِ الفعل بالباء

نقل الآمديُّ أنَّ التَّبعيضَ المفهومَ ليس حقيقةً، وإنَّما هو مجازٌ مرسَلٌ، حيث أُطلِقَ الكُلُّ (الرَّأس)، وأريد الجزءُ (بعضُه)، وأنَّ التَّبعيضَ ليس من دلالةِ الباءِ، وهذا ما صَرَّح به المالقيُّ بقوله: "والصَّحيحُ أنَّ الباء في ذلك كلِّه للإلصاق.... وإنَّما التَّبعيضُ الَّذي يُمكنُ في التَّمثيلِ في الآيةِ على المجازِ، لا أصلَ للباء فيه، فهو مثلُ قولِك: ضربتُ زيدًا، وأنت تريدُ بعضَه بإطلاق اللَّفظِ مجازًا"[2]، والظَّاهرُ أنَّ التَّبعيضَ ليس من دلالة الباء، وأنَّ السِّرَّ في العُدول عن تعديةِ الفعلِ بنفسِه إلى تعديةِ الفعل بالباء ﴿وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ﴾؛ "لأنَّ المسحَ لا بُدَّ فيه من إلصاقِ اليدِ بالممسوحِ ومباشرتِه، بخلافِ الغُسْلِ الَّذي يتحقَّقُ بصبِّ الماء على العُضو، ولو لم يباشرْه العُضو الغاسل، وأوضحُ دليلٍ على ذلك أنَّ الوجهَ واليدينِ عُدِّي إليهما فعلُ الغُسْل بنفسِه في الوضوء، وعُدِّي إليهما فعلُ المسح بالباء في التَّيمُّم، كما كان في المسوحات، قال تعالى: ﴿فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدٗا طَيِّبٗا فَٱمۡسَحُواْ بِوُجُوهِكُمۡ وَأَيۡدِيكُم مِّنۡهُۚ﴾، فالباء إذًا جيء بها؛ للدَّلالةِ على مباشرةِ المسحِ باليد للرَّأس وإلصاقِه بها، وليس التَّبعيضُ من دلالتِها"[3].

القراءاتُ الواردةُ في قولِه: ﴿وَأَرۡجُلَكُمۡ﴾، وأثرها في المعنى والأحكام:

تعدُّدُ الدِّلالات وتنوُّع المعاني نتاجُ تعدُّدِ القراءاتِ القرآنيَّة

وردتْ في ﴿وَأَرۡجُلَكُمۡ﴾ ثلاثُ قراءاتٍ: الأولى: قراءةُ الرَّفع، وهي قراءةٌ شاذَّةٌ، قرأ بها الحَسَنُ، والمعنى: وأرجلُكم مغسولةٌ[4]، والثَّانية: قراءةُ النَّصبِ بالعطفِ على ﴿وُجُوهَكُمۡ﴾، وهي قراءة

(1) الزمخشري، الكَشَّاف: 1/325.
(2) المالِقي، رَصْف المَباني، ص: 224.
(3) الخضري، مِن أسرار حروف الجَرّ، ص: 196.
(4) الكازروني، حاشية الكازروني على تفسير البيضاوي: 1/139.

متواترة، قرأ بها نافع، وابن عامر، وعاصم، ولا إشكالَ في هذه القراءة المتواترةِ؛ لأنَّ (الأرجلَ) فيها معطوفةٌ على (الوجوه)، والمعنى بناءً عليها: فاغسلوا وجوهَكم وأيديَكم إلى المرافق، وأرجلَكم إلى الكعبين، وامسحُوا برؤوسكم، وإنَّما أُقْحِمَ مسحُ الرَّأس بين المغسولات؛ ليأخذ درجةَ المغسولات في الأهمِّيَّةِ والعنايةِ، حتَّى لا يتهاونَ به أحدٌ، أو يلتمسَ له وجهًا ما، كمن يمسحُ على العمامة متعلِّلًا بالمشقَّة، ولا يخفَى أيضًا ما في دلالةِ تقديمِ مسحِ الرَّأس على أهمِّيَّةِ التَّرتيب، والثَّالثةُ: قراءةُ الجَرِّ على المجاوَرةِ، أي: لمجاورتِها المجرورَ، وهو قولُه: ﴿بِرُءُوسِكُمْ﴾، وهي قراءةُ ابنِ كثيرٍ، وحمزةَ، وعاصمٍ، وأبي عمرو، فالخفضُ في قراءة ﴿وَأَرْجُلِكُمْ﴾: إنَّما هي لمجاورةِ المخفوضِ، مع أنَّها منصوبةٌ بدليل قراءةِ النَّصب[1]، وعلى هذه القراءة؛ يكونُ في الآية إجمالٌ، وقد يُفهم منها الاكتفاءُ بمسح الرِّجْلين في الوضوء كالرَّأس، وهو خلافُ المشهور والمرويِّ من الأحاديث النَّبويَّةِ الصَّريحةِ والصَّحيحةِ، في وجوبِ غسلِ الرِّجلين في الوضوء، والتَّوعُّدِ بالنَّار لمن ترك هذا[2].

تقدير عطف الغسل على المسح لاشتراكهما في باب الوضوء

دلالة اشتراك المتعاطفين في الوصف في قوله: ﴿وَٱمْسَحُواْ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ﴾:

قيل: إنَّه إنَّما خفض، لاشتراك الغسل والمسح في باب الوضوء، فكأنَّه قال: (وامسحواْ برؤوسكم، واغسلوا أرجلكم)، كما قال: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ

(1) العربُ تخفضُ الكلمةَ لمجاورتِها المخفوض: (المجرور) مع أنَّ إعرابَها النَّصب، والرَّفع، ومن شواهدِه قولُ امرئِ القيس:

كَأَنَّ ثُبِيرًا في عِرانِينِ وبْلِهِ***كَبِيرُ أُناسٍ في بِجادٍ مُزَمَّلِ

بِجَرّ: (مُزَمَّلِ) بالمجاورة للمجرور: (بِجادٍ)، مع أنَّها نَعْت: (كَبيرُ) المرفوع خبرًا لكأنّ، ومنه قول ذي الرُّمة:

تُرِيكَ سُنَّةَ وجْهٍ غَيْرِ مُقْرِفَةٍ ***مَلْساءَ لَيْسَ بِها خالٌ ولا نَدَبُ

بِجَرّ: (غَيْرِ) لمجاورة المجرور بالإضافة: (سُنَّةَ)، مع أنّ: (غَيْرِ) نعتٌ منصوب لـ: (سُنَّةَ) المنصوبةِ بفعل يتعدَّى لمفعولين، والإعرابُ بالمجاورة له شواهدُ كثيرةٌ في كتاب الله، منها قولُه تعالى: ﴿وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾ كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُؤِ ٱلْمَكْنُونِ ﴿٢٣﴾﴾ [الواقعة: 22 - 23]، على قراءة حمزة والكسائيّ، ينظر: الشِّنْقيطي، أضواء البيان: 2/6 - 7.

(2) الشِّنْقيطيّ، أضواء البيان: 2/6 - 7.

﴿١٨ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ١٩ وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ٢٠ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ٢١ وَحُورٌ عِينٌ ٢٢﴾ [الواقعة: 17 - 22]، فعطف الحور العين على الفاكهة الَّتي يطاف بها، وهو ممَّا لا يطافُ به، ولكنَّ عطفه عليه لاشتراكهما في التَّنعُّم بهما، ومن ذلك قول الشَّاعر:

وَرَأَيْتُ زَوْجَكِ قَدْ غَدَا***مُتَقَلِّدًا سَيْفًا وَرُمْحا

عطف الرُّمح على السَّيف، وليس الرُّمح ممَّا يتقلَّد به، ولكن عطفه عليه، لاشتراكهما في الحمل، وفي أنَّهما سلاح... وتقدير ما ذكرنا - عند النَّحويين - على حذف فعل فيه (كلُّه) على قدر معانيه، كأنَّه قال: (وحاملًا رُمْحًا)، ونحو ذلك من التَّقدير[1]، وتُشيرُ قراءةُ الخفض إلى أنَّه ينبغي الاقتصادُ في صَبِّ الماء على الأرجُلِ، وغسلُها غُسلًا قريبًا منَ المسح، وفي الفصل بين غسل الرِّجلين وبين أخواته إيماءٌ إلى أفضليَّة التَّرتيب[2]، والتَّرتيب ليس مستفادًا منَ العطف بالواو؛ لأنَّها لمطلَقِ الجمع، ولكنْ من ترتيب هذه الأشياء في الذِّكر كما جاءت به الآيةُ الكريمةُ، والجرُّ بالجوار يكون في النَّعت قليلًا، وفي التَّوكيد نادرًا، ولا يكون في عطف النَّسق إلَّا لحكمة واضحة؛ لأنَّ العاطف يمنع من التَّجاور[3]، قال الزَّمخشريُّ: "الأرجل من بين الأعضاء الثَّلاثة المغسولة، تغسل بصبِّ الماء عليها، فكانت مظنَّة للإسراف المذموم المنهيِّ عنه، فعطفت على الثَّالث الممسوح، لا لتمسح، ولكن ليُنبِّه على وجوب الاقتصاد في صبِّ الماء عليها، وقيل: ﴿إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ﴾، فجيء بالغاية إماطة لظنِّ ظانٍّ، يحسبها ممسوحة؛ لأنَّ المسح لم تضرب له غاية في الشَّريعة"[4].

تخريج قوله: ﴿وَأَرْجُلِكُمْ﴾ على أنَّها مجرورةٌ بحرفِ جرٍّ مقدَّرٍ دَلَّ عليه المعنى:

نذكر أنَّه من التَّخريجات الواردة عند اللُّغويِّين تخريج قوله: ﴿وَأَرْجُلِكُمْ﴾ على أنَّها مجرورةٌ بحرفِ جرٍّ مقدَّرٍ، دَلَّ عليه المعنى، ويتعلَّق هذا الحرفُ بفعلٍ محذوفٍ أيضًا يليق بالمحلِّ، قالوا: وتقديرُه: (وافعَلُوا بأرجلِكم غسلًا)، قال أبو البقاء: وحَذْفُ حرفِ الجرِّ وإبقاءُ الجرِّ جائزٌ، كقوله:

التَّخريجات اللُّغويَّة موغلة في التَّقدير، وتؤكِّد سعة الاستنباط من التَّعبير

(1) مكيّ بن أبي طالب، الهداية إلى بلوغ النّهاية: 3/1616.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العَقْل السّليم: 3/11.
(3) الدُّرَّة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 3/28.
(4) الزَّمخشريّ، الكشَّاف: 1/611.

مَشَائِيمُ لَيْسُوا مُصْلِحِينَ عَشِيرَةً*** وَلَا نَاعِبٍ إِلَّا بِبَيْنٍ غُرَابُهَا

فجُرَّ بتقديرِ الباء، وليس بموضع ضرورةٍ، والتَّقدير فيما يسمُّونه جرًّا على التَّوهُّم، قولنا: (لَيْسُوا بمُصْلِحِينَ)، يعني: كأنَّه توهَّم وجودَ الباء زائدةً في خبر (ليس)؛ لأنَّها يكثُر زيادتُها، واستدلُّوا عليه بقوله تعالى: ﴿فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝١٠﴾ [المنافقون: 10]، بجزم ﴿وَأَكُن﴾ عطفًا على ﴿فَأَصَّدَّقَ﴾ على توهُّم سقوط الفاء من ﴿فَأَصَّدَّقَ﴾، وقد نَصَّ عليه سيبويه وغيرُه، وهذا التَّخريج فيه تكلُّف ونأيٌ عن المفهوم من ظاهر السِّياق، وقد أشار إلى ذلك صاحب الدُّرِّ المصون[1].

الاستغناء عن جمع الكثرة بجمع القلَّة في قوله تعالى: ﴿وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ﴾:

يشترك الجمعان في الدَّلالة على الجمع، ويفترقان في توصيف الكثرة والقلَّة

قوله: ﴿وَأَرْجُلَكُمْ﴾، استغنى فيه بجمع القلَّة عن جمع الكثرة؛ لأنَّه بناء يستغنى فيه بالأوَّل عن الثَّاني، وضعًا واستعمالًا؛ اتِّكالًا على القرينة، وهو ما لخَّصه الشَّاطبيُّ بقوله: "وحقيقة الوضع أن تكون العرب لم تضع أحد البناءين؛ استغناء عنه بالآخر، والاستعمال أن تكون وضعتهما معًا، ولكنَّها استغنت في بعض المواضع عن أحدهما بالآخر، فالأوَّل: كأرجل جمع رجل، وأعناق جمع عنق، وأفئدة جمع فؤاد، قال تعالى: ﴿وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ﴾، ﴿فَٱضْرِبُواْ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ﴾، ﴿وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ۝٤٣﴾، فاستغنى فيها ببناء القلِّة عن بناء الكثرة؛ لأنَّها لم يوضع لها بناء كثرة، والثَّاني: كأقلام"[2].

دلالة قراءتي: ﴿فَٱطَّهَّرُواْ﴾ بالتَّخفيف، وقراءة ﴿فَٱطَّهَّرُواْ﴾ بالتَّشديد:

الوضوء طهارة حسِّيَّة ومعنويَّة أصليَّة، والتَّيمُّم طهارة معنويَّة بديلة

كما قرئ ﴿فَٱطَّهَّرُواْ﴾، شاذًّا: (فاطْهُرُوا)، أيْ: فَطَهِّرُوا أبْدانَكم، وفائدةُ القراءتين: أنَّ قراءةَ التَّشديد ﴿فَٱطَّهَّرُواْ﴾؛ للدَّلالةِ على الاغتسال بالماء مع التَّشديد في صبِّ الماء، على كلِّ جُزءٍ في الجسد،

(1) السَّمين، الدُّرُّ المصون: 4/216.
(2) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 2/421.

وقراءةُ التَّخفيف (فَاطْهُرُوا)؛ للدَّلالة على التَّيمُّم عند عدمِ وجودِ الماء، أو عند وجودِه مع العذرِ الَّذي يمنعُ منَ الاغتسال بالماء، "وفي تَعْليقِ الأمْرِ بِالطَّهارَةِ الكُبْرى بِالحَدَثِ الأكْبَرِ، إشارَةٌ إلى اشْتِراطِ الأمْرِ بِالطَّهارَةِ الصُّغْرى بِالحَدَثِ الأصْغَرِ"[1].

دلالةُ تَعليقِ الشَّرْط بالأداة ﴿وَإِن﴾ في قوله: ﴿وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا﴾ ﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ﴾:

التَّعبيرُ بأداةِ الشَّرط ﴿وَإِن﴾ المفيدة معنى: الشَّكِّ، إشارةٌ إلى استحبابِ المُبادرةِ إلى الغُسْل منَ الجَنابة؛ إذا وَقَع، والحَثِّ على ذلك، وكأنَّ بقاءَ المُسْلم جُنُبًا أمرٌ نادرٌ؛ ليبقى نظيفًا حِسِّيًّا ومعنويًّا، ظاهرًا وباطنًا، وللإشارة إلى أنَّ حالةَ الجنابةِ عارضةٌ وليستْ غالبةً، أمَّا تعليقُ الشَّرط الثَّاني: ﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ﴾ بأداة الشَّكِّ؛ فللإشارة إلى أنَّ حالةَ المرضِ عارضةٌ، و هذا من فضل اللّٰه على عباده: أنَّ الرَّخاء بالعافية والصِّحةِ أكثرُ منَ المرض والسُّقْم في غالب حال الأُمَّة[2].

التَّطَهُّر منَ الجَنابة شَرطٌ لصِحَّة الصَّلاةِ، وسِرُّ الحَثِّ على الغُسلِ أو التَّيمُّم

إشارة السِّياق إلى أنَّ المرض بذاته مُسوِّغٌ للتَّيمُّم، وإن كان الماءُ موجودًا:

في قوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ﴾، تتَضَمَّن الآية إباحةَ التَّيمُّم للمريض، من غيرِ شرطِ عدم الماء، وعدمُ الماء إنَّما هو مشروطٌ للمسافرِ دون المريض، فلو كان الحُكْمُ جَعْلَ عدمِ الماء شرطًا في إباحةِ التَّيَمُّم للمريض؛ لأدَّى ذلك إلى إسقاطِ فائدةِ ذِكْر المريض؛ لأنَّ العِلَّةَ المُبيحةَ للتَّيمُّم وجوازِ الصَّلاةِ به في المريض والمسافر لو كانت عَدَمَ الماء؛ لما كان لِذِكْر المريض مع عدم ذِكْر

الوضوء طهارة مؤصَّلة، والتَّيمُّم رخصة مؤقَّتة

(1) أبو السّعود، إرشاد العَقْل السّليم: 2/11.
(2) البقاعي، نَظْم الدُّرر: 6/35.

الماء فائدةٌ[1]، وذكر الشَّوكانيُّ أنَّ الصَّحيح من المرض، إذا لم يجدِ الماءَ؛ تيمَّم، فدَلَّ على أنَّ المرضَ بمجرَّده مُسوِّغٌ للتَّيمُّم، وإن كان الماءُ موجودًا؛ إذ كان يتضرَّرُ باستعمالِه في الحالِ أو في المآل[2].

دلالةُ ﴿فَٱطَّهَّرُواْ﴾ على الحُكمِ الشَّرعيِّ، و سرُّ تَعليقِ الشَّرْط بأداةِ الشَّكِّ ﴿وَإِن﴾:

التَّطَهُّر منَ الجَنابة شَرطٌ لصِحَّة الصَّلاةِ، وسرُّ الحَثِّ على الغُسلِ منها

﴿وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَٱطَّهَّرُواْ﴾، أي: إنْ كنتُمْ جُنُبًا باحتلامٍ أو مباشرةٍ، وأردتُمُ الصَّلاةَ؛ فاغتسلوا، وكلمةُ (جُنُب) مشتقٌّ من لفظ الجنابة، وهي ما تكونُ بِسَبَب الاتِّصالِ بين الرَّجل والمرأة، وسُمِّي ذلك جَنابةً؛ لأنَّه يُجنِّبُهما الصَّلاةَ، ولِما يكونُ منَ التَّقارُب بينهما بحيث يكون أحدُهما بِجَنْب الآخر، وفي حُكْم الجَنابة بهذا المعنى الحيضُ والنِّفاسُ، ويُشير قولُه تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَٱطَّهَّرُواْ﴾ إلى وجوبِ التَّطَهُّر أي: الاغتسالِ، عند القيام للصَّلاة والاستعدادِ لها، فالأمرُ هنا للوجوب، والتَّطهُّرُ: هو الاغتسالُ، والعنايةُ بِصَبِّ الماء على كُلِّ جُزءٍ يمكنُ أن يصلَ إليه، كما يدلُّ عليه التَّعبير بصيغة (فَعَّلَ): ﴿فَٱطَّهَّرُواْ﴾، بدلالتِها على التَّكلُّفِ والاجتهادِ في الفِعْل، كما دَلَّ التَّعبيرُ بـ﴿فَٱطَّهَّرُواْ﴾ على أنَّ النَّجاسةَ المعنويَّةَ عَمَّتْ كُلَّ أجزاءِ الجِسْمِ، فوجبَ أن تكونَ الطَّهارةُ عامَّةً لكلِّ أجزاءِ الجسمِ أيضًا[3].

سِرُّ العُدول عن لفظ (مسافرين) إلى قوله: ﴿عَلَىٰ سَفَرٍ﴾:

حرفُ الاستعلاء (على) في الآية، وإيحاؤه بالعَزم القاطعِ على السَّفَر

قوله: ﴿أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ﴾ أيْ: مُسْتَقِرِّينَ عَلَيْهِ، وقيل: ﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ﴾، ولم يقل: (أو مسافرين)؛ ليقابل الجمع ﴿مَّرْضَىٰٓ﴾، فيجري الكلامُ على سياقٍ واحدٍ؛ لوجودِ فرقٍ بين لفظي (المسافر) و﴿عَلَىٰ سَفَرٍ﴾، فالمسافرُ هو مَن تَلَبَّس بِحَرَكَة السَّفَر،

(1) الجَصَّاص، أحكام القرآن: 2/461.
(2) الشوكاني، فتح القدير: 1/463.
(3) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 5/2051.

وخَرَج عن وَصْف الإقامةِ والحَضَر، أي: هو المسافرُ حقيقةً وواقعًا، أَمَّا ﴿عَلَىٰ سَفَرٍ﴾، فمعنى: على عَزْمِ السَّفَر وقُوَّته واستعدادِه له، وإن لم يجاوزْ حدودَ الحَضَر؛ لذا لم يقل: (مسافرين)؛ ليَتناول مَن شَرَعَ في السَّفر، ولم يبلغ مسافةَ السَّفر، فإنَّه يقصرُ، ويتيمَّم، وهذا من باب التَّخفيف في الدِّين والتَّيسير على العبادِ.

الجمع في سياق واحد بين ما هو سببٌ للعزيمة، وماهو سببٌ للرُّخصة:

إنَّ المرضَ والسَّفَرَ - مع فَقْد الماء - سببان مِن أسبابِ التَّرخيصِ بالتَّيمُّم، والحَدَثُ سَبَبٌ لوجوبِ الوضوءِ، والجَنابةُ سببٌ لوجوب الغُسْلِ، فجمعَ في سِلْكٍ واحدٍ بين ما هو سببٌ للرُّخْصة، وما هو سَبَبٌ للطَّهارة بِوُضوء أو غُسْلٍ، وقد عَلَّلَ صاحبُ الكَشَّاف هذا بقوله: "أراد سبحانه أن يرخِّصَ للَّذين وجبَ عليهمُ التَّطهُّرُ، وهم عادمُون الماءَ في التَّيمُّم بالتُّراب، فخصَّ أوَّلًا من بينهم مرضَاهم ومن هم على سفرٍ؛ لأنَّهم المُتقدِّمون في استحقاق بيانِ الرُّخصة لهم، بكثرة المرضِ والسَّفرِ وغلبتِهما على سائرِ الأسبابِ المُوجبةِ للرُّخصةِ، ثمَّ عمَّ كلَّ من وجبَ عليه التَّطهُّرُ، وأعوَزَهُ الماءُ لخوفِ عدوٍّ أو سَبُعٍ أو عدم آلة استقاءٍ، أو إرهاقٍ في مكان لا ماءَ فيه، وغيرِ ذلك بما لا يكثرُ كثرةَ المرضِ والسَّفر[1].

الخلوصُ من تخصيص المريض والمسافر إلى كُلِّ من لهُ عذرٌ مُشابه

حرفُ الاستعلاء ﴿عَلَىٰ﴾ في الآية، وإيحاؤه بالعَزْم على السَّفَر:

النُّكْتةُ في إيثارِ حَرْفِ الاستعلاءِ ﴿عَلَىٰ﴾ على حَرْف الظَّرْفيَّة (في) في قولِه تعالى: ﴿أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ﴾، هي أنَّ حرفَ الاستعلاء، يُوحِي بالعزم على السَّفر، وعَقْدِ النِّيَّةِ عليه، حتَّى باتَ واقعًا، وهذا كافٍ في نَيْل رُخْصَة التَّيمُّم بشُروطِه، وهو ما يتناسبُ مع مقام التَّيسير في الآيةِ الكريمةِ، ولو قيل: (في سفر)؛ لأَشْعَرَ بِتَوَقُّفِ استحقاقِ التَّرَخُّص على التَّوغُّلِ في السَّفَر، وقَطْعِ المسافاتِ فيه، وهذا لا يتلاءمُ والمقامَ.

الظَّرفيَّة محدودة بأوانها، والاستعلاء منفسحٌ للقصد والفعل والمواصلة

(1) الزَّمخشري، الكشَّاف: 1/270 - 271.

علَّة الكنايةِ عن قضاء الحاجة في قوله: ﴿أَوۡ جَآءَ أَحَدٞ مِّنكُم مِّنَ ٱلۡغَآئِطِ﴾:

دلالـةُ تجَنُّبِ التَّصريحِ بما يُستهجَنُ في الخطاب القرآنيِّ العفيف

وفي قوله: ﴿أَوۡ جَآءَ أَحَدٞ مِّنكُم مِّنَ ٱلۡغَآئِطِ﴾ كِنايةٌ عن صفةٍ، هي قضاءُ الحاجةِ، وأصلُ الغائطِ: المكانُ المُنخَفضُ الَّذي يأوِي إليه مَن يَقضي حاجتَه؛ لأنَّه يَستُره، ثمَّ صار بحَسَبِ العُرف كنايةً عن قضاء الحاجةِ، وفي إيثار هذه الكنايةِ إشارةٌ مهمَّةٌ إلى ضرورةِ الاستتار، عند قضاءِ الحاجةِ، بعيدًا عن عيونِ النَّاس، فلا يظهرُ بعد قضاء حاجتِه إلَّا وهو في تمامِ إسدالِه و سترِه، وهذا ما يدلُّ عليه قولُه: ﴿أَوۡ جَآءَ﴾، أي: بعد الانتهاءِ التَّامّ، والسَّتر التَّامِّ، والكِنايةُ تأتي بالمعنى مصحوبًا بالدَّليلِ، ممَّا يُؤدِّي إلى تأكيدِ إثباتِ المعنَى، وهذا من أسرار بلاغتِها، ولم يُصَرِّحْ بالمعنى الحقيقيِّ تَنَزُّهًا عنِ التَّصريح بها؛ لأنَّها منَ النَّقائصِ المُذكِّرةِ للإنسان بشديدِ عجْزِه، وعظيمِ ضرورَتِه، وفقرِه؛ ليكفَّ عن إعجابِه وتكبُّرِه وترفُّعِه وفُجْرِه، كما ورد أنَّ بعضَ الأمراء لَقِيَ بعضَ البُلْه في طريق، فلم يُفسحْ له، فغضبَ، وقال: كأنَّك ما تعرفُنِي؟ فقال: بلى، واللّه إنِّي لأعرفُك، أَوَّلُك نطفةٌ مَذِرَةٌ، وآخرُك جيفةٌ قَذِرَةٌ، وأنت فيما بين ذلك تحملُ العَذِرَةَ[1].

علَّة صرف إسناد الفعل الخادش إلى المخاطبين بإسناده إلى ﴿أَحَدٞ﴾ غير معيَّن:

مسلك القرآن في إيثار التَّوصيف بالغيبة تفاديًا لكلِّ فاحشة وريبة

ومِمَّا يُلْحَظُ تحاشِي النَّظْم الكريم إسنادَ المجيءِ منَ الغائط، أي: الحَدَث بِبَولٍ أو غائطٍ، إلى المخاطَبين مُباشرةً في قوله تعالى: ﴿أَوۡ جَآءَ أَحَدٞ مِّنكُم مِّنَ ٱلۡغَآئِطِ﴾، فلم يقل: (أو جئتم من الغائط)، بل أسندَ الفعلَ إلى واحدٍ منهم مُبْهَم؛ لغَرَضٍ تعليميٍّ، هو ما يُؤدِّي إليه الخطابُ من خدْشٍ للحياء، فلو قال: (أو جئتم من الغائط)؛ لكان الخطاب فجًّا غير مستساغ، وحاشا أن يكون القرآن كذلك.

(1) البِقاعيّ، نظم الدُّرر: 6/35.

دلالة التَّعبير على وجوبِ قضاءِ الحاجةِ فُرادَى، والعودةِ فُرادى للاستتار:

استيعاب اللَّفظ لما يُجلِّي معاني العفَّة والسَّتر من أدب القرآن الرَّفيع

كما دلَّ التَّعبيرُ بالمفردِ في قوله: ﴿جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ﴾ على أدبٍ فِطْريٍّ منَ الآدابِ الإنسانيَّةِ، وهو وجوبُ قضاءِ الحاجةِ فُرادَى، والعودةِ فُرادى للاستتار، ولعلَّ هذا يتوافقُ مع مدلول كلمة الغائط، فهي الأرضُ المنخفضةُ الَّتي تَسْتُر مَن يَنْزِلُ فيها، وهذا دليل على شفافيَّة اللَّفظ، واستيعابه للمدلول الَّذي أجلى معاني العفَّة والسَّتر، ممَّا يدلُّ على رقاء الأسلوب ودقَّته ورقَّته.

دلالة الحرف (أَوْ) في قولِه تعالى: ﴿أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ﴾:

ورود الأداة (أو) على أصلها؛ لتفيد الاختيار عند الاضطرار

للأداة ﴿أَوْ﴾ هنا تأويلان: أحدُهما: أن تكونَ للتَّفْصيل والتَّنْويع على بابها، والآخر: أنَّها بمعنى: الواو، فعلى القولِ بأنَّها على بابها؛ يكونُ قولُه: ﴿فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً﴾ راجعًا إلى المريض والمسافرِ، وإلى مَن جاء مِنَ الغائط، وإلى مَن لامسَ، سواءٌ كانا مريضَيْن أو مسافرَيْن، فيقتضي ذلك جوازَ التَّيمُّم للحاضر الصَّحيح؛ إذا عدِمَ الماءَ، وهو مذهبُ مالكٍ والشَّافعيِّ، فيكونُ في الآية حجَّةٌ لهما، وعلى القول بأنَّها بمعنى الواو؛ يكونُ قولُه: ﴿فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً﴾ راجعًا إلى المريض والمسافر، فيقتضي ذلك أنَّه لا يجوزُ التَّيمُّمُ إلَّا في المرض والسَّفر مع عدَمِ الماءِ، وأنَّه لا يجوزُ للحاضرِ الصَّحيح؛ إذا عدِمَ الماءَ، ولكنْ يُؤخذُ جوازُ التَّيمُّم له من دليلٍ آخرَ، والرَّاجحُ أنَّ ﴿أَوْ﴾ على بابها؛ لِوَجْهَين: أحدُهما: أنَّ جعْلَها بمعنى الواو إخراجٌ لها عن أصلِها، وذلك ضعيفٌ، والآخرُ: إن كانت على بابها؛ كان فيها فائدةُ إباحةِ التَّيمُّم للحاضرِ الصَّحيح؛ إذا عدِمَ الماءَ على ما ظهرَ لنا فيها، وإذا كانت بمعنى الواو؛ لم تُعْطِ هذه الفائدةَ، وحُجَّةُ مَنْ جَعَلَها بمعنى الواو: أنَّه لو جعلَها على بابها؛ لاقتضى المعنى: أنَّ المرضَ والسَّفرَ حدثٌ، يوجبُ الوضوءَ كالغائطِ، لِعَطْفِه عليها، وهذا لا يلزمُ؛ لأنَّ العطفَ بـ﴿أَوْ﴾ هنا للتَّنويع والتَّفصيلِ، ومعنى الآية: كأنَّه قال:

يجوزُ لكم التَّيمُّمُ؛ إذا لم تجدوا ماءً؛ إن كنتم مرضَى أو على سفر، وأحدثْتُم في غير مرضٍ ولا سفرٍ"[1].

مَزيَّةُ الكنايةِ وأثرها في المعنى في قوله تعالى: ﴿أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾:

مـا يُستَر في الواقع المحسُوس؛ يُستَر في اللَّفظ المأنُوس

أمَّا قولُه تعالى: ﴿أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾؛ فهو كِنايةٌ عن صفةٍ - أيضًا- وهي الوطءُ، ولم يُصَرَّحْ بها تنزيهًا عن ذِكْر ما يُسْتقبحُ التَّصريحُ به، وفي هذه الكنايةِ إشارةٌ إلى انسجامِ التَّعبير مع الحالة الَّتي يصفُها، فما يجب سترُه بعيدًا عنِ النَّاس؛ يجب كذلك سترُه في اللَّفظ، وذلك لإشاعةِ الحياءِ التَّعبيريِّ المتَّسقِ مع الحياءِ النَّفسيِّ في المجتمع المسلمِ، وإذا رأيت مجتمعًا يفحشُ كلامُه؛ فهذا دليلٌ على فُحشِ أفعالِه.

القراءتان في: ﴿لَٰمَسۡتُمُ﴾و﴿لَمَسۡتُمُ﴾ يتطلَّبُهما الغرضُ:

اللَّمْس المَشْروعُ بِاليَد غيرُ ناقضٍ للوضوء

وردت في الفعل (لمس) في قولِه تعالى: ﴿أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ قراءتان، يتطلَّبُهما الغرضُ:

القراءةُ الأولى: قراءةُ حمزةَ والكسائيِّ: ﴿لَمَسۡتُمُ﴾ على وزن (فَعَل)، والقراءةُ الثَّانية: قراءةُ بقية السَّبعة ﴿لَٰمَسۡتُمُ﴾ على وزن (فَاعَلَ)، وكلتا القراءتين لهما دلالةٌ يتطلَّبُها الغرضُ، فقراءةُ ﴿لَٰمَسۡتُمُ﴾: تدلُّ على المشاركة، وقراءةُ ﴿لَمَسۡتُمُ﴾: تدلُّ على مجرَّد اللَّمس، وإذا كان الغالبُ في ألف المفاعلةِ، أن تدلَّ على تحقُّقِ قدْرٍ ما منَ المشاركة؛ فإنَّها تدلُّ على الوطءِ حقيقةً، وما ورد في البيانِ النَّبويِّ منَ استخدام لفظِ (المَسِّ) يكشفُ عن أنَّ اللَّمْسَ المشروعَ باليد غيرُ ناقضٍ للوضوءِ، وأنَّ المرادَ به في الآية: اللَّمسُ بشهوةٍ، وأنَّ القراءتَيْن تدلَّان على حالَيْن: حالةِ نقض الوضوء بقراءة: ﴿لَمَسۡتُمُ﴾، والجنابةِ بقراءة: ﴿لَٰمَسۡتُمُ﴾، وأنَّه يمكنُ حملُ إحدى القراءَتين على

(1) ابن جُزيّ، التَّسهيل، ص: 182.

الأخرى، وَفقًا لمقام النَّظرِ، ففي مقام الإحسانِ والسَّعةِ والفَرْضيَّةِ: تُحملُ قراءةُ ﴿لَمَسْتُمُ﴾ على ﴿لَٰمَسْتُمُ﴾، وفي مقام الحَرَج والضِّيقِ والنَّافلةِ: تُحْمَل قراءة ﴿لَٰمَسْتُمُ﴾ على الأخرى[1]، ولعلَّ هذا يتَّكئُ في رأيه على قولِ أبي بكرٍ الرَّازيِّ: "إنَّ القراءتين ليستا كالآيتين في الحُكْم، بل يُقرآن على أن تُقام إحداهما مقامَ الأخرى، لا على أن يُجمعَ بين أحكامهما كما لا تُجمع بين قراءتيهما"[2].

التَّعبيرُ بالمجيءِ دون الإتيان في قوله تعالى: ﴿أَوۡ جَآءَ أَحَدٞ مِّنكُم مِّنَ ٱلۡغَآئِطِ﴾:

أُوثرَ التَّعبيرُ بـ﴿جَآءَ﴾ على (أتى) في قولِه: ﴿أَوۡ جَآءَ أَحَدٞ مِّنكُم مِّنَ ٱلۡغَآئِطِ﴾؛ لتُوافقَ مدلولَ المادَّة مع دلالة كلمةِ (الغائط)، بيانُ ذلك أنَّ مادَّة المجيءِ تدلُّ على المشقَّةِ والجُهدِ، ومِمَّا لا شَكَّ فيه أنَّ ذهابَهم إلى الغائطِ - وهو المكانُ المنخفضُ منَ الأرض؛ كُلَّما أرادوا قضاءَ حاجتِهم - فيه مَشَقَّةٌ وعناءٌ لهم[3]؛ لِثقل الحركةِ وصعوبتِها، ولِمَشَقَّة تكرُّره يوميًّا في أيِّ وقت، وهذا لا يتوافقُ مع مدلولِ (أتى)؛ لأنَّه مَجيءٌ فيه يُسْرٌ ولِينٌ.

اختيار اللَّفظ المناسب دون مرادفه، يؤدِّي المعنى بدقَّة وبلاغة

الكناية عن حدث قضاء الحاجة في قوله تعالى: ﴿أَوۡ جَآءَ أَحَدٞ مِّنكُم مِّنَ ٱلۡغَآئِطِ﴾:

يحتوي التَّركيب على كناية عن الحدث بالمجيء من الغائط، "وهو المطمئنُّ المنخفض من الأرض؛ جريًا على عادة العرب في هذا الأمر، وهي أنَّ العربيَّ إذا أراد قضاء حاجة؛ قصد مكانًا منخفضًا من الأرض، وقضى حاجته فيه"[4]، وهذا أمر مستملح يؤكِّد ارتباط ذلك بمحاسن العادات عندهم، وتأذِّي المرء في تلك البيئة، من

ارتباط عادات العرب الاجتماعيَّة بالبيئة المحيطة بهم حضارةٌ وتأنُّقٌ

(1) سعد، إشكاليَّة الجمع بين الحقيقة والمجاز، ص: 131، 132.

(2) الجَصَّاص، أحكام القرآن: 2/462، والفاءُ في ﴿فَلَمۡ﴾ عاطِفَةٌ، وأمَّا الفاءُ في قَوْلِهِ سُبْحانَه: ﴿فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدٗا طَيِّبٗا﴾، فَواقِعَةٌ في جَوابِ الشَّرْط، والضَّمِيرُ راجِعٌ إلى جَمِيعِ ما اشْتَمَلَ عَلَيْه، وفِيهِ تَغْلِيبُ الخِطابِ عَلى الغَيْبَة، ينظر: الآلوسيّ، روح المعاني: 6/81.

(3) رضا، تفسير المنار: 6/209.

(4) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 2/421.

انكشاف عورته، أو اطِّلاع النَّاس عليه، وهو في ذلك الوضع المحرج، وهو أمرٌ يُنبئُ عن حسٍّ حضاريٍّ مُرهف.

ترتيبُ الأعذار منطقيًّا على حَسْب أولويَّة الحاجة إلى الرُّخْصَةِ الشَّرعيَّة:

لكلِّ عذر موجب للرُّخصة أسباب عقلانيَّة فصيحة ومقنعة

جاء التَّرتيبُ في قوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَـٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا﴾، على حَسْبِ الأحْوَجِ إلى الرُّخْصَةِ، فالأحْوَجِ، فبدأَ بالمرضِ، وقُدِّمَ على السَّفر؛ للإيذانِ بعراقتِه، وانفرادِه بأحكامٍ لا توجدُ في عُذْرٍ آخرَ مِنَ الأعذار المُبيحةِ للتَّيَمُّم، والمذكورة في الآية الكريمة[1]، وأردف المرضَ بالسَّفرِ، سَواء كانَ السَّفَرُ طَويلًا أم قَصيرًا، ثمَّ بالمجيءِ منَ الغائط، ولَوْ كانَ حاضِرًا صَحيحًا، ثمَّ جاء قوله: ﴿أَوْ لَـٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ تتميمًا لما سبق، وقد أخَّرَ هَذا العذر؛ لِأنَّهُ مِمَّا مِنهُ بُدٌّ، ولا يَتَكَرَّرُ تَكَرُّرَ قَضاءِ الحاجَةِ[2]، فجعل آخر الأعذار، مراعاة لمقتضى الحال، وضرورة الاحتياج.

دلالة وصف الصَّعيد بالطَّيِّب في قوله تعالى: ﴿فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا﴾:

حَمْلُ الصَّعِيدِ الطَّيِّبِ عَلى وجه الأرض وترابها عمومًا؛ رِعايَةً لِقاعِدَةِ الاِحْتِياطِ

قوله تعالى: ﴿فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا﴾، فالصَّعيدُ: وجْهُ الأرْضِ، وسُمِّيَ بذَلِكَ؛ لِأنَّهُ نِهايَةُ ما يُصْعَدُ إلَيْهِ مِن باطِنِ الأرْضِ، أوْ لِصُعُودِهِ وارْتِفاعِهِ فَوْقَ الأرْضِ، والطَّيِّبُ: الطَّاهِرُ، والمَعْنى: فَتَعَمَّدُواْ واقْصِدُواْ شَيْئًا مِن وجْهِ الأرْضِ طاهِرًا،

فهنا أمْرٌ بإيقاع التَّيَمُّم بالصَّعيد الطَّيِّب، "والصَّعيدُ الطَّيِّبُ: هو الأرْضُ الَّتي لا سَبَخَةَ فيها، ولا شَكَّ أنَّ التَّيَمُّمَ بهَذا التُّرابِ جائِزٌ بالإجْماعِ، فَوَجَبَ حَمْلُ الصَّعيدِ الطَّيِّبِ عَلَيْهِ؛ رِعايَةً لِقاعِدَةِ الاِحْتِياطِ، لا سِيَّما وقَدْ خَصَّصَ النَّبِيُّ - ﷺ - التُّرابَ بهَذِهِ الصِّفَةِ،

(1) أبو السُّعود، إرشاد العَقْل السّليم: 2/180.
(2) البِقاعيّ، نظم الدّرر: 6/34.

فَقالَ: «جُعِلَتْ لِيَ الأَرْضُ مَسْجِدًا وتُرابُها طَهُورًا»[1]، وقالَ: «التُّرابُ طَهُورُ المُسْلِمِ؛ إذا لَمْ يَجِدِ الماءَ»[2]، وهَذِهِ عِبادَةٌ خاصَّةٌ بِنا نحن أتباع محمَّد ﷺ.

الباءُ للإلصاق؛ للدَّلالةِ على اسْتِيعابِ الوجه واليدين بِالمَسْحِ:

التَّيمُّم طهارة ترابيَّة بديلة تميِّز الإسلام وتعكس يسره وبساطته

وعُدِّي فِعْلُ المَسْح بالباء دون (على) في قولِه: ﴿فَٱمْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُۚ﴾؛ لأنَّ المَسْحَ لا بُدَّ فيه مِن إلصاقِ اليَدِ بالمسوحِ، ومباشرتِه في التَّيمُّم، فلا بُدَّ مِن مُباشرةِ المَسْح باليدِ للوجه وإلصاقِه بها، وهذا معنى الإلصاق الَّذي لاينفكُّ عن الباء؛ لذا كان تعديةُ الفعلِ بالباء دون (على)، ولَمَّا كانَ التُّرابُ لا يَتَمَكَّنُ مِن جَميعِ العُضْوِ - وإنِ اجْتَهَدَ الإنْسانُ في ذَلِكَ - أدْخَلَ الباءَ قاصِرًا لِلْفِعْلِ في قَوْلِهِ: ﴿فَٱمْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُۚ﴾، والمُرادُ اسْتِيعابُ هَذَيْنِ العُضْوَيْنِ بِالمَسْحِ، حَتَّى إذا تَرَكَ شَيْئًا مِنهُما لَمْ يَجْزِئْ.

تَعَلُّقُ الأمرِ بالرُّخصة بالتَّيَمُّمِ بالأصنافِ الأربعةِ المذكورةِ في الآية:

الغاية من رخصة التَّيمُّم رفع الإعنات، واستدامة الوصل بالله في كلِّ الحالات

يُلاحَظُ أنَّه أُدْخِلَ في حُكْمِ الشَّرْطِ أربعةُ أصنافٍ، وهم: المرضى، والمسافرون، والمُحْدِثون، وأهلُ الجنابة، وقد تَعَلَّق الجزاءُ الَّذي هو الأمرُ بالتَّيمُّم عند عدمِ الماءِ بِهِم جميعًا، وأنَّ المرضى إذا عدِمُوا الماءَ لضَعفِ حركتِهم وعجْزِهم عنِ الوصول إليه؛ فلهم أن يتيمَّمُوا، وكذلك السَّفرُ إذا عدِمُوه لِبُعْدِه، والمُحْدِثون وأهلُ الجنابة كذلك إذا لم يجدُوه لبعض الأسباب[3]، وجعل اللّٰه تعالى الطَّهارةَ بالماء أو التُّراب الطَّاهرِ؛ ليُزيلَ الحَرَجَ؛ فمن لم يجدْ ماءً، أو لا يقدرُ على استعماله لِعِلَّةٍ، أو لِشِدَّة احتياجِه إليه، سيقعُ في حَرَج قَطْعًا؛ لأنَّه

(1) رواه بهذا اللَّفظ أبو داود الطيالسي في مسنده، الحديث رقم: (418).
(2) الرَّازي، مفاتيح الغيب: 11/168.
(3) الزّمخشريّ، الكشَّاف: 1/272.

يريدُ أن يُصَلِّيَ، ولا يجدُ وسيلةً للطَّهارة، ولا يريدُ اللّه أن يُعْنِت عبادَه، ولا أن يُوقعَهم في الحَرَج بل خَفَّفَ عليهم، وجعلَ التُّرابَ بديلًا للماء.

التَّيمُّمُ البديلُ عن الماء، طهارةٌ معنويَّةٌ، وليس تنظيفًا حسِّيًّا:

التَّيمُّم طهارة لله بأمره، وهي مرتبطة بالأرض، محلَّة للفرض

ليس المقصودُ بالطَّهارة بالتَّيمُّم التَّنظيفَ؛ لأنَّ معنى الطَّهارةِ لو اقتصرَ على التَّنظيف؛ لكانتِ الطَّهارةُ بالماء فقط، ولماذا إذًا نمسحُ وجوهَنا بالتُّراب؟ إنَّ هذا يوضِّحُ أنَّ الطَّهارةَ غيرُ النَّظافة، واللّه يطلبُ التَّطهيرَ، والتَّطْهيرُ يكون بِشَرْطِ مَنْ تَدْخُلُ عَلَيْه، وتقفُ بين يديه، وهو اللّه تعالى، وقد شَرَّع اللّه لذلك أَمْرين: إمَّا بالماء، وهو الأصلُ، وإمَّا بالتَّيمُّم بالتُّرابِ، فالطَّهارةُ تجعلُ المرءَ صالحًا؛ ليقفَ بَيْن يَدَي ربِّه، كما شَرَع هو سبحانه[1].

دلالة الأمر في قوله تعالى: ﴿فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا﴾:

أحكام اللّه تيسيرٌ على أمَّة الإسلام في اليسر، وتفريجٌ عليها في العسر

الأمرُ في قوله تعالى: ﴿فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا﴾ للوجوب، وللتَّذْكير بنعمةِ اللّه تعالى على عبادِه بالرُّخْصَةِ في التَّيمُّم، والتَّوسعةِ على الأُمَّةِ به، وأنَّ حُكمَه باقٍ عند أَمنهم وسِعَتهم؛ كَراهةَ أن يَتَوهَّموا أنَّ رخصةَ التَّيمُّم كانت عند خوفِهم وقِلَّتِهم، وضِيقِ الأرض عليهم، لظهورِ الكفَّار وغلبتِهم، كما كان زواجُ المتعةِ يُباحُ لهم تارةً، ويُمنع أخرى نظرًا إلى الحاجةِ وفقدِها، حتَّى ثبت منعُه مطلقًا، وفي التَّكرير - أيضًا- إشارةٌ إلى أنَّ ذلك من خصائص الأُمَّةِ المُحَمَّديَّة[2].

سِرُّ حَذْفِ الجارِّ والمجرور ﴿مِّنْهُۚ﴾ من آيةِ النِّساءِ، وإثباتِه في آية المائدة:

قال تعالى: ﴿فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْۗ﴾ [النِّساء: 43]، وقال تعالى: ﴿فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُۚ﴾ [المائدة: 6]، والسُّؤالُ: ما سِرُّ حَذْفِ

(1) الشَّعراوي، خواطر الشّعراوي: 5/2961.
(2) البِقاعي، نَظْم الدُّرَر: 6/34.

الجارِّ والمجرور ﴿مِّنْهُ﴾ من آيةِ النِّساءِ، وإثباتِه في آية المائدة؟ الجوابُ: بِتَأمُّلِ المَقامِ في الآيتين الكريمتين نَجِدُ أنَّ آية النِّساء فيها ذِكْرٌ لِبَعض أحكامِ الوضوء والتَّيَمُّم دون تفصيل؛ لذا حَسُنَ حذفُ الجارِّ والمجرور ﴿مِّنْهُ﴾، في حين أنَّ آيةَ المائدة فيها تفصيلٌ وبيانٌ لأحكام الوضوء[1]؛ لذا أُثْبِتَ الجارُّ والمجرورُ ﴿مِّنْهُ﴾؛ للزِّيادة في البيان، وإلى هذا السِّرِّ أشار الكِرْمانيُّ بقوله: "وزاد في المائدة ﴿مِّنْهُ﴾؛ لأنَّ المذكورَ في هذه - يَعْني: سورة النِّساء - بَعْضُ أحكام الوضوءِ والتَّيمُّم، فَحَسُن الحذفُ، والمذكورُ في المائدة جميعُ أحكامها؛ فَحَسُن الإثباتُ والبيان"[2]، ثمَّ إنَّ الجارَّ والمجرورَ ﴿مِّنْهُ﴾، يشيرُ إلى التَّأكيدِ على أن يكونَ التَّيمُّمُ منَ الصَّعيدِ الطَّيِّبِ ذاتِه، فحذفُه من آية النِّساء الَّتي نزلت قبْل المائدةِ، يشيرُ إلى أنَّه ربَّما وقعَ نوعٌ منَ التَّقصيرِ أوِ التَّسامُحِ في كيفيةِ التَّيمُّم، أو في الاكتفاءِ بغبارِ التُّرابِ، دون التُّرابِ ذاتِه، ونحوُ ذلك، ممَّا قد يقعُ مع بدايةِ تشريعِ الصَّلاةِ، كما يدلُّ صدرُ آيةِ النِّساء: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمۡ سُكَـٰرَىٰ﴾ [النِّساء: 43]، فلمَّا نزلتِ المائدةُ؛ زِيدَ فيها الجارُّ والمجرورُ ﴿مِّنْهُ﴾ في قوله: ﴿فَٱمۡسَحُواْ بِوُجُوهِكُمۡ وَأَيۡدِيكُم مِّنۡهُ﴾[3]؛ للتَّأكيد على أن يكونَ المسحُ منَ الصَّعيدِ الطَّيِّبِ ذاتِه، وهذا على ترجيحِ عَوْدِ الضَّميرِ في ﴿مِّنْهُ﴾ للصَّعيدِ الطَّيِّبِ.

الدَّلالة على العموم بلامِ الجُحُودِ والتَّنْكيرِ، وحَذْفُ موضوعِ الحَرَج:

قوله: ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجۡعَلَ عَلَيۡكُم مِّنۡ حَرَجٖ﴾، تعليلٌ لرخصةِ التَّيمُّم، وهذا الكلامُ يفيدُ النَّفيَ المؤَكَّد بأنَّه ليس في الدِّين مِن حَرَج، أي: ضيق ومَشَقَّة وعَنَتٍ، وفي نَفْي الإرادة: ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ﴾ تأكيدٌ للنَّفْي، وقد دَلَّ تنكيرُ ﴿حَرَجٖ﴾، وحَذْفُ موضوعه: على عُمومِه، وكأنَّه قيل: ما يريد اللّه عليكم، أيَّ مَشَقَّةٍ أو ضِيقٍ، وتأكَّد النَّفيُ بلام الجحود ﴿لِيَجۡعَلَ﴾، والمعنى: ما كان في أَمْرِ اللّه أن يجعلَ عليكم في

نفي الحرج قاعدةٌ من قواعدِ الشَّريعةِ، وأَصْلٌ مِن أعظمِ الأصولِ

(1) يظهر ذلك في قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ إِلَى ٱلۡمَرَافِقِ وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ وَأَرۡجُلَكُمۡ إِلَى ٱلۡكَعۡبَيۡنِۚ وَإِن كُنتُمۡ جُنُبٗا فَٱطَّهَّرُواْۚ وَإِن كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوۡ جَآءَ أَحَدٞ مِّنكُم مِّنَ ٱلۡغَآئِطِ أَوۡ لَـٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمۡ تَجِدُواْ مَآءٗ فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدٗا طَيِّبٗا فَٱمۡسَحُواْ بِوُجُوهِكُمۡ وَأَيۡدِيكُم مِّنۡهُۚ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجۡعَلَ عَلَيۡكُم مِّنۡ حَرَجٖ وَلَـٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمۡ وَلِيُتِمَّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ۝٦﴾ [المائدة: 6].

(2) الكِرْمانيّ، البُرْهان في توجيه مُتشابه القرآن، ص: 55.

(3) الزّركشي، البرهان: 1/194.

دينِه من حَرَجٍ؛ لذا شرعَ لَكُم التَّيَمُّمَ وغيرَه منَ الأمور الَّتي تُيسِّرُ عليكم أداءَ العبادات، فضْلًا منَ اللّه ورحمةً بعباده المؤمنين، وقد أشار إلى هذا بالتَّفصيل صاحبُ تفسيرِ المَنار، حيث قال: "ما نفاه اللّه تعالى مِن الحَرَج في هذه الآية، قاعدةٌ من قواعدِ الشَّريعةِ، وأَصْلٌ مِن أعظمِ أصولِ الدِّين... وقد أُطلقَ نفيُ الحرجِ، والمرادُ به هنا: أوَّلًا: ما يتعلَّقُ بأحكام الآية، أو بما تَقَدَّم مِن أحكامٍ مِن أَوَّل السُّورة، ثانيًا: وبالتَّبَع: جميعُ أحكام الإسلام؛ ولهذا لم يقلْ: ما يريدُ اللّه؛ ليَجعلَ عليكم مِن حَرَجٍ فيما شَرَعَه لَكُم مِن أحكام الطَّهارة؛ لأنَّ حَذْفَ المُتَعَلَّق يُؤْذِنُ بالعُموم"[1].

الاستدراك بلفظ ﴿وَلَٰكِن﴾؛ لتأكيد نفي الحَرَجِ الحِسِّيِّ و النَّفْسِيِّ:

قوله: ﴿وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ﴾، أي: مِنَ الأحداثِ والجَنابات والذُّنوبِ، وفي الاستدراك إشارَةٌ إلى أنَّ مِن حِكْمَةِ الأمْرِ بالغَسْلِ والوُضُوءِ التَّطْهيرَ، وهو تَطْهيرٌ حِسِّيٌّ؛ لِأنَّهُ تَنْظيفٌ، وتَطْهيرٌ نَفْسِيٌّ جَعَلَهُ اللّه فيهِ لَمَّا جَعَلَهُ عِبادَةً؛ فَإنَّ العِباداتِ كُلَّها مُشْتَمِلَةٌ عَلى عِدَّةِ أسْرارٍ: مِنها ما تَهْتَدِي إلَيْهِ الأفْهامُ، ونُعَبِّرُ عَنْها بالحِكْمَةِ، ومِنهُ ما لا يَعْلَمُهُ إلَّا اللّه، كَكَوْنِ الظُّهْرِ أرْبَعَ رَكَعاتٍ، فَإذا ذُكِرَتْ حِكَمٌ لِلْعِباداتِ؛ فَلَيْسَ المُرادُ أنَّ الحِكَمَ مُنْحَصِرَةٌ فِيما عَلِمْناهُ، وإنَّما هو بَعْضٌ مِن كُلٍّ، وظَنٌّ لا يَبْلُغُ مُنْتَهى العِلْمِ، فَلَمَّا تَعَذَّرَ الماءُ؛ عُوِّضَ بالتَّيَمُّمِ، ولَوْ أرادَ الحَرَجَ؛ لَكَلَّفَهم طَلَبَ الماءِ، ولَوْ بالثَّمَنِ أوْ تَرْكَ الصَّلاةِ إلى أنْ يُوجَدَ الماءُ، ثُمَّ يَقْضُونَ الجَمِيعَ، فالتَّيَمُّمُ لَيْسَ فِيهِ تَطْهِيرٌ حِسِّيٌّ، وفِيهِ التَّطْهِيرُ النَّفْسِيُّ الَّذي في الوُضُوءِ، لما جُعِلَ التَّيَمُّمُ بَدَلًا عَنِ الوُضُوءِ، كَما تَقَدَّمَ في سُورَةِ النِّساءِ"[2].

العِباداتُ أسْرارٌ؛ مِنها ما تدركه الأفْهامُ، ومِنها ما لا يَعْلَمُهُ إلَّا ربُّ الأنام

دلالة الحذفِ على الاختصار والتَّعميم في قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ﴾:

وقد حُذف مفعولُ الفعل ﴿يُرِيدُ﴾ من قوله: ﴿يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ﴾،

(1) رضا، تفسير المَنار: 6/269.

(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/131.

وتقديره: "يريد ما شرعَه لكم منَ الوضوء والاغتسال...ليُطهِّركم"، وسِرُّ الحذفِ: هو الاختصارُ والتَّعميمُ، وحتَّى تتوجَّهَ الإرادةُ إلى التَّطهيرِ، و ما عُطفَ عليه من تمام النِّعمةِ والشُّكرِ عليها، فإنَّها في ذاتِها غاياتٌ ساميةٌ جديرةٌ بالاعتبار، فما يريدُه اللّه ينبغي أن نُقبلَ عليه، ونَحرصَ عليه، وفي التَّعبير بالفعلِ ﴿يُرِيدُ﴾ إشارةٌ إلى أنَّ ما يريده اللّه نافذٌ، ويجبُ امتثالُه والانقيادُ إليه.

ما يُـريـدُهُ الله نافذٌ بالأصالة، وإرادتـــه خـيْرٌ ويسرٌ لا محالة

مفهوم تمام النِّعمة في تشريع الرُّخصة بالتَّيمُّم في قوله: ﴿وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ﴾:

﴿وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ﴾، أي: "لِيُتِمَّ بِشَرْعِهِ - ما هو مَطْهَرَةٌ لِأَبْدانِكم، ومَكْفَرَةٌ لِذُنُوبِكم - نِعْمَتَهُ عَلَيْكم في الدِّينِ، أوْ لِيُتِمَّ بِرُخَصِهِ إنْعامَهُ عَلَيْكم بِعَزائِمِهِ"[1].

بالشُّكْرِ والطَّاعة تـدومُ الـنِّـعَـمُ، ويبقى من الله العطاء والكرم

اسْتِعارةُ صِيغَةِ الرَّجاءِ إلى الأمْرِ لِقَصْدِ الحَثِّ عَلَيْهِ في قوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾:

﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾، أي: تَشْكُرُونَهُ عَلى تَيْسِيرِ دِينِهِ وتَطْهِيرِكم، وإتْمامِ النِّعْمَةِ عَلَيْكم، والتَّرَجِّي المُنْتَظَر هنا مِن البَشَر، وليس منَ اللّه تعالى، وقد جَعَلَ اللّه تعالى الشُّكْرَ "عِلَّةً لِإتْمامِ النِّعْمَةِ عَلى طَرِيقَةِ المَجازِ، بِأنِ اسْتُعِيرَتْ صِيغَةُ الرَّجاءِ إلى الأمْرِ، لِقَصْدِ الحَثِّ عَلَيْهِ وإظْهارِهِ في صُورَةِ الأمْرِ المُسْتَقْرَبِ الحُصُولِ"[2]، فإيثارُ هذه الصِّيغةِ جاء على سبيل الحثِّ على الشُّكرِ و تحريكِ النُّفوس المؤمنةِ نحوَ استقبالِ نِعمِ اللّه، وتيسيره بالرِّضا والامتنانِ، والعملِ الصَّالح الَّذي يليقُ بالمُنْعِم المُتَفضِّلِ.

من لبس النِّعمة - ولـم يشكـر - نُزِعَتْ عنه، ولمْ يشعُر

(1) البَيْضاوي، أنوار التَّنْزيل: 1/139.
(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/132.

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

التَّطهير والنَّظافة:

قوله: ﴿فَٱطَّهَّرُواْ﴾، المعنى: متعلِّق بالجنابة، يقول: فتطهَّروا بالاغتسال منها قبل دخولكم في صلاتكم الَّتي قمتم إليها[1]، وقيل: ﴿فَٱطَّهَّرُواْ﴾، أي: بالماء، أي: اغتسلوا به، قال المهايميُّ: أي: بالغوا في تطهير البدن؛ لأنَّه يتلذَّذ به الجميع تلذُّذًا أغرقه في غير اللّه، فأثَّر فيه بالحدث[2]، والطُّهر هنا: هو النَّقاء من ذلك الأذى، فإن وصف حائض يقابل بطاهر، وقد سمِّيت الأقراء: أطهارًا، وقد يراد بالتَّطهُّر الغسل بالماء، كقوله تعالى: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ﴾ [التَّوبة: 108]، فإنَّ معناه: الاستنجاء في الخلاء بالماء، وأمَّا النَّظافة؛ فمن: نظَّف ينظِّف تنظيفًا[3]، وهي - أيضًا- غسل الوسخ والدَّرن والدَّنس، ويقال للأشنان وما أشبهه: نظيف، لتنظيفه اليد والثَّوب من غمر اللَّحم والمرق، ووضر الودك، وما أشبهها، قال أبو بكر في قولهم: فلان نظيف السَّراويل، معناه: أنَّه عفيف الفرج، وهو معنًى مجازيٌّ[4]، فالنَّظافة: النَّقاوة، وقد نظُف الشَّيء بالضَّمِّ، فهو نظيفٌ، ونظَّفته أنا تنظيفًا، أي: نَقَّيته، والتَّنظُّف: تكلُّف النَّظافة[5]، والفرق بينهما: أنَّ النَّظافة تطهيرٌ حسيٌّ ظاهريٌّ، وأنَّ الطَّهارة: تجمع بين النَّقاوة الظَّاهريَّة، والنَّقاوة المعنويَّة الَّتي تطهِّر الباطن زيادة على الظَّاهر.

الصَّعيد والتُّراب:

لا يقع اسم الصَّعيد إلَّا على تراب ذي غبار[6]، والصَّعيد: التُّراب، "وقال آخرون: الصَّعيد: وجه الأرض، وقال آخرون: بل هو وجه الأرض ذات التُّراب والغبار، وأولى ذلك بالصَّواب قول من قال: هو وجه الأرض الخالية من النَّبات، والغروس، والبناء المستوية، ومنه قول ذي الرِّمَّة:

كَأَنَّهُ بِالضُّحَى يَرْمِي الصَّعِيدَ بِهِ***دَبَّابَةٌ فِي عِظَامِ الرَّأْسِ خُرْطُومِ[7].

(1) ابن جرير، جامع البيان: 8/212.
(2) القاسميّ، محاسن التأويل: 4/76.
(3) الخليل، العين: (نظف).
(4) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (نظف).
(5) الجوهريّ، الصّحاح: (نظف).
(6) الشّافعيّ: تفسير الإمام الشّافعي: 2/611.
(7) ابن جرير، جامع البيان: 7/82.

وكون الصَّعيد بمعنى: التُّراب، عليه أكثر أهل اللُّغة[1]، وقد قال بعض الفقهاء: إنَّ الصَّعيد وجه الأرض، سواء كان عليه التَّراب أو لم يكن، ويرى التَّيمُّم بوجه الصَّفاة الملساء جائزًا، وإن لم يكن عليها تراب؛ إذ يمسح بها المتيمَّم، قال: وسمَّى وجه الأرض صعيدًا؛ لأنَّه صعد على الأرض، ومذهب أكثر الفقهاء أنَّ الصَّعيد في قوله (ﷻ): ﴿فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا﴾ [النِّساء: 43] أنَّه التُّراب الطَّاهر وجد على وجه الأرض، أو أخرج من باطنها، ومنه قوله ﷻ: ﴿فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ۝٤٠﴾ [الكهف: 40][2]، وعليه؛ فإنَّ الصَّعيد أعمُّ من التُّراب، فكلُّ تراب صعيدٌ، وليس كلُّ صعيد ترابًا.

(1) الخفاجي، عناية القاضي: 3/141.

(2) الأزهري، الزَّاهر في غريب ألفاظ الشَّافعيّ، ص: 34.

﴿وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِي وَاثَقَكُم بِهِۦٓ إِذۡ قُلۡتُمۡ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ٧﴾ [المائدة: 7]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

المناسبة بين ذكر الأحكام التَّعبُّديَّة، وبين الالتزام بميثاق الله وشكره

لَمَّا ذكَر اللّه تعالى بعضَ الأحكامِ الشَّرْعِيَّةِ في الآياتِ السَّابِقةِ؛ أرْدَفَه بما يُوجِبُ على عِباده القَبولَ والإذعانَ، وذلك لِكَثْرة نِعَمِه سبحانه عليهم، ولأنَّ كثرةَ النِّعَمِ تُوجِبُ على المُنعَم عليه الاشتغالَ بخدمةِ المُنعِم، والانقيادَ لأوامِرِه ونواهيه، كَما أنَّ الميثاقَ الَّذي واثقَ اللّه به عِبادَه؛ سببٌ مُوجِبٌ للانقيادِ للتَّكاليفِ، والتَّعبيرُ بالميثاق هنا يربطُ آيةَ الوضوء بما قبْلَها من تحريمٍ و تحليلٍ، لدخولِها جميعًا في سلْكٍ واحدٍ هو الوفاءُ بالعهودِ أو العقودِ الَّذي بدأتْ به السُّورة في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ﴾.

شَرْحُ المُفرداتِ:

1) ﴿نِعۡمَةَ ٱللَّهِ﴾: النِّعمة: اليد، والصَّنيعة، والمنَّة، وما أنعم به عليك، وكذلك النُّعمى، فإن فتحت النُّون؛ مددت، فقلت: النَّعماء، والنَّعيم مثله، وفلان واسع النِّعمة، أي: واسع المال، وقولهم: (إن فعلت ذاك فبها ونعمت): يريدون نعمت الخصلة، والتَّاء ثابتة في الوقف[1]، وَقَوله تَعَالَى: ﴿ثُمَّ لَتُسۡـَٔلُنَّ يَوۡمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ٨﴾ [التكاثر: 8]، أَي: تُسألون يَوْم الْقِيَامَة عَن كلِّ مَا استمتعتم بِهِ فِي الدُّنْيَا، وَجمع النِّعْمَةِ: نِعَمٌ وأَنْعُمٌ كشدَّة وَأَشُدٌّ، حَكَاهُ سِيبَوَيْهِ، قَال النَّابغة:

فَلَنْ أَذْكُرَ النُّعْمانَ إلَّا بِصَالحٍ***فإنَّ لَهُ عِنْدِي يُدِيًّا وأَنْعُما[2].

والتَّنَعُّم: التَّرفُّه وَالاسْم: النِّعْمَةُ، ونَعِمَ الرَّجل يَنْعَمُ ويَنْعِم،

(1) الجوهريّ، الصّحاح: (نعم).
(2) ابن منظور، لسان العرب: 3/227.

وَقَالَ ابْن جنِّي: نَعِمَ فِي الأَصْل: ماضي يَنْعَمُ، ويَنْعُمُ فِي الأَصْل: مضارع نَعُمَ، ثمَّ تداخلت اللُّغتان[1].

2) ﴿وَمِيثَٰقَهُۥٓ﴾: المِيثاقُ: عقدٌ مؤكَّدٌ بيمين وعَهْد، "والميثاق، والموثق، كمجلس: العهد، صارت الواو ياء لانكسار ما قبلها، قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ﴾ [آل عمران: 81]، أي: أخذ العهد عليهم: بأن يؤمنوا بمحمَّد ﷺ وأخذ العهد بمعنى: الاستحلاف، وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [يوسف: 66]، أي: ميثاقًا، جمع: مواثيق على الأصل، ومياثيق على اللَّفظ[2]، قال الشَّاعر:

فإنْ شِئْتَ كانَتْ ذِمَّةُ الله بَيْننا***وأَعْظَمُ مِيثاقٍ وعَهْدُ جِوَارِ[3].

3) ﴿بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾: وهي أسرار النُّفوس وخباياها، أو الضَّمائر والنِّيَّات[4]، واسْتشْهد صَاحب الْكَشَّاف عِنْد قَوْله تَعَالَى: ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝٤٣﴾ [الأنفال: 43]، على أَنَّ (ذَات) مؤنَّث (ذُو)، وَهُوَ مَوْضُوع لِمَعْنى: الصُّحْبَة؛ لأَنَّ اللَّبن يصحب الْإِنَاء، والمضمرات تصْحَب الصُّدُور، قَالَ: ذَات الصُّدُور: مضمراتها[5]، وكما يقال للحال الَّتي بين النَّاس: ذات البين، يقال للأسرار: ذات الصُّدور[6].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

أمر بذكر نعمة الله وميثاقه الغليظ وبتقوى العليم بذات الصُّدور

يأمرُ الله تعالى في هذه الآيةِ المباركةِ عبادَه المؤمنين المُوَحِّدين، بذِكْر نعمةِ الله عليهم بإرسالِ خيْرِ رُسلِه ﷺ لهم، وإنزالِه القرآنَ الكريمَ عليه، والَّذي فيه هُداهُم وسعادتُهم، ويأمرُ سبحانه عبادَه بأن يتذكَّروا عهدَهم لله تعالى ولرسولِه ﷺ على السَّمع والطَّاعة، ثمَّ يأمرُهم الله تعالى باجتناب نواهِيه، وتنفيذِ أوامرِه، فإنَّه سبحانه

(1) ابن سيده، المحكم: (نعم).
(2) الزَّبيديّ، تاج العروس: (وثق).
(3) الشّيبانّي، الجيم: 1/61.
(4) أحمد مختار، معجم اللُّغة العربيَّة المعاصرة: (صدر).
(5) البغداديّ، خزانة الأدب: 11/440.
(6) المُطَرِّزِيّ، المغرب في ترتيب المعرب: (بين).

مُطَّلعٌ على عبادِه، رقيبٌ عليهم، وهذا حَرِيٌّ بأن يراقِبَ المسلمُ رَبَّه في كلِّ صغيرةٍ وكبيرةٍ.

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

سرُّ إفرادِ النِّعمِ في قوله: ﴿وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ﴾:

التَّذكيرُ بميثاقِ السَّمعِ والطَّاعةِ لله تعالى في المَنْشَط والمَكْرَه

المخاطَبُ في الآية الكريمة هُم المؤمنون، والأمرُ هنا للامتنان، فقد طلبَ الله تعالى مِن عبادِه المُوَحِّدين المؤمنين أن يتذكَّروا أمرين: نعمتَه عليهم، وعهدَه المُؤَكَّدَ الَّذي أخذه عليهم، "فالآية الكريمة سائرة على هذا النَّسق البيانيِّ الرَّائع، والأمر في الآية لطلب تذكُّر أمرين جليلين، وهما نعمة الله تعالى الَّتي أنعمها على المؤمنين، وهي آلاء جليلة عظيمة، وتشمل نوعين من النِّعم: عامَّة وخاصَّة"[1].

أمَّا نِعْمتُه العامَّةُ؛ فتَعُمُّ جميعَ خَلْقه: مؤمنَهم وكافرَهم، ومنها نِعمةُ الوجودِ والعقلِ وتسخيرِ الكَوْنِ لهُم، وأمَّا نِعْمَتُه الخاصَّةُ، والمرادةُ هنا؛ فهي نِعْمَةُ الهداية للإسلام، وكَفى بها نِعْمةً، وتِلْكَ خاصَّةٌ بالمؤمنين، وتَتَوَلَّد مِن نِعْمة الله الواحدةِ ما لا يُحصَى مِنَ النِّعم؛ ولَعَلَّ هذا مِن أسرار العُدولِ عنِ التَّعبير بالجمع (نِعَم) إلى المفرد ﴿نِعۡمَةَ﴾، كَما أُفْرِدَتِ النِّعْمَة، ولم تُجْمَع؛ "لئلَّا يُظَنَّ أنَّ الغرضَ تِعْدادُها، لا الحثُّ على شُكْرِها، بِتَأمُّلِ أنَّ هذا الجِنْسَ منَ النِّعَم، لا يقدرُ عليه غيرُه سبحانه"[2]، كما لم تُجْمَع أيضًا؛ "للإشعار بعِظَمها مِن غير جِهَة تضاعُفِها، ولأنَّ جُمْلَةَ النِّعَم نِعْمةٌ على طريقة الجِنْس، كما أنَّ جملةَ الماء ماءٌ، وجملة المنافعِ منفعةٌ"[3].

(1) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 4/2054.
(2) البِقاعي، نَظْم الدُّرَر: 6/39.
(3) ابن الجَوْزي، زاد المسير: 2/306، والواحديّ، البسيط: 7/288.

الذِّكر في قوله: ﴿وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ﴾، بمعنى: الاستحضار، لا الحفظ في الذَّاكرة:

استحضار تعظيم المُنعم باطِّراد من ذكر نِعَمِ الله المُراد

الذِّكر: هو حفظ الشَّيء أو استحضاره، فإذا كان حفظ الشَّيء، فهو حفظ لذاته، لكنَّ الاستحضار يكون لمعنى الشَّيء؛ لذلك هناك فرق بين حفظ الشَّيء واستحضار الشَّيء، هذا هو معنى الذِّكر[1]، وعليه فالذَّاكرة تتذكَّر، أي: تستحضر المعاني الَّتي قد تختفي في الحافظة، ولا شيء يضيع في الحافظة أبدًا، وهو من بديع صنع الله في معجزة خلق الإنسان، بحيث إذا جاء الاستدعاء؛ طفت المعاني على السَّطح، كأنَّ انطباعات الإنسان في نعم الله لا تُنسى أبدًا، وهي موجودة عند الإنسان، ولكنَّها تريد من الإنسان أن يستدعيها من الحافظة ويطلبها[2].

عِلَّةُ إضافةِ النِّعْمةِ إلى الله تعالى في قوله: ﴿نِعۡمَةَ ٱللَّهِ﴾:

التَّذكيرُ بنِعْمَةِ الله والميثاقِ للقيامِ بحقِّهما في معاملة النَّاسِ

أُضيفتِ النِّعْمةُ إلى الله تعالى في قوله: ﴿نِعۡمَةَ ٱللَّهِ﴾؛ لتشريفِ النِّعْمةِ وتفخيمِها وتعظيمِها، بانتسابِها إلى الله تعالى المُنْعِم، وفي الإضافة تخصيصُ ذلك الانتسابِ بالله؛ ليزيدَ الإحساسُ بفضلِ المُنْعِم سبحانه، وهي إضافةٌ تستجلِبُ الشُّكرَ ممَّن يُحسنُ استقبالَ النِّعم بالشُّكرِ والامتثالِ، فالله تعالى يأمر عباده "بذكر نعمه الدِّينيَّة والدُّنيويَّة بقلوبهم وألسنتهم، فإنَّ في استدامة ذكرها داعيًا لشكر الله تعالى ومحبَّته، وامتلاء القلب من إحسانه، وفيه زوال للعجب من النَّفس بالنِّعَم الدِّينيَّة، وزيادة لفضل الله وإحسانه[3].

دلالة الخطاب بالذِّكر مع أنَّ النِّعم ماثلة للعيان، لا تقتضي النِّسيان:

ويُشْعِرُ قولُه تعالى: ﴿وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ﴾ بِنِسْيان نِعْمةِ

(1) الشَّعراويّ، تفسير الشَّعراويّ: 5/2963.
(2) الشَّعراويّ، تفسير الشَّعراويّ: 5/2965.
(3) السَّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن: 1/224.

المعاصي تزيل النِّعم، ومن جحد نعمة الله؛ فقد ظلم

اللّه، فكيفَ يُعقلُ نسيانُها مع أنَّها متواترةٌ على عبادِه في كلِّ وقت؟ ويُجابُ عن ذلك بأنَّ تلك النِّعمَ الإلهيَّةَ لكثرتِها وتعاقُبِها صارت كالأمرِ المُعتادِ، فصارت لغلبةِ ظهورِها وكثرتِها سببًا لوقوعِها في محلِّ النِّسْيانِ[1]، والإنسان بطبعه ينسى سوابغ النِّعم عليه، ويكفر بالنِّعم وإن تواردت؛ لأنَّ من طبعه النِّسيان، ومن دأبه الكفران، قال تعالى واصفًا حال جنس الإنسان مع النِّعم، فخاطبهم بقوله: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَظَلُومٞ كَفَّارٞ ٣٤﴾ [إبراهيم: 34]، واللّه يعاقب كلَّ كفَّار بالنِّعمة، وكلَّ كفور بالملَّة، فتكون عاقبة أمره خسرًا، وقد قال الشَّاعر:

إِذَا كُنْتَ فِي نِعْمَةٍ فَارْعَهَا***فَإِنَّ المَعَاصِي تُزِيلُ النِّعَمْ
وَدَاوِمْ عَلَيْهَا بِشُكْرِ الإِلَهِ***فَإِنَّ الإِلَهَ سَرِيعُ النِّقَمْ[2].

دلالة المواثقة للميثاق في قوله: ﴿وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِي وَاثَقَكُم بِهِۦٓ﴾:

بيعة رسول الله ميثاق لا يجوز نقضه، ولا يصحُّ نكثه

قوله تعالى: ﴿وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِي وَاثَقَكُم بِهِۦٓ﴾: هذا هو الأمرُ الثَّاني الَّذي ذَكَّرهم اللّه تعالى به، ومعنى المُواثقةِ: المُعاهدةُ الَّتي قد أُحْكِمَت بالعَقْد على ثِقَة[3]، وَالَّذِي عَلَيْهِ الجُمْهُورُ منَ المُفسِّرين كابن عبَّاس - رضي الله عنهما - هو العَهْدُ وَالمِيثَاقُ الَّذِي جَرَى لَهُمْ مع النَّبِيِّ ﷺ على السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ فِي المَنْشَطِ والمَكْرَه؛ إِذْ قَالُوا: سَمِعْنَا، وَأَطَعْنَا، كَمَا جَرَى لَيْلَةَ العَقَبَةِ وَتَحْتَ الشَّجَرَةِ، وَأَضَافَهُ تَعَالَى إِلَى نَفْسِهِ، كَمَا قَالَ: ﴿إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾ [الفتح: 10][4]، والمعنى: "واذكروا - أيُّها المؤمنون - نعمةَ اللّه عليكم، بهدايتِكم للإسلام الَّذي ارتضاه لَكُم، وعَهْدَه الَّذي عاهدَكم به؛ إذْ بايعتُمْ رسولَه محمَّدًا ﷺ على السَّمْع

(1) الرَّازي، مفاتيح الغيب: 11/179.
(2) البيتان منسوبان إلى الإمام علي: (رضي الله عنه)، وقيل: إنَّها لأبي الحسن الكنديِّ.
ينظر: القزوينيّ، مختصر شعب الإيمان للبيهقيّ، ص: 66، وفي أدب الدُّنيا والدِّين للماوردي: أنَّهما لعبد الله بن المبارك، ص: 40.
(3) ابن منظور، لسان العرب: (وَثِق).
(4) القُرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 6/108.

والطَّاعة له، في المَنْشَطِ وَالمَكْرَه؛ إذْ قُلْتم: سَمِعْنا ما قلتَ لنا، وأخذتَ علينا مِنَ المواثيق، وأطعناك فيما أمرتَنا به، ونهيتَنا عنه... وكان التَّذكيرُ بِهذين الأَمْرَين؛ ليقوم المؤمنون بحقِّهما فيما يتعلَّقُ بمعاملة الآخر، وفي علاقاتِهم بالنَّاس من حيث إقامةُ العدالةِ لذات الله تعالى، لا يريدون إلَّا وجهَه الكريمَ، ولِيكونَ القِسْطُ والميزانُ أساسَ أعمالهم"[1].

التَّقْييدُ بالظَّرْفِ ﴿إِذْ﴾ في قوله: ﴿إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ وفائدَتُه:

دلالـــة إضـافَـةِ الميثاقِ إلَى الله مَعَ صُدُورِهِ عَنِ النَّبِيِّ الأَوَّاه

يُذَكِّر الله تعالى عبادَه المؤمنين بعهدِه المؤكَّد الَّذي أخذه عليهم، وجاء قولُه: ﴿إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾، ظرفًا لقوله: ﴿وَاثَقَكُم بِهِۦٓ﴾، أو لمحذوفٍ مقدَّرٍ وقعَ حالًا مِنَ الضَّمير المجرورِ في ﴿بِهِۦٓ﴾، أو من ﴿وَمِيثَٰقَهُ﴾ أي: كائنًا وقتَ قولِكم: سمعْنا وأطعْنا[2]. وفائدةُ التَّقييد بالظَّرف: "تأكيدُ وجوبِ مراعاتِه بتذكُّر قَبولِهم به، وإذعانِهم له، وتعهُّدِهم بالمحافظة عليه، وهو الميثاقُ الذي أخذه سبحانه على المسلمِين حين بايعَهم رسولُ الله ﷺ على السَّمْعِ والطَّاعةِ في حال العُسْر واليُسْر، والمنْشَط والمكْرَه"[3]، وإضافَةُ الميثاقِ إلَى الله تَعالى مَعَ صُدُورِهِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ "لِكَوْنِ المَرْجِعِ إلَيْهِ، كَما نَطَقَ بِهِ قَوْلُهُ تَعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾ [الفتح: 10]"[4]، وأيضًا للتَّأكيدِ على مكانةِ النَّبيِّ ﷺ عند رَبِّه، وأنَّ العَهْدَ معه عَهْدٌ مع الله تعالى.

دلالةُ الأمرِ وغرضُه في قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾:

الـعُـدولُ عـنِ الإضـمـار إلى الإظـهـار لِتَرْبِيَةِ المَهابَةِ وتَعْلِيلِ الحُكْمِ وتَقْوِيته

والأمرُ في قولِه: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ للتَّحذير مِن نِسْيانِ نِعْمَةِ الله تعالى ونَقْضِ مِيثاقِه، أوْ في كُلِّ ما تَأْتُونَ وما تَذَرُونَ، فَيَدْخُلُ فِيهِ

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2056.
(2) السَّمين، الدُّر المَصون: 4/217.
(3) أبو السعود، إرشاد العَقْل السّليم: 3/11.
(4) الآلوسّي، روح المعاني: 6/82.

ما ذُكِرَ دُخُولًا أوَّلِيًّا، والتَّقوى هنا: "هي لزوم الشَّريعة والقيام بها، عقيدة وعبادة وقضاء وأدبًا"[1]، والمعنى: "واتَّقوا اللّه وراقبوه في كلِّ ما تأتون وما تذرون، وصونوا أنفسكم عن كلِّ ما يكرهه لكم، فإنَّه - سبحانه - عليم علمًا تامًّا بخفيَّات الأمور الكامنة في الصُّدور، وبكلِّ ما يظهره الإنسان ويبطنه، وسيحاسبكم يوم القيامة على أعمالكم، فيجازي المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته"[2]، وعليه؛ فالمقام يتناسب مع التَّذكير بالتَّقوى؛ تلاؤمًا مع التَّذكير بالنِّعمة، والتَّحفيز على حفظ الميثاق مع اللّه ورسوله.

دلالة الاعتراض التَّذييليّ بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾:

الجُمْلَةُ اعْتِراضٌ تَذْيِيلِيٌّ، وتَعْلِيلُ الأمْرِ بِالاتِّقاءِ، وإظْهارُ الاسْمِ الجَلِيلِ في مَوْقِعِ الإضْمارِ؛ لِتَرْبِيَةِ المَهابَةِ، وتَعْلِيلِ الحُكْمِ، وتَقْوِيَةِ اسْتِقْلالِ الجُمْلَةِ"[3]، وقوله: ﴿عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾، أيْ: بِسَرائِرِ الصُّدُورِ مِنَ الخَيْرِ والشَّرِّ، والجملةُ وَعِيدٌ وتحذيرٌ من نسيان نعمةِ اللّه تعالى، ونقضِ ميثاقه، وتأكيدُ علمِ اللّه بسرائر القلوبِ يبعثُ على تصحيحِ النِّيَّات، وإخلاصِ التَّوجُّهِ للّه تعالى، على ما فيه من تأكيدِ التَّحذيرِ السَّابقِ، وتأسيسِ تحذيرٍ جديدٍ منَ المحاسبةِ المُترتِّبةِ على العلم، وكلُّ هذا يصبُّ في التَّأكيدِ على تذكُّرِ نعمةِ اللّه وميثاقِه على السَّمعِ والطَّاعةِ، والامتثالِ والانقيادِ.

الجملةُ وَعِيدٌ وتحذيرٌ من نسيان نعمةِ اللّه تعالى، ونقضِ ميثاقه

أثر المجاز المرسلِ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾:

وفي ﴿ٱلصُّدُورِ﴾ مجازٌ مرسلٌ علاقتُه محليَّة؛ لأنَّ المقصودَ (القلوبُ)، والصُّدورُ أوعيةٌ لها، ومحلٌّ لوجودها، قال تعالى: ﴿وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ۝٤٦﴾ [الحجّ: 46]، وإنَّما آثرَ

الصُّدور أعمُّ منَ القلوبِ فيما تَنطوِي عليه من فكر وأحاسيس

(1) الجزائريّ، أيسر التفاسير: 1/601.
(2) طنطاويّ: التفسير الوسيط: 4/71.
(3) أبو السّعود، إرشاد العَقْل السّليم: 3/11.

ذكرَ الصُّدور؛ لأنَّها أعمُّ منَ القلوبِ فيما تَنطوِي عليه من تفكُّرٍ وأحاسيسَ، وقد جاء في المفردات، وقال بعضُ الحكماء: حيثُما ذَكرَ اللّٰه تعالى القلبَ، فإشارةٌ إلى العقلِ والعلم، نحو: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكۡرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلۡبٌ أَوۡ أَلۡقَى ٱلسَّمۡعَ وَهُوَ شَهِيدٞ ٣٧﴾ [ق: 37]، وحيثُما ذَكرَ الصَّدرَ؛ فإشارةٌ إلى ذلك وإلى سائرِ القُوى منَ الشَّهوةِ والهَوى والغضبِ ونحوِها[1]، وقوله: ﴿قَالَ رَبِّ ٱشۡرَحۡ لِي صَدۡرِي ٢٥﴾ [طه: 25] سؤالٌ لإصلاحِ تلك القُوى.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الميثاق والعهد:

يُقالُ: وثقتُ به، أي: اطمأننتُ إليه، ومنها: الشَّدُّ، وربطُ شيئين، ومنها ربط الكلامين ربطًا موثَّقًا، ومنه هذه الكلمة السَّامية: ميثاق اللّٰه تعالى، وهي تتضمَّن معنى التَّشديد في العهد؛ لأنَّه مأخوذ مع اللّٰه ﷻ، وأيُّ عهد أقوى وأوثق من عهد يكون بين العبد والرَّبِّ؟ ويتضمَّن ميثاق اللّٰه تعالى، معنى: الاطمئنان والثِّقة؛ لأنَّ الاعتماد فيه على اللّٰه ﷻ وهو المعاذ الَّذي يعاذ به، والملجأ الَّذي يلجأ إليه[2]، و(الميثاق): هو ما وثِّق من العهود بيمين اللّٰه أو غيره، و(الـ) فيه للعهد، وقد ذكر اللّٰه أنَّه أخذ الميثاق على بني إسرائيل، وهو ميثاق اللّٰه تعالى الَّذي حمله الأنبياء إليهم، ولكنَّهم لم يلتزموا به[3]، والميثاق عقد مؤكَّد بيمين وعهد، قال تعالى: ﴿وَإِذۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [آل عمران: 81]، وقال: ﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمۡ﴾، [الأحزاب: 7]، وقال: ﴿وَأَخَذۡنَا مِنۡهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظٗا ١٥٤﴾ [النِّساء: 154][4]، والمواثقة: المعاهدة، ومنه قوله تعالى: ﴿وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِي وَاثَقَكُم بِهِۦٓ﴾ [المائدة: 7][5]، وتواثقوا على كذا، تعاهدوا عليه، قال كعب بن زهير:

لِيُوفُواْ بِمَا كَانُوا عَلَيْهِ تَوَاثَقُوا***بِخِيفِ مِنًى، وَاللّٰه رَاءٍ وَسَامِعُ[6].

وأمَّا العهد: فهو الموثق، ووضعه لما من شأنه أن يراعى ويتعهَّد، كالقول والقرار، واليمين

(1) الكفويّ، الكليات: (القلب).
(2) أبو زهرة: زهرة التّفاسير: 4/2070.
(3) أبو زهرة: زهرة التّفاسير: 8/3930.
(4) الأبياري، الموسوعة القرآنيَّة: 8/580.
(5) الجوهريّ، الصِّحاح: 4/1563.
(6) الزَّمخشريّ، أساس البلاغة: 2/319.

والوصيَّة، والضَّمان والحفظ، والزَّمان والأمر، والعهد: توحيد اللّه، ومنه قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحۡمَٰنِ عَهۡدٗا ٨٧﴾ [مريم: 87][1]، وانطلاقًا من ذلك كلِّه، فإنَّ الميثاق عهدٌ، ولكنَّهُ يُوثَّق بما يُؤكِّده ويلزمُه في الذِّمَّة، وكلاهما واجب الوفاء، إلَّا أنَّ الميثاق مشدَّد فيه أكثر من العهد.

الصُّدُور والقلوب:

قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ٤٣﴾ [الأنفال: 43]، أي: إنَّه ذو علم بما في صدور خلقه، وما تنطوي عليه ضمائرهم[2]، ومعنى ذات الصُّدور: أسرار النُّفوس وخباياها، وكذلك الضَّمائر والنِّيَّات[3]، وقد قيل: "إنَّ قلوبَ العباد أوعيةٌ لما أُودِعت من العلوم، وظروفٌ لما جُعل فيها من المعارف بالأمور"[4]، "وأمَّا لفظ القلب، فيطلق في القرآن بمعنى: النَّفس المدركة، والرُّوح العاقلة الَّتي يموت الإنسان بخروجها منه، قال تعالى: ﴿وَبَلَغَتِ ٱلۡقُلُوبُ ٱلۡحَنَاجِرَ﴾ [الأحزاب: 10]، أي: الأرواح، لا هذه المضغ اللَّحميَّة الَّتي لا تنتقل من مكانها... وقد يعزى إلى القلب، ويسند إليه ما هو من أفعال النَّفس أو انفعالاتها الَّتي يكون لها أثر في القلب الحسِّيِّ، كقوله تعالى: ﴿إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ﴾ [الأنفال: 2]، وقوله: ﴿لِيَجۡعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسۡرَةٗ فِي قُلُوبِهِمۡۗ﴾ [آل عمران: 156]، وقوله: ﴿وَيُذۡهِبۡ غَيۡظَ قُلُوبِهِمۡۗ﴾ [التَّوبة: 15][5]، وقال إبراهيم بن عرفة: "كلَّما ذكر اللّه - جلَّ وعزَّ - في القرآن من العمى، فذمَّه؛ فإنَّما يريد به عمى القلب، قال اللّه تعالى: ﴿وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ٤٦﴾ [الحجُّ: 46][6]، والخلاصة: أنَّ الصُّدور تعني في القرآن النِّيَّات والضَّمائر المطويَّة في الجوانح، وأنَّ القلوب تطلق في القرآن بمعنى: النَّفس المدركة، والرُّوح العاقلة، وأنَّه يقال: (تعمى القلوب)، ولا يقال: (تعمى الصُّدور).

(1) الكفويّ، الكليَّات: (العهد).
(2) مكيّ بن أبي طالب، الهداية إلى بلوغ النّهاية: 10/6589.
(3) أحمد مختار، معجم اللُّغة العربيَّة المعاصرة: 1/801.
(4) ابن جرير، جامع البيان: 1/258.
(5) درويش: إعراب القرآن وبيانه: 7/599.
(6) مكيّ بن أبي طالب، الهداية إلى بلوغ النِّهاية: 7/4714.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْۚ ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ٨﴾ [المائدة: 8]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

المناسبة بين الانقيادِ للتَّكاليفِ، وبين شكر نعم الله والوفاء بعهده المنيف

لَمَّا حَثَّ اللّه تعالى عبادَه على الانقيادِ للتَّكاليفِ؛ تعظيمًا لأمْرِ اللّه، وشفقَةً على خَلْقِ اللّه، وذَكَّر عِبادَه المؤمنين بنِعمِه العظيمة عليهم؛ طَلَبَ إليهم في هذه الآيةِ الكريمةِ، أن يشكروا تلك النِّعَمَ الجليلةَ، وذلك بالوفاءِ له بالعهدِ، ثم إنَّ هذا ثالثُ نداءٍ للَّذين آمنوا في سورة المائدة: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ﴾، ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾، ﴿۞يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلۡقِسۡطِ﴾، فوحدةُ الأسلوبِ الإنشائيِّ في (نداء الَّذين آمنوا) ممَّا يحقِّقُ التَّرابُطَ الشَّكليَّ الَّذي يدعمُه التَّرابطُ المعنويُّ بما في حَيِّزِ النِّداء من تشريعاتٍ و توجيهاتٍ.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿قَوَّٰمِينَ﴾: قوَّامُ مبالغةٌ من قائم، والقائمُ بالشَّيء معناه: الكفيلُ به الَّذي يأتي به على وجه، "ومعنى القيامِ للّه: هو أن يقومَ له بالحقِّ في كلِّ ما يلزمُه القيامُ به منَ الأمرِ بالمعروف والعملِ به، والنَّهيِ عنِ المنكر وتجنُّبِه"[1]، والقوَّام من القيام الَّذي هو المراعاة للشَّيء والحفظ له[2].

2) ﴿بِٱلۡقِسۡطِۖ﴾: القِسْطُ: هو النَّصيبُ بالعدل كالنِّصف والنِّصفة، قال تعالى: ﴿لِيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ

(1) الواحدي، البسيط: 7/290.
(2) الكفويّ، الكليّات، ص: 739.

بِٱلْقِسْطِۚ﴾ [يونس: 4]، ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ﴾ [الرحمن: 9]...والقِسْطُ: هو أن يأخذ قِسْط غيره، وذلك جُورٌ، والإِقْسَاطُ: أن يعطِيَ قِسْطَ غيره، وذلك إنصافٌ، ولذلك قيل: قَسَطَ الرَّجل؛ إذا جارَ، وأَقْسَطَ؛ إذا عَدَل، قال تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُواْ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ۝١٥﴾ [الجن: 15]، وقال: ﴿وَأَقْسِطُوٓاْۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ۝٩﴾ [الحجرات: 9][1].

3) ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ﴾: لا يَحْمِلَنَّكُم، وجَرَمَ فُلانٌ: أذنَب، وارتكب الإثم، وأَجْرمَ عليهم وإليهم جريمةً: جَنى جِنايةً، وجَرَمَ الرَّجُلَ: حَمَّلَه جُرْمًا، والمعنى هنا: لا يَحْمِلَنَّكُم بُغْضُ قَوْمٍ على تَرْك العدلِ، والاعتداءِ عليهم، "وقد قيل: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ﴾: لا يدخلنَّكم في الجرم، كما يقال: أثمته، أي: أدخلته في الإثم، وقال أبو العبَّاس: قال الأخفش في قوله: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ﴾ [المائدة: 2]، أي: لا يحقنَّ لكم؛ لأنَّ قوله: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ﴾ [النَّحل: 62]، إنَّما هو حقٌّ أنَّ لهم النَّار"[2].

4) ﴿شَنَـَٔانُ﴾: أي: بُغْضٌ، يقال: شَنِئْتُ الرَّجُلَ أشْنَؤُه شَنْئًا، وشنآنًا، وشُنْئًا، ومشنأةً؛ إذا أبغضتُه، والمعنى: "لا يحملنَّكم بغض الكافرين وعداوتهم، أو بغض كلٍّ من تبغضونه، وعداوة كلٍّ من تعادونه، لأمر اقتضى بغضه أو عداوته من المؤمنين والكافرين، أو الموحِّدين والمشركين، لا يحملنَّكم ذلك البغض على أن تجوروا في الحكم؛ إذا حكمتم، أو في الشَّهادة؛ إذا شهدتم"[3].

5) ﴿لِلتَّقْوَىٰۖ﴾: التَّقْوى: فِعْل ما أَمَر اللّه به ورسولُه، وتَرْكُ ما نَهَى عنه اللّه ورسولُه ﷺ.

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

يأمرُ اللّه تعالى عبادَه المؤمنين المُوحِّدين في هذه الآيةِ الكريمةِ بتعظيمِ أوامرِه سبحانه، وإظهارِ العبوديَّةِ له، وتعظيمِ الرُّبوبيَّةِ، ووجوبِ القيامِ بالعدل حتَّى مع الأعداء، وتأديَةِ

(1) الرَّاغب، المفردات: (قسط).
(2) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة: 11/46.
(3) الجزائريّ، نداءات الرَّحمن لأهل الإيمان، ص: 86.

الشَّهادةِ بِعَدْلٍ وصِدْقٍ دون مجاملةٍ ولا محاباةٍ، وأنْ يُلازِموا العدلَ في شَهادَتِهم، ولا يَحمِلَنَّهم بُغضُهم وكراهِيَتُهم لقومٍ على ألَّا يَعدِلوا، بل عليهم مُلازمةُ العدلِ؛ فإنَّه أقربُ لتحقيقِ كمالِ التَّقوى، وليتَّقوا اللَّه؛ فإنَّ اللَّه خبيرٌ بما يعملونَ.

حثُّ المؤمنين على العدل مع المؤالف والمخالف؛ تحقيقًا لتقوى الله تعالى

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

نُكْتةُ التَّعبيرِ باللَّفظ ﴿كُونُواْ﴾ في قوله تعالى: ﴿كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ﴾:

قَوْلُهُ: ﴿كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ﴾ إشارَةٌ إلى التَّعْظِيم لأمْرِ اللَّه، ومَعْنى القِيامِ للَّه: هو أنْ يَقُومَ للَّه بِالحَقِّ في كُلِّ ما يَلْزَمُهُ القِيامُ بِهِ مِن إظْهارِ العُبُودِيَّةِ، والانقيادِ له تعالى، وتَعْظِيم الرُّبُوبِيَّةِ[1]، وفي التَّعبيرِ بالكَوْنِ إشارةٌ بأن يجعلَ المُؤْمِنُون القيامَ للَّه تعالى أمرًا مستمِرًّا، ونَهْجًا راسخًا في حياتِهم، بمداومةِ الطَّاعة للَّه تعالى، والانقيادِ له؛ لِيَصِيرَ صِفَةً راسِخَة، "أي: كونوا من أصحاب الهمم العالية، وأهل الإيقان والإخلاص للَّه تعالى، في كلِّ عمل تعملونه من أمر دينكم، أو أمر دنياكم، ومعنى الإخلاص للَّه في أعمال الدُّنيا: أن تكون بنيَّة صالحة، بأن يريد العامل بعمله الخير، والتزام الحقِّ من غير شائبة اعتداء، على حقِّ أحد، أو إيقاع ضرر به"[2]، والعمل على أن يكون الحال منطبقًا على مراد اللَّه، يحقِّق الكينونة العابدة، بما يضمن السَّعادة العاجلة والآجلة.

من كانت بالمولى تعالى كينونته؛ سعدت بين يدي الله وقفته

التَّعبيرُ بصيغةِ المبالغة ﴿قَوَّٰمِينَ﴾، مناط بعلوِّ الهمَّة، وقداسة المهمَّة:

وقد أكَّد هذا المعنى التَّعبيرُ بصيغةِ المبالغةِ ﴿قَوَّٰمِينَ﴾، أيْ: مُجْتَهِدِينَ في القِيامِ، و(قَوَّام) معناها: مَن يُبالِغُ بالقِيام بالشَّيء وإتقانِه، والإتيانِ به على الوجهِ الأكملِ، وكَوْنُه للَّه تعالى، يعني: المبالغةَ في الفعل لأجلِ اللَّه تعالى، لا لأحدٍ سواه سبحانه، والتَّعبيرُ

دلالة السِّياق على العبوديَّة المرومة بالقيامِ للَّه باطِّراد وديمومة

(1) الرَّازي، مفاتيح الغيب: 11/180.
(2) رضا، تفسير المنار: 6/226.

بصيغةِ المبالغة لا يدلُّ على القيامِ لأمر اللّه تعالى مَرَّة ولا مَرَّتين، ولا حتَّى مَرَّاتٍ، بل يدلُّ على كثرةِ القيامِ والانقيادِ كَثْرةً مُطَّرِدةً لا تنقطعُ، وأسلوب النِّداء، وفعل الأمر قبل لفظ ﴿قَوَّٰمِينَ﴾، يؤكِّدان مطلوب اللّه في هذا المضمار؛ لتقرير استمراريَّة عبوديَّته ودوامها أخذًا لها بالقوَّة لا بالضَّعف، وبالهمَّة لا بالتَّواني، وقد قال اللّه ليحيى: ﴿يَٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ بِقُوَّةٖۖ﴾ [مريم: 12].

عُبِّر بالتَّركيب: ﴿شُهَدَآءَ بِٱلۡقِسۡطِۖ﴾؛ لأنَّه شاملٌ للخير والعدل:

قوله: "﴿شُهَدَآءَ بِٱلۡقِسۡطِۖ﴾: كلمة ﴿شُهَدَآءَ﴾ تدلُّ على الحضور، وعلى الإثباتِ، وعلى أداءِ الشَّهادة، وعلى الحُكْم، وهي في هذا المقام، تشملُ كلَّ هذا، فالمعنى: لا يحكمُون إلَّا بالقِسْط، أي: بالعدلِ، ولا يَشهدون إلَّا بالعدل، فحضورُهم في القِسْط، ونُطقُهم بالقسط، وحكمُهم بالقسطِ، وعملُهم بالقسط، فلا يكون إلَّا بالخير، وفي الخيرِ، وللخير، وعُبِّر بقولِه: ﴿بِٱلۡقِسۡطِۖ﴾؛ لأنَّه شاملٌ للخير كُلِّه، وهو أساسٌ من أُسُسِ هذا الدِّين، وعليه يقوم بناءُ الأمر، ولأنَّ العدلَ ميزانُ الخير؛ لذا أردفَ بقولِه: ﴿وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْۚ﴾[1]، تلك هي أخلاقُ الإسلام السَّامية، وشريعتُه العادلةُ، ومبادئُه النَّبيلةُ، ومجاهدةُ النَّفس للانقياد للّه في كلِّ أوامرِه ونواهيه وتعظيمِ شعائرِه، وتقديسِ ذاتِه سبحانه يُربِّي فيها الوازعَ الَّذي يدفعُها للحُكم بالقسطِ، والشَّهادةِ بالعدلِ، وهذه هي الصِّلةُ بين الجُملتَيْن: ﴿قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ﴾ و﴿شُهَدَآءَ بِٱلۡقِسۡطِۖ﴾.

هناك اتِّصال وثيق، بين القوامة لله، والشَّهادة بالقسط

دلالة قوله تعالى: ﴿وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ﴾ على الإنصاف، وأثرها في السِّياق.

أَجْرَمَ بمعنى: ارتكبَ إثْمًا؛ لأنَّه كَسَبَه، وقد يُضافُ إلى هذا المعنى: ولا يحمِلَنَّكم حِمْلًا آثمًا، ﴿شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ﴾، أي: بُغْضُكم الشَّديدُ

(1) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 4/2058.

لِقَوم على ألَّا تعدلُوا معهم، بل أعطُوهم حقوقَهم كاملةً دون نَقْصٍ، وقد وَرَدَ نَهْيٌ للمؤمنين عنِ الاعتداء على المُشركين الصَّادِّين عنِ البيت الحرام، بألَّا يكونَ البُغضُ الشَّديدُ سببًا للاعتداء، ولا سببًا لِمَنْعِ الحُقوق، بل يُعْطَى كُلُّ ذي حَقٍّ حقَّه ولو كان عدُوًّا شرسًا؛ فالحقُّ ليس مِنحةً لشخصٍ يُعطيه؛ إنْ أَحَبَّ، ويمسكُه؛ إنْ أبغَضَ، بل إنَّ التَّمكينَ مِنه أَمْرٌ مُقَدَّسٌ، أَمَرَ اللّه تعالى به، وحَثَّ عليه[1]، والعَدْلُ أقربُ إلى التَّقوى، وأَدْخَلُ في مناسَبَتِها، لكونِهِ لُطفًا فيها، وفيه تنبيهٌ عظيمٌ على أنَّ وجودَ العَدْلِ مع الكفَّارِ الَّذين هم أعداءُ اللّه، إذا كان بهذه الصِّفَةِ منَ القُوَّة؛ فما الظَّنُّ بوجوبِه مع المؤمنينَ الَّذين هم أولياؤُه وأحِبَّاؤُه؟[2]، ولا يخفَى ما في مادَّة الفعل ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ﴾ منَ الإيحاء بالبشاعة، وما فيه منَ التَّنفير والتَّبغيض منَ الظُّلم، وفي ﴿شَنَـَٔانُ﴾ بغض وزيادة هي الازدراء والتقذُّر، ويقال: شنِئْتُه: تقذَّرته بُغضًا له[3]، وهذا يعني: أنَّه مهما كان في قومٍ من عيوبٍ ومساوئَ، تدعو لبُغضهم، فلا يمنعنَّكم هذا من معاملتِهم بالعدل، وقد قال عمر بن الخطَّاب ﵁ لأبي مريم الحنفيِّ: "واللّه لا أُحبُّكَ، حتَّى تُحبَّ الأرضُ الدَّمَ المسفوح، قال: فتمنعني لذلك حقًّا؟ قال: لا... قال: فلا ضَير، إنَّما يأسفُ على الحبِّ النِّساء"[4].

مـن الـتَّربـيَـة الـرَّائـدة الـعدلُ مـع الـصَّـديـق المساند والعدوِّ المعاند

إقامة العدل مع الأذى والشَّنآن من أصعب الممارسات على الإنسان:

الآية تأمر المؤمنين بأمر هو في غاية المشقَّة على النُّفوس البشريَّة، وهو الحذر من الميل عن العدل مع الشَّانئ المناوئ، وتلك مرتبة أعلى من ترك الاعتداء والوقوف عنده، تسمو إلى إقامة العدل، مع الشُّعور بالكراهيَةِ والبغضاء؛ لأنَّ "التَّكليف الأوَّل سلبيٌّ،

الـتَّـوجـيـه إلى ضـبـط الـنَّـفـس لإقـامـة الـعـدل مـهـمـا كـانـت المشاعر

(1) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 5/2059.
(2) أبوحَيَّان، البحر المحيط: 3/440.
(3) الراغب، المفردات: (صدر).
(4) الجاحظ، البيان والتّبيين: 2/60.

ينتهي عند الكفِّ عن الاعتداء، فأمَّا التَّكليف الثَّاني؛ فأشقُّ؛ لأنَّه إجراءٌ إيجابيٌّ، يحمل النَّفس على مباشرة العدل مع المبغوضين المشنوئين "[1].

السِّرُّ في تقدُّم القوامة بالقسط على الشَّهادة في النِّساء، وتأخُّرها في المائدة:

ورد في سورة النِّساء [الآية: 135]، بتقدُّم القوامة بالقسط، على الشَّهادة للّه في قولِه تعالى: ﴿كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلۡقِسۡطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ﴾، على عكس ما في سورة المائدة، حيث تقدَّمت القوامة للّه على الشَّهادة بالقسط في قوله تعالى: ﴿كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلۡقِسۡطِۖ﴾، فما السِّرُّ في هذه المُغايرةِ؟ الجوابُ: وردت آيةُ النِّساء في سياق "آياتِ القضاءِ في الحقوق... ثمَّ أردفت بأحكام المعاملةِ بين الرِّجال والنِّساءِ، فكان الأهمُّ فيها أمرَ العدل، فالشَّهادةُ، كما يتطلَّبُه السِّياقُ؛ لذا قُدِّم فيها قولُه: ﴿كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلۡقِسۡطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ﴾، فالقسطُ فيها: هو العدلُ في القضاء؛ لذلك عُدِّي إليه بالباء الَّتي تدلُّ على المُلاصقةِ والملابسةِ؛ إذْ قال: ﴿كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلۡقِسۡطِ﴾، أي: التزمُوا العدلَ التزامًا تامًّا، أمَّا آيةُ المائدة؛ فمقامُها التَّذكيرُ بميثاق اللّه، فكان منَ المناسبِ الوفاءُ بعهود عبادِه له سبحانه، لذلك عُدَّي قولُه: ﴿قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ﴾ باللَّام الَّتي تفيدُ الاختصاصَ؛ ولأنَّ العهدَ شهادةٌ أُتْبِعَ قولُه: ﴿قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ﴾، بقوله: ﴿شُهَدَآءَ بِٱلۡقِسۡطِۖ﴾، أي: شهداء بالعدل، شهادةً لا حَيف فيها ولا زورٌ، وأجدرُ شهادةٍ بذلك شهادتُهم للّه تعالى، وقد حصلَ من مجموع الآيتين: وجوبُ القيام بالعدل، والشَّهادةِ به، ووجوبُ القيام للّه، والشَّهادةِ له"[2]، ولأبي حَيَّانٍ الأندلسيِّ توجيهٌ لطيفٌ ناظرٌ فيه لمقام الآيتين وسياقهما، خاصَّةً سورة النِّساء[3]، إذًا الخلاصةُ في توجيهِ هذا التَّقديم والتَّأخير في آيتَي النِّساء والمائدة: هو السِّياقُ والمَقامُ، حيث ورد هذا التَّغايرُ وَفْقًا لِمَا استدعاه سياقُ كُلٍّ منَ الآيتين ومقامُهما.

---

(1) صافي، الجدول: 5/291.

(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/134-135.

(3) يقول أبو حيَّان: "تَقَدَّمَ تَفْسِيرُ مِثْلِ هَذِهِ الجُمْلَةِ الْأُولى في النِّساء، إلاَّ أنَّ هُناكَ بُدِئَ بِالقِسْط، وهُنا أُخِّر، وهذا مِنَ التَّوَسُّعِ في الكَلامِ والتَّفَنُّنِ في الفَصاحَة، ويَلْزَمُ مَن كانَ قائِمًا لله أنْ يَكُونَ شاهِدًا بِالقِسْط، ومَن كانَ قائِمًا بِالقِسْطِ أنْ يَكُونَ قائِمًا لله، إلَّا أنَّ الَّتِي في النِّساءِ جاءَتْ في مَعْرِضِ الاعْتِرافِ عَلى نَفْسِهِ وعلى الوالِدَيْنِ والأقْرَبِين، فَبُدِئَ فِيها بِالقِسْطِ الَّذِي هو العَدْلُ والسَّواء مِن غَيْرِ مُحاباةِ نَفْسٍ ولا والِدٍ ولا قَرابَةٍ، وهُنا جاءَتْ في مَعْرِضِ نَزْكِ العَداواتِ والإحَن، فَبُدِئَ فِيها بِالقِيامِ لله تَعالى أوَّلًا، لِأنَّهُ أرْدَعُ لِلْمُؤْمِنِين، ثُمَّ أرْدَفَ بِالشَّهادَةِ بِالعَدْل، فالَّتِي في مَعْرِضِ المَحَبَّةِ والمُحاباةِ بُدِئَ فِيهِ بِما هو آكَدُ وهو القِسْط، وفي مَعْرِضِ العَداوَةِ والشَّنَآنِ بُدِئَ فِيها بِالقِيامِ لله، فَناسَبَ كُلُّ مَعْرِضٍ بِما جِيءَ بِهِ إلَيْه، وأيْضًا فَتَقَدَّمَ هُناكَ حَدِيثُ النُّشُوزِ والإعْراض، وقَوْلُه: ﴿وَلَن تَسۡتَطِيعُوٓاْ أَن تَعۡدِلُواْ﴾ [النساء: 129]، وقَوْلُه: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَآ أَن يُصۡلِحَا﴾ [النساء: 128]، فَناسَبَ تَقْدِيمُ القِسْط، وهُنا تَأخَّرَ ذِكْرُ العَداوَةِ فَناسَبَ أنْ يُجاوِرَها ذِكْرُ القِسْط، وتَعْدِيَةُ يَجْرِمَنَّكم ب: (عَلى) إلَّا أنْ يُضَمَّنَ مَعْنى ما يَتَعَدَّى بِها، وهو خِلافُ الأصْل، ينظر: أبو حيَّان، البحر المحيط: 3/454-455.

دلالة التَّصريح بالأمرِ بالعدلِ في قوله تعالى: ﴿ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۖ﴾:

أمرَ اللّه تعالى عبادَه المؤمنين بالعدلِ مرَّتين: الأولى: ضمنيَّةٌ في قولِه: ﴿كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ﴾، والثَّانيةُ: صريحةٌ في قولِه: ﴿ٱعۡدِلُواْ﴾، وبَيَّنَ أنَّ العدل بِمَكانٍ مِنَ التَّقْوى بَعْدَ ما نَهاهم عَنِ تَرْك العدلِ؛ ولو مع الكفَّار، وفي الأمرِ الصَّرِيح مزيدُ حثٍّ وترغيبٍ في قوله: ﴿ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۖ﴾، أي: العَدْلُ أقْرَبُ لِلتَّقْوى، وإذا كانَ هَذا لِلْعَدْلِ مَعَ الكُفَّارِ، فَما ظَنُّكَ بِالعَدْلِ مَعَ المُؤْمِنِينَ؟ وقولُه: ﴿هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۖ﴾ يُشعرُ أنَّ التَّقوى غايةٌ عظيمةٌ، وهدفٌ راقٍ، وقد تعدَّدت وسائلُ الوصولِ إليه، لكنَّ العدلَ هو أقربُ تلك الوسائلِ الَّتي يُتوَسَّل بها للوصولِ إلى تلك الغايةِ، ثُمَّ أمَرَ اللّه تعالى بِالتَّقْوى إثْرَ ما بَيَّنَ أنَّ العَدْلَ أقْرَبُ لَهُ؛ اعْتِناءً بِشَأْنِه وتَنْبِيهًا عَلى أنَّهُ مِلاكُ الأمْرِ، فقال: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾، أي: مِنَ الأعْمالِ، فَيُجازِيكم بِذَلِكَ، وتَكْرِيرُ هَذا الحُكْمِ، إمَّا لِاخْتِلافِ السَّبَبِ، كَما قِيلَ: إنَّ الأُولى [المائدة: 2]: نَزَلَتْ في المُشْرِكِينَ، وهَذِهِ في اليَهُودِ، أوْ لِمَزِيدِ الاهْتِمامِ بِالعَدْلِ والمُبالَغَةِ في إطْفاءِ ثائِرَةِ الغَيْظِ[1]، وجمْلَةُ: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ تَعْلِيلٌ لِما قَبْلَها، وحَيْثُ كانَ مَضْمُونُها مُنْبِئًا عَنِ الوَعْدِ والوَعِيدِ؛ عَقَّبَ بِالوَعْدِ لِمَن يُحافِظُ عَلى طاعَتِهِ تَعالى، وبِالوَعِيدِ لِمَن يُخِلُّ بِها[2]، والظَّاهِرُ أنَّ هذا ليس من تكرير التَّقوى؛ لأنَّ الأُولى في العدل، والثَّانيةَ ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ فيما هو أعمُّ منَ العدل بدليلِ حذْفِ مُتعلَّقِ ﴿وَٱتَّقُواْ﴾.

العدل أقربُ الوسائلِ للوصولِ إلى التَّقوى، باعتبارها غاية عظمى

بيان ذكر تعلُّق الضَّمير بالمتقدِّم معنى في قوله: ﴿ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۖ﴾:

ومعنى تعلُّق الضَّمير بالمتقدِّم: أنَّه "تقدَّم ذكره بوجه ما، سواء

(1) البَيضاويّ، أنوار التّنزيل: 2/133.

(2) أبو السُّعود، إرشاد العَقْل السّليم: 2/12.

الضَّمائر وسائل نحويَّة وبلاغيَّة؛ لارتباط المعاني وانسجام السِّياقات

كان التَّقدُّم لفظًا، بأن يكون المتقدِّم ملفوظًا تحقيقًا، مثل: (ضرب زيدٌ غلامَه)، أو تقديرًا مثل: (ضرب غلامَه زيدٌ)، أو كان التَّقدُّم معنًى: بأن يكون المتقدِّم مذكورًا من حيث المعنى، لا من حيث اللَّفظ، سواء كان ذلك المعنى مفهومًا من لفظ بعينه، نحو: ﴿ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۖ﴾، فإنَّ مرجع ضمير (هو): (العدل)، المفهوم من قوله: ﴿ٱعۡدِلُواْ﴾، أم من سياق الكلام، نحو قوله تعالى: ﴿وَلِأَبَوَيۡهِ لِكُلِّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا ٱلسُّدُسُ﴾؛ لأنَّه لمَّا تقدَّم ذكر الميراث؛ دلَّ على أنَّ ثمَّة مورِّثًا، وجاء الضَّمير في قوله: ﴿وَلِأَبَوَيۡهِ﴾، فكأنَّه تقدَّم ذكره معنًى[1].

دلالة العُدولِ عنِ الإضمار إلى الإظهار في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾:

التَّقوى معرفة يقينيَّة، بأنَّ الله خبير بالأحوال الظَّاهرة والخفيَّة

العدولُ عنِ الإضمار إلى الإظهار في قوله: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾؛ إذ المعتاد - وقد ذكر المتعلِّق - أن يقال: (واتَّقُوه إنَّه خَبِيرٌ بِما تَعْمَلُونَ)؛ ولكنَّ إيراد الاسم الظَّاهر، غايته: تربية المهابةِ لاسم اللّٰه الأعظم الَّذي هو علم على واجب الوجود، بكلِّ معاني الكمال فيه، وحتَّى يتناسبَ ذلك مع مضمونِ التَّهديدِ في السِّياق، حيث يخبر أنَّ المدسوس في السَّرائر، والمدفون في البواطن، لا يخفى منه على اللّٰه شيء؛ لأنَّه المحيط بكلِّ شيء علمًا، وهذا نوع من التَّنبيه المقرِّع عن المخالفة، والدَّاعي إلى الالتزام بالهدى؛ حتَّى لا يفقده اللّٰه حيث أمره، ولا يراه حيث نهاه.

أُتِيَ بصفةِ ﴿خَبِيرُۢ﴾؛ ليُنَبِّه بها على الصِّفَة القلبيَّةِ الَّتي لا تخفى على الله:

من راقب الله في الخلوات؛ ظهرت شواهد خشيته في الجلوات

وقولُه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ﴾: الخبيرُ أدقُّ منَ العليم؛ لأنَّ الخبيرَ منَ الخُبْرِ، وهو العِلْمُ ببواطنِ الأَمْرِ؛ ولذلك سُمِّيَتِ المزارعةُ: مخابرةً؛ وسُمِّي الزَّارِعُ: خبيرًا؛ لأنَّه يدسُّ الحَبَّ في الأَرْضِ، فيَختفي، فالخبيرُ هو العليمُ بخفايا الأُمورِ، وقد جاء قولُه تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ ختامًا للآية الكريمةِ، وتعليلًا لما قبْلها، ولأنَّه كما

(1) التَّهانويّ، كشَّاف اصطلاحات الفنون والعلوم: 1/219.

كان البُغْضُ محلُّه القلبُ، وهو الدَّاعي إلى تركِ العدلِ، أُمِرَ بالتَّقوى، وأُتِيَ بصفة ﴿خَبِيرٌ﴾ الَّتي تختصُّ بما لَطُف إدراكُه، فناسبَ هذه الصِّفةَ أن يُنَبَّه بها على الصِّفةِ القلبيَّةِ[1].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

القسط والعدل:

(القسط): هو العدل، قال الزَّجَّاج: القسط مصدر يوصف به، تقول: "ميزانٌ قسطٌ وموازينُ قسطٌ، والمعنى: ذات قسط"[2]، وهو مرويٌّ عن العرب، نحو قول أبي طالب:

بِمِيزانِ قِسْطٍ لَا يَغِلُّ شَعِيرَةً***وَوَزَّانِ صِدْقٍ وَزْنُهُ غَيْرُ عَائِلِ[3].

والعدْل: ما قام في النَّفوس أنَّه مستقيم لا ينكره مميِّز[4]، وهو: عبارة عن الأمر المتوسِّط بين طرفي الإفراط والتَّفريط، وفي اصطلاح النَّحويِّين: خروج الاسم عن صيغته الأصليَّة إلى صيغة أخرى، وفي اصطلاح الفقهاء: من اجتنب الكبائر، ولم يصرَّ على الصَّغائر، وغلب صوابُه، واجتنب الأفعال الخسيسة، كالأكل في الطَّريق والبول، وقيل: العدل، مصدر بمعنى: العدالة، وهو الاعتدال والاستقامة، وهو الميل إلى الحقِّ[5]، والعدل: القصد في الأمور، وهو خلاف الجور، يقال: عدل في أمره عدلًا، من باب ضرب، وعدل على القوم عدلًا أيضًا، ومعدِّلة: بكسر الدَّال وفتحها، وعدل عن الطَّريق عُدولًا: مال عنه، وانصرف، وعدل عدلًا من باب تعب: جار وظلم[6]، والقسطاس: الميزان، قيل: عربيٌّ مأخوذ من القسط، وهو العدل، وقيل: روميٌّ معرَّب، بضمِّ القاف وكسرها، وقرئ بهما في السَّبعة، والجمع قساطيس[7]، وعليه؛ فإنَّ العدل أعمُّ من القسط؛ لأنَّ القسط: يناسب الجزاء الحسن فقط، بينما العدل: يشمل الجزاء الحسن وضدَّه، وأيضًا فإنَّ القسط: هو العدل في الظَّاهر، بينما العدل: يكون في الظَّاهر والباطن جميعًا... و القسط: ضدُّه الجور، والعدل: ضدُّه الظُّلم.

---

(1) أبو حَيَّان، البحر المحيط: 3/440.
(2) الواحديّ، الوسيط: 3/239.
(3) ابن عادل، اللُّباب في علوم الكتاب: 6/169.
(4) الزَّجَّاج، معاني القرآن وإعرابه: 2/330.
(5) الجرجانّي، التّعريفات، ص: 147.
(6) الفيُّوميّ، المصباح المنير: (عدل).
(7) الفيُّوميّ، المصباح المنير: (قسط).

الشَّنآن والعداوة والبغضاء:

الشَّنآن: مصدر بمعنى: شدَّة البغض، يُقَالُ: شَنِئَ فُلَانٌ فُلَانًا؛ إِذَا أَبْغَضَهُ، وَهُوَ الشَّنَآنُ، وَرُبَّمَا خَفَّفُوا، فَقَالُوا: الشَّنَانُ، وَأَنْشَدُوا:

فَمَا الْعَيْشُ إِلَّا مَا تَلَذُّ وَتَشْتَهِي *** وَإِنْ لَامَ فِيهِ ذُو الشَّنَانِ وَأَفْنَدَا

وَرَجُلٌ مِشْنَاءٌ عَلَى مِفْعَالٍ؛ إِذَا كَانَ يُبْغِضُهُ النَّاسُ[1]، وأمَّا العداوة؛ فاسم عامٌّ من العدوِّ، يقال: (عدوٌّ بيِّنُ العداوة)... قال ابن الأنباريِّ: قولهم: (هو عدوُّه)، معناه: يعدُو عليه بالمكروه، ويظلمه[2]، والْعَداوَةُ أخصُّ من البَغْضاءِ، لأنَّ كلَّ عدوٍّ يُبْغَضُ، وقد يُبْغَضُ من ليس بعدوٍّ، وكأنَّ العداوة شيْءٌ مشتهر، يكون عنه عمل وحرب، والبغضاء قد لا تجاوز النُّفوس، وقد ألقى الله الأمرين على بني إسرائيل[3]، وفي ذلك يقول تعالى: ﴿فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ [المائدة: 14]، ويظهر أنَّ العداوة ملمح عامٌّ ومألوف، وعليه فُطر بنو آدم، وإليه ندبوا في الأرض، قال تعالى: ﴿وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ [البقرة: 36]، فإذا اشتدَّت العداوة؛ كانت بغضاء، فإذا اشتدَّت البغضاء؛ كان الشَّنآن.

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: 3/217.
(2) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: 3/72.
(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/216.

﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٌ عَظِيمٞ ٩﴾ [المائدة: 9]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الَّـذيـن آمـنـوا وعملوا صالحًا، مـــوعـــودون بالمغفرة والأجر العظيم

اشتلمتِ الآياتُ الكريمةُ السَّابقةُ على أوامرَ مِنَ اللّه تعالى لعبادِه ونواهٍ، ووَعْدٍ ووعيدٍ، فذَكَر هنا وعْدَ مَنِ اتَّبَعَ أوامِرَه، واجْتَنَبَ نَواهِيَه، وهذا الوعدُ استئنافٌ بيانيٌّ، وكأنَّه لَمَّا حثَّ على الوفاءِ بعهدِ اللّه وميثاقِه، وأمرَ بالعدل، وألمحَ للجزاء بذكْرِ العلم تارةً والخبر تارةً؛ استشرفتِ النُّفوسُ لمعرفة ذلك الجزاءِ، فجاء قولُه: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٌ عَظِيمٞ﴾ مُجيبًا على ذلك الاستشرافِ.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَعَدَ﴾: من وعدَ: والوَعْدُ مِنَ المَصَادِرِ الَّتي تُجمعُ، وجَمْعُها: الوُعودُ[1]، ويُقالُ: وَعَدْتُ الرَّجُلَ، تُرِيدُ وَعَدْتُهُ خَيْرًا، وأوْعَدْتُ الرَّجُلَ، تُرِيدُ أوْعَدْتُهُ شَرًّا، وإذا ذُكِرَ المَوْعُودُ؛ قيل فِيهِما جَمِيعًا: واعَدْتُهُ، وإذا لَمْ تَذْكُرِ المَوْعُودَ؛ قُلْتَ في الخَيْرِ: وَعَدْتُهُ، وفي الشَّرِّ: أوْعَدْتُهُ[2]، الوَعْدُ يكون في الخير والشَّرِّ، يقال: وَعَدْتُهُ بنفعٍ وضرٍّ وَعْدًا ومَوْعِدًا ومِيعَادًا، والوَعِيدُ في الشَّرِّ خاصَّة[3]، والموعدة: اسم للعدة، قال جرير:

تُعَلِّلُنَا أُمَامَةُ بِالعِدَاتِ***وَمَا تَشْفِي القُلُوبَ الصَّادِيَاتِ[4].

والخلف في الوعد عند العرب: كذبٌ، وفي الوعيد: كرمٌ، قال الشَّاعر:

(1) ابن منظور، لسان العرب: (وَعَدَ).
(2) الزَّجاج، معاني القرآن: 2/321.
(3) الرَّاغب، المفردات: (وعد).
(4) الخليل، العين: (وعد).

وَإِنِّي وَإِنْ أَوْعَدْتُهُ أَوْ وَعَدْتُهُ***لَمُخْلِفُ إِيعَادِي وَمُنْجِزُ مَوْعِدِي[1].

2) ﴿مَّغْفِرَةٌ﴾: والغَفْر: السِّتر والتَّغطية، ومنه المغفرة؛ لأنَّه يسترُ الرَّأس، وقيل: هو إلباسُ الشَّيءِ ما يصونُه عنِ الدَّنس[2]، والغُفْرَانُ والمَغْفِرَةُ مِنَ اللّه، هو أن يصونَ العبدُ مِن أن يمسَّه العذابُ[3]، و"عَن اللَّحيانيِّ: وغَفيرًا، وغَفيرة، وَمِنْه قَول بعض الْعَرَب: (أَسأَلك الغفيرة، والنَّاقة الغزيرة، والعزَّ فِي الْعَشِيرَة، فَإِنَّهَا عَلَيْك يسيرَة) ... واستغفر اللّه من ذَنبه، وَاسْتَغْفرهُ إِيَّاه، على حذف الْحَرْف: طلب مِنْهُ غفره، أنشد سِيبَوَيْه:

أَسْتَغْفِرُ اللّه ذَنبًا لَسْتُ مُحْصِيهِ***رَبَّ الْعِبَادِ إِلَيْهِ القَوْلُ وَالعَمَلُ"[4].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

وعد اللّه الَّذين صَدَّقوا اللّه ورسولَه وعملوا الصَّالحاتِ، والتزموا الطَّاعاتِ، وتَجَنَّبُوا المعاصي بالمغفرة لذنوبهم، وبالثَّوابِ العظيمِ، وهو دخولُ الجنَّة، واللّه تعالى لا يُخلفُ وعدَه، والآية تضمَّنت بشرى سارَّة لهم؛ لأنَّهم هم أهل الإيمان وصالح الأعمال ﷺ وأرضاهم[5]، ووعد اللّه وعد مطلق، لا إخلال به؛ لأنَّ الَّذي يخلُّ بالوعد هو الإنسان الَّذي تعتريه الأغيار[6]، ولذلك فالمغفرة منه تعالى تامَّة، والأجر لديه عظيم.

وعد اللّه العاملين الصَّالحات بالأجر العظيم وغفْر السَّيِّئات

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

نُكْتَةُ التَّعْبيرِ عنِ الوَعْد بالماضي في قوله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾:

عُبِّرَ عنِ الوعد بالفعل الماضي؛ للدِّلالةِ على تحقُّق وقوعِه، وكأنَّه وَقَع، ويُخْبَرُ عنه، والغيبيُّ المستقبلُ في يقين المؤمن واقعٌ، أو كأنَّه قد وقع، فلا فرقَ عنده بين ماضٍ ومستقبلٍ طالما كان منَ اللّه تعالى،

وعْدُ الله يقين، لمن به يستعين

(1) الفيُّوميّ، المصباح المنير: (وعد).
(2) السِّمين، عُمْدة الحُفَّاظ: (غَفَرَ).
(3) الرَّاغب، المفردات: (غَفَرَ).
(4) ابن سيده، المحكم: (غَفَرَ).
(5) الجزائري، أيسر التَّفاسير: (غَفَرَ).
(6) الشَّعراويّ، تفسير الشَّعراويّ: 5/2978.

وقد "تفضَّل الله، فوعد الَّذين صدَّقوا بدينه، وعملوا الأعمال الصَّالحة: أن يعفو عن ذنوبهم، ويجزل لهم الثَّواب"[1]، ووعد الله واقع لا محالة؛ إذْ ما تجري به إرادته، يقع به قدره، والله يقول في محكم التِّبيان: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ ۝٩﴾ [آل عمران: 9].

علَّة حذف المفعول الثَّاني لـ﴿وَعَدَ﴾ في قولِه تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾:

الموعود المحذوف هـو (الجنَّـة)، والجنَّة مسبَّبة عن المغفرة

و(وَعَدَ) منَ الأفعالِ المتعدِّيةِ الَّتي تنصبُ مفعولَيْن، وحُذفَ المفعولُ الثَّاني لـ﴿وَعَدَ﴾ هنا في قولِه تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، حيث لم يُذكرِ الموعودُ؛ لتذهبَ النَّفسُ في تخيُّلِه كلَّ مَذْهب، ولِيَدُلَّ أيضًا على عمومِ هذا الوعدِ، لِكُلِّ خيرٍ دنيويٍّ وأُخرويٍّ، وجملة ﴿لَهُم مَّغۡفِرَةٞ﴾: تفسيريَّة للمفعول الثَّاني للفعل (وعد)، والتَّقدير: (وعدهم الجنَّة)، من قبيل تفسير السَّبب للمسبَّب، فالجنَّة مسبَّبة عن المغفرة والأجر[2].

علَّة الإخبار عن الوعد دون الموعود في قوله: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾:

الخُلْفُ في حقِّ الله مستحيل؛ لأنَّـه تـعـالى لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ

يقول الفخرُ الرَّازيُّ: "الإخبارُ عن كونِ هذا الوعدِ وعْدَ الله تعالى أقوى، والإلهُ هو الَّذي يكونُ قادرًا على جميع المقدورات، عالِمًا بجميع المعلومات، غَنيًّا عن كلِّ الحاجات، وهذا يمتنعُ الخُلْفُ في وعدِه؛ لأنَّ دخولَ الخُلْفِ إنَّما يكون إمَّا للجهلِ حيث ينسَى وعدَه، وإمَّا للعجزِ حيث لا يقدرُ على الوفاء بوعْدِه، وإمَّا للبخلِ حيث يمنعُه البخلُ عنِ الوفاء بالوعد، وإمَّا للحاجة، فإذا كان الإلهُ هو الَّذي يكونُ مُنَزَّهًا عن كُلِّ هذه الوُجوهِ، كان دخولُ الخُلْفِ في وعدِه مُحَالًا، فكان الإخبارُ عن هذا الوعد أوكدَ وأقوى من نفْسِ الإخبار عنِ الموعود به"[3].

(1) الشَّعراويّ، تفسير الشَّعراويّ: 5/2978.
(2) الخراط، المجتبى من مشكل إعراب القرآن: 1/219.
(3) الرَّازي، مفاتيح الغيب: 11/181.

دلالة إسناد الوعدِ إلى الله في قولِه تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾:

الوعد من الله يقين وطمأنينة، وهو القادر على إنفاذ وعده دون سواه

إسناد هذا الوعدِ إليه سبحانه في قولِه تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ﴾، من باب التَّشريفِ للوعد، وما نسب إلى العظيم، فهو عظيم، وتلك العظمة المتفرِّدة، تُضفِي على نفسِ المؤمن يقينًا واطمئنانًا؛ لأنَّ الواعدَ هو اللّه الَّذي لا يُخلف وعدَه، فما وعد به حقٌّ لا ريب فيه[1].

إفادة تقديم الخبرِ على المبتدأ الاختصاص في قوله: ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾:

إجراء الوَعْدِ مجرى القَوْل، بوعدهم بمضمونه من المَغْفِرَة والأجْرِ العَظِيم

أفاد تقديمُ الخبر شبهِ الجُملة في قوله: ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ الاختصاصَ، حيث قصَرَ استحقاقَ الجزاءِ المذكورِ والوعْدَ الإلهيَّ على الَّذين آمنوا وعملُوا الصَّالحاتِ، فهم وحدهم الحقيقُون بهذا الوعد، وفي هذا إجراء الوَعْدِ مجرى القَوْل، "كأنَّه قيل: وعدهَمُ هذا القَوْل، وإذا وَعَدَهُمْ من لا يَخْلِفُ الميعاد؛ فَقَدْ وعدهم مَضْمُونَهُ من المَغْفِرَة والأجْرِ العَظِيم، أي: وعدهُم بهذَا المَجْمُوع، وإجراء الوَعْدِ مَجْرى القَوْل مذهب كُوفيٌّ"[2].

جُملةُ ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ بيانٌ للوَعْد في صدرِ الآيةِ الكريمةِ:

إجمالُ الأجر العظيمِ يزيدُ المُستشرفَ تشويقًا لمعرفة كُنْهِه

وقد وقعتْ جملةُ ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ "بيانًا للوَعْد في قولِه في صدْرِ الآية: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، كأنَّه قال: قَدَّم لهم وَعْدًا، فقيل: أيُّ شيءٍ وَعَدَه لهم، فقيل: ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾، أو يكونُ على إرادة القول بمعنى: وعدَهم، وقال: لهم مغفرة"[3]، وهذه الجملةُ: ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾، تُلمحُ لمتعلَّقِ الوعدِ المحذوفِ (المفعول الثَّاني)، وتشيرُ إلى أنَّه من نوع المغفرة والأجر العظيم، لكنَّ إجمالَ الأجر العظيمِ يزيدُ المُستشرفَ تشويقًا لمعرفة كُنْهِ ذلك الأجرِ، وهذا من بليغ الأسلوب في تبيان الأمور وإيضاح الوعود.

(1) الرَّازي، مفاتيح الغيب: 11/181.
(2) ابن عادل، اللباب في علوم الكتاب: 7/243.
(3) الزَّمخشري، الكشَّاف: 1/327.

سِرُّ التَّعبيرِ عنِ استحقاقِ المؤمنين المغفرةَ والأجرَ بالجُملةِ الاسميَّةِ:

تسميَةُ الثَّواب أجْرًا؛ إشارة إلى أنَّـه استحقاقٌ عن عَمَلٍ صالحٍ عملُوه

عُبِّر عنِ استحقاقِ المؤمنين المغفرةَ والأجرَ، بالجُملةِ الاسميَّةِ الدَّالَّةِ على الثَّباتِ والرُّسوخ، فقال: ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾، والتَّنْكيرُ في ﴿مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ للتَّفْخيم، وللدَّلالةِ على عظمةِ تلك المغفرةِ، وأنَّها بلغت منَ العظمةِ حَدًّا لا يُحيطُ به وَصْفٌ، والمقصودُ بالأجر الثَّوابُ، وتسميتُه أجْرًا؛ للإشارة إلى أنَّه استحقاقٌ عن عَمَلٍ صالحٍ عملُوه، وأنَّ اللّه لا يضيعُ أجرَ من أحسن عملًا، وهذا تَفَضُّلٌ مِنَ اللّه تعالى على عِباده ومِنَّةٌ وكَرَمٌ مِنه، وَوَصْفُ الأجرِ بالعظيمِ زيادةُ تأكيدٍ على فخامته.

سِرُّ تقديمِ الوعْدِ بالمغفرة على الوعْدِ بالأجرِ العظيمِ:

لا يخلُو أَحَدٌ مِنَ اقـتراف ذَنْـبٍ، وغـفـران اللـه مرتبطٌ بعطائه الفيَّاض

قُدِّمَ الوعدُ بالمغفرة على الوعدِ بالأجرِ العظيمِ لعبادِ اللّه المؤمنين، كما وردَ في الآية الكريمةِ، من بابِ التَّخليةِ قبْل التَّحليةِ، وفيه مِنَّةٌ منَ اللّه تعالى على عبادِه وفضلٌ منه سبحانه مراعاةً لجنابهم، بيانُ ذلك أنَّه: "لَمَّا كانَ المَوْعُودُ شَيْئَيْنِ: فَضْلًا وإسْقاطَ حَقٍّ؛ قَدَّمَ الإسْقاطَ؛ تَأْمِينًا لِلْخَوْفِ، فَقالَ واضِعًا لَهُ مَوْضِعَ المَوْعُودِ في صِيغَةٍ دالَّةٍ عَلى الثَّباتِ والاخْتِصاصِ: ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾، أيْ: لِما فَرَطَ مِنهُمْ؛ ولِما طُبِعَ الإنْسانُ عَلَيْهِ مِنَ النَّقْصِ نِسْيانًا، أوْ عَمْدًا بِعَمَلِ الواجِباتِ؛ إنْ كانَ صَغِيرًا، وبِالتَّوْبَةِ؛ إنْ كانَ كَبِيرًا، وفِيهِ إشارَةٌ إلى أنَّهُ لا يَقْدِرُ أحَدٌ أنْ يَقْدُرَ اللّه حَقَّ قَدْرِهِ، ولَمَّا أمَّنَهم بِالتَّجاوُزِ؛ أتْبَعَهُ الجُودَ بِالعَطاءِ، فَقالَ: ﴿وَأَجْرٌ﴾، أيْ: عَلى قَدْرِ دَرَجاتِهِمْ مِن حُسْنِ العَمَلِ ﴿عَظِيمٌ﴾، أيْ: لا يَدْخُلُ تَفاوُتُ دَرَجاتِهِ تَحْتَ الحَصْرِ"[1].

وعـــد الـلـه بـمـعـامـلـة الـطَّـائـعـين والـعـاصـين بالمسامحة لا بالمشاحة

سرُّ إيثار السِّياق قوله: ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، على قوله: (وعملواْ السّيّئات):

طَرَحَ صاحبُ مفاتيحِ الغيبِ تساؤلًا وجيهًا، وأجاب عنه، حيث تساءلَ عن سَبَبِ إيثارِ ما وَرَد في الآيةِ الكريمةِ مِن قولِه تعالى:

(1) البِقاعي، نَظْم الدُّرَر: 6/45.

﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٌ عَظِيمٞ﴾، حيث كان الظَّاهرُ أن يقال: (وعملُوا السَّيِّئات)؛ ليتناسبَ مع الوعدِ بالمغفرة؛ لأنَّها تكونُ لفاعل السَّيِّئات لا لفاعل الحسنات؟ وأجاب عن تساؤلِه: بأنَّه لا يخلو أَحَدٌ مِن اقتراف ذَنْبٍ، وإن كان مِمَّن يعملُ الصَّالحاتِ، أي: الطَّاعات، وأنَّ المعنى: أنَّ مَن آمن وعملَ الحسناتِ؛ غُفرت له سيِّئاتُه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ﴾ [هود: 114][1]، وعدمُ ذكْرِ السَّيِّئات في آية المائدة بُشرى بمحوِها وسترِها والتَّجاوُزِ عنها، بمقتضى الإيمان والعملِ الصالحِ، وسَترُ السَّيِّئات ومحوُها يتناسبُ مع المغفرةِ والأجرِ العظيمِ.

دلالة المغايرة بالنَّصب والرَّفع في المغفرة والأجر بين آيتي المائدة و الفتح:

قال تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٌ عَظِيمٞ﴾ [المائدة: 9]، وقال سبحانه: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنۡهُم مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا عَظِيمَۢا ٢٩﴾ [الفتح: 29]، هاتان آيتان من متشابهِ النَّظم القرآنيِّ تُخبران عن وعْدِ الله تعالى لعبادِه المؤمنين، وهنا نسأل: لِمَ رُفِعَ قولُه: ﴿مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٌ عَظِيمٞ﴾ في المائدة، ولِمَ نُصِبَ في الفتح؟ والجوابُ: بأنَّ لقولِه: ﴿لَهُم﴾ في آية المائدة، و﴿مِنۡهُم﴾ في آية الفتح فائدةً، بيانُها: أنَّه لمَّا قيل في الأولى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾؛ عُلِمَ أنَّ المؤمنين الَّذين عملوا الصَّالحاتِ؛ وُعِدوا بما هو حقٌّ لهم، فَعُدِل عن ذكْرِ المفعول، إلى جُملةٍ تضمَّنتْ معناه، والجُملةُ خبريَّةٌ من مبتدأ وخبر، وهي في موضعِ مفردٍ منصوبٍ، كأنَّه قال: (وعدَ الله الَّذين آمنوا مغفرةً)، فاللَّام في ﴿لَهُم﴾ داخلةٌ على ضمير الصَّالحين، فكأنَّها داخلةٌ عليهم، وكأنَّه قال: (وجدْنا للصَّالحين جزاءً)، وعطفَ على موضع الجُملةِ الَّتي هي (لهم جزاءٌ) منصوبًا؛ إذ كان موضعُ الجملة موضعَ نصبٍ... وأمَّا الآيةُ الأخرى؛ فإنَّ ﴿مِنۡهُم﴾ فيها متعلِّقةٌ بالَّذين آمنوا، وعملوا الصَّالحاتِ، وهي في تمامِها، ولم يكن هناك ما ترتفعُ به ﴿مَّغۡفِرَةٞ﴾، فتعدَّى إليها الفعلُ الَّذي هو ﴿وَعَدَ﴾، فجرى على الأصلِ في نصْبِ المفعولِ به.

(1) الرَّازي، مفاتيح الغيب: 11/181.

دلالة إيراد المفعول الثَّاني للفعل (وعد) جملة اسميَّة في المائدة، ومفردًا في الفتح:

ولنا أن نسأل عن ورود المفعول الثَّاني للفعل وعد في آية المائدة: جملة اسميَّة هي قوله: ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾، وفي آية الفتح مفردًا، هي قوله: ﴿مَّغْفِرَةً﴾؟ ويجابُ عن ذلك: بأنَّ الآيةَ الأولى جاءت في معرض خطابٍ للمؤمنين، لحثِّهم على تَوَخِّي العدل فيما يحكمُون به، وهو أعمُّ من حَثِّ الصَّحابة الكرامِ الَّذين ذكرَهم في آخر سورةِ الفتحِ، وأثنى عليهم بالشِّدَّةِ على الكفَّار، والرَّحمةِ على المؤمنين، وملازمةِ الرُّكوعِ والسُّجودِ، وابتغاءِ رضوان اللّه، فَخَصَّ هؤلاء بصريحِ المغفرة، وذكرَ أنَّه وعدَهم ذلك، وقال في آية المائدة: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، فكان إخبارًا عن وعْدِه إيَّاهم فقط؛ لأنَّ المخاطَبين في آية الفتح - وهم صفوةُ المؤمنين - أعلى درجةً، وأرفعُ منزلةً بما ذُكِرَ من صفاتهم منَ المخاطَبين في آية المائدةِ؛ لذا كان في الآيةِ الأولى إخبارٌ عن وعدِه إيَّاهم فقط، ثُمَّ أُتِيَ بخبرٍ ثانٍ، فقال: ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾"على معنى الشَّرطِ، أي: إن قاموا بذلك، ولم يُحبطُوه بالسَّيِّئات، فَجُوِّزَ منهم هذا، ولم يُعلِّقِ المغفرةَ بوعْدٍ، فيُعزيه إليها، وفي الآية الثَّانية: حقَّقَ للمخاطَبين المغفرةَ، وعَدَّى الفعلَ إليها، وكان الحُكْمُ بأنَّهم يُوافون الآخرةَ بأعمالِهم الصَّالحةِ، وقد وعدَهمُ اللّه عنها المغفرةَ والأجرَ العظيمَ، فناسبَ كُلُّ آية ما خُصَّتْ به[1]، وينبغي أن يُوضعَ في الاعتبار أمران يَزيدان ذلك الفرقَ الدَّقيقَ وُضوحًا، نوردهما في الهامش[2].

---

(1) الإسكافيّ، دُرَّة التَّنزيل، ص: 65 - 66.

(2) الأوَّل: أنّ سورةَ الفتح وسورةَ المائدة آخرُ ما نزل بالمدينة وبينَهما سورةُ التَّوبة، على هذا التَّرتيب، ينظر: الزّركشي، البرهان: 1/194. وهذا يناسبُه التَّبشيرُ في السُّورتين لمن آمن وعمل صالحًا، والأعمالُ بخواتيمِها، والثَّاني: تناسُبُ كيفيَّةِ التَّبشير في كلِّ سُورةٍ من هاتين السُّورتَيْن مع مقصدِهما الأعظم، فلمَّا كان المقصدُ الأعظمُ لسورة المائدة: هو الوفاءُ بعهد الله في الأحكامِ التَّشريعيَّةِ الَّتي تتعلَّقُ بأمورٍ كثيرةٍ في حياة المسلمين لدُنياهم وآخرتِهم، كان ما في الوعْدِ من بُشرى مضاعفًا، فيتناولُ الثَّوابَ الجزيلَ الواقعَ مفعولًا ثانيًا مقدَّرًا للفعل، ومعه مغفرةٌ وأجرٌ عظيمٌ، وكأنَّه قال: وعدَ الله الذين آمنوا وعملوا الصَّالحات ثوابًا لا يحيطُ به الوصف، ثمَّ استأنف بالجُملةِ الخبريَّةِ التي تحملُ بشرى ثانية: ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾، ولمَّا كان المقصدُ الأعظمُ لسورة الفتح: هو تطييبُ خواطرِ المؤمنين وإيناسُهم وتبشيرُهم بنصر الله بعد صدِّهم عنِ المسجدِ الحرامِ في عام الحُدَيْبية، وكان منهم من أبدى اعتراضَه وأعلن تحفُّظَه على بنود الصُّلح، لهذا كانت الحاجةُ - إلى مغفرةٍ عاجلةٍ وصريحةٍ - مباشرةً، ولهذا كان تعدِّي الفعلِ إلى المغفرة مباشِرًا وصريحًا وسريعًا: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ۝٢٩﴾ [الفتح: 29]، و﴿مِنْهُم﴾ هنا - في الفتح - أقلُّ درجةً من ﴿لَهُم﴾ - في المائدة - بما يَتناسبُ مع مَا في المائدةِ من ثوابٍ مضاعَفٍ.

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ ١٠﴾

[المائدة: 10]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا كانت الآيةُ السَّابقة تتضمَّنُ وعد الله بالمغفرة والأجر العظيم لِمَن آمن وعمل صالحًا؛ عُطفت عليها هذه الآيةُ بالواو، "ولَمَّا قدَّم الوعد؛ لأنَّه في سورة الذين آمنوا؛ أتبعه الوعيد لأضدادهم، وهو أعظم وعد لأحبابه المؤمنين أيضًا، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾، أي: غطُّوا ما اتَّضح لعقولهم من أدلَّة الوحدانيَّة"[1]، وكذَّبوا بالآيات النَّازلة، فاستحقُّوا أن يكونوا من أصحاب النَّار، الملازمين لها، وهو تناسُبٌ بيِّنٌ بين الآيتين الكريمتين؛ فالمؤمن جزاؤه الجنَّة، والكافر المُكذِّبُ جزاؤه الجحيم.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿كَفَرُواْ﴾: فعل ماضٍ من (كفرَ يكفرُ)، وجِذرهُ اللُّغويُّ (كفر)، والأصلُ في معناه: دلالته "على معنى واحدٍ، وهوَ السَّترُ والتَّغطيةُ، يقال لمَنْ غطَّى درعهُ بثوبٍ: قدْ كفرَ درعهُ"[2]، ووصفُ اللَّيل بالكافر؛ لستره الأشخاصَ، ووصفُ الزّارعِ به لستره البِذْرَ في الأرض[3]، وسُمِّي الكافر الشرعيُّ: كافرًا؛ لأنَّه ستر الحقَّ، وغطَّى عليه[4]، ومعنى ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ في الآية: "والذين جحدوا وحدانيَّة الله، ونقضوا ميثاقه وعقودَه الَّتي عاقدوها إيَّاه"[5].

2) ﴿وَكَذَّبُواْ﴾: فعل ماضٍ، جِذره اللغويُّ من: (كَذَبَ)، ومصدرُهُ التَّكذيب، والكذبُ عمومًا ضدُّ الصِّدْق[6]، و"المعنى المحوريُّ: نَقْص الحِدَّة، والشدَّة الجارية في الشَّيء، أو

(1) البقاعي، نظم الدرر: 6/45.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (كفر).
(3) الرّاغب، المفردات: (كفر).
(4) السمين، عمدة الحفاظ: (كفر).
(5) ابن جرير، جامع البيان: 10/100.
(6) ابن دريد، جمهرة اللغة: (كذب).

المتوقَّعة منه كانكسار الحرِّ الجاري، ونَقْص حِسِّ العين، وتوقُّف الوحشيِّ عن الجَرْي، وعَجْز القوم عن السُّرَى، وهو معتاد في أسفارهم، وكالجُبْن عن الاستمرار في الهجوم... ومنه الكَذِبُ من القول؛ لأنَّه نَقْصٌ، بل فَقْدٌ للمتوقَّع من الكلام، بل لما وُجد من أجله، وهو التَّعبير عن حقيقة ما في النَّفْس"[1].

وله "أَصْلٌ صَحِيحٌ يَدُلُّ عَلَى خِلَافِ الصِّدْقِ، وَتَلْخِيصُهُ: أَنَّهُ لَا يَبْلُغُ نِهَايَةَ الْكَلَامِ فِي الصِّدْقِ، مِنْ ذَلِكَ الْكَذِبُ خِلَافُ الصِّدْقِ، كَذَبَ كَذِبًا"[2].

ومعنى (وكذبوا): أنَّه مكذِّب بالآيات، كافر بها بعد وضوحها وضوحًا بيِّنًا[3].

3) ﴿بِـَٔايَٰتِنَآ﴾: جَمْعٌ بالألف والتَّاء، مفرده (أَآية)، ثمّ صارتَا مدَّةً، وذكرَ "أنَّها مشتقَّةٌ منَ التأيِّي الَّذي هوَ التَّثبُّتُ، والإقامةُ على الشَّيءِ".[4] والآيةُ تأتي بمعنَى: العلامةِ والشَّخصِ والجماعةِ[5]، وكونُها مؤلَّفةً منَ الكلماتِ والجملِ سمِّيتْ آيةُ القرآنِ بهذا الاسمِ؛ ولأنَّها "طائفةٌ منَ القرآنِ، يتَّصلُ بعضُها ببعضٍ إلى انقطاعِها، طويلةً كانتْ أوْ قصيرةً"[6].

ومعنى ﴿بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ في الآية: "ما شرع اللّه من أحكام، وأوجب على العباد أن ينفِّذوها، كما يطلق على الدَّلالات التي تدلُّ على قدرة الخالق جلَّ وعلا، وتطلق على الآيات القرآنيَّة، وتطلق على المعجزات الَّتي أيَّد اللّه بها الرُّسل"[7].

4) ﴿أَصْحَٰبُ﴾: جمعُ تكسيرٍ، مفردُه صاحبٌ، وجِذره اللُّغويُّ من: (صحب)، وأصله: "يدلُّ على مقارنةِ شيءٍ ومقاربتِه... وكلُّ شيء لاءمَ شيئًا؛ فقد استصحبه"[8].

أمَّا المعنى العامُّ للَّفظة؛ فإنَّ "الصَّاحِبَ: الملازم إنسانًا كان أو حيوانًا، أو مكانًا، أو زمانًا، ولا فرقَ بينَ أن تكون مُصَاحَبَتُهُ بالبدن، وهو الأصل والأكثرُ، أو بالعنايةِ والهمَّةِ"[9].

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (كذب).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (كذب).
(3) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/96.
(4) الراغب، المفردات: (أي).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أيي).
(6) الكفويّ، الكليّات، ص: 41.
(7) الدرّة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 3/39.
(8) ابن فارس، مقاييس اللغة: (صحب).
(9) الراغب، المفردات: (صحب).

ولمَّا كان معنى الصُّحبةِ: اللُّزومُ والدَّوامُ؛ كان معنى أصحاب الجحيمِ: "ينبئ عن التَّخليد فيها؛ لأنَّ المصاحبة تقتضي الملازمةَ، كما يقال: أصحاب الصحراء، أي: اللَّازمون لها"[1].

5) ﴿ٱلْجَحِيمِ﴾: اسم من أسماءِ النَّارِ، الجذر اللُّغويُّ منه (جحم)، والأصلُ في معناها: "عُظْمُهَا به الحرارةُ وشدَّتُها، فالجاحمُ: المكانُ الشَّديدُ الحرِّ"[2]، والمعنى المحوريُّ لها: "بؤرةٌ متوقِّدة الأثناء، توقدُ أثناءَ الشَّيءِ الجسيمِ حِدَّة مع غلظه في نفسِه... ومنه الجحيمُ: كلُّ نارٍ عظيمةٍ في مهواة"[3].

و"الجحيمُ: شدَّة توقُّد النَّارِ وإضرامها، وجحمتُ النَّارَ: أضرمتها، وزدت في توقُّدها، ومنه الجحيمُ، أعاذنا الله منها"،[4] ومعنى الجحيم في الآية: "جَهَنَّمُ، وَأَصْلُ الْجَحِيمِ: النَّارُ الْعَظِيمَةُ تُجْعَلُ فِي حُفْرَةٍ لِيَدُومَ لَهِيبُهَا، يُقَالُ: نَارٌ جَحْمَةٌ، أَيْ: شَدِيدَةُ اللهبِ"[5].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

خلود أهل النَّار فيها

الآيةُ الكريمة فيها إشارة إلى حقيقةٍ جاء بها الأنبياء والرُّسل، وحذَّروا منها في أنَّ مَن يكفر بالله، ويكذِّب بآياته؛ فإنَّه آيلٌ إلى الجحيم؛ ليكون من أصحابها الملازمين، "وَهَذَا هُوَ الْجَزَاءُ عَلَى الْكُفْرِ وَالتَّكْذِيبِ، بِصَرْفِ النَّظَرِ عَنْ أَعْمَالِ الْكَافِرِينَ الْمُكَذِّبِينَ، وَلَا يَنْفَعُ مَعَ مِثْلِ هَذَا الْكُفْرِ وَالتَّكْذِيبِ عَمَلٌ"[6].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

عطف التَّكذيب على الكفر من عطف الخاصِّ على العامِّ

البدء بصفة الذين كفروا ثمَّ الذين كذبوا:

في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ﴾ ابتدأ هذه الآية بالرَّهط المُخالف من أُولئك الَّذين كفرُوا، ثمَّ عطف ممَّنْ كذَّب بالآيات، وهُنا

(1) الواحدي، التفسير البسيط: 7/292.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (جحم).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (جحم).
(4) السمين، عمدة الحفاظ: (جحم).
(5) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 7/13.
(6) رضا، تفسير المنار: 6/228.

عطف التَّكذِيب على الكُفر، مَعَ أنَّهُ ضرْبٌ منهُ، فالكُفر معناهُ: التَّغطيةُ والسَّترُ للحقائق؛ وتغطيةُ العقُول عن إدراك الحقِّ، والتَّكذيبُ مُشابهٌ لهُ في تغطيةِ الحقِّ والتَّدليس عليه، وحَجْبِهِ عنِ العُقُول والبصائر، "فهُو هُنا من باب عَطْف الخاصِّ على العامِّ"[1]، أو المُجْمَل علَى المُفَصّل؛ "لأنَّ الكافر على قسمين: جاهلٌ بالآيات، وكافرٌ كفَرَ بعد وضوح الآيات والمعجزات الدَّالَّة على صدق الرَّسول"[2].

بلاغة تقديم فعل الكفر على فعل التَّكذيب:

الكفر جحود القلب وطمس معالم الإدراك والتَّكذيب ردُّ ما دلَّت عليه الرِّسالة

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ﴾ قدَّم الفعل ﴿كَفَرُواْ﴾ على الفعل ﴿وَكَذَّبُواْ﴾؛ لأنَّ "الكفر هنا معناه: جحود القلب، وطمس معالم الإدراك؛ فقلوبهم غلف، قد غطِّيت عنها الحقائق، وغاب عنها الفهم الصحيح لأنَّ القلب قد شاه وفسد، فلا يرى الحقائق، ويكذِّب بها وكان التَّكذيب جرمًا عظيمًا؛ لأنَّه تكذيب بآيات الله تعالى الَّتي كانت للدَّلالة على الرِّسالة والإذعان للحقِّ"[3].

في الآية مجاز بالحذف التَّقابليّ:

ذكر في الآية السَّابقة جزاء المؤمنين وحذفه مقابله هنا في جزاء الكافرين

في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ﴾، في الآية ثمَّة محذوف يقابل المذكور في الآية السَّابقة؛ "لأنَّه ذكر في قسم المؤمنين الحكم بثواب عملهم، ولم يذكر ما به يقع الثَّواب، وذكر في قسم الكافرين ما به يقع العذاب، ولم يذكر الحكم بتعذيبهم، فالتقدير: لهم مغفرة وأجر عظيم، وهم أصحاب الجنَّة، والتقدير في الثَّاني: لهم عذاب أليم، وهم أصحاب الجحيم"[4].

قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ﴾ - تعبير تكرَّر أربع مرَّات في القرآن الكريم - أيْ: "هُم سُكَّانُها، واللَّابثُون فيها"[5]، بلْ

(1) الشوكاني، فتح القدير: 2/79.
(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/96.
(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 4/2065.
(4) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/97.
(5) ابن جرير، جامع البيان: 10/513.

والخَالدُون فيها، أمَّا الآيةُ بتمَامِهَا؛ فذُكرتْ ثلاثَ مرَّاتٍ في القرآن الكريم: في هذا المَوْضِعِ مرَّة، وفي الآية السادسة والثمانين من سورة المائدة، والآية التَّاسعة عشرة من سورة الحديد مرَّة ثالثة، وهُو يدْخُلُ في باب التَّكرار الَّذي يُفيدُ التَّوكيد، ولهُ فوائدُ عظيمةٌ.

مصاحبة الجحيم وردت أربع مرَّات في القرآن توكيدًا

الجملةُ الاسميَّة دالَّةٌ على الثَّبات واللُّزوم قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ﴾، استعمل لفظ ﴿أَصۡحَٰبُ﴾ بالاسميَّة، لدلالتها على الثُّبُوت؛ لذلك جاءتْ مُشتقَّاتُها في القرآن الكريم اسميَّةً أكثرَ منْ مجيئها فعليَّة؛ لأنَّ الصُّحبة أمرٌ إذا حصل؛ فإنَّه يستمرُّ، ويستقرُّ، والصَّاحبُ من لازم أبدًا[1]، وسِوَى ذلك لا يُسمَّى صاحبًا؛ لأنَّ الصَّاحب هُو المُلازم المُعاشر، أمَّا غيرُه الَّذي لا يُلازم، بلْ قدْ ينْقطعُ؛ فيُسمَّى صَديقًا أوْ رفيقًا أو نحْوهُ، ولا يُسمَّى صَاحبًا.

وعندئذٍ فإنَّ الاسميّة أليقُ بهذا اللّفْظ؛ لذلكَ جاءَتْ في أغْلبِ وُرُودها في آيات القرآن بالاسميَّة، ومنْها هذه الآية الَّتي "جَاءَتِ الْجُمْلَةُ اسْمِيَّةً دَالَّةً عَلَى ثُبُوتِ هَذَا الْحُكْمِ لَهُمْ، وَأَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ، فَهُمْ دَائِمُونَ فِي عَذَابٍ؛ إِذْ حَتَّمَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ"[2].

ورود الصُّحبة بالفعليَّة في قصَّة موسى عليه السلام

وقد وردتْ الصُّحبةُ بصيغة الفعل الَّذي يُفيد التَّجدُّد في قصّة مُوسى (عليه السلام)؛ لأنَّه لم يكنْ مصاحبًا بصفة الدَّوام والثُّبوت للرَّجل الصَّالح، وهُو حديثُ مُوسى عليه السلام مَعَ الخِضْر عليه السلام الَّذي وهبهُ اللّه منْ لدُنه علمًا في قوله تعالى: ﴿قَالَ إِن سَأَلۡتُكَ عَن شَيۡءٖ بَعۡدَهَا فَلَا تُصَٰحِبۡنِيۖ قَدۡ بَلَغۡتَ مِن لَّدُنِّي عُذۡرٗا ٧٦﴾ [الكهف: 76]، وما ورد بالفعليَّة لا يُفيد الثَّبات.

فهو لم يُلازمه على الدَّوام، ولكنَّه طلب مُصاحبته استثناءً في مُدَّة مُعيَّنة من الزَّمن؛ لأنَّه كان يتعجَّلُ معرفة ما خفي عنه، حتَّى

(1) الراغب، المفردات: (صحب).
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/197.

حصل الفراقُ بينهما، لمَّا عجز صبر موسى، عن الالتزام بعدم السُّؤال عن تصرُّفات الخِضر، ممَّا كان غريبًا وخارجًا عن سَنَنِ أحكام الشَّرع والعُرف الَّتي ألفها مُوسى وعرفها، فانبرى يحتجُّ على كلِّ فعل من الوقائع الثَّلاث تِباعًا، كما فصَّلت في ذلك سورةُ الكهف.

قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ﴾ يفيد القصر:

القَصْر في الجملة متأرجحٌ بين الادِّعائي والحقيقيِّ

قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ﴾، الجملة من باب القصر، فهو " قَصْرٌ ادِّعَائِيٌّ؛ لِأَنَّهُمْ لَمَّا كَانُوا أَحَقَّ النَّاسِ بِالْجَحِيمِ، وَكَانُوا خَالِدِينَ فِيهِ جُعِلُوا كَالْمُنْفَرِدِينَ بِهِ، أَوْ هُوَ قَصْرٌ حَقِيقِيٌّ، إِذَا كَانَتْ إِضَافَةُ ﴿أَصۡحَٰبُ﴾ مُؤْذِنَةً بِمَزِيدِ الِاخْتِصَاصِ بِالشَّيْءِ، كَمَا قَالُوهُ فِي مُرَادِفِهَا، وَهُوَ ذُو كَذَا، كَمَا نَبَّهُوا عَلَيْهِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٞ ذُو ٱنتِقَامٖ﴾ [المائدة: 95]، فَيَكُونُ وَجْهُ هَذَا الِاخْتِصَاصِ أَنَّهُمُ الْبَاقُونَ فِي الْجَحِيمِ أَبَدًا"[1].

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/137.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ هَمَّ قَوۡمٌ أَن يَبۡسُطُوٓاْ إِلَيۡكُمۡ أَيۡدِيَهُمۡ فَكَفَّ أَيۡدِيَهُمۡ عَنكُمۡۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ١١﴾ [المائدة: 11]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

تحدَّث الحقُّ - تبارك وتعالى - في الآية السَّابقة عمَّن كان مصيرهم النَّار المتوقِّدة، فهي مصيرهم بما كذَّبوا، "ولمَّا كان من الأجر ما يحصل من أسباب السَّعادة في الدُّنيا، قال تعالى ذاكرًا لهم بعض ذلك، مذكِّرًا ببعض ما خاطبهم به؛ ليُقْدِموا على مباينة الكفرة، ويقفوا عند حدوده كائنة ما كانت: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، أي: صدَّقوا بالله ورسوله وكتابه، ﴿ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ﴾، أي: الذي أحاط بكلِّ شيء قدرة وعلمًا"[1].

وجاءت هذه الآيةُ بعد ثلاث آيات من "قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَمِيثَـٰقَهُ ٱلَّذِي وَاثَقَكُم بِهِۦٓ﴾ [المَائِدَة: 7]، أُعِيدَ تَذْكِيرُهُمْ بِنِعْمَةٍ أُخْرَى عَظِيمَةٍ عَلَى جَمِيعِهِمْ؛ إِذْ كَانَتْ فِيهَا سَلَامَتُهُمْ، تِلْكَ هِيَ نِعْمَةُ إِلْقَاءِ الرُّعْبِ فِي قُلُوبِ أَعْدَائِهِمْ؛ لِأَنَّهَا نِعْمَةٌ يَحْصُلُ بِهَا مَا يَحْصُلُ مِنَ النَّصْرِ دُونَ تَجَشُّمِ مَشَاقِّ الْحَرْبِ وَمَتَالِفِهَا"[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ءَامَنُواْ﴾: فعل ماضٍ من آمنَ يؤمنُ، وجذرُه اللغويُّ من (أمن)، وهو يدلُّ على سكونِ القلبِ وتصديقِه[3]، وأصلُ الأمنِ طمأنينةُ النَّفسِ، وزوالُ الخوفِ[4]. أمَّا "آمنَ"؛ فلهُ وجهانِ[5]:

أحدُهما: أنْ يكونَ متعدِّيًا، تقولُ: آمنتُه؛ إذا جعلتَ له الأمنَ والأمانَ، ومنه في وجهٍ:[6] اسمُ الله المؤمنِ.

(1) البقاعي، نظم الدرر: 6/45.
(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/137.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أمن).
(4) الرّاغب، المفردات: (أمن).
(5) الرّاغب، المفردات: (أمن).
(6) الزجاج، تفسير أسماء الله الحسنى: (31 - 32).

والآخرُ: أنْ يكونَ لازمًا، ومعنى (آمنَ) على هذا: صارَ ذا أمنٍ، والإيمانُ: التَّصديقُ باتِّفاقِ أهلِ اللُّغةِ[1].

ونازعَ في هذهِ الحقيقةِ اللُّغويَّةِ جماعةٌ[2]، والإيمانُ في الشَّرعِ يطلقُ إطلاقين[3]: إطلاقًا عامًّا تندرجُ فيه جميعُ أمورِ الدِّينِ العلميَّةِ والعمليَّةِ، فهو بهذا الاعتبارِ قولٌ وعملٌ واعتقادٌ.

وإطلاقًا خاصًّا، والمرادُ بهِ التَّصديقُ والإقرارُ بأصولِ الإيمانِ السِّتَّةِ المشهورةِ، فهمْ أبدلُوا الكفرَ بالإيمانِ، وخلا ذلكَ؛ فإنَّ للإيمانِ تعريفًا اصطلاحيًّا، وهو التَّصديقُ والإقرارُ بالأصولِ السِّتَّةِ الواردةِ في الحديثِ الطَّويلِ، ومنهُ قولُه: بـ«أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكِتَابِهِ، وَلِقَائِهِ، وَرُسُلِهِ، وَتُؤْمِنَ بِالْبَعْثِ الْآخِرِ»[4].

ومعنى آمنوا في الآية: "يا أيها الذين أقرُّوا بتوحيد الله، ورسالة رسوله ﷺ وما جاءهم به من عند ربهم"[5].

2) ﴿ٱذۡكُرُواْ﴾: فعل أمر، والجذر اللغويُّ منه: (ذكر)، والذِّكْرُ: نقيضُ النِّسيان[6]، وله أصلان في المعنى، أحدهما "ذَكَرْتُ الشَّيْءَ، خِلَافَ نَسِيتُهُ، ثُمَّ حُمِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ بِاللِّسَانِ، وَيَقُولُونَ: اجْعَلْهُ مِنْكَ عَلَى ذُكْرٍ، بِضَمِّ الذَّالِ، أَيْ: لَا تَنْسَهُ"[7].

و"الذِّكْرُ بالكسر له معنيان، أَحدُهما: التَّلَفُّظُ بالشَّيء، والثَّاني: إِحضارُهُ في الذِّهن، بحيثُ لا يغيبُ عنه"[8].

و"تارة يقال، ويراد به هيئة للنَّفس، بها يمكن للإنسان أن يحفظ ما يقتنيه من المعرفة، وهو كالحفظ، إلَّا أنَّ الحفظ يقال اعتبارًا بإحرازه، والذِّكْرُ يقال اعتبارًا باستحضاره، وتارة يقال لحضور الشَّيء: القلب أو القول؛ ولذلك قيل: الذِّكر ذكران، ذكر بالقلب، وذكر باللِّسان"[9]، ومعنى ﴿ٱذۡكُرُواْ﴾ في الآية: (احفظوا)، كما تَقُولُ: اذكر أياديَّ عندك، أي: احفظها[10].

(1) الأزهري، تهذيب اللغة: (أمن).وهذا الاتفاق إنما هو في الحقيقة اللغوية لا الشرعية.
(2) ابن تيمية، الإيمان، ص: 101، وما بعدها.
(3) البراك، شرح العقيدة الطحاوية، ص: 293.
(4) مسلم، الحديث رقم: (9).
(5) ابن جرير، جامع البيان: 10/100.
(6) ابن دريد، جمهرة اللغة: (ذكر).
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ذكر).
(8) الكفويّ، الكليّات، ص: 456.
(9) الراغب، المفردات: (ذكر).
(10) الفرّاء، معاني القرآن: 2/366.

3) ﴿نِعۡمَتَ﴾: مصدر للفعل (نَعِمَ يَنْعَمُ)، وجذره اللغويُّ: (نعم)، و"النِّعْمَةُ: اليدُ، والصنيعةُ، والمنَّةُ، وما أُنْعِمَ به عليك، وكذلك النُّعْمى... وفلانٌ واسعُ النِّعْمَةِ، أي: واسع المال، وقولهم: إن فعلتَ ذاك فبها ونِعْمَتْ: يريدون نِعْمَتِ الخَصْلة"[1].

والأصل في معناه له فروع كثيرة في لغة العرب، و"كثرتها راجعةٌ إلى أَصلٍ واحدٍ يدلُّ على ترفُّهٍ وطيبِ عيشٍ وصلاحٍ، منهُ النِّعمة: ما ينعمُ اللّه تعالى على عبدهِ بهِ منْ مالٍ وعيشٍ، يقالُ: للّه تعالى عليهِ نعمةٌ، والنِّعْمةُ: المنَّةُ، وكذا النَّعماءُ، والنَّعمةُ: التَّنَعُّمُ وطيب العيشِ"[2].

وهي كذلك حسن حالة المرء، وتقال للكثير والقليل[3]، والنِّعمة في هذه الآية مِنَّته تعالى عليهم؛ إذ دفع عنهم الشَّرَّ، وقصَّر عنهم أيدي الأعداء[4].

4) ﴿هَمَّ﴾: فعل ماضٍ، الجذر اللغويُّ منه: (همم) "همَّ بالشَّيْء يهِمُّ همًّا؛ إذا عَزَم عَلَيْهِ، أَو حدَّث بِهِ نَفسه"[5]، و"الهَمُّ الحَزَنُ الذي يذيب الإنسان، يقال: هَمَمْتُ الشَّحم فَانْهَمَّ، والهَمُّ: ما هممت به في نفسك، وهو الأصل"[6].

"ومنه "هَمَّ بالشَّيء: نواه، وأراده، وعزم عليه، "كأنَّما تحلَّبت إرادته وهَوَاه بشدَّة نحو الشَّيء، كما يسيل اللُّعاب شهوةً إلى الطَّعام"[7].

وَمَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِذۡ هَمَّ قَوۡمٌ﴾[8] في الآية: أنَّ "الْأَعْدَاءَ يُرِيدُونَ إِيقَاعَ الْبَلَاءِ وَالْمِحْنَةِ بِهِمْ، لَكِنَّهُ تَعَالَى يَحْفَظُهُمْ بِفَضْلِهِ"[9].

5) ﴿يَبۡسُطُوٓاْ﴾: فعل مضارع يدلُّ على الحال والاستقبال مسند هنا لواو الجماعة، الجذر اللغويُّ منه (بسط)، والبسط في الفعل نقيض القبض، والبسط يدلُّ على الزِّيادة أيضًا[10].

---

(1) الجوهري، الصحاح: (نعم).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نعم).
(3) الراغب: المفردات: (نعم).
(4) القشيري، لطائف الإشارات: 1/408.
(5) الجوهري، الصحاح: (همم).
(6) الراغب، المفردات: (همم).
(7) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (همم).
(8) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/112.
(9) الرازي، مفاتيح الغيب: 11/208.
(10) الأزهري، تهذيب اللغة: (بسط).

والأصل في معنى البسط: "امْتِدَادُ الشَّيْءِ فِي عِرَضٍ أَوْ غَيْرِ عِرَضٍ، فَالْبِسَاطُ: مَا يُبْسَطُ، وَالْبَسَاطُ: الْأَرْضُ... وَالْبَسْطَةُ فِي كُلِّ شَيْءٍ: السَّعَةُ"[1].

وبسط اليد في الآية هو "بِمَعْنَى: الْإِيذَاءِ الْمُطْلَقِ... فَإِنَّ أَكْثَرَ الْإِيذَاءِ الْعَمَلِيِّ يَكُونُ بِمَدِّ الْيَدِ"[2].

6) ﴿فَكَفَّ﴾: فعل ماضٍ، الجذر اللغويُّ له: (كفف)، "وسمِّيت كُفَّة الثَّوْب؛ لِأَنَّهَا تَمنعهُ أَن تَنْتَشِر، وأصل الكفِّ: المَنْع، وَلِهَذَا قيل لطرف الْيَد: كفٌّ؛ لِأَنَّهَا يُكَفُّ بهَا عَن سَائِر الْبدن، وَهِي الرَّاحةُ مَعَ الْأَصَابِع"[3].

والأصل في المعنى: دلالته عَلَى قَبْضٍ وَانْقِبَاضٍ[4].

و"المعنى المحوريُّ: قَبْضُ الطَّرَف المنتشر، وثَنْيه ورَدُّه فلا ينتشر... وكلُّ كفِّ الأيدي أو القوم عن؛ فهي بمعنى: الصَّرف عن القتال، أو عن العدوان"[5].

ومعنى كفِّ اليد في الآية: "فَهُوَ مَجَازٌ عَنِ الْإِعْرَاضِ عَنِ السُّوءِ خَاصَّةً، وَكَفِّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ"[6].

7) ﴿وَٱتَّقُواْ﴾: أمرٌ منه بالتَّقوى، وجذره اللُّغويُّ من: (وقي)، والأصل في معناه: "كلمة واحدة تدلُّ على دفع شيء عن شيء بغيره... والوقاية: ما يقي الشَّيء، واتَّقِ اللّه: توقَّه، أي: اجعل بينك وبينه كالوقاية"[7].

ومعناه المحوريُّ: "حفظ من الأذى، أو الضَّرر باتِّخاذ حاجز دونه، كالوقاية: الحاجز ثَوْبًا، أو حَشِيَّة أو وَرَقًا"[8].

و"الوِقَايَةُ: حفظُ الشَّيءِ ممَّا يؤذيه ويضرُّه، والتَّقْوَى: جعل النَّفس في وِقَايَةٍ ممَّا يخاف، هذا تحقيقه، ثمَّ يسمَّى الخوف تارة: تَقْوًى، والتَّقْوَى خوفًا... وصار التَّقْوَى في

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بسط).
(2) رضا، تفسير المنار: 7/521.
(3) الأزهري، تهذيب اللغة: (كف).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (كفّ).
(5) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (كفف).
(6) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/138.
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (وقى).
(8) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (وقى).

تعارف الشَّرع: حفظ النَّفس عمَّا يؤثم، وذلك بترك المحظور".[1] و"الاتِّقاء: هو افتعالٌ من الوقاية، وهي فرطُ الصِّيانة، وشدَّةُ الاحتراس من المكْرُوه"[2].

ومعنى: "اتَّقوه على نحو ما أمركم ونهاكم، وليس فيه تكليف بما لا يطاق"[3]، والمراد من قوله: ﴿وَٱتَّقُواْ﴾ في الآية: "معناها المتعارف في اللُّغة لا المعنى الشرعيِّ... والمراد باتِّقائه: اتِّقاؤه من حيث ما يحدث فيه من الأهوال والعذاب"[4].

ومعنى ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ﴾ في الآية: "الشُّعور بعظمته، والإحساس بجلاله، وامتلاء القلب به، واطمئنانه إليه، ورجاء ثوابه، وخشية عذابه، وعبادته كأنَّه يراه".[5] كما ورد في الحديث: «أَنْ تَعْمَلَ لله كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ؛ فَإِنَّهُ يَرَاكَ»[6].

8) ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ﴾: فعل أمر، الجذر اللُّغويُّ منه: (وكل)، "والتَّوَكُّلُ: إظهار العجز، والاعتماد على غيرك، والاسم: التُّكلانُ، واتَّكَلْتُ على فلانٍ في أمري؛ إذا اعتمدته"[7].

ومعنى الأمر بالتوكُّل في الآية: هو أن يعتمدوا في أمورهم عليه سبحانه، لا على غيره في امتثال أوامره، واجتناب نواهيه[8].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

في الآية نوعان من أسباب النُّزول: الأوَّل عامٌّ، فلقد "كَانَ الْمُشْرِكُونَ أَبَدًا يُرِيدُونَ إِيقَاعَ الْبَلَاءِ وَالْقَتْلِ وَالنَّهْبِ بِالْمُسْلِمِينَ، واللّه تَعَالَى كَانَ يَمْنَعُهُمْ عَنْ مَطْلُوبِهِمْ، إِلَى أَنْ قَوِيَ الْإِسْلَامُ، وَعَظُمَتْ شَوْكَةُ المسلمين"[9]، والنَّوع الثَّاني من سبب النزول: خاصٌّ، منه محاولة أعرابيٍّ قتل الرَّسول ﷺ ومنه محاولة رجل من محارب قتل الرسول ﷺ ومنه محاولة بني النَّضِير من اليهود قتله، وهو بينهم، يطلب ديَةَ قتلهم رجلًا مسلمًا، فجاء رجل منهم

(1) الراغب، المفردات: (وقى).
(2) الكفوي، الكليّات، ص: 38.
(3) السمين، عمدة الحفاظ: (وقى).
(4) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 1/484.
(5) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 4/2067.
(6) الإمام أحمد، المسند، الحديث رقم: (2924).
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة، والجوهري، الصحاح: (وكل).
(8) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/139.
(9) الرازي، مفاتيح الغيب: 11/186 - 187.

"إلى رحًى عظيمة؛ ليطرحها عليه، فأمسك الله تعالى يده، وجاء جبريل عليه السلام وأخبره بذلك، فخرج رسول الله ﷺ وأنزل الله تعالى هذه الآية"[1].

وفي الآية أمر منه تعالى إلى المؤمنين من عباده بأن يتذكَّروا نعمته وفضله عليهم، بأن منع عنهم قوم "شارفوا أن يمدُّوا أيديهم إليكم بصنوف البلاء من قتل ونهب، فكفَّ الله تعالى بلطفه ورحمته أيديهم عنكم"[2]، فعليكم آنئذٍ أن تتَّقوه، وهو الَّذي أراكم قوَّته، وأنجاكم من أعدائكم وقت ضعفكم، فاعتَمِدوا على الله، فكما أحسن إليكم في سالف الزَّمان، فبتوكُّلكم أُحْسِن إليكم فيما هو قادم، في جلب مصالحكم الدينيَّة والدُّنيويَّة، وتبرَّؤوا من حولكم وقوَّتكم، وثِقُوا بالله تعالى في حصول ما تحبُّون.

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

وجهُ افتتاح الآية بأسلوب النِّداء مع ضمير الجمع:

حصول إقبال السَّامعين وأنَّ الأمر متعلِّق بالمؤمنين جميعًا

قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ صدَّر الآية بأسلوب النِّداء، مع اقترانه بضمير الجمع؛ "لِيَحْصُلَ إِقْبَالُ السَّامِعِينَ عَلَى سَمَاعِهِ، وَلَفْظُ: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا)، وَمَا مَعَهُ مِنْ ضَمَائِرِ الْجَمْعِ: يُؤْذِنُ بِأَنَّ الْحَادِثَةَ تَتَعَلَّقُ بِجَمَاعَةِ الْمُؤْمِنِينَ كُلِّهِمْ"[3].

دلالة رسم تاء ﴿نِعْمَتَ﴾ مفتوحة:

النِّعمةُ هنا للبسط والتَّوسُّع وهي أكبر ممَّا رُسم في الأحزاب

قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾، فالجملة وردت في موضعين من القرآن الكريم: هنا، وفي الأحزاب، وهذا هو الموضع الأوَّل، فقد "كرِّرت هذه الجملة للتَّأكيد بلزوم تذكر النِّعمة، وشكر المنعم، والشُّكر بمقابل النِّعمة واجب، ولغيرها

(1) الواحدي، أسباب نزول القرآن، ص: 194.
(2) المراغي، تفسير المراغي: 6/71.
(3) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/137.

مندوب"[1]، ورسمت التَّاء في ﴿نِعۡمَتَ﴾ هنا مفتوحة، والفتح دليل البسط والتوسُّع؛ لأنّ هذه "النِّعمة غير تلك المذكورة في الآية السَّابقة؛ لأنَّها لمطلق التَّذكر، وهذه بمقابل ما أزاله عنهم ورفعه المبين"[2]، فالنِّعمة هنا أكبر من النِّعمة في موضع الأحزاب التي جاءت تاؤها مقفلة ﴿نِعۡمَةَ﴾ [الأحزاب: 9].

إفراد ﴿نِعۡمَتَ ٱللَّهِ﴾ فيه دلالة عظيمة:

النِّعمةُ الواحدة تستحقُّ شكر الله عليها فضلًا عن النِّعم الكثيرة

قوله تعالى: ﴿ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ﴾، وردت كلمة ﴿نِعۡمَتَ﴾ بالإفراد دون الجمع، وفي ذلك دلالة عظيمة، وهي أنَّ "كلَّ نعمة على انفراد تستحقُّ أن نشكر الله عليها، فكلُّ نعمة مفردة في عظم وضخامة تستحقُّ الشُّكر عليها، أو أنَّ نعمة الله هي كلُّ فيضه على خلقه، فأفضل النِّعمة أنَّه ربُّنا"[3].

تأخير المتعلَّق في ﴿ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ﴾:

شمول النِّعمة على خلقه وعدم تخصيصها بقوم

قوله تعالى: ﴿ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ﴾، جاء المتعلَّق ﴿عَلَيۡكُمۡ﴾ متأخِّرًا عن نعمة الله، وفائدة تأخيره شمول النعمة جميع خلقه؛ إذ لو تقدَّم؛ لأفاد التخصيص، وهو غير مراد؛ فإنَّ نعمة الله مبذولة لخلقه، لم يخصِّصها لطائفة دون الأخرى.

بلاغة تقديم المجرور ﴿إِلَيۡكُمۡ﴾ على المفعول ﴿أَيۡدِيَهُمۡ﴾:

تسليةٌ للرَّسول ﷺ وامتنانٌ على المؤمنين

قوله تعالى: ﴿إِذۡ هَمَّ قَوۡمٌ أَن يَبۡسُطُوٓاْ إِلَيۡكُمۡ أَيۡدِيَهُمۡ فَكَفَّ أَيۡدِيَهُمۡ عَنكُمۡۖ﴾، وردت الأيدي مرَّتين في الآية، ففي المرَّة الأولى وردت متأخِّرةً عن المتعلَّق ﴿إِلَيۡكُمۡ﴾؛ لأنَّ الحديث عن فعلة أولئك الَّذين أرادوا الشَّرَّ بالرَّسول ﷺ فكان همُّهم الوصول إليكم، فقدَّمه، أمَّا في المرة الثانية؛ فقد قدَّم الأيدي بقوله: ﴿فَكَفَّ أَيۡدِيَهُمۡ عَنكُمۡۖ﴾ بتقديم المفعول على

(1) ملا حويش، بيان المعاني: 6/305.
(2) ملا حويش، بيان المعاني: 6/305.
(3) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 5/2981.

المجرور، وسرُّ ذلك: "أنَّ الآية خرَجَت مخرج التَّسلية للنَّبيِّ - صلَّى الله عليه وعلى آله وسلّم - والامتنان على المؤمنين بأنَّ الله تعالى لم يخذلهم، ولم يمكِّن عدوَّهم منهم، وذكر معها جملتان: أحدهما محْكِية عن الكفار وهي مثبتة، فكان الأعمُّ فيها تقديم المنوع لَا تقديم الممنوع منه"(1).

دلالة استعمال بسط اليد في الإيذاء:

غـالـب حـال الإيـذاء العملي يكون ببسط اليد

قوله تعالى: ﴿إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ﴾، ذكر اليد هنا مرَّتين: الأولى: في محاولتهم إيذاء الرَّسول ﷺ والثَّانية: كفُّه تعالى هذه الأيدي عنه ﷺ "وَقَدِ اسْتُعْمِلَ بَسْطُ الْيَدِ بِمَعْنَى الْإِيذَاءِ الْمُطْلَقِ... فَإِنَّ أَكْثَرَ الْإِيذَاءِ الْعَمَلِيِّ يَكُونُ بِمَدِّ الْيَدِ، فَإِنْ أُرِيدَ إِيذَاءٌ مُعَيَّنٌ ذُكِرَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى حِكَايَةً فِي قِصَّةِ ابْنَيْ آدَمَ: ﴿لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي﴾"(2).

بسـط الـيد - بمعنى الإيذاء - مجاز

استعمال مصطلح البسط مع اليد في الإيذاء والبطش ليس على باب الحقيقة في قوله تعالى: ﴿إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ﴾، بل هو "مَجَازٌ فِي الْبَطْشِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَيَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ﴾ [الممتحنة: 2]... وَهُوَ حَقِيقَةٌ فِي مُحَاوَلَةِ الْإِمْسَاكِ بِشَيْءٍ، كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى حِكَايَةً عَنِ ابْنِ آدَمَ: ﴿لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ﴾"(3).

سرُّ استعمال كلمة قوم دون غيرها:

بـيـانُ الـحـالـة الـنَّـشـطـة للإنسان

قوله تعالى: ﴿ٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ﴾، ذكر في هذه الآية الفاعل معبِّرًا عنه بكلمة ﴿قَوْمٌ﴾، وهي كلمة "إذا سمعتها؛ ففيها معنى القيام، والقيام هو أنشط حالات الإنسان... فالقائم هو الَّذي يتعب أكثر من الآخرين؛ لأنَّ ثقل

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/97.
(2) رضا، تفسير المنار: 7/521.
(3) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/138.

جسمه كلِّه على قدميه الصَّغيرتين... ولذلك يطلقونها على الرِّجال فقط؛ لأنَّ من طبيعة الرَّجل أن يكون قوامًا، ومن طبيعة المرأة أن تكون هادئة وديعة ساكنة مكنونة، فالقوم هم الرِّجال"[1].

إظهار ما حقّه الإضمار:

الإشارة إلى إرادة اللهِ وقوّته

قوله تعالى: ﴿إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْۖ﴾، ذكرت كلمة ﴿أَيْدِيَهُمْ﴾ مع الفعل ﴿يَبْسُطُوٓاْ﴾، ثمَّ كرَّرها مع الفعل (كفَّ)، ويجوز لغة ألَّا يكرِّرها بأن يعوِّض منها بالضَّمير؛ لأنَّ الضَّمائر تعوِّض من تكرار الأسماء الظَّاهرة[2]، بأن يقال: (إِذ هَمَّ قَومٌ أَن يَبسُطُواْ إِلَيكُم أَيدِيَهُم فَكَفَّها عَنكُم)، لكنَّه أظهر الاسم هنا، وحقُّه الإضمار "لزيادة التَّقرير، وللإشارة إلى أنَّه سبحانه هو الَّذي قضى على موضع قوَّة أعدائهم، ومناط شدَّتهم؛ إذ الأيدي هي من أهمِّ وسائل البطش والقتل، أي: إنَّه سبحانه قد منع أيديهم عن أن تمتدَّ إليكم بالأذى عقيب همِّهم بذلك؛ دفاعًا عنكم أيُّها المؤمنون، وحماية لكم من الشُّرور"[3]، وفيه - أيضًا- زيادة في التَّقريع أنَّ الحقَّ ﷻ مانع أيديهم من أن تصل إليكم.

تأخير فعل التَّقوى عن فعل الذِّكر:

تقوى الله تعالى فيها إظهار عميم لشكره على نعمه

قوله تعالى: ﴿ٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ﴾، هنا جاء فعل التَّقوى متأخِّرًا عن فعل الذِّكر، وجاء الأمر "بِالتَّقْوَى عَقِبَ ذَلِكَ؛ لأنَّها أظهر للشُّكر، فَعَطَفَ الْأَمْرَ بِالتَّقْوَى بِالْوَاوِ لِلدَّلَالَةِ عَلَى أَنَّ التَّقْوَى مَقْصُودَةٌ لِذَاتِهَا، وَأَنَّهَا شُكْرٌ لله بِدَلَالَةِ وُقُوعِ الْأَمْرِ عَقِبَ التَّذْكِيرِ بِنِعْمَةٍ عُظْمَى"[4].

(1) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 4/2984.
(2) أنيس، من أسرار اللغة، ص: 274.
(3) طنطاوي، التفسير الوسيط: 4/76 - 77.
(4) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/139.

دلالة عطف التَّوكُّل على التَّقوى:

التَّوكُّل مقترن بالتَّقوى، ولا يحصل إلَّا بالسَّير على سنن الله

قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾، من باب عطف الجمل؛ فقد عطف فعل التَّوكُّل على فعل التَّقوى، "وَجُمْلَةُ الْقَوْلِ: إنَّ اللَّه تَعَالَى أَمَرَنَا بِالتَّقْوَى ثُمَّ بِالتَّوَكُّلِ، وَإِنَّمَا التَّقْوَى: بَذْلُ الْجُهْدِ فِي الْوِقَايَةِ مِنْ كُلِّ سُوءٍ وَكُلِّ شَرٍّ، وَمِنْ مَبَادِئِ ذَلِكَ وَأَسْبَابِهِ، وَلَا تَحْصُلُ حَقِيقَةُ التَّوَكُّلِ إلَّا بِالسَّيْرِ عَلَى سُنَّةِ اللَّه تَعَالَى فِي نِظَامِ الْأَسْبَابِ وَالْمُسَبَّبَاتِ"[1]، فالتَّوكُّل والتَّقوى مقترنان، ولا يحصل التَّوكُّل إلَّا بعد حصول التَّقوى، والسَّير وفق سننه تعالى.

تقديم الجارِّ والمجرور على الفعل:

اختصاص التَّوكُّل على الله وحده

قوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾، يجوز لغة أن يقول: (فليتوكَّلِ المؤمنونَ على الله)، إلَّا أنَّ المعنى يختلف في أنَّ معنى الأولى: "وَعَلَى اللَّه فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ بِقُدْرَتِهِ وَعِنَايَتِهِ وَفَضْلِهِ وَرَحْمَتِهِ، لَا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنْفُسِهَا، وَلَا عَلَى أَوْلِيَائِهِمْ وَحُلَفَائِهِمْ"[2]، فيه اختصاص التَّوكُّل على الله وحده دون سواه، وهذا غير متوافر فيما لو جاء بالجارِّ والمجرور متأخِّرًا.

إظهار ما حقُّه الإضمار:

بيان فضلِ الله على خلقه وأنَّ توكُّلهم عليه كافيهم

قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ تَكْرار لفظ الجلالة مع فعل التَّوكل - بعد فعل التَّقوى - إظهار حقُّه الإضمار، فيجوز لغة إضماره بأن يقال: (وعليه فليتوكَّل المؤمنون)، لكنَّه أظهره هنا لبيان فضله على خلقه، وأنَّهم إن توكَّلوا عليه؛ كفاهم ما هم فيه، و"التَّوكُّل سكون السِّرِّ عند حلول الأمر، ونهاية التفويض، وفيها يتساوى الحلو والمرُّ، والنِّعمة والمحنة"[3].

(1) رضا، تفسير المنار: 6/230.
(2) رضا، تفسير المنار: 6/230.
(3) القشيري، لطائف الإشارات: 2/34.

﴿۞وَلَقَدۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَبَعَثۡنَا مِنۡهُمُ ٱثۡنَيۡ عَشَرَ نَقِيبٗاۖ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مَعَكُمۡۖ لَئِنۡ أَقَمۡتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيۡتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرۡتُمُوهُمۡ وَأَقۡرَضۡتُمُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَلَأُدۡخِلَنَّكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ فَمَن كَفَرَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ مِنكُمۡ فَقَدۡ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ١٢﴾ [المائدة: 12]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

كان من أسباب نزول الآية السَّابقة: أنَّ اليهود لا أمان لهم، ولا عهود تربطهم، ولا مواثيق تلزمهم، وذلك في استدراجهم الرَّسول ﷺ وما "همُّوا به من قتل النَّبيِّ ﷺ بإلقاء الرَّحى عليه من سطح البيت الذي أجلسوه إلى جانبه، بقوله إشارة إلى أنَّ اليهود ما زالوا على النَّقض قديمًا"،[1] فجاءت هذه الآية تتحدَّث عن الميثاق الَّذي أخذ على بني إسرائيل بالسَّمع والطَّاعة، فهو يقول للرَّسول ﷺ ومن معه من المؤمنين: "لا تستعظموا أمرَ الذين همُّوا ببسط أيديهم إليكم من هؤلاء اليهود، بما همُّوا به لكم، ولا أمرَ الغدر الذي حاولوه، وأرادوه بكم، فإنَّ ذلك من أخلاق أوائلهم وأسْلافهم، لا يَعْدُون أن يكونوا على منهاج أوَّلهم، وطريق سَلَفِهم"[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَخَذَ﴾: فعل ماضٍ، وجذره اللُّغويُّ من: (أخذ)، وأخذ شيئًا بمعنى: تناوله[3]، والأصل في معناه: "حَوْزُ الشَّيْءِ وَجَبْيُهُ وَجَمْعُهُ، تَقُولُ: أَخَذْتُ الشَّيْءَ آخُذُهُ أَخْذًا، قَالَ الْخَلِيلُ: هُوَ خِلَافُ الْعَطَاءِ، وَهُوَ التَّنَاوُلُ"[4].

والأخذ في حقيقته: التَّناول، لكن قد يستعمل مجازًا في أشياء أخرى كالقهر والاستيلاء

(1) البقاعي، نظم الدرر: 6/47.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 10/109.
(3) الخليل، العين: (أخذ).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أخذ).

والإحاطة وغيرها[1]، و"المعنى المحوريُّ: حَوْزُ الشَّيء في الأثناء ضمًّا أو قبضًا على غِلَظ ماديٍّ أو معنويٍّ... وقد جاء أكثر (أخذ) بمعنى: القبض الحقيقيِّ، أو المجازيِّ (55 مرة)... ومنها 18 مرة في أخذ الميثاق، وهو تقييد من باب القبض"[2] والمعنى في الآية: أَخَذَ اللّٰه مِيثاقَهم أنْ يُخْلِصُوا لَهُ العِبادَةَ، ولا يَعْبُدُوا غَيْرَهُ، وأنْ يَعْمَلُوا بِما في التَّوْراةِ[3].

2) ﴿مِيثَٰقَ﴾: اسم على وزن (مِفْعَال)، الجذر اللُّغويُّ منه: (وثق)، والفعل منه (وَثِقَ يَثِقُ)، والوثيق منه بمعنى: المحكم، والوثاق: الحبل والرِّباط، والميثاق مأخوذ من المواثقة والمعاهدة[4].

والأصل في معناه: دلالته "عَلَى عَقْدٍ وَإِحْكَام، وَوَثَّقْتُ الشَّيْءَ: أَحْكَمْتُهُ، وَنَاقَةٌ مُوَثَّقَةُ الْخَلْقِ، وَالْمِيثَاقُ: الْعَهْدُ الْمُحْكَمُ، وَهُوَ ثِقَةٌ، وَقَدْ وَثِقْتُ بِهِ"[5].

ويقال: "وَثِقْتُ به أَثِقُ ثِقَةً: سكنت إليه، واعتمدت عليه، وأَوْثَقْتُهُ: شددته، والوَثَاقُ والوِثَاقُ: اسمان لما يُوثَقُ به الشَّيء، والوُثْقَى: تأنيث الأَوْثَق، قال تعالى: ﴿وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٦﴾﴾ [الفجر: 26]، والمِيثاقُ: عقد مؤكَّد بيمين وعهد"[6].

والميثاق بمعنى: الرِّباط، ومن استعمالاته المعنويَّة العهد والمعاهدة، وهو بمنزلة الرِّباط المعنويِّ[7]، والمعنى في الآية: ما أُخذ عليهم من اتِّباع الرَّسول ﷺ وأداء فرائض اللّٰه تعالى[8].

3) ﴿إِسْرَٰٓءِيلَ﴾: اسم أعجميٌّ، وما كان كذلك؛ فلا تنطبق عليه حدود الصَّرف العربيِّ، إلَّا أنَّ ابن منظور من بين المعجميِّين جعل له جذرًا هو (سرأل)، فقال "إِسْرَائِيلُ وإِسْرائينُ: زَعَمَ يعقوب أَنَّه بدل اسم مَلَكٍ"[9].

(1) السمين، عمدة الحفاظ: (أخذ).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (أخذ).
(3) ابن الجوزي، زاد المسير: 1/526.
(4) الخليل، العين: (وثق).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (وثق).
(6) الراغب، المفردات: (وثق).
(7) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (وثق).
(8) الشوكاني، فتح القدير: 4/207.
(9) ابن منظور، لسان العرب: (سرأل).

وقيل: إنَّ كلمة (إسرائيل) هي لقب ليعقوب أبي يوسف - عليه السلام - "مَعْنَاهُ عبد الله؛ لِأَنَّ (إيل) اسْم من أَسمَاء الله بالسُّرْيَانيَّة؛ وَقيل صفوة الله، وَقيل: سرُّ الله"[1]، فيما جعله السهيليُّ اسمًا ليعقوب، وليس لقبًا[2].

وذكر الزَّبيديُّ في شأنه "(وإِسْرَالُ) يأْتي (في) حَرْفِ (اللَّام)، وَلم يَذْكُرْهُ هُنَاكَ سَهْوًا مِنْهُ، وَهُوَ مخفَّفٌ عَن إِسرائيلَ، وَمَعْنَاهُ صَفْوَةُ الله، وَقيل: عبدُ الله"[3].

وقوله: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ [نحو: البقرة: 40] في جميع القرآن: "خطاب لذرِّيَّة يعقوب، وفي ذرِّيَّته انحصر سائر الأمَّة اليهوديَّة، وقد خاطبهم بهذا الوصف دون أن يقول: يا أيُّها اليهود؛ لكونه هو اسم القبيلة، أمَّا اليهود؛ فهو اسم النِّحلة والدِّيانة"[4].

4) ﴿نَقِيبٗاۖ﴾: صفة مشبَّهة باسم الفاعل، وهي (فَعِيل) بمعنى: (فاعِل)، ويجوز أن يكون مبالغة اسم الفاعل كعليم وخبير، والجذر اللُّغويُّ له من: (نقب) "ونقب الرَّجل في الْبِلَاد؛ إذا جاسها، ونقيب الْقَوْم: عريفهم، وَالْجمع نقباء، وَكَذَا فُسِّر فِي التَّنْزِيل: ﴿ٱثۡنَيۡ عَشَرَ نَقِيبٗاۖ﴾"،[5] وهو مشتقٌّ من التَّنقيب: وهو التَّفتيش، وسمِّي بذلك؛ لأنَّه يفتِّش عن أحوال القوم وأسرارهم، والأصل في معناه: دلالته "عَلَى فَتْحٍ فِي شَيْءٍ... وَمِنَ الْبَابِ: النَّقَّابُ: الْعَالِمُ بِالْأُمُورِ، كَأَنَّهُ نَقَّبَ عَلَيْهَا، فَاسْتَنْبَطَهَا، أَوِ الْعَالِمُ بِهَا الْمُنَقِّبُ عَنْهَا... وَالنَّقِيبُ: نَقِيبُ الْقَوْمِ: شَاهِدُهُمْ وَضَمِينُهُمْ، وَمَعْنَاهُ وَمَعْنَى النِّقَابِ: الْعَالِمُ وَاحِدٌ؛ لِأَنَّهُ يُنَقِّبُ عَنْ أُمُورِهِمْ"[6].

"والنَّقيب: الَّذي ينقِّب عن أحوال القوم، ويفتِّش عنها، كما قيل له: عريف، لأنَّه يتعرَّفها"[7].

5) ﴿أَقَمۡتُمُ﴾: فعلٌ مضارع دالٌّ على الحال والاستقبال، الجذر اللغويُّ منه: (قوم)،

(1) الكفوي، الكليات، ص: 216.
(2) السهيلي، الروض الأنف: 1/87.
(3) الزبيدي، تاج العروس: (سرأل).
(4) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 1/449.
(5) ابن دريد، جمهرة اللغة: (نقب).
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نقب).
(7) الزمخشري، الكشاف: 2/215.

ومصدرُه: الإقامةُ والدَّوامُ[1]، ويقالُ أقامَ الصَّلاةَ؛ إذا داومَ عليهَا، أمَّا إذا قيلَ أقامَ للصَّلاةِ؛ فمعناهُ نادَى عليها[2] بألفاظِ الإقامةِ.

وجوَّزَ بعضُ أهلِ العلمِ أنْ يكونَ ذلكَ من التَّقويمِ، وهوَ التَّعديلُ، من قولكَ: قوَّمتُ العودَ؛ إذا عدَّلتُه، ويكونُ معنَى (إقامَ الصلاةِ) على معنى: الإتيانِ بها على وجهِ المحافظةِ على أركانِها وشروطِها ومكمِّلاتِها[3].

ويحتملُ في إقامةِ الصَّلاةِ بمعنَى: إظهارِها؛ أخذًا من قولِهم: أُقيمتِ السُّوقُ،[4] ولامانعَ من الجمعِ بينَ تلكَ المعاني، فيكونُ معنَى إقامِ الصَّلاةِ داومَ عليهَا، وأظهرَها وأتَى بها محافظًا على أركانِها وشروطِها ومكمِّلاتِها، ومعنى إقامة الصَّلاة في الآية، أي: "ظاهرًا وباطنًا، بالإتيان بما يلزم، وينبغي فيها، والمداومة على ذلك"[5].

6) ﴿وَعَزَّرْتُمُوهُمْ﴾: فعل ماضٍ مضعَّف، مسند للجماعة، الجذر اللُّغويُّ منه: (عزر)، والمصدر منه التَّعزير، ومن معانيه الضَّرب دون الحدِّ والنُّصرة والمؤازرة[6]، والأصل في معناه: دلالتان "إِحْدَاهُمَا: التَّعْظِيمُ وَالنَّصْرُ، وَالْكَلِمَةُ الْأُخْرَى: جِنْسٌ مِنَ الضَّرْبِ، فَالْأُولَى: النَّصْرُ وَالتَّوْقِيرُ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ﴾ [الفتح: 9]، وَالْأَصْلُ الْآخَرُ: التَّعْزِيرُ، وَهُوَ الضَّرْبُ دُونَ الْحَدِّ"[7].

و"التَّعْزِيرُ: النُّصرة مع التَّعظيم، قال تعالى: ﴿وَتُعَزِّرُوهُ﴾ [الفتح: 9]، وقال ﷻ: ﴿وَعَزَّرْتُمُوهُمْ﴾، والتَّعْزِيرُ: ضربٌ دون الحدِّ، وذلك يرجع إلى الأوَّل، فإنَّ ذلك تأديب، والتَّأديب نصرةٌ ما، لكنَّ الأوَّل نصرة بقمع ما يضرُّه عنه، والثَّاني: نصرة بقمعه عمَّا يضرُّه، فمن قمعته عمَّا يضرُّه؛ فقد نصرته"[8]، ومعنى ﴿وَعَزَّرْتُمُوهُمْ﴾ في الآية، أي: أيَّدتموهم ونصرتموهم بأن رددتم عنهم أعداءهم[9].

(1) الهروي، الغريبين: 5/1596.
(2) الفيومي، المصباح المنير: (قوم).
(3) النبراوي، حاشية على الأربعين النووية، ص: 37.
(4) ابن عطية، المحرر الوجيز: 1/85.
(5) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 225.
(6) الخليل، العين: (عزر).
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عزر).
(8) الراغب، المفردات: (عزر).
(9) السمين، عمدة الحفاظ: (عزر).

7) ﴿وَأَقْرَضْتُمُ﴾: فعل ماضٍ مسند للجماعة، الجذر اللُّغويُّ منه (قرض)، "والقرضُ: اسمٌ لكلِّ مَا يُلتمَس عَلَيْهِ الجزاءُ مِن صدَقةٍ، أَو عملٍ صَالح، وأصلُ القرْض فِي اللُّغة: القَطْعُ، وَمنه أُخِذَ المِقراض، وأَقْرَضْتُه، أَي: قطَعتُ لَهُ قِطْعَة يُجازى عَلَيْهَا"[1].

أمَّا الأصل في معناه؛ فهو "يَدُلُّ عَلَى الْقَطْعِ، يُقَالُ: قَرَضْتُ الشَّيْءَ بِالْمِقْرَاضِ، والْقَرْضُ: مَا تُعْطِيهِ الْإِنْسَانَ مِنْ مَالِكَ لِتُقْضَاهُ، وَكَأَنَّهُ شَيْءٌ قَدْ قَطَعْتَهُ مِنْ مَالِكَ"[2].

والقرض هنا: يراد به الصَّدَقة، سواء أكانت من باب الواجب أم المندوب، وسمِّي قرضًا من باب المجاز؛ إكرامًا للمتصدِّقين به، وإلَّا فهو صدقة يعود إليهم مقابله وبدله، أي: ثوابه[3]، "وَمَعْنَى: ﴿وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّـهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾: الصَّدَقَاتُ غَيْرُ الْوَاجِبَةِ"[4].

8) ﴿كَفَرَ﴾: فعل ماضٍ، وجذرُهُ اللغويُّ من: (كفر)، "وكلُّ شيء غطَّى شيئًا فقد كَفَرهُ... والكَفَّارة: ما يكفَّر به من الخطيئة واليمين، فيمحى به"[5].

وهو "يدلُّ على معنى واحدٍ، وهوَ السَّترُ والتَّغطيةُ، يقالُ لمنْ غطَّى درعَهُ بثوبٍ: قدْ كفرَ درعَهُ"[6].

"ووصْفُ اللَّيلِ بالكافرِ لسترِه الأشخاصَ، والزُّرَّاعَ لسترِه البذرَ في الأرضِ"[7]، ومعنى كفر في الآيةِ: "فمن جحد منكم - يا معشر بني إسرائيل - شيئًا ممَّا أمرته به فتركه، أو ركب ما نهيته عنه"[8].

9) ﴿ضَلَّ﴾: فعلٌ ماضٍ، ويسمَّى مضعَّفُ الثلاثيِّ، والجذر اللغويُّ منه: (ضلل)، والفعل منه: "ضلَّ يضِلُّ ضلالًا، والضَّلال: ضدُّ الْهدى، وضلَّ فِي الْأَمر ضلالًا؛ إِذا لم يهتدِ لَهُ، وضلَّ فِي الأَرْض ضلالًا؛ إِذا لم يهتدِ للسَّبيل"[9].

(1) الأزهري، تهذيب اللغة: (قرض).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قرض).
(3) السمين، عمدة الحفاظ: (قرض).
(4) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/142.
(5) الخليل، العين: (كفر).
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (كفر).
(7) الراغب، المفردات: (كفر).
(8) ابن جرير، جامع البيان: 10/124.
(9) ابن دريد، جمهرة اللغة: (ضلل).

والأصلُ في معناهُ: "ضياعُ الشَّيءِ، وذهابُه في غيرِ حقِّه"[1].

و"الضَّلَالُ: العدولُ عن الطَّريق المستقيم، ويضادُّه الهداية، قال تعالى: ﴿فَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيۡهَاۖ﴾ [هود: 108]، ويقال: الضَّلَالُ لكلِّ عدولٍ عن المنهج، عمدًا كان أو سهوًا، يسيرًا كان أو كثيرًا"[2].

والمقصودُ من فعل الضَّلال في الآية: هو الخطأ والانحراف عن قصد الطَّريق[3].

10) ﴿سَوَآءَ﴾: اسمٌ على وزنِ (فَعَال)، جذرُه اللُّغويُّ من (سوي)، ومنه: "السِّيُّ: المكان المستوي، وهما سِيَّانِ، أي: مثلان، أراد بهما: سواءان، غير أنَّ العرب تقول: هما سواء، وكذلك في الجميع والواحد، وإذا جمعوا سِيَّان؛ قالوا: سواسية، ولم يقولوا: سواسين كذا وكذا، وهم سواء"[4].

والأصلُ في معناهُ: أنْ يدلَّ "على استقامةٍ واعتدالٍ بينَ شيئينِ، يقالُ: هذَا لا يساوِي كذا، أيْ: لا يعادلُه، وفلانٌ وفلانٌ على سويَّةٍ من هذا الأمرِ، أيْ: سواءٌ"[5].

"وَسَوَاء الشَّيْء: وَسطُه... وَوضعتُ الشَّيْءَ في سَوَاءِ كمِي، أَيْ: فِي وَسطِه"[6] ويمكنُ أنْ يكونَ السَّواءُ هو القصد؛ لأنَّ ابنَ قتيبةَ فسَّرَ اللَّفظةَ في الآيةِ بقولِه سَوَاءَ السَّبِيلِ، أيْ: قصدَ الطَّريقِ ووسطِه"[7].

ويوصفُ المكانُ بالسَّواءِ كنايةً عنْ عدلِه وتوسُّطِه بينَ الفريقينِ، والمرادُ في الآيةِ: أنَّهمْ ضلُّوا عن وسطِ الطَّريقِ؛ لأنَّ سواء كلِّ شيء وسطه[8]، فإذا كانُوا كذلكَ؛ فهمْ لغيرِه أضلُّ.

11) ﴿ٱلسَّبِيلِ﴾: اسمٌ على وزنِ (فَعِيل)، جِذرُه اللُّغويُّ من (سبل)، ولهُ أصلٌ واحدٌ "يدلُّ على إرسالِ شيءٍ من علوٍّ إلى سفلٍ، وعلى امتدادِ شيءٍ... والممتدُّ طولًا: السَّبيلُ، وهو الطَّريقُ، سمِّيَ بذلكَ لامتدادِه، والسَّابلةُ: المختلفةُ في السُّبلِ جائية وذاهبة"[9].

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ضلّ).
(2) الراغب، المفردات: (ضلّ).
(3) ابن أبي زمنين، تفسير القرآن العزيز: 2/15.
(4) الخليل، العين: (سيي).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سوي).
(6) ابن دريد، جمهرة اللغة: (سأوي).
(7) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 141.
(8) الثعلبي، الكشف والبيان: 11/234.
(9) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سبل).

والسَّبيلُ "كلُّ مأتيٍّ إِلَى الشَّيْءِ؛ فَهُوَ سَبيلُه"[1] وقدْ وردَ كثيرًا في القرآنِ الكريمِ، والغالبُ في معانيهِ أنَّهُ بمعنَى: الطَّريقِ[2]، وهوَ يذكَّرُ ويؤنَّثُ، وجمعُه على السُّبلِ، والسَّبيلُ في الآيةِ بمعناهُ المجازيِّ، أيْ: طريقُ الهدايةِ والإيمانِ؛ لأنَّه لمَّا "كَانَتِ الشَّرِيعَةُ تُوَصِّلُ سَالِكَهَا إِلَى رِضْوَانِ اللّه تَعَالَى؛ كَنَّى عَنْهَا بِالسَّبِيلِ"،[3] فهو ليسَ الطريقُ بمعناهُ الموضوعِ في لسانِ العربِ.

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

الميثاق المأخوذ على بني إسرائيل وثواب العمل به

يخبر اللّه تعالى أنَّه أخذ العهدَ المؤكَّد على بني إسرائيل أن يُخلصوا له العبادةَ وحدَه، وأمر اللّه موسى عليه السلام أن يجعل عليهم اثني عشر عَريفًا بعدد عشائرهم؛ ليكون كلُّ عَريفٍ ناظرًا عليهم، ورئيسًا على مَن تحتَه، يأخذُ هؤلاء العُرفاءُ عليهم العهدَ بالسَّمع والطَّاعة للّه ولرسوله ولكتابه، وقال اللّه لبني إسرائيل: إنِّي معكم بحِفظي ونَصْري، لئن أقمتم الصَّلاة، وأعطيتم الزَّكاة المفروضة مستحقِّيها، وصدَّقتم برسلي جميعهم - الذين أفضلهم وأكملُهم محمِّد صلى الله عليه وسلم - فيما أخبروكم به، ونصرتموهم، وأدَّيتم ما يجب لهم من الاحترام والطَّاعة، وأنفقتم في سبيلي من الصَّدَقة وطيبِ المكسب والإحسان؛ لأكفِّرنَّ عنكم سيِّئاتكم، ولأُدْخِلَنَّكم جنَّاتٍ تجري من تحت قصورها وأشجارها الأنهارُ، فمن جحد هذا الميثاقَ منكم؛ فقد عدَلَ عن طريق الحقِّ إلى طريق الضَّلال[4].

الإِيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

التَّعبير بالفعل (أخذَ) مع (الميثاق) مع أنَّه أمر معنويّ:

عبَّر هنا بالفعل (أخذَ) مع لفظ (الميثاق) في قوله تعالى:

(1) الكفوي، التعريفات، ص: 494.
(2) السمين، عمدة الحفّاظ: (سبل).
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 1/557.
(4) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 109، ونخبة من العلماء، التفسير الميسر، ص: 109.

﴿۞وَلَقَدۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾، والأصل في الميثاق: دلالته على العقد والإحكام[1]؛ فجعل أخذ الميثاق - وهو أمر معنويٌّ - أي: "ألَّا تشركوا به شيئًا، وبالإيمان بِالله وملائكته وكتبه ورسله، وإحلال ما أحلَّ الله، وتحريم ما حرَّم الله، وحسن مؤازرتهم"[2]؛ فجاء التَّعبير هنا بهذه الصُّورة تنزيلًا للأمر المعنويِّ منزلةَ الحسِّيِّ؛ لأهمِّيَّته العظيمة؛ لما فيها من "معنى التَّشديد في العهد؛ لأنَّه مأخوذ مع الله ﷻ، وأيُّ عهد أقوى وأوثق من عهد يكون بين العبد والرَّبِّ"[3].

تنزيلُ المعنويِّ منزلة الحسِّيِّ لبيان أهمِّيَّته

وجهُ اشتمال الجملة على قد واللام:

قوله تعالى: ﴿۞وَلَقَدۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ ممَّا يجوز لغة قوله: (وأخذَ الله ميثاقَ بني إسرائيل) إلَّا أنَّه جاء هنا باللَّام وقد (لقد)، فهو من باب توكيد "الْخَبَرِ الْفِعْلِيِّ بِقَدْ وَبِاللَّام؛ لِلِاهْتِمَام بِهِ، كَمَا يَجِيءُ التَّأْكِيدُ بِإِنَّ لِلِاهْتِمَام، وَلَيْسَ ثَمَّ مُتَرَدَّدٌ، وَلَا مُنَزَّلٌ مَنْزِلَتَهُ"[4]، فالغرض من ذلك أن يهتمَّ للمعنى المراد، وهو الالتزام بالمواثيق والعهود.

الاهتمامُ بالمعنى المـــراد وهـــو الالتزام بالمواثيق

فائدة التَّعبير بالاسم الجليل (الله):

قوله تعالى: ﴿۞وَلَقَدۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ هنا جاء بالاسم الجليل (الله) في بدء الآية، والغاية منه لتربية المهابة، وتفخيم الميثاق، وتهويل الخطب في نقضه.

تربيـة المهابة وتفخيم الميثاق

دلالةُ التَّعبير بـ(نَقِيب) زنة (فَعِيل):

قوله تعالى: ﴿وَبَعَثۡنَا مِنۡهُمُ ٱثۡنَيۡ عَشَرَ نَقِيبٗاۖ﴾، النَّقيب اسم على وزن (فَعِيل)، والنَّقْب: هو الثَّقْب الكبير، والنقيب: هو الذي ينقِّب عن أحوال القوم، ومنه مناقبهم، أي: فضائلهم الَّتي تكون خافية،

صيغةُ «فَعِيل» تحتمل الفاعليَّة وتـحـتـمـل المفعوليَّة

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (وثق).
(2) الماتريدي، تأويلات أهل السنّة: 3/479.
(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 4/2070.
(4) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/139.

فتظهر بالتَّنقيب عنها، فهو هنا بمعنى: الفاعليَّة، ويجوز أن يكون "النَّقيب هاهنا: فَعِيلٌ، بِمَعْنَى: مَفْعُولٍ، يَعْنِي: اخْتَارَهُمْ عَلَى عِلْمٍ بِهِمْ، وَنَظِيرُهُ أَنَّهُ يُقَالُ لِلْمَضْرُوبِ: ضَرِيبٌ، وَلِلْمَقْتُولِ قَتِيلٌ"[1].

تقديم المتعلَّق (منهم) على المفعول:

التَّقديم لأجل الاهتمام وتشويقًا للمؤخّر

قوله تعالى: ﴿وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًاۖ﴾، ﴿مِنْهُمُ﴾ جارٌّ ومجرور متعلَّق بـ﴿وَبَعَثْنَا﴾، و﴿ٱثْنَيْ عَشَرَ﴾ مفعول به[2]، والأصل في المتعلَّق أن يتأخَّر، لكنَّه قدَّمه هنا: "وتقديمُ الجارِّ والمجرور على المفعول الصَّريح لما مرَّ مرارًا من الاهتمام بالمقدَّم، والتشويقِ إلى المؤخَّر"[3].

غرض الالتفات في: ﴿وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ﴾:

جريًا على سنن الكبرياء

قوله تعالى: ﴿وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًاۖ﴾ بعد قوله تعالى: ﴿۞وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾، فيه التفات من الغيبة إلى الحضور، والغرض منه أن يكون جاريًا على سنن الكبرياء[4] مع ما فيه من التَّعبير بالجمع، أو لأنَّ البعث كان بواسطة موسى عليه السلام.

وجهُ فرادة التَّركيب وقوَّته في قوله: ﴿وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مَعَكُمۡۖ﴾:

التَّوكيدات المتكرِّرة لطمأنة المخاطبين

في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مَعَكُمۡۖ﴾ جملة فريدة من نوعها؛ إذ لم يرد مثلها في القرآن الكريم جميعًا إلَّا في هذا الموضع، وهي جملة مركَّبة من مجموعة من الألفاظ الَّتي تشي بالقوَّة النَّاتجة عن التَّوكيد في مجموعها العامِّ؛ فقد صدَّرها بالفعل ﴿وَقَالَ﴾، والخطاب موجَّه لهم على تقدير: (وقال لهم)[5]، ثمَّ التَّصريح بلفظ الجلالة مع أنَّه ذكره أوَّل الآية، وتكرار ذكره يخلع على الجملة

(1) الرازي، مفاتيح الغيب: 11/188 - 189.
(2) الدرويش، إعراب القرآن وبيانه: 2/428.
(3) أبو السعود، إرشاد العَقْل السّليم: 2/21.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 6/85.
(5) الرازي، مفاتيح الغيب: 11/189.

فخامة وتوكيدًا، ثمَّ زاد على ذلك (إنَّ) الدَّالَّة على التَّوكيد، وجاء اسمها ضميرًا دالًّا عليه ﷻ، ثمَّ جاء الخبر شبه جملة دالًّا على المعيَّة الَّتي تقوِّي الجملة، فمحصول الجملة مشتمل على توكيد إثر آخر، غرضه إيصال الطُّمأنينة للمخاطبين في أنَّه تعالى قريب منهم، "أَيْ: بِالنَّصْرِ وَالْحِيَاطَةِ، وَفِي هَذِهِ الْمَعِيَّةِ دَلَالَةٌ عَلَى عِظَمِ الِاعْتِنَاءِ وَالنُّصْرَةِ، وَتَحْلِيلِ مَا شَرَطَهُ عَلَيْهِمْ مِمَّا يَأْتِي بَعْدُ"[1].

المجاز في قوله: ﴿إِنِّي مَعَكُمْ﴾:

في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ﴾، تعبير المعيَّة تعبير مجازيٌّ، غايته: الإشارة إلى الاعتناء والحفظ والتَّأييد والنَّصر، وهو بمنزلة الجزاء على وفائهم بالميثاق[2]، وهو مثل قوله تعالى: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ﴾ [الأنفال: 12]، وهذه المعيَّة المذكورة في الآيةِ الكريمة هي من المعيَّة الخاصَّة، المقيَّدة بشخص معيَّن، وهي من الصِّفات الفعليَّة للّه تعالى؛ لأنَّ مقتضياتها تابعة لأسبابها، توجد بوجودها، وتنتفي بانتفائها، وتقتضي النَّصر، والتَّأييد لمن أضيفت له، وهي مختصَّة بمن يستحق ذلك من الرُّسل وأتباعهم، وهذه المعيَّة توجب لمن آمن بها كمال الثَّبات والقوَّة[3].

دلالة المعيَّة في ﴿إِنِّي مَعَكُمْ﴾ دلالة رقابيَّة:

في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ﴾، التَّعبير بالمعيَّة فيه دلالة أخرى، وهي دلالة رقابيَّة، "أي: إنَّه ﷻ مطَّلع على واقعكم... لأنَّ اللّه رقيب، وقوله الحقُّ: ﴿إِنِّي مَعَكُمْ﴾ تدلُّ على أنَّ مَن ولي أمرًا؛ فلا بدَّ أن يتابعه ويراه"[4].

وجه البدء بالصَّلاة في الأركان المأخوذة عليهم:

الصَّلاة ركن كلِّ دين وبها طهارة النُّفوس

في قوله تعالى: ﴿لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾، ذكر هنا الأركان الخمسة الَّتي إن قاموا بها؛ كفَّر عنهم سيِّئاتهم، وهي: الصَّلاة والزَّكاة والإيمان بالرُّسل وتعزيرهم والإنفاق في سبيل اللّه، وقد قدَّم إقامة

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/203.
(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/141.
(3) ابن تيمية، مجموع الفتاوى: 5/193.
(4) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 5/2998.

الصَّلاة؛ لأنَّها "طهارة النُّفوس، وتزكية القلوب، وبها تربية الضَّمير الَّذي يكون جماعة مؤتلفة، وإقامتها تنهى عن الفحشاء والمنكر، وتربِّي في النَّفس روح الخير، والإحساس بعظمة اللّه تعالى، ولا يمكن أن يكون الوفاء بالميثاق الإلهيِّ من غير إقامة الصَّلاة؛ فإنَّها ركن كلِّ دين"[1].

معنَى الألفِ واللَّامِ في كلمةِ (الصلاة):

تزاحمُ الأقوالِ على بابِ القبولِ بتأييدِ السِّباقِ واللِّحاقِ

في قوله تعالى: ﴿لَئِنۡ أَقَمۡتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ تحتملُ الألفُ واللَّامُ في لفظةِ ﴿ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أنْ تكونَ للعهدِ، أي: الصَّلاةُ المشروعةُ، ويؤيِّدُه أنَّ الصَّلاةَ إذا أُطلقتْ في لسانِ الشَّرعِ؛ فلا ينصرفُ الذِّهنُ إلَّا للصَّلاةِ المعروفةِ، فهي حقيقةٌ شرعيَّةٌ، وإن كان الخطاب لبني إسرائيل، لكنْ ما المرادُ بالعهدِ: هل المكتوبةُ؟ أو جميعُ الصَّلواتِ، المكتوبةُ والمسنونةُ؟ الظَّاهرُ أنَّها المكتوبةُ، لأمرينِ وهما: الأمرُ بهَا، وقرنُها بالزَّكاةِ الواجبةِ، وحملُها على استغراقِ جميعِ الصَّلواتِ، فيدخلُ الواجبُ والنَّفلُ، يؤيِّدُه اللِّحاقُ، ويكونُ المقصودُ بالأمرِ بإقامتِها: تعديلَها والخشوعَ فيها، وأنْ تكونَ مقوِّمةً لصاحبِها، والمعنيانِ متزاحمانِ على بابِ القبولِ: الأوَّل يُؤيِّده السِّباقُ، والثَّاني يُؤيِّدُه اللِّحاقُ.

نكتةُ حذفِ المفعولِ الثَّانِي:

بيانُ أهمِّيَّةِ العنايةِ بالمالِ المُزكَّى، وإطلاقُ فعلِ الإيتاءِ لإظهارِ العجلةِ في ذلكَ

في قوله تعالى: ﴿وَءَاتَيۡتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ﴾، المفعولُ الثَّاني للفعلِ ﴿وَءَاتَيۡتُمُ﴾ في قولِه تعالَى: ﴿وَءَاتَيۡتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ محذوفٌ، تقديرُه: مستحقِّيها، وحذفَ المفعول الثَّاني للإيجازِ وللعلم بهِ، ودليلُه: دليلٌ شرعيٌّ؛ لأنَّ الزَّكاةَ تصرفُ لمستحقِّيها، أمَّا غرضُ الحذفِ، وهو النُّكتةُ البيانيَّةُ؛ فهوَ لبيانِ أهمِّيَّةِ المعطَى لا المعطَى لهُ، وحثِّ المسلمينَ على العنايةِ بإيتاءِ الزَّكاةِ أكثر من العنايةِ بالمستحقِّينَ؛ فهؤلاء المستحقُّونَ

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 4/2072.

فصَّلتْ فيهم أدلَّةٌ أخرَى، وأمرٌ آخر: وهو إطلاقُ فعلِ الإيتاءِ بحيثُ يكونُ هَمُّ المزكِّي إيتاءَ الزَّكاةِ بما يُشابِه التَّخلُّصَ منهَا على وجهِ السُّرعةِ والعجلةِ.

نكاتُ تقديمِ جملةِ ﴿أَقَمۡتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ على جملةِ ﴿وَءَاتَيۡتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ﴾:

في قوله تعالى: ﴿لَئِنۡ أَقَمۡتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيۡتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ﴾، عُطِفتْ جملةُ ﴿وَءَاتَيۡتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ على جملةِ ﴿أَقَمۡتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ بجامعِ أنَّهما أهمُّ ركنينِ من أركانِ الإسلامِ، والعطفُ هنا "بالواوِ المقتضيةِ عدم التَّرتيبِ، فإنَّهم معَ ذلكَ إنَّما يبدؤونَ بالأهمِّ والأولَى"[1]؛ فيُسألُ عن سرِّ تقديمِ الأمرِ بالصَّلاةِ على الأمرِ بالزَّكاةِ؟ وذلكَ يظهرُ من خلالِ النِّكاتِ الآتيةِ:

النُّكتةُ الأولَى تقديمُ الأصلِ على الفرعِ، والقاعدةِ الأهمِّ على القاعدةِ المهمَّةِ

ولا ريبَ أنَّ الصَّلاةَ: هي القاعدةُ الأهمُّ، والزَّكاةُ: هي القاعدةُ المهمَّةُ، وهذا بدهيٌّ في مقياسِ التَّفضيلِ، فهيَ عمادُ الدِّينِ، ومعَ ذلكَ فهما مطلوبتانِ، لكنَّ الأولَى أهمُّ من بابِ أنَّها جوازُ مرورِ العبدِ لتلقِّي الحسابِ؛ لقولهِ ﷺ: «أَوَّلُ مَا يُحَاسَبُ بِهِ الْعَبْدُ صَلَاتُهُ»[2]، والأمرُ الآخرُ: وهوَ أنَّ الصَّلاة تمثِّلُ القاعدةَ الَّتي تُقبَلُ الزَّكاةُ بناءً عليها، فهوَ من قبيلِ تقديمِ الأصلِ على الفرعِ.

النُّكتةُ الثَّانيةُ تقديمُ ما كانَ فيه الخطابُ للأعمِّ أولى ممَّا كانَ فيه الخطابُ للأخصِّ

المأمورونَ بإقامةِ الصَّلاةِ همْ أضعافُ المأمورينَ بإيتاءِ الزَّكاةِ، فالصَّلاةُ فرضُ عينٍ على كلِّ مسلمٍ، بخلافِ الزَّكاةِ فهي فرضٌ على كلِّ من مَلكَ النِّصابَ، وحالَ عليه الحولُ، وعليهِ فتقديمُ ما كانَ فيه الخطابُ للأعمِّ أولى ممَّا كانَ فيه الخطابُ للأخصِّ.

الصَّلاةُ عبادةٌ بدنيَّةٌ يوميَّة تُقام خمسَ مرَّاتٍ في اليومِ والليلةِ، أمَّا الزكاةُ فهيَ عبادةٌ ماليَّةٌ سنويَّة، فالوقتُ الذي تستغرقُه الصَّلاةُ من حياةِ المسلمِ وقتَه كلَّه، بينَما الزَّكاةُ لا تأخذُ إلَّا وقتًا

(1) ابن الزبير، ملاك التأويل: 1/37.

(2) الإمام أحمد، المسند، الحديث رقم: (16614).

النُّكتةُ الثَّالثة تـقـديـمُ ما يستغرقُ الزَّمانَ على ما لا يأخذُ إلَّا الوقتَ اليسيرَ

يسيرًا جدًّا؛ فلهذَا حسُنَ تقديمُ ما يستغرقُ الزَّمانَ، على ما لا يأخذُ إلَّا الوقتَ اليسيرَ.

سرُّ تأخير الإيمان بالرُّسل مع أنَّه مقدَّم على الصَّلاة والزَّكاة:

من أهمِّ صفات اليهود تكذيبهم الرُّسل

في قوله تعالى: ﴿لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِى﴾، هنا أخَّر الإيمان بالرُّسل عن إقامة الصَّلاة وإيتاء الزَّكاة، مع أنَّ الإيمان مقدَّم عليهما، فالإيمان أساس، والصَّلاة والزكاة بناء، والأساس قبل البناء، وذلك لأنَّ "الْيَهُودَ كَانُوا مُقِرِّينَ بِأَنَّهُ لَا بُدَّ فِي حُصُولِ النَّجَاةِ مِنْ إِقَامَةِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، إِلَّا أَنَّهُمْ كَانُوا مُصِرِّينَ عَلَى تَكْذِيبِ بَعْضِ الرُّسُلِ، فَذَكَرَ بَعْدَ إِقَامَةِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ أَنَّهُ لَا بُدَّ مِنَ الْإِيمَانِ بِجَمِيعِ الرُّسُلِ حَتَّى يَحْصُلَ الْمَقْصُودُ، وَإِلَّا لَمْ يَكُنْ لِإِقَامَةِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ تَأْثِيرٌ فِي حُصُولِ النَّجَاةِ بِدُونِ الْإِيمَانِ بِجَمِيعِ الرُّسُلِ"[1].

تقديم الصَّلاة والزَّكاة على الإيمان من باب التَّشريف

في قوله تعالى: ﴿لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِى﴾، هنا قدَّم الصَّلاة والزَّكاة على الإيمان بالرُّسل، "وإقامة الصَّلاة: توفية شروطها، والزَّكاة هنا: شيء من المال كان مفروضًا... وقدَّم هذه على الإيمان تشريفًا للصَّلاة والزَّكاة، وإذ قد علم، وتقرَّر أنَّه لا ينفع عمل إلَّا بإيمان"[2].

الإيمان بالرُّسل مقترنٌ بتعزيرهم وتأييدهم

في قوله تعالى: ﴿لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِى وَعَزَّرْتُمُوهُمْ﴾، هناك سبب آخر في تأخير "الإيمان عن إقامة الصَّلاة وإيتاء الزَّكاة مع كونهما من الفروع المترتِّبة عليه... ولمراعاة المقارنة بينه وبين قوله تعالى: ﴿وَعَزَّرْتُمُوهُمْ﴾"[3]، وهو اقتران لفظيٌّ ومعنويٌّ: لفظيٌّ بالمجاورة، ومعنويٌّ بأنَّ الإيمان بالرُّسل يقتضي طبيعة مؤازرتهم وتعزيرهم.

(1) القمّاش، الحاوي: 240/160.
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/168.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 87 - 88.

في الآيـة إيمان ضمنيٌّ بجميع الـرُّسـل بعد موسى عليه السلام

في قوله تعالى: ﴿وَءَامَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ﴾، الإيمان بالرُّسل في هذه الآية ليس مقتصرًا على ما مضى كما هو ظاهر النَّصِّ، بل هناك "إيمانٌ ضمنيٌّ مقدَّر في ثنايا القول، وإن لم يكن مذكورًا، وإنَّ الإيمان بالرُّسل المذكور من بعد هو الإيمان بالرُّسل الذين يجيئون من بعد موسى، كعيسى ومحمَّد - صلّى الله تعالى عليهما وسلّم - حتَّى لَا يحسبوا أنَّ الرسالة مقصورة على موسى"[1].

تعزير الرُّسل يشتمل على دلالات متعددة:

منه التَّوقير والتَّعظيم والنَّصر والرَّدُّ والمنع

في قوله تعالى: ﴿وَءَامَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ﴾، تعزير الرُّسل هنا يشتمل على معانٍ متعدِّدة ملتقية، منها: النَّصر، ومنها منع العدوِّ عنهم، ومنها الردُّ، ومنها التَّوقير؛ لأنَّ التَّوقير والتَّعظيم من أسباب نصرة الرُّسل[2]، فضلًا عن عدم التَّهجُّم عليهم، والسُّخرية منهم، فهذه مجموعة دلالات تلتقي، ولا تفترق.

دلالة قوله: ﴿وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ﴾ بعد ذكر الزَّكاة مع أنَّ بينهما تشابهًا:

الـزَّكـاة من الـواجـبـات والـقـرض من المندوبات

في قوله تعالى: ﴿وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾، ذكر هذه الجملة بعد جملة من قوله: ﴿وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ﴾، مع أنَّ جملة ﴿وَأَقْرَضْتُمُ﴾ داخلة "تَحْتَ إِيتَاءِ الزَّكَاةِ، فَمَا الْفَائِدَةُ فِي الْإِعَادَةِ؟ وَالْجَوَابُ: الْمُرَادُ بِإِيتَاءِ الزَّكَاةِ: الْوَاجِبَاتُ، وَبِهَذَا الْإِقْرَاضِ الصَّدَقَاتُ الْمَنْدُوبَةُ، وَخَصَّهَا بِالذِّكْرِ؛ تَنْبِيهًا عَلَى شَرَفِهَا وَعُلُوِّ مَرْتَبَتِهَا"[3].

الاستعارة في قوله: ﴿وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ﴾:

مقابل القرض أن يكون جزاءً وثوابًا لكنَّه شبَّهه بمثله

في قوله تعالى: ﴿وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾، من باب الاستعارة؛ "لأنَّه سبحانه لمَّا وعد بجزائه والثَّواب عليه، شبَّه بالقرض الَّذي

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 4/2074.
(2) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 5/301.
(3) القمّاش، الحاوي: 240/160.

يقضى بمثله، وفي كلام العرب قديمًا: الصَّالحات قروض ﴿قَرۡضًا حَسَنًا﴾، وهو ما كان عن طيب نفس"[1].

وجه العدول الصَّرفي عن (إقراضًا):

الإقـراض يشير إلـى الـفـعـل المتبادل وهو غير مـراد بـل المـراد القرض نفسه

في قوله تعالى: ﴿وَأَقۡرَضۡتُمُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنًا﴾، عبَّر هنا أوَّلًا بالفعل المزيد (أقرضَ)، ولمَّا أراد أن يؤكِّده بالمفعول المطلق جاء بمصدر الفعل المجرَّد، والسِّياق لغة يقتضي التَّعبير بمصدر الفعل المزيد نفسه، بأن يقول: (أقرضْتم اللّه إقراضًا)، لكنَّه عدل عن مصدر المزيد إلى مصدر المجرَّد؛ "لأنَّ الإقراض هو العمليَّة الحادثة بين الطَّالب للقرض والذي يقرض"،[2] وهو غير مراد، بل المراد القرض نفسه، أي: ما يقدِّمه الإنسان، ثمَّ يجازى به.

دلالةُ وصف القرض بالحسن:

القرض الحسن الَّـذي يخلو من شـائـبـة المـنِّ أو الأذى أو المنفعة

في قوله تعالى: ﴿وَأَقۡرَضۡتُمُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنًا﴾، قوله: ﴿حَسَنًا﴾ صفة للقرض[3]، وقد أورده مع هذه الصِّفة، "حتَّى لا يكون فيه منٌّ، أو منفعةٌ تعود على المقرض، وإلَّا صار في القرض ربا... والقرض الحسن: هو الذي لا يشوبه مَنٌّ أو أذًى أو منفعة"[4].

تقديم تكفير السَّيِّئات على إدخال الجنَّات:

الـتـطـهـيرُ من الـذُّنـوب تأهيل لدخول الجنَّات

في قوله تعالى: ﴿لَأُكَفِّرَنَّ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَلَأُدۡخِلَنَّكُمۡ جَنَّٰتٍ﴾، هنا قدَّم تكفير السَّيِّئات على إدخالهم الجنَّات، فـ"التَّكفير هو السِّتر والتَّغطية، وإنَّه يستر الذُّنوب حتَّى عن العاصي، فيمحو من ديوانه، وينسِي الحَفظَة سوالف عصيانه، وينفي عن قلبه تذكُّر ما أسلفه، ولا يوقِفُهُ في العَرْصة على ما قَدَّم من ذنبه، ثمَّ بعد ذلك

(1) الآلوسي، روح المعاني: 6/88.
(2) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 5/3004.
(3) الدرويش، إعراب القرآن وبيانه: 2/428.
(4) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 5/3002.

يدخله الجنَّة بفضله"،[1] والتَّقديم هنا من باب أنَّ التَّطهير من الذُّنوب تأهيل لدخول الجنَّات.

التَّخلية مقدَّمة على التَّحلية

في قوله تعالى: ﴿لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّٰتٍ﴾، هنا قدَّم تكفير السَّيِّئات على إدخالهم الجنَّات، "وأكَّد العطاء بمثل ما أكَّد الغفران، وقد قدَّم سبحانه الغفران على الثَّواب؛ لأنَّ الغفران تطهير، والتَّطهير مقدَّم على غيره، أو كما يقول العلماء: التَّخلية مقدَّمة على التَّحلية"[2].

وجهُ تذييل الآية بضلال السَّبيل للكافر:

قبحُ الكفر بقدر عِظَم النِّعمة المكفورة

في قوله تعالى: ﴿فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾، قد يرد سؤال، أنَّه كيف جاء هذا التَّذييل في الآية، مع أنَّ كلَّ كافر هو ضالٌّ للسَّبيل؟ والجواب عن ذلك: "نعم، ولكنَّ الضَّلال بعد ما ذكر من النِّعم أقبح؛ لأنَّ قبح الكفر بقدر عظم النِّعمة المكفورة، فلذلك خصَّه بالذِّكر، فَإِذَا زَادَتِ النِّعْمَةُ؛ زَادَ قُبْحُ الْكُفْرِ، وَبَلَغَ النِّهَايَةَ القصوى"[3].

عدم الاهتداء إلى السَّبيل تعبير مجازيّ:

التَّعبير بالحسِّيَّات تقريب للأمَّة وتشبيه من واقعها

في قوله تعالى: ﴿فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾، عدم الاهتداء إلى السَّبيل تعبير على طريقة المجاز؛ لأنَّ السَّبيل: هو الطَّريق، وهو الممتدُّ طولًا؛ سُمِّي بذلك لامتداده، والضَّلال المعنيُّ في الآية: ضلال العقيدة والدِّين، وفيه امتداد وتشعُّبٌ والتواءٌ، فهو ضلال معنويٌّ، لكنَّه شبَّهه هنا بالحسِّيِّ؛ لأنَّ القرآن نزل على أمَّة تحبُّ التَّشبيهات في أسمائها ونعوتها وأماكن سكناها، فأراد أن يقرِّب لها المثال، فمن الخير للإنسان أن يتوسَّط في مشيه؛ لأنَّ "اليمين والشِّمال مضلَّة،

(1) القشيري، لطائف الإشارات: 1/410.
(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 4/2076.
(3) الرازي، أنموذج جليل، ص: 96.

وخير الأمور الوسط؛ لأنَّ الإنسان قد يتَّجه يمينًا، فيقع، أو يتَّجه شمالًا، فيقع، أو تقع عليه صخرة، ونجد الوالد ينصح ابنه، فيقول له: امشِ، ولا تلتفت يمينًا أو يسارًا، واتَّجه إلى مقصدك"[1].

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الإيتاء والإعطاء:

إرشادُ المُزَكِّي إلى أن تكونَ زكاتُه صادرةً عن يُسْرٍ وسهولةٍ

جاءَ التَّعبيرُ بمادَّةِ الإيتاءِ في قولِه تعالَى: ﴿وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ﴾، ولم يعبِّرْ بمادَّةِ الإعطاءِ؛ لأنَّ الإيتاءَ دالٌّ على المجيءِ بسهولةٍ ويُسْرٍ[2]، وقدْ خُصَّ هذا الفعلُ بدفعِ الصَّدقةِ الواجبةِ حيثُما وردَ في القرآنِ الكريمِ[3]، وعليهِ فالآيةُ تُرشدُ إلى أن تكونَ الزَّكاةُ مُؤدَّاةً بيُسرٍ وسهولةٍ.

أمَّا فعلُ الإعطاءِ؛ فإنَّه "اتِّصَال الشَّيْء إِلَى الْآخِذ لَهُ، أَلا ترى أَنَّك تُعْطِي زيدًا المَال؛ ليَرُدَّهُ إِلَى عَمْرو، وتعطِيه ليتَّجرَ لَك بِهِ"[4]، أي: إنَّ المعطَى يُعاد إلى المعطِي هذا أصلُه، وهذا ليسَ متعيَّنًا في فعلِ الإيتاءِ، فإنَّ الزَّكاةَ حقُّ اللهِ في المال، وهي بمنزلةِ الهبةِ، فلا تعادُ، وهذا هو الأنسب في التَّعبير.

(1) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 5/305.
(2) الراغب، المفردات: (أتى).
(3) السمين، عمدة الحفّاظ: (أتى).
(4) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 167.

﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ ۚ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣﴾﴾ [المائدة: 13]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لمَّا ذكر الله تعالى في الآية السَّابقة الميثاقَ والعهد بين الحقِّ تبارك وتعالى وعباده، وهو ميثاق مخصوص هنا ببني إسرائيل؛ فقد أخذه الله عليهم في إقامة الصَّلاة، وإيتاء الزَّكاة، والإيمان بالرُّسل ونصرهم وتعزيرهم، لكنَّهم بعد ذلك نقضوا ميثاقه الذي واثقهم به؛ فناسب أن يذكر ما وجبَ عليهم من العقابِ "عَلَى ذَلِكَ فِي الدُّنْيَا، وَمَا يَنْتَظِرُونَ مِنْ عِقَابِ الْآخِرَةِ، وَهُوَ أَشَدُّ وَأَبْقَى؛ لِنَعْتَبِرَ بِحَالِهِمْ، وَنَتَّقِيَ حَذْوَ مِثَالِهِمْ، وَلِيُبَيِّنَ لَنَا عِلَّةَ كُفْرِهِمْ بِنَبِيِّنَا، وَتَصَدِّيهِمْ لِإِيذَائِهِ وَعَدَاوَةِ أُمَّتِهِ؛ وَلِيُقِيمَ بِذَلِكَ الْحُجَّةَ عَلَيْهِمْ"[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿نَقْضِهِم﴾: مصدر للفعل (نقضَ ينقضُ)، والجذر اللغويُّ منه: (نقض)، ومعناه: "إفساد ما أبرمت من حبل أو بناء"[2].

والأصل في معناه: دلالته عَلَى نَكْثِ شَيْءٍ وَنَقْضِ الْعَهْدِ مِنْهُ أَيْضًا[3].

و"المعنى المحوريُّ: تفكُّك ما قوَّى ارتباط أجزائه الباطنة لضغط شديد أو نحوه، كانتقاض البناء والعَقْد والحَبْل والغَزْل ونحوهن"[4].

وهو أيضًا: "انْتِثَارُ العَقْدِ مِنَ البِنَاءِ والحَبْلِ والعِقْدِ، وهو ضِدُّ الإِبْرَام، يقال: نَقَضْتُ البِنَاءَ والحَبْلَ والعِقْدَ... ومن نَقْضِ الحَبْل والعِقْد استُعِيرَ نَقْضُ العَهْدِ"[5] والمعنى في الآية:

(1) رضا، تفسير المنار: 6/231.
(2) الخليل، العين: (نقض).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نقض).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (نقض).
(5) الراغب، المفردات: (نقض).

"أنَّ بني إسرائيل نقضوا ميثاق الله وعهده، بأن كذَّبوا الرُّسل الذين جاؤوا من بعد موسى، وقتلوا أنبياء الله، ونبذوا كتابه، وضيَّعوا فرائضه"[1].

2) ﴿لَعَنَّٰهُمۡ﴾: فعل ماضٍ من (لعنَ يلعنُ)، مسند لضمير الجمع الدَّالِّ على عظمته تعالى، جذره اللُّغويُّ: (لعن)، واللَّعن: الإبعاد من الله، أو من رحمته؛ ليستحقَّ العذاب[2].

والأصل في معنى اللَّعن: دلالته "عَلَى إِبْعَادٍ وَإِطْرَادٍ، وَلَعَنَ اللهُ الشَّيْطَانَ: أَبْعَدَهُ عَنِ الْخَيْرِ وَالْجَنَّةِ، وَيُقَالُ لِلذِّئْبِ: لَعِينٌ"[3].

و"المعنى المحوريُّ: نَفْي أو طَرد، وإبعاد من الحيِّز بتخويف وذَعر؛ لعدم قبول القرب... ومن معنويِّه "اللَّعْنُ: الطَّرد والإبعاد من رحمة الله وجنَّته، ومن الخير غضبًا وعدم قبول... وليس في القرآن من التَّركيب إلَّا فعل (اللَّعن) وما هو منه بمعنى: الطَّرد، والإبعاد من رحمة الله"[4].

و"اللَّعْنُ: الطَّرد والإبعاد على سبيل السُّخط، وذلك من الله تعالى في الآخرة عقوبة، وفي الدُّنيا انقطاع من قبول رحمته وتوفيقه، ومن الإنسان دعاء على غيره، قال تعالى: ﴿أَلَا لَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ١٨﴾"[5].

ومعنى لعنَّاهم في الآية: الإبعاد من رحمته تعالى، وورد بمعنى: المسخ[6].

3) ﴿قَٰسِيَةٗۖ﴾: اسم فاعل من الفعل (قسا يقسو)، الجذر اللُّغويُّ له: (قسو)، ومنه "القَسْوة: الصَّلابة في كلِّ شيء، وقَسَا يَقْسُو، فهو قاسٍ، وليلة قاسيةٌ: شديدة الظُّلمة، والمُقاساةُ: معالجة الأمر ومكابدته"[7].

والأصل في معناه: الدَّلالة على الصَّلابة والقوَّة والشِّدَّة، كالأحجار القاسية، وقد يشبَّه بها القلوب القاسية؛ لما فيها من الغلظة[8].

---

(1) الخازن، لباب التأويل: 2/23.
(2) الأزهري، تهذيب اللغة: (لعن).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (لعن).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (لعن).
(5) الراغب، المفردات: (لعن).
(6) البَغَويّ، معالم التنزيل: 3/31.
(7) الخليل، العين: (قسو).
(8) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قسي).

و"القَسْوَةُ: غلظ القلب، وأصله من: حجر قَاسٍ، والْمُقَاسَاةُ: معالجة ذلك، قال تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم﴾"[1]، وأكثر معاني قسوة القلب تدور حول الغلظة والصَّلابة والشِّدَّة والخلوِّ من الرَّحمة واللِّين[2]، ومعنى قسوة القلوب في الآية: صلابتها بتشبيهها بالأجسام الصُّلبة كالحجارة، فالقسوة في القلوب مجازيَّة للمبالغة[3]؛ لأنَّ معنى قاسية في الآية: أنَّها لا تلين عند رؤية الآيات، وعند النَّذر، ولا تتأثَّر بالمواعظ[4].

4) ﴿يُحَرِّفُونَ﴾: فعل مضارع مضعَّف مسند للجماعة، الجذر اللُّغويُّ منه: (حرف) "وتَحَرَّفَ فلانٌ عن فلان وانحَرَف، واحرَوْرَفَ واحد، أي: مالَ"[5]، فالتَّحريف من الميل، ومنه الانحراف.

وله أصل في المعنى دالٌّ على"الِانْحِرَافِ عَنِ الشَّيْءِ، يُقَالُ: انْحَرَفَ عَنْهُ يَنْحَرِفُ انْحِرَافًا، وَحَرَّفْتُهُ أَنَا عَنْهُ، أَيْ: عَدَلْتُ بِهِ عَنْهُ، وَلِذَلِكَ يُقَالُ: مُحَارَفٌ، وَذَلِكَ؛ إِذَا حُورِفَ كَسْبُهُ"[6].

والتَّحريف من الإمالة، ومنه تحريف الكلام[7]، وهو الوارد في الآية، "وَالتَّحْرِيفُ: الْمَيْلُ بِالشَّيْءِ إِلَى الْحَرْفِ، وَالْحَرْفُ هُوَ الْجَانِبُ، وَقَدْ كَثُرَ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ اسْتِعَارَةُ مَعَانِي السَّيْرِ، وَمَا يَتَعَلَّقُ بِهِ، إِلَى مَعَانِي الْعَمَلِ وَالْهُدَى وَضِدِّهِ"[8].

5) ﴿ٱلْكَلِمَ﴾: اسم جنس جمعيٍّ، مفرده: (كلمة)، وجذره اللُّغويُّ من: (كلم)، وأصل الكاف واللَّام والميم: "يدلُّ على نطق مفهم... تقول: كلَّمتُه أكلِّمه تكليمًا، وهو كليمي؛ إذا كلَّمك، أو كلَّمته، ثمَّ يتَّسعون، فيسمُّون اللَّفظة الواحدة المفهمة: كلمة، والقصَّة: كلمة، والقصيدة بطولها: كلمة"[9].

والكلام: "يقع على الألفاظ المنظومة، وعلى المعاني التي تحتها مجموعة، وعند

(1) الراغب، المفردات: (قسو).
(2) السمين، عمدة الحفاظ: (قسو).
(3) رضا، تفسير المنار: 1/292.
(4) القاسمي، محاسن التأويل: 6/1916.
(5) الخليل، العين: (حرف).
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حرف).
(7) الراغب، المفردات: (حرف).
(8) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/143.
(9) ابن فارس، مقاييس اللغة: (كلم).

النَّحويِّين يقع على الجزء منه، اسمًا كان، أو فعلًا، أو أداة، وعند كثير من المتكلِّمين لا يقع إلَّا على الجملة المركَّبة المفيدة"[1].

والمعنى المراد في الآية: أنَّ الكلم "جماع كلمة، وكان مجاهد يقول: عنى بالكلم: التَّوراة"[2].

6) ﴿مَّوَاضِعِهِۦ﴾: جمع تكسيرٍ، مفرده: (موضِع)، جذره اللُّغويُّ: (وضع)، و"المَوْضِعُ: المكان، والمَوْضِعُ أيضًا: مصدر قولك: وضعتُ الشَّيء من يدي وَضْعًا، ومَوْضوعًا، وهو مثل المعقول... ويقال في الحَجَر وفي اللَّبِن؛ إذا بُنِي به: ضَعْهُ على غير هذه الوضعة"[3].

والأصل في معناه: أن "يَدُلّ عَلَى الْخَفْضِ (لِلشَّيْءِ) وَحَطِّهِ، وَوَضَعْتُهُ بِالْأَرْضِ وَضْعًا، وَوَضَعَتِ الْمَرْأَةُ وَلَدَهَا، ووُضِعَ فِي تِجَارَتِهِ يُوضَعُ: خَسِرَ، وَالْوَضَائِعُ: قَوْمٌ يُنْقَلُونَ مِنْ أَرْضٍ إِلَى أَرْضٍ يَسْكُنُونَ بِهَا"[4]، والموضع مشتقٌّ من الوضع، وهو أمر يدلُّ على الحطِّ، لكنَّه أعمُّ منه[5].

وتحريف الكلم عن مواضعه في الآية: "قَالَ الْحسن: حرَّفوا كَلَام اللّه، وَهُوَ الَّذِي وضعُوا من قِبَلِ أنفسهم من الْكتاب، ثُمَّ ادَّعوا أَنَّهُ من كتاب اللّه"[6].

7) ﴿وَنَسُواْ﴾: فعل ماضٍ (نَسِيَ) مسند إلى واو الجماعة، جذرهُ اللُّغويُّ منْ: (نسي)، ومصدرهُ النِّسيانُ، و"نَسِيَ فلانٌ شيئًا كان يَذْكُرُهُ، وإنَّه لنسيٌّ، أي: كثير النِّسيان، من قوله جلَّ وعزَّ: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴿٦٤﴾﴾ [مريم: 64]. والنَّسْي: الشَّيء المَنسِيُّ الذي لا يُذكر... وسمِّي الإنسان من النِّسيان"[7].

و"النُّونُ والسِّينُ والياءُ: أصلانِ صحيحانِ يدلُّ أحدُهما على إغفالِ الشَّيءِ، والثَّاني على تركِ شيءٍ"[8]، والمعنيان متشابهان.

(1) الراغب، المفردات: (كلم).
(2) ابن جرير، جامع البيان: 7/103.
(3) الجوهري، الصحاح: (وضع).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (وضع).
(5) الراغب، المفردات: (وضع).
(6) ابن زمنين، تفسير القرآن العزيز: 1/377.
(7) الخليل، العين: (نسي).
(8) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نسي).

و"النِّسْيَانُ: تَرْكُ الإنسانِ ضبطَ ما استُودِعَ؛ إمَّا لضَعْفِ قلبِهِ، وإمَّا عن غفْلةٍ، وإمَّا عن قصْدٍ حتَّى يَنْحَذِفَ عن القلبِ ذِكْرُهُ، يقال: نَسِيتُهُ نِسْيَانًا"[1].

ومعناه أيضًا: "ضدُّ الذِّكْر، حيث يغيب ما كان محفوظًا في العقل، ويخفى، وهو يشمَل تركَ الشَّيء بمعنى: إغفاله، ونظير هذا قولهم عن الشَّخص أو الشَّيء المجهول: إنَّه مغمور"[2]، ومعنى (نسوا) في الآية: "نصٌّ على سوء فعلهم بأنفسهم، أي: قد كان لهم حظٌّ عظيم فيما ذكِّروا به، فنسوه، وتركوه"[3].

8) ﴿حَظًّا﴾: اسم مجرَّد من مضعَّف الثُّلاثيِّ، جذره اللُّغويُّ: (حظظ)، "والحظُّ: النَّصيبُ من الفَضْل والخير، والجميع: الحُظُوظ"[4].

وكلُّ (حظٍّ) في القرآن؛ فهو بهذا المعنى[5]، ومعنى الحظِّ في الآية: هو النَّصيب[6].

9) ﴿ذُكِّرُواْ﴾: فعل ماضٍ مبنيٌّ للمفعول، مسند لواو الجماعة، والجذر اللُّغويُّ منه: (ذكر)، وهو "الحفظ للشَّيء تذكره، وهو مني على ذُكْر، والذِّكْرُ: جري الشَّيء على لسانك، تقول جرى منه ذِكر"[7].

ولهذا الجذر أصلان في المعنى، أحدهما من التَّذكُّر، وهو خلاف النِّسيان، فحملوا عليه الذِّكر باللِّسان[8].

و"الذِّكْرُ: تارة يقال، ويراد به: هيئة للنَّفس، بها يمكن للإنسان أن يحفظ ما يقتنيه من المعرفة، وهو كالحفظ إلَّا أنَّ الحفظ يقال اعتبارًا بإحرازه، والذِّكْرُ يقال اعتبارًا باستحضاره، وتارة يقال لحضور الشَّيء القلب أو القول"[9].

(1) الراغب، المفردات: (نسى).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (نسو - نسى).
(3) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/169.
(4) الخليل، العين: (حظ).
(5) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (حظ).
(6) ابن الجوزي، زاد المسير: 1/528.
(7) الخليل، العين: (ذكر).
(8) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ذكر).
(9) الراغب، المفردات: (ذكر).

و"الذِّكر بالكسر له معنيان، أَحدهما: التَّلَفُّظ بالشَّيء، والثَّاني: إِحضاره في الذِّهن بحيث لا يغيب عنه"[1] والمراد بالَّذي ذكِّروا به في الآية: هو التَّوراة[2].

10) ﴿خَآئِنَةٍ﴾: اسم فاعل للمؤنَّث من (خانَ يخونُ)، جذره اللُّغويُّ من: (خون)، ومنه الخيانة الَّتي تحصل في الودِّ والنَّصيحة، وتغيُّر الإنسان من حالة إلى أخرى شرٍّ منها[3].

والأصل في معنى الخيانة: "التَّنَقُّصُ، يُقَالُ: خَانَهُ يَخُونُهُ خَوْنًا، وَذَلِكَ نُقْصَانُ الْوَفَاءِ، وَيُقَالُ: تَخَوَّنَنِي فُلَانٌ حَقِّي، أَيْ: تَنَقَّصَنِي"[4]، و"الخِيَانَة والنِّفاق واحد، إلَّا أنَّ الخيانة تقال اعتبارًا بالعهد والأمانة"[5].

و"قيل: هي صفة لفرقةٍ أو جماعةٍ، أي: على جماعةٍ خائنةٍ، أو فرقةٍ خائنةٍ، وقيل: على خائنٍ منهم، والتَّاء للمبالغة كرواية وداهية، وقيل: الخائنة بمعنى: مصدر جاء على فاعلةٍ كالعافية والكاذبة"[6].

ومعنى خائنة في الآية: "الخيانة، وُضع وهو اسمٌ موضع المصدر، كما قيل: خاطئة للخطيئة، وقائلة للقيلولة"[7].

11) ﴿فَٱعۡفُ﴾: فعلُ أمرٍ من (عفا يعفُو)، وجذره اللُّغويُّ (عفو)، والعفو "تركُكَ إنسانًا استوجَبَ عُقوبةً؛ فعفوتَ عنه تعفُو، واللّه العَفُوُّ الغَفوُّ"[8].

والأصلُ في معناه: أن يدلَّ على تركِ الشَّيءِ، فـ"عفوُ اللّه تعالى عنْ خلقهِ، وذلكَ تركُه إيَّاهُم، فلا يعاقبُهمْ، فضلًا منهُ"[9].

و"العَفوُ عن الذُّنوبِ: عَدَمُ المؤاخذةِ عليها، وكأنَّ مَن عفَا غطَّاهَا، أوأعرضَ عنهَا؛ فلمْ

(1) الكفويّ، الكليات، ص: 456.
(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/144.
(3) الخليل، العين: (خون).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (خون).
(5) الراغب، المفردات: (خون).
(6) السمين، عمدة الحفاظ: (خون).
(7) ابن جرير، جامع البيان: 10/131.
(8) الخليل، العين: (عفو).
(9) ابن فارس، مقاييس اللغة: 4/56.

ينظرُ إليهَا"[1]؛ لأنَّ الأصلَ في العفوِ: التَّغطيةُ، والعفوُ الواردُ في الآيةِ ألَّا يؤاخذهم عمَّا صدر منهم من ذنوب[2].

12) ﴿وَٱصۡفَحۡۚ﴾: فعلُ أمرٍ موجَّهٌ لجماعةِ الحضورِ، جذرُه اللُّغويُّ من (صفح)، والاسمُ منهُ الصَّفْحُ، "وأصلُ الصَّفحِ: أَنْ تنحرفَ عَن الشَّيءِ؛ فتوليهِ صفحةَ وَجهِك، أَيْ: نَاحيَة وَجهِك"[3].

"وصفحتُ عن الرَّجل، أصفح صفحًا؛ إذا عَفَوْتُ عَن جرمه، وأضربتُ عَن هَذَا الْأَمر صفحًا؛ إذا تركتُه"[4] وأصلُ معناهُ: العرضُ، وهوَ صفحُ الشَّيءِ[5].

والمرادُ من الصَّفح في الآيةِ: أن يتركهم النَّبيُّ ﷺ ولا يتعرَّض لهم،[6] كالذي يولِّي صفحته، أي: عرضه، وجانبه للمذنب.

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

العقوبات الَّتي حلَّت على بني إسرائيل عندما نقضوا العهود

يخبر سبحانه أنَّه بسبب نقض هؤلاء اليهود لعهودهم المؤكَّدة عاقبناهم بعقوبات خمسٍ، هي: طردناهم من رحمتنا، وجعلنا قلوبهم غليظةً لا تلين للإيمان، وابتُلوا بالتَّغيير والتَّبديل، فيجعلون كلام اللّه الذي أنزله على موسى عليه السلام وهو التَّوراة على غير ما أراده اللّه، وتركوا نصيبًا ممَّا ذُكِّروا به، فلم يعملوا به، والخامسةُ: الخيانةُ المستمرَّةُ منهم؛ بحيثُ لا تزال - أيُّها الرَّسول - تجد من اليهود خيانةً وغَدرًا، فهم على منهاجِ أسلافهم إلَّا قليلًا منهم، فاعفُ عن سوء معاملتهم لك، واصفح عنهم، فإنَّ اللّه يحبُّ مَن أحسن العفوَ والصَّفحَ إلى من أساء إليه، وهو إحسان لهؤلاء، يجلب محبَّة اللّه ورضوانه.

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: 3/1491.
(2) النسفي، مدارك التنزيل: 3/435.
(3) ابن عزيز، غريب القرآن، ص: 111.
(4) ابن دريد، جمهرة اللغة: (صفح).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: 3/293.
(6) البَغَويّ، معالم التنزيل: 3/31.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

معنى (ما) بين الإعراب النَّحويِّ والإعراب التَّفسيريّ:

زيـادة (مـا) من باب عدم منعها العمل، وسيقت للتَّوكيد

قوله تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ﴾ "ما: لغوٌ، المعنى: فبنقضهم ميثاقهم، ومعنى (ما) الملغاة في العمل توكيد القصَّة"[1]، فهي عند النَّحويِّين زائدة، وآية ذلك: أنَّها وإن فصلت بين حرف الجرِّ ومدخوله، لكنَّه بقي عاملًا، وهي عند المفسِّرين لا توصف بالزِّيادة؛ فلا شيء من ذلك واقعًا في كلام الله، "وَذَلِكَ أَنَّهَا تُؤَكِّدُ الْكَلَامَ، بِمَعْنَى: تُمَكِّنُهُ فِي النَّفْسِ مِنْ جِهَةِ حُسْنِ النَّظْمِ، وَمِنْ جِهَةِ تَكْثِيرِهِ لِلتَّوْكِيدِ"[2].

دلالة التَّعبير بـ(ما):

وجـود (مـا) في الجملة يخلع عليها تفخيمًا وتمكينًا

قوله تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ﴾، (ما) هنا وإن كانت زائدة للتَّوكيد، إلَّا أنَّ وجودها في الجملة يخلع عليها تفخيمًا وتمكينًا[3].

في الكلام مجاز بالحذف:

اللَّعـن يكون جـزاء نقض الميثاق فعلاً

قوله تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ﴾ هذه الجملة من الآية تتوفر على مجاز بالحذف، والحذف هنا: أنَّهم فعلًا قد "نَقَضُوا الْمِيثَاقَ بِتَكْذِيبِ الرُّسُلِ الَّذِينَ جَاؤُوا بَعْدَ مُوسَى، وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ، وَتَضْيِيعِ الْفَرَائِضِ"[4]؛ ليكون التَّقدير فبما نقضهم الميثاق، فنقضوا الميثاق، فلعنَّاهم على طريقة قوله تعالى: ﴿أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ﴾ [الأعراف: 160] فضرب، ﴿فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾ [الأعراف: 160].

وجهُ التَّعبير بالنقض - وهو أمر حسِّيٌّ - عن المعنويّ:

قوله تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ﴾، معنى النَّقض: "فسخ التَّركيب في المركَّبات الحسِّيَّة، كالحبل والغزل ونحوهما، فهو

(1) الزجاج، معاني القرآن وإعرابه: 2/159.
(2) القُرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 7/379.
(3) النسفيّ، مدارك التنزيل: 1/434.
(4) أبو حيان، البحر المحيط: 4/204.

أمر حسِّيٌّ"[1] لكنَّه جاء هنا تعبيرًا عن عدم الوفاء بالعهد، وترك الالتزام به؛ فجاء به تعبيرًا حسِّيًا؛ لتمكينه من النَّفس وبيان أهمِّيَّته.

غرضه بيان أهمِّيَّته وتمكينه من النَّفس

دلالة قراءة ﴿قَٰسِيَةٗۖ﴾ على ﴿قَسِيَّةَۖ﴾:

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا قُلُوبَهُمۡ قَٰسِيَةٗۖ﴾، في لفظة ﴿قَٰسِيَةٗۖ﴾ قراءة أخرى: فقد قرأ "حَمْزَة والكسائيُّ ﴿قَسِيَّةَۖ﴾ بِغَيْر ألف، مُشَدَّدَة"،[2] فهذه القراءة (فَعِيْلَة) على التَّشديد، والأُولى ليست كذلك، "وَحجَّة من قَرَأَ ﴿قَسِيَّةَۖ﴾ هِيَ أَنَّ فعيلًا أبلغ فِي الذَّمِّ والمدح من فَاعِل، كَمَا أَنَّ عليمًا أبلغ من عَالم، وسميعًا أبلغ من سامِع، وَهِي فَعِيْلَة من الْقَسْوَة"[3]، فقراءة التَّشديدِ تصوِّر حال قلوبهم بأنَّها لا تَلين للحقِّ، ولا تنتفعُ بأيِّ خير، فالغلظةُ فيها مستحكِمة.

القراءة على وزن (فَعِيْلَة) دالَّة على المبالغة

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا قُلُوبَهُمۡ قَٰسِيَةٗۖ﴾، على قراءة "حَمْزَة والكسائيِّ ﴿قَسِيَّةَۖ﴾ بِغَيْر ألف، مُشَدَّدَة"[4]"من قولهم: درهم قسِيٌّ، وهو من القسوة؛ لأنَّ الذَّهب والفضَّة الخالصين فيهما لين، والمغشوش فيه يبس وصلابة"[5]، وكذلك هذه القلوب الَّتي لا تشتمل على الإيمان، ويخالطها الكفر.

القراءة مأخوذة من قولهم الدَّراهم القسيَّة التي يخالطها غشٌّ

دلالة تعقيب التَّحريف على قسوة القلوب:

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا قُلُوبَهُمۡ قَٰسِيَةٗۖ يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾، ذكر هنا قسوة القلوب، ثمَّ أعقبها بتحريف الكلم؛ لأنَّه لمَّا أصبحت قلوبهم قاسية"بيَّن نتيجة قسوة قلوبهم، فقال: يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَواضِعِهِ لفظًا أو تأويلًا، ولا قسوة أعظم من الجرأة على تغيير كتاب اللّه وتحريفه"[6].

القسوة سبب من أسباب الجرأة على تحريف كلام الله

(1) المطعني، خصائص التعبير القرآني: 1/462.
(2) ابن مجاهد، السبعة، ص: 243.
(3) ابن زنجلة، حجة القراءات، ص: 224.
(4) ابن مجاهد، السبعة، ص: 243.
(5) الزمخشري، الكشاف: 2/216.
(6) ابن عجيبة، البحر المديد: 2/18.

التَّعبير بالجمع في غالب جمل الآية:

المطابقة اللَّفظيَّة بين أفعالهم وما جوزوا به

قوله تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ﴾، ألفاظ الآية وجملها في غالبها مبنيَّة على الجمع مثل ﴿نَقْضِهِم﴾، ﴿مِّيثَٰقَهُمْ﴾، ﴿لَعَنَّٰهُمْ﴾، ﴿قُلُوبَهُمْ﴾، ﴿يُحَرِّفُونَ﴾، ﴿وَنَسُواْ﴾، ﴿ذُكِّرُواْ﴾، وسرُّ ذلك للمطابقة اللفظيَّة بين أفعالهم والجزاء الذي كان عاقبتهم؛ فلا يحسن مخالفة ذلك بأن يعبِّر أوَّلًا بصيغة الجمع، ثمَّ بصيغة الإفراد، أو أن يعكس الأمر ممَّا يخلُّ بمقتضى الفصاحة والبلاغة.

علَّةُ تأخُّر قوله: ﴿وَنَسُواْ حَظًّا﴾:

قسوة القلوب وسوء الأفعال سبب لنسيان حظِّهم ممَّا ذكِّروا به

قوله تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ﴾، في الآية جمل متعانقة متتالية، آخذ بعضها برقاب بعض، بدأها بنقض الميثاق، وعقَّبها بنسيان الحظِّ والنَّصيب، وهذه الجملة متأخِّرة عمَّا قبلها من قسوة القلوب وسوء الأفعال؛ لأنَّ هذه الأفعال سبب لذلك النِّسيان، فالعصيان سبب لنسيان العلم[1]، وهذا شامل لنسيان علم ما ذُكِّروا به من التَّوراة، وما أنزل الله على موسى عليه السلام وأنَّهم نسوه، وضاع عنهم، ولم يوجد كثير ممَّا أنساهم الله إيَّاه عقوبة منه لهم، وشامل كذلك لنسيان العمل الذي هو التَّرك، فلم يوفَّقوا للقيام بما أمروا به[2].

دلالة التَّعبير بالفعل الماضي في ﴿وَنَسُواْ﴾:

النِّسيان أمر لا يتجدَّد إلى أن يتذكَّره النَّاسي

قوله تعالى: ﴿وَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ﴾، الفعل الماضي يدلُّ على الانقطاع؛ لأنَّه قد تمَّ ومضى، وهو قريب من الثَّبات في كونه لا يتجدَّد كالفعل المضارع، إلَّا إنْ تذكَّره النَّاسي، وقد عبَّر هنا بقوله: ﴿وَنَسُواْ﴾

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 4/206.

(2) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 109.

"بِالْفِعْلِ الْمَاضِي؛ لِأَنَّ النِّسْيَانَ لَا يَتَجَدَّدُ، فَإِذَا حَصَلَ؛ مَضَى، حَتَّى يُذَكِّرَهُ مُذَكِّرٌ، وَهُوَ وَإِنْ كَانَ مُرَادًا بِهِ الْإِهْمَالُ، فَإِنَّ فِي صَوْغِهِ بِصِيغَةِ الْمَاضِيَ تَرْشِيحًا لِلِاسْتِعَارَةِ، أَوِ الْكِنَايَةِ؛ لِتَهَاوُنِهِمْ بِالذِّكْرَى"[1]، فهو إهمال يفضي بالمرء إلى النِّسيان.

من جمال النَّظم القرآنيِّ التَّعبير بالحظّ:

قوله تعالى: ﴿وَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ﴾، في التَّعبير بالحظِّ، وهو مفعول للنِّسيان جمال في النَّظم القرآنيِّ يومئ إلى أنَّهم "على قدر كبير من السُّوء بدرجة أنستهم الشَّيء الَّذي يأتي لهم بالحظِّ الكبير، مثل نسيانهم البشارات بمحمَّد - ﷺ - وكتمانها، ولو كانوا قد آمنوا بها؛ لكان حظُّهم كبيرًا"[2].

تنكير الحظِّ يفيد التَّعظيم والتَّكثير

قوله تعالى: ﴿وَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ﴾، ورد الحظُّ هنا منكَّرًا "وَالْحَظُّ النَّصِيبُ، وَتَنْكِيرُهُ هُنَا لِلتَّعْظِيمِ، أَوِ التَّكْثِيرِ بِقَرِينَةِ الذَّمِّ، وَمَا ذُكِّرُوا بِهِ هُوَ التَّوْرَاةُ"[3]، أي: نسوا حظًّا عظيمًا، والنَّكرة تدلُّ على العموم والشُّمول، وهما قرينا الكثرة.

دلالةُ الفعل ﴿وَلَا تَزَالُ﴾:

استمرار خيانتهم ومِن ثمَّ اطِّلاعك عليها قوله تعالى: ﴿وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ﴾، الفعل ﴿وَلَا تَزَالُ﴾ فعل مضارع دالٌّ على التَّجدُّد والاستمرار، فهو في معنى "يَدُومُ اطِّلَاعُكَ، فَالِاطِّلَاعُ مَجَازٌ مَشْهُورٌ فِي الْعِلْمِ بِالْأَمْرِ، وَالِاطِّلَاعُ هُنَا كِنَايَةٌ عَنِ الْمَطَّلَعِ عَلَيْهِ، أَيْ: لَا يَزَالُونَ يَخُونُونَ، فَتَطَّلِعُ عَلَى خِيَانَتِهِمْ"[4]، "أي: ستستمرُّ في الاطِّلاع على خائنة منهم"[5].

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/144.
(2) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 5/3009.
(3) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/144.
(4) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/144.
(5) السامرائي، معاني النحو: 1/242.

معنى الفعل ﴿تَطَّلِعُ﴾ زنة (تَفْتَعِل):

كشف الخيانة يقتضي تكلُّفًا ومشقَّة؛ لأنَّها من دخائل النُّفوس

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ﴾، الفعل ﴿تَطَّلِعُ﴾، وزنه الصَّرفيُّ (تَفْتَعِل)؛ لأنَّ الأصل فيه (طلعَ)، فهو على هذا الوزن (تَتْطَلِع)، ثمّ قلبت التَّاء الثانية طاء، وادغمتا؛ فصار (تَطّلِع) زنة (تَفْتَعِل) "فَاطَّلَعَ بِمَنْزِلَةِ تَطَلَّعَ، أَيْ: تَكَلَّفَ الطُّلُوعَ؛ لِقَصْدِ الْإِشْرَافِ، وَالْمَعْنَى: وَلَا تَزَالُ تَكْشِفُ، وَتُشَاهِدُ خَائِنَةً مِنْهُمْ"[1]، وكشف الخيانة ممَّا يقتضي تكلُّفًا ومشقَّة؛ لأنَّها من دخائل النُّفوس.

التَّعبير بقوله: ﴿خَآئِنَةٍ﴾:

يدلُّ على المصدريَّة المفيدة الوصول إلى منتهى الحدث، وإلى خالص الشَّيء وتمامه

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ﴾، الظَّاهر - في قوله: ﴿خَآئِنَةٍ﴾ - أنَّها صيغة اسم فاعل مؤنَّث، إلَّا أنَّها تحتمل أن تكون "بِمَعْنَى: الْمَصْدَرِ، وَنَظِيرُهُ كَثِيرٌ، كَالْكَافِيَةِ وَالْعَافِيَةِ، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَأُهْلِكُواْ بِٱلطَّاغِيَةِ ۝٥﴾ [الحاقة: 5]، أَيْ: بِالطُّغْيَانِ... وَتَقُولُ الْعَرَبُ: سَمِعْتُ رَاغِيَةَ الْإِبِلِ، وَثَاغِيَةَ الشَّاءِ، يَعْنُونَ: رُغَاءَهَا وَثُغَاءَهَا"[2]، وفي دلالتها على المصدر فائدته: الوصول إلى منتهى الحدث؛ لأنَّ المصدر يدلُّ على خالص الشَّيء وتمامه.

لفظ ﴿خَآئِنَةٍ﴾ يحتمل دلالته على المبالغة:

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ﴾، وتحتمل لفظة ﴿خَآئِنَةٍ﴾ دلالة أخرى، وهي المبالغة على زيادة التَّاء، مثلما يقال: رجلٌ علَّامة، ورجلٌ نسَّابة، فالتَّاء أو الهاء - عند الوقف - للمبالغة، وكذلك ﴿خَآئِنَةٍ﴾ التَّاء للمبالغة[3]، وكقوله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ۝١﴾ [الهمزة: 1].

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/144.
(2) الرازي، مفاتيح الغيب: 11/192.
(3) ابن خالويه، إعراب ثلاثين سورة من القرآن الكريم، ص: 180.

دلالةُ الاستثناء في قوله: ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّنۡهُمۡۖ﴾:

تقريرُ قانون صيانة الاحتمال

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٖ مِّنۡهُمۡ إِلَّا قَلِيلًا مِّنۡهُمۡۖ﴾، قوله: ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ نصبٌ على الاستثناء من خائنة[1]؛ فقد أخرج من الخيانة نفرًا منهم، ودلالة هذا الاستثناء دلالة دقيقة صادقة تدخل تحت قانون صيانة الاحتمال، فقد "يُحتمل أن يُوجد قوم من اليهود يغلبهم الفهم العميق، فيفكروا في أن يؤمنوا بهذا الرَّسول، ويهدِّئوا من شراسة ظنِّهم به؟ وقد فكَّر بعضهم، وأعلن الإسلام"[2]، فمَن آمن منهم داخل في هذا القليل المستثنى.

بلاغةُ الفاءِ الفصيحة:

تسليطُ الضَّوْءِ على منهجِ التَّعاملِ مع الآخرِ

قوله تعالى: ﴿فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱصۡفَحۡۚ﴾، الفاءُ في قولِه تعالَى: ﴿فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱصۡفَحۡۚ﴾ هيَ الفاء الفصيحةُ، وهيَ الَّتي تُفصحُ عن محذوفٍ يقدِّرُه المخاطَبُ من السِّياقِ، وجمهورُ البيانيِّينَ يشترطونَ تضمينَ المقدَّرِ شرطًا، وهوَ ليسَ بلازمٍ، أيْ: إنْ كنت جاهلًا عمَّا يجبُ أنْ تقوم بهِ تجاهَ أولئكَ؛ فاعفُ عنهم واصفح، "والصَّفح: ترْك اللَّوم والمعاتبة، ولذا قالوا: الصَّفح أعلى رتبةً من العفو؛ لأنَّ العفو ترْك المقابلة بالمثل ظاهرًا، أمَّا الصَّفح فهو يتناول السماحة النَّفسيَّة، واعتبار الإساءة كأن لم تكن في الظَّاهر والباطن"[3]، ويظهرُ أثرُ بلاغةِ الفاءِ الفصيحةِ في تسليطِ الضَّوْءِ على الواجبِ فعلِه مع هؤلاء من أهلِ الكتابِ، وهوَ العفوُ والصَّفحُ؛ لأنَّهُ المقصودُ الحقيقيُّ في السِّياقِ.

سرُّ التَّعبيرِ بالعفوِ والصَّفح:

قوله تعالى: ﴿فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱصۡفَحۡۚ﴾، عبَّرتِ الآيةُ بالعفوِ

(1) العكبري، التبيان: 1/427.
(2) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 5/310.
(3) طنطاوي، التفسير الوسيط: 4/84.

تـوريـثُ الـقـوَّةِ الـنَّـفـسـيَّـةِ، والمنعةِ العقديَّةِ

والصَّفحِ، ولمْ تأتِ على ذكرِ الصَّبرِ، أو التَّصدِّي، أو غيرِها من المعاني؛ لأنَّ المقصودَ هو التَّجاوز عن خيانتهم، وتليين قلوبهم، ولا يؤدِّي هذهِ المعاني إلَّا العفوُ والصَّفحُ، وما يولِّدُه منهجُ العفوِ والصَّفحِ من قوَّةٍ فكريَّةٍ، وثباتٍ عَقَديٍّ، وهوَ ما يورِّثُ في النَّفسِ المسلمةِ من القوَّةِ والمُكنةِ، ما لا يورِّثُه النِّزاعُ والجدالُ.

بلاغةُ عطفِ الأفعالِ المتقاربةِ الدِّلالة:

الـجـمـعُ بـينَ الـعـفـوِ المـادِّي، والـصَّـفـحِ المـعـنـويِّ؛ لتحقيقِ التَّوازنِ بينَ الدِّلالتينِ

قوله تعالى: ﴿فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱصۡفَحۡۚ﴾، عُطفَ فعلُ ﴿وَٱصۡفَحۡۚ﴾ على فعلِ ﴿فَٱعۡفُ﴾ في قولِه: ﴿فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱصۡفَحۡۚ﴾؛ لتحقيقِ فائدةٍ بيانيَّةٍ بديعةٍ: وهيَ أنَّ العفوَ درجةٌ من التَّسامحِ عاليةٌ، وهيَ تدلُّ على تركِ عقابِ المذنبِ، أمَّا الصَّفحُ؛ فهوَ تركُ عقابِ المذنبِ جملةً، أي: أعرضُوا عن المذنبِ بصفحةِ الوجهِ في "عدمِ لومِه وتثريبِه عليهِ، وهوَ أبلغُ منَ العفوِ"[1]؛ ليشمل ذلك ترك العقاب والمجازاة، وترك اللَّوم أيضًا، فجاءَ بفعلينِ متقاربينِ في الدِّلالةِ؛ ليحقِّقَ الشموليَّةَ في بناءِ أخلاقِ المسلمينَ في الجانبينِ الماديِّ والمعنويِّ: الماديِّ في تركِ العقوبةِ، والمعنويِّ النَّفسيِّ في تركِ اللَّومِ والتَّثريبِ عليهم.

بلاغةُ تقديمِ العفوِ على الصَّفح:

العـفـوُ مقدِّمةُ الـصَّـفـحِ ولا يُتصوَّرُ بدونِه، فهوَ من تقديمِ الأسـبـابِ على نتائجِها

قوله تعالى: ﴿فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱصۡفَحۡۚ﴾، قُدِّمَ العفوُ على الصَّفحِ؛ لأنَّ العفوَ أهمُّ من الصَّفحِ؛ فللعفوِ أثرٌ جسديٌّ ماديٌّ؛ لأنَّهُ يتعلَّقُ بالمظهرِ، بينَما نجدُ الصفحَ ذا أثرٍ نفسيٍّ، فالعفوُ سلامةٌ، والصَّفحُ غنيمةٌ، وطلبُ السَّلامةِ مقدَّمٌ على طلبِ الغنيمةِ، ثمَّ قدَّمَه لسببٍ ثانٍ، وهوَ أنَّ حصولَ العفوِ من المسلمينَ هوَ مقدِّمةٌ لحصولِ الصَّفحِ، فهوَ من قبيلِ تقديمِ السَّببِ على النَّتيجةِ؛ فتركُ العقوبةِ قدْ يكونُ سببًا لتركِ

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 1/671.

اللَّوم والمؤاخذةِ، "والحقُّ هنا يأمر بالعفو، أي: إزالة أثرها، ويأمر بالصَّفح، أي: أن تُخْرِجَ أثر الخطيئة من بالك"[1].

دلالة تذييل الآية بالإحسان:

الإحسان أمر زائد على التَّقوى

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾، تذييل لما سبق من عفو وصفح؛ لأنَّ الإحسان له وجهان: الأوَّلُ: «أَنْ تَعْبُدَ اللّه كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ، فَإِنَّهُ يَرَاكَ»[2]، وعلى ذلك فإنَّ الإحسانَ أمرٌ زائدٌ على التَّقوى، فمِنَ الإحْسانِ ما لا يقفُ المُحسِنُ عند ما كلَّفهُ الحقُّ تبارك وتعالى، بل يزيدُ عليها، ضمن الشَّرع طبْعًا، كالَّذي يتقرَّبُ إلى اللّه بالنَّوافل[3]، صلاةً وصيامًا وإنفاقًا للمال، وسوى ذلك من وجوه الخير الَّتي لا حصر لها، وهذا هو الوجهُ الثَّاني للإحسان.

الألفُ واللَّامُ تفيد جنس المحسنين وعمومهم

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾، الألفُ واللَّامُ في ﴿ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ جنسيَّةٌ، تشملُ جميع المُحسنين، وتُفيدُ الجنس والعُمُوم، كي لا يظنَّ ظانٌّ أنَّ حبَّه تعالى للمحسنين مقتصر على الوارد ذكرهم في الآية.

﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ و﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ﴾:

تحريف الكلم عن مواضعه أقرب زمنًا من تحريف الكلم من بعد مواضعه

قوله تعالى: ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾، آية من آيات المتشابه اللَّفظيِّ، وردت في ثلاثة مواضع من الكتاب الكريم، فوردت هنا، وفي النِّساء بقوله تعالى: ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ [النِّساء: 46] بحرف الجرِّ داخلًا على ﴿مَّوَاضِعِهِۦ﴾، فيما وردت في موضع آخر من المائدة بقوله تعالى: ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ﴾ [المائدة: 41] بالعدول من

(1) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 5/3011.
(2) الإمام أحمد، المسند، الحديث رقم: (185).
(3) الشعّراوي، تفسير الشّعراوي، 6/3391.

﴿عَن﴾ إلى ﴿مِنۢ بَعۡدِ﴾، فالسُّؤال عن الفرق بين الموضعين المتشابهين، ولا سيَّما التَّعبير بـ﴿عَن﴾ والتَّعبير بـ﴿مِنۢ بَعۡدِ﴾، ولِمَ اختصَّ أحدهما بما اختصَّ به؟

والجواب عن ذلك: أنَّ ثمَّة تقاربًا بين (عن) و(بعد) إلَّا أنَّ بينهما فرقًا دقيقًا وهو الزَّمن، فإنَّ "الأصل في هذا المكان أن تستعمل (عن)؛ لأنَّ (بعد) قد تكون لما تأخَّر زمان غيره بأزمنة كثيرة وبزمن واحد، و(عن) لما جاوز الشَّيء إلى غيره، وملاصقًا زمنه"[1] وهذا متعلِّق بالآية الأولى: ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾، أمَّا قوله تعالى: ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ مِنۢ بَعۡدِ مَوَاضِعِهِۦۖ﴾؛ فهو "أن يكون المراد من بعد موت النَّبيِّ؛ ليجعلوه على خلاف ما سمعوه منه، وهذا موضع (بعد) لا موضع (عن)؛ لأنَّه ليس يعدوه إلى المحرَّف إليه، فينفصل عمَّا جاء عليه إلى الكذب مقارنًا له، وإنَّما ذلك بعده بأزمنة كثيرة يتوقَّعون مضيَّها؛ ليسهل كذبهم بعدها"[2].

﴿عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ في أوائل اليهود، و﴿مِنۢ بَعۡدِ مَوَاضِعِهِۦۖ﴾ في زمنه ﷺ:

الفرق بين قوله تعالى: ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾، وقوله تعالى ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ مِنۢ بَعۡدِ مَوَاضِعِهِۦۖ﴾ [المائدة: 41]: أنَّ "الأولى: فِي أَوَائِل الْيَهُود، وَالثَّانيَة: فِيمَن كَانُوا فِي زمن النَّبِي ﷺ أَي: حرَّفوها بعد أَن وَضعهَا اللّه مَوَاضعهَا، وعرفوها، وَعمِلُوا بهَا زَمَانًا".[3] وهو عين كلام ابن جماعة، فقد ذكر: "أنَّ الأولى هنا وآية النِّساء ربَّما أريد بها التحريف الأوَّل عند نزول التوراة... والآية الثَّانية: تحريفهم في زمن النَّبيِّ ﷺ، وتغييرهم عن المقول لهم في التَّوراة بغير معناه... فـ(عن)؛ لما قرب من الأمر، و(بعد)؛ لما بعُد"[4].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

المحبَّة والإرادة:

ثمَّة فرقٌ مُعجميٌّ بين المحبَّة والإرادة، وهو "أنَّ المحبَّة: تجري على الشَّيء، ويكونُ المُرادُ به غيرَهُ، وليس كذلك الإرادة... وتقولُ: (اللّه يُحِبُّ المُؤمنين)، بمعنى: أنَّهُ يُريد إكرامهم

(1) الإسكافي، درة التنزيل: 1/437.
(2) الإسكافي، درّة التنزيل: 1/438.
(3) الكرماني، البرهان، ص: 101.
(4) ابن جماعة، كشف المعاني، ص: 146.

وإثابتهم، ولا يُقال: إنَّه يريدهم"[1]، والوارد في الآية الكريمة على هذا النَّسق؛ فالحقُّ (تبارك وتعالى) يحبُّ المُحسنين، أي: يريدُ إكرامهم وإثابتهم على إحسانهم، ولا يُتصوَّرُ أن يُقال في حقِّهم: إنَّهُ يُريدُهم؛ لأنَّ المحبَّة تختلفُ عن الإرادة كما تقدَّم، والله أعلم.

المحبَّةُ تجري على الشَّيء ويراد غيرُهُ، وليس كذلك الإرادة

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 121.

﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَهُمۡ فَنَسُواْ حَظّٗا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَأَغۡرَيۡنَا بَيۡنَهُمُ ٱلۡعَدَاوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ وَسَوۡفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ ١٤﴾ [المائدة: 14]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

بيانُ حالِ النَّصارَى بعد بيانِ حالِ اليهودِ

لَمَّا ذكر اللّه حالَ اليهود ونَقْضَهُمُ الميثاقَ، بَيَّنَ على إِثْرِ ذلك أنَّ النَّصارى لم يكونُوا أحسنَ معاملةً منَ اليهودِ، فَبيّن مُعامَلَتَهُمْ[1]، فالجُمْلَةَ مَعْطوفَةٌ عَلى جملةٍ سابقةٍ، وهي قَوْلُهُ: ﴿۞وَلَقَدۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ [المائدة: 12]، كما أنَّ النَّصارى لَمَّا دَخَلُوا فيمن مَضى لأنَّهم من بني إسرائيلَ، خَصَّهم هُنا بالذِّكر؛ لأنَّ كُفرَهم أشدُّ وأَسْمَجُ، فقال: ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ﴾ الآية[2]؛ فذُكِرَ بَعْدَ مِيثَاقِ اليَهُودِ مِيثَاقُ النَّصَارَى[3]، فَهُوَ شروعٌ في بيان خُبْثِ النَّصارى إِثْرَ بيانِ خيانةِ اليهودِ[4].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿نَصَٰرَىٰٓ﴾: جَمْعُ نَصْرانٍ للمُذكَّرِ ونَصْرانَةٍ للمؤنث، والغالبُ في الاسْتِعْمَال النِّسبةُ نَصْرانيٌّ ونصرانيَّةٌ؛ وهو مَأْخوذٌ منَ النَّصْرِ والنُّصْرَةِ بمعنى العونِ والإمداد، وأصلُ نَصَرَ يَدُلُّ عَلَى إِتْيَانِ خَيْرٍ وَإِيتَائِهِ، وإنَّما سُمِّيَ النَّصارى بذلك لقولهم: ﴿نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: 52]، وقِيلَ سُمُّوا بذلك انتسابًا إلى قريةٍ يُقالُ لها نَصْرانٌ، وقيل لِنُزولِ عيسى عليه السلام قريةَ نَاصِرَةَ، فكان يُقال لَهُ عيسى النَّاصريُّ، ثُمَّ نُسِبَ قومُه إليه[5].

(1) السَّمَرْقَنديّ، بحر العلوم: 1/376.
(2) البِقاعيّ، نَظْمُ الدُّرَر: 6/60.
(3) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/145.
(4) القُونَويّ، حاشيةُ القُونَويِّ على البيضاوي: 7/424.
(5) الرَّاغِب، المُفْردات، والزَّمَخْشريّ، أَساسُ البلاغة، وابْنُ فارِسٍ، مَقاييسُ اللُّغَة: (نصر)، والنيسابوري، باهِرُ البُرْهان: 1/89.

2) ﴿مِيثَٰقَهُمۡ﴾: المِيثَاق: العَهْدُ المُوَثَّقُ، من وَثُقَ يَوْثُقُ وَثَاقَةً وإيثاقًا، والوَثِيقُ: الشَّيءُ المُحْكَمُ، وأَصْلُ (وَثُقَ) يَدُلُّ عَلَى عَقْدٍ وَإِحْكَام، والوَثِيقةُ في الأمر: إِحْكامُهُ والأَخْذُ بالثِّقة، والمِيثاقُ: منَ المُواثَقة، العَهْدُ، وَالجَمْعُ مَواثيقُ، والمَعْنى هُنا: أَخَذْنا مِنَ النَّصارى المِيثاقَ على طاعَتي وأَداءِ فَرائِضي، واتّباعِ رُسُلي والتَّصديقِ بِهِمْ[1].

3) ﴿حَظّٗا﴾: الحَظُّ النَّصيبُ المُقَدَّرُ مِنَ الفَضْل والخيْر، وفُلَانٌ ذُو حَظٍّ وقِسْم مِنَ الفَضْلِ، والحَظُّ: البَخْتُ، وأَصْلُ الحَظِّ النَّصيبُ، وقَدْ حَظَظَ وأَحَظَّ، فهو مَحْظُوظٌ، والمعنى هنا: نَسُوا مِنَ المِيثَاقِ المَأْخُوذِ عَلَيْهِمْ نَصِيبًا وَافِرًا[2].

4) ﴿فَأَغۡرَيۡنَا﴾: هَيَّجْنا وألصقْنا، يُقالُ: غَرِيَ بكذا؛ أَيْ: لَصَقَ بِهِ ولَهَجَ، وأَصْلُ ذَلِكَ من الغِراءِ، وهو ما يُلْصَقُ بِهِ، والإِغراءُ: الإِيلاعُ، والمَعْنى هُنا: فَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ العَدَاوَةَ وَالتَّبَاغُضَ لِبَعْضِهِمْ بَعْضًا[3].

5) ﴿ٱلۡعَدَاوَةَ﴾: منَ العَدْوِ، وهو التَّجاوزُ ومُنافاةُ الالتئام؛ فتارةً يُعْتَبَرُ بِالقَلْبِ؛ فيُقالُ لَهُ العَداوَةُ والمُعاداةُ، وتَارَةً بِالمَشْيِ؛ فَيُقالُ لَهُ العَدْوُ، والعَدُوُّ: ضِدُّ الوَلِيِّ، والجَمْعُ الأَعْداءُ، وأَصْلُ العَدْوِ يَدُلُّ عَلَى تَجَاوُزٍ فِي الشَّيْءِ وَتَقَدُّمٍ، والعَداوةُ: تبَاعُدُ القُلُوب والنِّيات، وهي اسْمٌ عامٌّ مِن العَدُوِّ[4].

6) ﴿وَٱلۡبَغۡضَآءَ﴾: مِنَ البُغْضِ، وهو نِفارُ النَّفْسِ عَنِ الشَّيءِ الذي تَرْغَبُ عَنْهُ، ورجُلٌ بَغِيضٌ، وَقد بَغُضَ بَغَاضَةً؛ أَي: صارَ بَغِيضًا، وبَغَّضَه اللّه إِلى النَّاسِ تَبْغِيضًا فأَبْغَضُوه؛ أَي: مَقَتُوهُ، وأَصْلُ البُغْضِ يَدُلُّ عَلَى خِلَافِ الحُبِّ، فَهُوَ نَقِيضُ الحُبِّ، والبِغْضَةُ والبَغْضَاءُ: شدَّة البُغْضِ[5].

---

(1) الخليل، العَينْ، وابْنُ عَبَّادٍ، المُحيط، وابْنُ دُرَيْدٍ، جَمْهَرَةُ اللُّغَة، والجَوْهَريّ، الصِّحاح، وابْنُ فارِسٍ، مَقاييسُ اللُّغَة: (وثق)، وابنُ عُزَيز، غَريبُ القُرْآن، ص: 454، وابن جرير، جامع البيان: 10/135.

(2) الخليل، العَينْ، والرَّاغِب، المُفْردات، وابْنُ مَنْظورٍ، لِسَانُ العَرَب: (حظ)، والسَّمين، عُمْدَةُ الحُفَّاظ، والزَّبيديّ، تاجُ العَروس: (حظظ)، والشَّوكانيّ، فتح القدير: 2/26.

(3) الخليل، العَينْ: (غر)، والرَّاغِب، المُفْردات: (غرا)، والسَّمين، عُمْدَةُ الحُفَّاظ: (غري)، وابنُ عزيز، غَريبُ القُرْآن، ص: 56، وابْنُ كَثِيرٍ، تَفْسيرُ القرآن العظيم: 3/67.

(4) الأَزْهَريّ، تَهْذيبُ اللُّغَة: (عد)، والرَّاغِب، المُفْردات، والسَّمين، عُمْدَةُ الحُفَّاظ، والجَوْهَريّ، الصِّحاح: (عدا)، والزَّبيديّ، تاجُ العَروس: (عدو)، وابنُ عزيز، غَريبُ القُرْآن، ص: 56.

(5) الأَزْهَريّ، تَهْذيبُ اللُّغَة، والجَوْهَريّ، الصِّحاح، والرَّاغِب، المُفْردات، والسَّمين، عُمْدَةُ الحُفَّاظ، وابْنُ مَنْظورٍ، لِسَانُ العَرَب، والزَّبيديّ، تاجُ العَروس: (بغض).

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

أخذ الله الميثاقَ مـنَ الـنّـصارى فتركوه فعذّبَهم في الدُّنيا والآخرة

وَأخذْنا عَلى الذينَ ادَّعَوْا أَنَّهُمْ أَتْباعُ المسيحِ عيسى عليه السلام - ولَيْسُوا كذلك - العَهْدَ المُؤَكَّدَ الذي أخذناه على بَني إِسْرائيلَ: بِأَنْ يُتابعوا رَسُولَهم ويَنْصُروه ويؤازرُوه، فبدَّلوا دينَهم، فَتَرَكوا العَمَلَ بِجُزءٍ مِمَّا ذُكِّرُوا به، كَمَا فَعَلَ أَسْلافُهُمْ مِنَ اليَهودِ، وألقينا بَيْنَهُمُ الخُصومَةَ والكَراهَةَ الشَّديدةَ إلى يوم القيامة، فأصبحوا مُتَقاتِلينَ مُتناحرينَ يُكَفِّرُ بَعْضُهم بَعْضًا إلى يوم القيامة، وسَوْفَ يُخْبِرُهُمُ اللّه يومئذ بما كانوا يَعْمَلونَ ويُجازيهم عَلَيْهِ[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

سِرُّ تقديم الجَارِّ والمَجْرورِ ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ﴾ على مُتَعَلَّقِه:

تَقْرِيرُ المُتَعَلَّقِ والاهتمامُ به وَتَثْبِيتُه فِي الذِّهْنِ

حَيْثُ قُدِّمَ مُتَعَلَّقُ ﴿أَخَذْنَا مِيثَٰقَهُمْ﴾، وجِيءَ بِضَمِيرِهِ مَعَ العَامِلِ لِلنُّكْتَةِ الدَّاعِيَةِ لِلاشْتِغَالِ مِنْ تَقْرِيرِ المُتَعَلَّقِ وَتَثْبِيتِهِ في الذِّهْنِ؛ إِذْ يَتَعَلَّقُ الحُكْمُ بِاسْمِهِ الظَّاهِرِ وَبِضَمِيرِهِ، فـ (مِنْ) تَتَعَلَّقُ بِقَوْلِهِ: ﴿أَخَذْنَا﴾، وَالضَّمير في ميثاقهم عائدٌ عَلى المَوْصولِ، والتَّقْديرُ: وَأَخَذْنَا، مِنَ الَّذِينَ قَالُوا: إِنَّا نَصَارَى، مِيثَاقَهُمْ، فَقُدِّمَ الجارُّ والمجرور للاهتمام به[2].

وَالمَعْنَى: أَنَّهُ تَعالى أَخَذَ مِنَ النَّصارى مِيثاقَ أَنْفُسِهِمْ، وهو الإيمانُ بِاللّه وَالرُّسُلِ وَبِأَفْعالِ الخَيْرِ[3]، فَجيء بِتِلْكَ العِبارَةِ لصورةِ الاهتمام بالمُقَدَّم والتَّشويقِ إلى المُؤَخَّرِ.

نُكتةُ التَّشبيهِ البليغِ في إضافةِ الميثاقِ:

وقد يكونُ ضَميرُ ﴿مِيثَٰقَهُمْ﴾ عائدًا على بني إسرائيل الذين عادت إليهم الضَّمائرُ السَّابقةُ، والمعنى: أخذنا منَ النَّصارى

(1) لَجْنَةٌ مِنْ عُلَماءِ الأَزْهَر، المُنْتَخَب، ص: 147، ونُخْبَةٌ مِنْ أَساتِذَةِ التَّفْسير، التَّفْسيرُ المُيَسَّر، ص: 110، وجَماعَةٌ مِنْ عُلَماءِ التَّفْسير، المُخْتَصَر، ص: 110.

(2) أَبو السُّعود، إرشاد العَقْل السّليم: 3/17، والقُونَويّ، حاشيةُ القُونَويِّ على البيضاوي: 7/424.

(3) ابْنُ عَطِيَّة، المُحرَرُ الوَجيز: 2/17، وأَبو حَيّان، البَحْرُ المُحيط: 4/207.

ميثاقَ من ذُكِرَ قَبْلَهُمْ من قوم موسى؛ أَيْ: مِثْلَ ميثاقِهم بالإيمان بالله والرُّسل[1]؛ كقولِ القائلِ: أخذتُ من زيدٍ ميثاقَ عمرٍو؛ أي: مِثْلَ ميثاقِه[2]، وَالإِضَافَةُ هُنا على معنى التَّشْبِيهِ؛ أَيْ: مِنَ النَّصَارَى أَخَذْنَا مِثْلَ مِيثَاقِ اليَهُودِ[3]، فَهُوَ تَشْبِيهٌ بَلِيغٌ حُذِفَت منه الأَدَاةُ فَانْتَصَبَ المُشَبَّهُ بِهِ[4]؛ لأَنَّ الجُمْلَةَ مَعْطوفَةٌ عَلى جملةٍ سابقةٍ، وهي قَوْلُهُ: ﴿۞وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ [المائدة: 12]، والجامعُ بَيْنَ الجُملتين خياليٌّ باعْتِبَار المُتَعَلَّق؛ لأَنَّ ذِكْرَ حالِ إحدى الطَّائفتين مِمَّا يُوقِعُ في ذِهْنِ السَّامِعِ أَنَّ حالَ الأخرى ماذا؟ فكأنَّه قيل: ومن الطائفةِ الأخرى أيضًا أخذْنا ميثاقَهُم[5].

تشبيهُ حالِ النَّصارَى بحالِ مَن سَبَقَهُمْ منَ اليهودِ وأنَّهم سواءٌ في نَقْضِ الميثاقِ

نُكْتَةُ الإطنابِ في التَّعبيرِ عَنِ النَّصَارَى بِالموصولِ وصِلَتِهِ:

وكان الظَّاهرُ أن يُقالَ (وَمِنَ النَّصارى) من دون إطْناب، فَعدلَ عنِ الظَّاهر، فقال: ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ﴾؛ لِيُصَوِّرَ تِلْكَ الحالَ في ذِهْنِ السَّامع، ويقرِّرَ عنده أنَّهم ادَّعوا نُصْرةَ دينِ الله، فَعَلَّقَ كَوْنَهُمْ نَصارى بِقَوْلِهِمْ ودَعواهم، من حيث إنّ لقبَ (النَّصارى) هو اسمٌ شرعيٌّ يقتضي نصرَ دينِ الله، وسَمَّوْا به أنفسَهم دون استحقاقٍ ولا مُشابهةٍ بَيْنَ فِعْلهم وقولِهم، فجاءت هذه العبارةُ فاضِحَةً مُوبِّخَةً لهم، مُزَحْزِحَةً لهم عن طريق نَصْرِ دينِ الله وأنبيائِه[6].

تَوْبيخُهُمْ وزَجْرُهُمْ عن قَوْلِهِمْ غيرِ المُوَفَّى به

وَلَمَّا كان المقصودُ من هذه الآية ذمَّهم بِنَقْضِ الميثاق المأخوذِ عليهم بنُصْرَةِ الله، وبِما يدلُّ على أنَّهم لم يُوفوا بما عَاهدُوا

(1) الزَّمَخْشَرِيّ، الكَشَّاف: 1/616.
(2) الخَفاجيّ، عناية القاضي: 3/224.
(3) قَالَ قَتَادَة: أُخِذَ عَلَى النَّصَارَى المِيثَاقُ كَمَا أُخِذَ عَلَى أَهْلِ التَّوْرَاةِ أَنْ يُؤْمِنُوا بِمُحَمَّدٍ ﷺ، فَتَرَكُوا مَا أُمِرُوا بِهِ، ينظر: أَبو حَيّان، البَحْرُ المُحيط: 4/207، وقدَّم الزَّمخشري ذِكْرَ هذا الوجه، واستبعده ابنُ عاشور، بحجّةِ أنّ مِيثَاقَ اليَهُودِ لَمْ يُفَصَّلْ فِي الآيَةِ السَّابِقَةِ حَتَّى يُشَبَّهَ بِهِ مِيثَاقُ النَّصَارَى، ينظر: ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/146.
(4) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/145 - 146.
(5) أَبو السُّعود، إرشاد العَقْل السّليم: 3/17، والقُونَويّ، حاشيةُ القُونَويِّ على البيضاوي: 7/425.
(6) ابْنُ عَطِيَّة، المُحَرَّرُ الوَجيز: 2/170.

عَلَيْهِ منَ النُّصرة عَدَلَ عن قولِه النَّصارى إلى هذا، فحاصلُ ما صَدَرَ عنهم قولٌ بلا فعلٍ[1].

وقد كان هذا الاسمُ في الحقيقة اسمَ مدحٍ، فَبَيَّنَ اللّه تعالى أنَّهم يَدَّعون هذه الصِّفَةَ، ولكنَّهم لَيْسوا مَوْصوفينَ بها عند اللّه تعالى[2].

ففي هذا التَّعبيرِ تَقْريعٌ ولومٌ على هذا الضَّعفِ مِنَ القومِ الذين يدَّعون بالقولِ واللِّسان انتسابَهم إلى عيسى عليه السلام وفعلُهم يُخالفُ قولَهم ومُعْتَقَدَهَمْ، فَهُو تَوْبِيخٌ لَهُمْ وَزَجْرٌ عَمَّا ادَّعَوْهُ مِنْ أَنَّهُمْ أنصارُ دينِ اللّه وَأَنْبِيَائِه، إِذْ جَعَلَ ذَلِكَ مِنْهُمْ مُجَرَّدَ دَعْوَى لَا حَقِيقَةً[3].

واخْتيرَ ما في النَّظْم لِيَدُلَّ عَلَى ذلك، وفيهِ نَوْعُ مُخالَفَةٍ لقوله في سورة البقرة: ﴿وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ﴾ [البقرة: 62] مِنْ أَنَّهُم سُمُّوا بذلك؛ لأنَّهم نَصَروا المَسيحَ، وظاهِرُهُ أنَّ نُصْرَتَهُمْ واقعيةٌ لا ادّعائيةٌ على أنّه تَعَالَى ذكرَ كثيرًا النَّصارى بِدُون القَوْل: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ﴾، وغايةُ الأمرِ أنَّهم بعد ما سُمُّوا بالنَّصارَى لِنَصْرِهِمْ رُوحَ اللّه كالحَواريِّينَ بَدَّلوا دينَ اللّه تَعالى، واخْتَلَفُوا بعدَها إلى نَسْطُوريَّةٍ ويَعْقوبيَّةٍ ومَلْكانيَّةٍ أنصارًا لِلشَّيْطانِ[4].

ولا يَبْعُدُ أن يكونَ قَوْلُ: ﴿إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ﴾ إشارةً إِلَى ذلك، وفيه تقبيحٌ جسيمٌ جِدًّا؛ حيث يُتَوَقَّعُ منهمُ النُّصْرَةُ كما هو حالُهم أَوَّلًا، ثُمَّ غَيَّرُوا حالَهم وخَسِرَ مآلُهم[5]، فيكونُ تَعْريضًا؛ حَيْثُ يُفيدُ لفظُ ﴿قَالُوٓاْ﴾ بِطَريقِ التَّعريضِ الكِنائِيِّ أَنَّ هذا القَوْلَ غيرُ مُوَفًّى به، وأنَّه يَجِبُ أن يُوفَّى بِهِ[6]؛ لأنَّ ادّعاءَهم لنُصرتِه تعالى يستدعِي ثباتَهم على طاعتِه تعالى ومراعاةِ ميثاقِه[7].

فَلَمَّا كان المقصودُ في هذه الآية ذمّهم بنقض الميثاقِ المأخوذِ عليهم في نُصْرَةِ اللّه تعالى، نَاسَبَ ذلك أَنْ يُصَدِّرَ الكلامَ بما يَدُلُّ على أنَّهم لم يَنْصُروا اللّه، ولم يَفُوا بِما واثقوا عليه منَ النُّصْرَةِ، وما كان حاصلُ أمرِهم إلا التَّفوهَ بدعوى النُّصْرَةِ، وقولَها دون فعلها[8].

(1) الخَفاجيّ، عناية القاضي: 3/225.
(2) الرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 11/326.
(3) أَبو حَيّان، البَحْرُ المُحيط: 4/207.
(4) الزَّمَخْشَرِيّ، الكَشَّاف: 1/616، والبَيْضاويّ، أَنْوارُ التَّنْزيل: 2/118، والخَفاجيّ، عناية القاضي: 3/224.
(5) القُونَويّ، حاشية القُونَويِّ على البيضاوي: 7/425.
(6) أَبو حَيّان، البَحْرُ المُحيط: 4/207، وابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/146.
(7) أَبو السُّعود، إرشاد العَقْل السّليم: 3/17.
(8) القاسمي، محاسن التأويل: 4/90.

إقامةُ الحُجّةِ عليهم والتَّعريضُ بهم

كما أنّ في التَّعبير بالاسم الموصولِ هُنَا وَفي قَوْلِه: ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰۚ﴾ [المَائِدَة: 82] تَسْجِيلًا عَلَيْهِمْ بِأَنَّ اسْمَ دِينِهِمْ مُشِيرٌ إِلَى أَصْلٍ مِنْ أُصُولِهِ، وهو أَنْ يَكُونَ أَتْبَاعُهُ أَنْصَارًا لِمَا يَأْمُرُ بِهِ اللّه، ﴿كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّـۧنَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِۖ﴾ [الصَّفُّ: 14]، وَمِنْ جُمْلَةِ ذَلِكَ أَنْ يَنْصُرُوا القَائِمَ بِالدِّينِ بَعْدَ عِيسَى مِنْ أَتْبَاعِه، مِثْلَ بُولُسَ وَبُطْرُسَ وَغَيْرِهِمَا مِنْ دُعَاةِ الهُدَى، وَأَعْظَمُ مِنْ ذَلِكَ كُلِّه أَنْ يَنْصُرُوا النَّبِيَّ المُبَشَّرَ بِهِ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ الَّذِي يَجِيءُ بَعْدَ عِيسَى قَبْلَ مُنْتَهَى العَالَمِ، وَيُخَلِّصُ النَّاسَ مِنَ الضَّلَالِ ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥۚ﴾، الآيَةَ [آل عمران: 81]، فَجَمِيعُ أَتْبَاعِ الرُّسُلِ قَدْ لَزِمَهُمْ مَا التَزَمَهُ أَنْبِيَاؤُهُمْ، وَبِخَاصَّةٍ النَّصَارَى، فَهَذَا اللَّقَبُ، وهو النَّصَارَى، حُجَّةٌ عَلَيْهِمْ قَائِمَةٌ بِهِمْ مُتَلَبِّسَةٌ بِجَمَاعَتِهِمْ كُلِّهَا[1].

وَمن هنا فَحَيْثُ جَاءَ النَّصَارَى مِنْ غَيْرِ نِسْبَةٍ إِلَى أَنَّهُمْ قَالُوا عَنْ أَنْفُسِهِمْ ذَلِكَ، فَإِنَّمَا هُوَ مِنْ بَابِ العَلَمِ لَمْ يُلْحَظْ فِيهِ المَعْنَى الأَوَّلُ الَّذِي قَصَدُوهُ مِنَ النَّصْرِ، كَمَا صَارَ اليَهُودُ عَلَمًا لم يُلْحَظْ فِيهِ مَعْنَى قَوْلِه: ﴿هُدْنَآ إِلَيْكَۚ﴾[2].

سِرُّ تَنْكِيرِ الحَظِّ المَذْكورِ وإفرادِهِ:

تَعْظِيمُ شأنِ هذا الحَظِّ

فقد جاء مَكْتُوبًا في الإِنْجِيلِ أَنْ يُؤْمِنُوا بِمُحَمَّدٍ ﷺ، والحَظُّ هو الإِيمَانُ بِهِ، وتنكيرُ الحظّ يَدُلُّ على أَنَّ المُرَادَ بِهِ حَظٌّ وَاحِدٌ، وهو الإِيمَانُ بِالرَّسُولِ، وَخُصَّ هَذَا الوَاحِدُ بِالذِّكْرِ مَعَ أَنَّهُمْ تَرَكُوا أَكْثَرَ مَا أَمَرَهُمُ اللّه بِهِ؛ لِأَنَّ هَذَا هو المُعَظَّمُ والمُهِمُّ[3]، ومَعَ عِظَمِ هذا

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/146.
(2) أبو حَيّان، البَحْرُ المُحيط: 4/207.
(3) أبو حَيّان، البَحْرُ المُحيط: 4/207.

الحظ وأهمِّيته فقد نَسُوه وتَرَكُوه خَلْفَهُمْ ظِهْرِيًّا؛ لذا عَبَّرَ بالماضي ﴿فَنَسُواْ﴾؛ لأنَّ النِّسيانَ لا يتجَدَّدُ، فإذا حَصَلَ مضى؛ حتى يذكَّرَ بِهِ مُذَكِّرٌ[1]؛ وفي هذا ذَمٌّ ولومٌ شديدٌ لهم؛ إذْ نَسُوا أعظمَ أَمْرٍ وتركوه.

دَلالَةُ استعارةِ لَفْظِ الإغراءِ مع العَداوَةِ والبَغْضاءِ:

بيانُ مُلازَمَةِ العَداوَةِ والبَغْضاءِ لنُفُوسِهِمْ

فالإغْراءُ والإلقاءُ محضُ فِعْلِهِ سبحانه، والتَّعادي والتَّباغضُ أَثَرُهُ، وهو مَحْضُ فِعْلِهِمْ[2]، وحَقِيقَةُ الإغْرَاءِ حَثُّ أَحَدٍ عَلَى فِعْلٍ وَتَحْسِينُهُ إِلَيْهِ؛ حَتَّى لَا يَتَوَانَى في تَحْصِيلِهِ، فَاسْتُعِيرَ الإغْرَاءُ لِتَكْوِينِ مُلَازَمَةِ العَدَاوَةِ وَالبَغْضَاءِ في نُفُوسِهِمْ؛ أَيْ: لُزُومِهِمَا لَهُمْ فِيمَا بَيْنَهُمْ، فشُبِّهَ تَكْوِينُ العَدَاوَةِ وَالبَغْضَاءِ مَعَ اسْتِمْرَارِهِمَا فِيهِمْ بِإِغْرَاءِ أَحَدٍ أحدًا بِعَمَلٍ يعْمَلُه تَشْبِيهَ مَعْقُولٍ بِمَحْسُوسٍ[3]؛ إِذْ إِنَّ أَصْلَ معنى الإغراء الالصاقُ، وغَرِيَ الشَّيْءُ بِالشَّيْءِ إذا لَصَقَ به[4]، ومنه الغِراءُ المَعْروفُ، فاستُعمل في لازم معناه، وهو الإلزامُ للعداوة بِأَنْ صارُوا فِرقًا يُكَفِّرُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا[5]، فهو مَجازٌ عن الإلزامِ لِلُزومِهِ لَهُ[6].

بديعُ التَّجريد[7] في العُدول عن تعديةِ الفعلِ بحرفِ الجَرِّ إلى تَعْليقِهِ بالظَّرْفِ:

بَيانُ عِظَمِ العَداوةِ بَيْنَهُمْ وتَمَكُّنِها في قُلوبِهِمْ

ولَمَّا دَلَّ الظَّرْفُ، وهو ﴿بَيْنَهُمُ﴾، عَلَى أَنَّهُمَا أُغْرِيَتَا (بِهِمُ) اسْتُغْنِيَ عَنْ ذِكْرِ متعلّق ﴿فَأَغْرَيْنَا﴾، وَتَقْدِيرُ الكَلَامِ: فَأَغْرَيْنَا العَدَاوَةَ وَالبَغْضَاءَ بِهِمْ كَائِنَتَيْنِ بَيْنَهُمْ، وَيُشْبِهُ أَنْ يَكُونَ العُدُولُ عَلَى تَعْدِيَةِ (أَغْرَيْنَا) بِحَرْفِ الجَرِّ إِلَى تَعْلِيقِهِ بِالظَّرْفِ قَرِينَةً أَوْ تَجْرِيدًا؛ لِبَيَانِ أَنَّ المُرَادَ بـ﴿فَأَغْرَيْنَا﴾: ألقَيْنَا[8].

---

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/144.

(2) ابن القيم، شفاء العليل، ص: 58.

(3) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/147.

(4) البَيْضاويّ، أَنْوارُ التَّنْزيل: 2/119.

(5) الخَفاجيّ، عناية القاضي: 3/225.

(6) القُونَويّ، حاشيةُ القُونَويِّ على البيضاوي: 7/425.

(7) التَّجريدُ هو: انتزاع المُتَكلِّم الأديب من أمْرٍ ما ذي وصفٍ فأكثر أمْرًا آخر فأكثر مِثْلَهُ في الصِّفَةِ أو الصِّفات على سبيل المبالغة، مثاله قول القائل: "لِي مِنْ فُلانٍ صَديقٌ حَميمٌ"، فكأنَّه جرَّدَ فُلاناً من كُلِّ ظواهره واستخرج منه صَدِيقًا حَمِيمًا.

(8) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/147، والرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 11/326.

والضَّميرُ في ﴿بَيْنَهُمُ﴾ يَحْتَمِلُ أن يَعُودَ على اليهود والنَّصارى؛ لأنَّ العَداوةَ بَيْنَهُمْ مَوجودةٌ مستمرَّةٌ، ويَحْتَمِلُ أن يعودَ على النَّصارى فَقَطْ؛ لأنَّها أمَّةٌ مُتقاتِلَةٌ بينها الفتنُ إلى يوم القيامة[1]، وقد استُخْدِمَ هذا الفعلُ (أغرينا) مع كلمة العداوةِ والبغضاء لِيَدُلَّنَا على عِظَمِ العداوة بينهم ورغبتِهم في إثارتها بين الحِينِ والآخر.

بلاغة توجيه المتشابه اللّفظي في استعمال كلمة الإغراء مع النّصارى والإلقاء مع اليهود:

ومن لطائفِ البيانِ في هذا المقام مجيءُ كلمةِ (أغرينا) هُنا مع النَّصارى ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ﴾، في حين نجدُ كلمةَ (ألقَينَا) في موضع آخر استعملت مع اليَهود: ﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغۡلُولَةٌۚ غُلَّتۡ أَيۡدِيهِمۡ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْۘ بَلۡ يَدَاهُ مَبۡسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيۡفَ يَشَآءُۚ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرٗا مِّنۡهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ طُغۡيَٰنٗا وَكُفۡرٗاۚ وَأَلۡقَيۡنَا بَيۡنَهُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ﴾ [المائدة: 64]، فاليهود تَفَرَّقُوا في وجهات نَظَرِهِمْ وفي آرائهم بما أَدْخَلُوه في التّوراة منَ التَّحريفِ، والنَّصارى تَفرّقوا تفرّقًا مُضاعَفًا؛ لأنَّهم اعتمدوا التَّوراةَ المحرَّفةَ وضمُّوها إلى الإنجيل الذي حَرَّفوهُ، فصار العَهْدُ القديمُ، الذي هو توراةُ اليهود بكلّ تحريفاتها، والعهد الجديد، الذي هو أناجيلُ المسيحيّين بما دخلها من تَحريفٍ، فهذا التَّحريفُ المضاعَفُ ألصَقَ بينهم العداوةَ والبغضاءَ، وأدَّى إلى هذه الفُرقةِ العظيمةِ بينهم[2].

الخلافات عند النّصارى أكثر التصاقًا بهم من اليهود عبر تاريخهم الطويل

السِّرُ في عَطْفِ البَغضاءِ على العَداوَةِ:

والعَدَاوَةُ وَالبَغْضَاءُ اسْمَانِ لِمَعْنَيَيْنِ مِنْ جِنْسِ الكَرَاهِيَةِ الشَّدِيدَةِ، فَهُمَا ضِدَّانِ لِلْمَحَبَّةِ، فَإِنْ كانَتِ العَدَاوَةُ أَعَمَّ مِنَ البَغْضَاءِ زَادَتْ فَائِدَةُ العَطْفِ؛ لِأَنَّهُ يَصِيرُ فِي مَعْنَى الاحْتِرَاسِ[3]، وإِنْ كَانَتِ العَدَاوَةُ

تأكيدُ تأصُّلِ هاتين الصِّفتَيْن في قلوبِ اليهودِ والنَّصارَى

(1) ابْنُ عَطِيَّة، المُحَرَّرُ الوَجيز: 2/170.

(2) ابن تيميَّة، الجواب الصَّحيح: 3/18.

(3) الاحتراس أو التَّكميل: اسمان أُطْلِقا على مسمًّى واحد، هو زيادةٌ إطنابيّةٌ في الكلام يَدْفَع بها المتكلّم إيهامًا قد يُفهم من كلامه.

أَخَصَّ مِنَ البَغْضَاءِ لَمْ يَكُنِ العَطْفُ إِلَّا لِلتَّأْكِيدِ؛ لِأَنَّ التَّأْكِيدَ يَحْصُلُ بِذِكْرِ لَفْظٍ يَدُلُّ عَلَى بَعْضٍ مُطْلَقٍ من معنى المؤكَّد، فَيَتَقَرَّرُ المَعْنَى وَلَوْ بِوَجْهٍ أَعَمَّ أَوْ أَخَصَّ، وَذَلِكَ يَحْصُلُ بِهِ مَعْنَى التَّأْكِيدِ[1].

وقد يَخْتَلِفُ المَعْنيانِ فيكونُ إلقاؤُهما بَينهم على مَعْنَى التَّوْزِيعِ؛ أَيْ: أَغْرَيْنَا العَدَاوَةَ بَيْنَ بَعْضٍ مِنْهُمْ، وَالبَغْضَاءَ بَيْنَ بَعْضٍ آخَرَ، فَيقَعَ فِي هَذَا النَّظْمِ إِيجَازٌ بَدِيعٌ[2].

فَائِدَةُ ذِكْرِ الغايةِ في قوله ﴿إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ﴾:

تَعْجيلُ المَساءَةِ لهم في الدُّنيا مع ما يُدَّخَرُ لهم من عذابٍ بعدَ القيامةِ

وإِلقَاءُ العَدَاوَةِ وَالبَغْضَاءِ بَيْنَهُمْ كَانَ عِقَابًا فِي الدُّنْيَا لِقَوْلِهِ: ﴿إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ وَسَوۡفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ ١٤﴾ [المائدة: 14] جَزَاءً عَلَى نَكْثِهِمُ العَهْدَ، وَأَسْبَابُ العَدَاوَةِ وَالبَغْضَاءِ شِدَّةُ الاخْتِلَافِ؛ فَتَكُونُ مِنَ اخْتِلَافِهِمْ فِي نِحَلِ الدِّينِ بَيْنَ يَعَاقِبَةٍ، وَمَلْكَانِيَّةٍ، وَنَسْطُورِيَّةٍ، وَهَرَاتِقَةٍ (بُرُوتِسْتَانْتَ)، وَتَكُونُ مِنَ التَّحَاسُدِ عَلَى السُّلْطَانِ وَمَتَاعِ الدُّنْيَا، كَمَا كَانَ بَيْنَ مُلُوكِ النَّصْرَانِيَّةِ، وَبَيْنَهُمْ وَبَيْنَ رُؤَسَاءِ دِيَانَتِهِمْ.

فَإِنْ قِيلَ: كَيْفَ أُغْرِيَتْ بَيْنَهُمُ العَدَاوَةُ وَهُمْ لَمْ يَزَالُوا أَلْبًا عَلَى المُسْلِمِينَ؟ فَجَوَابُهُ: أَنَّ العَدَاوَةَ ثَابِتَةٌ بَيْنَهُمْ فِي الدِّينِ بِانْقِسَامِهِمْ فِرَقًا، وَذَلِكَ الانْقِسَامُ يَجُرُّ إِلَيْهِمُ العَدَاوَةَ وَخَذْلَ بَعْضِهِمْ بَعْضًا، ثُمَّ إِنَّ دُوَلَهُمْ كَانَتْ مُنْقَسِمَةً وَمُتَحَارِبَةً، وَلَمْ تَزَلْ كَذَلِكَ[3]، وَإِنَّمَا تَأَلَّبُوا فِي الحُرُوبِ الصَّلِيبِيَّةِ عَلَى المُسْلِمِينَ ثُمَّ لَمْ يَلْبَثُوا أَنْ تَخَاذَلُوا وَتَحَارَبُوا، وَلَا يَزَالُ الأَمْرُ بَيْنَهُمْ كَذَلِكَ إِلَى الآنَ، وَكَمْ ضَاعَتْ مَسَاعِي السَّاعِينَ فِي جَمْعِهِمْ عَلَى كَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ وَتَأْلِيفِ اتِّحَادٍ بَيْنَهُمْ، وَكَانَ اخْتِلَافُهُمْ لُطْفًا بِالمُسْلِمِينَ فِي مُخْتَلَفِ عُصُورِ التَّارِيخِ الإِسْلَامِيِّ، عَلَى أَنَّ اتِّفَاقَهُمْ عَلَى أُمَّةٍ أُخْرَى لَا يُنَافِي تَمَكُّنَ العَدَاوَةِ فِيمَا بَيْنَهُمْ، وَكَفَى بِذَلِكَ عِقَابًا لَهُمْ عَلَى نِسْيَانِهِمْ مَا ذُكِّرُوا بِهِ[4].

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/148.
(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/148.
(3) وكم وقع بينهم من القتل في الحربين العالميّتين الأولى والثّانية! وكم حَصَدَت هذه الحروب ملايين الأرواح من نصارى ويهود وغيرهم!
(4) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/149.

سِرُّ التَّعبيرِ عنِ المجازاةِ بالتَّنْبئةِ:

التَّهديدُ والوعيدُ بـــشِـــدَّةِ ما يَنْتَظِرُهُمْ وهَؤلِهِ

فقولُه ﴿يُنَبِّئُهُم﴾ تَهْديدٌ؛ لِأَنَّ المُرادَ بالإِنْبَاءِ إِنْبَاءُ المُؤَاخَذَةِ بِصَنِيعِهِمْ، كَقَوْلِهِ: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام: 135]، وهذا يُحْتَمَلُ أَنْ يَحْصُلَ في الآخِرَةِ، فَالإِنْبَاءُ عَلَى حَقِيقَتِهِ؛ أَيْ: يُخْبِرُهُمْ في الآخرة بما كانُوا يَصْنَعُونَ في الدنيا، وهو وعيدٌ شديدٌ بالجَزاءِ والعذابِ، كَقَوْلِ الرَّجُلِ لِمَنْ يَتَوَعَّدُهُ: سَأُخْبِرُكَ بما فعلتَ؛ أي: يُجازيهم بما عَمِلوا على الاستمرارِ مِنْ نَقْضِ الميثاقِ ونِسْيانِ الحَظِّ الوافرِ ممَّا ذُكِّروا بِهِ[1]، وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَحْصُلَ في الدُّنْيَا، فَالإِنْبَاءُ مَجَازٌ في تَقْدِيرِ اللهِ لَهُمْ حَوَادِثَ يَعْرِفُونَ بِهَا سُوءَ صَنِيعَتِهِمْ[2]، فيكونُ الإنباءُ مجازًا عن وقوعِ ذلك وانكشافِه لَهُمْ، لا أَنَّ ثَمَّةَ إخبارًا حقيقةً[3]، فَعَبَّرَ بالمُشَبَّهِ به، وهو الإخبارُ بِصُنْعِهِمْ، عن المُشَبَّهِ، وهو العِقابُ بالحوادث والقوارع[4].

كما أنَّ التَّعبيرَ عنِ المجازاة بالتَّنْبِئَةِ للتَّنْبيه على أَنَّهُمْ لا يَعْلَمُونَ حقيقةَ ما يَعْمَلُونَه منَ الأعمالِ السَّيِّئَةِ واسْتِتْباعِها لِلْعذابِ؛ فيكونُ ترتيبُ العذابِ عَلَيْها في إفادة العلم بِحَقيقَةِ حالِها بمنزلة الإخبارِ بها[5].

وفي هذا الوعيد تأكيدٌ بذِكْرِ كلمةِ (سَوْفَ)، والالتفاتُ إلى ذِكر الاسمِ الجليلِ (اللهِ)؛ لتَرْبيةِ المهابَةِ، وإدخالِ الرَّوعةِ؛ لِتَشْديدِ الوَعيدِ بعذابِ الآخِرَةِ[6].

دَلالةُ التَّعبيرِ عنِ العملِ بالصُّنْعِ:

الإيـــــــذانُ بِرُسوخِهِمْ في ذلك، وتوبيخُهم عليه

فالتَّعبيرُ عنِ العمل بالصُّنع مع كونِ الصُّنع أخصَّ للإيذانِ

(1) البروسوي، روحُ البَيان: 2/367.
(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/150.
(3) الخَفاجيّ، عناية القاضي: 3/225.
(4) القُونَويّ، حاشيةُ القُونَويِّ على البيضاوي: 7/425.
(5) أَبو السُّعود، إرشاد العَقْل السّليم: 3/17.
(6) أَبو حَيّان، البَحْرُ المُحيط: 4/208، وأَبو السُّعود، إرشاد العَقْل السّليم: 3/17، والبروسوي، روحُ البَيان: 2/367، وابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/150.

بِرُسوخِهِمْ في ذلك[1]، فكأنَّ خياناتِهم من نقضٍ للميثاق، ونَكْثٍ للعهد، وتبديلٍ للكتاب، وتحريفٍ للأوامر والنَّواهي قد صارت لهم فيها مَلَكَاتٌ بما لازموا منها حتى ضُرِبُوا بها وتَدَرَّبُوا عليها؛ حتَّى صارت لهم أحوالًا لأنفسهم، وأخلاقًا لقلوبهم؛ أي: دَرَّبوا أَنْفُسَهم عليها حتَّى صارت لهم صَنْعَةً[2]، فكان الجَزَاءُ على ذلك بِقَدْرِ ما يَسْتَحِقُّونَ؛ ليعلمُوا أنَّ اللّه حَكَمٌ عَدْلٌ، لا يظلمُ مثقالَ ذَرّةٍ، وفي هذا وعيدٌ شديدٌ لهم، وهو تقريرٌ وتوبيخٌ بالعذاب؛ إذْ صُنْعُهُمْ كُفْرٌ يُوجِبُ الخُلودَ في النَّار[3].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الأَخْذ والتَّناوُل:

التَّناولُ أخصُّ منَ الأخذ، ويكونُ التَّناوُلُ بقصْدٍ

الأخذُ: حوزُ الشّيءِ وتحصيلُه، وذلك تارةً بالتَّناوُل، نحوَ: ﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأۡخُذَ إِلَّا مَن وَجَدۡنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ﴾ [يوسف، الآية 79]، وتارةً بالقهر والغلبة، نحو: ﴿لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ﴾ [البقرة: 229]، ومنه: أخذتْهُ الحُمّى، وفلان يأخذُ مأخذَ فلان: يذهبُ مذهبَه ويسلكُ مسلكَه[4]، وقد يكون بِمَعْنى فعلٍ آخرَ مَعَ صِلَةٍ أُخْرَى كـ(أَخذ بِهِ)؛ فَإِنَّهُ بِمَعْنى (حمل عَلَيْهِ)، وَمنه قوله تعالى: ﴿أَخَذَتۡهُ ٱلۡعِزَّةُ بِٱلۡإِثۡمِۚ﴾ [البقرة: 206]؛ أي: حملته العزّةُ وحميّةُ الجاهلية على الفعلِ بالإثم[5]، أمَّا التَّناوُلُ؛ فهو أَخْذُ الشَّيءِ للنَّفس خاصَّة، ويجوزُ أن يُقال: إنَّ التَّناوُلَ يقتضي أَخْذَ شيءٍ يُحْتاجُ إليهِ ليُستعملَ في أمرٍ منَ الأُمورِ؛ ولهذا لا يُستعملُ في حقِّ اللّه تعالى؛ فَيُقال: تناولَ زيدٌ الطَّعامَ؛ أي: أكلَه، فالأخذُ أعمُّ، والتَّعبيرُ بالأخذ في هذا الباب أليَقُ؛ لاشتمال لفظِ التَّناوُلِ على معنى الحاجة والافتقارِ إلى الشَّيءِ، قال اللّه تعالى: ﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمۡ﴾ [الأحزاب: 7]، ولم يقل: تَناوَلْنَا، وقيل:

(1) أَبو السُّعود، إرشاد العَقْل السّليم: 3/17، والبروسوي، روحُ البَيان: 2/367.
(2) البِقاعيّ، نَظْمُ الدُّرر: 6/61 - 62.
(3) ابْنُ عَطِيَّة، المُحَرَّرُ الوَجيز: 2/170، والهَرَري، حَدائِقُ الرَّوْحِ والرَّيْحان: 7/176.
(4) المَناوِيّ، التَّوقيف، ص: 42.
(5) الكَفَوِيّ، الكُلِّيات، ص: 62، والبَغَويّ، مَعالِمُ التَّنْزيل: 1/236.

التَّناوُلُ أخذُ القليل المقصودِ إليه؛ ولهذا لا يُقال: تناولتُ كذا من غير قصْدٍ إليهِ، ويقال: أخذتُه من غيرِ قصد[1].

العَهْد والميثاق:

العهدُ هو الالتزامُ بإلزام الله، أو إلزامُ العبدِ لنفسِه[2]، فيُقال في العهد: عَهِدَ إليه في كذا: أوصَاه به، والعهد في لسان العربِ له معانٍ، منها: الوصيةُ، والضَّمانُ، والأمرُ[3]، أمَّا الميثاقُ فهو ما وُثِّقَ به العهدُ منَ القَبولِ والإلزام والحَلِفِ[4]، فالميثَاقُ توكيدُ العَهْد، وهو مأخوذٌ من أوثقتُ الشَّيْءَ إذا أَحكمتُ شدَّهُ، وَأخذتُ الأَمرَ بالأوثقِ؛ أَي: الشَّديدِ المُحكم[5]، وقال بعضُهم: العَهْدُ يكونُ حَالًا منَ المتعاهِدَيْن، ويَقْتَضِي الإنجازَ، والميثاقُ يكونُ من أَحدهمَا[6]، فالعهدُ إلزامٌ والتزامٌ، سواءً كانت فيه يمينٌ أو لم تكن، والميثاقُ هو العهدُ الشَّديدُ المؤكَّدُ، فهو نوعٌ منَ العهد.

العـهـدُ أعـمُّ مـنَ الميـثـاقِ في معناه، والميثاقُ عَهْدٌ مُؤكَّدٌ

النَّصِيب والحَظّ:

النَّصيبُ هو الحظُّ والقَسْمُ من كُلِّ شيء[7]، فيكونُ النَّصِيب في المحبوب وَالمَكْرُوه، يُقَال: وفَّاه الله نصِيبَه منَ النَّعيم أَو منَ العَذَاب، والحَظُّ هو النَّصيبُ المُقَدَّرُ مِنَ الفَضْل والخيْر[8]، فلَا يُقَال حَظُّهُ منَ العَذَاب إِلَّا على اسْتِعَارَةٍ بعيدَةٍ؛ لِأَنَّ أَصْلَ الحَظِّ هو مَا يُحْظِه الله تَعَالَى للْعَبد منَ الخَيْرِ، والنَّصيبُ مَا نُصِبَ لِلْعَبْدِ لِينالَه سَوَاء كَانَ مَحْبوبًا أَو مَكْرُوهًا؛ ولهذا كان الحَظُّ اسْمًا لما يرْتَفع بِهِ المَحْظوظُ، فيُذكرُ على جِهَةِ المَدْحِ، فَيُقَالُ: لفُلَانٍ حَظٌّ، وهو مَحْظوظٌ، وفي

الـحـظُّ نصيبٌ مُـقَـدَّرٌ مِـنَ الفَضْلِ والخيْرِ، والنَّصيبُ يَعُمُّ المحبوبَ والمكْرُوهَ

(1) العَسْكَرِيّ، الفُروقُ اللُّغَويّة، ص: 139.
(2) السَّعْدي، تَيْسِيْر الكَريمِ الرَّحْمن: 1/83.
(3) الخليل، العين: (عهد)، والكَفَوِيّ، الكُلِّيات، ص: 640، والقرافي، أنوار البروق: 3/37.
(4) المَنَاويّ، التَّوقيف، ص: 320.
(5) ابْنُ دُرَيْدٍ، جَمْهَرَةُ اللُّغَة: (ثقو).
(6) العَسْكَرِيّ، الفُروقُ اللُّغَويّة، ص: 57.
(7) ابن مَنْظورٍ، لِسَانُ العَرَب، والزَّبيديّ، تاجُ العَروس: (نصب).
(8) الخليل، العَيْن: (حظ)، والأَزْهَرِيّ، تَهْذيبُ اللُّغَة: (حظ).

التَّنزيل: ﴿إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ۝٧٩﴾ [القَصَص: 79]، والنَّصيبُ مَا يُصِيبُ الإنسانَ من مُقاسمةٍ، سَوَاءً ارْتَفع بِهِ شَأْنُه أم لَا؛ ولِهَذَا يُقَال: لفُلَانٍ حَظٌّ في التِّجَارَة، ولَا يُقَال: لَهُ نصيبٌ فِيهَا؛ لِأَنَّ الرِّبْحَ الذِي يَنَالهُ فِيهَا لَيْسَ عَن مُقاسَمَةٍ[1].

العَدَاوَة والبَغضاء:

العَدَاوَةُ: الانقطاعُ والبِعادُ مِنْ حَال النُّصْرَةِ، ونَقيضُها الولَايَة، والبَغْضاءُ شِدَّةُ إِرَادَة الاستحقار والإهانة، ونقيضُها المحبَّةُ، وهي إرادة الإعظامِ والإجلالِ، والعداوةُ إِرَادَةُ السُّوءِ لما تُعادِيه، وتكونُ بالفِعال، وهي سَبَبٌ في التَّباغُضِ، والبغضاءُ تكونُ بالقلوب[2].

العداوةُ تكونُ في الفعْلِ، وهي سببٌ في تباغُضِ القلوبِ

الصُّنع والفعْل والعمل:

الفِعْلُ لَفْظٌ عامٌّ يَدُلُّ عَلَى إِحْدَاثِ شَيْءٍ مِنْ عَمَلٍ وَغَيْرِهِ[3]، فهو مُطْلَقُ التَّأثيرِ من جهةِ مُؤَثِّرٍ[4]، سواءً كان عن سبب أو لا، ويُقال لِمَا كان بإجادةٍ وبدونِها، ولِمَا كان بعِلْمٍ أو غَيْرِ عِلْمٍ، وقَصْدٍ أو غَيْرِ قَصْدٍ[5]، وأمَّا العملُ فهو عبارةٌ عن إيجاد الأثرِ في الشَّيءِ مع امتدادِ زمانٍ، ولا يُقالُ إلَّا لما كان بقصدٍ وعِلْمٍ دون ما لم يكنْ عن قصدٍ وعلمٍ، قال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [البقرة: 25]، فعبَّر عن ذلك بالعمل؛ لأنَّه لا يكون إلا بِقَصْدٍ وامتدادِ زمانٍ.

الصُّنْعُ أَخَصُّ المَعاني الثَّلاثَةِ وأَرْسَخُها، والفعلُ أَعَمُّهَا، والعَمَلُ أَوْسَطُهَا

وأمَّا الصُّنْعُ فهو: تَرْتيبُ العَمَلِ وإِحْكامُهُ على ما تَقَدَّمَ عِلْمٌ به، وبما يُوصِلُ إلى المُراد منه؛ ولذا قيل لِلْعِلْمِ المُتَعَلِّقِ بكيفيَّةِ العملِ صِناعَةٌ[6]، ويَدُلُّ على رسوخ العَمَلِ وإِجادَتِه، فَيُقالُ للنَّجّار صَانِعٌ؛

(1) العَسْكَرِيّ، الفُروقُ اللُّغَويّة، ص: 165.
(2) العَسْكَرِيّ، الفُروقُ اللُّغَويّة، ص: 131، والنيسابوري، باهِرُ البُرْهان: 3/1495.
(3) ابْنُ فارِسٍ، مَقاييسُ اللُّغَة: (فعل).
(4) الرَّاغِب، المُفْرَدات: (فعل).
(5) المَنَاوِيّ، التَّوقيف، ص: 262.
(6) الجُرْجانّي، التَّعْريفات، ص: 134، والتَّهانويّ، كشَّافُ اصطلاحات الفنون: 2/1097.

لأنَّ النَّجّارَ قد سَبَقَ عِلْمُهُ بما يُريدُ عَمَلَهُ، وعَلِمَ بالأَسبابِ التي تُوصِلُ لِلْمُرادِ من ذلك والصُّنْع؛ فالصُّنْعُ أَخَصُّ المَعاني الثَّلاثَةِ، والفعلُ أَعَمُّهَا، والعَمَلُ أَوْسَطُها، فكلُّ صُنْعٍ عَمَلٌ، ولَيْسَ كُلُّ عَمَلٍ صُنْعًا، وكلُّ عملٍ فِعْلٌ، ولَيْسَ كُلُّ فِعْلٍ عَمَلًا[1].

(1) العَسْكَرِيّ، الفُروقُ اللُّغَويّة، ص: 134.

﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖۚ قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ ١٥ يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِهِۦ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ١٦﴾ [المائدة: 15 - 16]

مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِمَا قَبْلَهُما:

نـــداءُ أهـــلِ الـكـتـابِ إلى عنوانِ هدايتِهم وسعادتِهم بعد بيانِ حالِهم

بَعْدَ أَنْ ذَكَرَ مِنْ أَحْوَالِ فَرِيقَي أَهْلِ الكِتَابِ وَأَنْبَائِهِمْ مَا لَا يَعْرِفُهُ غَيْرُ عُلَمَائِهِمْ، وما لَا يَسْتَطِيعُونَ إِنْكَارَهُ، أَقْبَلَ عَلَيْهِمْ بِالخِطَابِ بِالمَوْعِظَةِ؛ إِذْ قَدْ تَهَيَّأَ مِنْ ظُهُورِ صِدقِ الرَّسُولِ ﷺ مَا يُسَهِّلُ إِقَامَةَ الحُجَّةِ عَلَيْهِمْ، فأقبَلَ عليهم واعظاً مناديًا متلطّفًا مُستعطفًا مرغّبًا في اتِّباعِهِ والإيمانِ بالكِتابِ الهادي الذي أُنْزِلَ عَلَيْهِ[1].

ولَمَّا كانت هدايتُه مَشْروطَةً بِشَرْطِ صلاحِ الجِبِلَّةِ، بَيَّنَ ذَلِكَ بقولِه واصفًا له: ﴿يَهۡدِي بِهِ﴾؛ أَيْ: الكِتابِ[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَيَعۡفُواْ﴾: مِنَ العَفْوِ، وهو التَّجاوُزُ، يُقَالُ: عَفَا يَعْفُو عَفْواً، فَهُوَ عافٍ وعَفُوٌّ، وأَصلُه يدلُّ عَلَى تَرْكِ الشَّيْءِ، والمعنى هُنا: يَتْرُكُهُ وَلَا يُبَيِّنُهُ، وَإِنَّمَا يُبَيِّنُ مَا فِيهِ حُجَّةٌ عَلَى نُبُوَّتِهِ[3].

2) ﴿سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ﴾: طُرُقَ السَّلامَة، والسُّبُلُ جَمْعُ سبيل، وهو الطَّريقُ الذي فيه سُهولَةٌ، وأَصْلُ سَبَلَ يَدُلُّ عَلَى إِرْسَالِ شَيْءٍ مِنْ عُلُوٍّ

(1) ابْنُ عادِلٍ، اللُّباب: 7/258، وابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/150، والبِقاعيّ، نَظْمُ الدُّرَر: 6/62.
(2) البِقاعيّ، نَظْمُ الدُّرَر: 6/63.
(3) الرَّاغِب، المُفْرَدات، والسَّمين، عُمْدَةُ الحُفَّاظ، وابْنُ فارِسٍ، مَقاييسُ اللُّغَة: (عفو)، وابْنُ مَنْظورٍ، لِسانُ العَرَب: (عفا)، والقُرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 6/118.

إِلَى سُفْلٍ، وأصلُ سَلِمَ يَدُلُّ على العافية والسَّلامةِ منَ الأذى، ومَعْنى سُبُلِ السَّلامِ هُنا: طُرُقُ السَّلامَة المُؤَمِّنَةُ منَ العُقوبَةِ، أَوْ طُرُقُ اللّه، وهي دِينُهُ[1].

3) ﴿صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾: الطَّريقُ المُسْتَقيمُ، وأَصْلُ الصِّراط بالسِّين، مِنْ قَوْلِهم: سَرَط الرَّجلُ الطَّعامَ؛ إِذَا بلَعَهُ، ويُقال: انْسَرَطَ الشَّيْءُ في حَلْقِهِ؛ إِذَا سَارَ فيه سَيْرًا سَهْلًا، وَمِنْهُ سمِّيَ السِّراطُ؛ وذلك على وجهِ التَّخْييلِ؛ لأَنَّه يَبْتَلِعُ سالكِيهِ، أو أَنَّ سَالِكِيهِ يبتلعُونَهُ، والصِّراطُ: الطَّريقُ مُطْلَقًا، أَوِ الطَّرِيقُ القاصدُ، والمِنْهاجُ الواضحُ، والمعنى هُنا: طريقٌ وَاضحٌ، وَهُوَ الإِسْلَام[2].

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

يا أهلَ الكتابِ منَ اليهودِ والنَّصارَى، قد جاءكم رَسولُنا محمَّد ﷺ يُظْهِرُ لكم كثيرا ممَّا كنتم تَكْتُمُونَهُ عنِ النَّاس ممَّا في التَّوراة والإنجيل، ويَدَعُ كثيرًا ممَّا أخفيتُمُوه ممَّا لم تَدْعُ الحاجةُ إلى إِظْهارِهِ، قَدْ جاءَكم القُرْآنُ كتابًا من عند اللّه، وهو نورٌ يُسْتضاءُ بِهِ، وكِتابٌ مُبينٌ لِكُلِّ ما يَحْتاجُ إليه النَّاسُ في شؤونِهم الدُّنيويَّةِ والأخرويَّةِ، يَهْدِي اللّه بهذا الكتابِ منِ اتّبع ما يرضِيه منَ الإيمان والعملِ الصَّالح إلى طُرقِ السَّلامةِ والأمنِ مِنْ عذاب اللّه، وهي الطُّرُقُ المُوصِلَةُ إلى الجنَّة، ويُخْرِجُهُمْ من ظُلُماتِ الكُفْرِ والمعصيةِ إلى نور الإيمانِ والطَّاعةِ بِإِذْنِهِ، ويُوَفِّقُهُمْ إلى الطَّريقِ القويمِ المستقيمِ طَريقِ الإسلام[3].

جاء النَّبيُّ ﷺ هاديًا ونُورًا للأمم، ومُخرجًا لهم منَ الظُّلماتِ إلى النُّورِ

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

فنُّ الالتفاتِ منَ الغَيْبَةِ إلى الخِطابِ:

فقولُهُ ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ فيه التفاتٌ من ضمائر الغيْبة إلى

دعوتُهم للإيمان بِذِكْرِ الامتنانِ عليهم ببعثةِ النَّبيِّ العدنانِ

(1) الرَّاغِب، المُفْرَدات، والسَّمين، عُمْدَةُ الحُفَّاظ، وابْنُ فارِسٍ، مَقاييسُ اللُّغَة: (سبل)، وابنُ عزيز، غَريبُ القُرْآن، ص: 275، وابن الهائم، التبيان، ص: 149.

(2) ابن دُريد، جمهرة اللّغة: (رسط)، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (سَرَطَ)، والواحديّ، الوسيط: 2/68، والرّاغب، تفسير الرّاغب: 1/63، وابن عزيز، غَريبُ القُرْآن، ص: 310.

(3) لَجْنَةٌ مِنْ عُلَماءِ الأَزْهَر، المُنْتَخَب، ص: 148، ونُخْبَةٌ مِنْ أَساتِذَةِ التَّفْسير، التَّفْسيرُ المُيَسَّر، ص: 110، وجَماعَةٌ مِنْ عُلَماءِ التَّفْسير، المُخْتَصَر، ص: 110.

ضمير الخطاب في نداء الفَريقَينِ اليهودِ والنَّصارى[1]، إثرَ بيانِ أَحْوالِهما منَ الخيانة وغَيْرِها من فُنونِ القبائِح، وفي هذا الخطابِ دَعْوَةٌ لهم إلى الإيمان بَرَسولِ الله ﷺ والقرآنِ[2].

سِرُّ ندائِهم بِأَهْلِ الكتابِ:

بيانُ شَرَفِ الانتسابِ إلى الكتابِ وقُبْحِ مُخالفتِه وتركِ ما فيه

ففي ندائِهم بـ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ تَشْريفٌ لهم بإضافتِهم للكتاب، وبَعْثٌ لهم على قَبولِ ما جاء به مُحَمَّدٌ ﷺ؛ لأنَّه جاء بكتابٍ وهُمْ أهلُ الكتابِ، واحتجاجٌ عليهم بأنَّ الإيمانَ بالكتابِ الذي عِنْدَهُمْ يَقْتضي الإيمانَ بالكتابِ الذي جاء به؛ لأنَّه من جِنْسِهِ[3].

كما أنَّ في إيرادهم بعنوانِ أهليَّة الكتاب تشنيعًا عليهم أيضًا، فَيَقبُحُ بمن كان أهلًا للكتابِ وتشرَّفَ بالانتساب إليه أن يخالفَه، فإنَّ أَهليَّة الكتابِ من مُوجِباتِ مُراعاتِه والعملِ بمقتضاه وبيانِ ما فيه منَ الأحكام، وقد فَعَلُوا منَ الكَتْمِ والتَّحْريفِ ما فَعَلُوا وهُمْ يَعْلَمونَ[4].

الغرَضُ من توحيدِ لفظةِ ﴿ٱلۡكِتَٰبِ﴾:

بيانُ أنَّ المُرادَ جنسُ الكتابِ

ووحَّد لفظةَ الكِتاب مع أنَّ لكلِّ فريقٍ كِتابًا؛ لأنَّه أرادَ جِنسَ الكِتابِ[5]؛ لأنَّ الكتاب جِنْسٌ شاملٌ للتَّوراة والإنجيل.

فائدةُ إضافةِ لفظِ الرَّسول إلى نونِ العظمةِ:

تعظيمُ قَدْرِ النَّبيِّ ﷺ وبيانُ شُمولِ رسالتِه

فالتَّعبيرُ عنه بذلك مع الإضافة إلى ضميرِ العظمةِ للتَّشريف والإيذانِ بوجوبِ اتِّباعه[6] ﷺ، وفيه رَدٌّ صريحٌ على أهل الكتَاب في قَوْلِهِمْ إنَّ مُحَمَّدًا ﷺ مبعوثٌ إلَى العربِ خاصَّةً[7].

فلمَّا أَرْسَلَ الله نبيَّنا محمَّدًا ﷺ كان الخلقُ قِسْمَيْنِ: أهلُ كتابٍ

(1) الزَّمَخْشَرِيّ، الكَشَّاف: 3/271، وأَبو السُّعود، إرشاد العَقْل السّليم: 3/17، والقِنَّوْجيّ، فَتْحُ البَيان: 3/378.
(2) أَبو السُّعود، إرشاد العَقْل السّليم: 3/17.
(3) ابن باديس، مجالس التذكير، ص: 327.
(4) أَبو السُّعود، إرشاد العَقْل السّليم: 3/17، والآلوسّي، روحُ المعاني: 3/268.
(5) البَيْضاويّ، أَنْوارُ التَّنْزيل: 2/118، والقِنَّوْجيّ، فَتْحُ البَيان: 3/378، والرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 11/326.
(6) الآلوسّي، روحُ المعاني: 3/268.
(7) القُونَويّ، حاشيةُ القُونَويّ على البيضاوي: 7/426.

- وهم اليهودُ والنَّصارى-، وغَيْرُهُمْ، وكان أَشْرَفَ القِسمَيْنَ أَهْلُ الكتاب؛ بما عندهم منَ النَّصيب مِنَ الكتاب الذي أُوتوهُ على نسيانِهم حظًّا منه، وتحريفِهم لِمَا حرَّفوا، وكانوا أَوْلى القِسْمَيْنِ باتِّباع محمَّدٍ ﷺ بما عَرَفُوا قَبْلَهُ منَ الكُتب والأنبياء؛ فَلِهَذا وذاك كانت تُوَجَّهُ إليهم الدَّعوةُ الخاصَّةُ بمثل قولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا﴾[1].

فالإضافة هُنا للتَّشريف، والإيذانِ بوُجوبِ اتِّباعِه[2].

سِرُّ إيثارِ الجُملةِ الفعليَّةِ:

فجملةُ ﴿يُبَيِّنُ لَكُمۡ﴾ حالٌ من ﴿رَسُولُنَا﴾، وإيثارُ الفعليَّة على غيرها للدَّلالَةِ على الاستمرار التَّجدُّدِيِّ للبيان؛ أي: قد جاءكم رسولُنا حالَ كونِه مُبَيِّنًا لكم على سبيل التَّجدُّدِ والتَّدريجِ حَسْبَما تَقْتَضيه المصالحُ والوقائعُ منَ الكتَاب[3].

استمرارُ البيان بِحَسَبِ الوقائع والحوادث وتَجَدُّدُه

نُكْتَةُ تقديمِ الجارِّ والمجرورِ على لفظِ (كثير) في ﴿يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرًا﴾:

وتأخيرُ ﴿كَثِيرًا﴾ عن الجارِّ والمَجْرورِ لإظهارِ عنايةٍ بالمُقَدَّم لما فيه من تعجيلِ المسرَّةِ والتِّشويقِ إلى المؤخَّر؛ لأنَّ ما حقُّه التَّقديمُ إذا أُخِّرَ، لا سيما الإشعارُ بكونِه من منافعِ المخاطَب، تبقَى النَّفسُ مُتَرَقِّبَةً إلى وُرودِه فَيَتَمَكَّنَ عِنْدَها إذا وَرَدَ فَضْلُ تَمَكُّنٍ، ولأنَّ في المُؤَخَّرِ دَرْبَ تَفْصيلٍ ربَّمَا يُخِلُّ تقديمُه بِتَجاذُبِ أَطْرافِ النَّظْمِ الكَريم[4].

إظهارُ العنايةِ بالمُقَدَّمِ، وتعجيلُ المَسَرَّةِ بتقديمِه، والتَّشويقُ إلى تفصيلِ ما تأخَّرَ

وأفاد هذا التّنكير في ﴿كَثِيرًا﴾ معاني التّكثير والتّعظيم.

دلالةُ الجمْعِ بين صيغةِ الماضي والاستقبالِ في قولِه: ﴿مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ﴾:

فَالجَمْعُ بَيْنَ صيغَتَي الماضِي والمُسْتَقْبَلِ للدَّلالَةِ على استمرارِهِمْ

(1) ابن باديس، مجالس التذكير، ص: 327.

(2) أَبو السُّعود، إرشاد العَقْل السّليم: 3/17.

(3) أَبو السُّعود، إرشاد العَقْل السّليم: 3/18، والآلوسّي، روحُ المعاني: 3/268، والقُونَويّ، حاشيةُ القُونَويِّ على البيضاوي: 7/426.

(4) أَبو السُّعود، إرشاد العَقْل السّليم: 3/18، والآلوسّي، روحُ المعاني: 3/269.

بيانُ استمرارِ الكَتْمِ والإخفاءِ من أهلِ الكتاب وتَأَصُّلِهِ فيهم

على الكَتْمِ والإخْفاءِ؛ أيْ: بَيَّنَ لَكُمْ كَثِيرًا مِنَ الذي تُخْفونَهُ على الاستمرار حالَ كَوْنِهِ منَ الكِتابِ الذي أنتم أَهْلُهُ والمُتَمَسِّكونَ بِهِ[1]، ومن ذلك نَعْتُ النَّبيِّ ﷺ وآيةُ الرَّجْمِ، وبِشارَةُ عيسى بِأَحْمَدَ - عليهما الصَّلاةُ والسَّلام -[2]، ودلّ استعمال الاسم الموصول (ما) وما فيه من معاني الإبهام والعموم على عظم ما كانوا يخفونه.

توجيهُ ذكْرِ العَفْوِ بَدَلَ الإخفاءِ في مُقابلِ ذِكْرِ البيان:

صيانتُهم عنِ الفضيحة وترهيبُهم من إخفاءِ الحقِّ وكتمانِه كما فعلَ أسلافُهم

فقد وَصَفَ النَّظمُ الكريمُ الرَّسُولَ ﷺ بِأَنَّهُ يُبَيِّنُ لَهُمْ كَثِيرًا مِمَّا كَانُوا يُخْفُونَ مِنَ الكِتَابِ، ثُمَّ أَعْقَبَهُ بِأَنَّهُ يَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ، وَمَعْنَى يَعْفُو: يُعْرِضُ وَلَا يُظْهِرُ، وهو أَصْلُ مَادَّةِ العَفْوِ، يُقَالُ: عَفَا الرَّسْمُ، بِمَعْنَى لَمْ يَظْهَرْ، وَعَفَّاهُ: أَزَالَ ظُهُورَهُ، ومنه عَفَا اللهُ عَنِ المُذْنِبِ، بِمَعْنَى سَتَرَ عَنْهُ ذَنْبَهُ[3].

والمعنى هُنا أي: ولا يُظهرُ كثيرًا ممَّا تُخْفُونَهُ إذا لم تَدْعُ إليه داعيةٌ دينيَّةٌ؛ صيانةً لكم عن زيادة الافتضاحِ كما يُفصحُ عنه التَّعبيرُ عن عدمِ الإظهار بالعَفْوِ، وفيه حَثٌّ لهم على عدم الإخفاءِ ترغيبًا وترهيبًا، فالجملةُ معطوفةٌ على الجملةِ الحاليَّةِ، داخلةٌ في حُكْمِها[4]، وهذا المعنى هو الأظهرُ والأقربُ لدَلالة السِّياق؛ لأنَّ الظَّاهرَ أن يكونَ هذا الكثيرُ كالكثير السَّابقِ الذي بُيِّنَ[5].

ويجوز أن يُراد هُنا مَعْنَى الصَّفْحِ وَالمَغْفِرَةِ؛ أَيْ: وَيَصْفَحُ عَنْ ذُنُوبٍ كَثِيرَةٍ؛ أَيْ: يُبَيِّنُ لَكُمْ دِينَكُمْ، وَيَعْفُو عَنْ جَهْلِكُمْ[6]، فيكونُ العفوُ الثَّاني غيرَ الأوَّل؛ لأنَّ النَّكرة إذا أُعيدت نَكِرَةً فهي مُتغايرةٌ[7].

(1) أَبو السُّعود، إرشاد العَقْل السّليم: 3/18.
(2) الآلوسّي، روحُ المعاني: 3/268.
(3) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/150.
(4) أَبو السُّعود، إرشاد العَقْل السّليم: 3/18، والآلوسّي، روحُ المعاني: 3/269.
(5) الآلوسّي، روحُ المعاني: 3/269.
(6) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/150.
(7) الخَفاجيّ، عناية القاضي: 3/225، والآلوسّي، روحُ المعاني: 3/269.

كما عدلَ بالعفو عن ذِكْرِ الإخفاءِ في مُقابلة ذكرِ البيان في هذا المقام؛ لما يَحْمِلُهُ الإخفاءُ من مَعْنى صورةِ الذَّمّ المَذْكُورِ سابقًا في قوله: ﴿كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ﴾ المُتَمَثِّلِ في جحْدِ الحقِّ وكِتْمانِهِ، فاختار النَّظمُ الكريمُ لفظةَ العَفْوِ؛ لِما تَحْمِلُهُ هذه اللَّفظةُ منَ المعاني الجَميلةِ والصِّفاتِ الجَليلَةِ.

دلالةُ الاستئنافِ في قوله ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ﴾ وغرض تنكير النّور:

بيانُ منافعِ مجيءِ الرَّسُولِ ﷺ إليهم زيادةً عمّا ذُكِرَ

﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ﴾: جملةٌ مُستأنَفةٌ مسُوقةٌ لبيانِ أنَّ فائدةَ مجيءِ الرَّسولِ ليستْ منحصرةً فيما ذُكِرَ، ومن بيانِ ما كانوا يُخفونَه، بل له منافعُ لا تُحصى[1]، وهذه الجملة بَدَلٌ مِنْ جُمْلَةِ ﴿قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا﴾ بَدَلُ اشْتِمَالٍ؛ لِأَنَّ مَجِيءَ الرَّسُولِ اشْتَمَلَ عَلَى مَجِيءِ الهُدَى وَالقُرْآنِ، فَوِزَانُهَا وِزَانَ (عِلْمُهُ) مِنْ قَوْلِهِمْ: نَفَعَنِي زَيْدٌ عِلْمُهُ؛ وَلِذَلِكَ فُصِلَتْ عَنْهَا، وَأُعِيدَ حَرْفُ ﴿قَدْ﴾ الدَّاخِلِ عَلَى الجُمْلَةِ المُبْدَلِ مِنْهَا زِيَادَةً فِي تَحْقِيقِ مَضْمُونِ جُمْلَةِ البَدَلِ؛ لِأَنَّ تَعَلُّقَ بَدَلِ الاِشْتِمَالِ بِالمُبْدَلِ مِنْهُ أَضْعَفُ مِنْ تَعَلُّقِ البَدَلِ المُطَابِقِ[2].

وقد تكون الجملة مستأنفة بيانيًّا جوابًا عن سؤال مقدّر عن ماهيّة ما جاء به الرّسول ﷺ ليبيّنه لهم.

فَهَذِهِ الجُملةُ مُشْتَمِلَةٌ على بيان أنَّ محمدًا ﷺ قد تَضَمَّنَتْ بِعْثَتُهُ فَوائِدَ غَيْرَ ما تَقَدَّمَ مِنْ مُجَرَّدِ البيانِ[3]، ولِأَجْلِ هَذَا نُكِّرَتْ لَفْظَةُ ﴿نُورٌ﴾؛ لإرادة التَّعظيم والتَّفْخيم[4].

سِرُّ تقديمِ الجارِّ والمجرور على الفاعل:

بيانُ عُلُوِّ جِهَةِ الجائِي والتَّشويقُ إِلَيْهِ

وتقديمُ الجارِّ والمجرورِ ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ على الفاعِلِ ﴿نُورٌ﴾

(1) أبو السُّعود، إرشاد العَقْل السّليم: 3/18.
(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/151.
(3) القِنَّوْجيّ، فَتْحُ البَيان: 3/378.
(4) على مَنْ فَسَّرَ النُّورَ بأنَّهُ رَسولُ الله ﷺ، ينظر: أَبو السُّعود، إرشاد العَقْل السّليم: 3/18، والآلوسيّ، روحُ المعاني: 3/269.

للتّخصيص؛ أي: منه، لا من غيره، وقد يكون للمُسارَعَةِ إلى بيانِ كَوْنِ المجيءِ من جِهته العاليةِ، والتَّشويقِ إلى الجائي[1].

بلاغةُ الاستعارةِ وبديعُ اللَّفِّ والنَّشْرِ المُرَتَّبِ[2]:

بيانُ أنَّ نُورَ النَّبيِّ ﷺ وبَيَانَهُ ونُورَ الكِتابِ الذي جاء بِهِ واحِدٌ

فالنُّورُ المُبينُ، هو نُورُ الأنوارِ والنَّبيّ المُخْتارِ ﷺ، الذي جاء بالُهدى ودينِ الحقّ ليبدّدَ ظلماتِ الشّركِ والوهْمِ، فيكونُ في الكلام استعارةٌ تصريحيَّةٌ؛ حيث صرّح بِذِكْرِ المشبَّه به، وهو اسمٌ جامدٌ[3]، والعَطْفُ بعده ظاهرٌ، وقيل: عَنَى بالنُّورِ القرآنَ؛ لِكَشْفِهِ وإظهاره طُرُقَ الهُدى واليَقينِ، ولِمَا فيهِ مِنْ كَشْفِ ظُلُماتِ الشِّرْكِ والشَّكِّ، وإبانَةِ ما خَفِيَ على النَّاس منَ الحقِّ والإعجازِ البيِّنِ؛ وعليه فالعطفُ في قولِه تعالى: ﴿وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ﴾ لِتَنْزيلِ المُغايَرَةِ بالعُنْوانِ مَنْزِلَةَ المُغايَرَةِ بالذَّات، ودَليلُهُ تَكْريرُ قَوْلِهِ سُبْحَانَهُ: ﴿قَدْ جَآءَكُم﴾ بِغَيْرِ عاطِفٍ في الاسْتِئْنافِ السَّابِقِ، فَعَلَّقَ في الآيَةِ السَّابِقَةِ وَصْفَ الرَّسولِ، وهُنَا وَصَفَ الكِتَابَ[4]، وعلى هذا التَّأْويلِ يَكُونُ في الآيَةِ تَشْبيهُ القُرآن بالنُّور، ووجْهُ الشَّبَهِ فيه أَنَّهُ الكاشِفُ لِظُلُماتِ الشَّكِّ والضَّلالِ، والكتَابُ الواضحُ الإعجازِ، والظَّاهرُ أنَّ الكَلَام على التَّشبيهِ لا الاسْتِعَارَةِ لِذِكْرِ المُشَبَّهِ بِهِ، وهو قولُه ﴿وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ﴾[5].

فعلى تفسير النُّور بالقرآن يكون النُّورُ والكتابُ واحدًا، وتَسميتُه نورًا لكشفِه وإظهارِه طُرُقَ الهُدى واليقين، ويكونُ (المُبينُ) بمعنى (الظَّاهر) من (أَبَانَ) اللَّازم؛ أي: (ظَهَرَ)، وعلى تفسير النُّور بالنَّبيِّ ﷺ لِظُهُورِهِ بالمعجزات وإظهاره لِلْحَقِّ؛ فـ(المُبينُ) حينئذ

(1) أَبو السُّعود، إرشاد العَقْل السّليم: 3/18، والآلوسّي، روحُ المعاني: 3/269.

(2) هُوَ أَنْ يُذْكَرَ شَيْئَانِ أَوْ أَشْيَاء، إِمَّا تَفْصِيلاً بِالنَّصِّ عَلَى كُلِّ وَاحِدٍ أَوْ إِجْمَالاً بِأَنْ يُؤْتَى بِلَفْظٍ يَشْتَمِلُ عَلَى مُتَعَدِّدٍ، ثُمَّ يُذْكَرَ أَشْيَاءُ عَلَى عَدَدِ ذَلِك، كُلُّ وَاحِدٍ يَرْجِعُ إِلَى وَاحِدٍ مِنَ المُتَقَدِّم، وَيُفَوَّضُ إِلَى عَقْلِ السَّامِعِ رَدَّ كُلِّ وَاحِدٍ إِلَى مَا يَلِيقُ بِه، ينظر: القزوينيّ، الإيضاح، ص: 503، والسيوطيّ، الإتقان: 3/320.

(3) الدُّرَّة، تفسير القرآن الكريم: 3/56.

(4) أَبو السُّعود، إرشاد العَقْل السّليم: 3/18، والآلوسّي، روحُ المعاني: 3/269.

(5) البَيْضاويّ، أَنْوارُ التَّنْزيل: 2/120، والقُونَويّ، حاشيةُ القُونَويِّ على البيضاوي: 7/426.

يَحْتمل وجهَين؛ (الظَّاهِرُ)، و(المُظْهِرُ)، ولا تكرارَ فيه، فالمُراد بهما واحدٌ على التَّفسير الأوّل للنُّور، وكونُهما كالواحد في التَّفسيرِ الثَّاني فهو لَفٌّ ونَشْرٌ مُرَتَّبٌ[1]، فلا شَكَّ في صِحَّةِ إطلاق ﴿نُورٌ﴾ على النَّبيِّ - ﷺ - من باب العِبارةِ أو الإشارةِ، والمبينُ من (بان) اللازم، بمعنى ظهرَ، فمعناه: الظاهرُ الإعجازِ، ويجوز أن يكونَ منَ المتعدّي، فمعناه: المُظْهِرُ للنَّاس ما كان خافيًا عليهم[2].

فَمُحَمَّدٌ ﷺ والقُرْآنُ نورٌ وبيانٌ، في هذه الآية وَصْفُ مُحمَّدٍ ﷺ بأنَّهُ نُورٌ، ووصفُ القرآنِ بأنَّهُ مُبينٌ، وفي آياتٍ أُخْرى وَصْفُ القُرْآنِ بأنَّهُ نُورٌ، كقوله: ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلۡنَاۚ﴾ [التَّغابن: 8]، ووَصْفُ الرَّسُولِ بأنَّهُ مُبينٌ، كَقَوْلِهِ: ﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلذِّكۡرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ٤٤﴾ [النَّحل: 44].

وهذا لِيُبَيِّنَ لَنَا اللّه تعالى أنَّ إظْهارَ النَّبيِّ ﷺ وبَيانَهُ، وإظهارَ القرآن وبيانَه واحدٌ؛ لأنَّ فِقْهَ القرآن يَتَوَقَّفُ على فقه حياةِ النَّبي ﷺ وسُنَّتِهِ، وفِقْهَ حياتِه ﷺ يَتَوَقَّفُ على القرآن، وفِقْهَ الإسْلام يَتَوَقَّفُ على فِقْهِهما.

فهذا نَبِيُّنا ﷺ نُورٌ وبيانٌ، وهذا كِتابُنا نورٌ وبيانٌ؛ فالمسلمُ المؤمنُ بِهِمَا المُتَّبِعُ لَهُما لَهُ حَظُّهُ من هذا البَيانِ والهِدايَةِ[3].

دلالَةُ تَوْحيدِ الضَّميرِ وتقديمِه على المسنَدِ إليه في ﴿يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ﴾:

الاهتمامُ بالنُّورِ المُبِينِ الخارِجِ من مِشْكاةٍ واحدَةٍ

فتوحيدُ الضَّميرِ في قوله: ﴿بِهِ﴾ مع أنَّه عائدٌ على ﴿نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ﴾؛ لأنَّ المرادَ بالنُّورِ والكِتابِ المبينِ واحدٌ: (القرآنُ)، أو لأنَّهما كواحدٍ في الحُكم؛ إذا كان النورُ غيرَ الكِتابِ المُبينِ[4]، أو أريد بـ(يهدي) بما ذُكر[5].

لأنَّ مَحَلَّ الجُمْلَةِ الرَّفْعُ على أنَّها صِفَةٌ ثانيةٌ لـ﴿وَكِتَٰبٌ﴾، أو النَّصْبُ على الحاليَّةِ منه لِتَخْصيصِهِ بالصِّفَةِ، ويجوزُ أن تكونَ

(1) الخَفاجيّ، حَاشِيةُ الشِّهاب: 3/225.
(2) الآلوسّي، روحُ المعاني: 3/269.
(3) ابن باديس، مجالس التَّذكير، ص: 330.
(4) البَيْضاويّ، أَنْوارُ التَّنْزيل: 2/119.
(5) أَبو السُّعود، إرشاد العَقْل السّليم: 3/18، وابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/151.

حالًا من ﴿رَسُولُنَا﴾ بَدَلًا من ﴿يُبَيِّنُ﴾، وأنْ تَكونَ حالًا من الضَّميرِ في ﴿يُبَيِّنُ﴾، وأنْ تكون حالًا منَ الضَّمير في ﴿مُّبِينٌ﴾، وأن تكون صِفَةً لـ﴿نُورٌ﴾، ولأجلِ هذا تَقَدَّمَ المَجْرورُ لِلاهْتمام؛ نَظَرًا إلى المقامِ وإظهارِ الاسم الجَليلِ؛ لإظْهارِ كَمالِ الاعْتِناءِ بِأَمْرِ الهِدايَةِ[1].

سِرُّ تَخْصيصِ الهِدايَةِ بأهلِ الاتِّباعِ:

بيانُ أنَّ الاتِّباعَ سَبَبُ هدايةِ التَّوفيقِ

فَمِنَ المعلومِ أنَّ الهِدايةَ نَوْعانِ: هدايةُ الدَّلالةِ والإرشادِ والبيانِ، وهي كما تَقَدَّمَ عامَّةٌ، وهدايةُ الدَّلالةِ والإرشادِ مع التَّوفيقِ والتَّسديدِ، فهي خاصَّة للذين اتَّبعوا ما جاء من عند الله، من رسولِه وكتابِه، وكانوا باتِّباعهم لها مُتَّبِعينَ لِرضوانِه، المُقْتَضي لِقَبولِه مَثوبَتَهُ وكرامَتَهُ لهم، فَلَمْ يَتَّبِعوا أَهْواءَهُمْ ومَأْلوفاتِهِمْ وما أَلِفوا عليه آباءَهم، ولا أهواءَ النَّاس وَرِضاهُمْ، فكان اتِّباعُهم رضوانَ الله سَبَبًا في دوام إرْشادِهِمْ وتوفيقِهم، وبِقَدْرِ ما يكونُ ازديادُ اتِّباعهم، يكون تَوْفيقُهُمْ؛ إذ قُوَّةُ السَّبَبِ تَقْتَضي قُوَّةَ المُسَبَّبِ، والخيرُ يَهْدي إلى الخير، والهُدى يزدادُ بالاهتداء، وهذا الرَّبطُ الشَّرْعيُّ بين التَّوفيقِ والاتِّباع يقتضي الرَّبطَ ما بين ضدَّيْهما: الإعراضِ والخِذْلانِ، وأنَّه بِقَدْرِ ما يكونُ الإعراضُ عنِ الهُدى، يكون الخِذْلانُ والحِرْمانُ، والشَّرُّ يَدْعو بَعْضُهُ إلى بَعْضٍ، والسَّيئةُ تَجُرُّ السَّيئَةَ، وقَدْ أَفادَ تَخْصيصُ التَّوفيقِ بأهل الاتِّباع، وجَعْلُ التَّوفيقِ مُسَبَّبًا عنه بما في صِلَةِ الموصولِ منَ التَّعليل في قولِه تعالى: ﴿مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ﴾[2].

دلالةُ وَضْعِ المُظْهَرِ مَوْضِعَ المُضْمَرِ في قَوْلِهِ: ﴿سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ﴾:

تنزيهُ اللهِ ﷻ عنِ النَّقائصِ التي وصفَه بها اليهودُ والنَّصارَى

فالسَّلامُ اسمُه تعالى، وُوُضِعَ مَوْضِعَ المُضْمَرِ رَدًّا على اليهودِ والنَّصارَى الواصفين له سبحانَه بالنَّقائصِ تعالى عمَّا يقولون عُلوًّا كبيرًا، والمُرادُ حينئذٍ بِسُبُلِه تعالى شرائعُهُ سبحانَه التي شَرعَها لعبادِه[3].

(1) أبو السُّعود، إرشاد العَقْل السّليم: 3/18، والآلوسّي، روحُ المعاني: 33/269.
(2) ابن باديس، مجالس التَّذكير، ص: 331.
(3) الآلوسّي، روحُ المعاني: 3/269.

سِرُّ الاستعارةِ في التَّعبيرِ عنِ الدِّين الحقِّ بسبيلِ السَّلام:

مَدْحُ سالكِ هذه الطَّريقِ التي تُوصِلُهُ إلى أَمْنه ونَجاتِهِ

وقد يُطْلَقُ السَّلامُ مجازًا على الحقِّ، وعلى الدِّينِ؛ فَيكونُ سَبيلُ السَّلَامِ اسْتِعَارَةً تصريحيّة لِطُرُقِ دِينِ الحَقِّ، بجامع اتّفاقهما في تحقيق السّلامة؛ حيث لَا خَوْفَ عَلَى السَّائِرِ فِيهَا[1]، وفيه مَدْحٌ لِسالِكِها، والمُرادُ أنَّه تعالى يَدُلُّ من أطاعَه على طريق نَجاته، وسبيلِ أَمَنَتِهِ؛ لأنَّ طاعَتَهُ تعالى إمامُ السَّلامَةِ، وطريقُ الاستقامة، فَمَنِ اتَّبَعَ قِيادَه نجا، ومن تَقَاعَسَ عَنْهُ ضَلَّ وغوَى[2].

سِرُّ الاسْتِعَارَةِ في تَشْبيهِ الضَّلَالِ بالظُّلُماتِ والهُدَى بالنُّورِ:

التَّنْفيرُ مِنَ الكُفْرِ وتَبْشيعُ صُورَتِهِ، والتَّرغيبُ في الإيمانِ وتزيينُ صُورَتِهِ

فالظُّلماتُ هُنا لم تُسْتَعْمَلْ بمعناها الحَقيقيِّ الذي هو خلافُ الضِّياءِ؛ إنَّما اسْتُعيرتْ لِلْكُفْرِ والضَّلالِ؛ إذْ شَبَّهَ الكُفْرَ بالظُّلماتِ، ثُمَّ حَذَفَ المُشَبَّهَ واسْتُعيرَ لَهُ اللَّفْظُ الدَّالُّ على المُشَبَّهِ بِهِ؛ وهو ﴿ٱلظُّلُمَٰتِ﴾، والجامعُ بينهما التَّخَبُّطُ والضَّياعُ وعدمُ الاهتداء في كلٍّ منهما؛ فالظُّلُماتُ حاجبةٌ لِلْأَبْصارِ عن إدراكِ الأشياء وإثباتِها، وكذلك الكُفْرُ حاجِبٌ أَبْصارَ القُلوبِ عن إدْراكِ حقائِقِ الإيمانِ والعِلْمِ بِصِحَّتِهِ وصحَّةِ أَسْبابِهِ، وكذا في كلمةِ ﴿ٱلنُّورِ﴾؛ فَهي أيضًا لم تُسْتَعْمَلْ في معناها الحقيقيِّ؛ الذي هو خِلافُ الظُّلمةِ، إنَّما استُعيرتْ للإيمان؛ بجامع الاهتداءِ والوضوح في كلٍّ مِنْهُما[3].

وفي النَّظمِ القُرآنيّ إذا ذُكِرَتِ ﴿ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ وقد استُعيرتْ للكفر، قُرِنَ معها ما يُقابِلُها، وهو استعارةُ ﴿ٱلنُّورِ﴾ للإيمان، كقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِۗ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٢٥٧﴾ [البقرة: 257].

وقولِه: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/151.
(2) الرَّضّي، تلخيص البيان: 2/130.
(3) ابْنُ جَرير، جامع البيان: 6/424، والدِّرَّة، تفسير القرآن الكريم: 3/57.

[إبراهيم: 1]، وقوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [الحديد: 9].

بلاغةُ اقترانِ الاستعارتَيْن:

بيانُ كَمالِ قُدْرَتِهِ ﷻ وكمالِ فَضْلِهِ على عباده بهدايتِهم

والسِّرُّ البلاغيُّ في اقترانِ استعارةِ الظُّلمات باستعارةِ النُّور في قولِه تعالى: ﴿يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾؛ لأنَّ الإخراجَ: فَصْلُ شَيْءٍ مَحْوِيٍّ عَنْ حَاوِيهِ، فَهُوَ هُنَا مُسْتَعْمَلٌ لِإِنْشَاءِ شَيْءٍ مِنْ شَيْءٍ[1]؛ فالضَّالّون في الضَّلال مُنْغَمِسونَ يُحيطُ بِهِم من كلِّ جهَةٍ، يحجبُ عنهم الحقَّ؛ وإخراجُهم من هذا الضَّلال فيه مشقَّةٌ لا تَخْفى، وهو لا يكون إلا بِقُدْرَةٍ إلهيَّة عَظيمَةٍ؛ ولهذا علَّق اللّه تعالى هذا الإخراجَ بإذْنِه، فلا يكونُ إلا بتوفيقِه وقدرتِه، فإذا أُخرجوا منَ الضَّلال، فسيُنقلون إلى مكانٍ آخرَ، هو الهُدى أو الإيمانُ؛ لذا قُرن بَيْنَهُما بالذِّكر؛ والتَّعبيرُ عن ذلك المعنى بهذا الأسلوبِ لبيانِ كَمالِ قُدْرَتِهِ جلَّ وعَلا وكمالِ فَضْلِه، ولبيانِ أنَّه لا هَادِيَ إلا هو ﷻ، والسِّرُّ أيضًا في اقترانِهِمَا؛ لِيَقِفَ المُتَلَقِّي أَمامَ البَوْنِ الشَّاسِعِ بين الصُّورتَيْن؛ صُورَةِ الكُفْرِ وكأنَّه الظُّلماتُ بِوَحْشَتِهَا وتَخَبُّطِ السَّالِكِ فيه وضياعِه، وصورةِ الإيمان وكأنَّهُ النُّورُ بوضوحِه واستبانَةِ الطَّريقِ مَعَهُ، وما يَحْصُلُ من ذلك مِنْ نُفورٍ مِنَ الكُفْرِ، ورغبةٍ في الإيمان، فَلِلتَّنْفيرِ مِنَ الكُفْرِ وتَبْشيعِ صُورَتِهِ، والتَّرغيبِ في الإيمان وتزيينِ صُورَتِهِ قَرَنَ بَيْنَهُمَا في الذِّكر على هذه الصُّورة[2].

وجهُ جمْعِ الظُّلماتِ وإفرادِ النُّورِ:

بيانُ أنّ طريقَ الحقِّ واحدٌ؛ إذ مردُّه إلى الله، وطرقَ الباطل متشعّبةٌ

لِلْمُفَسِّرينَ في العدول عن إفراد كلمةِ ﴿ٱلظُّلُمَٰتِ﴾، والإتيان بها جَمْعًا؛ وفي المُقابِلِ أُفْرِدَتْ كلمةُ ﴿ٱلنُّورِ﴾، توجيهاتٌ، مِنْهَا: أَنَّ جَمْعَ ﴿ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ باعتبار تعدُّدِ معانيها؛ إذِ المرادُ: ظلمةُ الكفر، وظلمةُ

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 2/68.

(2) مريم العبيد، بلاغة الاقتران في القرآن الكريم، ص: 193.

النّفاق، وظلمةُ العناد، وظلمةُ الحيرةِ، وظلمةُ التّقليدِ، وظلمةُ يومِ القيامة، أو المرادُ ظلمةٌ شديدةٌ، كأنّها ظلماتٌ متراكمةٌ[1]، أو لتعدّد طرقِ الضَّلال وأشكالِ الكفر؛ وفي ذلك دلالةٌ على أنَّ طرقَ الكُفْرِ والبدعةِ كثيرةٌ؛ فجُمعتِ ﴿ٱلظُّلُمَٰتِ﴾، وفي المقابل أُفرد ﴿ٱلنُّورِ﴾؛ لأنَّ طريقَ الحقّ واحدةٌ[2]؛ ولهذا وحّدَ اللّه تعالى لفظَ النُّور، وجمعَ الظُّلماتِ؛ لأنَّ الحقَّ واحِدٌ، والكُفْرَ أجناسٌ كثيرةٌ، وكُلُّها باطلةٌ؛ كما قال: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ١٥٣﴾ [الأنعام: 153]، إلى غيرِ ذلك منَ الآيات التي في لفظها إشعارٌ بتفرُّد الحَقِّ، وانتشارِ الباطل وتَفَرُّقِه وتَشَعُّبِه[3].

ويُحْتَمَلُ أنَّ ﴿ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ جُمِعَتْ؛ لِلإشارَةِ إلى أنَّ المُكَذِّبَ لَا يَنْتَفِعُ بِبَصَرٍ ولا بَصيرَةٍ، وذلك أنَّهم لمَّا لم ينتفِعُوا بحياتهم، ولا بأسماعِهم، ولا بِنُطْقِهِمْ، ولا أبصارِهم، ولا عقولِهم، كان كلُّ ذلك عدمًا كالظُّلمات[4].

وقَدْ يُرادُ بالظلمات أيضًا الأَسْبابُ المؤدِّيَةُ إلَى الكُفْرِ، كالجَهْلِ واتِّباعِ الهَوى وقَبولِ الوَساوِسِ والشُّبَهِ، وبالنُّور الهُدى المُوصِلُ إلَى الإيمانِ[5].

فَهِيَ مُتعدِّدَةٌ بِتَعَدُّدِ الحُجُبِ المُقْتَضِيةِ لها، وهي كثيرةٌ جدًّا، لكلِّ حجابٍ ظُلْمَةٌ خاصَّةٌ، ولا تَرْجِعُ الظُّلماتُ إلى النُّورِ الهادي ﷻ أصلًا لا وصفًا، ولا ذاتًا، ولا اسمًا، ولا فعلًا، وإنَّما تَرْجِعُ إلى مفعولاتِه سبحانَه، فهو جاعلُ الظُّلماتِ ومفعولاتِها مُتَعَدِّدَةً متكثرةً، بخلاف النُّورِ، فإنَّهُ يَرْجِعُ إلى اسمه وصفتِه ﷻ، تعالى أن يكون كَمِثْلِهِ شيء وهو نُورُ السَّماوات والأرض[6].

سِرُّ الاستعارة في تَشْبيهِ الإسلامِ بالصِّراطِ المُسْتَقيمِ:

التَّنْبِيهُ على وضوحِ الطَّريقِ وعَدَمِ اشتباهِهِ

وَالصِّرَاطُ المُسْتَقِيمُ مُستعارٌ للإيمَان[7]؛ لأنَّ الصِّراطَ يُطلقُ في الأصل على الطَّريق الحِسِّيِّ المخصوصِ، فاستعمالُهُ هُنا لطريق الإسلامِ استعارةٌ تَصريحيَّةٌ أصليَّةٌ؛ حيث شُبِّهَ دينُ الإسلام

(1) تَفْسيرُ النَّسَفيّ، أنوار التَّنزيل: 2/502، والدُّرَّة، تفسير القرآن الكريم: 3/57.
(2) الرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 19/58.
(3) ابنُ كَثيرٍ، تَفْسيرُ القرآن العظيم: 1/685.
(4) البِقاعيّ، نَظْمُ الدُّرَر: 7/108.
(5) القُونَويّ، حاشيةُ القُونَويِّ على البيضاوي: 7/427.
(6) ابن القيم، طريق الهجرتين، ص: 177، وابن القيم، بدائع الفوائد: 1/119.
(7) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/151.

بالطَّريق المخصوصِ الحسِّيِّ، والجامعُ بينهما: أنَّ كُلًّا مِنْهُمَا مُوَصِّل للمقصودِ[1]، مع الاستقامةِ في كلٍّ منهما، فصُرِّحَ باسم المُشَبَّه به وطُوِيَ ذكرُ المشبَّهِ، على طريقة الاستعارة التَّصْريحِيَّةِ، وفائدةُ الاستعارةِ ههنا: التَّنْبيهُ على وضوحِ الطَّريقِ وعَدَمِ اشتباهِهِ؛ إذِ الحِسِّيَّاتُ أظْهَرُ في التَّصوُّرِ مِنَ العقليَّاتِ.

والهدايةُ إلى الصِّراط المستقيم هي عينُ الهدايةِ إلى سُبُلِ السَّلام، وإنَّما عُطِفَتْ عليها تنزيلًا للتَّغايُرِ الوَصْفيِّ مَنْزِلَةَ التَّغايُرِ الذَّاتيِّ، كما في قولِه تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ۝٥٨﴾ [هود: 58][2].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الأهل والآل:

الآلُ خاصَّةُ الرَّجلِ وقرابتُه، والأهلُ أعمُّ

الآلُ: خاصّةُ الرَّجلِ من جِهَةِ القرابةِ أو الصُّحْبةِ، فيقال: آلُ الرَّجل لأهله وأصحابِه، أمَّا الأهلُ فيكونُ من جهة النَّسب، كأهل الرَّجل لقرابتِه الأَدْنين، ويكونُ للاختصاص، كأهل البصرةِ وأهلِ العلم، ولا يقال: آلُ البصرة وآلُ العلم[3].

ثمَّ إنَّ لفظَ الآل مختصٌّ بأُولي الخطرِ، كالأنبياءِ والملوكِ ونحوِهم، فيُقال: آلُ الرَّجُلِ له نفسِه، ومنه قولُه تعالى: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ ءَالِ يَاسِينَ ۝١٣٠﴾ [الصَّافات: 130]، وآلُه لأهله وأقاربِه، كقول القائل: (اللهمَّ صلِّ على محمد وعلى آل محمد)، وآلُه لمن تبعه، كقولِه: ﴿أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ۝٤٦﴾ [غافر: 46]، وأمَّا إن ذُكِرَ الرّجل ثم ذُكِرَ آلُه لم يدخل فيهم[4].

(1) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 1/92.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العَقْل السّليم: 3/19، والآلوسّي، روح المعاني: 3/270.
(3) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 281.
(4) ابن القَيِّم، جلاء الأفهام، ص: 226. وقراءة (عَالِ يَاسِيَن) قرأ بها نافع وابن عامر ويعقوب.

ولا يضافُ (آل) إلى الأرذالِ ولا المكانِ والزَّمانِ، ولا إلى الحَقِّ ﷻ، فلا يُقال آلُ الحائِكِ وآلُ مِصْرَ وآلُ زَمانٍ وآلُ اللّه تعالى؛ بخلاف الأهلِ في جميع ما ذُكِرَ[1].

المجيء والإتْيان:

المَجيءُ إتْيَانٌ مُحَقَّقٌ

الإتْيَانُ مَجِيءٌ بِسُهُولَةٍ، وهو بِدايَةُ المَجِيءِ[2]، فَإِذَا اكْتَمَلَ وَبُلِغَ مَقْصِدُهُ مِنْ مَكَانٍ أَوْ زَمَانٍ أَوْ شَخْصٍ أَصْبَحَ مَجِيئًا، فَالمَجِيءُ هو إتْيَانٌ مُحَقَّقٌ بَعِيدٌ عَنْ عَوَامِلِ النَّقْصِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿قَالُوٓاْ أُوذِينَا مِن قَبۡلِ أَن تَأۡتِيَنَا وَمِنۢ بَعۡدِ مَا جِئۡتَنَاۚ﴾ [الأعراف: 129]، فَالإتيَانُ بِدَايَةُ المَجِيءِ زَمَانِيًّا أَوْ مَكَانِيًّا، وَقَدْ لَا يَتِمُّ فَلَا يَكُونُ مَجِيئًا، أَمَّا المَجِيءُ فَهُوَ إِتْيَانٌ مُحَقَّقٌ قَرِيبٌ زَمَانِيًّا وَمَكَانِيًّا[3].

أَمَّا فِي بَابِ الأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ فَمَنْ تَكَلَّمَ عَنْ صِفَةِ المَجِيءِ وَالإِتْيَانِ مِنْ مُحَقِّقِي أَهْلِ السُّنَّةِ[4] يَجْعَلُهُمَا بِمَعْنًى وَاحِدٍ، وَيَسْتَدِلُّ لَهُمَا بِالأَدِلَّةِ نَفْسِهَا دُونَ تَفْرِيقٍ؛ فَالفَرْقُ السَّابِقُ غَيْرُ وَارِدٍ هُنَا فِي بَابِ الصِّفَاتِ، فَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَوۡ يَأۡتِيَ رَبُّكَ﴾ [الأنعام: 158] كقوله تعالى: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾ [الفجر: 22].

الكِتْمَان والإخْفاء:

الكِتْمَانُ يَخْتَصُّ بِالمعاني والإخْفاءُ أَعَمُّ

الكتمانُ هو السُّكوتُ عنِ المعنى، وقولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ [البقرة: 159]؛ أي: يَسْكُتُونَ عن ذِكْرِهِ، والإخْفَاءُ يكونُ في المعاني، كقولِه تعالى: ﴿يُخۡفُونَ فِيٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبۡدُونَ لَكَۖ﴾ [آل عمران: 154]، وفي غيره منَ الأمورِ الحسّيّةِ، كقولِه تعالى: ﴿تَجۡعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبۡدُونَهَا وَتُخۡفُونَ كَثِيرٗاۖ﴾ [الأنعام: 91]، والشَّاهدُ أنَّك تقول:

(1) التهانوي، كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم: 1/72.
(2) الرَّاغِب، المُفردات: (أتى).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (أتو/أتى).
(4) ابْنُ تَيْمِيَّة، مَجْموعُ الفَتاوى: 5/458، وابْنُ القَيِّم، الصَّواعِقُ المُرسَلَة: 3/1099.

أخفيتُ الدِّرْهَمَ في الثَّوب، ولا تقولُ: كَتَمْتُ[1]، فالكتمانُ يختصّ بالمعاني، كالأخبارِ والأسرارِ، والإخفاءُ يكونُ في الأمور الحسّيَّةِ.

الرِّضوان والمرضَاة:

الرِّضوان: بكسر الرَّاء وضمِّها، اسمُ مُبالغةٍ في مَعْنى الرِّضا، فهو الرِّضا الكثيرُ، ولمَّا كان أعظمُ الرِّضا رضا اللّٰه خَصَّ الرِّضوانَ في القرآن بما كان منه تعالى[2]، من حيث إنَّ رِضاهُ أعظمُ الرِّضا، قال تعالى: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُۚ﴾ [التوبة: 72][3].

الرِّضوانُ هو أعظمُ الرِّضا وأكبرُه، ولا يكونُ إلا منَ الله

أمَّا المَرْضاةُ فتأتي منَ اللّٰه ومن غيره، فَلَيْسَتْ مُخْتَصَّةً باللّٰه تعالى، وإنَّما تأتي للّٰه تعالى ولِغَيْرِهِ، قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِۚ﴾ [البقرة: 207]، وقال تعالى: ﴿تَبْتَغِى مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَۚ﴾ [التَّحريم: 1]، فالرِّضوان خاصٌّ باللّٰه تعالى، والمرضاة عامَّةٌ.

الطَّريق والسَّبيل والصِّراط:

الطَّريقُ هُوَ كُلُّ مَا يَطْرُقُهُ الطَّارِقُ مِنَ النَّاسِ؛ مُعْتَادًا كانَ أَو غَيْرَ مُعْتادٍ[4]، قال تعالى: ﴿فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ۝٧٧﴾ [طه: 77]، أَمَّا السَّبيلُ فهُوَ الطَّريقُ السَّهْلُ؛ وَأَغْلَبُ ما يَقَعُ في الخَيْرِ، وقَدْ يَقَعُ في الشَّرِ، كَقَوْلِهِ تَعالى: ﴿وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ۝٥٥﴾ [الأنعام: 55]، أَمَّا الصِّراطُ: فهو السَّبيلُ الذي لا اعْوِجاجَ فيهِ ولا التِواءَ.

الطَّريقُ ما يُسْلَكُ، والسَّبيلُ أَسْهَلُهُ، والصِّراطُ أَقْوَمُهُ

فَالفَرْقُ بَيْنَ الطَّريقِ والسّبيلِ أَنَّ الطَّريقَ لَا يَقْتَضِي السُّهُولَةَ واعْتِيادَ السُّلوكِ[5]، أَمَّا السَّبيلُ مِنَ الطُّرُقِ فهو السَّهْلُ المُعْتادُ، والفَرْقُ

(1) العَسْكَرِيّ، الفُروقُ اللُّغَويَة، ص: 287.
(2) الرَّاغِب، المُفْردات: (رضى)، والمَنَاوِيّ، التَّوقيف، ص: 178.
(3) الكَفَوِيّ، الكُلِّيات، ص: 478.
(4) الكَفَوِيّ، الكُلِّيات، ص: 513.
(5) العَسْكَرِيّ، الفُروقُ اللُّغَويَة، ص: 298.

بَيْنَ السَّبيلِ والصِّراطِ أَنَّ الصِّراط لا اعْوِجاجَ فيهِ[1]، قالَ اللّٰه تعالى: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [الأنعام: 161]، فَالصِّراطُ أَخَصُّ مِنَ السَّبيلِ، قال تَعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ﴾ [الأنعام: 153]، والسَّبيلُ أَخَصُّ مِنَ الطَّريقِ[2]؛ وقَدْ يُطْلَقُ كُلٌّ مِنْها على الآخَرِ تَوَسُّعًا.

(1) الكَفَوِيّ، الكُلِّيات، ص: 513.
(2) المَنَاوِيّ، التَّوقيف، ص: 215.

﴿لَّقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَۚ قُلۡ فَمَن يَمۡلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔا إِنۡ أَرَادَ أَن يُهۡلِكَ ٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗاۗ وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَاۚ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ١٧﴾ [المائدة: 17]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا ذكَر اللّه تعالى أخْذَ الميثاقِ على أهلِ الكِتابَيْنِ، وأنَّهم لم يَقوموا به، بل نَقَضُوه، ذكَر أقوالَهم الشَّنيعةَ، فذكَر قولَ النَّصارى وَرَدَّ عليهم[1]، فَقالَ: ﴿لَّقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّـهَ هُوَ ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَۚ﴾؛ فكانَ أَنْسَبَ الأشياء بَعْدَ الوَعْظِ أن يَذْكُر حال النَّصارى في نَبِيِّهِمْ، مُبَيِّنًا أنَّهم في أظلم الظَّلام وأعمى العَمى[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلۡمَسِيحُ﴾: عيسى عليه السلام عبدُ اللّه ورسولُه، من مسحَ يمسحُ مسْحًا، وَمَسَحْتُهُ بِيَدِي مَسْحًا، ومسيحٌ فعيلٌ من مسْحِ الأَرْض؛ لِأَنَّهُ كَانَ يمسحُها؛ أي: يقطعُهَا، وأصلُ المسح إِمْرَارُ الشَّيْءِ عَلَى الشَّيْءِ بَسْطًا، وَقيل: سّمي بذلك؛ لِأَنَّهُ كَانَ يَمْسَحُ يَده على العليل والأكْمَه والأبرص فيبرئُه بإذن اللّه، وَقيل: المَسِيح الصّديق، وقيل: لِأَنَّهُ خرج من بطن أمّه ممسوحًا بالدُّهن، وَقيل لِأَنَّهُ كَانَ أَمسَحَ الرِّجل، لَيْسَ لرجلِه أَخْمصُ[3].

2) ﴿يُهۡلِكَ﴾: الهلاكُ افتقادُ الشيء بموتٍ أو باستحالةٍ وفسادٍ؛ من هَلَكَ يهلك هُلْكاً وهَلْكاً وهَلاكاً؛ أي: مَاتَ، وأصلُ هلك يَدُلُّ عَلَى كَسْرٍ وَسُقُوطٍ، والمعنى هنا: يميتُه وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الأَرْضِ جَمِيعًا[4].

(1) السَّعْدي، تَيْسِيرُ الكَرِيمِ الرَّحْمن، ص: 266.
(2) البِقاعيّ، نَظْمُ الدُّرَر: 6/64.
(3) ابْنُ مَنْظورٍ، لِسَانُ العَرَب، والزَّبيديّ، تاجُ العَروس: (مسح)، وابن عزيز، غَرِيبُ القُرْآن، ص: 414.
(4) الرَّاغِب، المُفْردات، وابْنُ مَنْظورٍ، لِسَانُ العَرَب، والزَّبيديّ، تاجُ العَروس: (هلك)، والقاسِمي، مَحاسِنُ التَّأْويل: 4/93.

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

لقد كفر القائلون منَ النَّصارى بأنَّ الله هو المسيحُ عيسى ابْنُ مَرْيَمَ، قل لهم - أيُّها الرَّسول: من يَقْدِرُ أَنْ يَمْنَعَ الله من إماتَةِ المسيح عيسى ابْنِ مَرْيمَ وأمِّه، وإماتةِ من في الأرض كُلِّهِمْ إذا أراد إماتتَهم؟! وإذا لم يَقْدِرْ أَحَدٌ أَنْ يَمْنَعَهُ من ذلك دلَّ ذلك على أنَّه لا إله إلا الله، وأنَّ الجميعَ: عيسى ابْن مريم وأمَّه وسائرَ الخَلْقِ هم خَلْقُ الله؛ وجميعُ الموجوداتِ في السَّماوات والأرض مُلْكٌ لله، يَخْلُقُ ما يشاء ويُوجِدُهُ على أيِّ مثالٍ أرادَ، والله عظيم القُدْرةِ لا يُعْجِزُهُ شيءٌ[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

نوعُ البيانِ في الاستئنافِ بذكْرِ الموصولِ:

بـيـانُ شـنـاعـةِ مقالةِ النَّصارى بعد بيانِ حالِهم فيما سَبَقَ

اسْتَأْنَفَ هَذِهِ الجُمْلَةَ: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَۚ﴾ اسْتِئْنَافَ البَيَانِ، إجابة عن سؤالٍ مقدّر عن بيان حُكمهم بعد بيان حالهم، وَتَعَيَّنَ ذِكْرُ المَوْصُولِ هُنَا؛ لِأَنَّ المَقْصُودَ بَيَانُ مَا في هَذِهِ المَقَالَةِ مِنَ الكُفْرِ لَا بَيَانُ مَا عَلَيْهِ النَّصَارَى مِنَ الضلال؛ لأَنَّ ضلالَهم حَاصِلٌ لَا مَحَالَةَ إِذَا كَانَتْ هَذِهِ المَقَالَةُ كُفْرًا، وهَذَا مِنْ ضُرُوبِ عَدَمِ الوَفَاءِ بِمِيثَاقِ الله تَعَالَى، فكَانَ أَعْظَمَ ضَلَالِ النَّصَارَى ادِّعَاؤُهُمْ إِلَهِيَّةَ عِيسَى عليه السلام، فَإِبْطَالُ زَعْمِهِمْ ذَلِكَ هو أَهَمُّ أَحْوَالِ إِخْرَاجِهِمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَهَدْيِهِمْ إِلَى الصِّرَاطِ المُسْتَقِيمِ[2].

دلالةُ استعمال المؤكّدات وأساليب القصر:

بـيـانُ تـأكُّـدِ مـقـالَـتِـهِـمْ الـشَّـنـيـعـةِ في نـفـوسـهـم، والإنـكـارِ عليهم فيها

فجُمْلَةُ: ﴿ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَۚ﴾ هي تَرْكِيبٌ دَقِيقُ المَعْنَى من حيث اتِّحَادُ مُسَمَّى هَذَيْنِ الاسْمَيْنِ بِطَرِيقِ تَعْرِيفِ كُلٍّ مِنَ المُسْنَدِ إِلَيْهِ وَالمُسْنَدِ بِالعَلَمِيَّةِ بِقَرِينَةِ السِّيَاقِ الدَّالَّةِ عَلَى أَنَّ

(1) لَجْنَةٌ مِنْ عُلَماءِ الأَزْهَر، المُنْتَخَب، ص: 148، ونُخْبَةٌ مِنْ أَساتِذَةِ التَّفْسير، التَّفْسيرُ المُيَسَّر، ص: 110، وجَماعَةٌ مِنْ عُلَماءِ التَّفْسير، المُخْتَصَر، ص: 110.

(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/151.

الكَلَامَ لَيْسَ مَقْصُودًا لِلْإِخْبَارِ بِأَحْدَاثٍ لِذَوَاتٍ، المُسَمَّى في الاصْطِلَاحِ: حَمْلُ اشْتِقَاقٍ، بَلْ هُوَ حَمْلُ مُوَاطَأَةٍ، وهو مَا يُسَمَّى في المَنْطِقِ، حَمْلَ (هُوَ هُوَ)، وَذَلِكَ حِينَ يَكُونُ كُلٌّ مِنَ المُسْنَدِ إِلَيْهِ وَالمُسْنَدِ مَعْلُومًا لِلْمُخَاطَبِ، وَيُرَادُ بَيَانُ أَنَّهَا شَيْءٌ وَاحِدٌ، كَقَوْلِكَ حِينَ تَقُولُ: قَالَ زِيَادٌ، فَيَقُولُ سَامِعُكَ: مَنْ هُوَ زِيَادٌ؟ فَتَقُولُ: زِيَادٌ هو النَّابِغَةُ، وَمِثْلُهُ قَوْلُكَ: مَيْمُونٌ هو الأَعْشَى، فَمُجَرَّدُ تَعْرِيفِ جُزْأَيِ الإِسْنَادِ كَافٍ فِي إِفَادَةِ الاتِّحَادِ، وَإِقْحَامُ ضَمِيرِ الفَصْلِ بَيْنَ المُسْنَدِ إِلَيْهِ وَالمُسْنَدِ فِي مِثْلِ هَذِهِ الأَمْثِلَةِ اسْتِعْمَالٌ مَعْرُوفٌ لَا يَكَادُ يَتَخَلَّفُ قَصْدًا لِتَأْكِيدِ الاتِّحَادِ، وتأكيدِ القصْرِ، وهو قصرٌ إضافيٌّ، وكَذَلِكَ وُجُودُ حَرْفِ (إِنَّ) لِزِيَادَةِ التَّأْكِيدِ، وفي هذا بَتُّ القَوْلِ عَلَى أَنَّ حَقِيقَةَ اللّٰه هو المَسِيحُ[1]، فمعنى البتِّ مُسْتَفَادٌ من ثلاثةِ تأكيداتٍ باللَّام وضميرِ الفَصْلِ وإنَّ[2]، وفيه بيانُ شناعة ما قالوه وبُعدِه منَ العقل، فهو في غاية الإنكارِ[3].

دلالةُ الأمر بعدَ بيانِ مقالةِ النَّصارَى:

تَبْكِيتُهُمْ وإظهارُ ضلالِهم، والدَّعوةُ إلى إبطالِ شُبَهِهِمْ

فـ﴿قُلْ﴾؛ أي: يا محمَّد تبكيتاً لهم وإظهارًا لبطلان قولِهم الفاسدِ وإلقامًا لهم الحجرَ، وقد يُقال: إنَّ الخطاب لكلِّ من له أهليَّةُ ذلك[4]، فهو خِطابٌ لأهل العلم والدُّعاةِ إلى التَّصدّي لِشُبهِ المُبْطِلينَ منَ النَّصارى ومن كان في حُكمِهم، ومُناظرتِهم بالحُجَجِ النَّقليَّةِ والعقليَّةِ، ومِنْ ثَمَّ دعوتُهم إلى الحقِّ والنُّورِ المُبين الذي جاء بِهِ خيرُ النَّبيّين وإمامُ المُرسلين نبيُّنا محمَّدٌ ﷺ.

بيانُ كذبِهم وافترائِهم، والتَّعقيبُ على مقالتِهم الشَّنيعةِ بما يُبْطِلُهَا ويدمَغُها

بلاغةُ العطفِ بالفاءِ:

﴿فَمَن يَمْلِكُ﴾: الفاءُ عاطفةٌ هذه الجملةَ على جملةٍ مقدّرةٍ قبْلَها، والتّقديرُ: قل كذبوا، أو جوابِ شرطٍ مقدّرٍ؛ أي: ليس الأمرُ كذلك، أو إن كان كذلك ﴿فَمَن يَمْلِكُ﴾؟[5]، وقد تكونُ الفاءُ عاطفةً

(1) الزَّمَخْشَرِيّ، الكَشَّاف: 1/617، وابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/152.
(2) ابْنُ التَّمْجيد، حاشِيَةُ ابْنِ التَّمْجيد: 7/427، والخَفاجيّ، عناية القاضي: 3/225.
(3) البِقاعيّ، نَظْمُ الدُّرَر: 6/64.
(4) الآلوسّي، روحُ المعاني: 3/270، والجَمَل، حاشية الجَمَلِ على الجلالين: 2/199.
(5) السَّمين، الدُّرُّ المَصون: 4/230.

للاستفهام الإنكاريِّ على قَوْلِهم: إنَّ اللّه هو المَسِيحُ؛ للدَّلالَةِ على أنَّ الإنكارَ ترتَّبَ على هذا القَوْلِ الشَّنيعِ؛ فهي للتَّعقيبِ الذِّكْرِيِّ[1].

دلالةُ الاستفهامِ الإنكاريِّ:

الإنكارُ والتَّوبيخُ للنَّصارَى على مَقالَتِهِمْ القبيحةِ

﴿فَمَن يَمۡلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔا﴾: فَمَنْ استفهامٌ للإنكارِ والتَّوبيخِ؛ أي: لا يُوجَدُ أحدٌ يستطيعُ أن يردَّ إرادتَه؛ لأنَّه هو المالكُ لأمرِ الوجودِ كلِّه، ولا يملكُ أحدٌ مِن أمْرِه شيئًا يستطيعُ به أن يَصرِفَه عن عملٍ يُريدُه، أو يَحمِلَه على أمرٍ لا يُريدُه، أو يَستقِلَّ بعملٍ دونَه[2]، فمن استفهاميةٌ للإنكار والتَّوبيخ[3].

بلاغةُ الكنايةِ على المنْعِ والقُدْرةِ بالمِلك:

بيانُ أنَّ من لا يقدِرُ على دفْعِ المقاديرِ ليس له حظٌّ في الأُلوهيَّةِ

فالمعنى: فمن يمنعُ من قدرته تعالى وإرادتِه شيئاً ﴿إِنۡ أَرَادَ أَن يُهۡلِكَ ٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗاۗ﴾ إشارةً إلى أنّ ﴿يَمۡلِكُ﴾ مجازٌ عن يمنع، أو يضمّن معناه، و﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾ مُتَعَلِّقٌ به على حذف مضاف؛ أي: ليس الأمرُ كذلك، أو إن كان كما تزعمون، لكنْ ذُكر في الأحقاف في قوله: ﴿فَلَا تَمۡلِكُونَ لِي مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔاۖ﴾ [الأحقاف: 8]، أنّ معناه لا تقدِرون على كفِّه من معاجلتي وتُطيقون دفعَ شيءٍ من عقابِه، وحقيقتُه من يستطيعُ إمساكَ شيءٍ من قدرة اللّه تعالى إن أراد تعالى أن يُهلكَه، فإذا لم يستطع إمساكَه، ودفعَه عنهم فلا يمكنُ منعُهم منه؛ فلذا فُسّر بالمنع أخذًا بالحاصل، فهو بمعنى المنع مجازاً[4]، وهي كنايةٌ عن نفيِ المانع مطلقًا.

وقد يكونُ بمعنى القُدرةِ، وَمعْنَى يَمْلِكُ شَيْئًا هُنَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ، فَالْمُرَكَّبُ مُسْتَعْمَلٌ فِي لَازِمِ مَعْنَاهُ عَلَى طَرِيقَةِ الكِنَايَةِ أيضًا، وهذا

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/154.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العَقْل السّليم: 3/19، ورضا، تفسير المنار: 6/256 - 257.
(3) الآلوسّي، روحُ المعاني: 3/270.
(4) البَيْضاويّ، أنْوارُ التَّنْزيل: 2/120، والخَفاجيّ، عناية القاضي: 3/226، والآلوسّي، روحُ المعاني: 3/270.

اللَّازِمُ مُتَعَدِّدٌ، وهو المِلْكُ، وهو اسْتِعْمَالٌ كَثِيرٌ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا﴾ [الفتح: 11]؛ لِأَنَّ الَّذِي يَمْلِكُ يَتَصَرَّفُ فِي مَمْلُوكِهِ كَيْفَ شَاءَ[1].

فمن حقِّ من يكونُ إلهاً ألّا يتعلّق به ولا بشأنٍ من شؤونه، بل بشيءٍ منَ الموجودات قدرةُ غيره، فضلاً عن أن يعجزَ عن دفع شيءٍ منها عند تعلّقها بهلاكه، فلمّا كان عجزُه بيّنًا لا ريب فيه ظهرَ كونُه بمعزلٍ عمَّا تقولون فيه[2].

سِرُّ التَّنكيرِ في مَعْرِضِ الحِجاجِ والتَّقريرِ:

التَّحقيرُ ونفيُ القليل المقتضِي لِنَفْيِ الكثيرِ

وتنكيرُ ﴿شَيْـًٔا﴾ للتَّقليلِ والتَّحقيرِ، ولَمَّا كان الاستفهامُ في قوله: ﴿فَمَن يَمْلِكُ﴾ بمعنى النَّفْيِ، كان نفيُ الشَّيءِ القليلِ مُقتضيًا نفيَ الكثيرِ بطريق الأَوْلى، فَالمَعْنَى: فَمَنْ يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ مِنَ اللّٰه؛ أَيْ: مِنْ فِعْلِهِ وَتَصَرُّفِهِ أَنْ يُحَوِّلَهُ عَنْهُ، وَنَظِيرُهُ: ﴿وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾ [يُوسُف: 67][3].

سِرُّ تقديمِ الجزاءِ على الشَّرْطِ في الجملةِ الشّرطيَّةِ:

إقامةُ الحُجَّةِ عليهم من خلالِ بيانِ فسادِ مذهبِهم

فاللّٰه سُبحانه دلَّلَ على فَسادِ هذا المذهبِ بقوله: ﴿قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾، وهذه جملةٌ شرطيَّةٌ قُدِّم فيها الجزاءُ على الشَّرطِ، والتَّقديرُ: إن أراد أن يُهْلِكَ المسيحَ ابنَ مريم وأمَّهُ ومن في الأرض جميعًا، فمنِ الذي يَقْدِرُ على أن يدفعَه عن مُرادِهِ ومَقْدُورِهِ[4]، والمُرادُ بالإهلاك الإماتةُ والإعدامُ مُطْلَقًا لا عن سَخَطٍ وغَضَبٍ[5].

وَحَرْفُ الشَّرْطِ هنا مِنْ قَوْلِهِ: ﴿إِنْ أَرَادَ﴾ مُسْتَعْمَلٌ فِي مُجَرَّدِ

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/154، والخَفاجيّ، حَاشِيةُ الشِّهاب: 3/226.
(2) الآلوسّي، روحُ المعاني: 3/270.
(3) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/154.
(4) الرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 11/328.
(5) الآلوسّي، روحُ المعاني: 3/270.

التَّعْلِيقِ مِنْ غَيْرِ دَلَالَةٍ عَلَى الاسْتِقْبَالِ؛ لِأَنَّ إِهْلَاكَ أُمِّ المَسِيحِ قَدْ وَقَعَ بِلَا خِلَافٍ، ولأَنَّ إِهْلَاكَ المَسِيحِ؛ أَيْ: مَوْتَهُ، وَاقِعٌ عِنْدَ المُجَادِلِينَ بِهَذَا الكَلَامِ، فَيَنْبَغِي إِرْخَاءُ العِنَانِ لَهُمْ فِي ذَلِكَ لِإِقَامَةِ الحُجَّةِ[1].

غرض التّعبير بـ ﴿إِنْ﴾ دون (إذا):

الـــــردّ عـلى شـبـهـاتـهـم والـتّـقـلـيـل من شأنها

والتّعبيرُ بـ﴿إِنْ﴾ دون (إذا) مع أنّها تأتي في الأمر المشكوكِ فيه وغيرِ المحقَّقِ، وهلاكُ كلّ المخلوقات محقّقٌ، والأصلُ أن يُؤتَى في التّعبير عنه بـ(إذا)، هو خروجٌ عنِ الظاهر لإنزال الأمرِ المحقَّقِ منزلةَ غيرِ المحقَّقِ؛ لأنّها جاءت في معرِضِ جدالِهم وردِّ افتراءاتِهم على المسيح عليه السلام في ادّعاء أُلوهيّته.

النُّكْتَةُ في وصفِ المسيح عليه السلام بكونه ابنَ مريم وأنَّها أُمُّهُ:

بـيـانُ حـاجـةِ المـسـيـح لأمِّـه حـمَـلًا وكـفـالـةً وكـونُـه حـادثًـا وهذه من دلائلِ ضَعْفِهِ

فكرَّر وصْفَهُ بالبُنُوَّةِ إيضاحًا للمُراد، فقال: ﴿ٱبۡنَ مَرۡيَمَۚ﴾ وأزال الشُّبهة جدًا بقوله: ﴿وَأُمُّهُۥ﴾، فقال: ﴿ٱبۡنَ مَرۡيَمَۚ﴾، فهو مُحتاج إلى كفالتِها بما لها منَ الأمومة[2].

فإظهارُ المسيح على الوجه الذي نَسبوا إليه الألوهيَّةَ حيث ذُكِرَتْ معه الصِّفَةُ؛ في مقامِ الإضمارِ لزيادة التَّقريرِ والتَّنصيصِ على أنَّه من تلك الحيثيَّة بعينها داخلٌ تحت قهرِه تعالى وملكوتِه سبحانَه، كما أنَّ وصْفَه بذلك للتَّنبيه على أنَّه حادثٌ تَعَلَّقَتْ به القُدْرَةُ بلا شُبْهَةٍ؛ لأنَّه تَوَلَّدَ من أمٍّ[3].

فمَنِ اشتملتْ عليه أرحامُ الطَّوامثِ متى يُفارِقُهُ نَقْصُ الخِلْقة[4]، ومقهورٌ بالفناء مَنْ هذه صفتُه، فكيف يكونُ إلهًا؟![5].

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/154.
(2) البِقاعيّ، نَظْمُ الدُّرَر: 6/64.
(3) الآلوسّي، روحُ المعاني: 3/271.
(4) القشيري، لطائف الإشارات: 1/413.
(5) الخَفاجيّ، عناية القاضي: 3/226.

دلالةُ عطف ﴿وَأُمَّهُۥ﴾ مع اندراجِها في عمومِ المعطوف:

تـأكـيـدُ عـجْـزِ المسيحِ في كونِه مخلوقًا تَوَلَّدَ عن مخلوقٍ تَحَقَّقَ هَلاكُهُ

﴿وَأُمَّهُۥ﴾ عَطَفَهُ عليه احتجاجًا على انحطاطِها عنِ الأُلُوهيَّة أَيْضًا، وتَخْصيصُ الأمِّ بالذِّكر مع اندراجِها في عُمومِ المعطوفِ لِزيادَةِ تأكيدِ عجْزِ المسيح، ولعلَّ نَظْمَها في سِلْكِ من فرضَ إرادةَ إهلاكِهم مَعَ تَحَقُّقِ هَلاكِها قَبْلُ؛ لِتَأْكيدِ التَّبْكيتِ وزيادَةِ تقريرِ مَضْمُونِ الكلام بجعل حَالها أُنْموذجًا لِحالِ بقيَّة من فُرِضَ إِهْلاكُهُ[1].

سِرُّ تعميمِ إرادةِ الإهلاكِ مع حُصولِ الغرضِ بقصْرِها على عيسى عليه السلام:

المُبالغةُ في إظهارِ كـمـالِ الـعَـجْـزِ المُبْعِدِ من رُتبةِ الإلهيَّة

فلمَّا خَصَّ اللّه تعالى المسيحَ وأمَّه بالذِّكر دليلًا على ضعفِهما المُستلزم للمُراد، عمَّ دلالةً على عموم القُدْرةِ المُستلزم لِتَمام القَهْرِ لكلِّ من يماثلُهُما المُسْتَلْزِم لعجزِ الكلِّ المُبْعِدِ من رُتبة الإلهيَّة، فقال موضِّحًا للدَّليل بتسويتِهما ببقية المخلوقاتِ: ﴿وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾[2].

وهذا التَّعميمُ لتهويلِ الخَطبِ وإظهارِ كمالِ العجْزِ ببيانِ أنَّ الكُلَّ تحت قهرِه وملكوتِه تعالى لا يقدرُ (أَحَدٌ) على دفْعِ ما أُريدَ به، فضلًا عمَّا أُريدَ بغيرِه، وللإيذان بأنَّ المسيحَ أُسْوَةٌ لسائرِ المخلوقات في كونِه عُرْضَةً للهلاك، كما أنَّه أُسْوَةٌ لهم في العجْزِ وعدمِ استحقاقِ الأُلوهيَّة[3].

كما أنَّ عَطْفَ العامِّ ﴿وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ على الخاصِّ ﴿ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ﴾؛ ليكونَا قد ذُكرَا مرَّتين: مرَّةً بالنَّصِّ عليهما، ومرَّة بالاندراجِ في العامِّ، وذلك على سبيلِ التَّوكيدِ والمبالَغَةِ في تعلُّق نَفاذِ الإرادةِ فيهما، وكذلك تأكيدُ عَجْزِ المسيحِ[4] عليه السلام.

كما أنَّ ﴿وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ فيه أنَّ عيسى مُشَاكِلٌ لمن في الأرض في الصُّورة والخِلْقَةِ والجسميَّة، والتَّركيب، وتغييرِ الصِّفاتِ

(1) أَبو السُّعود، إرشاد العَقْل السّليم: 3/20، والبروسوي، روحُ البَيان: 2/371.
(2) البِقاعيّ، نَظْمُ الدُّرَر: 6/65.
(3) الآلوسّي، روحُ المعاني: 3/271.
(4) أَبو حَيّان، البَحْرُ المُحيط: 4/210، وأَبو السُّعود، إرشاد العَقْل السّليم: 3/20، والجَمَل، حاشية الجمل على الجلالين: 2/200.

والأحوالِ، فلمَّا سلّمتُمْ كونَه تعالى خالقًا للكُلِّ مُدَبِّرًا لِلْكُلِّ وَجَبَ أن يكونَ أيضًا خالقًا لعيسى[1].

دلالةُ الشَّرطيَّةِ في التَّعبيرِ بالجمعيَّةِ:

استِلزامُ الشَّرطِ للحالِ والاستقبالِ

وَالْمُرَادُ بِـ ﴿وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ مَنْ كَانَ في زَمَنِ المَسِيحِ وَأُمِّه مِنْ أَهْلِ الأَرْضِ، فَقَدْ هَلَكُوا كُلُّهُمْ بِالضَّرُورَةِ، وَالتَّقْدِيرُ: مَنْ يَمْلِكُ أَنْ يَصُدَّ اللّه إذا أَرَادَ إِهْلَاكَ المَسِيحِ وَأُمِّه وَمَنْ في الأَرْضِ يَوْمَئِذٍ.

وَقد تَسْتلزِمُ الشَّرطِيَّةُ هنا كَوْنَ الشَّرْطِ لِلاسْتِقْبَالِ؛ بِاعْتِبَارِ جَعْلِ مَنْ في الأَرْضِ جَمِيعًا بِمَعْنَى نَوْعِ الإِنْسَانِ، فَتَعْلِيقُ الشَّرْطِ بِاعْتِبَارِ مَجْمُوعِ مَفَاعِيلِ يُهْلِكَ منها عَلَى طَرِيقَةِ التَّغْلِيبِ، فَإِنَّ بَعْضَهَا وَقَعَ هَلَاكُهُ، وَهُوَ أُمُّ المَسِيحِ، وَبَعْضَهَا لَمْ يَقَعْ وَسَيَقَعُ، وَهُوَ إِهْلَاكُ مَنْ في الأَرْضِ جَمِيعًا؛ أَيْ: إِهْلَاكُ جَمِيعِ النَّوْعِ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ أَمْرٌ غَيْرُ وَاقِعٍ، وَلَكِنَّهُ مُمْكِنُ الوُقُوعِ، وهذا الشَّرْطُ مِنْ غَرَائِبِ اسْتِعْمَالِ الشُّرُوطِ في العَرَبِيَّةِ، وَمَرْجِعُهُ إِلَى اسْتِعْمَالِ صِيغَةِ الشَّرْطِ في مَعْنًى حَقِيقِيٍّ وَمَعْنًى مَجَازِيٍّ تَغْلِيبًا لِلْمَعْنَى الحَقِيقِيِّ؛ لِأَنَّ مَنْ في الأَرْضِ يَعُمُّ الجَمِيعَ، وهو الأَكْثَرُ[2].

توجيهُ المُتشابِهِ اللَّفظيِّ بين هذه الآيةِ وآيةِ الفتح:

بيانُ عمومِ الخطابِ هنا للنّاسِ أجمعين وتقييدِه في آيةِ الفتحِ بالمُخَلَّفينَ

فمن لطيفِ المُتشابِهِ اللَّفظي بين قولِه تعالى: ﴿قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ هنا، وفي سورة الفتح: عند قوله: ﴿فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا﴾ [الفتح: 11]، بزيادةِ لفظةِ (لكم)، أنَّ في آية المائدة عمومًا يستدعي الإطلاقَ وعدمَ التَّقييد بالمخاطَبين، وفي سورة الفتح خصوصٌ يستدعي التَّخصيصَ بآية الخطاب للمواجَهين به، وذلك أنَّ الإخبارَ في سورة المائدة إنَّما هو للنَّصارى، قال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ

(1) الرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 11/328، والجَمَل، حاشية الجمل على الجلالين: 2/200.
(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/154.

مَرۡيَمَۚ﴾، وهذا حكايةُ قولِهم، ثمَّ أعلم تعالى بقدرتِه وقهرِه للكلِّ، فقال: ﴿قُلۡ فَمَن يَمۡلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔا﴾؛ أي: من يدافعُ مرادَه في خلقه إن أراد هلاكَهم، ثمَّ ذكر سبحانَه خَلْقَهُ المقهورين من سكَّانِ الأرض، فبدأ بالمسيحِ وأمِّه عليهما السلام، ثمَّ قال: ﴿وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗاۗ﴾، فعمَّ الكُلَّ، فلم يكنْ ليُناسبَ هذا العمومَ أداةُ خِطابٍ تَخُصُّ، أمَّا آيةُ الفتح فقبْلَها إخبارُهُ سُبحانَه عنِ المُتَخَلِّفينَ عن غزوة الحديبيَّةِ، فقال تعالى: ﴿سَيَقُولُ لَكَ ٱلۡمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ شَغَلَتۡنَآ أَمۡوَٰلُنَا وَأَهۡلُونَا﴾، ثُمَّ أعلَمَ تعالى نبيَّه عليه السلام والمؤمنين أنَّ قولَ المُخَلَّفينَ قولٌ بألسنتهم غيرُ مُطابِقٍ لما في قلوبهم، فَقالَ تعالى: ﴿قُلۡ فَمَن يَمۡلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔا﴾؛ أي: قلْ يا محمَّد ﷺ من يملك لكم مَعْشَرَ المُخَلَّفينَ منَ الله شيئًا؛ أي: من يدفعُ عنكم الضُّرَّ إن أراده بكم، أو يُوصلُ إليكم النَّفعَ إن مَنَعَهُ عنكم، فالإخبارُ إنَّما هو عنهم، وتقديرُ النَّفعِ والضُّرِّ مرفوعًا أو لاحقًا خاصٌّ بهم، لم يُرَدْ بذلك غَيْرُهم، فَوَرَدَ بخطاب المواجهة، فقال: ﴿لَكُم﴾، ولم يكن بُدٌّ من ذلك ليُعلَمَ أنَّ الإخبارَ عنهم والخطابَ بما بعدُ لهم، فجاء كلٌّ على ما يُناسبُ ويَجِبُ، ولا يُتَصَوَّر فيه العَكْسُ[1].

سِرُّ التَّذييلِ بِذِكْرِ المُلْكِ والخَلْقِ بعد الشَّرطِ ونفيِ المانعِ:

تعظيمُ شأنِ اللهِ تعالى في اختصاصِهِ بالأُلوهيَّةِ والرُّبوبيَّةِ

﴿وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَاۚ﴾: تذييلٌ في مقامِ التَّعليل للجُملةِ السَّابقةِ، وفيه عدَّةُ فوائدَ؛ منها: تعظيمُ شأنِ اللهِ تعالى، فَلَهُ وحده ملكُ جميعِ الموجوداتِ، والتَّصرّفُ المُطْلَقُ فيها إيجادًا وإعدامًا، وإحياءً وإماتةً، لا لأحد سواه، استقلالًا ولا اشتراكًا، فهو تحقيقٌ لاختصاص الأُلوهيَّة به تعالى إثْرَ بيان انتفائِها عمَّا سواه، وفيه ردٌّ آخَر عليهم بأنَّ اللهَ هو الذي خَلَقَ السَّمَاواتِ والأرضَ، ومَلَكَ ما فيها من قَبْلِ أن يظهرَ المسيحُ؛ فاللهُ هو الإلهُ حقًّا، وأنَّه يَخلُقُ ما يشاءُ، فهو الذي خَلَقَ المسيحَ خلقًا غيرَ مُعتادٍ؛ فكان مُوجِبَ ضلالِ مَن نَسَبَ له الأُلوهيَّةَ[2].

كما أنَّ جُمْلَةَ: ﴿وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَاۚ﴾ جملةٌ

(1) ابْنُ الزُّبَيْرِ، مِلاكُ التَّأْويل: 1/125.

(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/155.

مؤكِّدةٌ لِقَوْلِه: ﴿إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ﴾، ودالَّة على أنَّه إذا أرادَ فَعَلَ؛ لأنَّ مَن له ذلك المُلْكُ يَفعلُ في مُلْكِه ما يشاءُ[1]، وتقديمُ الخبر شبْهِ الجملة هنا على المبتدأ ﴿مُلْكُ﴾ أفاد معنى التّخصيص في قصر هذا الملكِ على الله وحده دونَ غيرِه ﷻ.

التَّأكيدُ على مُطْلَقِ الإرادةِ والفعْلِ لكمالِ المُلْكِ والتَّصرُّفِ

فالمسيحُ وأُمُّه مخلوقانِ محدودانِ محصورانِ داخلانِ في قوله: ﴿وَمَا بَيْنَهُمَا﴾، وما أحاط به الحدُّ والنِّهايةُ لا يصلح للإلهيَّة[2].

بيانُ أنَّ ما يُحيطُ بِهِ الحَدُّ والحصْرُ لا يَصْلُحُ للإلهيَّة

وفيها دليلٌ آخر على نفي ألوهيَّة عيسى عليه السلام؛ لأنَّه لو كان إلهًا كان له مُلكُ السَّماوات والأرض وما بينهما، فدليلُ نفي كونِه عليه السلام ابنًا ببيانِ أنَّه مملوكٌ لدخولِه تحت العُموم، ومنَ المعلومِ أنَّ المملوكيةَ تُنافي البُنُوَّةَ[3].

بيانُ أنَّ المملوكَ لا يكونُ إلهًا ولا ابنًا للإله

دلالةُ الاستئنافِ بعدَ التَّذْييلِ:

﴿يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾: جُمْلَةٌ مُسْتَأْنَفَةٌ مسوقةٌ لبيانِ بعضِ أحكام الملكِ والألوهيَّةِ، فاستأنفَ قولَه: ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ دليلًا على ما قبْلَه، ونتيجةً له، فَيَخْلُقُ على أيِّ كيفيَّة أراد - كما تقدَّمَ - أنَّ له أن يُعْدِمَ ما يشاءُ كذلك، فلا عَجَبَ في خلْقِه بَشرًا من أُنثى فقط، لا بواسطةِ ذَكَرٍ، حتى يكون سببًا في ضلالِ من ضَلَّ به[4].

بيانُ كمالِ القُدْرةِ على الخلقِ بأيِّ طريقةٍ وكيفيَّةٍ

والمعنى أنَّه ﷻ قادرٌ على الإطلاقِ، يَخْلُقُ من غيرِ أصلٍ كما خلقَ السَّماواتِ والأرضَ، ومن أصلٍ كخلْقِ ما بينهما، فَيُنْشِئُ من أصلٍ لَيْسَ من جنسِه، كآدم خَلَقَهُ من ترابٍ؛ فإنَّه خُلِقَ منَ الطِّين وهو ليس من جنْسِ البشرِ؛ ومِنْ أَصْلٍ يُجانسه؛ إمَّا من ذَكَرٍ وحَدْهُ، كما خلَقَ حواءَ، أو من أنثى وحَدْها، كعيسى عليه السلام، أو مِنْهُما كسائرِ النَّاس[5]، وهذا التَّنوُّعُ في الخلق دليلٌ على كمال قُدرته ﷻ.

(1) أبو حَيّان، البَحْرُ المُحيط: 4/211.
(2) القُرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 6/119.
(3) الآلوسّي، روحُ المعاني: 3/271.
(4) البِقاعيّ، نَظْمُ الدُّرَر: 6/65 - 66.
(5) البَيْضاويّ، أَنْوارُ التَّنْزيل: 2/120، والقُونَويّ، حاشيةُ القُونَويّ على البيضاوي: 7/429.

و﴿يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ﴾ يعني أيضًا أنَّ عيسى إذا قَدَّر صُورَةَ الطَّيْرِ من الطِّين فاللّه تعالى يَخْلُقُ فيه اللَّحميَّةَ والحياةَ والقدرةَ معجزةً لعيسى، وتارةً يُحيي الموتى ويُبرئ الأكمهَ والأبرصَ مُعجزةً له، ولا اعتراضَ على اللّه تعالى في شيءٍ من أفعالِه[1]، فيجبُ أن يُنسبَ إليه ولا يُنسبَ إلى البشرِ المُجرَى على يده[2].

السِّرُّ في التَّذْييلِ بعدَ التَّذْييلِ:

تقريرُ مضمونِ ما قبْلَه وتعميمُ القدرةِ وتأكيدُها

﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾: تَذْييلٌ مُقَرِّرٌ لمضمونِ ما قبْلَه وإظهارِ الاسمِ الجليلِ لما مرَّ منَ التَّعليل، وتقويةِ استقلالِ الجُملةِ[3]، فلمَّا دلَّ ذلك على تمام القُدرةِ على المذكورِ عمَّ، فقال: ﴿وَٱللَّهُ﴾؛ أي: ذو الجلالِ والإكرام ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ﴾؛ أي: من ذلك وغَيْرِه ﴿قَدِيرٞ﴾[4].

توجيهُ المُتشابِهِ اللَّفْظيِّ بين هذه الآيةِ والآيةِ التي تليها:

التَّعقيبُ بِذِكْرِ الخَلْقِ لمناسبتِه القُدْرَةَ في الآيةِ الأُولى، والتَّعقيبُ بِذِكْرِ المآلِ بعدَ الجَزاءِ في الثَّانيةِ

ومن لطائفِ التَّناسُبِ بين تعقيبِ المُتشابِه في قوله تعالى هُنا: ﴿وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَاۚ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾، وقوله تعالى في الآية التي تليها: ﴿وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَاۖ وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ١٨﴾ [المائدة: 18]؛ حيث عقَّبَ الأولى بقوله: ﴿يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾، وعقَّب الثَّانيةَ بقوله: ﴿وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ١٨﴾ [المائدة: 18].

ووجه التَّناسُبِ في ذلك أنَّه سُبحانَه لمَّا ذَكَرَ في الأولى قُدْرَتَهُ وعظيمَ سلطانه في قوله: ﴿قُلۡ فَمَن يَمۡلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔا إِنۡ أَرَادَ أَن يُهۡلِكَ ٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗاۗ﴾، وعرَّف سبحانَه أنَّه لا مُعانِدَ له ولا مانعَ لما يريدُه، أشار بقوله: ﴿يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ﴾ إلى ما أفصحَ به قولُه: ﴿إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأۡتِ بِـَٔاخَرِينَۚ﴾

(1) الرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 11/328.
(2) الخَفاجيّ، عناية القاضي: 3/226.
(3) الآلوسّي، روحُ المعاني: 3/271.
(4) البِقاعيّ، نَظْمُ الدُّرَر: 6/65 - 66.

[النِّساء: 133]، وقوله ﴿إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ وَيَأۡتِ بِخَلۡقٖ جَدِيدٖ ١٩﴾ [إبراهيم: 19]، فصارت الآيةُ بهذا في قوَّةِ أن لو قيل: قل من يملكُ من اللّه شيئًا إن أراد أن يُهلِك مَنْ ذَكَرَ ويأتي بآخرين سِواهُمْ، فأعقبَ هذا بقوله: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾، وهذا واضح.

ولما قال في الآيةِ الأخرى: ﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحۡنُ أَبۡنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥۚ﴾ [المائدة: 18]، ثُمَّ ذَكَرَ تعذيبَهم بِذُنوبهم بأنَّهُ سبحانَه يَغْفِرُ لمن يشاءُ ويعذّبُ من يشاءُ، أَعْقَبَ هذا بما يُشيرُ إلى وقتِ التَّعذيبِ وظهورِ المغفرة والمُجازاةِ، فقال: ﴿وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ١٨﴾ [المائدة: 18]، وهذا واضحٌ أيضًا، فلمَّا اختلف مقصودُ الآيَتَيْنِ أُعقِبَتْ كلُّ واحدةٍ منهما بما يُناسِبُ مقصودَها بالقَهْرِ في الأولى، والاختراعُ يُنَاسِبُ وصْفَه ﷻ بِالقُدْرَةِ، كما أنَّ التَّعذيبَ والغُفْرانَ في الثَّانيةِ يُناسِبُها ذِكْرُ المآل، فجاء على ما يُناسِبُ[1].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الإهلاك والإعدام:

الإهلاكُ أعمُّ مِنَ الإعدام؛ لأنَّه قد يكونُ بِنَقْضِ البِنْيَةِ وإبطالِ الحاسَّةِ، وما يجوزُ أن يَصِلَ مَعَهُ اللَّذَّةُ والمَنْفَعَةُ، والإعدامُ نَقيضُ الإيجادِ، وأصلُهُ من العَدَمِ خلافَ الوجودِ، فَيُقالُ: أَعْدَمَهُ اللّه؛ أي: أفقرَه اللّه، وقيلَ في خِلافِهِ: أوجدَه اللّه، فَهُوَ أَخَصُّ، فكلُّ إعدامٍ إهلاكٌ، ولَيْسَ كُلُّ إِهْلاكٍ إِعْدامًا[2].

الإهلاكُ أعمُّ مِنَ الإعدامِ

(1) ابْنُ الزُّبَيْرِ، مِلاكُ التَّأْويل: 1/126.

(2) العَسْكَرِيّ، الفُروقُ اللُّغَويّة، ص: 58، والمصطفويّ، التَّحقيق في كلمات القرآن الكريم: 1/271.

﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحۡنُ أَبۡنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥۚ قُلۡ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُمۖ بَلۡ أَنتُم بَشَرٞ مِّمَّنۡ خَلَقَۚ يَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۚ وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَاۖ وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ١٨﴾ [المائدة: 18]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

ذِكْرُ بَعْضِ فضائح بني إسرائيل عامَّةً بعد ذِكْرِ فضائح النَّصارى خاصَّة

لَمَّا عمَّمَ اللّه سبحانه ذكرَ فضائح بني إسرائيل تارةً، وخَصَّصَ تارة أُخْرى، ختمَ بِذِكْرِ طامَّةٍ مِنْ طامّاتهم، حَمَلَهُمْ عليها العُجْبُ والبَطَرُ بما أنعم اللّه به عليهم، فقال: ﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ﴾ الآية[1]، فعُطِف هذا القول عَلَى الْمَقَالِ الْمُخْتَصِّ بِالنَّصَارَى، وهُوَ جُمْلَةُ ﴿لَّقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡمَسِيحُ﴾ [المائدة: 17]؛ فهو مَقَالٌ آخَرُ مُشتَرَكٌ بَينَهُمْ وبَينَ اليَهُودِ يَدُلُّ عَلَى غَبَاوَتِهِم في الكُفرِ؛ إِذْ يَقُولُونَ مَا لَا يَلِيقُ بِعَظَمَةِ اللّه تَعَالَى[2]، فهو حكاية لما صدر عن الفريقين من الدعوى الباطلة، وبيان لبطلانها بعد بطلان ما صدر عن أحد الفريقين الكاذبيْنِ الخاطئيْنِ[3].

شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلۡيَهُودُ﴾: من الهَوْدِ: وهو التَّوْبةُ قال اللّه جَلَّ وعزَّ: ﴿إِنَّا هُدۡنَآ إِلَيۡكَۚ﴾؛ أي: تُبْنا إليك، هادوا يَهُودون هَوْدًا، وأصل الهَوْدِ إِرْوَادٌ وَسُكُونٌ، يَقُولُونَ: التَّهْوِيدُ: المَشيُ الرُّوَيدُ، وسُمّيت اليهود اشتقاقًا من هادوا؛ أي: تابوا ورجعوا، كأنّهم رجعُوا عن شيء إلى شيء، وكان اسمَ مَدْحٍ، ثُمَّ صار بعد نَسْخِ شريعتهم لازمًا لهم، وإن لم يكن فيه

(1) البِقاعيّ، نَظْمُ الدُّرَر: 6/66.
(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/155، 156.
(3) القاسِمي، مَحاسِنُ التَّأْويل: 4/94.

معنى المدح، ويُقالُ: نُسبوا إلى يهوذا وهو أَكْبَرُ وَلَدِ يعقوبَ، فأَدخلوا الأَلف واللَّامَ فِيهَا على إرادَةِ النَّسَب، ومعنى هادوا هُنا: تَهَوَّدُوا، أَي صَارُوا يَهودًا[1].

2) ﴿وَٱلنَّصَٰرَىٰ﴾: جَمْعُ نَصْرانٍ للمُذكَّرِ ونَصْرانَةٍ للمؤنث، والغالبُ في الاِسْتِعْمَال النِّسبةُ نَصْرانيٌّ ونصرانيَّةٌ؛ وهُوَ مَأْخوذٌ من النَّصْرِ والنُّصْرَةِ بمعنى العون والإمداد، وأصل نَصَرَ يَدُلُّ عَلَى إِتيَانِ خَيرٍ وإِيتَائِهِ؛ وإنَّما سُمِّيَ النَّصارى بذلك لقولهم: ﴿نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: 52]، وقِيلَ سُمُّوا بذلك انتسابًا إلى قريةٍ يُقالُ لها نَصْرانٌ، وقيل لِنُزولِ عيسى عليه السلام قرية نَاصِرَةَ، فكان يُقال لَهُ عيسى النَّاصريُّ، ثُمَّ نُسِبَ قومُه إليه[2].

3) ﴿ٱلْمَصِيرُ﴾: المَرْجِع والمَعَادُ، يُقال: صِرْتُ إِلَى فُلان أَصِيرُ مَصِيرًا، وصار إلى كذا انتهى إليه، وأصل المصير هُوَ المَآلُ والمَرجِعُ الذي ينتهي إليه في تنقّلِه وتَحَرُّكِهِ، والمعنى هنا: المَرْجع إليه في كل الشُّؤونِ في الدُّنْيا والآخرة[3].

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

دعوى اليهود والنَّصارى مَحَبَّةَ اللهِ لهم دعوى باطلةٌ شَرْعًا وحِسًّا وعَقْلًا

ادَّعى كل من اليهود والنصارى فقالوا إنَّنا المُفَضَّلونَ؛ لأَنَّنا أبناءُ اللّه والمحبَّبون لَدَيهِ، قُلْ - أَيُّها الرَّسول - ردًّا عليهم: لماذا يُعَذِّبُكُمُ اللّه بالذُّنوب التي ترتكبونها؟! فلو كنتم أحباءَه كما زعمتم ما عذَّبكم بالقتل والمسخ في الدُّنيا، وبالنَّارِ في الآخرَةِ؛ لأَنَّهُ لا يُعَذِّب أحبابه، وقل لهم: بل أنتم خلقٌ مثلُ سائر بني آدم، مخلوقون ومُحاسبون على أعمالكم، فيَغْفِرُ اللّه لمن يشاء بفضله، ويُعَذِّبُ من يشاء بعدله، وللّه وحده مُلْكُ السَّماوات والأرض ومُلْكُ ما بَينهما، وإليه وَحدَهُ المَرجِعُ فيَحكُمُ بين عباده، ويُجازي كلًّا بما يَستَحِقُّ[4].

(1) الخليل، العين، وابن سيده، المحكم، والرّاغب، المفردات، والسّمين، عمدة الحفّاظ، والزّبيديّ، تاج العروس: (هود)، وابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 173، وابن عزيز، غريب القرآن، ص: 490.

(2) الرّاغب، المفردات، والزّمخشريّ، أساس البلاغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (نصر)، والنيسابوري، باهر البرهان: 1/89.

(3) الرَّاغِب، المُفْردات، والسَّمين، عُمْدَةُ الحُفَّاظ، وابن الأثير، النِّهايَة، وابْنُ فارِسٍ، مَقايِيسُ اللُّغَة: (صير)، وابْنُ مَنْظورٍ، لِسانُ العَرَب، والزَّبيديّ، تاجُ العَروس: (عود)، والخَضيري، السِّراج، ص: 270، ومُقاتل، تفسير مُقاتِلٍ: 1/232.

(4) لجنة من علماء الأزهر، المنتخب، ص: 148، ونخبة من أساتذة التّفسير، التّفسير الميسّر، ص: 111، وجماعة من علماء التّفسير، المختصر، ص: 111.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بديع اللَّفِّ[1] والإيجاز:

بيانُ اختصاصِ كلِّ فرقة منهم بهذا القولِ الشَّنيعِ

فقوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحۡنُ أَبۡنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥۚ﴾ فيه إيجازٌ؛ حيثُ إنَّ ظاهِرَ اللَّفظِ: أنَّ جميعَ اليهودِ والنَّصارى قالوا عن جميعِهم ذلك، وليس كذلك، بل في الكلامِ لفٌّ وإيجازٌ، والمعنى: وقالت كلُّ فِرقةٍ من اليهودِ والنَّصارى عن نفْسها خاصَّةً: نحن أبناءُ الله وأحبَّاؤُه[2]، فَفي الكلام لَفٌّ وإيجازٌ يُحالُ المُستَمِعُ على تَفْريقِه بِذِهنِه[3].

مجيء الإضافة على خلاف مقتضى الظّاهر في معنى البُنُوَّةِ:

بيانُ شِدَّةِ مُبالَغَتِهِمْ في دعوى العِناية والاختصاصِ بمحبّةِ الله وقُرْبِ المنزلة منه

لمّا كانت الإضافة بمعناها الحقيقي ممتنعةً عقلًا دلَّت على أنّها جاءت على خلافِ مقتضى الظّاهر، وفي توجيه التركيب الإضافي وجوه هي:

الأَوَّلُ: أَنَّ يكونَ مِنْ بَابِ حَذفِ المُضَافِ، والتَّقْديرُ: نَحنُ أَبنَاءُ رُسُلِ اللّه[4]، فأُضِيفَ إلى اللّه ما هو في الحقيقة مُضافٌ إلى رسولِ اللّه، ونَظِيرُهُ قَوْلُهُ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾ [الفَتْح: 10].

والثَّاني: أَنَّ لَفظَ الابْنِ كَمَا يُطلَقُ على ابنِ الصُّلبِ، فقَدْ يُطلَقُ أَيضًا على مَنْ يُتَّخَذُ ابنًا، واتِّخَاذُهُ ابنًا بِمَعنَى تَخْصِيصِه بِمَزِيدِ الشَّفَقَةِ والمَحَبَّةِ، فالقَومُ لَمَّا ادَّعَوا أَنَّ عِنَايَةَ اللّه بِهِمْ أَشَدُّ وَأَكمَلُ مِنْ عِنَايَتِه بِكُلِّ مَن سِوَاهُمْ، لَا جَرَمَ إِنْ عَبَّرَ النَّظمُ عَن دَعوَاهُم كَمَالَ عِنَايَةِ اللّه بِهِمْ بِأَنَّهُمْ ادَّعَوا أَنَّهُم أَبنَاءُ اللّه، فأَرَادُوا أَنَّ اللّه تعالى لَهم كَالأَبِ في الحُنُوِّ والعَطفِ، وهمْ كَالأَبنَاءِ لَهُ في القُربِ والمَنزِلَةِ[5]،

(1) هو أن يؤتى بلفظ يشتمل على متعدّد ثمّ يذكر أشياء على عدد ذلك كلّ واحد يرجع إلى واحد من المتقدّم ويفوّض إلى عقل السّامع ردّ كلّ واحد إلى ما يليق به، ينظر: القزوينيّ، الإيضاح، ص: 503.

(2) أبو حَيّان، البَحرُ المُحيط: 4/211.

(3) ابْنُ عَطِيَّة، المحرر الوَجيز: 2/172.

(4) القُرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 6/120.

(5) البَغَويّ، مَعالِمُ التَّنْزيل: 3/33.

والوالدُ إذا سَخِطَ على ولدِه في وقتٍ يَرضَى عنه في وقت آخر[1]، فهمْ مُقرَّبون عنده قُربَ الأولادِ من والدهم، فحِينَئِذٍ لا حَذْفَ في الكَلَام بل هُوَ من قبيل ذكرِ المَلزومِ وإرادة اللَّازم[2].

الثَّالِثُ: أَنَّ اليَهُودَ لَمَّا زَعَمُوا أَنَّ عُزَيرًا ابنُ اللّه، والنَّصَارَى زَعَمُوا أَنَّ المَسِيحَ ابنُ اللّه، ثُمَّ زعموا أنَّ عُزَيرًا والمَسِيحَ كَانَا مِنْهُم، صَارَ ذَلِكَ كَأَنَّهُمْ قَالُوا نَحنُ أَبنَاءُ اللّه، فأَقَارِبُ المَلِكِ إِذَا فَاخَرُوا إِنسَانًا آخر يَقُولُونَ: نَحنُ مُلُوكُ الدُّنيَا، ونَحنُ سَلَاطِينُ العَالَم، وغَرَضُهُمْ مِنْهُ كَوْنُهُمْ مُخْتَصِّينَ بِذَلِكَ الشَّخصِ الذي هو المَلِكُ والسُّلطانُ فكذا الأمر هنا[3].

فيكونُ مُرادُهم بكونِهم أبناءَ اللّه تعالى أنَّه لمَّا أرسل إليهم الابن على زعمهم، وأرسل لغيرهم رُسُلَ عباده، دلَّ ذلك على امتيازهم عن سائر الخلق، وأنَّ لهم مع اللّه تعالى مُناسَبَةً تامَّةً وزُلْفى تقتضي كرامةً لا كرامةَ فوقها، كما أنَّ المَلِكَ إذا أرسل لِدَعْوَةِ قوم أحدَ جُنْدِهِ، ولآخرين ابنَه عَلِموا أنَّه مُريدٌ لتقريبهم، وأنَّهم آمنون من كلِّ سُوءٍ يَطْرُقُ غَيْرَهُمْ[4].

وعليه يكون المُضَاف مَحذُوفًا وهو (ابْنَيْهِ)، فلا إشكالَ بأنَّهم لا يقولون لأنفسهم نحن أبناء اللّه، وإنَّما قَالُوا ذلك في عيسى وعزيرٍ عليهما السلام، فالمُختَصُّ بِشَخصٍ يُطلَقُ عليه ما يُطلَقُ عَلَى ذلك الشَّخْصِ مَجَازًا ومُبَالَغَة، إمَّا مجازًا في الحذف، أو مجازًا في اللَّفْظ، فالمُرَاد أنَّ أصلَ الكَلَام: نَحْنُ أشياع ابني اللّه؛ فحُذِفَ المُضَاف إليه، وأقيم المُضَاف مُقامَهُ[5].

وحاصلُ دعواهم أنَّ لهم فَضلًا ومزيَّة عند اللّه تعالى على سائر الخلق[6]، وأنَّى لهم ذلك، فالبُنُوَّةُ تقتضي المُجانسة، والحقُّ عنها مُنَزَّهٌ، والمحبَّةُ بين المُتَجانِسَينِ تقتضي الحظوة والمؤانسةَ، والحقُّ سُبحانَهُ عن ذلك مُقَدَّسٌ[7].

---

(1) السَّمَرقنديّ، بحر العلوم: 1/379.

(2) القونويّ، حاشيةُ القونويِّ على البيضاوي: 7/430.

(3) الرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 11/329، والآلوسّي، روحُ المعاني: 3/272، 271.

(4) الآلوسّي، روحُ المعاني: 3/274.

(5) القونويّ، حاشيةُ القونويِّ على البيضاوي: 7/430.

(6) الآلوسّي، روحُ المعاني: 3/272.

(7) القشيري، لطائف الإشارات: 1/414.

دلالةُ عطفِ المحبَّةِ على ادّعاءِ البُنُوَّةِ:

المبالغةُ في بيان شـدَّة الـقُـرْب المقرونِ بالرِّضَا

عطف تعالى ﴿وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾ على ﴿أَبۡنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ﴾؛ لأَنَّهُمْ قَصَدُوا أَنَّهُم أَبنَاءٌ مَحبُوبُونَ؛ إِذْ قَد يَكُونُ الِابنُ مَغضُوبًا عَلَيهِ[1].

السِرُّ في مجيء جوابِ الشَّرط عَلَى طَرِيقَةِ الإلزام والِاحْتِبَاكِ[2]:

تبكيتُهم وتقريعُهم وإلزامُهم بما اعترفوا به من وقوعِ العذابِ عليهم

فقوله: ﴿قُلۡ﴾ إلزامًا لهم وتبكيتًا[3]، ﴿فَلِمَ يُعَذِّبُكُم﴾؛ أي: فإنْ صحَّ ما زعمتم من مَحَبَّتِهِ لكم فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بذنوبكم، فالفاءُ جوابُ شَرطٍ مُقَدَّرٍ[4]، يُرِيدُ إِنْ كَانَ الأَمرُ كَمَا زَعَمتُمْ أَنَّكُم أَبنَاؤُهُ وأَحِبَّاؤُهُ؛ فإنَّ الأَبَ لَا يُعَذِّبُ وَلَدَهُ، والحَبِيبَ لَا يُعَذِّبُ حَبِيبَهُ، وأَنتُمْ مُقِرُّونَ أَنَّهُ مُعَذِّبُكُمْ؟؛ يعني يُحرِقُكُم؛ لأنَّ اليهود كانوا مُقرِّينَ بأنَّه يُحَرِّقُهُمْ أربعين يومًا، ﴿وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامٗا مَّعۡدُودَةٗۚ﴾ [البقرة: 80]؛ أو من كان في هذا المنصب والقُربِ لا يُذنِبُ، وإن أَذنَبَ لا يُعَذَّبُ بِذُنوبِهِ، وقد عذّبكُم فمَسَخَكم قِرَدَةً وَخَنَازِيرَ؛ فيكون مَعنَى ﴿يُعَذِّبُكُم﴾: عَذَّبَكُمْ، فهُوَ بِمَعنَى المُضِيِّ؛ لِأَنَّ اللهَ سُبحَانَهُ لَا يَحتَجُّ عَلَيهِم بِشَيءٍ لَم يَكُنْ بَعدُ؛ لِأَنَّهُم رُبَّمَا يَقُولُونَ: لَا نُعَذَّبُ غَدًا، بَل يَحتَجُّ عَلَيهِم بِمَا عَرَفُوهُ[5]، وفي الكلامِ إلزامٌ بالحجّة عليهم وتبكيتٌ لهم[6].

والحاصل أنَّه إذا قيل: لو كنتم أبناءَه وأحباءَه، فلِمَ عذَّبكم؟، لكن اللَّازم مُنتَفٍ، فَرُبَّما مَنَعُوا انتفاءَ اللَّازم، وطالبوا بالحجَّة،

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/156.

(2) الاِحتباك: هُوَ أَنْ يُحذَفَ مِنَ الأَوائِلِ ما جَاءَ نَظِيرُهُ أَوْ مُقابِلُهُ في الأَواخِرِ، ويُحذَفَ مِنَ الأَواخِرِ ما جاءَ نَظِيرُهُ أَوْ مُقابِلُهُ في الأَوائِلِ، مثل قوله تعالى: ﴿لَا يَرَوۡنَ فِيهَا شَمۡسٗا وَلَا زَمۡهَرِيرٗا ١٣﴾ [الإنسان: 13]، فقد قيل في الزَّمهرير قولان، فقيل: هو القَمر في مقابلة الشَّمس، وقيل: هو البَرْد، فأفاد بالشَّمس أنَّه لا قمر فيها، وبالزَّمهرير أنَّه لا حرَّ فيها، فَحُذِفَ مِن كلٍّ شقٌّ مُقابِلَ الآخَر، يُنظَر: السُّيوطي، التَّحبير في علم التَّفسير، ص: 45.

(3) الآلوسّي، روحُ المعاني: 3/272.

(4) السَّمين، الدُّرُّ المَصون: 4/230.

(5) القُرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 6/121، والبَغَويّ، مَعالِمُ التَّنْزيل: 3/34، والسَّمَرقنديّ، بحر العلوم: 1/379.

(6) البَيْضاويّ، أَنْوارُ التَّنْزيل: 2/120، والقونويّ، حاشيةُ القونويِّ على البيضاوي: 7/430.

وإذا قيل: لِمَ عذّبكم في الدُّنيا بالمسخِ وفي الآخرة بما تزعمون، تمَّ الإلزامُ على النَّهج المعتاد المشهور[1].

والتَّعذيبُ بالذَّنب ثمرةُ الغضبِ المُنافي للمحبَّةِ، فلو كانت المحبَّةُ قائمةً لم يكن هُناك ذنوبٌ يَستَوجبونَ عليها العذابَ من المَسْخِ قردةً وخنازيرَ، وتَسَلُّطِ أعدائهم عليهم يستبيحونهم ويستعبدونهم، ويَسبُونَ ذراريهم، فالمُحِبُّ لا يَفْعَلُ هذا بحَبيبه، ولا الأبُ بابنه، فمعلوم أنَّ الأبَ قد يُؤَدِّبُ ولدَه إذا أذنب، والحبيبُ قد يهجرُ حبيبَه إذا رأى منه بعضَ ما يكره، ومعلومٌ أيضًا أنَّ الرَّحمن الرَّحيم لا يفعلُ هذا بأمّةٍ إلّا بعد فرطِ إجرامِها وعُتُوِّها على الله، واستكبارها عن طاعتِه وعبادتِه؛ وذلك ينافى كونهم أحبابَه، فلو أحبّوه لما ارتكبُوا من غضبه وسَخَطِه ما أوجب لهم ذلك، ولو أَحَبَّهُمْ لأَدَّبَهُمْ ولم يعذّبهم، فالتَّأديب شيءٌ، والتَّعذيب شيءٌ، والتَّأديبُ يُرادُ به التَّهذيبُ والرَّحمةُ والإصلاحُ، والتَّعذيبُ للعقوبةِ والجزاءِ على القبائح فهذا لَونٌ، وهذا لَونٌ[2].

وبِالجُملَةِ فإِنَّهُم رَأَوا لِأَنْفُسِهِم فَضلًا، فرَدَّ الله عَلَيهِم قولَهُم بأن فقَالَ: ﴿فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم﴾؛ فلم تكن أجابتهم تحتمل إلا أحد وجهين، إمَّا أَن يَقُولُوا: هُوَ يُعَذِّبُنَا، وقد عذَّبهم في الدُّنيا بالقتل والأسرِ والمسخِ فيقال لَهُمْ: فَلَستُمْ إِذًا أَبْنَاءَهُ وَأَحِبَّاءَهُ؛ لأنَّ الحَبِيبَ لَا يُعَذِّبُ حَبِيبَهُ؛ وأَنتُمْ تُقِرُّونَ بِعَذَابِهِ لكمْ، فقد اعترفتم بأنَّه سَيُعذِبُكُمْ بالنَّار أيامًا معدوداتٍ؛ فذَلِكَ دَلِيلٌ عَلَى كَذِبِكُم[3]، فامتَنَعَ بِتَعذِيبِهِمْ أَنْ يَكُونُوا أَحِبَّاءَ الله[4]، وأفاد الاستفهام الإنكاريُّ هنا معنى التَّوبيخ والتَّعجب.

نكتةُ التّعبير بقوله ﴿وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾:

لمّا نسب الله تعالى هذا القول إلى اليهود والنّصارى كان في التّعبير به إلزامٌ عليهم وحجّةٌ رادّةٌ لقبيحِ قولِهم، فإنَّ ﴿وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾ جمعُ حبيبٍ بمعنى محبٍّ، فعُبِّرَ به؛ لِأَنَّ الْمُحِبَّ لَا يَعْصِي مَنْ يُحِبُّهُ، بِخِلَافِ الْمَحْبُوبِ فإِنَّهُ كَثِيرًا مَا يَعْصِي مُحِبَّهُ.

(1) الخَفاجيّ، عناية القاضي: 3/227.
(2) ابنُ القَيِّم، بدائع الفوائد: 4/150.
(3) القُرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 6/120، وابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/156.
(4) أَبو حَيّان، البَحْرُ المُحيط: 4/213.

دلالةُ العَطْفِ بِحَرفِ الإضرابِ الانتقالي:

إبطالُ دعوى البُنُوَّةِ وإثباتُ بشريَّة المسيحِ عليه السلام

فقد أَضرَبَ عَنِ الاستِدلَالِ في قوله: ﴿قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم﴾ مِنْ غَيرِ إبطَالٍ لَهُ، إِلَى استِدلَالٍ آخَرَ مِنْ ثُبُوتِ كَونِهِمْ بَشَرًا مِن بَعضِ مَنْ خَلَقَ، فهُم مُسَاوُونَ لِغَيرِهِمْ في البَشَرِيَّةِ والحُدُوثِ، وهُمَا يَمنَعَانِ البُنُوَّةَ؛ لأنَّ القَدِيمَ لَا يَلِدُ بَشَرًا، والأَبَ لَا يَخلُقُ ابنَهُ، فامْتَنَعَت دعوى البُنُوَّةِ، كما امتَنَعَ بِتَعذِيبِهِمْ قبل ذلك أَنْ يَكُونُوا أَحِبَّاءَ اللّٰه، فبَطَلَ الوَصفَانِ اللَّذَانِ ادَّعَوهُمَا[1].

وقوله سُبْحانه: مِمَّنْ خَلَقَ مُتَعَلِّقٌ بمحذوفٍ وقع صفةَ ﴿بَشَرٌ﴾؛ أي: بَشَرٌ كائن من جنس من خَلَقَهُ اللّٰه تعالى من غير مزيَّةٍ لكم عليهم[2].

فأُخِذَتِ النَّتِيجَةُ مِنَ البُرهَانِ بِقَوْلِهِ: ﴿بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ﴾؛ أَي: يَنَالُكُم مَا يَنَالُ سَائِرَ البَشَرِ، وفي هَذَا تَعرِيضٌ أَيضًا بِأَنَّ المَسِيحَ بَشَرٌ؛ لِأَنَّهُ نَالَهُ مَا يَنَالُ البَشَرَ مِنَ الأَعرَاضِ والخَوفِ، وَقد زَعَمُوا أَنَّهُ نَالَهُ الصَّلبُ والقَتْلُ[3]، وأفاد تنكير ﴿بَشَرٌ﴾ معنى التّحقير والتَّقليلِ من شأنِهم.

سِرُّ الاحتراس(4) بَعْدَ ذِكْرِ وصفِ البَشريَّةِ:

دفعُ تَوَهُّمِ النَّصارى في استحقاقِ العذاب بمُوجب البشريَّة

فقوله﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾: فيه احتراسٌ؛ لأنَّه لَمَّا رتَّبَ على نيل العذاب إيَّاهم أنَّهم بشرٌ، دفَع توهُّمَ النَّصارى أنَّ البشريَّة مقتضيةٌ استحقاقَ العذابِ بوراثةِ تبعةِ خَطيئة آدَم، فقال: ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ﴾؛ أي: مِن البَشَرِ، ويُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ[5].

(1) أَبو حَيّان، البَحرُ المُحيط: 4/213.
(2) الآلوسّي، روحُ المعاني: 3/273، والقاسِمي، مَحاسِنُ التَّأْويل: 4/95.
(3) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/157.
(4) الاحتراس أو التَّكميل: اسمان أُطْلِقا على مسمًّى واحد، هو زيادة إطنابيّةٌ في الكلام يَدْفَع بها المتكلّم إيهامًا قد يُفهم من كلامه.
(5) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/157.

معنى لامِ الجرِّ في قوله ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾:

إفادةُ الملك والاختصاصِ بدلالةِ الحرفِ والسِّياقِ.

اللَّام في الاسم الأحسن ﴿وَلِلَّهِ﴾ لِلمُلْكِ والاختصاصِ، فهُوَ المُنشِئُ الخَالِقُ، المُلْكِ تَدُلُّ عَلَى القُدرَةِ البَاهِرَةِ[1]، فالخلقُ كلُّهم عبيدُه وإماؤُه، وهو خالقُهم ورازقُهم، وحكمُه نافذٌ فيهم، وفي كلِّ شيءٍ دلالةُ ربوبيَّته ووحدانيَّته، وهو وحدَه المُستَحِقُّ للعبادةِ؛ لأنَّه المالكُ المدبِّرُ لكلِّ ما في السَّماواتِ وما في الأرض[2].

وقد أكدَّ معنى الاختصاصِ بتقديمِ الجارِّ والمجرور ﴿وَلِلَّهِ﴾؛ الّذي يُفيد الحصرَ، فهِيَ للّه خَلْقًا ومُلْكًا[3]، لا لغيره أصلًا؛ لا استقلالًا ولا اشتراكًا، وأكَّدَهُ وعمَّمه بالطِّباق بَينَ لَفظَتَيْ ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ و﴿وَٱلْأَرْضِ﴾.

توجيهُ المخصوصِ بالذِّكرِ:

عمومُ ملكِ اللّه لكلِّ ما يظنُّ الإنسانُ القدرةَ على تملُّكِه، وفيها إشارةٌ غيبيَّةٌ.

وخَصَّ السَّماواتِ والأَرضِ بالذِّكر من بَينِ المخلوقات؛ لِأَنَّهَا أَعظَمُ مَا يُرَى مِنَ المَخْلُوقَاتِ وقَدَّمَ السَّماوات لِعِظَمِهَا[4].

سِرُّ تقديم الجارِّ والمجرور في جملةِ التَّذييل:

بيانُ الاختصاصِ بِتَعَلُّقِ ذَلِكَ المَصِيرِ بِتَصَرُّفِ اللّه المَحْضِ.

فقوله ﴿وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾: تذييلٌ لِمَا قَبلَهُ، من ذِكرٍ للمغفرة والعذاب؛ لأنَّ الرُّجوعَ يكونُ للحسابِ والجزاءِ[5]، وقَدَّمَ الجارَّ والمجرورَ ﴿وَإِلَيْهِ﴾ عَلَى ﴿ٱلْمَصِيرُ﴾؛ لإِفَادَةِ اختصاص الرّجوع إليه سبحانه لا إلى غَيرِهِ استقلالًا أو اشتراكًا؛ بِمعنى تَعَلُّقِ ذَلِكَ المَصِيرِ بِتَصَرُّفِ اللّه المَحْضِ[6].

---

(1) أَبو حَيّان، البَحْرُ المُحيط: 2/750.

(2) الماورديّ، النكت والعيون: 1/360.

(3) البَيْضاويّ، أَنْوارُ التَّنْزيل: 1/165، والقونويّ، حاشيةُ القونويِّ على البيضاوي: 5/494.

(4) أَبو حَيّان، البَحْرُ المُحيط: 2/750.

(5) أَبو السُّعود، إرشاد العَقْل السّليم: 1/276، والقاسِمي، مَحاسِنُ التَّأْويل: 2/241.

(6) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 25/64.

سِرُّ الكنايةِ عن الرُّجوع بالمصير:

بيانُ أنّ المرجعَ لا يكونُ إلّا إلى الله وحده وهو المجازي لعبادِه بما يستحقّون

عبارةُ ﴿وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾: كنايةٌ عن الرُّجوع إلى الله بالحشرِ والمعادِ في الآخرة، فيُجازي المُحسِنَ بإحسانِه والمُسيءَ بإساءَتِه بما يَستَدعيه عِلمُهُ من غير صارفٍ يُثْنيه ولا عاطفٍ يَلويه[1].

دلالةُ التَّعريفِ في لفظةِ ﴿ٱلۡمَصِيرُ﴾:

بيانُ شمولِ المآلِ للخَلقِ أجمعين

التَّعريفُ في ﴿ٱلۡمَصِيرُ﴾ للعهدِ العلميِّ، أي المصير المعلوم بالحشرِ والحسابِ والمجازاةِ؛ وعبارةُ ﴿وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾ عامَّةٌ شاملةٌ لمآلِ العبدِ في كلِّ أمرٍ وكلِّ نازلةٍ[2].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الحُبّ والوُدّ:

الـــوُدُّ خـالـص الحُبِّ؛ والحُبُّ مـا اسـتـقـرَّ في القلبِ، والوُدُّ ما ظهر في السُّلوك

الحبُّ: ميلُ النَّفس إلى ما تراه وتظنُّه خيرًا[3]، على سبيل اللُّزوم والثَّبات[4]، فمُجرَّدُ تَعَلُّقِ القلب يُسَمَّى حُبًّا[5]، وأمَّا الوُدُّ فهو خالص الحُبِّ وألطفُه وأَرَقُّهُ وهو من الحُبِّ بمنزلة الرَّأفة من الرَّحمة؛ فالوُدُّ أَصفَى الحُبِّ وأَلطَفُهُ[6]، قال تعالى﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنۡ خَلَقَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا لِّتَسۡكُنُوٓاْ إِلَيۡهَا وَجَعَلَ بَيۡنَكُم مَّوَدَّةٗ وَرَحۡمَةًۚ﴾ [الرُّوم: 21]، وفي الوُدِّ معنى الصِّلَةِ وبَذلِ ما يَزيدُ في الحبُّ، فمَشاعِرُ الميل نحو المحبوب حُبٌّ، والابتسامة في وَجهِهِ وبذل النُّصح والهديَّة وُدٌّ، ومنه قوله تعالى: ﴿تُلۡقُونَ إِلَيۡهِم بِٱلۡمَوَدَّةِ﴾ [المُمتَحِنَة: 1]؛ أي: بأسباب المحبَّة من النَّصيحة[7]، ومن أسماء الله تعالى (الوَدُودُ)، قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلۡوَدُودُ ١٤﴾ [البروج: 14]؛ أي: المحبُّ لعباده يَصِلُهم ويُمِدّهم بِرَحْمَتِهِ[8].

---

(1) الآلوسّي، روحُ المعاني: 3/274، والقونويّ، حاشيةُ القونويِّ على البيضاوي: 7/431.
(2) العليمي، فتح الرَّحمن: 1/411.
(3) الرَّاغب، الذَّريعة إلى مكارم الشَّريعة، ص: 256.
(4) الأَزْهَريّ، تَهْذيبُ اللُّغَة، وابْنُ فارِسٍ، مَقاييسُ اللُّغَة، وابْنُ مَنْظورٍ، لِسَانُ العَرَب: (حبب).
(5) الهروي، منازل السَّائرين، ص: 88.
(6) ابن القيم، روضة المحبين، ص: 46.
(7) الرَّاغِب، المُفْردات: (ودد).
(8) الرَّاغِب، المُفْردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (ودد).

فكُلُّ وَدُودٍ مُحِبٌّ وليس كلُّ مُحِبٍّ وَدودًا.

العذاب والعقاب والألم:

العِقَابُ يُنبِئُ عَنِ استِحقاقٍ، وسُمِّيَ بِذلِكَ لِأَنَّ الفاعِلَ يَستَحِقُّهُ عُقَيبَ فِعلِهِ، ويَجوزُ أَنْ يَكونَ العَذابُ مُستَحَقًّا وغَيرَ مُستَحَقٍّ، فالعِقابُ يَقتَضي بِظاهِرِهِ الجَزاءَ عَلى فِعلَةِ المُعَاقَبِ عَقِبَ فِعلِهِ، والعَذابُ لَيسَ كَذلِكَ، فبَينَهُما عُمومٌ وخُصوصٌ[1].

العقابُ يُنبِئُ عَنِ استِحقاقٍ ويكون عُقَيبَ الفِعلِ والعذابُ أَعَمُّ

والعذاب أَخَصُّ من الألم؛ وذلك أنَّ العذاب هو الألمُ المُستَمِرُّ الثَّقيل[2]، والألمُ الوجعُ، والأليمُ: المؤلِمُ من العَذَابِ الَّذي يبلغُ إيجاعُه غَايَة البلُوغ، ويَكُونُ الألم مُستَمِرًّا وغَيرَ مُستَمِرٍّ فقَرْصَةُ البعوضِ ألمٌ وليس بعذاب، فإن اسْتَمَرّ ذلك يُقال عذَّبَني البعوضُ اللَّيلَةَ، فكلُّ عذابٍ ألمٌ وليس كلُّ ألمٍ عذابًا، وأَصلُ الكلمة الاستمرار، ومنه يُقال: ماء عَذْبٌ لاستمرائِهِ في الحَلقِ، واشتقاقه من عَذُبَ الشَّيءُ إذا اسْتَمَرَّ وجَرى[3].

العـذاب أَلَـمٌ مُستَمِرٌّ ثَقيلٌ

المصير والمآب والمرجِع:

المصيرُ هو المآلُ، والمآبُ هو الرُّجوع إلى المستقَرِّ، والرُّجوع تحوّلٌ عن الاتجاه أو الحال إلى عكسه.

هي ألفاظ متقاربة في المعنى، فالمصيرُ: يدلُّ على التَّحوّلِ إلى غايةٍ أو مَجْمَع؛ ليكون المآل والمُنتهى، ومنه قوله تعالى: ﴿غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ۝٢٨٥﴾ [البقرة: 285]، وقد ورد في القرآن الكريم ثمانيَةً وعشرين مرّةً، وورد مرّة واحدة بصيغة الفعل المضارع، في قوله تعالى: ﴿أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ۝٥٣﴾ [الشورى: 53].

(1) العَسْكَرِيّ، الفُروقُ اللُّغَويَة، ص: 364.
(2) الكَفَوِيّ، الكُلِّيات، ص: 654.
(3) المَناوِيّ، التَّوقيف، ص: 239، والكَفَوِيّ، الكُلِّيات، ص: 174، والعَسْكَرِيّ، الفُروقُ اللُّغَويَة، ص: 239.

والمآب: رجوعُ الشَّيءِ إلى مُستَقَرِّهِ، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلۡمَـَٔابِ ١٤﴾ [آل عمران: 14]، وقوله: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتۡ مِرۡصَادٗا ٢١ لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابٗا ٢٢﴾ [النَّبأ: 21، 22].

والمرجعُ: مصدر ميمي، أو اسم زمان، الرُّجوع هو العود إلى ما كان منه البدء، والرَّجْع: الإعادة تحوّلٌ عن الاتجاه أو الحال إلى عكسه - كما يتردد الماء في الغدير؛ لأنَّه محتبس فيه لا يسترسل بعيدًا، وكلُّ ما في القرآن من: (تُرْجع، تُرْجَعون، يُرْجع، راجعون، مرجعكم، مرجعهم) فهي إلى الله [1] عَزَّ وَجَلَّ.

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (صير)، (أوب)، (رجع).

﴿يَـٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَـٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ عَلَىٰ فَتۡرَةٖ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُواْ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٖ وَلَا نَذِيرٖۖ فَقَدۡ جَآءَكُم بَشِيرٞ وَنَذِيرٞۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ١٩﴾ [المائدة: 19]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

وَعْـظُ اليهودِ والنَّصارى بَعْدَ إبطالِ زَعْمِهِمْ أَنَّهُمْ أَبْناءُ اللهِ وأَحِباؤُهُ

لَمَّا دُحِضَتْ حُجَّةُ اليهود والنَّصارى، ووَضُحَتْ أكذوبتهم، اقتضى ذَلِكَ الالتفاتَ إلى وَعظِهِمْ على وجه الامتنان عليهم، وإبطال ما عساهم يظنُّونَه حُجّةً، فقال تعالى: ﴿يَـٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَـٰبِ﴾[1]، مكرِّرًا مَوعِظَتَهُمْ ودعوتَهم بعد أن بَيّن لهم فسادَ عقائدهم وغُرورَ أنفسهم، بيانًا لا يَدَعُ لِلمُنصِفِ فرصةً للتمسُّك بتلك الضَّلالاتِ، كَمَا وَعَظَهُمْ ودعَاهُم آنفاً بِمِثلِ هذا عَقِبَ بَيانِ نَقضِهِم المَواثيقَ[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَتۡرَةٖ﴾: أي سكون، ويدور معنى الفَتْرَة على الانكسارِ والضَّعفِ، يقالُ فَتَرَ يَفْتُرُ ويَفْتِرُ فُتُوراً وفُتاراً: سَكَنَ بعدَ حِدَّةٍ، ولانَ بعدَ شِدَّةٍ، وضعف بعد قوة، وأصل الفُتور: الضعفُ والسّكونُ، يقال: فَتَرَ الماءُ؛ أي: سَكَنَ حَرُّهُ فهو فاتِرٌ، وفَتر عَزْمُ فلان: إذا ضَعُفَ، ومعنى ﴿عَلَىٰ فَتۡرَةٖ مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ على حِين انقطاعٍ من الإرسالِ والوَحْيِ[3].

2) ﴿بَشِيرٖ﴾: البشيرُ هو المُبشِّر بخيرٍ أو شرٍّ، والبِشَارَةُ: مَا بُشِّرتَ بِهِ، وإذا أطلقت فالبشارة بالخير والنذارة بغيره، يقال بَشَّرْتُه فأَبْشَرَ وبَشَرَ وتَبَشَّرَ، والبَشيرُ: حسن الوجه الجميلُ، والبِشْرُ في الوَجهِ: الطَّلاَقةُ والفَرَحُ. وأصلُ البُشرى: ظهورُ الشَّيءِ مع حُسنٍ وجمالٍ،

(1) البِقاعيّ، نَظْمُ الدُّرَر: 6/69.
(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/157.
(3) الخليل، العَينُ، الجَوْهَريّ، الصِّحاح، والرَّاغِب، المُفردات، وابْنُ فارِسٍ، مَقاييسُ اللُّغَة: (فتر)، وابن عزيز، غَريبُ القُرْآن، ص: 360، وابْنُ الهائِم، التِّبْيان، ص: 149.

ومعنى البشير هنا: المُبَشِّرُ من أطاع اللّه وآمنَ به وبرسوله،، بعظيم ثوابه في آخرته[1].

3) ﴿نَذِيرٌ﴾: بِمَعْنى مُنْذِرًا؛ أَي: مُحذِّرًا، والإنذار، الإبلاغُ والإعذارُ والإعْلَامُ، يُقَالُ: أَنْذَرْتُهُ أُنْذِرُهُ إِنْذَاراً، إِذَا أعلمتُه، وفلان مُنْذِرٌ ونَذِيرٌ؛ أَي: مُعلِمٌ ومخوِّف ومحذِّر، وأصلُ النِّذارةِ: التخويفُ، ومعنى النَّذيرُ هنا: المُنذرُ من عصى اللّه وكذّب رسولَه ﷺ، بما لا قِبَلَ له به من أليمِ العقابِ وشديدِ العذاب[2].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

بشارةُ أهلِ الكتابِ ونَذَارَتُهم ببعثة النَّبيِّ ﷺ

يا أَهْلَ الكتاب من اليهود والنَّصارى، قد جاءكم رسولُنا مُحمَّد ﷺ يُظهِرُ لكم الحقَّ والهُدى بعد مُدَّة انقطاع من الرُّسُلِ؛ لئلَّا تقولوا مُعتَذِرينَ: ما جاءنا رسول يُبَشِّرُنا بثواب اللّه، ويُنْذِرُنا عقابَه، فقد جاءكم محمَّد ﷺ مُبَشِّرًا بثوابه ومُنْذِرًا عقابه، واللّه هو القادرُ على كلِّ أَمْرٍ؛ ومنه: إنزالُ الرِّسالات[3].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

سِرُّ تِكْرارِ الخِطابِ بِطَريقِ الِالْتِفاتِ:

التَّلطُّف في دعوتِهم وتَنْشيطُهُمْ لإجابة الدَّعوة

في قوله تعالى ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾: تَكريرٌ للخِطابِ بطريق الالتِفاتِ من الغَيْبَةِ إلى الخِطابِ، وفيه لُطْفٌ في الدَّعوة، وتنزيل للخطابِ مَنزِلَةَ التَّأكيدِ لجُملَةِ ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ﴾ [المَائِدَة: 15][4]، وأيضًا في تكريرِ

(1) الخليل، العَينْ، والأَزْهَريّ، تَهْذيبُ اللُّغَة، وابْنُ عَبَّادٍ، المُحيط، وابْنُ فارِسٍ، مَقاييسُ اللُّغَة، والجَوْهَريّ، الصِّحاح، والرَّاغِب، المفْردات: (بشر)، وابْنُ الهائِم، التِّبْيان، ص: 69، وابن جرير، جامع البيان: 10/158.

(2) ابن دريد، جمهرة اللُّغة: (ذرن)، والرَّاغِب، المُفْردات، وابْنُ فارِسٍ، مَقاييسُ اللُّغَة، وابْنُ الأَثير، النِّهايَة: (نذر)، وابْنُ الهائِم، التِّبْيان، ص: 232، وابن عزيز، غَريبُ القُرْآن، ص: 463، وابن جرير، جامع البيان: 10/158.

(3) لَجْنَةٌ مِنْ عُلَماءِ الأَزْهَر، المُنْتَخَب، ص: 148، ونُخْبَةٌ مِنْ أَساتِذَةِ التَّفْسير، التَّفْسيرُ المُيَسَّر، ص: 111، وجَماعَةٌ مِنْ عُلَماءِ التَّفْسير، المُخْتَصَر، ص: 111.

(4) الآلوسّي، روحُ المعاني: 3/274، وابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/158.

الخطاب بلا عاطف بعد قوله تعالى ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖۚ قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ ١٥﴾ [المائدة: 15] تنشيطٌ لهم بلذّةِ المخاطبةِ، وكأنَّ الخطابَين في وقتٍ واحدٍ وفي أمرٍ واحدٍ يجمعهما، وفيه اهتمامٌ بأمر مجيءِ الرَّسُولِ عَلَيهِ الصَّلاةُ و السَّلام[1].

سِرُّ ندائهم بِقولِه ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾:

بَـيـانُ شَـرَفِ الانـتـسـابِ إلى الـكـتـابِ وقُـبْـحِ مُخالفته وتَـرْكِ ما فيه

في نِدائِهِمْ بـ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ تَشْريفٌ لهم بإضافتهم للكتاب، وبَعْثٌ لهم على قبولِ ما جاء به رسولُ اللّه مُحَمَّدٌ ﷺ لأنَّه جاء بكتابٍ وهُم أَهْلُ الكتاب، واحتجاجٌ عليهم بأنَّ الإيمانَ بالكتاب الّذي عِندَهُمْ يَقْتضي الإيمانَ بالكتابِ الّذي جاء به؛ لأنَّه من جِنْسِهِ[2]، كما أنَّ في إيرادهم بعنوان أهليَّة الكتاب تشنيعًا عليهم أيضًا، إذْ يَقبحُ بمن كان أهلًا للكتاب وتشرَّف بالانتساب إليه أن يخالِفَه، فإنَّ أهليَّة الكتاب من مُوجِباتِ مُراعاتِهِ والعملِ بمقتضاه وبيان ما فيه من الأحكام[3]، فتكون إضافَتُهُمْ إلى الكتاب على وجه التَّعيير أيضًا، والمعنى: أنتم أهلُ الكتابِ، فَلِمَ لا تعملون بكتابكم؟ كقول القائل: يا عاقلُ لمَ لا تَفْعَلُ كذا وكذا، فذِكْرُ العقل على معنى التَّعيير؛ أَي: إنَّكَ لا تَعمَلُ عَمَلَ العُقَلاءِ[4].

فائدةُ إضافة لَفْظِ الرَّسولِ إلى نون العَظَمَةِ:

تَـعْـظـيـمُ قَـدْرِ النَّبيِّ ﷺ وبيانُ شمول رِسالَتِهِ

فالتَّعبيرُ عَنْهُ بذلك مع الإضافة إلى ضمير العَظَمَةِ للتَّشريفِ والإيذان بِوُجوب اتِّباعه[5] ﷺ، فـ﴿قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا﴾؛ أي: الّذي عَظَمَتُهُ من عَظَمَتِنَا، فتعظيمُهُ وإجلالُه واجبٌ لِذَلِكَ[6]. وفيه رَدٌّ

(1) القونويّ، حاشيةُ القونويِّ على البيضاوي: 7/431.
(2) ابن باديس، مجالس التذكير، ص: 327.
(3) أبو السُّعود، إرشاد العَقْل السّليم: 3/17، والآلوسّي، روحُ المعاني: 3/268.
(4) السَّمَرْقَنديّ، بَحْرُ العلوم: 1/380.
(5) الآلوسّي، روحُ المعاني: 3/268.
(6) البِقاعيّ، نَظْمُ الدُّرَر: 6/69.

أكثرُ صراحةً من الخِطابِ السَّابِقِ على أَهْلِ الكِتَاب في قَولِهِم إنَّ مُحَمَّدًا ﷺ مبعوثٌ إلى العرب خاصَّة[1].

المتشابه اللَّفظي:

جاء قوله تعالى في الآية 15 من هذه السّورة ﴿يَـٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَـٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَـٰبِ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖۚ قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَـٰبٞ مُّبِينٞ ١٥﴾ [المائدة: 15]، وكُرِّرَ صدر الآية ﴿يَـٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَـٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ﴾ في هذه الآية، فالنَّظمُ الكريمُ ذَكَرَ الرَّسُولَ ﷺ هُنَا بِوَصفِ مَجِيئِهِ على فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ؛ لِيُذَكِّرَهُمْ بِأَنَّ كُتُبَهُمْ مُصَرِّحَةٌ بِمَجِيءِ رَسُولٍ عَقِبَ رُسُلِهِم، ولِيُرِيَهُمْ أَنَّ مَجِيئَهُ لَم يَكُنْ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ؛ إِذْ كَانُوا يَجِيئُونَ عَلَى فِتَرٍ بَينَهُم، وذُكِرَ الرَّسُولُ هُنَالِكَ بِوَصفِ تَبيِينِهِ مَا يُخفُونَهُ مِنَ الكِتَابِ؛ لِأَنَّ مَا ذُكِرَ قَبلَ المَوعِظَةِ هُنَا قَد دَلَّ عَلَى مُسَاوَاةِ الرُّسُلِ في البَشَرِيَّةِ، ومُسَاوَاةِ الأُمَمِ في الحَاجَةِ إِلَى الرِّسَالَةِ، ومَا ذُكِرَ قَبلَ المَوعِظَةِ هُنَالِكَ إِنَّمَا كَانَ إِنبَاءً بِأَسرَارِ كُتُبِهِم، ومَا يُخْفُونَ عِلْمَهُ عَنِ النَّاسِ لِمَا فِيهِ مِنْ مَسَاوِيهِم وسُوءِ سُمعَتِهِم،[2].

سِرُّ استعارةِ المجيءِ لِلأَمرِ بالتَّبْليغِ:

بيانُ منزلةِ الدِّين والأمر بتَبْليغِهِ

المَجِيءُ هُنا مُسْتَعَارٌ لِأَمرِ الرَّسُولِ بِتَبلِيغِ الدِّينِ، فكَمَا سُمِّيَ الرَّسُولُ رَسُولًا سُمِّيَ تَبلِيغُهُ مَجِيئًا تَشْبِيهًا بِمَجِيءِ المُرسَلِ مِنْ أَحَدٍ إِلَى آخَرَ[3].

دلالة جملة الحال في قوله تعالى ﴿يُبَيِّنُ لَكُمۡ﴾:

لمّا كان الحال يأتي مقترنًا بصاحبه دلَّ الكلام على أنَّ البيان المذكور كان مقترنًا بمجيء رسول الله ﷺ لم ينفكَّ عنه، ليكونَ وصفًا لبيانِ هيئة الرَّسول في حالِ مجيئه مقترنًا به ﷺ والتّقدير: جاءكم رسولنا مبيّنًا لكم عَلى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ[4].

(1) القونويّ، حاشيةُ القونويِّ على البيضاوي: 7/426.
(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/158.
(3) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/158.
(4) المظهريّ، التَّفسير المظهريّ: 3/70.

مناسبةُ التَّعبيرِ بالفعل المضارع ﴿يُبَيِّنُ﴾:

عُبِّرَ بالفعل المضارعِ للدلالةِ على استمرار التبيين للرّسول ﷺ وتجدّده حالًا فحالًا من غيرِ انقطاعٍ.

نكتة حَذْفِ المَفْعُولِ في قولِه تعالى ﴿يُبَيِّنُ لَكُمْ﴾:

بـيـانُ شُـمـولِ البيان وتَجَدُّدِهِ

يحتمل الفعل المتعدّي ﴿يُبَيِّنُ﴾ أن يكون مفعولُه مقدّرًا أو غيرَ مقدَّر أو أن يكون منزَّلًا منزلة اللَّازم، فهذه ثلاثة أوجه:

الوجه الأوّل أن يكون المفعول مقدَّرًا، وفيه احتمالان: الأول أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ المَبَيَّنُ هُوَ الدِّينُ والشَّرَائِعُ، وإِنَّمَا حَسُنَ حَذفُهُ لأَنَّ كُلَّ أَحَدٍ يَعلَمُ أَنَّ الرَّسُولَ إِنَّمَا أُرسِلَ لِبَيَانِ الشَّرَائِعِ، ثانيهما: أَنْ يَكُونَ التَّقْدِيرُ يُبَيِّنُ لَكُم مَا كُنْتُم تُخْفُونَ، وإِنَّمَا حَسُنَ حَذفُهُ لِتَقَدُّمِ ذِكرِهِ، والسياق يقوّي الاحتمالَ الأوّل؛ فإنَّ فتورَ الإرسال وانقطاع الوحي إنَّما يحوجُ إلى بيان الشَّرائع والأحكام لا إلى بيان ما كتموه.

الوجه الثّاني: أَنْ يكون على حذف المفعولِ، والمَعنَى: يُبَيِّنُ لَكُمُ البَيَانَ، وحَذْفُ المَفعُولِ أَكمَلُ؛ لِأَنَّه على هَذَا التَّقْدِيرِ يَصِيرُ أَعَمَّ فَائِدَةً، لتناوله كلَّ ما يبيّنه الرَّسول للنّاس[1].

الوجه الثَّالث: أن ينزَّل الفعل منزلةَ اللازم، والمعنى وصفُه وشأنُه هو البيان، يبذلُه لكم في كلِّ ما تحتاجون فيه من أمور الدِّين، ويقوّي هذا الوجهَ إيثارُ التّعبير بالمُضَارِع المشعر بأنَّ التَّبيين يَتَجَدَّدُ بحسب المصالح والوقائع والحال[2]، فالبيانُ لا ينقطع أصلًا بحفظ كتابه، فكُلَّمَا دَرَسَتْ سُنَّةٌ، فَتحَ اللّه تعالى بعالِمٍ يَرُدُّ النَّاس إليها بالكتاب العزيز المعجز القائم أبدًا[3].

(1) الرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 11/330، وأبو السعود: إرشاد العَقْل السّليم: 3/21.
(2) القونويّ، حاشيةُ القونويِّ على البيضاوي: 7/431.
(3) الشِّربينيّ، السِّراجُ المُنير: 1/365، والآلوسّي، روحُ المعاني: 3/274.

دلالةُ تقديم ذِكْرِ البيان على ما بَعْدَهُ:

بيان عِظَمِ شأن الدَّعوة وعِظَمِ مَنْزِلَتِها

يحتمل أن يكون في الآية تَقديمٌ وتأخير، وتقدير الكَلام (قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا عَلَى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ يُبَيِّنُ لَكُمْ)[1]، فقدَّم ذِكرَ البيان للدَّلالة على أهمِّيته فذكر الوصف الأهمَّ والأسمى والمَقْصَدَ الأعظمَ لمجيءِ هذا الرَّسول الكريم عليه أفضل الصَّلاة وأَتَمُّ التَّسليم، ويحتمل أن يكون الكلامُ على الأصل من غير تقديم ولا تأخير، ليكون قوله﴿عَلَىٰ فَتۡرَةٖ مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ حالًا من فاعل ﴿يُبَيِّنُ﴾ أو من الضّمير في ﴿لَكُمۡ﴾، وقدَّم ما هو الأولى بالتّقديم كما تقدّم[2].

دلالةُ استعمالِ حرفِ الجَرِّ ﴿عَلَىٰ﴾ في الآيةِ:

بـيـانُ فـوقـيَّـةِ الرِّسالَةِ وعُلُوِّها ورِفْعَةِ شَأْنِهَا

﴿عَلَىٰ﴾ في قوله تعالى ﴿عَلَىٰ فَتۡرَةٖ مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ لِلاستِعلَاءِ المَجَازِيِّ بِمَعنَى (بَعْدَ)؛ لِأَنَّ المُسْتَعلِيَ يَستَقِرُّ بَعْدَ اسْتِقْرَارِ مَا يَسْتَعلِي هُوَ فَوقَهُ، فشُبِّهَ اسْتِقرَارُهُ بَعدَهُ بِاسْتِعلَائِهِ عَلَيهِ، فاسْتُعِيرَ لَهُ الحَرفُ الدَّالُّ على الاِستِعلَاءِ[3]، على سبيل الاستعارة التبعيّة في الحرفِ.

فالتَّعبير بِقَوْلِه ﴿عَلَىٰ فَتۡرَةٖ﴾ فيه مَعْنى فوقيَّةِ الرِّسالة على الفَتْرَةِ، وعُلُوِّها عليها كَعُلوِ البيانِ على الجهل، والنُّور على الظُّلْمَةِ، فمن الواجب عليهم أَنْ يُسارعوا إلى اتِّباع الرَّسول الّذي جاءهم بالحقِّ، وإلَّا كانوا ممَّن يَرْتَضي لنفسه الانحدارَ من الأعلى إلى الأدنى، ومن العلم إلى الجهل، ومن الهُدى إلى الضَّلالِ[4].

وعليه كان هذا البيانُ مُستَعليًا على وقْتِ مجيئه وما مضى قَبْلَهُ وما يأتي بعده ببقاء كتابه، محفوظًا لعموم دعوتِه وختامِه وتفرُّدِه، فلا نبيَّ بَعْدَهُ[5]، فبِهذا حازَ المعالي من كُلِّ وَجهٍ، ونالَ الكمالَ من كُلِّ جِهَةٍ.

(1) السَّمَرْقَنديّ، بَحْرُ العلوم: 1/380.
(2) السَّمَرْقَنديّ، بَحْرُ العلوم: 1/380، والعكبري، التبيان: 1/429.
(3) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/158.
(4) طَنْطاوي، الوَسيط: 4/100.
(5) البِقاعيّ، نَظْمُ الدُّرَر: 6/70.

دلالة التنكير في قوله تعالى﴿عَلَىٰ فَتۡرَةٖ﴾:

لفظ ﴿فَتۡرَةٖ﴾ متعلّقٌ - بجاءَكم - أي: (جاءكُم على حِينِ فتورٍ من الإرسال وانقطاعِ الوحي ومزيد الاحتياج إلى البيان)[1]؛ فلم يكن بعد عيسى عليه السلام إلّا رسولُ الله محمَّدٌ - ﷺ -؛ وفي الظَّرفيَّة مع تنوين ﴿فَتۡرَةٖ﴾ من التَّفخيم اللَّائق بمقام الامتنانِ عليهم بأنَّ الرَّسول قد بُعث إليهم عند كمالِ حاجتهم إليه؛ بسبب مُضيِّ زمانٍ طويلٍ بعد انقطاعِ الوحي ليَهُشُّوا إليه ويعُدُّوه أعظمَ نعمةٍ من الله تعالى، وفتحَ بابٍ إلى الرَّحمة، وتلزَمُهم الحجّةُ فلا يَعتلُّوا غداً بأنَّه لم يُرسَلْ إليهم من يُنبِّههم من غفلَتِهم[2].

سِرُّ الاستعارةِ في التَّعبيرِ عن الانقطاعِ بالفترة:

بيان الامتنان عليهم ببعثة النَّبي ﷺ لِشِدَّةِ حاجتهم إلى هُداه

الفَتْرَةُ أصلُها سُكون عن حدَّةٍ وليونةٌ بعدَ شدَّةٍ،[3]، فاستعارةُ لفظِ الفترةِ هُنا يُصَوِّرُ زمنَ انقطاع إرسالِ الأنبياء إلى الأمم، فشَبّهَ فقدَهم - بعدَ أن كانوا يأتون متعاقبين على أقوامِهم - وبُعْدَ العهدِ بهم ونسيانَ أخبارهم، وبلاءَ رسومهم وآثارهم، وانطماسَ معالمهم وأنوارهم، بشيءٍ كان يَغْلِي ويتتابع، ففَتَرَ وسَكَنَ، ولم يبقَ من وصفه المقصود منه إلّا أثرٌ خافٍ ورسْمٌ دارسٌ[4].

والمقصودُ أنَّ الله تعالى بَعَثَ رسولَه مُحمَّدًا ﷺ على فَترَةٍ من الرُّسُلِ، وطُمُوسٍ مِنَ السُّبُلِ، وتَغَيُّرِ الأديان، وكَثرَةِ عبادة الأوثان والنِّيران والصُّلبان، فكانت النِّعمةُ به أتمَّ النِّعَمِ، وأنّ الحاجةَ إليه أمر عَمَمٌ، فإنَّ الفساد كان قد عَمَّ جميع البلاد، والطُّغيان والجهل قد ظهرا في سائر العباد، إلّا قليلًا من المُتَمَسِّكينَ ببقايا من دين الأنبياء الأقدمين، من بعض أحبار اليهود وعُبَّاد النَّصارى والصَّابئين[5].

---

(1) الآلوسّي، روحُ المعاني: 3/274.

(2) أبو السُّعود، إرشاد العَقْل السّليم: 3/22، والقونويّ، حاشيةُ القونويِّ على البيضاوي: 7/432.

(3) الزمخشري، أساس البلاغة: 2/4.

(4) الشِّرْبينيّ، السِّراجُ المُنير: 1/365، والرَّضّي، تلخيص البيان: 2/130.

(5) ابْنُ كَثِيرٍ، تَفْسِيرُ ابْنِ كَثِيرٍ: 3/70، 71.

دلالة التَّعليلِ في قوله ﴿أَن تَقُولُواْ مَا جَآءَنَا مِنۡ بَشِيرٖ وَلَا نَذِيرٖۖ﴾:

قَـطْـعُ معـاذير أهـل الـكـتـاب في الدُّنيا والآخرة

﴿أَن تَقُولُواْ﴾: تَعليلٌ لِقَوْلِه: ﴿قَدۡ جَآءَكُمۡ﴾؛ لِبَيَانِ بَعضِ الحِكَمِ مِنْ بَعثَةِ الرَّسُولِ ﷺ، منها قَطعُ مَعذِرَةِ أَهلِ الكِتَابِ عِندَ مُؤَاخَذَتِهِم في الآخِرَةِ، أَو تَقْرِيعُهُمْ في الدُّنيَا عَلَى مَا غَيَّرُوا مِنْ شَرَائِعِهِم؛ لِئَلَّا يَكُونَ مِنْ مَعَاذِيرِهِم أَنَّهُمُ اعتَادُوا تَعاقُبَ الرُّسُلِ وإرشادَهم وتَجدِيدَ الدِّيَانَةِ، فَلَعَلَّهُمْ يعتذرون بِأَنَّهُمْ لَمَّا مَضَت عَلَيهِمْ فَترَةٌ بِدُونِ إِرسَالِ رَسُولٍ لَم يَتَّجِه عَلَيهِم مَلَامٌ فِيمَا أَهمَلُوا مِنْ شَرعِهِم، وأَنَّهُمْ لَو جَاءَهُمْ رَسُولٌ لَاهتَدَوا، وقد كان اختلط في تلك الفترة الحقُّ بالباطل[1].

فلَيسَ المُرَادُ من التَّعليل أَنْ يَقُولُوا: مَا جَاءَنَا رَسُولٌ إِلَينَا أَصلًا؛ فَإِنَّهُمْ لَا يَدَّعُونَ ذَلِكَ، وكَيفَ وقَد جَاءَهُم مُوسَى وعِيسَى عليهما السلام، وبيانه أنّه لمّا كان المعنى في الآية هو انتفاء أن يقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير لا إثباته، كما هو ظاهرٌ، اقتضى السِّياق أن يكون الكلامُ بتقدير (كراهة أن يقولوا ماجاءنا من بشير و لا نذير) أو بتقدير (أن لا يقولوا) أو أن تكون ﴿أَن﴾ بمعنى (لئلَّا) والتّقدير (لئلا تقولوا ما جاءنا من بشيرٍ و لا نذير)، ويحتمل أن يكون المعنى لإثباتِ قولِهم في ما مضى لا لانتفائه، بتَقدِيرِ لَامِ التَّعلِيلِ قَبلَ ﴿أَن﴾ وتجريدها من الزّمن المستقبل، بمعنى (لأن تقولوا) أي لقولِكم، وهُوَ تَقْدِيرٌ يَقْتَضِيهِ المَعنَى[2].

نُكْتَةُ مجيء حرف الجَرِّ ﴿مِنۡ﴾ في قوله ﴿مَا جَآءَنَا مِنۡ بَشِيرٖ﴾:

تـأكـيـدُ الـنَّـفـي والمـبـالـغـة فـيـه لتأصُّلِ الإنكار في نفوسهم

﴿مِنۡ﴾ حرف جرٍّ زائد دخلَ على الاسم النّكرة في سياق النّفي؛ ليفيدَ النّصَّ على العمومِ المبالغةَ في تأكيدِ النّفي وتقريره، والمعنى ما جاءنا أيُّ بشيرٍ يُبشرنا ولا نذيرٍ ينذرنا؛ لنرغبَ فنعملَ

(1) الرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 11/330، والنَّيسابوريّ، غرائب القرآن: 2/571، والقاسمي، محاسن التأويل: 4/96، وابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/158، 159.

(2) البَغَويّ، معالم التنزيل: 2/33، والزمخشري، الكشاف: 1/619، وابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/159.

بما يسعدنا، ونتركَ المنهيَّات فنفوزَ[1]، وأفاد التَنكيرُ في لفظي ﴿بَشِيرٍ﴾، و﴿نَذِيرٌ﴾ التَّقليلَ[2].

دلالةُ الفاءِ الفصيحةِ في قوله ﴿فَقَدْ جَآءَكُم﴾:

الإبـانـةُ عن وجـه بُـطـلان دعـواهـم على فَرْضِ قولهم لها واحتجاجهم بِهَا

والفاءُ في قوله تعالى: ﴿فَقَدْ جَآءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ﴾ هي الفصيحة تُفْصِحُ عن محذوفٍ ويكونُ ما بعدها عِلَّةً له، فإمّا أن يكونَ التَّقدير: لا تعتذروا عَن كفركم وتفريطكم في أحكام الدِّين ومتابعة الكتَابِ المبين ﴿فَقَدْ جَآءَكُم﴾، والمعنى لا تقدروا على الاعتذار ولا يُمكِنُكُمْ ذلك[3]، وإما أن يكون التَّقدير: لإِنْ قُلْتُم ذلك فقَدْ بطل قولكم؛ إذ قد جاءكم بشيرٌ ونذيرٌ[4].

دلالةُ ذِكْرِ الوَصفِ بالبِشارَةِ والنِّذارَةِ بدلَ الذَّات:

بـيـانُ شـأن البِشارَةِ والنَّذارة واختصاصِهِمَا في مَوضِعِ الوعدِ والوعيدِ

ذكر الوصفين (البشير والنذير) في ﴿فَقَدْ جَآءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ﴾؛ وفي ما قَبْلَهُ قال: ﴿قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا﴾ [المائدة: 15]؛ إذ المُرَادُ هنا الوصفُ بالبشارةِ والنّذارةِ لا ذاتُه[5]، ولعظم شأن البشارة والنِّذارة عبَّر عنهما بصيغة (فعيل) التي تأتي للمبالغةِ، وجيء بالتَّنوين أيضًا في ﴿بَشِيرٌ﴾ و﴿وَنَذِيرٌ﴾ للتَّفخيمِ؛ أي: فقد جاءَكم بشيرٌ أيُّ بشيرٍ، ونذيرٌ أيُّ نذيرٍ[6].

سِرُّ تقديمِ البِشارَةِ على النِّذارة:

بيانُ أنَّ الأصلِ في دعوة الرَّسول تنشيطُ المَدعوِّين للانقياد والقبول

وقدَّم البِشارة على النِّذارة في قوله ﴿فَقَدْ جَآءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ﴾؛ لأنَّ القاعدةَ في محاولةِ الأمور الصَّعبةِ أن يبدأ فيها بالتلطّف والتيسير، ليكون أدعى للقبول،[7] وإشعارًا بأنَّ الأصلَ في رسالته

(1) البِقاعيّ، نَظْمُ الدُّرَر: 6/71.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العَقْل السّليم: 3/22.
(3) القونويّ، حاشيةُ القونويِّ على البيضاوي: 7/432.
(4) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/160.
(5) القونويّ، حاشيةُ القونويِّ على البيضاوي: 7/432.
(6) أبو السُّعود، إرشاد العَقْل السّليم: 3/22.
(7) ابْنُ عَرَفَة، تَفْسيرُ ابْنِ عَرَفَة: 1/165.

ﷺ التَّبشير؛ فقد أرسله اللّه تعالى رحمة للعالمين[1]؛ ولأنَّ في التَّبشيرِ تَنْشيطًا قدَّمَهُ على الإنذار[2].

وقَدْ تقدَّم التَّبشير على الإنذار في مواضع كثيرةٍ من القرآن الكريم كقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗاۖ﴾ [البقرة: 119]، وقوله: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٢٨﴾ [سبأ: 28]، وقوله: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗاۚ وَإِن مِّنۡ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٞ ٢٤﴾ [فاطر: 24]

ففي الغالبِ الأعمِّ تكون البشارةُ مقدَّمةً على النِّذارة؛ لأنَّ التَّبشير هو الأصل؛ ولأنَّ النَّفس جُبِلَتْ على حُبِّ ما يُفرِح ويَسُرُّ، وكراهيَّة ما فيه تخويف وإنذار.

وتقدَّمت النِّذارة على البِشارَةِ في مواضع أيضًا كقوله تعالى: ﴿إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ١٨٨﴾ [الأعراف: 188]، وقوله: ﴿أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ إِنَّنِي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ ٢﴾ [هود: 2]؛ لأنَّ المقامَ خطابٌ للمكذِّبين المشركين، فالنِّذارة أَعلَقُ بأحوالهم الّتي كانوا عليها من البشارة[3]، وفي ذِكْرِ بعض أحوالهم من التَّكذيب والجحود والاستهزاء بالرَّسول تَعليلًا لتقديم الإنذار على التَّبشير؛ لأنَّ في ذلك تخويفًا لهم.

دلالةُ الختمِ والتَّذييل بذكر القدرة:

بيانُ القُدرةِ المطلقةِ حالَ الإرسال والإمساك

قوله ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾: تذييلٌ مُقرِّرٌ لمضمونِ ما قَبْلَه، ومُناسبتُه هُنا أنَّ حصولَ الفترة يُوجِبُ احتياج الخَلق إلى بعثة الرُّسل، واللّه تعالى قادرٌ على كلِّ شيءٍ، فكان قادرًا على البعثة، ولمَّا كان الخلق مُحتاجين إلى بعثة الرسل، وكان الرَّحيم الكريم قادرًا على البعثة تفضَّل بكرمِهِ ورحمتِه بإرسالِ الرُّسُل إليهم[4]، فَيَقْدِرُ على إرسال الرسل تَتْرى كما فعل بين مُوسى وعيسى - عليهما السلام -؛ حيث كان بينهما ألفٌ وسبعُمائة سنة وألفُ نبيٍّ، وعلى إرسالهم بعد فترة

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 22/53.
(2) أَبو السُّعود، إرشاد العَقْل السّليم: 3/22.
(3) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 9/209.
(4) الرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 11/330.

كما فعل بينَ عيسَى ومحمَّدٍ - عليهما الصَّلاةُ والسَّلامُ -؛ حيثُ كان بينهما ستُمائة سنةٍ[1].

كما أنَّ في الختم بوصفِ القُدرة، وإتباعِهِ تَذْكيرهُمْ ما صاروا إليه من العِزِّ بالنبوّة والملك بعد ما كانوا فيه من الذلِّ بالعبودية والجهل، في الآية الّتي تليها، إشارةً إلى أنَّ إنكارَهم لِأَنْ يكون من ولدِ إسماعيل عليه السلام نبيٌّ، يَلْزَمُ منه إنكارُهُم لِلقُدرَة[2].

كما أنَّ ختمَ الآيةِ بالكلام عن القُدرة ممّا يُناسب المقامَ، ووَجهُهُ أنَّ مخالفة أهل الكتاب للرَّسول ﷺ تعني أنَّهم مُعَرَّضُونَ للعقوبة، واللّه غَيرُ عاجزٍ عن عقوبتهم لِكَمالِ قُدرَتِهِ[3].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

المجيء والإتْيان:

المَجيءُ إتيَانٌ مُحَقَّقٌ

الإتْيَانُ: مجيءٌ بِسُهُولَةٍ، وهُوَ بِدايَةُ المَجِيءِ[4]، فإذَا اكتَمَلَ وبُلِغَ مَقْصِدُهُ مِن مَكَانٍ أَو زَمَانٍ أَوْ شَخصٍ أَصبَحَ مَجِيئًا، فالمَجِيءُ هُوَ إتيَانٌ مُحقَّقٌ بَعِيدٌ عَن عَوَامِلِ النَّقْصِ، قَالَ تَعالى: ﴿قَالُوٓاْ أُوذِينَا مِن قَبۡلِ أَن تَأۡتِيَنَا وَمِنۢ بَعۡدِ مَا جِئۡتَنَاۚ﴾ [الأعراف: 129]، فالإتيَانُ بِدَايَةُ المَجِيءِ زَمَانِيًّا أَو مَكَانِيًّا، وقَد لَا يَتِمُّ فلَا يَكُونُ مَجِيئًا، أَمَّا المَجِيءُ فهُوَ إتيَانٌ مُحَقَّقٌ قَرِيبٌ زَمَانِيًّا وَمَكَانِيًّا[5].

أَمَّا فِي بَابِ الأَسمَاءِ والصِّفَاتِ فمَنْ تَكَلَّمَ عَن صِفَةِ المَجِيءِ والإتْيَانِ مِنْ مُحَقِّقِي أَهلِ السُّنَّةِ[6]، يَجعَلُهُمَا بِمَعنَى وَاحِدٍ، ويُسْتَدَلُّ لَهُمَا بِالأَدِلَّةِ نَفسِهَا دُونَ تَفرِيقٍ؛ فالفَرقُ السَّابِقُ غَيرُ وَارِدٍ هُنَا فِي بَابِ الصِّفَاتِ، فقَولُهُ تَعَالَى: ﴿أَوۡ يَأۡتِيَ رَبُّكَ﴾ [الأنعام: 158] كقوله تعالى: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾ [الفجر: 22].

(1) أَبو السُّعود، إرشاد العَقْل السّليم: 3/22.
(2) القاسِمي، مَحاسِنُ التَّأْويل: 4/96.
(3) ابْنُ عُثَيمين، تَفْسيرُ ابْنِ عُثَيْمين: 1/253.
(4) الرَّاغِب، المُفْردات، ص: 283.
(5) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: 1/264.
(6) ابْنُ تَيْميَّة، مَجْموعُ الفَتاوى: 5/458، وابْنُ القَيِّم، الصَّواعِقُ المُرْسَلَة: 3/1099.

التَّخويف والإنذار:

التَّخويف عامٌّ، والإنذارُ تخويفٌ مع إعلام بما يُحْذَرُ ووعيدٍ به

الإِنذَار: تخويفٌ مع إِعْلَام مَوضِع المخافةِ، من قَوْلك: نذرتُ بالشَّيْء، إِذا عَلمته فاستعددت لَهُ، ولا يكاد يكون إلّا في تخويفٍ يسعُ زمانه الاحتراز[1]؛ فإِذا خوّفَ الإِنسَانُ غيرَه وأعلمَه حَال مَا يخوّفُه بِهِ فقد أنذرَه، وإِن لم يُعلمهُ ذَلِك لم يقل أنذره، وذِكرُ الوَعيدِ مع الإِنْذَار وَاجِبٌ[2]، والإنذارُ إِحسَانٌ من المُنْذِرِ، وكلما كَانَت المخافة أَشدَّ كَانَت النِّعْمَة بالإنذار أعظمَ؛ ولِهَذَا كَانَ النَّبِيُّ أعظمَ النَّاس مِنَّةً بإنذاره لَهُم عِقَاب اللّه تَعَالَى[3]، فالإنذار خاصٌّ من هذه الوجوه والتَّخويف أَعَمُّ.

(1) المَنَاويّ، التَّوقيف، ص: 64.
(2) الكَفَوِيّ، الكُلِّيات، ص: 201.
(3) العَسْكَرِيّ، الفُروقُ اللُّغَويَة، ص: 242.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢٠ يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُواْ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ۝٢١﴾ [المائدة 20 - 21]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

ذكـــرُ وقـائـع الـيـهـودِ وعـصـيـانـهـم لأنـبـيـائـهـم؛ وفضحهم بعد دعـواهـم محبة الله لهم

لَمَّا أَقَامَ اللهُ تَعالى الحُجَجَ القَيِّمَةَ على بَنِي إسرَائِيلَ، وأَثْبَتَ لَهُم رِسَالَةَ نَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ حَتَّى فِيمَا أَوحَاهُ إِلَيهِ بِشَأنِهِم وشَأْنِ كُتُبِهِم وأَنبِيَائِهِم مِنَ البِشَارَاتِ وأَخبَارِ الغَيبِ وَتَحرِيفِ الكُتُبِ ونِسيَانِ حَظٍّ مِنهَا، ونَحوِ ذَلِكَ مِنَ الآيَاتِ الدَّالَّةِ عَلَى صِدقِهِ وكَونِ مَا جَاءَ بِهِ مِنْ عِندِ اللهِ تَعالى هُوَ مِنْ جِنسِ مَا جَاءَ بِهِ أَنبِيَاؤُهُم، وأَيَّدَ ذَلِكَ بِدَحضِ شُبُهَاتِهِمْ وإِبطَالِ دَعَاوِيهِم، وبَيَانِ مَنَاشِئِ غُرُورِهِم، ثُمَّ لَمَّا لَم يَزِدهُمْ ذَلِكَ كُلُّهُ إِلَّا كُفرًا وعِنَادًا، بَيَّنَ اللهُ تَعالى في هَذِهِ الآيَاتِ وَاقِعَةً مِنْ وَقَائِعِهِم مَعَ مُوسَى - عليه السلام -، الَّذِي أَخرَجَهُمُ اللهُ عَلَى يَدَيهِ مِنَ الرِّقِّ والعُبُودِيَّةِ وَاضطِهَادِ المِصرِيِّينَ لَهُمْ إِلَى الحُرِّيَّةِ والاسْتِقْلَالِ ومِلْكِ أَمرِهِم، وَكَونِهِمْ عَلَى هَذَا كُلِّهِ كَانُوا يُخَالِفُونَهُ ويُعَانِدُونَهُ، حَتَّى فِيمَا يَدعُوهُمْ إِلَيهِ مِنَ العَمَلِ الَّذِي تَتِمُّ بِهِ النِّعْمَةُ عَلَيهِم فِي دُنيَاهُمُ الَّتِي هِيَ أَكبَرُ هَمِّهِم، لِيَعلَمَ الرَّسُولُ بِهَذَا أَنَّ مُكَابَرَةَ الحَقِّ ومُعَانَدَةَ الرُّسُلِ خُلُقٌ مِنْ أَخلَاقِهِمُ المَورُوثَةِ عَنْ سَلَفِهِم، فيَكُونَ ذَلِكَ تَسلِيَةً لَهُ ﷺ ومَزِيدَ عِرفَانٍ بِطَبَائِعِ الأُمَمِ وسُنَنِ الاجتِمَاعِ البَشَرِيِّ[1]، فبيَّنَ تَمَرُّدَ أَسلَافِ اليَهُودِ على مُوسَى، وعصيانهم إياه، مَعَ تَذْكِيرِهِ إِيَّاهُم نِعَمَ اللهِ وَتَعدَادِهِ لِمَا هُوَ العَظِيمُ مِنهَا، وأَنَّ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ هُمْ بِحَضرَةِ الرَّسُولِ هُم جَارُونَ مَعَكُم مَجرَى أَسلافِهِم[2].

(1) رضا، تَفْسِيرُ المنار: 6/265.

(2) أَبو حَيّان، البَحْرُ المُحيط: 4/214.

وأيضًا لمَّا ذَكَرَ اللّه تعالى سَعَةَ ملكه وتمام عِلْمِهِ وشمول قُدْرَتِهِ، أَتْبَعَ ذلك بالتدليل عليه بقصَّة بني إسرائيل في استنقاذِهم من أسرِ العُبوديَّة والرِّقِّ، وإعلاء شأنهم وإيراثهم أرضَ الجبَّارين بعد إهلاك فرعون وجنوده وغير ذلك ممَّا تضمَّنته القِّصَّة، إظهارًا لتمام القُدْرَةِ وسَعَةِ الملكِ ونفوذِ الأمر فقال عاطفًا[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَءَاتَىٰكُم﴾: آتَى إِلَيهِ الشَّيءَ، بالمدِّ، يُؤْتي إيتَاء: ساقَهُ وجَعَلَه يَأْتِي إِلَيهِ، وآتَى فلَانًا شَيْئًا إيتَاء: أَعْطاهُ إِيَّاهُ؛ والإيتَاءُ: الإعْطَاء، واشْتَهَرَ الإيتاءُ في مَعنى الإعْطاءِ، وأَصْلُه الإحْضارُ، والمعنى هنا: أَعْطاكُم ما لم يُعطِ أحدًا من العالمينَ[2].

2) ﴿ٱلْمُقَدَّسَةَ﴾: أي: المطهَّرةَ المُعظَّمة المباركة؛ يقال تقدّسَ أَي تطهَّرَ، والمقدّسُ: المطهَّرُ، وأصل (قدس) يدلُّ على الطُّهر، والقُدْسُ: تَنْزِيهُ اللّه ﷻ، وهو القُدُّوسُ المُقَدَّسُ: المُطَهَّرُ، وتُسَمَّى الجَنَّةُ حَظِيرَةَ القُدْسِ؛ أَي: الطّهرِ، والبيت المقدّس هو المطهّرُ من النّجاسةِ؛ أي: الشِّرك، ولأنّه يتطهّرُ فيه من الذنوب، فالتَّقديسُ هو التَّطهيرُ والتَّعظيمُ، ومعنى الأرضُ المُقَدَّسَةُ هنا: المطَهَّرةُ بالتَّبريكِ[3].

3) ﴿وَلَا تَرْتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ﴾: ولا تَرجِعوا مُدبِرين، والرَّدُّ: صرفُ الشَّيءِ بذاتِه، أو بحالةٍ من أحوالِه؛ يُقال: رَددتُه فارتدَّ، وأصل الرَّدِّ: رَجعُ الشَّيءِ، تَقُولُ: رَدَدْتُ الشَّيءَ أَرُدُّهُ رَدًّا والارتدادُ والرِّدَّة: الرُّجوعُ في الطَّريقِ الذي جاء مِنه، ومنه قيل للكافرِ بعدَ إسلامِه: مُرتدٌّ؛ وأمَّا الأدبارُ: جمع دُبُرٍ، وهو ضِدُّ القُبُل، وأصْل الدُّبُر: آخِرُ الشَّيءِ وخَلفُه، والإِدْبارُ: نقيضُ الإِقْبالِ[4].

4) ﴿فَتَنقَلِبُواْ﴾: أي: فتَرْجِعوا، وقَلْبُ الشَّيء تَصريفه وصَرْفُهُ عن وجهٍ إلى وجه كَقَلْبِ الثَّوب؛ أي: صَرفُهُ عن طريقته، والانقلابُ: الانصرافُ؛ ومنه قَلْبُ الإنسان، قيل: سُمِّيَ

---

(1) البِقاعيّ، نَظْمُ الدُّرَر: 6/72.

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابْنُ سِيدَه، المُحكَم، والجَوْهَريّ، الصِّحاح، والزَّبيديّ، تاجُ العَروس: (أتى)، والزَّمَخْشَرِيّ، الكَشَّاف: 4/198، والهَرَري، حَدائِق الرَّوْحِ والرَّيْحان: 7/202.

(3) ابْنُ عَبَّادٍ، المُحيط، الجَوْهَريّ، الصِّحاح، والرَّاغِب، المُفردات، والسَّمين، عُمْدَةُ الحُفَّاظ: (قدس)، وابْنُ قُتَيْبَة، غَريبُ القُرْآن، ص: 8، وابن جرير، جامع البيان: 1/505.

(4) ابْنُ فارِسٍ، مَقايِيسُ اللُّغَة، والرَّاغِب، المفردات، والسَّمين، عُمْدَةُ الحُفَّاظ: (قلب) و(دبر)، والكَفَوِيّ، الكُلِّيات، ص: 476، 977.

به لكثرة تَقَلُّبِهِ، ويُقال لِمَن كانَ على شيءٍ ثُمَّ رجَع عنه قدِ انقلَب على عَقِبه، وأَصْلُ القلب: صرْفُ الشَّيءِ عن وجهٍ إلى وجهٍ، أو ردُّه من جِهةٍ إلى جِهةٍ[1].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

دعـــوةُ مـوسى عليه السلام قـومَـه لـلـجـهـاد، واحـتـجـاجُـهـم بقوَّة الأعداء

واذكر - أَيُّها الرَّسول - حينما قال مُوسى لقومِه بني إسرائيل: يا قوم، اذكرُوا بقلوبكم وألسنتِكم نعمةَ اللّه عليكم؛ حيث اختارَ منكم أنبياءَ يدعونكم إلى الهدى، وجعلكم مُلوكًا تملكون أَمْرَ أنفسكم بعد أن كنتم مَمْلُوكين مُسْتعبَدين لِفِرْعونَ وقومه، وأعطاكم من نِعَمِهِ ما لم يُعْطِ أَحَدًا من العالَمِين في زمانكم. يا قوم، ادخلوا الأرضَ المُطَهَّرة (بَيْتَ المقدس وما حوله) الّتي وعَدَكُمُ اللّه بدخولها وقتال مَن فيها من الكافرين، ولا تَتَراجَعوا أمامَ أهلها الجبَّارين فيكون مآلَكم الخُسرانُ في الدُّنيا والآخرة[2].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالةُ الاستئنافِ بذكر قصَّة موسى عليه السلام مع قومِهِ:

تَـــذكـــيرُ بـنـي إســـرائـــيـــل بـجـنـايـاتِـهـم وتَـــعْـــدادُ فضائحِهم

قوله تعالى ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ﴾: جملةٌ مُستأنَفةٌ مسوقةٌ لبيان ما فعلت بنو إسرائيل بعد أخذِ الميثاق منهم، وتفصيل كيفيَّة نَقْضِهِمْ له مع الإشارة إلى انتفاءِ فترة الرُّسل - عليهم الصَّلاة والسَّلام - فيما بينهم، ليكونَ بطريق تَلْوينِ الخِطابِ وصَرْفِهِ عن أهل الكتابِ؛ ليُعَدِّدَ عليهم ما سَلَفَ من بعضهم من الجنايات.

نكتة التّعبير بـ﴿وَإِذْ﴾ في قوله تعالى ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ﴾:

نُصِبَ ﴿وَإِذْ﴾ على أنَّه ظرفٌ لفعلٍ محذوفٍ خُوطِبَ به سيِّد

(1) ابْنُ فارِسٍ، مَقاييسُ اللُّغَة: الرَّاغِب، المفردات، والسَّمين، عُمْدَةُ الحُفَّاظ: (قلب)، وابْنُ قُتَيْبَة، غَريبُ القُرْآن، ص: 113.

(2) لَجْنَةٌ مِنْ عُلَماءِ الأَزْهَر، المنتخَب، ص: 149، ونُخْبَةٌ مِنْ أَساتِذَةِ التَّفْسير، التَّفْسيرُ المُيَسَّر، ص: 111، وجَماعَةٌ مِنْ عُلَماءِ التَّفْسير، المختَصَرُ في تَفْسيرِ القُرْآنِ الكَريم، ص: 111.

المخاطَبين ﷺ، والتّقديرُ: واذكر لهم يا محمّد على جهة إعلامِهم بغير كُتُبِهم ليحقِّقُوا نبوّتَك وَقْتَ قول موسى - عليه السلام - لقومه: ﴿ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ﴾، وتنتظمُ في ذلك نِعَمُ اللّه عليهم، وتلقيهم تلك النِّعم بالكُفْرِ وقلَّة الطَّاعة والإنابة[1]، وتوجيهُ الأمرِ بالذِّكر إلى الوقتِ أبلغُ من توجيهِهِ إلى ما وَقَعَ فيه[2]؛ لأنَّ إيجابَ ذِكرِ الوقتِ إيجابٌ لذِكرِ ما وقَعَ فيه بالطَّريقِ البُرهانيِّ[3].

سِرُّ نداءِ موسى عليه السلام قَوْمَهُ بإضافَتِهم إليه:

حُسْنُ التَّلطُّفِ بهم وتنشيطُهم للاستجابَةِ لكلامِهِ

حيث قال لهم ناصحًا ومُستميلًا لهم بإضافتهم إليه: ﴿يَٰقَوۡمِ﴾[4]، ففي هذا النِّداء والإضافة مزيدُ تَلَطُّف لهم ليَتَفَطَّنُوا[5].

المتشابهُ اللفظيُّ:

تضمَّن خطاب موسى عليه السلام في هذه الآية النَّداء بقوله ﴿يَٰقَوۡمِ﴾، وفي خطابه في سورة إبراهيم بدونه﴿وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ أَنجَىٰكُم مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ يَسُومُونَكُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبۡنَآءَكُمۡ وَيَسۡتَحۡيُونَ نِسَآءَكُمۡۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَظِيمٞ ٦﴾ [إبراهيم: 6]؛ وذلك أنَّهُ لمّا اعتمد في آيةِ المائدة تذكيرَهم بضروب من الآلاء والنِّعم الجِسام، مِنْ جَعْلِ الأنبياء فيهم وجَعلِهم مُلوكًا، وإعطائهم ما لم يُعْطِ غَيرَهم، كان ذلك تعريفًا باعتنائه سُبْحانَهُ بهم وتفضيلِهِمْ على مَنْ عاصرَهُم وتقدَّمَهُم من أُمَمِ الأنبياء قَبلَهُم، فناسَبَ ذلك نِدَاءَ موسى عليه السلام بقَولِهِ ﴿يَٰقَوۡمِ﴾، بالإضافة إلى ضميره إنباءً بالقُرْبِ والمزيَّةِ، وناسب هذا النِّداءُ المُنْبِئُ بالاعتناء ما تَقَدَّمَ من تخصيصهم بما عُقِّبَ به النِّداء من التَّشريفِ بما مَنَحَهُمْ

(1) ابْنُ عَطِيَّة، المحرر الوَجيز: 2/173.
(2) الآلوسّي، روحُ المعاني: 3/275.
(3) أَبو السُّعود، إرشاد العَقْل السّليم: 3/22، والقونويّ، حاشيةُ القونويِّ على البيضاوي: 7/433.
(4) الآلوسّي، روحُ المعاني: 3/275.
(5) القونويّ، حاشيةُ القونوي على تفسير البيضاوي: 7/433.

من الآلاءِ والنِّعَمِ الجِسامِ، ولمَّا قَصَدَ في آية سورة إبراهيم تَذْكيرَهُمْ بِنَجاتِهِمْ من آل فرعون وما كان يَسُومُهُمْ به من ذَبْحِ ذكور أبنائهم واستحياء نسائهم لِلمِهْنَةِ، ولم يذكر شيئًا ممَّا في آية المائدة لِمَا اقتصر عليه من التَّذكير بمُجَرَّدِ الإنجاء، فناسَبَ ذلك الاقتصارُ على خطابهم دون النِّداءِ مراعاةً للمُناسَبَةِ[1].

دلالةُ تقديمِ الأمر بِتَذَكُّرِ النِّعم على الأمر بالحربِ:

تـهـيـئـتـهـم للاستجابةِ للأَمْرِ الـثَّـاني وتـعـزيـز الـثِّـقـة بـالـلـه في نفوسهم

قَدَّمَ مُوسَى عليه السلام أَمرَهُ لِبَنِي إسرَائِيلَ بِحَربِ الكَنعَانِيِّينَ بِتَذكِيرِهِم بِنِعمَةِ اللّه عَلَيهِم؛ ليهيئَ نُفُوسَهُمْ إِلَى قَبُولِ هَذَا الأَمرِ العَظِيمِ عَلَيهِم، ولِيُوثِقَهُم بِالنَّصرِ إِنْ قَاتَلُوا أَعدَاءَهُم، فذَكَرَ نِعمَةَ اللّه عَلَيهِم، وَعَدَّ لَهُم ثَلَاثَ نِعَمٍ عَظِيمَةٍ: أُولَاهَا: أَنَّ فِيهِم أَنبِيَاءَ، والثَّانِيَةُ: أَنْ جَعَلَهُم مُلُوكًا، والنِّعمَةُ الثَّالِثَةُ: أَنَّهُ آتَاهُم مَا لَمْ يُؤتِ أَحَدًا مِنَ العَالَمِينَ[2].كما أنَّ في هذا الأمر تذكيرًا لهذه الأمَّةِ بنعمة التَّوفيق للسَّمع والطَّاعة الّتي أباها بنو إسرائيل بعدما رَأَوا من الآياتِ، وبما كفَّ عنهم على ضَعفِهِم وشَجَّعَ به قلوبَهم، وعَظَّم ذلك التَّذكير بالاسم الأعظم[3].

دلالةُ تقديم النِّعمةِ بِبَعْثِ الأنبياءِ في بني إسرائيل على غيرها من النِّعم:

بـيـانُ تـقـديـمِ المنافع الدينيَّة وتـشـريـفـهـا وتفضيلها على المنافع الدُّنْيويَّةِ

فقدّم نعمةَ بَعْثِ الأنبياءِ فيهم على نعمة جعلهم ملوكًا؛ لأنَّ منفعةَ الأنبياء منفعةٌ دينيَّةٌ، والنِّعمة بهم أعظمُ وباتِّباعهم صلاحُ أمور الدُّنيا والآخرة، ومنفعةُ جعلهم ملوكًا منفعةٌ دنيويَّةٌ، ولشرف نعمة النُّبوَّة نَبَّهَ بذكر ظرفها على أجلِّ النِّعَمِ؛ لأنَّ النُّبوَّة منقذةٌ لهم من النّار، واصطُفيت الظَّرفيَّة عند ذكرهم في قوله: ﴿إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ﴾؛ فـ(في) هذه للظرفيَّة؛ لأنَّ النَّبيَّ يكون من ثِقَةِ قَومِهِ ومن أشرافهم كما في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ

(1) ابنُ الزُّبَيْرِ، مِلاكُ التَّأْويل: 1/126.
(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/161.
(3) البِقاعيّ، نَظْمُ الدُّرَر: 6/72.

﴿يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ﴾ [الجمعة: 2]، تأكيدًا على شرف النُّبوَّة ومنافعها وخصوصيَّتها، أمَّا في ذِكرِ الملوك فقال: ﴿وَجَعَلَكُم مُّلُوكٗا﴾؛ فجعل المُلْكَ عامًا، لأنَّ أيَّ واحدٍ منهم يمكن أن يكون مَلِكًا بخلاف النُّبوَّة؛ فإنَّها وإن كَثُرَتْ فيهم لا يسلكُ أحدٌ مسلكَ الأنبياء - عليهم الصلاة والسَّلام -؛ لأنَّها أمرٌ إلهي يَخُصُّ الله تعالى به من يشاء[1].

تـأكـيـدُ تـتـابـع النِّعم وتواليها عليهم في الماضي والمستقبل

بلاغة التّعبير في قوله تعالى ﴿وَجَعَلَكُم مُّلُوكٗا﴾:

في التّعبير بقوله تعالى ﴿وَجَعَلَكُم مُّلُوكٗا﴾ توجيهات عدّة تنوِّعُ المعنى، فيُحتمل أن يكون من التَّشْبِيهِ البَلِيغ بحذف أداةِ التّشبيه ووجهِ الشّبه؛ أَي: كَالمُلُوكِ في تَصَرُّفِهم في أَنْفُسِهم، وسَلَامَتِهم مِنَ العُبُودِيَّةِ الَّتِي كَانَت عَلَيهم لِلقِبْطِ، فلمَّا كانوا مملوكين مقهورين في أيدي القِبط، أنقذهم الله منهم بالغرق وجعلهم مالكين لأنفسِهم وأمورهم لا يغلبُهم عليها غالبٌ، فهم ملوكٌ بهذا الوجه[2]، ويحتمل أن يكون بتقدير بمحذوف، أي وجعل منكم ملوكًا أو فيكم ملوكًا، وهذا يقتضي أن يكون الملوكُ من جملتهم[3]، وقَد يُقَالُ في حق من كان منهم ملوكٌ: أَنتُم مُلُوكٌ على سَبِيلِ الاستِعَارَةِ[4]، ويحتمل أن يكون الفعل الماضي﴿جَعَلَ﴾ على معنى الاستقبال، أي سيجعلكم ملوكًا، مِثلَ قولِه تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ﴾ [النّحل: 1]، قَصدًا لِتَحقِيقِ الخبَرِ، فيَكُونَ الخبَرُ بِشَارةً لَهُم بِمَا سَيَكُونُ لَهُمۡ[5].

دلالةُ التَّعريفِ بـ(ال) بينَ العهدِ والاستغراقِ في ﴿ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾:

فقوله ﴿وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمۡ يُؤۡتِ أَحَدٗا مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾؛ أي: من فَلْقِ البحر وإغراق العَدوِّ، وتظليل الغَمام وانفجار الحَجَرِ، وإنزال المنِّ

(1) ابْنُ عُثَيمين، تَفْسيرُ ابْنِ عُثَيْمين: 1/255، والبِقاعيّ، نَظْمُ الدُّرَر: 6/73، والآلوسّي، روحُ المعاني: 3/276.
(2) القُرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 6/123، وابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/161.
(3) البيضاوي، أنوار التنزيل: 2/121، والقونويّ، حاشيةُ القونوي على تفسير البيضاوي: 7/433.
(4) الرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 11/331.
(5) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/161.

بـيـانُ تَـمـامِ النِّـعَـمِ عليهم بِتَفْضيلِهِم وأنَّ التَّـفـضـيـل من وَجْـهٍ لا يستلزم التَّـفـضـيـل من جميع الوُجوهِ

والسَّلوى، وغيرِ ذلك ممَّا آتاهم اللّه تعالى من الأمور المخصوصة، والخِطابُ لقوم موسى عليه السلام كما هو الظَّاهر، و(أل) في العالَمِينَ تحتمل أن تكونَ للعهد، والمُراد عالميِّ زمانهم[1]، لا عالميِّ كلِّ زمان، ولم يكن أوتي في ذلك الزَّمان من نِعَم اللّه وكرامته أحدٌ من العالمين[2]، مثلما أوتي قومُه عليهم السلام.

ولهذا لم يقل (ما لَنْ يؤتِيَ)، بل قال: ﴿مَّا لَمْ يُؤْتِ﴾، وبينهما فَرْقٌ، فلو قال: ما لن يؤتيَ؟ صار قومُ موسى أفضلَ النَّاس إلى يوم القيامةِ، ولن يُعطَى أحدٌ مثلهم، فجاء بدلالة الماضي؛ لأنَّ اللّه تعالى آتى هذه الأمَّة المحمّديَّة ما لم يؤتِ بني إسرائيل ولا غيرهم[3].

وتحتملُ (ال) أن تكونَ للاستغراقِ، والمعنى ما لم يؤتِ أحدًا من العالمين ويقصد بالعالمين الأممَ الخالية إلى زمانهم فيكونُ استغراقًا مقيَّدًا بالزمان، أو يكون المعنى على عمومِ الاستغراق والمرادُ ما لم يؤتِ أحدًا من العالمين أي ممّا تقدّم ذكره من فلق البحر، وتظليل الغمام، وإنزال المنِّ والسَّلوى ونحوها مما آتاهم اللّه، ففضَّلهم من وجهٍ ممّا لا يستلزم التَّفضيلَ من جميع الوجوه؛ فإنَّه قد يكون للمفضول ما ليس للفاضل، وعلى التَّقديرين لا يَلْزَمُ تفضيلهم على هذه الأمّة المحمّديَّة على نبيِّها أفضلُ الصَّلاة وأكملُ التَّحيَّة[4].

والحاصلُ أنَّ تذكيرَهم بنعم اللّه هو توطئةٌ لنفوسِهم، بما يُلقَى من أمر قتال الجبَّارين ليُقَوِّيَ جَأشَهُم، وليهيِّئَ نُفوسَهم إلى قَبولِ هذا الأمرِ العَظيم عليهِم، وليوثِّقَهم بالنَّصرِ إنْ قاتلوا أعداءَهم[5]. وليعلموا أنَّ من أنعَمَ اللّه عليه بهذه النِّعَم العظيمةِ لا يَخذُلُهُ، بل يُعْليهِ على عَدُوِّه ويَرفَعُ من شأنه، ويجعلُ له السَّلطنة والقَهرَ عليه[6].

(1) الآلوسّي، روحُ المعاني: 3/276.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 10/166.
(3) ابْنُ عُثَيمين، تَفْسيرُ ابْنِ عُثَيْمين: 1/256.
(4) أبو السعود، إرشاد العَقْل السّليم: 3/23، والآلوسّي، روحُ المعاني: 3/276.
(5) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/161، والسّعْدي، تَيْسيرُ الكَريمِ الرَّحْمن، ص: 227.
(6) أَبو حَيّان، البَحْرُ المُحيط: 4/216.

سِرُّ تِكْرار النِّداء بَعدَ ذِكرِ النِّعَمِ والآلاءِ:

الاهتمامُ بشأنِ الأمرِ مع المُبالغة في الحَثِّ على الامتثال

كُرِّرَ النِّداءُ في قولِه ﴿يَٰقَوۡمِ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡأَرۡضَ ٱلۡمُقَدَّسَةَ﴾ بإضَافَتهم إلى نفسِه النّفيسةِ تَشريفًا؛ اهتمامًا بشأنِ الأمرِ، ومبالغةً في حثِّهم على الامتثالِ به[1]، وتحريضهم على الانقيادِ له[2]، وكَرَّرَ اللَّفظَ الَّذي ابتَدَأَ بِهِ مَقَالَتَهُ وهُوَ النِّدَاءُ بِـ﴿يَٰقَوۡمِ﴾ لِزِيَادَةِ استِحضَارِ أَذهَانِهِمْ[3].

نُكتةُ مجيءِ (ال العهديَّة) في تعريفِ الأرض:

الاهتمامُ بشأنِ دخولِ بيتِ المقدس والتَّحريض عليه

اللَّامُ في الْأَرْض للعهد؛ لكونها حاضرةً في أذهانهم، وهم مأمورون بدخولها أوَّلًا؛ لأنَّ فيها بيتَ المقدس الّذي كَانَ بِأَيدِيهِم في زَمَانِ أَبِيهِم يَعقُوبَ، لَمَّا ارتَحَلَ هُوَ وبَنُوهُ وأَهلُهُ إِلَى بِلَادِ مِصْرَ أَيَّامَ يُوسُفَ[4] عليه السلام؛ فلأجل الاهتمام بشأن هذا المقصدِ العظيم، جِيءَ بـ(أل) العهديّة مقترنةً بالأرض المأمور بدخولها[5].

سِرُّ استعارةِ لفظةِ الكتابة لمعنى القضاء والتَّقدير:

التَّحريضُ على الإقدام لدخولهَا وبيانُ تَحقُّقِ ذلك

استُعيرت الكتابة لمعنى قَضى وقدَّر؛ فلَيْسَ ثَمَّةَ كِتَابَةٌ وَلَكِنَّهُ تَعبِيرٌ مَجَازِيٌّ شَائِعٌ فِي اللُّغَةِ، قال النَّابغةُ الجَعْديُّ:

يَا بِنْتَ عَمِّي كِتابُ اللهِ أَخْرَجَني *** عَنْكُمْ وهَلْ أَمْنَعَنَّ اللهَ ما فَعَلَا[6].

ووجه الاستعارةِ أَنَّ الشَّيْءَ إِذَا أَكَّدَهُ المُلتَزِمُ بِهِ كَتَبَهُ، مِثلُ الأَمرِ الَّذِي يُرَادُ ضَبطُهُ وعَدَمُ الإِخلَالِ بِهِ؛ فَإِنَّهُ يُكتَبُ لِكَي لَا يُنْسَى ولَا يُنقَصُ مِنهُ شَيءٌ؛ فأُطلِقَتِ الكِتَابَةُ عَلَى مَا لَا سَبِيلَ لِإِبطَالِهِ، وإذا قَضَى اللهُ ذَلِكَ وأَرَادَ وُقُوعَهُ في الوَقتِ الَّذِي عَلِمَهُ وأَرَادَهُ فهُوَ مُحَقَّقُ الوُقُوعِ لَا يَتَخَلَّفُ؛ فمَعنَى ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ﴾: قَضَى وَقَدَّرَ، يُقالُ: كَتَبَ اللهُ

(1) أَبو السُّعود، إرشاد العَقْل السّليم: 3/23، والآلوسّي، روحُ المعاني: 3/276، وابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/162.
(2) القونويّ، حاشيةُ القونويِّ على البيضاوي: 7/434، وابْنُ كَثِيرٍ، تَفْسِيرُ القرآن العظيم: 3/74.
(3) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/162.
(4) ابْنُ كَثِيرٍ، تَفْسِيرُ القرآن العظيم: 3/74، والقونويّ، حاشيةُ القونويِّ على البيضاوي: 7/434.
(5) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/162.
(6) النَّابغة الجعديّ، ديوان النَّابغة، ص: 138.

عليه كذا؛ أي: قضى عليه، وكَتَبَ اللّه الأجل والرِّزق، وكَتَبَ على عباده الطَّاعة وعلى نفسه الرَّحمة، وهذا كِتابُ اللّه: قَدَرُهُ[1]، وفي هذه الاستعارة تحريض على الإقدام لدخولهَا، فإنَّ القومَ وَإِنْ كَانُوا جَبَّارِينَ، إِلَّا أَنَّ اللّه تَعَالَى لَمَّا وَعَدَ هَؤُلَاءِ الضُّعَفَاءَ بِأَنَّ تِلكَ الأَرضَ لَهُم، فإِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ مُقِرِّينَ بِصِدْقِ مُوسَى عليه السلام عَلِمُوا قَطعًا أَنَّ اللّه يَنْصُرُهُمْ عَلَيهِم وَيُسَلِّطُهُمْ عَلَيهِم، فَلَا بُدَّ وأَنْ يُقْدِمُوا عَلَى قِتَالِهِمْ مِنْ غَيرِ جُبنٍ ولَا خَوفٍ ولَا هَلَعٍ، فهَذِهِ هِيَ الفَائِدَةُ مِنْ هَذِهِ الكَلِمَةِ[2].

فإِنْ قِيلَ: لِمَ قَالَ ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾، ثُمَّ قَالَ ﴿فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ﴾ [المَائِدَة: 26]:

والجَوَابُ: قَالَ ابنُ عَبَّاسٍ: كَانَت هِبَةً ثُمَّ حَرَّمَهَا عَلَيهِم بِشُؤمِ تَمَرُّدِهِم وَعِصيَانِهِم. وقِيلَ: اللَّفْظُ وإِنْ كَانَ عَامًّا لَكِنَّ المُرَادَ هُوَ الخُصُوصُ، فصَارَ كَأَنَّهُ مَكتُوبٌ لِبَعضِهِم وَحَرَامٌ عَلَى بَعضِهِمْ، وقِيلَ: إِنَّ الوَعدَ بِقَولِهِ: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ مَشْرُوطٌ بِقَيدِ الطَّاعَةِ، فلَمَّا لَمْ يُوجَدِ الشَّرطُ لَا جَرَمَ أن لا يُوجَدِ المَشرُوطُ، وَقِيلَ: إِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيهِم أَربَعِينَ سَنَةً، فَلَمَّا فلَمَّا مَضَى الأَربَعُونَ حَصَلَ مَا كَتَبَ[3].

دلالة تَعْدِيَةِ الفعل (ارْتَدَّ) بـ(على) بَدَلَ (إلى):

التَّحذيرُ مِنْ خَطَرِ الارتدادِ المُوجِبِ للهَزيمَةِ

الارتِدَادُ: الرُّجُوعُ، والأَدْبَارُ: جَمعُ دُبُرٍ، وهُوَ الظَّهْرُ، ومَعنَى الرُّجُوعِ عَلَى الأَدْبَارِ إِلَى جِهَةِ الأَدْبَارِ؛ أَي: الوَرَاءِ؛ لِأَنَّهُمْ يُرِيدُونَ المَكَانَ الَّذِي يَمشِي عَلَيهِ المَاشِي، وهُوَ قَد كَانَ مِنْ جِهَةِ ظَهرِهِ، كَمَا يَقُولُونَ: نَكَصَ عَلَى عَقِبَيهِ، ورَكِبُوا ظُهُورَهُمْ، وارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِمْ، وعَلَى أَعقَابِهِمْ فعُدِّيَ بِـ (عَلى) الدَّالَّةِ على الاستِعلَاءِ؛ أَي: اسْتِعلَاءِ طَرِيقِ السَّيرِ، فنُزِّلَتِ الأَدْبَارُ الَّتِي يَكُونُ السَّيرُ فِي جِهَتِهَا مَنزِلَةَ الطَّرِيقِ الَّذِي يُسَارُ عَلَيهِ[4]، وفيه تَحذِيرٌ مِمَّا يُوجِبُ الانهِزَامَ؛ لِأَنَّ ارتِدَادَ الجَيشِ عَلَى الأَعْقَابِ مِنْ أَكبَرِ أَسبَابِ الانخِذَالِ.

(1) الزَّمَخشريّ، أساس البلاغة: (كتب)، والفَيرُوزآبادِيّ، بَصائِرُ ذَوي التَّمْييز: 4/330.
(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/162، و28/57.
(3) الرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 11/332.
(4) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/163.

سِرُّ الاستعارة التَّمثيليَّة[1] في التَّعبير عن عدمِ الامتثال بالارتدادِ على الأدبار:

تَبشيعُ حال العاصي النَّاكِصِ المُتقاعس عن أمرِ ربِّه

معنى ﴿وَلَا تَرۡتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدۡبَارِكُمۡ﴾: لا ترتدُّوا عن دينكم بالعصيان وعَدِمِ التكلان على الله[2] ﷻ، وأن ترجعوا إلى ورائكم خوفًا من الجبَّارين فالكَلام محمولٌ مَجَازا، على معنى الاسْتعَارَةِ التَّمْثيليَّةِ[3]، والمعنى لا تكونوا كالمُقَهْقِرِ الرَّاجع، والمُتقاعِسِ النَّاكص[4].

وفي هذه الاستعارة التَّمثيليَّة تشبيهُ حالِ من يرجعُ عن الجهادِ بعد أن توافرت أسبابُه، بحال من يتراجعُ سائرًا بظهره إلى الوراء، بَدَلَ أن يسير بوجهه إلى الأمام، فشَبَّه سُبحانه الرجوع ارتيابا بالرُّجوع على الأعقابِ، وهذا التَّعبير يُصَوِّرُ قُبحَ الجُبنِ والتَّخاذل حِسًّا ومَعنى[5].

دلالةُ الفاء في قولِه تعالى ﴿فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ﴾:

الإنذارُ بالخُسران المُبين لمن انقلَبَ على عَقِبَيْهِ بَعْدَ وُضوحِ الدَّلائِلِ والتَّذكير بالنِّعم والفضائل

تحتمل الفاء أن تكون عاطفةً للفعل ﴿فَتَنقَلِبُواْ﴾ على الفعل المجزوم ﴿تَرۡتَدُّواْ﴾ فيكون﴿فَتَنقَلِبُواْ﴾ مجزومًا، والمعنى لا ترتدّوا ولا تنقلبوا، وتحتمل أن تكون سببيَّةً، والمعنى ارتدادكم على الأعقاب سببٌ لانقلابكم خاسرين[6]، وهذه العبارة تُنْذِرُهُمْ بالخُسْرانِ المُبين إذا لم يستجيبوا لأمر الله، والانقلاب: الرُّجوع، وأصله الرُّجوع إلى المنزل، والمرادُ به هنا مُطْلَقُ المَصيرِ، فبعد أن ساق لهم موسى ألوانًا من المُشَجِّعات والمُرَغِّبات في الجهاد؛ وذلك لأنَّه عليه السلام كان مُتَوَقِّعًا منهم الإحجام عن القتال، بعد أن جَرَّبَ عنادهم وعصيانهم ونُكُوصَهُمْ على أعقابهم في مواطن كثيرة، فهذه التَّجارب جعلته وهو يأمرهم بدخول الأرض المقدَّسة يَذْكُرُ لهم أكبر النِّعم، ويَسُوقُ لهم

(1) الاستعارة التَّمثيليَّة: تركيب استعمل في غير ما وُضِعَ له لعلاقة المشابهة مع قرينة مانعة من إرادة معناه الأصلي.
(2) البَيْضاويّ، أَنْوارُ التَّنْزيل: 2/121.
(3) القونويّ، حاشيةُ القونويِّ على البيضاوي: 7/435.
(4) الرَّضّي، تلخيص البيان: 2/130.
(5) طَنْطاوي، الوَسيط: 4/106، والهَرَري، حَدائِق الرَّوْحِ والرَّيْحان: 5/186.
(6) أبو السعود، إرشاد العَقْل السّليم: 3/23.

أكرمَ الذِّكريات وأقوى الضَّمانات وأَشَدَّ التَّحذيرات؛ لكي يُقْبِلوا على الجهاد بعزيمة صادقة[1]؛ فإنَّ ترتيب الخيبة والخُسران على الارتداد يَدُلُّ على اشتراط الكَتْبِ بالمجاهدة المُتَرَتِّبَةِ على الإيمان قَطعًا[2].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الإيتاء والإعْطاء:

الإيتاءُ أَقْوى مِنَ الإعطاءِ

لَا يَكَادُ أَهلَ اللُّغَةِ يُفَرِّقُونَ بَينَ الإيتَاءِ والإعطَاءِ، لَكِنْ نَجِدُ في الاستعمَالِ القُرآنيِّ بَعضَ الفُرُوقِ الدَّقِيقَةِ الَّتِي تُوحِي بِبَلَاغَةِ القُرآنِ وعَظَمَتِه؛ وذَلِكَ مِنْ حَيْثُ إنّ الإيتَاءَ أَقوَى مِنَ الإعطَاءِ في إثبَاتِ مَفعُولِه؛ لِأَنَّ الإعطَاءَ لَهُ فِعلُ مُطَاوِعٌ، تَقُولُ: أَعْطَاني فَعَطَوتُ، ولَا يُقَالُ في الإيتَاءِ آتاني فأَتَيْتُ، وإنَّمَا يُقَال: آتَاني فأَخَذْتُ، والفِعلُ الَّذي لَهُ فِعلٌ مُطَاوِعٌ أَضعَفُ في إثبَاتِ مَفعُولِه مِنَ الَّذي لَا مُطَاوِعَ له[3].

فَالإيتاءُ أَقْوى مِنَ الإعْطاءِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ﴾ [آل عمران: 26]؛ لِأَنَّ المُلْكَ شَيءٌ عَظِيمٌ لَا يُعْطَاهُ إلَّا مَنْ لَهُ قُوَّةٌ، وكَذَا ﴿يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ﴾ [البقرة: 269]، والحِكْمَةُ شَيءٌ عَظِيمٌ أَيضًا، وقال: ﴿ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي﴾ [الحجر: 87] لِعظَمِ القُرآنِ وشَأْنِه[4].

في الإيتاءِ وُجوبٌ والْتِزام وفي الإعطاءِ تَفَضُّلٌ وإكْرام

ومِن الفُرُوقِ أَيضًا: أَنَّ الإيتَاءَ فِيهِ مَعنَى الوُجُوبِ والالتِزَام، أَمَّا العَطَاءُ فَفِيهِ مَعنَى التَّفَضُّلِ والإكرَام؛ فبَعْدَ أَنْ أَسْعَدَ اللهُ المُؤْمِنِينَ بِدُخُولِ الجَنَّةِ قَالَ ﴿عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ۝١٠٨﴾ [هود: 108]، وقال ﴿عَطَآءً حِسَابًا ۝٣٦﴾ [النبأ: 36]، ومِنَ الفُرُوقِ أَيضًا: أَنَّ العَطَاءَ يَكُونُ في الأَشيَاءِ المَادِّيَّةِ ويُفِيدُ التَّكرَارَ ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١﴾ [الكوثر: 1]؛ أَي: سَيَتَكَرَّرُ شُربُكَ يَا مُحَمَّد كَثِيرًا مِنْ نَهرِ الكَوْثَرِ، ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ

(1) طَنطاوي، الوَسيط: 4/107، وابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/163.
(2) الآلوسّي، روحُ المعاني: 3/277.
(3) السُّيُوطِيّ، الإتْقان: 2/367 - 368، والكَفَوِيّ، الكُلِّيات، ص: 212.
(4) السُّيُوطِيّ، الإتْقان: 2/367، والكَفَوِيّ، الكُلِّيات، ص: 212.

﴿فَتَرۡضَىٰٓ ۝٥﴾ [الضحى: 5]؛ أَي: سَيَكُونُ عَطَاءُ اَللّٰه لَكَ مُكَرَّرًا حَتَّى تَبلُغَ دَرَجَةَ الرِّضَا[1].

أمَّا الإيتَاءُ ففي الأَشياءِ المادِّيَّةِ والمَعنويَّةِ، قال سُبْحانَهُ: ﴿۞وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَآ إِبۡرَٰهِيمَ رُشۡدَهُۥ﴾ [الأنبياء: 51]، وقال: ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحِكۡمَةَ وَفَصۡلَ ٱلۡخِطَابِ ۝٢٠﴾ [ص: 20][2].

الإعطاءُ دَليلُ التَّمَلُّكِ

ومِنَ الفُرُوقِ أَيضًا: أَنَّ الإعطَاءَ دَليلُ التَّمَلُّكِ دُونَ الإيتَاءِ[3]، فالإيتَاءُ يَشمَلهُ اَلنَّزْعُ، بِمَعنَى أَنَّهُ لَيسَ تَمليكًا، ولَكِنَّ العَطَاءَ تَمليكٌ، والإيتَاءُ لَيسَ بِالضَّرُورَةِ تَمليكًا؛ لِأَنَّ الإعطَاءَ هُوَ إيصَالُ اَلشَّيءِ إلى آخذه وكَثُرَ استِعمَالُ الإعْطَاءِ، حَتَّى صَارَ لَا يُطلَقُ إلَّا على التَّمليكِ، فيُقَال: أَعْطَاهُ مَالاً، إذَا مَلَّكَهُ إيَّاهُ.

الانقلاب والرُّجوع:

الانقلابُ تَغَيُّرُ الحالِ والمصيرِ إلى نقيضِ ما كان فيه قبلُ، والرُّجوع المصيرُ إلى المَوْضِعِ السَّابِقِ

ذكر كثيرٌ من أهل اللُّغة أنّ الانقلابَ هو الرُّجوعُ إلى الشَّيءِ مُطْلقًا[4]، فلا فرق عندئذ؛ وفَرَّقَ بَعضُهُمْ بَينَ الانقِلَابِ والرُّجُوعِ، بِأَنَّ الانْقِلَابَ صَيرُورَةُ الشَّيءِ إِلَى خِلَافَ مَا كَانَ عَلَيهِ، فالرُّجوعُ هو المصير إلى الموضع الذي قد كان فيه قَبلُ، والانقلاب المصير إلى نقيض ما كان فيه قبل، ويُوَضِّح ذلك قولهم: انقلب الطِّينُ خَزَفًا، فأمَّا رُجُوعُهُ خَزَفًا فلا يَصِحُّ؛ لأنَّه لم يكن قَبْلُ خَزَفًا[5]، فالانْقِلَابُ: مُطَاوِعُ (قَلَبَ)، والقَلْبُ تَغييرُ الحَالِ وتَبَدُّلُهُ، والأَكثَرُ أَنْ يَكُونَ تَغييرًا مِنَ الحَالِ المُعْتَادَةِ إلى حَالٍ غَرِيبَةٍ، ويُطلَقُ الانقِلَابُ شَائِعًا على الرُّجُوعِ إلى المَكَانِ الَّذِي يُخرَجُ مِنهُ، وانقَلَبَ مِنَ الأَفعَالِ الَّتِي تَجِيءُ بِمَعنَى (صَارَ)، وهُوَ المُرَادُ في قوله تعالى: ﴿فَغُلِبُواْ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُواْ صَٰغِرِينَ ۝١١٩﴾ [الإعراب: 119]؛ أي: صَارُوا صَاغِرِينَ[6].

---

(1) الكَفَوِيّ، الكُلِّيات، ص: 212، والسُّيُوطِيّ، الإتْقان: 2/367.
(2) لاشين، مِنْ أَسرارِ التَّعبيرِ في القُرْآنِ الكَريم، ص: 71 - 77.
(3) الكَفَوِيّ، الكُلِّيات: 1/360، والعَسْكَرِيّ، الفُروقُ اللُّغَوِيَة، ص: 86.
(4) الكَجْرَاتِيّ، مَجْمَعُ بِحارِ الأَنْوار: 4/309، والمَنَاوِيّ، التَّوقيف، ص: 65.
(5) العَسْكَرِيّ، الفُروقُ اللُّغَوِيَة، ص: 303.
(6) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 9/51.

﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوۡمٗا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَا حَتَّىٰ يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا فَإِن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ٢٢﴾ [المائدة: 22]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

جوابُ بني إسرائيل لنبيِّ الله موسى عليه السلام بعد حَثِّهم وأَمْرِهِمْ بدُخول بيت المقدس

لَمَّا كان السَّياقُ السَّابقُ مُحَرِّكًا للنَّفس إلى معرفة جوابهم عنه، أورده على تقدير سؤالٍ مؤداه: إنَّ هذا لترغيبٌ مُشوِّق وترهيب مُقْلِقٌ، فما قالوا في جوابِهِ؟ فَقالَ: ﴿قَالُواْ﴾[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿جَبَّارِينَ﴾: أي: أقوياءَ عِظامَ الأجسامِ طوالًا؛ وُصِفوا بذلك لكثرتِهم وقُوَّتِهم، وعِظَم خَلْقِهم، وطولِ جُثَثِهم، يُقَالُ: رَجُلٌ جَبَّار إذا كَانَ طَوِيلًا عَظِيمًا قَوِيًّا، تَشبِيهًا بالجَبَّارِ مِنَ النَّخْلِ، وأصلُ (جبر): جِنسٌ مِنَ العَظَمَةِ والعُلُوِّ، وجبَّارون: جمْع جبَّار، وهو القَهَّار، والمتسلِّطُ، والقَتَّال[2].

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

احتجاج بني إسرائيل بضعفهم وقوة أعدائهم للنُّكول عن قتالهم

قال بنو إسرائيل مخالِفين أمرَ الله: يا موسى، إنَّ في الأرض المقدّسةِ قومًا أشداءَ أقوياءَ، وهذا يمنعُنا من دخولِها، فلن ندخلَها ما دام هؤلاءِ فيها؛ لأنّه لا حولَ لنا ولا قوّةَ بقتالِهم، فإن خرَجُوا منها دخلناها[3].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالةُ الاستئنافِ البيانيّ في قوله ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوۡمٗا جَبَّارِينَ﴾:

قوله تعالى ﴿قَالُواْ﴾: اسْتِئْنَافٌ بيانيٌّ، جاء في جوابِ سؤالٍ

(1) البِقاعيّ، نَظْمُ الدُّرَر: 6/75.

(2) ابْنُ فارِس، مَقاييسُ اللُّغَة، والرَّاغِب، المُفْردات، وابْنُ مَنْظورٍ، لِسانُ العَرَب: (جبر)، وابن عزيز، غَريبُ القُرْآن، ص: 174، وابْنُ الهائِم، التِّبْيان، ص: 149.

(3) لَجْنَةٌ مِنْ عُلَماءِ الأَزْهَر، المُنْتَخَب، ص: 149، ونُخْبَةٌ مِنْ أَساتِذَةِ التَّفْسير، التَّفْسيرُ المُيَسَّر، ص: 111، وجَماعَةٌ مِنْ عُلَماءِ التَّفْسير، المُخْتَصَر، ص: 111.

بيان جواب بني إسرائيل الدال على سوء أدبهم مع نبيهم

مقدَّرٍ اقتضاه الحال؛ كأنَّه قيل: فماذا كانَ جوابهم لنبيّهم في مُقابلةِ الأَمرِ والتَّحذير والإنذار؟ فقيل: قَالُوا مخالفين لأمره، ومخاطبين له باسمه العلَميِّ جفاءً وجلافةً وقِلَّةَ أَدَبٍ ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوۡمٗا جَبَّارِينَ﴾.

السِّرُّ في العطفِ بتتابعِ المؤكِّدات:

التَّأكيدُ على النُّكول والنُّكوص واختلاق الأعذار لتخلّفهم وقعودهم عن القتال

فقد أَكَّدُوا قولهم، فقالوا مُخاطِبينَ بِجُرْأةٍ وقلَّة حياءٍ لأعلم أهل زمانه: ﴿إِنَّ فِيهَا﴾؛ أي: دون غيرها[1]، ثُمَّ عَطَفُو التَّأكيدِ بتأكيد آخر فقالوا: ﴿وَإِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَا حَتَّىٰ يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا﴾، لتأكيدِ امتناعهم التَّامِّ مِنْ أَنْ يُقَاتِلُوا الجَبَابِرَةَ، ولِذَلِكَ كَانَ النَّفيُ بِـ﴿لَن﴾ الدالَّة على تأكيدِ نفي المستقبل[2].

دلالة العطف في قوله تعالى: إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا:

هذا العطف من قبيل عَطفِ المَعْلولِ عَلَى العِلَّةِ؛ والمعنى لأنّ فيها قومًا جبَّارين لن ندخل فيها حتّى يخرجوا منها، إذ الدُّخول في دار الأعداء قَهْرًا يَستَلزمُ القتال، ونفي الملزوم يستلزم نَفْيَ اللَّازم، أي فلمّا نَفَوا دخولَهم استلزم الأمرُ نفيَ قتالهم، ثمَّ صَرَّحوا بالإتيان بالجُملَةِ الاسميَّة المُؤَكدِّة إنَّا ﴿لَن نَّدۡخُلَهَا حَتَّىٰ يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا﴾ بتهالكهم على الدُّخول، وأنَّه لا مانع لهم إلّا الجُبْنُ، فأكَّدوا دُخولَهم إذا خرَج منها هؤلاءِ القومُ الجبَّارونَ بقولِهم: ﴿فَإِنَّا دَٰخِلُونَ﴾ - فهو مُؤكَّد بـ(إنَّ) واسميَّةِ الجُملة - وهذا لا يَحتاجُ إلى توكيدٍ، لكن يَدلُّ على شِدَّةِ بلاهتِهم؛ لأنَّ المعروف أنَّه متى خلَتِ البلادُ مِن الأعداء فخرَجُوا منها، فالدُّخولُ في هذه الحالة لا يَحتاجُ إلى تأكيدٍ[3].

(1) القونويّ، حاشيةُ القونويِّ على تفسير البيضاوي: 7/436، والبِقاعيّ، نَظْمُ الدُّرَر: 6/75.
(2) أبو حَيّان، البَحرُ المُحيط: 4/218.
(3) البِقاعيّ، نَظْمُ الدُّرَر: 6/76، والقونويّ، حاشيةُ القونويِّ على تفسير البيضاوي: 7/436، وابْنُ عُثَيمين، تَفْسيرُ ابْنِ عُثَيْمين: 1/274.

دلالة التَّعبير بصيغة المبالغة في وصفِ الأعداء:

تعظيمُ شأن العَدُوِّ وتهويل بَطْشِهِ وشِدَّتِهِ

قولهم ﴿قَوْمًا جَبَّارِينَ﴾؛ أي: عُتاةً قاهرين لغيرهم مُكْرِهينَ له على ما يُريدُونَ[1]، والجَبَّارُ صيغة مُبالغة من (جَبَر) الثُّلاثي على القياس، والجَبَّار: هو الذي يقهرُ الناس كائنا منْ كان ويكرهُهُم على ما يريدُ كائنا ماكان، ففي هذه المُبالغة تَعظيمٌ لشأن هؤلاء القوم ومبالغةٌ في قوّتهم، مع التَّعظيم والتَّهويل الّذي يحمله تَنْكيرُ لفظة ﴿قَوْمًا﴾.

دلالة الشَّرْطِ في قولِه تعالى ﴿فَإِن يَخْرُجُواْ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ﴾:

بيان خَوَرِ الطَّبيعة والجُبْنِ المُتَأَصِّلِ في نفوسهم

هَذَا الشّرطُ تَوجيهٌ مِنهُمْ لِأنفُسِهِم بِخُرُوجِ الجَبَّارِينَ مِنهَا وتأكيدٌ لِما تقدّم ذكرُه؛ إذْ عَلَّقُوا دُخُولَهُمْ عَلَى شَرطٍ مُمكِن الوُقُوعِ، وأتوا بجملة الشّرط وجوابِه مع كون مضمونهما مفهومًا ممّا تقدّم - تصريحًا بالمقصود، وتنصيصًا على أنَّ امتناعَهم من دخولها ليس إلّا لمكانهم فيها خوفًا ورهبةً من الجبّارين، وعُبِّرَ بـ﴿فَإِن﴾ الدالّة على استبعادِ وقوعِ الشّرطِ وأنَّه نادُر الحصول مع إعلام اللّه لهم بإهلاكهم على أيديهم جلافةً منهم وعَراقَةَ طَبْعٍ في التَّكذيب وكشفًا لجبنِهم وتهرُّبِهم من القتالِ[2]، وللإشعارِ بأنَّهم لم يرغبوا في الدخول إلى الأرضِ المقدَّسة، ولهذا جاؤوا بالجزاءِ مؤكَّدًا بالجملةِ الاسمية المصدّرة - بإنّ - للدلالةِ على تقرُّر الدُّخول وثباته عند تحقق الشَّرطِ الذي استبعدوا حصولَه، وكأنّهم كانوا يرغبونَ في دخولِ الأرضِ المقدَّسةِ وفي الامتثال لِلأمر[3]، وفي الجملة الشّرطية تَصريحٌ بِمَفهُومِ الغَايَةِ في قَولِهِ: ﴿وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُواْ مِنْهَا﴾؛ لِقَصدِ تَأْكِيدِ الوَعدِ بِدُخُولِهَا إِذَا خَلَتْ مِنَ الجَبَّارِينَ الموجودين فيها[4].

(1) البِقاعيّ، نَظْمُ الدُّرَر: 6/75.
(2) البِقاعيّ، نَظْمُ الدُّرَر: 6/76، 75.
(3) الآلوسّي، روحُ المعاني: 3/277.
(4) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/163.

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الجبَّار والقهَّار:

الجبَّارُ في صفة الله ﷻ صفةُ تعظيم؛ لأنَّه يفيدُ الاقتدارَ، وهو - سبحانه - لم يزل جبَّارًا، بمعنى: أنَّ ذاتَه تدعو العوارفَ بها إلى تعظيمها، والجبَّارُ هو المصلحُ للأمور؛ فجبرُ الفقير يكون بالغِنى، وجبرُ الكَسير يكون بإصلاحِه؛ فهو سبحانه الجبَّارُ المصلح للأمور[1]، وأمَّا القهَّارُ فهو الغالبُ لمن ناواه، والله هو الذي قهر الجبابرةَ من عتاة خلقِه بالعُقوبة، وقَهَرَ الخلقَ كُلَّهم بالموت[2]، والجبَّارُ في صفة المخلوقين صِفَةُ ذَمٍّ؛ لأَنَّهُ يتعاظمُ بما ليسَ لهُ، لأنَّ العظمةَ لله سبحانه[3]، وقد وردت لفظةُ الجبّارِ في القرآن على أَربعة أَوجهٍ:

الجبَّار يفيدُ الاقتدارَ وهو أعمُّ من القهَّار

الأَوَّل: بمعنى القهَّار قال تعالى: ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُۚ﴾ [الحشر: 23]، وقيل: هذا من قولهم جَبَرتُ الفَقيرَ؛ لأَنَّه يَجْبر النَّاس بفائضِ نِعَمِه.

الثَّاني: بمعنى القَتَّال بغير حقٍّ، ﴿وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ١٣٠﴾ [الشُّعراء: 130]، وقَوْلُهُ ﴿إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [القَصَص: 19]، وقوله ﴿يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ٣٥﴾ [غافر: 35] أَي قَتَّال.

الثَّالث: بمعنى الزِّيادة في القُوّة والشِّدَّة وطُول القَدِّ والقامة، كقوله: ﴿إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ﴾؛ أَي: أَقوياء عِظَام الأَجسام، ومنه نَخْلَةٌ جَبَّارَةٌ.

الرّابع: بمعنى المُتَكَبِّر، ﴿وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ١٤﴾ [مريم: 14]، وقوله: ﴿وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ١٥﴾ [إبراهيم: 15]؛ أَي: متكبّر[4].

---

(1) عياض، مشارق الأنوار: 1/137.
(2) النَّجدي، النَّهج الأسمى في شرح أسماء الله الحسنى: 2/182.
(3) العَسْكَرِيّ، الفُروقُ اللُّغَويَة، ص: 153.
(4) الفَيْروزآبادِيّ، بَصائِرُ ذَوي التَّمْييز: 2/360.

﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمَا ٱدۡخُلُواْ عَلَيۡهِمُ ٱلۡبَابَ فَإِذَا دَخَلۡتُمُوهُ فَإِنَّكُمۡ غَٰلِبُونَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ٢٣﴾ [المائدة: 23]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

تَحريضُ أهلِ الإيمانِ لِقَومِهِمْ بعد ظُهورِ تخاذلهم وخوفهم

لَمَّا نَكَلَ بنوا إسرائيلَ عن طاعةِ اللّه واتباع رسوله موسى عليه السلام، حرَّضهم رَجُلانِ، للّه عليهما نِعْمَةٌ عظيمة، وهما ممَّن يخافُ أمرَ اللّه ويخشى عقابَه، فقال تعالى ﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ﴾[1]، ولَمَّا أمَرَ هذانِ الرَّجُلانِ قَومَهما بالأَخْذِ بالأسبابِ النَّافعةِ، أرشدَاهُم إلى ألَّا يَعتمِدوا على أنفُسِهم، فقالَا: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَخَافُونَ﴾: الخَوْف: ضِدُّ الأَمْن، خَافَ يخَاف خَوْفًا وخِيفَةً ومَخَافةً، والخَوْفُ: الفَزَعُ، وأصل الخوف يَدُلُّ على الذُّعرِ والفَزَعِ، وخوف اللّه تعالى لا يُراد به ما تعارفه النَّاس من الرُّعب كاستشعار الخوفِ من الأسد، إنَّما المُرادُ به الكفُّ عن المعاصي وتَحَرِّي الطَّاعات وعَمَلُها، فمعنى ﴿يَخَافُونَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ﴾؛ أي: يُراقِبُونَهُ تعالى ويَتَّقونَهُ[3].

2) ﴿غَٰلِبُونَۚ﴾: منتصرون قاهرون، غَلَبَ يغلِبُ غَلَباً وغَلَبةً، والغُلْبَّةُ القَهْرُ، وتَغَلَّبَ الأميرُ عَلَى البَلَدِ استَولَى عَلَيهِ قَهْرًا. وأصل (غَلَبَ) يَدُلُّ عَلَى قُوَّةٍ وَقَهْرٍ وَشِدَّةٍ، والغِلابُ: النِّزاعُ، والمُغَلَّبُ: الّذي يَغلِبُه أقرانَه فيما يمارس،[4].

(1) ابْنُ كَثِيرٍ، تَفْسِيرُ القرآن العظيم: 3/76.

(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/165، وابْنُ عُثَيمين، تَفْسِيرُ ابْنِ عُثَيْمين: 1/265.

(3) ابْنُ دُرَيْدٍ، جَمْهَرَةُ اللُّغَة، والرَّاغِب، المُفردات، والسَّمين، عُمْدَةُ الحُفَّاظ، وابْنُ مَنْظورٍ، لِسانُ العَرَب: (خوف)، والدُّرَّة، تفسير القرآن الكريم: 3/71، والبَيْضاويّ، أَنْوارُ التَّنْزيل: 2/122.

(4) الخليل، العَينُ، والجَوْهَريّ، الصِّحاح، وابْنُ فارِسٍ، مَقاييسُ اللُّغَة: (غلب)، والمصطفوي، التحقيق في كلمات القرآن: 7/249، والراغب، تفسير الراغب: 4/316.

3) ﴿فَتَوَكَّلُوٓاْ﴾: اعتمدوا عليه، يُقال وَكَلَ بِاللّه يَكِلُ، وَتَوَكَّلَ عَلَى اللّه تَوَكُّلاً، وتوكّلت عليه بمعنى اعتمدته، واتَّكَلَ اتِّكَالاً: استَسلَمَ إِلَيهِ، وأَوْكَلْتَ عَلَى أَخِيكَ العَمَلَ؛ أَي: خَلَّيْتَهُ كُلَّهُ عَلَيهِ، وأصل (وكلَ) يدلّ على اعتِمَادِ غَيرِكَ فِي أَمرِكَ، والتَّوَكُّلُ، إِظهَارُ العَجْزِ فِي الأَمْرِ والاعْتِمَادُ على غَيرِكَ، والمعنى هُنا: اعتمدوا على اللّه فإِنَّه ناصرُكم[1].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

مُخاطبةُ المتَّقين من بني إسرائيل لقومهم وتَحْرِيضُهُمْ لهم على الجهاد في سبيل الله والتَّوكُّلِ عليه

قال رجلان من أصحابِ موسى ممَّن يخشون اللّه ويخافون عقابه، أنعم اللّه عليهما بالتَّوفيق لطاعته، وطاعة نَبِيِّهِ يَحضَّان قَوْمَهُما على امتثال أمر موسى عليه السلام: أُدخلوا على الجبابرة بابَ المدينة، فإذا فَعَلتم ذلك فإنَّكم مُنْتَصرون عليهم، وعلى اللّه وحدَه اعتمدُوا وتوكَّلوا إن كنتم مُصدِّقين رَسُولَه فيما جاءكم به، عامِلِينَ بِشَرْعِهِ[2].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالةُ الاستئنافِ البياني في قولِه ﴿قَالَ رَجُلَانِ﴾:

استئناءُ أهل الإيمان واليَقين من جملةِ الجُبناء الخائفين

قوله: ﴿قَالَ رَجُلَانِ﴾ اسْتِئْنَافٌ بيانيٌّ جديد وقع جوابًا لسؤالٍ اقتضاه المقامُ، وكأنَّه قيل: هَلْ كان فيهم رَجُلٌ رشيدٌ ينصحهم فيأتي بقولٍ سديدٍ، أم لا؟ فأجيب بقوله ﴿قَالَ رَجُلَانِ﴾ الآيةَ؛ ولِذَا اخْتير الفصلُ، وبذلك يُعْلَمُ أَنَّ ضميرَ الجمعِ (الواو) في قوله ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ﴾، عامٌّ خُصَّ مِنهُ البَعضُ، بقوله ﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ﴾[3].

(1) ابْنُ فارِسٍ، مَقاييسُ اللُّغَة، والرَّاغِب، المُفْردات، والسَّمين، عُمْدَةُ الحُفَّاظ، ، والزَّبيديّ، تاجُ العَروس: (وكل).
(2) لَجْنَةٌ مِنْ عُلَماءِ الأَزْهَر، المُنْتَخَب، ص: 149، ونُخْبَةٌ مِنْ أَساتِذَةِ التَّفْسير، التَّفْسيرُ المُيَسَّر، ص: 111، وجَماعَةٌ مِنْ عُلَماءِ التَّفْسير، المُخْتَصَر، ص: 111.
(3) القونويّ، حاشيةُ القونويِّ على البيضاوي: 7/437.

دلالة شبه الجملة في قوله ﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ﴾:

دلَّ حرفُ الجر على التّبعيض، والمعنى الرجلان بعضٌ من الذين يخافونَ اللّه، وأفادَ مجيءُ شبهِ الجملةِ صفةً لـ﴿رَجُلَانِ﴾ بصيغةِ الاسم الموصولِ وصلتِه بيانَ وجهِ بناءِ قولِهم، أي إنَّ خوفَهم من اللّه هو السبب في أن قالوا ﴿ٱدۡخُلُواْ عَلَيۡهِمُ ٱلۡبَابَ فَإِذَا دَخَلۡتُمُوهُ فَإِنَّكُمۡ غَٰلِبُونَۚ﴾.

سِرُّ التَّعبير بقوله ﴿يَخَافُونَ﴾ بعد ذِكْرِ مقالة الخائفين من العدوِّ:

معنى ﴿يَخَافُونَ﴾؛ أي: يخافون اللّه تعالى، وحُذِفَ المفعولُ؛ لتنزيلِ الفعلِ ﴿يَخَافُونَ﴾ منزلةَ اللازم، بمعنى أنَّ الخوفَ من اللّه كانَ وصفًا لازمًا لهما، وفي وصفِهم بذلك تعريضٌ بأنَّ من القومِ من كانوا لا يخافونه تعالى، بل كانوا يخافون العَدُوَّ[1].

التَّفريقُ بين من يخافُ اللهَ ومن يخافُ غَيْرَهُ

دلالةُ قولِه تعالى ﴿أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمَا﴾ بين الاستئناف والصفة والحاليّة:

تحتمل جملةُ ﴿أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمَا﴾ أن تكونَ استِئنَافًا بَيَانِيًّا جوابًا لسؤالٍ مقدَّرٍ لِبَيَانِ مَنشَأِ خَوفِهِمَا اللّه تعالى، وتقديرُ السُّؤالِ: كيف حصل عندهما هذا الخوف من اللّه ولا يخافونَ العدوَّ، فجاء الجواب بأنَّه تعالى أنعمَ عَلَيهِمَا بالشجاعةِ، فحذف متعلق فعل ﴿أَنۡعَمَ﴾ اكتفاءً بدلالة السياق عليه، وهذَا يَقتَضِي أَنَّ الشَّجَاعَةَ في نَصرِ الدِّينِ نِعمَةٌ مِنَ اللّه عَلَى صَاحِبِهَا[2]، وتحتمل الجملةُ أن تكون صفةً ثانيَةً لِـ﴿رَجُلَانِ﴾، تفصيلًا في مدحهما وتأكيدًا له، فيكون الإنعام على معنى العموم، وليسَ مختصًّا بالشجاعة، والتّقدير: قال رجلان موصوفان بأنَّهما من الّذين يخافون اللّه - تعالى - ولا يخافون سِواه، وبأنَّهما من الّذين أنعمَ اللّه عليهما بالإيمانِ والتَّثبيتِ والثِّقة

بيانُ أثرِ الإنعامِ من اللهِ على عبدِه بالخوف مِنهُ دونما سِواه

(1) الآلوسّي، روحُ المعاني: 3/277، وابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/165، وأبو السُّعود، إرشاد العَقْل السّليم: 3/24.

(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/164.

بوعدِه، والطَّاعةِ لأمره، قالا لقومهما: ادخُلُوا عليهم البابَ، وتحتمل الجملة أن تكون حالًا من ضمير ﴿يَخَافُونَ﴾ والمعنى قال رجلان من الذين يخافون حالَ كونهما قد أنعم الله عليهما بخوفهم من الله[1].

نكتةُ تقديمِ ﴿عَلَيۡهِمُ﴾ في قولِه ﴿ٱدۡخُلُواْ عَلَيۡهِمُ ٱلۡبَابَ﴾:

قُدِّمَ الجارُّ والمجرورُ ﴿عَلَيۡهِمُ﴾ على المفعولِ به ﴿ٱلۡبَابَ﴾؛ للاهتمامِ بالمقدَّم[2]؛ لأنَّ المقصودَ إنَّما هو دخولُ البابِ، وهم في بلدِهم؛ أي: فاجِئُوهم وضاغِطُوهم في المضيقِ، ولا تمهلوهُم ليحصُرُوا ويجدُوا للحربِ مجالًا[3]؛ فإنَّهم عندئذٍ يُصيبُهُم الذُّعرُ، وتأخذُهُم الفجاءةُ، ويتحَيَّرون، فتأخذهم السُّيوفُ، وتكونون أنتم الغالبين، ولا شَكَّ أنَّ غزوَ قومٍ في دارهم فجاءةً يُؤدي إلى هزيمتهم، ولقد قال في ذلك علي بن أبي طالب رضي الله عنه: "ما غُزِيَ قَوْمٌ في عُقْرِ دارهم إلّا ذَلُّوا"[4].

الاهتمامُ بشأنِ مباغتَةِ العدوِّ ومفاجئَتِهم في بَلَدِهم

دلالةُ التّعبير بقولِه ﴿عَلَيۡهِمُ﴾:

ليفيدَ دخولَهم على طريقة الغلبَة والاستعلاء والتمكُّنِ من القومِ الجبَّارين.

دلالةُ الشَّرطِ والجزاءِ في قولِه ﴿فَإِذَا دَخَلۡتُمُوهُ فَإِنَّكُمۡ غَٰلِبُونَۚ﴾:

عُبِّرَ بالأداة ﴿فَإِذَا﴾ للحثِّ على دخولِ البابِ وقُرِنَت الأداة بالفعل الماضي، ﴿دَخَلۡتُمُوهُ﴾ للإشعارِ بالقطعِ في حصولِ الشّرطِ وكأنَّه قد وقعَ، فإذا وقع تحقَّقت الغلبَةُ، من غيرِ مهلةٍ بسبب وجودِ الفاء، والمعنى منْ غيرِ حاجةٍ إلى القتال، ثقةً منهما بوعدِ الله وما عهداه من صنع الله تعالى لموسى عليه السلام في قهر أعدائه، أو أنّهما عَلِمَا بذلك من خبرِ موسى، ومِنْ قوله: ﴿ٱلَّتِي كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمۡ﴾، أو كانا قد عَرِفَا أنَّ الجبّارين قد مُلِئَتْ قلوبهم خَوفًا ورُعبًا[5]، والتّعبير بأداةِ

الحثُّ على الدّخولِ والتّرغيب فيه

(1) أبو السعود، إرشاد العَقْل السّليم: 3/24، وطَنْطاوي، الوَسيط: 4/108.
(2) أَبو السُّعود، إرشاد العَقْل السّليم: 3/24.
(3) الآلوسّي، روحُ المعاني: 3/278.
(4) أبو زهرة، زَهْرَةُ التَّفاسير: 4/2116.
(5) الآلوسّي، روحُ المعاني: 3/278، والقِنَّوْجيّ، فَتْحُ البَيان: 3/391.

الشّرط (إذا) مع الفعل الماضي هنا أقضى لحقِّ البلاغة والمطابقُ لها، وفي العبارة ما يُفيدُ تأكيد الغَلَبِ؛ لأنَّهُ عبَّر عن الغلبِ بالجملة الاسميَّة، و(إنَّ) الّتي تؤكِّدُ القولَ[1]، وفي هذا الخطابِ مُبالغةٌ في الوعدِ بالنَّصر والظَّفر، كَأنَّه قال: مَتَى دَخَلْتُم بابَ بَلَدِهم، انهزَمُوا ولا يبقى منهم نافخُ نَارٍ ولا ساكنُ دارٍ، فلَا تَخافُوهم[2].

نكتةُ تقديمِ الجارِّ والمجرور ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ﴾ على الفعل:

بيانُ خصوصيةِ التَّوكل على الله دونما سِواه، وأنَّ التوكّلَ علامةُ الإيمانِ وسببُ التَّوفيق والإقدام

أفادَ التّقديمُ التّخصيصَ والاهتمام، والمعنى وعلى اللّه تعالى خاصّةً دونَ غيرِه فَتَوَكَّلُوا في دخولِ البابِ وفي غيرِه من أعمالِكم ليفيدَ عمومَ التَوكُّلِ، بعد ترتيب الأسباب، ولا تعتمدُوا عليها فإنَّها لا تُؤثِّر من دون إذنه إنْ كُنتُم مُؤمِنِينَ باللّه تعالى، والمرادُ بهذا الإلهابُ والتَّهييجُ، وإلَّا فإيمانهُم مُحقَّقٌ، وقد يُرادُ بالإيمان التَّصديقُ باللّه تعالى وما يَتبَعُهُ من التَّصديق بما وَعَدَ به[3].

سِرُّ التَّذييل بالجملةِ الشرطيَّةِ:

بيانُ أنَّ الإيمانَ باللّه تعالى هو سِرُّ التَّوكُّل الجَالِبُ للنَّصر والظَّفر

لمّا رَأَى الرجلانِ بني إسرائيل قد عَصَوا الرَّسولَ في الإقدامِ على الجهاد مع وعدِ اللّه لهم السَّابق، استرابَا في إيمانهم، فاحتاج الأمر إلى تأكيد الأمرِ بالتَّوكُّلِ على اللّه؛ إذ هو الملجأُ والمفزعُ عند الشَّدائد، فجاء الشّرط محذوف الجوابِ ودلَّ عليه السّياقُ، والتّقدير (إنْ كنتم مؤمنينَ فعلى اللّه توكّلوا)، فكأنَّه أعاد الأمر بالتّوكُّلِ مرّتين؛ لتأكيدِه وتقريرِه في نفوسهم، وعلَّق ذلك بِشَرطِ الإيمان الّذي استرابَا في حصوله لبني إسرائيل[4]، فذَيَّلَا بِقَوْلِهِمَا: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾؛ لأَنَّ الشَّكَّ في صِدقِ الرَّسُولِ مُبطِلٌ لِلإِيمَانِ[5].

(1) أبو زهرة، زَهْرَةُ التَّفاسير: 4/2116.
(2) الرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 11/334.
(3) الآلوسّي، روحُ المعاني: 3/278.
(4) أبو حَيّان، البَحْرُ المُحيط: 4/220.
(5) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/165.

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الغَلَبَة والنُّصْرَة:

النُّصْرةُ تسديدٌ وتأييدٌ من اللهِ، وهي تشريفٌ خاصٌّ للمؤمنين، والغَلَبَةُ أَعَمُّ

ليس كلُّ غلبةٍ نُصْرَةً؛ وإنّما النّصرُ يكون للخير والفوز العظيم؛ ولذلك جاء في الآية الكريمة ﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ﴾ [آل عمران: 160]، وقال تعالى ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ۝٥١﴾ [غافر: 51]، والنَّصر يكون من عند الله لِعبادِه المؤمنين، قال تعالى: ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: 126]، وقال تعالى: ﴿نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝١٣﴾ [الصف: 13]، والنُّصْرَة لَا تكونُ إلَّا على المنازعِ والخصمِ والمناوِئِ المُشاغب[1]، وأمّا الغَلَبَة فقد تكونُ بِفضل القُدرَةِ وبفضل العلم، يُقَال: قَاتَلَه فغلَبَه وصارَعَه، وذَلِكَ بفضلِ قدرتِهِ، وقد تكون أيضًا بالاستكبارِ أو الكثرة بالعددِ أو الأموال.

أمّا الانتصارُ فإنَّما يكونُ بتسديدِ من الله ﷻ بغضِّ النَّظر عن الفئةِ الرَّاجحةِ العدد أو الأموال أو السُّلطة، وفي مطلع سورة الرُّوم ذكر الغَلَبَةِ والنُّصْرة؛ حيث وافق غلبةُ الرُّوم لِلفُرسِ انتصارَ المسلمين في بدر، قال تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ۝٣ فِى بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝٤ بِنَصْرِ ٱللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥﴾ [الروم: 1 - 5]؛ فالنُّصرة تكونُ في ظلالِ التَّكريم والتَّشريفِ من الله، وهذا خاصٌّ بالمؤمنين الصَّالحين.

(1) العَسْكَرِيّ، الفُروقُ اللُّغَويَة، ص: 189.

﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَآ أَبَدٗا مَّا دَامُواْ فِيهَا فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ٢٤﴾ [المائدة: 24]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الكلام موصولٌ في شأن بني إسرائيل عندما طلبَ إليهم موسى عليه السلام أنْ يدخلوا الأرضَ المقدَّسة الَّتي كتبَ اللّه عليهم أنْ يدخلُوها، فقد أجابوا خائفين بأنَّ فيهم قومًا أشدَّاء عمالقة، وأنَّهم لن يدخلوها ما دام هؤلاء[1]، فبعد تلك العبارات القويَّة المثيرة للهمم والعزائم الَّتي نادى بها من الصُّفوف رجال منهم أو من أعدائهم، أجابوا بإجابتهم الأولى، وهي أنَّهم لن يدخلوا فيها، حتَّى يخرجوا منها[2]، فالنَّصيحة الحكيمة من الرَّجلين المؤمنين لم تلقَ من بني إسرائيل قلوبًا واعيةً، ولا آذانًا صاغيةً، بل قابلوها - كعادتهم - بالتَّمرُّد، والعناد[3].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿قَٰعِدُونَ﴾: "القافُ والعينُ والدَّالُ: أصلٌ مطَّردٌ منقاسٌ لا يخلف، وهو يضاهي الجلوس"[4]، أو بمعنى: الجلوس[5]، و"قَعَد يَقْعُدُ قُعُودًا: خلاف قام[6]، وَيُقَالُ: رَجُلٌ قَاعِدٌ عَنِ الْغَزْوِ، وَقَوْمٌ قُعَّادٌ وَقَاعِدُونَ، القَعَدُ: الَّذِينَ لَا يَمْضُون إِلى القِتَالِ، وَهُوَ اسْم للْجمع[7]، وقوله: ﴿إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾ [المائدة: 24]، يعني: متوقِّفون[8]، فقد جاء في القرآن بمعنى: الثَّبات؛ تخلُّفًا عن النُّهوض، أو رفضًا لمعيَّة بغيضة إلى القاعد، أو توقُّفًا بسبب تغيُّر الأحوال، أو تربُّصًا، أو ملازمة لحال ما[9].

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 4/2114.
(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 4/2117.
(3) طنطاوي، التفسير الوسيط: 4/109.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قعد).
(5) الجوهري، الصّحاح: (قعد).
(6) الخليل، العين: (قعد).
(7) ابن سيده، المحكم، وابن منظور، لسان العرب: (قعد).
(8) الرّاغب، المفردات: (قعد).
(9) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (قعد).

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

صـــورة جبن بني إسرائيل، وغلـوّهـم في المـنـازعـة مع أنبياء الله تعالى

بيَّنت الآية جهل بني إسرائيل، وقلَّة معرفتهم بالله، وأنَّهم ما قدروا الله حقَّ قدره؛ حيث أمروه أنْ يستصحبه إلى الجواب استصحاب الأشخاص، وبكَّتَهم بامتناعهم من الدُّخول: إمَّا جُبنًا، وإمَّا قصدًا إلى العصيان، وأيُّهما كان؛ فمذموم[1]، وكشفت ما جُبِلَ عليه بنو إسرائيل من جبن شديد، وعزيمة خوَّارة، وعصيان لرسلهم، وإيثار للذِّلَّة مع الرَّاحة على العزَّة مع الجهاد، فالآيةُ تحكي بأسلوبها البليغ قصَّة تاريخيَّة معروفة[2].

ومقصدُ الآية الكريمة: شرحُ خلافِ اليهود، وشدَّةِ بغضهم، وغلوِّهم في المنازعة مع أنبياء الله تعالى منذ القِدَم[3].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

علَّة الفصل في مطلع الآية:

أهـل الـبـاطـل مـصـرُّون عليه مَـهـمـا جـاءهـم من بيِّنات

البدء بجملة: ﴿قَالُواْ﴾ استئنافٌ عبَّروا فيه عن أنَّهم غيرُ مبالين بعظة الرَّجلين وبمقالتهما، مخاطِبين موسى عليه السلام إظهارًا لإصرارهم على القول الأول، وتصريحًا بمخالفتهم له[4] عليه السلام.

دلالة تكرار النِّداء المبالغةُ والتَّنبيه:

في تكرير النِّداء منهم لموسى عليه السلام هنا وفي الآية: [22] بقولهم: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ﴾ مبالغةٌ في عدم الامتثال لما أمرهم به، وتنبيهٌ إلى عِظَمِ شأنِ دعواهم[5].

سببُ تركِ خطابِ الرَّجلينِ النَّاصِحَيْن:

خاطب بنو إسرائيل موسى عليه السلام عقب موعظة الرَّجلين لهم،

(1) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 4/317.
(2) طنطاوي، التّفسير الوسيط: 4/102.
(3) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 11/334.
(4) أبو السّعود، إرشاد العَقْل السّليم: 3/24.
(5) طنطاوي، التّفسير الوسيط: 4/106.

الـكِـبْرُ عـنـوانُ الـعُـصـاةِ في المـواقـفِ الحاسِمةِ

ولم يذكروا أخاه هارون ولا الرَّجلين رجوعًا إلى إبايَتِهِمُ الأولى الَّتي شافهوا بها موسى؛ إذ قالوا: ﴿إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ﴾، أو لقلَّة اكتراثهم بكلام الرَّجلين[1]، أو كأنَّهم لم يجزموا بذهابهم، أو يعبؤوا بقتالهم[2]، فضلًا عن كونه هو الرَّسول، وهو مناط الطَّاعة، ومخالفته أدْعى لإظهار سوء طبائعهم في التَّمرُّد واتِّباع الهوى والعياذ بالله.

بلاغة افتتاح الكلام بحشد المؤكِّدات:

كـثرةُ المـؤكِّـدات تـثـبـتُ عـظـيـمَ المخالفات

افتُتح الكلام بـ (إنَّ) المؤكِّدة الدَّالَّة على إصرار بني إسرائيل على موقفهم بامتناعهم ثانيةً من الدُّخول بعد الامتناع المتحصِّل من المحاورة الأولى معهم، ورسَّخوا هذا الامتناع، وأُكِّد الكلامُ أشدَّ توكيد بأنْ أُعقبَ بالأداة ﴿لَن﴾، وكلمة ﴿أَبَدًا﴾[3].

فائدة النَّفي بأداة النَّصب ﴿لَن﴾، والتَّأبيد:

نفى بنو إسرائيل بما قيل على لسانهم: ﴿لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا﴾ دخولَهم على التَّأكيد والتَّأبيد[4]، فالتَّأبيدُ مستفادٌ من ﴿أَبَدًا﴾، والتَّأكيد منه، ومن ﴿لَن﴾؛ فإنَّها تفيد تأكيد النَّفي؛ لكونها في مقابلة (سوف يفعل)[5]، فهو نفيٌ لدخولهم في المستقبل نفيًا مؤكَّدًا معلَّقًا بالدَّهر المتطاول ﴿أَبَدًا﴾[6]، على وجه التَّأبيس[7].

سرُّ التَّعبير بضمير الجماعة:

التَّعبير بضمير الجمع في عموم الآية الكريمة تلميحٌ باجتماعهم على ما قرَّروه، وإجماعهم على ما عزموا عليه من القعود وامتناع الدُّخول.

---

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/166.
(2) طنطاوي، التّفسير الوسيط: 4/110.
(3) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/166.
(4) البيضاويّ، أنوار التَّنزيل: 2/122.
(5) الشّهاب، عناية القاضي: 3/230، والقونوي وابن التمجيد، حاشيتان على البيضاوي: 7/439.
(6) النّسفي، مدارك التّنزيل: 1/439.
(7) النّيسابوري، غرائبُ القرآن: 2/575.

سرُّ التَّعبير بلفظ (الدُّخول) دون مرادفاته:

أخـــذ لـفـظُ الدُّخول في هذا السِّياقِ معنى الاقتحام والغزو

لم يذكر المفسِّرون وأهل اللُّغة لـ(الدُّخول) في هذه الآية وأمثالها إلَّا معنى الولوج إلى المكان، مثل: ولوج البيوت أو المدن، وهو المعنى الحقيقي، في حين ذهب العلَّامة ابن عاشور إلى أنَّ الدخول كثر إطلاقه على دخول خاصٍّ: وهو اقتحام الجيش أو المغيرين أرضًا أو بلدًا لغزو أهله، وهو يعدَّى غالبًا إلى المغزوِّينَ بحرف الجر (على)، ومنه قوله تعالى في الآية السَّابقة: ﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمَا ٱدۡخُلُواْ عَلَيۡهِمُ ٱلۡبَابَ فَإِذَا دَخَلۡتُمُوهُ فَإِنَّكُمۡ غَٰلِبُونَۚ﴾، ثمَّ قوله في هذه الآية: ﴿إِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَآ أَبَدٗا مَّا دَامُواْ فِيهَا فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ﴾، فإنَّه لا يصلح إلَّا معنى دخول القتال والحرب لقوله: ﴿فَإِذَا دَخَلۡتُمُوهُ فَإِنَّكُمۡ غَٰلِبُونَۚ﴾؛ لظهور أنَّه لا يراد: إذا دخلتم دخول ضيافة أو تجوُّل أو تجسُّس[1]، وممَّا يؤكِّد توجيه الطَّاهر بن عاشور اقتران لفظ (الدُّخول) في هذه الآية بلفظ القتال بقوله: ﴿فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ﴾، فالدُّخول دخول محاربة وقتال.

ومن توجيه ابن عاشور يظهر قصديَّة اختيار لفظ الدُّخول على غيره من ألفاظ الحرب، كالغزو والقتال؛ بوصفه مناسبًا لطبائع بني إسرائيل من مخالفة ومعاندة وجبْنٍ، ومع هذه المراعاة لحالهم؛ فقد امتنعوا من تنفيذ الأمر أشدَّ الامتناع، وذلك ديدنهم.

فائدة الجمع بين قوله: ﴿أَبَدٗا﴾، وقوله: ﴿مَّا دَامُواْ فِيهَا﴾:

قال الرَّاغب: "إنَّ امتناعهم من دخولها لكون هؤلاء فيها، وإنَّ اعتبارَ ذلك ليس في وقتٍ دون وقتٍ، بل كلّ وقت، ما يدخلونها من كونهم فيها"[2].

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 21/286.
(2) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 4/317.

مناسبة التَّعبير بالمصدر عن دوام ما قبله:

التَّعبير بالمصدر عن الدَّوام ترسيخ لأبديَّة عدم الدُّخول مدةَ بقاء الأعداء

قوله: ﴿مَّا دَامُواْ فِيهَا﴾ بيانٌ للأبد[1]، ويحتمل هذا القول: بدلَ بعضٍ من كلٍّ؛ لأنَّ الأبدَ يعمُّ الزَّمان المستقبل كلَّه، ودوام الجبابرة فيها بعضُه، أو عطفَ بيانٍ؛ لوقوعه بين النَّكرتين، وهذا بناء على تفسير الأبد بالظَّاهر منه، أو بالزَّمن المتطاول[2]، والتَّعبير بالمصدر المؤوَّل الحرف المصدري والفعل الناقص الدَّالِّ على قوَّة الحدث يناسبُ شدَّة التَّأبيد بعدم الدُّخول، والمعنى: (لن ندخلها مدَّة دوامهم فيها).

بيان الإطناب في جملة التَّنصُّل عن القتال:

في قوله: ﴿فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ﴾ إطنابٌ بتأكيد الضَّمير المتَّصل بالمنفصل[3]؛ إنعامًا في الاستخفاف والجفاء، وترك آداب الخطاب.

وجه عطفِ لفظ الربوبيّة ﴿وَرَبُّكَ﴾ على ضمير الفصل:

الجهل مبدأُ طريق الفسق والعصيان

في قوله جلَّ ذكره: ﴿فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾ ذكرُ جهلِهم، وقلَّة معرفتهم بالله، وأنَّهم ما قدروا الله حقَّ قدره؛ حيث أمروه أنْ يستصحبه استصحابَ الأشخاص[4]، "فتركوا آداب الخطاب، فصرَّحوا ببيان الجحد، ولم يحتشموا من مجاهرة الرَّدِّ"[5]؛ لكون هذا القول منهم يعدُّ فشلًا وجبنًا، أو عنادًا وجرأة على الله ورسوله، واستهانة بهما[6]، واستخفافًا بمقام الألوهيَّة والرِّسالة، وخروجًا عن معاني الإيمان السَّليم؛ لأنَّ الله تعالى لَا يعمل أعمال البشر، ويقاتل، ولكن ينصر، ويخلق، والقتال من أعمال العباد[7].

---

(1) الزَّمخشريّ، الكشَّاف: 1/621.
(2) الشّهاب، عناية القاضي: 3/230.
(3) الإندونيسي، الشامل في بلاغة القرآن: 1/287.
(4) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 4/317.
(5) القشيري، لطائف الإشارات: 1/417.
(6) القِنَّوجِيّ، فتح البيان: 3/392.
(7) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 4/2117.

دلالة لفظ الذَّهاب بين الحقيقة والقَصْد:

حـمـلُ ألـفـاظِ الـقـرآنِ على ظاهرِها منهجُ أهـل الـحـقِّ في فهم كلامِ الحقِّ

ذهب الزَّمخشريُّ إلى أنَّ لفظَ الذَّهابِ في قوله: ﴿فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ﴾ "يحتمل ألَّا يقصدوا حقيقة الذَّهاب، ولكن كما تقول: كلَّمته، فذهب يجيبني، تريد معنى: الإرادة والقصد للجواب، كأنَّهم قالوا: أُريدَ قتالهم، والظَّاهر أنَّهم قالوا ذلك؛ استهانة بالله ورسوله، وقلَّة مبالاة بهما واستهزاء، وقصدوا ذهابهما حقيقة بجهلهم وجفاهم وقسوة قلوبهم الَّتي عبدوا بها العجل، وسألوا بها رؤية الله ﷻ جهرة، والدَّليل عليه مقابلة ذهابهما بقعودهم"[1]؛ إذ الذَّهاب حَقيقَة لا يتصوَّر إلَّا مِن الأجسام، فإسناده إلَى مَن استحال كونه جسمًا لا يكون إلَّا بطَريق الاستهانة، وكذا لا يسند إلى رئيس القوم الذَّهاب إلى العدوِّ وحده إلَّا بطَريق التَّحقير وعدم المبالاة به[2]، وهذه العبارة منه تدلُّ على منتهى التَّمرُّد، والمبالغة في العصيان والإصرار عليه والجفاء والبعد عن الأدب، فلا وجْه لتأويلها بما ينافي ذلك[3].

دلالة التَّعبيرِ بلفظ ﴿وَرَبُّكَ﴾ بصيغة الخطاب:

الاسـتـخـفـافُ بـالـمُـخـاطَـبِ، وتـأكـيـدٌ لإنـكـارِ مـديـدِ الـنِّـعـم السَّالفة

قالوا: ﴿فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ﴾ جهلًا منهم بالله تعالى وصفاته، ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦٓ﴾ [الأنعام: 91][4]، فإنَّ التَّعبير عنه بصيغة الخطاب ﴿وَرَبُّكَ﴾ لا المتكلِّم (ربنا) إثباتٌ للاستهانة، وتحقيقٌ للاستخفاف، وتأكيدٌ لإنكار مديد النِّعم السَّالفة عليهم، والله أعلم.

سرُّ التَّعبير باسم الإشارة مسبوقًا بأداةِ التَّنبيه:

التقييد بـ ﴿هَٰهُنَا﴾ يقتضي أنَّ المراد بالذَّهاب حقيقته[5]، والمعنى: أنَّا لن نبرح من هذا المكان - المُشار إليه بـ ﴿هَٰهُنَا﴾ -، لا

(1) الزَّمخشريّ، الكشَّاف: 1/621.
(2) القونوي وابن التمجيد، حاشيتان على البيضاوي: 7/439.
(3) رضا، تفسير المنار: 6/276.
(4) الخازن، لباب التأويل: 2/32.
(5) الخفاجي، عناية القاضي: 3/230.

نتقدَّم معك، ولا نتأخَّر عن هذا الموضع، وقيل: أرادوا بذلك عدم التَّقدُّم لا عدم التَّأخُّر[1]، وفيه ترسيخٌ لدلالة شدَّة الرَّفض بالإيماء إلى الالتصاق بالمكان، والتَّنبيه على عدم التَّحرُّك منه بالإشارة إلى المكان القريب المصحوب بـ(ها) التَّنبيه الَّتي يجاءُ بها في أوائل أسماء الإشارة؛ "لتنبيه المخاطب على حضور المشار إليه وقربه، وللمبالغة في إيضاحه"[2].

من توطَّن الأماكنَ لذاتِها فَقَدَ العزةَ ولذّاتِها

بلاغةُ الكناية في بيان الأخلاق:

قوله: ﴿إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾ كناية عدم التَّقدُّم للحرب[3] جبنًا وعصيانًا؛ إذ أكَّدوا لموسى أنَّهم لن يدخلوا تلك الأرض الَّتي فيها الجبابرة ما داموا فيها؛ لأنَّ دخولها يستلزم القتال والحرب، وليسوا لذلك بأهل[4]، فـ"بكَّتَهم بامتناعهم من الدُّخول: إمَّا جُبنًا، وإمَّا قصدًا إلى العصيان، وأيُّهما كان؛ فمذموم"[5]، ومستحقٌّ فيه التَّقريع والتَّبكيت.

إذا سيطر على أخلاق الأمةِ الجبنُ اقتصرتْ في الكرامة على أكل الجبن

سرُّ استعمال لفظ القعود دون مرادفاته:

انتقى النظم الكريم لفظ القعود في وصف بني إسرائيل لأنفسهم في الانكفاءِ عن القتال والثَّبات في أماكنهم، فقال تعالى: ﴿إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾، وهو وصفٌ يدلُّ على الخِسَّة؛ لأنَّ القعود غير البروز، والقاعد مُخْذَلٌ، والمجاهدُ عاملٌ، والقُعود في وقت وجوب النَّشاط للعمل الصَّالح هو وصف ذمٍّ، كما قال وصفًا لأمثالهم: ﴿وَقِيلَ ٱقْعُدُواْ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ۝٤٦﴾ [التوبة: 46]، فهم قد أخبروا عن أنفسهم بأقبح ما تُوصف الجماعات الطَّامحة[6]، واختار القرآن لذلك الإخبار لفظ القعود.

القاعدُ في وقتِ الجهادِ عاصٍ لربِّه خائنٌ لأمَّته

(1) القِنَّوجيّ، فتح البيان: 3/392.
(2) السامرائي، معاني النحو: 1/93.
(3) الهرريّ، حدائق الروح والريحان: 7/224.
(4) رضا، تفسير المنار: 6/276.
(5) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 4/317.
(6) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 4/2117.

نكْتَةُ التَّعبير بصيغة اسم الفاعل في قولِه تعالى: ﴿قَٰعِدُونَ﴾:

التَّعبير عن القعود بصيغة اسم الفاعل فيه دلالة على ثبوت الصِّفة ودوامها فيهم، وأنَّ أمر قعودهم بمنزلة الحاصل الثَّابتِ المُستقرِّ، يرسِّخه التَّوكيد بـ(إنَّا)، والإشارة إلى مكان القعود على طريق التَّنبيه.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(قعد)، و(جلس):

القُعُود: يكون مِنَ القِيَام، بينما الجُلُوسُ: يكون مِنَ الضَّجْعَةِ ومِنَ السُّجودِ، والقُعُود: يكون فِيهِ طولُ لُبْثٍ وإقامة؛ وَلذَا يُقَال: قَوَاعِدُ البَيْتِ، وَلَا يُقَال: جَوَالِسُه[1]، فالجلوسُ يُطلقُ على المكث مدَّةً قصيرة، والقعودُ آتٍ من الرُّسوخ واللُّصوق بالأرض الدَّالِّ على التَّثاقل والتَّخلُّف، وفيه ملحظ الاستمرار في الأمر؛ أخذًا من الثَّبات على الأمر[2]، وهذا المعنى يناسب دلالة قوله: ﴿قَٰعِدُونَ﴾ في الآية؛ تعبيرًا عن تثاقلهم، وخذلانهم نبيَّهم، وتخلُّفهم عنه مدَّة طويلة، وكأنَّهم أضْحَوا مقيمينَ في أماكنهم من شدَّة تخلُّفهم عنه.

(1) الزَّبيدي، تاج العروس: (قعد).

(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (قعد).

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي لَآ أَمۡلِكُ إِلَّا نَفۡسِي وَأَخِيۖ فَٱفۡرُقۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ ٢٥﴾ [المائدة: 25]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

حكى اللّه تعالى هنا عن موسى عليه السلام أنَّه لمَّا سمع منهم هذا الكلام المتضمِّن العصيان والتَّمرُّد والمخالفة ومقالتهم كلمة الكفر، ولم يبقَ معه مطيعٌ موافق يثق به إلَّا هارون، فأحسَّ النَّبيُّ القويُّ الأمين بالعبء الَّذي أُلقي على هذه الجماعة وتخاذلها عن حمله، فتقدَّم إلى ربِّه بالمعذرة يرجو بها المغفرة، فقال ما حكاه اللّه تعالى عنه: إِنِّي لا أَمْلِكُ لنصرة دينك إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَٱفۡرُقۡ﴾: الفاءُ والرَّاءُ والقافُ: أصل يدلُّ على تمييز، وتزييل بين شيئين، ومنه: فرْق الشَّعر[2]، فالفَرْقُ: موضع المَفرِق من الرَّأس في الشَّعر[3]، وسُمِّي القُرآن فرْقانًا؛ لأَنَّه فَرَقَ بَين الحقِّ وَالْبَاطِل، فكلُّ شَيْئَيْنِ فصلتَ بَيْنهمَا؛ فقد فرَقتهما فَرْقًا[4]، "سواء كان ذلك بفصل يدركه البصر، أو بفصل تدركه البصيرة، قال تعالى: ﴿فَٱفۡرُقۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾"[5]، والفرق: خلافُ الجمع[6]، فالمعنى المحوريُّ للفرق: هو فصلُ بعض شيءٍ، أو أشياءَ من بعضها الآخر فصلًا واصلًا إلى العُمْق: كالفرق بين النَّخلتين، والعُرفين، والشَّعر، وهو واصل إلى المنبت[7].

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

قدَّم موسى عليه السلام معذرته بالالتجاء إلى ربِّه الَّذي خلقه وربَّاه متضرِّعًا إليه، مبيِّنًا

(1) الزَّمخشريّ، الكشَّاف: 1/621، والرّازيّ، مفاتيح الغيب: 11/334، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 4/2118.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (فرق).
(3) الخليل، العين: (فرق).
(4) ابن دريد، جمهرة اللغة: (فرق).
(5) الرّاغب، المفردات: (فرق).
(6) ابن سيده، المحكم: (فرق).
(7) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (فرق).

أنَّه أعلم بحاله، وأنَّه في طاعته لَا يخرج عنها، وأنَّه لَا يملك من أمر قومه شيئًا، وإنَّما الأمر كلُّه لله تعالى، وأنَّه لَا يستطيع أن يجعل من ضعف نفوسهم قوَّة، ولا من استخذائهم عزَّة، ولا من تقاعدهم همَّة، ولا يملك إلَّا نفسه وأخاه، فهو لَا يضمن إلَّا إيَّاهما، وهما وحدهما لَا يملكان الدُّخول إلى هذه الأرض[1]. ومعنى العبارة: إنَّني لا أملك أمر أحد أحمله على طاعتك إلَّا أمر نفسي وأمر أخي، ولا أثق بغيرنا أن يطيعك في اليُسر والعُسر، والمَنشط والمكره[2].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالة الاستئناف دون الوصل في المطلع:

جملة ﴿قَالَ﴾ لا محلَّ لها استئنافيَّة[3]، وعَدَلَ عن الوصل إلى الاستئناف انتقالًا إلى موقف الاعتذار وبثِّ الحزن؛ تبرُّؤًا ممَّا فعل بنو إسرائيل.

نكْتَة حذف حرف النِّداء مع ﴿رَبِّ﴾:

حـــذف (يـــا) للمبالغة في تصوير قُرب المنادَى

جملة النِّداء ﴿رَبِّ﴾: لا محلَّ لها اعتراضيَّة غرضُها الاسترحام[4]، و(ياء) النِّداء تستعمل لنداء البعيد في الغالب، واللّٰه تعالى قريب إلى عبده، فكان مقتضى البلاغة حذفها، فـ"النِّداء إنَّما يحتاج إليه عند البُعد، أمَّا عند القرب؛ فلا"، وإنَّ العبد إذا واظب على التَّضرُّع؛ نال القرب من اللّٰه تعالى[5].

فإذا قُرِّر نداء العباد للرَّبِّ؛ أتى بأمور تستدعي قرب الإجابة، ومنها: إسقاط حرف النِّداء المشير إلى قرب المنادى، وأنَّه حاضر مع المنادي غير غافل عنه[6]، فالحذف فيه للمبالغة في تصوير قُرب المنادَى (الرَّبِّ)؛ حيث إنَّ معناه: المربِّي، والسَّيِّد، والمالك،

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 4/2118.
(2) رضا، تفسير المنار: 6/277.
(3) صافي، الجدول: 6/321.
(4) صافي، الجدول: 6/321.
(5) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 7/124.
(6) القاسمي، محاسن التأويل: 1/88.

وهو بهذه المعاني من شأنه أن يكون قريبًا، حاضرًا لا يحتاج في ندائه إلى وسائط[1].

بلاغةُ التَّوكيد بـ (إنَّ) وبأسلوب القصر:

التَّوكيد يُظهر جانب معاناة موسى عليه السلام من قومه

وقد جاء تأكيد كلام موسى عليه السلام معذرته بـ"إنَّ" وبالقصر[2]؛ قصدًا إلى بيان قلَّة من يوافقه، وتشبيهًا لحالِه بحالِ مَنْ لا يملكُ إلَّا نفسَه وأخاه[3]، وهو في الوقت الَّذي أثبت - بأسلوب الحصر - أنَّه لا يملك إلَّا نفسه وأخاه، فإنَّه نفى الملكيَّة عن غيرهما على طريق المبالغة والتَّجوُّز، فلم يعتدَّ بإيمان الرَّجلين؛ نظرًا إلى تقلُّب قومه، وتغيُّر أحوالهم[4].

بلاغة العدول عن الإنشاءِ إلى الخبر في الدُّعاء:

يصح الدُّعاءُ بالإخبارِ عن الحالِ للعليم الرَّحيم

قوله تعالى على لسانِ موسى عليه السلام: ﴿رَبِّ إِنِّي لَآ أَمۡلِكُ إِلَّا نَفۡسِي وَأَخِيۖ﴾ صورته خبر، ومعناه إنشاء[5]، فهو من البثِّ والحزن والحسرة والشَّكوى إلى الله، والاعتذار إليه، والتَّنصُّل من فسق قومه عن أمره الَّذي يبلِّغه عن ربِّه، ورقَّة القلب الَّتي بمثلها تستجلب الرَّحمة، وتستنزل النُّصرة، ونحوه قول يعقوب عليه السلام: ﴿إِنَّمَآ أَشۡكُواْ بَثِّي وَحُزۡنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [يوسف: 86][6].

وجه قول موسى عليه السلام: ﴿لَآ أَمۡلِكُ إِلَّا نَفۡسِي وَأَخِيۖ﴾:

الملك نوعان تصرف وتملك، والمقصود في الآية ملك التَّصرف

إن قيل: كيف يصح أن يقول: ﴿لَآ أَمۡلِكُ إِلَّا نَفۡسِي وَأَخِيۖ﴾، والإنسان في الحقيقة لا يملك نفسه وأخاه، إذ الملك هو التصرف في الشيء بالبيع والشراء؟

(1) بدوي، من بلاغة القرآن، ص: 130.
(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 4/2118.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 3/279.
(4) الزَّمخشريّ، الكشَّاف: 1/622.
(5) رضا، تفسير المنار: 6/276.
(6) الزَّمخشريّ، الكشَّاف: 1/621، ورضا، تفسير المنار: 6/276.

والجواب: أن هذا القول هو من مقتضى تصرف العرب في كلامها، ومقتضى معرفة حقائق الأشياء؛ فإنَّ الإنسان إذا انقاد له قواه فيما يَسُومُها من فعل الخير؛ يقال: هو مالكٌ لنفسه، وإذا امتنعت عليه قواه؛ يقال: هو غير مالك لها، وليس تصرف المَلِكِ والمَالك على وجه واحد[1]، ولأنَّ هارون كان يطيع (موسى)؛ فلذلك أخبر أنَّه يملكه - على إعراب ﴿وَأَخِي﴾ منصوبًا عطفًا على ﴿نَفْسِي﴾[2]، ولاختصاصِ هارون به، ولمزيد الاعتناء بأخيه[3]، أو لأنَّه كان محرِّضًا للقوم على دخول القرية[4].

وجْه الاستعارة في لفظ: ﴿وَأَخِي﴾:

تشبيه أخوَّة في الدِّين بأخوّة النَّسب لا يظهرُ معناها في السِّياق

جوَّز الزمخشريُّ إرادة معنى: (ومن يُؤاخِيني على ديني) في لفظ ﴿وَأَخِي﴾، من باب تشبيهِ الأخوَّة في الدِّين بالأخوَّة في النَّسبِ، وعلى هذا التَّقدير يدخل الرَّجلان في قوله: ﴿وَأَخِي﴾[5]، وعلى معنى دخول الرَّجلين في معنى الأخوَّة يكون (أخي) اسْتعَارَة، وفيه إشَارَة إلَى أنَّ قومه خارجون عن المؤاخاة في الدِّين[6]، وهو تجويزٌ لا يُساعد عليه المقام، ولا يهدي إلى السِّياق، ولو كان هذا المرادُ لأتى بنظم يدل عليه كقولِه تعالى: ﴿وَمَنْ ءَامَنَ﴾ [هود: 40]، وتجويز الزَّمخشريِّ صناعيٌّ لا بلاغيٌّ.

دلالة نفي الفعل المضارع بلا:

حرف النفي ﴿لَآ﴾ في قوله تعالى: ﴿رَبِّ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي﴾ خلَّص الفعل المضارعَ إلى الحال، ولو قال مثلًا: (لن أملك

(1) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 4/318.
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/176.
(3) الخازن، لباب التأويل: 2/33.
(4) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/167.
(5) الزَّمخشريّ، الكشَّاف: 1/622.
(6) القونوي وابن التمجيد، حاشيتان على البيضاوي: 7/439.

إلَّا نفسي)، لتخلَّص الفعل للاستقبال[1]، ودلالة الحال مرادة؛ لكون معذرة موسى عليه السلام وشكواه إلى الله كانت في الحال ردًّا على عصيان بني إسرائيل، وهو ما يعكس رحمة موسى عليه السلام بقومه، فهو يرجو لهم الخير والهداية في المستقبل.

معذرة موسى وشكواه كانت للحال للحال طمعًا في هداية قومه في المستقبل

دلالة حرف الفاء:

﴿فَٱفۡرُقۡ بَيۡنَنَا﴾: يريد نفسه وأخاه، ﴿وَبَيۡنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾، والفاء: جزائيَّة؛ لترتيب الفرقِ على ما قبله؛ أي: لما كنت لا أملك إلّا نفسي وأخي فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين، أو الدُّعاء بالفرقِ على ما قبلَه[2]؛ أي: لما عصوني قومي فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين.

دلالة التَّعبير بلفظ: ﴿فَٱفۡرُقۡ﴾:

التَّعبير بطلب التفريق في معنى: الدُّعاء عليهم؛ أي: فافصل بَيْنَنا وبينهم بحكم، وافتح بأن تحكم لنا بما نستحقُّ، وتحكم عليهم بما يستحقُّون، حكمًا يفرِّق هذا الاختلاف، ويلمُّ الشَّعث[3]، أو افرق بين مسكنينا في الدُّنيا، أو بين منزلينا في الآخرة[4].

دعاءُ موسى بالفصلِ بينه وبين الفاسقين منهجٌ إسلاميٌّ قويم

والدَّليل على إرادة معنى الدُّعاء: أنَّه سبحانه وتعالى عقَّب بما يدلُّ على استجابة دعائه عليه السلام بقوله تعالى: ﴿فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيۡهِمۡ﴾، ولا شكَّ أنَّ التِّيه، والمنع من الدخول في الأرض المقدَّسة، من أشدِّ البلاء، ولولا اشتمال دعائه على الدُّعاء عليهم؛ لم يحسن هذا التَّرتيب[5]، وكذلك نبَّه على العلَّة الموجبة للتَّفرقة بينهم وبين الفسق، فالمطيع لا يريد صحبة الفاسق، ولا يؤثرها؛ لئلَّا يصيبه بالصُّحبة ما يصيبه[6].

(1) فاضل السّامرائيّ، معاني النّحو: 3/363 - 364.
(2) أبو السّعود، إرشاد العَقْل السّليم: 3/25، والقونوي وابن التمجيد، حاشيتان على البيضاوي: 7/440.
(3) الزَّمخشريّ، الكشَّاف: 1/622، وابن عطية، المحرر الوجيز: 2/176.
(4) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 4/319.
(5) الطّيبي، فتوحُ الغيب: 5/328.
(6) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/472.

علَّة التَّصريح بوصف الفاسِقين:

قال تعالى: ﴿وَبَيۡنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ ولم يقل: بيننا وبينهم؛ وذلك ليكون دعاؤه أبلغ وأقرب إلى استعمال الأدب في مخاطبة اللّٰه تعالى، ولأنه من يجوز أن يصلح منهم بعضهم، فيجب أن لا يعين، بل يذكر الوصف الذي هو الفسق فيتعلَّق به الحكم[1].

القيمة الهدائيّة هي الملحوظة في غالب نظم القرآن

علَّة التَّعبير بالفسق دون الكفر:

وذكر الفسق دون الكفر؛ إذ هو أعمُّ منه[2]؛ لأنَّ القوم خارجُون عن الطَّاعة، يجاهرُون بالمعاصي، ويصرُّون عليها، وليسوا كافرين جاحدين بموسى عليه السلام وربِّه، فهذا الوصف تعيينٌ لحقيقةِ حالهم، فلا يجوزُ لأحدٍ أن ينعتهم بالكفرِ، أو ينعت من يُشابههم في هذه الأمَّة، فإنَّ هذا من الخروج عن حكم الوسطيَّة والاعتدال في التَّعاملِ مع الفاسقين.

منهجُ التَّعاملِ مع الفاسقين محكومٌ بحكمة الإسلامِ ورحمتِه

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الفاسق، والعاصي:

الفاسق: الخارج عن حجر الشَّرع، وهو أعمُّ من الكفر، وأكثر ما يقال لمن التزم حكم الشَّرع، وأقرَّ به، ثمَّ أخلَّ بجميع أحكامه أو ببعضه، وإذا قيل للكافر الأصليِّ: فَاسِقٌ؛ فلأنَّه أخلَّ بحكم ما ألزمه العقل، واقتضته الفطرة، فالفاسق أعمُّ من الكافر[3]، وَقد يكونُ الفُسوقُ شِرْكًا، وَيكون إثْمًا، والفاسق: هو جارَ، ومالَ، وخرج عَن طاعَةِ اللّٰه عز وجل متظاهرًا بالمعاصي[4].

والعاصي: المخالف الأمر، والخارج عن الطَّاعة[5]، من غير

(1) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 4/319.
(2) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 4/319.
(3) الرّاغب، المفردات: (فسق).
(4) الزّبيدي، تاج العروس: (فسق).
(5) الرّاغب، المفردات، والسّمين، عمدة الحفّاظ: (عصو).

تظاهر بالمعاصي، أو إصرار عليها، وناسب لفظ ﴿ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ السِّياقَ؛ لتضمُّن معناه الإخلال بجميع أحكام الشَّرع أو ببعضها بعد أنْ أقرَّ بها، ولذلك دعا موسى عليه السلام أن يفرق اللّه بينه وبينهم.

الفَصْل، والفَرْق:

الفَصْلُ: إبانة أحد الشَّيئين من الآخر، حتَّى يكون بينهما فرجة[1] من غير انفصال أو بون.

وأمَّا الفَرْقُ؛ فيقال اعتبارًا بالانفصال، فالفِرْقُ: القطعة المنفصلة، ومنه: الفِرْقَةُ، والفَرِيقُ: للجماعة المتفرِّدة من النَّاس، المتفرِّقة عن آخرين، ومنه قوله تعالى: ﴿فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرۡقٖ كَٱلطَّوۡدِ ٱلۡعَظِيمِ ٦٣﴾ [الشُّعراء:63][2]، والتَّعبير بقوله: ﴿فَٱفۡرُقۡ﴾ أنسب لوصفهم بالفاسقين؛ إذ لا وجْه للالتقاء بين من يقرُّ بشرعة النَّبيِّ المرسل، ويداوم على الإخلال بأحكامها.

(1) الرّاغب، المفردات: (فصل).
(2) الرّاغب، المفردات: (فرق).

المحتويات

الجزء الخامس 7

سورة النساء 9

- [النّساء: 115] 10
- [النّساء: 116] 26
- [النِّساء: 117] 35
- [النّساء: 118] 45
- [النّساء: 119] 51
- [النّساء: 120] 61
- [النّساء: 121] 65
- [النِّساء: 122] 68
- [النِّساء: 123] 80
- [النساء: 124] 90
- [النساء: 125] 103
- [النِّساء: 126] 112
- [النِّساء: 127] 116
- [النساء: 128] 130
- [النساء: 129] 143
- [النساء: 130] 152
- [النساء: 131] 155
- [النساء: 132] 162
- [النساء: 133] 167
- [النساء: 134] 171
- [النساء: 135] 174
- [النساء: 136] 196
- [النساء: 137] 202
- [النساء: 138] 208
- [النساء: 139] 211
- [النساء: 140] 215
- [النساء: 141] 226
- [النساء: 142] 247
- [النساء: 143] 262
- [النساء: 144] 270
- [النساء: 145] 277
- [النساء: 146] 286
- [النساء: 147] 294

الجزء السادس **301**

- [النِّساء: 148] 302
- [النِّساء: 149] 309
- [النِّساء: 150 - 151] 315
- [النِّساء: 152] 327
- [النِّساء: 153 - 154] 332
- [النساء: 155 - 159] 342
- [النساء: 160- 161] 363
- [النساء: 162] 370
- [النساء: 163] 374
- [النّساء: 164] 386
- [النّساء: 165] 394
- [النساء: 166] 400
- [النّساء: 167] 411
- [النساء: 168 - 169] 417
- [النساء: 170] 426
- [النّساء: 171] 433
- [النّساء: 172 - 173] 443
- [النّساء: 174 - 175] 452
- [النّساء: 176] 459

سورة المائدة **475**

- [المائدة: 1] 489
- [المائدة: 2] 505
- [المائدة: 3] 525
- [المائدة: 4] 567
- [المائدة: 5] 579
- [المائدة: 6] 591

- [المائدة: 7] 620
- [المائدة: 8] 629
- [المائدة: 9] 639
- [المائدة: 10] 646
- [المائدة: 11] 652
- [المائدة: 12] 662
- [المائدة: 13] 679
- [المائدة: 14] 696
- [المائدة: 15 - 16] 710
- [المائدة: 17] 726
- [المائدة: 18] 738
- [المائدة: 19] 749
- [المائدة 20 - 21] 761
- [المائدة: 22] 773
- [المائدة: 23] 777
- [المائدة: 24] 783
- [المائدة: 25] 791

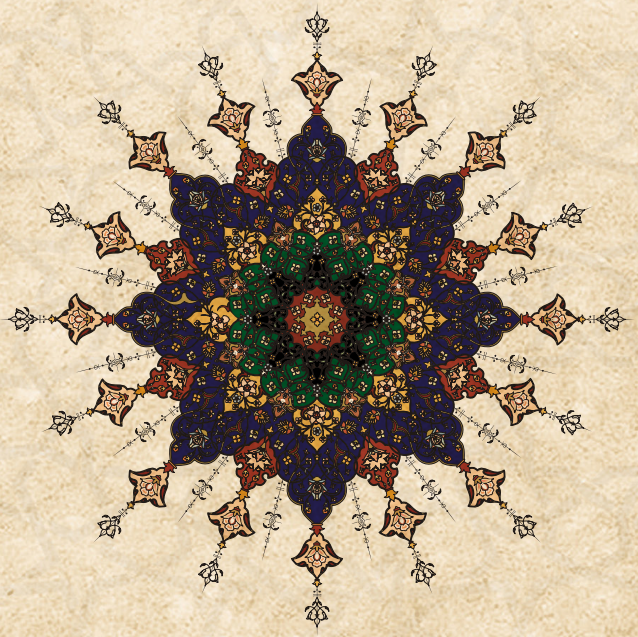

مجمع القرآن الكريم بالشارقة

موسوعة التفسير البلاغي

المُجَلَّدُ التَّاسِعُ

سورة المائدة من الآية 26 إلى الآية 106

موسوعة التفسير البلاغي

Government of Sharjah حكومة الشارقة
مجمع القرآن الكريم بالشارقة
HOLY QURAN ACADEMY IN SHARJAH

موسوعة التفسير البلاغي

المجلد التاسع

سورة المائدة من الآية 26 إلى الآية 106

نخبة من علماء مجمع القرآن الكريم بالشارقة

منشورات القاسمي
AL QASIMI PUBLICATIONS
20/23

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد التاسع، سورة المائدة من الآية 26 إلى الآية 106
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1444هـ - 2023م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2023م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: سورة المائدة من الآية 26 إلى الآية 106 [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2023.
مج. 9 ، 804 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-798-61-3
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 9 : سورة المائدة من الآية 26 إلى الآية 106.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث ج- المستغانمي، امحمد صافي

الترقيم الدولي : 978-9948-798-61-3
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-3504784 بتاريخ 2023/03/27م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الجُزْءُ السَّادِسُ

سُورَةُ المَائِدَةِ

﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٦﴾﴾ [المائدة: 26]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

عقَّب ﷻ ما يدلُّ على استجابة دعائه بقوله تعالى: ﴿فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ﴾، ولا شكَّ أنَّ الحصول في التَّيه، والمنع من الدُّخول في الأرض المقدَّسة، من أشدِّ البلاء، ولولا اشتمال دعائه على الدُّعاء عليهم لم يحسن هذا التَّرتيب[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مُحَرَّمَةٌ﴾: "الحاءُ والرَّاءُ والميمُ: أصلٌ واحدٌ، وهو المنع والتَّشديد، فالحَرامُ: ضِدُّ الحَلال"[2]، والحُرْمةُ: ما لا يَحِلُّ لكَ انتِهاكُه[3]، والحرام: الممنوع: إمَّا بتسخير إلهيٍّ، وإمَّا بشريٍّ، وإمَّا بمنع قهريٍّ، وإمَّا بمنع من جهة العقل أو من جهة الشَّرع، أو من جهة من يرتسم أمره[4].

والأشهر الحرم؛ لكونها ممنوعًا فيها القتال في الجاهليَّة، وقوله: ﴿لِّلسَّآئِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾﴾ [الذَّاريات: 19]؛ أي: الممنوع من رزق وُسع به على غيره[5]، ومعنى ﴿مُحَرَّمَةٌ﴾ في الآية: ممنوع عليهم دخولها.

2) ﴿يَتِيهُونَ﴾: "التَّيْهُ والتَّوْهُ، لغتان، يقال: تاه يَتِيهُ تَيْهًا، وتاه يتوه توهًا، والتَّيْهُ أعمُّ من التَّوه، ويقال: تَوَّهْتُه، وتَيَّهْتُه، والواو أعمُّ"[6]، "وتاه في الأَرْض تَيْهًا وتِيهًا وتَيَهانًا، وَهُوَ تَيَّاهٌ: ضَلَّ"[7]، وتحيَّر، وتكبَّر[8]، ومعنى ﴿يَتِيهُونَ﴾ في الآية: يسيرون فيها متحيِّرين ضالِّين لا يهتدون طريقًا[9].

---

(1) الطِّيبي، فتوحُ الغيب: 5/328.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حرم).
(3) الخليل، العين: (حرم).
(4) الرّاغب، المفردات: (حرم).
(5) السّمين، عمدة الحفّاظ: (حرم).
(6) الخليل، العين: (توه - تيه).
(7) ابن سيده، المحكم: (تَيَهَ).
(8) ابن الأثير، النّهاية: (تَيَهَ).
(9) الزَّمخشريّ، الكشَّاف: 1/622، وابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/167.

3) ﴿تَأْسَ﴾: أسيَ: حزن[1]، فالهمزة والسِّين والياء: أصل دالٌّ على الحزن[2]، وحقيقته: إتباع الفائت بالغمِّ، يقال: أسَيْتُ عليه، وأسيتُ له[3]، ومعنى ﴿تَأْسَ﴾ في الآية: الحزن العميق الَّذي يُحدث همًّا وغمًّا، ومن ذلك قول امرئ القيس:

وقوفًا بها صحبي عليَّ مطيَّهم***يقولون لَا تهلك أسًى وتجمَّلِ[4].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

قال اللّه لموسى مجيبًا دعاءه إجابة متَّصلة به: فإنَّها - أي: الأرض المقدَّسة - محرَّمة على بني إسرائيل تحريمًا فعليًّا، لا تكليفيًّا شرعيًّا، مدة أربعين سنة، يتيهون في الأرض، أي: يسيرون في برِّيَّة من الأرض، تائهين متحيِّرين، لا يهتدون إلى طريق، ولا يبقون مطمئنِّين، ولا يدرون أين ينتهون في سيرهم[5]؟ وهذه عقوبة دنيويَّة، لعلَّ اللّه تعالى كفَّر بها عنهم، ودفع عنهم عقوبة أعظم منها[6].

وترشدُ الآية الكريمة إلى وجوب البراءة من أهل الفسق ببغض عملهم وتركهم لنقمة اللّه تعالى تنزل بهم[7]، وأنَّ من لحقه عذاب اللّه لا يجوز أن يحزن عليه؛ لأنَّ ذلك حكمه، بل يحمد اللّه؛ إذا أهلك عدوًّا من أعدائه[8]، وفيها دليل على أنَّ العقوبة على الذَّنب قد تكون بزوال نعمة موجودة، أو دفع نقمة قد انعقد سبب وجودها أو تأخُّرها إلى وقت آخر[9].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

علَّة الفصل في الآية الكريمة:

فُصل الجواب، ولم يُعطف بالفاء أو الواو؛ جريًا به على طريقة متَّبعة في القرآن في حكاية المحاورات بحذف العاطف؛ كراهيَةَ تكرير العاطف بتكرير أفعال القول، فإنَّ

(1) الخليل، العين: 7/332.
(2) ابن فارس، المقاييس: 1/106.
(3) الراغب، المفردات، ص: 77.
(4) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 4/2120.
(5) رضا، تفسير المنار: 6/277.
(6) السّعدي، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 228.
(7) الجزائري، أيسر التفاسير: 1/618.
(8) القاسمي، محاسن التأويل: 4/104.
(9) السّعدي، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 228.

شأنُ المحاورات قيامُها على ابتداءِ كلامٍ مفصولٍ عنِ السَّابقِ

المحاورة تقتضي الإعادة في الغالب، فحذفوا العاطف في الجميع[1]، فعدلوا إلى الاسْتِئْنَاف، كأنَّه قيل: فماذا قال تَعَالَى حين دعا كليمه عَلَى قومه؟ فأجيب بذلك[2].

براعة مطابقة ألفاظ الاستجابة لألفاظِ الدُّعاء:

تناسبُ ألفاظِ الاستجابةِ مع ألفاظِ الدُّعاء تشريفٌ للدَّاعي وإحقاقٌ للحقِّ

قابلَ تعالى توكيد اعتذار موسى عليه السلام وشكواه إليه ودعاءه بتوكيد استجابته بالتَّعبير الخبريِّ المؤكَّد بـ (إنَّ) والمُصَدَّر بالقول والمذيَّل بلفظ الفاسقين: ﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾، فوقعت الإجابة على الدُّعاء مطلعًا، وختامًا، وأسلوبًا؛ دلالة على تمام الاستجابة، وصدق التَّحقُّق، فهو "جواب جامع لجميع ما تضمَّنه كلام موسى؛ لأنَّ اللّٰه أعلم موسى بالعقاب الَّذي يصيب به الَّذين عصوا أمره، فسكن هاجس خوفه أن يصيبهم عذاب يعمُّ الجميع، وحصل العقاب لهم على العصيان انتصارًا لموسى"[3].

التَّعبير عن المحرَّم من الأرض بالمجاز المُرسل:

وجه المجاز المرسل تحريم دخول الأرض المقدَّسة لا ذاتها

استعمال لفظ التَّحريم في تحريمِ الأرضِ مجازٌ مُرسلٌ في قوله: ﴿فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ﴾؛ لأنَّ المحرَّمَ عليهم هو دخولُ الأرض المقدَّسة لا ذاتها[4]، فالضَّمير في (إنِّها) راجع إلى الأرض المقدَّسة الَّتي حرَّمها اللّٰه تعالى عليهم؛ أي: محرَّم دخولها[5].

معنى الفاء في قولِه تعالى: ﴿فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ﴾:

دلالة الفاء على التَّسبيب؛ لترتيب ما بعدها على ما قبلها

إمَّا أن تكون الفاءُ في قوله: ﴿فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ﴾؛ لترتيب ما بعدها على ما قبلها من الدُّعاء[6]، فلمَّا كان قول موسى عليه السلام في

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 1/401.
(2) القونوي وابن التمجيد، حاشيتان على البيضاوي: 7/441.
(3) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/167.
(4) الهرريّ، حدائق الروح والريحان: 7/224.
(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/472.
(6) أبو السّعود، إرشاد العَقْل السّليم: 3/25.

معنى الدُّعاء عليهم؛ وصل به قوله: ﴿فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ﴾ على وجْه التَّسبيب[1].

الفاء فصيحةٌ، على تقدير شرط مفهوم ممَّا سبق:

أو تكون الفاءُ فصيحةً، والمعنى: أنَّهم إذا كانت حالهم كذلك من الخور، وضعف العزيمة، والخوف من أعدائهم، فإنَّهم لَا يدخلون الآن لضعف بأسهم وشكيمتهم، فإنَّها محرَّمة عليهم تحريمًا واقعيًّا، لَا تحريمًا حكميًّا تكليفيًّا يتيهون في الأرض؛ أي: يكونون في الأرض تائهين متحيِّرين يضطرب عيشهم وحياتهم، ولا يستقرُّ مقامهم، بل يعيشون فرادى هائمين على وجوههم، حتَّى يتربَّى البأس في قلوبهم[2].

الوقف التعانقي وما يترتَّب عليه من معنًى:

عقوبةُ التِّيه تمنع من دخولِ الأرضِ المقدَّسة تأبيدًا أو توقيتًا

إن جُعل قوله تعالى: ﴿أَرْبَعِينَ﴾: ظرفًا لـ﴿مُحَرَّمَةٌ﴾؛ يكون التَّحريم مؤقَّتًا لا مؤبَّدًا، فلا يكون مخالفًا لظاهر قوله تعالى: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ [المائدة: 21]، فالمراد بتحريمها عليهم: الإخبار بأنَّه لا يدخلها أحدٌ منهم في هذه المدَّة، لا بمعنى: أنَّ كلَّهم يدخلونها بعدها، بل بعضهم ممَّن بقي منهم، أو من ذرِّيَّاتهم[3]، فإذا كان الوقف على ﴿عَلَيْهِمْ﴾ في قوله: ﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ﴾ تكون الأرض المقدَّسة مُحرَّمةً عليهم إلى الأبد، وبعد ذلك يأتي أمر اللّه بعقابهم في التِّيه: ﴿أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾، أمَّا إذا كان الوقف على لفظ: ﴿أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾؛ فيُفهم أنَّ مدَّة العقوبة لهؤلاء القوم الفاسقين أربعون سنة في التِّيه، وبعدها يدخلون الأرض المقدَّسة[4].

---

(1) الزَّمخشريّ، الكشَّاف: 1/622.

(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 4/2119.

(3) أبو السّعود، إرشاد العَقْل السّليم: 3/25، وينظر: البحر المحيط: 4/223، والقِنَّوجي، فتح البيان: 3/388، و3/393.

(4) الشّعراوي، تفسير الشعراوي: 5/3066.

حكمة التَّوقيت بأربعين سنة:

أربعون سنة كافيةٌ لذهاب جيل الذُّلِّ ومجيءِ جيلِ العزَّة

حُدِّدَ توقيت التِّيه بأربعين سنة؛ لأنَّ أبناء هذا الجيل الَّذي كان منه هذا العناد والضَّلال سيموتون، فلا يرى أحدٌ منهم الأرض المقدَّسة، ومن رآها منهم ممَّن امتدَّ عمره؛ فإنَّه يراها في شيخوخة واهية، فلا ينتفع بخيراتها، ولا يُنشئ له حياة فيها[1].

فهي مدَّة استيفاء حظوظ النَّفس الأمَّارة، وانكسار سَوْرَةِ قواها في الأغلب، كقوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرۡبَعِينَ سَنَةٗ﴾ [الأحقاف: 15][2].

وجه الجمع بين كتابة الأرض المقدَّسة لبني إسرائيل وتحريمها عليهم:

ما يكتبه الله لعبادِه يأتي اختيارًا منهم للطَّاعةِ، لا جبرًا

لسائلٍ أن يسأل عن وجه الجمع بين قوله: ﴿ٱلَّتِي كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمۡ﴾ وبين تحريمِ هذه الأرض على بني إسرائيل؟ والجوابُ من وجوهٍ:

أحدها: أن يُراد كتابتها لهم بشرط أن يجاهدوا أهلها، فلمَّا أبوا الجهاد، وتلقَّوا نعمته بالرَّدِّ والكفران، وشُؤْم التَّمرُّد والعصيان؛ حرَّمها عليهم[3].

الثَّاني: أن يراد فإنَّها محرَّمة عليهم أربعين سنة، فإذا مضت الأربعون؛ كان ما كتب لهم[4].

الثَّالث: كتب الأرض المقدسة لهم بشرط دخولها؛ فهي لهم[5].

الرابع: أنَّ اللَّفظ؛ وإن كان عامًّا، لكنَّ المراد منه الخصوص، فصار كأنَّه مكتوب لبعضهم وحرام على بعضهم[6].

وجه الاستئناف في ﴿يَتِيهُونَ﴾:

على القول بأنَّ الوقفَ على ﴿أَرۡبَعِينَ سَنَةٗۚ﴾ فإنَّ قولَه: ﴿يَتِيهُونَ﴾

(1) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 3/1071.
(2) النّيسابوري، غرائبُ القرآن: 2/576.
(3) الزَّمخشريّ، الكشَّاف: 1/622.
(4) الزَّمخشريّ، الكشَّاف: 1/622.
(5) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 4/314.
(6) الخازن، لباب التأويل: 2/31، وأبو حيّان، البحر المحيط: 3/469.

استئنافٌ، وهو بيانٌ لكيفيَّة حِرْمانهم، وجواب لمن تشعَّب فكره في تعرُّف حالهم في هذه الأربعين، ومحلُّهم من الأرض[1]، وتركهم في التِّيه من غير زيادة تبيِّن حالته.

حـرمـانُ بني إسرائيل من الأرض المقدَّسة كان تيهًا وضياعًا

نكتة التَّعبير بصيغة الفعل المضارع:

ناسب التَّعبيرُ عن التِّيه بصيغة المضارع الدّلالةَ على ديمومته وتجدُّده، فهو تيهٌ متجدِّدٌ على مدى أربعين سنة، وهم يجدون غصَّته وآلامَه طوال هذه المدَّة لا ينقطع، ويتضمَّن هذا التَّعبير أنَّ القوم لا يتوقَّفون عن البحث عن المخرجِ طول المدَّة، وهذا يدلُّ على أنَّهم تابوا وأنابوا واعترفوا؛ لذلك بحثوا وفتَّشوا عن طريقِ الخلاصِ ممَّا هم فيه، حتَّى أذِنَ اللّٰه لهم بالخروجِ إلى العزَّةِ والنَّصرِ.

التَّائه الباحثُ عن المخرجِ تائهٌ تائبٌ عائدٌ إلى الحقِّ

معنى التَّعريف في لفظِ الأرضِ:

تعريف الأرض يراد به التَّعريف العهدي، وبقطعِ النَّظر عن اختلافِ المفسِّرين في تحديدِها فهي معهودةٌ لدى المخاطَبين يعلمونها.

توجيهُ وصفِ الأرضِ بالمقدَّسةِ:

وُصفت الأرضُ بالمقدَّسة؛ أي: المطهَّرة، لسكنى الأنبياء المطهَّرين فيها، فشُرِّفتْ، وطُهِّرتْ بهم، فالظَّرف طاب بالمظروف.

معنى الفاء في قولِه: ﴿فَلَا تَأْسَ﴾:

الفاء في قولِه: ﴿فَلَا تَأْسَ﴾ تُفصِح عن محذوفٍ يُفهم من السِّياقِ، وتفيد بيان سببه؛ لكونها ذُكرت بعد الأوامر والنَّواهي بيانًا لسبب الطَّلب، وكمال حسنها وفصاحتها؛ كونها مبنيَّة على التَّقدير، منبئة عن المحذوف[2]، وتقديره في الآية: إذا عرفت هذا يا موسى فلا تأسَ[3].

الـفـاء هي الـفـصـيـحـة، تـفـصـح عـن المحذوف، وتبيِّن السبب

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 6/79، وأبو السّعود، إرشاد العَقْل السّليم: 3/25.
(2) السّيوطي، نواهد الأبكار: 3/253.
(3) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 2/449.

بلاغةُ خطابِ الأنبياءِ السَّابقين في اللَّاحقين:

خطـابُ موسى عليه السلام صراحةً هو تسليةٌ لمن بعده وإرشاد

قولُه تعالى: ﴿فَلَا تَأۡسَ عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ خطابٌ لموسى عليه السلام صراحةً، وهو خطاب للنَّبيِّ ﷺ إشارةً؛ تسلية له بأنَّ المخالفة على الأنبياء عادة الفَسَقَة في كلِّ زمان، وتذكير له بالنِّعمة على قومه بالتَّوفيق، وترغيب لمن أطاع منهم، وترهيب لمن عصى[1].

توجيه المتشابه اللَّفظيِّ:

من بديع نظم القرآن مناسبة الفواصل لما قبلها

ختم هنا بقوله: ﴿فَلَا تَأۡسَ عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾، وختم بقوله: ﴿فَلَا تَأۡسَ عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٦٨﴾ [المائدة: 68]؛ ليناسب ما قبله من الكلام: فالآية الأولى سبقها قوله تعالى: ﴿فَٱفۡرُقۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ [المائدة: 25]، أمَّا الآية الثَّانية؛ فسبقها قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٦٧﴾ [المائدة: 67]، وقوله في الآية نفسها: ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرٗا مِّنۡهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ طُغۡيَٰنٗا وَكُفۡرٗاۚ﴾ [المائدة: 64]، فناسب كلُّ فاصلة سياقَ ما سبقها.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الأسى، والبثِّ، والحزن، والغمِّ، والحسرة، والأسف:

الأسى: اتِّباع الفائت بالغمِّ، فالأسى يميِّزهُ الامتزاج بين الحزن، والغضب، فضلًا عن ملمح الشِّدَّة، وهو الحزنُ الشَّديدُ على ما فات، قريبًا أو بعيدًا.

الحزن: ما أخفاه، وهو غِلَظُ الهمِّ المخفيِّ، ويكون على شيءٍ قريبٍ.

البثُّ: ما أبداه الإنسان من حزن، والبثُّ: يميِّزه ملمح الظُّهور، والإفضاء بمكنون النَّفس إلى الآخرين، وبذلك فالبثُّ أشدُّ الحزن؛ لأنَّه ينْبَثُّ ولا ينكتم، ويُعلَنُ، ولا يُصْبرُ عليه[2].

(1) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 4/322، والقاسمي، محاسن التأويل: 4/103.
(2) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 267.

الغمُّ: الكربُ الشَّديد الثَّقيل، وأصله: التَّغطية والإطباق، ومنه غُمَّ الهلالُ، أي: لم يتبيَّن، وحال دون رؤيته غيمٌ يحجبه[1]، ويميِّزه ملمحُ الإطباق؛ أي: ثقلُ الحزن على نفس صاحبه، حتَّى يشملَه، فيكاد يغطِّيه[2].

الْحَسْرَة: غمٌّ يَتَجَدَّد لفوت فَائِدَة.

الأسف: حسرة مَعهَا غضب أَو غيظ، والآسف: الغضبان المتلهِّف على الشَّيْء، ثمَّ كثر ذَلِك، حَتَّى جَاءَ فِي معنى الْغَضَب وَحده[3].

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (غمم).

(2) محمد داود، معجم الفروق الدّلالية، ص: 53.

(3) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 267.

﴿۞وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱبۡنَيۡ ءَادَمَ بِٱلۡحَقِّ إِذۡ قَرَّبَا قُرۡبَانٗا فَتُقُبِّلَ مِنۡ أَحَدِهِمَا وَلَمۡ يُتَقَبَّلۡ مِنَ ٱلۡأٓخَرِ قَالَ لَأَقۡتُلَنَّكَۖ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ ٢٧﴾ [المائدة: 27]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

المناسبة بين قصَّة هذه الآية وبين القصَّة الَّتي قبلها: "مناسبة تماثل ومناسبة تضادٍّ: فأمَّا التَّماثل؛ فإنَّ في كلتيهما عدم الرِّضا بما حكم اللّه تعالى، فإنَّ بني إسرائيل عصوا أمر رسولهم إيَّاهم بالدُّخول إلى الأرض المقدَّسة، وأحد ابني آدم عصى حكم اللّه تعالى بعدم قبول قربانه؛ لأنَّه لم يكن من المتَّقين، وفي كلتيهما جرأة على اللّه بعد المعصية، فبنو إسرائيل قالوا: ﴿فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ﴾ وابن آدم قال: لأقتلنَّ الَّذي تقبَّل اللّه منه، وأمَّا التَّضادُّ؛ فإنَّ في إحداهما إقدامًا مذمومًا من ابن آدم، وإحجامًا مذمومًا من بني إسرائيل، وإن في إحداهما اتِّفاق أخوين، هما: موسى وأخوه على امتثال أمر اللّه تعالى، وفي الأخرى: اختلاف أخوين بالصَّلاح والفساد"[1].

وخلاصة المناسبة: التَّنبيهُ من اللّه على أنَّ ظلم اليهود ونقضهم المواثيق والعهود، هو كظلم ابن آدم لأخيه، فالدَّاء قديم، والشَّرُّ أصيل[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿قُرۡبَانٗا﴾: القافُ والرَّاءُ والباءُ: أصلٌ صحيحٌ يدلُّ على خلاف البعد، والاقترابُ: الدُّنوُّ، والتَقَرُّبُ: التَّدنِّي إلى شيء، والتَّواصل إلى إنسان بحقٍّ أو قَرابةٍ، والقرب: الحظوة والمنزلة الرَّفيعة، والرِّعاية، والقدرة، وقرب العبد من اللّه تعالى عبارة عن امتثال أوامره واجتناب نواهيه، والقُرْبان: ما تَقَرَّبْتَ به إلى اللّه تبتغي به قُرْبًا ووسيلة، فأصل القُرْبان: ما يُتقرَّبُ به إلى الباري تعالى، ثُمَّ غلب في العُرف على النَّسيكة الَّتي هي الذَّبيحة، وجمعها: قرابين[3].

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/168.

(2) الشَّوكاني، فتح القدير: 2/36.

(3) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، والرَّاغب، المفردات، والسَّمين، عمدة الحفَّاظ: (قرب).

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

الخطاب لرسول الله ﷺ أن اتلُ على أهل الكتاب وسائر النَّاس ذلك النَّبأ العظيم نبأ ابني آدم تلاوة متلبِّسة بالحقِّ مظهرة له، مبيِّنًا ما فيه من الحكمة والكشف عن غريزة البشر، وهو ما جبلوا عليه من التَّباين والاختلاف الَّذي يفضي إلى التَّحاسد والبغي والقتل؛ ليعلموا حكمة الله فيما شرعه في الدُّنيا من عقاب الباغين من الأفراد والجماعات، والشُّعوب والقبائل، وكون هذا البغي من اليهود على رسول الله والمؤمنين ليس من أمر دينهم، وإنَّما هو من حسدهم وبغيهم، فهم في هذا كابني آدم؛ إذ حسد شرُّهما خيرَهما، فبغى عليه، فقتله، وكانت عاقبة ذلك ما بيَّنته هذه الآيات[1].

وترشدُ الآية الكريمة إلى تعظيم أمر الحسد، وتشديد النَّهي عنه؛ لكونه يحمل الإنسان على أعظم الكبائر[2].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغة الوصل بين المقاطعِ:

الوصلُ بين المقاطعِ حسنُ تخلُّصٍ، وتمهيدٌ لما سيأتي

عطف نبأً على نبأٍ، وقصَّةً على قصَّة؛ ليكون مقدِّمة للتَّحذير من قتل النَّفس والحرابة والسَّرقة، ويتبع بتحريم الخمر وأحكام الوصيَّة وغيرها، وليحسن التَّخلُّص ممَّا استطرد من الأنباء والقصص الَّتي هي مواقع عبرة، وتنظَّم كلُّها في جرائر الغرور[3].

تعيينُ مرجعِ الضَّمير في قوله: ﴿عَلَيْهِمْ﴾:

الضَّمير عائدٌ على أهل الكتاب، أو عموم النَّاس

والضَّمير في ﴿عَلَيْهِمْ﴾ ظاهر أمره أنَّه يراد به بنو إسرائيل؛ لوجْهين: أحدهما: أنَّ المحاورة فيما تقدَّم إنَّما هي في شأنهم، وإقامة الحجج عليهم بسبب همِّهم ببسط اليد إلى النَّبيِّ محمَّد ﷺ، والثَّاني: أنَّ علم ﴿نَبَأَ ٱبْنَيْ ءَادَمَ﴾ إنَّما هو عندهم في كتبهم، وعليهم تقوم الحُجَّة في إيراده[4]، فالمراد أهل الكتاب، أو عموم النَّاس[5].

---

(1) رضا، تفسير المنار: 6/282.

(2) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 4/325.

(3) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/168.

(4) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/178.

(5) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 11/337.

فنُّ الاحتراسِ في صيغة التَّثنيةِ:

دفعُ توهمِ إرادةِ واحدٍ من البشر

معنى ﴿ٱبۡنَيۡ ءَادَمَ﴾ هنا: ولداه، فالحديث في الآية عن أخوين من ولده عليه السلام، إلَّا أنَّ التَّعبير بالتَّثنية مقصود؛ لكون تعبير (ابن آدم) مفردًا قد يراد به واحد من البشر[1].

وجوه تعلُّقِ لفظ (الحقِّ) بفعل ﴿۞وَٱتۡلُ﴾:

اجتماعُ معاني الصِّحَّة، والصِّدق، والسَّلامة، والاعتبار

الباء في قوله: ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾ للملابسة، ولفظ الحقِّ متعلِّقٌ بفعل ﴿۞وَٱتۡلُ﴾، ويأتي على معانٍ:

الأوّل: أي: تلاوة متلبِّسة بالحقِّ والصِّحَّة من عند الله تعالى.

الثَّاني: أي: تلاوة متلبِّسة بالصِّدق والحقِّ موافقة لما في التَّوراة والإنجيل.

الثَّالث: بالحقِّ؛ أي: بالغرض الصَّحيح، وهو تقبيح الحسد؛ لأنَّ المشركين وأهل الكتاب كانوا يحسدون رسول الله ﷺ ويبيعون عليه.

الرَّابع: بالحقِّ؛ أي: ليعتبروا به، لا ليحملوه على اللَّعب والباطل والتَّفكُّه، واللهو، مثل كثير من الأقاصيص الَّتي لا فائدة فيها، فإنَّ قصص القرآن تُساق للعبرة لا لمجرَّد الحكاية، فيكون من الحقِّ ضدُّ الباطل، ومن الجدِّ غير الهزل[2].

يرادُ بالحقِّ: الإشارة إلى ما حفَّ بالقصَّة من زيادات:

ويحتمل أن يكون قوله: ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾ مشيرًا إلى ما حفَّ بالقصَّة من زيادات زادها أهلُ القصص من بني إسرائيل في أسباب قتلِ أحدِ الأخوينِ أخَاهُ[3].

بيان تعلُّقِ ﴿إِذۡ﴾ بلفظِ ﴿نَبَأَ﴾:

﴿إِذۡ﴾ ظرف زمان لـ ﴿نَبَأَ﴾ أي: خبرهما الحاصل وقت تقريبهما

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/168.
(2) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 11/338، والطّيبي، فتوحُ الغيب: 5/332، وابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/169.
(3) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/169.

قربانًا، فينتصب ﴿إِذْ﴾ على المفعول فيه، ويجوز أن يكون بدلًا من النَّبأ، أي: واتلُ عليهم من النَّبأ، نبأ ذلك الوقت، على تقدير حذف المضاف[1].

اشتقاق فعل ﴿قَرَّبَا﴾ وأثره في المعنى:

الفعل ﴿قَرَّبَا﴾ مشتقٌّ من القُرْبان، وهو اسمٌ لما يُتقرَّب به المرء إلى ربِّه من صدقة أو نُسك أو صلاة، فاشتقَّ من القربان قرب[2]، والتَّعبير عنه بصيغة (فعَّل)؛ لتكثير الفعل وللمبالغة في أدائه.

توجيه إفراد القُرْبان:

الْـقُـرْبَـانُ اسْـمُ جِـنْـسٍ فَـهُـوَ يَصْلُحُ لِلْوَاحِدِ وَالْعَدَدِ

تَقْدِيرُ الْكَلَامِ، وَهُوَ قَوْلُهُ ﴿إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا﴾، قَرَّبَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا قُرْبَانًا إِلَّا أَنَّهُ جَمَعَهُمَا فِي الْفِعْلِ وَأَفْرَدَ الِاسْمَ، لِأَنَّهُ يُسْتَدَلُّ بِفِعْلِهِمَا عَلَى أَنَّ لِكُلِّ وَاحِدٍ قُرْبَانًا. وَقِيلَ: إِنَّ الْقُرْبَانَ اسْمُ جِنْسٍ، فَهُوَ يَصْلُحُ لِلْوَاحِدِ وَالْعَدَدِ، وَأَيْضًا فَالْقُرْبَانُ مَصْدَرٌ كَالرُّجْحَانِ وَالْعُدْوَانِ وَالْكُفْرَانِ، وَالْمَصْدَرُ لَا يُثَنَّى وَلَا يُجْمَعُ[3].

دلالات التَّعبير عن فعل التَّقبُّل بالفعل الَّذي لم يُسمَّ فاعله:

أمـر الـقـبـول أو عـدمـه مـوكـولٌ إلى الله تعالى

عبَّر عن فعل تقبُّل القُرْبان بصيغة ما لم يُسمَّ فاعله (تُقُبِّلَ - لم يُتَقَبَّل) مع أنَّ فاعل التَّقبُّل وعدمه معلوم ضرورة، وهو اللّه ﷻ، يؤيِّده قوله في ختام الآية: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ﴾، ويشير هذا البناء إلى أنَّ أمر القبول أو عدمه موكول إلى قوَّة غيبيَّة وإلى كيفيَّة غيبيَّة، وأنَّ على العبد أن يجتهد في العبادةِ، وأن يجعل جلَّ تفكيره في ذلك، وأنَّ قبولها هو للّه ﷻ.

سرُّ تشديد فعل التَّقبُّل وعدمه:

التَّعبير بصيغة التَّفعُّل يراد به التَّقبُّل تقبُّلًا خاصًّا، مبالغًا فيه، وهو

(1) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 11/338، و ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/169.
(2) الزَّمخشريّ، الكشَّاف: 1/624، وابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/169.
(3) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 11/338.

تـشـديـد فـعـل التَّقبُّل للمبالغة في قبول القُرْبان وعدم قبوله

التَّقبُّل التَّامُّ العظيم[1]، وفي ذلك إظهارٌ لفضل الله بتقبُّله للقربان، وهو الغنيُّ عنه؛ لعدم حاجته إلى القُرْبان تعالى وجلَّ وعزَّ، وكذا الأمر مع تشديد فعل عدم التَّقبُّل، ففيه مبالغةٌ في عدم قبول القُرْبان.

وجْهُ إبهامِ اسمِ المتقبَّل منه وغير المتقبَّل منه:

لم يسمِّ الله تعالى المتقبَّل منه الَّذي لم يتقبَّل منه؛ لأنَّ في الكلام دليلًا عليه[2]، ولا جَدْوى لذلك في موقع العبرة[3].

نكْتَة التَّوكيد في فعل القتل:

بيانُ الرَّغبةِ في القتلِ والإصرار على ذلك

عبَّر النَّظمُ عن إصرار الأخ على قتل أخيه بتصدير فعل القتل باللَّام الموطِّئة للقسم، وتذييله بنون التَّوكيد الثَّقيلة: ﴿قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ﴾، في ملمحٍ تعلو فيه روحُ الإجرام، وطبعُ الانتقام، والرَّغبة الصَّادقة في الخلاص من أخيه، فقوله: ﴿لَأَقْتُلَنَّكَ﴾ "وعيد وتهديد شديد، وقد أبرز هذا الخبر مؤكَّدًا بالقسم المحذوف؛ أي: لأقتلنَّك حسدًا على تقبُّل قربانك"[4].

علَّة التَّعبير بصيغة المضارع:

إيـثـار فـعـل المضارعة ترسيخٌ لـلإصـرار على القتل الآن أو مستقبلًا

رسَّخ معنى الإصرار، والرَّغبة الصَّادقة في القتل التَّعبير عن فعله بصيغة المضارع الدَّالِّ على إرادة القتل في الحال وتجدُّده واستمراره زمن المستقبل، ومن ثمَّ فهو لا محالة متحقِّق منه الآن أو غدًا.

بلاغة القَصْر بـ ﴿إِنَّمَا﴾:

قـصـر الـقـبـول عـلـى المـتَّـقـين أمـرٌ مـعـلـومٌ، وذكـــره عـلـى سبيل التَّذكير والتَّشريف

تأتي (إِنَّمَا) إثباتًا لما يذكر بعدها ونفيًا لما سواه، أو للإخبار عن أمر لا يجهلُه المخاطب، ولا يدفع صحَّته، فيلمح فيها عندئذٍ دلالات التَّنبيه والتَّذكير والمبالغة[5].

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/170.
(2) الزّجاج، معاني القرآن وإعرابه: 2/166.
(3) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/170.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/228.
(5) الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص: 312 - 314.

فجاءت ﴿إِنَّمَا﴾ للحصْر، وأفادت قصْرَ القبول على المتَّقين، والقصْر نفي وإثبات؛ أي: إنَّ التَّقوى هي سبب القبول، فإن وجدت؛ كان القبول، وإن لم توجد؛ انتفى القبول، وتفيد ثانيًا أنَّ عدم القبول إنَّما يكون من نفس المتصدِّق، لَا من أمر خارجيٍّ، فالجزاء على قدر النِّيَّة، فالتَّقوى دائمًا من القلوب[1]، وبها صار أحد القُرْبانين مقبولًا والآخر مردودًا؛ لأنَّ حصول التَّقوى شرطٌ في قبول الأعمال[2].

بلاغةُ الكنايةِ في جوابِ المقتول:

جـوابُ المقتول كنايةٌ عن سببِ عدم القبول

ورد جواب هابيل: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ على سبيل الكناية[3] والتعريض والموعظة والتَّنصُّل ممَّا يوجب قتله، ووجْه الكناية والتَّعريض: أنَّ القبول فعل الله لا فعل غيره، وهو يتقبَّل من المتَّقي لا من غيره، وهو تعريض به أنَّه ليس بتقيٍّ، ولذلك لم يتقبَّل الله منه، وآية ذلك أنّه يضمر قتل النَّفس؛ ولذا فلا ذنب لمن تقبَّل الله قربانه يستوجب القتل[4].

وأجاب قوله: ﴿لَأَقْتُلَنَّكَ﴾ بكلام حكيم مختصر جامع لمعانٍ بـقوله: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾؛ إذ لمَّا كان الحسد لأخيه على تقبُّل قربانه هو الذي حمله على توعُّده بالقتل؛ كان جوابه: إنَّما أتيت من قِبل نفسك لانسلاخها من لباس التَّقوى، لا من قبلي، فلِمَ تقتلني؟ ومالك لا تعاتب نفسك، ولا تحملها على تقوى الله التي هي السَّبب في القبول؟ وفي هذا الجواب دليلٌ على أنَّ الله تعالى لا يقبل طاعة إلَّا من مؤمن متَّقٍ[5]، وفي ذلك حثٌّ له على التَّقوى[6].

(1) الشّوكاني، فتح القدير: 2/36، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 4/2124.
(2) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 11/338.
(3) الرازي، المسائل والأجوبة، ص: 69.
(4) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/170.
(5) الزَّمخشريّ، الكشَّاف: 1/624.
(6) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 4/325.

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

النَّبأ والخبر:

إنَّ أوَّل دمٍ سُفك على وجه الأرض لنبأٌ عظيمٌ

إنَّ النَّبأ لَا يكون إلَّا للإخبار بِمَا لا يعلمهُ المُخْبَر، وَيجوز أَن يكون الْخَبَر بِمَا يعلمهُ، وبِمَا لا يعلمهُ، والنَّبأ: معنى عَظِيم الشَّأن، ومنه أُخذتْ صفة النَّبيِّ، واشتقَّ لفظُ النُّبوَّة؛ لأنَّ النَّبيَّ مخبرٌ عن اللّه؛ وَلِهَذَا يُقَال: سَيكون لفُلَان نبأٌ، وَلَا يُقَال: خبر بِهَذَا الْمَعْنى[1].

فالنَّبأ: "خبرٌ ذو فائدة عظيمة يحصل به علمٌ أو غَلَبَة ظنٍّ، ولا يقال للخبر في الأصل: نَبَأٌ حتى يتضمَّن هذه الأشياء الثَّلاثة، وحقُّ الخبر الَّذي يقال فيه: نَبَأٌ أن يتعرَّى عن الكذب، كالتَّواتر، وخبر اللّه تعالى، وخبر النَّبيِّ ﷺ ولتضمُّن النَّبأِ معنى: الخبر، يقال: أَنْبَأْتُهُ بكذا كقولك: أخبرته بكذا، ولتضمُّنه معنى: العلم، قيل: أَنْبَأْتُهُ كذا"[2]، ولِعِظَمِ شأن القصَّة عُبِّرَ عنها بـ(النَّبأ)؛ لكونها تفصِّل القول في أول حادثة قتل عرفتها البشريَّة.

(1) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 41.
(2) الرّاغب، المفردات: (نبأ).

﴿لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقۡتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٖ يَدِيَ إِلَيۡكَ لِأَقۡتُلَكَۖ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢٨﴾ [المائدة: 28]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لمَّا وعظ الأخُ أخاه بما يمنعه من قتله، ويقبل به على خلاص نفسه؛ أعلمه ثانيًا أنَّ الخوف من الله مَنَعَه من أن يمانعه عن نفسه تلطُّفًا، وتليينًا لقلبه بما هو جدير أن يردَّه عنه خشية أن تجرَّه الممانعة إلى تعدِّي الحدِّ المأذون فيه؛ لأنَّ أخاه كان عاصيًا لا مشركًا[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿بَسَطتَ﴾ ﴿بِبَاسِطٖ﴾: "الباء والسِّين والطَّاء: أصلٌ واحدٌ، وهو امتدادُ الشَّيء"[2]، والبسط نقيضُ القبض، وبَسَطَ إلينا فلانٌ يَدَه بما نُحِبُّ، ونكرهُ[3]، فالبسط: الاتِّساع في الشَّيء، وبَسْطُ اليد: مدُّها، وهي: الصَّولةُ، والضربُ، والأذى[4].

وكلُّ ما في القرآن من البسط: هو من الاتِّساع عدا أمور، منها: المدُّ بالضُّرِّ: العدوان، كقوله تعالى: ﴿لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقۡتُلَنِي﴾ [المائدة: 28]: وقوله: ﴿إِذۡ هَمَّ قَوۡمٌ أَن يَبۡسُطُوٓاْ إِلَيۡكُمۡ أَيۡدِيَهُمۡ﴾ [المائدة: 11]، والعامَّة تُستعمل (مدَّ يدَه عليه) كناية عن الضَّرب ونحوه[5].

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

جزاء الإساءة عند المحسنين ليس المثل:

أجاب المهدَّدُ بالقتلِ بالقول: "إن مددت يدك لتقتلني؛ فما أنا بالمجازي لك على السَّيِّئة بسيِّئة مثلها، فذاك لا يتَّفق مع شمائلي وصفاتي؛ إذ لست ممَّن يتَّصف بهذه الصِّفة المنكرة الَّتي تنافي تقوى الله والخوف من عذابه، فإنِّي أخاف الله، وأخشى أن يراني باسطًا يدي إلى الإجرام وسفك الدِّماء بغير حقٍّ، وهو ربُّ العالمين الَّذي يغذِّيهم بنعمه،

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 6/119.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بسط).
(3) الخليل، العين: (بسط).
(4) الرّاغب، المفردات، والسّمين، عمدة الحفّاظ: (بسط).
(5) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (بسط).

ويربِّيهم بفضله وإحسانه، فالاعتداء على أرواحهم أكبر مفسدة لهذه التَّربية"[1].

وترشدُ الآية الكريمة إلى الصَّبر على الأذى، والمكاره، وكظم الغيظ، وعدم مجازة الإساءة بمثلها.

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

علَّة التَّصدير بالقسم:

القسمُ يُظهرُ صدقَ المُقسِمِ في أمرٍ جللٍ

اللَّامُ في قوله: ﴿لَئِنۡ﴾: هي الموطِّئةُ للقسم، و﴿مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٖ﴾: جواب القسم، وقد سدَّ مسدَّ جواب الشَّرط، وصُدِّرَت جملة: ﴿لَئِنۡ بَسَطتَ﴾ بالقسم تأكيدًا ومبالغة؛ لمزيد التَّبرُّؤ عن هذا الفعْل القبيح[2]، وتوكيدٌ لعدم مبادلته شنيع الفعل، وكأنَّه يقابل إصرار أخيه على القتل بالإصرار على عدم القتل.

وأكَّدَ بالقسم؛ لأنَّ ما يخبر به شأنٌ عظيم، لا يكاد يصدَّق[3]، فهو أمام مشْهدٍ يقتلُ فيه أخٌ أخاه، صنوه، وقسيمَ روحه.

سرُّ التَّعبير بالماضي:

اخْتيرَ المَاضي ﴿بَسَطتَ﴾ لإظهاره كالواقع المتحقِّق حصولُه[4]، فهو أدلُّ على الاجتراء على الفعل، وآكد.

بلاغة الكناية في لفظ البسط:

قوله: ﴿بَسَطتَ﴾ كناية عن المباشرة إلَى القتل؛ أي: واللّه لأن باشرتَ إلَى قتلي[5].

نكتةُ تقديم الجارِّ والمجرور على المفعول:

قدَّم الجارَّ والمجرورَ ﴿إِلَيَّ﴾ أي: خاصَّة[6] على المفعول الصَّريح؛

(1) المراغي، تفسير المراغي: 6/99.
(2) الطِّيبي، فتوحُ الغيب: 5/338، والقونوي وابن التمجيد، حاشيتان على البيضاوي: 7/446.
(3) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 6/119.
(4) القونوي وابن التمجيد، حاشيتان على البيضاوي: 7/446.
(5) القونوي وابن التمجيد، حاشيتان على البيضاوي: 7/446.
(6) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 6/119.

إيذانًا من أوَّل الأمر برجوعِ ضرر البسط وغائلته إليه[1]، وتخصيصه به، فهو المعنيُّ بالقتل، والمخصَّص بالانتقام.

التَّقديمُ لتخصيص بسْط اليَدِ به، ورجوعِ ضرره وغائلته إليه

نكْتَة التَّعبير باليد وإفرادها:

وبسط اليد في قوله: ﴿إِلَيَّ يَدَكَ﴾ مدُّها بالاعتداء[2]، وذكر اليد بناء عَلَى أنَّها الأكثر الأغلب في الاستعمالِ في القتل، فهي آلة القتل على الحقيقة.

ذكر اليدِ استجلابٌ للعاطفةِ والأخويَّة

وإفرادها إمَّا لإرادة الجنس، أو لكفايتها في القتل في بعض الأحيان[3].

وذكر اليد فيه استجلابٌ للعاطفةِ الأخويَّة؛ أي: إن بسطت يدك التي هي أصلٌ في نصرتي وإعانتي وتقويتي إلى هزيمتي وإضعافي وقتلي، فلست أنا من يمدُّها لذلك.

معنى لام التَّعليل في قوله ﴿لِتَقْتُلَنِي﴾:

اللَّام في قوله: ﴿لِتَقْتُلَنِي﴾؛ للتعليل، أي: لأجل قتلي[4]، وهي المسمَّاة: لام العاقبة، وبدخولها بيَّنت علَّة بسط اليد، وأخلصتْ غرضَ الأخ في القتل.

غرضُ حرف (الباء) في قوله ﴿بِبَاسِطٍ﴾:

الباء: في ﴿بِبَاسِطٍ﴾ توكيديَّة في خبر (ما)، على أنَّها حجازيَّة، وفي خبر المبتدأ على أنَّها تميميَّة[5]، وغرضُها تأكيدُ نفيِ بسطِ يده، والمبالغة في هذا النَّفي.

علَّة العدول عن الفعليَّة إلى الاسميَّة:

إيثار الاسميَّة مبالغة في دفع نيَّة مبادلة فعل القتل عنه، أو الاتِّصاف به

عدل بقوله: ﴿مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِيَ﴾ عن الفعليَّة إلى الاسميَّة، فلم يوافق ما جاء في الجملة السَّابقةِ: ﴿لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ﴾

(1) أبو السّعود، إرشاد العَقْل السّليم: 3/27.
(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 4/2125.
(3) القونوي وابن التمجيد، حاشيتان على البيضاوي: 7/446.
(4) الصّاوي، حاشية على تفسير الجلالين، ص: 448.
(5) الصّاوي، حاشية على تفسير الجلالين، ص: 448.

ليفيد أنه لا يفعل ما يكتسب به هذا الوصف الشَّنيع؛ أي: لا أفعل فعلًا يُشتقُّ منه هذا الوصف، فبدخول (ما) على الجملة الاسميَّة ﴿أَنَا۠ بِبَاسِطٍ﴾ نفت حال البسط عند الإطلاق ووسعت صيغة اسم الفاعل (باسط) الزَّمن، وأدامته؛ ولذلك أكَّده بالباء؛ ليبيِّن أنَّ العدول إلى الاسميَّة للمبالغة في أنَّه ليس من شأنه ذلك، ولا ممِّن يتَّصف به[1]؛ لكون "صيغة الفعل لا تُعطي إلَّا حدوث معناه من الفاعل لا غير، أمَّا اتِّصاف الذَّات به؛ فذلك لما كان يعطيه اسم الفاعل؛ عدلَ من الفعل إلى الاسم تغليظًا؛ إذ يصير ذلك كالسِّمة والعلامة الثَّابتة"[2].

قال العماديُّ: "ولم يُجْعلْ جوابُ القسمِ السادُّ مسدَّ جوابِ الشَّرط جملةً فعليَّةً موافقة لما في الشَّرط، بل اسميَّة مصدَّرة بما الحجازيَّة المفيدةِ لتأكيدِ النَّفي بما في خبرها من الباء للمبالغة في إظهار براءتِه عن بسْطِ اليد ببيانِ استمراره على نفي البسط، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ۝٨﴾ [البقرة: 8] فإنَّ الجملةَ الاسميَّةَ السَّلبيَّة (المنفيَّة) تدلُّ على دوام الانتفاءِ؛ أي: واللّٰه لئن باشرتَ قتلي حسبما أوعدتني به، وتحقَّق ذلك منك؛ ما أنا بفاعلٍ مثلَه لك في وقتٍ من الأوقاتِ"[3].

مضمونُ الاسميَّة يُلحظُ فيه أدب الخطاب مع الله تعالى:

وصوغ خطاب الجواب جملةً اسميَّةً بما تفيده من نفيٍ للثَّبات والدَّوام تأدُّبٌ مع اللّٰه في عدم الحكم على المستقبل[4]، وعدم الاجتراء عليه تعالى بالحكم بما يخرج عن منظور علمه.

براعة التَّعبير باسم الفاعل ﴿بِبَاسِطٍ﴾:

التَّبرُّؤ عن مقدِّمات القتل، من كمال الخلق، وتمام حسن النِّيَّة

آثر النَّظمُ التَّعبير باسم الفاعل ﴿بِبَاسِطٍ﴾، ولم يقل: (وما أنا بقاتل)؛ للتَّبرُّؤ عن مقدِّمات القتل فضلًا عنه، وامتياز اسم الفاعل عن الفعل بهذه الخصوصيَّة من حيث إنَّ صيغة الفعل لا تعطي سوى حدوث معناه من الفاعل لا غير، وأمَّا اتِّصاف الذَّات به؛ فذاك

(1) الخفاجي، عناية القاضي: 3/233.
(2) الطِّيبي، فتوحُ الغيب: 5/338.
(3) أبو السّعود، إرشاد العَقْل السّليم: 3/27.
(4) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 6/119.

أمر يعطيه اسم الفاعل؛ أي: إنَّ وقوع الفعل وثبوته أصبح كالسِّمة، والعلامة الثَّابتة، وليس مجرَّد الاتِّصاف[1].

قصديَّة توسيط ضمير المتكلِّم في قوله: ﴿مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ﴾:

في قوله: ﴿مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ﴾ مبالغة في إعلامه بنفي فعل بسط اليد عنه ومن امتناعه عن جُرم القتل[2].

دلالةُ المباينة بين صيغة فعل الشَّرطِ وجوابه:

جاء الشَّرط: بلفظ الفعل (بسطت)، والجزاء: بلفظ اسم الفاعل، وهو (باسِط)؛ ليفيد أنَّه لا يفعل ما يكتسب به هذا الوصف الشَّنيع، ولذلك أكَّده بالباء المؤكِّدة للنَّفي[3]، وللمبالغةِ في التَّبرُّؤ عن هذا الفعل الشَّنيع رأسًا، والتَّحرُّز من أن يوصف به، ويطلق عليه[4].

الوصف الحقيقي لبسط اليد بقصد القتل، والمبالغة بنفيه

غرضُ حشد مؤكِّدات النَّفي:

عزَّز النَّظم الكريمُ نفي القتل بالقسم، وبالتَّعبير بالجملة الاسميَّة - بمضمونها - بتأكيد النَّفي بأمور ثلاثة: "أوَّلها: التَّعبير بالوصف، فهو ينفي عن نفسه وصف بسط اليد لأجل الاعتداء؛ لأنَّ ذلك ليس من شأنه، ولا من رغباته، والثاني: التَّعبير (باليد) للإشارة إلى أنَّ ما بينهما من رابطة الرَّحم الموصولة عنده تمنعه من أن يمدَّ إليه يده بالأذى، والمؤكِّد الثَّالث: التَّعبير ﴿لِأَقۡتُلَكَۖ﴾ فيه أنَّ هذه الجريمة تنفر منها الطَّبائع السَّليمة، ولا ترضى بها العقول المستقيمة، وخصوصًا إذا كان يريد قتله"[5].

ترفضُ الفطرة السَّليمة شنائعَ الفِعال، وتستجمعُ للتَّأبِّي كلَّ الأقوال

بلاغةُ الفاصلة القرآنيّة في التَّعليل والتَّأكيد:

في قوله: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ ذكرٌ لعلَّة الامتناع عن

من سموِّ الأخلاق ورفعتها إرشادُ الظَّالم مع ذروة الإحساس بالظُّلم

(1) الخفاجي، عناية القاضي: 3/233.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 6/119.
(3) الزَّمخشريّ، الكشَّاف: 1/626.
(4) البيضاويّ، أنوار التَّنزيل: 2/123.
(5) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 4/2125.

بسط اليد إلى أخيه للقتل[1]، وفيه من إرشادِ قابيلَ إلى خشية الله تعالى على أبلغِ وجْه، وآكدِه ما لا يخفى، كأنَّه قال: إنِّي أخافه تعالى إن بسطتُ يدِيَ إليك لأقتلك أن يعاقبَني، وإن كان ذلك منِّي لدفع عداوتِك عنِّي؛ فما ظنُّك بحالك، وأنت البادي العادي[2].

وفي مطلع جملة التَّذييل: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ تأكيدٌ لخوف الله بذكر (إنَّ) المؤكِّدة للقول[3]، والمجيء به جملةً اسميَّة للدَّلالة على ثبوت مخافة الله تعالى.

دلالة إضافةِ (إنَّ) إلى ضمير المتكلِّم (الياء):

التَّعريضُ بعدم مخافة الأخ القاتل من الله تعالى

في إضافةِ إنَّ إلى ضمير المتكلِّم في قولِه: ﴿إِنِّيٓ﴾ حصرٌ لأمر الخوف بنفسه دون أخيه، وفيه تنبيهٌ، وتعريضٌ على أنَّ الأخ القاتل لا يخاف الله[4] ﷻ.

نكْتَة التَّصريح باسم الله الأعظم:

عظمةُ الله في قلوب الأتقياءِ تمنعُهم من الوقوعِ في المهلكات

علَّل الأخ المهدَّد بالقتلِ إلى عدم إقدامه على القتل بقوله: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ﴾؛ أي: أستحضر جميع ما أقدر على استحضاره من كماله جلَّ في علاه[5]، فذكر الله تعالى بلفظ الجلالة، للإشعار بأنَّه هو وحده صاحب السُّلطان على نفسه، ولا سلطان سواه، فلا يدفعه غضب أو حبٌّ انتقام إلى مخالفة أمره[6].

إتْباع الاسم العظيم الوصف بالرُّبوبيَّة:

ذكرُ الرَّبوبيّة بعد اسم الله تعالى بأنَّه ربُّ العالمين؛ أي: منشئ الكون ومن فيه، وهو يتعهَّدهم بالنَّماء والتَّغذية والتَّربية، فقتْل النَّفس الَّتي حرَّم الله تعالى قتلها هدْم لما بناه الله تعالى، وتخريب

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/477.
(2) أبو السّعود، إرشاد العَقْل السّليم: 3/27.
(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 4/2127.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/477، وابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/107.
(5) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 6/120.
(6) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 4/2127.

في الأرض، ونشر للفساد[1]، فوصْفُهُ بالإحسان إلى خلقه مانعٌ له من الإساءة إلى أحد منهم، فهو المنعم عليهم بنعمة الإيجاد ثم التَّربية، ولا يجوز تخريب ما بنى، وهذا كما فعل عثمان - رضي الله عنه -[2]، وفي وصفه تعالى بربوبيَّة العالمين تأكيد للخوف[3].

وصْفُهُ تعالى بالرُّبوبيَّة مانعٌ من الإساءة إلى بنيانه

جمال المحسِّنات البديعيَّة في سياق الآية:

في قوله: ﴿لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقۡتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٖ﴾، وفي قوله: ﴿قَتۡلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ﴾، جناسٌ مغاير.

وفي قوله: ﴿لَئِنۢ بَسَطتَ﴾ و﴿مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٖ يَدِيَ إِلَيۡكَ﴾[4]، طباق السَّلب.

قد يخرج الخير والشَّرُّ من وعاء واحـــدٍ، فكلُّ امرئٍ بما كسب رهين

وفي هذه المحسِّنات البديعيَّة الجامعة للفعل ونفيه ومغايره إظهارٌ لصورة المقابلة بين وجْه الخير، والطِّيبة، وسلامة السَّريرة، وبين وجْه الشَّرِّ، والظُّلم، والسُّوء بما يعزِّز دلالة السِّياق المُضَمَّنِ بحشد الألفاظ المؤكِّدة، والمعبِّرة عن تناقض فعلي الأخوين، والبون بين صفاتهما وأخلاقهما.

بديعُ حسن النَّظم في الآية الكريمة:

لخَّص ابن أبي الأصبع حُسن ترتيب النَّظم في قوله تعالى: ﴿لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقۡتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٖ يَدِيَ إِلَيۡكَ لِأَقۡتُلَكَۖ﴾ بقوله: "فإنَّ حسن التَّرتيب في نظم الكلام البليغ أمر مطلوب، ومن حسن التَّرتيب في الجمل الفعليَّة تقديم الفعل، وتعقيبه بالفعل، ثم الإتيان بالمفعول، فإن كان في الكلام مفعولان أحدهما تعذَّر وصول الفعل بنفسه إليه، والآخر تعدَّى إليه بنفسه؛ قدَّم ما تعدَّى الفعل إليه بالحرف على الفعل الَّذي تعدَّى إليه بنفسه، ولمَّا أمن هذا المحذور في عجز الآية بما اقتضته البلاغة من الإتيان باسم الفاعل موضع

براعة التَّرتيب في النَّظم من بليغ مظاهر التَّهذيب، وحسن السَّبك

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 4/2127.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 6/120.
(3) أبو السّعود، إرشاد العَقْل السّليم: 3/27.
(4) الهرريّ، حدائق الروح والريحان: 7/267.

الجملة الفعليَّة، لتضمُّنه معنى الفعل الَّذي تصحُّ به المقابلة، جاء الكلام على ترتيبه من تقديم المفعول الَّذي تعدَّى الفعل إليه بنفسه، على المفعول الَّذي تعدَّى الفعل إليه بالحرف، وهذا من أحسن شواهد التَّهذيب والتَّرتيب"[1].

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

مدَّ وبسط:

المَدُّ: جَرُّ شيءٍ في طُول، واتِّصالُ شيءٍ بشيءٍ في استطالَة[2]، ويلمح فيه معنى الاستطالة الأفقيَّة من غير اتِّساع، أو انتشار، أمَّا البسطُ، فهو: الاتِّساع في الشَّيء، وأصلُه: النَّشْرُ، والتَّوْسيعُ، ومنه بسط الرِّزق، والبساط: المفترش من ذلك لاتِّساعه[3].

ودلالة السِّعة والانتشار المتضمَّنة في لفظة (البسط) قرَّبتها من معنى الإمعان في فعل القتل، وقصديَّة الفعل، والإصرار عليه، وذلكم أبلغُ من المدِّ الأفقي المجرَّد من الانتشار والسَّعة في لفظ (المدِّ).

السَّعي للقتل قصديٌّ أُطلقت اليد بما أوتيت من سعة، وتمكَّن لتنفيذه

(1) ابن أبي الأصبع، تحرير التحبير، ص: 405 - 406.
(2) السّمين، عمدة الحفّاظ، والزّبيدي، تاج العروس: (مدد).
(3) الرّاغب، المفردات، والسّمين، عمدة الحفّاظ، والزّبيدي، تاج العروس: (بسط).

﴿إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثۡمِي وَإِثۡمِكَ فَتَكُونَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ ٢٩﴾ [المائدة: 29]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

قال البقاعيُّ: "ولمَّا كان من النِّهايات للواصلين إلى حضرات القدس ومواطن الأنس بالله، المتمكِّنين في درجة الغناء عن غير الفاعل المختار ألَّا يراد إلَّا ما يريد سبحانه، فإن كان طاعة؛ أراده العبد ورضيه، وإن كان معصية؛ أراده من حيث إنَّه مراد الله، ولم يرضه لكونه معصية، فيرضى بالقضاء دون المقضيِّ، وكأنَّه من الممكن القريب أن يكون هابيل قد كشف له عن أنَّه سبق في علم الله أنَّ أخاه يقتله، قال مرهِّبًا له معلِّلًا بتعليل آخر صادٍّ له أيضًا عن الإقدام على القتل: ﴿إِنِّيٓ أُرِيدُ﴾"[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تَبُوٓأَ﴾: "الباء والواو والهمزة: أصلان: أحدهما الرُّجوع إلى الشَّيء"[2]، وباؤوا بغضب من الله: رجعوا به؛ أي: صار عليهم، وباء بإثمه يبوء بَوْءًا، وبحقِّه؛ أي: أقرَّ[3]. والْتَزَمَ، ورَجِعَ، واحتمل، واعترف، وهي كلُّها متقاربة، وأصْلُها من اللُّزُوم[4] والاستقرار، وردَّها الزَّجَّاج إلى الاحتمال، فكأنَّها من باء بشيء تحمَّله، فاستقرَّ الشَّيء عليه، ومن هنا: فمعنى: ﴿تَبُوٓأَ بِإِثۡمِي وَإِثۡمِكَ﴾: تنصرف متحمِّلهما، وترجع بهما، قد صارا عليك دوني؛ أي: تحمُّل استقرار تام عليك، لا أشاركك فيه؛ لأنِّي ما تعدَّيت أوَّلًا، ولا قصَّرتُ في تحذيرك؛ إذْ تعدَّيتَ، وما حاولت قتلك حتَّى لو حاولت قتلي[5].

2) ﴿بِإِثۡمِي﴾ ﴿وَإِثۡمِكَ﴾: الهمزة والثَّاء والميم: تدلُّ على أصلٍ واحدٍ، وهو البطْءُ

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 6/120.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بوأ).
(3) الجوهري، الصّحاح: (بوأ).
(4) ابن الأثير، النهاية، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (بوأ).
(5) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (بوأ).

والتَّأخُّرُ[1]. فالإثمُ والآثامُ: اسمٌ للأفعالِ المبطئةِ عنِ الخيرات، والإِثْمُ: الذَّنبُ[2]، وكلُّ ما في القرآن من تركيب (الإثم)، فهو بمعنى: الوِزْر والذَّنْب[3].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

إرادة الإباءة ليست رغبة وشهوة، وإنَّما هو تخيُّر في شرَّين:

تذكر الآيةُ أن مرادَ الأخِ المهدَّد بالقتل هو أنَّه يريدُ أن يرجعَ أخوه بإثم القَتْلِ، وإثم معصيته الَّتِي لم يُتَقَبَّل لأَجلهَا قربانه، أَو إِثْم حسده، وَهَذَا اخْتِيَار الزَّجَّاج، وَقَالَ ابْن كيسَان: إِنَّمَا قَالَ ذَلِك على طَرِيق التَّمْثِيل، يَعْنِي: لَو قتلتُ أَنا؛ كَانَ عليَّ الْإِثْم، وَلَو قتلت أَنْت؛ كَانَ عَلَيْك الْإِثْم، فَأَنا لَا أقتل حَتَّى تقتل أَنْت؛ فتبوء بالإثمين، فَيكون كلا الإثمين عَلَيْك[4]، وإن قتلتني، وسبق بذلك قدر، فاختياري أن أكون مظلومًا سينتصر اللّه لي في الآخرة[5].

وترشدُ الآية الكريمة إلى أنَّ جزاء الظُّلم النَّارُ مثوًى ومستقرًّا، وثواب التَّقوى القربُ.

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغة فصل الآية عن السَّابقةِ:

استقلالُ الآيةِ بذكرِ علَّةٍ ثانيةٍ لعدمِ القتلِ

قوله: ﴿إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثۡمِي وَإِثۡمِكَ﴾ تعليلٌ آخرُ لامتناعه عن البسط، وعدل عن العطف تنبيهًا على كفاية كلٍّ من الآيتين في العِلِّيَّة؛ أي: إنَّ كلًّا منهما علَّة مستقلَّة، فهي إيذانٌ بالاستقلال، ودفعُ توهُّم أن تكون جزءَ علَّةٍ لا علَّةً تامَّة، والمعنى: إني أريد باستسلامي لك، وامتناعي عن التَّعرُّض لك أن ترجِعَ بإثمي؛ أي: بمثل إثمي لو

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أثم).
(2) الرّاغب، المفردات، والسّمين، عمدة الحفّاظ: (أثم).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (أثم).
(4) السمعاني، تفسير القرآن: 2/30.
(5) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/179.

بسطتُ يدي إليك، وبإثمك ببسط يدِك إليَّ[1]، فالجملة "تعليلٌ للَّتي قبلها، ولذلك فُصِلَت، وافتُتحت بـ(إن) المُشعرة بالتَّعليل بمعنى: فاء التَّفريع"[2].

وقوله: ﴿إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثۡمِي﴾ "تخويفٌ من هابيلَ لقابيلَ لعلَّه ينْزجرُ"[3]، وموعظةٌ له[4].

توجيه إرادةِ القتل على المجاز في قولِه: ﴿إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثۡمِي وَإِثۡمِكَ﴾:

الامتناعُ عن القتلِ المحرَّم للغيرِ إرادةٌ اضطراريّة لقتلِ النَّفسِ

إرادة أن يبوء الأخُ بقتل أخيه في قوله: ﴿إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثۡمِي وَإِثۡمِكَ﴾ مجازٌ، وهي إرادةٌ عن غير محبَّة ولا شهوة، وإنَّما هي تخيير بين شرَّين، كما تقول العرب: "في الشَّرِّ خيار"؛ لأنَّه لمَّا لم يكن بُدٌّ من أن يكون قاتلًا أو مقتولًا، اختار - عن ضرورة وعن غير محبَّة لذلك - أن يُقتل.

والمعنى: إنْ قتلتني، وسبق بذلك قدرٌ، فاختياري أنْ أكون مظلومًا ينتصر اللّه لي في الآخرة، فصار في كفِّ يدِهِ عمَّن يقتلُهُ بمنزلة من يريدُ القتل لنفسه، فهو مجاز على هذا[5].

قال الشَّربيني: "فإن قيل: كيف قال: أريد أن تبوء بإثمي وإثمك وإرادة القتل والمعصية لا تجوز؟ أجيب: بأنَّ ذلك ليس بحقيقةِ إرادة، لكنَّه لمَّا علم أنَّه يقتله لا محالة ووطَّن نفسه على الاستسلام طلبًا للثَّواب، فكأنَّه صار مريدًا لقتله مجازًا، وإن لم يكن مريدًا حقيقة"[6]، وفي "ذلك بيان للنَّتيجة لامتناعه عن مقاومة أخيه، فهو إذ أراد الامتناع عن بسط يد الأذى لأخيه؛ فكأنه أراد النَّتيجة

(1) أبو السّعود، إرشاد العَقْل السّليم: 3/27، والآلوسي، روح المعاني: 3/283.
(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/171.
(3) الصّاوي، حاشية على تفسير الجلالين، ص: 448.
(4) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/172.
(5) مكي بن أبي طالب، الهداية إلى بلوغ النهاية: 3/1682، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/230.
(6) الشربيني، السّراج المنير: 1/370.

المحتومة لذلك، وهي أن يبوء بإثم نفسه وإثمه، فإنَّ إرادة السَّبب كأنَّها إرادة للمسبِّب"[1].

توجيه إرادةِ القتل على الحقيقة في قوله: ﴿إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثۡمِي وَإِثۡمِكَ﴾:

وقيل: الإرادة مستعملةٌ على الحقيقة؛ لأنّه لمَّا قال: ﴿لَأَقۡتُلَنَّكَۖ﴾؛ استوجب النَّار بما تقدَّم في علم الله ﷻ أنَّه سيفعل، والمعنى: إذا قتلتني؛ أردت ذلك لك؛ لأنَّه إرادة الله للقاتل، وعلى المؤمن أن يريد ما أراد الله[2]، فالإرادة هنا: حقيقة لا مجاز، ومعنى ﴿بِإِثۡمِي﴾؛ أي: بإثم قتلي، ومعنى ﴿وَإِثۡمِكَ﴾؛ أي: وإثمك الَّذي من أجله لم يُتقبَّل منك قربانك، أو معناه: بإثم قتلي، وإثم اعتدائك عليَّ؛ لأنَّه يأثم في الاعتداء، وإنْ لم يقتل، أو المعنى: ﴿بِإِثۡمِي﴾ الَّذي كان يلحقني لو بسطتُ يدي إليك، وإثمك في تحمُّلك قتلي، أو: بإثم قتلي، وإثم معاصيك المتقدِّمة لك[3]، ويجوز أن يكون المراد بالإثم: عقوبته، وإرادة عقاب العاصي جائزة[4].

المؤمنُ يستجيبُ لحكم الله لعلمه أنَّه في إرادته المكتوبةِ

وجْه الحمْل على الحقيقة في إرادة شقاوة أخيه، وفعله الشَّرَّ مشروطٌ بالقتل:

وجواز إرادة شقاوة أخيه بأن يفعل الشَّرَّ، وأن يكون من أصحاب النَّار مشروطٌ بالقتل؛ أي: أريد إن قتلتني أن تبوء بإثمي وإثمك، وأن تكون من أصحاب النَّار، وهذه الإرادة ليست بقبيحة[5]؛ لأنَّه بصنيعه هذا يصبح ظالمًا، وجزاء الظَّالم حسن جائز أن يراد[6].

فنُّ الاتِّساع بالحذف:

قال الزَّمخشريُّ في قوله تعالى: ﴿إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثۡمِي وَإِثۡمِكَ﴾: "تحتمل إثم قتلي لك؛ لو قتلتك، وإثم قتلك لي، فإن قلت: كيف

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 4/2128.
(2) مكي بن أبي طالب، الهداية إلى بلوغ النهاية: 3/1681.
(3) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 4/326.
(4) الطّيبي، فتوحُ الغيب: 5/336.
(5) مكي بن أبي طالب، الهداية إلى بلوغ النهاية: 3/1681، والرّاغب، تفسير الرّاغب: 4/326.
(6) الزَّمخشريّ، الكشَّاف: 1/625، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/230.

يحمل إثم قتله له، ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الأنعام: 164 - فاطر: 18]؟

حذف المِثل فاشٍ في كلامِ العربِ، وهـو أسـلـوبٌ قرآنيٌّ بديع

قلت: المراد بمِثْل إثمي على الاتِّساع[1] في الكلام، كما تقول: قرأت قراءة فلان، وكتبت كتابته، تريد المِثْل، وهو اتِّساعٌ فاشٍ مستفيضٌ لا يكاد يستعمل غيره"[2]، وقال: "والمثل يحذف كثيرًا في كلامهم، كقولك: ضربته ضربَ زيدٍ، تريد: مثل ضربه.. وذلك أنَّ المثلين يسدُّ أحدهما مسدَّ الآخر، فكانا في حكم شيء واحد"[3].

وفنُّ الاتِّساع في الآية: في إرادته إثم أخيه؛ لأنَّ معناه: إنِّي لا أريد أن أقتلك فأعاقب؛ إذ لمَّا لم يكن بدٌّ من إرادة أحد الأمرين: وهما إمَّا إثمه بتقدير أن يدفع عن نفسه، فيقتل أخاه، وإمَّا إثم أخيه بتقدير أن يستسلم، وكان غير مريد للأوَّل، فاضطرَّ إلى الثَّاني، فلم يرد إذن إثم أخيه لعينه، وإنَّما أراد أنَّ الإثم هو بالمدافعة المؤدِّية إلى القتل، ولم تكن حينئذٍ مشروعة، فلزم من ذلك إرادة إثم أخيه.

دلالةُ الكنايةِ في لفظ البوء:

ذهب الطَّيبيُّ إلى أنَّ توجيه قوله تعالى: ﴿أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِى﴾، على معنى (أن تحتمل إثم قتلي لك) هو كناية عن إرادة تمكِّنه من قتل أخيه[4]، وقدرته على ذلك، وهو دليلٌ على شجاعته وقوَّته.

سرُّ التَّوكيد والتَّعبير بالمصدر المؤوَّل:

دلالـة التَّوكيد قـوَّة التَّعـبير عـن الإرادة، وتوكيدها

أكَّدَ مطلعَ جملة إرادته بـ(إنَّ) المسندة إلى ضميره، بما يحمله المضمر من قصد القيام بالفعل، وقوَّى هذا التَّوكيد بالتَّعبير عن مفعول (أريد) بالمصدر المؤوَّل ﴿أَن تَبُوٓأَ﴾، وهو أقوى، وآكدُ في الدَّلالة على الحدث من الفعل، والمصدر المجرَّد.

---

(1) فن الاتِّساع: هو ضرب من الحذف، إلا أنك لا تقيم المتوسع فيه مقام المحذوف، وتعربه بإعرابه، وتحذف العامل في الحذف، وتدع ما عمل فيه على حاله في الإعراب، ولا يجري الاتساع في المتعدي إلى اثنين، لأنه يصير ملحقًا ببنات الثلاثة، وهي أفعال محصورة لا يجوز القياس عليها، ينظر: الكفوي، الكليات، ص: 36.

(2) الزَّمخشريّ، الكشَّاف: 1/624.

(3) الزَّمخشريّ، الكشَّاف: 1/384، وأبو موسى، البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري، ص: 486.

(4) الطِّيبي، فتوحُ الغيب: 5/335.

فائدةُ تعريف الإثم بالإضافة:

الـــرَّبـــط بـين الـــجـــمـــلِ، والإيـــجـــاز، وترسيخ معنى الإرادة

لفظ (إثم) في قوله: ﴿إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثۡمِي وَإِثۡمِكَ﴾ مراد به الجنس؛ أي: ما عسى أن يكون له من إثم[1]، وتحقَّق بإضافته إلى ضميره، وضمير أخيه الرَّبطُ بين الجملتين، فضلًا عن إيجاز الكلام بما يغني عن إعادة الاسم الظَّاهر، وفيه ترسيخٌ لمعنى الإرادة.

فنُّ الإدماجِ البديعيِّ في عطفِ: ﴿وَإِثۡمِكَ﴾:

تـــذكـــيرُ الأخِ بفظاعة العاقبة حـــزنًـــا عـــلـــيـــه، تواضعٌ، وهضمٌ للنفس

عطف قوله: ﴿وَإِثۡمِكَ﴾ على قوله: ﴿إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثۡمِي﴾؛ تذكيرًا له بفظاعة عاقبة فعلته، كقوله تعالى: ﴿لِيَحۡمِلُوٓاْ أَوۡزَارَهُمۡ كَامِلَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَمِنۡ أَوۡزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيۡرِ عِلۡمٍۗ﴾ [النَّحل: 25]، فهذا العطفُ إدماجٌ بذكرِ ما يحصل في نفس الأمر، وليس هو ممَّا يريده[2]، وفي ذكر المتكلِّم إثمه وإثم أخيه: "تواضعٌ، وهضمٌ لنفسه بإضافة الإثم إليها على الوجْه الثَّاني، وتذكير للمخاطب بأنَّه ليس له حسنات تُوازي هذا الظُّلم الَّذي عزم عليه؛ ولذلك رَتَّب عليه قوله: ﴿فَتَكُونَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾؛ أي: تكون بما حملت من الإثمين من أهل النَّار في الآخرة؛ لأنَّك تكون ظالمًا، والنَّار جزاء كلِّ ظالم، فتكون من أهلها حتمًا"[3].

بديع التَّرقِّي في أسلوب الحثِّ على تركِ الفعلِ:

الـــتَّرقـــي في أسلوبِ الإقناعِ مـنـهـجٌ تـحـلَّى بـه الأتـقـيـاء في سبيل الارتقاء

ترقَّى هابيل في صرف أخيه قابيل عن عزمه على جريمة القتل من التَّبرُّؤ إليه من سبب حرمانه من قبول قربانه ببيان: أنَّ سبب التَّقبُّل عند الله تعالى هو التَّقوى، فإذا أراد أن يتقبَّل قربانه؛ فعليه أن يكون منهم، ثُمَّ أرشده إلى حقوق الأخوَّة وما تقتضيه من محبَّة ومودَّة وتسامح، ثُمَّ نَزَّه نفسه من جزائه على جنايته بمثلها، ثم

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/172.
(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/172.
(3) رضا، تفسير المنار: 6/284 - 285.

تذكيره بما يجب من خوف الله تعالى ربِّ العالمين، وأنَّه لا يمنعه من بسط يده إليه إلَّا هذا الخوف، فهو علَّة امتناعه، ثم ختم بتذكيره بأنَّ المعتدي يحمل إثم نفسه، وأنَّه سيؤدِّي به إلى عذاب النَّار يوم القيامة[1].

فبلغ من هذا وذلك أقصى ما يبلغه إنسان في صرف الشَّرِّ ودوافعه عن قلب إنسان، "من العظة والتَّذكير بالتَّرغيب تارةً، والتَّرهيب أخرى، فما أورثه ذلك إلَّا الإصرارَ على الغيِّ والانهماك في الفساد"[2].

بلاغة الكناية في لفظ (أَصْحاب):

صحبةُ النَّار دعوى الخلود في النَّار مع دليلها

معنى قوله تعالى: ﴿فَتَكُونَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِۚ﴾؛ أي: الملازمين لها[3]؛ "أي: ممَّن يطول عذابه في النَّار؛ لأنَّ أصحاب النَّار هم ملازموها"[4]، فوجْه الكناية طولُ الملازمةِ بالعذاب في النَّار، بل الخلود فيها؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن يَقۡتُلۡ مُؤۡمِنٗا مُّتَعَمِّدٗا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدٗا فِيهَا﴾ [النساء: 93].

بلاغة الفاصلة القرآنيَّة في قوله: ﴿وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾:

قوله تعالى: ﴿وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ صريحٌ في أنَّ كونه من أصحاب النَّار هو تمامُ العقوبة وكمالُها، والجُملة تذييلٌ مقرِّرٌ لمضمونِ ما قبلَها[5].

فائدةُ ذكرِ وصف الظُّلم في قوله: ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾:

ذكرُ العلَّة المستوجبةِ لعذاب الله بغرضِ الارتداع

في قوله تعالى: ﴿وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ نبَّه "على السَّبب الموجب للقتل، وأنَّه قتل بظلم لا بحقٍّ، والظَّاهر أنَّه من كلام هابيل نبَّهه على

(1) رضا، تفسير المنار: 6/285، وطنطاوي، التفسير الوسيط: 4/122.
(2) أبو السّعود، إرشاد العَقْل السّليم: 3/28.
(3) الخازن، لباب التأويل: 2/40، والقِنَّوجِيّ، فتح البيان: 3/399.
(4) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/172.
(5) أبو السّعود، إرشاد العَقْل السّليم: 3/28.

العلَّة ليرتدع، وقيل: هو من كلام الله تعالى، لا حكاية كلام هابيل، بل إخبار منه تعالى للرَّسول ﷺ"[1].

الإشـــارةُ إلى الـجـزاءِ لتميُّزه وعِظم شأنه

تضمُّنُ جملة التَّذييل: ﴿وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ اسم الإشارة؛ لزيادة تمييز الجزاء وبيانه، والتَّعبير عن الظَّالمين بصيغة اسم الفاعل مجموعًا دليلُ رسوخه في وصف الظُّلم[2].

أي: "وكينونتك من أصحاب النَّار جزاؤك؛ لأنَّك ظالم في قتلي"[3]، وفي ذلك تصريحٌ بتمام العقوبة وكمالها في كونه من أصحاب النَّار[4]، وتذكيرٌ لأخيه بما عسى أن يكفَّه عن الاعتداء[5].

توجيه المتشابه اللَّفظيّ:

الـقـتـل إنـقـاصٌ لـلـحـيـاة، ويـنـاسـبـه لفظ الظُّلم

ختم الفاصلة ههنا بوصف ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ بقوله: ﴿وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، وختم بوصف ﴿ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ في سورة التَّوبة بقوله: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودٗا لَّمۡ تَرَوۡهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٢٦﴾ [التوبة: 26]، فلمَّا كان الإثمُ في هذه السُّورة قتْلَ الأخ أخاه بغير نفس، وكان ذلك إنقاصًا له في الحياة، وهو من الظُّلم؛ ناسبه فاصلة: ﴿وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، أمَّا آية التَّوبة؛ فقد تقدَّم الفاصلةَ فيها قولُه: ﴿وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ﴾ [التوبة: 26]، فناسبه الختم بلفظ ﴿ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾، فجاءَتْ كلُّ صفةٍ بما يناسب سياقها.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الإِثْم، والخَطِيئَة، والذَّنب، والحُوب، والوزر، والمعصية:

الإِثْم: هو التَّمادي في الفعل، ولا يكون إلَّا تعمُّدًا، وهو في أصل اللُّغَة التَّقْصِير، وهُوَ الْقَبِيح الَّذِي عَلَيْهِ تبعة.

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/232.
(2) الشربيني، السراج المنير: 1/370.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/232.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 3/285.
(5) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/172.

الْخَطِيئَة: قد تكون من غير تعمُّد، ثمَّ قد تكثرُ حَتَّى تسمَّى الذُّنُوب كلُّها: خَطَايَا، كَمَا سمِّيت إسرافًا، وأصل الإسراف: مُجَاوزَة الْحَدِّ فِي الشَّيْء.

الذَّنب: هُوَ الْقَبِيح من الْفِعْل، وَلَا يُفِيد معنى: التَّبعة، وَلِهَذَا قيل للصَّبِيِّ: قد أذْنب، وَلم يُقل: قد أَثِم، وَالْأَصْل فِي الذَّنب: الرَّذيل من الْفِعْل، وهو مَا يتبعهُ الذَّمُّ، أَو مَا يُتبَع عَلَيْهِ العَبْدُ من قَبِيح فعله، وَذَلِكَ أَنَّ أصل الْكَلِمَة: الِاتِّبَاع؛ فَأَمَّا قَوْلهم للصَّبِيِّ: قد أذْنب، فإنَّه مجَازٌ، وَيجوز أَن يُقَال.

الجُرْمُ: مَا يَنْقَطِع بِهِ عَنِ الْوَاجِب، وَذَلِكَ أَنَّ أَصله فِي اللُّغَة: الْقطع.

الْحُوب: يُفِيد أَنَّه مزجور عَنهُ، وَذَلِكَ أَنَّ أَصله فِي الْعَرَبيَّة: الزَّجر، وَمِنْه يُقَال فِي زجر الْإِبِل: حوب حوب، وَقد سمِّي الْجمل بِهِ؛ لِأَنَّهُ يُزْجر، وحاب الرَّجل يحوب، وَقيل للنَّفس: حوباء.

الْوزر: يثقل صَاحبه، وَأَصله: الثِّقل، وَمِنْه قَوْله تَعَالَى: ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝٢ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ۝٣﴾ [الشرح: 2، 3] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ [محمد ﷺ: 4] أَي: أثقالها، يَعْنِي: السِّلَاح، وَقَالَ بَعضهم: الوِزْرُ منَ الوَزَرِ، وَهُوَ الملجأ، يُفِيد أَن صَاحبه ملتجئ إِلَى غير ملْجأ، وَالْأَوَّل أَجود[1].

العصيان: "مخالفة الأمر، والخروج عن الطَّاعة"[2]، ومعنى التَّعمُّد والتَّبعة والتَّمادي المضمَّنة في لفظ الإثم: هو علَّة اختياره في الآية؛ لمناسبته قصديَّة فعل القتل الَّتي بادر بها الأخ القاتل أخاه.

(1) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 233 - 234.
(2) السّمين، عمدة الحفّاظ: (عصي).

﴿فَطَوَّعَتۡ لَهُۥ نَفۡسُهُۥ قَتۡلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٣٠﴾ [المائدة: 30]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

بيَّنت الآية تأثير هذه المواعظ في نفس ذلك الحاسد الظَّالم[1]، والمتوقَّع أن يكون هذا الوعظ جديرًا بأن يكون سببًا لطاعته، وزاجرًا له عن معصيته، لكن قسا قلبه، فجعله سببًا لإقدامه على قتل أخيه[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَطَوَّعَتۡ﴾: "الطَّاءُ والواوُ والعينُ: أصل صحيح واحد يدلُّ على الإصحاب والانقياد، يقال: طاعه يطوعه؛ إذا انقاد معه، ومضى لأمره"[3]، فالطَّوْعُ: الانقيادُ، وهو نقيض الكَرْه، و"فلانٌ طَوْعُ يديك، أي: منقادٌ لك، وفرسٌ طَوْعُ العنان؛ إذا كانَ سلسًا"[4]، "وكلُّ ما في القرآن من التَّركيب هو بمعنى: اللِّين والانقياد وما يؤخذ منهما كالاستطاعة والتَّطوُّع"[5].

فمعنى (طوَّعتْ) في الآية: مشتقٌّ من معنى الانقياد؛ أي: شجَّعتْه، وأعانتْه على قتل أخيه، وأجابته إليه، وسهَّلت له نفسه ذلك، وتابعته، وزيَّنت، وسمحتْ، وهوَّنتْ، وسوَّلتْ، وشايعتْ[6].

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

استحكام الشَّرِّ والشَّهوة يعلو المواعظ والنصائح

أعرضت نفس الأخ عن الموعظة والنَّهي، والزَّجر، واستجابت لهواها، وشهوتها؛ لينتهي الموقف بين الأخوين إلى تلك النِّهاية السَّيِّئة، فسمحت نفس الأخ، واتَّسعت لقبول هذا المنكر الغليظ، فقتل

(1) رضا، تفسير المنار: 6/285.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 6/121.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (طوع).
(4) الخليل، العين، والجوهري، الصّحاح، والرّاغب، المفردات: (طوع).
(5) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (طوع).
(6) الواحدي، التفسير البسيط: 7/340 - 342، والبَغَويّ، معالم التّنزيل: 3/43.

أخاه، وأخمد أنفاسه، ظلمًا وعدوانًا، فكتب بيده وثيقة خسرانه، وسطَّر بهذا الدَّم البريء المسفوك الحكم بإدانته، وسوء مصيره[1].

وترشدُ الآية الكريمة إلى أنَّ الشَّرَّ حين يستحكم في النَّفس، وينتصر على نوازع الخير والمحبَّة فيها، فإنَّ العُقبى خسرانٌ، والمآلَ ندامةٌ[2].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

معنى الفاءِ في قولِه تعالى: ﴿فَطَوَّعَتۡ﴾:

تناسقُ فاءِ التَّعقيب مع فعل التَّطويعِ من بديعِ التَّصويرِ

قيل في الفاء في قوله: ﴿فَطَوَّعَتۡ لَهُۥ نَفۡسُهُۥ﴾: إنَّها للسَّببية؛ أي: إنَّ تخلِّي هابيلَ عن المقاومة والمقاتلة كان سببًا لتسهيل أمرِ القتل[3]، أو إنَّها عاطفةٌ دلَّت على التَّفريع والتَّعقيب[4]؛ لتفيدَ ترتيبَ حصولِ معطوفِها بعد حصولِ المعطوف عليه، فمعنى ﴿فَطَوَّعَتۡ﴾: أجابته إلى ذلك، وانقادتْ له إلى ذلك، فَفَعَلَ[5]، فالفاء متناسقةٌ مع فعل التَّطويع، وهو ما يُصوِّر سلاسةَ القتلِ وسهولته عند القاتلِ بعد اتَّخاذ قرار القتلِ، وهو فنٌّ تصويريٌّ بديع.

فائدةُ التَّعبير بالفعل (طوَّع):

ينطوي خلف فعل (طوَّع) معنى التَّردُّد، الذي انتهى بالقتلِ

دلَّ التَّعبير بفعل (طوَّعتْ) على "حدوث تردُّدٍ في نفس قابيل، ومغالبة بين دافع الحسد ودافع الخشية، فعلمنا أنَّ المفرَّع عنه محذوف، تقديره: فتردَّد مليًّا، أو فترصّد فرصًا، فطوَّعت له نفسه، فقد قيل: إنَّه بقي زمانًا يترَبَّص بأخيه، (وطوَّع) معناه: جعله طائعًا؛ أي: مكَّنه من المطوَّع"[6]، فهذه "الكلمة تدلُّ على تدريج، وتكرار في

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 3/88، والخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 3/1077.
(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 4/2128.
(3) القونوي وابن التمجيد، حاشيتان على البيضاوي: 7/447.
(4) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/172.
(5) مكي بن أبي طالب، الهداية إلى بلوغ النهاية: 3/1683.
(6) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/172.

حمل الفطرة على طاعة الحسد الدَّاعي إلى القتل؛ كتذليل الفرس، فهي تمثِّل ولد آدم الَّذي زيَّن له حسده لأخيه قتله، وهو بين إقدام وإحجام، يفكِّر في كلِّ كلمة من كلمات أخيه الحكيمة، فيجد في كلٍّ منها صارفًا له عن الجريمة، يدعم، ويؤيِّد ما في الفطرة من صوارف العقل والقرابة والهيبة، فغلب الحسد من نفسه الأمَّارة على كلِّ صارف في نفسه اللوَّامة، فلا يزالان يتنازعان، ويتجاذبان حتَّى يغلب الحسد كلًّا منها، ويجذبه إلى الطَّاعة، فإطاعة صوارف الفطرة وصوارف الموعظة لداعي الحسد: هو التَّطوُّع الَّذي عناه اللّه تعالى، فلمَّا تمَّ كلُّ ذلك؛ قَتَلَهُ، وهذا المعنى: يدلُّ عليه اللَّفظ، ويؤيِّده ما يعرف من حال البشر في كلِّ عصر بمقتضٍ"[1].

بلاغةُ الاستعارةِ التَّمثيليَّة:

تصويرُ فعلِ (فطوَّعَتْ) النَّفسَ بالآمرة بالشَّرِّ النَّاهية عن الخيرِ

إنَّ الإنسان إذا تصوَّر من القتل العمد العدوان؛ كونه من أعظم الكبائر، فهذا الاعتقاد يَصِيرُ صارفًا له عن فعله، فيكون فعل القتل كالشَّيء العاصي المتمرِّد عليه المستصعب العظيم على النُّفوس حرمةً ومهابةً، الَّذي لا يطيعه بوجْه البتَّة، فإذا أوردتِ النَّفسُ اللحوحُ الأمَّارةُ أنواع وساوسها؛ صار هذا الفعل سهلًا عليه، فكأنَّ النَّفسَ جعلت بوساوسها العجيبة هذا الفعل كالمطيع له، بعد أن كان كالعاصي المتمرِّد، النَّافر منه، وصوَّرت له أنَّ قتل أخيه طوعٌ له سهلٌ عليه حتَّى أوقعته في المحظور الشَّنيع[2].

قال الشَّريف الرَّضيُّ: "وهذه استعارة، والمراد: سوَّلت له، وقرَّبت عليه نفسه، ففعل، وطوَّعت: فعَّلت من الطَّوع؛ أي: سهَّلت نفسه عليه ذلك حتَّى أتاه طوعًا، وانقاد إليه سمحًا"[3].

"فالطَّوع والطَّواعية: ضدُّ الإكراه، والتَّطويع: محاولة الطَّوع، شبَّه قتل أخيه بشيء متعاصٍّ عن قابيل، ولا يطيعُه بسبب معارضة التَّعقُّل

(1) رضا، تفسير المنار: 6/285.
(2) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 11/340، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/232.
(3) الشّريف الرضّي، تلخيص البيان: 2/131.

والخشية، وشبَّهت داعية القتل في نفس قابيل بشخص يعينه، ويذلِّل له القتل المتعاصي، فكان (طوَّعت) استعارة تمثيليَّة، والمعنى الحاصل من هذا التمثيل: أنَّ نفس قابيل سوَّلت له قتل أخيه بعد ممانعة"[1].

توجيه القراءات القرآنيَّة:

قراءةُ طاوعت تدلُّ على مزيدِ ذمٍّ للقاتلِ لاشتراكِه في التَّسهيل

قرأ الحسن والجرَّاح والحسن بن عمران وأبو واقد: (فطاوعت)؛ ليكون ممَّا جاء من فاعل بمعنى: فعل، الدَّالِّ على الاشتراك، نحو: ضاربتُ زيدًا، والمعنى: كأنَّ القتل يدعو إلى نفسه، ويحثُّها على الإقدام عليه بسبب الحقد، والحسد الَّذي أصاب قابيل، فطاوعت النَّفس القتل، ولم تمتنع، فواقعته[2].

وقرأ الجمهور ﴿فَطَوَّعَتْ﴾، والمعنى: أنَّ القتل في ذاته مستصعب عظيم على النُّفوس، تأباهُ، وترفضه، فردَّ هذه النَّفس اللَّجوجة الأمَّارة بالسُّوء طائعًا منقادًا حتَّى واقعه صاحب هذه النَّفس[3].

غرضُ الإتيان بالجارِّ والمجرور في قوله: ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُۥ﴾:

تصوير شدَّةِ الحرصِ على القتلِ بالوساوسِ اللَّحوحة

الجارُّ والمجرور في قوله: ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُۥ﴾؛ لزيادة الرَّبط، كقولك: حفظت لزيد ماله[4]، يعني: أنَّه لو جاء، فطوَّعت نفسه قتل أخيه؛ لكان كلامًا تامًّا جاريًا على كلام العرب، وإنَّما جيء به على سبيل زيادة الرَّبط للكلام، والتَّقوية للعمل؛ إذ الكَلَام يتمُّ بدونها، ويحصل بأن يقال: فطوَّعته نفسه قتل أخيه، كما أنَّك لو قلت: حفظت مال زيد؛ كان كلامًا تامًّا[5]، وغرض هذه اللَّام تأكيدُ معنى الحرصِ على تطويعِ القتلِ وتسهيله، وفيه دعوةٌ للحذرِ من متابعةِ النَّفسِ فيما تُمليه على صاحبِها من وساوس وأفكار.

(1) ابن عاشور، التَّحريرُ والتَّنوير: 6/172.
(2) الزَّمخشريّ، الكشَّاف: 1/626، وابن عطية، المحرّر الوجيز: 2/179 - 180، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/232، وقراءة الحسن والجرَّاح والحسن بن عمران وأبو واقد هذه قراءة شاذة.
(3) ابن عطية، المحرّر الوجيز: 2/179 - 180.
(4) الزَّمخشريّ، الكشَّاف: 1/626.
(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/232 - 233، والقونوي وابن التمجيد، حاشيتان على البيضاوي: 7/447.

براعة الإطناب في جملة الطَّواعية:

مـآلُ الإطنـابِ إيـجـازٌ يُـصـوِّر فـظـاعـةَ حـالـة القاتل وقساوة قلبه

قال ابن عاشور: "وقد سلك في قوله: ﴿فَطَوَّعَتۡ لَهُۥ نَفۡسُهُۥ قَتۡلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ﴾ مسلك الإطناب، وكان مقتضى الإيجاز أن يحذف ﴿فَطَوَّعَتۡ لَهُۥ نَفۡسُهُۥ قَتۡلَ أَخِيهِ﴾، ويقتصر على قوله: ﴿فَقَتَلَهُۥ﴾، لكن عدل عن ذلك لقصد تفظيع حالة القاتل في تصوير خواطره الشِّريرة وقساوة قلبه؛ إذ حدَّثه بقتل من كان شأنه الرَّحمة به والرِّفق، فلم يكن ذلك إطنابًا"[1] على الحقيقة، بل هو إيجازٌ بليغ، ظهر في صورة الإطناب، فإنَّ الغرضَ البلاغيَّ في الكلامِ إنَّما يتحقَّقُ في جزالةِ الألفاظِ.

نكْتَة التَّصريح بلفظ الأخوَّة:

ذكـر الأخـوَّة في معرض القتل؛ لتصويرِ كمالِ إدانتِه

التَّصريح بالأخوَّة في قوله: ﴿قَتۡلَ أَخِيهِ﴾ لكمال تقبيح ما سوَّلته نفسه؛ لأنَّ من حقوق الأخوَّة أنْ يحفظه من كلِّ من قصده بالسُّوء بالتَّحمُّل على نفسه، لا أن يترصَّد له الأذى[2]؛ فلمَّا أتى بعكس المتوقَّعِ كان نعتُه بالأخوَّة إدانةً بليغة.

دلالة الفاء في قوله: ﴿فَقَتَلَهُۥ﴾:

المـسـارعـةُ في الـقـتـلِ بعد العزمِ عليه إثمٌ بالغٌ، وشرٌّ ذريعٌ

الفاء في قوله: ﴿فَقَتَلَهُۥ﴾ للسَّببيَّة، قال البقاعيُّ: "ثمَّ سبَّب عن هذا التَّطويع قوله: ﴿فَقَتَلَهُۥ﴾"[3]، فنبَّه بقوله: ﴿فَقَتَلَهُۥ﴾ "أنَّه تبع شيطانه الدَّاعي إلى ذلك؛ تنبيهًا أنَّ متابعة الشَّيطان والهوى سببُ كلِّ شَرٍّ"[4]، ويُلمح من ذكر الفاء: أنَّه ما إنْ اتَّخذَ قراره لم يتوانَ في القتل، ولم يتمهَّل، ولم يتردَّد.

توجيه افتتاح التَّذييل بلفظ ﴿فَأَصۡبَحَ﴾:

ومعنى ﴿فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾: صار، ويكون المراد بالخسارة

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/172.
(2) القاسمي، محاسن التأويل: 4/110.
(3) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 6/122.
(4) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 4/327 - 328.

هنا: خسارة الآخرة؛ أي: صار بذلك القتل ممَّن خسر الآخرة، ويجوز إبقاء ﴿فَأَصۡبَحَ﴾ على ظاهرها؛ أي: غدا خاسرًا في الدُّنيا، والمراد بالخسارة: ما يبدو على الجاني من الاضطراب وسوء الحالة وخيبة الرَّجاء، فتفيد أنَّ القتل وقع في الصَّباح[1]، "قال ابن عباس: أمَّا في الدُّنيا؛ فأسخط والديه، وبقي بلا أخ، وأمَّا في الآخرة؛ فأسخط ربَّه تعالى، وأمر به إلى النَّار"[2].

الخسارةُ أخرويَّةٌ على الحقيقة، ودنيويّة بالتبع

وجه تخصيص الصَّباح بالذِّكر:

خصَّ الصَّباح بذلك؛ لأنَّه بدء النَّهار والانبعاث إلى الأمور، ومظنَّة النَّشاط[3]، ومحلُّ توقُّع الارتياح[4]؛ "لأنَّ (أصبح) تدلُّ على أنَّه كان مدركًا لما ارتكب عندما أشرق نور الصُّبح، كأنَّه وقت الحيرة، أو إرادة الارتكاب في ظلمة من عقله وقلبه، وفي ديجور من الظَّلام يشبه ظلام اللَّيل، حتَّى كان الصُّبح المنير الَّذي أراه الأمور على وجْهها، وأدرك في ذلك الضَّوء الَّذي جاء عند الصَّباح مقدار الإثم فيما فعل"[5].

خصَّ الفاصلة بالصَّباح؛ لأنَّه بدء الانبعاث، ومبعث الهمَّة والنَّشاط

علَّة مجيء الفاصلة على صيغة اسم الفاعل:

وعبَّر عن خسارة الأخ القاتل بقوله: ﴿مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ بصيغة اسم الفاعل المجموعِ جمعَ مذكَّرٍ سالمًا؛ للدَّلالة على رسوخ صفة الخسران فيه، وكأنَّ كينونته أنَّه خاسر؛ أي: أصبح من "العريقين في صفة الخسران بغضب الله عليه؛ لاجترائه على إفساده مصنوعَه، وغضب أبناء جنسه عليه لاجترائه على أحدهم"[6].

غضب الله مظنَّة رسوخِ الخسران، وثبوتِه صفةً في القاتل

(1) ابن عاشور، التَّحريرُ والتَّنوير: 6/173.
(2) الرَّاغب، تفسير الرَّاغب: 4/328.
(3) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/180.
(4) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 6/122.
(5) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 4/2130.
(6) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 6/122.

الفرقُ بين استعمالِ طوَّعت وسوَّلت:

الفرق بين قوله: ﴿فَطَوَّعَتْ﴾ في هذه الآية، وبين ﴿سَوَّلَتْ﴾ في قوله تعالى: ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا﴾ [يوسف: 18]: أنَّ ﴿سَوَّلَتْ﴾ معناها: زيَّنت له، وليس فيها شدَّة (طوَّعت) وقوَّتها، فنحن نقول مثلًا: الحديد يحتاج إلى تطويع؛ أي: يحتاج إلى جهد حتَّى تطوِّعه، وكذلك إنْ أردت أن تطوِّعَ جملًا، أو فرسًا، أو وحشًا من الوحوش؛ فإنَّك تحتاج لوقت حتَّى تجعله يطيعك، مع جهد وبذل ومبالغة في التَّطويع حتَّى تروِّضه، والتَّسويل لا يحتاج إلى مثل ذلك الجهد.

التَّطويع مظنَّة الشدَّة، وترويض النَّفس، والتَّسويلُ مظنَّة اليسر والسهولة

ولمَّا كان قابيل يفكِّر هل يمكن أن يقدم على قتل أخيه، فاحتاج وقتًا؛ لترويض نفسه ليفعل هذا الفعل، قال: ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ﴾، وفي طه قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي ۝٩٦﴾ [طه: 96]، أمَّا في قصَّة السَّامريِّ؛ فالأمر أيسر وأسهل؛ لأنَّه لم يقتل أخاه[1]، وكذلك الأمر مع إخوة يوسف عليه السلام؛ إذ رموه في غيابة الجبِّ، ولم يقتلوه يقينًا، فقد كانوا متردِّدين بين قتله ورميه في الجُبِّ: ﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ﴾ [يوسف: 10]، فليس في الأمر عزمٌ وشدَّة، فضلًا عن كونه حديثًا ليوسف عليه السلام مع إخوته قبل أن يقوموا بفعلتهم، ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا﴾ [يوسف: 18].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الاستطاعة ومرادفاتها:

القدرة: ما يظهر من القوَّة بقدر العمل لا زائدًا عليه ولا ناقصًا.

الاستطاعة: ما يصير به الفعل طائعًا له بسهولة.

الوسع: ما يسع له فعله بلا مشقَّة.

(1) السامرائي، والنعيمي، والكبيسي، لمسات بيانية لسور القرآن الكريم: 6/66 - 67.

الجهد: ما يتعاطى به الفعل بمشقَّة.

الطَّاقة: بلوغ غاية المشقَّة[1].

ومن هنا ندرك علَّة اختيار لفظة ﴿فَطَوَّعَتْ﴾ دون مقارباتها؛ لما فيها من معنى طوعان الفعل بيسر وسهولة الَّذي يناسبُ ما تقدَّم من تسويل نفسه الأمَّارة بالسُّوء، ومنازعتها إيَّاه بالتَّوجيه بالقتل.

(1) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 1/388.

﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبۡحَثُ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُرِيَهُۥ كَيۡفَ يُوَٰرِي سَوۡءَةَ أَخِيهِۚ قَالَ يَٰوَيۡلَتَىٰٓ أَعَجَزۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِثۡلَ هَٰذَا ٱلۡغُرَابِ فَأُوَٰرِيَ سَوۡءَةَ أَخِيۖ فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ٣١﴾ [المائدة: 31]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا كان التَّقدير: ثُمَّ إنَّ الأخ القاتل لم يدرِ ما يصنع به؛ إذ كان أوَّل ميِّتٍ، ولم يكن الدَّفنُ معروفًا؛ سبَّبَ عنه قوله: ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ﴾؛ أي: أُلهم بالفطرة بأنَّ عليه ستر سوءة أخيه، ومواراته عن الأنظار، فبعث الله الغراب لهذه المَهمَّة[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَبۡحَثُ﴾: "الباءُ والحاءُ والثَّاء: أصلٌ واحدٌ، يدلُّ على إثارة الشَّيء، قال الخليل: البحث: طَلَبُك شيئًا في التُّراب"[2]، البَحْثُ: الكشف والطَّلب، يقال: بَحَثْتُ عن الأمر[3]، وهو: التَّنقيب على الشَّيء والاجتهاد في معرفة باطنه وخفيه، وأصله: من بحث الأرض لمعرفة ما داخلها وإثارة ما كان كامنًا فيها، قال الله تعالى: ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبۡحَثُ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾؛ أي: يثيرها، ويوقع الحفر بمنقاره، وذلك ليعلم قابيل كيف يدفن أخاه[4].

2) ﴿يُوَٰرِي﴾: "التَّوْرِيةُ: إخفاء الخبر، وعدم إظهار السِّرِّ، تقول: وَرَّيته تَوْرِيةً"[5]، وواريت الشَّيء؛ أي: أخفيته، وتوارى هو؛ أي: استتر[6]، وقوله: ﴿فَأُوَٰرِيَ سَوۡءَةَ أَخِيۖ﴾؛ أي: أسترها، وكذا قوله: ﴿يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ﴾ [الأعراف: 26]، ومثله: ﴿حَتَّىٰ تَوَارَتۡ بِٱلۡحِجَابِ ٣٢﴾ [ص: 32][7].

3) ﴿سَوۡءَةَ﴾: السِّين والواو والهمزة: من باب القبح، تقول: رجل أَسْوَأ؛ أي: قبيح، وامرأة

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 6/122.
(2) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة: (بحث).
(3) الرّاغب، المفردات: (بحث).
(4) السّمين، عمدة الحفّاظ: (بحث).
(5) الخليل، العين: (وري).
(6) الجّوهري، الصّحاح، والرّاغب، المفردات: (ورى).
(7) السّمين، عمدة الحفّاظ: (وري).

سوآء؛ أي: قبيحة، ولذلك سُمِّيتِ السَّيِّئَة سيِّئة، وسُمِّيتِ النَّار سوءة؛ لقبح منظرها[1]، والسُّوء: كلُّ ما يغمُّ الإنسان من الأمور الأخرويَّة والدُّنيويَّة، ومنه أطلقتِ السَّوءةُ على العورة؛ لأنَّها تسوءُ من ينظر إليها، أو تُسيء من تظهر منه؛ لاستكراه ذلك طبعًا، أو لأَنَّ إظهارها عيبٌ شرعًا وَعُرفًا؛ ولذلك كُنِّي عن الْفَرْجِ بِالسَّوْءَةِ، وقوله تعالى: ﴿سَوْءَةَ أَخِيهِۚ﴾، يريد: ما ساءَه فيها[2]، وبذا فُسِّرت اللَّفظة في الآية، فهي "عورة أخيه، وما لا يجوز أن ينكشف من جسده"[3]، وقد يراد بالسَّوءة في الآية الجسم كلُّه بعد موته؛ لأنَّه بعد موته صار جسمه كلُّه سوءة يسوء النَّظر إليها، ولا تألف الطِّباع السَّليمة رؤيته، ولا سيَّما بعد أن تتحوَّل حالُه، ويتعفَّن[4].

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

بعد أن ارتكب القاتل جريمته، وأحسَّ بالخسارة الشَّديدة الَّتي نالته، لم يرد أن يترك جسم أخيه ملقًى تنهشه السِّباع، أو تمزِّقه جوارح الطُّيور، فأُلْهِمَ بالفطرة أنَّه لَا بدَّ من مداراة جسمه، وستره، وإبعاده عن الأنظار، فاستيقظت الأخوَّة في نفسه، بعد أنْ خبتت أمدًا ارتكبَ فيه جريمته، فاتَّجه لمواراةِ جثَّة أخيه، وسترها، وقد أراد اللّه تعالى أن يعلِّمه ذلك، فبعث غرابًا ليقوم بهذه المهمَّة[5]، ﴿فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ﴾، وهكذا عاقبةُ المعاصي النَّدامةُ والخُسْران[6].

من أقسى صور المهانة والإذلال أنْ تُعلِّمَ البهيمةُ العِبَرَ

من هدايات هذه الآية أنَّها مشهد عظيم لأوَّل حضارة في البشر، وهي من قبيل طلب ستر المشاهد المكروهة، وهو مشهد أوَّل علمٍ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سوء).
(2) الرّاغب، المفردات: (سوأ)، وابن الجوزي، نزهة الأعين النواظر، ص: 433، والسّمين، عمدة الحفّاظ: (سوأ).
(3) النّسفي، مدارك التنزيل: 1/442.
(4) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 4/2131.
(5) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 4/2131.
(6) السّعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 229.

اكتسبه البشر بالتَّقليد وبالتَّجربة، وهو مشهد أوَّل مظاهر تلقِّي البشر معارفه من عوالم أضعف منه، كما تشبَّه النَّاس بالحيوان في الزِّينة، فلبسوا الجلود الحسنة الملوَّنة، وتكلَّلوا بالرِّيش الملوَّن وبالزُّهور والحجارة الكريمة، فكم في هذه الآية من عبرة للتَّاريخ والدِّين والخلق[1].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

وظيفة الفاء الفصيحة في تقدير المحذوف:

(الفاء) في قوله: ﴿فَبَعَثَ﴾ هي الفاء الفصيحة، ووجْهها الإفصاحُ عن جواب شرط مقدَّر، تقديره: إذا عرفت أنَّه قتل أخاه، وأردت بيان ما فعله بجثَّة أخيه؛ فأقول لك: ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا﴾[2].

علَّة إيثارِ لفظ البَعْث:

في لفظ البعث بعثٌ لمشاعر الأخوّة وتوجيه بدفن الأخ لأخيه

ورد لفظ (البعث) في القرآن على ثمانية معانٍ، أحدها: الإلهام: ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ﴾؛ أي: ألهمه بالطَّيران إلى ذلك المكان، وأَصل البعث: إِثارة الشَّيءِ وتوجيهه، يقال: بعثْتُه فانبعث[3]، ومعنى الإثارة والتوجيه روعيَ في انتقاء اللَّفظة بصنيع الدَّفن إثارةً للأرض، ولمشاعر الأخ، وإرشادًا له بدفن أخيه.

بلاغةُ الاستعارةِ التَّصريحيَّة:

البعث والبحث بينهما تلاؤم لفظيّ، وانسيابٌ دلاليّ

في قوله: ﴿فَبَعَثَ﴾ "استعارة تصريحيَّة تبعيَّة، شبَّه فيها التَّسخيرَ بالبعثِ: بجامع ما في كلٍّ منهما من الحصول والنَّفع، كما أنَّ في ﴿يَبْحَثُ﴾ استعارة البحث للحفر، بجامع ما في كلٍّ منهما من ترتُّب شيء على شيء والظَّفر بالغاية"[4]، ويكمن جمال الاستعارة

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/174.
(2) الهرريّ، حدائق الروح والريحان: 7/255.
(3) الفيروزآبادي، بصائر ذوي التمييز: 2/214 - 215، وابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/173.
(4) المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 1/249.

في استعارةِ لفظ البعث للإرسال والإلهام، وفي استعارةِ لفظ البحث للحفر، وبين البعث والبحث تلاؤم بديع.

نكْتَة التَّعبير عن لفظ (البحث) بصيغة المضارع:

طول مدَّة البحث واستمراره تعريضٌ بجهلِ القاتل وغفلته

أصل كلمة البحث: كشفُ الأرض، أو دقُّها، أو حفرُها، وهو الكشف والطَّلب، فيقال: بحثت عن الأمر، وبحثت كذا، والمعنى: أنَّ الغراب أخذ يدقُّ بمنقاره مثيرًا للأرض، حتَّى حفر حفرة فيها، ثمَّ دفن ما شاء أن يدفنه، وأنَّه دأب في ذلك وقتًا طويلًا؛ بدليل التَّعبير بقوله: ﴿يَبۡحَثُ﴾ بالمضارع بدل الماضي؛ لأنَّ في التَّعبير بالمضارع إشارة إلى حال استمرَّت لا إلى واقعة وقعت فقط، فالتَّعبير بالمضارع عن أمر مضى لبيان أنَّ الفعل مكث وقتًا، وكان مجال استمرار[1]، أحدث بها حفرة في الأرض، فلمَّا رأى القاتل الحفرة، وهو متحيِّر في أمر مواراة سوءة أخيه؛ زالت الحيرة، واهتدى إلى ما يطلب، وهو دفن أخيه في حفرة من الأرض[2]، وفي هذا تعريضٌ بالقاتل ومزيدُ ذمٍّ؛ لكونه احتاج مثالًا، واستغرق وقتًا وجهدًا، حتَّى استفاق لسوء صنيعه، وشرور عمله.

معنى اللَّام في فعل الإراءة:

تـردُّدُ الـلَّامِ بين معنى العاقبة والتَّعليل

يجوز في اللَّام في قوله تعالى: ﴿لِيُرِيَهُۥ كَيۡفَ يُوَٰرِي سَوۡءَةَ أَخِيهِۚ﴾ وجْهان:

أحدهما: أنَّها متعلِّقة بـ ﴿يَبۡحَثُ﴾؛ أي: يَنْبُشُ، ويُثِيرُ التُّراب؛ للإراءة، فاللَّام للصيرورة والعاقبة؛ إذا كان الضَّمير عائدًا إلى الغراب؛ أي: لتكون عاقبة بحثه ما ذكر.

الثاني: أنَّها متعلِّقة بـ ﴿فَبَعَثَ﴾، والمعنى: لِيُرِيَه اللّه - وهو الصَّحيح -، أو ليريه الغرابُ، واللَّام في قوله تعالى: ﴿لِيُرِيَهُۥ﴾

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 4/2132.
(2) رضا، تفسير المنار: 6/286.

للتَّعليل؛ إذا كان الضَّمير راجعًا إلى اللّه تعالى؛ أي: إنَّه تعالى ألهم الغراب ذلك ليتعلَّم ابن آدم منه الدَّفن[1].

نكْتَة إضمار الفاعل:

فعل الله تعالى تعليميٌّ، وأمَّا الغراب ففعله تهكميٌّ

أضمر الفاعل في قوله تعالى: ﴿لِيُرِيَهُۥ﴾، ولم يُؤْتَ به مظهرًا؛ لتكثير الفائدة والتَّردُّد في مرجع الضَّمير المستكنِّ، هل هو ﴿ٱللَّهُ﴾ فاعل ﴿فَبَعَثَ﴾، أم ﴿غُرَابًا﴾ مفعول ﴿فَبَعَثَ﴾؟ فالضَّمير المستتر في ﴿لِيُرِيَهُۥ﴾: إن كان عائدًا إلى اسم الجلالة؛ فالتَّعليل المُستفادُ من اللَّام وإسناد الإرادة حقيقتان؛ لأنَّ الإرادة حقيقة هي من اللّه؛ إذ ليس للغراب قصدُ الإراءة وإرادتها، وإن كان عائدًا إلى الغراب؛ فاللَّام مستعملة في معنى: فاء التَّفريع، وإسناد الإرادة إلى الغراب مجاز؛ لأنَّه سبب الرُّؤية؛ أي: ليريه الغراب؛ أي: ليعلمه؛ لأنَّه لمَّا كان سبب تعليمه، فكأنَّه قصد تعليمه على سبيل المجاز[2].

وحمل الفاعل على أن يكونَ اللّه تعالى، ظاهرٌ لا خفاءَ فيه، وهو مبنيٌّ على الحكمةِ الإلهيَّة، وحمله على الغراب، فهو عائدٌ ضرورةً إلى أنَّه قام بقصد فعل الإراءة بإلهام اللّه له، وحينئذٍ يكون في ذلك تهكُّمٌ في القاتلِ؛ أي: أنَّه أصبح تلميذًا يتعلَّم من الغرابِ كيف يُخفي جريمته، والمعنيان مقبولانِ، فالفاعل حقيقةً هو اللّه تعالى، وأمَّا الغراب ففعله بالمآل لا بالمبدأِ.

يجوز في كلا التَّقديرين أن يكون الإسنادُ من المجاز العقليّ:

وذهب بعضهم إلى أنَّ الإسنادَ في كلا التَّقديرين من المجاز العقليِّ، فإن كان الضَّمير عائدًا إلى (اللّه)؛ فإسنادُ الفعل (يُري) من الإسناد إلى السَّبب المؤثِّر؛ لأنَّ بعث الغراب كان سببه إلهام اللّه

(1) ابن عادل، اللباب في علوم الكتاب: 7/293، ورضا، تفسير المنار: 6/286.

(2) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 11/341، وأبو حيّان، البحر المحيط: 3/480، وابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/173، والمطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 1/249.

إليه، وإن كان الضَّمير عائدًا على (الغراب)؛ فالإسنادُ إليه من الإسناد إلى آلة الفعل[1].

علَّة التَّصريح بذكر لفظ السَّوءة مضافًا إلى الأخ:

السَّوءة: الفضيحة العظيمة لقبحها، أو هي الحالة الَّتي تسوءُ النَّاظر بمجموعها، فهي ما يسوءُ ظهوره من الجسد، ورؤية جسد الميت، ولا سيَّما المقتول، يسوءُ كلَّ مَنْ ينظرُ إليه، ويوحشه[2]، والمراد بها هنا: جميع جسد الميت، وقيل: المراد بها العورة؛ لأنَّها تسوءُ ناظرها، وخُصَّتْ بالذِّكر مع أنَّ المرادَ مواراة جميع الجسد للاهتمام بها؛ لأنَّ سترها آكد[3]، وأضيفت إلى المقتول من حيث نزلت به النَّازلة، لا على جهة الغضِّ منه، بل الغضُّ لاحقٌ للقاتل، وهو الَّذي أتى بالسَّوءة[4]، وفي الإضافة إشعارٌ بِعِظَمِ الذَّنب، وشديدِ الذَّمِّ؛ فالسَّوءة للأخ القريب لا للغريب، والأصل أن يحرص الأخ على ستر سوءة أخيه، لا العكس، فالقرآن يعرِّض بمن يصنع ذلك، وهي تشمل كلَّ سوءةٍ حسيَّة كانت أم معنويَّة.

القرآنُ يعرِّض بمن يحرص على كشف سوءة أخيه

استعارةُ السَّوءة للجثَّةِ سوءةٌ تلحقُ الجاني إلى يومِ القيامةِ:

"في إطلاق (السَّوءة) على (الجثَّة) استعارة تصريحيَّة أصليَّة: شُبِّهتْ فيها الجثَّةُ بالسَّوءة؛ أي: العورة، بجامع ما يجب في كلٍّ من (الإخفاء): السَّوءة بالثَّوب، والجثَّة بالثَّرى"[5].

بلاغة الاستئناف البياني:

﴿قَالَ﴾: استئناف بيانيٌّ مبنيٌّ على سؤال نشأ في الذِّهن من سوق الكلام، كأنَّه قيلَ: فماذا قالَ عند مشاهدةِ حال الغراب، فجاء الجواب: ﴿قَالَ يَٰوَيۡلَتَىٰٓ﴾[6].

الإجابة عن فضولِ معرفةِ المَقُولِ في مشْهدِ الغُراب

(1) المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 1/249.
(2) رضا، تفسير المنار: 6/286.
(3) طنطاوي، التفسير الوسيط: 4/124.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/480.
(5) المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 1/249.
(6) أبو السّعود، إرشاد العَقْل السّليم: 3/28.

سرُّ التَّعبير بالتَّركيب: ﴿يَٰوَيۡلَتَىٰٓ﴾:

حين يعظُم الذَّنب تُستحضرُ كلُّ عبارات التَّحسُّر والتَّفجُّع والثُّبور

قوله: ﴿يَٰوَيۡلَتَىٰٓ﴾: "كلمةُ تحسُّر وتلهُّف، واعترافٍ على نفسه باستحقاق العذاب، وهي كلمة تُستعمل عند وقوع الدَّاهية العظيمة، ولفظُها لفظُ النِّداء، كأنَّ الويل غير حاضرٍ له، فناداه؛ ليحضُرَهُ؛ أي: أيُّها الويلُ، احضر، فهذا أوانُ حضورِكَ، وذكر (يا) زيادة بيان، كما في قوله: ﴿يَٰوَيۡلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ﴾ [هود: 72]"[1]، فالنِّداء للويلة، وهي: الفضيحة، والبليَّة، وحلول الشَّرِّ، ونداء الويلة؛ لإفادة حلول سببها الَّذي تحلُّ لأجله، حتَّى كأنَّه دعاها إليه، مخاطبًا إيَّاها: هل بلغ من عجزي أنْ كنت دون الغراب علمًا وتصرُّفًا؟[2].

وذلك أنَّه ما كان يعلم كيف يدفن المقتول، فلمَّا علم ذلك من فعل الغراب؛ علم أنَّ الغراب أكثر منه علمًا، وعلم أنَّه إنَّما ندم على قتل أخيه بسبب جهله وعدم معرفته، فعند ذلك تلهَّف، وتحسَّر على ما فعله، فقال: يا ويلتى[3].

وجه المجاز في النِّداء:

مناداةُ ما لا يُعقل مبالغةٌ في التَّحسُّر وإظهار الألم النَّفسي

أصلُ النِّداء أنْ يكون لمن يُعقل، ثم قد يُنادى ما لا يُعقل على سبيل المجاز، كقولهم: يا عجبًا، ويا حسرةً، والمراد بذلك التَّعجُّب، كأنَّه قال: انظروا لهذا العجب، ولهذه الحسرة، فالمعنى: تنبَّهوا لهذه الهلكة[4]، أو أنَّ لسان حاله: كقول المتنبي:

كفى بك داءً أن ترى الموت شافيًا***وحسبُ المنايا أن يكُنَّ أمانيا[5].

فالمجاز: في قوله تعالى: ﴿يَٰوَيۡلَتَىٰٓ﴾؛ لأنَّه نادى ما لا يعقل، بتنزيل الويلة منزلة ما يُنادى، كقوله: ﴿يَٰحَسۡرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ

(1) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 11/341.
(2) رضا، تفسير المنار: 6/287.
(3) الخازن، لباب التأويل: 2/40.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/481.
(5) ديوان المتنبي، ص: 145.

ٱللَّهِ﴾ [الزُّمر: 56][1]، ثم حذف المشبَّه به، ودلَّ عليه بشيءٍ من لوازمِه، وهو النِّداء، فهو من الاستعارة بالكناية، واستُعملَ ههنا؛ للتَّحسُّر وإظهار الألم النَّفسي، وإنَّ هذه البليَّة والفضيحة اللَّتين نزلتا به، ويُتحسَّر منهما، ويناديهما، وهما بين جنبيه انبعثتا من قلبه، ومن فعلته الَّتي فعلها، ومن جهله وغبائه، وعدم التفاته إلى ما يجب عليه بالنِّسبة لجثمان أخيه الَّذي كان سببًا في جعله جثَّة هامدة، بعد أنْ كان لسانًا نقيًّا، وقلبًا تقيًّا، وأخًا مباركًا[2].

بلاغة الاستفهام في قوله: ﴿أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ﴾:

الاستفهام في قوله: ﴿أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ﴾ للتعجُّب والإنكار على نفسه، والنَّعي من عجزه، وعدم اهتدائه إلى ما اهتدى إليه الغراب، أو للإقرار والتَّحسُّر[3]، وقد صوَّر بهذا الاستفهام التَّقريريِّ جهله، وغفلته وحسرته على غبائه، وقرَّرَ عجزه عن أن يكون مثل هذا الغراب، ولكنَّه قال ذلك بصيغة الاستفهام للتَّقرير والتَّثبيت وللحسرة على ما وقع منه، وللأسى والألم[4].

إقرارُ القاتل بجهله، وغفلته، وحسرته على صنيعه

لطيفة تشبيه القاتل نفسه بالغراب:

في قوله: ﴿مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ﴾ تشبيهٌ، المشبَّه: الضَّمير المُستكنُّ في ﴿أَكُونَ﴾، والمشبَّه به: ﴿ٱلْغُرَابِ﴾، ووجْه الشَّبه: الحذق وحسن التَّدبير، وفي هذا التَّشبيه لطيفة حاصلها: أنَّ القاتل ممَّن كرَّمهم الله بالعقل وحسن التَّقويم، لكنَّه بجريمته هذه ارتدَّ أسفل سافلين بمعصيته، فهضم نفسه بقوله: ﴿مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ﴾، واحتقرها، واستصغرها أمام غراب خسيس الطبع منكَّس الخلق، ولم يسعه إلَّا النَّدم وسوء المصير[5].

المعاصي والآثام تُنزلُ الإنسانَ إلى دون رتبةِ الحيوانيَّة

(1) ابن عاشور، التَّحريرُ والتَّنوير: 6/173.
(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 4/2133.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/481، والقاسمي، محاسن التأويل: 4/111، ورضا، تفسير المنار: 6/287، وابن عاشور، التَّحريرُ والتَّنوير: 6/174.
(4) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 4/2133، والمطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 1/250.
(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/481، والمطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 1/250.

سرُّ إضافة لفظ الأخ إلى القاتل:

في ظلم القريب مـزيـد أذًى، وحسرة، وندم

عبَّر بلفظ (أخ) المضاف إلى ياء المتكلِّم: ﴿أَخِي﴾ الَّذي كانت توجب رابطتُه المودَّة والمحبَّة بدل الحسد، وما أدَّى إليه من قتل شطر روحه ولحمه ودمه، فقال: ﴿سَوْءَةَ أَخِي﴾، وحسرته ليست للعجز عن مواراة السَّوءةِ التُّرابَ وغفلته حسبُ، وإنَّما لأصل الجريمة بالذَّات، ولذلك كان التَّعبير بـ﴿أَخِي﴾، وإنَّ في هذا مبتدأ درجات النَّدم؛ إذ إنَّ أولى الدَّرجات فيه أن يشعر بعظم الجريمة الَّتي ارتكبها، وأثر الإثم الَّذي فعله، وبذلك كانت الحسرة، ثمَّ كان النَّدم[1].

دلالة التَّعبير بالفعل ﴿فَأَصْبَحَ﴾:

الصَّباح مظنَّة دقَّة المُشاهدة، ووضوح المنظر والتَّأثير

ذهب ابن عطيَّة إلى أنَّ قوله: ﴿فَأَصْبَحَ﴾ عبارة عن جميع أوْقَاتِه، أقِيْمَ بَعْضُ الزَّمان مكان كلِّه، وخُصَّ الصَّباحُ بذلك؛ لأنَّه بَدْءُ النهار والانبعاث إلى الأمُور، ومظنَّةُ النَّشَاط[2]، وفي لفظ الإصباح إيماءٌ بوضوح المشهد، وبيان المنظر، وقوَّة النَّظر ودقَّته؛ وذلك أدعى للتَّأثير، والصَّباح هو وقت صفاء الفكر، فبعد عكر اللَّيل يأتي صفاء النَّهار، وفيه تبدأ الحسرات التي تتلوها المؤاخذات على المعاصي والآثام.

نكْتَة التَّعبير بلفظ النَّدم دون التَّوبة في فاصلة الآيةِ:

النَّـدمُ نوعان، ندمُ توبة، وندمُ حسرة، وظاهرُ الآيـة أنَّـه نـدمُ حسرة

يقتضي لفظ النَّدم أنَّه قد تاب؛ لقوله ﷺ: «النَّدم توبة»[3]، لكن لم يرد ما يُشير إلى أنَّه قد نَدِمَ نَدَمَ توبة؛ لأنَّه لم ينتفع بقتل أخيه، وسخط عليه بسببه أبواه وإخوته، أو أنَّ ندمه كان لأجل أنَّه تركه بالعراء استخفافًا به بعد قتله، فلمَّا رأى أنَّ الغراب دفنه؛ ندم على قساوة قلبه بعد أن رأى شفقة الغراب، فكان دون الغراب في الرَّحمة

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 4/2133 - 2134.

(2) ابن عطيّة، المحرر الوجيز: 2/180، وضعَّفه أبو حيَّان، لأن العرب اسْتَعْمَلَت: (أضْحَى)، و(بَاتَ)، و(أمْسَى) بمعنى: (صَار)، وليس شيء منها بَدْء النَّهَار، ورجَّح أنّ: (أصبح) ههنا بمعنى: صار، ينظر: أبو حيّان، البحر المحيط: 3/479، وابن عادل، اللباب في علوم الكتاب: 7/295 - 296.

(3) سنن ابن ماجه: 5/322.

والأخلاق الحميدة، فكان ندمه لهذه الأسباب، لا لأجل الخوف من اللّه تعالى بوصفه ارتكب معصيةً، فلا جرم لم ينفعه ذلك النَّدم[1]، ويبقى أمر توبته غيبًا، وإنَّما الذي يعنينا هو ما جاء عليه ظاهر النَّظم الكريم.

وقوله: ﴿فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ﴾ تذييلٌ قصد به بيان ما أصاب قابيل بعد أن قتل أخاه عدوانًا وحسدًا، ولم يعرف كيف يستر جثَّته إلَّا من الغراب[2].

نكتةُ ذكر (كان) وجمع لفظ ﴿ٱلنَّدِمِينَ﴾:

الدُّخولُ في زمرة النَّادمين أرسخ في قـوَّة نـدامـة الجاني

يفيد التَّعبير بلفظ (كان) وقوعَ فعل النَّدم منه، وتحقُّقه فيه، أو هو بمعنى: صار نادمًا، ومعنى ﴿مِنَ ٱلنَّدِمِينَ﴾: أصبح نادمًا أشدَّ ندامة؛ لأنَّ تعبير: ﴿مِنَ ٱلنَّدِمِينَ﴾ أدلُّ على تمكُّن النَّدامة من نفسه، من أنْ يقال: نادمًا[3]؛ لدلالة هذا الاستعمال على رسوخ معنى الخبر في اسم كان؛ "لأنَّ إثبات الوصف لموصوف بعنوان كون الموصوف واحدًا من جماعة تثبت لهم ذلك الوصف أدلُّ على شدَّة تمكُّن الوصف منه، ممَّا لو أثبت له الوصف وحده؛ بناءً على أنَّ الواحد يزداد تمسُّكًا بفعله، إذا كان قد شاركه فيه جماعة؛ لأنَّه بمقدار ما يرى من كثرة المتلبِّسين بمثل فعله؛ تبعد نفسه عن التَّردُّد في سداد عملها"[4].

الفرق بين فاصلة الآية ﴿ٱلنَّدِمِينَ﴾ والسَّابقة ﴿ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾:

الـقـتـل عـلَّـة الـخـسـارة، وصنيع الغراب علةُ النَّدم

خُصَّت هذه الآية بأن تختم بقوله: ﴿ٱلنَّدِمِينَ﴾، وخُصَّت الآية الَّتي قبلها بقوله: ﴿ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾؛ لأنَّ القتل لمَّا كان سببًا للخسارة، فناسبه الختام بهذا اللَّفظ، قال: ﴿فَطَوَّعَتۡ لَهُۥ نَفۡسُهُۥ قَتۡلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾، أمَّا هذه الآية؛ فكان صنيع الغراب

(1) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 11/342.
(2) طنطاوي، التفسير الوسيط: 4/124.
(3) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/174.
(4) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 1/427.

سببًا لندمه، وحسرته في قوله: ﴿قَالَ يَٰوَيۡلَتَىٰٓ أَعَجَزۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِثۡلَ هَٰذَا ٱلۡغُرَابِ فَأُوَٰرِيَ سَوۡءَةَ أَخِيۖ﴾؛ فناسبه قوله: ﴿فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ﴾، فالحسرة مآلها النَّدامة.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الإخفاء، والمواراة:

المواراة أخصُّ دلالة، والعلّةُ ارتباطها لغة بالدَّفن

المواراة: إخفاء الشَّيءِ، وستره، وقد تقدَّم أنَّ معنى ﴿فَأُوَٰرِيَ سَوۡءَةَ أَخِيۖ﴾؛ أي: أسترها[1]، والإخفاء: السِّتر، إلَّا أنَّه من أصلين متباينين متضادَّين: فالأوَّل: السَّتر، والثَّاني: الإظهار[2]، فعبَّر بالمواراة؛ لكونها أخصَّ في الدِّلالة على السَّتر لخصوص دلالتها، ووجْه هذا الخصوص ارتباط اللَّفظة بالدَّفن، قال ابن عبَّاد: "الدّفْنُ: مُوَارَاةُ المَيِّت"[3].

(1) تُنظر: فقرة شرح الألفاظ، شرح لفظة ﴿فَأُوَٰرِيَ﴾.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (خفي).
(3) ابن عباد، المحيط: (دَفَنَ).

﴿مِنۡ أَجۡلِ ذَٰلِكَ كَتَبۡنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفۡسَۢا بِغَيۡرِ نَفۡسٍ أَوۡ فَسَادٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعٗاۚ وَمَنۡ أَحۡيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحۡيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعٗاۚ وَلَقَدۡ جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرٗا مِّنۡهُم بَعۡدَ ذَٰلِكَ فِي ٱلۡأَرۡضِ لَمُسۡرِفُونَ ٣٢﴾ [المائدة: 32]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا قَصَّ علينا في الآياتِ السَّابقةِ نبأَ ابْنَي آدمَ عليه السلام في قتلِ أحدِهما أخاهُ ظُلمًا وعُدوانًا، وكيف أصبحَ نادمًا بعدَ أنْ أرسلَ اللهُ غرابًا ليُريَه كيف يَدفِنُ جُثَّةَ أخيه؛ جاءتْ هذه الآيةُ زاجرةً عن الإقدام على هذه الجريمة النَّكراء، وربطت بين أوَّل مَن سنَّ القتل وأوَّل من أسرفَ فيه، فقتَّلوا الأنبياء، وهم بنو إسرائيل، وأنَّ مَنْ قتلَ نفسًا بغيرِ حقٍّ؛ فكأنَّما قتلَ النَّاسَ جميعًا، ومَنْ أحْياها؛ فكأنَّما أحيا النَّاس جميعًا.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَجۡلِ﴾: الأجْلُ: الجَرَّاءُ والتَّسبُّبُ، أصلُه: مَصدَرُ أجَلَ يَأْجُلُ ويَأجِلُ، كنَصَرَ وضَرَبَ، والمَأْجَل كَمَسْكَن: "شِبْهُ حوض يُجْمَع فيه الماء؛ إذا كان قليلًا، ثمَّ يُفَجَّر إلى المَشَارات، والمعنى المحوريُّ: تجمُّعٌ أو تماسكٌ مؤقَّتٌ، كتجمُّع الماء إلى أن يُفَجَّر إلى الجداول، ومن الجمع: "أجَل عليهم (نصر وضرب): جَنَى وجَرَّ، وأجَلَ لهم: كَسَب وجَمَع واحتال"، ومن الجمع كذلك "فعلت ذلك مِن أجْل كذا، (أي: تحصيلًا له)، ﴿مِنۡ أَجۡلِ ذَٰلِكَ كَتَبۡنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ [المائدة: 32][1].

2) ﴿كَتَبۡنَا﴾: الكَتْبُ: ضمُّ الحُروفِ بعضِها إلى بعضٍ بالخطِّ، وقد يُقالُ ذلك للمضْموم بعضِها إلى بعضٍ باللَّفظ، فالأصلُ في الكتابة: النَّظمُ بالخطِّ، والكتابُ في الأصلِ مَصْدرٌ، ثمَّ سُمِّي المكتوبُ فيه: كتابًا.

ويُعبَّرُ عن الإثباتِ والتَّقديرِ والقضاء والإيجابِ والفَرْضِ والعَزْمِ بالكتابة، ويأتي

(1) الرَّازي اللُّغوي، مختار الصِّحاح، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (أَجَلَ).

معنى كتبْنا في الموضعِ الَّذي وردتْ فيه بِحَسْبِ ما يقتضيهِ السِّياقُ القرآنيُّ، فتأتي بمعنى: أوْجَبْنا، وفَرَضْنا، كما في قولِه تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ﴾ [المائدة: 45][1]، وهو المعنَى المرادُ في الآية الَّتي معنا: ﴿كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾.

3) ﴿نَفْسًا﴾: النَّفْسُ: الرُّوحُ، يُقالُ: خَرَجتْ نَفْسُه، قالَ تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ﴾ [البقرة: 235].

والنَّفْسُ: الذَّاتُ، قالَ تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾[2] [آل عمران: 30].

والنَّفْسُ كذلك: الجَسَدُ، والعَيْنُ، يُقالُ: نَفَسَهُ بِنَفْسٍ: أصابَهُ بِعَيْنٍ[3].

والنَّفْسُ: الدَّمُ، يُقالُ: سَالَتْ نَفْسُهُ، وجاءني بِنَفْسِه[4].

وفي قولِه هنا: ﴿مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾، أي: أَزْهقَ رُوحًا بغيرِ قِصاص، أي: بغيرِ حقٍّ.

4) ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾: البيانُ: الكَشْفُ عنِ الشَّيء، والباءُ والياءُ والنُّونُ: أصلٌ واحدٌ، وهو بُعْدُ الشَّيء وانْكشافُه، وبانَ الشَّيءُ وأَبَانَ؛ إذا اتَّضَحَ، وانْكشَفَ، وفُلانٌ أَبْيَنُ من فُلان، أي: أوضَحُ كلامًا منه[5].

يُقالُ: بانَ واسْتَبانَ وتَبيَّنَ، وقدْ بيَّنْتُه، كما في قولِه تعالى: ﴿وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ﴾ [العنكبوت: 38].

وفي الآيةِ الَّتي معنا: ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾، أي: الآياتِ البيِّناتِ المُبيِّنات، والدَّلائلِ المُعجزاتِ الباهِرات، فيُقالُ: آيةٌ مُبيَّنةٌ؛ اعْتبارًا بمَنْ بَيَّنها، وآيةٌ مُبيِّنةٌ؛ اعْتبارًا بِنَفْسِها، فالآياتُ مُبيِّناتٌ ومُبَيَّناتٌ[6].

5) ﴿لَمُسْرِفُونَ﴾: سَرَفَ: السِّينُ والرَّاءُ والفاءُ أصلٌ واحدٌ، يَدُلُّ على تعدِّي الحدِّ، والإغْفالِ - أيضًا- للشَّيء، تقولُ: في الأمرِ سَرَفٌ، أي: مُجاوزةُ القَدْر، ومن ذلك: السَّرَف

(1) الرَّاغب، المفردات: (كتب).
(2) الرَّاغب، المفردات: (نفس).
(3) الفيروزآبادي، القاموس المحيط: (نَفَسَ).
(4) الرّازي، مختار الصِّحاح: (نَفَسَ).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بين).
(6) الرَّاغب، المفردات: (بين).

والإسراف (في الأمور سلوكًا ومعالجات): مجاوزة القصد أو الإفراط؛ لأنَّه تضييع وإهدار للنِّعم: من مال، أو صحة، أو فراغ أو جاه ﴿رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسۡرَافَنَا فِيٓ أَمۡرِنَا﴾ [آل عمران: 147].

ومن النَّهي عن الإسراف في القتل قوله تعالى: ﴿فَلَا يُسۡرِف فِّي ٱلۡقَتۡلِۖ﴾ [الإسراء: 33] بقتل غير القاتل أو أكثرَ منه أو أشرف[1].

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

يُخبِرُ اللّه تعالى في بيانه الجليل: أنَّه من أَجْلِ قَتْلِ ابنِ آدمَ أخاهُ ظُلمًا وعُدوانًا؛ شَرَعَ لهم، وأَعْلَمَهُم أنَّ مَنْ قتلَ نَفْسًا بغير سَبَبٍ من قِصاصٍ أوْ فسادٍ في الأرض، واسْتحلَّ قَتْلَها بلا سَبَبٍ ولا جِنايةٍ، فكأنَّما قتلَ النَّاسَ جميعًا؛ لأنَّه لا فرقَ عندَه بين نَفْسٍ ونَفْسٍ، ومَنْ أَحْياها، فحرَّمَ قَتْلَها، واعْتقَدَ ذلك؛ فقد سَلِمَ النَّاسُ كلُّهم منه بهذا الاعْتبار.

ولقدْ أرسلَ اللّه الرُّسُلَ بالحُجَجِ والبراهينِ والدَّلائلِ الواضحةِ، ولكنَّ كثيرًا من النَّاسِ ارْتكَبُوا المحارِمَ، وتَجاوَزوا حُدودَ اللّه بعدَ عِلْمهم بها[2].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالة الوقف والابتداء في قوله تعالى: ﴿مِنۡ أَجۡلِ ذَٰلِكَ﴾:

ابتداء كلام يشير إلى ما مرَّ ذكره من جناية القتل

لا يخفى أنَّ قوله: ﴿مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ٣١﴾ [المائدة: 31] رأسُ آية[3]، وأنَّ قوله: ﴿مِنۡ أَجۡلِ ذَٰلِكَ﴾ متعلِّق بـ﴿كَتَبۡنَا﴾، وجمهور المفسِّرين وأصحاب المعاني على أنَّ قوله: ﴿مِنۡ أَجۡلِ ذَٰلِكَ﴾ ابتداءُ كلام، وليس يُوقَف عليه، فعلى هذا قال بعضُهم: إنَّ قولَه: ﴿مِنۡ أَجۡلِ ذَٰلِكَ﴾ ليس هو إشارةً إلى قصَّة قابيل وهابيل، بل هو إشارةٌ إلى ما مرَّ ذكرُه في هذه القصَّة من أنواعِ المفاسد الحاصلةِ بسبب هذا القتل الحرام،

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (سرف).
(2) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 2/44 - 45.
(3) الداني، البيان في عدِّ آي القرآن، ص: 150.

منها قوله: ﴿فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٣٠﴾ [المائدة: 30]، وفيه إشارة إلى أنَّه حصلت له خسارة في الدِّين والدُّنيا والآخرة.

ومنها قوله: ﴿فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ٣١﴾ [المائدة: 31]، وفيه إشارة إلى أنَّه حظر في أنواع النَّدم والحسرة والحزن، مع أنَّه لا دافع لذلك ألبتَّة، فقوله: ﴿مِنۡ أَجۡلِ ذَٰلِكَ كَتَبۡنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ أي: من أجل ذلك الَّذي ذكرنا أثناء القصَّة من أنواع المفاسد المتولِّدة من القتل العمد المُحَرَّم؛ شرعنا القصاص على القاتل[1].

وأمَّا القول بتعليقه بما قبله؛ فقد رُوي عن نافع أنَّه كان يقف على قوله: ﴿مِنۡ أَجۡلِ ذَٰلِكَ﴾، ويجعله تمام الكلام الأوَّل، قال أبو عمرو الداني: "قال نافع: ﴿مِنۡ أَجۡلِ ذَٰلِكَ﴾ تمام، فجعل (مِن) صلة لـ﴿ٱلنَّٰدِمِينَ ٣١﴾ [المائدة: 31] "،[2] وقال الغزّال النِّيسابوريُّ: "وقد زعم قوم أنَّ ﴿مِنۡ أَجۡلِ ذَٰلِكَ﴾ صلة للنَّدم، التقدير: ندم من أجل ذلك القتل، وهذا القول جائز أيضًا"[3].

فائدة التعليل والإشارة في قوله: ﴿مِنۡ أَجۡلِ ذَٰلِكَ﴾:

أفادَ نَظْمُ التَّعليلِ والإشارةِ تَهويلَ أمرِ القَتْلِ بغيرِ حقٍّ وقُبْحِ عواقِبِه

﴿مِنۡ أَجۡلِ ذَٰلِكَ﴾: تعليلٌ لقولِه: ﴿كَتَبۡنَا﴾، وهو مبدأُ الجُملة، ويكونُ مُنْتَهى الآيةِ الَّتي قبلَها قوله: ﴿مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ٣١﴾ [المائدة: 31]، وليس قولُه: ﴿مِنۡ أَجۡلِ ذَٰلِكَ﴾ مُعلَّقًا بـ﴿ٱلنَّٰدِمِينَ ٣١﴾ [المائدة: 31] تعليلًا له؛ للاسْتغناءِ عنه بمُفادِ الفاءِ في قولِه: ﴿فَأَصۡبَحَ﴾، ولا يَحسُنُ الابتداء بكتبْنا هنا[4].

و"﴿مِنۡ﴾ لابْتداءِ الغاية، أي: ابْتدأَ الكَتْبُ، ونشأَ من أجلِ ذلك"[5]؛ وذلك: إشارةٌ إلى القتل المذكور، أي: من أنَّ جنى ذلك القتل الكتْبُ

(1) الخازن، لباب التأويل: 2/36.
(2) الداني، المكتفى، ص: 238، 239.
(3) النِّيسابوري، الوقف والابتدا: 1/463.
(4) العكبري، التبيان: 1/214.
(5) الزّمخشري، الكشّاف: 1/608.

وجرُّه؛ كَتَبْنا عَلى بَنِي إِسْرائِيلَ،[1] "ويمكنُ أن يكونَ خاصًّا باكْتسابِ الجريمة، فيكونُ مُرادِفًا لجَنَى وجَرَم، ومنه الجِنايةُ والجريمةُ غيرَ أنَّ العربَ توسَّعوا فأَطْلقوا الأَجْلَ على المُكْتَسَبِ مُطْلقًا بعلاقةِ الإطْلاق"[2].

"والابْتداءُ الَّذي اسْتُعملَتْ له ﴿مِنْ﴾ هنا مجازيٌّ، شَبّه سبَبَ الشَّيءِ بابْتداءِ صُدورِه، وهو مَثارُ القول: إنَّ من معاني ﴿مِنْ﴾ التَّعليلَ؛ فإنَّ كثرةَ دخولِها على كلمةِ ﴿أَجْلِ﴾ أحدَثَ فيها معنَى التَّعليل، وكَثْرُ حذفِ كلمةِ ﴿أَجْلِ﴾ بعدَها مُحدِثٌ فيها معنَى التَّعليل.

واسْتُفيد التَّعليلُ من مَفادِ الجُملة، وكانَ التَّعليلُ بكلمةِ ﴿مِنْ أَجْلِ﴾ أَقْوى منه بمجرَّدِ اللَّام، ولذلكَ اخْتيرَ هنا؛ لِيَدُلَّ على أنَّ هذه الواقعةَ كانتْ هي السَّببَ في تَهْويلِ أمرِ القتلِ وإظهارِ مَثَالبِه.

فائدةُ اسمِ الإشارةِ ﴿ذَٰلِكَ﴾:

وفي ذكرِ اسْمِ الإشارةِ، وهو خُصوصُ ﴿ذَٰلِكَ﴾ قَصْدُ اسْتيعابِ جميعِ المذكور"[3]، واسمُ الإشارة ﴿ذَٰلِكَ﴾ يستعمل هنا في البُعدِ الزَّمانيِّ أو المجازيِّ، فأمرُ القتل شنيعٌ جدًّا، فكيف إذا كان بين الإخوة، فهذا ما ينبغي ألَّا يكون.

﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ﴾: شروعٌ فيما هو المقصودُ من تلاوةِ النَّبأِ في قولِه تعالى: ﴿۞وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَيْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ﴾ [المائدة: 27] من بيانِ بعضٍ آخرَ من جناياتِ بني إسرائيل ومعاصِيهم، وذلكَ إشارةٌ إلى عِظَمِ شأنِ القتلِ، وإفراطِ قُبحِه المفهومَيْنِ من تضاعيفِ قصَّةِ قتلِ أحدِ ابْني نبيِّ اللّه آدمَ عليه السلام لأخيه.

تقديمُ شبْهِ الجملة ﴿مِنْ أَجْلِ﴾:

وتقديمُ شِبْه الجُملة ﴿مِنْ أَجْلِ﴾ على قولِه: ﴿كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ للقَصْرِ، أي: من ذلكَ ابْتداءُ الكَتْب، ومنه نشَأ، لا مِنْ شيءٍ آخرَ[4].

(1) الزَّمخشري، الكشّاف: 1/608.
(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/175.
(3) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/175.
(4) أبو السُّعود، إرشاد العَقْل السّليم: 2/43.

علَّة تخصيص بني إسرائيل بالذِّكْر:

التَّوراة أوَّل كتاب ذكر فيه الوعيد على القتل، وللتَّعريض بحسد اليهود للنَّبيِّ

﴿كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾، أي: شَرَعْنا، وقَضَيْنا، وفَرَضْنا عليهم.

لا شَكَّ أنَّ القتلَ كانَ مُحَرَّمًا في جميعِ الرِّسالات، ولكنَّ أوَّلَ كتابٍ ذُكرَ فيه الوعيدُ على القَتل هو التَّوراة، قال ابن عطيَّة: "وخَصَّ اللّٰه تعالى: بني إسرائيل بالذِّكر، وقد تقدَّمَتْهُم أممٌ كان قتلُ النَّفس فيهم مَحظورًا لوجهين:

أحدهما: فيما رُوي أنَّ بني إسرائيل أوَّلُ أمَّةٍ نزل الوعيدُ عليهم في قتل النَّفس في كتابٍ، وغلَّظ الأمر عليهم بحسب طغيانهم، وسفكهم الدِّماء.

والآخر: لتلوح مَذَمَّتُهم في أن كتَب عليهم هذا، وهم مع ذلك لا يرعَوُون، ولا ينتهون، بل همُّوا بقتل النَّبيِّ ﷺ ظُلمًا، فَخُصُّوا بالذِّكر؛ لحضورهم مخالفين لما كُتب عليهم"[1].

والجمهور يقولون: إنَّ هذا التخصيصَ للتَّعريض بما كان من شدَّة حسد اليهود للنَّبيِّ ﷺ وللعرب؛ لأنَّه بُعث فيهم، كما بيَّن اللّٰه ذلك في كتابه من قبل، وبما كان من إسرافهم في البغي، ومنه قتلُهم للأنبياء - عليهم السلام - بغير حقٍّ[2].

سرُّ العدول عن المصدر الصَّريح إلى المصدر المؤوَّل:

إفادة التَّخصيص والوضوح والتَّفصيل والتَّأكيد والجمع بين الحدث وزمانه

في قوله تعالى: ﴿كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾ مفعولُ ﴿كَتَبْنَا﴾ المصدر المؤوَّل من (أنَّ) وما دخلت عليه، من ضمير الشَّأن وجُملةِ الشَّرطِ وجوابِه، وتقديرُه: كَتَبْنا مشابهةَ قَتْلِ نَفْسٍ بغيرِ نَفْسٍ أوْ فسادٍ في الأرض بقَتْلِ النَّاسِ جميعًا في عَظيمِ الجُرْم.

وقد وقع معمول ﴿كَتَبْنَا﴾ مصدرًا مؤوَّلًا في غير هذا الموضع، كقوله تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ

(1) ابن عطيَّة، المحرر الوجيز: 2/182.
(2) رضا، تفسير المنار: 1/288.

وَٱلۡأَنفَ بِٱلۡأَنفِ وَٱلۡأُذُنَ بِٱلۡأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلۡجُرُوحَ قِصَاصٞۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٞ لَّهُۥۚ وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٥﴾ [المائدة: 45].

ونلحظ سرَّ العدول عن المصدر الصَّريح إلى المصدر المُؤَوَّل هنا هو إفادة التَّقييد والتَّخصيص[1] والوضوح، فما كُتِبَ عليهم، فيه تفصيل، لا يقوم به المصدر الصَّريح؛ لأنَّه ينزع إلى الإطلاق والتَّعميم، فهو بمنزلة المُجمل كما ذكر السُّيوطيُّ[2].

كما يدلُّ المصدر المؤوَّل هنا على إفادة بَشاعة الحدث، وهو (القتل)؛ حيث عبَّر عنه بصيغة الماضي؛ ليجمع بين دلالة الحدث وزمانه، وتوكيده وثبوته،[3] وذلك ظاهر من دلالات حرف التَّوكيد (أنَّ)، و صيغة الفعل (قَتَلَ)، وسائر تركيب الجملة.

ومن دلالات المصدر المؤوَّل هنا - أيضًا - إفادة المعنى التَّصديقيِّ، أي: وقوع الفعل حقيقة في ذلك الزَّمان الَّذي دلَّ عليه الفعل، وأمَّا المصدر الصَّريح؛ فإنَّه يدلُّ على معنًى تصوُّريٍّ[4]؛ لذا فإنَّه لا يستقلُّ بالإفادة[5].

التَّأكيدُ، والشَّرطُ، والتَّشبيهُ، وأثرُ ذلكَ في إثراءِ المعنَى.

الهاءُ في ﴿أَنَّهُۥ﴾ للشَّأن، أي: كتبْنا عليهم شأنًا مُهِمًّا: وهو مماثلةُ قتلِ نَفْسٍ واحدةٍ بغيرِ حقٍّ لقتلِ القاتلِ النَّاسَ أجمعين.

أفـــادَ نـظـمُ السِّياقِ بأركانِه المتقدِّمةِ عِظَمَ قتلِ النَّفْسِ بغيرِ حقٍّ وخُطورتَهُ، وتفخيمَ إحيائِها

و﴿مَن﴾ شَرْطيَّة، و﴿بِغَيۡرِ﴾ حالٌ منَ الضَّميرِ في ﴿قَتَلَ﴾، أي: مَنْ قَتَلَ نفسًا ظالمًا،

وقولُه: ﴿أَوۡ فَسَادٖ﴾ معطوفٌ على ﴿نَفۡسٍ﴾[6]، و﴿أَنَّهُۥ﴾ تفيدُ التَّأكيدَ، وخبرُها جُملةُ ﴿مَن قَتَلَ نَفۡسَۢا بِغَيۡرِ نَفۡسٍ﴾، وهي مع ذلكَ مُفسِّرةٌ لضميرِ الشَّأن.

(1) إبراهيم الخولي، السنة بيانًا للقرآن، ص: 116.
(2) السيوطي، الأشباه والنظائر: 2/455.
(3) السهيلي، نتائج الفكر: 1/97، وابن القيم، بدائع الفوائد: 1/92.
(4) التصديق عند المناطقة: هو إدراك مشتمل على حكم، فهو إدراك مشتمل على الإثبات أو النَّفي، مضافًا إلى الإذعان واليقين، والتَّصوُّر عندهم: هو إدراك المفرد، أي: معنى الماهيَّة من غير أن يحكم عليها بنفي أو إثبات.
(5) السبكي، فتاوى السبكي: 1/77.
(6) العكبري، التبيان: 1/214.

وهذا البيانُ الإلهيُّ في تجريم قَتْلِ النَّفْسِ بغير حقٍّ - حتَّى عُدَّ في فظاعته كقتلِ النَّاسِ كُلِّهم - يُعدُّ بمنزلةِ التَّوْطِئةِ لمشروعيَّةِ القِصاصِ المُصرَّحِ به في الآيةِ الآتيةِ في قولِه تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ﴾ [المائدة: 45].

وفي هذا البلاغِ الإلهيِّ حِكْمةٌ جَليلةٌ: وهي أنَّ حُكمَ القِصاصِ شَرْعٌ سالِفٌ ومرادٌ للّه قديمٌ، وفيه ما فيه منَ التَّبصرةِ وتطمينِ نُفوسِ المخاطَبين، وإزالةٍ لِمَا عسى أن يَعْترِضَ منَ الشُّبَهِ في أحكامٍ خَفيَتْ مصالحُها، كمشروعيَّةِ القِصاص، فإنَّه قد يَبدو للأنظارِ القاصرةِ أنَّه مُداواةٌ بمثلِ الدَّاءِ المُتداوَى منه، حتَّى دعا ذلكَ الاشْتباهُ بعضَ الأُمم إلى إبْطالِ حُكْمِ القِصاص؛ بعِلَّةِ أنَّهم لا يُعاقبونَ المذنبَ بذَنْبٍ آخَر، وهي غَفْلةٌ دَقَّ مَسْلَكُها عنِ انْحصارِ الارْتِداعِ عنِ القَتْلِ في تَحقُّقِ المُجازاةِ بالقتل؛ لأنَّ النُّفوسَ جُبِلتْ على حُبِّ البقاءِ وعلى حُبِّ إرضاءِ القُوَّةِ الغَضَبيَّة، فإذا عَلِمَ عندَ الغَضَبِ أنَّه إنْ قتلَ، فجزاؤُه القتلُ؛ ارْتدَع، وإذا طمعَ أن يكونَ الجزاءُ دونَ القتلِ؛ أَقْدَمَ على إرضاءِ قُوَّتِه الغَضَبيَّة، ثمّ علَّلَ نَفْسَه بأنَّ ما دونَ القِصاصِ يمكنُ الصَّبْرُ عليه والتَّفادي منه، وقدْ كَثُرَ ذلكَ عندَ العربِ، وشاعَ في أقوالِهم وأعمالِهم؛ ولذلكَ قالَ اللّه تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾ [البقرة: 179][1].

وفي قولِه تعالى: ﴿أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا﴾، أي: واحدةً منَ النُّفوس، و﴿بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾، أي: بغيرِ قَتْلِ نَفْسٍ يُوجِبُ الاقْتصاص.

وقولُه: ﴿أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ عطفٌ على ما أُضيفَ إليه ﴿بِغَيْرِ﴾، وهو ﴿نَفْسٍ﴾ على معنَى نَفْيِ كلا الأمرَيْن، والمرادُ هنا: فسادٌ يُوجِبُ إهدارَ دَمِها.

ويكونُ قولُه: ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾، أي: هو الشِّركُ، أو قطعُ الطَّريق[2]، وكلاهما داخلٌ في معنى الإفساد.

بلاغة المجاز في قوله: ﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا﴾:

قولُه: ﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا﴾، أي: مَنِ اسْتَنْقَذَها من بعضِ أسبابِ الهَلَكَةِ من قَتْلٍ أو غَرَقٍ أو حريقٍ أو هَدْمٍ أو غيرِ ذلك[3].

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/177 - 178.
(2) الزّمخشري، الكشّاف: 1/609.
(3) الزّمخشري، الكشّاف: 1/609.

التَّرغيب في حفظ الدِّماء والحرص على حياة الجميع

ففي الفعل ﴿أَحْيَاهَا﴾ مجاز مرسل، علاقته المسبَّبِيَّة؛ حيث أطلق المسبَّبَ (الإحياء)، وأراد السَّببَ، وفي ذلك ما فيه من التَّرْغيب في حفظِ الدِّماء، والحضِّ على أن يحرص كلُّ إنسانٍ على حياةِ الآخرين.

"ويلزم من ذلك أنَّه لو كان جميع النَّاس أو أكثرهم مثلَ ذلك الَّذي قتل نفسًا واحدةً بغير حقٍّ، لكانوا عُرضةً للهلاك بالقتل في كل وقت، ولو كانوا مثلَ ذلك الَّذي أحيا نفسًا واحدةً، احترامًا لها، وقيامًا بحقوقها؛ لامتنع القتلُ بغير الحقِّ من الأرض، وعاش النَّاس مُتَعَاونِينَ، بل إخوانًا مُتَحَابِّينَ مُتَوَادِّينَ، فالآيةُ تُعلمنا مَا يجبُ من وَحدة البشر وحرص كلٍّ منهم على حياة الجميع"[1].

قال الزَّمخشريُّ: فإنْ قالَ قائلٌ: كيف شَبَّه الواحدَ بالجميع، وجَعلَ حُكمَه كَحُكْمِهم؟

الجوابُ: هو أنَّ كلَّ إنسانٍ يُدْلي بما يُدْلي به الآخَرُ منَ الكرامةِ على اللّه تعالى وثُبوتِ الحُرمةِ، فإذا قُتِلَ؛ فقد أُهينَ ما كُرِّم على اللّه، وهُتِكَتْ حُرمَتُه، وعلى العكْسِ، فلا فرقَ إذًا بينَ الواحدِ والجميع في ذلك.

فإن سألَ سائلٌ كذلك، فقال: فما الفائدةُ في ذِكْرِ ذلك ؟

فالجوابُ: هو تعظيمُ قَتْلِ النَّفْسِ وإحيائِها في القُلوب؛ ليَشْمَئِزَّ النَّاسُ من الجَسارةِ عليها، ويَتراغَبُوا في المُحاماةِ على حُرمَتِها؛ لأنَّ المتعرِّضَ لقتلِ النَّفْسِ إذا تصوَّرَ قَتْلَها بصورةِ قَتْلِ النَّاسِ جميعًا؛ عَظُمَ ذلكَ عليه، فثَبَّطَه، وكذلكَ إذا أرادَ إحياءَها[2].

(1) رضا، تفسير المنار: 6/288.
(2) الزّمخشري، الكشّاف: 1/609.

تنكيرُ ﴿نَفۡسٍ﴾:

وتنكيرُ ﴿نَفۡسٍ﴾ في الموضعين للتَّعميم، ويمكن أن يكون للتَّفخيم أيضًا، "وقولُه: ﴿فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ (ما) في ﴿فَكَأَنَّمَا﴾ كافَّةٌ مُهيِّئةٌ لوقوعِ الفعلِ بعدَها، و﴿جَمِيعًا﴾ حالُ ﴿ٱلنَّاسَ﴾ أو تأكيدُ ﴿مَن﴾، و(الكافُ) للتَّشبيه، ومَناطُ هذا التَّشبيهِ اشْتراكُ الفِعلَيْنِ في هَتْكِ حُرمةِ الدِّماء، والاسْتعصاءِ على اللّه تعالى، وتَجْسيرِ النَّاسِ على القَتْل، وفي اسْتِتْباعِ القَوَدِ واسْتِجْلابِ غضبِ اللّه تعالى وعذابِه العظيم"[1].

بلاغةُ الشَّرطِ والتَّشبيه:

وقولُه تعالى: ﴿وَمَنۡ أَحۡيَاهَا﴾: ﴿وَمَنۡ﴾ شرطيَّةٌ، و﴿أَحۡيَاهَا﴾ فعلُ الشَّرط، والمعنَى: أنَّ مَنْ تسبَّبَ لبقاءِ نَفْسٍ واحدةٍ مَوْصوفةٍ بعدَمِ ما ذُكِرَ منَ القَتْلِ والفسادِ في الأرض، إمَّا بِنَهي قاتِلها، أوِ اسْتنقاذِها من سائرِ أسبابِ الهَلَكةِ بوَجْهٍ منَ الوجوه ﴿فَكَأَنَّمَآ أَحۡيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًاۚ﴾، وهي جملةُ جوابِ الشَّرط، و(الفاءُ) الرَّابطةُ للجواب، والكافُ للتَّشبيه، وَوَجْهُ التَّشبيه هنا ظاهرٌ، والمقصودُ منه تَهويلُ أمرِ القَتْل، وتَفْخيمُ شَأْنِ الإحياءِ بتصويرِ كلٍّ منهما بصورةٍ لائقةٍ به في إيْجابِ الرَّهْبةِ والرَّغْبة، ولذلكَ صُدِّرَ النَّظمُ الكريمُ بضميرِ الشَّأنِ المُنبِىءِ عن كمالِ شُهرتِه ونَباهتِه، وتَبادُرِه إلى الأذهانِ عندَ ذكرِ الضَّميرِ المُوجِبِ لزيادةِ تقريرِ ما بعدَه في الذِّهن، فإنَّ الضَّميرَ لا يُفهَمُ منه أوَّلَ الأمرِ إلَّا شأنٌ مُبْهَمٌ له خَطَرٌ، فَيَبقَى الذِّهنُ مُتَرقِّبًا لما يَعقُبُه، فيتمكَّنُ عندَ ورودِه فضلَ تمكُّن، كأنَّه قيل: إنَّ الشَّأنَ الخطيرَ هذا[2].

القَسَمُ، والتَّأكيدُ، وتقديمُ ما حقُّه التَّأخير، وأثرُ ذلك في تجليةِ المعنَى:

﴿وَلَقَدۡ جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾: جُملةٌ مُستقلَّةٌ غيرُ معطوفةٍ على ﴿كَتَبۡنَا﴾، أُكِّدَتْ بالتَّوكيدِ القَسَميِّ، وحرفُ التَّحقيقِ (قدْ) لكمالِ العنايةِ بتحقُّقِ مَضمونِها.

فالواو يمكنُ أن تكونَ للحاليَّة، على معنى: والحال أنَّهم قد جاءتهم رسلهم بالبيِّنات، ويمكنُ أن تكون للاستئناف.

(1) أبو السُّعود، إرشاد العَقْل السّليم: 2/44 - 45.

(2) أبو السُّعود، إرشاد العَقْل السّليم: 2/45.

وإنَّما لم يقلْ: ولقدْ أرسَلْنا، للتَّصريح بوصولِ الرِّسالةِ إليهم، فإنَّه أَدَلُّ على تَناهيهم في العُتُوِّ والمُكابَرة، أي: وباللّه لقدْ جاءتْهم رسُلُنا حَسْبَما أَرْسلْناهُم بالآياتِ الواضحةِ النَّاطقةِ بتقريرِ ما كَتبْنا عليهم؛ تأكيدًا لوجوبِ مُراعاتِه، وتأييدًا لتَحتُّمِ المحافظةِ عليه"[1].

أفـــادَ نـظـم السِّياقِ بأركانه تـأكـيـدَ إرسـالِ الـرُّسُـلِ لبني إسـرائـيـل، وتأكيدَ إسْرافِهم في الـفـسـاد، وإعـراضِـهـم عن شريعة رُسُلِهم

فائدةُ الخَبَر:

﴿وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾: خبرٌ مُستَعمَلٌ كنايةً عن إعراضِهم عَنِ الشَّريعة، وأنَّهم مع ما شُدِّدَ عليهم في شأنِ القتلِ لم يَزالُوا يَقتُلون، كما أشعرَ به قولُه: ﴿بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾، أي: بعد أنْ جاءتْهُم رُسُلُنا بالبيِّنات.

خـبرٌ مُستَعمَلٌ كـنـايـةً عـن إعـراضِـهـم عَـنِ الشَّريعة

﴿ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ أي: بعدَما ذُكِرَ من الكُتُب وتأكيدِ الأمرِ بإرسالِ الرُّسُلِ تَتْرى وتجديدِ العهدِ مرَّةً بعدَ أُخرَى.

بلاغةُ استعمالِ اسمِ الإشارة:

وُضِعَ اسْمُ الإشارةِ ﴿ذَٰلِكَ﴾ مَوضِعَ الضَّميرِ للإيْذانِ بكمالِ تَميُّزِه وانْتظامِه بسببِ ذلكَ في سِلْكِ الأمورِ المُشاهَدَة.

لـلإيْـذانِ بكمالِ تَميُّزِه وانْتظامِه بسببِ ذلـكَ في سِـلْـكِ الأمـورِ المُشاهَدَة

وما فيه من معنَى البُعدِ بـ (الكاف) للإيماءِ إلى عُلُوِّ درجتِه، وبُعدِ مَنزلَتِه في عِظَمِ الشَّأن.

وجاءَ ﴿ثُمَّ﴾ للتَّراخِي في الرُّتبةِ والاسْتِبْعاد؛ لأنَّ مجيءَ الرُّسُلِ بالبيِّناتِ شأنٌ عجيبٌ، والإسرافُ في الأرضِ بعدَ تلكَ البيِّنات أَعْجَبُ[2].

فائدةُ ذكْرِ القيدِ ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ وتعلُّقِه:

"وذُكِرَ ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ لتصويرِ هذا الإسْرافِ عندَ السَّامعِ وتَفْظيعِه، وتقديمُ ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ للاهْتِمام، وهو يُفيدُ كذلكَ زيادةَ تفظيعِ الإسْرافِ فيها مع أهمِّيَّةِ شأنِها"[3].

(1) أبو السُّعود، إرشاد العَقْل السّليم: 2/45.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العَقْل السّليم: 2/45.
(3) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/179.

"وقولُه: ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ مُتعلِّقٌ بقولِه تعالى: ﴿لَمُسۡرِفُونَ﴾ وكذا الظَّرْفُ المُتقدِّمُ ﴿بَعۡدَ﴾، ولا يَقدَحُ فيه توسُّطُ اللَّامِ بينَه وبينَهما؛ لأنَّها لامُ الابْتداء، وحقُّها الدُّخولُ على المبتدأ، وإنَّما دخولُها على الخَبرِ لمكانِ (إنَّ) فهي في حَيِّزِها الأصليِّ، والإسرافُ في كلِّ أمرٍ: هو التَّباعُدُ عن حدِّ الاعْتدالِ مع عدمِ مُبالاةٍ به، أي: مُسْرِفونَ في القتلِ غيرُ مُبالِينَ به، ولَمَّا كانَ إسرافُهم في أمرِ القتلِ مُسْتَلزِمًا لتفريطِهمْ في شأنِ الإحياءِ وُجودًا وذِكْرًا، وكان هو أقبحَ الأمرَيْن وأفظَعَهما؛ اكْتَفَى بذِكْرِه في مَقامِ التَّشْنيع"[1].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(كُتِبَ) و (فُرِضَ):

كُتِبَ بمعنَى: فُرِضَ، كما تبيَّن في فِقرة: شرحِ المفردات.

والفَرْضُ لغةً: الحَزُّ في الشَّيء، وهو ما أَوْجبَه اللّه تعالى على عبادِه، وسُمِّيَ بذلك؛ لأنَّ له مَعالمَ وحُدودًا، وقولُه تعالى: ﴿وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنۡ عِبَادِكَ نَصِيبٗا مَّفۡرُوضٗا ١١٨﴾ [النِّساء: 118] أي: مُقْتَطَعًا مَحْدودًا.

ولكنَّ البيانَ الإلهيَّ اسْتخدمَ الفعلَ ﴿كَتَبۡنَا﴾ لمراعاةِ الأَصْلِ في الكَتْبِ والكتابةِ أوَّلًا، وثانيًا: لأنَّ السِّياقَ في مُحاجَّةِ بني إسرائيلَ الَّذين لا يَفْتَؤون في إجرامِهم الَّذي تجاوزُوا فيه أَقْبحَ أنواعِ الإجرامِ وأَخْطرَهُ وأقساهُ في قتلِ أنبيائهم، وإبادةِ كلِّ من يُخالفُهم، وهذا الأمرُ يحتاجُ لتثبيتِ ما أمرَهم اللّه به وما نهاهم عنه، ومنه القَتْلُ بغيرِ حقٍّ، وما فَعلُوه على وَجْهِ الخصوصِ من قتلِ أنبيائهم بغيرِ حقٍّ، كما قالَ تعالى: ﴿سَنَكۡتُبُ مَا قَالُواْ وَقَتۡلَهُمُ ٱلۡأَنۢبِيَآءَ بِغَيۡرِ حَقّٖ﴾ [آل عمران: 181].

فإيرادُ الفعل ﴿كَتَبۡنَا﴾ أَوْفَى بالسِّياق وأَلْيَقُ منَ الفعلِ (فَرَضْنا) أو أيِّ مُرادفٍ آخَر.

البيِّنات والبراهين، والدَّلالات والمُعْجزات:

سبقَ بيانُ الفرقِ بين هذه المفردات في قولِه تعالى: ﴿قُلۡ قَدۡ جَآءَكُمۡ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِي بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ [آل عمران: 183].

(1) أبو السِّعود، إرشاد العَقْل السّليم: 2/45 - 46.

والسِّياقُ هنا في هذه الآية كذلكَ في حديثِ القرآنِ عن بني إسرائيل، فالقتلُ محرَّمٌ في شريعةِ التَّوراة الَّتي توارَدَ عليها، وحَكَمَ بها جميعُ أنبياءِ بني إسرائيلَ، من لَدُن نبيِّ اللّه ورسولِه موسى عليه السلام وقد ظهرَ لنا جَليًّا في شرحِ كلمةِ ﴿بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ في هذه الآيةِ هنا ومن قَبْلُ أنَّها تحملُ دَلالَتَيْن: الأُولى بمن بيَّنها لعبادِه، وهو اللّه سبحانه وتعالى، والثَّانية بنَفْسِها، بما تُوحِي إليه من مَقاصدَ وغاياتٍ؛ لتحملَ العبادَ على الإيمانِ بمن أَنْزَلها، وبيَّنها، وأمرَ بها، وهو اللّه سبحانه وتعالى، فهي آياتٌ مُبيِّناتٌ ومُبيَّناتٌ، فالبيِّناتُ: تُفيدُ عُمومَ الدَّلالاتِ والاعْتبارات، ممَّا لا يتحقَّقُ في معاني الكلماتِ السَّابقةِ، ولذلك كانَ اسْتخدامُ البيانِ الإلهيِّ لها دونَ غيرِها أَلْيَقَ بالسِّياقِ وأَرجَى.

الإسراف والتَّبذير والإفْساد:

تقدَّمَ أنَّ الإسرافَ: تعدِّي الحدِّ، ومجاوزةُ القَدْر، وقدْ يكونُ هذا التَّجاوزُ في صَرْفِ المالِ، وبكلِّ شيءٍ وُضعَ في غيرِ مَوْضعِه اللَّائقِ به، فأولئكَ قومُ لوطٍ عليه السلام وصفَهُمُ اللّه تعالى بالإسْرافِ لوَضْعِهُمُ البِذْرَ في غيرِ المَحرَث، فقالَ سُبحانه: ﴿إِنَّكُمۡ لَتَأۡتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهۡوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِۚ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ مُّسۡرِفُونَ ٨١﴾ [الأعراف: 81].

ووُصِفَ فرعونُ بالإسرافِ بقولِه تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيٗا مِّنَ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ٣١﴾ [الدُّخان: 31].

أمَّا التَّبذيرُ؛ فهو إنفاقُ المالِ فيما لا يَنبغي، وإتلافُه في غير مَوْضعِه، قالَ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخۡوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِۖ﴾ [الإسراء: 27][1].

وكذلكَ الفَسادُ: هو خروجُ الشَّيءِ عنِ الاعْتدال، قليلًا كانَ الخروجُ عنه أوْ كثيرًا، ويُضادُّه الصَّلاحُ، ويُستعمَلُ ذلكَ في النَّفْس، والبَدَن، يُقالُ: فَسَدَ فَسَادًا وفُسُودًا، وأَفْسَدَهُ غيرُه، قالَ عزَّ وجلَّ: ﴿لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ﴾ [الأنبياء: 22]. وقالَ سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصۡلِحُ عَمَلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ٨١﴾ [يونُس: 81][2].

وممّا سبقَ بيانُه: يتَّضحُ أنَّ اسْتخدامَ لَفْظِ ﴿لَمُسۡرِفُونَ﴾ أنسبُ بالسِّياقِ القُرآنيِّ؛ فهو أوسَعُ دَلالةً منَ التَّبذير والإفْساد، ويتناولُ كلَّ تَجاوزٍ للحدِّ في أمورِ الدُّنيا والدِّين، وفي كلِّ فسادٍ وإفسادٍ في الأرض، وهذا ما كان عليه بنو إسرائيل في طُغيانِهم وإفسادِهم بقتلِ

(1) العسكري، الفروق اللُّغويَّة، ص: 114 - 115.
(2) الرَّاغب، المفردات: (فسد).

أنبيائِهم، وفعلِ المنكراتِ والاسْتمرارِ عليها وسوءِ أدبِهم مع الله - ﷻ - كما قالَ تعالى في وصفِهم: ﴿وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ [آل عمران: 181].

وقالَ ﷻ: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُۚ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [المائدة: 78 - 79].

وقالَ ﷻ: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُۚ﴾ [المائدة: 64].

وكلٌّ منِ اتَّصفَ بصفاتِهم أوْ بشيءٍ منها، وفَسَدَ، وأَفْسَدَ، وتجاوزَ حُدودَ الله؛ يصدُق عليه قولُ الله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِي ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [المائدة: 32].

﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ أَوۡ يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِۚ ذَٰلِكَ لَهُمۡ خِزۡيٞ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ٣٣ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبۡلِ أَن تَقۡدِرُواْ عَلَيۡهِمۡۖ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٣٤﴾ [المائدة: 33- 34]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا أخبرَنا بيانُ اللّه في الآيةِ السَّابقةِ أنَّ مَنْ قَتَلَ نفسًا بغيرِ حقٍّ؛ فكأنَّما قَتلَ النَّاسَ جميعًا، ومَنْ أَحْياها؛ فكأنّما أَحْيا النَّاس جميعًا؛ جاءتْ هذه الآيةُ الكريمةُ ناطقةً بجزاءِ أهلِ الحِرابةِ الَّذين يَقطَعون الطَّريقَ على النَّاسِ، ويُصادِرون أموالَهم، ويُزهِقُونَ أَنْفُسَهم بقتلِهم أوْ صَلْبِهم أو نَفْيهم، وهذا في الدُّنيا، ولهُمُ العذابُ العظيمُ في الآخرة، إلَّا من تابَ قبل أن يصلَ أمرُه إلى القضاءِ، فإنَّ اللّه يتوبُ عليه.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿جَزَٰٓؤُاْ﴾: "الجَزاءُ: الغناءُ والكِفايةُ منَ المقابَلة، إنْ خيرًا؛ فَخَير، وإنْ شرًّا؛ فَشرٌّ. قال اللّه تعالى: ﴿وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ مَن تَزَكَّىٰ ٧٦﴾ [طه: 76]"[1].

وكما هو معنَى الآيةِ - الَّتي معنا - في مقابلةِ عملِ الَّذينَ يُحارِبونَ اللّه ورسولَه، ويَسْعَوْنَ في الأرضِ فسادًا بالقتلِ أوِ الصَّلبِ أوِ النَّفي.

2) ﴿وَيَسۡعَوۡنَ﴾: "السَّعْيُ: المَشْيُ السَّريع، وهو دُونَ العَدْو، ويُستعمَلُ للجِدِّ في الأمر، خيرًا كان أو شرًّا، قال تعالى: ﴿وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَآۚ﴾ [البقرة: 114]، وقال سُبحانه: ﴿نُورُهُمۡ يَسۡعَىٰ بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ﴾ [التَّحريم: 8]"[2].

3) ﴿أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ﴾: الصَّلْبُ: هو تعليقُ الإنسانِ للقَتْل، وشَدُّ صُلْبِهِ على خَشَب، قالَ

(1) الرَّاغب، المفردات: (جزء).
(2) الرَّاغب، المفردات: (سعى).

تعالى عن نبيّه عيسى بنِ مريم عليه السلام: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ﴾ [النِّساء: 157]، وقال سُبحانَه: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾ [طه: 71][1]، وكذلكَ هو معنَى الآيةِ الَّتي معنا.

4) ﴿أَوْ يُنفَوْاْ﴾: "نَفَى: النُّونُ والفاءُ والحَرْفُ المعتَلُّ: أَصْلٌ يَدُلُّ على تَعْرِيةِ شيءٍ من شيءٍ وإبعادِه عنه، ونَفَيْتُ الشَّيءَ أَنْفيهِ نَفْيًا، وانْتَفى هو انتفاءً، والنُّفَايةُ: الرَّدِيُّ يُنفَى"[2].

وهذا هو المعنَى الملائمُ للفعلِ ﴿يُنفَوْاْ مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾، فالَّذي يُحارِبُ اللّه ورسولَه، ويَسْعَى في الأرضِ فسادًا: هو الرَّدِيُّ الَّذي أحقُّ أن يُبعدَ منَ الأرضِ؛ ليَرتاحَ النَّاسُ من فسَاده وشَرِّه.

5) ﴿خِزْيٌ﴾: خَزَوَ: الخاءُ والزَّايُ والحَرْفُ المعتَلُّ أَصْلان: أحدُهما: السِّياسةُ، والآخَرُ: الإبْعادُ.

فأمَّا الأوَّلُ؛ فقولهم خَزَوْتُه: إذا سُسْتُه، وهذا المعنَى لا يُناسبُ السِّياقَ في الآيةِ الكريمة.

وأمَّا الثَّاني؛ فقولُهم أَخْزاهُ اللّه، أي: أَبْعَدَهُ، ومَقَتَهُ، والاسْمُ: الخِزْي، ومن هذا البابِ قولُهم: خَزِيَ الرَّجُلُ: اسْتَحْيا من قُبْحِ فِعلِه خَزَايةً، فهو خَزْيانُ، وذلك أنَّه إذا فعلَ ذلكَ، واسْتَحْيا؛ تباعَدَ، ونَأَى[3].

وهذا المعنَى الثَّاني هو الَّذي يناسبُ سياقَ نَظْمِ الآيةِ الكريمة، وهو الجَزاءُ الدُّنيويُّ بعد المعنويِّ لأولئك الَّذين يُحارِبونَ اللّه ورسولَه، ويَسْعَوْنَ في الأرضِ فَسادًا، ويُجزَوْنَ جزاءً حِسِّيًّا بالقَتْلِ أوِ الصَّلْبِ أوِ النَّفي.

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

هذه الآيةُ الكريمةُ هي في أحكام قُطَّاعِ الطَّريق الَّذين يَعرِضونَ للنَّاسِ في القُرَى والبَوادي، فيَغصِبونَهم أموالَهم، ويَقْتُلونَهم، ويُخيفونَهم، فأخبرَ اللّه تعالى أنَّ جَزاءهم ونَكالَهم - عندَ إقامة الحدِّ عليهم - أنْ يُفعَلَ بهم واحدٌ منَ الأمورِ الثَّلاثة: القتلِ أوِ الصَّلبِ أوِ النَّفْي، على ما هو ظاهرُ اللَّفظ، أوْ أنَّ عقوبتَهم تكونُ بِحسبِ جرائِمهم، فكلُّ

(1) الرَّاغب، المفردات: (صلب).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نفى).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (خزو).

جريمةٍ لها قِسْطٌ يُقابلُها، من حيثُ القتلُ أو أخذُ المالِ، أو إخافةُ النَّاسِ، أو كانوا مُجْتَمعِين، أوْ أحدُ هذيْن الأمرَيْن مع صاحبِه، على اختلافٍ في ذلكَ بين أئمَّةِ الفِقه.

وهذا كلُّه من أعظمِ الذُّنوبِ الموجِبَةِ لفضيحةِ الدُّنيا وعذابِ الآخرةِ لِمُرتَكِبه، إلَّا الَّذين تابُوا من هؤلاء المُحارِبينَ قبل القُدْرةِ عليهم، فلا حدّ عليهم[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

الاسْتئنافُ، وسببُ النُّزول، والعطفُ، ووجوهُ الإعراب، وأثرُها في تجليةِ المعنَى وإثْرائه:

هذا الكلامُ الرَّبَّانيُّ مُستأنَفٌ سيقَ لبيانِ حُكم نوعٍ من أنواعِ القَتْل وما يتعلَّقُ به منَ الفسادِ، بقطعِ الطَّريق على النَّاسِ وأَخْذِ أموالهم ومُمتلكاتِهم، إثْرَ بيانِ عِظَمِ شَأنِ القَتْلِ بغيرِ حقٍّ.

أفـــادَ الـنَّـظـمُ الكريمُ بأركانه أنَّ عِظَمَ الجزاءِ من عِظَمِ الذَّنْب

وجَعَلَ بيانُ اللّه محاربةَ أهلِ شَريعتِه من المسلمينَ مُحارَبةً للّه تعالى ولرسولِه الكريم ﷺ تعظيمًا لهم ورَفْعًا لِشَأنِهم.

وأصْلُ الحربِ: السَّلبُ، والمرادُ ههنا: قطعُ الطَّريقِ على النَّاس.

وهذه الآية نزلتْ في ناسٍ من عُرَينة، وعُكْل[2]، أَتَوْا رسولَ اللّه ﷺ وبايَعوهُ على الإسلام، وهم كَذَبةٌ وليس الإسلامَ يُريدون، ثمَّ قالوا: إنَّا نَجْتوي[3] المدينة، فقالَ النبيُّ ﷺ: «اخْرُجوا إلى لقاحِنا، فاشْرَبوا من أَبْوالِها وأَلْبانِها»، فذهبوا فقتلُوا الرُّعاةَ، واسْتاقُوا الإبلَ، وارتدُّوا

---

(1) السّعدي، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 185، وقد اختلف أئمَّةُ الفقه في المحارِب الَّذي يستحقُّ الحدّ، فقال الإمامان مالكٌ والشَّافعيّ: "هو اللِّصُّ الَّذي يقطعُ الطَّريق، والمُكابِرُ في الأمصار، والَّذي يحملُ السِّلاحَ على المسلمين في أيِّ موضع"، ينظر: الإمام مالك، المدوَّنة الكبرى: 4/556، والإمام الشَّافعيّ، الأُمّ: 6/14.

وقال أبو حنيفة وأصحابه: "هو قاطعُ الطِّريق، فأمَّا المكابِرُ في الأمصار، فليس بمُحارِب"، ابن الهُمام، فتح القدير: 5/410، ويُنظر في عرض الأقوال جميعِها: ابن قدامة، المغني: 12/474.

(2) عُرَينة: بضمِّ العَين، وفتحِ الرَّاء: بَطْنٌ من قُضَاعَة، ومن تَميم، وعُكْل: بضمِّ العَينْ، وسكونِ الكاف: بَطْنٌ من تَميم، السُّيوطي، لبُّ اللُّباب: 2/113، 119.

(3) أي: كرهوا البقاءَ فيها.

عنِ الإسلام، فنُودِيَ في النّاس: "يا خَيْلَ اللّه ارْكبي، فَركِبوا، لا يَنتظِرُ فارسٌ فارسًا، فخَرجوا في طَلَبِهم، فَجيءَ بهم، فأمرَ رسولُ اللّه ﷺ بقطعِ أَيْديهِم وأَرجُلِهم، وسَمْلِ[1] أَعْيُنِهم، وتَرْكِهم بالحرَّةِ حتَّى ماتوا[2].

بلاغةُ القصْرِ وفائدتُه:

﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ﴾: يُفيدُ الحَصْرَ والقَصْرَ، أي: لا جَزاءَ لهم إلَّا ذلك، فيكونُ المقصودُ منَ القَصْرِ حينئذٍ ألَّا يُنقَصَ عن ذلكَ الجزاء، وهو أحدُ الأُمورِ الأربعةِ الواردةِ في الآيةِ الكريمة.

وقد يكونُ الحَصْرُ لرَدِّ اعْتقادٍ مُقَدَّر، وهو اعْتقادُ مَنْ يَسْتعظِمُ هذا الجزاءَ، ويَميلُ إلى التَّخفيف منه، وهو قصرٌ موصوفٌ على صفاتٍ، وهو قصرٌ إضافيٌّ،

﴿وَيَسْعَوْنَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾: ومعنَى يَسْعَوْن هنا: أنَّهم يَكتسِبونَ الفسادَ، وَيَجْتَنُونَهُ ويَجْترِحونَه؛ لأنَّ السَّعيَ قدِ اسْتُعمِلَ بمعنَى: الاكْتسابِ واللَّمَم، كما قالَ تعالى: ﴿لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ۝١٥﴾ [طه: 15].

و﴿وَيَسْعَوْنَ﴾ عطفٌ على ﴿يُحَارِبُونَ﴾، والجارُّ والمجرور مُتعلِّقٌ به، وسيقَ هذا العطفُ لبيانِ القَصْدِ من حربِهمُ اللّه ورسولَه، فصارَ الجزءُ على مجموعِ الأمرَيْن اللَّذين هما سببٌ مركَّبٌ للعقوبة، وكلُّ واحدٍ منَ الأمرَيْنِ جزءُ سببٍ لا يقتضي هذه العقوبةَ بخُصوصِها[3].

إعرابُ ﴿فَسَادًا﴾، وأثره في المعنى:

﴿فَسَادًا﴾: فيه ثلاثةُ وجوهٍ إعرابيَّة[4]:

الأوَّلُ: مصدرٌ، وقعَ مَوقِعَ الحالِ من فاعلِ ﴿وَيَسْعَوْنَ﴾، أي: مُفْسِدين.

الثَّاني: مفعولٌ له، أي: يسعون لأَجل الفساد، ويكونُ الفعلُ مُنَزَّلًا منزلةَ اللَّازِم اكتفاءً بدَلالةِ المفعولِ لأَجْلِه.

الثَّالثُ: مصدرٌ مؤكِّدٌ لـ ﴿وَيَسْعَوْنَ﴾؛ لأنَّه في معنَى: يُفسِدون، على أنَّه مصدرٌ من

(1) السَّمْل: بفتح السِّين، وسكون الميم هو: فَقْءُ العَينْ بحديدةٍ مُحمَّاةٍ، ابن منظور، لسان العرب: (سَمَلَ).
(2) البخاريّ، الحديث رقم: (233)، ومسلم، الحديث رقم: (1671).
(3) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/181 - 182.
(4) ينظر في الأوَّل والثَّاني: الزّمخشري، الكشَّاف: 1/609، والثّالث: أبو السُّعود، إرشاد العَقْل السّليم: 2/46.

أَفْسَدَ بحذف الزَّوائد، أوِ اسْمُ مَصْدر، وعلى كلٍّ فإنَّ ذكر الفساد بعد الفعل المضارع ﴿وَيَسْعَوْنَ﴾، يعني: أنَّهم يجتهدون في الكيد للإسلام وأهله وتعويق الناس عنه وإثارة الفتن[1].

صيغةُ المبالغةِ، ووجوهُ الإعراب، وأثرُ ذلكَ في إثراءِ المعنَى:

﴿يُقَتَّلُوٓاْ﴾: مُبالغةٌ في ﴿يُقَتَّلُوٓاْ﴾، وقُصِدَ منَ المبالغةِ هنا إيقاعُه بدونِ لِينٍ ولا رِفْقٍ؛ تَشْديدًا عليهم، وكذلكَ الوجهُ في قولِه: ﴿يُصَلَّبُوٓاْ﴾"[2].

﴿يُقَتَّلُوٓاْ﴾: خبرُ ﴿جَزَٰٓؤُاْ﴾ وكذلكَ المعطوفُ عليه"[3].

﴿أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ﴾: أي: مع القَتْل؛ إنْ جَمعُوا بينَ القَتْلِ والأخذِ بأنْ يُصَلَّبُوا أحياءً، ويُطعَنوا بِرُمْحٍ في مَوضِعِ القَتْل، والصَّلبُ: وضعُ الجاني الَّذي يُرادُ قَتْلُه مَشدودًا على خَشَبةٍ، ثمَّ قَتْلُه عليها[4].

أفـــادَ نـظـمُ السِّياق المبالغَةَ فـــي عـقـوبـةِ أهـلِ الـحِـرابـة، كـمـا بـالَـغُـوا فـــي مُـحـاربـةِ الـلـهِ ورسـولِـه والإفـســـادِ في الأرض

فائدةُ ذكْرِ ﴿مِّنۡ خِلَٰفٍ﴾:

و"﴿مِّنۡ﴾ في قولِه: ﴿مِّنۡ خِلَٰفٍ﴾: ابتدائيَّةٌ في مَوْضعِ الحالِ مِنْ ﴿أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم﴾"[5]، فهي قَيْدٌ للقَطْع، أي: أنَّ القطعَ يَبتدِىءُ في حالِ التَّخالُف، وقد عُلِمَ أنَّ المقطوعَ هو العُضْوُ المخالِفُ، فَتعيَّنَ أنَّه مُخالِفٌ لمقطوعٍ آخَرَ، وإلَّا لم تُتَصَوَّرِ المُخالفةُ، فإذا لم يكنْ عضوٌ مَقْطوعٌ سابقٌ؛ فقدْ تعذَّرَ التَّخالفُ، فيكونُ القطعُ للعُضْوِ الأوَّلِ آنِفًا، ثمَّ تجري المخالفةُ فيما بعد.

وقدْ عُلِمَ من قولِه: ﴿مِّنۡ خِلَٰفٍ﴾ أنَّه لا يُقطَعُ من المُحارِبِ إلَّا يدٌ واحدةٌ، أو رِجْلٌ واحدة، ولا يُقطعُ يَداهُ أوْ رِجْلاه؛ لأنّه لو كان كذلكَ

(1) القاسمي، محاسن التأويل: 4/189.
(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/183.
(3) العكبري، التبيان: 1/214.
(4) تقدَّمتِ الإحالةُ للمصادر الفقهيَّة الَّتي اهتمَّتْ بتفصيل أحكامِ هذه المسألة وبَسْطِها في حاشية فِقرة: المعنَى الإجماليّ.
(5) العكبري، التبيان: 1/214.

لم يُتَصوَّرْ معنًى لِكَوْنِ القَطْعِ مِنْ خِلاف، وهذا التَّركيبُ السَّالفُ من بديع الإيْجازِ البيانيِّ، وهو بابٌ من أبوابِ البلاغةِ القُرآنيَّةِ في لونٍ ضافٍ من ألوانِ الإعْجازِ القُرآنيِّ البيانيِّ.

والظَّاهرُ أنَّ كونَ القَطْعِ من خلافٍ تيسيرٌ ورَحْمة؛ لأنَّ ذلكَ أَمْكَنُ لحركةِ بقيَّةِ الجَهدِ بعدَ البُرْء، وذلكَ بأنْ يُتوكَّأَ باليَدِ الباقيةِ على عصًا بجهةِ الرِّجْلِ المقْطُوعة،

والحِكْمةُ في تحديد القَطْعِ: هو أنَّ قطعَ يدِه لِأجْلِ أَخْذِ المال، ورِجْلِه للإخافَة؛ لأنَّ اليدَ هي العُضْوُ الَّذي به الأَخْذُ، والرِّجلُ هي العُضْوُ الَّذي به الإخافةُ، أي: المَشْيُ وراءَ النَّاسِ والتَّعرُّضُ لهم[1].

﴿أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ ٱلْأَرْضِۚ﴾، أي: يُبْعَدُوا منَ المكانِ الَّذي هو وطنُهم؛ لأنَّ النَّفيَ معناهُ عدمُ الوجود، فالمُرادُ هنا الإبعادُ عنِ القومِ الَّذينَ حارَبوهُم، أوْ منَ الأرضِ الَّتي يُريدونَ الإقامةَ بها، فحذفَ الصِّفةَ[2].

دلالاتُ ﴿أَوْ﴾:

﴿أَوْ﴾ الَّذي تكرَّرَ في الآيةِ الكريمةِ فيه وجهان:

الأوَّلُ: التَّخييرُ في جزاءِ المُحاربين؛ لأنَّ أصلَ ﴿أَوْ﴾ الدَّلالةُ على أحدِ الشَّيئَيْن، أوِ الأشياءِ في الوُقوع، ويقتضي ذلكَ في بابِ الأمرِ ونحوِه التَّخييرَ، كما في قولِه تعالى: ﴿فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍۚ﴾ [البقرة: 196].

والثَّاني: التَّقْسيمُ، وأنَّ المذْكوراتِ مَراتبُ للعقوباتِ بِحَسْبِ ما اجْترحَهُ المُحارِب، ويُوجَدُ رابطٌ وثيقٌ بين هذه العقوبات وقولِه تعالى بعدَها: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُواْ عَلَيْهِمْۖ﴾، وهو أنَّ هذه العقوباتِ هي لأَجْلِ الحِرابةِ، وليستْ لأَجْلِ حقوقِ الأَفْرادِ من النَّاس، ولذلكَ فلو أَسْقَطَ المُعْتَدَى عليهم حُقوقَهم؛ لم يسقطْ عَنِ المُحارِبِ عُقوبةُ الحِرَابة[3].

وتحتمل (أو) هنا معاني أُخَر، منها الإباحة، فللإمام أن يفعل ما أراد من هذه الأشياء[4]، ومنها البيان، وهي الرِّواية الثَّانية عن ابن عباس، وهو قول أكثر العلماء؛ لأنَّ

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/183 - 184.
(2) العكبري، التبيان: 1/214.
(3) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/185.
(4) الواحدي، الوجيز، ص: 317.

الأحكام تختلف، فترتَّبت هذه العقوباتُ على ترتيب الجرائم، وهذا كما روي عن ابن عباس في قطَّاع الطريق، قال: إذا قَتلوا - وأَخذوا المالَ - قُتلوا، وصُلِّبُوا، وإذا قَتَلوا - ولمْ يأخذوا المالَ - قُتلوا، وإذا أَخَذوا المالَ - ولم يَقتُلوا - قُطعت أيديهم وأرجلُهم من خلاف (أي: مختلفة)، فتُقطع اليدُ اليمنى والرِّجلُ اليسرى، وإذا أَخافوا السَّبيلَ - ولم يَقتلوا، ولم يَأخذوا مالًا - نُفوا من الأرض، وهذا قولُ قتادة والأوزاعيِّ والشَّافعيِّ وأصحابِ الرَّأي[1].

وجوهُ الإعراب، وأسلوبُ الحَصْر، وأثرُ ذلك في تَجْليةِ المعنَى:

أفـــادَ نـظـمُ السِّياقِ تَحقُّقَ عـاقـبـةِ أهـلِ الحِرابةِ في الدُّنيا والآخرة

و﴿ذَٰلِكَ﴾ مُبتَدأ، و﴿لَهُمۡ خِزۡيٞ﴾ مُبتدأٌ وخَبر، والجُملةُ في محلِّ رفعِ خبرٍ للمبتدَأ ﴿ذَٰلِكَ﴾.

وقولُه: ﴿فِي ٱلدُّنۡيَاۖ﴾ صفةُ ﴿خِزۡيٞ﴾، ويَجوزُ أنْ يكونَ ظرفًا له، ويجوزُ أن يكونَ ﴿خِزۡيٞ﴾ خبرَ ﴿ذَٰلِكَ﴾، و﴿لَهُمۡ﴾ مُتعلِّقٌ بمحذوفٍ وقعَ حالًا من ﴿خِزۡيٞ﴾؛ لأنَّه في الأصلِ صفةٌ له، فلمَّا قُدِّمَ؛ انْتَصبَ حالًا، أي: كائنًا في الدُّنيا، ويجوزُ أنْ يكونَ ﴿فِي ٱلدُّنۡيَاۖ﴾ ظرفًا للاسْتقرار[2].

"والخِزيُ: الذُّلُّ والفَضيحة، وقولُه: ﴿وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ غيرُ هذا الخِزْي، وهو ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ لا يُقادَرُ قَدْرُه لغايةِ عِظَم جِنايَتِهم.

وقولُه تعالى: ﴿وَلَهُمۡ﴾ خبرٌ مُقدَّم، و﴿عَذَابٌ﴾ مُبتدَأٌ مُؤخَّر، و﴿فِي ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ مُتعلِّقٌ بمحذوفٍ وقعَ حالًا من ﴿عَذَابٌ﴾؛ لأنَّه في الأصلِ صفةٌ له، فلمَّا قُدِّم انتصبَ حالًا، أي: كائنًا في الآخرة"[3]، كما تقدَّمَ في الجُملةِ السَّابقةِ ﴿لَهُمۡ خِزۡيٞ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ﴾.

(1) صافي، الجدول: 6/337.
(2) العكبري، التبيان: 1/214.
(3) أبو السُّعود، إرشاد العَقْل السّليم: 2/47 - 48.

فائدةُ تقديمِ ﴿لَهُمْ﴾:

وتقديمُ شِبهِ الجُملةِ في كلا الوَعيدَيْن، يُفيدُ حَصْرَ: كَيْنُونَةِ الأوَّلِ في الدُّنيا، وكَيْنُونَةِ الثَّاني في الآخرة، وتَحقُّقَهما.

الاستثناء، وأثرُه في تجليةِ المعنَى:

أفادَ الاستثناءُ قَبولَ توبةِ أهلِ الحِرابةِ قبلَ القُدرةِ عليهم

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ﴾: اسْتثناءٌ منَ المُعاقَبِينَ عقابَ قطْعِ الطَّريقِ خاصَّة، إذًا فقدْ دلَّتْ أداةُ الاسْتثناءِ على سُقوطِ عُقوبةِ قطْعِ الطَّريقِ خاصَّة، فهو اسْتثناءٌ مَخصوصٌ بما هو من حقوقِ اللّه ﷻ، كما يُنبِئُ عنه قولُه تعالى: ﴿فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، وأمَّا حُكْمُ القَتْلِ والجِراحِ وأَخْذِ المالِ، فإلى الأولياءِ: إنْ شاؤوا؛ عَفَوْا، وإنْ شاؤوا؛ اسْتَوْفَوْا، وإنَّما يَسقُطُ بالتَّوبةِ وجوبُ اسْتيفائِه لا جَوازُه،[1] وذلكَ بأدلَّةٍ من كتاب اللّه ﷻ، كما في قولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِي ٱلْقَتْلَىۖ ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰۚ فَمَنْ عُفِيَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: 178]، وكما في قولِه تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥۚ﴾ [المائدة: 45].

﴿فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾: تَذْكيرٌ بعدَ تمامِ الكلامِ، ودَفْعٌ لِعَجَبِ مَنْ يَتعجَّبُ من سُقوطِ العقابِ عنهم، وهو - كما سَلَفَ آنفًا - ما يتعلَّقُ بحقوقِ اللّه ﷻ إنْ تابُوا، وأنَابُوا.

وهذا كلُّه قبْلَ القُدْرةِ عليهم، كما في قولِهِ تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُواْ عَلَيْهِمْۖ﴾.

فعندَ ذلكَ لم تَبْقَ حِكمةٌ في عقابِه، ولَمَّا لم تتعرَّضِ الآيةُ الكريمةُ إلى غُرْمِ ما أتْلَفَهُ بحِرَابتِه؛ عُلِمَ أنَّ التَّوبةَ لا تُؤثِّرُ في سُقوطِ ما كانَ

(1) الزَّمخشري، الكشاف: 1/610، وأبو السُّعود، إرشاد العَقْل السّليم: 2/48.

قدِ اعْتَلَقَ به من حُقوقِ النَّاسِ من مالٍ أو دَم، إلَّا إنْ عَفَا الأوْلياءُ عن حُقوقِهم؛ بناءً على تنزيلِ المُخاطَبينَ مَنْزِلةَ مَنْ لا يَعلمُ ذلكَ؛ نظرًا لاسْتعظامِهمْ هذا العَفْوَ، وشَأْنُ الفعلِ ﴿فَٱعْلَمُوٓاْ﴾ أنَّه يَدُلُّ على أهمِّيَّةِ الخَبَر، كما في قولِه تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ﴾ [الأنفال: 24][1].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الجَزاء والعَاقِبة والعِقاب والعُقُوبة:

"العاقبةُ: يختصُّ إطلاقُها بالثَّواب، كما في قولِه تعالى: ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [القَصص: 83].

وبالإضافةِ قد تُستَعمَلُ في العُقوبة، كما قالَ تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ﴾ [الرُّوم: 10]، وقال سُبحانَه: ﴿فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِي ٱلنَّارِ﴾ [الحشر: 17].

والعُقوبةُ والمعاقبةُ والعِقابُ يختصُّ بالعذاب، قالَ تعالى: ﴿فَحَقَّ عِقَابِ ﴿١٤﴾﴾ [ص: 14]، وقالَ سُبحانه: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ﴾ [النَّحل: 126]"[2].

وأمَّا "الجزاءُ؛ فهو ما فيه الكِفايةُ منَ المُقابَلةِ، إنْ خيرًا؛ فخير، وإنْ شرًّا؛ فَشَرٌّ"[3].

وهذا الَّذي عليه معنَى الجزاء، هو الَّذي يُحقِّقُ الغرضَ من إيرادِه في سِياقِ الآيةِ الكريمة، فالحِرابةُ سَبَبٌ للقِصاص، أمَّا الكلماتُ الَّتي يُظَنُّ ترادُفُها مع كلمةِ الجزاء؛ فلا تحقِّقُ هذا الغرضَ المنشودَ كما تقدَّم من معانيها.

(يَسْعَوْنَ) و(يَعيثُونَ):

يَعيثونَ من الفعلِ الماضي (عَثَا)، "والعَيْثُ والعِثيُّ يتقاربان، نحو: جَذَبَ وجَبَذَ، إلَّا أنَّ العَيْثَ: أكثرُ ما يُقالُ في الفسادِ الَّذي يُدرَك حِسًّا، والعِثيُّ: فيما يُدرَك حُكْمًا، يُقالُ: عَثِيَ يَعْثَى عِثيًّا، وعلى هذا قولُه تعالى: ﴿وَلَا تَعْثَوْاْ فِي ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٦٠﴾﴾ [البقرة: 60]، وعَثَا يَعْثُو عُثُوًّا"[4].

وقد تقدَّمَ في شرح المفردات أنَّ السَّعْيَ: هو المَشْيُ السَّريعُ، وهو دونَ العَدْوِ، ويُستعمَلُ للجِدِّ في الأمر، خيرًا كان أو شرًّا.

---

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/186 - 187.
(2) الرّاغب، المفردات: (عقب).
(3) الرّاغب، المفردات: (جزا).
(4) الرّاغب، المفردات: (عثى).

وعلى هذا؛ فإنَّ الفعلَ ﴿وَيَسۡعَوۡنَ﴾ أَوْفَرُ حظًّا في مناسبتِه للسِّياقِ من الفعلِ (يعيثون)، فأهلُ الحِرابة مُسْرِعونَ في مَشْيهم حِسًّا ومعنًى، بقطعِهمُ الطَّريقَ على النَّاسِ وقَتْلِهم وسَلْبِ أموالِهم، وإثارةِ الرُّعبِ في قلوبِهم، جادُّون في أعمالِ الفسادِ الَّتي قاموا بها.

النَّفْي والإبْعاد:

"البُعْدُ: ضدُّ القُرْب، وليس لهما حدٌّ محدود، وإنَّما ذلكَ بِحسبِ اعْتبارِ المكانِ بغيرِه، يُقالُ ذلكَ في المحسوسِ، وهو الأكْثَرُ، كما في قولِه تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوۡنَ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ ٤٤﴾ [فُصِّلت: 44]، وفي المعقول، كما في قولِه تعالى: ﴿ضَلُّواْ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ١٦٧﴾ [النِّساء: 167]"[1].

والبيانُ الإلهيُّ اسْتخدم النَّفيَ، ولم يستخدمِ الإبعاد؛ لأنَّ في النَّفْي إبعادًا للرَّديء والمُفسِدِ والشِّرِّير، فهو ليس أيَّ إبعاد، وأيُّ رَداءةٍ وإفسادٍ وشرٍّ بعدَ فعلِ أهلِ الحِرابةِ من قَتْلِ النَّاسِ وإتْلافِ أموالِهم وإدْخالِ الرُّعبِ والهلَعِ في قلوبِهم؟

الخِزْي والذُّل:

الذُّلُّ: هو ما كانَ عن قَهْر، يُقالُ: ذَلَّ يَذِلُّ ذُلًّا، قالَ تعالى: ﴿وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ﴾ [الإسراء: 24]، أي: كنْ كالمقهورِ لهما.

والذُّلُّ متى كانَ من جهةِ الإنسانِ نَفْسِه لِنَفْسِه؛ فَمحْمُود، كما في قولِه تعالى: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [المائدة: 54][2].

والخِزْيُ يَلْحَقُ صاحبَه انْكسارٌ واسْتخفافٌ وهَوَانٌ، مع زيادةِ معنًى آخَرَ، وهو أنَّ الخِزْيَ ذُلٌّ مع افْتضاحٍ[3]، وهو عينُ ما يستحقُّه أهلُ الحِرابةِ في ظلمِهم عبادَ اللّٰه، وقُبح أفعالِهم من قَتْلٍ وسَلْبٍ وإثارةِ رُعْب.

ولذلكَ اسْتخدمَ البيانُ الإلهيُّ كلمةَ (الخِزْي) بدلَ (الذُّلِّ)، فهي أَوْقعُ أَثَرًا في مفهومِ سياقِ النَّصِّ القرآنيِّ الَّذي وردت فيه، وأَجْلَى بيانًا لحالِ أولئكَ الظَّلَمةِ في سوءِ صنيعِهم مع النَّاس.

(1) الرّاغب، المفردات: (بعد).
(2) الرّاغب، المفردات: (ذل).
(3) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 215.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبۡتَغُوٓاْ إِلَيۡهِ ٱلۡوَسِيلَةَ وَجَـٰهِدُواْ فِي سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ٣٥﴾ [المائدة: 35]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا بيَّنَتِ الآيتَانِ السَّابقَتَانِ جزاءَ أَهْلِ الحِرَابةِ في الدُّنيا والآخرة، واسْتثناءَ مَنْ تابَ منهم قَبْلَ القُدرةِ عليه؛ جاءتْ هذه الآيةُ الكريمةُ آمرَةً المؤمنينَ بتَقْوَى الله، وطلبِ القُرْبى إليه تعالى بالطَّاعاتِ والجهادِ في سَبيلِه لِنَيل الفوزِ عندَه ﷻ.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾: وَقَى: الواوُ والقافُ والياءُ: كلمةٌ واحدةٌ تَدُلُّ على دَفْعِ شيءٍ عن شيءٍ بغيرِه، ووقَيْتُه أَقِيه وَقْيًا، والوِقايةُ: ما يَقِي الشَّيء، واتَّقِ الله: تَوَقَّهُ، أي: اجْعَلْ بينَكَ وبينَهُ كالوِقاية، وذلكَ بالتزامِ أوامرِه، والانْتهاءِ عن نَواهِيه، وعدمِ التَّعدِّي على حُدودِه، قالَ تعالى: ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدۡ ظَلَمَ نَفۡسَهُۥ﴾ [الطَّلاق: 1][1].

2) ﴿وَٱبۡتَغُوٓاْ﴾: "الابْتغاءُ: هو ما خُصَّ بالاجْتهادِ في الطَّلب، فَمَتى كانَ الطَّلَبُ لشيءٍ مَحْمودًا؛ فالابْتغاءُ فيه مَحْمودٌ، كما في قولِه تعالى: ﴿ٱبۡتِغَآءَ رَحۡمَةٖ مِّن رَّبِّكَ﴾ [الإسراء: 28]"[2].

3) ﴿ٱلۡوَسِيلَةَ﴾: الوَسيلَةُ: التَّوصُّلُ إلى الشَّيءِ برَغْبةٍ، وحقيقةُ الوَسيلَةِ إلى الله تعالى: مُراعاةُ سبيلِه بالعلمِ والعِبادَة، وتَحرِّي مكارِمِ الشَّريعة، وكُلُّ طاعةٍ مُوصلةٍ لِرِضْوانِ الله - ﷻ - وهو المرادُ هنا في الآية الكريمة: ﴿وَٱبۡتَغُوٓاْ إِلَيۡهِ ٱلۡوَسِيلَةَ﴾.

والوَسيلةُ كالقُرْبة، والواسِلُ: الرَّاغبُ إلى الله تعالى[3].

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (وقى).

(2) الرّاغب، المفردات: (بغي).

(3) الرَّاغب، المفردات: (وسل)، يمكنُ أن يدخلَ في معنَى الوسيلة: أنَّها درجةٌ في الجنَّة خاصَّةٌ برسولِ الله ﷺ ويؤيِّده قولُ النَّبيِّ ﷺ: «سَلُوا الله ليَ الوسيلة، فإنَّها درجةٌ في الجنَّة، لا ينالُها إلَّا عبدٌ واحدٌ، وأرجو أن أكونَ أنا هو». أخرجه مسلم، الحديث رقم: (384).

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

هذا أمرٌ منَ اللّه تعالى لعبادِه المؤمنين، بما يَقْتضيه الإيمانُ من تَقْوَى اللّه، باجْتهادِ العبدِ في طاعةِ اللّه، واجتنابِ ما يُسخِطُه - ﷻ - بأداءِ فرائضِه القلبيَّةِ كالحبِّ له، والخوفِ منه، والبَدَنيَّةِ كالصَّلاةِ والعلم، والماليَّةِ: كالزَّكاة، ونحوِ ذلك كلِّه ممَّا يَجْعلُ العَبْدَ من أهلِ الفَلاحِ والنَّجاح عندَ المَلِكِ الدَّيَّان.

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

الجُملةُ الاعتراضيَّةُ، والحَصْرُ، وأثرُ ذلكَ في إثراءِ المعنَى:

أفـــادَ نَـظْـمُ السِّياق تَحْفيزَ النُّفوسِ للعملِ بما يُرضي الله، والـتَّـوسُّـلِ إلى اللهِ لا إلى غيرِه

سيقتْ هذه الآيةُ الكريمةُ اعْتراضًا بين آياتِ وعيدِ المُحاربينَ وأحكامِ جزائِهم، الَّتي صُدِّرتْ بقولِه تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ وبينَ مابعدَه من قولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا﴾، خاطبَ اللّه - ﷻ - فيها المؤمنينَ بالتَّرغيبِ بعدَ التَّرهيب، على نَسْجِ طريقتِه في تخلُّلِ الأَغْراضِ بالموعظةِ والتَّحفيزِ والتَّنفير، وهي وسيلةٌ ناجحةٌ لاصْطيادِ النُّفوس، وتحقيقِ المُرادِ منَ المسارعةِ في الاسْتجابةِ للخَيْراتِ والإقْبالِ على المَكْرُمَات، وأيُّ خيرٍ أَعْظمُ منَ التَّقوى؟ وأيُّ مَكْرُمةٍ أَرْجَى من طلبِ مرضاتِه والجهادِ في سبيلِه؟ والوسيلةُ: فعيلةٌ، بمعنَى: مَفعولَة، أي: مُتوسَّلٌ بها إلى اتِّباعِ القُرُباتِ بالطَّاعات، وأصلُها من: "توَسَّل إلى فلانٍ بكذا، أي: تقرَّب إليه "[1].

فائدةُ تقديمِ ﴿إِلَيۡهِ﴾:

"و﴿إِلَيۡهِ﴾ مُتعلِّقٌ بها قُدِّمَ عليها للاهْتمامِ به، وليستْ بمصدرٍ حتَّى لا تعملَ فيما قبلَها"[2]، وإذا كانتِ الوسيلةُ ذَريعةً لكلِّ خيرٍ ومَنجاةً من كلِّ ضَيْر؛ فهي لا تخرُجُ عن معنَى التَّقْوَى الَّذي تقدَّمهَا، وإذا كانَ ذلكَ

(1) ابن جرير، جامع البيان: 6/226.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العَقْل السّليم: 2/48.

كذلكَ؛ فالجُملةُ حينئذٍ جاريةٌ ممَّا قبلَها مجرَى البيانِ والتَّأكيد، وإذا كانَ المرادُ مُطلَقَ الوَسيلة؛ فالأمرُ بالتَّقْوَى داخلٌ فيها دخولًا أَوَّليًّا،[1] وتكونُ الوسيلةُ بهذا الإطلاقِ جِنْسًا، والتَّقوى نَوْعٌ من أنواعِها.

تعلُّقُ ﴿إِلَيۡهِ﴾ وسببُ تقديمِ شبْهِ الجُملة:

﴿إِلَيۡهِ ٱلۡوَسِيلَةَ﴾: يمكنُ أنْ يكونَ المجرورُ في ﴿إِلَيۡهِ﴾ مُتعلِّقًا بقول: ﴿وَٱبۡتَغُوٓاْ﴾، كما علَّقناه قبلُ بـ ﴿ٱلۡوَسِيلَةَ﴾، ويجوزُ أن يكونَ حالًا، أي: الوسيلةَ كائنةً إليه،[2]" وقُدِّمَ ﴿إِلَيۡهِ﴾ على مُتعلَّقِه ﴿ٱلۡوَسِيلَةَ﴾ لِلْحَصْر، أي: لا تتوسَّلُوا إلَّا إليه لا إلى غَيرِه، فيكونُ تعريضًا بالمشركِين؛ لأنَّ المسلمِين لا يُظَنُّ بهم ما يَقتضي هذا الحَصْرَ "[3].

﴿وَجَٰهِدُواْ فِي سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾: أمرٌ بمُحاربةِ الأعداءِ البارِزَةِ والكامِنة، والأمرُ يقتضي الوُجوبَ، وذلكَ لنَيلِ مَرضاتِه والفَوزِ بكراماتِه.

سرُّ عطْفِ الخاصِّ على العامّ:

وجاءَ إفرادُ الأمرِ بالجهادِ وتخصيصُهُ في قولِه تعالى: ﴿وَجَٰهَدُواْ﴾، وهو أحدُ أفرادِ العَامِّ في معنَى الوسيلة فيما يُرضي اللّه تعالى منَ القُربات، وذلكَ لأهمِّيَّته وعُلُوِّ مَنزلتِه في الدَّعوةِ إلى دينِ اللّه - ﷻ - ونَشْرِ رسالتِه.

لأهمِّيَّتِه وعُلُوِّ مَنزلتِه في الدَّعوةِ إلى دينِ اللهِ - ﷻ - ونَشْرِ رسالتِه

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الابْتغاء والطَّلَب:

"الطَّلَبُ: الفَحْصُ عن وجودِ الشَّيء عَيْنًا كانَ أو معنًى "[4]، قال تعالى: ﴿أَوۡ يُصۡبِحَ مَآؤُهَا غَوۡرٗا فَلَن تَسۡتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبٗا ٤١﴾ [الكهف: 41].

(1) أبو السِّعود، إرشاد العَقْل السّليم: 2/48.
(2) العكبري، التبيان: 1/214 - 215.
(3) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/187.
(4) الرَّاغب، المفردات: (طلب).

وفي معنَى الابتغاءِ: خصوصُ أمرَيْن ليسا موجودَيْن في الطَّلَبِ الَّذي هو أعمُّ من الابْتغاء: الأوَّلُ: الاجْتهادُ في طَلَبِ المراد، والثَّاني: فيما كان محمودًا[1].

ولذلكَ كانَ فعلُ الأمرِ ﴿وَٱبۡتَغُوٓاْ﴾ أَوْلَى بالسِّياقِ من (اطْلُبوا)، فالسِّياقُ في التَّرغيبِ بأمورٍ هي جِدُّ محمودةٍ، وهي كلُّ عملٍ يُقرِّبُ إلى اللّه ونَيْلِ مرضاتِه والجهادِ في سبيلِه على وَجْه الخُصوص، وهذه جميعُها تحتاجُ إلى اجْتهادٍ في طلبِها للوصولِ إليها وتَحقيقِها.

الوَسيلَة والقُرْبة:

يُقالُ: قَرُبْتُ منه أَقْرُبُ، وقَرَّبتُه أُقَرِّبُهُ قُرْبًا وقُرْبانًا، ويُستعملُ ذلكَ في الزَّمان، والمكان، وفي النِّسبة، وفي الخُطوةِ، والرِّعاية، والقُدرة.

والَّذي يُناسبُ السِّياقَ هنا القُربةُ الَّتي بمعنَى: الخُطوَة، كقولِه تعالى: ﴿قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِۚ أَلَآ إِنَّهَا قُرۡبَةٞ لَّهُمۡۚ﴾ [التَّوبة: 99][2].

وعندَ العَوْدِ لمعنَى الابْتغاء - كما في شرحِ المفردات - نجدُ أنَّ الوسيلةَ: هي التَّوَصُّلُ إلى الشَّيءِ برغْبةٍ، فهي عبارةٌ عن سُبُلٍ وطرائقَ تُتَّبَعُ للوصولِ إلى القُربة.

فالوسيلةُ إذًا سببٌ، والقُربةُ مُسَبَّبٌ، والبيانُ الإلهيُّ أمرَ عبادَه المؤمنينَ باتِّخاذِ الأسبابِ المُوصلةِ لقُرْبِه والفَوْزِ بالفَلاحِ عندَه ﷻ.

(1) الرَّاغب، المفردات: (بغي).
(2) الرَّاغب، المفردات: (قرب).

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا وَمِثۡلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفۡتَدُواْ بِهِۦ مِنۡ عَذَابِ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنۡهُمۡۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ٣٦﴾ [المائدة: 36]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا أمرَ اللّه ﷻ جماعةَ المؤمنينَ في الآيةِ السَّابقةِ بِتَقْواهُ وابْتغاءِ القُرُباتِ والجهادِ في سبيله لِيَنالُوا الفَلاحَ؛ سَاقَ بيانُ اللّه تعالى في هذه الآيةِ الكريمةِ - وكعادته - الحديثَ عن جماعةِ الكافرينَ الَّذين أعْماهُمْ كِبْرُهُمْ عنِ الإيمانِ باللّه، فهؤلاء لن يَنفعَهم ما يُخلِّصونَ به أَنْفُسَهم من عذابِ النَّارِ يومَ القيامةِ، ولو كان أضعافًا مُضاعَفةً ممَّا في الأرضِ من كُنوزٍ وثَرَواتٍ؛ بل مآلُهمُ العذابُ الأليمُ لا مَحالةَ.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿لِيَفۡتَدُواْ بِهِۦ﴾: فَدَيَ: الفاءُ والدّالُ والحَرْفُ المُعْتَلُّ كلمتانِ مُتَباينتانِ جدًّا:

فالأُولى: أنْ يُجعَلَ شيءٌ مكانَ شيءٍ حِمًى له، والأُخْرَى: شيءٌ منَ الطَّعام.

فالأُولى قولُكَ: فَدَيتُه أَفْدِيه، كأنَّكَ تَحْميه بِنَفْسِكَ أوْ بشيءٍ يُعوَّضُ عنه، يقولونَ: هو فِداؤكَ؛ إذا كَسَرْتَ، أي: الفاء، وإذا فَتَحْتَها؛ قَصَرْتَ، يُقالُ: هو فَداكَ.

ويُقالُ: تَفادَى مِنَ الشَّيءِ؛ إذا تَحاماهُ، وانْزَوى عنه، والأصلُ في هذه الكلمةِ ما تقدَّم، وهو التَّفادي: أنْ يَتّقيَ النَّاسُ بعضُهم ببعضٍ، كأنَّه يَجعلُ صاحبَه فداءَ نَفْسه.

وهذا الاتِّقاءُ وحمايةُ النَّفْس بشيءٍ يُعوِّضُ عنها، وهو من الفِداء بكسر الفاء، وهو ما عَنَتْه الآيةُ الكريمةُ في سياقِها[1].

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

أخبرَ اللّه ﷻ بما أعدَّ لأعدائهِ الكُفَّارِ منَ العذابِ والنَّكالِ يومَ القيامة، مُبيِّنًا أنَّه لو أنَّ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (فدي).

أحدَهم جاءَ يومَ القيامةِ بِملْءِ الأرضِ ذهبًا وبِمِثْلِه؛ ليفْتديَ بذلك من عذابِ اللّه الَّذي قد أحاطَ به إحاطةَ السِّوارِ بالمِعْصَمِ، ما أَفْلَحَ هذا الفِداءُ في إنقاذِ صاحبِه؛ بل لامَنْدُوحةَ عنه ولا مَحيصَ له ولا مَنَاص[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

التَّوكيدُ، والشَّرطُ، وتقديمُ ما حقُّه التَّأخيرُ، وأثرُ ذلك في إثْراءِ المعاني:

أفـــادَ نـظـمُ السِّياقِ تهويلَ حـالِ الكافرينَ وتفظيعَه يومَ القيامة

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾: كلامٌ مُبتدَأٌ مَسوقٌ لتأكيدِ وجوبِ الامْتثالِ بالأوامرِ السَّابقةِ: التَّقْوى، وابْتغاءِ الوَسيلة، والجِهادِ في سبيلِ اللّه، وفيه ترغيبٌ للمؤمنين في المسارَعةِ إلى تحصيلِ القُرُباتِ والمكرُماتِ قبلَ أنْ يَحينَ وقتٌ لا يَنفَعُ فيه نَفْسًا إيمانُها، لم تكنْ آمنَتْ من قبلُ، أوْ كَسَبتْ في إيمانِها خيرًا يَقيها من أنْ تتوسَّلَ بوسائلَ قد تُجزِئُ عن صاحبِها في الدُّنيا، أمَّا في الآخرةِ؛ فشأنٌ آخَرُ لا ينفَعُ معه إلَّا العملُ الصَّالحُ الخالصُ للّه ﷻ.

﴿لَوْ أَنَّ لَهُم﴾: أي: لكلِّ واحدٍ منهم لا لجميعِهم؛ إذْ لا يكونُ من تَهْويلٍ للأمرِ وتَفْظيعٍ للحالِ عندما يقعُ عليهم جُملةً واحدةً دونَ إفرادِ كلِّ واحدٍ منهم على حِدَة.

معنى الشَّرطِ في ﴿لَوْ﴾:

"والشَّرطُ في قولِه: ﴿لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ مقدّرٌ بفعلٍ دلَّتْ عليه ﴿أَنَّ﴾؛ إذِ التَّقديرُ: لو ثَبَتَ ما في الأرضِ مِلْكًا لهم، فإنَّ ﴿لَوْ﴾ لاخْتصاصِها بالفعلِ صحَّ الاسْتغناءُ عن ذِكْرِه بعدَها؛ إذا وَرَدَتْ (أنَّ) بعدَها"[2].

﴿مَّا فِي ٱلْأَرْضِ﴾: ﴿مَّا﴾ اسْمُ ﴿أَنَّ﴾ و﴿لَهُم﴾ خبرُها ومحلُّها الرَّفعُ،

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 2/51.
(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/188.

ويمكنُ أن يكونَ الخبرُ محذوفًا مقدَّرًا مُقدَّمًا، أي: لو ثابتٌ كونُ ما في الأرضِ لهم، ويمكنُ أن يكونَ الخبرُ محذوفًا مُقدَّرًا مُؤخَّرًا، أي: لو كونُ ما في الأرضِ لهم ثابتٌ.

ويمكنُ أنْ يكونَ رُفِعَ على الفاعليَّةِ، والفعلُ مُقدَّرٌ بعد لو، أي: لو ثَبتَ أنَّ لهم ما في الأرض.

ولكنَّ الوجهَ الأوّلَ أصحُّ؛ فإنَّ عدمَ التَّقديرِ، والجَرْيَ على الظَّاهرِ أَوْلى منَ التَّقديرِ ومُخالفةِ الظَّاهر؛ إذْ لا مُسَوِّغَ له.

﴿جَمِيعًا﴾: توكيدٌ للموصول ﴿مَّا﴾ أو حالٌ منه.

﴿وَمِثْلَهُۥ﴾: معطوفٌ على ﴿مَّا﴾ منصوبٌ.

﴿مَعَهُۥ﴾: ظرفٌ وقعَ حالًا منَ المعطوف، والضَّميرُ (الهاءُ) راجعٌ إلى ﴿مَّا﴾ الموصول، وفائدتُهُ حينئذٍ: التَّصريحُ بفرَضِ كَيْنونَتِهما لهم بطريقِ المَعيَّة، لا بطريقِ التَّعاقُبِ تحقيقًا لكمالِ قُبْحِ الأمرِ وفَظاعتِه، معَ ما فيه من نوعِ إشعارٍ بكونِهما شيئًا واحدًا، وتمهيدًا لإفرادِ الضَّمير الرَّاجعِ إليهما[1].

التَّعليلُ، وجوابُ الشَّرطِ، وتأخيرُ ماحقُّه التَّقديمُ، وأثَرُ ذلكَ في تَجْليةِ المعنَى:

أفـــادَ نَـظْـمُ السِّياقِ بأركانِه الـــواردةِ تأكيدَ عذابِ الكافرين

﴿لِيَفْتَدُواْ بِهِۦ﴾: مُتعلِّقٌ بما تعلَّق به خبرُ ﴿أَنَّ﴾، وهو الثَّباتُ المقدَّرُ في لهم - كما تقدَّم - واللَّامُ في ﴿لِيَفْتَدُواْ بِهِۦ﴾ لتعليلِ الفعلِ المُقدَّر، أي: لو ثبتَ لهم ما في الأرضِ لأَجْلِ الافْتداءِ به لا لأَجْلِ أن يَكْنِزوه أو يَهَبُوه، وإفرادُ الضَّميرِ في قولِه: ﴿بِهِۦ﴾ مع أنَّ المذكورَ شيئانِ هما: ﴿مَّا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ و﴿وَمِثْلَهُۥ﴾: إمَّا على اعْتبارِ الضَّميرِ راجعًا إلى ﴿مَّا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ فقط، ويكونُ قولُه: ﴿وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ﴾ معطوفًا مُقدَّمًا من تأخير، ويكونُ أصلُ الكلام: لو أنَّ لهم ما في الأرضِ؛ لِيَفْتَدُوا به، ومِثْلَهُ معه، ودلَّ على اعتبارِه مُقدَّمًا من تأخيرٍ: إفرادُ الضَّميرِ المجرورِ بالباء ﴿بِهِۦ﴾.

(1) أبو السُّعود، إرشاد العَقْل السّليم: 2/49.

بلاغةُ التَّقديم:

واللَّطيفةُ البلاغيَّةُ في هذا التَّقديم: تعجيلُ اليَأْسِ مِنَ الافْتداءِ إليهم، ولو بمُضاعَفَةِ ما في الأرض.

وإمَّا أن يكونَ الضَّميرُ عائدًا إلى ﴿وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ﴾؛ لأنَّ ذلكَ المِثْلَ قد شَمِلَ ما في الأرضِ وزيادةً، فلم تَبْقَ جَدْوى لِفرَضِ الافْتداءِ بما في الأرض؛ لأنَّه قدِ انْدرَجَ في مثلِه الَّذي مَعَه.

ويجوزُ أن يُجرَى الضَّميرُ مجْرَى اسْمِ الإشارةِ في صِحَّةِ اسْتعمالِه مُفردًا، معَ كونِه عائدًا إلى مُتعَدِّدٍ على تأويلِه بالمذكور، وهذا شائعٌ في اسْمِ الإشارة، كقولِه تعالى: ﴿عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَۖ﴾ [البقرة: 68] أي: بين الفارِضِ والبِكْر،[1] وتقديرُه هنا: "لِيَفْتَدُوا بذلك، ويجوزُ أنْ يكونَ الواوُ في ﴿وَمِثْلَهُۥ﴾ بمعنَى: (معَ)، فيَتوحَّدُ المرجوعُ إليه"[2].

وقولُه: ﴿مِنْ عَذَابِ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ مُتعلِّقٌ بالافْتداءِ أيضًا، أي: لو أنَّ ما في الأرضِ ومِثْلَه ثابتٌ لهم؛ لِيَجعلُوه فِديةً لأنْفُسِهم من العذابِ الواقعِ يومئذٍ؛ ﴿مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْۖ﴾ ذلك، وهو جوابُ ﴿لَوْ﴾، وترتيبُه على كَوْنِ ذلكَ لهم لأَجْلِ افْتدائهم به من غيرِ ذِكْرِ الافْتداء، بأنْ يُقالَ: وافْتدوا به، مع أنَّ الرَّدَّ والقَبولَ إنَّما يترتَّبُ عليه لا على مباديه، وذلكَ للإيذانِ بأنَّه أمرٌ مُحقَّقُ الوقوعِ غنيٌّ عنِ الذِّكر.

ولكنْ هل يَملِكونَ القُدرةَ على تنفيذِ هذا الفَرَضِ في الافْتداءِ بما في الأرضِ ومثلَهُ معه؟

إنَّهم لا يَملِكونَ القُدرةَ على ذلكَ وخاصَّةً أنَّهم في ذاكَ الموقفِ العَصيبِ ما يَملِكونَ من قِطْمير، ولكنَّه لإظهارِ المبالغةِ في تحقيقِ الرَّدِّ وتَخْييلِ أنَّه وقعَ قَبْلَ الافْتداء.

وهذه الجملةُ الامْتناعيَّةُ ﴿مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْۖ﴾ خبرُ ما تقدَّمَ في صَدْرِ الآية: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾، والمرادُ منها: تمثيلُ لُزومِ العذابِ لهم، واسْتحالةِ نجاتِهم منه بوجْهٍ من الوُجوهِ المُحقَّقةِ والمَفروضَة.

وقولُه تعالى: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ تَصريحٌ بما أُشيرَ إليه بعدَمِ قَبولِ فِدْيَتِهم، لزيادةِ تَقريرِه وبَيانِ هَوْلِه وشِدَّةِ وَطْأَتِه.

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/188 - 189.
(2) الزَّمخشري، الكشَّاف: 1/610.

والواوُ وجُملتُها في محلِّ نصب حال، أوِ الرَّفعِ عَطْفًا على خَبرِ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ وهو: ﴿مَا تُقُبِّلَ مِنۡهُمۡ﴾، أوْ هي عَطْفٌ على: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ﴾، فلا محلَّ له كالمَعطوفِ عليه[1].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الافْتداء والاتِّقاء:

"الوِقايةُ: حفظُ الشَّيء ممَّا يُؤذيه ويَضُـرُّه، يُقالُ: وَقَيْتُ الشَّيءَ أَقيهِ وِقايةً وَوِقاءً، قالَ تعالى: ﴿وَوَقَىٰهُمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ ۝٥٦﴾ [الدُّخان: 56].

ويُقالُ: اتَّقَى فلانٌ بكذا؛ إذا جَعلَهُ وِقايةً لِنَفْسِه، كما قالَ تعالى: ﴿أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجۡهِهِۦ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ﴾ [الزُّمر: 24]، تنبيهٌ على شدَّةِ ما ينالُهم، وأنَّ أجْدَرَ شيءٍ يَتَّقونَ به منَ العذابِ يومَ القيامةِ هو وُجوهُهم"[2].

وقدْ تقدَّمَ في معنَى ﴿لِيَفۡتَدُواْ﴾ في شرحِ المفرداتِ: أنَّ الافْتداءَ: جَعْلُ شيءٍ مكانَ شيءٍ حِمًى له، وحمايةُ النَّفْس بشيءٍ يُعوِّض عنها.

وهذا المعنَى أوْثَقُ بِعُرَى النَّصِّ القُرآنيِّ وسياقِه الجَليلِ من مُجرَّدِ الوِقايةِ، ولو بوَجْهِ ذاكَ الكافرِ أوْ بعضوٍ من أعضائه، فالمآل واحدٌ، وهو العَذابُ الَّذي ينالُ جميعَ جَسَده.

وأمَّا العِوَضُ بالمالِ أو بالأرضِ وما عليها، ممَّا كان في الحياةِ الدُّنيا لذاكَ الكافرِ؛ فهو مَنظورٌ مُتحقق في معنَى الافْتداء.

ولذلكَ اسْتخدمَ البيانُ الإلهيُّ الفعلَ: ﴿لِيَفۡتَدُواْ﴾ دونَ غيرِه؛ لأنَّه أَوْقعُ أَثَرًا، وأَجْلَى معنًى في حديثِ النَّصِّ القرآنيِّ، في إيرادِه للمبالغةِ في تصويرِ مَشْهدِ الكافرِ، وهو يُريدُ أنْ يفتديَ نفسَه من دُخولِ النَّارِ وعذابِها، ولو بما في الأرضِ جميعًا ومِثْلِه معَه، ولنْ يكونَ لهُ ذلك.

(1) أبو السُّعود، إرشاد العَقْل السّليم: 2/50 - 51.
(2) الرَّاغب، المفردات: (وقى).

﴿يُرِيدُونَ أَن يَخۡرُجُواْ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنۡهَاۖ وَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّقِيمٞ ٣٧﴾ [المائدة: 37]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

استكمال بيان الحالة النّفسيّة للكفَّار الطّامعين في النّجاة من مكابدة العذاب

لمّا ذكَرَ اللّه في الآية السَّابقة شدَّة إيلام عذاب الكفَّار يوم القيامة علّلَه بتأكيد نفي خروجهم مِنَ النَّار، ودوام العذاب عليهم، فهم يريدون أن يكون لهم خروج في وقت ما، إذا رفعهم اللهب حتّى يكاد أن يلقيهم خارجًا منَ النّار، ثمّ نفى خروجهم على وجه التّأكيد الشّديد، فقال: ﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنۡهَاۖ﴾، أي: ما يثبت لهم خروجٌ أصلاً[1]، ويحتمل أن يُقالَ في مناسبة الآية: إنَّها استئنافٌ بيانيٌّ؛ سيقَت لبيان حال الكفَّار في أثناء مكابدة العذاب؛ إذ مِن شأن مَن سمع الآية الَّتي قبلها أَن تَستَشرف نَفسُه للسُّؤال عن حال أُولئك الكفَّار الَّذين لا يُتَقَبَّلُ منهم فداءٌ، مهما جلَّ وعظُم، كأنَّه قيل: فكيف يكون حالُهم أو ماذا يصنعونَ؟ فجاءَت هذه الآية بالجواب[2]، "وهذا القول يُوحي أوّلًا بأنّ رحمةً ما ستصل إليهم، ولكن ما يأتي بعد هذا القول يرسم الهول الكامل ويجسّده، كما في قوله تعالى: ﴿يُغَاثُواْ بِمَآءٖ كَٱلۡمُهۡلِ يَشۡوِي ٱلۡوُجُوهَۚ﴾ [الكهف: 29]. وهذه قمّة الهول، وهناك فرق بين الابتداء المُطمِع، والانتهاء المُؤيّس.. والسّياق يريد لهم صدمة الألم المُؤيّس بعد نشوة الرّجاء المُطمع، وهو آلمُ في العقوبة، وأنكى في التّقريع، وقد عبّر عنه تعالى بقوله: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَخۡرُجُواْ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنۡهَاۖ وَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّقِيمٞ﴾[3].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 6/134.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/34، ورضا، تفسير المنار: 6/313.
(3) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 5/3114.

شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

1) ﴿أَن يَخْرُجُواْ﴾ ﴿بِخَٰرِجِينَ﴾: تدلُّ كلمة (خرج) على معنى النَّفاذ عنِ الشَّيء ومجاوزته، بحيثُ يَبرزُ مِن مقرِّه أو حاله، ويظهرُ منه. والمقرُّ قد يكون دارًا، أو بلدًا، أو ثوبًا، ومنه خرج مِن بيته إذا نَفَذَ عنه. وقد يكون المقرُّ حالَه الّذي هو فيه، ومنه خرج منَ الجهل إلى العلم[1]، ويخرجون منَ النّار، بمعنى: ينفذون منها، "وهذا الخروج منَ النّار الّذي طلبوه قد بيّن تعالى أنّهم لا ينالونه، كقوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُواْ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنْهَا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾، وقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿١٦٧﴾﴾ [البقرة: 167]، وقوله تعالى: ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُواْ فِيهَا﴾ [الحجّ: 22]"[2].

2) ﴿عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾: الكلمتان مرتبطتان في الدّلالة في هذا السّياق، والمقصود بالشّرح لفظ ﴿مُّقِيمٌ﴾، أصل الكلمة (قوَمَ)، ويدلُّ على معنى الانتصاب والثّبات، ومنه القائم؛ لأنَّه ينتصِبُ، ومنه كذلك القيامُ بالشَّيء بمعنى المواظبة عليه والاستمساك به؛ لأنَّ الانتصابَ يستلزم الثُّبوت، والمقيمُ هو الدّائم الّذي لا ينقطِعُ[3]، و﴿عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ في الآية بمعنى العذاب الّذي لا يزول ولا يتحوَّل[4]، وقد أشرك اللّه في العذاب المقيم المنافقين ذكرانًا وإناثًا، والكفّار على الإطلاق، فقال في آخر الآية التّاسعة من سورة التّوبة: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ هِىَ حَسْبُهُمْ ۚ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٦٨﴾﴾ [التّوبة: 9]، أي" دائم معهم لا ينفكُّون عنه[5].

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

يريدُ الَّذين كفروا أَن يَخرجوا مِنَ النَّار، دار العذاب والشَّقاء بعد دخولهم فيها، لِمَا يلاقونه من أهوالها، وما هم بخارجين منها أَلبَتَّة، ولهم عذاب دائمٌ لا يزول، ولا ينقطع، ولمّا كان المعذّبون في دار، ربّما دام لهم المكث فيها، وانقطع عنهم العذاب، قال: ﴿وَلَهُمْ﴾،

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (خرج).
(2) الشّنقيطيّ، أضواء البيان: 5/359.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والسّمين، عمدة الحفّاظ، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (قوم).
(4) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 4/340.
(5) النّسفيّ، مدارك التّنزيل: 1/692.

أي: خاصّة دون عصاة المؤمنين، ﴿عَذَابٌ﴾، أي: تارة بالحرّ، وتارة بالبرد، وتارة بغيرهما، دائم الإقامة لا يبرح ولا يتغيّر، وهو ما وصفه بقوله: ﴿عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾[1].

لا أمل للكفّار بالخروج من العذاب، ولا فكاك لهم من الخلود في سوء المآب

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالة التَّعبير بلفظ ﴿يُرِيدُونَ﴾ في قوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُواْ مِنَ ٱلنَّارِ﴾:

ورد الفعل بصيغة المضارع للدَّلالة على تجدُّد الحدوث، فهم يريدون أن يخرجوا منَ النَّار حالًا فحالًا باستمرارٍ، فكلَّما مرَّ عليهم وقتٌ تَتَجدَّدُ إرادتُهم للخروج، وعبَّرَ بالفعل ﴿يُرِيدُونَ﴾؛ للإشارة إلى أنَّهم يَحتالون للخروج بأيِّ طريقة، ولاينفعهم[2]، ولا إرادة لهم في الخروج إلَّا إذا كانَت هناك مَظِنَّةٌ أن يَخرجوا نتيجةَ تقليب أَلسنة اللهب لهم[3]، زيادةً في ألم العذاب عليهم، كما أنَّ الفعل ﴿يُرِيدُونَ﴾ يقتضي أنّهم يَرجون ويَتَمَنَّونَ ويَسأَلونَ[4] مِن غير تحصيلٍ للمُراد، فما هم بخارجين منها، ولنا أن نسأل في قوله تعالى:

تجدّدُ إرادة الخروج منَ النّار زيادةٌ في العذاب والاستنفار

﴿يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُواْ مِنَ ٱلنَّارِ﴾، على غرار ما ذكره السّمعانيّ، بقوله: "فإن قِيل: إذا لم يكونوا خارجين منها، كيف يريدون الخروج؟ قيل: يريدون ذلك جهلًا؛ ظنًّا أنّهم يخرجون، وقِيل: يتمنّون ذلك، فهي إرادة بمعنى التّمنّي، وليس بحقيقة الإرادة"[5].

سبب إيثار المصدر المؤوّل على الصَّريح في قوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُواْ﴾:

فذكر المصدر المؤَوَّل ﴿أَن يَخْرُجُواْ﴾، ولم يَقُل (يُريدونَ الخُروجَ)؛ لإفادة أنَّ ما يريدونه مستمرٌّ في المستقبل، بدلالة (أن) المصدريّة، ولاستحضار صورة إرادتهم الخروجَ مِنَ النَّار؛ لِمَا تدلُّ عليه صيغةُ الفعل

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 6/134.
(2) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 4/340.
(3) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 5/3114.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/244.
(5) السّمعانّي، تفسير القرآن: 2/36.

المضارع، "قال الحسن: إذا فارت بهم النّار فرُّوا من بأسها، فحينئذٍ يريدون الخروج، ويطمعون فيه، وذلك قوله: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَخۡرُجُواْ مِنَ ٱلنَّارِ﴾، وقِيل لجابر بن عبد الله: إنّكم يا أصحاب محمّد، تقولون: إنّ قومًا يخرجون منَ النّار، والله تعالى يقول: ﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنۡهَاۖ﴾، فقال جابر: إنّما هذا في الكفّار خاصّة"[1]. وعليه فاستمرار الكفر على مدى العمر دون توبة يقتضي إيراد المصدر المؤوّل، ووجود الحرف المصدريّ، وهو ما يلائم السّياق، ويناسب الدّلالة.

عقاب الله يستمرّ، ويتعاظم بقدر جرم الكفر وبشاعته

بلاغة مجيء الكلام على خلاف مُقتضى الظّاهر، بالتّعبير بالجملة الاسميّة المنفيّة:

لمّا ورد الكلام بصيغة الجملة الفعليَّة في قوله: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَخۡرُجُواْ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ كان الظَّاهر أن يكون النَّفي على وِفقه، فيقول: (وما يَخرجُونَ مِنها)، لكنَّه عبَّرَ بالجملة الاسميَّة المنفيَّة على خلاف مُقتضى الظَّاهر؛ لِمَا فيها مِنَ المبالغة بتأكيد النَّفي؛ لبيان كمال سُوء حالهم باستمرار عدم خروجهم منها، والمبالغة كذلك بنفي إخراج ذواتهم وأَنفسهم بدلًا مِن أَن ينفي الفعل، ولمّا توجَّه النَّفي إلى ذواتهم، إذ قال: ﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنۡهَاۖ﴾، أفادتِ الجملة الاسميَّة دوام نفي خروج ذواتهم مِنَ النَّار وثباته، فلا مَطمعَ لهم في الخروج؛ فإنَّ الجملة الاسميّة الإيجابيَّة كما تُفيدُ - بمعونة المقام - دوام الثُّبوت تفيد السّلبيّة أيضًا بمعونته دوامَ النَّفي[2]، والقول بنفي خروج الكفّار منَ النّار نصّ عليه ظاهر هذه الآية، وهو واضح غاية الوضوح، ولكنّ المؤمن العاصي يخرج منَ النّار، ولو بعد حين، ولا يخلّد المؤمن في النّار، وهو قول أهل السّنّة، وما ورد عكسه هو قول نافع بنِ الأزرق، وهو رأس فرقة منَ الخوارج، ومذهبه: أنّ من

المبالغة في تأكيد نفي خروج الكافرينَ مِنَ النَّار، باستعمال الجملة الاسميّة السّالبة

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/245.

(2) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 2/302، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/34.

دخل النّار لا يخرج منها، وهو قول المعتزلة، وقد أنكر الزّمخشريّ ما روي عن جراءة نافع على ابن عبّاس ﵄ بكلام غليظ مفترى احتجاجًا بقوله تعالى: ﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنۡهَاۖ﴾، فأجابه ابن عبّاس ﵄: (اقرأ ما فوق هذه الآية، فإنّه وارد في الكفّار)[1]، وإنكاره للرّواية؛ هو تدليل على مذهبه، وقد أشار إلى ذلك أبو حيّان في البحر المحيط، ذاكرًا أنّ ذلك كان على عادته في سبّ أهل السّنّة، ومذهبه: أنّ من دخل النّار لا يخرج منها، وهو في ذلك على مذهبه الاعتزاليّ[2].

واو الحال في قوله تعالى: ﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنۡهَاۖ﴾:

أثـــر الآيـــة في دلالة العامّ على الخاصّ؛ قصد تيئيس الكافرين منَ الخلاص

جاءتِ الواو حاليَّةً على معنى أنَّ نفيَ خروجهم مِنَ النَّار مُقترنٌ في الزَّمن بإرادتهمُ الخروجَ منها؛ تَيئيسًا لهم، قِيل لجابر بن عبد اللّه: إنّكم يا أصحاب محمّد، تقولون: إنّ قومًا يخرجون منَ النّار، واللّه تعالى يقول: ﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنۡهَاۖ﴾، فقال جابر: إنّكم تجعلون العامّ خاصًّا، والخاصّ عامًّا، إنمّا هذا في الكفّار خاصّة، فقُرئتِ الآية كلّها من أوّلها إلى آخرها، فإذا هي في الكفّار خاصّة، و﴿مُّقِيمٞ﴾، معناه: دائمٌ ثابتٌ لا يزولُ ولا يحولُ، قال الشّاعر:

فَإِنَّ لَكُم بِيومِ الشِّعبِ منِّي***عَذَابًا دَائِمًا لَكُمُ مُقِيمَا[3].

(1) قال الزّمخشريّ: "وما يُروى عن عكرمة، أنّ نافع بنَ الأزرق قال لابن عبّاس: (يا أعمى البصر، أعمى القلب، تزعم أنّ قومًا يخرجون منَ النّار، وقد قال اللّه تعالى: ﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنۡهَاۖ﴾ [المائدة: 37]؟ فقال: ويحك، اقرأ ما فوقها، هذا للكفّار)، فممّا لفقته المُجبّرةُ، وليس بأوّل تكاذيبهم وفراهم، وكفاك بما فيه من مواجهة ابن الأزرق، ابن عمّ رسول اللّه ﷺ، وهو بين أظهر أعضاده من قريش، وأنضاده من بني عبد المطّلب، وهو حبر الأمّة، وبحرها، ومفسّرها، بالخطاب الّذي لا يجسر على مثله أحد من أهل الدّنيا، ويرفعه إلى عكرمة دليلين ناصّين أنّ الحديث فرية ما فيها مرية". ينظر: الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/630.

وعلّق على ذلك الشّوكانيّ، فقال: "لله العجب من رجل لا يفرّق بين أصحّ الصّحيح، وبين أكذب الكذب على رسول الله ﷺ يتعرّض للكلام على ما لا عرفه، ولا يدري ما هو؟ وقد تواترت الأحاديث تواترًا لا يخفى على من له أدنى إلمام بعلم الرّواية، بأنّ عصاة الموحّدين يخرجون منَ النّار، فمن أنكر هذا فليس بأهل للمناظرة، لأنّه أنكر ما هو من ضروريّات الشّريعة، اللّهمّ غفرًا". ينظر: الشّوكانيّ، فتح القدير: 2/46.

(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/245.

(3) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 6/159، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/245.

دلالة حرف النَّفي (ما) في قوله: ﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنۡهَاۖ﴾:

تشديد العذاب بنفي تحقيق رجاء الكافرين

أفادَت ﴿وَمَا﴾ نفي الحال والاستقبال، فهم ليسوا بخارجين منها حالَ إرادتهمُ الخروج ولا بعده؛ ليدلَّ النَّفيُ على دوام بقائهم في النَّار، مع العذاب النَّفسيِّ في عدم تحقيق إرادتهم، كما أنَّه آثَرَ هنا: ﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنۡهَاۖ﴾، على (وهم خالدون فيها)؛ لأنّه لمّا اقتضى إرادتُهم الخروجَ أنَّهم قد دخلوا فيها كان نفيُ خروجهم منها أنسبَ بالسِّياق، وأوكدَ في المعنى من ذكر بقائهم في النّار، أو خلودهم فيها؛ إمعانًا في عذابهم بعدم تحقيق أُمنيتهم وسؤالهم ورجائهم بذكر ما يُؤيِّسُهم.

تأكيد الكلام لتقرير المعنى في قوله تعالى: ﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنۡهَاۖ﴾:

تأكيد دوام نفي خروج الكافرين مِنَ النَّار، حيث يستغيثون ولا يغاثون

تضمّن الكلام تأكيدين لنفي خروجهم مِنَ النّار؛ للمبالغة في تشديد العذاب عليهم وإبلاسهم: أَحدهما: تأكيد مضمون الجملة بمجيئها جملةً اسميّةً، والمعنى: تأكيد دوام نفي خروجهم مِنَ النَّار، والآخر: تأكيدُ المسند بالباء، أي: تأكيد نفي الخروج، فكأنَّ نفيَ الخروج تأكَّدَ مرَّتين؛ لتقرير المعنى وتثبيته.

وقوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَخۡرُجُواْ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنۡهَاۖ﴾ فيه وجهان؛ أحدهما: أنّهم يقصدون ويطلبون المخرج منها، كما قال اللّه تعالى: ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا مِنۡ غَمٍّ أُعِيدُواْ فِيهَا﴾ [الحج: 22].. والآخر: أنّهم يتمنّون ذلك بقلوبهم، كما قال اللّه تعالى إخبارًا عنهم: ﴿رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا مِنۡهَا فَإِنۡ عُدۡنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ١٠٧﴾ [المؤمنون: 107] "[1].

وفي حاشيّة القونويّ الإشارة أنّ قوله: ﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنۡهَاۖ﴾ بدلٌ؛ أراد" أنّ الظّاهر أن يقال: (وما يخرجون)؛ ليطابق أن يخرجوا، فعدل للمبالغة، فالجملة الاسميّة لدلالتها على الثّبات

(1) البغويّ، معالم التّنزيل: 2/46.

والدّوام؛ تفيد المبالغة في لزوم عذابهم، وعدم خروجهم أبدًا، إذِ المنفيّة كالمثبتة في الدّلالة على الدّوام، ولكن قد تكون لنفي الدّوام، وقد تكون لدوام النّفي بملاحظة النّفي أوّلًا، والدّوام ثانيًا، كما في هذا المقام"[1].

دلالة تقدّم المسند إليه ﴿هُم﴾ على المسند في قوله تعالى: ﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنۡهَاۖ﴾:

دلالة تقديم المسند إليه على قوّة أمرهم فيما أُسنِدَ إليهم، لا على الاختصاص

تقدَّمَ المسند إليه ﴿هُم﴾ على المسند المشتقِّ ﴿بِخَٰرِجِينَ﴾ على أصل الكلام في التَّقديم؛ ليدلَّ على الاهتمام بشأنه، ولتنبيه المُخاطَب على ما سَيُخبِرُ به عنهم، ولِبيان أنَّهم همُ المقصودون في الكلام؛ كي لا يُتَوَهَّمَ أنَّه أراد غيرَهم مِن أَجل تحقيق المعنى وتأكيده[2]، وتقديم المسند إليه؛ لأنّه الأصل، أي: لأنّ المسند إليه هو المحكوم عليه، ولا بدّ من تحقّقه قبل المحكوم، فقصدوا أن يكون في الذّكر أيضًا مقدّمًا[3]، وفي الآية نفي اندفاع العذاب، وتأكيد عدم الخلاص؛ لأنّ إرادتهم الخروج منَ النّار كان رغبة ذاتيّة في نفوسهم، جرّاء ما لاقوه من عذاب النّار الّذي كانوا ينكرونه من قبل، وهو الجزاء الوفاق على ما بدر منهم من نكران، وما أظهروه للمولى من كفران، ففصّل في أمرهم، وأخبر بتقديم المسند إليه الضّمير المنفصل ﴿هُم﴾، مسبوقًا بالنّفي ﴿وَمَا﴾؛ لاستبعاد الأمل في خروجهم، وقد اقتضى دوام كفرهم في الدّنيا دوام عذابهم في الآخرة.

ويشير الطّاهر ابن عاشور إلى أنّ قوله تعالى: ﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنۡهَاۖ﴾[4] حالٌ أَوِ اعتراضٌ في آخر الكلام لقصد التَّذييل، قال: "وعدل

(1) القُونَوِيّ، حاشية القونوي على البيضاويّ: 7/457.
(2) الجرجانّي، دلائل الإعجاز: 129 - 130.
(3) القزوينيّ، الإيضاح: 2/50.
(4) هذه الآية تشبه قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ لَوۡ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنۡهُمۡ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّاۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعۡمَٰلَهُمۡ حَسَرَٰتٍ عَلَيۡهِمۡۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ١٦٧﴾ [البقرة: 167]، وهي تؤدّي الدّلالة نفسها في قوله تعالى من سورة المائدة: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَخۡرُجُواْ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنۡهَاۖ وَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّقِيمٞ ٣٧﴾ [المائدة: 37]، والفرق بينهما أنّ الأولى تذييل، والثّانيّة جزء من السّياق. ينظر: ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/100.

عنِ الجملة الفعليّة بأن يقال (وما يخرجون) إلى الاسميّة؛ للدّلالة على أنّ هذا الحكم ثابت، وأنّه من صفاتهم، وليس لتقديم المسند إليه هنا نكتة؛ إلّا أنّه الأصل في التّعبير بالجملة الاسميّة، في مثل هذا إذ لا تتأتّى بسوى هذا التّقديم، فليس في التّقديم دلالة على اختصاص، لما علمت، ولأنّ التّقديم على المسند المشتقّ لا يفيد الاختصاص عند جمهور أئمّة المعاني، بل الاختصاص مفروض في تقديمه على المسند الفعليّ خاصّة، ولأجل ذلك صرّح صاحب (الكشّاف)، تبعًا لعبد القاهر الجرجانيّ، بأنّ موقع الضّمير هنا كموقعه في قول المعذّل البكريّ:

هُم يَفرِشُونَ اللِّبدَ كُلَّ طِمِرَّةٍ***وَأَجرَدَ سَبَّاقٍ يَبُذُّ المَغَالِيَا

في دلالته على قوّة أمرهم فيما أسند إليهم، لا على الاختصاص"[1].

دلالة الجملة الحاليّة في قوله تعالى: ﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنۡهَاۖ﴾:

لمّا كانتِ الواو حاليَّةً دلَّت جملةُ الحال على معنىً جديدٍ، وهو إثبات العذاب لهم بديمومته، ونفي انقطاعه، فبعد أَن أشعرَ قولُه: ﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنۡهَاۖ﴾ بخلودهم في النّار زادَه بنفي انقطاع العذاب عنهم ومقامه فيهم، فلا راحة لهم مِنَ العذاب أَبدًا.

الإقامة على حالة الكفر في الدّنيا مُفضٍ إلى الإقامة الدّائمة في النّار في الآخرة

مناسبة التَّقديم والتَّأخير في قوله تعالى: ﴿وَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّقِيمٞ﴾:

قدَّمَ المسندَ ﴿وَلَهُمۡ﴾ على المسند إليه ﴿عَذَابٞ مُّقِيمٞ﴾؛ للعناية بتقديمه والاهتمام بشأنه، فالمُخاطَبُ ينتظرُ مِن سياق الكلام الحديثَ عَن شأنهم، بعد أَن عرفَ أنَّهم ليسوا بخارجين مِنَ النَّار، والخاطرُ ملتفتٌ إليهم؛ فاقتضى تقديمَه، وذهب الرّازيّ إلى أنَّ التّقديمَ هنا يفيدُ التَّخصيصَ؛ فإنَّ العذاب الدّائم مُختَصٌّ بالكفَّار، فكان المعنى: ولهم عذابٌ مُقيمٌ لا لغيرهم[2]، ولاشكَّ في أنَّ

اقتضى دوام كفر المنكرين في الدّنيا دوام عذابهم في النّار في الآخرة

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/100.

(2) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 11/351.

التَّخصيصَ لا ينفكُّ عنِ العناية والاهتمام، كما هو ظاهر من كلام السَّكّاكيّ[1]، وفي تقديم المسند رعاية للفاصلة القرآنيَّة، وتحقيقه أنّ تقديم المسند على المسند إليه، وهو مذهب السّكّاكيّ والخطيب؛ "يفيد قصر المسند إليه على المسند، فمعنى (عليك التّكلان) لا على غيرك. وصرّح به الزّمخشريّ في مَواضِع، والسّكّاكيّ في أحوال المسند، وقال في القصر: إنّه من قصر الموصوف على الصّفة. وعند الطّيبيّ ومن تابعه: أنّه من قصر المسند على المسند إليه، وهو عنده من قصر الموصوف على الصّفة، ذكره في التّبيان. وذكر صاحب الفلك الدّائر: أنّه لا يفيد قصرًا أصلًا، وذهب بعض المتأخّرين أنّه يردّ لكلّ منهما"[2].

دلالة تنكير لفظ ﴿عَذَابٌ﴾ من قوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾:

غرض تنكير المسند إليه الموصوف في الآية بيان عظم العذاب، وهوله، ودوامه

يدلُّ التَّنكيرُ على تنوّع العذاب على أهل النَّار، قال ابن عادل: "وقوله: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ يدلُّ على أنَّ لهم مع ذلك نوعاً آخرَ مِنَ العذاب"[3]، كما يدلُّ التَّنكيرُ على تعظيم العذاب المذكور وتفخيمه.

وذكر البلاغيّون أنّه يُؤتَى بالمسند إليه نكرة لأسباب منها: "أن يكون الغرض تعظيم المسند إليه أو تحقيره، وأنّه بلغ في رفعة الشّأن حدًّا فوق متناول المدارك، أو انحطّ إلى درجة لا يعتدّ بها، ولا يلتفت إليها، وقد اجتمعا في قول الشاعر[4]:

لَهُ حاجِبٌ في كُلِّ أَمرٍ يُشينُهُ***وَلَيسَ لَهُ عَن طَالِبِ العُرفِ حَاجِبُ

يقول: أنّ بينه وبين ما يشينه حجابًا كثيفًا، وهو إلى جانب هذا

(1) السّكّاكي، مفتاح العلوم، ص: 236.

(2) الخفاجي، عناية القاضي: 2/243، ويراجع: الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص: 110، وما بعدها، والزمخشري، الكشاف: 2/555، 4/499، 745، والسبكي، عروس الأفراح: 1/365، والتفتازاني، حاشية الدسوقي، ص: 141، والإسفراييني، الأطول: 1/317، 504.

(3) ابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 10/141، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/81.

(4) البيت من بحر الطويل، نسب إلى أبي الطَمَحَان القَيْنِي، الديوان، كما نسب إلى ابن أبي السمط، معاهد التنصيص على شواهد التلخيص: 1/127.

في متناول أيدي العفاة، لا يحول دون قاصديه حائل، والشّاهد في لفظي (حاجب) في شطري البيت، حيث أتى بهما منكّرين، أمّا في الشّطر الأوّل فلقصد تعظيم الحائل دون ما يشينه، وأنّه في حصن حصين من كلّ ما يزري به، وأمّا في الشّطر الثّاني فلقصد تحقير ما يحول بينه وبين قاصديه؛ كناية عن أنّ بابه مفتوح على مصراعيه لمن يريد الولوج، فليس هناك أدنى مانعٍ يحجبهم عن فضله ومعروفه"[1].

بلاغة وصف العذاب بلفظ ﴿مُّقِيمٌ﴾ من قوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾:

العذاب المقيم عذابٌ فوق العذاب، يصطلي به الكافرون بلا انقطاع

العذاب يكون قائمًا بهم[2]، ووصفه بالمقيم على صيغة اسم الفاعل للمبالغة في الإسناد الوصفيِّ، فصرَّحَ بالعذاب المقيم الّذي لا يزولُ ولا يتحوَّلُ، بما أُشير إليه سابقًا مِن عدم تناهي مُدَّته بعد بيان شدَّته[3]، فجاء الوصف على المبالغة؛ ليكون عذابًا فوق العذاب، فالعذاب في نفسه عقوبةٌ لهم، وكونُه مقيمًا دائمًا، لا ينقطعُ ولا يتحوَّلُ، عقوبةٌ أشدُّ.

وتنكيرُ لفظ ﴿مُّقِيمٌ﴾ يفيد تعظيم إقامة العذاب بهم.

(1) عوني، المنهاج الواضح: 2/42.
(2) الثّعلبيّ، الكشف والبيان: 4/60.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/34، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 6/189.

﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقۡطَعُوٓاْ أَيۡدِيَهُمَا جَزَآءَۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلٗا مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ٣٨ فَمَن تَابَ مِنۢ بَعۡدِ ظُلۡمِهِۦ وَأَصۡلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيۡهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ٣٩﴾ [المائدة: 38 - 39]

مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِمَا قَبْلَهُما:

إلحاقًا ببيان أن لا فرار للكفّار من النّار، ذكر حدّ السّرقة مع التّنويه بالتّوبة وأهلها

لَمَّا أَوجَبَ اللّه تعالى في الآية المُتَقَدِّمة قَطعَ الأَيدي والأَرجُل عند أَخذ المال على سبيل المُحاربة بأكل أَموال النَّاس بالباطل جَهرَةً، والسّعي بالفساد، وكان فاعلها غير متّقٍ ولا متوسّل، ثمّ ذكر حال الكفّار، عقّب بها هذه الآية، فبيّن أَنَّ أَخذَ المال على سبيل السَّرقة بأكل الأموال خفيةً يُوجِبُ العقوبة كذلك، ففي السّرقة سعيٌ بالفساد أيضًا[1]، ولئن أوردنا هاتين الآيتين في سياق الآيات السّابقة، فإنّنا نلاحظ أنّه يوجد "هناك تناسبٌ واضحٌ بين حكم السّرقة وحكم الحرابة، فالحرابة كما يقول الحنفيّة: سرقة كبرى، والأخرى: سرقة صغرى، فبعد أن بيّن اللّه تعالى عقوبة المحاربين الّذين يفسدون في الأرض، وأمر النّاس بتقوى اللّه حتّى يبتعدوا عنِ الحرام والمعاصي، ذكر عقوبة اللّصوص الّذين يأخذون المال خفية، ومن أنواع عقاب المحاربين في آية الحرابة: قطع الأيدي والأرجل من خلاف، وعقاب السّرقة: قطع اليد"[2]، وذكر الجمل أنّه شروع في بيان حكم السّرقة الصّغرى، بعد بيان أحكام السّرقة الكبرى[3].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَٱلسَّارِقُ﴾: ومعنى السّرقة يدلُّ على أَخذ شيء ليس له أخذُه

(1) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 16/351، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 6/134.
(2) الزّحيلّي، التّفسير المنير: 6/179.
(3) طنطاويّ، الوسيط: 4/145.

في خفاءٍ وسِترٍ، يُقالُ: سَرَقَ يَسرِقُ سَرِقَةً. واستَرَقَ السَّمع: إذا تَسَمَّعَ مُختفيًا، وصارتِ السَّرقة في الشّرع لتناول الشَّيء مِن مَوضِعٍ مخصوصٍ، وقَدرٍ مخصوصٍ[1]. و"السّارق: هو من أخذ مال غيره المحترم خفية بغير رضاه، وهو من كبائر الذّنوب الموجبة لترتّب العقوبة الشّنيعة، وهو قطع اليد اليمنى، كما هو في قراءة بعض الصّحابة[2].. ولفظ (السّرقة): أخذ الشّيء على وجه لا يمكن الاحتراز منه؛ وذلك أن يكون المال محرّزًا، فلو كان غير محرّز لم يكن ذلك سرقة شرعيّة"[3].

2) ﴿جَزَآءَۢ﴾: يدلُّ معنى الجزاء على قيام الشَّيء مقام غيره ومكافأته إيَّاه. فالجزاء: ما فيه الكفاية منَ المقابلة، ويُستعملُ في الخير وفي الشَّرِّ، وقد جاء في القرآن في مقابل الخير والشَّرِّ[4]، كما في قوله تعالى: ﴿فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلۡحُسۡنَىٰۖ﴾ [الكهف: 88]، وقوله: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ﴾ [الشّورى: 40].

وقوله ﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَسَبَا﴾: "أي: لجزاء فعلهما نكالًا، أي: للإهانة والذّمّ مِنَ اللّه، فجزاء مفعول من أجله، وعامله ﴿فَٱقۡطَعُوٓاْ﴾، ﴿نَكَٰلٗا﴾ مفعول من أجله، وعامله ﴿جَزَآءَۢ﴾ على طريقة الأحوال المتداخلة، كما تقول: (ضربت ابني تأديبًا له، إحسانًا إليه)، فالتّأديب علّة للضّرب، والإحسان علّة للتّأديب، واللّه عزيزٌ في انتقامه"[5].

3) ﴿كَسَبَا﴾: أصل الكلمة (كسَبَ) يدلُّ على ابتغاءٍ وطلبٍ وإصابةٍ، وصار يدلُّ معنى الكسب على جمع الشَّيء وتحصيله (شيئًا بعد شيءٍ) بجُهدٍ ما، ومنه الكَسبُ: طَلَبُ الرِّزق، وقد يُستعملُ فيما يَظُنُّ الإنسانُ أنّه يجلبُ منفعةً، ثمَّ استجلبَ به مضرَّةً، ويُستعملُ في فعل الصَّالحات والسَّيّئات، فالكسبُ يكون في الحلال كما هو ظاهرٌ، وفي الحرام كما في الآية؛ لأنَّ مالَ السَّرقة حرامٌ، والكَسبُ يُقالُ فيما أَخذَه لنفسه ولغيره، والاكتسابُ لا يُقالُ إلّا فيما استفادَه لنفسه، وكلّ اكتساب كسب، وليس كلُّ كسب اكتساباً[6].

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سرق)، والرّاغب، المفردات: (سرق).

(2) قراءة: (أيمانهما) بدلاً من قوله: (أيديهما) شاذَّة، نسبت إلى ابن مسعود، كما ذكر الفراء، معاني القرآن: 1/258، وابن خالويه، المختصر، ص: 32.

(3) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن: 1/230.

(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (جزي).

(5) الجاويّ، مراح لبيد: 1/267.

(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، والفيروزابادي، بصائر ذوي التّمييز: (كسب).

﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَسَبَا﴾، أي: يقطع الآلة الكاسبة نَكالًا، أي: عقوبة مِنَ اللّه، أي: على فعل السّرقة المنهيّ عنه من جهته تعالى، لا في مقابلة إتلاف المال؛ فإنّه غير السّرقة، فلذلك لا يسقط بعفو المالك، بخلاف العفو عنِ المال، ولا يبالي فيه بعزّة السّارق؛ لأنّه تعالى غالب على أمره يمضيه كيف يشاء"[1].

4) ﴿نَكَٰلًا﴾: أصل الكلمة النِّكلُ، وهو القَيدُ، وجَمعُه أَنكالٌ؛ لأَنَّه يَنكُلُ: أَي: يَمنَعُ، ونكل به، بمعنى: فعل به ما يمنعُه مِنَ المعاودة، ويمنعُ غيرَه مِن إتيان مثل صنيعه، وفيه معنى التّخويف. والنَّكالُ ضَربٌ مِن جزاء السُّوء، وهو أَشَدُّه. و﴿نَكَٰلًا﴾ في الآية بمعنى: العقاب الشَّديد الَّذي مِن شأنه أَن يَصُدَّ السّارقَ عَنِ العَود إِلى مثل عمله الَّذي عُوقِبَ عليه، ويصدَّ غيره من فعل السّرقة خوفًا منَ العقاب[2]، ثمّ إنّ قوله: ﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ﴾ هذا تعليلٌ للحدِّ؛ أَي: اقطعوا أَيديهما جزاءً لهما بعملهما، وكسبهما السَّيِّئ، ونكالًا وَعِبرَةً لغيرهما؛ فالنَّكالُ مأخوذٌ مِنَ النَّكل، وهو بالكسر قَيدُ الدَّابَّة، ونكل عَنِ الشَّيء: عَجَزَ أَوِ امتَنَعَ لمانعٍ صَرَفَه عنه، فالنَّكال هنا: ما يُنَكِّلُ النَّاسَ، ويَمنَعُهم أَن يَسرقوا[3]، وقطعُ يد السّارق، هي أنجع الوسائل لعلاج هذا المرض الاجتماعيّ الخطير، علمًا بأنّ كلّ العقوبات الّتي قنّنتها الدّول لردع السّرقة لم تفلح، بل تفاقم خطرها، وتلوّنت أشكالها، وبقيتِ المجتمعات والدّول العظمى عاجزة عنِ استئصالها بكلّ ما أوتيت من قوانين وإمكانيّات، والظّاهر أنّ الحدّ الشّرعيّ بالقطع، وهو العلاج السّماويّ للظّاهرة، هو الدّواء الوحيد لهذا الدّاء، واللّه ﷻ خلق الإنسان، ويعلم ما يصلحه، وما يزجره ويردعه. وفي هذا المضمار، نذكر أنّ أحدهم انتقد الشّريعة بقطع يد السّارق بربع دينار، بينما ديّة اليد إذا قطعت تعدل خمس مئة دينار، فقال:

يَدٌ بِخَمسِ مِئِينَ عَسجَدٍ وُدِيَت***ما بَالُهَا قُطِعَت في ربع دِينارِ؟!

فردّ عليه فقيه قائلًا:

عِزُّ الأمانَةِ أَغلَاها وأَرخَصَها***ذُلُّ الخِيانَة فَافهَم حِكمَةَ البارِي

(1) القاسميّ، محاسن التّأويل: 4/130.

(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والسّمين، عمدة الحفّاظ: (نكل)، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 6/192.

(3) رضا، تفسير المنار: 6/314.

"فاليد الأمينة عزيزة غالية وديتها خمس مئة دينار إذا قطعَت عدوانًا، ولكنّ اليد الخائنة رخيصة، تُقطع في سرقة ربع دينار، وحتّى لا يجرؤ صاحبها على سرقة أكثر فأكثر، وحتّى لا تعمّ السّرقة أبناء المجتمع، فيضيع الأمن، ويعمّ الخراب"[1].

5) ﴿ظُلْمِهِۦ﴾: أصل معنى الظُّلم: وضع الشّيء في غير مَوضِعه المختصّ به، إمّا بنقصان أو بزيادة، وإمّا بعدول عن وقته أو مكانه، فمجاوزة الحدِّ الّذي يجري مجرى نقطة الدّائرة، هو ظلم، ويُقال فيما يكثر وفيما يقلّ منَ التّجاوز، ولهذا يُستعمل في الذّنب الكبير، وفي الذّنب الصّغير. والظُّلمةُ ذهابُ النُّور، وجمعه الظّلَم، والجَمعُ ظُلُماتٌ. والظَّلام: اسم الظُّلمة[2]، ﴿مِنۢ بَعۡدِ ظُلۡمِهِۦ﴾ في الآية، بمعنى: من بعد سرقته، وتجاوزه على أموال النّاس[3]، "يقول: من رجع منهم عمّا يكرهه اللّه، من معصيته إيّاه، إلى ما يرضاه من طاعته، من بعد ظُلمِه؛ وظُلمُه: هو اعتداؤه، وعمله ما نهاه اللّه عنه من سرقة أموال النّاس"[4].

6) ﴿وَأَصۡلَحَ﴾: الصَّلاح يدلُّ على خلاف الفساد، وتدلُّ ﴿وَأَصۡلَحَ﴾ على فسادٍ قد حصل، ثمَّ يقع الإِصلاح. ومنه يُقالُ: أَصلَحَ الشَّيء، أَي: أَقامَه بعد فساده، وإِصلاحُ الشَّيء يكون بإِقامته على وجه الصَّواب والإِحسان[5]. و﴿وَأَصۡلَحَ﴾ في الآية، بمعنى: أَصلحَ نفسَه وأَعمالَه، ومنها رَدُّ الحقوق إِنِ استطاع[6]،"وظاهر الآية أنّه بمجرّد التّوبة لا يقبل إلّا إن ضمّ إلى ذلك الإصلاح، وهو التّنصّل منَ التّبعات؛ بردّها إن أمكن، وإلّا بالاستحلال منها، أو بإنفاقها في سبيل اللّه، إن جهل صاحبها"[7]، وقيل: "﴿فَمَن تَابَ مِنۢ بَعۡدِ ظُلۡمِهِۦ﴾، أي: بعد سرقته، كقوله في سورة يوسف: ﴿كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ ٧٥﴾ [يوسف: 75]، أي: السّارقين، وأَصلح بأن ردّ ما سرق، وتخلّص منَ التّبعات ما استطاع، وعزم ألّا يعود "[8].

(1) صافي، الجدول: 6/348.
(2) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (ظلم).
(3) ابن جرير، جامع البيان: 10/298، والبغويّ، معالم التّنزيل: 2/50.
(4) ابن جرير، جامع البيان: 10/298.
(5) الرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (ظلم).
(6) ابن جرير، جامع البيان: 10/298، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/189.
(7) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/256.
(8) ابن عجيبة، البحر المديد: 2/39.

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

قطع يد السّارق جزاء بما كسب، وتأكيد التّوبة عليه إذا أصلح ورغب:

والسَّارق والسَّارقة فاقطَعوا - يا مَن تولّيتَ الأمر - أَيديَهما مقابلَ ما اقترفاه مِن أَخذ أَموال النَّاس بغير حقٍّ؛ لكونه عقوبةً رادعةً مِنَ اللّه تعالى لهما، وزجرًا لغيرهما عَنِ الوقوع في هذا الفعل القبيح، واللّه سبحانه عزيزٌ في مُلكه، حكيمٌ في أَوامره ونواهيه، فمَن تابَ مِنَ السَّرقة الّتي ظلَمَ بها نفسَه وغيرَه، ورجعَ إلى اللّه، وأصلحَ نفسَه وأَعمالَه، فإنَّ اللّه يقبلُ توبتَه؛ إنَّ اللّه غفور لعباده، رحيمٌ بهم، قال القطّان: وقد جمع في هذه الآيات الكريمة بين الوازع الدّاخليّ: وهو الإيمان والصّلاح، والوازع الخارجيّ: وهو الخوف منَ العقاب والنّكال، وأمر ولاة الأمور بأن يقطعوا يد مَن يسرق، مِنَ الكفّ إلى الرّسغ؛ وذلك لأنّ السّرقة تحصل بالكفّ مباشرة، وتُقطع اليد اليمنى أوّلاً؛ لأنّ التّناول يكون بها في الغالب[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ ورود لفظ ﴿وَٱلسَّارِقُ﴾ بالرَّفع دونَ النَّصب في قوله: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا﴾:

دلالة تضمُّن المبتدأ معنى الشّرط

أفاد مجيء ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ﴾ بالرَّفع؛ لِيكون مبتدأً وما بعده خبرًا له أَمرين: أوّلهما: أنّ السّرقَةَ سببُ قطع اليد؛ وذلك باستحقاق السَّارق عقوبةَ قطع اليد بما اكتسب، ما يَستوجبُه مِنَ السَّرقة، فأَفاد التَّركيبُ أنَّ السَّرقةَ عِلّةُ القطع وسببُه، فيكونُ مِن باب تَرتُّب الحُكم على الوصف المناسب، وقد ذهب بعض الفقهاء مِن أَهل الظَّاهر إلى أَنَّه متَّى سرق السَّارق شيئًا، قُطِعَت يَدُه به، سواءٌ أكان قليلًا أم كثيرًا لعموم هذه الآية: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا﴾، فلم يَعتَبروا نِصابًا ولا حِرزًا، بل أَخَذوا بمجرَّد السَّرقة، وقد روى ابن جرير وابن أبي حاتم مِن طريق عبد

(1) القطّان، تيسير التّفسير: 1/400.

المُؤمن عَن نَجدَةَ الحَنفيِّ، قال: سألتُ ابنَ عبَّاسٍ ﵄ عن قوله: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقۡطَعُوٓاْ أَيۡدِيَهُمَا﴾ أَخاصٌّ أَم عامٌّ؟ فقال: بل عامٌّ، وهذا يَحتملُ أَن يكون مُوافقةً منَ ابن عبَّاس ﵄ لمَا ذهب إليه هؤلاء، ويحتملُ غير ذلك[1].

وثانيهما: الإشعارُ بعموم الذَّوات؛ لأنَّ القصدَ لا إلى واحدٍ بعينه، والمعنى: (أَيُّ سارقٍ وأيُّ سارقةٍ)، أو المعنى: (الّذي يَسرِقُ والّتي تَسرِقُ)؛ لدلالة (ال) الموصولة في ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ﴾؛ ليكونَ الاسمُ الموصولُ على معنى الشَّرط، فدخلتِ الفاءُ لتضمُّنهما معنى الشَّرط، والتَّقدير: مَن يَسرق، ومَن تَسرق فاقطعوا أَيديَهما؛ ليتناوَل الغنيَّ والفقير، الرّجلَ والمرأةَ، وكلَّ مَن يَصدُقُ عليه لفظُ السَّارق، فَعدَلَ عَن كلِّ هذا، فقال: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ﴾؛ فأَوجزَ وعمَّمَ المعنى، ولو جاءَ بالنَّصب لدلَّ على الاختصاص، وهو غيرُ مرادٍ هنا، وتُؤَيِّدُ هذا التَّوجيهَ البلاغيَّ الآيةُ الّتي بعدَها الّتي ابتدأَت بلفظ العموم ﴿فَمَن تَابَ مِنۢ بَعۡدِ ظُلۡمِهِۦ وَأَصۡلَحَ﴾، فالكلامُ في العموم، وقد جاء الكلام على معنى الشَّرط، حيث عَدلَ عَن مجيء الكلام، بطريقة المبتدأ والخبر المعهودين إلى مجيء الخبر مقترنًا بالفاء؛ فقال: ﴿فَٱقۡطَعُوٓاْ﴾؛ لِتضمُّنِ المبتدأ معنى الشَّرط وعمومه كما تقدَّم، فدلَّ على استحقاق وقوع الجزاء مِن أيِّ سارقٍ سرقَ، وأَينما حصل الشَّرط، وفي وقت حصوله.

إيثار صيغة اسم الفاعل في قوله: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ﴾:

استحقاق وصف الـسَّـارق، إذا كـان في المعهود وصفُه بالسَّرقَة

لمَّا كان المراد الإخبار بحكم السارق، آثر البيانُ القرآنيّ صيغة اسم الفاعل؛ للدلالة على أَنَّ الحُكم المذكور يتعلَّقُ بِمَن يتحقَّق فيه وصفُ السَّرقة، ويثبت عليه ذلك؛ بأن يكون السارق مكلَّفًا، مختارًا، وأن يكون عالماً بالتحريم، دون شبهة، وأن يكون هذا الأخذ على الاختفاء والاستتار، وأن يكون المال في حِرْز وهو يخرجه، وأن يبلغ النِّصاب، وهو ربع دينار ذهباً فأكثر[2].

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 3/98.

(2) البهوتي، الروض المربع، ص: 673.

سبب اقتران لفظ ﴿وَٱلسَّارِقَةُ﴾ بلفظ ﴿وَٱلسَّارِقُ﴾ في قوله: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقۡطَعُوٓاْ﴾:

السَّارقة معَ السَّارقِ دَفَعَ توهُّمَ أَن تكون صيغة التَّذكير في السَّارق قيدًا؛ بحيثُ لا يُجرَى حدُّ السَّرقة إلَّا على الرِّجال، فذكرَ السَّارقةَ؛ لمزيد الاعتناء بالبيان والمبالغة في الزَّجر، وإن كان المعهودُ في الاستعمال القرآنيِّ إدراجَ النِّساء في الأَحكام الواردة في شأن الرِّجال[1].

يتساوى الرّجال والنّساء في حدِّ السّرقة، إذا تعيّن على أحدهما أو كليهما ذلك

سبب تقديم ﴿وَٱلسَّارِقُ﴾ على ﴿وَٱلسَّارِقَةُ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ﴾:

ابتدأ بذكر السَّارق المُذكَّر؛ لأنَّ السَّرقة مبناها على معاني القوَّة والحيلة والجُرأَة والجَلَد مجتمعةً، والرِّجالُ أَخصُّ مِنَ النِّساء في هذا، فبدأَ بهم، كما أنَّ حبَّ المال على الرِّجالِ أَغلبُ[2]؛ ولهذا نَجِدُ السُّرَّاقَ مِنَ الرِّجال أَكثرَ مِنَ النِّساء، وعلّل الشّعراويُّ ذلك قائلًا: "لأنّ دور المرأة في مسألة الزّنا أعظم، ومدخلها أوسع، فهي الّتي تغري الرّجل وتثيره، وتهيّج عواطفه؛ لذلك أمر الحقّ ﷻ الرّجال، بغَضِّ البصر، وأمر النّساء بعدم إبداء الزّينة؛ ذلك ليسُدَّ نوافذ هذه الجريمة، ويمنع أسبابها.

أمر الله الرّجال بغَضِّ البصر، ونهى النّساء عن إبداء الزّينة؛ منعًا لأسباب الفواحش

أمّا في حالة السّرقة فعادةً يكون عِبءُ النّفقة ومُؤنة الحياة على كاهل الرّجل، فهو المكلّف بها؛ لذلك يسرق الرّجل. أمَّا المرأة فالعادة أنّها في البيت تستقبل، وليس من مهمّتها توفير تكاليف الحياة، لكن لا مانعَ مع ذلك، أن تسرق المرأة أيضاً؛ لذلك بدأ في السّرقة بالرّجل"[3]، قال الأخفش: "فزعموا أنّ هذا على الوحي، كأنّه يقول: (وممّا أَقُصُّ عليكم الزّانية والزّاني، والسّارقة والسّارق)، ثمّ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/34، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 5/190.
(2) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 6/175.
(3) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 16/10195.

جاء بالفعل من بعد ما أوجب الرّفع على الأوّل على الابتداء، وهذا على المجاز كأنّه قال: (أمرُ السّارق والسّارقة وشأنُهما ممّا نَقُصّ عليكم)، ومثله قوله: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَۖ﴾ [محمّد: 15]، ثمّ قال: ﴿فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ﴾ [محمّد: 15]، كأنّه قال: (وممّا أقُصُّ عليكم مَثَلُ الجنّة)، ثمّ أقبل يذكر ما فيها، بعد أن أوجب الرّفع في الأوّل على الابتداء. وقد قرأها قوم نصبًا؛ إذْ كان الفعل يقع على ما هو من سبب الأوّل، وهو في الأمر والنّهي، وكذلك ما وقع عليه حرف الاستفهام، نحو قوله ﴿أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ﴾ [القمر: 24]، وإنّما فُعِلَ هذا في حروف الاستفهام؛ لأنّه إذا كان بعده اسم وفعل كان أحسن أن يُبتدأ بالفعل قبل الاسم، فإن بدأت بالاسم أضمرت له فعلًا؛ حتّى تحسن الكلام به، وإظهار ذلك"[1].

دلالة المجاز المُرسَل في قولِه تعالى: ﴿فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا﴾:

قطع يد السَّارق قـطـعٌ لآفـة الـسَّـرقـة بين الـنَّـاس، وآخـر الدّواء الكيّ

هناك مجازٌ مُرسَلٌ في قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا﴾، فالمراد قطع الرّسغ فقط، فعبّر بالكلّ وهو اليد، وأراد الجزء وهو الرّسغ، فعلاقة المجاز هنا الكلّيّة[2]، ولمَّا كان تناول المال المسروق باليد غالبًا رتّبَ عليه قطع الآلة الّتي تناولت ذلك المال، وعبّرَ بالقطع دون غيره، إشارةً إلى أنَّ قطع اليد الّتي سرقَت قطعٌ لآفة السَّرقة في المجتمع، ووأدٌ لها، وقوله: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا﴾ عموم الآية يقتضي قطع كلّ سارق، إلّا أنّ الفقهاء اشترطوا في القطع شروطًا، خصّصوا بها العموم، فمِن ذلك مَن اضطرّه الجوع إلى السّرقة لم يقطع عند مالك؛ لتحليل الميتة له، وكذلك مَن سرق مال والده أو سيّده، أو مَن سرق من غير حرز (مكان محفوظ)، أو سرق أقلّ منَ النّصاب، وهو عند مالك ربع

(1) الأخفش، معاني القرآن: 1/84.
(2) صافي، الجدول: 6/346.

دينار منَ الذّهب، أو ثلاثة دراهم منَ الفضة، أو ما يساوي أحدهما، وأدلّة التّخصيص بهذه الأشياء في غير هذه الآية، وقد قيل: إنّ الحرز مأخوذ من هذه الآية؛ لأنّ ما أهمل بغير حرز، أو ائتمن عليه، فليس أخذه سرقة، وإنّما هو اختلاس أو خيانة"[1].

دلالة نكتة جمع لفظ (الأَيدي) في قوله تعالى: ﴿أَيْدِيَهُمَا﴾:

جمعَ الأيدي للنَّظر إلى أفراد أيمان الرِّجالِ والنِّساء

لمَّا كان المراد مِنَ السَّارق والسَّارقة عمومَ الذَّوات، بمعنى: الّذي يَسرِقُ، والّتي تَسرِقُ، كما تقدَّم، وكان لكلِّ سارقٍ يمينٌ واحدةٌ، وهي المُعرَّضةُ للقطع في السَّرقة أَوَّلًا، فكان للسُّرّاق أَيدٍ وللسَّارقات أَيدٍ، فلمَّا كان المرادُ العموم جمعَ الأَيدي للنَّظر إلى أَفراد العموم، وكأَنَّه قال: اقطعوا أَيمانَ النَّوعين، فالتَّثنية في الضَّمير، إنَّما هي للنَّوعين[2]، ونكتةٌ أخرى تَتَّصلُ بتسهيل اللّفظ، فإنَّ في إضافة المثنَّى إلى ضمير التَّثنية ثِقلًا في الكلام؛ لاجتماع تثنيتين في كلمة واحدة، فعدل إلى جمع المضاف تخفيفًا؛ لأَمن اللّبس[3]. قال السّمعانيّ: "فإن قال قائل: كيف قال: ﴿أَيْدِيَهُمَا﴾، والمذكور اثنان، ولم يقل: يديهما؟ قيل: لم يرد به سارقًا واحدًا، أو سارقةً واحدةً، وإنّما ذكر الجنس؛ فلذلك ذكر الأيدي. قال الفرّاء والزّجّاج: كلّ ما يوحّد في الإنسان، فإذا ذكر منه اثنان يجمع؛ يقول الله تعالى: ﴿فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ [التّحريم: 4]، وتقول العرب: ملأت ظهورهما وبطونهما ضربًا، ولكلّ واحد ظهر وبطن واحد، فكذلك اليمين للإنسان واحدة؛ فيجمع عند التّثنية[4].

دلالة (ما) بينَ الموصوليَّة والمصدريَّة في قوله تعالى: ﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلٗا مِّنَ ٱللَّهِۗ﴾:

تحتمل (ما) في قوله تعالى: ﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلٗا مِّنَ ٱللَّهِۗ﴾ أن

(1) ابن جُزَيّ، التّسهيل: 1/231.
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/189.
(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/189، وابن القيّم، التّفسير القيّم، ص: 547.
(4) السّمعانّي، تفسير القرآن: 2/36.

تكون موصولةً، وأَن تكون مصدريَّةً[1]، والباء سببيَّة في الحالتين[2]، فإذا كانت موصولةً فالمعنى (جزاءً بالّذي كسبا)، فيكونُ الجزاءُ بسبب المال الحرام الّذي سرقاه، ويُشعِرُ هذا بأنّه إذا تاب وأرجع المال يَسقُطُ الجزاءُ، كما ذهب إليه بعضُ المُفسِّرين[3]، وإذا كانت مصدريّةً فالمعنى (جزاءً بكسبهم)، أي: بسبب فعل السَّرقة، ويُشعِرُ هذا بأَنَّه إذا تاب لا تسقط عنه العقوبة؛ لأَنَّ الجنايةَ قد حصلَت وانقضَت، ولمَّا كان قطعُ اليد حَدَثًا ناسبه أَن يكون الجزاءُ حَدَثًا كذلك، فيكون حملُ (ما) على المصدريَّة أَولى بالسِّياق، وأَرفَقَ بالمقام.

لمَّا كان قطع اليد حدثًا ناسبه أَن يكون الجزاء حدثًا كذلك

نكتة التَّعبير بالمصدر المؤَوَّل في قوله تعالى: ﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَسَبَا﴾:

عبَّرَ بالمصدر المؤوّل دون الصَّريح، فلم يَقُل: (جَزَاءً بِكسبِهما)؛ لأَمرين: أَحدهما: لإفادة وقوع فعل الكسب وانقضائه، والآخر: لبيان أَنَّ الحُكمَ المذكورَ مقصورٌ على فعل الكسب مِن غير نظر إلى ما يُلابِسُه، مِن أَيِّ وصف آخرَ؛ لشناعته وقُبحه، وما فيه مِنَ الظُّلم، ولا بدّ منَ الإشارة إلى" أنّ قطع يد السّارق من هدي القرآن النّاس للّتي هي أقوم؛ وذلك أنّ هذه اليد الخبيثة الخائنة، التّي خلقها اللّه لتعمل وتكتسب في كلّ ما يرضيه، من امتثال أوامره، واجتناب نهيه، والمشاركة في بناء المجتمع الإنسانيّ، فمدّت أصابعها الخائنة إلى مالِ غيرها؛ لتأخذه بغير حقّ، واستعملت قوّة البطش المودعة فيها في الخيانة والغدر، وأَخْذ أموال النّاس على هذا الوجه القبيح يدٌ نجسةٌ قذرة، ساعيّةٌ إلى الإخلال بنظام المجتمع؛ إذ لا نظام له بغير المال، فعاقبها خالقها بالقطع والإزالة؛ كالعضو الفاسد الّذي يجرّ الدّاء لسائر البدن، فإنّه يزال بالكلّيّة إبقاءً على البدن، وتطهيرًا له

شناعة فعل السّرقة وقبحها لا يناسبه إلّا قطع اليد المعتدية

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/255.
(2) السّمين، الدّرُّ المصون: 4/266.
(3) السّمرقنديّ، بحر العلوم: 1/388.

منَ المرض، ولذلك فإنّ قطع اليد يطهّر السّارق من دنس ارتكاب معصيّة السّرقة، مع الرّدع البالغ بالقطع عنِ السّرقة "[1].

سرُّ مجيء ﴿جَزَآءَۢ﴾ و﴿نَكَٰلٗا﴾ تعليلين في الكلام في قوله: ﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلٗا مِّنَ ٱللَّهِۗ﴾:

مَن يرَيدَ السّارق مقطوعةَ بالحدّ يَمتنعْ مخافةَ القطع

يحتملُ أَن يكون كلٌّ مِن ﴿جَزَآءَۢ﴾ و﴿نَكَٰلٗا﴾ مفعولًا لأجله معَ اختلاف المُتعلَّق، وإليه ذهب جمهورُ المُفسِّرين[2]، فيكون قطعُ اليد سَبَبًا للجزاء الّذي يدلُّ على أَقلِّ كفاية العقوبة في مُقابل السَّرقة، ولمَّا كان النَّكال أَشدَّ مِنَ الجَزاء[3] صار الجزاء الّذي هو مُرَتَّبٌ على قطع اليد سَبَبًا للنَّكال، فكان القطعُ عِلَّةً للجزاء، والجزاء علَّةً للنَّكال الّذي هو منعُ معاودة السَّارق للُّصوصيَّة، ومنع غيره منَ الإقدام عليها؛ فإنَّ مَن يرى يد غيره مقطوعةً لأَجل السَّرقة يَمتنعُ عنها؛ ليرتَدِعَ السّرَّاقُ عن أموال النّاس، والسَّطو على الآمنين، فورد الكلام على طريقة التَّرقّي في التَّعليل؛ لبيان الحكمة مِن قطع اليد؛ لِعظَم هذه العقوبة وظهورها في المجتمع، ويحتمل أَن يكون ﴿جَزَآءَۢ﴾ مفعولًا لأَجله، و﴿نَكَٰلٗا﴾ بدلَ اشتمالٍ مِن ﴿جَزَآءَۢ﴾[4]، والمعنى: اقطَعوا أَيديَهما؛ كي يكونَ القطعُ عقوبةً منَ اللّه عليهما بما كسبا، ومنعًا لهما منَ الظُّلم، فالجزاءُ مشتَمِلٌ على العقوبة، وجاء على طريقة البدل والمُبدَل منه الّذي هو المقصود بالحُكم؛ لِيظهرَ بمجموع الجزاء والنَّكال مزيدَ اعتناءٍ بالشَّأن[5]، فإنَّ مجموعَهما يبيّنُ الغايةَ مِن قطع اليد.

مناسبة اختلاف متعلَّق الجَزاء والنَّكال في قوله: ﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلٗا مِّنَ ٱللَّهِۗ﴾:

تعلَّق قوله تعالى: ﴿بِمَا كَسَبَا﴾ بـ﴿جَزَآءَۢ﴾؛ لأنَّ الجزاءَ لمَّا كان بمعنى

(1) السّنقيطيّ، أضواء البيان: 3/33.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/632، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/255، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/35.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 5/190.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/35، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 5/190.
(5) السّكّاكيّ، مفتاح العلوم، ص: 253.

المُقابلة ذكر سببَ هذه المقابلة، وهي كَسبُهما؛ تشنيعًا على السَّارق الّذي يَسرقُ مُستسهلًا لجرمه وظلمه، وكأنَّه يَسرقُ مِن غير كُلفةٍ منه، وتأكيدًا لتَرتُّب حكم القطع على الوصف المُشتَقِّ في قوله: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ﴾؛ وذلكَ أَنَّ المُرادَ مِنَ الكسب هو السَّرقة، وأمّا ﴿نَكَٰلًا﴾، فلمَّا كان بمعنى العقوبة بالمنع منَ المعاودة، تعلَّق به قوله ﴿مِّنَ ٱللَّهِۗ﴾؛ لإفادة أَنَّها عقوبةٌ إلهيَّةٌ رادعةٌ، "وما يدلُّ على أنَّ المراد منَ الآية الشَّرط والجزاء، وجوهٌ: الأوَّل: أنّه تعالى صرَّح بذلك في قوله تعالى ﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَسَبَا﴾، وهذا يدلُّ على أنَّ القَطع جزاءٌ على فعل السَّرقة، فوجَبَ أن يَعُمَّ الجزاء لعموم الشَّرط، والثّاني: أنّ السَّرقة جنايةٌ، والقطع عقوبةٌ، فرَبطُ العقوبة بالجناية مناسب، وذكرُ الحُكم عَقيب الوصف المُناسب؛ يدلُّ على أنَّ الوصف علَّة لذلك الحكم، الثّالث: أنّا إذا حملنا الآية على هذا الوجه كانتِ الآية مُفيدة، ولو حملنَاها على سارقٍ مُعَيَّن صارَت مُجمَلة غير مفيدة، فالأوَّل أولى. وأجاز الزّمخشريّ الوجهين، ونسب الأوَّل لسيبويه، ولم يَنسِبِ الثَّاني، بل قال: ووجهٌ آخر، وهو أن يَرتفعا بالابتداء، والخبر: ﴿فَٱقۡطَعُوٓاْ﴾[1].

وجوب تعميم الجزاء؛ لعُموم الشَّرط، ربطًا للعقوبة بالجناية

بلاغة أُسلوب التّهكُّم في استعمال الفعل (كَسَبَ) في قوله: ﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَسَبَا﴾:

أصل الكسب يكون في الرّبح، وجلب المنافع، فاستعماله في السَّرقة، هو مِن باب التّهكُّم؛ إذ إنّ السّارق بما حصل عليه بالسَّرقة استجلب نفعًا قليلًا فانيًا، فبهذا الاعتبار، أوقع عليه الكسبَ، وجاء بأسلوب التَّهكُّم؛ للتَّأثير في المتلقِّي؛ لِيرجعَ إلى نفسه، ويعلم أن لا كسبَ في السَّرقة، فيتركَها.

السَّرقة تستجلبُ نفعًا قليلًا فانيًا، ولا تلبث أن تنقلب إلى حسرة وندامة

دلالة قوله: ﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَسَبَا﴾ عوضًا عن قوله: (جزاء بما أخذَا منَ الأموال)؟!

"ليس القطع في السّرقة جزاء ما أخذ منَ المال؛ ولكنّه جزاء ما هتك منَ الحرمة؛ ألَا ترى أنّه قال: ﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَسَبَا﴾، ولم يقل:

(1) ابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 7/319.

جزاء بما أخذا منَ الأموال؟! فيجوز أن يبلغ جزاء تلك الحرمة، قطع اليد، وإن قصر علم البشر عن ذلك؛ لأنّ مقادير العقوبات، إنّما يعرفها من يعرف مقادير الإجرام، وليس أحد منَ الخلائق يحتمل علمه مبلغ مقادير الإجرام، فإذا لم يحتمل علمهم مبلغ مقاديرها، لم يحتمل معرفة مقادير عقوباتها، فإذا كان كذلك، فحقّ القول فيه الاتّباع والتّسليم - بعد العلم في الاتّباع - أنّ اللّه لا يجزي بالسّيّئة إلّا مثلها"[1].

اللـه وحـده الّـذي يـحـدّد مقادير الإجرام، ويشرّع مقادير العقوبة عليها

إيثارُ التَّعبير بقوله: ﴿بِمَا كَسَبَا﴾ عوضًا عن (بما اكتَسَبَا) على خلاف مُقتضَى الظَّاهر:

عَبَّرَ بالكسب دون الاكتساب بقوله: ﴿بِمَا كَسَبَا﴾، فلم يقُل: (بما اكتَسَبا)، كما هو مُقتضَى الظَّاهر، باعتبار أنَّ الاكتسابَ فيه معنى الافتعال والتّكلُّف في فعل المعصية، ومنه قوله تعالى: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة: 286]، لكنَّهُ عبّرَ هنا بالكسب؛ لأنَّ الكسبَ يكون لنفسه ولغيره، والاكتسابُ لا يكون إلَّا لنفسه[2]، ولمّا كانتِ السَّرقةُ قد تقع لغير السَّارق عبَّرَ بالكسب، والمعنى: سواءً كانتِ السَّرقَةُ لنفسه أم لغيره فهي حرامٌ وعليها العقوبةُ، مع التّأكيد أنّ "المبدأ العامّ في الإسلام، هو درء الحدود بالشّبهات، وسيّدنا عمر رضي الله عنه لم يقطع في عام الرّمادة حين عمّت المجاعة، ولم يقطع كذلك في حادثة خاصّة، عندما سرق غلمان حاطب بن أبي بلتعة ناقة رجل من مزينة، فقد أمر بقطعهم، ولكن حين تبيّن له أنّ سيّدهم يجيعهم، درأ عنهم الحدّ، وغرّم سيّدهم ضعف ثمن النّاقة تأديبًا له"[3].

السَّرقةُ حرامٌ سـواء كـانـت للسَّارق نفسه أم لغيره

(1) الماتريديّ، تأويلات أهل السنة: 3/513.
(2) الرّاغب، المفردات: (كسب).
(3) صافي، الجدول: 6/347.

العلّة في قطع اليد في السّرقة، وعدم قطع الذّكر في الزّنى:

في قوله تعالى: ﴿فَٱقۡطَعُوٓاْ أَيۡدِيَهُمَا﴾ "جعل حدّ السّرقة قطع اليد؛ لتناول المال بها، ولم يجعل حدّ الزّنى قطع الذّكر، مع مواقعة الفاحشة به، لثلاثة معان: أحدها: أنّ للسّارق مثل يده الّتي قطعت، فإن انزجر بها اعتاض بالثّانية، وليس للزّاني مثل ذكره، إذا قطع فلم يعتض بغيره، لو انزجر بقطعه، والثّاني: أنّ الحدّ زجر للمحدود وغيره، وقطع اليد في السّرقة ظاهر، وقطع الذّكر في الزّنى باطن والثّالث: أنّ في قطع الذّكر إبطالَ النّسل، وليس في قطع اليد إبطاله"[1].

حكمة الله في العقاب على المعصيّة، كحكمته في الجزاء على الطّاعة

معنى الظّلم السّرقة في قوله تعالى: ﴿فَمَن تَابَ مِنۢ بَعۡدِ ظُلۡمِهِۦ وَأَصۡلَحَ﴾:

قوله: ﴿فَمَن تَابَ مِنۢ بَعۡدِ ظُلۡمِهِۦ وَأَصۡلَحَ﴾، السّياق يفيد أنّ المراد بالظّلم هنا السّرقة، أي: فمن تاب من بعد سرقته، وأصلح أمره، فإنَّ اللّه يتوب عليه، ولكنّ اللَّفظَ عامٌّ، فيشملُ السَّارق وغيره مِنَ المُذنِبِينَ، والاعتبار بعموم اللَّفظ لا بخصوص السَّبب، وقدِ استَدَلَّ بهذا عطاءٌ وجماعةٌ على أَنَّ القَطعَ يَسقُطُ بالتَّوبة، وليس هذا الاستدلالُ بصحيح؛ لأنَّ هذه الجملةَ الشَّرطيَّةَ لا تُفيدُ إلَّا مُجَرَّدَ قبول التَّوبة، وإنَّ اللّه يتوب على مَن تاب، وليس فيها ما يُفيدُ أَنَّه لا قَطعَ على التَّائب[2].

ليس في السّياق دلالة على سقوط الحدّ عنِ التّائب

وضعُ الاسم الظَّاهر مَوضِع المُضمَر في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾:

ذكرَ السّياق الاسمَ الظَّاهرَ ﴿وَٱللَّهُ﴾ ﷻ في مَوضِع الضَّمير؛ لِقُرب ذكره تعظيمًا للأمر؛ فمجيءُ الاسمِ العَلَم ﴿وَٱللَّهُ﴾ أخصُّ في الدَّلالة على الذَّات الإلهيَّة مِنَ الضَّمير، والمقامُ مقامُ إحضارٍ لاسم الجلالة؛ لاقتضاء العقوبة مقامَ الألوهيَّة، ولدلالة (اللّه) على جميع صفات الكمال[3]، فالإخبارُ عنه بأوصافه ﷻ، كما في الآية

الإخبار عنِ الله بأوصافه تأكيدٌ لمَا يدلُّ عليه اسمُ الجلالة من عظمة

(1) الماورديّ، النّكت والعيون: 2/35.
(2) الشّوكانّي، فتح القدير: 2/46.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 6/135، والسّكّاكّي، مفتاح العلوم، ص: 180.

في قوله: ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾، تأكيدٌ لِمَا يَدلّ عليه اسمُ الجلالة (اللّه) مِن أوصاف الكمال، وتَصريحٌ بما يناسبُ المقامَ، فتَتَحقَّقُ فائدةٌ متجدِّدَةٌ في الإخبار.

مناسبة حُسن الختام لمضمون الآية في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾:

مناسبة ختم الآيـة البليغ لِحُكم قطع اليد

فقد خُتِمَتِ الآية بوصف اللّه بأَنَّه عزيزٌ حكيمٌ، وهو مناسِبٌ حُكمَ قطع يد السَّارق؛ فهو تعالى عزيزٌ غالبٌ على أَمره، وله كمالُ العزَّة والسُّلطة في إيجاب الحدود، كما أنَّ الحكمة أيضًا تُناسِبُ القطع؛ فاللّه تعالى حكيمٌ في صُنعه وفي شرعه، فهو يضع الحدودَ والعُقوباتِ بحَسَبَ الحكمة الَّتي توافق المصلحةَ، ففي قطع اليد بشروطها حكمةٌ بالغةٌ[1].

سرُّ تقديم لفظ ﴿عَزِيزٌ﴾ على لفظ ﴿حَكِيمٌ﴾ في قوله: ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾:

اللـهُ عـزيـزٌ في أحكامِهِ، حكيمٌ في مـعـاقـبـة الـعـصـاة من عباده

لكلِّ تقديم وتأخير مناسبتُه للمقام، ولمّا كان سياق الكلام في بيان أَحكام اللّه، وعقوبة مَن يتعدَّى حدودَه، قدَّمَ وصف العزيز على وصف الحكيم، فاللّه تعالى له كمالُ العزّة في أحكامه وحدوده، وإذا عاقب فهو حكيمٌ في عقوباته وشرائعه وتكاليفه، ولكلِّ عقوبةٍ حكمتُها، ويزيد سرّ هذا التَّقديم وضوحًا ما جاء عنِ الأصمعيّ، إذْ قال: "كنتُ أقرأ سورةَ المائدةِ ومعي أَعرابيٌّ. فقرأتُ هذه الآية، فقلتُ: واللّه غفورٌ رحيمٌ، سَهواً، فقال الأعرابيُّ: كلامُ مَن هذا، فقلتُ: كلامُ اللّه، فقال: أَعِد، فأعَدتُ: واللّه غفورٌ رحيمٌ، ثمَّ تَنَبَّهتُ، فقلتُ: ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾، فقال: الآنَ أصَبتَ، قُلتُ: كيفَ عرفتَ؟ فقال: يا هذا، عَزَّ فحكمَ فأمَرَ بالقطع، فلو غَفَرَ ورَحِمَ لَمَا أَمرَ بالقَطع"[2]، ومعنى الآية ﴿وَٱللَّـهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾؛ أنّه مقتدِر على معاقبة الخلق، حَكِيم فيما أوجب منَ العقوبة[3].

(1) رضا، تفسير المنار: 6/314.
(2) الواحديّ، التّفسير الوسيط: 2/185، وابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 7/332.
(3) السّمعانّي، تفسير القرآن: 2/36.

سرُّ تقديم التَّوبة على الإصلاح في قوله: ﴿فَمَن تَابَ مِنۢ بَعۡدِ ظُلۡمِهِۦ وَأَصۡلَحَ﴾:

لانَّ الإصلاح لا يكون مِن غير توبة عنِ الظُّلم تَتَقَدَّمُه، فالظُّلم ينافي الإصلاح، وأوّلُ الإصلاح إصلاحُ النّفس بالتّوبة، فأوجبَ التَّوبةَ عَنِ الظُّلم أوّلًا؛ لِتكونَ التَّخلية قبلَ التَّحلية، وفي هذا النّصّ تأويلان: "أحدهما: يغفر لمن تاب من كفره، ويعذّب مَن مات على كفره، وهذا قول الكلبيّ، الثّاني: يعذّب مَن يشاء في الدّنيا على معاصيهم بالقتل والخسف والمسخ والآلام، وغير ذلك من صنوف عذابه، ويغفر لَمَن يشاء منهم في الدّنيا بالتّوبة واستنقاذهم بها منَ الهلكة، وخلاصهم منَ العقوبة"[1].

التَّخليةُ قبلَ التَّحليةِ، والتّوبةُ مقدّمةٌ على الإصلاح

دلالة حرف الجرِّ ﴿مِنۢ﴾ في قوله تعالى: ﴿مِنۢ بَعۡدِ ظُلۡمِهِۦ﴾:

لمّا كانت ﴿مِنۢ﴾ تدلُّ على ابتداء الغاية الزَّمانيَّة أفادَ مجيئُها الحثَّ على الإسراع إلى التَّوبة بعد ظلمه مِن غير مهلة؛ فالمعنى (من تاب من بعد ابتداء ظلمه مباشرةً من غير مهلة)، ولو لم يذكر ﴿مِنۢ﴾ لدلَّ على طلب التَّوبة بعد ظلمه وإن تأخّرَت؛ لعموم البعديَّة الزَّمانيَّة.

الحثُّ على الإسراع إلى التّوبة، وإن بدر منه الظّلم والأذى للنّاس

وعليه فإنّ "مَن استوفى أحكام التّوبة، فتدارك ما ضيّعه، وندم على ما صنعه، وأصلح من أمره ما أفسده، أقبل اللّه عليه بفضله، فغفره، وعاد إليه باللّطف فجبره"[2].

سرُّ العدول عن لفظ (سرقته) إلى لفظ ﴿ظُلۡمِهِۦ﴾ في قوله تعالى: ﴿مِنۢ بَعۡدِ ظُلۡمِهِۦ﴾:

وعدلَ عن أن يقول (سَرِقَتِهِ) إلى ﴿ظُلۡمِهِۦ﴾؛ تعميمًا للحكم في كلِّ ظلمٍ[3]، ولمّا قال: ﴿فَمَن تَابَ مِنۢ بَعۡدِ ظُلۡمِهِۦ﴾ أفاد أنَّ السَّرقة نوع

السَّرقةُ نوعٌ مِن أنواع الظُّلم الّذي يقتضي التّوبة والإصلاح

(1) الماورديّ، النّكت والعيون: 2/37.
(2) القشيريّ، لطائف الإشارات: 1/423.
(3) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 4/349، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 6/135.

من أنواع الظُّلم، وتعليق التّوبة من بعد الظّلم يشعرُ بأنَّ كلَّ معصية ظلمٌ؛ لأنَّ التّوبة لا تكون إلَّا مِن معصيةٍ. وصرّحَ بالظُّلم مع أَنَّ التَّوبة لا تُتصوَّرُ قبله؛ لبيان عِظَم نعمته تعالى بتذكيره بعظم جنايته[1]، "واشترط إصلاح العمل، تنبيهًا أنّ التّوبة باللّفظ غير مُغنية، ما لم يضامّها ما يحقّقها منَ الفعل، وجعل علّة قَبُول توبته كونه تعالى غفوراً رحيمًا"[2].

حذف مفعول ﴿ظُلْمِهِۦ﴾ من قوله: ﴿فَمَن تَابَ مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ﴾:

تقدير الكلام (فمَن تابَ مِن بعد ظُلمه غَيرَه)[3]، فحذف مفعول المصدر ﴿ظُلْمِهِۦ﴾؛ لإفادة الاقتصار على اتِّصافه بالظُّلم على الإطلاق[4]، وإثبات الظُّلم بالسَّرقة، وأَنَّ مِن شأن السَّارق أن يكون ظالمًا؛ مبالغةً في إثبات المعنى وتقريره، ويحتمل أَن يكون حذف المفعول؛ لإفادة عموم الظُّلم؛ لأنَّه "ظلمَ نَفسَه بامتهانها وسفهها، وظلمَ النَّاس بالاعتداء على أَموالهم"[5].

يُعتبرُ كلُّ سارق ظالمًا، ولا يُعتبرُ كلّ ظالم سارقًا

دلالة حذف مفعول ﴿وَأَصْلَحَ﴾ في قوله: ﴿فَمَن تَابَ مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ وَأَصْلَحَ﴾:

يجري فيه ما ذُكِرَ في حذف مفعول ﴿ظُلْمِهِۦ﴾، فإمَّا أن يكون من باب الاقتصار على إثبات معنى الإصلاح لنفسِه، وإمَّا أن يكون من باب تعميم معنى الإصلاح؛ لِيشملَ إصلاحَ كلِّ أعماله، وليس بردِّ ما سرقَه إلى أصحابه فحسبُ، فالسَّرقة تدلُّ على فساد السَّارق، وفساد فعله، وقد "قيل: إن تاب في الدّنيا قبل القدرة عليه، وأصلح سقط عنه الحدّ، ورُجيَ له الغفران، وإن تاب بعد القدرة عليه رُجيَ له الغفران، ولم يسقط عنه الحدّ، بدلالة ما روي عن عبد

السَّرقة تدلُّ على فساد السَّارق، وسوء فعله وطبعه

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/35.
(2) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 4/349.
(3) ابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 7/332.
(4) الجرجانّي، دلائل الإعجاز، ص: 155.
(5) رضا، تفسير المنار: 6/316.

اللّه بن عمرو: «أنّ امرأة سرقَت على عهد رسول ﷺ، فأمر بقطع يدها، فقال قومها: نحن نفديها بخمس مئة دينار، فقال: اقطعوها، فقطعوا يمناها، فقالتِ المرأة: هل لي من توبة يا رسول اللّه؟ قال: نعم، أنت اليوم في خطيئتك كيوم ولدتك أمّك»[1]، فأنزل اللّه ﴿فَمَن تَابَ مِنۢ بَعۡدِ ظُلۡمِهِۦ وَأَصۡلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيۡهِۚ﴾، ولم يقل: بعد سرقته؛ ليكون عامًّا في هذا الحكم، وفي غيره، واشترط إصلاح العمل تنبيهًا أنّ التّوبة باللّفظ غير مغنية، ما لم يضامّها ما يحقّقها منَ الفعل"[2].

مناسبة اجتماع جملتين في جملة الشَّرط في قوله تعالى: ﴿فَمَن تَابَ مِنۢ بَعۡدِ ظُلۡمِهِۦ وَأَصۡلَحَ﴾:

التَّوبة والإصلاح بمنزلة الشّيء الواحد؛ لعدم استغناء إحداهما عن الأخرى

لمّا عطف جملة ﴿وَأَصۡلَحَ﴾ على جملة ﴿تَابَ مِنۢ بَعۡدِ ظُلۡمِهِۦ﴾ دلَّ على أنّ الشَّرط في مجموع الجملتين لا في كلٍّ واحدةٍ منهما على الانفراد، ولا في التَّوبة دون الإصلاح أو العكس، فصار اقتران الإصلاح بالتَّوبة بمنزلة الشَّيء الواحد الّذي يكونُ جزاؤه قبولَ التَّوبة، فاشترط الإصلاحَ للتَّنبيه على أنَّ "التَّوبةَ باللّفظ غيرُ مُغنيةٍ، ما لم يُضامّها ما يُحقِّقُها منَ الفعل"[3].

دلالة الفاء الواقعة في جواب الشَّرط في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيۡهِۚ﴾:

المسارعة في الخير محمودةٌ مطلوبةٌ من كلّ مؤمن أوّاب

أفادتِ الفاءُ ترتُّبَ وقوع الجزاء مِن غير مهلة على وقوع الشَّرط، فقَبول التَّوبة يحصل في وقت تحقُّق الشّرط، وهو توبةُ السَّارق وإصلاحُه؛ ترغيبًا في التّوبة وتسريعًا لها، فالمسارعة في الخير محمودةٌ مطلوبةٌ.

(1) الهيثمي، مجمع الزوائد: 6/276.
(2) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 4/348.
(3) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 4/349.

دلالة المؤكّدات في التّركيب في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيۡهِۚ﴾:

عـلّـة تـجـدّد الفعل المضارع في سياق الآية

في هذا الكلام تَرغيبٌ في التَّوبة لمَن يسرقُ أو يظلمُ، وبشارةٌ له بقبولها، وقد أكّدَ اللّه قبولَ توبة التَّائب بتأكيدات عدّة: فأكّدَه بـ(إنَّ) الّتي تفيد تأكيد مضمون الجملة كلِّها، ثمَّ أكّدَه بالجملة الاسميَّة ﴿ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيۡهِۚ﴾ الدّالَّة على ثبوت المعنى واستمراره، ثمَّ زادَ تأكيدَه بوقوع الفعل المضارع في حيّز الخبر؛ لإفادة تقوّي الحكم وتقريره؛ لأنَّ المرادَ تحقيقُ توبة اللّه على التَّائب[1]، وجاء الفعل ﴿يَتُوبُ﴾ بصيغة المضارع؛ لبيان تجدُّد قبول توبة اللّه على التَّائب، كلَّما تاب إليه، وأنّ هذا التَّجدُّدَ محقَّقٌ ثابتٌ.

أثر الجناس النّاقص في قوله تعالى: ﴿فَمَن تَابَ﴾، ﴿يَتُوبُ عَلَيۡهِۚ﴾:

التَّائب يتوب الله عليه، وتوبة الله تسع العصاة جميعًا مهما كثروا

ومِنَ اللَّطائف البلاغيَّة أنّه عبَّرَ عن قبول التَّوبة بقوله: ﴿يَتُوبُ﴾؛ ليكون موافقًا للّفظ ﴿تَابَ﴾ على طريقة الجناس النّاقص، والمعنى: إنَّ توبته المذكورة يقبلها اللّه، فـ "التَّائبُ يقالُ: لباذل التَّوبة ولقابل التَّوبة، فالعبد تائب إلى اللّه، واللّه تائب على عبده"[2]، "فمَن تاب منَ السّرّاق مِن بعد ظُلمه من بعد سرقته، وأَصلَحَ أمره بالتّفصّي عنِ التّبعات، فإنَّ اللّه يتوب عليه، ويسقط عنه عقاب الآخرة"[3].

دلالة حرف الاستعلاء (على) في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيۡهِۚ﴾:

إعـلام التّـائـب بـقـبـول تـوبـتـه طـالـمـا تـاب إلى الـلـه، وأصـلـح حاله ونواياه

مجيء الحرف (على) الدَّالِّ على الاستعلاء أفادَ نزولَ التّوبة مِن عُلُوٍّ؛ لبيان عظمتها ورفعتها، ولاستغراق التَّائب بقبول اللّه لتوبته، ويرجع إليه بالمغفرة، ويتوب على عبده بفضله، إذا تاب العبد إليه من ذنبه، وارعوى عن غيّه؛ ذلك أنّ اللّه أعطاه حريّة الاختيار،

(1) السّكّاكي، مفتاح العلوم، ص: 221.
(2) الرّاغب، المفردات: (تاب).
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/632.

فعليه أن يختار ما هو مرتبط بالله الأعلى، وأن لا يركن إلى الأرض متّبعًا هوى النّفس، ومسالك الشّيطان.

ورود لفظ (إنَّ) مرّتين في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيۡهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾:

ورود جملة تذييليَّة تجري مَجرَى المَثَل؛ لعموم معناها وشموله

أفادَت ﴿فَإِنَّ﴾ الأولى تأكيدَ قبول الله توبة السّارق؛ لأنَّه قد يَظنُّ أنَّ توبتَه لن تُقبَلَ بعد أَن ظلمَ نفسَه، وظلمَ النَّاسَ بأخذ مالهم بغير حقٍّ، فجاء هذا التَّأكيد؛ لدفع هذا الظّنِّ، ولبيان الخطأ الّذي توهَّمَه، وأنَّه ينبغي أَن لا يكون[1]، وبعد أَن دفعَ هذا الظّنَّ بالتّأكيد بـ﴿فَإِنَّ﴾ أتبعَه ببيان علّة هذا الدّفع، وسبب الخطأ في هذا الظّنِّ، فذكرَ ﴿إِنَّ﴾ الثّانية؛ لتُفيدَ تعليل قبول الله توبة السَّارق والظَّالم، وهو كونه تعالى غفوراً رحيماً، فوقعَت ﴿إِنَّ﴾ الثّانية في مقام الاحتجاج لمَا قبلها، مع التَّأكيد على وصف الله بالمغفرة والرّحمة[2]، وأفادَت ﴿إِنَّ﴾ الثَّانية كذلك تقريرَ استقلال الجملة[3]؛ لتكون جملةً تذييليَّةً، يُقصدُ بها أَن تجريَ مَجرَى المثل؛ لعموم معناها وكلّيَّته.

إظهار اسم الجلالة عوض إضماره في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾:

غفران الله شمل كلّ أحد، ورحمته وسعَت كلّ شيء

أظهر السّياق اسم الجلالة ﴿ٱللَّهَ﴾ في مَوضِع الإضمار؛ وكان الظّاهر أَن يأتيَ به مُضمَرًا؛ لِقُرب ذكره، فدلَّ إظهارُ الاسم الجليل على تخصيص الاسم؛ ليتميّز عمّن عداه؛ تأكيدًا لقبول الله تعالى توبةَ عبده السَّارق[4]، وإظهار اسم الجلالة ﴿ٱللَّهَ﴾ عوضًا عن إضماره، بأن يقال: (إِنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ)؛ وذلك للإشعار بعلّة الحكم، وتأييد استقلال الجملة[5]، حيث إنّ قبول التّوبة إنّما يكون

(1) الجرجانّي، دلائل الإعجاز، ص: 327.
(2) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 4/349، والجرجانّي، دلائل الإعجاز، ص: 323.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/35.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 6/136، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/35.
(5) صافي، الجدول: 6/346.

منَ اللّه، وقد أكّدها اللّه في مَوضِع آخر منَ القرآن بقوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ عَنۡ عِبَادِهِۦ وَيَعۡفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعۡلَمُ مَا تَفۡعَلُونَ ٢٥﴾ [الشّورى: 25]، فقبول التّوبة أمرٌ متيقّنٌ منه ولا شكّ فيه؛ لأنّه تعالى أخبر عن نفسه بذلك الوصف، وهو أمرٌ مؤكّد بيقين، ولكنّه بوصفه غفورًا رحيمًا، لا يقتصر غفرانه ورحمته على التّوبة وحدها، بل يشمل التّوبة منَ الذّنوب وغيرها، فغفرانه ورحمته يشملان الطّائع والعاصي، ويعمّان المقبل والجافي؛ إذ صفاته تستغرق الوجود برمّته، ورحمته وسعت كلّ شيء.

مناسبة تتابع التّأكيدات في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾:

لمَّا كان أَمرُ السَّرقة عظيمًا عند اللّه وعند النَّاس، وجعلَه اللّهُ نوعًا من أنواع الظُّلم المذموم، بيَّنَ القرآن أنَّ اللّه تعالى يغفرُ لعبده، إذا تابَ وأَصلحَ، فجاء حرف التَّأكيد ﴿إِنَّ﴾؛ لِتأكيد مضمون الجملة، وبالغ في تأكيده بمجيء الجملة اسميّةً؛ لدفع ظنِّ أن لا توبة للسَّارق، ومِن هذه التَّأكيداتِ مجيءُ اسم الجلالة ظاهرًا؛ لإحضاره في ذهن المخاطب، كما أنَّ المقامَ مقامُ تعظيم بذكر اسم الجلالة؛ لإظهار نعمة قبول التَّوبة، ولا يَبعُدُ أَن يكون منَ الاعتبارات المناسبة لذكر اسم (اللّه) التبرُّكُ بذكره ﷻ، ومن المؤكِّدات تتابعُ الوصفين ﴿غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ بصيغة المبالغة.

يغفرُ اللّه للسَّارق إذا تاب وأَصلح، والتّوبةُ تجُبُّ ما قبلها

مناسبة تتابع صيغتي المبالغة في قوله تعالى: ﴿غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾:

لقد جاء بالوصفين بصيغة المبالغة؛ لتأكيد قبول التّوبة، أي: إنَّ اللّه الموصوف بالمغفرة والرَّحمة أحرى أن يقبلَ توبة عبده الّذي يتوب ويُصلح. وقدّمَ المغفرةَ على الرَّحمَة؛ لأنَّه سبحانه يغفرُ للسَّارق وغيره برحمته الّتي وَسِعَت كلَّ شيءٍ، فقدّمَ الأخصَّ على الأعمَّ.

يغفر اللّه للسَّارق وغيره برحمته الواسعة، فهو أرحم بعباده من الأمّ بولدها

﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٠﴾﴾ [المائدة: 40]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الرّبط بين إقامة الحدّ وقبول التّوبة، وكونه سبحانه الفعّال لما يريد في ملكه:

لمَّا أَوجب قَطعَ اليد وعِقابَ الآخرة على السَّارق قبل التَّوبة، ثمَّ ذكر أَنَّه يقبلُ توبتَه إن تاب، فهو الفعّال لمَا يريد، أَردَفَه بإقامة الحجَّة والبيان على أَتَمِّ وجهٍ؛ في أَنَّ له أَن يَفعَلَ ما يشاء ويَحكُمَ ما يريد، فَيُعَذِّبَ مَن يشاءُ ويغفرَ لمن يشاءُ[1]. وذهب ابن عاشور إلى أنَّ وجهَ المناسبة في الآية أنَّها جاءت استئنافًا بيانيًّا، جوابًا لسؤالٍ مقدَّرٍ اقتضاه المقام، فكأنَّ سائلًا سألَ عَنِ انقلاب حال السَّارق مِنَ العقاب إلى المَغفِرَة بعد التَّوبة، مع عظم جُرمه، فأجاب: بأَنَّ اللّه هو المُتَصَرِّف في السَّماوات والأَرض وما فيهما، فهو العليم بمَواضِع العِقابِ ومَواضِع العَفو[2]، ولا تقاطُعَ في المناسبتين، وقال بعضهم بما يشبه الخلاصة لمَا سلف: "لمّا أمر بالتّقوى، وابتغاء الوسيلة إليه بالجهاد في سبيله، ودعاهم إلى الفلاح، وبيَّن قبلُ ما يلزم المحاربين، وبعدُ ما يلزم السُّرَّاق، وذكر قبول توبتها، ذكر قدرته على تعذيب مَن يشاء، وغفران لمَن يشاء في الدّنيا بما شرّعه، وفي الآخرة بما قدره"[3].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مُلْكُ﴾: المُلْكُ يدلُّ على إمساك بقوّة مع شمول التّصرّف، والمَلِكُ هو المتصرِّفُ بالأمر والنّهي، وفيه معنى التّولّي والقوّة والتّمكين، ومُلكُ اللّه تعالى وملكوته: سُلطَانُه وعَظمَتُه، وله ملك السّماوات والأرض بمعنى سلطانه وتصرُّفه فيهما[4]، "ومعنى الملك في اللّغة: تمام القدرة واستحكامها، فما كان ممّا يقال فيه: مَلِك، سُمّي المُلكَ، وما نالته القدرة ممّا يقال فيه: مَالِك، فهو مِلك، تقول: ملكتُ الشّيء أملِكه مِلْكاً، وكقوله تعالى:

(1) الرّازي، مفاتيح الغيب: 11/357.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 6/194.
(3) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 4/349.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (ملك).

﴿عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ﴾ [البقرة: 102]، أي: في سلطانه وقُدرته، وأَصل هذا من قولهم: (ملكتُ العَجين أملُكُه)، إذا بالغتُ في عَجنه، ومن هذا قيل في التّزويج: (شهدنا إملاكَ فلان)، أي: شهدنا عقد أمر نكاحه وتشديده"[1].

2) ﴿يُعَذِّبُ﴾: أَصله عَذَبَ، والعَذابُ هو الإيجاع الشّديد، وقد عَذَّبَه تَعذيباً: أكثرَ حبسَه في العذاب. وذهب بعض أهل اللُّغة إلى أَنَّ أَصل التَّعذيب هو الضَّرب، ثمَّ استُعيرَ ذلك في كلِّ شدَّة، ويطلقُ (العذاب) على النَّكال والعقوبة بإيقاع الآلام، كالضَّرب المُبَرِّح بصوره، والجَلد والكّيِّ بالنَّار، وقَطع الأَعضاء، وبالإجاعة، والإعطاش[2].

3) ﴿وَيَغْفِرُ﴾: يدلُّ معنى (غَفَرَ) على التَّغطية أو السَّتر، وكلُّ شيءٍ سترتَه فقد غفرتَه، وكلُّ ثوبٍ غُطِّي به شيءٌ فهو غفارةٌ. والغَفر: إلباس الشَّيء ما يصونُه عن الدَّنَس، ومنه قولهم: اغفروا هذا الأمرَ بغَفرَته، أَي: استروه بما يجب أَن يُستَرَ به. ويغفرُ اللّه الذُّنوب: يُغطِّيها ويسترها فلا يُحاسِبُ عليها، واللّه جلّ وعزّ على غفران ما أراد غفرانه منهم، وهم عباده ومحلّ شفقته، باستنقاذ العبد منَ الهلكة بالتّوبة عليه، وغير ذلك من الأمور كلّها قادرٌ؛ لأنّ الخلق خلقُه، والملك ملكه، والعباد عباده، وهو الفعّال لمَا يريد، لا رادّ لحكمه، ولا معقّب لكلماته[3].

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

مُطلَق قدرة الله على العذاب والغفران مرتبط بمشيئة الرّحمن

أَلم تعلم - أَيُّها الرَّسول ﷺ - أنَّ اللّه هو مالك السّماوات والأرض وما فيهنَّ، وله السُّلطان الكامل عليهما، ومَن كان كذلك، فهو الفعَّالُ لمَا يريد، يُعذِّبُ مَن يشاءُ مِنَ الظَّالمين، ويغفرُ لِمَن يشاءُ مِنَ التَّائبين، لا مُعقّبَ لحكمه، ولا مُعترضَ على أمره، واللّهُ على كلِّ شيءٍ قديرٌ، فلا يُعجِزُه شيءٌ أبدًا[4]، وظاهرُ مَن تأمّل سياق هذه الآية أنّ "هذا خطاب للنّبيّ ﷺ، والمراد به مَن كان بالمدينة وحواليها منَ اليهود،

(1) الزّجّاج، معاني القرآن: 1/191.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (عذب).
(3) ابن جرير، جامع البيان: 10/301.
(4) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/190.

والمعنى: ألم يعلم هؤلاء القائلون: ﴿لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعۡدُودَةً﴾ [البقرة: 80] – الّذين يزعمون أنّهم أبناء اللّه وأحبّاؤه – أنّ اللّه مدبّر ما في السّماوات وما في الأرض، وأنّه يعذّب مَن يشاء، ويغفر لمَن يشاء، قادرٌ على ذلك لا يمتنع عليه"[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغة الاستفهام المجازيّ في قوله: ﴿أَلَمۡ تَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾:

الاستفهام التّقريريّ ألزمُ في إثبات الحُجَّة في مثل هذا السّياق

الاستفهام في الآية تقريريٌّ[2]، فالكلام على أسلوب الإنشاء، ويُقصدُ به الخبرُ بمعنى: قد علمتَ – أيّها الرّسولُ ﷺ – أنَّ اللّه له ملكُ السّماوات والأرض، وإنَّما جاء على أسلوب الإنشاء؛ لتنشيطِ ذهن المُخاطَب؛ للاعتناءِ بالمعنى، ولزيادةِ تقريره وتثبيته، ولكونه ألزمَ في إثبات الحُجَّة مِنَ الخبر[3]. كما نلاحظ خروج الاستفهام عن معناه الأصليّ في قوله في هذه الآية، "فالاستفهام هنا إنكاريٌّ لتقرير العلم، والمراد به الاستشهاد بذلك على قدرته تعالى، على ما سيأتي منَ التّعذيب والمغفرة على أبلغ وجه وأتمّه"[4].

مناسبة الخطاب لِمُعيَّنٍ في قوله: ﴿أَلَمۡ تَعۡلَمۡ﴾ في هذه الآية الكريمة:

قُصدَ بالخطاب العمومُ بقصد التّأثير في المُخاطَب

ظاهر الخطاب أنَّه للرَّسول محمَّدٍ ﷺ؛ ولهذا كان الاستفهام تقريريًّا، ولا يصحُّ أن يكون إنكاريًّا؛ فالرَّسولُ ﷺ، يعلمُ أنَّ اللّه له مُلكُ السّماوات والأرض، فورد الاستفهام التّقريريّ؛ لتأكيد العلم وتقريره.

وقد أُخرِجَ في صورة الخطاب لِمُعيَّنٍ، وأُريدَ به العمومُ، وهو في القرآن كثيرٌ، أي: إنّ الخطابَ على البدل، لكلِّ مُخاطَبٍ صالحٍ

(1) مكيّ بن أبي طالب، الهداية إلى بلوغ النّهاية: 3/1708.
(2) رضا، تفسير المنار: 6/316.
(3) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 1/250.
(4) صافي، الجدول: 6/349.

للخطاب[1]، فكلُّ قارئٍ لهذا الكلام أو سامعٍ له يكونُ هو المُخاطَبَ بهذا الكلام، وليس المراد الصّحابة الّذين عاصروا التَّنزيل فقط، والمعنى: كلُّ مَن يتأتّى منه العلم داخلٌ في هذا الخطاب، ومجيءُ الخطابِ لِمُعيَّنٍ معَ قصد العموم أكثرُ تأثيرًا في تلقّي خطاب ما عَظُمَ شأنُه وأَمرُه[2].

مناسبة تقوية المعنى بأنواع المؤكِّدات في قولِه تعالى: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾:

تعظيم شأن مُلك الله للسّماوات والأَرض؛ لتنبيه العباد إلى جلاله وجماله

لا يَرِدُ الاستفهامُ التَّقريريُّ إلّا فيما له شأنٌ ينبغي الاهتمام به؛ لِمَا ينبني عليه من قضايا وأحكام، وفيما يكون واضحًا مكشوفًا لكلِّ ذي عقل سليم، وهو هنا تقريرُ العلم بأنَّ اللّه له مُلك السّماوات والأرض.

وقد ضَمَّنَ الكلامَ أنواعَ المؤكِّدات؛ لِتقويّة المعنى وتثبيته، فصدّرَه بمجيء ﴿أَنَّ﴾ المؤكِّدةَ لمضمون الجملة، ومجيء الجملة اسميَّةً ﴿ٱللَّهَ لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾، وأفاد الإسنادُ تقوّيةَ الحُكم بتكرُّر الإسناد[3]، فقد أسندَ ﴿لَهُۥ﴾ إلى ﴿مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾، والضّمير في ﴿لَهُۥ﴾ عائدٌ إلى ﴿ٱللَّهَ﴾، ثمَّ أسندَ الجملة ﴿لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ إلى ﴿ٱللَّهَ﴾، فتكرَّرَ الإسناد لخصوصيَّة المعنى، وليس لهذا المعنى أبلغُ مِن هذه العبارة في هذا المقام، ولمَّا كان ورود الاستفهام التَّقريريِّ فيما هو واضحٌ وثابتٌ، ولا يحتاجُ إلى دليلٍ، دَلّتِ المؤكِّدات الّتي وردَت في الكلام على أنَّ المقصود منها زيادة تقرير؛ عنايةً بالأمر لعظم شأن أَمر مُلك اللّه للسّماوات والأرض، وليس المقصود الردّ على إنكار المُنكِر.

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/35.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 2/485، والسّكّاكي، مفتاح العلوم، ص: 180.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 1/143، 3/35، والآلوسي، روح المعاني: 3/304.

بلاغة التَّقديم والتَّأخير في قوله: ﴿لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾:

ملك السّماوات والأرض للـه، ولـيـس لأحـد سواه

أفاد تقديم المسند ﴿لَهُۥ﴾ على المسند إليه ﴿مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ تخصيصَ المسند بالمسند إليه؛ لأنَّ المقامَ مقامُ تمدُّحٍ وثناءٍ وإثباتٍ لِمَا يَختَصُّ به الله تعالى، والمعنى: لله وليس لغيره مُلكُ السّماوات والأرض.

خطاب النّبيّ ﷺ، والمقصود به المخاطبون في السّياق:

خروج الكلام عن المُخاطَب الظّاهر إلى غيره من فصيح البيان العربيّ

خرج قوله: ﴿أَلَمۡ تَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ خطابًا له ﷺ، والمعنيُّ به من ذكر من فرق بني إسرائيل الّذين كانوا بمدينة رسول الله ﷺ وما حَواليها، وهذا من كلام العرب مستفيض بينهم مألوف، وهو من فصيح القول عندهم، وذلك أن يُخرِج المتكلّم كلامه على وجه الخطاب منه لبعض النّاس، وهو قاصد به غيره، وعلى وجه الخطاب لواحدٍ وهو يقصد به جماعةً غيره، أو جماعة والمخاطب به أحدهم، وعلى وجه الخطاب للجماعة، والمقصود به أحدهم"[1].

وفي (النّكت والعيون)، سؤال مفاده: هل كان النّبيّ ﷺ غير عالم بأنّ الله له ملك السّماوات والأرض، وأنّه على كلّ شيء قدير؟ والجواب ملخّص في ثلاثة أمور: أحدها: أنّ قوله ألم تعلم؟ بمعنى أعلمت؟، والثّاني: أنّه خارج مخرج التّقرير لا مخرج الاستفهام، والثّالث: أنّ هذا الخطاب ظاهر لفظه أنّه للنّبيّ الأكرم ﷺ، ولكنّ المراد به المُخاطَبون في سياق الآية وما قبلها من الآيات[2].

علّة ورود جملة ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُۗ﴾ من دون عاطف:

الـلـه تـعـالى هـو الـعـلـيـمُ بمَواضِع العقاب ومَواضِع العفو عن عباده

لمّا كان المقامُ مقامَ اعتناء بشأن تمكين العلم وتقريره في نفس المُخاطَب، بأنّ اللّه له مُلكُ السَّماوات والأرض، وردَ الكلامُ بأسلوب البدل، فأَعاد الكلام بذكر الجملتين المعطوفتين؛ ليكونا بدلَ اشتمالٍ

(1) ابن جرير، جامع البيان: 2/285 - 286، 10/301.
(2) الماورديّ، النّكت والعيون: 1/172.

مِن قوله: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، فأفادت جملةُ البدل المعنى الّذي يقتضيه السِّياقُ على التَّفصيل، ولِيظهرَ بمجموع القصدين إليه في المُبدَلِ منه والبدلِ مزيدَ اعتناء بالمعنى المُراد[1]، ولمّا كان البدلُ والمبدلُ منه في معنى الخبر الواحد جاء مِن غير عطف، فهما بمجموعهما أَوفى بتقرير المعنى وإيضاحه، فمَن له مُلكُ السّماوات والأَرض له الحقُّ في التَّصرُّف في مُلكه، ومنه أَن يُعَذِّبَ مَن يشاءُ، ويَغفِرَ لِمَن يشاءُ، ولهذا ذكر بعضُ المفسِّرين أنَّ صدر الآية كالعنوان لقوله: ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ﴾[2]، فكأَنّه في مقام التَّخصيص بعد التَّعميم؛ لتأكيد معنى ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ﴾ وتقريره؛ لِتضمُّن جملة العموم هذا المعنى والتَّصريح به بعد ذلك.

ونقل ابن عاشور عنِ البيضاويّ: أنّ السّياق متنزّل منَ الجملة الّتي قبله منزلة الدّليل؛ لأنّ الّذي يكون له ملك السّماوات والأرض، لا جرم أن يكون قديرًا على كلّ شيء، ولذا فُصِلت هذه الجملة عن الّتي قبلها، قال ابن عاشور: "وعندي أنّ موجب الفصل هو أنّ هاته الجملة بمنزلة التّكرير للأولى؛ لأنّ مقام التّقرير ومقام التّوبيخ كلاهما مقام تكرير لما به التّقرير والإنكار، تعديدًا على المُخاطَب"[3].

بلاغة حذف المفعول به في قوله: ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ﴾:

مِنَ الأحكام البلاغيّة: أن لا يُنطَقَ بالمحذوف؛ لأنّ البلاغة في حذفه لا ذكره

حُذِفَ مفعولُ المشيئة في قوله: ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ﴾، ولو أظهره، وقال (يُعذِّبُ مَن يشاءُ تعذيبَه، ويغفرُ لِمَنْ يشاءُ أَن يغفرَ له)، صِرنا إلى كلامٍ غثٍّ، ولفظٍ رثٍّ، ولا فائدة مقصودة منه، فَمِن أحكام البلاغة البديعة أَن لا يُنطَقَ بالمحذوف، ولا يَظهرَ في اللّفظ في مثل هذا السّياق؛ لانصباب الكلام إلى مشيئة اللّه، فنابَت قرينة الحال عن ذكر المفعول[4].

(1) السّكّاكيّ، مفتاح العلوم، ص: 253.
(2) القِنّوجيّ، فتح البيان: 3/418.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/665.
(4) الجرجانّي، دلائل الإعجاز، ص: 163، والسّكّاكيّ، مفتاح العلوم، ص: 299.

دلالة الاسم الموصول ﴿مَن﴾ في قوله: ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُۖ﴾:

أفاد الاسم الموصول العموم؛ ليدلَّ على كلِّ عاقلٍ، ومجيءُ الكلام على معنى العموم مناسبٌ لمقام التّمدُّحِ والثَّناء، وبيان القدرة المطلقة، فلا تقييدَ لمشيئته ﷻ، وأشعرت (مَنْ) الّتي للعاقل، أنَّ العذاب والمغفرة لايكونان إلّا للعقلاء؛ لتعلُّقِهما بمناط التَّكليف، وهو العقلُ، فلا عذاب لغير العاقل ولا مغفرة له، "وقال ابن عبّاس والضّحَّاك: ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾، أي: من مات على كفره، ﴿وَيَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُۖ﴾ ممّن تاب عن كفره. وقيل: ذلك في الدّنيا، يُعذّب مَن يشاء في الدّنيا على معصيته بالقتل، والخسف، والسّبي، والأسر، وإذهاب المال، والجدب، والنّفي، والخزي، والجزية، وغير ذلك، ويغفر لَمن يشاء منهم في الدّنيا بالتّوبة عليه من كفره ومعصيته، فينقذه منَ الهلكة، وينجّيه منَ العقوبة"[1].

العذاب والمغفرة متعلّقان بمناط التَّكليف، وهو العقل الحصيف

مناسبة تقديم لفظ ﴿يُعَذِّبُ﴾ على لفظ ﴿وَيَغۡفِرُ﴾ في قوله: ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُۖ﴾:

قدَّمَ التَّعذيبَ في هذه الآية جزاءً على فعلهم، ثُمَّ ذكرَ المغفرةَ لهم إن تابوا خلافًا لسائر المَواضِع في القرآن الكريم؛ لمناسبته لَمَا اتَّصلَ به مِن تقدُّم عقاب السَّارق أَوَّلًا، وذِكرِ توبته ثانيًا، ولأنَّ المرادَ بالعذاب هنا قطعُ اليد، وذلك أنفعُ في الدُّنيا للسَّارقِ ولغيره، ولعظم أمر السَّرقة الّتي يقع بها ظلم النَّاس وأكل حقوقهم، وتقدُّمُ التَّعذيب على المغفرة لا ينافي كَونَ الرَّحمة المُطلَقَة سابقةً ومُقدَّمةً على العذاب المُطلَقِ[2]، وكونه قدّم التّعذيب على المغفرة؛ "يعني أنّ الظّاهر عكسه؛ لأنّ الرّحمة سابقة على الغضب، كما في الحديث

تقديم العذاب على المغفرة؛ مراعاة لدلالة السِّياق من بلاغة الاتّساق

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/256.

(2) ابن الزبير، ملاك التّأويل: 1/74، والكرمانّي، غرائب التّفسير: 1/331، ورضا، تفسير المنار: 6/317.

القدسيّ: «سبقت رحمتي غضبي»[1]، وهنا عكس؛ لأنّ التّعذيب للمصرّ على السّرقة، والمغفرة للتّائب منها، وقد قُدّمَت السّرقة في الآية أوّلًا، ثمّ ذُكرت التّوبة بعدها، فجاء هذا اللّاحق على ترتيب السّابق، أو المراد بالتّعذيب القطع، وبالمغفرة التّجاوز عن حقّ اللّه، والأوّل في الدّنيا، والثّاني في الآخرة، فجيء به على ترتيب الوجود، أو لأنّ المقام مقام الوعيد، قالوا: وهذا أقرب"[2]، وعليه فإنّ تقديم العذاب في الآية على المغفرة هو أمرٌ متناسقٌ مع سبق رحمته تعالى لغضبه، و"تقديم العقاب أخذًا لحقّ اللّه، وحقّ العباد أوّلًا، ثمّ تجيءُ مغفرة اللّه ورحمته، فتمحو آثار هذا العقاب، وتعفّي عليه، لمن وجّه وجهه إلى اللّه، وطلب الصّفح والمغفرة"[3]، ونضيف إلى ذلك، ما أشار إليه صاحب الخواطر، حين ذكر بأنّه جاء الحديث أوّلاً عنِ السّارق والسّارقة، وبعد ذلك عمّن تاب، فالسّرقة تقتضي التّعذيب، والتّوبة تقتضي المغفرة، لذلك فالتّرتيب هنا منطقيّ، وقد جاء قوله تعالى: ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُۚ﴾ بعد آية السّرقة، وبعد آية الإعلام، بأنّ له مُلكَ السّماوات والأرض، ولذلك كان لا بدّ من تذييل يخدم الاثنين معًا؛ ليؤكّد سيطرة القدرة، وحين يريد الحقّ أن يرحم واحدًا فليس في قدرة المرحوم أن يرفض الرّحمة، وحين يعذّب واحدًا لن يتأبّى على العذاب، فسيطرة القدرة تؤكّد أنّه لا قدرة لأحد على رَدِّ العذاب أو الرّحمة بتاتًا[4].

مناسبة اقتران الجملتين في قوله تعالى: ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُۚ﴾:

يُعَذِّبُ مَن يشاءُ تأمينًا مِن شرِّه المستطير، ويرحمُ مَن يشاءُ ترغيبًا في التّزكية والتّطهير

ناسب اقتران الجملتين ما قبلهما، فإنَّه لمّا كان مِن مُتَعَلِّقات اسمه العزيز الحكيم، أَن وَضَعَ هذا العقاب لكلِّ مَن يسرق ويظلم، وكان من مُقتَضى اسمه الغفور الرَّحيم أَن يَغفِرَ لِمَن تاب إذا صدق في التَّوبة وأَصلح عملَه؛ فهو بمُقتضَى أَسمائه الحسنى وصفاته العلى، يُعَذِّبُ مَن يشاءُ تربيةً له، وتأمينًا لعباده مِن شرّه، ويَرحَمُ مَن يشاءُ مِنَ التَّائبين والمُصلحين برحمته وفضله؛ ترغيبًا لعباده في تزكية أَنفُسهم، وإِصلاح ذات بَينِهم[5].

(1) الحديث بهذا اللفظ أخرجه الإمام أحمد في مسنده، الحديث رقم: (7299).
(2) الخفاجيّ، عناية القاضي: 3/242.
(3) الخطيب، التّفسير القرآنّي للقرآن: 3/1097.
(4) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 5/3132.
(5) رضا، تفسير المنار: 6/316.

بلاغة الطِّباق في قوله تعالى: ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُۖ﴾:

للعبد طريقان: العذابُ المردي في النّيران، أو المغفرةُ المفضية إلى الجنان

ورد منَ البديع في هذه الآية طباقُ الإيجاب في قوله: ﴿يُعَذِّبُ﴾ و﴿وَيَغۡفِرُ﴾؛ ليفيدَ التَّهديدَ والوعيدَ المُطلَقَ مِن جهةٍ، والتّقرّبَ والتَّودّدَ المُطلَقَ مِن جهة أُخرى، فهما طريقان لا سواهما؛ لمناسبة التَّأثير في المُخاطَب، فيُقارنَ بين الأمرين، ويختارَ طريق التَّوبة والإصلاح الّذي تَترتَّبُ عليه المغفرةُ.

حسن ختام الآية بجملة التَّذييل بقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾:

جملة التّذييل هاته عبارة تجري بين النَّاس مَجرَى المثل؛ لعموم معناها وبلاغتها

ورد قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ جملةً اسميَّةً تفيد الثُّبوت والدَّوام، وتتضمَّنُ معنى عامًّا كلّيًّا؛ لبيان وصف اللّه بالقدرة المُطلقة، وتصلحُ أن تكون مثلًا يجري في الكلام؛ لعموم معناها وكلّيَّته، كما أنَّها جاءَت مُقرِّرَةً لمضمون ما تقدَّمها[1]، فإنَّ مَن يملكُ السّماوات والأرض، وله تدبير أمرهما، هو على كلِّ شيءٍ قديرٌ، فناسبَت جملةُ التَّذييل السِّياقَ.

دلالة توسّط شبه الجملة والضّمير المضاف إليه بين المسند والمسند إليه:

ورود المعمول لإطلاق القدرة لا لتقييدها، وأثر التّقديم في مراعاة الإيقاع الصّوتيّ

وأمّا توسيط معمول المسند ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ بين المسند إليه ﴿وَٱللَّهُ﴾ والمسند (قديرٌ) فقد أفاد أَمرين: أحدُهما: الاهتمام بالمعمول، والعناية به؛ لبيان قدرة اللّه المُطلقَة، ولاسيَّما أنَّها تَعَلَّقَت بكلمة (شيءٍ) الَّتي هي أعمُّ الألفاظ، إذ تجري على أيِّ معنى، ومِنَ اللَّطائف أَنَّ الأصل في المعمول أَن يُؤتَى به لتقييد الإطلاق، ولكنَّه جاء في قوله: (على كلِّ شيءٍ)؛ بيانًا لإطلاق قدرة اللّه وتقريرًا لها؛ لتأكيد المعنى وتثبيته.

والآخر: توافق الفواصل في الآيات، فلو قال: (واللّهُ قديرٌ على كلِّ شَيءٍ) لفاتَ الإيقاعُ الصّوتيُّ المنسَجِمُ مع فواصل الآي.

(1) الآلوسّي، روح المعاني: 3/304.

﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحۡزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِ مِنَ ٱلَّذِينَ
قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَلَمۡ تُؤۡمِن قُلُوبُهُمۡۛ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْۛ سَمَّٰعُونَ
لِلۡكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوۡمٍ ءَاخَرِينَ لَمۡ يَأۡتُوكَۖ يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ مِنۢ بَعۡدِ
مَوَاضِعِهِۦۖ يَقُولُونَ إِنۡ أُوتِيتُمۡ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمۡ تُؤۡتَوۡهُ فَٱحۡذَرُواْۚ
وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتۡنَتَهُۥ فَلَن تَمۡلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗاۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ
لَمۡ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمۡۚ لَهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ
عَذَابٌ عَظِيمٌ ٤١﴾ [المائدة: 41]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الـــرّبـــط بين الـــصّـــبر عـلى تطبيق الأحكام، والصّبر على أذى الحاقدين على الإسلام

لَمَّا بَيَّنَ الله تعالى بعض التَّكاليف والشَّرائع، ومنها أحكامُ المحاربين والسَّرقة، وكان قد علم أنَّ المؤمنين متّبعون هذه الأحكام، وكان قد علم من بعض النَّاس كَونَهم يسارعون في الكفر، لا يَرضَون أحكام الله، لا جرمَ صَبَّرَ رسولَه على تَحَمُّل ذلك، وأَمره بأَن لا يَحزَنَ لأجل ذلك، فإنَّ مَن يُرِدِ الله كفرَه وإضلالَه فلن تملك له مِنَ الله شيئًا[1]، وقال له: يا أيّها الرّسول لا تحزن من كيد المنافقين واليهود الّذين أنكروا نبوّتك، فذلك دأبهم وديدنهم. واعلم أنّي ناصرك عليهم لا محالة نصرًا مؤزّرًا، وتلك سنّتي في نصر عبادي المرسلين؛ وذلك لأنّهم محرّفون زائغون عنِ الهدى، وقد أضلّهم الله، فلم يعترفوا لله بإنعامه، ولا لرسله بالهدى الّذي جاؤوا به، وعليه فلن تقدر على هدايتهم؛ ذلك لأنّ الله لم يُرِدِ أن يطهِّر قلوبهم من دنس الكفر، فكتب عليهم الذُّلّ والهوان في الدّنيا، وأرصد لهم العذاب العظيم في الآخرة، وهم يستحقّون ذلك لا محالة، وما ربّك بظلّام للعبيد.

(1) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 11/358.

والمناسبة واضحة بين مشاقّ الالتزام بالأحكام، ومصاعب المواجهة مع جبهات الكفر، والنّفاق، والتّآمر على الدّين وأهله.

شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

1) ﴿يَحْزُنكَ﴾: تدلّ مادَّة الحُزنِ على خشونة الشَّيء وشدَّةٍ فيه. فمِن ذلك الحَزْنِ، وهو ما غَلُظَ مِنَ الأَرض، والحُزنُ هو خشونةٌ في النَّفس وشعورٌ بالألم لمَا يحصلُ فيها منَ الغمّ، ويضادّه الفرحُ، ولمّا كان الحُزن لا يحصلُ بالاختيار، فالنَّهيُ في الحقيقة إنَّما هو عن تعاطي ما يورثُ الحُزنَ واكتسابَه، والمعنى لا تهتمَّ بهم ولا تُبالِ بمسارعتهم في الكفر[1]، "قال سيبويه: أحزَنَه: جعله حزينًا، وحَزَنَه: جعل فيه حُزنًا، كأفتَنَه جعله فاتنًا، وفتنه جعل فيه فتنَة، وعام الحُزْنِ: العام الَّذي ماتَت فيه خديجة وأَبو طالب، فسمّاه رسول الله ﷺ عام الحُزن، حكى ذلك ثَعلَب عنِ ابن الأَعرابيّ، قال: وماتا قبل الهجرة بثلاث سنين[2].

2) ﴿يُسَٰرِعُونَ﴾: السُّرعة: ضدُّ البُطء، وكلُّ ما في القرآن ممّا جاء مِن مادّة هذه الكلمة هو مِنَ السُّرعة ضدّ البطء. ويُسارعُ مِنَ الرُّباعي (أَسرعَ)، بزيادة همزة التّعدية. وأَسرَعَ: طَلَبَ ذلك مِن نَفسه وتَكَلَّفه كأنّه أَسرَعَ المشي، أَي: عَجّله، وأَمّا سرُع فكأَنها غَريزةٌ. وصيغة يُسارعُ على وزن فاعل، على معنى المبالغة في السُّرعة[3]، والمقصود بهم في الآية، كما قال الزّجّاج: "أي: لا يحزنك مسارعتهم في نصرة الكفر، إذ كنت موعودًا النّصر عليهم[4]"، "وحقيقة المسارعة في ذلك أن يترقّى الإنسان فيما يتحرّاه منزلة فمنزلة، خيرًا كان أم شرًّا، فيتعوَّده فيتقوَّى به على المنزلة الثّانية؛ لأنّ الشّرّ حاصلٌ بعضه عن بعض، وحاملٌ بعضه بعضًا[5].

3) ﴿سَمَّٰعُونَ﴾: السَّمعُ قوّةٌ في الأُذُن به تُدرَكُ الأصوات. وسَمِعَ الصَّوتَ: أَدركَه بحاسَّة السَّمع، ويعبَّرُ بالسَّمع عن معانٍ متعلّقَةٍ به، مثل: الفهم والطَّاعة، كقولهم: اسمعْ ما أقولُ لك، ومثل: القَبول لمَا يُسمَعُ، كما يُقالُ: لا تَسمَعْ مِن فلانٍ قَولَه، أَي: لا تَقبَلْ قَولَه،

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (حزن).
(2) ابن سيده، المحكم: (حزن).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (سرع).
(4) الواحديّ، الوسيط: 2/186.
(5) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 3/997.

وقوله تعالى في الآية ﴿سَمَّٰعُونَ لِلۡكَذِبِ﴾، بمعنى: يسمعون منك؛ لأجل أن يكذبوا عليك، ويُحتمَلُ أَن يكون المرادُ ما يستلزِمُ السَّمع والإصغاء غالبًا، وهو القَبول، والمعنى: قابلونَ للكذب[1]، "والظَّاهر الأَكثر من كلام العرب أَن يكون السَّميع بمعنى السَّامع، مثل: عليم وعالم، وقدير وقادر. ورجلٌ سَمَّاعٌ إذا كان كثير الاستماع، لما يُقَال ويُنطَق به، قال الله جلّ وعزّ: ﴿سَمَّٰعُونَ لِلۡكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحۡتِۚ﴾ [المائدة: 42]. وفُسِّرَ قوله: ﴿سَمَّٰعُونَ لِلۡكَذِبِ﴾ على وجهين، أَحدهما: أَنّهم يسمعون لكي يكذبوا فيما سمعوا، ويجوز أَن يكون معناه: أَنّهم يسمعون الكذب ليشيعوه في النَّاس"[2]، "والسّمع قد يعبّر به تارة عنِ الأذن، نحو قوله تعالى: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ﴾ [البقرة: 7]، وتارة عن فعله كالسّماع، نحو: ﴿إِنَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّمۡعِ لَمَعۡزُولُونَ ٢١٢﴾ [الشّعراء: 212]، وتارة عنِ الفهم، نحو:

﴿سَمِعۡنَا وَعَصَيۡنَا﴾ [البقرة: 93]، وكلّ مَوضِع أثبت السّمع للمؤمنين، أو نفى عنِ الكافرين، أو حثّ على تحرّيه، فالقصد به إلى تصوّر المعنى، والتّفكّر فيه، نحو: ﴿وَفِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٗاۚ﴾ [الإسراء: 46][3].

4) ﴿بِأَفۡوَٰهِهِمۡ﴾: الأفواهُ جمع فم، وأصلُه فُوهٌ. ويُقالُ: رَجُلٌ مُفَوَّهٌ إذا أَجاد القول، وأَفوَهُ: إذا كان واسع الفم عظيمه، طويل الأَسنان، ورجلٌ مفوَّهٌ: شديد الكلام بسيط اللِّسان بليغًا منطيقًا[4]، قوله: ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَلَمۡ تُؤۡمِن قُلُوبُهُمۡۛ﴾، يعني: المنافقين؛ لأنّهم أظهروا الإيمان بالقول، وكتموا الكفر، وهذه صفة المنافقين"[5]، و"المراد بالمنافقين هاهنا الّذين قالوا آمنّا بأفواههم في العلانيّة دون السِّرّ، ولم تؤمن قلوبهم، فإنّهم أشدّ في الكفر منَ الجاهرين، وهم في الدّرك الأسفل منَ النّار"[6].

5) ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ﴾: حرفُ الشَّيء: طَرفُه وناحيتُه، كحرف الجبل والنّهر، وإذا مال إنسانٌ عن شيء، فمال إلى طرف الشَّيء وجانبه، يُقال: تحرّفَ وانحَرَفَ. ومنه تحريف

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (سمع).
(2) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: 2/75.
(3) الكفويّ، الكلّيّات: 1/496.
(4) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (فوه).
(5) الخازن، لباب التّأويل: 2/43.
(6) المظهريّ، التّفسير المظهريّ: 10/168.

الكلام بمعنى: العدول به عن جهته، وأصل وضعه، ويَصدُقُ بتغيير المعنى، كما يَصدُقُ بتغيير اللّفظ نفسه[1]، والكلم ها هنا جمع كلمة، وأصلُ الكلم بكسر اللّام، فسكّنه تخفيفًا؛ لإقامة وزن البيت، كما قالوا في مَلِك ملك، وفخذ وكَبِد. قال الله تعالى: ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ [النساء: 46] وقد رُوِيَ عن تميم بن حَذْلَم، أنَّه قرأ: (تُحَرِّفُونَ الكلامَ)، وقد قرأه علماء الأمصار: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُواْ كَلَٰمَ ٱللَّهِۚ﴾ [الفتح: 15]، و(كلم الله)، وممَّا قيل في هذا، وهو ممَّا يُستحسن لبعض المُحدَثين[2]:

قَالَت عَيِيتَ عَنِ الشَّكوَى فَقُلتُ لَهَا *** جَهدُ الشِّكَايَةِ أَن أَعَيا عَنِ الكَلِم[3].

"هذه صفة اليهود في معنى ما حرَّفوه منَ التّوراة، وفيما يحرِّفونه منَ الأقوال، عند كذبهم مِن بَعدِ مَواضِعِه، أي: من بعد أن وضع مَواضِعه"[4]، ويكون التّحريف تغييرًا للكتاب،" أي: يُميلونه ويُزيلونه عن مَواضِعه بعد أن وضعه الله تعالى فيها، إمّا لفظاً بإهماله، أو تغيير وضعه، وإمّا معنى بحمله على غير المراد، وإجرائه في غير مورده"[5].

تحريف الكلام، يعني: تغيير المعنى أو تغيير اللّفظ، وكلاهما باطلٌ وزور

6) ﴿أُوتِيتُمْ﴾: أصلُ الكلمةِ الثُّلاثيُّ هو (أَتَى)، و﴿أُوتِيتُمْ﴾ منَ الإيتاء، واشتهر الإيتاء في القرآن بمعنى الإعطاء، بل لم يأتِ إلّا بهذا المعنى، وأصله الإحضار، يُقالُ: آتى يُؤتي إيتاءً، ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [التّوبة: 11]، و﴿إِنْ أُوتِيتُمْ﴾ بمعنى: إن أُعطِيتُم، و﴿وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ﴾ بمعنى: إن لم تُعطَوه[6]، وحقيقته في الآية، ما روي عن عبد الله بن عمر، أنّه قال: لما حكَّموا النّبيّ ﷺ في اللَّذَين زنيا دعا رسول الله ﷺ بالتّوراة، وجلس حبر منهم يتلوها –

الإيتاء في القرآن لم يأتِ إلّا بمعنى الإعطاء

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (حرف).
(2) البيت من بحر البسيط، وهو للحِمَّانّي الكوفي، ينظر: ابن داود، كتاب الزهرة، ص: 13.
(3) النّهروانّي، الجليس الصّالح، ص: 671.
(4) الثّعالبيّ، الجواهر الحسان: 2/383.
(5) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/37.
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (أتى)، والزّمخشريّ، الكشّاف: 3/11، 4/198، ورضا، تفسير المنار: 6/322.

وقد وضع يده على آية الرّجم - فضرب عبد الله بن سلّام يد الحبر، ثمّ قال: هذه - يا نبيّ الله - آية الرّجم يأبى أن يتلوها عليك، فقال لهم النّبيّ ﷺ: يا معشر يهود، ما دعاكم إلى ترك حكم الله، وهو بأيديكم؟ فقالوا: أما إنّه قد كان فيما نعمل به، حتّى زنى منّا رجل بعد إحصانه من بيوت الملوك، وأهل الشّرف، فمنعه الملك منَ الرّجم، ثمّ زنى رجل بعده، فقالوا: لا والله لا نرجمه حتّى يرجم فلان، (فلمّا فعلوا ذلك اجتمعوا فأصلحوا أمرهم على التّحميم، وأماتوا ذكر الرّجم)، فقال النّبيّ: فأنا أوّل من أحيا أمر الله، ثمّ أمر بهما، ورُجما عند باب المسجد، قال ابن عمر: فكنت ممّن رجمهما[1].

7) ﴿فَخُذُوهُ﴾: الأَخذ: بمعنى حَوز الشَّيء وتحصيله، وهو خلاف العطاء، ولمّا كان تحصيلُ الشَّيء يقتضي تناولَه جاء بهذا المعنى، فيُقال: أَخذتُ الشَّيءَ آخُذُه أَخذًا: تَنَاوَلتُه[2]، والمعنى" يقولون: ائتُوا محمَّدًا ﷺ ، فإِن أَفتاكم بالتَّحميم والجَلدِ فخذوا به، وإِن أَفتاكم بالرَّجم فاحذروا"[3].

8) ﴿فِتْنَتَهُۥ﴾: يدلُّ معنى (فَتَنَ) على إذابة بالنَّار؛ لِتظهرَ جودته من رداءته، كإِذابة الذَّهب والفضَّة، ومِنَ الذّوبان والتّحَوّل المعنويين: الافتتانُ بالنِّساء والمال والأولاد برقّة القلب ونحوها حتَّى يُرتكبَ المحظور في سبيله، واستُعملَتِ الفتنةُ في تمحيص حقيقة ما في القلوب بتعريضها للشَّدائد، فتدلُّ على إيقاع الابتلاء أو التَّعريض له بالاختبار، وتأتي الفتنةُ بمعنى: مآل الاختبار والوقوع في المحظور، وهو الكفرُ أو الضَّلالُ[4]، كما في الآية إذ جاءتِ الفتنةُ

الفتنة هي الضّلالة عن سبيل الهُدى، واتّباع الشّيطان إلى أبعد مدى

(1) مكيّ بن أبي طالب، الهداية إلى بلوغ النّهاية: 3/1715.
(2) الرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (أخذ).
(3) ابن جرير، جامع البيان: 10/316، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 3/115.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (فتن).

بمعنى الضّلالة عن سبيل الهُدى[1]، و"معنى: ﴿وَمَن يُرِدِ ٱللَّـهُ فِتۡنَتَهُۥ﴾، قيل: فضيحته، وقيل أيضًا: كفره، ويجوز أن يكون اختباره بما يظهر به أمره، يُقال فتنتُ الحديد: إذا أَحميتُه، وفتنتُ الرّجل: إذا أزلته عمّا كان عليه، ومنه قوله: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَفۡتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ﴾ [الإسراء: 73]، أي: وإن كادوا ليزيلونك"[2].

9) ﴿خِزۡيٞ﴾: أصله خَزَوَ، يدلُّ معنى الكلمة على الإبعاد، وخَزَى الرَّجلُ خِزيًا: فهو خَزيَان، إذا وَقعَ في بليَّة وشرّ أو عمِلَ عملًا قبيحًا، بحيث لَزِمَه بحجَّة، ولا يكونُ إلّا فيما يقتضي فضيحةً، فذلَّ بذلك، وهان، واستَحيا مِن قُبح فعله، فتباعد ونأى، ومنه قولهم: أَخزاه اللّه، أَي: أَبعَدَه ومَقَتَه[3].والخِزيُ في الآية بمعنى الهوان والذِّلَّة[4]، قال ذو الإصبع العدوانيّ:

لَاهِ ابنِ عَمِّكَ لا أَفْضَلتَ في حَسَبٍ *** عنِّي، ولا أَنتَ دَيّاني فَتَخزُوني[5]

وقال حسّان بن ثابت يخاطب عُتيب بن مالك، وهو من شجّ وجه النّبيّ في غزوة أحد[6]:

فَأَخزَاكَ رَبِّي يا عُتَيبَ بنَ مَالِكٍ *** ولَقَّاكَ قَبلَ المَوتِ إِحدَى الصَّوَاعِقِ

مَـدَدتَ يَمِينًا لِلنّبيِّ تَعَمُّـدًا *** دمَّيْتَ فَاهُ، قُطِّعَت بِالبَوَارِقِ[7]

و"قيل: لهم في الدّنيا فضيحة؛ بما أظهر اللّه من كذبهم، وقيل: لهم في الدّنيا خزيٌ؛ بأخذ الجزية منهم، وضرب الذّلّة والمسكَنة عليهم"[8]، وقيل: "لهم في الدّنيا خزي، أي: للمنافقين واليهود؛ فخزي المنافقين الفضيحة، وهتك السّتر بإظهار نفاقهم، وخزي اليهود الجزية أو القتل، والسّبي والنّفي، ورؤيتهم من محمّد ﷺ وأصحابه، وفيهم ما يكرهون، ولهم في الآخرة عذاب عظيم؛ الخلود في النّار"[9].

(1) ابن جرير، جامع البيان: 10/317، والرّازيّ، مفاتيح الغيب: 11/360.
(2) الزّجّاج، معاني القرآن: 2/176.
(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (خزي).
(4) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 61.
(5) البيت من بحر البسيط، وهو لذي الإصبع العدواني، وهو في ديوانه.
(6) البيتان من بحر الطويل، وهما لحسان في ديوانه.
(7) الدّرّة، تفسير القرآن الكريم: 3/108.
(8) الزّجّاج، معاني القرآن: 2/177.
(9) البغويّ، معالم التّنزيل: 2/52.

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

تسلية الرّسول ﷺ وطمأنته، بأنّ حماية الله له وقاية من كيد اليهود والمنافقين

ومعنى الآية الإجماليّ: يا أيُّها الرَّسولُ لا يَحزنكَ الّذين يُسارعون في إظهار الكُفر منَ المنافقين الّذين أَظهروا الإيمان بألسنتهم، ولم تؤمن قلوبهم، ولا يحزنكَ تسرُّعُ اليهود إلى إنكار نبوَّتك، ولا تهتمَّ بهم، فإنَّهم قومٌ يستمعون لأجل الكذب، ويقبلون ما يَفتَريه أحبارُهم، ويستمعون إليك لأجل قوم آخرينَ، لا يحضرون مَجلِسَك، وهؤلاء الآخرون يُبَدِّلونَ كلام اللّه مِن بعد ما ثبتَ في مَواضِعه، ويقولون لأتباعهم: إن جاءكم مِن محمَّدٍ ﷺ ما يُوافِقُ الّذي بدَّلناه وحرَّفناه مِن أَحكام التَّوراة فاقبلوا حُكمَه، واعملوا به، وإن جاءكم منه ما يُخالفُه فاحذروا قَبولَه، والعملَ به، واتّباعَه، ومَن يُرِدِ اللّه فتنتَه، فيقعَ في الضَّلالة والبعد عن طريق الحقِّ، فلن تستطيع دفعَه عن ذلك؛ لأنَّك لا تَملكُ له مِنَ اللّه شيئًا في دفع الفتنة عنه، أولئك الصِّنفان مِنَ المنافقين واليهود لم يُرِدِ اللّه أن يُطَهِّرَ قلوبَهم مِنَ الكُفر والضَّلالة؛ لأنَّهم منهمكون فيهما، مصِرُّون عليهما، معرضون عن طريق الهداية والرَّشاد، لهم الذُّلُّ والفضيحةُ في الدُّنيا، ولهم في الآخرة عذابٌ عظيمٌ.

الإِيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالة النِّداء بقوله تعالى مخاطبًا النّبيّ ﷺ: ﴿۞يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ﴾:

لفت النّظر لمَا في الآية من أثر في أدب خطاب سيّد البشر

خاطب اللّه رسوله محمَّدًا ﷺ بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾ [نحو: الأنفال: 64] في مَواضِعَ كثيرة، وما خاطبه بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ﴾ إلَّا في مَوضِعين: أَحدُهما: ها هنا في هذه الآية، والآخر: قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ﴾ [المائدة: 67]، وخطابُ النِّداء للتَّشريف والتَّعظيم وتسليةً له ﷺ ، وتقويةً لنفسه بسبب ما كان يَلقَى مِن طوائف المنافقين وبني إسرائيلَ[1]، وفي النِّداء طلبُ إقبال المنادى إلى

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/190، والرّازيّ، مفاتيح الغيب: 11/358، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/115.

المنادي، ففيه معنى التّودّد والتّحبُّب، وفيه تأديب المؤمنين وتعليمهم أَن لا يُخاطبوا رسولَ الله باسمه، وأَن يُخاطبوه ﷺ بوصفه، ولمَّا كان وصف الرِّسالة يتعلّق بتبليغ أحكام الله تعالى، والحكم بها ناسبَ أَن يُخاطِبَ اللهُ رسولَه ﷺ بوصف الرِّسالة هنا؛ لمناسبة سياق الآيات في تبليغ آيات الله وأَحكامه، والعمل بها، وللإشعار بأَنَّ مُقتضَى كونه رسولًا أن لا يَحزنَ على مسارعتهم في الكفر.

(أل) في لفظ ﴿ٱلرَّسُولُ﴾؛ لاستغراق الأوصاف في قوله تعالى:

دلالة كمال اتِّصاف الرّسول ﷺ بوصف الرِّسالة

عدلَ عنِ المخاطبة بالإضافة بأن يقول (يا رسولَ اللهِ) إلى المخاطبة بالوصف المعرَّف بـ(أل)؛ لِمَا تدلُّ عليه (أل) من معنى استغراق خصائص الوصف بالرّسالة[1]؛ للإشعار بكمال اتِّصاف رسول الله محمَّدٍ ﷺ بوصف الرِّسالة، والمعنى: يا أَيُّها الرَّسولُ الكاملُ في وصف الرِّسالة، فيكونُ الوصفُ في مقام التَّعليل لمَا يأتي بعده، ويُحتملُ أَن تكونَ (أل) للعهد العلميِّ، أي: يا أَيُّها الرَّسولُ المعهودُ بين المخاطبين، وهو سيّدُنا محمَّدٌ ﷺ.

دلالة النَّهي في قوله ﴿لَا يَحۡزُنكَ﴾ من قوله: ﴿لَا يَحۡزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِ﴾:

النَّهي عنِ الحُزن نهيٌ عن أسباب ودواعيه، ومواجهة الواقع بصبر وأناة

أي: لا تحزَن ولا تُبالِ بتهافتهم في الكفر بسرعة، ولا تهتمَّ لهم، فأفادَ النَّهيُ عنِ الحُزنِ النَّهيَ عن أسبابه ومباديه كذلك[2]، ورغم أنّ الحزن أمرٌ طبيعيّ، وليس للإنسان فيه اختيار، فإنّ النّهي إنّما هو عن لوازمه الّتي يفعلها النّاس مختارين مِن تذكّر المصائب، وتعظيم شأنها، وبذا يتجدّد الألم، ويبعد أمد السّلوى، ويسيطر الحزن على النّفس فتنقبض، وعلى الأمل فيتلاشى، وعلى الحركة في الحياة فتضطرب وتختلّ[3]، "قال القَفَّال: ولا يبعد حمل الآية على جميع

(1) ابن هشام، مغني اللّبيب: 1/73.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/36.
(3) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 7/280.

أصناف الكفّار؛ لقوله تعالى: ﴿۞يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحۡزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَلَمۡ تُؤۡمِن قُلُوبُهُمۡۛ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْۛ﴾.. فإن قيل: الحُزن على كفر الكافر، ومعصيّة العاصي طاعة، فكيف نهاه الله عنِ الطّاعة؟ فالجوابُ من وجهين: الأوّل: أنّه كان يفرط في الحُزن على كفر قومه، حتَّى كاد يؤدّي ذلك إلى لحوق الضّرر به، فنهاه الله تعالى عنِ الإسراف فيه، كما قال: ﴿فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ عَلَيۡهِمۡ حَسَرَٰتٍۚ﴾ [فاطر: 8].الثّاني: أنّ المعنى لا يُحزنوك بخوف أن يضرّوك، ويعينوا عليك؛ ألَا ترى إلى قوله: ﴿لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗاۚ﴾ [آل عمران: 176]، يعني: أنهّم لا يضرّون – بمسارعتهم في الكفر – غير أنفسهم، ولا يعود وبال ذلك على غيرهم ألبتّة"[1].

فوائد دلاليّة في صيغة ﴿يُسَٰرِعُونَ﴾ من قوله تعالى: ﴿لَا يَحۡزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِ﴾:

مَن سارع في الكفر ختم الله على قلبه، فخسر الدّنيا والآخرة

أفادَت كلمة ﴿يُسَٰرِعُونَ﴾ أربعةَ معانٍ مجتمعةً: أوّلها: أنّ مسارعتَهم دلّت على شدَّة رغبتهم في الكفر، وعجلتهم فيه، فكأنَّهم طلبوا ذلك مِن أنفسهم وتَكَلَّفوه؛ ليفوزوا بالكفر، فكأنَّه غنيمةٌ لهم. وثانيها: أنّها أفادَت صيغةُ (فاعَلَ) معنى المبالغة في المسارعة في الكُفر، فليستِ الصِّيغة على معنى المغالبة ولا المشاركة[2]، وتقدّمَ هذا في شرح المفردات كذلك. وثالثها: أنّه كما دلّت صيغة المضارعة على تجدُّد حالهم في التَّسارع في الكفر، فبعدَ أَن تأصّلَ الكفر فيهم يسارعون في إظهار آثاره عند أدنى مناسبةٍ، وفي كلِّ فرصة[3]، فيحدث منهم في كلِّ وقت أشياءَ تزيد في دخولهم في الكفر. ورابعها: أنّه قد جاءتِ الصِّيغة متّصلةً بضمير الجمع (الواو)؛ لإفادة أنَّهم

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/36.
(2) القُونَوِيّ، حاشيةٌ على البيضاويّ: 7/462.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 6/198.

متّفقون على هذا الأمر، مجتمعون عليه، وأثر الاجتماع في الباطل في الحزن، أو في ظهور أسبابه، أكثرُ مِن أَثر عدم الاجتماع عليه. فجاء النّهيُ تسليةً للرّسول ﷺ، وتشريفًا لقدره كي لا يَحزنَ على ما يفعله المنافقون واليهود مِنَ المبالغة في مسارعتهم في الكفر بعد تأصُّل الكفر فيهم، وتجدُّد حال هذه المسارعة واجتماعهم عليها، حتّى صار كالغنيمة لهم رغبةً منهم فيه.

بلاغة الاستعارة في قوله تعالى: ﴿يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِ﴾:

شبَّه تخبُّطَ المنافقين واليهود في الكفر وشدَّة مُلابَسَتهم له، وجَوَلانِهم فيه بنشاط وقوَّة مع حرصهم عليه بإسراع الماشي في الشَّيء، وعُدّي بـ(في) الدَّالَّة على الظَّرفيَّة؛ للدَّلالة على أَنَّ الإِسراعَ مجازٌ بمعنى التَّوغُّل، فيكونُ الحرفُ (في) قرينةَ المجاز، كقولهم: أَسرَعَ الفسادُ في الشَّيء، وأَسرَعَ الشَّيبُ في رأس فلان، فجعل الكُفرَ بمنزلة الظَّرف، وجعل تَخَبُّطَهم فيه وشدَّةَ ملابستهم إِيَّاه بمنزلة جَوَلان الشَّيء في الظَّرف جَوَلانًا بنشاطٍ وسُرعةٍ، فهم قد ألقَوا أنفسَهم في الكفر، ويسارعون فيه متى وجدوا لذلك فرصةً[1]، ويُشعِرُ هذا بسَعَة الكفر لقدرتهم على التَّسارع فيه، فأبوابُه كثيرةٌ وسبلُه متنوِّعَةٌ، ونظيرُ هذه الاستعارة قوله تعالى: ﴿يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡإِثۡمِ﴾ [المائدة: 62]، وقوله: ﴿نُسَارِعُ لَهُمۡ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ﴾ [المؤمنون: 56]، وقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ﴾ [المؤمنون: 61].

أبـــوابُ الـكـفـرِ كـثـيرةٌ، وسبلُهُ متـنـوِّعـةٌ، ومن سـلـكـهـا هـلـك وتـــــردّى في الهاويّة

بلاغة القرآن أعلى وأعمق من أقوال البلغاء، وإبداعات الفصحاء:

قوله: ﴿يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِ﴾ أبلغُ مِن قول بعض البلغاء (أَسرَعَ فيه الشَّيبُ، وأَسرَعَ فيه الفَسادُ)، فإنّه في الآية جعلَهم هُمُ الّذين يطلبون الكفر، ويسارعون فيه، والكُفرُ الّذي هو أمرٌ معنويٌّ صارَ

كـلام الـلـه لـه طـــلاوة تـــزري بكلام من سواه، مـهـمـا كـان مستواه

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/443، والرّازيّ، مفاتيح الغيب: 9/436، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 6/198.

محسوسًا؛ لأنَّه جعلَه مظروفًا لهم كالوعاء، وفي الكلام المنقول عن بعض البلغاء: الشَّيبُ أو الفسادُ؛ هو الّذي يَطلُبُه ويُسرِعُ فيه، والذَّاتُ هي المظروفُ للشَّيب والفساد، والفرقُ بينهما واضحٌ دلالةً وبلاغةً.

دلالة الاستعارة على التَّهَكُّم في قوله تعالى: ﴿يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِ﴾:

الكفّارُ يسارعون فيما لا ينبغي المسارعة فيه؛ لقلّة عقولهم، وسفاهة رأيهم

لمّا كانتِ المسارعة إلى الشَّيء تقتضي الحِرصَ على تحصيله والفوز به، فكأنَّهم يسارعون للفوز بغنيمة الكفر، أفادتِ الاستعارةُ التَّهَكُّمَ بهم، والاستهزاءَ بمسارعتهم، وقرينةُ التَّهَكُّم قوله (في الكُفرِ)، ففي الكلام إشعارٌ بأنَّهم يسارعون في ضدِّ ما ينبغي المسارعةُ فيه، كأن يسارعوا في الخيرات، والتّهكّم أيضًا بجهودهم الضّائعة في مدارج الكفر المهلكة، ومسالك الباطل المفسدة، ظانّين أنّ ذلك سوف يضرّ اللّه في علاه، ناسين أنّهم "﴿لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗاۚ﴾ [آل عمران: 176]، أي: لا ينقصوا من ملك اللّه شيئًا، وسلطانه شيئًا بكفرهم، وهذا كما روى أبو ذرّ الغفاريّ عن رسول اللّه ﷺ أنّه قال: (قَالَ اللّه: لو أنّ أوّلكم وآخركم، وجنّكم وإنسكم، كانوا على أتقَى قَلبِ رَجُلٍ منكم، ما زَادَ ذلك في مُلكِ اللّه شيئًا، ولو كان أوَّلُكُم وآخِرُكُم، وجِنُّكُم وإنسُكُم، كانُوا على أفجَرِ قَلبِ رَجُلٍ منكم، ما نَقَصَ مِن مُلكِ اللّه جَناحَ بَعوضَةٍ)"[1].

سبب إيثار لفظ ﴿فِي﴾ على لفظ (إلى) في قوله تعالى: ﴿يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِ﴾:

الكفّار يسارعون في إظهار أنواع الكفر؛ معاندةً وسفهًا

وإيثار كلمة ﴿فِي﴾ على كلمة ﴿إِلَىٰ﴾ الواقعة في قوله تعالى: ﴿۞وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ [آل عمران: 133]؛ للإيماء إلى أنَّهم مُستقرُّون في الكفر لا يَبرَحونَه بسبب دلالة (في) الظَّرفيَّة، إذ صار الكفر كالوعاء مظروفًا لهم، وإنَّما ينتقلون بالمسارعة عن بعضِ فنونه وأحكامه إلى بعضٍ آخرَ منها، كإظهار موالاة المشركين،

(1) السّمرقنديّ، بحر العلوم: 1/267، والحديث أخرجه مسلم بلفظ آخر، الحديث رقم: (2577).

وإبراز آثار الكيد للإسلام ونحو ذلك[1]، والإسراع إلى الشَّيء يدلُّ على أنَّهُ خارجٌ عنه، وغايتُه الوصولُ إليه، فهو انتقالٌ إلى شيءٍ لم يكن فيه ساعةَ بدء السُّرعة، والإسراعُ في الشَّيء يدلُّ على أنَّه داخلٌ فيه، ويسارع فيه، فهو انتقالٌ إلى عُمق الشَّيء الّذي كان فيه قبل أَن يبدأَ المسارعة[2].

دلالة حرف الجرّ ﴿مِنَ﴾، وحرف الجرّ (الباء) في قوله: ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفۡوَٰهِهِمۡ﴾:

﴿مِنَ﴾ هنا بيانيَّةٌ لقوله تعالى: ﴿يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِ﴾؛ فهي بيانٌ للإجمال في الاسم الموصول مع صلته، فكأنَّ المُخاطَبين يحتاجون إلى بيانٍ وتفصيلٍ لمعرفة المسارعين في الكفر، فهم زادوا على الكفر بمسارعتهم فيه، فذكرَ الطَّائفتين منَ المنافقينَ واليهودِ وصفاتِ كلِّ طائفةٍ[3]، و(الباء) في قوله:

﴿بِأَفۡوَٰهِهِمۡ﴾، "متعلّقة بـ﴿قَالُوٓاْ﴾ لا بـ﴿ءَامَنَّا﴾، وإلّا لوجب أن يُقال (بأفواهنا)؛ لأنّ ﴿ءَامَنَّا﴾ منصوب بـ﴿قَالُوٓاْ﴾، ومحكيٌّ عنهم، والحكاية يجب أن تطابق المحكيّ، وإنّما قال: ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفۡوَٰهِهِمۡ﴾، مع أنّ القول لا يكون إلّا بالفم واللّسان؛ للإشارة إلى أنّ ألسنتهم ليست معبّرة عمّا في قلوبهم، وأنّ ما يجري على ألسنتهم لا يجاوز أفواههم، وإنّما نطقوا به غير معتقدين بقلوبهم"[4].

لامعنى للنّطق بالإيمان بالأفواه، مالم تخالط بشاشته القلوب

نكتة التَّعبير بالاسم الموصول في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِ﴾:

عبَّرَ بالاسم الموصول لِنُكتتين: إحداهما: لِيَعُمَّ كلَّ ما يفعلونه مِن كيدٍ وكفرٍ وغيره مِن قُبح أَفعالِهم[5]، فلم يَقُل: (لا يَحزنكَ كفرُهُم)؛

النَّهي عنِ التّأثُّر بمسارعة الكافرين في الكفر، وعنِ المُبالاة بهم

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/36، والهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 7/297.
(2) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 5/3137.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/36.
(4) زاده، حاشيّة زاده على البيضاويّ: 3/524.
(5) القُونَوِيّ، حاشية القونوي على البيضاويّ: 7/462.

للإشعار بذواتهم المتَّصفة بأفعالهم القبيحة، ومِن أظهرها مسارعتُهم في الكفر، فالصِّلة لا تُفيدُ التَّخصيص. والثَّانية: للإيماء إلى ما في حَيِّز صلته مِن أنَّ سببَ حزنه ﷺ، هو مسارعتُهُم في الكفر، وهذا وإن كان بحسب الظَّاهر نهيًا للكفرة عن أن يُحزِنوا رسول الله، بمسارعتهم في الكفر، لكنَّه في الحقيقة نهيٌ له ﷺ عن مآلِ الحُزن، فإنّه لمَّا توجَّه النّهي إلى الحُزنِ أَفاد عدم التّأثر مِن مسارعتهم في الكفر والمبالاة بهم على أبلغ وجهٍ وآكدِهِ، فإنَّ النَّهي عن أسباب الشَّيء ومباديه المؤدِّيَة إليه نهيٌ عنه بالطَّريق البرهانيِّ، وقلعٌ له مِن أَصله[1].

دلالة التَّقديم؛ للاهتمام في قوله تعالى: ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَلَمۡ تُؤۡمِن قُلُوبُهُمۡۛ﴾:

وقوله تعالى: ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَلَمۡ تُؤۡمِن قُلُوبُهُمۡۛ﴾ فيه تقديمٌ وتأخيرٌ، والتَّقديرُ: مِنَ الَّذين قالوا بأَفوَاهِهِم آمنَّا[2]، فقدّمَ معمول ﴿بِأَفۡوَٰهِهِمۡ﴾، وهو قوله: ﴿ءَامَنَّا﴾؛ لبيان اهتمام المنافقين به، وحرصهم على إظهار إيمانهم بالقول لإقناع المؤمنين، وقوله: ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفۡوَٰهِهِمۡ﴾، ولم يقل: (آمنوا بأفواههم)؛ ليعلم أنّ القول به ليس هو من شرط الإيمان؛ إنّما الإيمان هو تصديق القلب، لكن يعبّر به اللّسان عن قلبه؛ ألا ترى أنّه قال: ﴿وَلَمۡ تُؤۡمِن قُلُوبُهُمۡۛ﴾، والإيمان: هو التّصديق في اللّغة؛ لأنّ ضدّه التّكذيب؛ فيجب أن يكون ضدّ التّكذيب التّصديق، والتّصديق يكون بالقلب؛ حيث قال ﷻ: ﴿وَلَمۡ تُؤۡمِن قُلُوبُهُمۡۛ﴾، لكنّ اللّسان يعبّر عن ضميره، فهو ترجمان القلب فيما بين الخلق؛ فهذا يدلّ أيضًا على أنّ الإيمان ليس هو المعرفة؛ لأنّ الإيمان لو كان معرفة لكان يجب أن يكون ضدّه جهلًا؛ فلمّا كان ضدّ الإيمان تكذيبًا، وجب أن يكون ضدّ التّكذيب التّصديق، والتّصديق والإيمان في اللّغة سواء؛ ولأنّ المعرفة قد تقع في القلب على غير اكتساب فعل، وإنَّما التّصديق لا يكون إلّا باكتساب ترك مضادّته، وهو التّكذيب؛ لذلك قلنا: إنّ الإيمان ليس هو المعرفة، ولكنّه تصديق[3].

سرُّ التَّعبير بلفظ ﴿بِأَفۡوَٰهِهِمۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفۡوَٰهِهِمۡ﴾:

كلُّ قول إنَّما هو بالفم، فيكون ذكر الأفواه لنكات؛ هي: أوّلًا: لإفادة أنَّ قولَهم ليس

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/36.
(2) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 11/358.
(3) الماتريديّ، تأويلات أهل السنة: 3/520.

فيه بيانٌ ولا بُرهانٌ، إنَّما هو قولٌ بالفم ولا معنى صحيحًا تحته[1].

وثانيًا: لمَّا كانتِ كلمةُ (فَوَهَ) تدلُّ على سَعَة الفم أَشعرَ التَّعبيرُ بأَنَّ قولهم يملأُ أفواهَهم، فكأَنَّهم يملؤون أفواهَهم بالكلمات بتكثيرها وتفخيمها وتضخيمها؛ للتَّعالي بقولهم ﴿ءَامَنَّا﴾، والثَّرثرة به، ولم يَرِد في القرآن الكريم القولُ منسوبًا إلى الأفواه إلَّا في مَوضِع الذَّمِّ؛ إشارةً إلى كذبه، وتنبيهًا إلى أنَّ الاعتقاد لا يُطابِقُه[2]. وثالثًا: يُشعِرُ ذكرُ ﴿بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾ بأَنَّ اللّٰه تعالى كذَّبهم مرَّتين: مرَّةً في قوله: (يَقولون آمنَّا بأَفواهِهم)، فذِكرُ الأفواه عند تعلُّقها بالقول مُؤذِنٌ بالكذب، وأخرى في قوله: ﴿وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ﴾. ورابعًا: يحتملُ أَن يكون ذِكرُ الأفواه لقصد التَّأكيد، أَي: لبيان أنَّ المنافقين كانوا يؤكِّدون قولهم ﴿ءَامَنَّا﴾ بتفخيم كلامهم وتضخيمه؛ لِيصدَّقَهم المؤمنونَ، ومثله مِن باب التَّأكيد في أَحد الوجهين قوله تعالى ﴿يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ﴾ [البقرة: 79]، وقولُ النَّاس: (كَتبتُ بيدي ومَشَيتُ برجلي).

ذكـــر الـقـــول مـنـســوبًـا إلى الأفــواه مُــؤذِنٌ بكذبه وبطلانه

دلالة جملة الحال في قوله تعالى: ﴿وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ﴾:

ورد قوله تعالى: ﴿وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ﴾ جملة حاليّة مِن ضمير ﴿قَالُوٓاْ﴾[3]، ولمَّا كان الحالُ على معنى اقترانه في الزَّمن بصاحبه أَفادَ نفيَ الإيمان في قلوبهم في حال قولهم: ﴿ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾؛ ليدلَّ على ظهور نفاقهم، وأنَّهم يكذبون في قولهم، وجاءتِ الجملةُ منفيّةً بـ(لم) لنفي الإيمان في قلوبهم، منذ الزَّمن الماضي؛ لِيناسِبَ مانسبوه لأَنفسهم مِنَ الإيمان، بصيغة الفعل الماضي في قولهم: ﴿ءَامَنَّا﴾، وأفادَت جملة الحال أنَّ مدارَ الأمر في الإيمان والكفر، والصَّلاح والفساد على القلب.

المدار في الإيمان، والـــصّـــلاح، والـــكـــفـــر، والـفـســاد على القلب

(1) ابن منظور، لسان العرب: (فوه).
(2) الرّاغب، المفردات: (فوه).
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/36.

بلاغة الطِّباق في قوله: ﴿ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ﴾:

الإيمان باللّسان لا ينفع، ما لم يؤمن القلب

جاء طباق السَّلب في قوله: ﴿ءَامَنَّا﴾ و﴿وَلَمْ تُؤْمِن﴾؛ فأثبتَ الإيمانَ للمنافقين قولًا بأفواههم، ونفاه عن قلوبهم؛ لتناسب المعنى، إذ نفى اللّهُ ما نسبوه لأنفسهم مرّتين، كما تقدّم؛ لِيظهرَ تكذيبُ اللّه قولَهم ويتقرَّرَ.

نكتة التَّعبير بالاسم الموصول في قوله تعالى: ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾:

إبراز المعنى المراد بجملة الصلة، والتنبيه على حصرهم وعِلْم أحوالهم

في قوله تعالى ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ﴾، وقوله﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ﴾، فلمّا كانت ﴿مِنَ﴾ بيانيَّةً للاسم الموصول في قوله ﴿ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ﴾ كان ما ذُكِرَ بعدها مِنَ الاسمين الموصولين مع صلتهما تفصيلًا لمَا هو في مقام الإجمال قبلها، وتقسيمًا للصّنفين، فاقتضى التَّعبيرُ بالاسم الموصول في المَوضِعَين المذكورين؛ لمناسبة التَّفصيل للإجمال، وللإشعار بأَنَّ بيان أوصافهم بجملةٍ معلومة الانتساب عند المُخاطَب يُومئُ إلى سبب مسارعتهم في الكفر.

والتَّعبير بصلة الموصول بصيغة الفعل؛ تصويرٌ لحالة الفريقين، وهم يسارعون في الكفر، فيكونُ أَدعى لإقرار المُخاطَب وإذعانه.

دلالة صيغة ﴿سَمَّٰعُونَ﴾ من قوله تعالى: ﴿سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ﴾:

التَّسمُّعُ ديدن المنافقين واليهود السّخيف؛ بغاية الكذب، والمراوغة، والتّزييف

أفادَت صيغة المبالغة كثرة سماعهم؛ لأنَّها على صيغة (فعَّال)، وكأنَّ صناعتهم ووظيفتهم هي التَّسمُّعُ لأجل الكذب، ولأَجل قوم آخرين[1]، والمعنى: (ومن اليهود قوم سمّاعون لكذب أحبارهم)، فحذفَ الموصوف (قوم)، وحلّتِ الصّفة سمّاعون محلّه، و﴿سَمَّٰعُونَ﴾

(1) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 5/3138.

جمع سمّاع، وهو من صيغ المبالغة فعّال بمعنى فاعل[1]، وبعد حذف المضاف إليه (أحبارهم) عوّض المضاف (الكذب) عن حذف المضاف إليه بالألف واللّام[2].

دلالة حذف المسند إليه والمفعول به في قوله تعالى: ﴿سَمَّٰعُونَ لِلۡكَذِبِ﴾:

القصد مِن ذكر الفعل إثباته للفاعل، لا الإعلام بالتباسه بمفعوله

ورد الحذفُ في هذه الجملة في مَوضِعَين: أوّلهما: حذفُ المسند إليه، والتَّقدير: (هُم سَمَّاعونَ)[3]، فَحذفَ بعد أن قدّمَ ذكر بعض أمر المسارعين في الكفر؛ ليكون حذفُ المبتدأ هنا أولى وآنسَ في السّياق منَ النُّطق به، ولو رُدَّ وخرج إلى اللّفظ لخرج النَّظم عن سياق البلاغة، كما أنَّ في الحذف تعويلًا على شهادة العقل في تعيين المُراد. وشهادةُ العقل هنا أَقوى مِن شهادة اللّفظِ؛ لاقتضائها القطعَ في نسبة الوصف ﴿سَمَّٰعُونَ﴾ إليهم. وأفاد الحذفُ كذلك الاختصارَ في الكلام، ولأنَّ النَّظرَ متوجِّهٌ إلى المسند الّذي يجري "مَجرَى التَّعليل للنَّهي عنِ الحُزن؛ فإنَّ كونَهم سمَّاعين للكذب على الوجوه المذكورة، وابتناء أمورهم على ما لا أَصلَ له مِنَ الأَباطيل والأَراجيف، ممَّا يقتضي عدم المبالاة بهم، وترك الاعتداد بما يأتون"[4]، والآخر: حذف مفعول ﴿سَمَّٰعُونَ﴾: ورد حذف مفعول اسم الفاعل ﴿سَمَّٰعُونَ﴾ في المَوضِعين مِنَ الآية؛ وذلك لإثبات فعل السَّماع لهم، وكأنَّهم ليس لهم وصفٌ سوى كثرة السَّماع، فالسّماع

(1) هناك صيغ مبالغة لاسم الفاعل في اللّغة العربيّة تدلّ على المبالغة في المعنى، وقد ورد في هذه الآية صيغة من هذه الصّيغ: (سَمَّاعُونَ) و(أَكَّالُونَ).. ولعلّه من المفيد التّذكير هنا بصيغ مبالغة اسم الفاعل، فهي:

1 - فعّال: مثل سمّاع - كذّاب.

2 - فعول: مثل أكول وشروب.

3 - فعيل: مثل سميع وعليم وبصير.

4 - فَعِل: مثل شَرِه - نَهِم.

5 - مِفعال: مثل مِطعان.

وهذه الصّيغ تدلّ على المبالغة والكثرة لمن قام بالفعل، فأكولٌ كثير الأكل، ومِطعانٌ كثير الطّعن. ينظر: صافي، الجدول: 6/357.

(2) الشّيخلّي، بلاغة القرآن الكريم في الإعجاز: 3/82.

(3) ابن جرير، جامع البيان: 10/309، والزّجّاج، معاني القرآن: 2/174.

(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/37.

صنعتُهُم ووظيفتُهم كما تقدَّمَ، فهم سمَّاعونَ كلامَ رسول الله ﷺ، وكلامَ غيره، وسمّاعونَ أيَّ كلامٍ كان، صِدقًا أم كذبًا؛ لأجل الكذب، وسمَّاعونَ لأَجل قوم آخرين، لا يحضرون مَجلِسَ رسول الله ﷺ، فهم ينوبون عنهم كي لا يفوتُهُمُ السّماعُ، ولو جاء الفعل متعدّيًا فات هذا المعنى، ولَتَقَيَّدَ بالمفعول، فالقصدُ مِن ذكر الفعل إثباتُه للفاعل لا الإعلامُ بالتباسه بمفعوله[1].

تنوُّع الخبر لتكثير المعنى في قوله تعالى: ﴿سَمَّٰعُونَ لِلۡكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوۡمٍ ءَاخَرِينَ﴾:

فقد ذكرَ خبرَين للمسند إليه المحذوف، فجاء الخبرُ الأوَّلُ ﴿سَمَّٰعُونَ لِلۡكَذِبِ﴾، ثمَّ أخبرَ عنهم بقوله: ﴿سَمَّٰعُونَ لِقَوۡمٍ ءَاخَرِينَ﴾، ولهذا عدَّ علماءُ الوقف والابتداء "الوقفَ على ﴿لِلۡكَذِبِ﴾ غيرَ تامٍّ؛ لأنَّ قوله: ﴿سَمَّٰعُونَ لِقَوۡمٍ ءَاخَرِينَ﴾ تابعٌ للأوَّل"[2]، ولمّا اختلفَ نوعُ السَّماع تنوَّعتِ الفائدة، فانكشفوا أمام المؤمنين أكثرَ، فهم سَمَّاعونَ لأجل أن يكذبوا، وممَّا يسمعونه كلامُ رسول الله فيسمعونه ليكذبوا؛ لأنَّ مبادئَ كذبهم لمَّا كانَت مبنيَّةً على كلامٍ صادقٍ كانَت أَحرى بأَن يُصدِّقَهم الأتباعُ، وهذا هو الكذبُ المُزَيَّنُ الّذي يَقرُبُ قَبولُه، وأمَّا الكذبُ الّذي لا يُرفَدُ بمَبدأ فقليلُ الأثر في النَّفس، وهم سمَّاعون بدلًا عن قوم آخرين لم يأتوا رسول الله ولم يحضروا مَجلسَه؛ لشدَّة عداوتهم وبغضهم لرسول الله؛ لينقلوا كلام رسول الله ﷺ إليهم، فهم عيونٌ وجواسيسُ يَسمَعون، ويَنقلون لقومٍ آخرين، فاللَّام في المَوضِعين للتَّعليل[3]، وأشعر قوله: ﴿سَمَّٰعُونَ لِقَوۡمٍ ءَاخَرِينَ﴾ بالإشارة إلى الجاسوس[4].

غرض التّسمّع لأجل الكذب والتَّجسُّس، واللّام في الجملتين للتَّعليل

(1) الجرجانّي، دلائل الإعجاز، ص: 161.
(2) الأنباريّ، إيضاح الوقف والابتداء: 2/620.
(3) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 4/352، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/192، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/37.
(4) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 6/181.

نكتة التَّعبير بقوله: ﴿لِقَوۡمٍ ءَاخَرِينَ لَمۡ يَأۡتُوكَۖ يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ﴾:

إبـــراز الـسّـيـاق لإفراط اليهود في العُتُوّ والمُكابرة

وصفَ هؤلاء السَّماعِينَ بوصفَين في قوله: ﴿ءَاخَرِينَ لَمۡ يَأۡتُوكَۖ﴾؛ بيانًا لأحوال المسارعين في الكفر وأصنافهم، وتنبيهًا على استقلال هذه الطَّائفة عنِ السّماعين للكذب، وأصالتهم في الرَّأي والتَّدبير، فهم قومٌ آخرونَ، ثمَّ وصفهم بعدم حضورهم مجلسَ الرَّسول ﷺ؛ إيذانًا بكمال طغيانهم في الضَّلال، ولمَّا كانَت جملة (يُحَرِّفُونَ الكَلِمَ مِن بَعدِ مَوَاضِعِهِ) حالًا، وصاحبُ الحال (الواو) في قوله: ﴿لَمۡ يَأۡتُوكَۖ﴾، فكأنَّه قال: (لَم يأتُوكَ في حالِ تحريفِهِم)[1]؛ ليشعرَ الحالُ بمعنى التَّعليل؛ لبيان سبب عدم إتيانهم مجلس الرّسول الأكرم ﷺ، فهم مشغولون بالتَّحريف مستمرُّون عليه؛ إشعارًا بإفراطهم في العُتُوِّ والمُكابرة والاجتراء على الافتراء على اللّه تعالى[2].

دلالة صيغة المضارع ﴿يُحَرِّفُونَ﴾ في قوله تعالى: ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ مِنۢ بَعۡدِ مَوَاضِعِهِۦۖ﴾:

التَّأويل الفاسد للنّصوص مِن أنـــواع تحريف الـكـتـاب على الخصوص

أفادت صيغة الفعل المضارع تجدُّدَ حدوث التَّحريف، وأنَّ اليهودَ مستمرُّون على هذا الفعل، باللّفظ أو بالمعنى، والمرادُ يُحرِّفونَ حُكمَ الكَلِمِ مِن بعد وضع اللّه ذلك مَواضِعه[3]، إمَّا تحريفًا لفظيًّا بأن يُزيلوه عَن مَواضِعه الَّتي وضعه اللّه فيها، بإبدال كلمةٍ بكلمةٍ، أَو بإخفائه وكتمانه، أَوِ الزِّيادة فيه والنَّقص منه، وإمَّا تحريفًا معنويًّا، بأن يتأوَّلوه على غير تأويله، بحَمل اللَّفظ على غير ما وُضِعَ له، ومنه التّأويل الفاسد المقصود[4].

وفي الكشّاف: ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ﴾ يميلونه، ويزيلونه عن مَواضِعه

(1) الأنباريّ، إيضاح الوقف والابتداء: 2/620.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/37.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 10/313.
(4) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 6/181، والشّوكانّي، فتح القدير: 2/48، ورضا، تفسير المنار: 6/322.

الّتي وضعه اللّه فيها، فيهملونه بغير مَواضِع، بعد أن كان ذا مَواضِع.. وأمّا من بعد مَواضِعه ومقارّه، يعني: أنّه تنبيه على الفرق بين ﴿عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ [النساء: 46]، و﴿مِنۢ بَعۡدِ مَوَاضِعِهِۦۖ﴾ [المائدة: 41]، فإنّ معنى الأوّل مجرّد الإمالة، والآخر الإزالة عن مَواضِعه[1].

لفظ ﴿سَمَّٰعُونَ﴾ بين التّضمين وعدمه في قوله: ﴿سَمَّٰعُونَ لِلۡكَذِبِ﴾:

التّضمين تكثيرٌ للمعنى، وتوسعة للدّلالة

يحتمل لفظ ﴿سَمَّٰعُونَ﴾ أن يكون على تضمين فعل القبول، ومنه قولهم: (لا تَسمعْ مِن فلانٍ)، أي: لا تقبلْ، ومنه (سَمِعَ اللّهُ لِمَن حَمِدَه)، أي: تقبَّلَ منه حَمدَه، فيكونُ ﴿لِلۡكَذِبِ﴾ بمعنى المفعول لقوله: ﴿سَمَّٰعُونَ﴾، واللّام للمبالغة في السَّماع، ومعنى ﴿سَمَّٰعُونَ لِلۡكَذِبِ﴾ قابلونَ لمَا يَفتَعِلُه أَحبارُهم مِنَ الكذب على اللّه وتحريف كتابه، والطَّعن في نبوَّة محمَّدٍ ﷺ، ويُشعِرُ الكلامُ بأنّه ليستِ العبرةُ في السَّماع، وإنَّما في قبول ما يُسمعُ[2]، فمَن يسمع الكذبَ ليس كمَن يَسمعُه ويقبلُه، ويحتملُ أَن يُرادَ نفسُ السَّماع، واللّام في ﴿لِلۡكَذِبِ﴾ لامُ التَّعليل، أي: هم سَمَّاعُون منك كلامَك، لكي يَكذِبوا عليك، ويزيدوا مع الكلمة أضعافَها كذبًا[3].

ترديد الشَّرط بين الإثبات والنَّفي في قوله: ﴿إِنۡ أُوتِيتُمۡ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمۡ تُؤۡتَوۡهُ فَٱحۡذَرُواْۚ﴾:

اليهودُ لا يَقبَلونَ مِنَ الحقِّ إلّا ما يوافقُ أهواءَهم، وهو انحراف في الفهم والفطرة

فقد جاءَ الشَّرطُ مُردَّدًا في قوله: ﴿إِنۡ أُوتِيتُمۡ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمۡ تُؤۡتَوۡهُ فَٱحۡذَرُواْۚ﴾؛ لإفادة أنَّهم يبتغون أمرًا مُعيّنًا، وهم كما جاء في سبب النّزول كانوا يريدون الجلد للزّاني المُحصَن[4]، وهو ما يناسِبُ تحريفَهم كتابَ اللّه، ولم يقولوا: (وَإن أُوتيتم غيرَهُ فاحذَروا)؛ لأنّ اليهودَ لا يقبلون إلّا ما يوافقُ أهواءَهم وافتراءَهم على اللّه.

(1) الخفاجيّ، عناية القاضي: 3/242.
(2) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 5/3138.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/261.
(4) البغويّ، معالم التّنزيل: 2/52.

دلالة اسم الإشارة ﴿هَٰذَا﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنۡ أُوتِيتُمۡ هَٰذَا فَخُذُوهُ﴾:

وقد أكّدَ المعنى المذكور آنفًا مَجيءُ اسم الإشارة ﴿هَٰذَا﴾، فعبَّرَ به؛ لتمييز القول الّذي يريدونه ويرغبون بسماعه مِن رسول الله ﷺ أكملَ تمييزٍ ولتعيينه، كي لا يأخذوا إلَّا ما تشتهيه أنفسهم، والمعنى: إن أُوتيتُم هذا دون غيره، والمعنى في الآية: "يقول: ائتوا محمّدًا، فإن أفتاكم بالتّحمّم والجلد فخذوه، وإن أفتاكم بالرّجم فاحذروا"[1].

انتقاء المأخوذ مِنَ الشّريعة بالأهواء ممّا حرّمه ربّ الأرض والسّماء

حذف المفعول في قوله تعالى: ﴿وَإِن لَّمۡ تُؤۡتَوۡهُ فَٱحۡذَرُواْۚ﴾:

لإفادة العموم، والمعنى: ﴿فَٱحۡذَرُواْۚ﴾ أيّ كلامٍ أو أيّ شيءٍ يَصدرُ مِن رسول الله ﷺ، وإيَّاكم، وإيَّاه، ويندرج في قولهم: ﴿فَٱحۡذَرُواْۚ﴾ ما لا يوافِقُ أَهواءَهُم اندراجًا أوّليًّا ممّا سألوا عنه؛ لِعلمِهم بأنَّه يَفضَحُهم، ويكشِفُ تحريفَهم لكتاب الله، وفي ترتيب الأمر بالحذر على مُجرَّد عدم إيتاء المُحرَّف مِنَ المبالغة في التَّحذير ما لا يخفى[2].

حذر اليهود مِن رسول الله ﷺ مخافة فضحهم، وكشف تحريفهم لكتاب الله

مجيء ترديد الشَّرط على خلاف مُقتضَى الظَّاهر:

كان مُقتضَى الظَّاهر أَن يقول: (وإن لم تُؤتَوهُ فخُذُوا غيرَهُ)؛ مناسبةً للأوّل؛ لقوله: ﴿إِنۡ أُوتِيتُمۡ هَٰذَا﴾؛ لترديد الشَّرط بين الإثبات والنَّفي، ولكنَّه ذكرَ ﴿فَٱحۡذَرُواْۚ﴾؛ للتَّعبير عن غَيِّهم وضلالهم في مبالغتهم لِتَجنُّب كُلِّ ما يأتي مِن رسول الله ﷺ، فهم لا يأخذونَ الّذي يسألون رسول الله ﷺ عنه، ولا يأْخذون غيره ممَّا صدَرَ مِن رسول الله ولم يسألوا عنه، وقد عبّرَ بأداة الشَّرط (إنْ) في المَوضِعين، والأصلُ فيها الخلوُّ عنِ الجزم، فجاءَت في الموضع الأوَّل على الأصل في الشَّكِّ، وجاءَت في المَوضِع الثَّاني ﴿وَإِن لَّمۡ تُؤۡتَوۡهُ فَٱحۡذَرُواْۚ﴾ على خلاف الأَصل، وكان مُقتضَى الكلام أَن يُعَبَّرَ بـ(إذا) للقطع بأنَّهم لن يُؤتَوه؛ لعلمهم بأنَّ رسول الله لن يفتيَهم إلّا

إيثار التَّعبير بأداة الشَّرط (إنْ) عوضًا عن (إذا) في الآية

(1) ابن أبي حاتم، تفسير القرآن العظيم: 4/1132.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/38، والآلوسّي، روح المعاني: 3/306.

بما جاء في التَّوراة على أَصل وضعها، فعبّرَ بلفظ (إنْ)؛ باعتبار أنَّهم مُرتابون في الأَمر؛ لِتجهيل أَتباعِهم بتصويرهم أنَّ مقامَ عدم إتيانهم ما يطلبون لا يَصلُحُ إلّا لمجرَّد الفرض للارتياب، كما تُفرضُ المُحالاتُ، وهم كانوا يعلمون أنَّ رسول الله لن يفتيهم إلَّا بالرَّجم كما جاء في التَّوراة بعدَ أَن قَبِلوا بحكمها.

نكتة مجيء الفعل مبنيًّا للمفعول في قوله: ﴿إِنْ أُوتِيتُمْ﴾ ﴿وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ﴾:

أفعال اليهود مبنيَّةٌ على الاستتار كي لا يَفتَضِحوا

ورد الفعل مبنيًّا للمفعول لبيان قُبح اليهود، فهم يصونون أَلسنتَهم عنِ التَّصريح باسم الرّسول ﷺ، وهم لا يعلمون أنَّ الله تعالى يُطهِّرُ الاسم الشَّريف مِن أن يُذكرَ على أَلسنتهم، ولبيان أنَّ أفعالَهم وأقوالَهم مبنيَّةٌ على الإضمار والاستتار؛ كي لا يَفتَضحوا بين النَّاس، ويُحتملُ أنَّ سبب ورود الفعل مبنيًّا للمفعول أنَّ اليهودَ لَمَّا كانوا لا يَعترفون بنبوَّة رسول الله محمَّدٍ ﷺ، وكانوا إذا ذَكروا رسول الله صرَّحوا باسمه الشَّريف، جاءَ الفعل على صيغة المبنيّ للمفعول؛ إكرامًا لرسول الله ﷺ وتشريفًا له مِن أَن يُنطَقَ باسمه في غير مَوضِع التَّشريف بالرِّسالة - كما صُدِّرتِ الآيةُ - أَو بالنّبوَّة، كما هو الحال في مَواضِعَ أخرى منَ القرآن.

وقد أشار الشّاعر المخضرم حسّان بن ثابت الأنصاريّ إلى ملمح التّكرمة في اسمه الشّريف اشتقاقًا، حين قال[1]:

وَضَمَّ الإِلَهُ اسمَ النَّبِيِّ إِلَى اسمِهِ *** إِذَا قَالَ في الخَمسِ المُؤَذِّنُ أَشهَدُ
وَشَقَّ لَهُ مِن اسمِهِ لِيُجِلَّهُ *** فَذُو العَرشِ مَحمُودٌ وَهَذَا مُحَمَّدُ[2].

نكتة التَّعبير بلفظ العموم في قوله تعالى: ﴿وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ﴾:

دخول المنافقين واليهود في الفتنة ظاهر

مجيء ﴿وَمَن﴾ في سياق الشَّرط يُفيدُ العموم لكلِّ مَن يُريدُ الله ضلالتَه أَو فضيحتَه كائنًا مَن كان، فيندرجُ فيه المذكورون

(1) البيتان من بحر الطويل، وهما لحسان في ديوانه: 1/307.
(2) القسطلانّي، المواهب اللّدنيّة: 1/452.

مِنَ المنافقين واليهود اندراجًا أَوّليًا؛ لأَنَّ السِّياقَ وردَ فيهم، وعدمُ التَّصريح بدخولِهم في الشَّرط؛ للإشعار بكمال ظهوره، واستغنائه عن ذكره[1]، فهو تعالى الفعّال لمَا يريد، والقاضي في ملكه بما يشاء؛ لأنّه العليم بمَن يستحقّ الهداية، ومَن يستحقّ الغواية، وهو يهدي مَن يشاء، ويضلّ مَن يشاء، وله الحكمة البالغة، والحجّة الدّامغة، والقضاء المحقّق، والتّصرّف المُطلَق[2].

المجاز المُرسَل في لفظ ﴿فِتْنَتَهُۥ﴾ من قوله تعالى: ﴿وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ﴾:

أراد بالفتنة الضّلال؛ باعتبار ما يكون بعد الاختبار

ذهب جمهور المفسِّرين إلى أَنَّ المراد بالفتنة هنا الضَّلال[3]، ولمَّا كانتِ الفتنةُ في اللُّغة بمعنى: الاختبار والابتلاء، فمجيئُها هنا بمعنى الضَّلال؛ باعتبار مآلها حين السُّقوط في الاختبار وافتتان المُفتَتِن، والعبرةُ في إيثار ﴿فِتْنَتَهُۥ﴾ دونَ (ضلاله) أو (كفره) مثلًا؛ لإفادة أنّه قد اختُبِرَ وابتُلِيَ، ولم ينجح في الاختبار، فجاء لفظ (الفتنة) معبِّرًا عنِ المبدأ والمآل، وبالنَّظر إلى المآل هو مجازٌ مُرسَلٌ باعتبار ما يكون بعد الاختبار.

دلالة الحرف ﴿فَلَن﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾:

تأكيد السّياق أن لا أحد يملك للمفتتن منَ الله شيئًا

جاء الكلام مقترنًا بـ﴿فَلَن﴾ لمناسبته تقريرَ المعنى، إذ أَفادَت (لنْ) نفي المستقبل، وتأكيد نفي أَن لا أحدَ يملكُ للمفتتِنِ مِنَ اللّه شيئًا.

وقد بيَّن اللّه تعالى أنّ النّبيّ ﷺ لا يملك أن يزيل عنهم ما احتوشهم منَ الضّلال؛ لأنّ مَن يُرِدِ اللّه فتنته، ويقدّر عليه ضلاله بكتابة ذلك عليه، وتسجيله في لوحه المحفوظ، فلن يملك له أحد دون اللّه شيئًا في ذلك. ويشير السّياق إلى أنّ هؤلاء الغارقين في الشّرّ والضّلال،

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/38.

(2) ابن كثير، قصص الأنبياء: 1/93.

(3) ابن جرير، جامع البيان: 10/317، والرّازيّ، مفاتيح الغيب: 11/360، والبغويّ، معالم التّنزيل: 2/52.

والموصوفين بالمراوغة والنّفاق، والمحرّفين للقول بعد نزوله واستقراره، والمستمرئين للكذب لا يملك لهم أحد شيئًا، ولو كان النّبيّ ﷺ، مع ما له من قدر عند الله، وما خصّه به من شفاعة وحظوة.

التّقديم والتّأخير في قوله: ﴿فَلَن تَمۡلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗاۚ﴾:

إحضار اسم الجلالة تقريرٌ للحكم في هذه الآية

أَصل الكلام (فَلَن تملِكَ شَيئًا له مِنَ الله)، فقدَّمَ (لَه) للعناية بأَمر نفي القُدرة على فعل أيِّ شيءٍ لِمَن أَضَلَّه الله، وقد حسمَ الأمرَ بتعلّق الفعل بـ﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾، وأَعادَ اسم الجلالة (الله) ظاهرًا مع قُرب ذكره؛ لأنَّ المقامَ مقامُ إحضارٍ لاسم الجلالة بعينه للمُخاطَب؛ تقريرًا للحكم وتثبيتًا له، ومثله قوله تعالى: ﴿قُلۡ فَمَن يَمۡلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔا إِنۡ أَرَادَ بِكُمۡ ضَرًّا أَوۡ أَرَادَ بِكُمۡ نَفۡعَۢاۚ﴾ [الفتح: 11].

إيثار التّعبير بنفي المُلك دون غيره في قوله: ﴿فَلَن تَمۡلِكَ لَهُۥ﴾:

إذا كان رسول الله ﷺ لا يملكُ للمفتتِن مِنَ الله شيئًا، فغيرُهُ أَولى

وقال: ﴿فَلَن تَمۡلِكَ﴾، ولم يَقُل: (فَلَن تستطيعَ) أو(لَن تقدِرَ)؛ لأنَّ الإنسانَ قد يملك شيئًا، ولا يستطيع أَن يتصرَّفَ فيه؛ لمانع يمنعه، ولمّا قال: ﴿فَلَن تَمۡلِكَ﴾ أَفاد نفي تَمَلُّك الشَّيء وحيازته على جهة الانفراد به، والخطابُ للرَّسول المصطفى (1) ﷺ، والمراد عموم المُخاطَبين كما تقدّم في تفسير الآية السَّابقة عند قوله: ﴿أَلَمۡ تَعۡلَمۡ﴾، وعَبَّرَ بصيغة الخطاب؛ لإفادة أنّه إذا كان رسول الله ﷺ لا يملكُ لهم مِنَ الله شيئًا، فغيرُهُ أَولى وأَحرى، وإذا انتفى التّملُّكُ للشَّيء فلن يكون في حيِّز القدرة والتَّصرّف أَصلًا، فدلَّ على أَنَّ الَّذي "يَملِكُ يَتَصَرَّفُ في مملوكه كيف شاء"(2).

وجاء هذا الكلام بعد أن قرّرَ الله تعالى في الآية السَّابقة إثباتَ مُلكه سبحانه للسّماوات والأرض، على جهة الانفراد والتَّصرُّف، فالمناسبة في نفي الملك عمَّا سوى الله بعد إثباته ظاهرةٌ.

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/193.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 6/154.

مجيء النَّكرة في سياق النَّفي في قوله: ﴿فَلَن تَمۡلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗاۚ﴾:

وردت كلمة ﴿شَيۡـٔٗاۚ﴾ في سياق النَّفي فأفادتِ العموم لتنكيرها، وهي بنفسها مِنَ الألفاظ الدَّالَّة على عموم المعنى، فآثرَ التَّعبير بـ﴿شَيۡـٔٗاۚ﴾؛ للمبالغة في النَّفي، واستيعاب أَيِّ أَمرٍ، ولو كان صغيرًا أو حقيرًا[1]، والمعنى هناك يؤكّد أنّه قد تتعلّق إرادة اللّه تعالى على نحو ما هو معهود من حكمته في اختبار البشر بأن يختبر المرء في دينه، فيُظهر الاختبار أنّه منَ الكفرة الضّآلّين، وهو ما يعبّر عنه بالفتنة على نحو فتنة الذّهب بتسخينه، كما يفعل الصّائغ الماهر في اختبار صحّة المعدن أو زيفه بالنّار، فيظهر مقدار ما فيه منَ الغشّ والزّغل، وانطلاقًا من ذلك، يخاطب اللّه الرّسولَ الأكرم ﷺ، مؤكّدًا أنّه لن يَملك للمفتون منَ اللّه شيئًا منَ الهداية والرّشد، كما أنّه لا يستطيع أن يحوّل النّحاس إلى الذّهب؛ ذلك أنّ سنة اللّه تعالى لا تتبدّل في معادن النّاس، ولا في معادن الأرض، فهؤلاء المنافقون والجاحدون المعاندون منَ اليهود والمنافقين قد أظهرت فتنة اللّه لهم، واختباره إيّاهم، درجة فسادهم المتفاقم، وأنّهم مجبولون على قبول الكذب، والنّأي عنِ الحقّ، وأنّ إظهار بعضهم للإيمان مجرّد مداراة، ومطلب اجتماعيٌّ لتحقيق مآرب أخرى، وأنّ ما يرونه من صلاح حال المؤمنين لم يؤثر في أنفسهم، بل ازدادوا نفورًا وزورًا[2].

بلاغة التَّعبير بالمفرد في أُسلوب الشَّرط في قوله تعالى: ﴿وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتۡنَتَهُۥ فَلَن تَمۡلِكَ لَهُۥ﴾:

ورود العموم على البدل، باستيعاب الأفراد على البدليَّة فردًا فردًا

ورد الشَّرط في سياق المفرد، فقال: ﴿فِتۡنَتَهُۥ﴾ و﴿لَهُۥ﴾، ولم يأتِ بصيغة الجمع، مع أنَّ السِّياق ورد بصيغة الجمع، وقصدَ بالشَّرط العموم؛ لأنَّ العموم هنا جاء على البدل، بمعنى استيعاب الأفراد

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 6/154.

(2) رضا، تفسير المنار: 6/322.

على البدليَّة فردًا فردًا؛ ليكونَ أظهرَ في عِظَم إرادة اللّه المُطلقة، ولِيفيدَ الشَّرطُ وجزاؤُه معنى الانطباق على كلِّ فردٍ يريدُ اللّهُ إضلالَه بما اكتسب مِن دنس الكفر.

دلالة اسم الإشارة ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ﴾ في قوله تعالى: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمۡۚ﴾:

العناية بأعمال القلب وطهارته منَ الدَّنَس، من مقاصد الهدي القرآنيّ الكريم

عبّر باسم الإشارة ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ﴾؛ لما في اسم الإشارة مِن معنى البُعدِ المُؤذِنِ ببُعد منزلتهم في الفساد[1]، ولتمييز المذكورين مِنَ المنافقين واليهود أَكملَ تمييزٍ، ولتعيينهم للمُخاطبين، وللإشارة إلى أَحوالهم مِن مسارعتهم في الكفر فيكونُ ما بُنِيَ عليه مِنَ الخبر، وهو قوله: ﴿ٱلَّذِينَ لَمۡ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمۡۚ﴾ دالًّا على استحقاقهم، وذلك بخلاف مَن وصفهم بقوله: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذۡهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجۡسَ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ وَيُطَهِّرَكُمۡ تَطۡهِيرٗا ٣٣﴾ [الأحزاب: 33]، وأَشعر قوله: ﴿ٱلَّذِينَ لَمۡ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمۡۚ﴾ أنَّ اللّهَ أرادَ أن يُطَهِّرَ قلوب المُؤمنِين[2]؛ لبيان مخالفة حال أولئك حالَ المؤمنين، ففي الكلام إنذارٌ للكافرين بصريح العبارة، وبشارةٌ للمؤمنين بفحواها.

بديع المطابقة بين الدُّنيا والآخرة في قوله تعالى: ﴿لَهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا﴾ ﴿وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ﴾:

لا انفكاك منَ الأقدار، من دار الغرور إلى دار القرار

في قوله تعالى: ﴿لَهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ جاء طباقُ الإيجاب في الاسمين (الدُّنيا والآخرة)، وفائدة مجيء الطّباق استيعابُ العقوبة لهم في الدَّارين؛ تصريحًا وتفصيلًا لنوع العقوبة في كلِّ دارٍ، بعد تذكيرهم أَنَّ حياتَهم محصورةٌ في الدُّنيا والآخرة، فلا مفرَّ لهم مِنَ العقوبة.

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/38.
(2) الشّوكانّي، فتح القدير: 2/48.

نكتة التَّكرار في عبارة ﴿لَهُمۡ﴾ من قوله تعالى: ﴿لَهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ﴾:

كرّر عبارة ﴿لَهُمۡ﴾ معَ اتِّحاد المَرجِع؛ لأنَّه لمَّا اختلف المُتعلَّقُ أَعادَ الجارَّ والمجرورَ؛ فالأوَّلُ: في بيان إثبات الخزي لهم في الدُّنيا، والآخر: في إثبات العذاب العظيم لهم في الآخرة، فالمعنى على انفصال عذاب الدُّنيا عن عذاب الآخرة، فلهم عذابان، وفيه كذلك زيادة تقريرٍ، وتأكيدٍ في إثبات العذاب لهم، كما ذهب إليه أبو السُّعود[1]، فلا تكرارَ في الجارِّ والمجرور لاختلاف المُتعلَّق.

عذاب الدُّنيا غير عذاب الآخرة، ولكلٍّ صفته وسببه

معنى تنكير لفظ ﴿خِزۡيٞۖ﴾ في قوله تعالى: ﴿لَهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞۖ﴾:

وردت كلمة ﴿خِزۡيٞۖ﴾ نكرةً؛ لإفادة التَّفخيم[2] والتَّنويع، والمعنى: لهم كلُّ أنواع الخزي الكبير والعظيم في الدُّنيا، وقوله: ﴿لَهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞۖ﴾، أي: ذلٌّ وفضيحة، وهي من أعظم ما يبتلى به البشر في الدّنيا، وقد شمل الخزي المنافقين، ويكون بهتك سترهم، وخوفهم اللّامحدود منَ القتل، إن اطّلع على كفرهم المسلمون، وعاقبوهم على خيانتهم وغدرهم.

خزي المنافقين بهتك سترهم، وخزي اليهود بإهانتهم وقهرهم

وخزي اليهود تمسكنهم، وانكسارهم، وضرب الجزية عليهم، وكونهم منذ آمادٍ بعيدة، وحقبٍ مديدة في كلّ أقطار الأرض تحت ذمّة غيرهم، وفي إيالته[3].

بلاغة الاستئناف البيانيّ في قوله تعالى: ﴿لَهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾:

ورد قوله تعالى: ﴿لَهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾ على طريقة الاستئناف البيانيِّ؛ لإثارة المُخاطَب، وتنبيهه

الوعيد على المعصية حافزٌ قويٌّ للعدول عنها

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/38.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/38.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/263.

على عقوبة الّذين يسارعون في الكفر، والسُّؤال نشأ مِن تفصيل أفعالهم وأَحوالهم الموجبة للعقاب، كأَنَّه قيلَ: فما لهم مِنَ العقوبة؟ فأجاب بقوله بالوعيد المذكور[1]؛ ليكونَ الوعيدُ رادعًا عنِ الوقوع في المعصية أو عنِ المعاودة إليها، وإذا أَقدَمَ العبدُ بعد علمه بالوعيد استعتَبَ وتاب.

دلالة تقديم المسند على المسند إليه في قوله تعالى: ﴿لَهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ عَذَابٌ﴾:

التَّقديم في سياق الآية؛ للاهتمام ومراعاة الفاصلة

فقد قدَّمَ المسندَ مع معموله في قوله: ﴿لَهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا﴾، وقوله: ﴿وَلَهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ﴾؛ لأنَّ السِّياقَ يتحدَّث عنهم، فالخاطرُ مُلتفِتٌ إليهم في تزايدٍ؛ لِبيانِ ما أَعدَّ اللّٰه لهم بعد ذكر أَحوالِهم الموجبة لعقوبتهم في الدُّنيا والآخرة، فقدَّمَ المُسندَ ﴿لَهُمْ﴾؛ زيادةً في الاعتناء ببيان حالهم، وللمحافظة على الفاصلة.

مناسبة تذييل الآية لصدرها في الآية الكريمة:

مناسبة العقاب العظيم لأفعال المنافقين واليهود الشّنيعة

لمّا كانت مسارعة المنافقين واليهود في الكفر موجبةً لحزن رسول اللّٰه ﷺ، والحُزنُ هو الشُّعور بالألم والخشونة في النَّفس لِمَا يَحصُلُ مِنَ الغمّ، ناسَبَ أَن يكون عقابُهم بالهوان والفضيحة في الدُّنيا والعذاب العظيم في الآخرة، فكمال الغمِّ وشدَّة الأَلم في الذُّلِّ في الدُّنيا والعذاب العظيم في الآخرة، فناسب العقاب المذكور أفعالَهم، وبذكر هذا العقاب، فكأَنَّه قال: يا أَيُّها الرَّسول لا يَحزُنك هؤلاء فلهم الوعيد بالخزي في الدُّنيا والعذاب العظيم في الآخرة، ووعدناك النَّصر والعزّة والظُّهور عليهم في الدُّنيا، والنَّعيم المُقيم في الآخرة[2]، والعذابُ العظيمُ مرصودٌ لِمَن يُحزنُ رسولَ اللّٰه ﷺ.

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/38، والآلوسّي، روح المعاني: 3/308، ومعنى (إيالته): سياسته وإصلاحه، من آلَ مالَه يَؤُولُه إِيَالَة إذا أَصلحه وَسَاسَهُ، ينظر: ابن منظور، لسان العرب: (آل).

(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/190.

والمتأمّل لصدر الآية وعجزها يستنتج منَ البناء السّياقيّ لمطلع الآية وتذييلها؛ أنّه لمّا كان حُزنُ رسول الله عند الله عظيمًا، والحبيبُ لا يرضى الحزنَ لحبيبه، وكان فعلُهم مِنَ المسارعة في الكفر أعظمَ قبحًا منَ الكفر؛ لزيادته عليه بالمسارعة، ناسبَ أَن يصِفَ العذاب بكونه عظيمًا، وجاء على صيغة المبالغة لتمام المناسبة.

الوقف القرآنيّ وتكثير المعنى من خلال هذه الآية:

التّحريف محكيٌّ عنِ اليهود، وهو مختصٌّ بهم، باعتبار أنّهم قومٌ بهتٌ

ورد تعانقُ الوقف في الآية في قوله تعالى: ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَلَمۡ تُؤۡمِن قُلُوبُهُمۡۛ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْۛ سَمَّٰعُونَ لِلۡكَذِبِ﴾، فإمّا أن يكون الوقف على ﴿قُلُوبُهُمۡۛ﴾، وإمّا أَن يكون على ﴿هَادُواْۛ﴾، فإذا وُقِفَ على ﴿هَادُواْۛ﴾ تكونُ ﴿وَمِنَ﴾ الثّانية بيانيَّةً في معرض التَّقسيم للَّذين يسارعون في الكفر، مثل: ﴿مِنَ﴾ الأُولى، ويكون ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْۛ﴾ منسوقًا على ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ﴾، و﴿سَمَّٰعُونَ﴾ الأولى والثّانية خبران للضَّمير المحذوف (هُم)، وحذفُ المبتدأ في مثل هذا المَوضِع كثيرٌ في القرآن، والوقفُ على ﴿هَادُواْۛ﴾ ذهب إليه جمهورُ المفسِّرين، ويدلُّ عليه الإخبار بقوله: ﴿سَمَّٰعُونَ لِلۡكَذِبِ﴾، فإنَّه يَصِحُّ أَن يكون وصفًا للمنافقين مِنَ اليهود أيضًا، ولورود قراءة شاذّة عنِ الضّحاك (سَمَّاعِينَ) بالنّصب على الذّمِّ[1].

وإذا وُقِفَ على ﴿قُلُوبُهُمۡۛ﴾ فيكونُ ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْۛ﴾ استئنافًا خبرًا مقدّمًا، و﴿سَمَّٰعُونَ لِلۡكَذِبِ﴾ مبتدأ مؤخَّر، والمعنى (من الّذين هادوا قومٌ سمَّاعون للكذب سمَّاعون لقوم آخرين)، وإلى هذا التَّوجيه ذهبَ جمهورُ علماء الوقف والابتداء؛ لأنَّ التّحريفَ محكيٌّ عنِ اليهود، وهو مختصٌّ بهم[2].

(1) ابن جرير، جامع البيان: 10/309، والزّجّاج، معاني القرآن: 2/174، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/37، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 6/198.

(2) الدّانّي، المكتفى في الوقف والابتدا، ص: 60، والأشمونّي، منار الهدى: 1/216.

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الأفواه والألسن:

إذا كان القول عظيمًا شنيعًا ذُكِرَتِ الأَفواه، وإذا كان القول أَقلَّ ذُكِرَتِ الأَلسنة

لم يقلِ اللّه تعالى في هذه الآية (يقولونَ آمَنَّا بأَلسِنَتِهم) مع أنَّ التَّعبير بالألسنة قد ورد غير مرَّة في القرآن الكريم، كما في قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا ۚ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۚ﴾ [الفتح: 11]، والسّبب: هو أنَّه إذا كان القول كبيرًا عظيمًا، وصاحبُه متعاليًا ذُكِرَتِ الأفواه؛ لِمَا في القول بالأفواه مِن معنى المبالغة ما ليس في الألسنة؛ فإنَّه إذا خُتِمَ على الأفواه امتنعَتِ الألسنة عنِ النُّطق، وكان أَحكمَ في المَنع، فناسَبَ الإبلاغ في قوله تعالى: ﴿بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾ هذه الآيةَ؛ لأنَّها تحكي مسارعة المنافقين في الكفر، وقد جعلَهُمُ اللّهُ صِنوَ اليهود؛ لشدَّة نفاقهم وما انطَوَوا عليه، واستحكمَ في قلوبهم مِنَ الكفر، وإذا كان القول أَقلَّ ذُكِرَتِ الأَلسنة مناسبةً لكلِّ حالة، كما في آية الفتح الّتي أَخبرت عن أَعراب، قال تعالى فيهم: ﴿۞قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا﴾ [الحجرات: 14]، وهؤلاء لم يستقرَّ نفاقُهم كالآخرين، وإنَّما أَخَلَّ بهم قُربُ عهدهم بالكفر، وإن لم يتقرَّرِ الإيمانُ في قلوبهم، لكن لا عن نفاقٍ كنفاق الآخرين، فعبَّرَ بالألسنة؛ إشعارًا بأَنَّ حالَ هؤلاء أَخفُّ مِن حال المنافقين المذكورين في آية المائدة[1].

(من بعد مواضعه) و(عن مواضعه):

التّحريف بعد معرفة الحقّ أشدُّ قُبحًا منه عن جهل؛ لأنّه ضلال عن علم وإدراك

الفرق بين قوله: ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ ۖ﴾، وقوله: ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾: ذكر ابن عاشور الفرق في المعنى بين المَوضِعين، فقال: "وقال: هنا مِن بَعدِ مَواضِعه، وفي سورة النِّساءِ [الآية: 46] عَن مَواضِعه؛ لأَنَّ آيةَ سورة النِّساء في وصف اليهود كُلِّهم

(1) ابن الزبير، ملاك التّأويل: 1/94.

وتحريفِهم في التَّوراة، فهو تغيير كلام التَّوراة بكلامٍ آخرَ عن جهل أو قصد أو خطأ في تأويل معاني التّوراة، أو في ألفاظها.

فكان إبعادًا للكلام عن مَواضِعه، أَي: إزالةً للكلام الأصليِّ سواءٌ عُوِّضَ بغيره أم لم يُعَوَّض، وأَمَّا هاته الآية ففي ذكرِ طائفةٍ مُعيَّنةٍ أَبطلوا العملَ بكلامٍ ثابتٍ في التَّوراة إذ أَلغَوا حُكمَ الرَّجم الثَّابتَ فيها، دونَ تَعويضه بغيره مِنَ الكلام، فهذا أَشدُّ جُرأَةً مِنَ التَّحريف الآخر، فكان قوله: ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَوَاضِعِهِۦۖ﴾ أبلغَ في تحريف الكلام؛ لأنّ لفظ (بَعدَ) يَقتضِي أَنَّ مَواضِعَ الكلم مُستَقِرَّةٌ، وأَنَّه أبطل العمل بها مع بقائها قائمةً في كتاب التَّوراة"[1]، ويُحتملُ أَن يكون الفرق بينهما مِن جهة أُخرى، وإن كان المآلُ واحدًا فإنَّ آية المائدة أَفادَت إثبات كلام اللّه الأصليِّ الصّحيح؛ لأَنَّه قال: ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَوَاضِعِهِۦۖ﴾؛ لدلالة (مِن) الابتدائيَّة على أَنَّ المعنى مِن بَعدِ وَضعِه في مَواضِعه، وثبوته عَنِ اللّه تعالى، فقاموا هم بتحريفه بعدَ أَن عرفوا مَواضِعَه الصَّحيحة، وأَحكامَه السَّليمةَ مِنَ التَّحريف؛ ليدلَّ على أنَّ ما فعلوه مِن تغيير حُكم الرَّجم أَشدّ وأَقبح لظهور معرفتهم بحكم اللّه الّذي أَنزله في كتابه، ولهذا صدّر الآية بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحۡزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِ﴾.

الإرادة والمشيئة:

قوله تعالى: ﴿وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتۡنَتَهُۥ﴾ عوضًا عن ﴿مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضۡلِلۡهُ﴾ [الأنعام: 39]:

إذا تعلَّقَ الأمر بالمبدأ استعملَ الإرادةَ، وإذا تعلَّقَ الأمر بالإيجاد استعملَ المشيئَةَ

قد تَتَبَّعَ كثيرٌ مِنَ المُفسِّرينَ واللُّغويينَ الفرق بين الإرادة والمشيئة، وتنوَّعَت أَقوالهم على اختلاف مشاربهم ومقاصدِهم، ويمكن إيجاز القول في سبب مجيء قوله (يُرِدْ) بدلًا مِن (يشأْ) في الآية؛ بأَنَّ الإرادةَ يُقصَدُ بها في حقِّ اللّه تعالى الحُكم في الشَّيء، بأَنَّه ينبغي أَن يُفعلَ أَو لا يُفعلَ، فيقالُ: أَرَادَ اللّهُ كذا، فمعناه: حَكَمَ فيه أَنَّه كذا، وليس بكذا، وأَمّا المشيئة فأَصلُها مِن (شيءٍ)، والشَّيءُ اسمٌ للموجود، والمشيئة قصدٌ إلى اتِّخاذ الشَّيء وتحقُّقه، ثمَّ يُقالُ: شاءَ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 6/200.

اللّه كذا، أَي: أَوجدَه بعد أَن لم يكن موجودًا[1]، فإذا تعلَّقَ الأمرُ بالمبدأ استعملَ الإرادةَ، وإذا تعلَّقَ الأَمرُ بالإِيجاد استعملَ المشيئَةَ. ولمَّا كانتِ الفتنةُ هي الاختبار والابتلاء، ومآلُ المُفتَتِنِ هو الضَّلال، عبَّرَ بالإِرادة فقال: ﴿وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتۡنَتَهُۥ﴾، فتعلّقَتِ الإرادةُ بمبدأ الأَمر، ولو ذَكرَ مآلَ المُفتَتِنِ وهو الضّلال لاستعمل المشيئة، كقوله تعالى: ﴿مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضۡلِلۡهُ﴾ [الأنعام: 39]، أَي: لمّا كانتِ الإرادةُ لا تستلزمُ التَّحَقُّقَ، وهي مبدأ المشيئة، وكانتِ المشيئَةُ تستلزمُ التَّحَقُّقَ وَالإِنجازَ، عبَّرَ بقوله: ﴿وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتۡنَتَهُۥ﴾، ولهذا لا يُقالُ: (يُعذِّبُ اللّه مَن يُريدُ ويغفِرُ لِمَن يُريدُ)، بل نقول كما جاء في الآية: ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُۖ﴾، وكذا لو قُدِّمتِ المغفرة على العذاب، ولا يَصِحُّ أَن نقول: (ما أَرادَ اللّه كانَ، وما لَم يُرِد لم يَكُن)، بل نقولُ: (ما شاءَ اللّه كانَ، وما لَم يَشَأْ لَم يَكُن)؛ لِتعلُّق المشيئة بالكون والحصول.

(1) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 1/519، والمفردات: (رود).

﴿سَمَّٰعُونَ لِلۡكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحۡتِۚ فَإِن جَآءُوكَ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُمۡ أَوۡ أَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡۖ وَإِن تُعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيۡـٔٗاۖ وَإِنۡ حَكَمۡتَ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِٱلۡقِسۡطِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ٤٢﴾ [المائدة: 42]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

ما زال الحديث موصولًا في ذكر بعض الصّفات الذّميمة للّذين يسارعون في الكفر منَ الّذين قالوا: آمنّا بأفواههم، ولم تؤمن قلوبهم؛ فجمع لهم في هذه الآية بين صفتين تأصّلتا فيهم، وصارتا طبيعة عندهم؛ فوصفهم بأنّهم سمّاعون للكذب أكّالون للسّحت.

ومن أوجه المناسبة أيضًا أن يُقال: إنّ الآيات انتقلَت منَ التّعميم إلى التّخصيص[1].

ومن أوجه المناسبة كذلك: أنَّ اللّه تعالى لمّا ذكر فيما سبق ما يدخل في آذانهم وقلوبهم منَ الكلام؛ أتبع ذلك بذكر ما يدخل في أفواههم وبطونهم منَ الطعام، وهما خبيثان، وهذا ليس غريبًا عنهم؛ لأنّهم أكّالون للمال الحرام.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿سَمَّٰعُونَ﴾: السَّماعُ: إدراكُ الصَّوت، يُقال: سَمِعَ فلانٌ لفلانٍ حَديثَه سَمعًا، وسَماعًا، ويأتي بمعنى الطّاعة، فيُقال: سَمِعَ الأَمرَ: إذا أَطاعَه، وأَصلُه في الإنسانِ: إدراكُ الصّوت بالأُذن، والسَّمعُ في المخلوقِ: قوَّةٌ في الأُذُن بها تُدرَكُ الأَصواتُ، والسّماعُ: اسم ما استلذَّتِ الأُذُنُ مِن صَوتٍ حَسَنٍ، ومن معانيه أيضًا: الإجابة والفهم والغناء، وما سَمِعتَ به فشاع، وتُكُلِّم به[2].

2) ﴿لِلۡكَذِبِ﴾: الكذبُ: الإخبارُ بخلاف الواقع، يُقال: كَذَبَ يكذِبُ كَذِبًا، أي: أَخبَرَ عنِ الشَّيء بخلاف ما هو عليه في الواقع، فهو كاذبٌ وكذُوبٌ وكذّابٌ، وضدُّه: الصِّدقُ، ويُطلَق صفةً للخبر الّذي هو بخلاف الواقع، فيُقال: كَلامُك كَذِبٌ، أي: خلافُ الواقع،

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 4/2191.

(2) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، والزّبيديّ، تاج العروس: (سمع).

وضدُّهُ: الحقيقةُ، ويُستَعمَلُ بمعنى الزّيف والخداع، تقول: جَوهرٌ كاذبٌ، أي: زائفٌ، ومِن معانيه أيضًا: الجحود، والافتراء، والخطأ[1].

3) ﴿أَكَّٰلُونَ﴾: الأكل: معناه التَّنَقُّصُ، وهو طَحْنُ الحيّ المادَّة المَطعومَة مَضغًا بفمه وبَلعُها، ومنه الأَكلُ المعروف: ﴿وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ﴾ [المائدة: 3]، والأُكُل: ما شأنه أن يُؤكَلَ، ومنه يُقال في احتياز الشَّيء والانتفاع به، كقوله تعالى: ﴿فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا ۝٤﴾ [النّساء: 4]، وقوله: ﴿أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِ﴾ [المائدة: 42][2]، والأَكَلَة: جمع آكِل، ومِنْهُ قولُهم: هم أَكَلَةُ رأس؛ عبارة عن ناسٍ مِن قِلَّتهم يُشبِعُهم رأسٌ، وقد يُعبَّر بالأكل عنِ الفساد، نحو: ﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ۝٥﴾ [الفيل: 5]، ومعنى ﴿أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِ﴾: أَخَّاذون له[3].

4) ﴿لِلسُّحْتِ﴾: السُّحتُ - بضمِّ السِّين وسكون الحاء - الشَّيء المسحوت، أَي: المُستَأصَلُ، يُقالُ: سَحَتَه إذا استَأصَلَه وأَتلَفَه، سُمِّيَ به الحرامُ؛ لأَنَّه لا يُبارك فيه لصاحبه، فهو مَسحوتٌ ومَمحوقٌ، أَي: مُقَدَّرٌ له ذلك، كقوله: ﴿يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ﴾ [البقرة: 276]، قال الفرزدق:

وَعَضُّ زَمَانٍ يا ابنَ مَروَانَ لم يَدِع *** مِنَ المَالِ إِلَّا مُسحَتًا أَو مُجَلَّفُ

والسُّحتُ يَشمَلُ جميع المال الحرام، كالرِّبا، والرَّشوة، وأَكل مال اليتيم، والمغصوب[4].

5) ﴿جَآءُوكَ﴾: يُقالُ: جاءَ يَجِيءُ مَجِيئًا، ويُقالُ: جاءَني فَجِئتُه، أَي: غالبني بكَثرة المَجيءِ فَغَلَبتُه، والجَيئَة: مَصدَر جاءَ[5]، والمجيءُ كالإتيان، لكنَّ المَجيءَ أَعمُّ؛ لأَنَّ الإتيانَ مجيءٌ بسهولة، والإتيانُ قد يُقالُ باعتبار القَصد، وإن لم يكن منه الحصولُ، والمجيءُ يُقالُ اعتبارًا بالحصول[6].

---

(1) الجوهريّ، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (كذب).

(2) كلّ ما في القرآن من التّركيب فهو بمعنى الأكل الحقيقيّ عدا الآيتين الأخيرتين، وعدا [البقرة: 275]، [النّساء: 161]، [المائدة: 62، 63]، [يوسف: 48]، [النّور: 34]، [الحجرات: 12]، [الفجر: 19] فالبارز فيها الأكل المجازي: إدخالها في الحوزة والانتفاع بها في أيّ مجال. جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (أكل).

(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (أكل).

(4) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 143، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (سحت)، والكفويّ، الكلّيّات، ص: 522، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 6/201.

(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (جيأ).

(6) الرّاغب، المفردات: (جاء).

6) ﴿فَٱحۡكُم﴾: الحُكمُ: القضاءُ والفصلُ، تقولُ: حَكَمتُ بينهما إذا قَضَيتُ، ويأتي الحُكمُ بمعنى: الشّيء الحَسَن المُتقَن، والجَمعُ: أَحكامٌ، والإحكامُ: الحُسنُ والإتقانُ، يُقال: أَحكَمتُ صُنعَ الشّيء، أي: أَتقنته، والحكيمُ: المُتقِنُ للأُمور، وأَصلُ الحكم: المَنعُ، وكلُّ شَيءٍ مَنَعتَه مِنَ الفساد فقد حَكَمتَه وأَحكَمتَه، ومن معاني الحُكم أيضًا: الشّرعُ، والإمامةُ[1].

7) ﴿أَعۡرِضۡ﴾: الإعراض: الصَّدُّ والتّوَلِّي والرّفضُ، تقولُ: أَعرَضَ عنه، أَي: صدّ وتَوَلّى عنه، والمُعرِضُ: المُتَوَلِّي، وعليه معنى الآية، وسُمِّيَ الرّفضُ إعراضًا؛ لأنّ الرّافضَ أَظهَرَ خلاف الشّيء، أَو لأنّه كالواقف عَرضًا في وجه الشّيء، ومِن معاني الإعراض: تَركُ العمل، والامتناعُ، والرّفضُ، والإهمالُ[2].

8) ﴿يَضُرُّوكَ﴾: الضّرر: المكروه والأَذى، وضَرَّ فلانًا ضُرًّا وضَرَرًا؛ إذا أَلحَقَ به مكروهًا أَو أَذًى، ويُطلَقُ الضّرَرُ على سوء الحال مِن مرضٍ أَو فَقرٍ ونحوه، وأَصلُ الضّرَرِ: النُّقصانُ يَدخُلُ في الشَّيء، يُقالُ: دَخَلَ عليه ضَرَرٌ في ماله، وضدُّ الضّرر: النّفعُ والسّعَةُ، ومِن معاني الضّرر أَيضًا: الضِّيقُ، والحَرَجُ، والهُزَالُ، والنُّقصانُ[3].

9) ﴿بِٱلۡقِسۡطِۚ﴾: القِسطُ: بكسر القاف: العَدلُ، والقِسطاسُ: المِيزانُ؛ لأَنّ به يُعرَفُ العَدلُ، يُقالُ: أَقسَطَ الرَّجلُ يُقسِطُ فهو مُقسِطٌ، أَي: عَدَلَ، وأَمّا القَسطُ - بفتح القاف - فهو: الجَورُ والظُّلمُ، وقَسَطَ: إذا جار وظلم، فهو قاسطٌ.

ويأتي القِسطُ بمعنى: الحِصَّة والنّصيب، وجمعه: أَقساطٌ، تقولُ: تَقَسَّطوا الشَّيء بينَهم، أَي: تَقاسَموه[4].

10) ﴿يُحِبُّ﴾: المحبَّة: المَيلُ إلى الشَّيء السّارِّ، وهي اسمٌ للحُبِّ، والحُبُّ: الودادُ، ونقيضه: البُغض، يُقال: تَحَبَّبَ إليه، أي: تَوَدَّدَ إليه[5].

(1) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (حكم).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس: (عرض).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والجوهريّ، الصّحاح، وابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس: (ضرر).
(4) الجوهريّ، الصّحاح، وابن منظور، لسان العرب: (قسط)، والكفويّ، الكلّيّات، ص: 733.
(5) ابن سيده، المحكم، والرّاغب، المفردات، والزّبيديّ، تاج العروس: (حبب).

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

في هذه الآية يصف اللّه تعالى المنافقين وبعض اليهود بأنّهم سمّاعون للباطل يبحثون عنه، ويأكلون المال الحرام بكلّ صوره وألوانه، ثمّ يخبر رسوله ﷺ بأنّهم إذا جاؤوا إليه يطلبون حكمه فهو بالخيار في أن يحكم بينهم أو أن يعرض عنِ الحكم له، وطمأنه ربّه بأنّهم لن يضرّوه شيئًا إن أعرض عنِ الحكم بينهم، ثمّ قال له: إن حكمتَ فاحكم بينهم بالعدل؛ لأنّ اللّه يحبّ المتّصفين به في حكمهم بين النّاس في كلّ أحوالهم وأحكامهم.

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

سرُّ التَّعبير بصيغة المبالغة في قوله تعالى: ﴿سَمَّٰعُونَ لِلۡكَذِبِ﴾:

كـثرة السّماع للكذب تستلزم كثرة القول:

تشير هذه الصّيغة إلى كثرة إصغائهم إلى الكذب الصّادر من أحبارهم ورؤسائهم؛ فيحفَلُون به، ويقبلونه منهم.

سرّ فصلِ هذه الآية عَمّا قبلها:

فُصلت هذه الآية عمَّا قبلَهَا لشدّة الاتّصال بينهما؛ لأنّ الآية الثّانية جاءَت بذكر بقيّة أوصاف الّذين يسارعون في الكفر.

دلالة وصف اليهود بكثرة سماع الكذب:

انفراد اليهود بهذا الوصف ﴿سَمَّٰعُونَ لِلۡكَذِبِ﴾:

النّاظر في القرآن الكريم يجد أنّ مادّة (سمع) جاء منها الفعل الماضي (سمع)، والمضارع (يسمَع)، وصيغة المبالغة (سَمِيع)، وجاء منها أيضًا (مُسمع)، إلى غير ذلك من مشتقّات الكلمة، إلّا هذا الوصف (سمّاعون)، فقد جاء في القرآن في سياق الحديث عنِ المنافقين واليهود، وهذا يدلّ على أنّهم أخذوا هذا الأمر صَنعة ومِهنة؛ فكأنّهم يبحثون عنِ الأخبار الكاذبة بكلّ وسائل البحث، سواء أكانت طبيعيّة بمجرّد السّماع أم صناعيّة بآلات التّنصّت والاستماع، وكلّها وردت في سياق الذّمّ.

وممّا يدلّ على ذمّهم في هذه الصّفة أنّ اللّه ﷻ وصف نفسه بأنّه (سميع) فقط، ولم يرد وصف (سمَّاع)؛ لكون هذا الوصفِ صارَ صِفَةَ ذمٍّ في الاستعمال القرآنيّ.

إيحاءات لفظ ﴿سَمَّٰعُونَ لِلۡكَذِبِ﴾:

هذا اللّفظ بهذه الصّيغة يشير إلى أنّ السّماع للكذب صار طبيعة، وخصلة لا تنفكّ عنهم؛ فهم يطربون لسماع الكذب والباطل كما يطرب بعضُ النّاس لسماع الصَّوْتِ الحسنِ؛ فيجدون لذّة في سماع الكذب، بخلاف سمَاعهم للحقّ؛ فإنّ نفوسهم وقلوبهم تضيق عند سماعه.

سرّ التّعبير بقوله: ﴿سَمَّٰعُونَ﴾، ولم يقل: (سامعون):

استمراء سماع الباطل من القول صفة ثابتة في اليهود:

عبّر بقوله ﴿سَمَّٰعُونَ﴾ دون (سامعون)؛ لأنّ فِعل السَّمع يُراد به أربعةُ معانٍ: أَحدها: سَمع إدراكٍ، ومُتعلّقه الأصوات، والثَّاني: سَمعُ فَهمٍ وعَقلٍ، ومُتعلَّقه المعاني، والثَّالث: سَمعُ إجابةٍ، وإعطاء ما سُئل، والرَّابع: سَمع قَبولٍ وانقيادٍ[1]، وهُم في كلّ أنواع السّماعات يستقبلونها سماع كذب، ولذلك يقال: السَّمَّاعُ: الكثيرُ السَّمع، أَي: كثيرُ الاستماع لِمَا يُقالُ له، والسَّمعُ مُستعملٌ في حقيقته، أَي: أَنَّهم يُصغون إلى الكلام الكذب، وهم يعْلَمُونه كَذِبًا، أَي: أَنَّهم يحفلون بذلك، ويتطلَّبونه فيكثُرُ سماعُهم إيَّاه، وفي هذا كنايةٌ عَن تفشِّي الكذب في جماعتهم بين سامع ومُختَلِق؛ لأَنَّ كَثرَةَ السَّمع تَستَلزِمُ كثرةَ القول[2].

ولم يَقُلِ اللّه تعالى عنهم: (سَامِعونَ)، بل قال: ﴿سَمَّٰعُونَ﴾، أي: جعلوا صناعَتَهم أن يتسمَّعوا، والقول مقصود به مَن جَعَل السَّماع

(1) ابن القيّم، بدائع الفوائد: 2/507.

(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/261، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/37 - 39، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 6/199.

صنعة له، ولا يجعل الإنسانُ السَّماعَ صنعةً له إلَّا إذا كان عينًا لغيره، ومن كان كذلك؛ فإنَّهُ يتلصَّص على أمانة المجالس، ولكلّ مجلس أمانة، فإذا ما حضر الإنسان مجلسًا فليس له أن يَنقل ما في ذلك المجلس إلى غيره، إلَّا أن يكون ذلك هو صِناعته، وتلك هي مهمَّته[1].

دلالة التَّرديد[2] في قوله تعالى: ﴿سَمَّٰعُونَ لِلۡكَذِبِ﴾ في الآيتين:

التنفير من السّماع للكذب

تكرَّر قوله تعالى: ﴿سَمَّٰعُونَ لِلۡكَذِبِ﴾ [المائدة: 41 - 42]؛ تأكيدًا لمَا قبله، وتمهيدًا لمَا بعده؛ لِيُرَتِّبَ عليه قوله: ﴿أَكَّٰلُونَ لِلسُّحۡتِۚ﴾، وتقريرًا للمعنى، ولإفادة اهتمام المتكلِّم به[3].

ودلّ التَّكرار في المستوى السَّطحيّ للتَّرديد ﴿سَمَّٰعُونَ﴾/ ﴿سَمَّٰعُونَ﴾، وهما متوافقان في المستوى السَّطحيّ والعميق؛ فالسَّماع اسمٌ مُشتقٌّ مِنَ الفعل (سَمِعَ)، جاء على صيغة المبالغة للدَّلالة على كثرة الاستماع، غير أنَّ ما تعلَّق بكلٍّ منهما مِن دوالّ أُخرى ورد مختلفًا في المستوى السَّطحي، والمستوى العميق المعجميّ.

فالدَّالّان في آيتي المائدة: [41 - 42]، وهما (الكَذِب) و(القَوم) وردا مُتخالِفين في المستويين المذكورين، ولكنّ تعلُّقهما بالدَّالّين ﴿سَمَّٰعُونَ﴾ حقَّق توافقًا في بنية العمق السِّياقيّ، فالكذبُ مصدرُه القوم الموصوفون بذلك، والمُراد بهم في الآية [41] المفترونَ مِن أحبار اليهود الَّذين يحرِّفون الكَلِم عَن مَواضِعه، أمَّا الموصوفون بشدَّة الاستماع إليهم، فهم المنافقون مِنَ اليهود الرَّاضون لما يفتريه

(1) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 5/3149.

(2) التَّرديد: تَفعِيلٌ من قولهم: رَدد الثَّوب من جانب إلى جانب، وردد الحديث ترديدًا، أي: كرَّره، ومعناه في مصطلح علماء البيان: أن تُعلِّق اللَّفظة بمعنًى منَ المعاني، ثمَّ تردَّها بعينها، وتعلّقها بمعنًى آخر، وعند هذا يحسُن رصفه، ويعجب تأليفه هذا كقول أبي نواس:

صَفرَاءُ لَا تنزلُ الأَحزَانُ سَاحَتَهَا *** لَو مَسَّهَا حَجَرٌ مَسَّتهُ سَرَّاءُ

فأضافَ المسَّ الأوَّل إلى الحجر في الأوَّل، ثمَّ أضاف المسَّ إلى السَّرّاء في الثَّاني، ليكون الكلام مُتناسبًا مُفيدًا لفائدةٍ جديدة. ينظر: يحيى بن حمزة، الطِّراز: 3/47، والسّبكيّ، عروس الأفراح: 2/313.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 6/201.

الأحبار ويفتعلونه مِنَ الكذب على الله تعالى، والمعنى: أنَّهم يَسْمَعُون الكذِب مِن مصدره، فكأنَّ النَّاتج الدّلاليّ لهذه البنية في النَّصّ هو أنَّ السَّمّاعين للكذب همُ السَّمّاعون للكذَّابين مِنَ القوم الآخرين، وهنا يتحقَّق التَّوافق في بنية العمق السِّياقيّ، ولا يغيب هنا عنصر الإيقاع المُتولِّد من تَكرار دالّ التَّرديد ﴿سَمَّٰعُونَ﴾ الَّذي يعمل على المحافظة على استمرار معنى السَّماع ومُتعلِّقه؛ ليتحقَّق تعزيز ذلك المعنى في النَّفس، فتَزداد منه نفورًا.

ويمكن أن نَلمَسَ معنًى نفسيًّا مِنَ التَّرديد المذكور، وهو تسلية الرَّسول ﷺ وتجلية حُزنه على أساس أنَّ الموصوفين بذلك الوصف السِّلبيّ سيكونون غير قادرين على إيذائه أو تيئيسه مِن مواصلة دعوته؛ لأنَّ الله تعالى لا محالة ناصره[1].

وذهب السَّمين الحلبيّ إلى جواز أَن يكون تَكرار ﴿سَمَّٰعُونَ لِلۡكَذِبِ﴾ للتَّوكيد إن كان مِن وَصفِ المنافقين، وغير مُكرَّرٍ إن كان مِن وَصفِ بني إسرائيل، ورفعُه على أنَّهُ خبرٌ لمتبدأٍ مُضمرٍ، أي: هم سَمَّاعون، وكذلك أكَّالون[2].

دلالة تعدُّد معاني اللَّام في قوله تعالى: ﴿سَمَّٰعُونَ لِلۡكَذِبِ﴾ [المائدة: 41، و42]

ينفي التّكرار:

(اللَّام) في الآية الأُولى أفادتِ التَّعليل، وقد كان أبو حاتم يقول: اللَّام في الكذب لام (كي)، أي: يسمعون لكي يكذبوا عليك[3]، وفي هذه الآية عُدِّيَ بِاللَّام على سبيل التَّقوية للعامل، وبذلك ينتفي التَّكرار؛ إذِ المعنى هناك: يسمعون كلامَ الرَّسول والمؤمنين لأَجل أن يَجدوا مجالًا للكذب، يُنَفِّرونَ النَّاس به منَ الإسلام.

شـــأن الأُمـــم الذَّليلة المهينة: لَـوْذُهَـا بالكذب في كلِّ أمورِهَا

(1) الخفاجيّ، التّرديد - دراسة بلاغيّة في تقنيات الأسلوب القرآنّي، ص: 81.
(2) السّمين، الدّرّ المصون: 4/269.
(3) الثّعلبيّ، الكشف والبيان: 4/66، والواحديّ، التفسير البسيط: 7/377.

والمعنى هنا أنَّهم يَسمَعُ بَعضُهم الكذبَ مِن بعضٍ سماع قبول، فيكذب بعضهم على بعض، كما يكذبون على غيرهم، ويقبل بعضُهم الكذبَ من بعض، فأمرُهم كُلُّه مبنيٌّ على الكذب الَّذي هو شرُّ الرَّذائل وأضرُّ المفاسد، وهكذا شأن الأُمم الذَّليلة المهينة، تلوذ بالكذب في كلِّ أَمر، وترى أنَّها تدرأ به عن نفسها ما تتوقَّع من ضرٍّ[1].

ولعلّ كونها للتّعدية أقرب؛ لأنّ ذلك وصف لهم فلا يحتاج إلى تعليل؛ لأنّه يدلّ على فساد قلوبهم من داخلها، وليس من أمرٍ خارجيّ.

دلالة حذف الموصوف والاكتفاء بالصّفة في قوله: ﴿سَمَّٰعُونَ لِلۡكَذِبِ﴾:

شيوع الكذب في أقوال اليهود وأخبارهم

حُذف الموصوف، وبقيت الصّفة؛ للدّلالة على شيوع الكذب في كلّ أقوالهم وأخبارهم؛ فلا يعرفون إلّا الكذب، بخلاف ما لو ذُكِرَ الموصوف (القول)؛ فرُبَّما تُوُهِّمَ وجودُ قولٍ صدْقٍ، ولكنّ القرآن نفى عنهم ذلك، وجعل كلّ ما يسمعونه ويتسمّعونه كذبًا.

دلالة التَّعبير بصيغة المبالغة (أكَّالون) في قوله تعالى: ﴿أَكَّٰلُونَ لِلسُّحۡتِۚ﴾:

شدّة ولوع اليهود في المال الحرام

عبّر بصيغة المبالغة؛ لأنّها بيانٌ لصفة من صفات اليهود، تحوّلَت إلى طبع من طباعهم، ويكون معنى ﴿أَكَّٰلُونَ لِلسُّحۡتِۚ﴾ أنَّهم أَخَّاذون له، لأَنَّ الأَكلَ استِعارَةٌ لتمام الانتفاع[2]. وأكَّال صيغةٌ للمبالغة؛ وتكون إمَّا في الحدث، وإمَّا في تَكرار أَنواع الحدث، فيقال: فُلانٌ أَكَّالٌ، وفُلانٌ أَكُولٌ، وهو الإنسان الَّذي يأكلُ بشراهةٍ أو يأكلُ كثيرًا[3].

دلالة ذكر هذا الوصف ﴿أَكَّٰلُونَ لِلسُّحۡتِۚ﴾ بعد وصفهم بتحريف الكلم من بعد مَواضِعه في الآية السّابقة:

لَمَّا كانت هذه الآية يسبقها قوله تعالى: ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ مِنۢ بَعۡدِ مَوَاضِعِهِۦۖ﴾ [المائدة: 41]، وكان علماء أهل الكتاب يفعلون ذلك ليشتهروا

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/261، ورضا، تفسير المنار: 6/324.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 6/201.
(3) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 5/3147 - 3148.

بين قومهم، وليأخذوا أموالهم رُشًا مقابل عدم إقامة حدود اللّه عليهم، وكان ذلك محظورًا يلزمهم العار عند اللّه تعالى، أي: سحتًا، وأُريد بيان صفاتهم وتَعداد قبائحهم بعد ذلك؛ ناسب ذكر قوله تعالى: ﴿أَكَّٰلُونَ لِلسُّحۡتِۚ﴾[1].

العدول عنِ التّعبير باسم الفاعل (سامعٌ للكذب)، (آكل للسّحت) إلى التّعبير بصيغة المبالغة ﴿سَمَّٰعُونَ لِلۡكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحۡتِۚ﴾:

عبّر بذلك؛ لأنَّهم اعتادوا سَماع الكذب، واعتادوا أَكل السُّحت، فالواحد منهم أخذَ حرامًا مِن أوَّل الأَمر، وعندما صارَ أكَّالًا وسمَّاعًا للكذب في آنٍ واحدٍ اختلَّت ذرَّات تكوينه، ولم يَعُد في أعماقه نورٌ ليرفُضَ الكذب، بل أَقبَل عليه، ويغريه الكذب ثانية بأن يأكُلَ السُّحت، والأمر دائرٌ بين سماع كَذِبٍ وأَكلِ سُحتٍ[2].

سرّ التعبير بالجمع في ﴿سَمَّٰعُونَ لِلۡكَذِبِ﴾ و﴿أَكَّٰلُونَ لِلسُّحۡتِۚ﴾:

عُبِّر بالجمع لأنّهم لمَّا مرنوا على سماع الكذب واستمرؤُوهُ؛ أضاف إلى ذلك وصفاً آخر من هذا الباب، وهو أنّهم يستمرِئُونَ المال الخبيث، الّذي ينبت من سماع الكذب.

وأيضًا فقد جمع بينهم؛ لأنّ آذانهم لمَّا استمرَأَتْ باطلَ القول وزُورَه؛ أدّى ذلك إلى أنّ أفواههم استمْرَأَت أكْلَ أموالَ النّاسِ بالباطل.

اختيار التّعبير بـ(السّحت) عنِ المال الحرام:

اختار القرآن وصفَ (السُّحت)؛ لأنّه يمحو البركة، ويزيلها من كلّ شيءٍ؛ ذلك لأنّ أصل السُّحت كَلَبُ الجُوع، يقال: فلانٌ مسحوت المعِدَة، إذا كان أكولًا، لا يُلفَى إلّا جائعًا مع كثرة أكلِه؛ وذلك بسبب نَزْعِ البركة.

ولأنّه يُطلق على كلّ كسبٍ يكون بطريق آثم، ومن ذلك: الرّشوة، والرّبا، ومهر البغي، إلى غير ذلك.

(1) عبد العظيم، موسوعة الفروق اللّغويّة، ص: 495.
(2) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 5/3150.

وعلى هذا سُمّي الكسب الخسيسُ والحرام سُحتًا؛ لأنّه يستأصل المروءة، كما أنّ الرّشوة تستأصل الثّروة.

واليهود قد اشتهروا بأكل السّحت، وذلك في تعاملاتهم من أخذ الرّشوة في الفتاوى الباطلة، وفي الحكم دون نظرٍ إلى مصدره، والسّبب في ذلك أنّ المُرتشي أصابه منَ الشّره ما دعاه إلى أخذ هذا المال كالمسحوت في معدته؛ فيلفى جائعا، ولا تجده شبعانَ.

دلالة الإتيان بـ (الفاء) في قوله تعالى: ﴿فَإِن جَآءُوكَ﴾:

الفاء هنا فاء الفصيحة؛ لأنَّها أفصَحَت عن جواب شرطٍ مُقدَّرٍ تقديره: إذا عَرَفتَ حالهم الخبيثة، وأرَدتَ بيانَ حُكم ما إذا تحاكموا إليك؛ أقول لك: ﴿فَإِن جَآءُوكَ﴾[1].

اختيار التّعبير بـ (إن) دون (إذا) في قوله: ﴿فَإِن جَآءُوكَ﴾:

جاء التَّعبير بـ (إن) الدَّالّة على الشَّكّ، ولم يكنِ التَّعبير بـ(إذا) الدَّالّة على التَّحقيق، مع أنَّهم جاؤُوا إليه حقًّا؛ لأنَّ الشَّكّ كانَ بالنِّسبة لحالهم، فهم كانوا مُتردِّدين في التَّحاكم إلى النَّبيّ ﷺ، وهم بعد الحُكم لم ينفذوا، فحالهم حال شكٍّ ابتداءً وحال شكٍّ انتهاءً، وعدمُ إذعانٍ في الحالين؛ لأنَّ في قلوبِهم مرضًا، كما قال تعالى في أشباههم: ﴿أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرۡتَابُوٓاْ أَمۡ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَرَسُولُهُۥۚ﴾ [النّور: 50][2].

وثمَّةَ وجهٌ آخرُ وهو أنّ تحاكمهم ليس عن إيمان واقتناعٍ، وقد تحاكَموا إليه بالفعل لا طلبًا للحقِّ والعدل، ولكن رجاء التَّخفيف عمَّن أرادوا التَّخفيف عنه.

دلالة التّعبير بـ (المجيء) دون (الإتيان) في قوله: ﴿فَإِن جَآءُوكَ﴾:

عبّر بـ (المجيء) لأنّه يحمل صعوبة في الإتيان، واليهود ما جاؤوا طوعًا ولا حبًّا، بل ألجأتهم الضّرورة إلى المجيء إلى الرّسول ﷺ؛ للبحث عن مخرج ممّا وقعوا فيه في أمْرِ الزّنا وحكم الرّجم للمُحصن.

تشريف النبي ﷺ **دلالة الخطاب في قوله: ﴿فَإِن جَآءُوكَ﴾:**

جاءتِ (الكاف) وهي للخطاب؛ لتدلّ على حضوره ﷺ، وعلوّ

(1) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 7/293.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 4/2193 - 2194.

شرفه في أمر التّحكيم، فأصبح هو الحاكم لهم، وهذا ينبئ عن اعترافهم الضّمنيّ بنبوّته ﷺ.

دلالة مجيء اليهود إلى النّبيّ ﷺ:

تـــركُ الـيـهـودِ الـعـدْلَ فيما بينهم:

يدلّ المجيء على أنّ اليهود ما كانوا يعدلون فيما بينهم، ولا تتكافأ دماؤهم في نظرهم؛ فكانت قريظة إذا قتلَت قتيلًا من بني النّضير ثبتَتِ الدّيّة كاملة في حال وجوبها، وإذا قتلَ بنُو النّضير مِن قريظة كانت نصف الدّيّة؛ لشرفٍ في الأولى، ونقص في الأخرَى، وحدَثَ قتلٌ بينهم في عهدِ النَّبيِّ ﷺ فتحاكموا إليه؛ فحكم بالتّسوية؛ لأنّ ذلك هو العدل.

دلالة التّعبير بـ ﴿أَوۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَإِن جَآءُوكَ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُمۡ أَوۡ أَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡۖ﴾:

النَّبيّ ﷺ مخيَّر في الحكم بين اليهود وعدمِهِ

جاء التّعبير القرآنيّ بهذا الأسلوب؛ لإثبات التَّخيير للرَّسول ﷺ في إقامة الحُكم بينهم أو الأعراض عنهم، ويؤكد هذا دِلالة (أو) الّتي تفيد التّخيير؛ وهو تخييرُ مصلحةٍ، لا تخيير تَشَهٍّ[1]. والقاعدة: أنَّ العبدَ إذا خُيِّرَ بين شيئين فأكثر، فإن كان التَّخييرُ لمصلحته؛ فهو تخيير تَشَهٍّ، وإن كان لمصلحة غيره؛ فهو تخيير اجتهادٍ في مصلحة غيره[2].

أقوال العلماء في التّوفيق بين هذا التّخيير وبين قوله تعالى: ﴿وَأَنِ ٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾:

ذهب بعض أهل العلم إلى أنّ هذا التّخيير منسوخٌ بقوله تعالى في هذا السِّياق: ﴿وَأَنِ ٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ [المائدة: 49]، وذهب جماعةٌ إلى عدم النّسخ، ومن هؤلاء محمّد رشيد رضا، ومالَ إلى أنَّه لا يصحُّ أن تنزل آيات في سياقٍ واحد - كما هو الظَّاهر في هذه الآيات - فيكونُ بعضُها ناسخًا لبعضٍ، وإنَّما تلك الآية أَمرٌ للنَّبيِّ ﷺ

(1) ابن عثيمين، تفسير ابن عثيمين - سورة المائدة: 1/413.
(2) السّبت، مختصر في قواعد التّفسير، ص: 31.

بأن يحكمَ بينهم بما أنزل اللّهُ منَ القِسط، ورجَّح أن يكون التَّخييرُ هو في قوله تعالى: ﴿وَإِن تُعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيۡـٔٗاۖ﴾[1].

فقد خيّر اللّه تعالى نبيّه ﷺ في أن يحكم بينهم أو يعرض عنهم، والغرض من ذلك أن يتعرَّف أمرهم؛ فإن كانوا يريدون الحقّ، ويطلبونه، ويذعنون له؛ استجاب للأمر وحَكَم، وإن كان يعلم أنّهم جاؤوا مُغْرِضِين، في قلوبهم مرض، لا ينفّذون إلّا ما يتّفق مع أهوائهم، وليسوا خاضعين لسلطانه، يُنفَّذُ فيهم الحقّ الّذى يراه.

التّعبير بالمُضمَر (بينهم) دون التّعبير بالظّاهر (اليهود):

جاء التّعبير بالمُضمَر؛ ليدلّ على فتح باب الحُكْم في غير المسلمين، هل يدخل المُعَاهَد أو الذّميّ، أو هي مقصورة على هذه الواقعة؟ فالتّعبير بالضّمير جعل الفقهاء يقرّرون أنّ الذّميّين في المعاملات الماليّة، والزّواجر الاجتماعيّة، خاضعون للأحكام الشّرعيّة؛ أمّا من يقيم في غير ديار أهل الإسلام، ويكون بينهم وبينَ المسلمين جوار وميثاقٌ بِعدم الاعتداء، كما كان الشّأن في يهود المدينة أوّلَ أمْرِهم؛ فالأمر فيهم على التّخيير[2].

سرّ تقديم حال الإعراض:

تقديم حال الإعراض؛ يُرادُ به المُسَارَعَة إلى بيان أنَّه لا ضَرَر فيه، حيث كان مظنَّة الضَّرر، لمَا أنَّهم كانوا لا يتحاكمون إليه إلَّا لطلب الأيسر والأَهون عليهم، فإذا أَعْرَضَ عَنْهُم، وأبَى الحُكومةَ بينَهُم؛ شقَّ ذلك عليهم، فتَشْتَدّ عداوتُهم ومضارّتُهم له، فأمَّنه اللّه تعالى بقوله: ﴿فَلَن يَضُرُّوكَ شَيۡـٔٗاۖ﴾ منَ الضّرِّ[3].

دلالة التّعبير بـ ﴿فَلَن﴾ في قوله تعالى: ﴿وَإِن تُعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيۡـٔٗاۖ﴾:

جاء التّعبير بـ ﴿فَلَن﴾ النّافية الّتي تفيد – بمعونَةِ السِّياقِ – تأبيدَ نفي وقوع الضّرر على الرّسول ﷺ، وجاء ذلك النّفي مُؤكّدًا بـ(لن)؛ لبيان أنَّهم لا طاقةَ عندهم في أن يَضرُّوه، وكان نفي الضَّرر في هذا المقام له مغزاه؛ لأنَّ احتكامهم إليه ﷺ فيه نوع منَ المُسَالمة والإذعان في الظَّاهر لمَا جاء به النَّبيُّ ﷺ، وهو إعلان للتَّصديق، فإذا أعرض فقد يكون

(1) رضا، تفسير المنار: 6/325، والشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 5/3151.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 4/2194.
(3) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 4/159.

حِفْظُ الله تعالَى نبيَّه ﷺ من ضرر اليهود وغيرهم

ثَمَّة احتمال الضَّرر الَّذي ينال الدَّعوة الإسلاميَّة، وشدَّة لجاجتهم في الباطل، فنَفَى اللّه ﷻ ذلكَ الضَّرر؛ لأَّن الإعراض يكون حيثُ يدرك النَّبيّ ﷺ أنَّه لا مجالَ لأن ينفّذوا ما يحكم به، وأنَّهم يُرِيدُون أن يطوّعوا أحكامَه لأهوائهم، أو يتأوَّلوها بغير المقصود منها، فيكون أكرمَ للدَّعوة، وأكرم لمقامِه ﷺ أن يَذَرَهُم في غيِّهم يَعمَهون، واللّه ﷻ غالبٌ على أمرهم[1].

دلالة اختصاص التَّعبير بـ ﴿وَإِن﴾ مرَّاتٍ متعدِّدَةً في هذه الآيةِ:

أتى التّعبير بـ ﴿وَإِن﴾ أكثر من مرّة في هذه الآيةِ؛ لتبيّن حرص النّبيّ ﷺ على عدم الحكم بين اليهود؛ لكذبهم وخداعهم، ومثل هؤلاء يزهد في معاشرتهم ومجالستهم، فضلًا عنِ التّحكيم بينهم؛ لذلك جاء التَّعبير بـ ﴿وَإِن﴾ للإشارة إلى أنَّه ﷺ ليس حريصًا على الحكم بينهم بل هو زاهدٌ فيه؛ لأنَّهم ليسوا طُلَّاب حقٍّ وإنصافٍ، بل هم يُريدون الحكم كما يَهْوَوْنَ ويشتهُون، والدَّليل على ذلك أنَّ التَّوراة الَّتي بين أيديهم فيها حُكم اللّه، إلَّا أنَّهم جاؤُوا إلى رسول اللّه ﷺ مُؤمِّلين أن يَقْضِيَ بينَهم بغير ما أَنزل اللّه، فيُشِيعُوا ذلك بين النَّاس، ويُعلنوا عدمَ صِدْقِه في نُبوَّته، فلمَّا حكم بما أنزل اللّه؛ خابَ أملهم، وانقلبوا صاغرين[2].

دلالة التّعبير بالإعراض في هذه الآية:

عُبِّر بالإعراض؛ لأنّه يكون في الأصل بالوجْهِ، وفي هذا إشارة إلى التّحقير من شأنهم والتّهوين من مكانتهم، ولو كانوا رؤساءَ القوم أو من وجهائهم وأشرافهم، طالما أنّهم يعطّلون حكم اللّه، ويؤكّد هذا التّعبيرَ قولُه: ﴿عَنْهُمْ﴾، وهو يَحْمِلُ معنى التّجاوز، أي: تجاوَزْ يَا رَسُولَ اللّه عمَّا ما طلبُوا منَ الباطل وتَحريف الحقّ.

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 4/2195.
(2) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 4/159.

دلالة الأمر في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِۚ﴾:

دلّ الأمر على كمال اتّصافه بالعدل في الحكم، والمعنى: إنْ أَردتَ أَيُّهَا الرَّسول الكريم الحُكمَ بالقِسطِ فاحكم كما تَحكُمُ بين المُسلمين، والقِسطُ: هو المُبَيَّنُ في قوله: ﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ [المائدة: 49]، وهو ﷺ لا يَحكُمُ إلَّا بالقسط، فهو أَمرٌ معناه الخبرُ، أَي: فَحُكمُك لا يقعُ إلَّا بالعدل، لأَنَّك مَعصومٌ مِن اتِّباع الهوى[1]، وفي الجملة مجازٌ مُرسَل بإطلاق الفعلِ، والمُرَادُ: إرادته، أي: وإن أردتَ الحُكمَ؛ فاحْكُم.

سرُّ التَّعبير بلفظ ﴿بِٱلْقِسْطِۚ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِۚ﴾:

وجُوبُ الحُكم بينَ النَّاس بالعَدل:

أُوثِرَ التّعبيرُ بلفظ القِسْط؛ لأنّه النَّصيب بالعَدل الَّذي لا وكس فيه ولا شَطَط، وتوصف به الأعمال الطَّيِّبة، فقد قال تعالى: ﴿لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلْقِسْطِۚ﴾ [يونس: 4]، وقال تعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ﴾ [الرّحمن: 9]، ومنه سُمِّي المكيال قِسطًا، والميزانُ قِسطًا؛ لأنَّه يُصوِّر لك العَدل في الوزن حتَّى تراه ظاهرًا، وقد يكون منَ العدل ما يَخْفَى؛ ولهذا قالوا: إنَّ القِسط هو النَّصيب الَّذي بُيِّنَت وجوهُه[2]، وقد ناسب هذا اللّفظ المعنى الدّقيق لِلْعدالة المُتحقِّقة في شخصيَّة النَّبيّ ﷺ.

ومعنى الآية: إنْ اخترتَ أن تحكم بينهم؛ رجاءَ أن ينفّذوا الحكم، ويُذْعِنُوا له، فلا تتبع أهواءَهم، واحكُم بالعدل والقِسطاس المستقيم، وذلك العدلُ بَيَّنَ اللّه تعالى حكمَه، وشرع لُزُومَه في كتبِه المقدَّسة؛ فإذا كان هناك زنًا؛ فالقِسطُ أن يُحكم بالحدِّ، لا فرق بين شريفٍ ووضيع، وقادرٍ وغير قادرٍ، بل الجميعُ أمام الحقِّ على

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/265.
(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 428.

سواء، فالقِسط هو إعطاء كلّ ذي حقٍّ حقَّه، وتنفيذ حدود اللّه تعالى بالمساواة، فلا يُعفى منها شريف دون وضيع، فإنَّ في هذا هلاكَ الأُمم، وذلَّ الشُّعوب[1].

سرّ التّعبير بالفعل ﴿يُحِبُّ﴾ في ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾:

إقامة العدل سبب لمحبّة الله تعالى

جاء التّعبير بالفعل ﴿يُحِبُّ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾؛ للإشارة إلى تزكية العدل، وتأكيد إقامته؛ لذلك أكّد ختام الآية بالجُملة الاسميَّة، وبـ ﴿إِنَّ﴾ المؤكِّدة، وبتصدير الكلام بالاسم الأحسن (اللّه)؛ وذلك لبيان أنَّ محبَّة اللّه تعالى لا تكون إلَّا للعادلين المقسطين الَّذين لا يَجُورُون ولا يظلمُونَ[2].

دلالة ختم الآية بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾:

دلَّ قولُه تعَالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ على محبَّة اللّه تعالى لِلْعَادِلِين المُقْسِطِين في أحكامِهم، وفي هذا ترغيب ودعوة للحكّام والقضاةِ أن يحرصوا على إقامة القسط في الأحكام، حتّى تُحْفَظَ الحقوق، وتستقرّ الأوضاع، وتسعد البشريّة.

دلالة التّعبير بالمقسطين دون القاسطين:

عُبّر بالمقسطين؛ لأنّه من أَقسَطَ الرُّباعيّ، ومعناه: العَدلُ، واسم الفاعل منه: مُقسِطٌ بمعنى: العَادِل، أو العَدْل، بخلاف قَسَطَ الثُّلاثي، فمعناه: الجَورُ، والظُّلم، يُقالُ: قَسَطَ الرَّجل: إذا جارَ، وأَقسَطَ: إذا عَدَلَ، قال تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُواْ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾﴾ [الجنّ: 15].

وهذا هو المشهور، خِلافًا للزَّجَّاج في جعلهما سواءً[3].

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 4/2195.

(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/265، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 4/2195 - 2196، وطنطاويّ، التّفسير الوسيط: 4/159.

(3) الزّجّاج، معاني القرآن: 1/388، والدّرّة، تفسير القرآن الكريم: 3/113.

جمالية الجناس في قوله تعالى: ﴿فَٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِٱلۡقِسۡطِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ﴾:

في قوله تعالى: ﴿فَٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِٱلۡقِسۡطِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ﴾ جناس الاشتقاق، وفيها رَدُّ العَجُز على الصَّدر، حيث وافَقَت كلمة ﴿ٱلۡمُقۡسِطِينَ﴾، وهي آخر كلمة في الكلام، آخرَ كلمة في صدره.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الاستماع، والسَّماع، والإصغاء، والإنصات:

السَّمع هو إدراكُ المسموع، والسَّمع أيضًا اسم الآلة الَّتي يُسمع بها، والإصغاء هو طَلَبُ إدراك المسموع بإمالة السَّمع إليه، يُقالُ صَغَا يَصغُو: إذا مالَ، وأصغى غيره، ويُقال: استمع لما كان بقصد؛ لأنّه لا يكون إلّا بالإصغاء، وهو الميل، وسَمِعَ يكون بقصدٍ، وبدونه[1].

والإنصات في اللّغة: السّكوت لأجل الاستماع.

فالإنصات سكوتٌ مع استماع، ومتى انفكَّ أحدُهما عنِ الآخر لا يُقال له إنصات، وعليه قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلۡقُرۡءَانُ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ﴾ [الأعراف: 204][2].

بخلاف الاستماع: فهو إدراك بحاسّة السّمع، ولا يشترط فيه السّكوت؛ لأنّ الإنسان قد يستمع وهو يتكلّم، ومن ذلك قول الله تعالى: ﴿نَّحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَسۡتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذۡ يَسۡتَمِعُونَ إِلَيۡكَ وَإِذۡ هُمۡ نَجۡوَىٰٓ﴾ [الإسراء: 47]؛ فكانوا يستمعون إلى تلاوة النّبيّ ﷺ، وهم يلغون بالأشعار والكلام[3].

الكذب والزّور:

الكَذِبُ: هو عدم مطابقة الخبر للواقع، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾ [المنافقون: 1] ردّاً لقول المنافقين: ﴿نَشۡهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِۗ﴾ [المنافقون: 1]، وتكذيبُهم في الشَّهادةِ لا في المشهودِ به؛ إذ كونُ النبي محمَّدٍ رسولًا لله تعالى أمرٌ حقٌّ لا ريبَ فيه، ولكنَّ ادِّعاءُهم شهادتَهُم له بذلك غيرُ مطابقٍ للواقعِ؛ فهم لم يشهَدُوا.

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 45 - 248.
(2) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 22/43، والأنصاريّ، الغرر البهيّة: 2/28.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/452.

والزُّور: هو الكذب الَّذي قد سُوِّيَ وحُسِّن في الظَّاهر؛ ليُحْسَب أنَّه صِدق، وهو من قولك: زَوّرتُ الشَّيء: إذا سوّيته وحسّنته.

فالزّور هو: كذبٌ مزخرف الظّاهر، حسن القول، مهذّب الحواشي؛ وذلك لأنّ أصله في اللّغة: التّحسين، من قولهم زوّرتُ الشَّيء: حسّنته وسوّيته.

وقد جاء في مَواضِع من لغة القرآن يُعبّر بها عن هذه المعاني، من تحسين القبيح، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمۡۖ إِنۡ أُمَّهَٰتُهُمۡ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔي وَلَدۡنَهُمۡۚ وَإِنَّهُمۡ لَيَقُولُونَ مُنكَرٗا مِّنَ ٱلۡقَوۡلِ وَزُورٗاۚ﴾ [المجادلة: 2]؛ سمَّى اللّه قولهم زوراً؛ لأنّهم جعلوا حرمة أزواجهم عليهم كحرمة أمّهاتهم؛ فمالوا عنِ الصّواب، وجعلوا القبيح حسنًا؛ فجعلوا تحريم الحلال (أزواجهم) كرحم الأمومة في الحرمة والتّحريم.

الأَكل، والذَّوق، والطَّعم:

الأكل: تناول المطعَم، وعُبِّر بالأكل عن إنفاق المال؛ لأنّ الأكل أعظم ما يُحتاج فيه إلى المال، والذَّوق: وجودُ الطَّعم بالفم، وأَصله فيما يَقلُّ تناوله دون ما يكثر، فإنّ ما يكثر منه يُقال له الأَكل، والطَّعم: تناول الغذاء، ويُسمَّى ما يتناول منه طُعْم وطعام[1].

السُّحت والحرام:

السُّحت مبالغة في صفة الحرام؛ ولهذا يُقال: حرامٌ سُحت، ولا يُقال: سُحتٌ حرامٌ. وقال بعض أهل العلم: السُّحت يفيد أنَّه حرامٌ ظاهر،، بخلاف الحرام فإنه لا يفيد أنّه سحت، ويجوز أن يُقال: إنَّ السُّحت الحرام الّذي يستأصل الطّاعات، من قولنا: سحتّه إذا استأصلته، ويجوز أن يكون السّحت الحرام الّذي لا بركة له، فكأنّه مُستأصَل، ويجوز أن يكون المراد به أنَّه يستأصل صاحبه[2].

(أتى) و(جاء):

تشترك صيغة (جاء) و(أتى) في دلالة القدوم والإقبال، غير أنّ بينهما فروقًا ذكرها العلماء، ومنهم أبو هلال العسكريّ؛ حيث فرّق بين (أتى) و(جاء) بأنَّ قَولك (جاء) كلام تامّ لا يحتاج إلى صلة، وقولك: أَتى فلان يقتضي مجيئه بشيء؛ ولهذا يُقال: جاء فلان

(1) الرّاغب، المفردات: (أكل) و(ذوق) و(طعم).
(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 181.

نفسه، ولا يُقال: أَتى فلان نفسه. والإقبال الإتيان من قبل الوجه، والمجيء إتيان من أيّ وجه كان[1]، ويضاف إلى ذلك أنَّ الإتيانَ مجيءٌ بسهولة[2].

أمّا المجيء فيأتي لما فيه صعوبة ومشقّة، ولعلّ ذلك يعود إلى لفظ كلٍّ منَ الفعلين؛ فـ (أتى) أخفّ من (جاء)، وممّا يدلّنا على ذلك أنّ (أتى) يؤخذ منها الأزمنة الثّلاثة؛ الماضي والمضارع والأمر، وكلّها وردَت في القرآن الكريم بخلاف (جاء) لم تأتِ إلّا بصيغة الماضي في القرآن الكريم، ولم يأتِ منها مضارع ولا أمر لثقلها.

وعلى هذا، جاء الفعل (أتى) في الأمور الّتي يتوصّل إليها بسهولة، أمّا (جاء) فترد في مقام المشقّة، وثقل الأمر، ومن أمثلة ذلك قوله تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ﴾ [النّحل: 1]، وقوله: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَمۡرُ ٱللَّهِ قُضِيَ بِٱلۡحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ ٧٨﴾ [غافر: 78].

فالملاحظ: أنّه قال في النّحل: ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ﴾ [النّحل: 1]، وفي غافر: ﴿جَآءَ أَمۡرُ ٱللَّهِ﴾ [غافر: 78]؛ لأنّ المعنى في سورة غافر أشقّ وأصعب؛ لمَا فيه من قضاء وخسران، بخلاف مَوضِع النّحل، فإنَّه لم يأتِ إلّا بالإتيان المناسب لليسر في قوله: ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ﴾[3] [النّحل: 1].

الحُكم والقضاء:

الحكم مشتقٌّ من حَكَم يَحْكُم، والحكم هو المنع، أمّا القضاء فمن قضَى يَقْضِي قضاءً، وهو الحكم والأمر، وعلى هذا فالحكم يقتضي المَنع عَنِ الخصومة من قولك: أحكمته إذا منعته، ويجوز أن يُقال: الحُكم فصل الأَمر على الأَحكام بما يقتضيه العقل والشَّرع.

أمّا القضاء فهو تبيين الحكم الشّرعيّ، والإلزام به، وفصل الخصومات[4].

وعلى هذا فالقضاء يقتضي فصل الأَمر على التَّمام، والحكم يقتضي المنع منَ الخصومة.

التَّولّي والإعراض:

يرى بعض أهل العلم أنّهما منَ الألفاظ المترادفة، ولا يفرّقون بينهما، والتَّحقيق أنّ كلّ لفظ منهما له معنًى يميزه عنِ الآخر من خلال النّظر في اللّغة وآيات القرآن الكريم؛

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 153 - 63.
(2) الرّاغب، المفردات: (أتي)، والسّمين، عمدة الحفّاظ: (جيء).
(3) خُضر، دقائق الفروق اللّغويّة، ص: 202.
(4) التّويجريّ، مختصر الفقه الإسلاميّ، ص: 1100.

فتقول في مادّة (عرض): أعرض عنِ الشّيء: تولّى عنه، وأولاه عُرضه، أي: جانبه، أو أولاه ظهره، وتقول: نأى عنه بعارضته، أي: بوجهه[1].

وأمّا (وَلِي)، فتقول تولّى عنِ الشّيء: أعرضَ وانصرفَ[2]، وعلى هذا؛ فالتّولّي أشدّ منَ الإعراض.

ولذلك فرّق بينهما الكفويّ؛ فقال: الإعراض: الانصراف عنِ الشَّيء بالقلب، والـمُعرِض والمُتولِّي يشتركان في ترك السُّلوك، إلَّا أَنّ المُعرِضَ أَسوأُ حالًا؛ لأَن المُتولّي متى ندم سهل عليه الرُّجوع، والـمُعرِض يحتاج إلى طلب جديد، وغاية الذَّمّ الجمع بينهما[3].

الضُّرّ والسُّوء:

الضَّرّ بفتح الضّاد خلاف النّفع، وهو عامٌّ في الضّرر في كلّ شيء؛ أمّا الضُّرّ بضمّ الضّاد فاسمٌ جامعٌ لكلّ ما يصيب البدن من هُزالٍ وشدّة، ويقترن الضُّرّ بالنّفع في آيات كثيرة في القرآن الكريم.

أما السُّوء بالضّمّ فهو اسمٌ جامع لكلّ مكروهٍ من آفة أو فسادٍ أو داء؛ أمّا السَّوء بفتح السّين فكلّ عملٍ قبيح أو رديء.

وهذه المعاني وردَت في آيات كثيرة في القرآن الكريم[4].

وعلى هذا فالضُّرّ يختلف عنِ السّوء، يؤكّد هذا ما ذكره صاحب معجم الفروق اللّغويّة بقوله: إنَّ الضُّرّ يكون من حيث لا يعلم المَقصود به، والسُّوء لا يكون إلَّا من حيث يعلم، ومعلوم أَنَّه يُقال: ضررتُ فلانًا من حيث لا يعلم، ولا يُقال: سُؤْتُه إلَّا إذا جاهرته بالمكروه[5].

القسط والعدل:

القِسطُ: هو العَدل البَيِّن الظَّاهر، ويأتي في الموازين غالبًا، ومنه سمّي الميزانُ بالقسطاس، قال تعالى: ﴿وَزِنُواْ بِٱلۡقِسۡطَاسِ ٱلۡمُسۡتَقِيمِۚ﴾ [الإسراء: 35]، ويأتي في المكيال، قال تعالى: ﴿وَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ وَٱلۡمِيزَانَ بِٱلۡقِسۡطِۖ﴾ [الأنعام: 152]؛ ولذلك سُمِّي المكيال قِسطًا؛ لأنّه بيِّن،

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عرض).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (ولي).
(3) الكفويّ، الكلّيّات، ص: 28.
(4) خضر، دقائق الفروق اللّغويّة، ص: 302 - 304.
(5) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 198.

ولمّا كان القسط هو النّصيب في المكاييل والموازين، وهذا يقتضي القسمة العادلة؛ لذلك كان استعمال العرب له؛ يقولون: تقسّطنا الشّيء بينَنا: إذا تقاسَمُوه بالقسط.

والقسط يقترن بالأمور الحسّيّة؛ لكي ينشأ العدل بينها، قال تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا۟ فِى ٱلْيَتَـٰمَىٰ فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ [النّساء: 3]، وأيضًا ما كان في عروض التّجارة، وما يجري فيها من عقود، قال تعالى: ﴿وَلَا تَسْـَٔمُوٓا۟ أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: 282]، والقِسط يعني أيضًا العملُ بالعدل، وليس الحُكم به فحسب، فلا بُدَّ من تطبيق الحُكم بالعدل حتَّى يُسمَّى قسطًا.

أمّا العدل فهو ما قام في النّفوس أنّه مستقيم، وهو ضدّ الجور، وأصله من قولهم: عدلتُ عنِ الطّريق: أعدل عنها عدلًا، وسمّي كذلك؛ لأنّه عدل عنِ الجور إلى القصد، والعدل يتضمّن الإنصاف، وهو المساواة في المكافأة إلى غير ذلك منَ المعاني الّتي تفرّق بين القسط والعدل، وممّا يدلّ على هذا التّفريق قوله تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَـٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ۝٩﴾ [الحجرات: 9]، فالملاحظ أنّه جمع بين العدل والقسط في هذه الآية، وهذا دليل على المغايرة[1].

(1) خضر، دقائق الفروق اللّغويّة، ص: 152.

﴿وَكَيۡفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوۡرَىٰةُ فِيهَا حُكۡمُ ٱللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوۡنَ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَۚ وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٤٣﴾ [المائدة: 43]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا أَمَّن الله ﷻ نبيّه ﷺ من ضررهم، إذا أعرض عنهم بعدم الحكم كما في الآية السّابقة، تعجّب في هذه الآية من تحكيمهم إيّاه مع أنّهم لا يؤمنون به ولا بكتابه، وفي كتابهم الّذي يدَّعون الإيمان به حُكمُ الله تعالى نصٌّ جليٌّ، فليسوا قاصدين حكم الله حقيقة، لذلك نفى الله عنهم الإيمان.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يُحَكِّمُونَكَ﴾: الحُكمُ: القضاءُ والفَصلُ، تقول: حَكَمتُ بينهما إذا قَضَيت، ويأتي الحُكمُ بمعنى: الشّيء الحَسَن المُتقَن، والجمع: أَحكامٌ، والحكيمُ: المُتقن للأمور، وأَصلُ الحكم: المَنعُ، وكلُّ شيءٍ منعتَه مِن الفساد فقد حكمتَه وأَحكمتَه، ومن معاني الحُكمِ أيضًا: الشّرعُ والإمامةُ[1].

2) ﴿ٱلتَّوۡرَىٰةُ﴾: معناها الضِّياءُ والنُّورُ، مِن قول العرب: وَرَى الزَّندُ يَرِي، إذا قَدَحَ وظهرَتِ النَّار، قال الله تعالى: ﴿فَٱلۡمُورِيَٰتِ قَدۡحٗا ٢﴾ [العاديات: 2]، ويقولون: وَرَيتُ بك زنادي، ومعناه: ظهر بك الخيرُ لي، فالتَّوراة سُمِّيَت بهذا الاسم؛ لظهور الحقِّ بها، ويدلُّ على هذا المعنى قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلۡفُرۡقَانَ وَضِيَآءٗ﴾ [الأنبياء: 48][2].

3) ﴿يَتَوَلَّوۡنَ﴾: التَّولِّي: مصدر تولَّى، أي: اتَّخذه وليًّا، يُقالُ: والى فلانٌ فلانًا: إذا أحبَّه وقَرَّبَه وأَدناه إليه، وإذا عُدِّي بـ(عَن) لفظًا أو تقديرًا اقتضى معنى الإعراض وترك القُربِ، فمنَ الأوّل قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡۗ﴾ [المائدة: 51]، ومنَ الثَّاني قوله تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِٱلۡمُفۡسِدِينَ ٦٣﴾ [آل عمران: 63]، والتَّولّي أيضًا: الاتِّخاذ والاتِّباع المُطلَق، ومن معانيه: النُّصرة[3].

(1) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (حكم).
(2) ابن قتيبة، غريب الحديث: 1/245، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، والزّبيديّ، تاج العروس: (وري).
(3) الرّاغب، المفردات، والزّبيديّ، تاج العروس: (ولي).

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

يقول اللّه لنبيِّه محمَّد ﷺ: كيف يُنَصِّبك هؤلاء اليهود حَكمًا، وهم في حقيقة الأمر يُكذِّبونك، وعندهم كتابُ اللّه التّوراةُ فيهَا حُكمُ اللّه؟! لكنَّهم أعرضوا عنه، وطلبوا حُكمًا غيرَ ما عندهم؛ لعلَّه يُوافِقُ أهواءَهم، وما صنيع هؤلاء بصنيع المؤمنين[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالة الاستفهام في قوله تعالى: ﴿وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ﴾:

تناقض اليهود في أحكامهم ومواقفهم يستدعي العَجَب الشَّديد:

جاءَ قولُه تَعَالَى: ﴿وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ﴾ معطوفًا على قوله تعالى: ﴿فَإِن جَآءُوكَ فَٱحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ [المائدة: 42][2]، والاستفهامُ في الآية واردٌ لمعنَى التّعجّب واستنكار حالهم، أي: أنَّ حالَهم حالٌ مُستنكرة؛ عندهم النَّصّ الصَّريح في القضيَّة الَّتي يتحاكمون فيها، ومع ذلك يلتمسون الحُكم في غير ما عندهم رجاءَ أن يكون على ما يهوَون ويبتغُون، وإن كان غيرَ ما يُؤْمِنُون فهم ممَّن اتَّخذ إلهه هواه، وممَّن يُرِيدُون أن يتَّبع الحقّ أهواءَهم، لا أن تكون أهواؤُهم تابعةً للحقِّ تَسِير في مَداره ولا تخرج عن إطاره.

تعيينُ من يتوجّه إليه التّعجّب والاستنكار:

التَّعجّب والاستنكار يتَّجهان إلى أَمرين:

أوَّلهما: أنَّهم يتحاكمون إلى النَّبيِّ ﷺ مع أنَّ الحُكم عندهم في التَّوراةِ صريحٌ لا مجال للرَّيب، فلماذا يعدِلُون عن تنفيذ ما عندهم إلى طلب شيءٍ عند النَّبي ﷺ، إلَّا أن يكونوا مؤمنين بصِدْقِ ما جاء به، وذلك لم يكن مِنْهُم.

والآخَرُ: الَّذي هو موضوع الاستنكار والعَجب أنَّهم يطلبوَن منَ

(1) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 232.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 6/206.

النَّبيّ ﷺ، ثمَّ يُعرضون من بعد بيانه لهم، فهم مُتناقِضون في جملة أحوالهم؛ يطلبون الحكم ممَّن لا يؤمنون بدعوته، مع أنَّ الحكم صريحٌ فيما يؤمنون، ثمَّ يُعرضون عنِ الحُكم الَّذي يتلاءم مع ما عندهم[1].

إيثار التَّعبير بالفعل المضارع في قوله تعالى: ﴿وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ﴾:

أُوثِرَ التَّعبيرُ بالفعل المضارع ﴿يُحَكِّمُونَكَ﴾ للدَّلالة على تجدُّد الفعل وتَكراره منَ اليهود مُستقبَلًا، إضافة إلى ذلك لاستحضار الصُّورة، وتسليط حالِ الإنكار والاستبعاد عليها، وهي ماثلة في الأذهان، وهذا الفعل مُستَعمَلٌ في التَّظاهر بمعنى الفعل دون وقوعه، أَي: أنَّهم سيتولَّون عن حكمك في حالِ ظُهُورِ الحجَّة الواضحة؛ وهي موافقةُ حكومتك لحكم التَّوراة[2].

دلالة كاف الخطاب في قوله: ﴿يُحَكِّمُونَكَ﴾:

اليهود يعلمون فضلَ النَّبيِّ ﷺ:

دلّت الكافُ على أنّ اليهودَ يَعْلَمُونَ قدرَهُ ﷺ إذا ألمّت بهم المُلمَّات، فلا يَجِدُون بابًا يُفتح لهم في قطع نزاعهم، وحقن دمائهم إلّا الرّسول ﷺ، لكنْ سَرعان ما ينتكصون على أعقابهم حسدًا من عند أنفسهم.

سرّ التَّعبير بالظّرف ﴿وَعِندَهُمُ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَعِندَهُمُ ٱلتَّوْرَىٰةُ﴾ دون (معهم):

اليهود يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض:

جاء التَّعبير بالظَّرف ﴿وَعِندَهُمُ﴾؛ لأنَّه يفيد الاجتماع في المكان، أي: أنَّ التَّوراة بين أيديهم مُلازمة لهم لا تفارقهم، يعلمون ما فيها منَ الأحكام حقَّ العِلم.

أمّا التَّعبير بـ(معهم) فإنَّه يفيد الاجتماع بالفعل المؤقّت المُحتَمِل

(1) الواحديّ، البسيط: 7/386، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/195، والرّازيّ، مفاتيح الغيب: 11/362، والنّسفيّ، مدارك التّنزيل: 1/448، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 6/207، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 4/2196.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 6/207.

للمفارقة والتَّرك والابتعاد؛ لذلك جاء التَّعبير بـ﴿وَعِندَهُمُ﴾ دون (معهم)، وقوله تعالى: ﴿وَعِندَهُمُ ٱلتَّوۡرَىٰةُ﴾ حالٌ من فاعل ﴿يُحَكِّمُونَكَ﴾.

ويضاف إلى ذلك أنّ التّعبير بالظّرفيّة ﴿وَعِندَهُمُ﴾ يشير إلى أنّ التّوراة كأنّها موجودة في كلّ بيتٍ، ويعلمون ما فيها منَ الأحكام الظّاهرة، أمّا (معهم) فتفيد المصاحبة.

وعلى هذا فيكون المقصود: العلماء الّذين يصطحبون التّوراة معهم في حلّهم وترحالهم.

دلالة التّصريح باسم التّوراة:

صُرِّح بِالتّعبير بلفظ ﴿ٱلتَّوۡرَىٰةُ﴾؛ لبيان أنّ هذه الحادثة الّتي وقعَت - وهي حادثة الزّنا أو حادثة القتل - هي في اليهود، وليست في النّصارى، وفي هذا إنصاف القرآن في تحديد مَن وقعت منهم الجريمة، فلم يُعمّم الحكم.

دلالة التَّعبير بقوله تعالى: ﴿فِيهَا حُكۡمُ ٱللَّهِ﴾:

تصديق القرآن للأحكام الّتي لم تحرّف في التّوراة:

عبّر القرآن الكريم بقوله: ﴿فِيهَا حُكۡمُ ٱللَّهِ﴾؛ للدّلالة على أنّه يقرّر أنّ التّوراة فيها حكم الله في المسألة الّتي يختصمون إلى النّبيّ ﷺ في أمرها، فهي تصديقٌ للتَّوراة في تلك الجزئيَّة، وهي إقامة حدِّ الزِّنا دون غيرها، فليس لأحد أن يحتجَّ بأنَّ القرآن يُقرُّ أحكام التَّوراة الَّتي كانت بأيدي اليهود في عصر النَّبيّ ﷺ والَّتي بأيديهم في هذه الأيَّام، فإنَّ تصديقَ ما بأيديهم في جزئيَّة منَ الجزئيَّات لا يقتضي تصديقها في كلِّ ما جاء بها ممَّا في أيديهم، فقد نسوا حظًّا ممَّا ذُكِّروا به، وحرَّفوا الكَلِمَ عن مَواضِعه، ولا شكَّ أنَّ التَّحريف لم يتناول الجميع، بل لا تزال فيها أثارة ممَّا نزل على موسى عليه السلام[1].

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 4/2196 - 2197.

دلالة تقديم الجارّ والمجرور ﴿فِيهَا﴾:

قُدِّم الجارُّ والمجرور؛ للدّلالة على أنّ العقوبة لواقعة الزّنا مُحكمةٌ لا شبهة فيها، ولا مجال فيها للتّأويل والتّحريف، فهي ثابتة ومستقرّة استقرارَ الظّرف في المظروف، ودلّ أيضًا على أنّ الحُكمَ الّذي يُرِيدُونَهُ مَنصوصٌ فيها لا يحتاجون إلى كتاب آخر[1].

سرّ التّعبير عنِ العقوبة بقوله: ﴿حُكۡمُ ٱللَّهِ﴾:

عبّر بحكم اللّه عن العقوبة؛ لإثبات أنّها شرعٌ سماويّ لا مجال للتّغيير والتّبديل فيها، وغرض الأحكام في شرع اللّه منع الفساد بكلّ صوره، وهذا مأخوذٌ من مادّة الحكم، وللإشارة إلى أنّ الحكم إذا صدرَ منَ اللّه تعالَى؛ فلا مجال للتّكذيب والتّعطيل.

دلالة إضافة الحكم إلى الاسم الأحسن ﴿ٱللَّهِ﴾:

إضافة ﴿حُكۡمُ﴾ إلى الاسم الأحسن ﴿ٱللَّهِ﴾ يُرادُ به التَّعظيم، فاللّه تعالى لا تُدَاني عظمتَه عظمةٌ، كما أفادتِ الإضافة شرفًا للتَّوراة وما فيها من أحكام.

الموقع الإعرابيّ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَتَوَلَّوۡنَ﴾:

جملةُ ﴿ثُمَّ يَتَوَلَّوۡنَ﴾ معطوفةٌ على ﴿يُحَكِّمُونَكَ﴾ داخلة في حُكم التَّعجيب؛ لأنَّ التَّحكيم مع وجود ما فيه الحقّ المغني عنِ التَّحكيم، وإن كان محلًّا للتَّعجب والاستبعاد لكن مع الإعراض عن ذلك أَعجب[2].

دلالة حرف العطف ﴿ثُمَّ﴾ في قوله: ﴿ثُمَّ يَتَوَلَّوۡنَ﴾:

فائدة العطف بـ﴿ثُمَّ﴾ الدَّالَّة على التَّرتيب مع التَّراخي؛ للدَّلالة على رُسوخ تَولِّيهم وإعراضهم، وإصرارهم على الإعراض بعد ظهور الآيات الدَّالّة على صدق التَّحكيم.

إعـراض اليهود حـتّـى لـو تبيّن لهم الحقّ:

(1) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 5/365، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/40.

(2) الشهاب، عناية القاضي: 3/244، والآلوسّي، روح المعاني: 3/310.

دلالة الاستئناف على رأي أبي حيان

جوَّز أبو حيَّان كون هذه جملة ﴿ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ﴾ مُستأنفةً، أَي: ثمَّ هم يتولَّونَ بَعد.

وهي إخبارٌ مِنَ اللّه تعالى بتولِّيهم على عادتهم في أَنَّهم إذا وضُحَ لهم الحقُّ أَعرضوا عنه وتولَّوا[1]، ولكنّ العطف أولى لظُهور المعنى فيه.

سرّ الاستعارة في قوله تعالى: ﴿يَتَوَلَّوْنَ﴾:

في قوله: ﴿يَتَوَلَّوْنَ﴾ استعارةُ محسوسٍ؛ وهو التَّولّي - بمعنى: الرُّجوع الحسّيِّ - لمعقول وهو الإعراض القلبيّ عمَّا سمعوه منَ الحقِّ، بجامع الانتكاس في كلٍّ، وسِرُّها البلاغيُّ تصويرُ إعراضهم وصدُودِهم حتَّى كأنَّه يُرى بالعين[2].

دلالة التَّعبير بالبعديّة والإشارة في قوله تعالى: ﴿مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَۚ﴾:

المبطلون في مُفارقاتٍ مُستمرَّة بينهم وبين الحقّ:

دلّ التّعبير بالبعديّة من قوله ﴿بَعۡدِ﴾، والإشارة ﴿ذَٰلِكَۚ﴾ على التَّفاوت النَّفسيّ الكبير والتَّراخي المعنويّ بعد الاحتكام إلى النَّبيّ ﷺ والإعراض عن قولهِ بعد أن بيَّن حُكْمَ التَّوراة فيما يحتكمون، ولكنَّ المنافق المبطل في مُفارقاتٍ مُستمرَّة بينه وبين الحقِّ، والمنطق السَّليم، والعقل المستقيم[3].

ودلّت على غاية التَّعنُّت المُستَوجِبَة للعجب[4]؛ لأنّهم يُعرضون عن حُكمِكَ الموافق لكتابهم مِن بعد ما رضُوا بحكمك[5].

أثر دخول الجارّ ﴿مِنۢ﴾ في قوله: ﴿مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَۚ﴾:

لـمَّا كان المراد بالحُكم الجِنس، وكانوا يفعلون بعض أحكامها،

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/266، والآلوسّي، روح المعاني: 3/310، ودرويش، إعراب القرآن: 2/482.
(2) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 1/255.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 4/2197.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 6/206.
(5) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/40، والآلوسّي، روح المعاني: 3/310.

فلم يستغرق زمان تولّيهم زمان البُعد؛ أدخل الجارّ لذلك، فقال: ﴿مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَۚ﴾، أي: الأمر العالي؛ وهو الحُكم الَّذي يعلمون أنَّه حُكم اللّه، فلم يَبقَ تحكيمهم لك من غير إيمانٍ بك إلَّا تلاعبًا[1].

دلالة النَّفي في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾:

نفيُ صفة الإيمان عنِ اليهود وأشباههم ممّن يجعلون الحقّ تبعاً لأهوائهم:

دلَّت ﴿وَمَآ﴾ على نفي الإيمان عنهم مع حذف مُتعلِّقه للإشارة إلى أنَّهم ما آمنوا بالتَّوراة ولا بالإسلام[2]، وذهب بعض أهل العلم إلى أنَّه إخبارٌ عنهم أنَّهم لا يؤمنون أبدًا، فهو خبرٌ عَنِ المُستقبَلِ لا الماضي. ويحتمل أن المرادَ نَفيُ الإيمان بالتَّوراة وبموسى عنهم، وقد قال أهل المعاني: ويَحْتَمِل أن يكون المعنى: وما هم بالمؤمنين بحُكمك أنَّه من عند اللّه مع جحدهم نبوَّتك، وفي هذا تجهيلٌ لهم في تحكيم من لم يؤمنوا بحكمه[3].

دلالة التَّعبير باسم الإشارة في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾:

ودلّتِ الإشارة في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ على التّحقير من تصرّفاتهم، ودنوِّ منزلتهم، وقُبح أوصافهم الّتي سبق ذكرها من أنّهم سمّاعون للكذب، أكّالون للسّحت، يفرّقون في الحكم بين القوّيّ والضّعيف، ومن كانت هذه صفاتهم؛ فلا يدخل الإيمان في قلوبهم.

سرّ ختام الآية بقوله تعالى: ﴿وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾:

جاءَت هذه الجملةُ مقرّرةً لفحوى ما قبلها؛ من أنّهم ليسوا بمؤمنين بكتابهم؛ لإعْرَاضِهم عنه، المُنبِئ عن عدم الرّضا القلبيّ به أوّلًا، وإعراضهم عنِ النّبيّ ﷺ وحكمه ثانيًا[4].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 6/143 - 144.
(2) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 4/358، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 6/207.
(3) الواحديّ، التفسير البسيط: 7/387.
(4) الآلوسّي، روح المعاني: 6/142.

دلالة وضع اسم الإشارة ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ مَوضِع ضميرهم (هُمْ):

وضع اسم الإشارة ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ مَوضِع ضميرهم (هُمْ)؛ للقَصدِ إلى إحضارهم في الذِّهن بما وُصِفوا به مِنَ القبائح؛ إيماءً إلى علَّة الحُكم[1]، وأتى بـ(أولاء) مقرونةً بالكاف الدَّالَّة على بُعدِ المشار إليه، وهذا لِدُنوِّ مَنزِلتهم لا لعُلوِّها، يعني: ما هؤلاء المنحطُّون الَّذين نزلوا إلى أَسفل السَّافلين بالمؤمنين.

دلالة الإتيان بحرف الجرّ (الباء) في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾:

أُتِيَ بحرف الجرِّ في قوله تعالى: ﴿بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾؛ للتَّأكيد[2] على نفي إيمانهم، والتّهكم بهم.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

عند، ولَدُن، ومع:

فرَّق العسكريُّ بين لدُن وعند، بأنَّ (لدنِّي) يتمكَّن تمكُّن (عند)، تقول: عِندي مالٌ، ولا تقول: لدنّي مالٌ، ولكن تقول: لدنّي مالٌ إلَّا أنَّك تقول ذلك في المال الحاضر عندك، ويجوزُ أن تقولَ: عندي مالٌ، وإن كان غائبًا عنك؛ لأنَّ لدنّي هو لما يليك، وقال بعضُهم: لدن لغة لدنِّي[3]، أضف إلى ذلك أنَّ (لدُن) أفخم من (عند)[4]، وفرَّق بين (مع) و(عند)؛ بأنَّ قولك (مع) يفيد الاجتماع في الفعل، وقولك (عند) يفيد الاجتماع في المكان[5].

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/40.

(2) ابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 7/344، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 6/143 - 144، وابن عثيمين، تفسير سورة المائدة: 1/420 - 421.

(3) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 462.

(4) عبد العظيم، موسوعة الفروق اللّغويّة: 2/987.

(5) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 499.

﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَا ٱلتَّوۡرَىٰةَ فِيهَا هُدٗى وَنُورٞۚ يَحۡكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسۡلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلۡأَحۡبَارُ بِمَا ٱسۡتُحۡفِظُواْ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ عَلَيۡهِ شُهَدَآءَۚ فَلَا تَخۡشَوُاْ ٱلنَّاسَ وَٱخۡشَوۡنِ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗاۚ وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ٤٤﴾ [المائدة: 44]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

بعد أن ذكرتِ الآيات السّابقة ما عليه اليهود منَ الطّباع السّيّئة، والصّفات المذمومة، والأخلاق المرذولة، في تعاملهم مع النّاس ومع أحكام الله، وذلك بالتّفريق في تطبيقها على الوضيع دون الشّريف، وعلى الفقير دون الغنيّ مُتّبعين في ذلك أهواءهم؛ جاءَت هذه الآية لتبيّن مقام التّوراة قبل تحريفها، وأنّها مصدر الهدى والنّور؛ لأنّها مُنزّلة من عند الله، ويجب مُراعاة أَحكامها؛ لأنَّها لم تزَل مَرعيَّةً فيما بين الأنبياء، ومَن يقتدي بهم كابرًا عن كابرٍ، مقبولةً لكلِّ أحدٍ منَ الحُكام والمُتحاكمين، محفوظةً عنِ المُخالفة والتَّبديل؛ تحقيقًا لما وُصِفَ به المحرِّفون من عدم إيمانهم بها، وتقريرًا لكفرهم وظلمهم[1].

ويقال أيضًا: بعد أن نَعَى الله على اليهود عدمَ رِضَاهم بحكم التّوراة، وطلبهم حكم النّبيّ ﷺ إن وافق هواهم، ثمّ إعراضهم عن حكمه ﷺ؛ ذكر هنا التّوراة وما فيها منَ الهدى والنّور، والحكم بها للأنبياء والرّبّانيّين والأحبار، وكلّ ذلك قبل تحريفها[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَا﴾: الإنزال: مصدر نزل، وهو نَقلُ الشَّيء من أَعلى إلى أَسفل، يُقالُ: نَزَلَ الشَّيء، يَنزِلُ، نُزولًا، أي: هبط وانحدر مِن عُلُوٍّ إلى سُفل. وأَنزَلَ الشَّيء: جعله يَنزِلُ. وأَصله: الانحطاط مِن عُلُوٍّ. والتَّنزيلُ أيضًا: التَّرتيبُ، وهو: إنزالُ الشَّيء مُرَتَّبًا شيئًا بعد شيءٍ[3].

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/40، والبقاعيّ، نظم الدُّرر: 6/144، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 6/207.
(2) الحجازي، التّفسير الواضح: 1/518.
(3) الفيروزآبادي، القاموس المحيط، وابن سيده، المحكم، وابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس: (نزل).

2) ﴿ٱلتَّوۡرَىٰةَ﴾: قال الفرَّاء: التَّوراة معناها: الضِّياء والنُّور، مِن قول العرب: قد وَرِيَت بك زنادي، أي: أَضاءَت بك زنادي، قال: وأَصلُ التَّوراة تَورَيَة، على وزن: تَفعَلَة، فصَارَت الياء أَلفًا؛ لتحرُّكها وانفتاح ما قبلها، ويجوز أَن تكونَ: تَفعِلَة فيكونُ أَصلُها: تَورية، فتُنقَل مِنَ الكسر إلى الفتح؛ كما تقولُ العرب: جاريةٌ وجاراةٌ، وناصيةٌ وناصاةٌ، وباقيةٌ وباقاةٌ. أَنشدَ الفَّراءُ:

فما الدُّنيَا بِباقَاةٍ لِحَيٍّ *** وما حَيٌّ على الدُّنيَا بِبَاقِ[1]

3) ﴿هُدًى﴾: الرَّشاد والبيان والدَّلالة بلطفٍ إلى ما يُوصِلُ إلى المطلوب، يُؤَنَّثُ ويُذَكَّرُ، وهو لازمٌ ومُتَعَدٍّ، يُقال: هداهُ هُدىً وهَديًا وهِدايةً وهِديَةً، وهَداه للدِّين وإلى الدِّين، أي: أرشَدَه إليه وبَيَّنَه له، وعَرَّفَه به، وضدُّه: الضَّلالُ. ومن معانيه أيضًا: الطّاعة، والورع، وطريق الحقّ، وإخراج شيءٍ إلى شيءٍ، والنَّهار[2].

وذكر الرّاغب أنّ هداية اللّه تعالى للإنسان على أربعة أوجه:

الأوّل: الهداية الّتي عمّ بجنسها كلّ مكلّف منَ العقل، والفطنة، والمعارف الضّروريّة.

الثّاني: الهداية الّتي جعل للنّاس بدعائه إيّاهم على ألسنة الأنبياء، وإنزال القرآن، ونحو ذلك.

الثّالث: التّوفيق الّذي يختصّ به منِ اهتدى، وهو المعنيّ بقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ زَادَهُمۡ هُدًى﴾ [محمّد: 17].

الرّابع: الهداية إلى الجنّة، قال تعالى: ﴿سَيَهۡدِيهِمۡ وَيُصۡلِحُ بَالَهُمۡ ۝٥﴾ [محمّد: 5].

وهذه الهدايات الأربع مترتّبٌ بَعْضُها على بعض[3].

4) ﴿وَنُورٞۚ﴾: النُّور: الضَّوء المنتشر الَّذي يعين على الإبصار، وذلك ضربان: دنيويٌّ، وأُخرويٌّ، فالدُّنيويُّ ضربان: ضرب معقولٌ بعين البصيرة، وهو ما انتشر مِنَ الأُمور الإلهيَّة كنور العقل ونور القرآن، ومحسوسٌ بعين البصر، وهو ما انتشر منَ الأجسام النَّيِّرة كالقمرين والنُّجوم والنَّيِّرات.

(1) الأنباريّ، الزّاهر: 1/72، والزّبيديّ، تاج العروس: (وري).
(2) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، والفيروزآبادي، القاموس المحيط، وابن سيده، المحكم، وابن منظور، لسان العرب: (هدي).
(3) الرّاغب، المفردات: (هدى).

فمِنَ النُّور الإلهيّ قوله تعالى: ﴿قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ ١٥﴾ [المائدة: 15]، ومنَ المحسوس الَّذي بعين البصر نحو قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلشَّمۡسَ ضِيَآءٗ وَٱلۡقَمَرَ نُورٗا﴾ [يونس: 5]، وتخصيص الشَّمس بالضَّوء، والقمر بالنُّور من حيث إنَّ الضَّوء أخصُّ منَ النُّور.

وممَّا هو عامٌّ فيهما قوله: ﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَۖ﴾ [الأنعام: 1].

ومن النُّور الأُخرويّ قوله: ﴿يَسۡعَىٰ نُورُهُم بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ﴾ [الحديد: 12]. ويُقالُ: أنار اللّه كذا ونَوَّرَه، ومن أسماء اللّه تعالى المقيَّدةِ: نور السماوات والأرض، وذلك من حيثُ إنَّه هو المُنَوِّر، قال: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ [النّور: 35]، وتَسميته تعالى بذلك لمبالغة فعله[1].

5) ﴿يَحۡكُمُ﴾: الحُكمُ: القضاءُ والفصلُ، تقولُ: حَكَمتُ بينهما إذا قَضَيتُ، ويأتي الحُكمُ بمعنى: الشّيء الحسن المُتقَن، والجَمعُ: أَحكامٌ، والحكيمُ: المُتقِنُ للأُمور، وأَصلُ الحكم: المَنعُ.

ومن معاني الحُكمِ أيضًا: الشّرع والإمامة[2]. والحكم بالشّيء: أن تقضي بأنّه كذا أو ليس بكذا، سواء ألزمت ذلك غيرك أم لم تلزمه[3].

6) ﴿ٱلنَّبِيُّونَ﴾: النَّبيُّ: المُخبر عَنِ اللّه تعالى، فَعِيلٌ مِنَ النَّبأ، وهو: الخبر والعِلم، ويُطلق على الخَبَر ذي الفائدة العظيمة، يُقال: نَبأ ونَبَّأ وأَنبأ بالشَّيء، أي: أَخبَر وخَبَّر به، والإنباءُ: الإخبارُ والإعلامُ عَنِ الشَّيء قبل وقت ظهوره، وأَصلُ النّبيّ ﷺ - في قول بعض أهل العلم - مِنَ النُّبوّة والنُّبوء، وهو: العلوُّ والارتفاع، والنَّبيءُ والنَّبيّ: العالي المرتفع، ومنه سُمِّي النَّبيُّ نبيًّا؛ لإخباره عَنِ اللّه، ولرفعة قدره في الدُّنيا والآخرة، وجمعه: نبيّون وأَنبياء[4].

7) ﴿ٱلَّذِينَ أَسۡلَمُواْ﴾: الإسلام: الانقيادُ والإذعانُ والخضوعُ، يُقالُ: أَسلَمَ أَمرَه، يُسلِمُ، إسلامًا، أي: انقاد وخضع، وأَصلُ الإسلام: الخُلوصُ والنَّجاة، ومنه سُمِّي الانقياد إسلامًا؛ لأنَّ صاحبَه ينجو به، ويخلص مِنَ الإباء والامتناع والكُفر[5].

(1) الرّاغب، المفردات: (نور).
(2) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (حكم).
(3) الرّاغب، المفردات: (حكم).
(4) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والزّبيديّ، تاج العروس: (نبو).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس: (سلم).

ومعنى ﴿أَسۡلَمُواْ﴾ في الآية: انقادوا لأمر الله تعالى، والعملِ بكتابه.

8) ﴿هَادُواْ﴾: كلمةٌ مشتقَّةٌ منَ الهَود بمعنى: التَّوبة والرُّجوع، يُقال: هادَ، يَهودُ، هَودًا، وتهوَّد، أي: تاب ورجع إلى الحقِّ؛ وسُمّي اليهود يهودًا، إمَّا من قوله ﷻ: ﴿إِنَّا هُدۡنَآ إِلَيۡكَۚ﴾ [الأعراف: 156]، أَي: رَجعنَا وتُبنا، وإمَّا منَ التَّهويد، أَي: السُّكون، ويمكن أَن يكونوا سمُّوا بالمَصدر من هادَ يَهودُ هَودًا، وقوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ هَادُواْ﴾، قال ابن عبَّاس: يريد تابوا، يعني: منَ الكفر[1].

9) ﴿وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ﴾: جمعُ: ربَّانيّ، وفيه قولان: أَحدُهما: أَنَّه منسوبٌ إلى الرَّبِّ، وهو الكاملُ في العِلمِ والعملِ، الشَّديد التَّمسك بطاعة الله ﷻ ودينه[2]، والأَلفُ والنُّون فيه زائدتان في النَّسب دلالة على المبالغة، والآخَرُ: أَنَّه منسوبٌ إلى رُبَّان، والرُّبَّان هو مُعلِّم الخير، ومَن يَسوس النَّاس، ويعرِّفهم أمرَ دينهم، فالألف والنُّون دالَّان على زيادة في الوصف، كالتِي في: عطشان، ونحوه، وتكون النِّسبة على هذا للمبالغة في الوصف نحو: أَحْمَرِي[3].

10) ﴿وَٱلۡأَحۡبَارُ﴾: الحبرُ: وهو الأثرُ في حُسنٍ وبهاءٍ، فالحبارُ: الأَثَرُ، قال الشَّاعرُ يصف فرسًا:

وَلَم يُقَلِّب أَرضَهَا البَيطَارُ***ولَا لِحَبلَيهِ بِهَا حَبَارُ

ثمَّ يَتَشَعَّبُ هذا، فيُقالُ للَّذي يُكتَبُ به حِبرٌ، وللَّذي يَكتُبُ بالحِبرِ حِبرٌ وحَبرٌ، والحَبر: العالِمُ، وجَمعُه: أَحبَار؛ لما يبقى مِن أَثر علومهم في قلوب النَّاس، ومِن آثار أفعالهم الحسنة المُقتَدى بها، قال تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [التّوبة: 31][4]، وإلى هذا المعنى أشار أمير المؤمنين علي ﷺ بقوله: (العلماء باقون ما بقي الدّهر، أعيانهم مفقودة، وآثارهم في القلوب موجودة).

11) ﴿بِمَا ٱسۡتُحۡفِظُواْ﴾: الحِفظ: يُقال تارة لهيئة النّفس الّتي بها يثبت ما يؤدّي إليه

(1) الخليل، العين، وابن دريد، جمهرة اللّغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (هود).
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 2/52.
(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (رب)، وأبو السُّعود، إرشاد العَقل السَّليم: 2/52، والدّرة، تفسير القرآن الكريم: 3/116.
(4) الرّاغب، المفردات: (حبر).

الفهم، وتارة لضبط الشّيء في النّفس، ويضادّه: النّسيان، وتارة لاستعمال تلك القوّة، فيُقال: حفظتُ كذا حِفظًا، ثمّ يُستعمل في كلّ تَفَقُّدٍ وتعهّد ورعاية وحراسة، يُقالُ: حَفِظَ البيتَ، أَي: حَرَسَه، ويأتي الحِفظُ بمعنى: الرِّعاية والعناية، وضدُّه التّضييع والتّفريط، تقولُ: حَفِظَ المالَ حفظًا: إذا رعاه ومنعَهُ مِنَ الضَّياع، والحِفظُ أَيضًا: التَّعاهد وقلَّة الغفلة، وضدُّه النِّسيانُ، يُقالُ: حَفِظَ الكلام، أَي: تعاهده ولم ينسَه، ومن معاني الحفظ: الصِّيانة والإبقاء والاستمرار والمواظبة والمراقبة والاحتراز[1].

12) ﴿كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾: الكَتبُ: ضمّ أديمٍ إلى أديمٍ بالخياطة، وفي التّعارف، ضمّ الحروف بعضها إلى بعضٍ بالخطّ، وقد يُقال ذلك للمضموم بعضها إلى بعضٍ باللّفظ؛ فالأصل في الكتابة النّظم بالخطّ.

وقال ابن فارس: الكاف والتّاء والباء أَصلٌ صحيحٌ واحدٌ يدلُّ على جمع شيءٍ إلى شيءٍ، ومنه قِيل: كَتَبتُ الكتابَ؛ لأنَّه يجمع حرفًا إلى حرفٍ، والكتابُ: اسمٌ لما كُتِبَ مجموعًا، وكَتَبَ الشَّيء، أي: خطَّه، ومن معاني الكتاب: الصَّحيفة، والدّواة، والقدر، والفَرضُ، كما يُطلَقُ على ما يكتُبه الشَّخص ويُرسِلُه[2].

13) ﴿شُهَدَآءَ﴾: الشَّهادة: الحضور والمعاينة، يُقالُ: شَهِدَ الشّيءَ: إذا حضَره وعاينَهُ، وتُطلَقُ بمعنى الإخبار والإعلام، يُقالُ: شَهِدَ بالأَمر: إذا أَخبَرَ به وأَعلَمَ غيره به، فالشَّهادةُ: إخبارٌ عن عِلمٍ يَحصلُ عن طريق الحضور أو الرُّؤية ونحو ذلك، ومن معانيها: العِلم، والرُّؤيَة، والإدراك[3].

14) ﴿فَلَا تَخۡشَوُاْ﴾: الخشية: الخوف والذُّعر، يُقالُ: خَشِيَه يخشاه خشيًا وخشيةً، أي: خافه وذُعر منه، أو أنَّ الخشية: خوفٌ مع تعظيم، وأَكثرُ ما يكون ذلك عَن عِلم بما يخافُ منه، وأَصلها مِنَ الخَشي، وهو اليابس مِنَ النَّبات، يُقال: شَجرةٌ خاشِيَة، أَي: يابسة، ويُقالُ: هذا المكانُ أَخشى من ذلك، أي: أشدُّ، وتأتي الخشيةُ بمعنى تألُّم القلبِ بسبَبِ توقُّع مَكروه في المُستقبَل، ومن معانيها أيضًا: الرَّجاء، والعِلم، والتَّعظيم، والكراهة[4].

(1) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (حفظ).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والفيروزآبادي، مقاييس اللغة، وابن سيده، المحكم، والجوهريّ، الصّحاح: (كتب).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن الأثير، النّهاية، والزّبيديّ، تاج العروس: (شهد).
(4) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والزّبيديّ، تاج العروس: (خشي).

15) ﴿ٱلنَّاسَ﴾: هم بنو آدم، والأصل في النَّاس الأُناسُ مُخَفَّفًا، فجعلوا الأَلف واللَّام عِوضًا مِنَ الهمزة[1].

16) ﴿وَلَا تَشۡتَرُواْ﴾ الشِّراء: المبادلة، يُقال: شَرَى الشَّيء: يَشريه شرًى وشراءً، إذا بادله بغيره، أو تركه مقابل شيءٍ آخرَ، والعرب تقول لكُلِّ مَن ترك شيئًا وتمسَّكَ بغيره: قد اشتَراه، ويُطلَق الشِّراءُ على البيع، وهو: مال بمالٍ، ومن معانيه أيضًا: المماثلة[2]، وتُجُوِّز بالشّراء والاشتراء في كلّ ما يحصل به شيء، نحو: ﴿ٱشۡتَرَوُاْ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا بِٱلۡأٓخِرَةِۖ﴾ [البقرة: 86].

17) ﴿بِـَٔايَٰتِي﴾: الآيَةُ: مشتقّة إمّا من (أيّ)؛ فإنّها هي الّتي تبيّن أيًّا من أيّ، أو من قولهم: أوي إليه، والصّحيح أنّها مشتقّة منَ التّأيّي، الّذي هو التّثبت، والإقامة على الشّيء، وتُطلَق على البناء العالي، قال تعالى: ﴿أَتَبۡنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعۡبَثُونَ ١٢٨﴾ [الشّعراء: 128]، أي: علامة، ومنه سُمِّيَت الآية مِنَ القرآن بذلك؛ لأنّها علامةٌ لانقطاع الكلام الّذي قبلها والّذي بعدها، وتُطلَق بمعنى جماعة الحروف، ومنه: آية القرآن، ويُقال: خرج القوم بآيتهم، أي: بجماعتهم، ومن معانيها: المعجزة، والدّليل، والبرهان، والأَمر العجيب، والعِبرَة، والجمعُ: آياتٌ، وآيٌ[3].

18) ﴿ثَمَنًا﴾: الثَّمن: اسمٌ لِمَا يأخُذُه البائع في مقابلة البيع، عينًا كان أم سِلعَةً. وكلّ ما يحصل عوضًا عن شيءٍ فهو ثَمَنُه، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشۡتَرُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ وَأَيۡمَٰنِهِمۡ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ [آل عمران: 77]، وأَثمَنتُ الرَّجلَ بمتاعه، وأَثمَنتُ له: أكثرتُ له الثَّمَن، وشيءٌ ثمين: كثيرُ الثَّمن[4].

19) ﴿قَلِيلًا﴾: يُقال: قَلَّ الشَّيءُ يَقِلُّ قِلَّةً فهو قليلٌ، القِلَّةُ والكثرةُ يستعملان في الأَعداد، كما أنَّ العِظَم والصِّغر يستعملان في الأجسام، ثمَّ يستعارُ كلُّ واحدٍ مِنَ الكثرة والعِظَم ومِنَ القلَّة والصِّغر للآخر.

ويُكنَّى بالقلَّة عنِ الذّلَّة قوله: ﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ كُنتُمۡ قَلِيلٗا فَكَثَّرَكُمۡۖ﴾ [الأعراف: 86]، ويُكنَّى بها

(1) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، والجوهريّ، الصّحاح: (أنس).
(2) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (شرى).
(3) الجوهريّ، الصّحاح، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (أيا).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (ثمن).

تارةً عنِ العزَّة اعتبارًا بقوله: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ۝١٣﴾ [سبأ: 13]، وقليلٌ يُعبَّر به عَنِ النَّفي، نحو: قلَّما يفعل فلانٌ كذا، ولهذا يصحُّ أن يُستثنى منه على حدٍّ ما يُستثنى مِنَ النَّفي، فيقالُ: قلَّما يفعل كذا إلَّا قاعدًا أو قائمًا، وما يجري مجراه[1].

20) ﴿هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾: الكُفرُ: نقيضُ الإيمان، يُقال: كَفَرَ بالشّيء، يَكفُرُ، كُفرًا وكُفورًا وكُفرانًا: إذا أَشرَكَ بالله ولم يُؤمِن به، ويأتي الكُفرُ بمعنى الإنكار والجحود، فيُقال: كفرَ بالنّعمة، أي: أَنكَرَها وجَحَدَها، وأَصلُ الكُفر: السّتر والتّغطية، يُقال: كَفَرَ الشَّيءَ، أي: سَتَرَه وغَطَّاه، ومنه سُمِّيَ الزّارِعُ كافِرًا؛ لأنّهُ يُغَطِّي البَذرَ بالتُّراب، ومنه سُمِّيَ غيرُ المُؤمن كافرًا؛ لأنّه غطّى الحقّ والإيمان، ومن معاني الكفر أيضًا: البراءة، والامتناع، والكذب[2].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

إنَّا أنزلنا التَّوراة على موسى عليه السلام، فيها إرشادٌ ودلالة على الخير، ونورٌ يُستضاء به، يحكم بها أنبياء بني إسرائيل الَّذين انقادوا لله بالطَّاعة، ويحكم بها العلماء والفقهاء الَّذين يُرَبُّون النَّاس بما استحفظهم الله على كتابه، وجعلهم أُمناء عليه يحفظونه منَ التَّحريف والتَّبديل، وهم شهداء عليه بأنَّه حقٌّ، وإليهم يرجع النَّاس في أَمره، فلا تخافوا - أيَّها اليهود - النَّاسَ وخافوني وحدي، ولا تأخذوا بدلًا منَ الحكم بما أنزل الله ثمنًا قليلًا مِن رئاسة أو جاه أو مال، ومَن لم يحكم بما أنزلَ الله مِنَ الوحي مُستحلًّا ذلك، أو مُفضّلًا عليه غيره، أو مُساويًا له معه، فأولئك هم الكافرون حقًّا[3].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

سرّ عدم عطف هذه الجملة على ما قبلها ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ﴾:

بيان فظاعة حال اليهود

لم تعطف هذه الجملة على ما قبلها؛ لأنّها كلام مستأنف، سيق لتقرير مزيد فظاعة حال أولئك اليهود ببيان شرف علوّ التّوراة على أيّ وجه.

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (قل).
(2) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، والفيروزآبادي، القاموس المحيط، وابن سيده، المحكم، وابن منظور، لسان العرب: (كفر).
(3) جماعة من علماء التّفسير، المختصر في تفسير القرآن الكريم، ص: 115.

دلالة التَّوكيد بـ (إنَّ) في قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَا﴾:

جاءتِ الجملة مؤكَّدةً بـ(إنَّ) واسميَّةِ الجملة؛ وذلك لأنَّ المُخاطَبين - وهم اليهود - مُتردِّدون في أَمر الزّناة، فاقتضى الحالُ التَّوكيدَ لِيَنْزِعَ الشَّكّ من نفوسهم.

سرُّ التَّعبير بلفظ ﴿أَنزَلۡنَا﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَا ٱلتَّوۡرَىٰةَ﴾:

شرف التّوراة قبل تحريفها:

التّعبير بلفظ ﴿أَنزَلۡنَا﴾ يدلّ على شرف التّوراة، ومكانها منَ الحقّ ﷻ قبل أن يحرّفوها بالزّيادة والنّقصان، فلمّا حدثتِ الزّيادة والنّقصان، فنسوا حظًّا ممّا ذكّروا به، وزادوا ما لم ينزل من عند اللّه؛ فلا يحتجّ بها، ولذلك بيّن ﷻ هذا الشّرف بإضافة التّنزيل إليه ليدلَّ على أنَّها وحيٌ منَ اللّه، فاستُعير النُّزول لبلوغ الوحي؛ لأنَّه بلوغ شيء من لَدن عظيم،[1]، وأكّد ذلك الشّرف بـ (إِنَّ).

وممّا يدلّ عليه لفظ ﴿أَنزَلۡنَا﴾ أنّ الكتب السّماويّة مصدرها الوحي؛ فإذا صدّقتم بالتّوراة الّتي أُنزلت على موسى، فيجب عليكم الإيمان بالقرآن؛ لأنّه منزّل على نبيّنا ﷺ، فجهة الإنزال واحدة، وحدّ الزّاني المحصن فيهما واحد.

علّة ذكر التَّوراة في قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَا ٱلتَّوۡرَىٰةَ﴾:

التَّوراة رسالة الله تعالى لبني إسرائيل:

جِيءَ بذِكْرِ التَّوراة في سياق جملة مستأنفةٍ لبيان عُلوِّ شأنها، ووجوب مراعاة أحكامِها، وهو يتضمَّنُ تعظيم وتفخيم شأنها[2].

وللإشارة إلى أنّ الحادثة الّتي وقعت هي في اليهود خاصّة؛ لأنّ التّوراة كتاب موسى عليه السلام، ولأنّ شأنها شأن الكتب السّماويّة، تعمل على حفظ الأعراض، ومنع انتشار الرّذيلة في المجتمع.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 6/207.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/40.

دلالة التّعبير بـ(نون العظمة) في قوله: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَا﴾:

مكانة التّوراة عند اللهِ تعالَى:

دلّت (نون العظمة) على شرف التّوراة وقداستها، وذلك لأنّها مُنزَّلةٌ من عند الله، فاكتسبتِ التّعظيم.

دلالة وصف التّوراة بالهدى والنّور:

وصفُ التَّوراةِ بالهدى والنّور دلالة على شرفها الذّاتيّ؛ حيث اشتملت على الهداية في بيان الأحكام؛ في المعاملات والزّواجر الاجتماعيّة في الانحرافات الأخلاقيّة، وأمّا النّور فهو ما تشتمل عليه من مواعظ مبصرة وأخلاق منيرة للحقّ، مقوّمة للسّلوك، ونحو ذلك، وبذلك تكون الهداية لما يتعلّق بمعاملات النّاس وتنظيم حياتهم، والنّور ما يتعلق بالعقيدة والعبادة والمواعظ[1].

نكتة الجمع بين الهدى والنّور:

وجمع بين وصفَي الهدَى والنُّور؛ للردّ على اليهود، ولبيان وجه العجب في قوله تعالى: ﴿وَكَيۡفَ يُحَكِّمُونَكَ﴾؛ فلو كانوا طلّابَ حقّ في تحكيم رسول الله ﷺ، فالتّوراة عندهم فيها الهداية إلى العدل والنّور في بيان ما اسْتَبْهَمَ منَ الأحكام.

سرّ وصف التّوراة بأنّها هدى ونور في قوله: ﴿فِيهَا هُدٗى وَنُورٞۚ﴾، وسرّ وصف القرآن بأنّه ﴿هُدٗى لِّلنَّاسِ﴾:

الهدى والنّور من خصائص الكتب السّماويّة:

ذَكَرَ الله تعالى أنَّ في التَّوراة هدًى ونورًا، فقال تعالى: ﴿فِيهَا هُدٗى وَنُورٞۚ﴾، ووصَفَ سُبحانَهُ القرآنَ الكريم بأنّه هُدًى، فقال الله تعالى: ﴿شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ هُدٗى لِّلنَّاسِ﴾ [البقرة: 185]، فالقرآن كلُّه هدًى، وكلُّه نورٌ، كما قال سبحانهُ: ﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ نُورٗا مُّبِينٗا ١٧٤﴾ [النّساء: 174].

فالفرق بين التّعبيرين ظاهر؛ ففي هذه الآية جاء التّعبير عنِ

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 4/2199.

التَّوراة بقوله: ﴿فِيهَا هُدًى وَنُورٌۚ﴾، أمّا التّعبير في حقِّ القرآن الكريم فهو هدى ونور؛ ففرق عظيمٌ بين التّعبيرين؛ لأنَّ التَّوراة جعل اللّه تعالى فيها هدًى ونورًا، والقرآن الكريم جعله اللّه تعالى هُدًى ونورًا[1].

وممّا يؤكّد ذلك أنّ اللّه تعالَى وصفها بالضّياء في آية أخرى: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلۡفُرۡقَانَ وَضِيَآءٗ وَذِكۡرٗا لِّلۡمُتَّقِينَ ٤٨﴾ [الأنبياء: 48]، والضِّياء: هو النُّورُ الَّذي يَحصُل فيه نوعُ حرارةٍ وإشراقٍ، كضياء الشَّمس، بخلاف القَمر؛ فإنَّه نورٌ محضٌ، فيه إشراقٌ بغير إحراقٍ، وذلك لأنَّ الغالب على شريعتهم الضِّياءُ؛ لِما فيها منَ الآصار والأغلال، ووصف شريعة محمَّد ﷺ بأنَّها نورٌ لِمَا فيها مِنَ الحنيفيَّة السَّمحة، كما قال تعالى: ﴿قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ ١٥﴾ [المائدة: 15][2].

وعلى هذا يكون الفرق واضحًا؛ فالتّوراة فيها هدى ونور، والقرآن كلّه هدًى ونورٌ.

سرّ تقديم الجارّ والمجرور في قوله تعالى: ﴿فِيهَا هُدًى وَنُورٌۚ﴾:

قُدّم الجارُّ والمجرور في قوله: ﴿فِيهَا هُدًى وَنُورٌۚ﴾؛ للردّ على اليهودِ في تَغْيِير الأحكام، فاللّه يقول لهم: عندكم التّوراة ناطقة بحكم اللّه، وفيها ما يُغْنِيكم عنِ التّحكيم، حيث اشتملَت على الهداية في بيان الأحكام والشّرائع والتّكاليف الّتي منها حدّ الرّجم، وفيها النّور الّذي يشير إلى أنّ حكم رسول اللّه ﷺ الّذي أمر به حقٌّ لا شبهة فيه.

علّة التَّعبير بالمصدر ﴿هُدًى﴾ دون اسم الفاعل (هاديًا) في قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَا ٱلتَّوۡرَىٰةَ فِيهَا هُدٗى وَنُورٞۚ﴾:

وصف اللّه ﷻ التَّوراة بالمصدر؛ لتعظيم شأنها وتفخيمه، ففيها الهداية والنُّور، والتَّبشير بمحمَّد ﷺ، والتَّعبير بالمصدر ﴿هُدًى﴾ أَبلغُ مِنَ الوصف باسم الفاعل (هاديًا)؛ إذْ أراد اللّه تعالى أن يُبَيِّن شرفَ التَّوراة قبل أن تمتدَّ إليها يدُ التَّحريف والتَّبديل، ويدلُّ على شرفها أنَّ اللّه تعالى هو الَّذي أنزلها على موسى عليه السلام.

والغرض مِن وصف التَّوراة بالمصدر ﴿هُدًى﴾ بيان الحُكم الَّذي جاء اليهود يستفتون

(1) ابن عثيمين، تفسير سورة المائدة: 1/428.

(2) ابن رجب، جامع العلوم والحكم: 2/24 - 25.

فيه النَّبيَّ ﷺ، وهو وجوب رجم الزَّاني، وقد سبق بيان هذا الحُكم في التَّوراة؛ لأنَّها مُبيِّنة صحَّة نبوَّة محمَّد ﷺ، فهذا تنبيهٌ مِنَ اللّه تعالى لليهود المنكرين لوجوب الرَّجم، وترغيبٌ لهم أنْ يكونوا كمُتقدميهم مِنَ الأنبياء ومُسلمي أَحبارِهِم.

دلالة عطف النّور على الهدى:

أحكام التَّوراة هادية وواضحة:

عطف النّور على الهدى؛ لأنّ التّعبير به في الآية استعارةٌ للبيان والحقِّ، ولذلك عُطِفَ على الهُدى، فأحكامها هاديةٌ وواضحةٌ، والظَّرفيَّة حقيقيَّة، والهُدى والنُّور دلائلهما، ولك أن تجعلَ النُّور هنا مُستعارًا للإيمان والحكمة، كقوله: ﴿يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [البقرة: 257]، فيكون بينه وبين الهُدى عموم وخصوص مُطلَق، فالنُّور أعمُّ، والعطف لأجل تلك المغايرة بالعموم[1].

سرّ تقديم الهدى على النّور:

قُدّم الهُدى على النّور؛ لمناسبة السّياق الّذي نزلَت بشأنه الآيات، وهو حادثة الزّنا، الّتي حاول اليهود التّضليل فيها، وتحويل الحكم منَ الرّجم إلى تسخيم الوجه والجلد، والهدى في معناه محمولٌ على بيان الأحكام؛ لأنّ النّور جاءهم عن طريق النّبيّ ﷺ في بيان الأمر الحقّ في شأن الرّجم، ومعلوم أنّ التّوراة سابقة على شريعة الإسلام؛ لذلك ناسب تقديم الهدى على النّور؛ مراعاةً للزّمن.

بلاغة الاحتباك في قوله تعالى: ﴿يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُواْ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾:

في الآية منَ البلاغة ما يُعرف بالاحتباك؛ حيث ترك أوَّلًا ذِكر ﴿بِمَا ٱسْتُحْفِظُواْ﴾؛ لدلالة ما ذُكِرَ بعدُ عليه، وترك ذِكرَ الإسلام بعدُ؛ لدلالة ذِكْرِهِ أوَّلًا، والتّقدير: (يَحكُم بها النَّبيُّون الَّذين أسلموا بما

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 6/208.

استحفظوا للَّذين هادوا، والرَّبَّانيُّون والأحبارُ الَّذين أسلموا بما استحفظوا)، وإنَّما خصَّ الأوَّل بذكر الإسلام؛ لأنَّ الأنبياءَ أحقُّ به، وهو داعٍ إلى الحفظ قطعًا، وخصَّ الثَّاني بالاستحفاظ؛ لأنَّ الأتباع أَولى به، وهو دالٌّ على الإسلام[1].

دِلالة قولِهِ: ﴿أَسۡلَمُواْ﴾ في قوله تعالى: ﴿يَحۡكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسۡلَمُواْ﴾:

المراد بهذا الوصف الاستسلامُ الظَّاهرُ والباطنُ، والمعنى: أخلصوا للّه تعالى ولتنفيذ أحكامه.

سرُّ وصف الأنبياء بالإسلام في قوله تعالى: ﴿ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسۡلَمُواْ﴾:

إعظام صفة الإسلام بعِظَمِ موصوفها؛ وهم الأنبياءُ:

وصف الأنبياء عليهم السلام بهذا الوصف؛ للدّلالة على إخلاصهم للّه، وإذعانهم للحقّ، ولا يحاولون أن يجدوا منه مناصًا بتأويل، أو بإرادة تخفيف لشريف، وتشديد على ضعيف، وفي ذلك تعريض بما فعله اليهود في تطبيق أحكام التّوراة؛ فيجعلونها على الضّعفاء حكمًا صارمًا، ولا يطبّقونها على أشراف القوم بل يتهاونون في تطبيقها.

سرّ الإتيان بوصف الإسلام للأنبياء مع أنّ ذلك واضحٌ لا يحتاج إلى ذكر:

أُتِيَ بوصف الإسلام للنّبيّين مع أنّ ذلك معلوم، ولا يحتاج إلى التّنصيص عليه؛ لأنّ المراد بقوله ﴿أَسۡلَمُواْ﴾: انقادوا لحكم التّوراة؛ فإنّ منَ الأنبياء من لم تكن شريعتُه شريعةَ التّوراة، وهو عيسى عليه السلام.

المراد بالنّبيّين الّذين أسلموا:

ذهب بعض أهل العلم إلى أنّهم أنبياء بني إسرائيل من بعد موسى عليه السلام إلى مبعث عيسى عليه السلام، وذهب آخرونَ إلى أنّ المراد بالنّبيّين الّذين أسلموا هو سيدنا محمّد ﷺ؛ وذلك لأنّه حكم على اليهوديَّيْنِ بالرّجم، وكان هذا حكمَ التّوراة، وعبّر عنه بلفظ الجمع تعظيمًا له ﷺ، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةٗ﴾ [النّحل: 120]، وقوله

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 6/145.

تعالى: ﴿أَمۡ يَحۡسُدُونَ ٱلنَّاسَ﴾ [النّساء: 54]، فالمراد النّبيّ ﷺ؛ لأنّه جمع كلّ خصال الخير الموجودة في الأنبياء[1]، حيث قال الله تعالى في سورة الأنعام بعد ذكر قوله تعالى: ﴿وَتِلۡكَ حُجَّتُنَآ﴾ [الأنعام: 83] وما بعدها، حيث جمع فيها عددًا كثيرًا منَ الأنبياء، ثمّ قال بعدها: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ﴾ [الأنعام: 90].

وصف (النّبيّون) بالإسلام دون غيره:

وصف (النّبيّون) بالإسلام؛ لبيان ما أوتوا من شرف الإذعان، وللإشارة إلى أن تنفيذ الأحكام من غير عوجٍ ولا التواء هو خُلق النّبيّين.

وفيه الإشارةُ إلى شرف الإسلام وفضله؛ إذ كان دينَ الأنبياء، ويُضاف إلى ذلك أنَّه وصفهم بذلك على سبيل المدح والثّناء، لا على سبيل التَّفصيل والتَّوضيح؛ فإنَّ الأنبياءَ كلّهم مسلمون، وفيه إشارة إلى إعظام صفة الإسلام بعظم موصوفها وهم الأنبياء، فأوصاف الأشراف أشراف الأوصاف، وفيه رفع لشأن المسلمين وتعريض باليهود بأنَّهم بمعزلٍ منَ الإسلام والاقتداء بدين الأنبياء عليهم السلام، وفيه ردٌّ على اليهود والنّصارى؛ لأنّ بعضهم كانوا يقولون: الأنبياء كلّهم يهود أو نصارى، فقال تعالى: ﴿يَحۡكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسۡلَمُواْ﴾، يعني: أنّ الأنبياء ما كانوا موصوفين باليهوديّة والنّصرانيّة بل كانوا مسلمين لله تعالى منقادين لتكاليفه[2].

معنى اللّام في قوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ هَادُواْ﴾:

اللّام في قوله: ﴿لِلَّذِينَ﴾ للأَجل، وليست لتعدية فعلِ ﴿يَحۡكُمُ﴾؛ إذِ الحُكم في الحقيقة لهم وعليه، كأنَّه قيل: لأجل الّذين هادوا، وإمَّا للإيذان بِنَفْعِه للمحكوم عليه أيضًا بإسقاط التَّبعة عنه، وإمَّا للإشعار بكمال رضاهم له، كأنَّه أمر نافع لكلا الفريقين، ففيه تعريض بالمُحرِّفين.

تعدّد الأقوال في تعلّق اللّام في قوله: ﴿لِلَّذِينَ هَادُواْ﴾:

في تعلّق اللّام في قوله: ﴿لِلَّذِينَ هَادُواْ﴾ ثلاثة أقوال:

(1) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 6/222.
(2) ابن عادل، اللّباب: 7/346.

الأوّل: أنّها متعلّقة بـ ﴿يَحۡكُمُ﴾، ويكون معناها على هذا: الاختصاص، وتشمل مَن يُحكم له ومَن يُحكم عليه، ولهذا قدّر بعض أهل العلم كلامًا محذوفًا، تقديره: يحكم بها النّبيّون للّذين هادوا وعليهم.

الثّاني: أنّها متعلّقة بـ ﴿أَنزَلۡنَا﴾: أي أنزلنا التّوراة للّذين هادوا يحكم بها النّبيّون.

الثّالث: أنّها متعلّقة بهدى ونور، والمعنى: هدى ونورٌ للّذين هادوا.

دلالة عطف قوله تعالى: ﴿وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلۡأَحۡبَارُ﴾:

قوله: ﴿وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلۡأَحۡبَارُ﴾ معطوف على قوله: ﴿ٱلنَّبِيُّونَ﴾؛ وذلك لبيان أنّ التّوراة ما كان يُطبّق أحكامها النّبيّون فقط، لئلّا يُقال: لسنا كالنّبيّين، أو أنّ تطبيقها مقصورٌ عليهم، ولكنّ النّصّ بيّن أنّ الرّبّانيّين والأحبار يطبّقون أحكامها؛ وذلك لأنّهم اتّصفوا بالإخلاص، والاتّصال الرّوحيّ بالله، والعلم الدّقيق العميق[1]، ولأنّهم ورثة علمهم، وعليهم تلقّوا الدّينَ.

دلالة قوله تعالى: ﴿وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلۡأَحۡبَارُ﴾:

الرّبّانيّون: جمع، مفرده (الرّبّانيّ) منسوبٌ إلى الرُّبَّان، وهو على وزن فعلان، أو هو منسوبٌ إلى الرّبّ الّذي هو المصدر، وهو الّذي يَرُبُّ العلم، كالحكيم، أو هو منسوبٌ إليه ومعناه: يَرُبُّ نفسَه بالعلم، وهما متلازمان؛ لأنّ مَن ربَّ نفسه بالعلم فقد ربَّ العلم، ومَن ربَّ العلم فقد ربَّ نفسه.

ويجوزُ أن يكون منسوبًا إلى الرَّبّ، أي: الله تعالى، فالرّبّانيّ كقولهم: إلهيّ، وزيادة النّون كزيادته في قولهم: لَحيانيّ وجُمّانيّ[2].

والخلاصة، أنّ كلمة (ربّانيّ) إمّا أن تكون منسوبة إلى الرّبّ بمعنى تربية النّفس وتهذيبها، وجعلها خاضعة لله تعالى، وإمّا منسوبة إلى الرّبّ الخالق، أي: أنّ الشّخص قد جعل نفسه خالصًا لله تعالى، والمَعْنَيَان وإن افترقا في التّصريف والاشتقاق؛ فهما متلاقيان في المؤدَّى؛ لأنّ المقصود أنّ الرّبّانيّين هم الّذين صفوا نفوسهم حتّى كانت لله تعالى خالصة[3].

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 4/2201.
(2) الرّاغب، المفردات: (رب).
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 4/2201.

والأحبار: جمع حِبر أو حَبْر، والمراد بهم العلماء، وهو في الأصل: بمعنى التّزيين والتّحسين؛ لأنّه مأخوذ منَ التّحبير والتّحبُّر، فهم يحبّرون العلم ويزيّنونه، وسُمّي الحَبرُ حَبْرًا؛ نسبة إلى المداد الّذي يكتب به؛ لأنّه يُحَبر به، أي: يحقّق به[1].

سرّ الجمع بين الرّبّانيّين والأحبار:

جُمع بين وصفَي الرَّبَّانيِّين والأحبار؛ لاشتراكهما في تطبيق حكم التّوراة، فالرّبّانيّون صفت نفوسهم، وربّوها بالعلم والعبادة، والعلماء جمعوا العلم ورتّبوه وعرضوه، وبهذا يمكن القول: بأنّ الّذين قاموا على التّوراة صنفان؛ أحدهما: جَمَعَ عِلْمَها، واستخرج ينابيعها، وأحاط بها، والآخر: مَن طبّقها في الأَقْضِيَةِ[2].

دلالة تقديم ﴿وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ﴾ على ﴿وَٱلۡأَحۡبَارُ﴾:

قُدِّم ﴿وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ﴾ على ﴿وَٱلۡأَحۡبَارُ﴾؛ لأنّ الرّبّانيّين هم الّذين يطبّقون العِلْمَ على العمل، والمقام في الآية مقام تطبيقٍ.

معنى الباء في قوله: ﴿بِمَا ٱسۡتُحۡفِظُواْ﴾:

الباء في قوله: ﴿بِمَا ٱسۡتُحۡفِظُواْ﴾؛ للمُلابسة، أي: حكمًا مُلابسًا للحقِّ مُتَّصلًا به غير مُبدل، ولا مُغيَّر، ولا مُؤوّل تأويلًا لأجل الهوى، ويدخل في الاستحفاظ بالكتاب الأمر بحفظ ألفاظه منَ التَّغيير والكتمان.

العلماء هم حفَظَة العِلم ووعاؤه:

أثر تعلّق الباء في قوله: ﴿بِمَا ٱسۡتُحۡفِظُواْ﴾:

الباء تتعلّق بالفعل ﴿يَحۡكُمُ﴾، والمراد أنّ النّبيّين والرّبّانيّين والأحبار يحكمون بما في التّوراة؛ لأنّهم حُمِّلوا أمانة حفظ كتاب اللّه تعالى، ويجوز أن تتعلّق بالرَّبّانيّين والأحبار، والضَّمير عائد عليهم وحدهم، والمعنى: أنّهم أوتوا هاتين المنزلتين (الرّبّانيّة والعلم)؛ بسبب أنّهم حملوا أمانة الكتاب.

(1) ابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 7/347.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 4/2202.

دلالة التَّعبير بلفظ الاستحفاظ في قوله تعالى: ﴿بِمَا ٱسۡتُحۡفِظُواْ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾:

الاستحفاظ: الاستئمان، واستحفاظ الكتاب أَمَانَة فَهمِه حقّ الفَهم بما دلَّت عليه آياته، فاستُعير الاستحفاظ الَّذي هو طلب الحفظ لمعنى الأَمر بإجادة الفهم والتَّبليغ للأُمَّة على ما هو عليه، فالسِّين والتَّاء دالَّة على الطَّلب، أي: طُلِبَ منهم أن يحفظوا التَّوراة منَ التَّحريف والتَّغيير والتَّبديل، أو طُلب منهم أن يحفظوا التَّوراة في صدورهم، وأن لا يضيّعوا أحكامَها وينسَوْهَا.

دلالة صيغة الاستفعال في قوله: ﴿بِمَا ٱسۡتُحۡفِظُواْ﴾:

السِّين والتَّاء تدلّ على الطّلب، والمعنى أنّ الرّبّانيّين والأحبار حَفِظوا كتاب اللّه (التّوراة) بإلهامهم طلبَ الحقّ والعلم، وتوجيههم نحو الخير، وكان حفظهم مؤكّداً؛ لأنّه استجابة لطلبه تعالى بحفظ التّوراة منَ التّغيير والتّحريف، يُضاف إلى ذلك جَواز وقوع التَّبديل على أهل التَّوراة، ولم يَجُز على أهل القرآن، حيث وَكَلَ الحفظ إليهم، أمَّا في القرآن المجيد فقال تعالى: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ٩﴾ [الحجر: 9]، فتعهَّد اللّه بحفظه، فلم يَجُزِ التَّبديلُ على أهل القرآن[1].

المراد بـ ﴿كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾:

المراد بكتاب اللّه هنا التَّوراة؛ فهي أصل العلوم في شريعة بني إسرائيل.

سرّ التّعبير عَنْهَا بـ﴿كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾:

عُبِّر عن التَّوراة بكتاب اللّه للإشارة إلى منزلتها، وعلوّ قدرها قبل تحريفها، وللتّنبيه على مَن يقومون بشرف حفظها، وإلى مكان التّكليفات والأحكام الّتي اشتملت عليها[2].

دلالة الإبهام والبيان في قوله تعالى: ﴿بِمَا ٱسۡتُحۡفِظُواْ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾:

في إبهام ذِكرِ التّوراة أوَّلًا في قوله: ﴿بِمَا ٱسۡتُحۡفِظُواْ﴾، ثمَّ بيانِها ثانيًا بقوله تعالى: ﴿مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ تفخيمٌ وإجلالٌ لها ذاتًا وإضافةً، وتأكيدٌ لإيجاب حفظها والعمل بما فيها، وإيرادُها بعنوان (الكتاب) إيماءٌ إلى إيجاب حفظها عنِ التَّغيير من جهة الكتابة.

و(مِنْ) مُبيِّنة لإبهام (مَا) في قوله: ﴿بِمَا ٱسۡتُحۡفِظُواْ﴾.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 6/209، وطنطاويّ، التّفسير الوسيط: 4/165.

(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 4/2202.

و﴿كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ هو التَّوراة، فهو مِنَ الإظهار في مقام الإضمار؛ ليتأتَّى التَّعريف بالإضافة المفيدة لتشريف التَّوراة وتمجيدها بإضافتها إلى اسم اللّه تعالى[1].

دلالة بناء الفعل ﴿ٱسۡتُحۡفِظُواْ﴾ للمفعول:

دلّ بناء الفعل للمفعول ﴿ٱسۡتُحۡفِظُواْ﴾ على أنّه بمُقتضَى ما مُنحوا من صفاتٍ عُهد إليهم أمر المحافظة على كتاب اللّه تعالى (التّوراة).

بلاغة الالتفات في قوله تعالى: ﴿بِمَا ٱسۡتُحۡفِظُواْ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾﴿وَٱخۡشَوۡنِ﴾:

تظهر بلاغة الالتفات في الآية الكريمة في عُدول السِّياق عَنِ الغِيبة: ﴿بِمَا ٱسۡتُحۡفِظُواْ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ إلى المتكلِّم ﴿وَٱخۡشَوۡنِ﴾، وفي الغيبة أرادَ أن يُثبتَ أنَّ ما في التَّوراة مِن عند اللّه تعالى، لذلك لم يأتِ (بما استُحفِظوا مِنها)، ثمَّ استعملَ صيغة التَّكلّم تأكيدًا لذلك، وتحقيقًا لفائدة الاستمرار الدّلاليّ الخارج عنِ السِّياق الدَّاخليّ للآية، والَّذي يُمكن أن يُعدَّ تمهيدًا لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗاۚ﴾، فيَستَشعرُ ذلك كلُّ المخاطبين دون قيدٍ زمنيٍّ.

تعيين مرجع الضّمير في قوله تعالى: ﴿وَكَانُواْ﴾:

الضَّمير في قوله: ﴿وَكَانُواْ﴾ يعود على النَّبيّين والرَّبّانيّين والأحبار، أي: وكانَ المذكورون شهداءَ على كتاب اللّه تعالَى، أي: شهداء على حفظه مِنَ التَّبديل.

سرّ التَّعبير بحرف الجرّ (على) في قوله تعالى: ﴿وَكَانُواْ عَلَيۡهِ شُهَدَآءَۚ﴾:

عُبِّر بحرف (على) هنا للدّلالة على معنى التَّمكُّن، وليس هو (على) الَّذي يتعدَّى به فعل (شَهِدَ) إلى المحقوق، كما يتعدَّى ذلك الفعل باللَّام إلى المشهود له، أي: المُحِقّ، بل هو هنا مثل الَّذي يتعدَّى به فِعْلُ (حَفِظَ ورَقَبَ) ونحوهما، أي: وكانوا حَفظةً على كتاب اللّه وحُرَّاسًا له مِن سوء الفهم، وسوء التَّأويل، ويحملون أتباعه على حقِّ فهمه وحقِّ العمل به؛ ولذلك عَقَّبه بجملة: ﴿فَلَا تَخۡشَوُاْ ٱلنَّاسَ وَٱخۡشَوۡنِ﴾ المتفرِّعة بالفاء على قوله: ﴿وَكَانُواْ عَلَيۡهِ شُهَدَآءَۚ﴾، إذِ الحفيظ على الشَّيء الأمين حقّ الأمانة لا يخشى أحدًا في القيام بوجه أَمانته، ولكنَّه يخشى الَّذي استأمنه[2].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 6/209.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 6/210.

المراد بالشّهداء في قوله: ﴿وَكَانُواْ عَلَيۡهِ شُهَدَآءَۚ﴾:

المراد بهم: النّبيّون والرّبّانيّون والأحبار، فكَانُوا شهداءَ على أنّ كلّ ما في التّوراة حقٌّ وصدقٌ من عند اللّه تعالَى.

إيثار التّعبير بالشّهداء دون الشّهود:

آثر القرآن الكريم التّعبير بالشّهداء في هذا المقام على (شهود)، وكلاهما جمع كثرة، وذلك لأنّها جاءت في مَوضِع تعظيم الشّهادة، وهذا التّعظيم يتطلّب مزيدًا منَ الدّقّة والأمانة لما يترتّب عليها منَ الآثار.

ومن أسباب إيثارها تعظيمُ الشّهداء؛ وذلك لمَا فيها من زيادة في مبناها، فيدلّ على الزّيادة في قدر الشّهادة، وشرف حامليها[1].

وهذا المعنى ظاهرٌ في هذه الآية؛ لأنّ الشّهداء هم النّبيّون والرّبّانيّون والأحبار، والشّهادة على التّوراة المُنزَلة من عند اللّه، فاجتمع شرف الشّهادة وشرف الشّهود.

معنى الفاء في قوله: ﴿فَلَا تَخۡشَوُاْ ٱلنَّاسَ﴾:

الخطاب القرآنيّ متكامل في جميع نواحيه:

الفاء في قوله: ﴿فَلَا تَخۡشَوُاْ﴾ يُرادُ بها الإفصاح عن كلام مُقدَّر، والمعنى: إذا كان الكتاب قائمًا وثابتًا، ونفّذه السّلف والخلف إلى ما بعد عصر النّبيّين؛ فلا تخشوا النّاس[2].

دلالة الخطاب في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَخۡشَوُاْ ٱلنَّاسَ وَٱخۡشَوۡنِ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗاۚ﴾:

الخِطاب في الآية الكريمة لليهود المعاصرين زمنَ نزول الآية، والفاءُ للتَّفريع عمَّا حُكي عن فِعل سلَف الأنبياء والمؤمنين؛ ليكونوا قُدوة لخلفهم منَ الفريقين، والجملة على هذا الوجه مُعترِضة، ويجوز أن يكون الخِطاب للنّبيِّين والرَّبّانيّين والأحبار فهي على

(1) الخضريّ، الإعجاز البيانّي في صيغ الألفاظ، ص: 192.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 4/2003.

تقدير القول، أي: قلنا لهم: ﴿فَلَا تَخۡشَوُاْ ٱلنَّاسَ﴾، والتَّفريع ناشِئٌ عن مضمون قوله: ﴿بِمَا ٱسۡتُحۡفِظُواْ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾؛ لأنَّ تمام الاستحفاظ يظهر في عدم المبالاة بالنَّاس رضوا أم سخطوا، وفي قصر الاعتداد على رضا الله تعالى.

دلالة التّرتيب في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَخۡشَوُاْ ٱلنَّاسَ وَٱخۡشَوۡنِ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗاۚ﴾:

لمّا كان إقدامُ القومِ على التّحريف يكون لخوف عظيم أو رهبة أو لطمعٍ، ولمّا كانَ الخوف أقوى تأثيرًا منَ الطّمع؛ قدّم تعالى ذِكْرَه، فقال: ﴿فَلَا تَخۡشَوُاْ ٱلنَّاسَ وَٱخۡشَوۡنِ﴾، وأخّر النّهي عنِ الاشتراء؛ لأنّه أمرٌ يقُومُ على الرّغبة، فقدّم أمر الرّهبة على الرّغبة[1].

بلاغة طباق السَّلب[2] في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَخۡشَوُاْ ٱلنَّاسَ وَٱخۡشَوۡنِ﴾:

في الجملة: طباق سَلب؛ فقد جمع بين فعل واحد، فالطَّرف الأوَّل: نهيٌّ ﴿فَلَا تَخۡشَوُاْ﴾، والطَّرف الآخر: أمرٌ ﴿وَٱخۡشَوۡنِ﴾، وليس الطِّباق بين عدم خشية النَّاس، وخشية الله، فإنَّ الَّذي بينهما تلازم لا تقابل، بل الطِّباق بين مُطلق خشية النَّاس المنهي عنها، وخشية الله تعالى المأمور بها[3].

دفع ما ظاهره التّعارض بين الأمر والنَّهي في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَخۡشَوُاْ ٱلنَّاسَ وَٱخۡشَوۡنِ﴾:

لا تنافي ولا تعارض بين آيات القرآن الكريم:

قد يظهر لأوّل وهلة وجود تعارض في أسلوب الآية، حيث اشتملَت على النّهي والأمر، ولكن بالتّأمّل والتّدبر يتّضح أنّه لا تعارض فيها، ذلك أنّه مِنَ المعلوم أنَّ الخَشية لا يُؤمر بها ويُنهى عنها من جهةٍ

(1) ابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 7/349.

(2) طباق السَّلب في الأفعال: هو الجمع بين فِعلي مصدر واحد، مُثبَتٌ ومَنفيٌّ أو أَمرٌ ونهيٌّ، كقوله تعالى: ﴿قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَۗ﴾ [الزمر: 9]. الصَّعيديّ، بغية الإيضاح: 4/575.

(3) السّبكّي، عروس الأفراح: 2/229، والدّسوقيّ، حاشية الدّسوقي على مختصر المعاني، ص: 14.

واحدة، بل من جهتين كما في الآية، فقد أمر بها باعتبار كونها لله، ونهى باعتبار كونها للنَّاس، فالتَّنافي بينَ الأَمر والنَّهي إنَّما هو باعتبار أصلهما لا باعتبار مادَّة استعمالهما[1].

دلالة النَّهي في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَخۡشَوُاْ ٱلنَّاسَ وَٱخۡشَوۡنِ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗاۚ﴾:

من خصائص الخطاب القرآنيّ توجيه الخاصّ في تربية المجتمع:

النَّهي الَّذي اشتملَت عليه هاتان الجملتان الكريمتان: ﴿فَلَا تَخۡشَوُاْ﴾، و﴿وَلَا تَشۡتَرُواْ﴾، وإن كان مُوجَّهًا في الأصل إلى رؤساء اليهود وأحبارهم؛ إلَّا أنَّه يتناول النَّاس جميعًا في كلِّ زمان ومكان؛ لأنَّه نهيٌّ عن رذائلَ يَجِبُ أن يبتعد عنها كلُّ إنسان يتأتَّى له الخطاب.

وإلى هذا المعنى أشار الآلوسيّ بقوله: (هذا خطاب لرؤساء اليهود وعلمائهم بطريق الالتفات؛ إذ انتقل منَ الحديث عنِ الأحبار السَّابقين منهم إلى خطاب هؤلاء المعاصرين للنَّبيِّ ﷺ، ويتناول غير أولئك المُخاطَبين بطريق الدّلالة[2].

نكتة التعبير بالخشية دون الخوف في قوله: ﴿فَلَا تَخۡشَوُاْ ٱلنَّاسَ وَٱخۡشَوۡنِ﴾:

الخَشيَة: خوفٌ مع تعظيم المَخشيّ ومحبّته، وليست مرادفة لمعنى الخوف؛ لأنّ الخوف أعمّ من أن يكون من مرهوبٍ مُعَظَّم محبوب أو مرهوبٍ مُبغضٍ ذميم، أو فيه مهانة لا عظمة فيه، ولذلك عبّر عنِ الأخيار بالنسبة إلى الله تعالى بالخشية دون الخوف، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْۗ﴾ [فاطر: 28]، وقوله تعالى: ﴿وَخَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ بِٱلۡغَيۡبِۖ﴾ [يس: 11].

سرّ التّعبير عن خوف النّاس وملامتهم بالخشية:

عبّر عن خوف الناس بالخشية من قبيل المشاكلة اللّفظيّة في مقابل قوله تعالى: ﴿وَٱخۡشَوۡنِ﴾، أي: أنّ الله تعالى هو وحده الجدير

(1) الدّسوقيّ، حاشية الدّسوقيّ على مختصر المعاني: 4/14.
(2) الآلوسّي، روح المعاني: 3/313.

بأن يُخشى، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخۡشَوۡنَهُۥ وَلَا يَخۡشَوۡنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَۗ﴾[1] [الأحزاب: 39]، فقصر الخشية عليه سبحانه.

دلالة الإتيان بلفظ ﴿ٱلنَّاسَ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَخۡشَوُاْ ٱلنَّاسَ﴾:

أتى بلفظ النّاس في الآية مع أنّ الخطاب موجّهٌ لليهود المعاصرين للنّبيّ ﷺ وعلمائهم؛ وذلك لإفادة العموم، ويكون المعنى: لا تخافوا ملامة النّاس جميعًا، ولكن اخشوا الله تعالى وحده؛ فلا تُمالِئُوا الأقوياء، وتَرْكَنُوا إليهم، بل اجعلوهم جميعًا سواء مع غيرهم منَ الضّعفاء[2].

سرّ إثبات الياء في ﴿وَٱخۡشَوۡنِي﴾ في آية البقرة، وحذفها في مَوضِعي المائدة ﴿وَٱخۡشَوۡنِ﴾:

قال تعالى في مَوضِع سورة البقرة: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡ فَلَا تَخۡشَوۡهُمۡ وَٱخۡشَوۡنِي وَلِأُتِمَّ نِعۡمَتِي عَلَيۡكُمۡ وَلَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ١٥٠﴾ [البقرة: 150].

وقال في سورة المائدة: ﴿ٱلۡيَوۡمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمۡ فَلَا تَخۡشَوۡهُمۡ وَٱخۡشَوۡنِۚ﴾ [المائدة: 3]، وقال سبحانه: ﴿فَلَا تَخۡشَوُاْ ٱلنَّاسَ وَٱخۡشَوۡنِ﴾.

معلومٌ أنَّ الزِّيادة في المبنى زيادةٌ في المعنى، فعندما تُثبت الياء يكون التَّحذير أشدَّ، ويكون الأمر أكبر، فلو نظرنا إلى سياق آية سورة البقرة نجدها قد جاءت في سياق تحويل القِبلة، ﴿وَمِنۡ حَيۡثُ خَرَجۡتَ فَوَلِّ وَجۡهَكَ شَطۡرَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۚ وَحَيۡثُ مَا كُنتُمۡ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ شَطۡرَهُۥ﴾ ﴿فَلَا تَخۡشَوۡهُمۡ وَٱخۡشَوۡنِي﴾ [البقرة: 150]؛ وهذا الحدث نتج عنه هزَّة عنيفة في نفوس كثيرٍ منَ النّاس، وقيام معركة بين الحقِّ والباطل؛ ولذلك جاء التَّحذير أشدّ بظهور الياء؛ الّتي تدلُّ على زيادة التَّوكيد بعظم الحدث، فهو أمر كبير، لذا قال ﴿وَٱخۡشَوۡنِي﴾.

ويُضاف إلى ذلك أنّ مَوضِع سورة البقرة سبقه حديثٌ عن ظلم المشركين، وأنّه قد بلغ الغاية القصوى في إيذاء المسلمين في شعائر دينهم، دلّ على ذلك قوله سبحانه: ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذۡكَرَ فِيهَا ٱسۡمُهُۥ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَآۚ﴾ [البقرة: 114]، وما فعل الكفّار ذلك إلّا لقوّتهم؛ فدلّ ذلك على أنّ الخشية منهم ظاهرة وواضحة؛ فجاء القرآن معلّمًا ومحذّرًا المسلمين من خشيتهم؛ لأنّ الخشية لا تكون إلّا لله ربّ العالمين.

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 4/2203.

(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 4/2203.

أمَّا في آية المائدة فقد جاءت في سياق الأطعمة المحرَّمة، وما ذُبح على النُّصب، قال تعالى: ﴿حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحۡمُ ٱلۡخِنزِيرِ﴾ ﴿فَلَا تَخۡشَوۡهُمۡ وَٱخۡشَوۡنِۚ﴾ [المائدة: 3]، فالتَّحذير فيها أقل؛ ولذلك جاء ﴿وَٱخۡشَوۡنِ﴾ من دون ياء.

ويضاف إلى ذلك أنّ قوله تعالى: ﴿وَٱخۡشَوۡنِ﴾ جاءت بعد قوله تعالى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمۡ﴾ [المائدة: 3]، وفي هذه الآية دليلٌ على أنّ قوّة المسلمين قد ظهرت، وأنّ شوكتهم قويّة، فمجال الخشية منَ الكفّار أصبح ضعيفًا؛ لذلك ناسب حذف الياء والاكتفاء بالكثرة دليلًا عليها.

وأمَّا الموضع الثاني في المائدة فجاء في سياق ذِكر التَّوراة، والَّتي أُنزِلَ فيها هدًى ونورٌ يحكم بها النَّبيّون والرَّبّانيّون والأَحبار، ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَا ٱلتَّوۡرَىٰةَ فِيهَا هُدٗى وَنُورٞۚ يَحۡكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ﴾ ﴿فَلَا تَخۡشَوُاْ ٱلنَّاسَ وَٱخۡشَوۡنِ﴾، وليس في ذلك إرجافٌ ولا فتنةٌ أو إثارةٌ، كما هو الحال في تغيّر القِبلة الَّتي أدَّت إلى فتنةٍ كبيرة وإرجافٍ وارتدادِ جماعةٍ، فناسب الحذفُ الحدثَ والمقامَ[1].

دلالة عطف قوله: ﴿وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗاۚ﴾:

عُطف قولُه: ﴿وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗاۚ﴾ على قَوْله: ﴿فَلَا تَخۡشَوُاْ ٱلنَّاسَ﴾؛ لِما بينَهُمَا مِن شدّة اتّصالٍ، فالمعنى: كما نَهَيْتُكُم عن تَغْيِير أحكامي لأجل الخوف والرّهبة؛ فكذلك أَنْهَاكُم عنِ التّغيير والتّبديل لأجل الطّمع في الجاه والمال والرّشوة[2].

دلالة النّهي في قوله: ﴿وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗاۚ﴾:

نـهـيُ الـقـرآنِ الـيـهـودَ عـنِ السّلوك المادّيّ من خلال إهدار القيم والأخلاق:

نهى القرآن الكريم اليهودَ عن هذا السّلوك في آيات عديدة ممّا يؤكّد حرصهم الشّديد على أخذ العوض منَ المنافع الدّنيويّة مع اختلاف أشكالها في بيع آيات التّوراة مقابل رشوة يأخذونها من باب حرصهم على الحياة الدّنيا وزخارفها؛ فهم يجعلون القيم والأحكام سلعة تُباع وتُشترى.

(1) السّامرائّي، التّعبير القرآنّي، ص: 86 - 87.
(2) ابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 7/349.

سرّ التّعبير بالفعل ﴿تَشۡتَرُواْ﴾ دون (يستبدلوا) في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗاۚ﴾:

اختار الاشتراء دون الاستبدال لمَا بينهما منَ العموم والخصوص؛ فكلّ اشتراءٍ استبدال، وليس كلّ استبدال اشتراء.

ووضع هنا الاشتراء، وهو منهيّ عنه، مَوضِع الاستبدال لدلالته على حرصهم ورغبتهم الشّديدة؛ لأنّ المُشتريَ للشّيءِ راغبٌ فيه.

وممّا يؤكّد ذلك ما ذكره أبو زهرة في معنى الآية بقوله: (لا تستبدلوا بأحكام آياتي فتتركوها هاجرين لها، معرضين عنها في نظير رشوة أو مُمَالَأةٍ ثمنًا قليلًا؛ لأنّ ما يكون ثمنًا لترك الآيات قليلٌ، مهما يكن مقداره، ومهما يكن اعتباره، فآيات الله أغلى منَ الوجود؛ لأنّها هدايته)[1].

دلالة وصف الثّمن بالقليل في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗاۚ﴾:

جاء التَّعبير يصف الثَّمن بالقِلَّة، وهو ليس منَ الأوصاف المخصَّصة للنَّكرات، بل هو منَ الأوصاف اللَّازمة للثَّمن المحصّل في مُقابل استبدال الآيات؛ لأنَّه لا يكون إلَّا قليلًا - وإن بلغ ما بلغ من أعراض الدُّنيا - بالنِّسبة إلى طاعة الله، والرَّجاء في رحمته ورضاه[2].

علاقة هذه الجملة بما قبلها:

التَّحذير من تجاوز حدود الله في الحكم:

لمّا حذّرهم القرآن الكريم فيما سبق من خشية النّاس دون خشية الله، ونهاهم عن بيع آيات الله بثمن قليل في قوله: ﴿وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗاۚ﴾، أتبع ذلك بالوعيد الشّديد والعذاب الأليم لمَن حرّف حكم الله على العموم، وحدّ الزّنا للمحصن على الخصوص، فقال تعالى: ﴿وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾.

سرّ التّعبير بالاسم الموصول ﴿وَمَن﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾:

عُبِّر بالاسم الموصول (مَن)؛ لأنّها تَحتَمِل أن يكونَ المرادُ بها

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 4/2204.
(2) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 4/167.

الفريقَ الخاصّ المُخاطَب بقوله: ﴿وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗاۚ﴾ وهم الَّذين أَخْفَوْا بعضَ أحكام التَّوراة، ويَحْتَمِلُ أن يكون المراد بِها الْجِنْس، وتكون الصِّلة إيماءً إلى تعليل كونِهم كافرين، فتقتضي أنَّ كلّ مَن لا يحكم بما أنزل الله يكفر، وقد اقتضى هذا قضيّتين:

إحداهما: كون الَّذي يترك الحكم بما تضمّنته التَّوراة ممَّا أوحاه الله إلى موسى كافرًا، أو تارك الحكم بكلّ ما أنزله الله على الرُّسل كافرًا، والأخرى: قصر وصف الكفر على تارك الحكم بما أنزل الله[1].

تعليق الكفر بترك الحكم بما أنزله الله تعالى:

دلالة ختم الآية بقوله: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾:

خُتِمَت هذه الآية بقوله تعالى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾؛ لأنّها تذييلٌ مُقرِّرٌ لمضمون ما قبلها أبلغَ تقريرٍ، وتحذيرٌ عنِ الإخلال به أشدَّ تحذيرٍ؛ حيث عُلِّق فيه الحُكمُ بالكفر بمجرَّد ترك الحكم بما أنزل الله تعالى، فكيف وقد انضمَّ إليه الحكمُ بخلافه - ولاسيَّما مع مباشرة ما نُهُوا عنه مِن تحريفه - ووضعُ غيره مَوضِعه، وادِّعاء أنَّه مِن عند الله تعالَى؛ ليشتروا به ثمنًا قليلًا؟!

دلالة الإشارة في قوله: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾:

ترجع الإشارة في قوله: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ إلى الذين لا يحكمون بما أنزل الله؛ فهي إشارة تفيد أنّ النّتيجة سببها الفعل، وهو تجنّب حكم الله تعالى، وذلك بتركهم حكم الرّجم للزّاني المحصن.

وقد أكّد ﷻ الحكم بالكفر عليهم بهذه الإشارة، وبالجملة الاسميّة، وبضمير الفصل، وبالقصر؛ إذ هم مقصورون على الكفر، والكفر مقصور عليهم قصرًا إضافيًّا بمعنى أنّهم بلغوا في الكفر أقصاه حتّى لا يعدّ كفر غيرهم بجوار كفرهم شيئًا مذكورًا[2].

(1) القِنّوجيّ، فتح البيان: 3/428، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 6/210 - 213.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 4/2204.

دلالة ضمير الفصل ﴿هُمُ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَـٰفِرُونَ﴾:

ضمير الفصل في قوله تعالى: ﴿فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَـٰفِرُونَ﴾ له فائدتان:

إحداهما: تأكيد القصر المستفاد من تعريف جزأي الجملةِ، وليس ضميرُ القصرِ مفيدًا القصْرَ، بل تأكيدَهُ.

والأخرى: التَّمييز بين الخبر والصِّفة؛ ولهذا سُمِّي ضميرَ فصلٍ[1].

سرّ اختلاف التّعقيب في الآيات الثّلاث:

اختلف التّعقيب في الآيات الثّلاث؛ لأنّها في شأن اليهود، ففي المَوضِع الأوّل: لمّا أنكروا حكم اللّه المنصوص عليه في التّوراة في حدّ الزّاني المحصن، وقالوا: إنّه غير واجب، حكم اللّه عليهم بالكفر.

أمّا المَوضِع الثّاني الّذي خُتم بالظّلم، فإنَّ الآية لمَّا صُدِّرت بقوله تعالى: ﴿وَكَتَبۡنَا عَلَيۡهِمۡ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفۡسَ بِٱلنَّفۡسِ﴾، فلم تتضمّن هذه الآية غير الحقوق المتعلّقة بالنّفوس، والوقوع في شيء من ذلك يوجب إيلامها، ودوام عقابها، وذلك ظلم لها؛ فخُتِمَت بقوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾.

أمّا المَوضِع الثّالث؛ فقد جاء في شأن مَن ترك حكم اللّه تعالى عمدًا مع اعتقاده الإيمان وأحكامه؛ فهو فاسق.

وممّا يؤكّد ذلك ما ذكره الكرمانيّ أنَّ مَن لم يحكم بما أنزل اللّه إنكارًا له فهو كافرٌ، ومَن لم يحكم بالحقِّ معَ اعتقاده حقًّا وحَكَمَ بضدِّه فهو ظالم، ومَن لم يحكم بالحقِّ جهلًا وحَكَمَ بضدِّه فهو فاسق، وقيل: ومَن لم يحكم بما أنزل اللّه فهو كافرٌ بنعم اللّه، ظالمٌ في حكمه، فاسقٌ في فعله[2].

وعلى هذا فالآيات الثّلاث ليست في أهل الإسلام، كما ذكر ذلك ابن جرير الطّبريّ بقوله: الآيات الثّلاث ليس في أهل الإسلام منها شيء، هي في الكفّار[3].

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/42.
(2) الكرمانّي، البرهان في متشابه القرآن، ص: 103.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 10/346.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الدّلالة والإرشاد والهدى:

هذه الألفاظ الثّلاثة قُد يُظنّ أنّها من قبيل المترادف، ولكن بالنّظر في استعمالات القرآن الكريم؛ نجد بينها فروقًا ظاهرة؛ ففي اللّغة الدّلالة معناها: البيان والتّعريف، والإرشاد: يُطلق في اللّغة على بيان الطّريق والتّعريف بالقصد والصّواب، والهدى: تُطلق على الإرشاد بلطف[1].

أمّا من خلال الاستعمال القرآني؛ فنجد أنّ لفظ الدّلالة في أكثرها يُسْتعمل في الدّلالة على شيء دنيويّ في الغالب إلّا مَوضِع سورة الصّف[2]، قال تعالى: ﴿إِذْ تَمْشِيٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ﴾ [طه: 40]، ونحو ذلك منَ الآيات، كما في قصّة آدم عليه السلام ﴿هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ﴾ [طه: 120]، وورودها في هذه السّياقات يؤكّد المعنى الّذي ذهب إليه الرّاغب في تعريف الدّلالة بقوله: "ما يتوصّل به إلى معرفة الشّيء كدلالة الألفاظ على المعاني، ودلالة الإشارة والرّموز والكتابة، والعقود في الحساب، وسواء كان ذلك بقصد ممّن يجعله دلالة أم لم يكن بقصدٍ، كمن يرى حركة إنسان، فيعلم أنّه حيّ"، ومن ذلك قوله تعالى في حقّ الجنّ لمّا مات سيدنا سليمان عليه السلام، فلم يعرفوا أنّه مات إلّا من دابّة الأرض، قال تعالى: ﴿مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ﴾ [سبأ: 14].

والمتدبّر لاستعمالات القرآن الكريم لمادّة الإرشاد؛ يجد أنّها تضيف مع البيان والتّعريف معنىً آخر، وهو إصابة الحقّ، والانتفاع به، قال اللّه تعالى في شأن أصحاب الكهف: ﴿وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ۝١٠﴾ [الكهف: 10]، وبذلك يكون الإرشاد أخصّ منَ الدّلالة.

والهدى له إطلاقات متعدّدة - كما ذكر ذلك الرّاغب - ، فمن هذه الإطلاقات: الإرشاد والبيان، قال تعالى: ﴿وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ۝١٦﴾ [النّحل: 16]، فأسند اللّه الهداية إلى النّجم، ويجريها اللّه تعالى على يد الأنبياء والعلماء وبعض المخلوقات.

وتُطلَق على الإعانة والتّوفيق، وذلك حين تُسند إلى الخالق سبحانه، كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى﴾ [محمّد: 17].

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (دلل)، و(رشد) و(هدي).

(2) وهو قوله تعالى: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ۝١٠ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [الصف: 10-11].

النُّور والضِّياء:

بالنّظر في استعمالات القرآن الكريم للفظ النّور والضّياء؛ نجد بينهما فروقًا دقيقة، فمن ناحية اللّغة، نجد أنَّ لفظ النّور: هُوَ الظّاهر في نفسه، المُظْهِر لغيره[1]، وضدّه: الظّلام.

أمّا الضّوء فهو ما انتشر منَ الأجسام النّيّرة، يُقال: ضاءتِ النّار وأضاءَت، وأضاءَت غيرها، قال تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَضَآءَتۡ مَا حَوۡلَهُۥ﴾ [البقرة: 17]، وقال أيضاً: ﴿كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوۡاْ فِيهِ﴾ [البقرة: 20]، وقال تعالى: ﴿يَكَادُ زَيۡتُهَا يُضِيٓءُ﴾ [النّور: 35]، وعلى هذا فالضّوء أخصّ منَ النّور؛ لأنّه يُطلَق على القليل والكثير، بخلاف الضّوء فلا يُطلَق إلّا على النّور الشّديد، يؤكّد ذلك استعمال القرآن الكريم حيث جمع بينهما في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلشَّمۡسَ ضِيَآءً وَٱلۡقَمَرَ نُورٗا﴾ [يونس: 5]، فخالف بينهما حيث نسب الضّياء للشّمس، والنّور للقمر؛ لأنّ النّور في الشّمس أكثر وأشدّ توهّجًا، بخلاف نور القمر، فهو خالٍ منَ الوهج.

ومِنَ الفروقِ أيضًا أنّ النّور على ضربين: دنيويّ، وأخرويّ، فالدّنيويّ: ضربٌ معقولٌ بعين البصيرة، وهو ما انتشر منَ الأمور الإلهيّة، كنور العقل، ونور القرآن، قال تعالى: ﴿قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ ١٥﴾ [المائدة: 15]، وقال تعالى عنِ التّوراة: ﴿فِيهَا هُدٗى وَنُورٞۚ﴾، وضربٌ محسوسٌ بعين البصر، وهو ما انتشر منَ الأجسام النّيّرة، كالقمرين والنّجوم، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلشَّمۡسَ ضِيَآءً وَٱلۡقَمَرَ نُورٗا﴾ [يونس: 5][2].

وممّا يؤكّد الفرق بينهما ما ذكره أبو هلال العسكريّ بقوله: (الضِّياء ما يتخلّل الهواء من أجزاء النُّور، فيبيضّ بذلك، والشّاهد أنّهم يقولون: ضياءُ النّهار، ولا يقولون: نورُ النّهار إلّا أن يعنوا الشّمس، فالنُّور الجملة الّتي يتشعّب منها)[3].

النّبيّ والرّسول:

النُّبوّة: اسمٌ مشتقٌّ مِنَ النَّبأ، وهو الخبر، إلّا أنّ المرادَ به في هذا المَوضِع خبر خاصّ، وهو الّذي يلزم الله ﷻ به أحدًا مِن عباده فيُميِّزه بإلقائه إليه عن غيره، ويوقفه به على شريعته بما فيها من أمرٍ ونهي، ووعظٍ وإرشادٍ، ووعدٍ ووعيدٍ، فتكون النُّبوّة على هذا

(1) ابن منظور، لسان العرب: (نور).
(2) الرّاغب، المفردات: (نور).
(3) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 332.

الخبر، والمعرفة بالخبرات الموصوفة الَّتي ذُكِرَت، والنَّبيّ هو المُخبر بها، فإن أُضيفَ إلى هذا التَّوفيقِ أمرُ تبليغِه إلى النَّاس ودعائهم إليه؛ كان نبيًّا رسولًا، وإن أُلقي إليه ما ذكرنا؛ ليعملَ بِهِ في خاصَّته، ولم يُؤْمَرْ بتبليغه والدُّعاء إليه؛ كان نبيًّا، ولم يكن رسولًا، فكلُّ رسُولٍ نبيّ، وليس كلّ نبيّ رسولًا[1].

الرَّبّانيّون والأحبار:

الرَّبّانيُّون: عُلماء أَهل الإنجيل، والأَحبار: علماء أَهل التَّوراة.

وذهب بعض أهل العلم إلى أنَّ الرَّبّانيِّين همُ الَّذين في العمل أَكثر، وفي العِلم أقلّ، والأحبار همُ الَّذين كانوا أَكثر في العِلم والعمل[2]، وهذا هو الرّاجح؛ لأنّ الحديث عنِ التّوراة، وليس عنِ الإنجيل.

الحفظ والحراسة والرِّعاية والحماية:

الحراسةُ حفظٌ مستمرّ، ولِهذا سُمِّي الحارسُ حارسًا؛ لأَنَّه يحرس في اللَّيل كلِّه، أَو لأنّ ذلك صناعتَه فهو يُديم فعله، والحراسة: أَن يصرف الآفات عنِ الشَّيء قبل أَن تصيبه صرفًا مُستمرًّا، فإذا أَصابَته فصرفها عنه سُمِّي ذلك تخليصًا، وهو مصدر، والاسم: الخَلَاص، ويُقال: حرس اللّه عليك النِّعمة، أَي: صرف الآفة صرفًا مُستمرًّا، والحِفظ لا يتضمَّن معنى الاستمرار، وقد حُفظ الشّيءُ، وهو حافظ، كما فُرِّق بين الحفظ والرِّعاية بأنَّ نقيض الحِفظ الإضاعة، ونقيض الرِّعاية الإهمال، والإهمال هو ما يؤدِّي إلى الضَّياع، فعلى هذا يكون الحفظُ صرفَ المكاره عنِ الشَّيء لئلَّا يهلك، والرِّعاية فعل السَّبب الَّذي يصرف المكاره عنه، والحماية تكون لما لا يمكن إحرازه وحصره، مثل: الأَرض والبلد، والحِفظ يكون لما يحرز ويحصر[3].

الخوف والخشية:

النّاظر في كتب اللّغة يجد عدم التّفريق بينهما غالبًا، ورُبَّما عدُّوا ذلك من قبيل المترادف، ولكن بالبحث والتّدقيق من خلال استعمالات القرآن الكريم نجد بينهما فرقًا،

(1) الخطّابيّ، أعلام الحديث: 1/298، والعسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 531، والحليميّ، المنهاج في شعب الإيمان: 1/239.
(2) عبد العظيم، موسوعة الفروق القرآنيّة: 1/394.
(3) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 205 - 207.

قال الزّركشيّ: لا يكاد اللّغويّ يفرّق بينهما، ولاشكّ أنّ الخشية أعلى منَ الخوف، وهي أشدّ الخوف؛ فإنّها مأخوذة من قولهم: شجرة خاشية، إذا كانت يابسة، وذلك فواتٌ بالكلّيّة، والخوف من قولهم: ناقة خوفاء، إذا كان بها داء، وذلك نقصٌ وليس بفوات، ومن ثمّ خُصَّت الخشية بالله تعالى في قوله سبحانه: ﴿وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ۝٢١﴾ [الرّعد 21].

ومنَ الفروق بينهما: أنّ الخشية تكون مِن عِظَم المَخشيّ، وإن كان الخاشي قويًّا، والخوف يكون من ضعف الخائف، وإن كان المَخُوفُ أمرًا يسيرًا، يدلّ على ذلك قوله تعالى: ﴿وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ۝٢١﴾ [الرّعد 21]؛ فإنّ الخوف منَ الله لعظمته يخشاه كلّ أحدٍ، كيف كانَت حاله، وسوء الحساب ربّما لا يخافه مَن كان عالماً بالحساب، وحاسب نفسه قبل أن يُحاسب.

وواصل الزّركشيّ التّفرقة بينهما بقوله عند تعليقه على قوله تعالى: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾ [النّحل: 50]، يقول: وفيه لطيفة، وهي أنّ الله تعالى لمّا ذكر الملائكة، وهم أقوياء، ذكر صفتهم بين يديه (الخوف)؛ لبيان أنّهم عند الله ضعفاء، ولمّا ذكر المؤمنين، وهم ضعفاء لا حاجة إلى بيان ضعفهم؛ ذكر ما يدلّ على عظمة الله تعالى، فقال: ﴿وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾[1] [الرّعد 21].

الكافرون والكفَّار والكفرة:

أمّا لفظ الكافرون فهو جمع مذكَّر سالم؛ يدلُّ على القِلَّة، والكفَّار والكفَرَة جمعًا تكسير يدلَّان على الكَثرَة، والكفَّار أدلُّ على الكَثرَة مِنَ الكفرة[2].

وممّا ينبغي ذكره في هذا المقام التّفريق بين الكفّار والكفرة، يقول محمَّد الأمين الخضريّ: "ومن بديع التّناسب بين معاني الصّيغ ومبانيها ما تراه في وضع الكفّار والكفرة موضعهما في سياقات القرآن، قال تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْۖ﴾ [الفتح: 29]، وقال في حقّ الكفّار: ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ۝٤٠ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ۝٤١ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ ۝٤٢﴾ [عبس: 40 - 41 - 42]؛ فقد استدعى مقام امتداح المؤمنين بالشّدّة على أعدائهم، ووصفهم بأبلغ الصّيغ الواردة في وصف الشّدّة ﴿أَشِدَّآءُ﴾، وناسبها بأن

(1) الزّركشّي، البرهان: 4/78.

(2) عبد العظيم، موسوعة الفروق القرآنيّة: 2/1007.

يُؤتى بأبلغ معاني الكفر ﴿ٱلۡكُفَّارِ﴾ لتكون الشّدّة دالّة على أبلغ مراتب الشّجاعة والثّبات في مواجهة أعتى النّاس كفرًا، وحربًا على المؤمنين، فتناسبتِ الصّيغتان معنًى وتقاربتا وزنًا وبناءً، ولم يقصد في سورة عبس المبالغة في وصفهم بالكفر، وإنّما أُريد حصرُ هذه الوجوه الكالحة المسودّة يوم القيامة بهؤلاء الكفرة في مقابلة الوجوه الضّاحكة المستبشرة منَ المؤمنين، فأدّى بناء الكثرة ﴿ٱلۡكَفَرَةُ﴾ غرضَه من تحديد وصفِ أصحاب الوجوه المظلمة والدّلالة على كثرتهم إضافة إلى جليل التّناسب في الوزن والبناء مع الفجرة بعده، والسّفرة والبررة قبله، فكان وضع كلّ منهما في مَوضِعه دليلًا على إعجاز النّظم الحكيم"[1].

وممّا يُذكر في هذا المقام بين صيغة: فُعَّال وفَعَلَة، أنّ الكُفَّار أشدّ من الكفرة؛ لذلك كان استعمال الكفّار في جمع الكافرِ المضادّ للإيمان أكثر استعمالًا، قال تعالى: ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلۡكُفَّارِ﴾ [التّوبة: 123]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٌ﴾ [البقرة: 161]، وأمّا الكفرة فهو في جمع كافر النّعمة أكثر استعمالًا، كما في سورة عبس؛ فسياق السّورة سياق ذكر النّعم على الإنسان، لذلك جاء جمع الكفرة؛ لأنّه في جحود النّعمة أكثر استعمالًا، فضلًا على أنّ صيغة فعّال أشدّ من صيغة فَعَلَة؛ ولذلك جاء لفظ كفّار المضادّ للإيمان على وزن فُعَّال بخلاف كفرة الّذي في مقام جحود النّعمة؛ فإنَّه على وزن فَعَلَة[2].

(1) الخضريّ، الإعجاز البيانّي، ص: 194.

(2) الدّوريّ، دقائق الفروق اللّغويّة، ص: 260.

﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ ۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [المائدة: 45]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لـمَّا بيّن سبحانه تعالى في الآية السّابقة أنّه ذكر في التّوراة أحكام حدّ الزّنا، وأنّ حكم الزّاني المحصن الرّجم، وأنّ اليهود غيّروه وبدّلوه، وكلّ ذلك في مقام الحفاظ على الأعراض، ذكر في هذه الآية ما يتعلّق بأحكام الحفاظ على النّفس؛ فذكر أحكام القصاص، لكنّ اليهود بدّلوها وغيّروها، وفرّقوا بين الشّريف والوضيع، والأمير والغفير، وظهر ذلك واضحًا في التّفريق بين القتيل من بني قريظة وبني النّضير، حيث فضّلوهم على بني قريظة.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَكَتَبْنَا﴾: الكاف والتّاء والباء: أَصلٌ صحيحٌ واحدٌ يدلُّ على جمع شيء إلى شيء، ومنه قيل: كتبتُ الكتاب؛ لأنَّه يجمع حرفًا إلى حرف، والكتاب: اسمٌ لما كُتِبَ مجموعًا، وكَتَبَ الشَّيء، أي: خَطَّه، ومِن معاني الكِتَاب: الصَّحيفة، والدّواة[1]، ويعبّر عنِ الإثبات والتّقدير والإيجاب والفرض والعزم بالكتابة، ووجه ذلك أنّ الشّيء يُراد، ثمّ يُقال، ثمّ يُكتب، فالإرادة مبدأ والكتابة مُنتهى، ثمّ يعبّر عنِ المراد الّذي هو المبدأ إذا أُرِيدَ توكِيدُه بالكتابة الّتي هي المنتهى، قال تعالى: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ﴾ [المجادلة: 21]، وقال تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ﴾، أي: أوجبنا وفرضنا[2].

2) ﴿ٱلنَّفْسَ﴾: الرُّوح، يُقال: خَرَجَت نَفسُ فلانٍ، أي: رُوحُه، وتأتي بمعنى العين،

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والفيروزآبادي، القاموس المحيط، وابن سيده، المحكم، والجوهريّ، الصّحاح: (كتب).
(2) الرّاغب، المفردات: (كتب).

فيُقال: أَصابَت فُلانًا نَفسٌ، أي: عينٌ، ونَفسُ الشَّيء: عَينُه، وأَصلُ الكلمة مِنَ التَّنفيس، وهو الخروج مِنَ الجَوف، ومنه النِّفاسُ وهو الولادة، والنّفس: الرّيح الدّاخل والخارج في البدن منَ الفم والمنخر، وهو كالغذاء للنّفس، وبانقطاعه بطلانها[1].

ويُطلَق النَّفسُ على الدّم؛ لأنَّه أَساسُ الحياة، أو لأنّ الرُّوحَ تخرج بخروجه، يُقال: سالَت نَفسُه، أي: دَمُه، ومِن معانيها أيضًا: الجسد والحسد والذّات والحقيقة والعزّة والهمّة[2].

3) ﴿وَٱلۡعَيۡنَ﴾: الجارحة، وهي الّتي يُبصر بها النّاظرُ، وتُطلَق على الشَّيء المَحسوس المُشاهَد بالعين الباصرة، وعينُ الشَّيء نَفسُه، يُقال: أَخَذتُ مالي بعَينه، أي: نَفسَ مالي، وتأتي بمعنى المال العتيد الحاضر، يُقال: اشتَرَيتُ عَينًا بعينٍ، أي: حاضرًا بحاضرٍ، ومن معانيها: يَنبوع الماء الّذي يَنبُعُ مِنَ الأَرض ويجري، والجاسوس، وما ضُرِبَ مِنَ الدَّنانير والدَّراهم، وغير ذلك، وجمعها: عيونٌ، وأعينٌ، وأعيانٌ[3].

4) ﴿وَٱلۡأَنفَ﴾: أَصلُ الأَنف: الجارحة، ثمَّ يُسمَّى به طَرَفُ الشَّيء وأَشرَفُه، فيُقالُ: أَنفُ الجبل وأَنفُ اللِّحية، ونسبوا الحَمِيَّة والغضب والعزَّة والذّلَّة إلى الأَنفِ، وقِيلَ: شمخ فلانٌ بأَنفه: للمُتكَبِّر، وتَرِبَ أَنفُه للذَّليل، وأَنِفَ فلانٌ من كذا بمعنى استَنكَف، واستَأنَفتُ الشَّيء: أخذتُ أنفَه، أي: مَبْدَأَه، ومنه قوله ﷻ: ﴿مَاذَا قَالَ ءَانِفًاۚ﴾ [محمد: 16] أي: مبتدأ[4].

5) ﴿وَٱلۡأُذُنَ﴾: مَوضِع السَّمع، وأَذَنتُه أَذنًا: ضَرَبت أُذُنَه، ورَجُلٌ أُذُنٌ وامرأَةٌ كذلك: إذا استمع من كلِّ أحدٍ، والأُذُنُ: عُروَة الكوز ونحوِه[5].

6) ﴿وَٱلسِّنَّ﴾: قطعةٌ مِنَ العظم تَنبُتُ في الفكِّ، وقيل: الضِّرسُ، والسِّنُّ مِنَ الشَّيء: كُلُّ جزءٍ مُحَدَّدٍ أو مُسَنَّنٍ على هيئتها، مثلُ: سِنِّ المُشط، أوِ المنشار، ومن معانيها: العُمرُ، وجمع السِّنِّ: أسنانٌ[6].

7) ﴿وَٱلۡجُرُوحَ﴾: الجرحُ: أثرٌ دَامٍ في الجلد، يُقال: جَرَحَه جَرحًا، فهو جَريحٌ ومجروحٌ،

(1) الرّاغب، المفردات: (نفس).
(2) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (نفس).
(3) الخليل، العين، والجوهريّ، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والزّبيديّ، تاج العروس: (عين).
(4) الخليل، العين، والجوهريّ، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (أنف).
(5) الخليل، العين، وابن عبّاد، المحيط: (أذن).
(6) الجوهريّ، الصّحاح، وابن منظور، لسان العرب: (سنن).

قال تعالى: ﴿وَٱلۡجُرُوحَ قِصَاصٞۚ﴾، وسُمِّي القَدحُ في الشَّاهد جرحًا تشبيهًا به، وتُسمَّى الصَّائدة مِنَ الكلاب والفهود والطّيور جارحة، وجمعها: جوارح؛ إمّا لأنَّها تَجرح، وإمَّا لأنَّها تكسب، قال ﷻ: ﴿وَمَا عَلَّمۡتُم مِّنَ ٱلۡجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ﴾ [المائدة: 4]، وسُمِّيت الأَعضاء الكاسِبة جَوارحَ؛ تشبيهًا بها لأحد هذين[1].

8) ﴿قِصَاصٞۚ﴾: المماثلة والمساواة، يُقال: اقتَصَّ مِن عَدُوِّه، أي: فَعَلَ بعدوِّه مِثلَ ما فعل به، والقِصاصُ أيضًا: المُعاقبة بالمثل، ويأتي بمعنى المقابلة، وأَصله مِنَ القَصِّ، وهو: التّتَبُّعُ، يُقال: قَصّ الأَثَرَ، أي: تَتَبّعَه، ومنه القاصُّ: وهو الّذي يَتبَعُ الأَخبار، وقيل القصُّ: القطعُ، ومنه سُمِّيَت المُعاقبة بالمثل قِصاصًا؛ لأنّه يَتَتَبّعُ جنايةَ الجاني، ويأخذُ مثلَها منه، أو لأنَّه يَقطَعُ مِن بَدَنِه مِثلَ ما قَطعَ، ومِن أسمائه أيضًا: الجزاءُ والقَوَدُ[2].

9) ﴿تَصَدَّقَ بِهِۦ﴾: الصَّدقة: اسمٌ لِمَا يُتَصَدّقُ به مِن مالٍ ونحوه، أو ما أعطَيتَه في ذات اللّه تعالى للفقراء والمساكين، والتّصَدُّقُ: إعطاء الشّيء تقرّبًا إلى اللّه تعالى، يُقال: تَصَدَّقتُ عليه، أي: أَعطَيتُه صدقةً، والمُتَصَدِّقُ: المُعطي، وأَصل الكلمة مِنَ الصّدقِ، وهو: القوّة والصّلابة، ومنه سُمِّيَت بذلك؛ لدلالتها على قوّة إيمان وصدق صاحبها، والجمعُ: صدقاتٌ[3]، ويُقال لما تجافى عنه الإنسان من حقّه: تصدّق به، نحو قوله تعالى: ﴿وَٱلۡجُرُوحَ قِصَاصٞۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٞ لَّهُۥۚ﴾، أي: من تجافى عنه، وفي نحو قوله: ﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسۡرَةٖ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيۡسَرَةٖۚ وَأَن تَصَدَّقُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡ﴾ [البقرة: 280]، فإنّه أجرى ما يسامح به المعسر مَجرَى الصّدقة[4].

10) ﴿كَفَّارَةٞ﴾: مأخوذةٌ مِنَ الكفر، وهو السَّتر والتَّغطية، سُمِّيت بذلك؛ لأنَّها تُغطِّي الذَّنبَ وتَستُرُه حتّى يَصِيرَ بمنزلة ما لم يُعمَل، يُقال: كَفَّرَ اللّه عنه الذَّنبَ، أي: محاه، وكأَنَّه غطَّى عليه بالكفَّارة، وكلّ ما غطّى شيئًا فقد كفره، ومنه قيل للَّيل: كافرٌ؛ لأنّه سترَ بظلمته كلَّ شيءٍ وغطّاه[5]، والكفّارة: ما يغطّي الإثم، ومنه كفّارة اليمين، وكفّارة القتل والظّهار[6].

(1) الرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (جرح).
(2) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والزّبيديّ، تاج العروس: (قصص).
(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (صدق)، والجرجانّي، التّعريفات، ص: 176، والزّبيديّ، تاج العروس: (صدق).
(4) الرّاغب، المفردات: (صدق).
(5) الفيروزآبادي، القاموس المحيط، وابن سيده، المحكم، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (كفر).
(6) الرّاغب، المفردات: (كفر).

11) ﴿بِمَآ أَنزَلَ﴾: الإنزال: مصدرُ أَنْزَلَ، وهو نقلُ الشَّيء من أَعلى إلى أَسفل، يُقالُ: نزل الشَّيءُ، يَنزِلُ نزولًا، أي: هبط وانحَدَرَ مِن عُلُوٍّ إلى سُفلٍ، وأَصلُه: الانحطاطُ مِن عُلُوٍّ[1].

12) ﴿ٱلظَّٰلِمُونَ﴾: الظُّلمُ: الجَورُ ومُجاوزة الحَدِّ، يُقال: ظَلَمَه، يَظلِمُه، ظُلمًا ومَظلِمَةً، أي: جارَ عليه، وضدُّه: العَدلُ، وأَصلُه: وَضعُ الشَّيء في غير مَوضِعه، كقولهم ظَلَمَ الأَرضَ: إذا حفرها في غير مَوضِع حَفْرِها، ومِن معانيه أيضًا: التّعَدِّي والحَيف[2].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

بيَّن اللّه تعالى في الآية الكريمة أنَّه فرَض على اليهودِ في التّوراة القِصاصَ بأن تُقتَلَ النَّفسُ إذا قَتَلَت نفسًا أُخرى عَمدًا بغير حقٍّ، وكذا العينُ مُقابلَ العين، والأَنفُ مقابلَ الأَنف، والأُذُنُ مُقابلَ الأُذُن، والسِّنُّ مقابلَ السِّنِّ، كما فرض القصاصَ في الجُروح، فللمَجروحِ أن يقتَصَّ بالمثل ممَّن جرَحَه ظُلمًا، فمَن تنازَلَ عن حقِّه منَ القِصاص فيما سبق فعفا عمَّن تعدَّى عليه، فسيُكفِّرُ اللّه ذنوبَه جزاءَ عفوه عنه، وأَخبر تعالى أنَّ مَن لم يحكم بما أنزل اللّه، ويعرض عمّا شرعه اللّه منَ القصاص والعدل والتّساوي بين الأفراد فهو منَ الظّالمين الّذين يغمطون النّاس حقوقهم[3].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

توثيق الأحكام الشّرعيّة مبدأ إسلاميّ:

سرّ عطف قوله تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ﴾ على قوله ﴿أَنزَلْنَا﴾:

عطف: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ﴾ على ﴿أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ﴾؛ لوجود مناسبةٍ بينهما، وذلك من وجهين:

أحدهما: أنَّ الجملتين خبريتان، فبينهما توسُّط بين الكمالين مع وجود الجامع، ووجودِ مناسبةٍ بينهما من جهة كون المسند إليه واحدا، والمسند واحدا أيضًا، وهو الفَرض أو التَّشريع.

والآخر: أنَّه ناسب عَطف هذا الحُكم على ما تقدَّم أنَّهم غيَّروا

(1) الفيروزآبادي، القاموس المحيط، وابن سيده، المحكم، وابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس: (نزل).
(2) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (كفر).
(3) حجازي، التّفسير الواضح: 6/90.

أَحكامَ القِصاص كما غيَّروا أحكام حدِّ الزِّنا، ففاضلوا بين القتلى والجرحى، فالأولى أنزل اللّه أحكامَ الحفاظ على الأعراض، وفي الأخرى أنزل الحفاظ على الأنفس والدّماء، لكنّهم بدّلوا وغيّروا في كلّ منهما.

سرُّ التَّعبير بلفظ الكتابة في قوله تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ﴾:

عبّر القرآن الكريم بالفعل ﴿وَكَتَبْنَا﴾؛ لأنّ هذه المادّة الَّتي صِيغ منها الفعل - وهي الكتابة - تعطي معنى الْفَرْضِ واللُّزوم، ويكون معنى النّصّ الكريم أنّنا فرضنا وحكمنَا حكمًا مكتوبًا خالدًا غير قابلٍ للمحو في أيّ عصرٍ منَ العصور[1].

نكتة مجيء الفعل ﴿وَكَتَبْنَا﴾ بصيغة الماضي:

جاء الفعل (كتب) على هذه الصّيغة ليدلّ على الزَّمن الماضي، ممَّا يفيد استقرارَ الأَمرِ وثبوتَه، فضلًا عن عظمة مُشرِّعه، ولا سيَّما أنَّه اتَّصل بنون العظمة العائدة عليه جلَّ في علاه، وليفيد أقدميَّةَ الحكم، وكونَه مُقرَّرًا[2].

دلالة تعدّي الفعل (كتب) بحرف الجرّ (على):

دلّ تعدّي الفعل (كتب) بحرف الجر (على) على أنّ المراد بها هنا الفرض والتّشريع، والمعنى: فرضنا وأوجبنا عليهم في التَّوراة أنَّ النَّفسَ بالنَّفس، ويجوز أن يُراد الكتابة الحقيقيَّة، وهي الكتابة في الألواح؛ لأنَّ التَّوراة نزلَت مكتوبة في الألواح، ولهذا تعدَّى فعل (كتبنا) بحرف (في) فهو منِ استعمال اللَّفظ في حقيقته ومجازه، وفيه إشارة إلى أنَّ هذا الحُكم لا يُمكن جحده؛ لأنَّه مكتوب، والكتابة تزيد الكلام توثيقًا[3].

تعيين مُتعلّق الفعل ﴿وَكَتَبْنَا﴾:

المكتوب عليهم: هو المصدر المستفاد مِن (أنَّ) وما دخَلَتْ عليه، والمأخوذ من حرف الباء الَّذي هو التَّعويض، أي: كتبنا عليهم تعويضَ النَّفس المقتولة بالنَّفس القاتلة، أي: مساواة القِصاص.

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 4/2205.
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/196.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 6/213.

دلالة حرف الجرّ ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾:

التَّعبير بحرف الجرّ (على) أفاد معنى استعلاء الحُكم، وتمكُّنه فيهم[1].

سرّ التّعبير بالظّرفيّة في قوله: ﴿وَكَتَبۡنَا عَلَيۡهِمۡ فِيهَآ﴾:

التّعبير بالظّرفيّة أفاد استقرار حكم القصاص في التّوراة، وتمكّنه منها تمكّن الظّرف منَ المظروف.

سرّ اتّفاق القرّاء على فتح همزة ﴿أَنَّ﴾ في هذا الموضع:

فُتحَت همزة ﴿أَنَّ﴾ هنا؛ لأنّ المفروض في التّوراة ليس هو عين هذه الجُمل، ولكنّ المعنى الحاصل منها، هو العوضيّة والمساواة فيها.

سرّ تقديم الجارّ والمجرور ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾ في قوله: ﴿وَكَتَبۡنَا عَلَيۡهِمۡ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفۡسَ بِٱلنَّفۡسِ﴾:

قُدّم الجارُّ والمجرور؛ لأنّ البدء بذكر المكتوب عليهم آكد من ذكر المكتوب؛ لتعلّق الكَتب بمَن يؤدّي، فيترقّب المكلّف التّكليف، وتتطلّع نفسُه إلى المكتوب عليه.

دلالة التّعبير بـ (الباء) في قوله: ﴿أَنَّ ٱلنَّفۡسَ بِٱلنَّفۡسِ﴾:

عُبّر بـ(بالباء)؛ للدّلالة على أنّ النّفس مقابلة بالنّفس، تؤخذ بها، وتكون بدلًا، فالباء هنا للمقابلة، فكما أنّ المقابلة تكون في البيوع تكون في النّفوس إذا اعتدت، وتصير نفس الجاني كأنّها شيء منَ الأشياء، وهو الّذي أهانها[2].

دلالة التّعبير بقوله: ﴿ٱلنَّفۡسَ بِٱلنَّفۡسِ﴾:

دلّ التّعبير على عموم النّفس من غير تخصيص ولا تفريق، فالعبرة بالتّساوي في الإنسانيّة، وفي النّفس الآدميّة، فلا تفاضل بين نفسٍ ونفس، ولا التفات لقول الّذين يفرّقون بين الأنفس؛ لأنّ النّصّ القرآنيّ محكمٌ في وجوب القصاص في الأنفس من غير تفرقة، قال اللّه تعالى: ﴿وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [البقرة: 179][3].

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/271، والحناويّ، آيات القصاص دراسة بلاغيّة، ص: 847، وأبو صعيليك، الإعجاز البيانّي والتّشريعيّ في آيات القتل، ص: 107.

(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 4/2205.

(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 4/2205.

سرّ التّعبير بالأعضاء المذكورة في قوله تعالى: ﴿وَٱلۡعَيۡنَ بِٱلۡعَيۡنِ وَٱلۡأَنفَ بِٱلۡأَنفِ وَٱلۡأُذُنَ بِٱلۡأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ﴾:

كـرامـة أجـزاء الإنـسـان من كـرامـةِ الإنـسانِ نفسِهِ

التّعبير بهذه الأعضاء في هذا النّصّ يبيّن أنّ القصاص بين الأطراف كالقصاص بين الأنفس، فالعين إذا فُقئت حتَّى لم يبقَ فيها مجالٌ للإدراك؛ فإنَّ عين الجاني تُفقَأُ بها، والأَنف إذا جُدعَ جميعهُ فإنَّه يُجدع أنف الجاني بهِ، والأُذن إذا قُطعت جميعها فإنَّها تُقطع أذنُ الجاني بها، وكذلك السِّن، والّذي يدلّ على ذلك هو الإتيان بالألف واللّام في هذه الأعضاء، فكأنّه أشار إلى العين كاملة، وكذا بقيّة الأعضاء.

فأمَّا لو كانتِ الجناية ذهبت ببَعْضِ إدراك العين أو ببعض الأَنف أو ببعض الأُذن أو ببعض السِّن، فليس في هذه الآية ما يدلُّ على ثبوت القِصاص[1]، وإنّما اختلف الفقهاء في قيمة ما وقع من بعض الجنايات في هذه الأعضاء، وهذا محلّه كتب الفقه.

سرّ الاقتصار على هذه الأعضاء:

اقتصر على هذه الأعضاء دون غيرها؛ لشرفها ولإمكان القياس عليها، يقول ابن العربيّ: (نصَّ على أمَّهات الأعضاء، وترك باقيها للقياس عليها، وكلّ عضو فيه القِصاص إذا أمكن ولم يخشَ عليه الموت، وكذلك كلّ عضو بطلَت منفعته وبقيت صورته فلا قود فيه، وفيه الدّيّة لعدم إمكان القود فيه)[2].

ويضاف إلى ذلك ما ذكره ابن عاشور بقوله: (لأنّ القطع يكون غالبًا عند المضاربة بقصد قطع الرّقبة؛ فقد ينبو السّيف عن قطع الرّأس فيصيب بعض الأعضاء المتّصلة به من عين أو أنف أو أذن أو سنّ، وكذلك عند المصاولة؛ لأنّ الوجه يقابل الصّائل)[3].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 6/154، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/43، والقنّوجيّ، فتح البيان: 3/433.
(2) ابن العربيّ، أحكام القرآن: 2/135.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 6/214.

سرّ إفراد هذه الألفاظ وجمع الجروح:

جُمِعَت الجروحُ لإمكان تعدُّدها في الشَّخص الواحد، بخلاف تلك[1].

المراد باللام في النّفس الأولى وما عطف عليها:

المُرادُ بالنَّفس الأولى: نَفسُ المُعتدَى عليه، ولام التَّعريف في المَواضِع الخمسة داخلةٌ على عضو المَجنِي عليه، ومجرورات الباء الخمسة على أعضاء الجاني.

دلالة (الواو) بين العطف والاستئناف في قوله تعالى: ﴿وَٱلۡعَيۡنَ بِٱلۡعَيۡنِ﴾:

تتباين آراء العلماء في دلالة الواو في الآية، فذكر أبو علي الفارسيّ وجوهًا للعطف، منها: أنَّ جملة ﴿وَٱلۡعَيۡنَ بِٱلۡعَيۡنِ﴾ وباقي المعطوفات منصوبةٌ عطفًا على اسم إنَّ، وبالرَّفع جملة اسميَّة معطوفة على جملة فعليَّة ﴿وَكَتَبۡنَا﴾، ويكون هذا ابتداءَ تَشريعٍ وبيانَ حُكمٍ جديد غير مندرج فيما كُتب في التَّوراة[2].

وذهب الخطيب إلى أنَّه لا عطفَ، والكلامُ محمولٌ على الاستئناف، وليس ابتداءَ كلام مُنقطع عن سابقه، إنَّما هو استئناف جوابٍ يتمُّ به الكلام المُنبثق منَ الجملة السَّابقة، ويكون الكلامُ جوابَ سؤال مقدَّر، كأنَّه لمّا سمع قوله: ﴿ٱلنَّفۡسَ بِٱلنَّفۡسِ﴾، قال قائلٌ: ما حالُ غير النَّفس؟ فقال الله تعالى: ﴿وَٱلۡعَيۡنَ بِٱلۡعَيۡنِ﴾[3].

سرّ التّرتيب في ذكر الأعضاء:

بُدِئَ بالعين؛ لأنّها أشرف الأعضاء وأكملها، ولا يُستغنى عنها، فهي زينة الوجه، ومحلّ الجمال في الخلقة، وبها النّظر والبصر، إلى غير ذلك منَ الوظائف الحسّيّة والمعنويّة، ثمّ ثنّى بالأنف لأهميّته حسًّا ومعنًى، فمنه النّفَسُ والتّنفس، ويكنّى به عنِ الشّموخ والعظمة، ثمّ ثلّث بالأذن مع بالغ أهمّيتها، لكنّها في الأثر أقلّ، ثمّ ختم ذكر الأعضاء بالأسنان، وهي في ترتيبها تدلّ على قدر وظيفتها.

دلالة ﴿وَٱلۡجُرُوحَ﴾:

الجروح غير قطع الأطراف المتميّزة الّتي يجري فيها التّماثل، مثل: الشّجاج بكلّ

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/110.

(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/271، والسّمين، الدّرّ المصون: 4/273.

(3) الخفاجيّ، عناية القاضي: 3/246، والآلوسّي، روح المعاني: 3/315.

مراتبها، ومثل: الجروح في أجزاء الجسم، وهذا يدلّ على أنّ جسم الإنسان مصانٌ، ومحاطٌ بالحفاظ عليه، وعدم الاعتداء ولو كان ذلك بجرحٍ يسير، فشرّع الإسلام القِصاص؛ لإعلاء شأن الإنسان.

حرص الإسلام على كرامة الإنسان في كلّ المراحل:

سرُّ الوصف بالمصدر دون الوصف بالصِّفة الصَّريحة في قوله تعالى: ﴿وَٱلۡجُرُوحَ قِصَاصٞۚ﴾:

الوصف بالمصدر أَكثرُ مبالغة مِنَ الوصف بالصِّفة الصَّريحة، فوَصْفُ الجروحِ بأنَّها قِصاص؛ لأنَّه لمّا كان كلُّ جُرح يجري فيه القِصاص؛ صارتِ الجروحُ كأنَّها مخلوقة مِن ذلك الفعل لكثرة تعاطيها له، والاعتياد عليه، فمَن جَرح غيرَه اقتُصَّ منه، ولهذا جعله نفسه هو المصدر لِلْمُبَالغة، ولا شكَّ أنَّ هذا أبلغُ من تقدير مُضاف محذوف، أي: الجروح ذات القِصاص، وفي هذا المعنى يقول ابن جنِّي – في قول الخنّساء: (فإنَّما هي إقبالٌ وإدبارٌ) – : إن شِئتَ على ذات إقبال وإدبار، وإن شِئتَ جعلتها نفسها هي الإقبال والإدبار، أي: مخلوقة منها[1].

سرّ إيثار التّعبير بالتّصدّق دون العفو:

حثّ الإسلام على العفو والصّفح في الدّماء والجروح منهج قرآنيّ:

المراد منَ التَّصدّق في الجملة: العَفو، والمُتصدِّق: صاحبُ الحقِّ، ومستوفي القِصاص منَ المجروح إن كان باقيًا، أو وارثه إن كان هالكًا[2]، وسرُّ التَّعبير عنِ العفو بالتَّصدّق في هذه الجملة الشَّرطيَّة: المُبالغة في التَّرغيب فيه[3].

ولأنَّ العفو لمّا كان عن حقٍّ ثابتٍ بيد مُستحقِّ القِصاص؛ جعل إسقاطه بمنزلةِ الصّدقة؛ ليُشير إلى فَرطِ ثوابه.

وعلى هذا فالكلام واردٌ على سبيل الاستعارة التَّبعيّة في الفعل

(1) ابن جنّي، المحتسب: 2/89، والقزوينيّ، الإيضاح: 1/108.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/155.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/43، والآلوسّي، روح المعاني: 2/398.

﴿تَصَدَّقَ﴾، فقد شبَّه العفو بالتَّصدق بجامع فرط الثَّواب في كلٍّ منها، واستُعير المشبَّه به للمشبَّه، واشتقّ منه ﴿تَصَدَّقَ﴾ بمعنى (عفا)[1].

تعيين مرجع الضّمير في ﴿بِهِۦ﴾ من قوله: ﴿فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ﴾:

الضَّمير في (به) عائدٌ على القِصاص الشَّامل للنَّفس والأَعضاء والجروح الَّتي فيها القِصاص، وفي هذا إشارة إلى شيوع العفو في كلّ المراحل: النّفس وما بعدها.

نكتة الإضمار في موضع الإظهار:

عُبّر بالإضمار في مقام الإظهار في قوله تعالى: ﴿فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ﴾؛ لأنّ التّصدّق يَحْمِلُ أكثر من معنًى، فهو يشير إلى حاجة الجاني الملحّة إلى العفو؛ لاستبقاء حياته، كما أنّ الفقير المعدم يحتاج إلى الصّدقة؛ لاستبقاء حياته، فاستبقاء الحياة أمرٌ مشترك بينَهما.

وللإشارة إلى أنّ فضل العافي على الجاني كفضل المتصدّق على المحتاج، وفيها إشارة إلى طلبِ العافي مرضاةَ اللّه في الدّنيا والآخرة.

دلالة التّعبير بقوله: ﴿كَفَّارَةٌ﴾ مع ذكر دلالة الضَّمائر في قوله تعالى: ﴿فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ﴾:

الضَّمير ﴿فَهُوَ﴾ يعود على التَّصدّق، أي: فالتَّصدّق كفَّارة للمُتصدِّق، فمَن تصدَّق بجُرحه أو دَم وَليِّه فعفا عن حقِّه في ذلك، فإنَّ العفو كفَّارة له عن ذُنوبه يُعظِّم اللّه أجرَه بذلك، ويكفِّر عنه[2]، والضَّمير في ﴿لَّهُۥ﴾ يعود على المُتصدِّق، ويَحْتَمِل أن يعود على الجاني وإن لم يتقدَّم ذِكره، أي: ذلك العفو والتّصدّق كفّارة للجاني، تُسقط عنه ما لزمه منَ القصاص، ويَحْتَمِلُ أيضًا أن يكون المعنى أنّ كلّ مَن تصدّق واعترف بما يَجِبُ عليه منَ القصاص وانقاد له؛ فهو كفّارة لمَا جناه منَ الذّنب، والإضافة للاختصاص، وهذا ترغيب في العفو[3].

دلالة التّعبير بالجملة الشّرطيّة في قوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾:

هذه الجملة شرطيَّة تتناولُ كلَّ خارجٍ عن حكم اللّه مُتمرِّد على أحكامه وشرائعه، فهي

(1) الحناويّ، آيات القصاص دراسة بلاغيّة، ص: 848.

(2) البروسويّ، روح البيان: 2/398.

(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/198، والرّازيّ، مفاتيح الغيب: 12/369، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/276.

تحذيرٌ مِن مُخالفة حُكم اللّه، وتنبيهٌ على أنَّ التَّرغيب في العفو لا يقتضي الاستخفاف، وإبطال العمل به؛ لأنَّ حُكم القِصاص شُرِعَ لحكمةٍ عظيمة منها الزَّجر، وجَبر خاطر المُعتدَى عليه، والتَّفادي من ترصُّد المُعتدَى عليهم للانتقام منَ المُعتدين.

فإبطال الحُكم بالقِصاص يُعطّل هذه المصالح، وهو ظُلمٌ؛ لأنَّه غَمْطٌ لحقِّ المُعتدَى عليه أو وليّه، أمَّا العفو عنِ الجاني فيُحقِّق جميع المصالح، ويزيد مصلحة التَّحابب؛ لأنَّه عن طيب نفسٍ.

وجه إعادة التّحذير بعد استحباب العفو في قوله: ﴿فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥۚ﴾:

ووجه إعادة التَّحذير بعد استحباب العَفو: أنَّه قد تغشى غباوة حكام بني إسرائيل على أفهامهم، فيجعلونَ إبطال الحُكم بمنزلة العفو[1].

سرُّ التَّعبير بالاسم الأحسن ﴿ٱللَّهُ﴾ والاسم الموصول في قوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾:

التَّعبير بالاسم الموصول عمّا أنزله اللّه تعالى يُشعر بما في حيِّز الصِّلة من عَظَمَةِ المُنَزِّل، ثمَّ الرَّهبة والهيبة منه الَّتي أفادتها العَنْوَنة بالألوهيَّة في هذا المَوضِع ممَّا يقتضي الخضوع والاستسلام، ومِن ثمَّ الطَّاعة والتَّنفيذ[2].

بلاغة ختم الآية بقوله: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾:

الجملة جواب الشَّرط، ومعناها: المبالغون في الظُّلم المتعدُّون لحدوده تعالى، الواضعون الشَّيءَ في غير مَوضِعه، وهي تذييلٌ مقرِّر لإيجاب العمل بالأحكام المذكورة[3].

بيان خطورة الاعتداء على حدود الله تعالى

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 6/217.
(2) أبو صعيليك، الإعجاز البيانّي والتّشريعيّ في آيات القتل، ص: 108.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/43.

سرّ التّعبير باسم الإشارة ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ في قوله: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾:

التَّعبير باسم الإشارة للبعيد لـ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ يُرادُ به الإبعادُ والذَّمُّ، وتبشيعُ حالهم في بُعْدِهم عن تنفيذ أحكام اللّه المذكورة في التّوراة.

دلالة التّعبير بأسلوب الحصر والقصر في قوله: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾:

اشتملت هذه الفاصلة على أسلوب الحصر في قوله: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾؛ للمبالغة في الوصف بهذا الإثم العظيم المُعبَّر عنه بالظُّلم، وبلوغهم أقصى درجاته؛ لأنَّه جَور وتبديل للأحكام.

ولهذا قصر صفة الظُّلم عليهم، أي: هم الكاملون في الظُّلم، وأكَّد هذا القصر بضمير الفصل[1].

مناسبة فواصل القرآن لمضمون آياتها:

النّظم القرآنيّ في فواصل الآيات المتعاقبة جمع بين جمال المَبنَى وسموِّ المعنى:

جاءت هذه الفاصلة بوصف الظُّلم عقب أشياء مخصوصة مِن أمر القتل والجرح فناسب ذِكر الظَّالمين؛ لأنَّ الظُّلم مُنافٍ للقِصاص، وعدم التَّسوية، وفيه إشارة إلى ما كانوا قرَّروه من عدم التَّساوي بين بني النَّضير وبني قريظة.

ولأنَّهم لم ينصفوا المظلوم منَ الظَّالم في الأمر الَّذي أمر اللّه فيه بالعدل والتَّسوية بين الجميع، فخالفوا وظلموا، وتعدَّى بعضُهم على بعضٍ؛ ولهذا ختم الآية بقوله: ﴿ٱلظَّٰلِمُونَ﴾؛ لأنّه يناسب أوّلها في المعنى.

أمَّا الآية السَّابقة فقد ناسبَ ذِكر الكافرين، فختمها بقوله: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾؛ لأنَّه جاء عقب قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾ ﴿وَلَا تَشْتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنًا قَلِيلًا﴾، وهذا كفر، فناسب ذِكر الكافرين، وهكذا ختمَ كلَّ آيةٍ بما يناسب أوَّلها في المعنى.

(1) القنّوجيّ، فتح البيان: 3/435.

وهذا الوصف الجديد هنا ﴿ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ لا يعني: أنَّها حالٌ أخرى كالّتي سبق الوصف فيها بالكفر، إنَّما يعني إضافة صفة أخرى لمَن لم يحكم بما أنزل اللّه[1].

وعلى هذا يكون المرادُ بالظُّلم الجَوْرَ، ويكون إثبات وصف الظُّلم؛ لزيادة التَّشنيع عليهم في كفرهم؛ لأنَّهم كافرون ظالمون[2].

حكمة تشريع القصاص:

من خلال ما سبق ذكره في الآية منَ التّأكيد على أخذ النّفس بالنّفس، وما تبع ذلك منَ الأعضاء المذكورة في الآية؛ فإنَّنا نلحظ أنَّ القِصاص - مِن أَعلاه في النَّفس إلى أدناه في الجروح - فيه تكريمٌ للإنسانِ، وحياةٌ هنيئة لهُ، كما قال تعالى: ﴿وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ﴾ [البقرة: 179]، فإنَّه إن ساد الشُّعور بالقِصاص بين مَن تُسوِّل لهم أنفسُهم ارتكاب الجرائم سيتردَّدون في ارتكابها، ولا يُقدِمون على ذلك، ولا يصحّ أن نذهب إلى الرَّأفة بالجاني دون النَّظر لما آل إليه أثر الجناية في المجني عليه، وإلَّا كُنَّا نُعين الظَّالم، ونقيله من عثرته، ونترك المظلوم يَئِنُّ من جروحه المادّيَّة والنَّفسيَّة[3].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الرُّوح والنَّفس:

الرّوح بضمّ الرّاء في كلام العرب: النّفخ، سُمّي روحًا؛ لأنّه ريحٌ يخرج منَ الرّوح، لذا اقترن النّفخ مع الرّوح في قوله تعالى: ﴿فَنَفَخۡنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا﴾ [الأنبياء: 91]، وفي قوله: ﴿ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ﴾ [السّجدة: 9].

والنّفس سُمّيت نفسًا؛ لتولّد النّفس منها، وهي تُطلق في كلام العرب على وجوه، فتُطلق على الدّم والعين والعزّة إلى غير ذلك منَ المعاني.

وجُعلت الرُّوح من أمرِ اللّه في قوله تعالى: ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي﴾ [الإسراء: 85]، وقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ﴾ [الشّورى: 52]، بخلاف

(1) الخطيب، التّفسير القرآنّي للقرآن: 3/1106.
(2) الحناويّ، آيات القصاص دراسة بلاغيّة، ص: 851.
(3) أبو زهرة، الجريمة والعقوبة في الفقه الإسلاميّ، ص: 405.

النّفس، فقد جُعِلَت من عالم الخلق، قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ [النّساء: 1]، والآيات في هذا عديدة.

ولمّا كانتِ الرّوح من عالم الأمر فهي أشرف منَ النّفس؛ لذا نسبت إليه سبحانه تشريفًا لها وتعظيمًا، قال تعالى: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُواْ لَهُۥ سَـٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [الحجر: 29][1].

وممّا يُذكر في الفرق بينهما أنّ الرُّوح جَوهَرٌ لطيفٌ حاملٌ قوَّة الحياة، والحسِّ، والحركة الإراديَّة، وهي أمرٌ منَ اللّه تعالى، تَعجز العقولُ عن إدراك كنهه، كما قال تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾ [الإسراء: 85]. والنَّفس هي ما يجمع بينَ الرَّوح والبدن، وتُطلق على القوَّة الدَّاعية إلى البرّ والشَّرّ. والرُّوح: التَّنفُّس، وقد أراح الإنسان إذا تنَفَّس[2].

الزَّكاة والصَّدقة:

الفرق بينهما أنَّ الزَّكاة لا تكون إلَّا فرضًا، والصَّدقة قد تكون فرضًا، وقد تكون نفلًا، والتَّصدّق: مُطلق العطاء[3].

الجَور والظُّلم:

أصل الظُّلم نقصان الحقّ، والجَور العُدولُ عنِ الحقِّ، وخُولف بين النَّقيضين، فيقال في نقيض الظُّلم: الإنصاف؛ وهو إعطاء الحقّ على التَّمام، وفي نقيض الجَور: العدل؛ وهو العدول بالفعل إلى الحقِّ.[4].

(1) الدُّوري، دقائق الفروق اللّغويّة، ص: 137.
(2) الرّاغب، المفردات: (روح)، وعبد العظيم، موسوعة الفروق القرآنيّة: 2/748.
(3) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 267.
(4) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 259.

﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ۖ وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [المائدة: 46]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الـــربـــط بـين أحكام القصاص في الـتّـــوراة والإنـجـيـل، والـــدّعـــوة لـلاحـتـكـام إلى القرآن الجليل

لمَّا بيَّن الله ﷻ في الآية السَّابقة بعضَ ما ورد من أحكام القصاص في التَّوراة الَّتي حَكمَ بها موسى، ومن تَبعَه من أنبياء بني إسرائيل عليهم السلام؛ أَردفَ هنا في هذه الآية الكريمة حديثَه عن نبيٍّ من أنبيائهم، وهو عيسى بن مريم عليه السلام الَّذي بعثَه الله مُصدِّقًا لمَا بين يديه منَ التَّوراة، وحاكمًا بشريعتها، "وأنزلنا إليه الإنجيل هاديًا إلى الحقّ، ومبيِّنًا لمَا جهله النّاس مِن حكم الله، وشاهدًا على صدق التّوراة بما اشتمل عليه من أحكامها، وقد جعلناه بيانًا للّذين يخافون الله، وزاجرًا لهم عنِ ارتكاب المحرَّمات"[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَقَفَّيْنَا﴾: (قَفِيَ): القاف والفاء والحرف المعتلّ: أصلٌ صحيحٌ، يدلُّ على إتباعِ شيءٍ لشيء. من ذلك القَفوُ، يُقالُ: قَفَوت أَثَرَه. وقَفَّيتُ فلانًا بفلان، إذا أَتبعتُه إيَّاه. وسُمِّيت قافيةُ البيت قافيةً؛ لأنَّها تَقفو سائرَ الكلام، أي: تَتلوهُ وتَتبعُه. والقَفا: مؤخَّر الرَّأس والعنق، كأنَّه شيءٌ يَقفو الوَجه. والقافية: القَفَا[2]، وفي المعجم الوسيط: "قفّى على الشَّيء: غشيه أَو ذهب به، والشّعر: جعل له قافية، و- فلانًا وبِه: أتبعه إيَّاه. ويُقال: قفّى على أَثَره بفلان...(اقتَفاه): تبعه، و- الشَّيء: اختارَه وفلانًا بأمر: اختصّه به، ويُقال: اقتفى بفلان: خصّ نفسه به"[3].

(1) لجنة من علماء التفسير، التفسير الميسر، ص: 116.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (قفي).
(3) مجمع اللّغة العربيّة بالقاهرة، المعجم الوسيط: (قفا).

2) ﴿ءَاثَٰرِهِم﴾: (الأَثَرُ): بقيَّة الشَّيء، والجمع: آثارٌ وأُثورٌ، والخَبَرُ، وخَرَجَ في إِثْره وأَثَره: بَعدَه، وائتَثَرَه وتَأَثَّرَه: تَبعَ أَثَرَه، وأَثَّرَ فيه تأثيرًا: ترك فيه أثرًا[1]، ومعنى اللّفظ في الآية: "وأَتبَعنا عيسى بن مريم على آثار النّبيئين الّذين أسلموا من قبلك"[2]، والضّمير في ﴿ءَاثَٰرِهِم﴾؛ إمَّا للنّبيّين لقوله: ﴿يَحۡكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ﴾ [المائدة: 44]، وإمَّا لِمَن كُتبت عليهم تلك الأحكام، والأوّل أظهر؛ لقوله في موضع آخر: ﴿ثُمَّ قَفَّيۡنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيۡنَا بِعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَ﴾ [الحديد: 27][3]، و"قوله: (آثارهم) جمع أثر، وهو العلم الّذي يظهر للحسّ، وآثار القوم: ما أبقوا من أعمالهم، وقوله ﴿عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم﴾ تأكيد لمدلول فعل ﴿قَفَّيۡنَا﴾، وإيماء إلى سرعة التّقفية"[4].

3) ﴿مُصَدِّقٗا﴾: (صَدَقَ): الصَّاد والدَّال والقاف أصل يدلُّ على قُوَّة في الشَّيء، ومن ذلك الصِّدقُ: خلاف الكذب، سُمِّيَ لقوَّته في نفسه، ولأنَّ الكذب لا قوَّة له، إذ هو باطلٌ، وأصل هذا من قولهم: شيءٌ صَدقٌ، أي: صُلبٌ، ورُمحٌ صَدق، ويُقال: صَدَقوهم القتال، وفي خلاف ذلك كَذَبوهم، والصِّدِّيقُ: المُلازم للصِّدق، والصَّداقُ: صَداقُ المرأة؛ سُمِّيَ بذلك لقوَّته، وأنَّه حقٌّ يَلزَم[5]، وقوله تعالى في الآية الَّتي معنا: ﴿وَقَفَّيۡنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ﴾، أي: مُصدِّقًا ما تقدَّمَه منَ الكتب، وهذا كما في قوله تعالى: ﴿نَزَّلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ﴾ [آل عمران: 3][6]، والمعنى المستفاد من كون الإنجيل مصدّقًا، " أي: أنّ الإنجيل قد كان بذاته مصدّقًا للتّوراة، من حيث صدق نسبتها إلى اللّه تعالى، قبل تحريفها، وقبل أن ينسوا حظًّا منها"[7].

4) ﴿وَهُدٗى﴾: الهدايةُ: دلالةٌ بلطف، ومنه: الهديَّة، وخصَّ ما كان دلالةً بهدَيت، وما كان إعطاءً بأهدَيت، نحو: أهديتُ الهديَّة، وهَدَيتُ إلى البيت، والمرادُ بالهداية الَّتي جُعِلَ للنَّاس بدعائه إيَّاهم على ألسنة الأنبياء، وإنزال القرآن ونحو ذلك، وهو المقصود كذلك

(1) الفيروزابادي، القاموس المحيط: (أثر).
(2) مكّيّ القيسّي، الهداية إلى بلوغ النّهاية: 3/1763.
(3) السّمين، الدّرّ المصون: 4/282.
(4) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 4/282.
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (صدق).
(6) الرّاغب، المفردات: (صدق).
(7) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 4/2219.

بقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ [السّجدة: 24][1]، الهدى منَ الهداية، وهي: "دلالة بلطف، ومنه الهديّة، وهوادي الوحش، أي: متقدّماتها الهادية لغيرها، وخصّ ما كان دلالة بهديت، وما كان إعطاء بأهديت، نحو: أهديت الهديّة، وهديت إلى البيت "[2].

5) ﴿وَمَوْعِظَةً﴾: الوعظ: هو التَّذكير بالخير فيما يَرِقُّ له القلب[3]، وهو: زَجرٌ مُقترنٌ بتخويف، والعِظَة والمَوعِظَة: الاسم، قال تعالى: ﴿يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ۝٩٠﴾ [النّحل: 90]، وقال سبحانه: ﴿قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [يونس: 57][4].

وقال الخليل: هو التّذكير بالخير فيما يرقّ له القلب، وذكروا له نماذج في القرآن الكريم، كقوله تعالى: ﴿يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ۝٩٠﴾ [النّحل: 90]، ﴿۞قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍۖ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍۚ﴾ [سبأ: 46]، ﴿ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِۦۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ۝٣﴾ [المجادلة: 3]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۝٥٧﴾ [يونس: 57]، وغيرها منَ الآيات المؤكّدة على الموعظة وجلالها وأهمّيّتها[5]، ومعنى لفظ (موعظة) هنا: يؤكّد أنّ الإنجيل همزة وصل بين التّوراة الّتي يصدّقها، والقرآن الّذي يبشّر به، على اعتبار أنّه "موعظة حسنة للمتّقين؛ لاشتماله على النّصائح والإرشادات البليغة، وخصّ المتّقون بالذّكر؛ لأنّهم المقصودون به في علم اللّه، ولأنّهم الّذين ينتفعون بتلك المواعظ"[6].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

يخبرُ اللّه تعالى عبادَه في هذه الآية الكريمة، بأنَّه أرسلَ عبدَه ورسولَه عيسى بن بن مريم عليهما السلام على إثر أنبياء ورُسل بني إسرائيل الَّذين كانوا يحكمون بالتَّوراة، مُصدِّقًا لمَا بين يديه منَ التَّوراة، حاكمًا بشريعته، وموافقًا له في أكثر الأمور الشَّرعيّة في كتاب الإنجيل الَّذي جعلَه مَنبعَ هدايةٍ لصراط اللّه المستقيم، وخاصَّةً لمن ينتفعُ ويتَّعظُ به منَ المتَّقين[7].

(1) الرّاغب، المفردات: (هدى).
(2) الزّين، تفسير مفردات ألفاظ القرآن الكريم: (هدى).
(3) الخليل، العين: (وعظ).
(4) الرّاغب، المفردات: (وعظ).
(5) الزّين، تفسير مفردات ألفاظ القرآن الكريم: (هدى).
(6) الزّحيلّي، التّفسير الوسيط: 1/466.
(7) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 188.

وخلاصة المعنى في هذا المضمار: أنّ اللّه تعالى يقول: "وأتبعنا أنبياء بني إسرائيل عيسى بن مريم، مؤمنًا بما في التّوراة، عاملًا بما فيها، ممّا لم ينسخه كتابه، وأنزلنا إليه الإنجيل هاديًا إلى الحقّ، ومبيِّنًا لمَا جهله النّاس مِن حكم اللّه، وشاهدًا على صدق التّوراة بما اشتمل عليه من أحكامها، وقد جعلناه بيانًا للّذين يخافون اللّه، وزاجرًا لهم عن ارتكاب المحرَّمات"[1].

الإنجيل منبع هداية الله لبني إسرائيل، لم ينتفع بتعاليمه إلّا المتَّقون منَ الحواريين

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

أثر العطف في ترابط السّياق، ودوره في ثراء المعنى وجلائه:

جاء قوله تعالى: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم﴾ عطفًا على ما سبقه من قوله: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾ [المائدة: 44]، انتقالًا إلى أحوال النَّصارى لقوله: ﴿وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ﴾ [المائدة: 47]، ولبيان نوعٍ آخرَ من أنواعِ إعراض اليهود عنِ الأحكام الَّتي كتبَها اللّه عليهم، فبعدَ أن ذكرَ نوعين راجعين إلى تحريفهم أحكام التَّوراة: أحدهما: ما حرَّفوه وتَردَّدوا فيه بعد أن حرَّفوه، فشكُّوا في آخر الأمر، والتجؤوا إلى تحكيم الرَّسول. وثانيهما: ما حرَّفوه وأَعرَضوا عن حُكمه، ولم يتحرَّجوا منه، وهو إبطالُ أحكام القصاص. وهذا نوعٌ ثالثٌ: وهو إعراضهم عن حُكم اللّه بالكلّيَّة، وذلك بتكذيبهم لمَا جاء به عيسى عليه السلام، و" ولمَّا كان عدم بيان إرداف موسى عليه السلام بجمع من أرسل معًا مرادًا، لم يقل: (وقفّيناه بالرّسل)، فإنّ المراد منه تقفية كلّ منهم لموسى عليه السلام بالذّات، وليس كذلك بل قال: (قفّينا من بعده بالرّسل)، على تضمين ﴿وَقَفَّيْنَا﴾ معنى جئنا من بعده بالرّسل، مقتفين أثره، ومتّبعين شريعته، فمن قال: أصل الكلام قفّينا موسى عليه السلام بالرّسل، فترك المفعول به، وأقيم من بعده مقامه،

تأكيد عبوديّة عيسى عليه السلام لله الخالق، وأنّه ليس بدعًا منَ الرّسل

(1) نخبة من أساتذة التّفسير، التّفسير الميسّر، ص: 116.

لم يصب، وكذا تفسير المصنّف (رحمه الله) التّقفية بالإرسال تبعاً للزّمخشريّ غير صواب، وهذا تخيّل لا وجه له؛ لأنّ التّقفيّة إمّا محسوسة، كأن يمشي على أثره، أو معقولة كاتّباع شريعته، وكلّ من ذلك، لا دلالة له على المعيّة"[1].

التَّضعيف وأثره في تجلية المعنى في قوله تعالى: ﴿وَقَفَّيْنَا﴾:

قولـه: (عَلَى آثارهم) تأكيد لمدلول فعل (قفّينا) وإفادة سرعة التَّقفية

وجاء فعل ﴿وَقَفَّيْنَا﴾ مُضعَّفًا، والأصل في التَّضعيف أن يُفيدَ تعدِية الفعل إلى مفعول، لم يكن مُتعدِّيًا إليه، فإذا جُعِلَ تضعيفُ ﴿وَقَفَّيْنَا﴾ هنا، مُعَدِّيًا للفعل، اقتضى مفعولين: أوَّلهما: الَّذي كان مفعولًا قبل التَّضعيف. وثانيهما: الَّذي عُدِّيَ إليه الفعل، فيكونُ حقُّ التَّركيب: (وقفَّيناهم عيسى ابنَ بن مريمَ)، ويكون إدخالُ الباء في ﴿بِعِيسَى﴾ للتَّأكيد[2]، ويكون على الوجه الثَّاني إدخالُ الباء في ﴿بِعِيسَى﴾ للتَّعدية[3]، وعلى كلا الوجهين السَّابقين يكون مفعول ﴿وَقَفَّيْنَا﴾ محذوفًا، والظَّرف الَّذي هو ﴿عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم﴾؛ كالسَّادِّ مَسَدَّه؛ لأنَّه إذا قَفَّى به على أَثره، فقد قَفَّى به إيَّاه[4]، وقوله: ﴿عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم﴾ تأكيدٌ لمدلول فعل ﴿وَقَفَّيْنَا﴾ وإفادةُ سُرعةِ التَّقفية، وضميرُ ﴿ءَاثَٰرِهِم﴾ للنَّبيِّين والرَّبّانيِّين والأحبار، ويجوزُ أن يكونَ ﴿ءَاثَٰرِهِم﴾ على طريقتهم وهديهم.

حذف المفعول به للفعل ﴿وَقَفَّيْنَا﴾، ودلالة عبارة ﴿عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم﴾ على المحذوف:

قال علماء اللّغة ومفسّرو البيان: إنّ (قفَّى) معناه عقّب، ويُقال: قفَّيته بكذا، أي: أتبعته به، وهنا نجد المفعول محذوفًا، فلم يكن النّصُّ (قَفّينَاهُم بعيسى بنِ مَريَمَ)، وحذف لأنّ كلمة ﴿عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم﴾

(1) الخفاجيّ، عناية القاضي: 2/197.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 6/218.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/617.
(4) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/617.

تدلُّ على المحذوف، إذ إنّ المحذوف هو (النّبيُّون السّابقون الّذين يحكمون بالتّوراة)، وكلمة ﴿عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم﴾ تدلّ على أنّهم هم الّذين اقتفيت آثارهم[1]، وأمّا قوله تعالى: ﴿عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم﴾ فهو "متعلّق بقفّينا، و﴿بِعِيسَى﴾ متعلّق به أيضًا، وهذا على سبيل التّضمين، أي: (ثمّ جئنا على آثارهم بعيسى بن مريم قافيًا لهم)، وليس التّضعيف في ﴿وَقَفَّيْنَا﴾ للتّعدية؛ إذ لو كان للتّعدية ما جاء مع الباء المعدّية، ولا تعدّى بـ(على)، وذلك أنّ (قفا) يتعدّى لواحد قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ [الإسراء: 36]. وتقول: (قفا فلان الأثر) إذا اتّبعه، فلو كان التّضعيف للتّعدّي لتعدّى إلى اثنين منصوبين، وكان التّركيب: (ثمّ قفّينا على آثارهم عيسى ابن بن مريم)، ويكون (عيسى) هو المفعول الأوّل، و﴿ءَاثَٰرِهِم﴾ المفعول الثّاني، لكنّه ضُمّن معنى (جاء)، وعدّي بالياء، وتعدّى إلى ﴿ءَاثَٰرِهِم﴾ بـ﴿عَلَىٰٓ﴾. وقال الزّمخشريّ: "قفّيته مثل عقّبته إذا اتبعته، ثمّ يُقال: قفّيته بفلان، وعقّبته به، فتعدّيه إلى الثّاني بزيادة الباء"[2].

دلالة قوله تعالى: ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾:

وقوله تعالى: ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾، المُصَدِّقُ: المُخبِرُ بتصديق مُخبِرٍ، وأُريدَ به هنا المُؤيِّدُ المُقَرِّرُ للتَّوراة، قال الطّبريّ في تعليل قوله تعالى: ﴿وَمُصَدِّقًا﴾: "لأنّ عيسى صلوات اللّه عليه كان مؤمنًا بالتّوراة مقرًّا بها، وأنّها من عند اللّه، وكذلك الأنبياء كلّهم، يصدّقون بكلّ ما كان قبلهم من كتب اللّه ورسله، وإن اختلف بعضُ شرائع أحكامهم؛ لمخالفة اللّه بينهم في ذلك، مع أنّ عيسى كان - فيما بلغنا - عاملًا بالتّوراة، لم يخالف شيئًا من أحكامها، إلّا ما خفّف اللّه عن أهلها في الإنجيل، ممّا كان

(بَيْنَ يَدَيَّ) تفيد أنّ التّوراة تَقدَّمته، والمُتَقدِّم يكون بين يدي مَن تقدَّم

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 4/2216.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/277.

مشدَّدًا عليهم فيها"[1]، وجعلَها بين يديْه؛ لأنَّها تَقدَّمته، والمُتَقدِّمُ يُقالُ: هو بين يدي مَن تقدَّم، و﴿مِنَ﴾ بيانٌ لِمَا في ﴿ٱلتَّوۡرَىٰةِۖ﴾[2]، وهذه الجملة: ﴿مُصَدِّقًا﴾ حالٌ من عيسى بنِ مريم عليه السلام، و﴿مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِۖ﴾ حالٌ من (ما) أو منَ الضَّمير في الظَّرف ﴿بَيۡنَ يَدَيۡهِ﴾[3]، قال بعض العلماء: "ولو سايرنا الواقع عند النّصارى في هذه الأيّام، لكان لذكر كلمة التّصديق في هذا المقام معنى أعمق من مجرّد التّصديق بأصل النّزول، بل بالتّنفيذ؛ لأنّ الإنجيل ليس فيه أحكام عمليّة كثيرة، فأحكام الأسرة كلّها مأخوذة عند النّصارى منَ التّوراة، وليس ثمّة نصٌّ قاطعٌ في الأناجيل الّتي بين أيدينا، يغاير ما جاء في التّوراة من أحكام، تتعلّق بالأسرة، ولا بأحكام العقوبات من حدود وقصاص، ولقد رويت عباراتٌ عندهم منسوبةٌ للمسيح عليه السلام تدلّ على العمل بأحكام التّوراة، مثل قوله عليه السلام: (ما جئت لأنقض النّاموس)، أي: التّوراة"[4].

دلالة العطف وتوالي الحال في قوله: ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡإِنجِيلَ﴾ ﴿وَمُصَدِّقًا﴾ ﴿وَهُدٗى وَمَوۡعِظَةٗ﴾:

أفادَ نظمُ العطف وورود الحال في السّياق زيادةَ التَّقرير، بتصديق الإنجيل للتَّوراة، وذلك في قوله: ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡإِنجِيلَ﴾ عطفٌ على ﴿وَقَفَّيۡنَا﴾[5]، وقوله: ﴿فِيهِ هُدٗى﴾ جملةٌ في موضعِ الحال منَ الإنجيل، وقوله: ﴿وَمُصَدِّقًا﴾ حالٌ أُخرى منَ الإنجيل، ويمكنُ أن يكون حالًا من (عيسى)[6]، وقوله: ﴿وَهُدٗى وَمَوۡعِظَةٗ﴾ كلاهما حالٌ منَ الإنجيل، وكذلك حال من (عيسى)، أي: هاديًا وواعظًا، أو ذا

جعل الإنجيل كلّه هدى بعد جعله مشتملًا على الهدى

(1) ابن جرير، جامع البيان: 6/438.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 6/218 - 219.
(3) العكبريّ، التبيان: 1/217.
(4) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 4/175.
(5) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/65.
(6) العكبريّ، التبيان: 1/217.

هدًى، وذا موعظة، ويجوزُ أن يكونا مفعولًا لأجله: أي قَفَّينا للهدى، أو وآتيناه الإنجيل للهدى، وكذلك في ﴿وَمَوْعِظَةً﴾، أي: قَفَّينا للموعظة، أو وآتيناه الإنجيل للموعظة[1]، وقوله: ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾ عطفٌ على ﴿هُدًى وَنُورٌ﴾[2]، وجاء التَّكرير فيه لما تقدّم مثله؛ لزيادة التَّقرير، وقوله: ﴿وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ عطفٌ على ﴿وَمُصَدِّقًا﴾ مُنتظِمٌ معه في سلك الحاليَّة، وجُعِلَ كلُّه هدًى بعد ما جُعِلَ مُشتملًا عليه، حيث قيلَ ﴿فِيهِ هُدًى﴾[3].

وأشار أبو زهرة إلى أنّ: "كلمة ﴿بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ تعبير قرآنيّ؛ للدّلالة على أنّ التّوراة كانت حاضرة قائمة وقت مجيء عيسى عليه السلام وعلمًا عنده، وهو علم خالٍ منَ التّحريف والتّبديل، أوحى اللّه به إليه، ولفظ ﴿بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ في دلالته على الأمر المهيّأ القائم منَ الاستعارات الرّائعة، ومضمونها أنّ الأمر معلوم علمًا يقينًا لعيسى بن مريم عليه السلام، كعلم المحسوس، يكون موضوعًا بين يديه"[4].

تخصيص الهدى والموعظة بالمتّقين في قوله: ﴿وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾:

مدار الهدى والموعظة على التّقوى، ولا ينتفع بالكتاب إلّا المتّقون من أولي الألباب

وتَخصيصُ كونه هدًى وموعظةً بالمتَّقين؛ لأنَّهم في الأساس هم المهتدون بِهداه ونوره، والمُنتفِعون ببركة مضمونه وسطوره، وفي هذا المعنى يقول المراغيّ: "وأمّا كونه هدى وموعظة للمتّقين خاصّة، فلأنّهم هم الّذين يهتدون بمثل هذه الحقائق، ويتّعظون بما ينطبق عليها منَ الوقائع، فيستقيمون ويسيرون على النّهج السّويّ، ويتجنّبون نتائج الإهمال الّتي تظهر لهم مضرّة عاقبتها، فالمؤمن حقًّا هو الّذي يهتدي بهدى الكتاب، ويسترشد بمواعظه"[5]، وهذا الوصف ذاته هو الّذي وصف به اللّه القرآن في قوله تعالى من سورة آل عمران: ﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾﴾ [آل

(1) الزَّمخشريّ، الكشَّاف: 1/617.

(2) في قوله: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ﴾ [المائدة: 46] تشبيه بليغ للإنجيل بالنّور والهدى، وحذف أداة التّشبيه، ليكون نفس الإنجيل للمبالغة. صافي، الجدول: 6/367.

(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/65.

(4) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 4/175.

(5) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 4/78.

عمران: 138]، وبنفس التّعليل يمكن أن يُفهم تخصيص الهدى والموعظة بالمتّقين،" وإنّما قيل: ﴿لِّلۡمُتَّقِينَ﴾؛ للإيذان بعلّة الحُكم، فإنّ مدارَ كونِه هدىً وموعظةً لهم، إنّما هو تقواهم، ويجوز أن يُرادَ بالمتّقين الصّائرين إلى التّقوى، والهدى، والموعظة على ظاهرهما، أي: هذا بيانٌ لمآل أمر النّاس، وسوء مَغبّته، وهدايةٌ لمنِ اتّقى منهم"[1].

وصف الإنجيل بمثل ما وصف به التّوراة؛ لبيان التّكامل والتّواصل بين الدّيانات:

كتب السّماء: حلقات من سلسلة الوحي متّصلة الأواخي بالهدى والموعظة

"وصف القرآن الإنجيل، بمثل ما وصف به التّوراة، وبكونه مصدّقًا لها، وجعله هدى وموعظة للمتّقين، لأنّهم هم الّذين ينتفعون بهداه؛ لحرصهم عليه وعنايتهم به: والسّر في ذلك أنّ أسرار الشّريعة، وبيان حكمتها، والمقصد منها، ومعرفة أنّ بعد هذه التّوراة، وهذا الإنجيل، هداية أعمّ وأشمل، وهي الّتي يجيء بها النّبيّ الأخير (البارقليط) الأعظم[2]، وقد قال تعالى في مَطلع سورة آل عمران في العلاقة المتكاملة بين الكتابين: ﴿وَأَنزَلَ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ ۝٣ مِن قَبۡلُ هُدٗى لِّلنَّاسِ﴾ [آل عمران: 3 - 4]، قال ابن المنذر: "هما كتابان أنزلهما الله التوراة والإنجيل فيهما بيان مِنَ الله، وعظة لمن أخذ به، وصدق به، وعمل بما فيه"[3]، وروي عنِ الفرّاء أنّه قال: اشتقاق التّوراة من وري الزّند، وهو ما يظهر منَ النّور والضّياء، فسمّي التّوراة بها؛ لأنّه ظهر بها النّور والضّياء لبني إسرائيل، ومن تابعهم، وإنّما سمّي الإنجيل؛ لأنّه أظهر الدّين بعد ما درس"[4].

كيف وردتِ الهداية في آيات قرآنيّة دالّة على التّعنيف، مع أنّها في الأصل دلالة بأسلوب لطيف؟

القرآن يستعمل الهداية بعكس المعهود في معرض الاستهزاء المقصود

إن قيل: كيف جعلتِ الهداية دلالة بلطف، وقد قال تعالى: ﴿فَٱهۡدُوهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡجَحِيمِ ۝٢٣﴾ [الصّافات: 23]، ﴿وَيَهۡدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/88.
(2) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 6/127.
(3) ابن المنذر، كتاب تفسير القرآن: 1/115.
(4) السّمرقنديّ، بحر العلوم: 1/193.

ٱلسَّعِيرِ ﴿٤﴾ [الحجّ: 4]، قيل: ذلك استعمل فيه استعمال اللّفظ على التّهكّم مبالغة في المعنى، كقوله: ﴿فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٤﴾﴾ [الانشقاق: 24]، وقول الشّاعر:

..... *** تحيّةُ بينهم ضربٌ وجيعٌ[1].

وفي قوله: ﴿فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٤﴾﴾ [الانشقاق: 24]، أي: الّذي يقوم لهم مقام البشرى. (عذاب أليم)، أي: موجع، والبشارة تكون بالخير والشّرّ، فإذا أفردت كان خيراً، يقال: بشّرته وبشَرته خفيفاً[2]، وقد سمّى العَذاب: بِشارَة؛ لأنَّه وضعه مَوضِع البشارة[3].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(قَفَّينا) و(أَتْبَعنا):

لفظ (قفّى) فعل عند العرب اشتُهر في تعقّب الخطى، وتتبّع الأثر

انطلاقًا من قوله تعالى: ﴿وَقَفَّيۡنَا﴾: سبقَ بيانُ معنى الفعل ﴿وَقَفَّيۡنَا﴾ في فقرة: شرح المفردات، وأمَّا (أَتبعنا) فيُقال: تَبِعَه واتّبعَه: قَفَا أثرَه، وذلك تارةً بالجسم، وتارةً بالارتسام والائتمار، وعلى ذلك قوله تعالى: ﴿فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [البقرة: 38]، وقولُه تعالى: ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ﴾، ويُقالُ: أَتبَعَه: إذا لحقه، قال تعالى: ﴿فَأَتۡبَعُوهُم مُّشۡرِقِينَ ﴿٦٠﴾﴾ [الشّعراء: 60][4].

واستخدام البيان الإلهيّ للفعل ﴿وَقَفَّيۡنَا﴾ أَقوى في الإتباعِ واللَّحاق منَ الفعل (أَتبَعنا)، وخاصَّةً أنَّها في أمر مُتعلِّق بدين وشريعةٍ سماويَّة، واستعمالُها أَشهرُ في تقفِّي الأثَر، ولذلك أُضيفَت إليها في الآية الكريمة.

(1) الزّين، تفسير مفردات ألفاظ القرآن الكريم: (هدى).
(2) مكّيّ القيسّي، الهداية إلى بلوغ النّهاية: 12/8170.
(3) السّمعانّي، تفسير القرآن: 1/368.
(4) الرّاغب، المفردات: (تبع).

﴿وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [المائدة: 47]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

المناسبة بين إرسال عيسى بالإنجيل، وبين والحثّ على الحكم به والاحتكام إليه

لمَّا أخبرَنا اللّه في الآية السَّابقة أنَّه آتى رسوله عيسى عليه السلام الإنجيلَ، مصدِّقًا للتّوراة، وهدًى وموعظةً للمتَّقين، جاءَت هذه الآية الكريمة لتُبيِّنَ أنَّه منَ الواجب على أهل الإنجيل أن يَحكموا به، وإلَّا كانوا فاسقين بخروجهم عن تحكيم ما أنزلَه اللّه عليهم، فالآية تَجلٍّ تطبيقيٌّ للمنّة الإلهيّة بإرسال المسيح، مصدّقًا بالتّوراة، ومرسلًا بالإنجيل الّذي أمر أتباع عيسى وحواريِّيه أن يحكموا بما فيه من شريعة للانتظام، وما يتضمّنه من مبادئ وأحكام، إذ أنّ التّأبّي عنِ الحكم بما أنزل اللّه هو محض تمرّد على شريعة اللّه، وخروج على أمره، وانسلاخ.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

أمر الله فلول بني إسرائيل أن يحكموا بما أنزل الله في الإنجيل

1) ﴿وَلْيَحْكُمْ﴾: (حَكَمَ) الحاء والكاف والميم أصلٌ واحدٌ، وهو المَنعُ، وأوَّلُ ذلك الحُكمُ، وهو المنعُ منَ الظُّلم، والحِكمة هذا قياسُها؛ لأنَّها تَمنعُ منَ الجهل، ويُقالُ: حُكِّمَ فلانٌ في كذا، إذا جُعِلَ أمرُه إليه[1]. والحُكمُ: القضاء، والجمعُ: أحكام، وقد حكَمَ عليه بالأمر حُكمًا وحكومةً، وحَكَمَ بينهم كذلك. والحاكمُ: مُنفِّذُ الحُكم. وحاكَمَه إلى الحاكِم: دعاهُ وخاصمَه. وحكَّمه في الأمر تحكيمًا: أَمَرَه أن يحكُمَ فاحتكَم[2]، ولهذا أمرَ اللّه سبحانه وتعالى أهلَ الإنجيل أن يحكموا بما فيه من أحكام، ومن واجبهم أن يحتكِموا به.

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حكم).
(2) الفيروزابادي، القاموس المحيط: (حكم).

ومعنى لفظ: ﴿وَلْيَحْكُمْ﴾،" أي: وقلنا لهم: ليحكم أهل الإنجيل بما أنزل اللّه فيه منَ الأحكام، والمراد: وأمرناهم بالعمل به، فهو كقوله في أهل التّوراة: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ﴾ [المائدة: 45].

وخلاصة ذلك، زجرهم عن تحريف ما في الإنجيل وتغييره، مثل ما فعل اليهود من إخفاء أحكام التّوراة"[1].

2) ﴿ٱلْإِنجِيلِ﴾: قيل: إفعيل كإجفيل، وله أوزان، منها: اشتقاقه منَ النَّجل وهو الماء الّذي يَنُزُّ منَ الأرض، ويَخرُج منها، وسُمِّي الإنجيل؛ لأنّه مستخرجٌ منَ اللّوح المحفوظ. وقيل: منَ النَّجَل وهو التّوسِعَة، وسُمِّي الإنجيلُ بذلك؛ لأنّ فيه توسعةً لم تَكن في التّوراة، إذ حُلِّل فيه أشياءُ كانت مُحَرَّمةً. وقيل: هو مشتقٌّ من التّناجل، وهو التّنازُع، وسُمِّي الإنجيلُ بذلك؛ لاختلاف النّاس وتنازعهم فيه، وهو قول أبي عمرو الشّيبانيّ، والغالب كَسر همزة (إنجيل)، وقرأ الحسنُ بفتحها، وذكر الزّمخشريّ أنّ ذلك يدلّ على أعجميّته؛ لأنَّ لفظ (أَفعِيل) عديمٌ في أوزان العرب، بخلاف (إِفعِيلٌ) فإنّه موجود، وقد مثّل له بنحو: (إِجفيل) و(إخريط) و(إصليت)[2].

وفي بحر العلوم: "وإنّما سمّي الإنجيل؛ لأنّه أظهر الدّين بعد ما درس، وقد سمّي القرآن إنجيلًا أيضًا؛ لما روي في قصّة مناجاة موسى عليه السلام، أنّه قال: يا ربّ أرى في الألواح أقوامًا أناجيلُهم في صدورهم، فاجعلهم أمّتي، قال اللّه تعالى: هم أمّة محمّد ﷺ، وإنّما أراد بالأناجيل القرآن"[3].

الفسق هو الخروج من طاعة عالم السّرّ والنّجوى إلى المعاصي واتّباع الهوى

3) ﴿ٱلْفَٰسِقُونَ﴾: (فَسَقَ) الفاء والسِّين والقاف كلمةٌ واحدةٌ، وهي الفِسقُ، وهو الخروج عنِ الطَّاعة، تقول العرب: فَسَقَتِ الرُّطَبَة عن قِشرِها: إذا خرجَت[4]،" وفسق الرّجل يفسق ويفسق أيضًا – عنِ الأخفش – فسقًا وفسوقًا، أي: فجر، فأمّا قوله تعالى: ﴿فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾ [الكهف: 50]، فمعناه: خرج.

(1) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 6/127.
(2) السّمين، الدّرّ المصون: 3/20 (بتصرّف).
(3) السّمرقنديّ، بحر العلوم: 1/193.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (فسق).

وزعم ابن الأعرابيّ أنّه لم يسمع قطّ في كلام الجاهليّة، ولا في شعرهم فاسق، قال: وهذا عجب، وهو كلام عربيّ حكاه عنه ابن فارس والجوهريّ، قلت: قد ذكر أبو بكر الأنباريّ في كتاب (الزّاهر) له لمّا تكلّم على معنى الفسق، قول الشّاعر:

يَذهَبنَ في نَجدٍ وَغَورًا غَائِرَا *** فَواسِقًا عَن قَصدِهَا جَوائِرَا

والفسق في عرف الاستعمال الشّرعي: الخروج من طاعة اللّه ﷻ، فقد يقع على مَن خرج بكفر، وعلى مَن خرج بعصيان"[1].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

أمر بني إسرائيل أن يقيموا أحكام الإنجيل، وأن لا يخالفوا أمر الله الجليل

يأمرُ اللّه ﷻ أهلَ ملَّة الإنجيل أن يُقيموا ما أُمِروا به فيه، وممَّا فيه البِشارةُ ببعثة محمَّدٍ ﷺ ، والأمرُ بتصديقه واتِّباعه، كما قال تعالى عن عيسى بنِ مريم عليه السلام: ﴿وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِي ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾ [الصّف: 6]، وأمَّا الَّذين لا يَحكمون بما ورد في الإنجيل فهمُ الخارجون عن طاعة ربِّهم[2]، والآية تذييلٌ مقرّر ومؤكّد لوجوب الامتثال لأحكام اللّه تعالى، فمن لم يحكم بما أنزل اللّه فأولئك هم المتمرّدون الخارجون عن جادّة الحقّ، وعنِ السّنن القويم، والصّراط المستقيم[3]، وأَهلُ الإنجيل هم أهل الكتاب الّذين أمرهم اللّه بالإيمان بجميع ما أنزل فيه من أحكام جليلة، وشريعة نبيلة، وذلك ما توصف به شرائع اللّه المنزلة، وهداياته المرسلة، داعيًا مجموع من خوطب بالهداية أن يلتزم بحدودها، وأن يعمل بأحكامها، وكلّ من نأى عنها، وصدّ عن سبيلها، فهو منَ الفسقة المارقين الّذي خرجوا عن مراد اللّه وهديه، وأصبحوا منَ الخاسرين.

(1) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 1/245.
(2) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 2/61.
(3) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 4/177.

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالة ﴿وَلْيَحْكُمْ﴾، إمّا على تقدير حذف (قلنا)، وإمّا كونها جملة فعليّة ابتدائيّة:

مـمّـا أنـــزل في الإنـــجـــيـــل، الأمـر بالإيمان بالرّسول الخاتم الأخير

قولُه: ﴿وَلْيَحْكُمْ﴾ أمرٌ لأهل الإنجيل ابتداء بأن يحكموا ويعملوا بما فيه منَ الأمور الَّتي من جملتها دلائل رسالته ﷺ ، وشواهد نبوَّته، وما قرَّرَته الشَّريعة الإسلاميَّة الشَّريفة من أحكامه، وأمَّا أحكامُه المنسوخة فليس الحكمُ بها حُكمًا بما أنزلَ اللّه فيه؛ بل هو إبطالٌ وتعطيلٌ له، ويجوزُ أن يكون قوله: ﴿وَلْيَحْكُمْ﴾ حكايةً للأمر الوارد عليهم بتقدير فعل معطوفٍ على (آتيناه)، أي: وقلنا: ليحكم أهلُ الإنجيل[1]، وتفصيل ذلك ما قاله أهل المعاني: من أنّ قوله ﴿وَلْيَحْكُمْ﴾ يحتمل وجهين: أحدهما أن يكون المعنى: (وقلنا: ليحكم أهل الإنجيل)، فيكون هذا إخبارًا عمّا فرض عليهم في وقت إنزاله عليهم، ثمّ حذف القول؛ لأنّ ما قبله من قوله: (وكتبنا وقفّينا) يدلّ عليه. والوجه الثّاني: أن يكون قوله: ﴿وَلْيَحْكُمْ﴾ ابتداء، وفيه أمر للنّصارى بالحكم بما في كتابهم، قال الخازن: "فإن قلت فعلى هذا الوجه، كيف جاز أن يؤمروا بالحكم بما في الإنجيل بعد نزول القرآن، قلت: إنّ المراد بهذا الحكم الإيمان بمحمّد ﷺ؛ لأنّ ذكره في الإنجيل، ووجوب التّصديق بنبوّته موجودٌ، فإذا آمنوا بمحمّد ﷺ فقد حكموا بما في الإنجيل"[2].

حـــكـــم أهـــل الإنـــجـــيـــل بالأحكام الّتي فيه يحصر الأمر فيما يتضمّنه ويحتويه

وجه القراءتين في قوله تعالى: ﴿وَلْيَحْكُمْ﴾، وتأثيرهما في المعنى:

القراءة الأُولى: بجزم اللّام والميم على الأمر، والثّانية: بكسر اللّام وفتح الميم، أي: ولكي يحكُم[3]، وجملة (ليحكمَ) على القراءة الثّانية معطوفةٌ على قوله:

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/65 - 66.

(2) الخازن، لباب التّأويل: 2/50.

(3) الأولى: قراءة حمزة، والثّانية: قراءة الجمهور، ينظر: ابن زنجلة، الحُجّة، ص: 227 - 228، وابن الجزريّ، النّشر: 2/254.

(فيه هدًى) الَّذي هو حال، عُطفتِ العِلَّةُ على الحال عطفًا ذِكريًّا لا يُشَرِّكُ في الحكم؛ لأنَّ التَّصريح بلام التَّعليل قرينةٌ على عدم استقامة تشريك الحكم بالعطف، فيكون عطفه كعطف الجمل المختلفة المعنى[1]، ويمكن أن يكون التَّقدير في هذه القراءة فعلًا محذوفًا بعد الواو؛ أي: وآتيناه الإنجيل[2]، لكنَّ هذا تقديرُ معنًى، وليس تقديرَ نظم الكلام، وقد أشار الزّمخشريّ إلى أنّ قراءة:

﴿وَلْيَحْكُمْ﴾ هي على لفظ الأمر، بمعنى: (وقلنا لِيَحكُمْ)، وروي في قراءة أُبيّ: (وأن لِيحكُمْ) بزيادة (أنْ) الموصولة بالأمر، كقولك: (أمرتُه بأن قُمْ)، كأنّه قيل: (وآتيناه الإنجيل، وأمرنا بأن يحكم أهل الإنجيل)، وقيل: إنّ عيسى عليه السلام كان متعبّداً بما في التّوراة منَ الأحكام؛ لأنّها تحتوي كمًّا منَ الأحكام في الوقت الّذي كان فيه الإنجيل مجرّد مواعظ وزواجر بلا أحكام، أو أنّ الأحكام كانت فيها قليلة، وقد استبعدوا ذلك بقوله تعالى: ﴿وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِۚ﴾ [المائدة: 47]، وقوله: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًاۚ﴾ [المائدة: 48]، وإن كان سائغًا للقائل أن يقول: معناه: (وليحكموا بما أنزل اللّه فيه من إيجاب العمل بأحكام التّوراة)[3].

دلالة عدم تبيان ما أمر الله أهل الإنجيل الحكم به في هذه الآية:

بشارة الإنجيل بالنّبيّ الخاتم تـؤكّـد وراثـة الإسلام للنّبوّات

قال محمّد الأمين الشّنقيطيّ: "لم يبيّن السّياق القرآنيّ هنا شيئاً ممّا أنزل اللّه في الانجيل الإنجيل الّذي أمر أهل الإنجيل بالحكم به، وبيّن في موضع آخر أنّ من ذلك البشارة بمبعث نبيّنا محمّد ﷺ، ووجوب اتّباعه والإيمان به، كقوله: ﴿إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِي ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُۖ﴾ [الصّف: 6]، وقوله تعالى ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِي

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 6/220.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/617.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/639.

﴿يَجِدُونَهُۥ مَكۡتُوبًا عِندَهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ﴾.. الآية [الأعراف: 157] إلى غير ذلك منَ الآيات".

وأورد الشّنقيطيّ لطيفة مفادها أنّ بعض العلماء ذكر أنّ نصرانيًّا ناظر عالمًا من علماء المسلمين في الإسلام والمسيحيّة أيّهما أفضل؟ فبدأ النّصرانيّ يقول سائلًا: هل المتّفق عليه أحقّ بالاتّباع أم المختلف فيه؟ فقال العالم: المتّفق عليه أحقّ بالاتّباع، فقال النّصرانيّ: إذن يلزمكم اتّباع عيسى معنا؛ لأنّنا نحن وأنتم نتّفق على نبوّة عيسى، ونختلف في نبوّة محمّد، فقال المسلم: أنتم الّذين تمتنعون من اتّباع المتّفق عليه؛ لأنّ المتّفق عليه الّذي هو عيسى قال لكم: ﴿وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِي ٱسۡمُهُۥٓ أَحۡمَدُۖ﴾ [الصّف: 6] فلو كنتم متّبعين عيسى حقًّا لاتّبعتم محمّداً ﷺ، فألقمه حجرًا، ولم يحر جوابًا[1].

دلالة أسلوب الشَّرط في قوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾:

قولُه: ﴿وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ مُنكِرًا له مُستهينًا به، و﴿وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم﴾ أداة الشَّرط وفعلها، وجاءَ جوابُه مُصدَّرًا بـ(الفاء) الرَّابطة له، وقد أفاد الشَّرط بأنَّ مَن لم يحكُم بشريعة اللّه فهو خارجٌ عنِ الإيمان، أو مخالِفٌ مذمومٌ عند اللّه، "والآية تدلّ على أنّ الإنجيل مشتملٌ على الأحكام، وأنّ اليهوديّة منسوخةٌ ببعثة عيسى ﷺ، وأنّه كان مستقلًّا بالشّرع، وحملها على (وليحكموا بما أنزل اللّه فيه) من إيجاب العمل بأحكام التّوراة، خلاف الظّاهر"[2].

الإنجيل يشتمل على ما يحتكم إليه من الأحكام، كما يفيده ظاهر سياق الكلام

هل قوله: ﴿ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ ﴿ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ ﴿ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾ صفات لموصوف واحد أم لموصوفات ثلاثة؟

وفي الدّلالة على تبشيع عدم الحكم بما أنزل اللّه، اختلف المفسّرون في الخواتم الثّلاثة لقوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ ﴿ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ ﴿ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾ [المائدة: 44 - 45 - 47]، والّتي ختمت بها الآيات الّتي وردت في سيّاق واحد من سورة

(1) الشّنقيطيّ، أضواء البيان: 1/410، وكذلك حكمت بشير، موسوعة الصّحيح المسبور منَ التّفسير بالمأثور: 2/187.
(2) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 2/129.

المائدة، وجاءَت متتالية في آيات متقاربة، ومنها قوله: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾ في هذه الآية، وكان القفّال يقول: بأنّها صفات لموصوف واحد، وليس في إفراد كلّ واحد من هذه الثّلاثة باللّفظ ما يوجب القدح في المعنى، ومثال ذلك أن يُقال: (مَن أطاعَ اللّه فهو البَرُّ، ومن أطاعَ اللّه فهو المؤمنُ، ومن أطاعَ اللّه فهو المُتَّقِي)؛ فهي صفات متعدّدة، والموصوف واحد، هو الطّائع الّذي يصلح أن يوصف بتلك الصّفات كلّها، بل ولو طال تعداد الصّفات وكثرت، فإنّ ذلك جائز ومتاح في بناء الكلام، وسوق المعنى. وذهب آخرون إلى أنّ الصّفات تتعدّد بتعدّد الموصوفات، فالسّياق الّذي فيه الوصف بقوله: ﴿ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ في الجاحد، والوصف بقوله: ﴿ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ في المُقِرِّ التّارك، وكذلك الوصف بقوله: ﴿ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾، وقال الأصمّ: الأوَّلُ والثّاني الوصف بقوله: (الكافرون والظّالمون) في اليهود، والثّالث الوصف بقوله: (الفاسقون) في النَّصارى، وقال الشَّعبِيُّ: الأولى في المسلمين؛ لأنَّ قبلها ﴿فَإِن جَآءُوكَ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُمۡ أَوۡ أَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡۖ﴾، و﴿وَكَيۡفَ يُحَكِّمُونَكَ﴾، والثّانية في اليهود؛ لأنّ قبلها ﴿وَكَتَبۡنَا عَلَيۡهِمۡ﴾، وهم اليهود، والثّالثة: في النّصارى؛ لقوله تعالى: ﴿وَلۡيَحۡكُمۡ أَهۡلُ ٱلۡإِنجِيلِ﴾، وهم النَّصارى، قال في اللّباب: "فكأنَّه خصَّ كلَّ واحدة بما يليه، وهذا أحسنُها"[1].

تـعـدّد صفات التّائبي على الله تعالى دليل على تـمـرّد المخلوق على الخالق

العلاقة بين قوله: ﴿وَلۡيَحۡكُمۡ﴾ في أوّل الآية، وقوله: ﴿وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ آخرها:

قوله تعالى ﴿وَلۡيَحۡكُمۡ أَهۡلُ ٱلۡإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِۚ﴾ دعوة للأقوام المنزل إليهم الكتاب المقدّس أن ينتفعوا بمضامينه، وأن يهتدوا بهداه، وأن يحتكموا إلى ما فيه من أحكام، ولكنّهم كما يؤكّد

الكتب السّماويّة منزّلة للهداية والأحـكـام، لا للتّرنّم والأنغام

(1) ابن عادل، اللّباب: 7/363، والرّازيّ، مفاتيح الغيب: 12/371.

ذلك الواقع التّاريخيّ القديم لم يحكموا بما فيه؛ بل حكموا تبعاً لأهوائهم، وتفرّقوا في ذلك شيعًا، ووصفهم الله بأنّهم الفاسقون؛ لأنّهم لم يحكموا بما أنزل الله، فذكر وصفهم المترتّب على عدم حكمهم بما أنزل الله، فقال تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾.

إطلاق لفظ الفسق على الكفر في قوله تعالى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾:

قوله: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ المتمرِّدون، الخارجون عنِ الإيمان[1]، فالفسقُ يُطلَق على الكفر، فتكون على نحوِ ما في الآية الأولى في قوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [المائدة: 44]، ويُحتملُ أنَّ المرادَ به الخروجُ عن أحكام شرعهم، سواءٌ أكانوا كافرين به أم كانوا مُعتقدين، ولكنَّهم يُخالفونه، فيكون ذمًّا للنَّصارى في التَّهاون بأحكام دينهم أضعَفَ من ذمِّ اليهود[2]، ويذكر النّخعيّ والحسن أنّ هذه الآيات نزلت في بني إسرائيل، ونقل عن ابن عبّاس وطاووس رضي الله عنهم، بأنّه ليس بكفر ينقل عنِ الملّة، وقال عطاء: هو كفر دون كفر، وظلم دون ظلم، وفسق دون فسق، وقال عكرمة في رواية الوالبيّ عن ابن عبّاس رضي الله عنهما: معناه: ومَن لم يَحكُم بما أنزل الله جاحدًا به فقد كفر، ومن أقرّ به ولم يحكم به فهو ظالم فاسق[3]، "وأهل السّنّة قالوا: لا يكفر بترك الحكم، وللآية تأويلان: أحدهما معناه: ومَن لم يحكم بما أنزل الله ردًّا وجحدًا فأولئك هم الكافرون. والثّاني: معناه: ومَن لم يحكم بكلّ ما أنزل الله فأولئك هم الكافرون، والكافر هو الّذي يترك الحكم بكلّ ما أنزل الله دون المسلم"[4]، ويجوز عند بعضهم أن يُحمل على

لا يسمّى كافرًا إلّا من ردّ الإسلام بالكلّيّة، وأمّا العاصي فهو فاسق

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/66.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 6/220.
(3) الثّعلبيّ، الكشف والبيان: 4/70.
(4) السّمعانّي، تفسير القرآن: 2/42.

الجحود في الثّلاث، فيكون كافراً ظالماً فاسقاً؛ لأنّ الفاسق المطلق، والظّالم المطلق، هو الكافر، وقيل: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ فهو كافر بنعمة اللّه، ظالم في حكمه، فاسق في فعله[1]، "وكان الحكم بالفسق هنا مناسبًا لمواعظ الإنجيل الّذي نزل على عيسى وهدايته؛ لأنّ تعريف القرآن الكريم له فيه إشارة إلى ما استشمل عليه من أخلاق روحانيّة قويمة، وهداية سليمة، والمناسب لَمن لم يحكم به أن يكون فاسقًا خارجًا شاذًّا تاركًا لمعاني الإنسانيّة الرّوحانيّة العالية[2]، وعليه " فمَن كان امتناعه منَ الحكم بما أنزل اللّه، لقصد معارضته وردّه، والامتناع منِ التزامه، فهو كافر ظالم فاسق، كلّها بمعناها المخرج منَ الملّة، ومَن كان امتناعه منَ الحكم لهوى، وهو يعتقد قبح فعله، فكفره وظلمه وفسقه غير مخرج منَ الملّة، إلّا إذا كان ما امتنع منَ الحكم به شرطًا في صحّة إيمانه، كالامتناع من اعتقاد ما لا بدّ من اعتقاده"[3].

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الحُكم والقضاء:

دلالات لفظ (الحُكم) أوسع في الدّلالة، وأوفى في الاستعمال من لفظ (القضاء)

انطلاقًا من قوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم﴾: سبق تبيان معنَى الحُكم في فِقرة: شرح المفردات، وهو المنعُ منَ الظُّلم، والمراد منَ الأمر بالحكم بالإنجيل الأمرُ بالعمل به وتطبيق أحكامه في أحوالهم ومعاملاتهم، وأمَّا القضاءُ فهو يقتضي فصلَ الأمرِ على التَّمام، من قولك: قضاه إذا أتمَّه، وقطع عمله، ومنه قوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًاۖ﴾ [الأنعام: 2]، أي: فَصل الحكم به، ويجوز أن يُقال: الحُكمُ فصلُ الأمرِ على الأحكام بما يقتضيه العقل والشَّرع، فإذا

(1) النّسفيّ، مدارك التّنزيل: 1/451.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 4/2221 - 2222.
(3) الشّنقيطيّ، أضواء البيان: 1/412.

قيل: حَكَمَ بالباطل، فمعناه أنَّه جعلَ الباطلَ مَوضِعَ الحقّ، ويُستعمَل الحكمُ في مَواضِعَ لا يُستعمَل فيها القضاء، كقولك: حُكمُ هذا كحكم هذا، أي: هما متماثلان في السَّبب أوِ العلَّة، أو نحوِ ذلك، وأحكامُ الأشياء تنقسم قسمين: حكمٌ يُردُّ إلى أصل، وحُكمٌ لا يُردُّ إلى أصل؛ لأنَّه أوَّلٌ في بابه[1]، ومن هذا التَّفصيل لكلتا الكلمتين يظهرُ جليًّا أنَّ (الحُكمَ) في موقعه في السِّياق أوفى من كلمة (القضاء)، فدلالاتُ (الحكم) أوسع، حيث يُستعمَل في مَواضِعَ لا يُستعمَل فيها القضاء، وهو كذلك أرجى بما يقتضيه العقل والشَّرع - كما قدَّمنا - وهو حكمٌ يُردُّ إلى أصل، وأيُّ أصلٍ أوفى وأكثر رجاءً من كتاب اللّه وشريعته؟!، ويُشار هنا إلى لفتة مهمّة في العلاقة بين الحكم والقضاء، إذ في قوله تعالى: ﴿وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِۚ﴾ معنى الدّلالة على الاجتهاد، وترك الحكم بالتّقليد، وقد طرح القنّوجيّ سؤالًا مفاده: "إن قلت إذا كان التّخاصم ببلدة لا يوجد فيها مجتهد، هل يجوز للخصمين التّرافع إلى مَن بها منَ القضاة المقلّدين؟ قلت: إذا كان يمكن وصولهما إلى قاضٍ مجتهد لم يجز للمقلّد أن يقضي بينهما، بل يرشدهما إلى القاضي المجتهد، أو يرفع القضيّة إليه، ليحكم فيها بما أنزل اللّه، أو بما أراه اللّه، فإن كان الوصول إلى القاضي المجتهد متعذّراً، أو متعسّراً، فلا بأس بأن يتولّى ذلك القاضي المقلّد فصل خصوماتهما، لكن يجب عليه أن لا يدّعي علم ما ليس من شأنه، فلا يقول: صحّ أو لم يصحّ شرعًا، بل يقول: قال إمامه كذا، ويعرّف الخصمين أنّه لم يحكم بينهما إلّا بما قاله الإمام الفلانيّ"[2].

الفِسق والخروج والفجور:

انطلاقًا من قوله: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾: الفسق هو الخروج عنِ الطَّاعة، لكنَّه خروجٌ مذموم، ولذلك سُمِّيَ الخروجُ من طاعة اللّه بكبيرةٍ فسقًا، ولفظ (الفاسقون) قالوا: هم الكاذبون، والكذب أبشع الأخلاق، وأكبر خروج عن مراد الخلّاق، قال ابن زيد: كلّ شيء في القرآن فاسق فهو كاذب، إلَّا قليلًا، وقرأ قول اللّه: ﴿إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٍ﴾ [الحُجرات: 6]، معناه: فهو كاذب[3]، لكنَّ الخروجَ من حيث دلالتُه قد يكون مذمومًا، وقد

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 231 - 432.

(2) القنَّوجيّ، فتح البيان: 3/441.

(3) مكّيّ بن أبي طالب، الهداية إلى بلوغ النّهاية: 3/1765، والسّيوطيّ، الدّرّ المنثور: 3/94.

يكون محمودًا، وأمَّا الفجورُ فهو الانبعاثُ في المعاصي والتَّوسُّعُ فيها، ولا يُقالُ لصاحب الصَّغيرة: فاجر، ثمَّ كثُر استعمالُ الفجورُ حتَّى خُصَّ بالزِّنا، وما أشبه ذلك منَ الكبائر[1].

ومن بيان الفروق السَّابقة بين تلكم الكلمات الثَّلاث، يظهرُ لنا أنَّ كلمةَ (الفِسق) أنسبُ من أُختيها في مَوضِعها من سياق النَّصِّ القرآنيّ، فالقضيَّةُ خطيرةٌ جدًّا، وهي عدم الحُكم بما أَنزل الله، فهو خروجٌ عنِ الطَّاعة بكبيرة، وقد تكون هنا أكبرَ كبيرةٍ وهي كذلك؛ فأيُّ كبيرة أكبرُ منَ الكفر باستبدال حُكم الله الخالق بحُكم العبد المخلوق.

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 405 - 406.

﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [المائدة: 48]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الـــرّبـــط بين مأمور الله لأهل الإنجيل، وبين القرآن المهيمن الجليل

لَمَّا أمر اللّه تعالى في الآية السَّابقة أهلَ الإنجيل بالحكم بما فيه جاءَ بيان اللّه في هذه الآية الكريمة، يأمرُ رسولَ اللّه ﷺ بالحكم بما أنزله اللّه تعالى عليه في القرآن الكريم الَّذي جعلَه مُصدِّقًا للكتب السَّابقة عليه، وغالبًا عليها، إذ نسخَت شريعتُه جميعَ شرائعِ الكتب الَّتي قبله، وهذه الآية تتمّم السّياق؛ ببيان ما أنزل اللّه قبلُ من كتب، جعلها هدى ونورًا، وألزم بني إسرائيل بإقامتها، وتوعّدهم بالعقاب والعذاب حالة ترك الحكم بها، فناسب أن يذكر إنزاله القرآن على سيّد ولد عدنان، وقد جعل له مكانة بين الكتب السّابقة، وجعل تلاحق الكتب، وتوالي الشّرائع، كالمقدّمات والنّتائج[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

هيمنة القرآن على الكتب الأخرى أن يشهد بصدقها، وإلّا فلا مصداقيّة لها

1) ﴿وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾: هَيمَنَ: قال: آمين، كأَمَّنَ. والطَّائر على فراخه: رَفرَفَ، وعلى كذا: صار رقيبًا عليه وحافظًا. والمُهَيمِنُ: وتُفتحُ الميم الثَّانية: من أسماء اللّه تعالى في معنى المؤمن، مَن آمَنَ غيرَه منَ الخوف، أو بمعنى: الأمينُ، أو المُؤتَمَنُ، أوِ الشَّاهد[2]، وعلى هذا يكون

(1) رضا، تفسير المنار: 6/339.

(2) الفيروزابادي، القاموس المحيط: (هيمن).

الكتاب الَّذي ورد ذكرُه في الآية الكريمة – وهو القرآن الكريم – رقيبًا وأمينًا ومُؤتَمنًا وشاهدًا على الكتب السَّابقة له، وأصل الهيمنة: الحفظ والارتقاب، يُقال للرّجل إذا حفظ الشّيء وشَهِدَه: (قد هَيمَنَ، يُهَيمِنُ هَيمَنَةً). قال ابن عبّاس: ﴿وَمُهَيۡمِنًا عَلَيۡهِۖ﴾، أي: شهيداً عليه، وهو قول السّدّي.. وقال المبرّد: الأصل (مُؤَيمن)، ثمّ أُبدِل منَ الهمزة هاء[1]، كما قالوا: أرقت الماء وهرقته، وإيهات وهيهات، ونحوها[2]. وقال جماعة من أهل اللّغة: المهيمن: الرّقيب الحافظ، يُقال: هيمن الرّجل يهيمن هيمنة، إذا كان رقيبًا على الشّيء، وهو قول الخليل، وأبي عبيدة، قال أبو عبيدة: المهيمن: الشّاهد المصدّق، واحتجّ بقول حسّان:

إنَّ الكِتَابَ مُهَيمِنٌ لنَبِيِّنَا *** والحَقُّ يَعرِفُه ذَوو الأَلبابِ[3]

2) ﴿وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ﴾: الهوى: مَقصورٌ: هَوى النَّفس، والعِشقُ يكون في الخير والشَّرِّ، وإرادة النَّفس، والجمعُ الأَهواء، ويُقالُ: هوى يَهوي، هَوِيًّا: سقط إلى أسفَل، وانهَوى مثلُه، وكأنَّ الَّذي يتَّبعُ هَواهُ يَسقُطُ إلى أسفَل، وخاصَّةً إذا تركَ شَرعَ اللّه، واتَّبع هواه؛ كما هي دلالة قوله في الآية الكريمة: ﴿وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُمۡۚ﴾ [القمر: 3]، وقوله تعالى: ﴿ٱسۡتَهۡوَتۡهُ ٱلشَّيَٰطِينُ﴾ [الأنعام: 71]، أي: ذَهَبَت بهواه وعَقله، أوِ استَهامَته وحَيَّرَته، أو زَيَّنَت له هواه[4]، "والأصل أنّ الهوى ميل النّفس إلى الشّهوة، ويُقال ذلك للنّفس المائلة إلى الشّهوة، وقيل: سمّي بذلك؛ لأنّه يهوي بصاحبه في الدّنيا إلى كلّ داهية، وفي الآخرة إلى الهاوية"[5]، والنّفس إذا خلّيت وطبعها، تميل إلى الشّرّ لا إلى الخير؛ لأنّها أمّارة بالسّوء، وعلى الثّاني المصدر بمعنى المفعول، أي: مهويها، كما في قوله:

هَوايَ مَعَ الرَّكبِ اليَمَانِينَ مُصعِدٌ *** جَنِيبٌ وجُثمَانِي بِمَكَّةَ مُوثَقُ"[6].

وفي بردة البوصيريّ تحذير من غلبة سلطان الهوى على النّفس، حيث يقول في أحد أبياتها:

فاصرِفْ هَواهَا وحاذِرْ أَن تُوَلِّيَهُ *** إنَّ الهَوَى ما تَوَلَّى يُصْمِ أَو يَصِمِ[7].

(1) مكّيّ بن أبي طالب، الهداية إلى بلوغ النّهاية: 3/1765.
(2) البغويّ، معالم التّنزيل: 2/57.
(3) الواحديّ، الوسيط: 2/195.
(4) الفيروزآبادي، القاموس المحيط: (هوى).
(5) الزّين، تفسير مفردات ألفاظ القرآن الكريم: (هوى).
(6) أفندي، عَصيدة الشُّهدة، وشرح قصيدة البردة، ص: 83.
(7) الغزّي، الزّبدة في شرح البردة، ص: 54.

الشّرعة ما ورد به القرآن لتنظيم أحوال الإنسان في كلّ زمان

3) ﴿شِرْعَةً﴾: الشَّرعُ: نهجُ الطَّريق الواضح، يُقالُ: شَرَعتُ له طريقًا، والشَّرعُ: مَصدَر، ثمَّ جُعِلَ اسمًا للطَّريق النَّهج؛ فقيل له: شِرعٌ، وشَرعٌ، وشريعةٌ، واستُعيرَ ذلك للطريقة الإلهيَّة، كما في هذه الآية الَّتي معنا في قوله تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾[1]، والشِّرعَة: ما ورد به القرآن، والمِنهاجُ: ما وَرَدَت به السُّنَّة[2]، قال الأزهريّ رحمه الله: قال الله ﷻ: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾، أي: طريقًا واضحًا أمرنا بالاستقامة عليه، والعرب تقول: شرع السّالخ إهاب الذّبيحة، إذا شقّ بين الرِّجلين وفتحه.

والشّرع هو: الإبانة، والله تعالى هو الشّارع لعباده الدّين، وليس لأحدٍ أن يشرّع فيه ما ليس منه، إلّا أن يشرّع نبيٌّ بأمر الله تعالى، فإنّ شَرع النّبيّ هو شرع الله (ﷺ)،[3] وفي قوله تعالى: ﴿۞شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا﴾ [الشّورى: 13] إشارةٌ إلى الأصول الَّتي تتساوى فيها المِلَلُ، فلا يَصِحُّ فيها النَّسخ كمعرفة الله تعالى، وأركان الإيمان[4]، "وقيل: الشّريعة الطّريقة، ثمّ استُعيرَت للطّريقة الإلهيّة المؤدّية إلى الدّين، والمنهاج: الطّريق الواضح، وقال بعضهم: الشّريعة والمنهاج عبارتان عن معنى واحد، والتّكرير للتّأكيد، والمراد بها الدّين، وقال آخرون: بينهما فرق لطيف، وهو أنّ الشّريعة هي الّتي أمر الله بها عباده، والمنهاج الطّريق الواضح المؤدّي إلى الشّريعة"[5].

4) ﴿وَمِنْهَاجًا﴾: النَّهج: الطّريق الواضح، ونَهَجَ الأمر وأَنهَجَ: وَضَحَ، ومَنهَج الطَّريق ومِنهاجه، قال تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾[6] وهي الآية الَّتي معنا، والمرادُ به هنا الطَّريق

(1) الرّاغب، المفردات: (شرع).
(2) قاله ابن عبّاس ﵄. ينظر: الفيروزابادي، بصائر ذوي التّمييز: 3/309.
(3) الإمام الشّافعيّ، تفسير الإمام الشّافعيّ: 2/757.
(4) الرّاغب، المفردات: (شرع).
(5) الدّرّة، تفسير القرآن الكريم: 3/126.
(6) الرّاغب، المفردات: (نهج).

الواضح، "ونهج الطّريق: أبانه، ونهجه أيضًا: سلكه، وبابهما قطع. والنّهج بفتحتين: تتابع النّفس. وفي المصباح: ونهج الطّريق ينهج بفتحتين: وضح واستبان، وأنهج بالألف مثله. ونهجته وانتهجته: أوضحته، يُستعملان لازمَيْن ومتعدّيَين"[1].

5) ﴿أُمَّةَ﴾: الأُمَّة كلُّ جماعة يجمعُهم أمرٌ ما، إمَّا دينٌ واحد، أو زمانٌ واحد، أو مكانٌ واحد، سواءٌ أكان ذلك الأمرُ الجامعُ تسخيرًا أم اختيارًا، وجمعُها: أُمَم، ولكلمة أُمَّة معانٍ عديدة، منها: أوّلًا: الصّنف الواحد، والطَّريقة الواحدة، وقد تكون في الضَّلال والكُفر، كما في قوله تعالى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ [البقرة: 213]، وقد تكون في الإيمان، كما في قوله تعالى في الآية الَّتي معنا: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾.

ثانيًا: جماعة يتخيَّرون العلمَ والعملَ الصّالح، يكونون أُسوَةً لغيرهم، كما في قوله تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ﴾ [آل عمران: 104].

ثالثًا: دينٌ مُجتَمع، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ﴾ [الزّخرف: 22].

رابعًا: حِين منَ الزَّمن، كما قالَ تعالى: ﴿وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ [يوسف: 45].

خامسًا: النَّموذج القدوة القائم مقامَ جماعة في عبادة اللّه، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ﴾ [النّحل: 120].

سادسًا: جماعةٌ منَ النَّاس، كما في قوله تعالى: ﴿۞لَيْسُواْ سَوَآءً ۗ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ﴾ [آل عمران: 113][2]، وإن كان هناك مَن جعلَها بمعنى الطَّريقة الواحدة، وتقديرُه: ذو طريقة واحدة[3]، ولكن ترك الإضمار أَولى.

6) ﴿لِّيَبْلُوَكُمْ﴾: بَلَوتُه: اختبرتُه، ويُقالُ عنِ الثّوب: بَلِيَ؛ أي: خَلُقَ، كأنِّي أَخلَقتُه من شدَّة اختباري له، واختبارُ اللّه تعالى للعباد تارةً بالمَسارِّ ليشكروا، وتارةً بالمَضَارِّ ليصبروا[4]، "وسمّي الغمّ بلاء من حيث أنّه يُبلي الجسم، وسمّي التّكليف بلاء من أوجه: الأوّل: أنّ التّكاليف كلّها مشاق على الأبدان، فصارت من هذا الوجه بلاء، والثّاني: أنّ

(1) درويش، إعراب القرآن: 2/493.
(2) الرّاغب، المفردات: (أمّ).
(3) وهو قول الزَّجّاج، معاني القرآن: 1/458.
(4) الرّاغب، المفردات: (بلى).

التّكاليف اختبارات، وكذلك قال: ﴿وَلَنَبۡلُوَنَّكُم﴾ [البقرة: 155]، قال ﴿لِّيَبۡلُوَكُمۡ﴾، ونحو ذلك، والثّالث: أنّه لمّا كان اختبار اللّه تعالى لعباده تارة بالمسارّ ليشكروا، وتارة بالمضارّ ليصبروا، صارَتِ المنحة والمحنة جميعًا بلاء، فالمحنة: مقتضية للصّبر، والمنحة: مقتضية للشّكر"[1].

7) ﴿فَٱسۡتَبِقُواْ﴾: (سَبَقَ) السِّين والباء والقاف أَصلٌ واحدٌ صحيحٌ، يدلُّ على التَّقديم، يُقالُ: سَبَقَ يَسبِقُ سَبقًا[2]، والاستباقُ: التَّسابقُ، قال تعالى: ﴿إِنَّا ذَهَبۡنَا نَسۡتَبِقُ﴾ [يوسف: 17]، ويُستعارُ السَّبقُ لإحراز الفَضلِ والتَّبريز، وفيه قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ١٠﴾ [الواقعة: 10]، أي: المُتقدِّمونَ إلى ثواب اللّه وجنَّته بالأعمال الصَّالحة[3]، ومنه الآية الَّتي معنا في قوله تعالى: ﴿فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ﴾، والمعنى في الآية: " أي: فبادروا إلى عملها قبل أن تعجزوا عنها بموت أو هرم أو مرض"[4]، وفي نفس الآية من سورة البقرة، وهي قوله: ﴿فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ﴾ [البقرة: 148]، قال ابن عبّاس: يقول: تنافسوا فيما رغّبتكم فيه منَ الخير، فلكلٍّ عندي ثوابُه، وقال الزّجّاج: أي: فبادروا إلى القبول منَ اللّه ﷻ"[5].

8) ﴿فَيُنَبِّئُكُم﴾: نبأ: النُّون والباء والهمزة، قياسُه الإتيانُ من مكانٍ إلى مكان، يُقالُ للَّذي يَنبَأ من أرض إلى أرض: نابِئٌ. وسَيلٌ نابِئٌ: أتى من بلدٍ إلى بلد. ورَجُلٌ نابِئٌ مثله. ومن هذا القياس النَّبأُ: الخَبَرُ؛ لأنَّه يأتي من مكان إلى مكان، والمُنبِئُ المُخبِرُ، وأَنبَأته ونَبَّأته، والنَّبأةُ: الصَّوتُ، وهذا هو القياس؛ لأنَّه الصَّوت يجيء من مكان إلى مكان، ومَن هَمَزَ النَّبيَّ، أي: قال: النَّبيءُ؛ فلأنَّه أنبأَ عنِ اللّه تعالى[6]، والمعنى: "فيخبركم بما لا تشكّون معه منَ الجزاء الفاصل بين محقّكم ومبطلكم، وعاملكم ومفرّطكم في العمل"[7]، ودلالة ﴿فَيُنَبِّئُكُم﴾ تتّصل مباشرة في بناء الجملة بقوله: ﴿بِمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ﴾، وذلك "منَ الدِّين والفرائض والسُّنن، يعني: إنَّ الأمر سيؤول إلى ما يزول معه الشُّكوك، بما يحصل منَ اليقين"[8].

(1) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 1/185.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سبق).
(3) الرّاغب، المفردات: (سبق).
(4) مكّيّ القيسّي، الهداية إلى بلوغ النّهاية، ص: 395.
(5) الواحديّ، الوسيط: 1/231.
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: 5/385.
(7) النّسفيّ، مدارك التّنزيل: 1/452.
(8) الواحديّ، الوجيز: 1/322.

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

إنـــزال الـقـرآن تـتـمّـة للكتب الـسّـــوابـــق، وشـــريـــعـــة للالتزام والتّميّز والـــعـــمـــل للحسنيين

شرع بيان الله في هذه الآية الكريمة في ذكر القرآن الكريم الَّذي أَنزلَه على عبده ورسولِه الكريم محمَّدٍ ﷺ بالصِّدق الَّذي لا ريب فيه، أنَّه من عند الله تعالى، مصدِّقًا للكُتُب السَّابقة عليه بما فيها من توحيد الله وذكره، وحاكمًا وشاهدًا وأمينًا عليها، فاحكُمْ يا محمَّدُ ﷺ بين النَّاس جميعهم بما أنزلَ الله إليك في هذا الكتاب العظيم، ولا تَنصرِف عنِ الحقِّ الَّذي أمرَكَ الله به إلى أهواء هؤلاء الجهلة الأشقياء، فلكُلٍّ جعلنا منكم سبيلًا وسُنَّةً، ولو شاء الله لجمع النَّاس كلَّهم على دينٍ واحد، وشريعة واحدة، لا يُنسَخُ شيءٌ منها، ولكنّه تعالى شَرَعَ لكلِّ رسول شريعةً على حِدَة، ثمَّ نسَخَها أو بعضَها برسالة الآخر الَّذي بعده، حتَّى نسخ الجميع بما بعث به عبده ورسوله محمَّدًا ﷺ ، وهذا الاختلافُ في الشَّرائعِ لِيختبرَ الله عباده فيما شرع لهم، فَيُثيبُهم على طاعته ويعاقبُهم على معصيته، ثمَّ ندب الله عبادَه إلى المسارعة إلى الخيرات، والمبادرة إليها، فالمرجعُ إليه ﷻ والحسابُ بين يديه[1]، وهو تعالى لم يجعلكم أمّة واحدة؛ ليكون لكلّ أمة حسابها، كما يكون لكلّ فرد حسابه، ولذلك أدعوكم للاستباق لإدراك الخيرات الّتي دعيتم إليها في كتب الله الّتي بين أيديكم، وأن تبادروا إلى تحصيلها قبل أن تفلت منكم، فلا يبقى في أيديكم إلّا الحسرة والنّدم، وإلى الله المآل، وعند الله تجتمع الخصوم[2].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

التّعبير بإنزال الكتاب عوضًا عنِ التّعبير بإرسال الرّسول في قوله: ﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ﴾:

نلاحظ في قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ﴾ أنّه ﷻ

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 2/62 - 63.

(2) الخطيب، التّفسير القرآنّي للقرآن: 3/1110.

لم يقل: (وقفّينا على آثارهم بمحمّد) أو نحو ذلك، بل نجده تعالى يبّين أنّه أنزل الكتاب، وفي ذلك إشارة إلى معنى استقلاله عن سائر النّبوّات، وأنّه لم يكن فيه تبعيّة لغيره منَ الكتب، بل هو مستقلّ بالمكانة، منفرد بها عمّن سواه من غير تبعيّة لملّة ولا لشخص أيًّا كان نوع هذه التّبعيّة، وأيًّا كان مقدارها، وذكر الكتاب المنزل دون ذكر النّبيّ المرسل صراحة؛ "للإشارة إلى مكانة الشّريعة الإسلاميّة، وكتابها الكريم الباقي، والخالد إلى يوم القيامة، وهو معجزة النّبيّ ﷺ، وإذا ذكرها سبحانه في مقام الإكبار والتّفخيم يكون بيانًا لمكانة الرّسالة المحمديّة، وبيان أنّ حجّتها أقوى الحجج، وأشدّها تثبيتًا، وأبقاها في هذا الوجود[1]، وقد جاء قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ﴾ إتمامًا لترتيب نزول الكُتُب السَّماوية، وتمهيدًا لقوله: ﴿فَٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُۖ﴾.

القرآن معجزة الختام المتفرّدة، ودلالة الكمال المتألّقة المتجدّدة

دلالة الألف واللّام في قوله: ﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾، وأثرها في تجليّة المعنى ودقّته:

وقد ذكر الله ﷻ الكتاب من غير تعريف سوى ذلك، و(أل) كما قال علماء اللّغة: للعهد، وفي ذلك إشارة إلى كماله، أي: أنّه ﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾ الّذي هو جدير باسم الكتاب، بحيث إذا أطلق اسم الكتاب لا ينصرف إلّا إليه؛ لأنّه الفرد الكامل من بين الكتب في هذا الوجود، وقد زاده الله تعالى شرفًا، فنسب الإنزال إليه سبحانه؛ وفي ذلك تأكيد لمنزلته العالية السّامية[2]، سُمِّيَ كتابًا على الإطلاق؛ لحيازته جميع الأوصاف الكماليَّة لجنس الكتاب السَّماويِّ وتفوُّقه على بقية أفراده، وهو القرآن الكريم، فاللَّام فيه للعهد[3]، وزيد تأكيد التّشريف، فجاء قوله: ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾ مُتعلِّقًا بمحذوفٍ وقعَ حالًا

تخصيص القرآن؛ بكونه المتفرّد الكامل من بين الكتب في هذا الوجود

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 4/2223.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 4/2223.
(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/66.

مُؤكِّدةً منَ (الكتاب)؛ أي: مُتلبِّسًا بالحقِّ والصِّدق[1]، وقال آخرون: وقوله: ﴿مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ بيانٌ لقوله السَّابق (لِمَا)، واللَّام هنا للجنس، إذِ المرادُ هو الكتاب السَّماويّ، وهو بهذا العنوان جنسٌ برأسه، وإن كان في نفسه نوعًا مخصوصًا من مدلول لفظ الكتاب، وعن هذا قالوا: اللَّام للعهد، إلَّا أنَّ ذلك لا ينتهي إلى خصوصيَّة الفرديَّة بل إلى خصوصيَّة النَّوعيَّة الَّتي أَخصُّ من مُطلَق الكتاب، وهو ظاهر، ومنَ الكتاب السَّماويِّ أيضًا حيثُ خُصَّ بما سوى القرآن[2]، وفي حاشية شيخ زاده: "واللّام في ﴿ٱلۡكِتَٰبِ﴾ للجنس أو بمعنى الاستغراق على أن يكون القرآن مستثنى منه بدليل العقل، كما أنّ ذاته تعالى مستثنى من عموم الشّيء في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ١٠٩﴾ [البقرة: 109]، فإنّه شيءٌ بمعنى شائي، كما أنّ سواه شيءٌ بمعنى مَشيءُ الوجود، قال:

فَسَمِّ اللهَ شَيئًا لا كَأشيا ***وذَاتًا عَن جِهاتِ السِّتِّ خالِ[3].

دلالة قوله تعالى: ﴿مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ﴾ في بيان تصديق القرآن لما قبله:

وكان قوله تعالى: ﴿مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ﴾ حالًا منَ (الكتاب)، والمعنى: حالَ كونِه مُصدِّقًا لمَا تقدَّمه[4]، ويمكنُ أن يكون حالًا منَ الضَّمير في قوله: ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾[5]، إمَّا من حيث إنَّه نازلٌ حسبما نُعِتَ فيه، وإمّا من حيث إنَّه موافقٌ له في القصص والمواعيد، والدَّعوة إلى الحقِّ، والعدل بين النَّاس، والنَّهي عنِ المعاصي والفواحش، وأمَّا ما يتراءى من مُخالفته له في بعض جزئيات الأحكام المتَغيِّرة، بسببِ تغيُّر الأَعصار، فليسَت بمخالفةٍ في الحقيقة؛ بل هي موافقةٌ

نسخ المتأخّر للمتقدّم من سنن الله في تهييء الأنفس لقبول الإرسال الخاتم

(1) العكبريّ، التبيان: 1/217.
(2) الزّمخشري، الكشّاف: 1/218.
(3) زاده، حاشية على البيضاويّ: 3/534.
(4) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/66.
(5) العكبريّ، التبيان: 1/217، وهو الَّذي يُقرِّره العكبريّ دون الأوَّل، إذ يرى أنَّه لا يكون حالاً منَ الكتاب، إذ يكونُ حالان لعاملٍ واحد. ولكن يُجابُ عن هذا بأنَّ الأوَّلَ الحالُ فيه محذوفٌ مُقدَّر - كما سبق - .

لها من حيثُ إنَّ كلًّا من تلك الأحكام حقٌّ بالإضافة إلى عصره، مُتضمِّنٌ للحكمة الَّتي يدور عليها أمر الشَّريعة، وليس في المُتقدِّم دلالةٌ على أبديَّة أحكامه المنسوخة حتَّى يخالفَه النَّاسخ المتأخِّر، وإنَّما يدلُّ على مشروعيتها مُطلقًا من غير تعرُّض لبقائها وزوالها؛ بل هو ناطقٌ بزوالها لمَا أنَّ النُّطق بصحَّة ما ينسخُها نُطقٌ بنسخها وزوالها[1].

دلالة قوله تعالى: ﴿وَمُهَيۡمِنًا عَلَيۡهِۖ﴾؛ للتّعبير عن شهادته عمّا سبق من إرسالات:

معنى المهيمن الشّهيد والقاضي والمؤتمن على ما قبله منَ الكتب

وقوله: ﴿وَمُهَيۡمِنًا عَلَيۡهِۖ﴾، أي: رقيبًا على سائر الكتُب، يشهدُ لها بالصِّحة والثَّبات[2]، وقيل: "مُؤتمنًا على القرآن، وشاهدًا ومصدِّقًا، وقال آخرون: القرآن أمين على الكتب، فيما إذا أخبرنا أهل الكتاب في كتابهم بأمرٍ، إن كان في القرآن فصدقوا وإلّا فكذبوا"[3]، ولفظ ﴿وَمُهَيۡمِنًا﴾ حالٌ، وأصلُ مُهَيمن: مَيمِن؛ لأنَّه مُشتقٌّ منَ الأمانة، فهو أمينٌ[4]، ومُؤتَمَن[5]، ولأنَّ المهَيمِنَ: الشَّاهد[6]، والأَظهرُ أنَّ الهاء في المُهيمِن أصليَّةٌ، وأنَّ فِعلَه بوزن (فَيعَلَ) كسَيطَر، ولكن لم يُسمَع له فعلٌ مُجرَّد، فلم يُسمَع (هَمَنَ)، ويمكنُ أن لا يكون لهذا الفعل نظيرٌ إلَّا (هَينَمَ) إذا (دعا) أو (قرأ)[7]، وفي قوله تعالى: ﴿وَمُهَيۡمِنًا عَلَيۡهِۖ﴾ معانٍ عديدة، منها: شاهِد، وأمِين، ومُؤتَمَن، وقاض، ودالّ، ومُصدِّق، ورقيب، وحافظ[8]، وأصل الهيمنة: الحفظ والارتقاب، يقال للرّجل إذا حفظ الشّيء وشهِده: "قد هَيمَنَ، يُهَيمِنُ هَيمَنَةً"،

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/67.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/218.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 10/378.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/512.
(5) أبو عبيدة، مجاز القرآن: 1/168.
(6) العكبريّ، التبيان: 1/217.
(7) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 6/221.
(8) ابن جرير، جامع البيان: 6/266 - 268، والزّجّاج، معاني القرآن: 2/180.
قال ابن كثير: "و هذه الأقوال كُلُّها متقاربة المعنى، فإنَّ اسمَ (المُهيمِن) يتضمَّنُ هذا كلَّه، فهو أمينٌ وشاهدٌ وحاكمٌ على كلّ كتاب قبله"، ينظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 2/62.

قال ابن عبّاس: ﴿وَمُهَيۡمِنًا عَلَيۡهِۖ﴾، أي: شهيدًا عليه.. وقال عبد اللّه بن الزّبير: المهيمن: القاضي على ما قبله منَ الكتب[1]، ومعنى هيمنة القرآن وأمانته، ما قال ابن جريج: "القرآن أمين على ما قبله منَ الكتب، فما أخبر أهل الكتاب عن كتابهم، فإن كان في القرآن صدقوا وإلّا فكذبوا، وقال سعيد بن المسيّب والضّحّاك: قاضيًا، وقال الخليل: رقيبًا وحافظًا، والمعاني متقاربة، ومعنى الكلّ: أنّ كلّ كتاب يشهد بصدقه القرآن، فهو كتاب اللّه تعالى، وإلّا فلا"[2].

دلالة فعل الأمر على وجوب الحكم بما في القرآن بين أهل الأديان:

القرآن مُشتمِلٌ على جميع الأحكام الشَّرعيَّة الباقية في الكُتُب السّماويّة وزيادة

قوله تعالى: ﴿فَٱحۡكُم بَيۡنَهُم﴾ لترتيب ما بعدها على ما قبلها، أي: إذا كان القرآنُ العظيم - كما ذُكر من كونه مُصدِّقًا لما قبله منَ الكُتُب المُنزَّلة على الأُمم مُهيمنًا عليها - فاحكُم يا محمَّدُ ﷺ بين أهل الكتابين عند تحاكُمهم إليك: ﴿بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُۖ﴾، أي: بما أنزله إليك، فإنَّه مُشتمِلٌ على جميعِ الأحكام الشَّرعيَّة الباقية في الكتب الإلهيَّة، وتقديمُ (بينَهم) للاعتناء ببيان تعميم الحكم لهم، ووضعُ الموصول في (بما) مَوضِعَ الضَّمير؛ للتَّنبيه على علِّيَّة ما في حَيِّز الصِّلة للحُكم، والالتفاتُ بإظهار الاسم الجليل (اللّه)؛ لتربية المهابة، والإشعار بعلَّة الحُكم[3]، قال بعض العلماء هذه ناسخة لقوله: ﴿أَوۡ أَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡۖ﴾ [المائدة: 42]، وقد تقدّم ذكر ذلك، وقال الجمهور: إنّه ليس بنسخ، وإنّ المعنى: فإن اخترت أن تحكم ﴿فَٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُۖ﴾، ثمّ حذّر تعالى نبيّه من اتّباع أهوائهم، أي: شهواتهم وإرادتهم الّتي هي هوى ووسوسة للنّفس، والنّفس أمّارة بالسّوء فهواها مردّ لا محالة[4].

(1) مكّيّ بن أبي طالب، الهداية إلى بلوغ النّهاية: 3/1765.
(2) البغويّ، معالم التّنزيل: 2/57.
(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/68.
(4) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/200.

دلالة أسلوب النّهي عنِ اتّباع الأهواء المضطربة:

تضمين معنى العدول

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ﴾، أي: أهواءَ اليهود، والمقصود منه النَّهي عنِ الحُكم بغير حُكم اللّه، إذا تحاكموا إليه، إذ لا يجوزُ الحكمُ بغيره، ولو كان شريعةً سابقة؛ لأنَّ نُزولَ القرآن مُهَيمِنًا أبطَلَ ما خالفَه، ونُزولَه مُصدِّقًا أيَّدَ ما وافقه، وزَكَّى ما لم يُخالفه[1]، وقوله تعالى: ﴿عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡحَقِّۚ﴾، أي: الَّذي لا مَحيدَ عنه، و(عن) في ﴿عَمَّا﴾ مُتعلِّقةٌ بـ ﴿وَلَا تَتَّبِعۡ﴾ على تضمين معنى العدول ونحوه؛ كأنَّه قِيلَ: ولا تَعدِلْ عمَّا جاءك منَ الحقِّ مُتَّبعًا أهواءَهم، ويمكنُ أن تتعلَّقَ (عن) بمحذوفٍ وقعَ حالًا من فاعِله؛ أي: لا تَتَّبع أهواءَهم عادلًا عمَّا جاءك، ووضعُ الموصول في (بما) مَوضِعَ ضمير الموصول الأوَّل في ﴿بِمَآ أَنزَلَ﴾؛ للإيماء بما في حيِّز الصِّلة من مجيء الحقِّ إلى ما يُوجِب كمالَ الاجتباب، عنِ اتِّباع الأهواء[2].

التّشبيه في قوله تعالى: ﴿لِكُلّٖ جَعَلۡنَا مِنكُمۡ شِرۡعَةٗ وَمِنۡهَاجٗاۚ﴾، وأثره في توضيحِ المعنى:

الاستئناف بدعوة أهل الكتاب للانقياد لحكم الله، وما يزخر به القرآن من أحكام خالدة

قوله تعالى: ﴿لِكُلّٖ جَعَلۡنَا مِنكُمۡ شِرۡعَةٗ وَمِنۡهَاجٗاۚ﴾ فيها تشبيه؛ حيث أنّ الشّرعة هي الطّريقة إلى الماء، شبّه بها الدّين؛ لكونه سبيلًا موصلًا إلى ما هو سبب للحياة الأبديّة، كما أنّ الماء سبب للحياة الفانية[3].

أفادَ الاستئنافُ ضرورةَ ائتمار أهل الكتُب السَّابقة بالقرآن عقيدةً وشريعةً، وهذا تعليلٌ للنَّهي، أي: إذا كانت أهواؤهم في متابعة شريعتهم أو عوائدهم، فَدَعْهُم وما اعتادوه، وتمسَّكوا بشرعكم، وهو كلامٌ مُستَأنَفٌ جيءَ به لحمل أهل الكتابين من مُعاصريه ﷺ على

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 6/222.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/68.
(3) صافي، الجدول: 6/372.

الانقياد لحكمه بما أنزل اللّه منَ القرآن الكريم، ببيان أنَّه هو الَّذي كُلِّفوا العملَ به دونَ غيره منَ الكتابين، وإنَّما الَّذين كُلِّفُوا العملَ بهما مَن مضى قبل نسخهما منَ الأُمم السَّالفة.

علّة الجمع بين قوله: ﴿لِكُلٍّ جَعَلۡنَا مِنكُمۡ شِرۡعَةٗ وَمِنۡهَاجٗاۚ﴾، وقوله: ﴿۞شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ﴾:

الخطاب في قوله تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلۡنَا مِنكُمۡ شِرۡعَةٗ﴾ للأمم الثّلاث، أمّة موسى، وأمّة عيسى، وأمّة محمّد ﷺ؛ لأنّ الآيات السّابقة واللّاحقة فيهم، و: الشّرعة: عبارة عن مُطلَق الشّريعة، والمنهاج: عن مكارم الشّريعة، فإن قيل: كيف الجمع بين هذه الآية وبين قوله تعالى: ﴿۞شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحٗا﴾ [الشّورى: 13] إلى قوله تعالى: ﴿أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ﴾ [الشّورى: 13]، وقال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ﴾؟ [الأنعام: 90] فالجواب: أنَّ الثّانية مصروفة إلى ما يتعلّق بأصول الدّين، والأولى بفروعه، وقال الرّاغب في الجمع بين الآيتين: الّذي استوى فيه الشّرائع هو أصل الإيمان والإسلام، أعني التّوحيد والصّلاة والزّكاة والصّوم، فإنّ أصول هذه الأشياء لا ينفكّ منها شرع بوجه، وأمّا الّذي ذكر أنّه تفرّد كلّ واحد منَ الأنبياء به، ففروع العبادات من كيفيّاتها وكمّيّاتها، فإن ذلك مشروع على حسب مصالح كلّ واحد، وعلى مُقتضَى الحكمة في الأزمنة المختلفة[1].

التّوافق بين الدّيانات السّماويّة في الأصول، واختلافها في الفروع

أسلوب الالتفات، وأثره في التّعميم، واستعمال التّغليب في الخطاب:

وورد الخطاب بطريق الالتفات للنَّاس كافَّةً لا للموجودينَ خاصَّةً؛ بل للماضين أيضًا بطريق التَّغليب، واللَّام في ﴿لِكُلٍّ﴾ مُتعلِّقةٌ بـ﴿جَعَلۡنَا﴾ المتعدِّي لواحد، وهو إخبارٌ بـ(جعلَ) ماضٍ لا إنشاء، وتقديمُها عليه للتَّخصيص[2]، ويمكنُ أن تكون ﴿جَعَلۡنَا﴾ مُتعدِّيةً إلى

مفعول المشيئة - وهو جواب (لو) الامتناعيّة - محذوفٌ بدلالة الجزاء عليه

(1) السّيوطيّ، نواهد الأبكار: 3/272.

(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/68.

مفعولين؛ بجعلها بمعنى (صيَّرنا)[1]، ولفظ ﴿مِنكُمْ﴾ مُتعلِّقٌ بمحذوفٍ وقعَ صفةً لمَّا عوّضَ عنه تنوينُ (كلٍّ)، ولا ضَيرَ في توسُّط ﴿جَعَلْنَا﴾ بين الصِّفة والموصوف[2]، كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأنعام: 14]، والمعنى: لكلِّ أُمَّةٍ كائنةٍ منكم أيُّها الأمم الباقية والخالية جَعَلنا؛ أي: عيَّنَّا، ووضَعنا شرعةً ومنهاجًا خاصَّين بتلك الأمَّة، لا تكادُ أمَّةٌ تتخطَّى شرعيَّتَها الَّتي عُيِّنَت لها، فأُمَّة موسى عليه السلام شِرعتُهم التَّوراة، وأُمَّة عيسى عليه السلام شِرعتُهم الإنجيل، وأمَّا أنتم أيُّها الموجودون فشِرعتُكمُ القرآنُ ليس إلَّا، فآمِنوا به، واعملوا بما فيه[3]، قال القاضي أبو محمّد: وهذا عندهم في الأحكام، وأمّا في المعتقد فالدّين واحد لجميع العالم: توحيد، وإيمان بالبعث، وتصديق للرّسل، وقد ذكر اللّه تعالى في كتابه عددًا منَ الأنبياء شرائعهم مختلفة، ثمّ قال لنبيّه ﷺ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْۗ﴾ [الأنعام: 90]، فهذا عند العلماء في المعتقدات فقط، وأمّا أحكام الشّرائع فهذه الآية هي القاضية فيها ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًاۚ﴾[4]، ويؤكّد ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾، والمعنى: أي: مُتَّفِقةً على دينٍ واحدٍ على مرِّ الدُّهور وكرِّ العصور من غير اختلافٍ بينكم وبين مَن قبلكم مِنَ الأمم في شيءٍ من الأحكام الدِّينيَّة، ولا نَسخ ولا تَحويل، ومفعول المشيئة - وهو جواب (لو) الَّذي هو حرف امتناعٍ لامتناع - محذوفٌ تَعويلًا على دلالة الجزاء عليه، أي: ولو شاء اللّه أن يجعلكم أُمَّةً واحدةً لجعلَكم أمَّةً واحدة[5]، والشِّرعة والشَّريعة: الماء الكثير من نَهرٍ أو وادٍ، يُقالُ: شريعةُ الفُرات، وسُمِّيتِ الدِّيانةُ شريعةً على التَّشبيه؛ لأنَّ فيها شفاء النُّفوس وطهارتها، والعربُ تُشبِّه بالماء وأحواله كثيرًا[6].

ويمكن أن يكون تشبيه الطَّريقة إلى الماء بالدِّين؛ لكونه سبيلًا مَوصولًا إلى ما هو سببٌ للحياة الأَبديَّة، كما أنَّ الماءَ سببٌ للحياة الفانية.

---

(1) العكبريّ، التبيان: 1/217.

(2) ويرى العكبريّ خلاف ذلك فيقول: "ولا يجوز أن يكون منكم صفةٌ لكلّ، لأنَّ ذلك يُوجِبُ الفصلَ بين الصّفة والموصوف بالأجنبيّ الَّذي لا تشديدَ فيه للكلام، ويُوجبُ أيضًا أن يفصلَ بين جعلنا ومعمولها، وهو (شِرعة)، وإنّما يتعلَّقُ بمحذوفٍ تقديره: أعني.

(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/68 - 69.

(4) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/200.

(5) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/69.

(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 6/223.

والمنهاج: الطّريق الواضح في الدِّين، مِن نَهجَ الأمرُ إذا وَضَحَ[1].

تعلّق المعنى بمحذوف يتطلّبه السّياق في قوله: ﴿وَلَٰكِن لِّيَبۡلُوَكُمۡ﴾:

حكمة الله البليغة في الاختلاف الحاصل بين الخليقة

وقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن لِّيَبۡلُوَكُمۡ﴾ مُتعلِّقٌ بمحذوفٍ يَستدعيه النِّظام؛ أي: ولكن لم يشأ ذلك، أي: أن يجعلَكم أمَّةً واحدة؛ بل شاء ما عليه السُّنَّة الإلهيَّة الجارية فيما بين الأمم؛ ليُعاملَكم معاملةَ مَن يَبتليَكم ﴿فِي مَآ ءَاتَىٰكُمۡۖ﴾ منَ الشَّرائع المختلفة، المناسبة لأعصارها وقُرونها، هل تعملون بها، مُذعِنين لها، مُعتقدِين أنَّ اختلافَها بمقتضى المشيئة الإلهيَّة المبنيَّة على أساس الحِكَم البالغة، والمصالحِ النّافعة لكم في معاشِكم ومَعادِكم، أو تَزيغون عنِ الحقِّ، وتتَّبعونَ الهوى، وتستبدلون المَضرَّةَ بالجَدوى، وتشترون الضَّلالة بالهدى؟. وبهذا اتَّضحَ أنَّ مَدارَ عدم المشيئة المذكورة ليس مجرَّدَ الابتلاء فحسْب؛ بلِ العُمدةُ في ذلك إلى ما أُشيرَ إليه مِنَ انطواء الاختلاف على ما فيه مصلحتُهم، معاشًا ومَعادًا، كما يُنبئُ عنه قوله ﷻ: ﴿فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ﴾[2].

المجاز في لفظ الاستباق، وأثره في جلاء المعنى في قوله تعالى: ﴿فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ﴾:

الاستعارة المكنيّة ودورها في تأكيد المسارعة للنّفع، والمبادرة للخيرات

جاء قوله تعالى: ﴿فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ﴾ تفريعًا على قوله: ﴿لِّيَبۡلُوَكُمۡ﴾؛ لأنَّ بذلك الاستباق: التَّسابق، وهو هنا مجازٌ في المنافسة؛ لأنَّ الفاعلَ للخير لا يَمنعُ غيره من أن يفعلَ مِثلَ فعله أو أكثَر، فشابه التَّسابق، والفعلُ (استَبِقوا) ضُمِّنَ معنى خذوا، أوِ ابتَدِروا، ولذلك عُدِّيَ إلى الخيرات، وحقُّه أن يُعدَّى بـ(إلى)، كقوله تعالى: ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ [الحديد: 21][3]، وفي هذا الفعل

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/69. وقد تقدَّم بيان الشِّرعة، والمنهاج في فِقرة: شرح المفردات، لكنَّ إيرادَها هنا، لبيان التَّشبيه، ورَبطه المحكم بالسّياق القرآنيّ، وإظهار البلاغة القرآنيَّة الفائقة.

(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/69 - 70.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 6/225.

ومفعوله تأكيدُ التَّرغيب في الإذعان للحقِّ، وتشديدُ التَّحذير عَنِ الزَّيغِ، ما لا يَخفى على مُتدَبِّر، وقوله: ﴿فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ﴾، أي: بادروا فعل الخيرات، وفيه استعارة مكنيّة؛ حيث شبّههم بالمتسابقين على ظهور الخيل، وحذف المشبّه به وهو الخيل، وجاء بشيء من لوازمه، وهو استبقوا على سبيل الاستعارة المكنيّة؛ لأنّ كلّ واحد ينافس صاحبه في السّبق؛ لبلوغ الغاية المقصودة[1].

أثر حرف الفاء في توجيه المعنى من قوله تعالى: ﴿فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ﴾:

استباق الخيرات مطلوب الله من كلّ الأمم، وهي المهمّة الأساسيّة لبني آدم جميعًا

قوله تعالى: ﴿فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ﴾ "ما هو مترتّب عليه بالفاء، يعني أنّه تعالى لمَّا خاطب الأمم منَ المسلمين، واليهود، والنّصارى، وغيرهم، بقوله: ﴿لِكُلّٖ جَعَلۡنَا مِنكُمۡ شِرۡعَةٗ﴾، أي: شريعة بحسب ما تقتضيه الأوقات منَ المصالح؛ لنختبركم أيّكم يعتقد أنَّها حكمة منَ اللّه تعالى، وإن خفي عليه وجه الحكمة فيستبق إلى ما شرعه اللّه تعالى في كلّ وقت، وأيّكم لا يتبع هواه، واتّجه لهم أن يسألوا: ما تلك الحكمة؟، ومَن يعلم حقيقتها؟ فأجيبوا: إذا ما رجعتم إلى اللّه تعالى في دار الجزاء، فيجازيكم إمّا بالثّواب أو بالعقاب؛ ليفصل بين المحقّ والمبطل، وبين العالم والمفرّط، فحينئذ تعلمون وجه الحكمة فيه، ولا تشكُّون فيه"[2].

الاستئناف المسوقُ مَساقَ التَّعليل لاستباق الخيرات في قوله: ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ﴾:

وقوله تعالى: ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ﴾ استئنافٌ مَسوقٌ مَساقَ التَّعليل لاستباق الخيرات بما فيه منَ الوَعد والوَعيد[3]، وقوله: ﴿جَمِيعٗا﴾ حالٌ من ضمير الخطاب في ﴿مَرۡجِعُكُمۡ﴾، وفي العامل فيه وجهان:

(1) الزّحيلّي، التّفسير المنير: 6/214.
(2) السّيوطيّ، نواهد الأبكار: 3/272.
(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/70.

أحدُهما: المصدر المضاف؛ لأنَّه في تقدير: (إليه تُرجعون جميعًا)، والضَّمير المجرور فاعلٌ في المعنى، أو قائمٌ مقام الفاعل، والثَّاني: أن يعملَ فيه الاستقرارُ الَّذي ارتفع به ﴿مَرۡجِعُكُمۡ﴾، أوِ الضَّميرُ الَّذي في الجارّ[1]، وقوله: ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ﴾، أي: فيفعلُ بكم منَ الجزاء الفاصل بين المُحقِّ والمُبطل، ما لا يَبقى لكم معه شائبةُ شكٍّ فيما كنتُم فيه تختلفون في الدُّنيا، وإنَّما عبَّرَ عن ذلك بما ذَكَرَ لوقوعه موقعَ إزالة الاختلاف الَّتي هي وظيفة الإخبار[2]،"ثمّ أخبر تعالى بأنّه لو شاء لجعل العالم أمّة واحدة، ولكنّه لم يشأ؛ لأنّه أراد اختبارهم وابتلاءهم فيما آتاهم منَ الكتب والشّرائع... فليس لهم إلّا أن يجدّوا في امتثال الأوامر، وهو استباق الخيرات، فلذلك أمرهم بأحسن الأشياء عاقبة لهم، ثمّ حثّهم تعالى بالموعظة والتّذكير بالمعاد في قوله: ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعًا﴾، والمعنى: فالبدارَ البدارَ، وقوله تعالى: ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ﴾، معناه: يظهر الثّواب والعقاب، فتخبرون به إخبار إيقاع، وإلّا فقد نبّأ اللّه في الدّنيا بالحقّ فيما اختلفتِ الأمم فيه، قال القاضي أبو محمّد: وهذه الآية بارعة الفصاحة، جمعت المعاني الكثيرة في الألفاظ اليسيرة، وكلّ كتاب اللّه كذلك، إلّا أنّا بقصور أفهامنا، يَبِين في بعض لنا، أكثر ممّا يَبِين في بعض"[3].

الـرّجـوع إلى الله يوم المعاد؛ لمحاسبة العباد، وتـمـيـيـز أهـل الـغـيّ مـن أهل الرّشاد

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(بين يَدَيه) و(تقدَّمَه) و(قَبلُ)

في قوله: ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ﴾: (قبلُ): يُستعملُ في التَّقدُّم والمتَّصل والمُنفَصِل، ويُضادُّه (بَعدُ)، ويمكن أن يُستعمَلا في التَّقدُّم

الاتّـســاع في اسـتـعـمـال اللّفظ في القرآن دليل على ثراء اللّغة العربيّة، واستيعابها للمعاني

(1) العكبريّ، التبيان: 1/217.
(2) أبو السِّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/70.
(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/201.

المتَّصل، ويُستعمَلُ (قَبلُ) في أربعة أَوجهٍ: الأوَّل: في المكان بحسبِ الإضافة، كأن يُقالُ: بغدادُ قبلَ الكوفة، وذلك للخارجِ من أصبهانَ إلى مكَّة، ويُقال: الكوفة قبلَ بغداد، للخارجِ من مكَّةَ إلى أصبهان.

الثَّاني: في الزَّمان، كما في قوله تعالى: ﴿فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ﴾ [البقرة: 91].

الثَّالث: في المَنزِلة، نحو: عبد الملك قَبل الحجَّاج.

الرَّابع: في التَّرتيب الصِّناعيّ، كما في قوله تعالى: ﴿قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾ [طه: 130][1].

والتَّقدُّمُ مأخوذٌ منَ القَدَم، أي: قَدَم الرِّجل، وجمعُه: أَقدام، قالَ تعالى: ﴿وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ۝١١﴾ [الأنفال: 11]، وبه اعتُبِرَ التَّقدُّم والتَّأخُّر، والتَّقدُّم على أربعة أَوجه - كما تقدَّم آنفًا في لفظ (قَبلُ) - ويُقالُ: حديثٌ وقديمٌ، وذلك باعتبار الزَّمانين، وإمَّا بالشَّرف، نحو: فلانٌ مُتَقدِّمٌ على فلان، أي: أَشرفُ منه، وإمّا لا يَصِحُّ وجودُ غيره إلَّا بوجوده، كقولك: الواحد مُتقدِّمٌ على العدد، بمعنى أنَّه لو تُوُهِّمَ ارتفاعُه لارتفعتِ الأعداد، قال تعالى: ﴿لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ﴾ [المائدة: 80]، وقَدُمْتُ فُلانًا أَقْدُمُه: إذا تقدّمتُه، قال تعالى: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ [هود: 98][2]، وقوله تعالى: ﴿بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ يَجمعُ معنى (قَبلُ) وتقدَّمَ ذلك أنَّ قوله: ﴿بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ كنايةٌ عن كلا المَعنَيَين، فليستِ الكتُبُ الَّتي تقدَّمَت بعثةَ رسول الله ﷺ هي بين يديه حسًّا، وإن كانتِ التَّوراة والإنجيل بين يدي القائمين عليهما، وهمُ اليهود والنَّصارى، كلُّ فرقةٍ معها كتابها، ولكنَّ القرآنَ الكريم قد أعلنَ بيانه الجليل بكلام الله الحقِّ المبين أنَّ هذا الكتاب، وهو القرآن، قد أنزلَه على رسوله ﷺ مُصدِّقًا لتلك الكُتُب جميعها، ومُهيمنًا عليها، فكأنَّها كُلَّها بين يديْ رسول الله ﷺ حسًّا؛ تأكيدًا لمعنى التَّصديق والهيمنة، فيجبُ أن يكونَ القرآن هو الموجود بين أيدي النَّاس جميعهم يرجعون إليه في عقيدتهم الصَّحيحة، وشريعتِهمُ الخاتمة النَّاسخة لما سبقها منَ الشَّرائع، ويكون مِن ثمّ مَرجعًا لهم حسًّا ومعنى، وهذا المعنى الدَّقيق لقوله: ﴿بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ لا تحقّقه أيُّ كلمةٍ من (قَبلُ) و(تَقَدَّمَ) على حدة.

(1) الرَّاغب، المفردات: (قبل).

(2) الرَّاغب، المفردات: (قدم).

(المُهَيمِن) وبعض الألفاظ القريبة منه في المعنى والاستعمال:

لفظ (المُهَيمِن) جامعٌ شاملٌ، ولو أَفرَدَ البيانُ الإلـهيُّ غيره لتقاصر عن بلوغِ المرام منه

انطلاقًا من قوله تعالى: ﴿وَمُهَيۡمِنًا عَلَيۡهِۖ﴾ هناك جملة منَ الألفاظ ذات الدّلالة القريبة، مثل: (المُؤتَمَنُ) و(الأمينُ) و(الشَّاهدُ) و(الدَّالُ) و(القاضي)، و(المُصدِّقُ) و(الرَّقيبُ) و(الحافظُ)، وعند النّظر فيها نلاحظ ما يلي: تبيَّن لنا معنى كلمة (المُهَيمِنُ) في فقرة: شرحِ المفردات، وكذلك زاد معناها جلاءً في فقرة: الإيضاحِ اللُّغويُّ والبلاغيّ، وظهر لنا على التَّمام والكمال أنَّ كلمة (المُهَيمِن) جامعةٌ شاملةٌ لمعاني كلِّ تلك المفردات السَّابقة فهي متقاربة المعنى، ولكنَّ اسم (المُهَيمِن) يتضمَّنها جميعها بلا استثناء، ولو أَفرد البيان الإلهيّ واحدة منها دون غيرها لقصَّرت أيَّما تقصير في بلوغِ المرام منها، ولأَحدثَت خللًا يَندُّ عنه سياق النَّصِّ القرآنيِّ فيما أراده من معنًى تامٍّ كامل جليل في مكانه الَّذي سيق مِن أجل تحقيقه فيه، قال السّمعانيّ عن قوله تعالى: ﴿وَمُهَيۡمِنًا عَلَيۡهِۖ﴾: والمعاني متقاربة، ومعنى الكلّ أنّ كلّ (كتاب) يصدّقهُ القرآن، ويشهد بصدقه، فهو كتاب الله، وما لا فلا. وقرأ مُجاهِد (ومهيمنًا) بفتح الميم، يعني: مُحَمَّد مُؤيمنًا عليه، وفي الأَثر أَنّ عمر رضي الله عنه قال: إذا دعَوتَ الله فهيمنوا، أَي: أمّنوا " قال الشَّاعر:

أَلَا إِنَّ خَيرَ النَّاسِ بَعدَ مُحَمَّدٍ *** مُهَيمِنُهُ تالِيه في العُرفِ والنُّكرِ

أَراد أبا بكر أمينه وحافظه، يتلوه في الأمر بالمَعروف والنَّهي عنِ المنكر"[1].

(لِيَبۡلُوَكُمۡ) و(لِيَخۡتَبِرَكُمۡ):

لـفـظ الـبـلاءَ أَصـدقُ دلالـةً عـمّا سيق من أَجله في سياق هـذه الآيـة القرآنيّة

انطلاقًا من قوله: ﴿لِّيَبۡلُوَكُمۡ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمۡۖ﴾: خلاصة معنى الفعل ﴿لِّيَبۡلُوَكُمۡ﴾ أنّه يعني: "ليختبركم فيما خوَّلكم من فضله، ومنحكم من رزقه، فيعلم المطيع له منكم فيما أمره به، ونهاه عنه، والعاصي، ومَن

(1) السّمعانّي، تفسير القرآن: 2/43.

المؤدِّي ممّا آتاه الحقّ الّذي أمره بأدائه منه، والمفرِّط في أدائه"[1]، وأمَّا الاختبارُ فيكون بتحميل المكاره والشَّدائد والمشاقّ، وبفعل المحبوب، فلا يُقالُ: ابتلاه بالإنعام عليه، وإنَّما يُقالُ: اختبرَه بالإنعام عليه، وقد يكون البلاء عقوبة، وقد يكون تمحيصًا وتكفيرًا للذُّنوب، وقد يقتضي استخراجَ ما عندَ المُبتلى منَ الطَّاعة والمعصية، والاختبارُ يقتضي وقوعَ الخبر بحاله في ذلك[2]، ومن بيان الفرقِ بين دلالة كلٍّ منَ الكلمتين، يتجلَّى لنا أنَّ البلاءَ أَصدقُ دلالةً فيما سيقَ من أَجله في سياق النَّصِّ القرآنيّ الَّذي يُحدِّثنا عن مشيئة اللّه تعالى في جَعل النَّاس على مِلَل مختلفة، وشرائعَ مُتباينة، وليس على شرعة واحدة ومنهاجٍ واحد، وهنا عَينُ الشَّدة والمشقَّة والابتلاء، فإلى أيِّ شرعةٍ ينتمون، وفي أيِّ طريق يسيرون، وتحت أيِّ منهجٍ يَستظلُّون، أَيتَّبعون أهواءهم في الاختيار، وهم مُخيَّرون أم يلتزمون المنهاجَ الصَّائبَ الَّذي ارتضاه اللّه تعالى لهم، والشِّرعةَ الحقَّ الَّتي أمرَهم اللّه بها ؟

(يُنَبِّئُكُم) و(يُخبِرُكُم):

انطلاقًا من قوله: ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾: النّبأ والأنباء لم يردا في القرآن إلّا لما له وقع وشأن عظيم[3]، ومنه اشتقاقُ النُّبوَّة؛ لأنَّ النَّبيَّ مُخبِرٌ عنِ اللّه تعالى، ويدُلُّ عليه قوله تعالى: ﴿نَتْلُواْ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ﴾ [القصص: 3]، وقوله تعالى: ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ۝١ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ ۝٢﴾ [النّبأ: 1-2]، فوصفه بالعظمة[4]. والنَّبأُ: خبرٌ ذو فائدة عظيمة، يحصُلُ به علمٌ أو غلبة ظنّ، ولا يُقالُ للخبر في الأَصل نَبَأٌ حتَّى يتضمّنَ هذه الأشياء الثَّلاثة[5]، والخَبَرُ:

النَّبأُ أبلغ في الدّلالة عمّا يصدر منَ الله من إخباره بالغيب، وإعلامه بالمستور

(1) ابن جرير، جامع البيان: 12/289.
(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 10.
(3) الكفويّ، الكلّيّات، ص: 1083.
(4) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 529.
(5) الرَّاغب، المفردات: (نبأ).

العِلمُ بالأشياء المعلومة من جهة الخبر، وخَبَرتُه خُبرًا وخِبرَةً، وأَخبَرتُ: أَعلمتُ بما حصلَ لي منَ الخبر، والخِبرةُ: المعرفة ببواطنِ الأمور، قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ١٣﴾ [المجادلة: 13]، أي: عالمٌ ببواطنِ أُموركم[1]، وممَّا سبقَ بيانُه يتَّضحُ أنَّ استخدام البيان الإلهيِّ للفعل (يُنَبِّئُكُم) أَقوى في دلالته المناسبة لسياق النَّصِّ القرآنيِّ منَ الفعلِ (يُخبرُكُم)، فالمقامُ عظيمٌ خطير، وهو المصير الَّذي سيؤولُ إليه مَنِ التزم شِرعة اللّٰه السَّديدة، ومنهاجه القويم، ومَن لم يلتزم بهما؛ بلِ اتَّبع هواه، وسيكون (النَّبأُ)؛ وهو الإخبار العظيم الشَّأن منَ اللّٰه ﷻ حينذاك، بما اختلفوا فيه من ذلك كلِّه.

(1) الرَّاغب، المفردات: (خبر).

﴿وَأَنِ ٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ وَٱحۡذَرۡهُمۡ أَن يَفۡتِنُوكَ عَنۢ بَعۡضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَٱعۡلَمۡ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعۡضِ ذُنُوبِهِمۡۗ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ٤٩﴾ [المائدة: 49]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الرّبط بين الالتزام بالشّرع، وترك الرّكون إلى الأهواء في الحكم بين أهل الكتاب

الشّرائع الإلهيّة سلسة نورانيّة متّصلة الأواخي، مرتبطة الحلقات، متكاملة المعاني والغايات، يتّصل بعضها ببعض، ويكمّل اللّاحق منها السّابق؛ لتتآزر وتتعاضد وتتساند على تحقيق مراد اللّه تعالى الواحد، فيما يحقّق المصالح، ويدفع المفاسد، وينقل النّاس إلى ما تقتضيه الحاجة للتّطوّر والتّحضّر بعيدًا عنِ الأهواء والفتن، واللّه يجازي كلّا بما اقترف، ولمَّا أمر اللّه ﷻ في الآية السَّابقة رسولَه محمَّدًا ﷺ بالحكم بين اليهود بما أنزل اللّه عليه في القرآن الكريم، الَّذي يُعدُّ خاتمًا وناسخًا لما تقدَّمه منَ الكُتُب، جاءَت هذه الآية الكريمة مُؤكِّدَةً هذا الأمر السَّابق بوجوب الحُكم بشريعة القرآن، وعدم الالتفات لأهواء أصحاب تلك الكُتُب، وضرورة الحذر من أيِّ فتنةٍ من قبلهم.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَٱحۡذَرۡهُمۡ﴾: حَذِرَ: الحاء والدَّال والرَّاء أصلٌ واحدٌ، وهو منَ التَّحرُّز، والتَّيقُّظ، يُقالُ: حَذِرَ يَحذَرُ حَذَرًا. ورَجلٌ حَذِرٌ وحَذُورٌ وحِذرِيانٌ: مُتَيَقِّظٌ مُتَحَرِّزٌ. وحَذار: بمعنى احذَر. وحَذِرونَ: خائفون. والمَحذُرَةُ: الفَزَع، فأمَّا الحِذريَّةُ فالمكانُ الغليظُ، ويمكنُ أن يكون سُمِّيَ بذلك؛ لأنَّه يُحذَرُ المَشيُ عليه[1]، ومعنى اللّفظ في سياقه في

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حذر).

الآية: "واحذر يا محمّد هؤلاء اليهود الّذين جاءوا إليك أن يصرفوك ويصدّوك بمكرهم وكيدهم، فيحملوك على ترك العلم ببعض ما أنزل اللّه إليك في كتابه، واتّباع أهوائهم"[1]، وقد قال جماعة من بني النّضير له: هل لك أن تحكم لنا على أصحابنا بني قريظة في أمر الدّماء، كما كنّا عليه من قبل، ونبايعك؟ فنزلتِ الآية للتّحذير من فتنة القوم المشار إليها في الآية[2].

وفي رواية أخرى عن سبب النّزول الّذي له علاقة كبيرة بتوجيه المعنى وفق الدّلالة: "أَنّ قومًا من رؤساء اليهود جاءوا إلى النَّبِيّ ﷺ وقالوا: يا محمَّد، لو آمنّا بك آمن بك غيرنا، ولنا خصومات بين النَّاس؛ فاقض لنا عليهم نؤمن بك، ويتّبعنا غيرنا "، ولم يكن قصدهم الإيمان به، وإنَّما قصدوا التّلبيس، ودعوته إلى الحكم بالميل؛ فنزلتِ الآية"[3].

2) ﴿أَن يَفۡتِنُوكَ﴾: فَتَنَ: الفاء والتَّاء والنُّون أصلٌ صحيحٌ يدلُّ على ابتلاء واختبار، من ذلك الفتنة، يُقالُ: فَتَنتُ أَفتِنُ فَتنًا، وفَتَنتُ الذَّهبَ بالنَّار، إذا امتَحَنتُه، وهو مَفتونٌ وفَتينٌ، والفتَّان: الشَّيطان، ويُقالُ: فَتَنَه وأَفتَنَه. ويُقالُ: قلبٌ فاتِنٌ؛ أي: مَفتونٌ. والفَتنُ: الإحراقُ، وشيءٌ فَتينٌ، أي: مُحرِقٌ، ويُقالُ لِلحَرَّةِ: فَتينٌ، كأنَّ حجارتَها مُحرَقَة[4]، ومعنى اللّفظ في سياقه منَ الآية: "﴿أَن يَفۡتِنُوكَ﴾: أن يقولوا لك كذا وكذا في التّوراة بخلاف ما فيها، وقد بيّن اللّه له ما في التّوراة، فقال: ﴿وَكَتَبۡنَا عَلَيۡهِمۡ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفۡسَ بِٱلنَّفۡسِ﴾ [المائدة: 45].. يعني: كتب ذلك في التّوراة"[5].

3) ﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ﴾: تولَّى: أَعرَضَ، وهو إذا عُدِّي بـ(عن) لفظًا أو تقديرًا، اقتضى معنى الإعراض، وترك القرب منه، قال تعالى: ﴿إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ٢٣﴾ [الغاشية: 23]، وقال سبحانه: ﴿وَإِن تَوَلَّوۡاْ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَوۡلَىٰكُمۡۚ﴾ [الأنفال: 40]، وكذلك الآية الَّتي معنا: ﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَٱعۡلَمۡ﴾، والتَّولِّي قد يكون بالجسم، وقد يكونُ بترك الإصغاء والائتمار، قال اللّه ﷻ: ﴿وَإِن يُقَٰتِلُوكُمۡ يُوَلُّوكُمُ ٱلۡأَدۡبَارَ﴾ [آل عمران: 111]، أي: ينهزمون، يُقالُ: وَلَّاه دُبُرَه: إذا انهزم[6]، ومعنى اللّفظ في

(1) الخازن، لباب التّأويل: 2/52.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/285.
(3) السّمعانّي، تفسير القرآن: 2/44.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (فتن).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (فتن).
(6) الرَّاغب، المفردات: (ولى).

سياقه منَ الآية: "أي: فإن أعرضوا عمّا أتيت به منَ البيان، فإنّ الله يعلم مَن يفسد مِن خلقه، فيجازيَه على إفساده"[1].

4) ﴿أَن يُصِيبَهُم﴾: صابَ: يُصيبُ، مُصيبةٌ، ومَصوبةٌ، ومُصابةٌ، والجمع: مَصائبُ، ومَصاوِبُ، وهو الأمرُ المكروهُ يَنزلُ بالإنسان، ويُقالُ: صابَ السَّهمُ مِن باب: باع، لغةٌ في (أصابَ)[2]، والمصيبة: ما لا يلائمُ الطَّبعَ كالموت ونحوه[3]. وهي اسمٌ لكلِّ ما يسوءُ الإنسان[4]، ومعنى اللّفظ في سياقه منَ الآية في قوله تعالى: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعۡضِ ذُنُوبِهِمۡۗ﴾: "فَيَقتلوهم ويُجلِيهم وتُؤخذ منهم الجزية بالصَّغار والذُّلِّ"[5]، وعليه "فإن أعرضوا عنِ الإيمان، والحكم بالقرآن، فاعلم أنَّ ذلك من أجل أنَّ الله يريد أن يعجِّل لهم العقوبة في الدّنيا ببعض ذنوبهم، ويجازيهم في الآخرة بجميعها، ثمَّ كان تعذيبهم في الدُّنيا الجلاء والنَّفي"، وهو فحوى قوله تعالى: ﴿أَن يُصِيبَهُم﴾[6].

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

تأكيد الالتزام بأحكام القرآن، والحذر من كيد اليهود وفتنتهم المهلكة:

دعوة القرآن إلى الحكم بما أنزل الله، وأنّ جزاء الإعـــراض عنه النّكال والوبال

جاء في هذه الآية الكريمة تأكيدُ ما تقدَّمَ منَ الأمر بالحكم بما أَنزل الله تعالى، والنَّهي عن خلافه، وورد كذلك الأمرُ الإلهيُّ لرسول الله ﷺ بالحذر منَ اليهود أن يُدلِّسوا عليه الحقَّ فيما يُنهونه إليه من أُمور كاذبة فاجرة، فإن تولَّوا عمَّا تحكم به بينهم مِنَ الحقِّ، وخالفوا شرع الله، فلتعلم يا محمَّد ﷺ أنَّ الله تعالى يَصرفُهم عنِ الهدى، لِمَا لهم منَ الذُّنوب السَّالفة الَّتي اقتضَت إضلالَهم ونكالَهم، وهكذا

(1) الزّجاج، معاني القرآن: 1/424.
(2) ابن منظور، لسان العرب: (صوب).
(3) الجرجاني، التعريفات: 1/217.
(4) المناوي، التوقيف: 1/307.
(5) ابن أبي زمنين، تفسير القرآن العزيز: 2/32.
(6) الواحديّ، الوجيز: 2/32.

أكثرُ النَّاس خارجون عن طاعة ربِّهم، مخالفون للحقِّ، ناكبون عن طريقه[1]، وفي الآية إلى جانب ذلك تحذير من أهواء المحتكمين له، مخافة الصّدّ عن بعض ما أنزل إليه، وترك العمل به، فإن أعرضوا عنِ الهدى، وحادوا عن سواء السّبيل، ولم ينصاعوا للحقّ الّذي تحكم به بينهم، فاعلم أنّ اللّه يريد أن يصرفهم عنِ الهدى جرّاء ذنوبهم الجسام، وجرائمهم العظام، وتلك سنّة الكون في عصيان البشر، وتأبّي كثير منَ النّاس عن طاعته تعالى وأحكامه[2].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

أثر وجوه العطف في تأكيد دلالات السِّياق في قوله: ﴿وَأَنِ ٱحۡكُم بَيۡنَهُم﴾ الآية:

كـلّ مـا طلب من احتكام، أو نبّه عليه من أحكام، مرجعه ما ورد في قرآن الختام

أفاد العطف ووجوهه تأكيد الحكم بشريعة القرآن، وعدم اتِّباعِ أهواء اليهود ونزغاتهم، فقوله: ﴿وَأَنِ ٱحۡكُم بَيۡنَهُم﴾ (أن): مصدريَّةٌ، والأمرُ صلةٌ لها، وفي موضعها ثلاثة أَوجه: الأوَّل: النَّصب؛ عطفًا على الكتاب في قوله: ﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ﴾ [المائدة: 48]، أي: وأنزلنا إليك الحُكمَ، والثَّاني: الجرُّ؛ عطفًا على (الحقِّ)، أي: أنزلناه إليك بالحقِّ وبأنِ احكُم[3]، ويجوز على هذا الوجه أن يكون نصبًا لمَّا حُذِفَ الجارّ[4]، والثَّالث: أن يكون في موضعِ رفع، تقديره: وأنِ احكُم بينهم بما نزَّلَ اللّه أمرنا أو قولنا[5]، قال القاضي أبو يعلى: وليست هذه الآية تكرارًا لما تقدّم، وإنّما نزلت في شيئين مختلفين: أحدهما: شأن الرّجم، والآخر التّسوية.. وهذه الآية ناسخة عند قوم للتّخيير الّذي في قوله: ﴿أَوۡ أَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡۖ﴾ [المائدة: 42]...وأجازوا في:

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 2/63.
(2) نخبة من أساتذة التّفسير، التّفسير الميسّر، ص: 116.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/618.
(4) العكبريّ، التبيان: 1/218.
(5) العكبريّ، التبيان: 1/218.

﴿وَأَنِ ٱحۡكُم﴾ أن يكون في المَواضِع الآنفة، كما بيّن الزّمخشريّ والعكبريّ وغيرهم..."وقيل: (أنْ) تفسيريّة، وأبعد ذلك من أجل الواو، ولا يصحّ ذلك بأن يقدّر قبل فعل الأمر فعلًا محذوفًا، فيه معنى القول، أي: (وأمرناك أنِ احكم)؛ لأنّه يلزم من ذلك حذف الجملة المفسّرة بأن وما بعدها، وذلك لا يحفظ من كلام العرب"[1].

ملاحظات ذات دلالة في تجلية المعنى في قوله: ﴿وَٱحۡذَرۡهُمۡ أَن يَفۡتِنُوكَ﴾:

أفـــاد نـظـم السِّياق وجوب الـــحـــذر مـــنَ الـيـهـود، وأكّـد إعـراضـهـم عـن حكم الله تعالى

قوله ﴿وَٱحۡذَرۡهُمۡ أَن يَفۡتِنُوكَ﴾، أي: أن يَصرِفوك عن بعضه، ولو كان أقلّ القليل، بتصوير الباطل بصورة الحقّ، وجاء إظهار الاسم الجليل (اللّه)؛ لتأكيد الأمر بتهويل الخَطب[2].

وفي قوله: ﴿أَن يَفۡتِنُوكَ﴾ وجهان: الأوّل: أنَّه بدلُ اشتمالٍ من ضمير المفعول (هُم)، أي: احذَرهُم فتنَتَهم، والثّاني: أن يكون مفعولًا من أَجله، أي: مخافة أن يَفتِنوك[3]، فقد رُوِيَ أنَّ أحبارَ اليهود: كعبَ بنَ أُسَيد، وعبدَ اللّه بن صوريا، وشاسَ بن قَيس، قالوا: اذهبوا بنا إلى محمّد ﷺ، لعلَّنا نَفتِنُه عن دينه، فأتوه فقالوا: يا محمَّدُ قد عَرَفتَ أنَّنا أحبار اليهود وأَشرافهم، وإنَّنَا إنِ اتّبعناكَ اتَّبَعَتنا اليهود، ولم يخالِفونا، وإنَّ بيننا وبين قومنا خصومة، فنحاكمهم إليك، فتقضي لنا عليهم، ونحن نؤمن لك ونصدِّقك، فأبى رسول اللّه ﷺ ذلك، وأنزل اللّه فيهم هذه الآية إلى قوله: ﴿لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ ۝٥٠﴾ [المائدة: 50][4].

دلالة الشَّرط والإبهام، وأثرهما في توضيح المعنى:

قوله تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ﴾ أداة الشَّرط وفعلها، أي: أَعرضوا عنِ الحكم بما أنزل اللّه تعالى، وأرادوا غيره ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/286.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/70.
(3) العكبريّ، التبيان: 1/218.
(4) ابن هشام، السِّيرة النَّبويَّة: 2/216، والواحديّ، أسباب النُّزول، ص: 200، والبيهقيّ، دلائل النُّبوَّة: 2/536.

أفاد نظم الشَّرط بفعل التّولّي؛ أنّه عذاب من الله جزاء بعض الذّنوب المقترفة

﴿يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْۗ﴾ يعني: بذنب التَّولِّي عن حُكم الله وإرادة خلافه، فوضع (ببعض ذنوبهم) موضع (ذلك)، وهذا الوضع إيذانًا بأنَّ لهم ذنوبًا جمَّةً كثيرة العدد، وأنَّ هذا الذَّنبَ مع عظمه هو بعضُها وواحدٌ منها، وسيعاقبِهُمُ الله تعالى على تلك الذُّنوب، كما أفادَته جملة الشَّرط في أداتها وفعلها وجوابها، وهذا الإبهام لتعظيم التَّولِّي واستشرافهم في ارتكابه[1]، ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ﴾، يعني: أبَوا أن يرضوا بحكمك، فالله يعذّبهم في الدّنيا. قال الكلبيّ: يعني: بالجلاء إلى الشّام، والإخراج من دورهم، وقال الضّحّاك: يريد الله أن يأمر بهم إلى النّار بذنوبهم[2]، وذلك العقاب جزاء بعض الذّنوب لا كلّها، وإنّما قال: ﴿بِبَعْضِ﴾؛ لأنّ المجازاة بالبعض كانت كافية في التّدمير عليهم[3]، ومن هذا المعنى قال الشّاعر المحبّ:

تَقَرّطْ أَو تَمَنطَقْ أَو تَقَبَّى *** فَلَن تَزدَادَ عِندِيَ قَطُّ حُبَّا

تَمَلَّكَ بَعضُ حُبِّكَ كُلَّ قَلبِي *** فإِن تُرِدِ الزِّيادَةَ هاتِ قَلبَا.

دلالة الإبهام في قوله تعالى: ﴿أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْۗ﴾:

الإبهام آثر وأمكن في الدّلالة من التّحديد في مثل هذا المعنى

الإبهام في قوله: ﴿بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْۗ﴾، والتّولّي واحد منها، والمراد أنّ لهم ذنوبًا كثيرة العدد، "فما أخسر صفقتهم! وما أبشع ما اقترفوه! واستعمال (بعض) في الإبهام وارد كثيرًا في كلامهم، ومن ذلك قول لبيد بن ربيعة في معلقته:

تَرَّاكُ أَمكِنَةٍ إِذا لَم أَرضَهَا *** أَو يَعتَلِقْ بَعضَ النُّفُوسِ حِمامُها

أراد نفسه، وإنّما قصد تفخيم شأنها بهذا الإبهام، يقول: إنّي ترّاك أماكن إذا لم أرضها، إلّا أن يعتلق بنفسي حمامها، فلا يتسنّى لها البراح، ومن جعل (بعض النّفوس) بمعنى: كلّ النّفوس فقد

(1) الزَّمخشريّ، الكشَّاف: 1/618 - 619.

(2) السّمرقنديّ، بحر العلوم: 1/369.

(3) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 6/214.

أخطأه؛ لأنّ بعضًا لا يفيد العموم والاستيعاب، فكأنّه قال: نفسًا كبيرة"[1]، و"المراد ببعض الذّنوب بعضٌ مخصوص، والتّعبير به يقتضي أنّ لهم ذنوباً كثيرة هذا بعضها، والتّعبير بالبعض المبهم لتعظيمه، كما أنّ التّنوين يذكر للتّعظيم؛ لكونه دالًّا على تبعيض مبهم، فكما دلّ التّنوين عليه، دلّ لفظ بعض عليه، كما في بيت لبيد، والتّعظيم هنا بمعنى عدّه عظيمًا مهولاً، ويذكر للتّعظيم الّذي هو ضدّ التّحقير، ولقد تلطّف الشّاعر في قوله:

وأَقُولُ بَعضُ النَّاسِ عَنكَ كنايَةً *** خَوفَ الوُشاةِ وأَنتَ كُلُّ النَّاسِ

وهو استعارةٌ تمليحيّةٌ لا تهكميّةٌ، ومن لم يدقّق النّظر، قال (بعض) بمعنى (كلّ)، وهو منَ الأضداد[2].

دلالة أسلوب الاعتراض التّذييليّ في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ﴾:

وقوله: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ﴾، أي: لمُتمرِّدون في الكفر، معتدّون فيه، يعني: أنَّ التَّولِّي عن حكم الله مِنَ التَّمرُّد العظيم، والاعتداء في الكفر، وهو اعتراضٌ تذييليٌّ مُقرِّرٌ لمضمون ما قبله[3]، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ ١٠٣﴾ [يوسف: 103]، وقال تعالى: ﴿وَإِن تُطِعۡ أَكۡثَرَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾ [الأنعام: 116].

غاية الفسق المذكور التّولّي عن مراد الله في الكتاب المأثور

وذهب صاحب المنار إلى أنّ المعنى: "لا يرعك أيّها الرّسول ما تراه من فسوقهم من دينهم، وعدم اهتدائهم إلى دينك؛ فإنّ كثيرًا منَ النّاس قد صار الفسوق والعصيان والتّمرّد من صفاتهم الثّابتة الّتي لا تنفكّ عنهم"[4].

(1) درويش، إعراب القرآن: 2/497.
(2) الخفاجيّ، عناية القاضي: 3/250.
(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/71.
(4) رضا، تفسير المنار: 6/349.

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الحذَر والاحتراز والخَوف:

انطلاقًا من قوله تعالى: ﴿وَٱحۡذَرۡهُمۡ﴾: تقدَّم بيان (الحذَر) في فِقرة: شرح المفردات، وأمَّا الاحترازُ: فهو التَّحفُّظ من الشَّيء الموجود، والحذرُ: هو التَّحفُّظ ممَّا لم يكن إذا عُلِمَ أنَّه يكون، أو ظُنَّ ذلك[1]، والخَوفُ: توقُّع الضَّرر المشكوك في وقوعه، ومَن يَتيقَّنِ الضَّرر لم يكن خائفًا له، وكذلك الرَّجاء لا يكون إلَّا معَ الشَّكّ، ومَن تيقَّنَ النَّفع لم يكن راجيًا له، والحذرُ: تَوَقِّي الضَّرر سواء كان مظنونًا أم مُتيَقَّنًا، والحذرُ يدفعُ الضَّرر، والخَوفُ لا يَدفعُه، ولهذا يُقالُ: خُذ حِذرَك ولا يُقالُ: خُذ خَوفَك[2]، وممَّا سبق بيانه يظهرُ جليًّا أنَّ استخدام السِّياق القرآنيِّ للفعل ﴿وَٱحۡذَرۡهُمۡ﴾ أَوفى وأَليق به من فِعْلَي (احترِزْ منهم) أو (خَفْ منهم).

الحذرُ توقِّي الضَّرر مظنونًا كان أو مُتيَقَّنًا، وهو أبلغ في الدّلالة عن مقصود الآية

فالحذرُ كما تقدَّم توقِّي الضَّرر في حال الظَّنِّ أوِ اليقين، وهو يدفعُ الضَّرر، وكيف لا؟! وهو التَّيقُّظ التَّامُّ - كما تقدَّم في شرحِ المفردات - الَّذي يأمرُ فيه اللّه ﷻ رسوله ﷺ بالحذر من فتنة اليهود، كما تقدَّم في الإيضاح اللُّغويِّ والبلاغيّ.

التَّولِّي والإعراض:

انطلاقًا من قوله تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ﴾: تبيَّن في فِقرة: شرحِ المفردات معنى (التَّولِّي)، وأمَّا الإعراض فهو منَ الفعل (أَعرض)، أي: أَظهرَ عَرضَه، أي: ناحيته، فإذا قيلَ: أَعرضَ لي كذا، أي: بدا عَرضُه فأَمكنَ تناولُه، وإذا قيلَ: أَعرضَ عنِّي، فمعناه: ولَّى مُبدِيًا عَرضَه، كما قال تعالى: ﴿فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ وَعِظۡهُمۡ﴾ [النّساء: 63]، وربَّما حُذِف (عنه) استغناءً عنه، نحو: ﴿إِذَا فَرِيقٞ مِّنۡهُم مُّعۡرِضُونَ ٤٨﴾ [النّور:

الفعل (تولوا) أَقوى في دلالة السِّياق منَ الفعل (أعرضَ) عن تولّي اليهود وصدودهم

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 22.
(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 227.

48][1]، وممَّا تقدّم بيانُه يظهرُ أنَّ الفعل ﴿تَوَلَّوْاْ﴾ أَقوى في دلالة السِّياق منَ الفعل (أعرضَ)، حيث إنَّ اليهودَ كانوا يتولَّون أوامرَ القرآن وأحكامَه، ويُظهِرون ذلك لرسول الله ﷺ بأجسامهم، وبِتَركهم الإصغاءَ والائتمار، كما في قوله ﷻ: ﴿وَلَا تَوَلَّوْاْ عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ۝٢٠﴾ [الأنفال: 20]، وقوله تعالى: ﴿وَإِن يُقَٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ﴾ [آل عمران: 111]، وهذا دلالة انهزامهم الَّذي أفاده قوله تعالى: ﴿يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ﴾، "وفي قوله: ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ﴾الآية دلالة على أنّهم إن تولّوا لم يكن عليه الحكم بينهم، ولو كان قوله: ﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم﴾ إلزامًا منه للحكم بينهم، ألزمهم الحكم متولّين؛ لأنّهم إنَّما تولّوا بعد الإتيان، فأمّا ما لم يأتوا فلا يقال لهم تولّوا، وهم والمسلمون إذا لم يأتوا يتحاكمون لم يحكم بينهم، إلّا أنَّه يتفقّد منَ المسلمين ما أقاموا عليه، ممّا يحرم عليهم فيغيِّر عليهم، وإن كان أهل الذّمَّة دخلوا بقول الله ﷻ: ﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم﴾ الآية في معنى المسلمين"[2].

(يُصيبُهم) و(يَمَسُّهم)

انطلاقًا من قوله تعالى: ﴿أَن يُصِيبَهُم﴾: تقدَّم بيان الفرق بين (الإصابة) و(المسِّ) في مواطنَ عديدة من آيات سابقة؛ مثل: [آل عمران: 166 - 172] و[النِّساء: 78 - 79]، وتبيَّن أنَّ المسَّ أقلُّ تَمكُّنًا منَ الإصابة، وأنَّه أقلُّ درجاتِها، واليهودُ الَّذين أوردَ ذكرَهم بيانُ الله تعالى في هذه الآية الكريمة أرادوا فتنة رسول الله ﷺ، وتركوا الائتمارَ بحكم الله ورسوله؛ بل تولَّوا وأَعرضوا عن دين الله وكتابه جُملةً وتَفصيلًا، فلا يُناسبُ مَقام السِّياق إذ ذاك إلَّا ذكر الإصابة، وليس مُجرَّدَ المسِّ.

لا يُناسبُ مقام السِّياق في معنى التّنبيه والتّخويف هنا إلَّا ذكر الإصابة، وليس مُجرَّدَ المسِّ

(1) الرَّاغب، المفردات: (عرض).
(2) الشّافعيّ، تفسير الإمام الشّافعيّ: 2/759.

﴿أَفَحُكۡمَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ يَبۡغُونَۚ وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكۡمٗا لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ ٥٠﴾ [المائدة: 50]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

شتّان بين أحكام الله النّورانيّة، وأحكام البشر في الجاهليّة:

تسفيه الرّكون إلى حكم الجاهليّة مع وجود حكم الله الأرقى والأبقى

لمَّا أمر اللّه تعالى رسوله محمَّدًا ﷺ في الآية السَّابقة بأن يحكُمَ بينَ اليهود بحكم اللّه في قرآنه المجيد، وأن لا يَتَّبِعَ أهواءَهم، وحذَّره من أن يَفتِنوه عن بعض ما أَنزل اللّه إليه، جاء صَدرُ الآية الكريمة هنا مُنكِرًا عليهم أيَّما إنكارٍ في رغبتهم، بل في طلبهم حُكمَ الجاهليَّة، وإعراضهم عن حُكم اللّه الَّذي هو خير الأحكام؛ لأنَّه صادرٌ عنِ اللّه ﷻ، و"هو تسفيهٌ لأهل الكتاب، وفضحٌ لجهلهم وضلالهم، إذ يعدلون عن شرع اللّه، ويخرجون عن حكمه إلى شريعة الجاهليّة، وأحكام السّفاهة والضّلال.. وذلك من حماقة عقولهم، وسفه أحلامهم"[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ﴾: جَهِلَ: الجيم والهاء واللَّام أَصلان: أحدُهما خِلافُ العِلم، والآخرُ: الخفّةُ وخلافُ الطُّمأنينة. والمَجهلَةُ: الأمرُ الَّذي يَحمِلُك على الجهل[2]، والجهلُ على ثلاثة أَضرب: الأوَّل: هو خلوُّ النَّفس منَ العلم، وهذا هو الأَصل. الثَّاني: اعتقادُ الشَّيء بخلاف ما هو عليه. والثَّالث: فعل الشَّيء بخلاف ما حقُّه أن يُفعَل سواءٌ اعتُقِدَ فيه اعتقادًا صحيحًا أم فاسدًا، كمَن يَترُكُ الصَّلاة مُتعمِّدًا، وعلى ذلك قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوٗاۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ٦٧﴾ [البقرة: 67]، فجَعلَ الهُـزُوَ جهلًا، والجاهِلُ

(1) الخطيب، التّفسير القرآنّي للقرآن: 3/1112.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (جهل).

تارةً يُذكَرُ على سبيل الذَّمّ، وهو الأكثر، وتارةً لا على سبيل الذَّمّ كما في قوله تعالى: ﴿يَحۡسَبُهُمُ ٱلۡجَاهِلُ أَغۡنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ﴾ [البقرة: 273]، أي: مَن لا يَعرِفُ حالَهم، وليس يعني المتَخصِّصَ بالجهل المذموم[1]، والمرادُ بالجاهليَّة هنا: إمَّا المِلَّة الجاهليَّة الَّتي هي مُتابعة الهوى المُوجبة للميل والمداهنة في الأحكام، فيكونُ تعبيرًا لليهود بأنَّهم مع كونهم أهل كتاب وعِلم يَبغون حُكمَ الجاهليَّة الَّتي هي هوى وجهلٌ، لا يصدر عن كتاب، ولا يرجع إلى وحي، وإمَّا أهل الجاهليَّة وحكمُهم فيما كانوا عليه مِنَ التَّفاضُل فيما بين القتلى، وكلاهما صحيحٌ في هذا المقام.

2) ﴿يَبۡغُونَ﴾: يُقالُ: بَغيتُ الشَّيء: إذا طَلبتُ أكثرَ ما يجب، وابتغيتُ كذلك، قال الله تعالى: ﴿لَقَدِ ٱبۡتَغَوُاْ ٱلۡفِتۡنَةَ مِن قَبۡلُ﴾ [التّوبة: 48]، والابتغاءُ: خصَّ بالاجتهاد في الطَّلب، فمتى كان الطَّلب لشيء محمود فالابتغاءُ فيه محمود، كما في قوله تعالى: ﴿ٱبۡتِغَآءَ رَحۡمَةٖ مِّن رَّبِّكَ﴾ [الإسراء: 28][2]، وكونهم يبغون حكم الجاهليّة:

" أنّهم في الجاهليّة كانوا يجعلون حكم الشّريف، خلاف حكم الوضيع... وكانتِ اليهود تقيم الحدود على الضّعفاء الفقراء، ولا يقيمونها على الأقوياء الأغنياء"[3].

3) ﴿لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ﴾: اللّفظان يدلاّن على المعنى في الآية مع بعضهما، فلفظ (لِقَوم) من قَوَمَ: القاف والواو والميم أَصلان صحيحان، يدلُّ أحدُهما على جماعة ناس، وربَّما استُعيرَ في غيرهم، والآخر على انتصاب أو عزم؛ وهو من: قامَ قيامًا. والقومة: المرَّة الواحدة، إذا انتصَبَ، وهو بمعنى العزيمة، فالأوَّل: القوم - وهو مطلبنا في هذا البيان - جَمعُ امرئٍ، ولا يكون ذلك إلَّا للرِّجال، قال الله تعالى: ﴿لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ﴾ [الحجرات: 11]، ثمَّ قال: ﴿وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ﴾ [الحجرات: 11]، ويقولون: قومٌ وأَقوامٌ، وأَقاوِمُ جمعُ جمعٍ[4]، ولفظ (يُوقِنونَ): من (يَقَنَ): الياء والقاف والنُّون، اليَقَنُ. واليقينُ: زوال الشَّكّ[5]. يَقِنَ الأمرُ، كفرِحَ، يَقنًا، ويَقَنًا، وأَيقَنَه، و- به: وتَيقَّنه واستَيقَنه، و- به: عَلِمَه، وتحقَّقَه، وهو يَقِنٌ،

(1) الرَّاغب، المفردات: (جهل).
(2) الرَّاغب، المفردات: (بغي).
(3) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 6/214.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (قوم).
(5) الفيروزابادي، القاموس المحيط: (يقن).

ويَقَنَةٌ: لا يسمع شيئًا إلَّا أَيقَنَه[1]، واللّام في قوله: (لقوم) للبيان، أي: هذا الاستفهام لقوم يوقنون، فإنّهم هم الّذين يعلمون ألّا أحسن حكمًا منَ اللّه[2].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

يُنكر اللّه ﷻ على مَن خرج عن حُكم اللّه المُحكَم المُشتمل على كلِّ خير، النَّاهي عن كلِّ شرٍّ، وعَدَلَ إلى ما سواه منَ الآراء والأَهواء والاصطلاحات الَّتي وضعها الرِّجال بلا مُستندٍ من شريعة اللّه ﷻ، ويُقرِّرُ بيان اللّه تعالى بعد ذاك الإنكارَ، أنَّه لا أحد أَعدَلُ منَ اللّه في حُكمه، لِمَن عَقَلَ عنِ اللّه شَرعَه، وآمنَ به، وأَيقنَ وعلمَ أنَّ اللّه أَحكم الحاكمين، وأَرحم بخلقه منَ الأمِّ بولدها، فإنَّه تعالى هو العالمُ بكلِّ شيء، القادرُ على كلِّ شيء، العادلُ في كلِّ شيء[3]، واليهود يريدون أن تحكم بينهم بما تعارف عليه المشركون عبدةُ الأوثان منَ الضّلالات والجهالات؟! لا يكون ذلك ولا يليق أبدًا، ومَن أعدل مِن اللّه في حكمه، لمن عقل عنِ اللّه شَرعه، وآمن به، وأيقن أنّ حكم اللّه هو الحقّ؟[4].

من آثر حكم الجاهليّة فقد نأى عن نهج ربّ البريّة

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

استفهامٌ إنكاريٌّ تعجُّبيّ منَ المشار إليهم في قوله تعالى: ﴿أَفَحُكۡمَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ يَبۡغُونَۚ﴾:

قوله تعالى: ﴿أَفَحُكۡمَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ يَبۡغُونَۚ﴾ استفهامٌ إنكاريٌّ تعجُّبيٌّ مِن حالهم، وهو بغرض التّوبيخ لهم، والفاء للعطف على مُقَدَّرٍ يقتضيه المقام، أي: أَيتولَّون عن حكمك فيبغون حُكمَ الجاهليَّة؟!

وتقديم المفعول به على الفعل للتّخصيص المفيد للتّأكيد في الآية

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (يقن).
(2) ابن عجيبة، البحر المديد: 2/48.
(3) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 2/63.
(4) نخبة من أساتذة التّفسير، التّفسير الميسّر، ص: 116.

وتقديمُ المفعول (حُكمَ) على الفعل (يَبغونَ) للتَّخصيص المفيد لتأكيد الإنكار والتَّعجيب؛ لأنَّ التَّولِّي عن حُكمه ﷺ ، وطلبَ حكم آخَر، مُنكَرٌ عَجيب، وطلبَ حكم الجاهليَّة أَقبحُ وأَعجَب[1]، ونلاحظ خروج الاستفهام عن معناه الأصليّ في قوله تعالى: ﴿أَفَحُكۡمَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ يَبۡغُونَۚ﴾، وقوله: ﴿وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكۡمٗا﴾، فالأوّل إنكار وتعجّب من حالهم، وتوبيخ لهم، وتقديم المفعول للتّخصيص المفيد لتأكيد الإنكار والتّعجيب؛ لأنّ التّولّي عن حكم رسول الله ﷺ ، وطلب حكم آخر عجيب، وطلب حكم الجاهليّة أقبح وأعجب، والثّاني إنكارٌ لأن يكون أحدٌ حُكمُه أحسنُ من حُكم الله تعالى، أو مُساوٍ له، كما يدلُّ عليه الاستعمال، وإن كان ظاهر السّبك غير متعرّض لنفي المساواة"[2]، قال الشَّافعيّ رحمه الله تعالى: "إنّه نزل في ذلك وغيره، ممّا كانوا يحكمون به في الجاهليّة، وحَكَمَ الله ﷻ بالعدل، فسوّى في الحكم بين عباده، الشّريف منهم والوضيع: ﴿أَفَحُكۡمَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ يَبۡغُونَۚ وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكۡمٗا لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ﴾"[3].

أثر اختلاف القراءة في تحديد المعنى في قوله تعالى: ﴿أَفَحُكۡمَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ يَبۡغُونَۚ﴾:

نجد أنّ في قوله: ﴿يَبۡغُونَۚ﴾ قراءتين: الأولى: بالياء، فيكون (الحكمُ) مرفوعًا على أنَّه مبتدأ، و﴿يَبۡغُونَۚ﴾ خبرُه، والعائدُ محذوفٌ، أي: يَبغونَه، وقد استُضعِفَ ذلك في غير الشِّعر[4]، والثَّانية: بالتَّاء على الخطاب؛ إمَّا بالالتفات لتشديد التَّوبيخ، وإمَّا بتقدير القول؛ أي: قل لهم: أَفَحُكمَ الجاهليّة تَبغون؟![5]، و"قرأ الأعمش وقتادة: (أَفَحَكَمَ) بفتح الحاء والكاف، ونصب الميم، وهو

في قراءة (تَبْغُونَ) الـتـفـاتٌ؛ لتشديد التَّوبيخ على مَن يبغي حكم الجاهليّة

(1) الأولى قراءة الجمهور منَ العشرة، والثَّانية قراءة ابن عامر الشَّامي الدِّمشقيّ. ينظر: ابن الباذش، الإقناع: 2/635، وابن الجَزريّ، النَّشر: 2/254.

(2) صافي، الجدول في إعراب القرآن: 6/376.

(3) الشّافعيّ، تفسير الإمام الشّافعيّ: 1/254.

(4) العكبريّ، التبيان: 1/218.

(5) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/71.

مفرد يُرادُ به الجِنس؛ لأنَّ المعنى: أحُكَّامَ الجاهليَّة، ولا بدَّ من حذف مضاف في هذه القراءة، هو المصرَّح به في المُتواتِرة تقديره: (أفَحكمَ حُكَّام الجاهليَّة)، والقرَّاءُ غير ابن عامر على ﴿يَبۡغُونَۚ﴾ بياء الغيبة نَسقا على ما تقدَّم منَ الأسماء الغائبة، وقرأ هو بتاء الخطاب على الالتفات؛ ليكون أبلغ في زجرهم وردعهم ومباكتته لهم، حيث واجههم بهذا الاستفهام الّذي يأنف منه ذوو البصائر، والمعنى: أنَّ هذا الحُكم الذي يَبغونه إنَّما يحكم به حكَّام الجاهليَّة"[1].

دلالة الاستفهام الإنكاريّ في قوله تعالى: ﴿وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكۡمٗا﴾:

وقوله تعالى: ﴿وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكۡمٗا﴾ استفهامٌ إنكاريٌّ؛ لأن يكونَ أحدٌ حُكمُه أحسنُ من حكمه تعالى أو مُساوٍ له، وإن كان ظاهر السَّبك غيرَ مُتعرِّض لنفي المساواة وإنكارها[2]، فهو استفهام في معنى النَّفي، وقوله: ﴿وَمَنۡ أَحۡسَنُ﴾ مبتدأ وخبر، و﴿حُكۡمٗا﴾ تمييز[3]، واللَّام في قوله: ﴿لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ﴾ للبيان، أي: هذا الخطاب وهذا الاستفهام لقوم يوقنون، فإنَّهم الَّذين يتيقَّنون أنْ لا أَعدَلَ منَ اللّه، ولا أَحسَنَ حكمًا منه[4]، قال ابن عطيّة: "وقوله تعالى: ﴿وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكۡمٗا﴾ تقرير، أي: لا أحد أحسن منه حكمًا ﷻ، وحسن دخول اللّام في قوله: ﴿لِّقَوۡمٖ﴾ من حيث المعنى يبيّن ذلك، ويظهر لقوم يوقنون"[5].

إيراد اللّام للبيان في قوله تعالى: (لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ)

فنّ الإيغال وأثره في المعنى من خلال قوله تعالى: ﴿وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكۡمٗا﴾:

في الآية فنّ الإيغال، وهو ملمح بلاغيّ، وفحواه أن يستكمل المتكلّم كلامه قبل أن يأتي بمقطعه، فإذا أراد الإتيان بذلك أتى بما

الإيغال فنّ بلاغيّ رائق، تتجلّى به المعاني، وتستكمل به الرّقائق

(1) ابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 7/377.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/72.
(3) العكبريّ، التبيان: 1/218.
(4) الزَّمخشريّ، الكشَّاف: 1/619.
(5) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/203.

يفيد معنى زائدًا على معنى ذلك الكلام، وهو في هذه الآية إيغال التّخيير لا إيغال الاحتياط، فإنّ المعنى قد تمّ بقوله: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا﴾، ولمّا احتاج الكلام إلى فاصلة تناسب ما قبلها وما بعدها أتت تفيد معنى زائدًا، لولاها لم يحصل؛ وذلك أنّه لا يعلم أنّ حكم الله أحسن من كلّ حكم، إلّا من أيقن أنّه واحد حكيم عادل، ولذلك عدل عن قوله (يعلمون) إلى قوله (يوقنون)[1].

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(يَبغون) و(يَطلبون):

انطلاقًا من قوله تعالى: ﴿يَبْغُونَ﴾: سبقَ بيانُ معنى ﴿يَبْغُونَ﴾ في فِقرة: شرح المفردات، وأمَّا (يطلبون) فبمعنى: يفحصون عن وجود الشَّيء؛ لأنَّ الطَّلب: الفَحصُ عن وجود الشَّيء، عينًا كان أم معنى، قال تعالى: ﴿أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ﴿٤١﴾﴾ [الكهف: 41]، وقال سبحانه: ﴿ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾﴾ [الحجّ: 73]. وأَطلَبتُ فلانًا: إذا أسعَفتُه لِمَا طلب، وإذا أَحوجتُه إلى الطَّلب. وأَطلبَ الكلأُ: إذا تباعدَ حتَّى احتاجَ أنْ يُطلَب.

الابتغاء مخصوصٌ بالاجتهاد في الطَّلب، بينما الطّلب هو الفحص عن وجود الشَّيء

وإذا كان الابتغاءُ طلبَ أكثر ما يجب، وإذا كان كذلك مخصوصًا بالاجتهاد في الطَّلب، فإنَّه حينئذٍ أَقوى في دلالته في سياق النَّصّ القرآنيّ منَ الفعل (يطلبون) الَّذي هو الفحص عن وجود الشَّيء - كما تقدَّم - فالسِّياق في حديثه عن أحبار اليهود الَّذين لا يألون جَهدًا في الاجتهاد في طلب كلِّ جاهليَّةٍ عمياء، تُبعِدُهم عن قَبول ما أنزل الله على رسوله محمَّدٍ ﷺ، بل كانوا يبغون فتنَتَه ﷺ في بعض ما أنزل الله إليه في القرآن الكريم، ولذلك هم يَبغون جاهدين حثيثًا، وليس مجرَّدَ طلب عابر فحسب.

(1) صافي، الجدول: 6/367.

وفي قوله تعالى: ﴿لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ﴾ قولان: أحدهما: يوقنون بالقرآن، قاله ابن عبّاس، والثّاني: يوقنون بالله، قاله مقاتل، وقال الزّجّاج: مَن أيقن تبيّن عدلَ الله في حكمه"[1].

اليقين والعِلم:

انطلاقًا من قوله تعالى: ﴿لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ﴾: العِلمُ: هو اعتقاد الشَّيء على ما هو به على سبيل الثِّقة، واليقينُ: هو سكون النَّفس وثَلجُ الصَّدر بما عُلِم، ولهذا لا يجوز أن يُوصَفَ الله تعالى باليقين، ويُقالُ: ثلجُ اليقين وبَردُ اليقين، ولا يُقالُ: ثلجُ العِلم وبَردُ العِلم، والمُوقِنُ: العالِمُ بالشَّيء بعد حَيرة الشَّكّ، والشَّاهدُ أنَّهم يجعلونه ضدَّ الشَّكّ، فيقولونَ: شكٌّ ويقين، وقلَّما يُقالُ: شكٌّ وعِلم، فاليقينُ ما يُزيلُ الشَّكَّ دون غيره من أَضداد العلوم[2]، ولذلكَ عُرِّف بأنَّه: زوالُ الشَّك[3].

استفهامٌ إنكاريٌّ يستبشع اعتبار حكم جاهليّ أحسنَ من حُكم الله تعالى

وما نتطلَّعُ إليه هنا هو سياق النَّصِّ القرآنيِّ الَّذي استخدم فيه بيان الله تعالى الفعل (يُوقِنون) دون الفعل (يعلمون)، أو أيِّ فعل يُظنُّ أنَّه مرادفٌ له، ويُحقِّقُ دلالته على أتمِّ وجه.

فالبيان الإلهيُّ في سياقه يُورِدُ استفهامًا إنكاريًّا، لأن يكون أحدٌ حُكمُه أحسنَ من حُكم الله تعالى، ويأتي الجواب ببيانٍ شافٍ كافٍ؛ أنَّ هذا الخطاب الإلهيَّ والاستفهام الرَّبانيَّ لقوم يوقنون، الَّذين يَتيقَّنونَ دون أَدنى شكٍّ؛ بل لا شكَّ أصلًا - لأنَّه زائلٌ في هذا المقام - بأنَّه لا أعدَلَ مِنَ الله، ولا أحسَنَ حكمًا منه ﷻ.

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/203.
(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 374.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (يقن).

﴿۞يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَـٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَۘ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ٥١﴾ [المائدة: 51]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لما بيّن عنادهم، وأنّ عداوتهم لأهل هذا الدّين الّتي حملتهم على هذا الأمر العظيم، ليس بعدها عداوة، نهى منِ اتّسم بالإيمان عن موالاتهم، فقال: ﴿۞يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، قاله البقاعيّ.

فقد تهيّأَت نفوس المؤمنين لقبول النّهي عن موالاة أهل الكتاب، بعد ما سمعوا من اضطراب اليهود في دينهم، ومحاولتهم تضليل المسلمين، وتقليب الأمور للرّسول ﷺ، فأقبل عليهم بالخطاب بقوله: ﴿۞يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَـٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَ﴾ الآية؛ لأنّ الولاية تنبنِي على الوفاق والوئام والصّلة، وليس أولئك بأهل لولاية المسلمين لبُعد ما بين الأخلاق الدّينيّة، ولإضمارهم الكيد للمسلمين[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَوۡلِيَآءَ﴾: جذر الكلمة هو: (ولي): الولاء والتّوالي أن يحصل شيئان فصاعدًا حصولًا ليس بينهما ما ليس منهما، ويُستعار ذلك للقرب من حيث المكان، ومن حيث النّسبة، ومن حيث الدّين، ومن حيث الصّداقة والنُّصرة والاعتقاد. والوِلاية: النُّصرة، والوَلاية: تولّي الأمر، يُقال للمؤمن: هو وليُّ الله، ويُقال: الله وليّ المؤمنين ومولاهم، قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [البقرة: 257]، وقوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوۡلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [محمّد: 11][2].

وذكر الموالاة بين المنافقين، فقال: ﴿ٱلۡمُنَـٰفِقُونَ وَٱلۡمُنَـٰفِقَـٰتُ بَعۡضُهُم مِّنۢ بَعۡضٖۚ﴾ [التّوبة: 67]، ونفى الله الولاية بين المؤمنين والكافرين في غير آية، فقال: ﴿۞يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 6/228 - 229.
(2) الرّاغب، المفردات: (ولي).

تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَۘ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ﴾ [المائدة: 51]، ﴿مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيۡءٍ﴾ [الأنفال: 72]، وتولَّيتُ فُلانًا، أي: اتَّبَعته ورَضِيتُ به. والتَّوَلِّي يَكون بمعنى الإعراض، ويكون بمعنى الاتِّباع، قال الله تعالى: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوۡاْ يَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ﴾ [محمّد: 38]؛ أي: إن تعرضوا عَنِ الإسلام. وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡۗ﴾، معناه: مَن يَتَّبِعهم ويَنصُرهم. وتوَلَّيتُ الأَمرَ توليًّا إذا وليته، قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِي تَوَلَّىٰ كِبۡرَهُۥ مِنۡهُمۡ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٞ ١١﴾ [النّور: 11]؛ أي: وَلِيَ وِزرَ الإفك وإشاعَته[1].

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

نهى الله المؤمنين عنِ اتّخاذ اليهود والنّصارى أولياء بعونهم ومناصرتهم، ويدلّ سبب النّزول على أنّ الخطاب لأناس منَ المسلمين (المنافقين) خافوا أن يظهر عليهم الكفّار، فأراد مَن كانت بينه وبين النّصارى واليهود صحبة أن يتولّوهم ويعاقدوهم، فنهاهم الله تعالى عن ذلك معلّلًا النّهي بأنّ بعضهم على دين بعض، فلا يخلص لكم فريق على فريق، وإنّما يُخلصون لبعضهم[2]. ثُمّ توعّد على ذلك توعّدًا شديدًا منِ اتّخذ منهم أولياء، يقفون معهم مؤيّدين لهم، وناصرين لمواقفهم، بأن يكون مصيره كمصيرهم، ومعهم في النّار[3].

الإِيضاحُ اللُّغَوِيُّ والبَلاغِيُّ:

ذكر العامّ، وأراد الخاصّ في النداء: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾:

سبب النّزول كاشف عن نوع خاصّ مقصود بالخطاب

يظهر من أسباب النّزول أنّ الآية نزلَت في خاصّ منَ المؤمنين، لكنّها قدّمَت خطابًا يعمّ حكمه المؤمنين كافّة منَ المخلصين وغيرهم، وإن كان سبب وروده بعضًا، ووصفهم بعنوان الإيمان لحملهم من أوّل الأمر على الانزجار عمّا نهوا عنه بقوله ﷻ: ﴿لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَۘ﴾، فإن تذكير اتّصافهم بضدّ صفات الفريقين من أقوى الزّواجر عن موالاتهما؛ أي: لا يتّخذ أحد منكم أحدًا منهم وليًّا، بمعنى: لا تصافوهم مصافاة الأحباب، ولا تستنصروهم[4].

(1) ابن منظور، لسان العرب: (ولي).
(2) الموصلّي، أولى ما قيل: 3/226.
(3) السّمرقنديّ، بحر العلوم: 1/397.
(4) الآلوسّي، روح المعاني: 3/324.

الاكتفاء في قوله: ﴿لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَۘ﴾:

العناوين الكبيرة لا تحتاج إلى تفاصيل كثيرة فيكون الاكتفاء بها والإحاطة بشمائلها أبلغ وأوعى للفكر

في قوله: ﴿۞يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَۘ﴾ جرّد النّهي هنا عنِ التّعليل والتّوجيه اكتفاء بما تقدّم[1].

إذ يمكن أن يفهم ذلك استدعاء للمعاني السّابقة، وتواصلًا معها؛ لمعرفة سبب هذا النّهي عن أن يتّخذ المؤمنون اليهود والنّصارى أولياء.. إذ عُلم ممّا سبق... فقال: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَا ٱلتَّوۡرَىٰةَ فِيهَا هُدٗى وَنُورٞۚ يَحۡكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسۡلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلۡأَحۡبَارُ بِمَا ٱسۡتُحۡفِظُواْ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ عَلَيۡهِ شُهَدَآءَۚ فَلَا تَخۡشَوُاْ ٱلنَّاسَ وَٱخۡشَوۡنِ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗاۚ وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ٤٤﴾ [المائدة: 44] وقوله: ﴿وَلۡيَحۡكُمۡ أَهۡلُ ٱلۡإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِۚ وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ٤٧﴾ [المائدة: 47]؛ ثم بيّن ما أنزله اللّه منَ الحقّ على رسوله؛ ليكون مهيمنًا على ما أُنزلَ من قبل فقال: ﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَمُهَيۡمِنًا عَلَيۡهِۖ﴾ [المائدة: 48]، وأمر رسوله أن يحكم بينهم بما أنزل اللّه.. لكنّهم أعرضوا عن حكم اللّه، وطلبوا حكم الجاهليّة.. وهذا من بالغ السّبك الموضوعيّ للنّصِّ القرآنيّ، وتآخي الآيات السّابقة باللّاحقة.

الإرداف في قوله: ﴿لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَۘ﴾:

تحصين الجماعة منِ احتمالات المستقبل ومداخلاتها ضامن لديمومة الصّواب والاستقامة لها

أي: لا تتّخذوهم أولياء تنصرونهم، وتستنصرونهم، وتؤاخونهم، وتصافونهم، وتعاشرونهم معاشرةَ المؤمنين[2]. وجملة ﴿لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَۘ﴾ مستأنفة استئنافًا ابتدائيًّا، وسبب النّهي هو ما وقع منَ اليهود، ولكن لمّا أريد النّهي لم يُقتصر عليهم لكي لا يحسب المسلمون أنّهم مأذونون في موالاة النّصارى، فلدفع ذلك عطف النّصارى على اليهود هنا؛ لأنّ السّبب الدّاعي لعدم

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 6/229.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/642.

الموالاة واحد في الفريقين، وهو اختلاف الدّين والنّفرة النّاشئة عن تكذيبهم رسالة محمّد ﷺ، فالنّصارى وإن لم تجيء منهم يومئذٍ أذاة مثل اليهود، فيوشك أن تجيء منهم إذا وُجد داعيها.

وفي هذا ما ينبّه على وجه الجمع بين النّهي هنا عن موالاة النّصارى، وقوله فيما سيأتي: ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰۚ﴾ [المائدة: 82]، ولا شكّ أنّ الآية نزلَت بعد غزوة تبوك أو قُربَها، وقد أصبح المسلمون مجاورين تخوم بلاد نصارى العرب[1].

اصطفاء التّفصيل على الإجمال (أهل الكتاب) في قوله: ﴿ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ﴾:

التّفصيل يضمن رصانة العرض، ويكشف عن أهمّيّة النّهي

لم يُسمّ اليهود والنّصارى هنا بأهل كتاب كي لا يذهب الظّنّ على الأغلب أنّهم اليهود فحسب، بل عدّدهم، وصرّح بهم أنّهم أصحاب الدّيانتين، أو الكتابين، وجاء ذلك انسجامًا مع سياق السّباق، إذ ذكر اليهود والنّصارى كلًّا على حدة، ثمّ أمر كلّ فريق منهما أن يحكم بما أنزل اللّه في كتابيهما، وبيّن ظُلم مَن لم يحكم بما أنزل اللّه وفسقه، وأردف ذلك بهيمنة شريعة الإسلام بما أنزل اللّه في القرآن الكريم على الشّرائع السّابقة.

دلالة الكناية والإجمال في قوله: ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ﴾:

التّعليل للنّهي معينٌ على الالتزام بالكفّ عنِ الفعل

جاءتِ الجملة على سبيل الاستئناف التّعليليّ، كأنّ سؤالًا أثاره النّهي: لماذا يطلب منّا الانتهاء عن موالاتهم؟ فجاء الجواب تأكيدًا للنّهي، وتعليلًا له.

فقد "علّل النّهي بقوله: ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ﴾؛ أي: إنّما يوالي بعضهم بعضًا لاتّحاد ملّتهم واجتماعهم في الكفر[2]، أي: أنّهم أجدر بولاية بعضهم بعضًا؛ أي: بولاية كلّ فريق منهم بعض أهل فريقه؛ لأنّ كلّ فريق منهم تتقارب أفراده في الأخلاق والأعمال فيسهل الوفاق

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 6/229.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/642.

بينهم، وليس المعنى أنّ اليهودَ أولياء النّصارى... وهذا كناية عن نفي موالاتهم المؤمنين، وعن نهي المؤمنين عن موالاة فريق منهما[1]. وقيل: المعنى على أنّ ثمّ محذوفًا، والتّقدير: بعض اليهود أولياء بعض، وبعض النّصارى أولياء بعض؛ لأنّ اليهود ليسوا أولياء النّصارى، ولا النّصارى أولياء اليهود، ويمكن أن يُقال: جمعهم في الضّمير على سبيل الإجمال، ودلّ ما بينهم منَ المعاداة على التّفصيل، وأنّ بعض اليهود لا يتولّى إلّا جنسه، وبعض النّصارى كذلك[2].

وربما أجمل ولم يفصّل: فلم يقل مثلًا: فبعض اليهود أولياء بعض، وبعض النصارى أولياء بعض إلاحة لاتّفاقهما على عداوة المؤمنين، فلمّا اتّحد المقصد أجمل، ولمّا اختلف النّوع في الأول فصّل.

الجناس النّاقص في قوله: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾:

وفي قوله: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾ جناس ناقص بين (منكم) و(منهم)، فائدته: بيان شدّة التّقارب والمجانسة بين الفريقين في حال التّولّي، وقد بنيتِ الجملة بأسلوب الشّرط، وهو الأبرّ بسياق الثّواب والعقاب، والجملة فيها تغليظ وتهديد؛ لأنّ ظاهرها" يقتضي أنّ ولايتهم دخولٌ في ملّتهم؛ لأنّ معنى البعضيّة هنا لا يستقيم إلّا بالكون في دينهم. ولمّا كان المؤمن إذا اعتقد عقيدة الإيمان، واتّبع الرّسول، ولم ينافق، كان مسلمًا لا محالة كانتِ الآية بحاجة إلى التّأويل، وقد تأوّلها المفسّرون بأحد تأويلين: إمّا بحمل الولاية في قوله: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم﴾ على الولاية الكاملة الّتي هي الرّضى بدينهم والطّعن في دين الإسلام، ولذلك قال ابن عطيّة: ومن تولّاهم بمعتقده ودينه فهو منهم في الكفر والخلود في النّار[3].

في الجناس والتّعقيب بعد النّهي وتعليله بهذه الجملة تغليظ شديد لمَن لم ينتهِ عنِ الموالاة

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 6/229.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/292.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 6/229 - 231.

فقوله: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْۗ﴾؛ أي: من جملتهم، وحكمه حكمهم كالمستنتج ممّا قبله، وهو مُخرّجٌ مَخرَجَ التّشديد والمبالغة في الزَّجر؛ لأنّه لو كان المتولّي منهم حقيقة لكان كافرًا، وليس بمقصود، وقيل: المراد ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْۗ﴾كافر مثلهم حقيقة[1]، قال ابن عباس: ﴿فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْۗ﴾ في حكم الكفر؛ أي: ومن يتولّهم في الدّين. وقال غيره: ومَن يتولّهم في الدّنيا فإنّه منهم في الآخرة. وقيل: ومَن يتولّهم منكم في العهد فإنّه منهم في مخالفة الأمر، وهذا تشديد عظيم في الانتفاء من أهل الكفر، وترك موالاتهم، وإنحاء عبد اللّه بن أبيّ، ومنِ اتّصف بصفته، ولا يدخل في الموالاة لليهود والنّصارى من غير مصافاة، ومن تولّاهم بأفعاله دون معتقده ولا إخلال بإيمان فهو منهم في المقت والمذمّة، ومَن تولّاهم في المعتقد فهو منهم في الكفر. وقد استدلّ بهذا ابن عبّاس وغيره على جواز أكل ذبائح نصارى العرب، وقال: من دخل في دين قوم فهو منهم[2]، لكنّه جاء بالعموم في تشبيه مواليهم بأنّهم منهم زيادة في التّخويف.

دلالة تذييل الآية بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِى ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾:

جاءتِ الجملة مستأنفة، وهي تذييل للنّهي، وقد بنيتِ الجملة اسميّة مؤكّدة بإنّ، واسميّةِ الجملة، وتقديمِ المسند إليه على خبره الفعليّ، ممّا يفيد تأكيد ظلمهم، وقد أبهم ولم يُعيّن طرفًا ظالمًا، أهو الموالي أم هم الموالَون، والحكم منسحب عليهما، وفيه تهديد وتغليظ على مَن فعل ذلك منَ المؤمنين، وزيادة تهديد لليهود أيضًا، وقد بنيتِ العبارة على العموم تبشيعًا للظّلم والظّالمين في كلّ زمن، وإن كان السّياق دالًّا على انسحاب الوصف على الموالي، ومن والوهم.

الظّالمون في عموم الأرض منبوذون عند الله لكنّ مظالم الدّين أعظم عند الله

(1) الآلوسّي، روح المعاني: 3/325.

(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/291 - 292.

كما أنّ الجملة جاءَت بمثابة "تعليل آخر يتضمّن عدم نفع موالاة الكفرة بل ترتّب الضّرر عليها، وقيل: هو تعليل لكون مَن يتولّاهم منهم؛ أي: لا يهديهم إلى الإيمان؛ بل يُخلّيهم وشأنهم فيقعون في الكفر والضّلالة"[1]، وعموم القوم الظّالمين شمل اليهود والنّصارى[2].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

التّعبير بالظّالمين مكان الضّالّين:

لمّا ذكر الهداية، ونفاها عنِ القوم، اقتضى أن يأتي بذكر الضّالّين، لكنّه قال: (الظّالمين)، وفائدة ذلك: أنّ لفظ (الظّالمين) تضمّن معنيين: الأوّل: أنّهم ضلّوا عندما والوا اليهود والنّصارى، وبذلك يكونون قد ظلموا أنفسهم بضلالهم هذا وولايتهم، ثمّ إنّ قوله: (الظّالمين) أفاد تنوّع المراد بهم؛ أهم اليهود والنّصارى أنفسهم، أم الّذين اتّخذوهم أولياء منَ الّذين آمنوا؛ فوسّع الفكر في ذلك، ومنحه فرصة التّنويع في فهم النّصّ، ثمّ أفاد إدماج الجميع في خانة الظّلم.

(1) الآلوسّي، روح المعاني: 3/325.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 6/231.

﴿فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمۡ يَقُولُونَ نَخۡشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٞۚ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَ بِٱلۡفَتۡحِ أَوۡ أَمۡرٖ مِّنۡ عِندِهِۦ فَيُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ نَٰدِمِينَ ٥٢﴾ [المائدة: 52]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

بعد أن حذّر المؤمنين من موالاة اليهود والنّصارى، ثمّ بيّن أنّ ذلك منَ الظّلم العامّ للنّفس وللمجتمع، وما يترتّب عليه من غضب اللّه تعالى ذكر حال المُنافقين لبيان شبه موالاة هؤلاء، وأنّ الرّابط بين الفريقين هو أمراض القلوب، وأهواء النّفوس. فالآية بمثابة بيان الصّحيح الإيمان من مغشوشه.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿دَآئِرَةٞۚ﴾: جذر الكلمة هو (دور): الدّوّاريُّ: الدّهرُ الدّوّار بالنّاس، والدّهر بالإنسانِ دَواريٌّ. ويُقال: دار دورةً واحدة، وهي المرَّة الواحدة يدورها. والدَّور: قد يكون لوثًا واحدًا من دور العمامة. والدُّوارُ: أن يأخُذَ الإنسان في رأسه كهيئة الدَّوران، تقول: دِيرَ به، أي: غُشِيَ عليه[1]. وقال أبو عبيدة في قول تعالى: ﴿نَخۡشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٞۚ﴾ [المائدة: 52]، أي: دولة، والدّوائر تدور، والدّوائل تدول[2]. والدّورة والدّائرة في المكروه، كما يُقال: دولة في المحبوب، وقوله تعالى: ﴿وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَۚ﴾ [التّوبة: 98]، وقوله: ﴿عَلَيۡهِمۡ دَآئِرَةُ ٱلسَّوۡءِۗ﴾ [التّوبة: 98] و[الفتح: 6]، أي: يحيط بهم السّوءُ إحاطة الدّائرة بمن فيها، فلا سبيل لهم منَ الانفكاك منه بوجه[3]. ودائرةٌ هنا معناها: نازلة منَ الزّمان، وحادثة منَ الحوادث تحوجنا إلى موالينا منَ اليهود، وتسمّى هذه الأمور دوائر على قديم الزّمان من حيث اللّيل والنّهار في دوران، فكأنّ الحادث يدور بدورانها حتّى ينزل فيمن نزل[4].

(1) الخليل، العين: (دور).
(2) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (دور).
(3) الرّاغب، المفردات: (دور).
(4) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/204.

2) ﴿أَسَرُّواْ﴾: جذر الكلمة هو (سرر)، السِّرُّ: ما أَسرَرتَ. والسَّريرة: عمل السِّرِّ من خير أو شرّ، ويُقال: سَريرته خيرٌ من علانيته[1]. سرّ الحديث، واستسرّ الأمر: خفي، ووقفتُ على مُستسرّه[2]. وأسرَرتُ الشيءَ: أظهَرتُه، وأسرَرتُه: كَتَمتُه، قال تعالى: ﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلْعَذَابَۖ﴾ [يونس: 54][3]. فهو منَ الأضداد، سرَرتُه: كتمتُه، وسَرَرتُه: أعلنتُه، والوجهان جميعًا يفسّران قوله تعالى: ﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ﴾، قيل: أظهروها، وقال ثعلب: معناه أسرّوها. وأسرّ إليه حديثًا، أي: أفضى[4].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

الآية تبيّن حال المنافقين في موالاتهم أهل الكتاب والمشركين، إذ يبادرون في معاونتهم ومعاقدتهم وولايتهم، معلّلين الموالاة بقولهم: نحتاج إلى نصرتهم لنا، لذلك نتّخذ يدًا عندهم في السّراء ننتفع بها إذا مسّتنا الضّرّاء، فيخشون أن تدول الدّولة لليهود أو للمشركين على المؤمنين[5]؛ لأنّهم غير موقنين بوعد اللّه بنصرة رسوله، وإظهار دينه، فردّ اللّه تعالى عليهم بتقرير نصر المؤمنين، واستئصال شأفة اليهود الّذين يوالونهم، وحينئذٍ يصبح المنافقون نادمين على ما حدّثوا به أنفسهم؛ وذلك أنّهم كانوا يشكّون في أمر رسول اللّه ﷺ، ويقولون: ما نظنّ أن يتمّ له أمر، وبالحرى أن تكون الدّولة والغلبة لهؤلاء[6].

❁ الإِيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

تنوّع المراد بالفاء (للسَّببيّة أو للتّرتيب والتّعقيب أو للتّفريع):

"الفاء للإيذان بترتّبه على عدم الهداية، وهي للسّببيّة المحضة"[7]. وجوّز الكرخيّ كونها للعطف على قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ إلى آخر الآية من حيث المعنى، فتكون للتّرتيب وللتّعقيب، والواضح أنّها عاطفة ما بعدها على ما قبلها عطف ترتيب وتسبيب، أي: فتسبّب عن أنّ

(1) الخليل، العين: (سر).
(2) الزّمخشريّ، أساس البلاغة: (سرر).
(3) الخليل، العين: (سر).
(4) ابن منظور، لسان العرب: (سرر).
(5) الموصلّي، أولى ما قيل: 3/227.
(6) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/643.
(7) الآلوسّي، روح المعاني: 3/325.

اللّه لا يهدي متولّيهم أن ترى (الّذين في قلوبهم...)، والخطاب إمّا للرّسول ﷺ بطريق التّلوين، وإمّا لكلّ من له أهليّة.

والفاء أيضًا تفريع لحالة من موالاتهم أريد وصفها للنّبيّ ﷺ؛ لأنّها وقعت في حضرته.

وفائدته بيان أنّ الموالاة هي نوع وصنف من صنوف الأمراض القلبيّة؛ إذ تكشف الآية حالة القلب الّذي يلجأ صاحبه إلى موالاة اليهود والنّصارى؛ أنّه قلب مريض.

أمراض القلوب تعكس أعراضها على تفاصيل الحياة كلّها فتعيق فيها الرّقيّ والانسجام

إيثار اسم الموصول (الّذين) على ضمير القوم، وإيثار كلمة (في) على كلمة (إلى):

والإتيان بالموصول دون ضمير القوم ليشار بما في حيّز الصّلة إلى العلّة، والسّبب في مرتكبهم، والرّؤية إمّا بصريّة، وقوله تعالى: ﴿يُسَٰرِعُونَ فِيهِمۡ﴾ حال منَ المفعول، وهو الأنسب بظهور نفاقهم، وإمّا قلبيّة، والجملة في مَوضِع المفعول الثّاني، والمراد على التّقديرين (مسارعين في موالاتهم) إلّا أنّه قيل (فيهم) مبالغة في بيان رغبتهم فيها، وتهالكهم عليها.

التّسارع نحو ما يراه النّاس ضمانات الدّنيا هي في حقيقتها زوال حتميّ لقيمهم الإنسانيّة فيها

وإيثار كلمة (في) على كلمة (إلى)؛ للدّلالة على أنّهم مستقرّون في الموالاة، وإنّما مسارعتهم من بعض مراتبها إلى بعض آخر منها[1]، وفي الحرف استعارة "لأنّ المسارعة لا تكون في الذّوات، فالمعنى: يسارعون في شأنهم من موالاتهم أو في نصرتهم[2] أو "في نصرتهم وتأنيسهم وتجميل ذكرهم[3]. والاستعارة إمّا في معناه، وإمّا في مدخوله حيث شبّه ذوات اليهود بمظروف، وشبّه المنافقين في مسارعتهم في موالاتهم بمَن يسارع في الدّخول في مظروف، وفي هذه الاستعارة تجسيدٌ لحبّ المنافقين موالاة اليهود واعتقادهم

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/48.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 6/232.
(3) ابن عطيّة، المُحرّر الوجيز: 2/204.

أنّهم يحمونهم حماية الظّرف مظروفه، وهي استعارة كاشفة عن شدّة الموالاة.

سرّ التّعبير بقوله: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾:

النّفاق أخطر وأخفى أمراض القلوب

هذا أسلوب اقتصاص حيث عبّر بالكلمة الّتي صارت علمًا على المنافقين، ولفظ ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ صار علمًا على المنافقين، وذكره هنا يستدعي في الذّهن كلّ صفات المنافقين في الذّكر الحكيم، وقد "أطلق عليه مرض؛ لأنّه كفر مفسد للإيمان[1]، وهذا اللّفظ قام مقام كلّ ما ورد في القرآن الكريم عنِ المنافقين، وفي أسلوب الاقتصاص إيجاز بليغ.

دلالة تتابع المضارع في قوله: ﴿يُسَٰرِعُونَ فِيهِمۡ يَقُولُونَ نَخۡشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٞۚ﴾:

التّسارع في ارتكاب المعاصي مثال حيّ على خلوّ القلوب منَ الإيمان

وردَت ثلاثة أفعال مضارعة متوالية تدلّ على التّجدّد والاستمرار، وتدلّ كذلك على شديد الرّغبة في النّفاق، والخروج من دائرة الإيمان إلى دائرة الكفر.

وقوله: ﴿يُسَٰرِعُونَ فِيهِمۡ﴾؛ يرغبون في موالاتهم، ويتسابقون نحوهم، ويعتذرون عن ذلك للمؤمنين بأنّهم لا يأمنون أن تصيبهم دائرة من دوائر الزّمان، فيحتاجون إليهم، وإلى معونتهم[2].

دلالة القيد بالحال، وتضمّنه استعارة وكناية في قوله: ﴿يَقُولُونَ نَخۡشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٞۚ﴾:

المنافقون يبالغون في تجسيد العذر وتأكيده؛ تعليلًا لفضائحهم

وقعتِ الجملة حالًا منَ الضّمير في (يسارعون)، أي: يسارعون قائلين، ويحتمل أن يكون قولهم: ﴿نَخۡشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٞۚ﴾ قولًا نفسيًا؛ أي: يقولون في أنفسهم، فالدّائرة المخشيّة: هي خشية انتقاض المسلمين على المنافقين، فيكون هذا القول منَ المرض الّذي

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 6/231.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/643.

في قلوبهم[1]، ويمكن أن يكون قول لسان؛ لأنّ عبد الله بن أبيّ بن سلول قال ذلك، وهذا من إعجاز القرآن الكريم، وبحسب ما رُوي عن عطيّة الحوفيّ والزّهريّ وعاصم بن عمر بن قتادة أنّ الآية نزلَت بعد وقعة بدر، أو بعد وقعة أُحد، وأنّها نزلَت حين عزم رسول الله ﷺ على قتال بني قينقاع، وكان بنو قينقاع أحلافًا لعبد الله بن أبيّ بن سلول ولعبادة بنِ الصّامت، فلمّا رأى عبادة منزع رسول الله ﷺ جاء فقال: يا رسول الله إنّي أبرأ إلى الله من حِلف يهود وولائهم، ولا أوالي إلاّ الله ورسوله، وكان عبد الله بن أبيّ حاضرًا فقال: أمَّا أنا فلا أبرأ من حلفهم فإنّي لا بدّ لي منهم إنّي رجل أخاف الدّوائر[2]، فتكون الآية قد كشفت أسرار نفوسهم، وما يقولونه، فتكون آية لهم على ما يخبّئون في أنفسهم، وقيدها بالحال فضح لما ستروه حتّى صارت فضيحتهم قرآنًا يتلى، كما أنّ حكاية معنى قولهم: (أن تصيبنا دائرة) كشف لتمنّيهم زوال الإسلام ونهايته، ويدلّ لفظ (دائرة) على خوفهم منَ الزّوال التّامّ والنّهاية المحيطة بالإسلام، ففي التّعبير كناية عن صفة، وهي الهلاك التّامّ، وفي اصطفاء الكناية تعبيرًا عن علّتهم في المسارعة في اليهود تناسُبٌ مع حالهم في إقناع نفوسهم بأنّهم على الحقّ.

وقدِ اجتمعتِ الاستعارة مع الكناية، فقد استُعيرَت لنوائب الزّمان بملاحظة إحاطتها، و(دائِرَةٌ) معناها: نازلة منَ الزّمان، وحادثة منَ الحوادث تحوجنا إلى موالينا منَ اليهود، وتسمّى هذه الأمور دوائر على قديم الزّمان من حيث اللّيل والنّهار في دوران، فكأنّ الحادث يدور بدورانها حتّى ينزل فيمن نزل[3]، وذلك على سبيل الاستعارة، والمعنى: نخشى أن تُصيبنا نازلة أو مُصيبة تحيط بنا كما تحيط الدّائرة بمحورها، وفي كلّ ذلك تجسيد للعذر، وقوله: ﴿نَخۡشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٞۚ﴾ اكتفاءٌ؛ إذ لم يقل: (تصبنا دائرة السّوء)؛ فاكتفى بذلك على أنّ معنى الدّائرة إنّما يكون في قضايا السّوء، وقرينة ذلك أيضًا قوله: (تُصِيبَنَا)، والإصابة وردَت في القرآن في القوّة وتغيير الحال[4]، وكثُر ورودها في السّوء، مثل قوله: ﴿فَأَصَابَهُۥ وَابِلٞ فَتَرَكَهُۥ صَلۡدٗاۖ﴾ [البقرة: 264]، وقوله: ﴿فَأَصَابَهَآ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 6/232.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 6/232.
(3) ابن عطيّة، المُحرّر الوجيز: 2/204.
(4) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/643.

إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْۗ﴾ [البقرة: 266]، وقوله: ﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُواْ﴾ [النّحل: 34].

ذكر الرّجاء في موضع التّأكيد في قوله: ﴿فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ﴾:

بشارة المؤمنين خير معين لهم في مواجهة الأزمات

في اقتران الجملة بالفاء إلماع إلى سرعة حصول النّصر، وتحقّق البشارة، و(عسى) منَ اللّه واجبة[1]، وإنّما عبّر بها لإبراز المتيقّن في صورة المرجوّ الوقوع؛ لأنّ العاقل إذا جوّز وقوع أمر فطن له، وقد ردَّ اللّه تعالى عليهم عللَهُم الباطلة، وقطع أطماعهم الفارغة، وبشّر المؤمنين بحصول أمنيتهم بقوله سبحانه: ﴿فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِٱلْفَتْحِ﴾؛ فإنَّ (عسى) منه ﷻ وعد محتوم، لما أنّ الكريم إذا أطمع أطعم، فما ظنّك بأكرم الأكرمين، والمراد بالفتح فتح مكّة، كما روي عنِ السُّدّيّ، وقيل: فتح بلاد الكفّار، واختاره الجبائيّ، وقال قتادة ومقاتل: هو القضاء الفصل بنصره ﷺ على مَن خالفه، وإعزاز الدّين[2].

وفي قوله: ﴿أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ﴾ إذ لو لم يصرّح لعُلم أنّه من عنده، ولكنّه أوغل بذكر ذلك لفائدة مهمّة: هي الضّمان، وتوكيد حدوث الأمرين الفتح والأمر، وبثّ السّكينة في قلوب المؤمنين بترقّب عظيم ما يتضمّنه وعد اللّه تعالى منَ النّصر والخير.

دلالة (أو) على التّقسيم في قوله: ﴿أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ﴾:

يظهر أنّ هذا التّقسيم إنّما يعني أنّ الفتح الموعود به هو ممّا ترتّب على سعي النّبيّ وأصحابه، وسبب جدّهم وعملهم، فوعد اللّه تعالى إمّا بفتحٍ يقتضي تلك الأعمال، وإمّا بأمر من عنده يهلك أعداء الشّرع، هو أيضًا فتح لا يقع للبشر فيه تسبّب[3]. وقيل ﴿أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ﴾: أو أن

(1) ابن عطيّة، المُحرّر الوجيز: 2/204.
(2) الآلوسّي، روح المعاني: 3/324.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/293.

يؤمر النّبيّ ﷺ بإظهار أسرار المنافقين وقتلهم فيندموا على نفاقهم. وقيل: أو أمر من عند اللّه لا يكون فيه للنّاس فعل كبني النّضير الّذين طرح اللّه في قلوبهم الرّعب، فأعطوا بأيديهم من غير أن يوجف عليهم بخيل ولا ركاب[1]. ومع تنوّع هذه التّفسيرات للعبارة القرآنيّة؛ فإنّها قد أصبحت مثلًا جاريًا على ألسنة النّاس؛ إذ لا يقتصر الفتح والأمر الموعود منَ اللّه تعالى على حالة محدّدة؛ بل هو استعارة تمثيليّة يجري فيها المثل على حوادث الدّهر المماثلة والمشابهة للحادثة الّتي كانت سببًا في نزول الآية، فما أجدر أن يكون ذلك الأمر إشارة إلى فتوح الإسلام العظيمة للشّرق والغرب، والّتي جاءَت بعد فتح مكّة! فيكون المعنى: فعسى اللّه أن يأتي بفتح مكّة، وفتوحات القرى والبلدان بعدها، وليحقّق قول اللّه تعالى: ﴿لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ [الأنعام: 92] و[الشّورى: 7].

الكناية عن إظهار النّفاق وكشفه: ﴿فَيُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ﴾:

في القول الكريم "كناية عن إظهار النّفاق الدّائر في قلوبهم ونفوسهم نادمين؛ لأنّ المنافقين لمّا رأوا من أمر بني قريظة والنّضير ندموا على ما قالوا[2].

فضح المنافقين بظهور النّدم على ما كتموه فيه زيادة بشارة للمؤمنين

وهو عطف على (يَأتِيَ) داخل معه في حيّز خبر عسى، وفاء السّببيّة لجعلها الجملتين كجملة واحدة، مغنية عنِ الضّمير العائد على الاسم، والمراد: فيصيروا على ما أَسرُّوا في أَنفسهم منَ الكفر والشّكّ في أمر النّبيّ ﷺ، وقوله: ﴿نَٰدِمِينَ﴾ خبر (يصبح)، وبه يتعلّق (عَلى ما أَسَرُّوا) وتخصيص النّدامة به لا بما كانوا يظهرونه من موالاة الكفرة لما أنّه الّذي كان يحملهم على تلك الموالاة ويغريهم عليها، فدلّ ذلك على أنّ ندامتهم على التّولّي بأصله وسببه[3].

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/643.
(2) السّمرقنديّ، بحر العلوم: 1/398.
(3) الآلوسّي، روح المعاني: 3/324.

دلالة الطّباق الخفيّ بين (يصبحوا) و(أسرّوا):

التّحذير بأنّ ما يسرّ منَ الشّرّ في السّتر يفضح في العلن

"خصّ الإصباح بالذّكر؛ لأنّ الإنسان في ليله مفكّر، فعند الصّباح يرى الحالة الّتي اقتضاها فكره[1].

وفي الإصباح والإسرار طباق خفيّ، وطباقه الظّاهر يصبحوا ويمسوا، لكنّه بيّن أنّ الإسرار ملازم للإمساء، وهذا طباقٌ فائدته: الكشف عن خبايا نفوسهم، وما يسرّون على سبيل السّرعة.

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/204.

﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ إِنَّهُمۡ لَمَعَكُمۡۚ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فَأَصۡبَحُواْ خَٰسِرِينَ ٥٣﴾ [المائدة: 53]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

بعد أن بيّنت الآية السّابقة أنّه تعالى قد يأتي بأحداث ينتصر فيها المسلمون، فينكشف نفاق هؤلاء؛ ناسب هنا بيان قول المؤمنين مستفهمين متعجّبين من افتضاح أمر هؤلاء، مع أنّهم أقسموا بالله جهد أيمانهم أنّهم يناصرون المؤمنين، فالآية استئناف بيانيّ لبيان كمال سوء حال الطّائفة المذكورة.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿جَهۡدَ﴾: جذر الكلمة هو (جهد)، الجَهدُ: ما جهد الإنسان من مرض، أو أمرٍ شاقٍّ فهو مجهودٌ. والجُهدُ: شيءٌ قليلٌ يعيش به المُقِلُّ على جَهد العيش. والجَهدُ: بلوغُك غاية الأمر الّذي لا تألو عنِ الجهد فيه، ومن ذلك قوله: ﴿أَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ﴾، تقول: جَهَدتُ جَهدي، واجتهدتُ رأيي ونفسي حتّى بلغتُ مجهودي. وجَهَدتُ فلانًا: بلغتُ مشقّته، وأَجهدتُه على أن يفعل كذا. وأجهَدَ القوم علينا في العداوة. وجاهدتُ العدوَّ مجاهدةً: وهو قتالُك إيّاه[1]. الجهد: الطّاقة، وقيل: الجهد: المشقّة[2]. والجُهدُ للإنسان، وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهۡدَهُمۡ﴾ [التّوبة: 79]، وقال تعالى: ﴿وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ﴾ [الأنعام: 109] و[النّحل: 38] و[النّور: 53] و[فاطر: 42]؛ أي: حلفوا واجتهدوا في الحَلف أن يأتوا به على أبلغ ما في وسعهم[3].

2) ﴿حَبِطَتۡ﴾: جذر الكلمة هو (حبط)، الحَبَط: وَجَع يأخُذُ البعيرَ في بَطنه من كلأٍ يَستَوبِلُه[4]. ويقال: حَبِطَتِ الإبل تحبَط حَبَطًا. وحَبِطَ عَمَلُه: فَسَدَ، وأحبَطَه صاحبه، واللّه مُحبِطٌ عمل من أشرك[5]. ومنَ المجاز: حبط عمله حبوطًا وحبطًا بالسّكون، وأحبط اللّه

(1) الخليل، العين: (جهد).
(2) ابن سيده، المحكم: (جهد).
(3) الرّاغب، المفردات: (جهد).
(4) الخليل، العين، وابن سيده، المُحكم: (حبط).
(5) الخليل، العين: (حبط).

عمله. وتقول: إن عمل عملًا صالحًا أتبعه ما يحبطه، وإن أصعد كلمًا طيّبًا أرسل خلفه ما يهبطه؛ استعير من حبط بطون الماشية[1].

وقوله: ﴿وَسَيُحۡبِطُ أَعۡمَٰلَهُمۡ ٣٢﴾ [محمّد: 32]، وحَبَطُ العملِ على أضرُب: أحدها: أن تكون الأعمال دُنيويّة، فلا تُغني في القيامة غَناءً، كما أشار إليه بقوله: ﴿وَقَدِمۡنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنۡ عَمَلٖ فَجَعَلۡنَٰهُ هَبَآءٗ مَّنثُورًا ٢٣﴾ [الفرقان: 23]، والثّاني: أن تكون أعمالًا أخرويّة لكن لم يقصد بها صاحبها وجه اللّه تعالى[2]، من ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ أَشۡرَكُواْ لَحَبِطَ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٨٨﴾ [الأنعام: 88].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

لمّا بيّن حال المنافقين بيّن على أثره حال المؤمنين، فالمنافقون قالوا: ﴿نَخۡشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٞۚ﴾، فأردفه قول المؤمنين: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ﴾؛ أي: الّذين أقسموا لكم بأغلظ الأيمان أنّهم أولياؤكم ومعاضدوكم على الكفّار. فإذا حلفوا باللّه فهو جهد اليمين[3]، وأنّهم لا يوالون اليهود والنّصارى والّذين أشركوا، وأنّهم على دينكم، فبيّن اللّه حبوط أعمالهم، وخسرانهم في الدّنيا والآخرة.

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

الفصل والوصل مع تنوّع القراءات في قوله: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾:

تنوعّ القراءات فيه تغزير المعنى مع اتّحاد الرّسم، فكأنّ كلّ قراءة بمثابة آية

وقوله: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ قرأه الجمهور: (يقول) بدون واو في أوّله على أنّه استئناف بيانيّ جوابٌ لسؤال مَن يسأل: ماذا يقول الّذين آمنوا حينئذٍ؟.. أي: إذا جاء الفتح أو أمر من قوّة المسلمين ووهن اليهود يقول الّذين آمنوا.

(1) الزّمخشريّ، أساس البلاغة، وعياض، مشارق الأنوار: (حبط).
(2) الرّاغب، المفردات: (جهد).
(3) السّمرقنديّ، بحر العلوم: 1/398.

وقرأ عاصم، وحمزة، والكسائيّ، وخلف: (ويَقول) بالواو وبرفع (يقول) عطفًا على (فعسى اللّه)[1]، إذ أفاد الوصل ظهور كمال المشهد، وقد أتمّ اللّه النّصر على المؤمنين، فيقول الّذين آمنوا مع ما هم فيه من جمال النّفس وراحة البال، وهم يراجعون المواقف والأحداث بعد أن استقرّ الأمر على نصرهم، فينكشف أمامهم مشهد أولئك الّذين أقسموا باللّه جهد أيمانهم إنّهم مع المؤمنين، ثمّ بان ما هم فيه منَ النّفاق، وتغيير المواقف.

وقرأه أبو عمرو ويعقوب بالواو أيضًا، وبنصب (يقول) عطفًا على (أن يأتي)[2]؛ في افتراض مشهد من مشاهد النّصر؛ وهو قول المؤمنين في كلّ موقف مشابه لما حدث في فتح مكة أو في الفتوحات الإسلاميّة الأخرى.

خروج الاستفهام إلى معنى التّعجّب في قوله: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمُواْ﴾:

مع نهاية الأزمات يتسنّى تقييم النّاس بحسب المواقف والشّواهد

والاستفهام في (أهؤلاء) مستعمل في التّعجّب من نفاقهم، و(هؤلاء) إشارة إلى طائفة الّذين في قلوبهم مرض، والظّاهر أنّ (الّذين) هو الخبر عن (هؤلاء)؛ لأنّ الاستفهام للتّعجّب، ومحلّ العجب هو قَسمَهم أنّهم مع الّذين آمنوا، فيقاتلون معهم، وينصرونهم، وقد دلّ هذا التّعجّب على أنّ المؤمنين يظهر لهم من حال المنافقين يوم إتيان الفتح ما يفتضح به أمرهم، فيعجبون من حَلِفهم على الإخلاص للمؤمنين[3].

دلالة تأكيد القسم في قوله: ﴿إِنَّهُمۡ لَمَعَكُمۡۚ﴾:

الكشف عن أنّ الجهد كلّه في القول:

جاء القسم بـ (إنّ) واسميّة الجملة تناسبًا مع وصفه بالجهد، ولم يقسموا أنّهم مؤمنون، فلم يقل مثلًا: إنّهم مؤمنون، أو: إنّهم موالون لكم تناسبًا مع حالهم في المراوغة، فليس القسم بمعيّتهم مؤدّيًا إلى وصفهم بالإيمان.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 6/233.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 6/233.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 6/233.

الاستعارة في قوله: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ﴾:

أفعال الإنسان آية على ما في قلبه منَ الإيمان

حقيقة الجَهد التّعب والمشقّة ومنتهى الطّاقة، ثمّ أطلق على أشدِّ الفعل ونهاية قوّته لِمَا بين الشّدّة والمشقّة منَ الملازمة، وشاع ذلك في كلامهم، ثمّ استعمل في الآية في معنى أوكَدِ الأيمان وأغلظها؛ أي: أقسموا أقوى قَسَم، وذلك بالتّوكيد والتّكرير، ونحو ذلك ممّا يغلّظ به اليمين عُرفًا. قال ابن عاشور: ولم أرَ إطلاق الجَهد على هذا المعنى فيما قبلَ القرآن[1]، فحاصل المعنى: أهؤلاء الّذين أكّدوا الأيمان وشدّدوها[2]، فصرّح بالمُشبّه به وهو الجهد، وحذف المشبّه وهو التّشديد، فهي استعارة تصريحيّة، فائدتها: بيان تلك الصّورة المُتخيّلة لدى المُتلقّي، وهو يتصوّر ذلك الجُهد المبذول من قبل هؤلاء المُنافقين المُتناقض مع دواخلهم النّفسيّة، ممّا يُكلّفهم طاقة إضافيّة للتّمظهُر بأحوال الصّادقين، وقد قدّم (باللّه) لبيان عظيم القسم، وشديد جهدهم فيه الّذي يُقسمون به طلبًا في تصديق المؤمنين لهم.

موقع قوله: ﴿حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فَأَصۡبَحُواْ خَٰسِرِينَ﴾، ودلالته:

قوله: ﴿حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فَأَصۡبَحُواْ خَٰسِرِينَ﴾ يحتمل أن يكون جملة مستأنفة مسوقة من جهته تعالى؛ لبيان مآل ما صنعوه منِ ادّعاء الولاية والقسم على المعيّة في كلّ حال إثر الإشارة إلى بطلانه بالاستفهام، ويمكن أن يكون من جملة مقول المؤمنين؛ بأن يجعل خبرًا ثانيًا لاسم الإشارة، أو يجعل هو الخبر والموصول مع ما في حيّز صلته صفة للمبتدأ، والمعنى: بطلت أعمالهم الّتي عملوها في شأن موالاتكم، وسعوا في ذلك سعيًا بليغًا؛ إذ لم تكن لكم دولة، كما ظنّوا فينتفعوا بما صنعوا منَ المساعي، وتحمّلوا من مكابدة المشاقّ،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 6/233.
(2) الآلوسّي، روح المعاني: 3/327.

وفيه منَ الاستهزاء بالمنافقين، والتّقريع للمخاطبين ما لا يخفى[1].

وحبط العمل هنا هو على معنى التّشبيه، وإلّا فلا عمل له في الحقيقة فيحبط، وجوّز الحوفيّ أن يكون حبطت أعمالهم خبرًا ثانيًا عن هؤلاء، والخبر الأوّل هو قوله: (الّذين أقسموا)، وأن يكون (الّذين) صفة لـ(هؤلاء)، ويكون (حبطت) هو الخبر[2].

الجملة بين الخبر والإنشاء:

التّناوب في أحوال المنافقين متوافق مع ما في قلوبهم من تردّد القيم والأخلاق

قوله: ﴿حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فَأَصۡبَحُواْ خَٰسِرِينَ﴾ ظاهره أنّه خبر من جملة ما يقوله المؤمنون، اعتمادًا في الإخبار على ما حصل في اعتقادهم؛ أي: بطلت أعمالهم. وقد يخرج هذا الخبر إلى معنى التّعجيب، قال الزّمخشريّ: كأنّه قيل: ما أحبط أعمالهم فما أخسرهم[3]. ويحتمل أن يكون إخبارًا منَ اللّه تعالى؛ لبيان سوء حالهم، وما أوقعوا أنفسهم فيه منَ الخسران عند اللّه سبحانه، وقد لا يكون خبرًا بل إنشاء؛ باعتبارها جملة دُعائيّة على أولئك الّذين يبطلون أعمالهم بردّتهم، والدُّعاء إمّا منَ اللّه تعالى، وإمّا منَ المؤمنين.

التّكرار لكلمة ﴿فَأَصۡبَحُواْ﴾ بين آيتين:

تتواصل آيات القرآن وتنسجم في نصّ معجز يرتبط أوّله بآخره

بعد أن ذكر ما أصاب المنافقين من ندم على ما أسرّوا في أنفسهم، فقال:

﴿فَيُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ نَٰدِمِينَ﴾.. كرّر كلمة (فأصبحوا) في هذه الآية قوله في وصف مشهد مُتمّم للأوّل قوله: ﴿حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فَأَصۡبَحُواْ خَٰسِرِينَ﴾، وفائدة هذا التّكرار هو إحداث رابط بين السّبب والنّتيجة، وما آلت إليه أحوالهم بسبب

(1) الآلوسّي، روح المعاني: 3/327.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/296.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/644.

أفعالهم...، ثمّ ما في كلمة (فأصبحت) من رجاء رؤية تفاصيل المشهد والوضوح.. فلمّا كان السّبب واضحًا، وهو ما أسرّوا في أنفسهم منَ الغدر والعدوان، كانتِ النّتيجة أكثر وضوحًا، وهي ما أصاب أعمالهم منَ البطلان والخسران.

التّناسب بين (نادمين) و(خاسرين):

تنوّع صور حبط الأعمال، لكنّ المشهد الأخير واحد هو الخسران التّامّ والنّدم المُطبق

والتّناسب بين الخسران والنّدم واضح بيّنٌ، وقد جاء في القرآن في أكثر من مَوضِع؛ من ذلك ما سبق ذكره في السّورة نفسها من قصّة ابني آدم، قال تعالى: ﴿فَطَوَّعَتۡ لَهُۥ نَفۡسُهُۥ قَتۡلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٣٠﴾ [المائدة: 30]، ثمّ أتبعها بقوله: ﴿قَالَ يَٰوَيۡلَتَىٰٓ أَعَجَزۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِثۡلَ هَٰذَا ٱلۡغُرَابِ فَأُوَٰرِيَ سَوۡءَةَ أَخِيۖ فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ٣١﴾ [المائدة: 31]، هذا فضلًا عنِ استعمال كلمة ﴿فَأَصۡبَحَ﴾ مع الخسران والنّدم، وهي نفسها استُعملت هنا مع النّدم والخسران.

والتّشابه في المشاهد يعكس شناعة أفعال هؤلاء المنافقين، ورغبتهم في القضاء على المؤمنين كما فعل ابن آدم في أوّل حدث إجراميّ شنيع، ويُضاف إلى ذلك كلّه التّناسب في الفاصلة القرآنيّة بين ﴿ٱلنَّٰدِمِينَ﴾ و﴿ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾، وانسجام الصّوت مع وحدة الموضوع.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ٥٤﴾ [المائدة: 54]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

بعد أن نزل تحذير اللّه تعالى للمؤمنين من موالاة أهل الكتاب والمشركين، وأثر ذلك على تراجع الإيمان، وتردّده في نفوسهم، فقد ناسب أن يذكر الارتداد عنِ الدّين باعتباره نتيجة كبرى لموالاة أهل الكتاب والكافرين.. فحذّرهم منه، ومن عواقب الارتداد.. وأنّ اللّه تعالى سيوكّل أقوامًا يحبّهم ويحبّونه، يدفعون هذا الارتداد، وينصرون الدّين.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَرۡتَدَّ﴾: جذر الكلمة هو (ردد)؛ الرَّدّ: صرف الشّيء ورجعه، ردّه يردّه ردًّا وترداداً. وفي التّنزيل: ﴿مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِۚ﴾ [الشّورى: 47]. قال ثعلب: يعني يوم القيامة؛ لأنّه شيء لا يُردّ. وشيء رديد: مردود، قال تعالى: ﴿وَلَا يُرَدُّ بَأۡسُهُۥ عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ١٤٧﴾ [الأنعام: 147]، وقد ارتدّ، وارتدّ عنه: تحوّل.

وفي التّنزيل: ﴿مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ﴾ [المائدة: 54]. والاسم: الرّدّة، ومنه الرّدّة. عنِ الإسلام؛ أي: الرّجوع عنه[1] والارتداد والرّدة: الرّجوع في الطّريق الذي جاء منه، لكنّ الرّدة تختصّ بالكُفر، والارتداد يُستعمل فيه وفي غيره[2].

2) ﴿لَوۡمَةَ﴾: جذر الكلمة هو (لوم)؛ اللّوم: عذل الإنسان عمّا فيه عيب[3]. يُقالُ: لُمْتُه فهو ملومٌ، قال تعالى: ﴿فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُمۖ﴾ [إبراهيم: 22].

والتّلاوم أن يَلومَ بعضهم بعضًا، وقوله تعالى: ﴿وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ ٢﴾ [القيامة: 2]،

(1) ابن سيده، المحكم: (ردد).
(2) الرّاغب، المفردات: (ردد).
(3) الحداديّ، التّوقيف على مهمّات التّعاريف: (لوم).

قيل: هي النّفس الّتي اكتسبت بعض الفضيلة فتلوم صاحبها إذا ارتكب مكروهًا. ويُقال: رجلٌ لُوَمَةٌ يلُومُ النّاس، وَلُومةٌ يلومه النّاس، واللّومَةُ والمَلامة الّذي يُلامُ عليه النّاس[1].

3) ﴿فَضْلُ﴾: جذر الكلمة هو (فضل)؛ الفَضلُ معروف. والفاضِلة اسم الفَضل. والفُضالةُ: ما فَضَل من كلّ شيءٍ. والفَضلةُ: البقيّة من كلّ شيءٍ. والفضيلة: الدّرجة والرِّفعة في الفضل. والتَفَضُّل: التّطَوّل على غيرك، قال تعالى: ﴿يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ﴾ [المؤمنون: 24]، معناه: يريد أن يكون له الفضلُ عليكم في القَدر والمنزلة، وليس منَ التّفضّل الّذي هو بمعنى الإفضال[2]. والفضل الزّيادة عنِ الاقتصار[3]، قال تعالى: ﴿وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ۝٧٠﴾ [الإسراء: 70].

❁ المَعْنَى الإجْمَالِيُّ:

الآية خطاب للمؤمنين، وتوعّد منَ اللّه لمن خرج منهم من دين الإسلام بعد أن دخله بأن يهلك منِ ارتدّ منهم، ويأتي بغيرهم يحبّهم اللّه ويحبّونه، متواضعين للمؤمنين، أقويّاء بعزّتهم على الكافرين، يجاهدون في سبيل اللّه، لا يخافون لوم أحد، وهذا فضل اللّه يؤتيه أولياءه، ويمنحه أحبّاءه، وهو واسع الكرم، عليم بما في القلوب.

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

المناسبة في ذكر الجملة الاعتراضيّة، وافتتاحها بأسلوب النّداء:

قطع طريق الموالاة هو الضّامن لعدم ورود حالات الارتداد في المجتمع

الحكمة من النداء في قوله تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ﴾ التّحذير، والآية كلّها معترضة بين ما قبلها وبين جملة ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ﴾ [المائدة: 55]، دعَت لاعتراضها مناسبة الإنذار في قوله: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾ [المائدة: 51]، فتعقيبها بهذا الاعتراض إشارة إلى أنّ اتّخاذ اليهود والنّصارى أولياء ذريعة للارتداد؛ لأنّ استمرار فريق على مُوالاة اليهود والنّصارى منَ المنافقين وضعفاء الإيمان يخشى منه أن ينسلّ عنِ الإيمان فريق. وأنبأ المتردّدين

(1) الرّاغب، المفردات: (لوم).
(2) الخليل، العين: (فضل).
(3) الرّاغب، المفردات: (فضل).

ضعفاء الإيمان بأنّ الإسلام غنيّ عنهم، إن عزموا على الارتداد إلى الكفر[1]. ومن قبيل الإعجاز الغيبيّ، فهي شروع في بيان حال المرتدين على الإطلاق بعد أن نهى سبحانه فيما سلف عن موالاة اليهود والنّصارى، وبيّن أنّ موالاتهم مستدعية للارتداد عنِ الدّين، وفصل مصير مَن يواليهم منَ المنافقين.

فائدة حرف التّسويف (سوف):

حرف الاستقبال (سوف) فيه بُعدٌ وتراخٍ، و(سوف) أكثر تنفيسًا منَ السّين، وقيل: إنّ السّين منقوص من (سوف) دلالة بتقليل الحرف على تقريب الفعل[2]. وفائدة (سوف) هنا دلالة المستقبل على التّراخي، فإنّ ما وعد الله به هنا المؤمنين يستدعي الصّبر، وبذل الجهد؛ لنصر الدّين، والثّبات على الحقّ؛ ليكونوا ممّن وعد الله بقدومهم لينصروا الدّين.

تـــروي آيـــات الـقـرآن المشهد قـبـل وقـوعـه مبيّنة أنّ الأمر كلّه لله وهذا من قـبـيـل الإعـجـاز الغيبيّ

فتكون (سوف) أبعد أثرًا في نفوس المؤمنين، وأنّ الّذين سيأتون ممّن وعد الله أن يكون النّصر على أيديهم سيكونون جيلًا منهم، أو منَ الأجيال القادمة من أبناء المؤمنين، أو من أبناء الّذين ليسوا بمؤمنين لكنّ ذرّيّاتهم ستدخل الإسلام، ويظهر منهم أممٌ وأقوامٌ يحبّهم الله ويحبّونه.. وهذه الدّلالة أعظم أثرًا في نفوس المُتلقّين.

المجاز في قوله: ﴿فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ﴾:

وقوله: ﴿يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ﴾ الإتيان هنا الإيجاد؛ أي: يُوجِد أقوامًا لاتّباع هذا الدّين بقلوب تحبّه، وتجلب له وللمؤمنين الخير، وتذود عنهم أعداءهم، وإن كان من غير الّذين ارتدّوا، فالأسلوب جارٍ على الحقيقة، وإن كان المقصود القوم الّذين ارتدّوا، ثمّ عادوا إلى الإسلام، يكون التّعبير مجازيًّا، حيث عبّر عنِ الهداية بالإتيان بقوم

الأقـــــدار قـد أُقِـرّت، والمشهد قـــد اكـتـمـل، وتـبـقـى مشيئة الـلـه وإرادتـــه تتنزّل به كاملًا

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 6/234 - 235.
(2) ابن كمال باشا، الفلاح شرح المراح، ص: 46.

آخرين، وفي هذا المجاز منَ الإيجاز ما فيه، حيث صوّر المجاز منِ ارتدّ بأنّهم قوم، وأنّهم حين اهتدوا صاروا قومًا آخرين، كأنّ حالهم في الهداية جعلهم قومًا آخرين عن حالهم في الضّلالة، وقد عاد قوم إلى الإسلام بعدما ارتدّوا، وجاء قوم آخرون غيرهم أيضًا، ومن هنا جاء اللّفظ دالًّا على الحقيقة وعلى المجاز بهذا الاعتبار، وفي ذلك دلالة بالغة على أنّ المحبّة تتبع تغيّر أحوال القلوب لا تغيّر الأشخاص، فإنّ عمرو بن معد يكرب الّذي كان من أكبر عصاة الرّدّة أصبح من أكبر أنصار الإسلام في يوم القادسيّة، وهكذا[1].

ودخل في قوله: ﴿بِقَوۡمٖ﴾ الأقوام الّذين دخلوا في الإسلام بعد ذلك منَ الأمم الّتي كان لها شأن عظيم في خدمة الإسلام، وتوسيع مملكته بالفتوح، وتأييده بالعلوم، ونشر حضارته بين الأمم العظيمة، فكلّ أمّة أو فريق أو قوم تحقّق فيهم وصف: ﴿يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖۚ﴾ فهم منَ القوم المنوّه بهم؛ أمَّا المؤمنون الّذين كانوا من قبل وثبتوا فأولئك أعظم شأنًا وأقوى إيمانًا، فأتاهم المؤيّدون زَرافَات ووُحدانا[2].

تضمّن الوعد والوعيد في قوله: ﴿فَسَوۡفَ يَأۡتِي﴾ معاني كثيرة:

قوله تعالى: ﴿فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ سوف تأتي في الوعد والوعيد، وتضمّنَت هنا الوعد والوعيد جميعًا؛ فالوعد لأجل المؤمنين والمحبّين، والوعيد لَمَا تضمّنَت مِن جواب المُرتدِّين بكونهم أَعزَّةً عليهم وعلى جميع الكافرين[3]. وهذا منَ الإيجاز البليغ؛ إذ علم كلُّ سامعٍ محطّ الآية من نفسه؛ وعُلم أهي وعدٌ له أم وعيد.

هذا الدّين لا يعدم بررة مخلصين، ولا قيمة للمنافقين، فالدّين مستغنٍ عنهم

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 6/236.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 6/236.
(3) الزّركشّي، البرهان: 4/283.

وفي هذا الوعيد بشارة بأنّ هذا الدّين لا يعدم بررة مخلصين، كما أنّ فيه إظهار الاستغناء عنِ الّذين في قلوبهم مرض، كما أنّ فيه بيانًا لبغض اللّه للمنافقين، فللجملة موقع بديع تغازرَت به الدّلالة، وعظُمَت به الفائدة.

الخطاب خاصّ أُريد به العامّ:

ذكر الخاصّ لحادثة الرّدّة، وأراد به العموم في كلّ حادثة مشابهة، فالخاصّ هم: أبو بكر وأصحابه، أو أبو بكر وعمر وأصحابهما، أو قوم أبي موسى، أو الأنصار، أو هم المهاجرون، أو أحياء منَ اليمن من كندة وبجيلة وأشجع لم يكونوا وقت النّزول قاتل بهم أبو بكر في الرّدّة، أو علي بن أبي طالب قاتل الخوارج.

الخير مستمرّ في هذه الأمّة، امتدادًا لجيل الصّحابة، واقتداء بهم

وفائدة ذكر الخاصّ وإرادة العامّ هي أنّ الصّحابة هم الأنموذج والقدوة في كلّ حادثة مشابهة، فيظهر جيل كأجيال الصّحابة؛ حبًّا للإسلام ولرسول الإسلام، فيعيدون الكرّة للمسلمين، وتكون الصّحوات على مدى حياة الأمّة كلّها، كما أنّ فيه بشارة للأجيال كلّها أنّه سيكون منهم مَن يحبّهم اللّه ويحبّونه، فترتفع الهمم، ويتشوّفون إلى مكانة عليا عند اللّه ﷻ.

الكناية والمشاكلة والمجاز في قوله: ﴿بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾:

وفي قوله: ﴿بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ كناية عن موصوف؛ هو أبو بكر الصّديق وأصحابه، وقال الحسن: هو واللّهِ أبو بكر وأصحابه، وقال الضّحاك: هو أبو بكر وأصحابه، لمّا ارتدّتِ العرب جاهدهم حتّى ردّهم إلى الإسلام. وهذا من مناقب أبي بكر، حيث اتّفقتِ الصّحابة على رأيه[1]، فذكر الصّفة وهي المحبّة، وأخفى الموصوف.. وفائدة هذا الفنّ تعميم الخطاب، وتفعيله في كلّ أزمنة الدّنيا.. ونفخ الرّوح والطّاقة والحياة فيه.

الخطاب الشّامل تستمرّ ثماره تنوّعًا، وعطاءً جيلًا بعد جيل

(1) السّمرقنديّ، بحر العلوم: 1/399.

وإطلاق محبّة الله للمؤمنين من قبيل المُشاكلة، فمحبّته لهم سبحانه ليست كالمحبّة المُتبادرة إلى أذهان النّاس. فوصف تعالى هؤلاء القوم بأنّه ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ فمحبّة الله لهم هي توفيقهم للإيمان كما قال تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ﴾ [الحجرات: 7]، وإثابته على ذلك، وعلى سائر الطّاعات، وتعظيمه إيّاهم، وثناؤه عليهم، ومحبّتهم له طاعته، واجتناب نواهيه، وامتثال مأموراته.

وقدّم محبّته على محبّتهم؛ إذ هي أشرف وأسبق. وكما أنّه بذاته يحبّهم، كذلك يحبّون ذاته[1]، فقوله: ﴿بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ﴾ محبّة تليق بشأنه تعالى على المعنى الّذي أراده ﴿وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾؛ أي: يميلون إليه جلّ شأنه ميلًا صادقًا فيطيعونه في امتثال أوامره، واجتناب مناهيه[2].

وذكر الآلوسي أنّ محبّة العبد لله هي منَ المجاز المُرسَل، فلا شكّ أنّ تفسير محبّة العبد لله تعالى بطاعته له سبحانه على خلاف الظّاهر، وهي منَ المجاز الّذي يسمّى فيه المسبّب باسم السّبب[3]، ومحبّة الله عبدَه رضاه عنه، وتيسير الخير له، ومحبّة العبد ربّه انفعال النّفس نحوَ تعظيمه، والأنس بذكره، وامتثال أمره، والدّفاع عن دينه[4]، أو أنّ محبّة الله تعالى للعبد إنعامه عليه، ومحبّة العبد له طلب الزّلفى لديه[5]، فهي صفة تحصل للعبد من كثرة تصوّر عظمة الله تعالى ونِعمه حتّى تتمكّن من قلبه، فمنشؤها السّمع والتّصوّر، وليست هي كمحبّة استحسان الذّات[6].

سرّ المغايرة في الوصف بالجملة الفعليّة والجملة الاسميّة في قوله: ﴿يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾:

لمّا كان الوصف الّذي يتعلّق بالمؤمن أوكد قدّم على الوصف المتعلّق بالكافر، ولشرف المؤمن أيضًا. ولمّا كان الوصف الّذي بين المؤمن وربّه أشرف منَ الوصف الّذي بين المؤمن والمؤمن، قدّم قوله: ﴿يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ على قوله: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾[7]، فقدّم الجملة

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/298.
(2) الآلوسّي، روح المعاني: 3/329.
(3) الآلوسّي، روح المعاني: 3/329.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 6/236.
(5) الأصفهانّي، غريب القرآن، ص: 105.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 6/236 - 237.
(7) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/299.

الفعليّة التي تفيد التّجدّد والاستمرار على الاسميّة الّتي تفيد الثّبات؛ لبيان حال قلوبهم، واستقرارها على حال واحد، لا يتبدّل مع مرور الزّمان، فقد جاءتِ الصّفة الثّانية بالاسم الّذي فيه المبالغة؛ لأنّ (أذلّة) جمع (ذليل) و(أعزّة) جمع (عزيز)، وهما صفتا مبالغة، وجاءتِ الصّفة قبل هذا بالفعل في قوله: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾؛ لأنّ الاسم يدلّ على الثّبوت، فلمّا كانت صفة مبالغة، وكانت لا تتجدّد بل هي كالغريزة، جاء الوصف بالاسم. ولمّا كانت قبل تتجدّد؛ لأنّها عبارة عن أفعال الطّاعة والثّواب المترتّب عليها، جاء الوصف بالفعل الّذي يقتضي التّجدّد[1]..

المحبّة بحسب العمل تتجدّد بتجدّده، والصّفات ثابتة بحسب متعلّقها

بلاغة المقابلة والمجاز في قوله: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾:

في الآية ضرب منَ التّلوين في الأسلوب، فبعد أن قال: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ في تناسب في اللّفظ والمعنى وجناس اشتقاق بين اللّفظين، غاير الأسلوب فأتى بالمقابلة فقال: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾، وأذلّة: جمع ذليل، وفي هذه المقابلة دلالة على تحلّيهم بالأوصاف الخلقيّة العالية وإيمانهم وفهمهم، وفيها أيضًا دلالة على بيان كمال هؤلاء القوم المؤمنين، وكمال العزيمة لديهم، ورُقيّ الغاية الّتي يرومونها.

اللّين مع المؤمنين والحزم مع الكافرين توازن في شخصية المؤمن

والأذلّة والأعزّة وصفان متقابلان وصف بهما القوم باختلاف المتعلّق بهما[2]. وإثبات الوصفين المتقابلين للقوم صناعة بديعيّة، وفيه إيماء إلى أنّ صفاتهم تُسيِّرُها آراؤهم الحصيفة فليسوا مندفعين إلى فعل ما إلّا عن بصيرة، وقال تعالى: ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: 29][3]، ويطلق الذّلّ على لين الجانب والتّواضع، وهو مجاز

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/299.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 6/237.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 6/238.

لغويّ من قبيل الاستعارة التّصريحيّة، إذ شبّه لين الجانب بالذّليل، فالمراد هنا الذّلّ بمعنى: لين الجانب، وتوطئة الكَنَف، ونظيره قوله تعالى: ﴿وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ﴾، وهو شدّة الرّحمة والسّعي للنّفع، ولذلك علّق به قوله: ﴿عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾.

ولتضمين ﴿أَذِلَّةٍ﴾ معنى مشفقين حانِينَ عدّي بـ (على) دون اللّام، أو لمشاكلةِ (على) الثّانية في قوله: ﴿عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾[1].

مناسبة التّقديم للمجاورة:

قدَّمَ سبحانه ذِكْرَ الجهاد على ذِكْرِ انتفاء الخوف منَ اللّائمين لمجاورته ﴿أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾[2]. فقدّم الجهاد لأنّه سنامُ الإسلام؛ فإن لم يكن مُجاهدًا في سبيل اللّه في أوقات افتراضه على المؤمنين فلا يكون معنًى يُذكر لقوله: ﴿وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖۚ﴾؛ لأنّه لم يشرع أصلًا في ما سيُلام عليه، وإنّما يَلومُ النّاس على كبائر الأمور، وأوّلها: الجهاد والقتال وبذل النّفس في سبيل اللّه.

تتعدّد الأساليب وتتنوّع، ولعلّ جهاد العلماء بما يكتبون ويُعلّمون هو الأعظم مكانًا عند الله تعالى

التّتميم في قوله: ﴿يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾:

وفي قوله ﴿يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ تعريض بالمنافقين، وجوّز أن يكون حالًا من فاعل يُجاهِدُونَ أي: يجاهدون، وحالهم غير حال المنافقين، والتّعريض فيه حينئذٍ أظهر[3]. والتّتميم في قوله: ﴿يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ مفيد للمبالغة والاستيعاب لمعنى: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾.. فذلّهم للمؤمنين، وقتالهم للكافرين هو مدعاة جهادهم في سبيل اللّه، فيقاتلون مع المؤمنين في صفوفهم ضدّ أعدائهم منَ الكافرين، ومنَ الّذين ارتدّوا عن دينهم.

الجهاد بذل الجهد في كلّ أمور الحياة من أجل إعلاء كلمة الله تعالى

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 6/237.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/299.
(3) الآلوسّي، روح المعاني: 3/331.

التّرقّي في قوله: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾: ﴿يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾: ﴿وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ﴾:

قوله ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ صفة أولى.

وقوله: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ صفة ثانية، وما تتضمّنه من إظهار الجانب الواقعيّ والعمليّ لحبّهم لله سبحانه.

غاية المؤمن دائمًا هي التّرقّي في إرضاء الله تعالى فكلّما عمل عملًا صالحًا ارتقى إيمانًا وارتقى مكانة عند الله تعالى

وقوله: ﴿يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ صفة ثالثة، وهي من أكبر العلامات الدّالّة على صدق الإيمان. والجهاد: إظهار الجُهد؛ أي: الطّاقة في دفاع العدوّ، ونهاية الجهد التّعرّض للقتل، ولذلك جيء به على صيغة المُضارع؛ ليدلّ على التّجدّد والاستمرار وهذا ينسجم تمامًا مع معنى الجهاد في سبيل الله؛ لأنّه يظهر جهده لمَن يُظهر له مثله.

وقوله: ﴿وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ﴾ صفة رابعة، وهي عدم الخوف منَ الملامة؛ أي: في أمر الدّين، كما هو السّياق[1].

والخوف أعظم منَ الجهاد، فكان ذلك ترقّيًا منَ الأدنى إلى الأعلى، وقوله: ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾ فـ(ذلك) إشارة إلى ما تقدّم منَ الأوصاف الّتي تحلّى بها المؤمن، ذكر أنّ ذلك هو فضل منَ الله يؤتيه من أراد، ليس ذلك بسابقة ممّن أعطاه إيّاه، بل ذلك على سبيل الإحسان منه تعالى لمَن أراد الإحسان إليه. وقيل: ذلك إشارة إلى حبّ الله لهم وحبّهم له. وقيل: إشارة إلى قوله: أذلّة على المؤمنين، وهو لين الجانب، وترك التّرفع على المؤمن[2].

جناس الاشتقاق في قوله: ﴿لَوْمَةَ لَآئِمٍ﴾:

الامتزاج بالإيمان وأفعال الإيمان يُحصّن المؤمن من معوّقات المجتمع

فائدة جناس الاشتقاق هنا ما ذُكر آنفًا.. فضلًا عن أنّ المشهد يُصوِّرُ حجم ما سيواجه هؤلاء من ملامات المجتمع من محبّين

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 6/238.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/300.

وغيرهم، فيكونون بذلك راسخي التّوجّه، عازمين على فعل ما يرونه هو الحقّ وهو من صميم الدّين والإيمان.

بلاغة التّذييل في قوله: ﴿ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ﴾:

وجملة ﴿ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ﴾ تذييل، واسم الإشارة يشير إلى مجموع صفات الكمال المذكورة، وقوله: ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ﴾ وصف بالسّعة[1] كثيرُ الفواضل والألطاف، ﴿عَلِيمٞ﴾: مبالغٌ في العلم بجميع الأشياء الّتي مِن جملتها مَن هو أهلٌ للفضل والتّوفيق، والجملة اعتراضٌ تذييليٌّ مقرِّرٌ لمضمون ما قبله، وإظهارُ الاسم الجليل؛ للإشعار بالعلّة، وتأكيد استقلال الجملة الاعتراضيّة[2].

العبرة تكون في الخواتيم ولذلك تُختم عادة آي القرآن بالبشارات للمؤمنين

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(يرتدّ)، و(يرجع):

منَ الفوارق المهمة بين الارتداد والرّجوع أنّ الارتداد يعبّر عنِ التّردّد والتّناوب، وهذا حال المرتدّين، وما يتردّد في صدورهم منَ الإيمان والكفر فقد يصبح مؤمنًا ويمسي كافرًا، أو قد يمسي مؤمنًا ويصبح كافرًا، وأمّا الرّجوع فلا يحدث معه هذا التّناوب بل إنّ الرّاجع يكون لمرّة واحدة دون تردّد وتناوب، والرَّجعَة المرّة الواحدة[3]. ولو أراد التّناوب لقال التّرجيع، ومن ذلك التّرجيع في الأذان: وهو ترديد الشّهادتين، أي: تكريرهما[4].

قال: (لومة)، ولم يقل: (لوم):

في الآية الكريمة قال: (لومة)، ولم يقل: (لوم): فكيف يكون (لَومَةَ) أبلغ من (لوم) مع ما فيها من معنى الوحدة، فلو قيل: (لوم لائم) كان أبلغ؛ والحقيقة أنّها في الأصل للمرّة، لكنّ المراد بها هنا الجنس، وأتي بالتّاء؛ للإشارة إلى أنّ جنس اللّوم عندهم بمنزلة لومة واحدة[5].

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 6/239.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/48.
(3) الخليل، العين: (رجع).
(4) النّسفيّ، طلبة الطّلبة، ص: 10.
(5) النّسفيّ، طلبة الطّلبة: 3/331.

﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمۡ رَٰكِعُونَ ٥٥﴾ [المائدة: 55]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

جملة ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ إلى آخرها متّصلة بجملة ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَۘ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ﴾ [المائدة: 51]، وما تفرّع عليها من قوله: ﴿فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ﴾ إلى قوله: ﴿فَأَصۡبَحُواْ خَٰسِرِينَ ٥٣﴾ [المائدة: 52، 53]، وقعت جملة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ﴾ [المائدة: 54] بين الآيات معترضة، ثمّ اتّصل الكلام بجملة: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾[1].

وبعد أن حذّر في آية سابقة من ولاية اليهود والنّصارى، وحذّر في آية أخرى منَ الارتداد عنِ الدّين، ثمّ توعّد المرتدّين بقوم أشدّاء يأتون، يجاهدون في سبيل اللّه، ولا يخافون لومة لائم؛ ناسب أن يوجّه الخطاب هنا للمؤمنين، ويبيّن مكان الولاية الحقّة، وحصر وجود الولاية باللّه، ورسوله، والّذين آمنوا.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يُقِيمُونَ﴾: جذر الكلمة هو (قوم)؛ والقيام: نقيض الجلوس[2]. وأقامَ بالمكان إقامةً، والمُقامَة بالضّمّ: الإقامة. والمَقامَة بالفتح: المجلسُ، والجماعة منَ النّاس[3]. والإقامة في المكان الثّبات. وإقامة الشّيء توفية حقّه. وأقامَ الشّيء؛ أي: أدامه، من قوله تعالى: ﴿يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [المائدة: 55][4]. ولم يأمر تعالى بالصّلاة حيثما أمر، ولا مَدَحَ به حيثما مدح إلّا بلفظ الإقامة؛ تنبيهًا أنّ المقصود منها توفية شرائطها، لا الإتيان بهيئاتها، نحو ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [البقرة: 43 - 83 - 110] [النّساء: 77 - 103] وغيرها في غير مَوضِع.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 6/239.
(2) ابن منظور، لسان العرب: (قوم).
(3) الجوهريّ، الصّحاح: (قوم).
(4) الجوهريّ، الصّحاح: (قوم).

2) ﴿وَيُؤْتُونَ﴾: جذر الكلمة هو (أتي)؛ والإتيانُ: المجيء بسهولة[1]. وقد أتاه من باب (رمى)، وإتيانًا أيضًا وأتاه يأتوه أتوة؛ لغة فيه[2]، ويُقال في الخير، وفي الشّرّ، وفي الأعيان، وفي الأعراض، نحو قوله تعالى: ﴿إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ﴾ [الأنعام: 40]، وقوله: ﴿فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ﴾ [النّحل: 26]؛ أي: بالأمر والتّدبير[3].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

بعد أن بيّن سبحانه مَن لا تجوز ولايته بيّن هنا مَن تجب ولايته، فليس لكم أيّها المؤمنون ناصر ينصركم إلّا اللّه تعالى، ورسوله، والمؤمنون المتّصفون بإقامة الصّلاة، وإيتاء الزّكاة، مع خضوع للّه وخشوع.

❁ الإِيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغة أسلوب القصر في قوله: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾:

تأكيد النّهي عن موالاة العدو، وبخاصّة في حال الحرب

جاءت هذه الجملة في مَوقِع التّعليل للنّهي (لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ)؛ لأنّ ولايتهم للّه ورسوله مقرّرة عندهم، فمَن كان اللّه وليّه لا يكون أعداءُ اللّه أولياءه، وتفيد هذه الجملة تأكيدًا للنّهي عن ولاية اليهود والنّصارى[4].

وقد جاءتِ الجملة بأسلوب القصر، وبالأداة ﴿إِنَّمَا﴾ المستخدمة فيما لا يجهله المخاطب ولا ينكره، وكأنّ المعنى ينادي على أنّ الجدير بالولاء في طبائع العقول هو اللّه ورسوله والمؤمنون، وبخاصّة بعد بسط صفات من لا تصحّ موالاتهم منَ المحاربين "فكأنّه قيل: لا تتّخذوا أولئك أولياء؛ لأنّ بعضهم أولياء بعض، وليسوا بأوليائكم، إنّما أولياؤكم اللّه تعالى ورسوله ﷺ والمؤمنون فاختصّوهم بالموالاة

(1) الجوهريّ، الصّحاح: (قوم).
(2) الرّازيّ، مختار الصّحاح: (أتي).
(3) الرّاغب، المفردات: (أتي).
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 6/239.

ولا تتخطّوهم إلى الغير[1]، وأسلوب القصر يفيد الإيجاز؛ إذ هو جملة تقوم مقام جملتين، وفي توسيع المقصور عليه وتعداده؛ رفعة لشأن الولاية، وتعظيم لقدرها، وفيه أيضا إعلاء لشأن المُخاطَبين"، وإجراء صفتي: ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ على الّذين آمنوا للثّناء عليهم، وكذلك جملة ﴿وَهُمۡ رَٰكِعُونَ﴾[2]، وفي التّعبير بالمضارع في جملة الصّلة دلالة على التّجدّد والحدوث، وفيه إلاحة لإعظام الأجر بتجديد العمل.

خروج الخبر إلى معنى الأمر:

العناية بالأمر تبرزه في صورة الواقع المحقّق

قوله: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ يتضمّن أمرًا بتقرير هذه الولاية ودوامها، "وهو خبر مستعمل في معنى الأمر[3]؛ إذ لا تقبل ولاية أحد غير ولاية اللّه ورسوله والمؤمنين، ولذلك وقع هذا الخبر موقع الأمر.

بلاغة الكناية في قوله: ﴿وَهُمۡ رَٰكِعُونَ﴾:

الخشوع في أداء العبادات آية على حقيقة الحبّ

قوله تعالى: ﴿وَهُمۡ رَٰكِعُونَ﴾ يراد بالرّكوع الخشوع[4]. وهي حال من فاعل الفعلين، أي: يعملون ما ذكر من إقامة الصّلاة وإيتاء الزّكاة، وهم خاشعون ومتواضعون للّه تعالى، ومثل ذلك قوله: ﴿وَٱرۡكَعِي مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ۝٤٣﴾ [آل عمران: 43]، إذ ليس في صلاة من قبلنا من أهل الشّرائع ركوع، وهو أحد الأركان بالإجماع[5]، وكذا في قوله تعالى: ﴿وَخَرَّ رَاكِعٗا وَأَنَابَ ۩ ۝٢٤﴾ [ص: 24]، وقوله ﷻ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرۡكَعُواْ لَا يَرۡكَعُونَ ۝٤٨﴾ [المرسلات: 48]، ويُراد بالرّكوع الخشوع والتّواضع[6]، وسياق السّباق معلن أنّها جملة حاليّة، قيد في إيتاء الزّكاة على

(1) الآلوسّي، روح المعاني: 3/333.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 6/239.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 6/239.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 6/240.
(5) الآلوسّي، روح المعاني: 3/334.
(6) الآلوسّي، روح المعاني: 2/151.

طريق التّواضع مع الفقراء لمَا في العطاء من داعي الاستعلاء، فهم أهل تواضع مع رفعة قدر، وعلوّ مكانة.

التّرقّي في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمۡ رَٰكِعُونَ﴾:

يرقى المؤمن بالعمل الدّائب إلى مراقي الخلق العظيم

هذه أوصاف ميّز بها المؤمن الخالص الإيمان منَ المنافق، لأنّ المنافق لا يدوم على الصّلاة ولا على الزّكاة[1]، قال تعالى: ﴿وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ﴾.. وقال تعالى: ﴿أَشِحَّةً عَلَى ٱلۡخَيۡرِۚ﴾ [الأحزاب: 19]، والتّرقّي هنا تراكمي، إذ ينتج العمل الصّالح الصّادق صفة عليا، وهي التّواضع، فبدأ بالصّلاة، ثمّ ارتقى إلى الزّكاة، ثمّ ارتقى إلى التّواضع، فهذه ثلاث حلقات متوالية متماسكة ترقى بصاحبها.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

وليُّكم وأولياؤكم:

وقال: (وليّكم) بالإفراد، ولم يقل: (أولياؤكم) وإن كان المخبر به متعدّدًا؛ لأنّ وليًّا اسم جنس، أو لأنّ الولاية الحقيقيّة هي للّه تعالى على سبيل التّأصّل، ثمّ نظم في سلكه من ذكر على سبيل التّبع، ولو جاء جمعًا، لم يتبيّن هذا المعنى منَ الأصالة والتّبعيّة.

وفائدة التّفصيل في الخبر هي التّنبيه على أنّ كونهم أولياء بعد كونه وليًّا لهم لجعله إيّاهم أولياء، ففي الحقيقة هو الوليّ.

ويحتمل وجهًا آخر؛ وهو أنَّ (وليّ) بزنة فعيل، وفعيل قد نصّ أهل اللّسان أنّه يقع للواحد والاثنين والجمع تذكيرًا وتأنيثًا بلفظ واحد كصديق، غيرُ واقع موقعه؛ لأنّ الكلام في سرّ بيانيّ، وهو نكتة العدول من لفظ إلى لفظ[2]، ولو قيل: إنّما أولياؤكم اللّه ورسوله والّذين آمنوا لم يكن في الكلام أصل وتبع[3]، إذ لا يُفهم أصلٌ للولاية، فتكون ولاية الرّسول ﷺ والّذين آمنوا، كولاية اللّه، وهذا لا يصحّ.

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/300.
(2) السّيوطيّ، نواهد الأبكار: 3/280 - 281.
(3) النّسفيّ، مدارك التّنزيل: 1/453.

﴿وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ ٥٦﴾ [المائدة: 56]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

بعد أن أمر المؤمنين بولاية الله، وكذلك رسوله والّذين آمنوا، ناسب هنا التّأكيد لبالغ أهمّيّة الموضوع، ثمّ زاد عليه بقوله: ﴿فَإِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ﴾؛ إذ جعل المؤمنين مع اختلاف أعراقهم، وقبائلهم، ولغاتهم حزبًا واحدًا، ووعدهم بالغلبة.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿حِزۡبَ﴾: جذر الكلمة هو (حزب)؛ وحَزَبَ الأمرُ يَحزُبُ حَزبًا: إذا نابَك، وتَحَزَّبَ القوم: تَجَمَّعوا. وحَزَّبتُ أحزابًا: جَمَّعتُهم. والحِزبُ: أصحاب الرّجل على رأيه وأَمره، والمؤمنون حزب الله، والكافرون حزب الشَّيطان. وكلُّ طائفة تكون أهواؤهم واحدة فهم حزبٌ[1]. وحزب قومه فتحزّبوا، أي: صاروا طوائف. وفلان يحازب فلانًا: ينصره ويعاضده[2]. والحزب: النّصيب، وحزبهم أمر يحزبهم من باب قتل: أصابهم[3].

2) ﴿ٱلۡغَٰلِبُونَ﴾: جذر الكلمة هو (غلب)؛ غَلَبَ يغلِبُ غَلَبًا وغَلَبةً. والغِلاب: النِّزاع. والأَغلَب: الغليظ الشّديد القصرة، واغلَولَبَ العُشبُ في الأرض إذا بلغ كلَّ مبلغ[4]. واغلولبتِ الأرض: إذا التفّ عشبها. واغلولبَ القوم: إذا كثروا. ورجل غلبة: إذا كان غالبًا[5]. وقوله: "إنّ رحمتي تغلب غضبي" استعارة؛ لكثرة الرِّفق والرَّحمة وشمولها على العالمين فكأنَّها الغالب[6].

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

نوّه بشأن ولاية الله ورسوله والمؤمنين، وأعاد ذكر الله ورسوله والّذين آمنوا مبيّنًا أنّ

(1) الخليل، العين: (حزب).
(2) الزّمخشريّ، أساس البلاغة: (حزب).
(3) أبو العبّاس، المصباح المنير: (حزب).
(4) الخليل، العين: (غلب).
(5) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (غلب).
(6) عياض، مشارق الأنوار: (غلب).

الّذين آمنوا هم حزب اللّه، وأنّ مَن يتولّاهم، ويسير على نهجهم، فإنّه من حزب اللّه، وأنّ حزب اللّه هو الغالب.

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالة جملة الشّرط في قوله: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ﴾:

تجديد الولاية لله من ضرورات رصانة الإيمان، وصحّة العقيدة

عطف الآية الكريمة على الآية السّابقة، وأوردها النّظم الكريم بأسلوب الشّرط تحفيزًا على الولاء للّه ولرسوله وللمؤمنين، وأكّد هذا التّحفيز مجيء جواب الشّرط جملة اسميّة مؤكّدة؛ لبيان أنّ الغلبة حليف لا يتخلّف لمَن والَى اللّه ورسوله والمؤمنين، ووقعت جملة الشّرط بالفعل المضارع دلالة على التّجدّد والاستمرار لتلك الولاية كي لا يطول عليها العهد، فتقسُوَ القلوب، وتنحرف الولاءات.

التّناسب في قوله: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾:

حلقات الموالاة الّتي جاء بها القرآن متماسكة لا تنفكّ عن بعضها

قال تعالى: ﴿يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ فولاية اللّه تدرك بالإيمان والتّقوى. فكلّ مَن كان مؤمنًا تقيًّا كان للّه وليًّا، ومَن كان وليًّا للّه فهو وليّ لرسوله، ومَن تولّى اللّه ورسوله كان تمام ذلك تولّي مَن تولّاه، وهم المؤمنون الّذين قاموا بالإيمان ظاهرًا وباطنًا[1].

وضع الظّاهر مَوضِع المُضمَر في قوله: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾، وقوله: ﴿فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ﴾:

الولاية لله وللرّسول وللمؤمنين حليفها الغلبة والنّصر دائمًا

قال: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾، ولم يقل: ومَن يتولّاهم مع قرب العهد في الذّكر؛ لأنّ في وضع المظهر مَوضِع المُضمَر فوائد جمّة؛ منها أن تصير جملة الشّرط بجملتها مثلًا، وعقدًا ماضيًا في كلّ زمن؛ أنّ من حقّق الولاء كانت له الغلبة، كما أنّ فيه أيضًا تأكيدًا للولاء، وتكرار الولاء صريحًا في آيتين متتابعتين يؤكّد حقيقته،

(1) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن: 1/235.

ويرشد إلى منافعه، كما أنّ الشّرط كلّما استغنى في البيان عن غيره كان بناء الجواب عليه أصرح في البيان، وأقوى في الدّلالة.

وقال: ﴿حِزۡبَ ٱللَّهِ﴾، ولم يقل: حزبه، فوضع الظّاهر مَوضِع المُضمَر، وفائدته: أنّ في الإضافة إلى الاسم الظّاهر (اللّه) تشريفًا للمؤمنين، كما أنّ في التّعبير بالاسم الظّاهر مكان الضّمير إلاحة لأن يصير ذلك مثلًا لكلّ جماعة منَ المؤمنين في كلّ زمن، وكأنّه الشّعار ﴿فَإِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ﴾، كما أنّ في إضافة "حزب اللّه تعالى تعظيمًا لهم، وإثباتًا لغَلَبتهم بالطريق البرهانيِّ، كأنّه قيل: ومن يتولّ هؤلاء فإنّهم حزبُ اللّه، وحزبُ اللّه هم الغالبون[1].وقوله: ﴿فَإِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ﴾" دليل على جواب الشّرط بذكر علّة الجواب كأنّه قيل: فهم الغالبون لأنّهم حزب اللّه[2]، وفي هذا إيجاز بليغ بحذف الجواب.

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/52، والآلوسّي، روح المعاني: 3/338.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 6/240.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمۡ هُزُوٗا وَلَعِبٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَٱلۡكُفَّارَ أَوۡلِيَآءَۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ٥٧﴾ [المائدة: 57]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

بعد أن حذّر المؤمنين من موالاة اليهود والنّصارى، وحذّر منَ الارتداد عنِ الدّين، وما تبع ذلك منَ الوعيد.. ثمّ دعوته سبحانه المؤمنين إلى اتّخاد حزب اللّه وليًّا وسندًا.. بيّن هنا تأكيده سبحانه على عدم موالاة مَن يتّخذون ما شرّعه اللّه تعالى هُزوًا ولعبًا.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿هُزُوًا﴾: جذر الكلمة هو (هزأ)؛ الهُزءُ؛ مزح في خفّة[1]، هزئ به ومنه وهزأ وتهزّأ واستهزأ، واتّخذه هزؤًا. وفعل ذلك استهزاءً به. ورجل هزاءٌ وهزأة، وهو هزأة بين النّاس: يهزؤون به[2]. ومن ذلك في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿وَإِذَا عَلِمَ مِنۡ ءَايَٰتِنَا شَيۡـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًاۚ﴾ [الجاثية: 9]، وقوله: ﴿وَإِذَا رَأَوۡكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا﴾ [الفرقان: 41]، وقوله: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًاۚ﴾ [البقرة: 231]، فقد عظّم تبكيتهم، ونبّه على خُبثهم من حيث إنّه وصفهم بعد العلم بها، والوقوف على صحّتها بأنّهم يهزؤون بها[3].

2) ﴿لَعِبًا﴾: اللّعب بفتح أوّله وكسر ثانيه، والتّلعاب: مصدر لعب كسمع، وهو الأخذ على غير طريق الجدّ، ومثله: العبث، وأصله من لُعاب الصّبيّ، يُقال: لَعِبَ؛ كسَمِعَ، ومَنَعَ؛ إذا سال لعابه، وخرج إلى غير جهة[4].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

الآية تنهى المؤمنين عنِ اتّخاذ أولياء ممّن يستهزئون بالدّين، ويتلاعبون بالشّرع القويم

(1) الرّاغب، المفردات: (هزؤ).
(2) الزّمخشريّ، أساس البلاغة: (هزأ).
(3) الرّاغب، المفردات: (هزؤ).
(4) الآلوسّي، روح المعاني: 3/338.

من أيّ صنف كانوا من أهل الكتاب، أو الكافرين، أو غيرهم ممّن يصدق عليهم هذا الوصف القبيح، ثمّ ختم الآية بتحذير المؤمنين من مقارفة هذا الإثم الكبير الّذي يخلّ ارتكابه بوصف الإيمان.

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

الافتتاح بالنّداء قبل النّهي، ودلالة مَوقِع قوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا﴾ ممّا قبله:

تـكـرار الـنّـهـي بـأسـالـيـب متنوّعة تأكيد عـلـى الـقـيـمـة العليا له

افتتحتِ الآية بالنّداء وبوصف الإيمان ترغيبًا لهم في الانتهاء، وحثًّا لهم على الثّبات على الاتّصاف بأرقى الأوصاف (الإيمان)، وفيه تمهيد للنّهي، وتمهيد لإنفاذه، والآية على سبيل الاستئناف تأكيد لمضمون الكلام الّذي قبله، فإنّ قوله: ﴿۞يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَـٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ﴾ [المائدة: 51].. تحذير من موالاة أهل الكتاب؛ ليظهر تميّز المسلمين. فالآية تأكيدٌ على المؤمنين، وتكرارٌ للنّصّ بأسلوب مغاير لأهمّيّة التّحذير للمؤمنين مِن اتّخاذهم أولياء لا يؤمنون بالله، ولا يحترمون التّشريع؛ بل يتّخذونه هزوًا ولعبًا.. وفي ذلك معاداة صريحة للدّين والتّشريع، ومحادّة لله ولرسوله وللمؤمنين.

الإدماج في قوله: ﴿ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا﴾:

انـــحـــدار المجتمعات في هـاويـة الـلّـعـب بـالـدّيـن يوجب حـرص المؤمنين على صيانته

استنبط العلماء من الآية إشارة إلى مشروعية الأذان ومكانته المهمة وذلك "أنّ الله تعالى أخبر أنّ نداء الصّلاة سبب لاتّخاذهم إيّاها هزوًا، وعلّله بجهلهم، فدلّتِ الآية على سبيل الإدماج، وإشارة النّصّ على ثبوته[1].

وقوله: ﴿هُزُوًا وَلَعِبًا﴾؛ بيان لاستهزائهم بحكم خاصّ من أحكام الدّين بعد بيان استهزائهم بالدّين على الإطلاق إظهارًا

(1) السّيوطيّ، نواهد الأبكار: 3/282.

لكمال شقاوتهم[1]، فأدمج الاستهزاء واللّعب في الدّين، بينما كان الاستهزاء في الصّلاة وندائها.

دلالة سبب النّزول على المجاز في (الدّين):

سبب النّزول كاشف عن أنّ المراد بالدّين الصّلاة لأهمّيّتها

أخرج البيهقيّ عن ابن عبّاس ﵄ قال: كان منادي رسول اللّه ﷺ إذا نادى بالصّلاة، فقام المسلمون إليها، قالت اليهود: قد قاموا لا قاموا، فإذا رأوهم ركّعًا وسجّدًا استهزؤوا بهم، وضحكوا منهم، وعليه يكون إطلاق الدّين على الصّلاة من إطلاق الكلّ على الجزء، وهو مجاز مُرسَل دلّ على مكانة الصّلاة منَ الدّين، وليس ذلك بمستغرب فهي الرّكن الأعظم للدّين، ويؤيّده أيضًا ما "رُوي عنِ ابن عبّاس: أنّ قومًا منَ اليهود والمشركين ضحكوا منَ المسلمين وقت سجودهم. وقال الكلبيّ: كانوا إذا نادى منادي رسول اللّه، قالوا: صياح مثل صياح العير، وتضاحكوا، فأنزل اللّه هذه الآية[2].

طباق السّلب في قوله: ﴿لَا تَتَّخِذُواْ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ﴾:

اللّعب والاستهزاء بالدّين انعكاس لسوء الأخلاق

فالكلام نهيٌ للمؤمنين بقوله: ﴿لَا تَتَّخِذُواْ﴾، ثمّ أتبعها مباشرة بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ﴾؛ وبين الكلمتين طباق سلب، فائدته: بيان أنّ الجزاء من جنس العمل، فكما أنّهم اتّخذوا الدّين لعبًا، فعليكم أنتم أن تنبذوهم، فلا توالوهم في شيء، وليعلموا أنّ مصالحهم الدّنيويّة قدِ ارتبطت مباشرة بما يفعلونه منَ الاستهزاء في أمور الدّين، واتّخاذ عباداته وتشريعاته لعبًا.

دلالة قوله: ﴿هُزُوًا وَلَعِبًا﴾:

تقيّد الفعل بهذين الحالين الاستهزاء واللّعب إلهاب وتهييج لعدم موالاتهم، وقد خُصّا بالذّكر مع أنّ الكافرين كانوا يتّخذون الدّين وأهله بعديد منَ الصّفات والأفعال، واتّهموا أهل الدّين

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/53.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/241.

بكثير منَ التّهم الباطلة، ولكنّ الاستهزاء بالدّين جريمة كبرى، والاستهزاء بالدّين لا يُبقي في العقل والقلب عروة من عرى الإيمان، وفرصة للتّراجع والتّوبة، وفي ذلك إلهاب لمنابذتهم، ونفض يد الولاء منهم؛ "لأنّ الاستهزاء والاستخفاف احتقار، والمودّة تستدعي تعظيم الودود[1].

تنوّع أساليب الكافرين في اتّخاذ الدّين هزوًا ولعبًا موجب لمنابذتهم

بلاغة الكناية عنِ اليهود والنّصارى بقوله: ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ﴾:

لم يصرّح هنا بما صرّح به في قوله: ﴿۞يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ﴾، وإنّما كنّى عنهم بقوله: ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ﴾ لما في الكناية من زيادة التّشنيع عليهم؛ لكونهم أهل كتاب منزل منَ السّماء، وفي ذلك زيادة تقبيح، إذ لا يستقيم مع من أوتي الكتاب أن يهزأ بالدّين؛ لأنّ الدّين للّه، ومن اللّه، ومعناه: أنّ اسهزاءهم بالدّين استهزاء أيضًا بكتابهم المنزل عليهم، والقيد بقوله: (من قبلكم) زيادة تشنيع إلى تشنيع، فالأصل أنّ من سبق له إيمان بكتاب سماويّ أن يحترم كلّ كتاب سماويّ.

استهزاء كلّ مَن أُوتي كتابًا بكتاب سماويّ هو استهزاء بكتابه الّذي يؤمن به

بلاغة تذييل الآية بقوله: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾:

قوله: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾؛ أي: احذروه بامتثال ما نهاكم عنه، وذكر هذا الشّرط استنهاض للهمّة في الانتهاء، وإلهابٌ لنفوس المؤمنين؛ ليظهروا أنّهم مؤمنون؛ لأنّ شأن المؤمن الامتثال.

تناسب الختم بالتّحذير والتّعقيب بالإلهاب مع الافتتاح بالنّهي

وليس للشّرط مفهوم هنا؛ لأنّ الكلام إنشاء، ولأنّ خبرَ كان لَقب لا مفهوم له، إذ لم يقصد به الموصوف بالتّصديق؛ ذلك لأنّ نفي التّقوى لا ينفي الإيمان عند مَن يُعتدّ به من علماء الإسلام الّذين فهموا مقصد الإسلام في جامعته حقّ الفهم. وإذا أُريد

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 6/241.

بالموالاة المنهيّ عنها الموالاة التّامّة، بمعنى: الموافقة في الدّين، فالأمر بالتّقوى؛ أي: الحذر منَ الوقوع فيما نُهوا عنه معلّق بكونهم مؤمنين بوجه ظاهر. والحاصل أنّ الآية مفسّرة أو مؤوّلة على حسب ما تقدّم في سالفتها، قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾ [المائدة: 51][1].

والجملة كلها تذييل يلائم ما افتُتحت به الآية، لمّا نهى المؤمنين عن اتّخاذ الكافرين أولياء، أمرهم بتقوى الله، "فإنّها هي الحاملة على امتثال الأوامر واجتناب النّواهي؛ أي: اتّقوا الله في موالاة الكفّار، ثمّ نبّه على الوصف الحامل على التّقوى، وهو الإيمان؛ أي: مَن كان مؤمنًا حقًّا يأبى موالاة أعداء الدّين[2].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 6/242.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/302.

﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ۝٥٨﴾ [المائدة: 58]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

تخصيص الصّلاة بعد ذكر الدّين جملة توكيدًا لشقاوتهم وسوء طويتهم

لمّا ذكر استهزائهم بالدّين عمومًا بيّن استهزائهم بحكم خاصّ من أحكام الدّين؛ إظهارًا لكمال شقاوتهم[1]، فلمّا "قدّم أنهم الذين اتّخذوا الدّين هزوًا ولعبًا اندرج في ذلك جميع ما انطوى عليه الدّين، فجرّد من ذلك أعظم أركان الدّين ونصّ عليه بخصوصه، وهي الصّلاة التي هي صلة بين العبد وربّه، فنبّه على أنّ من استهزأ بالصّلاة ينبغي أن لا يُتّخذ وليًّا، ويطرد، فهذه الآية جاءت كالتّوكيد للآية قبلها"[2].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾: (ندا) ناداهُ مُناداةً ونداء، أي صاح به، والنِّدَاءُ: رفْعُ الصَّوت وظُهُورُهُ، وقد يقال ذلك للصَّوْت المجرَّد، ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾ أي: دَعَوْتُمْ النّاس إليها بالأذان[3]. وندى الصوت: بعد مذهبه[4]، ومنه قوله ﷺ لصاحب الرّؤيا بالأذان: «وَلْيُنَادِ بِلَالٌ، فَإِنَّهُ أَنْدَى صَوْتًا مِنْكَ»"[5].

2) ﴿هُزُوًا وَلَعِبًا﴾: الهُزْءُ: السُّخْريةُ والاستخفافُ، يقال: استهزأ به يستهزئ، أي استخفّ به، وهو مزح في خفية، وقد يقال لما هو كالمزح، فممّا قصد به المزح قوله: ﴿ٱتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا﴾[6].

---

(1) الرّاغب، تفسير الراغب: 4/385، والرازي، مفاتيح الغيب: 12/388، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/303، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/53.

(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/303.

(3) الجوهري، الصحاح، والرّاغب، المفردات: (ندا).

(4) الواحديّ، البسيط: 7/441، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 6/224.

(5) ابن ماجه، السنن، الحديث رقم: (706)، وإسناده حسن.

(6) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللّغة، السّمين، عمدة الحفاظ: (هزأ)، والراغب، المفردات: (هزؤ).

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

إخبار عن سخريتهم من شرائع الإسلام

يخبر اللّه تعالى أنّه كما سخروا بالدّين فهم كذلك يسخرون ويلعبون إذا أَذّنْتُم للصّلاة التي هي أعظم قربة، وبسبب ذلك أنّهم قوم لا يعقلون عن اللّه معاني عبادته وشرائعه التي شرّعها للنّاس[1].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغة العطف:

عطف الاستهزاء بالصّلاة على الاستهزاء بالدّين، تأكيدًا للنّهي عن مولاتهم وبيانًا لسببه

قوله جلّ شأنه: ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾ معطوف على ﴿ٱتَّخَذُواْ﴾ في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا﴾، فهو من تمام الصّلة، ليكون وصفهم: اتّخذوا دينكم وصلاتكم هزوًا ولعبًا، تنبيهًا على أنّ من استهزأ بالصّلاة ينبغي أن لا يُتّخذ وليًّا، فالآية جاءت توكيدًا لمضمون لآية قبلها[2].

السّرّ في التعبير بـ (إذا):

عبّر بـ (إذا) إخبارًا بأنّ وقوع استهزاءهم كان مصاحبًا للأذان، ودلالةً على تكرار استهزاءهم

قوله جلّ شأنه: ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾ إخبار بحصول الاستهزاء في وقت النّداء للصّلاة[3]، فهم يظهرون استهزاءهم على وجه الخصوص مع الأذان للصّلاة، وفيه دلالةٌ تكرار فعل ذلك؛ لأنّ الأذان متكرّرٌ.

لماذا أسند النّداء للجميع والمنادي واحد:

أسند النّداء إلى ضمير الجمع؛ لأنّ النّداء متعلّق بالصّلاة التي تقام جماعة

قوله جلّ شأنه: ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾ أسند النّداء إلى ضمير المخاطبين مع أنّ المنادي للصّلاة واحدٌ[4]، وعلّة ذلك أنّ النّداء متعلّق بالصّلاةِ، والصّلاةُ تقام جماعة.

(1) نخبة من العلماء، المختصر في تفسير القرآن الكريم: 1/118.
(2) الرّاغب، تفسير الراغب: 4/385، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/303.
(3) الطّيبي، فتوح الغيب: 5/403.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/303.

السّرّ بالتّخصيص بعد التّعميم:

قوله جلّ شأنه: ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾ قد أخبر سالفًا أنّهم يتّخذون عموم الدّين هزوًا، والصّلاة مضمّنة في الدّين، وإنّما خصّها بالذّكر إظهارًا لكمال شقاوتهم؛ لأنّ الصّلاة أظهر شعائر الدّين، والنّداء إليها معلَنٌ للجميع[1]، فلمّا كانت شعيرة ظاهرة كان اتخاذهم إيّاها هزوًا ظاهرًا، وإظهارُ الهزوء بشعائر النّاس دليلٌ على السّفاهة.

خصّ الصّلاة بالذّكر بعد ذكر الدّين عمومًا لأنّها أظهر شعائر الدّين، فأظهروا استهزاءهم بها

مرجع الضّمير:

قوله جلّ شأنه: ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا﴾ يرجع الضّمير المؤنّث في: ﴿ٱتَّخَذُوهَا﴾ في الظّاهر على الصّلاة، مع صلاح عودته على المصدر المفهوم من ﴿نَادَيْتُمْ﴾ أي المناداة[2]، وفي ذلك دلالة على أنّ الاستهزاء بالأذان هو استهزاء بالصّلاة؛ لأنّها العبادة المقصودة بالنّداء، وإنّما شُرّع الأذان لأجلها، فمن استهزأ به فإنّما قد استهزأ بالصّلاة.

يستهزئون بالصّلاة وأعمالها والنّداء إليها

فائدة الإخبار بالمصدر دون الوصف:

قوله جلّ شأنه: ﴿هُزُوًا وَلَعِبًا﴾ عبّر عن سلوكهم القبيح بالمصدرين (الهزؤ، واللّعب)[3]؛ للدّلالة أنّهم جعلوا الصّلاة الهزؤ ذاته، واللّعبَ نفسه، أي صارت هي لعبتهم، مبالغةً في استهزائهم.

الإخبار بالمصدر للمبالغة، بيانًا لمبالغتهم في الاستهزاء واللّعب بالصّلاة

علّة اتّخاذهم الصّلاة لعبًا:

قوله جلّ شأنه: ﴿وَلَعِبًا﴾ عبّر باللّعب عن سوء فعلهم واعتقادهم، فإنّما اتّخذوها لعبًا؛ لعدم إدراكهم الغاية الشّريفة من العبادة، اعتقادًا منهم أنّها تخلوا من الفائدة والمنفعة في الدّين والدّنيا[4].

عبّر باللّعب عن سوء معتقدهم، وقلّة إدراكهم، إذ جهلوا الغاية من شرف العبادة

(1) الرّاغب، تفسير الراغب: 4/385، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/53.
(2) الزمخشري، الكشاف: 1/650، والرازي، مفاتيح الغيب: 12/388، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/303، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 2/133.
(3) الواحديّ، البسيط: 7/442.
(4) الرازي، مفاتيح الغيب: 12/388.

بيان المشار إليه باسم الإشارة:

قوله جلّ شأنه: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾ الإشارة إلى فعلهم أي الاستهزاء واللّعب، أي: ذلك الاستهزاءُ والسّخرية واتّخاذهم شرائع الإسلام لعبة[1].

إشارة إلى الاتّخاذ والاستهزاء المذكورين سابقًا

إيثار الإشارة بصيغة البعد:

قوله جلّ شأنه: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾ الإشارة إلى أفعالهم القبيحة باسم الإشارة الدّالّ على البعد لبيان عظم فحشها وبعدها في القباحة، وفيه تأكيد للمبالغة التي عبّر بها الإخبار بالمصدر عن لعبهم وهزؤهم، فتتناسب الإشارة بالبعد لبيان عظم استهزائهم مع المبالغة فيه.

آثر الإشارة إلى استهزائهم بصيغة البُعد إظهارًا لفحشه وبعده في القباحة، ومناسبة للمبالغة

فائدة التّعبير بالباء السّببيّة:

قوله جلّ شأنه: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾ عبّر بالباء السّببيّة لبيان علّة اتّخاذهم الصّلاة هزوًا ولعبًا؛ إذ الهزوء واللّعب في أمر الدّين إنّما هو شأن أهل السّفه والخفّة والطّيش، وهذا دليل انعدام العقل[2]، والمعنى: أنّ هذا الذي كان منهم سببه عدم عَقْلِهم، وسفه أحلامهم[3].

عبّر بالباء السّببيّة لبيان أنّ سبب اتّخاذهم الصّلاة هزؤًا ولعبًا خلوّهم من كمال العقل

فائدة الإخبار عن سبب استهزائهم بالجملة الاسميّة:

قوله جلّ شأنه: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾ عبّر تعالى بالجملة الاسميّة المؤكّدة بـ (إنّ) عن علّة اتّخاذهم باتّخاذ الصّلاة هزوًا ولعبًا؛ تأكيدًا لمضمون الآية، فإنّ السّامع يستغرب أن يصفهم بانتفاء العقل وهم ناس أسوياء، فجاء هذا التّأكيد لإزالة هذا الاستغراب؛ فإنّ الاستهزاء بالدّين منافٍ للتّعقّل[4].

أخبر بالجملة الاسميّة تأكيدًا لمضمونها، وهو سبب سفاهتهم بالاستهزاء بشعائر الإسلام

(1) السمين، الدر المصون: 4/317، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 5/2262.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/303، وابن جزي، التسهيل: 1/236، والقنّوجي، فتح البيان: 3/455.
(3) السمين، الدر المصون: 4/317، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 5/2262.
(4) السمين، الدر المصون: 4/317.

إيثار التّعبير عن انتفاء عقلهم بالجملة الاسميّة:

آثر التّعبير عن انتفاء العقل عنهم بالجملة الاسميّة تأكيدًا لجهلهم

قوله جلّ شأنه: ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾ أخبر تعالى عن انتفاء العقل عنهم بالجملة الاسمية المؤكّدة التي تثبت المعنى على وجه القوّة والثّبوت؛ للدّلالة على تأكيد جهلهم وإثبات سفهاتهم.

دلالة جعل المسند فعلًا مضارعًا منفيًّا:

عبّر عن انتفاء العقل عنهم بالفعل المضارع تصويرًا لطيشهم، ودلالةً على استمرار انتفائه

قوله جلّ شأنه: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾ عبّر عن انتفاء العقل عنهم بالفعل المضارع المنفيّ للدّلالة على استمرار النّفي؛ لبيان أنّ السّفه والطّيش عادةٌ لهم.

علّة نفي العقل عنهم:

لمّا كان فعلُهم ينافي لازمَ العقلِ نفاه عنهم تحقيرًا لهم

قوله جلّ شأنه: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾ نفيُ العقلِ لا يراد منه انتفاء العقل؛ إذ هو مناط التّكليف والخطاب، فالمنفيّ هو ما يستوجبه العقل من معرفة جلال اللّه وهيبته، فلمّا جهلوا ذلك بسوء مسلكهم نفاه عنهم تحقيرًا لهم، فهم بمنزلة من لا عقل له يمنعه من القبائح[1].

المتشابه اللّفظي:

نفي العقل ونفي العلم:

الاستهزاء بالصّلاة سفاهة، يناسبها نفي العقل

قوله جلّ شأنه: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾، فيه تشابه لفظيٌّ مع قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ۝٦﴾ [التّوبة: 6]. غير أنّه نفى في آية سورة المائدة العقل، وفي سورة التّوبة نفى العلم، فما وجه تخصيص كلّ موضع بما جاء فيه؟

الإجابة أنّنا نجد أنّ الآية في سورة المائدة بدأت بقوله جلّ شأنه: ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا﴾ فلمّا كان من يفعل ذلك سفيهًا لا يعقل، فإنّ الذي يناسبه هو نفي العقل لا نفي العلم، فقال جلّ شأنه: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾.

(1) الرازي، مفاتيح الغيب: 12/388، والصّاوي، حاشية الصاوي على الجلالين: 1/274.

إسماع كلام الله تعالى للمشركين لتعليمهم يناسبه ذكر انتفاء العلم

أمّا الآية في سورة التّوبة فقد بدأت بقوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ﴾ [التوبة: 6] فلمّا كان سماع كلام الله تعالى سببًا للعلم بالتّوحيد وسماحة الإسلام، وكان ذلك ممّا لا يعلمه هؤلاء المشركون؛ ناسبه أن يكون النّفي متسلّطًا على العلم، فقال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ٦﴾ [التوبة: 6].

﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ هَلۡ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنۡ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلُ وَأَنَّ أَكۡثَرَكُمۡ فَٰسِقُونَ ٥٩﴾ [المائدة: 59]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَا اتّخذوا الدّين هزوًا ولعبًا بيّن انتفاء أسباب ذلك

بعد أن ذكر اتّخاذهم الدّينَ والصّلاةَ والأذان هزوًا ولعبًا أمر اللّه تعالى نبيّه ﷺ أن يقول لأهل الكتاب: ما الذي تنقمون من هذا الدّين، وما الذي تجدون فيه ممّا يوجب اتّخاذه هزوًا ولعبًا؟[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تَنقِمُونَ﴾: (نَقَمَ) أُصل يَدُلُّ عَلَى إِنْكَارِ الفعل وَعَيْبِهِ، ولم يرضَ به، وبالغَ في كَراهته، وسَخِطَ عليه[2]، "﴿هَلۡ تَنقِمُونَ مِنَّآ﴾ أي: تكرهون وتنكرون"[3]، والمعنى "هل تعيبون منّا وتنكرون إلّا الإيمان بالكتب المنزلة كلّها"[4]، و(تَنقِمُونَ) مَعْنَاهُ تَسْخَطُونَ، وَتَكْرَهُونَ، وَتُنْكِرُونَ[5].

2) ﴿فَٰسِقُونَ﴾: (فسق) أصل يدلّ على الخروج عن الطّاعة[6]، تقول العرب: فَسَقَتِ الرّطبة، إذا خرجت عن قشرها. وفَسَقَ الرجل أي فَجَرَ، وخرج عن أمر ربِّه، أي خرج عن الحدّ في كفرانه وعصيانه[7].

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

ردّ على استهزاء اليهود بالإسلام وشرائعه

يخاطب اللّه تعالى نبيّه ﷺ بأن يقول للمستهزئين من أهل الكتاب: هل تعيبون علينا إلا إيماننا باللّه وبما أنزل إلينا، وبما

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/210، والرازي، مفاتيح الغيب: 12/388، والنيسابوري، غرائب القرآن: 2/610.
(2) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، والزمخشري، أساس البلاغة: (نقم)، والزّجاج، معاني القرآن وإعرابه: 2/186، والرّاغب، تفسير الراغب: 5/386.
(3) الواحديّ، البسيط: 7/443.
(4) الزمخشري، الكشاف: 1/650، والنيسابوري، إيجاز البيان: 1/277.
(5) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 6/233 - 234.
(6) الجوهري، الصحاح، وابن فارس، مقاييس اللغة: (فسق).
(7) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/293.

أنزل على من قبلنا، وفيكم من العيب ما هو أولى بالتّعييب وهو ما أنتم عليه من الكفر الموجب للعن اللّه وغضبه ومسخه، وأن أكثركم خارجون عن طاعة اللّه[1]. وسبب نزولها أنّه "أتى نفرٌ من اليهود رسول اللّه ﷺ فسألوه عمّن يؤمن به من الرّسل، فقال: "أؤمن ﴿بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ١٣٣﴾ [البقرة: 133]، فلمّا ذكر عيسى جحدوا نبوّته، وقالوا: واللّه ما نعلم أهل دين أقلّ حظًّا في الدّنيا والآخرة منكم، ولا دينًا شرًّا من دينكم، فأنزل اللّه هذه الآية وما بعدها"[2].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

فائدة الأمر بالقول دون التّعبير المباشر:

الأمر بالقول للمجاهرة وتلقين المقول تأكيدًا لنصّه ومضمونه

قوله جلّ شأنه: ﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ هَلۡ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنۡ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾ أمر اللّه تعالى النّبيّ ﷺ والمسلمين معه، بأن يقولوا في مخاطبتهم هذه المقالة؛ لتنزيه الدّين عمّا صدر منهم من الاستهزاء[3]، وتلقين القَول بمقولٍ ما يدلّ على أهميّته، لأنّه يجب أن يقال بصيغة بيّنة[4].

السّرّ بحكاية المقول بصيغة المتكلّمين:

جاء الخطاب بصيغة المتكلّمين لأنّ ما نقموه هو إيمان جماعة المسلمين

قوله جلّ شأنه: ﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ هَلۡ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنۡ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾ أمر اللّه تعالى نبيّه ﷺ أن يقول هذه العبارة بصيغة المتكلّمين: ﴿مِنَّآ إِلَّآ أَنۡ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا﴾ فالنّبيّ ﷺ كان يتكلّم ومعه المؤمنون؛ لأنّ ما نقمه اليهود هو إيمان المسلمين كلّهم، ولأنّ المسلمين جميعًا آمنوا بذلك.

(1) القنّوجي، فتح البيان: 4/7، ونخبة من العلماء، المختصر في تفسير القرآن الكريم: 1/118.
(2) الواحدي، أسباب النزول، ص: 201.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/53، والآلوسي، روح المعاني: 3/339.
(4) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/298، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/530، والآلوسي، روح المعاني: 4/159.

المراد بأهل الكتاب:

ذكر أهل الكتاب وأراد اليهود على الخصوص

قوله جلّ شأنه: ﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ هَلۡ تَنقِمُونَ﴾ ذَكر أهلَ الكتاب وأراد اليهود على الخصوص، فالخطاب ليس لعموم أهل الكتاب، بل لليهود؛ بقرينة الموصول وصلته في قوله تعالى: ﴿مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيۡهِ﴾[1].

علّة مخاطبتهم بأهل الكتاب:

خاطبهم بوصفهم أهل الكتاب تمهيدًا للتّهكم بهم

قوله جلّ شأنه: ﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ خاطب اليهود بوصفهم أهل الكتاب، ولم يقل: (يا بني إسرائيل)؛ لأنّه أراد أن يظهر لفظ الكتاب؛ تمهيدًا وتوطئة لما سيأتي من تبكيتهم وإظهار كفرهم بما في كتابهم[2].

المجاز في الاستفهام:

جاء الاستفهام تعجّبًا من استهزائهم بالإيمان والصّلاح

قوله جلّ شأنه: ﴿هَلۡ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنۡ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾ خاطبهم بالاستفهام على سبيل الإنكار والتّعجّب، أي هل تجدون في هذا الدّين إلّا الإيمان بالله وبجميع الأنبياء وهذا ليس مما يُنقَم؛ فالمذكورات كلّها محامِد لا يحقّ نقمها، فما وجه النقم؟[3].

المدح بما يشبه الذّم:

عبّر بأسلوب المدح بما يشبه الذّمّ لتأكيد انتفاء أسباب النّقم، بذكر صفات تمدح ولا تذمّ

قوله جلّ شأنه: ﴿هَلۡ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنۡ ءَامَنَّا﴾ لمّا نفى موجبات نقْمهم أعقبه بالاستثناء المشعر بوجود ما يُنقَمُ، ولكنّه ذكر في الاستثناء ما يؤكّد انتفاء ذلك، وهذا ما يسمّى بتأكيد المدح بما يشبه الذّمّ[4]، لأنّه أراد تأكيد انتفاء موجبات نقمهم فأكّده بهذا الأسلوب

---

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 2/133، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 6/243.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/54.

(3) الرازي، مفاتيح الغيب: 12/389، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 6/243 - 244.

(4) المدح بما يشبه الذّمّ: أن يأتي المتكلّم بكلام يتضمَّنُ مَدْحاً، أو ذمّاً، أو إثباتَ صفةٍ، أو حَدَثٍ، أو نَفْيَ صِفَةٍ، أو حدث، ويُتْبَعَهُ بكلاَمٍ يَبْدَؤُه بما يُشْعِرُ باستثناءٍ أو استدراكٍ على كلامه السابق فإذا به يأتي بما يتضَمَّنُ تأكيد كلامه السابق. والغرض المبالغة في المدح، فيعمد إلى الإتيان بعبارة يتوهم السامع منها في بادئ الأمر أنه ذم، فإذا هو مدح مؤكد. ينظر: السّبكي، عروس الأفراح: 2/269، والإسفراييني، الأطول: 1/109، والجناجي، البلاغة الصافية، ص: 271.

البليغ. والمعنى هل تعيبون علينا ما لا ينكر ولا يعاب وهو الإيمان بالله تعالى وبالكتب المنزلة، تنبيهًا للنّاقم على أنّ ما نقم عليه لا يعدُّ عيبًا[1]، وهذا كقول النّابغة الذّبيانيّ[2]:

ولا عيبَ فيهم غير أنّ سيوفَهم *** بهنَّ فُلُولٌ مِن قِراع الكتائبِ

الوظيفة التّركيبيّة للمصدر المؤوّل:

المصدر المؤوّل معمول ضمن حيّز كراهتهم ونقمتهم فهو مفعول به

قوله جلّ شأنه: ﴿وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ﴾ مفعول به لقوله ﴿تَنقِمُونَ﴾ والمعنى تكرهون إيماننا وفِسْقَكُمْ[3].

دلالة العطف:

قصدوا أنهم ينقمون مجموع الحالين إيمانهم وفسق اليهود

قوله جلّ شأنه: ﴿وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ﴾ عطف على قوله: ﴿أَنْ ءَامَنَّا﴾، للدّلالة على أنّهم لا ينقمون إيمان المسلمين بذاته، ولكنّهم ينقمون الجمع بين إيمان المسلمين وتمرّدهم وخروجهم عن الإيمان، كأنّه قيل: إنّكم ما تنقمون منّا إلا مجموع هذه الحال من أنّا مؤمنون وأنتم فاسقون[4].

التّهكم بوصفهم بالفسق:

وصفوهم بالفسق تهكّمًا بهم، وتعريضًا بخروجهم عن الإيمان، مع ثبات المسلمين على ذلك

قوله جلّ شأنه: ﴿وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ﴾ وصفوهم بالفسق للتّهكم بهم، ولبيان حسدهم،، أي وتنقمون منّا أنّ أكثركم فاسقون ونحن صالحون، وفيه تعريض بعدم اتّباعهم، والمعنى وما تنقمون منّا إلّا أن آمنّا وما فسقنا مثلكم[5].

العلّة بذكر صفة الأكثر دون الجميع:

قوله جلّ شأنه: ﴿وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ﴾ نسب الفسق إلى أكثرهم ولهم يعبّر عنهم بالضّمير فلم يقل: (وأنّكم فاسقون) تخصيصًا

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/210، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/303، وابن جزيّ، التسهيل: 1/236.
(2) ديوان النّابغة الذّبيانّي، ص: 44.
(3) الزّجاج، معاني القرآن وإعرابه: 2/186 - 187.
(4) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/210، والثعالبي، الجواهر الحسان: 2/396.
(5) الرازي، مفاتيح الغيب: 12/389، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 6/245.

للفسق بأكثرهم؛ لأنّ قليلًا منهم آمن واهتدى، ودفعًا لإيهام كون المؤمنين منهم متّصفين بتلك الصّفة[1].

ذكر الأكثر لأنّ بعضهم آمن واهتدى

إيثار وصفهم بالفسق بصيغة الاسم:

قوله جلّ شأنه: ﴿وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ﴾ عبّر عن فسقهم بالاسم للدّلالة على أنّ الفسق وصف ثابت بهم لا ينفكُّ عنهم.

للدّلالة على ثبوت الصّفة بهم، مبالغة في فسقهم

(1) الواحديّ، البسيط: 7/444، وابن عطية، المحرر الوجيز: 2/210، والرازي، مفاتيح الغيب: 12/390.

﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٦٠﴾﴾ [المائدة: 60]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمّا ذكر أنهم يعيبون على المسلمين إيمانهم ذكر في هذه الآية عيوبهم

لَمّا ذكر أنّ أهل الكتاب يعيبون المسلمين بما هو ليس عيبًا، وهو الإيمان بالله تعالى ورسله، ذكر عيوب أهل الكتاب في مقابلة ذلك؛ ردًّا عليهم وتذكيرًا بمساوئهم[1]، فلَمّا "أُمرَ ﷺ بإلزامهم وتبكيتهم ببيان أنّ مدارَ نقمِهم للدّين إنّما هو اشتمالُه على ما يوجب ارتضاءَه عندهم أيضًا، وكفرُهم بما هو مُسلَّم لهم، أُمرَ ﷺ عَقيبَه بأن يُبكتَهم ببيان أنّ الحقيقَ بالنّقم والعيب حقيقةُ ما هم عليه من الدّين المحرَّف"[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مَثُوبَةً﴾: (ثَوَبَ): أصلٌ يدلّ على العَوْدِ وَالرُّجُوعِ، والمَثوبةُ: ما جُوزي بِهِ الْإِنْسَان على فِعله من خَيْر أَو شَرّ[3]. وهي في الخير كالعقوبةِ من الشّرّ[4]."لكنّ الأكثر المتعارف أنّها في الخير: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ﴾، فإنّ ذلك استعارة في الشرّ"[5]، وفي الآية تعني "مرجعًا عند الله، أي في الحشر يوم القيامة، تقول العرب: ثاب يثوب إذا رجع، منه قوله تعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾"[6].

(1) ابن جزيّ، التسهيل: 1/237، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/54، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 6/245.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/54.
(3) الأزهري، تهذيب اللّغة، والجوهري، الصحاح، وابن فارس، مقاييس اللغة: (ثوب).
(4) الرّاغب، تفسير الراغب: 5/387.
(5) الرّاغب، المفردات: (ثوب).
(6) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/211.

2) ﴿ٱلطَّٰغُوتَۚ﴾: (طَغَى، طَغِيَ) أَصْلٌ يدلّ على مُجَاوَزَةِ الحَدِّ فِي العِصْيَانِ، وغَلا في الكُفْرِ والظُّلْمِ[1]. "والطَّاغُوتُ عبارةٌ عن كلِّ متعدٍّ، وكلِّ معبود من دون اللّه، ويستعمل في الواحد والجمع. قال تعالى: ﴿فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ﴾"[2].

3) ﴿سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾: (سَوِيَ) أَصْلٌ يَدُلُّ عَلَى اسْتِقَامَةٍ وَاعْتِدَالٍ بَيْنَ شَيْئَيْنِ، والسَّوَاءُ: وَسَطُ الدَّارِ وَغَيْرِهَا، وَسُمِّيَ بِذَلِكَ لِاسْتِوَائِهِ، أي: يستوي طرفاه[3]. "وسطُه، ومنه قول العرب قمت حتى انقطع سوائي، وخطّ الاستقامة في السّبل إنما هو متمكّن غاية التّمكن في الأوساط؛ فلذلك خصّ السّواء بالذّكر"[4]. "أَيْ عَنْ قَصْدِ السَّبِيلِ وَالدِّينِ الحَقِّ"[5]، فهُمْ "حَائِرُونَ لَا يَهْتَدُونَ إِلَى مستقيم الطريق"[6].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

يخاطب اللّه تعالى نبيّه ﷺ بأن يقول للمستمعين إن كان إيماننا باللّه وما أُنزل إلينا شرًا، فإني أنبئكم بما هو شرٌّ عاقبةً عند اللّه، إنّهم أسلافهم الذين طردهم اللّه من رحمته، ومسخهم، وجعل منهم عُبَّادًا للطّاغوت، أولئك شرٌّ منزلةً يوم القيامة، وأضلُّ سعيًا عن الطّريق المستقيم[7].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

فائدة الأمر بالقول دون الخطاب المباشر:

الأمـــر بالـقـول إشارة إلى عِظَم مضمون المقول، وتـأكـيـدٌ للنصّ المَلَقّن

قوله جلّ شأنه: ﴿قُلۡ هَلۡ أُنَبِّئُكُم بِشَرّٖ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِۚ﴾ أمر اللّه تعالى النّبيّ ﷺ بأن يخاطبهم بهذا الخطاب لاستدعاء إقبالهم على سماعه وتلقّيه[8]؛ لأنّ تلقين القَول بمقولٍ ما يدلّ على أهميّته، فهو من الأهميّة بحيث أن يقال بصيغة بيّنة[9].

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والفيروزآبادي، القاموس المحيط: (طغي).
(2) الرّاغب، المفردات: (طغى)، والزمخشري، الكشاف: 1/653.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سوي)، والراغب، المفردات: (سوا).
(4) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/213.
(5) الرازي، مفاتيح الغيب: 12/391.
(6) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/309.
(7) الرّاغب، تفسير الراغب: 5/387، ونخبة من العلماء، ونخبة من العلماء، المختصر في تفسير القرآن الكريم: 1/118.
(8) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/54.
(9) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/298، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/530، والآلوسي، روح المعاني: 4/159.

بلاغة الخطاب بالاستفهام:

الخطاب بالاستفهام يشوّق إلى ما سيخبرهم به، ويدعو للتّنبه له

في قوله جلّ شأنه: ﴿قُلۡ هَلۡ أُنَبِّئُكُم بِشَرّٖ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِۚ﴾ أمر اللّه تعالى نبيَّه ﷺ أن يخاطبهم بالاستفهام تشويقًا لما سيُخبرهم به، مع ما فيه من إجابة وردّ على استهزائهم سالف الذّكر[1].

الفرق بين الخطاب بالاستفهام دون الإخبار المباشر:

الإخبار بعد الاستفهام فيه إيقاظٌ لانتباههم، واستدعاء للاستماع بحضور وفَهْم

في قوله جلّ شأنه: ﴿قُلۡ هَلۡ أُنَبِّئُكُم بِشَرّٖ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِۚ﴾ أمر اللّه تعالى نبيّه ﷺ أن يخاطبهم بالاستفهام دون الإخبار المباشر؛ فلم يقل: (قل سأنبّئكم بشرّ من ذلك)؛ إيقاظًا لانتباههم، واستجلابًا لسماعهم؛ لأنّ الإنسان في فطرته يثيره ما يجهله، فإلقاء الخبر عليه بعد سؤاله يستدعي منه الحضور والانتباه لتلقّي الخبر بمزيد من الإدراك.

بلاغة التّعبير بضمير المخاطبين:

خاطب بالضّمير جميع السّامعين، تعميمًا لفضح اليهود بأسلافهم

يلاحظ في قوله جلّ شأنه: ﴿قُلۡ هَلۡ أُنَبِّئُكُم﴾ أنَّ ضمير المخاطب شاملٌ لكلّ سامع، فهو يشمل المؤمنين، واليهود، والكفّار، أي قل هل أنبّئكم بشرّ من حال هؤلاء الفاسقين، أولئك أسلاف هؤلاء المستهزئين، إذ لعنهم اللّه وغضب عليهم[2]، فالإنباء هنا عامّ لكلّ سامع تعميمًا لفضح اليهود بما فعله أسلافهم.

إيثار التّعبير بلفظ الشّرّ دون غيره:

دلالة النّقم على الشّرّ ليست قطعيّة

في قوله جلّ شأنه: ﴿قُلۡ هَلۡ أُنَبِّئُكُم بِشَرّٖ مِّن ذَٰلِكَ﴾ آثر التّعبير بلفظ الشّرّ دون غيره؛ فلم يقل (بأنقَمَ من ذلك) لأنّ مجرّد النّقم لا يدلّ على الشّرّ على جهة القطع، فآثر ذكر الشّرّ تحقيقًا لشرّ ما سيذكره، وزيادةً في تقريره[3].

(1) الواحديّ، البسيط: 7/444، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/54.
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/211، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/305، والسمين، الدر المصون: 4/323.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/54 - 55.

بيان المشار إليه:

في قوله جلّ شأنه: ﴿بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ﴾ اسم الإشارة يشير إلى الإيمان الذي نقموه، وإنّما أشار إليه بصفة الشّرّ على سبيل الفرض؛ لأنّه أراد أن يبني عليه التّهكّم في قوله: ﴿هَلۡ أُنَبِّئُكُم بِشَرٖ مِّن ذَٰلِكَ﴾ أي ممّا هو أشدّ شرًّا ممّا نقمتم من الإيمان[1].

الإشـــارة إلى الإيمان المنقوم عـــلى سبيـل الفرض؛ لبناء التّهكّم عليه

إيثار التّعبير بالإشارة دون الضّمير:

في قوله جلّ شأنه: ﴿قُلۡ هَلۡ أُنَبِّئُكُم بِشَرٖ مِّن ذَٰلِكَ﴾ عبّر عن الإيمان الذي نقموه باسم الإشارة دون الضّمير، فلم يقل: (بشرٍّ منه)؛ تعظيمًا لنقمهم، فإنّ جُرمهم ظاهر بحيث إنّه يشار إليه.

في التّعبير باسم الإشـارة إظهارٌ لعظم جرمهم، ودلالةٌ على شدّة ظهوره

السّرّ في التّعبير باسم الإشارة الدّالّ على البعد:

في قوله جلّ شأنه: ﴿قُلۡ هَلۡ أُنَبِّئُكُم بِشَرٖ مِّن ذَٰلِكَ﴾ عبّر باسم الإشارة الدّالّ على البعد، ولم يقل: (بشرّ من هذا) إشارة إلى شناعة ذلك النّقم، ودلالةً على بعد درجته في القبح، وعراقته في ذلك.

الـدّلالـة على شناعة نقْمهم، وبعد درجته في القبح

بلاغة الإيجاز بالحذف:

في قوله جلّ شأنه: ﴿بِشَرٖ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيۡهِ﴾ اسم التّفضيل في الآية يقارن بين (الإيمان)، و(مَنْ لعنه الله)، ولا مطابقة بينهما في المعنى فالمفاضلة لا تستقيم، إذ لا يقال: الملعون شرٌّ من الإيمان، فلا بدّ من تقدير مضاف قبل اسم الإشارة ليتطابق المعنى، والتّقدير: بشرٍّ مِن أهل ذلك الإيمان[2].

حـذف المضاف لـدلالـة المعنى عليه، تحقيقًا للمطابقة بين المشار والمشار إليه

اقتضاء وصف سبيل المؤمنين بالشّرّ والجواب عنه:

في قوله جلّ شأنه: ﴿بِشَرٖ مِّن ذَٰلِكَ﴾ أشار باسم الإشارة إلى أهل الإيمان، ثم أجرى مفاضلة بينهم وبين مَن لعنهم الله في صفة

(1) الزمخشري، الكشاف: 1/651، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 2/133، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 6/245.
(2) الزمخشري، الكشاف: 1/651، والرازي، مفاتيح الغيب: 12/390، والطّيبي، فتوح الغيب: 5/406.

الشّرّ، وهذا يقتضي أن المؤمنين محكوم عليهم بالشّرّ، وهم ليسوا كذلك، ولكن خرج الكلام على حسب قول اليهود واعتقادهم، فقيل لهم: وإنْ فُرِضَ بأنّ الأمر كما تقولون، فإنّ مَن لعنه اللّه وغضب عليه شرٌّ منهم[1].

جرى وصف الشرّ على الإيمان على سبيل الفرض، ومع ذلك الفرض فإنّ سبيلكم أكثر شرًّا

أطلق لفظ الشّرّ على المؤمنين، فجعل المفضّل والمفضّل عليه من جنس واحد على سبيل الافتراض، فاتّصف اليهود به على وجه الحقيقة، والمسلمون على وجه الادّعاء، ثمّ فضّل أحدهما على الآخر جريًا على سنن إرخاء العنان[2]. وأريدَ من التّشريك بهذا الوصف إجراءُ المفاضلة، إفحامًا لليهود، وإبطالًا لما يعتقدون من شرّيّة المؤمنين.

أشرك المؤمنين مع اليهود بصفة الشّرّ إجراءً للمفاضلة

الاستعارة التّهكميّة بالتّعبير عن الإساءة بالمثوبة:

في قوله جلّ شأنه: ﴿بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِۚ﴾...الآية؛ استعارة تهكّميّة[3]، حيث شبّه العقاب بالثّواب الحسَن، بجامع أنّهما الجزاء المنتظر عند اللّه، وأجرى على الثّواب صفة الشّرّ، وهي القرينة الدّالّة على أنّه أراد العذاب لا الثّواب، والغاية من ذلك التّهكّم بهم، على طريقة قوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٢١﴾ [آل عمران: 21][4]، فإنّ البشارة لا تكون بالعذاب، فاستعمل الضّدّ مكان ضدّه للتّهكّم[5].

عبّر عن العقوبة والمكانة السيّئة بالمثوبة الحسنة تهكّمًا بهم

الحكمة من الاستئناف:

في قوله جلّ شأنه: ﴿مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ﴾ استئنافٌ للإجابة عن سؤال نشأ من الاستفهام، فكأنّه قيل: ما الذي هو شرٌّ

سيق الاستئناف جوابًا عن سؤال نشأ طلبًا للإجابة عن الاستفهام السابق

(1) الشربيني، السراج المنير: 1/383.

(2) الطّيبي، فتوح الغيب: 5/407.

(3) الاستعارة التهكمية، أن يستعمل اللفظ الدّالّ على المدح في نقيضه من الذّمّ والإهانة تهكّمًا بالمخاطب، واستهزاءً به، كقوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٢١﴾ [آل عمران: 21] بدل (أنذرهم)، فاستعيرت البشارة التي هي الخبر السّار، للإنذار الذي هو ضدّه على سبيل التهكم والاستهزاء. العلوي، الطراز: 1/127 - 128، والهاشمي، جواهر البلاغة، ص: 268.

(4) الزمخشري، الكشاف: 1/651 - 652، والرازي، مفاتيح الغيب: 12/390، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 2/133.

(5) النيسابوري، غرائب القرآن: 2/611.

من ذلك؟ فقيل: هو دينُ مَنْ لعنه الله، أو قيل في السّؤال: من ذا الذي هو شرٌّ من أهل ذلك؟ فقيل: هو مَنْ لعنه الله[1].

إيثار التّعبير عنهم بالموصول دون الاسم:

في قوله جلّ شأنه: ﴿مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ﴾ عدل عن مخاطبتهم بالاسم، فلم يقل: (اليهود) إلى الخطاب بالموصول؛ تعميمًا لكلّ اليهود، تحقيرًا لهم بإظهار معايب أسلافهم. فعرّفهم بالموصول إظهارًا لصفاتهم في الصّلة، فسيق الموصول مع صلته مساق التّعريف بالحدّ، للدّلالة على أنّ الأكثر شرًّا هو من جمع هذه الصّفات لا غيره.

عدل إلى الموصول لدلالته على العموم، وليشمل غير المخاطبين وقت التّنزيل

فائدة الإخبار باللّعنة والغضب عليهم:

كان اليهود يزعمون أنّ المسلمين مستوجبون للعقوبة، فردّ عليهم مخبرًا بأنّ: ﴿مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ﴾ هو الأكثر شرًّا، والأشدّ عقوبة في الحقيقة من أهل الإسلام في زعمكم[2].

أخبر عن لعنهم والغضب عليهم ردًّا عليهم، وإظهارًا لكونهم أشرّ

بلاغة الإيجاز بالحذف:

في قوله جلّ شأنه: ﴿مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيۡهِ وَجَعَلَ مِنۡهُمُ ٱلۡقِرَدَةَ وَٱلۡخَنَازِيرَ﴾ جملة اسميّة حذف منها المبتدأ وتقديره: هو من لعنه الله، والمراد اليهود[3]، وإنّما حذف المبتدأ هنا تعجيلًا بذكر الخبر المشّوّق إليه في قوله تعالى: ﴿قُلۡ هَلۡ أُنَبِّئُكُم بِشَرّٖ مِّن ذَٰلِكَ﴾.

حذف المبتدأ إيجازًا للألفاظ، واتّكاءً على ظهور المراد به

بلاغة الإظهار موضع الإضمار:

في قوله جلّ شأنه: ﴿هَلۡ أُنَبِّئُكُم بِشَرّٖ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيۡهِ﴾ كرّر لفظ الجلالة، فوضع الاسم الظّاهر موضع المضمر فلم يقل: (عند الله من لعنه وغضب عليه)؛ تهويلًا لأمر اللّعن والغضب، وإدخالًا للرّوعة[4].

أظهر اسم الجلالة بدل الإضمار تهويلًا للّعنة وما بعدها، وتعظيمًا لعقابه ﷻ

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/55.
(2) النسفي، مدارك التنزيل: 1/457.
(3) البيضاوي، أنوار التنزيل: 2/134.
(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/55.

فائدة التّبعيض في دلالة (مِن)

عـبّر بـ (مِـن) التّبعيضيّة للدّلالة على أنّ بعضهم جعل قـردة، وليس جميعهم

قوله جل شأنه: ﴿وَجَعَلَ مِنۡهُمُ ٱلۡقِرَدَةَ﴾ عبّر بـ (مِن) الدّالّة على التّبعيض للدّلالة على أنّ المسخ نال بعضهم وليس جميعهم، فالمراد بهم أصحاب السّبت[1]، فالمسخ خاصّ بأهل السّبت منهم.

علّة جمع الضّمير وإفراده:

جمع الضّمير باعتبار المعنى، وأفرده باعتبار اللّفظ

قوله جلّ شأنه: ﴿مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيۡهِ وَجَعَلَ مِنۡهُمُ ٱلۡقِرَدَةَ وَٱلۡخَنَازِيرَ﴾ في الآية ثلاثة ضمائر، فأفرد الضّمير في: ﴿مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيۡهِ﴾، وجمعه في: ﴿مِنۡهُمُ﴾، وهي عائدة إلى الاسم الموصول (مَنْ) في قوله: ﴿مَن لَّعَنَهُ﴾، وهو يستعمل للمفرد والجمع بلفظ واحد مفرد، فالجمع باعتبار معناه، والإفراد باعتبار لفظه[2].

ويضاف إلى ذلك أنّ (مِن) دلّت على التّبعيض، والتّبعيضُ إنّما يكون من مجموع، فجاء الضّمير في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ مِنۡهُمُ﴾ مجموعًا اقتضاءً لإجراء التّبعيض.

بلاغة العطف:

دلّ العطف على اشتراك الصّفات بالاستقرار بهم، وإظهارًا لاختصاصهم بها

قوله جل شأنه: ﴿وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَۚ﴾ معطوف على قوله: ﴿وَجَعَلَ مِنۡهُمُ ٱلۡقِرَدَةَ﴾ وأفاد العطف أنّ الصّفات المذكورة مشتركة باستقرارها بهم، واختصاصهم بها حتّى صارت صفات معرِّفةً لهم، لم تجتمع في غيرهم.

دلالة الإخبار بعبادتهم الطّاغوت بعد العقوبات المذكورة:

قوله جل شأنه: ﴿وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَۚ﴾ بمعنى أنّ اللّه تعالى خذلهم حتّى عبدوه[3]، وهو معطوف على العقوبات المذكورة قبله: ﴿وَجَعَلَ مِنۡهُمُ ٱلۡقِرَدَةَ﴾، فأخبر اللّه تعالى بعقوبة أخرى اختصّهم بها وهي

(1) النسفي، مدارك التنزيل: 1/458.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/55.
(3) الزمخشري، الكشاف: 1/652.

خذلانهم عن الهدى؛ لتمرّدهم وكثرة معاصيهم، فلم يوفّقهم للإيمان وخلّاهم لأنفسهم، فضلّوا فعبدوا الطّاغوت.

ذكره في سياق العقوبات للدّلالة على أنّه عقوبة كاللّعنة والغضب، فعاقبهم بمنع الهداية عنهم، فخذلهم ولم يوفّقهم للإيمان وخلّاهم لأنفسهم، فضلّوا فعبدو الطّاغوت.

علّة التّعبير بالمفرد دون الجمع:

قوله جل شأنه: ﴿وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ أفرد الضّمير في (عَبَدَ) وإن كان المراد الكثرة، فلم يقل: (عبدوا الطّاغوت)؛ لأنّ الكلام محمول على لفظ (مَنْ) الدالّ على الإفراد، دون معناه الدّالّ على الجمع[1].

عبّر بالمفرد في الضّمير، حملًا للكلام على لفظ (مَن) المفرد دون معناه

فائدة الإخبار عنهم بتلك العقوبات والمعاصي، وهي لأسلافهم وليست لهم:

في قوله جلّ شأنه: ﴿مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيۡهِ وَجَعَلَ مِنۡهُمُ ٱلۡقِرَدَةَ وَٱلۡخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ أخبر عن تلك المعاصي والعقوبات التي نالها أسلافهم تعييرًا لهم بهم، وتبكيتًا عن التّطاول[2] فمن أراد أن يرمي النّاس بمساوئهم فلا بدّ أن يكون نقيّ الثّوب، قد سلف منه الفضل والصّلاح، فمن ساء سلفه فأنى له التّطاول على النّاس!!

أخبر بذلك تبكيتًا لهم بمساوئ أسلافهم، وردعًا لهم عن التّطاول على المسلمين

قد جرت العادة أنّ الأمم أفضلهم أسلافهم، لتحقّق معاني الدّعوة فيهم بصحبة أنبيائهم، فتعيير اليهود بفضائح أسلافهم لبيان أنّ ما ارتكبوه كان في حضرة أنبيائهم، فلم يردعهم وجود أنبيائهم عن اجتراحهم المعاصي، فلا شكّ أنّهم الآن أكثر سوءًا، وأجدرُ بكونهم أكثر شرًّا.

لمّا ارتكب أسلافهم ذلك في حضرة أنبيائهم، دلّ ذلك على أنّ خلفهم أشد اجتراحًا للمساوئ

الحكمة من تعريف المسند إليه بالإشارة:

قوله جلّ شأنه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ شَرّٞ مَّكَانٗا﴾ عبّر عنهم باسم الإشارة استحضارًا لصفتهم، أي أولئك الذين صفتهم أنّهم مسخوا

(1) الواحديّ، البسيط: 7/446.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 6/247.

عـــبّر عـنـهـم بـاسـم الإشـارة لاسـتـحـضـار الـصّـفـات السّابقة

ولعنوا[1]، تنبيهًا على علّة وصفهم بما سيأتي، فالصّفات التي استحضرها اسم الإشارة هي السّبب في إنزالهم تلك المكانة السّيئة، ولم يعبّر عنهم بالضّمير، فلم يقل: (هم شرّ مكانًا)؛ لأنّ الضّمير لا يستحضر تلك الصّفات.

إيثار صيغة البعد في اسم الإشارة:

آثر اسم الإشارة الدّالّ على البعد إيـذانًـا ببعد منزلتهم في الشّرّ

في قوله جلّ شأنه: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا﴾ آثر أن يعبّر عنهم باسم الإشارة الدّالّ على البعد للدّلالة على بعد منزلتِهم في الشّرّ[2]، فلم يقل: (هؤلاء شرٌّ مكانًا) لأنّه أراد بدلالة البعد في: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ﴾ أن يظهر المبالغة في سوء مكانتهم بالإشارة إلى علوّ رتبتهم في الشّرّ.

الكناية بنسبة الشرّ إلى المكان:

نـسـب الـشّـرّ لـلـمـكـان وهـو لأهـلـه، مبالغةً في الـذّمّ، كناية عـــن ســـوء مكانتهم

في قوله جلّ شأنه: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا﴾ جُعلت صفة الشّرّ للمكان، وهي في الأصل لأهْله؛ لأنّ المكان لا يوصف بالشّرّ، بل بسبب مَن حلّ فيه، فإذا وُصف المكان بالشّرّ فيلزم أن يكون الحالّ فيه متّصفًا بالشّرّ، بيانًا لسوء مكانتهم وحالهم، ومبالغةً في وصفهم بالشّرّ[3]؛ فإذا كان المكان بذاته متّصفًا بالشّر فكيف بالحالّ فيه؟!

دلالة اسم التّفضيل على زيادة المعنى دون المشاركة:

المراد بيان زيادة اتّصافهم بذلك، بلا تفاضل مع أحد آخر

في قوله جلّ شأنه: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ﴾ عبّر عن شرّ مكانتهم وضلالهم باسم التّفضيل (شرّ، وأضلّ)، وهو في هذا الموضع لا يدلّ على أنّ في الطّرف الآخر مشاركة في صفة المفاضلة[4]، فالمراد من صيغتي التّفضيل الدّلالة على زيادة المعنى مطلقًا لا بالإضافة إلى المؤمنين[5].

(1) الواحديّ، البسيط: 7/448، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 2/134، والنسفي، مدارك التنزيل: 1/458.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/56.
(3) الزمخشري، الكشاف: 1/653، والطّيبي، الرازي، مفاتيح الغيب: 12/391، فتوح الغيب: 5/409 - 410.
(4) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/211، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 3/144.
(5) البيضاوي، أنوار التنزيل: 2/134، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/56.

المتشابه اللّفظي: الاستفهام بـ (هل) وبـ (أ):

في قوله جلّ شأنه: ﴿قُلۡ هَلۡ أُنَبِّئُكُم بِشَرّٖ مِّن ذَٰلِكَ﴾، تشابه لفظيٌّ مع قوله تعالى: ﴿قُلۡ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرّٖ مِّن ذَٰلِكُمُۚ﴾ [الحج: 72]، حيث جاء الاستفهام في آية سورة المائدة بـ (هل)، في قوله: ﴿هَلۡ أُنَبِّئُكُم﴾، وفي سورة الحجّ جاء بالهمزة: ﴿أَفَأُنَبِّئُكُم﴾، وفيها تشابه لفظيّ آخر فخصّت المائدة باسم الإشارة بخطاب المفرد: ﴿مِّن ذَٰلِكَ﴾، وجاء اسم الإشارة في سورة الحج بخطاب الجمع: ﴿مِّن ذَٰلِكُمۡۖ﴾ [آل عمران: 15]. فما وجه تخصيص كلّ موضع بما جاء فيه؟

المفاضلة تقتضي التّصديق فناسبه هل، وذكر النّار تصوّر فناسبه الاستفهام بالهمزة

الإجابة أنّنا نجد أنّ آية المائدة يسبقها قوله: ﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ هَلۡ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنۡ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلُ وَأَنَّ أَكۡثَرَكُمۡ فَٰسِقُونَ﴾، فجاء الاستفهام هنا بأداة التّصديق، والتّصديقُ إنّما يكون عن تفكّر ونظر[1]؛ فلمّا كان السّياق متعلّقًا بالمفاضلة بين منهجين وطريقين ناسبه ذكر أداة التّصديق الدّاعية للتّفكّر والنّظر.

أما آية الحج فالسّياق فيها لا يتكلّم عن منهجين ولا عمّا يستدعي البحث والنّظر، بل السّياق في النّار، ﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٖ تَعۡرِفُ فِي وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلۡمُنكَرَۖ يَكَادُونَ يَسۡطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِنَاۗ قُلۡ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرّٖ مِّن ذَٰلِكُمُۚ ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ٧٢﴾ [الحج: 72] والنّار متصّورة؛ فناسب ذكر حرف التّصور وهو الهمزة.

الاختلاف في الإشارة بـ (ذلك) وبـ (ذلكم)

عبّر بـ (ذلك) لأنّه مسبوق بحرف النّداء فاكتفى به للتّنبيه، وعبّر بـ (ذلكم) إظهارًا للتّنبيه

وأما الإجابة عن الاختلاف في اسم الإشارة، فإنّه لما تقدم تنبيه المخاطبين بحرف النّداء (يا) في قوله: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾؛ ناسبه الاكتفاء بذكر ﴿ذَٰلِكَ﴾، ولمّا كان هؤلاء غافلين عن الآيات؛ ناسبه تنبيههم بذكر﴿ذَٰلِكُمۡۖ﴾ [الحج: 72].

(1) ابن الزبير، ملاك التأويل: 2/482.

الاختلاف في: (عن سواء السّبيل)، و(سبيلًا):

قوله جلّ شأنه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانٗا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾، فيه تشابه لفظيٌّ مع قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانٗا وَأَضَلُّ سَبِيلٗا ٣٤﴾ [الفرقان: 34]. فاختلفت الآيتان بعد قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانٗا وَأَضَلُّ﴾، فقال في المائدة: ﴿عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾، وقال في الفرقان: ﴿سَبِيلٗا ٣٤﴾ [الفرقان: 34] فلمَ خُصّت كلُّ آية بما فيها؟

والإجابة عن ذلك أنّ آية المائدة بدأت بقوله تعالى: ﴿قُلۡ هَلۡ أُنَبِّئُكُم بِشَرّٖ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيۡهِ وَجَعَلَ مِنۡهُمُ ٱلۡقِرَدَةَ وَٱلۡخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَۚ أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانٗا﴾؛ لأنّ الحديث مع اليهود من أهل الكتاب، وهم لديهم شريعة ويعرفون اللّه ويوحّدونه، فضلالهم ليس على وجه التّمام، بل ضلّوا عن سوائه ووسطه، بما عملوا من تلك الجرائم.

أما آية الفرقان فقد بدأت بقوله جلّ شأنه: ﴿ٱلَّذِينَ يُحۡشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانٗا﴾، فإنّ السّياق هنا في الكافرين، وهم قد ضلّوا عن أصل السّبيل على وجه التّمام.

ضلال اليهود عن وسط السبيل لا عن أصله؛ لما لهم من كتاب وعلم، أمّا الكافرون فضلّوا عن أصل السّبيل

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الإنباء والإخبار:

النّبأ إخبارٌ فيه معنًى عَظِيم الشَّأن، فهو أخصُّ من الخبر، وَأُخِذَ مِنْهُ صفة النّبيّ، ولهذا يُقال سَيكون لفُلَان نبأ، ولا يُقال خبر، وَإِنَّمَا يُطلق عَلَيْهِ ذلك لما فِيهِ من عَظِيم الشَّأن[1]، وفي قوله جلّ شأنه: ﴿قُلۡ هَلۡ أُنَبِّئُكُم﴾ آثر التّعبير بالنّبأ المُشعر بكونه أمرًا خطيرًا[2]، لأنّه إخبار عن عذاب عظيم، وهو لعنة اللّه تعالى، وغضبه، والمسخ، وهذا نبأ عظيم الشّأن.

النّبأ هو الخبر الذي له شأن عظيم

(1) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 41.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/54.

﴿وَإِذَا جَآءُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَقَد دَّخَلُواْ بِٱلْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُواْ بِهِۦۚ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُواْ يَكْتُمُونَ ٦١﴾ [المائدة: 61]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

بعد ذكر ضلالهم بيّن أنهم لا ينتفعون بالوعظ

لمّا وعظهم وبيّن سوء منقلبهم أخبر هنا عن انتفاء انتفاعهم من الوعظ والإرشاد، فقد "دخلوا وهم كفار وخرجوا كذلك، لم تنفعهم الموعظة ولا نفع فيهم التّذكير"[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَكْتُمُونَ﴾: (كَتَمَ) أَصْلٌ يَدُلُّ عَلَى إِخْفَاءِ وَسَتْرٍ، كتم الشّيء: أخفاه، والكتمانُ: نقيض الإعلان، وهو ستر الحديث. قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِۗ﴾[2]، ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُواْ يَكْتُمُونَ﴾ من كفرهم[3]. فأخفوا الكفر وأعلنوا الإيمان.

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

إخبار عن سلوك المنافقين وانتفاء انتفاعهم من الدّعوة بشيء

يخبر الله تعالى عن سلوك المنافقين وما يكتمون فهم إذا رأوكم أيّها المؤمنون أظهروا لكم الإيمان نفاقًا منهم، والواقع أنّهم عند دخولهم وخروجهم مُتلبّسون بالكفر لا ينفكّون عنه، لم يتعلّق بهم شيء ممّا سمعوا به من تذكيرهم بآيات الله تعالى والمواعظ، والله أعلم بما يُضمرونه من الكفر إن أظهروا الإيمان لكم، وسيجازيهم على ذلك[4].

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/214.
(2) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، والفيروزابادي، بصائر ذوي التمييز: (كتم).
(3) مكيّ بن أبي طالب، الهداية: 3/1795.
(4) الزمخشري، الكشاف: 1/653، والرازي، مفاتيح الغيب: 12/392، ونخبة من العلماء، المختصر في تفسير القرآن الكريم: 1/118.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغة العطف:

عطف نفاقهم على استهزائهم في الدّين، تحذيرًا ممّن أعلن كفره ومن أخفاه

قوله جلّ شأنه: ﴿وَإِذَا جَآءُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا﴾ عطف على قوله: ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوًا﴾ خصَّ ذكرَ المنافقين من اليهود، وهم من جملة المستهزئين استكمالًا للتّحذير منهم، فحذّر من معلني الكفر منهم ومن المنافقين[1].

السّرّ في التعبير بـ (إذا):

قوله جلّ شأنه: ﴿وَإِذَا جَآءُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا﴾ عبّر بـ (إذا) عن زمان قولهم ذلك وتكراره، فهم كانوا يقولون ذلك وقت رؤية المؤمنين، مواظبين عليه فيكرّرونه في كلّ مجيء؛ إيماءً إلى قلقهم، وإصرارهم على الكذب.

عبّر بـ (إذا) للدّلالة على أنّهم كانوا يكرّرون ذلك القول عند كلّ رؤية للمؤمنين، وإشارةً إلى إصرارهم على الكذب.

المراد بضمير الفاعل:

اليهود عامّة، والمنافقون منهم خاصّة

قوله جلّ شأنه: ﴿وَإِذَا جَآءُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا﴾ الضّمير في ﴿جَآءُوكُمْ﴾ لليهود المعاصرين للنّبيّ ﷺ وخاصّة للمنافقين منهم[2].

دلالة الواو الدّاخلة على الجملة:

أفادت الواو الدّلالة على الحال، لبيان أنّ دخولهم كان في حالة ظهور علامات النّفاق عليهم

قوله جلّ شأنه: ﴿وَقَد دَّخَلُواْ بِٱلْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُواْ بِهِۦ﴾ دخلت الواو على الجملة للدّلالة على الحال، وهو متعلق بـ ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا﴾، أي قالوا ذلك وهذه حالهم في دخولهم وخروجهم على الدّوام[3].

دلالة (قد)

قوله جلّ شأنه: ﴿وَقَد دَّخَلُواْ بِٱلْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُواْ بِهِۦ﴾

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 6/247.

(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/214، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 2/134.

(3) النسفي، مدارك التنزيل: 1/458، وابن جزي، التسهيل: 1/237.

دخلت (قد) على الجملة ليصحّ مجيء الحال منها، لأنّ فعلها ماضٍ، وأفادت لما فيها من التّوقع والتّأكيد أنّ أمارة النّفاق كانت لائحة عليهم[1].

دلّت (قد) على ظهور علامات النّفاق عليهم

فائدة الإلصاق المدلول عليه بالباء:

قوله جلّ شأنه: ﴿وَقَد دَّخَلُواْ بِٱلۡكُفۡرِ وَهُمۡ قَدۡ خَرَجُواْ بِهِۦۚ﴾ دخلت الباء على الكفر في حالة الدّخول وحالة الخروج للدّلالة على أنّ الكفر باقٍ معهم، متلبّسًا بهم في كلتا الحالتين من غير نقصان، ولا تغيير فيه البتّة[2].

الإلصاق في الباء يدلّ على التصاق الكفر بهم أبدًا

الوظيفة التّركيبية للجار المجرور:

قوله جلّ شأنه: ﴿بِٱلۡكُفۡرِ وَهُمۡ قَدۡ خَرَجُواْ بِهِۦۚ﴾ الجارّ والمجرور في قوله: (بِالكُفرِ) و(بِهِ) حالان، أي دخلوا كافرين وخرجوا كافرين. وتقديره: ملتبّسين بالكفر، فهو معهم في كلّ أحوالهم، والمعنى أنّهم لم ينتفعوا بشيء من سماعهم النّبيّ ﷺ، بل خرجوا كما دخلوا[3].

دلّ الجار والمجرور على تلبّس الكفر بهم في كلّ حال، ولم ينتفعوا من سماع الدّعوة بشيء

التّأكيد بالضّمير:

قوله جلّ شأنه: ﴿وَهُمۡ قَدۡ خَرَجُواْ بِهِۦۚ﴾ أكّد الكلام بالضّمير، فلم يقل: (وقد خرجوا به)؛ لأنّه أراد تعيينهم بالكفر، هم بأعيانهم، وتمييزًا لهم عن غيرهم بهذه الصّفة[4].

أكّد الكلام بالضّمير لتعيينهم وتمييزهم بهذه الصّفة

الفائدة في ذكر كلمة (هم) التّأكيد في إضافة الكفر إليهم، ونفيُ أن يكون من النّبيّ ﷺ، بل هم الذين خرجوا بالكفر باختيار أنفسهم، لا أنّك أنت الذي تسبّبتَ لبقائهم في الكفر[5].

أفاد الضّمير إضافة الكفر إليهم لأنّهم هم السّبب فيه لا أحد غيرهم

---

(1) الرازي، مفاتيح الغيب: 12/392، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 2/134، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/310، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/57.

(2) الرازي، مفاتيح الغيب: 12/392، والنسفي، مدارك التنزيل: 1/458.

(3) الواحديّ، البسيط: 7/449 - 450، والزمخشري، الكشاف: 1/653، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 6/237.

(4) الواحديّ، البسيط: 7/450، وابن عطية، المحرر الوجيز: 2/214.

(5) الرازي، مفاتيح الغيب: 12/392، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/310، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 3/144، والنيسابوري، غرائب القرآن: 2/612.

إيثار التعبير عن كفرهم بالجملة الاسمية:

قوله جلّ شأنه: ﴿وَهُمۡ قَدۡ خَرَجُواْ بِهِۦۚ﴾ إنّ التّعبير بالجملة الاسمية الواقعة حالًا، مع تكرار الضّمير (هم)، و(واو الجماعة) أكثر تأكيدًا في الدّلالة على المعنى، وهذا يطابق الواقع؛ فإنّ رؤيته ﷺ كافيةٌ في إحداث الإيمان، فكان المناسب أنّهم إذا دخلوا بالكفر أن يخرجوا بالإيمان؛ فلمّا لم يخرجوا مؤمنين أكّد وصفهم بالكفر بتكرار الضّمير في المسند إليه والمسند، تنبيهًا على تحقّقهم بالكفر[1].

آثر التّعبير عن كفرهم بالجملة الاسمية؛ لأنّها أكثر تأكيدًا على كفرهم، إذ لم ينتفعوا من رؤية النبيّ (ﷺ)

الحكمة من الإخبار عن كفرهم في حالتي الدّخول والخروج:

قوله جلّ شأنه: ﴿وَقَد دَّخَلُواْ بِٱلۡكُفۡرِ وَهُمۡ قَدۡ خَرَجُواْ بِهِۦۚ﴾ أثبت لهم الكفر في حالة الدّخول والخروج؛ بيانًا لقسوة قلوبهم الشّديدة، وتسجيلًا على أنّ حالهم لم يتبدّل، وإظهارًا لكذبهم في قولهم ﴿ءَامَنَّا﴾[2].

أخبر عن كفرهم في الحالين، بيانًا لشدّة كفرهم، وتكذيبًا لادّعائهم الإيمان، وإظهارًا لنفاقهم

الحكمة من الاستئناف:

قوله جلّ شأنه: ﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا كَانُواْ يَكۡتُمُونَ﴾ جملة استئنافيّة، لفضحهم وبيان أنّ كتمانهم إذا جرى على النّاس فإنّ اللّه يعلم ما يسرّون وما يعلنون، ومبالغة في إفشاء ما كانوا يكتبونه[3].

فضحهم بكشف ما يخفون، وبيان مبالغتهم في الكيد بالمسلمين

فائدة الإخبار بعلم الله تعالى بعد بيان كفرهم ونفاقهم:

قوله جلّ شأنه: ﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا كَانُواْ يَكۡتُمُونَ﴾ أخبر اللّه تعالى عن علمه بما يكتمون من الكفر، وعيدًا لهم وتهديدًا[4]، فالغاية من الإخبار بالعلم بما يكتمون الإيماء إلى ما يقتضيه ذلك العلم من الحساب وما يتبعه من العقاب؛ فكان ذلك تهديدًا ووعيدًا لهم.

الإخبار عن العلم بالأسرار يدلّ على التّهديد والوعيد

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/310 - 311.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 6/247.
(3) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/214، والرازي، مفاتيح الغيب: 12/392، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/311.
(4) البيضاوي، أنوار التنزيل: 2/134، والشربيني، السراج المنير: 1/384، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/57.

إيثار التّعبير بلفظ الجلالة:

قوله جلّ شأنه: ﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا كَانُواْ يَكۡتُمُونَ﴾ صُدرت العبارة بلفظ الجلالة ﷻ؛ استحضارًا للمهابة، وتعظيمًا لعلمه؛ فلا يخفى عليه شيء في الأرض، ولا في السماء، ولا ما يكتمونه[1].

آثر التّعبير بلفظ الجلالة تربية للمهابة، وتعظيمًا لعلمه ﷻ

دلالة أفعل التّفضيل:

قوله جلّ شأنه: ﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ﴾ عبّر عن علمه ﷻ باسم التّفضيل، ولا يراد منه المفاضلة؛ إذ لا يوجد أحد له علمٌ من جنس علم اللّه تعالى لتجري المقارنة بينهما، بل المراد الزّيادة مطلقًا؛ مبالغةً في علمه، فهو يعلم علمًا لا يدانيه علم، وليس فوقه علم، وهو أعلى ما يُتصوَّر من علم[2].

عبّر باسم التّفضيل لمطلق الزّيادة في الصّفة، مبالغة في علمه، فعلمُهُ أعلى ما يُتصوّر من علم

فائدة الجمع بين الفعل الماضي والمضارع:

قوله جلّ شأنه: ﴿بِمَا كَانُواْ يَكۡتُمُونَ﴾ جمع بين الماضي والمضارع في عبارة واحدة للدّلالة على أنّ كتمانهم كان مستمرًّا على الدّوام، وفيه إشارة إلى أنّهم كانوا مصرّين على ذلك، إذ الاستمرار دليل الإصرار.

عبّر بالماضي والمضارع عن كتمانهم للدّلالة على استمرار كتمانهم وإصرارهم عليه

دلالة تعلّق علمه تعالى بكتمانهم المستمر:

قوله جلّ شأنه: ﴿بِمَا كَانُواْ يَكۡتُمُونَ﴾ علّق علمه تعالى بكتمانهم المعبّر عنه بدلالة الاستمرار، للدّلالة على أنّه عليمٌ بما كتموه في الماضي، وما يكتمونه في الحاضر والمستقبل[3].

تعلّق علمه بكتمانهم المستمرّ دلالة على أنّه يعلم ما كتموا في الماضي والحاضر علمًا مستمرًّا

بلاغة الإيجاز بالحذف:

قوله جلّ شأنه: ﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا كَانُواْ يَكۡتُمُونَ﴾ ذكر كتمانهم

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 5/2269.
(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 5/2270.
(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 5/2270.

حـــــذف مـا يكتمونه إيجازًا في الألـفـاظ، وتعميمًا لكلّ ما كتموه

الـكـتـم خـاصّ بالمعاني، والسّرّ عامّ

على وجه الإطلاق، فلم يذكر المفعول به، ليعمّ جميع ما كتموا من النّفاق، والكفر، والمكر بالمسلمين والكيد بهم، وعداوتهم[1].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(يكتمون) و(يسرّون):

المكتوم يختصّ بالسّكوت عن المعاني كالأسرار والأخبار[2]. والسّرّ إخفاء الشّيء في النّفس، ولو اختفى بستر أو وراء جدار لم يكن سرًّا، والأصل في السّرّ تغطية الشّيء بغطاء، وقد يكون السّرّ في غير المعاني مجازًا، تقول: فعل سرًّا وقد أسرَّ الأمر[3].

فقوله جلّ شأنه: ﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا كَانُواْ يَكۡتُمُونَ﴾ يناسبه الكتمان؛ لأنّ الذي كتموه هو الكيد والكفر والنّفاق، وهي معانٍ خفيّة، والسّكوت عنها هو كتمانها.

(1) الواحديّ، البسيط: 7/450، وابن عطية، المحرر الوجيز: 2/214، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 6/237، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/311.

(2) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 287.

(3) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 63.

﴿وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [المائدة: 62]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

بعد بيان ضلالهم في الاعتقاد، بيّن آثامهم في السّلوك

لمّا ذكر نفاقهم، ونفى انتفاعهم بموعظة النّبي ﷺ وهو من أكبر الآثام وأشنعها لتعلّقه بالاعتقاد، تبعه بذكر الآثام المتعلّقة بحياتهم ومعاملاتهم فقال: ﴿يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ﴾.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يُسَٰرِعُونَ﴾: (سَرُعَ) "أَصْلٌ يَدُلُّ عَلَى خِلَافِ البُطْءِ. المُسارَعَةُ إلى الشيء: المبادرة إليه، والشروع فيه بسرعة[1]، ومعنى: ﴿يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْإِثْمِ﴾ يبادرون إليه كالمبادرة إلى الحقّ[2].

2) ﴿ٱلْإِثْمِ﴾: (أَثَمَ) أَصْلٌ يدلّ على البُطْءِ وَالتَّأَخُّرِ، نَاقَةٌ آثِمَةٌ، أَيْ: مُتَأَخِّرَةٌ. وَالْإِثْمُ مُشْتَقٌّ مِنْ ذَلِكَ، لِأَنَّ ذَا الإِثْمِ بَطِيءٌ عَنِ الخَيْرِ مُتَأَخِّرٌ عَنْهُ، أطلق اسمًا على الأفعال المبطّئة عن الثّواب[3].

3) ﴿وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾: (عَدَوَ) أَصْلٌ يَدُلُّ عَلَى تَجَاوُزٍ فِي الشَّيْءِ وَتَقَدُّمٍ لِمَا يَنْبَغِي أَنْ يُقْتَصَرَ عَلَيْهِ، والعُدْوانُ: الظُّلم الصّراح، وهو الإخلال بالعدالة في المعاملة[4]، "مصدر من عدا الرّجل، إذا ظلم وتجاوز الحدّ"[5].

4) ﴿ٱلسُّحْتَ ۚ﴾: (سَحَتَ) كُلُّ حَرَامٍ يَلْزَمُ آكِلَهُ العَارُ؛ وَسُمِّيَ

(1) الجوهري، الصحاح، وابن فارس، مقاييس اللغة: (سرع).
(2) الواحديّ، البسيط: 7/451، والزمخشري، الكشاف: 1/654، والرازي، مفاتيح الغيب: 12/392.
(3) الجوهري، الصحاح، وابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (أثم).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عدو)، والجوهري، الصحاح، والراغب، المفردات: (عدا).
(5) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/214.

سُحْتًا لِأَنَّهُ لَا بَقَاءَ لَهُ[1]، ﴿وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ﴾ أي الحرام، وهُوَ الرُّشَا، والرِّبَا، وَسَائِرُ مَكْسَبِهِمُ الخَبِيثِ[2].

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

إخبار عن مسارعتهم ومبادرتهم في ارتكاب المعاصي وتهالكهم عليها

يخبر اللّه تعالى أنّ كلّ أحد يرى كَثِيرًا من اليهود يسارعون في معاصي اللّه وترك حدوده، والاعتداء على الآخرين، وَلا سيما أَكْلِهِمُ الحرام، وإنّه لبِئْس شيئًا ما يكسبونه لأنفسهم من الأمور المستجلبة لأنواع العذاب والنّكال[3].

الإِيضاحُ اللُّغَوِيُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغة الاستئناف:

استأنف لرفع الوهم بأن سوء أعمالهم مقتصر على كتمان كفرهم، بل أعمالهم السّيئة ظاهرة

الواو في قوله جلّ شأنه: ﴿وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ﴾ استئنافية[4]، والحكمة من الاستئناف رفع الوهم؛ فلمّا ذكر تعالى كتمانهم نفاقَهم، فربّما أوهم ذلك أنّهم لا يفعلون من السّوء غير ذلك؛ فاستأنف لنفي الوهم المترتّب على ذلك، فبيّن أنّ أعمالهم السّيّئة مرئيّة منهم، فهم يفعلونها بحيث إنّها واضحة لكلّ أحد، وليس الأمر مقتصرًا على كتمانهم سوء طويّتهم وكفرهم.

دلالة الرّؤية في الآية:

الفعل (ترى) يصلح أن يدلّ على الرّؤية البصريّة والرّؤيّة القلبيّة

قوله جلّ شأنه: ﴿وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ﴾ يدلّ الفعل ﴿وَتَرَىٰ﴾ على الرّؤية البصريّة، كما يصحّ أن يدلّ على الرّؤية القلبيّة بمعنى تعلمهم، فإذا كانت من الرّؤية البصرية ويكون معنى قوله: ﴿يُسَٰرِعُونَ﴾: تراهم في حالة المسارعة. وعلى معنى الرّؤية القلبية يكون معنى قوله: ﴿يُسَٰرِعُونَ﴾ ترى مسارعتهم[5].

(1) الجوهري، الصحاح، وابن فارس، مقاييس اللغة: (سحت).
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/214، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 2/134، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/311.
(3) مكيّ بن أبي طالب، الهداية: 3/1795، والنخجواني، الفواتح الإلهية: 1/198، ونخبة من العلماء، المختصر في تفسير القرآن الكريم: 1/118.
(4) الهرري، حدائق الروح والريحان: 7/374.
(5) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/214، والثعالبي، الجواهر الحسان: 2/398.

الغرض من الإخبار عن رؤيتهم مسارعين في ذلك:

قوله جلّ شأنه: ﴿وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَٰرِعُونَ﴾ أخبر عن رؤية مسارعتهم للدّلالة على أنّ حالهم في المسارعة في الإثم ظاهر مشهور بحيث إنّه لا يخفى على أحد[1].

الإخبار عن رؤية مسارعتهم للدّلالة على انهماكهم في المعاصي بحيث لا يخفى على أحدٍ

الغرض من تقييد الرّؤية بالكثرة:

قوله جلّ شأنه: ﴿وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَٰرِعُونَ﴾ علّق الرّؤية بالكثير منهم، ولم يقل: (تراهم)؛ لأنّ بعضهم لم يكن كذلك، فليس كلّهم مسارعين، فكان بعضهم يستحي فكفّ[2]، وهذا من إنصاف القرآن ودقّته، فمع أنّ ذلك في سياق ذمّهم والرّد على استهزائهم إلّا أنّه جاء على غاية العدل والإنصاف، فلم يعمّم في مقام التّخصيص.

تقييد الرّؤية بصفة الكثرة؛ لأنّ بعضهم لم يكن يسارع بالإثم

إيثار التّعبير بالمسارعة دون العجلة:

قوله جلّ شأنه: ﴿يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْإِثْمِ﴾ آثر أنْ يخبر عن فعلِهم الآثامَ بالمسارعة دون العجلة، مع أنّ المسارعة أكثر ما تستعمل في الخير، كقوله تعالى: ﴿يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ [الأنبياء: 90]، ولفظ (العجلة) أدلّ على الذّمّ، وذلك لأنّهم كانوا يعملون الإثم كأنّهم محقّون فيه، ولأنّ هذه المعاصي عندهم من قبيل الطّاعات[3].

آثر التّعبير عن فعلهم الآثام بالمسارعة؛ إشارة إلى أنّهم فعلوا ذلك كأنّهم محقّون فيها

الجمع بين الإثم والعدوان:

قوله جلّ شأنه: ﴿يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾ جمع في الجملة بين الإثم والعدوان؛ ليشمل الآثام جميعًا، ما تعلّق بالمعاصي، وما تعلّق بالتّعدّي؛ لأنّ الإثم هو الجرم كائنًا ما كان، والعدوان الظّلم والتّعدي على النّاس بما لا يحلّ[4]، فجمع بين المعاصي التي هي في حقّ الله تعالى، وبين المعاصي التي في

الإثم عامّ في الجرم، والعدوان خاصّ بالتّعدي، فجمع للشّمول

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 6/248.
(2) الواحديّ، البسيط: 7/451، والرازي، مفاتيح الغيب: 12/392، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/311.
(3) الواحديّ، البسيط: 7/451، والرازي، مفاتيح الغيب: 12/392، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/311.
(4) الواحديّ، البسيط: 7/451، والبغوي، معالم التنزيل: 2/66.

حق النّاس؛ إظهارًا لكثرة معاصيهم، بحيث إنّها تشمل جميع أحكام الدّين.

خصّ العدوان وأكل السّحت بالذّكر إشارة لكونهما أعظم المعاصي

علّة تخصيص العدوان والسّحت بالذّكر وهما مضمّنان في الإثم:

قوله جلّ شأنه: ﴿يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ وَأَكۡلِهِمُ ٱلسُّحۡتَۚ﴾ لفظ الإثم يتناول جميع المعاصي؛ وإنّما خصّ الله تعالى بعده العدوان وأكل السّحت بالذّكر للدّلالة على أنّهما من أعظم المعاصي والإثم، وللمبالغة في خطرهما[1].

رتّب معاصيهم بالذّكر باعتبار العموم والخصوص، فقدّم الأعمّ وأخّر الأخصّ

الحكمة في ترتيب المذكورات من معاصيهم:

قوله جلّ شأنه: ﴿ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ وَأَكۡلِهِمُ ٱلسُّحۡتَۚ﴾ رتّب في الآية جرائمهم، فذكر أوّلًا الإثم، ثمّ العدوان، ثمّ أكلهم السّحت، فقدّم الأعمّ وأخّر الأخصّ؛ حيث إنّ الإثم أعمّ من العدوانِ، والعدوانُ أعمّ من أكل السّحت، وهو أخصّ منهما؛ لأنّ كلّ أكل للسّحت هو إثمٌ وعدوان، وليس كلّ عدوان، ولا كلُّ إثم يكون أكلًا للسّحت[2].

عبّر باللّام تمهيدًا للقسم، وتأكيدًا لمضمون الكلام

فائدة التّعبير باللّام:

قوله جلّ شأنه: ﴿لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ عبّر باللّام الموطّئة للقسم تأكيدًا لمضمون الكلام، والتّقدير: واللهِ إنّه لبئس ما كانوا يعملون[3]، وسوء أفعالهم من الظّهور بحيث لا يلزم تأكيده؛ فإنّما أكّده مبالغةً في قباحة عملهم، وعظم إساءتهم.

عبّر بالماضي والمضارع عن عملهم الذّميم للدّلالة على أنّهم فعلوه وأنّهم مستمرّون فيه

فائدة الجمع بين الفعل الماضي والمضارع:

قوله جلّ شأنه: ﴿لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ عبّر عن أعمالهم السّيئة بالفعلين الماضي والمضارع، دلالة على أنّهم فعلوا ذلك سابقًا، وأنّهم مستمرّون عليه[4]، وفيه إشارة إلى إصرارهم عليه.

(1) الرازي، مفاتيح الغيب: 12/392، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 2/134، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/311، والنيسابوري، غرائب القرآن: 2/612.
(2) الرّاغب، تفسير الراغب: 5/390.
(3) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/214.
(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/57.

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

العجلة والسّرعة:

العَجَلَةُ: طلب الشّيء قبل أوانه، تبعًا للشّهوة، فلذلك صارت مذمومة في عامّة القرآن[1]، وأمّا السّرعة والإسراع فهي التَّقدُّم فيما ينبَغِي أَن يتقدَّم فيه، وهي محمودة، ونقيضُها مَذْمُوم وهو الإبطاء. والعجلة التَّقَدُّم في مَا لا ينبغي أَن يتَقَدَّم فيه، وهي مذمومة ونقيضها مَحْمُود وهو الأناة[2]. فالاستعجال مذموم، لأنّه مطالبة بتعجيل الشّيء قبل وقته. والإسراع محمودٌ؛ لأنّه تقديم الشيء في وقته.

السّرعة تقديم الشّيء في وقته، وهي تستعمل في الخير، والعجلة طلب الشّيء قبل وقته؛ فتقال في الشّرّ غالبًا

وفي الآية عبّر عن مسارعتهم في الآثام: ﴿يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ وَأَكۡلِهِمُ ٱلسُّحۡتَۚ﴾ لأنّهم كانوا يُقدِّمون على هذه المنكرات كأنّهم محقّون فيها[3]، أي برغبة وحبّ وشغف، وهذا يشير إلى فساد طويّتهم ومعتقدهم.

(1) الرّاغب، المفردات: (عجل).

(2) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 204، والواحدي، البسيط: 8/187، والخازن، لباب التأويل: 2/118، والهرري، حدائق الروح والريحان: 8/357.

(3) الخازن، لباب التأويل: 2/59.

﴿لَوۡلَا يَنۡهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلۡأَحۡبَارُ عَن قَوۡلِهِمُ ٱلۡإِثۡمَ وَأَكۡلِهِمُ ٱلسُّحۡتَۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ ٦٣﴾ [المائدة: 63]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

بعد ذكر مسارعتهم في الآثام بيّن أنّ علماءهم يشاركونهم فيها

لمّا ذكر مسارعتهم في الإثم والعدوان وأكلهم الحرام، ذكر عقيبَه أنّ علماءهم يشاركونهم في ذلك الجرم والمسعى الآثم. ومن المناسبة أنّه تعالى لمّا ذكر عوامّ اليهود أعقبه بذكر علمائهم، إظهارًا لشدّة توغّلهم في اجتراح المعاصي، ونفيًا لتوقّع الصّلاح منهم فإذا فسد عالِمُهم فمن ذا الذي يصلحهم؟!

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ﴾: الرّبّانيّ منسوب إلى الربّ، وهو الذي تولّى اللّه تربيته بالعلم، وهو يتولّى تربية النّاس بصغار العلم قبل كباره، والنّون فيه للمبالغة، كشعراني ومنظراني ومخبراني، وهو العالم المدبّر المصلح[1].

2) ﴿وَٱلۡأَحۡبَارُ﴾: (حَبَرَ) أَصْلٌ، وَهُوَ الْأَثَرُ فِي حُسْنٍ وَبَهَاءٍ، حبّرتُه: حسّنته، والْأَحْبارُ واحدهم حَبْر، وهو العالم بِتَحْبيرِ الكلام والعلم وتحسينه. وهو لا يعنى بإصلاح النّاس ولا يكلّف ذلك، بخلاف الرّبّانيّ. وأصله من حَبّرتُ، أي حسنتُ، فهم عبارة عن المحسنين[2].

3) ﴿يَصۡنَعُونَ﴾: (صَنَعَ) أَصْلٌ، وَهُوَ عَمَلُ الشَّيْءِ صُنْعًا. رجلٌ صَنيع اليدين أي صانِعٌ حاذقٌ. فالصُّنْعُ: إجادةُ الفعل، وكلّ صُنْعٍ فِعْلٌ، وليس كلّ فعل صُنْعًا، ولا ينسب إلى الحيوانات والجمادات كما ينسب إليها الفعل. قال تعالى: ﴿صُنۡعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ أَتۡقَنَ كُلَّ

(1) الرّاغب، تفسير الراغب: 5/391، وابن عطية، المحرر الوجيز: 2/214.
(2) الرّاغب، تفسير الراغب: 5/391، وابن عطية، المحرر الوجيز: 2/214.

شَيۡءٖۚ﴾ [النمل: 88]، وللإجادة يقال للحاذق المُجِيدِ: صَنَعٌ، وللحاذقة المُجِيدَةِ: صَنَاعٌ[1].

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

يخبر اللّه تعالى أنّ علماءهم تخلّوا عن الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر، فهلَّا زجروهم عمّا يسارعون إليه من قول الكذب وشهادة الزور وأكل أموال النّاس بالباطل، ساء ما صنعوا إذ لا ينهونهم عن المنكر[2].

توبيخ علماء اليهود بتركهم النّهي ومشاركتهم بالإثم

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

فائدة دلالة (لولا) التّحضيض:

قوله جلّ شأنه: ﴿لَوۡلَا يَنۡهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ﴾ دخلت (لولا) على الفعل المضارع فدلّت على التّحضيض، فهو حثّ لعلمائهم على النّهي عن تلك المعاصي، بمعنى هلّا ينهاهم[3]. والتّحضيضُ في هذا الموضع تضمّن توبيخ العلماء والعُبّاد على سكوتهم عن النّهي عن تلك المعاصي[4].

دلّت على التّحضيض والتّوبيخ، بمعنى: هلّا، توبيخًا لسكوت علمائهم عن نهيهم عن المنكر

العلّة بتخصيص الأحبار والرّهبان بالذّكر:

قوله جلّ شأنه: ﴿لَوۡلَا يَنۡهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلۡأَحۡبَارُ﴾ خصّ علماءهم بالذّكر لأنّهم تركوا واجبهم؛ إعلامًا من اللّه تعالى بأنّهم مشتركون مع عامّتهم في تلك المعاصي، مع تضمّنه التّوبيخ لهم[5].

خصّ علماءهم بالذّكر لكون النّهي عن المنكر في حقّهم ألزم، وإعلامًا بأنّهم مشتركون بالإثم

إطلاق الاثم وتخصيصه بالقول:

قوله جلّ شأنه: ﴿عَن قَوۡلِهِمُ ٱلۡإِثۡمَ﴾ خصّ الإثم هنا بالقول، وكان قد أطلق الإثم في الآية السّابقة: ﴿يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡإِثۡمِ﴾؛ فخصّ النّهي عن قول الإثم بالذّكر؛ ليؤذن بأنّ قول الكذب وغيره أفحش الإثم[6].

أطلق الإثم في الآية السّابقة، وخصّه بالقول هنا؛ إيذانًا بأنّه أفحش الإثم

(1) الجوهري، الصحاح، وابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (صنع).
(2) نخبة من العلماء، المختصر في تفسير القرآن الكريم: 1/118.
(3) الزّجاج، معاني القرآن وإعرابه: 2/189، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 2/134.
(4) الواحديّ، البسيط: 7/451، والرازي، مفاتيح الغيب: 12/393، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/312.
(5) الزّجاج، معاني القرآن وإعرابه: 2/189، وابن عطية، المحرر الوجيز: 2/214.
(6) الطّيبي، فتوح الغيب: 5/412.

قولهم الإثم يدلّ على كلّ أقوالهم المنكرة، فيعمّ ما قالوه في حقّ الله تعالى، والنّبيّ ﷺ والمؤمنين

خصوص مقولهم وعمومه:

قوله جلّ شأنه: ﴿عَن قَوۡلِهِمُ ٱلۡإِثۡمَ﴾ ذكر في الآية الإثم الذي يراد به أقوالهم المنكرة في النّبيّ ﷺ والمؤمنين[1]، فلم يخصّص قولًا واحدًا من أقوالهم، ليشمل جميع ما قالوه من أقوالهم في حقّ الله تعالى، وما اتّخذوه هزوًا ولعبًا من شرائع الإسلام.

عدل عن الوصف بـ (الآثم) إلى الاسم (الإثم) مبالغةً في إثم أقوالهم

العدول عن الوصف إلى الاسم:

قوله جلّ شأنه: ﴿عَن قَوۡلِهِمُ ٱلۡإِثۡمَ﴾ عبّر عن أقوالهم الآثمة بالاسم، ولم يعبّر عنه بالوصف، فلم يقل: (عن قولهم الآثم)؛ لأنّه أراد المبالغة في إثم تلك الأقوال، فكأنّ ما قالوه هو الإثم نفسه، أي أنّ الإثمَ هو مقولهم.

اقتصر على قول الإثم وأكل السّحت إيذانًا بأنّهما أصل العدوان، ولم يذكر العدوان لأنّ المسلمين هم من يزجرهم عنه

السّرّ في عدم ذكر النّهي عن العدوان، والاقتصار على قول الإثم وأكل السّحت:

قوله جلّ شأنه: ﴿عَن قَوۡلِهِمُ ٱلۡإِثۡمَ وَأَكۡلِهِمُ ٱلسُّحۡتَۚ﴾ اقتصر في توبيخ علماءهم على ترك نهيهم عن قول الإثم وأكل السّحت؛ ليؤذن بأنّهما الأصل في العدوان[2]، وترك ذكر العدوان؛ إيماءً إلى أنّ المسلمين يزجرونهم عنه، ولا ينتظرون أن يردّ العدوان عنهم غيرهم؛ لأنّ الاعتماد في النّصرة على الآخرين ضَعفٌ[3].

استأنف للتّصريح بذمّ ترك الرّبّانيين والأحبار عن تغيير المنكر

الغرض من الاستئناف:

قوله جلّ شأنه: ﴿لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ﴾ جملة مستأنفة لذمّ صنيع الرّبّانيّين والأحبار؛ لأنّهم سكتوا عن تغيير المنكر[4]،، فالاستئناف للتّصريح بذمّ أفعالهم وللدّلالة على أنّ تارك النّهي عن المنكر كمرتكب المنكر، فهو توبيخ بعد التّوبيخ في صدر الآية.

(1) الزّجاج، معاني القرآن وإعرابه: 2/189، وابن عطية، المحرر الوجيز: 2/214.
(2) الطّيبي، فتوح الغيب: 5/412.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 6/248.
(4) الواحديّ، البسيط: 7/452 القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 6/237، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 6/248.

مرجع الضّمير:

قوله جلّ شأنه: ﴿لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ﴾ سياق الآية يتحدث عن الرّبّانيّين والأحبار الذين تركوا الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر، فالضّمائر تعود إليهم، لأنّهم هم المتحدَّث عنهم والموبّخون بعدم النّهي[1].

سياق الحديث عن الرّبّانيين من أهل الكتاب، فالضّمير عائد لهم

إيثار التّعبير بالصّنع دون العمل:

قوله جلّ شأنه: ﴿لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ﴾ جاء التّعبير عن إثم علمائهم بـ (يصنعون) ليجعلهم آثَمَ مِن مرتكبي المنكر؛ لأنّه قال في عوامّهم: ﴿لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾، وقال في العلماء: ﴿لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ﴾، والصّنع أقوى من العمل؛ لأنّ العمل إنّما يسمّى صناعة إذا صار مستقرًّا راسخًا. فجعل جرم العاملين ذنبًا غير راسخ، وذنب العلماء ذنبًا راسخًا؛ لأنّ العامل لا يسمّى صانعًا حتى يتمكّن في عمله ويتدرّب وينسب إليه[2].

التّعبير بالصّنع مع علمائهم للدّلالة على أنّ العلماء أكثر إثمًا من عوامّ النّاس

❁ المتشابه اللّفظيّ

الاختلاف في (يعملون) (يصنعون) (يفعلون):

وردت في سورة المائدة ثلاث آيات متشابهة في الخاتمة، إلّا في الفعل في رأس الآية، ففي الأولى قال جلّ شأنه: ﴿لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٦٢﴾ [المائدة: 62]، وفي الثّانية قال تعالى: ﴿لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ﴾ [المائدة: 63]، وفي الثّالثة قال تعالى: ﴿لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ٧٩﴾ [المائدة: 79]، فلمَ خصّت كل آية بما فيها من خبر كان؟

لذكر بعض أعمالهم اختار (يعملون)، ولذكر من كثر منه الفعل والعلم به اختار (يصنعون)، ولذكر الفعل ناسبه (يفعلون)

والإجابة أنّنا نجد أنّ الآية الأولى بدأت بقوله جلّ شأنه: ﴿وَتَرَىٰ كَثِيرٗا مِّنۡهُمۡ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ وَأَكۡلِهِمُ ٱلسُّحۡتَۚ﴾؛ فلما كانت المسارعة في ذلك بالقول والفعل؛ ناسبه قوله: ﴿يَعۡمَلُونَ﴾.

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/312.

(2) الزمخشري، الكشاف: 1/654، والرازي، مفاتيح الغيب: 12/393، والطّيبي، فتوح الغيب: 5/414.

أما الآية الثانية فقد بدأت بقوله تعالى: ﴿لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ﴾؛ فلمّا كان السّكوت على ما يخالف الفطرة لا يكون إلا ممّن كثر ذلك عنده، حتّى صار صنعة له؛ ناسبه قوله عزّوجلّ: ﴿يَصْنَعُونَ﴾.

وأما الآية الثالثة فقد بدأت بقوله تعالى: ﴿كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ﴾؛ فلمّا كان السّياق خاصًّا بما فعلوه؛ ناسبه قوله: ﴿يَفْعَلُونَ﴾.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(صنع) و(عمل):

الصّنع أخصّ من العمل؛ لأنّه يقتضي العلم بما يفعل، والجودة في الفعل

الصّنع ترتيب العمل وإحكامه، وتقدّم العلم به وبما يوصل إلى المراد منه ولذلك قيل للنّجّار صانع، ولا يقال للتّاجر صانع؛ لأنّ النّجار قد سبق علمه بما يريد عمله من سرير أو باب، ويعلم الأسباب التي توصل إلى ذلك، والتّاجر لا يعلم إذا اتّجر أنّه يصل الى ما يريده من الرّبح، فالعمل لا يقتضي العلم بما يعمل له. والصّنع يدلّ على الجودة[1]، فهو أخصّ من العمل، فلا يقال إلّا لما كان من الإنسان بقصد واختيار، وبعد فكر وتحرٍّ وإجادة، فحيثما ذُكر كافَّتُهم قال: ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾، وحيثما ذكر خاصّتُهم وحفظة العلم ذكر: ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ﴾[2]. وفي الآية أسند الصّنع للعلماء؛ لأنهم يعلمون ما يفعلون، ويعلمون أنّهم يخالفون تعاليم دينهم، وفي التّعبير به مبالغة لسوء أفعالهم، ودلالة أنّ جرمهم أكبر لأنّهم خالفوا علمهم.

(1) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 135 - 136.

(2) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 5/392، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 2/134.

﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغۡلُولَةٌۚ غُلَّتۡ أَيۡدِيهِمۡ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْۘ بَلۡ يَدَاهُ مَبۡسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيۡفَ يَشَآءُۚ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرٗا مِّنۡهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ طُغۡيَٰنٗا وَكُفۡرٗاۚ وَأَلۡقَيۡنَا بَيۡنَهُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ كُلَّمَآ أَوۡقَدُواْ نَارٗا لِّلۡحَرۡبِ أَطۡفَأَهَا ٱللَّهُۚ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادٗاۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ٦٤﴾ [المائدة: 64]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمّا ذكر كفرهم وقولهم الإثم ونفاقهم، بيّن سوء مقالهم ومعتقدهم بما يزيل الغرابة

لَمّا ذكر نفاقهم وكفرهم أراد أن يزيل الغرابة من ذلك فبيّن بعض أكبر أفعالهم القبيحة التي تنمّ عن نفاقهم وسوء أفعالهم، فأخبَرَ بعظيم فِريتهم، من أقوالهم القبيحة؛ نفيًا لاستغراب نفاقهم[1]، "أي فمن يقول هذه العظيمة فلا يُستنكَرُ عليه أنْ ينافق"[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مَغۡلُولَةٌۚ﴾: (غَلَّ) أَصْلٌ يَدُلُّ عَلَى ثَبَاتِ شَيْءٍ، غَلَلْتُ الشَّيْءَ في الشَّيْءِ، أَثْبَتُّهُ فِيهِ، وغَلَّه: جَعَلَ في يَدِهِ وَعُنُقِهِ الغُلّ، وَهُوَ الْقَيْدُ الْمُخْتَصُّ بِهِمَا، وجمعه أَغْلَالٌ[3]. "﴿مَغۡلُولَةٌۚ﴾ ممسكة عن العطاء منقبضة عن الاتّساع فبي الرّزق، نَسَبُوهُ إلى البخل[4]. والمعنى أنّ "خير الله مُمْسَك"[5].

2) ﴿مَبۡسُوطَتَانِ﴾: (بَسَطَ) أَصْلٌ يدلّ على امْتِدَادِ الشَّيْءِ،

(1) الزّجاج، معاني القرآن وإعرابه: 2/189، وابن عطية، المحرر الوجيز: 2/214، والرازي، مفاتيح الغيب: 12/397.

(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/214.

(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (غلّ)، وابن منظور، لسان العرب: (غلل).

(4) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 126، والزّجاج، معاني القرآن وإعرابه: 2/189، والرّاغب، تفسير الراغب: 5/392، والبغوي، معالم التنزيل: 2/67.

(5) أبو عبيدة، مجاز القرآن: 1/170.

وَالْبَسْطَةُ فِي كُلِّ شَيْءٍ السَّعَةُ وَهُوَ بَسِيطُ الجِسْمِ وَالْبَاعِ وَالْعِلْمِ، وبَسْطُ اليد: مدّها، قال ﷻ: ﴿وَكَلْبُهُم بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ﴾، ويستعمل تارة للطّلب، وللأخذ، وللبذل والإعطاء: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾[1]، يَدٌ بَسْطَةٌ أي مطلقة[2].

3) ﴿وَلَيَزِيدَنَّ﴾: أي يزدادون عند نزول القرآن لحسدهم تماديًا في الجحود وكفرًا بآيات الله، أي كلما أنزل شيء من القرآن كفروا به فيزيد كفرهم[3].

4) ﴿وَٱلْبَغْضَآءَ﴾: (بَغَضَ) أَصْلٌ يَدُلُّ عَلَى خِلَافِ الحُبِّ، والبغضاء: شدّة البُغض، وهو نفارُ النّفس عن الشّيء الذي ترغب عنه، ﴿وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ﴾[4].

5) ﴿أَوْقَدُواْ﴾: (وَقَدَ) كَلِمَةٌ تَدُلُّ عَلَى اشْتِعَالِ نَارٍ، ويستعار للحرب كاستعارة النّار والاشتعال لها، ومنه قوله تعالى: ﴿كُلَّمَآ أَوْقَدُواْ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ﴾[5].

6) ﴿وَيَسْعَوْنَ﴾: سَعى الرّجلُ: أي عدا، وعمل وكسب، والسَّعْيُ: المشي السّريع، وهو دون العدو، ويستعمل للجدّ في الأمر، خيرًا كان أو شرًّا، قال تعالى: ﴿وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَآ﴾، وأكثر ما يستعمل السَّعْيُ في الأفعال المحمودة[6]، ﴿وَيَسْعَوْنَ﴾ معنى السّعي في الآية: العمل والفعل[7].

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

الإخبار عن عتوّ اليهود وبعدهم عن الهدى

يخبر الله تعالى معدِّدًا بعض أقوالهم القبيحة، فقالوا لَمَّا أصابهم جَدْبٌ: يد الله مقبوضة عن بذل الخير والعطاء، ألا حُبِسَتْ أيديهم عن فعل الخير والعطاء، وطُرِدُوا من رحمة الله بقولهم هذا، بل يداه ﷻ مبسوطتان بالخير والعطاء، يبسط ويقبض، لا حاجر عليه ولا مُكْرِه له، ولا يزداد الكافرون من نزول القرآن إلّا الكفر؛ ذلك لِمَا

(1) الجوهري، الصحاح، وابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (بسط).
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/216.
(3) الواحديّ، البسيط: 7/463، والزمخشري، الكشاف: 1/657.
(4) الجوهري، الصحاح، وابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (بغض).
(5) الجوهري، الصحاح، وابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (وقد).
(6) الجوهري، الصحاح، والراغب، المفردات: (سعى).
(7) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/216.

هم عليه من الحسد، وأَلقينا بين طوائف اليهود العداوة والبغضاء، وكلّما جمعوا للحرب، وأعدوا لها عدّة، شَتَّتَ اللّه جمعهم، وأذهب قوتهم، ولا يزالون يجتهدون في ارتكاب ما فيه فساد في الأرض من السعي لإبطال الإسلام والكيد له واللّه لا يحب أهل الفساد[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغة العطف:

لمّا ذكر سوء خُلُقهم بنفاقهم عطف عليه سوء معتقدهم بأقوالهم

قوله جلّ شأنه: ﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغۡلُولَةٌۚ﴾ عَطْفٌ على الجملة في قوله: ﴿وَإِذَا جَآءُوكُمۡ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا﴾، فإنّه لما كان أولئك من اليهود والمنافقين انتقل إلى سوء معتقدهم وخبث طويّتهم؛ إظهارًا لفرط التّنافي بين معتقدهم ومعتقد أهل الإسلام[2].

السرّ في إسناد القول لليهود دون أكثرهم:

القول بغلّ اليد صادرٌ عن اليهود الصّرحاء بلا نفاق منهم

قوله جلّ شأنه: ﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغۡلُولَةٌۚ﴾ أسند القول إلى اليهود جميعًا؛ لأنّه قول اليهود الصّرحاء غير المنافقين. فهو قول عامّتهم[3]؛ لأنّه لو عبّر عنهم بالضّمير فقال: (وقالوا يد اللّه مغلولة) لأوهم أنّ قائل ذلك هم الرّبّانيون المذكورون في الآية السّابقة، ولم يُرد ذلك؛ لأنّ هذا القول صادر من عامّتهم ولم يختصّ بعلمائهم.

بلاغة المجاز:

عبّروا بغلّ اليد عن البخل وإمساك الرّزق

قوله جلّ شأنه: ﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغۡلُولَةٌۚ﴾ نسبوا غلّ اليد للّه تعالى؛ لأنّهم يريدون أنّه بخيل ممسك عن الرّزق، ولا يعنون أنّ يده موثقة[4]، فغلّ اليد وبسطها مجاز عن البخل والجود[5]، والسّبب أنّ

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/216، والثعالبي، الجواهر الحسان: 2/398 - 399، ونخبة من العلماء، المختصر في تفسير القرآن الكريم: 1/118.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 6/248.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 6/248.
(4) الواحديّ، البسيط: 7/452.
(5) الزمخشري، الكشاف: 1/654 - 655، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 2/135.

اليد آلة لأكثر الأعمال، لا سيّما دفع المال، فأطلق اسم السّبب (غلّ اليد) على المسبِّب (البخل)، وأسند البخل والجود لليد، كقولهم: فيّاض الكفّ، مبسوط اليد[1].

الدّعاء بغلّ أيديهم:

انتزع من قولهم المنكر دعاءً عليهم بالبخل والأسر وغلّ الأيدي في الآخرة

قوله جلّ شأنه: ﴿غُلَّتۡ أَيۡدِيهِمۡ﴾ لما عبّروا بالغلّ مجازًا عن البخل، ونسبوه لله تعالى، انتزع من لفظهم دعاءً عليهم[2]، فلمّا قالت اليهود: ﴿يَدُ ٱللَّهِ مَغۡلُولَةٌۚ﴾ قال الله: ﴿غُلَّتۡ أَيۡدِيهِمۡ﴾ دعاءً عليهم بالبخل والنّكد، فكانوا أبخل خلق الله وأنكدهم[3]، وبغلّ الأيدي حقيقةً، في الدّنيا يغلّلون أسارى، وفي الآخرة معذّبين بأغلال جهنّم[4].

توجيه كيف ينسب الدّعاء إلى الله تعالى:

الدّعاء من الله تعالى تعليمٌ للعباد، وحثٌّ للدّعاء عليهم؛ فتعالى أن يكون فوقه مدعوّ

قوله جلّ شأنه: ﴿غُلَّتۡ أَيۡدِيهِمۡ﴾ توجيه العبارة بأنّه دعاءٌ فيه إشكال؛ فكيف يدعو الله تعالى وهو من يُدعى ويُسأل؟ جوابه أنّ ذلك جاء تعليمًا للمسلمين، فكأنّه عزّ ذِكرُه حثّ على الدّعاء عليهم، كما علّمهم الاستثناء في قوله: ﴿لَتَدۡخُلُنَّ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾، فجرى الدّعاء من الله تعالى مجرى الاستثناء منه، وكلاهما توقيف وتأديب، وقد علا وعزّ أن يكون فوقه مدعوّ[5].

وجه الدّعاء عليهم بالسّوء:

المراد به زيادة البخل والنّكد، وسوء السّمعة بفقدان مكارم الأخلاق

قوله جلّ شأنه: ﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغۡلُولَةٌۚ غُلَّتۡ أَيۡدِيهِمۡ﴾ من المعلوم بالضّرورة أنّ الله تعالى رحيم بعباده، فكيف جاز أن يدعوَ عليهم بما هو قبيح وهو البخل والنّكد؟ وجوابه أنّ المراد الدّعاء بالخذلان الذي تقسو به قلوبهم، فيزيدون بخلًا إلى بخلهم، ونكدًا

(1) الرازي، مفاتيح الغيب: 12/394، والنسفي، مدارك التنزيل: 1/459.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 6/250.
(3) الرّاغب، تفسير الراغب: 5/393، والنسفي، مدارك التنزيل: 1/459.
(4) الزمخشري، الكشاف: 1/655 - 656، والرازي، مفاتيح الغيب: 12/394.
(5) الواحديّ، البسيط: 7/454.

إلى نكدهم، وبما هو مسبّب عن البخل والنّكد من لصوق العار بهم وبعدم القدرة والمكنة، بسبب العجز والفقر[1].

جمال الجناس الاشتقاقي:

جمال التّعبير اللّفظي بإيراد ألفاظ من جذر واحد في جملة واحدة؛ تنبيهًا على غلّ أيديهم

قوله جلّ شأنه: ﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغۡلُولَةٌۚ غُلَّتۡ أَيۡدِيهِمۡ﴾ جاء في العبارة لفظان: ﴿مَغۡلُولَةٌۚ غُلَّتۡ﴾ من جذر واحد وهو (غلل)، وهذا جناس اشتقاقيّ يخلع على العبارة جمالًا لفظيًّا، مع فائدة معنويّة وهي تنبيهٌ للسّامع على اللّفظة الثّانية المكرّرة على مستوى الجذر وهي: ﴿غُلَّتۡ﴾؛ دلالةً على أنّ الغلول أحقّ بهم.

دلالة الإضراب في (بل):

أبطل قولهم بنسبة البخل له تعالى عمّا يقولون، ليبيّنَ خلافه

قوله جلّ شأنه: ﴿بَلۡ يَدَاهُ مَبۡسُوطَتَانِ﴾ تفيد (بل) الإضراب، وهو هنا لإبطال دعواهم بنسبة البخل له تعالى عمّا يصفون[2]، فأضرب ليبيّن خلاف ما قالوا، وهو إثبات أنّ يده ﷻ مبسوطة؛ دلالةً على الكرم والجود.

المجاز بالإخبار عن اليد:

ذكر الجارحة وأراد ما يسبّب عنها وهو الجود والإنفاق

قوله جلّ شأنه: ﴿بَلۡ يَدَاهُ مَبۡسُوطَتَانِ﴾ لما وصفوا الله تعالى بالبخل بقولهم: ﴿يَدُ ٱللَّهِ مَغۡلُولَةٌۚ﴾ تعالى الله عمّا يصفون ردّ عليهم على قدر كلامهم، فهو جواب لليهود على مقالتهم التي أرادوا بها تبخيل الله تعالى، أي هو جواد كريم[3]، فَلمّا كان الجواد يفرّق المال وينفقه بيده، والبخيل يمسك اليد عن الانفاق أسندوا الجود والبخل إلى اليد فليس لذِكر اليد في الآية على هذا المعنى معنًى إلّا إفادة معنى الجود والبخل[4].

(1) الزمخشري، الكشاف: 1/656، والرازي، مفاتيح الغيب: 12/394.
(2) الصّاوي، حاشية الصّاوي على الجلالين: 1/276.
(3) الزّجاج، معاني القرآن وإعرابه: 2/190، والواحديّ، البسيط: 7/454.
(4) الواحديّ، البسيط: 7/459.

فائدة التّعبير عن البخل والجود بقبض اليد وبسطها:

أفـاد تثبيت الصّورة في الذّهن؛ لأن المادّيات بالحواسّ أعلق

قوله تعالى: ﴿بَلۡ يَدَاهُ مَبۡسُوطَتَانِ﴾تعبيرعن الجود والكرم، كما أنّ قوله: ﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغۡلُولَةٌۚ﴾ تعبير عن البخل والإمساك، فعبّر عن المعاني المجرّدة بصورة مادّية مجازًا، لأنّ تصوير المعاني بصورة حسّية تلازمها غالبًا، إذ الصّورة الحسّية أثبت في الذّهن من المعاني[1].

إيثار تثنية اليد على الإفراد:

عبّر عن اليد بالتّثنية ردًّا على مقالتهم، مبالغةً في الجود والإنعام وسعة الإنفاق

قوله جلّ شأنه: ﴿بَلۡ يَدَاهُ مَبۡسُوطَتَانِ﴾ جاء لفظ اليد بالتّثنية ردًّا على مقالة اليهود التي وردت بالإفراد في قوله: ﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغۡلُولَةٌۚ﴾؛ مبالغةً في الرّدّ عليهم، وهو أبلغ وأدلّ على إثبات غاية السّخاء له ونفي البخل عنه تعالى، فإنّ غاية ما يبذله السّخي من ماله أن يعطيه بيديه[2]، فعبّر بالتّثنية عن الكثرة مبالغةً في الجود والإنعام[3].

المجاز بذكر بسط اليدين:

وصف اليدين بالبسط والمراد وصف الله تعالى بالكرم والجود

قوله جلّ شأنه: ﴿بَلۡ يَدَاهُ مَبۡسُوطَتَانِ﴾ عبّر عن جوده وكرمه تعالى ببسط اليد، كقول العرب: فلان يعطي بكلتا يديه للدّلالة على أنّه عظيم السّخاء[4]، فاليد المبسوطة لا يقف فيها شيء، إشارة إلى أنّ المال لا يقف فيها، وأنّها لا تكنز المال، فهي دليل على العطاء، فكانت تعبيرًا عن الكرم والجود.

الحكمة من الاستئناف:

استأنف لتأكيد جوده وكرمه وسعة إنفاقه، وأنّه ينفق على مقتضى الحكمة

قوله جلّ شأنه: ﴿يُنفِقُ كَيۡفَ يَشَآءُۚ﴾ جملة مستأنفة لتأكيد وصفه بالسّخاء والجود والكرم، وبيانًا للمجاز في قوله تعالى: ﴿بَلۡ يَدَاهُ مَبۡسُوطَتَانِ﴾، ودلالة على أنّه لا ينفق إلا على مقتضى الحكمة[5].

---

(1) الطّيبي، فتوح الغيب: 5/415.

(2) الزمخشري، الكشاف: 1/656، والرازي، مفاتيح الغيب: 12/396، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 2/135، والنسفي، مدارك التنزيل: 1/459.

(3) الواحديّ، البسيط: 7/460، والرّاغب، تفسير الراغب: 5/393، وابن جزي، التسهيل: 1/238.

(4) ابن جزي، التسهيل: 1/238.

(5) النسفي، مدارك التنزيل: 1/459، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/58، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 6/250.

فائدة تقييد الإنفاق بعد إطلاقه:

قيّد إطلاق الإنفاق لبيان أنّه ينفق بحكمة

قوله جلّ شأنه: ﴿يُنفِقُ كَيۡفَ يَشَآءُۚ﴾ تقييد لمطلق الإنفاق المعبّر عنه بقوله تعالى: ﴿بَلۡ يَدَاهُ مَبۡسُوطَتَانِ﴾؛ إذ قد يتبادر إلى الفهم أنّه يلزم التّبذير والإسراف، فقيّد الإنفاق لبيان أنّه ينفق بحسب مقتضى الحكمة[1].

ينفق بحكمه، وينزِل كلّ شيء بقدر، لا على رغباتكم

قوله جلّ شأنه: ﴿كَيۡفَ يَشَآءُۚ﴾ تعبيرٌ عن كونه مختارًا في إنفاقه، يوسّع مرّة ويضيّق أخرى، على حسب مشيئته ومقتضى حكمته، لا على حسب شهوتكم، ولا على تعاقُبِ سعةٍ وضيق في ذات يد[2]، والمعنى أنّ التّضييق في الرّزق ليس لقصور في فيضه، بل "لأنّ إنفاقه تابع لمشيئته المبنيَّةِ على الحِكَم التي عليَها يدورُ أمرُ المعاش والمعاد"[3].

فائدة التعبير بلام القسم:

عبّر بلام القسم تأكيدًا لمضمون الخبر

قوله جلّ شأنه: ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنۡهُم﴾ عبّر عن تأكيد الكلام بلام القسم، والتّقدير: واللّه ليزيدنّ[4]، وإنّما أكّد الكلام لأنّه إخبار بما يُستغرب ولا يُتوقّع، فكيف يكون الكتاب الذي أنزل هداية للنّاس سببًا في زيادة الكفر كفرًا.

الحكمة من الإخبار عن زيادة كفرهم بنزول القرآن:

أخبر عن زيادة كفرهم بنزل القرآن بيانًا لحسدهم وعنادهم وفرط عتوّهم

قوله جلّ شأنه: ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنۡهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ طُغۡيَٰنٗا وَكُفۡرٗاۚ﴾ أخبر عن ازدياد كفرهم بنزول القرآن إعلامًا للرّسول ﷺ بفرط عتوّهم، إذ كان ينبغي لهم أن يبادروا بالإيمان، بما سمعوا من آيِ القرآن، ولكنّهم رتبوا على ذلك غير مقتضاه،

(1) الزمخشري، الكشاف: 1/656 - 657، والطّيبي، فتوح الغيب: 5/419.

(2) الواحديّ، البسيط: 7/463، والرّاغب، تفسير الراغب: 5/394، والرازي، مفاتيح الغيب: 12/396، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 2/135.

(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/58.

(4) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 6/240، والقنّوجي، فتح البيان: 4/14.

فزادهم ذلك طغيانًا وكفرًا، وإظهارًا لحسدهم، وتنبيهًا للرّسول ﷺ والمؤمنين لأخذ الحذر منهم[1].

الحكمة من تقديم المفعول به:

قدّم المفعول به لاهتمام به، ولأنّه هو المقصود بالبيان

قوله جلّ شأنه: ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ قدّم المفعول به وهو قوله: ﴿كَثِيرًا مِّنْهُم﴾ للاعتناء به[2]؛ فالمراد إظهارُ فعلهم إزاء نزول القرآن، وليس المراد بيان نزول القرآن ثمّ ما يترتّب عليه بعد النّزول، فالحكمة من الإخبار هي بيان كثرة من يقع منه زيادة الكفر، فقدّمه لأنّه المقصود بالإخبار.

كيفيّة زيادة كفرهم:

كلّ قرآن ينزل يتجدّد كفرهم به، فهو في ازدياد

قوله جلّ شأنه: ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا﴾ الزّيادة في كفرهم "إمّا من حيث الشّدةُ والغلوُّ، وإمّا من حيث الكمُّ والكثرةُ؛ إذ كلّما نزلت آية كفروا بها، فيزداد طغيانُهم وكفرهم بحسب المقدار"[3]، أي كلّما نزل عليك شيء من القرآن والحجج كفروا به، فيزِيدُ كفرهم[4] تبعًا لذلك، فهو ليس إخبارًا بأنّ نزوله سببٌ في ازدياد كفرهم، بل إصرارهم على الكفر يتجدّد كلما نزل قرآن، فيزدادون كفرًا وطغيانًا بذلك الإصرار.

فائدة التقييد بالكثرة:

لم يعمّم لأن فيهم من آمن، ومن لا يطغى

قوله جلّ شأنه: ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم﴾ لمّا كان فيهم من آمن بالله تعالى، ومن لا يطغى كلّ الطّغيان[5]، فنسب الزّيادة إلى الكثرة منهم دون الجميع؛ لأنّ الوصف لا يشملهم جميعًا، على عادة القرآن

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/316، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 6/251.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/58.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/58.
(4) الزّجاج، معاني القرآن وإعرابه: 2/190، والرازي، مفاتيح الغيب: 12/396 - 397.
(5) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/216.

في العدل والإنصاف، ولم يقل: (وليزيدنّهم) بالضّمير؛ لأنّ الضّمير سيجعل الحكم عامًّا، وهو ليس مرادًا.

الغرض من تقديم (إلى) على (من)

المقام يقتضي الاهتمام بالمُنزَل إليه؛ لأنّه سبب زيادة كفرهم

قوله جلّ شأنه: ﴿مَّآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ﴾ قدّم الجار والمجرور: ﴿إِلَيۡكَ﴾ الذي يدلّ على منتهى الرّسالة لما في (إلى) من دلالة على الغاية، على الجارّ والمجرور: ﴿مِن رَّبِّكَ﴾ الدّالّ على مبدأ الرّسالة، لدلالة (مِن) على الابتداء، والمبدأ حقّه أن يكون أوّلًا؛ فقدّم ﴿إِلَيۡكَ﴾ لأنّ السّياق يتناول زيادة كفرهم، وهي متعلّقة بنزولِ القرآن إليه ﷺ[1].

إضافة لفظ الرّبوبيّة إلى ضمير الخطاب:

أضاف لفظ الرّبوبيّة إلى النّبي ﷺ تشريفًا له

قوله جلّ شأنه: ﴿مَّآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ﴾ ذكر أنّ نزول القرآن إلى النّبيّ ﷺ من ربّه ﷻ، فخاطبه بإضافة لفظ الرّبّ إلى ضمير الخطاب تشريفًا له ﷺ[2].

الحكمة من الاستئناف:

لمّا ذكر طغيانهم ذكر أنّهم مشغولون ببغض بعضهم عن المسلمين

قوله جلّ شأنه: ﴿وَأَلۡقَيۡنَا بَيۡنَهُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ﴾ استئنافٌ مَسُوقٌ لنفي ما قد يُتوهَّمُ من ذكر طغيانهم وكفرهم من الاجتماع على أمرٍ يؤدِّي إلى الإضرار بالمسلمين[3].

فائدة الإخبار بإلقاء العداوة بينهم:

إخبار بأن عقابهم قد وقع في الدّنيا، تسليةً للرّسول

قوله جلّ شأنه: ﴿وَأَلۡقَيۡنَا بَيۡنَهُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ﴾ أخبر اللّه تعالى أنّه عاقبهم في الدّنيا ببغض بعضهم بعضًا، إيماءً إلى أنّ ذلك بسبب بغضهم المسلمين، وفيه تسلية للرّسول ﷺ فلا يهمّه أمر عداوتهم له؛ لأنّ البغضاء سجيّتهم حتّى بين أقوامهم[4].

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/58.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/58.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/59.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 6/251.

بلاغة التّعبير عن حدوث العداوة بينهم بالإلقاء:

قوله جلّ شأنه: ﴿وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ عبّر عن حدوث العداوة بينهم بالإلقاء، والإلقاءُ يتعلّق بما له جرم مادّي، فكأنّ العداوة والبغضاء أشياء لها ذوات مادّية؛ مبالغةً في ظهورهما وشدّة حضورهما بينهم.

عبّر عن حدوث العداوة والبغضاء بفعل يتعلّق بالمادّيات مبالغة في ظهورهما وشدّتهما

إسناد الإلقاء إلى ضمير المتكلّمين:

قوله جلّ شأنه: ﴿وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ أسند الإلقاء إلى ضمير المعظّم نفسه تعظيمًا للبغضاء والعداوة الملقاة بينهم، فهي ليست بغضاء كأيّ بغضاء أخرى، بل هي عقوبة من الله تعالى، لذلك علّقت بالبقاء إلى يوم القيامة.

أسند الإلقاء إلى ضمير المعظّم نفسه تعظيمًا لمضمون الجملة

فائدة الإخبار بأن العداوة باقية إلى يوم القيامة:

قوله جلّ شأنه: ﴿وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ أخبر بأنّ هذا الوصف باقٍ إلى يوم القيامة؛ للدّلالة على أنّه وصف دائم لهم يعجزون عن مداواته[1].

أخبر بأن العداوة والبغضاء باقية إلى يوم القيامة للدّلالة على دوام ذلك

العطف بين الجمل:

قوله جلّ شأنه: ﴿وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ﴾ معطوف على قوله ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ﴾؛ لأنّها قصة معطوفة على قصّة؛ إذ كلتاهما عن اليهود[2].

الوصل يناسب عَطْفَ قصّة على قصّة

بيان مرجع الضّمير، بين مَن ألقيت العداوة؟

قوله جلّ شأنه: ﴿وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ﴾ الضّمير يعود على أهل الكتاب، فهو شامل لليهود والنّصارى، وكلّ طوائف اليهود المختلفة؛ دلالةً على أنّ العداوة والبغضاء قائمة بينهم جميعًا[3].

إلقاء العداوة بين طوائف اليهود، وبين اليهود والنّصارى

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 6/251.

(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/216.

(3) الواحديّ، البسيط: 7/463، والرازي، مفاتيح الغيب: 12/397، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 6/240، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/316 - 317.

الجمع بين العداوة والبغضاء:

قوله جلّ شأنه: ﴿وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ﴾ جمع بين العداوة والبغضاء للمبالغة فيما بينهم من اختلافات وبغض، بحيث إنّ بغضهم في ازدياد حتّى يبلغ مرتبة العداوة، والعداوة أخصّ من البغضاء؛ لأنّ كلَّ عدوٍّ يبغض عدوّه، وقد يُبغض من ليس بعدوّ، فالبغضاء أعمّ، وقد ألقى اللّه الأمرين على بني إسرائيل[1]. وفيه دلالة على أنّ العداء بينهم لا ينتهي؛ لأنّه مبنيّ على البغض، لا على خلاف قد يزول فتزول العداوة، ولذلك وصفه بأنه باقٍ إلى يوم القيامة.

العداوة أخصّ من البغضاء، فقد لا يصحب البغض عداوة

الحكمة من الاستئناف:

قوله جلّ شأنه: ﴿كُلَّمَآ أَوْقَدُواْ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُۚ﴾ استئناف لبيان أنّ ما هم فيه من التّعادي فيما بينهم يبطل ما يعزمون عليه من محاربة المسلمين، فهو تصريح بعدم وصول كيدهم إلى المسلمين[2].

لَمّا ذكر أنّ بينهم عداوة وبغضاء صرّح بأنهم لن يقدروا على محاربة المسلمين

الدّلالة على الظّرفية والتّكرار في (كلّما):

قوله جلّ شأنه: ﴿كُلَّمَآ أَوْقَدُواْ نَارًا لِّلْحَرْبِ﴾ عبّر بـ (كلّما) وهي ظرف وضع للتّكرار مع الدّلالة على التّوكيد[3]، أي كلّما جمعوا وأعدّوا شتّت اللّه شملهم وفرّق جمعهم[4]. وفي ذلك تعبير عن إصرار آخر وهو إصرارهم على إثارة الحروب والتّحريش بين النّاس. بعد أن عبّر سابقًا عن إصرارهم على المعاصي والطّغيان، وذلك يدلّ على كمال عتوّهم وتمرّدهم.

عبّر بـ (كلّما) للدّلالة على تكرار خذلان الله تعالى لمساعيهم في محاربة المسلمين على وجه التّأكيد

استعارة إيقاد النّار للشّر:

قوله جلّ شأنه: ﴿كُلَّمَآ أَوْقَدُواْ نَارًا لِّلْحَرْبِ﴾ عبّر عن جمعهم

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/216، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/317.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/59.
(3) عضيمة، دراسات لأسلوب القرآن الكريم: 2/378.
(4) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 6/240.

عبّر عن إثارتهم الشّرَّ وجمع أمرهم للحرب بإيقاد النّار

وإعدادهم للحرب بإيقادهم النّار، فمعنى ﴿أَوۡقَدُواْ نَارٗا﴾: أهاجوا شرًّا وأجمعوا أمرهم على الحرب، فالمشبّه هو التّهيّؤ للحرب والاستعداد لها، والمشبّه به إيقاد النّار[1]، بجامع الإعداد والتّهيئة؛ فمن يريد إيقاد النّار فإنّه يجمع الحطب ويراكمه لإضرام النّار، وكذلك من يريد الحرب فإنّه يحشد النّاس ويهيئ السّلاح وغيره من لوازمها، وقرينة إرادة الاستعارة ذكر الحرب، فالحرب لا تتطلّب إيقاد النّار.

استعارة إطفاء النّار لفضّ الجموع وانحلال عزمهم:

استعارة إطفاء النّار لفضّ جموعهم وتفريقهم وخذلانهم

قوله جلّ شأنه: ﴿كُلَّمَآ أَوۡقَدُواْ نَارٗا لِّلۡحَرۡبِ أَطۡفَأَهَا ٱللَّهُۚ﴾ بعد أنِ استعار إيقاد النّار للإعداد للحرب، استعار إطفاءها لخذلانهم وفضّ جموعهم وتشتّتهم وانهزامهم قبل الحرب[2]، فالمشبّه هو تشتّتهم وانهزامهم، والمشبّه به هو انطفاء النّار بعد إيقادها، والجامع بينهما عدم تحقّق الفائدة، فلم ينالوا مأربهم ولا انتفعوا بجمعهم، والقرينة الدّالة على إرادة الاستعارة هي ذِكرُ الحرب.

التّعبير عن الحرب بتعريف الجنس دلالة على العموم:

عبّر عن الحرب بتعريف الجنس للدّلالة على خذلانهم في كلّ حرب، تبشيرًا للمؤمنين

قوله جلّ شأنه: ﴿كُلَّمَآ أَوۡقَدُواْ نَارٗا لِّلۡحَرۡبِ أَطۡفَأَهَا ٱللَّهُۚ﴾ ذكر الحرب معرّفة تعريف الجنس؛ للدّلالة على كلّ حروبهم، فكلّما جمعوا وأعدّوا للحرب، غُلبوا وقُهروا، ولم يقم لهم نصر من اللّه ﷻ على أحدٍ قطّ[3].

إسناد الإطفاء إلى الله تعالى:

قوله جلّ شأنه: ﴿كُلَّمَآ أَوۡقَدُواْ نَارٗا لِّلۡحَرۡبِ أَطۡفَأَهَا ٱللَّهُۚ﴾ أسند الإطفاء إلى ذاته الجليلة إيماءً إلى عظمة كيدهم، وقوّة جمعهم،

(1) ابن جزي، التسهيل: 1/238، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 6/251.
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/216، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/317، وابن جزيّ، التسهيل: 1/238.
(3) الواحديّ، البسيط: 7/464، والبغوي، معالم التنزيل: 2/67، والنسفي، مدارك التنزيل: 1/460.

بحيث إنّه تعالى هو الذي يتولّى إبطال مساعيهم، وتشتيت جمعهم. كما أنّه يدلّ على قوّة الإطفاء، فتذهب مساعيهم أدراج الرّياح، فلا ينتفعون بشيء ممّا عزموا عليه.

أسند الإطفاء إلى ذاته الجليلة، إشارة إلى عظم كيدهم، ودلالة على قوّة استئصال مساعيهم

دلالة ذكر سعيهم بالإفساد بعد ذكر الحرب:

قوله جلّ شأنه: ﴿وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادٗاۚ﴾ عبّر عن سعيهم بالفساد بعد ذكر خيبتهم في إثارة الحروب لبيان أنّهم لا "يحصل في أمرهم قوة من العزّة والمنعة، إلّا أنّهم يسعون في الأرض فسادًا، وذلك بأن يخدعوا ضعيفًا، ويستخرجوا نوعًا من المكر والكيد على سبيل الخُفية"[1]؛ وفي ذلك إشارة إلى عراقتهم في الشّر والبغي، فلمّا لم يقع في أيديهم إثارة الحروب فإنّهم لم يتوانوا عن طغيانهم، فاستعاضوا عن ذلك بالإفساد.

ذكر سعيهم بالفساد بعد ذكر خذلانهم في إثارة الحروب، اكتفاءً منهم بإثارة الفتن وخداع النّاس

بلاغة التّعبير عن إفسادهم بالسّعي:

قوله جلّ شأنه: ﴿وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادٗاۚ﴾ عبّر عن فعلهم الفساد بالسّعي؛ دلالةً على اجتهادهم في الكيد للإسلام وأهله وإثارة الشرّ والفتنة، وخداع النّاس[2].

عبّر عن فسادهم بالسّعي دلالة على اجتهادهم فيه، ومبالغة إفسادهم

التّعبير بالسّعي دون الإفساد المباشر:

قوله جلّ شأنه: ﴿وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادٗاۚ﴾ عبّر عن فسادهم بالسّعي دون الإفساد، فلم يقل: (ويفسدون في الأرض) لبيان أنّ الإفساد كان مقصدًا لهم وليس فعلًا عارضًا، فهم يجتهدون في ذلك، وليس المعنى أنّهم يقومون ببعض المعاصي التي هي من الفساد، بل هم يفعلون الفساد بحرص واجتهاد.

عبّر عن فسادهم بالسّعي دون الإفساد لبيان أنّ الإفساد كان مقصدًا لهم وليس فعلًا عارضًا

(1) الرازي، مفاتيح الغيب: 12/397 - 398.

(2) الرازي، مفاتيح الغيب: 12/397 - 398، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 6/241، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/318، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/59.

دلالة نفي المحبّة عن المفسدين:

قوله جلّ شأنه: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ أخبر اللّه تعالى بنفي محبّته عنهم، والمراد نفي لوازمها، فلا يظهر عليهم من أفعال اللّه تعالى ما يشعر بمحبّته لهم، وإعلامًا بأنّه لا يجازيهم إلّا الشّرّ، وأنّه معاقبهم[1].

نفى تعالى محبّته عنهم، نفيًا للوازمها، فلا يأتيهم من الله ما يشعر بمحبّته لهم

دلالة اللّام على تعريف الجنس والعهد:

قوله جلّ شأنه: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ تدلّ اللّام في ﴿ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ على تعريف الجنس، فاللّه تعالى لا يحبّ كلّ مفسدٍ، في كلّ زمان. ويصلح أنْ تكون للعهد، والمعنى أنّه لا يحبّ هؤلاء المذكورين المتّصفين بالإفساد[2].

اللّام للجنس فهم داخلون فيه، أو للعهد فهم المعنيّون بالوصف

وضع الظّاهر موضع المضمر:

قوله جلّ شأنه: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ إن كانت اللّام للعهد فيكون من باب وضع الظّاهر موضع المضمر، فلم يقل: (واللّه لا يحبّهم)؛ بيانًا لشدّة فسادهم وكونهم متّصفين به ولا ينفكّون عنه[3]، ويضاف إلى ذلك أنّ التّعبير بالظّاهر أبان علّة انتفاء المحبّة، وهي اتّصافهم بالإفساد، فاللّه تعالى لا يبعد أحدًا من محبّته لذاته، بل لما اتّصف به ولما كسبت يداه.

وضع الظّاهر موضع المضمر؛ لبيان أنّ اتصافهم به ثابت، ولإظهار علّة انتفاء المحبّة، وأنّها انتفت بسبب الإفساد لا لذواتهم

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/216، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 2/135، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/318.
(2) القنّوجي، فتح البيان: 4/15.
(3) القنّوجي، فتح البيان: 4/15.

﴿وَلَوۡ أَنَّ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ لَكَفَّرۡنَا عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَلَأَدۡخَلۡنَٰهُمۡ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ٦٥﴾ [المائدة: 65]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا أثبت اللّٰه تعالى في الآية السّابقة كفر اليهود وعنادهم لمَا أُنزِل على النّبيّ ﷺ وعظهم في هذه الآية، ورجَّاهم في رحمته، بأنّهم لو آمنوا بنبوَّةِ النّبيّ ﷺ، واتَّقوا ما هُدِّدوا في كتابهم على ترك الإيمان به لكفَّر اللّٰه سيّئاتهم، وأدخلهم الجنَّة.

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

ولو أنّ اليهود والنّصارى - مع ما عدَّدنا من سيّئاتهم - آمنوا بالنّبيّ ﷺ، وبما جاء به، واتَّقوا اللّٰه بالانقياد إلى أوامره ونواهيه، لكفَّرنا عنهم تلك السّيّئات، وإن كانت كثيرةً، ولأدخلناهم الجنّة يتنعَّمون فيها نعيمًا لا ينقطع.

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالة الوصل في: ﴿وَلَوۡ أَنَّ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾:

اتّفقتِ الجملتان في الخبريّة، وتناسبتا في المعنى فحسُن الوصل:

قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ أَنَّ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ وُصِلت هذه الجملة بما قبلها - وهو قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ [المائدة: 64] - بالواو في ﴿وَلَوۡ﴾ لمَا بين الجملتين منَ الاتّفاق في الخبريّة لفظًا ومعنًى، وكونهما متناسبتين من حيث إنّهما في شأن اليهود وأهل الكتاب، فلمّا كانتا كذلك، ولم يكن مانع من عطفهما، حسُن الوصل بينهما.

دلالة ﴿وَلَوۡ﴾ الشّرطيّة:

أهل الكتاب، مع ما ذُكر من عنادهم، مدعوُّون للإيمان بالله وتقواه:

قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ أَنَّ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ﴾ فيه دعوةُ أهل الكتاب للخير عن طريق التّعريض، حيث وقع الشّرط فيه بـ﴿وَلَوۡ﴾ دون غيرها من أدوات الشّرط كـ(إن) وغيرها؛ فإنّها قد تتضمَّن معنى التّمنّي، كقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ لَوۡ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ

مِنۡهُمۡ﴾ [البقرة: 167]، أي: يا ليت لنا كرَّة، وكقولك لأحدهم: لو تأتيني فتحدّثني، أي: ليتك تأتيني، وكذلك هي في هذه الآية، أُشرِبَت معنى التّمنّي توسُّعًا[1].

دلالة التّعبير بـ: ﴿أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾:

وقوله تعالى: ﴿وَلَوۡ أَنَّ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ﴾ عُبِّر فيه عنِ اليهود والنّصارى بـ﴿أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾، أي: التّوراة والإنجيل، وفي ذكرهم بهذا العنوان تشنيعٌ عليهم، وتقريعٌ لهم على عدم إيمانهم بما في التّوراة والإنجيل منَ التّبشير بالنّبيّ ﷺ؛ فإنّ أهليَّتَهم للكتاب تُوجِب عليهم إيمانَهم بجميع ما فيه، فكفرهم به - وهم أهله - أقبح من كفر غيرهم؛ لإعراضهم عنِ الحقّ مع علمهم به[2].

أهليَّة الكتاب تقتضي الإيمانَ بما فيه، والعملَ بمقتضاه:

بلاغة الإدماج في: ﴿وَلَوۡ أَنَّ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ﴾ الآية:

قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ أَنَّ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ لَكَفَّرۡنَا عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ﴾ ... الآية، جعلَ اللّه تعالى إيمان أهل الكتاب وتقواهم شرطًا لتكفير سيّئاتهم بعد أن عدَّد بعضها في الآية السّابقة، وفي ذلك نوع منَ المحسّنات البديعيّة المعنويَّة، يسمّى الإدماج[3].

المعاصي المذكورة في الآية السّابقة عظيمة لا يُتنصَّل منها إلّا بالإيمان:

وبيان ذلك أنّ الظّاهر كان يقتضي أن يُقال - في غير القرآن - بعد ذكر سيّئات اليهود وقبائحهم في الآية السّابقة: (ولو أنّ أهل الكتاب تابوا لكفَّرنا عنهم)، فجُعل ﴿ءَامَنُواْ﴾ موضع (تابوا)، وصُرِّح بذكر السّيّئات دلالةً على أنّها لا تُغفر إلّا بالإسلام؛ لأنّه يهدم ما قبلَه[4].

حذف متعلّق ﴿ءَامَنُواْ﴾:

قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ أَنَّ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ ءَامَنُواْ﴾ حُذف مفعول ﴿ءَامَنُواْ﴾

(1) المغربيّ، مواهب الفتاح ضمن شروح تلخيص المفتاح: 2/241، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 6/252.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/59.
(3) وهو تضمين كلامٍ سيق لمعنى معنى آخر. السّيوطيّ، شرح عقود الجمان، ص: 136.
(4) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 5/421.

فيه، فلم يقُل تعالى: (آمنوا بي أو برسولي)، وقد حسَّن هذا الحذف الثّقة بظهور المفعول به فيما قبل هذه الآية، وما بعدها، فممَّا جاء قبلها قوله تعالى: ﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ هَلۡ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنۡ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلُ﴾ [المائدة: 59]، وممّا جاء بعدها: ﴿وَلَوۡ أَنَّهُمۡ أَقَامُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِم مِّن رَّبِّهِمۡ﴾ [المائدة: 66]، فعلم من ذلك أنّ قوله تعالى: ﴿ءَامَنُواْ﴾، يعني: آمنوا بالله، وبجميع ما جاء في التّوراة والإنجيل والقرآن، وما أنزله الله تعالى منَ الكتب[1].

الاختصار مع العلم من أسباب حذف متعلّقات الفعل:

لم قُدِّم الإيمان على التّقوى في: ﴿وَلَوۡ أَنَّ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ﴾؟

وقوله تعالى: ﴿ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ﴾ قُدِّم فيه وجوب إيمان أهل الكتاب بالله، وبجميع ما أنزله من الكتب؛ وذلك لأنّ الإيمان هو أساس جميع الأعمال، وهو شرط لقَبول الطّاعات، وفي ذلك إعلامٌ لأهل الكتاب بأنّه لا نجاة لهم إلَّا بالإيمان المقتضي تصديقَ ما جاء به النّبيّ ﷺ، وعدم كتمان ما عندهم من وصفه[2].

الإيمان أساس جميع الأعمال:

دلالة قَرن الإيمان بالتّقوى في: ﴿ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ﴾:

قوله تعالى: ﴿ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ﴾ قُرن فيه اشتراط الإيمان؛ لتكفير السّيّئات ودخول الجنّة باشتراط التّقوى أيضًا، وفي ذلك إشارةٌ إلى أنّ الإيمان الّذي يترتَّبُ عليه ذلك هو ما كان لغرض التّحقُّق بتقوى الله، وعمل الصّالحات، لا ما كان لتحقيق الأغراض الدّنيويّة كإيمان المنافقين[3].

الإيمان المقصود هو ما كان لغرض التّقوى لا لغرض دنيويّ:

دلالة قَرن تكفير السّيّئات بإدخال الجنّة:

قوله تعالى: ﴿لَكَفَّرۡنَا عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَلَأَدۡخَلۡنَٰهُمۡ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ رتَّب الله تعالى فيه على الإيمان المقرون بالتّقوى جزاء أُخرويًّا؛ هو

سعادة الآخرة تنحصر في رفع العقاب، وإيصال الثّواب:

(1) الآلوسّي، روح المعاني: 3/350.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 6/224.
(3) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 12/398.

تكفير السّيّئات وإدخال الجنَّات، وسرُّ حصر الجزاء الأخرويّ في هذين الأمرين هو أنّ سعادة الآخرة محصورةٌ في نوعين: الأوّل رفع العقاب، وهو الّذي يدلّ عليه قوله تعالى: ﴿لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾، والثّاني هو إيصال الثّواب، وهو الّذي يدلّ عليه قوله تعالى: ﴿وَلَأَدْخَلْنَٰهُمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾[1].

قُوبل الإيمان بتكفير السّيّئات، وقُوبلَت التّقوى بدخول الجنّة:

كما أنّ ترتيب تكفير السّيّئات، ودخول الجنّة على الإيمان والتّقوى، يعدُّ منَ التّوزيع، فالإيمان في الآية يقابله تكفير السّيّئات؛ إذِ الإسلام يجُبُّ ما قبله، والتّقوى يقابلها دخول جنّات النّعيم؛ لكون المتَّقي ممتثلًا لأوامر اللّه تعالى والنّواهي، فهو يُكافَأُ على ذلك بالجنّة[2].

دلالة لام التّأكيد في: ﴿لَكَفَّرْنَا﴾:

وعد الله واقع لا محالة، فكيف لو أُكِّدَ؟!

وقوله تعالى: ﴿لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾ أُكِّد فيه جواب الشّرط بلام التّوكيد، ولمَّا كان يصحُّ أن يُقال في غير القرآن: (ولو أنّ أهل الكتاب آمنوا، واتّقوا، كفَّرنا عنهم) كان في إدخال هذه اللّام توكيدٌ يُضافُ إلى التّوكيد المستفاد أصلًا من وعد اللّه تعالى[3].

وقد جاء هذا التّوكيد غايةً في مطابقة المقام؛ وذلك لأنّه قد تقدَّم في الآية السّابقة ذمُّ اليهود وتعديدُ سيّئاتهم، فلمّا كان قد يقع من بعضهم قنوط من رحمة اللّه جاء هذا التّوكيد ليُبطِل هذا الظّنَّ، ويقرِّرَ أنّ اللّه تعالى يغفر لمَن آمن مِن أهل الكتاب، واتّقى، ولا يبالي بما تقدَّم من خطاياه وعناده. واللّه تعالى أعلم.

دلالة التّعظيم في: ﴿لَكَفَّرْنَا﴾:

وفي قوله تعالى: ﴿لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾ عُبِّر بضمير

(1) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 12/398.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/318.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 6/253.

التّعظيم - المتضمِّن لمعاني الجلال والكبرياء - في: ﴿لَكَفَّرْنَا﴾، وفي استعماله في هذا الموضع إشارةٌ إلى عظيم جُرأة أهل الكتاب، وفداحة جرائمهم الّتي تقدَّم بعضها في الآية السّابقة[1].

استعمال ضمير التّعظيم يدلّ على عِظَم الذّنب، وجُرأة المُذنب:

جمع ﴿سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾ جمع قلّة:

وفي قوله تعالى: ﴿لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾ جُمِعتِ السّيّئات جمع مؤنّث سالمًا، وهو من جموع القِلَّة، وفي ذلك نُكتةٌ لطيفةٌ؛ وهي الإشارة إلى أنّ ذنوب أهل الكتاب وغيرِهم - مهما كثُرت - فهي قليلة في جنب عفو الله تعالى وكرمه[2].

الذّنوب الكثيرة قليلة بالنّسبة إلى كرم الله تعالى:

تكرير اللّام في: ﴿وَلَأَدْخَلْنَٰهُمْ﴾:

قوله تعالى: ﴿وَلَأَدْخَلْنَٰهُمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ كُرِّرت فيه لام التّوكيد الدّاخلة على جواب الشّرط في: ﴿لَكَفَّرْنَا﴾، وفي تكريرها تأكيد لوعد الله تعالى لمؤمني أهل الكتاب بتكفير السّيّئات، وإدخالهم الجنَّات إذا آمنوا واتَّقوا، وتأكيد هذا الوعد كتأكيد سابقه - أي: ﴿لَكَفَّرْنَا﴾ - في مطابقة المقام[3].

تكرار التّوكيد يدلّ على تأكيد الوعد:

دلالة التّعظيم في: ﴿وَلَأَدْخَلْنَٰهُمْ﴾:

وقوله تعالى: ﴿وَلَأَدْخَلْنَٰهُمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ أُسند فعل الإدخال فيه إلى (نا) الدّالّة على التّعظيم، وفي ذلك إشارة إلى سعة رحمة الله تعالى، وأنّها لا تضيق عن شيء أراده، فهو سبحانه يُدخل الجنّة مَن شاء، وإن كثُرَت ذنوبه إذا آمن به، واتّقاه[4].

رحمة الله واسعة لا تضيق عن شيء:

دلالة إضافة الجنّات إلى النّعيم:

قوله تعالى: ﴿وَلَأَدْخَلْنَٰهُمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ أُضيفت فيه الجنّات

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 6/225.
(2) الآلوسّي، روح المعاني: 3/350.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/59.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 6/225.

أهـــل الإيـمـان يتنعّمون، وأهل الكفر للعذاب مستحِقُّون:

إلى النّعيم، وفي هذه الإضافة إشارة - بمفهوم المخالفة - إلى ما يستحقُّه مَن لا يؤمن من أهل الكتاب، ويتّقي منَ العذاب، فكأنّه قيل: مَن آمن واتّقى منهم فله جنّات النّعيم، ومن لم يؤمن ويتَّقِ فله عذاب الجحيم[1].

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/318.

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُواْ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم ۚ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴿٦٦﴾﴾ [المائدة: 66]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

بعد أن رغَّب اللّه تعالى أهل الكتاب في الآية السّابقة في موعود الآخرة من تكفير السّيّئات، وإدخالهم الجنّة، رغَّبَهم في هذه الآية في موعود الدّنيا، بأنّهم لو آمنوا لفازوا بسعادة الدّنيا، ووجدوا طيّباتها وخيراتها؛ ليجمع لهم تعالى بذلك بين خيري الدّنيا والآخرة.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَقَامُواْ﴾: فعل ماضٍ منَ الإقامة، وإقامة الشّيءِ هي مراعاته وتوفية حقّه، ومنه إقامة الصّلاة، أي: توفيتها شرائطها من إتمام الرّكوع والسّجود والخشوع، لا الإتيان بهيئاتها فحسب، وقيل: إقامة الصّلاة إدامتها، وقيل: إقامة الشّيءِ إظهاره، ومنه قولهم: أقاموا السّوق، أي: حرَّكوها، وأظهروها.

والمقصود بإقامة التّوراة والإنجيل: توفية حقّهما منَ العلم والعمل، وقيل: إظهار ما فيهما منَ الأحكام والتّبشير بالنّبيّ ﷺ، والأمر باتّباعه[1].

2) ﴿مُّقْتَصِدَةٌ﴾: اسم فاعل منِ اقتصدَ، والقصد: العدل. والقصد منَ الأمور: ما كان وسَطًا بين طرفين. والاقتصاد نوعان: محمود، ومذموم؛ فالمحمود هو ما كان فيما له طرفان: إفراط وتفريط، كالجُود فإنّه وسط بين الإسراف والبخل، وهذا هو الّذي يكون بمعنى الاعتدال، أمّا المذموم فهو ما يُكنّى به عمّا يتردَّد بين طرفين: أحدهما محمود، والآخر مذموم، كأن يكون بين العدل والجور.

و﴿أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ﴾، أي: معتدلة، والمراد بهم: مؤمنو أهل الكتاب، كعبد اللّه بن سلّام، وقيل: بل من كان منهم عدلًا في دينه، غير شديد العناد والعداوة للمؤمنين[2].

(1) الهرويّ، الغريبين: 5/1596، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/319.

(2) الرّاغب، المفردات: (قصد)، وابن منظور، لسان العرب: (قصد)، والرّازيّ، مفاتيح الغيب: 12/399.

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

ولو أنَّ أهل الكتاب عملوا بما في التّوراة والإنجيل، وآمنوا بالقرآن الّذي أنزل على النّبيّ ﷺ ، ليسَّر اللّه تعالى لهم أسباب الرّزق، فأنزل لهم المطر، وأنبت لهم الأرض، وإنَّ من أهل الكتاب فريقًا معتدلًا ثابتًا على الحقّ، وكثيرٌ منهم ساء عمله، وضلَّ سبيله.

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

الاستعارة في: ﴿أَقَامُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ﴾:

إقامة التّوراة والإنجيل هي إظهارُهما:

قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ أَنَّهُمۡ أَقَامُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ﴾، قيل: معنى أقاموا التّوراة والإنجيل: أظهَروا ما فيهما منَ الأحكام، وعليه ففي الكلام استعارةٌ تحقيقيَّةٌ، حيث شُبِّه كُلٌّ مِنَ التّوراة والإنجيل بالشّخص، وشُبِّه إظهارهما بالإقامة؛ لكون القيام هو أظهر هيئات المرء[1].

دلالة الجارّ والمجرور في: ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِم﴾:

يجب العمل بالقرآن على كلّ مَن خُوطِبَ به:

قُيِّدَ الإنزال بالجارّ والمجرور ﴿إِلَيۡهِم﴾ في: ﴿وَلَوۡ أَنَّهُمۡ أَقَامُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِم﴾، وعلى ما ذكره كثير منَ المفسّرين مِن أنّ المراد بـ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِم﴾ هو القرآن الكريم[2]، يكون في هذا القيد إيذانٌ بوجوب إقامة القرآن على أهل الكتاب؛ لكونه أنزل إليهم، فهم مخاطَبون به، ويجب عليهم العمل به فور وصوله إليهم[3].

القرآن الكريم هو الكتاب الخاتم، والدّستور الحاكم:

وفي هذا التّقييد أيضًا تصريح ببُطلان ما كان يدّعيه اليهود من كون القرآن قد أُنزِل للعرب خاصَّة، وأنّ أحكامه لا تتعلّق بهم، فجاء التّقييد في هذه الآية رادًّا عليهم، مُبطلًا لدعواهم[4].

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/217.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 8/562، وابن الجوزيّ، زاد المسير: 1/567.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/60.
(4) الآلوسّي، روح المعاني: 3/350.

دلالة الإضافة في: ﴿رَّبِّهِمْ﴾:

في إضافة الرّبّ إلى ضمير أهل الكتاب مزيد تلطُّف في دعوتهم:

وفي التّعبير بالرّبّ، وإضافته إلى ضمير أهل الكتاب مزيد تلطُّف في دعوة أهل الكتاب إلى إقامة التّوراة والإنجيل؛ لِمَا تتضمَّنه الرّبوبيَّة من معاني الإحسان، وما تفيده الإضافة إلى ضمير أهل الكتاب من تشريف للمضاف إليه[1].

دلالة التّعبير بالأكل في قوله تعالى: ﴿لَأَكَلُواْ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾:

الأكل هو أكثر ما يُحتاج إليه لديمومة الحياة:

وفي قوله تعالى: ﴿لَأَكَلُواْ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ عُبِّر عن الأخذ بالأكل على سبيل الكناية؛ وذلك لأنَّ المراد بالآية هو وعد الله تعالى لأهل الكتاب بسعة الرّزق إذا أقاموا ما أُنزل إليهم منَ الكتب، فلمَّا كان الأكل هو أكثر ما يُحتاج إليه لديمومة الحياة عُبِّر به[2].

الأكل أعظم المنافع، وهو يستتبعُ سائرَها:

وقد تكون الكناية هي في استعمال الأكل مكان الانتفاع المطلق؛ وذلك لأنّ الأكل هو أعظم المنافع، وفي تحصيله استتباعٌ لسائرها ممّا يحتاج إليه الإنسان، ففي الاقتصار عليه دلالة على غيره من سائر ألوان الانتفاع[3].

تعليق الأكل على إقامة التّوراة والإنجيل:

في الإيمان بالله وطاعة رسوله استجلابٌ لبركات الأرض والسّماء:

وفي وعد الله تعالى لأهل الكتاب في هذه الآية بسعة الرّزق، وأكل الخيرات، بقوله: ﴿لَأَكَلُواْ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ ردٌّ على اليهود، فإنّهم لمَّا أصرُّوا على تكذيب النّبيّ ﷺ ومنابذته العداءَ أصابهم الله تعالى بالشّدَّة والقحط، حتّى بلغ بهم الأمر أن قالوا: يد الله مغلولة، فردَّ الله تعالى عليهم في هذه الآية، وبيَّن أنّهم لو تركوا ما هم عليه منَ الكفر لانقلبَ قحطهم وشدَّتهم إلى خصبٍ وسعةٍ[4].

وفي وعد الله تعالى لأهل الكتاب أيضًا بالسّعة والخصب إن

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/60، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 6/225.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/320.
(3) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 5/422.
(4) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 12/398.

الوعد بالتّوسعة الدّنيويّة هو المناسب للمقام:

أقاموا التّوراة والإنجيل مراعاة لحال أهل الكتاب، فإنّ غالبَهم محطُّ نظره هو الأمرُ الدّنيويُّ، ولذا بادروا إلى مقولتهم الشّنعاء المشار إليها فيما سبق، فبيَّن تعالى أنّ قحطهم، وفساد أمر دنياهم، إنّما هو من أنفسهم؛ إذ لم يقيموا ما في كتابيهم منَ الإيمان بالنّبيّ ﷺ، واتّباع ما جاء به من عند الله تعالى[1].

دلالة حذف المفعول في: ﴿لَأَكَلُواْ﴾:

لإقامة أحكام الله تعالى بركاتٌ عامّة:

وفي حذف مفعول: ﴿لَأَكَلُواْ﴾ في الآية - وهو فعل متعدٍّ - دلالة على تعميمه، فكأنّه قيل: لأكلوا وانتفعوا من كلّ أنواع الخيرات، فأفاد الحذف هنا التّعميم مع الاختصار، ونحوه قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ﴾ [يونس: 25]، أي: يدعو كلَّ أحد[2].

الحكمة هي ذكر حصول الأكل لا بيان المأكول:

وقد يكون مفعول ﴿لَأَكَلُواْ﴾ قد حُذِفَ في الآية؛ لكون الغرض هو التّنصيص على حصول الأكل نفسه منهم، دون التفاتٍ إلى جنس المأكول، فيكون المعنى: لو أنّهم فعلوا ذلك لرُزقوا، أي: بعد ما نزل بهم منَ الشّدَّة والقحط، ومثله قولهم: فلانٌ يعطي ويمنع، أي: يحصل منه العطاء والمنع[3].

دلالة تخصيص جهات الأكل في: ﴿مِن فَوۡقِهِمۡ وَمِن تَحۡتِ أَرۡجُلِهِمۡۚ﴾:

مصدر جُلّ ما يُنتفَعُ به هو السّماء أو الأرض:

وفي قوله تعالى: ﴿لَأَكَلُواْ مِن فَوۡقِهِمۡ وَمِن تَحۡتِ أَرۡجُلِهِمۡۚ﴾ قُيِّدَ الأكل بكونه من فوق أهل الكتاب أو من تحتهم لكون السّماء والأرض هما مصدر كلّ ما يُنتفَع به؛ ولذا قيل: في قوله تعالى: ﴿مِن فَوۡقِهِمۡ﴾ إشارة إلى المطر، وفي: ﴿وَمِن تَحۡتِ أَرۡجُلِهِمۡۚ﴾ إشارةٌ إلى الزّروع والثّمار[4].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 6/225.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/60.
(3) الآلوسّي، روح المعاني: 3/350.
(4) ابن جرير، جامع البيان: 8/563، والرّاغب، تفسير الرّاغب: 5/397.

بلاغة الكناية في: ﴿لَأَكَلُواْ مِن فَوۡقِهِمۡ وَمِن تَحۡتِ أَرۡجُلِهِمۡۚ﴾:

يساقُ الرّزقُ إلى مَن أقام أحكام الله تعالى مِن كلّ سبيل:

والأظهر أنّ في قوله تعالى: ﴿لَأَكَلُواْ مِن فَوۡقِهِمۡ وَمِن تَحۡتِ أَرۡجُلِهِمۡۚ﴾ تعميمًا لجهات الرّزق، ووعدًا لأهل الكتاب بسَوقه إليهم من كلّ سبيل، إن أقاموا ما أنزله الله تعالى إليهم في التّوراة والإنجيل والقرآن، والمعنى: لرزقوا رزقًا متّصلًا كثيرًا يستوعب جميع الأحوال والأزمان، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَهُمۡ رِزۡقُهُمۡ فِيهَا بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا ٦٢﴾ [مريم: 62].

وعليه فيكون الكلام كناية عنِ السَّعة والخصب، وليس فيه تخصيص لجهات الرّزق، كقولهم: فلان في خير مِن قرنه إلى قدمه[1].

الأكل يراد به الرّزق المعنويُّ، وهو العلم:

وذهب بعض أهل الإشارات إلى أنّ الأكل في الآية يراد به الرّزق المعنويُّ، وهو العلمُ بالله وبما أرسل به رسله، وفي تقييده بـ﴿مِن﴾ دلالة على أنّ أهل الكتاب إذا أقاموا تنزَّلت عليهم بركات المعرفة، كما جاء في الأثر: (من عمل بما يعلم ورَّثه الله علمَ ما لم يعلم)[2]، فهذا يدلّ عليه قوله تعالى: ﴿مِن فَوۡقِهِمۡ﴾.

ثمّ إنّهم إذا أقاموا على العمل بالكتاب، وبما أُنزل عليهم منَ البركات بأقدام راسخةٍ، استنزل تعالى لهم بركاتٍ من تحتهم، وهكذا يظلُّ العملُ والعلمُ يتناوبان فيهم، حتّى يصيروا في أعلى درجات العارفين المقرَّبين[3].

الإشارة في: ﴿وَمِن تَحۡتِ أَرۡجُلِهِمۡۚ﴾:

في ذكر الأرجل إشارة لرسوخ العلم، وثبات القدم فيه:

وفي ذكر الأرجل - على ما قاله بعض أهل الإشارات - إشارة إلى حصول ثبات القدم، ورسوخ العلم، لِمَن أقام أحكام الله تعالى، وفي اقترانها بـ﴿تَحۡتِ﴾ دلالةٌ على مزيد الثّبات، وكونه منَ الرّاسخين في العلم، لا منَ المتزلزلين من أهل الأوهام[4].

(1) الفرّاء، معاني القرآن: 1/315، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 6/254.
(2) أخرجه الخطيب البغداديّ - عن عليّ بن أبي طالب - في الجامع لأخلاق الرّاوي وآداب السّامع: 1/89.
(3) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 5/423.
(4) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 5/423.

لم قُدِّم الجزاء الأُخرويّ على الدّنيويّ؟

الجزاء الأخرويّ أهـــمُّ؛ لأنّ بـــه الـنّـجـاة السّرمديّة:

وقُدِّم الجزاء الأخرويّ في الآية السّابقة بقوله تعالى: ﴿لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَٰهُمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ على الجزاء الدّنيويّ في هذه الآية بقوله تعالى: ﴿لَأَكَلُواْ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم﴾؛ لأنَّ شأن الآخرة أهمُّ من شأن الدّنيا؛ إذ به تكون النّجاة السّرمديّة والنّعيم المقيم، أمّا الجزاء الدّنيويّ فمحدودٌ زائلٌ[1].

لم قُدِّم شبه الجملة ﴿مِّنْهُمْ﴾؟

التّـقـديـم هو الصّحيح لغةً، والأوضحُ معنًى:

قوله تعالى: ﴿مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ﴾ قُدِّم فيه الخبر، وأُخِّر المبتدأ، خلافًا للأصل في ترتيبهما، والسّبب في ذلك هو تنكير المبتدأ، وهو ﴿أُمَّةٌ﴾، وكونُ الخبر شبه جملة، وهو ﴿مِّنْهُمْ﴾، وهذا ممّا يُلتزم فيه تقديم الخبر، وتأخير المبتدأ.

فإن قيل: إنّ كون المبتدأ نكرة موصوفة يسوِّغ تقديمه لحصول الفائدة، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ﴾ [البقرة: 221]، فيُجاب: بأنّ تقديم ﴿أُمَّةٌ﴾ ههنا قد يوهم تعلُّقَ ﴿مِّنْهُمْ﴾ بقوله تعالى: ﴿مُّقْتَصِدَةٌ﴾، وهو خلاف المراد، فعُدل عن ذلك للنّصّ على خبريَّته. واللّه تعالى أعلم.

دلالة الافتعال في: ﴿أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ﴾:

كـانـتِ الأمّـة المذكورة جائرةً أوّلًا، ثـــمّ اقتصدَت:

قوله تعالى: ﴿مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ﴾ عُبِّر عنِ القصد - الّذي هو العدل - بصيغة الافتعال الّتي من معانيها التّصرُّف لتحصيل أصل الفعل كما في الاكتساب ونحوه، وعليه فإنّ في مجيئها بهذه الصّيغة إشارة إلى أنّ هذه الأمّة المقتصدة من أهل الكتاب كانت جائرةً أوّلًا، ثمّ اقتصدَت بعد ذلك[2].

(1) الآلوسّي، روح المعاني: 3/351.
(2) الرَّضيُّ، شرح الشافية: 1/110، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/320.

دلالة تنكير: ﴿أُمَّةٌ﴾:

المقتصِدُ من أهل الكتاب قليلٌ:

وتنكير الأمّة في قوله تعالى: ﴿مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ﴾ يفيد التّقليل، كقوله تعالى: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾، ففي التّنكير في ﴿أُمَّةٌ﴾ إشارة إلى أنّ المعتدل في عداوته لأهل الإيمان من أهل الكتاب - أو الدّاخلون منهم في الإسلام في عهد النّبيّ ﷺ - هم أمّة قليلة؛ ولذا قُوبلت هذه الأمّة بقوله تعالى: ﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾[1].

دلالة التّنكير في: ﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ﴾:

المعاندون لدين الله، وإن كثروا فهم إلى قلّة واحتقار:

وفي تنكير ﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾ دلالة على تحقير المسند إليه، إذ إنّه يصحّ أن يُقال في غير القرآن: والكثير منهم ساء ما يعملون، لكن جاء التّنكير تحقيرًا لَمن ساء عمله ممّن لم يقتصد من أهل الكتاب في معاندته لأهل الإيمان، وبيانًا لأنّهم وإن كثُر عددُهم، وعظُمَ كيدُهم، ليسوا بشيء أو على شيء. والله أعلم.

الذَّمُّ في: ﴿سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾:

عملُ المعاندين من أهل الكتاب ممّا يُتعجَّب منه:

قوله تعالى: ﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾ أُسنِدَ فيه سوء العمل إلى أكثر أهل الكتاب، و(ساء) في الجملة جارية مَجرَى (بئس) في إفادة الذّمّ، كما في قوله تعالى: ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ۝٦٢﴾ [المائدة: 62]، فقوله تعالى: ﴿سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾ فيه معنى التّعجُّب، كأنّه قيل: ما أسوأ عملهم!؛ وذلك لعنادهم ما جاء به النّبيّ ﷺ، وإفراطهم في عداوته، والإعراض عنه[2].

دلالة التّفاوت في التّعبير عنِ الأمّتين من أهل الكتاب:

التّعبير القرآنيّ غاية في الدّقّة، ومراعاة المقام:

قسَّم الله أهل الكتاب في هذه الآية إلى قسمين، عُبِّر عنهما بتعبيرين متفاوتين:

(1) السّبكيّ، عروس الأفراح: 1/204، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/320.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/658، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 2/136.

أمّا القسم الأوّل فهم الأمّة المقتصدة، قال تعالى: ﴿مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌۖ﴾، فجُعل الاقتصاد صفةً لهم، وهو ألزم للموصوف منَ الخبر، وأُخبر عنهم بقوله تعالى: ﴿مِّنْهُمْ﴾، ولمّا كان الخبر ليس من شأنه اللّزوم كان الإخبار عنهم بأنّهم من أهل الكتاب هو الأليق بالمقام؛ لأنّ هذه النّسبة قد تزول عنهم بالإسلام، فيكون الإخبار عنهم بأنّهم ﴿مِّنْهُمْ﴾ باعتبار الحالة الماضية.

وأمّا القسم الثّاني فهم الّذين قال تعالى فيهم: ﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾، فلم يُجعل ﴿مِّنْهُمْ﴾ هنا خبرًا، بل جُعل وصفًا لازمًا لـ﴿وَكَثِيرٌ﴾ وهو الأليق؛ لأنّهم كفَّار حقيقة، ثمّ جاءَت جملة ﴿سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾ خبرًا، وكان هذا هو الأليق أيضًا لمَا تقدَّم من أنّ الخبر ليس مِن شأنه اللّزوم كالوصف؛ لأنّه قد يزول ذلك عنهم بإسلام بعضهم[1].

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/320.

﴿۞يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٦٧﴾ [المائدة: 67]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لمّا ذكر الله تعالى قلّة المقتصدين وكثرة الفاسقين من أهل الكتاب أمر تعالى نبيّه بأن يبلّغ ما أنزل إليه، ولا ينظر إلى قلّة المقتصدين، وكثرة الفاسقين منهم، أو يخشى مكروههم؛ فإنّه تعالى يعصمه منهم ويصونه من مكرهم.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَعۡصِمُكَ﴾: مضارع عَصَم، والعِصمة: المنع. ومنه قولهم: عصَمَه الطعام، أي: منعه منَ الجوع، وعَصَم القِربة، أي: شدَّها. والاستعصام: طلب ما يُعتَصَم به ويُمتنَع، ومنه قوله تعالى: ﴿فَٱسۡتَعۡصَمَۖ﴾ [يوسف: 32].

والمراد بقوله تعالى: ﴿يَعۡصِمُكَ﴾، أي: يحفظك، ويجعل لك وقاية منَ المخاوف الّتي قد توقفك عن تبليغ الرّسالة كالقتل والأسر ونحوهما[1].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

يا أيّها الرّسول ﷺ أخبر بما أُنزِل إليه من ربّك كاملًا، ولا تكتم منه شيئًا، فإنّك إن قصَّرت في ذلك فكتمتَ شيئًا فما أنت بمبلّغ رسالة ربّك، والله تعالى يضمنُ لك العصمة منَ الكافرين إن فعلتَ ذلك، فلا يستطيعون قتلك أو الوصول إليك بسوء، وإنّه تعالى لا يهديهم إلى ما يريدون منَ الإضرار بك.

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

النّداء في: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ﴾:

قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ﴾ نودي فيه النّبيّ ﷺ بصفة الرّسالة، وفي هذا النّداء

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: 2/34، والرّاغب، تفسير الرّاغب: 5/400.

الرّسالة أشرف أوصاف الجنس الإنسانيّ:

منَ اللّه تعالى تشريف له وتعظيم لقدره ﷺ؛ إذِ الرّسالة هي أشرف أوصاف الجنس الإنسانيّ، وقد خُصَّ ﷺ بالنّداء بها، بينما نادى غيره منَ الأنبياء بأسمائهم، فقال تعالى: ﴿يَـٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ﴾ [البقرة: 35] و﴿يَـٰٓإِبۡرَٰهِيمُ أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَآۖ﴾ [هود: 76][1].

لمَ عُبِّر بالرّسول دون النّبيّ في هذا المَوضِع؟

تبليغ الوحي كاملًا من واجبات الرّسالة:

وفي نداء اللّه تعالى للنّبيّ ﷺ في هذا الموضع بعنوان الرّسالة دون النّبوّة؛ إيذان بأنّ الرّسالة من موجبات ما أمره اللّه تعالى به في هذا النّداء من تبليغ كلّ ما أُنزل عليه منَ الوحي غير مبالٍ بأحد منَ الخلق، فكأنَّ في وصفه بالرّسول إيماء إلى ما يأتي بعد هذا النّداء منَ الأمر الإلهيّ؛ لكون الرّسول أخصّ منَ النّبيّ بكونه مأمورًا بتبليغ ما أُنزل عليه[2].

دلالة التّعريف بـ(ال) في ﴿ٱلرَّسُولُ﴾:

النّبيّ ﷺ كامل الرّسوليّة مستجمِعٌ لموجباتها:

وفي تعريف الرّسول بالألف واللّام في قوله تعالى: ﴿۞يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ﴾ دلالة على الاستغراق، مبالغة في مدح النّبيّ ﷺ بوصف الرّسالة، فكأنّه قيل: يا أيّها الرّسول الجامع لصفات الرّسوليّة المستكمل لمستحقّاتها ومُوجباتها، وفي ذلك تثبيت لقلبه ﷺ لإتمام مهمة التّبليغ الّتي أوكلها اللّه تعالى إليه في هذه الآيات. واللّه تعالى أعلم.

دلالة أمره ﷺ بالبلاغ:

الأمر بالبلاغ يفيد الدّيمومة:

قوله تعالى: ﴿بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ﴾ أمر اللّه تعالى فيه النّبيّ ﷺ بتبليغ ما أُنزل إليه، ولمّا كان ﷺ قد بلَّغ ذلك للأمّة فعلًا كان في أمره بذلك أمر بالدّيمومة عليه، أي: كن دائمًا مبلِّغًا ما أُنزل إليك، كقوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [النّساء: 136][3].

(1) النّيسابوريّ، غرائب القرآن: 2/592.
(2) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 1/1310، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/60.
(3) النّسفيّ، التّيسير: 7/499، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/321.

فـائـدة الأمـر هـي المبـالـغـة والكمال:

وقد يكون الأمر بالبلاغ في الآية مرادًا به المبالغة والكمال في التّبليغ؛ وذلك لأنّه تعالى كان يأتيه الوحي بذمّ بعض الأقوام المعاندين لدين الإسلام، فكأنّه قيل له: بلّغ كلّ ما أُنزل إليك، وإن أتاك الوحي بما تكره أن تبلِّغه لقومك أو لغيرهم ممّن ليسوا على دين الإسلام[1].

دلالة الإضافة في: ﴿إِلَيۡكَ﴾:

تشريف الرّسول ﷺ بمرتبة الوساطة بين الله والنّاس:

وفي قوله تعالى: ﴿بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ﴾ أضيف ضمير المُخاطَب العائد على النّبيّ ﷺ إلى حرف الجرّ (إلى)، وفي هذه الإضافة تشريف لقدره ﷺ بكونه هو الواسطة بين اللّه تعالى وخلقه في تبليغ الوحي؛ إذ أضاف إنزال الوحي إليه، ولم يقل: إليهم أو إليكم[2].

دلالة الرّبوبيّة والإضافة في: ﴿مِن رَّبِّكَۖ﴾:

في الرّبوبيّة وعدٌ ضمنيّ بحفظه ﷺ:

قوله تعالى: ﴿مِن رَّبِّكَۖ﴾ في المجيء هنا بلفظ الرّبِّ - المتضمِّن لمعاني الإحسان والرّعاية - وعدٌ ضمنيّ للنّبيّ ﷺ بحفظه وحمايته، فكأنّه قيل: بلِّغْ ما أُنزل إليك غيرَ مراقب أحدًا أو خائف من أن ينالك - بسبب هذا التّبليغ - مكروه أبدًا، فإنّي متكفِّل برعايتك وحفظك، فاختُصِر ذلك المعنى كلُّه في قوله تعالى: ﴿مِن رَّبِّكَۖ﴾[3].

دلالة الإضافة في: ﴿مِن رَّبِّكَۖ﴾:

فـي الإضـافـة تشريف للنّبيّ ﷺ:

وأُضيف لفظ الرّبّ إلى ضمير المُخاطَب ﴿مِن رَّبِّكَۖ﴾؛ تشريفًا له ﷺ؛ إذ أُضيف لفظ الرّبّ إليه خاصّة دون غيره، فكأنّه قيل: بلّغ ما أنزل إليك ربّك الّذي أكرمك بالرّسالة واصطفاك بكونك خاتم رسله. واللّه أعلم.

(1) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 5/524.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 6/259.
(3) الآلوسّي، روح المعاني: 3/355.

دلالة التّعبير بالفعل دون التّبليغ في: ﴿وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ﴾:

التّعبير بالفعل أخفُّ لفظًا وأحسن رونقًا:

قوله تعالى: ﴿وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ﴾، لم يقل تعالى: (وإن لم تبلِّغ)، فغاير تعالى بين اللّفظين، وفي هذه المغايرة بينهما - وإن اتّحدا معنًى - خفَّةٌ في اللّفظ وطلاوةٌ في العبارة، فإنّه أحسن من تكرار لفظ التّبليغ السّابق، ولا سيَّما أنّ جواب الشّرط أيضًا قد جاء به، فكانتِ المغايَرة أبلغَ وأخفَّ من أن يقال: بلّغ ما أنزل إليك، وإن لم تبلغ فما بلَّغت رسالته[1].

الاعتراض بجملة: ﴿وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ﴾:

إبلاغ ما يخالف الأهواء لا يقدر عليه إلّا ذوو الهمم العالية:

وقوله تعالى: ﴿وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ﴾ اعتُرِض به بين: ﴿بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ﴾ - وفيها العامل في الجملة الحالية - وبين جملة: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ﴾، ففُصِل بها بين الحال والعامل فيها؛ وذلك لاقتضاء المقام لتأكيد الحثّ على البلاغ؛ لكون إبلاغ ما يخالف الأهواء منَ الوحي شديدًا على النّفس، لا يقدر عليه إلَّا ذوو الهمم العالية[2].

اتّحاد الشّرط والجزاء في ﴿وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ﴾:

ترك تبليغ شيء من الوحي يجعلُه كعدم تبليغ الكلّ:

قوله تعالى: ﴿وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ﴾ رتَّب اللّه تعالى على عدم تبليغ النّبيّ ﷺ شيئًا منَ الوحي كونه لم يبلِّغ شيئًا منَ الرّسالة أصلًا، وحاشاه!!، وفي ذلك تشنيع لأمر إخفاء الوحي، فكأنّه قيل له: إن لم تبلِّغ، ولو كلمة واحدة، كنت كمن كتَم جميع ما أُنزل عليه، تنبيهًا على ما يترتّب على ذلك من حبوط العمل، ومثله في تشنيع الفعل قوله تعالى: ﴿فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المائدة: 32][3].

وفي اتّحاد الشّرط والجزاء أيضًا إفادة للمبالغة؛ إذ وضِع قوله

(1) القاسميّ، محاسن التّأويل: 4/192.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 6/299.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/659، والرّاغب، تفسير الرّاغب: 5/399.

اتِّحاد الشّرط والجزاء يفيد المبالغة في الجزاء:

تعالى: ﴿فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ﴾ موضعَ أمر عظيم، أي: فقد ارتكبتَ أمرًا عظيمًا، فجُعلَ ذكرُ الجزاء مجرَّدًا كافيًا في بيان عظيم خطره وكبير شأنه؛ لكونه لا يمكن أن يوصف بتهديد أبلغ من كونه ترك التّبليغ، وهذا غاية في الوعيد والتّهديد، ومثله قول أبي النَّجم العِجلي[1]: "أنا أبو النَّجم وشِعري شِعري"[2].

أي: قد بلغ شعري منَ الفصاحة بحيث يكفي في مدحه أن يقال فيه: إنّه شعري[3].

عُبِّر في الجزاء بالسّبب وأريد المسبَّب:

وقيل: إنّ تقدير الجزاء في الآية هو: فلنجازينَّك، أو: فلك ما يوجبه كتمان الوحي منَ العقاب، فوُضِع السّبب - وهو عدم التّبليغ - موضعَ المسبَّب؛ لكونِ سامعه يتبادر إلى ذهنه عند سماعه ما يترتَّب عليه منَ الجزاء[4].

كتمان بعض الرّسالة يضيّع ما أُدِّي منها:

وفي مجيء الجزاء بهذا اللّفظ بيانٌ؛ لأنّ كتمان شيء منَ الوحي يُضيِّع سائر ما أُدِّي منه، وذلك كترك بعض أركان الصّلاة، يضيّع به سائر الأركان المؤدَّاة[5].

في الكناية عن الجزاء إجلالٌ للنّبيّ ﷺ:

وقيل: إنّه قد كُنِّي عنِ الجزاء بهذا اللّفظ إجلالًا للنّبيّ ﷺ عن أن يُقال له: وإن لم تبلّغ ليحبطنَّ عملك أو لنجازينّك[6].

دلالة الجمع في: ﴿رِسَالَتَهُۥۚ﴾:

كلُّ آية بمثابة رسالة منَ الله تعالى:

قوله تعالى: ﴿فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ﴾ قرأه المدنيَّان وابن عامر ويعقوب وشعبة ﴿رِسَالَتَهُۥۚ﴾ بالجمع وكسر التّاء نصبًا، ووجه ذلك أنّ الشرّع الشّريف قد ورد على معانٍ كثيرة، وفي أزمنة مختلفة؛ إذ

(1) هو الفضل بن قدامة العِجلي، من أشهر الشّعراء في عصر بني أميّة، توفيّ سنة 130 ه. ينظر: ابن قتيبة، الشّعر والشّعراء: 2/588، والزِّركلي، الأعلام: 5/151.
(2) أبو النّجم، ديوان أبي النّجم العِجلي، ص: 198.
(3) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 12/400.
(4) الآلوسّي، روح المعاني: 3/355.
(5) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 2/136.
(6) البقاعيّ، نظم الدّرر: 6/320.

نُجِّم على ثلاث وعشرين سنة، فكلّ آية أنزلها الله تعالى على نبيّه ﷺ - على هذه القراءة - تعدّ رسالة مستقلّة[1].

دلالة الإفراد في: ﴿رِسَالَتَهُۥ﴾:

الشّرع كلّه شيء واحد:

وقد قرأ باقي القرّاء العشرة ﴿رِسَالَتَهُۥ﴾ بالإفراد، ووجه ذلك أنّ الشّرع كلّه شيءٌ واحد، وهو بعقائده وأحكامه جملةٌ بعضُها من بعض، فلفظ ﴿رِسَالَتَهُۥ﴾ - وإن كان مفردًا لفظًا - شامل لجميع ما أنزله الله على نبيّه ﷺ[2].

اسم الواحد قد يدلّ على الجمع:

كما أنّ الإفراد في: ﴿رِسَالَتَهُۥ﴾ قد يراد به الجمع أيضًا؛ لكونها كالمصدر في أكثر الكلام، وهو لا يُثنَّى ولا يجمع، ومثلها قوله تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ﴾ [النّحل: 18]، أُفردت النّعم مع أنّها كثيرة، وكذلك الرّسالة ههنا[3].

دلالة الاسم العظيم في: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ﴾:

لفظ الجلالة يفيد الاهتمام بالنّبيّ ﷺ وتطمينَه:

قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ﴾ افتُتحتِ الجملة بلفظ الجلالة المتضمّن لمعاني العزّة والمنَعة، وكان يصحّ أن يُقال في غير القرآن: وأنا أعصمك أو نحوه، وفي الإتيان بلفظ الجلالة تطمين للنّبيّ ﷺ واهتمام به؛ إذ تبليغ كلّ ما أُنزِل عليه ممّا يتوقّع بعده وقوع العنت ومحاولة الإضرار به ﷺ، فكان في الاسم العظيم مزيد رعايةٍ له وتثبيتٍ لقلبه ﷺ[4].

دلالة المضارعة في: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ﴾:

حفظ الله تعالى لنبيّه ﷺ مستمرٌّ دائمٌ:

وعبّر بالفعل المضارع في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ﴾ للدّلالة على ديمومة حفظ الله تعالى لنبيّه ﷺ واستمراره، أي: كما عصمك من قبل فإنّه يتكفّل بحفظك فيما يُستقبَل منَ الزّمان[5].

(1) مكّيّ، الكشف: 1/415، والرّازيّ، مفاتيح الغيب: 12/400.
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/218.
(3) الفارسّي، الحجّة: 3/245.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 6/263.
(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/323.

ولذا رُوي أنّه لمّا نزلَت هذه الآية قال النّبيّ ﷺ لحرّاسه: «يا أيّها النّاس، انصرفوا؛ فقد عصمني الله»[1].

دلالة (ال) في: ﴿ٱلنَّاسِ﴾:

المراد بالنّاس هم الكفّار خاصّة:

وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ﴾ (الـ) فيه للجنس، فهي لغة مستغرقة لجميع النّاس، أما معنىً فالمراد بها هم الكفّار منَ اليهود والنّصارى والمشركين والمنافقين؛ إذ هم الّذين تُتَوقَّع منهم محاولة الإضرار به ﷺ دون سائر النّاس، فهو عامّ مرادٌ به الخصوص، بدلالة قوله تعالى بعده: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾[2].

دلالة وضع الظّاهر موضعَ المضمَر في: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾:

تعليل عصمة النّبيّ ﷺ:

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ فيه وضعٌ للظّاهر موضعَ المضمَر؛ وذلك لأنّ المراد بالنّاس في قوله تعالى: ﴿يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ﴾ هم الكفّار، فكان السّياق يقتضي أن يُقال في غير القرآن: إنّ الله لا يهديهم، لكن لمَّا كانتِ الجملة سيقت مساقَ التّعليل لعصمة الله تعالى لنبيّه ﷺ جيء بلفظ القوم الكافرين؛ للدّلالة على أنّه تعالى لا يهديهم إلى ما يريدونه من إطفاء نوره بإنزال الضّرر بالنّبيّ ﷺ بحيث لا يقدر على تبليغ رسالة الله تعالى، وهذه الآية من دلائل نبوّته ﷺ[3].

(1) التّرمذيّ، السنن التّرمذيّ: 5/138.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 6/263.
(3) النّحاس، إعراب القرآن: 1/275، والطّيبيّ، فتوح الكبير: 5/429.

﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَسۡتُمۡ عَلَىٰ شَيۡءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡۗ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرٗا مِّنۡهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ طُغۡيَٰنٗا وَكُفۡرٗاۖ فَلَا تَأۡسَ عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٦٨﴾ [المائدة: 68]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا أمر اللّٰه نبيّه في الآية السّابقة بتبليغ جميع ما أُنزل إليه سواء طاب ذلك للسّامع أم ثقُل أمره في هذه الآية أن يرهِّب أهل الكتاب - بعد التّرغيب لهم في الآيات السّابقة - ويخبرهم ببعض ما يشُقُّ عليهم سماعه من أنّهم ليسوا على شيء منَ الدّين حتّى يعملوا بما في التّوراة والإنجيل والقرآن منَ الإيمان بعيسى، ثمّ بمحمّد ﷺ، وما أُنزل عليه.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تَأۡسَ﴾: مضارع أسِيَ، يقال: أسِي فلانٌ على فلان وله فهو أَسوانٌ، والأسَى: الحزنُ، وقيل: شدّة الحُزن، ومنه قول العَجَّاج[1]: وانحلبَت عيناه من فَرط الأسى[2].

وقيل: الأسى هو الحزن الّذي يكون مع جزَع وذُهول، وهو على هذا المعنى ممّا يُستنكَر شرعًا[3].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

قل - يا أيّها النّبيّ ﷺ - : لستم أيّها اليهود والنّصارى على دين يُعتَدُّ به حتّى تعملوا - قلبًا وقالبًا - بما في التّوراة والإنجيل منَ الإيمان بعيسى، ثمّ بمحمّد ﷺ، وما أُنزل إليكم عليه منَ القرآن، وإنّ كثيرًا من أهل الكتاب لا يزيدهم إنزال القرآن إليك - أيّها النّبيّ ﷺ - إلّا طغيانًا وجحودًا على طغيانهم وجحودهم، فلا تحزن على تكذيبهم لك.

(1) هو أبو الشّعثاء، عبد الله بن رؤبة التّميميّ، وُلد في الجاهليّة، وقال الشّعر فيها، ثمّ أسلم، له ديوان مطبوع، توفّي نحو 90 ه. ينظر: ابن قتيبة، الشّعر والشّعراء: 2/575، والزّركلي، الأعلام: 4/87.

(2) شطر بيت منَ الرّجز، وهو في ديوان العجّاج، ص: 11.

(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: 13/95، وداود، معجم الفروق الدّلالية: (الأسى).

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالة التّنكير في: ﴿لَسۡتُمۡ عَلَىٰ شَيۡءٖ﴾:

التّنكير يفيد التّحقير والتّصغير:

قوله تعالى: ﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَسۡتُمۡ عَلَىٰ شَيۡءٖ﴾ نُكِّر فيه ﴿شَيۡءٖ﴾ للتّنبيه على بطلان ما عليه أهل الكتاب لكونه خلوًّا من اتّباع النّبيّ ﷺ، والإذعانِ لرسالته، فبيّن سبحانه أنّهم ليسوا على دين يُعتدُّ به حتّى يسمَّى شيئًا، وفي هذا التّنكير تحقير وتصغير لِمَا هم عليه[1].

النّفي متوجّهٌ للصّفة لا للموصوف:

وقيل: إنّ تقدير الكلام: لستم على شيءٍ يُعتدُّ به، فالنّفي في الأصل كان متوجِّهًا إلى الصّفة دون الموصوف، لكن حُذِفت الصّفةُ - لدلالة السّياق عليها - وبقي الموصوف[2].

المقصود بالإقامة في: ﴿حَتَّىٰ تُقِيمُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ﴾:

التّوراة والإنجيل عامّان مراد بهما الخصوص:

قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ تُقِيمُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ﴾ فيه تقريع لأهل الكتاب منَ اليهود والنّصارى على عدم إقامتهم ما أُنزل إليهم من نصوص التّوراة والإنجيل.

ولفظا التّوراة والإنجيل، وإن كانا عامَّين إلّا أنّهما مخصوصان هنا بدلالة السّياق بأصولهما الدّاعية إلى توحيد اللّه تعالى والإيمان برسُلِه، وخاصّة ما جاء فيهما منَ التّبشير بالنّبيّ ﷺ، وكذا بما لم ينسخ من فروعهما[3].

لم أُفردتِ التّوراة والإنجيل بالذّكر قبل العموم في: ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡۗ﴾؟

قدّم ذكر كتابَي المخاطَبين ترفُّعًا بالخطاب عن منزلةِ الشِّقاق:

وأُفرِدَت إقامة التّوراة والإنجيل بالذّكر في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ تُقِيمُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ﴾ قبل أن يدخُلا في عموم قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡۗ﴾ لكون المخاطَبين هم أهل الكتاب؛

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/660.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/324.
(3) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 2/136.

ففي تخصيص ذكر كتابَيهم تأليفٌ لهم، وبيانٌ أنّ القرآن لم يأتِ لإبطال دينهم، بل جاء خاتمًا للرّسالات، مصدِّقًا لجميع النّبوَّات، ففي ذلك انتقال بالخطاب معهم من ضِيق الشِّقاق إلى سَعة الوِفاق[1].

في التّوراة والإنجيل بشاراتٌ بعيسى ثمّ بمحمّد عليهما الصّلاة والسّلام:

وقيل: إنّهما أُفردا بالذّكر أوّلًا لتبشيرهما بعيسى عليه السلام، وسيّدنا محمد ﷺ بالخصوص، فأفرِدا بالذّكر تنبيهًا على ما تقتضيه إقامتُهما منَ الإيمان بهما، وتمهيدًا لِمَا يأتي بعدهما من وجوب إقامة القرآن المهيمِن على ما قبله منَ الكتب والرّسالات[2].

أفرِدتِ التّوراة والإنجيل بالذّكر على سبيل التّفصيل:

وقيل: إنّهما قد أُفرِدا بالذّكر تفصيلًا لما يجب على أهل الكتاب منَ الإيمان به منَ الكتب، وعليه فهما غير داخلين في عموم قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡۗ﴾، والمراد به هو القرآن فحسب، والمعنى: لستم على شيء يا أهل الكتاب حتّى تقيموا ما في التّوراة والإنجيل والقرآن من الإيمان بالله، وجميع كتبه ورسله[3].

دلالة الغاية في: ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم﴾:

أهل الكتاب مخاطَبون بالقرآن مكلَّفون بأحكامه:

والغاية في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم﴾ - سواء قيل: إنّ المراد به القرآن أم جميع الكتب المنزلة - تدلّ على أنّ أهل الكتاب مأمورون بإقامة القرآن الّذي خوطِبوا فيه بهذا الخطاب؛ لكونه أُنزِل إليهم، أي: ليؤمنوا به، ويقيموا أحكامه[4].

الأنبياء واسطة بين الله وعباده في إبلاغ آياته:

وخُصَّ حرف الغاية (إلى) في الآية دون غيره منَ الحروف والأدوات - فقيل: ﴿إِلَيۡكُم﴾ - لكون جميع ما أنزله الله تعالى إلى العباد ليؤمنوا به، ويعملوا بمقتضاه، إنّما أوتوه عن طريق أنبياء

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/61.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 6/239.
(3) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 5/403.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/61.

اختارهم اللّه لهذه المهمّة، فهو بمثابة رسائلَ مبدؤها من عند اللّه، وغايتها عباده، بواسطة أنبيائه[1].

دلالة الرّبوبيّة والإضافة في: ﴿مِّن رَّبِّكُمۡۗ﴾:

وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡۗ﴾ جيء بلفظ الرّبوبيّة، ثمّ أُضِيف إلى ضمير المخاطبين من أهل الكتاب، وفي ذلك تلطُّفٌ في دعوتهم، فكأنّه قيل لهم: آمنوا بهذا القرآن الّذي أنزله ربّكم المحسِن إليكم لأجل هدايتكم، ونجاتكم في الدّارين[2].

في لفظ الرّبوبيّة مزيد تلطُّف في الدّعوة للإيمان:

فائدة تكرار ذكر إقامة التّوراة والإنجيل:

وفي إعادة ذكر إقامة التّوراة والإنجيل في هذه الآية بعد أن تقدَّم ذلك قريبًا - في قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ أَنَّهُمۡ أَقَامُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ﴾ - تأكيد على أنّ دين الإسلام لم يأتِ بتكذيب ما قبله منَ الأديان السّماويّة أو إبطالها بالكلّيَّةِ، وأنّ القرآن مصدِّق لما قبله منَ الكتب، ومهيمن عليه[3].

التّأكيد على تصديق القرآن لما قبله منَ الكتب:

بلاغة حذف المعطوف عليه في: ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنۡهُم﴾:

قوله تعالى: ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنۡهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ طُغۡيَٰنٗا وَكُفۡرٗاۚ﴾ عُطِف ﴿وَلَيَزِيدَنَّ﴾ فيه على ما قبله بالواو، وحُذف المعطوف عليه إيجازًا للّفظ؛ لدلالة السّياق عليه، والتّقدير: فليؤمننّ به مَن أراد اللّه منهم، ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنۡهُم﴾ إلى آخر الآية[4].

حُذف المعطوف عليه اختصارًا لدلالة السّياق عليه:

دلالة القسم في: ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنۡهُم﴾ الآية:

وقوله تعالى: ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنۡهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ طُغۡيَٰنٗا وَكُفۡرٗاۚ﴾ اللّام في ﴿وَلَيَزِيدَنَّ﴾ هي اللّام الموطِّئة للقسم، وتصدير هذه الجملة بها يفيد تأكيد مضمونها، وتحقيق مدلولها، وفي ذلك

التّأكيد على عدم إيمان أكثر المُخاطَبين من أهل الكتاب:

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 6/239.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/61.
(3) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 12/401.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 6/239.

إعلام منَ اللّه تعالى لنبيّه ﷺ بما سيكون عليه حال أكثر المُخاطَبين بهذا الخطاب من أهل الكتاب منَ الكفر والعناد، حتّى إذا تحقَّق ذلك خفَّت عليه ﷺ وطأة كفرهم به، وعنادهم له[1].

دلالة نسبة الإنزال إلى النّبيّ ﷺ في: ﴿مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ﴾:

كفرُ أكثر المخاطَبين في الآية بالقرآن يَرفَع عنهم كرامةَ إنزاله إليهم:

ونُسب الإنزال في قوله تعالى: ﴿مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ﴾ للنّبيّ ﷺ بعد أن تقدَّمت نسبته إلى أهل الكتاب في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم﴾، وفي هذا التّغايُر مناسبة للمقام، فإنّه لمّا تقدَّم ﴿مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ﴾ ذكر كُفر أكثر المُخاطَبين من أهل الكتاب بالآية، وعنادهم له ﷺ، جرَّدهم اللّه تعالى من شرف إنزال القرآن إليهم، ومن كرامة عنايته ﷻ بهم[2].

دلالة إقامة الظّاهر مقام المضمَر في: ﴿فَلَا تَأۡسَ عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾:

التّنبيه على العلّة الموجبة لعدم التّأسّف على معاندي الرّسالة:

وفي قوله تعالى: ﴿فَلَا تَأۡسَ عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ عُبِّر بالاسم الظّاهر، أي: ﴿ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾، وعُدل عنِ التّعبير بالضّمير مع تقدُّم ما يعود عليه قريبًا، فلم يقل تعالى: فلا تأس عليهم، وفي هذا العدول تنبيه على علّة عدم تأسُّفه ﷺ عليهم، فكأنّه قيل: فلا تأسَ عليهم يا محمد؛ لأنّهم كافرون بآياتي، معانِدون لرسلي وكُتُبي[3].

التّنبيه على رسوخ مُعانِدي أهل الكتاب في الكفر:

وقيل: إنّ فائدة هذا العدول هو التّسجيل على رسوخ أكثر المُخاطَبين من أهل الكتاب في الكفر، وإمعانهم فيه حتّى صار وصفًا ملازمًا لهم، كأنّهم غارقون فيه[4].

(1) الآلوسّي، روح المعاني: 3/365.
(2) رضا، تفسير المنار: 6/394.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/324.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/62.

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

العمل والإقامة:

من معاني الإقامة العمل بالقلب والقالب:

وفي قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ تُقِيمُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ﴾ عُلِّق كون أهل الكتاب منَ اليهود والنّصارى على شيء بإقامتهم التّوراة والإنجيل، ولم يعلَّق ذلك بالعمل بهما فحسب، والتّعبير بالإقامة هو الأليق بالمقام؛ إذِ الإقامة تتضمَّن معنًى زائدًا عنِ العمل؛ لكونها مراعاةً للمعمول وتوفيةً لحقّه، كإقامة الصّلاة؛ فهي عمل بالقلب والقالِب معًا، كما عبَّر عنها بعض العلماء[1].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 6/239.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٦٩﴾ [المائدة: 69]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

بعد أن بيَّن اللّه تعالى في الآية السّابقة أنّ أهل الكتاب ليسوا على شيء منَ الدّين ما لم يؤمنوا بيَّن في هذه الآية أنّ هذا الحكم عامّ فيهم وفي غيرهم من جميع أهل الملل، فليس لأحد فضيلة إلّا إذا آمن باللّه تعالى، واليوم الآخر، وعمل الأعمال الصّالحة.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَٱلصَّٰبِـُٔونَ﴾: جمع صابئ، وصبأ: خرج. ومنه قولهم: صبأَ ناب البعير، إذا طلع. وقولهم: (صابئ) لكلّ خارج من دين إلى دينٍ آخر، واختلف في المراد بـ: ﴿وَٱلصَّٰبِـُٔونَ﴾، فقيل: هم قوم بين المجوس واليهود والنّصارى، وقيل: فِرقة من أهل الكتاب يقرؤون الزّبور، وقيل: هم قوم يعبدون الملائكة، وقيل: هم فرقة جامعة لما تفرَّق من أصول أديان أهل الشّرك، وغير ذلك.

وقيل: بلِ ﴿وَٱلصَّٰبِـُٔونَ﴾ جمع صابٍ، من صبا إلى الشّيءِ يصبو إذا مال إليه، ومنه قوله تعالى حكاية عن يوسف عليه السلام: ﴿وَإِلَّا تَصۡرِفۡ عَنِّي كَيۡدَهُنَّ أَصۡبُ إِلَيۡهِنَّ﴾ [يوسف: 33]، وعليه فالمراد بـ﴿وَٱلصَّٰبِـُٔونَ﴾: الّذين اتّبعوا الهوى في دينهم، ولم يتّبعوا أدلّة العقل والسّمع[1].

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

إنّ المؤمنين واليهود والصّابئين كذلك - وهم طائفةٌ بين المجوس وأهل الكتاب، وقيل غير ذلك - والنّصارى من آمن مِن هؤلاء جميعًا باللّه واليوم والآخر، وعمل العمل الصّالح، فلا خوف عليهم ممّا يُقدِمون عليه من أهوال يوم القيامة، ولا هم يحزنون على ما فاتهم من لذّات الدّنيا وحظوظها.

(1) الرّاغب، المفردات: (صبا)، والزّمخشريّ، الكشّاف: 1/662، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 6/241.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالة التّأكيد في: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ﴾ الآية:

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ﴾ لمَّا تقدَّم في السّورة ذمُّ اليهود، وذكر نقضهم للمواثيق، ووصفهم بالقسّوة، وإخفاء الكتاب وتحريفه، وغير ذلك ممّا قد يدعو إلى إنكار قبول توبتهم - وكانوا هم أيضًا ينكرون فلاح العرب - اقتضى الحال أن يكونَ الكلام في الآية مؤكَّدًا[1].

كثرة المعاصي لا تمنع من قبول التّوبة:

دلالة تعميم الكلام وعدم تخصيصه بأهل الكتاب:

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ﴾ الآية لمّا طال الكلام مع أهل الكتاب في الآيات السّابقة، وسُجِّلت فيها عليهم مخالفات عدّة، كان ربَّما ظُنَّ أنّ ما تقدَّم منَ التّرغيب، والتّرهيب، والأمر، والنّهي خاصّ بهم، فذكر اللّه تعالى في هذه الآية أنّهم وغيرهم من سائر الفرق سواء في الخطاب بتوحيد اللّه تعالى، والاستقامة على شرعه[2].

جميع الفرق سواء في التّكليف بتوحيد اللّه وعمل الصّالحات:

وفي تعميمِ الكلام وإدخال جميع الفِرَق فيه أيضًا، تشريف لمقدار النّبيّ ﷺ بالإشارة إلى عموم دعوته، وإحاطة رسالته من جهة خطاب جميع النّاس بالإيمان بها، والانقياد لأحكامها[3].

رسالة الإسلام جامعة شاملة:

لم ذُكِرَ ﴿وَٱلصَّٰبِـُٔونَ﴾ في الآية؟

وفي ذكر الصّابئين في الآية - مع أنّه لم يتقدّم لهم ذكر فيما سبق - اكتفاءٌ عن ذكر غيرهم من أهل الشّرك، وذلك على القول بأنّهم فرقة جامعة لما تفرَّق من أصول أديان أهل الشّرك، فكأنّه قيل: حتّى الصّابئون مع ظهور ضلالهم وزيغهم تُقبل توبتهم إن آمنوا وعملوا الصّالحات، فغيرهم من سائر المشركين كذلك[4].

ذُكر (الصّابئون) استغناءً عن ذكر بقيّة المشركين:

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 6/241.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 6/240.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 6/240.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/62.

دلالة كون ﴿وَٱلصَّٰبِـُٔونَ﴾ على نيّة التّأخير:

الصّابئون أشدّ الفِرَقِ المذكورة في الآية ضلالًا:

وذهب جمهور المفسِّرين والمعربين إلى أنّ في الآية تقديمًا وتأخيرًا، وأنّ التّقدير: إنّ الّذين آمنوا، والّذين هادوا، والنّصارى مَن آمن بالله إلخ، والصّابئون كذلك، فقوله تعالى: ﴿وَٱلصَّٰبِـُٔونَ﴾ ليس معطوفًا على ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ وهو مقدَّم لفظًا - كالجملة الاعتراضيّة - مؤخّرٌ تقديرًا، وإعرابه مبتدأ، وخبره محذوف[1].

وفي تأخير جملة: (والصّابئون كذلك) نكتة لطيفة، وهي أنّهم أشدُّ المذكورين في الآية ضلالًا، فكأنّه قيل: كلّ هؤلاء الفِرق إن آمنوا وعملوا الصّالحات قُبِلت توبتهم، حتّى الصّابئون فإنّهم إن آمنوا أيضًا كانوا كذلك، فغيرهم تُقبَل توبتُه بقياس الأولى[2].

دلالة التّرتيب والتّعاطف في الآية:

الفِرَق المذكورة في الآية مرتَّبةٌ بحسب إيغالها في الضّلال:

وذهب بعض العلماء إلى أنّ المراد بـ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ في الآية، أي: آمنوا بألسنتهم فقط، وهم المنافقون، وأنّ ﴿وَٱلنَّصَٰرَىٰ﴾ معطوف على ﴿وَٱلصَّٰبِـُٔونَ﴾[3].

وعليه فإنّ العطف والتّرتيب في الآية قد رُوعِي فيهما إيغال كلّ منَ الفرق الأربعة المذكورة في الضّلال، فبُدئ بالمنافقين، وعُطِف عليهم اليهود؛ لكونهم أوغل ضلالًا، ثمّ ثُلِّث بذكر الصّابئين، وعُطف عليهم النّصارى؛ لكون ضلالهم أخفّ من سابقيهم[4].

مظِنَّة العفو في حقّ الفريقين المقدَّمين أبعد منَ الفريقين المؤخَّرين:

وقيل: لمَّا كانت مظِنَّة العفو، وقبول التّوبة في حقّ المنافقين واليهود، أبعدَ منها في حقّ النّصارى والصّابئين - لأنّ عِنادهما واستهزاءهما أكبر - قدِّم ذكرهما في الآية، وأُخِّر ذكر الصّابئين والنّصارى[5].

(1) السّمين، الدّرّ المصون: 4/353.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/661، والرّازيّ، مفاتيح الغيب: 12/402.
(3) الآلوسّي، روح المعاني: 3/367.
(4) السّمين، الدّرّ المصون: 4/363.
(5) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 5/434.

فائدة ترك الجارّ والمجرور في: ﴿مَنْ ءَامَنَ﴾:

ترك الجارّ والمجرور يفيد التّعميم:

وقوله تعالى: ﴿مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾ إلى آخر الآية هو على تقدير حذف الجارّ والمجرور العائدَين على ما تقدَّم ذكره منَ الفِرَق، والتّقدير: مَن آمن منهم بالله واليوم الآخر إلخ، وفائدة الحذف هنا الإبلاغ في التّعميم، فكأنّه قيل: كُلُّ مَن آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحًا فله أجره إلخ[1].

لِمَ جاء البدل في: ﴿مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ﴾ والمبدل منه على لفظ واحد؟

في البدل تخصيص مَن آمن بالله واليوم الآخر دون سائر المؤمنين:

قوله تعالى: ﴿مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾ أظهَرُ وجوه إعرابه أنّ ﴿مَنْ﴾ بدل من اسم ﴿إِنَّ﴾، وما عُطف عليه، وعليه يتّفق المُبدَل منه - وهو ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ - مع البدل، وهو ﴿مَنْ ءَامَنَ﴾ في اللّفظ.

وفائدة تَكرار ذكر المؤمنين في الآية: تخصيص المؤمنين بالله واليوم الآخر بأنّهم هم الّذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون دون سائر مَن يُنسِب للإيمان، كالمنافقين الّذين آمنوا بأفواههم فحسب، ولم تؤمن قلوبهم[2].

البدل تابع لـ﴿وَٱلَّذِينَ هَادُواْ﴾ وما عُطِف عليه:

وقيل: إنّ ﴿مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ﴾ بدلٌ منَ ﴿وَٱلَّذِينَ هَادُواْ﴾، وما عُطف عليه دون ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، وعليه فيكون التّقدير: إنّ الّذين آمنوا، ومَن آمن بالله واليوم الآخر منَ اليهود والصّابئين والنّصارى، وعمل صالحًا، فلا خوف عليهم إلخ[3].

المراد بـ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ هنا: مَن آمن بلسانه دون قلبه:

وقيل: إنّ المراد بـ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ في صدر الآية هم المنافقون، فهو عامٌّ مخصوص، ووجه إطلاق الإيمان عليهم كونُهم أظهروا

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 6/242.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 6/242.
(3) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 5/404.

الإيمان، وأمنوا منَ القتل والسّبي، والمراد بـ﴿مَنْ ءَامَنَ﴾ مَن حقَّق الإيمان، وثبت عليه[1].

لمَ خُصَّ الإيمان بالله واليوم الآخر بالذّكر دون سائر أركان الإيمان؟

الإيمان بالله واليوم الآخر أعظمُ المعارف:

قوله تعالى: ﴿مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾ خُصَّ الإيمان بالله واليوم الآخر بالذّكر دون سائر أركان الإيمان؛ لأنّه لمّا كانت أشرف المعارف هي معرفة الله تعالى، وكان من كمال هذه المعرفة اعتقاد كمال قدرته، والإيمان بأنّه يحشر عباده يوم القيامة، ويبعثهم للحساب، كان أفضل المعارف هو الإيمان بالله واليوم الآخر؛ فلذا خُصَّا بالذّكر[2].

دلالة الجمع بين الخوف والحزن في الآية:

الخوف يتعلّق بالمستقبل، والحزن يتعلّق بالماضي:

وجمع في قوله تعالى: ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ بين الخوف والحزن للدّلالة على أنّ مَن آمن بالله واليوم الآخر، وعمل صالحًا لا خوف عليه؛ بسبب ما يشاهده من أهوال يوم القيامة، ولا هو يحزنُ على ما فاته من طيِّبات الدّنيا؛ لِمَا يجدُه يوم القيامة منَ الكرامة والتّشريف ممّا يجعله لا يبالي بسبب ما فاته من طيّبات الدّنيا، وقد جُمِعا كذلك في قوله تعالى: ﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ﴾ [فصّلت: 30]، فالخوف يتعلّق بالمستقبل، والحزن بالماضي[3].

دلالة الرّفع والتّنوين في: ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾:

جنس الخوف منفيّ عن المؤمنين:

قوله تعالى: ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ قرأه الجمهور بالرّفع والتّنوين، وفي هذه القراءة نفي للخوف عن أهل الإيمان بصيغة الابتداء، كأنّه قيل: هل على المؤمنين خوف؟ فأجيب: لا خوف عليهم، فاكتُفِي فيها بنفي جنس الخوف عنهم[4].

(1) القاسميّ، محاسن التّأويل: 4/206 - 207.
(2) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 12/404.
(3) القاسميّ، محاسن التّأويل: 4/207.
(4) ابن أبي مريم، المُوضَح: 1/270.

دلالة الفتح في: ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾:

التّنصيص على نفي جميع أنواع الخوف:

وأمّا قراءة يعقوب ﴿فَلَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ﴾ بالفتح وعدم التّنوين ففيها تنصيص على نفي جميع أنواع الخوف عن أهل الإيمان، كقولهم: لا رجلَ في الدّار، فإنّه أبلغ في النّفي مِن: لا رجُلٌ، إذ قد يحتملُ وجود رجلين فيها لا رجل واحد، فقراءة الفتح آكَد في نفي الخوف من قراءة الرّفع[1].

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 1/274.

﴿لَقَدۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهِمۡ رُسُلٗاۖ كُلَّمَا جَآءَهُمۡ رَسُولُۢ بِمَا لَا تَهۡوَىٰٓ أَنفُسُهُمۡ فَرِيقٗا كَذَّبُواْ وَفَرِيقٗا يَقۡتُلُونَ ٧٠﴾

[المائدة: 70]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

بعد أن أمر اللّٰه تعالى نبيّه بأن يُسمع أهل الكتاب ما يشقُّ عليهم من أنّهم ليسوا على شيء، إلّا إن عملوا بكتب اللّٰه وآمنوا برسله، وأنّهم إن فعلوا ذلك فازوا بخيرَي الدّنيا والآخرة، أعادَ سبحانه في هذه الآية ما ذكره في هذه السّورة مِن أخذ الميثاق على بني إسرائيل، وإرسال الرّسل إليهم، وبيَّن عتوَّهم، وسوء معاملتهم لأنبيائهم.

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

لقد أخذنا العهود الموثَّقة على بني إسرائيل بتوحيد اللّٰه، واتّباع أحكامه، وأرسلنا لهم رسلًا يدعونهم إلى ذلك، فكانوا كلّما جاءَهم رسول بشيءٍ لا تهواه أنفسهم عاملوه بأحد أمرين: إمَّا تكذيبُه والإعراض عنه، وإمّا قتلُه وسفكُ دمه.

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالة التّأكيد في: ﴿لَقَدۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾:

في التّأكيد تفخيمٌ لأمر الميثاق، وتحقيق لشأنه:

قوله تعالى: ﴿لَقَدۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ أعاد ﷻ ذكر أخذ ميثاق بني إسرائيل المتقدّم في السّورة [الآية: 12] بصيغة التّأكيد؛ تحقيقًا لأمره، وتفخيمًا لشأنه، وكأنّ في هذا التّأكيد تذكيرًا للنّبيّ ﷺ بما وقع من أسلاف المُخاطَبين بهذه الآيات مِن قتل الأنبياء وتكذيبهم، لكيلا يحزنَ على تكذيبهم له، وعنادهم لرسالته[1].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 6/243.

دلالة التّعظيم في: ﴿لَقَدْ أَخَذْنَا﴾:

حريٌّ بمن أخذَ اللـه العظيم الميثاقَ منه أن يفيَ به:

وفي إسناد أخذ الميثاق إلى ضمير التّعظيم إشارة إلى تفخيم أمره، وكونه حريًّا بالوفاء به، أي: أخذنا الميثاق من بني إسرائيل على ما لنا من العظمة فنَقَضُوه، وفيه تعريض بأهل الكتاب المعاصرين للنّبيّ[1] ﷺ.

دلالة التّعظيم في: ﴿وَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ رُسُلًا﴾:

التّعظيم يدلّ على عظَمة المرسَل كما يدلّ على عظَمة المرسِل:

وفي إسناد الإرسال إلى ضمير التّعظيم أيضًا في: ﴿وَأَرْسَلْنَآ﴾ تنبيهٌ على عظَمة الرّسُل المرسَلين إلى بني إسرائيل، وتفخيم أمرهم، وكون ما قوبلوا به منَ القتل والتّكذيب غايةً في البغي والعتوّ[2].

دلالة التّنكير في: ﴿وَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ رُسُلًا﴾:

في التّنكير تفخيمٌ لشأن الرّسُل، وإشارة لكثرتهم:

وفي تنكير الرّسل في ﴿وَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ رُسُلًا﴾ إفادةٌ بكثرتهم وتفخيم أمرهم، أي: أرسلنا لهم رسلًا ذوي عدد كثير وشأن خطير، ومثله – في إفادة التّكثير والتّفخيم – قوله تعالى: ﴿فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ﴾ [فاطر: 4][3].

دلالة التّنكير في: ﴿كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌ﴾:

المراد بالرّسول هو الجنسُ لا الواحدُ:

وقوله تعالى: ﴿كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌ﴾ يفيد تنكيرُ الرّسول التّعميمَ في هذا السّياق، وهو ما سوَّغ تقسيم (رسول) إلى فريقين في قوله تعالى: ﴿فَرِيقًا كَذَّبُواْ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ﴾، إذِ المرادُ بالرّسول الجنسُ، لا الواحدُ[4].

فائدة التّعبير بالهوى في: ﴿بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ﴾:

عُبِّر بالهوى مبالغةً في ذمّ بني إسرائيل:

وفي قوله تعالى: ﴿كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ﴾ عُدِّي

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 6/243.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 6/244.
(3) السّيوطيّ، شرح عقود الجمان، ص: 19، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/63.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/326.

مجيءُ الرّسل إلى بني إسرائيل إلى الأحكام الّتي لا تهواها أنفسهم، ولم يعدَّ لما تكرهه أنفسهم، وذلك لما في لفظ الهوى منَ الذّمِّ؛ إذ هو ميل النّفس إلى الشّهوة، فأُوثر استعماله في هذا الموضع مبالغة في ذمِّ بني إسرائيل[1].

دلالة تنكير ﴿فَرِيقًا﴾ في: ﴿فَرِيقًا كَذَّبُواْ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ﴾:

رسل الله تعالى يستحقّون الإكبار والتّعظيم لا القتل والتّكذيب:

قوله تعالى: ﴿فَرِيقًا كَذَّبُواْ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ﴾ في تنكير لفظ الفريق إشارة إلى عِظَم جُرم بني إسرائيل في مجابهة رسل اللّه تعالى بالقتل والتّكذيب، فكأنّ التّنكير فيه هو لتعظيم شأن هؤلاء الرّسل وتفخيم شأنهم، وبيان أنّهم يستحقّون هذا التّعظيم، لا ما لقُوا من قومهم منَ القتل والتّكذيب.

بلاغة تقديم المفعول في: ﴿فَرِيقًا كَذَّبُواْ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ﴾:

انحصرَت استجابةُ بني إسرائيل للرّسل في التّكذيب والقتل:

وقُدِّم المفعول به في قوله تعالى: ﴿فَرِيقًا كَذَّبُواْ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ﴾ للدّلالة على القصر والتّخصيص، كقوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ [الفاتحة: 5]، أي: لا غيرَك، فدلَّ هذا التّقديم على انحصار استجابة بني إسرائيل لرسلهم في أمرين، هما: القتلُ والتّكذيب، وأنّهم لا حظَّ لهم في تصديق ما خالف أهواءهم[2].

قُدِّمَ المفعولُ اهتمامًا به:

وفي تقديم المفعول أيضًا في هذا الموضع اهتمام به وعناية بشأنه؛ وذلك لأنّ القتل والتّكذيب منكران طبيعةً، فلمَّا كانا متعلِّقين بالأنبياء عليهم السلام كانا أقبحَ وأشدَّ جُرمًا، فقدِّمَ المفعول به هنا للدّلالة على ذلك[3].

تقديم المفعول يفيد التّشويق إلى الفعل:

كما أنّ في تقديم المفعول به هنا تشويقًا للسّامع إلى ما قابل به بنو إسرائيل رسلهم منَ القتل والتّكذيب، لِمَا يترتَّب عليه تقديمه من تأخُّر الفعلين والتّشوُّف إليهما[4].

(1) الرّاغب، المفردات: (هوى)، والآلوسّي، روح المعاني: 3/369.
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/220.
(3) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 12/405.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/63.

دلالة حذف جواب الشّرط في: ﴿كُلَّمَا جَآءَهُمۡ رَسُولُۢ﴾:

جـواب الشّرط محذوف لدلالة السّياق عليه:

قوله تعالى: ﴿كُلَّمَا جَآءَهُمۡ رَسُولُۢ﴾، ﴿كُلَّمَا﴾ فيه ظرف لـ﴿كَذَّبُواْ﴾ متضمِّن معنى الشّرط؛ لاقتضائه جوابًا، ولذا شاع إطلاق الشّرط عليها عند الفقهاء[1].

وجواب الشّرط في الآية محذوف اختصارًا لدلالة السّياق عليه من ذكر تكذيب بني إسرائيل وقتلهم للأنبياء، وقدَّره بعضهم بـ(ناصبوه)، وبعضهم بـ(استكبروا)؛ أخذًا من موضع البقرة: ﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمۡ رَسُولُۢ بِمَا لَا تَهۡوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡ فَفَرِيقٗا كَذَّبۡتُمۡ وَفَرِيقٗا تَقۡتُلُونَ ٨٧﴾ [البقرة: 87]، وهو الأَولى[2].

بلاغة الفعل المضارع في: ﴿وَفَرِيقٗا يَقۡتُلُونَ﴾:

في المضارَعة استحضارٌ لحالة القتل، واستفظاعٌ لها:

وفي قوله تعالى: ﴿وَفَرِيقٗا يَقۡتُلُونَ﴾ عُبِّر عنِ القتل بالفعل المضارع حكاية عنِ الحال الماضية، بينما عبّر عن التّكذيب بالفعل الماضي، وفي التّعبير عنِ القتل بالفعل المضارع استحضارٌ لصورة قتل الرّسل الشّنيعة حتّى كأنّها تحدث وقت الخطاب بهذه الآيات، وفي ذلك استفظاع لها وتعجُّب منها[3].

عُبِّرَ بالمضارع لقرب حدوث القتل من وقت الخطاب:

وقيل: إنّ التّعبير بالفعل المضارع في القتل، والماضي في التّكذيب، لمناسبة زمنَي الفعلَين؛ وذلك لأنّ بني إسرائيل قد قابلوا موسى عليه السلام بالتّكذيب، وهو متقدِّم بكثير من حيث الزّمن عن وقت نزول الآيات، أمّا القتل فقد قابلوا به زكريا ويحيى عليهما السلام، وقصَدوا به عيسى عليه السلام كذلك، ولمّا كان زمن هؤلاء الأنبياء قريبًا نسبيًّا من زمن نزول الآيات عومل كالحاضر[4].

كما أنّ في مجيء ﴿يَقۡتُلُونَ﴾ بصيغة المضارع مراعاة لرؤوس

(1) المنتجب، الكتاب الفريد: 2/447.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/662، والآلوسّي، روح المعاني: 3/369.
(3) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 2/137.
(4) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 12/405.

الفعل المضارع هـو الألـيَـق برؤوس الآي:

الآي السّابقة واللّاحقة لهذه الآية، فإنّها مبنيّة على الياء والنّون والواو والنّون، نحو: ﴿عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة: 68]، و﴿وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٦٩﴾ [المائدة: 69]، ﴿بَصِيرُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ ٧١﴾ [المائدة: 71][1].

دلالة عطف المضارع على الماضي في: ﴿فَرِيقٗا كَذَّبُواْ وَفَرِيقٗا يَقۡتُلُونَ﴾:

عـــادة بـنـي إسرائيل قديمًا وحـديـثًـا هي قـتـل الـرّسـل وتكذيبهم:

وفي قوله تعالى: ﴿فَرِيقٗا كَذَّبُواْ وَفَرِيقٗا يَقۡتُلُونَ﴾ عُطِف الفعل المضارع ﴿يَقۡتُلُونَ﴾ على الفعل الماضي ﴿كَذَّبُواْ﴾، وفي هذا التّغاير بين زمني الفعلين المعطوفين دلالة على أنّ قتل الرّسل وتكذيبهم هما ديدنُ بني إسرائيل في الماضي والحاضر[2].

منَ المتشابه اللّفظيّ:

الفرق بين ﴿فَفَرِيقٗا كَذَّبۡتُمۡ وَفَرِيقٗا تَقۡتُلُونَ ٨٧﴾ [البقرة: 87] وبين هذه الآية:

آيـــة المـائـدة لـحـكـايـة حـال المـاضـين، وآيـة البقرة للحكاية، ولـتـوبـيـخ الحاضرين:

قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿فَفَرِيقٗا كَذَّبۡتُمۡ وَفَرِيقٗا تَقۡتُلُونَ ٨٧﴾ أُسنِد فيه التّكذيب والقتل إلى ضّمير المخاطَب، بينما أُسنِدَا هنا إلى ضمير الغائب، فقال تعالى: ﴿فَرِيقٗا كَذَّبُواْ وَفَرِيقٗا يَقۡتُلُونَ﴾.

والفرق بينهما أنّ موضع البقرة، وإن كان الأصل فيه مخاطَبة الماضين من بني إسرائيل، إلّا أنّه يحتمل مخاطبة الحاضرين منهم كذلك؛ توبيخًا لهم على تكذيبهم، وتعييرًا لهم بفعل آبائهم، ولذا عقَّبه تعالى بقوله: ﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلۡفُۢۚ﴾ [البقرة: 88]، و﴿وَلَمَّا جَآءَهُمۡ كِتَٰبٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: 89]، والمراد بهما: هم الحاضرون من بني إسرائيل.

أمَّا موضع المائدة فقد خُصِّص لحكاية حال أسلاف المخاطَبين من بني إسرائيل؛ فلذا أُسند فيه الفعلان إلى ضمير الغائب، وعقَّبه تعالى بقصّة عيسى عليه السلام وبقوله: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ [المائدة: 78][3].

(1) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 2/137.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/326.
(3) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 5/439.

﴿وَحَسِبُوٓاْ أَلَّا تَكُونَ فِتۡنَةٞ فَعَمُواْ وَصَمُّواْ ثُمَّ تَابَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ ثُمَّ عَمُواْ وَصَمُّواْ كَثِيرٞ مِّنۡهُمۡۚ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ ٧١﴾ [المائدة: 71]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لمَّا ذكرَ اللهُ تعالى في الآية السَّابقة تكذيبَ اليهود لرُسُلِ اللهِ واستمرارِهم على قتلِهم؛ بيَّن في هذهِ الآيةِ سببَ فعلِهم الشَّنيعِ، وهو حسبانُهم ألَّا يقعوا في الفتنةِ؛ لانغمارِ نفوسِهم بالشَّهواتِ، ولو حسبوا؛ لارتدعوا، فعَمُوا عن إدراكِ الحقِّ، فلم يَصلوا إليه، وصمُّوا عن سماعِ الهادي، فلم يُنصتوا إليه[1].

انغمارُ النُّفوسِ في الشَّهواتِ سببٌ للعمى والصَّممِ عن الهدى

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَحَسِبُوٓاْ﴾: يأتي حسبَ بمعنى: الحساب، استعمال العدد، يقالُ: حَسَبْتُ المَالَ حَسْبًا: أَحْصَيْتُهُ عَدَدًا، ويقال: حَسَبْتُ أَحْسُبُ حِسَابًا وحُسْبَانًا، ويأتي بمعنى: الكفاية، كقوله تعالى: ﴿حَسۡبُنَا ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: 173]، أي: كافينا الله، ومنه أَحْسَبْتُ الرَّجلَ: أَعْطَيْتُه مَا يَرْضَى حتَّى اكتفى، ويأتي الحَسَبُ بمعنى: الشَّرَفِ الثَّابتِ في الآباءِ، ويأتي حسِبَ يحسَبُ بمعنى: الحِسْبَان المقارب للظَّنِّ، والحِسْبَان: هو أن يحكمَ لأحد النَّقيضَيْنِ من غَير أن يُخْطِر الآخر ببَالِه، فيحسبه، ويعقِد عليه الإصبع، ويكون بعرض أن يعتريَهُ فيه شكٌّ، ويقارب ذلك الظَّنُّ، لكنَّ الظَّنَّ أنْ يُخطِر النَّقيضين ببالِه، فيغلِّب أحدَهما على الآخر، و﴿وَحَسِبُوٓاْ﴾ في الآية بالمعنى المقارب للظَّنِّ[2].

2) ﴿فِتۡنَةٞ﴾: يدلُّ المعنى المحوريُّ لـ(فَتَنَ): على إذابةِ مادَّةٍ باطنِ الشَّيءِ، وتحويلِها بإدخالِها نارًا حاميةً: كإذابةِ الذَّهبِ والفِضَّةِ،

(1) القونوي، حاشية القونوي على تفسير البيضاوي: 7/525، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 6/276.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (حسب).

ومِنَ الذَّوَبانِ والتَحَوُّلِ المَعْنَوِيَّيْن: الافتتانُ بالنِّساءِ والمالِ والأولادِ برقَّةِ القلبِ ونحوها، حتَّى يرتكبَ المحظورَ في سبيلِه، واستُعملَتِ الفِتنةُ في تمحيصِ حقيقةِ ما في القلوبِ بتعريضِها للشَّدائدِ، كَمَا يُصْهَرَ الذَّهبُ أو الفضَّةُ، فيمتازُ خَبَثُهما عن جَوْهَرِهما الخالصِ، ومن هذا المعنى أُطْلِقَتِ الفِتنة على مرج أحوالِ النَّاس واضْطِرَاب نظامهم من جرَّاء أضرارٍ ومصائبَ متواليَةٍ، فيمتَاز الخالصُ مِن غيرِه، فكان معنى الابتلاء ملازمًا لِلْفِتْنَة، والفتْنَةُ هنا تَدُلُّ عَلَى إيقاع الابْتِلَاءِ أو التعريض له بالاخْتِبَارِ[1]، و﴿فِتْنَةٌ﴾ في الآيَةِ بِمَعْنَى: البَلاءِ[2].

3) ﴿فَعَمُواْ﴾: يدور معنى (عمي) على سَتْرٍ وَتَغْطِيَةٍ، ومِنْ ذَلِكَ الْعَمَى: وهو ذَهَابُ الْبَصَرِ مِنَ الْعَيْنَيْنِ كِلْتَيْهِمَا، وَالْفِعْلُ مِنْهُ: عَمِيَ يَعْمَى عَمًى، ولا يقع هذا النَّعْتُ على العَيْنِ الواحدة، واسْتُعِير العَمَى لِعَمَى البصيرةِ، بَل لم يُعَدَّ افتقادُ البَصَرِ في جَنْبِ افتقَادِ البَصِيرَةِ عَمًى، كما قال الله تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾ [الحج: 46]، فيقال: رجلٌ عَمٍ؛ إذا كان أعمى القلب، ومنهُ: قومٌ عَمون، وعلى عَمَى البصيرة جاء معنى الفِعْلِ هنا[3].

4) ﴿وَصَمُّواْ﴾: يدور معنى (صمم) على انسداد سُموم الشَّيء بالنَّفاذ فيها بغِلَظ واستواء ظاهره بذلك، ويلزمه اشتداده، ومنه عملُ صمَّام القارورة، والحجرُ الأصمُّ، ومِنْ ذَلِكَ الصَّمَمُ فِي الْأُذُنِ، فالصَّمم: ذهابُ السَّمعِ أو فُقدانُ حاسَّة السَّمع، وبالصَّمم يوصف من لا يُصغِي إلى الحقِّ، ولا يَقْبَلُه، وهو المرادُ في الآية[4].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

وظنَّ هؤلاء العصاةُ مِن بني إسرائيل ظنًّا قويًّا تمكَّن مِن نفوسهم ألَّا يكونَ من الله ابتلاء لَهُمْ وتمحِيصٌ، وأنَّ الله لن يأخذَهم بالعذابِ، فلجُّوا في شهواتِهم، وانغمسُوا فيها، وعمُوا عنِ الهُدَى، فلم يُبصروه، وصَمُّوا عن سماعِ الحقِّ، فلم ينتفعوا به، فأنزلَ اللهُ بهم بأسَه، ثُمَّ تابوا، فتاب اللهُ عليهم، ثمَّ عَمِي كثيرٌ منهم، وصمُّوا، بعدما تبيَّنَ لهم الحقُّ، واللهُ بصيرٌ بأعمالِهم خيرِها وشرِّها، وسيجازيهم عليها.

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (فتن).
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 4/327.
(3) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (عمي).
(4) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (صمم).

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

نكتة التَّعبير بقوله: ﴿وَحَسِبُوٓاْ﴾:

خيبةُ ظنِّ مَنْ لم يتَّخذِ الأدلَّةَ الصَّحيحةَ لمعرفةِ الحقِّ

واو الجماعة في ﴿وَحَسِبُوٓاْ﴾ عائدَةٌ إلى (بني إسرائيل) المذكورينَ في الآية السَّابقة، وعُبِّر بـ﴿وَحَسِبُوٓاْ﴾؛ لِلإشعار بظنِّهم الخائب، وأنَّهم لم يتَّخذوا الأدلَّةَ الصَّحيحة لمعرفة الحقِّ، ففي التَّعبير به توبيخٌ وتقريع لهم، وجاء بِصِيغَةِ الماضي لِلْقَطْعِ بوُقُوعِ الحسبَانِ مِنْهُم في مَا مَضَى، وأنَّه صار أمرًا ثابتًا لهم، مع أنَّ ما حسبوه - وهو وقوعُ الفِتْنَةِ - هو في المُسْتَقبل بدلالة (أنْ) المصدريَّة و(لا) النَّافية والفعل المضارعِ في قوله تعالى: ﴿أَلَّا تَكُونَ﴾، أو بدلالةِ (لا) النَّافية والفعل المضارع فقط، إذا كانت (أنْ) مخفَّفةً مِنَ الثَّقيلة على ما سيأتي بيانُهُ.

دلالة لفظ ﴿وَحَسِبُوٓاْ﴾ بين معنى التَّحقق والظَّنِّ:

قد يُنزَّلُ الحسبانُ مَنزلةَ العلمِ؛ لكمالِ قوَّتِه

يحتمل الحسبانُ أنْ يكونَ بمعنى: العلم، أو ما هو قريبٌ منه، بما يفيد الثَّباتَ والاستقرارَ، فنُزِّلَ الحسبانُ في صدورِهِمْ منزلةَ العلمِ لكمالِ قوَّتِه؛ لأنَّ القوم كانوا كالجَازِمِينَ بأنَّهم لا يقَعُون بسبب ذلك التَّكذيب والقتل في الفتنة والعذاب، ويَحْتَمِلُ أن يكون بمعنى: الظَّنِّ؛ لأنَّهم كانوا يَكْذِبُون، ويقتلون بسبب حفظ الجَاهِ والتَّبَع، فكانوا بقُلُوبِهِم عارِفِينَ بأنَّ ذلك خطأٌ ومعصيةٌ[1].

من بديع الإيجاز وقوعُ الجملة موقعَ مفعولَي (حَسِبَ):

التَّنبُّهُ مِنَ الفتن سببٌ لِلارْتِدَاعِ عَنْهَا

لَمَّا كان (حَسِبَ) من الأفعال الَّتي تفْتَقِرُ إِلَى مَفْعُولَيْن؛ دلَّ على أنَّ جملةَ ﴿أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ قَامَت مقام مفعولَيْ حسبَ، والنُّكتة أنْ يكون مضمونُ الجملة بصورتِه المركَّبة هو الذي حسبوه، أي: حسبوا ألَّا تقعَ فتنةٌ، فأَوْمَأَ بِبَدِيع الإيجاز بذِكْرِ الحسبان وما تعلَّق به إلى أمرين:

(1) الرازي، مفاتيح الغيب: 12/406.

أحدهما: الإيماءُ إلى سوءِ اعتقادِهم في جزاءِ الآخرة، وأنَّهم نَبَذُوا الفكرةَ فيه ظِهريًّا، وأنَّهم لا يراقبونَ اللّه تعالَى في ارتكاب القبائحِ، وإلى سوءِ غفلتهم عن فتنة الدُّنيا، وأنَّهم ضالُّون في كلا الأمرين.

والآخَرُ: أنَّه لمَّا قال: ﴿وَحَسِبُوٓاْ أَلَّا تَكُونَ فِتۡنَةٞ﴾؛ دلَّ على أنَّهم لو لم يحسبوا ذلك؛ لارْتَدَعُوا[1].

نكتة التَّعبير بـ(كان) التَّامَّة في قوله تعالى: ﴿وَحَسِبُوٓاْ أَلَّا تَكُونَ فِتۡنَةٞ﴾:

لمَّا كان معنى الآية: وحَسِبَ بنو إسرائيل أنَّه لا تُصيبهم من اللّه فتنةٌ، أي: بلاءٌ وعذابٌ في الدُّنيا والآخرة، أو ألَّا تنزلَ بهم فتنةٌ[2]؛ كانَ التَّعبيرُ بـ﴿تَكُونَ﴾ التَّامَّةِ بمنزلَةِ العدول إلى التَّعميم، والمعنَى: وحسبوا ألَّا تقعَ فتنةٌ، أو ألَّا تحصلَ فتنةٌ؛ إيذانًا بأنَّ ما يفعلونَه فيه كلُّ الفتنَةِ، وأنَّ ضررَ الفِتْنَةِ لن يقتصِرَ على أصحابِهَا، بل تَعُمُّ.

الفتنُ يَعُمُّ شُؤْمُهَا، ولا يقتصِرُ ضرَرُهَا على صاحبِها

دلالة التَّنكير في قولِه تعالى: ﴿فِتۡنَةٞ﴾:

لمَّا جاء ﴿فِتۡنَةٞ﴾ نكرةً في سياقِ النَّفي؛ دلَّ على تعظيم الفتنةِ وعمومِها؛ لِتَشْمَلَ أنواعَ الفتنِ، والمعنى: حَسِبُوا ألَّا تقعَ فِتَنٌ عَظِيمَةٌ وكثيرة؛ توبيخًا لهم على أفعالهم القبيحةِ.

الفتنُ شأنُها عظيمٌ وخطرها عميمٌ

توجيه القراءات في قوله: ﴿أَلَّا تَكُونَ﴾:

قرأ ابنُ كثير ونافعٌ وعاصمٌ وابنُ عامر: ﴿أَلَّا تَكُونَ﴾ بفَتْحِ النُّون، وقرأ أبو عمروٍ وحمزةُ والكسائيُّ: ﴿أَلَّا تَكُونُ﴾ بضمِّ النُّون، ولم يختلفوا في رفعِ ﴿فِتۡنَةٞ﴾؛ لأنَّ ﴿تَكُونَ﴾ هنا هي التَّامَّة، ووجهُ قراءة النَّصب: أنْ تكونَ (أنْ) هي الخفيفةَ النَّاصبةَ للفعلِ المضارعِ، ويكونَ الحسبانُ بمعنى: الشَّكِّ والتَّردُّد، كما هو الأصل فيه، وَوَجْهُ قراءةِ الرَّفعِ أن تكونَ (أنْ) هي المخفَّفةَ من الثَّقيلةِ، وأصله:

تنوُّع القراءات طريقٌ من طرُقِ توسيعِ المعانِي

(1) الرازي، مفاتيح الغيب: 12/406، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 6/276.

(2) الزمخشري، الكشاف: 1/663، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 1/463، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 6/275.

(وحسبوا أنَّه لا تكونُ فتنةٌ)، فخفِّفت (أنَّ)، وحُذفَ ضمير الشَّأنِ - وهو اسمها - ولمَّا كانت (أنَّ) المشدَّدة تفيدُ التَّحقيقَ، ولا يدخل عليها إلَّا أفعالُ العِلْمِ واليقين؛ دلَّ على أنَّه نُزِّلَ حسبانُهم لقوَّتِه في صدورهم وتمكُّنِه في قلوبِهم منزلةَ العِلْمِ؛ ولذا دخلَ فعلُ الحسبانِ عليها؛ إشعارًا بأنَّ تمكُّنَ هذا الحسبانِ في قلوبِهم إنَّما هو بسبب غيِّهم وضلالِهم.

وإذا كانَ اللَّفظُ محتملًا لكلِّ واحدٍ من هذين المعنيين؛ لا جرمَ ظهرَ الوجهُ في صِحَّة كلِّ واحدٍ من هَاتَيْنِ القراءتين[1].

دلالة الفاء في قوله تعالى: ﴿فَعَمُواْ وَصَمُّواْ﴾:

لمَّا كان ﴿وَصَمُّواْ﴾ معطوفًا على ﴿فَعَمُواْ﴾؛ دلَّ على أنَّ الفاء مرتِّبةٌ لما قبلَها على الأمْرَيْنِ جميعًا، لِمَا تفيده الواوُ من التَّشريك في الحكم والاجتماع فيه، والمعنى: إنَّ حسبانَهم المذكورَ سببٌ لتماديهم في فنونِ الغيِّ والفساد والضَّلال بأنْ عَمُوا وصمُّوا، وإنَّ ضَلَالهم أعقبَ حسبانَهم من غَيْرِ مهلةٍ؛ لِلْإِشْعَارِ بتَسَابُقِهم إلى العمَى عَنِ الهِدَاية والصَّمم عن سَمَاعِ الحقِّ[2].

تسابقُ النَّصارى إلى العمى عن الهداية والصَّمم عن سماع الحقِّ

بلاغةُ الاستعارةِ في قوله تعالى: ﴿فَعَمُواْ وَصَمُّواْ﴾:

شُبِّه إعراضُهم عن الهدى بالعمى، وعدمُ انتفاعِهم بما يَسْمَعُونه مِن أدلَّةِ الحقِّ بالصَّمم، ثم حُذفِ المشبَّه، وصُرِّحَ بالمشبَّه به على طريقِ الاستعارة التَّصريحيَّة التَّبعيَّة، فاستعير العمَى والصَّمم لِلْإِعْرَاضِ عن أدلَّةِ الرَّشاد من رسلِهم وكتبِهم؛ لأنَّ العمى والصَّمم يُوقِعَانِ في الضَّلال عن الطَّريق، ويمنَعَانِ الاستفادةَ ممَّا شأنُهُ النَّفْعُ، فلمَّا لم يتبصَّروا الآياتِ بأبصارِهم، وسدُّوا مسامعَهم عن

من لم يَتَبَصَّر الآياتِ، وسدَّ مسمعه عن الحقِّ؛ فهو أعمى وأصمُّ

(1) ابن مجاهد، السبعة، ص: 247، والأزهري، معاني القراءات: 1/337، وابن عطية، المحرر الوجيز: 2/220، والرازي، مفاتيح الغيب: 12/406.

(2) أبو حيان، البحر المحيط: 4/328، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/64.

الإصاخةِ إلى الحقِّ؛ جُعلوا عُمْيًا وصمًّا، وفي هذه الاستعارةِ إيماءٌ إلى انحرافِهِمْ وعصيانهم، وأنَّهم أساؤُوا الأعمالَ وأَفْسَدُوا، ومَنْ وُصفَ بهذه الصِّفات جَدِيرٌ أَلَّا ينتفعَ مِنَ الهدى والحقِّ[1].

نُكْتَةُ تقديم العَمَى عَلَى الصَّمم:

أوَّل ما يعرضُ لِلْمُعْرِضِ عن الحقِّ ألَّا يُبْصِرَ مَنْ جاءَهُ به مِنْ عندِ اللهِ تعالَى

قُدِّمَ العَمَى على الصَّمِم؛ لأنَّهم كانوا على طريقِ الهدى، ثمَّ أعرضوا عنه، فلمَّا كان أَوَّلُ مَا يَعْرِضُ لِلْمُعْرِضِ عَنِ الشَّرَائِعِ أَلَّا يُبْصِرَ مَنْ أَتَاهُ بِهَا مِنْ عِنْدِ اللّٰه؛ بُدِئَ بالعمى، ثُمَّ لَوْ أَبْصَرَهُ لَمْ يَسْمَعْ كَلَامَهُ، فَعَرَضَ لَهُمُ الصَّمَمُ عَنْ كَلَامِهِ[2].

تَوْجِيهُ المتشابه اللَّفظِيِّ:

فَرْقٌ بينَ مَن لم تسبقْ له الهدايةُ، ومَنْ سبقتْ له

جاءت في هذه الآية نسبةُ العمى والصَّمم إليهم، وتقديمُ العمى على الصَّمم، وفي سورة محمَّد قال اللّٰه تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمۡ وَأَعۡمَىٰٓ أَبۡصَٰرَهُمۡ ٢٣﴾ [محمَّد: 23]، والفرق بين الآيتين: أنَّه في سورة المائدة لَمَّا كَانَ اليهودُ قَبْلَ ذَلِكَ عَلَى طَرِيقِ الْهِدَايَةِ، ثُمَّ عَرَضَ لَهُمُ الضَّلَالُ؛ نُسِبَ الْفِعْلُ إِلَيْهِمْ، وَأُسْنِدَ لَهُمْ، وَلَمْ يَأْتِ: (فَأَعْمَاهُمُ اللّٰه وَأَصَمَّهُمْ)، وما في سورة محمَّد كان فِيمَنْ لَمْ تَسْبِقْ لَهُ هِدَايَةٌ، ومثله قوله تعالى: ﴿صُمُّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ فَهُمۡ لَا يَرۡجِعُونَ ١٨﴾ [البقرة: 18]، فمن لم تسبق له الهداية؛ يُبْدَأُ بذِكْرِ صَمَمِه عن سماع الحقِّ، ثُمَّ عماه عن رؤية الهدى، ومن سبقت له الهداية؛ يُبْدَأُ بذِكْرِ عمَاهُ، ثُمَّ صممه مع نسبةِ الفعلِ إليه لتركِه طريقَ الهدى وإعراضه عنه، فكان مِن فصاحةِ اللَّفْظِ إسنَادُ العَمَى والصَّمم - اللَّذين هما عبارة عن الضَّلال - إِلَيْهِم[3].

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 4/328، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 6/277.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 4/328.
(3) بن عطية، المحرر الوجيز: 2/221، وأبو حيان، البحر المحيط: 4/328.

دلالة حرف العطف ﴿ثُمَّ﴾ في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ تَابَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ﴾:

أفاد حرف العطفِ (ثُمَّ) التَّراخِيَ الزَّمَنِيّ، بمعنى: أَنَّهُمْ تَمَادَوْا في العمَى عن رُؤْيَةِ الهُدَى وأدلَّتِهِ، وفي الصَّمم عن سماعِ الحقِّ إِلَى أَنْ تَابَ اللّه عَلَيْهِمْ[1].

مناسبةُ إسنَادِ التَّوبة إلى اللهِ تعالَى في قوله تعالى: ﴿تَابَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ﴾:

أُسْنِدَ الْفِعْلُ الشَّرِيفُ إِلَى اللّه تَعَالَى فِي قَوْلِهِ: ﴿ثُمَّ تَابَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ﴾، ولم يُسنِده إليهم، فلم يَقُلْ: (ثمَّ تابوا)؛ تجافيًا عنِ التَّصريح بنسبة الخَيْرِ إليهم، وفيه - أيضًا- الإِشْعارُ بإنعام اللّهِ عَلَيْهِم، وإظهارُ الاعتناءِ بِهِمْ، ولُطفِهِ تعالَى بِهِمْ بالتَّوبة عَلَيْهِمْ، ثمَّ تمَادِيهم بعدَ الإِنْعَامِ في غيِّهم وضلالِهم، ففيه توبيخٌ شديدٌ.

التَّوبيخ الشَّدِيدُ لِمَنْ يُنعمُ اللهُ تعالَى علَيْهِ بالتَّوبةِ، ثمَّ يتمادَى في الغيِّ

وإنَّما أشيرَ إلى التَّوبة في ضمنِ بيان توبتِه تعالى عليهم؛ تمهيدًا لبيانِ نَقضِهم إيَّاها بقوله تعالى: ﴿ثُمَّ عَمُواْ وَصَمُّواْ﴾[2].

دلالة حرف العطف ﴿ثُمَّ﴾ في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ عَمُواْ وَصَمُّواْ﴾:

لَمَّا عُطِفَ الكلامُ؛ دلَّ على أنَّهم عَمُوا وَصَمُّوا مرَّتين، ويَحْتَمِلُ أن تكون ﴿ثُمَّ﴾ هنا: للتَّعبير عن الزِّيادة في التَّمادي في عَمَى اليهودِ المَذْكُورِينَ وصَمَمِهم، ففيه معنى: الاسْتِبْعَادِ، أيْ: عموا وصمُّوا كرَّةً أخرى مع زيادة فيهما؛ للإيذانِ بأنَّهم عموا، وصمُّوا بأعمالٍ غيرِ الَّتي عموا، وصمُّوا بها أوَّلًا، من عبادةِ العجلِ وغيره، فإنَّ فنونَ الجناياتِ الصادرةِ عنهم لا تكاد تتناهى، ويَحْتَمِلُ أن تكونَ ﴿ثُمَّ﴾ للتَّراخِي في الزَّمان، فيكون المرادُ من قولِه تعالى: ﴿ثُمَّ عَمُواْ وَصَمُّواْ﴾ الإشارةَ إلى اليهود في زمنِ عِيسَى أو زمنِ سيِّدنا محمَّدٍ - عليهما الصَّلاة والسَّلام - بكفر بني إسرائيل بِهِمَا، أو أَنَّهُمْ لَمَّا رَضُوا بفعل

فنونُ الجناياتِ الصَّادرةِ عن بني إسرائيل لا تكادُ تَتَنَاهَى

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 4/328.

(2) أبو حيان، البحر المحيط: 4/328، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/64.

آبائهم؛ نُسِبَ الفعلُ إليهم، فيكون من قبيل إسنادِ ماهُوَ للآباء إلى الأبناء[1].

براعَة التَّعبير بـ ﴿كَثِيرٌ﴾ في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ عَمُواْ وَصَمُّواْ كَثِيرٌ مِّنۡهُمۡۚ﴾:

ذهب جمهور المفسِّرين والنُّحاة إلى أنَّ ﴿كَثِيرٌ﴾ بدلُ بَعْضٍ من كلٍّ من فاعل ﴿عَمُواْ وَصَمُّواْ﴾، وفي ذكره فوائد[2]:

كـثـيرٌ مِـنَ النَّصارى كانوا عـلى الـبـاطـلِ، وقلَّةٌ منهم مَنْ كَانَ على الحقِّ

أُولاهَا: الاحتراس: إذ لو قال: ﴿عَمُواْ وَصَمُّواْ﴾، من غيرِ ذكرِ البدلِ؛ لأوهم ذلك أنَّ كلَّهم صاروا كذلك، فإنَّ الإتيانَ بالضَّمير يُفْهَمُ أنَّ ذلك عمَّهم كُلَّهم، فلمَّا قال: ﴿كَثِيرٌ مِّنۡهُمۡۚ﴾؛ دلَّ على أنَّ ذلك حاصل للأكثر لا للجميعِ، وأنَّ قلَّةً مِنْهُمْ مَنْ كانَ على الحقِّ.

يـعـاقـبُ الـلـهُ تـعـالى الأمـمَ بـالـذُّنـوبِ؛ إذا كـثُرَتْ، وشاعَتْ فيها

ثانيهَا: أفاد الكلامُ أنَّ عمى البصيرة والختم على السَّمع، لم يكن عامًّا مستغرقًا لكلِّ فرد من أفرادهم، وإنَّما يعاقب اللّه تعالى الأممَ بالذُّنوب؛ إذا كثُرَت، وشَاعَت فيها؛ لأنَّ العبرةَ بالغالب، والقليل النَّادر لا تأثيرَ لَهُ في الصَّلاح أو الفسادِ العَامِّ.

ثالثهَا: أفاد البدلُ تأكيدَ الأَمْرِ وتقريرَهُ بتكرُّرِ الفاعل؛ إذْ ذُكِر الكثيرُ إجمالًا في ﴿عَمُواْ وَصَمُّواْ﴾، ثمَّ أُعِيدَ في قوله: ﴿كَثِيرٌ﴾، فأفادَ تقريرَ إثباتِ العمى والصَّمم لهم؛ لأنَّه أخبرَ عن قومٍ أنَّهم عَمُوا، وصَمُّوا، ثم فسَّر كم صَنَعَ ذلك مِنْهُم.

رابعُهَا: أنَّ مجمُوعَ المُبْدَلِ منْهُ والبدلِ أفاد الإيضاحَ والبيانَ.

خامسُهَا: يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ البدلُ ﴿كَثِيرٌ﴾ عائدًا إلى الضَّميرين في ﴿عَمُواْ وَصَمُّواْ﴾ بتَكْرَارِ الفعلين في الموضعين، فإنَّه لمَّا كان مرجعُ الضَّميرين الأخيرين في قولِه: ﴿ثُمَّ عَمُواْ وَصَمُّواْ﴾ هو عينُ مرجعِ الضَّميرينِ الأوَّلينِ في قوله: ﴿فَعَمُواْ وَصَمُّواْ﴾؛ كان الإبدالُ منَ

(1) الرازي، مفاتيح الغيب: 12/407، والقونوي، حاشية القونوي على تفسير البيضاوي: 7/526.

(2) الأخفش، معاني القرآن: 1/286، والرازي، مفاتيح الغيب: 12/407، وأبو حيان، البحر المحيط: 4/328، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/65، ورضا، تفسير المنار: 6/399، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 6/279.

الضَّميرين الأخيرين المفيدُ تخصيصًا من عمومِهما؛ مفيدًا تخصيصًا من عموم الضَّميرينِ اللَّذينِ قبلَهما بحكمِ المساواة بينَ الضَّمائر؛ إذْ قد اعتبرتْ ضمائرُ أمَّةٍ واحدة، فإنَّ مرجعَ تلك الضَّمائر هو قوله: ﴿بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ [المائدة: 70]، ومن الضَّروري: أنَّه لا تخلو أمَّةٌ ضالَّةٌ في كلِّ جيلٍ من وجودِ صالحين فيها، فقدْ كان في المتأخِّرين منهم أمثالُ: عبد اللّه بنِ سلام، وكان في المتقدِّمينَ الرَّجلانِ اللَّذانِ قال اللّه في شأنِها: ﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمَا ٱدۡخُلُواْ عَلَيۡهِمُ ٱلۡبَابَ﴾ [المائدة: 23]، ويحتمل أن يكونَ البدلُ مِنَ الفعلينِ المُقْتَرِنَيْنِ بالبدلِ، ويكونَ الفعلانِ المذكوران أوَّلًا على معنى الغالبِ والكثيرِ.

سادسُهَا: أجاز بعض النُّحاة والمفسِّرين أن يكون ﴿كَثِيرٞ﴾ هو الفاعلَ لِلْفِعْلِ ﴿وَصَمُّواْ﴾، والواو علامةُ الجمع على لغة بعض العربِ مِنَ الأزْدِ الَّتي يعبِّر النُّحاة عنها بقولِ واحدٍ مِن أهلها؛ إذْ قال: (أكلوني البراغيث)، فيكون مِن قبيل التَّأكيد والتَّقرير.

حسن التَّذييل في قولِه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ﴾:

في جملة التَّذييل نِكَات لغويَّة وبلاغيَّة:

الله تعالى بصيرٌ بأعمالِنا وبآثارِ أعمالنا

أحدهَا: تحتمل (ما) أن تكون مصدريَّة، فيكون المعنى: (واللّه بصير بعملهم)، ويلزم منه أن يكون بصيرًا بما يظهر من آثار عَمَلِهم، وتَحْتَمِلُ أن تكون موصولةً، وحُذِفَ العائدُ مِن ﴿يَعۡمَلُونَ﴾؛ لِيفيد العمومَ، أي: واللّه بصيرٌ بكلِّ أثرٍ من آثار أعمالهم.

ثانيهَا: في جملة التَّذييل تهديدٌ شَديدٌ، لتَعْليق وَصْفِ اللّه تعالَى بِكَوْنِهِ بَصِيرًا بعملِهم، أو بِمَا يظهر مِن آثارِ عَمَلِهم.

ثالثهَا: ناسبَ خَتمُ الآيةِ بِهذهِ الجُملةِ المُشتملةِ على بصيرٍ؛ إذْ تقدَّمَ قبلَهُ ﴿فَعَمُواْ﴾[1].

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 4/328.

رابعُهَا: لمَّا كان كفرُ النَّصارى مستمرًّا، والمعنَى: واللهُ بصيرٌ بما عَمِلوا في الماضي، كان لِلتَّعْبير بصيغَةِ المُضَارِعِ نكتةُ حِكايةِ الحالِ الماضية استحضارًا لِصورةِ أعمالهم في مَاضِيهم، وتمثيلِها لهم ولغَيْرِهم في حَاضِرِهِم ورعايةً لتناسُبِ الْفَوَاصِل، ويَحْتَمِلُ أَن يَكُونَ التَّعبيرُ بِصيغَةِ المُضَارِعِ للإشارة إلى كَيْدِهِم المستمرِّ لرسولِ الله محمَّدٍ ﷺ ولدينِه وشريعتِه، والمَعْنَى: سَيُعَاقِبُهُم اللهُ تعالى على ذلك بِمِثْلِ مَا عَاقبَهم علَى مَا قبلَه[1].

خَامِسُهَا: أشارَتْ جُملة التَّذييل إلى بطلان حُسْبانهم المذكور ووقوع العذاب مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا إشارةً إجماليَّةً، اكتُفيَ بها تعويلًا على ما فُصِّل نوع تفصيلٍ في سُورة بَنِي إسرائيلَ، والمعنى: حسبوا ألَّا يصيبَهم عذابٌ ففعلوا ما فعلوا مِن الجنايات العظيمة المستوجِبَةِ لأشدِّ العقوباتِ، واللهُ بصيرٌ بتفاصيلِها، فكيف لا يُؤَاخِذُهم بِهَا، ومِنْ أينَ لهم ذلكَ الحسبانُ الباطل[2]؟

سَادِسُهَا: لمَّا كانَتْ جُمْلَةُ التَّذييلِ على مَعْنَى العمومِ؛ كانت بمنزِلَةِ الْمَثَلِ في حكايتِها والتَّمثُّلِ بها.

(1) رضا، تفسير المنار: 6/399.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/63.

﴿لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَۖ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ٧٢﴾ [المائدة: 72]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى أنَّه أخذَ ميثاقَ بَنِي إسرائيلَ، وبعث فيهم رُسُلًا، وبيَّن عُتُوَّهم وشدَّةَ تمرُّدِهم، وما كان مِن سُوءِ معاملتِهم معَ أنبيائِهم، وعدَّد قبائحَ اليهودِ ومَخَازِيَهُم؛ شرعَ يُفصِّلُ قبائحَ النَّصارى، ويُبْطِلُ أقوالَهم الفاسدةَ، وآراءَهم الزَّائفةَ[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿حَرَّمَ﴾: يَدُور معنى الحُرْمَة في حيِّز ممنوعٍ تابع لشيء، مع التَّشديدِ في المنعِ، ومنه: حَرَمُ الرَّجلِ وَحريمُه: ما يُقاتل عنه ويحميه، وحَرَمَهُ الشَّيءَ: منعه إيَّاه ممَّا هو مطموعٌ فيه، وأحْرَمْتُ عن الشَّيء: أمسكتُ عنه، وحرَّمَ اللهُ كذا، أي: منعَ من انتهاكِه أو جعلَه ممنوعًا، والحرام: نقيض الحلال، والحَرَمَان: مكَّةُ والمدينةُ، سُمِّيا بذَلِكَ لحُرمَتِهما[2]، و﴿حَرَّمَ﴾ في الآيةِ بمعنى: مَنْعِهم مِن دخولِ الجنَّة مع التَّشديد فِيهِ، فالتَّحريم هنا مِن جِهَةِ القَهْرِ، وليسَ مِن جِهَةِ الحُكْمِ الشَّرعِيِّ[3].

2) ﴿وَمَأْوَىٰهُ﴾: يدور معنى (أَوَى) علَى الضَّمِّ والتَّجمُّع، وفيه معنى: العودِ والرُّجوع مع الحاجةِ إليه، ومنه تأوَّتِ الطَّيرُ؛ إذا انضمَّ بعضُها إلى بعض، وأَوَيْتُ إلى مَنْزلي، أي: عدتُ، أَوَيْتُ فُلَانًا؛ إذا أَنزلته بِكَ، والمأوى: مكانُ كلِّ شيء يُؤْوَى إليه ليلًا أو نهارًا، أو المحلُّ المُعَدُّ الَّذي يسكنه المرء، ويرجع إليهِ[4].

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/65، والهرري، حدائق الروح والريحان: 7/418.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (أوى).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (حرم).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (أوى).

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالة التَّأكيد في قوله تعالى: ﴿لَقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَۖ﴾:

أخبر اللّهُ تعالى عن كفرِ النَّصارى مؤكِّدًا إخبارَه بمؤكِّدَيْنِ: وهما: اللَّامُ الموطِّئةُ للقسمِ و(قَدْ)، فأقامَهم مقامَ المُنْكِرينَ لكفرِهم، وأنَّهم كانوا يَعْتَقِدُون أنَّهم على الحقِّ فيما قالُوه تماديًا في غيِّهم وضلالِهم، فلمَّا جاءَ الكلامُ مؤكَّدًا بمؤكِّدَيْنِ؛ دلَّ على إنكارِ اعتقادِهم وقولِهم، وإرادةِ ردِّهم إلى خلاف ما اعتقدوه مِن توحيد اللّه وعبادته وحدَهُ[1].

إنكارُ اعتقاد النَّصارى بإقامتِهم مقامَ المنكرين لكفرِهم

دلالة الفعل ﴿قَالُوٓاْ﴾:

ذكر اللّه تعالى الحكمَ بكفرِهِمْ في صَدْرِ الآية؛ لأنَّهم قالوا: هذا القولَ، على جهة التَّديُّنِ به واعتقاده؛ ولهذا تتابعتِ التَّأكيداتُ في هذا القولِ، ولو قالُوهُ على جِهَةِ الحكاية مُنْكِرِينَ له؛ لَم يَكْفُرُوا[2].

بلاغة تتابع التَّأكيدات في قول الكفر:

في قوله تعالى: ﴿لَقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَۖ﴾، وفي مقالتِهم المحكيَّةِ عَنْهُمْ قد جاؤُوا باللَّفْظِ الْأَبْلَغ؛ لتأْكِيدِ اعْتِقَادِهِم القَبيح، فجاء تأكيدُ مضمونِ الخبرِ مِن ثلاثةِ أوجه:

كان النَّصارى يعتقدون ألوهيَّة الله تعالى، وأشركوا به سبحانه

أوَّلهَا: قصرُ الإسناد في جعلهم اللّه هُو المسيحَ ابنَ مريم، وفيه إشعارٌ بأنَّهم كانوا يعتقدون أنَّ اللّه هُو الإله الحقُّ، ولهذا نسبوا المسيحَ إِلَيْهِ على أنَّه إلهٌ، وأنَّه هو اللّه، تعالى عمَّا يقولون علوًّا كبيرًا.

ثانيهَا: تأكيدُ القصرِ بالبِنَاءِ علَى ضمير الفصلِ الذي يؤكِّد الإسناد، ويقرِّره.

(1) السكاكي، مفتاح العلوم، ص: 171.
(2) الواحدي، التفسير البسيط: 7/313.

ثالثُها: التَّأكيد المدلول عليه بـ ﴿إِنَّ﴾، وهو مفيدٌ تقويةَ القصرِ كذلك[1].

نكتة نسبة المسيح إلى بُنُوَّتِه لمريَمَ في قوله تعالى: ﴿ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَۖ﴾:

في التَّعبير بنسبةِ المسيح عليه السلام إلى أمِّه إشعارٌ بأنَّهم كفروا كفرَ مكابرةٍ ومعاندة، لا كفرَ شبهةٍ وجَهْلٍ، وفيه إشارة جليَّةٌ إلى كمال حُمْقِهِم؛ لأنَّهم أقرُّوا أنَّه ابنُ مريم، حيثُ جعلوا الأصغرَ إلهَ الأكبرِ ورَبًّا له[2].

كفرُ النَّصارى كفرُ مكابرةٍ ومعاندةٍ، لا كفرُ شُبهةٍ وجَهلٍ

مناسبة ذكر قولِ عيسى عليه السلام:

ذُكرَ قولُ عيسى عليه السلام في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلۡمَسِيحُ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمۡۖ﴾ للرّدِّ عَلَيْهِمْ في فَسَادِ دَعْوَاهُمْ، وَهُوَ أَنَّ الَّذِي يُعَظِّمُونَهُ، وَيَرْفَعُونَ قَدْرَهُ عَمَّا لَيْسَ لَهُ هو الَّذي يَرُدُّ عَلَيْهِمْ مَقَالَتَهُمْ، ففيه أبلغُ دليلٍ على كذبِ ما قالوه[3].

الَّذِي يُعَظِّمُه النَّصارى، وَيَرْفَعُونَ قَدْرَهُ عَمَّا لَيْسَ لَهُ هو الَّذي يَرُدُّ عَلَيْهِمْ مَقَالَتَهُمْ

بلاغةُ مجيءِ الكلامِ على خلافِ مقتضَى الظَّاهر:

جاء الكلامُ من غيرِ تأكيدٍ في قوله: ﴿وَقَالَ ٱلۡمَسِيحُ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمۡۖ﴾، مع أنَّهم كانوا مُنْكِرين لوحدانيَّة الله، فأنزلهم منزلةَ غيرِ المنكرينَ؛ للإيذانِ بأنَّ وحدانيَّةَ اللهِ تعالَى لا تفتَقِرُ إلى دليلٍ لوضوحِ الأمرِ، وأنَّه كالشَّمسِ في رائِعَةِ النَّهار، وإنَّما يشركونَ باللهِ لجهلِهم باللهِ تعالَى وتَعَنُّتِهم وعنادِهم[4].

دلالةُ الواوِ في قوله: ﴿وَقَالَ ٱلۡمَسِيحُ﴾:

لَمَّا كانتِ الواوُ في قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقَالَ ٱلۡمَسِيحُ﴾ حاليَّةً، والجملةُ بعدَها حالًا من فاعل ﴿قَالُوٓاْ﴾؛ دلَّ على اقترانِ قولِ عيسى عليه السلام

إيرَادُ الحجَّة والدَّليلِ على بطلانِ قولِ النَّصارى

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/103.
(2) القونوي، حاشية القونوي على تفسير البيضاوي: 7/527.
(3) أبو حيان، البحر المحيط: 4/329.
(4) السكاكي، مفتاح العلوم، ص: 172.

بقولِهم، وأنَّهم كانوا يقولون قولَ الكفر في حالِ أمرِ عيسى عليه السلام لهم بعبادة الله وحده، فجاء الحالُ لمزيد تقبيحِ حالهم وقولِهم ببيان تكذيبهم لِلْمَسِيح وعدَم انْزِجَارِهم عمَّا أصَرُّوا عليه بما أَوْعَدَهُم بِهِ، أي: قالوا ذلك، والحالُ أنَّ المسيح قد قالَ ضِدَّ ذلك مُخَاطِبًا لَهُمْ: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمۡۖ﴾؛ لِتكونَ الجملةُ الحاليَّةُ بمنزِلَةِ الحجَّةِ والدَّليلِ الظَّاهرِ على بُطلانِ قولِهمْ[1].

نكتةُ مجيءِ النِّداء في قولِه تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلۡمَسِيحُ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾:

تنبيه النَّصارى إلى ما كان عليه إسرائيلُ عليه السلام من توحيدِ الله وعبادتِه

لَمَّا كانَ كفرُ النَّصارى عظيمًا ومهولًا، وكان قولُهم مخالفًا لِمَا تَوَارَثُوه ممَّا كانَ عليه أسلافُهم؛ جاءَ بالنِّداء بـ ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ تنبيهًا على وجوبِ نبذِ كفرِهم، والتَّمسُّكِ بما كان عليه يعقوبُ عليه السلام من توحيدِ اللهِ وعبادتِه، وتذكيرًا به.

نكتة مجيء البدل في قوله: ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمۡۖ﴾:

جاء البدلُ في قَوْلِه تعالَى: ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمۡۖ﴾؛ لِيَكونَ بمجموعِ البدلِ والمبدلِ مِنْهُ كمالُ الإيضاح والبيانِ فيمَنْ يستحقُّ العبوديَّةَ، وذكرَ: ﴿رَبِّي وَرَبَّكُمۡۖ﴾؛ للتَّنبيهِ عَلَى الْوَصْفِ الْمُوجِبِ لِلْعِبَادَةِ، وَهُوَ الرُّبُوبِيَّةُ[2]، وهذه طريقةٌ سلَكَهَا القرآنُ الكريم كثيرًا في الاحتجاجِ على استحقاقِ اللهِ تعالى العبادَةَ بانفرادِهِ بالرُّبوبيَّةِ.

دلالة الإضافة في قوله تعالى: ﴿رَبِّي وَرَبَّكُمۡۖ﴾:

الله تعالى ربُّ عيسى وربُّ النَّاسِ أجمعين

الإضافة في ﴿رَبِّي وَرَبَّكُمۡۖ﴾ على معنى اللَّام، والمعنى: اللهُ ربٌّ لي وربٌّ لكم، لِلإشعارِ بأنَّه عليه السلام مثلهم في كونه مخلوقًا مربوبًا؛ وإنْ منَّ اللهُ عليه بالرِّسالةِ، وفضَّلَه على كثيرٍ من عباده[3].

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 1/646، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/65، ورضا، تفسير المنار: 6/40.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 4/329.
(3) القونوي، حاشية القونوي على تفسير البيضاوي: 7/527.

دلالة قوله: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ ٱلۡجَنَّةَ وَمَأۡوَىٰهُ ٱلنَّارُۖ﴾:

تَحْتَمِل هذه الجملةُ أنْ تكونَ من تتمَّة قول عيسى عليه السلام لبني إسرائيل، وَفِيهِ أَعْظَمُ رَدْعٍ مِنْهُ عَنْ عِبَادَتِهِ؛ إِذْ أَخْبَرَ أَنَّهُ مَنْ عَبَدَ غَيْرَ اللهِ مَنَعَهُ اللهُ دَارَ مَنْ وحَّده بِالْعِبَادَةِ، وَجَعَلَ مَأْوَاهُ النَّارَ.

في الكلامِ أَعْظَمُ رَدْعٍ عَنْ عِبَادَةِ عيسى عليه السلام

وتَحتَمِل أنْ تكونَ مِنْ كَلَامِ اللهِ تَعَالَى، على الاسْتِئْنَافِ البيانيِّ، كأنَّه قيل: فما هو حكمُ اللهِ يومَ القيامةِ فيمن يقولُ هذا القولَ؟ فأَخْبَرَ بِذَلِكَ عَلَى سَبِيلِ الْوَعِيدِ وَالتَّهْدِيدِ[1].

دلالة (إنَّ) في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ ٱلۡجَنَّةَ﴾:

أفادت (إنَّ) تعليلَ المفهوم مِنَ الكلام، فإنَّه لَمَّا كانَ قولُهم القبيحُ شركًا باللهِ تعالى؛ كانت (إنَّ) في مقام التَّعليل لِجَزَائِهِم على إِشْرَاكِهِم باللهِ، كما أفادت تأكيدَ الشَّرطِ وجزائه[2].

نكتة التَّعبير بضمير الشَّأن في قولِهِ: ﴿إِنَّهُۥ﴾:

عُبِّرَ بضمير الشَّأنِ في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ ٱلۡجَنَّةَ﴾، وهو من الأسماء المبهمة، والقصدُ بهذا الإبهام ثُمَّ تفسيرُه بعدُ بِجُمْلَةِ الشَّرط والجزاء: تعظيمُ أمرِ الإشراكِ باللهِ تعالى وتفخيمُ الجزاءِ الَّذي أعدَّه لِمَنْ يُشركُ به سبحانَه، وفيه إشعارٌ بأنَّ مضمونَ جملةِ الشَّرط والجزاءِ المفسِّرةِ لضميرِ الشَّأنِ شيءٌ عظيمٌ يُعتَنَى به، وهذا الضَّميرُ كأنَّه راجعٌ في الحقيقةِ إلى المسؤولِ عنه بسؤالٍ مقدَّرٍ، كأنَّه لَمَّا سَمِعَ سامعٌ ما حكمَ اللهُ بِهِ عليهم مِنْ كفرِهم وقولِهِمُ البُهتانَ؛ استبهمَ الأمرَ، فسألَ سائلٌ: ما شأنُهم يومَ القيامةِ؟ وما أمرُهم فيه؟ فقال: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ ٱلۡجَنَّةَ وَمَأۡوَىٰهُ ٱلنَّارُۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ﴾، فكأنَّ جملةَ الشَّرطِ والجزاء عَيَّنَتِ المسؤولَ عنهُ وبيَّنَتْه، ففيه تشويقٌ إلى معرفةِ

تـهـويـلُ شـأنِ مَنْ يشركُ باللهِ وتعظيمُ خطرِ ما سَيُلَاقيه

(1) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 6/249، وأبو حيان، البحر المحيط: 4/329.
(2) القونوي، حاشية القونوي على تفسير البيضاوي: 7/527.

حالهم يومَ القيامة؛ لأنَّ الشَّيءَ إذا كان مبهمًا؛ فالنُّفوسُ تتطلَّعُ إلى فهمِهِ، وتتشوَّقُ إلى بيانِه، كما أفادتِ الجملةُ المفسِّرةُ (جملة الشَّرطِ والجزاءِ): تقريرَ المعنى وتأكيدَه، فإنَّ الكلامَ على معنى التَّكريرِ؛ لوقوعِها موقعَ البيانِ[1].

دلالة اسم الشَّرط ﴿مَن﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ ٱلۡجَنَّةَ﴾:

يفيد اسمُ الشَّرطِ ﴿مَن﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ ٱلۡجَنَّةَ﴾: العمومَ، والمعنى: كلُّ مَنْ يشركُ باللّهِ؛ فقد حرَّم اللّه عليه الجنَّةَ، ومأواه النَّار، ويدخلُ فيه النَّصارى - الَّذين قالوا القولَ القبيحَ - دخولًا أوَّليًّا؛ لذكرِه في سياقِ تقبيحِ قولِهم.

كلُّ مَنْ يشركُ باللهِ فقد حرَّم اللهُ عليه الجنَّةَ ومأواه النَّار

نكتة التَّعبير بلفظِ ﴿يُشۡرِكۡ﴾:

في التَّعبير بلفظ الإشراك في قوله تعالى: ﴿يُشۡرِكۡ﴾ إعلامٌ بأنَّ قولَهم المذكور وُصِفَ بوصْفَيْن: فقد وُصِفَ بالكفر أوَّلًا، ثمَّ دخل في وصف الشَّرك ثانيًا، فكان جامعًا قبيحَ الأوصاف؛ ليناسب عظيمَ الجزاء يومَ القيامة، وسيأتي ذكرُ وَصْفِهم بالظَّالمين أيضًا.

جَمَعَ النَّصارى أقبحَ وَصْفَيْنِ: الكفر باللّه تعالى والإشراك به سبحانه

بلاغةُ حذف المفعول في قوله: ﴿مَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ﴾:

حُذف مفعول ﴿يُشۡرِكۡ﴾؛ لإفادة عموم الإشراك، والمعنى: مَن يُشْرِكْ باللّه أيَّ شيءٍ، صغيرًا أو كبيرًا، إنسانًا أو حيوانًا وهكذا، وفي ذلك إيذانٌ بتَعْميم المحذوف، والمعنى: مَن يُشْرِك باللّه شيئًا في ربوبيَّتِه أو عبادتِه أو فيما يختصُّ بِهِ مِن صِفَاتِ الجلال والجمال والكمَالِ[2].

الإشراكُ باللّه يعمُّ جميعَ ما للّه تعالى من حقوقٍ

مناسبة الجزاء للشَّرط في قوله تعالى: ﴿فَقَدۡ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ ٱلۡجَنَّةَ وَمَأۡوَىٰهُ ٱلنَّارُۖ﴾:

في جملة الجزاء نِكَاتٌ لغويَّةٌ وبلاغيَّةٌ:

(1) ابن يعيش، شرح المفصل: 2/335، والرَّضي، شرح الرضي على الكافية: 3/69.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/65.

أُولَاها: لمَّا كان مَنْ يشركُ باللّٰه تعالى قد انتهكَ حرمةَ اللّٰه في أنْ نسبَ إليه الشَّريكَ؛ كان الجزاءُ بما يناسبُ عملَه، فقالَ: ﴿حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ ٱلۡجَنَّةَ﴾، ففي التَّعبير بـ﴿حَرَّمَ﴾ إيذانٌ بمنع دخولِ الجنَّة منعًا مشدَّدًا، فلنْ يدخلَها أبدًا، كما لا يصلُ المحرَّمُ عليهِ إلى المحرَّم.

الـجـزاءُ من جنسِ العملِ

ثانيهَا: لمَّا كان تحريم دخولِهم الجنَّة بسببِ إشراكهم باللّٰه تعالى؛ دلَّ على أنَّ الجنَّة إنَّما هي دار الموحِّدين.

الـجـنَّـةُ دارُ الموحِّدينَ

ثالثُهَا: جيءَ في جملةِ الجزاء بصيغة الفعل الماضي؛ للإشارة إلى الْقَطْعِ بمنعِ دخولهم الجنَّةَ، وأنَّه صار أمرًا ثابتًا، فهو مِن مَجِيءِ الكلامِ على خلافِ مقتضى الظَّاهر.

رابعُهَا: في التَّعبير بالتَّحريم إشعارٌ بطمعِهم في دخولِها، ففيه تبكيتٌ لهم ومرارةٌ في قلوبِهم لمنعهم ممَّا طمعوا فيه.

منعُ الطَّامعِ في دخولِ الجنَّة من دخولِها عذابٌ آخَرُ يضافُ إلى عذابِه

خامسُهَا: لمَّا كان لا بدَّ من مأوى يأوي إليه في الآخرة؛ عطفَ في الجزاءِ ذكرَ المأوى الَّذي يقابل الجنّة، فقال: ﴿وَمَأۡوَىٰهُ ٱلنَّارُۖ﴾ على سبيلِ المطابقة بين الجنَّة والنَّار.

سادِسُهَا: ذهب بعض أهل العلم إلى حَمْلِ لفظ ﴿حَرَّمَ﴾ على المعنى الشَّرعي؛ ليكون اللَّفظ استعارةً تبعيَّة لقصدِ المنع من دخولِ الجنَّة؛ إذْ لا تَكْليفَ يومَ القيامة[1].

دلالة الفاء في قوله: ﴿فَقَدۡ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ ٱلۡجَنَّةَ﴾:

تفيد الفاءُ في قوله تعالى: ﴿فَقَدۡ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ ٱلۡجَنَّةَ﴾ التَّعقيبَ، بمعنى: أنَّ مَن يُشركُ باللّٰه يَعْقُبُ إشراكَه تحريمُ الجنَّة عليه، ويكونُ مأواه النَّارَ مِن غيرِ مهلةٍ، كما أفادت الفاء السَّببيَّة بمعنى: ترتُّب تحريم الجنَّة والإيواء في النَّار على إشراكه باللّٰه تعالَى.

تـرتُّـبُ تحـريـمِ الجنَّة والإيـواءِ في الـنَّـار على الإشـراكِ باللّٰه تعالى

(1) الآلوسي، روح المعاني: 3/372.

نكتةُ تعليق التَّحريم على الذَّات في قوله سبحانه: ﴿حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ ٱلۡجَنَّةَ﴾:

منعُ الجنَّةِ على ذاتِ المشركِ أبلغُ مِـنَ المَـنْـعِ مِن مجرَّدِ دخولِها

لمَّا كان الظَّاهر أنْ يكونَ تعليقُ تحريم المكانِ على الدُّخولِ فيها، أي: أنْ يكون المعنى: حرَّمَ اللّٰه دخولَ الجنَّةِ عليه؛ دلَّ على أنَّ منعَ المكانِ على الذَّاتِ أبلغُ مِن المنعِ من الفعلِ، وإن كان المآلُ هو المنعَ من الفعل، فإنَّه لمَّا منعَ الجنَّةَ على ذاتِ المشركِ؛ أفاد عمومَ المنعِ، أي: مِنْ دخولِها وشمِّ رائحتِها، وأيِّ أمرٍ مِنْ أحوالِها، ولو قالَ: (حرَّم اللّٰه عليه دخولَ الجنَّة)؛ لجازَ أنْ يكونَ قريبًا منها مِنْ غيرِ دخولٍ فيها[1].

سرُّ الإظهار في موضعِ الإضمار:

تربية المهابة عند السَّامعين بذكرِ الاسم الأحسن (الله)

جاء الكلامُ على خلاف مقتضى الظَّاهر في إظهارِ الاسمِ الأحسن (اللّٰه) في قوله تعالى: ﴿حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ ٱلۡجَنَّةَ﴾ في موضع الإضمار؛ وذلكَ لتهويل الأمر وتربية المهابة عند السَّامعين[2].

دلالة تقديم الجار والمجرور ﴿عَلَيۡهِ﴾ في قوله: ﴿فَقَدۡ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ ٱلۡجَنَّةَ﴾:

الجنَّةُ لا تكونُ لغيرِ الموحِّدين

قُدِّم الجارُّ والمجرورُ على المفعولِ به ﴿ٱلۡجَنَّةَ﴾؛ لتخصيصِ تحريم الجنَّةِ بمَنْ يشركُ باللّٰهِ تعالى؛ للإشعارِ بأنَّ الجنَّةَ لا تكونُ لغيرِ الموحِّدين.

بديعُ الطِّباق وبراعةُ العطفِ في قوله: ﴿حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ ٱلۡجَنَّةَ وَمَأۡوَىٰهُ ٱلنَّارُۖ﴾:

في الطِّباق تكميلٌ حسنٌ للجمعِ بينَ حرمانِهم الجنَّة وابتلائهم بالنَّارِ

وردَ الطِّباقُ في الاسمين ﴿ٱلۡجَنَّةَ﴾ و﴿ٱلنَّارُۖ﴾، وفيه تكميلٌ حسنٌ؛ إذْ لو اقْتُصِرَ على ﴿حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ ٱلۡجَنَّةَ﴾؛ لاحْتَمَلَ الكلامُ حرمانَهم الثَّوابَ من غيرِ ابتلائِهم بالعقابِ، فلمَّا كان المرادُ الجمعَ بينَهما؛ أُتِيَ بِهما على سبيل الطِّباقِ، كما أنَّ في الجمع بينهما تبكيتًا وتقريعًا وإدخالًا للحسرَةِ عليهم بالخسرانِ المبين؛ إذْ حُرموا الجنَّةَ، وكان مأوَاهُم النَّار.

(1) القونوي، حاشية القونوي على تفسير البيضاوي: 7/527.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/66.

مناسبة التَّذييل في قوله تعالى: ﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ﴾:

لَمَّا وصفَ اللّٰه تعالَى النَّصارى بأنَّهم كفروا، ثُمَّ وصفهم بأنَّهم أشركوا؛ ذَكَرَ وصفًا ثالثًا لَهُمْ، كأنَّه مرتَّب على ما قبله، فأَخْبَرَهُمْ أَنَّهُم بِكُفْرِهِم وقولِهم القولَ القبيحَ وبإِشْرَاكِهِم باللّٰه قد تَجَاوزوا، وَوَضَعوا الشَّيْءَ في غَيْرِ مَوْضِعِهِ، فاستحقُّوا أن يُوصَفُوا بالظُّلم؛ إِذْ جَعَلُوا مَا هُوَ مُسْتَحِيلٌ في الْعَقْلِ وَاجِبًا وُقُوعُهُ، وأُطْلِقَ الظُّلمُ، ولم يُقيَّد؛ ليُشْعِرَ بأنَّهم ظَلَمُوا أنفسَهم وغيرَهُم، وَفِي ذَلِكَ رَدْعٌ لَهُمْ عَمَّا انْتَحَلُوهُ فِي حَقِّهِمْ مِنْ دَعْوَى أَنَّ عِيسَى عليه السلام إِلَهٌ[1].

استحقاقُ الاتِّصافِ بالظُّلمِ لمنْ كفرَ باللّٰه تعالَى وأشركَ بِهِ سُبْحَانَه

دلالة (ال) في قولِهِ: ﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ﴾:

أفادت (الـ) الاستغراقَ، ويدخلُ فيهِ الَّذين قالُوا مقالة الكفْرِ، وأشركوا باللّٰه تعالَى في جعلِ عيسى إلهًا، دخولًا أوَّليًّا.

دلالة حرف الجرِّ ﴿مِنۡ﴾ في قوله: ﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ﴾:

أفادتْ ﴿مِنۡ﴾ النَّصَّ على استغراق النَّفي وتأكيدَ نفي أيِّ نصيرٍ لجميعِ الظَّالمين؛ إذ إيرَادُ النَّكرةِ في سياق النَّفْيِ يجعَلُ الكلامَ ظاهرًا في العُمُومِ، فلمَّا دخلت ﴿مِنۡ﴾ نقلَتْهُ مِن الظُّهورِ إلى النَّصِّيَّةِ في العُمومِ.

بلاغة وضع الظَّاهر موضع المضمر في قوله: ﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ﴾:

وُضِعَ الظَّاهرُ موضعَ المضمر، فقال تعالى: ﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ﴾، ولم يردِ النَّظْمُ القرآنيُّ: (وما لهم مِن أنصار)؛ تسجيلًا على أنَّهم ظلموا بالإِشْرَاك، وعدَلُوا عن طريق الحقِّ، والمعنى: فَلَا نَاصِرَ لَهُم، وَلَا مُسَاعِدَ فِيمَا افْتَرَى وَتَقَوَّلَ، وَلَا مُنَجِّيَ مِنْ عَذَابِ اللّٰه فِي الْآخِرَةِ[2].

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 4/329.
(2) البيضاوي، أنوار التنزيل: 2/138.

نكتة التَّعبير بالأنصار جمعًا في قوله: ﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٍ﴾:

التَّنبيهُ على شدَّةِ ظلمِ النَّصارى وعظيم كفرهم

لَمَّا كانت النَّكرة المفردة تفيد العمومَ في سياق النَّفي؛ دلَّ على أنَّ مجيء الأنصار جمعًا لنكتةٍ، هي التَّنبيهُ على شدَّةِ ظلمِهم وعظيم كُفْرِهم، فلا ينفعهم اجتماعُ كلِّ مَن يَتَوَهَّمُون أنَّه سَيَنْصُرُهم، وفيه - أيضًا - التَّنبيهُ علَى كونِ النَّصارى يتكَّلون على كثيرٍ من الرُّسُلِ والقدِّيسينَ أنَّهم يَنْصُرُونَهم عندَ اللّٰه تعالَى[1].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الكفر والشِّرك:

الكافرُ أَعَمُّ من المُشْرِك، فكلُّ مشركٍ كافرٌ

لَمَّا كان الكُفْرُ بِمَعْنَى: السَّتْرِ؛ أُطْلِقَ على جحُودِ الوحدانيَّة والنُّبوَّة والشَّريعة، والكفرُ خصالٌ كثيرة: فقد يكون كفرًا بالنُّبوَّة أو بالصَّلاة أو بالزَّكاة أو بإنكار القرآن، أو بالإلحاد أصلًا، وكلُّ خَصلة منها تضادُّ خصلةً مِنَ الايمان؛ لأَنَّ العبدَ إذا فعلَ خَصْلَةً مِنَ الكُفْرِ؛ فقد ضيَّع خَصلةً مِنَ الإيمَانِ، ولَمَّا كان الشِّرك في أصل معناه أن يُوجَدَ شيءٌ لاثنين فصاعدًا؛ أُطْلِقَ الشِّرك على من يُشرك باللّٰه في إيجاد الكونِ، أو من يعتقد أنَّه يوجد إله مع اللّٰه، ثمَّ توسَّع فيه؛ فأطلق على من يعتقد بوجودِ إلهٍ غير اللّٰه تعالى، فالشِّرك خصلة واحدة، وهو ادِّعاءُ إله مع اللّٰه أو دونَهُ، واشتقاقه يُنْبِئُ عن هذا المعنى، ثُمَّ كَثُر حتَّى قيلَ لِكُلِّ كُفْرٍ: شركٌ، على وجه التَّعظيم له والمبالغة في صِفَتِه، ونقيضُ الْكُفْرِ باللّٰه: الإيمَان، وإنَّما قيل لِمُضَيِّع الإيمان: كافرٌ؛ لتَضْيِيعه حقوقَ اللّٰه تعالى، وما يَجِبُ عليه من شُكْرِ نِعَمِه، فهو بِمَنْزِلَةِ الكَافِرِ لها، ونقيض الشِّرك في الحقيقة: الإخلاص، ثُمَّ لَمَّا استعمل في كلِّ كُفْرٍ؛ صارَ نقيضُهُ الإيمانَ، والوصف بالكفرِ والشِّرك أعظمُ من الوصفِ بأحدِهما؛ لجمعِه بينَ الجحودِ والإشراكِ، فيستحقُّ صاحبه أن يكون من الظَّالمين.

(1) رضا، تفسير المنار: 6/401.

وخلاصة الفرق بينهما: أنَّ الشِّرْكَ: كُفْرٌ بوحدانيَّة الله وَعَدمُ إِخْلاصِ الْعِبَادةِ له سُبحانَهُ، والْكُفْر: يُطْلَق على الشِّرك؛ لأنَّه جحود بالوحدانيَّة، ويُطلق على من يُكَذِّبُ بالنُّبوَّة وَعَلَى من يُكَذِّب الشَّريعة، فالكافر أَعَمُّ من المُشْرِك[1].

(1) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 220، والراغب، المفردات: (شرك).

﴿لَّقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٖۘ وَمَا مِنۡ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۚ وَإِن لَّمۡ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ٧٣﴾ [المائدة: 73]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

في الآية السَّابقة ذكرَ اللهُ كُفْرَ مَن قالوا: إنّ الله هو المسيحُ، أو ما يؤدِّي إليه مِنَ القول بأنَّ المَسيح ابنُ الله، وفي هذه الآية يذكر كلامًا آخرَ للنَّصارى، وهو قولهم: إنَّ الله ثالثُ ثلاثةٍ[1]، فهو شروعٌ في بيان كفر طائفةٍ أخرى منهم[2]، والنَّصَّان الكريمان وارِدَانِ على موضوعٍ واحدٍ، وهو النَّصَارى، وكلُّ آيةٍ من الآيتين تبيِّن ناحية مِن نواحي اعتقادِهم، واكتفى في الآية الأولى بِزَعْمِهم في المَسِيحِ ﷺ لبَيَانِ مِقْدَارِ افْتِرَائِهم عليهِ ومناقضتهم لمن ينتسبون إليه، وأنَّه لَا يصحُّ أنْ يُسمُّوا: مَسِيحِيِّين؛ لأنَّه بريءٌ منهم، وذُكِرَتِ الثَّانيةُ لبيانِ حقيقة اعتقادهم[3].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَنتَهُواْ﴾: النُّونُ والهاءُ والياءُ: تدلُّ تصاريفُهَا على غايةٍ وبلوغٍ، يُقال: نَهَيْتُه عنه، وذلك لأمر يفعلُه، فإذا انتهى؛ فتلك غايةُ ما كان وآخرُه[4]، والنَّهي: خلافُ الأَمْرِ، تقول: نَهَيْتُهُ عنه؛ فانْتَهى عنه، وتَناهى، أي: كَفَّ[5]، فالنَّهي: الزَّجر عن الشَّيء والكفُّ، وهو طلب ترك المنهيِّ عنه، ولا فرقَ من حيث المعنى بين أن يكون بالقول أو بغيره، والانتهاءُ: الانْزِجَارُ عمَّا نُهيَ عنه، وطلب كفٍّ عن بَدْءِ أمرٍ أو عن استمراره، وبمعنى: الكفِّ.

هذا هو دلالة كُلِّ ما جاء مشتقًّا من (نهي)[6]، وهو معنى قوله: ﴿يَنتَهُواْ﴾ في الآيةِ.

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2306.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/66.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2306.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نهي).
(5) الخليل، العين: (نهي)، والجوهري، الصحاح: (نهى).
(6) الرّاغب، المفردات: (نهى)، والسّمين، عمدة الحفّاظ: (نهي)، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (نهى).

2) ﴿لَيَمَسَّنَّ﴾: الميم والسِّين تدور اشتقَاقَاتُهَا على جَسِّ الشَّيء باليد، والمَمْسُوسُ من الماء: ما نالته الأيدي[1]، والمسُّ: يقالُ فيما يكون معه إدراكٌ بحاسَّة اللَّمس، ومنه يُقالُ في كلِّ ما ينالُ الإنسانَ من أذًى[2] وإصابةٍ بمكروهٍ، وهو من المُخالطة الدَّقيقة القويَّة الأثر، ثُمَّ استُعير للضَّرب والأخذ والعقوبة ونحوها[3]، ومعناه في الآية الكريمة: إيقَاعُ العذاب على مَن كَفَرَ.

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

غاية الضَّلال اعتقادُ الإلهِ الواحدِ المتفرِّدِ بالألوهيَّة أنَّه ثالث ثلاثةٍ:

كابروا في كفرهم، وأصرُّوا على جحودهم، وبالغُوا في غيِّهم، وبلغ الخذلان بهم حدَّ أنْ حَكَمُوا لِلْوَاحِد بأنَّه ثلاثة، وأنَّهُ تعالى - بزعمهم - واحدٌ من ثلاث آلهات: هو والمسيحُ ومريم، وأنَّ الإلهيَّة مشتركةٌ بين هؤلاء الثَّلاثة، ولا يخفى فسادُ هذا على مجنون، فكيف على عاقل لا يدرك حقيقة الخالقِ المتَّصف بالصِّفات العُلا؟ تعالى عمَّا يقول المبطلون، وذلكم صنيعٌ يستحقُّ الوعيدَ والتَّهديد بمسِّ العذاب، وهو وعيدٌ بعذاب الدُّنيا مِنَ القَتْلِ والسَّبي وبعذابِ الآخِرَةِ مِنْ بَعْدُ ممَّا لا يُفْلِتُ منه أحدٌ مِنْهُم[4].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

علَّة الفصل في قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ﴾:

إبطالُ إشراك غير الله تعالى معه في الألوهيَّة

الآيةُ استئنافٌ، قُصِدَ منه الانتقالُ إلى إبطال مقالةٍ أخرى من مقالات النَّصَارى الَّتي عليها مُعظم طوائفهم في جميع الأرض، وهي أنَّ اللهَ ثالثُ ثلاثةٍ[5]، ولمَّا كان نوعًا مِنَ المقال جديدًا؛ فصَلَ إيذانًا بجِدَّته، واختلافه عن سابقه.

(1) ابن فارس، المقاييس: (مسّ).
(2) الراغب، المفردات: (مسس).
(3) ابن الأثير، النهاية، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (مسس).
(4) القشيريّ، لطائف الإشارات: 1/440، وابن عطية، المحرّر الوجيز: 2/222.
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 6/281.

براعة توكيد الكُفْر:

حشدُ المؤكِّدات ترسيخٌ لكفرهم

الآيةُ إخبارٌ مؤكَّدٌ كالَّذي قبله[1]، فقد أكَّد ﷻ كفرَهم أوَّلًا بتكفيرهم؛ لأنَّهم زعموا أنَّ المسيحَ هو الله، ثُمَّ قرَّروا أنّ الله ثالثُ ثلاثةٍ، وأكَّد سُبحانه كُفْرَهُم في الحالَيْنِ بـ(اللَّام) و(قد)[2]، والقسم المقدَّر؛ لأنَّهم غالَوْا في إطراء عيسى وَوَضْعِهِ في غير موضعِهِ، كما غالتِ اليهودُ في الكُفْر به، وفي وصفه بالأوصاف التي هو بريءٌ منها[3].

بلاغة الكناية في لفظ القول:

القول لفظٌ مَذَلَ بـه الـلِّـسـان، واعتقادٌ يُؤْمِن به الإنْسَان

المرادُ بـ ﴿قَالُوٓاْ﴾: اعتقدوا، فقالوا؛ لأنَّ شأنَ القولِ أنْ يكون صادرًا على اعتقادٍ، فالقول لفظٌ مَذَلَ به اللِّسان[4]، واعتقادٌ يُؤْمِن به الإنْسَان، ومعنى ﴿عَمَّا يَقُولُونَ﴾: عمَّا يعتقدون؛ لأنَّهم لو انتهوا عن القول باللِّسانِ، وأضمروا اعتقاده؛ لَمَا نفعهم ذلك، فلمَّا كان شأنُ القول أنَّه لا يصدرُ إلَّا عن اعتقادٍ؛ كان صالحًا؛ لأَنْ يكونَ كنايةً عنِ الاعتقاد مع معناه الصَّريحِ[5].

سرُّ التَّعبير عن القائلين بالاسم الموصول:

تقرير اعتقادهم بـالـكُـفْـر سببٌ لـوعـيـدهـم بالعذاب

عدل في قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ﴾ عن التَّعبير عنهم بضَميرهم إلى الصِّلة المقرَّرة لمعنى قولِهم واعتقادهم بالكُفْر؛ لِقَصْدِ تسْجيلِ اعتقادِهم بالكُفْر، وليكونَ الاسمُ الموصولُ مؤذِنًا بِسببِ الحُكْمِ المُخبَر به عنه[6]؛ لأنَّ التَّعبير بالموصولِ يشيرُ إلى أنَّ الصِّلة هي سببُ الحُكْم[7]، وليثبت أنَّ ذلك القولَ كُفْرٌ بالله، وأنَّ الكُفْر سببُ العذاب الَّذي توعَّدهم به[8].

---

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/221.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2308.
(3) طنطاوي، التفسير الوسيط: 4/237.
(4) العبارةُ في الخصائص، لابن جني: 1/72. - وفي لسان العرب لابن منظور: (مَذَلَ): مذلت نفسه بالشيَّء: طابت، وسمحت، ورجل مذل النَّفس والكفِّ واليد: سمح، ومنه قيل: مَذَلَ لسانه بكذا، أي: سمح به، وسهَّل عليه.
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 6/282 - 283.
(6) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 6/284.
(7) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2309.
(8) رضا، تفسير المنار: 6/402.

دلالة التَّركيب في قوله: ﴿ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ﴾:

مناط اعتقادهم تثليثُ الآلهة، وليس توحيدَها

قوله: ﴿ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ﴾: معناه واحدٌ من تلك الثلاثة؛ لأنَّ العربَ تصوغُ من اسم العدد - مِن اثنين إلى عَشَرَة - صيغةَ فاعلٍ مضافًا إلى اسم العدد المشتقِّ هو منه؛ لإرادة أنَّه جزءٌ من ذلك العدد، نحو: ﴿ثَانِيَ ٱثۡنَيۡنِ﴾ [التَّوبَة: 40]، فإن أرادوا أنَّ المشتقَّ له وزنُ فاعلٍ هو الذي أكملَ العددَ؛ أضَافُوا وَزْنَ فاعِلٍ إلى اسم العدد الَّذي هو أرقى منه، فقالوا: رابعُ ثلاثةٍ، أي: جاعل الثَّلاثةِ أربعةً[1]، ومرادُهم بقولهم: ﴿ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ﴾: اللّٰه، ومريمُ، وعيسى، فقد زعموا أنَّ الإلهيَّة بين الثَّلاثة، وأنَّ كلَّ واحدٍ من هؤلاء إلهٌ، يؤكِّد هذا القولَ مِن مذهبهم قولُه تعالى لِلْمَسِيح: ﴿ءَأَنتَ قُلۡتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيۡنِ مِن دُونِ﴾ [المائدة: 116][2].

بيانُ الإضمار في مقولة التَّثليث:

أعظمُ الإشْراكِ هو الإشْراكُ في الألوهيَّة

في قوله: ﴿ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ﴾ بيانُ أنَّهم كانوا يُشركون مريم وعيسى في الإلهيَّة، أي: إنَّهم قالوا: اللّٰه أحدٌ من ثلاث آلهات، أو واحِدٌ من ثلاث آلهات[3]، وعلى هذا المعنى؛ لا بدَّ من أن يَكُونَ في الآية إضمارٌ واختصارٌ بحذفِ لَفْظِ الآلهة، لِوُضُوحِ المعنى وبيانه مِن خِلَالِ السِّياق[4].

توجيه جملة توحيد الألوهيَّة:

الاعتقاد الحقُّ: أنَّ الإلـه واحـدٌ فردٌ صمدٌ

قوله: ﴿وَمَا مِنۡ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۚ﴾ عطفٌ على جملة ﴿لَّقَدۡ كَفَرَ﴾؛ لِبَيَانِ الحقِّ في الاعتقاد بعد ذِكْرِ الاعتقاد الباطل، ويجوزُ جَعْلُ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 6/282.

(2) الواحدي، التفسير البسيط: 7/481. وقيل غير ذلك: عن المتكلمين أنَّ النَّصارى يقولون: جوهر واحد، ثلاثة أقانيم: أب، وابن وروح القدس، وهذه الثلاثة إله واحد، كما أنَّ الشمس اسم يتناول القرص والشعاع والحرارة. وعنوا بالأب: الذات. وبالابن: الكلمة. وبالروح: الحياة. الرازي، مفاتيح الغيب: 12/409.

(3) الزجاج، معاني القرآن وإعرابه: 2/196.

(4) الواحدي، التفسير البسيط: 7/482.

الجُملةِ حالًا مِن ضَمِير ﴿قَالُوٓاْ﴾، أي: قالوا هذا القولَ في حال كونِه مخالفًا لِلْوَاقِعِ، فيكون كالتَّعليل لِكُفْرِهم في قولهم ذلك، ومعناه على الوجهين: نفيٌ عَنِ الإله الحقِّ أن يكون غيرَ واحدٍ[1].

الجملة تقريرٌ لعقيدة التَّوحيد المستقيمة:

وفي النَّصِّ تقريرٌ لعقيدة التَّوحيد المستقيمة الصَّحيحة بصيغةٍ تفيدُ استحالة أنْ يكون الإلهُ غيرَ واحدٍ؛ لأنَّه لا ينتظم الكون والسَّماء والأرض، ومَن فيهما كما جاء في قولِهِ تعالى: ﴿لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ﴾ [الأنبياء: 22][2].

من خالف المعقولَ يستحقُّ التَّوبيخ:

وفيه - أيضًا - توبيخٌ موجَّهٌ إليهم على مخالفتهم المعقولَ، ومجانَبَتِهم ما يقرُّه أهلُ العقول، ولذلك حذَّرهم سبحانه عن أنْ يَسِيروا في طريق الغيِّ، ويُمْعِنُوا في مسالك الإنكار والجُحود، وأن يَعُودوا إلى الحقِّ[3].

علَّة إيثار النَّفي بـ (ما) على (لا):

لمَّا كان الأمرُ متعلِّقًا بِشأنِ الألوهيَّةِ؛ فإنَّ ترسيخَ نفيها عن غيرِه واجبٌ

جاءت جملة: ﴿وَمَا مِنۡ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۚ﴾ بأقوى أساليب القَصْر، وهو اشتمالها على (ما) و(إلَّا)، مع تأكيد النَّفي بِـ (مِن) المفيدةِ استغراقَ النَّفي[4]، وعدلَ عن النَّفي بلا النَّافية للجنس إلى النَّفي بـ (ما)، فلم يقل: (وَلَا إلهَ إلَّا إله واحد) عنايةً بإبراز حرفِ (مِن) الدَّالِّ بعد النَّفي على تحقيق النَّفي، فإنَّ النَّفي بحرف (لا) ما أفاد نفيَ الجنس إلَّا بتقدير حرف (مِن)، فلمَّا قُصِدَتْ زيادةُ العنايةِ بالنَّفي هنا؛ جِيء بحرف (مَا) النَّافية[5].

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 6/282.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2308.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2309.
(4) طنطاوي، التفسير الوسيط: 4/239.
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 6/283.

بيانُ المتشابه اللَّفظيِّ:

قال في سورة ال عمران: ﴿وَمَا مِنۡ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُۚ﴾ [آل عمران: 62]، وقال ههنا: ﴿إِلَّآ إِلَٰهُ وَٰحِدٞۚ﴾ دون أن يصرِّح باسمه الأعظم؛ لإفادة حصْرِ وصفِ الإلهيِّة في واحدٍ، فانتفى التَّثليثُ المحكيُّ عنهم، وأمَّا تعيينُ هذا الواحد مَن هو؛ فليس مقصودًا تعيينُه هنا؛ لأنَّ القصد إبطالُ عقيدة التَّثليث، فإذا بطل التَّثليث، وثبتتِ الوحدانيَّة؛ تعيَّن أنَّ هذا الواحد هو اللّٰه تعالى؛ لأنَّه متَّفق على إلهيَّته، فلما بطلتْ إلهيَّة غيرِه معه؛ تمحَّضتِ الإلهيِّة له، فيكون قولُه هنا: ﴿وَمَا مِنۡ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهُ وَٰحِدٞۚ﴾ مساويًا لآية آل عمران: ﴿وَمَا مِنۡ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُۚ﴾ [آل عمران: 62]، إلَّا أنَّ المقام اقْتَضَى تعيينَ انْحِصَار الإلهيِّة في اللّٰه تعالى دُون عيسى، ولم يَجْرِ فيه ذِكْرٌ لتعدُّد الآلِهَة[1].

القصدُ: إبطال عقيدة التَّثليث، لا تعيينُ الإلَـهِ المعلومِ

علَّة التَّعبير عن القول بالفعل المضارع:

معنى قوله: ﴿عَمَّا يَقُولُونَ﴾، أي: عن قولهم المذكور آنفًا، وهو أنَّ اللّٰه ثالثُ ثلاثةٍ، وقد جيءَ بالفعلِ المضارع؛ لأنَّه المناسبُ للانتهاء؛ إذ الانتهاء إنَّما يكون عن شيءٍ مستمرٍّ، كما ناسبَ قولُه: ﴿قَالُوٓاْ﴾ قولَه: ﴿لَّقَدۡ كَفَرَ﴾؛ لأنَّ الكُفْر حصلَ بقولهم ذلك ابتداءً مِن الزَّمن الماضي[2].

الأمـر بالانتهاء يـنـاسـب ديمومة الفعل واستمراره

دلالة ﴿مِنۡ﴾ في جملة توحيد الألوهيَّة:

﴿مِنۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمَا مِنۡ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهُ وَٰحِدٞۚ﴾ دخلتْ مؤكِّدة[3]، ومعناها: الاستغراق، وهي القدرة معَ (لا) الَّتي لِنَفْي الجِنْسِ في قولكَ: (لا إله إلا اللّٰه)، والمعنى: وما إلهٌ حقٌّ قطُّ في الوجود إلَّا إلهٌ موصوفٌ بالوحدانيَّة لا ثانيَ له، وهو اللّٰه وحدَهُ لا شريك له[4]، فحصرُ إلَهيَّتِهِ في صفة الوحدانيَّة[5].

لا إلـهَ حـقٌّ قطُّ في الـوجـود إلَّا إلـهٌ مـوصـوفٌ بالوحدانيَّة

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 6/283.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 6/283.
(3) الواحدي، التفسير البسيط: 7/483.
(4) الزمخشري، الكشاف: 1/664، والرازي، مفاتيح الغيب: 12/409.
(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/330.

تفيد ﴿مِنۡ﴾ استغراقَ النَّفي وشمولَه لكُلِّ نوع من أنواع المتعدِّد:

وأفادتْ ﴿مِنۡ﴾ الاستغراقَ؛ لأنَّها تدخل لابتداء الجِنس إلى انتهائه، فقولك: هل مِن رجلٍ؟ تقديرُه: هل مِن واحد هذا الجِنس إلى أقصاه؟[1] فهي لتَأْكِيد عموم النَّفي، فصار النَّفي بـ (مَا) المقترنَةِ بها مساويًا للنَّفي بـ (لا) النَّافية لِلْجِنس في الدَّلالة على نفي الجنس نصًّا[2]؛ لتكون العبارة أشدَّ تأكيدًا لنفي تعدُّد الإله وأوسع من عبارة: لا إله إلَّا إله واحد؛ لأنَّ (مِن) بعد (ما) تفيد استغراقَ النَّفي وشمولَه لكُلِّ نوع من أنواع المتعدِّد وكلِّ فرد مِن أفراده، فليس ثَمَّ تعدادُ ذواتٍ وأعيان، ولا تعدُّد أجناس أو أنواع، ولا تعدُّد جزئيَّات أو أجزاء[3].

في استغراق النَّفي تشنيعٌ عليهم، وردٌّ لدعوَاهم:

والمقصودُ من المبالغة في النَّفي: التَّشنيعُ والرَّدُّ عليهم في دعواهم التَّثليث؛ لأنَّ حقيقة الإله هو المعبود، وليس شيء من استحقاق الألوهيَّةِ وصفًا لعِيسَى ولا لأمِّه، ولا لأحَدٍ أبدًا سواه ﷻ، فهو (المتَّصف بكلِّ صفة كمال، منزَّهٌ عن كلِّ نقص، منفرد بالخلق والتَّدبير، ما بالخلق مِن نِعْمَة إلَّا منهُ، فكَيْفَ يُجعل معه إلهٌ غيره؟ تعالى الله عمَّا يقول الظَّالِمُون علوًّا كبيرًا)[4].

براعة التَّرقِّي في العطف:

من عميم رحمة الله تعالى إتْبَاعُ الإخبار بالتَّحذير ثُمَّ التَّرغيب

لَمَّا أخبر أنَّهم كفروا، وأشار إلى نقض قولِهم؛ كان أنسبَ الأشياء بعدَهُ أنْ يعطف عليه ترهيبهم ثُمَّ ترغيبهم، فقال تعالى: ﴿وَإِن لَّمۡ يَنتَهُواْ﴾[5]، وفيه تحذيرٌ مِنَ الله سبحانه لَهُمْ عَن أن يَسْتَمِرُّوا في هذا القول الكاذبِ على الله تعالى، وعلى رسولِهِ المَسِيح عيسَى[6] عليه السلام.

(1) الطيبي، فتوح الغيب: 5/444.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 6/282.
(3) رضا، تفسير المنار: 6/401.
(4) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 240.
(5) البقاعيّ، نظم الدَّرر: 6/253.
(6) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2309.

علَّة إيثار لفظ الانتهاء:

الانتهاء يحتمل العدول عن القول والاعتقاد

معنى الانتهاء يتضمَّن أمرين: أنْ يعدلوا عن ذلك القول، وألَّا يعتقدوه ولا يُؤمِنُوا به، ولم يكتفِ بالانتهاء عنِ العقيدة، ولكنَّ اللّٰه سبحانه ذكرَ الانتهاءَ عن القولِ لِلْإِشَارَةِ إلى أنَّ هذا كلامٌ يقولونه، ولا يُمْكِنُ أن يَكُونَ عقيدةً يعتقدُونَهَا؛ لأنَّه كلامٌ لَا يتَّفق مع العقل، وقد كذَّبهم عيسى عليه السلام بما قرَّره في دعوته، وبيَّن أنَّ الشِّرك ظلم عظيم، وأنَّ مَن يُشْرِك باللّٰه مأواه جهنَّم، وأنَّ اللّٰه حرَّم عليه الجَنَّة[1].

بديع التَّحذير بالقسم المَطْوِيِّ:

أكَّدَ الوعيدَ بالقسم ترهيبًا لاعتقادهم أنَّ في صَلْبِ عيسى كفَّارةً لهم

جوابُ القَسمِ المحذوف سادٌّ مسدَّ جوابِ الشَّرط المحذوف؛ لبيان معناه بدلالة القسم عَلَيْهِ، ولأنَّه إذا اجتمعَ شرطٌ وقسمٌ؛ أُجيب سابقُهما، والمعنى: وباللّٰه إن لَم ينتهوا؛ ليمسَّنَّهم[2]، وأكَّد تعالى الوعيدَ بالقسم المطويِّ الذي دلَّت عليه اللَّام في قولِه: ﴿لَيَمَسَّنَّ﴾ ردًّا على اعتقادهم: أنَّهم لا تمسَّهم النَّار؛ لأنَّ صَلْبَ عيسى في زعمِهم؛ كان كفَّارةً عن خطايا البشر[3].

نكتة توكيدِ الوعيد:

عِظَمُ الذَّنب مدعاةٌ للتَّشديد وزيادةِ التَّخويف

أردفَ بيانُ القرآنِ توكيدَ الوعيدِ والعذابِ الشَّديد بالقسمِ المطويِّ الذي دلَّت عليه اللَّام في ﴿لَيَمَسَّنَّ﴾ بالنُّون المؤكِّدة، وتنكير العذاب، ووصفه بالألَمِ الشَّديد؛ وفي ذلك ترسيخٌ لترهيبهم، وزيادة في تخويفهم جزاءَ ما اقترفوه مِن شِرْكٍ[4].

بلاغة المجاز في المَسِّ:

إطلاق الإصابة وتقييدها بالأليم: تصويرٌ لسعة شدَّتها

المسُّ مجازٌ في الإصابة؛ لأنَّ حقيقته وضعُ اليد على الجسم، فاسْتُعمِل في الإصابة بجامع الاتِّصال، كقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2309.
(2) السّمين، الدُّرّ المصون: 4/375، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/67.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 6/283، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2309.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 6/283، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2309.

بِـَٔايَٰتِنَا يَمَسُّهُمُ ٱلۡعَذَابُ بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ ﴿٤٩﴾ [الأنعام: 49]، فهو دالٌّ على مطلق الإصابة من غير تقييد بشدَّة أو ضعف، وإنَّما يرجع في الشِّدَّة أو الضَّعف إلى القرينة، مثل ﴿أَلِيمٌ﴾ هنا، ومثل قوله: ﴿بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ﴾ [الأنعام: 49] في الآية الأخرى[1].

في المسِّ إصابةٌ لموضع الإحساس، وهو الجلد:

والتَّعبير بالمسِّ أَوْلَى؛ إذِ المراد أنَّه يمسُّ جِلْدَهُم، ويُصيبُ موضع الإحساس فيهم، أي: إنَّ العذاب المؤلم مستمرٌّ[2]، وهو أَدْعَى لِلْخَشْيَة والخوف والرَّهبة.

وعبَّر بالمسِّ للإشارة إلى شدَّة ما يصيبهم من آلامٍ؛ لأنَّ المراد: أنَّ هذا العذاب الأليم يصيب جِلْدَهُم، وهو موضع الإحساس فيهم إصابة مستمرَّة، كما قال تعالى في آية أخرى: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتۡ جُلُودُهُم بَدَّلۡنَٰهُمۡ جُلُودًا غَيۡرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَۗ﴾ [النساء: 56][3].

توجيه المتشابه اللَّفْظيّ بينَ (المسّ) و(الإصابة):

المَسُّ أدلُّ على شدَّة العذاب من الإصابة، وأنسبُ لعظيم كفرهم

قال هنا: ﴿لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، وقال في التوبة: ﴿سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٠﴾﴾ [التَّوبَة: 90] فَخُصَّتْ آية المائدة بلفظة (يمسّ) لتقدُّم قوله: ﴿وَإِن لَّمۡ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ﴾، فلمَّا كان هؤلاء يقولون: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ﴾ فكان ذلك من أشدِّ الكذب والافتراء على الله تعالى؛ ناسبه ذِكْرُ (يمسّ) الدَّالُّ على المبالغة في العذاب وشدَّته؛ لكونه يصيب موضعَ الإِحْسَاس منهم، وهو الجُلود، وتأكيده بلَام التَّوكيد ونُونِهِ الثَّقيلة بقوله: ﴿لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

أمَّا آية التَّوبَة؛ فقد صُدِّرت بقوله: ﴿وَجَآءَ ٱلۡمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ لِيُؤۡذَنَ لَهُمۡ وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ﴾ [التَّوبَة: 90]، فلمَّا كان ذلك أخفَّ جرمًا ممَّا سبق؛ ناسبه ذكر (يصيبُ)، ولمَّا أُريد إعطاء مَن قعدوا مُهْلَةً كي يَتُوبُوا إلى الله تعالى؛ ناسبه التَّعبير بالسِّين في قوله: ﴿سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٠﴾﴾ [التَّوبَة: 90].

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 6/284.
(2) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 5/2309.
(3) طنطاوي، التفسير الوسيط: 4/240.

علَّة التَّعبير عن الكافرين بالاسم الموصول:

أُقيمَ الاسمُ الموصولُ الظَّاهرُ مُقامَ المُضْمر، مع كون الرَّبط يصحُّ حصولُه بقوله: (ليمسَّنهم)؛ لتكرير الشَّهادة عليهم بالكُفْر في قوله: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ﴾، وللإعلام بأنَّهم كانوا بمكانٍ مِنَ الكُفْر؛ إذ جُعِلَ الفعلُ في صِلَةِ ﴿ٱلَّذِينَ﴾، وهي تقتضي كونَها معلومةً للسَّامع، مفروغًا من ثبوتها، واستقرارها لهم[1]، وليكون الاسمُ الموصول مشيرًا إلى سبب الحُكْم المُخبرِ به عنه[2].

في التَّعبير بالاسم الموصول تَسْجيلٌ لِكُفْرِهم، وتكريرُ الشَّهادة بذلك عليهم

نكتة التَّعبير بالفعل دون الاسم:

وجيء بالفعل المنبئ عن الحدوث ﴿كَفَرُوٓاْ﴾ دون (الكافرين)؛ تنبيهًا على أنَّ الاستمرار عليه بعدَ وُرود ما ينحى عليه بالقلع من نصِّ عيسى عليه السلام وغيره: كفرٌ جديد وغلوٌّ زائد على ما كانُوا عليهِ من أصل الكُفْر[3].

في التَّعبير بفعل الكُفْر دلالةٌ على دوامهم عليه

براعة التَّعبير بحرف الجرِّ (من) في جملة الوعيد:

(من) في قوله: ﴿لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ﴾ للبيان، كالتي في قوله تعالى: ﴿فَٱجْتَنِبُواْ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ﴾[4]، وإنَّما قال تعالى: ﴿مِنْهُمْ﴾ لعلمه السَّابق أنَّ من النَّصَارى مَن سَيُؤْمِنُ، ويُخلِصُ، ويتركُ هذا القولَ، ويعلم أنَّه فاسد[5].

علم مآلاتِ الأمور بيد الله وحده، وحكمه عن علم سابق

توجيهُ الوعيدِ على مَنْ دام به الكُفْر، وأصرَّ على فعْلِه:

ويقتضي قوله: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ﴾، أنْ يكون بعضٌ منهم كافرين، مع حكمه في المطلع بكفرهم جميعِهم بقوله: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ﴾، فـ(مِنْ) للتَّبعيض، أي: كائنًا منهم، والرَّبط حاصلٌ

(1) الزمخشري، الكشاف: 1/664، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/331.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 6/284.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/67.
(4) الزمخشري، الكشاف: 1/664.
(5) الخازن، لباب التأويل: 2/66.

بالضَّمير، فكأنَّه قيل: كافرهم، وليسوا كلُّهم بَقُوا على الكُفْر، بل قد تاب كثيرٌ مِنهم مِنَ النَّصرانيَّة[1]، وإنَّما بعَّضَ؛ تنبيهًا على أنَّ العذاب يتوجَّه على مَن دام به الكُفْر، وثبتَ عَلَيْهِ، واتَّصفَ به، ولم يُقْلِع، ولهذا أعقبه بقوله: ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ﴾[2].

في ذكر ﴿مِنْهُمْ﴾ احتراسٌ يخصِّص الكُفْر بمن ثلَّث:

كرَّر تسجيلَ كفرِهم بالاسمِ الموصولِ، ورسَّخه بقوله: ﴿مِنْهُمْ﴾؛ ليكون بيانًا للَّذين كفروا قُصد منه الاحتراسُ عن أن يَتوهَّم السَّامع أنَّ هذا وعيدٌ لكفَّار آخرين[3]، والمَعْنَى: ليمسَّنَّ الَّذينَ كَفَرُوا مِنَ النَّصَارى خاصَّة عذاب أليم[4].

في ذكر ﴿مِنْهُمْ﴾ تجريدٌ يُظْهِرُ كمال صفة الكُفْر فيهم:

ذكر ﴿مِنْهُمْ﴾؛ تنبيهًا عَلَى أنَّهم بالغوا في الكُفْر بحَيْثُ صاروا أعلامًا للكفر مشاهيرَ فيه، حتَّى أمكن أنْ يُعرِّف الكُفْر لهم؛ فهو من باب (رأيت منكَ أسدًا)، أي: من باب التَّجريد[5]، فقد جُرِّد مِن نَفْسِ النَّصَارى الَّذينَ كَفَرُوا مُبَالَغَة لكمال الكُفْر فيهم[6].

سرُّ وصف العذاب بالأليم:

تخصيصُ العذاب بالأليم يناسب سُوء صنيعهم

معنى: ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، أي: نوعٌ شديدُ الألم من العذاب، مبالغٌ فيه، كما تقول: أعطني عشرين مِنَ الثِّياب، تريد مِن الثِّياب خاصَّة لا مِن غيرها من الأجْناس الَّتي يجوز أن يتناولها لفظُ (عِشْرِين)[7].

بلاغة تقديم الوعيد على سمات الحدوث:

وقدَّم الوعيد ﴿وَإِن لَّمْ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ﴾ على الاستدلال

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/331.
(2) الراغب، تفسير الرّاغب: 5/410، والقونوي وابن التمجيد، حاشيتان على البيضاوي: 7/531.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 6/284.
(4) القونوي وابن التمجيد، حاشيتان على البيضاوي: 7/530.
(5) التجريد: وهو أن يُنتزع من أمر ذي صفة أمرٌ آخرُ مثله في تلك الصِّفة مبالغةً في كمالها فيه. ينظر: القزويني، الإيضاح، ص: 338.
(6) الطيبي، فتوح الغيب: 5/446، والقونوي وابن التمجيد، حاشيتان على البيضاوي: 7/530.
(7) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/331، والقونوي وابن التمجيد، حاشيتان على البيضاوي: 7/530.

بسِمَاتِ الحدوث ﴿مَّا ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ﴾؛ مبالغَةً في الزَّجر، وتبعيدًا عما اعتقدته النَّصَارى فيهما مِنَ الإلهيَّة؛ لأنَّ من احتاج إلى الطَّعام وما يتبعه من عوارض الحدوث؛ لم يكن إلَّا جسمًا مركَّبًا من عظم ولحم وعروق وأعصاب وأخلاط وغير ذلك، وهو ممَّا يدلُّ على مصنوعٍ مؤلَّفٍ مُدبَّرٍ كغيره من الأجسام، أي: هذه المقالة في غاية الفساد، بحيث لا تختلف العقول في فسادها، فلذلك توعَّد أوَّلًا عليها بالعذاب، ثُمَّ أتبعَ الوعيدَ بالاستدلال بسمات الحدوث على بطلانها[1].

بالغَ في الزَّجر والتَّنفير عن اعتقاد النَّصَارى؛ فقدَّم الوعيد:

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

اللَّمسُ والمَسُّ والجَسّ:

اللَّمس: إدراكٌ بظاهر البشرة، فهُوَ لصوق بإحساس، وهو أَعمُّ مِمَّا هُوَ بِاليَدِ، وقد يُقَال لطلب الشَّيء، وَإِن لم يُوجد، والمسُّ: الإصابة، وهو في اللُّغة: التقاء الشَّيئين من غير فَصْلٍ، أو الجمع بين الشَّيئين على نهاية القرب، ويُقَال فِيمَا مَعَه إِدْرَاك بحاسَّة اللَّمس، فحقيقتُهُ: اللَّمسُ باليد، ونُقِلَ مِن الإحساس إلى المعاني؛ ليكنَّى بِهِ عَن النِّكَاح وَالجُنُون، وقد يُقَالُ فِي كلِّ مَا ينَال الإِنْسَان من أَذَى[2].

المسُّ: إصابةٌ مقصودة بإدراك مؤدِّية إلى تأثُّرٍ

فالمسُّ اتِّصال الشَّيء بالبشرة بحيث تتأثَّر الحاسَّة به، واللَّمس كالطَّلب له، ولذلك يقال: أَلْمَسُهُ، فلا أَجِدُه[3]، ويُقال: المسُّ أقلُّ تمكُّنًا مِنَ الإصابة، وكأنَّه أقلُّ درجاتها[4]، ومِن هنا: فالمسُّ واللَّمْسُ والجَسُّ متقارب، إلَّا أنَّ الجَسَّ عامٌّ في المحسوسات، والمسُّ فيما يخفى ويدقُّ، والمسُّ واللَّمس بظاهر البشرة[5]، وقيل: اللَّمس: لا يكون عن قصد، والمسُّ: يكون مقصودًا، أو غير مقصود، تقول: (تماسَّ الحجَرانِ)،

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/330، 333.
(2) الراغب، المفردات: (مسس)، و(لمس)، وأبو حيان، البحر المحيط: 1/231، والكفوي، الكليات، ص: 799.
(3) البيضاوي، أنوار التنزيل: 1/90.
(4) القاسمي، محاسن التأويل: 2/396.
(5) أبو حيان، البحر المحيط: 1/231.

ولا يقال: (تلامسَ الحجران)[1]، ولمَّا كان المسُّ إصابةً مقصودة تُدْرِكُهَا الحواسُّ، وتتأثَّرُ بها؛ فهي أنسبُ إلى سياق الآية التي تتحدَّث عَن وعيدٍ بعذاب أليم.

المسُّ يقتضي المبالغة في عذابهم والشِّدَّة فيه

قال الرَّاغب: "إنْ قيلَ: لِمَ قالَ: ﴿لَيَمَسَّنَّ﴾، فذكر المسَّ، وذلك يقتضي تقليلَ العذاب؛ قيل: بل المسُّ يقتضي مبالغةً في وصف عذابهم؛ لأنَّ المسَّ يقتضي اللَّمْسَ، وذلك أعمُّ الحواسِّ وأكثرها وجودًا؛ إذْ لا حيوان إلَّا وله اللَّمس، ولأنَّه أعرفُ الحواسِّ عند الخاصِّ والعامِّ"[2]، فالعذابُ الأليم - بحسب ما مرَّ ذِكْرُه - يُصِيبُ جلدَهم، وهو موضع الإحساس فيهم إصابة مستمرَّة مباشرة[3]، فـ(المسُّ: مباشرة الجِسم)[4]، والمبالغةُ في العذاب - بإصابة موضع الإحساس لديهم - تناسبُ الألم الموصوف به.

(1) البسيلي، التقييد الكبير، ص: 565.
(2) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 5/410.
(3) طنطاوي، التفسير الوسيط: 4/240.
(4) السّمين، عمدة الحفاظ: (مسس).

﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسۡتَغۡفِرُونَهُۥۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٧٤﴾

[المائدة: 74]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

بعد أن حذَّرهم سبحانه مِنَ الاستمرار على قولهم الإفك، وترهيبهم مِن العذاب الأليم؛ رغَّبهم في الرِّجوع إلى الاعتقاد الحقِّ، فالجمع بين التَّرغيب والتَّرهيب: دعوةٌ للإيمان والهداية؛ خوفًا من عذاب الله تعالى أو طمعًا في ثوابه، أو لهما معًا، وبيانٌ بأنَّ باب المغفرة مفتوحٌ لمن طلب الغُفران[1]؛ لأنَّ مِن شأن العاقل أنَّه لا يُقْدِمُ على باطلٍ، فإن وقَعَ ذلك مِنْهُ، وشعرَ بنوع ضررٍ يأتي بسَبَبِه؛ بادرَ إلى الإقلاع عنه[2].

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

أفَلَا يَرْجِعُ هؤلاءِ عَن مقَالَتِهم تلكَ، تائِبِيَن إلى اللهِ تعالَى مِنْهَا، ويَسألُونَهُ المَغْفِرَةَ علَى مَا ارتكبُوه مِن الشِّرك به؟ واللهُ غفور لمَن تابَ إليه مِن أيِّ ذنبٍ كانَ، ولو كانَ الذَّنبُ هو الشِّرْكَ به، رحيمٌ بعبادِهِ المُؤْمِنِينَ[3].

مـــن أقـــلـــعَ، واستغفرَ؛ تاب اللهُ عليه

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ الاستفهام في الآية:

الاستفهام في قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ﴾؛ للدَّلالة على أمور ثلاثة:

أوَّلها: توبيخهم على ما كان منهم، وأنَّه يستحقُّ التَّوبَة والاسْتِغْفَار.

وثانيها: التَّعجُّب من بقائهم على حالهم مِنَ الإفك والإصرار عليه، مِن أنَّه لَا يقبله عقل، ولا يُذعِن له مصدِّق، بل لَا يتصوَّرُه متصوِّر.

في الاستفهام تـــوبـــيـــخٌ، وتـــعـــجـــبٌ، وتحريضٌ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 6/284، وأبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 5/2310.

(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 6/253.

(3) جماعة من علماء التفسير، المختصر في تفسير القرآن الكريم، ص: 120.

وثالثها: تحريضهم على التَّوبَة، أي: الرُّجوع إلى اللّه تعالى، وما تُقِرُّه العقول، ولا تنبو عنه الأفهام، وعلى طلب الغفران عمَّا سلف منهم مِن قول، وأنَّ باب الغفران مفتوح[1].

بلاغة العطف على المقدَّر بالفاء:

الإصرار على عدم التَّوبَة مع تحقُّق مصاديقها مدارُ إنكار وتعجيب

الفاء في ﴿أَفَلَا﴾ للعطف، حجزتْ بين الاستفهام و(لا) النَّافية، والتَّقدير: فَأَلَا، وعلى طريقة الزَّمخشري تكون قد عطفت فعلًا على فعلٍ مقدَّر يقتضيه المقامُ، كأنَّ التَّقدير: أَيَتْبُتُون على الكُفْر، فلا يتوبون، أو ألَا ينتَهُون عن تلك العقائد الزَّائغة والأقاويل الباطلة، فلا يتوبون إلى اللّه تعالى، ويستغفرُونَه بالتَّوحيد والتَّنزيه عمَّا نسبوه إليه مِنَ الاتِّحاد والحلول، فمدارُ الإنكار والتَّعجيب عدمُ الانتهاء وعدم التَّوبَة معًا، أو أيَسْمعون هذه الشَّهاداتِ المكرَّرة والتَّشديداتِ المقرَّرة، فلا يتوبون عَقِيب ذلك، فمدارُهما عدم التَّوبَة عَقيبَ تحقُّق ما يوجبها مِن سماع تلك القوارِعِ الهائلة، وهم أجدَرُ النَّاس بذلك؛ لأنَّ كفرَهم أقبحُ الكُفْر، وأفضحُ في سُوء الاعتقاد، فتعجَّب مِن كونهم لا يتوبُون مِن هذا الجُرْم العظيم[2].

في العطفِ لُطفٌ بهم، وحثٌّ على الإنابة بعد سوء صنيعهم

ومعنى قوله: ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ﴾، أي: أيصرُّون، فلا يتوبون؟ ففيه معنى: التَّعجُّب على الإصرار والتَّحضيض على التَّوبَة[3]، ولطفٌ بهم واستدعاءٌ إلى التَّنصُّل من تلك المقالة الشَّنعاء بعد أن كرَّر عليهم الشَّهادة بالكُفْر، وما ذكروه مِنَ الحثِّ والتَّحضيض على التَّوبَة من حيث المعنى، لا من حيث مدلول اللَّفظ؛ لأنَّ ﴿أَفَلَا﴾ غير مدلول (أَلَا) الَّتِي لِلْحَضِّ والحثِّ[4].

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2310.
(2) الزمخشري، الكشاف: 1/664، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/331، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/67 - 68.
(3) الطيبي، فتوح الغيب: 5/447.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/331.

دلالة الأمر في فِعْلَي التَّوبَة والاسْتِغْفَار:

في الأمر طلبٌ للتَّوبة والاسْتِغْفَار وحثٌّ عليهما

نُقل عن الفرَّاء أنَّ قوله: ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ﴾ استفهامٌ معناه الأمر، كقوله: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ۝٩١﴾ [المائدة: 91]، وقال: إنَّما كان بمعنى: الأمر؛ لأنَّ المفهوم من الصِّيغة: طلبُ التَّوبَة والحثُّ عليها، وندب سائر النَّصَارى إلى التَّوبَة من هذه المقالة الخبيثة، فمعناه: تُوبوا إلى اللّه، واستغفروه مِن ذنبكم[1].

براعة إظهار اسمه الأعظم:

لله سبحانَه في كلِّ مقامٍ تَجَلٍّ بحسَبِ اقتضاء ذلك المقام

أظهر اسمه الأعظم الجامع لأسمائه الحُسنى موضع الضَّمير وكرَّره؛ تقريرًا لِلقُوَّة الكاملة والعزَّة القاهرة، وإيذانًا بأنَّ من تكونُ توبتُه إلى مَنِ اسمه اللّه؛ فأعْظِمْ بتوبتِه! فإنَّ اسمَهُ الأعظم جامعٌ لسائر صِفاته الحُسنى وأسمائه العظمى، وله في كلِّ مقامٍ تجلٍّ بحسب اقتضاء ذلك المقام، وهذا المقام مقام التَّوبَة عن جسيم ذنبٍ، فالتَّجلِّي بوصف التَّوَّابيَّة، يناسبُه الإظهار[2].

بلاغة التَّذييل بصيغَتَي المبالغة:

من تاب، واستغفر؛ تاب الله عليه بواسع رحمته وشدَّة غُفرانه

قوله: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ تذييلٌ بثناء على اللّه بأنَّه يغفر لِمَنْ تاب، واستغفر ما سلف منه؛ لأنَّ صيغتَيْ: ﴿غَفُورٌ﴾ و﴿رَّحِيمٌ﴾ مِن أمثلة المبالغة، وهما يدلَّان على شدَّة الغفران وشدَّة الرَّحمة، فهو وعدٌ بأنَّهم إنْ تابوا واستغفروه؛ رفَعَ عنهم العذابَ برَحْمَتِه وصفح عمَّا سلف منهم بغفرانه[3]، ولا عجبَ؛ فإنَّ المُسْتَجْمِعَ صِفَاتِ الكمال أزَلًا وأبدًا غفورٌ بليغُ المغفرة، يَمْحُو الذُّنوبَ، فلا يعاقب عليها، ولا يعاتب، وهو (رحيمٌ)، ومن آثارِ رحمتِهِ: مبالَغَتُهُ في إكرامِ مَنْ أقبل إليه[4].

---

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/331، والخازن، لباب التأويل: 2/66، وما نقل عن الفراء فهو من كلامه على قوله تعالى: ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسْلَمْتُمْ﴾ [آل عمران: 20]: "وهو استفهامٌ، ومعناه أمرٌ، ومثله قول اللّه ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ۝٩١﴾ [المائدة: 91] استفهامٌ وتأويله: انتهوا"، ينظر: الزجاج، معاني القرآن: 1/202. ولم يؤوِّل ذلك المعنى في (ألا).

(2) أفدتُ من توجيهٍ للطيبيِّ، في فتوح الغيب: 11/295 - 296. في غير موضع الآية محلّ التفسير.

(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 6/284.

(4) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 6/254.

ففي وصف نفسه ﷻ في هذا الموضع بالغفران والرَّحمة: استجلابٌ للتَّائبين وتأنيسٌ لهم؛ لِيَكُونُوا على ثقة مِنَ الانْتِفَاعِ بتَوْبتِهم[1].

ناسبَ حُسْنُ استعطافه تعالى في المُفتتح: توبتُه في المُختتَم

لَمَّا استعطفهم إلى التَّوبَة والمغفرة أحسنَ استعطافٍ، وحثَّهم على ذلك بألطف عبارَةٍ، وهو قوله: ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ﴾؛ ناسب أنْ يختم باسمَيْه: الغفور والرحيم؛ لِمَا في ذلكَ من الإشارةِ إلى أنَّهم إنْ فعلوا ذلك - على الرَّغم من عِظَمِ ذنبهم - فإنَّه سَيَغْفِرُ لَهم[2]، فلم يُغْلِقْ بابَ التَّوبَة عليهم - مع قبيح أقوالِهم، وفسادِ عقائِدهم - تَضْعِيفًا لآمال المؤمنين بخَصَائِص رحمته[3].

توجيه حاليَّة جملة الفاصلة:

من عظيم رحمة الله تعالى مبالغتُهُ في العفو عمَّن أناب إليه مستغفرًا

قوله ﷻ: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ جملةٌ حاليةٌ مِن فاعلِ ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ﴾ مؤكِّدةٌ للإنكار والتَّعجيب من إِصْرَارِهم على الكُفْر، ودوامهم على الجحود، وعدم مسارعتهم إلى الاسْتِغْفَار، أي: والحالُ أنَّه تعالَى مبالغٌ في غُفْرَانه، فَيَغْفِرُ لهم عندَ استغفارِهم، ويمنَحُهُم مِن فَضْله[4].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

التَّوبَة والاسْتِغْفَار:

بالجمع بين الإقلاع عن الذَّنب وطلب المغفرة عَنْهُ؛ يتحقَّق وعدُ الله تعالَى بالتَّوبة

الاسْتِغْفَار: طلبُ المَغْفِرَة بِالدُّعَاءِ وَالتَّوبَة، أو بغيرهما من الطَّاعَة، والتَّوبَة: النَّدَمُ على الخَطِيئَة مَعَ العَزْم على ترك المعاودة إليها[5]، فَجَمع في الآية الكريمة بين الفِعْلَيْن؛ لأنَّ التَّوبَة: هي الإقلاع عمَّا هم عليه في المستقبل، والرُّجوع إلى الاعتقاد الحقِّ، وهو التَّوحيد،

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/222.
(2) الشّنقيطي، أضواء البيان: 1/418.
(3) القشيريّ، لطائف الإشارات: 1/440.
(4) أبو السعود، إرشاد العقل السّليم: 3/68.
(5) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 235.

والاسْتِغْفَار طلبُ المغفرةِ عمَّا سلف مِن كفرهم في الماضي، والنَّدم عمَّا فرَطَ مِنْهُمْ مِن سُوءِ الاعتقاد[1]، وبالجمع فيما بينَهُمَا يتحقَّق وعدُ اللّٰهِ تعالَى بالتَّوبة عليهم، والتَّفضُّل برفع العقاب، والنَّجاة مِنَ العذَابِ.

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 6/284.

﴿مَّا ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ إِلَّا رَسُولٞ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٞۖ كَانَا يَأۡكُلَانِ ٱلطَّعَامَۗ ٱنظُرۡ كَيۡفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرۡ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ٧٥﴾ [المائدة: 75]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

إثبات رسالة المسيح عليه السلام وبشريَّته بعد نفي ألوهيَّته

لمَّا أبطل اللّه الكُفر كُلّه بإثباتِ أفعاله من إرساله وإنزاله وغيرِ ذلك من كماله، وردَّ على النَّصارى قَوْلَهُم الأوَّل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَۖ﴾ بقولِ المسيح: ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمۡۖ﴾ وقولَهم الثَّاني: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٖۘ﴾: بقوله: ﴿وَمَا مِنۡ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۚ﴾؛ أثبت له الرِّسالة بصورة الحصر[1]؛ ردًّا على مَن يعتقد فيه الإلهيَّة[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿خَلَتۡ﴾: مَضَتْ، يُقال: خَلا يَخْلُو خَلاءً، فهو خالٍ[3]، وأصل (خلو) يدلُّ على تعرِّي الشَّيء من الشَّيء[4]، والخلاء: المكان الَّذي لا ساتر فيه من بِنَاءٍ ومساكنَ وغيرِهما، والخُلُوُّ يُستعمل في الزَّمان والمكان، لكن لَمَّا تُصُوِّر في الزَّمان المضيُّ؛ فَسَّرَ أهل اللُّغة (خلا الزَّمان) بقولهم: مضى الزَّمان وذهب، وخَلا قَرْنٌ؛ إذا مضى، فهو خالٍ، والقرون الخالية: المَواضي[5]، والمعنى هُنا: تقدَّمت قبلَه الرُّسل، فلم يكن أوَّل رسولٍ أُرسِلَ، فَيُتعجَّب منه[6].

2) ﴿صِدِّيقَةٞۖ﴾: مُبَالِغَة في الصِّدْق والتَّصْدِيق، والصِّدق: ضِدُّ

(1) أبو حيَّان، البحر المحيط: 4/332.
(2) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 6/254.
(3) الخليل، العين: (باب الخاء واللام وا يء).
(4) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (خلو).
(5) الرَّاغب، المفردات: (خلو)، وجبل، المعجم الاشتقاقيُّ المؤصل: (خلو، خلا).
(6) ابن قُتيبة، غريب القرآن، ص: 145.

الكَذِب، يُقال: صَدَقَ يصدُق صِدْقًا، وأَصْلُ (صدق) يدلُّ على قوَّةٍ في الشَّيءِ قولًا كان أو غيرَه، والصِّدِّيقُ: من كَثُر منه الصِّدقُ والتَّصديقُ، والصِّدِّيقُ أيضًا: مَن صدَقَ بقَوْلِه واعتقادِه، وحقَّق صِدقَه بفِعلِه[1].

3) ﴿يُؤْفَكُونَ﴾: يُصرَفون عن الحقِّ والخير، ويَعْدِلون عنه، يُقال: أفِكَ الرَّجلُ عن كذا؛ إذا عدَلَ عنه، والإفك: كلُّ مصروفٍ عن وجهِه الَّذي يحقُّ أن يكونَ عليه، والأَفَّاكُ: الَّذي يأفِك النَّاس عن الحقِّ، أي: يصدُّهم عنه بالكذب والباطل[2]، ويُطلق الإفكُ أيضًا على الكذب، يُقال: أفك يأفك أفكًا، وأَصْلُ (أفك): يدلُّ على قلبِ الشَّيءِ، وصَرْفِه عن جِهتِه، وأَفَكْتُه عن الأمر: صرفتُه عنه بالكذب والباطل[3].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

المسيح عيسى عليه السلام رسولٌ كباقي الرُّسل، وبَشَرٌ يحتاج إلى ما يحتاجه البشر

ليس المسيح عيسى ابن مريم إلَّا رسولًا كمن تقدَّمه مِن الرُّسل، يجري عليه ما جَرَى عليهم من الموت، وأمُّه مريم - عليها السلام - كثيرة الصِّدق والتَّصديق، وهُما كغيرهما مِنَ البشر يحتاجان إلى الطَّعام، وذلك علامة البشريَّة، فلا يكون إلهًا مَن يحتاج إلى الطَّعام ليعيش؟ فتأمَّل - أيُّها الرَّسولُ ﷺ - كيف نوضِّحُ لهم العلاماتِ الدَّالَّةَ على وَحْدانيَّتِنا، وعلى بُطلان ما هم عليه مِن المُغالاة في نسبة الألوهيَّة لغيره سُبحانه، وهُمْ مع ذلك يتنكَّرون لهذه الآيات، ثُمَّ انظر نَظَرَ تَأمُّلٍ: كيف يُصْرَفُونَ عن الحقِّ بعد هذا البيان[4]؟

(1) ابن سيده، المحكم، والرَّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، وابن فارس، مقاييس اللُّغة، والزبيدي، تاج العروس: (صدق).

(2) الخليل، العين: (أفك).

(3) الرَّاغب، المفردات، وابن عبَّاد، المحيط، وابن فارس، مقاييس اللُّغة، وابن عزيز، غريب القرآن، ص: 532، وابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 145، 79، وابن الجوزي، تذكرة الأريب، ص: 85.

(4) لجنة من علماء الأزهر، المنتخب في تفسير القرآن الكريم، ص: 160، ونُخبة من أساتذة التَّفسير، التَّفسير الميُسَّر، ص: 120، وجماعة من علماء التَّفسير، المُختصر في تفسير القرآن الكريم، ص: 120.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

عِلَّةُ فصل قوله تعالى: ﴿مَّا ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ إِلَّا رَسُولٞ﴾ عمَّا قبله:

الزِّيادة في إبطالِ مُعتقَدِ النَّصارى إلهيَّة المسيحِ، وإلهية أمِّه

قوله تعالى: ﴿مَّا ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ إِلَّا رَسُولٞ﴾ استئناف مَسوقٌ لتحقيق الحقِّ الذي لا محيد عنه، وبيانِ حقيقة حال عيسى عليه السلام وحالِ أُمِّه[1]، فكأنَّ قائلًا إذا سمع ما تَقَدَّم؛ قال: إذا كان التَّثليث أمرًا باطلًا، لا حقيقة له، وكان الإله الحقُّ واحدًا لا مثيلَ لهُ في الذَّاتِ ولا في الصِّفاتِ، فما بالُ المسيح، وما شأنه؟ هل يُعدُّ فردًا من أفراد المخلوقات، لا يمتاز عليها بالذَّات ولا بالصِّفات؟ وهل تُعَدُّ أمُّه كسائر النِّساء؟ فأجاب الله تعالى عن هذه الأسئلة التي يوردها من أَكْبَرُوا المسيحَ أن يكون بَشَرًا[2]، ففصل بين هذه الجملة وما تقدَّمها زيادةً في إبطالِ مُعتقَدِ النصارى إلهيَّة المسيح، وإلهيَّة أمِّه[3].

بلاغة القصر في قوله: ﴿مَّا ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ إِلَّا رَسُولٞ﴾:

قصرُ صفة الرِّسالة وحصرها في شخص المسيح؛ نفيًا لألوهيَّته وردًّا لعقائد النَّصارى واليهود فيه

قوله: ﴿مَّا ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ إِلَّا رَسُولٞ﴾ قصرُ موصوفٍ على صفة، وهو قصر إضافيٌّ، أي: المسيح مقصور على صفة الرِّسالة لا يتجاوزها إلى غيرها[4]، وهي الإلهيَّة، فأثبت له الرِّسالة بصورة الحصر، أي: ما المسيح ابن مريم شيء مِمَّا تدَّعيه النَّصارى من كونه إلهًا وكونِه أحدَ آلهةٍ ثلاثة، بل هو رسول من جنس الرُّسل الَّذين خلوا، وتقدَّموا[5]، فليس بإلَهٍ كما أنَّ الرُّسل الذين كانوا من قبله لم يكونوا آلهة؛ فالقَصْرُ هُنا قَصْرُ قَلْبٍ لردِّ اعتقاد النَّصارى أنَّه الله[6]، وفيه - أيضًا- ردٌّ على اليهود الذين ادَّعَوا كَذِبَهُ في دعوى الرِّسالة[7].

---

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 3/67.
(2) رضا، تفسير المنار: 6/403.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 6/285.
(4) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 3/67 والشَّوكانيُّ، فتح القدير: 2/73.
(5) أبو حيَّان، البحر المحيط: 4/332.
(6) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 6/285.
(7) أبو حيَّان، البحر المحيط: 4/332.

دلالة وصف (المسيحِ) بجملة: ﴿قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾:

بيان اشتراك المسيح عليه السلام لإخوانه من الرُّسل في الموت والحياة، والتَّأييد بالمعجزات

قوله تعالى: ﴿قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾ صفة لرسول مُنْبئة عن اتِّصافه بما يُنافي الألوهيَّة، فإنَّ خُلُوَّ الرُّسل السَّالفة - عليهم السلام - مُنْذِرٌ بخلوِّه المقتضي لاستحالة ألوهيَّته، أي: ما هو إلَّا رسول كالرُّسل الخالية من قبله خصَّه الله تعالى ببعضٍ من الآيات، كما خصَّ كُلًّا منهم ببعضٍ آخرَ منها[1]، فإنْ أحيا الله الموتَى، وأَبرأَ الأكمهَ والأَبرص على يَدِهِ؛ فقد أحيا العصا، وجعلها حيَّة تسعى، وفلق البحرَ على يد موسى، وإنْ خَلَقَهُ من غير ذَكَرٍ؛ فقد خَلَقَ آدم من غير ذكر وأنثى[2]، وفي هذا نداءٌ على غباوة القوم الذين استدلُّوا على إلهيَّته بأنَّه أحيا الموتى[3].

نُكتة الوَصْفِ في قوله تعالى: ﴿وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٞۖ﴾:

الإشعار بالإغراق في العُبوديَّة ردًّا على من قال بإلهيَّتها

قوله تعالى: ﴿وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٞۖ﴾ أي: بليغة الصِّدق في نفسها، والتَّصديق لما ينبغي أن يُصَدَّقَ، فجاءت على بِناءٍ مِن أبنيةِ المُبالَغةِ (فِعِّيل)؛ للدَّلالةِ على مُبالغَتِها في الصِّدْقِ والتَّصديقِ[4].

فرُتبتها تلي رُتبة الأنبياء، فالصِّدِّيقون هم قوم دُوَيْنَ الأنبياء في الفَضِيلة[5]، وهذه الصِّفة لمريم تَدْفَعُ قولَ من قال: إنَّها نَبِيَّةٌ[6]، فذَكَرَ الله تعالى أشرف صِفاتها في معرض الرَّدِّ على من قال بإلهيَّتها؛ إشارة إلى بيان ما هو الحقُّ في اعتقاد ما لها مِن أعلى الصِّفات[7].

ووقع وصف (الصِّديقة) عليها لقوله تعالى: ﴿وَصَدَّقَتۡ

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/67.
(2) أبو حيَّان، البحر المحيط: 4/332.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 6/285.
(4) أبو حيان، البحر المحيط: 4/332، وابن عاشور، التحرير والتنوير 6/286.
(5) الرَّاغب، المفردات: (صدق).
(6) القرطبيُّ، الجامع لأحكام القرآن: 6/251، وابن عطيَّة، المحرّر الوجيز: 2/222.
(7) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 6/255.

﴿بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ﴾ [التَّحريم: 12]، والوصف بذلك مُشْعِرٌ بالإغراق في العُبوديَّة والقيام بمَراسِمِها، فمِن أين لهم أن يَصِفوها بما يُبَاين وَصْفها؟[1].

دلالة قوله تعالى: ﴿وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌۖ﴾ على القصر:

قصر الصِّدِّيقيَّة على مريم كقصر الرِّسالة على المسيح؛ نَفْيًا لألوهيَّتها

القصد من وصفها بأنَّها صدِّيقة نفيُ أن يكون لها وصف أعلَى من ذلك، وهو وصف الألوهيَّة؛ لأنَّ المقام لإبطال قول الَّذين قالوا: إنَّ الله ثالث ثلاثة، إذْ جعلوا مريم الأقنوم الثَّالث[2]، فقوله: ﴿وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌۖ﴾ عطفٌ على ﴿ٱلْمَسِيحُ﴾، أي: (وما أمُّه إلَّا صدِّيقة[3]، فالحصر هُنا: مُستفاد من المقام والعطف، وأصل الكلام: (المسيح ابن مريم أمُّه صدِّيقة)، فهو مِن عطف المفردات، ويَحْتَمِلُ أن يكون من عطف الجمل، فالظَّاهر حصرُها في الصِّدِّيقيَّة[4].

سبب فصل قوله تعالى: ﴿كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَۗ﴾ عمَّا قبله:

التَّنبيه على اشتراك المسيح وأُمِّه مع سائر الخلق في سِمات الحُدوث، بعد ذكر اشتراكهما مع خواصِّ خلقه في صفات التَّشْريف

قوله تعالى: ﴿كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَۗ﴾ استئناف مُبَيِّنٌ لما أُشير إليه مِن كونهما كسائر أفراد البشر في الاحتياج إلى ما يَحْتَاجُ إليه كلُّ فرد من أفراده بل من أفراد الحيوانِ[5]، وفي هذا الاستئناف تنبيهٌ على سمة الحدوث، وتبعيدٌ عمَّا اعتقدته النَّصارى فيهما من الإلهيَّة؛ لأنَّ من احتاج إلى الطَّعام وما يتبعه من العوارض؛ لم يكن إلَّا جسمًا كسائرِ الأجسام المخلوقَةِ، فهذه الجملة استئناف، وإخبار عن المسيح وأمِّه، ومنبهةٌ على سِمات الحدوث، وأنَّهُما مُشاركان للنَّاس في ذلك[6].

(1) القاسمي، محاسن التأويل 4/215.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 6/285.
(3) الشوكاني، فتح القدير: 2/74 والقنوجي، فتح البيان 4/27.
(4) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/118.
(5) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/68، والشَّوكاني، فتح القدير: 2/74.
(6) أبو حيَّان، البحر المحيط: 4/333.

دلالة قوله تعالى: ﴿كَانَا يَأۡكُلَانِ ٱلطَّعَامَۗ﴾ بين الكناية والحقيقة:

التَّنبيه على سمات الحُدوثِ في المسيح وأُمِّه والحاجة إلى الأكل ولوازمه

قال جماعة من المفسِّرين: إنَّ قَوْلَهُ: ﴿كَانَا يَأۡكُلَانِ ٱلطَّعَامَۗ﴾ كنايةٌ عن الحدث، حيثُ كَنَّى عن قَضاءِ الحاجةِ بأكْلِ الطَّعام، والمقصود مِن ذلك أنَّهما - صلواتُ اللهِ عليهما - بَشَرٌ، فاكتفَى بذِكرِ أكْلِ الطَّعام عن كلِّ هذا؛ لأنَّهما منه مُسبَّبانِ؛ إذ لا بدَّ للآكلِ منهما، لكن استُقبِح في المخاطَبِ ذِكرُ الغائطِ، فكنَّى به عنه؛ تهذيبًا وتَصَوُّنًا، وهذا مِن غريبِ الكناياتِ في اللُّغة العربيَّة، وفيها - أيضًا- تشنيعٌ وبشاعةٌ على مَن اتَّخذهما آلهةً[1]؛ لأنَّ مَن أكل الطَّعام؛ فإنَّه لا بدَّ أَنْ يُحْدِثَ، ومن أكل، وأحدث؛ لا يستحقُّ أن يكون إلهًا[2].

وذهب بعض أهل العلم إلى أنَّ ذلك على حَقيقته، ويَكفِي حاجتُهما إلى الطَّعام دَلالةً على بشريَّتِهما؛ إذ هذه الحاجةُ من أقوى الأدلَّةِ على أنَّه ليس بإلهٍ، فكيف يكون إلهًا مَنْ يحتاج إلى الطَّعام، ولا يعيش إلَّا به؟ ولو كان إلهًا كما يزعُمون؛ لدَفَعَ عن نفسه ألَمَ الجُوع وألمَ العطش، ولم يوجد ذلك، فكيف يكون إلهًا[3]، فلا حاجةَ إلى الكنايةِ[4]، وإنَّما ذلك تنبيهٌ على سِمات الحدوث، والحاجة إلى التَّغذِّي الذي يفتقر إليه الحيوانُ في قِيامه، والذي يتنزَّه عنه الإله، قال تعالى: ﴿وَهُوَ يُطۡعِمُ وَلَا يُطۡعَمُۗ﴾ [الأنعام: 14]؛ وإن كان يَلْزَمُ من الاحتياج إلى أكل الطَّعام خروجُه[5].

براعة أسلوب البحث في قوله تعالى: ﴿كَانَا يَأۡكُلَانِ ٱلطَّعَامَۗ﴾:

الاستدلال على فساد قول النَّصارى من خلال الإشارة إلى الحدوث والضَّعف والحاجة

قوله تعالى: ﴿كَانَا يَأۡكُلَانِ ٱلطَّعَامَۗ﴾ استطرادٌ، قُصد منه الاستدلال على فساد قول النَّصارى، وبيانه من وجهين:

(1) الزركشي، البرهان 2/304 - 305، ودرويش، إعراب القرآن وبيانه 2/534 - 535.
(2) الثَّعلبيُّ، الكشف والبيان: 4/96 يُنظر: السَّمرقنديُّ، بحر العلوم: 1/409.
(3) الخازن، لباب التأويل: 2/66.
(4) الرَّازي، مفاتيح الغيب 12/409 - 410، وأبو حيَّان، البحر المحيط: 4/333.
(5) أبو حيَّان، البحر المحيط: 4/333.

الأوَّل: أنَّ كُلَّ من كانتْ له أمٌّ، فقد حَدَثَ بعد أن لم يكُن، وكلُّ من كان كذلك؛ كان مخلوقًا لا إلهًا.

والآخَرُ: أنَّهما كانا مُحتاجين؛ لأنَّهما كانا مُحتاجَين إلى الطَّعام أشدَّ الحاجة، والإلهُ هو الذي يكون غنيًّا عن جميع الأشياء، فكيف يُعقل أن يكون إلهًا[1]؟

فمن احتاج إلى الاغتذاء بالطَّعام وما يتبعه مِنَ الهضم والنَّفْضِ؛ لم يكن إلَّا جِسمًا مُركَّبًا مِن عَظْمٍ ولحم وعروق وأعصابٍ وأخلاط وأمزجة مع شهوة وقَرَم، وغير ذلك ممَّا يَدُلُّ على أنَّه مصنوعٌ مؤلَّفٌ مُدَبَّرٌ كغيره من الأجسام[2].

نُكتة تخصيص الأكل في قوله تعالى: ﴿كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ﴾ دون غيره من الحاجات:

ذكر الأكل لكونه ضعفًا لازمًا، مشيرًا إلى لوازم الضَّعف الأُخرى

لَمَّا كان المقامُ مقامَ بيانٍ عن نُزولهما عَن رتبة الإلهيَّة؛ ذكر أَبْعَدَ الأوصاف منها، فقال: ﴿كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ﴾، وخصَّ الأكل؛ لأنَّه - مع كونه ضعفًا لازمًا ظاهرًا - هو أصل الحاجات المعتريَة للإنسان مِن ألم جوع وشهوة ورغبة وقَرَم؛ فهو تنبيهٌ على غيره، ومِن الأمر الجلِيِّ أنَّ الإله لا ينبغي أن يَدْنُوَ إلى جنابه عَجْزٌ أصلًا[3].

وقد ذكر الله تعالى في هذه الآية الكريمة أنَّ عيسى وأمَّه كانا يأكلان الطَّعام، وذكر في مواضع أُخْرَى أنَّ جميع الرُّسل كانوا كذلك، كقوله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ﴾ [الفرقان: 20]، وقوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ﴾ [الأنبياء: 8]، وقوله: ﴿وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ﴾ [الفرقان: 7] الآية[4]، وفي كلِّ هذا بيانٌ لبشريَّة الرُّسل الكرام عليهم أفضل الصَّلاة والسَّلام.

(1) الرَّازي، مفاتيح الغيب 1212/409، وابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/118 - 119، والخازن، لباب التأويل 2/66.
(2) الزَّمخشريُّ، الكشَّاف: 1/665، وأبو حيَّان، البحر المحيط: 4/333.
(3) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 6/255.
(4) الشنقيطيُّ، أضواء البيان: 1/419.

نُكتة تقديم صفات الكمال لعيسى وأمِّه - عليهما السلام - على قوله: ﴿كَانَا يَأۡكُلَانِ ٱلطَّعَامَۗ﴾:

في تقديم ما لهما من صفات الكمال الَّتي بها صارا من زُمرة أكمل أفراد الجنس، وتأخير ما لِأفراد جنسهما من نقائص البشريَّة في الوصف المشترك بينهما وبَيْنَ جميع أفرادِ البَشر، بل أفراد الحيوان: استنزَالُهم بطريق التَّدريج عن رتبة الإصرارِ على ما تقوَّلوا عليهما، وإرشادًا لهم إلى التَّوبة والاستغفار[1].

استنزال المُخاطَبين بطريق التَّدرُّج من الأعلى إلى الأدنى تنبيهًا وإرشادًا إلى التَّوبة والاستغفار

ونظيرُ هذا قولُه تعالى: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمۡ﴾ [التَّوبة: 43] حَيْثُ قدَّم سُبحانه العفوَ على المُعاتبة له ﷺ لئلَّا تُوحِشَهُ مفاجأتُه بذلك[2].

دلالة الأمر بالنَّظر في مقام العلم في قوله تعالى: ﴿ٱنظُرۡ كَيۡفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ﴾:

قوله تعالى: ﴿ٱنظُرۡ كَيۡفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ﴾ أي: الدَّلالات، وفيه تعجيبٌ من حال هؤلاء الَّذين يجعلون تلك الأوصافَ مُستلزمةً للإلهيَّة، ويَغْفَلُون عن كونها موجودةً في من لا يقولون بأنَّه إلهٌ[3].

تشبيه العالِم بالرَّائي، والعلمِ بالرُّؤية في الوضوح والجلاء؛ تَعجيبًا من حالهم

واستُعمل الأمر بالنَّظر في الأمر بالعِلم لتشبيه العالم بالرَّائي، والعلمِ بالرُّؤية في الوضوح والجلاء، وقد أفاد ذلك معنى التَّعجيب[4].

سِرُّ تعليق الاستفهام للأمر السَّابق بـ ﴿كَيۡفَ﴾:

﴿كَيۡفَ﴾ اسم استفهام مُعَلِّق لفعل ﴿ٱنظُرۡ﴾ عنِ العمَلِ في مَفعولين، وهي موضع المفعول به لِـ ﴿ٱنظُرۡ﴾، والمعنى: انظر جوابَ هذا الاستفهام، وأُريد مع الاستفهام التَّعجيبُ كنَايَةً، أي: انظرْ ذلكَ تَجِدْ جوابَك أنَّه بيانٌ عظيمُ الجلَاء، يَتعجَّبُ النَّاظر مِن وضوحه[5].

تأكيد التَّعجيب المُستفاد من الأمر بالنَّظر

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 3/67، والآلوسي، روح المعاني: 3/373.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 3/373.
(3) الشوكاني، فتح القدير: 2/74، والآلوسي، روح المعاني: 3/373.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 3/373.
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 6/287.

دلالة عدم تَعيين المُخاطَب بقوله تعالى: ﴿ٱنظُرۡ كَيۡفَ﴾:

قصـــد إرادةِ العُموم

الخطاب في قوله: ﴿ٱنظُرۡ كَيۡفَ﴾ مُرادٌ به غيرُ معيَّن، وهو كلُّ مَن سَمِع الحجج السَّابقة، ويجوز أن يكون الخطاب للرَّسول ﷺ والمرادُ: هو وأهل القرآن، فالخطاب: إمَّا لسيِّدِ المُخاطبين - ﷺ - أو لكلِّ مَن له أهليَّة ذلك[1]، فخُروج الخِطاب عن ظاهره في إرادة المُعَيَّن؛ يُقصد به: إرادة العموم.

دلالة العطف بِـ﴿ثُمَّ﴾ في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱنظُرۡ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ﴾:

إفـادة التَّرتيب الـرُّتـبـي بين الـعَـجَـبَـيْنِ والتَّفاوُت بَيْنَهما

دخلت ﴿ثُمَّ﴾ لتَّراخي ما بَيْنَ العَجبَيْنِ، وكأنَّه يقتضي العجب من توضيح الآيات وتَبْيِينها، أي: إنَّ بيانَنا للآيات أمرٌ بديع في بابه، بالغٌ لأقاصي الغايات القاصيةِ من التَّحقيق والإيضاح، ثمَّ يُنظر في حال من بُيِّنَتْ له، فيرى إعراضهم عنها أعجب وأبدع من توضيحها؛ لأنَّه يلزم من تَبْيينها تَبَيُّنُها لهم والرُّجوعُ إليها، فكونُهم أُفِكُوا عنها أعجَبُ، فمجيء ﴿ثُمَّ﴾ هُنا لإظهار ما بين العجَبَيْنِ مِنَ التَّفاوت[2]، فهي للتَّرتيب الرُّتبي؛ لأنَّ التَّأمُّل في بيان الآيات يَقْتَضِي الانتقالَ مِن العَجَبِ من وضوح البيان إلى أعجَبَ منه، وهو انْصِرَافُهم عن الحقِّ مع وضُوحِه[3].

ويجوز أن تكون ﴿ثُمَّ﴾ على حقيقَتِها، والمُراد مِنْهَا: بيانُ استمرارِ زمَانِ بيَانِ الآيات وامتداده، أي: إنَّهم مع طول زمان ذلك لا يتأثَّرون، ويُؤْفَكُونَ[4].

سِرُّ تَكرار الأمر بالنَّظر في قوله تعالى: ﴿ٱنظُرۡ كَيۡفَ نُبَيِّنُ﴾ و﴿ثُمَّ ٱنظُرۡ أَنَّىٰ﴾:

كرَّر الأمرَ بالنَّظر في قوله: ﴿ثُمَّ ٱنظُرۡ أَنَّىٰ﴾؛ لاختلاف المُتَعَلَّق، لأنَّ الأوَّل: أَمْرٌ بالنَّظر في كونه تعالى أوضحَ لهم الآياتِ، وبيَّنها، بحيث

(1) الآلوسي، روح المعاني: 3/374، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 6/287.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/68، وأبو حيَّان، البحر المحيط: 4/333.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 6/287.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 3/374.

لا يقع معها لَبْسٌ، والأمر الآخَرُ: هو بالنَّظر في كونهم يُصرَفون عنِ استماع الحقِّ وتأمُّله، أو في كونهم يَقْلِبُون ما بُيِّنَ لهم إلى الضِّدِّ منه، وهذان أَمْرَا تعجيبٍ[1].

المبالغة في التَّعجيب مع الاهتمام بالنَّظر والتَّدبُّر

وللدَّلالةِ على الاهتمامِ بالنَّظر والتَّدبُّر، وإنِ اختلفتِ النَّظرتانِ؛ فالأُولى متعلِّقة بكيفيَّةِ إيضاحِ اللهِ لخَلْقِه الآياتِ، والأُخرَى متعلِّقةٌ بانصرافِهم عنها، وصُدوفِهم عن التَّأمُّلِ في مَرَامِيهَا وأهدافِها؛ إذْ تكريرُ الأمرِ بالنَّظرِ للمبالغةِ في التَّعجُّب[2].

دلالةُ الاستفهام بِـ(أنَّى) في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱنظُرۡ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ﴾:

التَّفنُّن والتَّنويع في الاستفهام مُبالغةٌ في التَّعجيب

(أنَّى): اسمُ استفهام يُستعمل بمعنى: (مِن أين)، ويُستعمل بمعنى: (كيف)، وهو هُنا يجوز أن يكون بمعنى: (كيفَ)[3]، وعليه فإنَّما عدل عن إعادة ﴿كَيۡفَ﴾ تفنُّنًا، ويجوز أن تكون بمعنى: (مِن أين)، والمعنى: التَّعجيب من أين يتطرَّق إليهم الصَّرف عن الاعتقاد الحقِّ بعد ذلك البيانِ البالغِ غايَةَ الوضوحِ حتَّى كان بمحلِّ التَّعجيب من وُضوحه[4].

سِرُّ حَذْفِ مُتَعَلَّقِ ﴿يُؤۡفَكُونَ﴾:

ظهور إفكهم وصرفهم عن الحقِّ بعد ظُهوره ووُضوحه

يُصرفون عن الحقِّ، والمُراد بِصرفهم عنه، قول بعضهم: إنَّ اللهَ هو المسيح ابن مريم، وقول بعضهم: إنَّ اللهَ ثالثُ ثلاثة، ﷻ عن ذلك علوًّا كبيرًا، وعلى مَن يقول ذلك لعائنُ اللهِ إلى يوم القيامة، فَإِنَّهم يقولون هذا الأمر الذي لم يَقُل أحد: أشنَعَ مِنْهُ ولا أعظم، مع ظُهور أدلَّة التَّوحيد المُبَيِّنة له، ولذا قال تعالى: ﴿ٱنظُرۡ كَيۡفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرۡ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ﴾ على سبيل التَّعجب من أمرهم، كيف يُؤفكون إلى هذا الكفر مع وُضوح أدِلَّة التَّوحيد[5]؟ فَحُذِفَ مُتعلَّق

(1) أبو حيَّان، البحر المحيط: 4/333.
(2) الآلوسي، روح المعاني 3/374، ودرويش، إعراب القرآن وبيانه: 2/535.
(3) الزَّمخشريُّ، الكشَّاف: 1/665.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 6/287.
(5) الشنقيطيُّ، أضواء البيان: 1/419.

﴿يُؤۡفَكُونَ﴾ اختصارًا؛ لظهور أنَّهم يُصرفون عن الحقِّ الَّذي بيَّنته لهم الآيَات[1].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الإفك والكذب:

الكذبُ: كلُّ خبرٍ مَخْبَرُه على خلاف مَا أخبرهُ[2]، وهو خلاف الصِّدق، والإفك: هو الكذب الفاحشُ القُبْحِ، مثلُ: الكذب على اللّٰهِ ورسولِه ﷺ أو على القرآنِ، ومثل: قذف المحصنة وغير ذلك ممَّا يفحش قبحُه، وجاء في القرآن على هذا الوجه، كما قال اللّٰه تعالى ﴿وَيۡلٞ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٖ ۝٧﴾ [الجاثية: 7]، وقال تعالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلۡإِفۡكِ عُصۡبَةٞ مِّنكُمۡۚ﴾ [النُّور: 11]، ويُقال للرَّجل - إذا أخبر عن كون زيدٍ في الدَّار، والحالُ أنَّ زيدًا في السُّوق - : إنَّه كذب، ولا يُقال: إفكٌ، حتَّى يكذب كِذبة يَفْحُش قُبْحُها، وأصله في العربيَّة: الصَّرف، وفي القرآن: ﴿أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ﴾ أي: يُصْرَفون عن الحقِّ، وتُسمَّى الرِّياح المؤتفكات؛ لأنَّها تَقْلِبُ الأرضَ، فَتَصْرِفُها عمَّا عُهِدَتْ عليه، وسُمِّيت ديارُ قوم لوطٍ: المُؤتفكاتِ؛ لأنَّها قُلِبتَ بهم، وصُرِفت عالِيَها سافلَها، فائتُفكت، فهي مُؤْتَفِكَةٌ[3].

الـكـذب: إخبار بخلاف الواقع، والإفـك: أَشَـدُّ الكذب وأقبحه

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 6/287.

(2) الكفوي، الكليات، ص: 742.

(3) ابن عطيَّة، المحرّر الوجيز: 5/358، والعسكري، الفروق اللُّغويَّة ص: 450 - 451.

﴿قُلۡ أَتَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمۡلِكُ لَكُمۡ ضَرّٗا وَلَا نَفۡعٗاۚ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ٧٦﴾ [المائدة: 76]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

نفي الألوهيَّة عن المسيحِ وأمِّه في الصِّفات بعد نفي صلاحيَّتها في الذَّات

لمَّا نفى الله ﷻ عن المسيح وأمِّه الصَّلاحيَّة لرُتبة الإلهيَّة للذَّات، أتبعها نفيَ ذلك من حيث الصِّفات، فقال مُنكرًا مُصرِّحًا بالإعراض عنهم؛ إشارة إلى أنَّهم لَيْسُوا أهلًا للإقبال عليهم: ﴿قُلۡ أَتَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾[1].

كما أنَّه تعالى لمَّا بَيَّنَ بدليل النَّقل والعقل انتفاء الإلهيَّة عن عِيسَى، وكان قد تَوعَّد النَّصارى، ثُمَّ استدعاهم للتَّوبة وطلب الغُفران؛ أنكر عليهم، ووبَّخهم من وجهٍ آخَرَ، وهو عَجْزُ المسيح وأمِّه، وعدمُ اقتدارهما على دفعِ ضَرَرٍ وجلْبِ نفعٍ، وأنَّ مَن كان لا يدفع عن نفسه حريٌّ ألَّا يَدْفَعَ عَنْكُم[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ضَرّٗا﴾: نقصًا وسُوءَ حالٍ، والضَّرُّ: ضدُّ النَّفع، يُقال: ضرَّه يَضُرُّه ضرًّا وضررًا، والضَّرُّ: سُوءُ الحالِ: إمَّا في النَّفس؛ لقلَّة العلم والفضل والعفَّة، وإمَّا في البدن؛ لفقدان جارحة، وإمَّا في حالةٍ ظاهرةٍ؛ من قلَّة مالٍ وجاه، وأصل (الضَّرِّ): يدلُّ على خِلَافِ النَّفْعِ، والضَّرَرُ: النُّقصانُ يَدْخُلُ في الشَّيْءِ، يُقال: ضرَّ الرَّجلُ أخاه يضرُّه؛ إذا نقصه شيئًا من حقِّه[3].

(1) البِقاعيُّ، نظم الدُّرر: 6/256.
(2) أبو حيَّان، البحر المحيط: 4/334.
(3) ابن الأثير، النِّهاية، والرَّاغب، المفردات، والسَّمين، عمدة الحُفَّاظ، والزَّبيدي، تاج العروس: (ضرر)، وابن فارس، مقاييس اللُّغة: (ضرّ).

2) ﴿نَفۡعٗاۚ﴾: النَّفع ما يُستعان به في الوصول إلى الخيرات، يُقال: نفعَهُ ينفعُه نَفْعًا، ونَفَعْتُهُ بكذا، فانْتَفَعَ به، وأصل (نفع) يدُلُّ عَلَى خِلَافِ الضَّرِّ، وكلُّ ما يُتَوَصَّل به إلى الخير؛ فَهُوَ نَفْعٌ[1].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

الاحتجاج على من يعبد غير اللهِ تعالَى بضعف معبوده وعَجْزِه عن دفع الضَّرِّ وجلب النَّفع

قل - أيُّها الرَّسول ﷺ - مُحتجًّا عليهم في عبادتهم لغير الله تعالَى: كيف تعبدون إلَهًا يعجز عن أن يَضُرَّكم بشيء؛ إن تركتُم عبادته، ويعجز عن جَلْبِ نفع لكم؛ إن عَبَدْتُموه؟ فهو عاجزٌ، والله سبحانه مُنَزَّهٌ عن العجز، والله تعالى هو وَحْدَهُ السَّميع لأقوالكم، فلا يفوتُه مِنْهَا شيءٌ، العليمُ بأفعالِكُم، فلا يخفى عليه مِنْهَا شيءٌ، وسَيُجَازِيكُم عَلَيْهَا[2].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالةُ الأمرِ والخِطَابِ في قوله: ﴿قُلۡ أَتَعۡبُدُونَ﴾:

قصد إرادةِ العُموم لكلِّ مُحاجِ بإلزامِ كلِّ من عَبَد غيرَ اللهِ تعالى وتبكيتِهِ

لَمَّا كان الكلام في الآية السَّابقة جاريًا على طريقة خطاب غير المعيَّن؛ كانت جُملة: ﴿قُلۡ أَتَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ مستأنفةً؛ أمرَ الله تعالى فيها رسُولَهُ الكريم ﷺ بأن يُبَلِّغَهُم ما عُنوا به، بإلزامهم وتبكيتِهم إثْرَ تَعْجِيبِه[3]، فيكون الخطاب في قوله: ﴿أَتَعۡبُدُونَ﴾ خطابًا لجَمِيعِ من يَعْبُدُ شيئًا مِن دُونِ الله مِنَ المُشْرِكِينَ والنَّصارى[4]، ثُمَّ يتناولُ الأمرُ في ﴿قُلۡ﴾ بعدَ ذلكَ كلَّ مُحاجٍ لمن عبدَ غير الله تعالَى، فيخرج الأمر عن أصله في إرادة المعيَّن؛ قصدًا للعموم، فالأمر هُنا صالح لهذا وذاك.

(1) الجوهري، الصحاح، والرَّاغب، المفردات: (نفع)، والمناوي، التَّوقيف، ص: 328.
(2) لجنة من علماء الأزهر، المنتخب في تفسير القرآن الكريم، ص: 160، ونُخبة من أساتذة التَّفسير، التَّفسير المُيَسَّر، ص: 120، وجماعة من علماء التَّفسير، المُختصر في تفسير القرآن الكريم، ص: 120.
(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السليم: 3/68، والقنوجي، فتح البيان: 4/29.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 6/288.

دلالة الاستفهام في قوله: ﴿أَتَعْبُدُونَ﴾:

الإنكار على مَن عَبَدَ غيرَ الله وتوبيخُه على سُوء فِعْلِه

الهمزةُ في قولِه تعالى: ﴿أَتَعْبُدُونَ﴾ جاءت للإنكار مع التَّوبيخ[1]، فالاستفهام هُنا إنكاريٌّ لإنكار ما هُمْ فيه مِن واقع، والتَّعجُّب مِن ذلكَ، وتوبيخُهم على سوء الفعلِ وسوء التَّقدير، فهم يَعْبُدُون بشرًا أو حجرًا، ويتركون عبادة الله تعالى[2]، فهو استفهامٌ غرضُه التَّوبيخُ والإنكارُ[3].

دلالة حرف الجَرِّ ﴿مِن﴾ ودخوله علَى ﴿دُونِ﴾ في قوله: ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾:

شمولُ الخطابِ للمشركين والنَّصارى على حدٍّ سواء، وتأكيدُ شِرْكِهم

معنى ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾: مِنْ غيرِ الله، و﴿مِن﴾ للتَّوكيد، و﴿دُونِ﴾ اسمٌ للمُغايِر، فهو مرادف لِـ (سِوَى)، أي: أتعبدون معبودًا هو غيرُ الله، والمعنَى: أتشركون مع الله غيرَه في الإلهيَّة، وليس المعنى: أتعبدون معبودًا، وتتركون عبادة الله، فالمخاطبون كلُّهم كانوا يَعبدون الله، ويُشْرِكُون معه غيرَهُ في العبادة، حتَّى الذين قالوا: إنَّ الله هو المسيح ابن مريم؛ فَهُمْ ما عَبَدُوا المسيح إلَّا لزعمهم أنَّ الله حلَّ فيه، فقد عبدوا الله فيه، تعالى الله عَن ذلك علُوًّا كبيرًا، فَشَمِلَ هذا الخطابُ المشركين - مِنَ العرب - ونصارى العربِ كلَّهُم[4].

سِرُّ تقديمِ قولِه تعالى: ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ على قولِه: ﴿مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًاۚ﴾:

الاهتمام بالمقدَّم والتَّشويق إلى المؤخَّر

قوله تعالى: ﴿أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي: مُتجاوزين إيَّاه، وتقديمُه عَلى قولِه تعالَى: ﴿مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًاۚ﴾ للاهتمام بالمقدَّم والتَّشويق إلى المؤخَّر[5]؛ لأنَّ تعليقَ القلوب بدون الرَّبِّ في استدفاع الشَّرِّ واستجلاب الخير تمحيقٌ للوقت

(1) الصَّاوي، حاشية الصَّاوي على الجلالين: 1/478.
(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 5/2314.
(3) أبو حيَّان، البحر المحيط: 4/334.
(4) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/119، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 6/288.
(5) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 3/68.

فيما لا يُجْدِي، وإذهابٌ للعمر فيما لا يُغْني؛ إذ المتفرِّدُ بالإيجاد بريءٌ عَنِ الأنداد[1].

نكتة التَّعبير بالاسم الموصول لما لا يعقل ﴿مَا﴾ في قوله: ﴿مَا لَا يَمۡلِكُ﴾:

الإشـــارة إلى عموم المعبودات من دون الله، وكـــثرة مـــن لا يعقل منها

عبَّر عمَّا عبدوه بأداة ما لا يعقل ﴿مَا﴾؛ تنبيهًا على أوَّل أحواله؛ إذ مَرَّت عليه أزمان حالِ الحَمْلِ لا يُوصَفُ بالعقل فيها، فأوَّل أمره وأطواره توطئةٌ لِنَفْيِ القُدرة عنه رأسًا، وتنبيهًا على أنَّه مِن هذا الجنس، ومَن كان بينَه وبينَ غيره مشاركةٌ وجنْسِيَّة؛ كيف يكون إلهًا، أو لأنَّ ﴿مَا﴾ مبهمة؛ إذ تقع على كُلِّ شيء، أو أُرِيدَ به ما عُبِد من دون الله مِمَّن يعقل، وما لا يعقل، وعُبِّر بـ (ما) تغليبًا لغير العاقل، فغُلِّب ما لا يعقل على مَن يعقل تَحْقِيرًا؛ إذْ أكثَرُ مَا عُبِدَ مِن دون الله هو ما لا يعقل، كالأصنام والأوثان، أو أُرِيدَ النَّوع، أي: النَّوع الذي لا يَمْلِكُ لكم ضَرًّا ولا نفعًا، كما في قوله تعالى: ﴿فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ [النِّساء: 3][2].

فـ ﴿مَا﴾ هنا للعموم، وهي بهذا العموم تَشْتَمِلُ على ما يُعْبَدُ مِن حَجَرٍ وغيره، ولعدَم اقْتِصَارِهِ على عيسى وأمِّه؛ ذُكِرَ بِلَفْظِ ﴿مَا﴾ الدَّالِّ على العموم، لَا بلفظ (مَن) الدَّالِّ على خصوصِ العقلاء[3].

بلاغة المجاز المُرسل في التَّعبير عن الاستطاعة القويَّة بالمِلْكِ في قوله تعالى: ﴿لَا يَمۡلِكُ لَكُمۡ ضَرّٗا﴾:

بيان أنَّ المعبود الَّـذي يستحقُّ الـعـبـادةَ مَـن يكون لَهُ التَّمكُّن مِـنَ الـتَّـصـرُّف دُونَ مُعارضٍ أو عجز

معنى ﴿لَا يَمۡلِكُ لَكُمۡ ضَرّٗا﴾: لا يقدِرُ عليه، وحقيقةُ معنى المِلْكِ: التَّمكُّن من التَّصرُّف دُونَ مُعارض، ثُمَّ أُطلِق على استطاعة التَّصرُّف في الأشياء دون عَجْزٍ، ومِن هذا الاستعمال نَشَأَ إطلاقُ المِلْكِ بمعنى: الاستطاعة القويَّة الثَّابتة على سبيل المجاز المرسل، كما وقع في هذه

(1) القشيريُّ، لطائف الإشارات: 1/441.
(2) أبو حيَّان، البحر المحيط: 4/334، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 3/68.
(3) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير 5/2314.

الآية ونظائرها، كقوله تعالى: ﴿وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ۝٣﴾ [الفرقان: 3]، وقوله: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ [يونس: 49]، وقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا﴾ [العنكبوت: 17]، فقد تعلَّق فعلُ المِلْكِ فيهَا بمَعَانٍ لا بأشياءَ وذواتٍ، وذلك لا يكون إلَّا على جعل المِلْكِ بمعنى: الاستطاعة القويَّة[1].

سِرُّ تنكير ﴿ضَرًّا﴾ و﴿نَفْعًا﴾ في قوله: ﴿مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾:

قوله تعالى: ﴿ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ إثباتٌ وإظهارٌ لتمام العجز وعدم الاقتدار على دفْع أيِّ ضررٍ، وجَلْب أيِّ نفعٍ، وأنَّ مَن كان لا يدفَعُ عن نفْسِه؛ حريٌّ ألَّا يدفعَ عنكم، وفيهِ توبيخٌ آخَرُ لِمَنْ عبدَ غير الله تعالَى[2].

إثبات عجز المعبودات الباطلة عن دفع أيِّ ضرٍّ وجَلْبِ أيِّ نفع، صغيرًا كان ذلكَ أو كبيرًا

نُكتة تقديم الضَّرِّ على النَّفع:

في تقديم الضَّرِّ على النَّفع جَريٌ معَ طبيعة الإنسان، وهُوَ يَلْتَقِي مع مطالبِهِ؛ إذْ دفع الضَّرِّ مقدَّم عند الكائن الحيِّ على جلب النَّفع؛ لأنَّ التَّحرُّز عنه أهمُّ من تحرِّي النَّفع[3]؛ وذلك أنَّ الكائن الحيَّ يطلب السَّلامة لنفسه أوَّلًا، كي يَضْمَنَ وجودَه وبقاءه، ولا بقاء لحيٍّ مع وجود الخطَرِ الَّذي يُهدِّدُ حياتَه، فإذا تمكَّن الكائن الحيُّ من استخلاص نفسه من بين الأخطار التي تَتَرَصَّده، وتُريد القضاءَ عليه؛ كان له بعد ذلك أن يَطْلُب ما ينفع في إمساك حياته، واستمرار وجوده، ممَّا يتَّصل بمعاشه مِن طعام ولباس وسكن، وغير هذا[4]، فهذا التَّقديم من بابِ تقديمِ الأهمِّ[5]، وقد كانَ أَعْظَمُ مَا يَدْفَعُهُمْ

تقديم الأهمِّ حفظٌ للنَّفس وطلبٌ لسلامتها

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 6/288.
(2) أبو حيَّان، البحر المحيط: 4/334.
(3) البيضاويُّ، أنوار التَّنزيل: 2/354.
(4) الخطيب، التَّفسير القرآني للقرآن: 3/1152.
(5) البيضاويُّ، أنوار التَّنزيل: 2/138، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم 3/68.

إِلَى عِبَادَةِ الأَصْنَامِ أن يستدفعوا بِها الأَضْرارَ بِالنَّصر على الأعداء، وبتجنُّبهَا إلحاق الإِضْرار بعابديها[1].

توجيه المُتشابه اللَّفظيِّ في ذِكْرِ النَّفع والضَّرِّ وتقديمِ أَحَدِهِما على الآخر:

تقديم الضَّرِّ عند ذكر القُدرة؛ لأنَّه مرهوب، وتقديم النَّفع عند السُّؤال؛ لأنَّه مرغوب

قَدَّم الضَّرَّ على النَّفع هُنا؛ لأنَّ دفع الضَّرِّ أهمُّ من جلب النَّفع - وإن كانا مقصودين - ولأنَّه يتضمَّنه أيضًا، ولتَقدُّم ذِكر المُلْك والقُدرة؛ فإذا تقدَّم سياق المُلك والقدرة، كان ذِكْرُ دَفْعِ الضُّرِّ أهَمَّ، وأكثر مَا جَاءَ فِي الْقُرْآن من لَفْظِي الضَّرِّ والنَّفع مَعًا؛ جَاءَ بِتَقْدِيم لفظ الضَّرِّ على النَّفْع؛ لِأَنَّ العابد يعبُد معبودَهُ خوفًا من عِقَابه أَوَّلًا، ثمَّ طَمَعًا في ثَوَابه ثَانِيًا، وإذا كان السِّياقُ في الدُّعاء والعبادة والسُّؤال؛ كان ذِكْرُ النَّفع أَوْلَى وأهمَّ؛ لأنَّه المقصودُ غالبًا بالسُّؤال[2]، كما أنَّ تَقَدُّم النَّفْع على الضَّرِّ لتقدُّم سابقةِ لفظٍ تضمَّن نفعًا، وَذَلِكَ فِي ثَمَانِية مَوَاضِع؛ ثَلَاثة مِنْهَا بِلَفْظ الاسْم، وَهِي في الأعراف والرَّعد وسبأ، وَخَمْسة بِلَفْظ الْفِعْل، وَهِي فِي الْأَنْعَام ويُونُس والْأَنْبِيَاء وَالْفرْقَان وَالشُّعَرَاء[3].

براعة أسلوب البحث في قوله: ﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًاۚ﴾:

بيان ضعف المسيح عليه السلام وحاجته لربِّه نافيًا لصحّة ألوهيّته

في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًاۚ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ دليلٌ آخر على فساد قول النَّصارى، وهو يَحْتَمِلُ أنواعًا من الحُجَّة، منها:

أوَّلًا: أنَّ اليهود كانوا يُعادونه، ويقصدونه بالسُّوء، فما قَدرَ على الإضرار بِهِم، وكان أنصارُه وصحابتُه يحبُّونه؛ فما قدر على إيصال نفع من منافع الدُّنيا إليهم، والعاجز عنِ الإضرار والنَّفع، كيف يُعْقَل أن يكون إلهًا[4]؟

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 6/288.
(2) الحمويُّ، كشف المعاني، ص: 151.
(3) الكرماني، البرهان في توجيه متشابه القرآن، ص: 130.
(4) المراغي، تفسير المراغي: 6/169.

ثانيًا: أنَّ مذهب النَّصارى أنَّ اليهود صلبُوهُ، ومزَّقوا أضلاعه، ولمَّا عَطِشَ، وطلب الماء منهم؛ صبُّوا الخلَّ في مِنْخَرَيْهِ، ومن كان في الضَّعف هكذا؛ كيف يُعقل أن يكون إلهًا[1]؟

ثالثًا: أنَّ إله العالم يجب أن يكون غنيًّا عن كلِّ ما سواه، ويكون كلُّ ما سواه محتاجًا إليه، فلو كان عيسى كذلك؛ لامتنع كونُه مشغولًا بعبادة الله تعالى؛ لأنَّ الإله لا يَعْبُدُ شيئًا، إنَّما العبد هو الذي يعبدُ الإله، ولمَّا عُرِف بالتَّواتر كونُه كان مواظبًا على الطَّاعات والعبادات؛ عَلِمْنَا أنَّه إنَّما كان يَفْعَلُها؛ لكونِه محتاجًا في تحصيل المنافع ودفع المضارِّ إلى غيره، ومَن كان كذلك؛ كيف يَقْدِرُ على إيصال المنافع إلى العباد ودفع المضارِّ عنهم؟ وإذا كان كذلك؛ كان عبدًا كسائر العبيد، وهذا هو عين الدَّليل الذي حكاه الله تعالى عن إبراهيم عليه السلام حيث قال لأبيه: ﴿لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾﴾ [مريم: 42][2].

بلاغة القصر بتعريف الجُزأين مع تأكيده بضمير الفَصل والحال في قوله: ﴿وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾:

تحقيق إبطال عبادة النَّصارى لعيسى عليه السلام ومريم وتأكيد بطلانها من جميع الوجوه

جملة: ﴿وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ في موضع الحال، قُصِرَ - بواسطة تعريف الجزأين وضمير الفصل - سببُ النَّجدة والإغاثة في حالَي السُّؤال وظهور الحالة على اللهِ تعالى قصرَ ادِّعاءٍ بمعنى: الكمال، أي: ولا يسمَعُ كُلَّ دعاء، ويعلَمُ كلَّ احتياج إلَّا الله تعالى، أيْ: لا عِيسَى ولا غيرَهُ ممَّا عُبِدَ مِن دُون الله، فالواو في قوله: ﴿وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ واو الحال، وفيه تأكيدٌ للإنكار والتَّوبيخ، وتقريرٌ للإلزام والتَّبكيت، والرَّابط هو الواو، أي: تُشركون بالله تعالى ما لا يَقدِرُ على شيءٍ مِن ضرِّكم ونَفْعِكم، والحالُ أنَّ الله تعالى

(1) النَّيسابوريُّ، غرائب القرآن: 2/624.
(2) الرَّازي، مفاتيح الغيب: 12/410، وابن عادل، اللُّباب في علوم الكتاب: 7/464.

هو المختصُّ بالإحاطةِ التَّامَّة بجميعِ المسموعاتِ والمعلوماتِ التي مِن جُملتها: ما أنتُم عليه من الأقوالِ الباطِلَة، والعقائدِ الزَّائغَةِ، والأعمالِ السَّيِّئة، وبالقُدرة الباهِرة على جميعِ المقدوراتِ التي مِن جُملتها: مضارُّكم ومنافعُكم في الدُّنيا والآخرة[1]، وإدخال ﴿هُوَ﴾ في قوله: ﴿وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ يَقْتَضِي أنَّ هذا الحكمَ خاصٌّ له، لا يُشَارِكُه فيه غيرُه، فصارَ مُقْتَضَى الكلام: أنَّه يَمْلِكُ النَّفع والضَّرَّ، وأنَّه يُجازي كلَّ أحدٍ باستحقاقه[2]، وفي موقع هذه الجملة تحقيقٌ لإبطال عبادتهم عيسَى ومريمَ مِن ثلاثة طرُقٍ: طريق القصْرِ، وطريق ضميرِ الفَصْلِ، وطريق جملة الحالِ باعتبار ما تُفيده مِن مَفْهُوم مُخالفَةٍ[3].

نكتة اقتران السَّمع بالعلم دون السَّمع والبصر في جملةِ التَّذييلِ:

التَّهديد والوعيد بالحساب على الأقوال والنِّيَّات، والتَّنبيه على قصور سمع وعلم ما سوى الله تعالى

لَمَّا كَانَ إِشْرَاكُهُمْ بِاللّٰه تَضَمَّنَ الْقَوْلَ وَالاعْتِقَادَ؛ جَاءَ الْخَتْمُ بِقَوْلِهِ: ﴿وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾، أَيِ: السَّميع لأقوالكم، العليم باعتقادكم، وما انطوت عليه نيَّاتكم، وفي الإخبار عنه بهاتَيْنِ الصِّفتين تهديدٌ ووعيدٌ على ما يقولُونَهُ، ويعتقدونه، فاقتضى أنَّه يُجازي كلًّا بما يسمعه، ويعلمُه[4]، فالسَّمِيعُ هُنا: إشارة إلى تحصيل أقوالهم، والعليم بنيَّاتهم، وهاتان الصِّفتان منبِّهتان على قصور البَشَرِ، أي: واللّٰه تعالى هو السَّميع العليم بالإطلاق، لا عيسى ولا غيرُه، وهُم مُقِرُّون أنَّ عيسى قد كان مُدَّة حَمْلِهِ لا يَسْمَعُ ولا يعلم[5]، وَقد تضَّمن هذا التذييلُ الْإِنْكَارَ عليهم حيث عبدوا مِن دونه مَن هُوَ مُتَّصف بالعجز[6].

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم 3/68.
(2) الرَّاغب، تفسير الراغب: 5/413 - 414.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 6/289.
(4) الرَّاغب، تفسير الرَّاغب: 5/413 - 414.
(5) ابن عطيَّة، المحرر الوجيز: 2/223.
(6) أبو حيان، البحر المحيط: 4/334.

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الضَّرّ والضُّرّ والضَّرر:

الضَّرُّ والضُّرُّ: لُغَتَانِ، كالشُّهْد والشَّهْدِ، فَإِذا جمعت بَين الضَّرِّ والنَّفع فتحت الضَّاد، وَإِذا أفردتَ الضُّرَّ؛ ضَمَمْتَ الضَّاد؛ إِذا لم تَجْعَلهُ مصدرًا، كَقَوْلِك: ضَررتُ ضُرًّا، هَكَذَا يَسْتَعْمِلهُ الْعَرَب.

ويجوزُ أن يكونَ كُلُّ مَا كَانَ من سُوءِ حَال وفَقْرٍ أَو شِدَّةٍ فِي بَدَنٍ (ضُرًّا)، ومنه دعاء أيُّوب عليه السلام: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ﴾ [الأنبياء: 83]، وَمَا كَانَ ضِدَّ النَّفْع؛ يكونُ ﴿ضَرًّا﴾[1]، كقوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾ [الأعراف: 188].

والضَّرَرُ: الاسم، وهو النُّقصان يَدْخُلُ في الشَّيءِ، يُقال: دخل عليه ضَرَرٌ، كما قال تعالى: ﴿لَّا يَسْتَوِي ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ﴾ [النِّساء: 95] أي: الَّذين فيهم عِلَّة[2]، فالضُّرُّ: ما يحصل في البدن من سقم، والضِّرُّ: المصدر لِما يُقابل النَّفع، والضَّرَرُ: اسم.

الضُّرُّ: ما يحصل في البدن من سقم، والضِّرُّ: المصدر لما يُقابل النَّفع، والضَّرَرُ: اسم

الإِحْسان والنَّفع:

الإحسان: فعل ما ينبغي أن يُفْعَلَ مِنَ الخَيْر[3]، والنَّفعُ: ما يُتَوَصَّل به إلى الخير[4]، والفرق بينهما: أَنَّ النَّفْع قد يكون مِن غَيْرِ قَصْدٍ، وَالْإِحْسَان لَا يكون إِلَّا مَعَ الْقَصْد، تَقول: يَنْفَعنِي الْعَدُوُّ بِمَا فعله بِي؛ إِذا أَرَادَ ضَرًّا؛ فَوَقع نَفْعًا، وَلَا يُقَال: أحسن إِلَيَّ فِي ذَلِك[5].

الإحسان: إيصال الخير بقصد، والنَّفع: وصولُه مطلقًا، ولو بِغَيْرِ قصد

(1) الأزهري، تهذيب اللُّغة: (ضر)، والزبيدي، تاج العروس: (ضرر).
(2) تهذيب اللُّغة: (ضر).
(3) الجرجانيُّ، التَّعريفات، ص: 12.
(4) المناوي، التَّوقيف، ص: 328.
(5) العسكريُّ، الفروق اللُّغويَّة، ص: 193.

﴿قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٧٧﴾﴾ [المائدة: 77]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لمَّا ذكر اللّه تعالى أوَّلًا أباطيل النَّصارى، وأقام الدَّليل القاهر على بطلانها وفسادها؛ عند ذلك خاطبَ مجموع الفريقَيْنِ بهذا الخطاب، فقال: ﴿قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ﴾، والغلوُّ نقيضُ التَّقصير، ومعناه: الخروج عن الحدِّ؛ لأنَّ الحقَّ بين طرفي الإفراط والتَّفريط، ودين اللّه بين الغلوِّ والتَّقصير، فنُهِيَ أهل الكتاب عن الغُلوِّ في الدِّين غلوًّا غيرَ الحقِّ، أي: غلوًّا باطلًا؛ إذِ الغلوُّ في الدِّين نوعان: غلوٌّ حقٌّ: وهو أن يُبالغ في تقريره وتأكيده، وغلوٌّ باطلٌ: وهو أن يتكلَّف في تقرير الشُّبه وإخفاء الأدلَّةِ، وذلك الغلوُّ هو أنَّ اليهود - لعنهم اللّه - نسبُوا عيسى عليه السلام إلى الزِّنى، وإلى الكذِبِ، والنَّصارى ادَّعوا فيهِ الإلهيَّة[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تَغْلُوا۟﴾: فعل مضارع مجزوم بلا النَّاهية، وأصل مادَّته: (غلو/ي)، فالغَيْنُ وَاللَّامُ وَالحَرْفُ المُعْتَلُّ: أَصْلٌ صَحِيحٌ يَدُلُّ عَلَى ارْتِفَاعٍ وَمُجَاوَزَةِ قَدْرٍ، يُقَالُ: غَلَا السِّعْرُ يَغْلُو غَلَاءً، وَذَلِكَ ارْتِفَاعُهُ، وَغَلَا الرَّجُلُ فِي الْأَمْرِ غُلُوًّا؛ إِذَا جَاوَزَ حَدَّهُ، وَغَلَا بِسَهْمِهِ غَلْوًا؛ إِذَا رَمَى بِهِ سَهْمًا أَقْصَى غَايَتِهِ[2]، وغلا السِّعْر يغلُو غلاءً - بالمدِّ - وغلا النَّاسُ في الأمر، أَيْ: جَاوزوا حدَّه، كغلوِّ اليهودِ في دينها[3]، والغُلُوُّ: الِارْتفَاع فِي الشَّيْء ومجاوزة الحدِّ فِيهِ، وَمِنْه قَوْله جلَّ وعزَّ: ﴿لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ﴾، أَي: لَا تجاوزوا الْمِقْدَار[4]، وغلا في الدِّين غُلوًّا؛ إذا جاوزَ

(1) الرازي، مفاتيح الغيب: 12/53.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (غلوي).
(3) الخليل، العين: (غلو).
(4) ابن دريد، جمهرة اللغة: (غلو).

الحدَّ[1]، والغُلُوُّ في الدِّين - أيضًا - التَشَدُّد فيه، ومُجَاوَزَة الحَدِّ بالتَّنطُّع في البحث عن بواطن الأشياء، والكشف عن عِلَلها وغوامض مُتَعَبَّداتها[2]، وهو الوصف المناسب والملازم لِلْيَهود.

2) ﴿ٱلسَّبِيلِ﴾: الطَّريقُ، وجذره (سبل)، والسِّين والباء واللَّام أصلٌ واحد يدلُّ على: إرسالِ شيءٍ من عُلوٍّ إلى سُفل، وعلى امتداد شيء[3]، والسَّبيلُ: يذكَّرُ، ويؤنَّثُ[4]، والسَّبيلُ: الطَّريق الذي فيه سهولة، وجمعه: سبلٌ[5]، والسَّبيلُ: الطَّريقُ وما وضُحَ مِنْهُ، وسَبِيلُ اللّهِ: طريقُ الهدى الَّذي دعَا إليه[6]، وسبيلُ اللّه: كلُّ سَبِيل أُرِيدَ بِهِ اللّه - جلَّ وعزَّ - وَفِيه بِرٌّ[7]، والسَّبيل هنا: طريق الحقِّ[8]، وكلُّ تركيبٍ فيه: (ضَلَّ السَّبيل) أو (سَواءُ السَّبيلِ) أو (عنه) فيهما؛ فالمقصود: سَبِيل الرُّشد والإيمان، أي: هو ضدُّ الاهتداء[9].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

قُلْ - أيُّها الرَّسول ﷺ - للنَّصارى: لا تتجاوزوا الحدَّ فيما أمِرْتُمْ به من اتِّباع الحقِّ، ولا تبالغوا في تعظيم مَنْ أُمِرْتُمْ بتعظيمه، مثل: الأنبياء، فتعتقدوا فيهم الألوهيَّة، كما فعلتُمْ بعِيسَى ابن مريمَ، بسبب اقتدائكم بأسلافكم من أهل الضَّلال الَّذين أضلُّوا كثيرًا مِنَ النَّاس، وضلُّوا عن طريق الحقِّ[10].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

تَوْجِيهُ المُتَشَابِهِ اللَّفْظِيِّ:

بَيْنَ قَوْلِهِ: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُواْ فِي دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ﴾ **وَقَوْلِهِ:** ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُواْ فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ﴾:

قول اللّه ﷻ: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُواْ فِي دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ﴾: خاطب فيه أهلَ

(1) الأزهري، تهذيب اللغة: (غلا).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقي: (غلا).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سبل).
(4) الخليل، العين: (سبل).
(5) الراغب، المفردات: (سبل).
(6) ابن سيده، المحكم: (سبل).
(7) الأزهري، تهذيب اللغة: (سبل).
(8) الفيروزابادي، بصائر ذوي التمييز: 3/187.
(9) جبل، المعجم الاشتقاقي: (ضلل).
(10) جماعة من العلماء، المختصر في تفسير القرآن الكريم، ص: 120.

الكتاب بالنَّهي عن الغلوِّ في الدِّين، ولم يُخاطب أهل الشِّرك بذلك فيما خاطب بقوله: ﴿يَـٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَـٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ﴾؛ وذلك أنَّ أهل الكتاب ادَّعوا: أنَّهم على دين الأنبياء والرُّسل الذين كانوا من قبل، فنهاهم الله - ﷻ - عن الغلوِّ في الدِّين، والغلوُّ: هو المجاوزة في الحدِّ، والإفراط فيهِ والتَّعمُّق؛ فكأنَّه قال: لا تجاوزوا في الدِّين الحدَّ الذي حدَّ فيه بنسبة الألوهيَّة والرُّبوبيَّة إلى غير الله والعبادة له، وأمَّا أهل الشِّرك: فإنَّهم يعبدون ما يستحسنون، ويتركون ما يستقبحون، ليس لهم دين يدينون به، وأمَّا هَؤُلَاءِ: فإنَّهم يَدَّعُون أنَّهم على دين الأنبياء والرُّسل؛ لذلك خرج الخطابُ لَهُمْ بذلك[1].

مُـرَاعَـاةُ وَاقِـعِ أَهْلِ الْكِتَابِ فِي الْخِطَابِ:

دِلَالَةُ الْمَجَازِ الْمُرْسَلِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلۡ يَـٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَـٰبِ﴾:

ما تقدَّم من الآياتِ كان في خصوصِ النَّصارَى، ثُمَّ عُمِّمَ الخطابُ فِي قولِ اللهِ تعالى: ﴿قُلۡ يَـٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَـٰبِ﴾ لِفَرِيقَيْ أهل الكتاب بضَرْبٍ مِنْ ضروبِ الِالْتِفَاتِ على لسان النَّبيِّ ﷺ بعدَ إبطال مسلَك كُلٍّ مِنْهُمَا، لِلْمُبَالغة في زَجْرِهِم عمَّا سلكوه مِنَ المَسْلَكِ الباطلِ، وإرشادهم إلى الأمم المنشأة، ﴿لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ﴾، أي: لا تتجاوزوا الحدَّ، وهو نهي للنَّصارى عن رفع عيسى عن رتبة الرِّسالة إلى ما تقوَّلوا في حقِّه من القولَةِ العَظِيمة، ولليهود عن وضْعِهم له عليه السلام عن رتبته العليَّة إلى ما تقوَّلوا عليه من الكلمة الشَّنعاء.

النَّهْيُ عَنِ الْغُلُوِّ يَشْمَلُ الْغُلُوَّ إِفْرَاطًا وَالْغُلُوَّ تَفْرِيطًا

ويَحتمِلُ أن يكون الخطابُ خاصًّا بالنَّصارى، كما في سورة النِّساء، فذكَّرَهم اللهُ تعالَى بعنوان أهليَّة الكتاب؛ لتَذْكِيرِهم أنَّ الإنجيل - أيضًا- ينهاهم عن الغلوِّ[2]، فيكون في قوله: ﴿يَـٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَـٰبِ﴾ مجازٌ مرسلٌ، علاقته العموميَّةُ؛ إذْ أُطْلِقَ العامُّ وأُرِيدَ به

(1) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 3/569.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/68 - 69.

الخاصُّ، وذلك أنَّ ﴿يَٰٓأَهۡلَ﴾ مفردٌ مضافٌ فيعمُّ، والمرادُ: خصوصُ النَّصارَى بقرينَةِ السِّبَاقِ.

تَعَدُّدُ الْمَعَانِي بِاخْتِلَافِ تَعْيِينِ وَجْهِ النَّصْبِ فِي ﴿غَيۡرَ﴾ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ﴾:

فِي انْتِصَابِ ﴿غَيۡرَ﴾ من قولِه تعالى: ﴿غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ﴾ وجهانِ:

أحدُهُما: أنَّ انتصابَهُ على الحال والقطعِ مِن الدِّين، كأنَّه قال: لا تغلوا في دينكم مخالفًا للحقِّ؛ لأنَّهم خالفوا الحقَّ في دينهم، ثُمَّ غَلَوْا فيه بالإصرار عليه.

إِذَا أُرِيدَ بِالْغُلُوِّ فِي الْحَقِّ الثَّبَاتُ عَلَيْهِ وَلُزُومُهُ فَهُوَ مَحْمُودٌ

والآخَرُ: أن يكون منصوبًا على الاستثناء، بمعنى: لا تغلوا في دينكم إلَّا الحقَّ، فيكون الحقُّ مستثنى من المنهيِّ عن الغلوِّ فيه؛ بِأَنْ يَجُوز الغلوُّ فيما هو حقٌّ، على معنى: اتِّباعه والثَّبات عليه[1].

وثَمَّ وجه ثالث في إعراب ﴿غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ﴾، وهو أن يكون منصوبًا بإضمار: ﴿وَلَا تَقُولُواْ﴾، كقوله: ﴿وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ﴾ [النساء: 171][2].

وفي انْتِصَابِ ﴿غَيۡرَ﴾ وجهٌ رابع: حكاه أبو حيَّان؛ إذ قال: "وَانْتِصَابُ ﴿غَيۡرَ﴾ هُنَا عَلَى الصِّفَةِ، أَيْ: غُلُوًّا غَيْرَ الْحَقِّ، وَأَبْعَدَ مَنْ ذَهَبَ إِلَى أَنَّهَا اسْتِثْنَاءٌ مُتَّصِلٌ، وَمَنْ ذَهَبَ إِلَى أَنَّهَا اسْتِثْنَاءٌ، وَيُقَدِّرُهُ: لَكِنَّ الْحَقَّ، فَاتَّبِعُوهُ"[3].

بَلَاغَةُ الِاحْتِرَاسِ فِي تَقْيِيدِ ﴿لَا تَغۡلُواْ﴾ بِقَوْلِهِ: ﴿غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ﴾:

لَمَّا كان الغلوُّ ربَّما أُطْلِق على شدَّة الفحص عنِ الحقائق واستنباط الخفيِّ مِنَ الأحكام والدَّقائق مِن خبايا النُّصوص؛ نُفِيَ ذلك بقولِه: ﴿غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ﴾، فيكونُ القَيْدُ مِنْ بابِ الاحتراسِ؛ لئلَّا يُتوهَّمَ من

الْمُبَالَغَةُ فِي لُزُومِ الْحَقِّ لَيْسَ مَنْهِيًّا عَنْهُ

(1) الواحدي، التفسير البسيط: 7/478.
(2) الراغب، تفسير الراغب: 5/414.
(3) أبو حيان، البحر المحيط: 4/335.

الكلامِ ما ليسَ بمرادٍ، وليُفيد أنَّ المبالغة في الحقِّ غيرُ منهيٍّ عنها، وإنَّما المنهيُّ عنه تجاوز دائرة الحقِّ بكمالها[1].

نُكْتَةُ الْعُدُولِ عَنْ وَصْفِ الْغُلُوِّ بِصَرِيحِ الْبُطْلَانِ إِلَى وَصْفِهِ بِـ: ﴿غَيْرَ ٱلْحَقِّ﴾:

الْمُبَالَغَةُ فِي تَشْنِيعِ الْغُلُوِّ؛ تَنْفِيرًا لِلنَّاسِ مِنْهُ

قَوْلُهُ: ﴿غَيْرَ ٱلْحَقِّ﴾ مَنْصُوبٌ عَلَى النِّيَابَةِ عَنْ مَفْعُولٍ مُطْلَقٍ لِفِعْلِ ﴿تَغْلُواْ﴾، أَيْ: غُلُوًّا غَيْرَ الْحَقِّ، وَغَيْرُ الْحَقِّ هُوَ الْبَاطِلُ، وَعَدَلَ عَنْ أَنْ يُقَالَ: (بَاطِلًا) إِلَى ﴿غَيْرَ ٱلْحَقِّ﴾؛ لِمَا فِي وَصْفِ ﴿غَيْرَ ٱلْحَقِّ﴾ مِنْ تَشْنِيعِ الْمَوْصُوفِ، وَالْمُرَادُ: أَنَّهُ مُخَالِفٌ لِلْحَقِّ الْمَعْرُوفِ، فَهُوَ مَذْمُومٌ؛ لِأَنَّ الْحَقَّ مَحْمُودٌ، فَغَيْرُهُ مَذْمُومٌ، وَأُرِيدَ أَنَّهُ مُخَالِفٌ لِلصَّوَابِ؛ احْتِرَازًا عَنِ الْغُلُوِّ الَّذِي لَا ضَيْرَ فِيهِ، مِثْلَ الْمُبَالَغَةِ فِي الثَّنَاءِ عَلَى الْعَمَلِ الصَّالِحِ مِنْ غَيْرِ تَجَاوُزٍ لِمَا يَقْتَضِيهِ الشَّرْعُ، وَمِنْ غُلُوِّ النَّصَارَى: دَعْوَى إِلَهِيَّةِ عِيسَى، وتكذيبهم مُحَمَّدًا ﷺ وَمِنَ الْغُلُوِّ الَّذِي لَيْسَ بَاطِلًا: مَا هُوَ مِثْلُ الزِّيَادَةِ فِي الْوُضُوءِ عَلَى ثَلَاثِ غَسَلَاتٍ؛ فَإِنَّهُ مَكْرُوهٌ عند جماعةٍ من العلماء[2].

دِلَالَةُ اللَّامِ فِي ﴿ٱلْحَقِّ﴾ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَا تَغْلُواْ فِي دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ﴾:

لَيْسَ كُلُّ مَنْ خَالَفَ حَقًّا؛ يَكُونُ وَاقِعًا فِي النَّهْيِ

عُرِّفَ ﴿ٱلْحَقِّ﴾ في قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَا تَغْلُواْ فِي دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ﴾ باللَّام لقصد ضَرْبٍ مِن ضُرُوبِ الحَقِّ، فاللَّامُ للعهدِ العِلْمِيِّ، ولو نُكِّرَ؛ لكان مَن جاوز حقًّا إلى غيره واقعًا في النَّهي، كما جاوز الاجتهاد في الصَّلاة النَّافلة إلى الجدِّ في العلم النَّافع، ولو عُبِّر بـ: (باطلًا) بدلَ ﴿غَيْرَ ٱلْحَقِّ﴾؛ لأوهم أنَّ المنهيَّ عنه المبالغة في الباطل، لا أصله ومطلقه[3].

سِرُّ جَمْعِ (هَوًى) عَلَى ﴿أَهْوَآءَ﴾ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوٓاْ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّواْ مِن قَبْلُ﴾:

إنَّما جُمع لفظُ (هَوى) على ﴿أَهْوَآءَ﴾ في قولِه تَعَالَى: ﴿وَلَا

(1) البقاعي، نظم الدرر: 2/517.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 6/290.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 2/517.

﴿تَتَّبِعُوٓاْ أَهۡوَآءَ قَوۡمٖ قَدۡ ضَلُّواْ مِن قَبۡلُ﴾؛ تنبيهًا على كثرةِ الأهواءِ فيهم وتنوُّعها، وأنَّهم متفاوتون في الباطِلِ[1].

نُكْتَةُ تَنْكِيرِ ﴿قَوْمٍ﴾ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوٓاْ أَهۡوَآءَ قَوۡمٖ قَدۡ ضَلُّواْ مِن قَبۡلُ﴾:

نُكِّر لفظُ ﴿قَوْمٍ﴾ من قولِه تعالَى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوٓاْ أَهۡوَآءَ قَوۡمٖ قَدۡ ضَلُّواْ مِن قَبۡلُ﴾ تحقيرًا لهم وحطًّا من شأنهم[2]، ويؤيِّدُهُ إضافةُ الأهواءِ إليهم؛ فإنَّ في هذه الإضافةِ تحقيرًا للمضافِ إليه.

حَقَارَةُ الْمُتَأَصِّلِ فِي الْهَوَى حَتَّى صَارَ قُدْوَةً فِيهِ

نُكْتَةُ تَكْرَارِ الْفِعْلِ ﴿ضَلُّواْ﴾ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَدۡ ضَلُّواْ مِن قَبۡلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيرٗا وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾:

كُرِّر الفعل ﴿ضَلُّواْ﴾ لأوجه:

الأوَّل: أنَّه أراد قد ضلُّوا عن سواء السَّبيل، فلمَّا فصَلَ بيْنَهُ وبينَ ما يتعلَّق به؛ أُعيد ذِكْرُهُ، كقوله تعالى: ﴿لَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡرَحُونَ بِمَآ أَتَواْ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحۡمَدُواْ بِمَا لَمۡ يَفۡعَلُواْ فَلَا تَحۡسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٖ مِّنَ ٱلۡعَذَابِۖ﴾، فقد أعاد قوله: ﴿فَلَا تَحۡسَبَنَّهُم﴾.

الثَّاني: أنَّه أُرِيد ضلُّوا، وأضَلُّوا عن سواء السَّبيل، ضلُّوا كون ذلك تَبْيِينًا لِما ضلُّوا عنه.

والثَّالث: أنَّ الإشارة بقوله: ﴿ضَلُّواْ مِن قَبۡلُ﴾ إلى ضلالهم في شريعتهم قبل إتيان نبيِّنا ﷺ وبقوله: ﴿وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ إلى ما أتى به النَّبيُّ ﷺ.

والرَّابع: أنَّ الإنسان قد يعتقد أن يُضِلَّ غيرَه، وهو ضالٌّ بذلك، فبيَّن اللّه تعالى أنَّ هؤلاء ضلُّوا في أنفسهم، وضلُّوا بإضلالهم غيرَهم؛ إشارةً إلى نحوِ قوله: ﴿لِيَحۡمِلُوٓاْ أَوۡزَارَهُمۡ كَامِلَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَمِنۡ أَوۡزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيۡرِ عِلۡمٍۗ﴾[3].

مِنْ أَقْبَحِ أَنْوَاعِ الضَّلَالِ أَنْ يَضِلَّ الْمَرْءُ فِي نَفْسِهِ وَيَسْعَى فِي إِضْلَالِ غَيْرِهِ

(1) الراغب، تفسير الراغب: 5/415.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 4/336.
(3) الراغب، تفسير الراغب: 5/415 - 416.

الضَّلالُ وَالْإِضْلَالُ فِي التَّعْبِيرِ الْقُرْآنِيِّ:

الضَّلَالُ دَرَكَاتٌ بَعْضُهَا أَقْبَحُ مِنْ بَعْضٍ

قوله تعالى: ﴿وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾، أي: عَنْ قَصْدِ الطَّرِيقِ، أَيْ: بِالْإِضْلَالِ، فَالضَّلَالُ الْأَوَّلُ مِنَ الضَّلَالَةِ، والآخر: بِإِضْلَالِ مَنِ اتَّبَعَهُمْ[1]، وقد وصفهم الله تعالى بثلاث درجاتٍ في الضَّلال، فقد بيَّن أنَّهم كانوا ضالِّين من قبل، ثمَّ ذكر أنَّهم كانوا مُضِلِّين غَيْرَهُم، ثُمَّ ذكر أنَّهم استمرُّوا على تلك الحالِ، حتَّى إنَّهم الآن ضالُّون كما كانوا، ولا نَجِدُ حالًا أقربَ إلى البُعْدِ مِنَ الله، والقرب مِن عقاب الله تعالى مِن هذه الحالِ، نعوذُ بالله منها[2].

فِي تَعَدُّدِ دِلَالَاتِ اللَّفْظِ إِثْرَاءٌ لِلْمَعَانِي الْقُرْآنِيَّةِ

ويَحْتَمِل أن يكون المراد: أنَّهم ضلُّوا، وأضلُّوا، ثمَّ ضلُّوا بسبب اعتقادهم في ذلك الإضلال: أنَّه إرشاد إلى الحقِّ، ويجوزُ أن يكون المرادُ بالضَّلال الأوَّل: الضَّلال عن الدِّين، وبالضَّلال الآخر: الضَّلال عن طريق الجنَّة[3].

دِلَالَةُ تَكْرَارِ مَادَّةِ (الضَّلَالِ) فِي الْآيَةِ:

النَّصَارَى أَخَصُّ بِالضَّلَالِ مِنَ الْيَهُودِ

تَكرارُ ذِكْرِ ضَلال النَّصارى يُفيدُ أنَّهُم ضلُّوا ضلالًا بعد ضلَالٍ؛ وذلك لِفَرْطِ جَهْلِهِم بالحقِّ، ولهذا كان النَّصارى أخصَّ بالضَّلال من اليهود.

ووجهُ تَكْرَارِ هذا الضَّلالِ أيضًا: أنَّ الضَّالَّ قد أخطأ نفسَ مقصودِه، فيكون ضالًّا فيه، فيقصد ما لا ينبغي أن يقصدَه، ويعبد مَن لا ينبغي أن يعبدَه، وقد يصيب مقصودًا حقًّا، لكن يضِلُّ في طريق طلبِه والسَّبيل الموصلة إليه، فالأوَّل: ضلالٌ في الغَايَةِ، والآخر: ضلالٌ في الوسيلة، ثُمَّ إذا دعا غيرَه إلى ذلك؛ فقد أضلَّه.

وأسلاف النَّصارى اجتمعت لهم الأنواعُ الثَّلاثة، فضلُّوا عن

(1) البغوي، معالم التنزيل: 3/83.
(2) الرازي، التفسير الكبير: 12/53.
(3) الرازي، التفسير الكبير: 12/53.

مقصودهم حيث لَم يُصِيبُوه، وزعموا أنَّ إلهَهم بشرٌ يأكل، ويشرب، ويبكي، وأنَّه قُتِلَ، وصُلِبَ، وصُفِعَ، فهذا ضلال في نفس المقصود؛ حيث لم يظفَروا به، وضلُّوا عن السَّبيل الموصلة إليه، فلا اهتدوا إلى المطلوب، ولا إلى الطَّريق الموصل إليه، ودعوا أتْبَاعَهم إلى ذلك، فضلُّوا عن الحقِّ وعن طريقه، وأضلُّوا كثيرًا، فكانوا أدخلَ في الضَّلال من اليهود، فوصفوا بأخصِّ الوصفين، والذي يُحقِّقُ ذلك أنَّ اليهود إنَّما أُتُوا مِن فساد الإرادة والحسد وإيثارِ ما كان لهم على قومهم من السُّحت والرِّياسة، فخافوا أن يذهب بالإسلام، فلم يُؤْتَوْا مِن عدمِ العلم بالحقِّ، فإنَّهم كانوا يعرفون أنَّ محمَّدًا رسولُ اللّه ﷺ كما يعرفون أبناءَهم، ولهذا لم يُوَبِّخْهم اللّه تعالى، ويقرِّعهم إلَّا بإراداتهم الفاسدة مِن الكبر والحسد وإيثار السُّحت والبغي وقتل الأنبياء، ووبَّخ النَّصارى بالضَّلال والجهل الَّذي هو عدمُ العلم بالحقِّ[1].

بَلَاغَةُ الْإِطْنَابِ فِي عَطْفِ الْخَاصِّ عَلَى الْعَامِّ وَعَطْفِ الْعَامِّ عَلَى الْخَاصِّ:

أَثَـرُ الْعَطْفِ فِي تَكْثِيفِ الْمَعْنَى وَتَكْثِيرِهِ

قَوْلُهُ: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوٓاْ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّواْ مِن قَبْلُ﴾ عَطْفٌ عَلَى النَّهْيِ عَنِ الْغُلُوِّ، وَهُوَ عَطْفُ عَامٍّ مِنْ وَجْهٍ عَلَى خَاصٍّ مِنْ وَجْهٍ، فَفِيهِ فَائِدَةُ عَطْفِ الْعَامِّ عَلَى الْخَاصِّ، وَعَطْفِ الْخَاصِّ عَلَى الْعَامِّ، وَهَذَا نَهْيٌ لِأَهْلِ الْكِتَابِ الْحَاضِرِينَ عَنْ مُتَابَعَةِ تَعَالِيمِ الْغُلَاةِ مِنْ أَحْبَارِهِمْ وَرُهْبَانِهِمُ الَّذِينَ أَسَاؤُوا فَهْمَ الشَّرِيعَةِ عَنْ هَوًى مِنْهُمْ مُخَالِفٍ لِلدَّلِيلِ، فَلِذَلِكَ سُمِّيَ غلوُّهُمْ: أَهْوَاءً؛ لِأَنَّهَا كَذَلِكَ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ، وَإِنْ كَانَ الْمُخَاطَبُونَ لَا يَعْرِفُونَ أَنَّهَا أَهْوَاءٌ، فَضَلُّوا، وَدَعَوْا إِلَى ضَلَالَتِهِمْ[2].

بَلَاغَةُ الِاسْتِعَارَةِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾:

شِـدَّةُ انْحِـرَافِ الـنَّـصَـارَى عَـنِ الْحَقِّ

قَوْلُهُ: ﴿وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ مُقَابِلٌ لِقَوْلِهِ: ﴿قَدْ ضَلُّواْ مِن قَبْلُ﴾، فَهَذَا ضَلَالٌ آخَرُ، فَتَعَيَّنَ أَنَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ الَّذِي ضَلُّوا عَنْهُ

(1) ابن القيّم، بدائع الفوائد: 2/30 - 32.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 6/290.

هُوَ الْإِسْلَامُ، وَالسَّوَاءُ الْمُسْتَقِيمُ، وَقَدِ اسْتُعِيرَ لِلْحَقِّ الْوَاضِحِ، أَيْ: قَدْ ضَلُّوا فِي دِينِهِمْ مِنْ قَبْلِ مَجِيءِ الْإِسْلَامِ، وَضَلُّوا بَعْدَ ذَلِكَ عَنِ الْإِسْلَامِ[1]، ونُكْتَةُ الِاسْتِعَارَةِ بيانُ عظيمِ ضلالِهِم؛ حيثُ انْحَرَفُوا عن واضِحِ الطَّريق وبَيِّنِهَا.

دِلَالَةُ اللَّامِ فِي (السَّبِيلِ) مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾:

دِينُ الْإِسْلَامِ هُوَ الدِّينُ الْكَامِلُ الَّذِي لَا دِينَ فِي الْحَقِيقَةِ إِلَّا هُوَ

اللَّامُ في ﴿ٱلسَّبِيلِ﴾ من قولِهِ تَعَالَى: ﴿وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ لِلْعَهْدِ العلمِيِّ، ويجوزُ أن تكون للكمالِ، أي: السَّبيلُ الكامِلُ، ولا منافاةَ بين الوجهينِ؛ إذِ المرادُ سبيلُ الحقِّ المعهودُ وهو دينُ الإسلَامِ، وهو السَّبيلُ الكامل الذي لا سبيلَ في الحقيقةِ إلَّا هو[2].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 6/291.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 6/259.

﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ٧٨﴾ [المائدة: 78]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

بعد أن بيّن تعالى ضلالهم وإضلالهم وقبّحه عليهم بيّن أسباب ذلك، وأرشد إلى ما أخذهم به فقال: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾، فالآية تتنزّل منزلة الدّليل لما قبلها[1].

لما ذكر ضلالهم ذكر الدّليل عليه من كتبهم، محذّرًا منه

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿عَصَواْ﴾: (عَصَوَ، عصى) أَصلٌ يَدُلُّ عَلَى الفُرقَةِ، والعاصي: اسم الفصيل خاصّة إذا عصى أمّه في اتّباعها، وهو خلاف الطّاعة، فمعنى عَصَى: خرج عن الطّاعة[2]، و"العصيان: عدم الانقياد للأمر والنّهي"[3].

العصيان خلاف الطّاعة، وعدم الانقياد للأمر والنّهي

2) ﴿لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى﴾: "المُرَادُ بِاللِّسَانِ هُنَا الجَارِحَةُ لَا اللُّغَةُ، أَيِ النَّاطِقُ بِلَعنَتِهِم هُوَ داود وعيسى"[4].

لسان داود وعيسى، هما من نطق باللّعنة وبلّغها

3) ﴿يَعۡتَدُونَ﴾: (عَدَوَ) أصلٌ يَدُلُّ عَلَى تَجَاوُزٍ فِي الشَّيءِ وَتَقَدُّمٍ لِمَا يَنبَغِي أَن يُقتَصَرَ عَلَيهِ[5]. "الاعتداء والتّعدي والعدوان: خروج عمّا حُدَّ ورُسِم"[6]. والمعنى أنّهم "يَتَجَاوَزُونَ الحَدَّ فِي العِصيَانِ وَالكُفرِ، وَيَنتَهُونَ إِلَى أَقصَى غَايَاتِهِ"[7].

اعتدوا: تجاوزوا الحدّ في المعصية والكفر

(1) البقاعيّ، نظم الدرر: 6/25، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 6/292، والهرري، حدائق الروح والريحان: 7/428.

(2) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة: (عصو)، والجوهري، الصحاح، والراغب، المفردات: (عصا).

(3) ابن الهائم، التبيان، ص: 78.

(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/337، والآلوسي، روح المعاني: 3/376.

(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عَدَوَ).

(6) الراغب، تفسير الراغب: 5/416.

(7) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/337.

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

الإخبار عن لعن بني إسرائيل على لسان أنبيائهم

يخبر اللّه تعالى أنّه لعن الكافرين من بني إسرائيل منذ زمن طويل، فيما أنزل على داود وعيسى عليهما السلام ؛ وذلك بسبب عصيانهم واعتدائهم على خلقه[1]، فكان لعنهم مستمرًّا لاستمرارهم على معاصيهم الكبيرة، واعتدائهم.

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

الغرض من الاستئناف:

استأنف الكلام للتّدليل على ضلالهم في الماضي واستمراره ورسوخه فيهم

قوله ﷻ: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ﴾، جُملَةُ لُعِنَ مُستَأنِفَةٌ استِئنَافًا ابتِدَائِيًّا؛ للاستِدلَال عَلَى اليَهُودِ بِمَا فِي كُتُبِهِم وكُتُبِ النَّصَارَى، لإِثبَاتِ أَنَّ الضَّلَالَ مُستَمِرٌّ فِيهِم؛ فَإِنَّ مَا بَين دَاوُود وَعِيسَى أَكثَرُ مِن أَلفِ سَنَةٍ[2].

علّة بناء الفعل للمفعول:

لم يصرّح بالفاعل، تكثيرًا للّاعنين، وتهويلًا لِلعنهم

في قوله ﷻ: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ عبّر بالفعل المبني للمجهول؛ إشعارًا باستحقاقهم اللّعن من سوء أعمالهم، وليكون شاملًا للّاعنين مع اللّه[3] ﷻ، مبالغةً وتهويلًا للّعن، واهتمامًا باللّعن دون تعيين اللّاعن؛ لأنّ اللّعن هو مقصد الكلام لا من جهة صدوره، وفي إخفاء الفاعل تفخيم؛ لأنّه أدلّ على إظهار الكبرياءِ[4].

إيثار التّعبير عنهم بالموصول دون الضّمير:

عبّر عنهم بالموصول لبيان أنّ الصّلة سبب الحكم، فالكفر علّة اللّعن

في قوله ﷻ: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ عبّر عنهم بالاسم الموصول دون الضّمير، فلم يقل: (لُعنوا)؛ إظهارًا لعلّة اللّعن وهو الكفر المعبّر عنه في الصّلة[5].

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 3/160.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 6/292.
(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 5/2317 - 2318.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/336، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/69، والآلوسي، روح المعاني: 3/375.
(5) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/70، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 5/2318.

إيثار التّعبير بالحرف (على) دون الباء:

قوله ﷻ: ﴿عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ﴾ عبّر بحرف الاستعلاء ﴿عَلَىٰ﴾؛ للدّلالة على تمكّن ملابسة الفعل للفاعل، أي ملابسة فعل اللّعن للسانه؛ تأكيدًا لصدور اللّعن بلسان داود عليه السلام أي بكلامه الملابس للسانه[1].

عبّر بالاستعلاء مبالغة في الملابسة والتّمكن

السرّ في إفراد اللّسان:

قوله ﷻ: ﴿عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ﴾ أفرد اللّسان وهو مضاف إلى اسمين، فلم يقل: (عَلَى لسانَيْ داود وعيسى)؛ لأنّ الأفصح إذا فرّق بين لفظين مقترنين كما في (داود وعيسى) أن يعبّر بالمفرد: ﴿عَلَىٰ لِسَانِ﴾، وإذا لم يفردا فيعبّر عنهما بالجمع، كقوله: ﴿فَقَدۡ صَغَتۡ قُلُوبُكُمَاۖ﴾ [التحريم: 4] فقال: ﴿قُلُوبُكُمَاۖ﴾ ولم يقل: (قلبكما) لأنّ المذكورين قُرنا بضمير واحد، ولم يفرّقا كما في (داود وعيسى)[2]. ويضاف إلى ذلك أنّ الأنبياء عليهم السلام كلّهم وردوا عن مشكاة واحدة فمنطقهم لا يختلف، فكأنّ لسانهم واحد.

أفرده لأنّه الأفصح في هذا الموضع، ولأنّ منطق الأنبياء واحد

السّرّ في تخصيص ذِكر داود وعيسى عليهما السلام دون غيرهم:

قوله ﷻ: ﴿عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ﴾ خصّ لعنهم بذكر داود وعيسى عليهما السلام وحسب؛ إعلامًا بأنّهم قد لعنوا على لسان غير موسى ومحمّد (صلى الله عليهما وسلم)[3]، ولبيان أنّ ذلك اللّعن قد امتدّ واستمرّ عبر العصور[4].

خصّ ذِكرهم لبيان أنّ لعنهم استمرّ على أزمنة طويلة، وأنّ لعنهم قد تكرّر عند الأنبياء

السّرّ في العدول عن اللّعن مطلقًا إلى تقييده بالنّبيّين:

قوله ﷻ: ﴿عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ﴾ قيّد اللّعنة بالنّبيَّين عليهما السلام، ولم يقل: (لعن الذين كفروا من بني إسرائيل ذلك

صرّح باسم من لعنهم ليبيّن أنّ لعنهم مرّات عديدة

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 6/292.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/337.
(3) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/223.
(4) المراغي، تفسير المراغي: 6/171.

بما عصوا)؛ لبيان أنّ لعنتهم قد تعدّدت، فمع كلّ نبيّ منهما عليهما السلام تجدّد لعنهم[1].

ذكر تكرار لعنهم لبيان إصرارهم على ما يستوجب اللّعنة، وانتفاء انتفاعهم من مواعظ الأنبياء ورسالاتهم

الغرض من بيان تكرار لعنهم:

قوله عز وجل: ﴿عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ﴾ ذكر تعالى أنّ لعنهم قد تكرّر على لسان الأنبياء؛ إشارة إلى أنّ عادتهم الإصرار على ما يستوجب تلكم اللعنات، ونفيًا لانتفاعهم من رسالات الأنبياء ومواعظهم لقسوة قلوبهم.

اللّعن أمرٌ عظيم يثير السّؤال عن سببه، فاستأنف الكلام لبيان سببه

الغرض من الاستئناف:

قوله عز وجل: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ﴾ استئناف للجواب عن سؤال نشأ عن ذكر لعنتهم، كأنّ السامع لما وقف على ما فُعل بهم من اللّعن والطّرد على لسان نبيَّين معظَّمَين، استعظم ذلك وتوهّم أنّ له أسبابًا شتّى فقال: ما سبب ذلك الأمر الفظيع؟ فقيل: ذلك اللّعنُ بسبب عصيانهم واعتدائهم[2].

آثرَ التعبير عن لعنهم بالإشارة مبالغة في ظهوره حتّى استحال مشاهَدًا

إيثار ذكر اللّعن بالإشارة دون الضّمير:

قوله عز وجل: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ﴾ عبّر باسم الإشارة إلى لعنتهم، وآثرها على الضّمير تنبيهًا على كمال ظهورِه وامتيازِه عن نظائره، فانتظم في سلك الأمور المشاهدة[3]، مبالغة في ظهور ذلك اللّعن.

آثر الإشارة إلى اللّعن باسم الإشارة الدّالّ على البعد؛ تهويلًا لبعد درجته في الشّناعة

إيثار اسم الإشارة الدّالّ على البعد:

في قوله عز وجل: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ﴾ آثر التّعبير باسم الإشارة الدّالّ على البُعد؛ للإيذان بكمال فظاعة لعنهم وبعد درجته في الشّناعة والهول[4].

(1) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 3/1153 - 1154.

(2) الطيبي، فتوح الغيب: 5/453، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/69، والآلوسي، روح المعاني: 3/376، والقنّوجي، فتح البيان: 4/31.

(3) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/224 وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/69، والآلوسي، روح المعاني: 3/376.

(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/69، والآلوسي، روح المعاني: 3/376.

دلالة الباء:

قوله جلّ شأنه: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ﴾ عبّر بالباء الدّالّة على السّببيّة لبيان سبب اللّعن، أي فذلك اللّعن إنّما وقع بسبب عصيانهم واعتدائهم، ونفيًا للأسباب الأخرى[1].

دلّت الباء على السّبب لبيان أنّ سبب اللعن هو المعصية والاعتداء

دلالة الإشارة والسّبب على الحصر:

قوله جلّ شأنه: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ﴾ دلّت الجملة على حصر اللّعن بالمعاصي والاعتداء[2]، وليس في الكلام صيغة قصر، ولكنّه مستفادٌ من إيقاع اسم الإشارة استئنافًا والجار والمجرور خبرًا له بعد إثبات اللّعن، فأفاد مجموع ذلك الحصر[3].

الإشارة إلى سبب اللّعن دلّت على حصره بمعصيتهم واعتدائهم

علّة حصر اللّعن بمعاصيهم واعتدائهم:

قوله جلّ شأنه: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ﴾ عبّر عن علّة لعنهم بكونهم يفعلون المعاصي ويعتدون، وفي ذلك إشارة إلى أنّهم يبالغون في تلك المعاصي، بحيث إنّهم لم يغفر لهم واستحقّوا اللّعن[4]، وفيه تحذير من الاستهانة بالمعاصي.

دلالة على عظم تلك المعاصي، وتحذيرًا لغيرهم من الاستهانة بالذّنوب والاعتداء

الغرضُ من بيان سبب اللّعن:

قوله جلّ شأنه: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ﴾ نصَّ على أنّ اللّعن كان بسبب معصيتهم واعتدائهم، بيانًا أنّ اللّعنَ ليس لذواتهم، وإنّما لأعمالهم وإيذائهم[5].

بيّن أسباب اللّعن للنّص على أنّ سبب اللّعن هو الأعمال وليس الذّوات

السّر في ذِكر سبب اللّعن:

أظهر الأسباب حتّى لا يضلّ النّاس في تعليلها، قطعًا للاختلاف

---

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/224، والزمخشري، الكشاف: 1/667، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 2/139، والنسفي، مدارك التنزيل: 1/467.

(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/224، والزمخشري، الكشاف: 1/667، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 2/139.

(3) الطيبي، فتوح الغيب: 5/453، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 6/292.

(4) الرازي، مفاتيح الغيب: 12/412.

(5) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 5/2319.

والجدال وتحقيق الوعظ المراد ببيان عقوبات سالف الأقوام ليتّعظ السّامعون، لأنّ التّفطّن إلى أسباب العقوبة هو أوّل درجات التّوفيق[1].

بيّن سبب اللّعن تنبيهًا وزجرًا للسّامعين عن أسبابه وهي المعاصي، تحقيقًا للوعظ

علّة إسناد العصيان والاعتداء إلى جميعهم:

قوله جلّ شأنه: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ﴾ نسب أسباب اللّعن إليهم جميعًا، وإن فعله بعضهم؛ لأنّ الآخرين لمّا سكتوا عنهم وأقرّوا فعلهم كانوا مشاركين لهم في ذلك، ولذا قال سبحانه: ﴿كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ﴾[2].

أسند العصيان إليهم جميعًا؛ لأنّ من لم يعصِ منهم قد رضي بالمعصية والاعتداء

السّرّ في التّصريح بعلّة اللعن وهي مفهومة بدلالة النّص:

قوله ﷻ: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ﴾ جاءت الجملة المبينة لسبب استحقاقهم اللّعنة تأكيدًا لما سبق؛ إذ "قَد فُهِمَ سَبَبُ اللَّعنَةِ بِإِسنَادِهَا إِلَى مَن تَعَلَّقَ بِهِ الوَصفُ الدَّالُّ عَلَى العِلِّيَّةِ، وَهُوَ ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ كَمَا تَقُولُ: رُجِمَ الزَّاني، فَيُعلَمُ أَنَّ سَبَبَهُ الزِّنَا. كَذَلِكَ اللَّعنُ سَبَبُهُ الكُفرُ، وَلَكِن أُكِدَّ بِذِكرِهِ ثَانِيَةً"[3]. ويضاف أنّ سبب ذلك التّأكيد بيانُ أنّ استحقاقهم اللّعنة كان بسبب أعمالهم، لا ظلمًا من اللّه تعالى.

ذكر العلّة تأكيدًا على استحقاقها بالمعصية لا ظلمًا من الله تعالى

إيثار التّعبير بالمصدر المؤوّل دون المصدر الصّريح:

في قوله جلّ شأنه: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ﴾ عبّر بـ (ما) المصدريّة مع الفعلين المتعاطفين، فقوله تعالى: ﴿وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ﴾ "معطوف على ﴿عَصَواْ﴾، والمعطوف على الصّلة صلةٌ، والمعنى ذلك بسبب عصيانهم وكونهم معتدين"[4]، فعدل من التّعبير بالمصدر الصّريح إلى التّعبير بالمصدر المؤوّل من الفعل للدّلالة على "تَجَدُّدِ العِصيَانِ وَاستِمرَارِ الاعتِدَاءِ مِنهُم"[5].

عدل عن المصدر الصّريح إلى المؤوّل للدّلالة على تجدّد عصيانهم واعتدائهم

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 6/292 - 293.
(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 5/2319.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/337، والسيوطي، قطف الأزهار: 2/824.
(4) الصّاوي، حاشية الصاوي على الجلالين: 1/281.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 6/293.

دلالة الفعل الماضي والمضارع في الجملة:

الجمع بين الزّمنين للدّلالة على استمرار الحدث

في قوله جلّ شأنه: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ﴾ هؤلاء القوم نالوا اللّعن "بسبب اعتدائهم المستمر، وينبئ عن إرادة الاستمرار الجمع بين صيغتي الماضي والمستقبل"[1]، وهذا ينبئ أنّ اللّعن لا يقع إلا بعد إصرار على موجباتها، لذلك جاء اللّعن على لسان النّبيّين عليهم السلام المشعر باستمرار اللّعن، وهو ينبئ هنا باستمرارهم في أسباب ذلك.

والحاصل أنّه عبّر عن استمرار لعنهم بما ذكر من الأنبياء، وعن أسباب استمرار ذلك اللّعن وهو استمرارهم في المعاصي والاعتداء.

السّرّ في التّعبير عن العصيان بالماضي، والاعتداء بالمضارع:

عبّر عن المعاصي بالماضي دلالة على استقراره في نفوسهم، وعن الاعتداء بالمضارع دلالة على استمراره

في قوله جلّ شأنه: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ﴾ عبّر عن العصيان بالماضي إشارة إلى استقرار العصيان في طبائعهم ونفوسهم، وعبّر عن الاعتداء بالمضارع لأنّه مستمر قائم[2]؛ "وإِنَّمَا عَبَّرَ في جَانِبِ العِصيَانِ بِالمَاضِي لِأَنَّهُ تَقَرَّرَ فَلَم يَقبَلِ الزِّيَادَةَ، وَعَبَّرَ في جَانِبِ الاعتِدَاءِ بِالمُضَارِعِ لِأَنَّهُ مُستَمِرٌّ، فَإِنَّهُمُ اعتَدَوا على محمّد ﷺ بِالتَّكذِيبِ وَالمُنَافَقَةِ وَمُحَاوَلَةِ الفَتكِ وَالكَيدِ"[3]. فعصيانهم قد ثبت فيهم، وعُلِم لكلّ أحدٍ، بحيث صار مسلّمًا اتّصافهم به، فهو أمر معهود منهم ومشهور، أمّا الاعتداء فإنّهم جدّدوا إحداثه على زمن النّبيّ ﷺ فناسب التّعبير عنه بالمضارع.

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/69، والآلوسي، روح المعاني: 3/376.
(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 5/2319.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 6/293.

﴿كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ٧٩﴾

[المائدة: 79]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

بعد ذكر أن اللّعن كان بسبب المعاصي فسّر المعصية والاعتداء

لَمّا ذكر أنّ سبب اللّعن الذي وقع عليهم كان لما اقترفوه من المعاصي والاعتداء، فسّر هنا المعصية والاعتداء بقوله: ﴿كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ﴾ لا ينهى بعضهم بعضًا ﴿عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ﴾[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

عدم التّناهي: لا ينهى بعضهم بعضًا

1) ﴿لَا يَتَنَاهَوۡنَ﴾: (نَهَيَ) أَصلٌ يَدُلُّ عَلَى غَايَةٍ وَبُلُوغٍ. نَهَيْتُهُ عَن الأمر فَانتَهَى فَتِلكَ غَايَةُ مَا كَانَ وَآخِرُهُ[2]، والتّناهي: صيغته التَّفَاعُلُ، بِمَعنَى الِاشتِرَاكِ بين فاعلين، أَي: لَا يَنهَى بَعضُهُم بَعضًا[3] "والمعنى لم يكونوا ينتهون، ولا يتناهون عن القبح الذي أناطوه"[4].

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

إخبار وذمّ لما قاموا به من تركهم النّهي ومبادرتهم المعاصي

أخبر تعالى أنّهم لا ينهى بعضهم بعضًا عن المعاصي. وأقسم لبئس الفعل فعلهم في تركهم النّهي عن المعاصي[5]. "وفي هذا النص إشارة إلى أن سبب فساد الأمم في عمومها هو السّكوت على المنكر فيها"[6]. وفيه دليل على وجوب النّهي عن المنكر، وأنّ ترك النهي من الكبائر[7].

(1) الزمخشري، الكشاف: 1/667، والرازي، مفاتيح الغيب: 12/412، والقنّوجي، فتح البيان: 4/31.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نهي).
(3) الواحدي، البسيط: 7/490، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 6/253، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/337.
(4) الراغب، تفسير الراغب: 5/418.
(5) مكي بن أبي طالب، الهداية الى بلوغ النهاية: 3/1821.
(6) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 5/2319.
(7) القاسمي، محاسن التأويل: 4/221.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

الغرض من الاستئناف:

الاستئناف لبيان استمرارهم بالمعاصي

في قوله تعالى: ﴿كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُۚ﴾ استئناف جاء للإجابة عن سؤال قد يثار من التّعميم في ختام الآية السّابقة، فكأنّه قيل: هل كلّهم كان عاصيًا معتديًا، فالآية فيها "معنى التّفسير للآية السابقة، لأنّه يبيّن عموم العصيان والاعتداء فيهم، لأنّ الاعتداء في الكثير يقع من بعضهم، فكيف ينسب إلى كلّهم"[1]، والسّبب أنّهم تركوا النّهي عن العصيان فكانوا راضين به.

السّرّ في جعل ترك النّهي تفسيرًا للمعصية:

النّهي عن المنكر فرضٌ، وتركه معصية، ودليلٌ على الرّضى بفعلهم فكانوا مشاركين

في قوله جلّ شأنه: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ ۝٧٨ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُۚ﴾ يثار تساؤل مفاده: كيف وقع ترك التّناهي عن المنكر تفسيرًا للمعصية والاعتداء؟ وجوابه: أنّ اللّه تعالى أمر بالتناهي، فكان الإخلال به معصية[2]، ويدلّ على أمرين: "أنّهم كانوا يفعلون المناكر، والآخر أنّهم كانوا تاركين للنّهي عنها"[3]، فإنّ من ترك النّهي عن المنكر يكون "شريكًا لفاعل المعصية، ومستحقًّا لغضب اللّه وانتقامه"[4].

علّة إسناد الضّمير إليهم وإنما فعله بعضهم:

لما كان الفاعل من جملتهم وسكت عنه سائرهم أسند الضّمير إليهم جميعًا

قوله ﷻ: ﴿كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوْنَ﴾ أسند انتفاء التّناهي إلى الضّمير العائد إليهم جميعًا، وإن لم يفعله جميعهم؛ لأنّ فاعله من جملتهم[5]؛ فنسب "الفعل إليهم أجمعين؛ إذ وقع من بعضهم، وسكت عنه سائرهم"[6]، فسكوتهم أدخلهم في ذلك التّعميم.

---

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 5/2319.
(2) الزمخشري، الكشاف: 1/667، والقنّوجي، فتح البيان: 4/31.
(3) ابن المنيّر، الإنصاف: 1/636.
(4) الشوكاني، فتح القدير: 2/76، والقنّوجي، فتح البيان: 4/32.
(5) القنّوجي، فتح البيان: 4/31، والشوكاني، فتح القدير: 2/75.
(6) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 5/2320.

إيثار التّعبير بصيغة التّفاعل:

دلالـــــةً عـلى اشـتراكـهـم في الفعل والـرّضى بـالمـنـكـر مـن أنـفسـهـم ومـن غيرهم

قوله ﷻ: ﴿كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوْنَ﴾ عبّر عن تركهم النّهي بصيغة التّفاعل، التي تدلّ على المشاركة في الفعل، إذ كانوا "لَا يَنهَى بَعضُهُم بَعضًا، وَذَلِكَ أَنَّهُم جَمَعُوا بَينَ فِعلِ المُنكَرِ وَالتَّجَاهُرِ بِهِ، وَعَدَمِ النَّهيِ عَنهُ"[1]، وفي هذا إشارة إلى أنّهم كانوا يجاهرون بتلك المعاصي، وجرّأهم على المجاهرة تركهم النّهي عنها.

الغرض من تنكير المنكر:

جـعـلـه نـكـرة لعدم مبالاتهم بـنـوع المـنـكـر، فـعـمـلـوا كـلّ المنكرات

قوله ﷻ: ﴿لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُۚ﴾ جاء لفظ المنكر نكرة " فَيَصلُحُ إِطلَاقُهُ عَلَى أَيِّ مُنكَرٍ فَعَلُوهُ"[2]، وكونه جاء في سياق النّفي فإنّه يدلّ على الإغراق في عدم المبالاة[3].

وجه توجيه النّهي إلى منكر قد فعلوه:

المراد النّهي عن تـكـرار الـفـعـل ومـعـاودتـه، ورؤية أماراته

قوله عزّ شأنه: ﴿عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُۚ﴾ ظاهر النّص أنّه نهيٌ عن فعل قد نجز وصار ماضيًا، ولا يكون النّهي بعد الفعل، فما توجيهه في الآية؟ جوابه: أنّ المقصود هو النّهي عن معاودته، فهو على تقدير مضاف محذوف، أَي: مُعَاوَدَةِ مُنكَرٍ[4]؛ "وإنّما قدّر هذا المضاف لدفع ما أُورِد بأنّ المنكر الذي فُعِلَ لا معنى للنّهي عنه، لأنّ رفع الواقع محالٌ، فأجيب بأنّ المعنى النّهي عن المعاودة"[5]، أو أنّهم لا ينتهون عن منكر فعلوه، بل يصرّون عليه[6].

السّر في وصف المنكر بأنّهم فعلوه:

في قوله جلّ شأنه: ﴿عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُۚ﴾ جاء وصف المنكر بالجملة الفعلية ﴿فَعَلُوهُۚ﴾ ليدلّ على أنّهم اشتركوا بالفعل إضافة لتركهم

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/337.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/338.
(3) البقاعيّ، نظم الدرر: 6/265.
(4) الرازي، مفاتيح الغيب: 12/412، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/338.
(5) الصّاوي، حاشية الصاوي على الجلالين: 1/281.
(6) النسفي، مدارك التنزيل: 1/467، وابن جزي، التسهيل: 1/240.

النّهي عنه، "ولولا زيادة ﴿فَعَلُوهُۚ﴾ لما صرّح بوقوعها منهم، ولكان المصرّح به ترك النّهي عن المنكر عند استحقاق النّهي وذلك حين الإشراف على تعاطيه، وظهور الأمارات الدّالّة عليه"[1]. فلو لم يقل ﴿فَعَلُوهُۚ﴾ لكان التّوبيخ متّجهًا إلى تركهم النّهي دون التّصريح بمزاولتهم إيّاه.

للنّصّ على أنّهم فعلوا المنكر واشتركوا فيه

الغرض من الذّم:

في قوله تعالى: ﴿لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ﴾ جاءت صيغة الذّم لتعبّر عن ذمّ اللّه تعالى لما عملوا، والمراد منه "التّعجيب من سوء فعلهم"[2]، وبيان قبح أعمالهم[3].

ذمّ فعلهم تقبيحًا له وتعجيبًا منه

دلالة لام القسم:

قوله جلّ شأنه: ﴿لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ﴾ اللّام فيه هي اللّام الموطّئة للقسم، فلمّا عجّب من فعلهم بصيغة الذّمّ أكّد ذلك بالقسم، واللّام " كأنّه قيل: أقسم لبئس ما كانوا يفعلون"[4]، فأكّد ﷻ ذمّ أفعالهم، تقويةً لنسبة الذّمّ إليها، وإقصَاءً في ذمّها[5].

تأكيد مضمون الجملة

الغرض من ذمّ فعلهم:

قوله جلّ شأنه: ﴿لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ﴾ ذمّ أفعالهم على وجه التّأكيد، وإنّما جاء الذّمّ رادعًا لهم عن سوء أفعالهم، رجاءَ إيمانهم[6]، وفيه تحذير لكلّ سامع مِن " ارتكاب مثل الذي ارتكبوه"[7].

ذمّ أفعالهم ليوقظ فيهم وازع الإيمان، وتحذيرًا لغيرهم

إطلاق لفظ الفعل على ترك النّهي:

قوله جلّ شأنه: ﴿لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ﴾ المراد بما كانوا

(1) ابن المنيّر، الإنصاف: 1/636.
(2) الزمخشري، الكشاف: 1/667، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 2/139.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/70.
(4) الزمخشري، الكشاف: 1/667، والرازي، مفاتيح الغيب: 12/412، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 2/139.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 6/294، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 5/2320.
(6) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 5/2320.
(7) القاسمي، محاسن التأويل: 4/221.

السّكوت على النّهي عن المنكر مشاركة فيه، فهو فعل

يفعلون هو تركهم التّناهي، فأطلق على ترك التّناهي لفظ الفعل مع أنّه ترك؛ لأنّ السّكوت على المنكر لا يخلو من إظهار الرّضا به والمشاركة فيه[1].

إيثار التّعبير بالفعل دون العمل:

آثر التّعبير بالفعل لأنّه ذكر في السّياق لفظ الفعل، فناسبه أن يختم الآية به

قوله جلّ شأنه: ﴿لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ﴾ آثر التّعبير بالفعل دون غيره، لأنّه قد جاء في أوّل الآية قوله تعالى: ﴿كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ﴾؛ فلمّا كان السّياق خاصًّا بما فعلوه؛ ناسبه قوله: ﴿يَفۡعَلُونَ﴾.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 6/294.

﴿تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِى ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿٨٠﴾﴾

[المائدة: 80]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمّا ذكر أحوال أسلافهم شرع في أحوال معاصريهم؛ لبيان لزومهم لتلك المناكر

بعد "أن ذكر الله تعالى لنبيّه أحوال أسلافهم، ذكر له أحوال حاضريهم ممّا يدلّ على رسوخ تلك الملكات فيهم فقال: ﴿تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ﴾"[1]. ولمّا "أخبر بإقرارهم على المناكر، دلّ على ذلك بأمر ظاهر منهم لازم ثابت دائم مقوّض لبنيان دينهم"[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

يتولّون: الاتّباع والصّداقة مع اقتضاء المودّة والاتّفاق في الاعتقاد

1) ﴿يَتَوَلَّوْنَ﴾: من الولاية، "قوله: ﴿يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ﴾ أي يوالونهم ويصادقونهم"[3].

السّخط: الغَضَبُ الشّديد المقتضي لإنزال العقوبة

2) ﴿سَخِطَ﴾: السُّخط: خلاف الرّضا، وهو الكراهيةُ للشَّيءِ وعدم الرِّضا به، والغضب الشّديد المقتضي للعقوبة[4]. وإذا كان السّخط من الله تعالى، فهو بمعنى إنزال العقوبة ووجوب العذاب[5].

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

إخبار عن ظهور مولاتهم للكافرين، وإخبار عن سوء منقلبهم، إذ سخط الله عليهم

يخاطب الله تعالى النّبي أو الرّائي أنّك ترى كثيرًا من الكفرة من هؤلاء اليهود يحبّون الكافرين ويميلون إليهم، ويعادونك ويعادون الموحِّدين، ساء ما يُقدِمُونَ عليه من موالاتهم الكافرين، فإنّها سبب

(1) الرازي، مفاتيح الغيب: 12/412، والهرري، حدائق الروح والريحان: 7/43.
(2) البقاعيّ، نظم الدرر: 6/266.
(3) الصّاوي، حاشية الصاوي على الجلالين: 1/281، والهرري، حدائق الروح والريحان: 7/430.
(4) الخليل، العين، والجوهري، الصحاح، والراغب، المفردات، وابن الأثير، النهاية، والفيومي، المصباح المنير: (سخط).
(5) السمرقندي، بحر العلوم: 1/411.

غضب اللّه عليهم، وإدخاله إيّاهم النّار خالدين فيها، لا يخرجون منها أبدًا[1]. والمعنى: ترى كثيرًا من اليهود يوالون المشركين من عبدة الأوثان ويعادون أولياء اللّه[2].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

العدول عن الإخبار إلى الرّؤية بالبصر:

تأكيدًا لمولاتهم؛ وظهورها للعين؛ لأن الرّؤية أثبتُ أسباب العلم

في قوله ﷻ: ﴿تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أخبر عن موالاتهم الكفّار، ولم يقل: (إنّ كثيرًا منهم يتولّون الذين كفروا) فهو "قد أكّد الكلام بأنّه لم يعبّر عنه بالإخبار، بل عبّر عنه بالرّؤية المبصرة التي هي أقوى أسباب العلم الحسّيّ"[3]؛ لأنّها من الرؤية البصريّة[4]، وفائدة ذلك المبالغة في شدّة موالاتهم؛ إذ إنّها كانت ظاهرة واضحة بحيث يراها كلّ أحدٍ.

مرجع الضّمير:

اتّصال الآيات يدلّ على أنّ المراد بهم منافقو اليهود

الضّمير في قوله تعالى: ﴿كَثِيرًا مِّنْهُمْ﴾ يعود إلى اليهود، فهم يتولّون كفّار مكة. والمقصود بهم المنافقون من اليهود، وهذا القول يؤكّده ما بعد هذه الآية ﴿وَلَوْ كَانُواْ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِيِّ﴾، ويجب أن يكون في المنافقين من اليهود؛ لاتّصالها بما قبلها، وقبلها في ذكر اليهود لا المشركين[5].

الغرض من الذّم:

ذمّ ما قدّموا من العمل تقبيحًا له وتعجيبًا منه

في قوله جلّ شأنه: ﴿لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ﴾ عبّر تعالى بصيغة الذّمّ تقبيحًا لما سينالون من جزاء على أعمالهم، وصدور التّقبيح من اللّه ﷻ لشيء ما، يدلّ على أنّه بلغ النّهاية في القبح.

(1) لجنة من علماء التفسير، المختصر في تفسير القرآن: 1/121.
(2) مكيّ بن أبي طالب، الهداية: 3/1823.
(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 5/2328.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 6/294.
(5) الواحدي، البسيط: 7/491 - 492.

دلالة لام القسم:

قوله جلّ شأنه: ﴿لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ﴾ اللّام فيه هي اللّام الموطّئة للقسم، فلمّا بيّن قبح ما سينالون بصيغة الذّمّ أكّد ذلك بالقسم، وباللّام الموطّئة له، والتّقدير: واللّه لبئس ما قدّمت لهم أنفسهم، وأفاد ذلك تأكيد مضمون الجملة.

جاء القسم المقدّر واللّام تأكيدًا لقباحة وسوء جزائهم يوم القيامة

إيثار التّعبير بالمصدر المؤوّل دون المصدر الصّريح:

في قوله عزل وجلّ: ﴿لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ﴾ عبّر بالمصدر المؤوّل من ﴿مَا﴾ المصدرية والفعل، "يَعنِي بِذَلِكَ مُوَالَاتِهِم لِلكَافِرِينَ، وَتَركَهُم مُوَالَاةَ المُؤمِنِينَ، الَّتِي أَعقَبَتهُم نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِم"[1]. فالمولاة المنهي عنها مذمومةٌ، ولا يذمّ أحدٌ ما بسبب هذه المولاة لذاتها، بل لفعله إيّاها، والسّياق ليس حديثًا عن بيان سوء هذه المولاة، بل هو لبيان معاصي اليهود، فكان الفعل أنسب لهذا المقام.

آثر التّعبير بالمصدر المؤوّل للدّلالة على أنّ الذّمّ للمعنى في حالة الحدوث، لا لذات المعنى

السّرّ في وصف الأعمال بالتّقديم:

قوله ﷻ: ﴿لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ﴾ عبّر عن أعمالهم بالتّقديم، لأنّهم سيلقونه أمامهم، فيردّون إليه، والمعنى: "بِئسَ مَا قَدَّمُوا مِنَ العَمَلِ لِمَعَادِهِم فِي دَارِ الآخِرَةِ"[2]، وهو ذمّ لفعلهم باعتبار ما سيؤول إليه من الجزاء والعقاب.

التّعبير عن العمل بما قدّموا، لأنّه فَرَطٌ سيلقونه أمامهم يوم القيامة

قوله ﷻ: ﴿مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ﴾ التعبير بـ ﴿مَا قَدَّمَتْ﴾ يشمل ما قدّموه من العصيان وعدم التّناهي عن المنكر، والاعتداء وتولي المشركين والجبابرة، والتعبير بما قدمت أنفسهم يشمل الفعل والقول، والحقد والحسد[3].

التّعبير عن العمل بما قدّموا ليشمل أعمال الجوارح وأعمال القلوب

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 3/164.
(2) الرازي، مفاتيح الغيب: 12/412، والهرري، حدائق الروح والريحان: 7/431.
(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 5/2322.

السّرّ في تقديم الجارّ والمجرور (لهم)

قـــدّم الـجـارّ والمـجـرور على الـفـاعـل لبيان اختصاص المقدّم بهم

في قوله جلّ شأنه: ﴿لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ﴾ قدّم الجارّ والمجرور على الفاعل فلم يقل: (قدّمت أنفسُهم لهم)؛ تخصيصًا لهم بالمقدّم، وأنّه لن يكون لغيرهم، على معنى قوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾﴾ [المدثر: 38].

الإيجاز بالحذف للمبالغة:

ذكـر الـسّـخـط وأراد مـوجِـبـه، فـأقـام المـضـاف إلـيـه مـقـام المضاف مبالغة، فأعمالهم هي السّخط ذاته

قوله ﷻ: ﴿أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ ذكر السّخط، وأراد ما يوجب سخط الله عليهم وهو "المخصوص بالذمّ، كأنه قيل: لبئس زادهم إلى الآخرة سخط الله عليهم. والمعنى: موجب سخط الله"[1]. وموجب سخط الله عليهم هو موالاة عبدة الأوثان[2]، فهو "على حذف المضاف وإقامةِ المضافِ إليهِ مُقامَهُ؛ تنبيهًا على كمال التّعلق والارتباط بينهما، كأنهما شيء واحد ومبالغةً في الذّمّ، أي موجبُ سُخطِه تعالى"[3].

علّة تقدير مضاف محذوف:

قـدّروا المضاف لأنّ سخط الله تـعـالى لـيـس مـذمـومًـا، بل المذموم الأسباب الموجبة له

في قوله ﷻ: ﴿أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ قدّروا مضافًا محذوفًا؛ لأنّ السّخط باعتبار إضافته إلى الله سبحانه ليس مذمومًا، بل المذموم ما أوجبه من الأسباب[4]. ولأن الله تعالى لا يسخط على أحدٍ إلا بموجبات لذلك.

المجاز بذكر العذاب وإرادة محلّه:

خلودهم في النّار حيث العذاب

قوله جلّ شأنه: ﴿وَفِي ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ﴾ "أي في جهنم"[5]، فذكر الحالّ وأراد المحلّ، فخلودهم في النّار، ولكنّه قال العذاب؛ لأنّه في النّار.

(1) الزمخشري، الكشاف: 1/667.
(2) الهرري، حدائق الروح والريحان: 7/431.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/70، والقنّوجي، فتح البيان: 4/33.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 3/377.
(5) النسفي، مدارك التنزيل: 1/468.

الغرض من تقديم الخبر:

قـــدّم الـخـبـر (الـــعـــذاب) تـــعـــجـــيـــلًا لإفـــجـــاعـــهـــم واهتمامًا به

في قوله جلّ شأنه: ﴿وَفِي ٱلۡعَذَابِ هُمۡ خَٰلِدُونَ﴾ قدّم العذاب وهو جزء من الخبر؛ تأكيدًا لوقوعه[1]، وتعجيلًا لإخبارهم بما يفجعهم، فأول لفظ يطرق سمعهم في هذه الجملة هو أشدّ ما يفجعهم.

تأكيد الخبر بضمير الوصل وبتقديم الخبر:

أكّد الخبر لأنهم منكرون لطول بقائهم في النّار

قوله جلّ شأنه: ﴿وَفِي ٱلۡعَذَابِ هُمۡ خَٰلِدُونَ﴾ جاء مؤكّدًا فقد "أكّد سبحانه عذابَهم بكلمة ﴿هُمۡ﴾ وتقديم ﴿وَفِي ٱلۡعَذَابِ﴾، وتخليده"[2]؛ وإنّما أكّده بهذه المؤكّدات لما زعموا أنّ النّار لن تمسّهم إلّا أيامًا معدودة، فألقى الخبر عليهم مؤكّدًا؛ إثباتًا لخلودهم العذاب وهم قد أنكروه.

الفرق بين السّخط والغضب:

السّخط الغضب الشّديد المقتضي لـلـعـقـاب، وإسـنـاده إلى الله تعالى يعني إنزال العقوبة

الغضبُ عامّ والسّخط خاص؛ فهُوَ "لَا يكون إِلَّا من الكبراء والعظماء دون الأَكفاء والنّظراء"[3]. وفي تفصيل ذلك يقول أبو هلال: "أَنّ الغَضَب يكون من الصّغير على الكَبِير وَمن الكَبِير على الصَّغِير، والسّخط لَا يكون إِلَّا من الكَبِير على الصَّغِير، يُقَال: سخط الأَمِير على الحَاجِب، وَلَا يُقَال: سخط الحَاجِب على الأَمِير، وَيستَعمل الغَضَب فيهمَا والسخط إِذا عديته بِنَفسِهِ فَهُوَ خلاف الرِّضَا، يُقَال: رضيه وَسخطه، وَإِذا عدّيته بـ (على) فَهُوَ بِمَعنى الغَضَب، تَقول: سخط اللّه عليه إِذا أَرَادَ عِقَابه"[4].

قوله ﷻ: ﴿أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ﴾ لمّا جاء في سياق الحديث عن تولّي الكافرين، ثمّ ذكر تأكيد ذمّ أفعالهم التي قدّموها ناسب أن يذكر غضبه عليهم مع دلالة العقاب، فآثر أن يعبّر عن ذلك بلفظ السّخط المقتضي للعقاب مع الدّلالة على الغضب ضمنًا.

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 5/2322.
(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 5/2322.
(3) الكفوي، الكليات، ص: 515.
(4) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 130، ص: 123.

﴿وَلَوۡ كَانُواْ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِيِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمۡ أَوۡلِيَآءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرٗا مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ ٨١﴾ [المائدة: 81]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمّا ذكر أنّ كثيرًا منهم يتولّون الذين كفروا بيّن أنّ موالاة الكافرين ليست من الإيمان في شيء لبيان كذبهم في ادّعاء الإيمان، و"هذه الولاية بين اليهود والمشركين لم يكن لها من سبب إلا اتّفاق الفريقين على الكفر بالله ورسوله"[1]، فلمّا كانت موالاتهم الكافرين دليلًا على كفرهم، دلّ عليه بقوله: ﴿وَلَوۡ كَانُواْ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِيِّ﴾[2].

لَمّا ذكر ولايتهم للكافرين بيّن أنّهم فعلوا ذلك لخروجهم من الدّين وانتفاء إيمانهم

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَٰسِقُونَ﴾: (فَسَقَ) الفِسقُ، وَهُوَ الخُرُوجُ عَنِ الطَّاعَةِ، والأصل فيه: فَسَقتِ الرُّطبة مِن قشرِها لخروجها منه، والفأرَةُ سمِّيَت فُوَيسِقَةً لخروجها من جُحرها على النّاس، والفسق: التّرك لأمر الله[3]، قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ كَثِيرٗا مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ﴾ "أي خارجون عن ولاية الله وعن الإيمان به وبرسوله وبكتابه"[4].

الفسق: الخروج عن طاعة الله تعالى وترك أمره

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

يخبر الله تعالى أنّهم لو كانوا قد آمنوا بالله تعالى والنبي محمد ﷺ، وأقرُّوا بالقرآن الكريم لما تركوا ولاية الموحدين، واختاروا ولاية المشركين، ولكنهم خارجون عن طاعة الله ورسوله متمرّدون على الحقّ إشباعًا لأهوائهم[5]." يعني أنّ موالاة المشركين كفى بها دليلًا على نفاقهم"[6].

استدلال على نفاقهم، فموالاة المشركين دليل على انتفاء إيمانهم

(1) الهرري، حدائق الروح والريحان: 7/432.
(2) البقاعيّ، نظم الدرر: 6/267.
(3) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (فسق).
(4) الشوكاني، فتح القدير: 2/76.
(5) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 5/2322، ولجنة من علماء التفسير، التفسير الميسر: 1/121.
(6) الزمخشري، الكشاف: 1/667.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالة الشّرط بـ (لو)

يـدلّ الـشّـرط بـ (لـو) على انتفاء فـعـل الـشّـرط، وهو الإيمان

قوله جلّ شأنه: ﴿وَلَوۡ كَانُواْ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِيِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمۡ أَوۡلِيَآءَ﴾ عبّر عن انتفاء إيمانهم بـ (لو) الشّرطِيَّة التي تدلّ على عقد السَّبَبِيَّة والمسببية بَين الجملتين بعدهَا، للدلالة على امتناع الشّرط[1]، فلمّا انتفى الإيمان اتّخذوهم أولياء.

علّة كون الإيمان بالنّبي والقرآن يمنع من موالاة الكافرين:

لـــورود الـنّـهـي بـــالـــقـــرآن والـسّـنّـة، فلو وجـد الإيـمـان لتحقق الالتزام بالنّهي

في قوله جلّ شأنه: ﴿وَلَوۡ كَانُواْ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِيِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمۡ أَوۡلِيَآءَ﴾ قرّر أنّ الإيمان بالنّبيّ ﷺ والقرآن الكريم يمنع من موالاة الكافرين؛ "لِأَنَّ النَّبِي نَهَى المُؤمِنِينَ عَن مُوَالَاةِ المُشرِكِينَ، وَالقُرآنُ نَهَى عَن ذَلِكَ في غَيرِ مَا آيَةٍ. وَقَد تَقَدَّمَ في قَولِهِ: (لَا يَتَّخِذِ المُؤمِنُونَ الكافِرِينَ أَولِياءَ مِن دُونِ المُؤمِنِينَ)"[2].

التّعبير بالماضي والمضارع:

في قوله جلّ شأنه: ﴿وَلَوۡ كَانُواْ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِيِّ﴾ جاء الشّرط بـ (لو) ليفيد تَقييد الجملة الشّرطِيَّة بالزّمن الماضي[3]، وقد جاء في الآية الفعل الماضي مقترنًا بالمضارع للدّلالة على انتفاء استمرار إيمانهم وتجدّده.

السّرّ في جعل الموالاة دليلًا على الكفر:

الموالاة دليل على الـودّ والاشـتراك بـالـحـال، وعلى الـمـطـابـقـة في الاعتقاد

في قوله جلّ شأنه ﴿وَلَوۡ كَانُواْ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِيِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمۡ أَوۡلِيَآءَ﴾ عبّر عن أنّ موالاتهم تدلّ على كفرهم؛ "لأن مخالفة الاعتقاد تمنع الوداد"[4]. فالموالاة تدلّ على الودّ والرّضى بحالهم واشتراكهم فيه.

(1) ابن هشام، مغني اللبيب، ص: 337، 340.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 6/295.
(3) ابن هشام، مغني اللبيب، ص: 337.
(4) البقاعيّ، نظم الدرر: 6/267.

دلالة انتفاء الإيمان عن اتّخاذهم أولياء:

دل على أن شرط الإيمان عدم موالاة الكافرين، فإنها كفر

في قوله جلّ شأنه: ﴿وَلَوۡ كَانُواْ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِيِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمۡ أَوۡلِيَآءَ﴾ "جعل الإيمان ملزومًا لعدم اتخاذهم أولياء، فدلّ على أن موالاة الكافر كفر"[1]. فمَن "اتَّخَذَ كَافِرًا وَلِيًّا فَلَيسَ بِمُؤمِنٍ إِذَا اعتَقَدَ اعتِقَادَهُ وَرَضِيَ أَفعَالَهُ"[2]. و"لَو آمَنُوا حَقَّ الإِيمَانِ بِاللّه وَالرُّسُلِ وَالفُرقَانِ لَمَا ارتَكَبُوا مَا ارتَكَبُوهُ مِن مُوَالَاةِ الكَافِرِينَ فِي البَاطِنِ، وَمُعَادَاةِ المُؤمِنِينَ بِاللّه وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيهِ"[3].

السّرّ في التّعبير بالجملة الشّرطيّة:

عبّر عن انتفاء إيمانهم بالجملة الشّرطيّة، تأكيدًا لنفي إيمانهم بذكره على وجه الاستدلال، بتعليقه بأمر مشاهد وهو موالاة الكافرين

قوله جلّ شأنه: ﴿وَلَوۡ كَانُواْ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِيِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمۡ أَوۡلِيَآءَ﴾ جاء التّعبير عن نفي إيمانهم بالجملة الشّرطية للدّلالة على ذلك "بِطَرِيقَةِ القِيَاسِ الاستِثنَائِيِّ، لِأَنَّ المُشرِكِينَ أَعدَاءُ الرَّسُولِ فَمُوَالَاتُهُم لَهُم عَلَامَةٌ عَلَى عَدَمِ الإِيمَانِ بِهِ"[4]، فعبّر الجملة الشّرطية المصدّرة بـ (لو) لما فيها من الدّلالة على الاستدلال، والاستدلال مستفاد من أنّه علّق شيئًا بشيء، فاستدلّ على أمر خفيّ، وهو (انتفاء إيمانهم) بأمر مشاهد وهو اتّخاذهم الكافرين أولياء، فنفى الإيمان بالنّظر إلى سلوكهم المشاهد، وفائدة ذلك تأكيد مضمون الجملة.

السّرّ في التعبير عن الموالاة بالاتخاذ:

الاتّخاذ أبلغ في الدّلالة على قوّة الولاء، إذ يبيّن أنّهم اجتهدوا في ذلك وقصدوه

في قوله ﷻ: ﴿مَا ٱتَّخَذُوهُمۡ أَوۡلِيَآءَ﴾ عبّر عن موالاتهم المشركين بالاتّخاذ، أي اتّخذوا المشركين مجتهدين في ذلك[5]. ولم يقل: (ما والَوهم) لأنّ الاتّخاذ فيه اجتهاد ورغبة وقصد، فعبّر به للنّص على قصديّتهم في ذلك، ورغبتهم فيه، لينفي أيّ حجّة قد تُدّعى

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/121، والسعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 241.
(2) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 6/254.
(3) الرازي، مفاتيح الغيب: 12/413، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 3/165.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 6/295.
(5) البقاعيّ، نظم الدرر: 6/267.

كالاضطرار وغيره، فهم قد تولوهم قصدًا ورغبة ونفورًا من الإيمان لاتّحادهم في ذلك الاعتقاد.

فائدة الاستدراك:

استدراك لبيان سبب موالاتهم الكافرين

قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ جملة مستأنفة بيانًا "لحالهم، وسبب تركهم موالاة المؤمنين، فذكر أنّ كثيرًا منهم خارجون متمرّدون على الحقّ بسبب ما في قلوبهم من حقد وحسد"[1].

علّة نسبة الفسق للأكثر دون الجميع:

نسب الفسق لأكثرهم لأنّ بعضهم قد آمن

قال تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ ولم يقل: (ولكنّهم فاسقون) فخصّ "الكثير منهم بالفسق؛ إذ فيهم قليل قد آمن"[2]، ولأنّه تعالى بعلمه الغيب علم أنّ بعضهم سيؤمنون[3]، وفي الوصف بالأكثريّة دون الجميع "نرى إنصافَ القرآنِ بيّنًا واضحًا؛ إذ لم يرمهم جميعًا بالفسوق عن أمره"[4].

وضع الظاهر موضع المضمر:

كرّر اللفظ ولم يضمر لطول الفاصل، زيادة في البيان

قوله ﷻ: ﴿وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ﴾ وضع الظّاهر موضع المضمر فلم يقل: (ولكنّهم فاسقون)؛ لتقدّمه في الآية السّابقة في قوله تعالى: ﴿تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ﴾ فلمّا طال الكلام أعاده[5]. وَالْمُخبَرُ عَنهُ أَوَّلًا هُوَ الكَثِيرُ، وَالضَّمَائِرُ بَعدَهُ لَهُ، وَلَيسَ المَعنَى. وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِن ذَلِكَ الكَثِيرِ. وَلَكِنَّهُ لَمَّا طَالَ أُعِيدَ بِلَفظِهِ[6]. "فَقَد أُعِيدَتِ النَّكِرَةُ نَكِرَةً وَهِيَ عَينُ الأُولَى"[7].

---

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 5/2322.
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/225، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/340.
(3) الهرري، حدائق الروح والريحان: 7/432.
(4) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 5/2322.
(5) السيوطي، قطف الأزهار: 2/824.
(6) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/340، وابن عادل، اللباب في علوم الكتاب: 7/473.
(7) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 6/296.

إيثار التّعبير بالفسق بعد الوصف بانتفاء الإيمان:

دلالـــةً عـلى أنّ فـسـقـهـم هـو الـحـامـل لـهـم عـــلى مـــوالاة الكافرين

في قوله جلّ شأنه: ﴿وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ﴾ بعد نفي إيمانهم بالجملة الشّرطيّة وصفهم بالفسق، ولم يقل: (ولكن كثيرًا منهم كافرون، أو لا يؤمنون)؛ لأنّه أراد أن ينبّهَ "بوضع الفسق موضع عدم الإيمان على أنّه الحامل عليه"[1]؛ فعلة موالاتهم الكافرين وانتفاء الإيمان عنهم هو ما اتّصفوا به من صفة الفسق.

إيثار الوصف المشتقّ في التّعبير عن الفسق:

وصفهم باسم الفاعل للدّلالة عـــلى تـمـكّـن الـوصـف منهم وثباته فيهم

في قوله جلّ شأنه: ﴿وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ﴾ عبّر عن فسقهم باسم الفاعل للدّلالة على أنّهم "متمكّنون في خلق المروق من دوائر الطّاعات"[2]، فوصفهم بالوصف المشتق ليدلّ على تمكّن الفسق منهم، فلم يعبّر عنه بالفعل، فلم يقل: (ولكنّ كثيرًا منهم يفسقون)؛ لأنّ الفعل يدلّ على الحدوث، وهو أراد بيان ثبات هذا الوصف لهم وتمكّنه منهم فأورده بالاسم.

(1) البقاعيّ، نظم الدرر: 6/268.
(2) البقاعيّ، نظم الدرر: 6/268.

الجُزْءُ السَّابِعُ

﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ ۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾ [المائدة: 82]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

بعد أن بيّن أحوالهم الاعتقاديّة والسّلوكيّة بين هنا أحوالهم مع المسلمين

إنّ اللّه جلّ شأنه لمّا حاجّ أهل الكتاب، وذكر أنهم اتخذوا الدين هزوًا ولعبًا، وأنّهم قالوا: يد اللّه مغلولة، وأنهم قتلوا رسلهم تارة، وكذبوهم أخرى، وأنّ النصارى منهم اعتقدوا عقائد زائفة، ذكر هنا أحوالهم في عداوتهم للمؤمنين، ومحبّتهم لهم[1]. فهذه "الآية تعليل لما قبلها، كأنه قيل: هب أنهم لا يؤمنون باللّه والنّبي، وذلك لا يقتضي موادّة المشركين فلِمَ والَوهم حينئذ؟ فقيل: لأنّ الفريقين اجتمعوا في أشدّية العداوة للذين آمنوا"[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿لَتَجِدَنَّ﴾: اللّام واقعةٌ في جواب قسم محذُوف، تقديرُهُ (أُقسِمُ لَتَجِدَنَّ)، والجذرُ اللُّغويُّ لهذه الكلمة من الفعل (وَجَدَ)، وهُو عند الأصفهانيّ على أضرب: حسّيٌّ، وشهوانيٌّ، وغضبيٌّ، وعقليٌّ[3]، وعند ابن فارس "الواو والجيم والدَّال، يدلُّ على أَصلٍ واحدٍ، وهو الشَّيُ يُلفيه"[4]، وهي في الآية بمعنى العِلم، ولهذا الفعل أنواعٌ مُتعدّدةٌ، ممّا يدخُل تحت باب اتّفاق اللّفظين والمعنى مُختلفٌ، ويُفرّقُ بينها المعنى والسّياق الّذي تأتي فيه، فضلًا عن بعض الدّلائل اللُّغويّة كاللُّزوم والتّعدّي، ومنهُ قولك "وجدتُ عليه من المَوجِدة،

(1) الرازي، مفاتيح الغيب: 12/413، والهرري، حدائق الروح والريحان: 8/8.
(2) البقاعيّ، نظم الدرر: 6/269.
(3) الرّاغب، المفردات: (وجد).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (وجد).

ووجدتُ إذا أردتُ وجدان الضّالَّة، وأشباهُ هذا كثير"[1]، ومعنى هذا أنّ الفعل (وَجَدَ) لهُ نظائرُ أخرى، غيرَ كونه فعلًا قلبيًّا يقينيًّا، يدُلُّ على العِلم، فقد يكونُ بمعنى الغضب النَّفسِيّ، وقد يكونُ بمعنى العُثور على الضّالّة، وغير ذلك.

2) ﴿أَشَدَّ﴾: من شَدَّ، والشَدُّ الحِمل، والشِّدَّةُ الصّلابةُ والنّجدةُ، وثباتُ القلب، والأشُدُّ أن يبلغَ الرّجلُ الحِنكةَ والمَعرفةَ[2]، وهو المُراد في الآية، ولكن على وجه السَّلب، لأنَّ الموصُوفَ به هُمُ اليهودُ والمُشركُون.

3) ﴿ٱلۡيَهُودُ﴾: اشتقاقُه من هادُوا أي تابُوا[3]، وهِيَ تسميّةٌ حقيقيّةٌ لهم، بخلاف اسم النّصارى؛ ، فقد سُمُّوا بذلك لكونهم أولاد ابنِ يَعقُوبَ يَهُودَا، أو لكونهم هادُوا وتابُوا عن عبادة العِجل.[4].

4) ﴿مَّوَدَّةً﴾: (ودد): المَوَدَّة: الحبّ، ويَكُونُ فِي جَمِيعِ مَداخِل الخَير، وَدِدتُهُ أَوَدُّهُ: أَحبَبتُهُ[5]، "الوُدّ: الحُبّ، والاسم المَوَدّة"[6].

5) ﴿نَصَرَىٰۚ﴾: هُم قَومُ عِيسى عليه السلام، واشتقاقُ لفظ (نَصَارَى)، من الجذر (نَصَرَ): يدُلُّ على إتيانِ خَيرٍ وإيتائه"[7]، وقيل: في تسميتهم (نَصَارَى)؛ أنَّهُم تَسَمَّوا بقريةٍ يُقالُ لها النّاصرة بفلسطين، كان عيسى ابنُ مريم ينزلُها[8].

6) ﴿قِسِّيسِينَ﴾: جمعٌ مُفردُه (قِسّيسٌ)، وهُو "العالمُ العابدُ من رُؤُوس النّصارى"[9]، وهُو المُراد في الآية، وأمّا من جهة الأصلِ، فمِن قَسستُ الشَّيءَ وقَصَصتُهُ إذا تتبّعتُهُ؛ فالقسّيسُ سُمّي بهذا لتتبُّعه كتابَه، وآثار معانيه[10]، وقيل: إنّ (القسّيس) مَن بقي مُحافظًا على دينه، بعد أن ضيّعت النّصارى دينَها[11]، ويُطلق هذا الاسمُ على رئيس النّصارى، قال

(1) سيبويه، الكتاب: 1/24.
(2) الخليل، العين: (شد).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (هود).
(4) الهرويّ، تفسير حدائق الرّوح والرّيحان: 8/13.
(5) الأزهري، تهذيب اللّغة، وابن منظور، اللسان، والفيومي، المصباح المنير: (ودد)، وابن فارس، مقاييس اللغة: (ودّ).
(6) الصّعيدي، الإفصاح في فقه اللغة: 1/129.
(7) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نصر).
(8) ابن جرير، جامع البيان: 2/145.
(9) الرّاغب، المفردات: (قسس).
(10) ابن عزيز، غريب القرآن: 1/385.
(11) السّمين، الدرّ المصون: 4/390.

الرّاغب الأصفهانيّ: "إنّ أصلَ القُسِّ تتبّعُ الشّيء وطلبُهُ بالليل وغيره: القَسُّ بالفتح، تتبُّع الشّيء، وسُمّي عالمُ النّصارى قسّيسًا، لتتبُّعِهِ العلمَ، ومن هذا المعنى قول رُؤبة بن العَجَّاج:

أَصبَحنَ عَن قَسِّ الأَذَى غَوَافِلَا *** يَمشِينَ هَونًا حُرَّدًا بَهَالِلَا[1].

7) ﴿وَرُهْبَانًا﴾: مُشتقٌّ من الرَّهبَة، والرُّهبُ مَخَافةٌ معَ تحرُّزٍ واضطرابٍ... والتَّرَهُّبُ التّعبُّد، وهُو استعمالُ الرَّهبة[2]، وعلى ذلك فالرُّهبان في الآية يُمثّلُون القسم الثّاني من مُتعبّدي النّصارى؛ ورهبانٌ للواحد والجمع، وواحدُ الجمع راهبٌ، ويكونُ الرّاهبُ فاعلًا، نحو قول القائل:

رُهبَانُ مَدينَ والَّذِينَ عَهِدتُهُم *** يَبكُونَ مِن حَذَرِ العَذَابِ قُعُودَا

لَو يَسمَعُونَ كما سَمِعتُ كَلَامَهَا *** خَرُّوا لِعَزَّةَ رُكَّعًا وَسُجُودَا[3]

8) ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾: مِن الفعل (استكبر) بمعنى: تكَبَّر، وعانَدَ، وتجبَّرَ وتعاظَمَ، وامتَنَعَ عن قبُول الحقِّ وتمرَّدَ[4]، أي: لا يستكبرُون عن عبادته، بعدَ ما عَرَفُوا مِنَ الحقِّ، وأذعنُوا لَهُ.

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

إخبار عن معاداة اليهود والمشركين، ومسالمة النّصارى للمؤمنين وبيان علّة ذلك

يخبر اللّه تعالى النبيّ أو كلَّ أحدٍ إخبارًا على جهة التّأكيد أنّ أشدّ النّاس عداوة للمؤمنين، اليهودَ، والذين أشركوا، ولتجدنَّ أقربهم مودّة للمسلمين الذين قالوا: إنّا نصارى، ذلك بسبب أنّ منهم علماء متزهدين وعبّادًا متنسّكين، وأنّهم متواضعون لا يستكبرون عن قَبول الحق، وهؤلاء هم الذين قبلوا رسالة محمّد ﷺ، وآمنوا بها[5].

(1) ديوان رُؤبة بنُ العجّاج: 2/121، وابن منظور، لسان العرب: (قَسَسَ)، برواية أخرى وهي:

يُمسِينَ مِن قِسِّ الأَذَى غَوَافِلَا *** لَا جَعبَرِيّاتٍ وَلَا طَهَامِلَا

(2) الرّاغب، المُفردات: (قسس).

(3) البيتان لكثيرّ عزّة، وفي هذا يقول النّاظم:

وَإِن مُضَارِعٌ تَلَاهَا صُرِفَا *** إِلَى المُضِيِّ نَحوُ لَو يَفِي كَفَى

"أي: إذا تلا (لو) الامتناعيّة، وقع بعدها مضارعٌ لفظًا، فإنّها تَقلبُ زمنه إلى المُضيّ، ويكون مضارعًا في الصّورة والشّكل لا غير، نحو: لو يفي كفى، أي: لو وفّى كفى، أمّا غير الامتناعيّة، فيبقى المضارع معها على حالته صورة وزمنًا"، يُنظر: النّجار، ضياء السّالك، والدّرويش، إعراب القرآن: 2/542.

(4) أحمد مختار، معجم اللّغة العربيّة المعاصرة: 3/195.

(5) لجنة من علماء التفسير، التفسير الميسر: 1/121.

و"هذه الآية نزلت بسبب وفد بعثهم النجاشي إلى رسول الله ﷺ ليروه ويعرفوا حاله، فقرأ النبي ﷺ عليهم القرآن، وآمنوا ورجعوا إلى النّجاشي فآمن، ولم يزل مؤمنًا حتّى مات فصلى عليه النّبي ﷺ "[1]. وفي الآية دليل على أنّ التّواضع والإقبال على العلم والعمل والإعراض عن الشّهوات محمود وإن كان من كافر[2].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

الغرض من الاستئناف:

استئناف لتقرير قبائح اليهود، وتحذير المسلمين من شدّة عداوتهم

قوله تعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْۖ﴾ استئناف مسوق لتقرير ما قبله من "قبائح اليهود وعَراقتهم في الكفر وسائرِ أحوالهم الشنيعة التي من جملتها موالاتُهم للمشركين"[3]، وأفاد الاستئناف بيان مكان عداوة اليهود بالنّظر إلى الخصوم الآخرين؛ تنبيهًا للمسلمين على شدّة خطرهم.

فائدة الفصل:

فصل قصدًا فذلكة لبيان حاصل ما يكنّونه للمسلمين

قوله تعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْۖ﴾ لمّا ذكر في متقدّم الآيات النّهي عن موالاة اليهود والنّصارى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَ﴾ [المائدة: 51]، وقد شنّع من أحوال اليهود ما يظهر عداوتهم للمسلمين، ولم يحكِ عن النّصارى ما يظهر أنّ لهم عداوة، جاء قوله هنا فذلكةً لما تقدّم من ذكر ما لاقى به اليهود والنصارى الإسلام على تفاوت فيه بين الطائفتين، لبيان حاصل ما تكنه ضمائر الفريقين نحو المسلمين، ولذلك فصلت ولم تعطف[4].

---

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/226.

(2) البيضاوي، أنوار التنزيل: 2/140.

(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/71، والصّاوي، حاشية الصاوي على الجلالين: 1/281.

(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 7/5.

عموم المخاطب بالآية:

خاطب كلّ من تظهر له تلك العداوة، إيماء إلى أنّ عداوتهم ظاهرة شاخصة

في قوله جلّ شأنه: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ﴾ خاطب بالفعل (تجدنّ) كلّ سامع؛ "إيذانًا بأنّ حالهم ممّا لا يخفى على أحد من النّاس"[1]. فهو خطاب عامّ لكلّ أحدٍ، لبيان أنّ عداوتهم ظاهرة مشهورة، وفيه دلالة على أنّهم بالغوا في إظهارها.

لامُ القسم ودورُها في تأكيد مضمون الخطاب:

دلالةُ القسم على العداوة الشّديدةِ من اليهود والمشركين، مُقابل المَوَدّة منَ النَّصَارى أو بعضِهِم:

اللّام في (لَتَجِدَنَّ) للقَسَم المحذوف، والتّقدير: (وَاللّهِ لَتَجِدَنَّ أو وعِزَّتنا وجلالنا لَتَجِدَنَّ)، ويأتي التّعبير بالقسم لأهميّةِ المَقَام؛ لأنَّ القَسَم نَوعٌ من أنواع التّوكيد في اللُّغة العربيّة، وفي ذلك إشارةٌ إلى أهميّة الموضُوع، وتوخّي الحذر، وإيلاء الشّأن ما يقتضيه من أهميّةٍ بالغةٍ، و"اعتِناءٍ ببيانِ تحقُّق مضمُونها"[2]، وهو العداوةُ البالغةُ من اليهود والمشركين، مُقابل المَوَدّة منَ النَّصَارى أو بعضِهِم على أرجحِ الأقوالِ، يُؤيّدُ ذلك أنّهُ أكّد الفعلَ (لَتَجِدَنَّ) بنُون التّوكيد الثّقيلة[3]، وحَصَل التّوكيدُ هُنا لدلالة الفعل على الاستقبال؛ لأنّ المُضارعَ إن "كانَ حالًا لم تدخلِ النُّونُ عليه"[4]، وتلك دلالةٌ لطيفةٌ ومُهمّةٌ، لأنّ حُصُولَ العداوة الشّديدة، من اليهود ومنَ الّذينَ أشرَكُوا، كانت موجُودَةً من قبلِ نُزُول الآية، ولكنّهُ لا أمل في زوالها في الزّمن المستقبل من الزّمن الّذي يلي نُزُول الآية، وسيمتدُّ بعدَها في حياة النّبيّ ﷺ إلى أن يلتحق بالرّفيق الأعلى؛ لأنّ الفعل (لَتَجِدَنَّ) يدُلُّ على المُستقبل، بدلالة نُون التّوكيد.

ولا مانع من أن يكُون الخطابُ مُكرّسًا أيضًا، لعلاقة الأمّة بهؤُلاء الأصناف من البشر؛ إذ تأكّد على مدار التّاريخ بأنّهُم لا عهد لهُم ولا

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/71، والقنّوجي، فتح البيان: 4/34.
(2) الآلوسي، رُوح المعاني: 2/7.
(3) يقول المراديّ: "نون التّوكيد مختصّةٌ بالفعل، وقد تكونُ خفيفة أو ثقيلة"، ينظر: المُرادي، الجنى الدّاني، ص: 141.
(4) المراديّ، الجنى الدّاني، ص: 142.

ذمَّة ولا مَوَدَّة في كُلّ مواقف الاحتكاك والمعاملة والصّراع الّذي كان مُحتدمًا بينهُم وبين المُسلمين، باعتبار أنّ ذلك قد كانَ مُتأصّلًا فيهم، وراسخًا في طبَاعهم، ومُتوارثًا بين أجيالهم، غيرَ مُنفكٍّ عنهم.

صيغةُ المضارع وشهادتُها بعداوة اليهود والمشركين المُستمرّة للمسلمين:

دلالة المضارع المبنيّ مع نون التّوكيد المثقّلة:

ثُمّ إنّ الفعل مع نُون التّوكيد يُبنى، والبناءُ نظيرُ الثّبات؛ فالعداوةُ ثابتةٌ من لدُن أولئك لأمّةِ الإسلام، بل هي أشدُّ العداوات وأعمقُها، وآيةُ ذلك أنّه عبّر عنها بأفعل التّفضيل (أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً)، وهو من (عَادَى يُعَادِي)، وهُو فعلٌ مَزِيدٌ، وجاء مَعَهُ بلفظ (أَشَدّ)، لإبراز قُوّة العداوة، ولو كان فعلًا ثُلاثيًّا لجاء على (أفعَلَ) مُباشرة، كقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا ۝١٢٢﴾ [النّساء: 122].

دلالةُ بناء المضارع (لتجدَنَّ) وأفعل التّفضيل (أشدّ) على ثبات العداوة الّتي بلغت أشدَّها

فائدة الإخبار عن حالهم بالوجدان:

في قوله جلّ شأنه: ﴿۞لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً﴾ أخبر عن مكنون عداوتهم بـ ﴿۞لَتَجِدَنَّ﴾ "إيذانًا بأنّ حالهم ممّا لا يخفى على أحد من النّاس"[1]. ويدلّ التعبير بهذه الكلمة على تأكيد عداوتهم؛ "لأنّ النّبي ﷺ يجدها محسوسة واضحة في المعاملات التي تقع بينه وبين اليهود، وبينه وبين المشركين، وما كان من النّصارى معه"[2].

أخبر عن عداوتهم بأنها تظهر لكل أحدٍ؛ بيانًا لظهورها وتأكيدًا لها

دلالة أفعل التّفضيل في وصف العداوة:

في قوله جلّ شأنه: ﴿۞لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً﴾ عبّر تعالى باسم التّفضيل للدّلالة على تفاوت النّاس في عداوتهم، و"المقصود من بيان هذا التّفاوت تخفيف أمر اليهود على النّبيّ ﷺ"[3]، وجاء التّفاوت لكون "القرآن الكريم منصفًا للحقيقة كشأنه دائما، عندما فرق بين النصارى من جانب واليهود والمشركين من جانب"[4].

دلّ على أن الشّرّ يتفاوت، إنصافًا من القرآن، وفيه دلالة على أنّ الجزاء يتفاوت

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/71.
(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 5/2324.
(3) الرازي، مفاتيح الغيب: 12/413.
(4) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 5/2323.

فكان التّعبير من الدّقة بمكان رفيع، وجريًا على عادة القرآن في الإنصاف والعدل.

دلالة وصف العداوة بالأشّد:

اشتدّت عداوتهم لما مرنوا عليه من كثرة المعاصي والكبائر

قوله ﷻ: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ﴾ وصف عداوة اليهود بكونها الأشدّ "لشدّة شكيمتهم وتضاعف كفرهم وانهماكهم في اتّباع الهوى، وركونهم إلى التّقليد وبعدهم عن التّحقيق، وتمرّنهم على تكذيب الأنبياء ومعاداتهم"[1]، وفيه إشعارٌ بصعوبة إجابتهم إلى الحقّ؛ ولذلك قلّ من أسلم منهم[2].

دورُ تقديم لفظ (اليهود):

أشدّيّة عداوة اليهود للمسلمين، وتبعيّةُ المُشركين لهم في ذلك:

جاء في الآية تقديمُ (اليَهُودَ) على (الّذِينَ أَشرَكُوا)، وهُو تقديمٌ من باب الأكثر إلى الأقلّ؛ فإنّ اليهُودَ أشدُّ عداوةً منَ الّذِينَ أَشرَكُوا[3]، وقد عطفَهُم بالواو على اليهود، والعطفُ يُفيد التّبعيّة، وذلك لأنّهم كذلك، في أنّهُم تَبَعٌ لليهود في عدائهم للّذين آمنوا.

مَدحُ النَّصارى بأنّهم أقربُ مودَّةً إلى أهل الإيمان ليس على إطلاقه، وإنّما المُرادُ النّصارى المُسالِمون المُهادِنون:

وفي مُقابل ذلك كلّه، جاءت الجُملة الأُخرى معبرةً عن قُرب المودّة في علاقة المُسلمين بالنّصارى الّذين لم يكُن منهُم "من قتلَ الأنبياءَ، ونصَبَ الحُرُوب والقتال مَعَهُم، ولم يرَوا في مذهبهم القتالَ ولا الحربَ، ولا كانَ منهُم من القول الفُحش ما كان من اليهُود"[4]، وهذا القولُ في حقّ النّصارى ليس على إطلاقه؛ فإنّ هذه الآية: ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰ﴾، نازلةٌ "في النَّجاشيِّ وأصحابه، لمَّا قدِمَ عليهم المُسلمُون في الهجرة الأُولى، حسب ما هو مشهورٌ في سيرة ابن إسحَاق وغيره، خوفًا مِنَ

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 2/140، والآلوسي، روح المعاني: 4/4.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/343.
(3) الرّازي، مفاتيحُ الغيب: 1/4132.
(4) الماتريديّ، تأويلاتُ أهل السّنة: 3/572.

المُشركين وفتنتِهم"[1]، وهو ليس مَدحًا على إطلاقه، إنّما هُو مدحٌ في مُقابله ذمّ بين السّياقين؛ أوّلُهُما قولُه ﴿أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً﴾، وثانيهما ﴿أَقۡرَبَهُم مَّوَدَّةً﴾.

الطّباقُ ودورُهُ في إبراز المعنى:

نَجِدُ بين ﴿عَدَٰوَةً﴾ و﴿مَّوَدَّةً﴾ طباقًا[2]، والمعنى "مُقابلةُ الشّيءِ بِمِثلِهِ الّذي هو على قدر سُمُوّ المُتضادَّين، إذا تقابلا مُتطابقين"[3]، وفكرتُهُ تكمُنُ في مُجاورة الأضداد، أو ما هو قريبٌ من الأضداد، كالوارد في الآية، من تخالُف مَعنَيَي العداوة والمودّة؛ بما يصلُ إلى الأضداد، مع الاحتراز من مُصطلح الأضداد عند اللّغويّين؛ وهو دلالةُ اللّفظ على المعنى وضدّه، كلفظة - (الجَونِ) تُستعملُ للأبيض والأسود - وغيرها، فهذا غيرُ المُراد، بل إنّه غيرُ مَوجُودٍ أصلًا في آي الذّكر الحكيم. وأسلوبُ الطّباق أسلوبٌ رائعٌ، لا يُحسِنُهُ إلّا من أُوتي جوامعَ الكلِم، لأنّ اللّفظةَ تُظهِرُ نَصاعةَ اللّفظةِ الأُخرى وجمالَها، أكثرَ ممَّا لو كانَت مُنفرِدَةً، والعربُ تقولُ: (وبِضِدِّهَا تَتَمَيَّزُ الأشياءُ)، وتقول: (والضِّدُّ يُظهِرُ حُسنَهُ الضّدُّ).

بين العداوة والمَوَدَّة طباقٌ يُؤكّد المعنى، ويُقرِّبُهُ إلى الأذهان في صورةٍ ناصعةٍ بيّنة:

علّة التّعبير عن المؤمنين بالموصول دون الاسم الصّريح:

في قوله ﷻ: ﴿عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ عبّر عن المؤمنين بالاسم الموصول، ولم يقل: (أشدّ عداوة للمؤمنين)؛ لأنّ التّعبير بالموصول دون الاسم الصّريح أظهر في عليّة ما في حيّز الصّلة[4]، فسبب عدائهم للمؤمنين إنّما هو إيمانهم بالنّبوة والبعثة.

التّعبير بالموصول أبلغ للتّصريح بعلة العداء في الصّلة وهي صفة الإيمان

التّكرارُ اللّفظي في الفعل ﴿لَتَجِدَنَّ﴾ ودلالتُه:

عُطِفت جملة ﴿وَلَتَجِدَنَّ﴾ الثانية على جملة ﴿لَتَجِدَنَّ﴾ الأولى،

(1) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 107 - 108/8.
(2) الزّحيلّي، التّفسير المُنير، ص: 7/6.
(3) ابن سنان، سرُّ الفصاحة، ص: 200.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 4/4.

تَـكـرارُ الفعل (لَتَجِدَنَّ) يُشيرُ إلى تأصُّل وصفِ كـلّ فـريـقٍ بما وُصِفَ به:

وهو تَكرارٌ يُبرِزُ التّوكيد، ويُشيرُ إلى أهميّة النّظر في الأمرين؛ النّظر العليم بعداوة هؤلاء، والنّظر العليم بمودّة أولئك.

وصفهم بكونهم أنـصـار الـلـه إشـعـارًا بقرب مودّتهم

دلالة إسناد تسميتهم بالنّصارى إليهم:

قوله جلّ شأنه: ﴿ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰۚ﴾ لمّا ذكر النّصارى عبّر عنهم بالاسم الذي قالوه لأنفسهم، دون اليهود، فلم يقل: (الذين قالوا إنّا اليهود)؛ "للإشعار بقرب مودّتهم، حيث يدَّعون أنّهم أنصار الله، وأَوِدَّاءُ أهل الحقّ، وإن لم يظهروا اعتقاد حقيّة الإسلام"[1]، فما أظهروه من مقولات تصف أنفسهم هو السّبب في تلك المودّة الأقرب.

مـدح الـنّـصارى بـمـا فـيـهـم من صفة الودّ لا من حيث العقيدة والدّين

الوجه في مدح النّصارى وهم أهل شرك:

في قوله: ﴿لَّتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقۡرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰۚ﴾ وصف النّصارى بما ورد في الآية يدلّ على مدحهم، وهذا يثير التّساؤل، فإنّ " كفر النّصارى أشدّ لأنّهم ينازعون في الرّبوبية واليهود أخفّ منهم لأنّهم ينازعون في النّبوة، وأجيب بأنّ مدح النّصارى من جهة قرب مودّتهم للمسلمين، وذمّ اليهود من حيث إنّهم أشدّ عداوة للمسلمين، وذلك لا يقتضي شدّة الكفر ولا عدمها"[2]، فهو ليس مدحًا على الإطلاق، بل هو "مدح في مقابلة ذمّ"[3].

لَـــم يـصِـفِ القرآنُ النّصارى بأنّـهـم (أَوَدُّ)، وهـــو مُـقـتـضى القياس، وإنّما وصفهم بأنّهم أقربُ مـوَدَّة من غيرهم، وشتّانَ بين التّعبيرين:

مُخالَفَةُ القياس في أفعَل التّفضيل ودلالتُه:

والتّعبير بقوله ﴿أَقۡرَبَهُم مَّوَدَّةً﴾، معَ أنَّ الفعلَ (وَدَّ) ثُلاثيّ، وحقُّ صيغة التّفضيل منه أن تأتي على (أفعَل) مُباشرة، إلّا أنّهُ عبّر بـ (مودّة)؛ لأنّ فيها دلالةً، بحيث إنّه لم "يصِفهُم بالوُدِّ، إنَّما جعلَهُم أقربَ منَ اليَهُود والمُشركين"[4]، وجعلَ هذا القُربَ مُتّصِلًا باللّام

(1) الهرري، حدائق الروح والريحان: 8/13.
(2) الصّاوي، حاشية الصاوي على الجلالين: 1/282، والهرري، حدائق الروح والريحان: 8/13.
(3) الخازن، لباب التأويل: 2/69، والهرري، حدائق الروح والريحان: 8/13.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/343.

لشدّته، في قوله (لِلَّذِينَ)، وهي مُتعلّقةٌ بـ (عداوةً) مُقويّةٌ لعملها"[1]، مع أنّ القياس أن يكون بحرف الجرّ (إلى) الدَّالِّ على انتهاء الغاية؛ لقوله ﷺ في الحديث القدسيّ: «وَمَن تَقرَّبَ إِلَيَّ شِبرًا تَقَرَّبتُ إِلَيهِ ذِرَاعًا، وَمَن تَقرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعًا تَقرَّبتُ إِلَيهِ بَاعًا»[2].

تخصيص العداوة والمودّة باللّام:

دلّت اللّام على اختصاص العداوة والمودّة للمؤمنين

في قوله ﷻ: ﴿أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ تعلّقت اللّام في قوله: ﴿لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بلفظَي العداوة والمودّة، للدّلالة "على أنّ عداوة اليهود التي اختصت المؤمنين هي أشدّ العداوات وأظهرها، وأن مودّة النّصارى التي اختصّت المؤمنين أقرب المودّات"[3].

سِرُّ التّعبير بالموصول وصلته:

التّعبيرُ بالموصول وصلته (للذين آمنوا) و(الّذين أشركوا) لبيان عِلّيّة ما في حيّز الصّلة:

وقد عبّر بالاسم الموصُول عن فئة المُؤمنين، بقوله ﴿لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ مرّتين، وعن فئة المشركين ﴿وَٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ﴾ ولم يُعبّر بـ(المُؤمِنِينَ) و(المُشرِكِينَ)، مثلَمَا يتوقّعُ المُتابعُ لسياق الآية، وذلك "للمُبالغة في الذّمِّ، وقيلَ ليكُون على نمطِ قولِهِ (لِلَّذِينَ آمَنُوا)؛ والتّعبيرُ به من دُون المُؤمنين؛ لأنّهُ أظهرُ في عِلِّيَّة مَا في حيّز الصِّلة"[4]، ولعلّ المُبالغة هنا مُتأتّيةٌ مِن أنّ الاسم الموصُول، أعرفُ من المُعرّف بالألف واللّام؛ وهُو أمرٌ مَعهودٌ عند النّحويّين، في ترتيبهم المعارف وفقًا للأعرف؛ فإنّهُم وإن اختلفُوا في أعرف المعارف، كالضّمير والعَلَم وغيرهما؛ فإنّهم يُقدّمون الاسم الموصول، "لأنّه يُعرَفُ بالعين وبالقلب، ثُمّ ما عُرّف بالألف واللّام؛ لأنّه يُعرَفُ بالقلب فقط"[5]، فقولُه إذن ﴿لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أبلغُ وأعرفُ، من قوله (المُؤمِنِينَ)، وقوله ﴿وَٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ﴾

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/108.
(2) البخاري، صحيح البخاري، الحديث رقم: (7536)، ومسلم، صحيح مسلم، الحديث رقم: (2675).
(3) الزمخشري، الكشاف: 1/669.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 2/7.
(5) ابن الأنباريّ، الإنصاف: 2/581.

أبلَغُ وأعرفُ من قوله (المُشرِكِينَ)، وحَريٌّ به أن يكون بليغًا؛ لأنّه كلامُ ربّ العالمين.

سِرُّ العدول عن اسم الفاعل إلى الموصول وصِلته:

اليهودُ والذين أشركوا أعداءٌ لكلّ متّصفٍ بالإيمان ولَو ضَعُفَ إيمانُه، فمن باب أحرى هم أشدُّ عداوة للرّاسخين في الإيمان:

من ناحيةٍ أخرى، فإنّ المؤمنين همُ الّذين تكونُ صفةُ الإيمان فيهم راسخةً عميقةً مُتجذّرَةً، أمّا الذين آمنوا فهم الذين اتّصفوا بالإيمان بأدنى ملابسة، وكذلك الشّأنُ بالنّسبة إلى المشركين والّذين أشركوا. وثمرةُ هذا الاستعمال تبدو في بيان شِدّة عداوة اليهود لكلّ مَن بَدَت منه صفةُ الإيمان، ولو كان إيمانُهُ ضعيفًا، ومِن باب أحرى أنّهم أشدُّ عداوةً للمؤمنين الرّاسخين في الإيمان. وكذلك الّذين أشركوا واتّصفوا بالشّرك بأدنى ملابسة هم في المَرتبة الثانية في كراهية الّذين آمنوا وعداوتهم، ومن باب أحرى أن يكون المشركون الرّاسخون في الشّرك أشدَّ عداوةً وأعمقَ ضغينةً للّذين آمنوا.

سرُّ اختيار التّنكير في لفظ ﴿نَصَٰرَىٰٓ﴾:

ادّعاءُ النّصارى بأنّهم أنصارُ الله قولٌ عريضٌ وزعمٌ تُرَدّدُه الألسنة:

في قوله ﴿ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ﴾، "إشارةٌ إلى أنّهم ليسُوا مُتمسِّكين بحقيقة النَّصرانيَّة، بل ذلك قولٌ منهُم وزَعمٌ"[1]، ولفظُ (نَصَارَى) كلمةٌ نكرةٌ، جمع نَصرَان ونَصرَانَة؛ مثل نَدمَان ونَدمَانة[2]، وكانتِ المُطابقة تقتضي التّعبير بالنّصارى مُقابل اليهود، لكنّهُ أراد هذا المعنى لسببٍ آخر، وهو الإشعارُ "بقُرب مَودَّتِهم، حيثُ يدّعُون أنّهُم أنصارُ الله تعالى، وأَوِدَّاءُ أهل الحقِّ، وإن لم يُظهرُوا اعتقاد حقّية الإسلام"[3].

دلالةُ الرّبط باسم الإشارة ﴿ذَٰلِكَ﴾:

أشار اللّهُ تعالى إلى هؤلاء ﴿ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ﴾، وأنَّ مودَّتهم أقربُ، بقوله ﴿ذَٰلِكَ﴾، وهُو اسمُ إشارة، يُحقّقُ الرّبط بين الجُملتين

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/343.
(2) سيبويه، الكتاب: 3/255.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 2/7.

السّابقة واللّاحقة؛ ليُفيد أنَّ هؤُلاء النّصارى كان من شأنهم كذا وكذا، وهُمُ المُعبَّرُ عنهُم بقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنۡهُمۡ قِسِّيسِينَ وَرُهۡبَانٗا وَأَنَّهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ﴾، وتحتملُ ﴿ذَٰلِكَ﴾ الرّفعَ على الفاعليّة بفعل محذُوف، والرّفعَ على الخبريّة لمُبتدأ محذُوفٍ؛ والرّفعُ على الابتداء، خبرُهُ ما بعدَهُ[1]، والاختيارُ الأخير هو الأرجحُ؛ لشدّة تعلُّقِ ما قبلها، وهم ﴿ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰۚ﴾ بما بعدها، وهُم القسّيسُون والرُّهبان، وهُم بعضُ النّصارى؛ فـ﴿ذَٰلِكَ﴾ مبتدأٌ و(حرفُ الجرّ)، و﴿بِأَنَّ﴾ وما بعدها، في تأويل مَصدر مُتعلّقٍ بمحذُوفٍ خبر، تقديرُهُ (ذَلِكَ بِكَونِهِم قِسِّيسِينَ)، وهذه الجملةُ تعليليّةٌ لما سبقها؛ فإنّ قُرب المودّة منَ الَّذينَ آمنُوا علّتُهُ أنّ منهُم القسّيسين المُتبتّلين، والرُّهبان الّذين يخشَونَ اللّه؛ فيُوادُّون عبادَهُ، وإن كانُوا على غير ملّتهم واعتقادهم، وذهبَ القُونويُّ في حاشيّته على البيضاويّ إلى أنّ السّياق "لم يكتفِ بربط السّبب بقوله (أَقرَبَهُم)، بل اختِيرَ الاستئنافُ للمُبالغة في إفادة التّقرُّر، ولإفادة القصر، كما نبّه عليه صاحبُ (الكشّاف)، في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ٧٨﴾ [المائدة: 78][2].

تعليلُ قُربِ مودّة النّصارى للّذينَ آمنُوا بأنّ منهُم قسّيسين ورُهبانًا، وتقريرُ ذلك بالاستئناف:

فائدة الباء السّببيّة:

في قوله جلّ شأنه: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنۡهُمۡ قِسِّيسِينَ﴾ عبّر بالباء الدّالّة على السّببيّة التي تفيد معنى لام التّعليل، "أي ذلك بسبب أنّ منهم قِسّيسين"[3]، وهو تعليل لسهولة "مأخذ النّصارى وقرب مودّتهم للمؤمنين ﴿بِأَنَّ مِنۡهُمۡ قِسِّيسِينَ وَرُهۡبَانٗا﴾ أي علماء وعبادًا وَأَنَّهُم قوم فيهم تواضع واستكانة ولا كبر فيهم، واليهود على خلاف ذلك"[4].

أفادت الباء بيان سبب قرب النّصارى للمؤمنين

(1) السّمين، الدُّرُّ المصُون: 2/244.
(2) القونوي، حاشيّة القُونويّ على تفسير البيضاويّ، ومعه حاشيّة ابن التّمجيد: 7/539.
(3) الشوكاني، فتح القدير: 2/77، والقنّوجي، فتح البيان: 4/35، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 7/7.
(4) الزمخشري، الكشاف: 1/668، وابن جزي، التسهيل: 1/241.

حِكمةُ تقديم لفظ ﴿قِسِّيسِينَ﴾ على ﴿وَرُهْبَانًا﴾:

تقديمُ القسّيس على الرّاهِب من الصِّدق الوجودي؛ لأنّه أكثرُ خشيةً وتعبُّدًا:

تمَّ عطف لفظ ﴿وَرُهْبَانًا﴾ على ﴿قِسِّيسِينَ﴾، وقِسّيسُ على وزن (فِعِّيلُ) صيغةُ مُبالغة[1]، والرُّهبانُ جمعُ (رَاهِبٍ) اسمُ فاعل من الثُّلاثي، فقدّم القسّيس على الرّاهِب تقديم المُبالغة على غيرها؛ لأنّه أكثرُ خوفًا وخَشيةً وتعُّبدًا من الرّاهب.

دلالةُ عطف جملة ﴿وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ على التّعليل السابق:

اتّصافُ القِسّيسين والرُّهبان بعدم الاستكبار تعليلٌ ثانٍ لقُرب مودّتهم من أهل الإيمان:

أشار العطف بقوله تعالى ﴿وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ إلى أنّ هؤُلاء العُبّاد والعلماء والمُتّبعين لهُم، من صفاتهم الاستكانةُ والتّواضعُ وعدمُ التكبّر، فهُم لا يتجافَونَ عن اتّباع الحقِّ والانصياعِ لهُ، وهذه الجملةُ أيضًا تُفيدُ التّعليل؛ لأنّها معطُوفةٌ على الجُملة التّعليلية الأولى، لأنّ إظهار المودّة وعدم الاستكبار مُتعلّقان أشدّ التّعلُّق؛ فقد نفى عنهُم هذه الصّفة على جهة التّوكيد بـ(أَنَّ)، وفيه دلالةٌ على أنَّهُم لم يستكبرُوا؛ لأنّك إذَا قُلتَ "هو يَفعَلُ، ولَم يَكُنِ الفِعلُ وَاقِعًا، فإنَّ نَفيَهُ: لا يَفعَلُ"[2]، فكان المدحُ مُستَحَقًّا لهم مُنطبقًا عليهم.

علّة الجمع بين (نفي الاستكبار) وذكر المودّة:

انتفاء الاستكبار دليل على اتّباع الحقّ والإقرار به

في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ نفى اللّه تعالى عنهم الاستكبار في معرض علّة كونهم أكثر مودّة؛ للدّلالة على أنّهم لا يستكبرون "عن الإذعان للحقّ إذا لزم، وللحجّة إذا قامت"[3]، وبذلك هم يخالفون اليهود وعبدة الأوثان[4]. وفيه إيماء إلى ذمّ اليهود بأنّهم مستكبرون.

---

(1) إذا دلّ اسم الفاعل على المبالغة والكثرة والتّكرار، وصول المعنى إلى أعلى درجاته، فإنّ صياغته تختلف عمّا سبق الحديث عنه في اسم الفاعل الّذي يدلُّ على مُجرّد الحدث وفاعله، قال سيبويه: "(وأجروا اسم الفاعل إذا أرادوا أن يُبالغوا في الأمر مُجراه إذا كان على بناء فاعل، لأنّه يريدُ به ما أراد بفاعل من إيقاعِ الفعلِ، إلّا أنّهُ يُريد أن يُحدّثَ عن المبالغة، فما هُو الأصل الّذي عليه أكثرُ هذا المعنى: فَعُولُ، وفعال، ومِفعَال وفعلٌ)، سيبويه، الكتاب، ج: 1/110.

(2) المراديّ، الجنى الدّاني، ص: 297.

(3) الماوردي، النكت والعيون: 2/58.

(4) الواحدي، البسيط: 7/496، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 2/140.

السّرّ في ذكر صفة عدم استكبارهم على الخصوص:

خـــص نـفـي الاستكبار بالذّكر لأنّه الأساس في اتّـبـاع الـحـقّ، ولأنّه سبب قائم بـذاتـه وشـامـل لهم جميعًا

في قوله جلّ شأنه: ﴿وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ ذكر ﷻ وصفًا آخر من صفات النّصارى وهو نفي الاستكبار عنهم ضمن الأسباب التي جعلتهم أكثر مودّة للمؤمنين، فخصّه بالذّكر لبيان أهميّته فجعله سببًا قائمًا بذاته[1]، وهي خَصلةُ "شاملة لجميع أفراد الجنس فسببيّتُها لأقربيّتهم مودةً للمؤمنين واضحة"[2]. وإنّما خص الاستكبار بالذّكر، لأنّ أشدّ ما يمنع أحدًا من اتّباع الحقّ إذا ظهر له هو الاستكبار، فإذا زال استكباره كان بعيدًا عن أخلاق التّعصب وغمط الحق، وأقرب إلى الإقرار بفضائل النّاس.

إيثار التّعبير في نفي الاستكبار عنهم بالجملة الاسميّة:

نفى الاستكبار عنهم على وجه التأكيد لمطابقة الواقع

في قوله جلّ شأنه: ﴿وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ "أكّد ﷻ سببيته بـ (أنّ) وبالجملة الاسمية"[3]. وكان الظّاهر أن يُقال: (بأنّ منهم قسيسين ورهبانًا وكلهم متواضعون)، فعدل إلى ﴿وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ بإعادة (أنّ) لمزيد التّحقيق بالتّعبير عن ذلك بالجملة الاسميّة التي تثبت المعنى على وجه القوّة والثبات[4].

فائدة نفي الاستكبار عنهم بالجملة الاسمية:

نفى الاستكبار عنهم بالجملة الاسميّة للدّلالة عـلى نـفـيـه على وجه التّأكيد

في قوله جلّ شأنه: ﴿وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ عبّر عن نفي الاستكبار عنهم بالجملة الاسميّة المؤكّدة بـ (إنّ) للدّلالة على خلوّهم من صفة الاستكبار على وجه التّأكيد.

دلالة جعل المسند في الاستكبار المنفي فعلًا مضارعًا:

في قوله جلّ شأنه: ﴿وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ نفى الاستكبار بالفعل المضارع؛ تصويرًا لحالهم في عدم الاستكبار[5]، وذلك يدلّ

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 5/2327.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/72.
(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 5/2327.
(4) الطيبي، فتوح الغيب: 5/457.
(5) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 5/2327.

نفى الاستكبار بالفعل المضارع للدّلالة على استمرار النّفي، إظهارًا لتواضعهم وقبولهم الحقّ

المودّة نقيض العداوة، والحب نقيض البغض، والسياق في العداوة والمودّة فآثره

على "مزيد التّحقيق والدّلالة على الاستمرار، وأنّهم قوم عادتهم التّواضع"[1]، فانتفاء الاستكبار متجدّد مستمر، إثباتًا لتواضعهم على وجه التّأكيد.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

المودّة والمحبّة:

"الحبّ يكون في مَا يُوجِبهُ ميل الطباع وَالحكمَة جَمِيعًا، والودّ ميل الطّباع فَقَط، أَلا ترى أَنَّك تَقول: أحبّ فلَانا وأودّه، وَتقول: أحبّ الصَّلَاة وَلَا تَقول: أودّ الصَّلَاة"[2]. "وكلّ (عَداوة) و(عدُوّ) وجمعه (أعداء) فهي بمعنى ضدّ المودّة"[3].

وإنّما آثر استعمال لفظ المودّة في قوله تعالى: ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً﴾ دون غيره؛ لأنّ المودّة نقيض العداوة، وأمّا المحبة فنقيضها البغض، فلمّا ذكر عداوة اليهود وأراد أن يذكر أن النّصارى بالضدّ من ذلك عبّر بنقيض العداوة وهو المودّة، وليس في معرض ذكر محبّتهم ولا بغضهم.

(1) الطيبي، فتوح الغيب: 5/457.
(2) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 122.
(3) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (عدو).

﴿وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعۡيُنَهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلۡحَقِّۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ٨٣﴾

[المائدة: 83]

لَمّا وصفهم بالعلم والعبادة والتّواضع بيّن هنا رقّة قلوبهم واتّباعهم الحق

لَمّا بيّن في الآية السّابقة أنّ أقرب النّاس للمؤمنين الذين قالوا إنّا نصارى؛ للين جانبهم ورقّة قلوبهم وقلة حرصهم على الدّنيا، ألحقه بقوله عزّ شأنه: ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعۡيُنَهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ﴾؛ لبيان "رقّة قلوبهم وشدّة خشيتهم ومسارعتهم إلى قبول الحقّ وعدم تأبيهم عنه"[1]. وقد تَضَمَّنَت الآية السّابقة وَصفَهُم بِأَنَّ فِيهِمُ العِلمَ وَالعِبَادَةَ وَالتَّوَاضُعَ، وَصَفَهُم هنا بِالانقِيَادِ لِلحَقِّ وَاتِّبَاعِهِ وَالإِنصَافِ[2].

شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

1) ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ﴾ السّمعُ "حِسُّ الأذن... والسَّمعُ أيضًا الأُذن، والجمعُ أَسماعٌ. والمُراد بالسّمع "هاهنا القَبُولُ والعمَلُ بما يَسمَعُ؛ لأَنّه إذا لم يَقبَل ولم يَعمل فهو بِمَنزِلَة من لم يَسمَع"[3].

2) ﴿ٱلرَّسُولِ﴾ من الفعل (رَسَلَ)، و" أصلُ الرّسل الانبعاثُ على التُّؤدة، ويُقال ناقةٌ رَسلَةٌ، سهلةُ السّير، وإبلٌ مَرَاسِيلُ، مُنبَعثة انبِعَاثًا سَهلًا، ومنه الرَّسولُ المُنبعِثُ"[4]، فالرّسولُ هوَ المبعوثُ من الله تعالى إلى خلقِه.

3) ﴿تَرَىٰٓ﴾: الفعل منه (رَأَيَ)، حصل فيه إعلالٌ، فصار (رَأَى)، والفعلُ هُنا للمُخاطَب أنتَ (تَرَى)، "والرّأيُ مُنتهى البصر،

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 2/140.
(2) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 3/168.
(3) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 8/162.
(4) الراغب، المفردات: (رسل).

ورأيُ العين، مُنتهى بصرها، والرُّؤية رُؤيةُ العين"[1]، ولهذا الفعل أنواعٌ كثيرةٌ؛ منها الرُّؤية العينيّةُ البصريّةُ، وهي المُرادة في الآية؛ ومنها رُؤية القلب؛ ومنها رُؤيا المنام، وغير ذلك.

4) ﴿أَعۡيُنَهُمۡ﴾: جمعُ تكسير، مُفرده (عينٌ)، ولها معانٍ عديدة في كلام العرب؛ كالذّهب، ومَنبَع الماء، والجاسوس، وغيرها، ولعلّ أوَّلها عينُ الإنسان، وهي الجارحة[2]، وهي المُرادة المقصودة في الآية؛ بدلالة قوله ﴿تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ﴾.

5) ﴿تَفِيضُ﴾: من "فاضَ الإناءُ ونحوُهُ امتلأ حتّى طفح، زاد عن حدّ الامتلاء فسَالَ... فاضَت عينُهُ سالَ دمعُها"[3]، ولفظةُ (الدَّمعِ) مُتعلّقةٌ بما سبقها من العين، مُكملّةٌ في سياقها، ومعنى الدّمع دمعُ العين، وما يسيلُ منها، والدّمعةُ واحدةُ الدّمع، القطرةُ منه[4].

6) ﴿ٱلدَّمۡعِ﴾: (دَمَعَ) أَصلٌ يَدُلُّ عَلَى مَاءٍ أَو عَبرَةٍ، ومنه الدَّمعُ: مَاءُ العَينِ، وهو اسم للسّائل من العين[5].

7) ﴿عَرَفُواْ﴾: لهُ أصلان في كلام العرب، الثّاني ما لهُ تعلُّقٌ باللّفظ الوارد في الآية، وهو "المَعرِفَةُ والعِرفَانُ، تقولُ عَرَفَ فُلانٌ فُلانًا عِرفَانًا وَمَعرِفَةً، وهذا أَمرٌ مَعرُوفٌ، وهذا يدُلُّ على ما قُلنَاهُ من سُكُونِه إليه؛ لأَنّ من أنكَرَ شيئًا تَوَحَّشَ منهُ، ونَبَا عنهُ"[6]، والمُرادُ في هذا السّياق ما عَرَفوا وأيقنوا من الحقّ، وأنِسُوا به، وهذه المعرفةُ مُتعلّقةٌ بـ(الحَقِّ).

8) ﴿ٱلۡحَقِّ﴾: يدُلُّ على إحكام الشَّيء وصِحَّته، وهو نقيضُ الباطل، ثُمَّ يرجعُ كُلُّ فرع إليه بجودة الاستخراج، وحُسن التّلفيق، ويُقال: حقَّ الشَّيءُ: وَجَبَ.[7]، والحقُّ هنا الدِّينُ، وما أنزلَ اللّه لعباده عن طريق أنبيائه ورُسُلِه وبينَ الحقّ والصّدق وشائجُ وعلائقُ، إلاّ "أَنّ الحقَّ أَعمُّ، لأَنَّه وقوعُ الشَّيء في موقعه الَّذي هُو أولى به، والصّدقُ الإخبارُ عن الشَّيء، على ما هُو به، والحقُّ يكون إخبارًا وغيرَ إخبار[8]؛ لذا لا يحسُنُ في هذا الموضع إلّا كلمةُ

(1) ابن دريد، جمهرة اللّغة: 1/235.
(2) الراغب، المفردات: (عين).
(3) أحمد مختار، معجم اللّغة العربيّة المعاصرة: 3/759.
(4) الجوهريّ، الصّحاح: (دمع).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، وابن منظور، لسان: (دمع).
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عرف).
(7) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حقّ).
(8) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 48.

الحقّ؛ فهي المُناسِبةُ لفظًا ومعنًى؛ لما للحقّ من سَعةٍ وعُمُوم، قُبالة التّقييد المُنبِئ عن الصِّدق.

9) ﴿فَٱكۡتُبۡنَا﴾: من الفعل المجرّد (كَتَبَ)، والكتابةُ معروفةٌ، والقصدُ منها التّدوينُ، وقد تأتي بمعنى الفرض، إلّا أنّ الأصلَ فيه أن تجمعَ شيئًا وتضُمّهُ إلى شيءٍ آخر[1]، والمعنى هنا: اجمَعنا مع الشّاهدين، فقد جاءتِ اللّفظةُ على أصلها اللُّغويّ.

10) ﴿ٱلشَّٰهِدِينَ﴾: المعنى اللّغويُّ لـ(شهد) حَضَرَ، أمّا الشّهادةُ فهي "بيانُ الحقّ، سواءٌ كان عليه أو على غيره، وخبرٌ قاطعٌ يختصُّ بمعنًى، يتضمّنُ ضررَ غير المخبر؛ فيخرجُ الإقرارُ، وقيل إقرارٌ مع العلم وثباتِ اليقين، والإقرارُ قد يَنفكُّ عن ذلك"[2].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

هذه الآيةُ تُتَمِّمُ صفاتِ الذين قالوا: إنّا نصارى، حيثُ وصَفَهم الله سبحانه أنّهم إذا سمعوا القرآنَ المُنزل على الرّسول ﷺ، بما فيه من بلاغة وروعة وإعجاز، تفيضُ أعينُهم من الدّمع تبصُّرًا بالحقّ، وتأثُّرًا بأنواره، وانبهارًا بأسراره، فيرفعُون أكُفّ الضّراعة لله، مُقرّين بإيمانهم الّذي غمَرَ قلوبَهم، وفاضَت به دموعُهم، وامتلأَت به جوانحُهُم خشيةً وتقوًى، سائلين المولى أن يجعلَهم مع الشّاهدين من أمّة الرّسول الأكرم ﷺ، وذلك هو سبيلُ الفلاح، وطريقُ النّجاة، الّذي به ينالُون الحُسنَيَين، ويكونُ لهم به الأجرُ مرّتين، ثمّ في الآية تلميحٌ إلى المسلمين أنفُسِهم بضرورة الثّبات على دينهم، ومُلازمة كتابهم؛ لأنّه إذا كان هذا هو حال غيرِ المسلمين في تأثُّرهم ومعرفتهم الحقّ، فحَرِيٌّ بأهل الإسلام أن يكُونُوا أكثرَ تأثُّرًا، وأشدّ تمسُّكًا بكتابهم الحنيف، ومنهج نبيّهم الشّريف.

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغة العطف:

قوله جلّ شأنه: ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعۡيُنَهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ﴾ عطف على قوله تعالى: ﴿لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ﴾، "أي ذلك بسبب أنّهم لا يستكبرون، وأنّ أعينَهم تفيض

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة: (كتب).
(2) الكفويّ، الكليّات، ص: 527.

عطف لبيان أسباب أخرى لقرب مودّتهم، وبيانًا لرقّة قلوبهم

من الدّمع عند سماع القرآن، وهو بيانٌ لرقّة قلوبهم وشدّة خشيتهم ومسارعتِهم إلى قبول الحقّ وعدم إبائهم إيّاه"[1]، فهو من تمام سبب مودّتهم للمؤمنين.

تأثّر القسّيسيون والرُّهبان بالقرآن ففاضت أعيُنُهم رقّةً وخشوعًا:

هذه الآية معطوفةٌ على الآية الّتي سبقتها، بدلالة حرف العطف (الواو)، فقد وَصَفَ أولئك الباكين المُتبتّلين من النّصارى بأنَّ منهُم قسّيسين ورُهبانًا، وأنّهم لا يستكبرُون، وبأنّهُم إذا سمعُوا ما أُنزل إلى الرّسول ﷺ ، تأثّرُوا به وتفاعلُوا معه، والسّياق يبرزُ لنا هذه المشاعرَ المُتدفّقةَ بجمالٍ وروعةٍ وإيجازٍ.

دلالةُ ربط الكلام بأداة الشّرط (إذا):

القسّيسون الرُّهبانُ هم البكّاؤون الذين تسيلُ دموعهم كلّما سمعوا الذِّكر المُنزَل:

قوله: ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعۡيُنَهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ﴾، بُدئ السّياقُ بظرفٍ مُتضمّنٍ معنى الشّرط؛ فإنّهُم في أوان سماعهم ما ينزل على الرّسول ﷺ من الكتاب المُحكَم، والآياتِ الباهرة المُعجزة، ترى أعيُنَهم تفيضُ من الدّمع، و(الواوُ) في سَمِعُوا ضَميرٌ مُتّصلٌ، يعُودُ على ﴿ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰۚ﴾ في الآية السّابقة، وهذا وجهُ ربط حجاجيٍّ بين الآيتين.

السّرّ في إيجاب تخصيص عموم الضّمير:

وجب تخصيصه إذ ليس كلّ النّصارى يفعل ذلك

قوله جلّ شأنه: ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ﴾ عبّر بالضّمير الدّالّ على العموم، ولكنّه في الآية يدلّ على الخصوص فهو يعود على "مَن آمن من هؤلاء القادمين من أرض الحبشة، إذ هم عرفوا الحق وقالوا آمنا، وليس كلّ النصارى يفعل ذلك"[2]، فقد " أَخبَرَ عَنهُم بِمَا يَقَعُ مِن بَعضِهِم"[3]، إكرامًا للجميع بفعل البعض، وفيه تربية ودعوة للذين لم يفعلوا ذلك وإلهاب لهم لسماع القرآن.

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/72.
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/226 - 227.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/345.

وهنا نكتة بالغة اللّطف وهي أنّ القرآن عندما يذمّ فإنّه يخصّص ويستثني إنصافًا منه، وعندما يمدح ويثني فإنّه يعمّم إكرامًا وإفضالًا منه.

السّرّ في التّعبير عن القرآن بما أنزل:

قوله جلّ شأنه: ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ﴾ آثر تعالى أن يعبّر عن القرآن بالاسم الموصول في قوله تعالى: ﴿مَآ أُنزِلَ﴾، دون الاسم فلم يقل: (إذا سمعوا القرآن)؛ إظهارًا إلى ما في حيّز الصّلة، وهو صفة التّنزيل، إشارة إلى أنّهم آمنوا بكونه نازلًا من اللّه تعالى، ولو ذكره بالاسم الصريح (القرآن) لفات هذا المعنى.

إظهارًا لصفة التنزيل، تعبيرًا عن إيمانهم بكونه نازلًا من الله تعالى

إيثار التّعبير بلفظ الرّسول دون النّبي:

في قوله جلّ شأنه: ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ﴾ آثر لفظ الرّسالة على النّبوّة إيماءً إلى كونهم آمنوا بهذه الصّفة، وهي كونه مرسلًا من اللّه تعالى، وأنّهم مشمولون بخطاب التّكليف الوارد بالرسالة، ولو عبّر بلفظ النّبوّة لفات هذا المعنى.

إيماءً إلى إيمانهم بكونه مرسلًا من الله تعالى، وأنّهم مخاطبون بالتّكليف

مَرجِعُ ضمير الخطاب في قوله: ﴿تَرَىٰٓ﴾:

قوله ﴿تَرَىٰٓ أَعۡيُنَهُمۡ﴾ خطابٌ للرّسول ﷺ؛ أي: أنّك ترى إن كانتِ الرُّؤيةُ منه، أو هو خطابٌ لكلّ أحدٍ يَصِحُّ أن يرى[1]، والألفُ واللّامُ في (الرَّسُولِ) عهديّةٌ؛ فإنّ لفظ (الرَّسُولِ) يصلُحُ لكلّ رسُول، لكنَّ المعهُود والمعرُوف أنّه رسُولُنا الكريم محمّد ﷺ، والرُّؤيةُ هُنا رُؤيةُ العين، ففي لفظ (تَرَى) فعلٌ فاعلُهُ مُستترٌ وجوبًا تقديره (أَنتَ)، وقوله (أَعيُنَهُم) مفعولٌ به، وهو دليلٌ على أنّ الرُّؤية هنا بَصَريّة، من خلال مشاهدته ﴿أَعۡيُنَهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ﴾، والكلامُ مُكرّسٌ أساسًا للّذين قالوا: إنّا نصارى، والمرادُ هنا المسالمون منهم الذين يرغبون في العيش بسلام إلى جوار المسلمين.

الخطابُ لرسول الله ﷺ، وكلّ من يتأتّى خطابُهُ؛ إيذانًا بأنّ أمرَهم مشهورٌ يعرفُهُ كلُّ من يُبصر، وجاء المضارعُ لتصوير حالتهم:

(1) بن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/10.

العدول عن الإخبار إلى الرّؤية:

تأكيدًا لمضمون الـكـلام؛ لأن الـرّؤيـة أثبتُ أسباب العلم

في قوله جلّ شأنه: ﴿تَرَىٰٓ أَعۡيُنَهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ﴾ أخبر عن تأثرهم بسماع القرآن بالرّؤية، ولم يقل: (وإذا سمعوا القرآن أعينهم تفيض من الدّمع) تأكيدًا بمضمون الخبر؛ إذ لم يعبّر عنه بالإخبار المباشر "بل عبّر عنه بالرّؤية المبصرة التي هي أقوى أسباب العلم الحسّيّ"[1]، وفيه دلالة على أنّ فيض دموعهم يقع أمام كلّ أحد، وأنّهم مشهورون فيه، مبالغة في شدّة خشوعهم ورقّة قلوبهم.

سِرُّ التّعبير بجمع القِلّة ﴿أَعۡيُنَهُمۡ﴾:

تـخـصـيـص جـمـع الـقـلّـة (أعـيُن) بالأعيُن الـبـاصـرة، وتخصيصُ جمع الـكـثرة (عـيـون) بعيون الماء

﴿أَعۡيُنَهُمۡ﴾: أعيُن: على وزن (أَفْعُل) جمعُ تكسير، مُفرده (عَينٌ)، يُفيد القلّة، وهذا ديدَنُ القرآن الكريم في تخصيص جمع القلّة (أعيُن) بالأعيُن البَاصرة، وتخصيص جمع الكثرة (عيون) بعيون الماء، وليس معناه أنّ النّصارى المتَحَدَّث عنهم في هذا السياق عددُهم قليلٌ محدودٌ؛ لأنّ الاستقراءَ يدلُّ على أنّ القرآن خصّص لفظ (الأعيُن) بالأعين الباصرة حتّى لو كان السّياق يدلُّ على كثرة المُتَحَدَّث عنهم مثل قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ ذَرَأۡنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ لَهُمۡ قُلُوبٞ لَّا يَفۡقَهُونَ بِهَا وَلَهُمۡ أَعۡيُنٞ لَّا يُبۡصِرُونَ بِهَا﴾ [الأعراف: 179]، وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَانَتۡ أَعۡيُنُهُمۡ فِي غِطَآءٍ عَن ذِكۡرِي وَكَانُواْ لَا يَسۡتَطِيعُونَ سَمۡعًا ١٠١﴾ [الكهف: 101]، ومعلومٌ من آياتٍ أخرى من الذّكر الحكيم أنّ الذين ذرأهم الله تعالى لجهنّم، وكانت أعيُنُهم في غطاء هم أكثرُ بكثير من الّذين آمنوا.

المجاز في إسناد الفيض للعيون:

في قوله ﷻ: ﴿أَعۡيُنَهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ﴾ أسند الفيض للعيون، والعين لا تفيض، بل تمتلئ بالدّموع، والدّموع هي التي تفيض، فوضع "الفيض الذي هو من الامتلاء موضع الامتلاء، وهو من إقامة

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 5/2328.

المسبَّب مقام السّبب"[1]؛ "لِأَنَّ الفَيضَ مُسَبَّبٌ عَنِ الامتِلَاءِ، فَالأَصلُ: تَرَى أَعيُنَهُم تَمتَلِئُ مِنَ الدَّمعِ حَتَّى تَفِيضَ"[2]، وإنّما عبّر بذلك مبالغة في شدّة بكائهم؛ حيث إنّها تفيض مباشرة، كأنّها ممتلئة دائمًا، أو أنّه تعبير عن سرعة بكائهم بحيث يقع الفيض مباشرة.

أسند الفيض للعيون، وهو للدّموع، تعبيرًا عن امتلاء العين بالدّموع لكثرتها

دلالةُ المجاز المُرسَل في قوله ﴿تَرَىٰٓ أَعۡيُنَهُمۡ تَفِيضُ﴾:

التّعبيرُ بفيض الأعين مجازٌ، علاقتُهُ الامتلاء[3]. جاء في حاشية الشّهاب الخفاجيّ: "الفيضُ انصبابٌ عن امتلاء، فوُضع مَوضعَ الامتلاءِ للمُبالغة، أو جُعلت أعيُنُهم من فَرط البكاء كأنّهَا تَفِيضُ بأنفُسِهَا"[4].

الفيضُ انصبابٌ عن امتلاء، جُعلت أعيُنُهم من فَرط البكاء كأنّهَا أنهارٌ تَفِيضُ:

جُملةُ ﴿تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ﴾ وموقِعُها من النّظم:

وصفَ اللّهُ تَعالى الأعيُنَ بقوله ﴿تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ﴾، أي: ترى أعيُنهم في حالة كونها تفيضُ؛ والجُمَلُ (بعد النّكرات صفاتٌ، وبعد المعارف أحوالٌ)[5]، والمعنى أنّك ترى أعيُنهم فائضةً من الدّمع، و(مِن) هنا لابتداء الغاية؛ أي: أنّ فَيضَها مُتأتٍّ من كثرة الدّمع[6]، وعلى ذلك فقد يكون هُناك محذوفٌ، على تقدير (كَثرَةِ الدَّمعِ)، وهو ما يَنسَجمُ مع المعنى المُراد في الآية، من فيضان أعيُنِهم بالدّمع، ولا يحصُلُ ذلك إلاّ لشدّة خَشيتهم، ورهافة قلُوبهم، ومُسارعتهم إلى الإيمان والتّصديق، وعدم تكبُّرهم.

فيضان أعيُن النّصارى المذكورين بالدّمع دليلٌ على شدّة خشيتهم، ومُسارعتهم إلى الإيمان والتّصديق:

إيثار التّعبير عن فيض عيونهم بالفعل المضارع:

في قوله ﷻ: ﴿تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ﴾ عبّر عن فيض عيونهم بالفعل

عبّر عن فيض الدّموع بالفعل المضارع تصويرًا لحالهم واستجلابًا للصورة والحدث

(1) الزمخشري، الكشاف: 1/669 - 670، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 2/140، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/72.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/345، والقنّوجي، فتح البيان: 4/36.
(3) الدّرويش، إعراب القرآن: 6/3.
(4) الخفاجيّ، عناية القاضي: 3/273.
(5) ابن هشام، مُغني اللّبيب، ص: 560.
(6) العُكبَريّ، التّبيان: 1/455.

المضارع تصويرًا لحالهم[1]؛ حيث إنّ الفعل المضارع يعبّر عن المزاولة الآنيّة، فالسّامع يستحضر صورة متحرّكة يرى حالهم، والغرض من ذلك التّأثير على السّامع بحالهم من الخشوع تعليمًا لهم وتشويقًا للاتّصاف بذلك مثلهم.

عبارة ﴿تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ﴾ أَبلغُ في إفادة التّعليل من التّعبير بالتّمييز:

إنَّ التّعبير بعبارة ﴿تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ﴾ أسلوبٌ يُفيد التّعليل، وهُو هُنا أبلغُ من التّعبير بالتّمييز، كأن يقول: (تفيضُ دمعًا)، وهُو أمرٌ مألوفٌ عند أصحاب القُلُوب الرّقيقة، والمشاعر المُرهفة، ممّا يكونُ عادةً لا تأثُّرًا، والسّياقُ يُريد ربطه بمعرفة الحقّ والقناعة به، لذلك قال: ﴿مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلۡحَقِّۖ﴾.

معاني (مِن) في جملة ﴿مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلۡحَقِّۖ﴾:

عرفوا شيئًا من الحقّ فأبكاهم، فكيفَ إذا عرفوا الحقَّ كلّه:

قوله ﴿مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلۡحَقِّۖ﴾: مُصدّرةٌ بقوله ﴿مِمَّا﴾، وهي مُكوّنةٌ من الحرف (مِن) الجارّة، و(مَا) الموصُولة فأُدغِمَتَا، و(مِن) هنا لابتداء الغاية عند بعضهم، إلّا أنّ المظنُون أنّها هُنا تعليليّةٌ؛ فإنّ أعيُنهم تفيضُ من الدّمع بسببِ عِرفانِهِمُ الحَقَّ، والأداةُ (مِن) وردت في هذه الآية مرّتين: الأُولى ﴿مِمَّا﴾ للابتداء، والثّانيّة ﴿مِنَ ٱلۡحَقِّۖ﴾، قال السّمين الحلبيّ: "(مِن) الأولى لابتداءِ الغاية، وهي متعلّقةٌ بـ ﴿تَفِيضُ﴾، والثّانيةُ يُحتمل أن تكونَ لبيانِ الجنس، أي: بَيَّنت جنسَ الموصولِ قبلَها، ويُحتملُ أن تكُونَ للتّبعيضِ"[2]، لتبيين ما عرفُوا أو للتّبعيض، فإنّهُ بعضُ الحقّ، "والمعنى أنّهُم عرفُوا بعض الحقّ فأبكاهُم، فكيف إذا عرفُوه كلّهُ "[3]. والتّعبيرُ صورةٌ رائعةٌ للمشهد ليَشعُرَ به المُخاطَبُ أتمّ شُعور وأبلغه.

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 5/2328.
(2) السّمين، الدّر المصون: 4/396.
(3) الخفاجيّ، عناية القاضي: 3/274.

وجُوِّزَ أن يكون التّعبير بالفيض في قوله تعالى: ﴿تَرَىٰٓ أَعۡيُنَهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ﴾ من باب الاستعارة[1]، فالأعينُ تمتلئُ دمعًا لحدّ الامتلاء، "فاستُعير له الفيضُ الّذي هو الانصبابُ عن امتلاءٍ مُبالغةً، أو جُعلت أعيُنُهم من فرط البكاء كأنّها تفيضُ بأنفسها"[2]، على طريق الاستعارة التّصريحيّة التّبعيّة[3]، وقد أُقيمَ المُسبّب مقام السَّبب، أو قصد المُبالغة في وصفهم بالبكاء[4].

التّعبيرُ عن انصباب الدّموع بالفيضان من قبيل الاستعارة التي تُصوّرُ الخشوعَ وكثرةَ البكاء:

إسنادُ الفيض إلى الظّرف من باب المجاز العقليّ:

وفي هذه الآية أيضًا - كما يُشير ابنُ عاشور- إسنادُ الفيض إلى الظّرف، على طريقة المجاز العقليّ، وهُو يُلمِّحُ إلى أنّهُم قد يقرِنُون هذا الإسناد بتمييزٍ، يكونُ قرينةً للإسناد المجازيّ، فيقولون: (فَاضَت عَينُهُ دَمعًا)، والحرفُ (مِن) في هذه الآية على قولِ نُحاةِ البصرة حرفُ ابتداء، وعلى قولِ نحاةِ الكوفة تكونُ (مِن) بيانيّةً جارّةً لاسم التّمييز، قال ابن عاشور: "فتكون الآيةُ منسوجةً على منوال القلب للمُبالغة، قُلِبَ قَولُ النّاسِ المُتعارف: فاض الدّمعُ من عين فُلانٍ، فقيلَ: أعينهم تفيضُ من الدّمع"[5].

الآيةُ منسوجةٌ على منوال القلب للمُبالغة

وفي حاشيّة القُونويّ أنّ إسنادَ الفيض إلى العين مجازٌ عقليٌّ، كجري النّهر للمُبالغة في وصفهم بالبكاء، أي: أنّ بكاءهم بلغ مبلغًا يظُنُّ من رآهم أنّ أعيُنهم بأنفُسِها تسيلُ، لجريان الدّموع منها بغزارة وقُوّة.

إسناد الفيض إلى العين مجازٌ عقليٌّ حتّى إنّ مَن يراهم يظنُّ أنَّ أعيُنَهم تسيلُ وحدها:

(1) الاستعارةُ: "أن يكون للّفظ أصلٌ في الوضع اللُّغويّ معروفٌ، تدلّ الشّواهد على أنّه اختصّ به حين وضع، ثمّ يستعمله الشّاعر أو غير الشّاعر في غير ذلك الأصل"، كقولنا: (رأيتُ أسدًا في المدرسةِ) فالأصل: (رأيتُ رجلًا شجاعًا كالأسدِ في المدرسةِ) ثمّ صارت الجملة إلى ما ترى. ينظر: الجرجانيّ، أسرار البلاغة، ص: 30.

(2) صافي، الجدول: 7/7.

(3) الهرريّ، تفسير حدائق الرّوح والرّيحان: 8/47.

(4) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/479.

(5) ابن عاشور، تفسير التّحرير والتّنوير: 7/10.

قال القُونويّ: "وفي الوجه الأوّل المجازُ لغويٌّ، وفي الثّاني المجازُ عقليٌّ، ولو قدّمه على سابقه لكان أولى، والمرادُ تمتلئُ أعينُهم حتّى تفيض؛ فوضع المُسبّب مَوضع السّبب"[1].

إبرازُ التّمييز في صورة التّعليل:

أسلوبُ التّرقّي في وصف الأعيُن بالفيضان مُبالغةً في تصوير الخشوع والبكاء:

ثمَّة مبالغةٌ في التّمييز بجرّه بحرف الجرّ (مِن)، والأصلُ في التّركيب أن يُقال فيه: (تَفيضُ أَعيُنُهُم دَمعًا)، وفي هذا الأسلوب ترقٍّ على ثلاث مراحل: أوّلُها ما كان على الأصل فاعلًا، ومثاله: (فاضَ الدَّمعُ)، وثانيها تحويلُ الفاعل إلى تمييز، ومثاله: (فاضَت أَعيُنُهُم دَمعًا)، وثالثُها إبرازُ التّمييز في صورة التّعليل، وصورته المثال الوارد في نصّ هذه الآية: ﴿تَرَىٰٓ أَعۡيُنَهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ﴾، وهي تشبه قوله تعالى: ﴿وَٱشۡتَعَلَ ٱلرَّأۡسُ شَيۡبٗا﴾ [مريم: 4][2].

فائدة (مِن) الابتدائية:

أفادت أنّ فيض العين بدأ من معرفة الحقّ

في قوله تعالى: ﴿مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلۡحَقِّۖ﴾ تكرّرت (مِن) مرّتين: "الأولى لابتداء الغاية، على أنّ فيض الدّمع ابتدأ ونشأ من معرفة الحقّ، وكان من أجله وبسببه"[3]، فعبّر بـ (مِن) الابتدائيّة ليدلّ على أن الدّمع متعلّق ببداية المعرفة.

فائدة ﴿مِنَ﴾ البيانيّة:

أفادت بيان الذي عرفوه وهو الحقّ

في قوله تعالى: ﴿مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلۡحَقِّۖ﴾ جاءت (مِن) الثّانية بيانيّة "لتبيين الموصول الذي هو (ما عرفوا)"[4]. فبين أنّ الذي عرفوه هو الحقّ.

فائدة التّعبير عن المعرفة بالفعل دون الاسم:

في قوله تعالى: ﴿مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلۡحَقِّۖ﴾ عبّر عن معرفتهم بالفعل

(1) القونوي، حاشيّة القونويّ على تفسير البيضاويّ: 7/540.
(2) الدّرويش، إعراب القرآن: 6/3.
(3) الزمخشري، الكشاف: 1/670، والقنّوجي، فتح البيان: 4/36.
(4) الزمخشري، الكشاف: 1/670، والقنّوجي، فتح البيان: 4/36.

الماضي دون الاسم، فلم يقل: (من معرفتهم الحقّ)؛ إظهارًا لكونها معرفة قديمة لديهم، فهم يعرفون صفات النّبي ﷺ، وإشارة إلى ما حدث لهم من المعرفة الآنية حال سماعهم القرآن.

عـــبّر عـن مـعـرفـتـهـم بـالـفـعـل دون الاسـم دلالـة على أنّها معرفة قديمة حادثة

دلالة التّعبير بالفعل (عَرَف):

قرنَ اللّه تعالى بُلوغ الحقِّ من لدُن عباده بالفعل ﴿عَرَفُواْ﴾، ولم يقرنهُ بالفعل (عَلِمُوا) لِمَا بين المعنيين من فُرُوقٍ في اللّفظ والمعنى، فأمّا اللّفظ ففعلُ العلم يتعدَّى إلى مفعُولَين، وفعلُ المعرفة يتعدّى إلى مفعولٍ واحد، وهُو أليقُ بالسّياق والمعنى المُراد؛ لأنّ المطلُوبَ هُنا هُو الحَقُّ؛ وهُو لَفظٌ مُفردٌ، ممّا يُناسِبُ المفعُولَ الواحِدَ.

حصول معرفة الحقّ في النّفس أبـلـغُ أثـرًا من العلم به:

أمّا الجانبُ المعنويُّ في الفرق بينهما، فإنّ معرفة الحقّ تتعلّقُ بذاته، والعلم به يتعلّقُ بأحواله، وكأنّهُ أرادهُ هنا لذات الحقّ؛ لأنّ الذّات ثابتةٌ، والأحوالَ مُتغيّرةٌ، وهُنا يحصُلُ تمييزُ المعرُوف من غيرِه؛ لأنّكَ إذا قُلتَ: (عَلِمتُ زَيدًا)، لم تُفد شيئًا، وانتظر السّامعُ الحال الذي علِمتَهُ عنهُ أو عليه، أمّا قولُك: (عَرَفتُ زيدًا)، ففيه الكمالُ بل كُلُّ الكمال؛ إذ إنّ السّامع قد أدرك المقصُود؛ لأنّك ميّزتهُ وبيّنتهُ على أحسن قول وأكمله.

فِـعـلُ المعرفة ألـيَـقُ بـالمقام لـدلالـتـه على كـمـال تـمـيـيـز الحقّ والتّعرّف إليه:

والثّاني: "أَنَّ المعرفة في الغالب، تكُون لما غاب عن القلب بعد إدراكه، فإذا أَدركهُ قيل عرفه[1]، فهؤلاء عرفُوا الحقّ، وأدركُوه بعد أن غابَ عنهم؛ فلمّا تبيّن لهم بعد غياب كأنّهم اشتاقُوا إليه، وحفّز مكنوناتِهم القلبيّة؛ لذلك فاضت دمُوعُهم.

الـقِـسّـيـسـون والرُّهبان عرفُوا الحقّ، وأدركُوه بـعـد أن غـاب عنهم، ففاضت أعـيُـنُـهـم شـوقًا إليه:

والثّالث: أَنَّ المعرفة علمٌ يُعَيِّنُ الشّيء مُفصَّلًا، بخلاف العلم، فإنّه قد يتعلَّقُ بالشّيء مُجملًا، وهو هنا إشارةٌ إلى معرفتهم الحقّ كُلّ الحقّ، على جهة التّفصيل، ممّا أثّر في نُفُوسهم وشرعُوا يبكون؛

(1) الفيروزآباديّ، بصائر ذوي التّمييز: 4/50.

وآيةُ ذلك أن سالت دُمُوعهم، فالتّعبيرُ بالمعرفة خلافُ العلم، ممّا يحقّق المقصُود، مع الوُصُول إلى غاية البلاغة والبيان.

المعرفة علمٌ يُعَيِّنُ الشّيء مُفصّلًا، والعلمُ بالشّيء عامٌّ:

بلاغة التّعبير بالفعل المضارع:

في قوله جلّ شأنه: ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ عبّر عن قولهم بالفعل المضارع للدّلالة على تصوير حالهم حال قولهم ذلك، ودلالة على تجدّد قولهم واستمراره، فكأنّهم كانوا يردّدون هذا المقول دائمًا.

عبّر بالمضارع دلالة على تصوير حالهم، وإشارة إلى أنّهم يقولون ذلك على الدّوام

جملةُ ﴿يَقُولُونَ﴾ بين الحاليّة والاستئناف:

قوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾، نُلاحظ أنّ لسانَ حالهم ينطقُ لله تعالى، بأنّهم آمنوا بما أُنزل من الحقّ، ويدعُونه أن يجعلهم مع الّذين شهدُوا له بالوحدانيّة، فعبّر بقوله ﴿يَقُولُونَ﴾؛ وهي جُملةٌ مُستأنفةٌ جديدةٌ، والوقفُ على ما قبلها (الحَقِّ) وقفٌ حَسَنٌ[1]، أو هي جملةٌ حاليةٌ من الواو في (سَمِعُوا)، أي: ﴿ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰۚ﴾.

الاستئنافُ جوابٌ عن سؤال: ماذا كان من أمرهم حين عرَفوا الحقّ؟ والحاليّةُ تصفُ حالَهم عند معرفته:

دلالةُ حذف أداة النّداء في قولهم ﴿رَبَّنَآ﴾:

قولُهُم: ﴿رَبَّنَآ﴾، أي: (يَا ربّنا)، على تقدير محذُوفٍ، وهو ياءُ النّداء، وتُحذفُ ياءُ النّداء كثيرًا لكثرة الاستعمال، ومعلومٌ أنّ حذف الأداة، ممّا يُشعرُ بقُرب المدعُوِّ مِنَ الدَّاعِي، قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌۖ﴾، ودليلُ ذلك أنّ الاسم منصوبٌ، وهو قولُهُ (ربَّنَا)، لأنّه مُضافٌ، فالمُنادى إذا كان مضافًا نُصِب، وعليه فقولُهُم (ربَّنَا آمَنَّا) بالفعل الماضي، دالٌّ على حصول الإيمان وثباته؛ لأنّ الإيمان حقيقةٌ ثابتةٌ تقُوم بالقلب.

حَذفُ أداة النّداء يُؤذِنُ بقرب المَدعُوّ من الدّاعي:

إيثارُ النّداء بعنوان الرّبوبيّة:

وقد آثرَ القسّيسون والرّهبان الذين عرفوا الحقَّ من النّصارى

(1) الأُشمُوني، منار الهدى: 1/224.

أن يجأرُوا بين يدي ربّ العالمين بلفظ الرّبوبيّة ﴿رَبَّنَآ﴾ دون غيره من الأسماء والصّفات، كأنّهم يقولون: يا من تتّصف بالرّبوبيّة المُطلَقة، بلِّغنا إلى أحسن أحوالنا في مَهيَع عبادتك والتّبتُّل إليك؛ لأنّ لفظَ (الرّبّ) معناه الأساس هو توصيلُ الرّبّ مَن يُربّه إلى أحسن أحواله بلُطفٍ وتوجيه مع رعايته والإحسان إليه.

التّربية توصيل الرّبّ مَن يَرُبُّهُ ويُربّيه إلى أحسن أحواله بلُطفٍ وإحسان:

الرّبط بالفاء التّفريعية: ﴿فَٱكۡتُبۡنَا﴾:

ثمّ جاء بالفاء العاطفة الّتي تربطُ السّبب بالنّتيجة في قوله ﴿فَٱكۡتُبۡنَا﴾، والفعلُ هُنا فعلُ أمر عند النّحويين، إلاّ أنّه يخرُج مخرج الدُّعاء، ومعنى (اكتُبنَا) في هذا الموضع (اجعَلنَا)، فإنّ لفظ (كَتَبَ) في القُرآن الكريم يرِدُ لمعانٍ مُتعدّدةٍ؛ منها الفرضُ، والحلالُ، والتّثبيتُ، والتّقديرُ، والتّخصيصُ، والإملاءُ، والإحصاءُ[1]؛ وكلُّ لفظةٍ وُضعت في سياقها المُناسب، فهيَ وإن كانت مُتّفقة حرفًا ووزنًا إلاّ أنّها مُختلفةٌ دلالةً ومعنًى، وهذا من عظمة القرآن، واتّساع لسان العرب المُتفرّد.

شعورُهم بإيمانهم العميق دعاهم إلى التّضرّع لاهِجين مُستغيثين بعنوان الرّبوبيّة:

السرّ في قولهم (اكتبنا) دون غيره:

في قوله جلّ شأنه: ﴿فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ طلبوا أن يكونوا مع الشّاهدين بقولهم ﴿فَٱكۡتُبۡنَا﴾ تجرّدًا من امتلاكهم أسباب ذلك، فهم طلبوا محض إحسان اللّه لهم، فجعلوا طلبهم محاطًا بتفضّل اللّه عليهم، ومتجرّدًا عن أسباب ذلك إلّا من الإيمان.

تجرّدًا عن الأسباب وإظهارًا لكمال الأدب مع الله تعالى

معنى المَعيّة في قوله ﴿فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾:

قوله ﴿فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾: معناهُ: اجعلنا بصُحبة الشّاهدين من عبادك وأنبيائك، أوِ اجعلنا مع أمّة محمّد ﷺ؛ فهُم شهداءُ على الأمم يوم المعاد، قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ

(1) المطعني، خصائص التّعبير القرآني: 2/357.

حَسُنَ إيمانُهم فَرَغِبوا أن يكونوا في عِدَادِ الشّاهدين بالحقِّ، من مُؤمِني الأُمم:

﴿شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗاۗ﴾ [البقرة: 143]، وفي هذا المضمار يقولُ صاحبُ (البحر المحيط): "رغبُوا في أن يكُونُوا عندَهُ في عِدَادِ الشّاهدين بالحقِّ، من مُؤمِني الأُمم، وعبّرُوا عن فعل اللّه ذلك لهُم بلفظ: (فَاكتُبنَا)، إذ كانت الكتابةُ تُقيِّدُ وتضبطُ ما يحتاجُ إلى تحقيقه وعلمه في ثاني حال"[1].

السّرّ في طلبهم أن يكونوا مع الشّاهدين:

أرادوا نيل شرف المبادرة باتّباع النّبوة وقت تكذيب النّاس لها ليكونوا من أصحاب الأنبياء

قوله جلّ شأنه: ﴿فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ سألوا اللّه تعالى أن يكونوا مع الشّاهدين، والمراد بهم الذين" شهدوا بعثة الرسل وصدقّوهم، وهذه فضيلة عظيمة لم تحصل إلّا في أزمان ابتداء دعوة الرّسل، ولا تحصل بعد هذه المرّة، وتلك الفضيلة أنّها المبادرة بتصديق الرّسل عند بعثتهم حين يكذّبهم النّاس بادئ الأمر"[2]. فطلبوا أن يكونوا من فئة النّاس الذين حضروا مبتعث النّبوة، وأن يكونوا ممّن يشهد على النّاس يوم القيامة إعلامًا ببلوغ الحقّ والرّسالة. وفي ذلك دلالة على عظيم رتبة الشّاهدين من أصحاب النّبيّ ﷺ.

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/174.

(2) الرازي، مفاتيح الغيب: 12/415، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 7/11، والشوكاني، فتح القدير: 2/78.

﴿وَمَا لَنَا لَا نُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلۡحَقِّ وَنَطۡمَعُ أَن يُدۡخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلصَّٰلِحِينَ ٨٤﴾ [المائدة: 84]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

هذه الآية مناسبةٌ لمَا قبلها، مُناسبةً واضحةً بيّنةً، فقد عُطفت بالواو على الآية التّي سبقتها، وهُما في سيّاق واحدٍ مُتّصل، وهي مُصدّرةٌ باستفهام، يدُلُّ على إيمان النّصارى - الّذين مرَّ الحديثُ عنهم - بالله تعالى، وما جاءهُم من الحقِّ. هذا الحقُّ هو نفسُهُ المذكُور في الآية السّابقة، وهنا مناسبةٌ لفظيّةٌ ومعنويّةٌ بينهُما في آنٍ واحد؛ وفي هذه الآية أيضًا دعوةٌ وتضرُّعٌ منهم ليُدخِلَهُم ربُّهم مع القوم الصّالحين، وهي دعوةٌ مُشاكلةٌ لدعوتهم بأن يكتُبَهُم اللّه مع الشّاهدين في الآية السّابقة، وهُم أمّةُ محمّد ﷺ الّذين يشهدُون على الأمم السّابقة؛ وهم من فَرط تواضُعِهِم، وظنِّهم التّقصير، يطمَعُون بكرم اللّه لا بأعمالِهِم، علّهُ يُعاملُهُم بإحسانه، بأن يَجعَلَهُم مَعَ القَوم الصَّالحين.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿بِٱللَّهِ﴾: لفظُ الجلالة (اللّه)، قيل: إنّ " أصلَهُ الإلاه؛ فحُذفت الهمزةُ، وأُدغِمَت اللّامُ في اللّام، فصار اللّه"[1]، ومهما قِيل في حقّه، فهو قطرةٌ من بحر، أو ثانيةٌ من دهر، لأنّ عظمتَه لا حُدُودَ لكمالها، ولعلّ أقربَ تعريف هو قولُهُم: إنّهُ "عَلَمٌ على الذّات العَليَّة الواجبةِ الوُجُود، الجامعَةِ لصفاتِ الأُلُوهيّة، ولذا لا يجُوزُ أن يتسمَّى به أحدٌ، وسائرُ الأسماءِ قد يَتَسَمَّى بهَا غيرُه، وهو أوّلُ أسمائِهِ سُبحانَهُ وأعظمُهَا"[2].

2) ﴿نَطۡمَعُ﴾: فعلٌ مُضارعٌ من (الطَّمَع)، وهو خلافُ اليأسِ وضدُّه، وطَمِعَ فيه حرَصَ عليه ورجَاهُ[3]، ويُفرّقُ اللّغويُّون بين الطّمع والرّجاء، حيثُ يقولون: إنّ الرّجاء هو: "الأملُ في الخير... ولا يكونُ الرَّجاءُ إلّا عن سبب يدعُو إليه مِن كَرَم المَرجُوّ"[4]، أمّا الطّمعُ فهو

(1) الأستراباذيّ، شرح الشافية: 2/981.
(2) أحمد مختار، معجم اللّغة العربيّة المعاصرة: 1/114.
(3) ابن منظور، لسان العرب: (طمع).
(4) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 244.

"ما يكونُ من غير سبَبٍ يدعُو إليهِ، فإذا طَمِعتَ في الشَّيءِ، فكأنّكَ حدّثتَ نفسَك بهِ من غير أَن يكُون هُناك سببٌ يدعُو إليه؛ ولهذا ذُمّ الطّمع، ولم يُذَمّ الرَّجاء[1]، كما أنّهم يُفرّقون بين الطّمع والأمل؛ فإنّ الطّمع توقُّع حصُول القريب ممّا تريده النّفس، أمّا الأملُ، فهُو توقُّعُ حُصُولِ الشّيء، وأكثرُ ما يُستعملُ فيما يُستَبعَدُ حُصولُه[2].

3) ﴿يُدۡخِلَنَا﴾: من الفعل (دَخَلَ)، وهو " أَصلٌ مُطَّردٌ مُنقَاسٌ؛ وهو الوُلُوجُ"[3]، وهو واضحٌ بيّنٌ، ومصدرُهُ الدُّخُولُ، لكن قد يختلفُ معناهُ الدّقيقُ بحسب السّياق الّذي ينتظمُهُ.

4) ﴿ٱلۡقَوۡمِ﴾: لفظٌ يدُلُّ على الجماعة من النّاس، ويُقال: إنّهُ جمعُ امرئٍ[4]، والصّوابُ أنّهُ اسمُ جمعٍ[5].

5) ﴿ٱلصَّٰلِحِينَ﴾: من الفعل صَلَحَ يصلُحُ؛ بضمّ اللّام في مضارعه، والصّلاحُ نقيضُ الفساد[6] و(الصَّالِحِينَ) جمعٌ مذكّرٌ مُفردُهُ صَالحٌ.

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

الموضوعُ الذي تُعالجُهُ الآيةُ، فيه دلالةٌ على صدق هؤُلاء النّصارى، وإيمانهم بالقرآن إيمانًا ظاهرًا، يُؤكّدُه بكاؤُهم الخاشع، ودعاؤُهُم الضّارع بأن يكتُبهم اللّهُ مع الشّاهدين، وقد كان استفهامُهُم الإنكاريُّ، صادحًا بصفاء النّية، وحُسن الطّويّة، فرفعُوا عقيرتهُم بذلك: "فدلّ ذلك على استبصارهم في الدّين، ومعرفتهم الحقّ، وانصياعهم له، من دُون عُتوٍّ ولا استكبار ولا إعراض مثلما فعل اليهودُ والمشركون"[7]، ثُمّ ختموا ذلك بأملٍ في أن يمُنّ اللّهُ عليهم، بأن يُدخِلَهُم معَ القَوم الصّالحين، خُصُوصًا وقد ذاقُوا الإيمان من قبلُ؛ لأنّهُم أهلُ كتاب، ومن ذَاقَ كان أحرّ صَبَابَةً، وأينَعَ عاطفةً، وأكثرَ طمَعًا في عفو اللّهِ ورضوانِه.

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 245.
(2) المناويّ، التّوقيف، ص: 62.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (دخل).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (قوم).
(5) اسم الجمع مصطلح صرفّي يعنى به ما لا واحد له من لفظه، لكن من معناه، مثل: قوم ورهط، فإنّ مفرده امرؤٌ، بخلاف ركب، فإنّ مفرده راكب، يُنظر: الحملاوي، شذا العرف، ص: 98.
(6) الجوهريّ، الصّحاح: (صلح).
(7) الزّحيلّي، التّفسير المنير: 7/12.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

الغرضُ من الاستفهام في قوله: ﴿وَمَا لَنَا لَا نُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ﴾:

مطلعُ هذه الآية سُؤالٌ إنكاريٌّ بليغٌ، قاله المُخبتُون من مُؤمني النّصارى "تحقيقًا لإيمانهم، وتقريرًا له بإنكار سبب انتفائه، ونفيه بالكليّة"[1]، كأنّه ردّ على من قال لهم: لِمَ آمنتم ودعوتُم أن تكونُوا مع المُؤمنين الشّاهدين؟؛ فكان رَدُّهم: ولماذا لا نُؤمن باللّه؟ والّذي جاءنا من الحقّ والبيّنات واضحٌ وشاهدٌ على ألوهيّة اللّه ورُبوبيّته وعبوديّتنا له؟

رَدٌّ مُفحِمٌ لكلّ مُنكِر، مُسكِتٌ لكلّ مُبطِل

وجُملة ﴿وَمَا لَنَا لَا نُؤۡمِنُ﴾، جملةٌ حاليةٌ، وَصَفَ بها تعالى حالَهُم، على تقدير (إنَّنَا رَأَينَا الحَقَّ، فعلى أيِّ شيءٍ نَكونُ تارِكِي الإيمَانَ؟)، وقد يكونُ كلامُهم هذا كلامًا مُستأنفًا بقوله (بِاللّه)، أي: نُؤمنُ به إيمانَ توحيدٍ؛ لأنّهم على عقيدة التّثليث.

وصفوا أنفُسَهم بأنّهم ذَوُو منطقٍ سليم، جاءتهم الآياتُ البيّناتُ فآمنوا بها، وما فعلوه هو الحَقُّ الصُّراح:

كلمةٌ حول تناسُب المَاءات:

وقولهم ﴿وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلۡحَقِّ﴾، (مَا) الثّانية هنا منسُوقةٌ على لفظ الجلالة، أي آمنا باللّه والّذي جاءنا من الحقّ، وهنا يبدو لنا تناسُبٌ بديعٌ بين قولهم: ﴿وَمَا لَنَا لَا نُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ﴾، وقولهم: ﴿وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلۡحَقِّ﴾، تناسبٌ بين (مَا) الأولى، و(مَا) الثّانية، معَ اختلافٍ بينهما في العمل والمعنى؛ فالأُولى استفهاميّة، والثّانية موصُولةٌ، أمّا قوله (مِنَ الحَقِّ)، فإنّ (مِن) هنا "لابتداء الغاية، والمُراد بالحقِّ: الباري ﷻ، وتتعلَّقُ (مِن) حينئذٍ بـ(جَاءَنَا)، كقولك (جاءَنَا فُلَانٌ مِن عندِ زيدٍ)"[2].

الجملةُ الحاليّةُ وأثرُها في بيان حال الدّاعين المُتضَرّعين:

ثمّ قال ﴿وَنَطۡمَعُ أَن يُدۡخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾، أي:

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/111.

(2) السّمين، الدّرّ المصون: 4/398.

إيمانُ النّصارى التّائبين يُؤهّلُهم للطّمع في رحمة الله وإدخالهم مـــع الـــقـــومِ الصّالحين:

ونطمعُ بسبب إيماننا ذاك، أن يُدخلنا اللّه مع القوم الَّذين آمنُوا به وبرُسُله؛ فإنّا نتطلَّعُ أن نندرِجَ في سِلك الصّالحين، وأن يُدخلَنا ربُّنا مداخلَهُم في الجنّات، ويُلحقَ منازلَنا بمنازلهم، ودرجاتنا بدرجاتهم في جنَّاته[1]، وجُملة (وَنَطمَعُ) معطوفةٌ على جملة (وما لَنَا)، وهي جُملةٌ حاليةٌ على تقدير (طَامِعِينَ)؛ فالواوُ على ذلك واو الحال، وقولُهُم (أَن يُدخِلَنَا) (أن) هُنا مصدريّة، تُمحِّضُ الفعل للاستقبال؛ فالفعلُ معها للمستقبل، ولا شكّ أنّ دُخُولهم الجنّة أمرٌ يقعُ في المُستقبل.

دلالةُ تقديم المفعول على الفاعل في قوله: ﴿يُدۡخِلَنَا﴾:

تقديمُ المفعول الأوّل على الفاعل في قوله تعالى: ﴿يُدۡخِلَنَا﴾، تقديمٌ وإن كان لازمًا لأنّ المفعول ضميرٌ، إلَّا أنّه يُشيرُ إلى تخصيص ذلك بهم؛ لِما يُحقّقُهُ فعلُ الطّمع من معنى.

تقديمُ المفعول يـــشـــيرُ إلى رغـبـتـهـم في تخصيص الفعل بهم:

حذفُ المفعول للعلم به:

وفي الآية حذفٌ؛ فقد جعلُوا الضّمير (نَا) مفعولاً أوّلَ لـ (يُدخِلَ)، و(الجنّةَ) مفعُولًا ثانيًا، فيكونُ تقديرُ الآية به: "ويُدخِلنَا رَبُّنَا مَعَ القَومِ الصَّالِحِينَ جَنَّتَهُ وَدَارَ رِضوَانِهِ"[2].

دلالةُ التّعبير بلفظ ﴿ٱلۡقَوۡمِ﴾:

دعا أولئك النّصارى التّائبون الباكون أن يُدخلَهم اللّه تعالى في زُمرة القوم الصّالحين، وأدرجوا في كلامهم لفظَ ﴿ٱلۡقَوۡمِ﴾، إشارةً إلى رسوخ الصّالحين الذين يرغبون ويطمعون أن يكونوا منهم في درجات الصّلاح حتى أصبح الصّلاحُ مُقوِّمًا من مُقوّمات شخصيّة كلّ فردٍ منهم، ولا يفيدُ القارئُ هذا المعنى لو قالوا: ويُدخلنا مع الصّالحين.

الـــقـــومُ الصّالحون هم الـذيـن أصبح الصّلاحُ عُنصرًا مُـقـوّمًـا من شخصيّاتهم:

(1) ابن جرير، جامع البيان: 8/605.
(2) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 12/73.

معنى المعيّة في قوله تعالى: ﴿مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾:

وقولُه ﴿مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾، فيه لفظُ (مَعَ) على بابها من إفادة معنى الصُّحبة، و(مَعَ القَومِ الصَّالِحِينَ)، والمُرادُ إمّا أن يُدخِلَهم الجنّات، ويحشُرَهم في زُمرة الصّالحين من أمّة محمّد ﷺ، وإمّا مع الصالحين وجميع الأنبياء والمرسلين السّابقين.

معيّةُ كرامة وصُحبةُ شرفٍ يرغبون أن ينالوها في صُحبة أهل الصّلاح:

﴿فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُواْ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٨٥﴾ [المائدة: 85]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

مُناسبةُ هذه الآية لما قبلها واضحةٌ بيّنةٌ؛ فهي في المثُوبة وحُسن الجزاء، وهي الجنّات الّتي تجري من تحتها الأنهارُ. هذه المثُوبة مُسبَّبٌ من مُسبّبات إيمانهم، ونتيجةٌ لدُعائهم بأن يَكتُبَهم المولى الكريمُ معَ الشّاهدين، ويحشُرَهم معَ الصّالحين، فاستجاب اللّه العظيمُ دُعاءَهم وقال: "جَزَيتُ هؤُلاء القائلين بما وصفتُ عنهم من قيلهم على ما قالوا، من الجنّات الّتي هم فيها خالدُون، جزاء كُلّ مُحسنٍ في قِيله وفِعله"[1]، وهذه الآية نتيجةٌ، وتلك الآيات سببٌ، ولا يخفى ما بين السّبب والنّتيجة من تماسُكٍ وعدمِ انفصالٍ.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَأَثَٰبَهُمُ﴾: فعلٌ مُتعدٍّ بالهمزة، أصلُهُ من (ثَوَبَ) الفعل الثّلاثيّ منه (ثَابَ) حصل فيه إعلالٌ[2]، ومعنى ثابَ في أصله اللُّغويّ "عاد ورجع إلى موضعه الَّذي كان أَفضَى إليه"[3]، " والثَّواب ما جُوزي به الإنسانُ على فعله من خير أَو شرّ"[4].

2) ﴿جَنَّٰتٖ﴾: جمعٌ بالألف والتّاء، مُفردُه (جَنَّةٌ)، والجذرُ اللُّغويّ منه مُضعّفُ الثُّلاثيّ (جَنَّ) أو (جَنَنَ)، وأصلُ مادّة (جنن) التَّغطية والسَّتر[5]، والجنّةُ البستانُ، سُمِّيَ بهذا الاسم لأَنَّ الشَّجر بورقه يستُرُ[6]، أمّا معناها في الآية، وفي أغلب آيات القرآن، " فالجنّةُ ما يصيرُ إليه المُسلمُون في الآخرة؛ وهو ثوابٌ مستُورٌ عنهُم اليوم"[7].

(1) ابن جرير، جامع البيان: 1/5120.
(2) الإعلال مصطلح صرفيٌّ معناه التّغيير الّذي يحصل لحروف العلّة، لأسباب معظمها صوتيّة للتّخفيف، كالقلب والحذف والتّسكين، ينظر: ابن الحاجب، الشّافية في علم التّصريف، ص: 94.
(3) الأزهري، تهذيب اللّغة: 15/111.
(4) الأزهري، تهذيب اللّغة: 15/113.
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (جنن).
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (جنن).
(7) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (جنن).

3) ﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا﴾: فعلٌ مضارعٌ مَصدرُهُ الجريانُ، وأصلُهُ الانسياحُ للأشياء[1]، وهو هنا انسياحُ الماء تحت أشجار الجنان، و(مِن تَحتِهَا)، لفظُ (تحت): "إحدى الجهات السِّتِّ المُحيطة بالجِرم، تكون مرَّةً ظرفًا ومرَّة اسمًا، وتُبنى في حال الاسميَّة على الضَّمِّ، فيُقال من تَحتُ، وتحت نقيض فوق"[2].

4) ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ﴾: والخُلودُ في الجنّة، هو (جَزَاءٌ) على ما كانُوا يعملُون في الحياة الدُّنيا، ومعنى (الجَزَاء) "المكافأةُ على الشَّيء، جزاهُ به وعليه جزاءً وجازاه مجازاةً وجزاءً"[3]، وجزاء اللّه أعظم من عمل الإنسان، وقيل: إنّ الجزاء قد يكون من باب المثُوبة، وقد يكون من باب العُقوبة[4]؛ والوارد في الآية الكريمة من باب المَثُوبة.

5) ﴿ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾: الجذرُ اللّغويُّ لهذه اللّفظة (حَسُنَ)، ومنهُ الحُسنُ، وهُو "عبارةٌ عن كلّ مُبهِجٍ مَرغُوبٍ فيه... والحَسَنَةُ يُعبّرُ بها، عن كُلّ ما يسرُّ من نعمةٍ تنالُ الإنسان في نفسه وبدنه وأحواله، والسّيئةُ تضادُّها"[5].

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

ثـــوابُ الـذيـن آمـنـوا بـالـلـه ورسـولـه الـفَـوزُ بـالـجـنّـات، والخلودُ فيها:

يصدُقُ معنَى هذه الآية العامّ على مَن تفوّه بالإيمان، وصدّق بالحقّ، ونطق به من النّصارى الذين آمنُوا بمُحمّدٍ ﷺ، ومَن مَعَهُ كالنّجاشيّ وغيره، وهو المذكُورُ في سبب النُّزُول؛ فكان جزاؤُهُم وعاقبتُهُم، أن أعدَّ اللّه الكريمُ الوهّابُ لهم جنّات تجري من تحتها الأنهارُ، وهُم مُخلّدُون دائمُون فيها، وهذا ثوابُ المُحسنين منهُم، "وكذلك لا يزالُ يُوجدُ فيهم من يختارُ دينَ الإسلام،

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (جَرَيَ).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (تحت).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (جزي).
(4) ابن منظور، لسان العرب: (جزي).
(5) الراغب، المفردات: (حسن).

ويتبيّنُ له بُطلانُ ما كانُوا عليه، وهُم أقربُ من اليهود والمُشركين إلى دين الإسلام"[1].

وتُبيّنُ هذه الآيةُ أنّ اللّه تعالى المُتّصفَ بالعدل، قد أنصف هؤُلاء النّصارى، وجازاهُم على ما كان منهُم من إيمانٍ، وأجابَ سُؤالهُم، وحقّقَ لهُم ما طمعوا فيه؛ وهو طمعٌ مشروعٌ، "وذلك عدلُ اللّه وفضلُهُ، أنّهُ يمنحُ رضوانهُ وجنَّتهُ لمن آمن بإخلاص، وعمل صالحًا بصدقٍ ويقينٍ، وهكذا مَن خلُص إيمانُهُ، وصدق يقينُهُ يكونُ ثوابُهُ الجنّة"[2]، وفيه آيةٌ وبرهانٌ على أنّ اللّه تعالى لا يظلمُ مثقالَ ذرّةٍ، وأنّ العدلَ والإنصافَ، هو إنصافُ المرء لنفسه بأن يُذعِنَ للحقّ، ويستجيبَ للإيمان الصّحيح.

مِن عدلِ اللّه وفضلِه أنّهُ يمنحُ رضوانهُ وجنَّتهُ من آمن بإخلاص، وعَمَلَ صالحًا بصدقٍ ويقين

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

فاء السّببيّة وتَرَتُّبُ الثّواب على العمل:

قولُهُ ﴿فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُواْ﴾: يعني جزاهُم اللّهُ على إيمانهم، وعلى قولهم المُعبّر عن إيمانهم، وهُو قولُهُم: ﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾، والفعلُ مُشتقٌّ من الثّواب، والهمزةُ للتّعدية، فاللّه هو الّذي أثابهُم، والفاءُ عاطفةٌ أو سببيّةٌ؛ فإنّ سببَ الإثابة مُترتّبٌ على ذلك الإيمان، وهنا قدّم المفعول على الفاعل، وهو ضميرٌ مُتّصل، وهو ممّا يُشعُرُ بالتّخصيص؛ بمعنى تخصيص الإثابة والجزاء الحسن بما قالُوا، وما كان من شأنهم من الإيمان به، وبما أُنزل من الحقّ، ولا يجوزُ أن يكُون جزاؤُهُم بمُجرّد القول، بل لأنّهم آمنُوا، وعرفُوا الحقّ، قال الرّازي: "فلمّا حصلتِ المعرفةُ والإخلاصُ وكمالُ الانقيادِ، ثمّ انضَافَ إليه القولُ، لا جَرَمَ كَمُلَ الإيمان"[3].

كَمُلَ إيمانُ النّصارى حين عرفوا الحقَّ، وأخلصوا، وانقادوا، فنالوا الجنّات:

(1) السّعدي، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 242.
(2) الزّحيلي، التّفسير المنير: 7/12.
(3) الرّازي، مفاتيح الغيب: 12/74.

بلاغة التّعبير بـ ﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ دون (تَجرِي تَحتَهَا الأَنهَارُ):

الجنّاتُ الّتي مبادئُ الأنهار تجري مِن تحت أشجارها أشرفُ من غيرها، ومنظرُها ألذُّ للمُنَعَّمين فيها:

لقد قرن اللّه تعالى في هذه الآية حرف (مِن)، الدّال على ابتداء الغاية، مع الظّرف (تَحتَهَا)؛ وفي ذلك دلالةٌ بليغةٌ، وهي أبلغُ ممّا لو عبّر بقوله: (تَجرِي تَحتَهَا الأَنهَارُ)؛ لأنّ (مِن) تُفيد ابتداء الغاية، "والأنهارُ مباديها أشرفُ، والجنّاتُ الّتي مبادئُ الأنهار من تحت أشجارها، أشرفُ من غيرها"[1]، ومعنى ذلك أنّ هذه الأنهار، يكونُ مبدؤُها ومنبعُها من هذا المَوضِع؛ أي: تحت الجنان، ولو عبّرَ بقوله: (تَجرِي تَحتَهَا الأَنهَارُ)، فمعنى ذلك أنّها تنبُعُ من مكانٍ آخر، إلّا أنّها تمُرُّ تحت هذه الجنان، ولا شكّ أنّ المَنبع أشرفُ وأطيبُ من غيره.

دلالةُ المضارع في ﴿تَجۡرِي﴾:

جريانُ أنهار الجنّات دائمٌ مُستمرٌّ، وهذا نعيمٌ أليقُ وأعظمُ للمُكرَّمين المَجزيين

جاء التّعبيرُ بالفعل المُضارع الدّال على الحال والاستقبال، إشارةً الى أنّ جريانها دائمٌ مُستمرٌّ، وهذا التّعبيرُ عُمومًا هُو أليقُ للمَجزيين بذلك، "فكلُّ مَوضِعٍ ذكر فيه (مِن تَحتِهَا)، إنّما هُو عامٌّ لقومٍ فيهم الأنبياءُ، والموضعُ الّذي لم يذكر فيه (مِن)، إنّما هُو لقومٍ مخصُوصين، ليس فيهم الأنبياءُ ﷺ"[2]، فما أبلغَ هذا الكلام!، وما أحسنَه!.

دلالةُ الإظهار بدَلَ الإضمار في لفظ ﴿ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾:

من فوائد الإظهار بدَلَ الإضمار ها هنا تأكيدُ الكلام، والثّناء على الذين آمنوا بصفة الإحسان

جاءَ في قوله ﴿وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ لفظُ (ذَلِكَ)؛ إشارةً إلى ما أُعطِي لهُم من المثُوبة، وهي الجنّاتُ، وذلك المُعطَى هو جزاءٌ من آمن وأحسن العمل، وترقّي في مدارج الإحسان، وقوله (المُحسِنِينَ) المظنُونُ فيه أنّه مِن وضع الظّاهر مَوضع المُضمر، وهو من العادات البيانيّة المُهمّة في لسان العرب؛ وذلك بأن يُورِدَ

(1) الإسكافيّ، درّة التّنزيل: 1/473.
(2) الإسكافيّ، درّة التّنزيل: 1/473.

المتكلّمُ البليغُ الظّاهرَ ثمّ يُكرّره، والمقامُ مقامُ الإضمار[1]، لأنّه ذكرهُم فيما سبق؛ فيكونُ القياسُ أن يقُولَ: (وذَلِكَ جَزَاؤُهُم)، إلّا أنّهُ وَضَعَ الظّاهرَ مَوضع المُضمر؛ لأمرين: الأوّلُ لزيادة البيان، وتقويّة المعنى وتحقيقه؛ والآخر لِرعايةِ الفاصلة في مواضعها، نحو: (الشَّاهِدِينَ... الصَّالِحِينَ... المُحسِنِينَ).

الفاصلةُ المُتَمَكِّنةُ مُستقِرّةٌ في قرارها، تخدم المعنى أوّلًا، والإيقاع الصّوتي ثانيًا:

ومِنَ المَعلُوم أنّ الآيات القرآنيّة، تنتهي بفواصل مُنسجمة إيقاعيًّا مع الّتي قبلها؛ لتأثيرها في النّفس، على أن لا تكُون الفاصلةُ وحدها المُرتكزَ المُعوّلَ عليه، بل ينضَمُّ إليها المعنى، فيَعضُدُها لتحقيق ذلك، شريطة أن تكُونَ الفاصلةُ "لائقةً بما تقدَّمَهَا من ألفاظِ الجُزءِ من الرّسالةِ، أو البيتِ مِنَ الشِّعرِ؛ وتكُونَ مُستقرّةً في قرارها، ومُتمكّنةً في مَوضِعها؛ حتّى لا يَسُدّ مَسَدَّهَا غيرُها"[2]. هذا، ولا تكونُ الفاصلةُ وحدها مُنفردَةً بهذه الميزات، بل بتضامِّ المعنى والسّياقِ معها.

(1) الكفويّ، الكليّات، ص: 136.

(2) العسكريّ، الصّناعتين، ص: 448.

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ ٨٦﴾

[المائدة: 86]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

هذه الآيةُ تناسبُ ما قبلها، وقد عُطفت عليها بالواو، ذلك أنّه لمّا " ذكر ﷻ جزاءَ المُطيعين المُبادرين إلى الإذعان ترغيبًا، ذكر جزاءَ مَن لم يفعل فِعلَهُم ترهيبًا"[1]، وفي هذا تناسُبٌ واضحٌ، فإنَّ من يُحسن ويُؤمن ويُصدّق، فجزاؤُه الجنّة، ومن يُسيءُ فيكفرُ ويُكذّبُ، فجزاؤُه الجحيم.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿كَفَرُواْ﴾: فعلٌ مُشتقٌّ، من لفظ الكُفر، ومعناهُ " في اللّغة سَترُ الشّيء، ووصفُ اللّيل بالكافر لستره الأشخاص"[2]، والمعنى في الآية "جُحُود الوحدانيّة أو الشّريعة أو النّبوّة"[3].

2) ﴿وَكَذَّبُواْ﴾: جذره (كَذَبَ)، ومصدرُهُ التّكذيب، وهو التّصميمُ "على أَنّ الخبرَ كذِبٌ بالقطع عليه، ونقيضُهُ التَّصديقُ، ولا تُطلقُ صِفَةُ المُكذِّبِ إلَّا لِمَن كذّب بالحَقِّ؛ لأنَّها صِفَةُ ذمّ"[4].

3) ﴿بِـَٔايَٰتِنَآ﴾: جمعٌ مفردُهُ (آيَةٌ)، وهي "طائفةٌ من القرآن، يتّصلُ بعضُها ببعضٍ إلى انقطاعِها، طويلةً كانت أو قصيرة"[5]، ولها معنًى آخرُ جامعٌ هو العلامة[6].

4) ﴿أَصۡحَٰبُ﴾: من (صَحِبَ)، والصّاحبُ هو المُلازمُ دائمًا[7]، فهُم مُلازمُون دائمُو المُكث في (الجَحِيمِ).

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 6/273.
(2) الرّاغب، المفردات: (كفر).
(3) الرّاغب، المفردات: (كفر).
(4) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 45.
(5) الكفويّ، الكليّات، ص: 41.
(6) ابن منظور، لسان العرب: (أيا).
(7) الراغب، المفردات: (صحب).

5) ﴿ٱلۡجَحِيمِ﴾: جذره (جَحَمَ)، والجَحمَة شدّة تأجّج النّار[1]، وهي اسم من أسماء النّار أعاذنا اللّه وإيّاكم منها.

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

تُشير الآيةُ الكريمةُ إلى حقيقةٍ كثيرًا ما حثَّ عليها الأنبياءُ والمُرسلون، وهي أنّ مَن يكفُر ويُكذّب بآياتِ اللّه، فإنّ مَصِيرَهُ جهنّمُ، وهُو من أصحاب الجحيم، المُلازميها، الخالدين فيها، وفي الآية هدايةٌ إلى أنّ خلافَ هذه الحقيقة، بمفهُوم المُخالفة، هُو الصّواب، وهُو أنّ مَن يُؤمنُ، ويُصدّقُ بالرُّسُل، وبما أنزل اللّه، فهُو من المُتّقين الّذين أعدَّ اللّه لهم أنواعَ الجنّات خالدين فيها جزاءَ ما قدّموا من إيمانٍ وأعمالٍ صالحات.

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

التّكذيبُ بعد الكُفر من الخاصِّ على العامِّ:

الكُفر معناهُ تغطيةُ حقيقة التّوحيد والإلهيّة، والتّكذيبُ تغطية الحقّ والتّدليس عليه

في مُقابل ما أعطى اللّه للمُؤمنين من الجزاء الحسن، ابتدأ هذه الآية بالرّهط المُخالف لهُم من أولئك الّذين كفرُوا من اليهود والنّصارى والمُشركين، ممّن كذّب بالآيات، وهُنا عطف التَّكذِيب على الكُفر، مع أنّهُ ضربٌ منهُ، فالكُفر معناهُ التّغطيةُ والسّترُ للحقائق؛ وتغطيةُ العقُول عن إدراك الحقّ والتّكذيبُ مُشابهٌ لهُ في تغطية الحقّ والتّدليس عليه، وحَجبِهِ عنِ العُقُول والبصائر، "فهو هنا من باب عَطف الخاصِّ على العامِّ"[2]، أو المُجمَل على المُفَصّل، ثُمّ حكم عليهم بقوله ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ﴾، أي: "هُم سُكّانُها، واللّابثُون فيها"[3]، بل والخالدُون فيها، والآية بتمَامِهَا ذُكرت ثلاثَ مرّاتٍ في القرآن الكريم؛ في هذا المَوضِعِ مرّة، وفي الآية العاشرة

(1) الراغب، المفردات: (جحم).
(2) الشّوكاني، فتح القدير: 2/79.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 1/5130.

من المائدة أخرى، والآية التّاسعةَ عشرةَ من الحديد مرّة ثالثة، وهو يدخُلُ في باب التّكرار الّذي يُفيدُ التّوكيد، ولهُ فوائدُ عظيمةٌ.

دلالةُ اسم الإشارة ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ﴾:

الإشارةُ إلى أصحاب النّار باسم الإشارة المُفيد للبُعد (أولئك) يُؤذِنُ بأنَّ المُشارَ إليهم هم أصحابُ النّار المُتّصفون بما سبق ذِكرُهُ من الصّفات، وهي الكُفرُ باللّه والتّكذيب بآياته، وهم الحقيقون بالجزاء الذي كتبه اللّه الدّيّانُ الحسيبُ لهم.

المُشارَ إليهم بأنّهم أصحابُ النّار هم الكافرون المُكذّبون الحقيقون بالجحيم

التّعبير بالاسميّة ودلالاتُها على الثّبات واللُّزوم في ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ﴾:

استعمل لفظ (أَصحَاب) بالاسميّة، لدلالتها على الثُّبُوت؛ لذلك جاءت مُشتقّاتُها في القرآن الكريم اسميّةً أكثرَ من مجيئها فعليّة؛ لأنّ الصُّحبة أمرٌ إذا حصل، فإنّه يستمرُّ ويستقرُّ ويدومُ، والصّاحبُ من لازم أبدًا[1]، وسِوَى ذلك لا يُسمّى صاحبًا؛ لأنّ الصّاحبَ هو المُلازم المُعاشر، أمّا غيرُه الّذي لا يُلازم، بل قد ينقطعُ، فيُسمَّى صَديقًا أو رفيقًا أو نحوهُ، ولا يُسمّى صَاحبًا، وفي هذا المضمَار، يقولُ الشّاعرُ:

إِنَّ أَخَاكَ الصّدقَ مَن كانَ مَعَك *** وَمَن يَضُرُّ نَفسَهُ لِيَنفَعَك

ومَن إذا رَيبُ الزَّمَانِ صَدَعَك *** شَتَّتَ فِيكَ شَملَهُ لِيَجمَعَك[2]

وعندئذٍ فإنّ الاسميّة أليقُ بهذا اللّفظ؛ لذلك جاءَ هذا المعنى في أغلبِ وُرُوده في آيات القرآن بالاسميّة، ومنه هذه الآية، دلالة على ثبات حال الموصُوفين بها.

أصحابُ النّار هم الذين يستقرّون فيها، ويلازمونها، ولا يخرجون منها:

تعريفُ الجزأين وإفادتُه الحَصرَ:

قوله "﴿أُوْلَـٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ﴾، يُفيد الحصر، أَي: أولئك أَصحابُ الجحيم لا غيرُهم، والمُصاحبُ للشَّيء هُو المُلازمُ له، أي

(1) الرّاغب، المفردات: (صحب).

(2) البيتان لأبي العتاهية، من ديوانه، ص: 335، يُنظر: أيضًا: أبو بكر الخوارزميّ، الأمثال المولّدة، ص: 419، ويُنسبان أيضًا لعليّ بن أبي طالب ﷺ، يُنظر: كتاب صيد الأفكار، لحسين المهدي: 1/668.

الَّذي لا ينفكُّ عنه، فهذا يقتضي تخصيصَ هذا الدَّوام بالكفَّار"[1]، وما ورد بالفعليّة لا يُفيد الثّبات، من ذلك قوله تعالى: ﴿قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي ۖ قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا ﴿٧٦﴾﴾ [الكهف: 76]، وهُو حديثُ مُوسى عليه السلام مَعَ الخِضر عليه السلام، الّذي وهبهُ اللّه من لدُنه علمًا، وقد وردت بصيغة الفعل الّذي يُفيد التّجدّد؛ لأنّ مُوسى عليه السلام لم يكن صاحبًا بصفة الدّوام والثّبوت لهذا الرّجل الصّالح؛ لأنّه لم يُلازمه على الدّوام، ولكنّه طلب مُصاحبته استثناءً في مُدّة مُعيّنة من الزّمن؛ لأنّه كان يتعجّلُ معرفة ما خفي عنه، حتّى حصل الفراقُ بينهما، لمّا عجَزَ صَبرُ موسى عن الالتزام بعدم السُّؤال عن تصرُّفات الخِضر، ممّا كان غريبًا وخارجًا عن مألُوف أحكام الشّرع والعُرف الّتي ألفها مُوسى وعرفها، فانبرى يحتجُّ على كلّ فِعلٍ من الوقائع الثّلاث تِباعًا، كما فصّلت في ذلك سورةُ الكهف.

تخصيصُ النّار بالكافرين المُكذّبين كأنَّ النّارَ خُلِقَت لهم، وهم أصحابُها دون غيرهم:

(1) الرّازي، مفاتيح الغيب: 12/74.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ٨٧ وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلٗا طَيِّبٗاۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤۡمِنُونَ ٨٨﴾ [المائدة: 87 - 88]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

في هذه الآية دعوةٌ للّذين صدَقُوا اللّه، وأقرُّوا بما جاءهُم من الحقّ، ألّا يمنَعُوا أنفُسَهُم من الطّيبات الّتي أحلّها اللّهُ، كما يفعلُ القِسّيسُون والرُّهبانُ الّذين حرّمُوا "على أنفسِهم النّساءَ والمطاعمَ الطيِّبة، والمشاربَ اللّذيذة، وحَبَسَ في الصَّوامع بعضُهم أنفسَهم، وساحَ في الأرض بعضهم"[1]؛ لذلك فإنّ مُناسبة " هذه الآية لما قبلها، تتجلّى في أنَّه تعالى لمّا مدح النَّصارى، بأَنَّ منهم قسِّيسين ورُهبانًا، وكان من عادتهم الاحترازُ عن طيِّبات الدُّنيا وملذَّاتها؛ أوهَمَ ذلك ترغيبَ المُسلمين في مثل ذلك التَّقشُّف والتّبتُّل، فبيَّن تعالى أَنَّ الإِسلام لا رهبانيَّة فيه"[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿لَا تُحَرِّمُواْ﴾: فعلٌ مشتقٌّ من (حرم)، ومصدرُه التّحريم، ومنه أيضًا "الحَرامُ وهو المَمنُوعُ منه؛ إمّا بتَسخيرٍ إلهيّ، وإمّا بشريّ، وإمّا بِمنعٍ قَهريّ، وإمّا بِمنعٍ مِن جِهَةِ العَقلِ، أو مِن جِهةِ الشّرعِ، أو مِن جِهةِ مَن يُرتَسَمُ أمرُهُ"[3]، والتّحريمُ الواردُ في القرآن الكريم، هُو تحريمُ الشّرع، وكُلُّ ما سواه، لا يُعَدُّ تحريمًا؛ لذا نَهَى الحقُّ ﷻ هؤُلاء النّفرَ الّذين حرّمُوا على أنفسهم ما حرّموا، ومنها ما عبّر عنه القرآن بعبارة ﴿طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ﴾.

2) ﴿طَيِّبَٰتِ﴾: جمعٌ بالألف والتّاء، مفردُهُ طيّبٌ، والأصلُ فيه أنّه "ما تَستَلِذُّهُ الحَوَاسُّ، وما تَستَلِذُّهُ النّفسُ، والطّعامُ الطَّيِّبُ في الشّرعِ ما كان مُتَنَاوَلًا من حيثُ ما يَجُوزُ"[4]، مع مُراعاة أنَّ الحقَّ ﷻ قد أحلَّهَا لعباده المُؤمنين.

(1) ابن جرير، جامع البيان: 1/5130.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/10.
(3) الرّاغب، المفردات: (حرم).
(4) الرّاغب، المفردات: (طيب).

3) ﴿أَحَلَّ﴾: فعلٌ جذرُه اللُّغويُّ (حَلَلَ)، والحلالُ نقيضُ الحرام[1]، فما قيل في شأن الحرام، يُقالُ هنا نقيضُهُ، والمعنى: إنّ ما حرّمتُم على أنفُسكم من الطّيبات، هي حلالٌ مُباحةٌ لكُم، مع مُلاحظة أنّهُ عبّر بلفظ الحلال (أَحَلَّ)، ولم يُعبّر بلفظ الإباحة (أَبَاحَ)، وذلك بسبب " أَنّ الحلال هو المُباح الَّذي عُلِمَ إباحته بالشَّرع، والمُباحُ لا يُعتبرُ فيه ذلك؛ تقولُ: المشيُ في السُّوق مُباحٌ، ولا تقول: حلالٌ"[2].

4) ﴿وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ﴾: جذرُه اللُّغويُّ (عَدَوَ)، والأصلُ فيه أن يدُلَّ على مُجاوزة الحدّ[3]، والتعدّي كذلك " والعُدوانُ الظُّلمُ الصُّراحُ، والاعتداءُ مُشتقٌّ من العُدوان"[4]..

5) ﴿لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾: (لَا يُحبُّ) من المحبّة، وهي " إرادةُ ما تراهُ أو تظنُّهُ خيرًا"[5]، وهُناك محبّةٌ مُتبادلةٌ بين العبد وربّه، "فمحَبّةُ اللّهِ تعالى للعَبدِ إنعامُهُ عليه، ومَحبّةُ العَبدِ لهُ طلبُ الزُّلفَى لَدَيهِ"[6]، والتّعبيرُ هنا بأنّ اللّه لا يُحبُّ المُعتدين، فيه تنبيهٌ على خطر ارتكاب المحظُورات، وتذكيرٌ بالمنهيات.

6) ﴿وَكُلُواْ﴾: الهمزة والكاف واللّام باب تكثرُ فروعه، والأصلُ كلمةٌ واحدةٌ، ومعناها التَّنقُّص[7] وغير ذلك، فالأكلُ معرُوفٌ، وهو تناولُ الطّعامُ ونحوه، ومع ذلك فمنهُ ما يكون حلالًا، ومنهُ ما ليس كذلك.

7) ﴿مِمَّا رَزَقَكُمُ﴾: فعلٌ مُشتقٌّ من الرّزق، ومعناهُ "يدُلُّ على عطاءٍ لوقتٍ، ثُمَّ يُحمَلُ عليه غيرُ المَوقُوت؛ فالرِّزقُ عطاءُ اللّه جلَّ ثناؤُه، ويُقال رزقه اللّه رزقًا"[8]، فالرّزقُ مدلولٌ عامٌّ يقعُ على أشياءَ كثيرةٍ، كالمطر والمال والعلم والأبناء والأنعَام وغيرِها.

8) ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾: أمرٌ بالتّقوى، و" الاتّقاء هو افتعالٌ من الوقاية، وهي فرطُ الصّيانة، وشدَّةُ الاحتراس من المكرُوه"[9]، فالأصلُ فيه من الوقاية، ثمّ استُعير وصار "المُتّقي في

(1) ابن منظور، لسان العرب: (حلل).
(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 225.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عَدَوَ).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عَدَوَ).
(5) الرّاغب، المفردات: (حب).
(6) الرّاغب، المفردات: (حب).
(7) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (أكل).
(8) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (رزق).
(9) الكفوي، الكليّات، ص: 38.

عُرف الشَّرع، اسمٌ لمن يقي نفسَهُ عمَّا يضُرُّهُ في الآخرة، وهو الشّرك المُفضي إلى العذاب المُخلّد، وعن كُلِّ ما يُؤثمُ من فعل أو ترك، وعن كُلّ ما يَشغَلُ عن الحقّ، والتبتُّل عليه بالكُلِّيَّة"[1].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

دَعـــــوةٌ إلى تجنّب تحريم الـطّـيّـبـات، وتـوجـيـهٌ إلى الأكل من الأرزاق الطّيّبة:

يدعُو الحقُّ ﷻ المؤمنين ألّا يمنعُوا أنفُسَهم الحلالَ، وهُو طيّباتُ الرّزق من المَأكل والمَشرب والمَلبس وسواها، كما فعل نفرٌ من المُسلمين في عصر النّبيّ المُصطفى ﷺ، ممّن ورد ذكرُهُم في سبب النُّزُول؛ ففي ذلك سيرٌ بغير سُنّة الإسلام والمُسلمين، ثُمّ إن كان هذا التّحريمُ والتّركُ من باب التّديُّن، فهُو من باب الابتداع في الدّين؛ إذ إنّ فعلَهُم ذاك، فيه اعتداءٌ ومُجاوزةٌ للحدّ؛ وهو ما لا يُحبُّه اللّه، وفي المُقابل يدعو الحقُّ ﷻ المُسلم، أن يتمتّع بما رزقهُ اللّه من الحلال الطيّب، مع التّأكيد أنّ تحريم ما أحلّه اللّه، ليس من التّقوى، بل إنّه يَنزعُ عن صاحبه رِبقة الإيمان، والآيةُ تُرشدُ إلى ضرورة الابتعاد عن التّحريم والتّحليل، اعتمادًا على شُبهات واهية ضَعيفة، بل يجبُ أن يكُون بمُقتضى ضرُورةٍ شرعيّةٍ مُؤكّدة، وشرطُهُ أن يكون واقعًا وعليه دليلٌ، وهُو سُبحانهُ يُريدُ من عباده الشُّكرَ على ما رزقهم، ويطلُبُ منهُم عدمَ الإسراف في تناوُل النّعم واستعمالها، وفق أوامرِهِ ونواهِيه؛ ذلك لأنّ التّحريم ليس من شأن البشر، بل هُو من اختصاص خالق البشر وحدَه، لا شريك لهُ.

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

النّداء بـ (يا) لاسترعاء انتباه أهل الإيمان:

نداءُ الله كلّ مَن دخـلَ في عَقد الإيمان:

قوله ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾: تركيبٌ لغويٌّ قرآنيٌّ شائعٌ في الكتاب الكريم، وقد ورد هذا التّركيبُ في نحو تسعةٍ وثمانين مَوضِعًا من

(1) الكفوي، الكليّات، ص: 38.

الكتاب المُحكم، وهو من أساليب الإنشاء الطّلبيّ، مُكوّنٌ من (يَا) النّداء، وهي أصلُ باب النّداء، يُنادى بها القريبُ والبعيدُ، ثمّ (أيُّ) وهو مُنادى نكرةٌ مبنيٌّ على الضّمّ في محلّ نصب، و(ها) للتّنبيه، و(الّذينَ) اسمٌ موصولٌ مُختصٌّ بجماعة العُقلاء، وهو هنا نعتٌ أو بدلٌ لـ (أيُّ)[1]، وقولُهُ: (آمَنُوا)، جملةٌ فعليّةٌ صلةُ الاسم الموصُول؛ تعرّفُ الاسمَ الموصولَ؛ لأنّهُ وإن كان منَ المعارفِ، فإنّهُ يظلُّ مُبهمًا، ما لم تُذكر الصّلةُ فيتعرّفُ، وتظهرُ ملامحُهُ، لذلك قال: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾.

عادةُ ذِكر أداة النّداء في مناداة المؤمنين في القرآن الكريم:

النّـداءُ للتّنبيه والإيماء بفضل الإيمان وتقريره في النّفوس:

ومن ملامح هذا التّركيب المُهمّة في هذه الآية، لزُومُ ياء النّداء في جميع المَواضِع الّتي ظهر فيها، ففي اللّسان العربيّ جرت العادةُ أن تُحذف أداةُ النّداء كثيرًا؛ لغرض التّخفيف؛ ولكثرة الاستعمال، لكنّها لم تُحذف هنا، دلالةً على أهميّة الموضوع، وتنبيهًا على فضله وعُلُوّ شأنه، فهو نداءٌ فيه تذكيرٌ بالنّعم، وتقريرُ الإيمان باللّه وحده.

وُقوعُ النّهي في جواب الطّلب:

نَهيُ الذين آمنوا عـن تـحـريـم الطّيّبات التي أحـلّـهـا الـلـه لعباده:

النّداءُ من الأساليب الطّلبيّة، وجوابُهُ في هذه الآية جُملة النّهي، في قوله تعالى: ﴿لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمۡ﴾، وهنا نهيٌ بـ(لا) الدّالة على امتناع فعل الشّيء، وهو نهيٌ عن تحريم شيء أباحه اللّه للّذين آمنوا من أمّته، وهذا النّهي وُجِّه لـ"جماعة من الصَّحابة عزمُوا على التَّقشُّف المُفرِط، والعبادة المُفرطة الدَّائمة... فنهاهُم الرَّسولُ عن ذلك"[2]، فالمعنى: لا تُحرّمُوا على أنفسكم الطّيبات والمُستلذّات من الطّعام والشّراب والنِّكاح وغيرها، ممّا أحلَّ اللّهُ لعباده؛ فإنّهُ لم يخلُقها عبثًا، بل فيها حِكَمٌ بَلِيغةٌ؛ منها اختبارُ اللّه عباده، ليرى من يشكُرُ منهم ويُنيب، ومن يكفرُ ويطغى.

(1) صافي، الجدول: 1/223.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/349.

بلاغة الحذف في قوله: ﴿لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ﴾:

في هذه الآية الكريمة لفتةٌ بلاغيّةٌ، مُرتبطةٌ بالحذف في التّعبير القرآنيّ؛ إذ ظاهرُ اللّفظ أنّ التّحريمَ واقعٌ على ذوات الطّيبات، إلّا أنَّ الشَّرع بيّنَ أنَّ التَّحريمَ يقعُ على تناوُل الطّيبات، من أكلٍ وشُربٍ ولُبسٍ وجِمَاعٍ ونحوه، وليس على مُجمل اللّذات؛ لأنّ اللّذاتِ سمَّاها اللّه (طَيِّبَات)، لا تتّصفُ بالحِلّ والحُرمة شرعًا؛ فعُلِمَ أنّ المَحذُوف هو التّناوُل، أي: تناوُل الطّيبات الّتي أحلّها اللّه لنا، "والمُراد بتحليله تعاطيه، أو اعتقاد حلّه"[1].

التّحريم لا يقعُ على ذوات الطّيبات، وإنّما الذي يحرُمُ هو تناوُلها والاستفادةُ منها

التّضمين في الفعل ﴿لَا تُحَرِّمُواْ﴾:

فعل التّحريم (لا تُحَرِّمُوا)، مُتضمِّنٌ معنى "لا تعتقدُوا تحريم ما أَحَلَّ اللّه، ولا تُظهِرُوا باللّسان تحريمه، ولا تجتنبُوه اجتنابًا يُشبهُ اجتناب المُحرّمات"[2]؛ لأنّ التّحريم مُختصٌّ به تعالى على لسان رَسُوله، ولا يُمكن لبشر أن يُحرّم شيئًا أو يُحلّله؛ فالفعلُ إذن ليس على معناه الموضوع في كلام العرب.

التّحريمُ مُختصٌّ بالله تعالى على لسان رسوله، وليسَ لِبَشَرٍ أن يُحرّم شيئًا أو يُحلّله:

تأكيدُ النَّهي في ﴿لَا تُحَرِّمُواْ﴾ بالنَّهي في ﴿وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ﴾:

في الآية نَهيٌ عن تحريم الطّيّبات، ونَهيٌ عن تجاوُز الحدود فيما حرَّم اللّه:

قوله ﴿وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾: (الواو) هنا عاطفةٌ، فهذه الجملة معطوفةٌ على الجملة السّابقة لها، فبعد النّهي عن تحريم ما أحلّه اللّه من الطّيبات، أكّد هذا النّهيَ بقوله ﴿وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾، فـ(لا) الثّانية ناهيةٌ، أكّدت (لا) الأولى، وتكرارُها هنا لإضفاء مزيدِ أهميّةٍ على هذا الخطاب؛ لأنّه نهيٌ جديدٌ؛ نهيٌ عن الاعتداء، ومُجاوزة الحدّ، فبَعدَ النّهي عن تحريم الطّيبات، من مَلبسٍ ومَشربٍ وغيره، قال ﴿وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ﴾.

(1) الخفاجيّ، عناية القاضي: 3/275.
(2) النّيسابوريّ، غرائب القرآن: 3/8.

معنى الاعتداء في الآية الكريمة:

الوُقوفُ عند حدود الله مطلوب، والتّنطُّعُ اعتداءٌ

الاعتداءُ "تجاوُزُ الحدّ فيما حرَّمَ اللّهُ، أو فيما حلّل اللّهُ، أي: أنّ اللّه يُحبُّ من يقفُ عند الحُدُود"[1]، والتّعبيرُ بـ (لا تعتدُوا) بعد النّهي عن تحريم الطّيبات يُوحي بأمر آخر أكبر ضررًا من أن يحرّم الإنسان على نفسه الأكل والشُّرب وسواهما؛ لذلك فسّر ﴿وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ﴾ "أي لا تَجُبُّوا أَنفُسَكُم"[2]، فإنَّ النّفرَ الّذين حرَّمُوا على أنفسهم الطّيبات، وهم المذكُورُون في سبب النّزول، زادُوا على تحريمهم ذاك، أن قامُوا بـ" جَبِّ المَذَاكِير، وقطعِ آلةِ التَّنَاسُلِ"[3]، فكان هذا الأمرُ اعتداءً صَارخًا، يجبُ معهُ النّهيُ.

مناسبة التّذييل بقوله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾:

كلُّ مَن يُجاوِزُ حدودَ الشّرع مُعتَدٍ، واللهُ لا يُحِبُّ المُعتَدين

جاء ختامُ الآية بقوله تعالى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾ مناسبًا لمضمونها، وهو "تذييلٌ للّتي قبلها؛ للتَّحذِير من كُلِّ اعتداءٍ"[4]، فصدَّرَهَا بـ (إنَّ) الدّالةِ على التّوكيدِ، وهي في مُجمَلِهَا دالّةٌ على التَّعليل، أي: لا تعتدُوا؛ لأنَّ اللّهَ لا يُحِبُّ المُعتدين المُجاوزين الحدَّ والشّرعَ؛ والألفُ واللّامُ في (المُعتَدِينَ) للجنس، وتَشمَلُ كُلّ مُعتدٍ، فالعِبرةُ بعمُوم اللّفظ لا بخُصُوص السّبب، كما يقولُ الأصُوليُّون.

الأمرُ للإباحة في قوله: ﴿وَكُلُواْ﴾:

الدّعوةُ للأكل من الحلال الطّيّب إباحةٌ وامتنانٌ

قوله تعالى ﴿وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلٗا طَيِّبٗاۚ﴾: الواوُ عَطَفَت هذه الآيةَ على ما قبلَهَا؛ لتعلُّقِها بها، فإنّهُ لمّا نَهَى اللّهُ تعالى عن تحريم الطّيّبات، أبَاحَ الأكلَ الحَلَال، والفعلُ (كُلُوا) فعلُ أمرٍ، بناؤُهُ للأمر، وهو في أصلِهِ يقتضِي الوُجُوب، لكنّها "أعنِي صيغةَ الأمرِ،

(1) الشّعراوي، تفسير الشّعراوي: 6/3356.
(2) الفرّاء، معاني القرآن: 1/318.
(3) الثّعلبي، الكشف والبيان: 4/102.
(4) ابن عاشور، تفسير التّحرير والتّنوير: 7/17.

قد تُستَعمَلُ في غيرِ طلبِ الفِعلِ، بحسبِ مُناسَبَةِ المَقَام كالإبَاحَة"[1]، فالفعلُ (كُلُوا) هنا، خَرَجَ إلى معنَى الإباحة، فأباحَ لهُم الأكلَ من الرّزقِ الّذي أنزلهُ لهُم، ولعلّهُ يدخُلُ في باب الامتنان منهُ سُبحَانَهُ على ما أنعَمَ من فضله وآلائِهِ حيث أنعَمَ عليهم بأن يأكُلُوا من رزقه.

دلالة التّعبير بـ ﴿مِمَّا﴾:

التّعبيرُ بـ(مِن) التَّبعِيضيَّة إرشادٌ إلى ترك الإسراف

إنَّ قولهُ ﴿مِمَّا﴾ يتركّبُ من إدغام حرف الجرّ (مِن) مع (مَا)، و(مِن) تُفيدُ التّبعيض في كثير من أحوالها، وقد قال تعالى: ﴿كُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ﴾ بـ(مِن) التَّبعِيضيَّة، ولم يقُل (كُلُوا مَا رَزَقْكُم)، "فكأَنّهُ قال: اقتصِرُوا في الأَكل على البعض، واصرفُوا البقيَّة إلى الصَّدقات والخيرات؛ لأَنّهُ إرشادٌ إلى ترك الإسراف"[2].

المرادُ بمعنى الأكل في قوله ﴿وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾:

(الأكـل) تعبيرٌ عـن كـل أنـواع المُباحات من أكلٍ ومشرَبٍ وملبسٍ وغيرها

وينبَغي النّظرُ في أنّه ليس المقصودُ هُنا الأكلَ، على وجه التّخصيص، بل يشملُهُ ويشملُ المشربَ والملبسَ والمركُوبَ وغير ذلك من المُباحات الّتي يتمتّعُ بها الإنسانُ، أي: أنَّ التّعبيرَ من إطلاق الخاصّ وإرادة العامّ؛ لأنَّ المُراد مُطلقُ الانتفاع بالرّزق، " وخُصَّ الأَكلُ بالذِّكر، لأَنَّه أَعظمُ المقصُود، وأَخصُّ الانتفاعات بالإنسان"[3]، وهو ملمَحٌ بيانيٌّ لطيفٌ، يُؤيّدُهُ قولُه تعالى: ﴿لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾، وما ذكر من سبب النّزول في أنّ التّحريم لم يكن في المأكول فقط.

الوجوه الإعرابيّة للفظ ﴿حَلَٰلًا﴾:

الأمرُ مُتوَجّهٌ إلى الأكـل مِمّا حلَّ وطـابَ من رزق الله

في قوله ﴿حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾، لفظ (حلالًا) اسمٌ منصُوبٌ يحتملُ أن يكُون مفعولًا أو حالًا أو نعتًا لمصدر محذُوف؛ أي: (أكلًا حلالًا)، ولفظ (طَيِّبًا) في كلّ الأحوال يكونُ نعتًا.

(1) القزوينيّ، الإيضاح: 3/83.
(2) الرّازي، مفاتيح الغيب: 12/77.
(3) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 8/120.

جاء في أنوار التّنزيل[1]: "كلوا ما حلَّ لكم وطابَ ممّا رزقَكم اللّه، فيكون (حلالًا) مفعولَ (كُلُوا)، و(مِمّا) حالٌ منه تقَدَّمت عليه لأنّه نكِرَةٌ، ويجوزُ أن تكون (مِن) ابتدائيّةً مُتعلِّقةً بـ كلوا، ويجوزُ أن تكونَ مفعولًا، و(حلالًا) حال من الموصول أو العائد المحذوف؛ أو صفةً لمصدر مَحذوف، وعلى الوجوه لو لم يقع الرّزق على الحرام لم يكن لذِكر الحلال فائدة زائدة".

اقترانُ الأمر بالتّقوى بالإيمان:

إيمانُ المسلم يدعوهُ إلى الاجتهاد في التّرقّي في مدارج التّقوى

قوله ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤۡمِنُونَ﴾: فيه أمرٌ لهُم بتقوى اللّه، من خلال إتيانِ أوامرِه، واجتنابِ نواهيه، وهذه التّقوى مُقترنةٌ بالإيمان، بقوله ﴿ٱلَّذِيٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤۡمِنُونَ﴾، وههنا لطيفةٌ بيانيّةٌ في التّقديم والتّأخير.

بلاغة تقديم الجارّ والمجرور للدّلالة على التّخصيص والاهتمام:

تقديمُ الجار والمجرور في قوله (بِهِ مُؤمِنُونَ)، معناهُ تخصِيصُ الإيمان باللّه وحدَهُ

التّقديمُ والتّأخيرُ من أهمّ أبواب البلاغة؛ والمتكلّمُ يُراعي في هذا الباب ما يستحقُّ ذلك؛ لتتبيّن مَزيّةُ التّقدُّم ومزيّةُ التّأخّر، ومن البدهيّ أنّ ما تقدّم من الكلام، فتقدُّمُه في اللّسان على حسب تقدُّم المعاني في الجَنَان، والعربُ "إنّما يُقدّمون الّذي بيانُه أهمُّ لهُم، وهُم ببيانه أعنَى، وإن كانا جميعًا يهُمّانهم ويعنيانهم"[2]، ومثالُ التّقديم والتّأخير واضحٌ في قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤۡمِنُونَ﴾، فهُنا قدَّمَ الجارّ والمجرُور على الاسم، والتّقديمُ هُنا يُفيدُ الاهتمام والتّخصيص، بخلاف ما لو قال (أَنتُم مُؤمِنُونَ بِهِ)، والجملةُ هنا ابتدائيّةٌ صلةُ الاسم الموصول، فـ(أَنتُم) مبتدأٌ، و﴿مُؤۡمِنُونَ﴾ خبرُهُ، وشبهُ الجُملة ﴿بِهِۦ﴾، جارٌّ ومجرورٌ؛ وعليه فقولُهُ: ﴿بِهِۦ مُؤۡمِنُونَ﴾، معناهُ الإيمانُ به دون سواه، وهو تخصِيصُ الإيمان باللّه وحدَهُ، وهذا

(1) البيضاوي، أنوار التّنزيل: 2/141.
(2) سيبويه، الكتاب: 1/34.

يأتي مُناسِبًا للسِّياق الواردِ، من أوّل الآيات في النّهي عن التّحريم، حتَّى نصل إلى الأمر بالتّقوى، ولو قال: (أَنتُم مُؤمِنُونَ بِهِ)، فإنّه يحتملُ أنّكُم مُؤمنُون به وبغيره، وهذا غيرُ المُراد في الآية الكريمة، فضلًا عن أنّ الجُملة هُنا اسميّةٌ، تدُلُّ على الثُّبُوت والاستقرار.

﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَٰنَ ۖ فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ ۚ ذَٰلِكَ كَفَّٰرَةُ أَيْمَٰنِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ ۚ وَٱحْفَظُوٓا۟ أَيْمَٰنَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٨٩﴾﴾

[المائدة: 89]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لمَّا نزل قولُهُ تعالى: ﴿لَا تُحَرِّمُوا۟ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾، قال بعض المسلمين: يا رسول الله: كيفَ نَصنَعُ بِأيمَانِنَا الَّتي حَلَفنَا عليها؟ وكانوا حَلَفُوا على ما اتَّفقُوا عليهِ[1]، وعلى ذلك فهذه الآيةُ شديدةُ الاتّصال بما سبقَ منَ الآياتِ، ومُناسِبةٌ أشدَّ المُناسبة لَموضِعِها مِن تَيْنِكَ الآيتينِ.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يُؤَاخِذُكُمُ﴾: من (أَخَذَ)، والأخذُ الشّيء، والحُصُول عليه مرّةً بالتّناول، ومرّةً بالقهر والقُوّة[2]، وهكذا مُجملُ معاني الأخذ، تُفيد التّعدية، أي: تُجاوز الفاعل إلى المفعولِ؛ ولأنَّ الفعلَ منهُ من الأفعال المُتعدّية للمفعول، بدلالة حصُول اسم المفعُول منهُ، وهو (مَأخُوذٌ)، أمّا التّعبيرُ بالفعل (يُؤَاخِذُ) "فتخصِيصُ لَفظِ المُؤاخذة، تَنبيهٌ على معنى المُجازاةِ والمُقابَلَة، لِما أخذُوهُ من النِّعَم، فلم يُقابلوهُ بالشُّكر"[3]، والتّعبيرُ هنا جاء بنفي المُؤاخذة، وأن لا حَرَجَ على الإنسانِ، فيما يُحدِثُهُ في اليمين من (اللَّغو).

2) ﴿بِٱللَّغْوِ﴾: لفظ (اللَّغو) لهُ أصلان في كلام العرب، وورد في مقاييس اللّغة: الأوّل

(1) البغويّ، معالم التّنزيل: 3/90.
(2) الرّاغب، المفردات: (أخذ).
(3) الرّاغب، المفردات: (أخذ).

يدلُّ على شيء مُهمَل لا يُؤبَهُ به، والثّاني على اللهج والنّطق بالشّيء[1]، والمذكُورُ في الآية ظاهرُهُ الثّاني، وهو أن يلهجَ المرءُ بكلام ما؛ أي: أن يلغُوَ، إلّا أنّ بلاغةَ التّعبيرِ الحكيم تجعلُ من الأصلين واقعًا في هذا السّياق؛ فاللّغوُ هنا مع انضِمَامِهِ إلى اليمين، يكتسِبُ المَعنَيَين جميعًا؛ فهو لهَجٌ وكلامٌ لا يُعتدُّ به؛ وآيةُ ذلك أنّ الحقَّ ﷻ، لم يُؤاخِذهُم به، لقوله ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغۡوِ فِيٓ أَيۡمَٰنِكُمۡ﴾، ويعني ما تلفّظُوا به من ضلالاتٍ وأباطيل.

3) ﴿فِيٓ أَيۡمَٰنِكُمۡ﴾: الأيمانُ جمعُ تكسيرٍ، يُفيدُ القلّة، مُفرَدُهُ (يمينٌ)، وهُو لفظٌ مُشتركُ الدّلالة، يُطلِقُ عليهِ الدّلاليُّون مُصطلحَ المُشتَرَك اللّفظيّ[2]، وقد يكونُ معنى اليَمين يمينَ اليد، وقد يُعَبَّرُ به عن القوّةِ والجَبَروتِ، وقد يُراد به الحَلفُ أو القَسَمُ[3]، وهكذا تتعدّدُ معاني اليمين، والّذي يحدّدُها السِّياقُ الذي يردُ فيه اللّفظ، ومعنى اليمين هنا الحَلفُ والقسمُ، وهو واضحٌ من سياقها، ومن سبب النّزول.

4) ﴿عَقَّدتُّمُ﴾: فعلٌ من (عَقَدَ)، والعَقدُ " الجَمعُ بين أطرَاف الشّيء، ويُستعمَلُ ذلك في الأجسَامِ الصُّلبَةِ، كَعَقدِ الحَبلِ، وعَقدِ البِنَاء، ثُمّ يُستعارُ ذلك للمَعَاني، نحو عَقدِ البَيعِ والعَهدِ"[4]، وعقّدتُمُ الأيمانَ: تعمّدتُم وقَصَدتُم به اليمينَ، وتعقيدُ الأيمانِ توثيقُها، قال الفرزدق:

وَلَستَ بِمَأخُوذٍ بِلَغوٍ تَقُولُهُ *** إِذَا لَم تَعَمَّد عَاقِدَاتِ العَزَائِمِ[5]

5) ﴿فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ﴾: الكفّارةُ من الكُفر، وهو التّغطيةُ والسّتر، والمُرادُ ما يُغطّي الإثم[6].

6) ﴿إِطۡعَامُ﴾: مصدرُ أطعمَ يُطعمُ إطعامًا، وجذره اللُّغويّ من (طَعِمَ)، ومعنى الطَّعم تناولُ الغذاء، ويُسمّى ما يُتناوَلُ منه طَعمٌ وطَعَامٌ[7]، والفعل (أطعم) مزيدٌ بالهمزة الّتي تُفيد التّعدية، والمصدر منه (إطعَامٌ)، وقد يُستعملُ هذا الفعلُ للتّذوُّق عُمومًا، كقوله

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (لغو).

(2) المشترك اللّفظي أن يكون اللّفظ واحدًا، والمعاني متعدّدة، بحسب السّياق الّذي ينتظمُها، كلفظة العين، فمن معانيها العين الباصرة، وعين الماء، والجاسوس، وغيرها، يُنظر: أحمد مختار، علم الدّلالة، ص: 145 فما بعدها (فصل المشترك اللّفظي).

(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (يمن).

(4) الرّاغب، المفردات: (عقد).

(5) الدُّرّة، تفسيُر القرآن وإعرابه: 3/198.

(6) الدُّرّة، تفسيُر القرآن وإعرابه، ص: 717.

(7) الدُّرّة، تفسيُر القرآن وإعرابه، ص: 519.

تعالى ﴿لَيۡسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٞ فِيمَا طَعِمُوٓاْ﴾، فإنّه استعمله هنا مع الخمر، مثلما يتبيَّنُ في قصّة الآية وسبب النُّزول.

7) ﴿مَسَٰكِينَ﴾: جمعُ تكسير من صيغ مُنتهى الجُمُوع، زنة (مَفَاعِيل) مُفردُهُ (مِسكِينٌ)، وجذره اللُّغويّ من (سَكَنَ)، يُقالُ: سَكَنَ الشيءُ يَسكُنُ سُكونًا إذا ذهبَت حركتُه[1]، فالمسكينُ (مِفعِيلُ) من معنى السّكون، و" المِسكينُ أَحسنُ حَالًا من الفَقِير"[2]، إذ ورد في آي الذِّكر الحكيم قوله: ﴿أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتۡ لِمَسَٰكِينَ يَعۡمَلُونَ فِي ٱلۡبَحۡرِ﴾ [الكهف: 79]، فهُم مَسَاكين، ولكنَّهم يمتلكُون سفينةً.

8) ﴿أَوۡسَطِ﴾: جذره اللُّغويُّ من الواو والسّين والطّاء، و(وَسَط الشّيء ما بين طرفيه)[3]، و" أَوسطُ الشَّيءَ أَفضلُهُ وخِيَارُهُ، كوسَط المَرعَى خيرٌ"[4]، ولذلك قيل فيما يُطعَم، إنّه من أفضلِ طعامِكم، إلاّ أنّ الأرجحَ في الطّعام "لا الدُّون الذي يُتقشَّفُ به أحيانًا، ولا الأعلى الّذي يُتوسّعُ به أحيانًا أخرى[5].

9) ﴿أَهۡلِيكُمۡ﴾: مادّتُهُ (أَهَلَ) و(أَهلُ الرَّجُل زَوجُهُ، وأخصُّ النَّاس به، والتَّأَهُّل التَّزوُّج، وأهلُ البيت سُكَّانُهُ، وأهلُ الإسلام مَن يدينُ به"[6]، و﴿أَهۡلِيكُمۡ﴾ مُلحَقٌ بجمع المذكّر السّالم، جاء في الآية مفعولًا منصُوبًا بالياء، ويكونُ في حالة الرّفع (أهلُونَ) مثلُ أرَضُون وعِلّيُّون.

10) ﴿كِسۡوَتُهُمۡ﴾: من كَسَا يَكسُو كسوَةً، فجذره (كَسَوَ) حصلَ فيه إعلالٌ فقُلبَتِ الواوُ ألفًا، ففعلُهُ الماضي (كَسَوَ)، فصار (كَسَا)، و(الكِسوَةُ والكُسوةُ اللّباسُ، كَسَوته أَلبَسته، واكتَسَى لَبِسَ الكُسوةَ"[7].

11) ﴿تَحۡرِيرُ﴾: مصدَرٌ للفِعل المُضعّفُ (حَرّرَ)، على زنة (فَعَّلَ)، وله معانٍ عدّة،

(1) الأزهري، تهذيب اللّغة: (سكن).
(2) الأزهري، تهذيب اللّغة: (سكن).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (وسط).
(4) ابن منظور، لسان العرب: (وسط).
(5) المراغي، تفسير المراغي: 7/14.
(6) الخليل، العين: (أهل).
(7) الخليل، العين: (كسو).

منها: "الإفراد، يُقَال: حَرَّره بِأَمر كَذا أَي أفردَه لَهُ، وتحريرُ المبحث تَعيينُه وتعريفُه، وتحريرُ الكتاب وغَيره تقويمُه... والتّحريرُ بَيَانُ المَعنى بالكِتابَةِ"[1]، أمّا المعنى المرادُ في الآية، فإنّ "تَحرير الرَّقَبَة إعتَاقُهَا"[2]، وهو معنًى مجازيٌّ، يُرادُ منهُ إطلاقُ الإنسان من العبوديّة إلى الحريّة، وعبّر بالرَّقبة، وفي تعريف التّحرير بمعنى الإفراد هُنا، فكأنّهُ أفرد هذا العبد وخلّصهُ، بعد أن كان مُتعلّقًا بغيره تَعَلُّقَ عبوديّة، أي أفرده من سيّده.

12) ﴿فَصِيَامُ﴾: مصدَرٌ للفعل صامَ يصُومُ، وأصل فعله المجرّد (صَوَمَ)، حصل فيه إعلالٌ، وأيُّ إمساكٍ عن شيء يُسَمَّى صِيامًا، إلاّ أنّ دلالة اللّفظة قد تطوّرت بعد نُزُول القرآن، فأصبح الصّيام عَلَمًا على ركن من أركان الإسلام، وبقي المعنى الأصليُّ قائمًا في هذا اللّفظ الّذي تبلور حتّى إذا ما أُطلقَ الآن، انصرف الذّهنُ إلى الإمساك عن الطّعام والشّراب ونحوه، من طلوعِ الفجر إلى غُرُوب الشّمس.

13) ﴿إِذَا حَلَفْتُمْ﴾: فعلُهُ حَلفَ يَحلِفُ، و" حلَف الشَّخصُ على المُصحَف أَقسَمَ، وحَلَفَ المُتّهمُ يمينًا أنّهُ بريءٌ ممّا نُسِبَ إليهِ"[3].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

تؤكّد الآيةُ الكريمةُ أنّهُ لا حَرَجَ عليكُم ولا إثم فيما وقعَ منكُم سهوًا وغفلة، في الأيمان الّتي تلهجُون بها، ممّا يجري على الألسنة من غير قَصد، وأنّ الأيمان اللّاغية مَعفُوٌّ عنها، وقد عبّر هنا بصيغة عدم المُؤاخذة، ما لم تكُن مقصودةً فإن كانت مقصودَةً، فإنّها آنئذٍ تنعقدُ وتتأكّد، وتترتّب عليها أحكامُ الكفّارة الّتي فصّل فيها الفُقهاءُ.

لا حَرَجَ على المؤمنين في الأيمان الّتي تجري على الألسنة من غير قَصد

(1) الكفوي، الكليات، ص: 310.
(2) الكفوي، الكليات، ص: 310.
(3) أحمد مختار، معجم اللّغة العربيّة المعاصرة: (حلف).

كـفّـارةُ اليمين إطـعـامُ عشَرة مـسـاكـين أو كِـسـوتُـهـم أو تحرير رقبة، وفي عدم الاستطاعة صيامُ ثلاثة أيّام

وصاحبُ اليمين مُخيَّرٌ في الكفّارة بين إطعام عشَرة مساكين، من أوسط طعام أهل البلد وأعدَلِه، أي: من غير إسراف ولا تقتير؛ أو توفير لباسٍ لهم مثل ذلك في التّوسُّط والاعتدال؛ أو عِتق عَبدٍ مَملوك، وقد عبّرَ عنه هنا بالرّقبة من باب المجاز، وفي كلّ ذلك هو مُخَيَّرٌ، فإن لم يستطعِ الوفاء بأحد هذه الخيارات، لفَقرٍ أو حاجة، شُرِعَ لهُ صيامُ ثلاثة أيّام، والآية تُرشِدُ إلى وجوب التّحفُّظ من الأيمان المُنعقدة الّتي يتفوّهُ بها المرءُ عامدًا، بل وفي السّياق تلميحٌ إلى تفادي الأيمان اللّاغية أيضًا، يُمكن للمُتأمِّل إدراكُهُ بالنّظر في نفي فِعلِ المُؤاخَذَة، وكَأَنَّ الحقَّ ﷻ يُخبرنا، بأنّهُ قد عفا عمَّا وقَعَ من تلك الأيمان، ولا شكَّ أنَّ العفوَ، يكُونُ على ما ارتكبَهُ المرءُ؛ فهُو وإن كانَ قد حصَلَ على العَفو، إلَّا أنّهُ حَرِيٌّ به أن يتجنّبَ ذلك، ما استَطاعَ إلى ذلك سَبيلًا.

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

التّعبيرُ بنَفي المُؤاخذة بصيغة المُفاعلة:

لَـغـوُ اليمين مَـعـفُـوٌّ عنها بـلُـطـفِ الـلـه ورحمته:

قولُهُ تعالى: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِيٓ أَيْمَٰنِكُمْ﴾، هنا نَفَى اللّهُ ﷻ أن يُؤاخَذَ مَن يَلغُو في أيمَانِهِ؛ أي: ينفي أن يكُون اللّاغي في يمينه آثمًا بسببِ الحَلف واليَمين، والآيةُ مُوجّهةٌ " للّذين كانُوا قد حرَّمُوا على أنفُسِهم الطيّبات، من أصحاب الرّسول ﷺ ؛ كانوا حرَّموا ذلك بأيمانٍ حَلفُوا بها"[1]، والمُلاحَظُ أنّهُ استخدم (لَا يُؤَاخِذُ) في تعبيرٍ لطيفٍ، ولو كان المُتكلِّمُ بشرًا، لقال (لَا يُعَذِّبُكُمُ اللّهُ)، أو (لَا يُعَاقِبُكُم) أو نحوه، من ألفاظ التّهديد والتّخويف، على الرّغم من أنَّ الأمرَ مُقتَرِنٌ بالنّفي، والفعلُ يُؤاخِذُ أصلُهُ من أخَذَ، إلَّا أنّهُ جاءَ هنا فِعلًا مَزيدًا على زِنَةِ (يُفَاعِلُ)، فاقتَضَى أن

(1) ابن حرير، جامع البيان: 1/5230.

يحصُلَ الفعلُ من طرفين، " كأنَّ المُفَاعَلَة حَدَثَت، بأن دَخَلَ معك في عَقدِ الأيمَان؛ ولذلكَ يأخُذُ الحَقُّ الكافِرينَ أَخذَ عزيزٍ مُقتدرٍ، ولكنّهُ يُؤاخذُ المُؤمنِينَ، لماذا؟ لأنّ المُؤمنِينَ طَرَفٌ في التّعاقُد، أمّا الكافرُون فليسُوا طَرَفًا في التّعاقُدِ[1].

بلاغةُ الحذفِ في قوله ﴿وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلۡأَيۡمَٰنَۖ﴾:

قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلۡأَيۡمَٰنَۖ﴾ معناه: ولكن يُؤاخِذُكم ويُعاقِبُكم بما صدرَ منكم من حَلْفٍ عامدين قاصدين، أي: بحنثِ ما تعَمَّدتُم وقَصَدتُم به اليَمِين. وفي الآية حَذفٌ، إمّا من الأوّل، وتقديرُ السّياق مع الحذفِ: (لَا يُؤَاخِذُكُم اللّهُ بِاللَّغوِ المَقصُودِ)، وإمّا من الآخر، وتقديرُهُ (ولَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُم الأَيمَانَ إذا حَنَثتُم)، فحَذفَ وقتَ المُؤَاخَذَةِ، لأنّهُ كَانَ مَعلُومًا عِندَهُم[2].

الأيـــمـــانُ غـيرُ المقصودة مَعفُوٌّ عـنـهـا، وإنّـمـا المُـؤاخـذةُ على القصد وتَعقيد الأيمان:

دلالات لفظ (اللّغو):

(اللَّغوُ) يُعنى به كلُّ أنوَاعِهِ؛ فالألفُ واللّامُ هنا للجنس، وهِيَ تقتَضِي العُمُوم، بما يعنِي أنّهُ ليسَ لغوًا دُون غيره؛ فقد يكونُ هذا اللّغوُ من قبيل " ما أُسقِطَ فلم يُعتَدَّ به"[3]، أي: أن يتحدّثَ الرّجلُ حديثًا لا يُلقي له بالًا، ولا يقصدُ معناهُ أصالةً، أو يُخيَّلُ إليه أنّهُ على حقّ في يمينه؛ فقد ورد " أَنَّ اللَّغوَ حَلفُ الإنسان على الشَّيء، يستيقنُ أَنَّهُ كذلك، ثُمَّ يُوجَدُ على غير ذلك"[4]، وفُسّر (اللَّغوُ) في اليمين أيضًا بما رُوِيَ أنّ " لغوَ اليمينِ قولُ الرّجُل في دَرج كلامه، واستعجاله في المحاورة (لَا وَاللّهِ)، و(بَلَى وَاللّهِ)، دُونَ قَصدٍ

يدخُلُ في (اللّغو) في هـــذه الآيـــة أنواعه كلّها:

(1) الشّعراوي، تفسير الشّعراوي: 6/3361.
(2) الهرريّ، تفسير حدائق الرّوح والرّيحان: 8/25.
(3) الثّعلبي، الكشف والبيان: 2/164.
(4) الإمام مالك، الموطّأ: 2/477.

لليَمِينِ"[1]، أوِ الحَلفُ على عَمَل المَعصِية، ولكنّهُ لا يفعلُها، فهذه أقوالٌ كثيرةٌ يحتملُها اللّغوُ[2].

دلالةُ (الباء) و(في) في قوله: ﴿بِٱللَّغۡوِ فِيٓ أَيۡمَٰنِكُمۡ﴾:

والباءُ في (بِاللَّغوِ) سببيَّةٌ؛ أي: لا يُعَاقبُكُم بسببِ هذا اللّغوِ، بما يحتملُه من أنواعٍ ذُكرت هُناك، والحرفُ (في) من قوله: ﴿فِيٓ أَيۡمَٰنِكُمۡ﴾ هنا تحتملُ معنى (مِن)، أي: من أيمَانِكُم، وتَحتَمِلُ أنّها على بابها من الظّرفيَّة، أي: اللّغوُ الواقعُ أو الكائنُ في أيمانكم.

لا يُؤاخِذُ الله بسبب اللّغو الواقع في الأيمان:

دلالة جمع القلّة ﴿ٱلۡأَيۡمَٰنَ﴾:

و(أَيمَانِكُم) مُفردُهُ (يَمِينٌ)، وهو جمعُ تكسيرٍ على زنة (أفعَالٌ)، وهو من أوزان جمعِ القلّة، ولعلَّ في ذلك إشارةً إلى أنّ هذه الأيمانَ، مُتَّصِفَةٌ بالقلّة، أو أنّه يجبُ على المسلم أن يُقلِّلَ منها، فلَا يُطلقُها كثيرًا في كلامه.

في استعمال جمع القلّة دَعوةٌ إلى التّقليل من اللّغو في الأيمان:

سرُّ التعبير بكسب القلوب في البقرة وتعقيد الأيمان في المائدة:

وهذا الجزءُ من الآية ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغۡوِ فِيٓ أَيۡمَٰنِكُمۡ﴾، مذكورٌ بنصّه في الآية الخامسة والعشرين بعد المئة، من سُورة البقرة، إلّا أنّهُ يختلفُ عمّا جاءَ بعدَهُ، ففي البقرة قال: ﴿وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتۡ قُلُوبُكُمۡۗ﴾ [البقرة: 225]، فيما عقّب هنا بقوله: ﴿وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلۡأَيۡمَٰنَۖ﴾، فهُو هُنا قد استدرك بـ(لَكِن)، وعندما نتأمّلُها "نعرفُ أنّ هُناك استدراكًا، والاستدراكُ هُو إثباتُ ما يُتوهّمُ نفيُهُ، أو نفيُ ما يُتوهَّمُ ثُبوتُه"[3]، وهُو استدراكٌ لقوله: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ﴾، أي: أنّ عدم المُؤاخذةِ ليسَت مُطلقَةً، بل مُقيّدة بما ذكرنا من أنواع اللّغو في الأيمان؛ فإذا كانتِ الأيمانُ

القلبُ هو المسؤول عن الأعمال، ولا اعتبار للأشكال والمظاهر:

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 1/301.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/443.
(3) الشّعراوي، تفسير الشّعراوي: 6/3362.

معقُودةَ مقصُودَةً، ففيها المُؤاخذةُ المُفسّرةُ بالحُكم الشّرعيّ الّذي يأتي لاحقًا في قوله ﴿فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ إِطۡعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ مِنۡ أَوۡسَطِ مَا تُطۡعِمُونَ أَهۡلِيكُمۡ أَوۡ كِسۡوَتُهُمۡ أَوۡ تَحۡرِيرُ رَقَبَةٖۖ فَمَن لَّمۡ يَجِدۡ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٖۚ﴾.

والفرقُ بين المَوضعين أنّ الحديثَ في سورة البقرة جاء عن كَسب القُلوب في سياق النَّهي عن جَعل اسم الجلالة عُرضةً للأيمان، بينما جاء الحديثُ عن تعقيد الأيمان في سورة المائدة مَشفوعًا بالحُكم الشّرعيّ المُبيّن لكفّارة اليمين.

الانسجام اللّفظي بين موادّ (الكسب) و(القلوب) المكرّرة في سورة البقرة:

أمّا من الجانب اللّفظيّ فإنّ استعمال فِعل الكَسب: ﴿بِمَا كَسَبَتۡ قُلُوبُكُمۡۗ﴾، في سورة البقرة يتناسب مع مَلمَحٍ من النّسج اللّفظي لسورة البقرة حيث تكرّرت فيها مادّة الكسب والاكتساب في مَواضِع منها:

﴿وَوَيۡلٞ لَّهُم مِّمَّا يَكۡسِبُونَ ٧٩﴾ [البقرة: 79].

﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةٗ﴾ [البقرة: 81].

﴿تِلۡكَ أُمَّةٞ قَدۡ خَلَتۡۖ لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَلَكُم مَّا كَسَبۡتُمۡۖ﴾ [البقرة: 134].

﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ نَصِيبٞ مِّمَّا كَسَبُواْۚ﴾ [البقرة: 202].

﴿لَّا يَقۡدِرُونَ عَلَىٰ شَيۡءٖ مِّمَّا كَسَبُواْۗ﴾ [البقرة: 264].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبۡتُمۡ﴾ [البقرة: 267].

﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ٢٨١﴾ [البقرة: 281].

بينما وردت مادّة الكسب مرّة واحدة فقط في سورة المائدة في سياق الحديث عن جريمة السّرقة: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقۡطَعُوٓاْ أَيۡدِيَهُمَا جَزَآءَۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلٗا مِّنَ ٱللَّهِۗ﴾ [المائدة: 38].

ومن ناحية أخرى، نجد حديثًا مستفيضًا عن القلب، والقلوب في سورة البقرة أيضًا، حيث تكرّر الجمع (قلوب) سبع مرّات، ولفظ (القلب) بالإفراد أربع مرّات.

وليس كذلك الشّأن في سورة المائدة التي تكرّر فيها لفظ (القلوب) أربع مرّات، ولم يرِد فيها لفظ (القلب) بالإفراد أبدًا.

من هنا يجدُ القارئ في استعمال جملة (كسبت قلوبكم) انسجامًا مع الثّوب اللّفظيّ العامّ لسورة البقرة، ممّا سوّغ مثل هذا التّنويع في الأسلوب، وليس كذلك الشّأنُ في سورة المائدة.

التّضعيفُ في الفعل ﴿عَقَّدتُّمُ﴾:

تضعيفُ الفعل (عَقّدتم) يُشيرُ إلى أنَّ المؤاخذة تكونُ على النّية المؤكّدة والحَلف المُكرّر:

ذكرَ محيي الدّين شيخ زادة في حاشيته أنّ الأصل في قوله (عَقَّدتُّمُ) هُو التّخفيفُ، وأمّا بالتّشديد فله وجهان:

أحدُهما أنّه للتّكثير، ومثالُهُ في القرآن قوله تعالى: ﴿وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ﴾ [يوسف: 23]" لأنّ المُخاطَب به جماعةٌ، والفعلُ يتكثّرُ بكثرة الفاعل، كما يتكثّرُ بكثرة المُتعلّق، والآخر أنّهُ بمعنى قَدَرَ وقَدَّرَ "[1].

فأن يعقدَ الإنسانُ ويقصدَ؛ فمعنَى ذلكَ أنّهُ فكّر كثيرًا، وأدارَ الحُكم في قلبه وعقله قبل النُّطق به، فتعقيدُ الأيمان، يدُلُّ على النيّة، ثُمّ التّصميم، خلافُ لغو اليمين الّتي تأتي مُتعجّلة، أو عفوَ الخَاطِرِ؛ فإذا كان هذا هو حالَ العَقد، فكيفَ وقد عبّرَ الحقُّ تعالى بصيغة (فَعَّلَ)[2] المُضعّفة المُشدّدة، وهي من الجذرِ (عَقَدَ)، فقال: ﴿بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلۡأَيۡمَٰنَۖ﴾.

الاستعارة في تعقيد الأيمان:

العَقد حقيقةٌ في الأشياء الصَّلبة، مجازٌ في المعاني، وجمالُ الاستعارة في تصوير المَعنويّ في ثوب المادّيّ:

من ناحية أخرى، فإنَّ فعلَ (عَقَّدتُم) فعلٌ مَعنويٌّ، استُعير من عقد الحبل لأهميّته، ثُمّ جاء به مُشدّدًا، للدّلالة على المُبالغة وشدّة القصد؛ لأنّه إذ ذاك يكُونُ فاعلُهُ آثمًا، مثلما بيّن الحُكمُ الشّرعيُّ في الآيات بعده، وفي هذا التّعبير استعارةٌ لطيفةٌ؛ فإنّ العقد هو للأشياء الصُّلبة، كعقد الحبل ونحوه، فإنّ قوله ﴿عَقَّدتُّمُ ٱلۡأَيۡمَٰنَۖ﴾، "يُريدُ الحالة الّتي هي أشدُّ أحوال الحالف، فإنّهُ لو قال: (إذَا حَلَفُوا)، لم يُعطِ من المعنى البليغ ما يُعطيه (عَقَّدتُّمُ)، إذ الحَالفُ قد يحلفُ

(1) زاده، حاشيّة زاده على البيضاوي: 3/572.

(2) صيغة صرفيّة تدلّ في غالب أحوالها على المبالغة والتّكثير، يُنظر: سيبويه، الكتاب: 4/64.

لَغوًا"[1]، ولمّا كان العقدُ بهذا المعنى الدالّ على القُوّة والصّلابة، استعار من عقد الحبل وعقد البناء، ما يُحقّق ذلك ويُوثّقُهُ من جهة، ويُحسّنُهُ ويُؤكّدُهُ من جهة أخرى، ويعبّرُ عنهُ بأقلّ لفظ، وهي حقيقةُ الاستعارة وأغراضُها[2]، وذكر الهرريّ بأنّ الاستعارة في قوله تعالى: ﴿بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلۡأَيۡمَٰنَۖ﴾ واردةٌ؛ لأنّ العقد نقيضُ الحلّ، حقيقةٌ في الأجسام كالحبل، مجازٌ في المعاني[3].

الفرقُ بين العقد والعهد:

العَقدُ إلزامٌ باستيثاق، وهو أبلغُ من العهد:

ومن نظائر العقد (العَهدُ)، إلّا أنّ بينهُما فرقًا واختلافًا، وهو "أنّ العقد أبلغُ من العهد؛ تقول: (عَهِدتُ إِلَى فُلَانٍ بِكَذَا)؛ أي: ألزمتُه إيَّاه، وعقدتُ عليه، وعاقدته ألزمتُه باستيثاق، وتقولُ: (عَاهَدَ العَبدُ رَبَّهُ)، ولا تقولُ (عَاقَدَ العَبدُ رَبَّهُ)؛ إذ لا يجوزُ أن يُقال استَوثَقَ مِن رَبِّهِ"[4]، فالفرقُ المُعجميُّ واضحٌ بَيِّنٌ، وهُو فَرقٌ في الاستعمال، ولا يحسُنُ أن يكونَ أحدُهُما مَوضِعَ الآخر في كلام العرب، واستعمالُ (عَقَّدتُم) في الآية، جاءَ في مَوضِعِهِ على أفضَلِ سَنن.

قراءة التّخفيف وقراءة تشديد القاف من ﴿عَقَّدتُّمُ﴾:

المؤاخذةُ تكون في الأيمان المقصودة، وشِدّة العزم في اليمين تُقابلها شدّة المؤاخذة:

وقوله ﴿عَقَّدتُّمُ﴾ قراءةُ ابنِ كثيرٍ ونافعٍ وأبي عمرٍو، وروايةُ حفصٍ عن عاصِمٍ[5]، وهي القراءةُ الموافقةُ للسّياق والمعنى، فالعقدُ هُنا مَتينٌ، بدلالة التّشديد في الفعل، والتّشديدُ يُفيد التّوكيد في اليمين، وهو الّذي يُوجِبُ الحُكم الشّرعيّ الآتي بَعدَهُ، وهُو الكفّارةُ وما يتعلّقُ بها، "واختلفُوا في (عقَّدتُم)، فقرأَ حمزةُ والكسائيُّ وخلفٌ

(1) ابن أبي الإصبع، تحرير التّحبير، ص: 266.

(2) الاستعارة " نقل العبارة عن موضع استعمالها في أصل اللّغة، إلى غيره لغرض، وذلك الغرض، إمّا أن يكون شرحَ المعنى وفضلَ الإبانة عنه، أو تأكيدَه والمبالغةَ فيه، أو الإشارةَ إليه بالقليل من اللّفظ، أو تحسينَ المعرض الّذي يبرز فيه"، ينظر: العسكريّ، الصّناعتين، ص: 268.

(3) الهرريّ، تفسير حدائق الرّوح والرّيحان: 8/47.

(4) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 57.

(5) ابن مجاهد، السّبعة، ص: 247.

وأبو بكر (عَقَدتُمُ) بالقصر والتَّخفيف، ورواه ابنُ ذكوان كذلك، إلّا أنَّه بالألف، وقرأ الباقون بالتَّشديد من غيرِ أَلِفٍ"[1]، أي: أنَّ روايةَ ابنِ ذكوانَ (عَاقَدتُم)، بزيادة ألفٍ على وزن (فَاعَلتُم)، "ومن قرأ (عَاقَدتُم)، فهُو مُؤَاخٍ لعَقَّدتُمُ"[2]، أي أنّه يدُلُّ على التّشديد المُوصِلِ للتّوكِيدِ، وفيهِ نظرٌ؛ لأَنَّ ثمَّةَ فَرقًا بين المُفاعَلَة والمُبالَغَة، والثّانيةُ أليقُ وأنسَبُ لسِياقِ الآية؛ لذا فإنَّ وُرُود الآيتين في سورة البقرة والمائدة، جاء على التّرتيب الّذي يجبُ أن يكُون؛ فقد جاءَت في " البقرة قصّةُ الأيمانِ مُوجَزَةً، وزادَ هنا بَسطًا بذكر الكفّارة"[3]، وفي ذلك دليلٌ على أنّ ترتيب السُّور أصلٌ مُراعًى في القرآن الكريم.

الرّبط بالفاء في قوله ﴿فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ﴾:

الكَفّارةُ ساترةٌ جابرةٌ لمن وقعَ في الحَلف عامِدًا قاصدًا ثمّ حنث

قوله تعالى ﴿فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ﴾، الفاءُ واقعة في جواب شرطٍ محذوف، وتقديرُ المعنى: فإن فعلتُم ذلك عامدين قاصدين، فهُنا يقع عليكم الإثم، وتجبُ عليكُم الكفّارةُ الّتي تُغطِّي الإثم وتستُرُه؛ فهناك عمل يستوجبُ الكفّارة؛ لذلك جيء بالفاء الدّالة على الرّبط بين السّبب والنّتيجة؛ لأنّ المعنى أنّكم إن عقّدتُم الأيمان ووكّدتُمُوها، فسيقعُ عليكُم الإثمُ، ومن رحمته تعالى بكُم أنّهُ سيستُرُ عليكُم هذا الإثمَ بالكفّارة، وهي جزاءٌ لمن حَلفَ على أن يفعل شيئًا ثُمّ لم يفعَلهُ[4].

دلالة إفراد لفظ ﴿فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ﴾، والتّعبير بالاسميّة:

الكفّارةُ مفرد جمعُه كفّاراتٌ، والتّعبيرُ بالإفراد له دلالة، وهو أنّ تعدد اليمين ببلوغها الأيمان، يصبحُ جمعًا، "فهذا يجب ألّا يقتضي في الأَيمان الكثيرة إلَّا كفَّارةٌ واحدةٌ"[5]، فالمُفردُ كفّارةٌ، واقعٌ في موضعه

(1) ابن الجزري، النّشر: 2/255.
(2) الأزهريّ، معاني القراءات: 1/338.
(3) السِّيوطي، أسرار ترتيب القرآن، ص: 76.
(4) ابن جرير، جامع البيان: 1/5260.
(5) الرّازي، مفاتيح الغيب: 2/2609.

طباقًا، وكفّارتُه مبتدأٌ خبرُهُ ﴿إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ﴾، ومعنى هذا أنّهُ عبّر هُنا، جزاءً عن حنث اليمين، بالجُملة الاسميّة، ومعلومٌ أنّ التّعبير بالجُملة الاسميّة في كلام العرب يدلُّ على الثُّبُوت والاستقرار، فهُنا "وضعَ الخبرَ مَوضعَ الطَّلبِ في الأَمر والنَّهي"[1]، وهُو أقوى وأكثرُ تأكيدًا، وهُو يُناسبُ التّشديد في (عَقَّدتُم) في وقوع المُؤاخذة، ومن ثَمَّ الكفّارة، الّتي جاءت هنا صيغة مُبالغةٍ على زنة (فَعَّال)، وزِيدَت عليهَا تاءُ المُبالغة مثل (عَالِم - عَلَّام - عَلّامَةٍ)، لتكون على الغاية من الفعل، وهُو ستر الإثم المُتسبِّب عن حنث اليمين.

الأيمان المتعدّدة تجبُرُها كفّارة واحدة، والتّعبير بالجملة الاسميّة يومئُ إلى التأكيد والدّوام

دلالة تعريف ﴿فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ﴾ بالإضافة:

ثمّ عرّفها بإضافتها للضّمير (الهاء)، وهذه الهاءُ قد تكُونُ عائدة على (بِمَا عَقَّدتُم)، أي الّذي عقّدتم إذا جعلتها اسمًا موصولًا، أو تعُودُ على المصدر المُؤوّل (تَعقِيدُكُم)، فيما جعل بعضهم اللّفظ على حذف مُضَافٍ، وتقديرُ الكلام (كَفَّارَةُ نَكثِهِ)[2]، أي: عليه أن يُكفّرَ عن نكثه، أو كفّارة إثمِهِ، ومَن أعادَ الهاءَ علَى اللَّغو لم يُصِبِ الجَادَّةَ؛ لأنّ اللغو لا مؤاخذة عليه بنصّ القرآن، وكذا من أعاد الهاء على الأيمان لأنّ التّعبيرَ سيكُونُ هُناكَ مُختلفًا، بأن يُقالَ: (فَكَفَّارَتُهَا)، يعني كفّارةَ الأيمانِ.

الكفّارةُ لا تجبُ إلّا عند الحِنث باليمين، وهي سَترٌ للإثم النّاجم عن النّكث

نُكتةُ حذف الفاعل والتّصريح بالمفعول:

قوله تعالى ﴿إِطْعَامُ﴾ خبرٌ جاءَ على صِيغَةِ المَصدرِ من (أَطعمَ)، وقد أُضِيفَ إلى (عَشَرَةِ)، وهو من باب إضافة المصدر إلى مفعوله، أي: كفّارتُهُ أن يُطعمَ الحَانِثُ عشَرةَ مساكينَ، والفاعلُ هنا مُستترٌ، ولعلّ في ذلك إشارةً إلى أهمية المفعول، وهو (عَشَرَة مَسَاكِين) قبل الفاعل، وهو الحانث الّذي وجبت عليه الكفّارةُ.

إيماءٌ إلى أهمّية المساكين والعناية بهم في المجتمع المسلم

(1) الزّركشي، البرهان: 3/347.
(2) الزّمخشري، الكشّاف: 2/287.

دلالة ذِكر الصّفة وحذف الموصوف:

التّصريحُ بإطعام عشَرة مساكين يشير إلى عناية كبرى بشريحة المساكين المُحتاجين

ثُمّ بيّن صفة هؤلاء العشرة، وأنّهُم من المساكين المُعدمِين المُحتاجِين، ممّن لا يجدُون ما يكفيهم، ذُكُورًا كانوا أم إناثًا، فقد جرى القرآنُ الكريمُ في أسلوبه، على استعمال المذكّر قاصدًا به العُمُوم؛ ولأنّ التّذكير في اللّغة هو الأصل، والتّأنيث فرعٌ عنه، وقد أضاف (مَسَاكِينَ) إلى (عَشَرَةِ)، وجرّها بالفتحة نيابة عن الكسرة؛ لأنّها ممنوعة من الصَّرف، كونها من صيغ مُنتهى الجُمُوع[1]، و(مَسَاكِين) جمعُ تكسير، وهُو جمعُ كثرةٍ، وفيه دلالةٌ على أنّ الإطعامَ يكون لهؤلاء العشَرة؛ فإنّ الجمع ما زاد عن اثنين، خلافًا لمن ادّعى جواز إطعام مسكينٍ واحدٍ عشَرة أيّام[2]، فلو كان الأمرُ كذلك، لجاء التَّعبيرُ القرآنيُّ على ذلك.

تعلّقُ الجارّ والمجرور بالمفعول المحذوف:

أوسطُ الطَّعامُ يكونُ من الجيّد وغيره، وهو المُشبِعُ في قولِ

قوله ﴿مِنْ أَوْسَطِ﴾ الجارُّ والمجرورُ متعلّقان بمفعولٍ ثانٍ مَحذُوف، تقديره (إطعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ طَعَامًا مِن أَوسَطِ طَعَامِكُم)، وفيه تفسيران: أحدُهُما الطَّعامُ المُتوسّطُ بينَ الجيّد وغيره، والآخر أوسَطُهُ في الشّبع، لا يكون المأكُولُ يفرّطُ في أكله، فيُؤكلُ منه فوق القصدِ، وقدرَ الحاجَة، ولا يكُونُ دُون المُغني عن الجُوع"[3]، وهنا حُذفُ المفعول الثّاني، ودلالةُ الحذف هنا، الإشارةُ الى أهميّة المذكور، وهو المُطعَمُ لا الطَّعَامُ، وحَذفُ المفعول الثّاني جائزٌ، وهُو حذفٌ من باب الاختصار، والقصدُ الإخبارُ عن مُجرّد الإعطاء والمُعطَى لهُ من دون ذكر العطاء، لحثّ النّاس عليه.

ورد في الأثر عن الرّسول ﷺ : «فَلْيَتَّقِيَنَّ أَحَدُكُمُ النَّارَ، وَلَو

(1) صيغ منتهى الجموع من أنواع جموع التّكسير، قُيّدت بكلّ جمع تكسير بعد ألف تكسيره حرفان أو ثلاثة، أوسطها ساكن مثل: (مساجد) و(مصابيح).

(2) أبو حيان، البحر المحيط: 4/12.

(3) الزّجاج، معاني القرآن: 2/202.

بِشِقِّ تَمرَةٍ، فَإِن لَم يَجِد فَبِكَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ»[1]، فلو أعطيتَ نصفَ تمرة فقد تُنجِيك، فمُجرّدُ الإعطاء، يُمكنُ أن يقي الإنسان من النّار، أو لسبب آخر مُرتبطٍ به، وهو أنَّ المُعطَى مُفسَّرٌ بما بعده، وهُو ﴿مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ﴾، أي: من أوسط الطّعام الّذي تُطعمُونهُ أهليكُم، "المُرادُ منهُ ما كَانَ مُتوسِّطًا في العُرف، أَو ما كان مُتوسِّطًا في الشَّرع"[2]، وفي ذلك تفصيلٌ آخر، ولعلّ الاختلاف في تفسير الأوسط، لهُ علاقةٌ بالتّعبير؛ فقد عبّر عنه هنا بـ (مَا)، أي: (من أوسط ما تطعمون)، و(ما) هنا موصولة؛ أي: من أوسط الذي تطعمونه أهليكم، والفرق بين (الَّذِي) و(مَا) أنّ (الَّذِي) نصٌّ في المَوصُوليّة، أمّا (مَا) فهيَ مُشتركةُ الدّلالةِ "مُبهَمَةٌ تَقَعُ على كُلِّ شَيءٍ[3]، ولجواز أن تكُون موصُولةً، أو استفهاميّةً، أو شرطيّةً، فضلًا عن إبهامها في باب الموصول نفسه؛ لذلك تجدُ الاختلاف واضحًا، في تعيين مقدارِ الإطعامِ أو الكِسوةِ.

الكفّارةُ تكون من أوسط الطّعام، وحكمة الشّرع تعويدُ المسلم على الصّدقة

بناءُ عبارة ﴿مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ﴾ على التّشبيه:

قوله تعالى: ﴿مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ﴾، قُدّر فيه من أوسَط ما يُطعَمُ به الأهلُ، ومعلُومٌ أنّ إطعامَ المساكينِ ليسَ عينَ إطعامِ أهاليهِم، بل هو مثلُهُ، فالحَملُ للمبالغة في التّشبيه، كما هو حالُ الحمل في قولك (زَيدٌ أَسَدٌ)، "ومعناه على التّشبيه، أي (زَيدٌ كَأَسَدٍ)، وكذا (ضَرَبتُهُ ضَربَ الأَميرِ)، فإنّه على التّشبيه، وإن كان مُعَرًّى عن أداة التّشبيه، لإفادة أنَّ ضَربَكَ كان كأنَّهُ عَينُ ضَربِ الأميرِ، لا شيءَ مشابِهٌ لهُ، وجَعلُ نَصبِهِ بنزع الخَافِضِ، مَذهَبُ مَن ليسَ له رِزقٌ في كَلامِ البُلَغَاء"[4].

في الكفّارات جبرٌ للضّعفاء، وتقوية لأواصر المجتمعات:

(1) البخاري، صحيح البخاري، الحديث رقم: (6540)، ومسلم، صحيح مسلم، الحديث رقم: (1016).
(2) الرازي، مفاتيح الغيب: 12/80.
(3) سيبويه، الكتاب: 4/228.
(4) القونويّ، حاشيّة القونويّ على البيضاوي: 7/551.

معنى التّخيير في قوله ﴿أَوْ كِسْوَتُهُمْ﴾:

المُكَفِّرُ مُخَيَّرٌ بين الإطعام أو الكسوة أو العتق؛ فمن لم يجد فالصّيام، ولا يجوزُ شرعًا الجمعُ بين هذه الكفارات

قوله: ﴿أَوْ كِسْوَتُهُمْ﴾، بعد ذكر الطّعام، ذكَرَ الكسوةَ، وهو اللّباس السّاتر ممّا يقع عليه هذا الاسم، أو ممّا تجب فيه الصّلاة، وقيل الكسوة ثوبان[1].

وقد ذكر الكسوة عقب الحرف (أَو)، وهو حرفُ عطفٍ، لهُ معانٍ عدّةٌ، تصل إلى اثني عشَر معنى. وقد ذكَرَ النّحاةُ أنَّ (أو) تُفيدُ التّخيير عندما تقع بعد الطّلب، أو بعد ما يمتنعُ فيه الجمع[2]، وهو المعنى الواردُ في هذه الآية؛ فإنّ الكفّارة أمرٌ مطلوبٌ لمن حنثَ في قسَمه، ثُمّ ورد تفصيلٌ للكفّارة على ثلاثة أنحاء؛ الإطعام أو الكسوة أو العِتق، فمن لم يجد فالصّيام، ولا يجوزُ شرعًا الجمعُ بينها، بل هنا خَيّرَ الحقُّ ﷻ الحانثَ في قسَمه أن يُطعِمَ عشَرةَ مساكينَ، أو أن يكسُوَهُم، أو أن يحرّر رقبة " فإن قلت: ما معنى (أو)؟، قلت التّخيير، وإيجاب إحدى الكفّارات الثّلاث على الإطلاق، بأيّتها أخذ المُكفّرُ فقد أصاب"[3].

بيانُ سرّ الإضافة في ﴿تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾:

حَذفُ الفاعل يُومِئُ إلى الاهتمام بالمفعول وشدّة عناية الإسلام بتحرير الرّقاب

وقولُهُ ﴿أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾، كرّر هنا (أَو)، للدّلالة على التّخيير أيضًا، والمخيّرُ هُنا تحرير الرّقبة، أي: عتقُ إنسان بإخراجه من رِبق العُبُوديّة إلى ساحة الحُرّيّة، وجاء هنا التّحرير مصدرًا للفعل حَرَّرَ يُحَرِّرُ تَحريرًا، ثُمّ أُضيفَ إلى المفعول، والتّقديرُ (أن يُحرِّرَ الحانثُ رقبةً)، ويجُوزُ التّعبيرُ بالفعل المبنيِّ للمفعُولِ على تقدير: (أن تُحَرَّرَ رَقَبَةٌ)، والتَّعبير بالمفعول يكونُ على إضمار الفاعل أو حذفه، ولهُ فوائدُ كثيرةٌ منها: الاهتمامُ بالمفعول أكثر من الفاعل،

(1) البغوي، معالم التنزيل: 2/79.
(2) ابن هشام، مغني اللّبيب، ص: 23.
(3) الزّمخشري، الكشّاف: 2/287.

ومنها كونُ الفاعل معلومًا، وكلتا الفائدتين متحقّقةٌ هُنا؛ فالسّياقُ وسببُ النُّزول وقصّتُهُ، الفاعلُ الحانثُ فيها واضحٌ جليٌّ، والفائدةُ الثّانيةُ الإشارةُ إلى أهميّة نقل الإنسان الّذي كرّمه اللّه من حال العبوديّة إلى حال الحريّة.

المجاز المُرسل في لفظ ﴿رَقَبَةٍ﴾:

وفي قوله ﴿أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾، مَجازٌ مُرسلٌ من باب إطلاق الجُزء وإرادة الكُلّ، والمُرادُ عِتقُ النّفس[1]، وفي هذا الاستعمال إيماءٌ إلى أنَّ الإنسان الحُرَّ يكونُ شامِخًا بدينه، مَرفوعَ الهامة، مُنتصبَ الرّقبة، لا خانعا مُنكسرًا مُنحطًّا مُنكّسَ الرّأس.

من بلاغة البيان العربيّ التّعبير بالجزء عن الكلّ:

حذف الصّفة وتوسيع الدّلالة:

ثمّة حذفٌ في هذا التّعبير، فإنّ قوله ﴿تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾، هُو على تقدير (رَقَبَةٍ مُؤمِنَةٍ) عند الشافعيّ رضي الله عنه، فالرّقبةُ المُجزيةُ هُنا، يجبُ " أن تكُون مُؤمنةً، ولا يجُوزُ إعتاق الكافرة في شيء من الكفّارات"[2]، أمّا عند غيره، فأيُّ رقبةٍ تُجزِئُ، فلا حذف على ذلك.

لا يجُوزُ إعتاق الرّقبة الكافرة في شيء من الكفّارات لدى الشّافعي

ترتيبُ المُخيَّرات وبعض دلالاته:

هذا التّخييرُ لَم يأتِ اعتباطًا، بل يقتضي أن يختارَ الحَالِفُ الحَانثُ أحسَنَهَا وقعًا، وأفضَلَهَا نفعًا لمن تقعُ عليه، كالمساكين إطعامًا أو إكساءً، أو تقع على المُعتَق؛ لأنّهُ يستحيلُ في حقّه تعالى أن يُخيّر عبادَهُ من دُون قصدٍ وغرضٍ ومنفعةٍ في التّخيير، فلعلّ إطعام عشَرة مساكين خيرٌ من عتق رقبةٍ، في وقت الحاجة والجدب، وقد يحصُلُ خلافُ ذلك وكُلٌّ بظرفه وحاله.

الغرضُ من التّخيير في الكفّارة التّيسيرُ ومُراعاة أحوال النّاس

ثُمّ إنّ هذه المُخيَّرات لهُ في ترتيبها غرضٌ وغايةٌ؛ ففي الآية قدّم الإطعامَ على التّحرير، مع أنَّ التَّحريرَ وعتقَ الرّقاب أفضلُ، فهلّا

(1) الهرريّ، تفسير الرّوح والرّيحان: 8/47.
(2) الرّازي، مفاتيح الغيب: 81/12.

عَكَسَ الأمرَ؟ والجوابُ على ذلك أنّهُ يُنبّهُ على أنّ هذه الكفّارات جاءت على التّخيير لا التّرتيب؛ لأنّ التّرتيب يُوجبُ البدء بالأشدّ، وهو العتقُ، والسّبب الآخر هو الإشارةُ إلى أنّ اللّه تعالى يُريدُ الأيسر لعباده؛ لأنّ إطعام الطّعام، أيسرُ من تحرير الرّقاب، ثمّ إنّ الإطعام أفضل، فقد لا يجدُ الفقيرُ الطّعام، وإن كان حُرًّا، بينما يجبُ على مولى العبد إطعامُهُ وكِسوتُهُ[1].

سِرُّ التّعبير بالمجاز في قوله ﴿تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾:

فَــكُّ رقــبــة في العـهـد المـكّيّ، وتــحــريــرُهــا الكامل في العهد المدني

ذُكر فكُّ الرّقبة في القرآن الكريم في نحو ستّة مَواضع، وعبّر عن هذا الفعل بالتّحرير في خمسة مَواضع، وكان المَوضع الثّامنُ بعبارة نصّها: ﴿فَكُّ رَقَبَةٍ ۝١٣﴾ [البلد: 13]، والمَواضع الأخرى كانت بعبارة نصّها: ﴿تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾، ومعناه عتق " رقيقٍ مُؤمنٍ أو رقيقةٍ مُؤمنةٍ، وهَذَا من إطلاق بعض العتيق، وهُو رقبتُهُ وإرادةُ كُلّه... لأنَّ الرّقبةَ تكونُ بعض كُلٍّ من الذّكر والأنثى"، والقرينةُ أنّ التّحرير يكونُ للذّات كلّها، وليس لبعضِها، فهذا لا يُتصوّرُ أساسًا؛ ولذلك قال البلاغيُّون: إنّ العلاقة هنا علاقةٌ جزئيّةٌ من إطلاق بعض المقصود وإرادة كلّه، "وقيل الأصلُ في هذا المجاز، أنّ الأسير في العرب، كان يُجمع يده إلى رقبته بحبل، فإذا أُطلق حُلّ ذلك الحبلُ، فسُمّيَ الإطلاق من الرّقبة فكَّ الرّقبة، ثمّ جرى ذلك على العتق"[2]، فضلاً عن أنّ الرّقبة تحمل أشرف جزء في الإنسان، وهُو الرّأسُ، وفيه العقلُ والحواسُّ، وقد يعيشُ الإنسانُ إذا اقتُطع منهُ جزءٌ إلّا الرّأس، فلا يمكنُ أن يعيش بدونه.

ولسبب ثالث، وهو " أَنَّ سبب التَّعبير عن المملوك والأَسير، بكلمة الرَّقبة، هو ما فيها من الدَّلالة على معنى الخُضُوع، فإنَّ المملوك

(1) الرّازي، مفاتيح الغيب: 81 - 82/12.
(2) الرّازي، مفاتيح الغيب: 81/12.

يكونُ بين يدي السَّيِّد منكَّس الرَّأس عادةً، وإنَّما تنكيسُهُ بحركة الرَّقبة، وكذلك الأَسيرُ مع من يأسره" وهو تخريجٌ بديعٌ لطيفٌ.

الفاءُ الاستئنافية وبيانُ الخيار الرّابع:

قوله تعالى: ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍۚ﴾: الفاءُ استئنافيةٌ، لأنَّ السّياق هنا اقتضى أن ترد الفاء في بداية كلام جديد، وجاءت بعدها (مَن)، وهي اسم شرط، وقوله (لَم يَجِد) فعل مضارع مجزوم، وهُو فعلُ الشّرط، والكلامُ هنا على تقدير محذُوف هو المفعول، فمَن لم يجد ما يفضُلُ عن قوته وقوت عياله، ما يُكفّرُ به عن حِنثه في قسَمه، وفيما خيّره اللّه، فعليه صيام ثلاثة أيام، وفي صيامهنّ متتابعاتٍ أو متفرقاتٍ خلافٌ، إلّا أنّ ظاهر اللّفظ واللّغة لا توجب الصّيام مُتتابعًا، وقد يكونُ الصّيامُ خيارًا رابعًا لمن لم يقدر على الإطعام أو الكسوة أو عتق الرّقبة، وقد يكون الخيار الأوّل بحسب الحالة والاقتضاء.

من عَجز عن الإطعام أو الكسوة، ولم يتأتَّ له تحرير رقبة، فعليه صيام ثلاثة أيّام

ومن جميل ذلك ما ذكره الشعراويّ من أنّ خليفةً في الأندلس حنثَ في حلفه، فجاء إلى القاضي (مُنذر بن سعيد) يستفتيه، فأوقع عليه صيام ثلاثة أيام متجاوزًا الإطعام والإكساء والعتق، ولمّا سُئل عن ذلك أجاب أنّ الكفّارة فرضها الحقّ سبحانه للزّجر والعبرة، ومن هنا فإنّ "الخليفة لن يرهقه إطعام عشَرة مساكين، أو كسوتهم، أو عتق أكثر من رقبة"[1]، وبذا لن ينزجر، ولن تحقق الكفّارةُ غرضَها.

الفتوى تتغيّر حسب الحال والمآل والمُستفتي:

الفاءُ في قوله ﴿فَصِيَامُ﴾:

وفي قوله ﴿فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍۚ﴾، الفاء واقعةٌ في جواب الشّرط، و(صيامُ) خبرٌ لمبتدأ محذُوف، تقديره (فكَفَّارَتُهُ صِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّام)، وقد حذف المبتدأ هنا لدلالة الكلام السّابق عليه؛ وَحَذفُ ما يُعلمُ جائزٌ في كلام العرب.

(1) الشّعراوي، تفسير الشعراوي: 6/3365.

الإشارة ﴿ذَٰلِكَ كَفَّٰرَةُ﴾ قريبٌ من ردّ العَجُز على الصّدر:

ثمّ قال: ﴿ذَٰلِكَ كَفَّٰرَةُ أَيۡمَٰنِكُمۡ إِذَا حَلَفۡتُمۡۚ﴾، وهنا جاء باسم الإشارة لبيان ما سبق جميعًا؛ فإنّه ذكر أنواعًا من الكفّارات كالإطعام والإكساء، وتحرير الرّقاب والصّيام، وههنا أشار إليها جميعًا[1]، بقوله ﴿ذَٰلِكَ كَفَّٰرَةُ أَيۡمَٰنِكُمۡ﴾، وذِكرُ الكفّارة في نهاية الآية بعد ذِكرها في مبدئها شبيهٌ بردّ العَجُز على الصّدر عند البديعيين[2]، كأنّه يُذّكِر بها مَن نسي أوّل الآية، وردّ العَجُزِ على الصّدر هذا يجاري فرعًا من أحدث الدّراسات اللّسانيّة، وهو نحو النّصّ، وأدوات التّماسك النَّصِّيّ الّتي تربط النّصّ في وحدة واحدة مُتكاملة، وهو ما يتحقق هنا في هذه الآية؛ فقد ذكر أولًا ﴿فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ﴾، ثمّ ذكر ﴿ذَٰلِكَ كَفَّٰرَةُ أَيۡمَٰنِكُمۡ﴾، فربط الأوّل بالآخر، ويجري الأمر نفسه على قوله: ﴿عَقَّدتُّمُ ٱلۡأَيۡمَٰنَۖ﴾، وقوله: ﴿وَٱحۡفَظُوٓاْ أَيۡمَٰنَكُمۡۚ﴾، وهنا أضاف الكفّارة إلى أسبابها؛ فالأيمانُ سببُ الكفّارة.

تقديمُ ما حقُّهُ التّأخير في قوله ﴿إِذَا حَلَفۡتُمۡۚ﴾:

إذا حلفتم وحَنَثتُم، فذلك كَفَّارَةُ أَيمَانِكُم

يتوافّر في قوله تعالى ﴿إِذَا حَلَفۡتُمۡۚ﴾ تقديمُ ما حقّهُ التّأخير؛ لأنّ (إذا) ظرف لما يُستقبلُ من الزّمان، وعلى ذلك فإنّ الكفّارة تسبقُ اليمين وهُو مُحالٌ، والتقدير: إذا حلَفتُم وحَنَثتُم، فذلك كَفَّارَةُ أَيمَانِكُم؛ لأنّ إذا ظرفٌ لما يستقبل من الزّمان متضمن معنى الشّرط.

حذف المعطوف (حَنَثتُم):

الكفّارةُ لا تجِبُ على كلّ حالف، وإنّما على الحالِف الحانث

من المعلوم أنَّ الكفّارة لا تكونُ على كلّ حالف، وإنّما على الحالِف الحانِث، وعلى ذلك يكون في الآية حذف؛ والتّقديرُ: ذَلكَ كَفَّارَةُ أَيمَانِكُم إِذَا حَلَفتُم وَحَنَثتُم[3]، وهو الّذي يستقيمُ معَهُ المعنى.

(1) ابن جرير، جامع البيان: 1/5620.

(2) ردّ العَجُز على الصّدر، أسلوبٌ بلاغيٌّ، ينتمي إلى علم البديع، خلاصته أن يذكر كلمة أو عبارة في أوّل الكلام، ثمّ يعيدها ثانية، يُنظر: ابن المعتز، البديع في البديع، ص: 140.

(3) ابن العربي، أحكام القرآن: 2/156.

الفرقُ بين الحَلف والقَسَم:

القسم أبلغُ من الحَلف، واللهُ تعالى يُقسِمُ ولا يحلِف

وثمّة فروق مُعجميَّةٌ بين الحَلف والقسَم، فإنّ "القسم أبلغُ من الحَلف؛ لأَنّ معنى قولنا: أقسم بِاللّه، أَنّه صار ذا قسم باللّه"[1]، أمّا الحَلف فهو " يُفِيد معنًى واحدًا، وهُو قطع المُخاصمة فقط"[2]، والمُتأمّلُ في سياق الآية، يجدُ أنّ الحَلفَ أنسَبُ، مثلما اتّضحَ في قصّة الآية، وسبب نُزُولها.

من جهة أخرى، فقد جاء استعمالُ مادّة القسم مُسندةً إلى اللّه تعالى في القرآن الكريم، ولم يُسنَد الحَلف إليه سبحانه.

من جهة ثالثة، فإنّ مادّة (الحَلف) ارتبط استعمالُها في سياق حَلف المنافقين؛ والسّمةُ الغالبة على أهل النّفاق الحَلفُ بالكذب.

معنى حِفظ اليمين:

حِفظُ اليمين أفضلُ من الحِنث ثمّ التّكفير

قوله تعالى: ﴿وَٱحۡفَظُوٓاْ أَيۡمَٰنَكُمۡۚ﴾: تركيبٌ لم يرد مثلُهُ في أيّ موضع آخر، خلا سورة المائدة، ومعنى حِفظ اليمين أن يأتي المرءُ بالقسم، ويبَرَّ به ولا يحنثَ؛ فإنّه أفضلُ من الحنث ثُمّ الكفّارة، إلّا إن كان الإعراضُ عنها أفضلَ؛ لِما رُوي عنه ﷺ: «وَإِذَا حَلَفتَ عَلَى يَمِينٍ، فَرَأَيتَ غَيرَهَا خَيرًا مِنهَا، فَكَفِّر عَن يَمِينِكَ، وَأتِ الذِي هُوَ خَيرٌ»[3].

دلالة الأمر في الفعل ﴿وَٱحۡفَظُوٓاْ﴾:

المسلمُ مأمورٌ بحفظ اليمين، فإذا حلف فلا يحنث، وإذا حنث كفَّر

والفعلُ في قوله: ﴿وَٱحۡفَظُوٓاْ أَيۡمَٰنَكُمۡۚ﴾، فعلُ أمرٍ دالٌّ على الوُجُوب، وتحتمل الجملةُ معانيَ عدّةً، إلّا أنّهُ يُمكِنُ جمعُها بأنّهُ عليكُم أن تَحفَظُوهَا فلا تَحلِفُوا، وإذا حلفتم فلا تحنثُوا، وإذا حنثتُم فأتُوا بمَا فرَضَهُ اللّهُ عليكُم من التّكليف، لرفع الإثم والحرج[4]، والأيمانُ المقصُودةُ هنا "الأيمانُ الّتي الحنثُ فيها مَعصِيةٌ، لأنّ

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 293.
(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 56.
(3) البخاري، صحيح البخاري: 8/127.
(4) ابن العربيّ، أحكام القرآن: 2/163.

الأيمانَ اسمُ جنس، يجوزُ إطلاقُهُ على بعض الجنس وعلى كُلِّهِ"[1]، ويدخُلُ في حفظ الأيمان تقليلُها، والاقتصادُ فيها.

الحثُّ على التّقليل من الأيمان لأنَّ كثرةَ الأيمان مَدعاةٌ لعدم الوفاء بها

ولقد ذمّ الحقُّ ﷻ، مَن يُكثرُ في أيمانه بقوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعۡ كُلَّ حَلَّافٖ مَّهِينٖ ١٠﴾ [القلم: 10]، ولفظُ (حَلّافٍ) على صيغة (فَعَّال)، يُفيدُ التّكثير والمُبالغة، وعلى الإنسان أن لا يتَّصفَ بمثل هذه الصّفة، لـ"أنَّ من حلف في كلِّ قليل وكثير بالله، انطلق لسانُهُ بذلك، ولا يبقى لليمين في قلبه وقعٌ، فلا يُؤمَنُ إقدامُهُ على الأَيمان الكاذبة"[2]، فالكثرةُ مَدعاةٌ لعدم الوفاء بها، فيقع في المحظُور، ولعلّ في مجيئها على صيغة جمع القلّة (أيمانٌ) زنة (أفعَالٌ)، ما يُلمِّحُ إلى التَّقليل منها، وأن لا تُطلقَ الأيمانُ في سفاسف الأمور، وتوافه المسائل.

حَذفُ المصدر ووصفُهُ بالكاف:

آيـاتُ الشّرع واضحةٌ جليَّة، والمسلمُ مأمورٌ بشُكرها

قوله تعالى ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ [المائدة: 89]، الكاف في كذلك "في موضع نصبٍ على النَّعت لمصدرٍ محذُوفٍ أي تبيينًا مثل ذلك"[3]، والآيات هُنا العلاماتُ الدّالةُ على أحكامه ﷻ، وقد أضافها لنفسه تعالى، وفي كُلّ ما مضى افعلوا ذلك، لعلّكم تشكرون بسبب ما أنعم عليكم.

معنى (لعلّ) في قوله ﴿لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾:

و(لعلّ) حرفٌ ناسخٌ لإفادة التّرجّي "والتَّرجِّي والتَّوقُّع، إنَّما هُو في حيِّز البشر، فكأنّه قيل لهم: افعلوا ذلك على الرَّجاء منكم والطَّمع"[4]، فهي هنا على بَابِهَا، وجملةُ ﴿لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ حالية، والحالُ فضلةٌ دالَّةٌ على هيئة صاحبه، ونصبه نصب المفعول به،

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/288.
(2) ابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 4/88.
(3) المنتجب الهمذاني، الكتاب الفريد: 2/489.
(4) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 1/342.

أَو المشبّه به، أَو الظّرف أَقوالٌ، ويغلبُ انتقالُهُ إلَّا في مُؤكده[1]، أي: هُو وَصفٌ فضلةٌ مشتقٌّ منتقلٌ للدّلالة على الهيئة، وهي تدلُّ على التّغيُّر، والعربُ تقول: (دَوَامُ الحَالِ مِنَ المُحَالِ)، وفي مجيء هذه الجُملة على الحاليّة، دلالةٌ على أنَّ فعلَ الشُّكر فعلٌ حاليّ مُتغيِّرٌ، فلا يستطيعُ أن يكون الإنسانُ شاكرًا على الدَّوام، ولكن مَرَّةً ومَرَّةً؛ ولذلكَ قال ﴿لَعَلَّكُمۡ﴾، يعني "ليُعِدَّكُم ويُؤَهِّلَكُم بذلك إلى شكر نعمِه المادِّيَّة والمعنويَّة، على الوجه الذي يُحبُّه ويرضاهُ، ويكون سببًا للمزيد عنه"[2] ولفظُ الشُّكر الوارد بالصّيغة الفعليّة (تَشكُرُونَ)، من نظائره (الحَمدُ) وبينهما فَرقٌ مُعجَميٌّ، فقد ذكرُوا أنّ الشُّكر، "لا يكونُ إلّا عن يدٍ، والحمدُ عن يدٍ، وعن غيرِ يدٍ"[3] وقيل: إنّ الشُّكر يكونُ بالعمل، والحمدُ قد لا يكون كذلك؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَيۡنَا عَلَيۡهِ ٱلۡمَوۡتَ مَا دَلَّهُمۡ عَلَىٰ مَوۡتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلۡأَرۡضِ تَأۡكُلُ مِنسَأَتَهُۥۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلۡجِنُّ أَن لَّوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ٱلۡغَيۡبَ مَا لَبِثُواْ فِي ٱلۡعَذَابِ ٱلۡمُهِينِ ١٤﴾ [سبأ: 14]، وقد أنعَمَ الحقُّ ﷻ عليهم، بأن لم يُؤاخذهُم فيما تلفّظُوا به، ورفعَ عنهم الإثم والحرج، فهو إذن مقامُ شُكرٍ مُناسِبٍ أيّما مُنَاسَبَةٍ.

التّرجّي هو في حقّ البشر، وفي الآية دعوةٌ إلى الشّكر والمداومة عليه

(1) السّيوطي، همع الهوامع: 2/293.
(2) رضا، تفسير المنار: 7/34.
(3) البرقوقيّ، الذخائر والعبقريات: 1/198.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ٩٠﴾ [المائدة: 90]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

استكمال الامتحان بإبراز المحرّمات الّتي سبق التّحذير منها لتفاديها كلّيّة

مُناسبة هذه الآية لمَا قبلها من آيات بارزةٌ جليّة، ذلك أنّ فيها عاملًا مُشتركًا، وهو الابتلاءُ والاختبارُ، فقد نهاهُم فيما سلف من آيات أن يُحرّمُوا الطّيّبات الّتي أحلّها لهُم، وأن لا يعتدُوا، وأن يأكُلوا مِنَ الحلال الطّيّب، وأن يعلموا أنّ الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجسٌ؛ لأنّ هذه المُحرّمات كانت من الأمور المُستطابة المرغوبة عندهم[1]، فأنزل اللّه هذه الآية؛ كي يُميّزُوا بين الطّيّبات الّتي ذكرها آنفًا، وهذه المُحرّمات الّتي كانوا يتعاطونَها، وعليهم أن يجتنبوها، وفي ذلك مزيدُ ابتلاء، وتتمّةٌ لمَا امتحنهم به، ممَّا ذكَرَه في الآية السّابقة.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ﴾: "قال ابن الأعرابيّ: سُمِّيت الخَمرُ خَمرًا؛ لأنَّها تُرِكَت فاختمرت، واختِمارُها تغيُّر ريحِها، ويُقالُ سُمِّيَت بذلك لمُخامرتها العقل"[2]، وهي المشروبُ المُسكرُ الّذي يُذهِبُ العقلَ، وورد تحريمُها في هذه الآيات وغيرها.

الميسرُ القِمارُ الّذي كان في الجاهليَّة، ونهى القرآنُ عنه

2) ﴿وَٱلۡمَيۡسِرُ﴾: من (يَسَرَ) الدّالُّ على الغنى والسَّعَة، والميسرُ "القِمارُ الَّذي كان أهلُ الجاهليَّة يَفعَلونهُ، حتَّى نزل القرآنُ بالنَّهي عنه[3]، وقِيل في الميسر أنّه "سُمِّي مَيسرًا، لأنَّه يجزَّأُ أَجزاءً؛ فكأنَّه

(1) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 12/423.
(2) الجوهريّ، الصّحاح: (خمر).
(3) القاسم بن سلاّم، غريب الحديث: 3/468.

مَوضِعُ التّجزئة، وكُلُّ شيء جزّأتَه فقد يَسّرته، والياسِرُ الجازِرُ، لأَنَّهُ يُجزّئُ لحمَ الجَزور"[1].

3) ﴿وَٱلۡأَنصَابُ﴾: جمعُ تكسير يدُلُّ على القلّة، وزنُه (أفعالٌ)، مفردُهُ (نُصبٌ)، و"النُّون والصّاد والباء أَصلٌ صحيحٌ يدُلُّ على إقامة شيءٍ، وإهدافٍ في استواءٍ، يُقالُ: نَصَبتُ الرُّمحَ وغَيرهُ أَنصِبُهُ نَصبًا"[2]، ومعناهُ في الآية الحَجَرُ الّذي يُقامُ أو يُنصبُ؛ لتُذبح عليه الذّبائحُ للأصنام، وقد نهاهُم الحقُّ ﷻ عن هذا الفعل.

الأَنصابُ هي الأحجارُ الّتي تُنصبُ لتُذبح عليها الذّبائحُ للأصنام

4) ﴿وَٱلۡأَزۡلَٰمُ﴾: جمعُ تكسيرٍ مفردُهُ (زَلَمٌ)، أَصلٌ يدُلُّ على "نحافةٍ ودقّةٍ في ملاسةٍ، وقد يشذُّ عنه الشَّيءُ، فالأَصلُ الزَّلَمُ، والزُّلَمُ قدحٌ يُستقسَمُ به، وكانوا يفعلون ذلك في الجاهليَّة، وحُرّم ذلك في الإسلام"[3]، والأزلامُ عيدانٌ صغيرةٌ، أو ما يُشبهُها، وهي عادةً ثلاثةٌ، كُتِب على أحدها (افعل)، وعلى الثّانية (لا تَفعَل)، وتُركَ الثّالثُ غُفلاً من أيّ شيء، فيستقسمُون بها، وأيّ واحد ممّا هو مكتوبٌ عليه، يخرُجُ لهم، يلتزمون به من دون مراعاة الفائدة، أو الضّر، وإذا خرج لهم الغُفلُ أعادوا الكرّة.

الأزلام أقداحٌ يُستقسَمُ بها في الجاهليَّة، وحرّم الإسلامُ ذلك حرمة قطعيّة

5) ﴿رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾: "أَصلٌ يدُلُّ على اختلاطٍ، يُقالُ: هُم في مرجوسةٍ مِن أَمرهم، أَي: اختلاطٍ... ومنَ الباب الرِّجسُ القذَرُ؛ لأَنَّه لَطخٌ وخلطٌ"[4]، فهو الشّيءُ المُستقذَرُ، وسمّى الحقُّ ﷻ تلك الأربعة الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجسًا؛ تبعيدًا لتعاطيها منَ النّاس، وتقذيرًا لها، وإن كان على جهة المجاز؛ لأنّها قد لا تكونُ مُستقذرةً في أعيانِها، بل في حُكمِها الشّرعيّ، وقوله: ﴿مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾، فـ(الشَّيطَانُ) معرُوفٌ، والفعلُ منهُ شَطَنَ،

الرّجس كلُّ شيء مُستقذَر، وسمّى الله الأربعة رجسًا على جهة المجاز

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (يسر).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نصب).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (زلم).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (رجس).

"الشِّين والطَّاء والنُّون أَصلٌ مُطَّرِدٌ صحيحٌ، يدُلُّ على البُعدِ، يُقالُ: شَطَنَتِ الدَّارُ تَشطُنُ شُطونًا إذا غَرَبَت. ونَوًى شَطونٌ، أَي: بعيدَةٌ"[1]، وقِيل: إنّ لفظة الشّيطان جاءَت على هذا الأصل، سُمّي كذلك بسبب "بُعدِهِ عنِ الحقِّ وتمرُّدِهِ، وذلك أَنَّ كُلَّ عاتٍ مُتمَرِّدٍ منَ الجِنِّ والإِنسِ والدَّوابِّ شيطانٌ"[2].

6) ﴿فَٱجۡتَنِبُوهُ﴾: فعلُ أمرٍ بالاجتناب، وله أصلٌ لغويٌّ يدُلُّ على البُعد[3]، والمعنى: اترُكوا هذا الرّجس، وكونوا في جانب، وهو في جانب، وابتعدوا عنه فلا تقربوه.

7) ﴿تُفۡلِحُونَ﴾: فعلٌ مُضارعٌ يدُلُّ على الحال والاستقبال، المُجرّدُ منه (فَلَحَ)، ولهذا الجذر "أصلان صحيحان؛ أَحدُهما يدُلُّ على شقٍّ، والآخرُ على فوزٍ وبقاءٍ"[4]، والأصلُ الثّاني هو المعنى المُراد في الآية؛ فإنّ مَن يأتمرُ بما أَمَرَ اللّه، وينتهي عمَّا نهى اللّه فإنّه منَ المُفلحينَ الفائزينَ بجنّتِه.

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

إنَّ المعنى العامّ للآية مُكرّسٌ لخطاب المؤمنين مِن خلقِه، وعلى طريقة المبالغة في الحصر، يُفيدُ بأنّ جملةً منَ الأشياء الّتي كانوا يتعاطونها ويستطيبونها، إنَّما هي منَ الرّجس، واجتنابُ هذه المُحرّمات مُلزمٌ، وهي الخمر الّتي يشربونها، فتُخامرُ العقل وتُغيّبُهُ، وتُهلكُ الحرثَ والنّسل، وتذهبُ بالمروءة، وتجني على إنسانيّة الإنسان، ثمّ الميسرُ؛ وهو الجزور الّذي يقسّمونه، فرُبّما وقع على أحدهم، وهو لا يملكُ ثمنهُ فيفتقرُ، وهو قمارُ العرب في الجاهليّة، ويكونُ في حكمه كلُّ قمار، ثمّ الأنصابُ؛ وهو كلُّ ما يُنصبُ للعبادة

كـــلّ الآفـــات والموبقات الّتي حرّمها الإسلام، عواقبها وخيمة ومدمّرة

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (شطن).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (شطن).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (جنب).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (فلح).

من دون اللّه، وكانوا يذبحون عليها الذّبائح، قرابينَ يُزجونها زُلفى لآلهتهم الّتي لا تملكُ لهم ضرًّا ولا نفعًا، ثمّ الأزلامُ؛ وهي القِداحُ الّتي كانوا يستقسمون بها عند الإقدام على أمر، أو الإحجام عنه، فهذه كلُّها رجسٌ قبيحٌ مَرذول، ممّا يُزيّنُه الشّيطانُ لأوليائه، فلمّا علمتم ذلك وتيقّنتموهُ، وأدركتُم ما به من ضرر، وما يكتنفُه من خطر، فالتزِموا جنّتهُ، وتزَحزَحوا عن ناره ﴿فَمَن زُحۡزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدۡخِلَ ٱلۡجَنَّةَ فَقَدۡ فَازَۗ﴾.

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

أسلوب النّداء من أساليب الإنشاء الّتي يُؤتَى بها للفت الانتباه والتّشويق:

قوله تعالى ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ نداءٌ شائعٌ في الأسلوب القرآنيّ، ورد في نحو تسعةٍ وثمانينَ مَوضِعًا مِنَ القرآن الكريم، وهو نداءٌ للمؤمنين؛ لكونه خطابًا يتوافر على أمر مُهمّ، "قال ابن مسعود: متَى سَمِعتَ في التَّنزيل كلمة ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾، فاعلم أَنَّ الّذي يتلوه من تمام الخطاب، إمَّا أَمرٌ يجب امتثالُه، وإمّا نهيٌ عن أَمرٍ يجبُ اجتنابُه، وإمّا كلامٌ يتضمّنُ معنى أَمر أَو فحوى نهي"[1].

قصر الموصوف على الصّفة في قوله ﴿إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ﴾:

هنا نهيٌ بدأه الحقّ ﷻ بأداة الحصر أو القصر ﴿إِنَّمَا﴾[2]، والحصرُ هو تخصيصُ شيءٍ بشيءٍ، وهي أمُّ باب أدوات الحصر؛ وهي مُركّبةٌ من (إنّ) المُؤكّدة، و(ما) الكافّة، وشرط الحصر فيها أن يكون المحصورُ مُؤخَّرًا وجوبًا، فقوله: ﴿إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ﴾ فيه قصرٌ، "والقصرُ المُستفادُ من ﴿إِنَّمَا﴾ قصرُ موصوفٍ على صفة، أَي: أَنَّ هذه الأَربعة المذكورات مقصورةٌ

كلّ رجس من عمل الشّيطان مفسدةٌ وانحطاطٌ وهوانٌ

(1) الفيروزآباديّ، بصائر ذوي التّمييز: 5/430.
(2) القزوينيّ، الإيضاح: 3/24.

على الاتّصاف بالرِّجس، لا تتجاوزُه إلى غيره"[1]، وفي حاشية شيخ زاده "أنّ لفظ ﴿إِنَّمَا﴾، تُفيد القصر للمذكورات على صفة، كونها رجسًا كائنًا من عمل الشّيطان، على طريق قصر الموصوف على الصّفة، كأنّهُ قيل: ليس لها منَ الصّفات إلّا كونها رجسًا من عمل الشّيطان"[2].

قصرٌ ادّعائيٌّ للمبالغة:

الخمرُ والميسرُ والأنصابُ والأزلامُ، جُعِلَت كُلُّها تحت حُكم الرّجس المُستقذَر

في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ﴾ قصرٌ ادّعائيٌّ للمبالغة؛ لأنّهُ يستحيلُ قطعًا أن تكون الخمرُ والميسرُ مثلًا مُتّصفةً بصفة الرّجس فقط، فإنّ الحقّ ﷻ أخبر في آية أخرى أنّ فيها نفعًا، بقوله تعالى: ﴿۞يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ [البقرة: 219]، فالمبالغة في القصر؛ جاءَت تحذيرًا من تعاطي هذه الأشياء، وهنا قصرُ هذه المعدودات الثّلاثة، على أنّها مُتّصفةٌ بالرّجس، أي: ما هي إلّا رجسٌ، والحصرُ يفيد التّوكيد؛ فقد خُصّص معناها بمعنى الرّجس، وهي العينُ الحرامُ تنويهًا على ذمّها، والابتعاد عنها، فهذه الأنواع المقصورة، مجموعةٌ تحت حُكم واحدٍ يُسمّى الجمع[3]، فقد جُعِل الخمرُ والميسرُ والأنصابُ والأزلامُ تحت حُكم الرّجس، وهُو المُستقذَرُ الخبيثُ، أو هي من جنسه.

بلاغة الحذف والإضمار في هذه الآية:

في قوله تعالى ﴿إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ﴾ جعل الحقُّ ﷻ هذه المُرتّبات بالواو ﴿ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ﴾ رجسًا، وهي عبارةٌ عن ذواتٍ، لا يمكن

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/23.

(2) زاده، حاشية زاده على تفسير البيضاويّ: 3/576.

(3) الجمع في البلاغة: أن يجمع المتكلّم بين مُتعدّد اثنين أو أكثر، تحت حكم واحد، وهو من الأساليب البديعيّة، يُنظر: الهاشميّ، جواهر البلاغة، ص: 310.

أن تكون رجسًا، بدلالة الذّات، إنّما بدلالة أخرى، فمعنى الآية أنّ هذه منَ المُحرّمات، يدلُّ على ذلك بجلاء ووضوح قوله تعالى: ﴿فَٱجۡتَنِبُوهُ﴾ المذكورُ لاحقًا؛ فكيف تكون الذّواتُ منَ المُحرّمات؟ وعليه فظاهرُ اللّفظ أنّ التّحريمَ واقعٌ على هذه الأنواع، فكيف يكون ذلك "وهذه الأعيانُ كلُّها مخلوقاتُ اللّه تعالى؟ قلنا: فيه إضمارٌ تقديرُهُ إنّما تعاطي الخمر والميسر... أو مباشرته"[1]، فالنّصُّ القرآنيُّ هنا بيّن أنّ التّحريم يقعُ على تعاطي الخمرِ والميسرِ والأنصابِ والأزلام، كُلٌّ بحسب نوعه، شُربًا ولعبًا وذبحًا، وليس على مُجمَل ذواتها؛ لأنّ الذّات لا تتّصفُ بالحِلِّ والحُرمة شرعًا؛ فعُلم أنّ المحذوف تعاطي هذه الأشياء، و"الّذي يقتضيه النَّظرُ، أَنَّ الخمر ليست نجسَ العين، وأَنَّ مساقَ الآية بعيدٌ عن قصد نجاسة عينِها، إنَّما القصدُ أَنَّها رجسٌ معنويٌّ، ولذلك وصفهُ بأنّهُ من عمل الشّيطان، وبيّنهُ بعدُ بقوله: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ﴾؛ لأنّ النّجاسةَ تعتمدُ الخباثة والقذارة، وليست الخمرُ كذلك، وإنّما تنزّه السّلفُ عن مقاربتها، لتقرير كراهيتها في النّفوس"[2].

الخمر والميسر وغيرهما ليس المقصود ذاتها، إنّما المقصود تناولها

أسلوبُ الآية قطعيٌّ في الدّلالة على التّحريم، ويصرّحُ في ذلك ولا يكنّي:

يُؤيّدهُ أنّ الحقّ ﷻ حرّم المَيتة في أوّل السّورة، بقوله تعالى: ﴿حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةُ﴾ [المائدة: 03]، وليس التّحريمُ هنا لذات المَيتة، وإنّما الحُرمةُ مُتعلّقةٌ بأكلها، وآيةُ ذلك أنّه ﷺ أجاز الانتفاع بالمَيتة في غير الأكل بقوله في مَيتةٍ: «هلّا انتَفَعتُم بِجِلدِها؟ قالوا: إنَّها مَيتَةٌ، قال: إنَّما حَرُمَ أَكلُها»[3].

حرمة المَيتة ليست لذاتها، إنّما مُتعلّقة بأكلها

تعاطي المحرّمات أُضيف إلى الشّيطان كمجاز مُرسَل، علاقتُهُ السّببيّةُ:

ثمّة سؤال آخر، فقد قال: إنّ هذه الأشياء من عمل الشّيطان،

(1) الرّازيّ، أنموذجٌ جليلٌ في أسئلة وأجوبة عن غرائب آي التّنزيل، ص: 112.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/26.
(3) البخاريّ، صحيح البخاري، الحديث رقم: (1492)، ومسلم،، صحيح مسلم، الحديث رقم: (363).

يزيّن الشّيطان للفسّاق فعل المحرّمات، وهم يتهافتون عليها جهلًا وعصيانًا

مع أنّ تعاطي هذه الأشياء من عمل الإنسان، فكيف يكون ذلك؟ والجواب عن ذلك "قلتُ: لمَّا كان تعاطي هذه الأشياء بوسوسة الشّيطان، وتزيّينه ذلك للفُسَّاق، صار كما لو أغرى رجلٌ رجُلًا، بضرب آخرَ فضرَبَه، فإنّه يجوزُ أن يُقال للمُغري هذا من عملك"[1]، أي: أنّهُ أُضيف إلى الشّيطان على سبيل المجاز المُرسَل، وعلاقتُهُ السّببيّةُ، وفي ذلك تبعيدٌ لعاملها؛ لأنّه بعمله ذاك يكون شيطانًا، وهو أمرٌ تأباهُ النّفس.

قال شيخ زاده: "وتعاطي هذه الأشياء، وإن كان من عمل الإنسان، إلّا أنّه أُسند إلى الشّيطان إسنادًا مجازيًّا؛ لكونه مُزيّنًا وسببًا حاملًا له عليه"[2].

الإخبار عن هذه المحرّمات بأنّها رجسٌ باللّفظ المفرد المعبّر عن حقيقتها:

ما أخبرت العناية الإلهيّة عن رجسه، فضررُهُ أكيدٌ، ونفعُهُ معدومٌ

ابتدأ الحقُّ ﷻ هذه المُحرّمات بالخمر؛ أي: شُرب الخمر وتعاطيها، وهو هنا مبتدأٌ، ثمّ عُطف عليه بالواو ألفاظُ الميسر والأنصاب والأزلام، ثُمّ جاء بالخبر، وهو رجسٌ، و" إنَّما أُفرد؛ لأنَّ التَّقدير: (إنَّما عملُ هذه الأَشياء رجسٌ)، ويجوزُ أَن يكون خبرًا عنِ الخمر، وإخبارُ المعطوفات محذوفٌ؛ لدلالة خبر الأَوَّل عليها"[3]، ويجوزُ أنّه نظر إلى لفظة (رجس) على أنّها اسمُ جنس، فيُعاملُ مُعاملة المصدر، كما أنّ اسم الجنس يقع على القليل والكثير.

سيّاق الآية يتوافر على مُؤكّدات كثيرة في تحريم الخمر والميسر:

أفاض صاحب تفسير الرَّوح والرّيحان في كون سيّاق الآية قد جمع مُؤكّدات شتّى في تحريم الخمر والميسر، منها تصديرُ الجملة بلفظ (إنَّمَا)، وقرنهما بعبادة الأصنام، وجعلهما رجسًا، وجَعلهما

(1) زكريا الأنصاريّ، فتح الرّحمن، ص: 149.
(2) زاده، حاشية زاده على البيضاوي: 3/576.
(3) العكبريّ، التّبيان: 1/458.

من عمل الشّيطان، وما أورده أيضًا من الأمر بالاجتناب، والنّهي عنِ الارتكاب، وجعل الاجتناب فلاحًا ونجاحًا، والارتكاب خيبةً وهلاكًا، والإشارة إلى ما ينتُجُ عنِ الخمر والميسر منَ الوبال، بما تُفرزُه تداعياتُ العداوة والبغضاء، ناهيك عن عرض ما يقع بسببهما، من صدٍّ عن ذكر اللّه وعنِ الصّلاة[1].

إنّ ما ينتُجُ عنِ الخمر والميسر منَ الوبال، تتمخّض عنه العداوة والبغضاء

بلاغة التّقديم والتّأخير في هذه الآية:

في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ﴾ رتّب الحقُّ ﷻ هذه المُحرّمات ترتيبًا مقصودًا، فقد ذكر الخمر، ثُمّ عطف عليه الميسر، ثُمّ الأنصاب، وختم بالأزلام، وكلُّ ذلك معطوفٌ بالواو، وهو حرفُ عطف لا يفيد التّرتيب، بل هو لمُطلَق الجمع[2]، وعلى ذلك فإنّ معرفة سبب التّقديم يتحصّلُ منَ المعنى والسّياق، لا منَ اللّفظ نفسه؛ خلافًا للفاء مثلًا الّتي تُفيد التّرتيب؛ فوضعُ لفظ أسبقَ من آخر لمعنًى من خصائص الأسلوب القرآنيّ؛ فهو لا يأتي لمُجرّد الإخبار، بل تكون صياغتُهُ بما يُبهرُ العقول، ويأخذُ بالألباب؛ ولأنّه إن كان المُعوّلُ عليه الإخبارُ المحضُ، فقد تساءل عبد القاهر الجرجانيّ عن ذلك، فقال: "من أين كان نظمٌ أشرفَ من نظم؟ وبمَ عظُم التّفاوتُ؟ واشتدَّ التّبايُن؟ وترقَّى الأمرُ إلى الإعجاز؟"[3]، وذكر علّتهُ في باب التّقديم والتّأخير، إذ يكون للأهميّة والعناية الأثرُ البالغُ، في تقديم ما قُدّم وتأخيره، لكن لا "يكفي أن يُقال: إنّه قُدِّم للعناية؛ ولأنَّ ذكرهُ أهمُّ، من غير أن يُذكرَ من أين كانت تلك العناية؟ وبمَ كان أهمَّ؟ ولتخيُّلهم ذلك، قد صغُر أمرُ التّقديم والتّأخير في نُفوسهم"[4]، فغالبُ حال التّقديم

رتّب السّياق ألفاظ (الخمر فالميسر فالأنصاب ثمّ الأزلام) بدءًا من الأشدّ ضررًا إلى الأقلّ

(1) الهرريّ، تفسير الرّوح والرّيحان: 8/98.
(2) ابن هشام، مغني اللّبيب، ص: 463.
(3) الجرجانّي، دلائل الإعجاز، ص: 109.
(4) المصدق السابق، ص: 108.

هو للعناية والاهتمام، ولكن لا يكفي القولُ بذلك، بل ينبغي تفسيرُ أسباب هذه العناية، وبيانُ ذلك الاهتمام، وفي هذه الآية بدأ الحقُّ ﷻ بذكر الخمر، فالميسر، فالأنصاب، ثمّ ختم بالأزلام، فرتّبها بحسب الأشدّ ضررًا إلى الأقل؛ فإنّ ضرر الخمر أكبر، وآيةُ ذلك أنّ نُزولَ الآية، وتحريمَ الخمر، كان بسبب ما جرى بين الشّاربين، من تشاجُرٍ وتناحُرٍ، بعد أن غاب العقلُ نتيجة الخمر، ثُمّ إنّه ﷻ نصَّ على أنَّها تجلُبُ العداوة والبغضاء، يلي ذلك في الضّرر (المَيسِرُ)، وفيه ضررٌ، لكنّه أقلُّ من ضرر الخمر، ثُمّ الأنصابُ، ثُمّ الأزلامُ الّتي كانوا يستقسمون بها، من دون النّظر إلى أنْ يكون اختيارُهُم وفقًا للمصلحة، وما يُوافقُ العقل، فهذا التّرتيبُ كما يُلحظُ من أثر المُترتّبات وضررها، قد سار فيه الأسلوبُ القرآنيُّ منَ الأشدّ ضررًا إلى الأقلّ، وهو أمرٌ جديرٌ بالتّنويه؛ لأنّه لا يمكن أن تأتي الألفاظُ بهذه الصُّورة، من تقديم وتأخير، من دون سبب وغاية.

دلالة الفاء الفصيحة الّتي يكون ما قبلها سببًا لمَا بعدها:

بعد أن أخبر عن هذه الأربعة؛ بأنّها رجسٌ، وتمّم بأنّها من عمل الشّيطان، جاء الحُكم البتاتُ فيهنّ بقوله تعالى: ﴿فَٱجۡتَنِبُوهُ﴾، والفاء هنا تسمّى الفاء الفصيحة، وهي الّتي تُفصحُ عمّا قبلها، أو يكون ما قبلها سببًا لمَا بعدها، أي: لمّا كانتِ الخمر والميسرُ والأنصابُ والأزلامُ رِجسًا من عمل الشّيطان؛ فهو أدعى لاجتنابها؛ فكونُها رجسًا؛ سببٌ للحكم عليها بالاجتناب، وقوله ﴿فَٱجۡتَنِبُوهُ﴾ فعلُ أمر وفاعل ومفعول.

كـــون هـــذه الأشياء رِجسًا مـــن عـمـل الشّيطان، هو أدعى لاجتنابها

الهاءُ في قوله﴿فَٱجۡتَنِبُوهُ﴾ تعودُ على فعل التّعاطي، دلالة على أنّ الحرمة ليست للذّات:

الهاء تعودُ على فعل التّعاطي، وهو يؤيّدُ ما قدّرنا سابقًا، بأنّ ثمّة محذوفًا، وأنّ الذّوات والأعيان كالخمر ونحوه، لا يمكنُ أن تتّصف

الخمر ولواحقها مـنَ المحرّمات، آفاتـهـا كـثيرة، وضررها مشهود

بالحِلّ والحُرمة في نفسها، بل بتعاطيها وتناولها؛ ولأنّه لو كانتِ الهاءُ عائدةً على الخمر، لقال: (فاجتَنِبوها).

التّعبير بالاجتناب أبلغُ منَ التّعبير بالتّرك؛ لأنّ الاجتناب يقتضي الابتعاد:

والاجتنابُ يقتضي أن يكون المرءُ في جانب، والمُجتَنَبُ في جانب آخر؛ دلالةً على الابتعاد، وهو أبلغُ من (اترُكوهُ)، والاجتنابُ يتضمّنُ "النّهي عن الشّرب، ومُجالسة الشّاربين؛ لأنّ مُجالسة الشّاربين لا يتحقّقُ فيها الأمرُ بالاجتناب، بل إنّ الاجتناب يتضمّنُ النّهي منَ المرور على الحانات أو غشيانها"[1].

من حام حول الحمى يُوشك أن يرتع فيه

بلاغة التّعبير بفعل الاجتناب، يكون استعمالها في تحريم المسائل الكبيرة:

بل إنّ من بلاغتها أنّ القرآن الكريم استعملها في تحريم المسائل الكبيرة والخطيرة، كقوله تعالى: ﴿فَٱجۡتَنِبُواْ ٱلرِّجۡسَ مِنَ ٱلۡأَوۡثَٰنِ وَٱجۡتَنِبُواْ قَوۡلَ ٱلزُّورِ ٣٠﴾ [الحجّ: 30]، فالاجتنابُ أبلغُ من غيره، كالنّصّ على عدم شُربها؛ لأنّهُ أمَرَ بألّا تتواجدَ في مكانها؛ "لأنّك إن لم تجتنبها، فمِنَ الجائز أنَّ قُربَكَ منها يُغريكَ بارتكابها"[2]، ويُؤكّدُ ذلك ما ذكره صاحب التّفسير المُنير في هذا المضمار، حيث قال: "والتّعبير بقوله تعالى: ﴿فَٱجۡتَنِبُوهُ﴾ أبلغُ منَ التّعبير بلفظ (حُرّم)؛ لأنّه يُفيد التّحريم وزيادة، وهو التّنفيرُ والإبعادُ عنه بالكلّيّة، كما في قوله تعالى: ﴿فَٱجۡتَنِبُواْ ٱلرِّجۡسَ مِنَ ٱلۡأَوۡثَٰنِ وَٱجۡتَنِبُواْ قَوۡلَ ٱلزُّورِ ٣٠﴾ [الحجّ: 22 - 30][3].

التّعبير بلفظ الاجتناب يفيد التّحريم وزيادة، ويقتضي التّنفير منها بالكليّة

الاجتناب افتعالٌ يدلُّ على أنّ التّجنّب يحصل بالمشقّة والمُكابدة:

والفعل (اجتَنَبَ) فعلٌ ثلاثيٌّ مزيدٌ بالهمزة والتّاء، على وزن (افتَعَلَ)، فـ"هذه البِنيةُ أعني بنية (افتَعَلَ)، تُنبئ عن تعمُّلٍ، وتحميلٍ للنّفس"[4]، أي: أنّ النّفس الإنسانيّة لا تستطيعُ تجنُّب الخمر

العرب عريقُون في تعاطي المنكرات، لذلك صعب عليهم تركها؛ للمعاناة والآلام جرّاء التّرك

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2346.
(2) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 9/3372.
(3) الزّحيلّي، التّفسير المنير: 7/34.
(4) ابن الزبير، ملاك التّأويل: 1/190 - 191.

إلّا بالمشقّة والمُكابدة، وتحمُّل الجهد؛ لأنّهُم قومٌ عريقون في شرب الخمر، وتعاطي الميسر، والذّبح على الأنصاب، والاستقسام بالأزلام، فإذا أرادوا التّحوُّل عن ذلك كابدوا وشقّ عليهم، فعبّر عنه بقوله: ﴿فَٱجۡتَنِبُوهُ﴾، على صيغة (افتَعِلوا) الدّالّة على التّكلّف والمشقّة.

لفظُ (لعلَّ) فيها رجاءٌ، وخبرُها ﴿تُفۡلِحُونَ﴾ جملةٌ تؤكّد تجلية ذلك المرجوّ:

الاجتناب مآله الفلاح في قوله: (لَعَلَّكُم تُفلِحُونَ)

ثُمّ علّق بهذا الاجتناب الفلاح دلالةً على الوجوب بقوله ﴿لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾، فمَنِ اجتنب أفلح، ومَن لم يجتنب خاب وخسر، ولفظ (لعلَّ) فيها رجاءٌ، وقد ذكر معناها في آيات سابقة، و(تُفلِحون) خبرُها جملةٌ فعليّةٌ، والمعنى "أي: لترجوا الفوزَ والفلاحَ، فلا فوز لقوم يُضِلُّون عقُولهم بأنفسهم، ويفرُّون من واجباتهم بالخمر يشربُونها، وبالموبقات يتسلّون بها، وبإضلال عقولهم، وضياع تفكيرهم"[1].

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2346.

﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ فِي ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِ وَيَصُدَّكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّنتَهُونَ ٩١﴾ [المائدة: 91]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

المُحرّمات المُقترفة، مِن تزيّين الشّيطان وكيده؛ ليضلّ النّاس عنِ السّبيل:

مناسبة هذه الآية لمَا قبلها وما بعدها بيّنةٌ واضحةٌ أشدّ الوضوح؛ لأنّ هذه الآية علّةٌ لمَا قبلها؛ فبعد أن حرّم الحقّ ﷻ الخمرَ وكُلّ مُسكرٍ، والميسرَ وكُلّ قمارٍ، والأنصابَ وكُلّ ما يُعبدُ من دُون اللّه ويُذبح عليه، والأزلام وكُلّ ما يُستقسمُ به، من غير نظر إلى مصلحةٍ أو مفسدةٍ، لا يُحكّمُ فيها العقلُ، بيّن هنا العلّة في ذلك التّحريم، وهُو أنّ تلك الأشياء المُحرّمة، إنّما هي من تزيّين الشّيطان، "ثُمّ قرّر ذلك بيانُ ما فيهما منَ المفاسد الدُّنيويّة والدّينيّة المُقتضية للتّحريم"[1]، ومنها إحداثُ العداوة والشّحناء، وشدّةُ البغض بين النّاس، حتّى يصل إلى أن يصُدّهُم عن ذكر اللّه، وعنِ الصّلاة، فإن علموا ذلك كان تركُ ذلك والانتهاءُ منه حتمًا عليهم، وجميع ذلك مُرتبط بطاعة اللّه ورسوله، والحذر منَ التّولّي والمُخالفة كما في الآية بعدها.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يُرِيدُ﴾: فعلٌ مضارعٌ، من أراد يريد إرادة، وأصله من رَوَدَ، "والإرادة هي في الأَصل قوَّةٌ مُركّبةٌ من شهوة وحاجة، وخاطر وأمل، ثُمَّ جُعلَت اسمًا لنُزوع النَّفس إلى شيءٍ، معَ الحكم فيه، أنّه ينبغي أن يُفعل، أَو أَن لا يُفعل"[2].

2) ﴿أَن يُوقِعَ﴾: الماضي منه أوقع، وهمزتُه للتّعدية، أي: هو

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/11.
(2) الكفويّ، الكلّيّات، ص: 74.

مَن يقومُ بالإيقاع، وهو عائدٌ على الشّيطان، ويُقال "وقع الشّيءُ موقعهُ، وموقعة الطّائر بفتح القاف، المَوضِعُ الّذي يقعُ عليه"[1]، وقيل: إنّ أغلب "ما جاء في القرآن من لفظ (وقعَ) جاء في العذاب الشَّديد"[2].

البغضاء قُوّة العداوة وشدّتُها، وهي تدمّر صاحبها ومن حوله

3) ﴿وَٱلۡبَغۡضَآءَ﴾: منَ البُغض نقيضُ الحبّ والودّ، وكونُهُ كذلك، يلزمُهُ العداوة والكُره، ومعنى البغضاء بهذه الصّيغة، فهي قُوّةُ العداوة وشدّتُها[3].

الفعل (صدّ) أُدغمَت فيه الدّالُ في مثيلتها، ودلّ ذلك على فعل الشّيطان

4) ﴿وَيَصُدَّكُمۡ﴾: من (صَدّ) أصله (صَدَد)، ثُمّ أُدغِمت الدّالُ في مثيلتها، ومعناهُ معروفٌ، من "صَدّ يَصُدّ صَدًا وصُدُودًا، إذا صدفَ عنِ الشَّيء، أَو أعرض عنه، وأصدَدتُهُ عن ذلك الأَمر، إذا صرفتُهُ عنه"[4].

5) ﴿ذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾: الذّكرُ نقيضُ النّسيان، و"الذِّكرُ بالكسر له معنيان، أَحدُهما التَّلَفُّظُ بالشَّيء، والثَّاني إِحضارُهُ في الذّهن، بحيثُ لا يغيبُ عنه"[5]، ومن دسائس الشّيطان أن يصُدّ المُؤمن عن ذكر اللّه، وقد وردَت كلمة (الذّكر) كثيرًا في القرآن الكريم، وكان لها معانٍ متعدّدةٌ، بحسب السّياق الواردة فيه، فقد يكونُ ذكرُ القلب، وقد يكون ذكرُ اللّسان، وقد يكون بمعنى الصّلاة، أو البيان، أو الحديث، أو الشّرف، أو اللّوح المحفوظ، أو غيره[6].

6) ﴿مُّنتَهُونَ﴾: لفظُ (مُنتَهُونَ) جمعٌ مذكّرٌ سالمٌ، من الفعل (انتهى، يَنتَهي)، واسم الفاعل منه (مُنتهٍ)، جمعُهُ (مُنتَهونَ)، ومنه

(1) الجوهريّ، الصّحاح: (وقع).
(2) الكفويّ، الكلّيّات، ص: 918.
(3) الزّبيديّ، تاج العروس: 18/247.
(4) ابن دريد، جمهرة اللّغة: (صدد).
(5) الكفويّ، الكلّيّات، ص: 456.
(6) الكفويّ، الكلّيّات، ص: 457.

"النَّهيُ: خلافُ الأَمر، نهاهُ ينهاهُ نهيًا، فانتهى وتناهى: كَفَّ"[1]، وهو هنا بهذا المعنى، أي: طلب منهم الكفّ والانتهاء عمّا حرّمه عليهم، وقد ورد في سبب النُّزُول، ما روي عن سيّدنا عمر رضي الله عنه، أنّه قال: (انتَهَينَا انتَهَينَا)[2].

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

ذكر العلل الّتي بسببها حرّمت الكبائر، حفاظًا على الإنسان فردًا وجماعة

المعنى العامُّ للآية؛ هو في حقيقته تتمّةٌ لمَا سبق، فبعد أن ذكر المُحرّمات منَ الخمر المُسكر المُغيّب للعقل، المُؤدّي للشّجار والقتال، والميسر المُؤدّي إلى فقدان الإنسان مالَهُ؛ ممّا يُوقعُ في نفسه الحسد والبغض والكره، لمنِ استولى على ماله بهذه الطّريقة، والأنصابِ الّتي يعبدُونها ويذبحُون عليها لغير اللّه، والأزلامِ الّتي يغيّبُون فيها العقل، ويعلنون اختياراتهم لغير فائدة، ورُبّما أَفضَت إلى الضّرر ذكر هنا العلّة في التّحريم، وهو أنّهُ بسبب عمل الشّيطان في إحداث العداوة والبغضاء في المُسكر والقمار، والإعراض عن استحضار اللّه في القلب واللّسان، بل وفي منعهم بسبب هذه المُحرّمات عنِ الصّلاة، ثمّ ختمها بأمر الانتهاء بصورة الاستفهام؛ فكانت غايةً في البلاغة، وحصل فيها أعظمُ تهديد "بالاستفهام والجملة الاسميّة الدّالّة على الثّبات، بعد التّأكيد بالحصر، والضّمّ إلى فعل الجاهليّة، وبيان الحِكَم الدّاعية إلى التّرك، والشُّرور المُنفّرة عنِ الفعل، فقال: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾؟ أي: قبل أن يقع بكم ما لا تطيقون"[3]، وفي الآية أنّه سبحانه وتعالى أكرم هذا الإنسان، بأن ذكر له العلّة في تحريم ما حرّم منَ الخمر والميسر وسواها، وإلّا فإنّ العبادات مبناها على التّسليم من

(1) ابن منظور، لسان العرب: (نهي).

(2) هذا الحديث مشهور عند أهل التّراجم والسّير، رواه أحمد في مسنده، الحديث رقم: (378)، وأبو داود في سننه، الحديث رقم: (3670)، والنّسائيّ في سننه: 8/286 - 287، ورواه الحاكم في المستدرك: 2/278، والبيهقيّ في السّنن: 8/285.

(3) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 6/294.

غير بيانِ علّةٍ أو سببٍ، ومع ذلك فقد بيّنهما هنا؛ تكريمًا للمؤمنين، وزيادة في اقتناعهم وخضوعهم.

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

التّصدير بـ(إنّما)؛ لإفادة الحصر في قوله: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾:

في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾ الأداةُ (إنّما) تفيد الحصر، وقد تقدّم ذلك في الآية الّتي سبقت، وقد أعادها هنا أيضًا؛ للإشارة إلى دلالة الحصر، وهي مُركّبة من (إنَّ) التّوكيديّة، و(ما) الكافّة المُهيّئة الّتي تُهيِّئُ (إنَّ) للدّخول على الجمل الفعليّة؛ فتُزيلُ اختصاصها بالجمل الاسميّة، وههنا دخلت على جملة ﴿يُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾؛ لتفيد الحصر والقصر، وهو قصرٌ يفيدُ المبالغة، فكأنّه جعل عمل الشّيطان مقصورًا على إيقاع العداوة والبغضاء في الخمر والميسر على سبيل المُبالغة وليس الحقيقة؛ فإنّ للشّيطان منَ الأفاعيل ما لا يحدُّهُ حصرٌ، وتعدادُهُ ذكر كثيرٌ منه في القرآن الكريم، والسُّنّة النّبويّة الشّريفة، وأقوال الصّحابة الأبرار، والتّابعين الأخيار، والعلماء الرّبّانيّين، فيما نُقل عنهم من آثار وأخبار.

الحصر للمبالغة وليس على الحقيقة؛ فإنّ للشّيطان منَ الأفاعيل والكيد ما لا حصر له

الألف واللّام جنسيّة؛ لتشمل شياطين الجنّ، وشياطين الإنس:

والألف واللّام في لفظ الشّيطان جنسيّةٌ، تشملُ كُلّ شيطان، ولمّا كانتِ الشّياطينُ على نوعين؛ هما شياطينُ الجنّ، وشياطينُ الإنس، فالجميعُ مشمولٌ بهذا الوصف، وإرادةُ الشّيطان مُتعلّقةٌ بقوله: ﴿أَن يُوقِعَ بَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ﴾، وهي هنا صورةٌ تركيبيّةٌ من أساليب القرآن الكريم الّتي لم تتكرّر في غير هذه السُّورة، بل هي مفردةٌ في بابها، وإرادةُ الشّيطان في إيقاع العداوة والبغضاء علّةٌ في تحريم ما سبق من الخمر والميسر وسواه.

إرادةُ الشّيطان زرع العداوة والبغضاء؛ وهي علّة تحريم الخمر والميسر وسواهما

(أن) المصدريّة على معنى أنّ الشّيطان يُريدُ إيقاع العداوة والبغضاء بينكُم:

والأداةُ (أن) هنا مصدريّةٌ، واللّفظُ ﴿أَن يُوقِعَ﴾ فعلٌ مُتعلِّقٌ بإرادة الشّيطان، و(أن) والفعل في تأويل مصدر، تقديرُهُ (إيقاعًا)، وهو يقعُ مفعولًا لإرادة الشّيطان؛ أي: أنّ الشّيطان يُريدُ إيقاع العداوة والبغضاء بينكم، بما يُزيّنُ لكم منَ الخمر والميسر، وبفعل هذه العداوة والبغضاء - وبعد أن غيّبتِ الخمرُ عقولهُم - ضربَ رجلٌ سعدَ بنَ أبي وقّاص ﵁ على أنفه، بعد أن شربوا الخمر، وتلاحَوا بينهم، حتّى قال سعد: إنّ الآية نزلت فيه[1].

الخمر تلعب بالرّؤوس، حتّى يرى صاحبُها حسنًا ما ليس بالحسن

إيقاعُ العداوة والبغضاء من لدُن الشّيطان، مُختصّةٌ بالمُسلمين في قوله: ﴿أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ﴾:

قوله: ﴿أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ﴾ يَختلفُ عن قولنا: (يُوقِعُ العَداوَةَ والبَغضاءَ بَينَكُم)، من جهة تقديم الجارّ والمجرور على الاسم؛ فهذا التّقديمُ يُفيدُ التّخصيص؛ فالشّيطانُ يُريدُ أن يُوقع بينكم، وليس بين غيركُم العداوة والبغضاء، فإيقاعُ العداوة والبغضاء من لدُن الشّيطان مُختصّةٌ بكم أيُّها المسلمون؛ لأنّهُ صدّر الآية السّابقة بقوله ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾، ثُمّ قال هنا ﴿بَيْنَكُمُ﴾، فالكاف والميم واقعةٌ على المُخاطَبين، وهم المسلمون، والشّيطانُ يُريدُ أن يُشتّت "أمركُم بعد تأليف الله بينكم بالإيمان، وجمعه بينكم بأُخوّة الإسلام"[2]، هذا سرُّ التّقديم؛ لأنّه يجوزُ لغة تأخير ﴿بَيْنَكُمُ﴾، فإذا تأخّر الجارُّ والمجرورُ، عندئذ ذهب الاختصاصُ، وفي ذلك حكمةٌ بليغةٌ، وعبرةٌ كبيرةٌ؛ أنّ الشّيطان قد تعهّدَ بأن يُغوي ابنَ آدمَ إلاّ المُخلَصين، بقوله تعالى: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [ص: 82 - 83].

تقديم الجارّ والمجرور على الاسم؛ لإفادة التّخصيص:

(1) الواحدي، أسباب نزول القرآن، ص: 207.

(2) ابن جرير، جامع البيان: 10/565.

الفرق المعجميُّ بين (العداوة) و(البغضاء) في الآية:

تدرّج الشّيطان في إغواء الإنسان

وعلى ذلك، فثمّة فرقٌ معجميٌّ بين العداوة والبغضاء الواردتين في الآية، فهما ليستا بمعنى واحد؛ لأنّ البغضاءَ معطوفةٌ على العداوة، والعطفُ يفيدُ المغايرة، ولو كان يسيرًا، فالبغضاءُ هي شدّةُ العداوة، وقد رتّبهما هنا من الأقلّ ضررًا وشدّة، إلى الأكثر خطرًا وأثرًا، ولعلّ هذا من دأب الشّيطان، أن يبدأ مع بني آدم بالأخفّ من خُيوطه وحباله، فإذا لم تنفع زاد من مكرهِ وخُبثهِ وغوايتِه، حتّى يصلَ إلى مُراده، أو ينقلبَ خاسرًا وهو حسيرٌ مع عباد الله المُخلَصين الّذين استثناهم هو نفسُهُ، بقوله ﷻ على لسان إبليس: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ۝٣٩ إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ۝٤٠﴾ [الحِجر: 39 - 40].

ضمُّ الأَنصاب والأَزلام إلى الخمر والميسر؛ تأكيدٌ لقُبحهما:

مُجرّد حُدوث العداوة والبغضاء بين المسلمين مفسدةٌ عظيمةٌ

وقد يردُ سؤالٌ هنا، في أنّه ذكر الأربعة مُجتمعين في الآية السّابقة، الخمرَ والميسرَ والأنصابَ والأزلامَ، فيما ذكر الخمرَ والميسرَ فقط في هذه الآية؛ لأنَّ القصد في الآية الأُولى "النَّهي عن الخمر والميسر، وإنَّما ضمَّ الأَنصابَ والأَزلامَ إلى الخمر والميسر؛ تأكيدًا لقُبح الخمر والميسر"[1]، ولسببٍ ثانٍ؛ وهُو أنّهُ قرن الخمر والميسر في الآية الثّانية بالضّرر الّذي يُصيبُ مُتعاطيهما؛ وهو العداوةُ والبغضاءُ بفعل الشّيطان، وهو كذلك؛ فإنّ تعاطي الخمر يُسبّبُ العداوة والبغضاء بعد غياب العقل، وآيةُ ذلك ما رأينا في سبب النُّزُول؛ لأنّ الفرح في شُربها "ينقلبُ إلى الضّدّ؛ لأنَّ الخمر يُزيلُ العقل، وإذا أزالَ العقلَ استولَت الشَّهوةُ والغضبُ من غيرِ مدافعةِ العقل؛ وعند استيلائهما تحصل المنازعةُ بين أولئك الأحباب...وذلك يُورثُ أشدَّ العداوة

(1) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 12/424.

والبغضاء"[1]، ومثل ذلك يحصُلُ في الميسر، "من التَّحاسد على القامر، والغيظ والحسرة للخاسر، وما ينشأُ عن ذلك منَ التّشاتُم والسِّباب والضَّرب، على أَنَّ مُجرَّد حدوث العداوة والبغضاء بين المسلمين مفسدةٌ عظيمةٌ"[2]، لذلك فالضّررُ يكون عظيمًا، ويتجاوزُ الإنسانَ إلى غيره مع الخمر والميسر.

الأنصاب والأزلام أقلّ ضررًا وإيذاء، مقارنة مع الخمر والميسر:

ما حرّم الله فإنّ ضررَهُ بارزٌ، ومساوئَهُ أكيدةٌ

أمّا الذّبحُ على الأنصاب، والاستقسامُ بالأزلام، فهي مرتبةٌ أقلُّ ضررًا؛ في أنّها لا تتجاوزُ متعاطيها كالخمر والميسر الّتي تُسبّب العداوة والبغضاء، وقد تصلُ إلى حدّ التّناحر والاقتتال، وهي مرتبةٌ أبعدُ في الإيذاء، وأجمعُ لكُلّ تلك الشّرور النّاتجة عن الخمر والميسر؛ و"لأنّ العداوة والبغضاء بين النّاس، تقعُ كثيرًا بسبب الخمر والميسر، وكذلك يشتغلون بهما عنِ الطّاعة، بخلاف الأنصاب والأزلام، فإنّ هذه المفاسد لا توجدُ فيها، وإن كان فيها مفاسدُ أُخرُ"[3]، ولسببٍ آخر، فقد قيل "إنّما خصَّهما بالذّكر بيانًا للواقع؛ لأنّ الخطابَ للمُؤمنين، بدليل قوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾، وهم إنّما كانوا يتعاطَون الخمر والميسر فقط"[4].

دلالة حرف الجرّ (في) على السّببيّة والتّعليل في الآية:

الأشياءُ المنبوذة كالعداوة والبغضاء، تحصلُ في تعاطي الخمر والميسر عادة

لفظ (في) حرف جرٍّ في كلام العرب، له معانٍ عدّة، أوصَلَها ابنُ هشام إلى عشَرة معانٍ، منها الظّرفيّةُ، والمُصاحبةُ، والتَّعليلُ، والاستعلاءُ، وغيرُها[5]، ومنَ المعاني المعروفة أن تكون (في) للتّعليل أو السّببيّة، وعلى الرّغم من أنّ معنى الظّرفيّة واسعٌ فيها، إلّا أنّ

(1) ابن عادل، اللُّباب في علوم الكتاب: 7/507.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/27.
(3) الرّازيّ، أنموذج جليل في أجوبة وأسئلة عن غرائب آي التّنزيل، ص: 113.
(4) زكريا الأنصاريّ، فتح الرّحمن، ص: 150.
(5) ابن هشام، مغني اللّبيب، ص: 223 وما بعدها.

شُهرة معنى السَّببيّة حصلَت من حديث الرّسول الأكرم ﷺ، بقوله: «دَخَلَتِ امرَأَةٌ النَّارَ في هِرَّةٍ رَبَطَتها، فَلَم تُطعِمها، ولم تَدَعها تَأكُلُ مِن خَشاشِ الأَرضِ»[1]، فالمعنى أنّ اللّه تعالى أدخل هذه المرأة النّار، بسبب هذه الهرّة، وما فعلته بها، ومثلُ هذا المعنى واقعٌ في قوله تعالى: ﴿أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ﴾؛ فإنَّ الشّيطانَ ما كان له أن يُوجِدَ العداوةَ والبغضاءَ والتّناحُرَ والشَّحناءَ، لولا تعاطي الخَمر والمَيسر، و"العداوةُ هي انفصالُ مُتلاحمَين، حدثَت بينهما عداوةٌ وبغضاءٌ، والبغضاءُ هي انفعالُ القلب بشيء مكروهٍ"[2]، وهذه الأشياءُ المَرذولةُ من عداوة وبغضاء، تحصُلُ في الخمر والميسر، "بسبب تعاطِيهما؛ لأنَّ السَّكرانَ يُقدِم على كثيرٍ مِنَ القبائح الّتي تُوجِبُ ذلك، ولا يبالي، وإذا صَحا ندمَ على ما فعل، والرّجلُ قد يُقامرُ حتَّى لا يَبقى له شيءٌ، وتنتهي به المُقامرةُ إلى أن يُقامِرَ بولده وأهله؛ فيؤدِّي به ذلك إلى أن يصيرَ أعدى الأعداء لمن قمرَهُ وغلبَهُ"[3].

نتيجتان أخريان لتعاطي الخمر والميسر:

قوله تعالى ﴿وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ عطفٌ على ما يحصُلُ للمرء بسبب تعاطيه الخمر والميسر؛ فيَصِلُ إلى نتيجتين أخريَين؛ هما الصَّدُّ عن ذكر اللّه وعنِ الصّلاة، لذلك فإنَّ" مَن اشتَغَلَ بشرب الخمر أَوِ القمار، أَلهاهُ ذلك عن ذكر اللّه، وشوّش عليه صلاته، كما فعل بأَضياف عبد الرَّحمن بن عوفٍ، تقدّمَ رجلٌ ليُصلِّي بهم صلاة المغرب بعدما شربوا، فقرأَ: ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢﴾ [الكافرون: 1 - 2] بحذف (لا)"[4].

لا طاقة للشّيطان على إكراه الإنسان على فعلٍ ما، لكنّه يُزيّنُ له الفعل

(1) البخاريّ، الحديث رقم: (3318)، ومسلم، الحديث رقم: (2242).
(2) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 6/3377.
(3) الآلوسّي، روح المعاني: 7/16.
(4) البغويّ، معالم التّنزيل: 3/94.

فلا تتوقّفُ إرادةُ الشّيطان في إحداث المعصيّة مِنَ الإنسان على إيقاع العداوة والبغضاء، بل تتعدّاها إلى مُحاولته أن يصُدَّ المُؤمن عن ذكر الله وعنِ الصّلاة، وهل يستطيعُ ذلك؟ الجوابُ يعتمدُ على طاعة الإنسان لشيطانهِ من عدمِهَا، "ولا يستطيعُ الشّيطانُ أن يُكره الإنسانَ قهرًا على فعلٍ ما، ولكنّه يُزيّنُ له الفعل؛ فليس للشّيطان سلطةُ الإكراه ليقهرَ الإنسان"[1].

التّقديم يُفيدُ اختصاصَ الخمر والميسر في الصَّدِّ عن ذكر الله وعنِ الصّلاة:

الخمر والميسر لتقدّمهما في السّياق، يُؤدّيانِ قطعًا إلى الصَّدِّ عن عبادة الله

وثمّة أمرٌ آخرُ مُتعلِّقٌ بإرادة الشّيطان التّي يبتغي من خلالها أهدافًا عدّة؛ أوّلُها: إيقاعُ العداوة والبغضاء، وثانيها: الصَّدُّ عن ذكر الله، وثالثُها: الصَّدُّ عنِ الصّلاة، فهذه الغاياتُ يسعى إليها الشّيطان، وقد وضعَ لها خُطّةً مُحكمةً، وهي تزيينُ الخمر والميسر للإنسان، كي يقع في شرَكِه، إلّا أنّ المُلاحظ أنّهُ قدّم الخمر والميسر على غرضيه الثّاني والثّالث، وهما الصَّدُّ عن ذكر الله، وعنِ الصّلاةِ فيما أخّرهُ عنِ الأوّل، وهو إيقاعُ العداوة والبغضاء، وفي ذلك إشارةٌ وإيحاءٌ منَ القرآن الكريم، في أنّ تعاطي الخمر والميسر يُؤدّيانِ قطعًا إلى الصَّدِّ عن ذكر الله وعنِ الصّلاة؛ لأنّ التّقديمَ يفيدُ الاختصاصَ، اختصاصَ الخمر والميسر في الصَّدِّ عن ذكرِ الله وعنِ الصّلاة، فيما لا يكونان كذلك، في إيقاع العداوة والبغضاء، بمعنى أنّ للشّيطان طُرُقًا أُخرى في إيقاع العداوة والبغضاء، فقوله: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ فِي ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِ﴾، يحتملُ (وفي غَيرِ الخَمرِ والميسرِ)، كالحسد في المال والبنين مثلًا، بخلاف قوله في الخمر والميسر: ﴿وَيَصُدَّكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِۖ﴾، أي: في الخمر والميسر، ولا شيءَ أعظمُ عند الله من أن يُصَدَّ المرءُ عنِ الذّكر الّذي هو

(1) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 6/3376.

غذاءُ الرُّوح، وعنِ الصّلاة الّتي هي عمادُ الدِّين لقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾ [الذّاريات: 56].

تقديم صدّ الذّكر على الصّلاة، من باب تقديم الأخصّ على الأعمّ:

الصّلاة والذّكر هما وسيلتا الوصل بالله، والشّيطان يريد قطع صلتك به

أمّا تقديمُ الذّكر على الصّلاة فهو من باب تقديم الأخصِّ على الأعمِّ، وهو من باب عطف الخاصِّ على العامِّ؛ لأنّ الصّلاةَ مُشتملةٌ على الذّكر وعلى غيره، وفي تكرار حرف الجرّ ﴿عَن﴾ إيماءٌ إلى التّوكيد؛ للدّلالة على أهمّية الموضوع في تعلُّقه بصدّ الشّيطان الإنسانَ عن أمرين مُهمّين؛ هما ذكرُ اللّه والصّلاةُ، ولا سيّما أنّ الصّلاةَ جاءَت تاليةً في التّرتيب؛ فأعاد معها حرف الجرّ ﴿عَن﴾؛ للإشارة لأهميَّتها... كيف لا، وهي عمودُ الدّين؟!.

قوله ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾؟ الفاءُ فاءُ الفصيحة المُفصِحة عن جواب الشّرط:

أمّا قولُه: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾؟ الفاءُ فاءُ الفصيحة؛ لأنّها أفصحَت عن جواب الشّرط الّذي تقديرُهُ: "إذا عرفتُم أنّ الشّيطانَ يُريدُ أن يُوقعَ بينكم العَداوَةَ والبَغضاءَ، بسبب الخَمرِ والمَيسِرِ، وأردتُم بَيانَ ما هو اللّازِمُ لكم، فأقولُ لكم: هل أنتُم مُنتَهونَ؟ أي: انتَهوا عنهما"[1].

قولُه: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾؟ تركيب لغويٌّ فريد في القرآن:

السّؤال عن الانتهاء اختبارٌ لإرادة المؤمن وإيمانه

في قوله ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾؟ مسَائلُ؛ الأُولى: أنّهُ تركيبٌ لغويٌّ، لم يرد مثلُهُ في سياقات القرآن إلّا في ستَّة مَواضِع، أوّلُها ترتيبًا في القرآن، هو هذا المَوضِع من سورة المائدة.

قوله ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾؟ الفاء رابطة لجواب شرط مُقدّر:

والمسألةُ الثّانيةُ: أنّهُ ربَطَ هذا التّركيبَ بما قبلهُ بالفاء، وهي "رابطةٌ لجواب شرطٍ مُقدّرٍ"[2]، وجاء ربطُها "إثر تفصيلِ الصّوارفِ

(1) الهرريّ، تفسير حدائق الرّوح والرّيحان: 8/85 - 86.
(2) صافي، الجدول: 7/17.

عن تعاطي الخمر والميسر، وفيه استقصارُهم وتعبيرُهم بالمُعاندة، وقلّةِ الإنصافِ، وتوبيخُهم بالبلادة"[1]، فكأنّهُ سألَ سائلٌ عن تلك الأحوال، فقال لهم: ﴿فَهَلۡ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾؟.

الانتهاء مُطلَق البعد عن المنهيّات، وقطع العلائق مع المحرّمات

التّعبير بـ(هل) دون الهمزة لأسباب معنويّة:

والمسألةُ الثّالثةُ: أنّهُ عبّر بـ(هل) هنا، ولم يُعبّر بأُختِها الهمزة؛ لجملة أمورٍ منها، "أنّ الفرق بين الهمزة وهل، أنَّ الهمزةَ لا يُستفهَمُ بها إلَّا وقد هجسَ في النّفس إثباتُ ما يُستفهمُ بها عنه، بخلاف هل"[2]، وليس في هذا المَوضِع ما يُرادُ إثباتُهُ، بل هو مَوضِعُ نهيٍ عن تعاطي الخمر والميسر، فتناسبا من هذه الجهة، والمسألة الرّابعة: خروجُ (هل) إلى معانٍ غير الاستفهام؛ كالنّفي، وتكون بمعنى (قد)، وتكون بمعنى (أن)، وقد تكون للتّقرير والإثبات[3]، يؤيّدُ ذلك أنّ الهمزة هي الأصلُ في الاستفهام، ومعنى ذلك أنّ (هل) ليست أصلًا في الاستفهام، وهو ما تحقّق هنا من مجيئِها للأمر، وفي كلّ ذلك لا يصلُحُ أن تأتي الهمزة ههنا.

الهمزة أصل الاستفهام، و(هل) ليست كذلك، ولذلك جاءت هنا في سياق الأمر

خروج (هل) الاستفهاميّة إلى الأمر؛ للتّحضيض على الانتهاء:

والمسألة الخامسة: حدوث انتقالٍ كبيرٍ بين أساليب العربيّة، انتقالٍ من أُسلوب الاستفهام إلى أسلوب الأمر؛ فإنّ (هَل) هنا جاءت للأمر؛ فالمعنى في قوله: ﴿فَهَلۡ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾؟ استفهامٌ، وتأويلُهُ (انتَهوا)[4]، يؤيّدُهُ قول عمر رضي الله عنه حينَ سمِعَها: "انتَهَينا انتَهَينا، إنّها تُذهبُ العقلَ والمالَ"[5].

مفاسد المُحرّمات معروفة مألوفة، وارتكابُها خَيبةٌ ومَحقَةٌ

وجاء في التّفسير المُنير أنّ الاستفهامَ المُرادَ به الأمرُ هو أبلغُ

(1) صافي، الجدول: 3/137.
(2) المراديّ، الجنى الدّانّي، ص: 343.
(3) المراديّ، الجنى الدّانّي، ص: 342 فما بعدها.
(4) الفرّاء، معاني القرآن: 1/202.
(5) المنتجب الهمذانّي، الكتاب الفريد: 2/490.

في النّهي؛ لأنّه تحضيضٌ على الانتهاء[1]، وقال أبو السّعود في إرشاد العقل السّليم: "ولقد أُكِّد تحريمُ الخمر والميسر في هذه الآية الكريمة، بفنون التّأكيد، حيث صُدِّرت الجملةُ بـ(إنَّمَا)، وقُرِنَا بالأصنام والأزلام، وسُمِّيا رجسًا من عمَل الشّيطان، تنبيهًا على أنَّ تعاطيهما شرٌّ بَحتٌ، وأَمَرَ بالاجتناب عن عينِهما، وجعَلَ ذلك سَبَبًا يُرجَى منه الفلاحُ، فيكونُ ارتكابُهُما خيبةً ومَحقةً"[2].

التّعبير بالاستفهام مُؤذن بأنّ الأمر في الرّدع والمنع قد بلغ الغاية:

والسّرّ في التّعبير بالاستفهام مع إرادة الأمر، أنّ فيه "إيذانًا بأنّ الأمر في الرّدع والمنع قد بلغ الغاية، وأنّ الأعذارَ قَدِ انقطَعَت بالكُلّيّة... ووجه تلك التّأكيدات أنّ القوم رضي اللّه تعالى عنهم، كما قيل، كانوا مُتردِّدينَ في التَّحريم"[3]، وفي ذلك إغراءٌ بالعمل، وحثٌّ عليه، أكثر ممّا لو جاء الكلام بصيغة الأمر.

كان التّحريم تدريجيًّا، فلمّا جاء الحكم الفيصل انتهى الجميع عنِ الخمر، بصورة تلقائيّة

دخول (هَل) على الجملة الاسميّة دالٌّ على ثبوت النّهي واستقراره:

ويلاحظُ دخول (هَل) على الجملة الاسميّة المُثبتة، بركنيها المبتدأ (أَنتُم)، والخبر (مُنتهونَ)، لمَا تُعطيه الجملةُ الاسميّةُ من خصيصَة الثّبات والاستقرار؛ ولأنّ (هَل) لا تدخلُ إلَّا على الجملة المُثبتة، "فمَجيءُ هذه الجملة الاستفهاميّة المُصدَّرة باسم، مُخبَرٍ عنه باسم فاعلٍ دالٍّ على ثُبوت النّهي واستقراره، أبلغُ من صريح الأمر"[4].

حذف الخمر والميسر ملحوظٌ، وحذف ما يُعلمُ جائزٌ في كلام العرب

وقوله ﴿مُّنتَهُونَ﴾ فيه حذفُ المُتعلِّق (عَنهما)؛ لدلالة الكلام السّابقِ عليه؛ فإنّ المقصود الخمرُ والميسرُ، وهما مذكوران من قبل، وحذفُ ما يُعلمُ جائزٌ في كلام العرب.

(1) الزّحيلّي، التّفسير المنير: 7/34، وصالح مخيمر، معجم الأساليب البلاغيّة في القرآن الكريم، ص: 65.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/76 - 7/34.
(3) الآلوسّي، روح المعاني: 7/17.
(4) السّمين، الدّرّ المصون: 4/414.

﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَٱحۡذَرُواْۚ فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ٩٢﴾ [المائدة: 92]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الآية تقرّر ما قبلها وتؤكّده، وتدعو إلى الانتهاء عن المألوف المرغوب:

مناسبة هذه الآية لمَا قبلها مناسبة توكيدٍ وتقريرٍ؛ فإنّه لمّا ذكر لهم في الآية السّابقة، أنّ الشّيطانَ يريد أن يُفسد عليهم دينهم ودنياهم من إيقاع العداوة والبغضاء، وصدِّهِم عن ذكر اللّه وعنِ الصّلاة، أمَرَهم بالانتهاء بصيغة الاستفهام الدّالّ على النّهي، أي: انتَهوا، "ولمّا كان ذلك مألوفًا لهم، محبوبًا عندهم، وكان تركُ المألوفِ أمَرَّ من ضرب السُّيوف، أكَّدَ دعوتَهم إلى اجتنابه، مُحذّرًا منَ المخالفة بقوله، عاطفًا على ما تقديره (فانتَهوا)"[1]، هنا عطف عليه جملة من أفعال الأمر توكيدًا وتقريرًا للنّهي الوارد في الآية السّابقة؛ فارتبطت هذه الآية أشدّ الارتباط بأختها السّابقة، وتميّز النّظمُ القرآنيُّ بهذا السّبك الفريد، ليس على جهة الألفاظ والتّراكيب فحسب، بل على جهة الآيات أيضًا.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ﴾: فعل أمر مُسندٍ إلى واو الجماعة، "يُقال: أمرَهُ بأَمرٍ فأطاعَهُ، والعربُ تقولُ: له عليَّ أمرُهُ مُطاعةٌ، قال: وقد طاعَ له، إذا انقادَ له"[2]، وطاعةُ اللّه تكونُ بإتيان أوامِرِه، وتركِ نواهِيه.

2) ﴿وَٱحۡذَرُواْۚ﴾: فعل أمرٍ مُوجّه إلى جماعة الذُّكور والإناث، "وقال الزّجّاج: الحاذِرُ المُستعدُّ، والحَذِرُ المُتيَقّظُ، وقال شمّر:

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 6/294.
(2) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (طوع).

الحاذِرُ المُؤذي الشَّاكُّ في السِّلاح"[1]، وهو هنا المُتيقّظُ المُستعدُّ الّذي يخاف شيئًا.

3) ﴿تَوَلَّيۡتُمۡ﴾: من (وَلَيَ)، والفعلُ (تَوَلّى) هنا مزيدٌ، على زنة (تَفَعّلَ)، والمصدرُ (التّوليةُ)، وفي معنى (تولّى) معانٍ عدّة مُتقاربة، كالإدبار والذّهاب والإعراض[2]، أي: تُدبِروا وتُعرِضوا عمَّا أمَرَكُم به الحقُّ ﷻ.

4) ﴿ٱلۡبَلَٰغُ﴾: اسمٌ يدُلُّ على الوصول عامّة، من "بَلَغتَ المكانَ بُلوغًا: وصلتُ إليه، وكذلك إذا شارفتَ عليه... وبَلَغَ الغلامُ: أدرك، والإِبلاغُ: الإيصالُ، وكذلك التّبليغُ، والاسمُ منه البلاغُ؛ والبلاغُ أيضًا الكفايةُ"[3]، وهنا قال لهم: ﴿فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلۡبَلَٰغُ﴾، معناهُ: أنّ مهمّته إيصالُ ما يريدُه اللّه تعالى إليكم على الوجه المطلوب الكافي، وهو مُطابِقٌ لمعناه اللُّغويّ.

البُعد والانكشاف والظُّهور

5) ﴿ٱلۡمُبِينُ﴾: من أبانَ يُبينُ إبانةً، فهو (مُبِينٌ) على صيغة اسم الفاعل، ومعناه التّوضيحُ، والباء والياء والنّون، له أصلٌ في لغة العرب، بمعنى البعد والانكشاف والظُّهور، "وبانَ الشَّيءُ وأَبانَ، إذا اتَّضحَ وانكشفَ، وفلانٌ أَبينُ من فلانٍ، أَي: أَوضحُ كلامًا منه"[4].

وقد وصفَ الحقُّ ﷻ البلاغ الواصل إليهم، بأنّه بلاغٌ مُبِينٌ؛ ليقطعَ عنهم كلّ اعتراضٍ، ويُلزمهم الحُجّة والبُرهان.

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

المعنى العامُّ للآية؛ يتجلّى في أمر اللّه تعالى لعباده بأن يُطيعوا اللّه، ويستجيبوا له باتّباع كتابه الكريم، وأن يُطيعوا رسوله،

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (حذر).
(2) الزّبيديّ، تاج العروس: (ولى).
(3) الجوهريّ، الصّحاح: (بلغ).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (بين).

ويستجيبوا لِمَا أمرهم في سنّته، فقد أُوتي الرّسولُ منَ الأحكام والشّرع مثل ما أُوتي منَ القرآن، فلا فصل بين القرآن والسّنّة، وكثير من الأحكام لم يُفصِّل فيها القرآن، بل بيّنها الرّسول ﷺ بسنّته؛ في أقواله وأفعاله وتقريراته، وردُّ جزءٍ منها - كما تفعل بعض الطّوائف والملل من قبول القرآن وردّ السّنّة - منَ الضّلال المُبِين، لذلك كان لزامًا على المؤمنين أن يحذروا ويحترزوا، فإن أعرضوا وانصرفوا إلى غير ما أُمروا به فلا يملكُ لهمُ الرّسولُ المُكلَّف بإيصال أمانة الهدى شيئًا؛ لأنّ مهمّته البلاغُ، وإيصالُ ما أمرهُم به تعالى، بأبين صورةٍ، وهو قد بلَّغها، ولم يألُ جُهدًا في إيصال الرّسالة على وجهها الأكمل.

الأمر بطاعة الله ورسوله، فإن لم يفعلوا فإنّه لا يغني عنهم منَ الله شيئًا

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

عطفُ طلبٍ حقيقيٍّ، (فعل أمرٍ) على طلب مجازيٍّ (استفهام):

خلَص في الآية السّابقة قبل قوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَٱحۡذَرُواْۚ﴾ إلى جملة قضايا خطيرة، وأهمُّها تحريمُ الخمر بطريقة الاستفهام الّتي تُمثّلُ غاية البلاغة، فأراد هنا أن يُؤكّد ذلك تأكيدًا لا ريب فيه، وأن يقطع كُلّ شكٍّ فيه؛ فأمر بطاعة الله وطاعة الرّسول مُجتمعين، ذلك "أَنَّ المُراد وأطيعوا الله وأطيعوا الرَّسولَ، فيما تقدَّم ذكرُهُ، من أمرهما بالاجتناب عنِ الخمر والميسر"[1]، وعطفُ هذه الآية على الّتي سبقت بالواو عطفُ طلبٍ حقيقيٍّ، (فعلُ أمرٍ) على طلب مجازيٍّ (استفهام)، فالأمرُ هنا حقيقيٌّ في قوله ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ﴾، والنّهيُ في الآية السّابقة مجازيٌّ؛ فهو استفهامٌ خرج إلى النّهي ﴿فَهَلۡ أَنتُم مُّنتَهُونَ ٩١﴾؟، والمعنى (انتَهوا وأَطِيعوا)[2].

طاعة الرّسول مُقترنة بطاعة الله تعالى

(1) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 12/87.
(2) الدّرويش، إعراب القرآن وبيانه: 3/12.

تَكرار الفعل مُسندًا إلى الرّسول ﷺ من مَلمَح التّوكيد والتّشريف له:

تقديم طاعة الله على طاعة الرّسول من باب تقديم الأفضل

بدأ بطاعة الله، وثنّى بطاعة الرّسول ﷺ، وهو من باب تقديم الأفضل والأشرف؛ فبدأ به تعالى، ثُمّ بالرّسول ﷺ، والألفُ واللّامُ في الرّسول عهديّة، أي: الرّسول المعروف المعهود الّذي ختم الله به الرُّسل؛ وهو محمّدٌ ﷺ، وطاعةُ الله وطاعةُ رسوله معروفةٌ بالائتمار بأوامره، واجتناب نواهيه، ولا شكّ أنّ طاعة الله هي الأصل، وإنّما كرّر الفعل مُسندًا إلى الرّسول ﷺ من باب التّوكيد[1]، والتّشريف له ﷺ؛ فطاعةُ الرّسول لا تنفصلُ عن طاعة الله، وهو من باب عطف المُفصّل على المُجمل؛ لأنّ ما جاء به الرّسول ﷺ تفصيلٌ وبيانٌ لمَا أمر به الله، لقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [النّحل 44].

تَكرار الفعل، يستلزم أن يُطاع الرّسولُ ﷺ فيما نقل عن ربّه:

اقتران طاعة الرّسول بطاعة الله؛ غايته الإشارة إلى ما أوتيه منَ السّنّة

"وسائرُ ما قَرن فيه طاعةَ الرّسول بطاعة الله، فهو دالٌّ على أنّ طاعةَ الله ما أمرَ به ونهى عنه في كتابه، وطاعةَ الرّسول ما أمَرَ به ونهى عنه، ممّا جاء به، ممَّا ليس في القرآن؛ إذ لو كان في القرآن لكان من طاعة الله"[2]، فهذا التَّكرار للفعل، يستلزم أن يُطيع الإنسانُ الله تعالى ممّا ورد في القرآن، ويستلزم أيضًا أن يُطيع الرّسولُ ﷺ، وإن لم يكن واردًا في القرآن الكريم بعينه، فطاعة الرّسول ﷺ تجبُ "مُفردةً ومقرونةً، فلا يتوهَّمُ مُتوهِّمٌ أنّ ما يأمُرُ به الرّسول إن لم يكن في القرآن، وإلّا فلا تجب طاعته فيه"[3]، وفي ذلك ردٌّ على من يدّعي أنّ الدّين والشّرع يُؤخذ منَ القرآن الكريم فحسب؛ لذلك ورد في الحديث: «أَلا إِنِّي أُوتِيتُ الكتابَ، ومِثلَهُ معه،

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/234.
(2) القاسميّ، محاسن التّأويل: 1/105.
(3) ابن القيّم، بدائع التّفسير: 1/278.

أَلا يوشِكُ رَجلٌ شَبعان على أَريكتِهِ يقولُ عليكم بهذا القرآن، فما وَجَدتُم فيه مِن حلالٍ فأَحِلُّوهُ، وما وَجَدتُم فيه مِن حرام فحَرِّموه»[1]، فطاعةُ اللّه مِن طاعة الرّسول لا ينفصلان، يؤيّدُهُ أنَّ الرّسُول ﷺ قد أُوتي الكتابَ ومثلَه معه، أي: "أنّه أُوتي منَ الوحي غير المَتلُوِّ مثل الوحي المتلُوّ، تبيينًا له وتوضيحًا، وكُلٌّ من عند اللّه"[2]، يقول الحقّ ﷻ: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ ۝٣﴾ [النّجم: 03]، أي: أنّه لا يقول التشريعَ برأيه، أو من عندِ نفسِهِ، بل بوحيٍ مُنزلٍ، أو إلهامٍ منه تعالى.

تَكرار الفعل ﴿وَأَطِيعُواْ﴾؛ هو تطلُّب ثباتِ الطّاعة، ورسوخها في الذّهن:

نلاحظ في قوله تعالى ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَٱحۡذَرُواْۚ﴾ التّكرار في قوله (وأَطيعوا... وأَطيعوا)، وغاية التّكرار للكلمة أو الكلمتين؛ هو تطلُّب ثباتها ورسوخها في الذّهن، وهنا التّكرار يُشار به إلى العلاقات الّتي تربط الإنسان بربّه وبنفسه وبغيره، ولذلك عقّب بالإحسان في الأخير، فقال في الآية اللّاحقة: ﴿ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّأَحۡسَنُواْۚ وَّٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ۝٩٣﴾ [المائدة: 93]، ويحتملُ أن يكون في ذلك إشارةٌ إلى مراحل العمر الثّلاث، بداية ووسطًا ومُنتهًى، قال الدّرويش في إعراب القرآن وبيانه: "ولعلّ الاحتمالين مُرادان في هذا النّصِّ"[3].

رسم العلاقات الّتي تربط المؤمن باللّه وبالنّفس وبالآخرين منَ البشر

عدم تَكرار الفعل ﴿وَٱحۡذَرُواْۚ﴾ مع غير الله ورسوله؛ لأنّهُ لا تجبُ طاعةُ غيرهما استقلالًا:

من أسرار التّعبير القرآنيّ اللّطيفة، أنّه قال في آية ثانية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ﴾ [النّساء: 59] هنا لم يُكرّر فعل الطّاعة مع أولي الأمر، بل عطف مباشرة على

(1) أبو داوود، السنن، الحديث رقم: (2643).
(2) الزّرقانّي، مناهل العرفان: 2/62.
(3) الدّرويش، إعراب القرآن وبيانه: 3/16.

لفظة الرّسول ﷺ؛ لأنّهُ لا "تجبُ طاعةُ أحدهِم إلّا إذا اندرجت تحتَ طاعةِ الرّسولِ، لا طاعة مُفردة مُستقلة"[1]، ثُمّ قال: ﴿وَٱحۡذَرُواْۚ﴾، وهو عطفٌ على ما سبق، وفيه تأكيدٌ وتشديدٌ، ووعيدٌ وتحذيرٌ؛ لذلك قيل في معنى (واحذروا): "واتّقوا اللّه ورَاقبوهُ، أن يراكُم عند ما نهاكم عنه من هذه الأمور الّتي حرّمها عليكم في هذه الآية وغيرها، أو يفقِدَكم عند ما أمركم به، فتُوبقُوا أنفُسكم وتُهلِكوها"[2].

حذف مفعول الفعل ﴿وَٱحۡذَرُواْۚ﴾؛ للاهتمام لفعل الحذر دُون المحذُور:

الفعلُ ﴿وَٱحۡذَرُواْۚ﴾ فعلٌ مُتعدٍّ لمفعول واحد، وجاء هنا محذوفًا على تقدير (واحذَروا مُخالَفَةَ أَمرِهِ)، وحذفُ المفعول عُمومًا يردُ لغرض مُهمّ؛ وهو الإشارةُ إلى الفعل، وبيانُ دلالته أنصعَ بيانٍ، فكان الاهتمامُ ينصبُّ على فعل الحذر من دون المحذور؛ ولأنّه مذكور فيما مضى من سياق.

الحذر مُوصًى به، ومُؤكّد عليه، مع أنّه لا ينفع حذرٌ من قدر

حذف مفعول ﴿وَٱحۡذَرُواْۚ﴾ لتنزيل الفعل منزلة اللّازم، مقرّبًا من أفعال السّجايا:

من بديع ما ذُكر في حذف مفعول ﴿وَٱحۡذَرُواْۚ﴾: "لِيُنَزَّلَ الفعلُ منزلةَ اللّازم؛ لأَنّ القصد التَّلَبُّسُ بالحذر في أمور الدّين...؛ لأَنّ الفعل اللّازم يقرُب معناهُ من معنى أَفعال السَّجايا"[3]، كأنّه جعل الفعل لازمًا مُتلبّسًا بفاعله، ومعلومٌ أنّ الفعل والفاعل كالكلمة الواحدة في كلام العرب؛ ولأنّ الفعل اللّازم قريبٌ من أفعال السّجايا، وهي الأفعال الدّالّةُ على المعاني اللّازمة بالفعل، القائمة به، مثل: حَسُن وقَبُح وشَجُع[4]، فحذفُ المفعول والاكتفاءُ بالفاعل أبلغُ من ذكره، ويحسُن الوقفُ هنا والابتداءُ بما بعده من جملة

حذفُ المفعول، والاكتفاءُ بالفاعل أبلغُ من ذكره

(1) ابن القيّم، بدائع التّفسير: 1/278.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 10/575.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/30.
(4) المراديّ، توضيح المقاصد والمسالك: 2/621.

الشّرط، وهو من باب الوقف الكافي[1]؛ لأنّ ما بعدهُ مُتعلّقٌ به من جهة المعنى؛ ففيه تنبيهٌ وتحذيرٌ عنِ التَّولّي، أمّا من جهة اللّفظ فلا؛ لأنّه ابتداءُ جملة شرطيّة جديدة.

الفاءُ الاستئنافيّة، والجملة الشّرطيّة، تربط السّياق بعضه ببعض:

تحذيرهم منَ التّولّي، وعدم العمل بما أمرهم، وعدم اجتناب نواهيه

قال الحقُّ ﷻ: ﴿فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ﴾، هذا التّركيبُ اللُّغويُّ لم يرد في غير سورة المائدة، والفاءُ هنا استئنافيّةٌ، وقد حذّرهُم منَ التّولّي، وهو عدمُ العمل بما أمرهم به سبحانه، وعدمُ اجتناب نواهيه، وأن يرجعُوا عمّا هم عليه منَ الإيمان والتّصديق، وعدم اتّباع النّبيّ ﷺ[2].

التَّولّي استعارةٌ للعصيان، حيثُ شبَّه العصيان بالإعراض والرُّجوع:

أسلوبُ تهديدٍ أكيد، ووعيدٍ شديدٍ، في حقِّ مَن خالَف

كلُّ ذلك جاء من خلال التّعبير بأداة الشّرط (إن)، والجوابُ محذوفٌ، تقديره: (فَجَزَاؤُكُم عَلَينَا)[3] "والتَّولّي هنا استعارةٌ للعصيان، حيثُ شبَّه العصيان بالإعراض والرُّجوع عنِ المَوضِع الَّذي كان به العاصي، بجامع المُقاطعة والمُفارقة"[4]، ثُمّ عطف عليه ﴿فَٱعۡلَمُوٓاْ﴾، وأخبر عن هذا الإعلام، بأنّه ليس على الرّسول المُرسل من لدُنّا إلّا البلاغُ المُبينُ؛ لأنّ الفعل ﴿فَٱعۡلَمُوٓاْ﴾ فعلٌ يطلبُ مبتدأ وخبرًا في الأصل؛ ليجعلهُما مفعولًا أوّلَ، ومفعولًا ثانيًا، إلّا أنّ دخول (أنّ) منع جعلهما مفعولين على اللّفظ، إنّما سدَّ المبتدأُ والخبرُ مسدّ المفعولين، يعني (إن تَوَلّيتُم)، فيجبُ أن يكون معلومًا لديكم، أنّهُ ليس على رسولنا إلّا البلاغُ المُبينُ الواضحُ، وقد قامَت عليكم الحُجّة والبرهانُ، وهذا أسلوبُ "تهديدٍ عظيم، ووعيدٍ شديدٍ، في حقِّ مَن خالف في هذا التَّكليف، وأعرضَ فيه عن

(1) الدّانّي، المُكتفَى، ص: 63.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 10/575.
(3) الدّرويش، إعراب القرآن وبيانه: 3/13.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/31.

حُكم اللّه وبيانِهِ...والرَّسولُ قد خرج عن عُهدة التَّبليغ والإعذار والإنذار"[1].

قصر صفة التّبليغ والإنذار على الموصوف، وهو الرّسولُ ﷺ:

الكلامُ حول مسؤوليّة الرّسول ﷺ تجاه قومِهِ، ومدى تبليغه للرّسالة

لمّا كانت أداةُ القصر ﴿أَنَّمَا﴾، كان قصر الصّفة على الموصوف قصرَ صفة التّبليغ والإنذار على الموصوف، وهو الرّسولُ ﷺ، وهو قصرٌ إضافيٌّ؛ "إذ الكلامُ حول مسؤوليّة الرّسول ﷺ تجاه قومه في موضوع رسالته، ولا يدخُلُ في هذه الدّائرة الخاصّة، ما يجب على الرّسول من واجبات أُخرى".

دلالة حرف الاستعلاء ﴿عَلَىٰ﴾ في الآية، كأنّما الأمر قد تمكّنَ منه، وتلبّسَ به:

في قوله تعالى: ﴿فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ﴾ تجدُ التّعبير بحرف الجرّ (على)، وهو حرفٌ يفيدُ الاستعلاء[2]، كأنّ الأمر النّازل منَ اللّه ﷻ على الرّسُول ﷺ قد تمكّنَ منه، وتلبّسَ به، بخلاف قوله في بعض المَواضِع ﴿إِلَى ٱلرَّسُولِ﴾ [النساء: 83]؛ لأنّ (إلَى) تدُلُّ على الوصول والانتهاء فقط، والقضيّةُ هنا قضيّةُ إيضاح وبيان؛ لذلك جاء بأسلوب القصر.

زيادة وصف ﴿ٱلۡمُبِينُ﴾؛ كي لا تبقى حجّة يتحجّج بها المُبلِّغون:

ليس للرّسول ﷺ تدخُّلٌ في هذا البلاغ، بل هو مُنزَّلٌ منَ اللّه بالحقّ للعالمين

زاد وصفَ ﴿ٱلۡمُبِينُ﴾ لئلّا تبقى أيّةُ حُجّةٍ يتعلّلُ بها المُبَلَّغُونَ؛ ولبيان أنَّ الأمرَ إلينا وحدنا، وليس للرّسول ﷺ تدخُّلٌ في هذا البلاغ؛ فهو بشرٌ مثلُكُم ليس له ذلك، لقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ٥٦﴾ [القصص: 56]، فلا تتّخذُوهُ حُجّةً، فما بُلّغتم به هو الأمرُ النّازلُ من عَلِ؛ ممّا يجعلُ المهابة في نفوسكُم لتقبُّل هذا البلاغ القداسيِّ السّاميّ الّذي نزلَ به الرُّوحُ الأمينُ على قلب النّبيّ ﷺ؛ ليُبلّغه للعالمين قاطبةً.

(1) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 12/87.
(2) ابنُ السّراج، الأصول في النّحو: 3/176.

عبّر بالبلاغ عنِ التّبليغ من باب المجاز المُرسَل:

في هذه الآية مجازٌ مُرسَلٌ؛ "لأنّه مجازٌ عنِ التّبليغ، فعبّرَ باللّازم الّذي هو البلاغُ والوصولُ عنِ الملزُوم الّذي هو التّبليغُ والتّوصيلُ"[1].

الرّسول المُبلّغ عنِ الله، مُؤتمَنٌ على الرّسالة، يبلّغُها بكمال وعصمة

أضاف الضّمير (نَا) إلى الرّسول ﷺ تشريفًا، وفيه مخالفة مُقتضَى الظّاهر:

أضاف الرّسولَ إلى الضّمير (نا) العائد عليه سبحانه؛ تشريفًا وتكريمًا له؛ فإنّ الضّمائر هي أعرف المعارف، وما أُضيف إليها؛ ولا سيّما ضمير المتكلّم، فهو لم يُضمر إلّا بعد تعريفه[2]، فقال: ﴿عَلَىٰ رَسُولِنَا﴾، و(رسولُ) صيغة (فَعُول)، بمعنى (مُرسَل)، وفي إضافة الرّسول إلى ضمير التّكلُّم (نا) مُخالفة مُقتضَى الظّاهر، فهو التفاتٌ من صيغة الخطاب ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓاْ﴾ إلى صيغة التّكلُّم ﴿أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا﴾.

الالتفات من صيغة الخطاب إلى صيغة التّكلُّم؛ يُراعي مُقتضيات المُخاطَبين

قدّم الجارّ والمجرور، بغرض قصر الصّفة على الموصوف:

هنا قدّم الجارّ والمجرور المُتعلِّق بالخبر في قوله: ﴿عَلَىٰ رَسُولِنَا﴾ على المُبتدأ في قوله: ﴿ٱلْبَلَٰغُ﴾ تقديمًا جائزًا؛ فالأصلُ (البَلاغُ المُبِينُ على رَسولِنا)، لكنّهُ لمّا أراد قصر الصّفة على الموصوف قدّم الخبر، وأخّر المبتدأ؛ لأنّ من خصائص الحصر بـ(إنَّمَا) أن يكون المحصورُ مُتأخّرًا وجوبًا، "والمعنى أنّ أمره محصورٌ في التّبليغ، لا يتجاوزُهُ إلى القدرة على هدي المُبلَّغ إليهم"[3]، وزاد على ذلك بأنَّ وصف البلاغ بالمُبِين؛ لأمرين: الأوّلُ: كي لا يبقى عُذرٌ لمُعتذر، ولا حجّةٌ لمُحتجّ، بأن يردّدوا ما أُثرَ عن أضرابهم منَ السّابقين، في قولهم: ﴿قَالُواْ يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ﴾ [هود: 91]، فأرادَ أن يُلزمهم الحُجّة في قُوّة البلاغ وبيانه.

الرّسول ﷺ؛ مهمّته التّبليغ، لا هداية المُبلَّغ إليهم

(1) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 8/135.
(2) ابن الأنباري، الإنصاف: 2/581.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/31.

ختم الآية بـ(المبِين)؛ لتحقيق التّناسب في فواصل الآيات:

الآية منسجمة في بنيتها، ومؤدّية للغرض الدّلاليّ المتُوخّى

والأمر الثّاني: أن تكون الآيةُ القرآنيّةُ مُتناسقةَ الفاصلة القرآنيّة مع أُختها السّابقة واللّاحقة، فإنّهما نُونيّتان (مُنتَهونَ، المُحسنينَ)، فجاءَت لتُحقّق هذا التّناسبَ، فضلًا عنِ الجانب المعنويِّ البلاغيِّ الّذي ذُكِر؛ وبهذا فإنّ الفاصلة القرآنيّة ليس لها القولُ الفصلُ، بل بانتظامها في سياق يُبيّنُ المعنى، ويُوضّحُ المقصود، فليس الانسجام الموسيقيّ وحده السّبب.

تعقيب فعل الطّاعة بفعل الحذر في قوله: ﴿وَٱحۡذَرُواْۚ﴾؛ لتحقيق التّهديد بما يُشعر بالوعيد:

قصرُ البلاغ المُبين على الرّسول ﷺ؛ أمرٌ تقتضيه مُتطلّبات الاصطفاء

ورد مثل هذا التّركيب اللّغويّ في مَوضِع آخر من القرآن الكريم هو قوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَۚ فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ١٢﴾ [التّغابن: 12]، لكن من دون قوله: ﴿وَٱحۡذَرُواْۚ﴾، وقوله: ﴿فَٱعۡلَمُوٓاْ﴾، مع اتّحاد ما خُتم به من قصر البلاغ المُبين على الرّسول ﷺ، فسببُ ذلك "أنّ آية المائدة، لمّا أعقب بها آية الأمر باجتناب الخمر، وما ذكر معها، ثمّ أتبع بعد ذلك بذكر العلّة في تحريمها... فختمت منَ التّهديد بما يُشعر بشديد الوعيد؛ ناسب ذلك قوله تأكيدًا لمَا تقدّم منَ الإشعار بمخوف الجزاء"[1]، وليس ذلك موجودًا في آية (التّغابن)، ممّا لا يستدعي التّوكيد؛ فإنّ الآية الّتي قبلها قوله تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ يَهۡدِ قَلۡبَهُۥۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ١١﴾ [التّغابن: 11].

الغرض من تكرار أمر الطّاعة في سياق الآية:

في قوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَٱحۡذَرُواْۚ﴾ أسند فعل الأمر (وأَطيعوا) إلى لفظ الجلالة (اللّه)؛ للإشارة إلى التزام فعل الطّاعة، والتّسليم له سبحانه فيما يريد من عباده، ثمّ عطف

(1) ابن الزبير، ملاك التّأويل: 1/137.

عليه لفظ الرّسول ﷺ؛ تنبيهًا على أنّ ما جاء به الرّسولُ إنّما هو من عند الله، لكنّه فعل ذلك مع تَكرار فعل الأمر مع الرّسول ﷺ بقوله: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾، وكرّر فعل الطّاعة مع العطف بالواو، ومعلومٌ أنّ عطف النّسق يكون "على نيّة تَكرار العامل"[1].

طاعة الرّسول مرتبطةٌ بطاعة الله، والتّلازم بينهما فرضٌ على كلّ مؤمن

فقوله: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ في المعنى العامّ بمعنى: (وأَطيعوا اللّه والرَّسولَ).

قوله تعالى ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ ورد في خمسة مَواضِع من القرآن، كلّها بالغة مؤدّاها:

وقد ورد التّركيبُ الّذي كرّر فيه فعل الأمر ﴿وَأَطِيعُواْ﴾ مع لفظ الرّسول مُعرّفًا بـ(أل) في أربعة مَواضِع، وجاء على خلاف ذلك في المَوضِع الخامس، فالأوّلُ: هذا الّذي نحن بإزائه من سورة المائدة؛ وهو قوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَٱحۡذَرُواْۚ﴾ [المائدة: 92]، والثّاني في سورة النّور؛ وهو قوله تعالى: ﴿قُلۡ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَۖ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا عَلَيۡهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيۡكُم مَّا حُمِّلۡتُمۡۖ﴾ [النّور: 54]، والثّالث في سورة محمّد ﷺ؛ وهو قوله تعالى: ﴿۞يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبۡطِلُوٓاْ أَعۡمَٰلَكُمۡ ٣٣﴾ [محمّد ﷺ: 33]، والرّابع في سورة التّغابن؛ وهو قوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَۚ فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ﴾ [التّغابن: 12]، والخامسُ واردٌ من دون تَكرار لفظ ﴿وَأَطِيعُواْ﴾، بل عطف اسم الرّسول ﷺ على لفظ الجلالة، وذلك في سورة آل عمران؛ ممّا ورد في قوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ١٣٢﴾[آل عمران: 132]، ودلالة ذلك أنّ ما جاء على الأصل، وهو عدم التّكرار؛ يتطابقُ مع قاعدة أنّ العطف لا يقتضي التّكرار؛ لأنّه على نيّة تكرار العامل، وهو ما

إنّ ترتيب سور القرآن أصلٌ مُراعًى؛ بحيث تأتي أصولُ التّراكيب، ثمّ تأتي الفروع

(1) عبّاس حسن، النّحو الوافي: 2/314.

ورد مثاله في سورة آل عمران في النّموذج الخامس ممّا أسلفنا ذكره، وسورة آل عمران مُتقدّمة في التّرتيب، وما جاء على التّكرار ورد في نموذج سورة المائدة، وهي تاليةٌ لسورة آل عمران، وهذا فيه دليلٌ على أنّ ترتيب سور القرآن أصلٌ مُراعًى، فكثيرًا ما تأتي أصولُ التّراكيب القرآنيّة أوّلًا، ثمّ يُتبعُها بالفروع، وقد كرّرها في سورة النُّور، وفي سورة مُحمّد ﷺ، وفي سورة التّغابن أيضًا بهذا التّركيب، وهو تَكرارُ الفعل مع المعطوف.

القاعدة العامّة في القرآن؛ عدم تَكرار لفظ (الطّاعة)؛ حين يكون السّياق لله وحده:

القاعدة أن لا رهبانيّة في الإسلام، ولا يجوز الامتناع عنِ الطّيّبات

والقاعدةُ العامّةُ في القرآن، أنّهُ إذا لم يتكرّر لفظُ الطّاعة، فالسّياقُ يكون لله وحده، أمّا إذا تكرّر لفظُ الطّاعة معَ الرّسول، فالسّياقُ يكونُ لله وللرّسول، وهذا ما هو واقعٌ في هذه الآية؛ فإنّ سيّاقها في ما أمر اللّه به ونهى عنه، وهذا منطقيٌّ يُزادُ عليه ذكرُ الرّسول ﷺ في السّياق، فلو عُدنا إلى الآيات السّابقة فسنجدُها تتحدّثُ عنِ النّفر منِ أصحاب الرّسول ﷺ، الّذين حَرَّمُوا على أنفسِهم ما أباحَ لهم اللّه تعالى مِنَ الطّيّبات؛ فوصَلَ أمرُهُم إلى الرّسول ﷺ، فلم يرتضِ فعلَهم، ثمّ نزلت فيهم هذه الآيات وما بعدها.

﴿لَيۡسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٞ فِيمَا طَعِمُوٓاْ إِذَا مَا ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّأَحۡسَنُواْۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٩٣﴾ [المائدة: 93]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الإجابة عن سؤالهم عن حال مَن شربوا الخمرة قبل تحريمها، ممّن مات، ومن بقي:

مناسبة هذه الآية لمَا قبلها؛ أنّه لمّا أمرهم بطاعة اللّه ورسوله، وأن يحذروا مخالفة أمره، وعدم التّولّي، والإعراض عن ذلك في الآية السّابقة، وأنّ هذه الطّاعة حاصلةٌ، فقد سأل بعضُهم: "كيف بمَن هلك من إخواننا وهم يشربونَها؟ وبنا وقد كنّا نشربُها؟"[1] وما الحُكم الشّرعيُّ في "شأن الأنفُس الصّالحة النّاظرة للورع المُتحرّك للسُّؤال عنه، وهو من مات منهم، وهو يفعلُهما"[2]، فنزلَت هذه الآيةُ إجابة لسُؤالهم المُتضمّن في الآية السّابقة، كما أنّها وطيدةُ الصّلة بالآية اللّاحقة، إذِ الأعمالُ والمنهيّاتُ منَ المطعُوم والمصيد، كلُّها اختبارٌ للإرادة الإيمانيّة، ومدى تنفيذ أوامر اللّه إقدامًا وإحجامًا، وائتمارًا وازدجارًا، وضابطُها التّرقّي في مدارج التّقوى، ومعارج الإيمان، ومسالك الإحسان.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

وصفٌ لمحذوف، تقديرُه (الأعمالَ الصّالحَاتِ):

1) ﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾: جمعُ مُؤنّثٌ سالمٌ، مفردُهُ (صَالِحَة)، وهو هنا وصفٌ لموصوفٍ محذوفٍ، تقديرُه (الأعمالَ الصّالحَاتِ)، والصّلاحُ: خلافُ الفساد[3]، وتتجلّى أهميّةُ الصّلاح ونبذُ الفساد في أنّ الحقّ ﷻ قرن في كتابه الإيمانَ مع الصّلاح في كثيرٍ مِنَ الآيات.

(1) ابن جرير، جامع البيان: 10/576.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 6/395.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (صلح).

الـجُـنـاح يـدلُّ لـغـةً عـلى الميل والـعـدوان، وقد رُفـع الـجـناحُ في الرُّخص:

2) ﴿جُنَاحٌ﴾: هو من (جنحَ)، وأصلُ هذا الجذر اللّغويّ، يدلُّ "على الميل والعدوان، ويُقال: جنح إلى كذا، أَي: مالَ إليه، وسمّي الجناحان جناحين؛ لميلهما في الشِّقَّين، والجُناح: الإثمُ، سُمّي بذلك لميله عن طريق الحقّ"[1].

3) ﴿طَعِمُوٓاْ﴾: مرّ تفسيره في إطعام، إلّا أنّه هنا يُفيد التّذوُّق، شرابًا كان أم طعامًا؛ لأنّ الآية نازلةٌ في نفر ممّن شرب الخمر؛ فسُمّي الخمرُ طعامًا.

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

نـفـي الإثـم والـحـرج عـنِ المُـؤمـنـين فيما فـعـلـوا قـبـلُ؛ لـعـدم وجـود النّصّ:

المعنى العامّ للآية؛ يتلخّصُ في نفي الإثم والحرج عنِ المُؤمنين الّذين يعملون الأعمال الصّالحات، فهؤلاء لا حرج عليهم فيما شربوا منَ الخمر، وأكلوا منَ المطاعم المُحرّمة قبل تحريمها؛ ولهذا المعنى عُلّقت هذه الآيةُ بسبب النُّزُول، ذلك أنّ نفرًا من أصحابه تساءلوا عمّن شرب الخمر ومات، فما حكمه؟ فأنزل اللّه هذه الآية، وحكمه أن لا شيء عليه، إن اتّقى ما حُرّم عليه، وآمن، وعمل صالحًا، واتّقى الشّرك، وثبت على إيمانه، واتّقى المعاصي، وأحسن إلى النّاس؛ فكلّ ذلك مآلُهُ أن يرضى اللّه عنه، ويُكافئه على صنيعه تقوًى، وإيمانًا، وإحسانًا، واللّه يُحبُّ المحسنين.

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

أسلوب نفي الجناح في القرآن الكريم أسلوب شائع:

حذف الموصوف، وإبـقـاء الصّفة اهتمامًا لها

قوله تعالى: ﴿لَيۡسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٞ فِيمَا طَعِمُوٓاْ﴾ مفادُهُ أنَّ الحَقَّ ﷻ نفى الجُنَاحَ؛ وهو الإثم والمؤاخَذَة على فعل ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ الّتي أمرهم بها.

وفي الآية حذفٌ؛ فإنّ الصّالحات صفةٌ لموصوف محذوف، تقديرُه

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (جنح).

(الأعمال الصّالحات)، وهو كثيرُ الاستعمال في الأسلوب القرآنيّ، والغاية منه الاهتمام للصّفة، والحثُّ عليها أكثر من الموصوف.

نفي الإثم والحرج بطريقة نفي الجناح:

وقد نفى عنهم ذلك في طعامهم، وهذا أسلوبٌ يستخدمه القرآن الكريم، يُسمّى أسلوب نفي الجُناح؛ وهو الإثم والحرج.

مَـن مـات قبل تـقـريـر الحكم فلا يضيع الله سـعـيـه، بـل يجازيه بما نوى وعمل

وللآية سببُ نزول مُتعلِّق بهذا المعنى؛ فإنّه قد رُوي عن أنس ﵁، أنّه لمَّا نزل تحريمُ الخمر، أُريقَت في سكك المدينة، "فقال بعضُهم: قُتِلَ فُلانٌ، وقُتِلَ فُلانٌ، وهي في بُطونهم"[1]، فضلًا عنِ المسلمين القاطنين في البلاد البعيدة، من أولئك الّذين لم يصل إليهم تحريمُ الخمر، وهم ما زالوا يطعمونها، وسُؤالُهم هذا سؤالٌ فيه دلالةٌ على حرصِهم، وتمامِ استقامتِهم، وإشفاقِهم على إخوانِهم، ممَّن سألوا عنهم ممّن ماتوا، أو هم في البلاد البعيدة؛ فأنزل اللّه قوله: ﴿لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓاْ﴾، أي: "ليس على الّذين آمنُوا وعملُوا الصّالحات منكم حرَجٌ، فيما شَربوا من ذلك، في الحال الّتي لم يكنِ اللّه تعالى حرَّمه عليهم"[2]، فليس على من فعل ذلك جُناحٌ؛ لأنّه مِنَ المُباح وقتئذٍ، وهذه الحالةُ تُشبه في معناها حال المسلمين الّذين كانوا يستقبلون بيت المقدس في قبلتهم، ثمّ تغيّرت إلى بيت اللّه الحرام في مكّة المُكرّمة؛ فأنزل فيهم قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ١٤٣﴾ [البقرة: 143].

بلاغة الالتفات وأسلوب الانزياح الدّلاليّ؛ تنويعًا وتنبيهًا وتطرية لفكر السّامع:

الانـتـقـال من مستوًى خطابيّ إلـــى آخـــر؛ تقتضيه مخاطبة الفرد أو الأمّة

خاطب الحقُّ ﷻ المَنهيّينَ عنِ الخمر والميسر خطابًا طلبيًّا مُباشرًا بصيغ فعل الأمر ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ﴾، ثمّ ﴿وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾، ثمّ

(1) الواحدي، أسباب نزول القرآن، ص: 209.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 10/576.

﴿وَٱحۡذَرُواْۚ﴾، وكُلُّها أفعالُ أمر تقتضي وجود المُخاطَب، ثمّ قال: ﴿فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ﴾، ثمّ أعاد الأمر بقوله: ﴿فَٱعۡلَمُوٓاْ﴾، وكُلُّها أفعالٌ دالّةٌ على الخطاب المُباشر الّذي يقتضي السّمع والطّاعة؛ لأنّها من دون وسيطٍ؛ لأنّ القرآن كلامُ الله، فكان الحقُّ ﷻ يتلُوهُ عليهم، وهم مُستمعون...

بعد ذلك كُلّه، انتقل انتقالةً كبيرةً منَ الكلام المُوجّه للمُخاطب إلى كلامٍ مُوجّه للغائب، أو ما في حُكمه، فقال: ﴿لَيۡسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٞ فِيمَا طَعِمُوٓاْ﴾، فكأنّ هؤلاء ليسوا أولئك، كأنّه كلام جديد مُوجّه إلى أُناس آخرين، وهنا عدلَ عن كلام المُخاطَبين إلى كلام الغائبين، وهو ما يُسمّى الالتفات[1]، وهو أسلوبٌ ذو خاصيّة تعبيريّة إبداعيّة، ذات طاقة إيحائيّة، وهو مَبنيٌّ على الانزياح اللُّغويّ عنِ السّياق المألوف، وفائدته تنويعُ الكلام، وتنبيهُ المقابل، وتطريةُ نشاط السّامع وتشويقُه، فبعد أن كان يُخاطبهم خطابًا مُباشرًا، بقرينة أفعال الأمر المارّ ذكرها، عدلَ عن ذلك الخطاب إلى التّعبير بـ(لَيسَ) ومدخوليها، الدّالة على الغيبة، أو ما في حُكمها؛ لأنّهُ عبّر عنهم بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾؛ لأسبابٍ منها: إقناعُ المُخاطَب، وكونُهُ للعبرة والتّعظيم، وكأنّ الخطاب كان للمَنهيّين، ثمّ انتقل إلى الأُمّة ليكون حُكمًا عامًّا، ومنه قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَجَرَيۡنَ بِهِم بِرِيحٖ طَيِّبَةٖ وَفَرِحُواْ بِهَا جَآءَتۡهَا رِيحٌ عَاصِفٞ وَجَآءَهُمُ ٱلۡمَوۡجُ مِن كُلِّ مَكَانٖ﴾ [يونس: 22]، فنقل الكلام منَ الخطاب (كُنتُم) إلى الغيبة (جَرَينَ)؛ لأنّهُ "كانت المُخاطبة للأمّة، ثمّ صُرفَت إلى النّبيّ ﷺ؛ إخبارًا عنهم"[2].

فائدة الالتفات كسر أفق التّوقّع لدى المُخاطَب:

الالتفات واحدٌ منَ الأساليب البلاغيّة المؤثّرة في المعنى، بتغيير جهة الخطاب

هناك سببٌ للمُتلقّي عامّة؛ وهو قارئُ القرآن في كُلّ عصر ومصر، وهو كسرُ أُفُق التّوقُّع لدى القارئ، عبر العُدول عنِ الأسلوب اللّغويّ التّقليديّ، وقد ورد الالتفات هنا بين آيتين هما: [المائدة: 92] و[المائدة: 93]؛ لأنّه قد يردُ في الآية الواحدة، مثلما مرّ في الآية السّابقة نفسها في قوله: ﴿رَسُولَنَا﴾.

(1) يُعرّف الالتفات بأنّه: "انصراف المتكلّم عنِ المخاطبة إلى الإخبار، وعنِ الإخبار إلى المخاطبة، وما يشبه ذلك، ومنَ الالتفات: الانصراف عن معنى يكون فيه إلى معنى آخر". ابن المعتزّ، البديع في البديع، ص: 152.

(2) المبّرد، الكامل: 3/17.

التّعبير بـ﴿طَعِمُوٓاْ﴾؛ لأنّه أرجع معنى الطُّعم إلى التَّلَذُّذ أكلًا وشربًا:

الوصف بعمل الصّالحات؛ لإقرار نفي الجُناح والإثم والعصيان عنهم

عبّر في قوله تعالى: ﴿طَعِمُوٓاْ﴾ بالفعل الماضي؛ لأنّه أمرٌ وقع بدلالة سبب النُّزُول، وقد أطلق اللّفظ على شرب الخمر، وأكل ما ينتجُ عن مُزاولة القمار، ويمكن تأويلُه بمن تناولوا منَ الخمر شُربًا، وتناولوا منَ الميسر أخذًا للمال، قال ابن قتيبة: "يُقالُ: لم أطعم خبزًا ولا ماء ولا نومًا، قال الشّاعر:

فَإِن شِئتِ حَرَّمتُ النِّساءَ سِواكُمُ *** وإِن شِئتِ لَم أَطعَم نُقاخًا ولا بَردَا

قال: والنُّقاخُ: الماءُ، والبردُ: النّومُ[1].

أمّا معناهُ فيمكنُ "أَن يكون معنى الطُّعم راجعًا إلى التَّلَذُّذ، بما يُؤكلُ ويُشربُ، وقد تقول العرب: تَطَعَّم تَطعَم، أَي: ذُق حتَّى تشتهي، وإذا كان معنى الكلمة راجعًا إلى الذَّوق، صَلُح للمأكول والمشروب معًا"[2]، فالتّعبير في الآية تعبيرٌ دقيقٌ؛ لأنّ الطّعم هو التّذوّقُ، وبذلك يشملُ المأكول والمشروب، "وطعم الشَّيء يطعمُهُ، ذاق طعمه، أَو ذاقهُ، فوجد طعمه منه، استُعمل في ذوق طعام الشَّيء من طعامٍ وشرابٍ"[3]، ومَئِنَّةُ ذلك[4] أنّهُ ذكره في مَوضِعين منَ القرآن الكريم بالمعنيين، كقوله تعالى: ﴿فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُواْ﴾ [الأحزاب: 53]، وهنا بمعنى الأكل، وقوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّيٓ﴾ [البقرة: 249]، وهو هنا بمعنى الشُّرب، و(مَا) موصولةٌ، بمعنى (الّذي طَعِمُوهُ)، والعائد هنا محذوفٌ، وهو معروفٌ، فالمطعومُ هو الخمرُ؛ لذلك يبعد

(1) الدّرّة، تفسير القرآن: 3/204.

(2) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 12/88.

(3) رضا، تفسير المنار: 7/59.

(4) المَئِنَّةُ لفظ بمعنى العلامة والمظنّة، ومنه الحديث الوارد في صحيح مسلم (رقم: 2100)، حيث يقول النّبيّ ﷺ: «إنَّ طُولَ صلاةِ الرَّجُلِ وقِصَرَ خُطبَتِهِ مَئِنَّةٌ مِن فِقهِهِ، فأَطِيلوا الصَّلاةَ، واقصُروا الخُطبَةَ»، وفي (نيل الأوطار) عند شرح لفظ المئنّة ذكر الشّوكانيّ ما يلي: "(مَئِنَّةٌ)، قال النّوويّ: بفتح الميم ثمّ همزة مكسورة، ثمّ نون مشدّدة، أي: علامة، قال: وقال الأزهريّ والأكثرون: الميم فيها زائدة، وهي مفعّلة، قال الهرويّ: قال الأزهريّ: غلط أبو عبيد في جعل الميم أصليّة، وردّه الخطّابيّ، وقال: إنّما هي فعيلة، وقال القاضي عياض: قال شيخنا ابن سرّاج: هي أصليّة انتهى". يُنظر: الشّوكانيّ، نيل الأوطار: 3/320.

أن تكون (ما) مصدريّة، بل هي موصولةٌ معرّفةٌ، وإنّ ممّا يؤيّدُ نفي الجُناح عن هؤلاء، وأنّهُم طعموا مُباحًا في وقته، أنّه عرّفهم بالاسم الموصول، وهو أعرفُ منَ المُعرّف بالألف واللّام، فلم يقُل ليس على المؤمنين جُناحٌ.

أسلوبُ نفي الجُناح بـ(ليس) و(لا) في القرآن الكريم:

ورود أسلوب النّفي في القرآن، يتناسب معَ التّوجيه لترك كلّ ما فيه جُناح

أسلوب نفي الجُناح في القرآن الكريم منَ الأساليب الشّائعة؛ وذلك بأن تأتي لفظة (جُناح) مسبوقة بأداة نفي، قد تكون هذه الأداة فعلًا، كالآية مَوضِع الشّاهد، وهي قوله تعالى: ﴿لَيۡسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٞ فِيمَا طَعِمُوٓاْ﴾، وقد وردت كلمة (جُناح) مسبوقة بالفعل (لَيسَ) في نحو تسعة مَواضِع: [البقرة: 198 - 282، النّساء: 101، المائدة: 93، النّور: 28 - 58 - 60 - 61، الأحزاب: 05]، وقد تكون الأداة حرفًا، كقوله تعالى: ﴿۞إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلۡمَرۡوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِۖ فَمَنۡ حَجَّ ٱلۡبَيۡتَ أَوِ ٱعۡتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَاۚ وَمَن تَطَوَّعَ خَيۡرٗا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ١٥٨﴾ [البقرة: 158]، فيما جاءَت مسبوقة بـ (لا) في نحو ستة عشَر مَوضِعًا، هي: [البقرة 158 - 229 - 230 - 233 - 233 - 234 - 235 - 236، 240، النّساء: 23 - 24 - 102 - 128، الأحزاب: 51 - 55، الممتحنة: 10]، وفي النّفي بـ(ليس)، فهي منقطعة عن لفظ (جُناح) لفظًا لا معنًى، وذلك بأن يَفصِلَ بينهما فاصلٌ، هو في حقيقته تقديمٌ للخبر على المبتدأ تقديمًا واجبًا؛ لأنّهُ نكرةٌ، على أن يبقى معنى نفي الجُناح قائمًا، كقوله تعالى: ﴿لَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَن تَبۡتَغُواْ فَضۡلٗا مِّن رَّبِّكُمۡۚ﴾ [البقرة: 198]، فقد فصل بين (ليس) ومدخولها بفاصل؛ هو المُتعلِّق الجارّ والمجرور.

(لا) الحرفيّة أقوى نفيًا من (ليس) الفعليّة في هذا الأسلوب:

أمّا (لا) الحرفيّة فلا تكونُ مُنفصلة، بل يجبُ اتّصالُ الاسم بها[1]، وهي (لا) النّافية للجنس؛ فتُباشر لفظة (جُناح) مُطلَقًا

(1) خالد الأزهريّ، شرح التّصريح على التّوضيح: 1/337.

من دون فاصل؛ لأنّ من شروطها ألاّ يَفصِل بينها وبين اسمها فاصلٌ، وهي أقوى نفيًّا، حتّى أنّها أعملت إعمال (إنّ)، لشبهها من جهة كون (إنّ) لتوكيد الإثبات، و(لا) لتوكيد النّفي، أمّا ليس فهي لنفي الوحدة، هذا فضلًا عن أنّ سياقات نفيها يكون غالبًا في الأمور التّكليفيّة ذات الأحكام الشّديدة؛ كأن يكون حُكمًا واجبًا؛ كإقامة حدٍّ من حدود الله، أو مُباحًا في مُقابل مُحرّم؛ كما في التّعريض بخطبة النّساء، أمّا النّفيُ بـ(ليس) فيكون غالبًا في ما ليس بذنب أصلًا؛ ليُحقّق نفيُ الجُناح كمالَ التّنزيه، أو رفعَ إيهامٍ؛ كالآية مَوضِع الشّاهد.

سياقات نفي (ليس) تكون غالبًا في الأمور التّكليفيّة ذات الأحكام الشّديدة

التّقوى، والإيمانُ، والعملُ الصّالحُ سياقٌ مُتدرّجٌ، وليس منَ المتشابه:

ثُمّ علّق ما مضى، أي: (لَيسَ عَلَيهِم جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا) على قوله تعالى: ﴿إِذَا مَا ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّأَحۡسَنُواْۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾، والملحظُ ههنا أنّه من عطف المُتشابهات المُتساويات في المعنى، إلّا أنّ الأمر خلافُ ذلك، فقد علّق نفي الجُناح على من طعم الخمر قبل التّحريم، علّقه على حصول التّقوى منه بـ(إذا)؛ وهي ظرفٌ مُتضمّنٌ معنى الشّرط، وهي لَمَا استُقبل منَ الزّمان، لكنّها استُعملت لَمَا مضى، بدليل معنى الآية وسببِ نزولها، ولها جوابٌ محذوفٌ يدُلُّ عليه ما قبله من نفي الجُناح، ثمّ عَطف عليها مجموعة منَ الجمل التّي تبدو مُتشابهة لفظًا، إلّا أنّها مختلفةٌ من جهة المعنى؛ فإنّ هؤلاء قد نُفي عنهم الإثمُ والحرجُ، "إذا ما اتَّقَوا ما حُرِّم عليهم منها، وآمنُوا وثبتُوا على الإيمان والعمل الصّالح، وازدادُوه، ثمَّ اتَّقَوا وآمنوا، ثمّ ثبتُوا على التّقوى والإيمان، ثمَّ اتَّقَوا وأَحسنُوا، ثمّ ثبتُوا على اتّقاء المعاصي، وأحسنُوا أعمالهم، أو أحسنُوا إلى النّاس، واسَوهُم بما رزقهم الله

الظّرف (إذا) جوابها محذوفٌ، عطف عليه جُمل مُتشابهة لفظًا، مُختلفة معنًى

منَ الطَّيّبات"[1]، فالتّقوى والإيمانُ والعملُ الصّالحُ سياقٌ مُتدرّجٌ، يكمّلُ بعضُه بعضًا، وقيل: إنّه كرّره هنا؛ للتّأكيد والمبالغة في الحثّ على الإيمان والتّقوى[2].

العطف يقتضي المُغايرة، فذكر التّقوى مكّرر معَ الإيمان والعمل الصّالح، ثمّ معَ الإحسان:

المُغايرة توسّع آفاق المعنى، وتُعطي فُسحة يُتيحُها العطفُ

لعلّ أرجح الأقوال في تفسير هذه الآية، وهو قولُ الأكثرين: أنّ "الأوّلَ عملُ الاتّقاء، والثّاني دوامُ الاتّقاء والثّباتُ عليه، والثّالثَ اتّقاءُ ظُلم العباد، مع ضمِّ الإحسان إليه"[3]، ومعنى ذلك اختلافُ كُلّ جملة معطوفة عنِ الثّانية، وهو ممّا يُوافقُ كلام العرب؛ فإنّ العطف يقتضي المُغايرة، ولو كان التّغايرُ يسيرًا.

في الآية إيجازٌ بالحذف، فيقدّر لكلّ حذف ما يناسبه:

استُعمل (ثُمّ)؛ كي يكون إيماءً إلى الازدياد في التّقوى وآثار الإيمان

ثمّ إنّ في هذه الجمل منَ المحذوفات ما يناسبُها، ويكمِّلُ معناها، فقوله: ﴿ٱتَّقَواْ﴾، قُدّر: (اتّقوا الشّرك، ثمّ آمنوا باللّه، ثمّ اتّقوا الخمرَ والميسرَ، بعدَ أن حرَّمَها اللّه، وأحسِنوا إلى النّاس)، كذلك فإنّ قوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ يدخُلُ في باب عطف الخاصّ على العامّ؛ للتّنبيه عليه والاهتمام له، "وأمَّا عطفُ (وآمنوا) على (اتَّقَوا) فهو اعتراضٌ؛ للإشارة إلى أنَّ الإيمان هو أَصلُ التَّقوى"[4].

وقد استُعمل هنا حرفُ العطف (ثمّ)؛ وهو حرفٌ دالٌّ على التّرتيب والتّراخي والمُهلة[5]؛ كي "يكون إيماءً إلى الازدياد في التَّقوى وآثار الإيمان، كالتَّأكيد"[6].

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/291.
(2) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 12/90.
(3) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 12/89.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/35.
(5) السّيوطيّ، همع الهوامع: 2/27.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/36.

تذييل الآية بالإحسان؛ لأنّه أمرٌ زائدٌ على التّقوى:

ثمّ ذَيَّلَ الآية، بأنّه تعالى ﴿يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾؛ لأنّ الإحسان له وجهان: الأوّلُ: «أَن تَعبُدَ اللّه كأَنَّك تراه، فإن لم تكن تراه، فإنَّه يراك»[1]، وعلى ذلك فإنّ الإحسانَ أمرٌ زائدٌ على التّقوى، فمِنَ الإحسان ما لا يقفُ المُحسِنُ عند ما كلّفه اللّه ﷻ، بل يزيد عليها ضمن الشّرع طبعًا، كالّذي يتقرّبُ إلى اللّه بالنّوافل[2]، صلاةً وصيامًا وإنفاقًا للمال، وسوى ذلك من وجوه الخير الّتي لا حصر لها، وهذا هو الوجه الثّاني للإحسان؛ لذلك ذكر أنّ الحقّ ﷻ يُحبُّ المحسنين.

اللّه يحبّ المُحسنين؛ لأنّهم يتودّدُون إلى الله بما يزيد عنِ الفرائض المُلزمة

ثمّة فرقٌ بين المحبّة والإرادة، فالمحبَّةُ عكسُها، تجري على الشَّيء ويُرادُ غيرُه:

ثمّة فرقٌ مُعجميٌّ بين المحبّة والإرادة، وهو "أَن المحبَّة تجري على الشَّيء، ويكون المُرادُ به غيرَه، وليس كذلك الإرادة... وتقول: (اللّه يُحِبُّ المُؤمنين)، بمعنى: أَنّه يريد إكرامهم وإثابتهم، ولا يُقال: إنّه يريدهم"[3]، والوارد في الآية الكريمة على هذا النّسق؛ فالحقُّ ﷻ يحبُّ المحسنين، أي: يريد إكرامهم وإثابتهم على إحسانهم، ولا يُتصوّرُ أن يُقال في حقّهم: إنّهُ يُريدُهم؛ لأنّ المحبّة تختلفُ عنِ الإرادة كما تقدّم.

اللّه يحبُّ المُحسنين، أي: يريد إكرامهم وإثابتهم على إحسانهم

الألف واللّام تفيد الجنس والعموم، وتشملُ جميع المحسنين:

الألف واللّام جنسيّةٌ، تشملُ جميع المحسنين، وهي وإن كان الإحسانُ مذكورًا قبل في الآية، لكنّ الرّاجح فيها أنّها تفيد الجنس والعموم، كما أنّ قوله: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ فيه التفاتٌ منَ

هناك التفاتٌ بلاغيٌّ؛ غايته الحفاظ على الفاصلة القرآنيّة، وتطرية نشاط السّامع

(1) الإمام أحمد، المسند: 1/435.
(2) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 6/3391.
(3) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 121.

الخطاب إلى الغيبة؛ لأنّه خاطبهُم أوّلًا بدلالة فعل الأمر في الآية السابقة: ﴿وَأَطِيعُواْ﴾، ثمّ عُدلَ عنِ الحضور إلى الغيبة، وقال: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾، ولو بقي على النّسق اللُّغويّ لقال: (وَاللّهُ يُحِبُّكُم)، وفي ذلك مساسٌ بالفاصلة القرآنيّة، فضلًا عمّا يعطيه الالتفاتُ من معانٍ، لا سيّما في تطريّة نشاط السّامع، مثلما بانَ لنا ثَمّ.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَيَبۡلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلصَّيۡدِ تَنَالُهُۥٓ أَيۡدِيكُمۡ وَرِمَاحُكُمۡ لِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٞ ٩٤﴾ [المائدة: 94]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

انسجام الآيات في استثناء الخمر من الطّيّبات، واستثناء صيد المُحرِم من المُباحات:

مُناسبة هذه الآية لمَا قبلها واضحٌ في أنّ الحقّ ﷻ لمّا قال: "﴿لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمۡ﴾ [المائدة: 87]، ثمَّ استثنى الخمر والميسر من ذلك، فكذلك استثنى هذا النَّوع منَ الصَّيد عنِ المُحلَّلات، وبيَّن دخُوله في المُحرَّمات"[1]، ففي الاستثناءين تناسبٌ وسبكٌ في النّظم القرآنيّ، يشدُّ بعضُه بعضًا، ويحقّقُ الوحدة الموضوعيّة بين الآيات، على الرّغم من أنّها قد تكون نازلة مُنجّمة على أوقات عديدة، وفيه ربطٌ نوعيٌّ، فتحريمُ الخمر والميسر هو تحريمٌ مُؤبّدٌ، غايتُه الحكمُ الشّرعيُّ، وتحريمُ الصّيد هو تحريمٌ مُؤقّتٌ، غايتُه الابتلاءُ والاختبار.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

الابتلاء: هو الاختبار والتّمحيص؛ ليميز الله الخبيث منَ الطّيّب:

1) ﴿لَيَبۡلُوَنَّكُمُ﴾: الفعل (يَبلُو) مِنَ الابتلاء، وهو الاختبارُ والامتحانُ والتّمحيصُ؛ ليعلمَ الحقُّ ﷻ المؤمن من غيره، يُقالُ: "أبلاهُ السّفرُ، وبَلَوتُهُ اختبرتُهُ، كأنّي أخلقتُهُ من كثرة اختباري له... وسُمّي الغمُّ بلاءً؛ من حيثُ إنّهُ يُبلي الجسم"[2].

2) ﴿بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلصَّيۡدِ﴾: لفظ (الصَّيدِ)، مصدرُ (صادَ يصيدُ صيدًا)، والتّعبير هنا تعبيرٌ مجازيٌّ؛ لأنّ المصدر حدثٌ، وهو أراد الجوهر المُصطاد، وهو "ما توحّش بجناحه أو بقوائمه، مأكولًا كان

(1) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 12/90.
(2) الرّاغب، المفردات: (بلى).

أو غير مأكول، ولا يُؤخذ إلّا بحيلة"[1]، وفي المُخصّص: "والصَّيدُ وإن كان في الأَصل مَصدَرًا، فقد صار اسمًا للمُصطاد، ونَظيرُ هذا قولُهم: الخَلق في المَخلوق، والنَّسج في المنسوج، ابن دُرَيد المَصيدة والمَصيَدة والمِصيَدة: ما صِدت به، وصَقر صَيُود، سِيبَوَيهٍ، الجمعُ صُيُد"[2].

التّعبيرُ مجازيٌّ؛ لأنّ المصدر حدثٌ، وهو أراد الجوهر المُصطاد:

3) ﴿تَنَالُهُۥٓ أَيۡدِيكُمۡ وَرِمَاحُكُمۡ﴾: مِنَ النَّيل، وهو الأخذُ، والتّناولُ والإصابةُ، أي: تأخذون ما تصلُ إليه (أَيدِيكُم)، والأيدي مَعروفةٌ، وفيه تعبيرٌ مجازيٌّ، فالأصلُ ما تنالونه أنتم بأيديكم، و(ورِماحِكم)، والرّماحُ صيغة (فِعَال)، جمع تكسير، مفردُه (رُمحٌ)، وهو آلة الصّيد، ورَمَحَه أصابه[3].

هناك تعبيرٌ مجازيٌّ، أصل التّركيب فيه بمعنى(ما تنالُونه أنتم بأيديكم):

4) ﴿يَخَافُهُۥ﴾: منَ الفعل خافَ يخافُ، أصلُه (يَخوِفُ)، ثمّ حصل فيه إعلالٌ، فجذرُه الخاء والواو والفاء، ولها "أَصلٌ واحدٌ يدلُّ على الذُّعر والفزَع. يُقالُ خِفتُ الشَّيءَ خوفًا وخيفةً. والياءُ مُبدلَةٌ من واوٍ لمكان الكسرة. ويُقالُ: خاوفني فلانٌ فخفتُهُ، أَي: كُنتُ أَشدَّ خوفًا منه"[4].

5) ﴿بِٱلۡغَيۡبِۚ﴾: الغيبُ مصدرٌ، وهو نقيضُ الشّهادة، بمعنى الحضور؛ فالكونُ كلُّه غيبٌ وشهادةٌ، و" كلُّ مكانٍ لا يُدرى ما فيه، فهو غيبٌ، وكذلك المَوضِعُ الَّذي لا يُدرَى ما وراءه؛ وجمعُه غُيوبٌ"[5].

والإيمان بالغيب يقتضي الإيمانَ بكلّ ما غابَ عنهم، ممّا أُخبِروا به، كالجنّة والنّار والملائكة وغير ذلك.

6) ﴿فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾: أمّا (عَذَابٌ) فجذرُه (عَ ذَ بَ)، وهو في

(1) الرّاغب، المفردات: (صيد).
(2) ابن سيده، المُخصّص: 2/297.
(3) الرّاغب، المفردات: (رمح).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (خوف).
(5) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (غيب).

الأصل: "حملُ الإنسان أن يُعذَّب، أي يجُوع ويسهر، وقيل أصلُهُ منَ العَذبِ، فَعَذَّبتُه، أي: أزلتُ عَذبَ حياته على بناء مَرَّضتُهُ وقَذّيتُهُ، وقيل: أصلُ التَّعذيبِ إكثارُ الضّرب بِعذَبةِ السّوطِ، أي: طرفها، وقد قال بعضُ أهل اللُّغة: التَّعذيبُ هو الضّربُ"[1]، وأكثر الوارد في القرآن الكريم، مقصودٌ منه العذابُ الأخرويُّ.

أمّا قوله ﴿أَلِيمٌ﴾ فهو على صيغة (فَعِيل)، بمعنى (مُفعِل)، مُؤلمٌ، أي: مُوجعٌ، هذا هو أصلُ الألم، وهو الوجَعُ[2]، وفيه زيادةٌ في التّخويف؛ فقد توعّدهم بالعذاب، وهو ما لا يُطيقُه الإنسانُ، وزاد عليه صفة الأليم.

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

امتحان المؤمنين بتحريم الصّيد في أثناء الإحرام؛ لينظر مَن يخافه بالغيب، ومَن يستحقّ العذاب الأليم:

المعنى العامّ للآية، يتلخّصُ في أنّه تعالى وجّه خطابَه للمؤمنين من خلقه، من أصحاب رسوله ﷺ، في أنّ اللّه امتحنهُم وسَيَمتَحِنُ غيرهم، وقد امتحنهم وهم مُحرِمون، بأن جعلَ الصّيدَ قريبًا منهم، فقد يصطادونه بأيديهم، وقد تنالُهُ رماحُهم في سُهولة ويُسر، ومع ذلك فقَد حرّمهُ اللّه عليهم، وما ذاك إلّا ليمتحنهم ويختبرهم؛ ليعلم اللّه - وهو العَالم بما كان، وبما هو كائنٌ، وبما سيكون - مَن يخافُه من أوليائه بالغَيب المُشتمل على ناره وعذابه، وكُلُّ ما خفي واستتر، ولم يُدركه الإنسانُ بحواسّه وغير ذلك، ممّا هُو في حكم الغيب، فمَن اعتدى ولم يستجب، وجاوزَ الحَدَّ، فإنّ العذابَ الشّديدَ المُؤلمَ في انتظاره.

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

التّعبير بالرّماح؛ هو تعبير بالجزء عنِ الكلّ:

قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَيَبۡلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلصَّيۡدِ

(1) الرّاغب، المفردات: (عذب).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ألم).

تعبير الجزء عنِ الكلّ في الآيات تركيبٌ فريدٌ، لم يرد مثله في غير سورة المائدة

﴿تَنَالُهُۥٓ أَيۡدِيكُمۡ وَرِمَاحُكُمۡ﴾ خطابٌ منه تعالى إلى المؤمنين من خلقه، الّذين اصطفاهم بالإيمان، واختارهم وميّزهم من غيرهم؛ لأنّهُم صدّقوا اللّه ورسوله بإيمانهم، وأراد أن تعلو مراتبُهم من خلال الابتلاءات الّتي فرضَها عليهم، وههنا أرادَ ابتلاءَهم بشيءٍ مِنَ الصّيدِ يقبِضون عليه بأيديهم وسلاحهم الّذي عبّر عنه بالرّماح تعبيرَ الجزء عنِ الكلّ، وهذا التّركيبُ القرآنيُّ تركيبٌ فريدٌ لم يرد مثله في غير سورة المائدة، وكذا على مستوى بعض الجمل والمفردات، فجملة ﴿لَيَبۡلُوَنَّكُمُ﴾ جملةٌ فريدةٌ في بابها، لم ترد في غير هذا المَوضِع على هذه الصّورة؛ فهي مُؤَلَّفَةٌ من لام القسم، والفعل المضارع ﴿لَيَبۡلُوَنَّكُمُ﴾، مع نُون التّوكيد الثّقيلة، والكاف الدّالّة على الخطاب، والميم علامة الجمع، والضّمير المتّصل المفعول به.

تقديم المفعول على الفاعل في قوله ﴿لَيَبۡلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ﴾، وإن كان واجبًا؛ لكنّه تقديم للاهتمام:

التّقديم والتّأخير يخدم الدّلالة، ويزيد من جماليّة التّركيب

تقدّم على الفاعل لفظ الجلالة ﴿ٱللَّهُ﴾، وهو وإن كان تقدُّمًا واجبًا؛ لأنّه ضميرٌ مُتّصلٌ، إلّا أنّه تقدّم للاهتمام والاختصاص؛ لأنَّ الابتلاء هنا مُختصٌّ بكم، وبمن خاطبهم اللّه تعالى بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، فأنتم المُبتلون وليس غيرُكم، وكذلك جملة ﴿تَنَالُهُۥٓ﴾ فلم يرد هذا اللّفظُ إلّا في سورة المائدة، وكذلك قوله ﴿وَرِمَاحُكُمۡ﴾ المضاف والمضاف إليه.

أمّا لفظة ﴿ٱلصَّيۡدِ﴾ فقد وردت على هذه الصُّورة مُعرّفة بـ(أل) ثلاث مرّات، ووردت ﴿صَيۡدُ﴾ [المائدة: 96] نكرة مرّتين، واللّافت للانتباه؛ أنّ جميع هذه الصّيغ الخمس اقتصر ورودها في سورة المائدة في [الآيات: 1 - 94 - 95] تعريفًا، و[الآية: 96] مرّتين تنكيرًا.

دخول القسم على المضارع يفيد الاستقبال، أي: أنّ الابتلاء مُستقبليٌّ:

في قوله ﴿لَيَبۡلُوَنَّكُمُ﴾ اللّام هنا لقسمٍ محذوف، تقديرُه

(واللّه)، أو نحوه، وحذفُ المُقسَم به واقعٌ كثيرًا في كلام العرب، والّذي يُستَنبَطُ من دخول لام القسم على الفعل المضارع، أنّ الأمر لم يكن واقعًا عند نزول الآية؛ لأنّ دخول القسم على المضارع لا يُفيد الحال، بل يفيد الاستقبال، أو أنّ "الابتلاء مُستقبلٌ؛ لأنَّه لا يتحقَّقُ معنى الابتلاء إلَّا من بعد النَّهي والتَّحذير...وأَمَّا الصَّيدُ ونوالُ الأَيدي والرّماح فهو حاضرٌ"[1].

الابتلاء مُستقبليٌّ؛ لأنَّه لا يتحقَّقُ معناه إلَّا بعد النَّهي والتَّحذير

الابتلاء معناه الاختبار، وهو تعبير مجازيّ؛ لأنّه تعالى ليس محلًّا للحوادث:

المعنى هنا، أنّ الحقَّ ﷻ يريدُ اختبارَكم، هل تُطيعُونه أم تعصُونه، فيما أمركم به؟ والاختبارُ هنا تعبيرٌ مجازيٌّ، أو اختبارٌ في قياسات العباد؛ لأنّ الاختبار لا يكون إلّا من العبد للعبد؛ لأنّه تعالى ليس محلًّا للحوادث، وهو اختبارٌ مُؤكّدٌ بدلالة نون التّوكيد الثّقيلة، وهذه النّون تقترن بالقسم، ولا ريب في ذلك، فالقسمُ أسلوبٌ من أساليب التّوكيد بجانب معنى القسم.

القسمُ أسلوبٌ من أساليب التّوكيد؛ يزيد العبارة قوّةً وبيانًا

الصّيد حدثٌ، والأحداثُ لا تُنالُ بالأيدي أو الرّماح، إنّما يُنالُ بهما الأعيانُ والذّوات:

الابتلاءُ هنا يكون بشيء منَ الصّيد؛ أي: ببعض ممّا يصطادونه، والصّيدُ هنا مصدرٌ من (صادَ يصيدَ صيدًا)، فهو مصدرٌ لفظًا، لكنّه مفعولٌ معنًى، على نيّة (المَصِيد) الّذي يُصطادُ منَ الطّير، أو الحيوان أو نحوه؛ لأنّ المصادر أحداثٌ، والأحداثُ لا تُنالُ بالأيدي أو الرّماح، إنّما يُنالُ بهما الأعيانُ والذّوات؛ فعُلم أنّ الصّيد هنا بمعنى (المُصطاد).

الصّيد مصدرٌ لفظًا، مفعولٌ معنًى على نيّة (المَصِيد) الّذي يُصطادُ

التّعبير﴿بِشَيۡءٖ﴾ يوحي بالتّقليل أو التّبعيض، وله غرض وهدف:

قوله ﴿بِشَيۡءٖ﴾ يوحي بالتّقليل والتّحقير؛ تنبيهًا على أنّ من

كلّ بلاء هو امتحان للإنسان، وعلى قدر شدّته يكون جزاؤه عند الله

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/39.

ابتُلي، واختُبر بهذا الشّيء الحقير، ولم يثبُت، فأنّى له النّجاحُ معَ الابتلاءات العظيمة؟.

وقد تكون للتّبعيض، يؤيّدُه أداةُ الجرّ ﴿مِّنَ﴾ الدّالّة على التّبعيض، "لأنّه لم يبلُهُم بصيد البحر، وإنّما ابتلاهم بصيد البرّ، فالابتلاءُ ببعضٍ لا بجميع"[1]، ويُلمَحُ هذا التّبعيض والتّقليل من تنكير ﴿بِشَيۡءٖ﴾، فهو دالٌّ على التَّقليل والتّهوين من شأن هذا الابتلاء؛ فهو يريد أن يخبرهم، بأنّ هذا الابتلاء إنّما هو ابتلاءٌ يسيرٌ صغيرٌ أمام الابتلاءات العظيمة التّي يمرُّ بها الإنسان، كبذل الأرواح، وإنفاق المال، والهجرة عن الأوطان، وغيرها، ولكن "كلُّه ابتلاءٌ، وإن تفاضل في الكثرة والقِلَّة، وتباين في الضَّعفِ والشِدَّةِ"[2]، وعلى المؤمن النّجاح فيه.

ابتلاء الصّيد ليس منَ الفتن العظيمة، كبذل الأرواح والأموال:

إذا لـم يثبتوا أمام هذا الابتلاء الـهـيّن، فكيف شأنُهم عند ما يُواجهُهم ما هو أشدُّ منه؟

تساءل الزّمخشريُّ عن معنى التّقليل والتّصغير للبلاء في هذه الآية، فقال: "قلّل وصغّر، ليعلم أنّه ليس بفتنة منَ الفتن العظام التّي تُدحضُ عندها أقدامُ الثّابتين، كالابتلاء ببذل الأرواح والأموال، وإنّما هو شبيهٌ بما ابتلى به أهلُ أيلة من صيد السّمك، وأنّهم إذا لم يثبتُوا عنده فكيف شأنُهم عند ما هو أشدُّ منه؟!"[3]، وقول الزّمخشريّ وثبةٌ فكريّةٌ رائدة في بابها، ولكنّها تشيلُ في الميزان، عندما تُعارَضُ بقوله تعالى: ﴿وَلَنَبۡلُوَنَّكُم بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلۡخَوۡفِ وَٱلۡجُوعِ وَنَقۡصٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٥٥﴾ [البقرة: 155]، فقد استعملها اللّه في العظائم، ممّا يُطيحُ بما قاله الزّمخشريُّ، ونقله عنه جلّةٌ من علماء التّفسير؛ كالخازن والنّسفيّ والبيضاويّ

(1) ابن جرير، جامع البيان: 10/582.
(2) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 8/177.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/677.

وغيرهم، قال محيي الدّين الدّرويش في هذا المضمار: "وخيرُ ما يُقالُ في الإجابة عن هذا الاعتراض، هو أنّ جميع المحن والأرزاء، والبلاء والفتن، ليست بالنّسبة إلى مقدور اللّه تعالى سوى جُزءٍ يسيرٍ، خليقٍ به أن يُحقّرَ ويُصغّرَ، وأنّه سبحانه جنح إلى خطاب المؤمنين بهذه الصّيغة؛ تخفيفًا لهم، وباعثًا لهم على الصّبر، وحافزًا لهم على الاحتمال، وتلطُّفًا بهم، وترفّقًا بما يكابدُونه منه، فسبحان المُتفرّد بهذه البلاغة"[1].

ربّما دلّت (مِن) على التّبيين؛ فيكون الابتلاء المقصود يخرج معناه إلى النّهي:

النّهي عن صيد المُحرِمِ ابتلاءٌ، وهو ما بيّنه القرآن في هذه الآية

ربّما دلّت ﴿مِّنَ﴾ على التّبيين[2] كالوارد في قوله تعالى: ﴿فَٱجۡتَنِبُواْ ٱلرِّجۡسَ مِنَ ٱلۡأَوۡثَٰنِ﴾ [الحجّ: 30]، وعلى ذلك فإنّ الابتلاء المُخبر عنه هنا يخرج معناه إلى النّهي (أي: لا تَصطادوا)[3]، يؤيّدهُ ما نُقل أنّ الحقّ ﷻ قد ابتلاهُم "بالصَّيد وهم مُحرِمُون، عام الحديبية، حتَّى كانتِ الوحشُ والطَّيرُ تغشاهُم في رحالهم، فيقدرون على أَخذها بالأَيدي، وصيدِها بالرِّمَاح، وما رأَوا مثل ذلك قطُّ، فنهاهم اللّه عنها ابتلاءً"[4]، وهو ابتلاءٌ يُشبه ابتلاء بني إسرائيل في نهيه ﷻ عن صيد الحيتان يوم السّبت.

الباء في قوله ﴿بِشَيۡءٖ﴾ من حروف المعاني، وتأتي للإلصاق والاستعانة:

عطف الرّماح على الأيدي؛ من باب عطف الكبير على الصّغير

هنا عَطفُ الرّماح على الأيدي من باب عطف الكبير على الصّغير؛ فإنّه قد رُوي بأنّ صغار الصّيد للأيدي؛ كالبيض والفراخ، وكباره للرّماح[5]؛ كالحُمُر الوحشيّة ونحوها، وتعبيره ﴿بِشَيۡءٖ﴾ الباء حرف جرّ من حروف المعاني، وتأتي في أصل معانيها للإلصاق

(1) الدّرويش، إعراب القرآن وبيانه: 3/18.
(2) المنتجب الهمذانّي، الكتاب الفريد: 2/491.
(3) الفيروزآباديّ، بصائر ذوي التمييز: 5/437.
(4) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 12/91.
(5) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 8/178.

والاستعانة[1]، وفيه تناسبٌ كبيرٌ مع ما عبّر عنه في لفظتي ﴿أَيۡدِيكُمۡ﴾ و﴿وَرِمَاحُكُمۡ﴾، فهم يستعينُون على الصّيد بالأيدي والرّماح.

التّعبير بالرّماح من باب الاستعارة، فالمصطاد يناله الفارس، وليس الرّمح:

ذكرُ الأيدي من دون أعضاء الجسم؛ لأنّ لها التّصرُّف الأعظم في الصّيد

إنّ التّعبير بالرّماح من باب الاستعارة؛ لأنّ الفارس أو المُخاطَب بالآية هو الّذي ينالُ الصّيد برمحه، وليس الرُّمح نفسُه، ثمّ إنّ الأيدي جمعُ تكسير، زنة (أفعُل)، وهو وزنٌ من أوزان جمع القلّة، وفيه إيماءٌ إلى أنّ الأيدي محدودة، ومع ذلك ففيها ابتلاءٌ، في أنّ باستطاعتهم صيدَها باليد، إلّا أنّها مُحرّمةٌ عليهم، وهي كذلك؛ فيما عبّر عن آلة الصّيد بالرّماح، ولفظ (رِمَاح) وزنها (فِعَال)، وذكرُ الأيدي من دون أعضاء الجسم؛ لأنّ لها التّصرُّف الأعظم في ذلك، مثلما خصّ ذكر الرّماح؛ لأنّها مثلُ اليد منَ الجمادات في تصرُّفها؛ ولأنّه لم يذكرِ السّيف مثلًا؛ لأنّه لا يُناسب الصّيد كالرّمح.

التّعبير بالرّماح من جموع الكثرة؛ لأنّه قد يحوز الإنسان الكثير منَ الرّماح:

ترك ما لا ينالُ إلَّا بمشقَّةٍ أسهلُ وأيسرُ من ترك ما ينالُ بسهولة

هو جمع تكسير يفيد الكثرة؛ لأنّه وإن كان للإنسان يدان، فإنّه قد يكون في حوزته الكثير منَ الرّماح، وهو في كلٍّ قد أضافها إلى الكاف والميم الدّالتين على الكثرة في حال اجتماع المُخاطَبين بهذه الآية.

ثمّ إنّ قوله: ﴿تَنَالُهُۥٓ﴾ يوحي ما يوحي إلى سهولة الوصول إليه، سواء كان بالأيدي أم الرّماح، وفي ذلك الابتلاء حكمةٌ بليغةٌ؛ لأنّ "ترك ما لا يُنالُ إلَّا بمشقَّةٍ لا يدلُّ على التَّقوى والخوف منَ اللّه تعالى، كما يدلُّ عليه تركُ ما ينالُ بسهولة[2].

(1) المراديّ، الجنى الدّاني، ص: 36.
(2) رضا، تفسير المنار: 7/85.

جملة ﴿لِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ﴾ تعليلٌ لمَا سبق منَ الابتلاء:

ثمّ قال الحقُّ ﷻ: ﴿لِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ﴾ وهو تركيبٌ قرآنيٌّ، لم يرد سواه في جميع القرآن إلّا في هذه السّورة، واللّام للتّعليل؛ لأنّ الجملةَ تعليلٌ لمَا سبق منَ الابتلاء (يَبلُوَنَّكُم.. لِيَعلَمَ).

هـــذا تـركـيـب مُتفرِّد في القرآن الـكـريـم؛ دلالـة على تميّز القرآن وبلاغته

ذكرُ لفظ الجلالة ﴿ٱللَّهُ﴾ وضعٌ للظّاهر مَوضِع المُضمَر؛ للتّحذير والتّخويف:

وذكرُ الفاعل هنا، وهو لفظ الجلالة ﴿ٱللَّهُ﴾ من وضع الظّاهر مكان المُضمَر؛ لأنّه مذكورٌ سابقًا في سياق الابتلاء، وهي منَ الظّواهر الّتي يُؤتى بها لدواعٍ بلاغيّة؛ للتّأثير في النُّفوس والأفكار، وذلك بأن يرد الظّاهرُ، ثمّ يكرِّرُهُ، والمقامُ مقامُ الإضمار[1]؛ فإنّه لو قال: (لِيَعلَمَ مَن يَخافُه) لاستقام المعنى، إلّا أنّه أراد تَكرار الظّاهر تنبيهًا وتحذيرًا، فالمقامُ يستدعي التّحذيرَ والتّخويفَ، وإدخالَ المهابة.

أساليب التّأثير بـالـتّـصـرف في الظّاهر والمضمر، لـهـا مـقـاصـد بلاغيّة

قوله ﴿لِيَعۡلَمَ﴾، العلم هنا بمعنى المعرفة:

قوله ﴿لِيَعۡلَمَ﴾ هنا بمعنى المعرفة؛ فإنّه استوفى مفعولًا واحدًا، هو قوله (مَن)، وهو اسمٌ موصول؛ يُستعملُ للأناسيّ، ويقعُ على المفرد والمثنى والجمع، ويستدعي صِلةً هي قوله (يَخَافُهُ).

قوله: ﴿بِٱلۡغَيۡبِۚ﴾ على حذف تقدير (والشّهادة)؛ لأنّ من يخافُهُ بالغيب يخافُهُ بالشّهادة، لا العكس:

أمّا قولهُ ﴿بِٱلۡغَيۡبِۚ﴾ فمُتعلّقٌ بقوله ﴿يَخَافُهُۥ﴾، ومعناه: يخافُهُ بالسّرّ، وفيه حذفٌ على تقدير: (يخافُهُ بالغيبِ والشّهادةِ والحُضورِ؛ لأنّ الكونَ غيبٌ وشهادةٌ، والإيمان بكلٍّ منهما واجبٌ. وآثر ذِكر الغيب؛ لأنّه أكثرُ جذبًا للنّظر والبحث، ومُحاولة تعرُّفه؛ ولأنّه يستلزمُ الخوف في حال الشّهادة والحُضور المحسوس، من غير عكسٍ، ومعنى ذلك أنّ مَن يخافُهُ بالغيب والسِّرِّ فسوفَ يخافُهُ

مَـــن يـؤمـن بـالـمـادّيّـات المُحسّة في عالم الـشّـهـادة فقط لا يـخـافُ الله بالغيب غالبًا

(1) الكفويّ، الكلّيّات، ص: 136.

قطعًا بالشّهادة، والعلم الّذي يراه، والبراهين الماديّة عليه ﷻ، أي: "مَن يخاف بالغيب، أَي: يخافُهُ بإخلاصٍ وتحقيقٍ، ولا يختلفُ الحالُ بسبب حضور أَحدٍ أَو غيبته"[1]، أمّا مَن يُؤمن بالمادّيّات المحسُوسة، وهي الشّهادةُ، فقد لا يخافُ اللّه بالغيب.

﴿لِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ﴾ على حذف مضاف تقديره (لِيَعلَمَ أَولِيَاءُ اللهِ):

التّعبير بالخوف لا الخشية؛ لأنّه أبلغ في هذا المقام

والمعنى "ليعلم أولياءُ اللّه مَن يخافُ اللّه؛ فيتّقي محارمَهُ الّتي حرّمها عليه، منَ الصّيد وغيره، بحيثُ لا يراهُ ولا يعاينُه"[2]، وعلى ذلك فهو على حذف مُضافٍ، تقديرُه (لِيَعلَمَ أَولياءُ اللّهِ)، وقِيلَ: فيه مَجازٌ؛ لأنّ علمَ اللّهِ لم يَزَل ولا يَزالُ، ولا يتَحَقَّقُ بالابتلاء فقط، بل به ومن دونه، وإنّما عبّر عنه بهذه الصّيغة تقريبًا لأفهام المُخاطبين، مع ملاحظة أنّه عبّر بفعل (يَخَافُهُ)، ولم يُعبّر بفعل (يَخشَاهُ)، مع أنّ بينهما تشابُهًا مُعجميًّا، وهو تعلّقُهُما بالمكروه عامّة، إلّا أنّ بينهما اختلافًا وتبايُنًا مُعجميًّا من جهة ثانية؛ فإنّ الخوف يتعلّقُ بالمكروه نفسِهِ الّذي يُخافُ منه، فيما يتعلّقُ فعلُ الخشية بمُنزِلِ المكروه[3].

على هذا؛ فإنّ التّعبير بالخوف منَ اللّهِ أبلغُ في هذا المقام.

الفاء الفصيحة؛ تفصح عمّا قبلها من سؤال مُقدَّر:

قوله: (فَمَنِ اعتَدَى بَعدَ ذَلِكَ) فيه تحذيرٌ لمن خالف ذلك

الفاء تُسمّى الفصيحة الّتي تُفصحُ عمّا قبلها، والّتي يُمكنُ أن تخطُرَ على البال[4]، أو أن يسألَ عنها المُخاطَب، ويكونُ ما بعدها نتيجةً لمَا قبلها، و(مَن) شرطيّة مُبتدأ، ويجوزُ فيها الموصوليّة الّتي تدلّ على العموم في قوله: ﴿فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ﴾، أي: كُلّ مُعتدٍ، مُتجاوزٍ

(1) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 12/91.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 10/585.
(3) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 241.
(4) الدّرويش، إعراب القرآن وبيانه: 1/253.

حُدود اللّه بعد ذلك التّبيين منَ الأحكام، وما حرّمه منَ الاصطياد، فصادَ فله عذابٌ أليمٌ، ثمّ قال: ﴿فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، لمّا ذكر ﴿لَيَبۡلُوَنَّكُمُ﴾، وفيها ما فيها منَ التّحذير والتّخويف؛ لأنّ الابتلاء مُشتملٌ على التّخويف، ولمّا كان ذلك كذلك صرّح هنا بالتّحذير لِمَن خالف ذلك، "أَي: بعدَ ما قدّمناه إليكم، وأعذرنا لكم فيه، فلذلك جاءَت بعده فاءُ التَّفريع، والمُراد بالاعتداء الاعتداءُ بالصَّيد"[1].

(الفاء) واقعةٌ في جواب شرطٍ؛ لأنّ العذاب مُترتّبٌ على الاعتداء:

(الفاءُ) واقعةٌ في جواب شرطٍ، فالعذابُ الأليمُ مُترتّبٌ على الاعتداء، وتجاوز الحدود، وهنا قدّم الجارّ والمجرور المُتعلِّقَ بالخبر تقديمًا جائزًا، والأصلُ أن يُقدّر: (فَعَذَابٌ أَليمٌ له)، وهو تقديمٌ يفيد الاختصاص والحصر، أي: من تجاوزَ الحَدَّ؛ "لأنّ الاعتداءَ بعد ذلك مُكابرةٌ صريحةٌ، وعدمُ مُبالاةٍ بتدبير اللّه تعالى، وخُروجٌ عن طاعته، وانخلاعٌ عن خوفه وخشيتِه بالكُلّيّة"[2]، فله وليس لغيره عذابٌ أليمٌ، وهو حصرٌ للمبالغة؛ لبيانِ عِظَمِ مُرتَكِبِه، وقوله: ﴿أَلِيمٌ﴾ بمعنى (مُؤلِمٌ)، قِيلَ في الدّنيا: تَعزيرًا، وقِيلَ في الآخرة، وقد ورد هذا التّعبير ﴿فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ١٧٨﴾ [نحو: البقرة: 178] في مَواضِعَ كثيرةٍ مِنَ القرآن الكريم.

تقديم المُتعلِّق جوازًا؛ لفائدة الاختصاص والحصر

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/41.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/120.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡتُلُواْ ٱلصَّيۡدَ وَأَنتُمۡ حُرُمٞۚ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدٗا فَجَزَآءٞ مِّثۡلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحۡكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدۡلٖ مِّنكُمۡ هَدۡيَۢا بَٰلِغَ ٱلۡكَعۡبَةِ أَوۡ كَفَّٰرَةٞ طَعَامُ مَسَٰكِينَ أَوۡ عَدۡلُ ذَٰلِكَ صِيَامٗا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمۡرِهِۦۗ عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَۚ وَمَنۡ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنۡهُۚ وَٱللَّهُ عَزِيزٞ ذُو ٱنتِقَامٍ ٩٥﴾ [المائدة: 95]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

التّناسبُ بينَ تحريمِ الخبائثِ، وإباحةِ الطّيّبات، مع أحكامِ صيدِ المُحرِم

مناسبةُ هذه الآيةِ لما قبلَها هي أنّها استئنافٌ لبيان آيةِ ﴿لَيَبۡلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلصَّيۡدِ﴾ [المائدة: 94]، أو لنسخِ حُكمِها إن كانت تضمّنت حُكمًا لم يبقَ به عملٌ[1]، ولبيانِ أهمِّ الأحكامِ الفقهيّةِ المترتّبةِ على منِ اصطاد وهو محرمٌ، ووجهُ التّناسُبِ والارتباطِ بين الآياتِ، أنّه تعالى أمرَ المؤمنين، أن لا يُحرّموا الطّيّباتِ الّتي أحلَّها اللّه لهم خالصةً نقيّةً، واستثنَى من ذلك الخبائثَ كالخمرِ والميسرِ وما شابهَها، ثمّ أرَدف باستثناءِ نوعٍ معهودٍ لديهم منَ الصّيد: وهو صيدُ المُحرِم أثناءَ تلبّسِه بالإحرام، وبيّن جزاءَه الّذي أوجبهُ اللّه على من فعلَ ذلك، فصار به مستثنًى ممّا أحلّ اللّه، داخلًا فيما حرّمَه ومنعَه، على المُحرمين منَ المؤمنين، وفي ذلك التزامٌ بما به أمرَ، وارعواءٌ عمّا عنه نهَى وزجَر.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿لَا تَقۡتُلُواْ﴾: فعلٌ مضارعٌ مسنَدٌ إلى واو الجماعة؛ الجذرُ اللُّغويّ منه (قَتَلَ)، وههنا نهيٌ عنِ القتل، و" القتلُ معروفٌ، يُقال قَتَله إذا أَمَاتَهُ بضربٍ أَو حجرٍ أَو سُمٍّ أَو علّةٍ والمنيّةُ قاتلةٌ"[2]، وقد لا

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/42.
(2) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (قتل).

يكونُ بهذا المعنى، كقولِه تعالى: ﴿قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۖ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ٣٠﴾ [التّوبة: 30]، ومعناه "لعنَهم اللّه أنّى يُصرفون، وليسَ هذا منَ القتالِ الَّذي هو بمعنى المُقاتلةِ والمُحاربةِ بين اثنين"[1]، والواردُ في الآيةِ ﴿لَا تَقۡتُلُواْ﴾، على المعنى الأوّل المعروفُ، وهو بمعنى "أَزال رُوحَه عن جسدِه[2]، وفي لسان العرب: "قال ابنُ سِيدَه: قال ابنُ جِنِّيٍّ: وُضِعَ المصدَرُ مَوضِعَ المفعُول، وقِيلَ: كلُّ وَحشٍ صَيدٌ، صِيدَ أَو لَم يُصَد؛ حَكَاهُ ابنُ الأَعرابي؛ قَالَ ابنُ سِيدَه: وَهَذَا قَولٌ شَاذٌّ. وَقَد تَكَرَّرَ في الحَدِيثِ ذِكرُ الصَّيد اسمًا وفِعلًا وَمَصدَرًا، يُقَالُ: صادَ يَصِيدُ صَيدًا، فَهُوَ صائِد ومَصِيد. وَقَد يَقَعُ الصَّيدُ عَلَى المَصِيد نَفسِه تَسمِيَةً بِالمَصدَرِ؛ كَقَولِهِ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡتُلُواْ ٱلصَّيۡدَ وَأَنتُمۡ حُرُمٞۚ﴾؛ قِيلَ: لَا يُقَالُ لِلشَّيءِ صَيدٌ حَتَّى يَكُونَ مُمتَنِعًا حَلَالًا لَا مَالِكَ لَهُ"[3].

2) ﴿مُّتَعَمِّدٗا﴾: وهو اسمُ فاعل، الجذرُ اللُّغويّ منه (عَمَدَ)، ومعنى (العَمد) في لسان العرب "قصدُ الشّيءِ، والاستنادُ إليه؛ والعِمَادُ ما يُعتمَدُ... والعَمدُ والتَّعَمُّدُ في التّعارف خلاف السّهوِ، وهو المقصودُ بالنّيّةِ، قال: ﴿وَمَن يَقۡتُلۡ مُؤۡمِنٗا مُّتَعَمِّدٗا﴾ "[4]، وهو المقصودُ في الآية، والعَمدُ: ارتكابُك أمرًا بجدٍّ ويقينٍ. تقول: فعلتُه عَمدًا.. وتعمّدتُ له، وأتيتُ ذلك الأمرَ متعمّدًا ومُعتمِدًا بمعناه، قال:

فَزَادَكَ اللّهُ غَمًّا إِذْ كَلِفتَ بِهَا *** وَإِذْ أَتَيتَ الَّذِي أَبلَاكَ مُعتَمِدَا[5].

وفي الحديث: «مَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النّار»[6].

3) ﴿مِّثۡلُ﴾: اسمٌ جذرُه اللُّغويّ (مثل)، ومعناه المثل "شِبهُ الشّيءِ في المِثال والقَدر

القتلُ إزهاقُ الرّوح، وهو الإماتةُ بضربٍ أو حجرٍ أو سُمّ، أو غيرِه

(1) الأزهري، تهذيب اللّغة: (قتل).
(2) الفيروزآباديّ، بصائر ذوي التّمييز: 4/238.
(3) ابن منظور، لسان العرب: (قتل).
(4) الرّاغب، المفردات: (عمد).
(5) الخليل، العين: (عمد).
(6) البخاري، الحديث رقم: (3461)، ومسلم، الحديث رقم: (3004).

المِثلُ العِدلُ، وهُو ما جُعل مقدارًا لغيرِه، مُساوِيًا له

ونحوِه، حتّى في المعنى، ويقال ما لهذا مَثيلٌ، والمِثالُ ما جُعِلَ مقدارًا لغيره، وجمعُه مُثُل"[1]، وهو المعنى في الآيةِ، ولا سيّما في المساواة في القدر، والمثلُ النّدُّ، وكَذَلِكَ النّديدُ والنّديدةُ، قال الشّاعر لبيدُ بنُ ربيعةَ:

لِكَي لَا يَكُونَ السَّندَرِيُّ نَدِيدَتِي *** وَأَشتَمُّ أَعمَامًا عُمُومًا عَمَاعِمَا[2].

والمِثل العِدل، وَالمعنَى وَاحِد، كَانَ المِثلُ منَ الجِنس أَو من غير الجِنس، ومنه قولُه تعالى: ﴿أَوۡ عَدۡلُ ذَٰلِكَ صِيَامٗا﴾[3].

4) ﴿ٱلنَّعَمِ﴾: مفتوحُ النّون، وهو اسمٌ وجذرُه اللُّغويّ (نَعَمَ)، وفروعُه كثيرةٌ في لغةِ العربِ، وهي في "كثرتِها راجعةٌ إلى أَصلٍ واحدٍ، يدلُّ على ترفُّهٍ وطِيبِ عيشٍ وصلاحٍ، منهُ النِّعمةُ ما يُنعمُ اللّه تعالى على عبدِه بِه، من مالٍ وعيشٍ، يقالُ: للّه تعالى عليهِ نِعمةٌ، والنّعمةُ المنَّةُ، وكذا النَّعماءُ، والنَّعمةُ التَّنَعُّمُ وطيبُ العيشِ"[4]، وما ورد في الآيةِ ﴿ٱلنَّعَمِ﴾ بفتح العين مُتعلِّقٌ بهذا الأصل، ومعناها "الإبلُ لما فيهِ منَ الخيرِ والنّعمةِ، قال الفرَّاءُ: النَّعمُ ذكرٌ لا يُؤنَّثُ؛ فيقُولونَ هذا نعَمٌ واردٌ، وتجمعُ أنعامًا، والأنعامُ البهائمُ"[5]، وهو المعنى المرادُ في الآيةِ؛ لأنّ الحكمَ الشّرعيَّ متعلّقٌ بها، في أنّ مَن قتلَ الصّيدَ مخالفًا النّهيَ، فعليه أنّ يُقدِّمَ منَ الأنعام مثلَ ما قتلَ، جزاءً على مخالفة النّهي. و"قولهم: (هذا أحبُّ إليّ من حُمرِ النَّعَم)، قال أَبو بكر: النَّعَم: الإبلُ، وحُمرها: كرامُها، وأعلاها منزلةً، و(النَّعم) في قول بعضهم، لا يقع إلّا على الإبل، و(الأنعامُ) تقع على الإبل والبقر والغنم، فإذا انفردتِ الإبلُ قيل لها: نَعمٌ، وأنعام، وإذا انفردتِ البقرُ والغنم، لم يقل لها: نعم، ولا أنعام، وقال آخرون: (النَّعم) و(الأنعام) بمعنًى واحدٍ... وقال اللّه (ﷻ): ﴿وَإِنَّ لَكُمۡ فِي ٱلۡأَنۡعَٰمِ لَعِبۡرَةٗۖ نُّسۡقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ﴾، فذكر (الهاء)؛ لأنّه حمل (الأنعام) على معنى (النَّعم)"[6].

(1) الخليل، العين: (مثل).
(2) ابن دريد، جمهرة اللّغة: (ندد).
(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (عدل).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نعم).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نعم).
(6) الأنباريّ، الزّاهر: 1/280 - 281.

5) ﴿يَحْكُمُ﴾: فعلٌ مضارعٌ، الجذرُ اللُّغويُّ منه (حَكَمَ)، ومنه الحكمةُ، وهي "عبارةٌ عن معرفةِ أَفضلِ الأَشياءِ بأفضلِ العلوم، ويقالُ لَمن يُحسِنُ دقائقَ الصّناعاتِ ويُتقنُها حَكِيمٌ"[1]، ومن معانيهِ المشهورةِ ذاتِ العلاقةِ بالآية ههنا "الحُكمُ القضاءُ، وجمعهُ أَحكامٌ، لا يُكسر على غيرِ ذلكَ، وقد حكمَ عليهِ بالأَمر، يحكمُ حُكمًا وحكومةً، وحكمَ بينهم كذلكَ، والحُكمُ مصدرُ قولكَ حكَمَ بينهم يحكمُ، أَي قضى، وحكمَ لهُ وحكمَ عليهِ"[2]، وهو المرادُ في الآية، أن يكونَ هناك من يقضي فيمن خالف نهيَه تعالى.

6) ﴿ذَوَا عَدْلٍ﴾: (ذَوَا) اسمٌ يدلُّ على الاثنين، مفردُه ذُو، "ويفسّرُ بأنّ معناه صاحبٌ، ولا يكون إلّا مضافًا، ولا يجوز أن تضيفَه إلى مُضمَرٍ"[3]، وهو منَ الأسماءِ السّتّةِ، وهنا أضيف إلى (عَدلٍ)، أي صاحبَا عدل، وأمّا لفظُ (عَدل): فهو منَ الجذرِ اللُّغويّ (عَدَلَ)، فـ" العَدلُ منَ النَّاسِ المرضيُّ المستوِي الطَّريقةِ، يقالُ هذا عدلٌ، وهما عدلٌ... والعدلُ الحُكمُ بالاستواءِ، ويقالُ للشَّيءِ يُساوي الشَّيءَ"[4]، وقيلَ أيضًا في تفسير (العَدلِ)، أنّه "نقيضُ الجورِ، تقولُ: عدلَ في رعيَّتِه، ويومٌ معتدلٌ، إذا تساوى حالًا حرّهِ وبردِه"[5]، وهذه المعاني منطبِقةٌ على المفرَدةِ الواردةِ في الآيةِ؛ لأنّ الأمرَ متعلِّقٌ بحُكم ذوِي العدل المذكورين، وذكرُوا خُصوصيّةً لهذا اللّفظ، "فهُو لا يُثنَّى ولا يُجمعُ ولا يُؤنّث؛ فإن رأيتَه مجمُوعًا أو مُثنًّى أو مُؤنّثا، فعلى أنّهُ قد أُجري مُجرى الوصف الّذي ليس بمصدر، وقد حكى ابنُ جنّي: امرأةٌ عدلةٌ، أنّثوا المصدرَ لَمَّا جرى وصفًا على المُؤنّث، وإن لَم يَكُن على صُورة اسم الفاعل، ولا هُو الفاعلُ في الحقيقةِ، وإنّما استهواهُ لذلك جريُها وصفًا على المُؤنّث"[6].

7) ﴿هَدْيًا﴾: الجذرُ اللُّغويّ له من(هَدَيَ)، وذُكرت له معانٍ عدّةٌ، منها أنّه نقيضُ الضّلالة، ومنها البيانُ، ومنها إخراجُ شيءٍ إلى شيءٍ، ومنها الطّاعةُ والورع، ومنها إذا دلّه إلى الطّريق[7]، أمّا الهديُ الواردُ في الآيةِ، فهو "ما يُهدى إلى البيت الحرام منَ الأنعام...

(1) ابن منظور، لسان العرب: (حكم).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (حكم).
(3) ابن السّراج، الأصول في النّحو: 2/27.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عدل).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عدل).
(6) ابن منظور، لسان العرب: (عدل).
(7) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (هدي).

الهديُ ما يُهدَى لـلـه في بيتـه الـحـرام، من أصنافِ الأنعام

قال الهرويّ: الهدِيُّ والهديُ لغتان، وهو ما يُهدى لبيت الله تعالى من بدَنةٍ وغيرِها"[1]، وهذا هو معناها الواردُ في هذه الآية، فهو تقديمُ الإبل للبيت الحرام، نظيرَ ما ارتكبه المسلُم، من مخالفةٍ "سمِّيت الإبلُ هديًا؛ لأنّ منها ما يُهدى إلى البيت"[2]، وقد ورد في الحديثِ الشّريفِ بهذا المعنى، في قولِه ﷺ من حديث طويل: «فَمَن لَم يَجِد هَديًا، فَليَصُم ثَلَاثَةَ أَيَّام فِي الحَجِّ»[3]، قال القاضي عياض: "واختلف الفُقَهَاءُ على ما ينطلقُ هذا الاسمُ، فمذهبُنا أنّه لَا يَقعُ إلَّا على مَا سيق من الحِلّ، قال ابنُ المعدّل: وما لم يُسق منَ الحِلّ، فليس بهدي، وقال الطّبريّ: سُمّي الهديَ؛ لأنّ صاحبَه يتقرَّبُ به ويهدِيه إلى الله، كالهديّة يُهديها الرّجلُ لغيره، فتأوّلَ بعضُهم أنّ ظاهره تركُ اشتراطِ الحِلّ، يُقال منهُ هديت الهديَ"[4]، وفي حَديثِ طَهفة: «هَلَكَ الهَدِيُّ وماتَ الوَدِيُّ»، "الهَديُّ بِالتَّشدِيد، كالهَدي بِالتَّخفِيف، وهُوَ مَا يُهدَى إِلَى البَيت الحَرام مِنَ النَّعَم لِتُنحرَ، فأُطلق عَلَى جَميع الإبِل وَإِن لَم تَكُن هَديًا، تَسمِيَةً لِلشَّيءِ ببَعضِه، يُقال: كَم هَديُ بَني فُلان؟ أَي كَم إِبلُهُم، أَرَادَ هَلَكَت الإِبلُ ويَبِسَتِ النَّخِيلُ"[5].

بلوغُ المكان، هو الـوصـولُ إليـه ومـشـارفـتُـه، لقضاءِ مأربٍ ما

8) ﴿بَٰلِغَ﴾: اسمُ فاعل من بلغَ يبلغُ بلوغًا، وجذرُه اللُّغويُّ (بَلَغَ)، و"بَلغتَ المكانَ بُلوغًا، وصلتَ إليه، وكذلك إذا شارفتَ عليه... والبَلاغُ أيضًا الكفايةُ"[6]، وعمومُ الأصل اللُّغويّ لهذا الجذر هو "الوصولُ إلى الشَّيءِ، تقولُ بلغتُ المكانَ، إذا وصلتُ إليهِ"[7]، وهو كذلك "الانتهاءُ إلى أقصى المقصَد والمُنتهى، مكانًا كان أو زمانًا، أو أمرًا منَ الأمور

(1) السّمين، عمدة الحفّاظ: (هدي).
(2) السّمين، عمدة الحفّاظ: (هدي).
(3) الإمام أحمد، المسند، الحديث رقم: (6247).
(4) عياض، مشارق الأنوار: 2/267.
(5) ابن الأثير، النّهاية: (هدا).
(6) الجوهري، صحاح اللّغة: (بلغ).
(7) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (بلغ).

المقدَّرةِ، وربّما يُعبّرُ به عنِ المُشارفة عليه، وإن لم ينتهِ إليه"[1]، وهذه كلُّها لها حظٌّ في المعنى المقصودِ في الآية، وهو بلوغُ الهدي إلى الكعبة، أو ما شارفَها؛ لأنّهم قالوا إنّ المقصودَ ليستِ الكعبةَ بذاتها، إنّما حرّمَها، وهو شرطٌ من شروط الهدي، كما وضّحه الفقهاءُ.

9) ﴿ٱلۡكَعۡبَةِ﴾: اسمٌ مؤنّثٌ منَ الجذرِ اللُّغويّ (كَعَبَ)، قيل "كَعبُ الرّجل العظمُ الّذي عند مُلتقى القدم والسّاق... والكَعبَةُ كلُّ بيت على هيئتِه في التّربيع، وبها سُمّيت الكَعبَةُ"[2]، أمّا التّسميّةُ للبيت الحرام بهذه الصّيغة، فقد تميّزت بأنّها وردت في سورة المائدة فقط، الأُولى في هذه الآية منَ المائدة، والثّانيةُ في الآية [96] منها، وهي قولُه تعالى: ﴿*جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلۡكَعۡبَةَ ٱلۡبَيۡتَ ٱلۡحَرَامَ قِيَٰمٗا لِّلنَّاسِ﴾ [المائدة: 96]، وهي البناءُ الّذي يتوسّطُ مكّةَ، والّذي يؤمُّهُ النّاسُ، "وقيل سُمّيت كعبةً؛ لارتفاعها، وكلُّ ما ارتفع فهو كعبةٌ"[3]، وله معنًى آخر يمتُّ لها بسببٍ قويٍّ، وهو أنّ الكعبَ يدلُّ على الشّرفِ والمنزلةِ "وفي الحديث: جعل كعبَك عاليًا، أي شرّفك، عبّر بذلك عن ثباتِ العِزّ والشّرف ودوامِهما"[4]، ولا شكّ أنّ بيوتَ اللّه، أشرفُ البيوت وأفضلُها، والكعبةُ أشرفُ بيوت اللّه، وأعلاها منزلةً، وآيةُ ذلك أنّه جعل أجرَ الصّلاة فيه أفضلَ ممّا سواه قال رسول اللّه ﷺ: «وَصَلَاةٌ في المَسجِدِ الحَرَامِ أَفضَلُ مِن مِائَةِ ألفِ صَلَاةٍ فِيمَا سِوَاهُ»[5]، والكعبةُ هي البيتُ العَتِيقُ؛ لأَنَّهَا أُعتِقَت عَنِ الغَرَقِ، وعَن أَن يَدَّعِيَهَا مَخلُوقٌ، وَقِيلَ لِكَرَمِهَا، وَقِيلَ لِقِدَمِهَا، أَي هِيَ أَوَّلُ بَيتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ، كَمَا وَرَدَ بِهِ القُرآنُ[6].

10) ﴿لِّيَذُوقَ﴾: فعلٌ مضارعٌ يدلُّ على الحالِ أو الاستقبالِ، الماضي منه (ذاقَ)، والمصدر (ذَوَقَ)، وهو جذرُه اللُّغويُّ، ولهذا الجذرِ أصلٌ واحدٌ، هو "اختبارُ الشَّيءِ من جهةِ تطعُّم... ذقتُ المأكولَ أَذُوقُهُ ذَوقًا"[7]، وهذا ذوقٌ على جهة الحقيقة، وعلى الرّغم من أنّه يمثّل المعنى الحقيقيَّ، إلّا أنّه "استعمل الذّوقَ على الحقيقة، بمعنى إدراكِ الطَّعم

(1) الرّاغب، المفردات: (بلغ).
(2) الرّاغب، المفردات: (بلغ).
(3) السّمين، عمدة الحفّاظ: (كعب).
(4) السّمين، عمدة الحفّاظ: (كعب).
(5) الإمام أحمد، المسند، الحديث رقم: (14694).
(6) النّسفيّ، طلبة الطّلبة، ص: 63.
(7) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ذوق).

بالفم، في آيةٍ واحدةٍ هي ﴿ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ﴾، أكلَا من ثمارها، وأدركا طعمَها بفمِهما"[1]، وذلك في قولهِ تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتۡ لَهُمَا سَوۡءَٰتُهُمَا﴾، [الأعراف 22]، أمّا التّعبيرُ المجازيُّ لـ(ذوق)، وما اشتُقَّ منها، فكثير، "فيقالُ وذقتُ ما عندَ فلان، اختبرتهُ، وفي كتابِ الخليلِ: كلُّ ما نزلَ بإنسان من مكروه، فقد ذاقهُ، ويقالُ ذاقَ القوسَ، إذا نظرَ ما مقدارُ إعطائهَا، وكيفَ قوَّتهَا"[2]، وقولُه تعالى: ﴿ذُقۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡكَرِيمُ ۝٤٩﴾، [الدّخان49]، واللّفظةُ الواردةُ في هذه الآية: ﴿لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمۡرِهِۦۗ﴾ من هذا الباب.

11) ﴿وَبَالَ أَمۡرِهِۦۗ﴾: لفظ(وَبَالَ)، اسمٌ على وزن (فَعَال)، الجذرُ منه (وَ بَ لَ) "من وبلَ المرتعُ بالضَّمِّ، وبالًا ووبالةً، بمعنى وخمَ، سواءٌ كان المرعى رطبًا أو يابسًا"[3]، هذا هو المعنى الحقيقيُّ، أمّا المعنى المجازيُّ فلمّا "كان عاقبةُ المرعى الوخيم إلى شرٍّ، قيلَ في سوءِ العاقبةِ: وبالٌ، والعملُ السَّيّئُ وبالٌ على صاحبهِ"[4]، وهو المعنى المرادُ للّفظة في هذه الآية، وهي العاقبةُ السّيئةُ والجزاءُ الوخيمُ[5]، وأمّا لفظُ (أَمرِه): فهُو اسمٌ ثُلاثيٌّ مجرّدٌ، جذرُهُ اللُّغويُّ منَ الهمزة والميم والرّاء من أمرَ يأمرُ أمرًا، وله عدّةُ معانٍ، منها "فأمَّا الواحدُ منَ الأُمورِ فقولُهم: هذا أَمرٌ رضيتهُ، وأَمرٌ لا أَرضاهُ، وفي المثلِ أَمرٌ ما أَتى بكَ"[6]، وكذلك فإنّ "الأَمرَ نقيضُ النَّهي، والأمرُ واحدٌ من أمور النّاس، وإذا أَمَرتَ منَ الأمر"[7]، وهو أيضًا الحالُ والشّأنُ والقضيّةُ، وقد يقال: أمرٌ ذو بال، وذو شأنٍ[8]، إذا كان مُهمًّا، وفي الآية ليذُوق جزاءَ الحال الّتي كان عليها من مخالفته أوامرَ اللّه تعالى،" وقولُهُ تعالى: ﴿فَذَاقَتۡ وَبَالَ أَمۡرِهَا﴾، أَي خبَرت؛ وأَذاقَه اللّهُ وَبَالَ أَمره؛ قَالَ طُفَيلٌ:

فَذُوقُوا كَمَا ذُقنَا غَدَاةَ مُحَجِّرٍ *** مِنَ الغَيظِ، فِي أكبَادِنَا، والتَّحَوُّبِ

.. وذاقَ العَذَابَ وَالمَكرُوهَ، وَنَحوَ ذَلِكَ"[9].

(1) مجمع اللّغة العربيّة، معجم ألفاظ القرآن الكريم، ص: 450.
(2) السّمين، عمدة الحفّاظ: (ذوق).
(3) الفيّوميّ، المصباح المنير: (وبل).
(4) الفيوميّ، المصباح المنير: (وبل).
(5) مجمع اللّغة العربيّة، معجم ألفاظ القرآن الكريم، ص: 1158.
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (أمر).
(7) الخليل، العين: (أمر).
(8) أحمد مختار، معجم اللّغة العربيّة المعاصرة: (أمر).
(9) ابن منظور، لسان العرب: (ذوق).

12) ﴿عَفَا ٱللَّهُ﴾: فعل ماضٍ مضارعُه (يعفُو) مصدره (العفوُ) وهو جذرُه اللُّغويّ أيضًا، والعين والفاء والحرف المعتلّ "أصلان يدلُّ أَحدُهما على تركِ الشَّيءِ، والآخرُ على طلبِه... فالأوّل العفوُ، عفوُ الله تعالى عن خلقِه، وذلكَ تركُه إيّاهم فلا يُعاقبُهم، فضلًا منهُ"[1]، وهذا المعنى تمامًا الواردُ في الآيةِ الكريمةِ، بقوله: (عَفَا اللّه عَمَّا سَلَفَ)، أي تركَ معاقبةَ من خالفَ أمرَه فيمَنْ قتلَ الصّيدَ وهو مُحرم؛ فإنّ من صفاته تعالى العفوَ، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ۝١٣﴾ [النّساء: 43]، فقد "وصف نفسَه بأنّه يسترُ الذّنوبَ، ولا يعاقبُ عليها"[2]، "وقولُهم: (عفا اللّه عنكَ): قال أبو بكر: معناه: درسَ اللّه ذنوبَك عنك، ومحاها عنك، مِن قولِهم: قد عفا المنزلُ يعفو عفوًا، إذا درسَ وانمحت آثاره، قال امرُؤُ القيس:

فَتُوضِحَ فَالمِقرَاةِ لَم يَعفُ رَسمُهَا لِمَا نَسَجَتهَا مِن جَنُوبٍ وَشَمأَلِ[3].

13) ﴿سَلَفَ﴾: الجذرُ اللُّغويّ له (سَلَفَ)، وهُو في أصله "يدلُّ على تقدُّم وسبقٍ، من ذلكَ السَّلفُ الّذين مضَوا، والقومُ السُّلَّافُ المتقدّمُون"[4]، وهذا المعنى هو المرادُ في الآية، فإنّ معنى (عَفَا اللّه عَمَّا سَلَفَ)، "أي ما تقدّمَ منَ الذّنوب"[5]، فالحقُّ ﷻ قد عفا عنهم، ما سبقَ من ذُنوبهم.

14) ﴿عَادَ﴾: فعل ماضٍ أجوفُ، وسطه حرفُ علّة، وجذرُه اللّغويُّ (عَوَدَ)، ومعناه "تثنيةُ الأمرِ عَودًا بَعدَ بَدءٍ، بدأ ثمّ عاد، والعَودَةُ مرّةً واحدةً"[6]، وهو الرّجوعُ إلى ما انصرفتَ عنه، إمّا حقيقةً بالذّات، أو قولًا أو عزيمةً[7]، ومعناه في الآية من رجع إلى صنيعِه المنهيِّ عنه من صيدِ المُحرم، ومن معناها أن" يُقَال: عَادَ فلانٌ يفعلُ كذا، أي صار يتعاطاهُ، ومن هذا قولُهُ تعالى: ﴿حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ۝٣٩﴾ [يس: 39]: أي صار كالعُرجُون، قال الشّاعر:

أَطَعتُ العِرسَ فِي الشَّهَوَاتِ حَتَّى *** أَعَادَتنِي عَسِيفًا عَبدَ عَبدِ[8].

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عفو).
(2) السّمين، عمدة الحفّاظ: (عفو).
(3) الأنباريّ، الزّاهر: 1/428.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سلف).
(5) السّمين، عمدة الحفّاظ: (سلف).
(6) الخليل، العين: (عود).
(7) السّمين، عمدة الحفّاظ: (عود).
(8) السّمين، عمدة الحفّاظ: (عود).

15) ﴿فَيَنتَقِمُ﴾: فعلٌ مضارع، الماضي منه (انتَقَمَ) وزنه (افتَعَلَ) مزيدٌ بالهمزة، والتّاء، والجذرُ اللُّغويّ منه (نَقَمَ)، وهذا الجذرُ له أصلٌ لغويٌّ "يدلُّ على إنكارِ شيءٍ وعيبِه، ونقمتُ عليهِ أنقِمُ أنكرتُ عليهِ فعلهُ، والنّقمةُ منَ العذابِ والانتقام، كأنّهُ أنكرَ عليه فعاقبهُ"[1]، وانتقم من خصمِه: عاقَبَه، و"التّأخُّر في الانتقام، يجعلُ الضّربةَ أشدَّ قسوةً - وَمَا انتَقَمَ رَسُولُ اللّهِ ﷺ، لِنَفسِهِ، إلَّا أَن تُنتَهَكَ حُرمَةُ اللّهِ فَيَنتَقِمَ للّه بِهَا - وفي القرآن، قال تعالى: ﴿فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ فَأَغۡرَقۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّ﴾ "[2]، والانتقامُ منَ اللّه تعالى، بمعنى العقوبةِ الشّديدةِ المُؤلمة، لا سيّما وأنّ العائدَ هنا، مُصرٌّ على ارتكاب الجُرمِ المحظورِ، وكأنّه أنكر فَعلتَهُ؛ فعاقبهُ اللّه تعالى.

16) ﴿عَزِيزٌ﴾: صفةٌ مشبّهةٌ دالّةٌ على الثّبوتِ زنةَ (فَعِيلٌ)؛ فعلُهُ (عزَّ يعزُّ)، فهو ﴿عَزِيزٌ﴾، وهو منَ الجذر اللُّغويّ (عَزَزَ)، ثمّ أُدغم المثيلان، فصار (عَزَّ)[3]، و"العِزُّ: خلاف الذُلّ، ومطرٌ عزٌّ، أي شديدٌ، وعزّ الشّيءُ يعزّه وعزّة وعزازة، إذا قلَّ لا يكادُ يُوجد، فهو عزيزٌ، وعزّ فلانٌ يعزّ عِزًّا وعِزَّةً وعَزازَةً أيضًا، أي صار عَزيزًا، أي قوي بعد ذِلَّة، وأعَزَّهُ اللّه، وعَزَزت عليه أيضًا: كَرُمتُ عليه، وقولُه تعالى: ﴿فَعَزَّزۡنَا بِثَالِثٖ﴾ [يس: 14]، يُخفَّف ويُشدَّدُ، أي قوَّينا وشدَدنا... وتعزّز الرّجلُ: صار عزيزًا، وهو يَعتَزُّ بفلان، وعَزَّ عليَّ أن تفعل كذا، وعَزَّ عليَّ ذاك، أي حَقّ واشتدَّ، وفي المثَل: (إذا عَزَّ أخوك فَهُن)[4].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

نزلت هذه الآياتُ عامَ الحُدَيبية، إذ ابتُلي المُؤمنُون وقتَ إحرامهم بالصّيد، وكان صيدًا كثيرًا حتّى كان يأتيهم قريبًا منهم؛ فيأخذونه بأيديهم، وبعيدًا فيأخذونه برماحِهم[5]، والنّهيُ عن قتلِ الصّيدِ في حال الإحرام، شاملٌ لكلّ أحدٍ من ذكور المسلمين وإناثِهم، والمرادُ بالصّيد، كلُّ حيوانٍ متوحّشٍ مأكولٍ لحمُه، والحكمةُ من ذلك النّهي "لأنّ قتله

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نقم).

(2) أحمد مختار، معجم اللّغة العربيّة المعاصرة: (نقم).

(3) والإدغام يأتي لسهولة النّطق، وقد بيّنَه سِيبَوَيه في "باب الإدغام في الحرفين اللّذين تضعُ لسانَك لهما موضعًا واحدًا، لا يزولُ عنه"، فلا ترفع لسانك مرّتين ثمّ تضعُه، بل تضعُه موضعًا واحدًا، وهذه هي الآلية في الإدغام، ممّا تحقّقُ السّهولةَ واليُسرَ في أدائه، فتقول في (عَزَزَ) (عزّ). ينظر: سيبويه، الكتاب: 4/437.

(4) الجوهري، الصّحاح: (عزز).

(5) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 7/30 - 31.

تجبّر، والمُحرمُ في غاية التّذلُّلِ"[1]، فمن قتل شيئًا منَ الصّيد، وهو محرمٌ قاصدًا، فعليه جزاءٌ منَ النَّعَم، مماثلٌ لما قتله في هيئته وصُورته إن وُجد، وإن لم يوجد المماثلُ منَ النَّعم، فقيمتُه حيث صِيدَ، أو في أقرب الأماكنِ إليه "يحكم به رجلانِ من أهلِ العدالةِ والمعرفةِ منَ المؤمنين"[2].

نهيُ المُحرم عن قتل الصّيد حالةَ الاحرام، وكيف يُكفِّرُ قاتلُ الصّيدِ

وقد فصّل القرآنُ في الجزاء، بحيث إنَّهُ "في جَزَاءِ الصَّيدِ مُخَيَّرٌ بَينَ أَن يَذبَحَ المِثلَ مِنَ النَّعَم فَيَتَصَدَّقَ بِلَحمِهِ عَلَى مَسَاكِينِ الحَرَم، وَبَينَ أَن يُقَوِّمَ المِثلَ دراهمَ، والدّراهمُ طعامٌ، فَيَتَصَدَّقَ بِالطَّعَام عَلَى مَسَاكِينِ الحَرَم، أَو يَصُومَ عَن كُلِّ مُدٍّ مِنَ الطَّعَام يَومًا، وَلَهُ أَن يَصُومَ حَيثُ شَاءَ، لِأَنَّهُ لَا نَفعَ فِيهِ لِلمَسَاكِينِ"، ليذوقَ هذا المنتهكُ حرمةَ اللّه، شدّةَ هتكه لحُرمة الإحرام، وثقلَه وعذابَه "، ومقتضى عِزّته تعالى، الانتقامُ من هاتك حُرمتِه، فهو لا محالة ذو انتقامٍ ممّن عصاه"[3].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

الخطاب بالنّداء ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، يَعقبُه أمرٌ مُهمٌّ لا محالةَ:

النّداءُ مع النّهي هنا، لتوكيدِ ما سبقَ وترتيبِ الأحكامِ

بدأ الحقُّ ﷻ هذه الآيةَ، بتعبيرِ ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، ومعناه العامُّ: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ صَدَقُوا اللّه وَرَسُولَهُ)، وهو خطابٌ يُنبئُ عن أمرٍ مُهمّ؛ فهو كما قال الأقدمُون، إمّا أن يليَه أمرٌ، أو نهيٌ، يؤيّده هنا النّهيُ، في قوله: ﴿لَا تَقۡتُلُواْ ٱلصَّيۡدَ﴾ الجملةُ جاءت لغرضين: الأوّل، التّوكيُد لما سبق في فاتحة السّورة من قوله: ﴿غَيۡرَ مُحِلِّي ٱلصَّيۡدِ وَأَنتُمۡ حُرُمٌۗ﴾، [المائدة: 1]، والثّاني؛ لترتيب ما يَعقبُه منَ الأحكام، وذكرَ السّمرقنديُّ في بحر العلوم، أنّ النّداءَ في القرآن على ستِّ مراتبَ: نداءُ مدحٍ، كقوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [نحو: البقرة: 104]، ونداءُ

(1) القاسمي، محاسن التّأويل: 6/2155.
(2) المراغي، تفسير المراغيّ: 7/32.
(3) القاسميّ، محاسن التّأويل: 6/1256.

ذمٍّ، كقوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ [التحريم: 7]، ونداءُ تنبيه، كقوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ [البقرة: 21]، ونداءُ إضافةٍ، كقوله تعالى: ﴿يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرۡضِى وَٰسِعَةٞ﴾ [العنكبوت: 56]، ونداءُ نِسبةٍ، كقوله: ﴿يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَـٰنُ﴾ [الأعراف: 27]، ونداءُ تسميّةٍ، كقوله تعالى: ﴿يَـٰٓإِبۡرَٰهِيمُ أَعۡرِضۡ عَنۡ هَـٰذَآۖ﴾ [هود: 76]، فهاهنا ذكرَ نداءَ المدح بقوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، باعتبار خصوصيّةِ الإيمان، ولكنّ الغرضَ هنا، هو النّهيُ عنِ الصّيد حالةَ الإحرام، والإبانةُ عن حُكمه الشّرعيِّ وكفّارتِه، والبدائلِ الممكنةِ، لإبراء الذّمةِ فيما سمّاه جزاءَ الصّيد، في حالة الوقوعِ في المحظور[1].

الصّيد مصدرٌ للفعل، صار اسمًا للمُصطادِ:

اعتناءُ العربِ بمصطلحات الصّيدِ، دليلٌ على فشُوِّ الظّاهرةِ

﴿لَا تَقۡتُلُواْ ٱلصَّيۡدَ﴾، وقَالَ: ﴿وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآءٞ مِّثۡلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ﴾، وَقَالَ تَعَالَى أيضًا: ﴿لَيَبۡلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلصَّيۡدِ تَنَالُهُۥٓ أَيۡدِيكُمۡ﴾، والصَّيدُ وَإِن كَانَ في الأَصل مَصدَرًا، فقد صَار اسما للمُصطَاد، ونَظِيرُ هَذَا قَولُهم: الخَلق في المخلوق، والنَّسج في المنسُوج... قَالَ أَبُو حَاتم: لَا يُقال لما يُصاد قَنِيص، وَأَجَازَهُ مَرَّة أَبُو عُبَيدَة، خرج يَستَمِي الوحشَ أَي يطلُبها، وهو (يفتعل) من سَموت، قالَ الفَارِسِي وأَبُو سعيد السّيرافيّ: السّمَاة الصَّيَّادُون نِصفَ النَّهار، وَأنشد سِيبَوَيه:

وحَدَّاءَ لَا يُرجَى بهَا ذُو قَرابةٍ *** لعَطفٍ وَلَا يَخشَى السُّمَاةَ رَبِيبُهَا[2].

دَلالةُ (لا) النّاهيةُ الجازمةُ في الآيةِ:

الجزمُ قطعٌ لفظيٌّ، والنّهيُ قطعٌ معنويٌّ

والتّركيبُ اللُّغويُّ هنا، فيه نهيٌ عنِ ارتكاب هذا المُحرّم، بدَلالة (لا) النّاهيةِ الجازمةِ، ناهيةٌ من جهة المعنى، في أنّ معناها الامتناعُ عنِ الفعل، وجازمةٌ من جهة الإعرابِ، فالفعلُ بعدها يكونُ مجزومًا، وثمّةَ

(1) السّمرقنديّ، بحر العلوم: 1/33.
(2) ابن سيده، المخصّص: 2/297.

علاقةٌ بين النّهي والجزم، فالجزمُ معناه القطعُ، وهو مقاربٌ له في النّهي؛ لأنّ النّهي قطعٌ، أي قطعُ العملِ والانتهاءُ عنه؛ فتوافقَ اللّفظُ مع المعنى، ومعلوم أنّ (لا) تفيدُ طلبَ الامتناع عن الفعل، فهي تفيدُ النّهيَ والطّلبَ في آنٍ واحدٍ، كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَعۡجَلۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ مِن قَبۡلِ أَن يُقۡضَىٰٓ إِلَيۡكَ وَحۡيُهُۥۖ﴾ [طه: 114]، بينما (لا) النّافيّةُ إذا دخلت على الجملةِ، تَنفي الحدثَ الحاصلَ، وتَنفي الفعلَ عن الفاعل، كقوله تعالى: ﴿وَمِنۡهُمۡ أُمِّيُّونَ لَا يَعۡلَمُونَ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ وَإِنۡ هُمۡ إِلَّا يَظُنُّونَ ٧٨﴾ [البقرة: 78]، وقوله: ﴿فَمَن يُؤۡمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخۡسٗا وَلَا رَهَقٗا ١٣﴾ [الجنّ: 13].

دَلالةُ إسنادِ الفعلِ لواوِ الجماعةِ:

نـمـاذجُ لـورودِ الـواوِ الـفارقةِ، وواوِ الجماعةِ في السّياقِ

والفعلُ ﴿لَا تَقۡتُلُواْ﴾ هنا مسندٌ لواوِ الجماعةِ، ومتّفقٌ لفظًا مع خطاب الجمعِ، في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، وأصلُ الفعل (تَقتُلُونَ) أسندَه لجماعةِ الحاضرين المخاطَبين، ذكورًا كانوا أم إناثًا، وهذه من خصائصِ هذا الإسنادِ، فضلًا عن أسلوبِ الغلبةِ والعُمومِ الّذي تميّز به الكتابُ الحكيمُ، في قوله ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ فإنّ (الَّذِينَ)، وإن كان لغةً هو اسمٌ موصولٌ، يُستدلُّ به على جماعةِ الذّكورِ، إلّا أنّ الأسلوبَ القرآنيَّ استعملَه للجميع ذكورًا وإناثًا، في نحوِ تسعةٍ وثمانين موضعًا منَ القرآنِ الكريم، فلمّا دخلت (لا) النّاهيةُ على (تَقتُلُونَ)، جزمتهُ بحذف النّونِ؛ فصارَ (تقتُلُوا) (لَا تَقتُلوا)، ثمّ زِيدت الألفُ الفارقةُ، وهي الّتي تُفرّقُ بين الواو الّتي من أصل الكلمةِ، مثلَ قولِه تعالى: ﴿فَسَوۡفَ يَدۡعُواْ ثُبُورٗا ١١﴾ [الانشقاق: 11]، والواو الّتي تدلّ على الجماعة مثلَ قولِه تعالى: ﴿وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ﴾ [آل عمران: 104]، وقولِه: ﴿فَرِحَ ٱلۡمُخَلَّفُونَ بِمَقۡعَدِهِمۡ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾ [التّوبة: 81]، ثمّ غدت عامّةً عندَ الإسنادِ للجمعِ في الأفعال الخمسةِ، ولو كان الفعلُ منتهيًا بحرفٍ صحيحٍ، على نحوِ قولِه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعۡلِنُونَ ١٩﴾ [النّحل: 19].

دَلالةُ استعمالِ لفظِ (القتل) لا لفظِ (الذّبح) في الآيةِ:

الـذّبـحُ يـكـونُ بـطـريـقـةٍ مـخـصـوصـةٍ، والـقـتـلُ طُـرقُـه شتّى كالصّيدِ

نهاهم عنِ قتل الصّيد، واستعمَل لفظَ القتل هنا، ولم يستعمل لفظَ الذّبح مثلًا، لـ "أَنّ الذّبحَ عملٌ معلومٌ، والقتلُ ضروبٌ مختلفةٌ"[1]، فالمصطادُ أو المعبَّرُ عنه بالصّيد، قد يُقتلُ بطُرقٍ مختلفةٍ؛ بحجرٍ، أو سَهمٍ، أو رُمحٍ، أمّا الذّبحُ فيكونُ بهيئةٍ مخصوصةٍ معيّنةٍ، فصّلت فيها الشّريعةُ الإسلاميّةُ، ثمّ إنّ غالبَ المذبوح يكونُ منَ الحيوانات الدّاجنةِ، وغالبُ الصّيد من حيواناتِ البراريّ، وهذا فرقٌ ثانٍ.

الألفُ واللّامُ في (الصّيد) عهديّةٌ:

معنى الصّيد يشملُ كلَّ أنواعه البرّيّ والبحريّ إلّا ما استُثني

وقد بانَ سابقًا أنّ الصّيدَ هنا بمعنى المُصطاد، فهو مصدرٌ استُعملَ مفعولًا به، والظّاهرُ في معنى الصّيد أنّه يشمل كلَّ أنواع الصّيدِ البريِّ والبحريِّ؛ لأنّ الألفَ واللّام في (الصّيد) عهديّةٌ، مذكورةٌ في آية سابقةٍ، وهي في الحالين تدلُّ على العُموم والاستغراقِ، إلّا ما جاء فيه تخصيصٌ، كقوله تعالى: ﴿وَحُرِّمَ عَلَيۡكُمۡ صَيۡدُ ٱلۡبَرِّ مَا دُمۡتُمۡ حُرُمًاۗ﴾ [المائدة: 96]، ثمّ إنّ الدّليلَ العقليَّ يُؤيّده في عدم دخولِ "صيدِ البحرِ، إذ ليسَ في شيءٍ من مساحةِ الحرم بحرٌ ولا نهرٌ"[2]، وقد يكون استثناءً كقوله ﷺ: «خَمسٌ فَوَاسِقُ، يُقتَلنَ في الحَرَمِ: الفَأرَةُ، وَالعَقرَبُ، وَالحُدَيَّا، وَالغُرَابُ، وَالكَلبُ العَقُورُ»[3].

جملةُ (لاَ تَقتُلُوا الصَّيدَ) بين الحقيقةِ والمجازِ:

مـعـالـجـةُ الصّيدِ حقيقةً بـأيـديـهـم، أو مجازًا بالتّسبُّب في قتلِه

وجملةُ ﴿لَا تَقۡتُلُواْ ٱلصَّيۡدَ﴾، تحتملُ الحقيقةَ بأن يُعالجوا الصّيدَ بأيديهم حقيقةً، وتحتملُ المجازَ بأن يكونوا سببًا في قتلِه وصيدِه، كاستعمالِ الكلابِ والطّيورِ ونحوِها، وهذا يدخلُ في باب المَجاز المُرسَلِ[4]، ذي العلاقةِ السّببيةِ، وكلُّه داخلٌ في النّهيِ حقيقةً، أو

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 104.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/42.
(3) البخاريّ، الحديث رقم: (3314).
(4) ما كانت العلاقةُ بين ما استعمل فيه، وما وضع له ملابسةً ومناسبة غير المشابهة، كاليد إذا استعملت في النّعمة، لما جرت به العادة من صدورها عنِ الجارحة، وبواسطتها تصلُ إلى المقصود بها. ينظر: الصّعيديّ، بغية الإيضاح: 3/462 - 463.

مجازًا، فـ"قولهُ: (لا تقتُلوا) يفيدُ المنعَ منَ القتلِ ابتداءً، والمنعَ منهُ تَسبُّبًا، فليسَ لهُ أنّ يتعرَّضَ إلى الصَّيدِ ما دامَ محرمًا، لا بالسِّلاحِ ولا بالجوارحِ منَ الكلابِ والطُّيور"[1].

الاختلافُ في الصّيدِ المنهيِّ عن قتلِه:

النّهيُ عنِ الصّيد المأكولِ، لكونِه عبَّر بالقتل، ولم يُعبِّر بالذّبحِ

ثمّ اختلفُوا في الصّيدِ المنهيِّ عن قتله، هل هو ممّا يُؤكلُ؟ أم يشملُ الآخرَ ممّا لا يُؤكلُ؟ كالسّباع ونحوِها، والرّاجحُ أنّه ممّا يُؤكلُ، وآيةُ ذلك دليلان: الأوّلُ؛ أنّ الصّيد لغير حاجةِ الأكلِ مَنهيٌّ عنه، كقوله ﷺ: «لَا تَتَّخِذُوا شَيْئًا فِيهِ الرُّوحُ غَرَضًا»[2]، أي لا تتّخذُوا منَ الحيوان هدفًا تَرمون عليه سهامَكم؛ ففي ذلك لهوٌ ولعبٌ بالرّوح الّتي خلقَها اللّه، ولو كان الصّيدُ للأكل لجازَ، والدّليل الثّاني؛ أنّه عبَّر بالقتل، ولم يعبِّر بالذّبح؛ لأنّ الذّبحَ يُعبِّرُ عنِ التّذكيةِ الشّرعيّةِ، وليس الأمرُ ههنا، بل القتلُ يدلُّ على إماتة الحيوانِ لغرضِ اللهوِ، أو التّخلّصِ من شرّه وأذاه، كالسّباعِ ونحوِها المذكورةِ في الحديثِ الشّريفِ.

معنى الواوِ في جملةِ (وأنتُم حُرمٌ):

الواو حاليةٌ، إذ تحريمُ الصّيدِ في أوقاتٍ محدّدةٍ، لأنَّ الإحرامَ أمرٌ مؤقّتٌ

إذن المعنى لا تصطادوا ما حرّمه اللّه عليكم، في أوقاتٍ محدّدةٍ، فهو تحريمٌ مؤقّتٌ بوقتٍ، وآيةُ ذلك قولُه تعالى بعده: ﴿وَأَنتُمْ حُرُمٌ﴾، الواو واوُ الحال، والجملةُ بعده منَ المبتدأ والخبرِ في موضعِ نصبٍ على الحال، والحالُ "يُطلقُ لغةً على الوقتِ فيه، وعلى ما عليه الشّخصُ من خيرٍ أو شرٍّ"[3]، أمّا اصطلاحًا فهو "فضلةٌ دالّةٌ على هيئةِ صاحبِه... ويغلبُ انتقالُه إلّا في مؤكّدِه، وقيل: يُشترط لزومُها وانتقالُ غيرِها"[4]، والحال تدلُّ على التّغيّر والتّبدّلِ، والعربُ تقول:

(1) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 12/93.
(2) مسلم، الحديث رقم: (1957).
(3) الصّبّان، حاشية الصّبان على شرح الأشموني لألفيّة ابن مالك: 2/250.
(4) السّيوطي، همع الهوامع: 2/293.

(دوام الحال منَ المحال)، ومعنى الجملةِ هنا أنّه حرَّم عليهم قتلَ الصّيد في حالِ كونِهم حُرُمًا، فعبّر عن هذا التّحريمِ بالحاليةِ المتغيّرةِ غيرِ الثّابتةِ؛ لأنّ الإحرامَ أمرٌ متغيّرٌ غيرُ ثابتٍ لا يمكن أن يَستمرَّ، وإنّما هو مقيَّدٌ بوقتٍ من حجٍّ أو عمرةٍ.

الدَّلالةُ الصّرفيةُ لكلمة (حُرُم) في الآيةِ:

لفظُ (حُرُم) جمعُ مكسّر للمذكّر والمؤنّث، يشملُ الرّجالَ والنّساءَ

﴿حُرُمٌ﴾ فيه دليلٌ على أنّ هذا الحُكمَ يَشملُ الرّجالَ والنّساءَ، بقرينةِ الدَّلالةِ الصّرفيةِ للكلمةِ، فإنّ ﴿حُرُمٌ﴾ زنةُ (فُعُل)، جمعُ مكسّر يدلُّ على الكثرةِ، والأصلُ في جمعِه لكلِّ اسم رُباعيٍّ قبل آخرِه مدٌّ صحيحُ الآخِر، مذكّرًا كان أو مؤنّثًا "يُقالُ رَجُلٌ حَرَامٌ وامرأَةٌ حَرامٌ، وجَمعُ ذلكَ حُرُمٌ"[1] فقولُه: ﴿حُرُمٌ﴾ يدخلُ فيه المذكّر والمؤنّث، فهو حُكمٌ شرعيٌّ مُستنبَطٌ منَ الدَّلالةِ الصّرفيّةِ.

دَلالةُ عطفِ (وَمَن قَتَلَهُ مِنكُم) على ما سبَقَ:

أثرُ الزّمنِ الصّرفيِّ، والزّمنِ النّحويِّ، في دَلالةِ فِعلِ الشَّرطِ

ثمّ عقّبَ الحقُّ ﷻ بقولِه: ﴿وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم﴾، وهو عطفٌ على ما سبقَ منَ النّهيِ الواردِ في القتلِ، يُفيدُ التّحذيرَ والاستثناءَ في المعنى، فإنّه نَهى عنِ القتل هناك، إلّا أنّه سيُوجدُ من لا ينتهي عن ذلك؛ فعبّر عنه بالاسم الدّالِّ على الشَّرطِ ﴿وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم﴾ وهو اسمٌ لما يُعقلُ، والفعلُ (قتلَه) فعلُ الشّرط له زمنان: الأوّلُ؛ زمنٌ صرفيٌّ، وهو الماضي بدَلالة الصّيغةِ (قَتَلَ) (فَعَلَ)، والزّمنُ الثّاني؛ الزّمنُ النّحويُّ، وهو المستقبلُ؛ لأنّ فعلَ الشّرط، الأصلُ فيه أن يكونَ للمستقبل؛ لأنّه تعليقٌ، ومعنى (من قتلَه): (من يقتلُه) في المستقبل.

الدَّلالةُ على الحاليةِ في اسمِ الفاعلِ (متعمِّدًا):

﴿مُّتَعَمِّدًا﴾ اسمُ فاعل منَ التّعمُّد، وهو القصدُ خلافُ الخطأ، وهو هنا حالٌ، والحالُ لا تدلُّ على الثّبوتِ، كنايةً عن أنّ التّعمّدَ لا

(1) ابن العربيّ، أحكام القرآن: 2/177.

يحصلُ كثيرًا، والتّعمّدُ المقصودُ والّذي له كفّارةٌ "أنّ يقتلَه وهو ذاكرٌ لإحرامه، أو عالمٌ أنّ ما يقتلُه ممّا يحرمُ عليه قتلُه"[1]، أمّا إن قتلَه بطريق الخطأ أو النّسيانِ، فالظّاهرُ أنّه ليس عليه شيءٌ؛ لأنّه لا يمكنُ لغةً دخولُ الخطأ والنّسيانِ في معنى التّعمُّدِ والقَصدِ.

الفرقُ الدّلاليُّ بين (الخطءِ) و(الخطأ) في السّياقِ القُرآنيّ

قال الصَّفَديّ: "ويقولونَ لمَن أتى الذّنبَ مُتعَمِّدًا: أخطأَ، فيُحَرِّفون اللّفظَ والمعنى؛ لأنّه لا يُقال أخطأ إلّا لمَن لم يتعمّدِ الفعلَ، أو لمَن اجتهد فلم يُوافِق الصّوابَ، وإيّاه عَنى النّبيُّ ﷺ بقوله: «إذا اجتهدَ الحاكمُ وأخطأ فلَه أجرٌ»[2]، وإنّما أوجبَ له الأجرَ عنِ اجتهاده في إصابة الحقّ الّذي هو نوعٌ من أنواع العبادةِ، فأمّا المُتَعَمِّدُ الشّيءَ، فيُقال له: خَطِئَ، فهو خاطِئٌ، والمصدر الخِطءُ بكسر الخاء وإسكان الطّاء، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ۝٣١﴾، وقال الحريريّ رحمه الله تعالى:

لا تخطُوَنّ إلَى خِطءٍ وَلَا خَطَأٍ *** مِن بَعدِ مَا الشَّيبُ في فَودَيكَ قَد وَخَطَا
وَأَيُّ عُذرٍ لِمَن شَابَت مَفَارِقُهُ *** إذَا جَرَى في مَيادِينِ الهَوى وَخَطَا"[3].

دَلالةُ المعنى في قراءةِ الكُوفيّين ويعقوبَ للفظِ (جزاءٌ) بالتّنوين:

توجيهُ المعنى في قراءةِ الجمهور بالإضافةِ والحذف

﴿فَجَزَآءُ﴾ هنا نكرةٌ منونّةٌ، وقد قرأها هكذا "الكوفيّونَ ويعقوبُ ﴿فَجَزَآءٌ﴾ بالتّنوينِ، وقرؤُوا ﴿مِّثْلُ﴾ برفعِ اللّامِ، وقرأَ الباقونَ بغيرِ تنوينٍ، وخفضِ اللّامِ"[4]، وعلى قراءةِ الكُوفيّين ﴿فَجَزَآءٌ مِّثْلُ﴾ تكون ﴿مِّثْلُ﴾ صفةً لجزاء "أي فعليه جزاءٌ مماثلٌ لما قتل"[5]، ويجوزُ فيها البدلُ، وهو حسنٌ؛ لأنّ معنى الجزاءِ هنا العوضُ والبدلُ، ويجوز

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/293.
(2) الإمام أحمد، المسند، الحديث رقم: (755)، وأبو داود، السنن ، الحديث رقم: (3574)، وغيرهما.
(3) الصّفديّ، تصحيح التّصحيف، ص: 87.
(4) ابن الجزري، النّشر: 2/255.
(5) النّويريّ، شرح طيّبة النّشر: 2/291.

فيه الوقفُ[1] والوقفُ عليه يَستحضرُ بعضًا منَ المعاني التّي تشدُّ السّامعَ؛ فإنّ في تنكيره تعظيمًا وتخويفًا، أي أنّه أكبرُ وأعظمُ من أن يُعيّنَ ويُعرّفَ، وغايتُه التّخويفُ ممّا سيحلُّ بمرتكبِ الجُرم الّذي استحقّ عليه الجزاءَ، ولعلّه أبلغُ منَ القراءةِ الأخرى بالإضافة ﴿فَجَزَآءُ مِثْلِ﴾؛ لأنّ الجزاءَ هنا قد عُلم منَ الإضافة؛ لأنّ المضافَ والمضاف إليه كالكلمةِ الواحدةِ، والتّقديرُ على هذه القراءة "فجزاءُ إضافتِه إلى مِثل؛ لأنّه مفعولُه، وجرُّه بها إضافة لفظيّة، أي فعليه أنّ يُجزى المقتولُ مثلَه، ثمّ حُذفَ الأوّلُ وأضافه للثّاني"[2].

وعلى القراءة الأولى ثمّةَ حذفٌ للخبر، والتّقديرُ (فعلى القاتل جزاءٌ مثل ما قتل منَ النّعم)، وهذا التّقديرُ فيه إيجازٌ بالحذف؛ لأنّه مذكورٌ سابقًا بدَلالةِ قولِه ﴿وَمَن قَتَلَهُۥ﴾، فكلُّ قراءةٍ فيها دَلالةٌ لُغويّةٌ مختلفةٌ، و(ما) هنا موصولةٌ، تقديرُ الكلام: (فجزاءُ مثلِ الّذي قتل منَ النّعم).

الفرقُ بين كافِ التّشبيه وبين المِثل في قوله: ﴿فَجَزَآءُ مِّثْلُ﴾:

مفهومُ المشابهةِ نسبيٌّ في الاستعمالِ والتّشبيهِ

يرى أبو هلالٍ العسكريُّ " أَنّ الشَّيء يُشبّه بالشَّيء، من وَجهٍ وَاحِدٍ، لَا يكونُ مثلَه في الحَقِيقَةِ إِلَّا إِذا أشبهَه من جَميع الوُجُوه لذاته، فَكَأَنّ اللّه تَعَالَى لما قَالَ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾، أَفَادَ أَنّه لَا شِبه لَهُ وَلَا مِثل، وَلَا كَانَ قَولُه تَعَالَى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾، نفيًا أَن يكون لمثله مثيلٌ، لَكَانَ قَولُنَا (لَيسَ كَمثل زيد رجلٌ) مناقضةً؛ لِأَنّ زيدًا مثلُ من هُوَ مثله، والتّشبيه بِالكَاف، يُفِيد تَشبِيه الصِّفَات بَعضهَا ببَعض، وبالمثل يُفِيد تَشبِيهَ الذّوات بَعضِهَا ببَعض، تَقول (لَيسَ كزيد رجلٌ)، أَي فِي بعض صِفَاته، لِأَنّ كلَّ أحدٍ مثلُه فِي الذَّات، وَ(فُلَانٌ كالأسد) أَي فِي الشّجَاعَة دون الهَيئَة وَغَيرهَا من صِفَاته، وَتقول السّوَاد كالبياض، وَلَا تَقول: مثل البيَاض[3].

(1) الأشموني، منار الهدى: 1/225.
(2) النّويريّ، شرح طيبة النّشر: 2/291.
(3) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 314.

﴿مِنَ﴾ هنا حرفُ جرٍّ لبيان الجنسِ:

قولُه (جزاء) بقي معناه مجهولًا حتّى بيّنه بقوله: (من النّعَم)

﴿مِنَ﴾ هنا حرفُ جرٍّ لبيان الجِنسِ، أو لبيان المُبهم الواردِ في السّياق، وهذا الجزاءُ و﴿مِنَ ٱلنَّعَمِ﴾ أي كائنٌ مِنَ النَّعَم صفةٌ لجزاء، والصّفةُ تبيّنُ الموصوف، فإنّه لمّا قال: ﴿فَجَزَآءٌ﴾، بقي المعنى مجهولًا حتّى بيّنَه بقوله ﴿مِنَ ٱلنَّعَمِ﴾، وهو اسمُ جمعٍ لا واحدَ له من لفظه، بل من معناه، يدلُّ على الإبل، ومفردُه من معناه جملٌ، أو ناقةٌ، أمّا معنى المماثلةِ في القيمة، بأن " يقوِّمَ الصّيدَ المقتولَ، ثمّ يَشتري بقيمته طعامًا منَ الأنعام، ثمّ يَهدِي؛ وهو قولُ النّخعيّ وعطاء، وأحدُ قولي مجاهد، وبه قال أبو حنيفة وأبو يوسف، يشتري بالقيمة هديًا، إن شاء، وإن شاء اشترى طعامًا، فأعطى كلَّ مسكين نصفَ صاعٍ، وإن شاء صامَ عن كلِّ نصفِ صاعٍ يومًا"[1]، فيُذبحَ في الحرَم، ويُفرّقَ على المساكين، وفيه أقوالٌ أخرى تتأرجحُ بين أن "يشتري بالقيمة هديًا... وإن شاء اشترى طعامًا... وإن شاء صام"[2].

إضافةُ النّكرةِ إلى النّكرةِ يُفيدُ التّخصيصَ، في قولِه: ﴿ذَوَا عَدْلٍ﴾:

الحُكمُ في قوله: (يَحكُمُ) منَ المجازِ؛ والمقصودُ أن يحكُمَ ذوَا العدل بحُكمِ الله

﴿يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾، أي يفصلُ في هذه القضيّةِ صاحبَا عدلٍ يتّصفانِ بالإنصافِ، والحقِّ "فقيهانِ عالمانِ من أهلِ الدِّين والفضلِ"[3]، وإضافةُ ﴿ذَوَا﴾ إلى ﴿عَدْلٍ﴾ أفادتِ التّخصيصَ، لأنَّ المضافَ إليه نكرةٌ، وهو ﴿عَدْلٍ﴾، والمضافُ إليه يقعُ موقعَ النّكرةِ[4]، هو ﴿ذَوَا﴾ وإضافةُ النّكرةِ إلى النّكرة يُفيدُ التّخصيصَ، وفيه إشارةٌ إلى حُكم ذوِي عدل، أي ذَوِي عدلٍ رفعًا لتوهُّمِ أنّ

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/365.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/365.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 10/22.
(4) لقول ابن مالك:
نكرة قابل أل مؤثرا *** أو واقع موقع ما قد ذكرا
فالواقع موقعَ ما قد ذكرا، فمثالُه لفظةُ (ذو) الّتي بمعنى صاحب.
ينظر: شرح ابن عقيل على ألفيّة ابن مالك: 1/86.

يكونا شخصينِ معلومينِ، كما وردَ في خبر "ابن جريرٍ البجليّ قالَ: أَصبتُ ظبيًا وأنا محرمٌ، فذكرتُ ذلكَ لعمرَ، فقالَ ائتِ رجلينِ من إخوانك، فليحكمَا عليكَ، فأتيتُ عبدَ الرَّحمنِ وسعدًا، فحكمَا عليَّ بتيسٍ أَعفرَ"[1]، والباء حرفُ جرّ للاستعانة، وقولُه ﴿مِّنكُمْ﴾ من للتّبعيض، أي منَ المخاطَبين بقوله ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، فلا يَحكمُ مَن كان مِن غيرِ المسلمين، وفعلُ الحَكَم هنا ليس على بابه، بل هو منَ المجاز؛ لأنّ الحكمَ كلَّه للّه، وإنّما الحكمُ المقصودُ هنا أنّ يحكمَ ذوَا العدل بحُكم اللّه؛ لأنّ الحُكمَ لا يكونُ للمخلوقين، وقد ورد مثلُ هذا التركيبِ القرآنيِّ مرّةً أخرى، في قوله تعالى: ﴿وَأَشْهِدُواْ ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ [الطّلاق: 2].

دَلالةُ قولِه تعالى: ﴿هَدْيًا بَـٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ﴾ بين الحاليّةِ والمصدريّةِ والتّمييز:

التّغايُرُ الإعرابيُّ يُحدّدُ دَلالاتِ المعاني ويُنوّعُها

﴿هَدْيًا بَـٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ﴾ الهديُ ما يُهدَى إلى الحرَم منَ الأنعام، كالإبل ونحوِها، ويُوزَّعُ على فقراءِ الحرَم ومساكينِه، وهديًا اسمٌ منصوبٌ على الحال، ويجُوز أن يكون مفعولًا مُطلقًا مبيِّنًا للنّوع؛ لأنّه موصُوف بما بعدَه، وهو يُفيد التّوكيدَ، فضلًا عن بيانه النّوعَ، تقديرُه (يُهدِي هديًا بالغَ الكعبة)، وقد يكون منصوبًا على التّمييز، وهو يفيدُ التّبيينَ و"﴿بَـٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ﴾ لفظُه لفظُ معرفةٍ، ومعناه النّكرةُ، المعنى بالغًا الكعبةَ، إلّا أنّ التَّنوينَ حُذِف استخفافًا"[2]، والمعنى أن يَحكَم به ذوَا عدلٍ، ويكونُ حكمُهما على القاتل أن يقدّمَ هديًا يُساق إلى حرَمِ الكعبةِ، ويُنحرُ هناك.

بَلاغةُ الحذف في قولِه: ﴿هَدْيًا بَـٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ﴾:

﴿هَدْيًا بَـٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ﴾ ثمّة حذفٌ، والتّقديرُ بالغَ حرم الكعبة؛ لأنّ الشّرطَ والحُكمَ فيه أن "يبلغ بالهدي الحرمَ فيُنحرَ، ويُتصدّقَ

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 3/194.
(2) الزّجاج، معاني القرآن وإعرابه: 2/208.

به على مساكينِه"، لكن "لما كان المقصودُ من بلوغ الهديِ إلى الحرمِ، تعظيمَ الكعبة، ذكرَ الكعبةَ تنبيهًا على ذلك، وقيل: معناه بالغٌ حرمَ الكعبةِ"[1]، فحَذفُ المضافُ هنا واقعٌ، وهو جائزٌ لغةً؛ لأنّ الشّرطَ في حذف المضافِ صحّةُ الاستغناءِ عنه، وإقامةِ المضاف إليه مقامَه، مع بقاءِ المعنى العامِّ موجودًا، هذا من جهة، ومن جهة ثانية فإنّ ﴿بَٰلِغَ ٱلۡكَعۡبَةِ﴾، وإن كان ظاهرًا إضافتُه للمعرفةِ، إلّا أنّ لفظَه لفظُ المعرفةِ، ومعناه معنى النّكرةِ؛ لأنّه يقع صفةً للنّكرة ﴿هَدۡيًا﴾، والصّفة تبعٌ للموصوف، ومعنى ذلك أنّه ليس من باب النّكرةِ المحضةِ الّتي تفيدُ التّعريفَ عند إضافتِها للمعرفةِ، وفي ذلك إيماءةٌ لما تقدّمَ من أنّ التركيبَ ليس على ظاهره من بلوغ الهدي الكعبةَ حقيقةً، بل الهديُ حدودُه الحرمُ، وإنّما ذُكرتِ الكعبةُ تشريفًا وتعظيمًا لها؛ فتناسبَ الأمرُ من هذه الجهة في أنّ لفظَ (بالغ)، وإن كان مضافًا للمعرفة (الكعبة)، إلّا أنّه لا يَكتسبُ التّعريفَ؛ لأنّ بلوغَه غيرُ حقيقيٍّ، وهو تناسبٌ لطيفٌ يُستدلُّ عليه من حذف المضاف، وإقامةِ المضاف إليه مقامَه.

الأصـــلُ بـلـوغُ الحرمِ بالهدي، ولـكـنّـهُ قُـيِّـدَ بالكعبة تعظيمًا لها

معنى العطفِ في قولِه تعالى: ﴿أَوۡ كَفَّٰرَةٞ طَعَامُ مَسَٰكِينَ﴾:

﴿أَوۡ كَفَّٰرَةٞ طَعَامُ مَسَٰكِينَ﴾ خيّرَ الحقُّ ﷻ الّذي يقتلُ الصّيدَ، وهو مُحرمٌ بينَ الهديِ والكفّارةِ، وهي قُربةٌ شرَعها اللّه لسَترِ الخطايا والذّنوبِ، بأن يقدِّمَ الطّعامَ للفقراء المُعدَمين، نظيرَ ما ارتكبَ، و(أو) هنا حرفُ عطفٍ له معانٍ عدّةٌ، ومن أشهرِ معانيه التّخييرُ، وهو هنا المقصودُ، و﴿كَفَّٰرَةٞ﴾ بصيغةِ (فَعَّالَة)، وتُؤدّي معنى المبالغةِ بعد المبالغةِ، فصيغةُ (فَعَّال)، تؤدّي معنى المبالغة، ثمّ زيد عليها تاءُ المبالغةِ، فكأنّ فيها مبالغَتَين تَشديدًا وتحذيرًا، من هذا المرتكَبِ، وقولُه: ﴿طَعَامُ﴾ عطفُ بيانٍ لكفّارة؛ لأنّ قولَه (كفّارة) لا يُوضحُ

دَلالةُ المبالغةِ في قوله: (كفّارةٌ)، لـلـتّـشـديـدِ في الـتّـحـذيـرِ مـنَ المرتكَبِ

(1) الرّازي، أنموذج جليل، ص: 114.

المقصودَ، فبيّنَه بقولِه: ﴿طَعَامُ﴾ وأضافَه إلى ﴿مَسَٰكِينَ﴾، فتبيّنَ الأمرُ وانكشف، وهو حالُ عطفِ البيان، في أنّه يُشبه النّعتَ في كشفه عنِ المراد، وقد يكون بدلًا للشّبه الكبيرِ بين البدلِ وعطفِ البيان.

الجانبُ البلاغيُّ لقراءةِ ﴿أَوۡ كَفَّٰرَةٞ طَعَامُ مَسَٰكِينَ﴾ بالتّنوين:

زيـــادةُ عُـنـصـرِ الـتّـشـويـقِ في الأسـلـوبِ القرآنيِّ

﴿أَوۡ كَفَّٰرَةٞ طَعَامُ مَسَٰكِينَ﴾، قرأ الكوفيّون وأبو عمرو بتنوينِ ﴿كَفَّٰرَةٞ﴾ورفعِ ﴿طَعَامُ﴾، وإضافتِه إلى ﴿مَسَٰكِينَ﴾ في كلِّ الأحوالِ، وعلى أن يكون ﴿طَعَامُ﴾ بدلًا أو عطفَ بيانٍ، فيما قرأ "المدنيّان وابنُ عامرٍ ﴿كَفَّٰرَةُ﴾ بغيرِ تنوينٍ ﴿طَعَامُ﴾ بالخفضِ على الإضافةِ"[1]، والفرقُ واضحٌ بين تخريجِ القراءتَين عندَ النّحويين، وفي دَلالةِ كلِّ قراءةٍ، ويمكن القولُ: إنّ الأثرَ الدّلاليّ والبلاغيَّ أقوَى في قراءةِ التّنوين من قراءة الرّفع من دون تنوين، لثلاثة أسبابٍ: الأوّلُ؛ أنّ قراءة التّنوين تشتملُ على دَلالتين في التّركيبِ اللّغويِّ، أحدُهما؛ الدّلالةُ النّحويّةُ لـ (كفّارة) وهي أنّها معطوفةٌ على ما سبق، والدّلالةُ الثّانيةُ لـ (طعام مساكين)، وهي أنّها عطفُ بيان، أو بدلٌ، أمّا التّركيب على القراءة الثّانية من دون تنوين، فذو دَلالةٍ واحدةٍ، وهي العطفُ على ما سبق، أي عطفُ ﴿كَفَّٰرَةٞ طَعَامُ مَسَٰكِينَ﴾، بجملته على ما سبَقَ، أمّا السّبب الثّاني لقوّة الأثرِ البلاغيِّ والدّلاليِّ لقراءة التّنوين، فهو احتواؤُه على عُنصرِ التّشويقِ في الأسلوبِ القرآنيِّ؛ فقولُه: ﴿كَفَّٰرَةٞ﴾ بالتّنوين، والوقوفُ عليه ممّا يُولّدُ التّشويقَ لدى السّامِعِ، مُنتظِرًا معرفةَ هذا الحُكم الشّرعيِّ، وهو الكفارةُ، فيأتي عطفُ البيان ليبيّنَ هذا الحكمَ، فكأنّ التّنوينَ يأتي مُهيّئًا لتلقّي نوعِ الجزاءِ لدى السّامعِ، والسّببُ الثّالث في قراءة التّنوين وعدم إضافةِ الكفّارة إلى الطّعام، "لأنّ الكفّارةَ ليست للطّعامِ، وإنّما الكفّارةُ لقتلِ

(1) ابن الجزريّ، النّشر: 2/255.

الصَّيدِ"[1]، وهذا ليس موجودًا في قراءة الرّفع؛ لأنّ الخيارَ الثّاني ﴿أَوْ كَفَّرَةٌ طَعَامُ مَسَٰكِينَ﴾، سيأتي جملةً واحدةً من دون توقّفٍ وانتظارٍ للحُكم؛ لأنّه يمثّلُ الحكمَ بأجمَعه.

التّخييرُ بـ(أو) في قولِه: ﴿أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا﴾:

دَلالةُ التّرتيبِ في حـرف العطف (أو) في الآيةِ

﴿أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا﴾، ﴿أَوْ﴾ حرفُ عطفٍ للتّخيير، و﴿عَدْلُ﴾ معطوفٌ على ﴿كَفَّرَةٌ﴾، أو على ﴿فَجَزَآءٌ﴾، وهو مضافٌ و﴿ذَٰلِكَ﴾ مضافٌ إليه، وهو اسمٌ مركّبٌ من (ذا) الإشارةِ ولامِ البُعد وكافِ الخطاب، و﴿صِيَامًا﴾ تمييزٌ منصوبٌ كقولهم: (لي مثلُه رجلًا)، أي أنّه خيَّره في الثّالثة أنْ يكون مثلُ ذلك صيامًا، بأن "يصومَ عن كلِّ مُدٍّ منَ الطَّعام يومًا، ولهُ أن يصومَ حيثُ شاءَ؛ لأنّهُ لا نفعَ فيهِ للمساكينِ"[2]، ويجوزُ في حرف العطفِ (أو) أن تكون للتّرتيب مثلما رُوِيَ عن بعض السّلفِ[3]، أي أن يأتيَ بها بَدءًا منَ الهديِ، فإن لم يستطع فإطعامُ المساكين، فإن لم يستطع، فصيامٌ بقدر ذلك الإطعامِ، وفي ذلك فائدةٌ للفقراء والمساكين، وهو أمرٌ قد لا يتحقّقُ لو جُعلت أو للتّخييرِ؛ لأنّ الصّيامَ ليس فيه منفعةٌ للفقير.

الفرقُ المُعجميُّ بين التّعبير(بالعَدل) بفتح العين، دون (العِدل) بكسرها:

الـحُـكـمُ بفتح عـين (عَـــدل)، دليلٌ على يُسر الأحكامِ، ولُطفِ التَّشريعِ

وثمّةَ لفظٌ آخر يختلفُ مُعجميًّا عنِ (العَدل) بفتح العين، هو (العِدل) بكسرها فـ"الفرقُ بين العَدل والعِدل أنّ العِدل بالكسرِ: المِثل، تقول: (عندي عِدل جاريتك)، فلا يكون إلّا على جاريةٍ مثلِها، والعَدل من قولك: (عندي عَدل جاريتك)، فيكون على قيمتها من الثّمن ومنه"[4]، والمقصودُ في الآيةِ العَدلُ بفتح العين، ومعناه أنّه يأتي بمثلِ ما قتلَ منَ النَّعم، فإن لم يجد دفعَ الثّمنَ؛ ولأنّه لو عبّر بالعِدل

(1) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 12/101.
(2) البغويّ، معالم التّنزيل: 3/98.
(3) القاسميّ، محاسن التّأويل: 6/2157.
(4) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 155.

مكسورةً، لوجبَ على القاتل أن يأتيَ بمثلِ ما قتل تمامًا، وفي ذلك حرجٌ كبيرٌ على المُسلم، فجاء بالتّعبيرِ الأنسبِ والأيسرِ على الإنسانِ.

التّعبيرُ بالمضارعِ في قولِه: ﴿لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِۦ﴾، وبالمُضيّ في مواضعَ أُخرى:

﴿لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِۦ﴾، وهو تركيبٌ لُغويٌّ فريدٌ وردَ في القرآنِ الكريمِ في ثلاثةِ مواضعَ خلا الموضعَ الّذي نحن بإزائِه، فقد ورد في: [الحشر15]، و[التّغابن: 05]، و[الطّلاق: 09]، وينفردُ هذا التّركيبُ هنا بمجيئِه بصيغةِ المضارعِ، فيما جاء فعلًا ماضيًا في المواضعِ الأُخرى، أي أنّ المعنيَّ بالأمرِ في تلك المواضعِ (قد ذاقَ وبَالَ أمرِه)، كقولِه تعالى: ﴿كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًاۖ ذَاقُواْ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝١٥﴾ [الحشر: 15]، فهؤلاء قد ذاقوا وبالَ أمرهم وانتهى، أمّا ههنا فقد عبَّر عنه بالفعل الدّالِّ على الحالِ، أو الاستقبالِ، أي منِ ارتكبَ هذا المرتكَبَ فسيذوقُ وبالَ أمرِه.

الـزّمـنُ الملائـمُ للفعل، تأكيدٌ على عِلـمِ الله بـمـا كـان ومـا سيكونُ

غرَضُ الالتفاتِ منَ الخطابِ إلى الغَيبةِ:

وفيه التفاتٌ منَ الخطابِ إلى الغيبةِ؛ لأنّه صدَّر الأمرَ بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، ثمّ انتقلَ إلى قوله: ﴿لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِۦ﴾، وفي ذلك تطريةٌ وتنشيطٌ للسّامع، وهو أكثرُ ذمًّا لهم بهذا الالتفاتِ، وتشنيعًا عليهم، بما بَدَر منهم.

أسلوبُ الالتفاتِ هنا أكـثرُ جذبًا لـلاهـتـمـام، وإيضاحًا لوَبالِ العاقبةِ

دَلالةُ الإيجازِ بالحذف في قولِه: ﴿لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِۦ﴾:

هناك توجيهان، في الأوّل، ﴿وَبَالَ﴾ مضافٌ إلى ﴿أَمْرِهِۦ﴾، والهاءُ في ﴿أَمْرِهِۦ﴾، يعود لواحدٍ منَ اثنين؛ إمّا لمن قتلَ الصّيدَ، فهو من بابِ الحقيقة، أو يعودُ للّه تعالى، وههنا لا بدَّ من تقديرِ محذوفٍ يقعُ مضافًا، تقديرُه: (ليذوق وبالَ أمرِ مخالفةِ اللّه تعالى)، فأمرُ اللّه تعالى يستحيلُ أن يكونَ وبالًا، إنّما الوبالُ في مخالفتِه[1]، وقولُه:

(1) الآلوسي، روح المعاني: 7/29.

﴿لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمۡرِهِۦۗ﴾ من أساليبِ التّعريضِ والتّهكّم، فالذّوقُ يكونُ لاختبار الطّعوم، لكنّه استعملَه هنا استعمالًا مَجازيًّا، "والذَّوقُ مُستعارٌ للإحساسِ بالكَدَرِ، حيث شبَّهَ ذلكَ الإحساسَ بذوقِ الطَّعم الكريهِ، كأنّهم راعَوا فيهِ سرعةَ اتّصالِ أَلمِهِ بالإدراكِ"[1]، واللّامُ هنا للتّعليلِ، أي أنّ مَن فعلَ تلك الأفاعيلَ فسيكونُ مصيرهُ كذا وكذا، و(يذُوقَ) فعلٌ مضارعٌ منصوبٌ بأن مُضمرةً، و(وبالَ) مفعولٌ به.

المعنى الدّلاليُّ للمُضيِّ في قوله: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَۚ﴾:

﴿عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَۚ﴾، و(عفا) فعلٌ ماضٍ، معناه تجاوزَ وغفَر؛ فاللّه يغفرُ عمّا ارتكبَه الإنسانُ فيما مضى، وتقدّم قبلَ التّحريمِ، ولفظُ (عمّا) مكوّنةٌ من (عن) حرفُ جرٍّ يفيدُ المجاوزةَ، وهو المعنى الواردُ هنا، و(ما) الموصولةُ، و(سلف) فعلٌ وفاعلٌ، والجملةُ صلةُ الاسم الموصولِ، يعني غفرَ الحقُّ ﷻ عن الّذي ارتكبتُموه قبل التّحريمِ، وكأنّه يؤكّدُ ذلك العفوَ الجميلَ، والصّفحَ النّبيلَ، منَ الخالقِ الجليلِ، قبل أن يراجعُوا رسولَ اللّه ﷺ، ويَسمعُوا منه جوابَ سؤالِهم على جوازِه أو عدمِه[2].

العفوُ الجميلُ، هو غفرانُ اللّه الجليلِ، لما ارتُكِبَ قبل التّحريمِ من كثيرٍ أو قليلٍ

الفرقُ الدّلاليُّ بين (عفَا) و(غفرَ):

وثمّةَ فرقٌ مُعجميٌّ بين قوله: ﴿عَفَا﴾ وبين ﴿غَفَرَ﴾، ذلك أنّ العفوَ والغُفرانَ وإن كانا مُجتمعَين في المحوِ والإسقاطِ، إلّا أنّ الغُفرانَ فيه مزيّةُ الثّواب؛ فهو إسقاطُ العقابِ "وإسقاطُ العقابِ هوَ إيجابُ الثّواب، فلا يَستحقُّ الغفرانَ إلّا المؤمنُ المستحقُّ للثّواب"[3]، وأمّا العفوُ فهو "يقتضِي إسقاطَ اللّومِ والذّمِّ، ولا يقتضِي إيجابَ الثّواب"[4]، فما أدقَّ وأروعَ كلامَ اللّه؛ فإنّ سياقَ الآيةِ هنا، في مَن

مُرتكِبُ المخالَفةِ هنا في حاجةٍ إلى العَفوِ، لانتهاكه حُرمةَ الحرَمِ والإحرامِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/49 - 50.
(2) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 7/33.
(3) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 235.
(4) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 235.

أذنبَ ذنبًا كبيرًا بقوله تعالى: ﴿لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِۦۗ﴾، ومن كان هذا حالُه، فإنّ العفوَ وإسقاطَ اللّوم والذّمّ يُعدُّ غنيمةً في حقِّه، وليس ممّا يناسبُه الغفرانُ الّذي يؤولُ إلى إسقاطِ العقابِ، وإيجابِ الثّوابِ لعِظَم مُرتكبِه.

دَلالةُ العَود في قولِه: ﴿وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُۚ﴾:

﴿وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُۚ﴾، فالواو استئنافيّةٌ، ويجوزُ أن تُعطفَ هذه الجملةُ على ما سبقَ؛ لشدّةِ تعلُّقِها بها؛ ولأنّها خلافُ العَفوِ الواردِ في الجملةِ السّابقةِ، والعَودُ هنا إمّا أن يكونَ استحلالًا للصّيدِ، أو استخفافًا بأمرِ اللّه، والواوُ هنا للعطفِ، والعطفُ يفيدُ التّغايُرِ، ودَلالةُ هذه الجملةِ مغايرٌ تمامًا لما قبلَها في أنّ سياقَ الأُولى العفوُ، وسياق الثّانيةِ العقوبةُ.

العودةُ بعدَ الزّلِ والكفّارةِ والتّأنيبِ، جرأةٌ تستوجبُ انتقامَ الله

(مَن) وأثرُها في توجيه المعنى، في قولِه: ﴿وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُۚ﴾:

﴿وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُۚ﴾، (مَن) تحتملُ وجهين؛ الأوّلُ: كونُها اسمَ شرطٍ يدلُّ على العاقلِ، و(عاد) فعلٌ ماضٍ، إلّا أنّه ذو زمنٍ نَحويٍّ مختلفٍ يدلُّ على الاستقبالِ؛ لأنّ فعلَ الشّرط الأصلُ فيه أنّ يكون مُضارعًا، فالتّقديرُ (وَمَن يَعُد)، والفاءُ واقعةٌ في جوابِ الشّرطِ، وينتقمُ فعلٌ مضارعٌ، يدلُّ على الحالِ أو الاستقبالِ، لكنّه لَمّا دخلتِ الفاءُ امتنعَ أن يكونَ مجزومًا؛ لأنّه لا يصلحُ أن يكونَ جوابَ الشّرط، بل هو خبرٌ لمبتدأ محذوفٍ تقديرُه (وَمَن عَادَ فَهُوَ يَنتَقِمُ)، أي الحقُّ ﷻ ينتقمُ ممّن يعودُ، فيستحلُّ الصّيدَ، ويستخفُّ بما أمرَ اللّه، وهذا الوجه أقوَى دلالةً ولغةً منَ الوجه الآخر، والثّاني: هو جوازُ "أن تكونَ موصولةً، ودخلتِ الفاءُ في خبر المبتدأ، لَمَّا أشبهَ الشّرطَ، فالفاءُ زائدةٌ، والجملةُ بعدَها خبرٌ، ولا حاجةَ إلى إضمارِ مبتدأ بعد الفاءِ"[1]؛ لأنّ جوابَ الشّرط مترتّبٌ على الشّرطِ، وهو

الشّرطُ في لفظ (مَـــن)، أقـوى دَلالـةً من (مَن) الموصوليّةِ

(1) السّمين، الدّر المصون: 4/428.

هنا كذلك، فإنّ مَن عاد في فعلته، يترتّبُ عليه انتقامُ اللّه منه، وربّما يضافُ إليها وجهٌ ثالث، حيث يمكنُ أن يدخلَ في باب تنزيهِ القرآنِ الكريمِ، عنِ الزّائدِ واللّغوِ منَ الألفاظ، ممّا هو واقعٌ في اصطلاح النّحويّين واللُّغويين؛ لأنّها إن كانت موصولةً فدخولُ الفاء ليس ممّا يفيدُ، وقد عبّروا عنها بأنّها إذّاك زائدةٌ، وهو ممّا لا يجوزُ في حقِّ القرآنِ الكريمِ، وإن كان جائزًا عندَ النَّحويين واللُّغويين؛ فحسنٌ إذن اعتبارُ (مَن) الشّرطيّةِ أنّها أقوى دَلالةً من جعلِها موصولةً.

أسلوبُ التّذييلِ في الآيةِ، بقولِه: ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ﴾:

عقّبَ الحقُّ ﷻ بقوله: ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ﴾، وورد هذا التّركيبُ بتمامِه في موضعٍ سابقٍ في الآية الرّابعةِ من سورة آل عمران، في قولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٞ ذُو ٱنتِقَامٍ ۝٤﴾ [آل عمران: 04]، وفي الآيتين تذييلٌ لما سبقَ منَ المرتَكَباتِ، فكأنّه ردَّ هذه الجملةَ على تلك، إلّا أنّ التّذييلَ الواردَ هنا، أبلغُ ممّا هو في آل عمرانَ، للتّناسُبِ الواضحِ بين الفعل (ينتقم)، والمصدرِ المضافِ ﴿ٱنتِقَامٍ﴾، فهما من أصلٍ واحدٍ (نَقمَ)؛ فحسُن التّناسُبُ والتّلاؤُمُ من هذه الجهةِ.

التّذييلُ أبلغُ للتّناسُبِ بين الفعلِ (ينتقم)، وبين المصدرِ (انتقام)

ذكرُ لفظِ الجلالةِ مخالِفٌ لمقتضى الظّاهرِ، غرضُه التّعظيمُ والإجلالُ:

﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ﴾، الواو استئنافيّةٌ، ولفظُ الجلالة مُبتدأ، وذكرُ لفظِ الجلالة هنا، مخالفٌ لمقتضى الظّاهرِ؛ لأنّ الأصلَ فيه الإضمارُ لا الإظهارُ، على تقدير (فينتقم اللّه منه، وهو عزيز ذو انتقام)، لكنّه أظهرَه هنا لقصد التّعظيمِ والإجلالِ، وتعظيم الحقِّ ﷻ، وإدخالِ المهابةِ في نفوسِ المخالفِين؛ لأنّه "عزيزٌ أي منيعٌ في ملكِه، ولا يمتنعُ عليهِ ما يريدهُ، ذو انتقام ممَّن عصاهُ إن شاءَ"[1].

عِزّةُ الله عظمةٌ وسموٌّ وجلالٌ، يستحقُّ التّعظيمَ

(1) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 8/208.

تقديمُ وصفِ ﴿عَزِيزٌ﴾ على قوله ﴿ذُو ٱنتِقَامٍ﴾، لترتُّبِ الثّانيّةِ على الأُولى:

و﴿عَزِيزٌ﴾ خبرُ المبتدأ، و﴿ذُو ٱنتِقَامٍ﴾ خبرٌ ثانٍ، وتقديمُ ﴿عَزِيزٌ﴾ على قوله ﴿ذُو ٱنتِقَامٍ﴾، للسّبقِ من هاته عن تلك، فلا يكونُ ذا انتقامٍ من لا يكون عزيزًا قبلَه، فالعزّةُ تسبقُ الانتقام، كما أنّ التّذييلَ بقوله: ﴿ذُو ٱنتِقَامٍ﴾، مناسبٌ للفاصلةِ القرآنيّةِ قبل هذه الآيةِ، وهي قوله: ﴿أَلِيمٌ﴾.

﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُۥ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ ۖ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [المائدة: 96]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

ربطُ بين ما حرّمَ على المُحرم من صيدِ البرِّ، بما أحلَّ من صيدِ البحر

وجهُ ارتباطِ هذه الآيةِ بما قبلَها، هو أنّه سبحانه بعد أن بيّن ما يحرمُ على المكلَّفين من صيدِ البرّ، حالَ إحرامهم، بيّن لعباده المؤمنين أنّه امتنَّ عليهم من صيدِ المباح، وهو صيدُ البحر "ولمّا كان هذا عامًّا في كلِّ صيدٍ، بيّن أنّه خاصٌّ بصيد البرّ، فقال: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ﴾، أي اصطيادُه، أي الّذي مبناهُ غالبًا على الحاجةِ، والمرادُ به جميعُ المياه منَ الأنهار والبِرَكِ وغيرِها"[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

دَلالـــةُ البحـر عـامّـةٌ، وليست مقيَّدةً، فكلُّ ماءٍ كـثُر واستبحَر، فهو بحرٌ

1) ﴿ٱلْبَحْرِ﴾: أصله من (بَحَرَ) و"أصلُه المكانُ المتّسعُ ذو الماءِ الملحِ... واعتُبر من البحر مُلوحتُه، فقالوا أبحرَ الماءُ أي ملحَ"[2]، وهو اسمٌ ثلاثيٌّ مجرّدٌ زنةُ (فَعل)، ومعناه في الآية هو المعنى المتعارَفُ عليه، "وإذا كان البَحرُ صغيرًا قيل له بُحَيرة"[3]، وقد يطلقُ على النّهر اسمُ البحر؛ لأنّ دَلالةَ البحرِ دَلالةٌ عامّةٌ، ليست مقيَّدةً، فمعناه "الماءُ الكثيرُ المستبحرُ الَّذي يوجدُ فيهِ السَّمكُ وغيرهُ منَ الحيوانات المائيَّةِ الَّتي تُصادُ؛ فيدخلُ فيهِ الأنهارُ، والآبارُ، والبِركُ، ونحوُهَا"[4] لقوله تعالى: ﴿۞وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ [الفرقان: 53]؛ لأنّ البحرَ لا يكونُ عذبًا، فعُلمَ أنّها الأنهارُ، وهي داخلةٌ في عُمومِ اللّفظِ.

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 6/304.
(2) السّمين، عمدة الحفّاظ: (بحر).
(3) الخليل، العين: (بحر).
(4) رضا، تفسير المنار: 7/96.

كلُّ شيءٍ يُنتفعُ به، ويُتزوَّدُ منه فهو متاعٌ

2) ﴿مَتَٰعًا﴾: أصلُه (مَتَعَ)، وعُمومُ معناه يدلُّ على الجودةِ والظّرافةِ في بابِه[1]، والمتاعُ وزنُ (فَعَال) وهو مصدرٌ للفعل (مَتَعَ)، أمّا معناه "في الأَصل فكلُّ شيءٍ يُنتفعُ بهِ، ويُتبلَّغُ بهِ، ويُتزوَّدُ، والفناءُ يأتي عليهِ في الدُّنيَا"[2]، فأيُّ منفعةٍ وامتدادٍ تُسمّى متاعًا.

السّيارةُ القافلةُ، وبها كان السّفرُ قديمًا، ثمّ تطوّرَ مدلولُها عبرَ الزّمان

3) ﴿وَلِلسَّيَّارَةِ﴾: الجذرُ اللُّغويّ لها من (سَيَرَ)، و" السَّيرُ الذَّهَابُ نَهارًا ولَيلًا...يُقَال سارَ القَومُ يَسِيرُونَ سَيرًا ومَسِيرًا، إذا امتَدّ بهم السَّيرُ في جِهَة توَجَّهُوا لَهَا"[3]، ووزنُها (فَعّالة) يدلُّ على الكثرةِ، والمعروفُ أنّ معنى السّيارةِ هو القافلةُ، وتأنيثُه على معنى الرُّفقةِ، وهو المرادُ هنا في هذه الآيةِ، ثمّ تطوّرَ مدلولُها بعد ذلك.

يُسمّى (البَرُّ) اليابسةَ خلافَ البحر، وهو خلقُ الله المُعجِزُ

4) ﴿ٱلْبَرِّ﴾: جذرُه اللُّغويُّ من (بَرَرَ) بإدغام الرّاء في الرّاء؛ لأنّهما متماثلان، وهو اسمٌ ثلاثيٌّ مجرّدٌ، وهو من باب المثلّثِ اللُّغويِّ، ومنه (البُرّ) مضمومُ الباء بمعنى الحِنطة[4] و(البِرّ) مكسورُ الباء بمعنى الإحسان، وهو ضدّ الجَور[5]، أمّا (البَرّ) مفتوح الباء، فهو "خلافُ البحر؛ والبَرِّيَّةُ بالفتح الصّحراءُ، والجمعُ البراريّ"[6]، وهو المعنى المرادُ في الآيةِ، فهو في مقابلةِ البحرِ.

(مَا دُمتُم)، أي مدّةَ بقائِكم على الإحرامِ

5) ﴿مَا دُمۡتُمۡ﴾: فعلٌ ماضٍ ناقصٌ، مِن (دَامَ يَدُومُ) وأصلُه (دَوَمَ)، "الدَّالُ والواوُ والميمُ أصلٌ واحدٌ، يدلُّ علَى السُّكونِ واللُّزُوم، يقالُ دَامَ الشَّيءُ يدومُ، إذا سكنَ، والماءُ الدَّائمُ السَّاكنُ"[7]، والدّوامُ بمعنى البقاءِ والاستمرارِ عليه، ومنه أنَّ عائشة رضي الله عنها، سُئلت عن عملِ

(1) ابن منظور، لسان العرب: (متع).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (متع).
(3) الزّبيدي، تاج العروس: (سير).
(4) السّمين، عمدة الحفّاظ: (برر).
(5) السّمين، عمدة الحفّاظ: (برر).
(6) الجوهريّ، الصّحاح: (برر).
(7) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (دوم).

رسولِ الله ﷺ، فقالت: «كَانَ عَمَلُهُ دِيمَةً»[1] "، أَي دائمًا، والمعنَى أَنَّهُ كانَ يدومُ عليه، سواءٌ قلَّلَ، أَو كثَّر، ولكنَّهُ كانَ لا يخلُّ"[2]، وهو المرادُ في الآيةِ، أي مدّةَ بقائكم فيما أنتم عليه منَ الإحرام.

6) ﴿تُحْشَرُونَ﴾: فعلٌ مضارعٌ مبنيٌّ للمفعول، مسندٌ لواو الجماعة، الماضِي منه (حَشَرَ)، ومعناه الاجتماعُ، لكن فيه "زيادةُ معنًى، وهو السّوقُ والبعثُ والانبعاثُ، وأَهلُ اللُّغةِ يقولونَ الحشرُ الجمعُ مع سوقٍ، وكلُّ جمعٍ حشرٌ"[3]، وهو المعنى المرادُ هنا في هذه الآيةِ، وهُو حشرُ الخلائق واجتماعُها، وسوقُها إليه يومَ القيامة، بعدَ بعثِها منه تعالى.

حشرُ الخلائقِ يومَ القيامة مَنظرٌ مَهولٌ، تنخلعُ له القلوبُ

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

يُبيحُ اللّه تعالى صيدَ البحرِ، ويُحرّمُ صيدَ البرّ على المُحرم، والأمرُ بتقوى اللّه سبحانه الّتي هي الجامعُ لكلِّ خيرٍ، ولَمَّا أحلَّ سبحانه ذلك، ذكرَ علّتَه، فقال: متاعًا لكم أي منفعةً لكم، إذا كنتم مُسافرين أو مُقيمين، تتزوَّدون منه لحاجاتكم،" وفي تحليلِ صيدِ البحرِ حالَ الابتلاء منَ النّعمة هذه على الأمّة ما يبيّنُ فضلَها على من كان قبلَها، ممّن جعل صيدَ البحر له محنةً يومَ الابتلاء"[4].

للحُرمةِ والجوازِ حِكَمٌ وأسرارٌ، يكتشفُها العلمُ على مدى الزّمانِ

ثمّ ذكر سبحانه حُرمةَ صيدِ البرّ، على من أحرمَ، وهو ما يعيشُ فيه منَ الوحش المأكولِ، وأمرَنا سبحانه بتقواه، وأنّه هو المهيمنُ على خلقِه، وله الأمرُ كلُّه، مذكِّرًا لنا بأمر الحشرِ والقيامةِ، مبالغةً في التّحذيرِ من عِصيانِه، وحثًّا على أن نَمتثل لأوامرِه.

(1) الإمام أحمد، المسند، الحديث رقم: (24162).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (دوم).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (دوم).
(4) البقاعي، نظم الدّرر: 6/304.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

صيدُ البحرِ حلالٌ للمُحرمِ والمتَحلّلِ:

(أحـــلّ) فعلٌ مـــاضٍ، إلّا أنّـــه صـالـحٌ لـكـلّ زمـان، بخلودِ الأحكامِ القَطعيّةِ

﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُۥ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ﴾، فيه نوعٌ منَ الاستثناء لما سبقَ منَ التّحريم، ونهيُه ﷻ عنِ الصّيدِ، فقد أحلّ الحقُّ ﷻ لهم نوعًا منَ الصّيدِ، وهو صيدُ البحرِ، وزاد عليه طعامَه، (أحلّ) فعلٌ ماضٍ في صِيغتِه الصّرفيّةِ، لكنّه يشملُ كلَّ الأزمان في صِيغته النّحويّةِ، ولا سيّما الحالَ وقتَ نزولِ الآيةِ، والاستقبالَ من بعد نُزولها إلى قيامِ السّاعةِ؛ لأنّ صيدَ البحرِ حلالٌ، وهو باقٍ "على الإباحةِ؛ لأنّ صيدَ البحرِ ليسَ من حيوانِ الحرَمِ، إذ ليسَ في شيءٍ من أرضِ الحرمِ بحرٌ"[1]، فالمعنى إذن من قولِه في الآية إبقاءُ حلّيته على ما كان من قبلِ الإحرام، وإنّما ذكره لئلّا يتوهّمَ متوهِّمٌ أنّ الصّيد داخلٌ في القتل، بجامع التّسبُّبِ في الموت، لا؛ الصّيدُ منَ البحر لا يُسمَّى قتلًا في العُرف؛ فبيّن حِلّيتَه ههنا على سبيل التّوكيد، وليس التّأسيسَ.

دَلالةُ التّعبير بالفعلِ المبنيِّ لما لم يُسمَّ فاعلُه:

حُـذفَ الـفـاعـلُ (الله) هنا للعِلمِ بـه؛ لأنّـه وحـده المحلِّلُ والمحرِّمُ

وهو فعلٌ مبنيٌّ للمفعولِ، وهو تعبيرٌ يُحذف فيه الفاعلُ لسببٍ ما، فينوبُ المفعولُ به منابَه، ويأخذُ أحكامَه، ويُسمَّى النّائبُ عنِ الفاعل، فأصلُ الكلام هنا (أَحَلَّ اللّهُ لَكُم صَيدَ البَحرِ وَطَعامُهُ)، إلّا أنّه حذفَ الفاعلَ هنا، وهو لفظُ الجلالةِ (اللّه)، وناب المفعولُ (صَيدُ) منابَه، وهو هنا المصطادُ لا الصّيدُ نفسُه؛ لأنّه مصدرٌ، وقد بان لنا ذلك في آياتٍ سابقةٍ.

ولمّا تشابَه المفعولُ النّائبُ ﴿صَيْدُ﴾ بالفاعلِ المحذوفِ لفظِ الجلالةِ (اللّه)، باشتمالِهما على أحكام العُمدةِ، كالرّفعِ والتّقدّم، غيّروا في صيغةِ الفعلِ من (فَعَلَ) إلى (فُعِلَ)، ليُعلمَ أنّ ما بعدَ (فُعِل) نائبُ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/51.

عنِ الفاعل، وحُذفَ الفاعلُ (اللّه) هنا للعلمِ به، وهو سببٌ لوصفِ الفعل بأنّه مبنيٌّ للمفعول لا للمجهولِ، لأنّ الفاعلَ هنا ليس مجهولًا بل معلومٌ، وهو (اللّه)؛ لأنّ التّحليلَ والتّحريمَ وما إليهما منه تعالى؛ لأنّه الإلهُ الّذي يُعبدُ لا إله غيرُه، هذا سببٌ، والسّببُ الآخرُ الّذي يتعلَّقَ به في سياقِ هذه الآيةِ هو تكرارُ ذكرِه فيما سبقَ من سياقٍ؛ فقد تكرّرَ ثلاثَ مرّات في سياقٍ قريبٍ، هو قولُه تعالى: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَۚ وَمَنۡ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنۡهُۚ وَٱللَّهُ عَزِيزٞ ذُو ٱنتِقَامٍ ٩٥﴾ [المائدة: 95]، لذلك حذَفَه، وناب المفعولُ (صَيدُ) منابَه.

تقديمُ الجارّ والمجرورِ على نائبِ الفاعلِ، في قولِه: ﴿أُحِلَّ لَكُمۡ صَيۡدُ ٱلۡبَحۡرِ﴾:

﴿أُحِلَّ لَكُمۡ صَيۡدُ ٱلۡبَحۡرِ﴾، قدّمَ شبهَ الجملة ﴿لَكُمۡ﴾، المكوّنةَ منَ الجارّ والمجرور، المتعلّقِ بالفعل، وهنا قدَّمهُ على النّائبِ عنِ الفاعل للعنايةِ والاهتمامِ بأمرِ المحلَّل لهم؛ لأنّه حرّم عليهم قتلَ الصّيد، فجاء هنا ليستثنيَ صيدَ البحر، وليؤكِّدَه بتقديم الجارّ والمجرور؛ لجواز تأخُّرِه، وعند ذاك يختلفُ المعنى، و﴿صَيۡدُ ٱلۡبَحۡرِ﴾ نائبُ فاعلٍ، وقد أضيف للبحرِ المعرَّفِ بأل فتعرّفَ؛ ليتميّزَ من نوعٍ آخرَ هو صيدُ البرّ.

البحرُ طهورٌ ماؤُهُ، حلٌّ صيدُهُ وميتتُهُ

تعويضُ المحذوفِ بالضّمير، في قولِه: ﴿وَطَعَامُهُۥ﴾:

وقد عُوّضَ الاسمُ المحذوفُ بالضّمير الهاء، في قوله: ﴿وَطَعَامُهُۥ﴾؛ لأنّ الأصلَ (وطعامُ البحر)، لكنّه لمّا تكرّرَ الاسمُ الظّاهرُ عُوّضَ منه بالضّمير؛ فإنّ الضّمائرَ تُعوّضُ من تكرارِ الأسماءِ الظّاهرةِ ممّا يُكسبُ الجملةَ إيجازًا بديعًا، وجزالةً في التّعبير، فالفرقُ واضحٌ بيّنٌ، بين قولِه تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمۡ صَيۡدُ ٱلۡبَحۡرِ وَطَعَامُهُۥ﴾، وقولنا (أُحِلَّ لَكُم صَيدُ البَحرِ وطَعَامُ البَحرِ) فليُتأمّل، وذُكر وجهٌ آخرُ لعَودِ الضّمير في قوله: ﴿وَطَعَامُهُۥ﴾، وهو أنّ الضّميرَ في طعامه "ضميرُ

قيامُ الضّمير مقامَ الاسمِ المحذوفِ، يُضفي على السّياقِ جماليّةً وطلاوةً

الصَّيدِ، والتَّقديرُ: وإطعامُ الصَّيدِ أنفسَكم، والمعنَى أنّهُ أباحَ لهم صيدَ البحرِ، وأكلَ صيدهِ"[1]، والأوّلُ أقوى لسببين: الأوّل؛ أنّ الضّمير أصالةً يعودُ على أقربِ مذكورٍ، وهو هنا البحرُ، والثّاني؛ أنّه لا تأويلَ في الوجه الأوّل، ومعلومٌ أنّ عدمَ التّأويل أولى منَ التّأويلِ.

لفظُ ﴿مَتَٰعًا﴾ بين المفعوليّةِ لأجله، والمفعوليّةِ المطلقةِ في الآيةِ:

كونُ قولِه: (متاعًا) مفعولًا لأجلِه أقوى في المناسبةِ للسّياق، والمطابقةِ للمعنى

﴿مَتَٰعًا لَّكُمۡ وَلِلسَّيَّارَةِۖ﴾، فلفظُ متاعًا مصدرٌ للفعل (مَتَعَ)، الدّالِّ على الامتدادِ والمنفعةِ، ويجوزُ أنّ يكونَ مفعولًا لأجله، أي أباح لكم صيدَ البحر وطعامَه، لأجل منفعتِكم، وهو مناسبٌ للسّياق، مطابِقٌ للمعنى، وعاملُه الفعلُ المذكورُ، وهو أقوى منَ الوجه الثّاني في جعل ﴿مَتَٰعًا﴾ مفعولًا مُطلقًا؛ لانتفاء عاملِه، وعلى ذلك يجبُ تقديرُ العامل، أي يمتّعُكم متاعًا، ولا ريبَ أنّ عدمَ التّقدير أولى منَ التّقدير، فكانت دَلالتُه على التّعليل أقوى من دَلالتِه على التّوكيدِ.

أسلوبُ اللّفِّ والنَّشرِ في قوله: ﴿أُحِلَّ لَكُمۡ صَيۡدُ ٱلۡبَحۡرِ﴾ ﴿وَلِلسَّيَّارَةِۖ﴾:

الإجمالُ والتّفصيلُ مَسلكٌ في البيان، يَقدحُ الذّهنَ، ويُمتّعُ الذّوقَ

﴿لَكُمۡ﴾ جارّ ومجرور متعلّقٌ بـ﴿مَتَٰعًا﴾، وقوله: ﴿وَلِلسَّيَّارَةِۖ﴾ المسافرينَ، وفي هذا التّركيبِ اللُّغويِّ أسلوبُ لَفٍّ ونشرٍ[2]، وهو الجمعُ، ثمّ التّفريقُ، فقد ذكر ﴿صَيۡدُ ٱلۡبَحۡرِ وَطَعَامُهُۥ﴾، جمعَهما بواو العطفِ، ثمّ قال ﴿مَتَٰعًا لَّكُمۡ وَلِلسَّيَّارَةِۖ﴾، بأن يُعيدَ كُلُّ مُتأخِّرٍ على ما يليقُ به، ممّا تقدّمَ، "والمعنَى أُحلَّ لكم صيدُ البحرِ، تتمتّعونَ بأكلِه، ويتمتّعُ بهِ المسافرونَ"[3]، فقد ذكرَ صيدَ البحرِ لفًّا، ونشرَه بقوله: ﴿مَتَٰعًا لَّكُمۡ﴾، وذكر طعامَه معطوفًا على الأوّل، ونشرَه بقوله ﴿وَلِلسَّيَّارَةِۖ﴾، ففي صيدِ البحرِ عمومٌ بيّنَه بقوله متاعًا

(1) العكبريّ، التّبيان: 1/462.

(2) اللّفّ والنّشر: أسلوبٌ بلاغيٌّ يعتمد على " ذكر الشّيئين على جهة الاجتماعِ مُطلقَين عنِ التّقييد، ثمّ يُوفَّى بما يليُق بكلّ واحدٍ منهما، اتّكالًا على أنّ السّامعَ لوضوح الحال، يردُّ إلى كلّ واحد منهما ما يليقُ به، وهو في الحقيقة جمعٌ ثمّ تفرّيق". العلويّ، الطّراز لأسرار البلاغة: 2/212.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/53.

لكم، وكذا في طعامه عُمومٌ وضّحه بقوله: ﴿وَلِلسَّيَّارَةِۖ﴾: "أي أنّه طوى المحكومَ عليه مع بعضِه، ثمّ نشرَ الأحكامَ من بعد ذلك"[1]، لذلك جاء في تفسير طعامِه أنّه السّمكُ المملَّحُ المقدَّدُ الّذي يحملُه المسافرون معهم[2]، مقابلَ السّمكِ الطّريِّ الّذي يناسبُ المقيمين القارّين، ولا يناسبُ المسافرين.

زيادةُ توكيدِ التّحريمِ، في قوله: ﴿وَحُرِّمَ عَلَيۡكُمۡ صَيۡدُ ٱلۡبَرِّ مَا دُمۡتُمۡ حُرُمٗاۗ﴾:

دَلالـــةُ الـزّمـنِ الّـذي يَستغرقُه التّحريمُ

﴿وَحُرِّمَ عَلَيۡكُمۡ صَيۡدُ ٱلۡبَرِّ مَا دُمۡتُمۡ حُرُمٗاۗ﴾، التّحريمُ هنا فيه زيادةُ توكيدٍ، لما سبقَ من قولِه تعالى: ﴿لَا تَقۡتُلُواْ ٱلصَّيۡدَ وَأَنتُمۡ حُرُمٞۚ﴾، وما ترتّبَ عليه من أحكام، لكنّه هنا قيَّده بوقتِ الإحرام، ثمّ قيّدَ التّحريمَ بظرفِ الإحرامِ، فـ﴿مَا﴾ ظرفيّةٌ مصدريّةٌ، و(دامَ) واسمُها وخبرُها في محلِّ نصبٍ على الظّرفيةِ، والتّقدير: (وحرّم عليكم صيدَ البرّ، مدّةَ دوامِكم مُحرمين)، وهذا من رحمتِه سبحانه بعبادِه؛ فقد قيّدَ المنَع بهذه المدّةِ الوجيزةِ، الّتي سرعانَ ما يتمُّ التّحلّلُ منها، بمجرّدِ انتهاءِ المناسكِ، وانقضاءِ الحجِّ أو العُمرةِ.

دَلالةُ المقابلةِ بين قولِه: ﴿وَحُرِّمَ عَلَيۡكُمۡ صَيۡدُ ٱلۡبَرِّ﴾ وقولِه: ﴿أُحِلَّ لَكُمۡ صَيۡدُ ٱلۡبَحۡرِ﴾:

بِضِدِّها تتميّزُ الأشياءُ، والضدُّ يُظهِرُ حُسنَهُ الضِّدُّ

﴿وَحُرِّمَ عَلَيۡكُمۡ صَيۡدُ ٱلۡبَرِّ﴾ مقابلةٌ لقولِه ﴿أُحِلَّ لَكُمۡ صَيۡدُ ٱلۡبَحۡرِ﴾، وهما متضادّانِ يُبيّنُ أحدُهما الآخرَ، وبالضّدّ تُعرفُ الأشياء كما يُقال، فقد قابلَ بين الحِلّ والحُرمة، كما قابلَ بين ﴿صَيۡدُ ٱلۡبَحۡرِ﴾ و﴿صَيۡدُ ٱلۡبَرِّ﴾، وهي مقابلةٌ جاءت سهلةً لطيفةً من غيرِ تعمُّلٍ، ولا استكراهٍ.

في قولِه: ﴿صَيۡدُ ٱلۡبَرِّ﴾، و﴿صَيۡدُ ٱلۡبَحۡرِ﴾ إيجازٌ بالحذفِ:

وفي قـــولـــه: (وَاتَّـقُـوا اللّـهَ) إيجازٌ بالحذفِ أيضًا

وفي كلا الأمرين ﴿صَيۡدُ ٱلۡبَحۡرِ﴾ و﴿صَيۡدُ ٱلۡبَرِّ﴾، ثمّة محذوفٌ

(1) الشّعراوي، تفسير الشّعراويّ: 6/3405.
(2) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 7/34.

على تقدير (صَيدُ سَمَكِ البَحرِ)، و(صَيدُ حَيَوَانِ البَرِّ) أو نحوِهما؛ لأنّ البحر والبرّ لا يُصطادان، بل هما محلٌّ وظرفٌ للمَصيد.

وكذلك في قولِه: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾، هو على تقديرِ محذوفٍ تقديرُه (واتَّقُوا عَذَابَ اللّهِ وَسُخطَهُ)، فإنّ الحقَّ ﷻ ليس مَحلًّا للتّقوى.

الواو في ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ بين الاستئنافِ والعطفِ:

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ﴾، وردَ مثلُ هذا التّركيب أيضًا في الآيةِ التّاسعةِ من سورةِ المُجادلة، والواو عاطفةٌ واستئنافيّةٌ، والعطفُ أقوى للوصلِ بين ما فرضَه اللّه عليهم وتقواه تعالى، وهي تذييلٌ لما سبقَ بأن يلتزموا طاعتَه، ويَنتهُوا عمّا نهاهم من قتل الصّيدِ؛ فإنّ مصيرَهم ومرجعَهم إلى اللّه تعالى، وقولُه: ﴿وَٱتَّقُواْ﴾ فعلُ أمرٍ بالتّقوى منَ الوقايةِ والحفظِ، قال الرّازي: "والمقصودُ منه التّهديدُ ليكونَ المرءُ مواظبًا على الطّاعة محترزًا عنِ المعصيّة"[1]، وقال في قولِه تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ﴾، أي إلى حيث يُحاسِبُ ويُجازِي.

العطفُ أقوَى للوصلِ بين ما فرضَه الله عليهم وتقواه تعالى

التّعبيرُ بالبناءِ للمفعولِ في ﴿تُحۡشَرُونَ﴾:

وهو فعلٌ مبنيٌّ للمفعول، ومجيئُه على هذه الصِّيغةِ منَ البناءِ للمفعول، لغرضِ الإيجاز، وتناسُبًا مع السّياقِ الفعليِّ الواردِ ﴿أُحِلَّ﴾ و﴿وَحُرِّمَ﴾، والمعنى يحشرُ اللّه المتّقين، وأنّ مرجعَهم إلى اللّه، والفعلُ (تحشرون)، صلةُ الاسم الموصول ﴿ٱلَّذِيٓ﴾، وفي الآية ثمّةَ تقديمٌ، فقد قدّمَ "﴿إِلَيۡهِ﴾ على ﴿تُحۡشَرُونَ﴾ للاختصاصِ، أي تُحشرون إليه لا إلى غيرِه"[2]، فالخلائقُ كلُّها محشورةٌ إليه، لا إلى غيرِه، وفيه سببٌ ثانٍ، وهو أنّها ختمت بذلك، مراعاةً للفاصلةِ القرآنيّةِ.

تقديمُ الجارّ والمجرور على (تُحشَرون)

(1) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 12/439.
(2) ابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 7/535.

﴿۞ جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلۡكَعۡبَةَ ٱلۡبَيۡتَ ٱلۡحَرَامَ قِيَٰمٗا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهۡرَ ٱلۡحَرَامَ وَٱلۡهَدۡيَ وَٱلۡقَلَٰٓئِدَۚ ذَٰلِكَ لِتَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ ٩٧﴾ [المائدة: 97]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الـــرّبـــطُ بين تحريمِ الصّيدِ والاعـــتـــداءِ، وتعظيم البيتِ الـــحـــرامِ على المدَى

مناسبةُ هذه الآيةِ لما قبلَها أنّه "لمّا كان الإحرامُ وتحريمُ الصّيد فيه، إنّما هو لقصدِ تعظيمِ الكعبةِ بيّن تعالى حكمةَ ذلك"[1]، وترتّبَ على ذلك أنّه "كما جعلَ الحرمَ والإحرامَ سببًا لأمن الوحش والطّير؛ جعلَه سببًا لأمن النّاس؛ وسببًا لحصول السّعادةِ في الدّنيا والآخرة، فقال مستأنفًا بيانًا لحكمةِ المنعِ في أوّلِ السُّورة، من استحلالِ من يقصدُها للزّيارة"[2]، فحُرمةُ الكعبةِ وتعظيمُها عامٌّ، ومن يُعظّمُها يُعظّمُ ما جاء به من حُرمةِ الصّيدِ وما إليه؛ لأنّ الإيمان واحدٌ لا يتجزّأ.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿جَعَلَ﴾: فعلٌ ماضٍ، وهو يأتي على عدّةِ أنحاءَ، منه اللّازمُ، ومنه المتعدِّي لواحدٍ واثنين، و﴿جَعَلَ﴾ في الآيةِ، يحتمل كونُه متعدّيًا لواحدٍ بمعنى الخلقِ والإيجادِ والإحداثِ[3]، كقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَۖ﴾ [الأنعام: 1]، أي أوجدَ الكعبةَ وخلَقَها؛ فتكونُ كلمةُ (قيامًا) حالًا، ويحتملُ أن يكونَ متعدّيًا لاثنين بمعنى التّحويلِ والتّصييرِ بالقول، أي صيّرَ الكعبةَ قيامًا للنّاس قولاً وحُكمًا؛ لأنّها موجودةٌ أصلًا قبل الإسلام.

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 6/306.
(2) البقاعي، نظم الدّرر: 6/306.
(3) السّمين، عمدة الحفّاظ: (جعل).

المـــرادُ بالبيتِ بيتُ الله العتيقُ بمكّة، وهو المعظَّمُ المشرَّفُ على المدَى

2) ﴿ٱلۡبَيۡتَ﴾: اسمٌ ثلاثيٌّ مجرّدٌ من (بَيَتَ)، وقيل إنّه مصدرٌ منَ الفعل (باتَ يبيتُ)، و"أصلُ البيت مأوَى الإنسان باللّيل، لأنّه يقال: بَاتَ أقامَ باللّيل، كما يُقال: ظلَّ بالنّهار، ثمّ قد يُقال للمسكن بيتٌ من غيرِ اعتبارِ اللّيل فيه"[1]، وهو هنا معرّفٌ بأل والمرادُ هو بيتُ اللّه العتيقُ، وهو مكّةُ[2] وهو المقصودُ في الآيةِ الكريمةِ.

ما تقومُ عليه أمورُ الدّين، ومظاهرُ الحياةِ

3) ﴿قِيَٰمٗا﴾: مصدرٌ للفعل (قامَ، يقُومُ)، "ويُقال هذَا قوامُ الأَمر وملاكُه، المعنى الَّتي جعلَها اللّه لكم قِيامًا تُقيمُكم فتَقومُون بهَا قِيامًا، ومن قَرَأَ (قِيَمًا)، فهو راجعٌ إلى هذَا، والمعنى جعلَها اللّه قيّمةَ الأَشياء، فيهَا تقومُ أمورُكم"[3]، والمقصودُ بالآية ما يَقومُ به صلاحُكُم ونفعُكُم، وبها تقُومُ أمُورُ دينكُم وحياتكُم.

الهَديُ ما أُهديَ منَ النَّعمِ إلى الحَرمِ قُربةً إلى اللّهِ تعالى

4) ﴿وَٱلۡهَدۡيَ﴾: أصلُه منَ الهاء والدّال والياء، والهديُ مصدرُ الفعل هَدَى يَهدِي، وله أصلان في المعنى؛ الأوّلِ "التَّقدُّمُ للإرشادِ... فالأَوّلُ قولُهم هَديتُهُ الطَّريقَ هدايةً، أي تقدّمتهُ لأُرشدَهُ، وكلُّ مُتقدّمٍ لذلكَ هادٍ"[4]، والأَصلُ الآخرُ الهديَّةُ ما أَهديتَ من لُطفٍ إلى ذِي مودَّةٍ"[5]، وكلاهما يَصدقُ على المُفردَةِ الواقعةِ في هذه الآيةِ منَ القرآنِ الكريمِ؛ لأنّ المعنى "ما أُهديَ منَ النَّعمِ إلى الحَرمِ قُربةً إلى اللّه تعالى"[6].

5) ﴿وَٱلۡقَلَٰٓئِدَۚ﴾: جمعُ تكسير يفيدُ الكثرةَ، مفردُه (قلادة)، وهو الشّيءُ الّذي تضعُه المرأةُ حول عُنُقِها للتّجمُّلِ والتّزيينِ، أصلُه منَ القاف واللّام والدّال، ومن دَلالتِه هنا هو "تعليقُ شيءٍ على شيءٍ،

(1) الرّاغب، المفردات: (بيت).
(2) الرّاغب، المفردات: (بيت).
(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (قوم).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (هدي).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (هدي).
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (هدي).

وليّهُ بِهِ"[1]، وهو المرادُ هنا، فإنّ المقصودَ منَ القلائد في الهدي "أَن يُعلَّقَ بعنقِ البعيرِ قطعةٌ من جلدٍ؛ ليُعلمَ أنّهُ هديٌ فيكفَّ النَّاسُ عنهُ"[2]، ففيه إشعارٌ إلى أنّها مُهداةٌ إلى البيت الحرامِ؛ فلا يُتعرّضُ له بشيءٍ، ولا يُساءُ لهُ.

القلائدُ علاماتٌ على الإبل، ليُعلمَ أنّهُ هديٌ فيكفَّ النَّاسُ عنهُ

6) ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾: السّماوات جمعٌ بالألف والتّاء، مُفردُه سماءٌ، وأصلُه من (سَمَوَ)؛ لأنّه منَ الفعل (سَمَا يَسمُو)، فألِفُهُ مُنقلبةٌ عن واو، و"السَّمَاءُ هِيَ سقفُ كُلّ شَيء، وكلِّ بَيت، ورِواقُ البيت، والسّحابُ، والمطرُ، ويُطلقُ على السَّبع، والفلكِ؛ على التِّسع بالعرش والكُرسيّ"[3]، وهي ما يُقابِلُ الأرضَ، وهي أعلى كلِّ شيءٍ، وتكونُ مؤلّفةً من طبقاتٍ؛ لذلك ذُكرت مجموعةً في كثيرٍ من آيِ القرآن الكريمِ.

7) ﴿ٱلْأَرْضِ﴾: اسمٌ ثلاثيٌّ مجرّدٌ أصلُه الهمزةُ والرّاءُ والضّادّ، ومعناها "الجِرم المقابلُ للسّماء، وجمعُه أرضُون، ولا تجيءُ مجموعةً في القرآن، ويُعبّر بها عن أسفلِ الشّيء، كما يُعبّرُ بالسّماء عن أعلاه"[4]، والمقصودةُ هنا الأرضُ المعروفةُ الّتي يعيش عليها البشرُ.

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

فضلُ بيتِ اللّه الحرام في مكّةَ وشرفُه، وفضلُ الأشهُر الحُرمِ واضحٌ بيّنٌ، وقد بيّن هنا أنّ البيتَ الحرامَ، كما أنّه سببٌ لأمن الوحشِ والطّيرِ، هو سببٌ لأمنِ النّاس منَ الآفاتِ والمخاوفِ، وسببٌ لحصول السّعاداتِ في الدّنيا والآخرة[5]، فقد "جعله اللّه سبحانه في مقامِ التّوجُّه إليه، في عبادتِه للنّاس المتفرِّقين في العالم؛ ليحصلَ

البيتُ الحرامُ رمزٌ للعبوديّةِ والأمنِ ووحدةِ الأمّةِ

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (قلد).
(2) الفيّوميّ، المصباح المنير: (قلد).
(3) الكفويّ، الكليّات: (سمو).
(4) الرّاغب، المفردات: (أرض).
(5) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 7/34.

لهم الاجتماعُ الموجبُ للتّآلف الّذي يحتاجون إليه في تمدُّنِهم، الّذي به كمالُ معاشِهم ومعادِهم"[1]، ثمّ ذكرَ الهديَ، وهو ما يُهدَى إلى البيتِ الحَرامِ منَ الأنعام؛ لأنّه في وادٍ قفرٍ غيرِ ذي زرع، وثنّى بالقلائدِ جمعُ قلادة، وهي تعبيرٌ عنِ المقلَّد أي ذواتِ القلائدِ، وهي أيضًا الهدي، فتكونُ القلادةُ علامةً، على عدم التّعرُّضِ للهدي أو إيذائِه، وفي ذلك إشارةٌ إلى علمِه ﷻ لما في السّموات والأرض، وأنّه يَعلمُ مصالحَكم الدّينيّةَ والدّنيويّةَ فيما يُشرّع لكم.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دَلالةُ الجملةِ المستأنفةِ في قولِه ﴿۞جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلۡكَعۡبَةَ﴾:

تعظيمُ شأنِ الكعبةِ، وتذكيرٌ بالأَمنِ في علائقِها وشعائرِها

﴿۞جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلۡكَعۡبَةَ ٱلۡبَيۡتَ ٱلۡحَرَامَ قِيَٰمٗا لِّلنَّاسِ﴾، جملةٌ مستأنفةٌ، تبيّنُ ما قبلَها، وتردُ جوابًا لما قد يردُ على الخاطرِ من أسئلةٍ "عن حكمةِ تحريمِ الصَّيدِ في الحَرم، وفي حالِ الإحرام، بأنّ ذلكَ من تعظيمِ شأنِ الكعبةِ الّتي حُرّمت أرضُ الحرم لأَجلِ تعظيمهَا، وتذكيرٌ بنعمةِ اللّه على سكّانِه بمَا جعلَ لهم منَ الأَمنِ في علائقهَا وشعائرهَا"[2]، و﴿جَعَلَ﴾ فعلٌ يدلُّ على المُضيّ.

الفعلُ ﴿جَعَلَ﴾ يحتملُ معنى التّحويلِ والتّصييرِ:

أثرُ مكوّناتِ التّركيبِ، في إظهارِ عظمةِ الكعبة والمسجدِ الحرامِ

وهذا الفعلُ يأتي في اللُّغة على عدّةِ أنحاءَ[3]، الواردُ في الآيةِ يحتملُ نَوعين من أنواع ﴿جَعَلَ﴾، الأوّل: بمعنى التّصييرِ والتّحويلِ، وهي بذلك تَتعدّى إلى مفعولَين، بعد استيفاءِ فاعلِها، كظنَّ وأخواتِها، ولفظُ الجلالة ﴿ٱللَّهُ﴾ فاعلٌ، فالجاعلُ هو اللّه، والمجعُول هو﴿ٱلۡكَعۡبَةَ﴾، وهي المفعولُ الأوّلُ لفعل التّصيير جعل، و﴿ٱلۡبَيۡتَ﴾

(1) القاسميّ، محاسن التّأويل: 6/2161.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/54.

(3) قد يكون أوجدَ وخلَق، كقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ﴾ [الرعد: 3]، وقد يكون بمعنى الاعتقادِ والظّنِّ، كقولِه تعالى: ﴿وَجَعَلُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمۡ عِبَٰدُ ٱلرَّحۡمَٰنِ إِنَٰثًاۚ﴾ [الزخرف: 19]، وقد يكون بمعنى الشُّروع مثل (جَعَلَ حَادِي الإبِلِ يَحدُو)، وقد تكون بمعنى التّصيير والتّحويل كقوله تعالى: ﴿فَجَعَلۡنَٰهُ هَبَآءٗ مَّنثُورًا ٢٣﴾ [الفرقان: 23].

عطفُ بيان، أو بدلٌ منَ الكعبة، والأصلُ فيه التّبيينُ والكشفُ والإيضاحُ، إلّا أنّه جاء هنا لأجل المدحِ، فقولُه "البيتَ الحرامَ، عطفُ بيانٍ على جهة المدحِ، لا على جهة التّوضيح"[1]، والمدحُ مُتأتٍّ من أنّها حَرمٌ آمنٌ، والدّاخلُ فيه آمنٌ، وجعل أيضًا من باب الإطنابِ المفيدِ، ولفظُ ﴿ٱلْحَرَامَ﴾ وصفٌ للبيت، وقولُه ﴿قِيَـٰمًا﴾، المفعول الثّاني للفعل ﴿جَعَلَ﴾، والتّركيبُ كلُّه يَتضافرُ في رقّةٍ ودقّةٍ، لإظهار عظمةِ الكعبةِ المشرّفةِ، والحرمِ الآمنِ المبارَكِ.

قراءةُ ابنِ عامر (قيَّمًا) منَ الإخبارِ بالمصدرِ، وتفيدُ المبالغةَ:

الإسنادُ المجازيُّ في جعلِ الكعبةِ قيامًا للنَّاسِ

يجوزُ أنّ يكونَ الفعلُ ﴿جَعَلَ﴾ بمعنى الإيجادِ والخلقِ، أي خلقَ اللّه الكعبةَ، وهو أقوَى وأظهرُ "فإنّ اللّه أَوجدَ الكعبةَ، أَي أَمرَ خليلهُ بإيجادهَا؛ لتكونَ قيامًا للنَّاسِ"[2]، وجاء قيامًا على الحاليّة، وهو مصدرُ قام يقومُ، والقيامُ بالشّيء تدبيرُهُ والنّهوضُ به، وإصلاحُه، ومنهُ "هُوَ قيِّمٌ عليهِ، أو قائمٌ عليهِ، فالقيامُ هنَا بمعنى الصَّلاحِ والنَّفعِ"[3]، وقرأ ابنُ عامر بغير ألف أي قِيَمًا[4]، ووزنُه (فِعَل) "وإثباتهُ للكعبةِ منَ الإخبارِ بالمصدرِ للمبالغة"[5]، ومبالغتُه متأتيّةٌ من كونِ الكعبة سببًا لما هم فيه، وليست هي نفسَها من يقوم بالأمر؛ لذلك جُعل التّركيبُ من باب الإسنادِ المجازيّ؛ فهي سببٌ في صلاحهم وصلاحِ غيرِهم، ممّن يزور البيتَ العتيقَ حاجًّا أو معتمرًا، وهذه القراءةُ الدّالّةُ على المبالغة، متناسبةٌ أشدَّ المناسبةِ مع وجوه كَونِ الكعبة سببًا لقيام مصالحِ النّاس، وهي احتياجُهم الماديّ من بيعٍ وشراءٍ ونحوِه، وكونُها حرمًا آمنًا للجميع على أنفسِهم

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/298.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/54.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/56.
(4) ابن الجزري، النّشر: 2/247.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/56.

وأموالِهم، وأنّهم صاروا بسببها أهلَ اللّه وخاصّتَه، وجعلها قوامًا لهم في دينهم، فـ"لا يبعدُ حملُ الآيَةِ على جميعِ هذهِ الوجوهِ...إمَّا بكثرَةِ المنافعِ...وإمَّا بدفعِ المضارِّ...وإمَّا بحصولِ الجاهِ والرّيَاسةِ... وإمَّا بحصولِ الدّينِ"[1].

الألفُ واللّامُ في قولِه: ﴿وَٱلشَّهۡرَ ٱلۡحَرَامَ﴾، إمّا جنسيةٌ وإمّا تعريفيّةٌ:

﴿وَٱلشَّهۡرَ ٱلۡحَرَامَ وَٱلۡهَدۡيَ وَٱلۡقَلَٰٓئِدَۚ﴾، فالواو للعطف، و﴿وَٱلشَّهۡرَ ٱلۡحَرَامَ﴾ معطوفٌ على الكعبةِ، والألفُ واللّامُ فيه قد تكونُ جنسيّةً؛ لأنّه ليس شهرًا واحدًا بل أربعةٌ (ذو القعدة وذو الحجّة والمحرّم ثمّ رجب)، ثلاثةٌ سردٌ، وواحدٌ فردٌ، والحرامُ وصفٌ للشّهرِ، وقد تكونُ لتعريفِ "الشّهر الّذي يُؤدَّى فيه الحجُّ، وهو ذو الحِجّة؛ لأنّ اختصاصَه من بين الأشهُرِ بإقامةِ موسمِ الحجِّ فيه شأنٌ قد عرّفه اللّه تعالى"[2]، وهو أظهرُ؛ فإنّ المَلحظَ هنا أنّه جمعَ في هذه الآيةِ حُرمةَ المكانِ، وأتبعَها بحُرمة الزّمانِ، وعطفَ الشّهرَ الحرامَ على البيتِ الحرامِ، من بابِ عطفِ الخاصِّ على العامِّ؛ فإنّ الشّهرَ الحرامَ من علائقِ البيتِ الحرامِ، بجانب العلائقِ الأخرى التّي اكتسبت صفةَ القداسةِ والتّحريمِ منَ الكعبةِ، مع ملاحظةِ أنّه قد قدّم حُرمةَ المكان؛ لأنّها متعلِّقةٌ بفعلِ الجَعلِ؛ ولأنّ وجودَ البيتِ الحرامِ سببٌ في الشّهرِ الحرامِ.

عطفُ الشّهرِ الحرامِ على البيتِ الحرامِ، عطفٌ للخاصِّ على العامِّ

عطفُ لفظَي ﴿وَٱلۡهَدۡيَ﴾ و﴿وَٱلۡقَلَٰٓئِدَۚ﴾، وهُما رمزٌ للحمايةِ، وأمانٌ للهدي ووقايةٌ:

جاء بالمعطوف الثّاني وهو ﴿وَٱلۡهَدۡيَ﴾، وهي الإبلُ ونحوُها غالبًا؛ لأنّ ثوابَه أكثرُ، وله بهاءٌ ورونقٌ في الحجّ، فهو الّذي يُساق للكعبةِ، فلا يمسُّه أحدٌ، كنايةً عنِ الأمن والأمان؛ فإنّه في حرمِ اللّه "ويذبحُ

الحذفُ يحدّدُ الملمحَ التّأويليَّ، وحذفُ ما يُعلمُ جائزٌ عندَ العربِ

(1) الرازي، مفاتيح الغيب: 12/107.
(2) الزّمخشري، الكشّاف: 2/299.

هناكَ، ويفرَّقُ لحمُهُ على الفقراءِ؛ فيكونُ ذلكَ نُسُكًا للمُهدي، وقوامًا لمعيشةِ الفُقراء"[1].

ثمّ المعطوف الثّالث ﴿وَٱلْقَلَٰٓئِدَۚ﴾، وقد وردت في أوّلِ السّورةِ ووردت في هذه الآيةِ، وقد "كان الرّجلُ إذا خرج يريدُ الحجَّ تقلّدَ من لِحاء السّمُرِ، أو غيرِه شيئًا، فكان ذلك أمانًا له"[2]، وهو جمعٌ مكسّرٌ من نوعٍ يُسمّى مُنتهى الجُموعِ، مفردُه قِلادةٌ، وهو على حذفِ مضافٍ، التّقديرُ "ذوات القلائد وهي البُدنُ"[3]؛ لأنّ القلائدَ ليست مقصودةً لذاتِها، إنّما هي دَلالةٌ ورمزٌ كانوا يتّخذونَه طَقسًا يَحتمون به، ويأمَنونَ على هديهم عندَ الإحرامِ، فهذه الثلاثةُ ﴿وَٱلشَّهۡرَ ٱلۡحَرَامَ﴾، ﴿وَٱلۡهَدۡيَ﴾، ﴿وَٱلۡقَلَٰٓئِدَۚ﴾ معطوفةٌ على الكعبةِ، فإن كان فعلُ الجَعلِ بمعنى الإيجادِ والخلقِ، كانت قيامًا للنّاس أيضًا، فحُكمُ المعطوفِ هو نفسُه حُكمُ المعطوفِ عليه؛ لأنّه لما أصبحتِ الكعبةُ قيامًا للنّاس بفعل الجَعلِ أصالةً، أصبحت هذه الثّلاثةُ أيضًا قيامًا للنّاس، بفعل التّبعيّة، كقولنا (قرأ زيدٌ وعمرٌو)، والمعنى (قرأ زيدٌ وقرأ عمرٌو)، وإن كان فعلُ الجَعلِ بمعنى التّصييرِ والتّحويلِ، فهاهنا عُطفت هذه الثّلاثةُ، على المفعول الأوّل ﴿ٱلۡكَعۡبَةَ﴾، ممّا يُوجبُ أنّ يكونَ لها مفعولٌ ثانٍ، على تقديرِ: جعل اللّه الكعبةَ البيتَ الحرامَ قيامًا للنّاس، والشّهرَ الحرامَ والهديَ والقلائدَ قيامًا للنّاس أيضًا[4]؛ لأنّ هذه الثّلاثةَ أيضًا، داخلةٌ في كونِها ممّا يقيمُ أودَ النّاس؛ ولأنّ المحذوفَ مذكورٌ فيما مضى، وحذفُ ما يُعلمُ جائزٌ عند العرب.

علّةُ تقديمِ الكعبةِ على الشّهرِ الحرامِ والهديِ والقلائدِ:

التّنويهُ بأهميّةِ الكعبةِ وما يرتبطُ بها من مشاعرَ أو شعائرَ

قدّمَ السّياقُ الكعبةَ، وأخّرَ الشّهرَ الحرامَ والهديَ والقلائدَ؛ "لأنّ هذهِ الثّلاثةَ إنّما صارت سببًا لقوامِ المعيشةِ لانتسابها إلى البيتِ الحرامِ"[5]، إذ في تقدُّمِ لفظةٍ على أخرى سببٌ، فتقديمُ ما قُدّم من قوله: ﴿وَٱلشَّهۡرَ ٱلۡحَرَامَ وَٱلۡهَدۡيَ وَٱلۡقَلَٰٓئِدَۚ﴾، هو بحسب الأهمِّ والأقربِ للكعبةِ البيتِ الحرامِ، فالشّهرُ الحرامُ أقربُ بجامعِ الحُرمةِ، والهديُ

(1) ابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 7/538.
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/244.
(3) القاسميّ، محاسن التّأويل: 6/2161.
(4) السّمين، الدّرّ المصون: 4/433.
(5) الرّازي، مفاتيح الغيب: 12/108.

بعده في الأهميّةِ، ثمّ القلائدُ، فلذلك "هيَ من أَقَلِّ آثارِ الحجِّ"[1]، والّتي قد تكونُ موجودةً في عصر، ولا تكون كذلك في عصرٍ آخرَ.

دَلالةُ اسمِ الإشارة ﴿ذَٰلِكَ﴾، في قوله: ﴿ذَٰلِكَ لِتَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ﴾، الآية:

ارتباطُ الأوجُهِ الإعرابيّةِ بالدَّلالاتِ المعنويّةِ

اسمُ الإشارة في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ لِتَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ له عدّةُ أوجهٍ منَ الإعراب الّذي يَستتبعُ تعدّدَ المعاني، فقد تكونُ ﴿ذَٰلِكَ﴾ مبتدأً خبرُه محذوفٌ، تقديره: ذلك الحكمُ هو الحقّ لا غيرُه، وقد يكون ذلك خبرًا لمبتدأ محذوف، تقديره: الحكمُ الّذي قرّرناه ذلك، ويمكنُ أنّ يُجعلَ اسمُ الإشارة منصوبًا بفعل تقديره: شرعنا ذلك[2]، وفي كلِّ ذلك فإنّ اسمَ الإشارة له دورُ الرّبطِ بين ما تقدَّم من أحكام، وما تأخّرَ من أعلام، وممّا سبقَ فهي متساويةُ الأوجُهِ، ولا يُمكنُ ترجيحُ أحدِ الأوجُهِ على الآخَرِ، بجامعِ أنّ كلَّها على تقديرِ محذوفٍ، إلّا أنّه على صعيدِ الصّناعةِ النّحويّةِ، يُمكُن القولُ إنّ الوجهَ الأوّلَ أقوى وأظهرُ منَ الوجهين الآخَرَين، فالوجهُ الثّاني حُذفَ فيه المبتدأ، وهو ممّا يضعّفُ التّركيبَ؛ لأنّ المبتدأ عُمدةٌ، فيضعفُ التّركيبُ بحذفِه، وكذا الوجهُ الثّالث حُذف فيه الفعلُ والفاعلُ، وهما عُمدةٌ أيضًا، وحذفُ العُمدةِ ممّا يُخلّ بالتّركيب، مع أنّ له تعلّقًا بالمعنى، التّقديرُ: (فَعَلنَا ذَلِكَ لِتَعلَمُوا)، ذكره غيرُ واحدٍ منَ المفسّرين[3]، فثبتَ أنّ الوجهَ الأوّلَ الّذي حُذف فيه الخبرُ، هو الأقوى؛ فيكونُ التّقدير: ذلك "تصييره الكعبةَ البيتَ الحرامَ قيامًا للنّاس، والشّهرَ الحرامَ والهديَ والقلائدَ"[4]، كلّ ذلك وغيرُه جُعل لكم قيامًا ﴿لِتَعۡلَمُوٓاْ﴾ اللّام للتّعليل، والفعلُ تعلموا للمخاطَبين، أي لتعلموا وتتأمّلُوا وتفكّروا في كُلّ ما صيّرهُ لكُم.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/58.
(2) العكبري، التّبيان، ص: 463.
(3) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 12/108، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 8/224، وغيرهم.
(4) ابن جرير، جامع البيان: 11/94.

بَلاغةُ الالتفاتِ منَ الغيبة ﴿قِيَٰمٗا لِّلنَّاسِ﴾ إلى الخطاب ﴿لِتَعۡلَمُوٓاْ﴾:

الـغـايـةُ مـنَ الالتفات التّنبيهُ على أمرٍ مُهمٍّ، وتطريةٌ لنشاطِ السّامعِ

وفيه التفاتٌ منَ الغيبة إلى الخطاب؛ فقد ذكرَ قبلَه ﴿قِيَٰمٗا لِّلنَّاسِ﴾، وهذا على جهة الغيبةِ، ثمّ قال: ﴿لِتَعۡلَمُوٓاْ﴾، وهذا على جهة الخطاب، والغايةُ منه التّنبيهُ على أمرٍ مهمٍّ، والتّطريةُ لنشاط السّامعِ، حتّى لا يبقى على سَننٍ واحدٍ منَ الكلام غيبةً أو خطابًا، وقولُه: ﴿لِتَعۡلَمُوٓاْ﴾، فعلٌ مُسنَدٌ لواو الجماعة منصوبٌ، بأن مُضمرة، والتّقديرُ: (لأن تعلموا) وأنّ وما بعدها مقدّرةٌ بمصدرٍ مجرورٍ بحرف التّعليل، أي للعلمِ لأنّه تعالى فعل "ذلك لعلمِه بما فيه من صلاحِ شؤونِهم، وليعلموا كما عَلمَ ما فيه منَ الخيرِ لهم"[1]، والوصلُ ظاهرٌ بين هذا الفعلِ وما سبقَه؛ لأنّ التّعليلَ "اتّصالٌ وليسَ باستئنافٍ؛ لأنّ الاستئنافَ انفصالٌ وليسَ في الكلامِ السَّابقِ ما يصلحُ لأن تتعلَّقَ بهِ لامُ التَّعليلِ، إلَّا قولهُ جعلَ"[2] فحسُنَ الوصلُ ههنا، وهو ركنٌ من أركانِ بلاغةِ العربِ في كلامِها.

الجملةُ الاسميّةُ أقوى دَلالةً منَ الفعليّة، في تقريرِ الحقائقِ العقائديّةِ:

الجملةُ المتعلّقةُ بـعـلـمِ الـلـه مـؤكَّـدةٌ بـ(أنّ)، عـلـى خـلافِ المتعلّقةِ بعلم غيرِه

﴿ذَٰلِكَ لِتَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾، هذا الفعلُ منَ الأفعال اليقينيّةِ التي تنصبُ مفعولين وهما (اللّه يَعلَمُ)، ودخولُ أنّ بعد ﴿لِتَعۡلَمُوٓاْ﴾، جعلَ الجملةَ الابتدائيةَ (اللّه يَعلَمُ)، تسدُّ مَسدَّ المفعولَين، فضلًا عن أنّ الحرفَ (أنّ) أكّدَ مضمونَ الجملة، فثمّةَ فرقٌ بين علمِه تعالى، وعلمِ المخلوقين، وثمّةَ تناظرٌ بين ﴿لِتَعۡلَمُوٓاْ﴾ و(أنَّ اللّه يَعلَمُ)، فالجملةُ المتعلّقةُ بعلمِ البشرِ، جملةٌ فعليّةٌ، بينما الجملةُ المتعلّقةُ بعلمِه تعالى جملةٌ اسميّةٌ، والاسميّةُ أقوى دَلالةً، وأثبتُ معنًى منَ الجملةِ الفعليّةِ، ناهيك عن كونِ الجملةِ المتعلّقةِ بعلمه تعالى، مؤكَّدةٌ بـ(أنّ)، والأخرى غيرُ مؤكَّدة، والأمرُ

(1) ابن قتيبة، تأويل مشكل القرآن، ص: 52.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/59.

الآخرُ أنّ الجملةَ المتعلّقةَ بعلمِه تعالى علّقتِ[1] الجملةَ الأُولى عنِ العمل لفظًا، فكأنّ علمَه تعالى حاجزٌ عن عِلمِ البشرِ، مُتحكِّمٌ فيه، وهو كذلك، وينبغي معرفةُ أمرٍ أنّ لامَ التّعليل في قوله: ﴿لِتَعۡلَمُوٓاْ﴾ هنا ليست للعِلمِ فقط، "لأنّ لامَ العلَّةِ لا تدلُّ على انحصار تعليلِ الحُكمِ الخبريِّ في مدخولهَا، لإمكان تعدُّدِ العللِ للفعلِ الواحدِ... وإنّما اقتصرَ على هذهِ العلّةِ دونَ غيرِها لشدَّةِ الاهتمامِ بهَا"[2].

التّعبير بـ(ما) الموصولة للعاقل وغيره في ﴿يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾:

﴿أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾، نجدُ (ما) موصولةً تشملُ العاقلَ وغيرَه؛ فإنّ علمَه يحيطُ بكلّ شيءٍ، ويطالُ الجميعَ بلا استثناءٍ، وتقعُ مفعولًا للفعل (يَعلَمُ)، وكرّر(ما) ههنا، تنبيهًا وتوكيدًا وتفصيلاً؛ فإنّ ما هو موجودٌ في السّموات، يختلف عمّا هو موجودٌ في الأرض؛ لأنّ علمَه تعالى يشملُ الجميعَ، ويحيطُ بكلّ شيءٍ في السّموات والأرض، ولكي لا يتوهّمَ مُتوهّمٌ، أنّ علمَه يشملُ العمومَ لا الخصوصَ، كرَّر ما لـ" أنّ التّكرارَ إذا كان لاقتضائه معانيَ مختلفةً فهو حسن"[3] والقاعدةُ أنّ التّفصيلَ يقتضي التّكرارَ، والتّكرارُ يقتضِي الإحاطةَ والشُّمولَ.

دلالة تكرار لفظ(ما)، لاقتضاء الإحاطة والشّمول

علّةُ تقديمِ لفظِ ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ على لفظ ﴿ٱلۡأَرۡضِ﴾ في الآية:

وفي باب الرُّتبةِ قدّمَ الحقُّ ﷻ السّماواتِ على الأرض، لعدّةِ أسبابٍ، منها التّعظيمُ، فإنّ مُلكَها أعظمُ شأنًا، وأكبرُ سلطانًا منَ الأرض، ومنها الفضلُ والشّرفُ، فإنّها مُشتملةٌ على الملائكةِ والأنبياءِ والمرسلينِ، وعلى الكُرسيّ والعرش، ونحوِ ذلك، ممّا لا ريبَ

مراعاةُ الرُّتبةِ في الخطابِ وذكرُ الأَولى بالتّقديمِ، له مزيّةٌ بلاغيّةٌ

(1) التّعليقُ: من خصائصِ أفعالِ اليقين، مثل عَلم ودَرى وسواهما، فحقُّ هذه الأفعال أن تتعدّى لمفعولين أصلُهما المبتدأ والخبَر إلاّ أنّ دخول بعض الأدوات، يمنع من عملها لفظًا، ويبقى المعنى قائمًا، كقولنا: علمتُ الحقَّ واضحًا، فعند دخولِ أنّ المؤكّدةِ، تقول: علمتُ أنّ الحقَّ واضحٌ، فالجملة الابتدائيّةُ هنا سدّت مسدَّ المفعولين، وهو يُسمّى التّعليقَ في باب ظنّ وأخواتها. السّيوطيّ، همع الهوامع: 1/556.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/59.

(3) ابن جماعة، كشف المعاني، ص: 141.

في فضلَه وشَرفِه، وعُلوِّ مكانتِه ومنزلتِه، ومنها القِدمُ والأوليّةُ فإنّ السّماءَ موجودةٌ قبل الأرض ببراهينَ وأدلةٍ كثيرةٍ، لا يحدُّها حصرٌ ولا بيانٌ.

تذييلُ الآية بقولِه: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ﴾:

السّياقُ الجارِي على تكرُّرِ لفظِ العلم، يستوجبُ ختامَ الآيةِ بلفظِ (عَلِيمٌ)

لقد ختمَ الحقُّ ﷻ الآيةَ، بقولِه: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ﴾، وهو تذييلٌ جميلٌ لما مرَّ منَ السّياقِ الجارِي، على العلمِ من لدُنِ قولِه: ﴿لِتَعۡلَمُوٓاْ﴾، ثمّ قولِه: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ﴾، حتّى ختمَها بقوله: ﴿عَلِيمٌ﴾، وهذا التّركيبُ معطوفٌ على ما سبقَ، بحرفِ العطفِ الواو، وهو وإن كان ليس للتّرتيبِ، إلّا أنّ الجملةَ هنا جاءت مرتّبةً على سابقتِها، فقولُه: ﴿يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾، توطئةٌ لقوله: ﴿بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ﴾، لأنّه إذا كان عالمًا بما في السّمواتِ وما في الأرضِ، لا يردُ على علمه شيءٌ، بدَلالةِ تَكرار (ما)، فإنّه إذ ذاك عالمٌ بجميع المعلوماتِ صغيرِها وكبيرِها.

مفهومُ المؤكّداتِ في قولِه: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ﴾:

أكّدَ الجملةَ بـ: ﴿وَأَنَّ﴾ الدّاخلةِ على الجملةِ الاسميّةِ، ولفظِ الجلالةِ ﴿ٱللَّهَ﴾، اسم إنّ، وههنا إظهارٌ مقامُهُ الإضمارُ، فقد جاء بلفظِ الجلالةِ، والأصلُ إضمارُه، وقولُه: ﴿عَلِيمٌ﴾؛ لأنّه مذكورٌ آنفًا، لكنّه أظهرَه تعظيمًا وتخويفًا وتنبيهًا، إلى إحاطتِه تعالى بكلِّ ما أنتم عليه، فهو "لا يخفى عليه شيءٌ من أمورِكم وأعمالِكم، وهو مُحصيها عليكم، حتّى يجازيَ المُحسنَ منكم بإحسانه، والمُسيءَ منكم بإساءتِه"[1].

أكّدَ الجملةَ بـ(أنّ) الدّاخلةِ على الجملةِ الاسميّةِ، وأقامَ الإظهارَ مقامَ الإضمارِ

قولُه تعالى: ﴿بِكُلِّ شَيۡءٍ﴾، دالٌّ على العُمُوم:

﴿بِكُلِّ شَيۡءٍ﴾، الباءُ حرفُ جرٍّ، و﴿كُلِّ﴾ منَ الألفاظِ الدّالّةِ على

(1) ابن جرير، جامع البيان: 11/94.

العُموم، وقد أضافَها إلى ﴿شَيْءٍ﴾، وأعطى التّركيبُ عُمومَ علمِه تعالى، بعد أن كان مخصَّصًا بما في السّموات وما في الأرض، وغايةُ التّعميم بعد التّخصيص هو التّوكيدُ[1].

أعطى التّركيبُ عمومَ علمِه تعالى، بعد أن كان مخصَّصًا بما في السّموات والأرض

دَلالةُ الصّفةِ المشبّهةِ ﴿عَلِيمٌ﴾، على ثبوتِ علمِه الأزليِّ:

ثمّ ختمَه بقوله: ﴿عَلِيمٌ﴾، وهو صفةٌ مشبَّهةٌ زِنةُ (فَعِيل)، الدّالّةِ على الثّبوتِ، أي أنّ علمَه تعالى ثابتٌ في الأزلِ، بما كان وما هو كائنٌ وما سيكون، وقد قدّمَ قولَه: ﴿بِكُلِّ شَيْءٍ﴾، على قولِه: ﴿عَلِيمٌ﴾ ليفيدَ الاهتمامَ، وأنّ علمَه محيطٌ بالأشياء جميعًا، وبالمخلوقات قاطبةً، ومراعاةً لرُؤوس الآي أيضًا.

تقديمُ الجارِّ والمجرور على الصّفةِ، للاهتمامِ ومُراعاةِ رُؤوسِ الآي

(1) القاسميّ، محاسن التّأويل: 6/2162.

﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٩٨﴾ [المائدة: 98]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

المناسبةُ بين علمِ اللـه المحيطِ، وبين عقابِه وغفرانِه

مناسبةُ هذه الآيةِ لما قبلَها أنّه "لمّا أنتج هذا؛ كلُّه أنّه على كلِّ شيءٍ قديرٌ، لأنّه بكلّ شيءٍ عليم"[1]، جاء في هذه الآيةِ مُستخدمًا أسلوبَ التّحذير والتّبشير، "فقال محذّرًا ومبشرًا؛ لأنّ الإيمانَ لا يتمّ إلّا بهما: ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ﴾، أي الّذي له العَظَمَةُ كلُّها الّذي نهاه عنها ﴿شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾، فليكن عبادُه على حذرٍ منه"[2]، ومع ذلك فإنّه تعالى يغفرُ لمن تاب وعادَ ويرحمُ عبادَه.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿شَدِيدُ﴾: صفةٌ مشبّهةٌ زِنةُ (فَعِيل)، الفعلُ منه (شَدَدَ)، ثمّ أُدغمتِ الدّالُ في الدّال، فصارت (شدّ)، وشديدٌ صفةٌ من صفاته تعالى "وهي القوّةُ والجلادةُ في البَدنِ والعقلِ، وقد شدَّ يَشدُّ شِدّةً، إذا كان قويًا، وأصلُ الشّدةِ العَقدُ القويُّ"[3].

2) ﴿ٱلۡعِقَابِ﴾: مصدرٌ للفعلِ عاقبَ يعاقبُ عقوبةً وعقابًا، وزنُه (فِعَال)، وأصلُه من (عَقَبَ)، وله "أصلانِ صحيحانِ، أَحدُهمَا يدلُّ على تأخيرِ شيءٍ وإتيانه بعدَ غيرِه، والأَصلُ الآخرُ يدلُّ على ارتفاعٍ وشدَّةٍ وصُعوبةٍ"[4]، وكلا الأصلين له علاقةٌ بالمضاف إليه، في قولِه تعالى: ﴿شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾، فإنّ العقابَ في تأخيرٍ، حتّى حصولِ الذّنبِ فضلًا عنِ الحقِّ ﷻ، يُمهلُ العبدَ، ولا يعاجلُه بالعقوبة، ثمّ إنّ دلالةَ العقابِ على الشّدّةِ والصّعوبةِ، واضحةٌ بيّنةٌ.

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 6/309.
(2) البقاعي، نظم الدّرر: 6/309.
(3) السّمين، عمدة الحفّاظ: (شدد).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عقب).

3) ﴿غَفُورٌ﴾: من صِيغِ مبالغةِ اسمِ الفاعلِ، على زِنةِ (فَعُول)، فاللّه غفورٌ لمن أطاعَه وآمنَ به، وأصلُه منَ الغَين والفاء والرّاءِ، ومعظمُ بابِه، يأتي لمعاني السَّترِ، فالغفرُ والغُفران، بمعنى السَّتر[1] والغفورُ هو الّذي يستُرُ ويمحُو الخطايا، مهما كانت عظيمةً إلّا الشّركَ باللّه، "والغُفرَانُ والمَغفِرَةُ منَ اللّه، هو أن يصونَ العبدَ من أن يمسَّه العذابُ"[2].

4) ﴿رَّحِيمٌ﴾: من صِيغِ مبالغةِ اسمِ الفاعلِ، على زِنةِ (فَعيل)، وأصلُه (رَحِمَ)، ومنه الرّحمةُ وقد اقترنت هذه الصّفةُ مع أختها، (الرّحمن) في البسملةِ وفي آيةٍ من فاتحة الكتاب، وهما "يدلّان على الرِّقةِ والانعطافِ في أصل اللُّغة، ولكنّهما بالنّسبةِ إلى اللّه تعالى، كنايةٌ عن إنعامِه وإحسانِه على خلقِه"[3]، إلّا أنّ الرّحمنَ أبلغُ منَ الرّحيم، لأنّه قيل: رحمنُ الدّنيا ورحيمُ الآخرةِ، ففي الدّنيا رحمتُه للجميع، مؤمنِهم وكافرِهم، أمّا في الآخرة فللمؤمنين خاصّةً، ثمّ إنّه قد يُطلقُ هذا الوصفُ، على غيرِه تعالى[4]، كقولِه تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ [التّوبة: 128]، فقد وصفَ رسولَه ﷺ بهذه الصّفةِ.

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

عذابُ اللّه شديدٌ على العاصِين، وغفرانُه فسيحٌ للتّائبين

الآيةُ فيها أمرٌ للمخاطَبين بأن يعلمُوا، أنّ من صفاتِه تعالى الشّدّةَ والقوّةَ في عقابِ العاصِين والمُنتهِكين لمحارمِه، وفي المقابلِ فإنّ من صفاته الأخرى المبالغةَ في الغُفران، والمبالغةَ في الرّحمة "وأنّه لمنِ انتهك محارمَه، وتعدَّى حدودَه، ولم يتب عن ذلك، شديدُ العقابِ، وأنّه لمن تابَ وأنابَ إليه، غفورٌ رحيمٌ"[5]، وإنّ ممّا يدلُّ على أنّ جانبَ الرّحمةِ والمغفرةِ، أغلبُ من جانبِ العقابِ، أنّه ذكرَ العقابَ، بوصفٍ واحدٍ فيما ذكرَ الجانبَ الآخر، بوصفَين وهما غفورٌ ورحيمٌ.

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (غفر).
(2) الرّاغب، المفردات: (غفر).
(3) السّمين، عمدة الحفّاظ: (رحم).
(4) السّمين، عمدة الحفّاظ: (رحم).
(5) الشّوكاني، فتح القدير: 2/91.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

الآيةُ مصدَّرةٌ بفعل الأمرِ ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ﴾، تناسبًا مع السّياقِ السّابقِ:

تناسبًا مع السّياقِ السّابقِ، وهو سياقُ العلمِ (لتعلموا، يعلم، عليم)، صدّرَ الحقُّ ﷻ، هذه الآيةُ بفعلٍ مناسبٍ، لترتبطَ الآيةُ بسابقتِها ولتحقُّقِ الوصل. ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ﴾ فعلُ أمرٍ مبنيٌّ على حذف النّونِ وهو متّصلٌ بواو الجماعةِ أي تيقّنوا وتحقّقُوا أيّها المخاطَبون؛ لأنّ العلمَ هو اليقينُ.

الفعلُ (اعلَمُوا) مناسبٌ لتحقيق الارتباطِ ولتحقيق الوصلِ

إضافةُ الصّفةِ المشبَّهةِ (شديد) للفظِ (العقاب)، في قولِه: ﴿شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾:

﴿أَنَّ﴾ حرفٌ يفيدُ التّوكيدَ، ﴿ٱللَّهَ﴾ لفظُ الجلالةِ اسمُ ﴿أَنَّ﴾، ﴿شَدِيدُ﴾ خبرُ أنّ صفةٌ مشبّهةٌ، ثمّ أضيفَ إلى ﴿ٱلۡعِقَابِ﴾ اسمٌ زنة (فِعال)، وهو تحذيرٌ وتخويفٌ لمن يستحلُّ ما نهى اللّه عنه، وهو "وعيد لمنِ انتهك محارمَه أو أصرَّ على ذلك"[1]، وافتتاحُ الآية ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ﴾ غايتُه الاهتمامُ بما سيردُ من كلامٍ، وحثُّ المخاطَب على تأمُّله "، وفيهِ تعريضٌ غالبًا بغفلةِ المخاطَبِ عن أَمرٍ مهمٍّ... فالتَّصريحُ بالفعلِ الدَّالِّ على طلبِ العلمِ مقصودٌ للاهتمامِ"[2]، وسرُّ الاهتمام أنّ معنى الآية ولو ذكرَ ذلك خلوًا منَ الفعل لجازَ، إلّا أنّه أراد أنّ يُعرِّضَ بغفلة المخاطَب، ممّا مرّ من أحكامٍ، فجاء بالفعل: ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ﴾، وزاد عليها ﴿أَنَّ﴾ المؤكّدةَ التّي أكّدت مضمونَ الخبر، بأنّه شديدُ العقاب، وهو بالمرصاد لمن خالفَ أمرَه وانتهكَ محارمَه.

تحذيرُ منتهِكِ المناهِي، وتبشيرُ التّائبِ الآيبِ

الفعلُ ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ﴾ دالّ على اليقين يَنصبُ مفعولَين:

ولَمَّا كانت ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ﴾ يقينيّةً، فإنّ بها حاجةً لمفعولَين ولوجود ﴿أَنَّ﴾، فهي واسمُها وخبرُها تسدُّ مسدَّ مفعولَي اعلَمُوا، وهي كذلك

تأويلُ الجملةِ مصدرًا معطوفًا على سابقِها، يربط السّياقَ بالمعنى

(1) القاسمي، محاسن التّأويل: 6/2162.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/314.

على تأويل مصدرٍ معطوفٍ على ما سبق، تقديرُه (واعلمُوا شدّةَ عقابه كائنةً أو حاضرةً).

المشاكَلةُ بين الخوفِ والرّجاءِ في الآيةِ:

المؤمنُ متأرجِحٌ بين خوفٍ منَ العقابِ، ورجاءٍ للثّوابِ

لقد عقّبَ بقولِه تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، وهو تعقيبٌ فيه مشاكلةٌ بديعةٌ بين الخوفِ والرّجاءِ، وهذا هو حالُ المؤمنِ متأرجحٌ، بين الخوفِ والرّجاءِ، فقد وردَ في الأثرِ: «لَو وُزِنَ خَوفُ المُؤمِنِ وَرَجَاؤُهُ، مَا زَادَ خَوفُهُ عَلَى رَجَائِهِ، وَلَا رَجَاؤُهُ عَلَى خَوفِهِ»[1]، ورجّحَ الحقُّ ﷻ الرّجاءَ على الخوف.

ورودُ التّعبيرِ بأنّه غفورٌ رحيمٌ، بعد العقابِ الشّديدِ:

مقابلةُ صفةِ شدّةِ العقابِ، بصفتَي الغُفرانِ والرّحمةِ

فبعدَ أن حذّرهم من عقابِه الشّديدِ، ثنّى بأنّه غفورٌ رحيمٌ، في آيةِ مغفرةٍ ورحمةٍ، مطابقةٍ لآية العقاب، بل وتزيدُ عليها، ففي آيةِ العقابِ ذكرَ صفةً واحدةً، من صفاتِه تعالى، وهو قولُه: ﴿شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾، وهي صفةٌ مشبَّهةٌ إلّا أنّه في الآية الأخرى ذكرَ صفتَين من صفاتِه تعالى، فذكرَ صفةَ الغفورِ، وذكرَ صفةَ الرّحيمِ، وهو ما عبّر عنه الشّاعرُ بقولِه:

أَنَا مُذنِبٌ أَنَا مُخطِئٌ أَنَا عَاصٍ *** هُوَ غَافِرٌ هُوَ رَاحِمٌ هُوَ كَافِ

قَابَلتُهُنَّ ثَلَاثَةً بِثَلَاثَةٍ *** وَلَتَغلِبَن أَوصَافُهُ أَوصَافِي[2].

صِيغتَا المبالغةِ ﴿غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، أقوى منَ اسمِ الفاعلِ(غافرٌ رَاحِمٌ):

يَقيني بأنّ الله يَقيني، من عذابِه بغُفرانِه

وكلاهما من مبالغةِ اسمِ الفاعلِ ﴿غَفُورٌ﴾، صيغةُ مبالغةٍ زنةُ (فعُولٌ)، وهو أقوى وأبلغُ من غافرٍ، و﴿رَّحِيمٌ﴾ صيغةُ مبالغةٍ زنةُ (فَعيل)، وهو أقوى وأبلغُ من راحم، فههنا رجّح الحقُّ ﷻ جانبَ الرّجاء على جانب الخوفِ، من جهتين كمًّا ونوعًا، فمنَ الكمِّ واحدةٌ

(1) البيهقي، شعب الإيمان: 2/327.

(2) البيتان منسوبان للشّافعيّ، وقد ذكرهما الآلوسّي دون نسبة، روح المعاني: 5/67.

للخوف ﴿شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾، واثنتان للرّجاء ﴿غَفُورٌ﴾ ﴿رَّحِيمٌ﴾، ومن جهة النّوعِ أنّ ﴿شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾ صفةٌ مشبّهةٌ، جعلها للخوف، و﴿غَفُورٌ﴾ ﴿رَّحِيمٌ﴾ صيغتا مبالغةٍ، جعلهما للرّجاء، والأوّل دالٌّ على الكثرة، والثّاني لمن صار له كالطّبيعةِ والعَطيَّةِ[1]، جانبُ الرّجاء أغلبُ، وكلاهما خبرٌ للمبتدأ (اللّه).

تقديمُ العقابِ على المغفرةِ والرّحمةِ، إيذانٌ بالعَفوِ والغُفرانِ:

سبقت رحمةُ اللـه غضبَه، فعفا عنِ العباد حين يتوبُون

وفعلُ الأمرِ ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ﴾ يتعدّى إلى كونِه تعالى شديدَ العقابِ، ويتعدّى إلى كونِه غفورًا رحيمًا، فقد عطفَ الجملةَ الثّانيةَ ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ على الجملةِ الثّانيةِ ﴿أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾، فهلّا عكسَ التّرتيبَ وخالفَ؟ وهل يختلفُ المعنى؟ والجوابُ أنّ في "تقديم العقاب على المغفرة والرّحمة، إيماءً إلى أنّ العقابَ قد ينتهِي بالمغفرةِ والرّحمةِ؛ لأنّ رحمتَه تعالى سبقت غضبَه"[2]، ولقولِه ﷺ: «أنّ اللّه لَمَّا قَضَى الخَلقَ، كَتَبَ عِندَهُ فَوقَ عَرشِهِ: أنّ رَحمَتِي سَبَقَت غَضَبِي»[3].

تقديمُ (الغفور) على (الرّحيم) في قولِه: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾:

المغفرةُ سلامةٌ، والرّحمةُ غنيمةٌ

وفي تقديم الغفورِ على الرّحيم، أسبابٌ منها أنّ المغفرةَ للمُكلّفين منَ البشر، وحيثُما وردَ ذكرُ المكلَّفين متقدِّمًا، تقدّمَ الغفور على الرّحيم[4]، وهنا تقدّم ذكرُهم في تحليل الصّيد وتحريمه، وثَمَّةَ سببٌ ثانٍ، في "تقديم الغفور على الرّحيم، أنّ المغفرةَ سلامةٌ، والرّحمةَ غنيمةٌ، والسّلامةُ مطلوبةٌ قبلَ الغنيمةِ"[5]، وأنّ الرّحمةَ أعمُّ منَ المغفرةِ، فهي تشملُ البشرَ والحيوانَ وأضرابَهم، وآيةُ ذلك

(1) أبو حيّان، ارتشاف الضّرب: 5/2281.
(2) المراغي، تفسير المراغيّ: 7/37.
(3) البخاري، صحيح البخاري، الحديث رقم: (7422).
(4) فاضل السّامرائّي، من أسرار البيان القرآنّي، ص: 160.
(5) فاضل السّامرائّي، التّعبير القرآنّي، ص: 57.

قولُه ﷺ من حديثٍ طويلٍ «... فَمِن ذَلِكَ الجُزءِ تَتَرَاحَمُ الخَلَائِقُ، حَتَّى تَرفَعَ الدَّابَّةُ حَافِرَهَا عَن وَلَدِهَا، خَشيَةَ أنّ تُصِيبَهُ»[1]، فالرّحمةُ عامّةٌ، وقد قدّمَ الرّحيمَ على الغفورِ في موضعٍ آخرَ هو قولُه تعالى: ﴿يَعۡلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا يَخۡرُجُ مِنۡهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعۡرُجُ فِيهَاۚ وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلۡغَفُورُ ۝٢﴾ [سبأ: 02]؛ لأنّ السّياقَ هنا في جميع الخلائقِ وليست مُقتصرةً على البشرِ المكلَّفين.

(1) مسلم، صحيح مسلم، الحديث رقم: (2752).

﴿مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا تَكۡتُمُونَ ٩٩﴾

[المائدة: 99]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

في الآيةِ السّابقةِ ذكرَ الحقُّ ﷻ أنّه شديدُ العقاب ترهيبًا، وأنّه غفورٌ رحيمٌ ترغيبًا، فنزلت هذه الآيةُ، بمعنى "أنّه كان مكلّفًا بالتّبليغ، فلما بلّغَ خرجَ عن العُهدةِ، وبقيَ الأمرُ من جانبكم"[1]، ثمّ زاد بأنّه يعلمُ ما تُظهرونَه وما تخفونَه؛ فمخالفتُكم تُدخلُكم في حيِّزِ العقابِ، وطاعتُكم تُدخلُكم في حيِّزِ الغُفرانِ والرّحمةِ.

ما ذُكر من عقابِ اللهِ وغُفرانِه، هو جوهرُ بلاغِ الرّسولِ ﷺ للنّاس:

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تُبۡدُونَ﴾: فعلٌ مضارعٌ مُسنَدٌ لواو الجماعة، الفعلُ المجرّدُ منه "بدا الشّيءُ يَبدو بدُوًّا، إذا ظهر وبدا لَهُ في هَذَا الأَمر بَدَاءٌ"[2]، وهو المعنى المرادُ في الآيةِ، أي تُظهرون ما في دواخلِكم، فكلُّ شيء يُظهره الإنسانُ، فقد أبداهُ[3].

تُظهرون ما في دواخلِكم، وتُفصِحون عمّا في سرائرِكم

2) ﴿تَكۡتُمُونَ﴾: فعلٌ مضارعٌ مُسنَدٌ لواو الجماعة، الفعلُ المجرّد منه (كَتَمَ)، وهو نقيضُ الفعلِ السّابقِ ﴿تُبۡدُونَ﴾، ومصدرُه الكِتمانُ، وهو يناقضُ الظّهورَ والإعلانَ[4]، "وحقيقةُ الكتم سترُ الشّيء وتغطيتُه"[5]، وهذه المعاني متقارِبةٌ، وهي المقصودةُ في الآيةِ الكريمةِ.

الكِتمانُ سترُ الشّيءِ وتغطيتُه عنِ النّاس

(1) الرّازي، مفاتيح الغيب: 12/109.
(2) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (بدا).
(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (بدا).
(4) الخليل، العين: (بدا).
(5) السّمين، عمدة الحفّاظ: (كتم).

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

تأكيدُ مُهمّةِ البلاغِ عنِ الله، وأنّه عالمٌ بظواهرِ البشر وبواطِنِهم

المعنى هنا هو في تبليغِ الرّسولِ ﷺ للمؤمنين، وعن مراقبتِه سبحانه لعبادِه، وإحصاءِ أعمالهم عليهم، فما على الرّسولِ ﷺ إلّا البلاغُ، وإيصالُ ما كلّفَه اللّه به لهم، وليس عليه الهدايةُ، فإن لم يمتثِلُوا ولم يُطيعوا فلا يَضرّون إلّا أنفسَهم، وما يَجنون إلّا عليها، ولا عذرَ لهم في التّفريطِ، وأمّا الرّسولُ ﷺ، فقد فعلَ ما يجبُ عليه، وقام بما أمرَه اللّه به، واللّه سبحانه لا يَخفى عليه شيءٌ من أحوالِكم، أي نفاقُكم ووفاقُكم، ظاهرًا وباطنًا فيجازِيكم به[1].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

ممّا يجري مجرَى المثلِ، ﴿مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُۗ﴾:

الجملةُ مستأنَفةٌ مبيِّنةٌ لمهمّةِ الرّسول ﷺ الإبلاغيّةِ

﴿مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُۗ﴾، جملةٌ مستأنَفةٌ مبيّنةٌ أنّ مهمّةَ الرّسول ﷺ هي البلاغ حَسب، وقد قامت عليكم الحجّةُ والبرهانُ، بعد ما قدَّم منَ التّرهيب بشدّة عقابِه، والتّرغيبِ بغُفرانِه ورحمتِه، "أتبعه بالتَّكليفِ بقولِه ﴿مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُۗ﴾، يعني أنّهُ كان مكلَّفًا بالتَّبليغِ، فلمَّا بلَّغَ خرجَ عنِ العُهدةِ، وبقيَ الأمرُ من جانبكم"[2]، والعبارة مكرَّرة بتمامِها في [سورة النّور من الآية: 29]، وقد غدت هذه الآيةُ كالمَثَل[3]، يُضربُ للتّشديدِ والوعيدِ فيمن خالفَ، و(ما) نافية، وهي منَ الألفاظ التّي لها الصّدارةُ في الكلامِ، قولُه: ﴿عَلَى ٱلرَّسُولِ﴾، جارٌّ ومجرورٌ، متعلّقٌ بمحذوفٍ خبر مقدّم، وتقديمُه ليس من باب الوجوبِ، بل من باب الجوازِ، والألفُ واللّامُ في الرّسول عهديّةٌ، فهو محمّد المصطفى ﷺ.

(1) القنّوجي، فتح البيان: 4/59.
(2) الرّازي، مفاتيح الغيب: 12/109.
(3) الخوارزميّ، الأمثال المولّدة، ص: 348.

أسلوبُ القصرِ ودَلالتُه، في قولِه: ﴿مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُۗ﴾:

الاستثناءُ المفرّغُ وأثـرُه في تبريز معنى الآيةِ

﴿إِلَّا﴾ أداةُ استثناءٍ مُلغاةٌ وتحقّقُ مع (ما) النّافية الحصرَ أو القصرَ، فـ(مَا) ألغتِ الاستثناءَ الكامنَ في (إلّا) والمعنى (عَلَى الرَّسُولِ البَلَاغُ) إلاّ أنّهما معًا حقّقتا القصرَ، ﴿ٱلۡبَلَٰغُۗ﴾ اسمُ مصدرٍ زنةُ (فعال) واسمُ المصدر موافقٌ للمصدر في معناه في دَلالتِه على الحدث وهو هنا التّبليغُ[1] وفعلُه (بلّغ) المضعَّفُ (بلّغ تبليغًا) واسمُ مصدرِه ﴿ٱلۡبَلَٰغُۗ﴾.

دَلالةُ التّعبيرِ في القرآن، بالبَلاغِ دونَ التّبليغ:

الألـفُ واللّامُ في لفظِ (البَلاغ) عهديّةٌ، تُنبئُ عن أصلِ هذا البلاغِ

ويُلحظُ أنّه ورد في جميع القرآن اسمُ المصدر (بلاغ)، ولم يردِ المصدرُ (تبليغ)، والسّرُّ في ذلك أنّ جميعَ ما وردَ استعملَه القرآنُ الكريمُ استعمالَ الاسمِ، من غيرِ أن يذكُرَ فعلَه لفظًا مثل: ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ نَبَاتٗا ١٧﴾ [نوح: 17]، أو تقديرًا مثل ﴿قَالُواْ سَلَٰمٗاۖ﴾ [هود: 69]، لذلك وردَ باسمِ المصدرِ، وهو هنا أي (البَلَاغُ) مبتدأٌ مؤخَّرٌ جوازًا؛ لأنّه معرفةٌ، وتعريفُه بالألفِ واللّامِ العَهديّةِ أي البلاغُ المعهودُ المعروفُ، وهو شرائعُ الإسلام.

﴿ٱلۡبَلَٰغُۗ﴾ مقصورٌ من بابِ قصرِ الصّفةِ على الموصوفِ ﷺ:

القـصـرُ ليس بحقيقيٍّ؛ لأنّ عـلى الـرّسـولِ ﷺ مهامَّ أُخرى غيرَ البلاغِ

والمبتدأُ هنا هو المحصورُ أو المقصورُ، لوُقوعِه بعد إلّا أي قصرُ الخبرِ على المبتدأ، وهو من بابِ قَصرِ الصّفةِ على الموصوفِ، قصَرَ صفةَ التّبليغ والإنذار على الموصوفِ في هذه الآيةِ، وهو النّبيّ ﷺ، وهو قصرٌ إضافيٌّ "إذِ الكلامُ حول مسؤوليّةِ الرّسول ﷺ، تجاهَ قومِه في موضوع رسالتِه، ولا يدخلُ في هذه الدّائرةِ الخاصّةِ ما يجبُ على الرّسولِ من واجباتٍ أُخرى"، فمهمّتُه البلاغُ، أي التّبليغُ، وإيصالُ المعنى إلى المكلَّفين في أحسن صورةٍ، فليس عليه مثلًا هدايتُهم، ولا

(1) البغويّ، معالم التّنزيل: 3/104.

مجازاتُهم "، والقصرُ ليس بحقيقيٍّ؛ لأنّ على الرَّسولِ أمورًا أُخرَ غيرَ البلاغِ، مثلَ التَّعبّدِ للّه تعالى، والخروجِ إلى الجهادِ، والتَّكاليفِ الَّتي كلَّفهُ اللّه بها مثلَ قيامِ اللَّيل"[1].

مفهومُ الاستعلاءِ بالحرف (على) في قوله: ﴿مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُۗ﴾:

﴿عَلَى ٱلرَّسُولِ﴾ جاء التّعبيرُ هنا بـ(على) حرفُ جرٍّ فائدتُه الاستعلاءُ[2]، كأنّ الأمرَ النّازلَ على الرّسول تلبَّسَ به، وتمكّنَ منه؛ لأنّه لو قال (إِلَى الرَّسُولِ)، لما أعطَى هذا المعنى، كما وردَ في آياتٍ أُخرى فإنّ (إلى) تدلُّ على الوصولِ، والأمرُ هنا أمرُ بلاغ؛ لذلك جاء بأسلوبِ القَصرِ، وليس للرّسولِ ﷺ سوى البلاغِ؛ وأنَّ الأمرَ نازلٌ من علٍ، فالرَّسولُ بشرٌ مثلُكم ليس له ما يَخلعُ على هذا البلاغِ لباسَ المهابةِ، لتتهيّأَ نفوسهم لتقبُّلِه والعملِ به.

أثرُ الأسلوبِ بالقصرِ والاستعلاءِ في انجذابِ النّفوس للبلاغ

تقديمُ المُسنَدِ إليه ﴿وَٱللَّهُ﴾ على المُسنَدِ ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ﴾، لإفادة تقويةِ الحُكم:

﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا تَكۡتُمُونَ﴾: الواوُ استئنافيّةٌ، والجملةُ بعدها مستأنَفةٌ، وهي جملةٌ ابتدائيةٌ، ﴿وَٱللَّهُ﴾ لفظُ الجلالة مبتدأٌ وتقديمُه على المسنَد لإفادة تقويةِ الحُكم[3] خبرُه (يعلمُ) هو جملةٌ فعليّةٌ زمنُها الحالُ أو الاستقبالُ، و(ما) بمعنى الّذي في محلِّ نصبٍ مفعولٌ به، يعني يعلمُ الّذي تُبدونَه.

لا يخفَى على اللّه ما يُبديه النّاسُ وما يخفونَه، فهو يعلمُ السرَّ وأخفَى

التّعبيرُ بـ(ما) الموصولةِ، وعدمُ التّعبير بـ(الّذي)الموصولةِ:

عبّرَ السّياقُ بلفظ﴿مَا﴾، ولم يعبّر بالّذي؛ لأنّ الّذي نصٌّ في الموصوليّة، فهو محدَّدٌ، أمّا ﴿مَا﴾ فهي مُبهمةٌ تقعُ على كلّ شيءٍ، والسّياقُ يقتضِيها؛ لأنّه أراد أنّ علمَه يُحيطُ بكلّ شيءٍ، ظاهرٍ منه

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/61.
(2) ابن السّراج، الأصول في النّحو: 3/176.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/61.

وباطن، وقولُه ﴿تُبْدُونَ﴾ جملةٌ منَ الفعل والفاعلِ، صلةُ الاسمِ الموصولِ، ثمّ عَطفَ عليه ﴿وَمَا تَكْتُمُونَ﴾، وهو مثلُه تمامًا مع اختلافِ معنى الفِعلَين.

ما يقتضيهِ السّياقُ القرآنيُّ يُوضعُ في موضعِه الّذي لا يصحُّ فيه غيرُه

حذفُ العائدِ من قولِه: ﴿مَا تُبْدُونَ﴾ وقولِه: ﴿وَمَا تَكْتُمُونَ﴾:

﴿مَا تُبْدُونَ﴾ و﴿وَمَا تَكْتُمُونَ﴾، العائدُ محذوفٌ فيهما، تقديرُه (مَا تُبدُونَهُ) و(مَا تَكتُمُونَهُ)، وفي حذفه تناسبٌ مع سياقِ الآيةِ، وكأنّ فيه إيماءةً إلى أنّ اللّه يعلمُ كلَّ شيءٍ، ولو كان خافيًا، أو أنّكم تُبدون غيرَه، فإنّنا نعلمُ "أنّ ظاهرةَ النّفاق تُعطي للمنافق حقوقَ المسلم الظّاهرةَ الموقوتةَ بحياته وزمنِه"[1]، أي ما تُبدون شيئًا، وتُضمرون غيرَه، والعلمُ في حقيقته اليقينُ، وهو يتعدّى لمفعولَين أصلُهما المبتدأُ والخبرُ، لكنّه هنا بمعنى المعرفةِ؛ لأنّه يتعدّى لواحدٍ هو (مَا تُبدُونَ)، والتّعبيرُ بالعلمِ الدّالِّ على المعرفةِ، وذلك لـ "أنّ المعرفةَ علمٌ بعين الشّيءِ مفصَّلًا عمّا سواه، بخلافِ العلمِ، فإنّه قد يتعلَّقُ بالشّيء مجملًا"[2]، وهو مناسِبٌ لتمامِ الآيةِ، فالعلمُ هنا متعلِّقٌ بالشّيء على جهةِ التّفصيل، في أنّ علمَه مُستَولٍ على ما يُبدونه، "لأنّا نعلمُ ما عمِلَه العاملُ منكم، فأظهرَه بجوارحِه، ونطق به بلسانِه"[3]، ومستَولٍ على ما يَكتمونه، يعني "ما تُخفونَه في أنفسِكم من إيمانٍ وكُفرٍ، أو يقينٍ وشكٍّ ونفاقٍ"[4]، فكلُّه غيرُ خفيٍّ عليه سبحانه، بل "وذكرُ ما تبدونَ مقصودٌ منهُ التَّعميمُ والشُّمولُ، معَ ما تكتمونَ... فلا يُظنُّ أنّ اللّه لا يعلَمُهُ"[5].

التّعبيرُ بالعلمِ الدّالِّ على المعرفةِ

(1) الشّعراوي، تفسير الشّعراويّ: 6/3418.
(2) الفيروزآباديّ، بصائر ذوي التّمييز: 4/51.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 11/95 - 96.
(4) ابن جرير، جامع البيان: 11/96.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/62.

علّةُ تقديمِ قولِه: ﴿مَا تُبۡدُونَ﴾ على قولِه: ﴿وَمَا تَكۡتُمُونَ﴾:

وتقديمُ ﴿مَا تُبۡدُونَ﴾ على ﴿وَمَا تَكۡتُمُونَ﴾، هو تقديمٌ لما يلائمُ الطّبعَ، كتقديم الواحدِ على الاثنين، والاثنين على الثّلاثة في الحساب والعددِ، كقولِه تعالى: ﴿فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۖ﴾ [النّساء: 03]، فالإنسان بطبيعتِه يُبدي كلامَه، وأحيانًا يكتمُ ما لا يريدُ إظهارَه فقدّمَ ما عليه الإنسانُ منَ الطّبيعة وأخّرَ سوى ذلك.

المطابقةُ بين قولِه: ﴿مَا تُبۡدُونَ﴾ وقولِه ﴿وَمَا تَكۡتُمُونَ﴾:

كما أنّ بين التّركيبَين مطابَقةً، بين ﴿تُبۡدُونَ﴾ و﴿تَكۡتُمُونَ﴾، فهما معنيانِ متضادّانِ، وجودُ أحدِهما بجانب الآخرِ يُعطي نصاعةً بيانيّةً، لا تتحقّقُ في وجود أحدِهما مُنفردًا بسياقٍ مختلفٍ.

الفرقُ المُعجميُّ بين لفظَي (الكتمان) و(الإخفاء):

وثمّةَ فرقٌ مُعجميٌّ في استعمال الكِتمان، وعدمِ استعمال ما يرادفُه لغةً، وهو الإخفاء؛ لأنّ "الكتمانَ غيرُ الإخفاء، فكتمُ الشّيءِ يعني أنّ الشّيءَ ظاهرُ الوضوحِ، ولكنَّ صاحبَه يَكتُمُه، أمّا الإخفاءُ فهو ما يدورُ بالخواطرِ، ويمكنُ أن يُخفيَهُ الإنسانُ، ولكنّه مع مُرورِ الوقتِ لا يستطيعُ ذلك"[1]، يؤيّده قولُ الشّاعرِ الجاهليِّ زهير بن أبي سُلمى:

وَمَهمَا تَكُن عِندَ امرِئٍ مِن خَلِيقَةٍ *** وَإِن خَالَهَا، تَخفَى عَلَى النّاسِ تُعلَمِ[2]

فاستعملَ الشّاعرُ الفعلَ (تخفى)، ولم يستعمل الفعل الآخر المرادفَ له من ناحية اللُّغة عمومًا، لكنّه لا يَحلُّ محلَّه، من جهة سياقِ البيتِ الشِّعريِّ، وكذا الواردُ في الآيةِ، فإنّ استعمالَ ﴿تَكۡتُمُونَ﴾

القاموسُ القرآنيُّ تتلوّنُ فيه المفرداتُ بتلوّنِ السّياقاتِ، في دقّةٍ وإعجازٍ

(1) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 6/3418.

(2) الأبيات من معلقةِ زهير بن أبي سُلمى، في ديوانه، ص: 36 - 37.

أبلغُ؛ لأنّ الكِتمانَ أعمقُ وأدخلُ، بينما الإخفاءُ يظهرُ، وينكشفُ مع مرورِ الأيّام، والله ﷻ عالمٌ بما يكتمُه المرءُ، وإن كان عميقًا لا يَظهرُ مع مرورِ الأيّام، ولأنّ الإخفاءَ قد يظهرُ وينكشفُ، من غير تدخُّلٍ، وبذلك لا تكون هناك مزيّةٌ لصفتِه تعالى، أمّا مع الكِتمان فمزيّتُه واضحةٌ بيّنةٌ، في أنّه مُطّلعٌ على أسرار النّفوسِ، وخبايا الأرواحِ.

﴿قُل لَّا يَسْتَوِي ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ ۚ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ [المائدة: 100]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الرّبطُ بين علمِ اللهِ بالظّواهرِ والبواطنِ، والدّعوةِ لأكلِ الطّيّبِ ونَبذِ الخبيثِ:

بيّنَ تعالى في الآيةِ السّابقةِ، أنّ العلمَ له وحدَه دونَ سِواه، وأثبتَه لنفسِه الشّريفةِ، ولما بيّنَ ما مضى منَ الحلال والحرام، في الأكلِ والصّيدِ، ذكرَ "بأنّ الأشياءَ منها طيّبٌ وخبيثٌ، ولا يميّزُ هذا من ذاك إلّا الخلّاقُ العليمُ"[1]، ثمّ دعاهُم إلى تقوى اللّه، لا سيَّما أنّهم من أُولي النُّهى، ومن كان من هؤلاء فإنّه يفهمُ ويَعِي أنّ اللّه عالمٌ بظواهرِ الأمورِ وبواطنِها.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

لَا يَستَوِي بمعنى لا يتعادلُ، في القدرِ، ولا في الدّرجةِ

1) ﴿لَّا يَسْتَوِى﴾: فعلٌ مضارعٌ وزنُه (يَفتعلُ)؛ لأنّ أصلَه (سَوَيَ)، ويُسمّى اللّفيفَ، لاجتماع حرفي علّةٍ في المجرّدِ، وهو يدلُّ على التّماثُلِ والتّعادُلِ، يقال "ساوَى الشّيءُ الشّيءَ، إذا عادَلَه، وساوَيتُ بَين الشَّيئَينِ، إذا عَدَلتَ بَينهمَا، وسَوّيتَ"[2]، والمعنى في الآيةِ أي لا يتعادلُ الخبيثُ والطّيّبُ، هذا في خُبثِه، وذاك في طِيبتِه، لا في المِقدارِ، ولا في الدّرجةِ، ولا في غيرِ ذلك، فهما على طَرفَي نقيضٍ.

2) ﴿ٱلْخَبِيثُ﴾: اسمٌ على وزن (فَعِيل)، يمكنُ أن يكون صيغةَ مبالغةٍ، أو صفةً مشبَّهةً، الجذرُ منه (خَبَثَ) "الخاءُ والباءُ والثَّاءُ أصلٌ واحدٌ، يدلُّ على خلافِ الطَّيّبِ، يقالُ خبيثٌ، أَي ليسَ بطيِّبٍ"[3]، وهذا يشملُ الولدَ والزّرعَ والنّاسَ والأخلاقَ، وسوَى ذلك،

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 6/311.
(2) الأزهري، تهذيب اللّغة: (سوي).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (خبث).

وذكرَ أنّ "أَصلَ الخُبثِ في كلامِ العربِ المكروهُ؛ فإن كانَ منَ الكلامِ، فهو الشَّتمُ، وإن كانَ منَ المِلَل، فهو الكُفرُ، وإن كانَ منَ الطَّعامِ، فهو الحرامُ، وإن كانَ منَ الشَّراب، فهوَ الضَّارُّ"[1].

التّعجّبُ حالةٌ منَ الاندهاش والانبهارِ، بما ليس مألوفًا

3) ﴿أَعۡجَبَكَ﴾: فعلٌ ماضٍ، والأصُل الثّلاثيُّ منه (عَجَبَ)، ومنه العَجَبُ والتّعجُّبُ وما اشتقّ منه، وهو "حالةٌ تَعرضُ للإنسان عندَ الجهل، بسببِ الشّيءِ، وقال بعضُهم: التّعجّبُ زيادةٌ في وصف الفاعل، خفيَ سببُها"[2]، ولذلك قالت العرب: إذا عُلم السّببُ بطَلَ العجبُ، فالتّعجّبُ حالةٌ منَ الاندهاش، تحصل لخفاء السّبب، فلا تعجب، لكثرة الخبيث؛ لأنّه زائلٌ، فالعِبرةُ ليست بالكثرةِ.

4) ﴿كَثۡرَةُ﴾: الأصلُ فيه الكافُ والثّاءُ والرّاءُ، والفعلُ منه كَثُرَ يكثُرُ، والكثرةُ هنا مصدرٌ، ومعنى الكثرةِ في لُغة العرب ضدُّ القِلّة[3] وهو واضحٌ بيّنٌ.

5) ﴿يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾: "اسمٌ مبهَمٌ للجماعة... فإذا ضُمّت اللّامُ مع الهمزةِ، فقيل أُلُو فهو اسمٌ ظاهرٌ للجماعة أيضًا بمعنى ذَوِي، لا واحدَ له من لفظِه، ولا يُستعمل إلّا مضافًا"[4]، ويردُ بمعنى أصحابٍ، وفي الآيةِ ﴿يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ بمعنى أصحابِ الألبابِ النّيّرةِ الّذين هداهم اللّه، وقولُه تعالى: ﴿ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾: جمعٌ مكسّرٌ زنةُ (أفعَال)، يُستعملُ للقِلّة، مفردُه لُبٌّ وجذرُه (لَبَبَ)، و"اللّامُ والباءُ أَصلٌ صحيحٌ يدلُّ على لزومٍ وثباتٍ، وعلى خُلوصٍ وجودةٍ"[5]، ولمّا كان كذلك منَ الخُلوص والجَودة، ولما كان خاليًا منَ الشّوائب متنزِّهًا منَ العيوب، "علّق اللّه تعالى الأحكامَ

(1) ابن منظور، لسان العرب: (خبث).
(2) السّمين، عمدة الحفّاظ: (عجب).
(3) ابن دريد، جمهرة اللّغة: 1/422.
(4) نشوان الحميري، شمس العلوم: 1/303.
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (لبب).

الّتي لا تدركُها إلّا العقولُ الزكّيةُ بأُولي الألبابِ، فخاطبهم بها دونَ مَن عَداهم"[1].

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

الطّيّبُ وإن قلَّ وندُر، خيرٌ منَ الخبيث وإن تراكمَ وكثُرَ

نفى الحقُّ ﷻ المساواةَ بين الطّيّبِ والخبيثِ، والخيرِ والشّرِّ ومن متعلَّقاتِه، وعدمُ إعجاب المرءِ بالخبيث وإن كثُرَ وعمَّ، ووجوبُ تقوى اللّه، لنيل الفلاحِ، ونفيُ المساواةِ عندَ اللّه سبحانه عامٌّ بين الجيِّد والرّديء منَ الأشخاصِ، والأعمالِ، "فإنّ العِبرةَ بالجَودةِ والرّداءةِ دون القِلّة والكثرةِ، فإنّ المحمودَ القليلَ، خيرٌ منَ المذموم الكثيرِ، والخطابُ لكُلِّ مُعتبر، فاتّقُوه في تحرّي الخبيثِ وإن كثُرَ، وآثِرُوا الطّيّبَ وإن قلَّ لعلّكم تُفلحون، راجين أن تبلغُوا الفلاحَ"[2].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

﴿قُل لَّا يَسۡتَوِي ٱلۡخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ﴾ **جملةٌ بليغةٌ تَجري مَجرَى المثَلِ:**

ليستِ العبرةُ بالكثرةِ والطّفرةِ، بل بالحِلّيّةِ والحُرمةِ

﴿قُل لَّا يَسۡتَوِي ٱلۡخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ﴾، ورد هذا التّركيبُ اللُّغويُّ مرّةً واحدةً في القرآنِ الكريم، أمّا أسلوبُ نفي الاستواءِ بالفعلِ المضارعِ ﴿لَّا يَسۡتَوِي﴾، فقد ورد أربعَ مرّاتٍ، وهو منَ التّراكيبِ اللُّغويّةِ الّذي جرى مَجرَى الأمثال[3]، يُقال لمن يَعدمُ النّظرَ والتّفريقَ بين الصّالح والطّالحِ.

دَلالةُ تصديرِ الكلامِ بالفعلِ ﴿قُل﴾

يستحيلُ في حقِّ الرّسول كِتمانُ ما أمرَه اللّه ببلاغِه

﴿قُل﴾ فعلُ أمرٍ مِن قال، والأصلُ (قُوَلَ) اجتمع ساكنان، سكونُ حرفِ العلّة الواو، وسكونُ آخرِ فعلِ الأمرِ، فحُذفَ حرفُ العِلّة، فصار (قل)، وفاعلُه ضميرٌ مستترٌ لا يجوزُ إظهارُه، تقديرُه: أنت؛ يعني يا أيها المخاطَبُ ﴿قُل﴾، وفي تصديرِ الآيةِ بهذا الفعلِ ما يدلُّ على العنايةِ والاهتمامِ بالحُكمِ الّذي سيأتي، لأنّه ﷺ مأمورٌ بأن

(1) السّمين، عمدة الحفّاظ: (لبب).
(2) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 2/145.
(3) الثّعالبيّ، التّمثيل والمحاضرة، ص: 18.

يقولَ جميعَ ما هو مبلَّغٌ بقولِه، فإذا نصَّ بلفظةِ ﴿قُل﴾، دلّ ذلك التّخصيصُ على الأهميةِ[1].

(لا) النّافيةُ تُمحِّضُ الفعلَ المضارعَ للمستقبلِ:

استغراقُ الفعلِ المنفيِّ للزّمان المستقبليّ، يدوم به الحُكمُ إلى يومِ القيامةِ

﴿لَّا﴾ نافيةٌ ودخولُها على الفعلِ المضارعِ، يخلِّصُه للاستقبال[2]، بعد أن كان متردّدًا محتمِلًا بين الحالِ والاستقبالِ، لكنّها لا تعملُ فيه شيئًا البتّةَ، ﴿يَسْتَوِى﴾ فعلٌ مضارعٌ مخلَّصٌ للاستقبال، بفعل ﴿لَّا﴾، كما أنّ وجودَ الفعلِ ﴿يَسْتَوِى﴾ في حيّزِ الفعل ﴿قُل﴾، مُؤذنٌ بالاستقبال؛ لأنّ ﴿قُل﴾ فعلُ أمرٍ، يُتوقّع حصولُه في المستقبل، فجاءت ﴿لَّا﴾ لتؤكِّدَ هذا المضمونَ.

لفظُ الطّيّب، من قولِه: ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ﴾، معطوفٌ لفظًا، وفاعلٌ ثانٍ معنًى:

﴿يَسْتَوِى﴾ فعلٌ معتلٌّ ناقصٌ منته بالياء، لفظُ ﴿ٱلْخَبِيثُ﴾ فاعلُ الاستواء، ﴿وَٱلطَّيِّبُ﴾ الواو عاطفةٌ وما بعدها معطوفٌ على ﴿ٱلْخَبِيثُ﴾ وهو وإن كان معطوفًا، فإنّه فاعلٌ ثانٍ في المعنى؛ لأنّ فعلَ الاستواءِ يقتضي وجودَ فاعلَين، وفيه إلماحةٌ دَلاليّةٌ في أنّ الطّيّبَ لا يمكُن أنّ يكونَ تابعًا للخَبيث، بل هو مُستقِلٌّ عنه، وطرفٌ ثانٍ في الحياة، "فيندرجُ تحتهما حلالُ المالِ وحرامهُ، وصالحُ العملِ وفاسدهُ، وجيّدُ النَّاسِ ورديئُهم، وصحيحُ العقائدِ وفاسدُهَا"[3]، وغيرُ ذلك منَ المتقابلاتِ، لأنّه لفظٌ عامٌّ، ولا يجوز قصرُه على معنًى منَ المعاني، كقصر الخبيثِ بالكافرِ، والطّيّبِ بالمؤمن، أو قصرِ الخبيث بالحرامِ، والطّيّبِ بالحلالِ، وإن كان يؤيّدُه سببُ النّزول[4]؛ لأنّ

(1) الدرر السنية، التّفسير المحرّر: 4/519.

(2) ابن هشام، مغني اللّبيب، ص: 322.

(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/30.

(4) خلاصتُه أنّ أعرابيًّا أراد أن يُنفقَ منَ المال الحرام في طاعة الله، فقال له ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ لاَ يَقبَلُ إِلاَّ الطَّيِّبَ»، فأنزل الله تعالى الآيةَ تصديقًا له. الواحدي، أسباب نزول القرآن، ص: 210.

العِبرةَ بعُموم اللّفظِ لا بخصوصِ السّبب، "والصَّحيحُ أنّ اللَّفظَ عامٌّ في جميعِ الأُمورِ، يُتصوَّرُ في المكاسبِ والأَعمالِ، والنَّاسِ، والمعارفِ منَ العلومِ وغيرِها"[1].

الاستعارةُ التّصريحيّةُ في قولِه: ﴿قُل لَّا يَسۡتَوِي ٱلۡخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ﴾:

وفي جملة ﴿لَّا يَسۡتَوِي ٱلۡخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ﴾ استعارةٌ تصريحيّةٌ[2]، "فشبّه الحلالَ بالطّيّبِ في حلاوتِه وتقبُّلِ النّفس له ترغيبًا فيه، وشبّهَ الحرامَ بالخبيثِ في كراهيّته وعُزوفِ النّفس عنه تنفيرًا منه"[3]، وفيه مقابلةٌ بين الخبيثِ والطّيّب.

كلُّ طيّبٍ مُستساغٌ محبوبٌ، وكلُّ خبيثٍ مكروهٌ منبُوذٌ

دَلالةُ التّقديمِ والتّأخيرِ في قولِه: ﴿قُل لَّا يَسۡتَوِي ٱلۡخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ﴾:

في هذه الآيةِ تقدّمت لفظةُ الخبيثِ، وتأخّرت لفظةُ الطّيّبِ، وهو أمرٌ لا بدَّ منه في أيِّ خطابٍ، أن تتقدّمَ بعضُ الألفاظِ وتتأخّرَ أُخرى، وكما قيل: فتقدّمُ ما يقدّمُ، يكون بحسب تقدُّمِه في الجَنان، والعلّةُ هنا في تقدّمِ الخبيثِ علّةٌ مركّبةٌ، وهي كثرةُ الخبيث عامّةً، تؤيّدُه آياتٌ أُخرى في المعنى العامّ للخبيث، كقولِه تعالى: ﴿وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ ١٠٣﴾ [يوسف: 103].

يتقدّمُ اللّفظُ في اللّسانِ بقدرِ تقدُّمِه في الجَنانِ

التّقديمُ بما يُلائمُ السّياقَ البُعديَّ للآيةِ:

وفرعُ العلّةِ المركّبةِ الآخرُ هو السّياقُ البُعديُّ للآيةِ، من قولِه تعالى: ﴿وَلَوۡ أَعۡجَبَكَ كَثۡرَةُ ٱلۡخَبِيثِۚ﴾، فصرّح هنا بكثرة الخبيثِ، وحذّرَ من أن يُعجبَ به الإنسانُ؛ لأنّ العبرةَ ليست بالكثرةِ، بل بالجودةِ، ولو تتبّعنا لفظةَ الخبيث في القرآن الكريم، لوجدناها مقدَّمةً في جميع الآيات، كقولِه تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلۡخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِۗ﴾ [آل عمران: 179]، وقولِه تعالى: ﴿ٱلۡخَبِيثَٰتُ لِلۡخَبِيثِينَ وَٱلۡخَبِيثُونَ لِلۡخَبِيثَٰتِۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ

تقديمُ لفظِ الخبيثِ لتصدُّرِ الفُجّار، وغلَبةِ شُرورهم في المجتمعِ

(1) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 8/225.

(2) أسلوبٌ في البلاغة يعتمدُ على التّشبيه، وفي هذا النّوع يصرّحُ فيه بلفظ المشبّه به كتشبيه الكريم بالبحر، ينظر: الهاشمي، جواهر البلاغة، ص: 267.

(3) صافي، الجدول: 7/35.

لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِۚ﴾ [النّور: 26]، وهلُمّ جرًّا في بقية الآيات، في نحوِ تسعةِ مواضعَ، تقدّمَ فيها لفظُ الخبيث على الطّيّب، وهناك سببٌ آخر لتقديمِ ما قُدّمَ، فهو "للإشعارِ من أوّلِ الأمرِ بأنّ القصورَ الّذي يُنبئُ عنه عدمُ الاستواءِ فيه لا في مقابِلِه"[1] فإنّ قولَه بادئَ الأمر: ﴿لَّا يَسْتَوِي ٱلْخَبِيثُ﴾، يُشعرُ بأنّ عدمَ الاستواءِ مُتأتٍّ منَ الخبيث لا منَ المقابل له، وهو الطّيّبُ، ونضيفُ أنّ ابنَ عاشور ذكر سبباً آخر، وهو إضافيٌّ وليس جوهريًّا، وهو أن يكونَ في الآيةِ "إشارةٌ إلى كثرةِ نصارَى العربِ في الشّامِ والعراقِ ومشارفِ الشّامِ؛ لأنّ المسلمينَ قد تطلّعُوا يومئذٍ إلى تلكَ الأصقاعِ"[2].

قولُه: ﴿وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِۚ﴾، أسلوبٌ يفيدُ الشّرطَ:

حـــذفُ جـــوابِ الشّرطِ منَ الآيةِ السّابقةِ

و﴿وَلَوْ﴾ هي أمُّ بابِ أدواتِ الشّرط غيرِ الجازمة، وهي "حرفٌ يدلُّ على امتناعِ الثّاني، لامتناعِ الأوّل"[3]، ولمّا كان الأمرُ متعلّقًا بالشّرط، فمعنى الأوّلِ فعلُ الشّرطِ، ومعنى الثّاني جوابُ الشّرطِ، كقولِه تعالى: ﴿وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَٱخْتَلَفْتُمْ فِي ٱلْمِيعَٰدِ﴾ [الأنفال 42]، فعدمُ حصولِ المواعَدةِ يَنفي حصولَ الاختلاف، وقولُه: ﴿أَعْجَبَكَ﴾ فعلٌ ماضٍ، إلّا أنّ زمنَه النّحويَّ يدلُّ على الاستقبال؛ لأنّه شرطٌ، فالإعجابُ سوف يحصلُ في المستقبل، والكافُ ضميرٌ متّصلٌ مفعولٌ به مقدَّمٌ على الفاعلِ، وتقديمُه واجبٌ لاتّصاله، و﴿أَعْجَبَكَ﴾ هنا هو فعلُ الشّرط أو الأوّلُ على تعبيراتِ النّحويّين، وفاعلُه المضافُ ﴿كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِۚ﴾، ولفظُ ﴿كَثْرَةُ﴾ مصدرٌ سماعيّ، والمصدر هو الحدثُ مُجرّدًا منَ الزّمن ولمّا كان كذلك، فإنّ التّعبيرَ بالمصدر، يأتي للدّلالةِ على قُوّة الوصفِ، وأنّه بلغَ الغايةَ حتّى أصبحَ الحدثَ نفسَه،

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/127.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/63.
(3) المراديّ، الجنى الدّاني، ص: 276.

لكثرة ممارستِه له، وههنا أراد زيادةَ التّشنيعِ على صفةِ الخبيثِ، ولَمَّا كانت (لو) شرطيّةً، وجب أنّ يكونَ لها جُزآن، فعلُ الشّرط وهو موجودٌ، ممثَّلًا في قولِه: ﴿أَعۡجَبَكَ﴾، وجوابُ الشّرط "محذوف، تقديرُه: (ولو أعجَبك كثرة الخبيثِ، لَمَا استوى مع الطّيب)، أو لَمَا أجدَى شيئًا في المساواةِ"[1]، فالجوابُ إذن محذوفٌ، لدَلالة الكلامِ السّابقِ عليه، وحذفُ ما يُعلمُ جائزٌ، كما تقولُ العربُ، وفي (لو) معنًى آخر وهو مساواتُها لمعنى (أنّ)، وذلك لـ" أنّ الشَّرطَ متى كان مستقبلًا محتملًا، وليسَ المقصودُ فرضَه الآن أَو فيما مضى، فهيَ بمعنى أنّ[2]، وهذا المعنى متحقِّقٌ هنا، "فالخبيثُ ولو أَعجبكَ كثرتُهُ، يمتنعُ أنّ يكونَ مُساويًا للطَّيّبِ الَّذي هو المعرفةُ والمحبَّةُ والطَّاعةُ، والابتهاجُ بالسَّعاداتِ الرُّوحانيَّةِ، والكراماتِ الرَّبَّانيَّةِ"[3].

البدءُ بالفاء الفصيحةِ من قولِه تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ من هذه الآيةِ:

﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾، الفاء هنا تُسمّى الفاءَ الفصيحةَ، وهي الّتي تُفصحُ عمّا قبلها "أي: إذا تبيّن لكم هذا فاتّقوا اللّه"[4]، ولفظُ ﴿فَٱتَّقُواْ﴾ فعلُ أمرٍ مُسنَدٌ لجماعة المخاطَبين، فاعلُه الضّميرُ المتّصلُ الواو، ولفظُ الجلالة ﴿ٱللَّهَ﴾ منصوبٌ على التّعظيم، و(يا) حرفُ نداءٍ شائعُ الاستعمال في القرآن الكريم، وهو أطولُ أدواتِ النّداءِ صوتًا، واستعمالُه لأهميّةِ ما سيُلقَى من خطابٍ، و(أُولي) منادَى ومعناه أصحابُ وهو مضاف.

تقوَى الله هي البابُ، الّذي يَلِجُهُ أُولوا الألبابِ

قولُه: ﴿لَعَلَّكُمۡ﴾ لفظٌ يفيدُ التّرجّيَ، وقد يردُ للتّعليل:

لفظ ﴿لَعَلَّكُمۡ﴾ حرفٌ يفيدُ التّرجّي في أصل وضعِه، لكنّه قد يردُ في القرآن الكريم مُرادًا به التّعليلُ، وجملةُ ﴿لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾

(1) السّمين، الدّرّ المصون: 4/433.
(2) ابن هشام، مغني اللّبيب، ص: 349.
(3) الرّازي، مفاتيح الغيب: 12/110.
(4) الدّرويش، إعراب القرآن وبيانه: 3/27.

تذييلٌ بأمرِ التّقوى وتعليلٌ بعلّة الفلاح، والمعنى "واتّقوا اللّه بطاعتِه فيما أمركم ونهاكم...يعني بذلك أهلَ العقول والحِجَى، الّذين عقِلُوا عن اللّه آياتِه، وعرفُوا مواقعَ حُججِه...كي تنجحُوا في طلبِكم ما عنده"[1]، وقولُه: لعلّكم وإن كان من كلامِه تعالى، إلّا أنّ المعنى من عبيدِه كأنّه يخاطبُ نفرًا منَ البشر، هؤلاء أنِ اتّقوا لعلّكم تُفلحون؛ لأنّ اللّه تعالى يُرجَى ولا يرجُو عبادَه[2].

الجملةُ تذييلٌ بأمريّة التّقوى، وتعليلٌ بعلّةِ الفلاحِ

المجازُ في قولِه: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ من هذه الآيةِ:

﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾: من باب المجازِ، أو على حذفِ مُضافٍ، أي اتّقُوا عذابَ اللّه وعقابَه"، وإنّمَا تُضافُ التَّقوى إلى اللّهِ تعالى، تعظيمًا لأمرِ عذابِه وعقابِه، وإلَّا فلا يمكنُ لأَحدٍ أن يتَّقيَ ذاتَ اللّهِ تعالى، ولا تأثيرَ قدرتِه"[3]، وهو منَ الأساليبِ الإنشائيّةِ، والأمرُ فيه للتّهديد والوعيدِ، لمن لا يتّقي اللّه، مع ملاحظةِ أنّ فيه انتقالًا في الخطاب منَ المفرد ﴿وَلَوۡ أَعۡجَبَكَ﴾ إلى الجمع ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾، كي لا يَتوهّم متوهِّمٌ أنّ الخطابَ خاصٌّ، بل هو عامٌّ للأمّةِ جميعًا.

تُضافُ التَّقوى إلى اللهِ تعالى، تعظيمًا لعذابِهِ وعقابِهِ

(1) ابن جرير، جامع البيان: 11/97.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2370.
(3) رشيد رضا، تفسير المنار: 1/105.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسۡـَٔلُواْ عَنۡ أَشۡيَآءَ إِن تُبۡدَ لَكُمۡ تَسُؤۡكُمۡ وَإِن تَسۡـَٔلُواْ عَنۡهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلۡقُرۡءَانُ تُبۡدَ لَكُمۡ عَفَا ٱللَّهُ عَنۡهَاۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٞ ١٠١﴾ [المائدة: 101]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

ضرورةُ الانقيادِ للبلاغِ، والعزوفِ عنِ الجدالِ وكثرةِ السّؤالِ

وجهُ مناسبةِ هذه الآيةِ لِما سبقَها من آياتٍ، أنّ قولَه تعالى: ﴿مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا تَكۡتُمُونَ ٩٩﴾ [المائدة: 99]، فإنّه على معنى "ما بلَّغهُ الرّسُولُ إليكُم فخُذُوهُ، وكُونُوا مُنقَادين له، وما لم يبلّغه الرّسُولُ إليكُم، فلا تسألُوا عنه ولا تخوضُوا فيه"[1]، كي لا يُصيبَكم العنتُ والشّدّةُ جَرّاءَ فعلِكم هذا، ويُراد بالسّؤال المنهيِّ عنه في هذه الآية، "السّؤالُ عن سرِّ القدَرِ، فإنّ المقدَّرَ في علم اللّه تعالى لبعض النّاس ربّما يكون ممّا يغمُّه، كختمهِ على الشّقاءِ، نعوذ باللّه، وكونِه جهنّميًّا، فنهى عن ذلك بقولِه: ﴿وَإِن تَسۡـَٔلُواْ عَنۡهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلۡقُرۡءَانُ تُبۡدَ لَكُمۡ﴾"[2]، ثمّ إنّ الحقَّ ﷻ ذكّرَهم بعدمِ استواء الخبيثِ والطّيّبِ، وأنّ على ذوي العقول أن يُميّزوا بينَها، ولمَّا كان هذا وصفَهم، وهم فضلًا عن ذلك من أهل الإيمان بنداءِ اللّه لهم، بقولِه: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾؛ فإنّه لا ينبغي أن يَسألوا عمّا لا طاقةَ لهم به، إذا وقع الجوابُ، ولا سيّما أنّها أسئلةٌ ليست من شأنِهم؛ لأنّه تعالى عفا عنها وتركَها، فما وقعَ منها، فإنّ اللّه بعد ذلك غفورٌ لمن خالفَ أمرَه وندِمَ وتابَ، حليمٌ لا يعاجلُ بالعقابِ والعذابِ، ينتظرُ التّوبةَ من عباده، لينالُوا مغفرتَه.

(1) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 12/111.

(2) القونويّ، حاشية القونويّ على تفسير البيضاويّ: 7/576.

شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

1) ﴿لَا تَسْـَٔلُواْ عَنْ أَشْيَآءَ﴾: (لا تَسأَلُوا)، فعلٌ مضارعٌ منَ الأفعال الخمسةِ، حُذفتِ النّونُ منه للجزم، أصلُه (تَسأَلُونَ) الماضي المجرّدُ منه (سَأَلَ)، وله غيرُ نوعٍ في المتعدّي، وههنا متعدٍّ بحرف الجرِّ، ومعنى السّؤال، أنّها تَستدعي عِلمًا أو معرفةً، وما يُؤدّي إليهما، ويكون جوابُها باللّسانِ[1]، والمرادُ هنا الاستخبارُ، أي طلبُ معرفة الخبرِ في أمرٍ ما، وهي الأشياءُ الّتي سكتَ عنها الحقُّ ﷻ ليس نِسيانًا وإنّما رحمةً بكم، فإنّ سؤالَكم عنها هنا لغوٌ، وقد استخدم العربُ كلمةَ (أَشياء) ممنوعةً منَ الصّرف، ربّما على توهُّم زيادة الهمزةِ الأخيرةِ، مع أنّها لامُ الكلمةِ، ولم تُسمع الكلمةُ مصروفةً في أيٍّ منَ الشّواهدِ العربيّةِ، وبمنعِ الصّرفِ جاء قولُه تعالى: ﴿لَا تَسْـَٔلُواْ عَنْ أَشْيَآءَ﴾[2]، ولفظ (أشياء) في التّركيب "قال أبو إسحاق الزجّاج، وعزاهُ للخليل، فقال: "قولُه تعالى: ﴿لَا تَسْـَٔلُواْ عَنْ أَشْيَآءَ﴾ [المَائِدَة: 101] في موضعِ الخَفضِ، إلّا أنّها فُتِحت لأنّها لَا تَنصرفُ، ونصُّ كلامِ الجوهريّ: قال الخَليل: إنّما تُرِك صَرفُ (أَشياءَ) لأنّ أَصلَهُ فَعلاء، جُمِعَ على غير واحدِه، كَمَا أنّ الشُّعَراء جُمع على غير واحدِهِ، لأَنّ الفاعِل لَا يُجمعُ على فُعَلاء، ثمَّ استثقَلُوا الهمزتَين في آخِره، نَقَلُوا الأُولى إلى أَوّل الكلِمة، فَقَالُوا أَشياء، كَمَا قَالُوا أَينُق وقِسِيّ، فَصَارَ تقديرُه لَفعاء، يدُلُّ على صِحّة ذَلِك، أَنّه لَا يُصرَف، وأَنّه يُصَغَّرُ على (أُشَيَاء)، وأَنّه يُجمَع على (أَشَاوَي)، وقال السَّخاوِيّ الدِّمشقيّ في كِتَابه سِفر السَّعادة وسفيرِ الإفادة، فيما نقله صاحبُ تاج العروس: وأحسنُ هَذِه الأَقوالِ كلِّها، وأَقربُها إلى الصّوابِ، قولُ الكسّائيّ، لأَنّه فَعلُ جُمِع على أَفعال، مثل سَيفٍ وأَسياف، وأَمّا منعُ الصَّرف فِيهِ، فعلى التَّشبيه بِفَعلاء، وَقد يشبَّه الشّيءُ بالشّيءِ فيُعطَى حُكمَه، مع ما نقلَه الزّجاجُ، حين قال: وقد أَجمع البصريّونُ وأَكثرُ الكُوفِيِّين على أَنّ قَول الكسائيِّ خطأٌ في هَذَا، وأَلزمُوه أَن لَا يصرِفَ أَبناءً وأَسماءً"[3].

2) ﴿تَسُؤْكُمْ﴾: فعل مضارع ماضيه المجرّدُ ساءَ، والسّوءُ المكروهُ والبلاءُ والعذابُ والشّرُّ والرّداءةُ[4] وكلُّ ما قيل من مثل هذه المرادفاتِ، ينطبق عليه اسمُ السّوء، فهي وما

(1) السّمين، عمدة الحفّاظ: (سأل).
(2) أحمد مختار، معجم الصّواب اللّغويّ: (شيأ).
(3) الزّبيديّ، تاج العروس، وكذلك لسان العرب: (شيأ).
(4) نشوان الحميريّ، شمس العلوم: 5/3256.

اشتقّ منها، كلمةٌ جامعةٌ لكلّ ما يُكرهُ ويُعابُ، ولكلِّ ما هو فاسدٌ وفيه ضررٌ؛ فإنّ سؤالَكم فيه ضررٌ ومساءةٌ عليكم.

3) ﴿حِينَ﴾: "الحاءُ والياءُ والنّونُ أصلٌ واحدٌ، ثمَّ يُحملُ عليهِ، والأصلُ الزَّمانُ، فالحينُ الزَّمانُ قليلهُ وكثيرهُ"[1]، ومعلومٌ أنّ لفظَ الحين يُستعملُ ظرفَ زمان، وهنا قرنَهُ بنزول القرآن "والمرادُ هنا على مدلولِه الأصليِّ، قال: هو كالوقتِ يصلحُ لجميع الزّمان طالت أم قصرت"[2]، والحينُ هنا مرتبطٌ بقولِه تعالى في الآية: "﴿وَإِن تَسْـَٔلُواْ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ﴾، مَعنَاهُ: وَإِن صَبَرتُم حَتَّى ينزّلَ القُرآنُ؛ وجدتُم فِيهِ بَيَان مَا تحتاجون إِلَيهِ، بمجرّد نزولِ الحُكم في الآية "[3]، و(حين): صفةٌ لأشياء، أي: وإن تسألُوا عن هذه التّكاليفِ الصّعبةِ في زمان الوحيِ، وهو ما دامَ الرّسولُ بين أظهُركم، تُبدَ لكُم، ولكنّ الحينيّةَ هنا، فيها ما يشقُّ عليكم، حينما تُكلَّفون بما فيه تضحيّةٌ ورهقٌ[4].

4) ﴿ٱلْقُرْءَانُ﴾: والأصلُ من (قَرَأَ)، وفعلُه قرأ يقرأُ، ومصدرُه القرآنُ، مثل رُجحان وكُفران، وأصبحَ اسمًا عَلمًا بالغَلبةِ، على كتابِ اللّه الّذي أنزلَه على رسولِه ﷺ منَ اللّوحِ المحفوظِ، ومعناه المُعجميُّ الجمعُ، "قال بعض العلماء: تسميّةُ هذا الكتابِ قُرآنًا، من بين كُتب اللّه، لكونِه جامعًا لثمرةِ كتبه، بل لجمعِه ثمرةَ جميعِ العلوم"[5]، وهو كلامُ اللّه المحفوظُ في الصّدور، الّذي تتلُوه الألسنةُ، المكتوبُ في المصاحف، وقد جمعَ بين دفّتيه الكلماتِ والآياتِ والسُّورَ، وجمعَ القصصَ والأخبارَ، والأوامرَ والنّواهيَ، والوعدَ والوعيدَ، وأنواعًا كثيرةً منَ الخطابِ[6]، وفي تعريفٍ جامعٍ مُوجَزٍ: "القرآنُ الكريم: هو كلامُ اللّه تعالى المعجزُ، المنزّلُ على خاتم الأنبياءِ والمرسلينِ سيّدنا محمد ﷺ، بواسطة أمينِ الوحيِ جبريلَ عليه السلام، المنقولُ إلينا بالتّواتر، المتعبَّدُ بتلاوته، المبدوءُ بسورة الفاتحة، والمُختتَمُ بسورة النّاس، والمتحدَّى بأقصرِ سورةٍ منه"[7].

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حين).
(2) السّمين، عمدة الحفّاظ: (حين).
(3) السّمعاني، تفسير القرآن: 2/71.
(4) النّسفيّ، مدارك التّنزيل: 1/479.
(5) الرّاغب، المفردات: (قرأ).
(6) السّمين، عمدة الحفّاظ: (قرأ).
(7) د معبد، نفحات من علوم القرآن، ص: 11.

5) ﴿حَلِيمٌ﴾: صيغةُ مبالغةٍ، زنةُ (فَعِيلٍ)، الأصلُ منه (حَلَمَ)، ولهذا الأصل معانٍ ثلاثةٌ متباينةٌ ينطبقُ الأوّلُ على هذه اللّفظة في هذه الآية، الأوّلُ منه، هو "تركُ العجَلةِ... فالأوَّلُ الحلمُ خلافُ الطَّيشِ، يقالُ حلمتُ عنهُ أحلمُ، فأَنا حليمٌ"[1]، وهو من صفاتِه تعالى، ومعناه "الّذي لا يستفزُّه عصيانُ العصاة، ولا يستخفُّه الغضبُ عليهم"[2]، مع أنّه ربُّهم وخالقُهم ورازقُهم، لكنّه لا يعاجلُهم بالعقوبةِ؛ ولذلك عبّر عنه بصيغةِ المبالغةِ، لاتّصافه بقُوّةِ الحِلمِ.

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

معنى الآيةِ النّهيُ عنِ السّؤالِ عن أشياءَ من أمورِ الدّين، ودقائقِ التّكاليفِ، أو منَ الأمورِ الغيبيّةِ أو الأسرارِ الخفيّةِ، أو غيرِ ذلك، ممّا يحتملُ أن يكونَ إظهارُها سببًا لحصول السّوءِ فيها، بأن يُشدّدَ عليكم في التّكاليفِ وكثرتِها، أو أن تظهرَ حقائقُ تفضحُ أهلَها[3]، ولعلّه بسببِ هذه الأسئلة ينزلُ التّشديدُ، أو تضييقٌ على عُمومِ المسلمين، فعدمُ السّؤالِ أو الصّبرُ لحين التّنزيل، هو الأسلمُ، وهذه الأمورُ الّتي سألتُم عنها، وهي ليست من شأنِكم، لم ينسَها اللّه بل تركها رحمةً بكم، وهو غفورٌ لذنوبِ عبادِه حليمٌ عليهم.

لا يحسنُ السّؤالُ عنِ المسكوتِ عنه، مخافةَ التّضييقِ والمشقّةِ

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

الخطابُ بقولِه: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، يَعقبُه أمرٌ مُهمٌّ دائمًا:

بدأ الحقُّ ﷻ هذه الآيةَ، بتعبيرِ ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، ومعناه العامُّ: (يَا أيّها الّذين صدقُوا اللّه ورسُولهُ)، وهو خطابٌ يُنبئُ عن أمرٍ مُهمٍّ، فهو كما قال الأقدمون: إمّا أن يليَه أمرٌ أو نهيٌ، وههنا جاء

من بلاغةِ العبارةِ القرآنيّةِ، ما يفوقُ الأمثالَ العربيّةَ، روعةً وشائقيّةً

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حلم).
(2) السّمين، عمدة الحفّاظ: (حلم).
(3) المراغي، تفسير المراغيّ: 7/41.

بعده نهيٌ، فقال ﴿لَا تَسۡـَٔلُواْ عَنۡ أَشۡيَآءَ إِن تُبۡدَ لَكُمۡ تَسُؤۡكُمۡ﴾، هذه الآيةُ جرت مجرى المثَلِ.

الجزمُ قطعٌ لفظيٌّ، والنّهيُ قطعٌ معنويٌّ:

القطعُ للفعلِ المنهيِّ عنه، يحصلُ به التّشاكلُ اللّفظيُّ والمعنويُّ

صُدِّر النّهيُ بـ﴿لَا﴾ النّاهيةِ الجازمةِ، وهي تنهَى عنِ الفعل معنًى، وتَجزمُه لفظًا، والجزمُ له علاقةٌ بالنّهي من جهة المعنى، فالجزم قطعٌ، والنّهيُ كذلك، وهو أنْ تقطع الفعلَ، وتنتهيَ عنه؛ ولذلك وُضع الجزمُ والقطعُ للفعل المَنهيِّ عنه، ليحصُلَ التّشاكلُ اللّفظيُّ والمعنويُّ.

خروجُ الفعل ﴿لَا تَسۡـَٔلُواْ﴾ عن معناه الحقيقيِّ، الى النُّصحِ والإرشادِ:

دعوةٌ إلى مجانفةِ السّؤالِ، عمّا يجرُّ الوبالَ

ولأنّ العلاماتِ الإعرابيّةَ دلائلُ على المعاني، فإنّ قولَه: ﴿تَسۡـَٔلُواْ﴾، فعلٌ مضارعٌ مُسنَدٌ لجماعة المخاطَبين، وقد جُزم بلا، فحُذفت منه النّونُ للجزم؛ لأنّ أصلَه (تَسألُونَ)، وصيغةُ النّهيِ هنا خرجت عن معناها الأصليِّ، إلى معنى الإرشادِ والنُّصحِ، في عدم السّؤال عمّا لا حاجةَ لك فيه، وقد يسوؤُك وقوعُه، وهذا التركيبُ المكوّنُ من (لا) النّاهية، وفعلِ السّؤال مجزومًا تركيبٌ فريدٌ في جميع القرآن، فلم يرِد إلّا في هذا الموضع، قال الرّاغب في تفسيره: "الأشياءُ في البحث عنها وسؤالِها، ثلاثةُ أضرُبٍ، ضربٌ يجبُ السّؤالُ عنه، وهو ما كُلّف الإنسانُ به، وبه أُمِرَ، وإيّاه توجّه أن أُفتي الجريحُ بالاغتسال، فقال: «قتلتموه، هلّا سألتموني عنه، شفاءُ العِيِّ السّؤالُ»[1]، وضربٌ يُكره أو يُحظرُ السّؤالُ عنه، وإيّاه توجّه قولُه: «اتركوني ما تركتكم، إنّما هلك من كان قبلكم، بكثرة سؤالِهم الأنبياءَ»[2]، وضربٌ يجوزُ السّؤالُ والسّكوتُ عنه، وهو ما يُستحبُّ أن يُحمدَ، ولا يُؤخذُ به الإنسانُ، إن بحث عنهُ واستكشف"[3].

(1) الإمام أحمد، المسند، الحديث رقم: (3056)، وأبو داود، السنن، الحديث رقم: (337).
(2) البخاري، صحيح البخاري، الحديث رقم: (7288)، ومسلم، صحيح مسلم، الحديث رقم: (1337) بلفظ مقارب.
(3) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 5/465 - 466، وكذلك الطّيبي، فتوح الغيب: 5/504 - 505.

أصلُ الفعل (سأل)، أن يكون متعدّيًا بنفسه أو بالحرف (على):

سأل هنا بمعنى الاستفهامِ وطلبِ الخبرِ

وهذا الفعل (سَأَلَ) على ضربين، الأوّل يتعدّى لمفعولين بنفسِه، والثّاني يتعدّى بحرف الجرّ على، وهو المرادُ هنا، تقول: "سألته الشّيءَ بمعنَى استعطَيتُه إيّاه...وسألته عنِ الشَّيءِ استخبرتهُ "[1]، وهو المرادُ هنا، وهو بمعنى الاستفهام وطلبِ الخبرِ، و﴿عَنْ أَشْيَآءَ﴾، حرفُ جرٍّ مع مجروره، وهو يقترنُ كثيرًا بـ(سَأَلَ) وتصريفاتِه، وهو واردٌ باستفاضة في آيِ الذّكرِ الحكيم.

يُمنعُ الوقفُ على لفظِ ﴿أَشْيَآءَ﴾؛ لأنّ ما بعدها مُتوقِّفٌ عليها معنًى:

من سأل عمّا لا يَعنيه، لقيَ مالا يُرضِيه

ولا يجوزُ الوقفُ على أشياءَ؛ لأنّ ما بعدها متوقِّفٌ من جهة المعنى عليها، حتّى قولُه تعالى ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنۡهَاۗ﴾[2]، لأنّ سؤالَهم ذاك هو عِن الأشياء الّتي عفا عنها، ونهاهم أن يَسألوا عنها "والشَّيءُ هوَ الموجودُ، فيصدقُ بالذَّاتِ، وبحالِ الذَّاتِ، وقد سألُوا عن أَحوالِ بعضِ المجهولاتِ أوِ الضَّوالِّ أَو عن أَحكامِ بعضِ الأَشياءِ"[3].

سرُّ تنكير لفظةِ أشياءَ، لكونِها للعُموم لا للحَصرِ:

التّقعُّرُ في الأسئلةِ يُفضِي إلى عواقبَ وخيمةٍ

ووردت أشياءُ بلفظ التّنكيرِ، وله مغزًى، وهو أنّ التّنكيرَ يُفيدُ العُمومَ، وسؤالُهم هنا عن أشياءَ غيرِ محدّدةٍ، سكت عنها الشّرعُ، فهي مُحتملةٌ لأشياءَ كثيرةٍ، وآيةُ ذلك أنّ سببَ النّزول ذُكرت فيه رواياتٌ متعدّدةٌ، فهي عامّةٌ في كلّ عصرٍ ومصرٍ، ولو عرّفَها لأفادتِ الحصرَ زمانًا ومكانًا.

تنكيرُ لفظةِ ﴿أَشْيَآءَ﴾ من بابِ التّحقيرِ والتّقليلِ:

السّؤالُ في ديننا يُبنَى على المقاصدِ، لا على العبثِ

وقد يكونُ من باب التّحقيرِ والتّقليلِ، فهذه الأشياءُ ليست ذاتَ فائدةٍ، فلا تَسألُوا عنها؛ لأنّها لو كانت كذلك، لبيّنَ القرآنُ والرّسولُ فيها بيانًا شافيًا، كقولِ "الرَّجلِ تضلُّ ناقتهُ أَينَ ناقتي،

(1) ابن منظور، لسان العرب: (سأل).
(2) الأشموني، منار الهدى، ص: 259.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/66.

فأنزلَ اللّه سبحانه فيهم هذهِ الآيةَ"[1]، وقد كان النّبيُّ ﷺ وخلفاؤه الرّاشدون، يَكرهون بعضَ الأسئلةِ، إذا رأوا أنّها لتزجيةِ الوقتِ، أو أنّها للتّرف الفِكريِّ فحسب، وقد كان عمرُ بنُ الخطاب إذا سأله سائلٌ عن مسألة، قال له: هل وَقعت؟ فإن قال: نعم، أجابه إذا كان الجوابُ متيسّرًا، وإلّا جمع أهلَ الحلّ والعقد، وبذلَ وُسعَه في الاجتهادِ، وإيجادِ المخرجِ، وقد رَوَوا عن عمرَ أنّه ربّما علَا الرّجلَ بالدِّرة، يضربُه ليردَعَه، إذا تيقّنَ أنّه يتلاعبُ بالمسائلِ والأسئلةِ، قال القاضي أبو محمد: "ويحتملُ قولُه تعالى: ﴿وَإِن تَسۡـَٔلُواْ عَنۡهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلۡقُرۡءَانُ تُبۡدَ لَكُمۡ﴾، أن يكونَ في معنى الوعيد، كأنّه قال: (لا تسألُوا وإن سألتُم لقيتُم عبءَ ذلكَ وصُعُوبتهُ، لأنّكُم تكلّفُون وتستعجلُون علمَ ما يسُوؤُكُم، كالّذي قيل له إنّه في النّار)[2].

انسجامُ الفعلِ المبني للمفعولِ مع السّياقِ في قولِه: ﴿إِن تُبۡدَ لَكُمۡ تَسُؤۡكُمۡ﴾:

وهو فعلٌ مبنيٌّ للمفعول، ونائبُ الفاعل مستترٌ، يعودُ على أشياءَ، وبناؤه للمفعول ينسجمُ مع السّياق، وسببُ النّزول وهو عدمُ السّؤال عن هذه الأشياءِ الّتي تجلبُ المساءةَ والضّررَ؛ لذلك عبّرَ بها هنا أيضًا، بطريقة الحذفِ أو الإضمارِ، في بابِ البناءِ للمفعولِ لما لم يُسمَّ فاعلُه، على تعبيرِ سِيبَوَيه، وشبهُ الجملةِ ﴿لَكُمۡ﴾ جارٌّ ومجرورٌ، متعلِّقٌ بالفعل قبلَه، ﴿تَسُؤۡكُمۡ﴾ فعلٌ مضارعٌ جوابُ الشّرط مجزومٌ، أي تلحقُكم المساءةُ، وهذا يُرجّحُ روايةَ "سؤالِ ذلكَ الرَّجلِ: من أَبي؟ لأنّهُ لو كُشفَ لهُ عن سرِّ أمّهِ، ربَّمَا كانت قد بغت عليهِ، فيلحقُ العارُ بهم"[3]، والفاعلُ مستترٌ تقديرُه (هي)، والعلّةُ في ذلك

ما أخفاهُ الله عنّا، هو محضُ لُطفٍ بنا

(1) ابن العربيّ، أحكام القرآن: 2/213.
(2) ابن عطية، المحرّر الوجيز: 2/246.
(3) ابن العربيّ، أحكام القرآن: 2/214.

أنّ البناءَ للمفعول يجعلُ ما يُبدَى في قوله ﴿تُبۡدَ لَكُمۡ﴾، من أشياءَ مفترضةٍ، مجهولًا غيرَ معيّن، وهو ينسجمُ مع تنكيره للفظ (أشياء)، فيبقى الأمرُ عامًّا، وهو أقربُ إلى الدَّلالةِ، وأدقُّ في البيان.

دَلالةُ الميم على الجمعِ لخطابه بالحُكم مجموعَ المؤمنين:

والكافُ مفعولٌ به، والميمُ علامةُ الجمع، ولكونِه خطابًا لمجموع المؤمنين، المُنسَلكين في أمريّةِ البلاغِ، المصدَّرِ بالنّداء في قولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسۡـَٔلُواْ عَنۡ أَشۡيَآءَ﴾، وهو خطابٌ يطالُ الأمّةَ برُمّتها دونَ استثناءٍ، ويدخلُ فيه كلُّ من بَدر منه ذلك القولُ، مع أنّ تطبيقَه عمليًّا ينسحبُ على أفرادٍ منَ الأمّةِ، يمارسون شهوةَ السّؤال، ولا يَضبطونَها بضوابطِها، وإن كان سببُ النّزول خاصًّا والجملةُ الشّرطيةُ ﴿إِن تُبۡدَ لَكُمۡ تَسُؤۡكُمۡ﴾ تقعُ صفةُ الأشياء في ظهورِها ومساءتِها.

السّياقُ القرآنيُّ يخاطبُ الفردَ للتّغيير، ويخاطبُ الأمّةَ للتّذكير

في جملةِ ﴿تَسُؤۡكُمۡ﴾ إيجازٌ بالحذفِ:

والظّاهرُ في قولِه تعالى: ﴿تَسُؤۡكُمۡ﴾ أنّها على حذف مضافٍ؛ لأنّ المساءةَ تكونُ من جواباتِ الأسئلة الّتي تسألونَها، وليست منَ الأشياء نفسِها، "فإنّ من سألَ عنِ الحجِّ، لم يأمن أنّ يُؤمرَ بهِ في كلِّ عام فيسوؤُه"[1]، في إحدى رواياتِ سببِ النّزولِ، في أنّ شخصًا سألَ النّبيّ ﷺ، عن فرضيّةِ الحجّ أهو كلُّ عامٍ أم مرّة في العمر؟ وألحّ في سؤاله، فنزلتِ الآيةُ.

المساءةُ تكونُ منَ الأجوبةِ لا منَ الأشياءِ المسؤولِ عنها

التّعبيرُ بإن الشّرطيّةِ يُؤكّدُ أنّ الشَّرطَ نادرُ الوُقوعِ:

وفي التّعبيرِ بـ(إن) في أسلوبِ الشّرطِ، دليلٌ على ما تُرشدُ إليه الآيةُ، في ترك السُّؤال عمّا لا فائدةَ فيه، أو السّؤالِ الّذي يجلبُ المساءةَ، أو يجلبُ المشقّةَ في التّكليفِ، أو نحوِ ذلك، والأَولى تُرك

الغالبُ أنّ الأحكامَ المنزّلةَ تسرُّ المؤمنين ولا تسُوؤُهم، إلّا ما ندَر كما ذُكِر

(1) البغويّ، معالم التّنزيل: 3/106.

السّؤالُ عنها، وآيةُ ذلك في التّعبيرِ بـ(إن) الشّرطيّةِ، فالأصلُ فيها أنّ "إن تدلُّ على أنّ الشَّرطَ نادرُ الوقوعِ، أَو مرغوبٌ عن وقوعهِ"[1]، بخلافِ (إذا) المتضمّنةِ معنى الشّرط، فإنّ الفعلَ معها كثيرُ الوقوع.

عطفُ جملةٍ شَرطيّةٍ على الأُخرى يقتضِي تَكرارَ التّوقُّع:

ملمحُ ارتباط المعاني وتعانُقِها

﴿وَإِن تَسۡـَٔلُواْ عَنۡهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلۡقُرۡءَانُ تُبۡدَ لَكُمۡ﴾، وهنا عطفُ جملةٍ شرطيّةٍ على جملةٍ شرطيّةٍ سابقةٍ، بحرف الشّرط (إن)، والملمحُ البلاغيُّ هنا، هو ارتباطُ المعاني وتعانُقُها، في الجُملَتَين الشّرطيّتين المتواليتين في السّياقِ، وهما قولُه تعالى: ﴿إِن تُبۡدَ لَكُمۡ تَسُؤۡكُمۡ﴾، وقولُه تعالى: ﴿وَإِن تَسۡـَٔلُواْ عَنۡهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلۡقُرۡءَانُ تُبۡدَ لَكُمۡ﴾، فالاحتمالان مُدرجانِ في دائرة التّوقُّع، وكأنّ السّياقَ القرآنيَّ، قد انتهج نهجًا استباقيًّا، يحضِّرُ فيه المجتمعَ للبلاء، قبل وقوعِه، ولئن كان الأمرُ محدودًا في إطار السّؤال المطروح آنئذٍ، ممّا نقلته كتبُ التّفسيرِ، وكتبُ أسبابِ النّزولِ، فإنّ المعالجةَ إنّما هي لتوقُّعِ استفحالِ الظّاهرةِ، وتجرُّئ أصحابَ القلوبِ المريضةِ، والأفكارِ السلبية على طرحِ إشكاليّاتٍ مفخّخةٍ، تُزلزلُ كيانَ الأمّةِ، وتزرعُ فيها الفتنةَ، وتعملُ على أن تأتيَ على بنيانِها منَ القواعد، فلا تُبقي فيها ولا تذرُ، وهو علاجٌ حكيمٌ، عُرض في أسلوبٍ بيانيٍّ سليمٍ، وسيبقى صالحًا لكلّ آنٍ، ومُتاحًا في كلّ زمان.

الضّميرُ ينوبُ عنِ الاسمِ في التّقديرِ:

لفظُ ﴿عَنۡهَا﴾ حرفُ جرٍّ، والمجرورُ هنا اسمٌ مذكورٌ سابقًا فعُوّض منه هنا بالضّمير؛ لأنّ الضّمائرَ تُعوَّضُ من تَكرارِ الأسماءِ الظّاهرةِ؛ لأنّه قال: ﴿لَا تَسۡـَٔلُواْ عَنۡ أَشۡيَآءَ﴾ ﴿وَإِن تَسۡـَٔلُواْ عَنۡهَا﴾، فحرفُ الجرّ (عن) أُعيد مرّتين، مدخولُه في المرّة الأولى اسمٌ ظاهرٌ، ثمّ لمّا أُعيدَ الاسمُ الظّاهرُ عبّر عنه بالضّمير، والغايةُ هي الاختصارُ، وتجنّبُ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/67.

التَّكرارِ اللّفظيِّ، من غير مُسوِّغٍ ولا ضرورةٍ تقتضِيه، والضّميرُ دَلالتُه تقديريّةٌ؛ لأنّه يعودُ على ظاهرٍ، فينوبُ عنه، ويتحمّلُ معموليّتَه، وذلك آثرُ في البيان، وأبلغُ في الدَّلالة، مع ملاحظةِ أنّ السّؤالَ المشارَ إليه، في الآيةِ الشّرطيّة الأُولى، كان رَدعًا لمن بادَرَ إليه، وكأنّه يَنهَى عن تَكرار الخطأ بالتّسرّعِ في السّؤال عمّا لا جدوَى منه، ولا فائدةَ من طرحه، وأنّ عاقبةَ أمره خسرٌ، ومنتهى أمره مساءةٌ، تعود عليهم بالغُبنِ والمفسدةِ، وأنّ السّؤال الثّاني المشارَ إليه في السّياق الشّرطيّ للآية الثّانيّة، أنّه يؤكّدُ أنّ السّؤالَ عند نزول الوحي سوف تكونُ إجابتُه مؤدّاةً في سياقِها، ويردُ الحُكمُ بها مُلزمًا ليس السّائلَ وحده، ولكن مجموعَ الأمّة، إلى أن يقوم النّاسُ لربّ العالمين، وهو ما أبانت عنه هذه الآيةُ، في تناسقٍ وعقلانيّةٍ ووضوحٍ.

﴿حِينَ﴾ ظرفٌ يدلُّ على زمن نزولِ القرآنِ:

﴿حِينَ﴾ ظرفٌ يدلُّ على الزّمن، وقد قرنَه بنزولِ القرآن بقولِه: ﴿حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ﴾، وهذا الظّرف يحتملُ أن يكونَ عاملُه ﴿تَسْـَٔلُواْ﴾، ويحتملُ أن يكونَ عاملُه ﴿تُبْدَ﴾، والأوّلُ أقوَى لسببين لفظيٍّ ومعنويٍّ، فأمّا اللّفظيُّ، فلتأخُّر العاملِ، والأصلُ تقدّمُ العامل، وتأخُّر المعمول.

الظّرفُ عاملُه (تَسألُوا)، لسببٍ لفظيٍّ، وآخرَ معنويٍّ

والسّببُ المعنويُّ أي أنّكم تَسألون عن هذه الأشياء، وهذه "التّكاليف الصّعبةِ في زمان الوحي، وهو ما دام الرّسولُ بين أظهُركم يُوحَى إليه، تُبدَ لكم"[1]، فإنّ نزولَ القرآن مرتبطٌ بمبعثِه ﷺ حتّى وفاتِه، ويلمحُ من ذلك تشنيعٌ على من يسألُ هذه الأسئلةَ، لأنّكم تسألُون والرّسولُ بين ظهرانِيكم، والوحيُ ينزل عليه ابتداءً، أو لنازلةٍ تنزلُ بكم، فإذا قُبض الرّسولُ ﷺ، جاز أنّ "تختلفَ العلماءُ فيهِ، فيحرّمُ عالمٌ، ويحلُّ آخرُ، ويوجبُ مجتهدٌ ويُسقطُ آخرُ؛

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/301 - 302.

واختلافُ العلماءِ رحمةٌ للخلقِ، وفسحةٌ في الحقِّ، وطريقٌ مهيعٌ إلى الرّفقِ"[1]، ثم إنّكم إن "صبرتم حتَّى ينزلَ القرآن، بحكمٍ من فرضٍ أَو نهيٍ أَو حكمٍ، وليسَ في ظاهرهِ شرحُ ما بكم إليهِ حاجة، ومسّت حاجتُكم إليهِ، فإذا سألتم عنها حينئذٍ تُبدَ لكم"[2].

دَلالةُ التّضعيفِ في الفعل ﴿يُنَزِّلُ﴾ في الآيةِ:

التّعبيرُ بصيغةِ (نزّل) المتعدّية، تشيرُ إلى طرفِ الإنزالِ الأعلَى

وقد اقترن بالفعل المضعَّفِ ﴿يُنَزِّلُ﴾، وزنُه (يُفعّل)، وهذه الصّيغةُ الغالبُ فيها المبالغةُ والتّعديّة، أمّا المبالغةُ والتّكثيرُ، فيجوزُ أن يُراد ذلك من خلال تنجيم القرآن الكريم، أي نزولُه مرّةً إثرَ أخرى، والتّنزيلُ عمليّةٌ تراكميّةٌ تحدثُ في مجالٍ زمانيٍّ متلاحقٍ، تفرضُه مُتطلّباتُ التّغيّر المَرحليِّ، الّذي شهدته فترةُ نزولِ الوحي المكيّةِ والمدنيّةِ، والّتي أبانت كتبُ السّيرة عن تزاحُمٍ كبيرٍ في الأحداثِ والحوادثِ والتّحدّياتِ، والحروبِ والتّهديداتِ، وما يقتضِيه ذلك من تنزُّلٍ للقرآن يتزامنُ مع الحركيّةِ المتسارعةِ للأحداثِ، ممّا تَفيضُ به الفترةُ النّبويّةُ، فكان لفظُ التّنزّلِ ملائمًا للسّياق الزّماني والمكانيّ، ممّا يُجلّي المعنى، ويُسفرُ عنِ الدّلالة، بدقّةٍ وبيانٍ.

أمّا معنى التّعديّةِ، فهو منزّلٌ منَ اللّه تعالى؛ لأنّه لو عبّر بالفعلِ المجرّدِ، لتوهَّمَ متوهِّمٌ أنّه ينزلُ لوحده، ثمّ لمّا كان المنزلُ معلومًا، بناه للمفعول، فقال (يُنزّلُ)، والقرآنُ هنا نائبُ فاعل، أمّا الفعلُ (تُبدَ) فهو جوابُ الشّرط، مجزومٌ بحذف حرفِ العلّة، وقد بنى الفعلَ أيضًا للمفعول، اعتمادًا على ذكرها في السّياق الّذي مرّ آنفًا، و(لكم) جارٌّ ومجرورٌ.

التّقديمُ والتّأخيرُ بين الظّرفِ والفعلِ:

وذُكرَ "في الكلامِ تقديمٌ وتأخيرٌ؛ لأنّ التّقديرَ: (عن أشياءَ إن

(1) ابن العربيّ، أحكام القرآن: 2/214.
(2) البغويّ، معالم التّنزيل: 3/106.

تسأَلوا عنها تُبدَ لكم حينَ نزولِ القرآن، وإن تُبدَ لكم تَسُؤكم)"[1]، وهو الّذي ينسجمُ مع المعنى، ويرتضِيه السّياقُ، لكنّه قدّمَ ما قدّمَ، لينزجِرُوا ويتّعظُوا، فإنّ التّقديمَ يفيدُ العنايةَ والاهتمامَ، وهو أقوى ممّن قال إنّ ثمّةَ حذفًا في الآيةِ، أي "وإن تسألوا عن غيرِها؛ لأنّه نهاهُم فكيفَ ينهاهُم ؟ ويقولُ إنّهُ يبيِّنُ لهم إن سألوهُ عنها"[2]، ولأنّ عدمَ التّقدير أَولى منَ التّقدير، ثمّ إنّه تبعيدٌ لا برهان له به، وإنّه لمن الجائز "أن يُقالَ: لا تسأل، فإنّك إن سألتَ، يبيّنُ لك ما يسوءُك، فالسُّكوتُ عنهُ أَولى بك"[3].

علّةُ التّقديم الزّجرُ والوعظُ، تمهيدًا للنّهيِ والتّخويفِ

جملةُ ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنۡهَاۗ﴾، بمعنى لا تسألُوا عمّا هُو معفُوٌّ عنهُ:

﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنۡهَاۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٞ﴾، عفا فعلٌ ماضٍ، ولفظُ الجلالة ﴿ٱللَّهُ﴾ فاعلٌ، و﴿عَنۡهَا﴾ جارٌّ ومجرور، والضّميرُ فيها عائدٌ على الأشياءِ الّتي نهى اللّه تعالى عنِ السّؤالِ عنها، فالجملةُ بتمامها صفةٌ لأشياءَ، بمعنى لا تسألُوا عن أشياءَ معفوٍّ عنها، ويجوزُ أنّ تكونَ جملةً مستأنفةً، وههنا مسألةٌ مُهمّةٌ، وهو أنّ العفوَ يقتضي وجودَ ذنبٍ، ومعنى هذا أنّ مجرّدَ السّؤال عن تلك الأشياءِ الواردةِ فيه ذنبٌ اقتضى العفوَ؛ لأنّ تلك الأشياءَ تفرّقت بين ما اقتضى المساءةَ، وأشياءَ غيرِ ذلك، كما بانَ لنا في سبب النّزول "فإنّ النَّهيَ غيرُ مقيَّدٍ بحالِ ما يسوؤُهُم جوابهُ، بدليلِ قولهِ بعدهُ ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنۡهَاۗ﴾؛ لأنّ العفوَ لا يكونُ إلّا عن ذنبٍ"[4]، وهو استنباطٌ بديعٌ، فيما جعلَ قسمَ العفو بمعنى التّرك والسّكوتِ منه تعالى، وعليكم أن تسكتُوا عنها أيضًا، ولقوله ﷺ من حديث طويل: «وَسَكَتَ عَن أَشيَاءَ مِن

ذكـــرُ الـعـفـوِ يـقـتـضي وجـودَ الذّنب، ومعنى التّركِ

(1) السّمين، الدّر المصون: 4/442.
(2) ابن العربي، أحكام القرآن: 2/2016.
(3) ابن العربي، أحكام القرآن: 2/2016.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/67.

غَيرِ نسيان، فَلَا تَكَلَّفُوهَا رَحمَةً مِن رَبِّكُم فَاقبَلُوهَا»[1]، والأوّلُ أجودُ. وقولُه تعالى: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنۡهَاۗ﴾، تركَها ولم يُعرّف بها، وهذه اللّفظةُ الّتي هي عَفَا، تؤيّدُ أنّ الأشياءَ الّتي هي في تكليفات الشّرعِ، وينظرُ إلى ذلك قولُ النّبيّ ﷺ: (إنَّ اللّه قَد عَفَا لَكُم عَن صَدَقَةِ الخَيلِ)[2]، وقد وردَ أنّ المنهيَّ عنه هي "الأشياءُ الّتي شأنُها عند الظُّهورِ أنّها تسُوؤُهم، وهي التّكاليفُ الصّعبةُ، فكان حاصلُ الكلام، أنّهم إن يسألوا عنها أُبديت لهم، وإن أُبديت لهم ساءتهُم، فيلزمُ من مجموع المقدّمتَين أنّهم إن يسألُوا عنها ظهرَ لهم ما يسُوؤُهُم ولا يسرُّهم"[3]، وقد قسّمُوا السّؤالَ إلى قسمين رئيسَين، قسمٌ لم يجرِ السّؤالُ عنه مطلقًا، لا في كتاب اللّه المُحكم، ولا في السُّنّةِ العطرةِ المباركةِ، بوجهٍ منَ الوجوه، فهذا معلومٌ عند عُموم العلماء أنّه مَنهيٌّ عنه، وقسمٌ آخر هو سؤالُ المؤمن عن قضايا نزلَ بها القرآنُ، وأبانَها البيانُ، ولكنّ من تلقّاها لم يستوعب فهمَها، ولا أدركَ كُنهَها كما ينبغي أن تُفهم، ليستفيدَ بها، ويأتمرَ بأمرِ الشّارعِ الحكيم في تشريعِه لها، وهذا اللّونُ واجبٌ فيه السّؤالُ، وهو المرادُ بقوله تعالى: ﴿وَإِن تَسۡـَٔلُواْ عَنۡهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلۡقُرۡءَانُ تُبۡدَ لَكُمۡ﴾، ويؤكّدها قول النّبيّ ﷺ، فيما أصبحَ مُدرجًا في مصافِّ الأمثالِ السّائرةِ البليغةِ: «إنّمَا شِفَاءُ العِيِّ السُّؤَالُ»، وقد ذكرَ ذلك حتّى لا يتوهَّمَ مُتوهِّمٌ أنّ الأسئلةَ على إطلاقِها ممنوعةٌ، مهما كانت الدّواعِي والظّروفُ الّتي تُلزمُ صاحبَ السّؤال أن يطرحَه بإلحاحٍ، لحاجته الشّديدةِ إليه[4].

﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ تذييلٌ لما سبقَ وتوكيدٌ للعَفو:

إظهارُ ما حقُّه الإضمارُ في قولِه: (وَاللّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ)

﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾، وهو تذييلٌ لما سبقَ، وتوكيدٌ لعفوِه تعالى من وجوهٍ، الأوّلُ: عطفُ الجملةِ على ما سبقَ، ففيه مزيدُ اتّصالٍ وربطٍ، والثّاني: أنّه استعملَ أسلوبَ الإظهارِ، وحقُّه الإضمارُ، بقولِه ﴿وَٱللَّهُ﴾ هنا أظهرَ لفظَ الجلالة، مع أنّه مذكورٌ في الجملةِ الّتي قبلَه، فإنّ مقتضى الظّاهرِ أن يقول (عَفَا اللّهُ عَنهَا وَهُوَ غَفُورٌ حَلِيمٌ)، فعدل إلى الظّاهِرِ لإظهارِ الاعتناءِ وتفخيمِ صفةِ العفوِ، والثّالث: بتوكيدِ

(1) الطبرّاني، المعجم الأوسط، الحديث رقم: (8938).
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/246.
(3) زاده، حاشية زاده على تفسير البيضاويّ: 3/576.
(4) زاده، حاشية زاده على تفسير البيضاويّ: 3/576.

ذلك، بأن جاء باسم من أسمائه تعالى، وهو الغفورُ، وهو صيغةُ مبالغةٍ دَلالتُها على غُفرانِه تعالى مهما بلغتِ الذّنوبُ.

دَلالةُ صيغةِ المبالغةِ ﴿حَلِيمٌ﴾ في الآيةِ:

ذيّلَ الآيةَ بصيغةِ مبالغةٍ أُخرى، على زنة (فَعِيلٌ)، للتّعبير على أنّه لا يعاجلُ بالعقوبة، وفيه تناسبٌ دقيقُ المسلك مع سياق الآيةِ، فإنّ نهيَه تعالى عن أن يَسألوا عن أشياءَ، فيه إيماءةٌ إلى أن لا يتعجّلُوا في السّؤال، قبل أن يبيِّنَه لهم الرّسولُ ﷺ، أو يسكتَ عنه بوحيٍ منَ اللّه، والحليمُ من لا يكونُ وصفُه هذا، بأن يسألَ قبل أن يُلقى إليه، فضلًا عن أنّه تعالى حليمٌ حكيمٌ"، وهو فيما يتعلّقُ بالعباد، التأنّي وأخذُ الأمورِ بالتّؤدةِ والرّويةِ... وللنّاس ما يُصلحُهم في معاشهم ومَعادِهم، فهو يُؤخّرُ التّحريمَ، حتّى تستأنسَ القلوبُ ويستمكنَ الإيمانُ"[1].

حِلمُ اللهِ يسعُ الخلقَ جميعًا، وغفرانُه من تداعيّاتِ حلمِه

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2373.

﴿قَدۡ سَأَلَهَا قَوۡمٞ مِّن قَبۡلِكُمۡ ثُمَّ أَصۡبَحُواْ بِهَا كَٰفِرِينَ ١٠٢﴾ [المائدة: 102]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

ربطُ الآيةِ بعاقبةِ أسئلةِ الماضين لأنبيائهم، وكيف كانت وبالًا عليهم:

نهيٌ عنِ السّؤال عن مَخفيِّ الأمور، ممّا سوف يتحوّلُ إلى مساءةٍ وأذًى

مناسبةُ هذه الآيةِ لما قبلَها، واضحٌ وضوحَ الشّمس، فقد نهاهم أن يَسألُوا فيما مضى عنِ الأشياء الّتي تسُوؤُهُم إن بدا جوابُها، فمن أصرّ على ذلك، فليقرأ سيرَ الّذين خلَوا من قبلُ كقومِ صالحٍ عليه السلام، بسؤالهم عنِ النّاقة ثمّ عقروها، وقومِ عيسى عليه السلام، بسؤالهم عنِ المائدة، ثمّ طلبُوا بأن يَروا اللّه جهرةً[1]، فإنّهم ارتكبُوا المرتكَبَ نفسَه، وسألُوا هذه الأسئلةَ أو ما يماثِلُها، فماذا كان حالُهم؟ لقد ساءتهم، وأصبحُوا بها كافرين، والآيةُ مناسِبةٌ أيضًا لقولِه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا تَكۡتُمُونَ ٩٩﴾ [المائدة: 99]، "فاتركوا الأمورَ على ظواهرِها، ولا تسألُوا عن أحوالٍ مَخفيّةٍ، إن تُبد لكُم تَسُؤكُم"[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿قَبۡلِكُمۡ﴾: اسمٌ منَ الأسماء الملازمةِ للإضافةِ، وهو صالحٌ للظّرفيّةِ الزّمانيّةِ والمكانيّةِ "القافُ والباءُ واللّامُ، أصلٌ واحدٌ صحيحٌ، تدلُّ كلِمُهُ كلُّها، على مواجهةِ الشَّيءِ للشَّيءِ"[3]، وله معانٍ كثيرةٌ جدًّا تنتمي لهذا الأصل، أمّا قبل المذكور في الآيةِ، فقد فُسّر بأنّه خلافُ بَعد، ولا يكونُ من هذا الأصل، إلّا بالتّأويل على تقدير هو مُقبلٌ على الزّمان[4] و"يُستعملُ في التّقدُّم المتّصلُ والمنفصلُ، ويُضادُّه (بَعدُ)"[5]، ومعنى قبلِكم في الآيةِ يفيدُ الزّمانَ.

(1) الرّازي، مفاتيح الغيب: 12/114.
(2) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 12/111.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (قبل).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (قبل).
(5) الراغب، المفردات: (قبل).

2) ﴿أَصْبَحُواْ﴾: فعلٌ ماضٍ ناقصٌ من أخوات كان، وأصلُه من (صَ. بَ. حَ)، و"الصّبحُ والصّباحُ أوّلُ النّهار... والإصباحُ في الأصل، مصدرُ أصبحَ"[1]، والأصلُ فيه نورُ النّهار "وأصبحَ أي صارَ في وقت الصّباحِ...أي قبلَ طُلوعِ الشّمس وبعدَ طُلوعِ الفجر"[2]، والواردُ في الآيةِ قد يكونُ من بابِ العُموم والمجازِ، أي كفَرُوا بها من غيرِ نظرٍ إلى وقت الصّباح أو المساءِ.

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

نهيٌ عن الأسئلةِ المتكلَّفةِ التّي جرّتِ الوبالَ على السّابِقين

عودٌ على الأسئلة الّتي لا ينبغي لمن آمن باللّه ورسولِه أن يسألَ عنها، ما دام الحقُّ ﷻ قد عفا عنها، وتركَها لا غُفلًا ولا نسيانًا، فإنّ الدّليلَ على خطأ من يسألُ عنها في زمنه ﷺ أنّ الأقوامَ السّابِقين قد"سألُوا هذه المسألةَ، لكن لا عينَها بل مثلَها، في كونِها محظورةً ومستتبعةً للوبال، وعدمُ التّصريح بالمثَل للمبالغة في التّحذيرِ"[3].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

جملةُ ﴿قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ﴾ استئنافيّةٌ ومُرتبطةٌ بما قبلَها:

(قـــد) تـفـيـدُ الـتّـحـقـيـقَ والـتّـوكـيـدَ مع الفعلِ الماضِي

يجوز في جملةِ ﴿قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ﴾ الاستئنافُ على أنّها جملةٌ جديدةٌ، ويجوزُ ربطُها بما قبلَها على جعلِها في محلِّ جرٍّ صفة لأشياءَ، وقولُه تعالى: ﴿قَدْ﴾ على نوعين حرفيةٍ واسميّةٍ، وهي هنا حرفيّةٌ[4]، تحتملُ أنّها في فائدتها تفيدُ التّحقيقَ والتّوكيدَ والتّقريبَ، بدخولِها على الفعلِ الماضِي ﴿سَأَلَهَا﴾، وهو مبنيٌّ على الفتح، وفاعلُه مؤخَّرٌ و(ها) مفعولُه مقدّمٌ.

(1) السّمين، عمدة الحفاظ: (صبح).
(2) نشوان الحميريّ، شمس العلوم: 6/3666.
(3) القاسميّ، محاسن التّأويل: 6/2166.
(4) قد الحرفيةُ مختصّةٌ بالدّخول على الفعل الماضي والمضارع المتصرّف، المثبت المجرّد من النّاصب والجازم الخبريّ.
وهي تباشر الفعلَ من دون فاصل، عدا القسم، ولها عدّةُ معانٍ، كالتّوقّع والتّقريب والتّقليل والتّكثير والتّحقيق، وغيره. ابن هشام، مغني اللّبيب، ص: 227 وما بعدها.

سببُ تقديمِ المفعولِ في ﴿سَأَلَهَا قَوۡمٞ﴾؛ لأنّه ضميرٌ:

تقديمُ المفعولِ للعنايةِ والاختصاصِ في الآيةِ

ولتقديمِه سببانِ: الأوّلُ لأنّه ضميرٌ، ولو تأخَّر للزمَ انفصالُه، وهو جائزٌ بأن يكونَ التّعبيرُ: قد سأل قومٌ المسألةَ، أو السّؤالَ، لكنّه لما عبّر بالمُضمر عوضًا منَ الظّاهر، اتّصل المفعولُ وتقدّمَ، والسّببُ الثّاني في تقدّمِ المفعول، هو للعنايةِ والاهتمامِ والاختصاصِ أيضا، مراعاةً للسّياق فإنّ السّياقَ يجري من أوّلِه على قضيّة السّؤالِ عنِ الأشياءِ التّي إن بدت ساءتهُم، فنهاهُم عنها، حتّى إنّه كرّرَ فعلَ السّؤال مرّتين فيما سبقَ، قولُه: ﴿لَا تَسۡـَٔلُواْ﴾ و(إن تَسأَلُوا) بالفعل الدّالِّ على الحال أو الاستقبالِ، وجاء به هنا ثالثةً بالفعل الدّالِّ على الماضي من جهةِ الصّيغةِ.

لفظ ﴿قَدۡ﴾ يحتملُ التّحقيقَ أو التّقريبَ:

الإلحاحُ في السّؤالِ على الأنبياءِ، أمرٌ محقَّقٌ تاريخيًّا، ومُوغِلٌ في القدمِ

ودخولُ ﴿قَدۡ﴾ يحتملُ التّحقيقَ، ويحتملُ التّقريبَ منَ الحال، بدَلالة دخولِ ﴿قَدۡ﴾ عليه، فإنّ من معاني دخول (قد) على الفعل الماضي، تقريبُه "منَ الحالِ تقُولُ: (قامَ زيدٌ)، فيحتملُ الماضي القريبَ، والماضي البعيدَ، فإن قلتَ: (قد قامَ) اختصَّ بالقريبِ"[1] لذلك منعُوا دخولَها على أفعال، من مثل (ليس) و(عسى)؛ لأنّهن أصلًا للحال، فهي هنا محتملةٌ للحال، يؤيّدُ ذلك روايةَ سؤالِ قريشٍ الرّسولَ ﷺ، «أن يجعلَ لهم الصّفا ذهبًا»[2]، وهي قريبةُ الوقوع من زمن نزولِ الآيةِ، فيما ذُكرت معانٍ أُخرى موغلةٌ في الزّمن الماضي، كسؤال قومِ عيسى عليه السلام المائدةَ، وسؤالِ قوم صالح، وغيرِ ذلك[3]، فهذه المعاني تتناسبُ مع معنى التّحقيقِ في ﴿قَدۡ﴾، بخلافِ المعنى الآخرِ، وهو تقريبُ الحال؛ لأنّ هذه الأحداثَ، ليست قريبةً من نزولِ القرآن.

(1) ابن هشام، مغني اللبيب، ص: 228.
(2) الإمام أحمد، المسند، الحديث رقم: (2166)، وصحّحه الألباني في السلسلة الصّحيحة، الحديث رقم: (3388).
(3) ابن العربي، أحكام القرآن: 2/215.

تأخيرُ الفاعلِ؛ لأنّ أهميّةَ السّؤالِ أكثرُ من أهميّةِ السّائلِ:

الاهتمامُ بالسّؤال دليلُ خطورةِ القضيّةِ المسؤولِ عنها

وقد عبّر عنهم في الآيةِ بقولِه: ﴿قَوۡمٞ﴾، وهو اسمُ جمعٍ، يدلُّ على الكثيرِ والقليلِ، وليس له مفردٌ من لفظِه، بل من معناه كرجلٍ وامرأةٍ، وأُخِّر الفاعلُ (قَومٌ) لأهميّة السّؤالِ أو المسألةِ، أكثرَ منَ السّائل ثمّ ذكر بـ﴿مِّن قَبۡلِكُمۡ﴾، ما يؤيّدُ انطباقَ الآيةِ على الأقوام الّتي ذُكرت، كقومِ عيسى وصالح ﵈ وبني إسرائيل.

الفرقُ بين (سأل عنها) و(سألها) في سياق الآياتِ:

السّؤالُ موجّهٌ للمخاطَبين السّائلين في عهد النّبوّةِ عن أشياءَ متفرّقةٍ

وثمّةَ فرقٌ بين السّؤالَين الواردَين في الآيةِ السّابقةِ، وهذا السّؤالِ غيرُ كونِ الأوّلَين مضارَعين والثّالثِ ماضيًا، فإنّ السّؤالين الواردَين آنفًا ﴿لَا تَسۡـَٔلُواْ عَنۡ﴾ و﴿وَإِن تَسۡـَٔلُواْ عَنۡهَا﴾ هذان السّؤالان وردَا للاستفهام عن (أشياءَ) فجعلَ الفعلين متعدِّيَين بالحرف (عَن)، أمّا الأخرى فقد عبّر عنها بقوله: "قَد سَأَلَها، ولم يقُل قد سأل عنهَا؟ قلُت: الضّميرُ في ﴿سَأَلَهَا﴾، ليس براجعٍ إلى (أشياءَ) حتّى تجبَ تعديتُه بعَن، وإنّما هو راجعٌ إلى المسألة الّتي دلَّ عليها قولُه: ﴿لَا تَسۡـَٔلُواْ﴾ يعنى قد سأل قومٌ هذه المسألةَ منَ الأوّلين"[1]، أي أنّ السّؤال هنا بمعنى طلبِها، فالسّؤالان اللّذان عُدّيا بعن، هما للقوم المخاطَبين في زمنه ﷺ، وقد سألوا عن أشياءَ متفرّقةٍ، قال شيخ زادة في حاشيّته: الأصلُ أن يتعدّى (سَأَلَ) بعَن، فلماذا قال: ﴿سَأَلَهَا﴾؟ قال: والجواب: "أنّ ضميرَ سألها، ليس راجعًا إلى الأشياءِ الّتي يسألُون عنها، وعن أحوالها، بل إلى مسألتِهم عن تلك الأشياء، فيكونُ الضّميرُ في موضع المصدر، أو للمفعول به بالواسطة، كما في قولِه تعالى: ﴿لَا تَسۡـَٔلُواْ عَنۡ أَشۡيَآءَ﴾، الآية، فيلزمُ تعديته بعَن، أمّا عدمُ التّعدية، لأنّ السّؤالَ طلبُ عينِ الشّيء، والسّؤالُ في الآيةِ عن حال الشّيء وكيفيّته"[2].

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/303.

(2) زاده، حاشية زاده على تفسير البيضاويّ: 3/102.

السّؤالُ المتعدِّي بنفسه، مُوجّهٌ إلى بني إسرائيل السّابقِين:

أهـميّـةُ تـأويـلِ جـهةِ الضّـميرِ، لمعرفةِ المقصودِ بالخطابِ

أمّا السّؤالُ الّذي تعدَّى بنفسه، فهو للأقوامِ السّابقين من "بني إسرائيلَ، كانوا يستفتونَ أنبياءَهم عن أشياءَ، فإذا أُمروا بها تركوها فهلكُوا"[1]، ومعنى ذلك أنّ السّؤالَين مختلفان من جهةِ اللّفظ، ومن جهةِ الدَّلالةِ، يُؤيّدُه ما ورد من قولِه تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ۝١٢ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ۝١٣﴾ [المؤمنون: 12 - 13]، فقد ذكر الضّميرَ في الأوّل عائدًا على الإنسان "يعني آدمَ، ثمَّ قالَ: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً﴾، فهذهِ لولدِه، لأنّ آدمَ لم يخلق من نطفةٍ"[2].

أسلوبُ عَود الضّميرِ على غيرِ الظّاهر بعد التَّكرار:

ضـميرُ سأَلَـها يعودُ على لفظِ أَشـيـاءَ دونَ مدلُولِها

أسلوبٌ من أساليب القرآنِ الكريم، وهو (عودُ الضّميرِ على غير الظّاهرِ بعد التَّكرار)، وجعلَ السّيوطيُّ منه هذه الآيةَ: ﴿لَا تَسْـَٔلُوا۟ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾، ثمّ قال فيما بعد ﴿قَدْ سَأَلَهَا﴾ ما ظاهرُه أنّ الضّميرَ (ها)، يعود على (أشياءَ)، إلّا أنّ الصّواب خلافُ ذلك، فإنّ معناه "أَشياءَ أُخرَ، مفهومةً من لفظِ أشياءَ السَّابقةِ"[3]، ولما قدّمنا من أدلّةٍ لفظيّةٍ (تعدّي الأوّل بالحرف، والثّاني بنفسه)، وأدلّةٍ معنويّةٍ من كونِ الأسئلةِ في الأوّلين سألها قومٌ في زمنه ﷺ، وفي الثّاني سألها قومٌ فيما مضى، هم على الرّاجح من بني إسرائيل، فضلًا عن أنّ السّؤالَ عنِ الشّيء، هو "السُّؤالُ عن حالةٍ من أحوالِه، وصفةٍ من صفاتِه، وسؤالُ الشَّيءِ عبارةٌ عن طلبِ ذلكَ الشَّيءِ في نفسِه"[4]، فاختلف السّؤالان هنا في التّفاصيل والفروعِ، لكنّهما متّفقان في الأصولِ، في أنّ كلَيهما خوضٌ فيما لا يَعنيه، وهو من باب الفُضولِ، وممّا لا حاجةَ للمرء في

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/37.
(2) السّيوطي، الإتقان: 2/337.
(3) السّيوطي، الإتقان: 2/337.
(4) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 12/114.

السّؤال عنه، وعلى العاقل أنّ يحترزَ عنه، "وجرى جمهورُ المفسّرينَ على تقديرِ مضافٍ، أَي سأَلَ أمثالَها"[1]، وجاء ابنُ عاشور بأحسنَ منه بـ "أن يكونَ ضميرُ سأَلَها عائدًا إلى أَشياءَ، أَي إلى لفظهِ دونَ مدلولهِ"[2]، وهي طريقةٌ واردةٌ في كلام العربِ، بأن لا يعودَ الضّميرُ إلى الاسم بلفظه ومدلولِه، بل إلى أحدِهما، إلى لفظه دون مدلولِه، كقولهم: (لَكَ دِرهَمٌ وَنِصفُهُ)، فإنّ الهاء ليست عائدةً على مدلول الاسم (الدّرهَم) هنا؛ لأنّ المعنى آنئذٍ يختلفُ، لأنّه لو كان عائدًا على الدّرهم نفسِه، فإنّ المُعطَى سيكون نصفَ درهم، ولكنّ المعنى أنّ لك درهمًا ونصفَ درهمٍ آخرَ، يماثلُ الدّرهمَ المذكورَ، مثلما أنّ السّؤالَ في الثّانية يماثلُ السّؤال في الأولى، فاختلَفَ السّؤالان هنا، فليس ﴿لَا تَسۡـَٔلُواْ عَنۡ أَشۡيَآءَ﴾، هو نفسُه ﴿قَدۡ سَأَلَهَا﴾، وقريبًا منه ما قيلَ في ذلك، أنّ المعنى "قد سألَ هذهِ المسألَةَ أي هذَا النَّوعَ منهَا"[3]، فالسّؤالُ عنِ النّوع يشملُ المسؤولَ عنه، لكنّه ليس بعينه.

عطفُ التَّشريك في الحُكم والتَّرتيبِ والمُهلةِ، في قوله: ﴿ثُمَّ أَصۡبَحُواْ بِهَا كَٰفِرِينَ﴾:

﴿ثُمَّ أَصۡبَحُواْ بِهَا كَٰفِرِينَ﴾، تركيبٌ لُغويٌّ فريدٌ في جميع القرآن الكريم، فلم يرد إلّا في هذا الموضعِ، وهو عطفٌ على ما سبق بحرف العطف (ثمّ)، وهو عطفٌ يفيدُ "التَّشريكَ في الحكم والتَّرتيبَ والمُهلةَ، وفي كلٍّ منها خلافٌ"[4]، فأمّا التّشريكُ حكمًا، فهو من باب عطفِ الجُملِ، فهذه الجملةُ ﴿أَصۡبَحُواْ﴾، معطوفةٌ على ما سبقَ، وهي جملةُ (قَد سَأَلَهَا)، وهو عطفٌ مُتساوٍ، فقد عطفَ جملةً ماضَويّةً على مثلِها، أمّا التّرتيبُ فهو واقعٌ؛ لأنّهُم لم يكفُرُوا بها، إلّا بعد أن

تـفـرّدُ الـقـرآنِ بـبـعـض الأسـالـيـبِ، أدهـشَ البلاغِيّين في كلِّ العصورِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/69.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/69.
(3) رضا، تفسير المنار: 7/116.
(4) ابن هشام، مغني اللبيب، ص: 158.

سألُوها، ولا يُتوقّعُ خلافُه، بأن يكفُروا ثمّ يسألُوا المسألة، فالتّرتيب هنا واجبٌ، و(ثُمّ) هنا واقعةٌ في مكانها المناسِبِ، أمّا المُهلةُ، فهي واقعةٌ أيضًا، فإنّهم لما سألوا المسألةَ، لم يكفروا بها مباشرةً، بل بعد حينٍ، ولو كان كفرُهم جاء مباشرة، لعبَّر عن ذلك بالفاء الدّالّةِ على التّرتيب من غيرِ مُهلةٍ.

التّعبيرُ عنِ الصّيرورةِ بالإصباح:

لبيانِ الأيلولةِ إلى المصيرِ العاجلِ منَ الكُفرِ

ولأنّ الإصباحَ يقتضي وجودَ اللّيل، فالفعلُ ﴿أَصۡبَحُواْ﴾ منَ الأفعال النّاسخة، وهو من أخوات كان، ومعناها دخلَ في الصّباح، ولا يكونُ دخولٌ في الصّباحِ إلّا بعد اللّيلِ، لكنّه هنا بمعنى صارُوا، واستعملهُ هُنا لبيانِ المصيرِ العاجلِ، كمن ينتظرُ الصّباحَ، لإنجاز عملٍ مُستعجلٍ له، وقد اقترنت بواو الجماعة، الدّالّةِ على المخاطَبين، أوّلَ الآية، وهم المعبّرُ عنهم بلفظة ﴿قَوۡمٌ﴾، وواوُ الجماعة ههنا واقعةٌ في محلّ رفع اسمِ أصبحَ؛ لأنّها تقتضي اسمًا وخبرًا، وهذا هو نقصانُها، فإنّ نظائرَها منَ الأفعال، تَستوفي فاعلًا، أمّا النّاقصةُ فلا.

الباءُ تفيدُ السّببيةَ أو التّعديةَ، في قوله ﴿بِهَا﴾:

تقديمُ المجرورِ على عاملِهِ للتّخصيصِ

﴿بِهَا﴾ الجارُّ والمجرور متعلّقان بالفعل، والحرف هنا يحتملُ في إفادتِه السّببيةَ[1]، فيكونُ متعلِّقًا بالفعلِ النّاسخِ (أصبحُوا) أي تلك المسائلُ، أصبحُوا بسببها كافرين، ويحتملُ أن تكُونَ الباءُ للتّعدية، أي كفرُوا بها "أي بجوابِها بأن لم يصدّقُوا رُسلَهم، فيما أَجابُوا بهِ، وعلى هذا الوجهِ، فتقديمُ المجرورِ على عاملِه مفيدٌ للتَّخصيصِ"[2]، والمعنى بها كفرُوا، وهو يختلفُ عن قولنا: كفرُوا بها؛ لأنّ التّعبيرَ الأوّلَ، خصَّص سببَ كُفرهم بهذه المسألة، لا بغيرها، وهو تخصيصٌ على سبيل المبالغة؛ لأنّ من كان هذا دأبَهُ، فإنّهُ يستحيلُ أن يكُونَ على

(1) القاسمي، محاسن التّأويل: 6/2166.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/69.

طرفٍ منَ الاعتدال والإيمان في غيرِ ذلك، وإنّما قُدّم هنا للاهتمامِ وللتّحذيرِ من مِثل هذه الأسئلةِ الّتي تُؤدّي إلى الهلاكِ، أمّا لو قال: كفروا بها، فإنّ الكفرَ هنا يحتملُ أن يكون بها وبغيرها، لكن لا يُؤدّي الدّورَ المهمَّ في التّحذير، كما أدّاه التّقديمُ، تقديمُ الجارّ والمجرور على متعلِّقه، وهذا المجرور (ها)، هو نفسُه المنصوبُ في ﴿سَأَلَهَا﴾، فيُقال في حقّه ما قيل في ذاك.

مجيءُ الخبر اسمًا لدَلالتِه على الثبّوت في قوله: ﴿كَٰفِرِينَ﴾:

ثبوتُ نُكرانهم، دليلٌ على دوامِ كُفرانِهم

وقولُه: ﴿كَٰفِرِينَ﴾ خبرُ أصبحَ أي تحوّلَ حالُهم منَ الإيمان إلى الكفر، وجاء الخبرُ هنا اسمًا، ويجوزُ أن يكون فعلًا، لكنّه عبّر بالاسميّة لدَلالته الثّابتةِ، فإنّ كفرَهم قد تمّ وثبتَ واستقرَّ، ولم يكن حالاً عارضًا.

﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۖ وَأَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ١٠٣﴾ [المائدة: 103]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الـرّبـطُ بين منعِ الأسئلةِ المُستنكَرةِ شرعًا، وبين تحريمِ ما ليس محرّمًا عندَ الله:

مناسبةُ هذه الآيةِ لما قبلَها أنّ الحقَّ ﷻ، منعَهم منَ السّؤال عن أمورٍ ليست منَ اختصاصِهم، منعَهم كذلك من أمورٍ التزموا بها مع حاجتِهم إلى الانتفاعِ بها، فأبطلَها اللّه وهي تشريعُهم البَحيرةَ والسّائبةَ والوصيلةَ والحامِي، "ولما فرغ من زجرهم عن أن يُشرّعوا لأنفسِهم أو يسألوه عن أن يُشرّع لهم... قال معلِّلًا بختام الآية الّتي قبلَها: ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ﴾ [المائدة: 103]"[1]، أي ما شرعَ اللّه هذه الأمورَ، ولا جعلَ من بَحيرةٍ ولا سائبةٍ ولا غيرِها، منَ الّتي يجعلونَها منَ الدّين ويُجَرّمون من يتعرّضُ لها.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

البَحيرةُ النّاقةُ بعد خمسةِ أبطُنٍ، يُذبح ذكرُها، وتُحرَّمُ على الذّبح أُنثاها

1) ﴿بَحِيرَةٍ﴾: اسمٌ على وزن فعيلة بمعنى مفعولة، مشتقّةٌ من (بَحَرَ)، وهي "المشقوقةُ الأُذنِ بنتُ السَّائبةِ الَّتي تُخلَّى مع أُمّهَا، وهذَا قولُ من فسَّرها، بأنَّهَا النَّاقةُ إذا نتجت خمسةَ أبطنٍ، فإن كانَ الخامسُ ذكرًا، ذبحوهُ وأكلوهُ، وإن كانَ أنثَى، شقُّوا أذنهَا وخلَّوهَا مع أُمّها"[2]، وفيه أقوال أخرى قريبةٌ، وهو مُتأتٍّ من بحرتَ أذنَ البعير بحرًا، إذا قمتَ بشقّها شقًّا كبيرًا واسعًا[3]، كي تُعرفَ وينطبق عليها الوصفُ، فلا يُتعرّضُ لها.

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرَر: 6/318.
(2) الفيّومي، المصباح المنير: 1/36.
(3) السّمين، عمدة الحفّاظ: (بحر).

السّائبةُ أن تُترك النّاقةُ فلا يُنتفعُ بها ولا تركبُ

2) ﴿سَآئِبَةٍ﴾: اسمٌ على وزن فاعلة، وهو من (سَيَبَ)، يقال "سابَ الماءُ وانسابَ إذا جرَى، وانسابَ فُلَانٌ نحوكُم: رجَعَ، وسَيَّبَ الشّيءَ: تركَه. وسَيَّبَ الدَّابَّةَ، أَو النّاقةَ، أَو الشّيءَ: تركَه"[1]، فالمعنى منَ الترّك وعدم التّقييد، ومعنى السّائبةِ في الآيةِ أن تُترك النّاقةُ "سائبةً أَي تُسيَّبُ فلا ينتفعُ بظهرهَا، ولا تُحَلَّأُ عن ماءٍ، ولا تمنعُ من كلأ، ولا تركبُ"[2]، وقد يكونُ معنى هذا التّرك متعلِّقًا بالعبد المملوكِ، فيُعتقُ ويقولون: هو سائبة[3]، والمتعلِّق بالنّاقة هو الأشهرُ.

الوصيلةُ الأنثى الّتي تُولد منَ الشّاة مع ذكرٍ، فيقولون: وصلت أخاها فلا تُذبحُ

3) ﴿وَصِيلَةٍ﴾: اسمٌ على وزن فعيلة أصلُها من (وَصَلَ)، "يدلُّ على ضمِّ شيءٍ إلى شيءٍ، حتَّى يعلقَهُ، ووصلتهُ بهِ وصلًا، والوصلُ ضدُّ الهجرانِ"[4]، أمّا الواردُ في الآية فـ"هي الأنثى الّتي تُولد منَ الشّاة مع ذكرٍ، فيقولون: وصلت أخاها فلا يذبحونها"[5]، وتحتمل معنًى آخر، وهو أنّ "الشّاة إذا ولدت ستّة أبطُن عَناقَين عناقَين، وولدت في السّابع عَناقًا وجَديًا، قالوا: وصلت أخاها فأحلّوا لبنَها للرّجالِ وحرّموه على النّساءِ"[6].

الحامي الفحلُ يضربُ عشرة أبطُنٍ، فيحمي ظهرَه، فلا يُركبُ ولا يُحملُ عليه

4) ﴿حَامٍ﴾: اسمُ فاعلٍ منَ الثّلاثي (حَمَيَ)، من حمى يحمي، فهو حامٍ أو الحامِي، حُذفت ياؤه عند التّنكير، وعُوّض منه التّنوينُ، ومعناه الدّفعُ والمنعُ[7]، فالحامي هو المانعُ والمدافعُ، وله معنى آخر، بمعنى الحرارةِ المتولّدةِ منَ المعادن ونحوِها، أمّا المرادُ في الآية، فهو

(1) ابن منظور، لسان العرب: (سيب).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (سيب).
(3) السّمين، عمدة الحفّاظ: (سيب).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (وصل).
(5) السّمين، عمدة الحفّاظ: (وصل).
(6) السّمين، عمدة الحفّاظ: (وصل).
(7) الزّبيدي، تاج العروس: (حمي).

من باب المنعِ والدّفع، فإنّ الحامي "هو الفحلُ يضربُ عشرةَ أبطُنٍ، يقولون: قد حمَى ظهرَه، فلا يُركبُ ولا يُحمل عليه"[1].

5) ﴿يَفْتَرُونَ﴾: فعلٌ مضارع مسنَدٌ لواو الجماعة، أصلُه من (فَرَيَ)، ومعناه العامُّ منَ التّقطيع[2]، فرى الشّيءَ يَفريه، بمعنى يقوم بتقطيعه، بما يؤدّي للعجبِ، ومعنى يفترون في الآيةِ، منَ الافتراء، وهو "افتعالٌ منَ الفري، أو الإفراءِ، وهو أقبحُ الكذب، أو الكذبُ مع التّعمّدِ"[3]، فالافتراءُ أشدُّ منَ الكذبِ، فهو كمن يُقطّعُ الحديثَ قِطَعًا قِطَعًا، بما يُعجب الآخرين وهو فيه كاذبٌ.

6) ﴿يَعْقِلُونَ﴾: فعلٌ مضارعٌ مسنَدٌ لواو الجماعة، جذرُه من (عَقَلَ)، الفعلُ منه عقل يعقِلُ، والأصلُ دلالتُه "على حُبسةٍ في الشَّيءِ، أَو ما يُقاربُ الحُبسَةَ من ذلكَ العقلِ، وهو الحابِسُ عن ذميمِ القولِ والفعلِ"[4]، وفيه الكثيرُ منَ المعاني الأخرى، لكنّها تدورُ في فلَكِ الحبس والمنعِ، فالعقلُ يحبسُ الإنسانَ، ويمنعُه منَ ارتكاب المحظوراتِ، ومن هذه المعاني العلمُ، والحِجرُ، والنُّهيَةُ، وأنّه ضدُّ الحُمق، وهو العلمُ بصفاتِ الأشياءِ، من حُسنِها وقُبحِها، وهو العلمُ بخيرِ الخَيرين، وشرّ الشَّرَّين، وغيرِ ذلك[5]، وقوله: ﴿وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾، في هذه الآيةِ، بمعنى لا يتدبّرون ولا يفقهُون ما يفعلون، وقد حُذف المفعولُ به اختصارًا[6]، والعقلُ آلةُ الإدراك، والفارقُ بين الإنسان وباقي المخلوقات العجماء الّتي لا عقلَ لها، ولهذا كانتِ النُّخبةُ العاقلةُ، هي محلَّ الاحترامِ والتّنويهِ، وكانتِ الكثرةُ الّتي لا تعقل، محلَّ ذمٍّ وقدحٍ وتنديدٍ، وأنّ ما يقعُ منَ اختلالِ الموازين، إنّما هو بفعل مَن لا يَعقِلونَ ولا يَهتدونَ.

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

الآيةُ تتحدّثُ عن تحريمِ بعضِ البدعِ الّتي ابتدعَها العربُ في أيّام الجاهليّةِ، وعن

(1) السّمين، عمدة الحفّاظ: (حمي).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (فري).
(3) السّمين، عمدة الحفّاظ: (فري).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عقل).
(5) الزّبيدي، تاج العروس: (عقل).
(6) شيخلي، بلاغة القرآن في الإعجاز: 3/182.

تقليدِهم الأعمى للآباء، معَ معرفة بعضِهم للحقِّ، ولكنّهم يَفترون على الله سبحانه الكذبَ، تعصُّبًا وشهوةً وعنادًا، ومن هذه البدعِ البَحيرةُ، والسّائبةُ والوصيلةُ، والحامِي، فهذه أشبهُ ما تكونُ بتشريعاتٍ شرّعها العربُ لأنفسهم، فجاءتِ الآياتُ نافيةً أن تكون هذه الأمورُ من شرع الله وكتابه ودينِه، بل هي أمورٌ اختلقوها بأهوائِهم، فجاءت الآيةُ لإيضاح ذلك، وسدِّ الباب على كلِّ من يتجرّأُ على التّشريع نيابةً عنِ الله، دون أن يأذَنَ له أو يكلِّفَه بذلك، وهو منهجٌ واضحٌ وصارمٌ، في التّصويب العَقديِّ والتّشريعيِّ، لبناءِ مجتمعٍ سليمٍ ومُنسجمٍ مع مرادِ الله وأحكامِه.

التّقليدُ عن جهالةٍ، من أسبابِ الانحرافِ والضّلالةِ

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

دَلالةُ دخولِ ما النافيةِ على الفعلِ الماضي في قوله: ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ﴾:

﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ﴾، ما نافيةٌ داخلةٌ على الفعلِ الماضي، ودخولُ ما النّافيةِ على الفعل الماضي مؤذنٌ بقوّةِ نَفي الفعلِ وما يستتبعُ من أحكامٍ؛ لأنّه إذا "قال لقد فعل فإنّ نفيه ما فعل؛ لأنّه كأنّه قال (واللّه لقد فعل، فقال: والله ما فعل)"[1]، ومعنى ذلك أنّ النّفيَ هنا ﴿مَا جَعَلَ﴾، هو بمنزلة ردٍّ على من ادّعى ذلك، حالفًا بالله، فكأنّهم قالوا: (لَقَد جَعَلَ اللّه)، أي (وَاللّهِ لَقَد جَعَلَ اللّه)؛ لأنّ اللّام لامُ القسم، وعلى ذلك ففي ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ﴾ منَ القوّةِ ما يُوازي نفيَ القسمِ، ومعلومٌ أنّ القسمَ أسلوبٌ من أساليبِ التّوكيد، فاختار (مَا) وأدخلَها على الفعل الماضي، لتحقيقِ قُوّة نفيِ الفعلِ، ودورُ الرّسول لم يكن سهلًا، فإنّ من أراد أن يتصوّرَ، بعُمقٍ وشموليّةٍ، شدّةَ وطأةِ العادات، وعِظمَ مسؤوليّةِ الرُّسُل، حيَال تغييرٍ طَفريٍّ وجذريٍّ لعادات قومِهم، ومواريث آبائِهم، ممّا مَرَنُوا عليها وتناقلوها كابرًا

النّفيُ في قولِه: (ما جعل)، ردٌّ على من ادّعى ذلك حالفًا بالله

(1) سيبويه، الكتاب: 3/117.

عن كابر، وجيلًا عن جيل، فعليه أن يتصوّرَ فحوَى هذه الآيةِ: ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ﴾، خاصّةً وأنّ العربَ قد اتّخذوها شعائرَ لدينهم، عبرَ مئاتِ السّنين، وربّما آلافها، فالآيةُ أعادتِ الأمورَ إلى نصابِها، فأحلّت ما كان حرامًا، وحرّمت ما كان حلالا، ممّا خرج به الجاهليّون عن ملّةِ إبراهيم، وشرائعِ الأنبياء أجمعين، والرّسولُ الّذي تلقّى هذه الأحكامَ، مهمّتُه العودةُ بالبشريّةِ إلى الأصلِ الفِطريِّ، وردُّ الأمورِ إلى نصابِها الحقِّ، رُغمَ العنَتِ والمقاومةِ، وهو به جديرٌ، ولا ينبّئُك مثلُ خبير[1].

طرافةُ ما اشتقّه الإمامُ الطّبريُّ، من أسماء المحرّماتِ الأربعِ، في باب جناسِ الاشتقاقِ

معاني الفعل ﴿جَعَلَ﴾ في قوله: ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ﴾:

﴿جَعَلَ﴾ فعل يدلّ على المُضيّ، وهو يأتي على عدّة أضرب[2]، والوارد هنا ممّا يتعدَّى لمفعول واحد، وما كان يتعدّى لمفعول واحد يأتي في لسان العربِ بمعنى أوجد وأوجبَ[3] وهو قريبٌ من معنى خلَقَ، إلّا أنّ كلَّ هذه المعاني لا تتوافقُ مع سياق الآيةِ، فجعل "في هذه الآيةِ لا يتّجهُ أن تكونَ بمعنى خلَقَ اللّه؛ لأنّ اللّه تعالى خلقَ هذه الأشياءَ كلَّها"[4]، وأرجحُ الأقوال أنّ معنى ﴿جَعَلَ﴾ هو سنّ وشرّع[5]، أو ما رادفها بالمعنى، ومن لطيف ذلك ما عبّر عنه الإمامُ الطّبريّ، في أنّه اشتقَّ من كلِّ أسماء هذه المحرّمات فعلًا، وجعله من باب الجناس اللّفظيّ، ممّا يمكنُ أن يُجعل من باب تجنيس الاشتقاق[6]، فقد فسّرَ نفيَ الجعل، على أنّه "ما بحرَ اللّه بحيرةً، ولا سيَّب سائبةً،

(1) صافي، الجدول: 4/39.

(2) قد يكون أوجدَ وخلقَ، كقولهِ تعالى: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ﴾ [الرعد: 3]، وقد يكون بمعنى الاعتقاد والظّنّ، كقوله تعالى: ﴿وَجَعَلُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمۡ عِبَٰدُ ٱلرَّحۡمَٰنِ إِنَٰثًاۚ﴾ [الزخرف: 19]، وقد يكون بمعنى الشّروع مثل (جعل السّائق يحدو)، وقد تكون بمعنى التّصيير والتّحويل، كقوله تعالى: ﴿فَجَعَلۡنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ٢٣﴾ [الفرقان: 23].

(3) السّيوطي، همع الهوامع: 1/539.

(4) ابن عطية، المحرّر الوجيز: 2/247.

(5) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/247.

(6) ويسمّى الاقتضابَ أيضًا، ومنهم من عدّه أصلاً برأسه، ومنهم من عدّه أصلًا في التّجنيس، وهو أن يجئ بألفاظٍ يجمعها أصلٌ واحد في اللّغة... كقوله تعالى: ﴿يَمۡحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرۡبِي ٱلصَّدَقَٰتِۗ﴾ [البقرة: 276]، فقد جنّس بين (الرّبا) و(يربي). النّويري، نهاية الأرب: 7/95.

ولا وصل وصيلةً، ولا حَمَى حاميًا، ولكنّكم الّذين فعلتُم ذلك، أيّها الكفرةُ، فحرَّمتمُوه افتراءً على ربكم"[1]، فجعل لكلّ واحدةٍ من هذه المحرّمات فعلًا مشتقًّا منها، وعُدّتُه في ذلك ما ورد من حديث الرّسول الأكرم ﷺ: «رَأَيتُ عَمرَو بنَ عَامِرٍ يَجُرُّ قُصبَهُ فِي النَّارِ، وَكَانَ أَوَّلَ مَن سَيَّبَ السَّائِبَةَ، وَبَحَرَ البَحِيرَةَ»[2]، وفي ذلك جمعٌ لما اختُلِف فيه، في معنى جعل الّذي فُسّرت دَلالتُه على معانٍ عديدةٍ، هي ما أَنزل، وما أَمر، وما شرعَ وما حَكم، وما أوجبَ وسوى ذلك، فيما جعله آخرون ممّا يتعدّى إلى مفعولَين، حُذف أحدُهما، كأن يكونَ بمعنى (صيّر)، وهو أضعفُ من سابقه؛ لأنّ فيه تأويلًا وتقديرًا، وعدمُ التّأويل أولى منَ التّأويل عند النّحويين، وجعله آخرون على معنى سمّى[3]، وهو أيضًا ممّا يقتضي وجودَ مفعولين، حُذف أحدهما "فعلى هذَا يكونُ بحيرةٌ أَحدَ المفعولينِ، والآخرُ محذوفٌ؛ أَي مَا سمَّى اللّه حيوانًا بحيرةً"[4]، فيدخلُ في دائرة التّقدير والتّأويل، فيكون حكمُه حكمَ تقديرهم: صيّر، ولعلّ الرّاجحَ من كلِّ هذه الأقوال (ما شرع اللّه) عامّةً، أو المعنى الذي جادت به قريحةُ الطّبريّ، من أنّه جعل لكلّ اسم فعلًا مخصوصًا، لكنّه يندرج تحت فعل التّشريع (شَرَعَ)، والفاعلُ هنا لفظُ الجلالة (اللّه)، عبّر بهذا الاسم، ليخلعَ على الأسلوب فخامةً وجزالةً وهيبَةً؛ لأنّه أعرفُ المعارفِ.

الأثرُ اللّغويُّ والدّلاليُّ لحرف الجرّ ﴿مِنۡ﴾ في قوله: ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٖ﴾:

﴿مِنۡ بَحِيرَةٖ﴾ لما كان الفعلُ ﴿جَعَلَ﴾ متعديًا بنفسه، في أصلِه أو بحسب تقديراتِ المفسِّرين، والمُعربين، والنّحويين، فإنّ وجودَ

القرآنُ الكريمُ منزّهٌ عن أن يُزاد فيه شيءٌ، أو يُنقصَ

(1) ابن جرير، جامع البيان: 11/116.
(2) الإمام أحمد، المسند، الحديث رقم: (8787).
(3) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 8/237.
(4) العكبريّ، التّبيان: 1/464.

الحرف ﴿مِنۡ﴾ هنا، له أثرٌ لُغويٌّ ودَلاليٌّ؛ لأنّه يجبُ أنّ يليَ الفعلَ الاسمُ المنصوبُ، إلّا أنّه قد وليه ﴿مِنۡ﴾، وهو حرف جرٍّ زائدٌ عند النّحويين، وهو للتّوكيدِ عند المفسّرين؛ لأنّ القرآنَ الكريم منزّهٌ عن أن يزاد فيه شيءٌ، أو يُنقص، قال تعالى: ﴿مَّا فَرَّطۡنَا فِي ٱلۡكِتَٰبِ مِن شَيۡءٖۚ﴾ [الأنعام: 38]، وزيادته قائمةٌ على بابِها عند النّحويين لأنّه مستكملٌ لشروط الزّيادة[1].

دخولُ ﴿مِنۡ﴾ في سياق النّفي، يجعلُها للجنس، بما يُشبهُ (لا) النّافيةَ للجنس:

عبارةُ (مَا جَعَلَ) نفيٌ بليغٌ، وتنزيهٌ لله تعالى، أن يُشرِّع معه غيرُه

أمّا الأثرُ الدّلاليُّ، فهو التّوكيدُ الّذي يخلعُه الحرفُ على الجملة، والمقصودُ هنا توكيدُ النّفي؛ لأنّ الجملةَ في سيّاق النّفي، واشتراطُ دخولِها على النّكراتِ يجعلُها مع سياق النّفي للجنس كلِّه، فتكونُ في المعنى كَلَا النّافيةِ للجنس الّتي توصف بأنّها مؤكِّدةٌ للنّفي، وهذا المعنى واقعٌ هنا، وهو متناسبٌ أيَّما مناسبةٍ مع دخول (ما) على الفعل الماضي، في أنّه يكونُ جوابًا للجملة المصدَّرةِ بلام يقعُ جوابًا للقسم، فهناك توكيدٌ، وهنا توكيدٌ أيضًا، وفيه نفيٌ بليغٌ في أنّ اللّه تعالى ﴿مَا جَعَلَ﴾، بمعنى: لم يُشرّع هذه المدَّعَياتِ الّتي ادّعيتُموها، فنفى ادّعاءَهم بما يناسبُه (ما فعل)، وزاده نفيًا مؤكّدًا بزيادة ﴿مِنۡ﴾ الّتي تنفي مطلقَ الجنس، ولا تحتمل فردًا من أفراده، ويوضّحُ ذلك قولُه تعالى: ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٖ وَلَا سَآئِبَةٖ وَلَا وَصِيلَةٖ وَلَا حَامٍ﴾، أي ما حرّمَ هذه الأنواعَ الأربعةَ الّتي شرّعتُم فيها لأنفسِكم، ما لم يُشرّعِ اللّه، والبحيرةُ مفعول به محلًّا، وهي "فَعِيلَةٌ بمعنى مفعُولةٌ، ولحقتها التّاءُ على غير قياس؛ لأنّها جُرّدت منَ الوصفيّةِ وأصبحت بمعنى الجوامدِ"[2].

(1) لكي يكون الحرفُ زائدًا، يُشترطُ أن يسبقَه نفيٌ، أو شبهُه، وأن يباشر النّكرة، كقولنا: (ما جاءني من أحد). المبّرد، المقتضب: 4/420.
(2) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 3/31.

تقديمُ المسبَّبِ على السّببِ ظاهرٌ في قولِه: ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ﴾:

توالي المعطوفاتِ بالنّفي المشترَك، تأكيدٌ للحُكم وتقريرٌ له

عطفَ على البحيرةِ السّائبةَ، وهي اسمُ فاعلٍ مؤنّثٌ، مع تكرار النّفي، لكن هذه المرّة بالحرف (لا)، وسرُّ تقديم البَحيرة على السّائبة، أنّ النّاقة الّتي تُسمّى البحيرةَ، هي ابنةُ السّائبةِ[1]، فهو تقديم المسبَّب على السّبب، أو تقديم الفرع على الأصل، وعطفَ عليها الوصيلةَ، وهي فعيلة بمعنى فاعلة، بتكرار النّفي أيضًا، وتكرارُ أداة النّفي أفخمُ وأقوَى وآكدُ؛ لأنّ تكرارَ أداة النّفي فيه تقويّةٌ للنّفي، فإنّه يجوزُ لغةً أن يقال: (ما جعل اللّه من بحيرةٍ وسائبةٍ ووصيلةٍ وحامٍ)، لكنّ التّعبيرَ القرآنيَّ في هذه الآيةِ أفخمُ وأقوى وآكدُ، فهو على طريقة: ﴿غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾ [الفاتحة: 07].

تسميّةُ الوصيلةِ لأنّهَا وصلت أخاها أو وصلت أنثَى بأنثَى:

الوصيلةُ اسمٌ اخترعه الجاهليّون، مُستغلّين سذاجةَ عُقولِ العامّةِ

والوصيلةُ الأنثى "منَ الغنم إذا ولدت الشّاةُ أنثى، فهي لهم، وإذا ولدت ذكرًا، فهو لآلهتِهم، فإن ولدت ذكرًا وأنثى، قالوا: وصلت أخاها"[2]، ولها معنًى آخر، وهو أنّ "الشّاة تلدُ أنثَى بعدَ أنثَى، فتسمَّى الأُمُّ وصِيلَةً، لأنّهَا وصلت أنثَى بأنثَى"[3]، وهنا تأخّرت في التركيب؛ لأنّ ما بعدها أعظمُ شأنًا منها وأفيدُ لأهل مكّةَ في معاشهم ونُسكهم، فقد جعلها اللّه هديًا للكعبة.

علّةُ تأخيرِ الحامِي، جريًا على تفضيل الإناثِ، باعتبارها مصدرَ التّناسُل والبركةِ:

كونُ الفحل قد نتجَ من صلبِهِ عشرةُ أبطُنٍ، لا يبرّرُ تجميدَ الانتفاعِ به

عاد إلى الإبل وعطف عليها الحامِي، وهو "اسم فاعل من حمَى يَحمي إذا منعَ"[4]، وهو اسمٌ منقوصٌ تُحذف ياؤه مع التّنكير مع

(1) الفرّاء، معاني القرآن: 1/322.
(2) المنتجب الهمذانّي، الكتاب الفريد: 2/507.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/73.
(4) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 3/31.

تكرار النّفي، والعودُ هنا لذكَرِ الإبل، وهو ترتيبٌ من باب تقديم الأفضل على المفضول؛ فإنّ الإناثَ في الحيوان أفضلُ عند البشرِ منَ الذّكور، فبها تتكاثرُ وتحصلُ البركة، يُؤيّدُه أنّ الحقَّ ﷻ قدّم الثّلاثةَ الأُولَ وهنَّ منَ الإناث، وأخّر الحامي المذكّر، وهو "الفحلُ إذا رُكبَ ولدُ ولدِهِ، ويُقالُ إذا نتجَ من صلبِهِ عشرةُ أَبطنٍ"[1]، ولم يختلف في تذكيره.

أسبابُ تنكير المحرّماتِ الأربعِ: ﴿بَحِيرَةٍ﴾ و﴿سَآئِبَةٍ﴾ و﴿وَصِيلَةٍ﴾ و﴿حَامٍ﴾:

تحريمُ الله حكمةٌ باصرةٌ، ووقايةٌ باطنةٌ وظاهرةٌ

لتنكير هذه المحرّمات الأربع ﴿بَحِيرَةٍ﴾ و﴿سَآئِبَةٍ﴾ و﴿وَصِيلَةٍ﴾ و﴿حَامٍ﴾، سببان: الأوّل لفظيٌّ، والثّاني معنويٌّ، فأمّا اللّفظيّ، فالتّنكير شرطٌ لدخول (مِن) المؤكِّدةِ، فمن شروطِها أنّ تباشرَ النّكرةَ لتُعطي قوّةً في التّوكيد، فإنّ ﴿مَا﴾ آنئذٍ تكون لنفي الجنس، وهذا الشّرطُ وإن كان لفظيًّا، وهو ممّا تقتضيه الصّناعةُ النّحويّةُ، إلّا أنّ مؤدّاه جانبٌ دَلاليٌّ، كما مرّ آنفًا، وأمّا السّبب المعنويُّ في أسباب التّنكير فهو دَلالتُه على العموم، وأنّ الأمر ليس مقصورًا على ما كان يحرّمُه العربُ على أنفسِهم، منَ اتّخاذ البحيرةِ والسّائبةِ والوصيلةِ والحامِي.

التّحريمُ ليس من بابِ التّخصيصِ المغلَقِ، بل كلُّ عملٍ مُشابهٍ له يأخذُ حُكمَه:

في الآيةِ تحريمُ الأمورِ الأربعةِ، واستُنبِطَ منه تحريمُ تعطيلِ المنافعِ

وتحريمُ هذه المذكوراتِ الأربعِ ليس من باب التّخصيصِ، بل إنّ أيَّ عملٍ مُشابهٍ لعملِهم هذا، فإنّه داخلٌ في هذا التّحريم، فإنّ "في الآيةِ تحريمَ هذه الأمورِ، واستُنبِط منه تحريمُ جميعِ تعطيلِ المنافع"[2]، وهذا ما يُؤدّيه التّنكيرُ، وهو الدّلالةُ على العُموم والشّيوعِ، ثم إنّ تعدّدَ الرّواياتِ والأقوالِ في معاني البَحيرةِ والسّائبةِ والوصيلةِ

(1) البغويّ، معالم التّنزيل: 3/108.
(2) القاسميّ، محاسن التّأويل: 6/2188.

والحامِي، يُوحي "بأنّ العربَ كانت تختلفُ أفعالُهم فيها، والمرادُ من هذه الجملةِ ردٌّ وإبطالٌ لما ابتدعَه أهلُ الجاهليّة"[1]، وهذا ما تُؤدّيه النّكرةُ من معانٍ، وأنّ الغرضَ هو تحريمُ الفعلِ الصادرِ منهم وما شابَهه على مرّ العُصور والأزمنةِ.

اجتماعُ أساليبَ توكيديّةٍ في: ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ﴾:

غايةُ التّوكيدِ في هذه الآيةِ بيانُ أهميّةِ الحُكمِ الرّبانيّ والإشارةُ إلى توخّيه

الكلامُ في لغة العرب، لا يخلو من أنّ يكون مؤكّدًا أو غير مؤكّد، والتّوكيدُ على أنواعٍ، منه لفظيٌّ ومنه معنويٌّ، ومنه توكيدٌ بالحروف وغيرُ ذلك منَ الأساليب التّوكيديّةِ، والتّوكيدُ قسمٌ من أقسام التّوابعِ المعروفةِ، وهو وإن كان تابعًا، فإنّ فائدتَه عظيمةٌ، فهو "يُذكر تقريرًا لمتبوعِه، بُغيةَ رفعِ احتمالِ إرادةِ المجازِ، أو رفعِ احتمالِ السَّهو والغلط"، ومنه قولُه تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾ [الأنعام: 38]، فالطّائر عادةً يطير بجناحَيه، والتّوكيدُ في قولِه: ﴿يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾، رفعَ احتمالَ المجازِ[2]، كقولِه تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِي عُنُقِهِۦ﴾ [الإسراء: 13]، وقد تجتمعُ عدّةُ أساليبَ توكيديّةٍ، في القطعةِ القرآنيّة الواحدةِ، والغايةُ من ذلك بيانُ أهميّةِ الحُكم الرّبانيّ والإشارةُ إلى تَوخّيه، كقولِه تعالى: ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ﴾.

نفيُ الفعلِ الماضِي باللّفظِ (ما) النّافيةِ، من أساليبِ التّوكيدِ في الآيةِ:

نفيُ الفعلِ الماضي بـ(مِن) الزّائدةِ، مع الفعل المتعدّي بنفسه، أسلوبُ توكيدٍ

قد اجتَمعَتْ عدّةَ أساليبَ توكيديّةٍ في هذه القطعةِ القرآنيّةِ، أوّلُها أنّه نفَى الفعلَ الماضي بالحرف ﴿مَا﴾، والنّفيُ بما هو جوابٌ لمن جُعلَ في كلامه القسمُ، لمّا رأينا أنّ قولَهم لقد فعل، فإنّ نفيَه يكونُ بـ(ما) فعل، والقسمُ أسلوبٌ من أساليبِ التّوكيدِ في لسان

(1) الآلوسي، روح المعاني: 7/43.
(2) عضيمة، دراسات في أسلوب القرآن الكريم: 4/5.

العربِ، ففي قولِه: ﴿مَا جَعَلَ﴾ مَسحةٌ توكيديّةٌ أُعطيت للجُملة، ثمّ عبّر بلفظ ﴿مِنۡ﴾ الزّائدةِ الّتي تُفيد التّوكيدَ، بأن قرنَها مع الفعل المتعدِّي بنفسِه ﴿جَعَلَ﴾، و﴿مِنۡ﴾ هذه أضافت توكيدًا للجملة في أنّها أريدَ بها الجنسُ لدخول النّكرة في سياق النّفي.

قوله: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ جملةٌ معطوفةٌ على سابقتِها مع الاستدراكِ:

مـن أسـاليـبِ التـوّكيـدِ تـكرارُ الـنّـفـيِ مـع المعطوفاتِ

هناك تكرارُ النّفيِ مع المعطوفاتِ، وهذا التّكرارُ يُرادُ لعدّةِ معانٍ، ومعنى ذلك أنّه أدخلَه في حيِّز التّأسيسِ، ومعلومٌ أنّ ثمّةَ علائقَ بين التّكرارِ والتّأسيسِ، من جهةِ أنّ التّكرارَ قد يكونُ تأسيسًا إذا أفادَ المعانيَ الجديدةَ، في أنّه أراد أن ينتهُوا عن هذه الأربعةِ منفردةً ومجتمعةً، وكي لا يذهبَ الظّنُّ أنّ البحيرةَ أصلٌ والبواقي تبعٌ، كما هو حالُها في العطفِ، بل كرّرَ (لا) مع كلِّ واحدةٍ لبيان أهمّيتها، وأنّها وإن كانت تابعةً لفظًا للأولى، إلّا أنّها مستقلّةٌ عنها في المعنى، فهذه ثلاثةُ أساليبَ منَ التّوكيد (النّفيُ بما)، و(مِن الزّائدةُ المؤكِّدةُ) و(تكرارُ أدواتِ النّفي) هذه الأساليبُ أعطت قوّةً وأهميّةً لما أراد منهم الحقُّ ﷻ في الامتناع عمّا كانوا يفعلونَه من عاداتٍ، لم يوجبها اللّه، أو يأمر بها أو يشرِّعها.

﴿وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۖ﴾، جملةٌ معطوفةٌ على سابقتِها وفيها مع العطف استدراكٌ بالحرف ﴿وَلَٰكِنَّ﴾[1]، وهو حرفٌ يقتضي وجودَ جملةٍ اسميّةٍ، يكون أوّلًا اسمًا له، وهو قولُه ﴿ٱلَّذِينَ﴾، ولما كان اسمًا موصولًا فإنّه يقتضي وجودَ الصّلة، وحقُّها أن تكون جملةً، وهي هنا قولُه ﴿كَفَرُواْ﴾، فعلٌ ماضٍ يدلُّ على ثبوت كفرِهم وفاعلِه.

(1) ومعنى الاستدراك: أن تنسب حُكمًا لاسمها، يخالفُ المحكومَ عليه قبلها. المراديّ، الجنى الدّاني، ص: 615.

مجيئُ الخبرِ ﴿يَفۡتَرُونَ﴾ جملةً فعليّةً مضارعيّةً تفيدُ تجدّدَ الفعلِ:

أمّا خبرُها، فهو الجملةُ الفعليّةُ ﴿يَفۡتَرُونَ﴾، ومجيئُها بالفعل المضارع يفيدُ التّجدّدَ، فكأنّهم في كُلِّ مُدّةٍ يُظهرون افتراءً جديدًا على اللّه، وآيةُ ذلك أنّ هؤلاء وُصفُوا بالمبتدعةِ؛ لأنّهم "الَّذينَ ابتدعُوا هذهِ الضَّلالاتِ، لمقاصدَ مختلفَةٍ، ونسبوهَا إلى اللّه"[1]، ومعلومٌ أنّ المبتدع يخرجُ كلَّ يوم بشيءٍ جديدٍ منَ الضّلالاتِ والبِدعِ، فهو في حدوثٍ وتجدُّدٍ في بِدعِه، لذلك عبّر عنه بالفعل المضارع الدّالِّ على التّجدّدِ والحدوثِ، وجعل ابنُ عاشور[2] هذا الفعلَ ﴿يَفۡتَرُونَ﴾، وزنه (يَفتَعِل) دالًّا على المبالغةِ، والمبالغةُ والتّجدّدُ والحدوثُ لا يتعارضان.

الفعلُ (يَفتَرُونَ) دالٌّ على المبالغةِ الّتي لا تتعارضُ مـع الـتّـجـدّدِ والحدوثِ

الاستدراكُ بـ(لكن) يَنسِبُ حُكمًا لاسمها، وهو الافتراءُ يخالفُ ما قبلَها:

ولما كانت ﴿وَلَٰكِنَّ﴾ للاستدراك، فهنا نسبَ حكمًا لاسمها، وهو الافتراءُ، يخالفُ ما قبلَها، وهو النّفيُ الحاصلُ من جميع الوجوهِ، مع قُوّة التّوكيدِ، من أنّ اللّه تعالى قد أمرَ أو شرّعَ أو أوجبَ البَحيرةَ والسّائبةَ والوصيلةَ والحامِي، فهذا الجعلُ بزَعمهم افتراءٌ عليه ﷻ.

ثمّ جعل فعلَ الافتراء متعدّيًا، وجعل مفعولَه ﴿ٱلۡكَذِبَۖ﴾، مع أنّ معانيَ الافتراءِ هو الكذبُ، وفي ذلك مزيدُ تشنيعٍ عليهم، وعلى ما كانوا يفعلونه، فضلًا عن أنّ أصلَ الافتراءِ من فرَى الثّوبَ إذا قطّعه، فكثرةُ مرادفةِ الافتراءِ للفظةِ الكذبِ "للإشارة إلى أنّه كذبٌ مقطوعٌ بأنّه كذبٌ"[3]، أي أنّ كذبَهم مؤكّدٌ، ولا مجالَ فيه لأدنى صِدقٍ.

في الآيـةِ مـزيـدُ تشنيعٍ عليهم، بجعلِ الافـتراءِ مُتعدّيًا مفعولَه (الكذب) مع أنّه هو إيّاه

دَلالةُ التّعبيرِ بالمصدرِ على المعنى وبلوغِ الغايةِ:

والتّعبيرُ بالكذبِ فيه مزيدُ تبشيعٍ لعملِهم؛ لأنّ الكذبَ مصدرٌ، لذلك يُوصفُ أحيانًا بالمصدرِ للدّلالةِ على قُوّة الوصفِ، وأنّه بلغَ

الـــوصـــفُ بالمصدرِ أقـوَى مـنَ الأوصـافِ الأُخـرى في هذا المضمارِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/74.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 4/10.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2376.

الغايةَ، حتّى أصبحَ الحدثَ نفسَه، لكثرةِ مُمارستِه له، كقولِنا: (هَذَا رَجُلٌ عَادِلٌ)، لشخصٍ يتميّزُ بالعدالة، فإذا أردنا المبالغةَ والتّوسعةَ، قلنا: (هذا رجلٌ عدلٌ)، فوصفنا الرّجلَ بالمصدرِ، و(عَدلٌ) وهذا الوصفُ على سبيل المبالغةِ؛ لأنّ حقَّ المصدر أن لا يُنعتَ به لجمودِه، والخلاصةُ أنّ الوصفَ بالمصدر الّذي هو الحدثُ المجرّدُ، أقوَى منَ الأوصافِ الأُخرى، لذلك وصفَ اللّه تعالى ابنَ نوحٍ ﷺ بالمصدر بقولِه تعالى: ﴿قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖۖ﴾ [هود: 46]، فلم يقل إنّه عاملٌ أو يعملُ، بل وصفهُ بالمصدر منه وهو (عَمَلٌ)، يريد من ذلك أن يقول: إنّ ابنك قد تحوّل إلى عملٍ غيرِ صالح، ولم يبقَ فيه من عُنصرِ الذّات شيءٌ، بل أصبح حدثًا مجرّدًا خالصًا على المبالغةِ في التّنكير عليه، ومثلُ ذلك يقال في افترائِهم الكذبَ، عبّر بالمصدر ليصلَ إلى الغاية في الحدثِ وهو الكذبُ، وفي قولِه: ﴿يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۖ﴾، من بابِ وضعِ الظّاهر مَوضعَ المُضمرِ؛ فإنّ لفظ الجلالة مذكورٌ قريبًا، فلو قال هنا (يفترون عليه الكذب)، لجاز لغةً، لكنّه أعاد الظّاهرَ؛ لأنّه أراد "تمكينَ نفسِه زيادةَ تمكينٍ"[1]، فضلًا عنِ التّعظيم وإدخالِ المهابة في نفوس المخاطَبين.

قولُه تعالى: ﴿وَأَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ﴾ جملةٌ تدلُّ على الحالِ:

الآيـةُ تـفيدُ أنّ قلّةً منهم خلافُ الأكـثريّـةِ مـنَ المفترين

﴿وَأَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ﴾: الواو عاطفةٌ، ويجوز أن تكون حاليةً، والجملةُ الاسميُّة بعدها في محلِّ نصبٍ على الحال، أي أنّهم يَفترون على اللّه الكذبَ، وأنّ أكثرَهم قد فقدُوا عقلَهم في هذه الحال الّتي هم عليها؛ لأنّ من يملكُ عقلًا لا يَفتري على اللّه الكذبَ، وقولُه: ﴿وَأَكۡثَرُهُمۡ﴾ مبتدأ، وقد أضيفُ إلى الضّمير (هم)، وقولُه: ﴿لَا يَعۡقِلُونَ﴾، (لا) نافية، و(يعقِلون) جملةٌ فعليّةٌ منفيّةٌ بلا، وعدمُ العقلِ هنا منسوبٌ لأتباعِهم؛ لأنّهم لا "يَنسبون التّحريمَ إلى اللّه

(1) السّكاكي، مفتاح العلوم، ص: 198.

حتّى يَفترُوا، ولكنّهم يقلِّدون في تحريمها كبارَهم"[1]، وقولُه: ﴿وَأَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ﴾، معناه أنّ أقلَّهم خلافُ ذلك، وهم المُفترون، وفي ذلك تقديمٌ منَ الأقلّ إلى الأكثرِ، أو منَ التّابع إلى المتبوع، أو منَ الخصوصِ إلى العُموم.

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/303.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُواْ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ١٠٤﴾ [المائدة: 104]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

مظاهرُ جهلِ العربِ قبل الإسلامِ، وتشريعُهم ما لم يأذن بهِ اللهُ

وجهُ الارتباط بين الآيةِ الكريمةِ وما قبلَها، أنّه لَمَّا بيّنَ الحقُّ ﷻ أنّ أكثرَهم لا يعقِلون، وأنّ تحريمَ هذه الأشياءِ افتراءٌ باطلٌ، حتّى يخالفُوهم ويهتدُوا إلى الحقّ، وإنمّا يقلِّدون قدماءَهُم، أشار إلى عنادِهم واستعصائِهم، حينما هُدُوا إلى الحقّ، وإلى ضلالِهم ببقائِهم في أسرِ التّقليد[1] لآبائهم ومن سبقُوهم.

ومن جهةٍ أخرى فإنّ الحقَّ ﷻ ذكرَ جهلَ العربِ قبل الإسلام، "فيما تحكَّمت فيهِ بآرائهَا السَّقيمةِ في البحائرِ، والسَّوائبِ، والحوامي، واحتجاجَهم في ذلكَ، بأَنّهُ أَمرٌ وجدُوا عليهِ آباءَهم؛ فاتّبعوهم في ذلكَ، وتركوا ما أَنزلَ اللّه على رسولهِ، وأمرَ بهِ من دينهِ"[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

دعوةٌ للإقبالِ على الحوارِ والإقناعِ

1) ﴿تَعَالَوْاْ﴾: اسمُ فعلِ أمرٍ، أو فعلُ أمرٍ، ومعناه أَقبِل، وأصلُه اللّغويّ منَ الجذرِ (عَلَوَ)؛ لأنّ الفعلَ منه علَا يعلُو، وقيل في ذلك: "أَصلُه أَنّ رجلًا كانَ في مكانٍ عالٍ، وآخرَ في مكانٍ مُستفلٍ، فصاحَ بهِ: تعالَ، أَي اعل منَ العُلُوّ، ثمَّ كثُر واتّسع، حتَّى صارَ بمنزلَة أقبِل"[3]، فأصبح الفعلُ يُنادى به، "تقولُ العربُ في النّداءِ للرَّجلِ تعالَ بفتحِ اللَّامِ، وللاثنينِ تعالَيا، وللرّجالِ

(1) القاسميّ، محاسن التّأويل: 4/275.
(2) ابن العربيّ، أحكام القرآن: 2/223.
(3) الزّجاجي، حروف المعاني والصّفات، ص: 21.

تعالَوا... ولا يبالون أَين يكونُ المدعوُّ في مكانٍ أَعلى من مكانِ الدَّاعِي أَو مكانٍ دونَهُ"[1].

2) ﴿حَسْبُنَا﴾: الأصلُ اللّغويُّ له (حَسَبَ)، والفعلُ منه حسِبَ بفتح السّين وكسرها، أمّا معناه فقد قيل فيه إنّه اسمُ فعل بمعنى يَكفي[2]، وقيل إنّه اسمُ فاعل بمعنى المُحسبِ والكافِي والمعتمَدِ عليه، وقولُه: ﴿حَسْبُنَا﴾ "كنايةٌ عن قولهم: اعتمدنا"[3]، يعني يكفينا أن نعتمد على آبائنا في هذا الأمرِ.

أي يَكفينا أن نعتمدَ على آبائنا

3) ﴿ءَابَآءَنَآ﴾: جمعٌ مكسّرٌ، يفيدُ القِلّةَ، على وزن أفعال مفردُه أب، وهو ثلاثيٌّ محذوفُ اللّام، أصلُه أبو، وهو "الوالد وكلُّ من نُسب في اتّخاذ شيء أو إصلاحِه أو ظهورِه، فهو أبٌ له"[4]، والمرادُ في الآية الآباءُ حقيقةً، ويشملُ الأجدادَ نزولًا؛ لأنّهم اعتمدُوا عليهم في معتقداتِهم، وإن كانت باطلةً.

الأبُ هو الوالدُ وإن علا

4) ﴿وَلَا يَهْتَدُونَ﴾: فعلٌ مضارعٌ منَ الأفعال الخمسةِ، الأصلُ فيه (هَدَى، يَهدِي)، وهو هنا فعلٌ مزيدٌ من (اهتَدَى يَهتَدِي)، وزنه يفتَعِلُ، وله عدّةُ معانٍ، المقصودُ في الآيةِ من معانيه أنّه نقيضُ الضّلالةِ والطّاعةِ والورعِ[5].

الاهتداءُ نقيضُ الضّلالةِ والزّيغِ، ولصيقُ الطّاعةِ والورعِ

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

الحديثُ في هذه الآيةِ عن مخاطبةِ الرّسولِ ﷺ للمشركين ودعوتِه لهم باتّباعه وتركِ ما هم عليه منَ الضّلال إلّا أنّه قد حجبَهم تعصّبُهم الأعمَى لِما وجدوا عليه آباءَهم من ضلالٍ عنِ اتّباع الحقِّ، فإذا قيل لهؤلاء الّذين بَحروا البحائرَ، وفعلوا هذه

دعوةٌ إلى نَبذِ التّقليدِ الأعمَى للآباء، والإقبالِ على الهُدى بتبصُّرٍ

(1) ابن منظور، لسان العرب: (علو).
(2) الكفويّ، الكليّات: (حسب).
(3) الكفويّ، الكليّات: (حسب).
(4) السّمين، عمدة الحفّاظ: (أبو).
(5) الأزهري، تهذيب اللّغة: (هدي).

الأشياءَ، وأضافوها إلى اللّه كذبًا: تعالوا إلى ما أنزل اللّه في كتابه، وإلى رسولِه محمّدٍ ﷺ ليبيّنَ لكم كذبَ ما تضيفونَه إلى اللّه، ويبيّنَ لكمُ الشّرائعَ والأحكامَ، ويدلَّكم على الحقِّ، ﴿قَالُواْ حَسۡبُنَا مَا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ﴾، قدِ اكتفَينا بما أخذنا عنهم منَ الدّين، ونحنُ لهُم تبعٌ، فردَّ اللّه عليهم بأنّه إنّما يصحُّ الاقتداءُ بالعالِم المُهتدِي، الّذي يبني قولَه على الحُجّةِ والبرهانِ والدّليلِ، وأنّ آباءَهم ما كانوا كذلك فيصحَّ اقتداؤُهم بهم[1].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

الآيةُ هنا مبيِّنةٌ مُرتكَباتِ أهلِ الجاهليّة تقليدًا واتّباعًا:

الآيةُ هنا ذكرَ فيها قولَه: ﴿قَالُواْ حَسۡبُنَا مَا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ﴾، فإنّها مبنيّةٌ "على ما تقدّمَها من مُرتكَباتِ أهلِ الجاهليّة، وما سنَّوه تقليدًا أو اتّباعًا... فدان بفعلهم في البَحيرةِ والسّائبةِ والوصيلةِ والحامي"[2]، وقد تبيّن منَ السّياق أنّ الضّلالاتِ الّتي اعتقدوها وشرّعوا لها، لا سندَ لها من دين، ولا قيمةَ لها في ميزان الشّرائع، وأنّ الاعتدادَ بها ضلالٌ، والاعتمادَ عليها مفسدةٌ.

الاكتفاءُ بالتّقليد الأعمَى دون بصيرةٍ جمودٌ وركودٌ

﴿وَإِذَا﴾ ظرفٌ لما يُستقبلُ منَ الزّمن، متضمّنٌ معنى الشّرط:

الواو هنا استئنافيّةٌ، و﴿وَإِذَا﴾ ظرفٌ لما يُستقبلُ منَ الزّمان، متضمِّنٌ معنى الشّرط[3]، فالأصلُ فيها الظّرفيّةُ، والمعنى في ذلك الوقتِ أو الزّمنِ، ﴿قِيلَ﴾ فعلٌ ماضٍ مبنيٌّ للمفعول، والفاعلُ مضمَرٌ، وقد يقال إنّه محذوفٌ اصطلاحًا، والأقربُ أن يكون مُضمَرًا؛ لأنّ الفاعلَ عمدةٌ، فلا يُحذفُ، والتّقديرُ: (وإذا قال اللّه أو الرّسولُ...)، والدّلالةُ بالزّمن المُشارِ إليه بالأداة (إذا) الشّرطيّةِ، يُوحي بالتّجدّدِ

الحُكمُ الشّرعيُّ يبقى ثابتًا مهما تغيّرتِ الظّروفُ والصُّروفُ

(1) الخازن، لباب التّأويل: 2/84.
(2) ابن الزّبير، ملاك التّأويل، ص: 107.
(3) ابن يعيش، شرح المفصّل: 1/59.

والتّلوُّنِ، والاصطباغِ بصبغةِ الواقعِ المستحدثِ، حيث يمكنُ أن يُحدث النّاسُ مثلَ ما أحدث الجاهليّون محرّماتٍ، ثمّ يسمّونَها بمصطلحاتٍ جديدةٍ، كما فعل الجاهليّون مع البَحيرةِ والسّائبةِ والوصيلةِ والحامِي، ويبقى الحُكم ساريًّا عليهم مع اختلافِ الظّروفِ والزّمانِ والملابَساتِ.

مُسوِّغاتُ حذفِ الفاعلِ في المبنيِّ للمفعول في الفعل ﴿قِيلَ﴾:

في حذفِ الفاعل صيانةٌ وتنزيهٌ له عن استمرارِ هؤلاء في الافتراءِ والكذبِ

وسببُ حذفِه أو إضمارِه هنا، يحتملُ عدّةَ أمورٍ، منها التّوسّعُ في الخطابِ "ليتضمّنَ كلَّ قولٍ جاء على لسان أيِّ رسولٍ منَ اللّه، من بدءِ الرّسالات، فهي ليست قضيّةَ اليومِ فقط، إنّما هي قضيّةٌ قيلت من قبل ذلك"[1]، وقد يكونُ حذفُ الفاعلِ للإيجازِ والاختصارِ، أو للعلمِ به، فيكون معلومًا من جهةِ المعنى، ومعلومًا من جهةِ اللّفظ، فإنّ الفاعلَ وما عُطف عليه مذكوران بعد هذه الجملةِ، بقولِه: ﴿إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ﴾، كما أنّ في حذفِه صيانةً وتنزيهًا له، ومخافةً منه في أن يستمرّ هؤلاء في الافتراءِ والكذبِ، من لَدُنِ المبتدعةِ، والموافقةِ العمياءِ من لَدُن الأتباعِ.

قولُه: ﴿لَهُمْ﴾ فيه التفاتٌ منَ الخطابِ إلى الغيبةِ:

الالتفاتُ ذو أثرٍ في تلوين الخطابِ القرآنيِّ والتّشويقِ به

وقوله: ﴿لَهُمْ﴾ فيه انتقالٌ إلى الغيبة، وهو الالتفاتُ "تسجيلًا بكمال ضلالِهم، وإيذانًا بإيجاب تَعدادِ ما ذكرَ من جناياتهم، لصرف الخطاب عنهم، وتوجيهِه إلى العقلاء"[2]، وفيه تهديدٌ وتشديدٌ ووعيدٌ، فضلًا عمّا يؤدّيه الالتفاتُ البليغُ، من تطريةِ نشاطِ السّامعِ، وتلوينِ الخطابِ القرآنيِّ، للتّرويح على الأنفُسِ، وتشويقِ السّامع إلى تمثُّلِ المعاني، والتّعمُّقِ في الدّلالاتِ.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/709.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 1/188.

دَلالةُ الفعل ﴿تَعَالَوۡاْ﴾ على التّرقّي بالنّظرِ إلى أصلِه اللّغويِّ:

احتمالُ استعمالِ الفعل (تَعَالَوا) على الحقيقة أو المجاز أو هما معًا

﴿تَعَالَوۡاْ﴾ وهو اسمُ فعل أمرٍ أو فعلُ أمرٍ ومعناه أقبل[1]، والثّاني أرجحُ، وفي كلّ الأحوال فإنّ الأمرَ هنا للوجوب، وقد اقترن بواو الجماعةِ، ومعنى الفعل هنا نظرًا إلى أصلِه، معناه: ارتقُوا إلى حُكمِ اللّه وسنّةِ رسوله، فكأنّهم في سفالةٍ، وأراد أن يخرجَهم من سفلِ الظُّلماتِ إلى عُلوّ النّور؛ لأنّه لو عبَّر عنه بأقبِل، وهو جائزٌ، لما أعطى هذا المعنى، فاللّه تعالى يريدُ أن يُخرَج عبادَه منَ الدّنوِّ إلى العلوِّ، وقد عبّر عن ذلك بقولِه: ﴿وَكُنتُمۡ عَلَىٰ شَفَا حُفۡرَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنۡهَاۗ﴾ [آل عمران: 103]، ولما كانت جملةُ ﴿تَعَالَوۡاْ﴾ مسبوقةً بفعلِ القولِ، فإنّها تكونُ عندئذٍ في محلِّ نصبٍ مقولِ القول؛ لأنّ المخاطَبَ إذا سمع فعلَ قولٍ، أو ما اشتُقّ منه، فإنّه ينتظرُ ذلك القولَ، فيكونُ إخبارًا أو أمرًا أو نهيًا، ثم إنّ هذا الفعلَ "مستعمَلٌ في طلبِ الإقبالِ، وفي إصغاءِ السَّمعِ، ونظرِ الفكرِ، وحضُورِ مجلسِ الرَّسولِ ﷺ، وعدمِ الصَّدِّ عنهُ"[2]، فعلى ذلك يمكنُ أن يكون قد استعملَه حقيقةً، بأن يأتُوا إلى مجلس الرّسول الأكرم ﷺ، ويمكنُ أن يكونَ قد استعملَه مجازًا، وهو أن يحكِّمُوا كتابَ اللّه وسنّةَ رسوله، والأقربُ أنّ الإتيانَ والحضورَ مجازيٌّ مع ﴿إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾، وحقيقيٌّ مع ﴿وَإِلَى ٱلرَّسُولِ﴾، وقد أعاد حرفَ الانتهاء (إِلَى)؛ لأنّه أراد المعنَيَين الحقيقيَّ والمجازيَّ[3].

نداءٌ بالتّعالي عن دَرَكِ الظُّلماتِ، إلى سماءِ الإشراقاتِ:

اتّباعُ ما أنزل الله عُلوٌّ ورقاءٌ

وفي قوله تعالى: ﴿تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ﴾، ناداهم أن يُقبِلُوا من سفالةِ الظُّلماتِ الّتي يقبَعون بها، إلى النّورِ الّذي أنزله

(1) الزّجاجيّ، حروف المعاني والصّفات، ص: 21.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/75.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/75.

اللّه، والسّنّةِ الّتي جاء بها الرّسولُ ﷺ، وأن تعالَوا إلى حُكم اللّه الّذي أنزله، وانتهُوا إليه؛ لأنّ ﴿إِلَىٰ﴾ تفيدُ الانتهاءَ.

التّعبيرُ بلفظ ﴿مَآ﴾ الموصوليّةِ الّتي تُستعملُ لما لا يَعقِلُ:

أثـــرُ هـمـزةِ الـتّـعـديـةِ في اسـتـيـعـابِ المعاني المحتملةِ

وقد عبّر عنِ المُنزل بلفظ ﴿مَآ﴾ الّتي تفيدُ الموصوليّة، والّتي تُستعملُ في غالب أحوالِها، لما لا يَعقِلُ، وهي مناسِبةٌ للمقال، وأوردَ بعدَها قولَه: ﴿أَنزَلَ﴾، وهو فعلٌ ماضٍ متعدٍّ بالهمزة الّتي جاءت لتنقلَ الفعلَ منَ اللّزوم إلى التّعدّي، فإنّ قولَنا: (نزل) أي نزل بنفسه، أمّا ﴿أَنزَلَ﴾ فيكون بفعل فاعلٍ، وهو اللّه، وقد أظهره هنا تعظيمًا للمُنزِل ﴿ٱللَّهُ﴾، أمّا المُنزَل، فهو (القرآن بما يشتملُ عليه منَ الأحكام).

حذفُ المفعولِ اختصارًا، ثمّ لحثِّ النّاس على المُنزل أيًا كان:

كـلُّ مـا يـنـزلُ مـن عـنـد الـلـه، فواجبٌ الأخذُ به والتزامُه

إنّ المفعولَ هنا قد تمّ حذفُه، وهذا الحذفُ جائزٌ، ويُسمّى حذفًا اختصارًا، وهو الحذفُ لدليلٍ، وهو حذفٌ حسنٌ، لطول الكلام مع المنصوب، فإنّه حذفَ العائدَ[1]، على ﴿مَآ﴾ الموصولةِ، وهو على تقديرِ (إلى مَا أنزَلَهُ اللّه)، والمقصدُ هنا الإخبارُ عن مجرّد الإنزال، لحثِّ النّاس عليه، فكلُّ ما ينزلُ منَ اللّه واجبٌ الأخذُ به، ولو ذكرَ المفعولَ صريحًا، لربّما صرَفَ الذّهنَ إلى شيءٍ واحدٍ فقط.

علّةُ تقديمِ قولِه: ﴿مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾، على قولِه: ﴿وَإِلَى ٱلرَّسُولِ﴾:

الألـفُ والـلّامُ في (الـرّسـول) عـهـديّـةٌ، ويحتملُ أنّها من باب تقديمِ المُجملِ على المفصَّلِ

عطفَ على قولِه: ﴿مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ قولَه: ﴿وَإِلَى ٱلرَّسُولِ﴾، وهنا تقديمٌ وتأخيرٌ، وهو من باب تقديمِ الأفضلِ والأشرفِ؛ فبدأ بعبارةِ ﴿مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾، ثمّ ثنّى بالرّسول ﷺ، والألفُ واللّامُ في الرّسول عهديّةٌ، واللّفظةُ تشير إلى رسولِنا، وهو محمّدٌ ﷺ، ويحتملُ أيضًا من باب تقديم المُجملِ على المفصَّل، تقديمِ القرآن على السّنّةِ؛ لأنّ السّنّةَ مبيِّنةٌ للقرآن، لقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلذِّكۡرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ﴾ [النّحل: 44].

(1) العائدُ ضميرٌ يعود على الاسمِ الموصولِ، وحذفُه جائزٌ، وهو حسنٌ لطول الكلام، ولا سيّما مع المنصوب كالآي. ابن جني، اللّمع في العربيّة، ص: 190.

مجازٌ بالحذفِ في قولِه: ﴿وَإِلَى ٱلرَّسُولِ﴾:

لا تناقُضَ بين بشريّةِ النّبيّ الأكرمِ، وخصوصيّةِ الاصطفاء بالوحيِ

لأنّ الرّسولَ ﷺ يُرشدُهم إلى فهمِ الكتاب وتدبُّرِه، فإنّ قولَه: ﴿وَإِلَى ٱلرَّسُولِ﴾ فيه مجازٌ بالحذف؛ لأنّ الرّسول ﷺ بشرٌ، وهو ليس محلًّا للمجيء، فإقبالُهم على الرّسول لا يكونُ بشخصِه، إنّما المرادُ تعالَوا إلى تنزيل الله، وإلى ما جاء به الرّسولُ، أو إلى سنّتِه فقد حذفَ المضافَ، وأقام المضافَ إليه مقامَه، وهو جائزٌ وفاشٍ في اللّغة والقرآن، وفيه ضربٌ منَ الاتّساع، وقد دلّ عليه العقلُ، لما تقدّمَ من أنّ شخصَ الرّسول ﷺ ليس هو الغايةَ والمنتهَى، بل ما جاء به من عند الله هو الغايةُ، ولقولِه ﷺ من حديثٍ طويلٍ: «إنَّمَا أنَا بَشَرٌ مِثْلُكُم، أنسَى كَمَا تَنسَونَ، فَإذا نَسِيتُ فَذَكِّرُونِي»[1].

قولُهم: ﴿حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ﴾ جوابٌ لما دعاهم إليه منَ الحقّ:

جوابُ المعانِدين ينمُّ عنِ السّذاجة والغفلةِ والغُرورِ

﴿قَالُواْ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ﴾، فقولُه: ﴿قَالُواْ حَسْبُنَا﴾، تركيبٌ وردَ في ثلاثةِ مواضعَ منَ القرآن الكريم، في [آل عمران: 173]، وهذه الآيةُ من المائدة، وفي [التّوبة: 59]، والمعنى هنا بعد أن دعاهم إلى الحقّ، فقد (أجابوا من دعاهم إلى ذلك، بأن يقولوا حسبنا ما وجدنا عليه من قبلنا آباءنا يعملون به... وقد اكتَفينا بما أخذنا عنهم، ورضِينا بما كانوا عليه من تحريم وتحليل)[2]، و﴿قَالُواْ﴾ جوابُ (إذا)؛ لأنّه لما كانت (إذا) متضمِّنةً معنى الشّرط، لزمَ أن يكونَ لها جوابٌ، وردُّهُم جاء هنا من جنس الأوّل (قيل - قالوا).

استعمالُ أسلوبِ الفَصلِ لا الوصلِ، لكمالِ الاتِّصال بين الجُملتَين:

وهنا استعملَ أسلوبَ الفصلِ لا الوصلِ، بين جُملتَي ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾، و﴿قَالُواْ حَسْبُنَا﴾، لكمال الاتّصال بين الجُملتين، فلم يَحسُنِ العطفُ ههنا و"حَسبُنَا هوَ مبتدَأٌ، وهو مصدرٌ بمعنَى اسمِ الفاعلِ،

(1) البخاريّ، الحديث رقم: (401).
(2) ابن جرير، جامع البيان: 11/137.

ومَا وجدنَا هو الخبرُ، وما بمعنَى الَّذِي، أَو نكرةٌ موصوفةٌ؛ والتَّقديرُ: كافينَا الَّذِي وجدناهُ"[1]، ويجوز أنّ يكون ﴿حَسۡبُنَا﴾ اسمَ فعلٍ، بمعنى كفى و﴿مَا﴾ فاعلُه، والأوّلُ أقوى أي جعلُه اسمًا مبتدأ.

كمالُ الاتّصال بين الجُمل المتجاورةِ، يُؤكّدُ تعانُقَ المعاني في الآيةِ

لفظة ﴿حَسۡبُنَا﴾ تُستعمل فيما يَكفي في بابه، ويُغني عن غيره:

عبّروا هنا بالجُملةِ الاسميّةِ، ومعلومٌ أنّ دَلالتَها تقتضي الثّبوتَ والدّوامَ، فإنّ لفظةَ "حسبنا تُستعملُ فيما يكفي في بابه، ويُغني عن غيره، فالمُدركُ للشّيء إذا أدركه على ما هو به، وسكنت نفسُه إليه، فذاك حسبُه"[2]، فكأنّهم مُوقنون ثابتون على رأيهم، ممّا دعاهم للتّعبيرِ بالجُملة الاسميّةِ الدّالّةِ على الثّبوتِ، فضلًا عن قولهم: ﴿وَجَدۡنَا﴾ الدّالّةِ على العلمِ، وهذا رأيُهم فقط، ممّا يدلُّ على الجمودِ، وعدمِ الاحتكام إلى العقلِ، إلّا أنّ الحقيقةَ غيرُ ذلك، فإنّ الحقّ ﷻ، سيَنفي عنهم ذلك.

التّعبيرُ بالجملةِ الاسميّةِ الدّالّةِ على الثّبوتِ

قولُهم: ﴿وَجَدۡنَا﴾ من باب الوِجدانِ العلميّ أي (عَلِمنَا):

وقولُه تعالى: ﴿وَجَدۡنَا﴾ جملةٌ فعليّةٌ هي صلةُ الموصول ﴿مَا﴾، والفعلُ وجدَ يفيدُ العلمَ، فهو من باب أفعالِ القلوبِ اليقينيّةِ، والفعلُ (وَجَدَ) يقتضي وجودَ مفعولَين أصلُهُما المبتدأُ والخبرُ، فالمفعولان هنا ﴿عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ﴾، وهم في ادّعائِهم العلمَ يزوّرون المفاهيمَ ويدَّعُون المعرفةَ، بما تواترَ إليهم عن آبائِهم، وهو ضلالٌ في ضلالٍ؛ لأنّ آباءهم لم يستنِدُوا في عقائدِهم الواهيّةِ وأحكامِهم الضّالّةِ الّتي ما أنزل اللّه بها من سلطان إلى وحيٍ أمينٍ، أو هديٍ سماويٍّ رشيدٍ، بل كانوا يَخبطون خبطَ عشواءَ، فانتهَوا إلى ما وُصفُوا به في القرآن، من جمودٍ ونكرانٍ؛ والوِجدان العلميُّ في قولِه: ﴿وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ﴾ يختزلُ الزّمانَ بين الوجودِ التّاريخيِّ لآبائهم، ووجودِهم خلفًا

كان المقلّدون في نهجِهمُ المنحرفِ شرَّ خلَفٍ لأسوءِ سلَفٍ

(1) العكبريّ، التّبيان: 1/465.
(2) الإسكافيّ، درّة التّنزيل: 1/314.

لسلَفٍ، في الزّمان الأخيرِ، ليعبّروا عنِ التّواصُلِ العقائديِّ والفكريِّ والتّعامليِّ، بين الأبناء والآباء.

علّةُ تقديمِ المفعولِ الثّاني على الأوّل في قولِه: ﴿عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ﴾:

فالجارّ والمجرور متعلِّقٌ بمحذوفٍ، تقديرُه (كائنًا أو مستقرًّا)، هو المفعولُ الثّاني متقدّمٌ جوازًا على المفعول الأوّل، وهو قولُه ﴿ءَابَآءَنَآۚ﴾، وهذا التّقديمُ يفيدُ الاختصاصَ والحصرَ، زيادةً في التّمسّك برأيهم؛ لأنّ قولَه تعالى: ﴿وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ﴾ يختلفُ عن قولنا: (وَجَدنَا آبَاءَنَا عَلَيهِ)، وكلُّهُ جائزٌ لغةً، إلّا أنّ معنى الثّاني (وَجَدنَا آبَاءَنَا عَلَيهِ)، وربّما على غيرِه، لعدمِ الاختصاص، أمّا الأوّل ففيه اختصاصٌ وفيه توكيدٌ على أنّهم مُوقنون بما وجدُوا عليه آباءَهم.

التّقديمُ يفيدُ الاختصاصَ والحصرَ إيغالًا في التّمسّك برأيِهم

احتمالُ أن يكونَ لفظُ ﴿وَجَدۡنَا﴾ - المتعدّي لمفعولٍ واحدٍ - ضعيفًا:

ويحتملُ أن يكونَ ﴿عَلَيۡهِ﴾ متعلّقًا بمحذوفٍ حالٍ، وعلى ذلك يكونُ الفعلُ وجدَ مُتعدّيًا لواحدٍ على حذف الثّاني، أو على جعلِه على معنى المصادفة، ومصدرُه (الوِجدان)، كوِجدان الضّالّةِ وهو أضعفُ لما فيه منَ التّأويل، ولأنّ المصادفةَ والوِجدانَ لا تناسبُ ما كان عليه آباؤهم؛ لأنّها ليست أشياءَ محسوسةً، بل هي أحكامٌ عقليّةٌ، يظنّون أنّها منَ الدّين، ولأنّ الفعلَ (وجد) يتعدّى لاثنين، وجوازُ كونِ الثّاني متعلِّقًا بمحذوف.

الانحرافُ العقديُّ التزامُ أحكامٍ عقليّةٍ، ظنُّوا أنّها منَ الدّينِ

التّعبيرُ بحرف الجرّ (عَلَى)، يُفيدُ الاستعلاءَ مجازًا:

والتّعبيرُ بحرف الاستعلاءِ (عَلَى)، فيه تمثيلُ صورةِ آبائهم في ملابستِهم ما هم عليه منَ الضّلالاتِ والبدعِ، كحالِ من يَعتلي الشّيءَ ويَستولي عليه ويتصرّفُ فيه، وقد شبّهَه "تشبيهًا ضِمنيًّا دلَّ عليهِ حرفُ الاستعلاءِ؛ لأنّ الاستعلاءَ أَقوَى أنواعِ تمكُّنِ شيءٍ من شيءٍ"[1]، كأنّ حالَهم حالُ راكبٍ مُستعلٍ مُتمكّنٍ متلبّسٍ على مركوبِه،

تصويرُ جهلِهم وانهماكِهم في التّقليد واستغنائِهم عنِ المنهجِ الرّبّانيِ الرّشيدِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/242.

متصرّفٍ فيه، فهذه أربعةُ أنواع منَ التّوكيد، أولاها التّعبيرُ بالجملةِ الاسميّةِ الدّالّةِ على الثّبوتِ؛ والثّبوتُ قرينُ التّوكيد، وثانيها التّعبيرُ بلفظ (وَجَدَ) الدّالِّ على العلمِ، خلافَ الظّنّ والرُّجحان، وثالثُهما تقديمُ المفعولِ الثّاني على المفعول الأوّلِ جوازًا، لإفادةِ الاختصاصِ والتّوكيدِ، ورابعُهما التّعبيرُ بحرف الاستعلاء، فهم في ذلك كأنّهم راكبٌ مُستعلٍ متمكّنٌ من مركُوبه، وكُلُّ تلك التّأكيدات جاءت "لإفراطِ جهلِهم وانهماكِهم في التّقليد"[1]، وعدم حاجتِهم للمنهجِ الرّبّانيِّ القويم، فردّ عليهم اللّه الكريمُ بقوله: ﴿أَوَلَوۡ كَانَ ءَابَآؤُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَهۡتَدُونَ﴾، والهمزة في ﴿أَوَلَوۡ﴾ همزةُ إنكارٍ وتوبيخٍ وتشنيعٍ عليهم "والمرادُ بالإنكارِ الرَّدُّ والتَّخطئةُ، لا الإنكارُ بمعنى النَّفي"[2]، والواو عاطفةٌ وجُعلت أيضًا على أنّها واوُ الحال، وتقدير الكلام "أَحسَبُهم أَتباعَ ما وجدوا عليهِ آباءهُم على كلِّ حالٍ، ولو في الحالةِ الَّتي تنفِي عن آبائهمُ العلمَ والهدايةَ، فإنَّها حالةٌ ينبغي أَن لا يُتَّبَعَ فيها الآباء؛ لأَنَّ ذلكَ حالُ من غلبَ عليهِ الجهلُ المُفرطُ"[3].

الهمزةُ تقدّمت على العطف؛ لأنّ لها الصّدارةَ:

اجتماعُ الاستفهامِ والعطفِ والشّرطِ من تراكيبِ اللّغةِ العربيّةِ البديعةِ

وفي قولِه تعالى: ﴿أَوَلَوۡ كَانَ ءَابَآؤُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَهۡتَدُونَ﴾ تقدّمتِ الهمزةُ على حرف العطفِ، من جهةِ اللّفظ؛ لأنّها منَ الأحرُفِ الّتي لها الصّدارةُ، إلّا أنهّا متأخّرةٌ من جهة المعنى، فهنا عطفَ الشّيءِ المستفهَم عنه، كأنّ التّركيبَ يتكوّنُ منَ (العطف ثمّ الاستفهام ثمّ (لو) الشّرطيّة)، لكن تقدّمتِ الهمزةُ؛ وهو من تراكيبِ العربيّةِ البديعةِ الموجزةِ، وتقدّمُ الهمزةِ على الواو من خصائصها المُميّزة؛ لأنّه لو عطفَ غيرَها لما تقدّمت كقولِه تعالى: ﴿وَهَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ٩﴾ [طه: 9]، هنا تقدّمَ العطفُ على أداة

(1) القاسميّ، محاسن التّأويل: 6/2189.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/106.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/40.

الاستفهامِ؛ لأنّها ليستِ الهمزةَ، "والواوُ عاطفةٌ على مقدَّرٍ، تقديره: أحسبُهم ذلك؟ أو حاليةٌ، أي ولو كان آباؤهم جهلةً ضالِّين"[1].

أثرُ الهمزةِ في الإنكارِ وتوجيهِ المعنى:

الاستفهامُ الإنكاريُّ ودورُه في التّفريقِ بين المتبُوعِينَ والتّابعينَ

هناك مَلمحان في الاستثناء، من خلال قولِه تعالى: ﴿أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾، أوّلهما أنّ "معنى الإنكارِ المستفادِ منَ الهمزة أنّ صحّةَ الاقتداء بالشّخص بمجرّدِ ظنٍّ أنّه عالمٌ مهتدٍ لا تَكفي، فلا يَكفي في اعتقادهم حرمةَ هذه الأنعامِ أن يجدُوا آباءهم قائلِين بحُرمتها، إلّا أن يثبتَ لديهم بالبرهانِ القاطعِ كونُهم علماءَ مُهتدين، ودونَه خرطُ القَتادِ"[2]، وثانيهما أنّ الاستفهامَ مع الجُملةِ النّاقصةِ بـ(كان)، فيه الإشارةُ إلى نفيِ العقل إلى أكثرهم، فهو يشيرُ إلى أنّ قليلًا منهم يعرفون بُطلانَ ذلك، أي حرمةُ البَحيرةِ والسّائبةِ والوصيلةِ والحامِي، والحاصلُ أنّ كبارَهم الّذين يدَّعون العقلَ، يَفترون على اللّه، بأن يقولُوا: أمرَ اللّه بالتّبحير والتّسييب وغيرِ ذلك، وأمّا جُهّالُهُم الّذين لا يعقلون، فلا يَفترون على اللّه؛ لأنّهم لا ينسبونَها إليه، ولكنّهم يقولون بأنّهم يقلِّدون كبارَهم في التّحريم"[3].

حذفُ جوابِ (لَو) لدلالةِ الكلامِ السّابقِ تقديرُه (يتبعونهم):

في التّركيبِ الشّرطيّ يرتبطُ المعنى بين جُملتَيِ الشّرطِ والجوابِ، إيجابًا ونفيًا

قولُه: (لَو) وهي حرفُ شرط غيرُ جازم، وهي "حرف يدلُّ على امتناع الثّاني، لامتناع الأوّل"[4]، وجواب (لَو) محذوفٌ، يدلّ عليه الكلامُ السّابقُ، "محذوف لظهور انفهامِه ممّا سبق، وقدّره أبو البقاء (يَتبَعُونَهُم)، ويجوز أن يقدَّر: حسبهم ذلك أو يقولون"[5].

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 3/33.
(2) زاده، حاشية زاده على تفسير البيضاويّ: 3/105.
(3) زاده، حاشية زاده على تفسير البيضاويّ: 3/571.
(4) المراديّ، الجنى الدّاني، ص: 276.
(5) الآلوسّي، روح المعانّي: 7/44.

التّعبير بالفعل المضارع المنفيّ بـ(لَا)، في قوله: ﴿لَا يَعۡلَمُونَ﴾:

انسجامُ السّياق في دلالةِ الفعل المضارعِ المنفيِّ ببلاغةٍ وبيانٍ

﴿كَانُواْ﴾ فعلٌ ماضٍ ناقصٌ، واسمُها ﴿ءَابَآؤُهُمۡ﴾ مرفوعٌ بالواو النّائبةِ؛ لأنّه منَ الأسماء الخمسةِ، وقد أضيف إلى الضّمير، وقولُه: ﴿لَا يَعۡلَمُونَ﴾ الفعلُ المضارعُ المنفيُّ بـ(لا) خبرُ (كان)، واستعمالُ هذا التركّيب (لَا يَفعَلُ) له دلالتُه في لسان العربِ، والمنسجمةُ مع سياق الآيةِ الدّالةِ على نفيِ هذا الفعل بأبلغِ صورةٍ، لأنّه إذا "قال هو يفعل، ولم يكن الفعل واقعًا، فنفيُه لا يفعل"[1]، ومعنى ذلك انتفاءُ العلم لديهم، فنفاهُ بلا يفعل ﴿لَا يَعۡلَمُونَ﴾، وفيه تناسبٌ مع قولِهم: ﴿وَجَدۡنَا﴾؛ لأنّ الفعل وجدَ من أفعال القلوبِ اليقينيّةِ، وهو يفيدُ العلمَ، فتناسبا من جهة المعنى.

الفرقُ المعجميُّ بين قولِه: (يَعقِلُونَ) وقولِهِ: (يَعلَمُونَ):

الوصفُ بالفعل (يَعلَمُونَ) أقلُّ منزلةً منَ الوصف بالفعل (يَعقِلُونَ)

فيما ذكرَ في آية ثانية: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلۡ نَتَّبِعُ مَآ أَلۡفَيۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوۡ كَانَ ءَابَآؤُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَهۡتَدُونَ ١٧٠﴾ [البقرة: 170]، وقد عبَّر هنا بقوله: لا يعقلون، وثمّةَ فرقٌ بين (يَعقِلُونَ) و(يَعلَمُونَ)، "فالّذي يعلمُ أقلُّ منزلةً من الّذي يعقل؛ لأنّ الّذي عقلَ هو إنسان قد استنبطَ، وأمّا الّذي علمَ فقد أخذ علمَ غيرِه"[2]، كمن يأخذُ حُكمًا أو قولًا أو ما شابَه، فهو قد علمَه، لكن لم يستنبطه بعقلِه، وقد يكون ما أخذه باطلًا، أو غيرَ صحيح، فنفيُ العلم إذن أبلغُ من نفي العقل، وكلٌّ واحدٍ مناسبٌ لردّ أصحابه، فردُّ آية البقرة ﴿بَلۡ نَتَّبِعُ مَآ أَلۡفَيۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ﴾، وكأنّهم معترفون إلّا أنّهم ألفَوا آباءهم فاتّبعوهم، أمّا آيةُ المائدة فردُّهُم كان ﴿حَسۡبُنَا مَا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ﴾، وهو ردٌّ أكثرُ حزمًا وقوّةً، وقالوا "حَسبُنَا بملء الفمِ؛ فهذا يعني أنّكم اكتفيتُم بما أنتم عليه... لأنّ من يقول هذه

(1) سيبويه، الكتاب: 3/117.

(2) الشّعراوي، تفسير الشّعراوي: 2/708.

الكلمةَ، قد حسبَ كلامَه واكتفى، وكلمةُ الحساب تدلُّ على الدّقة... فقولُهم: ﴿حَسْبُنَا﴾، تعني أنّهم حسبُوا الأمرَ واكتفوا به"[1]، فوضعُ كلِّ لفظة في موضعها المناسبِ تناسبُ بين صدرِ الآية وعجزِها.

الفعلُ ﴿يَعْلَمُونَ﴾ اكتفَى بمفعول واحد، فيكونُ معناه المعرفةَ:

دلالــةُ معـرفـةِ واحديّةِ الذّات، والعلمِ بتَعدّد الصّفاتِ

﴿شَيْـًٔا﴾: مفعول به ليعلمون، ولما اكتفى بمفعول واحد، فإنّ العلمَ هنا بمعنى المعرفة لقول ابن مالك:

لِعِلمِ عِرفَانٍ وظَنٍّ تهَمَه *** تَعدِيَةٌ لِواحِد مُلتَزَمَه[2]

وهي مختصّةٌ بالذّوات، كما أنّ العلمَ مختصٌّ بالصّفاتِ، ولا شكَّ أنّ العلمَ بالصّفات أعمقُ وأبلغُ منَ العلم بالذّواتِ، ولأنّ معرفةَ الذّات واحدةٌ، والعلمُ بالصّفات يتعدّد، وكأنّه أراد التّقليلَ من علمهم، مع أنّه منفيٌّ في كلّ الأحوال، فضلًا عمّا في معنى شيءٍ وتنكيرِه، منَ التّهوين والتّقليلِ.

(1) الشّعراوي، تفسير الشّعراوي: 2/706.

(2) المراديّ، توضيح المقاصد: 1/564.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ١٠٥﴾ [المائدة: 105]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

سببُ الإعذارِ والإنذارِ الجهالةُ والعنادُ والإصرارُ

لمّا بيّن الله ﷻ أنواعَ التّكاليف والشّرائعِ والأحكامِ، قال: ﴿مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا تَكۡتُمُونَ ٩٩﴾ [المائدة: 99]، إلى قوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُواْ حَسۡبُنَا مَا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ﴾ [المائدة: 104]، كأنّه تعالى قال إنّ هؤلاء الجهّالَ، مع ما تقدّمَ من أنواع المبالغةِ في الإعذارِ والإنذارِ، والتّرغيبِ والتّرهيبِ، لم ينتفِعُوا بشيءٍ منه، بل بقَوا مُصرّين على جهالتِهم وضلالتِهم، فلا تُبالُوا أيّها المؤمنون بجهالتِهم وضلالتِهم، بل كُونوا مُنقادين لتكاليفِ الله، مُطيعين أوامرَه ونواهيَه، فلا يضُركُم ضلالتُهم وجهالتُهم، فلهذا قال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ﴾[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

لفظُ النّفس تعبيرٌ مجازيٌّ عنِ الانسان، والقصدُ الأنفُسُ المُخاطَبُونَ بالحُكم في الآيةِ

1) ﴿أَنفُسَكُمۡۖ﴾: جمع قِلّةٍ على وزن أفعُل، المفرد منه نفسٌ، وأصلُه من (نَفَسَ)، وهو "يدلُّ على خروجِ النَّسيم، كيفَ كانَ، من ريحٍ أَو غيرهَا... والنّفسُ الدَّمُ، وهو صحيحٌ، وذلكَ أَنَّهُ إذا فُقدَ الدَّمُ من بدنِ الإنسانِ فقدَ نفسَهُ"[2]، معنى ذلك أنّ النّفسَ يُعبّر بها عنِ الانسان، وهو تعبيرٌ مجازيٌّ، وَفقًا لما سبق، وهو هنا كذلك في هذه الآية، فالأنفُس هم المخاطَبون بهذه الآية، وقد يكون معناها الرّوح[3]، وهو صحيح، فكلُّه يُستدلُّ به على الإنسان.

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/304.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نفس).
(3) الجوهريّ، الصّحاح: (نفس).

الضَّرَرُ ضدُّ النَّفعِ، وهو النُّقصان يدخُلُ في الشّيءِ

2) ﴿لَا يَضُرُّكُم﴾: فعلٌ مضارعٌ، الماضي منه (ضرّ)، ويُسمّى مضعّفَ الثّلاثيّ، أصلُه (ضَرَرَ)، وهي أحرفُ جذرِه، "والضَّرَرُ النُّقصانُ يدخُلُ في الشّيء، تقول دَخَلَ عليه ضَرَرٌ في ماله"[1]، وفيه معانٍ أخرى، منها كونُه ضدَّ النّفع، ومنه سوءُ الحال والفقر[2]، وما جرى مجرى ذلك، وكلُّها تعودُ الى المعنى الأوّل، وهو المعنى المرادُ في الآية، أي لا يصيبُكم من هذه الأمور الضّارّة إذا اهتديتُم.

الضّلالُ ضدُّ الهدى، والمقصودُ به هنا العُدولُ عنِ الطّريق المستقيمِ

3) ﴿ضَلَّ﴾: فعلٌ ماضٍ، ويُسمّى مضعّفَ الثّلاثيّ، أصلُه (ضَلَلَ)، وهي أحرف جذرِه "والضّلال ضدُّ الهدى، وضلّ في الأَمر ضلالًا إذا لم يهتدِ لَهُ، وضلّ في الأَرض ضلالًا إذا لم يهتدِ للسّبيل"[3]، والمقصودُ في الآية العُدولُ عنِ الطّريق المستقيم.

مَرجِعُكُم منَ الرّجوع، وهو العودُ إلى ما كان منه البدءُ

4) ﴿مَرْجِعُكُمْ﴾: مصدرٌ مِيميٌّ زنةُ (مَفعِل)، والأصلُ منه (رَجَعَ)، ومعناه الرّجوع وهو "العودُ إلى ما كان منه البدءُ، أو تقديرُ البدء مكانًا كان أو فعلًا، أو قولًا، وبذاته كان رجوعُه، أو بجُزء من أجزائه، أو بفعل من أفعاله"[4]، أي أنّ معادَكم إليه سبحانه، والمصدرُ يُمثّلُ الأصلَ والأولية، فكأنهّم يعودون إلى الأصل.

5) ﴿جَمِيعًا﴾: اسمٌ يُستعملُ في باب التّوكيد المعنويّ، والجذر منه (جَمَعَ)، ومعنى الجمعِ أنّه يأتي ضدَّ المتفرّق[5]، وهو أن تضمَّ شيئًا إلى شيء، لأجل التّقريب، ومعنى جميعًا أنّكم تعودون إليه كلّكم، لا يتخلّف أحدٌ.

6) ﴿فَيُنَبِّئُكُم﴾: فعلٌ مضارعٌ مضعّفٌ، و(ينبئُ) زنةُ (يُفعل) الماضي منه نبَأ، بمعنى أخبر، أصلُه من (نَبَأَ)، ومعناه في الأصل

(1) الخليل، العين: (ضرر).
(2) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (ضرر).
(3) ابن دريد، جمهرة اللّغة: (ضلل).
(4) الرّاغب، المفردات، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (رجع).
(5) الجوهريّ، الصّحاح: (جمع).

المجيء من مكان إلى مكان آخرَ[1]، والعلاقةُ مع "الخبرِ لأنَّهُ يأتي من مكانٍ إلى مكانٍ والمنبئُ المخبرُ"[2]، والمعنى أنّ الحقَّ ﷻ، سيُخبرهم بما كان لهم من عملٍ في الدّنيا.

ينبئُ بمعنى يُخبر، وهو في الأصل المجيءُ من مكانٍ إلى آخرَ

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

الأمرُ بتزكيّةِ الأنفُس، دون التفاتٍ إلى ضلال الآخرين وفسادِهم:

أمر اللّه سبحانه المؤمنين بضرورة محافظتِهم على أنفسِهم منَ الوقوع في المعاصي والذّنوبِ والإصرارِ عليها، ووجوبِ تزكيتِهم لأنفسِهم، وعدمِ الالتفات إلى كُفرِ مَن كفرَ، أو ضلالِ مَن ضلّ، بعد القيامِ بواجب الأمرِ بالمعروف، والنّهي عن المنكرِ.

الانشغالُ بالنّفس وعيوبِها لا يمنعُ منَ الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكرِ

فقد كان المؤمنون تذهبُ أنفسُهم حسرةً على أهل العُتوِّ والعنادِ منَ الكافرين، ويتمنَّون دخولَهم في الإسلام، فقيل لهم ﴿عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ﴾، وما كُلّفتُم من إصلاحها والمشي بها في طُرقِ الهدى، لا يضرّكم الضّلالُ عن دينكم، إذا كنتم مُهتدين، كما قال اللّه ﷻ لنبيّه ﷺ: ﴿فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ عَلَيۡهِمۡ حَسَرَٰتٍۚ﴾ [فاطر: 08]، وكذلك من يتأسّفُ على ما فيه الفسقةُ منَ الفجور والمعاصي، ولا يزال يذكرُ معايبَهم ومناكيرَهم، فهو مخاطَبٌ به، وليس المرادُ تركَ الأمر بالمعروف، والنّهي عنِ المنكر، فإنّ مَن تركَهُما مع القُدرةِ عليهما فليس بمهتدٍ، وإنّما هو بعضُ الضَّلاّل الّذين فصلتِ الآيةُ بينه وبينهم[3].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

خروجُ الجارّ والمجرور عن معناه الحقيقيّ، إلى معنى اسمِ الفعلِ:

المعنى في الآية على حذف مضافٍ (الزموا شأنَ أنفسكم)

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾: يا أيها الّذين صدَقوا اللّه ورسوله، هو

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نبأ).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نبأ).
(3) الزّمخشري، الكشّاف: 2/304.

خطابٌ يُنبئُ عن أمرٍ مُهمٍّ، فهو كما قال الأقدمون: إمّا أن يليَه أمرٌ أو نهيٌ، وقولُه: ﴿عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ﴾ ظاهرُ هذه الجملة أنّها مؤلّفةٌ منَ الجارّ والمجرور والاسمِ المنصوبِ، إلّا أنّ الجانبَ الدّلاليَّ لهذه الجملة هو الزموا أنفسَكم بحفظها وهدايتِها، فقد خرج الجارّ والمجرور عن معناه الحقيقيِّ إلى معنًى آخر وهو "اسمُ فعل... يرفع فاعلًا تقديره عليكم أنتم"[1]، وهو اسمُ فعلٍ منقولٌ من شبهِ الجملة (الجارّ والمجرور)، أمّا ﴿أَنفُسَكُمۡۖ﴾، فهو مفعولٌ به منصوبٌ لاسم الفعل: عليكم، وهذا النّصبُ يُسمّى النّصبَ على الإغراءِ[2]، وهو في المعنى على حذف مضافٍ؛ لأنّ أنفسَكم جمعُ (نَفسٍ)، فليس المقصودُ أن يلزم الإنسانُ نفسَه، أو ذاتَه؛ لأنّ الأنفُسَ والذّواتِ ليست محلًّا للحلِّ والحُرمةِ، فالمعنى هنا (الزمُوا شَأنَ أنفُسِكُم)[3].

قولُه تعالى: ﴿عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ﴾ آيةٌ جرت مَجرَى المثَلِ:

وهو تركيبٌ لُغويٌّ فريدٌ لم يرد مثلُه في القرآن الكريم، وهي آيةٌ ليست لها أختٌ في الكتاب الكريم، وأصبح يَجري مَجرى المثَل، لمن يقفُ عليها؛ لأنّ الوقفَ على (أَنفُسَكُم) وقفٌ صالحٌ[4]، فتقال بيانًا أنّ كلَّ إنسانٍ مسؤولٌ عن نفسِه، مع الالتزامِ بالأمرِ بالمعروف والنّهيِ عن المنكر، ما أمكنه ذلك، وعلى قدرِ الطّاقة البشريّة للمُسلمِ.

كلُّ مسؤولٌ عن نفسه، والمطلوبُ الالتزامُ بالأمر والنّهي في إطار الاستطاعةِ

اختيارُ الأسلوبِ ليناسبَ الوجوبَ في قولِه: ﴿عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ﴾:

واختيارُ حرفِ الاستعلاء (عَلَى) هنا له دلالاتُه؛ لأنّه لما كان الأمرُ متعلِّقًا بالوجوب والإلزام، حسُنَ أن يَختارَ له حَرفًا يناسبُ ذلك، فاختير (عَلَى) الدّالِّ على العُلوِّ والتّمكّنِ والتّلبُّسِ، وليشعرَ المخاطَبُ

دَلالةُ اختيارِ حرفِ الجرّ (على) الدّالِّ على العُلوّ والتّمكّنِ

(1) السّمين، الدّرّ المصون: 4/452.
(2) الخليل، الجمل في النّحو، ص: 82.
(3) الأشمونّي، شرح الاشمونّي لألفيّة ابن مالك: 3/97.
(4) الأشمونّي، منار الهدى، ص: 260.

بهذه المعاني، فثمّةَ علاقةٌ وثيقةٌ بين الاستعلاءِ والإلزامِ، فمن لم يستعلِ لا يُلزمُ بقوّته، كقوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ۝٢٥﴾ [الأحزاب: 25]، فالعلاقةُ وثيقةٌ بين القوّة والعزّة، فلا يكون عزيزًا من لم يكن قويّا.

بَلاغةُ التّفرّدِ والتّقليلِ في الآيةِ، من خلال ثلاثةِ محاورَ:

تشتمل هذه القطعةُ القرآنيّةُ على جانبٍ بلاغيٍّ خفيٍّ وجميلٍ في آنٍ معًا، تُحقّقُ جانبَ التّفرُّدِ في عدم وجودِ ما يماثلُها في القرآن، وفي أنّها تُعطي مسحةً تقليليّةً للآية من خلال تسخيرِ الجوانبِ اللّغويّةِ للمعاني الدّلاليةِ، من خلال ثلاثةِ محاورَ (سماعيّةُ التّركيب - صيغتُه الصّرفيّةُ - دلالةُ الموصول).

المحورُ الأول: استعمالُ اللّفظ السّماعيّ المقيّدِ ﴿عَلَيۡكُمۡ﴾ مناسبٌ للمراد:

اسمُ فعلِ الأمر ﴿عَلَيۡكُمۡ﴾، ليس قياسيًّا بل هو سماعيٌّ، واستعمالُ الصّورةِ السّماعيّةِ هنا، مناسبٌ للغرض الّذي أُتي به في الآية، وهو غرضٌ مقيّدٌ محصورٌ كالسّماعيِّ، في أنّه مقيّدٌ بما سُمع، ولا يمكنُ التّوسّعُ في القياس، وقد فُسّر بما رُوي عن أبي بكر ﵁، في أنّ كثيرًا منَ النّاس لم تفهم هذه الآيةَ الفهمَ الصّحيحَ فبيَّنَ أنّه ليس المقصودُ تركَ الأمر بالمعروف والنّهي عنِ المنكر مطلقًا، «بلِ ائتمرُوا بالمعروفِ، وتناهوا عنِ المنكرِ، حتَّى إذا رأيتَ شُحًّا مُطاعًا، وهوًى متّبعًا، وإعجابَ كلِّ ذي رأيٍ برأيهِ، ورأيتَ أمرًا لا يدانِ لك بهِ، فعليكَ خويصَةَ نفسكَ، ودع أَمرَ العوامِّ»[1]، أي أنّ لزومَ المرء نفسَه مُقيّدٌ بما ورد عنه ﷺ في الحديث، فقد قيّده بدلالة (إذا) في أحوال الشّحِّ المطاع، والهوى المتَّبع... إلى آخر ما جاء في الحديث، فهنا على المرء أن يُلزمَ نفسَه، فهنا تناسبٌ بين السّماع وتقييدِ لزوم المرءِ نفسَه، في مثل هذه الأحوال؛ والسّماع والتّقييد في هذه الأحوال ينصبغ بصبغة التّقليل والتّفرّد، لأنّه أسلوب لم يرد مثلُه تمامًا في غيرِ هذا الموضع من القرآن.

المحورُ الثاني: ﴿أَنفُسَكُمۡ﴾ جمعٌ يدلُّ على القِلّة، إشارةً إلى أنّ التّركيبَ بصبغةِ التّقليلِ:

﴿أَنفُسَكُمۡ﴾، في هذا التّركيب مفعولٌ به لاسمِ الفعل ﴿عَلَيۡكُمۡ﴾، مفردُه نفسٌ وصيغتُه الصّرفيّةُ أَفعُلٌ، وهو جمعُ تكسير، يدلُّ على القِلّة، وفي ذلك إشارةٌ إلى أنّ التَركيب منصبغٌ

(1) الترمذي، السنن، الحديث رقم: (3058)، وابن ماجه، السنن، الحديث رقم: (4014).

مرّةً أخرى بصبغة التّقليلِ والتّنقُّصِ والتّفرّدِ، وأنّ هذا الأمرَ ليس على إطلاقه، بل هو قليلٌ ومقيّدٌ بما مرَّ من حديث الرّسولِ ﷺ، ولأنّه يجوز لغةً أن يقال (نُفُوسَكُم) وزنه (فُعُولٌ)، وهو من صِيغِ التّكسير الدّالّةِ على الكثرةِ، لكنّه سيشيرُ آنئذٍ للكثرةِ والإطلاقِ، والآيةُ في سياقها مبنيّةٌ على القلّة والتّنقُّص والتّفرُّد، كقوله تعالى: ﴿وَلَنَبۡلُوَنَّكُم بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلۡخَوۡفِ وَٱلۡجُوعِ وَنَقۡصٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٥٥﴾ [البقرة: 155]، فسياقُ التّقليل والنّقصِ واضحٌ في الآيةِ، لذلك جاء بصيغةِ جمعِ القِلّة (الأنفُس).

القرآنُ لا يفتأ معالِجًا للأحوال النّفسيّةِ، ولو كانت قليلةً ونادرةً

المحور الثّالث: الإشارةُ إلى قِلّة المهتدين وكثرةِ الضّالّين في الآيةِ:

﴿لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ﴾، المعنى العامُّ لهذه القِطعةِ القرآنيّةِ يُشير إلى قِلّة المُهتدين الّذين لزمُوا أنفسَهم، وكثرةِ الضّالِّين هنا؛ نفى عنهم المضرّةَ إذا اهتدَوا، وضلَّ الأكثرون، والمتأمِّلُ هنا يجدُ أنّه استعملَ ﴿مَّن﴾ للضّالين، وهو اسمٌ موصولٌ، والكثيرُ أن يُستعملَ للعاقل، والقليلُ أن يُستعملَ لغيرِ العاقل[1]، أي أنّ له استعمالًا متعدّدًا، هذا أوّلًا، ثمّ إنّه منَ الألفاظِ المشتركةِ الدّلالةِ، فقد تردُ "للمسألة عنِ الأناسيِّ، ويكون بها الجزاءُ للأناسيِّ، ويكونُ بمنزلة (الّذي) للأناسيِّ"[2]، أي أنّها تأتي موصولةً وغيرَ موصولة، كالاستفهام والشّرطِ، وهذا ثانيًا، وقد تردُ للواحد أو الاثنين، وغيرِ ذلك[3]، هذا ثالثًا، ففي كلِّ هذه الأحوالِ تأتي (من) دالّةً على التّعدُّدِ، والتّعدّدُ نظيرُ الكثرة؛ كثرةِ الضّالين، وقِلّةِ المهتدين، فهذا هو المعنى العامُّ للآيةِ، إنّكم أيّها المهتدون قِلّةٌ، وهم كثرةٌ، وهذا لا يضرُّكم شيئًا، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ ١٠٣﴾ [يوسف: 103].

لا يضرُّ المهتدين على قِلّتهم أن يكثرَ الضّلالُ في النّاس ويستشري

(1) أبو حيّان، ارتشاف الضّرب: 2/1034.
(2) سيبويه، الكتاب: 4/228.
(3) الاستراباديّ، شرح الرّضّي على الكافية: 1/1038.

حسنُ الفصل لتمامِ الاتّصال، في قولِه تعالى: ﴿لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ﴾:

فليتكَ تحلُو والحياةُ مريرةٌ *** وليتك ترضى والأنامُ غِضابُ

﴿لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ﴾، حسُنَ الفصلُ هنا عن ﴿عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ﴾، وعدمُ العطف لتمام الاتّصال من دونِه، ونفيُ الفعلِ المضارعِ هنا يدلُّ على عدم وقوعِه، ففي لسان العربِ أنَّه إذا عبّر بـ(يَفعَلُ)، ولم يكن هذا الفعل واقعًا، فإنّ نفيَه يكونُ بـ(لَا يَفعَلُ)[1]، ومن كمال الاتّصال جوازُ جعلِ جملةِ ﴿لَا يَضُرُّكُم﴾ على الجزم جوابًا للأمر، في ﴿عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ﴾[2]، أي إن لزمتُم شأنَ أنفسِكم وصلاحِها، فإنّه لا ضررَ عليكم، في حال الاهتداء، ولو ضلّ أهلُ الأرض جميعًا، وقد بيّنا كثرتَهم بدلالة (مَن) الدّالّةِ على الكثرةِ من غير وجهٍ.

قوله: ﴿لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ﴾، الآيةُ تصحُّ للمستقبل منَ الزّمان:

وقد "كان المؤمنون تذهبُ أنفسُهم حسرةً، على أهل العُتوّ والعنادِ منَ الكفرة، يتمنَّون دخولَهم في الإسلام"[3]، ولذلك خُوطبوا بهذه الآية، وتصحُّ لما استُقبلَ منَ الزّمان، لما رُوي "عن ابن مسعود أنّه قال: ليس هذا بزمانِ هذه الآية، قولوا الحقَّ ما قُبلَ منكم، فإذا رُدَّ عليكم فعليكم أنفسَكم"[4]، تخصيصًا لهذه الآية، وتعميمًا للقرآن، فإنّه مُصلحٌ لكلّ زمانٍ.

القرآنُ صالحٌ لكلّ زمانٍ ومكانٍ، وليس في التّكاليف ما يَخرجُ عنِ الإمكان

الآيةُ علّةٌ لما قبلَها، والمعاني يرتبطُ بعضُها ببعض:

وتحتمل جملةُ ﴿لَا يَضُرُّكُم﴾ الرّفعَ على الاستئناف، تعليلًا لما قبلَها[5]، أي الزموا إصلاحَ أنفسِكم، لأنّه لا يضرُّكم من ضلّ إذا اهتديتُم، وقد جاء فعلُ الهداية (اهتدى) على وزن (افتَعَلَ) ومن

فعلُ الهدايةِ يتأتّى بالثّبات والطّلبِ، ولا يضرُّ من ضلَّ واضطربَ

(1) سيبويه، الكتاب: 3/117.
(2) السّمين، الدّرّ المصون: 4/452.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/304.
(4) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/249.
(5) الآلوسّي، روح المعاني: 7/45.

معانيه التّصرّفُ، وهو الاجتهادُ والعملُ والجدُّ والاضطرابُ كي يحصلَ الفعلُ[1]، وهو هنا فعلُ الهداية، والمعنى أنّكم ما وصلتُم إلى هذه الحالة منَ الهداية، إلّا بعد ذلك الجدِّ والجُهد والطّلبِ، فلا يضرُّكُم ضلالُ من ضلّ من غيركم، وفي ذلك معنًى آخر مقابلٌ له، يفسّرُه قولُه تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ﴾ [الحجّ: 11]، فضلالُ هذا أسرعُ.

التّعبيرُ بالفعل الماضي ﴿ضَلَّ﴾ يفيدُ الثّبوتَ والاستقرارَ:

والتّعبيرُ بالفعل الماضي ضلّ يفيدُ الثّبوت والاستقرار، بل ويفيدُ قربَه منَ الاسميّة، والفعلُ ضلّ هنا بمعنى الضّلال، أي لا يضرّكم من كان على ضلال؛ لأنّ هؤلاء لم يكونوا مهتدين ثمّ ضلّوا، كما يُفهم منَ الفعل؛ لأنّ معنى ضلّ أنّه كان مهتديًا ثمّ ضلّ، والصّوابُ غيرُ ذلك؛ لأنّ المعنى "أنَّ المؤمنينَ كانَ يشتَدُّ عليهم بقاءُ الكفّارِ في كُفرهم وضلالتِهم"[2]، فهم في ضلالِ الجاهليّة أصلًا، فالفعلُ هنا ليس على بابه، من كونِه يدلُّ على الحدثِ المقترنِ بالزّمن، بل استخدمَه استخدامَ الأسماء، وهذا من خصائصِ الأسلوبِ القرآنيِّ.

الفعلُ هنا لا يدلُّ على الحدثِ المقترنِ بالزّمن، بل استخدَمَه استخدامَ الأسماءِ

التّعبيرُ بالاسمِ الموصولِ على حذف مضافٍ:

ولأنّه أتى به صلةً للاسم الموصول (مَن)، والاسمُ الموصولُ هذا يدلُّ على الذّات، والمقصودُ بهم الّذين كفروا بذواتِهم وشُخوصِهم، ولما كانت الذّاتُ لا تتّصف بحِلٍّ ولا بحُرمةٍ، فإنّ التّعبيرَ هنا على حذف مضاف، أي "لا يضرُّكم ضلالُ الضّالين، وجهلُ الجاهلين، إذا كنتم مُهتدين"[3]، ولأنّ التّحذيرَ واقعٌ في سياق الضّلال، لا سياقِ

التّحذيرُ واقعٌ في سياقِ الضّلال، لا سياقِ الأشخاص

(1) الاستراباذيّ، شرح شافيّة ابن الحاجب: 1/110.
(2) الرّازي، مفاتيح الغيب: 12/118.
(3) القاسميّ، محاسن التّأويل: 6/2189 - 2190.

الأشخاص أنفسِهم، وأنّه وإن كان غيرَ مستحيل، لكنّه يكونُ في باب الأذى، كما صرّح به القرآن الكريم بقوله: ﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى﴾ [آل عمران: 111].

التّعبيرُ بالمصدرِ الميميّ ﴿مَرْجِعُكُمْ﴾ فيه إشارةٌ إلى عودِ الإنسان إلى الأصل:

التَّنصيصُ على العُموم استبعادٌ لاعتبار الكلامِ على التَّغليبِ

﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾: فإنّ (إلى) حرفٌ يفيد انتهاءَ الغاية، ولفظُ (اللّه) لفظُ الجلالة اسمٌ مجرورٌ، فالانتهاءُ يكون إليه تعالى، والجارّ والمجرور متعلّق بمحذوف؛ خبر مقدّم جوازًا، وقولُه: ﴿مَرْجِعُكُمْ﴾ مبتدأ مؤخّر مرفوعٌ، وهو معرّفٌ بإضافته الى ميم الجمع، فإنّكم عائدون إليه، وهو مصدر ميميٌّ، والمصدرُ في اللّغة الأصلُ الّذي تصدرُ منه المياه، وهو المبدأُ، فكان في ذلك إشارةٌ إلى عَودِ الإنسان إلى الأصل، ثمّ زاد عليه (جميعًا)، بما يناسبُ الجماعةَ "للتَّنصيصِ على العُمومِ، وأن ليسَ الكلامُ على التَّغليبِ"[1].

التّعبيرُ بالحاليةِ بلفظ ﴿جَمِيعًا﴾ لفائدة التّغيّر وعدمِ الثّبوت:

﴿جَمِيعًا﴾ وهو حال، ومعنى ذلك أنّه متغيّرٌ، فالحال تدلُّ على الانتقالِ والتّغيّرِ والتّحوّلِ، أي أنّ اجتماعَهم لن يستمرَّ، بل سيتغيّر فكيف يحصلُ ذلك؟ الجواب في أنّ الحقّ ﷻ ذكرَ ﴿جَمِيعًا﴾ هنا، فيما لم يذكره مثلًا، في قوله تعالى: ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ [هود: 08]، من غير ﴿جَمِيعًا﴾، كما في المائدة، هنا لأنّ الخطاب هنا للكافرين والمؤمنين[2]، فمرجعُ هؤلاء وأولئك إلى اللّه، وسيجمعُهم بقوله: ﴿جَمِيعًا﴾، وهو منصوبٌ على الحال، لأنّ هذا الجمعَ سيكون مؤقّتًا بيوم الحساب، ولن يكونَ على جهة الدّوام، فسيكون مصيرُ المؤمنين الجنّةَ، ومصيرُ الكافرين النّارَ، فحَسُنَ التّعبيرُ بالحالية بلفظ ﴿جَمِيعًا﴾.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/79.
(2) الكرمانّي، أسرار التّكرار في القرآن، ص: 139.

تقدّمُ الخبرِ على المبتدأ لإفادة التّخصيصِ والتّوكيدِ في قوله: ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ﴾:

القصرُ الحقيقيُّ في مرجعِ العبادِ إليه تعالى وليس إلى غيرِه

وهنا تقدّمَ الخبرُ على المبتدأ لغرَضِ التّخصيصِ والتّوكيدِ، وكذلك "للاهتمامِ بمتعلّقِ هذا الرُّجوعِ، وإلقاءِ المهابةِ في نفوسِ السَّامعينَ"[1]، فإنّ مرجعَ العبادِ إليه تعالى، وليس إلى غيره، ففيه قصرٌ، وهو قصرٌ حقيقيٌّ، فلو قال: (مَرجِعُكُم إِلَى اللّهِ)، لاحتمل وإلى غيره، وهو محالٌ، وقد ورد مثلُ هذا التّركيبِ في أكثر من عشرِ آيات، جميعُها تقدّمَ الجارُّ والمجرور على المبتدأ، على اختلاف المجرورِ، فقد يُعبّر بقوله (إِلَيّ)، والضّميرُ يعود عليه سبحانه، وقد يعبّرُ بقوله (رَبِّكُم)، أو غيره، بحسبِ السّياق الّذي يقتضِيه، إلّا أنّ العاملَ المشتركَ هو تقدّمُ الخبر على المبتدأ جوازًا، لتحقيق غرضِ القصرِ.

أثرُ السّياقِ القرآنيِّ في خواتيمِ الآياتِ:

تناسبُ خواتيمِ الآيات مع المعاني والدّلالاتِ من بلاغةِ القرآن الكريمِ

هذه القطعةُ منَ الآية إلى تمامها مذكورةٌ في الآية الثّامنة والأربعين منَ المائدة، إلّا أنّه ختمَ كلّا منَ الآيتين بشيءٍ مختلفٍ، فقال في الأولى: ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ ۝٤٨﴾ [المائدة: 48] وقال في الثّانية: ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ۝١٠٥﴾ [المائدة: 105]، فقد ذيّلَ الآيةَ الأولى [المائدة: 48]، ﴿بِمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ ۝٤٨﴾، فيما ذيّلَ الآيةَ الثّانيةَ [المائدة: 105]، بقوله ﴿بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾، وسرُّ ذلك هو السّياقُ القرآنيُّ القريبُ الّذي يتحكّمُ في تذييل كلِّ آية بما يناسبُها، ويُقصدُ بالسّياق القرآنيّ المجرى الّذي تسير فيه الآيةُ بصورةٍ عامّةٍ، فإذا رأينا سياقَ الآية الأولى، فهو قولُه تعالى: ﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَمُهَيۡمِنًا عَلَيۡهِۖ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُۖ وَلَا تَتَّبِعۡ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/79.

أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾ [المائدة: 48]، نجدُ أنّ سياقَ الآيات يتحدّثُ عنِ الاختلاف، وما يَجري مَجراه، ثمّ قال، ﴿فَٱحْكُم بَيْنَهُمْ﴾، والحكمُ يكونُ بين المُختلفِين، ثمّ نهاه عن أن يتّبع أهواءَهم؛ فمعهُ الحقُّ، ومعهم الأهواءُ، وهذا اختلافٌ بين الطّرفين، ثمّ جعلَ لكلٍّ منهم شِرعةً ومنهاجًا، ولم يجعلهم على سَننٍ واحدةٍ، ثمّ أخبر أنَّ جعلَهم أممًا مختلفِين، وليس أمةً واحدةً أمرٌ مقصودٌ، وله علّةٌ وسببٌ، فترى السّياقَ كلَّه يَجري في الاختلاف، فكان منَ اللّائق والمناسِب أن يذيّلَ الآيةَ بما يناسبُ السّياقَ فقال: ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [المائدة: 48]، أمّا الآيةُ الثّانيةُ فسياقُها في العملِ والاهتداءِ، وما يكونُ من أسبابه، في الأمر بالمعروف، والنّهي عن المنكر، يقول تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، فختمَها بما يناسبُ ذلك السّياقَ.

دَلالةُ الفعل المضعَّفِ في قولِه: ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾:

فـــي مـوقـف الـقـيـامـةِ الأكـبرِ يُنبّأُ الإنسانُ بما قدّم وما أخّرَ

﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾: نجدُ أنّ (الفاء) عاطفةٌ، ﴿فَيُنَبِّئُكُم﴾ جملةٌ فعليّةٌ من فعلٍ وفاعلٍ ومفعولٍ أوّل وهو الكاف، والميم للجمع، والفعلُ (يُنبِّئ) وزنُه (يفعّل)، وهو مضعّفٌ ماضيه (فعّل)، وما كان على هذه الصّيغة فإنّه يفيدُ المبالغةَ والتّكثيرَ، وأنّ الحقَّ ﷻ سينبّئكم بجميع أعمالِكم صغيرِها وكبيرِها دقِّها وجلِّها، ظاهرِها ومخفيِّها، بما يُعطيه هذا الفعلُ من دلالةِ المبالغة والتّكثير، يُؤيّده أنّ مدخولَ حرف الجرّ الباء على (ما) وهو اسمٌ موصولٌ دالٌّ على العموم والاشتراكِ والتّعدّد، بما يُومئ إلى الكثرة، خلافَ

(الّذي) الدّالّ على الموصوليّة فقط، و(بما) متعلّقٌ بمحذوفِ المفعول الثّاني للفعل (ينبّئُ).

إيثارُ التّعبير بالفعل: ﴿فَيُنَبِّئُكُم﴾ على الفِعل يُخبِرُ:

النّبأُ منَ الله إخبارٌ بما لا علمَ للمُخبَر منَ البشر به

والتّعبيرُ بهذا الفعل، مع أنّ مرادفَه المعجميَّ هو أخبرَ إلّا أنّه جاء هنا بالفعل يُنبِّئ، فيه زيادةٌ على تنبيههم وتذكيرِهم ذلك، "أَنّ النّبأ لَا يكون إلَّا للإخبار بما لا يعلمهُ المخبَرُ، ويجوز أن يكونَ الخبرُ بما يعلمهُ وبما لا يعلمهُ"[1]، أي أنّه عالمٌ بأمورٍ لا تعلمونَها، هو يُسيّرها بما فيه مصلحةُ العباد، وقد تظنّون أنّكم على درايةٍ بها، إلّا أنّ علمَه تعالى يحيطُ بما تعلمون، وما لا تعلمون، فلم يَحسُن هنا التّعبيرُ بالإخبار، وإن كان معناه قريبًا.

الجملةُ مبنيّةٌ على الإيجاز بإضمار الفاعلِ وحذفِ العائدِ:

حذفُ ما يُعلمُ جائزٌ في لسان العربِ

﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾: جملةٌ مكوّنةٌ من (كان واسمها وخبرها)، وهي صلةُ الموصول (ما)، وتحتمل (ما) أن تكون مصدريّةً، فتكونَ على تأويل مصدرٍ، تقديره (فَيُنَبِّئُكُم بِعَمَلِكُم)، وهذه الجملةُ الأخيرةُ منَ الآية مبنيّةٌ على الإيجاز غيرَ مرّة، ففي (يُنبِّئكم) إيجازٌ بالإضمار، فالفاعلُ مضمرٌ يعود عليه سبحانه، لأنّه مذكورٌ بقوله: ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ﴾، فحسُنَ الإضمارُ لغرض الإيجاز، وإذا كانت (ما) موصولةً، فإنّها تقتضي عائدًا، وهو هنا محذوفٌ، تقديرُه (بِمَا كُنتُم تَعمَلُونَهُ) وقد حذفه للإيجاز، ولأنّه مفهومٌ منَ السّياق، فحذفُ ما يعلم جائزٌ في لسان العرب، والفعلُ يُنبئ بمعنى يُخبر، أو يُعلمُ يقتضي وجودَ ثلاثةِ مفعولات؛ ، لأنّها من باب أعلمُ وأرَى كقول الشّاعر[2]:

نُبِّئْتُ زُرعَةَ والسَّفَاهَةُ كَاسمِهَا *** يُهدِي إليّ غَرائبَ الأَشعَارِ

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 41.
(2) ابن مالك، شرح الكافيّة الشّافية: 2/570.

فالفعل نبّأ متعدٍّ إلى ثلاثة، الأوّل النّائب عن الفاعل، وهو التّاء، والثّاني زرعةَ، والثّالث جملة (يُهدِي).

دلالةُ حذفِ المفعولِ الثّالثِ للفعل ﴿فَيُنَبِّئُكُم﴾:

الفعلُ (يُنَبِّئُكُم) خارجٌ عن معناه منَ الحقيقة إلى المجاز

ثبت الحذفُ في مفعولِ يُنبِّئ الثّالثِ، على تقدير (بِمَا كُنتُم تَعمَلُونَ حقًّا أو باطلًا)، وسرُّ حذفِه أنّه ذكرَ جميعًا، وهو ما يدخلُ تحته المؤمنون والكافرون، فحذفَ المفعولَ الثّالث ليكونَ عامًّا متخيَّلًا، يمكنُ أن ينصرف إلى هؤلاء وإلى أولئك؛ لأنّه جمعَهم تحت حالٍ واحدةٍ، والمعنى: فينبِّئكم بما كنتم تعملون "من أعمال الهدايةِ والضّلالِ، فهو وعدٌ ووعيدٌ للفريقين، وتنبيهٌ على أنّ أحدًا لا يؤاخَذُ بعمل غيرِه"[1]، فهذا هو المفعولُ الثّالثُ.

فهذه ثلاثةُ أنواع منَ الإيجاز، في جُزءٍ منَ الآية، والفعلُ ﴿فَيُنَبِّئُكُم﴾ خارجٌ عن معناه منَ الحقيقة إلى المجاز، فليس المقصدُ هو الإخبارُ، بل "يجازيكم حسبَ ذلك، إن خيرًا فخيرٌ، وإن شرًّا فشرٌّ، ففي الآية وعدٌ ووعيدٌ"[2]، فإنّ يومَ القيامة ليست ظرفًا للإخبار، بل للجزاء ثوابًا وعقابًا.

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/136.
(2) صافي، الجدول: 11/29.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ شَهَـٰدَةُ بَيۡنِكُمۡ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ حِينَ ٱلۡوَصِيَّةِ ٱثۡنَانِ ذَوَا عَدۡلٖ مِّنكُمۡ أَوۡ ءَاخَرَانِ مِنۡ غَيۡرِكُمۡ إِنۡ أَنتُمۡ ضَرَبۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَأَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةُ ٱلۡمَوۡتِۚ تَحۡبِسُونَهُمَا مِنۢ بَعۡدِ ٱلصَّلَوٰةِ فَيُقۡسِمَانِ بِٱللَّهِ إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ لَا نَشۡتَرِي بِهِۦ ثَمَنٗا وَلَوۡ كَانَ ذَا قُرۡبَىٰ وَلَا نَكۡتُمُ شَهَـٰدَةَ ٱللَّهِ إِنَّآ إِذٗا لَّمِنَ ٱلۡأٓثِمِينَ ١٠٦﴾ [المائدة: 106]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

كتابةُ الوصيّة قبلَ الموت حفظٌ للأموال الأُسريّة والرّوابطِ

لمّا أمر الحقُّ ﷻ في الآية السّابقة بحفظ النّفس بقولِه تعالى: ﴿عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ﴾، ناسبَ ذلك أن تكونَ هذه الآيةُ معنيّةً بحفظ المال، في قولِه تعالى: ﴿شَهَـٰدَةُ بَيۡنِكُمۡ﴾[1]، فإنّ حفظَ النّفس وحفظَ المال منَ الضّروريات المتلازماتِ في الدّين الإسلاميّ، يُؤيّده سببُ النّزول في قصّة المسلمِ الّذي سافر مع ذِمّيين، ثمّ أدركه الموت، فكتبَ وصيّتَه.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿شَهَـٰدَةُ﴾: مصدرُ شهِدَ يشهدُ شهادةً، وجذرُه مِن (شَهِدَ)، وأصلُ معناه أن يدلَّ على الحضورِ والعلمِ والإعلام[2]، فشهِدَ بمعنى حضر لغةً، أمّا الشّهادةُ فهي "خبرٌ قاطعٌ تقولُ منهُ شهدَ الرّجلُ على كذا، وربَّما قالوا: شهدَ الرّجلُ، بسكونِ الهاءِ للتَّخفيف؛ عنِ الأخفش وقولُهمُ: اشهَد بكذَا أي: احلِفْ"[3]، وهو المعنى المرادُ في هذه الآيةِ، فالشّهادةُ هنا بمعنى الحلفِ والقَسَم.

2) ﴿حَضَرَ﴾: فعلٌ ماضٍ، أصلُه اللّغويُّ من (حَضَرَ)، والحضَرُ

(1) الرّازي، مفاتيح الغيب: 12/120.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (شهد).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (شهد).

"خلافُ البَدو، والحاضِرة خلافُ البادية؛ لأنّ أهلَ الحاضرة حَضَروا الأمصارَ والدّيار"[1]، فالحضورُ هنا بمعنى الوجودِ والشّهودِ، أي كان غائبًا، فقدِمَ من غيبتِه؛ لأنّ الحضورَ ضدّ الغَيبةِ، وأكثرُ ما يُستخدمُ (حضَرَ) في الأمور المتعلّقةِ بالأحكامِ الشّرعيّةِ.

3) ﴿ٱلْمَوْتُ﴾: اسمٌ ثلاثيٌّ مجرّدٌ، الفعلُ منه مَاتَ يمُوتُ، فيكون جذرُه من (مَوَتَ)، وهو "أَصلٌ صحيحٌ، يدلُّ على ذهابِ القوَّةِ منَ الشَّيءِ، منهُ الموتُ خلافُ الحياةِ"[2]، والمعنى المعروف أنّه ضدُّ الحياة، وأنّه مفارقةُ الرّوح للجسد، وهو المعنى هنا في هذه الآية، ويترتّبُ عليه أحكامٌ شرعيّةٌ، ومنه الوصيّةُ المذكورةُ هنا.

4) ﴿ٱلْوَصِيَّةِ﴾: اسمٌ على وزن فعيلة، أصلُه اللّغويّ مِن (وَصَيَ)، "والفعل أَوصيتُ ووصَّيتُ إيصاءً وتوصيةً؛ والوصيّةُ ما أَوصيتَ به، وسُمّيت وصيّةً، لاتّصالها بأَمر الميّت"[3]، وهذا الأمر هو تقديمُ شيءٍ إلى غيرك، بما يكونُ من عملٍ، مع وجود الوعظِ والوصيّة، إذا كانت منَ اللّه فهي فرضٌ[4]، والمعنى هنا أمرٌ مكتوبٌ، يُحدثُه الشّخصُ المقاربُ للموت، يَحفظ به الحقوقَ.

5) ﴿ضَرَبْتُمْ﴾: فعلٌ ماضٍ الأصلُ فيه (ضَرَبَ)، وله عدّة معانٍ "من ذلكَ ضرَبتُ ضربًا، إذَا أَوقعتَ بغيركَ ضربًا، ويُستعارُ منهُ، ويشبَّهُ بهِ الضَّربُ في الأرضِ تجارةً وغيرهَا منَ السَّفرِ"[5]، ومعنى (ضربتُم) في الآية السّفرُ للتّجارة أو نحوِها، والعلاقةُ أنّ الإنسان عند سفره يضربُ الأرضَ برجلَيه.

6) ﴿فَأَصَٰبَتْكُم﴾: فعلٌ ماضٍ من أصاب يُصيبُ، والجذرُ منه (صَوَبَ)، وله معنيان، الثّاني هو المقصودُ في الآية، وهو "يقال باعتبار القاصدِ، إذا أدرك المقصودَ، بحسب ما يقصدُه، فيقال: أَصَابَ كذا، أي: وجدَ ما طلبَ، كقولك: أَصَابَهُ السّهمُ"[6]، وأصاب يُستعمل خيرًا وشرًّا.

(1) الخليل، العين: (حضر).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (موت).
(3) الأزهري، تهذيب اللّغة: (وصي).
(4) السّمين، عمدة الحفّاظ: (وصي).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ضرب).
(6) الرّاغب، المفردات: (صوب).

الحبسُ معناه التّوقيفُ لأجل أداء الشّهادةِ

7) ﴿تَحۡبِسُونَهُمَا﴾: فعلٌ مضارعٌ مسندٌ لواو الجماعة، الماضي منه حبس، وأصلُ الحبس (حَبَسَ)، وهو "المنعُ منَ الانبعاث"[1]، وكلُّ منعٍ وإيقافٍ هو حبسٌ، وقد يردُ مرادفًا للسّجن، إلّا أنّ المرادَ في الآية الحبسُ بمعنى التّوقيف لأجل الشّهادةِ، والشّاهدُ لا يُسجنُ، فانتفى هذا المعنى.

القَسَمُ مُرادفٌ للحلِف واليمين، وأداؤُه أمانةٌ كُبرى

8) ﴿فَيُقۡسِمَانِ بِٱللَّهِ﴾: فعلٌ مضارعٌ مسنَدٌ لألف الاثنين، الماضي منه أقسَمَ، وجذرُه (قَسَمَ)، والقسمُ في الأصل "إفرازُ النّصيب، يقال: قَسمتُ كذا قسمًا وقسمةً، وقِسمةُ الميراث، وقسمةُ الغنيمة تفريقُهما على أربابهما، قال تعالى: ﴿لِّكُلِّ بَابٍ مِّنۡهُمۡ جُزۡءٞ مَّقۡسُومٌ ٤٤﴾ [الحجر: 44]"[2]، ثمّ إنّه قد يُستعمل في معنى القسَم المرادِفِ للحلف[3] واليمين كقوله تعالى: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ ١﴾ [القيامة: 1]، وهو المعنى المرادُ في الآية.

ارتاب منَ الأمرُ إذا أَدخلَ عليه شكًّا وخوفًا

9) ﴿ٱرۡتَبۡتُمۡ﴾: فعلٌ مشتقٌّ من (رَيَبَ)، ومنه الرّيبُ وهو الشّكُّ والخوفُ، وهو فعلٌ مزيدٌ وزنُه افتعل، "تقولُ رابني هذَا الأمرُ، إذا أَدخلَ عليكَ شكًّا وخوفًا"[4]، وهو المعنى المرادُ هنا، أي إن شككتُم وخِفتُم عدمَ قولِ الصّدقِ منهما.

ذُو القربى مَن يَقربُ منكَ رحِمًا، بسببٍ أو نسبٍ

10) ﴿ذَا قُرۡبَىٰ﴾: اسمُ تفضيلٍ زنةُ فُعلَى، مذكّرُه أقربُ، وأصلُه من (قَرَبَ)، والقُربُ في الأصل الدُّنوُّ[5]، "وفلانٌ ذُو قرابتي، وهُوَ من يَقربُ منكَ رحِمًا"[6]، وهو المرادُ في هذه الآية، بقولِه: ﴿ذَا قُرۡبَىٰ﴾، أي ولو كان ممّن يتّصلُ به قرابةَ رحمٍ ونسبٍ.

(1) الرّاغب، المفردات: (صوب).
(2) الرّاغب، المفردات: (قسم).
(3) الرّاغب، المفردات: (قسم).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ريب).
(5) الزّبيدي، تاج العروس: (قرب).
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (قرب).

11) ﴿ٱلۡأٓثِمِينَ﴾: جمعُ سلامةٍ، مفردُه آثمٌ وزنُه فاعل، وهو اسمُ فاعلٍ منَ الثّلاثيّ، أصلُه اللّغويّ (أَثِمَ)، ومنه الإثم، وأصل معناه "البطءُ والتَّأَخّرُ، يقالُ ناقةٌ آثمةٌ، أَي متأَخّرَة... والإثمُ مشتقٌّ من ذلكَ؛ لأَنَّ ذَا الإثم بطيءٌ عنِ الخيرِ، متَأَخّرٌ عنهُ"[1]، أمّا معناه المعروف، فهو "الذنبُ، وقد أَثِمَ الرّجل بالكسر إثمًا ومَأَثَمًا، إذا وقع في الإثم، فهو آثِمٌ وأَثيمٌ"[2]، وهو المعنى المرادُ في الآية، فإنّهم إن كتمُوا الشّهادة، فهم منَ المُذنبين.

الآثـــمُ المـذنـبُ هو البطيءُ عنِ الـخيرِ، المتَأَخّرُ عنهُ

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

الآيةُ نازلةٌ في ثلاثةِ نفرٍ في زمنِه ﷺ؛ أحدُهم مسلمٌ اسمُه بُديلٌ، والآخران ذمّيان وقد صحب المسلمُ الذّمّيَّين في سفر، فأصابته مصيبةُ الموت، وكان معه مالٌ، ومنه إناءٌ أو إبريقٌ من فضّةٍ منقوشٌ بالذّهب، فقام بكتابة وصيّتِه، وذكر هذا الإناء، فلمّا دنا أجلُه عاد الذّميّان وأرجعُوا متاعه وماله إلى أهل المسلم، ثمّ إنّهم فتّشوا المتاعَ وأصابوا الصّحيفةَ فيها تسميةُ ما كان معه من متاعه، وفقدوا الإناءَ"[3]، فسألوا الذّميَّين فأنكرا ذلك، فترافعوا إلى الرّسول ﷺ، فنزلت الآيةُ، وهي وإن كانت نازلةً في هؤلاء النّفر، إلّا أنّ فيها حُكمًا وإرشادًا ونصحًا، أن يكتبَ الإنسانُ وصيَّتَه، إذا شعر بقُرب أجلِه، وأن يُشهِدَ من كانت حالتُه كحالة الذّميين، وإن حصلَ ريبٌ في شهادتِهما، أنيب عنهم مسلمان عدلان، وتكونُ الشّهادة عُقيبَ الصّلاة، لما في الصّلاة من استحضار الأعمالِ الصّالحةِ، ولما تفعلُه من تنقيّةِ المؤمن من أدران الحياة وشوائبِها، فيُقبلُ على الشّهادة بقلبٍ سليم، ولا يشتري بعهد اللّه، ولا يَكتمُ الشّهادةَ الحقّةَ؛ لأنّه إن فعل ذلك فسيكونُ في زُمرةِ المُذنبين العاصين.

الأمـــرُ بكتابة الـوصـيّـةِ قبل المـــوتِ، وحـثٌّ مـن يُستدعَى للشّهادة على أدائِها

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (أثم).
(2) الجوهريّ، الصّحاح: (أثم).
(3) الكرمانّي، غرائب التّفسير: 1/340.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

استعمالُ الفعلِ الماضي ﴿ءَامَنُواْ﴾ للدّلالةِ على استقرارِ الإيمان وتمكّنِه:

الأمـرُ بشهادةِ عَدلين عند وصيّة الموت؛ لتُضمنَ الحقوقُ، ويستريحَ الضّميرُ

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، نداءٌ لمن آمن باللّه وصدّقه، واتّبعَ رسولَه، واهتدى بسنّتِه، وفيه تنصيصٌ باستعمال الاسمِ الموصولِ الدّالِّ على الذّوات، واستعمالُ الفعل الماضي للدّلالةِ على استقرار الإيمان وتمكُّنِه؛ لأنّ الفعلَ الماضي قد حدثَ وانتهى، فضلًا عن أنّ هذه الصّيغةَ الشّائعةَ في الأسلوبِ القرآنيِّ، تستتبعُ أن يكون بعدها شيءٌ مهمٌّ، من أمرٍ أو نهيٍ أو خبرٍ، فلذلك قال بعدها مباشرة: ﴿شَهَٰدَةُ بَيۡنِكُمۡ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ حِينَ ٱلۡوَصِيَّةِ ٱثۡنَانِ ذَوَا عَدۡلٖ مِّنكُمۡ﴾، وهو تركيبٌ لغويٌّ فريدٌ، لم يرِد غيرُه مثلَه في جميع القرآنِ الكريم، والمعنى "ليشهدَ بينكم إذا حضر أحدَكم الموتُ... وقتَ الوصية اثنان... ذوا رُشد وعقل وحِجًى منَ المسلمين"[1].

البدءُ بكلمة ﴿شَهَٰدَةُ﴾ لأنّها بؤرةُ الموضوع وسببُ النّزول:

لفظُ (شَهَادَةُ) جاء على صيغة المصدرِ الّذي يمثّلُ غايةَ الحدثِ

إنّ البدءَ بهذا اللّفظ شهادةٌ فيه بيّنةٌ إلى أنّ بؤرةَ الموضوع وهو سببُ النّزول، هي الشّهادةُ، فقدّمَ كلمةَ الشّهادة، مع وجود حيثيّات أخرى، في قصّةِ تميم الدّاريّ، وعديّ بن بداء، وبُديل مولى بني سهم، الواردةِ في سبب النّزول، وكان مدارُ الأمرِ في هذه الآيات، على قول الصّدق في الشّهادة، وعدمِ الخيانة؛ والتّقديمُ في غالبِه يكون للاهتمام والتّخصيص، وقد قيل في هذه الآية وما بعدها أقوالٌ كثيرةٌ، بين المُشكل والمعقَّدِ والعميقِ، وما جرى مجرَى ذلك.

قولُه: ﴿شَهَٰدَةُ بَيۡنِكُمۡ﴾ فيه حذفٌ، على تقدير (شهادة ما بينكم):

وقد أضيف لفظُ ﴿شَهَٰدَةُ﴾ إلى قولِه: ﴿بَيۡنِكُمۡ﴾، على جعلها اسمًا لا ظرفًا، وهو "اسمُ مكانٍ مُبهمٍ مُتوسِّطٍ بينَ شيئينِ يبيّنهُ ما

(1) ابن جرير، جامع البيان: 11/154.

يضافُ هُوَ إليهِ"[1]، وهو يجوز؛ لأنّ ﴿شَهَٰدَةُ﴾ نكرةٌ محضةٌ، لا يجوزُ أن يُبتدأ بها، لكن لَمَّا أضافها إلى﴿بَيۡنِكُمۡ﴾ جاز الابتداءُ بها، أو على حذف (مَا)، أي شهادةُ ما بينكم، و"﴿بَيۡنِكُمۡ﴾ كنايةٌ عنِ التَّنازعِ والتَّشاجرِ، وإنَّمَا أضافَ الشَّهادةَ إلى التَّنازُعِ؛ لأنَّ الشُّهودَ إنَّما يُحتاجُ إليهم عندَ وقوعِ التَّنازعِ"[2].

خبرُ المبتدأ مضافٌ محذوفٌ تقديرُه (ذوا شهادة بينكم اثنان):

خبرُ المبتدأ هو ﴿ٱثۡنَانِ﴾، على تقدير مضافٍ محذوفٍ، تقديرُه (ذوا شهادة بينكم اثنان)، أو (شهادة بينكم شهادة اثنين)، "ليتصادقَ المبتدأ والخبر على شيء واحد؛ لأنَّ الشّهادةَ معنًى، والاثنان جثتان"[3]، ولأنّه لا يجوزُ الإخبارُ بالجثّة عنِ المعنى، والحذفُ منَ الخبر أقوَى، فإنّ قوَله (شهادة بينكم شهادة اثنين)، فيه تبيينٌ للشّهادة أكثرَ من قولِه (ذوا شهادة بينكم اثنان)، ففيه بيانٌ لصاحب الشّهادة، ولا شك أنّ المرادَ في هذه الآية أن يكون هناك شاهدان مسلمان، يَشهدان مكان الذِّمّيين، وليس القصدُ تعيينَهما، مثلما يُوحي تعبيرُ ﴿ذَوَا﴾.

وجوبُ الوصيّة فيه حفظٌ للحقوق، وبيانٌ للأماناتِ

وهناك أوجُهٌ أخرى، جميعُها تكونُ لفظةُ شهادة مبتدأً على أن يكون الخبرُ محذوفًا، مرّةً اعتمادًا على انفهام المعنى منَ السّياق، وقولِه: ﴿إِذَا حَضَرَ﴾مرّةً ثانيةً، و﴿حِينَ ٱلۡوَصِيَّةِ﴾ ثالثةً، أو يُجعل ﴿ٱثۡنَانِ﴾ فاعلًا يسُدُّ مسدَّ الخبر[4]، فإذا لم يجعل اثنان خبرًا، جُعل فاعلًا للمصدر شهادة، على تقدير أن يشهد اثنان، فيكون ﴿إِذَا﴾ ظرفًا يدلُّ على وقت الشّهادة "وحِينَ الوَصِيَّةِ بدلٌ منه، إبدالُه منه

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/82.
(2) الرّازي، مفاتيح الغيب: 12/121.
(3) السّمين، الدّرّ المصون: 4/454.
(4) السّمين، عمدة الحفّاظ: 4/455 فما بعدها.

دليلٌ على وجوب الوصيّة"[1]، ووجوبُ الوصيّة فيه حفظٌ للحقوق، وبيانٌ للأمانات، كما بانَ من قصّة الثّلاثةِ في سبب النّزول، فلولا الوصيّةُ لما وقعتِ الشّهادةُ، فلا يجبُ أن يتهاون المسلمُ فيها.

إشارةٌ إلى علاماتِ نهايةِ أجلِ الإنسان، في قولِه: ﴿إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ﴾:

جاء بالفعل الماضي (حَضَرَ)؛ ليدلَّ على حَتميّةِ الموتِ والفناءِ

﴿إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ﴾، يشيرُ إلى أنّه قد تكونُ هناك علاماتٌ وإماراتٌ، على نهاية أجلِ الإنسانِ، والتّعبيرُ بقوله (إذَا) أكثرُ وقوعًا منَ التّعبير بلفظ (إن) الدّالّةِ على الشّكّ؛ لأنّ الموتَ واقعٌ لا محالةَ، على كلِّ أحدٍ، ولوقوعه فعلًا على ما وردَ في سبب النّزول، وعلى الرُّغم من أنّ ﴿إِذَا﴾ ظرفٌ لما يُستقبلُ منَ الزّمان، لكنّه جاء بالفعل الماضي، ليدلَّ على حتمِه وحصولِه.

التّعبيرُ بلفظة ﴿أَحَدَكُمُ﴾ باعتباره لفظًا ذا مزيّةٍ خاصّةٍ:

(الوَاحِدُ) يُطلقُ على العاقل وغيرِه، و(الأَحَدُ) على العاقل فحسب

لقد عبَّر عنِ المفعول بلفظةِ (أحد)، وهو لفظٌ ذو مزيّةٍ خاصّةٍ، "ولا يجوز لأحدٍ أن تَضعَه في موضعِ واجبٍ، لو قلت كان أحدٌ من آل فلان، لم يَجز، لأنّه إنّما وقع في كلامهم نفيًا عامًّا"[2]، ولأنّه اسمٌ من أسماء اللّه تعالى جاز في قولِه تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ [الإخلاص: 01]، ولكنّه ورد هنا بهذه الصِّيغة، والجوابُ عن ذلك أنّ قولَه: (أَحَدٌ) محوّلٌ عن أصلٍ هو (وَحد) لفظًا، ودلالتُه (وَاحِدٌ) معنًى، فأمّا اللّفظ فبقلب الهمزة واوًا، "قالوا أحدٌ وأصلُه وحدٌ، لأنّه واحد، فأبدلوا الهمزة لضعف الواو"[3]، ومعنى ذلك أنّه إذا ورد في الكلام المثبَتِ فهو على معنى (وَاحِد)[4]، لكنّه جاء بلفظة (أَحَد) لأسباب منها أنّ (الوَاحِد) يقع على العاقل وغيرِه، أمّا (أَحَدٌ) فللعاقل

(1) الزّمخشري، الكشّاف: 2/307.
(2) سيبويه، الكتاب: 1/54 - 55.
(3) سيبويه، الكتاب: 4/331.
(4) ابن الزّبير، ملاك التّأويل: 2/1156.

فحسب، والثّاني أنّ (الوَاحِدَ) قد يعني العددَ، وربّما أكثرَ منه، وقد يعني القوّةَ والضّعفَ[1].

دَلالةُ تقديمِ ﴿أَحَدَكُمُ﴾على لفظِ ﴿ٱلْمَوْتُ﴾ تقديمًا للمفعول على الفاعل:

ثمّ قدّمَ هذا اللّفظ ﴿أَحَدَكُمُ﴾، وهو مفعول على الموت، وهو الفاعل، لأسباب منها حتميّةُ الموت على كلّ بني البشر، وآية ذلك أنّه أضاف (أَحَدَ) إلى ما يدلُّ على الجمع المخاطَب (كُم)، والثّاني أنّه أراد تخصيصَ هذه الحالة بالموت وهي وجوبُ الوصيّة في حالة الموت فقط، أمّا في غيرها فقد تكونُ جائزةً لا واجبةً.

من تركَ وصيّتَه بعده فقد احتاط لورثته، وأرضى ربَّه وضميرَه

الفرقُ المُعجميُّ بين (حَضَرَ) و(جَاءَ):

والفرقُ بين (حَضَرَ) و(جَاءَ) معجميًّا، "أَنّ قَولك: (جَاءَ) كَلَامٌ تَامٌّ لَا يحتَاج إِلَى صِلَةٍ"[2]، أمّا (حضر) فبه حاجةٌ إلى الصّلةِ، وهي هنا المفعول (أَحَدَكُم)، فلم يحسُن وقوعُ (جَاءَ) موقعَ (حَضَرَ) لاختلاف التّعبيرَين، وانفرادِ التّعبير القرآنيّ عن غيره بالبلاغةِ وحُسنِ البيان.

يضعُ السّياقُ القرآنيُّ المفردةَ في موقعٍ دلاليٍّ لا تُغني عنه مفردةٌ أخرى

قولُه: ﴿حِينَ ٱلْوَصِيَّةِ﴾ يدلُّ على أهميّةِ وقتِ الوصيّةِ في لحظاتِ الموتِ الفارقةِ:

﴿حِينَ ٱلْوَصِيَّةِ﴾ لفظ الحين يدلُّ على الوقت، وقد أضافه إلى الوصيّة وهو زمنُ حضورِ الموت، "كمَا يقالُ: ائتني إذا زالتِ الشَّمسُ حِينَ صلاةِ الظُّهرِ"،[3] فوقتُ زوال الشّمس هو وقتُ صلاةِ الظّهر، وكأنّه أراد به التّأكيدَ، والإنسانُ يُوصِي في غالب أمرِه عند حضور أجلِه، وقولُه ﴿ٱثْنَانِ﴾، لا يُرادُ منهُ هذان الشّخصان على وجه التّعيين، بل المطلوبُ شهادتُهُما، فثمّةَ حذفٌ واقعٌ هنا، وحَسُنَ الحذفُ لانفهامِه منَ السّياق والقصّةِ، ولأن الأمرَ متعلِّقٌ

(1) ابن الزّبير، ملاك التّأويل: 2/1156 - 1158.
(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 309.
(3) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 12/121.

بالشّهادة، وهو أمرٌ خطيرٌ بيّنت أهميّتَه آياتٌ أخرى، كقولِه تعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلۡعِلۡمِ قَآئِمَۢا بِٱلۡقِسۡطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ١٨﴾ [آل عمران: 18]، والشّهادةُ أعظمُ كلمةٍ قيلت منذ بدءِ الخليقةِ، لذلك وُصف الشّاهدان بأنّهما ﴿ذَوَا عَدۡلٖ مِّنكُمۡ﴾، ولفظ﴿ذَوَا﴾ تدلُّ على الاثنين، والمعنى صاحبا عَدل، أو اثنان متّصفان بالعدل والإنصافِ، "والعدالةُ هي الصّدقُ في القول، والأمانةُ على المال، والقيامُ بأوامر الدّين، والانتهاءُ عن منهياتِه، بحيث لا يجاهرُ بمعصيةٍ، ولا يرتكبُ منكرًا إلّا اللّممَ"[1].

دَلالةُ التّعبير بقولِه: ﴿مِّنكُمۡ﴾ تفيدُ التّبعيضَ:

شرطُ الشّاهدَين المعرفةُ القريبةُ بالميّت المُوصِي وأحوالِه

لقد زاد وصفًا آخر بقولِه: ﴿مِّنكُمۡ﴾، و(من) تفيدُ التّبعيضَ، ويحتمل أن يكون "من أقارِبكم؛ لأنّهم أعلمُ بأحوال الميّتِ، وأنصحُ له وأقربُ إلى تحرِّي ما هو أصلحُ له، وقيل منَ المسلمين، وهما صفتان لاثنين"[2]، وهذا كلُّه يحصلُ في الحضَرِ؛ لأنّه سيقيّدُه بأداة الشّرط بعد التّخيير، بقولِه: ﴿إِنۡ أَنتُمۡ ضَرَبۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾.

لفظ ﴿أَوۡ﴾ حرفُ عطفٍ للتّقسيم لا للتّخيير، في قوله: ﴿أَوۡ ءَاخَرَانِ مِنۡ غَيۡرِكُمۡ﴾:

التّقسيمُ لا يقتضي الجمعَ، فقد تقعُ الحالُ الأولى، وقد تقعُ الثّانيةُ

﴿أَوۡ ءَاخَرَانِ مِنۡ غَيۡرِكُمۡ إِنۡ أَنتُمۡ ضَرَبۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾، (أَو) حرفُ عطفٍ للتّقسيم، ولا يجوزُ أن يكونَ للتّخيير؛ لأنّه مقيَّدٌ باعتبار الحالَين في الآية؛ لأنّ الحالَ الأولى في الحضر، والحالَ الثّانيةَ هذه في السّفرِ، ودليلُ ذلك أنّه قيّدها بأداة الشّرط بقولِه: ﴿إِنۡ أَنتُمۡ ضَرَبۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾، والضّربُ في الأرض السّفرُ والانتقالُ، والتّقسيمُ لا يقتضي الجمعَ، فقد تقعُ الحالُ الأولى، وقد تقع الثّانيةُ، فيكون الحكمُ وَفقًا لوقوعِ أيٍّ منهما، ﴿ءَاخَرَانِ مِنۡ غَيۡرِكُمۡ﴾ آخران اثنان

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2382.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/136.

غيرُ الأوّلين، وهو معطوفٌ على قولِه ﴿ٱثۡنَانِ﴾، و﴿مِنۡ﴾ للتّبعيض، والمعنى شهادةُ اثنين من غيركم، "والمرادُ بهم غيرُ المسلمين من أهل الكتاب عند الأوّلين، وغيرُ الأقربين من الأجانب عند الآخرين"[1]، فهذان احتمالان لمعنى الغيريّة، إلّا أنّ واقعَ السّياق قد يُؤيّدُ أنّ المقصودَ بالشّاهدين أن يكونا منَ المسلمين بدلالةِ الخطابِ القرآنيِّ بقولِه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، "لأَنَّ المتكلّمَ إذا خاطبَ مخاطبَهُ بوصفٍ، ثمَّ أتبعهُ بمَا يدلُّ على بعضِه، كانَ معناهُ أَنَّهُ بعضُ أَصحابِ الوصفِ"[2]، فضلًا عن أنّه قد "ذهب الأكثرُ إلى أنّ شهادة الذّمّيين قد نُسخت"[3].

أثرُ الطّباقِ بين قولِه: ﴿مِنۡ غَيۡرِكُمۡ﴾ وقولِه: ﴿مِّنكُمۡ﴾:

﴿مِنۡ غَيۡرِكُمۡ﴾: فيه طباقٌ مع منكم، وهو منَ الأساليب البديعيّةِ في القرآن الكريمِ، ويُسمّيه البلاغيّون مجاورةَ الأضداد[4]، "وهو مقابلةُ الشّيء بمثلِه الّذي هو على قدره، سموّا المتضادّين إذا تقابلا متطابقين"[5]، فمنكم يقابلُه من غيركم، فهما متضادّان يبيّن أحدُهما الآخر بقرينة الغيريّة.

الطّباقُ تجاورُ الأضداد، وهو من أساليبِ البديعِ في القرآن الكريمِ

تحديدُ الشّاهدين مقيَّدٌ بالضّرب في الأرض:

وكونُ الشّاهدَين من غيرِ المسلمين، أو من غيرِ الأقاربِ على أيّ احتمالَي المعنَيين وقَع مقيّدٌ بقوله تعالى: ﴿إِنۡ أَنتُمۡ ضَرَبۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾، وهو تقييدٌ بالشّرط صريحٌ ومؤكَّدٌ؛ لأنّ (إن) تقتضي الشّرطَ، وهو ما كان يقع لوقوع غيرِه، فجوابُ الشّرط محذوفٌ، يدلُّ عليه السّياق، أي (إن أنتُم ضَرَبتُم، يَشهَدُ الاثنَانِ الآخَرَانِ)، و﴿فِي

الأرض ظرفٌ للسّير وللضّربِ على حقيقته اللُّغويّةِ في قولِه: (فِي الأَرضِ)

(1) الآلوسّي، روح المعاني: 7/48.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/83.
(3) القاسميّ، محاسن التّأويل: 6/2201.
(4) ابن المعتزّ، البديع في البديع، ص: 65.
(5) ابن سنان، سرّ الفصاحة، ص: 200.

﴿ٱلۡأَرۡضِ﴾ جارٌّ ومجرورٌ، متعلّقٌ بالفعل، و(في) هنا على بابها من إفادتِها معنى الظّرفيّةِ، فالأرض ظرفٌ للسّير فيها سفرًا، والضّربُ وإن كان مستعارًا للسّفر، إلّا أنّه على حقيقتِه اللّغويّةِ؛ لأنّ السّير ضربٌ بالأرجل على الأرض، والمعنى (إن أنتم ضربتم على الأرض بأرجلكم فيها).

قرائنُ على أنّ شهادةَ الآخرين إنّما هي مقيَّدةٌ بحالة السّفر في الآيةِ:

مجيءُ فعلِ الشّرط ماضيًا، وحقُّهُ أن يكون مُضارعًا منَ الواقعِ المُفترضِ

جاء السّياق بالاسم بعد أداة الشّرط، وهو غيرُ جائز عند جمهور البَصريين، إلّا على التّأويل؛ لأنّ حقَّ الشّرط أن يليَه فعلٌ، فقدّروا فعلاً يفسّرُه المذكور (إن ضَرَبتُم أَنتُم)، لكنّه جائزٌ عند الأخفشِ والكُوفيين، على جعله مبتدأً، فعلى هذا الوجه يؤكّد جملةَ الشّرط، ويؤكّدُ مضمونَ الضّرب في الأرض وهو السّفر لما تُعطيه الجملةُ الاسميّةُ منَ الثّبوت والاستقرارِ، وكذلك مجيءُ فعلِ الشّرط ماضيًا، وحقُّهُ أن يكون مُضارعًا، فهذه قرائنُ على أنّ شهادة الآخرين إنّما هي مقيَّدةٌ بحالة السّفرِ.

عطفٌ بالفاء على ﴿ضَرَبۡتُمۡ﴾ في قولِه: ﴿فَأَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةُ ٱلۡمَوۡتِۚ﴾:

هنالك حذفٌ تقديرُه: (فأصابتكم مصيبةُ الموت، وقد أشهدتموهما على الإيصاءِ)

﴿فَأَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةُ ٱلۡمَوۡتِۚ﴾: عطفَ هذه الجملةَ على ضربتم بالفاء الّتي تفيدُ التّرتيبَ والتّعقيبَ، ومصيبةُ الموت فاعلٌ، و(مصيبةٌ) على وزن (مُفعلة) اسمُ فاعلٍ منَ المؤنث و"في الكلامِ حذفٌ تقديرُه: فأصابتكم مصيبةُ الموت وقد أشهدتموهما على الإيصاءِ"[1]، يؤيّدُه ما ورد في سبب النزول من قصة الشاهدَين.

الجناسُ الاشتقاقيُّ لتحليةِ الكلامِ في قولِه: ﴿فَأَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةُ ٱلۡمَوۡتِۚ﴾:

﴿فَأَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةُ ٱلۡمَوۡتِۚ﴾: أسلوبٌ فيه فنٌّ منَ الفنون

(1) السّمين، الدرّ المصون: 4/464.

البديعيّةِ، وهو الجناسُ الاشتقاقيّ، يأتي لتحلية الكلام، فإنّه يجوز لغةً أن يقول: (فَأَصَابَكُمُ المَوتُ)، لكنّه جاء هنا للتّحلية، وربّما أفادَ التّوكيدَ أيضًا، لبيان أهميّةِ الوصيّةِ عند الموت، وهو يُشبهُ في ذلك التّعبيرَ بالحال المؤكِّدة لعاملِها، الموافقةِ له لفظًا ومعنًى، كقوله تعالى: ﴿وَأَرۡسَلۡنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولٗاۚ﴾ [النّساء: 79].

الـتّـعـبـيرُ عـنِ المـوت بالمصيبة دليلٌ على فداحةِ الخَطبِ به

تقديمُ المفعول على الفاعل فيه تخصيصُ الحُكمِ بالمسلمين:

وفي الجُملة تقديمُ المفعول على الفاعل، وهو وإن كان واجبَ التّقديم صناعةً، لأنّه ضميرٌ، إلّا أنّه لا يمنعُ منَ استيحاءِ دلالةِ التّخصيصِ... تخصيصِ الحُكم بالمسلمين؛ وقد تبيّن جزءٌ من ذلك بأن صدّرَ الخطابَ بقولِه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، فهذا التّقديم هنا سندٌ له، ومُعينٌ على تأكيدِه.

أمّتُنا ذاتُ عراقةٍ وهمّةٍ؛ لأنّها في النّاس خيرُ أمّةٍ

قولُه تعالى: ﴿تَحۡبِسُونَهُمَا مِنۢ بَعۡدِ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ عامٌّ في كلِّ متّهمَين حُكمًا:

﴿تَحۡبِسُونَهُمَا مِنۢ بَعۡدِ ٱلصَّلَوٰةِ﴾: الفعل (تحبسُون) فعلٌ ماضٍ مسنَدٌ لجماعة المخاطَبين، وهم المسلمون، والضّميرُ (هما) يعود على الشّاهدَين المتّهمَين، وكلٌّ من كان في حُكمهما، فجملةُ ﴿تَحۡبِسُونَهُمَا﴾ صفةٌ للفظ ﴿ءَاخَرَانِ﴾، وهما الذّميّان في سبب النّزول؛ وكلُّ متّهمَين حُكمًا، فليس الأمرُ خاصًّا بسبب النّزول، والحبسُ بمعنى الإيقاف، أي المنعُ منَ الانصراف والتّصرّفِ في الأمور[1]، وليس بمعنى السِّجنِ؛ لأنّ الشّاهدَ لا يُسجنُ لقولِه تعالى: ﴿وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٞ وَلَا شَهِيدٞۚ﴾ [البقرة: 282]، ولا بمعنى الحَضر؛ لأنّ الحضرَ فيه حبسٌ، لكن مع التّضييق، وهذا لا يكون في حقّ الشّاهد، فهنا عبّر باللّفظ المناسبِ للحالة، وهو الحبسُ، وفي هذا التّركيب اللّغويّ جملةٌ اعتراضيّةٌ فصلت بين الصّفة والموصوف، فالموصوف ﴿ءَاخَرَانِ﴾، والمعترِضُ ﴿مِنۡ غَيۡرِكُمۡ إِنۡ أَنتُمۡ ضَرَبۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَأَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةُ ٱلۡمَوۡتِۚ﴾،

الـجـمـلـةُ بين الـتّـبـعـيّـةِ والاستئنافِ

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 114.

والصّفة ﴿تَحۡبِسُونَهُمَا﴾، وفائدةُ "الاعتراضِ أَنَّ العدولَ إلى آخرينِ من غيرِ الملَّةِ أَوِ القرابةِ، حسبَ اختلافِ العلماءِ في ذلكَ، إِنَّمَا يكونُ معَ ضرورةِ السَّفرِ، وحلولِ الموتِ فيهِ.

استغنَى عن جوابِ ﴿إِنۡ﴾ تقدَّمَ من قولهِ: ﴿أَوۡ ءَاخَرَانِ مِنۡ غَيۡرِكُمۡ﴾"[1]، وعدمُ حلول الاعتراض، يُوهم إلى خلاف ذلك، فيفوّتُ المقصودَ، أو يشتبهُ بحالة الحضَر، والمرادُ هو حالةُ السّفر، وعند النّظر إلى الجملة المُعترِضةِ تلمح فيها طولًا بما يمكُن أن يُنسيَ صفتَها ﴿تَحۡبِسُونَهُمَا﴾، فيمكنُ أن تكون "استئنافَ كلام، كأنّه قيل بعد اشتراط العدالة فيهما: فكيف نعمل إن ارتبنا بهما، فقيل: تحبسونهما"[2]، أي أنّ جملة ﴿تَحۡبِسُونَهُمَا﴾ جملةٌ استئنافيّةٌ جديدةٌ، وليست صفةً لقوله ﴿ٱثۡنَانِ﴾، والأوّل أقوى، ويمكن أن تكونَ الجملةُ حالًا، وهو مطابقٌ للمعنى؛ لأنّ الحبسَ أمرٌ مرهونٌ بوقتٍ محدّدٍ، ولا يمكن أن يستمرَّ، وهو عينُ الحال.

سرُّ دخولِ ﴿مِنۢ﴾ في قوله: ﴿مِنۢ بَعۡدِ ٱلصَّلَوٰةِ﴾:

يفيد وقتًا معلومًا وهو صلاةُ العصر

﴿مِنۢ بَعۡدِ ٱلصَّلَوٰةِ﴾: وهو توقيتُ الحضورِ لأداء الشّهادة، وقولُه ﴿مِنۢ﴾ حرف جرّ، يفيدُ ابتداءَ الغايةِ، والإتيان بها "لتقريبِ البُعديَّةِ، أَي قربَ انتهاءِ الصَّلاةِ"[3]، للاهتمام به، وبيانِ خطورته، وثمّةَ فرقٌ بين قولِه: ﴿مِنۢ بَعۡدِ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ و(بَعْدَ الصّلاةِ)، في أنّ الثّاني يحتملُ وقتًا متمادًا، قد يطولُ، أمّا الأوّلُ فيكون غِبَّ الصّلاة، أي بعدَها مباشرةً، ولفظُ ﴿بَعۡدِ﴾ اسمٌ مجرورٌ والجارُّ والمجرور متعلّقٌ بالفعل، ولفظُ الصّلاة مضافٌ إليه، والألفُ واللّام في ﴿ٱلصَّلَوٰةِ﴾ قد تكونُ للعهد، وهي "بعد صلاة العصر، ولذلك

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/46.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/309.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/85.

غلّظ العلماءُ اللّعانَ وسائرَ الأيمان المغلّظة بوقت صلاة العصر، لشرفِه ومزيّتِه"[1]، فلهذه الصّلاةِ مزيّتُها الّتي ذكرَها في آيةٍ أخرى هي قولُه تعالى: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلۡوُسۡطَىٰ﴾ [البقرة: 238]، وهو وقتٌ يتوسّطُ الأوقاتِ، جعله العربُ وغيرُ العرب مدارَ جمعِهم وحديثِهم، فلا هو بالوقت الّذي تشتدّ فيه حرارةُ الشّمس كالظّهر، ولا هو بالوقت الّذي تغيب فيه الشّمسُ ويحلّ الظّلام كالمغرب وما بعدها، فكان اختيارُهم لهذا الوقت مناسبًا، فضلًا عنِ اشتماله على صلاةٍ مُهمّةٍ هي صلاةُ العصر، ذُكرت في القرآن بالصّلاةِ الوُسطى، وذُكرت في حديث الرّسول ﷺ أيضًا كقوله: «الَّذِي تَفُوتُهُ صَلاةُ العَصرِ، كَأَنَّمَا وُتِرَ أَهلَهُ وَمَالَهُ»[2]، وقد تكون متعلّقةً بما ورد من فعلِه ﷺ، عندما «أحلفَ تميمًا الدَّاريَّ، وعديَّ بنَ بدَّاءٍ، في قضيَّةِ الجامِ بعدَ العصرِ»[3].

تحتملُ الألفُ واللّامُ أن تكونَ جنسيّةً، فتكونَ الشّهادةُ دبرَ كلِّ صلاةٍ:

علّةُ اختيار وقتِ الشّهادة بعد الصّلاةِ له سببٌ وجيهٌ

وقد تكونُ الألفُ واللّام في ﴿ٱلصَّلَوٰةِ﴾ جنسيّةً تُفيدُ العمومَ، يعني أنّ الشّهادةَ تكونُ بعد أيِّ صلاة، ينتخبُها الحاكمُ أو وليُّ الأمر، بما يرى من مصلحةٍ، أو يكونُ الظّرفُ بها مناسبًا، فقد يكونُ بعد صلاة الظّهر، وقد ورد هذا الاحتمالُ، وسببُ اختيارِ الشّهادةِ بعد الصّلاة لما تمثّله منَ الرُّكن الرّكين للإسلام، وهي عمادُ الدّين، ولأنّ "الصّلاةَ داعيةٌ إلى النُّطق بالصّدق، ناهيةٌ عنِ التّفوُّه بالكذبِ والزُّورِ، وارتكابِ الفحشاء والمنكر"[4]، والإنسانُ في طبيعته يكون هادئًا، صافيَ النّفس نقيَّ السّريرة، بعد أدائِه للصّلوات، فمظنّتُه أن يكونَ صادقًا في شهادته، لذلك وردَ في الحديث: «يَا بِلَالُ أَرِحنَا

(1) القاسميّ، محاسن التّأويل: 2/625.
(2) البخاري، صحيح البخاري، الحديث رقم: (552).
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/85.
(4) الآلوسّي، روح المعاني: 7/48.

بِالصَّلَاةِ»[1]، كما أنّ الصّلاةَ تُنقِّي المسلمَ من أدرانِ الحياةِ، بين بيتِه وعملِه وسوقِه، فيغدو محمّلًا بأنواع الخطايا والشّوائبِ، فتكونُ الصّلاةُ كالقنطرة الّتي لا يعبرُها حتّى يكونَ نقيًا منَ الشّوائب، وآيةُ ذلك قولُه ﷺ: «أَرَأَيتُم لَو أَنَّ نَهَرًا بِبَابِ أَحَدِكُم، يَغتَسِلُ فِيهِ كُلَّ يَومٍ خَمسًا، مَا تَقُولُ ذَلِكَ يُبقِي مِن دَرَنِهِ؟ قَالُوا: لاَ يُبقِي مِن دَرَنِهِ شَيئًا، قَالَ فَذَلِكَ مِثلُ الصَّلَوَاتِ الخَمسِ، يَمحُو اللّه بِهِ الخَطَايَا»[2]، فعسى أن يكونَ نقيًّا صافيًا، بعد أدائِه الصّلاةَ، فيشهدُ الحقَّ، ولا يحيدُ عنِ الصّوابِ.

فاءُ الجزاء والالتفات في قوله: ﴿فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ﴾:

الالتفاتُ منَ الخطاب إلى الغيبة لتنشيطِ الذِّهنِ

﴿فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ﴾: الفاءُ حرفُ عطفٍ، وقد عطفَ جملةَ ﴿فَيُقْسِمَانِ﴾ على جملة ﴿تَحْبِسُونَهُمَا﴾، وهو من الفعل أقسمَ يُقسمُ، فعلٌ مزيدٌ بالهمزة، إلّا أنّ معناه معنى المجرَّدِ الدّالِّ على القسَمِ واليمينِ، ويحتملُ أن تكونَ الفاءُ "للجزاءِ يعني (تحبسونهمَا فيُقدِمانِ لأجلِ ذلكَ الحبسِ على القَسمِ)"[3]، وفي جملة ﴿فَيُقْسِمَانِ﴾ التفاتٌ بلاغيٌّ منَ الخطاب إلى الغيبة، غايتُه تنشيطُ الذّهنِ، وهو من محاسن الكلامِ في البيانِ القرآنيِّ.

دلالةُ إيرادِ لفظِ الجلالةِ مع القسمِ للتّوكيدِ والتّغليظِ:

الحلِفُ باللهِ يكونُ إذا وُجدتِ الرّيبةُ من أحدِ أطرافِ الادّعاءِ

﴿بِٱللَّهِ﴾: الباءُ حرفُ جرٍّ، يفيدُ الاستعانةَ، ولفظُ الجلالة مقسمٌ به مجرورٌ، وذكرُ لفظِ الجلالة من باب التّغليظِ باللّفظ، والتّغليظُ مرادفٌ للتوّكيد؛ لأنّ فعلَ القسم قد لا يكون معه لفظُ الجلالة، كقولِه تعالى: ﴿أَوَلَمْ تَكُونُوٓاْ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾﴾ [إبراهيم: 44]، فوجودُ لفظِ الجلالة يفيدُ تغليظَ القسَمِ، كما أنّ التّعبيرَ بالقسَم

(1) الإمام أحمد، المسند، الحديث رقم: (23088).
(2) البخاريّ، صحيح البخاري، الحديث رقم: (528).
(3) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 12/125.

دونَ الحلفِ يدورُ في هذا السّياق؛ لأنّ "القسمَ أبلغُ منَ الحلفِ"[1]، ولعِظمِ الشّهادة وأهميّتِها عبّر بالقسَم، ولم يعبّر بالحلف، مع أنّهما متقاربان في المعنى العامّ، ومعنى ذلك أن يحلفا باللّه إذا وُجدتِ الرّيبةُ منهما، والتّثنيةُ هنا محتملةٌ، فقد تكونُ عائدةً على الوَصِيَّين، يمثّلهما الذّميّان في سبب النّزول أو على الشّاهدَين إذا لم يُتحقّق من عدالتِهما، والأرجحُ أنّ الآيةَ "نازلةٌ في إشهادِ الكفّارِ؛ لأنَّ تحليفَ الشّاهدِ المسلمِ غيرُ مشروعٍ، ومن قالَ الآيةُ نازلةٌ في حقِّ المسلمِ قالَ إنَّها منسوخةٌ"[2]، والشّرطُ هنا متّصلٌ بجملة ﴿تَحۡبِسُونَهُمَا﴾ وما بعده، والمعنى أنّ الحبسَ والقسمَ بسبب الرّيبة، و" لو لم تحصلِ الرّيبةُ في صدقهمَا، لَمَا لزمَ إحضارُهمَا من بعدِ الصَّلاةِ وقسَمُهما"[3]، وحُذفَ جوابُ الشّرط لدلالةِ الكلام السّابقِ عليه.

التّعبيرُ بالارتيابِ أقوى منَ الشّكّ؛ لأنّ الارتيابَ شكٌّ معَ تُهمَةٍ:

ولفظُ ﴿إِنِ﴾ حرفُ شرطٍ، يفيدُ الشّكَّ، و﴿ٱرۡتَبۡتُمۡ﴾ منَ الارتيّاب، وهو الشّكُّ إلّا أنّه يختلفُ عنِ الشّكّ، في "أنّ الارتياب شكٌّ معَ تُهمَةٍ"[4]، فتقول: (أنا شاكٌّ في نزول المطر)، ولا تقول: (أنا مرتابٌ في نزوله)، لذلك فإنّ التّعبيرَ هنا في ﴿ٱرۡتَبۡتُمۡ﴾ أبلغُ وأدقُّ، وأعلى لغةً وبلاغةً، للفرق المُعجميِّ الدّقيقِ بين الرّيبةِ والشّكّ.

الانتقاءُ الدّقيقُ للّفظ في موضعه يُنبئُ بدِقّةِ البيانِ القرآنيِّ وروعتِه

لفظُ ﴿نَشۡتَرِي﴾ في قوله: ﴿لَا نَشۡتَرِي بِهِۦ ثَمَنٗا﴾ منَ الألفاظِ المتضادّةِ:

﴿لَا نَشۡتَرِي بِهِۦ ثَمَنٗا وَلَوۡ كَانَ ذَا قُرۡبَىٰ﴾: ﴿لَا﴾ نافية، ونشتري فعلٌ مضارعٌ، بمعنى نبيع، فإنّه منَ الألفاظِ المتضادّةِ عند علماءِ الدّلالةِ، قال تعالى: ﴿وَشَرَوۡهُ بِثَمَنِۭ بَخۡسٖ دَرَاهِمَ مَعۡدُودَةٖ﴾ [يوسف 20]، و﴿بِهِۦ﴾ جارّ ومجرور، أي لا نبيعُ بقسَمنا أو شهادتِنا وعهدِنا أمام اللّه ثمنًا:

التّعبيرُ بالثّمن تعبيرٌ دقيقٌ؛ لأنّ الثّمنَ قد يكونُ بخسًا وقد يكونُ وَفقًا أو زائدًا

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 56.
(2) الرّازي، مفاتيح الغيب: 12/125.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/86.
(4) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 99.

مفعول به لنشتري، والتّعبيرُ بالثّمن تعبيرٌ دقيقٌ؛ لأنّ الثّمن "قد يكون بخسًا، وَقد يكون وَفقًا وزائدًا"[1]، خلافَ القيمة مثلًا التّي تكونُ مساويةً للمثمّن، فهنا عبّر عنِ الأحوال المحتملةِ جميعًا، وبحسبِ حالِ الشّاهد في كلّ عصرٍ ومِصرٍ.

ورودُ ﴿وَلَوْ﴾ الشّرطيّة لمجرَّدِ الوصلِ والرَّبطِ في مقامِ التَّأكيد:

مـجـيءُ (لَـو) عـلى غـير بابها تـنـوّعٌ بـليغٌ في الاستعمال

والجملةُ هي جوابُ القسَم، أي يُقسمان باللّه "أنَّا لا نبيعُ عهدَ اللّه بشيءٍ منَ الدُّنيَا قائلينَ: لا نشتري بهِ ثمنًا"[2]، ونفيُ الفعلِ المضارع بالأداة (لَا) يدلُّ على عدمِ وقوعِ فعلِ الاشتراء منهم، (ولو) الواو للحال، و(لو) حرفُ شرطٍ في أصلها، إلّا أنّها هنا ليست على بابها، فهي مجرّدةٌ منَ الشّرط، فهي "لمجرَّدِ الوصلِ والرَّبطِ في مقام التَّأكيدِ"[3]، وآيةُ ذلك أنّ ما بعدها هو نفسُه ما قبلَها، إذا كان المُقسمُ له (وإنّه ذو قربى) هو عينَ نفيهم أن يشتروا به ثمنًا، فهو ليس شرطًا، ولكنّه يُشبهُ الإجابةَ عن سؤالٍ بالإيجاب، كأن يقال: لا نشتري به ثمنًا، ولو كان ذا قربى، على حدّ قول الشّاعرِ (وقيل لرؤبة):

قَالَت بَنَاتُ العَمِّ يَا سَلمَى وَإِن *** كَانَ فَقِيرًا مُعدِمًا قَالَت وَإِن[4].

حذفُ اسمِ كان لدلالةِ الكلامِ السّابقِ عليه، في قولِه: ﴿وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾:

الأحـكـامُ لا تتعلّقُ بالذّواتِ، وإنّما بالصّفاتِ والأفـعـالِ والعلائقِ

الشّهادةُ أمانةٌ، ولو كان الّذي نُقسمُ لأجله قريبًا لنا، أو في حالِ قرابته، وهنا وقعَ حذفُ اسمِ كان لدلالةِ الكلامِ السّابقِ عليه، مأخوذًا منَ الفعل ﴿فَيُقْسِمَانِ﴾، وهو حذفٌ جائزٌ، والغايةُ منه فضلًا عنِ الإيجاز الإشارةُ إلى أهميّةِ المذكورِ، وهو خبرُ كان المعبّرُ عنه باسمٍ منَ الأسماء الخمسةِ، وهو (ذو) بمعنى صاحبٍ،

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 238.
(2) الرّازي، مفاتيح الغيب: 12/125.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/306.
(4) البغدادي، خزانة الأدب: 9/14.

وقولُه: ﴿ذَا قُرۡبَىٰ﴾ بمعنى صاحبِ قُربى، فلا تشتروا به ثمنًا قليلًا، ولو كان قريبًا، فإنّه عند اللّه سواءٌ، لا تنفعُ قُربتُه؛ لأنّ "لو شرطٌ يفيدُ المبالغةَ، فإذَا كانَ ﴿ذَا قُرۡبَىٰ﴾ لا يرضيانهِ عِوضًا عن تبديلِ شهادتهمَا، فأولَى ما هو دونَ ذلكَ"[1]؛ لأنّ تقدير الكلام: إرضاءُ ذوي القربى، وليس (ذا القربى) بذواتِهم؛ لأنّ الأحكامَ لا تتعلّق بالذّواتِ، وإنّما بالصّفاتِ والأفعالِ والعلائقِ، فالكافرُ ليس كافرًا في ذاتِه، إنّما في أفعالِه وتصرّفاتِه؛ لأنّه خَلقُ اللّهِ، لذلك عبّر عن ﴿وَلَوۡ﴾ المقارِنةِ للقربى بأنّها للمبالغةِ، وليست للحقيقة، وزاد على ذلك أنّ ﴿قُرۡبَىٰ﴾ مذكّرُه أقربُ؛ موضوعٌ للتّفضيل (أقربُ قُربى)، والتّفضيلُ قريبٌ منَ المبالغة.

الشّهادةُ بمعنى العلمِ في قولِه تعالى: ﴿وَلَا نَكۡتُمُ شَهَٰدَةَ ٱللَّهِ﴾:

تعلّقُ الجملة بما قبلَها وما بعدَها من جهة المعنى لا من جهةِ اللّفظِ

﴿وَلَا نَكۡتُمُ شَهَٰدَةَ ٱللَّهِ إِنَّآ إِذٗا لَّمِنَ ٱلۡأٓثِمِينَ﴾: الواو عاطفةٌ، وهذه الجملةُ معطوفةٌ على جملةِ ﴿لَا نَشۡتَرِي بِهِۦ ثَمَنٗا﴾، أي أنّهم يَنفون عن أنفسِهم بيعَ يمينِ اللّه بأيّ ثمنٍ، وكذلك يَنفون عن أنفسِهم كتمانَ شهادةِ اللّه، والشّهادةُ هنا بمعنى العلمِ، وهذه القطعةُ القرآنيّةُ متألّفةٌ من جُملتَين، الأولى: قولُه ﴿وَلَا نَكۡتُمُ شَهَٰدَةَ ٱللَّهِ﴾، والثّانيّة قولُه: ﴿إِنَّآ إِذٗا لَّمِنَ ٱلۡأٓثِمِينَ﴾، ويجوزُ الوقفُ على الجملةِ الأُولى[2]، وهو من باب الوقفِ الكافي[3] لتعلُّقِ الجملة بما قبلَها وما بعدَها من جهةِ المعنى لا من جهةِ اللّفظ.

قولُه تعالى: ﴿وَلَا نَكۡتُمُ شَهَٰدَةَ ٱللَّهِ﴾ يحتملُ أن يكون خبرًا من أنفسِهم:

يجوزُ أن تكون الواوُ للاستئناف، ويتعيّنُ على ذلك أن يكونَ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/87.

(2) الأشموّني، منار الهدى: 1/228.

(3) "وهو الوقف على كلمةٍ لم يتعلّق ما بعدها بها، ولا بما قبلها، لفظًا بل معنًى". ينظر: أحمد عبد السّميع، الوافي في كيفية ترتيل القرآن الكريم، ص: 108.

الكلامُ معتبرًا "أنّه إخبارٌ من أنفُسِهم بأنّهم لا يكتُمون الشّهادةَ"[1]، فالأداةُ ﴿وَلَا﴾ في جميع الأحوالِ نافيةٌ للفعلِ المضارعِ ﴿نَكۡتُمُ﴾، والفاعلُ مُستترٌ تقديرُه نحن، واستتارُه من باب الوجوبِ، وكأنّه شديدُ الاتّصال بالفعل، دفعًا لأنفُسِهم عن هذه التّهمةِ، و﴿شَهَٰدَةً﴾ مفعول به، أي لا نكتم شهادةَ علمِنا ومعرفتِنا بما أُحضِرنا من أجله، "وأضافَ الشَّهادةَ إلى الله لأنَّهُ تعالى هو الآمرُ بإقامتهَا النَّاهي عن كِتمانهَا"[2]، وإضافةُ ﴿شَهَٰدَةً﴾ إلى لفظِ الجلالة يُكسبُها أهميّةً بالغةً، ويخلعُ عليها صفةَ المهابةِ والتّعظيمِ والتّفخيم[3]، فضلًا عن أنّ الإضافةَ إلى الاسمِ المعرفةِ يُكسبُها التّعريفَ، فما بالُنا لو كان المضافُ إليه أعرفَ المعارف وهو لفظُ الجلالة، ولِيتذكّرَ الشّاهدُ أنّها أمانةٌ فرضَها الله.

إضافة الشّهادة لـلـه في الآيـة يُكسبُها تعظيمًا وتفخيمًا

قولُه تعالى: ﴿إِنَّآ إِذٗا لَّمِنَ ٱلۡأٓثِمِينَ﴾ حسُنَ الفصلُ فيه، ولم يَحسُنِ الوصلُ:

﴿إِنَّآ إِذٗا لَّمِنَ ٱلۡأٓثِمِينَ﴾ حَسُنَ الفصلُ هنا، ولم يَحسُنِ الوصلُ؛ لأنّه ابتداءُ جملةٍ جديدةٍ ذاتِ مضمونٍ مُستقلٍّ، مع ارتباطِها بالجُملةِ السّابقةِ من جهة المعنى، لا من جهةِ اللّفظ؛ لأنّ كِتمانَ الشّهادةِ مُوصلٌ إلى اكتساب الإثم، وفي هذه الجملة تعبيرٌ بديعٌ، ففي الجملةِ السّابقةِ والّتي قبلَها نفيٌ عن ذنبين، الأوّلُ: (أن يشتروا به ثمنًا)، والثّاني: (أن يكتموا شهادة الله)، نَفيانِ معناهما عدمُ حصولِ الفعل، ومع ذلك وردت هذه الآيةُ الدّالّةُ على حصولِ الإثم، وسرُّ ذلك أنّ في هذه الجملة محذوفًا تقديرُه (فإن فَعَلنَا ذَلِكَ إنّا إذًا لمنَ الآثمينَ)، فهو تبعيدٌ لأن يَرتكبُوا مثلَ تلك المرتكَباتِ في الجُملتَين السّابقتَين؛ لأنّهم حينئذٍ سيكونون منَ الآثمين، و﴿إِنَّآ﴾ مؤلّفة من

الجملةُ متّصلةٌ معنًى بما قبلَها؛ لأنّ كِتمانَ الشّهادةِ يُفضي إلى اكتسابِ الإثمِ

(1) السّمين، الدرّ المصون: 4/468.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/48.
(3) القاسميّ، محاسن التّأويل: 6/2195.

إنّ التوّكيديّة و(نَا) الضّمير في محلّ نصب اسم إنّ، و﴿إِذَا﴾ حرفُ جوابٍ وجزاءٍ، لكنّها إن وقعت بين جُزأَي الجُملةِ الابتدائيّةِ أُلغِيت[1]، فهي هنا مُلغاةٌ أو مُهمَلةٌ؛ لأنّ حقَّها الاتّصالُ بالأفعال، وقولُه ﴿لَّمِنَ﴾ اللّامُ المَزحلقةُ لامُ الابتداء الّتي تفيدُ التّوكيدَ، حقُّها الدّخولُ على المبتدأ، لكن لمّا دخلت (إنّ) على المبتدأ زُحلقت للخبر كراهةَ اجتماعِ مؤكِّدَين على المبتدأ.

الجملةُ تعليليّةٌ، تحوي التّعبيرَ بالآثمين دون التّعبيرِ بالمُذنبين في قولِه: ﴿لَّمِنَ ٱلۡأٓثِمِينَ﴾:

هذه الجملةُ تُعدُّ كالتّعليل لما سبقَ، وكالجوابِ لسؤالٍ مقدّرٍ، أي إن فعلتُم أو ماذا لو فعلتُم ذلك؟ سوفَ ينالُكم الإثمُ، وقولُه: ﴿لَّمِنَ ٱلۡأٓثِمِينَ﴾ جارّ ومجرور متعلّقٌ بمحذوف خبرِ إنّ، والتّعبيرُ بالآثمين أبلغُ منَ التّعبير بالمُذنبين، ممّا يتوقّعُه المخاطَبُ؛ لأنّ "الإثمَ هو القبيحُ الّذي عليهِ تَبعةٌ، والذّنبُ هو القبيحُ منَ الفعل، ولا يُفيدُ معنى التّبعةِ"[2]، فهنا أرادوا دفعَ القُبحِ مع تَبعاتِه عن أنفسِهم، وأنّ نفيَ الذّنبِ لا يَفِي بالغرضِ، لعِظمِ المرتكَبِ في أن يَشتروا به ثمنًا، وأن يكتمُوا الشّهادةَ، فهذه آثامٌ كبيرةٌ لا ينفعُ معها نفيُ الذّنب، فبانت دقّةُ القرآنِ الكريم بالتّعبيرِ عنِ المعاني بالألفاظِ ذاتِ الفُروقِ المُعجميّةِ الدّقيقةِ.

الإثمُ ما تترتّب عليه تَبعةٌ، والذّنبُ ما لا تترتّبُ عليه تَبعةٌ

اشتمالُ قوله: ﴿إِنَّآ إِذٗا لَّمِنَ ٱلۡأٓثِمِينَ﴾ على مجموعةٍ منَ التّوكيداتِ:

وتشتملُ على جملةٍ منَ التّوكيداتِ الدّالّةِ على أهميّتِها، أوّلُها التّعبيرُ بالجُملةِ الاسميّةِ، ثمّ تصديرُها بإنّ المؤكِّدةِ، وإدخالُها على ضميرِ الجمعِ (نا)، وزيادةُ ﴿إِذٗا﴾ الدّالّةِ على الجوابِ والجزاءِ، غيرِ العاملةِ، والمُقويّةِ لمضمون الجُملة، ثمّ اللّامُ الّتي

التّوكيداتُ عناصرُ مُدعِّمةٌ للمعنى ومُقوّيةٌ للدّلالةِ لترسيخِ المفاهيم وتجليتِها

(1) السّيرافي، شرح أبيات سيبويه: 2/107.
(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 233.

تفيدُ التّوكيدَ، وإدراجُ المجرور مُعرَّفًا باللّام، وعلى صِيغة الجمعِ، فضلًا عنِ الاعتراف على أنفُسِهم بالإثم، فهذه كلُّها أعطتِ الجُملةَ توكيدًا قويًّا، فيه إشارةٌ إلى أهميَّة الشّهادةِ، وعدمِ كِتمانِها.

المحتويات

الجزء السادس 7

سورة المائدة 9

- [المائدة: 26] 10
- [المائدة: 27] 18
- [المائدة: 28] 25
- [المائدة: 29] 33
- [المائدة: 30] 42
- [المائدة: 31] 50
- [المائدة: 32] 61
- [المائدة: 33- 34] 75
- [المائدة: 35] 85
- [المائدة: 36] 89
- [المائدة: 37] 94
- [المائدة: 38 - 39] 104
- [المائدة: 40] 125
- [المائدة: 41] 134
- [المائدة: 42] 165
- [المائدة: 43] 185
- [المائدة: 44] 193
- [المائدة: 45] 223
- [المائدة: 46] 237
- [المائدة: 47] 247
- [المائدة: 48] 258
- [المائدة: 49] 278
- [المائدة: 50] 287
- [المائدة: 51] 294
- [المائدة: 52] 301
- [المائدة: 53] 309
- [المائدة: 54] 315
- [المائدة: 55] 325
- [المائدة: 56] 329
- [المائدة: 57] 332
- [المائدة: 58] 337
- [المائدة: 59] 343
- [المائدة: 60] 348
- [المائدة: 61] 359
- [المائدة: 62] 365
- [المائدة: 63] 370
- [المائدة: 64] 375
- [المائدة: 65] 389
- [المائدة: 66] 395
- [المائدة: 67] 403
- [المائدة: 68] 410
- [المائدة: 69] 416
- [المائدة: 70] 422
- [المائدة: 71] 427
- [المائدة: 72] 437
- [المائدة: 73] 448
- [المائدة: 74] 461
- [المائدة: 75] 466
- [المائدة: 76] 477
- [المائدة: 77] 486
- [المائدة: 78] 495
- [المائدة: 79] 502
- [المائدة: 80] 507
- [المائدة: 81] 512

الجزء السابع **517**

- [المائدة: 82] 518
- [المائدة: 83] 533
- [المائدة: 84] 547
- [المائدة: 85] 552
- [المائدة: 86] 557
- [المائدة: 87 - 88] 561
- [المائدة: 89] 570

- [المائدة: 90] 592
- [المائدة: 91] 603
- [المائدة: 92] 615
- [المائدة: 93] 627
- [المائدة: 94] 637
- [المائدة: 95] 648
- [المائدة: 96] 675
- [المائدة: 97] 683
- [المائدة: 98] 695
- [المائدة: 99] 701
- [المائدة: 100] 708
- [المائدة: 101] 716
- [المائدة: 102] 730
- [المائدة: 103] 738
- [المائدة: 104] 752
- [المائدة: 105] 765
- [المائدة: 106] 778

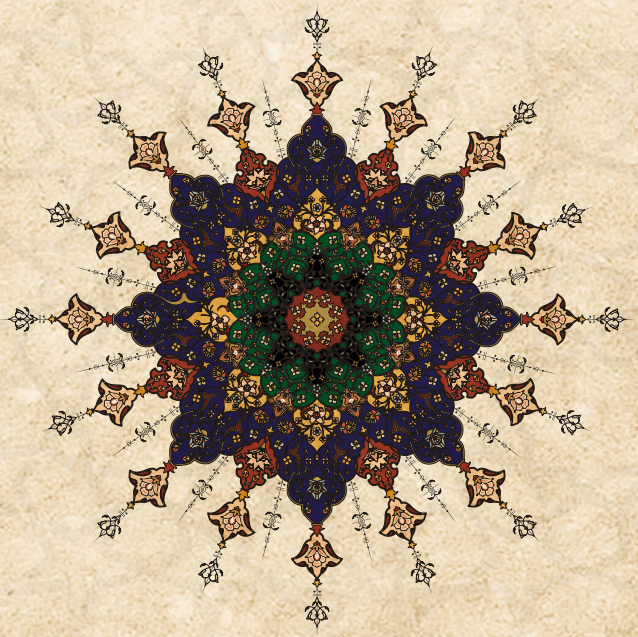

مجمع القرآن الكريم بالشارقة

موسوعة التفسير البلاغي

المُجَلَّدُ العَاشِرُ

سورة المائدة من الآية 107 إلى سورة الأنعام الآية 58

موسوعة التفسير البلاغي

Government of Sharjah حكومة الشارقة
مجمع القرآن الكريم بالشارقة
HOLY QURAN ACADEMY IN SHARJAH

موسوعة التفسير البلاغي

المُجَلَّدُ العَاشِرُ

سورة المائدة من الآية 107 إلى سورة الأنعام الآية 58

نُخْبَةٌ مِنْ عُلَماء مَجْمَعِ القُرْآنِ الكَرِيمِ بِالشّارِقَةِ

منشورات القاسمي
AL QASIMI PUBLICATIONS
20/24

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد العاشر، سورة المائدة من الآية 107 إلى سورة الأنعام الآية 58
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: سورة المائدة من الآية 107 إلى سورة الأنعام الآية 58 [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 10 ، 804 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-798-62-0
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 10 : سورة المائدة من الآية 107 إلى سورة الأنعام الآية 58.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-798-62-0
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-7560922 بتاريخ 2023/12/18م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الجُزْءُ السَّابِعُ

سُورَةُ المَائِدَةِ

﴿فَإِنۡ عُثِرَ عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا ٱسۡتَحَقَّآ إِثۡمٗا فَـَٔاخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَحَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَوۡلَيَٰنِ فَيُقۡسِمَانِ بِٱللَّهِ لَشَهَٰدَتُنَآ أَحَقُّ مِن شَهَٰدَتِهِمَا وَمَا ٱعۡتَدَيۡنَآ إِنَّآ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٠٧﴾ [المائدة: 107]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الإشهاد على وصيَّة المحتضر، والتَّعامل مع من كذب في الشَّهادة

لَمّا أخبرَ اللّٰهُ تعالى في الآيةِ السّابقةِ خبرًا مُتضمِّنًا للأمرِ بإشْهادِ اثنَيْنِ على وصيَّةٍ من حَضرَتْهُ مقدِّماتُ الموتِ وعلائمُه؛ جاءَ بيانُ اللّٰهِ تعالى في هذه الآيةِ ليُعلِمَنا بأنَّه إنْ وُجِدَ ما يَدُلُّ على كذبِ ذَيْنكَ الشّاهدَيْنِ، وأنَّهما خانا، فحينئذٍ يقومُ آخَرانِ مقامَهما من أولياءِ الميِّتِ وقرابته، فَيُقسمانِ أنَّ الأوْلَيَيْنِ كَذَبَا، وغَيَّرا، وخانا، وبأنَّ شهادتهما صحيحةٌ وموافقةٌ للحقّ، ويشهدان بألسنتهما: إن ظَلَمْنا، واعْتَدَيْنا، وشهِدْنا بغيرِ الحقّ؛ فإنّا عندئذٍ من الظّالمين[1]، أي: يقسمان باللّٰه يقينًا: أنَّ شهادتنا أحقُّ بالقبول، وأولى بالتَّصديق، من شهادة الشّاهدين الآخرين، وإنَّ قوْلنا: إنَّهما خانا، أحقُّ أنْ يؤخذ به، وأصحُّ ممّا قدَّماه من شهادة باطلة، وإن كنّا كذبنا عليهما، وافترينا فيما قلناه عنهما، فإنّا إذًا لمن الظّالمين[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿عُثِرَ﴾: عَثَرَ الرَّجلُ يَعثُرُ عِثارًا وعُثورًا؛ إذا سَقَطَ ووقَعَ، ويُتجوَّزُ به فيمن يطَّلعُ على أمرٍ من غيرِ طلبِه، كما في الآية: ﴿فَإِنۡ عُثِرَ عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا ٱسۡتَحَقَّآ إِثۡمٗا﴾[3]، وأصلُ عَثَرَ بمعنَى: اطَّلَعَ من العَثْرَةِ الَّتي هي الوُقوع؛ وذلكَ لأنَّ العاثرَ إنَّما يعثُرُ بشيءٍ كانَ لا يراه، فلمّا

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 12/454، والسَّعدي، تفسير الكريم الرَّحمن، ص: 201.
(2) أسعد حومد، أيسر التّفاسير: ص: 777.
(3) الرّاغب، المفردات، ص: 546.

عثَرَ به؛ اطَّلعَ عليه، ونظَرَ فيه متبيِّنًا حقيقته، فقيلَ لكلِّ مَنِ اطَّلعَ على أمرٍ كانَ خفيًّا عليه: قد عَثَرَ عليه، وأَعْثَرَ غيرَه؛ إذا أَطْلعَه عليه، ومنه قولُه تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَعۡثَرۡنَا عَلَيۡهِمۡ﴾ [الكهف: 21] أي: أَطْلَعْنا[1]، ويقال: "(لا حليم إلّا ذو عَثرة)، أي: لا يحصل له الحلم، ويوصف به، حتَّى يركب الأمور، وتنخرقَ عليه، ويعْثُرَ فيها، فيَعْتَبِرَ بها، ويستبينَ مواضع الخطأ، فيتجنَّبَها"[2]، "ويقال للزَّلَّة: عثرة؛ لأنَّها سقوط في الإثم، وفرَّق بينهما في مختصر العين بالمصدر، فقال: عثر الرَّجل عثورًا، وعثر الفرس عِثارًا، وعثر عليه عثرًا"[3].

2) ﴿ٱسۡتَحَقَّآ﴾: يقال: حقَّ الشَّيءُ يَحِقُّ حَقًّا، أي: وجَبَ، وأَحَقَّه غيرُهُ: أَوْجَبَهُ، واسْتحقَّهُ، أي: اسْتوجَبَه، وتحقَّقَ عندَه الخبرُ: صَحَّ، وحقَّقَ قولَه، وظنَّه تحقيقًا، أي: صدَّقَه[4]، ومنه الاستحقاق، يقال: استحقَّه، أي: استوجبه، قال الله تعالى: ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَحَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَوۡلَيَٰنِ﴾[5]، وقولُه هنا: ﴿ٱسۡتَحَقَّآ إِثۡمًا﴾ أي: فَعَلا ما اسْتَوجَبا به إثْمًا، إمّا بكذبٍ في الشَّهادةِ أو اليمينِ أو بظهورِ خيانَة[6].

3) ﴿إِثۡمًا﴾: الإثْمُ والأَثامُ: اسْمٌ للأفعالِ المُبطِئةِ عنِ الثَّواب، وجمعُه: آثام، والإثْمُ: الذَّنْبُ، وقد أثِمَ إثْمًا وأثامًا وقعَ في الإثم، فهو آثِمٌ وأَثِمٌ وأَثيمٌ، وقولُه تعالى: ﴿أَخَذَتۡهُ ٱلۡعِزَّةُ بِٱلۡإِثۡمِۚ﴾ [البقرة: 206]، أي: حملَتْه عزَّتُه على فعلِ ما يُؤَثِّمُه[7]، فيكونُ المرادُ بالإثْم في قولِه تعالى: ﴿ٱسۡتَحَقَّآ إِثۡمًا﴾ أي: فِعْلًا يأثمانِ عليه بكذبٍ في الشَّهادةِ أوِ اليمينِ أوْ بظهورِ خيانة[8]، وقيل معناه: "فإذا اطّلع على أنَّهما استوجبا إثمًا، أي: جناية باليمين الكاذبة الَّتي أقدما عليها، ﴿فَـَٔاخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا﴾ من ورثة المتوفَّى"[9].

4) ﴿لَشَهَٰدَتُنَآ﴾: شَهِدَ: الشّينُ والهاءُ والدَّالُ: أصلٌ يدُلُّ على حُضورٍ وعِلْمٍ وإعْلام، ومن

(1) ابن منظور، اللِّسان: (عثر).
(2) ابن الأثير، النّهاية في غريب الحديث والأثر: 3/182.
(3) الفيّوميُّ، المصباح المنير: 2/393.
(4) الرّازي، مختار الصِّحاح، والفيروزآبادي، القاموس: (حقق).
(5) نشوان بن سعيد، شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم: (الاستحقاق).
(6) الزَّمخشري، الكشّاف: 1/651، الشَّوكاني، فتح القدير: 2/124.
(7) الرّاغب، المفردات: (أثم)، والرّازي، مختار الصِّحاح: (أثم).
(8) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 1/651، والشَّوكاني، فتح القدير: 2/124.
(9) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: 3/244.

ذلكَ الشَّهادةُ تجمعُ تلكَ المعاني الثَّلاثة، يُقالُ: شَهِدَ يَشهَدُ شهادةً[1]، والمرادُ هنا في قولِه تعالى: ﴿لَشَهَٰدَتُنَآ أَحَقُّ مِن شَهَٰدَتِهِمَا﴾، أي: يَمينُنا أحقُّ من يَمينِهما، أي: يَحلِفان: لَشهادتُنا - على أنَّهما كاذبانِ خائنانِ - أحقُّ من شهادتِهما، أي: من يمينِهما على أنَّهما صادقانِ أمينان[2]، قال ابن سيده: "أشدُّ استحقاقًا للقَبولِ، وكَون إذْ ذاك على طرح الزّائِد، من اسْتحقَّ، أَعني: السّين والتّاء، ويجوز أَن يكون أَرادَ: أَثْبَتُ من شَهادَتهما، مُشتقٌّ من قَوْلهم: حَقَّ الشَّيْء؛ إذا ثَبَتَ"[3].

المَعْنى الإجْمالِيُّ:

استبدال الشَّاهدين الكاذبين، وحلف اليمين ضمانًا للحقوق

يُخبرُ اللّهُ تعالى أنَّه إن حَصَلَ الاطِّلاعُ على أنَّ الشّاهدَيْنِ اللَّذَيْن حَضَرا وصيَّةَ مَنْ ظَهرتْ عليه مُقدِّماتُ الموتِ وأماراتُه، قد كَذَبا، وخانا، فَلْيَقُمْ رَجُلانِ من أولياءِ الميِّت، ولْيكونا من أَقْرَبِ الأولياءِ إليه، فيحلفانِ أنَّ شهادةَ ذَيْنِكَ الشّاهدَيْنِ السّابقَيْنِ كاذبة، وأنَّ يمينَنا هو الصّادق، وما اعْتَدَيْنا فيه، ولا فيما قُلناهُ فيهما من الخيانةِ وإلّا كُنّا ظالمين[4]، وفي هذا ما يدلُّ على أنَّ كاتم الشَّهادة آثِمٌ، وقد بيَّن اللّه تعالى في موضع آخر من القرآن: أنَّ هذا الإثم من الآثام القلبيَّة، وذلك في قوله ﷻ: ﴿وَلَا تَكْتُمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَۚ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥۗ﴾ [البقرة: 283].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

كذِبُ الشّاهدَيْن في شهادتهما ليسَ هو الأصلَ بل استثناءٌ

دَلالةُ إيثار أداة الشّرط (إنْ):

جاء في هذه الآية استعمالُ أداة الشّرط (إنْ) التي تُستعمَلُ غالبًا في الشّرْطِ الّذي لا يتحقّقُ وقوعُه دائمًا، وفي هذا إيماءٌ وإشارةٌ إلى

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: 3/221.
(2) الشَّوكاني، فتح القدير: 2/124.
(3) ابن سيده المرسّي، المحكم والمحيط الأعظم: 2/475.
(4) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 2/105، والسّعدي، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 201.

أنَّ كذِبَ الشّاهدين اللّذينِ حضرا وصيّةَ المُحتَضَر ليسَ أمرًا متحقّقَ الوقوعِ وليسَ هو الأصلَ، وإنّما قدْ يقعُ، فإنْ حصلَ مثلُ ذلك فهذا علاجُهُ.

دَلالةُ المعنَى الحقيقيِّ والمجازيِّ في مصدرِ قولِه تعالى: ﴿عُثِرَ﴾:

مناسبةُ المعنَى المجازيِّ للسِّياقِ أقْوَى من المعنَى الحقيقيِّ

من بلاغة هذه الآية الكريمة استعمالُ مادّة (ع ث ر) حيثُ اسْتُعمِلَ (العُثورُ) في الظَّفَرِ بشيءٍ لم يكنْ مُترقَّبًا الظَّفَرُ به على سبيلِ الاسْتعارة، وشاعَ ذلكَ حتَّى صارَ كالحقيقة، فخصّوا في الاسْتعمال المعنَى الحقيقيَّ بأحدِ المصدَرَيْنِ، وهو العِثارُ، ومعناهُ مُتعلِّقٌ بالمَشْيِ والمنطقِ والرَّأي، وخصّوا المعنَى المجازيَّ بالمصدرِ الآخَر، وهو العُثور، ومعناهُ: الاطِّلاعُ، وهو المناسبُ لسياقِ الآيةِ الكريمة[1]، ذلك أنَّ كلَّ من اطَّلع على أمر كان خفيًّا؛ يقال: قد عَثَرَ عليه، والعثور على الشَّيء يكون في الغالب العلم الَّذي لم يكن له مقدِّمات عنده، بل ربَّما يكون الاطّلاع عليه بالمصادفة[2].

دلالةُ بناء الفعل ﴿عُثِرَ﴾ لما لمْ يُسَمَّ فاعله:

أهمّيّة الفعل لا الفاعل

جاء الفعل ﴿عُثِرَ﴾ مبنيًّا لما لمْ يُسَمَّ فاعله وذلك أمرٌ مقصودٌ يومِئُ إلى أنَّ الأصلَ الظّنُّ الحَسَنُ بالشّاهِدَيْن والنّاس جميعا، فإنْ حصلَ على وجه الموافقة وبدون طلبٍ وتبيّنَ أنّهما أتيا بالشّهادة على غير وجهها، فالمطلوبُ بيانُ كذبهما وإثباتُ زيف كلامهما بقسم يُبطِلُ ما قدّما من شهادة. وليسَ أحدٌ مُكلَّفًا بذلك بعينه؛ إذ مُكتشِفُ كذبهما ليس مهمّا في هذا السياق ولم يقصد السياقُ إلى التّنصيص عليه، وإنّما الذي ينبغي أن يُهتَمَّ به هو الفعلُ نفسُهُ، وهذا المعنى يناسبه بناءُ الفعل لما لم يُسَمَّ فاعله كما هو معلوم من قواعد العربيّة.

(1) العكبري، إملاء ما منَّ به الرَّحمن: 1/230، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 7/89.
(2) محمّد أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2385.

دَلالة تعدية الفعل ﴿عُثِرَ﴾ بـ ﴿عَلَىٰٓ﴾:

تضمين الفعل (عثر) معنى (اطّلع على)

في هذه الآية، جاءت تعديةُ الفعل ﴿عُثِرَ﴾ بحرف الاستعلاء ﴿عَلَىٰٓ﴾، واستعمالُ حرف الاستعلاء في هذا السّياق يُشيرُ إلى تضمين الفعل ﴿عُثِرَ﴾ معنى (اطّلع)، ويكون تقدير الكلام: فإن وجَدَ أحدُ أفراد البيت أو أولياء الميّت أنّ الشّاهدين لم يُقدّما الشّهادة على وجهها واطّلع على ذلك، فليَقُمْ آخران... وهذا من التّوسّع في استعمال الفعل في معنيين في سياق واحد.

دَلالة (السّين) و(التّاء) في قوله: ﴿ٱسۡتَحَقَّآ إِثۡمٗا﴾:

التّدقيق في الشّهادة قرينة على رُقيّ التّشريع، وتحصين الحقوق

أفادتِ (السّينُ) و(التّاءُ) في قولِه تعالى: ﴿ٱسۡتَحَقَّآ إِثۡمٗا﴾ التَّأكيدَ على ثبوتِ ارتكابِ الشّاهدَيْنِ ما يأثمانِ به من الكذبِ والخيانة، وبذلكَ يكونُ قد لزِمَهُما الإثْم، أي: وقعَ عليهما لا مَحالة[1]، "وفي الواقعة الَّتي نزلت فيها الآية، قام عمرو بن العاص، والمطَّلب بن أبي وداعة السَّهميُّ، فأقسما باللّه: أنَّ الشّاهِدَيْن السّابقين قد كذبا، وأنَّ الشَّهادة الَّتي يُقدِّمانها هي شهادة الحقِّ، لا اعتداء ولا جور فيها، على أصحاب الشَّهادة الأولى"[2]، وكلُّ ذلك راجع إلى أنَّ الغاية من هذه الأحكام، هو أن تأتي الشَّهادة على وجهها الصَّحيح، دون تدليس ولا تزييف، وهو قرينة على نزاهة القرآن، وصدق الأحكام.

دلالة إطلاقِ الصِّفةِ على الموصوف في قوله: ﴿ٱسۡتَحَقَّآ إِثۡمٗا﴾:

تشنيع القرآن على كتمان الشَّهادة وتزييفها

الأصلُ في قولِه تعالى: ﴿ٱسۡتَحَقَّآ إِثۡمٗا﴾ أن يُقال: اسْتحقّا فعلًا يأثمانِ عليه، فحَذَفَ الموصوفَ، وهو (الفعل)، وذكرَ صفتَه وهو (الإثم)، وجعلَها موضعَ الموصوفِ، ومُتلبِّسةً به، وذلكَ لشناعةِ هذا الفعلِ وقُبْحِ ما يترتَّبُ عليه، حتَّى أصبحَ هو الإثمَ بعينِه، فالإثْمُ هنا أنَّ الشّاهدَيْنِ اسْتبدَلا بما اسْتُؤمِنا عليه، عِوَضًا لأنفُسِهما أو

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 7/89.

(2) محمّد متوليّ الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ (الخواطر): 6/3442.

لغيرِهما، أو بأنْ يظهرَ أنَّهما كتَما الشَّهادة، فقد خانا ما عاهَدا اللّٰه عليه، ممّا ذكرَه بيانُ اللّٰهِ تعالى عنهما: ﴿لَا نَشۡتَرِي بِهِۦ ثَمَنٗا وَلَوۡ كَانَ ذَا قُرۡبَىٰ وَلَا نَكۡتُمُ شَهَٰدَةَ ٱللَّهِ﴾ [المائدة: 106][1].

نكتةُ إطلاقِ الوصفِ وحذفِ الموصوف في قوله ﴿فَـَٔاخَرَانِ﴾:

إثبات الشَّهادة بالقرائن مُعين على إظهار الحقِّ وإقراره لأهله

قولُه تعالى: ﴿فَـَٔاخَرَانِ﴾، أي: رَجُلانِ آخَران؛ لأنَّ وصفَ آخَرَ، يُطلَقُ على المُغايرِ بالذّاتِ أو بالوصفِ، مع المماثلِ في الجنسِ المتحدَّثِ عنه، والمُتحدَّثُ عنه هنا اثْنان، فالمعنَى: اثْنانِ آخرانِ يقومانِ مقامَهما في إثْباتِ الوصيَّة، والمعنى: "أي: فشاهدان آخران يقومان في إحقاق الحقِّ، وإظهار الحقيقة، وبيان ما خفي من إرادة المتوفَّى وأمواله، وما له من حقوق وعليه من واجبات، مقام الأوَّلين. وهذا التَّعبير من ألطف التَّعابير بعد ظهور الإثم؛ إذ إنَّه ينبئ عن التَّعاون بين هؤلاء الآثمين، والأبرياء في إظهار الحقِّ، إذ إنَّ المجنيَّ عليهما، يقومان مقام من جنوا"[2].

نكتةُ الحذفِ بالإيْجاز، في قوله تعالى: ﴿فَـَٔاخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا﴾:

دلالة المحذوف على ما يُعبِّرُ عن بُطلان الشَّهادة الكاذبة

في قولِه تعالى: ﴿فَإِنۡ عُثِرَ عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا ٱسۡتَحَقَّآ إِثۡمٗا فَـَٔاخَرَانِ﴾ دلَّ قولُه: ﴿فَـَٔاخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا﴾ على محذوفٍ هو بُطلانُ شهادةِ الشّاهدَيْن؛ لأنَّ قولَه: ﴿فَـَٔاخَرَانِ﴾ فرعٌ عن ذلكَ البُطلان، وهذا من بابِ الإيجاز، كقولِه تعالى: ﴿فَقُلۡنَا ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡحَجَرَۖ فَٱنفَجَرَتۡ مِنۡهُ ٱثۡنَتَا عَشۡرَةَ عَيۡنٗاۖ﴾ [البقرة: 60]، أي: فَضَربَ، فانْفجرتْ[3]، أي: فإن وُجِد من القرائن ما يدلُّ على كذب الشّاهدين، وأنَّهما خانا أمانة الشَّهادة، فلْيَقُمْ مقامهما رجلان من أولياء الميّت، ولْيكونا من أقرب الأولياء إليه[4]، حتَّى نضمنَ المصداقيَّة لتطبيق هذا الحكم الخاصِّ.

(1) أبو السُّعود، إملاء ما منّ به الرّحمن: 2/140، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 7/89.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2386.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 7/89.
(4) عبد الرّحمن السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن في تفسير كلام المنّان: 1/246.

إفادة ضمان التَّشريع لحقوق المتضرِّرين بكذب الشَّاهِدَيْن الأوَّلين

دلالة تنوُّع التَّأويل الإعرابيِّ للَّفظ ﴿فَـَٔاخَرَانِ﴾ في الآية:

قولُه تعالى: ﴿فَـَٔاخَرَانِ﴾ فيه أربعةُ أَوْجُه من حيث الإعرابُ:

الأوَّلُ: أنْ يرتفعَ على أنَّه خبرُ مبتدَإٍ مُضمَر، تقديرُه: فالشّاهدانِ آخَران، والفاءُ جوابُ الشَّرط، دخلتْ على الجملةِ الاسْميَّة، وقد تقدَّمَ تفصيلُه بارتباطِه بقولِه: ﴿يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا﴾.

والثّاني: أنَّه مرفوعٌ بفعلٍ مُضمَرٍ، تقديرُه: فَلْيشهَدْ آخَران[1].

والثّالثُ: أنَّه خبرٌ مُقدَّم، و﴿ٱلْأَوْلَيَـٰنِ﴾ مبتدأٌ مؤخَّر، والتَّقديرُ: فالأوْلَيانِ بأمرِ الميِّتِ آخَرانِ يقومانِ مَقامَهما.

والرّابعُ: أنَّه مبتدأ، وفي الخبرِ حينئذٍ احْتمالات: أحدُها: قولُه: ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَحَقَّ﴾، وجازَ الابْتداءُ به لتخصُّصِه بالوصف، وهو الجملةُ من ﴿يَقُومَانِ﴾، والثّاني: أنَّ الخبرَ ﴿يَقُومَانِ﴾ و﴿مِنَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَحَقَّ﴾ صفةُ المبتدأ، ولا يَضُرُّ الفصلُ بالخبرِ بين الصِّفةِ وموصوفِها، والمسوِّغُ - أيضًا - للابْتداءِ به اعْتمادُه على فاءِ الجزاء، والثّالثُ: أنَّ الخبرَ قولُه: ﴿ٱلْأَوْلَيَـٰنِ﴾، وقولُه: ﴿يَقُومَانِ﴾ و﴿مِنَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَحَقَّ﴾ كلاهما في محلِّ رفعٍ صفةٌ لـ ﴿فَـَٔاخَرَانِ﴾، ويجوزُ أنْ يكونَ أحدُهما صفةً أُخرَى لـ ﴿فَـَٔاخَرَانِ﴾، والآخَرُ حالًا من ضميرِ الفاعلِ في ﴿يَقُومَانِ﴾[2]، وجاءتِ الحالُ مِنَ النَّكرةِ لتخصُّصِها بالوصفِ، وفي هذا الوجهِ ضَعْفٌ، من حيثُ إنَّه إذا اجتمعتْ معرفةٌ ونكرةٌ؛ جُعلتِ المعرفةُ مُحدَّثًا عنها، والنَّكرَةُ حديثًا[3].

سرُّ التَّركيبِ البليغ في قولِه تعالى: ﴿يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا﴾:

جاءَ الفعلُ ومصدرُه في قولِه تعالى: ﴿يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا﴾؛ ليدلّا على ثلاثةِ معان: الأوَّلُ: أنَّ المَقامَ هو محلُّ القيام، والثّاني: أنْ يُرادَ به محلُّ

(1) العكبري، الإملاء: 1/230، والسَّمين الحلبي، الدُّرُّ المصون: 4/471.
(2) العكبري، الإملاء: 1/230، والسَّمين الحلبي، الدُّرُّ المصون: 4/472.
(3) السَّمين الحلبي، الدُّرُّ المصون: 4/472.

عملٍ ما، ولو لم يكنْ فيه قيام، والثّالثُ: أنْ يُرادَ به العملُ الّذي من شأنِه أنْ يقعَ في محلٍّ يقومُ فيه العامل، وذلكَ في العملِ المُهِمِّ، فمقامُ الشّاهدَيْنِ هنا هو إثْباتُ الوصيَّة، ويكونُ معنَى ﴿يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا﴾، أي: رجلانِ آخَرانِ يُعوِّضان تلكَ الشَّهادةَ الَّتي وقعَ فيها كذِبٌ وخيانة[1].

استبدال الشَّاهدين دلالة على إثباتِ الوصيَّة، وكذبهما في الشَّهادة

أهميَّة الموقع الإعرابيّ في فهم المعنى في جملة: ﴿يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا﴾:

جملةُ ﴿يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا﴾ خبرٌ للمبتدأ المحذوفِ المقدَّرِ (رَجُلانِ)، أي: رَجُلانِ أوْ شاهدانِ آخَرانِ يقومانِ مقامَهما، ولا محذورَ في الفصلِ بالخبرِ بين المبتدأ وبين وصفهِ الَّذي هو الجارُّ والمجرورُ بعدَه، أي: يقومانِ مقامَ اللَّذَيْنِ عُثِرَ على خيانتِهما، وليس المرادُ بمقامِهما مقامَ أداءِ الشَّهادةِ الَّتي تولَّياها، ولم يؤدّياها كما هي؛ بل هو مقامُ الحَبْسِ والتَّحليفِ على الوجهِ المذكورِ؛ لإظهارِ الحقِّ وإبرازِ كذبِهما فيما ادَّعَيا من اسْتحقاقِهما لا في أيديهما[2]، وجازَ الابتداءُ بالنَّكرةِ هنا في قولِه: ﴿فَـَٔاخَرَانِ يَقُومَانِ﴾ لحصولِ الفائدةِ به[3]، والمسوِّغُ للابتداءِ به اعتمادُه على فاءِ الجزاء[4]، ويمكنُ أنْ يكونَ ﴿يَقُومَانِ﴾ في محلِّ رفعٍ صفةً لـ ﴿فَـَٔاخَرَانِ﴾[5].

الإعراب في لغة العرب فرعٌ عن المعنى

دَلالةُ ﴿مِنَ﴾ التَّبعيضيَّة في سياق قوله تعالى: ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَحَقَّ﴾:

﴿مِنَ﴾ في قولِه تعالى: ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَحَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَوۡلَيَٰنِ﴾ تبعيضيَّة، أي: شخصانِ آخَرانِ يكونانِ من الجماعةِ مِنَ الَّذينَ اسْتُحقَّ عليهم[6]، "من الَّذين استحقَّ عليهم الإثم، أي: من الَّذين جُنيَ عليهم، وهم أهل الميِّت وعشيرته"[7].

صيانة الشَّرع لمقام أهلِ الاستحقاق من القرابة

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 7/89.
(2) أبو السُّعود، الإرشاد: 2/140.
(3) العكبري، الإملاء: 1/230.
(4) السَّمين الحلبي، الدُّرُّ المصون: 4/472.
(5) السَّمين الحلبي، الدُّرُّ المصون: 4/471.
(6) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 7/89.
(7) إبراهيم الأبياري، الموسوعة القرآنيّة: 9/409.

دَلالةُ تعديَةِ الفعل بـ (على) الاسْتعلائيَّة في قولِه: ﴿ٱسۡتَحَقَّ عَلَيۡهِمُ﴾:

احتياط الشَّريعة لوَأْد النِّزاع في مهده حكمة بالغة

الاسْتحقاقُ كونُ الشَّيءِ حقيقًا بشيءٍ آخَر، ويتعدَّى إلى المفعولِ بنفسِه، كقولِه: ﴿ٱسۡتَحَقَّآ إِثۡمٗا﴾، فالإثْمُ: هو الشَّيءُ المسْتحَقُّ، وإذا كانَ الاسْتحقاقُ عن نِزاعٍ يُعدَّى الفعلُ إلى المحقوقِ بـ (على) الدّالَّةِ على الاسْتعلاءِ بمعنى: اللُّزوم له، وإن كُره، كأنَّهم ضمَّنوه معنَى وجَب، كقولِه تعالى: ﴿حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ﴾ [الأعراف: 105]، يُقالُ: (اسْتحقَّ زيدٌ على عمرٍو كذا)، أي: وجَبَ لزيدٍ حقٌّ على عمرٍو، فأخذَه منه[1].

نكتةُ ذِكْرِ ﴿ٱلۡأَوۡلَيَٰنِ﴾ وارْتباطه بلفظ ﴿ٱسۡتَحَقَّ﴾:

الشَّريعة تراعي درجة القرابة في الاستحقاق

قولُه تعالى: ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَحَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَوۡلَيَٰنِ﴾، المرادُ به مَوالي الميِّت، والعِلَّةُ في وصْفِ مَوالي الميِّتِ بهذا الوصفِ وجهٌ واحد، وهو أنَّهم إنَّما وُصِفوا بذلك؛ لأنَّه لَمّا أُخِذَ مالُهم؛ فقدِ اسْتحقَّ عليهم مالُهم، فإنَّ مَنْ أخذَ مالَ غيرِه، فقد حاولَ أنْ يكونَ تعلُّقُه بذلكَ المالِ مُسْتعليًا، على تَعلُّقِ مالِكه به، فصحَّ أنْ يوصَفَ المالكُ بأنَّه قدِ اسْتحقَّ عليه ذلكَ المال[2]، والأوليان الأحقّان بالشَّهادة لقرابتهما ومعرفتهما، وهما أولى من غيرهما في هذا المضمار، وعليه: "فإذا ظهر بعد ذلك للحاكم أو لورثة الميَّت: أنَّ هذين الرَّجلين لم يكونا أمينين في أداء ما كلَّفهما الميِّت بأدائه، فعندئذٍ يقوم رجلان من أقرب ورثة الميِّت، ليحلفا باللّه أنَّ شهادتهما أحقُّ وأولى من شهادة الرَّجلين الأوَّلين، وأنَّ هذين الرَّجلين لم يؤدّيا الوصيَّة على وجهها"[3].

لفظ ﴿ٱلۡأَوۡلَيَٰنِ﴾ تتعدَّد معانيه بتعدُّد وجوه تأويله عند العلماء:

في إعرابِ قولِه تعالى: ﴿ٱلۡأَوۡلَيَٰنِ﴾ أربعةُ أوجه: الأوَّلُ: أنْ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 7/89 - 90.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 12/455.
(3) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 4/322.

يكونَ خبرًا لمبتدأٍ محذوف، والتَّقديرُ: هما الأَوْلَيان؛ وذلكَ لأنَّه لَمّا قالَ: ﴿فَـَٔاخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا﴾، فكأنَّه قيل: ومَنْ هما؟ فقيل: الأَوْليان[1]، والثّاني: أنْ يكونَ بَدَلًا من الضَّميرِ الَّذي في ﴿يَقُومَانِ﴾ والتَّقديرُ: فيقومُ الأَوْليان، والثّالثُ: يجوزُ أنْ يكونَ قولُه: ﴿ٱلْأَوْلَيَٰنِ﴾ بَدَلًا من قولِه: ﴿فَـَٔاخَرَانِ﴾، وإبْدالُ المعرفةِ من النَّكرةِ كثيرٌ[2]، والرّابعُ: أنْ يكونَ قولُه: ﴿ٱلْأَوْلَيَٰنِ﴾ صفةً لقولِه: ﴿فَـَٔاخَرَانِ﴾؛ وذلكَ لأنَّ النَّكرةَ إذا تقدَّمَ ذِكْرُها، ثمَّ أُعيدَ عليها الذِّكرُ؛ صارتْ معرفة، كقولِه تعالى: ﴿كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ [النّور: 35]، فمصباحٌ نكرة، ثمَّ قالَ: ﴿ٱلْمِصْبَاحُ﴾ [النّور: 35] ثمَّ قالَ: ﴿فِى زُجَاجَةٍ﴾ [النّور: 35]، ثمَّ قالَ: ﴿ٱلزُّجَاجَةُ﴾ [النّور: 35]، وهذا مِثْلُ قولِكَ: رأيتُ رَجُلًا، ثمَّ يقولُ إنسانٌ: مَنِ الرَّجلُ؟ فصارَ بالعَوْدِ إلى ذِكْرِه معرفة[3].

سرُّ التَّركيب القرآنيِّ في تعدُّد معانيه بتنوُّع مبانيه

نُكتةُ الوصفِ بـ ﴿ٱلْأَوْلَيَٰنِ﴾ في قوله: ﴿ٱسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْأَوْلَيَٰنِ﴾:

في قوله: ﴿ٱسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْأَوْلَيَٰنِ﴾: جاء قولُه: ﴿ٱلْأَوْلَيَٰنِ﴾ وصفًا لـ ﴿فَـَٔاخَرَانِ﴾، لوجهَيْن: الأوَّلُ: معنَى ﴿ٱلْأَوْلَيَٰنِ﴾ الأَقْربانِ إلى الميِّت، والثّاني: يجوزُ أنْ يكون المعنَى: الأَوْليانِ باليمين، والسَّببُ فيه أنَّ الوَصيَّيْنِ قدْ حَلَفا يمينًا في أمرِ الوصيَّةِ كذِبًا وزورًا، فانتقلَ اليمينُ إلى مَوالي الميِّت، فأنكرا يمينَ الشّاهدَيْنِ السّابقَيْن، فكانَ اليمينُ حينئذٍ حقًّا لهما، وهذا كما أنَّ إنسانًا أقرَّ لآخرَ بدَيْنٍ، ثمَّ ادَّعى أنَّه قضاهُ، حُكِمَ بردِّ اليمين إلى الَّذي ادَّعى الدَّيْنَ؛ لأنَّه صارَ مُدَّعًى عليه أنَّه قدِ اسْتوفاه[4].

الأولويَّة في القرابة مُقدَّمة في الشَّرع حسْمًا للنِّزاع

أثر القراءات القرآنيَّة في المعنى في قولِه: ﴿ٱسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْأَوْلَيَٰنِ﴾:

في قولِه تعالى: ﴿ٱسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْأَوْلَيَٰنِ﴾ ثلاثُ قراءاتٍ

(1) العكبري، الإملاء: 1/230، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 12/455، وأبو السُّعود، الإرشاد: 2/140.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 12/455، وأبو السُّعود، الإرشاد: 2/140.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 12/455.
(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 12/455.

القراءات القرآنيَّة ذات أثر في التَّأويل والتَّرجيح

مُتواترة[1]: الأوْلى: بفتحِ تاءِ ﴿ٱسْتَحَقَّ﴾ وتثنيةِ ﴿ٱلْأَوْلَيَٰنِ﴾، والثّانيةُ: بضمِّ تاءِ ﴿ٱسْتَحَقَّ﴾، وكسرِ الحاء، وجمع ﴿ٱلْأَوْلَيَٰنِ﴾، والثّالثةُ: بضمِّ تاءِ ﴿ٱسْتَحَقَّ﴾، وكسرِ الحاء، وتثنيةِ ﴿ٱلْأَوْلَيَٰنِ﴾، وتوجيهُ هذه القراءاتِ ومعانيها كما يلي بيانُه: الأولى: بصيغةِ البناءِ للفاعل، فيكونُ الأوْليانِ هو فاعلُ اسْتحقَّ، فيكونُ قولُه: ﴿فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ﴾ تفريعًا على قولِه: ﴿يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا﴾، والثّانيةُ: ﴿ٱلْأَوْلَيَٰنِ﴾ جمعُ (أوَّل) الَّذي هو مجازٌ بمعنَى: المقدَّم والمبتدإ به، فالَّذين استُحقَّ عليهم هم أولياءُ الموصي، حيثُ استحقَّ الموصَى له: الوَصيَّة من مالِ التَّركةِ الَّذي كانَ للأَوْلياء، أي: الورثةِ لولا الوصيَّة، وهو مجرور صفة لـ ﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ﴾، والثّالثةُ: ﴿ٱسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ﴾ بالبناءِ للمجهول، فالفاعلُ المحذوفُ في قولِه: ﴿ٱسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ﴾ هو مُستحِقٌّ ما، وهو الَّذي انتفعَ بالشَّهادةِ واليمينِ الباطلة، فنالَ من تركةِ الموصي ما لم يجعلْه له الموصي، وغلبَ وارث الموصي بذلك، فالَّذين استُحقَّ عليهم هم أولياءُ الموصي الَّذين لهم مالُه بوجهٍ من وجوهِ الإرْثِ، فحُرِموا بعضَه، وقولُه: ﴿عَلَيْهِمُ﴾ قائمٌ مقامَ نائبِ فاعلِ ﴿ٱسْتَحَقَّ﴾[2].

دَلالاتُ شبه الجملة ﴿عَلَيْهِمُ﴾:

لحروف المعاني دلالات مهمَّة، تُعين على فهم المراد من الجملة

في قوله: ﴿ٱسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْأَوْلَيَٰنِ﴾، نجد في لفظ (على) ثلاثةَ أَوْجُه: أحدُها: أنَّها على بابِها، كقولكَ: وجَبَ عليه الإثم، والثّاني: أنَّها بمعنَى (في)، أي: اسْتُحِقَّ فيهمُ الوصيَّةُ ونحوُها، ويمكنُ أنْ يكونَ التَّقديرُ: اسْتُحِقَّ فيهم الإثمُ، فوقعتْ (على) موقعَ (في) كما تقعُ (في) موقعَها، كقولِه تعالى: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾

(1) الأولى لحفصٍ عن عاصم، والثّانية لشعبة عن عاصم، وحمزة، ويعقوب، وخلف، والثّالثة لأبي جعفر، ونافع، وأبي عمرو، وابن كثير، وابن عامر، والكسائي، ينظر: ابن زنجلة، الحُجَّة، ص: 238، ومكّي، الكشف: 1/420، وابن الجزري، النَّشر: 2/256.

(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 12/455، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 7/90.

[طه: 71]، أي: على جُذوعِ النَّخل، والثّالثُ: هي بمعنَى (من)، أي: استحقَّ منهم الأَوْلَيان، ومثلُه قولُه تعالى: ﴿ٱكۡتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسۡتَوۡفُونَ ۝٢﴾ [المطفِّفين: 2]، أي: من النّاس[1].

فهم لفظ ﴿ٱسۡتَحَقَّ﴾ من خلال مرفوعه في سيَاق الآية:

عطاء القرآن يتنامى مع الزَّمان وتطوُّر الإنسان

دلَّ قولُه: ﴿ٱسۡتُحِقَّ﴾ بالبناءِ للمفعول في غير قراءة حفصٍ عن عاصم[2] على أنَّ مرفوعَ ﴿ٱسۡتُحِقَّ﴾ خمسةُ أَوْجه: أحدُها: الأَوْليانِ، في تقديرِ (على) بمعنَى: (من)، أي: اسْتُحِقَّ منهما الأَوْلَيان، والثّاني: الوصيَّةُ، في تقديرِ (على) بمعنى: (في)، أي: اسْتُحِقَّ فيهمُ الوصيَّة، والثّالثُ: ضميرُ الإيْصاء، أي: اسْتُحِقَّ عليهمُ الإيْصاء، والرّابعُ: ضميرُ الإثْم، أي: اسْتُحِقَّ عليهمُ الإثْم، والخامسُ: ضميرُ المال، أي: اسْتُحقَّ عليهمُ المالُ الموروث[3]، وهذا التَّنوُّع في التَّوجيه والفهم، يعطي صورة جليَّة عن انفساح لغة القرآن للتَّعدُّد في المعنى ممّا تسمح به القرائن، ويستوجبه السّياق، ويتطلَّبه مقتضى الحال، وتقتضيه ظروف نزول الآية، وتغيُّر إسقاطاتها بالموازاة مع متطلَّبات العصور الأخرى بعد عصر النُّزول.

نكتةُ تعريفِ ﴿ٱلۡأَوۡلَيَٰنِ﴾ في قوله تعالى: ﴿ٱسۡتَحَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَوۡلَيَٰنِ﴾:

أفادتِ الدَّمُ ما عَهِدَه المخاطَبُ في ذهنِه في شأنِ الشَّهادة

﴿ٱلۡأَوۡلَيَٰنِ﴾: تثنيةُ أَوْلَى، وهو الأَجْدرُ والأَحقُّ، أي: الأَجْدرانِ بقَبولِ قولِهما، وإنَّما عُرِّفَ بـ (اللّام)؛ لأنَّه معهودٌ للمُخاطَب ذهنًا؛ لأنَّ السّامعَ إذا سمعَ قولَه تعالى: ﴿فَإِنۡ عُثِرَ عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا ٱسۡتَحَقَّآ إِثۡمٗا﴾ تَرَقَّبَ أنْ يعرفَ مَنْ هو الأَوْلى بقَبولِ قولِه في هذا الشَّأن، فقيلَ له: آخرانِ هما الأَوْليانِ بها[4]، "ذكر النَّصُّ أنَّهما الأوليان بالنُّطق بالحقِّ، لأجل الورثة؛ إمّا لأنَّهم أقربُ الورثة، أو لأنَّهما أرشدهم، أو

(1) العكبري، الإملاء: 1/230، والسَّمين الحلبي، الدُّرُّ المصون: 4/478 - 479.
(2) ابن الجزري، النشر: 2/256.
(3) العكبري، الإملاء: 1/230، والسَّمين الحلبي، الدُّرُّ المصون: 4/479.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 7/90.

أَلْحَقُ بمحبَّتهم، ومعنى النَّصِّ الكريم على هذا: أنَّ اللَّذين شهدا المتوفَّى عند وفاته، هما أولى النّاس بذكر الحقيقة"[1].

عِلَّةُ تقديمِ الخبرِ على المبتدأ في لفظي ﴿ٱلْأَوْلَيَٰنِ﴾ و﴿فَـَٔاخَرَانِ﴾:

أفادَ هذا التَّقديمُ سدَّ بُلغةِ السَّامعِ في معرفةِ الحُكْم

قولُه تعالى: ﴿ٱلْأَوْلَيَٰنِ﴾ مبتدأٌ تأخَّرَ عن خبرِه، وهو ﴿فَـَٔاخَرَانِ يَقُومَانِ﴾[2]، وجاءَ تقديمُ الخبرِ هنا لتعجيلِ الفائدة؛ لأنَّ السّامعَ يترقَّبُ الحُكمَ بعدَ قولِه: ﴿فَإِنْ عُثِرَ عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا ٱسْتَحَقَّآ إِثْمًا﴾، فإنَّ ذلكَ العُثورَ على كَذِبِ الشّاهدَيْنِ، يُسقِطَ شهادتَهما ويمينَهما، فكيفَ يكونُ القضاءُ في ذلكَ؟ فعجَّلَ الجوابَ لأجلِ ذلك[3]، وهذا التَّشريع ضمانٌ "أن يؤدّي الشُّهودُ شهاداتهم صحيحةً، وذلك محافظة على حلفهم باللّه، وخوفًا من فضيحتهم بظهور كذبهم، حين يحلف الورثة لردِّ أيمانهم"[4].

دَلالةُ القَسَمِ في قولِه تعالى: ﴿فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ﴾:

إثباتُ الشَّهادة باليمين إحقاقٌ للحقِّ وإبطالٌ للباطل

تَضمَّنَ القَسَمُ في قولِه تعالى: ﴿فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ﴾ على صدقِ خبرِ الشّاهدَيْن الآخرَيْن يمينًا على إثباتِ حقِّهما، فهي من اليمينِ الَّتي يثبُتُ بها الحقُّ مع الشّاهدِ العُرفيِّ، وهو شاهدُ التُّهمةِ الَّتي عُثِرَ عليها في الشّاهدَيْنِ اللَّذيْنِ يُبلِّغانِ الوصيَّة[5]، والشّاهدان القريبان يحلفان باللّه قائلَيْن: لا نحابي بشهادتنا أحدًا، ولا نحلف باللّه كاذِبَيْن من أجل المال، ولو كان لمصلحة ذي قُربى.

دلالة عطف جملة ﴿فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ﴾ على جملة ﴿يَقُومَانِ﴾:

قولُه تعالى: ﴿فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ﴾ عطفٌ على ﴿يَقُومَانِ﴾:[6] أفادَت هذه

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2387

(2) العكبري، الإملاء: 1/230، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 12/455، وهو أحدُ وجوهِ إعراب (الأَوْليان) الَّتي تقدَّم بيانُها.

(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 7/90.

(4) إبراهيم القطّان، تيسير التّفسير: 1/443.

(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 7/91.

(6) العكبري، الإملاء: 1/231، وأبو السُّعود، الإرشاد: 2/140.

الجملةُ أنَّ اللَّذيْنِ يُقسمانِ هما الشّاهدانِ المرادانِ بقولِه: ﴿يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا﴾، أي: مَقام الأوَّلَيْن، وبهذا يتبيَّن أنَّهما يحلفانِ باللّهِ لَشَهادَتُنا، أي: يمينُنا أحقُّ من يمينِ الرَّجُلَيْنِ السّابقَيْنِ الكاذِبَيْنِ الخائِنَيْنِ على أنَّهما صادقانِ أمينان[1]، ويكونُ قولُه: ﴿لَشَهَدَتُنَآ أَحَقُّ﴾ جوابَ القَسَمِ في قوله: ﴿فَيُقْسِمَانِ﴾[2]، والغاية من ذلك أن يؤدّي الشُّهداء الشَّهادة على وجهها الحقيقيِّ، بلا تبديل ولا تغيير، خوفًا من عذاب اللّه، وهذه حكمة تغليظ الشَّهادة بكونها بعد صلاة العصر؛ لأنَّه وقت القضاء، والفصل في الدَّعاوي، فتكون الصَّلاة مذكِّرة للشُّهود بالحقِّ والعدل، أو خوفًا من ردِّ اليمين على الورثة، وفي ذلك الخزي والفضيحة بين النّاس، فيظهر كذبهم بين النّاس، وهكذا يكون الخوف من عذاب اللّه، أو من ردِّ اليمين، مدعاة الصِّدق والبعد عن الخيانة"[3].

القسم مسلك تشريعيٌّ مُهمٌّ للفصل بين الخصوم

نكتةُ صيغةِ التَّفضيل في قوله تعالى: ﴿لَشَهَدَتُنَآ أَحَقُّ﴾:

قولُه تعالى: ﴿لَشَهَدَتُنَآ أَحَقُّ مِن شَهَدَتِهِمَا﴾، جاءتْ فيه صيغةُ التَّفضيلِ ﴿أَحَقُّ﴾ مع أنَّه لا حقيَّة في يمينِهما لبيانِ إمكانِ قَبولِ يمينِهما في الجُملة، أي: باعتِبارِ احْتمالِ صدقِهما في ادِّعاءِ تَملُّكِهما لما ظهرَ في أيديهما[4]، وعبارة ﴿لَشَهَدَتُنَآ أَحَقُّ﴾، تفيد أنَّهما " يحلفان على أنَّ ما يشهدان به من خيانة الشَّهيدين اللَّذين شهدا على وصية ميِّتهما أحقُّ وأصدق من شهادتهما بما كانا شهدا به"[5].

أفادتْ صيغةُ (أحقُّ) المفاضَلَةَ بين الشَّهادتين، وأنَّ الثَّانية يقينٌ

دلالة العطف في قولِه تعالى: ﴿وَمَا ٱعۡتَدَيۡنَآ﴾ من هذه الآية:

قولُه تعالى: ﴿وَمَا ٱعۡتَدَيۡنَآ﴾ عطفٌ على جوابِ القسمِ ﴿لَشَهَدَتُنَآ أَحَقُّ﴾، أي: ما تجاوزْنا فيها الحقَّ، أوْ ما اعْتَدَيْنا عليهما بإبْطالِ

إفادة العطف التَّأكيد والتَّعليل والتَّوطِئة

(1) أبو السُّعود، الإرشاد: 2/140، والشَّوكاني، فتح القدير: 2/125.
(2) العكبري، الإملاء: 1/231، والسَّمين الحلبي، الدُّرُّ المصون: 4/482.
(3) وهبة الزّحيلّي، التّفسير الوسيط: 1/514.
(4) أبو السُّعود، الإرشاد: 2/141.
(5) رضا، تفسير المنار: 7/185.

حقِّهما[1]، وفي هذا العطفِ تأكيدٌ لأحقيَّةِ شهادتِهما وصدقِهما فيها، وتَوْطئةٌ وتعليلٌ لقولِه: ﴿إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، وهذا العطف أبان أنَّهما ما اعتديا عليهما بتهمة باطلة، أو ما اعتديا الحقَّ فيما اتَّهموهما به، بل كانا يشهدان بما يرضي اللّه، ويرضي ضمائرهم، فكانت الجملة المعطوفة موضِّحة للجملة المعطوفة عليها، وقد أبانت الوصف الَّذي ذكروه لشهادتهما وصحَّتها وقوَّتها[2].

حذفُ متعلّق الفعل ﴿ٱعۡتَدَيۡنَآ﴾ ودورُهُ في توسيع الدلالة:

دورُ الإيجاز بالحذف في توسيع الدّلالة ونَفي التُّهمة عن الشّاهدين الجديدين

لقد جاءت عبارةُ ﴿وَمَا ٱعۡتَدَيۡنَآ﴾ قمّةً في الإيجاز حيثُ حُذِفَ مُتَعلَّقُ الفعل (اعتدينا)، وللمستمع في هذه الحال أنْ يُقدِّرَ ما شاء ممّا يتناسبُ مع السّياق مثل: وما اعتدينا بإبطال شهادتهما، وما اعتديْنا عليهما بتُهمة باطلة، وما جاوزنا الحقَّ في شهادتنا التي نشهدُها.

دَلالةُ الاستئنافِ في قولِه: ﴿إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾:

كتم الشَّهادة من الظُّلم الصُّراح

قولُه تعالى: ﴿إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ اسْتئنافٌ مُقرِّرٌ لما قبلَه، أي: إنّا إنِ اعْتَدَيْنا في يميننا لَمِنَ الظّالمينَ أنفُسَهم بتعريضِها لسَخَطِ اللّهِ تعالى وعذابِه، بسببِ هَتْكِ حُرمةِ اسْمِ اللّهِ تعالى، أوْ لَمِنَ الواضعينَ الحقَّ في غيرِ موضعِه[3]، وخلاصة ذلك: "فيحلفان باللّه قائلين: لا نستبدلُ باليمين عِوضًا، ولو كان فيه نفع لنا، أو لأحد من أقاربنا، ولا نخفي الشَّهادة الَّتي أمرنا اللّه بأدائها...فإذا أخفينا الشَّهادة أو قلنا باطلًا؛ حقَّ علينا عذابُ اللّه؛ لأنَّنا ظالمان"[4].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

العثور والاطلاع:

وذلك فيما يَتّصِلُ بقوله تعالى: مادّةُ (طلع) تفيد الظّهور،

(1) أبو السُّعود، الإرشاد: 2/140.
(2) رشيد رضا، تفسير القرآن الحكيم: 7/187.
(3) أبو السُّعود، الإرشاد: 2/141.
(4) أبو السُّعود، الإرشاد: 2/141.

وطَلَعَت الشَّمسُ طُلوعًا ومَطْلَعًا: ظهرت، قالَ تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ﴾ [طه: 130]، والمَطْلَعُ: موضعُ الطُّلوع، قالَ تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ﴾ [الكهف: 90]، ومنه استُعيرَ: طَلَعَ علينا فلانٌ، واطَّلَعَ، قالَ تعالى: ﴿هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ۝٥٤﴾ [الصّافّات: 54]، وقالَ سُبحانه: ﴿فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾ [غافر: 37]، واسْتطلعتُ رأيَهُ: حاولتُ التَّعَرُّفَ على رأيه في الأمر. أمّا ﴿عُثِرَ﴾؛ فقد تبيَّن أنَّه يُتجوَّزُ به، فيمن يَطَّلِعُ على أمرٍ من غيرِ طَلَبه، وأصلُ عثَرَ بمعنَى: اطَّلعَ من العَثْرةِ الَّتي هي الوُقوع، فالعاثرُ إنَّما يعثُرُ بشيء كان لا يراه، فلمّا عَثَرَ به؛ اطَّلع عليه، ونظرَ ما هو، فقيلَ لكلِّ منِ اطَّلعَ على أمرٍ كانَ خفيًّا عليه: قد عَثَرَ عليه[1]، وبالنَّظرِ بين معنَى الكلمتَيْن (العُثور) و(الاطِّلاع): نجدُ أنَّ سياقَ الآيةِ الكريمةِ تشفي بُلْغتَه كلمةُ (العُثور) وفعلُها ﴿عُثِرَ﴾، فالأمرُ في قضيَّةٍ مهمَّةٍ، وهي التَّحرّي والتَّثبُّتُ في شهادةِ الشّاهدَيْن، هل ظهرَ ما كان خفيّا من كذبٍ أو خيانةٍ، في شهادتِهما أو لم يظهر؟ وهذا المعنَى الدَّقيقُ يُسعِفُه الفعلُ ﴿عُثِرَ﴾ دونَ (اطُّلِعَ)، وبعض التَّفاسير تقول: بأنَّ ﴿عُثِرَ﴾: بمعنى: اطُّلِعَ على استحقاقِهما الإثمَ ... وعليه؛ فإنَّ سياق الآية والقرائن المصاحبة، هي الَّتي تحدِّد الفرق بينهما، ولاغرو أن يلمَح القارئ للآية مدى السَّلاسة الَّتي وفَّرتها لفظة ﴿عُثِرَ﴾، في إيقاع الجملة، مع ما فيها من وضوح ودقَّة لا تتوفَّر عليه لفظة (اطَّلع).

لفظ (عُثِرَ) أوفق للدَّلالة على التَّثبُّت من صحَّة الشَّهادة

(اسْتَحَقّا) و(اسْتوجَبا):

الاسْتحقاقُ قائمٌ على معاني المخاصمةِ والتَّصديقِ دونَ الإيْجاب، فالإيجابُ لا يُستعمَلُ إلّا فيما هو حقٌّ، فإنِ اسْتُعملَ في غيرِه؛ فهو مجاز، والمرادُ به الإلزام[2]، والاسْتحقاقُ من الحقِّ، وهو ضدُّ

الاستحقاق القائم على المخاصمة والادِّعاء والتَّحقيق أولى بالاستعمال

(1) الرّاغب، المفردات، ص: 546، وابن منظور، اللّسان: (عَثَرَ).
(2) العسكري، الفروق، ص: 67.

الباطل، وهو من الفعلِ حاقَّهُ، أي: خاصَمَه، وادَّعى كلٌّ واحدٍ منهما الحقَّ لنفسِه، وفيه معنَى التَّصديق؛ وقولنا: تحقَّقَ الخبر بمعنى: صحَّ وصدَقَ فيه المُخبِرُ، ومعنى ﴿عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا ٱسۡتَحَقَّآ إِثۡمٗا﴾، أيْ: استوجباه بالخيانة للأمانة، والحِنث في اليمين، وفي ذلك خصومة وكيدٌ، وصراع وتدافع، بسببه كان تزوير الشَّهادة من الشّاهدين الأوَّلين، والطّعن فيهما، وتكذيبهما باليمين على رؤوس الأشهاد، وفي أشرف أوقات الصَّلاة، وهذا المعنَى للاسْتحقاقِ القائم على وجودِ مخاصمةٍ وادِّعاءٍ وتصديقٍ أوْلى بسياقِ الآيةِ الكريمةِ في قضيَّةِ الشَّهادةِ واليمين وما يتبعُهما من المعاني السّابقة.

الإثْم والذَّنْب:

إيثارُ لفظ (الإثم) على لفظ (الذَّنب)؛ لإفادته التَّبعة المُلمَح إليها في السِّياق

الإثم: الذَّنب، وقد أثِمَ الرَّجل بالكسر إثمًا ومأثمًا، إذا وقع في الإثم؛ فهو آثِمٌ وأثيم، وأثوم أيضًا، وأثمه اللّه في كذا يأثمه ويأثمه، أي: عدَّه عليه إثمًا، فهو مأثوم، وأنشد الفرّاء:

فَهَلْ يَأْثَمَنّي اللّهُ في أَنْ ذَكَرْتُها *** وعَلَّلْتُ أَصْحابي بها لَيْلَةَ النَّفْرِ[1]

والإثْمُ يفيدُ معنَى: التَّبِعَةِ في السّياق، والذَّنبُ لا يُفيدُه، والإثمُ في أصلِ اللُّغة: التَّقصير، أَثِمَ يأثَمُ؛ إذا قصَّر، ومن ثَمَّ سُمّيَ الخمرُ إثْمًا؛ لأنَّها تُقَصِّرُ بشاربِها لذهابِها بعقلِه، والإثمُ يُطلَقُ على الجُرْمِ كائنًا ما كان[2]، والذَّنْبُ ما يتبعُه الذَّمُّ، أو ما يَتتبَّعُ عليه العبدَ من قبيحِ فعلِه، وذلكَ أنَّ أصلَ الكلمةِ الاتِّباع، ويجوزُ أن يُقالَ: الإثمُ: هو القبيحُ الَّذي عليه تَبِعة، والذَّنْبُ: هو القبيحُ من الفعلِ، ولا يُفيدُ معنَى التَّبِعة[3]، وبهذا يتبيَّنُ أنَّ اسْتخدامَ سياقِ الآيةِ لكلمةِ ﴿إِثۡمٗا﴾ أنسبُ من (ذَنبًا) حيث إنَّ التَّبِعةَ لازمةٌ ومُستحقَّةٌ لمن خانَ في شهادتِه وكذَبَ في يمينِه.

(1) الجوهريّ، الصّحاح تاج اللّغة وصحاح العربيّة: (أثم).
(2) العسكريّ، الفروق، ص: 15 - 16.
(3) العسكريّ، الفروق، ص: 244.

الشَّهادة واليَمين:

لفظ الشَّهادة أدلُّ على المراد؛ لتميُّزه عن لفظ اليمين بخصائص عدَّة

اليمينُ أصلُه من الجارحةِ، ولذلكَ جاءَ اليمينُ في الحَلِفِ مُستعارًا من اليدِ، اعتبارًا بما يفعلُه المُعاهِدُ والمحالِفُ وغيرهما، قالَ تعالى: ﴿وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ﴾ [النّور: 53]، وقولُهم: يمينُ اللّه، فإضافتُه إليه ﷻ؛ إذا كانَ الحَلِفُ به[1]، وقال الشّافعيُّ في قوله تعالى: ﴿كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ﴾ [المائدة: 8]: والَّذي أحفظ عن كلِّ من سمعت منه من أهل العلم في هذه الآيات: أنَّه في الشّاهد، وقد لزمته الشَّهادة، وأنَّ فرضًا عليه أن يقوم بها على والديه وولده، والقريب والبعيد، وللبغيض (القريب والبعيد)، ولا يكتم عن أحدٍ، ولا يُحابي بها، ولا يمنعها أحدًا"[2]، وهذا يدلُّ على الاهتمام الَّذي أولته شريعة القرآن، وأفاض فيه العلماء بالبيان، للشَّهادة الشَّرعيَّة الَّتي لها مقام قدسيٌّ خاصٌّ في قلوب المتَّقين، ورهبة كبيرة في نفوس الورعين، يتهيَّبون القيام بها، ويؤدّونها على وجهها الأكمل، لما لها في الدّين من قيمة، نصَّت عليها آيات القرآن، وذكرتها سنَّة سيِّد ولد عدنان ﷺ، والشَّهادةُ تجمعُ معانيَ ثلاثة - قد لا تتوفَّرُ في اليمينِ الَّذي هو مجرَّدُ الحَلِفِ باللّه - وهي الحضورُ والعِلْمُ والإعلام[3]، فكانَ اسْتخدامُ النَّصِّ القرآنيِّ في حديثِه عن الشَّهادةِ والشّاهدَيْنِ لكلمةِ الشَّهادةِ أَوْفَى بالغَرَضِ وأقومَ قيلًا.

(1) الرّاغب، المفردات، ص: 893 - 894.

(2) محمّد بن إدريس الشّافعيّ، تفسير الإمام الشّافعيّ: 2/729.

(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: 3/221.

﴿ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِٱلشَّهَٰدَةِ عَلَىٰ وَجۡهِهَآ أَوۡ يَخَافُوٓاْ أَن تُرَدَّ أَيۡمَٰنُۢ بَعۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱسۡمَعُواْۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ١٠٨﴾ [المائدة: 108]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

معالجة ظاهرة الكذب في الشَّهادة، والتَّأكيد على مسلك التَّحرّي والتَّقوى فيها

لَمّا أخبرَنا اللّهُ تعالى في الآيةِ السّابقةِ: أنَّه إنْ وُجِدَ ما يدُلُّ على كذبِ الشّاهدَيْنِ على الوصيَّة، فإنّه يتوجَّبُ أن يقومَ آخَرانِ مقامَهما، فيُقسما على كذبِ الشّاهدَيْنِ السّابقيْن، وبأنَّهما صادقان في يمينِهما؛ جاءتْ هذه الآيةُ الكريمةُ لِتؤكِّدَ أنَّ ذلكَ الحكمَ الَّذي شرعَه اللّهُ ﷻ هو أقربُ إلى أنْ يأتوا بالشَّهادةِ على وجْهِها، ولكنَّهم يخافونَ على ما ذكروه، لخوفِهم أنْ تُرَدَّ أَيْمانٌ على الورثةِ بعدَ أيْمانِهم، فيظهرَ كذِبُهم، ويُفْتَضحوا بينَ النّاس، ولذلكَ أمرَ اللّهُ تعالى الشّاهدَيْنِ وغيرَهما من عبادِه: أن يتَّقوا اللّهَ، فلا يَخونوا في الأمانات، ويسمعوا مواعظَ اللّهِ ليعمَلوا بها، حتَّى لا يكونوا من الفاسقينَ الَّذين يخالفونَ حكمَ اللّهِ، فيُصيبُهم وعيدُ اللّهِ وعذابُه[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَدۡنَىٰٓ﴾: الدُّنوُّ: القُربُ بالذّات، أو بالحكم، ويُستعمَلُ في المكانِ والزَّمانِ والمنزلة، فمنَ الأوَّلِ قولُه تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّخۡلِ مِن طَلۡعِهَا قِنۡوَانٞ دَانِيَةٞ﴾ [الأنعام: 99]، ومن الثّاني قولُه تعالى: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ٨﴾ [النّجم: 8]، وتارةً عن الأرْذَلِ، فيُقابَلُ بالخير، كما قالَ تعالى: ﴿أَتَسۡتَبۡدِلُونَ ٱلَّذِي هُوَ أَدۡنَىٰ بِٱلَّذِي هُوَ خَيۡرٌۚ﴾ [البقرة: 61]، وعن الأوَّلِ فيُقابلُ بالآخَر، قالَ تعالى: ﴿خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةَۚ﴾ [الحجّ: 11]، وتارةً عن

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 12/454، 456.

الأقربِ فيُقابَلُ بالأقصى، كما قالَ تعالى: ﴿إِذْ أَنتُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلدُّنْيَا وَهُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلْقُصْوَىٰ﴾ [الأنفال: 42][1]، وفي قولِه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِٱلشَّهَٰدَةِ﴾، أي: أقربُ لنفوسِهم أنْ تَتَحرَّى العدالةَ في إقامةِ الشَّهادة[2].

2) ﴿ٱلْفَٰسِقِينَ﴾: فَسَقَ فُلان: خرجَ عن حِجْرِ الشَّرع، وذلكَ من قولِهم: فَسَقَ الرُّطَبُ؛ إذا خرجَ عن قشره، وهو أعمُّ من الكُفْر، والفِسْقُ يقعُ بالقليلِ من الذُّنوبِ وبالكثير، لكن تُعورِفَ فيما كان كثيرًا، وأكثرُ ما يُقالُ: الفاسقُ: لمنِ التزمَ حُكْمَ الشَّرعِ، وأَقَرَّ به، ثمَّ أَخَلَّ بجميعِ أحكامِه أو بعضِها، وإذا قيل للكافرِ الأصليِّ: فاسقٌ؛ فلأنَّه أَخَلَّ بحكمِ ما أَلْزَمَه العقلُ، واقْتضَتْه الفِطرة، قالَ تعالى: ﴿فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾ [الكهف: 50]، وقالَ سُبحانه: ﴿وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ۝٥٥﴾ [النّور: 55]، أي: مَنْ يستُرُ نعمةَ اللّٰه؛ فقد خرَجَ عن طاعتِه، وقالَ تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا﴾ [السَّجدة: 18]، فقابلَ به الإيمان، فالفاسقُ أعمُّ من الكافر، والظّالمُ أعمُّ من الفاسق[3]، وفي قولِه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾، أي: الخارجينَ عن طاعتِه ومُتابعةِ شريعتِه، ومنه الكذِبُ في اليمينِ أوِ الشَّهادة[4].

المَعْنى الإجْماليُّ:

بيَّن اللّٰهُ ﷻ الحكمةَ من تلكِ الشَّهادةِ وتأكيدِها، وردِّها على أولياءِ الميِّت، حين تظهرُ من الشّاهدَيْنِ الخيانة، بأنَّها أقربُ للشّاهدَيْنِ أن يأتوا بالشَّهادةِ على وجهِها الصَّحيحِ بالصِّدقِ

الإتيان بالشَّهادة على وجهها، والالتزام بالتَّقوى وترك الشَّهادة المزيَّفة هو سبيلُ النّجاة المحقّقة

(1) الرّاغب، المفردات، ص: 318 - 319، والرّازي، مختار الصّحاح: (دَنا).
(2) الرّاغب، المفردات، ص: 319، والشَّوكاني، فتح القدير: 2/125.
(3) الرّاغب، المفردات، ص: 636 - 637، والفيروزآبادي، القاموس: (فَسَقَ).
(4) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 2/107، والشَّوكاني، فتح القدير: 2/126.

والحقِّ، أوْ حين يخافونَ ألّا تُقبَلَ أيمانُهم، ثمَّ تُردَّ على أولياءِ الميِّت، ولذلكَ أمرَهمُ اللّهُ بتقواهُ في جميعِ أمورِهم والسَّمعِ والطّاعةِ لدينِه وشريعتِه، واللّهُ ﷻ لا يَهدي إليه، من لا يُريدونُ الهُدَى، ويَنْفرونَ من الصِّراطِ المستقيم[1].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالةُ الاستئناف في قوله: ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يَأْتُواْ بِٱلشَّهَٰدَةِ﴾:

قيامُ الأحكامِ على تحقيقِ مصالحِ العباد، هو لبُّ الشَّرع الحنيف

قولُه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يَأْتُواْ بِٱلشَّهَٰدَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَآ﴾ كلامٌ مُستأنَفٌ، سيقَ لبيانِ أنَّ ما ذُكِرَ مُسْتَتبعٌ للمنافعِ واردٌ على مُقتضَى الحكمةِ والمصلحة[2]، أي: الحكمُ الَّذي تقدَّم تفصيلُه من قولِه تعالى: ﴿تَحْبِسُونَهُمَا مِنۢ بَعْدِ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ إلى قولِه تعالى: ﴿إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أقربُ إلى حصولِ إقامة الشَّهادةِ على ما ينبغي[3]، يقول الإمام قبل أن يحلِّفهما: (إن كَتَمْتُما، أو خَنَثْتُما؛ فضحتكما في قومكما، ولم نُجِزْ لكما شهادة، وعاقَبْتُكما)، ثمَّ يُحَلِّفُهما، فإذا قال الإمام لهما ذلك، وحَمَلَهُما على الحَلِف أمام النّاس بالأيمان المغلَّظة، كان ذلك أقرب السُّبل إلى أن يؤدّيا الشَّهادة على الوجه الصَّحيح ﴿أَدْنَىٰٓ أَن يَأْتُواْ بِٱلشَّهَٰدَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَآ﴾[4].

دلالة اسم الإشارة ﴿ذَٰلِكَ﴾، في قوله: ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ﴾:

الأحكام المشار إليها، زواجر للإنسان، حتّى لا يزيّف الحقّ أو يكتمه

اسم الإشارة ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارةٌ إلى الحُكْمِ المُتقدِّم عليها، فقد جاءَ اسْمُ الإشارةِ، مشيرا إلى ما تقدَّمَه من البيانِ الإلهيِّ، والمُشارُ إليه هنا في قولِه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ﴾ إلى المذكورِ من الحُكم، في قوله تعالى: ﴿تَحْبِسُونَهُمَا مِنۢ بَعْدِ ٱلصَّلَوٰةِ﴾، إلى قولِه: ﴿إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 2/106 - 107، والسَّعدي، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 201.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/142.
(3) الزَّمخشري، الكشّاف: 1/651، والسَّمين الحلبي، الدُّرُّ المصون: 4/482.
(4) أسعد حومد، أيسر التَّفاسير، ص: 778.

ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[1]، وعند ابن عطيّة أنّ الإشارة بقوله ﴿ذَٰلِكَ﴾، هي إلى جميع ما حدّ الله قبْلُ، من حبس الشّاهدين من بعد الصّلاة لليمين، ثمّ إن عثر على جورهما، ردّت اليمين وغرّما، فذلك كلّه يقرّب اعتدال هذا الصّنف، فيما عسى أن ينزل من النّوازل، لأنّهم يخافون التّحليف المغلّظ، بعقب الصّلاة، ثمّ يخافون الفضيحة وردّ اليمين، هذا قول ابن عبّاس رضي الله عنهما، وأمّا رأي السّدي: فإنّ الإشارة بقوله ﴿ذَٰلِكَ﴾، إنّما هي إلى الحبس من بعد الصّلاة فقط[2].

دَلالةُ لفظ ﴿أَدْنَىٰٓ﴾:

لفظ (أدنى) من المجاز، وليس من الحقيقة

قولُه تعالى: ﴿أَدْنَىٰٓ﴾ بمعنى: أَقْرب، والقُرْب هنا مجازٌ في قُرْبِ العلمِ، وهو الظَّنُّ، أي: أَقْوَى إلى الظَّنِّ بالصِّدق[3]، ومعنى قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يَأْتُواْ بِٱلشَّهَٰدَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَآ﴾، أي: أقربُ إلى أن يؤدّيَ الشُّهودُ الشّهادةَ على وجهها الَّذي تحمَّلوها عليه من غير تحريفٍ ولا خيانة خوفًا من العذاب الأخروي، وهذه - كما ترى - حكمةُ شَرْعيَّةِ التَّحليفِ بالتَّغليظ المذكور[4].

دلالة عَوْد الضَّميرِ في ﴿يَأْتُواْ﴾:

في تطبيق الأحكام على وجهها مصلحة لكلِّ الأطراف

قولُه تعالى: ﴿يَأْتُواْ﴾ عائدٌ إلى (الشُّهداء) وهم: الآخَرانِ من غيرِكم، والآخَرانِ اللَّذانِ يقومانِ مَقامَهما، أي: أنْ يأتيَ كلُّ واحدٍ منهم، فجمعَ الضَّميرَ على إرادةِ التَّوزيع، ومعناه: "راقبوا اللّه - أيُّها المؤمنون - في أيمانكم وأماناتكم، وأطيعوا أحكامه راضين بها، فإنَّ فيها مصالحكم، ولا تُخالفوها، فتكونوا من الخارجين على اللّه، والمطرودين من هدايته، المستحقّين لعقابه"[5]، وقد يكون المعنى:

(1) الزّمخشري، الكشّاف: 1/651، وابن عطيَّة، المحرّر الوجيز: 2/256، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/401.
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/256.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 7/92.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/92.
(5) إبراهيم القطّان، تيسير التّفسير: 3/92.

"أن يأتي الوصيّان، وسائر النّاس بالشَّهادة على وجهها، فلا يخونوا فيها، أَوْ يَخافوا أَنْ تُرَدَّ أَيْمانٌ بَعْدَ أَيْمانِهِمْ"[1].

نكتةُ اختيار مادّة الإتيان في الفعلِ ﴿يَأْتُواْ﴾:

أراد بالإتْيان: الأداء، ومن أدّى ما عليه؛ فما أساء

قولُه تعالى: ﴿أَن يَأْتُواْ بِٱلشَّهَٰدَةِ﴾، أي: أنْ يُؤدّوا الشَّهادة، فأرادَ بالإتْيانِ: الأداء، فجُعِلَ أداؤها والإخبارُ بها كالإتْيانِ بشيءٍ من مكان[2]، وهذا المعنَى وثيقُ الصِّلةِ بقولِه تعالى بعد ذلك: ﴿عَلَىٰ وَجْهِهَآ﴾، "قيل: في ذلك بيان أنَّ المؤتَمَن إذا ادَّعيت عليه الخيانة، وقال هو: قد رددت ما كان في يدي؛ فإنَّه لا يُصدَّق إلّا بعد أن يحلف، فإذا عَلِمَ أنَّه لا يُقبَلُ قوله إلّا بيمين؛ كان أحرى أن يقول حذرًا من أن يحلف على كذب، أو يُقِرَّ خوفًا من الإثم في اليمين، فَتَبين خيانته"[3].

حذفُ حرفِ الجرِّ في قولِه تعالى: ﴿أَن يَأْتُواْ﴾:

حذفُ حرف الجرّ يُوَسّعُ الدّلالة ويُثري المعنى

الأصلُ في قولِه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يَأْتُواْ﴾ أي: مِنْ أنْ يَأْتوا، أوْ إلى أنْ يَأْتوا، أو بأن يَأْتوا، وإنْ كانَ الأصلُ عدمَ الحذفِ وعدمَ التَّقدير؛ لأنَّ زيادة المبنَى، تدلُّ على زيادةِ المعنَى، والعكس كذلك، ولا حاجةَ إليه[4].

الاستعارةُ ونكتةُ إيرادِها في قولِه تعالى: ﴿عَلَىٰ وَجْهِهَآ﴾:

لا معنى للشَّهادة، ولا قيمة لها إلَّا إذا أُدِّيت على وجهها الشَّرعيِّ

أرادَ بيانُ اللّهِ في قولِه تعالى: ﴿عَلَىٰ وَجْهِهَآ﴾، أي: على سُنَّتِها وما هو مُقوِّمُ تمامِها وكمالِها، فاسْمُ الوَجْهِ في مثلِ هذا مُستعارٌ لأَحْسنِ ما في الشَّيءِ وأَكْملِه تشبيهًا بوجهِ الإنسان؛ إذْ هو العضوُ الَّذي يُعرَفُ به المرءُ، ويتميَّزُ به عن غيرِه، ولَمّا أُريدَ منه معنَى الاسْتعارةِ لهذا المعنَى، وشاعَ هذا المعنَى في كلامِهم، قالوا: جاءَ بالشَّيءِ الفُلانيِّ

(1) الخازن، لباب التأويل في معاني التنزيل: 2/89.
(2) أبو السُّعود، الإرشاد: 2/142، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 7/93.
(3) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنة: 3/644.
(4) العكبري، الإملاء: 1/231، والسَّمين الحلبي، الدُّرُّ المصون: 4/482، والبقاعي، نظم الدُّرر: 6/333، ويرى السَّمين الحلبيُّ أنَّ عدم حذف حرفِ الجرّ أولى، حيث ذكر عدم وضوح هذا الحذف.

على وجْهِه، فجَعلوا الشَّيءَ مَأْتيًّا به، ووصفوهُ بأنَّه أُتيَ به مُتمكِّنًا من وجْهه، أي: من كمالِ أحوالِه، وهذا غايةُ البلاغةِ في اسْتعمالِ كلمةِ الوَجْهِ، ومعناه في هذا المَقام: مَقامُ الشَّهادة[1].

نكتةُ استعمالِ حرفِ الجرِّ ﴿عَلَىٰ﴾ في قولِه تعالى: ﴿عَلَىٰ وَجْهِهَآ﴾:

الاستعلاءُ في حرف (على) مجازيٌّ دالٌّ على التَّمكُّنِ من الشَّهادة

جاءَ حرفُ ﴿عَلَىٰ﴾ للاسْتعلاءِ المجازيِّ، والمرادُ منه: التَّمكُّنُ من أداءِ الشَّهادةِ على الوجهِ الصَّحيح، كما في قولِه تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمۡۖ﴾ [البقرة: 5][2]، والمعنى: "أن يؤدّي الشُّهداءُ الشَّهادةَ على وجهها، بلا تحريف ولا تبديل، وأن يخافوا من الفضيحة الَّتي تَعْقُبُ استحقاق الإثم، بردِّ أيمان الورثة بعد أيمانهم، فإنَّها تكون مبطلة لأيمانهم، فالواجب أن يخافوا من عقاب اللّٰه، أو من ردِّ الأيمان والفضيحة"[3].

سِرُّ إيرادِ البيانِ الإلهيِّ لكلمةِ (وَجْه):

التَّشديد في أداءِ الشَّهادة، من صرامة الشَّرع الحنيف

سبقَ أنْ تبيَّنَ أنَّ سُنَّةَ الشَّهادةِ وكمالَها هو صدقُها والتَّثبُّتُ فيها، والتَّنبُّه لما يُغْفَلُ عنه من مختلفِ الأحوالِ الَّتي قد يُستخَفُّ بها في الحال، وتكونُ للغَفْلةِ عنها عواقبُ تُضيِّعُ الحقوق، الَّتي يُعدُّ الحفاظُ عليها وأداؤها بتمامِها من أركانِ الشَّريعةِ الإسلاميَّة، فأرادَ اللّٰهُ تعالى أنْ يُعلِمَ عبادَه في هذا المقامِ وجْهَ التَّثبُّتِ في التَّحمُّلِ والأداءِ، وتوخّي الصِّدق، وهو يدخُلُ في قاعدةِ لزومِ صفةِ اليَقَظَةِ للشّاهد[4]، وفي ذلكَ كلِّه بيانُ حكمةِ شرعيَّةِ التَّحليفِ بالتَّغليظِ المذكور[5].

دَلالةُ إعرابِ قولِه تعالى: ﴿عَلَىٰ وَجْهِهَآ﴾:

تأكيداتُ الشَّرع على قرائن الشَّهادة ضمانٌ لأدائها على الوجه المطلوب

الجارُّ والمجرورُ في: ﴿عَلَىٰ وَجْهِهَآ﴾ في موضعِ الحالِ من الشَّهادة،

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 7/93.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 7/93.
(3) الحجازيّ، محمد محمود: التَّفسير الواضح، ص: 575.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 7/93.
(5) أبو السُّعود، الإرشاد: 2/142.

أي: محقَّقةً أو صحيحة، وهو الأصلُ فيها، وصارَت هذه الحالُ هنا قرينةً، على أنَّ المرادَ من الوَجْهِ غيرُ معناه الحقيقيِّ[1].

نكتةُ الإيماءِ في قولِه تعالى: ﴿أَن يَأۡتُواْ بِٱلشَّهَٰدَةِ عَلَىٰ وَجۡهِهَآ﴾:

مشروعيَّة الإعْذارِ في الشَّهادة إلزامٌ للشُّهودِ بالتَّثبُّت

في قولِه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِٱلشَّهَٰدَةِ عَلَىٰ وَجۡهِهَآ﴾، إيماءٌ إلى حكمةِ مشروعيَّة الإعْذارِ في الشَّهادةِ بالطَّعْنِ أوِ المعارَضة، فإنَّ في ذلكَ ما يَحمِلُ شهودَ الشَّهادةِ على التَّثبُّتِ في مُطابقةِ شهادتِهم للواقع؛ لأنَّ المعارضةَ والإعْذارَ يكشفانِ عن الحقِّ.

دَلالةُ العطفِ في قولِه تعالى: ﴿أَوۡ يَخَافُوٓاْ أَن تُرَدَّ أَيۡمَٰنُۢ بَعۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡۗ﴾:

لا مندوحة من التَّثبُّتِ في الشَّهادة، والاحتراز من معرَّة الكذبِ

قولُه تعالى: ﴿أَوۡ يَخَافُوٓاْ أَن تُرَدَّ أَيۡمَٰنُۢ بَعۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡۗ﴾ عُطِفَ على قولِه: ﴿أَن يَأۡتُواْ﴾[2] على معنَى: أنَّ ذلكَ أقربُ إلى أنْ يأتوا بالشَّهادةِ على وجْهِها، أو إلى أنْ يَأْتوا بها على وجهِها، فيظهرُ كذِبُهم بنُكولِهم[3]، "وقيل: إنَّ ﴿يَخَافُوٓاْ﴾ معطوف على مقدَّر بعد الجملة الأولى، والتَّقدير: ذلك أدنى أن يأتوا بالشَّهادة على وجهها، ويخافوا عذاب الآخرة، بسبب الكذب والخيانة، أو يخافوا الافتضاح بردِّ اليمين، فأيُّ الخوفين وقع؛ حصل المقصود"[4].

نكتةُ مجيءِ حرفِ ﴿أَوۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَوۡ يَخَافُوٓاْ أَن تُرَدَّ أَيۡمَٰنُۢ﴾:

في موقف الشُّهود يصعب الاختيار، ويعْسُرُ اتِّخاذ القرار

قولُه تعالى: ﴿أَوۡ يَخَافُوٓاْ أَن تُرَدَّ أَيۡمَٰنُۢ﴾ وردَ فيه حرفُ ﴿أَوۡ﴾ وهو للتَّقسيم، أي: هو تَقْسيمٌ يُفيدُ تفصيلَ ما أجملَه لفظ الإشارة في قولِه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ﴾[5]، ويكون المعنى أيضًا أنَّ الخوف مَرَدُّه إلى أنْ "تكرَّر أيمان شهود آخرين بعد أيمانهم، فيفتضحوا بظهور كذبهم"[6]، وفي الاختيار بين بدائل الخير والشَّرِّ، والصِّدق والكذب،

(1) العكبري، الإملاء: 1/231، والسَّمين الحلبي، الدُّرُّ المصون: 4/482.
(2) العكبري، الإملاء: 1/231، وأبو السُّعود، الإرشاد: 2/143.
(3) أبو السُّعود، الإرشاد: 2/143.
(4) الشَّوكانّي، فتح القدير: 2/101.
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 7/94.
(6) النَّسفيُّ، مدارك التَّنزيل وحقائق التَّأويل: 1/483.

والحقِّ والباطل، مواقف يصعب على النَّفس البشريَّة الحسم فيها، خصوصًا إذا كانت الضُّغوطات تكتنف الشّاهدين، وتَحدُّ من حريَّة القرار في الاختيار.

دَلالةُ نصبِ قولِه: ﴿أَوۡ يَخَافُوٓاْ﴾ في إثْراءِ المعنَى:

أداءُ الشَّهادة على وجهِها، أو ردُّ الأيْمان: خياران لا مندوحة عن أحدهما

قولُه تعالى: ﴿أَوۡ يَخَافُوٓاْ﴾ في نصبِه وجهان: أحدُهما: أنَّه منصوبٌ عطفًا على ﴿يَأۡتُواْ﴾ - كما تقدَّم - وفي ﴿أَوۡ﴾ على هذا تأويلان: أحدُهما: أنَّها على بابِها من كونِها لأحدِ الشَّيئَيْن، والمعنَى: ذلكَ الحكمُ أقربُ إلى حصولِ الشَّهادة على ما ينبغي، أوْ خوفِ ردِّ الأيمانِ إلى غيرِهم، فتسقُطُ أيمانُهم[1]، والتَّأويلُ الآخَرُ: أنْ تكونَ بمعنَى الواو، أي: ذلكَ الحكمُ كلُّه أقربُ إلى أنْ يأتوا، وأقربُ إلى أنْ يخافوا[2].

الثّاني من وجهي النَّصبِ أنَّه منصوبٌ بإضمارِ (أنْ) بعدَ ﴿أَوۡ﴾، ومعناها (إلّا) كقولِهم: لَأَلزَمنَّكَ أو تَقْضيَنّي حقّي، تقديرُه: إلّا أنْ تَقْضينّي، فـ (أو) حرفُ عطفٍ على بابِها، والفعلُ بعدَها منصوبٌ بإضمارِ (أنْ) وجوبًا، و(أنْ) وما في حيِّزِها مُؤوَّلةٌ بمصدر، ذلكَ المصدرُ معطوفٌ عل مصدرٍ مُتوَهَّم من الفعلِ قبلَه، فمعنَى: لَأَلزَمنَّكَ أوْ تَقْضيَنّي حقّي: لَيكونَنَّ منّي لزومٌ لكَ أوْ قضاؤك لحقّي[3]، وكذا المعنَى هنا، أي: ذلك أَدْنَى بأنْ يأتوا بالشَّهادةِ على وجْهِها، وإلّا خافوا ردَّ الأيْمان[4].

دَلالةُ قولِه تعالى: ﴿أَن تُرَدَّ أَيۡمَٰنُۢ﴾ في السِّياق الحكيم:

إفادة الرَّدِّ هنا معنَى: الانْتقال، وهو رمزٌ للإذلال

معنَى ﴿أَن تُرَدَّ أَيۡمَٰنُۢ﴾: أنْ ترجعَ أيمانٌ إلى ورثةِ الموصي بعد

(1) السَّمين الحلبيُّ، الدُّرُّ المصون: 4/482 - 483.
(2) ابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 2/256.
(3) السَّمين الحلبي، الدُّرُّ المصون: 4/482 - 483.
(4) ابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 2/256، وقد عقَّب السَّمين الحلبي، الدُّرُّ المصون: 4/483، على كلام ابن عطيَّة فقال: "كذا قدَّره ابن عطيَّة بواو، وهو خلافُ تقدير النُّحاة، فإنَّهم لا يقدِّرون (أوْ) إلّا بلفظ (إلّا) وحدها دون واو".

أيمانِ الشّاهدَيْن، فالرَّدُّ هنا مجازٌ عن الانْتقال، مِثْلَ قولِهم: قَلَبَ عليه اليمين، فَيُعيَّروا به بين النّاس[1]، وردُّ أيمان الشّاهدين من أكبر الحرج، وأشدِّ المواقف ذلَّة وهوانًا، خصوصًا إذا كان أمام القاضي، وبحضور جمٍّ غفير من النّاس؛ إذْ سرعان ما ينتشر الخبر، انتشار النّار في الهشيم، فيصبح أو يمسي حديث المجالس، فيغدو على الشّاهدين عارًا وشنارًا، ولا يتلذَّذان بعده بصفو حياة، ولا يطمئنّان ببهجة عيش.

نُكتة بناء الفعل ﴿أَن تُرَدَّ﴾ لما لم يُسَمَّ فاعله:

إيرادُ المصدرِ لتصويرِ شدَّةِ الخَوْفِ، من رَدِّ الأَيمانِ، وتكذيبِ أصحابِها

جاء الفعل في قوله تعالى: ﴿أَن تُرَدَّ أَيْمَٰنٌۢ بَعْدَ أَيْمَٰنِهِمْۗ﴾، مبنيّا للمفعول، ولم يصرّح بالفاعل، بتأويلِ قوله: ﴿أَن تُرَدَّ﴾ بمصدر، أي: أوْ يخافوا رَدَّ أيمانِهم، والمصدرُ يفيدُ القوَّةَ والمبالغةَ في ردِّ أيمانِهم، ولذلك سُبِقَ بـ ﴿يَخَافُوٓاْ﴾، ليُؤكِّدَ تحقُّقَ الخوفِ في قلوبهم، من ردِّ أَيْمانِهم، وفي هذا الخوفِ المحقَّقِ إثارةٌ لوازعٍ يمنعُهم من الكَذِب في الشَّهادة، وهو الحرصُ على عَدَمِ ظهورِ كَذِبهم، يعني: ضرورةَ أنْ يصدُقواْ في شهادتِهم، وفي هذا زَجرٌ لهم عن الخيانةِ المؤدّيةِ لافْتضاحِ أمرِهم، وإبطالِ أيْمانِهم والعَمَلِ بأيْمانِ الوَرَثة[2]، وعليه فالاهتمام منصبٌّ على الإحراج الواقع جرّاء الكذب في هذه الأيمان، وهي تعكس مستوى القلق والاضطراب الّذي يعاني منه هؤلاء الشّهود الّذين يريدون في داخلة نفوسهم، أن يأتواْ بالشّهادة، "ولكنّهم يخافون أن يحلفواْ على ما ذكروه، لخوفهم من أن تردّ أيمان على الورثة بعد أيمانهم، فيظهر كذبهم، ويفتضحون فيما بين النّاس"[3].

سرُّ الجَمْعِ في لفظ: ﴿أَيْمَٰنٌۢ﴾:

جاءَ قولُه تعالى: ﴿أَيْمَٰنٌۢ﴾ بصيغةِ الجمعِ في قوله: ﴿أَن تُرَدَّ أَيْمَٰنٌۢ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 7/94.
(2) ابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 2/256، والسَّمين الحلبيّ، الدُّرُّ المصون: 4/483.
(3) فخر الدّين الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 12/456.

بَعۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡۖ﴾ مع أنَّ أصحابَها شاهدان فقط، وذلكَ باعْتبارِ عُموم الآيةِ لسائرِ قضايا الوَصايا الَّتي من جِنْسها، على أنَّ العربَ تعدِلُ عنِ التَّثنيةِ كثيرًا، ومنه قولُه تعالى: ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدۡ صَغَتۡ قُلُوبُكُمَاۖ﴾ [التَّحريم: 4]، وكذلكَ فقد ذيَّلَ بيانُ اللهِ ﷻ هذا الحُكْمَ الجَليلَ بموعظةِ جميعِ الأُمَّة، فقالَ سُبحانه: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾[1]، ويمكنُ أنْ يكونَ هذا الجمعُ في ﴿أَيۡمَٰنٌ﴾ وما سبَقه في قولِه: ﴿يَأۡتُواْ﴾ وإنْ كانَ عائدًا على مُثنًّى وهو الشّاهدان، فإنَّه عائدٌ كذلك على صِنْفَي الشّاهِدَيْن؛ بل هو عائدٌ على الشُّهودِ من النّاسِ كلِّهم، وفيه تَحْذيرٌ لهم من الخيانة، وتأكيدٌ على ضرورةِ أنْ يتحرَّوْا في شهادتِهم خوفَ الشَّناعةِ عليهم والفضيحةِ في ردِّ اليمينِ على المدَّعي[2].

الحُكْمُ في الآيةِ الكريمةِ ينطبق على سائرِ القضايا المشابهة

نكتةُ عدمِ ذكرِ مُتعلّق التَّقوى في قولِه تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾:

جاءَ الأمرُ بالتَّقوى في قولِه تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ دونَ ذكرِ معلَّقه، وذلك لسبَبَيْن: الأوَّلُ: للعِلم به، أي: واتَّقوا اللهَ في شهادتِكم وفي الموصينَ عليهم، بألّا تَخْتلِسوا لهم شيئًا؛ لأنَّ القصَّةَ كانتْ بهذا السَّبب، والثّاني: قَصْدًا لإيقاعِ التَّقْوى، فيتناولُ كلَّ ما يُتَّقى منه[3].

الأمر بالتَّقوى: يشمل كلَّ مناطات الحياة

عِلَّةُ حذفِ مفعولِ ﴿وَٱسۡمَعُواْۗ﴾ في قوله: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱسۡمَعُواْۗ﴾:

لم يذكرْ بيانُ اللهِ مفعولَ ﴿وَٱسۡمَعُواْۗ﴾، إمّا اقْتصارًا أو اخْتصارًا، أي: اسْمعوا أوامرَه ونواهيَه من الأحكامِ المتقدِّمة، سماعَ تدبُّرٍ وعملٍ بمضمونِها، وهاتانِ الجملتان - بما حَمَلَتاه من أمرَيْنِ جَليلَيْنِ ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱسۡمَعُواْۗ﴾ وبما فيهما من اخْتصارٍ مع اتِّساعِ معانيهما - أدلُّ دليلٍ على عُلوِّ فَصاحتِهما، وسُموِّ دَلالاتهما، فتباركَ اللهُ أصدقُ القائلين[4].

الحذف ملمحٌ بلاغيٌّ، يحرِّك الذِّهن، ويحفِّز القريحة

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 7/94.
(2) ابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 2/256، والسَّمين الحلبي، الدُّرُّ المصون: 4/483.
(3) السَّمين الحلبي، الدُّرُّ المصون: 4/483 - 484.
(4) السَّمين الحلبي، الدُّرُّ المصون: 4/484.

دَلالةُ المجازِ في قولِه: ﴿وَٱسۡمَعُواْۗ﴾:

في قولِه تعالى: ﴿وَٱسۡمَعُواْۗ﴾ أمرٌ بالسَّمعِ المُستعمَلِ في الطّاعةِ مجازًا، كما في قولِه تعالى: ﴿إِذۡ قُلۡتُمۡ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ﴾ [المائدة: 7][1]، والمعنى في هذا السّياق: "﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ في مخالفة أحكامه الَّتي من جملتها هذا الحُكْمُ، ﴿وَٱسۡمَعُواْۗ﴾ ما تؤمرون به كائنًا ما كانَ، سَمْعَ طاعةٍ وقَبول"[2].

ديدن المؤمن أن يسمع أمر ربِّه ويطيع

نكتة الإظهار بدل الإضمار في قوله: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾:

إظهارُ اسْمِ الجَلالةِ (اللّه) بدَل إضمارِه، في قولِه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾، لتربيةِ المَهابةِ في القلوب، وأيُّ مَهابةٍ أعظمُ من مَهابةِ ذكرِ اسمِ اللّهِ ﷻ؟!، فجاءَ هذا اللَّفظُ الجَليلُ في سياقِ التَّحذيرِ والتَّخويفِ من تحريفِ الشَّهادة، فمَنْ فعلَ ذلكَ فهو فاسقٌ خارجٌ عن طاعةِ اللّه، فاللّهُ لا يَهْديه إلّا إذا تاب، فما أَفْصحَ هذه الجملةِ الزّاجرةَ الَّتي صُدِّرتْ باسْمِ الجلالةِ (اللّه)[3].

في إظهارِ اسْمِ الجَلالةِ (اللّه) تربيةٌ للمهابةِ في النُّفوسِ، وتحذيرٌ من الفِسْق

دَلالةُ قولِه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾:

نتساءل: هل حجبَ اللّهُ التَّوبةَ عنِ الفاسقين، بقولِه: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾؟ ونقول: إنَّ اللّه ﷻ لا يَهْديهم من حيث هم فاسقون، وإلَّا فهو تعالى يهديهم؛ إذا تابوا، بعموم قولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾ [النِّساء: 48]، ويحتملُ أنْ يكونَ لفظُ الفاسقينَ عامّا، والمرادُ الخصوصُ فيمن لا يتوب[4]، ويمكنُ أنْ يُرادَ أنَّ اللّه لا يَهدي القومَ الفاسقين، أي: المعرِضينَ عن أمرِ اللّه، فإنَّ ذلكَ لا يُستَهانُ به؛ لأنَّه يُؤدّي إلى الرَّيْنِ على القلبِ، فلا ينفُذُ إليه الهُدَى من بعدُ، كما قالَ تعالى: ﴿كَلَّاۖ بَلۡۜ

يطال عدمُ هدايةِ الفاسقينَ، مَنْ أَعرَضُوا، ومن لم يَتوبوا

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 7/94.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/94.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/401، والسَّمين الحلبي، الدُّرُّ المصون: 4/484.
(4) ابن عطيَّة، المحرّر الوجيز: 2/256.

رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴿١٤﴾ [المطفّفين: 14][1]، وحَمَلَ ذَيْلُ الآيةِ التَّهديدَ والوعيدَ لمن خالفَ حُكمَ اللّهِ وأوامرَه[2].

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الدُّنُوّ والقُرْب:

الدُّنُوُّ فيه مقابلةٌ بين الأشياء، وحملٌ للنُّفوسِ على تحرِّي العدالة

دَنا يَدْنو دُنوًّا، ودَنا منه: اقْتربَ، وسُمّيتِ (الدُّنيا) لِدُنوِّها[3]، والدُّنوُّ لا يكونُ إلّا في المسافةِ بين شيئَيْن، تقولُ: دارُه دانيةٌ ومَزارُهُ دانٍ[4]، والدُّنوُّ واسعُ الدَّلالة، حيث يشملُ القُرْبَ بالذّات، أو بالحُكْم، ويُستعمَلُ في المكانِ والزَّمانِ والمنزلة، وبالمقابَلةِ بين الأصغرِ والأكبر، والأَقربِ والأقصى، والأَسْوأ والخير[5]، والقُربُ عامٌّ في المسافةِ بين شيئَيْنِ وفي غيرِه، تقولُ: قلوبُنا تتقاربُ، ولا تقولُ: تتدانَى، وتقولُ: هو قريبٌ بقلبِه، ولا يُقالُ: دانٍ بقلبِه إلّا عن بُعْد[6]، وبالنَّظرِ في الفروقِ بين الكلمتَيْنِ: يتبيَّنُ أنَّ لفظ ﴿أَدۡنَىٰٓ﴾ أَوْلى بالسّياق، من (أقرب)، فهي تتضمَّنُ المقابَلةَ بين الأشياء، وتُطلَقُ مجازًا على ما يكونُ أقربَ للنُّفوس في تحرّي العدالة، والالتزام بالحقِّ والصِّدْق، وهو ما جاءَ سياقُ الآيةِ في الدَّعوةِ إليه وتثبيتِه بقولِه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِٱلشَّهَٰدَةِ عَلَىٰ وَجۡهِهَآ﴾.

الفِسْق والخُروج والفُجُور:

لفظ الفسقِ أعمُّ في إطلاقِه على المعاصي من الخروج والفجور

الفسقُ: خروجٌ مكروه، ومنه يُقالُ للفأرةِ: الفوَيْسقَة؛ لأنَّها تخرجُ من جُحرِها للإفساد، وإطلاقُ الفِسْقِ يقعُ على القليلِ من الذُّنوبِ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 7/94.

(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 12/456، وقال الفخر في ذيل تفسيره لهذه الآية: "فهذا هو القولُ في تفسير هذه الآية الَّتي اتّفق المفسّرون على أنَّها في غايةِ الصُّعوبة إعرابًا ونظمًا وحُكْمًا، وروَى الواحديُّ رحمه الله في (البسيط) عن عمر بن الخطّاب ﷺ أنَّه قال: (هذه الآيةُ أعْضَلُ ما في هذه السّورة من الأحكام)"، ولعلَّ المراد ليس فقط هذه الآية وإنَّما ما قبلَها لصلتها بها.

(3) الرّازي، مختار الصّحاح، والفيروزآبادي، القاموس: (دَنا).

(4) العسكري، الفروق، ص: 236.

(5) الرّاغب، المفردات، ص: 318 - 319.

(6) العسكري، الفروق، ص: 236.

والكثيرِ منها، لكن تُعورِفَ فيما كان كثيرًا، وأكثرُ ما يُقالُ لمن أقرَّ بحكمِ الشَّرع، ثمَّ أخلَّ بجميعِ أحكامِه أو ببعضِها، ويُطلَقُ كذلكَ على الخروجِ من طاعةِ اللّٰهِ بكبيرة[1]، والخروجُ: يكون مذمومًا ومحمودًا، فهو يتناولُ ما يتعلَّق بالشَّرْعِ وغيره، والفجورُ: هو الانْبعاثُ في المعاصي والتَّوسُّعُ فيها، ولا يُقالُ لصاحبِ الصَّغيرةِ: فاجر، ثمَّ كَثُرَ اسْتعمالُ الفُجورِ، حتَّى خُصَّ بالزِّنى واللِّواطِ وما أشْبَه ذلك[2]، وممّا تقدَّمَ يظهرُ: أنَّ اسْتخدامَ البيانِ الإلهيِّ لكلمةِ ﴿ٱلْفَٰسِقِينَ﴾، أَوْلى بالسّياقِ من غيرِها، فهو أعمُّ في إطلاقِه، وفيه إخلالٌ بأحكامِ الشَّرعِ قليلِها أو كثيرِها، صغيرِها أو كبيرِها؛ ولذلك حَجَبَ اللّٰهُ هدايتَه عنِ الفاسقينَ الَّذينَ دَأَبوا على المعاصي، ولم يتوبوا منها، وخاصَّةً في المعاصي الكبيرةِ، كالخيانةِ والكذبِ في الشَّهادة.

(1) الرّاغب، المفردات، ص: 636 - 637، والعسكريّ، الفروق، ص: 406.

(2) العسكري، الفروق، ص: 406 - 407.

﴿۞يَوۡمَ يَجۡمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبۡتُمۡۖ قَالُواْ لَا عِلۡمَ لَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ ١٠٩﴾ [المائدة: 109]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

التّمهيدُ لِذِكْرِ أَحْوالِ عيسى عليه السلام، وبيانِ مُعجزته

وردتِ الآيةُ متمِّمَةً لِلأَمرِ بإتيانِ الشَّهادةِ على وجهِها، والتَّهديدِ والوعيدِ لِمَن خالفَ حُكمَ اللّه وأوامرَهُ، في الآية السّابقة [المائدة: 108]؛ فإنّه لمّا تَمَّ الكلامُ على الاستشهاد على وصايا المَخلوقينَ، وحذَّرَهم مِن تحريف الشَّهادة، وأمَر بتقوى اللّه، ناسبَ الانتِقال إلى ذِكْر شَهادَة الرُّسُل على وصايا الخالِقِ تعالى يومَ القيامة، تحذيرًا من ذلكَ المشهدِ العظيم، وتَوبيخًا لِمَن تمرَّدَ مِن أُمَمِهم[1]، ولِتكونَ الآيةُ تمهيدًا لذِكْرِ أحوالِ عيسى عليه السلام، فالآيةُ متمِّمَةٌ لِما قبلَها مُمهِّدَةٌ لِما بعدَها.

والظّاهرُ أنَّ هذه الآيةَ مرتبطةٌ بسياقاتٍ متعدّدةٍ في سورة المائدة، ورد فيها ضُروبٌ من مخالَفاتِ أهلِ الكتاب، وتمرُّدِهم على أنبيائِهم وتعليماتِ كُتُبِهم، فذَكَر هنا ما يدلُّ على أنَّ اللّه سبحانه يُقرِّرُهم بموقف أقوامِهم منهم على سبيل التَّحذير لأتباع هؤلاء الرُّسلِ من تلك المخالَفات، ويدخل المُعرضون من هذه الأمّةِ ضِمنًا في ذلك التّحذير.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَجۡمَعُ﴾: الجمعُ يَدُلُّ على تَضامِّ الشَّيءِ بتقريب بعضِه من بعضٍ، أو تضامِّ أشياءَ متجانسةٍ كثيرةٍ تلاقيًا، أو تلاحمًا، أو تراكمًا، يُقالُ: جَمَعتُهُ فاجتَمَعَ؛ أي: جاء به بعدَ أن كان متفرِّقًا، فالجَمْعُ هو

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/98.

تأليفُ المُتَفَرِّقِ المتجانِسِ، وضمُّ بعضِهِ إلى بعضٍ في موضعٍ واحدٍ[1]، و﴿يَجۡمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ﴾ من هذا القبيلِ، والمعنى: يجمعُ اللّهُ جميعَ الرّسلِ الّذين بعثهم إلى الخَلْقِ.

2) ﴿أُجِبۡتُمۡۖ﴾: أصلُ الكلمةِ (جَوَبَ)، وتدلُّ على قطعِ الجَوبَةِ، وهي كالغائط مِنَ الأرض، ثمَّ يُستعملُ في قطعِ كلِّ أرضٍ أو صخْرٍ، وسُمّيَ جوابُ الكلام جوابًا؛ لأنَّهُ يقطعُ الجوبَ، فَيَصِلُ مِن فمِ القائلِ إلى سَمْعِ المُستمع، أو لأنَّ المُجيبَ أمضَى في الكلام، وأَنفَذُه إلى مَظانِّ الإجابة والقَبول[2]. ومعنى ﴿مَاذَآ أُجِبۡتُمۡۖ﴾: ماذا أجابَكم قومُكم بعدَ أن طلبتم منهم توحيدي واتِّباعَ أَمري؟

3) ﴿عَلَّٰمُ﴾: صيغةُ مبالغةٍ من عالِم، والعربُ تَقولُ: رجلٌ عالِمٌ، فإذا زادوا في المَدح قالوا: عليم، فإذا بالَغوا قالوا: علّام[3]، والعالِمُ في وصف اللّه هو الّذي لا يخفى عليهِ شيءٌ في مُلكِه، ولا يجوزُ أن يُبنَى على صيغة (فَعّال) شيءٌ من صفاتِه تعالى إلّا ما جاء منه في القرآن الكريم، أو السُّنّةِ الصّحيحة، وإن كانَ أصلُهُ ثلاثيًّا، مثل: رزّاق، ووهّاب، وخلّاق[4]، ولم يرِد (علّامُ) في القرآن وصفًا للّه تعالى إلّا مضافًا.

4) ﴿ٱلۡغُيُوبِ﴾: جمعُ كثرةٍ لـ (غَيبٍ)، وهو المُطمَئنُّ منَ الأرض، ويُقال: سمعتُ صَوتًا من وراء الغَيب؛ أي: مِن مَوضِعٍ لا أراهُ، وكلُّ مكانٍ لا يُدرَى ما فيه، أو لا يُدرَى ما وراءَه فهو غيبٌ، ولهذا جاءَ الغيبُ بمعنى الشَّكِّ لِنَفي العلم بما لا درايةَ فيه، وكُلُّ ما غابَ عَنِ العيونِ، سواءٌ كانَ مُحَصَّلًا في القلوب، أَمْ غيرَ مُحَصَّلٍ فهو غيبٌ[5]، ومعنى: ﴿أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ﴾؛ أي: أنتَ تعلمُ ماغابَ عنّا من بواطن الأمور، ولا تخفى عليك خافيةٌ[6].

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

في يوم القيامةِ يَجمَعُ اللّهُ جميعَ الرُّسُلِ عليهم السلام، فيسألُهم - وهو العليمُ سبحانه - عن جواب أُممهم لهم قائلًا: ماذا أجابَتكُم به أممُكم حينَ دَعَوتُموهُم إلى توحيدي وطاعتي؟

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، والفيروزباديّ، القاموس المحيط: (جمع).
(2) الرّاغب، المفردات: (جوب).
(3) ابن زنجلة، حجّة القراءات: 1/581.
(4) الزّجّاجيّ، اشتقاق أسماء الله، ص: 153.
(5) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن منظور، لسان العرب، والرّاغب، المفردات: (غيب).
(6) الرّاغب، المفردات: (علم).

فيقولونَ تأدُّبًا مع اللّه، وتسليمًا لأمرِه، رادّينَ الأمر إليه: لا عِلمَ لنا إلّا العِلمَ الَّذي أنتَ أعلَمُ به مِنّا، ولا عِلمَ لنا بعاقبةِ أمرِهم، وبِما أحدَثوا مِن بَعدُ، فأنتَ تعلمُ الأمورَ الغائِبَةَ والحاضِرةَ[1].

شهادةُ الرُّسلِ يومَ القيامة على الشّعوب، وردُّ العلم إلى علّام الغيوب

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

نُكتةُ حذف العامل، في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ﴾:

حُذِفَ عاملُ الظّرفِ ﴿يَوْمَ﴾، وتنوَّعت تقديراتُ المُفسّرين للعامل المحذوف[2]، والظّاهرُ: أنَّ كلَّ ما يصلحُ له المعنى، ويوافقُه السّياقُ، يصحُّ أن يُقدَّرَ؛ فحُذِفَ العاملُ لإفادة عُموم المعنى؛ لهولِ الموقفِ، ورهبتِه، وهَيبتِه؛ لِتَذهَبَ نَفسُ السّامِعِ كُلَّ مَذهَبٍ مُمكِنٍ مِنَ التَّهويل: فيصحُّ أن يكونَ تَقديرُهُ: يَومَ يَجمَعُ اللّهُ الرُّسُلَ يكونُ هَولٌ عَظيمٌ لا يَبلُغُهُ طولُ التَّعبير فينبغي طَيُّهُ، وأصلُ نَظمِ الكلام: (يَجمَعُ اللّهُ الرُّسُلَ يَومَ القيامة فَيَقولُ..)، فَغَيَّرَ نَظمَ الكلام إلى الأسلوب الَّذي وقَعَ في الآية؛ للاهتمام بالسّؤال والجواب، ولبيان شدّة ذلك اليوم المَهولِ[3]. ويصحُّ تقديرُ أيِّ لفظ يحقّقُ المُرادَ، مثلَ: احذروا أوِ اتقّوا اللّه، أوِ اذكروا يوم يَجمعُ، ويكونُ ﴿يَوْمَ﴾ على هذا التّقدير مفعولًا، وهذا الحذفُ كثيرٌ في مواقع التّهويل والتّفخيم، ومِنَ البلاغة بمكانٍ أن يكونَ الحذفُ أَزيدَ إفادةً في المعنى مِنَ الذِّكر.

عاملُ الظّرف المحذوف يُتيح للنَّفس تصوُّرَ أهوالِ الموقف

سببُ إيثارِ الرُّسُل بالسُّؤال:

تخصيصُ الرُّسُل بالذِّكر ليسَ لاختصاص الجمع بهم دونَ الأُمم، فذلكَ يومٌ مجموعٌ لهُ النّاسُ جميعًا، ولكنْ لإفادة: أنّهم أئمَّةُ الخَلقِ، وفي ضمن جمعِهم جمعُ الخلائق، فهُمُ المكلَّمونَ أوَّلًا؛ لِتقومَ الحُجَّةُ على الأمم، ويبدأَ حسابُهم على الواضحِ المستَبينِ[4].

الرُّسلُ أئمّةٌ عند الخالق، وهمُ المُكلَّمون قبل الخلائق

(1) البغويّ، معالم التّنزيل: 2/10، والسّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 126.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 11/209، والزّجّاج، معاني القرآن: 2/218، والزّمخشريّ، الكشّاف: 1/690.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/98.
(4) ابن عطيّة: المحرّر الوجيز: 2/256.

ولإبانة شرفِهم وأصالتِهم، والإيذانِ بعدم الحاجة إلى التَّصريح بجمعِ غيرِهم، بناءً على ظهور كونِهم أتباعًا لهم[1].

ولأنّ الرُّسُلَ مكلَّفونَ بالتَّبليغ، والمقامُ مقامُ إجابةٍ عن ما حصلَ بعدَ تبليغ الرِّسالة.

ولإظهار أمانةِ الرُّسُل، وحرصِهم على تحرّي الصِّدق فيما يقولونَ؛ ليكونَ ذلكَ تنبيهًا على وجوب تحرّي الصِّدق في الشَّهادة، والبُعدِ عن قول الزّور[2].

وقد أشعر التّعبيرُ بـ ﴿ٱلرُّسُلَ﴾ أنّهم أعلى النّاس مقامًا عندَ اللّهِ، وأنّ مقامَ الرِّسالة أفضلُ من مقام النُّبوَّة.

وجْهُ إظهارِ الاسم الأعظم، في السّياق الأكرم:

إفادةُ تربيّةِ المهابة، وإظهارِ شدّةِ الهَوْل

في إظهار الاسمِ الجليل ﴿ٱللَّهُ﴾ في مَوضِع الإضمار؛ تربيةُ المهابة، وتشديدُ التّهويلِ لموقف السّؤال[3].

دَلالةُ الاستفهام المَجازيِّ، وأسلوبِ التَّعريض في السّياق:

الاستفهامُ في خطاب المرسلين، توبيخٌ وتبكيتٌ للمكذّبين

أفادت ﴿مَاذَآ﴾ عمومَ السُّؤال، فبدلًا من أن يقولَ: أيَّ إجابةٍ أُجبتُم، أَإجابةُ إيمانٍ وإقرارٍ أم إجابةُ كُفرٍ واستكبارٍ؟ أإجابةُ طاعةٍ أم إجابةُ معصيةٍ؟ وهكذا[4]، أَوْجَزَ هذا الكلامَ كلَّه في لفظ ﴿مَاذَآ﴾، فالسّؤالُ هنا عن نوع الإجابة، وهو مَجازيٌّ بغرض التّقرير الّذي يليقُ بخطاب الرُّسل، وقدِ التزموا في الجواب بتفويض العلم للّه بما يناسبُ جلالَ الموقف وهيبتَه، ومع هذا ففي الاستفهام تعريضٌ بالأقوام الّذين بُلِّغوا؛ بغرض توبيخ المُكذِّبين، وتبكيتِهم، وإعلامِهم بما ينتظرُهم من عقابٍ، وإقامةِ الحُجَّة عليهم، وفي هذا الأسلوب منَ التَّحذير ما فيه.

---

(1) القاسميّ، محاسن التّأويل: 4/298.

(2) مجموعة منَ العلماء، التّفسير الوسيط: 3/1181.

(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/93.

(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 6/337، ورضا، تفسير المنار: 7/202.

كما أفادَ الاستفهامُ إظهارَ علم الله بكلِّ خافيةٍ وظاهرةٍ في موقفِ الجمعِ الأكبرِ يومَ القيامةِ، ولمَّا كانَ المقامُ مقامَ حسابِ الخلقِ اقتضَى ذلك إظهارَ العلمِ المُطلَقِ.

سببُ إيثار صِيغة المَبنيِّ للمفعول:

المُعوَّلُ عليه في الحساب الاقتداءُ والتِزامُ الاتّباع

وردَ الفعلُ على صيغة المبنيِّ للمفعول، فقال: ﴿مَاذَآ أُجِبۡتُمۡۖ﴾، وأصلُ الكلام: ماذا أجابَكم قومُكم؟ فقامَ المفعولُ مقامَ الفاعل؛ تكريمًا للرُّسُل، وإظهارًا لإبلاغهم الرِّسالةَ، ولإفادةِ أنَّ المُعوَّلَ في الحساب يومَ القيامة على طاعة الرُّسُل واتّباعِهم، وفيه من كمال تحقيرِ شأن الكفرة، وشدَّةِ الغَيظ والسُّخط عليهم ما لا يَخفَى[1].

سببُ سؤال الله تعالى عمّا هو به عليمٌ:

فَضْحُ الكفرةِ على رؤوسِ الأشهاد عُقوبةٌ لهم يومَ المعاد

وقد يُقال: لمَ سَأَلَ اللّه الرُّسلَ عمّا هو أعلَمُ به منهم؟ وجوابُه: أنّه لمّا كفرتْ بعضُ الأمم، ونافقوا، وكذبوا على رسلِهم بعد مماتِهم، أرادَ اللّه أن يُعلِمَ رسلَهُ بذلكَ، وليفضحَ الكفرةَ على رُؤوس الأشهاد؛ ليكونَ ذلك نوعًا منَ العقوبة لهم[2]، ولم يسألْهم بقوله: (هل بلَّغتم رسالاتي) ؟ بل قال: ﴿مَاذَآ أُجِبۡتُمۡۖ﴾؛ لإفادة خروجِهم عن عُهدة الرِّسالة بما بلّغوهُ، وقاموا به منَ التَّبليغ المبين كما ينبغي[3].

سرّ مجيء جوابِ الرُّسلِ على خلافِ مُقتضى الظَّاهر:

براعةُ الإيجاز في الجواب، يُغني عن كلِّ جوابٍ

كان مُقتضَى الظّاهر أن يكونَ الجوابُ على وفْقِ السُّؤال، فيجيبَ الرُّسُلُ بقولهم: (أَطاعنا قومُنا أو لم يطيعونا)، أو بقولهم: (أقرّوا بتوحيدِك أو لم يُقِرّوا)، ولو أجابوا بهذا لأعقبَهُ سؤالٌ عنِ السَّبب، فأجابوا بما ذُكر في الآية؛ ليكونَ الجوابُ مُغنيًا عن كلِّ جوابٍ، وعن ما يعقبُهُ لو أجابوا بغيره، إيجازًا واختصارًا، وليظهرَ علمُ اللّهِ يومَ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/93، والقاسميّ، محاسن التّأويل: 4/289.
(2) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 6/361.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/93.

الجمع الأكبر أمامَ الخلق جميعًا، ولهذا حصروا علمَ الغيب باللّه تعالى. كما أفادَ هذا الجوابُ التعريضَ بتوبيخ الكفرة، كما أشعرَ به الاستفهامُ بـ ﴿مَاذَآ أُجِبۡتُمۡۖ﴾، وأنَّ الأمرَ لا حاجةَ فيه إلى الشَّهادة لِظهورِه[1].

سببُ إيثار النَّفي بـ ﴿لَا﴾، في قوله تعالى: ﴿لَا عِلۡمَ لَنَآۖ﴾:

كلُّ ما يعلمُه الرُّسلُ، هو من علمِ الله ﷻ

تدلُّ ﴿لَا﴾ النّافيةُ للجنس على أنَّ الرُّسلَ نفَوا أيَّ علمٍ حاصلٍ لهم؛ إشعارًا بأنَّ ما يعلمونَه إنّما هو مِن علم اللّه، فالمقامُ مقامُ التَّسليم للّه تعالى، والخضوعِ لعلمه، ولهذا اختارَ الطّبريُّ قولَ ابنِ عبّاسٍ في تفسير هذه الجملة: (لاعلمَ لنا إلّا علمٌ أنتَ أعلَمُ به منّا)، كما يُشعرُ الجوابُ بالتّشكّي من أقوامِهم بما كابَدوا منهم[2]. وذهبَ بعضُ المُفسّرينَ إلى أنَّهُ ليسَ المرادُ نفيَ عِلْمِهم على الإطلاق، وإنَّما هو نَفيٌ لِعلم الإحاطة والشّمول الَّذي هو خاصٌّ باللّه تعالى، لِعلْمِ الرُّسُل بظاهر ما أُجيبوا به مِن مُخاطِبيهِم، ولم يَعلَموا بواطِنَهُم، ولا حالَ مَن لم يَرَوْهُ مِن أُمَمِهِم، إلّا ما يوحيهِ تعالى إليهم مِن ذلك، وهو قليلٌ مِن كثيرٍ[3].

الاستئنافُ البيانيُّ، في قوله: ﴿قَالُواْ﴾:

التَّعبيرُ عنِ المُستقبل بالمُضيّ؛ دليلٌ على الوقوع اليقينيّ

في الآية استئنافٌ مبنيٌّ على سؤالٍ نشأ من فحوى الكلام، كأنَّه قيلَ: فماذا يقولُ الرُّسُلُ ﷺ هنالكَ؟ فقيل: يقولون: ﴿لَا عِلۡمَ لَنَآۖ﴾.

وعبَّر بالماضي عنِ المستقبل الغيبيّ؛ لإفادة تحقّق الوقوع لِما تدلُّ عليه صيغةُ الماضي، كما في قوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ﴾ [الأعراف: 50]، ونظائره. وفيه إشعارٌ بأنَّ قولَهم: ﴿لَا عِلۡمَ لَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ﴾ قد قالوه واعتقدوه مِن قبلُ، وذكرَ

(1) النّيسابوريّ، غرائب القرآن: 3/35.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 11/211، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 2/148.
(3) رضا، تفسير المنار: 7/203.

النَّيسابوريُّ سببين آخَرين: أحدُهما: أنّهُ جاء بصيغة الماضي للدَّلالة على قرب القيامة، حتَّى كأنَّها قد قامت ووقعت، كما يُقالُ: الجيشُ قد أتى، إذا قرُبَ إتيانُهم، والثّاني: أن يكونَ واردًا على الحكاية، كقول الرَّجل لصاحبه: كأنَّكَ بنا، وقد دخلنا بلدةَ كذا، فصنعنا كذا[1].

بلاغةُ أسلوبِ الحَصْر بالضّمير ﴿أَنتَ﴾:

تعدُّدُ الوسائل الدّالّةِ بيقينٍ على أنَّ العلمَ بالغيب مختصٌّ بالله ربِّ العالمين

في التّعبير القرآني: ﴿لَا عِلْمَ لَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ يأتي ضميرُ الفصل ﴿أَنتَ﴾؛ ليفيدَ الحصرَ، ويُؤكِّدَ مضمونَ الجملةِ[2]، والمعنى: اختصاصُ علم الغيب بالله تعالى، وحصرُهُ به، وقد تأكّدَ مضمونُ الجملة، وهذا الاختصاصُ بـ (إنَّ)، ومجيءُ المُسندِ والمُسنَدِ إليه معرفتَيْن، وصيغةُ المبالغة ﴿عَلَّٰمُ﴾، فتتابعتِ التّأكيداتُ والتّقريراتُ على علم الله بالغيب؛ لِتوبيخ الكفرة على ما توهَّموه وظنّوه، ولو لم يكنِ الضَّميرُ ﴿أَنتَ﴾ للحصر لَما حسُنَ؛ لأنَّ اللهَ لم يزَل علّامَ الغيوب؛ أي: فتَعلَمُ، يا ربَّنا، ما أجاب قومُنا وأَظْهَروه لنا، وما لم نَعلَمه ممّا أضمروه في قلوبهم، وفيه إظهارٌ للشَّكاة، وردٌّ للأمر إلى عِلمه تعالى بما لَقوا مِن قِبَلِهم منَ الخطوب، وكابَدوا منَ الكروب[3].

دَلالةُ وصف ﴿عَلَّٰمُ﴾، على المبالغة:

عِلمُ الله الواحد مُحيطٌ بكلِّ شيءٍ

صيغةُ ﴿عَلَّٰمُ﴾ على وزن (فعّال)؛ للمبالغة، وهو أكثرُ مبالغةً من (عليم)، والمعنى: كَثيرُ العِلم؛ أي: بكَثرَة المَعلومات، وإلّا فَعِلمُهُ واحدٌ محيطٌ بكُلِّ شيءٍ إحاطةً كاملةً، ولم يَرد في القرآن انفرادُ الشّهادة بوصف الله بأنَّه علّام به، كما ورد في قوله تعالى: ﴿عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾؛ تعظيمًا لأمر الغيب، وللإيذان بكثرته مقارنةً بعالَمِ الشَّهادة.

(1) النّيسابوريّ، غرائب القرآن: 3/36.
(2) التّفتازانّي، المُطوَّل، ص: 388، والسّبكّي، عروس الأفراح: 1/227.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 93/3 - 94.

دَلالةُ صيغة الجمع للَفظ (الغيب):

ما غابَ عنِ النّاس من مكنونٍ أكثرُ ممّا هو مُشاهَدٌ بالعيون

في قوله تعالى: ﴿ٱلْغُيُوبِ﴾، أفادت صيغةُ جمعِ الكثرة (فُعول) كثرةَ الغيب، ومنه: مشاهدُ البَعث، والنُّشور، وإتيانُ السّاعَة، وغيرُها، فما غابَ عنِ الخلقِ ممّا يعلمُهُ اللّهُ أكثرُ ممّا هو مُشاهَدٌ، فناسبَ مجيءُ صيغة المبالغة ﴿عَلَّٰمُ﴾ مضافةً إلى جمع الكثرة؛ إيذانًا بكثرة الغيب، وتنوُّعه، وإحاطةِ علم اللّه به كلِّه، ويؤكّد هذا التَّناسُبَ بين الصّيغتَين: المُبالغةُ في ﴿عَلَّٰمُ﴾، والجمعُ في ﴿ٱلْغُيُوبِ﴾؛ إذ إنّه لمّا أُفرِد الغيبُ، ولم يُجمَع، اكتُفي معه باسم الفاعل في قولِه تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا﴾ [الجنّ: 26]، وقولِه: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ [الأنعام: 73].

دلالةُ قراءة ﴿ٱلْغِيُوبِ﴾ بكسر الغين، على التّناسُبِ الصَّوتي:

قراءة الضمّ خفيفةٌ في اللّفظ

قرأ بكسر الغين منَ ﴿ٱلْغِيُوبِ﴾ - حيث وقع - : حمزةُ وشعبةُ عن عاصم[1]، وقرأ الباقون بضمِّ الغين، وهي القراءةُ المشهورةُ[2]، والتّناسبُ الصَّوتيُّ أو الشّكليّ هو الغالبُ، فقراءةُ الكسر تناسبُ حرفَ الياء، لثِقَلِ الانتقال منَ الكسر (في الغين)، إلى الضّمّ (في الياء)، ولم يقرأ بها سوى حمزةَ وشعبةَ عن عاصم الكوفيِّ، أمّا قراءةُ ضمّ الغين فإنّها أخفُّ؛ لتوافُقِ حرفين متواليين في حركة واحدة (الضّمّ)، وقرأ بها الأكثرون منَ القُرّاء العشرة.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الجَمع والبَعث:

البَعث إخراجٌ ونشورٌ منَ القبور، والجمعُ حشرٌ للنّاس في الصّعيد المذكور

بعثُ الخَلقِ: اسمٌ لإخراجهم من قبورِهم إلى الموقفِ، ومنه قولُه تعالى: ﴿يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا﴾ [يس: 52][3]، وهذا معنى عامٌّ قد يكون مع التّفرُّق، وقد يكونُ مع الاجتماع.

(1) ابن الجزريّ، النّشر في القراءات العشر: 2/226.
(2) العلميّ، تقريب المعاني، ص: 240.
(3) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 479.

لكنَّ الجمعَ لا يكون إلّا باجتماعٍ، وتضامٍّ، وتلاحمٍ مع تجانسٍ، كما يدلُّ استعمالُ المادّة[1]، ولذلك استُعمل في السّياق ما هو الأنسبُ لجمعِ اللّه الرُّسلَ في الموقف لتقريرهم بشأن أقوامِهم.

الرُّسل والأنبياء:

الرّسلُ: جمعُ رسولٍ منَ الإرسال الّذي هو الانبعاثُ على تُؤَدة، فيقال: ناقةٌ رِسْلَةٌ؛ أي: سهلةُ السَّير، والإرسالُ: اسمٌ عامٌّ يتناولُ إرسالَ الملائكة، وإرسالَ الرّياح، وإرسالَ الشّياطين، والرَّسولُ: يُقال تارةً للقول المتحمَّل، وتارة لِمُتَحَمِّلِ القول والرِّسالة.

الرّسُلُ والأنبياء مبلِّغون عنِ اللّه، ويختصّ الرّسولُ بكتابٍ أو شريعةٍ من عند اللّه

ورسلُ اللّه هم الّذين يبلِّغون عنِ اللّه أمرَه ونهيَه، وهمُ المقصودون عند الإطلاق، كما في الآية الكريمة، والرّسلُ تُرسَل إلى مخالفين؛ فيكذِّبهم بعضُهم، قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٌ﴾ [الذّاريات: 52]، وقال: ﴿مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدۡ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبۡلِكَۚ﴾ [فصّلت: 43]، والإرسالُ: يستلزمُ التَّحمُّلَ والتّبليغَ، والرّسالةُ: جملةٌ منَ البيان يحملُها القائمُ بها؛ ليُؤدّيَها لغيره.

أمّا الأنبياءُ: فجَمعُ نبيٍّ منَ النّبأِ، وهو الخبرُ ذو الفائدة العظيمةِ، الّذي يحصل به علمٌ أو غَلَبَةُ ظنٍّ، ولا يُقال للخبر في الأصل نَبَأٌ حتّى يتضمَّن هذه الأشياءَ الثّلاثةَ، فالأنبياءُ يُخبِرُهم اللّهُ بأمره، ونهيه، وخبرِه، وهم يُنبّئون المؤمنين بهم ما أنبأهم اللّهُ به منَ الخبر والأمر والنّهي، فالنّبوءةُ فيها تكليفُ القيام بالوحي، وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ...﴾ [الحجّ: 52] يدلُّ على أنّ النّبيَّ مُرسَلٌ كالرّسول، ولكنّه لا يسمَّى رسولاً عند الإطلاق؛ لأنّه لم يُرسَل إلى قومٍ إلّا بما يعرفونه، وكان يأمر المؤمنين بما يعرفون أنّه حقٌّ؛ كالعالِم، ولهذا قال النّبيُّ ﷺ: «العلماءُ ورثةُ الأنبياء»[2].

وفي ضوء هذا التّفريق فإنَّ التّعبيرَ بالرُّسل في الآية هو الأنسبُ لمقام السّؤال عنِ التَّبليغ، وموقفِ الأقوامِ منه في قوله تعالى: ﴿مَاذَآ أُجِبۡتُمۡۖ﴾.

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (جمع).

(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 480، والرّاغب، المفردات: (رسل - نبأ)، وابن تيميّة، النّبوّات: 2/718. والحديث أخرجه أبو داود في سننه، الحديث رقم: (3641)، والتّرمذيّ في جامعه، الحديث رقم: (2682)، وابن ماجه في سننه، الحديث رقم: (223).

﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ
وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا ۖ
وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۖ وَإِذْ تَخْلُقُ
مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِي ۖ
وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِي ۖ وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي ۖ وَإِذْ
كَفَفْتُ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ
كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٠﴾﴾ [المائدة: 110]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

إشهاد الرّسل يومَ القيامة، وسؤال عيسى عنِ المعجزات والبَلاغ

لمّا وردتِ الآيةُ السّابقةُ: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ﴾؛ توبيخًا للأمم السّابقة، ناسبَ أن تتبعَها هذه الآيةُ في ذِكر أجدرِ الأُمَم بالتَّوبيخ والملامَة، وهمُ النَّصارى الَّذين وصفوا اللّه تعالى بما لا يَليقُ بعاقلٍ أن يَصِفَ الإلهَ به، وهو اتِّخاذُ الزَّوجةِ والولدِ، فكان ذكرُ النِّعمِ تَوبيخًا للنَّصارى، وتقريعًا لهم على سوءِ مَقالَتِهم؛ فإنَّ كُلَّ واحِدَةٍ مِن تِلكَ النِّعمِ المعدودةِ على عيسى تدُلُّ على أنَّهُ عَبدٌ، وليس بإلهٍ[1].

من ناحية أخرى، فإنَّ هذه الآيةَ شروعٌ في بيانِ ما جرى بينَه تعالى وبينَ واحدٍ منَ الرُّسُلِ المجموعينَ منَ المفاوضة على التَّفصيل إثرَ بيانِ ما جرى بينَه تعالى وبينَ الجميعِ على وجه الإجمال؛ ليكونَ ذلك كالأُنموذجِ لِتفاصيلِ أحوالِ الباقينَ، وتخصيصُ شأنِ عيسى عليه السلام بالبيان تفصيلًا من بين شؤون سائر الرُّسل عليهم السلام؛ لِما أنَّ شأنه عليه السلام متعلِّقٌ بكلا الفريقينِ من أهل الكتاب الَّذينَ نُعيت عليهم في

(1) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 12/458، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 6/338.

السّورة الكريمة جناياتُهم، فتفصيلُه أعظمُ عليهم، وأَجلبُ لِحسرتِهم وندامتِهم، وأفتُّ في أَعضادِهم، وأَدخَلُ في صرفِهم عن غيِّهم وعنادِهم[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَيَّدتُّكَ﴾: الأَيدُ هو القوّةُ الشَّديدةُ المضمَّنةُ معنى الحِفظِ، وكأنّ معنى اليدِ مضمَّنٌ في (أيدٍ)، فيقالُ: أيَّدَ فلانٌ فلانًا؛ أي: أخذَ معهُ بيدِهِ في الشَّيءِ الّذي يقوّيه فيه، وأيَّدتُكَ على معنى التَّكثير؛ أي: قوَّيتُكَ قوَّةً شديدةً معَ زيادةٍ في الحفظِ، والمصدرُ التَّأييدُ[2].

2) ﴿بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾: هذا التَّركيبُ الإضافيُّ من إضافة الموصوف إلى الصِّفة؛ للمبالغة في الاختصاص[3]، وأصلُه الرّوحُ القُدسُ؛ أي: الرّوحُ المقدَّسةُ، ومعنى القُدس: الطَّهارةُ العلميَّةُ الدّائمةُ الّتي لا يلحقُها نجسٌ ظاهرٌ ولا رِجسٌ باطنٌ، فَروحُ القُدُسِ بمعنى: الرّوح المُطهَّرةِ المباركةِ، وهو وصفٌ لِجبريلَ[4] عليه السلام.

3) ﴿ٱلْمَهْدِ﴾: أَصلُ المَهد التَّوثيرُ، ويُقال للفِراشِ: مِهادٌ؛ لوَثارته، ثمَّ أُطلقَ على المكانِ المُمَهَّد الموطَّأ، ومنه: المُهدةُ منَ الأَرض: لِما انخفضَ في سهولةٍ واستواءٍ، ومَهَّدتُ لكَ كذا: هيّأتُه وسوّيتُهُ، وتَمهيدُ الأُمورِ: تَسويَتُها وإِصلاحُها، ومَهدُ الصَّبيِّ: مَوضِعُهُ الَّذي يُهَيّأُ لَهُ، ويوَطَّأُ؛ ليَنامَ فيه وقتَ تربيتِه[5].

4) ﴿وَكَهْلًا﴾: الكَهل: يُقالُ لانتِهاء الشَّباب وكَمال قوَّته؛ لِوصولِ جسمِهِ إلى أقصى نموِّهِ وامتدادِهِ، ولهذا سُمّيَ الحليمُ العاقلُ بالكهل؛ للزومِه لكمالِ النّموِّ. ورَجلٌ كَهلٌ، وامرأَةٌ كهلةٌ: إذا انتهى شَبابُهما، وبدأت مرحلةُ عمرٍ جديدةٌ عندَهما، والكهلُ منْ عُمُرِ ثلاثٍ وثلاثينَ سنة، إلى الأربعين، أو إلى الخمسين سنة، والكاهِلُ للإنسان مُقدَّمُ الظّهر ما بين الكتفين[6].

5) ﴿وَٱلْحِكْمَةَ﴾: الحُكْمُ بمعنى المنع لإصلاحٍ، فهو ضبطٌ يمنعُ منَ التَّسيُّب، وحكَمَ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/4.
(2) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (أَيَدَ).
(3) الآلوسّي، روح المعاني: 1/316.
(4) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (قدس)، وابن جرير، جامع البيان: 2/320.
(5) الأزهريّ، تهذيب اللغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (مهد).
(6) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (كهل).

الشَّيءَ وأحكمه: منعَه منَ الفسادِ وأصلحَه. ومن معنى الضَّبطِ الحُكْمُ بمعنى القضاءِ، والحاكمُ: السُّلطانُ الّذي يضبطُ أمورَ النّاسِ، ويمنعُها منَ التّسيُّب، والحكمةُ: وضعُ الشَّيءِ في مَوضِعه، وصوابُ الأمرِ وسدادُهُ للمنع منَ الفساد[1].

والحكمةُ في الآية بمعنى فهمِ معاني الكتابِ الّذي أنزلتُه إليكَ، وحسنُ التَّصرُّف في الأمور[2].

6) ﴿وَٱلتَّوۡرَىٰةَ﴾: الكتابُ الّذي أنزلهُ اللّهُ على موسى عليه السلام، أَساسًا لشريعتِهِ، ولا يسمَّى به إلّا الكتابُ الّذي كانَ قبلَ التَّحريف والتَّبديل، فما يتداوله اليهودُ الآنَ، يحرُمُ تسميتُهُ التَّوراةَ.

7) ﴿وَٱلۡإِنجِيلَ﴾: الكتابُ الّذي أنزلَهُ اللّهُ على عيسى عليه السلام، أَساسًا لشريعتِهِ، ولا يُسمّى به الكتابُ الّذي يتداولُه النّصارى بعدَ التَّحريف، فيحرمُ تسميتُهُ بالإنجيل[3].

8) ﴿تَخۡلُقُ﴾: الخلقُ هو التَّقديرُ المستقيمُ للشَّيءِ، ويُستعملُ في إبداعِ الشّيءِ من غيرِ أصلٍ ولا احتذاءٍ، مثلُ: خالق السّماوات والأرض، وخَلَقَ اللّهُ الأشياءَ خَلقًا، وهو الخالِقُ والخَلّاقُ؛ ولا تَجوزُ هذه الصِّفَةُ بالألف واللّام لِغير اللّه تعالى. ويُستعملُ الخلقُ في إيجادِ الشَّيء منَ الشَّيء، كخلق الإنسان من طينٍ. والاستعمالان مختصّان باللّه تعالى، أمّا الّذي يكونُ بالتَّحوُّلِ من حالةٍ إلى أخرى فيصحُّ أن يتَّصفَ به غيرُ اللّه في بعض الأحوال[4]، كما في هذه الآية، والعربُ تسمّي تصويرَ الشَّيءِ وتقديرَهُ: تخليقًا؛ فعلى ذلك جاءت كلمةُ ﴿تَخۡلُقُ﴾ في الآية[5].

9) ﴿كَهَيۡـَٔةِ﴾: اتِّخاذُ وضعٍ مناسبٍ لأمرٍ ما، وهي الحالةُ الظّاهِرَةُ الّتي يكونُ عليها الشَّيءُ، محسوسةً كانت أو معقولةً، لكنَّ استعمالَها في المحسوس أكثرُ، ففي معنى اللّفظ معنى تشكيلِ الشَّيءِ وإعدادِه؛ ليكونَ شيئًا معيَّنًا مطلوبًا[6].

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (حكم).
(2) ابن جرير، جامع البيان: 11/215.
(3) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 3/1180.
(4) الرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (خلق).
(5) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنّة: 3/648.
(6) الرّاغب، المفردات، والفيّوميّ، المصباح المنير، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (هيأ).

10) ﴿وَتُبْرِئُ﴾: بَرَأَ بمعنى خَلَقَ، والبارئُ هو الَّذي خَلَقَ الخَلقَ لا عن مِثالٍ، وقلَّما تُستَعمَلُ برأَ في غير الحيوان، فيُقالُ: برَأَ اللّهُ النّسَمَةَ، وخَلَقَ السَّماواتِ والأرضَ، كما يدلُّ البَرءُ على التَّخليص منَ العيوبِ، والسُّقمِ، والتُّهمةِ، والدَّينِ، ويُقالُ بَرِئَ المريضُ منَ المرضِ: شُفيَ وتخلَّصَ ممّا فيه[1].

11) ﴿ٱلْأَكْمَهَ﴾: الكَمَهُ هو العَمَى الَّذي يولَدُ عليه الإنسانُ، والأكمَهُ: الَّذي يولَد لا بَصَرَ له، وإطلاقُهُ على الّذي لايُبصِرُ مِن عَرَضٍ أو مرضٍ من تقييدِ المُطلَقِ[2].

12) ﴿وَٱلْأَبْرَصَ﴾: البَرَصُ: داءٌ؛ وهو بياضٌ يقعُ في الجسد، يصيبُ الجلدَ، ويتأثَّرُ به البدنُ، وينفِرُ النّاسُ منَ المصاب به، ولمَن يُصابُ بالمرضِ يُقالُ له: أبرصُ، والجَمعُ بُرصٌ[3].

13) ﴿بِإِذْنِي﴾: يقالُ: آذَنَني فُلانٌ أَعلَمَني، والإذنُ في الشَّيءِ الإعلامُ بإجازتِه والرُّخصةِ فيه، ويدلُّ كذلكَ على الأمرِ به، وكذا يدلُّ على المَشيئَةِ والتَّيسيرِ، وإذا أُسندَ الإذنُ أو أُضيف للّه سبحانه فيُراد به أمرُه، وإرادتُه، أو تيسيرُه[4].

14) ﴿كَفَفْتُ﴾: الكفُّ: ا لمنعُ، ومنه قيلَ لكفِّ الإنسان: كفٌّ؛ لأنَّهُ يمنعُ ما فيه، ولمّا كانَ الكفُّ بمعنى المنع فقد أُطلقَ على الدَّفعِ، سواءٌ أكانَ ذلك بكفٍّ أم بغيرِها، وكففتُ في الآيةِ، بمعنى: منعتُ[5].

15) ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾: جمعُ بيّنةٍ، بانَ الشَّيءُ وأَبانَ إذا اتَّضَحَ وانكَشَفَ، والبَيانُ: ما بُيِّنَ به الشَّيءُ مِنَ الدَّلالةِ وغيرِها، وفلانٌ أَبيَنُ مِن فُلانٍ؛ أي: أَفصحُ مِنه، وأَوضحُ كلامًا. وتأتي البيّنةُ بمعنى الأمرِ الواضحِ، وبمعنى الحُجَّةِ؛ لِأنَّه بها ينكشفُ الحقُّ، ويتّضِحُ، فالبيّنةُ لاينازِعُ فيها منازِعٌ لِوضوحِها[6]، والمرادُ بالبيِّناتِ هنا معجزاتُ سيِّدنا عيسى[7] عليه السلام.

(1) ابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (برأ).
(2) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (كمه).
(3) الرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (برص).
(4) الرّاغب، المفردات: (أذن)، ورضا، تفسير المنار: 7/206.
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (كفف).
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (بين).
(7) ابن جرير، جامع البيان: 11/216.

16) ﴿سِحْرٌ﴾: هو تمويهٌ وتخييلٌ به يَرى الإنسانُ الشَّيءَ على غير حقيقته، فهو من خِداع الحواسِّ والقلبِ؛ لإخراج الباطل في صورة الحقّ. ولِدقّة السِّحر في خداع الحواسّ، ولطافتِهِ؛ أُطلقَ السِّحرُ على كلِّ ما لَطُفَ منَ الكلام، وأثَّرَ في القلوب[1].

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

منّةُ اللهِ بالخوارق على عيسى وأمّه من دون الخلائق

قال اللّه: يا عيسى بنَ مريمَ؛ اذكر نعمتي عليكَ؛ إذ خلقتُك من غير أبٍ، واذكر نعمتي على والدتِكَ حيث اصطفيتُها على نساء العالمين، وبرّأتُها ممّا نُسِب إليها من مذامٍّ وافتراء.

واذكر؛ حينَ تأييدي إيّاكَ بجبريل عليه السلام، وتكليمِكَ النّاسَ، وأنتَ رضيعٌ قبلَ أوانِ الكلام، وتدعوهم إلى اللّه، وأنت كبيرٌ، قد اجتمعَتْ قوَّتُك، وكمُل شبابُك، بما أوحاه اللّه إليك منَ التّوحيد.

واذكر نعمتي عليكَ؛ بتعليمِكَ الكتابَ، وإصابةَ الحقِّ؛ في الرّأيِ والقولِ والعملِ، وبتعليمِكَ التَّوراةَ والإنجيلَ.

واذكر نعمتي عليكَ؛ إذ تجعلُ قطعةً منَ الطّينِ مثلَ هيئةِ الطَّيرِ في شكلِها ومقاديرِ أعضائِها، فتنفخُ فيها - بعدَ ذلكَ - فتكونُ طيرًا بإذنِ اللّه وتكوينِه.

واذكر نعمتي عليكَ؛ حينَ جعلتُك تُبرِئُ مَن وُلِد أعمى فتمنحُهُ الإبصارَ بإذني وتيسيري، وحينَ تُخرِجُ الموتى من قبورِهم أحياءً - بعدَ أن صارت رميمًا - بإذني وتيسيري.

واذكر نعمتي عليكَ؛ حينَ منعتُ بني إسرائيلَ عنك، وقد أرادوا قَتْلَك لمّا جِئتَهم بالمعجزات الواضحات الدّالّاتِ على نبوَّتِك، فقال الكافرونَ منهم: ما جاءَ به عيسى منَ البيِّناتِ لم يكن إلّا سِحرًا ظاهرًا[2].

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والفيّوميّ، المصباح المنير، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (سحر).
(2) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 7/55 - 56، ومجموعة منَ العلماء، التّفسير الوسيط: 3/1184.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

إيثارُ التَّعبيرِ بلفظِ الماضي ﴿قَالَ﴾ في السّياق:

ما سوف يَقَعُ مِن مَشاهِدِ القيامة يقينٌ لا رَيْبَ فيه

لمّا كانَ السّياقُ دالًّا على أنَّ الكلامَ سيقعُ في يوم القيامة، كان التَّعبيرُ بالفعل الماضي عُدولًا عنِ الظّاهر؛ لِتنزيلِ المستقبلِ الّذي هو يومُ القيامةِ؛ نَظمًا له في سِلكِ المقطوعِ به لِصدورِهِ عن مَن لا خلافَ في إخبارِهِ، ووعدِهِ، ووعيدِهِ، منزلةَ الماضي المعلومِ تذكيراً بما لذلكَ اليومِ من تحتُّمِ الوقوعِ، وتصويراً لِعظيمِ تحقُّقِهِ، وتنبيهًا على أنَّه لِشدّةِ قُربِهِ، كأنَّهُ قد وقعَ ومضَى[1].

دَلالةُ إظهار اسم ﴿ٱللَّهُ﴾، في مَوضِعِ الإضمار:

تذكيرٌ بمقام الألوهيّة المنزَّه عمّن سواه

لمّا كانَ الاسمُ الجليلُ ﴿ٱللَّهُ﴾، قد ذُكرَ مِن قريبٍ في قولِه تعالى: ﴿يَوۡمَ يَجۡمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ﴾، كانَ الظّاهرُ أن يقولَ هنا: (إذ قال: يا عيسى بنَ مريمَ)، فعدلَ إلى الاسم الظّاهر، فقال: ﴿إِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى﴾؛ للمبالغة في التَّهويل؛ لأنَّ المقامَ مقامُ توبيخٍ للكافرينَ يومَ القيامة، وفيه تذكيرٌ بمقام الألوهيَّة لِمَن هو في الدُّنيا كذلك[2].

دَلالةُ النِّداء بـ ﴿يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ﴾:

عيسى عليه السلام لا ينفكّ عن كونِه عَبْدًا لربّ الأنام

ابتدأ الكلامَ بنداء عيسى عليه السلام بنسبةِ بنوَّتِه إلى أُمِّه؛ للإيذان بأنَّ كلَّ ما يفعلُهُ لايخرجُ عن كونِه عبدًا لله، وأنَّهُ ابنُ مريمَ، وليس ابنَ الله ﷻ، كما يزعمُ كثيرٌ منَ النَّصارى، وفي ذلك إشارةٌ تعريضيّةٌ للقائلين بذلك منهم حتّى يُصَحِّحوا عقيدتَهم الفاسدةَ.

دَلالةُ لفظِ ﴿نِعۡمَتِي﴾ بين الاسميّة والمصدريّة:

ذِكْرُ المفردِ وإرادَةُ الجمعِ، على معنى تعدُّد أفراد النِّعَم

يَحْتَمِلُ أن يكونَ المرادُ من ﴿نِعۡمَتِي﴾ الاسمَ الحاصلَ منَ المصدرِ؛ أي: الأثرَ الّذي يكونُ على العبدِ، وذكرَ المفردَ وأرادَ الجمعَ؛ لأنَّهُ مضافٌ يصلُح للجنسِ، فاللَّفظُ مفردٌ ومعناه جمعٌ، على معنى تعدُّد

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 6/339.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/94.

أفراد النِّعَم. ويَحتملُ أنَ يكونَ لفظُ ﴿نِعۡمَتِي﴾ مصدرًا؛ بمعنى: إنعامي، والمعنى: اذكُر إنعامي عليك وعلى والدتِك[1]. والحملُ على الأوَّلِ أَولى، ولاسيَّما أنَّ المرادَ من ﴿نِعۡمَتِي﴾ الجمعُ، فاللَّفظُ واحدٌ، ومعناه جمعٌ، ومثلُه قولُه تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ﴾ [إبراهيم: 34][2]، ولأنَّ التَّذكيرَ بالأثر الظّاهر أحرى وأظهرُ في توبيخ الكافرينَ، ولأنَّ المقامَ مقامُ ذكر النِّعَم وليس الإنعامَ، كما يدلُّ عليه السّياقُ من ذكر تخليق الطَّير، وإبراءِ الأكمَهِ والأبرصِ، وغيرِها؛ بصيغة المضارع.

فائدةُ الإضافة للضّمير في التّركيب الإضافيّ: ﴿نِعۡمَتِي﴾:

لا نعمةَ موفورةٌ إلَّا نعمةُ الله تعالى

أفادتِ الإضافةُ تخصيصَ النِّعمة باللّه تعالى في مقام ظهور الخلائِق كلّها؛ ليفيدَ أن لا نعمةَ إلّا نعمةُ اللّه تعالى، كما أنَّ الإضافةَ أفادت تقويةَ إرادة الجمع في: ﴿نِعۡمَتِي﴾؛ لِصلاحيَّة اللَّفظ لإرادة الجنس[3].

الأمرُ بذكرِ النِّعَمِ يومَ القيامةِ، إظهارٌ لكرم المنعِم:

توبيخٌ من جعلوا عيسى إلهًا، أو أنكروا رسالتَه وهديَه

لمّا كانَ الأمرُ بذكرِ النِّعَم في الموقف يومَ القيامة، فليسَ المرادُ به ظاهرَهُ، وهو تكليفُ عيسى عليه السلام بشُكرِها، والقيام بواجبِها في ذلك اليوم؛ لِانتهاءِ التَّكليفِ يومَ القيامةِ، وإنّما المرادُ منَ الأمرِ لازمُهُ، وهو إظهارُ عيسى عليه السلام نعمَ اللّهِ بتعدادِها، والتّلذُّذِ بذكرها على رؤوس الأشهاد؛ لِتكونَ توبيخًا، وزجرًا للكفرة الّذينَ أفرطوا فيه فجعلوه إلهًا، أو فرَّطوا فأنكروا رسالتَهُ، فالسّياقُ على معنى توبيخ الكافرين، وتنبيهِ مَن هم في الدُّنيا إلى اتِّباعِ الحَقِّ[4]. ثمّ إنَّ نداءَ اللّه سبحانه لعيسى وأمرَه؛ يعني: أنّ هناك آمِرًا هو اللّه،

(1) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 12/459.
(2) البغويّ، معالم التّنزيل: 2/101.
(3) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 12/459.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/94.

ومأمورًا هو عيسى عبدُ اللّه ورسولُه، وفي ذلك برهانٌ لمَن يعقلُ منَ النَّصارى حتّى يعلمَ الفرقَ بين اللّه الخالق الآمر، والعبدِ المخلوقِ الّذي يتلقّى الأوامرَ.

فائدةُ العطفِ وحرفِ الاستعلاء، في قوله تعالى: ﴿وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ﴾:

نعمةُ اللهِ على عيسى نِعمةٌ على أُمِّهِ البَتول

أفادَ حرفُ الجرّ ﴿وَعَلَىٰ﴾ الدّالُّ على الاستعلاءِ استغراقَ نعمةِ اللّه على نبيِّ اللّهِ عيسى عليه السلام وعلى والدتِهِ، وعطفَ قولَه: ﴿وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ﴾؛ لأنَّهُ في مقامِ تَعدادِ النِّعمِ وإظهارِها، فاقتضَى التَّفصيلَ، وأيضًا للزّيادَة في تبكيت اليهودِ وكمدِهِم؛ لأنَّهم تَنَقَّصوها بِأَقذعَ مِمّا تنقَّصوهُ، وثالثةً: لأنَّ النِّعمةَ على الولدِ نعمةٌ على أبويه، فإنَّ مكارمَ الأخلاق دليلٌ على طيبِ الأعراق.

وكرَّرَ حرفَ الجرِّ ﴿وَعَلَىٰ﴾ معَ أنَّه واجبُ التَّكرير؛ للإشعار بأنَّ نعمتَه تعالى على عيسى عليه السلام مغايرةٌ لِنعمتِهِ على والدتِه، أمّا نعمتُه على والِدَتِه فإنه اصطفاها لطاعته، وطهَّرَها من كلِّ دَنَسٍ، واصطفاها على نساء العالمين في زمانها، وكان رِزقُها يأتيها مِن عندِه، وهي في محرابها[1].

مناسبةُ التَّعبير بـ ﴿إِذْ﴾، وغرضُه في سياق الآية الكريمة:

عَظَمةُ الزَّمن في عظمة ما فيه من أحداثٍ وتحدّيات ومِحَنٍ

لا تَرِدُ ﴿إِذْ﴾ في بدايةِ كلامٍ إلّا عندَ ذكرِ أمرٍ ذي شأنٍ؛ لأهمّيَّتِه، أولِغرابتِه، أو لِعظمتِه، بحيثُ يستحقُّ أن يكونَ ما بعدَ (إذ) مثلًا للذِّكرى، والتّدبُّر، والعِظَة، فأَشعرت ﴿إِذْ﴾ بعِظَمِ شأنِ كلِّ ما اقترنَ بها منَ الكلام في هذه الآية، ولمّا كانت (إذ) ظرفَ زمانٍ أفادت عِظَمَ زمن الأمور العظيمة الّتي ذُكِرت في هذهِ الآية؛ إذ يَعظُمُ الزَّمنُ بعِظَمِ ما يقعُ فيه.

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/259، والنّيسابوريّ، غرائب القرآن: 3/36، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/101.

سِرُّ التَّعبير بقوله تعالى: ﴿أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾، ودلالةُ الجملة الحاليّة:

كان المسيحُ يكلِّمَ النّاسَ في المهْدِ بتسخير الله جبريلَ لتأييدِه

عبَّر بقوله: ﴿أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾؛ للإشارة إلى أنَّ عيسى عليه السلام لم يكن يملكُ لِنفسِه أن يكلِّمَ النّاسَ لولا تأييدُ جبريلَ له؛ وفيه دليلٌ على نفي الألوهيَّة عنه، فيتضمّنُ توبيخًا لِمَن نفى عبوديتَه لله تعالى. ويُشعرُ الكلامُ كذلك أنَّ التَّأييدَ بروح القُدُس مِنَ النِّعَم العِظام.

ومعنى الجملةِ الحاليّةِ ﴿تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ﴾: قوَّيتُكَ، وأعنتُكَ بروح القُدُس في حال تكليمِكَ النّاسَ في حالَتَي الرَّضاعةِ قبل أوان الكلام، والنُّضوجِ وقد اجتمعت قوَّته، فيكونُ التَّأييدُ بروح القُدُس مُقترنًا بتكليمه النّاسَ صبيًّا وكهلًا[1]. وتَحتملُ أن تكونَ الجملةُ عطفَ بيانٍ لقولِه: ﴿أَيَّدتُّكَ﴾؛ لِورودها في معرضِ البيانِ؛ للتَّأييدِ بروح القدس[2]، فيكونُ التَّأييدُ بروح القُدُس في الآيةِ خاصًّا بعيسى عليه السلام في المهدِ وكهلًا على التَّوجيهين، سوى أنّ اعتبارَ التّكليم حالًا للتّأييد، يعني: أنّها الحالُ الوحيدةُ الّتي يُؤيَّد فيها عيسى عليه السلام بروح القُدُس، لكنَّ اعتبارَ التّكليم بيانًا للتّأييد لا يمنعُ كونَهُ مُؤيَّدًا بروح القُدُس في أحوال أُخرى.

إيثارُ صيغة المضارع، والعُدولُ عن ذِكْر القَوْم إلى ذِكر النَّاس:

مُعجزةُ عيسى عليه السلام معجزةٌ للبشريّة

جاءَ الفعلُ ﴿تُكَلِّمُ﴾ بصيغة المضارع؛ لتصوير حالة الإعجازِ واستحضارها حتَّى كأنَّ جميعَ الخلائقِ يشاهدونَها؛ إظهارًا لِمعجزاتِه وتقريرًا لِنِعَم الله تعالى.

وقال: ﴿تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ﴾، ولم يقُل: (تكلِّمُ قومَكَ)؛ للإشارة إلى ظهور كلامِه في المهد بينَ النّاس، وليسَ بينَ قومِه فقط؛ تعظيمًا لهذه النِّعمة، وتفخيمًا لها.

(1) ابن جرير، جامع البيان: 11/214.
(2) ابن التّمجيد، حاشية ابن التّمجيد على تفسير البيضاويّ: 7/598.

بلاغةُ الكناية بقوله تعالى: ﴿فِي ٱلۡمَهۡدِ﴾:

التّعبيرُ بالكناية أبلغُ في التّعْدادِ، وأدلُّ على المراد المستفاد

عبّرَ بقوله: ﴿فِي ٱلۡمَهۡدِ﴾ على طريق الكناية، فالمرادُ لازمُهُ؛ لأنَّهُ يلزمُ مِن كونِه في المهد أن يكونَ صبيًّا، والتَّعبيرُ بالكناية هنا أبلغُ منَ التّصريح وأَولى؛ لأنَّ الصَّغيرَ يسمَّى طفلًا أو صبيًّا إلى أن يبلغَ الحلُم، ولهذا عدلَ عنه[1]، والمعنى: يكلِّمُ النَّاسَ صبيًّا وكهلًا، ولمَّا كان الكلامُ في سياق بيان النِّعَم عبَّر بأسلوب الكناية؛ لإفادة التَّعجيبِ من هذه النِّعمة أكثرَ ممّا لو أَكّدهُ بقوله: (صبيًّا)؛ لِدلالة ﴿فِي ٱلۡمَهۡدِ﴾ على عدم القدرةِ على الكلام، وضعفِ القِوى على سبيل الكناية، ولذلكَ قالَ قومُ مريمَ - حين أشارتْ إلى مولودِها عيسى؛ ليسألُوه، ويكلِّموه - مُنكرين عليها هذا الصَّنيعَ: كيف نكلِّمُ مَن لا يزال في مهدِه طفلًا رضيعًا؟! ممَّا يبيِّنُ بلاغةَ الكناية الحاصلة في قوله تعالى: ﴿فِي ٱلۡمَهۡدِ﴾؛ في إظهار هذه النِّعمة.

سببُ اقترانِ قولِه تعالى: ﴿وَكَهۡلٗاۖ﴾ بقوله ﴿فِي ٱلۡمَهۡدِ﴾:

نُزولِ عيسى عليه السلام قبلَ يومِ القيامة مُعْجِزةُ النّهاية

جعلَ اللّهُ تكليمَ عيسى عليه السلام النّاسَ بدعوتهم إلى الحقِّ وقتَ الكهولةِ مِنَ النِّعَمِ الظّاهرة العظيمة، ولمّا كانَ الكلامُ حينَ الكهولةِ ليسَ مِنَ الخوارقِ، أفادَ الاقترانُ أنَّ كلامَه عليه السلام في حين الطُّفولة وحين الكهولة كان على نسقٍ واحدٍ، مِن غيرِ تفاوتٍ في كلامه في هاتينِ الحالتَينِ، صادرًا عن كمال العقل، مع أَنَّ غيرَه يَتَفاوتُ كلامُهُ فيهما تفاوُتًا بَيِّنًا، وهذه خاصّيَّةٌ شريفةٌ كانت حاصلَةً له، وما حَصَلَت لأحدٍ مِنَ الأنبياء قبلهُ ولا بَعدَهُ. وبه استُدلَّ على أنَّه سينزلُ، فإنَّهُ رُفِعَ قبلَ أن يَكتهِلَ، وفيه إشعارٌ باستمرار حياته إلى سنّ الكهولة، فأفادتِ الكلمةُ بالاقتران معنًى غيرَ المعنى الّذي ستفيدُه لو جاءت وحدَها، فليس القصدُ أنَّ كلّا منَ الكلام في المهدِ وفي الكهولةِ آيةٌ[2]. وذهبَ بعضُ

(1) الخفاجيّ، عناية القاضي: 3/576.

(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/691، والرّازيّ، مفاتيح الغيب: 12/459، والقونويّ، حاشية القونويّ على تفسير البيضاويّ: 7/598.

المفسّرينَ إلى أنَّ ذكرَ الكهولةِ إشعارٌ بنزول عيسى منَ السَّماء؛ لأنَّه رُفِعَ قبلَ أن يتكهّل، فيكون كلٌّ منَ الكلام في المهد وفي الكهولة آيةً[1].

نُكتةُ التَّرتيب في ذكر ﴿ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾:

يحتملُ أن يكونَ المرادُ منَ: ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ جنسَ الكتاب؛ للإشارة إلى صُحُفِ إبراهيمَ وغيرِها، فيكونُ تخصيصُ التَّوراةِ والإنجيلِ بالذّكر زيادةَ تشريفٍ لهما[2]. ويحتملُ أن يكونَ المرادُ منَ الكتابِ تعليمَ الكتابةِ والخطِّ، ونكتةُ التَّرتيب فيها على هذا القول؛ أنّه ذكرَ تعلُّمَ عيسى عليه السلام الكتابَة والقراءة اللّتين كانتا سببًا لِتعلُّم الحكمةِ الّتي هيَّأتهُ لِتعلُّم التَّوراةِ، فتهيّأَ لأن ينزِّلَ اللّهُ عليه الإنجيلَ، فجاءَ التَّرتيبُ على جهةِ التَّرقّي في تحصيل العلوم، حتّى وصلَ إلى ما اختُصَّ به الأنبياءُ عليهم السلام.

الكتب السّماويّة، نحت مَنحَى تَرقويّا في تحصيل الأنبياء للعلوم

نُكتةُ المضارع وحذفِ المفعول، في جملة: ﴿تَخْلُقُ﴾:

لمّا كانَ الخطابُ في يوم القيامة، ويقتضي أن يكونَ التَّعبيرُ عن خلقِ عيسى للطَّيرِ بصيغة الماضي، كانَ مجيءُ الفعل المُضارعِ ﴿تَخْلُقُ﴾؛ للتَّعبير عَن فِعلٍ مضى هو لِتَصوير حالة الماضي وتَمثيلِهِ حاضرًا في الذِّهن، كَأَنَّهُ حاضِرٌ في الخارج، لا لإفادة الاستمرار، فإنَّه فعلٌ مضى وانتهى، والكلامُ على معنى التَّذكير به، كما دلَّت عليه ﴿إِذْ﴾ المفيدةُ للظّرفيّة الماضية، وسياقُ الكلام[3]. ويجري الكلامُ مثلُه في الأفعالِ: ﴿فَتَنفُخُ﴾، ﴿فَتَكُونُ﴾، ﴿وَتُبْرِئُ﴾، ﴿تُخْرِجُ﴾.

معجزةُ عيسى عليه السلام، عظيمة بحيث لا يحيطُ بها وصفٌ

أمّا الإيجازُ فلأنَّ أصلَ الكلام: تخلُقُ منَ الطّينِ هيئةً كهيئة الطَّير أو أجسامًا كهيئة الطَّير، فحُذفَ للإيجاز لدلالة المشبَّه به عليه، وللإشعار بعظمة المعجزة، بحيثُ لايحيطُ بها وصفٌ ولا لفظٌ، وإنّما دلَّ عليها فعلُ التَّخليق.

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 1/437، والخفاجيّ، عناية القاضي: 3/576.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/691، والرّازيّ، مفاتيح الغيب: 12/459.
(3) رضا، تفسير المنار: 7/205.

نُكتةُ إيثار التَّشبيهِ بالكاف في سياق الآيةِ الكريمة:

تشبيهُ ما يُخلَقُ بِهَيئة الطَّير، لا تَشْبيهُه بالطَّير ذاتِهِ

لمّا كانَ التَّشبيهُ بالكاف يُفيد تَشبيهَ الصِّفات بَعضِها ببَعض، والتَّشبيهُ بالمِثلِ يُفيدُ تَشبيهَ الذَّواتِ بَعضِها ببَعض، آثرَ التَّعبيرَ بكاف التَّشبيه دونَ كلمةِ (مِثل)؛ لأنَّ المرادَ التَّشبيهُ بصفةٍ واحدةٍ هي هيئةُ الطَّير، وليس تشبيهَ الّذي خلقَهُ بذات الطَّير، فلو قالَ: (مثلَ هيئةِ الطَّيرِ)، لاقتضى المماثلةَ في نفخ الرّوح، وتقدير حياتِها ورزقِها وأحوالِها وغيرِه، وليسَ هو المقصودَ، فعبَّرَ بأداة التَّشبيه الكاف؛ لِمناسبة المراد.

سرُّ التّأنيث في ﴿فَتَنفُخُ فِيهَا﴾، وسببُ إيثار تخليق الطَّير دونَ غيرِه:

خلقُ الطَّيرِ أعجبُ وأظهرُ في بديع الصُّنع، لتنوّعِها وتعقيدِها

أنّثَ الضَّميرَ في المَوضعينِ في قوله سبحانه: ﴿فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا﴾؛ لِعودِه إلى معنى الكاف؛ لأنَّها صفةُ الهيئة الّتي كان يخلقُها عيسى عليه السلام، وينفخُ فيها؛ للإشارة إلى أنَّ عيسى عليه السلام لم يكن يخلقُ هيئةَ الطَّيرِ؛ لأنَّها ليست مِن خلقِه، ولا مِن نفخِه في شيءٍ، بل كانَ يخلقُ الهيئةَ الّتي مِنَ الطّين، والمعنى: تخلُقُ منَ الطّينِ هيئةً مثلَ هيئةِ الطَّيرِ، فتنفخُ في الهيئةِ، فتكونُ طيرًا بإذن الله. واختارَ ابنُ عَطيَّةَ أن يكونَ الضَّميرُ هنا عائدًا بدلالة الاقتضاء إلى ما تقتضيه الآيةُ ضَرورَةً، وذلك أنَّ قولَه: ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ﴾ يقتضي صوَرًا أو أجسامًا أو أشكالًا[1].

ولمّا كانَ الإنسانُ يَدِبُّ على الأرضِ، كانَ خَلْقُ ما يطيرُ في الجوِّ أعجبَ عندَهُ منَ المخلوقاتِ الّتي تدبُّ على الأرضِ، فلم يذكُرِ اللهُ تعالى البقرَ أو الغنمَ أو الإبلَ، بلِ اختارَ مِنَ الآياتِ أشدَّها إعجازًا وتَعْجيبًا عندَ البشر؛ كما أنَّ في الطّير من ظهور بديع الصُّنع وحُسن الخَلق ما ليسَ في غيرِه؛ لِكي تتحقَّقَ المعجزةُ في أنفُس المُخاطَبين.

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/691، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/258، والرّازيّ، مفاتيح الغيب: 12/460.

دلالةُ فاء التَّعقيب في قوله تعالى: ﴿فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا﴾:

سُرعة تعاقُبِ الأفعال، من طَلاقَة قُدْرةِ ذي الجلالِ

أفادتِ الفاءُ تعقيبَ النَّفخ للتَّخليق، وتعقيبَ تكوين الطَّير لِنفخِ عيسى عليه السلام؛ للإشعار بانتفاء المُهلة وسُرعة الأمر مع عِظمِه؛ للإشارة إلى أنَّ المعجزةَ في الفعل، وفي سُرعة التَّكوين والتّحويل.

دلالةُ الحالِ في قوله تعالى: ﴿بِإِذْنِي﴾، ونكتةُ تكريرِها:

مُعجزاتُ عيسى عليه السلام، كانت بعلمِ الله، وعَونِه

لمّا كانَ قولُه: ﴿بِإِذْنِي﴾ حالًا دلَّ على اقتران إذنِه تعالى بكلِّ فعلٍ من أفعاله المذكورة؛ ليفيدَ أنّ تخليقَ عيسى لِهيئةٍ كهيئة الطَّير كانَ بعلمِ اللّه، وعونِه، وتمكينِه، ونفخِه فيه، وإبراءَ الأكمهِ والأبرصِ، وإخراجَ الموتى كذلك. كما أنّهُ لمّا كانَ الحالُ قيدًا لِعاملِه أفادَ أنَّ ﴿بِإِذْنِي﴾ قيدٌ لكلِّ فعلٍ مذكورٍ في الآيةِ ممّا فعله عيسى عليه السلام.

وفي تكرير الإذنِ مُضافًا إليه سبحانه إشارةٌ إلى أنَّ المسيحَ لم يُعطَ هذهِ القوَّةَ دائمًا على الاطِّرادِ في كلِّ الأحوال والأوقات، بل كانت هذه الآيةُ كغيرها لا تقعُ إلا بعلمِ اللّه، وتيسيرِه، ومشيئتِه، فتقعُ في الوقت الّذي يأذنُ به اللّهُ[1]. كما أفادَ التَّكريرُ التَّنبيهَ على أنَّ إذنَه تعالى مقترنٌ بكلِّ معجزةٍ من هذه المعجزات؛ حتَّى لا يتسرَّبَ إلى الذِّهن أنَّ تلكَ الخوارقَ من صُنع عيسى الذّاتيِّ. ولأنَّ مقامَ الآية هنا مقامُ تعداد نِعم اللّه على عيسى عليه السلام المقترنةِ بتأكيد كَونِ ذلك واقعًا بقُدرة اللّه تعالى وتخليقِه لا بقُدرة عيسى وإيجاده - ناسَبَه الإسهابُ[2]، فقرنَ قولَه: ﴿بِإِذْنِي﴾ أربعَ مرّاتٍ معَ كلِّ مرحلةٍ من مراحلِ التَّخليقِ أو النَّفخ أو الإبراءِ أو الإحياء. كما أنّ تكرارَ الإذنِ مضافًا إليه سبحانَه يُزيلُ شُبهةَ النَّصارى في علَّةِ اتّخاذ عيسى إلهًا؛ بأنّه يحيي الموتى، ويخلقُ منَ الطّين طيرًا، فبيّن النّظمُ الجليلُ أنّه لا يستطيعُ أن يفعلَ هذا من نفسِه، ولكن بإذنِ اللّه، وإرادتِه، وتيسيرِه، وقدرتِه.

(1) رضا، تفسير المنار: 7/205، والمراغيّ، تفسير المراغيّ: 7/56.

(2) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 12/460، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/407، ومجموعة منَ العلماء، التّفسير الوسيط: 3/1184.

سببُ تخصيص كلمةِ ﴿بِإِذۡنِي﴾، في أربعة مواضعَ منَ الآية:

ما يُنسَبُ لكمال اللـه تعالى، غيرُ ما يُنسَبُ لخصوصيّةِ عيسى عليه السلام

خصَّ كلمةَ ﴿بِإِذۡنِي﴾ في أربعةِ مواضعَ، ولم يذكرها مع قولِه: ﴿وَإِذۡ عَلَّمۡتُكَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَۖ﴾، ولا معَ: ﴿وَإِذۡ كَفَفۡتُ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَنكَ﴾؛ لأنَّهُ في هذين الموضِعين نسبَ اللّٰهُ تعالى الفعلَ إلى نفسِه في: ﴿عَلَّمۡتُكَ﴾ و﴿كَفَفۡتُ﴾، فلا يناسبُه التَّقييدُ بـ (بِإذني)، وأمّا الأمورُ الّتي خصَّ عيسى عليه السلام بها، ونسبَها إليه، وهي أمورٌ مِن اختصاصِ الخالقِ، فقد قيّدها بقوله: ﴿بِإِذۡنِي﴾؛ ليكونَ الحالُ مقترنًا بالفعلِ وقيدًا له كما تقدّمَ، وأنَّ المسيحَ لم يُعطَ هذه القوَّةَ دائمًا، بل كانتْ هذه الآيةُ كغيرها لا تقَعُ إلّا بإذنٍ منَ اللّٰه، وتأييدٍ مِن لَدُنه[1]. كما أنَّ تعليمَه الكتابَ والحكمةَ، وكفَّ بني إسرائيلَ عنه، قد شاركَ المسيحَ غيرُهُ، فلا يناسبُه التّقييدُ المذكورُ[2].

سببُ عدمِ البدْء بـ (إذْ) عند الكلامِ عن إبرائِه الأكْمَهَ والأبْرصَ:

مناسبةُ ترتيبِ الألفاظِ على غِرار ترتيبِ زمن وقوعِ الأحداث

لمّا كانَ الإبراءُ بمعنى التَّخليقِ عطفَ ﴿وَتُبۡرِئُ﴾ على ﴿تَخۡلُقُ﴾، ولَم يَبدَأ بـ (إذ)؛ لأنَّ الإبراءَ فيه: بثُّ الحياةِ للأعمى فيبصرُ الدُّنيا، ولِلأبرصِ فيعودُ جلدُه سليمًا فلا ينفِرُ منه النّاسُ؛ ليكونَ الإبراءُ المجموعُ في العاهتينِ آيةً واحدةً في الإعجاز، فناسبَ أن يكونَ الفعلُ ﴿وَتُبۡرِئُ﴾ معطوفًا على ﴿تَخۡلُقُ﴾. ولمّا كانَ إحياءُ الصّورة منَ الطَّير أعظمَ مُعجزةً مِن إبراء الأكمه والأبرص؛ ذُكِرَ الإبراءُ بالتَّبَع لإحياء الصّورةِ، فإبراءُ الأكمَهِ والأبرَصِ مِن جنس شفاء المرض الّذي قد يقعُ بعضُ أفرادِه على أيدي غير الأنبياء المرسَلين، ولا سيَّما مَن يَظنُّ المرضى فيهم الصَّلاحَ والولايةَ، فلمّا كان كذلك ذُكِرَ بالتَّبع لإحياء الصّورة منَ الطَّير، ولمّا كان إحياءُ الموتى أعظمَ منه جُعِل

(1) رضا، تفسير المنار: 7/205.
(2) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 5/491.

نعمةً مستقلَّةً فقُرِنَ بـ (إِذْ)[1]. كما أنَّ معنى: ﴿وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ﴾ متوسّطٌ بينَ معنى التَّخليقِ ومعنى الإحياءِ؛ لِوقوعِهِ بعدَ خلق الإنسان وقبلَ موتِه، فناسبَ ترتيبُ اللَّفظِ بتوسّط الفعل بينهَما ترتيبَ زمنِ وقوعِ الأحداث.

دَلالةُ (أل) في ألفاظ ﴿ٱلْأَكْمَهَ﴾ ﴿وَٱلْأَبْرَصَ﴾ و﴿ٱلْمَوْتَىٰ﴾:

تعريفُ الألفاظ بدلالةِ (أل) على العموم؛ مُنبئةٌ عنِ الإعجاز المعلومِ

(أل) جنسيَّةٌ في ﴿ٱلْأَكْمَهَ﴾ ﴿وَٱلْأَبْرَصَ﴾ و﴿ٱلْمَوْتَىٰ﴾ لا عهديَّةٌ، بمعنى: أنّها تفيدُ إرادةَ الجنس[2]، فليسَ المرادُ فردًا معهودًا معيّنًا مِنَ الأكمهِ والأبرصِ والموتى؛ ليكونَ الإعجازُ أعمَّ وأشملَ وأظهرَ، وهو المناسبُ لسياق الآية، ومع أنّ السّياقَ لم يُبَيّن عددَ مَن أبرَأهم عيسى، ولا عددَ من أحياهم، فإنَّ المفردَ يقومُ مقام الجمع، وإن كان الأكمهُ واحدًا والأبرصُ واحدًا؛ لأنّ العِبرَة بخاصّية القُدرة الّتي منحها اللّه لعيسى عليه السلام، حتّى إنَّ المفردَ يقومُ مقامَ الجمع، ولهذا بقيت (أل) فيهما دالّةً على جنس الأكمه وجنس الأبرص، أمّا ﴿ٱلْمَوْتَىٰ﴾ فجاء جمعًا لتأكيد خاصيّة الإحياء الّتي منحها اللّه لعيسى، و(أل) دالَّةٌ على الجنسيّة كذلك.

بلاغةُ الكناية، في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾:

الفعلُ المضارعُ (تُخرج)، استدعاءٌ للصّورة العجيبةِ لإخراج الموتَى

قال هُنا: و﴿وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾، ولم يقُل: (وتحيي الموتى)، كما قال تعالى: ﴿وَأُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: 49]، فورد الكلامُ على طريقة الكناية؛ لِمناسبة المقام التَّحدُّثَ بالنِّعم، والإسهابَ فيها تعظيمًا وتفخيمًا، وليس الإخبارَ كما في سورة آل عمرانَ، والكنايةُ هنا أبلغُ منَ التّصريح؛ لإفادتِها تعدُّدَ النِّعم بذِكر إخراج الموتى، ولازمه، وهو إحياؤُهم، والمعنى: تُخرِجُهُم مِن قُبورِهِم أحياءً، فأُطلِقَ الإخراجُ، وأُريدَ به لازِمُهُ، وهو الإحياءُ؛ لأنّ المَيِّتَ وُضِعَ في القبرِ لأجلِ

(1) رضا، تفسير المنار: 7/205.

(2) رضا، تفسير المنار: 7/206.

كَونِهِ مَيِّتًا، فكان إخراجُهُ مِنَ القَبر ملزومًا لانعكاس السَّبَب الَّذي لأجله وُضِعَ في القبرِ[1]، وفي التَّعبير عنِ الإخراج بالفعل المضارع ﴿تُخْرِجُ﴾ استدعاءٌ لتلك الصّورة العجيبة الّتي يخرج فيها المَيِّت، وقد بُثَّت الرّوحُ فيه، وعادتِ الحياة إليه.

الإيجازُ في ﴿إِذْ﴾، وبلاغةُ التّرقِّي في ذكْرِ النِّعم:

تعليقُ الظّرفِ الزّمانيِّ بالفعل دالٌّ على معانٍ، والتّرتيبُ دالٌّ على تقديم المَنْحِ على المَنْعِ

لمّا وردت ﴿إِذْ﴾ في ثنايا الكلامِ خالفت بهذا ما تدلُّ عليه حينَ تكونُ مصدَّرةً في الكلام، فأفادت ﴿إِذْ﴾ هنا - بسبب تعليق الظَّرف بمجيئِهم بالبيّنات - كفَّ بني إسرائيل عن نبيّ اللّه عيسى عليه السلام في جميع مدَّة ظهور معجزاتِهِ بينَ قومِه، منذُ طفولته إلى حينِ رفعِهِ[2].

وبعدَ أن ذكرَ نِعمَ المنافعِ أتْبَعها بذكرِ ما دفَعَ عنه مِن مضارَّ، فقال تعالى: ﴿وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ﴾، وهذا مِن أعظَم النِّعَم؛ وهي نِعمَة العِصمَة، وكفّ بني إسرائيل عن عيسى عليه السلام، وليُشعِرَ الكلامُ أنَّ النِّعمَ نوعانِ عطاءٌ وكفٌّ، وفي ذكر كلٍّ منهما امتنانٌ على عيسى بالتّأييد والتَّعليم والعصمة منَ الأذى، وفي ذكرها جميعِها تنبيهُ النّصارى وإشعارُهم بقدرة الإله، وعبوديّة المسيح.

معنى (أل) في قوله تعالى: ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾:

البيّناتُ يُرادُ بها الآياتُ المذكورةُ، أو يُرادُ بها جنسُ البيّناتِ على الإطلاقِ

يَحتَمِلُ أن يَكونَ المُرادُ من لفظ (البيّنات) هذه البَيِّناتِ الَّتي تقدَّمَ ذِكرُها، وعلى هذا التَّقدير فـ (أل) للعهد. ويَحتَمِلُ أن يَكونَ المُرادُ منه جِنسَ البَيِّناتِ[3]، وهو الظّاهرُ لمناسبة السّياق تعميمَ النِّعم واستيعابَها.

سِرُّ التّعريفِ بالموصولِ ﴿ٱلَّذِينَ﴾، في سياق الآيةِ الكريمةِ:

قوله: ﴿فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾، عبَّرَ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/102.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/102.
(3) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 12/460.

بيانُ قسوة قلوبِ الّذين كفروا، رُغمَ ما جاءَهم من آياتٍ ومُعجزاتٍ

فيه بالاسم الموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾، لإحضارِ صِلتِه: ﴿كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ﴾؛ فأشعرتِ الصِّلةُ أنَّ كفرَهم، هو سببُ قولِهم: ﴿إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ﴾، وأنّهم كاذبون في قولهم، ويمكنُ أن تُشعِرَ الصِّلةُ بتعداد النِّعم أيضًا؛ لأنَّ كلَّ ذي نعمةٍ محسودٌ، فطعنُ الكفّار فيه يدلُّ على علوِّ شأنه وسُموِّ مكانته[1]. ولا يخفى بأنَّ التّعريفَ باسم الموصول لِذَمِّهم، بما في حيّز الصِّلة، ولتكونَ وصلَةً إلى مَقول القول؛ تنبيهًا على ما فيه من تشنيعٍ عليهم؛ لقسوة قلوبِهم بعد ما جاءهم من آياتٍ بيّناتٍ، ومعجزاتٍ ظاهراتٍ.

بديعُ حُسنِ الانتقالِ، من حالٍ إلى حالٍ:

التّنويعُ بين المعنى الظّاهرِ والضِّمْنِيّ بالمِنّةِ على المؤمنين، هو تقريعُ للكافرين

سبق أنَّ اللّه سبحانه امتنَّ على عيسى بنعمة التّأييد، والتّعليم، والعصمة؛ وذلك بكفِّ بني إسرائيل عنه، حين جاءهم بالآياتِ البيّناتِ، والمُعجزاتِ الظّاهراتِ، فتربّصوا به شرًّا متعلّلين بأنّه يخدعُ أبصارَهم كما في قوله: ﴿فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ﴾. وفي النّصّ على الّذين كفروا من بني إسرائيل تقريعٌ وذمٌّ ظاهرٌ تخلَّص منه إلى ثناءٍ وتكريمٍ مُتَضَمَّنٍ للمؤمنين المُصدِّقين بعيسى[2]، وهم الحواريّون كما يدلُّ قولُه بعده: ﴿وَإِذۡ أَوۡحَيۡتُ إِلَى ٱلۡحَوَارِيِّـۧنَ﴾. ومِن لطيفِ الكلام وبديع التَّعبير مجيءُ الجارِّ والمجرورِ ﴿مِنۡهُمۡ﴾ في الآية، فوضعَ الضَّميرَ (هم) لِذمِّهم بما في حيِّز الصِّلة، ففيه معنى التَّأكيد؛ لِتكرار (الكافرين) اسمًا ظاهرًا وضميرًا عائدًا إليه، فـ (مِن) بيانيَّةٌ، وليست تبعيضيَّةً[3]. كما أفادَ الجارُّ والمجرورُ حُسْنَ التّخلُّص من تقريع الكافرين وتوبيخهم إلى تكريم المُصدّقين بنبيّ اللّه عيسى عليه السلام، فلمّا كانت ﴿مِنۡهُمۡ﴾ تقييدًا

(1) النّيسابوريّ، غرائب القرآن: 3/37.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/103.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/95.

للصِّلة أفادت أنَّ غيرَ الكافرينَ لم ينسبوهُ إلى السِّحر، ولم ينسبهُ إلى السِّحر إلّا الكافرونَ.

سببُ الاقتصارِ على دعوَى السِّحرِ، دونَ سِواها:

اقتُصِرَ مِن دَعاوي تكذيبِهم إيّاهُ على قولهم: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾؛ لأنَّ ذلك الادِّعاءَ قَصَدوا به التَّوَسُّلَ إلى قَتلِه؛ لأنَّ حُكمَ السّاحِر في شريعة اليَهود القَتلُ، إذِ السِّحرُ عِندَهُم كُفرٌ[1]، وهذا شأنُهُم وخَصلَةٌ فيهم لم تَنسلِخ عنهم أبدًا، فكلّما أرادوا إفسادًا وقتلًا قدَّموا له الذّرائعَ الباطِلةَ؛ لتسويغ قتلِهم وإفسادِهم.

الرّغبةُ في قتل عيسَى عليه السلام؛ بحجّةِ أنّ السّحرَ محرّمٌ في شريعة اليهودِ

بلاغةُ أسلوبِ القصْرِ في قوله تعالى: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾:

لمّا كانَ أسلوبُ القصرِ يُسلَكُ فيه الكلامُ مع مُخاطَبٍ، يَعتقدُ فيه المتكلِّمُ أنَّهُ مخطىءٌ، ويُصرُّ على الخطأ[2]، أفادَ قولُ الكافرين منهم على طريق القصر أنّهم كانوا يعتقدونَ كذِبَ عيسى عليه السلام فيما جاءَهم به مِنَ البيّناتِ، ولمّا كانتِ البيّناتُ كثيرةً فقد كانوا يعتقدونَ إصرارَهُ على الكذب في كلِّ معجزةٍ واضحةٍ يجيءُ بها، وربّما كانتِ الآياتُ البيّناتُ الّتي جاءهم بها عيسى تدفعُهم إلى المبالغة في الاتِّهام، وإيهامِ العوامِّ بصدقِهم في قولِهم عن عيسى ذلك القولَ الباطلَ، ودأبُهم في الكذب وتأكيدُه بأسلوب القصر معروفٌ، كقولِهم لمّا نُهوا عنِ الإفساد في الأرض: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ [البقرة: 11].

البيّناتُ كثيرةٌ، والإصرارُ على التّكذيب كَبيرةٌ تَوَهُّمًا وزَيْغًا

وعبَّر باسم الإشارةِ ﴿هَٰذَآ﴾؛ لِتمييز المُشارِ إليه، وهي المعجزاتُ الواضحاتُ أكملَ تمييزٍ؛ ليُخبِرَ الّذين كفروا عنها بأنّها سحرٌ، وأفادَ استعمالُ اسم الإشارة القريب أنّهم قصدوا تحقيرَ المعجزات الواضحات استهزاءً منهم بها، ومثلُه قولُه تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا﴾ [البقرة: 26]، وقولُه: ﴿أَهَٰذَا

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/102.
(2) السّكاكي، مفتاح العلوم، ص: 294.

ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا﴾ [الفرقان: 41]، وإذا كانَ المقصودُ مِن ﴿هَٰذَآ﴾ عيسى عليه السلام، كما تدلُّ قراءةُ حمزةَ والكسائيِّ[1]: ﴿سَٰحِرٌ﴾، دلَّ اسمُ الإشارة على أنّهم أرادوا تمييزَ عيسى عليه السلام أكملَ تمييزٍ؛ ليكون الحكمُ عليه واضحًا لأتباعِهم كذلكَ، ولأنَّهم قصدوا باسم الإشارة ﴿هَٰذَآ﴾ تحقيرَ سيّدِنا عيسى عليه السلام.

نُكتةُ التَّعبيرِ بـ ﴿إِنْ﴾ النّافيةِ في سياق الآيةِ الكريمةِ:

الحرفُ (إنْ)، أبلغُ في النّفي مِن (ما)؛ للمبالغة في الإيهامِ بصِدْقِهم

قوله: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ آثَرَ فيه إيراد ﴿إِنْ﴾ النّافية، فلم يقُل: (ما هذا إلّا سحرٌ مبينٌ)؛ لأنّها أكثرُ تأكيدًا مِن (ما)؛ لتفيدَ المبالغةَ في الحصرِ؛ لبيانِ عنادهم وشدّة مكابرتِهم، أو للرّغبةِ في الإيهام بصدقِهم، وعادةً ما يلجأ الكذّابُ إلى تأكيد كذبِه بوسائلَ متعدّدةٍ.

مناسبةُ مجيءِ الصّفةِ ﴿مُّبِينٌ﴾ في السّياق:

عُتوُّ الكافرين وتجهيلُ أتباعِهم، مُشعِرٌ بسُوءِ حالهم

وصفَ الّذين كفروا من قومِ عيسى عليه السلام السّحرَ بالمُبين؛ للتّعريض بالبيّناتِ الّتي جاءَ بها عيسى عليه السلام، فالاشتقاقُ من نفس المادَّة اللُّغويَّة، فأشعرَ التّعبيرُ بالوصفِ بِعتوِّهم في كفرِهم، وبتجهيلِ أتباعهم، فكأنّهم يقولون: ما جئتَ بهِ ليسَ منَ المعجزاتِ الواضحاتِ، بل هو منَ السِّحرِ الواضحِ، فأفادتِ الصِّفةُ التَّعجيبَ من قولِهم، وغُلوِّهم في كذبِهم وخداعِهم، وتَمويهِهم على قومِهم.

سببُ مقابلةِ لفظِ ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾، بالمفردِ ﴿هَٰذَآ﴾:

مُكابرةُ الكافرين في جَعْلِ المعجزاتِ كلِّها شيئًا واحدًا

لمّا قالَ اللّهُ تعالى: ﴿إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ على صيغة الجمع؛ كانَ مقتضى ردِّ الّذينَ كفروا أن يكونَ بالجمع كذلك، لكنَّهُ جاءَ بصيغة المفرد، فقالوا: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾؛ للإشارة إلى مكابرتِهم وطعنِهم في المعجزات الواضحات المتنوِّعة، فجعلوها كلَّها شيئًا

(1) ابن الجزريّ، النّشر: 2/256.

واحدًا، ولها وصفٌ واحدٌ، هو السِّحرُ. وإذا كان اسمُ الإشارة دالًّا على عيسى عليه السلام، فالمعنى وصفُ البيِّناتِ بالسِّحر؛ لأنَّ ما يصدرُ منَ السّاحر هو السِّحرُ، فبدَلًا من أن يقولوا هذه المعجزاتُ سحرٌ، اختصروا الأمرَ فوصفوا عيسى عليه السلام بالسِّحر، كما توضِّحه قراءةُ حمزةَ والكسائيّ وخَلَف.

توجيهُ قراءتَيْ ﴿سِحْرٌ﴾ و﴿سَٰحِرٌ﴾:

أولاً: اختلفَ القرّاءُ في قراءة ﴿سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾، فقرأ الجمهورُ ﴿سِحْرٌ﴾ بغَير ألف، وقرأ حمزةُ والكسائيُّ وخلَفٌ ﴿سَٰحِرٌ﴾ بالألف[1]، والرّسمُ يَحتملُ القراءتَين. فعلى قراءة الجمهور: يَحتمل اسمُ الإشارة أن يكونَ عائدًا إلى المعجزات الخارقة الواضحة؛ والمعنى: ما هذا الّذي جاءَ به منَ الآيات الخوارِق إلّا سِحرٌ وتمويهٌ وتخييلٌ لا حقيقةَ له، ويحتمل أن يكونَ عائدًا إلى عيسى عليه الصَّلاة والسَّلام؛ إذ جَعَلوه نفسَ السِّحرِ على المبالغة في الإخبار بالمصدر عنِ الذّات، أو على حذف مضافٍ؛ أي: إلاَّ ذو سِحرٍ. وعلى قراءة ﴿سَٰحِرٌ﴾ - بالألِف بصيغَةِ اسم الفاعِلِ - يكون اسمُ الإشارة عائدًا إلى عيسى؛ والمعنى: يُبيّنُ بأفعالِه، وما يأتي به من هذه الأمور العجيبة عن نفسه أنَّهُ ساحرٌ لا نبيٌّ صادقٌ. فمَن قرأَ ﴿سِحْرٌ﴾ جعلَ الإشارةَ إلى البيِّنات والحديث وما جاءَ به، ومَن قرأ ﴿سَٰحِرٌ﴾ - بالألِف بصيغَةِ اسم الفاعِلِ - جعلَ الإشارةَ إلى الشَّخص، إذ هو ذو سحرٍ عندهم، وهذا مطَّردٌ في القرآن كلِّهِ حيثما وردَ هذا الخلافُ، وهو في أوّل سورة يونس، وفي سورتي هود والصّفّ[2].

تنوّعُ القراءاتِ مَلْمَحٌ للثّراء، ومَسْلَكٌ للتّأويلِ المُفيدِ

بلاغةُ قراءتَيْ: ﴿سِحْرٌ﴾ و﴿سَٰحِرٌ﴾ في التَّعبيرِ عنِ المعنى:

القراءتان مُتّفقتانِ في المعنى غيرُ مختلفتينِ مآلًا؛ لاقتضاءِ لازم

السِّحْرُ مِن أكْبَرِ الجرائمِ في كُلِّ العُصورِ، ولا يُفْلِحُ السّاحِرُ حَيْثُ أتى

(1) ابن الجزريّ، النّشر في القراءات العشر: 2/256.

(2) ابن جرير، جامع البيان: 11/216، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/259، ورضا، تفسير المنار: 7/207.

معنى القراءة الأولى معنى القراءة الثّانية، ولازم معنى القراءةِ الثّانيةِ معنى القراءةِ الأولى، وذلك أنَّ كلَّ مَن كانَ موصوفًا بفعل السِّحر، فهو موصوفٌ بأنَّهُ ساحرٌ، ومَن كانَ موصوفًا بأنَّهُ ساحرٌ، فإنَّهُ موصوفٌ بفعل السِّحر. وذهبَ ابنُ عاشور إلى أنَّ اليَهودَ قالوا لعيسى كلتا المقالَتَين، بأن تكونَ صادرةً من جماعتين منهم على التَّفريق، أو أن تكون على اختلاف جماعاتِ القائِلينَ أو باختلاف أوقات القَول[1].

وعادةً ما يكونُ الاتِّهامُ في المرّة الثّانية أوكدَ منه في المرّة الأولى، وهذا يعني أنَّ قراءةَ ﴿سِحْرٌ﴾ تدلُّ على موقفٍ واتّهامٍ سابقٍ، وأنّ قراءةَ ﴿سَٰحِرٌ﴾ - بالأَلِفِ بِصيغَةِ اسمِ الفاعِلِ - تدلُّ على موقفٍ واتِّهامٍ لاحقٍ أوكدَ وأقوى في التّكذيب والاتِّهام.

ثانيًا: قرأَ الجمهورُ ﴿طَيْرًا﴾ بصيغة اسم الجمع، وقرأَ نافع وأبو جعفر ويعقوبُ ﴿طَيْرًا﴾ بالمفرد[2]. والمعنى على قراءة الإفراد: تُقَدِّرُ هَيئَةً كهيئة الطَّير فَتَكونُ الهَيئَةُ طائِرًا؛ والمعنى: كُلُّ هَيئَةٍ تُقَدِّرُها تَكونُ واحدًا مِنَ الطَّير؛ أي: إنَّه كان يَخْلُقُ واحدًا ثمَّ واحدًا. والمعنى على قراءة الجمهورِ باعتبار تَعَدُّدِ ما يُقَدِّرُهُ مِن هَيئاتٍ كهيئة الطّير. والمعنى على القراءتينِ واحدٌ باعتبار المآل، وهو تعدّدُ الطَّير وكثرتُه؛ للإشارة إلى تكثير المُعجزات البيِّنات، وقد وردَ عن بعضِ اللُّغويّينَ أنَّ الطيرَ يقُالُ للجمع وللمفرد[3]، فتكون القراءتانِ على معنىً واحدٍ، هو الإفرادُ، والمرادُ تعدّدُ الأفراد وكثرتُها.

التّشابهُ اللَّفظيُّ بين قوله تعالى: ﴿بِإِذۡنِي﴾، وقوله في مواضعَ أُخرى: ﴿بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ﴾:

الإذْنُ مُؤذِنٌ بأنّ ما لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللهُ لا وجودَ له ولا بقاءَ

أوّلاً: ذكَر ﴿بِإِذۡنِي﴾ هنا في المَواضِع الأربعة، وفي سورة آل عمران:

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/103.
(2) ابن الجزريّ، النّشر في القراءات العشر: 2/240.
(3) الأزهريّ، معاني القراءات: 1/258.

﴿بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ﴾ مرّتين، فقال تعالى: ﴿أَنِّي قَدۡ جِئۡتُكُم بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ أَنِّيٓ أَخۡلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيۡرَۢا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ وَأُبۡرِئُ ٱلۡأَكۡمَهَ وَٱلۡأَبۡرَصَ وَأُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ﴾ [آل عمران: 49]، والسَّببُ هو الاعتناءُ بتحقيق الحقّ، ببيان أنَّ تلكَ الخوارقَ لَيْسَتْ مِن قِبَلِ عيسى عليه السلام، بل هي مِن عند الله سُبحانَه قد أظهرَها على يديهِ معجزةً له ونعمةً خصَّه بها، فقيَّدَ فعلَ كلِّ مرحلةٍ من مراحل الإعجاز بقوله: ﴿بِإِذۡنِي﴾، ومنه تقديرُ هيئة الطّيرِ قبلَ نفخ الرّوح؛ تنبيهًا إلى أنّه لا قدرةَ لعيسى عليه السلام على فعلِ أيِّ معجزة من دونِ إذنه تعالى.

وفي التَّكرار توبيخٌ للكافرين يومَ القيامة، وتنبيهٌ لمَن هم في الدّنيا، فناسبَه الإطنابُ والإيجازُ. وأمّا ذكرُه في سورة آلِ عِمرانَ مرّتين فلأنَّ ذلك موضعُ الإخبار، وليس في سياق تَعدادِ النِّعم[1].

التّشابهُ بين إضافةِ (الإذن) إلى الضّمير في: ﴿بِإِذۡنِي﴾، وإلى الاسم الظّاهر في ﴿بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ﴾:

ثانيًا: عبَّر هنا في آية المائدة بقوله: ﴿بِإِذۡنِي﴾ مُضافًا إلى ضمير المتكلِّم، وهو الله سبحانه وتعالى، وورد في سورة آلِ عمرانَ مُضافًا إلى اسمِه الجليلِ سبحانه؛ فقال: ﴿فَيَكُونُ طَيۡرَۢا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ وَأُبۡرِئُ ٱلۡأَكۡمَهَ وَٱلۡأَبۡرَصَ وَأُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ﴾ [آل عمران: 49]؛ لأنَّ آيةَ آلِ عِمرانَ في سياق الإخبار، فَوَردتِ الإضافةُ إلى الاسم الظّاهر (الله) لمناسبة السّياق، ولو جاءَ بالإضافة إلى ضمير المتكلِّم بَطَلَ المعنى؛ لأنَّ المتكلِّمَ هو عيسى عليه السلام. وفي مجيءِ الاسم الظّاهر تذكيرٌ بألوهيَّة الله تعالى في سياق الإخبار، وأمّا آيةُ المائدةِ هنا فهي في سياق نداء الله تعالى لعيسى عليه السلام في مقام حضور الخلق أجمعين؛ لمناسبةِ إسماعِ الحاضرين، وتوبيخِ الّذينَ كفروا من قوم عيسى عليه السلام، وتعنيفِهم، فأضافهُ إلى ياء المتكلّم، والتّوبيخُ في سياق حضور المُخاطَبينَ يومَ القيامة أشدُّ تبكيتًا وتعنيفًا منه في سياق الغَيبة، فناسبَ كلُّ لفظٍ سياقَهُ.

التّشابهُ اللّفظيُّ، مع تذكيرِ الضَّمير في: ﴿فَأَنفُخُ فِيهِ﴾، وتأنيثِهِ في: ﴿فَتَنفُخُ فِيهَا﴾:

ثالثًا: سببُ تذكيرِ الضَّمير في سورةِ آل عمران: ﴿فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيۡرَۢا﴾ [آل عمران: 49]، وتأنيثِهِ في سورة المائدة فقال: ﴿فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيۡرَۢا﴾؛ أنَّه لمّا كانت آيةُ آلِ عمرانَ في

(1) ابن الزّبير، ملاك التّأويل: 1/85، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/95.

سياق الإخبار ذكرَ تخليقَ الطَّير على الإيجاز، فجعلَ تخليقَ هيئةِ الطَّيرِ مِنَ الطّين، ونفْخَ الرّوحِ فيهِ نعمةً واحدةً، إذ جاءَ قولُه: ﴿بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ﴾ مرّةً واحدةً في مقابل هذهِ النِّعمةِ، فجاءَ الضَّمير (فيه) مذكَّرًا؛ لِرجوعِه إلى الطَّير. وفي آية المائدة جعلَ تخليقَ الطّينِ كهيئة الطَّير معجزةً ونعمةً، ونفخَ الرّوحِ في الهيئةِ معجزةً ونعمةً أخرى، فتعدَّدَ ذِكرُ النِّعَم؛ لأنَّ آيات المائدة بُنيَت على توبيخ النّصارَى، وتعنيفِهم في مقالِهم في عيسى عليه السلام، فجاء الضَّمير مؤنَّثًا لِعَودِهِ إلى الكاف؛ لأنَّها صفةُ الهيئة الّتي كان يخلقُها عيسى، وينفخُ فيها كما تقدَّمَ[1]، فناسب أن يكون الضّميرُ مؤنَّثًا لجعلِه تقديرَ الطّينِ هيئةً كهيئة الطّيرِ معجزةً قائمةً بنفسها ونعمةً أخرى، فلمّا اختلَفَ القصدانِ اختلفتِ العبارتانِ. كما أنَّ اللّه تعالى قال في أوَّل الآية: ﴿ٱذۡكُرۡ نِعۡمَتِي عَلَيۡكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ﴾، فكانَ كلُّ معجزةٍ مذكورةٍ نعمةً، وهي على التَّأنيث، فناسبَ التَّأنيثَ على اعتبار أنَّ التّخليقَ بإذن اللّه نعمةٌ مِنَ اللّه تعالى وذكرَ بعضُ العلماءِ وجوهًا في مناسبة تذكيرِ الضَّمير في آية آل عمران وتأنيثِه في آية المائدة[2]، والنِّكاتُ المذكورةُ في هذه المناسبة لاتتقاطعُ، وكلُّها مقبولةٌ على الانفراد وعلى المجموع.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(المَهْدُ) و(الصِّبا):

المَـهْـدُ فِـراشُ الصّبيِّ الرّضيعِ، ويُطْلَق مجازًا على زَمَنِ الصِّبا

الصّبيُّ: من لم يُفطَم بَعدُ[3]. ومَهدُ الصَّبيّ: موضعُه الّذي يُهيَّأ له، ويوَطَّأ؛ لينام فيه وقتَ تربيته[4]، ثمّ أُطلق المهدُ على زمن الصِّبا على سبيل المجاز، وقد نُسي المجازُ، وصار المهدُ هو الصِّبا بحسب العُرف، لكن بقي للمجاز إيحاؤُه ودلالتُه على الغفلة، والضَّعف، وعدم القُدرة

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/691.
(2) ابن الزّبير، ملاك التّأويل: 1/84.
(3) الفيروزباديّ، القاموس المحيط: (صبو) و(مهد).
(4) الفيروزباديّ، القاموس المحيط: (صبو) و(مهد).

على الكلام، ومن هذا يتبيّن أنَّ التَّعبيرَ بالمهد أوقعُ في الدّلالة على مُعجزة الله لمريمَ؛ إذ أَنْطَق لها ابنَها، وهو في هذه الحالة؛ ليُبرِّئَ ساحتَها ممّا اتّهمَها به قومُها - عندما جاءت تحملُ مولودَها من مكانٍ بعيد - في قولِهم: ﴿قَالُواْ يَٰمَرۡيَمُ لَقَدۡ جِئۡتِ شَيۡـٔٗا فَرِيّٗا ٢٧﴾ [مريم: 27].

(الإذْنُ) و(العلمُ):

الإذْنُ والعِلْم كلاهما إعلامٌ بشَيْء، والإذنُ أَخَصُّ مِنَ العلمِ

في كلٍّ منَ الإذنِ والعلمِ إعلامٌ بشيءٍ ما، وخُصَّ الإذنُ بمعنى المشيئةِ مع التَّيسير، يقولُ الرّاغب: "بين العلمِ والإذنِ فرقٌ، فإنَّ الإذنَ أَخَصُّ، ولا يكاد يُستَعمَلُ إلّا فيما فيه مشيئَةٌ به"[1].

ومِن هنا يتبيّنُ سرُّ إيثار التَّعبير بالإذن هنا دونَ العلمِ، فإنَّ الله سبحانه قدَّر ما شاء جريانَه على يدِ عيسى مع تيسيره.

(الأكْمَهُ) و(الأعمَى):

الأكْمَهُ والأعْمَى كلاهما لا يُبصِران، ويَختصُّ الأكْمَهُ بأنّه مَطموسُ العَيْنَيْنِ

يجتمعان في مُطلَق فقدِ البصرِ، ويختصُّ الأكمهُ بالّذي وُلد مطموسَ العين بحسب الأصل فيه، فإيثارُ التَّعبير به في الآية أوقعُ في الدَّلالة على المعجزة؛ إذ ردُّ بصر مَن كان فاقدًا له بالكلّيَّة أصعبُ وأعزُّ من إرجاعِ بَصَر مَن فَقدَه لعارضٍ حدَثَ له[2].

(الكفُّ) و(المَنع):

الكفُّ يعني المَنْعَ بقوّةٍ وشدّةٍ، ويكونُ باليَدِ وغَيْرِها

الكفُّ بمعنى المنعِ، ويزيد عنه معنى الدَّفع بقوّة، وقد اكتسب هذه الخُصوصيّةَ من أصل معناه، فأصلُه كفُّ الإنسان، يُقال: كفَفتُه: أصبتُه بالكفِّ ودفعتُه بها[3]، فكان استعمالُ الكفِّ في الدّفع مجازًا مُرسَلاً بعلاقة الآليّة، ونُسي هذا المجازُ، وصار الكفُّ حقيقةً في الدّفع بالكفِّ وغيرِه بحسب العُرف. وفي الكفِّ معنى آخر ليس في المنع؛ هو امتناعُ موالاةِ الفعلِ[4].

(1) الرّاغب، المفردات: (أذن).
(2) الرّاغب، المفردات: (كمه).
(3) الرّاغب، المفردات: (كفف).
(4) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 112.

ومن هنا يتبيّنُ سرُّ إيثار التَّعبير بالفعل ﴿كَفَفْتُ﴾ لما فيه منَ الدّفع بقوّة، ومنعِ موالاة الفعل وتكراره، وهذا يشيرُ إلى أنَّ بني إسرائيل كانت تتوالى وتتكرّرُ منهم محاولاتُ أذى عيسى عليه السلام؛ ممّا يدلُّ على إمعانِهم في الكيد، وكانَ اللّه سبحانه يكفُّ أذاهم أوّلاً بأوّل، ويدفعُ عنه بقوّةٍ منه سبحانه.

﴿وَإِذۡ أَوۡحَيۡتُ إِلَى ٱلۡحَوَارِيِّـۧنَ أَنۡ ءَامِنُواْ بِي وَبِرَسُولِي قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَٱشۡهَدۡ بِأَنَّنَا مُسۡلِمُونَ ١١١﴾ [المائدة: 111]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لمّا ذكر اللّه تكذيبَ الّذين كفروا من قوم عيسى عليه السلام في نهاية الآية السّابقة، قابلَه بتصديق الحَواريّين وإيمانِهم على سبيل التّسرية، وجاءتِ الآيةُ عطفًا على ما سبقَ من جُملة تَعداد النِّعَم على عيسى عليه السلام بأن جَعلَ له أتباعًا يُصَدِّقونَهُ، ويَعملونَ بما جاء به. وفيه إشارةٌ إلى صاحبِ الرّسالة الّذي يتلقّى هذا الوحَي محمّد ﷺ بأنّ انقسامَ النّاس مِن دعوته إلى مؤمنين وكافرين هو شأنُ سائرِ الأقوام مع رُسُلِهم[1].

العلاقةُ بين كَفِّ الكَفَرَةِ عنِ المسيحِ، واصْطِفائِه لِلْحَواريّين مِنَ المؤمنين

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَوۡحَيۡتُ﴾: يدلُّ معنى الوحي على إعلامٍ في إشارةٍ خفيَّةٍ وسريعةٍ، بمعنى: إيقاعِ المعنى في القلب بطريقةٍ خفيَّةٍ، ويشمل الوَحيَ بالكلام المباشر، وبواسطة الرُّسُل، وبالإلهام، وبالإشارة، والإفهام، وقد يكونُ بالخير، وقد يكونُ بالشّرّ، بأن يكونَ بمعنى الوسوسة، كقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِهِمۡ لِيُجَٰدِلُوكُمۡۖ﴾ [الأنعام: 121]، والإسرارِ ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّٗا شَيَٰطِينَ ٱلۡإِنسِ وَٱلۡجِنِّ يُوحِي بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ زُخۡرُفَ ٱلۡقَوۡلِ غُرُورٗاۚ﴾ [الأنعام: 112].

ومعنى ﴿أَوۡحَيۡتُ إِلَى ٱلۡحَوَارِيِّـۧنَ﴾ في الآية: ألهمتُهم، أو أَمرتُهم على أَلسنَة الرُّسُل[2].

2) ﴿ٱلۡحَوَارِيِّـۧنَ﴾: جَمعُ حَواريٍّ، ومعناه في أصل اللُّغة: الأبيضُ

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/259، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/408.
(2) البغويّ، معالم التّنزيل: 2/101، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/532.

النَّقيُّ اللَّونِ، ومنه قولهم: حَوَّرَتُ الثِّيابَ؛ أي: بَيَّضتُها، فالحواريُّ مَن خَلُصَ لك، وأخلَصَ سرًّا وجهرًا في مودَّتِكَ، والحواريّونَ: أنصارُ عيسى عليه السلام، وخاصّةُ أَصحابه[1].

3) ﴿وَٱشۡهَدۡ﴾: يدُلُّ معنى الكلمة على حُضورٍ وعِلمٍ وإعلامٍ. والشَّهادةُ قولٌ صادرٌ عن علمٍ حصلَ بمشاهدة بصرٍ أو بصيرةٍ، فيشتركُ فيها اللّسانُ بالقول، والعقلُ بالعلم، والبصرُ أو البصيرةُ بالمشاهدة، فهي إخبار بما عَلِمه، ممّا رآهُ إذ حَضَر. وشَهِدَ الشّاهدُ: بيّنَ ما يعلمُ وأظهرَهُ[2].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

نُصْرةُ الله لأنبيائه بالأتباعِ الصَّادقين، منَ الحَواريّين المُخْلَصِين

واذكر - يا عيسى - نعمةً أخرى عظيمةً مِن نِعمي عليكَ إذ يسَّرتُ لكَ أتباعًا وأعوانًا؛ حينَ ألهمتُ الحَواريّينَ أنصارَكَ وخلصاءَكَ، أو أمرتُهم بالوحيِ الّذي جاءكَ مِن عند الله؛ أن يُؤمِنوا بي، ويصدِّقوا بوحدانيتي، ويؤمنوا بنبوَّتِكَ ورسالتِكَ، فقالوا: صدَّقنا يا ربَّنا، واشهد علينا؛ بأنَّنا خاضِعون لك، مستسلمونَ لأمرِك[3].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالةُ ﴿إِذۡ﴾ و﴿أَنۡ﴾ على التّفسيريّةِ والمصدريّةِ:

تقريرُ الإيمانِ بوَحدانيّة الله تعالى وبرسالةِ عيسَى عليه السلام

يجري فيها الكلامُ كما ذُكرَ في الآية السّابقة، فتفيدُ التَّذكيرَ بأمرٍ ذي شأنٍ عظيمٍ وغريبٍ، وهو تأكيدُ وحدانية الله تعالى، كركيزَةٍ من أهمّ ركائزِ رسالة عيسى عليه السلام. وتَحتملُ ﴿أَنۡ﴾ أن تَكونَ تَفسيريَّةً، وأن تكونَ مصدريَّةً[4]؛ أمّا كونُها تفسيريَّةً: فإنَّه لمّا كانَ الإيحاءُ فيه معنى القول، وكان فيه إبهامٌ يحتاجُ إلى تفسيرٍ وبيانٍ،

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، والرّاغب، المفردات: (حَوِرَ).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (شهد).
(3) ابن جرير، جامع البيان: 11/218، والسّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 126.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/408، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/96، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/104.

أردفهُ بـ ﴿أَنْ﴾ التَّفسيريَّةِ؛ لِبيان عِظَم الإيحاء وأهمّيّتِهِ، فجاءَ به مجمَلًا ثمَّ فسّره، فكأنَّه تكرَّر مرّتين؛ أي: يكونُ الإيحاءُ على معنى أمرتُهم بالإيمان بي وبرسولي؛ ليوافقَ مفسِّره، ففيه معنى التَّأكيد والتَّقرير للأمر بالإيمان بوحدانيَّة الله وبرسالة عيسى عليه السلام. وتحتملُ أن تَكونَ مَصدَريَّةً، والمعنى: وأوحيتُ إلى الحواريّين الإيمانَ بي، وبرسولي.

ومع أنّ الظّاهرَ هو ترجيحُ كونِها تفسيريّةً؛ لِما يترتّبُ على هذا من مجيء المعنى في صورتَين: الإجمال والتّفصيل؛ فإنَّ الاحتمالَين مقصودان على السّواء؛ مراعاةً لتعدُّد أفهامِ المُخاطَبين، ومستوى إدراكِهم، واختلافِ طبقاتِهم.

سِرُّ تعدُّدِ المُتعلَّقِ، في: ﴿ءَامِنُواْ بِي وَبِرَسُولِي﴾:

يدلُّ المتعلَّقُ الأوّلُ ﴿بِي﴾ على الإيمان بالله الواحد وبصفاته العليا، وجاء بالتَّكلُّم لمناسبة كلام ربِّ العزّة على الإيمان بذاته، وعطفَ عليه رسولَه، مع إعادة حرف الجرّ لتأكيد المُغايرة، وأوردَ ذكرَ عيسى عليه السلام بعنوان الرِّسالة؛ إيذانًا بأنَّ الإيمان به يكونُ بعنوانِ كونِهِ رسولًا مِن عند الله، فلا تُخرجوه عن حيِّزه حطّاً ولا رَفعاً[1]. كما أنَّ الإضافةَ هنا على التَّشريف والتَّكريم، ولاسيّما أنَّ السّياقَ في بيانِ تَعدادِ النِّعمِ، وتوبيخِ الكافرين من قومِ عيسى عليه السلام.

الإيمانُ بالله وبرسوله، هو لُبّ الإيمان، وتَحْقيقُ مَطْلوبِ الله تعالى

بلاغةُ الاستئنافِ البَيانيّ، وحذفِ المتعَلَّقِ، في: ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا﴾:

وقولُه تعالى: ﴿قَالُوٓاْ﴾ استئنافٌ بيانيٌّ عن سببٍ عامٍّ مبنيٌّ على سؤالٍ نشأَ من فحوى الكلام[2]، فإنَّه لمّا كانَ الإيحاءُ بطلب الإيمان بالله وبرسوله عيسى للحَواريّين اقتضى سؤالًا؛ لِتحريك السّامع بأن يسألَ، فماذا قالَ الحَواريّون؟ وماذا أجابوا؟، فقيلَ: قالوا: ﴿ءَامَنَّا﴾،

دَوْرُ السّياقِ في تحريكِ أشواقِ المُستَمِع، وتأثيرُ الحَذْفِ في تَكثيرِ المعنى

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/96.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/96.

فهو جوابُ سؤالٍ مقدَّر، وليس منَ البلاغة أن يَعرَى الكلامُ عنِ الجواب. وفيه منَ الفوائد البلاغيَّة تكثيرُ المعنى بتقليل اللَّفظ.

وكذلك حذفُ المُتعلَّق فيَحتملُ أن يكونَ الحذفُ على معنى عموم المُتعلَّق؛ أي: آمنّا بكلِّ ما أمرتَنا به منَ الإيمان بك وبرسولك وعلى وفْقِ ما أمرتَ، وهذا هو الظّاهرُ لِمناسبتِهِ قولَه تعالى: ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَٱشۡهَدۡ بِأَنَّنَا مُسۡلِمُونَ﴾، فحذفَ متعلَّقَ الإيمانِ لدلالة السّياق عليه. ويحتملُ أن يكونَ الحذفُ على معنى الاقتصار؛ أي: صارَ الإيمانُ سجيَّةً لهم؛ مبالغةً في امتثالِهم للأمر.

تتابعُ التَّأكيدِ، في قولِه تعالى: ﴿بِأَنَّنَا مُسۡلِمُونَ﴾:

بوادرُ الشّكِّ تقتضِي تتابُعَ التّأكيدِ، لإزالَتِه ودَحْضِه

أكَّد الحَواريّون إسلامَهم وانقيادَهم بتأكيدَينِ، وكأنَّ بوادرَ الشّكِّ في إيمانِهم هي الَّتي اقتضت تتابُعَ التَّأكيد، فجاءَ الكلامُ مؤكَّدًا بتأكيدَين: بـ (أنَّ) المؤكِّدة لمضمون الجملة، وبمجيءِ الكلامِ بطريقة الجملة الاسميَّة، فأفادتِ الصّياغةُ تأكيدَ إسلامِهم.

إيثارُ تقديمِ الإيمانِ على الإسلامِ:

الإيمانُ بالقلبِ شُعورٌ وِجدانيٌّ، مُقدَّمٌ على الانقيادِ الظّاهريِّ

في قوله: ﴿ءَامَنَّا وَٱشۡهَدۡ بِأَنَّنَا مُسۡلِمُونَ﴾ قدَّمَ الإيمانَ على الإسلام؛ ليُعلَمَ أنَّ الإيمانَ الّذي يكونُ في القلب مقدَّمٌ على الانقياد بالظّاهر، ولأنَّ الإيمانَ صِفةُ القلب، والإسلامَ عبارةٌ عن الانقياد والخُضوع في الظّاهِر؛ يعني: آمِنوا بقلوبِكم، وانقادوا بظواهِركم[1]. وقد طلبوا إلى عيسى عليه السلام أن يشهدَ على إسلامهم دون إيمانهم؛ لأنَّ الإيمانَ محلُّه القلبُ، وإنّما يُستدلُّ عليه بالأعمال والأقوال الظّاهرة الّتي تدخلُ في باب الإسلام؛

لأنّ الإيمانَ في القلب، وهم يعلمون أنَّه لا يَطَّلعُ على ما في القلوب إلّا اللّهُ، ولمّا كانَ الانقيادُ والاستسلامُ من أعمال الظّاهر، وهو

(1) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 12/461، والنّيسابوريّ، غرائب القرآن: 3/73.

مُتَيَسِّرٌ لكلِّ إنسان؛ اقترنَ إثباتُهُ بإشهادهم عيسى - عليه السلام - عليه، فهذه الصّياغةُ في: ﴿ءَامَنَّا وَٱشۡهَدۡ بِأَنَّنَا مُسۡلِمُونَ﴾ تبيِّنُ أنَّ الحَواريّين كانوا حديثي عهدٍ بإيمانٍ، وقد ظهر هذا جليًّا في طلبِهم آيةً من عيسى تشهدُ له وهي: ﴿مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [المائدة: 114]، وإذا رأيتَ من جماعةٍ ما اهتمامًا بإبرازِ أعمال الظّاهر، وإشهادِ النّاس على صلاحِهم، فاعلم أنّ ثمّةَ مشكلةً في بواطنهم.

التّشابهُ اللّفظيُّ:

في المائدة: المُتَكَلِّمُ هو الله ﷻ، وفي آل عِمْرانَ إخْبارٌ عَنْ قَوْلِ عيسَى عليه السلام

جاء في هذه الآية حذفُ متعلَّقِ الإيمان، فقال تعالى: ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَٱشۡهَدۡ بِأَنَّنَا مُسۡلِمُونَ﴾، وفي سورة آل عمران قال تعالى: ﴿قَالَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشۡهَدۡ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ﴾ [آل عمران: 52]، وبيانُه أنّه في سورة آل عمران كان الإخبارُ عن قول عيسى في معرضِ النّصِّ على الاسم الجليل لتقرير الإيمان: اللّه، كما يدلُّ عليه قولُه: ﴿مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ﴾، ففيه إخبارٌ عنِ اللّه بصيغة الاسم الظّاهر، وفي سورة المائدة ورد الكلامُ في سياقِ الخطاب: ﴿أَنۡ ءَامِنُواْ بِي وَبِرَسُولِي﴾، فناسبَهُ حذفُ الاسم الظّاهر؛ لمناسبتِه للخطاب[1]، فحينما ذُكِر اسمُ اللّه في الطّلب كان الجوابُ على شاكلته بذكر اسم اللّه كما في آل عمران، وحيثما طوي في الطّلب كان الجوابُ مثلُه كما في سورة المائدة؛ ليُشاكلَ الجوابُ الطّلبَ، وهي مواقفُ متعدّدةٌ لعيسى عليه السلام مع أنصاره. والظّاهرُ أنَّ الموقفَ الأوّلَ سجّلته سورةُ آل عمران، وناسبه إظهارُ اسم اللّه، والموقفُ الثّاني في سورة المائدة، مع تقارب المواقف، فالسّورتان مدنيّتان، ولكنّ آل عمران سابقةٌ في النُّزول وفي ترتيب المصحف على المائدة.

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/408.

في المائدة تفصيلٌ في ذِكْر المتَعَلّقِ، فناسَبَهُ وُرودُ (أنّنا) على أوفى الحالَيْن

وجاء في سورة آل عمرانَ في الآية نفسِها: ﴿وَٱشۡهَدۡ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ﴾ [آل عمران: 52] بحذف النّون؛ لاجتماع الأمثال، وهنا: ﴿وَٱشۡهَدۡ بِأَنَّنَا مُسۡلِمُونَ﴾ بإثباتها، وهذا هو الأصلُ، والسَّبب: هو مناسبةُ التَّفصيل لإثباتِ النّون والإيجازِ لِحذفِها، فإنَّ آيةَ المائدةِ وردَ فيها التَّفصيلُ فيما يجبُ الإيمانُ به، وذلك قولُه: ﴿أَنۡ ءَامِنُواْ بِي وَبِرَسُولِي﴾، فجاء على أتمِّ عبارةٍ في المطلوب وأوفاها، فناسبَ ذلك ورودُ ﴿بِأَنَّنَا﴾ على أوفى الحالَين، وهو الورودُ على الأصل، ولمّا لم يقع إفصاحٌ بهذا التَّفصيل في آية آل عمران إذ قالوا: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾ [آل عمران: 52]، فلم يقع هنا (وبرسولِه) إيجازًا؛ للعلم به بشهادة السّياق ناسبَ هذا الإيجاز، كما ناسبَ الإتمامَ في آيةِ المائدةِ الإتمامُ فقيل هنا: ﴿وَٱشۡهَدۡ بِأَنَّنَا مُسۡلِمُونَ﴾، فجاء كلٌّ على ما يجبُ، ولو قُدِّرَ ورودُ العكسِ لَما ناسبَ[1].

وأيضًا لمّا كانت (أنّا) أَقَلَّ تأكيدًا مِن (أنّنا)؛ لِأنَّ المحذوفَ إحدى نونَي (إنَّ) المشدّدة، وكانت آيةُ آلِ عمرانَ قد وردت في مقام الإخبار عنِ الحواريّين أنَّهم قالوا: ﴿نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: 52]، فلم تكن حاجةٌ لتقرير تأكيد انقيادهم، فليسَ المقامُ مقامَ إنكارٍ لاقتضاء التّأكيد. ولمّا كانت آيةُ المائدة قد أعقبَها طلبُ الحواريّينَ تنزيلَ مائدةٍ منَ السَّماءِ، وهو كلامٌ لا يردُ عن معظِّمينَ للّهِ منقادينَ لِأمرِهِ، ناسبَهُ أن يأتيَ بإثبات النّون، فقالوا: (أَنَّنا) الّذي يفيدُ تقريرَ تأكيدِهم انقيادَهم لأمر اللّه؛ للتَّعجيب مِن حالِهم، فكيفَ يؤكّدونَ انقيادَهم، ويطلبونَ مطلبًا بعيدًا عنِ التَّسليم لأمر اللّه؟.

(1) ابن الزّبير، ملاك التّأويل: 1/87.

﴿إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۖ قَالَ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾﴾ [المائدة: 112]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

العلاقةُ بين تَلْبيّة الحَوارِيّينَ لِنداء الله تعالى بالإيمان، وبين طَلَبِهم إنزالَ مائِدَةٍ مِنَ السّماء

لمّا مدحَ اللهُ الحواريّين بِعَدِّهم في عدادِ المُلهَمين ومبادرتِهم إلى الإيمان؛ امتثالاً للأمر ثمَّ إلى الإشهاد على سبيل التَّأكيد بتمام الانقياد وسلب الاختيار، أعقبَهُ بذكرِ حوارٍ آخرَ بينَ عيسى عليه السلام والحواريّين، ذاكرًا ما يدلُّ على تعنُّتِهم معَ القربِ من زمن إيمانِهم، مذكِّرًا هذه الأمَّةَ بحفظِها على الطّاعة، وتأديبًا لها لِتُجلَّ رسولَها الكريمَ ﷺ عن أن تبدأَهُ بسؤالٍ أو تقترحَ عليه شيئًا في حالٍ منَ الأحوالِ، ومبكِّتًا لبني إسرائيلَ بكثرة تقلُّبِهم وعدم ثباتِهم[1].

وفاصلةُ هذه الآية: ﴿قَالَ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ تلتفتُ إلى قولهم في الآية السّابقة: ﴿ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾، وتشير إلى أنّ الإيمان ليس قولاً باللّسان حتّى يطمئنّ به القلبُ، وفيه عِبرةٌ عند الرّبط بين المعاني.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مَآئِدَةً﴾: فاعِلةٌ مِن مادَ يميدُ إذا تحرّكَ، فكأنَّها تميدُ بما عليها، أو مِن مادَ فلانٌ فلانًا يَميدُهُ ميدًا، إذا أعطاهُ ورفدَهُ، بمعنى: مُعطيَة. ويَحتملُ أن تكونَ المائدةُ فاعلةً في معنى مفعولةٍ، وأصلُها مَميَدة، ميدَ بها صاحبُها؛ أي: أُعطيها، وتُفضِّلَ عليه بها. والمائِدَةُ في اللُّغة: الخوانُ الَّذي عليه الطَّعامُ، فإذا لم يَكن عليه طَعامٌ لا

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 6/354.

يُسمَّى مائِدَةً، بل يُسمَّى خوانًا، فالمائدةُ أخصُّ منَ الخوان، وقَد يُطلَقُ لَفظُ المائدة على الطَّعام نَفسِهِ حقيقةً أو مَجازًا مِن إطلاق اسم المَحَلِّ على الحالّ فيه[1].

المَعْنَى الإِجْماليُّ:

سُؤالُ الحَوارِيّين أن يَطْلُبَ لهم عيسَى مائدةً من السّماء، وزَجْرُه لهم عن هَذِهِ المجازَفَةِ

اذكُر يا مُحمّدُ ﷺ للنّاس وقتَ قولِ الحواريّين لعيسى عليه السلام: يا عيسى هل يرضَى ربُّك ويختارُ أن ينزِّلَ علينا مائدةً مِنَ السَّماء إذا نحن سألناه أو سألتَهُ ذلك؟ فكانَ جوابُ عيسى عليه السلام: اتَّقوا اللّه أن تَسألوهُ شيئًا لم تسألهُ الأُمَمُ قَبلَكُم، فَنَهاهُم عنِ اقتراح الآيات بعدَ الإيمان؛ إذِ المؤمن يحملُه ما معه منَ الإيمان على ملازمة التّقوى، والانقياد لأمر اللّه، ولا يطلبُ من آيات الاقتراحِ الّتي لا يَدري ما يكونُ بعدها[2].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالةُ ﴿إِذْ﴾ في الآيةِ الكريمة:

ما سألَه الحَواريُّونَ لا يَنْبَغي طَلَبُهُ

دلَّ مجيءُ ﴿إِذْ﴾ في بداية الآية على أنَّ ما يُذكرُ بعدَها أمرٌ ذو شأنٍ، وأنَّ ما سألَه الحَواريّونَ ممّا لا ينبغي طلبُهُ، وأنّه ينبغي الحذرُ من فعلِه.

بَلاغةُ الإظهارِ في مَوضعِ الإضمار، في السّياقِ الحكيمِ:

المؤمنون لا يَسألونَ الآياتِ بعدَ ظُهورِ المُعجزاتِ

أعادَ وصفَهم بذِكْر الاسم الظّاهر، وبالوصف المفيد للمدح ﴿ٱلْحَوَارِيُّونَ﴾، ولم يُضمرهُ معَ قرب ذِكْرِهم؛ للإشعار بأنَّ حالَهم هنا من سؤالِهم تنزيلَ مائدةٍ منَ السَّماءِ بعيدٌ مِن حالِهم الأوَّلِ حينَ قالوا: آمنّا واشهَدْ بأنَّنا مسلمونَ، وأنَّ مَن هذا وصفُه لا ينبغي أن

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/106.

(2) البغويّ، معالم التّنزيل: 2/102، ورضا، تفسير المنار: 7/210، والسّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 126.

يسألَ الآياتِ بعدَ ظُهورِ المُعجزاتِ[1]؛ ولهذا أعقبَهُ بقولِهِ: ﴿قَالَ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾.

دلالةُ النِّداء في قوله تعالى: ﴿يَٰعِيسَى﴾ منَ الآية الكريمة:

نـــداءُ المسيح بِاسْمِهِ وأمِّـهِ، لتأكيدِ بَشَرِيَّتِهِ، وأنّه ابْنُ مَريمَ لا ابْنُ الله

لم يُنادِ الحواريّون عيسى عليه السلام بوصفِهِ بالرِّسالة بأن يقولوا: يا رسولَ اللّهِ، ولا يا روحَ اللّهِ، ونحوَ هذا مِنَ ألفاظ التَّبجيل أَوِ التَّعظيم، فابتَدَؤوا خِطابَهُم بندائِهِ باسمِهِ لإفادةِ معانٍ منها[2]:

أنَّ ما سَيَقولونَهُ أمرٌ فيه اقتراحٌ وكُلفَةٌ له، وشأنُ مَن يُخاطِبُ مَن يَتَجَشَّمُ منه كُلفَةً أن يُطيلَ خِطابَهُ طَلَبًا لإقبالِ سَمعِهِ إليه؛ ليَكونَ أوعَى للمَقصود. وقد يكون نداؤُه عليه السلام باسمه؛ ليُنسَبَ إلى أمّه نسبةً تدلُّ على أنّهم لم يكونوا قد وقعوا فيما وقع فيه غيرُهم، ممّن قالوا: المسيحُ ابنُ اللّه.

نُكتةُ التَّعبير بـ ﴿هَلۡ﴾ في الاسْتِفهام، ودلالتُهُ في السّياق:

الاستشهادُ أوِ التّلطُّفُ أوِ الاستيثاقُ منَ الطّلَب

لمّا كانَ الحواريّون قد طلبوا حصولَ التّصديق بالاستطاعة، وكانوا يقصدون تنزيلَ المائدة في المستقبل، وأيّدهُ اقترانُ ﴿أَن﴾ المصدريَّة بالفعل، وكانوا يريدونَ من عيسى عليه السلام الإجابةَ بالثُّبوت أو الانتفاء، ناسبَه مجيءُ ﴿هَلۡ﴾ في الاستفهام دونَ الهمزةِ[3].

ولمّا كانَ الحواريّونَ منَ المؤمنينَ، ومِن أخصِّ أصحابِ عيسى عليه السلام، دلَّ على أنَّ سؤالَهم ليسَ على حقيقة الطَّلب المُقتضي الشّكَّ في استطاعة المسؤول؛ لأنّهُ ينافي الإيمانَ، ومتى امتنعَ إجراءُ الاستفهام على الأصل تولَّدَ منه ما يناسبُ المقامَ، وعلى هذا فالمعنى له توجيهاتٌ ثلاثةٌ[4]:

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 6/355.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 6/355.
(3) السّكاكّي، مفتاح العلوم، ص: 309.
(4) ابن جرير، جامع البيان: 11/219، والسّكاكّي، مفتاح العلوم، ص: 304، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 2/149، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/409، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 6/355، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/105.

الأوّل: أن يكونَ الاستفهامُ على حقيقتِه، ولكن ليسَ في السُّؤالِ عنِ الاستطاعةِ بمعنى القدرةِ، بل السُّؤالُ عنِ الاستطاعةِ على ما يقتضيه الرَّأيُ والحكمةُ، فهو على علمٍ منه أنَّه يستطيعُ، ولكنَّه يُسألُ عنه: أَيَفعلُ أم لا؟ لأنَّه قد يُقالُ: فلانٌ لا يستطيعُ كذا، وليسَ يعني أنَّ القدرةَ كذلكَ، وإنَّما يعني أنَّ رأيَه لا يتوجَّهُ إليه، ويؤيِّدُهُ قراءةُ مَن قرأَ - وهو الكسائيّ- : (هَل تَستَطيعُ رَبَّكَ)[1]، فَهُم على علمٍ منهم أنَّ عيسى يستطيعُ سؤالَ ربِّه، لكنَّهم قالوا ذلكَ للاسترشاد في الأمر.

الثاني: أن يكونَ الاستفهامُ على حقيقتِه كذلكَ، ولكن في أن يكونَ ﴿يَسْتَطِيعُ﴾، بمعنى: يُطيعُ، والتَّقديرُ: هل يطيعُ ربُّكَ؟ أي: هل يجيبُكَ؟ واستطاعَ بمعنى: أطاعَ، كاستجابَ وأجابَ.

الثالث: أن يكونَ الاستفهامُ على طريق الكناية في عرض الطَّلب والدُّعاء له، وهو الظّاهرُ منَ الاحتمالات، ودلَّ عليه السّياقُ، وبيانُه أنَّهم يقولونَ لِلمُستَطيع لأمرٍ: هل تستطيعُ كذا، وفيه كنايةٌ عن معانٍ لطيفةٍ عدَّةٍ هي:

التَّلطُّفُ في طريقة سؤال الحَواريّين لعيسى عليه السلام، أو التَّهييجُ والإلهابُ للاجتهاد في الدُّعاء لِتحصيل الإجابة، وربّما كان علمُ الحَواريّين بأنَّ تنزيلَ المائدةِ مستطاعٌ لله تعالى، وأنَّه قادرٌ عليه، لِظهوره غايةَ الظُّهور، وغرضُهم بهذا الأسلوب أنّ مطلوبَهم أمرٌ واضِحٌ لا يَجوزُ للعاقلِ أن يَشُكَّ فيه، أو حبُّ الحواريّينَ إجابةَ طلبِهم من غير مشقَّةٍ أو كُلْفةٍ على عيسى عليه السلام، أو التماس العُذرِ له إن لم يُجبهم إلى طلبهم[2]. ومهما قيل في تأويل طلبهم ذلك فإنّه يُشيرُ إلى قلّة ثقة بني إسرائيلَ في الأمور الغَيبيّة، فهذه طبيعةٌ موروثةٌ، وقد طلب آباؤهم من نبيّ الله موسى أن يريَهم الله جهرَةً بعد ما رأوا من معجزاتٍ على يديه كفَلْقِ الحجر، وهكذا يطلبُ ذرّيَّتُهُم من عيسى دليلًا حِسّيًّا نفعيًّا يدلُّ على صدقه بعد ما ظهر لهم على يديه من مُعجزاتٍ.

فقرينةُ الكنايةِ تَحَقُّقُ المَسؤول أنَّ السّائلَ يَعلَمُ استطاعَتَهُ، وهو أسلوبٌ عربيٌّ في العرض والدُّعاء.

(1) ابن الجزريّ، النّشر: 2/256.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/105.

نُكْتَةُ الإضافةِ في قوله تعالى: ﴿رَبُّكَ﴾، وأثرُها في المعنى:

إيثارُ طَلَب امتيازِ نِسبَة الرّبوبيّةِ إلى عيسَى، لعِظَمِ المطلوبِ

وردتِ الإضافةُ إلى الضّمير العائد إلى اللّه تعالى دونَ أن يقولوا: (هل يستطيعُ ربُّنا) للإشعار بامتياز عيسى عليه السلام عليهم؛ لِما له مِن خصوصيَّة الرِّسالة وشَرفِها، وآثرَ اللَّفظَ الدّالَّ على الرُّبوبيَّة؛ لِمناسبتِه للرِّعاية والإنعام الّذي يدلُّ عليه سياقُ الآية.

دلالةُ العُدولِ عَنِ المصْدَرِ الصّريح (تنزيلٌ)، إلى المصدر المؤوّل ﴿أَن يُنَزِّلَ﴾.

تَنَزُّلُ المائدةِ منَ السّماء، دليلٌ على عِظَمِها وخُصوصيَّتِها.

وقد أفاد مجيءُ الفعل بصيغة (يُفعِّل) تعظيمَ الفعل لِلتَّكثير؛ لِعلمِهم بعِظَمِ تنزيل المائدة، وكونِها آيةً ظاهرةً على صدق نبيِّ اللّهِ عيسى عليه السلام، ولهذا عَدلَ عن إيراد المصدر الصَّريح (تنزيل) إلى المصدر المؤوَّل ﴿أَن يُنَزِّلَ﴾، وللدّلالة على المستقبل، كما تقدَّمَ مِن اقتران الفعل بـ (أن) المصدريَّة. وممّا يدلُّ على علمِهم بعِظَم شأن تلك المائدةِ تعليقُ الفعل بالجارّ والمجرور ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾؛ لإفادة أن لاصُنعَ للآدميّين فيها، وللإشارة إلى عِظَم المائدة؛ لِنزولِها مِن عُلوٍّ، ليختصّوا بها عمَّن تقدَّمَهم مِنَ الأُمَم، ولتكون لهم آيةً تُطمئنُ قلوبَهم، وعِلَّةً للأمر بالتّقوى، في: ﴿قَالَ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾.

بَلاغةُ الاستئنافِ البيانيّ، وعلّةُ الأمرِ بالتّقوى، في: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾:

التَّحذيرُ مِنَ التّنطُّعِ في الطّلبِ، واقتراحِ الآياتِ بعدَ ظُهورِ المُعجزات

جاءَ قولُه تعالى: ﴿قَالَ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ استئنافًا بيانيًّا مبنيًّا على سؤالٍ ناشئٍ مِن فحوى ما قبلَه؛ لِتشويقِ السّامعينَ، وإغنائِهم عنِ السُّؤال، ولِتكثير المعنى بتقليل اللَّفظ، كأنَّه قيلَ: فماذا قال لهم عيسى عليه السلام حينَ قالوا ذلك؟ فقيلَ: ﴿قَالَ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[1]. ولمّا كانَ سؤالُهم عنِ الآياتِ وتعيينِ المُعجزاتِ جاريًا مجرَى التَّعنّت والتَّحكُّم،

(1) التّفتازانّي، المطوّل، ص: 447، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/97.

وفيه بشاعةٌ في اللَّفظ والسُّؤال، وهذا مِنَ العَبد في حَضرَة الرَّبّ جُرمٌ عظيمٌ، ولأنَّه أيضًا اقتِراحُ مُعجِزَةٍ بعدَ تَقَدُّم مُعجِزاتٍ كثيرةٍ، وهو جُرمٌ عظيمٌ، كذلك قال: اتَّقوا اللّه من أمثالِ هذا السُّؤالِ، فإنَّكُم لا تَدرونَ ما يَحِلُّ بكم عند اقتِراح الآيات بعدَ ظهور المُعجزات[1].

بَديعُ الأسلوبِ الحكيم، وأهمِّيَّتُه في السّياقِ:

لمّا كان السُّؤال بـ ﴿هَلۡ﴾ يقتضي الإجابةَ بالثّبوت أو الانتفاءِ[2] (نعم أو لا)، كان قولُه تعالى: ﴿قَالَ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ منَ الأسلوب الحكيمِ[3] عُدولًا عنِ الجواب؛ لتذكيرِهم بما هو أصلحُ لهم وهو التّقوَى، وللإشعار بترك الكلام، والالتزام بالأفعال الحسنة، وترك الأفعال القبيحة، وفي هذا الأسلوب إيجازٌ؛ لأنّه ترك بيانَ خطئِهم صراحةً اكتفاءً بدلالةِ الجواب عليه ضِمنًا، وفيه حكمةٌ؛ لتجنُّب الدّخولِ في المِراء والخُصومة، مع توصيلِ المغزى بذلك الجواب الحكيم.

العُدولُ في الجوابِ عن مُقتضَى الظّاهرِ؛ من بليغِ الأسلوبِ

بلاغةُ أسلوبِ الشَّرطِ، في قوله تعالى: ﴿إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾:

في قولِه تعالى: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾: يأتي هذا الأسلوبُ إذا كانَ المقصودُ تقريرَ الجواب وتأكيدَهُ عندَ المُخاطَبين، وعلى مذهبِ نُحاةِ البصرةِ يكونُ جزاءُ الشَّرطِ محذوفًا على نيّةِ تقديرِه مِنَ المذكور قبلَ الشَّرط، فيكونُ على نيّةِ تكرار الأمر بالتَّقوى مِن حيثُ المعنى، والتَّقديرُ: اتَّقوا اللّه إن كنتم مؤمنين فاتّقوا اللّه عن مثل هذا السُّؤالِ. وعلى مذهبِ نُحاةِ الكوفةِ يكونُ قولُه تعالى: ﴿ٱتَّقُواْ

التّقوى ثمرةٌ للإيمان، ولهذا جاء النّظمُ لتأكيدِها والاحتِفاءِ بها

(1) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 12/462، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 6/66، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 2/149، وابن جُزَيّ، التّسهيل: 1/250.

(2) السّكاكّي، مفتاح العلوم، ص: 309.

(3) الأسلوبُ الحكيم: هو تلقّي المُخاطَب أو السّائل بغير ما يترقّبُ، بحمل كلامه على خلاف مراده تنبيهًا له على الأهمّ، والأَولى بالقصدِ، وهو نوعٌ منَ العُدولِ على خلاف مُقتضَى الظّاهر، ومن أمثلته: قيل لشيخ كبير تقدّم لخِطبة فتاة: كم سنُّك؟ فقال: إنّي أَنعَم بالعافية، وأرغب في المزيد منَ الأولاد. السّكاكيّ، مفتاح العلوم، ص: 155.

ٱللَّهَ﴾ هو الجزاءَ، ولمّا جاءَ متقدِّمًا على الشّرطِ أفادَ الاهتمامَ به، كما أفادَ تأكيدَهُ وتقريرَهُ، ولمّا كانَ الشَّرطُ في مقامِ السَّببِ للجزاءِ أفادَ الكلامُ أنَّ الإيمانَ سببٌ للتَّقوى، وهيَ مسبَّبَةٌ عنه، وثمرةٌ له، ولهذا كان المعنى في حاجةٍ إلى تقويةٍ وتأكيدٍ، وجاء في الشّرط بـ ﴿إن﴾ خاصّةً؛ لإظهار خَشيةِ عيسى مِن أن يكون الباعثُ على طلبِهم هو الشّكُّ. قال ابنُ عاشور: "جاءَ بِـ ﴿إن﴾ المُفيدَةِ للشَّكِّ في الإيمان ليَعلَمَ الدّاعي إلى ذلك السُّؤال خَشيَةَ أن يَكونَ نشأ لهم عَن شكٍّ في صدقِ رَسولِهِم، فسَألوا مُعجِزَةً يَعلَمونَ بها صِدقَهُ بَعدَ أن آمَنوا به"[1].

تنوّعُ القراءاتِ القُرآنيّةِ، وأثرُها في تَرسيّةِ المعنى وبيانِه:

في قراءة الكِسائيِّ تقديرٌ يُفيدُ تلْطيفَ عبارَةِ الحَواريّين

قرأ الكِسائيُّ: (هَل تَّستَطيعُ رَبَّكَ) وبإدغامِ اللّامِ في التّاء، وقرأ الجمهورُ: ﴿هَلۡ يَسۡتَطِيعُ رَبُّكَ﴾[2]، فأمّا قراءةُ الجمهورِ فقد تقدّمَ بيانُ أوجُهِ المعنى فيها، وعلى قراءةِ الكِسائيِّ يكونُ التَّقديرُ فيها: هل تستطيعُ سؤالَ ربِّك؟ أو هل تستطيعُ دعاءَ ربِّك؟ بدلالةِ السّياقِ على المحذوف، والمعنى: هل تسألُهُ ذلك مِن غيرِ صارفٍ يصرِفُكَ عنه؟ وفي هذه القراءة تصريحٌ بتنزيهِ الحَواريّين عن ما يُتوهَّمُ من بشاعة معنى ظاهر اللَّفظ في قراءة الجمهور، كما تدلُّ على أنَّ قولَ عيسى عليه السلام: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ تقريرٌ لإيمان الحَواريّين، كما هو الحالُ في توجيه قراءة الجمهور، فقد كانوا أخصَّ أصحاب عيسى[3] عليه السلام. ويَحتمِل أن تُمثِّل القراءتان موقفين متتابعَين، قالوا في الأوّل منه بالياء: ﴿هَلۡ يَسۡتَطِيعُ﴾، ثمّ عدلوا عنها في الموقف التّالي إلى الخطاب بالتّاء: (هَل تَّستَطيعُ)؛ تأدُّبًا وتحشّمًا لمّا استشعروا

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/106.

(2) ابن الجزريّ، النّشر: 2/256.

(3) ابن جرير، جامع البيان: 11/218، وابن مجاهد، السّبعة: 1/249، والأزهريّ، معاني القراءات: 1/344، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/410.

سوءَ أدبٍ في الأولى، أمّا أن تُحمل القراءةُ الأولى على معنى الثّانية فمستبعدٌ؛ للفرقِ الواضحِ بين القراءتَين.

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(المائدةُ) و(الطّعامُ):

المائدةُ هي الخُوانُ أوِ الطّعامُ، وفي التّعبير بها طلبٌ لمزيدِ التّكريمِ منَ الربِّ الكريمِ

في قولِه تعالى: ﴿هَلۡ يَسۡتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيۡنَا مَآئِدَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِۖ﴾: تدلُّ المعاني اللُّغويّةُ على أنَّ المائدةَ فيها إكرامٌ وتفضّلٌ يَميدُ به صاحبُه على مَن يُؤثره. والمائدةُ هي الخوانُ الّذي يوضَع عليه الطّعامُ، وهو شيءٌ مبسوطٌ له قوائمُ يُسمّى السُّفْرةَ، وقد يُطلقُ لفظُ المائدة على الطّعام نفسِه[1] على سبيل المجاز المُرسَل بعلاقة المحلّيّةِ؛ حيث سُمّي الطّعامُ باسم المحلِّ الّذي يوضعُ عليه، لكنّه صار حقيقةً بحسبِ العُرف. ويُفهَم من هذه الاستعمالاتِ أنَّ إيثارَ الحواريّين المائدَةَ بدلًا منَ الطَّعام، كما عبَّر عنهم القرآنُ، يُشيرُ إلى رغبتِهم في أن يكونوا مَوضِعَ تكريمٍ، وإيثارٍ، وتفضّلٍ، واحتفالٍ بهم، ورشَّحَ هذا وقوّاه استعمالُ الجارّ والمجرور ﴿عَلَيۡنَا﴾ مُقدَّمًا على ﴿مَآئِدَةٗ﴾.

(1) مجموعة منَ المؤلفين، المعجم الوسيط: (ميد) و(خون).

﴿قَالُواْ نُرِيدُ أَن نَّأۡكُلَ مِنۡهَا وَتَطۡمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعۡلَمَ أَن قَدۡ صَدَقۡتَنَا وَنَكُونَ عَلَيۡهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ١١٣﴾ [المائدة: 113]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

بَسْطُ أسبابِ طَلَبِ المائدةِ

لمّا كانَ قولُه تعالى: ﴿قَالَ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ في الآيةِ السّابقةِ بمنزلةِ النَّهيِ عنِ السُّؤالِ؛ جاءت هذهِ الآيةُ لِتكونَ بمثابةِ اعتذارٍ منَ الحواريّين، فبَيَّنوا بهِ سببَ سؤالِهم حينَ نُهوا عنه. كما أنَّ الآيةَ جاءَت على طريقة الاستئنافِ البيانيِّ؛ لِتكونَ جوابًا لسؤالٍ مقدَّرٍ مِن فحوى الكلام السّابق، تقديرُه: فماذا أجابَ الحَواريّون؟ فناسبَ ذكرُ الجوابِ هنا، فالرَّبطُ بينَ الآيةِ وما قبلَها ظاهرٌ.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَتَطۡمَئِنَّ﴾: من طَمِنَ، ويدورُ معنى الكلمةِ على السُّكونِ بعدَ الانزعاجِ. والطُّمأنينةُ: سكونُ النَّفس مِن ذهاب الخوف، وكلُّ ما في القرآن من معاني هذه المادَّةِ يدلُّ على سكونِ النَّفسِ والقلبِ؛ أي: الاستقرارِ النَّفسيِّ، وعدمِ القلقِ، والخوفِ، والحذرِ.

2) ﴿ٱلشَّٰهِدِينَ﴾: جمعُ الشّاهدِ مِنَ الشَّهادةِ، وتقدّمَ بيانُ معناها في شرحِ مفرداتِ الآيةِ السّابقةِ.

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

تَبْريرُ الحَواريّين لِطَلَبِ نُزولِ المائدةِ، وبَيَانُ أسبابِ ذلك الطّلبِ الغَريبِ

قال الحَواريّون: إنّا إنّما قلنا ذلك، وسألناك أن تسألَ لنا ربَّنا لنأكلَ منَ المائدة، وتسكُنَ قلوبُنا، ونعلمَ يقينًا صِدْقَك في خبرك أنّك رسولُ اللّه ونبيُّه، ونكونَ على المائدة ممَّن يشهد أنَّ اللّه أنزلَها حجّةً لنفسه علينا في توحيدِه وقدرتِه على ما شاء، ولك على صدقِكَ في نبوّتِكَ[1].

(1) ابن جرير، جامع البيان: 11/224.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دَلالةُ حرفِ الجرِّ (مِن)، في قوله تعالى: ﴿ مِنۡهَا﴾:

الأكْلُ منَ المائدة تَبَرُّكًا وتشريفًا، لا سدًّا لِجوعٍ، ولا حاجَةً لِطعام

أفادَ حرفُ الجرِّ هنا التَّبعيضَ، بمعنى: نريدُ أن نأكلَ بعضًا منَ المائدة، فيُشعِرُ الكلامُ بأنّهم كانوا يريدونَ الأكلَ منها تبرُّكًا وتشريفًا لا حاجةً أو لِشدّةِ جوعٍ. ويَحتملُ أنّهم طلبوا الأكلَ لأجلِ الحاجةِ والتّمتّعِ[1]، فيكونُ طلبُهم على معنى تكثير المائدة؛ لِموافقةِ (مِن) التَّبعيضيَّةِ، ويؤيّدُهُ دلالةُ التَّكثيرِ في قولِه تعالى: ﴿يُنَزِّلَ﴾.

دَلالةُ قولِه تعالى: ﴿وَنَعۡلَمَ أَن قَدۡ صَدَقۡتَنَا﴾:

صِدْقُ عيسَى عليه السلام في الإخبارِ عن رسالتِه، وعن وَحدانيَّةِ رَبِّه

جاءَ اسمُ ﴿أَن﴾ المخفَّفةِ منَ الثَّقيلة ضميرَ شأنٍ محذوفًا في قوله تعالى: ﴿وَنَعۡلَمَ أَن قَدۡ صَدَقۡتَنَا﴾؛ إيذانًا بتعلُّقِ العلمِ بأمرٍ عظيم، وهو عِظَمُ صدقِ عيسى عليه السلام في الإخبار عن نبوَّتِه، وعن وحدانيَّةِ اللّه، وتفخيمًا لِشأنِ الأمرِ[2]، وتأكّدَ المعنى وتقرَّرَ بمجيءِ ﴿أَن﴾ المخفَّفةِ الدّالَّةِ على تأكيدِ مضمونِ ما بعدَها، وزادَ الجملةَ تقريرًا اقترانُها بـ ﴿قَدۡ﴾ الدّالَّةِ على تأكيدِ الفعلِ الّذي يقتضي تأكيدَ مضمونِ الجملةِ كذلكَ، وهذه الجملةُ بيانٌ أو تأكيدٌ لقوله قبلها: ﴿وَتَطۡمَئِنَّ قُلُوبُنَا﴾، وإنّما يحدثُ اطمئنانُ القلبِ بعد العلمِ بصدقِ النَّبيِّ؛ لأنَّ المائدةَ دليلٌ حسّيٌّ، وهو أظهرُ وآكدُ ويُؤدّي إلى اليقين.

فائدةُ إطلاقِ شَهادتهم، في قوله تعالى: ﴿مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾:

الرّؤيَةُ العَيْنِيّةُ أوْثَقُ دليلٍ، وما راءٍ كَمَنْ سَمِعا

ولمّا أَطلقَ شهادتَهم، ولم يقيّدها بأمرٍ ما دلَّ على عموم الشَّهادة، والمعنى: نَشهَدُ لكَ عليها عِندَ الَّذينَ لم يَحضُروها مِن بَني إسرائيلَ، لمشاهدتنا لها بالعَيْن، ونَكونُ عليها مِنَ الشّاهِدينَ للّه بكمال القُدرَةِ، ولك بالنُّبوَّة[3].

---

(1) السّمعانّي، تفسير القرآن: 2/80، والبغويّ، معالم التّنزيل: 2/102، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/411، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/97.

(2) الرّضّي، شرح كافية ابن الحاجب: 3/70.

(3) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 12/463، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 6/366، البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 2/150.

مناسبةُ تقديمِ ﴿عَلَيۡهَا﴾ وتأخيرِ ﴿مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾:

اجتماعُ شهادةِ الحِسِّ والقلبِ والعقلِ، على نُزولِ المائدةِ المعجزة

قدّمَ الجارَّ والمجرورَ ﴿عَلَيۡهَا﴾ الّذي هو في مَوضِعِ الحالِ؛ رعايةً للفاصلةِ[1]، وللاهتمام، والعناية بالمشهود عليه (المائدة)، وفي التَّقديم إشعارٌ بأنَّ المائدة عندهم أتمُّ مِن غيرِها منَ المُعجزات؛ لِاجتماعِ شهادةِ الحسِّ والقلبِ والعقلِ عليها؛ لِحثِّ عيسى عليه السلام على سؤالِها وطلَبِها. وكلُّ المعطوفات ﴿وَتَطۡمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعۡلَمَ أَن قَدۡ صَدَقۡتَنَا وَنَكُونَ عَلَيۡهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ داخلةٌ في الفعل ﴿نُرِيدُ أَن نَّأۡكُلَ مِنۡهَا﴾، والعطفُ على نيّة إعادة الإرادة، فهو شكلٌ من أشكال الإيجاز.

نُكتةُ التَّعبيرِ بالمَصدرِ المُؤوَّلِ، في ﴿نُرِيدُ أَن نَّأۡكُلَ مِنۡهَا﴾:

المضارعُ يَستَدعِي المستقبلَ حاضرًا، ويدلُّ على الرّغبةِ في تَجَدُّدِه واستمرارِه

جاءَ الكلامُ على صيغة المصدر المؤوَّل بـ (أن والفعل)؛ لإفادةِ الاستقبالِ، ودلَّت صيغةُ الفعل المضارع على تصوير حال أكلِهم مِنَ المائدة في المستقبل، كما أفادتِ الصّيغةُ الإشارةَ إلى أنّهم سألوا تنزيلَ المائدةِ؛ لِإرادتِهم استمرارَ اطمئنانِ قلوبِهم، وعلمِهم بصدقِ عيسى عليه السلام، واستمرارِ شهادتِهم على نزولِ المائدةِ منَ السَّماءِ، وأكلِهم منها.

مناسبةُ التَّرتيبِ في المعاطيفِ، عَبْرَ سياقِ الآيةِ الكريمةِ:

التَّرتيبُ في اللَّفظِ على وَفْقِ ترتيبِ المعنى، من فصيحِ البيانِ

وأتَت هذه المَعاطيفُ مُرَتَّبَةً تَرتيبًا لَطيفًا، فتعلَّقَ فعلُ الإرادة بها جميعًا على معنى اجتماعِها كلِّها مرتَّبة؛ لتكونَ أوثقَ في التَّعليلِ، وبيانِ السَّببِ، فبدؤوا بما يكونُ بالحواسِّ وذلك أنَّهُم لا يأكلونَ منها إلّا بَعدَ مُعاينةِ نُزولِها، فَيَجتَمِعُ على العلم بها حاسَّةُ الرُّؤيَة وحاسَّةُ الذَّوق باللّسان، فبذلك يَزولُ عَنِ القلب قَلَقُ الاضطِراب، ويَسكُنُ إلى ما عايَنَهُ الإنسانُ وذاقَهُ، وإذا اطمأنَّ القلبُ بعد المعايَنة بالحواسِّ حصلَ العِلمُ الضَّروريُّ بصدق مَن كانَتِ المُعجِزَةُ على

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/107.

يديه؛ إذ جاءَت طِبقَ ما سأل. ولمّا كانتِ الشّهادةُ أمامَ النّاسِ على صدقِ النُّبوَّةِ وتوحيدِ اللّهِ تعالى بصدقِ اللِّسان، وسكونِ القلب عن علمٍ يقينيٍّ، بحيثُ لايختلجُ بالشَّهادةِ ظنٌّ، ولاشكٌّ، ولا وهمٌ، ختموا بها الأفعالَ[1].

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/411، ورضا، تفسير المنار: 7/211.

﴿قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلۡ عَلَيۡنَا مَآئِدَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدٗا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةٗ مِّنكَۖ وَٱرۡزُقۡنَا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ١١٤﴾ [المائدة: 114]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

دعاءُ عيسى بنزول مائدةٍ من السّماء، جاء تلبيةً لطلَبِ الحواريّين

لمّا كان سؤالُ الآياتِ ينافي أدبَ الانقياد والإذعان لأَمرِ اللّهِ المُطلقِ، أخبرَ الحواريّون عيسى عليه السلام بأنَّ مقصودَهم من نزول المائدة زيادةُ الإيمان واليقينِ بصدقِ ما جاء به، فمُناسبةُ الآية مُرتبطةٌ بموضوع الدُّعاء الَّذي فيها، وقد جاء بناءً على طلب الحوارّيين مِن عيسى عليه السلام، الّذي وعَظَهُم أن يتّقوا اللّه إنْ كانوا مؤمنين؛ وذلك من أجل أن "تطمئنَ قلوبُهم بسكونِ الفكرِ، إذا عاينوا هذا المُعجزَ العظيمَ النّازلَ مِنَ السَّماء"[1]، فلمّا اطمأنَّ عيسى عليه السلام إلى مقصودِهم دعا اللّه سبحانه وتعالى لقومه، بأنْ يُنزِل عليهم هذه المائدةَ، فيكونَ وقتُ نزولها عيدًا لتذكّر قُدرَة اللّه تعالى، فحَقَّقَ عيسى عليه السلام بنزول المائدة على قومه، مصلحتين: "مَصلحةَ الدّين بأن تكون آيةً باقيةً، ومصلحةَ الدُّنيا وهي أن تكون رِزقًا"[2]، وعطاءً وافيًا.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱللَّهُمَّ﴾: قيل: معناه: يا اللّه، فأُبدل مِنَ الياء في أوَّله الميمان في آخره، وخُصَّ بدُعاء اللّه، قال الفَرّاء: أَصلُه يا اللّه أُمَّنا بِخَير، فَكثر استِعمالُها فقيل: اللهُمَّ، وتُرِكَتِ الميم مَفتوحَة، فرُكِّبَ تركيبَ (حيَّهلا). وقال الخليل وسيبويه وسائِرُ البَصريّين: معناهُ يا اللّه، والميمُ المُشَدّدَةُ عوضٌ عَن ياء النّداء، والميمِ المَفتوحَةِ لسكونها،

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/411.

(2) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 249.

وسُكونِ الميم قبلها، ولا يُقال: يا اللهُمَّ؛ لِئَلّا يجمعَ بَين البَدَل والمُبدل، والفرق بين اللّه، واللهم: أنَّ اللّه: اسمُ الجلالة، واللهم: نداءٌ المراد به: يا اللّه[1]. وقد عبَّر به القرآنُ الكريم، على نحو قولِه تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ مَن تَشَآءُ﴾ [آل عمران: 26]، وكذلك ورد في كثيرٍ منَ الأحاديث، على نحو:

إن تغفِرِ اللهم تغفرْ جمّا *** وأيُّ عبدٍ لك لا ألَمّا[2]

2) ﴿مَآئِدَةً﴾: قال الزَّجّاجُ: الأَصلُ عِندي في "مائدة"، أنَّها فاعلةٌ؛ مِن ماد يَميدُ، إذا تحرّك، وكأنَّها تميدُ بما عليها. ويُقال: إنَّما سُمّيت مائدةً؛ لأنَّها غياثٌ وعطاءٌ، من قول العَرَب: مادَ فُلانٌ فلانًا يميدُه ميدًا، إذا أحسَن إليه، وأفضلَ عليه، وأنشد:

..... *** إلى أمير المؤمنين المُمتاد[3]

أرادَ الَّذي يميد النّاس؛ أي: يُعطيهم، ويُحسن إليهم، فالمائدة على هذا القَول فاعلةٌ منَ الميد؛ بمعنى: مُعطيةٌ، وأصلُها مَمْيَدة، ميدَ بها صاحبُها؛ أي: أُعطيَها، وتُفضُّل عليه بها. والمائدة: الطَّبق الَّذي عليه الطَّعام[4].

3) ﴿عِيدًا﴾: العيدُ: الرُّجوعُ والعَودُ مرَّةً بعد أُخرى، وهو اسمٌ لِما يَعودُ منَ الاجتماعِ العامّ على وجهٍ مُعتادٍ، إمّا بِعَودِ السَّنَةِ، أو بعَود الأسُبوعِ، أو الشَّهْر، أو نحوِ ذلك، أو هو كلُّ يَومٍ فيه جَمعٌ. واشتِقاقُهُ مِن عادَ، يَعودُ، كأنَّهم عادوا إليه. وقيل: اشتِقاقُهُ مِنَ العادَةِ؛ لأنَّهم اعتادوهُ. والجمعُ: أعيادٌ[5]، وفي المَثل: (عُدْنا والعودُ أحمد)، قال الشّاعر:

جَزَيْنا بَني شَيْبانَ أَمْسِ بِقَرْضِهِمْ *** وجِئْنا بِمِثلِ البَدْءِ والعَوْدُ أَحْمَدُ[6]

4) ﴿وَءَايَةً﴾: الآيَةُ: العَلامَةُ والأمارَةُ، ومنه سُمّيَت الآيةُ مِنَ القُرآنِ بذلك؛ لأنّها علامَةٌ لانقِطاعِ الكَلامِ الّذي قَبلَها والّذي بَعدَها، وتُطلَق بمعنى جَماعَةِ الحُروفِ. ومِن معانيها:

(1) الفرّاء، معاني القرآن: 4/295، وابن قتيبة، تأويل مُشكل القرآن، ص: 295، والزّجّاجيّ، اشتقاق أسماء الله، ص: 32، وابن عبّاد، المحيط: (أله)، والنّوويّ، تحرير ألفاظ التّنبيه، ص: 140.

(2) الرّازيّ، مختار الصّحاح: (لم)، وهو من شعر أُميّة بن أبي الصّلت، كان النّبيّ ﷺ يتمثّل به. التّرمذيّ، السّنن: (3284)

(3) شطر بيت لرؤبة. يُنظر: ابن منظور، لسان العرب: (ميد).

(4) أبو عبيدة، مجاز القرآن: 1/159، والأخفش، معاني القرآن: 1/292، والأزهريّ، تهذيب اللّغة: (مأد)، وابن منظور، لسان العرب: (ميد).

(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن سيده، المحكم، والزّبيدي، تاج العروس: (عود).

(6) الجوهريّ، الصّحاح: (عود).

المُعجِزَةُ، والدَّليلُ، والبُرهانُ، والأَمرُ العَجيبُ، والعِبرَةُ[1]، والمعنى: علامةً وحجّةً منك - يا أللّه - على وحدانيتِك.

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

المصالحُ المترتّبة على دعاءِ عيسى بطلبِ نزولِ المائدة

استجاب عيسى عليه السلام لطَلَب الحواريّين، فدعا اللّه قائلًا: ربَّنا أنزل علينا مائدةَ طعام نتَّخذُ من يوم نُزولها عيدًا نعظِّمُه شكرًا لك، وتكونُ علامةً وبرهانًا على وحدانيّتك، وعلى صدق ما بُعِثتُ به، وارزقنا رزقًا يُعينُنا على عبادتك، وأنت يا ربَّنا خيرُ الرّازقين، وكان طلبُهم نابعًا من إيمان، وغايتُهم من سؤال المائدة الحصولَ على الاطمئنان، وتحصيلَ دواعي الثّبات والإيقان.

الإِيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

عِلَّةُ فَصْلِ قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾:

أَثَرُ الاسْتِئْنَافِ البَيَانِيِّ فِي إِبْرَازِ مُتَابَعَةِ المُتَلَقِّي وَشَوْقِهِ

فُصِلَ قولُ اللّه سُبحانَهُ: ﴿قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ عمّا قبلَهُ؛ لوقوعِه استئنافًا بيانيًّا، فبَيْنَ هذهِ الجملةِ وما قبلَها شبهُ كمال الاتِّصالِ، وذلك أنَّ قولَهُ سُبحانَهُ: ﴿قَالُواْ نُرِيدُ أَن نَّأۡكُلَ مِنۡهَا وَتَطۡمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعۡلَمَ أَن قَدۡ صَدَقۡتَنَا وَنَكُونَ عَلَيۡهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ١١٣﴾ [المائدة: 113] يُثيرُ في نَفْسِ المُتلَقّي سُؤالًا: ما كان ردُّ عيسَى عليه السلام على مقالَتِهم هذه؟ فجاءَ الجوابُ في قَوْلِ اللّه تعالَى: ﴿قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾.

ويجوزُ أن يكونَ استئنافًا نحويًّا؛ لكونِ هذا القَوْلِ مَسوقًا لِبيانِ شُروعِ عيسَى عليه السلام بالدُّعاءِ بَعْدَ تَبيُّنِهِ صِدْقَهُمْ في طِلْبَتِهم.

نُكْتَةُ تَعْرِيفِ المُسْنَدِ إِلَيْهِ بِالعَلَمِيَّةِ فِي قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾:

إِحْضَارُ القَائِلِ فِي ذِهْنِ السَّامِعِ بِاسْمٍ يَخْتَصُّ بِهِ قَصْدًا إِلَى تَمَايُزِ الأَقْوَالِ فِي بَابِ المُحَاوَرَةِ

عُرِّفَ المسنَدُ إليهِ بالعلميَّةِ في قولِ اللّه سُبْحانَهُ: ﴿قَالَ عِيسَى ٱبْنُ

(1) الجوهريّ، الصّحاح، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، والزّبيدي، تاج العروس: (أيا).

مَرۡيَمَ﴾؛ لإحضارِهِ في ذهنِ السّامِعِ ابتداءً باسْمٍ يخْتَصُّ بِهِ، فتَتَمَيَّزُ الأَقْوالُ غايَةَ التَّمايُز في أُسْلوبِ المحاوَرَة الذي سيقَت لَهُ الآياتُ.

سِرُّ الإِبْدَالِ فِي قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ﴾:

﴿ٱبۡنُ﴾ مِن قولِ الله ﷻ: ﴿قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ﴾ بدلٌ مِنْ ﴿عِيسَى﴾، ويَجوزُ أن يكونَ نَعْتًا لَهُ[1]، وجيءَ بهذا التّابِعِ - بدلًا كان أو نَعْتًا - زيادَةً في التَّصريحِ به تحقيقًا لَهُ، ولكونِه عليه السلام لا أبَ لَهُ، وفيه تسفيهٌ لمن أَطْراهُ وغَلا فيهِ أو حطَّ مِنْ قَدْرِهِ[2].

إِبْطَالُ أُلُوهِيَّةِ عِيسَى عليه السلام وَتَسْفِيهُ رَأْيِ مَنْ أَطْرَاهُ وَغَلَا فِيهِ أَوْ تَنَقَّصَهُ وَحَطَّ مِنْ قَدْرِهِ

دلالةُ التَّعبير بوصف الألوهيّة الجامعةِ لكلّ الكمالاتِ في قوله: ﴿ٱللَّهُمَّ﴾:

استهلَّ عيسى عليه السلام دعاءَه لقومه بندائه لله، بقوله: ﴿ٱللَّهُمَّ﴾، وهي في الأصل (يا الله)، فلمّا كثُرَ النِّداء بها حُذف منها حرفُ النِّداء الياءُ، ثمَّ عوِّض عنه بالميم.

امتلاءُ (اللهم) بدلالة أسماء الله الحسنى؛ لأنَّ له خصوصيَّةَ المسمَّى

وعنِ الحسن البصريّ أنّه قال: "(اللهم) مُجتَمَعُ الدُّعاء، وعنِ النَّضر بن شُميل: مَن قال: (اللهم) فقد سألَ الله بجميع أسمائه"[3]، ولا نجدُ عَلَمًا منَ الأعلام في اللُّغة العربيَّة، تُحذف منه (يا) في النِّداء، وتُستبدَل بالميم إلّا في لفظ الجلالة، فنقول: (اللهم)؛ كُلُّ ذلك ليدُلَّ على أنَّ اللَّفظ في ذاته له خصوصيَّةُ المسمَّى، قال تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ﴾ [آل عمران: 26]، وكأنَّ حذفَ حرف النِّداء هنا، يُعلِّمنا أنَّ الله هو وحده المُستدعَى بدون حرف نداء (اللهم)، وفي بعض لغات العربِ يجمعون الياء والميم، مثل قولِ الشّاعر:

إنّي إذا ما حَدَثٌ ألمّا *** أقولُ يا اللهم يا اللهما

إنَّها خصوصيَّةٌ لصاحب الخصوصيَّة الأعلى[4]، أضف إلى

(1) محيي الدّين درويش، إعراب القرآن وبيانه: 3/47.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 6/357.
(3) ابن حجر، فتح الباري: 11/155.
(4) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 3/1396.

ذلك، أنَّنا نستشعرُ في ابتداء الدُّعاء بـ (اللهم) نوعًا منَ الإجلال، لا توجدُ في لفظ (يا الله)، وكأنَّ هذا اللَّفظ تتهيَّأ به نفسُ المؤمن لمناجاة الله في خشوعٍ وتبتُّلٍ، وكمالِ ثقةٍ، في أنَّه ﷻ قريبٌ مِن عبده إذا دعاه، وتجدر الإشارةُ هنا، إلى أنَّه لم يُستعمل في القرآن النِّداءُ بـ (يا الله)؛ لأنَّ (يا) نداءٌ للبعيد، واللهُ قريبٌ مِن عباده، يجيب دعوةَ الدّاعين إذا دعَوه ﷻ.

سِرُّ الجمع بين نداء الألوهيّة والرّبوبيّة، في التَّعبير بقوله: ﴿ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ﴾:

لم يَقُل عيسى عليه السلام: (اللهم رَبّي)، ولم يستعمل (يا) النِّداء: (يا رَبَّنا)؛ وذلك للدّلالة على شعوره بقربه مِنَ الله، بل قال: ﴿ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ﴾؛ أي: راح يُصحِّحُ ما قاله الحواريّون؛ إذ قالوا: ﴿هَلۡ يَسۡتَطِيعُ رَبُّكَ﴾ [المائدة: 112]، فقد دعا بالأُلوهيَّة والرُّبوبيَّة معًا، بقوله: ﴿ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ﴾؛ أي: جمع بين الأُلوهيَّة والرُّبوبيَّة؛ استعطافًا لله ليجيب دعاءهم، ولتأكيد إظهارِ الرَّغبةِ الملحَّةِ في إجابة الدُّعاء، وهذا يدلُّ على كمال الإيمان في قَلب عيسى عليه السلام، مُقارنةً بإيمان هؤلاء الحواريّين[1]، زِد على ذلك، أنَّ في هذا دلالةً على صِحّة نبوَّته عليه السلام، وإشارةً لمواضع الدُّعاء وسياقاته دون التَّفصيل طلبًا للإيجاز، والإيجازُ هو لُبُّ الإعجاز المُتوخَّى في القرآن.

الإلحاحُ في الدُّعاء دليلٌ على الإيمان، باستجابة الرّحيمِ الرّحمنِ

دِلَالَةُ الإِضَافَةِ فِي ﴿رَبَّنَآ﴾:

أُضيفَ الاسْمُ الأَحْسَنُ (الرَّبّ) إلى ضميرِ (نا) الدّالِّ على الجَمْعِ في قَوْلِ اللهِ تَعالَى: ﴿ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ﴾؛ لِكَوْنِ عيسَى عليه السلام يَدْعو اللهَ سُبحانَهُ لِأَجْلِ الحواريّين، وللإِشْعارِ بأنَّ اللهَ ﷻ لَمْ يَقْطَعْ إحسانَهُ إليْهِم فيما مضَى، فحريٌّ أن يُحْسِنَ إليهم في إجابَتِهِ طِلْبَتَهمْ هذهِ.

بَيَانُ عُمُومِ إِحْسَانِ اللهِ تَعَالَى فِي المَاضِي وَالحَاضِرِ

(1) الهلال، تفسير القرآن الثرّيّ: المائدة، آية: 114.

دِلَالَةُ الأَمْرِ فِي قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿رَبَّنَآ أَنزِلۡ عَلَيۡنَا مَآئِدَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾:

الطَّلَبُ الصَّادِرُ مِنَ العِبَادِ إِلَى رَبِّهِمْ سُبْحَانَهُ عَلَى جِهَةِ التَّذَلُّلِ وَالتَّضَرُّعِ يُرَادُ بِهِ الدُّعَاءُ

فعلُ الأمْرِ ﴿أَنزِلۡ﴾ مِن قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿رَبَّنَآ أَنزِلۡ عَلَيۡنَا مَآئِدَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ خرَجَ عَنْ حَقيقتِهِ في إرادَةِ الإلزامِ بِالفِعلِ إلى معْنَى الدُّعاءِ؛ وذلِكَ أنَّ الطَّلَبَ صادِرٌ مِنْ عيسَى عليه السلام - وهوَ عَبْدُ اللّهِ ورسولُهُ - إِلَى ربِّهِ ﷻ، فانْتَفَى مِنْ هذا الفِعْلِ الإلزامُ قَطْعًا، فهو مَجازٌ مُرْسَلٌ مركَّبٌ، بعلاقةِ الإطْلاقِ والتَّقييد؛ إذْ قَدِ اشترَكَ الأمْرُ في حَقيقَتِهِ مع الدُّعاءِ في مطلَقِ الطَّلَبِ، واختلفا في القَيْدِ المُميِّزِ لكلِّ واحدٍ مِنْهُما عَن الآخَرِ.

دلالةُ تقديم شِبْه الجملة: ﴿عَلَيۡنَا﴾ على قوله تعالى: ﴿مَآئِدَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾:

القَصرُ يُفيدُ التّوكيدَ، ويَنفي عنِ الفِكرِ كُلَّ إنكارٍ وشَكٍّ

تقديم شبْهِ الجملة ﴿عَلَيۡنَا﴾ في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَآ أَنزِلۡ عَلَيۡنَا مَآئِدَةٗ﴾ عِلَّتُه إفادةُ التَّخصيص والقَصر؛ أي: أَنزلْ علينا لا على غيرنا، إذ في مقدور اللّه، أن ينزّل المائدة على غيرهم، فيرونها نازلةً، لتقطع دابرَ الإنكار لديهم، ولكنّهم يُحرَمون لذّةَ التّنعّم بما تَميد به تلك المائدةُ، من شهيِّ الطّعام، ولذيذِ المأكولِ، ممّا تلذُّ له الأعينُ، وتَشتهيه الأنفسُ، وذلك ممكنٌ بسبب عنادهم الأصيل، وتطاوُلِهم المُريب، في مختلف مراحل تاريخهم المليءِ بالكُفران، والمُزدحم بالنُّكران، ولكنّ اللّه ما أراد بهم ذلك في هذا المَوقِف؛ لعلمه أنّ قصدهم - يعني الحواريّين - كان توخّيَ التّصديق، لا نكرانَ المنهج الّذي جاء به عيسى الصّديق، ولذلك وردَ تحديدُ جهة المُنزل عليهم، فجاءَت منطبقةً على ما طلبوه، فورد في الآية اللّاحقة قولُه تعالى: ﴿إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيۡكُمۡۖ﴾، كما أنَّ في هذا التَّقديم تشويقًا إلى المؤخَّر الَّذي حقّه التَّقديمُ؛ لأنَّه إذا أُخِّر تبقى النَّفس مُرتقِبةً إيرادَه، ومُتشوّقةً إلى معرفته[1].

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/98.

عِلَّةُ الإسناد المجازيِّ للعيد إلى المائدة، في قولِه تعالى: ﴿تَكُونُ لَنَا عِيدًا﴾:

قولُه تعالى: ﴿تَكُونُ لَنَا عِيدًا﴾ بأن يجعلوا اليومَ الموافِقَ يومَ نزولها من كلِّ سَنة عيدًا، فإسناد العيد للمائدة إسنادٌ مجازيٌّ، وإنَّما العيدُ اليومُ الموافقُ ليوم نزولها[1]؛ وإنَّما أُسند ذلك إلى المائدة؛ لأنَّ شرفَ اليوم مُستعارٌ مِن شَرَفِها[2]، واختيار عيسى عليه السلام يومَ نزول المائدة ليكون عيدًا لأمّته، فيه إشارةٌ إلى "ابتهاج الرّوح بالنِّعمة لا من حيث إنَّها نعمةٌ، بل من حيث إنَّها صادرةٌ عنِ المُنعِم"[3]. وقد ورد في الرّوايات أنّه أظهر بهجتَه بعبوديّته لربّه، وسكب دموعَه الغزار، في مِحراب الخشيةِ للواحد القهّار[4].

ابتهاجُ عيسى عليه السلام بعطاء الله الواسع، وكرمِه الفيّاض

دلالةُ القَصر والاختصاصِ بتقديم الجارِّ والمجرور، في قوله: ﴿لَنَا عِيدًا﴾:

تقديمُ الجارّ والمجرور ﴿لَنَا﴾ على ﴿عِيدًا﴾، يُفيد معنى القَصر والاختصاص، وقوله: ﴿لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا﴾ بدلٌ من قوله: ﴿لَنَا﴾، وقد أفاد تأكيدَ الإحاطة والشُّمول، وفيه طِباقٌ بين الأوَّل والآخر، وكان نزول المائدة يومَ الأحد؛ إذ نَزَلَت عليهم يَومَ الأَحَدِ غُدْوَةً وعَشيَّةً، فلذلك جَعَلوا الأحَدَ عيدًا، فصار ذلك اليومُ عيداً لهم[5]، أو أنَّ: عيداً لنا؛ يعني: حجّة لنا، وآخِرِنا؛ يعني: حجّة لمَن بعدنا[6].

الافتقارُ واللُّجوءُ إلى الله تعالى في الطَّلب، خيرُ ما يمتدُّ إليه السَّببُ

بلاغةُ الاستعارة التَّصريحيَّة الأصليَّة، في قوله تعالى: ﴿عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا﴾:

لقد استُعير لفظُ العيد للسُّرور، وأدخل المشبَّه في المشبَّه به حتَّى

دلالةُ العيد على الفرح والسُّرور، إبرازٌ لجوّ البهجة والحُبورِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/108.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/98.
(3) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 12/109، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/61.
(4) السّمرقنديّ، بحر العلوم: 1/430.
(5) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 6/368.
(6) مكّيّ بن أبي طالب، الهداية إلى بلوغ النّهاية: 3/1933.

صار من جنسه، وأَصبح يُعبِّر عنِ الفَرح والابتهاج بالعيد "والاستعارةُ أبلغُ؛ لأنَّ العادة جرَت في الأعياد بتوفير السُّرور عند الصَّغير والكبير، فتضمَّن مِن معنى السُّرور ما لا تتضمَّنه الحقيقةُ"[1]، وذلك على سبيل الاستعارة التَّصريحيَّةِ الأصليَّةِ، وقال الخليلُ بنُ أحمد: العيد كلُّ يوم مَجمَعٌ، كأنّهم عادوا إليه، وقال ابنُ الأنباريِّ: سمّي العيد عيدًا للعَود مِنَ التّرح إلى الفرح، فهو يومُ سرورٍ للخلق كلِّهم، ألا ترى أنَّ المسجونين لا يطالَبون ولا يعاقَبون، ولا تُصطاد فيه الوحوش والطّيور، ولا ينفذُ الصّبيان إلى المكتب[2].

عودةُ اللّام مع البدل، مجاراةٌ للمُبْدَل منه، في قوله: ﴿تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا﴾:

دلالـــــةُ ذكـــر الطّرفين، وإرادةِ الجميع

وجهُه وقوعُ: ﴿لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا﴾، بدلَ كلٍّ منَ الضّمير (نا) المجرور مَحَلًّا باللّام؛ ولهذا أُعيدتِ اللّام جوازًا مع البدل مجاراةً للمُبدَل منه؛ وهو مفيدٌ للإحاطة والشّمول؛ لأنّ المرادَ: بأوّلنا وآخرنا - جميعًا - على عادة العرب؛ من ذكر طرفي الشّيء، وإرادةِ جميعه[3]، قال النّسفيّ: "﴿لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا﴾: بدل مِن ﴿لَنَا﴾ بتكرير العامل؛ أي: لمَن في زماننا من أهل ديننا، ولمَن يأتي بعدنا، أو يأكل منها آخرُ النّاس، كما يأكل أوّلُهم، أو للمتقدّمين منّا والأتباع"[4]، والمفهوم من ذلك أنَّ هذه المعجزةَ موجّهةٌ لأجيال أُمَّةِ النَّصرانيَّةِ وآخِرها، وهُمُ الَّذينَ خُتِمَتْ بِهِمُ النَّصرانيَّةُ عِندَ البَعثَةِ المُحَمَّديَّةِ، السّلفُ منهم والخلفُ.

قال ابنُ عاشور: "وهذا العيدُ الَّذي ذُكِرَ في هذه الآيةِ غَيرُ مَعروفٍ عِندَ النَّصارى، ولكِنَّهم ذَكَروا أنَّ عيسى عليه السلام أكلَ مَعَ الحَواريّينَ على مائِدَةِ لَيلَةِ عيدِ الفِصحِ، وهي اللَّيلَةُ الَّتي يَعتَقِدونَ أنَّهُ صُلِبَ

(1) العسكريّ، الصّناعتين، ص: 268.
(2) الثّعلبيّ، الكشف والبيان: 4/126.
(3) ابن هشام، أوضح المسالك: 3/371، والأزهريّ، التّصريح: 2/162، والنّجار، ضياء السّالك: 3/212.
(4) النّسفيّ، مدارك التّنزيل: 1/486.

مِن صَباحِها. فلعلَّ مَعنى كَونِها عيدًا أنَّها صُيِّرَتْ يَومَ الفِصحِ عيدًا في المَسيحيَّةِ كما كان عيدًا في اليَهوديَّةِ، فَيَكونُ ذلك قَد صارَ عيدًا باختِلافِ الاعتِبارِ وإنْ كانَ اليَومُ واحدًا؛ لأنَّ المَسيحيّينَ وفَّقوا لأعيادِ اليَهودِ مُناسَباتٍ أُخرى لائِقَةً بالمَسيحيَّةِ إعفاءً على آثارِ اليَهوديَّةِ"[1].

دلالةُ التّعبير بقوله: ﴿لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا﴾، بعد قوله: ﴿تَكُونُ لَنَا عِيدًا﴾:

قولُ اللّه تعالى: ﴿تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا﴾، على القول بأنّها يأكل منها أوّلُنا وآخرنا، تفيد أنّها مائدةٌ واحدةٌ، ولكنّها معجزةٌ تستوعبُ الحاضرَ والقادمَ، من أوّل الآكلين وآخرِهم، وذلك لا يتأتّى إلّا في المعجزاتِ الخوارقِ، قال السّيوطيّ: "يريد أنَّ التّكرار في ﴿لِّأَوَّلِنَا﴾ لرفع التّفاوت بين قوم وقوم؛ يعني: لا تفاوت بين مَن يأكل أوّلاً، وبين مَن يأكل آخراً؛ لإنزال اللّه سبحانه البركةَ فيها، ومثلُه في التّكرير المعنويّ قولُه تعالى: ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿٦٢﴾﴾ [مريم: 62]، يريد الدّيمومةَ، ولا يقصدُ الوقتين المعلومَيْن"[2]، والمأثورُ أنَّ بقاءَ المعجزة في الاحتفال بها معنويٌّ، وليس مادّيًّا، وأنّ العيدَ المذكورَ في الآية، هو الّذي يتجدّد، وهو آثر في الزّمن، مِن بقاء المذاق في الأفواه، عند الألوف مِنَ الّذين أكلوا منَ المائدة فعلًا.

عطاءُ الله رزقٌ لا ينقضي، وبركةٌ لا تنتهي

بَرَاعَةُ الطِّبَاقِ فِي قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا﴾:

في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا﴾ طباقُ إيجابٍ بين ﴿لِّأَوَّلِنَا﴾ و﴿وَءَاخِرِنَا﴾، وفي الجَمْعِ بينَهُما تعميمٌ لجعْلِ نزولِ المائدَةِ عيدًا، وذلك بجمْعِهِ بينَ طرَفَيْنِ؛ فكأنَّ المَعْنَى: تكونُ عيدًا لنا ولجميع مَن يأتي بعْدَنا، إلّا أنَّه اقتَصرَ علَى ذكْرِ الأوَّلِ والآخِرِ؛ لأنَّ غيرَهُما مُنْدَرِجٌ تَحْتَهُما، لِما تقرَّرَ مِنْ أنَّ البَيْنَ مُسْتَحْضَرٌ في الطَّرفَيْنِ.

عُمُومُ جَعْلِ نُزُولِ المَائِدَةِ عِيدًا

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/110.

(2) السّيوطيّ، نواهد الأبكار: 3/319.

دلالةُ التّعبير بقولِه تعالى: ﴿وَءَايَةً مِّنكَۖ﴾:

كلُّ معجزةٍ باهرةٌ، فهي دليلٌ على قدرة الله القاهرة

قوله: ﴿وَءَايَةً مِّنكَۖ﴾؛ يعني: علامة الإعجاز الدّالّة على توحيدك، "وقيل: الّتي تدلّ على صدق أنبيائك، والشّكرِ على ما أنعمت به علينا من إجابتك، وقيل: ارزقنا ذلك من عندك"[1]، وكونُها آية؛ هي إشارةٌ إلى كون هذه المائدة دليلًا لأصحاب النَّظر والاستدلال.

نُكْتَةُ تَنْكِيرِ ﴿وَءَايَةً﴾ مِنْ قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿وَءَايَةً مِّنكَۖ﴾:

المُعْجِزَاتُ السَّمَاوِيَّةُ أَعْظَمُ وَأَعْجَبُ

نُكِّرت لفظُ ﴿وَءَايَةً﴾ مِنْ قَوْلِ اللّهِ ﷻ: ﴿تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَۖ﴾؛ لإرادَةِ التَّعظيم، وذلكَ لِكَوْنِ المعْجِزاتِ التي تقدَّمَ ذِكْرُها كانت معجزاتٍ أرضيَّةً، وهذه الآيةُ معجِزَةٌ سماويَّةٌ، فكانَتْ أعجبَ وأعظمَ[2].

وزادَ لفظَ ﴿وَءَايَةً﴾ دلالةً على التَّعظيم وصفُه بـ ﴿مِّنكَۖ﴾، وذلك أنَّ الجارَّ والمجرورَ متعلِّقٌ بمحذوفٍ نعتٌ لـ ﴿وَءَايَةً﴾[3]، فدلَّ مجموعُ هذا على أنَّ الآيةَ اجتَمَع فيها التَّعظيمُ الذّاتيُّ المستفادُ مِنَ التَّنكير، والتَّعظيمُ الإضافيُّ المستفادُ مِنَ الجارِّ والمجرورِ ﴿مِّنكَۖ﴾.

دِلَالَةُ الأَمْرِ فِي قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿وَٱرۡزُقۡنَا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾:

اشْتِرَاكُ الأَمْرِ فِي حَقِيقَتِهِ مَعَ الدُّعَاءِ فِي الدِّلَالَةِ عَلَى مُطْلَقِ الطَّلَبِ

فعلُ الأمْرِ ﴿وَٱرۡزُقۡنَا﴾ مِن قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿وَٱرۡزُقۡنَا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ خرَجَ عَنْ أصْلِهِ في إرادَةِ الإيجابِ والإلزامِ بِالفِعلِ إلى معْنًى آخرَ وهوَ الدُّعاءُ؛ وذلِكَ أنَّ هذا الطَّلَبَ صادِرٌ مِنَ العَبْدِ - وهوَ عيسَى عليه السلام - إلَى ربِّهِ ﷻ، فانْتَفَتْ دِلالَةُ الإيجابِ والإلْزامِ قَطْعًا، فكانَ هذا مَجازًا مُرْسَلًا مركَّبًا، بعلاقةِ الإطْلاقِ والتَّقييد؛ وذلك لاشْتِراكِ الأمْرِ في حَقيقَتِهِ مع الدُّعاءِ في الدِّلالَةِ علَى مُطْلَقِ الطَّلَبِ، وإنَّما الخِلافُ بينَهُما في القَيْدِ المُميِّزِ لكلِّ واحدٍ مِنْهُما عَن الآخَرِ.

(1) الماورديّ، النّكت والعيون: 2/85.
(2) الرازي، مفاتيح الغيب: 12/463.
(3) محمود صافي، الجدول في إعراب القرآن الكريم: 7/63.

بَرَاعَةُ أُسْلُوبِ التَّدَلِّي:

في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ وَٱرْزُقْنَا﴾ أسلوبُ تَدَلٍّ؛ وذلك أنَّه أشارَ بالعيد إلى ابْتهاجِ الرّوحِ بالنِّعْمَةِ، لا مِنْ جِهَةِ كونِها نعمةً، بل مِنْ جِهَةِ صدورِها مِنَ المُنْعِم، وفي ذِكْرِ الآيةِ - ﴿وَءَايَةً مِّنكَ﴾ - إشارَةٌ إلى كونِ هذه المائِدَةِ دليلًا لأصحابِ الاستِدْلالِ والنَّظرِ، وفي طلَبِ عُمومِ الرِّزْقِ - ﴿وَٱرْزُقْنَا﴾ - إيماءٌ إلى حصَّةِ النَّفْسِ، فيكون قَد ابتدأ بالأشْرَفِ منتقِلًا إلَى ما دونَهُ[1].

مِنْ أَعْظَمِ المِنَنِ ابْتِهَاجُ الرُّوحِ بِالنِّعَمِ مِنْ جِهَةِ صُدُورِهَا مِنَ المُنْعِمِ

دلالةُ الفاصلة ومناسبتُها، في قوله تعالى: ﴿وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾:

نلمح في هذه الفاصلة انتهاءَ الآية بفاصلة نونيّة، هي قولُه تعالى: ﴿وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾، وهي تتناسب مع فواصل الآيات قبلها: ﴿مُّؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾﴾ [المائدة: 112]، و﴿ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿١١٣﴾﴾ [المائدة: 113]، وفاصلة الآية بعدها: ﴿ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، وهو ما يحفظُ للسّياق رتابةً تكسو السّياقَ مسحةً منَ السّكون والخشوع المؤثّرِ في الوجدان، ثمّ إنّ إيثار عيسى عليه السلام للفعل: ﴿وَٱرْزُقْنَا﴾ دون سواه، من مثل: (وأعطنا) أو (وامنحنا)؛ وذلكَ لأنَّ الرِّزق عطاء اللّه ﷻ الحلالُ الَّذي يجري على الإدرار[2]، وهو نوعان: ظاهرٌ للأبدان، كالأقوات ونحوِها، وباطنٌ للقُلوب والنُّفوس، كالإيمان والمعارف والعلوم[3]، وذلك ما يختصّ اللّه بعطائه، ولا أحدَ ينازعُه فيه.

اللّه تعالى وحده مصدرُ الأرزاق، ولا أحدَ سواه

ملمحُ التّصدير البلاغيّ في قوله تعالى: ﴿وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾:

يلاحظُ في هذه الآية قولُه تعالى: ﴿وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾، فيه ما يسمَّى بالتّصدير، أو ردَّ العَجُز على الصّدر، والاسمُ الأوّل أَوْلى؛

الرّزقُ في اللّوح مكتوبٌ في الأزل، ولكنّ الإنسانَ مخلوقٌ مِن عجل

(1) الرازي، مفاتيح الغيب: 12/464.
(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 160.
(3) ابن منظور، لسان العرب: (رزق).

لأنّه مطابق لمسمّاه، وهو بابٌ في البلاغة مذكورٌ، وتستعمله العربُ في الشّعر والنّثر، وهو في النّثر: "أن يجعل أحد اللّفظين المكرّرين؛ أعني: المتّفقين في اللّفظ والمعنى، أو المتجانسين، وهما المتشابهان في اللّفظ دون المعنى، أو الملحقين بالمتجانسين، وهما اللّفظان اللّذان يجمعهما الاشتقاق أو شبهه، في أوّل الفِقرة واللّفظُ الآخر في آخرها، ومنه أن يكون اللّفظان مكرّرين، كقوله تعالى: ﴿وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾ [الأحزاب: 37]، ومن ذلك قول الشّاعر:

سَريعٌ إلى ابنِ العَمِّ يَلطِمُ وجهَه *** وليسَ إلى داعي النَّدى بِسَريع[1].

والتَّوافق هنا بين الفِعل: ﴿وَٱرْزُقْنَا﴾ ولفظ: ﴿ٱلرَّٰزِقِينَ﴾، وهو ما يُسمَّى بالتَّصدير، قد أضفى على جوِّ الدُّعاءِ رِقَّةً وعذوبةً، وأكَّد حاجةَ عيسى عليه السلام إلى كرَم اللّه تعالى، وإجابةِ دعائه.

دلالةُ التّذييل الجاري مَجرَى التّعليل، في قوله تعالى: ﴿وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾:

اجتمعت جملةُ مؤكّدات؛ لتقرير معنى التّفرّد في الصّفة

خُتِم الدُّعاءُ بما يُؤكِّد مضمونَ طلبه، فقال: ﴿وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾، وهذا الختامُ تذييلٌ جارٍ مجرى التَّعليل؛ أي: أنت خيرُ مَن يرزقُ؛ لأنَّك خالقُ الأرزاق، ومُعطيها بلا عوض، ويبرز هذا التَّأكيدُ من خلال ضمير الفَصل ﴿وَأَنتَ﴾، والقَصرِ المُستفادِ من ﴿خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾، إضافة إلى صيغة التَّفضيل في ﴿خَيْرُ﴾، والمبالغة المستوحاة من دخول (أل) في قوله تعالى: ﴿ٱلرَّٰزِقِينَ﴾[2]، وكلُّ ذلك يدلُّ على أنَّ اجتماع جملة المؤكِّدات، مِن شأنه أن يُبرزَ معانيَ التّفرّد، في صفة اللّه المذكورة في السّياق، وهي قوله: ﴿خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾.

ملامحُ التّشابه في آيتي (المائدة) و(المؤمنون):

تأكيدُ أنَّ الله خيرُ الرّازقين

هنالك تشابه بين قوله تعالى: ﴿وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ۝٧٢﴾ [المؤمنون: 72]، ولنا أن نسأل: لمَ خُصَّت

(1) أحمد مطلوب، معجم المصطلحات البلاغيّة وتطوّرها: (التّصدير).

(2) السّلميّ، دعاء الأنبياء في القرآن الكريم، ص: 112.

كلُّ آية بما فيها منَ المبتدأ بالضّمير ﴿وَأَنتَ﴾ في الأولى، والضّمير (هو) في الثّانية؟ ونقول: إنَّ آية المائدة بُدِئت بقوله تعالى: ﴿قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلۡ عَلَيۡنَا مَآئِدَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾؛ فلمّا كان عيسى عليه السلام يدعو اللّه؛ ناسبه قوله: ﴿وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾، أمّا آية المؤمنين فقد بُدِئت بقوله تعالى: ﴿أَمۡ تَسۡـَٔلُهُمۡ خَرۡجٗا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيۡرٞۖ﴾ [المؤمنون: 72]؛ فلمّا كان يتحدّث عن نفسه ناسبه قولُه تعالى: ﴿وَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ٧٢﴾ [المؤمنون: 72].

ملامح التّشابه بين ﴿خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾، و﴿خَيۡرُ ٱلۡفَٰتِحِينَ﴾، و﴿ٱلۡوَٰرِثِينَ﴾، و﴿ٱلۡمُنزِلِينَ﴾:

نجد التّشابه في الآيات التّالية: قال تعالى: ﴿وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾، وقال تعالى: ﴿وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡفَٰتِحِينَ ٨٩﴾ [الأعراف: 89]، وقال تعالى: ﴿وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡوَٰرِثِينَ ٨٩﴾ [الأنبياء: 89]، وقال تعالى: ﴿وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡمُنزِلِينَ ٢٩﴾ [المؤمنون: 29]، ونسأل: لمَ خُصَّت كلُّ آيةٍ بما فيها منَ المبتدأ؟ والجواب على ذلك: أنَّ آية المائدة تقدَّم فيها قولُه تعالى: ﴿وَٱرۡزُقۡنَا﴾؛ فلمّا طلبَ عيسى عليه السلام منَ اللّه الرِّزقَ ناسبه قولُه: ﴿وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾، أمّا آية الأعراف فقد تقدَّم فيها قولُه: ﴿رَبَّنَا ٱفۡتَحۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ قَوۡمِنَا بِٱلۡحَقِّ﴾ [الأعراف: 89]؛ فلمّا طَلب شعيبُ عليه السلام من ربِّ العزَّة الفتحَ بينه وبين قومه ناسبه قولُه تعالى: ﴿وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡفَٰتِحِينَ ٨٩﴾ [الأعراف: 89]، وأمّا آية الأنبياء فقد بُدئت بقوله: ﴿وَزَكَرِيَّآ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرۡنِي فَرۡدٗا﴾ [الأنبياء: 89]؛ فلمّا كان المرادُ من ذلك أن يجعل لزكريا عليه السلام مَن يرثه مِن ميراث النُّبوَّة ناسبه قولُه تعالى: ﴿وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡوَٰرِثِينَ ٨٩﴾ [الأنبياء: 89]، وأمّا آيةُ (المؤمنون) فقد تقدَّم فيها قولُه: ﴿وَقُل رَّبِّ أَنزِلۡنِي مُنزَلٗا مُّبَارَكٗا﴾ [المؤمنون: 29]؛ فلمّا طلَب نوحٌ عليه السلام من ربِّ العِزَّة أن يُنزله خيرَ مُنزل ناسبه قولُه: ﴿وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡمُنزِلِينَ ٢٩﴾ [المؤمنون: 29]، وهذا منَ الإعجاز في تناسب القرآن، واتّساقِ آياته، بما لا طاقةَ للبشر به؛ لأنّه كلامُ اللّه الّذي أعجز البشرَ، قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَۚ وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا ٨٢﴾ [النّساء: 82].

﴿قَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيۡكُمۡۖ فَمَن يَكۡفُرۡ بَعۡدُ مِنكُمۡ فَإِنِّيٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابٗا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدٗا مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١١٥﴾ [المائدة: 115]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

إجابةُ طلبِ عيسى في المائدة، والاستجابةُ المشروطةُ بترك دواعي الكفر

حينما طلب عيسى عليه السلام من ربّه أن يُنزّل عليه وعلى أصفيائه مائدةَ طعامٍ منَ السّماء، تكونُ عيدًا مشهودًا، وآيةً باهرةً، ورزقًا ظاهرًا لهم، جاءَت هذه الآية لتفصِّل على طريقة المحاورة، استجابةَ اللّه له، فقال: إنّي مُنزلها عليكم الآن، فكانتِ الآية استجابةً مشروطةً، وليسَت بوعد[1]، فحقَّقَ اللّه لهم وعدَه، فأنزلها عليهم.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿قَالَ﴾: القَولُ، مَصدَر قالَ، ومَعناهُ: الكَلامُ على التَّرتيبِ، أو كُلُّ لَفظٍ نَطَقَ به اللِّسانُ، سواء كان مُفيدًا أو لم يَكُن[2]، والقولُ: واحد الأقوال، وجمع الأقوال: أقاويل وأقاول بحذف الياء، وأصله مصدر، قال تعالى: ﴿قَوۡلَ ٱلۡحَقِّ ٱلَّذِي فِيهِ يَمۡتَرُونَ ٣٤﴾ [مريم: 34][3]، وقول اللّه وحيٌ لعباده، ومنه ما ورد في هذه الآية: ﴿قَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيۡكُمۡۖ﴾، فهو وحي اللّه لعيسى بإجابة دعائه، وكلُّ قول منَ اللّه، فهو حقٌّ لاريبَ فيه، وعدلٌ لا جورَ فيه، قال تعالى: ﴿وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلٗا ١٢٢﴾ [النّساء: 122]، وقال: ﴿وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثٗا ٨٧﴾ [النّساء: 87].

2) ﴿مُنَزِّلُهَا﴾: التَّنزيلُ: نَقلُ الشَّيءِ من أَعلَى إلى أسفَل، يُقال: نَزَلَ الشَّيءُ، يَنزل، نُزولًا؛ أي: هَبَطَ وانحَدَرَ مِن عُلوّ إلى سُفل. وأَصلُه: الانحِطاطُ مِن عُلوّ. والتَّنزيلُ أيضًا: التَّرتيب، وهو: إنزال

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/111.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والجوهريّ، الصّحاح، وابن منظور، لسان العرب: (قول).
(3) نشوان الحِميريّ، شمس العلوم: (القول).

الشَّيء مُرتَّبًا شيئًا بعدَ شيءٍ[1]، قال الرّاغب في معنى التّنزيل: "ما وصل منَ الملأ الأعلى بلا واسطة، تعديتُه بـ (على) المختصّ بالعلوّ أَولى، وما لم يكن كذلك، تعديتُه بـ (إلى) المختصّ بالاتّصال أَولى"[2]، ومعنى الآية: مُنَزِّلٌ هذه المائدة الّتي طلبتم إنزالَها.

3) ﴿يَكۡفُرۡ﴾: الكُفرُ: نَقيضُ الإيمانِ، ويأتي الكُفرُ بمعنى الإنكارِ والجُحودِ، وأصلُ الكُفرِ: السَّترُ والتَّغطيَةُ، يُقال: كَفَرَ الشَّيءَ؛ أي: سَتَرَهُ وغَطّاهُ، ومنه سُمّيَ غَيرُ المُؤمِنِ كافِرًا؛ لأنَّه غطَّى الحقَّ والإيمانَ[3]، "والكفر أربعةُ أنحاء: كفرُ الجحود، مع معرفة القلب، كقوله ﷻ: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ أَنفُسُهُمۡ﴾ [النّمل: 14]، وكفرُ المعاندة: وهو أن يعرفَ بقلبه، ويأبى بلسانه، كقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦۚ﴾ [البقرة: 89]، وكفرُ النِّفاق: وهو أن يؤمنَ بلسانه والقلبُ كافرٌ، قال تعالى: ﴿يَقُولُونَ بِأَلۡسِنَتِهِم مَّا لَيۡسَ فِي قُلُوبِهِمۡۚ﴾ [الفتح: 11]، وكفرُ الإنكار: وهو كفر القلب واللّسان، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَمَّآ أُنذِرُواْ مُعۡرِضُونَ ۝٣﴾ [الأحقاف: 3]"[4].

والمعنى: يجحد منكم رسالتي إليه، وينكرُ نبوّةَ نبيّي عيسى عليه السلام، ويخالفُ طاعتي.

4) ﴿ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾: العالَم: هو ما يُعلَمُ به الشَّيءُ. ويأتي بمعنى الأنام، والأنامُ: ما على ظَهرِ الأرضِ مِن جميعِ الخَلْقِ. والجَمع: العَوالِم. والعالَمون: أصنافُ الخَلْقِ، سُمّي بذلك؛ لاجتِماعِهِم، وقيل: العالَم هو ما احتَواهُ الفَلَك، وقيل: هو مُختَصٌّ بِمَن يَعقِل مِنَ الإنسِ، والجِنِّ، والمَلائِكة، والشَّياطين[5]، "وذلك أنَّ كُلَّ جِنسٍ مِنَ الخَلقِ فهو في نَفسِهِ مَعْلَمٌ وعَلَمٌ. وقال قَومٌ: العالَمُ سُمّيَ لاجتِماعِهِ. قال اللّهُ تعالى: ﴿وَٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٤٥﴾ [الأنعام: 45]، قالوا: الخَلائِقُ أجمَعونَ. وأنشَدوا:

ما إنْ رَأَيْتُ ولا سَمِعْـ *** ـتُ بِمِثلِهِمْ في العالَمينا"[6]

والمعنى: عالَمي زمانهم.

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (نزل)، والفيروزابادي، بصائر ذوي التّمييز: 5/40، والزّبيديّ، تاج العروس: (نزل).
(2) الزَّبيديّ، تاج العروس: (نزل).
(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، ولسان العرب: (كفر)، والكفويّ، الكلّيّات، ص: 763.
(4) الخليل، العين: (كفر).
(5) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن سيده، المحكم، والفيّوميّ، المصباح المنير: (علم).
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (علم).

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

استجابة الله لعيسى، بالإنزال المشروط للمائدة، وأنّه لا عذر بعد ذلك

استجاب الله دعاء عيسى عليه السلام، فأخبره بأنَّه مُنزِّل المائدة عليهم، لكنْ مَن كفَرَ بعد إنزالِ هذه الآيةِ الباهرةِ، فإنَّه تعالى سيُعذِّبُه عذابًا شديدًا، لا يُعذِّبُه أحدًا من عالَمي زمانهم؛ لأنَّه شاهدَ الآيةَ الباهرةَ، فكان كُفرُه كُفرَ عِناد، وحقَّقَ الله لهم وعده، فأنزلها عليهم[1]، ولم يبقَ بعد إنزال المائدة، وهي دليلٌ حسّيٌّ على صدق نبيِّهم عذرٌ لمَن يكفر أو يستهزئُ بآيات الله، وأدلّتِه الدّالّةِ على وجودِهِ وقدرتِهِ[2].

الإِيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

عِلَّةُ فَصْلِ قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿قَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ﴾ عَمَّا قَبْلَهُ:

أثَرُ الاسْتِئْنَافِ البَيَانِيِّ فِي إِبْرَازِ مُتَابَعَةِ المُتَلَقِّي وَشَوْقِهِ

فُصِلَ قولُ الله ﷻ: ﴿قَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ﴾ عمّا قبلُ؛ لوقوعِهِ استئنافًا بيانيًّا، فقولُهُ سُبحانَهُ: ﴿قَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ﴾ وقعَ جوابًا عن سؤالٍ يُفْهَمُ ممّا قبلُ، وذلك أنَّ قولَهُ تعالَى: ﴿قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ يبعَثُ في نفسِ السّامعِ سؤالًا، وهو: لقد دَعا عيسَى عليه السلام وألحَّ وتضرَّعَ، فبِمَ أجابَهُ اللهُ تعالَى؟ فجاء الجوابُ في قَوْلِهِ تعالَى: ﴿قَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ﴾.

دلالةُ ذكر لفظِ الجلالة ﴿ٱللَّهُ﴾ في قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱللَّهُ﴾:

لفظُ الجلالة (الله) علَمٌ على ذاته العليَّة المُستحقَّةِ لجميع المحامد الرّضيّة

لفظ الجلالة (الله) عَلَمٌ لذاته العليَّة، مُستجمِعٌ لمعاني جميع أوصافه الكاملة، وأوصافه الشَّريفة، ما عُلم منها وما لم يُعلم، ولمّا كان الوحي موصولًا بين عيسى وربّه، وهو: ﴿رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ [النّساء: 171]، وكانتِ المعجزةُ المطلوبة تحدّيًا لقدرة الله العليا، كان منَ المعقول أن يكون القولُ منَ الله مباشرةً، لا من

(1) جماعة من علماء التّفسير، المختصر في تفسير القرآن الكريم، ص: 127.
(2) الزّحيلّي، التّفسير الوسيط: 1/519.

غيره؛ للتّدليل على عظيم القُدرة، وأنّه لا يُعجزه شيءٌ في الأرض ولا في السّماء.

دلالةُ الاستئناف، وورودُ الإجابة بصيغةِ التّفعيل، في قوله: ﴿إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ﴾:

وعدُ الله بتنزيل المائدةِ حقٌّ لا ارتيابَ فيه، وهو لا يخلفُ الميعادَ

جملةُ: ﴿إِنِّي مُنَزِّلُهَا﴾ في محلّ نصبٍ مقولِ القول، استئنافٌ للكلام، إذ بعد إلحاح عيسى بالدّعاء الخاشع والضّراعة المتبتّلة للّه تعالى، وردتِ الإجابةُ بصيغة التّفعيل ﴿مُنَزِّلُهَا﴾، وجاء أسلوبُ التّوكيد في السّياق؛ "ليرفعَ أيَّ احتمال للشّكّ عند أقلّ المؤمنين إيمانًا باللّه، بأنّ المائدة لم تنزلْ، فكيف يقعُ لعقل عاقل أنّ كلمةَ اللّه لا تنفّذ، وأنّ قضاءَه لا يمضي؟[1]، وهو الصَّحيح - الَّذي عليه الأكثَرونَ - أنَّها مُنزَلَةٌ؛ لأنّ اللّه تعالى لا يعدُ شَيئًا، ثمَّ يُخلِفُ، وقد قالَ: ﴿إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ﴾، ويكون عدمُ ذكرها في الأناجيل الّتي بأيديهم، منَ الحظّ الّذي ذُكِّروا به فنسوه، أو أنّه لم يُذكَر في الإنجيل أصلًا، وإنّما ذلك كان متوارثًا بينهم، ينقله الخلفُ عنِ السّلف، فاكتفى اللّه بذلك عن ذكره في الإنجيل، ويدلُّ على هذا المعنى قولُه: ﴿وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّٰهِدِينَ﴾. وقال الحسن ومُجاهد: إنّ المائِدَةَ لم تنزلْ أصلًا، فإنَّ اللّه تعالى لمّا أوعد على كفرهم بعد نزول المائِدَة؛ خافوا أن يكفر بَعضُهم؛ فاستعفوا عَن إنزال المائِدَة؛ فعلى هذا تَقديرُ قَوله: ﴿إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ﴾؛ يعني: إن سألتُم، إلّا أنّهم استعفوا فَلم ينزل[2].

نُكْتَةُ التَّأْكيدِ في قَوْلِ اللهِ تَعالَى: ﴿قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ﴾:

تَحْقِيقُ اسْتِجَابَةِ اللهِ تَعَالَى بِتَنْزِيلِ المَائِدَةِ

أُكِّدَتِ الجُملَةُ ﴿إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ﴾ تحقيقًا لِاسْتِجابَةِ اللّه تَعالَى بِتَنْزيلِ المائِدَةِ، ولأنَّ ظاهرَ سؤالِهم مِنَ الاستفهامِ عنِ الاستطاعَةِ

(1) الخطيب، التّفسير القرآنّي للقرآن: 4/80.

(2) السّمعانّي، تفسير القرآن: 2/80، والسّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن: 1/249.

- ﴿هَلۡ يَسۡتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيۡنَا مَآئِدَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِۖ﴾ - يوهِمُ اضْطِرابَهُمْ في الاعتقادِ، فكان الأَنْسَبُ تقويةَ الجملةِ[1].

سِرُّ التَّعْبِيرِ بِالْمُسْنَدِ اسْمًا فِي قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿قَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيۡكُمۡۖ﴾:

الإعْلَامُ بِأَنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ مُنْجِزٌ وَعْدَهُ بِالِاسْتِجَابَةِ

جيءَ بالمسنَدِ - ﴿مُنَزِّلُهَا﴾ - اسْمًا في قولِ اللهِ ﷻ: ﴿قَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيۡكُمۡۖ﴾ إيذانًا بأنَّهُ سُبحانَهُ مُنجِزٌ وعْدَهُ بالاستجابَةِ، وتأكيدًا لهذا التَّنزيلِ وإشعارًا بالِاسْتِمْرارِ[2].

دلالةُ الظَّرفِ المقطوعِ عنِ الإضافة، في قوله تعالى: ﴿بَعۡدُ مِنكُمۡ﴾:

الظَّرفُ وإنْ قُطِعَ عنِ الإضافةِ لفظًا، فإنَّه لم يُقطَعِ عنها معنًى

قوله: ﴿بَعۡدُ﴾، ظرفٌ للزّمان مقطوعٌ عنِ الإضافة، وقد بقي المضاف إليه في النّيّة، والتّقديرُ: أي: مِن بعد نزول المائدة، ومثلُه في القرآن قولُه تعالى: ﴿لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ﴾ [الرّوم: 4]؛ أي: مِن قبْلِ الغلبة ومِن بعدها، فإنْ قُطع عنِ الإضافة لفظًا ومعنًى كان معربًا، نحو: (جئتُ بعْدًا)، ومنه قولُ الشّاعر:

فَساغَ لِيَ الشَّرابُ وكُنتُ قَبلًا *** أكادُ أَغَصُّ بِالماءِ الفُراتِ[3].

وحيث إنَّ المراد هنا بعديّةٌ معيّنةٌ، محدّدةٌ بزمانٍ ما بعد إنزال المائدة، عيّن ذلك بالإضافة، أو بحذف المضاف إليه، وبناءُ (بعدُ) على الضّمِّ، نحو قولنا: (جئتك بعدُ أو مِن بعدُ)، فالظّرف هنا وإنْ قُطع عنِ الإضافة لفظًا لم يُقطعْ عنها معنى، والبعديّةُ هنا قُصِد بها الزّمانُ المعيَّن، ولم يُقصَد بها إلى التّنكير والإبهام[4].

العِلَّةُ من تعدُّد التَّأكيدات في قوله تعالى: ﴿فَإِنِّيٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابٗا﴾:

التَّوكيدُ اللَّفظيّ يُفيدُ تقريرَ المؤكَّد

أكَّد اللّه تعالى في الآية الكريمة عذابَه للكافر، بآياته بعد

(1) البقاعي، نظم الدرر: 6/358، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 7/111.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 4/59.
(3) صافي، الجدول: 7/67.
(4) صافي، الجدول: 7/67.

ظُهورها، وقيام الأدلَّة على صِحَّتها بمُؤكِّدات، وهي: حرفُ (إنّ) في قوله: ﴿فَإِنِّيٓ أُعَذِّبُهُۥ﴾، والمصدرُ في قوله: ﴿أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا﴾، إذِ المفعول المُطلَق هنا؛ لتأكيد وقوع الفِعل، وهو العذاب، ووصفُ هذا العذاب بأنَّه لا يُعذَّبُ مثلَه أحدٌ منَ العالَمين، وهذه المؤكِّدات لوقوعِ العذابِ على الكافر بآيات الله بعد وضوحها، مِن أسبابه: أنَّ الكُفرَ بعد إجابةِ ما طلبوه، وبعدَ رؤيته ومشاهدته، وبعدَ قيام الأدلَّةِ على وحدانيةِ الله، وكمالِ قدرته، وبعد ظُهورِ البراهينِ الدّالَّةِ على صِدقِ رسولِه، فالكفرُ بعد كلِّ ذلك، يكون سببُه الجُحودَ والعِنادَ والحسَدَ.

والجاحدُ والمعاندُ والحاسدُ، يستحقّون أشدَّ العذابِ، وأعظمَ العِقابِ[1].

دلالةُ اجتماع (إنّ) وخبرِها، في قوله تعالى: ﴿إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ﴾:

في تصديرِ الجُملةِ الكريمة بلفظ التَّحقيق (إنّ) المُتضمِّنِ نونَ الإفراد؛ للدَّلالة على الوحدانيّة، وجَعلُ خبره اسمًا، وهو قوله: (مُنَزِّل)، تحقيقٌ للوَعد، وإيذانٌ بأنَّ الله تعالى مُنجِزٌ له لا محالةَ، مِن غير صارفٍ يُثنيه، ولا مانعٍ يُلويه[2]، ومنَ الملاحظ أنَّ الله تعالى لم يقُل: (إنّي سأنزلها عليكم)، بل قال: ﴿إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ﴾، مُعبِّرًا باسم الفاعل، الثّابت الدّائم الفِعل، وهو الَّذي يُسمّيه الكوفيّون الفِعلَ الدّائمَ؛ أي: هي واقعةٌ يقينًا عليكم.

وعدُ الله مُنجَزٌ لا محالةَ، طال الزّمنُ أو قصُرَ

سرُّ تَكرارِ (حرف العَين)[3] في الآية الكريمة، وأثرُه في تلاؤم الألفاظ:

يُلحظُ في الآية الكريمة تَكرارُ حرف العين ستَّ مرّات، ومع ذلك

صوتُ الحرف في لغة العرب صورةٌ عن معناه

(1) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 4/342.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السَّليم: 3/98، والآلوسّي، روح المعاني: 4/59.

(3) قال تقيُّ الدّين الهلاّلي: "حرفُ العين خاصٌّ بالشّعوب السّاميّة الّتي خرجَت من جزيرة العرب، ولا يوجد عند غيرهم، فالشّعوب الّتي ليس في لغتها عين، كالأوروبيّين مثلًا، لا يستطيع الشّخص الّذي لم يسمع العين، ولم يتدرّب عليها مدّة طويلة، لا يستطيع أن ينطق بها أبدًا، إلّا إذا خالط شعبًا ساميًّا كالعربِ، والسِّريانيّينَ، والآشوريّينَ، والعبرانيّينَ، والقبطِ، والبربرِ، مدّة طويلة، وقد يخالطهم زمانًا طويلًا، ولا يستطيع أن ينطقَ بها". الهلاليّ، حديث مع زائر كريم، ص: 24.

فإنَّ القارئ لا يحسّ بصُعوبة النُّطق به، أوِ الانزعاج مِن سماعه؛ بل يشعرُ أنَّ تكراره له وظيفةٌ خاصَّة تنسجمُ مع موضوع الآية، وذلك أنَّ صوت العين يتحقَّق فيه صورةُ العذاب، وتكرارُه يُضفي على السّياق انسجامًا رائعًا من حيث رصفُه وتآلفُه مع غيره في السّياق. وهذه الكلمات ﴿عَلَيۡكُمۡۖ﴾ ﴿بَعۡدُ﴾ ﴿أُعَذِّبُهُۥ﴾ ﴿عَذَابًا﴾ ﴿أُعَذِّبُهُۥ﴾ ﴿ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾.

عِلَّةُ التَّعبير بصيغة التَّكثير، في قوله تعالى: ﴿إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيۡكُمۡۖ﴾:

إنزالُ المائدة، إظهارٌ للُطف الله وإحسانه، وتأكيدٌ لفضله وامتنانه

عِلَّة التَّعبير عنِ الجوابِ بصيغة التَّفعيل ﴿مُنَزِّلُهَا﴾، المُنْبِئَة عنِ التَّكثيرِ، مع كونِ الدُّعاءِ منه عليه السلام بصيغة الإفعال ﴿أَنزِلۡ عَلَيۡنَا﴾؛ لإظهارِ كمال اللُّطفِ والإحسانِ، مع ما فيه مِن مراعاةِ ما وقَع في عِبارة السّائلين[1]، إضافةً إلى ذلك أنَّ التّعبير بـ ﴿عَلَيۡكُمۡۖ﴾؛ يعني تحوُّلَ الخطاب من عيسى عليه السلام إليهم؛ وبذلك صار التفاتًا في الخطاب؛ لأنَّ اللّه تعالى سيأخذُ عليهم عهدًا مباشرًا، وليس بواسطة عيسى عليه السلام.

توجيهُ القراءة في قولِه تعالى: ﴿إِنِّي مُنَزِّلُهَا﴾، يفسّحُ المعنى، وينوّعُ الدّلالةَ:

تنوّعُ القراءات القرآنيّة استيعابٌ للّسان، وإبرازٌ للبيان

في قوله تعالى: ﴿مُنَزِّلُهَا﴾ قراءتان متواتران: إحداهما: ﴿مُنَزِّلُهَا﴾ بتشديد الزّاي - منَ التَّنزيل، وهي تفيد التَّكثيرَ أو التَّدريج، كما تُنبئُ عن ذلك صيغةُ التَّفعيل، وبهذه القِراءة قرأ نافع وابن عامر وعاصم وأبو جعفر، وقرأ الباقون ﴿مُنزِلُهَا﴾ بكسر الزّاي - منَ الإنزال المفيد لنزولها دفعة واحدة[2]، و"الجمهور أنّها نزلَت، وهو الّذي اختاره ابن جرير، قال: لأنّ اللّه تعالى أخبر بنزولها في قوله تعالى: ﴿إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيۡكُمۡۖ﴾، ووعدُ اللّه ووعيدُه حقٌّ وصدقٌ، وهذا

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/98، والآلوسّي، روح المعاني: 4/59.

(2) ابن الجزريّ، النّشر: 2/256، وابن خالويه، الحجّة في القراءات السّبع، ص: 135، والفارسّي، الحجّة للقرّاء السّبعة: 3/282، وابن مهران، المبسوط، ص: 189، وطنطاويّ، التّفسير الوسيط: 4/342.

القول هو، والله أعلم، الصّوابُ، كما دلّت عليه الأخبار والآثار، عنِ السّلف وغيرِهم"[1].

سرُّ التَّعبير بلفظِ: ﴿عَلَيۡكُمۡۖ﴾ دون (إليكم)، في قوله تعالى: ﴿إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيۡكُمۡۖ﴾:

دقَّةُ ألفاظ القرآن وأناقتُها، تؤكّدُ تفرّدَ معجزة القرآن وسُموَّها

نلاحظُ أنّ قوله: ﴿عَلَيۡكُمۡۖ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيۡكُمۡۖ﴾، جاءَت جوابًا لقولهم:

﴿هَلۡ يَسۡتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيۡنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِۖ﴾ [المائدة: 112]، فاستعمل اللّفظ الّذي استعملوه هم، فقالوا: ﴿عَلَيۡنَا﴾ الدّالّةَ على العُلوّ والفوقيَّة، ولم يقولوا (إلينا)؛ لأنَّ (إلينا) فيها معنى التَّقريب لا الفوقيَّة، فهم أرادوا المائدة من فوق، فقال تعالى: آتيكم بها من فوق كما أردتم، وفي تنزيلِها وفق مرادِهم، إلزامٌ لهم بالحجّة، وتأكيدٌ أنَّ الإيمانَ بالآية، والإقرارَ بالرّسول الّذي جاء بها، وبالله - الّذي غيّر بنزولها عليهم منَ السّماء قانونَ كونِه السّاريَ؛ في أنَّ المائدةَ تحضَّر بما خلق الله في الأرض، باتّخاذ الأسباب المألوفة، لا بنزولها، مائدةً مزخرفةً بألوان الطّعام، وقد تهيّأت بإرادة كُنْ فيكون؛ لتحقيقِ مرادِ الله في إقامة الحجّة على المعاندين، وقطعِ الأعذار عنهم، وإرجاعهم إلى الجادّة.

نُكْتَةُ تَنْكِيرِ ﴿عَذَابًا﴾ مِنْ قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿فَإِنِّيٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا﴾:

عَظَمَةُ الذَّنْبِ وَشِدَّةُ الجُرْمِ تُوجِبَانِ عَظَمَةَ العَذَابِ وَشِدَّتَهُ

نُكِّر لفظُ ﴿عَذَابًا﴾ مِنْ قولِ الله سُبحانَهُ: ﴿فَإِنِّيٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا﴾ للدِّلالَةِ على تعظيمِ العذابِ وشدَّتِه، والمَعْنَى: فإنّي أعذِّبُهُ عذابًا عظيمًا شديدًا، ويُقوّي هذه الدِّلالَةَ قولُه ﷻ بعدُ: ﴿لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾.

(1) القاسميّ، محاسن التّأويل: 4/298.

بلاغةُ طِباق السَّلب، في قوله: ﴿فَإِنِّيٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابٗا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدٗا مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾:

يلاحظُ أنّ التَّضادّ في هذا اللَّون منَ الطِّباق، إنَّما هو تضادٌّ صوتيٌّ بإثبات الفعل ونفيِه في آن واحد، فقد أثبتَ العذابَ ونفاه، في الوقت نفسه، كما أنَّ طرفي الطِّباق ليسا محورَ هذا التَّضادّ الأُسلوبيّ، إنَّما المحور الحقيقيّ هو (أداة النَّفي)، إذ يتمّ في ضوئها هذا الانزياحُ الصَّوتيُّ والدَّلاليُّ، كما أنّ الوظيفة الأهمَّ في توظيف طباق السَّلب صوتيًّا؛ هي الكشفُ عنِ الدَّلالة بأبعادها المختلفة، خلال هذه البِنية اللُّغويّة[1]، وهذا مَلمَحٌ منَ الإعجاز الصّوتيّ، تأنسُ به الأذن للقرآن.

إثباتُ الفعل ونفيُه في آنٍ واحد؛ لتأكيد شدّةِ العذاب وقوّتِه

دلالةُ انتصاب ﴿عَذَابٗا﴾ على المصدريّة، أو على التّشبيه بالمفعول به:

قوله: ﴿فَإِنِّيٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابٗا﴾، وهو"جنس منَ العذاب، لا يعذِّبُ به غيرَهم؛ لأنّهم كفروا بعد أن رأوا منَ الآيات ما لم يرَهُ غيرُهم، فكانوا أعظمَ كفرًا، فصاروا أعظمَ عذابًا"[2]، وفي لفظ: ﴿عَذَابٗا﴾ وجهان: أوّلهما: أنّه اسمُ مصدرٍ منصوبٌ على المصدريّة، بمعنى: التّعذيب، وهو مفعول مطلق من نفس لفظ الفعل ومعناه، أو مصدرٌ على حَذفِ الزّوائد، نحو: (عطاءً) للفعل (أعطى)، والثّاني: وهو قول أجازه أبو البقاء العُكبَريُّ؛ "بأن يكون مفعولاً به على السّعَة، يعني: جَعل الحَدَث مفعولاً به مبالغةً، وحينئذٍ يكون نصبُه على التّشبيه بالمفعول به، كمعمول الصّفةِ المشبّهة، والمصدر، والظّرف المتّسع فيهما[3]، والمعنى في ذلك: سيكون عذابًا مُستحقًّا، سوف يَصْلونه يقينًا، بما كان منهم من مخالفة بعد أن أراهم اللّه دلائلَ قدرته، وألزمَهم الحجّة بإنزال المائدة المطلوبة.

المخالفُ بعد رؤية الخوارق، يستحقُّ عذابًا مغلّظًا جزاءَ عنادِه

(1) جاب الله، جماليّات التّلوين الصّوتّي في القرآن الكريم، ص: 101.
(2) الماورديّ، النّكت والعيون: 2/86.
(3) السّمين، الدّرُّ المصون: 4/509.

دِلَالَةُ التَّعْبِيرِ بِـ ﴿أَحَدًا﴾:

جاءَ التَّعبير بلَفْظِ ﴿أَحَدًا﴾ مِن قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿فَإِنِّيٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ قصدًا لإرادَةِ العُموم، وذلك أنَّ لفظَ ﴿أَحَدًا﴾ نكرَةٌ واردٌ في سياقِ النَّفْيِ فتَعُمُّ، وكلمةُ (أحد) مِن جملةِ ألفاظٍ جرَى استعمالُ العرَبِ لها لقَصْدِ الاستيعابِ والشُّمولِ إذا ورَدَت منفيَّةً، ذكرها ابنُ السِّكّيت في (باب ما يقال: ما بالدار أحدٌ)[1]، وبلغَ بِها خمسةً وعشرينَ لفظًا.

بُلُوغُ العَذَابِ فِي الشِّدَّةِ حَدًّا لَا نَظِيرَ لَهُ

علّةُ اختصاص الحواريّين دون العَالَمين بالعذاب في الآية الكريمة:

لمّا كانتِ الآية الكريمة متضمِّنةً قوله تعالى: ﴿فَمَن يَكۡفُرۡ بَعۡدُ مِنكُمۡ فَإِنِّيٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، وكان اللّه تعالى قد اختصَّ الحواريّين دون العالمين؛ بأن أنزلَ عليهم مائدة منَ السَّماء؛ ناسبه أن يختصَّ مَن كفَر بها بعذابٍ لا يعذِّبه أحدًا مِنَ العالمين، وفي هذا منَ التَّهديد والتَّرهيب ما لا يقادرُ قدره، قال ابن عمر: "إنّ أشدّ النّاس عذابًا يوم القيامة: المنافقون، ومَن كفر من أصحاب المائدة، وآل فرعون"[2]، ولا شكّ أنّ عدل اللّه يقتضي أن يكون العذابُ متناسبًا شدّةً وخفّةً، مع عظمِ الجُرم وخفّتِه، ومع الإصرار وعدمه، ومع إقامةِ الحجّةِ بمعاينة المُعجزة، أو عدمِ ذلك، وهذا كلّه إمهالٌ لترك الفرصة لأوبة هؤلاء المعاندين، وتوبتِهم للّه ربّ العالمين، فإذا أصرّوا على ضلالهم فإنَّ اللّه تعالى بقدرته يُمهِل ولا يُهمِل، وحينها سيكون العذابُ شديدًا، بأكبرَ ممّا كانوا يتصوّرون، واللّه لا يظلمُ النّاس شيئًا، ولكنّهم يظلمون أنفسَهم فيهلكون.

العقابُ الواقعُ في مُنتهَى العدل الرّبّانيّ

دِلَالَةُ اللَّامِ فِي ﴿ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾:

اللّامُ في ﴿ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ مِنْ قَوْلِ اللّهِ ﷻ: ﴿فَإِنِّيٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ

أَثَرُ دِلَالَاتِ اللَّامِ فِي تَوْجِيهِ المَعَانِي القُرْآنِيَّةِ

(1) ابن السكيت، إصلاح المنطق، ص: 275.
(2) الزّحيلّي، التّفسير المنير: 7/118.

﴿أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ يَجوز أن تكونَ لِلْعَهْدِ، والمَعْنَى: لا أعذِّبُهُ أحدًا مِنْ عالَمي زمانِهم.

ويجوزُ أن تكونَ للاستغراقِ، والمَعْنَى: لا أعذِّبُهُ أحدًا من العالمينَ مطلقًا[1]، وهذا أظْهَرُ وأَقْوَى؛ لتقدُّمِ صيغَةِ العُمومِ قبل لفظِ ﴿ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾؛ وهيَ النَّكِرَةُ - ﴿أَحَدًا﴾ - في سياقِ النَّفْيِ.

بَلَاغَةُ التَّعْرِيضِ بِالعذابِ في الآية:

التَّحْذِيرُ مِنِ اقْتِرَاحِ الآيَاتِ

في قَوْلِ اللّهِ ﷻ: ﴿فَإِنِّيٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ تهديدٌ بليغٌ لِمَنْ يكْفُرُ بَعْدَ نُزولِ المائِدَةِ، وفيه تعريضٌ لهذهِ الأُمَّةِ بِنَهْيِها عن اقتراحِ الآياتِ[2]؛ لما يترتَّبُ على ذلكَ مِنَ العواقِبِ الوخيمَةِ حالَ التَّشكُّكِ فيها أو إنكارِها بَعْدَ وُرودِها.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(العَالَمون) و(العَالِمون):

(العالَمون) بفتح اللّام: كلُّ ما سِوى اللّه ﷻ؛ أي: ربُّ الملائكة والجنِّ والإنس والسّماوات والأرض والجميع. وأحيانًا يُطلَق العالَمين على الإنس فقط، كقول اللّه ﷻ: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ٤٧﴾ [البقرة: 47].

"والبابُ كُلُّهُ قياسٌ واحدٌ، ومِنَ البابِ العالَمونَ، وذلك أنَّ كُلَّ جِنسٍ مِنَ الخَلقِ فهو في نَفسِهِ مَعْلَمٌ وعَلَمٌ، وقال قَومٌ: العالَمُ سُمّيَ لاجتِماعِهِ. قال اللّه تعالى: ﴿وَٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٤٥﴾ [الأنعام: 45]، قالوا: الخَلائِقُ أَجمَعونَ. وأَنشَدوا:

ما إنْ رَأَيْتُ ولا سَمِعْـ *** ـتُ بِمَثَلِهِمْ في العالَمينا"[3]

(1) الآلوسي، روح المعاني: 4/59.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 6/358.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (علم).

روي عنِ ابن عبّاس في تفسير: ﴿رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾؛ أي: ربّ الجنّ والإنس، وقال قتادة: ربّ الخلق كلّهم، قال الأزهريّ: "والدّليل على صحّة قولِ ابن عبّاس قولُه ﷻ: ﴿لِيَكُونَ لِلۡعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ۝١﴾ [الفرقان: 1]، وليس النّبيّ ﷺ نذيرًا للبهائم ولا للملائكة، وهم كلّهم خلق اللّه، وإنّما بُعِثَ نذيرًا للجنّ والإنس"[1].

وأمّا (العالِمون): بالكسر، فهم ذوو العِلْم، كما قال تعالى: ﴿وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِۖ وَمَا يَعۡقِلُهَآ إِلَّا ٱلۡعَٰلِمُونَ ۝٤٣﴾ [العنكبوت: 43][2]، وعن بعضهم أنّ التّعلّم هو تنبّه النّفس لتصوّر المعاني. وإذا قيل لك: اعلمْ كذا، قلتَ: قد علمتُ، وإذا قيل لك: تعلّمْ كذا لم تقُل: قد تعلّمتُ[3]، فالعالَمون بالفتح، تُستعمل للعوالم المكوّنة للكون، والعالِمون بالكسر، يقصد بها أهل العلم، وشتّان بين المعنيين، فالفرق بينهما جليّ، وفي العلم والعالِمينَ، وقال الشاعر:

ما الفَضلُ إلّا لِأَهلِ العِلمِ إِنَّهُمُ *** علَى الهُدَى لِمَنِ استَهدَى أَدِلّاءُ
فَقُمْ بِعِلمٍ ولا تَطْلُبْ بِهِ بَدَلًا *** فالنّاسُ مَوتَى وأَهلُ العِلْمِ أَحْياءُ[4]

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (علم).
(2) الزَّبيديّ، تاج العروس: (علم).
(3) الزَّبيديّ، تاج العروس: (علم).
(4) الجرجانّي، أسرار البلاغة، ص: 265.

﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ١١٦﴾ [المائدة: 116]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الرّبط بين عطاءِ اللـه لعيسى ابن مريم، ومساءلتِه عن تمحيض العبوديّة لربّه

لمّا كان الكلام قبل هذه الآية، في تَعداد النِّعم الَّتي أنعَم بها ﷻ على عيسى عليه السلام، وفي إلهامه للحواريّين الإيمانَ به وبرسوله، وفي طلب الحواريّين مِن عيسى إنزالَ مائدة منَ السَّماء، ثمَّ طلبِ عيسى مِن ربِّه إجابةَ مطلبهم، وإخبارِ اللّه تعالى بأنَّه أجابهم إلى ما طلبوا، أعقبَ الكلامَ في هذه الآية سؤالَ عيسى عليه السلام على مَرأى مِن قومه؛ توبيخًا وتقريعًا لهم على افترائهم، وإجابةَ عيسى عليه السلام عن ذلك بالتَّبرُّؤِ مِن ذلك الذَّنب العَظيم الَّذي اقترفوه بعده، وهو القولُ بالتَّثليث[1]، إذ أقرَّ للّه بالألوهيّة، والالتزامِ بشرعه القويم، وأنّه لا يستطيع أن يكون إلّا عبدًا للّه.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱتَّخِذُونِي﴾: الاتِّخاذُ: افتِعالٌ مِنَ الأخذِ، وهو: الاقتِناءُ. يُقال: أخَذَ الشَّيءَ، يأخُذُهُ، أخذًا؛ أي: اقْتَناهُ. واتَّخَذَ الماشيَةَ لِلولادَةِ واللَّبَنِ والصّوفِ؛ أي: اقتَناها لِذلك. ويُطلَقُ على الاكتِسابِ. يُقال: اتَّخَذَ فُلانٌ مالًا، يَتَّخِذُهُ، اتِّخاذًا: إذا كَسَبَهُ. ومِن مَعانيهِ أيضًا: الاستِعمالُ، وصُنعُ الشَّيءِ[2].

(1) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 7/61.
(2) الخليل، العين، وابن عباد، المحيط، وابن الأثير، النّهاية: (أخذ).

والمعنى هنا: الجَعلُ والتّصيير؛ أي: اجعلوني وصيِّروني.

2) ﴿سُبۡحَٰنَكَ﴾: التَّسبيحُ: التَّنزيهُ والتَّقديسُ والتَّبرِئَةُ. يُقال: سَبَّحْتُ اللّه، وسَبَّحْتُ لَهُ، أُسَبِّحُهُ تَسبيحًا وسُبحانًا؛ أي: نَزَّهتُهُ وبَرَّأتُهُ مِن كُلِّ سوءٍ ونَقصٍ. وأَصلُه مِنَ السُّبْحِ، وهو: البُعدُ. والتَّسبيحُ: التَّبعيدُ، ومنه قولُهُم: سَبَّحتُ في الأَرضِ؛ أي: أَبعَدتُ فيها. ويأتي بمعنى قَولِ سُبحانَ اللّهِ، فيُقال: سَبَّحَ الرَّجُلُ؛ أي: قال: سُبحانَ اللّهِ. ويُطلَقُ التَّسبيحُ أيضًا على التَّنَفُّلِ والتَّطَوُّعِ بالعبادةِ[1]، قال زيد بن عمرو بن نفيل، أو ورقة بن نوفل:

سُبحانَ ذي العَرشِ سُبحاناً يَدومُ لَهُ *** رَبُّ البَريَّةِ فَردٌ واحِدٌ صَمَدُ
سُبحانَهُ ثُمَّ سُبحاناً يَعودُ لَهُ *** وقَبلَنا سَبَّحَ الجوديُّ والجُمُدُ[2]

والمعنى هنا: تنزيهًا لك وتقديسًا.

3) ﴿ٱلۡغُيُوبِ﴾: جَمعٌ مُفرده غَيب، والغَيبُ: المَستورُ والمحجوبُ، يُقالُ: غابَتِ الشَّمسُ، تَغيبُ، غَيْبَة وغَيبوبَة: إذا استَتَرَت وحجبت. والغَيبُ أيضًا: المخفيُّ، وضِدُّه: الشَّهادةُ والحضور[3]، و"كلُّ ما غابَ عنِ العُيونِ وكانَ مُحصَّلًا في القُلوب فهو غَيبٌ"[4]، مصدرٌ بمعنى الفاعل.

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

تقريعُ النَّصارى بما أحدَثوه منَ الكذب على الله

يُذكِّرُ اللّهُ تعالى بقولِه لعيسى عليه السلام يَومَ القيامة بحَضرةِ النَّصارى؛ توبيخًا لهم وتقريعًا: يا عيسى ابنَ مريم، هل أنتَ أَمَرْتَ النّاسَ أن يَجعلوك وأمَّك معبودَينِ، تُعبَدانِ مِن دون اللّهِ تعالى؟ فيُجيبُ عيسى عليه السلام بغاية الأدب: أُنزِّهُك يا ربِّ، عن كلِّ ما لا يَليق بك؛ لا يَنبغي لي

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن سيده، المحكم، وابن منظور، لسان العرب، والزّبيدي، تاج العروس: (سبح).
(2) الأنباريّ، الزّاهر: 1/51.
(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس: (غيب).
(4) الثّعالبيّ، فقه اللّغة، ص: 25.

أن أقولَ ما ليس لي بحقٍّ، إنْ كنتُ قلتُه فأنت تعلمُه؛ فإنَّه لا يَخفى عليك شيءٌ، فأنت تَعلمُ ما أُضمِرُه في نفسي، ولا أعلمُ ما تُخفيه في نفسِك؛ إنَّك أنتَ علّامُ الغيوب، ولايخفى عليك شيء في الأرض ولا في السّماء؛ لأنّك وحدك صاحبُ العلم المحيط، بكلِّ خفيٍّ وغائب[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

عِلَّةُ وَصْلِ قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾ بِمَا قَبْلَهُ:

بَيَانُ كَلَامِ اللهِ تَعَالَى لِعِيسَى عليه السلام يَوْمَ القِيَامَةِ

قولُ اللّه ﷻ: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾ معطوفٌ علَى قَولِه سُبحانَهُ قبلُ: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ﴾ [المائدة: 110]؛ لِما بينَهُما مِنَ التَّوسُّطِ بَيْنَ الكَمالَيْنِ، وذلكَ لِاشْتِراكِهما في الخَبَريَّةِ، واتِّحادِهما في المُسْنَدِ - (قالَ) - والمُسْنَدِ إليهِ - (اللّهُ)، وبينَهُما مناسبَةٌ وهي أنَّ كِلَيْهِما اشتمَلَ على كلامِ اللّهِ سُبحانَهُ لعيسى ابنِ مريمَ يومَ القيامَةِ.

دلالةُ التَّعبير بالفعل الماضي عنِ المستقبل في قوله: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ﴾:

الدَّلالةُ الزَّمانيّةُ للفعل الماضي، لها أهمّيّتُها في سياق الآية

جاء التَّعبيرُ عنِ المستقبل بلفظ الماضي (قال)؛ تنبيهًا على تحقُّق وقوعه، ودَلالَةً عَلى كَونِ الأمرِ وثُبوتِهِ، ونلحظُ هنا أنَّ الفعل يكتسبُ دلالتَه الزَّمنيّة منَ السَّياق الوارد فيه، لا مِن بنيته الصَّرفيّة فحسب، وغالبًا ما يكون وراء تحوّلها ماضيًا ومستقبلًا معنًى بلاغيٌّ[2]، وهذا السّياق، يورد فيه اللّه ما سوف يقع مِن مساءلة يوم القيامة، وماذا سيكون الجواب؟ وهي إحاطةٌ كلّيّة بالغيب، لا يقدر عليها غيرُ اللّه ﷻ.

دِلَالَةُ إِيجَازِ الحَذْفِ فِي قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾:

في قولِ اللّه ﷻ: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾ حَذْفٌ بِإِضْمارِ

(1) لجنة من علماء الأزهر، المنتخب في تفسير القرآن الكريم، ص: 169.

(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/262، والقزوينيّ، الإيضاح: 2/96، والإسفراييني، الأطول، ص: 1426، والقنّوجيّ، فتح البيان: 4/90.

فِعْلٍ، والتَّقديرُ: (اذْكُرْ)، والمَعْنَى: اذْكُرْ للنّاسِ إذْ قالَ اللّهُ سُبحانَهُ يا عيسَى ابنَ مَرْيَمَ[1]؛ أي: إذْ يَقولُ.

تَجَدُّدُ التَّذْكِيرِ بِتَحْقِيقِ الأُلُوهِيَّةِ وَنَفْيِ الشَّرِيكِ عَنِ اللهِ سُبْحَانَهُ

فَفي الجملَةِ حذفٌ للفِعْلِ مع فاعِلِه، وفي تقديرِ هذا الفِعْلِ - (اذكُرْ) - إيماءٌ إلَى تجدُّدِ هذا التَّذْكيرِ؛ لِما تضمَّنَهُ من تحقيق الأُلوهيَّةِ ونفيِ الشَّريكِ عن اللّهِ ﷻ.

دِلَالَةُ ﴿وَإِذْ﴾ فِي قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾:

مَا أَخْبَرَ اللهُ تَعَالَى بِهِ؛ فَهُوَ مُحَقَّقُ الوُقُوعِ

(إذْ) في الأصلِ ظرفٌ للزَّمَنِ الماضي، وتَرِدُ دالَّةً على المُسْتَقْبَلِ، كالواردَةِ في قولِ اللّه سُبحانَهُ: ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ۝٧٠ إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ﴾ [غافر: 70 - 71]، و(إذْ) في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾ يجوزُ أن تَكونَ للماضي، ولكنَّها استُعْمِلَتْ للحدَثِ المُسْتَقْبَلِ إيماءً إلى تحقُّقِ وُقوعِهِ، ولذا جيءَ بَعْدَها بالفِعْلِ ماضيًا - (قالَ) - ودِلالتُهُ مستقبَليّةٌ.

ويَجوزُ أن تَكونَ ﴿وَإِذْ﴾ في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾ مُسْتَعْمَلَةً في معْنَى الاستِقْبالِ، والأَوَّلُ أظْهَرُ؛ إبْقاءً لـ (إذْ) على أصْلِ دِلالَتِها.

سرُّ إظهار اسمِ الله تعالى في قوله: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ﴾:

إقامةُ الظَّاهرِ مقامَ المُضمَرِ، غايةٌ بلاغيّةٌ مفيدةٌ في الدّلالة

أظهر هاهنا اسمَ اللّه تعالى في مقام الإضمار، إذ سبق ذِكره في الآية السّابقة، مع إمكانِ الإضمار، فقال: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾، وكان ممكنًا أن يقول: (وإذ قالَ: يا عيسى ابنَ مَريَمَ)؛ وذلك للمُبالغةِ، وإدخالِ الخوف، وتربيةِ المهابةِ، إذ إعادة ذِكر الاسم هنا تلفت النَّظر إلى تجدّدِ الموقفِ، وبيانِ خطرِ المشهد، والّذي يملك هذا هو الحقُّ ﷻ وحده، ولذلك يعلّمنا القرآن شرف الصّدق في الكلمة، بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ۝٢٣ إِلَّآ أَن يَشَآءَ

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السَّليم: 3/100.

ٱللَّهُۚ﴿٢٤﴾﴾ [الكهف: 23 - 24]، وعلى الإنسان أن يحترم قدرتَه المحدودةَ، وأن يتذكّر دائمًا قدرةَ الحقّ ﷻ عليه[1]، ولذلك ذكر اسمَه الجليل.

سرُّ استعمال أداة نداء البعيد (يا)، في قوله تعالى: ﴿يَٰعِيسَى﴾:

نـداءُ الحقِّ ﷻ، فيضٌ منَ التَّكريم والتَّنبيه، لكلّ عقلٍ نبيهٍ

للسّائل أن يَسأل لماذا استعملَ النِّداء بـ (يا) لنداء البعيد، واللّه ﷻ أَقربُ إلى عِباده من حَبل الوريد؟ الجواب: لعلَّ ذلكَ يرجع إلى عِظم هذه الأمور وأهمّيّتِها، فعَدَل عن نداءِ القريبِ إلى نداءِ البعيدِ؛ تحقيقًا للدَّلالات الآتية: لتنبيه المُخاطَب، ولفتِ نظره إلى هذا الأمر المهمِّ، ولعُلوِّ مكانة المُخاطِب المُنادي، والإشعارِ ببُعد منزلته؛ تنزيلًا للبُعد المعنويّ منزلةَ البُعد المكانيّ[2]، علاوةً على إظهار بشريَّة عيسى عليه السلام لمَن ادَّعى بأنَّه إلهٌ، وذلك ما لا يقبله عقل، ولا إنصاف.

إيثارُ ذِكر الكُنية في قوله تعالى: ﴿يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ﴾:

تأكيدُ حقيقةِ بشريَّةِ عيسى عليه السلام

إيثارُ ذِكر الكنية ﴿ٱبۡنَ مَرۡيَمَ﴾؛ لاقتضاء المقام، وتأكيدِ بشريَّة عيسى عليه السلام؛ لأنَّه مقام ادِّعاء النَّصارى أُلوهيَّةَ عيسى وأمِّه[3]، وهذا المذكور "صورة للمجاوبة الّتي تكون يوم القيامة بين الرّسل، وأقوامِهم، ومَن بعثوا إليهم بشكل عامّ، وخصّ عيسى عليه السلام في هذا المقام بالمجاوبة؛ لأنّه كان أكثرَ الرّسل الّذين افْتُرِيَ على شخصهم النّبويّ الكريم، إذِ ادّعوا عليه الألوهيّةَ، وكان نداؤه بذكر: ﴿يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ﴾؛ للإشارة إلى الولادة الطّبيعيّة الّتي تنفي أن يكون إلهًا، أو ابنَ إله، أو فيه عنصرُ الألوهيّة بأيّ وضع منَ الأوضاع؛ لأنّ الألوهيّة والبشريّة نقيضان لا يجتمعان، فلا يمكن أن يكون البشرُ فيه ألوهيّةٌ، ولا الإله فيه بشريّةٌ"[4].

(1) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 6/3469.
(2) فيّود، من بلاغة النّظم القرآنّي، ص: 234.
(3) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 1/276.
(4) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2405.

دلالةُ الاستفهام في قوله تعالى: ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ﴾:

من وسائل التّعبير القرآنيّ إقامةُ الحجّة بطريقة الإقرار

هذا السُّؤال سؤالُ تفهيم، وليس باستفهام عن جَهلٍ ليَعلَمَهُ، وهو يَخرُجُ مَخرَجَ الاستفهام، وإنَّما يُرادُ به النَّهيُ عن ذلك، ويُتهدَّد به، وقد علِمَ قائلُهُ أكان ذلك أم لم يكن، ويسمّيه أبو هلال تجاهلَ العارف، أو مزجَ الشَّكّ باليقين[1]، ووُجّه السُّؤالُ لغرض بلاغيّ، وهو التَّنبيهُ ورفع الهيبة[2]، والله ﷻ عالمٌ بأنَّ النَّبيَّ عيسى عليه السلام بريءٌ، ولكنّ توجيهَ السُّؤال يكشفُ بعضَ الدَّلالات منها:

أوّلًا: التَّقريعُ والتَّهديد والتَّقريرُ الواقع على النّاس الذين اتّخذوهما إلهين من دون الله: فالغَرَض منه أن يقولَ ويقولون، ويسألُ ويجيبُ، فيكونَ تقريعُهم أشدَّ وأبلغَ حجّةً، وخجلُهم أشدَّ وأعظمَ، ويكونُ اختصاصُ ذلك لطفًا لمَن سمعه، وزجرًا لمَنِ اقتضى عليه، وهذا كما ادَّعت النَّصارى على عيسى عليه السلام "فهذا ليس استفهامًا، وإن خرج مَخرَج الاستفهام، وإنَّما هو توبيخ لمَنِ ادَّعى ألوهيَّة عيسى؛ ليكون إنكارُه بعد السُّؤال أبلغَ في توبيخ الكَفرةِ، وأشدَّ في التَّقريع، أو لتعريفه أنَّ قومه غيَّروا بعده، وادَّعوا عليه ما لم يقله[3].

ثانيًا: التَّوبيخُ والتَّبكيتُ: أي: توبيخُ الكفرة وتبكيتُهم، ففي قوله تعالى: ﴿ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾، وهو توبيخ، ولم يقُل: (اتَّخذوني ومريم)، وإنَّما إطلاقهُ صِفةَ الأُمومة، كأنَّه قيل: أأنت قلتَ ما قلتَ مع كونك مولودًا وأُمّك والدة، والإله لا يَلد ولا يولد؟[4]، ومثاله: ما ورد عنِ ابن عبّاس رضي الله عنهما، في تأويل قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۝٨ بِأَيِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ۝٩﴾ [التّكوير: 8 - 9]، أنّه قال: "إنّما

(1) العسكريّ، الصّناعتين، ص: 387، والشّهريّ، الشّاهد الشّعريّ في تفسير القرآن الكريم، ص: 644.
(2) ابن حجّة، خزانة الأدب: 1/274.
(3) الماورديّ، النّكت والعيون: 2/87، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 6/375، وابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 7/618.
(4) الآلوسّي، روح المعاني: 4/62.

تُسأل تبكيتًا لمَن فعل ذلك بها، كما قال الله تعالى: ﴿يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ءَأَنتَ قُلۡتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيۡنِ﴾، فجعل السّؤال منَ الله لعيسى ﷺ، أيضًا تبكيتًا لقومه المتطاولين[1]، وهو منَ التّوبيخ المقرِّع المُخْرس، وطرحُه بهذه الصّيغة أبلغُ وأوفى بالدّلالة.

ثالثًا: التَّعريفُ والتَّنبيه: أي: تعريف عيسى ﷺ وتنبيهُه؛ بأنَّ قومًا قدِ اعتقدوا فيه وفي أُمِّه، أنَّهما إلهان؛ لأنَّه يمكنُ أن يكون عيسى ﷺ لم يعرف ذلك إلّا في تلك الحال.

رابعًا: عمدةُ حجَّتهم بالألوهيَّة لعيسى ﷺ، ففي قوله تعالى: ﴿ءَأَنتَ قُلۡتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيۡنِ﴾، عبَّر النَّظم القرآنيُّ عن مريم بالأُمومة؛ للدَّلالة على عمدة حجَّتهم في الألوهيَّة، وهو ولادته منها بغير أَبٍ، فالتَّعبيرُ به وأُمِّه أدلُّ وأبلغُ مِنَ التَّعبير بعيسى ومريم[2].

توالي إجابات عيسى ﷺ بجُمَل مفصولة:

مسؤوليّةُ الأنبياء عظيمة؛ لعِظَم المهمّةِ المُناطةِ بهم

يرى تمّامُ حسّان أنَّ الموقف، هو مَوقِف الفزَع، أو مُطلَق الانفعال، فالسُّؤال الإنكاريّ الَّذي ابتدأ بتحديد المسؤوليَّة الفرديَّة بقوله: ﴿ءَأَنتَ﴾، من شأنه أن يُفزع عيسى ﷺ، فكان جوابه بجُمل مُنفصلة، رُبِطت ربطًا معنويًّا، وهي: ﴿سُبۡحَٰنَكَ﴾، و﴿مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أَقُولَ مَا لَيۡسَ لِي بِحَقٍّۚ﴾، و﴿إِن كُنتُ قُلۡتُهُۥ فَقَدۡ عَلِمۡتَهُۥۚ﴾، و﴿تَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِي وَلَآ أَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِكَۚ﴾، و﴿إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ﴾[3].

عِلَّةُ تقديم المسنَد إليه على الخبر الفِعليّ، في قوله: ﴿ءَأَنتَ قُلۡتَ لِلنَّاسِ﴾:

المسيحُ هو محورُ المساءلة، والعنصرُ الأساسُ لإبطال المزاعمِ الباطلةِ

لتقديم المسنَد إليه على الخبر الفعليّ، دلالةٌ على أنَّ الاستفهامَ مُتوجِّهٌ إلى تخصيص عيسى ﷺ بالخبر دون غيره، مع أنَّ الخبر

(1) الآلوسّي، روح المعاني: 2/65.
(2) سمير داود، دلالات الحوار في سورة المائدة، ص: 55.
(3) تمّام حسّان، الخلاصة النّحويّة، ص: 19.

حاصلٌ لا محالة[1]، وإبرازُ المسنَد إليه باعتباره محورَ المساءلة، والعنصرَ المقصودَ بالتّهمة، والّذي من أجله كرّست الدّعايةُ، وألصق الإشهارُ بالوصف المندّدِ به بشخصه[2].

دِلَالَةُ لَامِ التَّعْرِيفِ فِي (النَّاسِ) مِنْ قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ﴾:

الإِعْتِقَادُ الفَاسِدُ الرَّدِيءُ مُوجِبٌ لِلتَّوْبِيخِ وَالتَّقْرِيعِ

اللّامُ في (النّاسِ) مِنْ قَوْلِ اللّهِ ﷻ: ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ﴾ لِلْعَهْدِ العِلْمِيِّ وهُم النّاسُ الذين أُرْسِلَ إِلَيْهِم عيسَى عليه السلام مِنْ بني إسرائيلَ.

ويَجوزُ أن يَكونَ لَفْظُ النّاس عامًّا مُسْتَعْمَلًا في الخُصوصِ؛ فيكونُ مجازًا مرسلًا، علاقَتُهُ العموميَّةُ، والنُّكْتَةُ في ذلك: زيادَةُ توبيخِهِمْ وتقريعهم؛ لِكَوْنِهِم اعتقَدوا هذا الاعتقادَ الرَّديءَ وفيهِم الكِتابُ، فكأنَّه لا ناسَ إلّا هُمْ[3].

دلالةُ التَّعبير بقوله: ﴿إِلَٰهَيْنِ﴾:

توبيخُ الكَفَرةِ الّذين اتَّخذوا عيسى وأمَّه إلهين وتَبكيتُهم

قد يسأل سائلٌ: أنَّ النَّصارى لم يقولوا بإلهيَّة مريم، فكيف قال: ﴿ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ﴾؟ والجواب: أنَّ النَّصارى لمّا ادَّعت في عيسى أنَّه إلهٌ، ورأوا أنَّ مريم ولدته لزمَهم بهذه المقالة على سبيل التَّبعيّة[4]، "فالاستفهامُ فيها يُراد به التّقريعُ والتّوبيخُ بغيرِ عيسى عليه السلام، وهم المتَّخذون له ولأمّه إلهين، دَخَل على المبتدأ، لهذا المعنى الذي تقدَّم؛ لأنّ الاتّخاذ قد وقع لابدّ، واللّام في ﴿لِلنَّاسِ﴾؛ للتّبليغ فقط، و﴿ٱتَّخِذُونِي﴾، يجوز أن تكون بمعنى (صَيَّر) فتتعدَّى لاثنين، ثانيهما: ﴿إِلَٰهَيْنِ﴾، وأن تكونَ المتعدّيةَ لواحدٍ فـ ﴿إِلَٰهَيْنِ﴾ حالٌ[5].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/113.

(2) إنّ تقديمَ الاسم يقتضي تشبيهاً بما اقتضاه في الفعل الماضي، منَ الإقرار بأنّه الفاعلُ، أو الإنكار أن يكون هو الفاعل، فمثال الأوّل: قوله تعالى: ﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ۝٩٩﴾ [يونس: 99]، وقوله تعالى: ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [المائدة: 116]، فحكمُ المضارع في الآية الأولى حكمُ الماضي في الآية الثّانية. ابن الأثير، الجامع الكبير، ص: 117.

(3) البقاعي، نظم الدرر: 6/363.

(4) الخازن، لباب التّأويل: 2/94، والهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 8/164.

(5) الخازن، لباب التّأويل: 2/94، والهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 8/164.

دِلَالَةُ التَّعْبِيرِ بِ﴿مِن دُونِ﴾:

مَنْ عَبَدَ اللهَ تَعَالَى وَعَبَدَ غَيْرَهُ بِمَنْزِلَةِ مَنْ لَمْ يَعْبُدِ اللهَ سُبْحَانَهُ أَصْلًا؛ لِعَدَمِ الِاعْتِدَادِ بِعِبَادَتِهِ الشِّرْكِيَّةِ

﴿مِن﴾ في قَوْلِ اللهِ ﷻ: ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ صِلَةٌ يُرادُ بها التَّوكيدُ، ولفظُ (دون) مستعمَلٌ في الأَصْلِ للمكانِ المُجاوز، إلّا أنَّه يَرِدُ كثيرًا مرادًا به المكانُ المجازيُّ بمَعْنَى المغايَرةِ، فيكون مرادِفًا لـ (سِوَى)، والتَّقديرُ: (أَأَنت قلتَ للنّاسِ اتَّخذوني وأمّيَ إلَهَيْنِ سِوَى اللهِ تعالَى)، والمقصودُ: أَتُشْرِكونَ مع اللهِ سُبحانَهُ غيرَهُ في العبادَةِ، وليس المرادُ: أتعبدونَ معبودًا وتترُكونَ عبادَةَ اللهِ تعالَى[1].

لَكِنْ لَمّا كانَ حَقُّ اللهِ تَعالَى في العِبادَةِ لا يَنْبَغي أَن تَدْخُلَهُ الشَّرِكَةُ؛ جُعِلَ مَن عَبَدَ اللهَ تعالَى وعبَدَ غيرَهُ، كمَن لَمْ يَعْبُدِ اللهَ تعالَى أصلًا؛ لِعَدَمِ الاعتدادِ بعبادَتِه الشِّرْكيَّة.

إيثارُ إظهار اسمِ الجلالة في قوله تعالى: ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾:

فضحُ شناعةِ ما اتَّخذته النَّصارى، مِن إشراكٍ لله في ألوهيّته

إيثار إظهارِ اسمِ الجلالة (اللّه)، وكان المقامُ مقامَ إضمار، فيقال: (مِنْ دوني)؛ لبيان شناعة هذا الاتِّخاذ، والنّعي على قائليه بالحُمق والسَّفه[2]. والتَّعبير بالاتّخاذ يدلُّ على أنَّ الشَّيءَ المتَّخذَ ليس أهلًا لذلك[3]، فالمعبودُ أصلًا، والمُؤَلَّهُ حقًّا، هو اللّه دون سواه، والمتّخَذُ إلهًا ليس له حقُّ العبادة، ولا قيّوميّةُ الألوهيّة، وإنّما صنعَته أوهامُ عابديه، ورفعَته إلى ذلك المقام العالي، ظنًّا منها أنّها بذلك تصنع منه إلهًا من دون اللّه، ولهذا ورد التّشنيع بهذا الزّعم، وفضحُ ضلالته وبطلانه.

سقوطُ قرينة النّغمةِ لوضوح الكلام بدونها، وإغناء غيرها عنها:

قد تسقطُ قرينةُ النّغمة لوضوح الكلام بدونها، وذلك عند قراءة قوله تعالى: ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتنوير: 6/288، و7/113.
(2) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 1/276.
(3) نسيبة خميس، الدّرس اللّغويّ في سورة المائدة، ص: 338.

في إدراك نظامِ تضافرِ القرائن، ما يفسِّر الكثيرَ من الظّواهر اللّغويّة

دُونِ ٱللَّهِۖ﴾، فإنّك لو وقفت عند لفظ الجلالة، فإنّك لا تقف في التّلاوة بنغمة الاستفهام، ولكن بنغمة التّرتيل العاديّ، ولا يحصلُ استغرابٌ عند السّامع، كما لو سمع جملة "هل رأيتَ محمدًا؟ " بنغمة التّقرير الّتي في (قد رأيتُ محمدًا) مثلًا، وهو ما أكّده تمّام حسّان، في مَعرِض تحليله لتضافر القرائن، بقوله: "والقرينة تسقط عند إغناء غيرها عنها، وفي إدراك هذه الحقيقة تفسيرٌ لكثير ممّا عدّه النّحاة مسموعًا يُحفَظ ولا يُقاس عليه، أو عَدّوهُ شاذًّا، أو قليلًا، أو نادرًا، أو خطأً، وكم أبدأ النّحاة وأعادوا في قوله تعالى: ﴿إِنۡ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ﴾ [طه: 63]، ونحن ندرك من فهمنا لظاهرة تضافر القرائن، وإغناء بعضها عن بعض، أنّ المنافسةَ الصّوتيّةَ دعَت إلى إهمال العلامة الإعرابيّة؛ لأنّ الرّتبة واقتران الخبر باللّام، أوضحا أنَّ لفظ ﴿هَٰذَٰنِ﴾ لا يمكن فيه إلّا أن يكون اسم إنّ، ولم يعُد للعلامة الإعرابيّة بعد ذلك منَ الأهمّيّة، ما يحتّم الاحتفاظ بها، ولا سيّما أمام إرادة المناسبة الصّوتيّة بين أصوات المتلازمين"[1].

دلالةُ الفَصْل بينَ قوله تعالى: ﴿قَالَ سُبۡحَٰنَكَ﴾، وقوله: ﴿وَإِذۡ قَالَ﴾:

اختلافُ طرفي الإسناد ومتعلّقاتِه يُوجِب الفصلَ بين الجملتين

يرجع هذا الفصل إلى سببين، الأوّل: اعتبارُ الاستئناف البيانيّ فيها؛ لتنزيلها منزلةَ جوابٍ عن سؤال مقدَّر نشأ عمّا قبلها، وهذا هو الأظهرُ فيها عند المفسّرين، أو هو المتعيِّن، إذ لم يذكروا غيره، يعني: شبه كمال الاتّصال. الثّاني: كمال الانقطاع؛ لاختلاف طرفي الإسناد في الجملتين، واختلاف لواحق الإسناد، فالمسنَد إليه في الأولى هو الله ﷻ، والمسنَد إليه في الثّانية هو عيسى عليه السلام، ومتعلّقاتُ الإسناد في الأولى اتّخاذُ غير الله إلهًا من دون الله، ومتعلّقاتُ

(1) تمام حسّان: اللّغة العربيّة معناها ومبناها، ص: 240 - 338.

الإسناد في الثّانية تنزيهُ اللّه عن الشّريك والمماثل، فأنت ترى أنَّ كمالَ الانقطاع ملحوظٌ هنا، كما لُحِظ شبهُ كمال الاتّصال، فعلى أيّ الاعتبارين الفصلُ واجبٌ بين الجملتين[1].

فنُّ المذهبِ الكلاميّ[2] في قوله: ﴿سُبۡحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أَقُولَ مَا لَيۡسَ لِي بِحَقّٖۚ﴾:

الألوهيَّة حقٌّ خاصّ لله تعالى، لا ينازعه فيها أحد

قال ابنُ عاشور رحمه اللّه: "وقد أفاد الكلامُ تأكيدَ كون ذلك حقًّا له بطريق المذهب الكلاميّ؛ لأنّه نفى أن يُباح له أن يقول ما لا يحقّ له، فعلم أنّ ذلك ليس حقًّا له، وأنَّه لم يقله لأجل كونه كذلك، فهذا تأكيدٌ في غاية البلاغة والتّفنُّن"[3]، وشبيهُه قولُه تعالى: ﴿لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ﴾ [الأنبياء: 22]؛ أي: (الفساد مُنتفٍ، فكذلك الإلهيّة مُنتفيةٌ)، وقولُه تعالى أيضًا: ﴿فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلۡأٓفِلِينَ﴾ [الأنعام: 76]؛ أي: (الكوكب آفل، وربّي ليس بآفلٍ)، ينتج منَ الثّاني: الكوكب ليس بربّي[4]

وقد حُذِفَت ألف (سبحان) هنا، وفي بقيَّة الآيات سوى ﴿قُلۡ سُبۡحَانَ رَبِّي هَلۡ كُنتُ إِلَّا بَشَرٗا رَّسُولٗا ٩٣﴾ [الإسراء: 93]؛ لأنَّ المراد منَ التَّسبيح فيها أمرٌ ملكوتيٌّ، لا يدركه الحسُّ، وهو تنزيهُ اللّه تعالى عمّا يُشركون، وعمّا يصفون به اللّه ﷻ ممّا لا يليق به، وثبتَتِ الألف في المَوضِع الثّالث: ﴿قُلۡ سُبۡحَانَ رَبِّي هَلۡ كُنتُ إِلَّا بَشَرٗا رَّسُولٗا ٩٣﴾ [الإسراء: 93]؛ لأنَّه تسبيحُ المقصودُ منه التَّعجّبُ من أمرٍ مُلكيٍّ خاصٍّ بالكفّار، وهو إصرارُهم على طلبهم إلى الرَّسول ﷺ أمورًا لا يقدر عليها إلّا اللّه[5].

(1) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 1/276.
(2) المذهب الكلاميّ: هو أن يأتي البليغ على صحّة دعواه، وإبطال دعوى خصمه بحجّة عقليّة قاطعة، تصحّ نسبتها إلى علم الكلام. السُّبكي، عروس الأفراح:/264، والإسفراييني، الأطول: 1/107، والمراغيّ، علوم البلاغة، ص: 339.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/114.
(4) الجرجانّي، التّعريفات، ص: 208.
(5) ابن البنّا، عنوان الدّليل من مرسوم خطّ التّنزيل، ص: 73.

فائدةُ التَّعبير بلفظ: ﴿سُبۡحَٰنَكَ﴾:

سُبحانَ: مَصدَرٌ بمعنى التَّسبيحِ، وهو ممّا أُميت فِعلُه الَّذي هو سَبَحَ من حيث دلالتُه على التَّسبيح، بمعنى: التَّنزيه، فقد أُهملَتْ صيغة (فَعَلَ)، وحلَّ محلَّها صيغة (فعَّل) الدّالّةُ على التَّكثير، وهي أنسبُ في التَّعبير عنِ الدَّلالة هنا[1]، فضلًا عنِ المبالغة في التَّنزيه، واشتقاقِ المفردة منَ السَّبح؛ وهو الإبعاد في الأرض والذَّهاب، من جهة النَّقل إلى صيغة التَّفعيل والعُدول عنِ المصدر إلى الاسم الموضوع له، خاصَّة المشيرِ إلى الحقيقة الظّاهرة في الذِّهن، وإقامتِه مقام المصدر، مع الفعل ممّا لا يخفى[2].

تأدُّبُ الرُّسلِ عليهم السلام مع ربِّهم جلّ جلاله، دليلٌ على معرفتِهم به

ونضيف إلى أنّ منَ الدَّلالات السّياقيّة لهذه المفردة؛ هي التَّأدّبُ في الحوار، فمِن أدبِ العُبوديَّة أن يُسبِّح العَبد ربَّه، إذا سمع ما لا ينبغي أن يسمعَ فيه تعالى، أو ما يخطر بالبالِ تصوّرُ ذلك، وعليه جرى التَّأديب الإلهيّ في كلامه كقوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۖ﴾ [البقرة: 116]، فعيسى عليه السلام، لمّا سمع ذِكر ما لا يليق نسبتُه إلى ساحة الجلال الإلهيّ، والعَظَمة الرّبّانيّة؛ وهو اتِّخاذُ النّاس إلهين من دون الله، شريكَيْن له سبحانه، بدأَ حوارُه بلفظةٍ تحمل دلالةَ الأدب الرَّفيع، والخُلُقِ العظيم، فقال: ﴿سُبۡحَٰنَكَ﴾.

نُكْتَةُ التَّعْبِيرِ بِالمُضَارِعِ ﴿يَكُونُ﴾:

جاءَ النَّفْيُ بالفِعْلِ المضارعِ في قَوْلِ اللّهِ عزّ وجلّ: ﴿مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أَقُولَ مَا لَيۡسَ لِي بِحَقٍّۚ﴾ دونَ أن يَرِدَ النَّظْمُ القرآنيُّ: (ما كانَ لي أن أقولَ)؛ للإيماءِ إلى مَعْنَى الاسْتِمرارِ فيه، فأفادَ هذا أنَّ هذا القولَ لا يزالُ ممْنوعًا على تطاوُلِ السِّنينَ[3].

وُجُوبُ الِاسْتِمْرَارِ عَلَى تَجَنُّبِ المَقَالَاتِ البَاطِلَةِ وَالِاعْتِقَادَاتِ الفَاسِدَةِ

(1) السّيوطيّ، الإتقان: 2/235 - 236، والكفويّ، الكلّيّات، ص: 516، والزَّبيديّ، تاج العروس: (سبح).
(2) الآلوسّي، روح المعاني: 4/63.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 6/364.

دلالةُ التَّضمين في قوله تعالى: ﴿أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّۚ﴾:

نـأيُ عيسى عليه السلام عمَّا لا حقَّ له في اعتقاده أو قولِه

ذكر أبو البقاء: أنَّ ﴿مَا﴾ مفعول على تضمين ﴿أَقُولَ﴾ معنى (أدَّعي)، ومثله السَّمين الحلبيّ[1]، وقد تجيء هذه الصّيغة فيما لا ينبغي ولا يحسنُ مع إمكانه، ومنه قولُ الصّديق رضي الله عنه: "ما كان لابن أبي قحافة أن يصلّي بين يديّ رسول الله ﷺ"، ثمّ قال: ﴿إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ﴾، فوفّقَ الله عيسى عليه السلام لهذه الحجّة البالغة"[2]، وهذا الّذي نفاه السّياقُ على لسان عيسى عليه السلام، يؤكّد براءتَه ممّا قالوا، وانبتاتَه عمّا زعموا ظلمًا وزورًا.

بلاغةُ المجاز المُرسَل، في قوله تعالى: ﴿مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّۚ﴾:

بـــراءة عيسى عليه السلام مـن فِريـة النَّصارى

في قوله: ﴿مَا يَكُونُ﴾ مجاز مُرسَل علاقتُه المسبّبيَّةُ، والأصلُ: ما يجوز لي، والجوازُ سببٌ في (الكون)، فنفى المُسبَّبَ وأراد السَّبَبَ، وهو أبلغُ في هذا المقام مِن نفي السَّبب، مسارعةً منه عليه السلام إلى نفي ما نُسب إليه منَ النَّصارى.

وجهُ إيثار ﴿لَيْسَ﴾ على الفعل المنفيّ:

مـلـمـحـيّـةُ الاستئناف لنفي الاتّهام، وظهورِ دلالته، وتعظيمِ الـمُـسـتـحـقِّ للمقام

في قوله تعالى: ﴿مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّۚ﴾، نجد "لفظ ﴿مَا﴾ عبارةً عنِ القولِ المذكورِ؛ أي: (ما يستقيم، وما ينبغي لي أن أقول قولاً لا يحِقّ لي أن أقوله)، وإيثارُ ليس على الفعل المنفيِّ؛ لظهور دلالتِه على استمرار انتفاءِ الحقيّة، وإفادةِ التّأكيد بما في حيِّزه منَ الباء، فإنّ اسمَه ضميرُه العائدُ إلى ﴿مَا لَيْسَ﴾، وخبرَه ﴿بِحَقٍّۚ﴾، والجارّ والمجرور، فيما بينهما، للتّبيين، كما في:

(1) العكبريّ، التّبيان: 1/471، والسّمين، الدّرّ المصون: 4/512.

(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/262. والحديث أخرجه البخاري، الحديث رقم: (1201، 1204) مفرّقًا، ومسلم، الحديث رقم: (421)، وأبو داود، الحديث رقم: (940)، والنّسائيّ، الحديث رقم: (793) باختلاف يسير، وابن ماجه، الحديث رقم: (1035) مختصرًا، وأحمد، الحديث رقم: (22807).

(سُقياً لك) ونحوه"[1]، ويُلمحُ في قوله تعالى: ﴿مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أَقُولَ﴾ استئنافٌ مُقرِّرٌ للتّنزيه ومبيّن للمُنزَّه منه، وفي هذا بلاغةُ استيضاح، ويقينُ إيضاح.

سِرُّ التَّعبير بقوله: ﴿أَنۡ أَقُولَ﴾ دون عبارة: (لم أقله):

اتِّساقُ التّركيب، وانسجامُه مع المعنى

عَدَل بالتَّعبير بالجملة الكريمة: ﴿أَنۡ أَقُولَ﴾ عن قوله: (لم أقله)؛ وذلك للمُبالغة في التَّبرئة من ذلك؛ إذ نفى أن يوجد استحقاقٌ له به، أن يقول ذلك القولَ، وذلك أبلغُ، فنفى أنْ يُباح له أن يقول ما لا يحقُّ له، فلا يحقُّ له دعوةُ النّاس إلى عبادته، وظهر ذلك من خلال العُدول عنِ القول المباشر، والنَّفي بـ"ليس"، واقترانِ الخبر بالباء، وهذا تأكيدٌ في غاية البلاغة، وأدَّتِ الأدواتُ النَّحويّة الكثيرَ منَ الاتِّساق والانسجام بين المعنى والتَّركيب.

نُكْتَةُ التَّعْبِيرِ بِـ﴿لِيٓ﴾ مِنْ قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿مَا لَيۡسَ لِي بِحَقّٖۚ﴾:

بُعْدُ عِيسَى عليه السلام عَنْ طَلَبِ مَا لَيْسَ لَهُ بِحَقٍّ؛ مُشْعِرٌ بِطَلَبِهِ مَا هُوَ حَقٌّ لَهُ

جاءَ التَّعبيرُ بقولِ اللّهِ سُبحانَهُ: ﴿قَالَ سُبۡحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أَقُولَ مَا لَيۡسَ لِي بِحَقّٖۚ﴾ دونَ أن يَرِدَ النَّظْمُ القرآنيُّ: (ما لَيْسَ بحقٍّ)؛ لكونِ الأوَّلِ أخصَّ، ونفيُ الأخصِّ لا يسْتَلْزِمُ نفيَ الأَعَمِّ، فكانَ لفظُ الآيةِ دالًّا على أنَّه يطلبُ ما هو حقٌّ لَهُ.

دِلَالَةُ البَاءِ فِي ﴿بِحَقّٖۚ﴾:

عِظَمُ حَقِّ اللهِ تَعَالَى فِي أُلُوهِيَّتِهِ يُوجِبُ المُبَالَغَةَ فِي نَفْيِ جَمِيعِ مَا يُخِلُّ بِهَذَا الحَقِّ

الباءُ في ﴿بِحَقّٖۚ﴾ مِنْ قَوْلِ اللّهِ سُبحانَهُ: ﴿مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أَقُولَ مَا لَيۡسَ لِي بِحَقّٖۚ﴾ صِلَةٌ[2] يُرادُ بها التَّوكيدُ، وأصلُ التَّركيبِ: ما لَيْسَ لي حَقًّا، والغرضُ مِنَ التَّوكيدِ المبالَغَةُ في نَفْيِ الإخلالِ بحقِّ الألوهيَّةِ عَنْهُ؛ لِعِظَمِ حقِّ اللّهِ تعالَى.

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/101.

(2) درويش، إعراب القرآن وبيانُهُ: 3/52.

عِلَّةُ فَصْلِ قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَۚ﴾ عَمَّا قَبْلَهُ:

عُمُومُ عِلْمِ اللهِ تَعَالَى بِالظَّوَاهِرِ وَالخَفِيَّاتِ

فُصِلَ قولُ اللّه ﷻ: ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَۚ﴾ عن قولِهِ سُبحانَهُ قَبْلُ: ﴿إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥۚ﴾؛ لوقوعِه تَعْليلًا[1] بالأولويَّةِ والأَحْرَويَّةِ، وذلك أنَّه إذا كان اللّهُ ﷻ يعْلَمُ ما في النَّفْسِ؛ فَعِلْمُهُ بالقَوْلِ أَوْلَى وأَحْرَى.

دلالةُ التَّعبير بلفظ (النَّفْس) في قوله: ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَۚ﴾:

دلالةُ النَّفس على الأمور المغيّبة

المراد بقوله ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَۚ﴾: تَعلَمُ ما عِندي ولا أعلَم ما عِندك، وتعلَمُ حقيقتي ولا أعلمُ حقيقتك، أو تعلَمُ مغيبي ولا أعلَمُ مَغيبك، فكان فحوى ذلك: تعلَمُ ما أعلَمُ ولا أعلَمُ ما تعلَمُ[2]، وهو من فصيح الكلام وبيِّنه[3].

وخصَّ النَّفس بالذِّكر؛ لأنَّها مَظِنَّةُ الكتمِ، والانطواءِ على المعلومات[4].

وجهُ سَوقِ صور تعليلات عيسى عليه السلام:

ظهور عبوديّة المسيح لربّه، وبراءته من كلّ اتّهام، وطهارة باطنه وظاهره

قول عيسى عليه السلام: ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَۚ﴾، فيه تقرير أنَّ اللّه العليم، بما تكنّه الأنفس، وما تخفي الصّدور، يعلمُ براءةَ نفسِ عيسى وقلبِه، من كلّ شائبة تحول بينه وبين ربّه، وقد أورد الشّعراويّ ثلاث صور في هذه الآية: "الصّورة الأولى: هي قوله ﷻ: ﴿سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّۚ﴾، والصّورة الثّانية: هي قول عيسى: ﴿إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥۚ﴾، والصّورة الثّالثة:

(1) البقاعي، نظم الدرر: 6/365.

(2) الزّجّاج، معاني القرآن: 2/223، والواحديّ، التّفسير البسيط: 7/601، والنّسفيّ، التّيسير في التّفسير: 5/540.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/115.

(4) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/263.

هي: ﴿تَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِي وَلَآ أَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِكَۚ﴾"[1]، وهذه الدّلائل أوردها القرآنُ على لسان عيسى عليه السلام؛ لتبرئة ساحته العقائديّةِ، ومشاعره الإيمانيّةِ، مِن أن تُزَنَّ بريبة، من هذا النّبيِّ المعصوم، الّذي هو روح اللّه، وكلمته.

دِلَالَةُ الطِّبَاقِ فِي قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿تَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِي وَلَآ أَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِكَۚ﴾:

في قَوْلِ اللّهِ عز وجل: ﴿تَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِي وَلَآ أَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِكَۚ﴾ طباقُ سَلْبٍ بين ﴿تَعۡلَمُ﴾ و﴿وَلَآ أَعۡلَمُ﴾، ونُكْتَتُهُ بيانُ شدَّةِ التَّمايُزِ بينَ الخالقِ والمخلوقِ في الأوصافِ كما أنَّ بينَهُما تمايُزًا في الذّاتِ.

التَّبَايُنُ بَيْنَ الخَالِقِ وَالمَخْلُوقِ ثَابِتٌ فِي الذَّاتِ وَفِي الصِّفَاتِ

عِلَّةُ فَصْلِ قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ﴾ عَمَّا قَبْلَهُ:

فُصِلَ قولُ اللّه عز وجل: ﴿إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ﴾ عن قولِه جل جلاله قَبْلُ: ﴿تَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِي وَلَآ أَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِكَۚ﴾؛ لوقوعِه تَعْليلًا[2]، فهو تعليلٌ للتَّعْليلِ، وذلك أنَّ مَنِ اتَّسَعَ عِلْمُهُ لمعرفَةِ الغيوبِ حَريٌّ أن يكونَ عالِمًا بِخبايا النُّفوسِ.

مَنِ اتَّسَعَ عِلْمُهُ لِمَعْرِفَةِ الغُيُوبِ حَرِيٌّ أَنْ يَكُونَ عَالِمًا بِخَبَايَا النُّفُوسِ

دلالةُ الفاصلة وبلاغتُها في قوله: ﴿إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ﴾:

أكّد اللّهُ علمه تعالى للغيب بأربعة مُؤكِّدات: بلفظ (إنَّ) المؤكّدة، وبضميرِ الفَصل ﴿أَنتَ﴾، بَينَ طَرَفَي الجُملةِ، وهذا يدُلُّ على الحَصرِ، يعني: (أنت لا غيرُك علّامُ الغيوبِ)[3]، وبصيغة المبالغة الَّتي تُعدُّ مُبالغةً بالنّسبة للعبيد، ولكنَّها حقيقةٌ فوق ما نتصوّر بالنِّسبة للّه تعالى العليم الحكيم، وإنَّ هذا أقصى ما تتَّسع له لغتُنا القاصرةُ عنِ التَّعبير عنِ الحقائق الإلهيَّة.

إِثْبَاتُ عِلْمِ الغيبِ لله عز وجل، تتويجٌ لعلمه بتلك الغيوب المذكورة

وبجمع ﴿ٱلۡغُيُوبِ﴾، فلم يُفردِ الغيب، بل قال: الغيوب بكلِّ أنواعها؛

(1) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 6/3472.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 6/365.
(3) ابن عثيمين، تفسير القرآن الكريم - سورة المائدة، ص: 2/548.

ما وقع في الماضي، وما يقع في المستقبل، وما يتعلَّق بالكائنات كلِّها[1]، والدّاعي البلاغيُّ لهذا التَّوكيدات: هو أنَّ مضمونَ الكلامِ حقيقةٌ عظيمةٌ؛ ومن حقِّ الحقائق العظيمة أن يُعبَّر عنها بأسلوبٍ فخمٍ عظيمٍ مثلِها.

وجهُ المبالغة في ﴿عَلَّٰمُ﴾ بدلًا من (عَالِم) في قوله: ﴿إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ﴾:

أمّا صيغة المبالغة في اسم الفاعل ﴿عَلَّٰمُ﴾ بدلًا من عالِم فللتّكافؤ مع كثرَة المعلوم؛ وهو ﴿ٱلۡغُيُوبِ﴾، وهذه هي المرّة الثّانية في سورة المائدة، تأتي فيها كلمة: ﴿ٱلۡغُيُوبِ﴾ جمعًا للغيب، وفي كلتا المرَّتين، قوبل هذا الجمع ﴿ٱلۡغُيُوبِ﴾ بصيغة المبالغة ﴿عَلَّٰمُ﴾، أمّا إذا جاء الغيب مفردًا فإنّ القرآن يقابله بـ (عالِم) لا علّام، وذلك كثير في التّنزيل الحكيم، ومنه قوله تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا ٢٦﴾ [الجنّ: 26][2].

أنواع المشتقّات تتناسب مع السّياقات إفرادًا وجمعًا

نُكْتَةُ جَمْعِ الغُيُوبِ فِي قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ﴾:

جُمِعَ الغَيْبُ علَى ﴿ٱلۡغُيُوبِ﴾ فقالَ سُبحانَهُ: ﴿إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ﴾؛ للإيماءِ إلى أنواعِ الغيوبِ، ما كان مِنْها ماضيًا أو مستقبَلًا، وما تعلَّقَ بالحسّيّاتِ أو المعنويّاتِ، وما كان غَيْبًا في نفسِهِ أو غيبًا بالنِّسبةِ للبَشَرِ جميعًا أو لطوائفَ مِنْهُمْ؛ كلُّ هذا يَعْلَمُهُ اللّه تعالى، وفي هذا إشْعارٌ بعمومِ عِلْمِ اللّه ﷻ، وأنَّه لا تخْفَى عليه خافيةٌ[3].

الإشْعَارُ بِعُمُومِ عِلْمِ اللهِ ﷻ، وَأَنَّهُ لَا تَخْفَى عَلَيْهِ خَافِيَةٌ

مناسبة الفاصلة للسِّياق: ﴿إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ﴾:

جاءتِ الفاصلة تعليلًا لمضمون الجُمَلتين منطوقًا ومفهومًا، وهذا تقريرٌ وتأكيدٌ للجُملتَين: ﴿إِن كُنتُ قُلۡتُهُۥ فَقَدۡ عَلِمۡتَهُۥ﴾ وقوله: ﴿تَعۡلَمُ

النَّص القرآنيّ نصٌّ متكاملٌ مؤتلفٌ، ولو كان من عند غير الله لاختلف

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2408.
(2) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 1/277.
(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 5/2408.

مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَۚ﴾؛ لأنَّ ما انطوَتْ عليه النُّفوسُ مِن جُملة الغيوبِ، ولأنَّ ما يَعلمُه علّامُ الغيوبِ، لا يَنتهي إليه عِلمُ أحدٍ[1].

المتشابه بين آيتي المائدة [110، 116]، من حيث الفصلُ والوصلُ، ومقولُ القول:

الآيتان هما قولُه تعالى: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ﴾ [المائدة: 110]، وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ﴾، والسّؤال المطروح في التّشابه: لمَ خُصَّت كلُّ آية بما فيها منَ الفَصل أو الوَصل، وبما فيها من مَقول القَول؟ والإجابة كالتّالي: الآية الأولى: يسبقها قوله تعالى: ﴿۞يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْۖ قَالُواْ لَا عِلْمَ لَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ١٠٩﴾ [المائدة: 109]، فلمّا كان قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ﴾ بدلًا من قوله: ﴿۞يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ﴾؛ ناسبه الفَصل، أمّا الآية الأخرى فيسبقُها: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾ الآية [المائدة: 110]؛ فلمّا أُريد مواصلةُ حوار الله مع عيسى، بذكر قولٍ آخرَ، والجمعُ بين القولين، ناسبَه الوصلُ بالواو، ولمّا خُتمَتِ الآيات قبل هذه الآية بقوله تعالى: ﴿قَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْۖ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّيٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، وكان أشدَّ مظاهر كفر النَّصارى بعد ذلك إشراكُهم بالله، وأُريد توبيخهم على ذلك، وإقامةُ الحجَّة عليهم، ببيان براءة عيسى عليه السلام مِن ذلك، ناسبه قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ﴾ الآية.

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(أخذ) و(اتَّخذ):

الأخذُ مصدر أخَذتُ بيدي، ويُستعار فيُقال: أخذَهُ بلسانه إذا تكلَّم فيه بمكروه، وجاء بمعنى العَذاب، وأصلُه في العربيَّة الجمعُ. والاتِّخاذُ أخذُ الشَّيء لأمرٍ يستمرّ فيه، مثل: الدّار يتَّخذها مسكنًا، والدّابّة يتَّخذها قِعدة، ويكونُ الاتِّخاذُ التَّسميّةَ والحُكمَ[2]. ومنَ المعلوم أنَّ (أخذ) تدلُّ على فِعل الأخذ بكلِّ طواعيّة وحُبٍّ، وأنَّ (اتَّخذ) تدلُّ على الافتعال

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/693، والرّازيّ، مفاتيح الغيب: 12/466، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 100 - 101/3.
(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 138.

والتَّكلّف، في أمور الحياة العامّة والخاصّة، وأمّا في العبادة باتّخاذ آلهة غيرِ الله، فهو محضُ التّمرّد على الخالق، والخروجِ عنِ الفطرة الّتي فطر الله النّاس عليها، وهذا ما عليه معنى الآية، فهو أمرٌ قائمٌ على التَّكلّفِ، ومخالفةِ المألوفِ الَّذي عليه النّاس، ممّا رضيه الله لعباده، من عبادته تعالى، وعدمِ الشِّرك به.

الأمّ والوالدة:

الأمّ هي: "الوالدة، والجميع: الأمّهات، ويقال: تأمّم فلان أمًّا؛ أي: اتّخذ لنفسه أمًّا. وتفسيرُ الأمِّ في كلّ معانيها: أمّة، لأنّ تأسيسه من حرفين صحيحين، والهاء فيه أصليّة، ولكنّ العرب حذفت تلك الهاء إذا أمنوا اللَّبس"[1]. والأمُّ تدلُّ على الأصل والرِّعاية، والحنان والرَّحمة، والأُمُّ تُطلَق على الوالدة القريبة الَّتي ولدت، والبعيدة الَّتي ولدت مَن ولدته؛ ولهذا قيل لحواء: هي أُمُّنا، وإن كان بيننا وبينها وسائط[2]، أمّا الوالدة فلا تُطلق إلّا على مَن ولدت، والرّضاعة تتعلَّق بها، قال تعالى: ﴿۞وَٱلۡوَٰلِدَٰتُ يُرۡضِعۡنَ أَوۡلَٰدَهُنَّ حَوۡلَيۡنِ كَامِلَيۡنِۖ﴾ ﴿لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةُۢ بِوَلَدِهَا﴾ [البقرة: 233].

التَّسبيح والتَّقديس:

التَّسبيح: قول (سبحان الله)، وهو: "تنزيه لله عن كلّ ما لا ينبغي أن يوصف به، ونصبه في مَوضِع فعل على معنى: تسبيحًا لله، تريد: سبّحتُ تسبيحًا لله؛ أي: نزّهتُه تنزيهًا"[3]، والتَّسبيح: مُشتقٌّ منَ السَّبح، وهو المرُّ السَّريعُ في الماء أو في الهواء، فالمُسبِّحُ مُسرعٌ في تنزيه الله وتبرئتِه منَ السّوء، والتَّقديس: التَّطهير والتَّعظيم، ووَصْفُه بما يليق به من صفات الكمال، فيكونُ التَّسبيحُ نفيَ ما لا يليق، والتَّقديسُ إثباتَ ما يليق[4]، وقال بعضهم: "بين التّسبيح والتّقديس فرقٌ، وهو أنّ التّسبيحَ هو التّنزيه عنِ الشّرك والعجز والنّقص، والتّقديس هو التّنزيه عمّا ذكروه عنِ التّعلّق بالجسم، وقبول الانفعال، وشوائب الإمكان، وإمكان التّعدّد في ذاته وصفاته، وكونِ الشّيء من كمالاته بالقوّة"، والتّقديس أعمُّ، إذ كلُّ مُقدِّسٍ مُسَبِّحٌ من غير عكس"[5].

(1) الخليل، العين: 8/434.
(2) المناويّ، التّوقيف، ص: 62.
(3) المناويّ، التّوقيف: 3/151.
(4) النّسفيّ، التّيسير في التّفسير: 2/60، والكفويّ، الكلّيّات، ص: 297، وطنطاويّ، التّفسير الوسيط: 1/92.
(5) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 124.

﴿مَا قُلۡتُ لَهُمۡ إِلَّا مَآ أَمَرۡتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمۡۚ وَكُنتُ عَلَيۡهِمۡ شَهِيدٗا مَّا دُمۡتُ فِيهِمۡۖ فَلَمَّا تَوَفَّيۡتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيۡهِمۡۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ١١٧﴾ [المائدة: 117]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

نفيُ عيسى لتُهمِ الألوهيّة، وتأكيدُ بلاغه أوامرَ الله، إلى أنْ رفعه الله

لمّا نَفى عيسى عليه السلام عن نفسه ما يستحقُّ النَّفيَ، ودلّل عليه في الآية السّابقة، أثبتَ ما قاله لهم على وجه مصرّح بنفي غيرِه في هذه الآية؛ ليكونَ ما نُسب إليه من دعوى الإلهيَّة منفيًّا مرَّتين: إشارةً وعبارةً، فقال مُعبِّرًا عنِ الأمر بالقول مُطابقةً للسُّؤال، وفسّر بالأمر بيانًا؛ لأنَّ كلَّ ما قاله من مُباح أو غيره دائرٌ على الأمر، من حيث الاعتقادُ؛ بمعنى: أنَّ المخاطَبَ بما قاله الرَّسولُ مأمورٌ بأن يعتقدَ فيه أنَّه بتلك المَنزلةِ، لا يجوز أن يعتقدَ فيه أنَّه فوقَها ولا دونَها، يعبُدُ اللّه تعالى بذلك: ﴿مَا قُلۡتُ لَهُمۡ إِلَّا مَآ أَمَرۡتَنِي بِهِۦٓ﴾[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿شَهِيدٗا﴾: الشَّهادَةُ: الحُضورُ والمُعايَنَةُ، يُقالُ: شَهِدَ الشَّيءَ: إذا حَضَرَهُ وعايَنَهُ، وتُطلَقُ بِمعنى الإخبارِ والإعلام، يُقالُ: شَهِدَ بالأَمرِ: إذا أَخبَرَ به وأَعلَمَ غَيرهُ به، فالشَّهادَةُ: إخبارٌ عن عِلمٍ يَحصُلُ عن طَريقِ الحُضورِ أو الرُّؤيَةِ ونَحوِ ذلك. ومِن مَعانيها: العِلمُ والرُّؤيَةُ والإدراكُ[2]، والمعنى هنا: شاهدًا عليهم، وعلى أفعالهم وأقوالهم.

2) ﴿تَوَفَّيۡتَنِي﴾: وفَى: كلمةٌ تَدلُّ على إكمالٍ وإتمام. مِنه الوَفاء: إتمامُ العَهد وإكمالُ الشَّرط. ووَفَى: أَوفَى، فهو وفيٌّ. ويقولونُ: أَوفيتُك

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 365 - 366/6، والسّريح، التّناسب بين الآيات: 2/133.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن الأثير، النّهاية، والزّبيدي، تاج العروس: (شهد).

الشَّيءَ، إذا قَضيتَه إيّاه وافيًّا. وتَوفَّيتُ الشَّيء واستوفيته؛ إذا أخذته كلَّه حتَّى لم تترك منه شيئًا. ومِنه يُقال للميِّت: تَوفّاه اللّه[1]؛ والمعنى: "فلمّا انتهى أجل إقامتي الّذي قَدَّرته بينهم"[2].

3) ﴿ٱلرَّقِيبَ﴾: الحارِسُ، يُقالُ: رَقَبَ الشَّيءَ، يَرقُبُهُ، وراقَبَهُ، مُراقَبَةً ورِقابًا؛ أي: حَرَسَهُ، ورَقيبُ القَومِ: حارِسُهُم. ويأتي بمعنى الحافِظِ والرّاعي والأَمينِ والمُنتَظِرِ والرّاصِدِ[3]. "والرّقيبُ اسمٌ مِن أسماء اللّه الحسنى، يعني: أنّه ﷻ المُطّلعُ على ما أكنّته الصّدور، القائمُ على كلّ نفس بما كسبَت، الحافظُ للمخلوقات، المراقبُ لجميع أحوال الإنسان، والمطّلعُ على سرائره"[4].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

تتضمّن الآية قولَ عيسى عليه السلام: ما قلتُ لهم إلّا ما أوحيتَه إليَّ، وما أمَرْتَني به؛ أن يَعبدوك؛ ويفردوك بالتّوحيد والتّقرّب، فإنَّك ربّي وربُّهم، وكنتُ شاهدًا على أعمالِهم حينَ كنتُ بين أظهرهم، فلمّا قبَضْتَني برَفعي إلى السَّماء حيًّا، كنتَ أنتَ المُطَّلِعَ على سرائرهم، والعالِمَ بما فعلوه في ظواهرهم وبواطنهم، وأنتَ على كلِّ شيءٍ شهيدٌ، لا تخفى عليك خافيةٌ في الأرض، ولاتغيبُ عنك غائبةٌ في السّماء، وأنت الّذي تُجازي عبادَك بما تعلَمُه فيهم من خير أو شرّ.

تـأكـيـد عيسى أنّـه بلّغ رسالة ربّـه كـما أمـر، وأنّـه بـريءٌ مِن تحريفهم بعد رفعه إليه

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

عِلَّةُ فَصْلِ قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ﴾ عَمَّا قَبْلَهُ:

فُصِلَ قَوْلُ اللّهِ ﷻ: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ﴾ عَمّا قَبْلَهُ؛ لوقوعِهَ استئنافًا مسوقًا لبيانِ ما صدَرَ مِنْهُ عليه السلام، حيثُ إنَّه قَدْ أَدْخَلَ

نَـفْـيُ عِـيـسَى عليه السلام عَـنْ نَفْسِهِ صُـدُورَ جَـمِـيعِ الأَقْوَالِ المُغَايِرَةِ لِلْمَأْمُورِ بِهِ

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، والزّبيدي، تاج العروس: (وفى).
(2) لجنة من علماء الأزهر، المنتخب في تفسير القرآن الكريم، ص: 170.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب، والزّبيدي، تاج العروس: (رقب).
(4) حسين المهديّ، صيد الأفكار: 2/85.

فيهِ عَدَمَ صدورِ القولِ المذكورِ عَنْهُ - ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ - علَى آكَدِ وجهٍ وأَبْلَغِه؛ وذلك أنَّه نفَى صدورَ جَميعِ الأقوالِ المغايِرَةِ للمأمورِ بهِ، فانْدَرَجَ فيهِ انتفاءُ صدورِ القولِ المذكورِ عَنْهُ قَبْلُ دخولًا أوَّليًّا[1].

دلالةُ تكرارِ ﴿مَا﴾:

لفظ (ما) له مَعانٍ عِدَّةٌ يُجلّيها السِّياقُ، وتستبين بها الدّلالةُ

تكرَّرت ﴿مَا﴾ في قوله: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ﴾ مرَّتين؛ مرَّة على أنَّها نافيةٌ، والأُخرى على أنَّها اسمٌ موصولٌ، وهذا من براعة العَربيَّة في استعمال اللَّفظ لمعانٍ عدَّةٍ يُجلّيها السّياقُ، بالإضافة إلى الأثر الصّوتيّ الَّذي يتركُه في التّالي للقرآن، مِن حيث لا يدري، فالاسمُ الموصول (ما) الثّانية تعود على القول في قوله: ﴿مَا قُلْتُ﴾، ودلالتُهما مُترابطةٌ، وتعني نصيَّةَ القول المأمور بتبليغه للنّاس، وأنّها مُطابقةٌ لما قاله تمامًا.

دلالةُ التَّصريحِ بالقول في الآية: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ﴾:

الإتيانُ بالجوابِ مُوافقاً للسُّؤال من بَلاغة البيان في الآيةِ الكريمةِ

هذا ارتقاءٌ في الجواب، فهو استئنافٌ بمنزلة الجواب الأوَّل، وهو: ما يكون لي أن أقولَ .... إلخ، صرَّح هنا بما قاله؛ لأنَّ الاستفهامَ عن مقاله، والمعنى: ما تجاوزتُ[2]، وقد كانَت "إجابتُه توبيخًا لمَن ادّعى غيرَ إجابته، ودليلًا على أنّ قومَه غيّروا بعده، وبدّلوا، وادّعوا عليه كذبًا وبهتانًا لم يقله. وإنكارُه بعد سؤاله أشدُّ في التّوبيخ، وأبلغُ في التّكذيب"[3].

عِلَّةُ وضْعِ القَولِ مَوضِعَ الأمر في قوله تعالى: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ﴾:

حُسنُ الأدب في التّعليل، وتبليغُ المسيح عليه السلام ما أُمِر به

الأصلُ في الجُملة الكريمة أن يُقال: ما أمرتُهم إلّا بما أمرتَني به، إلّا أنَّه وضع القول مَوضِع الأمر؛ نُزولًا على موجب الأدب الحَسَن؛

(1) الآلوسي، روح المعاني: 4/64.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/115.
(3) حجازيّ، التّفسير الواضح: 1/582.

وإنَّما عدل لئلّا يجعلَ نفسَه وربّه آمِرَيْنِ معًا، ودلَّ على أنَّ الأصلَ ما ذكر (أنْ) المفسّرة، ويضاف إلى ذلك أنَّه اختير ﴿أَمَرْتَنِي﴾ على (قلت لي) مُبالغةً في الأدب أيضًا[1]، وفي الجملة مَلمَحٌ مهمٌّ، وهو الإشارة إلى أَن المسيحَ مأمورٌ، وأنَّه لا يقول شيئًا مِن عنده، وإنَّما هو رسولٌ يبلّغ ما أمره به ربُّه، وقد بلَّغ رسالةَ ربِّه[2]، فقال: "لم أقل لهم إلّا ما أمرتني به، بعبادة اللّه ربّي وربّكم، وإنّي عبدٌ من عبادك مثلهم، وكنتُ المراقبَ على أحوالهم، أشهدُ على ما يفعلون، وأمنعُهم منَ القول الباطل، وأطالبُهم بقول الحقّ"[3].

دلالةُ قصْر القَلبِ، في قوله تعالى: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ﴾:

هذه الجملةُ في الآية الكريمةِ مثالٌ لقَصْر القَلبِ، لا قصرَ الإفراد؛ فإنَّه ليس المرادُ من قول عيسى عليه السلام: لم أزد على ما أمرتني به، بلِ المراد أنَّني قُلت ما أمرتني به، وهذا يقتضي أنَّ قصرَ القَلب ليس فيه نفيٌ لغير المذكور، وليس كذلك، والمراد أنَّني قلتُ ما أمرتني به صحيح، ولا ينافي ذلك أن يكون نفيُ الزّيادة عليه، فهذه هي حقيقةُ القَصر، نعم هو قصرُ قلبٍ لغير ما ذكره، وهو أنَّه واقع في مقابلة قول النَّصارى عنه أنَّه قال: ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾، فإنَّ نسبتَهم ذلك إليه، لا تجتمع مع نسبتِهم إليه الاعترافَ بالوحدانيَّة[4].

الطَّاعةُ وحسنُ الأدب مع اللّه ﷻ، مِن مأمورات الشّرائعِ

سرُّ التَّعبير بأسلوب النَّفي والاستثناءِ في قوله: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ﴾:

الأسلوبُ الَّذي استعمله عيسى عليه السلام (المُتكلِّم) في نقل المعنى إلى

دعوى ألوهيّة المسيح وأمّه غريبة عجيبةٌ تقتضي توكيدَ نفيها

(1) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 12/466، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/417، والآلوسّي، روح المعاني: 4/64، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/116.

(2) الخطيب، التّفسير القرآنّي للقرآن: 4/84.

(3) الزّحيلّي، التّفسير الوسيط: 1/521.

(4) القزوينيّ، الإيضاح: 3/41، والسّبكّي، عروس الأفراح: 1/412 - 413، والمراغيّ، علوم البلاغة، ص: 157، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2409.

السّامع هو أسلوبُ النَّفي والاستثناء؛ وعليه لا يتأتَّى هنا تصوُّر حالٍ للمُخاطب؛ لأنَّ عيسى عليه السلام، يخاطب ربَّ العزَّة، وقد ألقى الخبر مُؤكَّدًا؛ لأنَّه بصدد الإجابة عن أمرٍ عجيبٍ، ودعوى غريبة، وهي اتِّخاذُه وأمَّه إلهين من دون الله، وهل قال ذلك للنّاس؟ إنَّها دعوى غريبة تقتضي التَّوكيد دفعًا لتلك الغرابة[1]، ومن أجل ذلك جاء القصرُ بالنَّفي والاستثناء، وفضلًا عن ذلك، فإنَّ هناك دلالةً أُخرى يكشف عنها التَّركيبُ، فعيسى عليه السلام يقرُّ ويعترفُ بأنَّه عبدٌ مأمور، ولم يقُل لقومه إلّا ما أمره الله تعالى.

دِلَالَةُ المَجَازِ المُرْسَلِ المُرَكَّبِ:

تَكْذِيبُ مَنِ اتَّخَذَ عِيسَى عليه السلام وَأُمَّهُ إِلَهَيْنِ مَعْبُودَيْنِ

الجملَةُ في قولِ اللهِ سُبحانَهُ حِكايةً عَنْ عيسَى عليه السلام: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ﴾ مجازٌ مرسَلٌ مركَّبٌ؛ إذِ الجملَةُ خبريَّةٌ، إلّا أنَّها خرجَتْ عن أصلِ دِلالَتِها؛ فَلا يُرادُ بِها فائدَةُ الخَبرِ ولا لازِمُها، وإنَّما المقصودُ أحدُ أمرَيْنِ:

أوَّلُهُما: تكذيبُ مَنِ اتَّخذَ عيسَى عليه السلام إلهًا معبودًا.

والآخَرُ: الشَّهادَةُ بذلكَ على أُمَّتِهِ فيما أَمَرَهُم بِهِ مِنْ عِبادَةِ اللهِ سُبحانَهُ[2].

دِلَالَةُ ﴿أَنِ﴾ فِي قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمۡۚ﴾:

أَثَرُ دِلَالَاتِ الحُرُوفِ فِي تَوْجِيهِ المَعَانِي القُرْآنِيَّةِ

﴿أَنِ﴾ في قَوْلِهِ سُبحانَه: ﴿أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمۡۚ﴾ يجوزُ أن تكونَ مخفَّفةً مِنَ الثَّقيلَةِ، واسمُها ضميرُ الشَّأْنِ محذوفٌ، ويَجوز أن تَكونَ تفسيريَّةً؛ لتقدُّمِ ما فيهِ معنَى القولِ دونَ حروفِهِ وهو (أَمَرْتَني)[3]، فالقولُ الذي قالَهُ عيسَى عليه السلام هوَ القَوْلُ الذي أَمَرَهُ اللهُ سُبحانَهُ بِقولِهِ[4].

(1) السّامرائي، لمسات بيانيّة، ص: 61 - 62.
(2) الماوردي، النكت والعيون: 2/89.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 6/366.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 7/116.

دِلَالَةُ التَّعْبِيرِ بِالِاسْمِ الأَحْسَنِ (الله) فِي قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمۡۚ﴾:

ادِّعَاءُ الأُلُوهِيَّةِ لِمَنْ لَمْ يَجْمَعْ صِفَاتِ الجَلَالِ وَالجَمَالِ وَالكَمَالِ اعْتِدَاءٌ عَلَى مَقَامِ الأُلُوهِيَّةِ

عُلِّقَ فعلُ العبادَةِ ﴿ٱعۡبُدُواْ﴾ بالاسْمِ الأحسنِ (اللّه) في قولِ اللّه ﷻ: ﴿أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمۡۚ﴾، إيماءً إلى عِظَمِ شأنِ العبادَةِ وأنَّ الذي يستحقُّها هوَ الجامِعُ لصفاتِ الجلالِ والجمالِ والكمالِ، فادِّعاؤُها لِمَنْ لَم يجْمَعْ هذه الأوصافَ اعتِداءٌ على مقامِ الألوهيَّةِ[1].

المعنى العامّ لقوله تعالى: ﴿أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمۡۚ﴾:

الدَّعوةُ إلى إخلاص العبوديّة لله تعالى أُولى المهامّ في البلاغ عن الله

في الجملة السّامية، أقام اللّه تعالى الدَّليلَ على استحقاقه وحدَه للعبادة؛ أي: أنَّه هو المستحقُّ للعبادة؛ فقال على لسان عيسى عليه السلام: أنَّه هو وحده الَّذي خلقني، فأنا مخلوقٌ، فكيف أكون إلهًا؟! وهو الَّذي خلقكم وحده، فكيف تعبدون غيره؟! وفي هذا التَّعبير أثبتَ وحدانيَّة الخَلْق والتَّكوين، ووحدانيَّةَ الذّات الإلهيّة المُتفرّدة بالجلال، كما أثبتَ تصريحُ اللَّفظ وحدانيَّةَ العبادة، وبراءةَ عيسى عليه السلام ممّا ادَّعوه فيه[2].

نُكْتَةُ البَدَلِ فِي قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمۡۚ﴾:

مِنْ طَرَائِقِ القُرْآنِ الِاسْتِدْلَالُ بِتَوْحِيدِ الرُّبُوبِيَّةِ عَلَى تَوْحِيدِ الأُلُوهِيَّةِ

﴿رَبِّي﴾ مِن قَوْلِ اللّه ﷻ: ﴿أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمۡۚ﴾ بدلٌ مِنْ ﴿ٱللَّهَ﴾، ويجوزُ أن يكونَ صفةً لهُ، ونُكْتَةُ البدَلِ أو الصِّفَةِ الإيماءُ إلى أنَّ اللّه سُبحانَهُ تعالَى كما استحقَّ العبادَةَ لذاتِهِ؛ يستحقُّها أيضًا لإنعامِهِ وإحسانِهِ إلى الخَلْقِ[3]، وفيه استدْلالٌ بتوحيدِ الرُّبوبيَّةِ على توحيدِ الألوهيَّةِ.

نُكْتَةُ تَقْدِيمِ إِثْبَاتِ رُبُوبِيَّةِ اللهِ تَعَالَى لَهُ عَلَى إِثْبَاتِ رُبُوبِيَّةِ اللهِ سُبْحَانَهُ لَهُمْ:

في قولِ اللّه ﷻ حكايةً عَنْ عيسَى عليه السلام: ﴿أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي

(1) البقاعي، نظم الدرر: 6/366.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/417، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2409.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 6/366.

﴿وَرَبَّكُمۡۚ﴾ قُدِّم إثباتُ ربوبيَّة الله تعالَى لعيسَى عليه السلام علَى إثباتِها لهُمْ؛ لثلاثِ نكاتٍ:

أحدُها: أن يكونَ الكلامُ جاريًا على طريقَةِ التَّدَلّي.

ثانيها: أَنْ يُسْتَدَلَّ بربوبيَّةِ اللّهِ تعالَى لهُ على ربوبيَّتِه لهم مِنْ بابِ أَوْلَى وأحْرَى، فيُكونُ قولُهُ بعدُ: ﴿وَرَبَّكُمۡۚ﴾ بمنزِلَةِ التَّأكيدِ والتَّقويةِ.

ثالثها: لأنَّ النَّصارَى غَلَوا فيه عليه السلام فجعَلوهُ إلهًا، فكان الأنسَبُ إثباتَ كونِهِ مربوبًا قبْلَ إثباتِ كونِهِمْ مربوبينَ؛ ردًّا لهذه الفِرْيَةِ العظيمَةِ.

الرَّدُّ عَلَى غُلُوِّ النَّصَارَى فِي عِيسَى عليه السلام نَاسَبَهُ إِثْبَاتُ كَوْنِهِ مَرْبُوبًا قَبْلَ إِثْبَاتِ كَوْنِهِمْ مَرْبُوبِينَ

سِرُّ تَقْدِيمِ الجَارِّ وَالمَجْرُورِ ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾ في الجملة:

قُدِّمَ الجارُّ والمَجْرورُ ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾ في قَوْلِ اللّهِ سُبحانَهُ: ﴿وَكُنتُ عَلَيۡهِمۡ شَهِيدٗا مَّا دُمۡتُ فِيهِمۡۖ﴾ لإرادَةِ القَصْرِ، أي: إنَّما كانَ عِلْمي بشأنِهم حالَ وجودي بينهم، أمّا بعدَ أن رفَعْتَني إلَيْكَ فلا عِلْمَ لي بما أَحْدَثوه مِنَ الكذِبِ والافْتِراءِ.

وَوَجْهُ القَصْرِ في ﴿وَكُنتُ عَلَيۡهِمۡ شَهِيدٗا مَّا دُمۡتُ فِيهِمۡۖ﴾ أنَّ عيسَى عليه السلام لمّا فهِمَ مِنْ سُؤالِ اللّهِ عز وجل لهُ أنَّ أتباعَهُ قد غَلَوْا فيه؛ نَزَّه اللّهَ سُبحانَهُ مِنْ ذلك، وأخبرَه بما أمرَ قومَهُ بهِ في حقِّ ربِّه عز وجل مِنَ الحقِّ الواجبِ، واعتذَرَ عن نفسِهِ بما يُؤَكِّدُ ما تقدَّم نفيًا وإثباتًا، فقال: ﴿وَكُنتُ عَلَيۡهِمۡ شَهِيدٗا مَّا دُمۡتُ فِيهِمۡۖ﴾[1].

اعْتِذَارُ عِيسَى عليه السلام عَنْ نَفْسِهِ بِمَا يُؤَكِّدُ مَا تَقَدَّمَ نَفْيًا وَإِثْبَاتًا

سِرُّ التَّعبير بلفظ ﴿شَهِيدٗا﴾ في قوله تعالى: ﴿وَكُنتُ عَلَيۡهِمۡ شَهِيدٗا﴾:

الشَّهيد في الآية، بمعنى الرَّقيب، كالشّاهد على المشهود عليه؛ أي: (أمنَعُهم من قول ذلك، وأن يتديَّنوا به)، ونسب لنفسه الشّهادةَ؛ لأنّه لا يرى سوى ظاهر أعمالهم، وأَتَى بصيغة (فَعيل) للمُبالغة؛ بمعنى: كثير الحِفظ عليهم، والملازمةِ لهم، و(ما) ظرفيَّة

رُسل الله تعالى شهداءُ على أممِهم ما داموا فيهم

(1) البقاعي، نظم الدرر: 6/366.

و(دام) تامَّة؛ أي: ما بقيتُ فيهم؛ أي: شهيدًا في الدُّنيا، ويجوز حملُ معنى الشَّهيد على الرُّؤية، ويجوز حملُه على العِلم، ويجوز حملُه على الكلام؛ بمعنى: الشَّهادة، فالشَّهيد من أسماء الصِّفات الحقيقيَّة على جميع التَّقديرات[1].

أثرُ المقابلة والمشاكلة في ثراء المعنى وتكامله:

المشاكلة من مباحث البديع الدّقيقة، ولها أثر مهمّ في هذه الآية

في قوله تعالى: ﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ﴾، وقوله: ﴿وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾، أسلوبُ مقابلةٍ ومشاكلةٍ[2]، أعطى عمومَ شهادة الله، وإحاطةِ علمه ﷻ في حال وجود عيسى عليه السلام، وفي حال غيابه، فجعل عيسى عليه السلام ربَّه شاهدًا على ما جرى بينهم بأسلوبِ المدحِ[3].

سِرُّ العدولِ من لفظ (الشَّهيد) إلى لفظ ﴿ٱلرَّقِيبَ﴾ في الآية:

استعمالُ أدقّ الألفاظ لمَا يقتضيه حالُ الكلام

إن قلتَ: إذا كان (الشَّهيد) بمعنى (الرَّقيب)، فلِمَ عَدَلَ منه إلى ﴿ٱلرَّقِيبَ﴾ في قوله: ﴿كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ﴾، مع أنَّه ذيَّل الكلام بقوله: ﴿وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾؟ فالجواب: أنّه قد خولِف بينَ العِبارتين؛ ليميِّز بين الشَّهيدين والرَّقيبين، فكونُه عليه الصَّلاة والسَّلام رقيبًا، ليس كالرَّقيب الَّذي يمنعُ ويُلزم، بل هو كالشّاهد على المشهود عليه، ومنعُه بمجرَّد القول، وأنَّه تعالى هو الَّذي يمنعُ منعَ الإلزام، بنصب الأدلَّة، وإنزال البيِّنات، وإرسال الرُّسل، زِد على ذلك أنَّ الشَّهيد مَن يرى ما يقعُ في محيط حواسّه، ممّا يدانيه ويختلط به، والرَّقيب: مَن يرى من مكانٍ عالٍ، وهو المَرْقَب، حيث

(1) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 12/467، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/419.

(2) المُشاكَلة: المُماثَلة والمضاهاة، وعرّفوها بأنّها: ذكر الشيَّء بِلَفظ غَيره، لوُقوعه في صحبته تَحقيقًا، أَو تَقديرًا. السّيوطيّ، مقاليد العلوم، ص: 101، وقيل: "المشاكلة: هي اتّفاق الشّيئين في الخاصّة، كما أنّ المشابهةَ اتّفاقهما في الكيّفيّة". الكفويّ، الكلّيّات، ص: 843، وقال الكفويّ أيضًا: "ولا شكّ أنّ المشاكلة من قبيل المجاز، والعلاقة فيها التّقارن في الخيال لا الوقوع في الصّحبة، كما هو المشهور؛ لأنَّ العلاقة مصحّحة للاستعمال الّذي به الوقوع في الصّحبة، ومقدّمة عليها". الكفويّ، الكلّيّات، ص: 844.

(3) نسيبة خميس، الدّرس اللّغويّ في سورة المائدة، ص: 339.

ينكشف له ما لا ينكشف لغيره؛ ولهذا كان التَّعبير في جانب المسيح عليه السلام بالشَّهيد، والتَّعبير في جانب الله بالرَّقيب؛ لكونه الحافظَ الّذي لا يغيب عنه شيء، وهذا تمثيلٌ، ولله سبحانه وتعالى المثلُ الأعلى[1].

دلالةُ التَّعبير بلفظ: ﴿تَوَفَّيْتَنِي﴾:

وفاةُ عيسى عليه السلام وفاةَ رفعٍ إلى السَّماء

التَّوفّي: هو أَخذُ الشَّيء وافيًا؛ أي: كاملًا، وقد جاء التَّوفّي بهذا المعنى في قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ﴾ [آل عمران: 55]، فهو إتمام مدّة إقامة عيسى عليه السلام في الأرض، ولا يصحُّ أن يُحمَل التَّوفّي على الإماتة في هذه الآية[2]؛ لأنَّ إماتةَ عيسى عليه السلام في وقت حصار أعدائه له، ليس فيها ما يسوِّغ الامتنانَ بها، ورفعُه إلى السَّماء جثَّةً هامدةً سُخفٌ منَ القول، وقد نزَّه الله السَّماء أن تكون قبرًا لجثث الموتى، وإن كان الرَّفع بالرّوح فقط، فأيُّ مزيّة لعيسى عليه السلام في ذلك على سائر الأنبياء؟!، والسَّماءُ مُستقرُّ أرواحهم الطّاهرة، فالحقُّ أنَّه عليه السلام رُفِع إلى السَّماء حيًّا بجسده وروحه؛ رحمةً به وتكريمًا له، حيث نجّاه منَ القتل والصّلب، وجعل ذلك آيةً من آياته الّتي يؤتيها مَن يَشاء مِن رسله، والله على كلِّ شيءٍ قدير. وقال الحسن: الوفاة وفاةُ الموت، ووفاةُ النَّوم، ووفاةُ الرَّفع[3].

حُسنُ نظْم الآية وتكامُلِ بنائها، وأثرُ ذلك في قوّة البيان وجمالِه:

دقّةُ اللّفظ القرآنيّ ومناسبتُه لمواضعه في الآيات، يؤكّد سموَّه وإعجازَه

في قوله تعالى: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ﴾، ذَكر نبيُّ الله عيسى عليه السلام شهادتَه عليهم، وهو حيٌّ قائمٌ برسالته مُؤدٍّ لها على وجهها، وفي قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ

(1) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 5/545، والآلوسّي، روح المعاني: 4/66، والخطيب، التّفسير القرآنّي للقرآن: 4/84.

(2) إبراهيم القطّان، تيسير التّفسير، ص: 450.

(3) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 12/466، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/419، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/101، والآلوسيّ، روح المعاني: 4/66، والقنّوجيّ، فتح البيان: 4/92، وطنطاويّ، التّفسير الوسيط: 4/351.

شَيۡءٖ شَهِيدٌ﴾، يذكر انتهاء مُهمَّته بوفاته، ويفوِّض أمرهم إلى ربِّهم في ألطف تعبيرٍ وأدَقِّ إشارةٍ[1].

فائدةُ التَّعبير بضمير الفصل ﴿أَنتَ﴾ في قوله تعالى: ﴿كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيۡهِمۡۚ﴾:

دلائلُ بلاغيّةٌ قويّةٌ، تتناسب وقوّةَ معنى هذه الجملة القرآنيّة

أضاف استعمالُ ضمير الفصل توكيدًا قويًّا في معنى الجملة، والمعنى: كُنتَ أَنتَ الرَّقيب عليهم وحدك دوني، إذْ تَوَفَّيتَني أَجَلي بينهم، ورفعتَني بعيدًا عنهم، فليس لي رقابَةٌ عليهم[2]، إضافةً إلى ذلك، فإنَّ بِنْيةَ الجملة كلَّها مكوّنةٌ من كلمات قويّة تتناسب وقوّةَ معنى الجملة؛ فقوَّةُ الفعل وفاعلِه في ﴿كُنتَ﴾، والتَّوكيدُ الكامن في ضميرِ الفصلِ ﴿أَنتَ﴾، والتّعريفُ الدّاخل على الاسم ﴿ٱلرَّقِيبَ﴾ الّذي أضاف التَّخصيصَ والقصرَ إلى قوَّة معناه، زد على ذلك معنى الفوقيّة والاستعلاء الّتي تشمل جميع خلقه في: ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾، كلُّ ذلك؛ ليصوَّر لنا قدرةَ الله، واطّلاعَه على خلْقه في كلِّ صغيرةٍ وكبيرةٍ.

سِرُّ دخولِ (أل) على كلمة ﴿ٱلرَّقِيبَ﴾:

دلالةُ ضمير الفصل على القَصر، وكونِ المقصور هو المقترنَ بـ (أل)

في قوله تعالى: ﴿كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيۡهِمۡۚ﴾، نلحظ المسندَ ﴿ٱلرَّقِيبَ﴾ قد عُرِّف بـ (أل) الَّتي للجنس، فدلَّ على قَصر الرّقابة لله لا لغيره، والله ﷻ كان ولم يزل رقيبًا عليهم، في جميع الأحوال والأزمان، ولكنْ بتوفّيه عيسى عليه السلام، الذي كان شهيدًا عليهم يراقبُهم ويأمرُهم بعبادة الله تعالى، لم يبقَ لهم رقيبٌ إلّا الله تعالى.

وفضلًا عن ذلك، فإنَّ ضميرَ الفَصل مُؤكِّدٌ للدَّلالة على القَصْر، وأنَّ المقصور عليه هو الخالي من (أل)، والمقصورُ هو المُقترن بها؛

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2410.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/101.

إذ دلَّ الإسناد على قصْر الجنس الَّذي تحمله (أل)، وتفرغُه في الكلمة المقرنةِ بها على الطَّرف الآخر الخالي مِن (أل)[1].

دِلَالَةُ تَقْدِيمِ الجَارِّ وَالمَجْرُورِ فِي قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾:

اجْتِمَاعُ التَّنَاسُبِ الصَّوْتِيِّ وَالمَعْنَوِيِّ فِي آيِ القُرْآنِ الكَرِيمِ

قُدِّمَ الجارُّ والمَجْرورُ في قَوْلِ اللهِ سُبحانَهُ: ﴿وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ اهتمامًا بعمومِ الأشياءِ التي يندرِجُ تَحْتَها مقالَةُ عيسَى عليه السلام وحقيقَةُ دَعْوَتِهِ لقَوْمِهِ، ومراعاةً للتَّناسُبِ الصَّوْتيِّ لفواصلِ الآيِ[2]؛ فإنَّ خاتِمَةَ الآيةِ قبلَها ﴿عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾، وبينَ الحرفَيْنِ تناسُبٌ ظاهِرٌ.

بَرَاعَةُ رَدِّ العَجُزِ عَلَى الصَّدْرِ:

البَلَاغَةُ أَنْ يَكُونَ أَوَّلُ الكَلَامِ دَالًّا عَلَى آخِرِهِ، وَآخِرُهُ مُرْتَبِطًا بِأَوَّلِهِ

في قَوْلِ اللهِ عز وجل: ﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ ردُّ العجُزِ على الصَّدْرِ؛ حيثُ وردَ لفظُ ﴿شَهِيدًا﴾ قَبْلُ، ثُمَّ خُتِمَ الكلامُ بهِ في قولِهِ: ﴿شَهِيدٌ﴾، وفي هَذا تَقريرٌ وتَوْكيدٌ لاطِّلاعِ اللهِ سُبحانَهُ على الأشياءِ كُلِّها، وفيهِ أَيْضًا شدَّةُ ربْطِ الكلامِ بعضِهِ ببعضٍ؛ إذِ البلاغَةُ أن يكونَ أوَّلُ الكلامِ دالًّا على آخرِهِ، وآخرُهُ مرتبطًا بأوَّلِهِ.

دلالةُ الاعتراض التّذييليّ في قوله تعالى: ﴿وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾:

شهادةُ اللهِ على كلِّ شيءٍ؛ لأنَّ الكونَ قائمٌ به

قولُه تعالى: ﴿وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾، جملةٌ تفيدُ الاعتراضَ التّذييليَّ المُقرِّرَ لِما قَبْلَه، وفيه إيذانٌ بأنَّه تعالى كان هو الشهيدَ على الجميع، حين كونِه عليه السلام الشَّهيدَ فيما بينهم، وشِبهُ الجُملة: ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ﴾، مُتعلِّق بـ ﴿شَهِيدٌ﴾، وتقديمُه لمراعاةِ الفاصلة[3]، ثمّ إنّ خطاب اللّه بقوله: ﴿وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾؛ أي: أنّك شهيدٌ: "علمًا وسمعًا وبصرًا، فعلمك قد أحاط بالمعلومات،

(1) فيّود، من بلاغة النّظم القرآني، ص: 201 - 202.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 4/66.
(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/102، والآلوسّي، روح المعاني: 4/66.

وسمعُك بالمسموعات، وبصرُك بالمبصَرات، فأنت الّذي تجازي عبادَك بما تعلمُه فيهم من خير وشرّ"[1].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

القول والكلام:

الكلام: هو الدَّلالةُ والمعنى الكائن في الذّات المُتكلّمة، و"الكلام: اسمُ جنسٍ يقع على القليل والكثير. والكَلِمُ لا يكون أقلَّ من ثلاث كلمات؛ لأنّه جمع كلمة، وعيسى عليه السلام كلمة اللّه سبحانه؛ لأنّه لمّا انتفع به في الدّين، كما انتفع بكلامه، سمّي به، كما يُقال: فلان سيف اللّه، وأسد اللّه"[2]، والقَولُ: هو صياغةُ هذا الكلامِ بقالبٍ لغويٍّ عَبر لُغةٍ محدّدة، أو القول: يدلّ على الحكاية، وليس كذلك الكلام[3]، أو القول: "الكلام على التّرتيب، أو كلّ لفظ مَذَلَ - أي سمح - به اللّسانُ تامًّا كان أو ناقصًا، تقول: قال، يقول، قولًا، وقال الحَرالّي: القول إبداءُ صور التّكلّم نظمًا، بمنزلة ائتلاف الصّور المحسوسة جمعًا، فالقول مشهودُ القلب بواسطة الأذن، كما أنّ المحسوسَ مشهودُ القلب بواسطة العين وغيرها"[4].

الرَّبّ والإله:

الرَّبُّ في اللُّغة هو المالك للشَّيء، ويُطلَق على السَّيّد المالك للعَبد، وعلى المُربّي، ولا يُقال (الرَّبّ) مُطلَقًا بغير إضافةٍ لشيءٍ إلّا للّه تعالى، المُتكفِّلِ بمصالح الخلق، أمّا بالإضافة فيُطلَقُ على غير اللّه، كرَبِّ الدّار وربِّ الفرَس. والإلهُ بالتَّعريف اسمٌ للمعبود بحقٍّ، وهو اللّه سبحانه، وإذا ذُكِرَ بدون التَّعريف (إله) كان اسمًا لكلِّ معبودٍ ولو باطلًا. والإلهُ حقُّه ألّا يُجمع، إذ لا معبود سواه، لكنَّ العرب - لاعتقادِهِم أنَّ هاهنا معبوداتٍ - جمعوه فقالوا: الآلهة[5].

الشَّاهدان، والشُّهداء، والشُّهود:

الشَّهادة: خبر قاطع، تقول منه: شهد الرّجل على كذا، وشهده شهودًا: أي: حضره، فهو شاهد. وقوم شهود؛ أي: حضور. والشّهيد: الشّاهد، والجمع: الشّهداء، وأشهدته على

(1) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن: 1/249.
(2) الجوهريّ، الصّحاح: 5/2024.
(3) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 437 - 438.
(4) الزَّبيديّ، تاج العروس: 30/292.
(5) الرّاغب، المفردات: (ربب) و(أله).

كذا فشهد عليه؛ أي: صار شاهدًا عليه، والشّهيد: القتيل في سبيل اللّه، وقد استُشهد فلان، والاسم الشّهادة[1]، والشّاهد: اسم فاعل يدلُّ على الفِعل وفاعله، والشَّهيد: صِفةٌ مُشبَّهة تدلُّ على الثُّبوت، وقد دلَّ التَّعبير في الآية الكريمة على أنّ السّياق مُتعلِّقٌ بالرُّسوخ في الشَّهادة، ومعناه: "وكنت شهيدًا على أعمالهم حين كنت حيًّا بينهم، فلمّا توفّيتني كنت أنت الشّاهد الرّقيب عليهم، وأنت على كلّ شيءٍ شهيدٍ"[2].

المُتَوفِّي والمُتَوَفَّى:

للتّوفية في القرآن ثلاثة معانٍ: أوّلها: الموتُ، ومثاله قولُه تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلۡأَنفُسَ حِينَ مَوۡتِهَا﴾ [الزّمر: 42]، وثانيها: النّومُ، ومثاله قولُه تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيۡلِ﴾ [الأنعام: 60]، وثالثها: الرّفعُ، ومثاله قولُه تعالى: ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيۡتَنِى﴾ [المائدة: 117]، وما يهمّنا هنا معنى الموت والرّفع، وهما مُحتملان في دلالة اللّفظين المختَلِفي الصّيغَةِ، وعليه فإنَّ المُتوفّي اسمُ فاعل، والمُتوفَّى اسمُ مفعول، كقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلۡأَنفُسَ حِينَ مَوۡتِهَا﴾، فالإنسان مُتَوَفًّى، ويجوز - في لغة ضعيفة جدًّا - أن نجعلها اسم فاعل مُتَوَفٍّ؛ أي: متوفٍّ أَجله ورزقه؛ أي: قد استوفاه واستكمله، لكنَّ الأوَّل هو الأصحُّ[3].

الرَّقيب والحفيظ:

الرّقيب: تقول: رقبتُ الشّيء أرقبه رقوبًا، إذا رصدتَه[4]. وفي أسماء اللّه تعالى (الرّقيب)، وهو الحافظ الّذي لا يغيب عنه شيء، فعيل بمعنى فاعل[5]، وأمّا الحفيظ فهو "الموكَّل بالشّيء يحفظه، كالحافظ، يُقال: فلان حفيظ عليكم؛ أي: حافظ. وفي الصّحاح: الحفيظ: المحافظ، ومنه قولُه تعالى: ﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِحَفِيظٍ ١٠٤﴾ [الأنعام: 104]، والحفيظ في الأسماء الحسنى: الّذي لا يعزب عن حفظه مثقالُ ذرّة، في السّماوات ولا في الأرض[6]، وللفرق بين اللّفظين، يقولون: إنَّ الرَّقيب هو الَّذي يرقبُك؛ لئلّا يخفى عليه فِعلُك. والحفيظ لا يتضمَّن معنى التَّفتيش عنِ الأمور، والبحث عنها[7].

(1) الجوهريّ، الصّحاح: (شهد).
(2) حومد، أيسر التّفاسير، ص: 787.
(3) ابن عثيمين، الشّرح الممتع: 13/347.
(4) الجوهريّ، الصّحاح: (رقب).
(5) ابن الأثير، النّهاية: (رقب).
(6) الزَّبيديّ، تاج العروس: (حفظ).
(7) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 260.

﴿إِن تُعَذِّبۡهُمۡ فَإِنَّهُمۡ عِبَادُكَۖ وَإِن تَغۡفِرۡ لَهُمۡ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ١١٨﴾ [المائدة: 118]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

المناسبةُ بين الإقرار بألوهيّة الله ورقابته، وكونِ عباده بين عذابه وغفرانه

لمّا كان ما سلَفَ منَ الآياتِ كلُّه - سُؤالًا وجوابًا وإخبارًا - حمدًا للّه تعالى وثناءً عليه بما هو أهلُه؛ بالتَّنزيه له، والاعترافِ بحقِّه، والشَّهادةِ له بعلم الخفايا، والقُدرةِ، والحكمةِ، وغيرِ ذلك من صفات الجلال والجمال، وكان هذا السُّؤال يُفهمُ إرادةَ التَّعذيب للمسؤول عنهم، مُشيرًا إلى الشّفاعة فيهم على وجه الحمد للّه ﷻ، والثَّناء الجميل عليه؛ لأنَّ العذابَ - ولو للمطيع - عدلٌ، والعفوَ عنِ المعاصي - بأيّ ذنب كان - فضلٌ مُطلَقًا، وغفرانَ الشِّرك ليس ممتنعًا بالذّات: قال: ﴿إِن تُعَذِّبۡهُمۡ فَإِنَّهُمۡ عِبَادُكَۖ﴾[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تُعَذِّبۡهُمۡ﴾: التَّعذيبُ: مَصدَرُ عَذَّبَ، وهو الشِّدَّةُ والعُقوبَةُ، وأَصلُ الكَلِمَةِ منَ العَذْبِ، وهو: المَنعُ. ويأتي التَّعذيبُ بمعنى الإيلامِ والإيجاعِ الشَّديدِ[2]، و"عذّبته تعذيبًا عاقبتُه، والاسم: العذاب، وأصله في كلام العرب الضّربُ، ثمّ استُعمل في كلّ عقوبةٍ مؤلمةٍ، واستُعير للأمور الشّاقّة، كالسّفر، فقال ﷺ: «السّفرُ قطعةٌ منَ العذاب»[3].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 6/368.

(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (عذب).

(3) الحديث أخرجه البخاريّ، صحيح البخاري، الحديث رقم: (1804)، ومسلم، صحيح مسلم، الحديث رقم: (1927)، والنّسائيّ، السّنن الكبرى، الحديث رقم: (8783)، وابن ماجه، سنن ابن ماجه، الحديث رقم: (2882)، وأحمد، المسند، الحديث رقم: (9740). ويُنظر: الفيّوميّ، المصباح المنير: (عذب).

2) ﴿عِبَادُكَ﴾: جمع عَبْدٍ، والعبادةُ: الطّاعةُ والقُربَةُ. يُقال: عبَدتُ اللّهَ، أعبدهُ، عِبادةً؛ أي: أَطعتُه وتقرَّبتُ إليهِ. وأصلُ العِبادَةِ: التَّذلُّل واللّين. ومن معانيها: الخُضوع، والانقياد[1]، قال الخليل: "إلّا أنّ العامّة اجتمعوا على تفرقةِ ما بين عباد اللّه، والعبيد المملوكين، يُقال هذا عبدٌ بيِّنُ العُبودَة، ولم نسمعْهم يشتقّون منه فعلًا، ولو اشتقّ لقيل عَبُد؛ أي: صار عبدًا، وأقرّ بالعُبودة، ولكنّه أُميت الفعلُ فلم يُستعمل. قال: وأمّا عَبَدَ يعبد عبادةً، فلا يُقال إلّا لمَن يعبُد اللّه تعالى"[2].

3) ﴿تَغْفِرْ﴾: الغُفرانُ: المُسامَحَةُ والعَفوُ، والاستِغفارُ: طَلَبُ المَغفِرَةِ. ويأتي الغُفرانُ بمعنى التَّجاوُزِ عنِ الذَّنبِ وعَدَمِ المُؤاخَذَةِ به. وأَصلُ الغُفرانِ مِنَ الغَفْرِ، وهو: التَّغطيَّةُ والسَّترُ والإدخالُ، ومنه سُمّيَ العَفوُ غُفرانًا؛ لأنَّهُ سَترٌ لِلذَّنبِ، وإدخالٌ لِلعَبدِ في العَفوِ[3].

4) ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾: العَزيزُ في كلامِ العَرَبِ على أَربعَةِ أَوجُهٍ، العَزيزُ: الغالِبُ القاهرُ، والجليلُ الشَّريفُ، والقويُّ، والشَّيءُ القليل الوجودِ المنقطعُ النَّظير. ويجوزُ وصفُ اللّه ﷻ بالثّلاثة الأوَل، يُقال: (اللّه العزيز): بمعنى: الغالب القاهِر، و(اللّه العزيز)؛ أي: هو الجَليلُ العَظيمُ، و(اللّه العزيز): بمعنى القَويّ[4].

5) ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾: هو الّذي يُحكم الأشياء ويُتقنها، أو ذو الحكمة، والحكيمُ مَن يضع الأمورَ في نصابها، وقد امتنّ اللّه تعالى على لقمان بأن آتاه الحكمة، فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ﴾ [لقمان: 12][5]، والحكيم هنا هو اللّه تعالى، المتّصف بالحكمة في تدبير كونه، وهو الّذي أَفعالُهُ مُحكمَةٌ مُتقَنَةٌ، لا تَفاوتَ فيها ولا اضطِرابَ، ومِنهُ قيلَ: (بِناءٌ مُحكَمٌ)؛ أي: قد أُتقِنَ وأُحكِمَ، فاللّه ﷻ حَكيمٌ كما وصَفَ نفسَهُ بذَلكَ؛ لإتقانِ أَفعالِهِ واتِّساقِها وانتظامِها، وتعلُّق بعضها ببَعضٍ[6].

(1) الأزهريّ، مقاييس اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والجوهريّ، الصّحاح: (عبد).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عبد).
(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن سيده، المحكم، والزّبيدي، تاج العروس: (غفر).
(4) الزّجّاجيّ، اشتقاق أسماء الله، ص: 237، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (عزّ).
(5) الحازميّ، الآثار التّربويّة لدراسة اللّغة العربيّة، ص: 496.
(6) الزَّجّاج، تفسير أسماء الله الحسنى، ص: 52، والزّجّاجيّ، اشتقاق أسماء الله، ص: 60، وابن منظور، لسان العرب، والزّبيدي، تاج العروس: (حكم).

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

تبرّي عيسى عليه السلام مِن مقالةِ قومه، وردُّ المشيئة إلى الله

يقول عيسى عليه السلام لربّه جل جلاله يوم القيامة - مُتبرِّئاً ممّا حكاه قومُه -: إنْ تُعذّب هؤلاء يا ربِّ، فإنَّهم عبادُك، تفعل بهم ما تشاء، وإن تَمْنُن على مَن آمنَ منهم بالمغفرة، فلا مانع لكَ مِن ذلك، فأنتَ العزيز الَّذي لا يُغالَب، فمغفرتك صادرةٌ عن تمام عزَّةٍ وقدرةٍ، وليست عن عجزٍ، وأنتَ الحكيمُ في تدبيرك، فمقتضى حكمتِك أن تغفرَ لمَن أتى بأسباب المغفرة[1].

الإِيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

عِلَّةُ فَصْلِ قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾ عَمَّا قَبْلَهُ:

تَفْوِيضُ الأُمُورِ كُلِّهَا إِلَى اللهِ جل جلاله فِي التَّعْذِيبِ وَالغُفْرَانِ

فُصِلَ قَوْلُ اللهِ جل جلاله: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾ عَمّا قَبْلَهُ؛ لوقوعِهِ استئنافًا بيانيًّا، فبين الجملَتين شِبْهُ كمالِ الاتِّصالِ، وذلك أنَّ سؤالَ اللهِ تعالَى لِعيسَى عليه السلام يُشْعِرُ بإرادَةِ تعذيبِ المسؤولِ عَنْهُمْ، وذلك قَدْ يَكونُ حاملًا لعيسَى عليه السلام على الشَّفاعَةِ فيهم، فيَرِدُ في نفسِ المتلَقّي سؤالًا: هَلْ شفَعَ فيهم عيسَى عليه السلام؟ فجاء الجوابُ مبيِّنًا مقالَتَهُ عليه السلام المتضَمِّنَةَ تفويضَ الأمْرِ إلى اللهِ جل جلاله وحْدَهُ؛ بأنَّه إن عذَّبهم على ما بدرَ مِنْهُمْ فهم عبادُهُ يفعَلُ بِهِمْ ما يشاءُ، وإن يغفِرْ لِمَنْ تابَ مِنْهُم فلم يُؤاخذه على ما بدَرَ مِنْهُ مِنَ الكُفْرِ والضَّلالِ قبل التَّوبةِ؛ فإنَّه سُبحانَهُ عزيزٌ حكيمٌ.

ويجوزُ أن تَكونَ الجملةُ استئنافًا يُرادُ بِهِ الاستعطافُ.

نُكْتَةُ تَعْلِيقِ الشَّرْطِ بِالحَرْفِ ﴿إِن﴾:

قَبُولُ اللهِ جل جلاله تَوْبَةَ مَنْ تَابَ مِنْ عِبَادِهِ: مَحْضُ فَضْلٍ مِنْهُ سُبْحَانَهُ

عُلِّقَ الشَّرْطُ في قول اللهِ جل جلاله: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾ بالحرف ﴿إِن﴾؛ لأنَّه موضوعٌ في الأَصْلِ لِما لا يُقْطَعُ بوقوعِهِ، وذلك لأنَّ المعذَّبين إن كانوا قدْ تابوا من مقالةِ الكُفْرِ، فإنَّ قبولَ اللهِ جل جلاله توبتَهُمْ تفضُّلٌ

(1) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 127، جماعة من علماء التّفسير، المختصر في تفسير القرآن، ص: 127.

منهُ عليهم، وجائزٌ أن يُؤاخِذَهُمْ على ما صدَرَ مِنْهُمْ، وإن كانوا لم يَتوبوا وبَقَوْا على شِرْكِهم فإنَّ اللّه سبحانَهُ قضَى عليهم بالتَّعذيب في النّار جَزْمًا، ويكونُ استعمالُ حرفِ الشَّرْطِ ﴿إن﴾ مِنْ بابِ تأدُّبِ عيسَى عليه السلام مَعَ ربِّهِ سُبحانَهُ، حيث لَمْ يتقدَّم بينَ يديْهِ بالحُكْم عَلَيْهِمْ.

سرُّ إيثارِ التَّعبير بقوله تعالى: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾ دون غيره:

تحملُ الآيةُ جانبًا لطيفًا وهو قولُه: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾، فإنَّه تعالى لم يَقُل: (إنْ تُعذِّبهم فإنَّهم أحقّاء بذلك) أو (فذلك عَدْلٌ)؛ لكونهم عِبادًا للّه، ومعناه: أنَّه المُستحِقُّ للعبادةِ دون غيره، وأنَّه الإلهُ الحقّ، فلو قال: (فإنَّهم أحقّاء بذلك)، أو قال: (فذلك عَدْلٌ) لم يعنِ ذلك أنَّهم عبادُه، فالنّاسُ ليسوا عبادًا لَمن يعدلُ، كما أنَّهم إذا كانوا أحقّاء بالعَذاب، فليس معناه أنَّهم عبادٌ لَمن عذَّب، فالَّذي يعذِّب شخصًا أو جماعة لا يعني أنَّ المعذَّبين عبادُه، فاختيارُ لفظِ العبوديّةِ أنسبُ شيء في هذا المقام. يُضاف إلى ذلك أنَّه تعالى قال: ﴿فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾، ولم يقُل: (فَهُم عبادك)؛ لتأكيد عبوديّتهم للّه ﷻ، وبذلك يفعل اللّه تعالى بهم ما يشاء، فليس هناك مِن مُعترِض على ما يفعل بِهم من تعذيبٍ أو مَغفرةٍ، فالأمرُ كلُّه إليه، ومتروك لمشيئته، ومُناط بعزَّته وحكمته وحُكمه، فإنَّه هو العزيز الحكيم[1].

تنوّعُ المعاني أثرٌ لانتقاء اللّفظ القرآنيّ

دِلَالَةُ الفَاءِ فِي قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾:

الفاءُ في قَوْلِ اللّهِ ﷻ: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾ داخِلَةٌ على جوابِ الشَّرْطِ؛ لِكَوْنِ جملةِ الجوابِ جملَةً اسميَّةً فوجبَ اقترانُهُ بالفاءِ، وفي تَرْتيب هذا الجَوابِ علَى الشَّرْطِ تفويضُ الأَمْرِ إلى اللّهِ ﷻ؛ إذْ هوَ المالكُ لهُمْ مُلْكًا تامًّا، يتصرَّفُ فيهم كما يشاءُ سُبحانَهُ كما تقتَضيه حكمَتُهُ.

العِبَادُ جَمِيعًا مِلْكٌ للهِ تَعَالَى يَتَصَرَّفُ فِيهِمْ كَمَا يَشَاءُ بِمَا تَقْتَضِيهِ حِكْمَتُهُ سُبْحَانَهُ

(1) الزّركشّي، البرهان: 1/90، والسّامرائّي، لمسات بيانيّة، ص: 80.

دِلَالَةُ التَّأْكِيدِ فِي قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾:

تَأْكِيدُ الِاسْتِسْلَامِ للهِ تَعَالَى وَتَفْوِيضِ الأُمُورِ إِلَيْهِ

قُرِنَت جملةُ الجَواب ﴿فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾ بأداة التَّوكيد (إنَّ) تأكيدًا لِلاسْتِسْلام للهِ سُبْحانَهُ وتَفْويضِ الأَمْرِ إِلَيْهِ، ومبالغَةً في تفويضِ الأمْرِ إليهِ.

دِلَالَةُ المَجَازِ المُرْسَلِ المُرَكَّبِ فِي قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾:

تَسْلِيمُ عِيسَى عليه السلام لِأَمْرِ اللهِ وَاسْتِجَارَتُهُ مِنْ عَذَابِهِ

قولُ اللّه ﷻ: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾ جملةٌ خبريَّةٌ؛ إذِ التَّحقيقُ في جُملَةِ الشَّرْطِ أنَّهُ يُنظَرُ إليها باعتبار جوابِها، فإن كان جوابُها خبرًا فهي خبريَّةٌ، وإن كان جوابُها إنشاءً فهي إنشائيَّةٌ، والجوابُ في قولِ اللّهِ سُبحانَهُ: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾ خبرٌ، فالجملَةُ خبريَّةٌ.

وهذا الخبَرُ لا يُرادُ بهِ فائدَةُ الخبَرِ ولا لازِمُها، بل خرَجَ عَنْ أَصْلِهِ إلى إرادَةِ أحدِ معْنَيَيْنِ:

أحدهُما: أنَّه خبرٌ يُرادُ به الاستعطافُ والرَّأفَةُ بهِمْ.

والآخَرُ: أنَّ خبَرٌ يُرادُ به التَّسليمُ لأمْرِ ربِّهِ والاسْتِجارَةُ مِنْ عذابِهِ[1].

فالجملَةُ على هذا مجاز مرسَلٌ مركَّبٌ، والمعنيانِ المذكوران لا تعارُضَ بينَهُما، بَلْ تَجوز إرادَتُهُما معًا؛ إذِ النِّكاتُ البلاغيَّةُ تتوارَدُ ولا تتزاحَمُ.

دلالةُ تقديم لفظ (التَّعذيب) على لفظ (المغفرة):

كلُّ لفظٍ مُقدَّم في القرآن هو أولى بالتَّقديم، ولا يصلحُ غيرُه مكانَه

جيء بهذه الآية الكريمة بهذا التّرتيب؛ إذ قُدّم فيها التَّعذيبُ على المغفرة؛ ليناسب سياقَ الآيات السّابقةِ في مَواضِعَ مهمّةٍ منها: الأوَّل: أنّ الآية جاءَت في سياق التَّهديدِ والوعيد بالعذاب الشَّديدِ،

(1) الماوردي، النكت والعيون: 2/89.

لَمن يكفرُ بعد نزول المائدة منَ السَّماء: ﴿فَمَن يَكۡفُرۡ بَعۡدُ مِنكُمۡ فَإِنِّيٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابٗا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدٗا مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، والآخر: أنَّ الآية وردت في سياق التَّبرُّؤ من قولٍ قالته طائفةٌ منَ النَّصارى، ونسبتْه إلى عيسى عليه السلام، حكاه اللّه تعالى بقوله: ﴿ءَأَنتَ قُلۡتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيۡنِ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ﴾. فهاتان المسألتان تفسِّران تقديمَ التَّعذيب على المغفرة في الآية.

بلاغةُ تناسبِ الأطراف في الآية:

خَتمُ الكلام بما يناسب أوّلَه في المعنى من اتّساق النّظم وإحكامه

ذَكر الزَّركشيُّ في بُرهانه بيانَ علَّةِ تناسبِ أطراف الآية الكريمة[1]، فقال: "لا يَغفرُ لَمن استحقَّ العذاب إلّا مَنْ ليس فوقه أحدٌ يردُّ عليه حُكمه، فهو العزيزُ؛ أي: الغالب، والحكيمُ: هو الَّذي يضَع الشَّيءَ في محلِّه. وقد يَخفى وجهُ الحكمة على بعض الضُّعفاء في بعضِ الأفعال، فيتوهَّم أنَّه خارجٌ عنها، وليس كذلك، فكان في الوصف بالحكيم احتراسٌ حسَن؛ أي: وإنْ تغفر لهم مع استحقاقهم العذابَ فلا مُعترِضَ عليك لأحدٍ في ذلك، والحكمةُ فيما فعلته"[2].

فنُّ التَّخيير والتَّناسبِ في الآية:

تسليمُ الأمور وتفويضُها لله ﷻ مِن دلائل الإيمان

قوله تعالى: ﴿وَإِن تَغۡفِرۡ لَهُمۡ﴾ يوهمُ أنَّ الفاصلةَ هي (الغَفور الرَّحيم)؛ لمناسبة ما بين الغُفران والغَفور، وهو من فنّ التخيير والتناسب[3]، ولكن لو جاءتِ الفاصلةُ (الغفور الرَّحيم)، بعد ذِكر

(1) تناسب الأطراف: هو أن يبتدئ المُتكلِّم كلامه بمعنى، ثمّ يختمه بما يتناسب مع ذلك المعنى الّذي ابتدأ به، وهذا النّوع جعله الخطيب في التّلخيص والإيضاح من مراعاة النَّظير، قال: ومِن مراعاة النَّظير ما يسمّيه بعضُهم تشابه الأطراف، وهو أن يختمَ الكلامَ بما يناسب أوَّله في المعنى. الإسفراييني، الأطول: 2/383، وابن معصوم، أنوار الربيع، ص: 306، والصّعيديّ، بغية الإيضاح: 4/584.

(2) الزّركشّي، البرهان: 1/89 - 90، وابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/139، والسّيوطيّ، معترك الأقران: 1/36 - 37.

(3) التَّخيير: الإتيانُ بكلام يَسوغُ أن يُقفَّى بقوافٍ شتَّى، فيُتخيَّرَ منها قافيةٌ مُرجَّحة على سائرِها، ويُستدلُّ بإيثارِه إيّاها على حُسن اختيارِه، وصِدق حسِّه، وقد تَقضي البداهةُ الأولى بأنْ تكونَ غيرَ ما اختاره، ولكنَّه عزَفَ عن ذلِك لسرٍّ دقيقٍ، وفي هذه الآية: البداهةُ البدائيةُ تَقضي بأنْ تكون الفاصلةُ: (إنَّك أنت الغفور الرّحيم)، لملاءمتِها لقوله: إنْ تَغْفِرْ، ولمناسبته ما بين الغُفران والغفور، ولكنَّ هذا الوهمَ النّاجِمَ عن هذه البداهةِ سَرعانَ ما يَزولُ أثرُه عندما يَذكُر المتوهِّم أنَّهم استحقّوا العذابَ لا الغُفران. السُّبكيّ، عروس الأفراح: 2/311، ودرويش، إعراب القرآن وبيانه: 3/54 - 56.

الغُفران، لكان في ذلك تسجيلٌ بالغُفران، وهم لا يُغفر لهم، وتقتضي البلاغةُ أن تكونَ الفاصلةُ ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾؛ لأنَّه لا يغفر لمَن يستحقّ العذابَ إلّا من ليس فوقه أحدٌ يرُدّ عليه حكمَه، ولا بدَّ أن يوصف بالحكمة، لأنَّه الحكيمُ الَّذي يضع كلَّ شيءٍ في مَوضِعه[1].

أهمّيّةُ قصْر صفتَي العزّة والحكمة على الله دون سواه، في هذه الآية:

العزيزُ كنايةٌ عن غفرانه، والحكيم دلالةٌ عن تدبيره لأكوانه

استعمل عيسى عليه السلام القصرَ بأسلوب التَّعريف؛ أي: تعريف المسنَد إليه، مع توظيف أداة التَّوكيد (إنَّ)، والتَّوكيد اللَّفظيّ بالضَّمير ﴿أَنتَ﴾، وتعريف: ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ للدَّلالة على توكيدِ الحُكم، وقصرِ العزَّة والحكمة عليه، والكمالِ فيما وُصِف به، فإنَّه في الحقيقة لا عزيزٌ إلّا هو سبحانه، ولا حكيمٌ عداه، ولا حاكمٌ سواه، فإنَّه لم يقل: (فإنَّك عزيزٌ حكيمٌ)؛ وذلك أنَّ هذا التَّعبيرَ لا يفيد قصْرَ الصِّفتين عليه سبحانه ولا كمالَهما فيه[2]، فضلًا عن ذلك فإنَّ هذا التَّركيب الَّذي ائتلف دلاليًّا وسياقيًّا كشف لنا دلالةً أُخرى، وهي نفيُ الأُلوهيَّة عن غير اللّه تعالى، وإثباتُها له فهو المتفرِّد بذاته وصفاته لا يشاركُه ولا يشابهُه فيهما أحدٌ، فهو الإله حصرًا والعزيز الحكيم حصرًا[3]، يُضاف إلى ذلك، أنّ كلمة: ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ كنايةٌ عن كونه يغفرُ عن مَقدرَةٍ، وذكر: ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾؛ لمناسبته للتَّفويض؛ أي: المُحْكِمُ للأُمور العالِم بما يليق بهم[4].

بَرَاعَةُ الكِنَايَةِ فِي قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾:

غُفْرَانُ اللهِ تَعَالَى الذُّنُوبَ صَادِرٌ عَنْ تَمَامِ القُدْرَةِ وَكَمَالِ الحِكْمَةِ

في اسْمِ اللّهِ (العَزيز) مِنْ قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ كنايَةٌ عَنْ كَوْنِهِ سُبحانَهُ يغفِرُ عَنْ مقدِرَةٍ[5]، فاسْمُ اللّهِ

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 3/54 - 56.

(2) السّامرائّي، لمسات بيانيّة، ص: 80، وامحمد صافي المستغانميّ، جواهر الدّرر في علم مقارنات السّور، ص: 148.

(3) السّامرائّي، لمسات بيانيّة، ص: 80، وداود، دلالات الحوار في سورة المائدة، ص: 50.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/117.

(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 7/117.

العزيزُ دالٌّ على مَعْنَى الغالبِ والقاهِرِ والعَظيمِ والقَويِّ، ودالٌّ بطريقِ الكِنايَةِ كذلكَ على أنَّ غُفْرانَهُ الذُّنوبَ صادِرٌ عَنْ تمامِ القُدْرَةِ وكمالِها.

بَلَاغَةُ الِاحْتِبَاكِ فِي الآية الكريمة:

أَفْعَالُ اللهِ تَعَالَى غُفْرَانًا وَتَعْذِيبًا وَغَيْرُهُمَا صَادِرَةٌ عَنْ حِكْمَتِهِ سُبْحَانَهُ

في قول الله ﷻ: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ احتباكٌ، وهو المسمَّى: حذفَ التَّقابُلِ أو الحذْفَ المقابَلِيَّ، وذلك أنَّ كَوْنَ الخَلْقِ عبادًا للّه تعالَى يقتَضي تمامَ التَّصرُّفِ فيهم مغفِرةً وتعذيبًا كما تقتضيه حكمتُهُ سُبحانَهُ، وغُفْرانُه تعالَى لِلْعِبادِ أو تعذيبُهُ لهُمْ هوَ من مقتضياتِ عِزَّتِهِ وحِكْمَتِهِ، فكانَ تقديرُ الآيةِ: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾ تَمْلِكُهُم، وأنتَ العزيزُ الحكيمُ؛ بحكمَتِكَ وعزَّتكَ كان عقابُهُم، وإن تغفِرْ لهُمْ وتستُرْ قبائِحَهُمْ؛ فإنَّهم عبادُكَ تتصرَّفُ فيهم كما تشاءُ بما تقتضيه حكمتُكَ، وهو غُفْرانُ الغالِبِ القاهِرِ الذي يضعُ الأمور في مواضِعَها[1].

المتشابهُ اللّفظيّ:

عِلَّةُ الذِّكْرِ والحَذْفِ، في آيَتَيِ المائدة والممتحنة

بالمقارنة بين قوله تعالى: ﴿فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾، وقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٥﴾ [الممتحنة: 5]، نتساءل: لمَ خُصَّت آية المائدة بالفاء دون آية الممتحنة؟ والجواب: أنّ آية المائدة، تقدّم فيها قوله تعالى: ﴿وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ﴾؛ فلمّا كانت جملة جواب الشّرط اسميّةً وجب اقترانُها بالفاء؛ لذا ناسب دخولُها على قوله تعالى: ﴿فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾. أمّا آية الممتحنة فقد بُدِئت بقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ وَٱغْفِرْ لَنَا رَبَّنَآ﴾ [الممتحنة: 5]؛ فلمّا أُريد تعليلُ الحكم ناسبه الفَصلُ بقوله: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

(1) محمد أبو زهرة، زهرة التفاسير: 5/2412.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

العذاب والعقاب والجزاء:

العِقابُ يُنبِئ عن استحقاقٍ، وسُمّي بذلك لأنَّ الفاعل يستحقّه عَقيب فِعْلِه، ويجوز أن يكون العذاب مُسْتَحَقًّا وغيرَ مُستَحَقٍّ، وأصلُ العقاب التُّلوّ، وهو تأدية الأوَّل إلى الثّاني، يُقال: الثّاني عقب الأوَّل إذا تَلاه، وذَكر الكفويُّ أنَّ العِقاب هو جزاءُ الشَّرّ، والنَّكالُ أخصُّ منه، وأنَّ الجزاء إذا أُطلق في مَعرِض العقوبات يُراد به ما يجب حقًّا للّه تعالى بمقابلة فِعل العبد؛ لأنَّه المجازي على الإطلاق... والعذاب: الألم الثَّقيل[1]، وقد ورد في السّياق لفظُ العذاب في الآية؛ لأنّه الأنسب للجزاء الوِفاق، الّذي يصطلي به مُستحقّوه ممّن ألّهوا عيسى، وافتروا على اللّه الكذبَ، وعبدوا غيرَه، وانحرفوا عن مأمور اللّه في كتابه المُنزَلِ عليهم.

العِباد والعَبيد:

فرَّق الكفويُّ بينهما بأنَّ العَبدَ المضافَ إلى اللّه تعالى، يجمع على عِباد، وإلى غيره على عبيد، وهذا هو الغالبُ، وفي عُرف القُرآن إضافةُ العِباد تختصّ بالمؤمنين، والعبيد إذا أُضيف إلى اللّه فهو أعمُّ منَ العِباد. وما ذَكره الكفويُّ فيه نظَر؛ فلم ترِد عبيد في القرآن مضافةً ألبتّة، إنَّما وردت معرفة بـ (ال)[2]، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّـهَ لَيۡسَ بِظَلَّامٖ لِّلۡعَبِيدِ ١٨٢﴾ [آل عمران: 182]، وقوله: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ٤٦﴾ [فُصّلت: 46]، وغيرها.

الصَّفح والعَفو والغُفران:

الصّفح أصلُه الإعراضُ بصفحة الوجه، كأنّك أعرضتَ بوجهكَ عن ذنْبِ المذنبِ، والعفو: تركك إنسانًا استوجب عقوبةً، فعفوت عنه، وهو ضدّ العقوبة، بينما الغفران من غُفْران الذّنوب: وهو سترُها، والمعهود أن يُطلَب منَ اللّه، قال اللّه في محكم تنزيله: ﴿غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ٢٨٥﴾ [البقرة: 285]، وقال: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ﴾ [غافر: 3].

وقد فرَّق العسكريُّ بين الغُفران والصَّفح؛ بأنَّ الغُفرانَ يقتضي إيجاب الثَّواب، والصَّفحَ التَّجاوزَ عنِ الذَّنب، مِن قولك: صفحت الورقة، إذا تجاوزتها، وقيل: هو ترك مُؤاخذة المُذنب بالذَّنْب، وأن تبدي له صفحةً جميلةً؛ ولهذا لا يُستعمل في اللّه تعالى.

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 364، والكفويّ، الكلّيّات، ص: 653 - 654.
(2) الكفويّ، الكلّيّات، ص: 649، والخطيب، التّفسير القرآنّي للقرآن: 15/1234.

وفرَّق بين الغُفران والعَفو بأنَّ الغُفران يقتضي إسقاطَ العِقاب، وإسقاطُ العقاب هو إيجاب الثَّواب، فلا يستحقّ الغُفرانَ إلّا المؤمنُ المُستحِقُّ للثَّواب، وهذا لا يُستعملُ إلّا في اللّه، والعفو يقتضي إسقاطَ اللَّوم والذَّمّ، ولا يقتضي إيجابَ الثَّواب، ولهذا يُستعملُ في العبد[1].

العزيزِ والقاهر:

العزّ: خلاف الذّلّ، وعزّ فلان يعزّ؛ أي: صار عزيزًا، وقَويَ بعد ذلّة[2]. وفي أسماء اللّه تعالى (العزيز)، وهو الغالب القويّ الّذي لا يغلب[3]، أو بعبارة أخرى: العزيزُ هو المُمتنع الَّذي لا يُنالُ بالأذى، ويُقال: عزَّ يعزُّ إذا صار عزيزًا، وعزَّ يعزُّ عزًّا إذا قهر باقتدار على المنع، والقهر: الغَلبة، والأخذ من فوق[4]، والصِّفة بعزيز لا تتضمَّن معنى القَهر، والصِّفة بقاهر تتضمَّن معنى العزِّ، يُقال: قهر فلانٌ فلانًا إذا غلبه، وصار مُقتدرًا على إنفاذ أمره فيه، والعزيزُ في الأصل: الغالب الَّذي لا يفوته شيءٌ، ولا يُعجزه شيءٌ[5]. واستعمال "العزيز" ملائمٌ لسياق الآية ومعناها.

الحكيم والعالم:

الحكيمُ على ثلاثة أوجه، أحدها: بمعنى المُحكِم، مثل: البديع بمعنى المُبدع، والسَّميع بمعنى المُسمِع. والثّاني: بمعنى مُحكَم، وفي القرآن: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ۝٤﴾ [الدّخان: 4]؛ أي: مُحكَم، وإذا وُصِف اللّه تعالى بالحكمة من هذا الوجه كان ذلك من صفات فِعله. والثّالث: الحكيم بمعنى: العالِم بأحكام الأمور، فالصِّفة به أخصُّ منَ الصِّفة بعالِم، وإذا وُصف اللّه به على هذا الوجه فهو من صفات ذاته، ويضاف إلى ذلك، أنَّ العالِم هو الَّذي يَعْلَم الأشياء، والحكيم: الَّذي يَعمل بما يوجبُه العِلْمُ[6].

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 387، و388، والكفويّ، الكلّيّات، ص: 666.
(2) االجوهريّ، الصّحاح: (عزز).
(3) ابن الأثير، النّهاية: (عزز).
(4) الخليل، العين: (قهر).
(5) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 357 - 358.
(6) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 195، والبغويّ، معالم التّنزيل: 4/227، وابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 11/54.

﴿قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوۡمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدۡقُهُمۡۚ لَهُمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ١١٩﴾ [المائدة: 119]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

المناسبةُ بين براءة عيسى مِن عابديه، وطمأنةِ الله للمؤمنين بالجِنان والرّضوان

لَمّا انقضى جوابُ عيسى عليه السلام على الوجه الجليل، تشوَّف السّامعُ إلى جوابِ الله له، فقال تعالى مُشيرًا إلى كون جوابِه حقًّا ومضمونِه صدقًا، مُنبِّهًا على مدحه حاثًّا على ما بُنيت عليه السّورةُ من الوفاء بالعقود: ﴿قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوۡمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾[1]، في يوم ينفع الصّادقين صدقُهم، "وستكون لهم جنّات تجري الأنهار في جنباتها، جزاءً وِفاقًا، وسيكونون فيها خالدين أبدًا، حيث فازوا برضا ربّهم ورضوانِه، ورضوا عمّا أكرمهم به ربُّهم، وأنعم به عليهم، وهذا هو الفوز العظيم الّذي لا أعظمَ منه"[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَنفَعُ﴾: منَ النّفع: ضدّ الضّرّ، يقال: نفعته بكذا فانتفع به، والاسمُ المنفعة[3]، هو ما يُستعان به في الوصول إلى الخير، وقد نفعه نفعًا، وانتفع به، والاسم: المنفعة، وعليه اقتصر الجوهريّ[4]، والمنفَعة: الفائدةُ، وكلُّ ما يُستفادُ منَ الشَّيء فهو مَنفعةٌ، وضِدُّ المنفعةِ: المضرَّةُ، وأَصلُ النَّفعِ في اللُّغةِ: الخَيرُ، وكلُّ ما يُستعانُ به في الوُصولِ إلى المَطلوبِ. ومِن مَعاني المنفَعةِ أيضًا: المَصلحةُ والثَّمَرَةُ[5].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 6/368.
(2) حومد، أيسر التّفاسير، ص: 789.
(3) الجوهريّ، الصّحاح: (نفع).
(4) الزّبيديّ، تاج العروس: (نفع).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والجوهريّ، الصّحاح، والزّبيدي، تاج العروس: (نفع).

والمعنى: الفائدةُ الّتي تَنال الصّادقين من توحيدهم، وتعودُ عليهم.

2) ﴿ٱلصَّٰدِقِينَ صِدۡقُهُمۡۚ﴾: الصّادُ والدّالُ والقافُ أصلٌ يدُلُّ على قوَّةٍ في الشَّيءِ قَولًا وغَيرَهُ. ومِن ذلكَ الصِّدقُ: خلافُ الكذبِ؛ سُمّيَ لقوَّته في نَفسِهِ، ولأنَّ الكذبَ لا قوَّة له، هو باطلٌ. وأصلُ هذا مِن قَولِهِم شَيءٌ صَدْقٌ؛ أي: صُلْبٌ[1]. يُقال: صدقتُ في الحديث، وصدقتُ غيري الحديثَ، يتعدّى ولا يتعدّى. قال اللّه تعالى: ﴿مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝٧٠﴾ [الأعراف: 70]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥٓ﴾ [آل عمران: 152][2]

والمعنى: الّذي صدَقوا اللّه فيما وعدوه، فوَفَّوا به للّه.

3) ﴿ٱلۡفَوۡزُ﴾: الظَّفَرُ بالخَير، والنّجاةُ منَ الشّرّ، والفَوزُ أيضاً: الهلاك. تقول منهما: فازَ يَفوزُ، وفَوَّزَ؛ أي: مات، وكُلُّ مَنْ أصابَ خَيراً فقد فازَ به؛ أي: أفلَحَ[3]. "وأفازه اللّه بكذا ففاز به؛ أي: ذهب به. وقوله تعالى: ﴿فَلَا تَحۡسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٖ مِّنَ ٱلۡعَذَابِۖ﴾ [آل عمران: 188]؛ أي: بمنجاة منه. والمفازة أيضًا: واحدة المفاوز.. قال الأصمعيّ: سمّيت بذلك تفاؤلًا بالسّلامة والفوز"[4].

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

ثـمـرةُ صـدقِ النّيّاتِ والأقوالِ والأعمالِ

قال اللّه مُجيبًا لعيسى عليه السلام: هذا اليوم - الَّذي هو يومُ القيامة - هو الوقتُ الَّذي يَنتفعُ فيه الصّادقون بصِدقِهم، جزاؤهم جنّاتٌ تَجري الأنهارُ من تحتِ أشجارِها وقُصورِها، ماكثينَ فيها على الدَّوامِ، وقد نالوا متعة الجسم في الجنّات، ومتعة الرّوح بالرّضوان

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (صدق).
(2) نشوان الحِميريّ، شمس العلوم: (صدق).
(3) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن عباد، المحيط، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (فوز).
(4) الجوهريّ، الصّحاح: (فوز).

من ربّ الأرض والسّماوات، إذ ﷺ فقَبِل حسناتِهم، ورضوا عنه بما أعطاهم من جزيل ثوابه، ذلك الجزاء والرّضا منَ اللّه، هو الفوز العظيم الّذي لا يقاربُه جزاءٌ[1].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

عِلَّةُ فَصْلِ قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوۡمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ عَمَّا قَبْلَهُ:

طَرِيقَةُ الحِوَارِ تَقْتَضِي فَصْلَ جُمَلِ المُحَاوَرَةِ

فُصِلَ قَوْلُ اللّهِ ﷻ: ﴿قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوۡمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ عَمّا قَبْلَهُ؛ لوقوعِهِ استئنافًا بيانيًّا، وذلك أنَّ قولَهُ: ﴿قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوۡمُ﴾ جاءَ جوابًا عن سُؤالٍ يُفْهَمُ مِنَ التي قَبْلَها؛ إذْ قولُهُ سُبحانَهُ حكايةً عن عيسَى عليه السلام أنَّه قال: ﴿إِن تُعَذِّبۡهُمۡ فَإِنَّهُمۡ عِبَادُكَۖ﴾ يبعَثُ في نفسِ المُتلقّي سؤالًا وهوَ: فما كان قولُ اللّهِ ﷻ؟ فجاءَ الجواب: ﴿قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوۡمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾، وهذا المَعْنَى الذي فُصِلَت الجملَةُ لأجْلِهِ هوَ مرادُ مَنْ قالَ مِنْ أهل العِلْمِ: إنَّ الفصلَ حاصِلٌ على طريقةِ الحوارِ[2].

ويجوزُ أن تكونَ الجملَةُ استئنافًا ابتدائيًّا؛ خُتِمَ به حكايةُ ما يقعُ في يوم القيامَةِ، وأُشيرَ إلى مآلِهِ وعاقبَتِهِ[3].

بلاغةُ الخطاب في قوله: ﴿قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوۡمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدۡقُهُمۡۚ﴾:

جماليّةُ اتّساعِ المعنى في أُسلوب الحَذف والتّقديرِ حسبَ القراءة القرآنيّة

هذا الخِطابُ موجَّهٌ مِنَ الحقِّ ﷻ لعباده جميعًا، يُخبرهم عن عاقبة كلٍّ منهم، فبيَّن جزاءَ الصّادقين، وهو الفوزُ برضاه تعالى، ودُخولُ جنَّة الخُلد إلى الأَبد، وأضمر جزاءَ الفريق الآخر؛ لدلالة السّياق عليه؛ حتَّى تذهب النُّفوس في تخيُّلِه كلّ مذهبٍ، كما أضاف هذا الإضمار على السّياق منَ التَّرهيب والتَّخويف من سوء المآل ما لا يخفى.

(1) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 4/353، وجماعة منَ العلماء، المختصر في تفسير القرآن الكريم، ص: 127.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 7/117.

(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/102، والآلوسي، روح المعاني: 4/68.

ومن جهة أخرى، فقد قرأ الجمهور برفع ﴿يَوْمُ﴾ من غير تنوين، باعتباره خبرًا لاسم الإشارة؛ أي: قال اللّه تعالى: (إنّ هذا اليوم هو اليوم الّذي ينتفع الصّادقون فيه بصدقهم في إيمانهم وأعمالهم) ...، وقرأ نافع ﴿يَوْمَ﴾ بالنّصب من غير تنوين، على أنّه ظرفٌ لـ (قال)؛ أي: قال اللّه تعالى هذا القول لعيسى، يومَ ينفعُ الصّادقين صدقُهم"[1]، وفي التّقديرين مجالٌ لإعمال الفكر، وربطِ عناصر السّياق بالمعنى المُتوخَّى من هذا السّياق البليغ.

عِلَّةُ العُدول إلى صيغة الماضي بقوله تعالى: ﴿قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا﴾:

استخدامُ صِيغة الماضي لتأكيد الوقوع في المستقبل

ابتدأتِ الآيةُ الكريمة بصيغةِ الماضي: ﴿قَالَ ٱللَّهُ﴾؛ للتّعبير في تشوّفٍ يقينيٍّ عنِ المستقبَل الَّذي سَيكونُ يومَ القيامةِ؛ للدَّلالةِ والتَّنبيه على تَحقُّقِ الوقوعِ لا محالة، وأنَّ ما هو للوقوع كالواقع. والتَّعبير بلفظ الجلالة ﴿ٱللَّهُ﴾؛ لإظهار الجلالةِ، وتربيةِ المهابةِ مع ما فيه من تأكيد القول ووثوقِه.

سِرُّ التَّعبير باسمِ الإشارة ﴿هَٰذَا﴾، ودلالةُ المشاكلة في الآية الكريمة:

تعيّنُ اسمِ الإشارة طريقًا إلى إحضار المشار إليه بعينِه في ذِهن السَّامع

التَّعبيرُ عن يوم القيامة باسْمِ الإشارة ﴿هَٰذَا﴾ الَّذي يدلُّ على القُرب، وكأنَّ الأمرَ يحصلُ أمامَ المُخاطَب، ويجوزُ أن يكون اسمُ الإشارة مُستعمَلًا في حقيقته لكونه في الآخرة، حيث يُقال لهم: ﴿هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْۚ﴾، وفيه مشاكلةٌ توحي بأنَّ الجزاءَ من جنس العمل. واستعمالُ اسم الإشارة بهذا الأسلوب يُسمَّى الاستبدالَ، وهو من وسائل السَّبك النَّحويّ، وبه ينقلنا اللّه تعالى إلى ذلك الوقت الَّذي سيُحاسِب فيه الخلقَ أجمعين، كما ينقلنا إلى أهواله العظيمة لحظةَ السُّؤال، وما بعد ذلك منَ الجزاء[2].

(1) ابن الجزريّ، النّشر في القراءات العشر: 2/256، وطنطاويّ، التّفسير الوسيط: 4/353.
(2) نسيبة خميس، الدّرس اللّغويّ في سورة المائدة، ص: 343.

دلالةُ التَّعبير بكلمة ﴿يَوۡمُ﴾ في قوله تعالى: ﴿هَٰذَا يَوۡمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدۡقُهُمۡۚ﴾:

جاء النَّظمُ القرآنيّ بكلمة ﴿يَوۡمُ﴾ نكرةً، وقد أضافها إلى الجملة الفعليّة وعرّفها بها، كأنَّه يقول: (إنّ هذا الأمرَ قد فُرِغَ منه؛ فغفر اللّه لمَن شاء، وعذَّب مَن شاء)، فهو من باب الإسناد إلى السَّبب.

الصِّدقُ ينفع العبادَ في المعَاد، وتُنَالُ به الجنّةُ يومَ يقوم الأشهاد

دِلَالَةُ التَّعْبِيرِ بِالفِعْلِ المُضَارِعِ ﴿يَنفَعُ﴾:

جاءَ التَّعبيرُ بالفعل المضارِع ﴿يَنفَعُ﴾ في قَوْلِ اللّهِ سُبحانَهُ: ﴿قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوۡمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾؛ للإيماء إلَى دوام هذا النَّفْعِ واستِمْرارِهِ؛ حيث إنَّ صدْقَهُمْ يورثُهم نعيمًا أبديًّا دائمًا من دخولِ الجنّاتِ وما فيها وحلولِ رضْوان اللّه تعالى عَليْهِمْ.

العَاقِبَةُ الحَمِيدَةُ لِلصِّدْقِ وَدَوَامُ نَفْعِهِ لِأَصْحَابِهِ

سرُّ التَّعبير بقوله تعالى: ﴿يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدۡقُهُمۡۚ﴾ دون: (صَدَقْتَ):

جيءَ بالتَّعبير بقوله تعالى: ﴿يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدۡقُهُمۡۚ﴾، وعدلَ عن قوله: (صَدَقت)؛ ليطابقَ مقتضى الظّاهر؛ وذلك لأنَّ عيسى عليه السلام لمّا مهَّد عذرَه بتلك العبارات الفائقة البالغة في التَّبرّي عمّا يُنسب إليه، ونزّه اللّه التَّنزيهَ الكاملَ، قابله اللّه تعالى بالشَّهادة له بالصِّدق بما هو أبلغُ ممّا أتى به في التَّنصّل، حيث عمَّ المكلَّفين كلَّهم، وعمَّ أوقاتهم؛ ليدخلَ عليه السلام في ذلك العامّ دخولًا أوَّليًّا[1]، ولذلك عبّر بتأكيده "أنّ هذا اليوم هو يومُ القيامة، اليوم الّذي ينفع فيه الصّادقين صدقُهم في إيمانهم، وفي سائر أقوالهم وأحوالهم"[2].

الحثُّ على الصِّدق والتَّرغيب فيه، لأنّه من أعظم القيم

دِلَالَةُ اللَّامِ فِي ﴿ٱلصَّٰدِقِينَ﴾:

اللّامُ في ﴿ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ مِنْ قَوْلِ اللّهِ عز وجل: ﴿قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوۡمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ دالَّةٌ علَى الكَمالِ، فالمرادُ بالصّادقين: الكاملونَ في الصِّدْقِ، وهُمْ أَهْلُ الإيمانِ لا كُلُّ مَنْ صدرَ مِنْهُ صدْقٌ أيًّا كانَ.

الكَامِلُونَ فِي الصِّدْقِ هُم كَامِلُو الِانْتِفَاعِ يَوْمَ القِيَامَةِ

(1) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 5/550.

(2) إبراهيم القطّان، تيسير التّفسير، ص: 450.

عِلَّةُ فَصْلِ قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ عَمَّا قَبْلَهُ:

فُصِلَ قَوْلُ اللهِ ﷻ: ﴿لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ عَمّا قَبْلَهُ؛ لوُرودِها استئنافًا بيانيًّا، فبينَها وبين الجملةِ قبلها شبْهُ كمالِ الاتِّصالِ، وذلك أنَّ اللهَ ﷻ لمَّا قال: ﴿هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾ أورَثَ ذلك في نفسِ المتَلَقّي سؤالًا، وهوَ: ينفعُهُمْ بأيِّ شيءٍ، أو: ما لهم من الجزاءِ على هذا الصِّدْقِ؟ فجاء الجوابُ: ﴿لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾[1].

بَيَانُ أَكْمَلِ أَحْوَالِ نَفْعِ الصِّدْقِ لِأَصْحَابِهِ فِي الآخِرَةِ

ويجوزُ أن تكونَ الجملةُ بيانًا للجملةِ قبلَها، فيكونُ بين الجملتينِ كمالُ الاتِّصالِ، فجملةُ ﴿لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ قد بيَّنت النَّفْعَ في قوله تعالَى: ﴿يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾؛ باعتبارِ أنَّ ذلك أكمَلُ أحوال نفع الصِّدْقِ[2].

دلالةُ أسلوبِ الحصْر بتقديم الخَبر على المبتدأ في قوله تعالى: ﴿لَهُمْ جَنَّٰتٌ﴾:

يدلُّ تَقديم الخبرِ ﴿لَهُمْ﴾ على المبتدأِ ﴿جَنَّٰتٌ﴾ على الحَصرِ، بمعنى: أنَّ هذا الثَّوابَ يختصُّ به الصّادِقونِ دون سواهم، "فهؤلاء الصّادقون أعَدّ اللّه لهم جنّاتٍ يعجز عنها الوصفُ، تجري من تحت أشجارها الأنهار، ثوابًا من عند اللّه، وهم مقيمون فيها لا يخرجون منها أبدًا"[3]، وقصرُ الجنّات عليهم بتقديم الخبر على المبتدأ، مِن شأنه أن يملأ قلوبَهم باليقين، وأنفسَهم بالطّمأنينة، فيعيشون في رغدِ حالٍ، وطمأنينةِ بالٍ، لا خوفٌ عليهم في الدّنيا، ولا هم يحزنون في الآخرة.

مَا يُقَدِّمُهُ السِّيَاقُ مِن بِشَارَاتٍ، يُؤَجِّجُ الأَشْوَاقَ إِلَى نَعِيمِ الجِنَّاتِ

دلالةُ التَّعبير بكلمة ﴿جَنَّٰتٌ﴾ في قوله: ﴿لَهُمْ جَنَّٰتٌ﴾:

تنكير كلمة ﴿جَنَّٰتٌ﴾ في الآية أفادت تعظيمًا وتفخيمًا لها؛ أي:

---

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 4/423، والبقاعي، نظم الدرر: 6/368، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/103.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/119.

(3) إبراهيم القطّان، تيسير التّفسير، ص: 450.

هي جنّات عظيمة، وآثر القرآن التَّعبيرَ بصيغة الجمع دون المفرد فلم يقُل: (جنَّة)؛ للإيماء إلى أنَّها واسعةٌ فسيحةٌ حتَّى كأنَّ كلَّ ناحيةٍ منها جنَّةٌ.

كلُّ لفظٍ للجنَّة يُفيد التَّفخيمَ والتَّعظيم؛ تدليلًا على الجزاء والتّكريم

زيادةً على ذلك، أنَّها تأتي في القرآن مُفردةً ومجموعةً ومثنّاةً، أمّا الإفراد فباعتبار الجنس، فتشمل كُلَّ ما كان منَ الجنّات، وأمّا الجمع فباعتبار الأنواع؛ لأنَّها درجات متعدّدة أعدَّ اللّه للمُجاهدين في سبيله مئةَ درجة، وأمّا التَّثنية فباعتبار الجنس، وهذا في قوله تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾﴾ [الرَّحمن: 46]، ثم قال: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾﴾ [الرّحمن: 62][1].

بلاغةُ المجاز العقليّ، في قوله تعالى: ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾:

براعةُ الوصف في تصوير الجنَّات، لا يتأتّى لغير البيان القرآنيّ

في إسناد الجَري إلى الأنهار، مجاز عقليٌّ علاقتُه مكانيَّةٌ، فقد أَسند النَّظمُ القرآنيُّ الجريَ إلى الأنهار مع أنَّها مكانُ جري الماء، ولم يُسنده إلى الماء؛ للإشارة إلى شِدَّة جري الماء وسرعة اندفاعه وتدفُّقه[2]، وهذا التَّعبيرُ يوحي إليك أنَّ المكانَ كلَّه يجري، وهذا كما ترى مِن روائع التَّصوير، ولطائفِ التَّعبير في نظم القرآن، وجملة: ﴿تَجْرِى﴾ إمّا حالٌ منَ الجنّات، وإمّا صفةٌ لها.

سرُّ التَّعبير بقوله: ﴿مِن تَحْتِهَا﴾ دون (تجري تحتها):

ما في الجنّة من ثمارٍ وأنهار، يُعجزُ العقلَ، وتتقاصرُ عنهُ العبارةُ

دلالةُ ﴿مِن﴾ في الجملة الكريمة ابتدائيةٌ تُبيِّن ابتداءَ جري الأنهار، بأنَّه مِن تحت الجنّات؛ ولذلك آثر القرآنُ التَّعبيرَ بقوله: ﴿مِن تَحْتِهَا﴾، ولم يقُل: (تجري تحتها)؛ للإشارة إلى هذا المعنى، وقدِ اقتضتِ البلاغةُ القرآنيَّة إضافةَ كلمة (تحت) إلى ضمير الجنّات هنا دون إضافتها إلى ضمير الصّادقين، كما جاء في آيات أُخر؛ لتأكيد ابتداء جري الأنهار مِن تحتها؛ ولأنَّ الحديث في هذا

(1) ابن عثيمين، تفسير القرآن الكريم - سورة المائدة: 2/567.
(2) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 15/9335.

السّياق عنِ الجنّات، لا عنِ المؤمنين؛ ولذلك آثرَ النَّظمُ إضافةَ (تحت) إلى ضميرها مراعاةً لمطابقة مُقتضَى الحال[1].

دِلَالَةُ وَصْفِ الأَنْهَارِ بِجَرْيِ مِيَاهِهَا فِي قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾:

جَمَالُ الجَنَّةِ وَجَمَالُ مَا فِيهَا

وَصْفُ الأَنْهارِ بِجَرْيِ مياهِها يُراد به المدحُ؛ وذلك لأنَّ أَحْسَنَ المياهِ ما كانَ جاريًا؛ لأنَّ ذلك يَقْتَضي كونَه جَديدًا كلَّما اغْتُرِفَ أَوِ اغتُسِلَ منهُ.

وَأَصْلُ الجَرْيِ: شِدَّةُ سُرعةِ المَشْيِ، وإطلاقُهُ على سَيَلان الماء سَيْلًا متكرِّرا مُتَعاقبًا: مَجازٌ[2]، وفيه مَسْلَكانِ:

أحدهما: أنَّه مجازٌ بِالاسْتِعارَةِ؛ ووجهُهُ: أنَّه شُبِّهَ سيَلانُ الماءِ سَيْلًا مُتَكرِّرا متعاقِبًا لشِدَّة سُرعة المشي؛ بجامعِ سُرعة الانْتِقال والحركةِ في كلٍّ مِنْهُما، فيكونُ مِنَ الاستعارَةِ التَّصريحيَّة التَّبعيَّة.

والآخَرُ: أنَّه مجازٌ مُرسَلٌ بعلاقةِ الإطلاق والتَّقْييدِ، فأصلُ الجري: شدَّةُ سُرعة المشي، ثُمَّ أُطلِقَ عَنْ قَيْدِ المشي، واستعمِلَ في شِدَّة السُّرعةِ مطلقًا.

وهوَ على كِلا الوَجْهَيْنِ أدخَلُ في مَدْحِ الماءِ الجاري؛ لِاقْتِضائِه المُبالغةَ في جِدَّتِه بشدَّةِ جَرْيِه.

دِلَالَةُ اللَّامِ فِي ﴿ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ مِنْ قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾:

مِنْ تَمَامِ التَّنَعُّمِ بِالجَنَّةِ جَرْيُ الأَنْهَارِ فِيهَا

اللّامُ في الأَنْهار من قولِ اللّه سُبحانَهُ: ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ لِتَعْريفِ الجِنْسِ، فيكونُ في قوَّة النَّكرةِ.

ويجوزُ أن تكون اللّامُ لِلْعَهْدِ التَّقديريِّ؛ وذلك أنَّه لَمّا ذُكرت الجنَّةُ في قولِه تعالَى: ﴿لَهُمْ جَنَّٰتٌ﴾؛ اسْتَحْضَرَ السّامعُ لَوازِمَها ومقارناتِها؛ فساغَ لِلْمُتَكلِّم أن يُشير إلى ذلك المعهودِ، فَجيء باللّام.

(1) الأنصاريّ، نصوص التّرغيب والتّرهيب في القرآن الحكيم، ص: 305.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/354.

ويجوزُ أَن تكون لِلْعَهْدِ الخارجيِّ، والإشارةُ فيه إِلَى قَوْلِ اللّٰهِ تَعالَى: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّىۖ﴾ [محمد: 15].

بَرَاعَةُ الكِنَايَةِ فِي قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾:

رِفْعَةُ الصَّادِقِينَ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ مَكَانَةً وَمَكَانًا

في ذِكْرِ جَرْيِ الأَنْهار مِنْ تحتِهم في قَوْلِهِ تعالَى: ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ كنايَةٌ عَنْ عُلوِّهِمْ، وعُلوُّهم مكانًا مُشْعِرٌ بعلوِّهم قَدْرًا.

دلالةُ التَّعبير بالخلودِ والأبدِ في قوله تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۖ﴾:

سرُّ ذكرِ الثَّواب مع الخلود ولفظِ (أبدًا)، وذكرِ العقاب مع الخلود فقط

آثر القرآنُ التَّعبيرَ بلفظ ﴿خَٰلِدِينَ﴾؛ لدلالته على طول الزَّمان، زيادةً في إكرام الصّادقين بما يلقونه في الجنّات مِن نعيم لا يزولُ ولا يحولُ، والتّعبيرُ بالجارّ والمجرور ﴿فِيهَآ﴾ إشارةٌ إلى بقائهم وخلودهم في تلك الجنّات، ولزيادة ترغيبهم بها؛ كنَّى عنها بالضَّمير على أسماعهم، أمّا كلمة ﴿أَبَدًاۖ﴾ فهي عبارةٌ عن مدَّة الزَّمان الممتدّ الَّذي لا انقطاعَ له، ذلك أنّه لمّا أُتبع الخلودُ بالأبد عُلِم: أنَّه يُراد به الدَّوامُ؛ الَّذي لا ينقطع على الإطلاق، وهي إشارةٌ إلى تأبيد الدَّيمومة في جنّة الخلود، ويصحُّ القولُ: إنّ الخلود هو المكثُ الدّائم ما لم يقمْ دليلٌ على أنَّه مُؤقّتٌ، فإن أُكِّد بالأبديّة انقطع القولُ، بأنَّه خلودٌ طويل[1].

عِلَّةُ فَصْلِ قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُۚ﴾ عَمَّا قَبْلَهُ:

إِفَاضَةُ اللهِ تَعَالَى مِنْ رِضْوَانِهِ عَلَى الصَّادِقِينَ مَا لَا يُعْرَفُ مِقْدَارُهُ

فُصِلَ قَوْلُ اللّٰهِ ﷻ: ﴿رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُۚ﴾ عَمّا قَبْلَهُ؛ لكونِهِ استِئْنافًا آخرَ، فبينَ هذهِ الجملَةِ وما قبلَها: شبهُ كمالِ الاتِّصالِ، وذلك أنَّ اللّٰه ﷻ لمّا ذكر جزاءَ الصّادقين بقوله: ﴿لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۖ﴾؛ أورثَ ذلك في نفسِ المتلقّي سؤالًا آخرَ وهو: هل لهُمْ جزاءٌ غيرُ هذا؟ فجاء الجوابُ: ﴿رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ

(1) ابن عثيمين، تفسير القرآن الكريم - سورة المائدة: 2/568، والدّرّة، تفسير القرآن الكريم: 2/628.

﴿وَرَضُواْ عَنۡهُۚ﴾؛ لبيانِ أنَّه سُبحانَهُ قد أفاضَ عَلَيْهِم مِنْ غيرِ المذكور مِنَ الجنّات ما لا يُعْرَفُ مقدارُهُ وهو رِضْوانُهُ سُبحانَهُ عَلَيْهِمْ[1].

دِلَالَةُ التَّعْبِيرِ بِالفِعْلِ المَاضِي فِي قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ﴾:

مَا أَخْبَرَ اللهُ ﷻ بِهِ مُتَحَقِّقُ الوُقُوعِ

جاءَ التَّعبيرُ في فِعْلَي الرِّضا في قَوْلِ الله سُبْحانَهُ: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ﴾ بصيغَةِ المُضيِّ، والمرادُ: الإخبارُ أنَّ الله سُبحانَهُ سَيَرْضَى عَنْهُمْ وسيرْضَوْنَ عَنْهُ رِضًا خاصًّا؛ وذلك لأنَّ السّياقَ في ذِكْرِ أَحْوال الآخرَةِ، ولَكِنْ عُبِّر عَنْ ذَلِكَ بالفِعْلِ الماضي - على خلافِ مقتضَى الظّاهرِ - للدّلالَةِ على تحقُّقُ وقوعِ هذا الرِّضا، وأنَّهُ ممّا لا بُدَّ أن يكونَ.

نُكْتَةُ الإِظْهَارِ فِي مَوْضِعِ الإِضْمَارِ فِي قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ﴾:

تَعْظِيمُ رِضْوَانِ اللهِ تَعَالَى وَتَفْخِيمُ شَأْنِهِ

في قولِ اللهِ ﷻ: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ﴾ إظهارٌ في موضعِ الإضْمار، وذلك لتقدُّمِ التَّصريح بالاسْمِ الأحسنِ (الله) في قولِهِ: ﴿قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوۡمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدۡقُهُمۡۚ﴾، فكان مقتضَى الظّاهِرِ أن يَرِدَ النَّظْمُ القرآنيُّ: (رَضيَ عَنْهُمْ ورضوا عَنْهُ)، إلّا أنَّه أظهَرَ في محلِّ الإضْمار تعظيمًا لشأنِ هذا الرِّضا وتفخيمًا لحالِهِ؛ إذْ هوَ صادِرٌ ممَّن جمعَ صِفاتِ الجلالِ والجمالِ والكمالِ.

ويَجوزُ أن تكونَ الآيةُ مِنْ قَبيلِ الالتفاتِ بالنَّظَرِ إلى جملةِ مقولِ القولِ وأنَّها في قوَّة أسلوبِ الخِطابِ، فَعُدِلَ عَنْهُ إلى الاسمِ الظّاهِرِ - وهوَ بمنزِلَةِ الغَيْبَةِ - ؛ ليُعَلَّقَ الرِّضا بصريحِ الاسْمِ دونَ ضميرِهِ.

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/103.

دلالةُ التَّعطف[1] في قوله تعالى: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ﴾:

رضا الله ﷻ من أعظم النّعم، في الدّنيا والآخرة

أتى في الآية الكريمة بالتَّعطف في قوله: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَرَضُواْ عَنۡهُۚ﴾، فرِضى اللّه مُستعملٌ في إكرامه وإحسانه، ورضى الخَلْق عنِ اللّه، هو محبَّتُه، وحصولُ ما أمّلوه منه، وبما نالوه منَ النّعيم المُقيم، بحيث لا يبقى في نفوسهم مُتطلَّعٌ، حتَّى لكأنَّه رضى مُتبادلٌ بين الخالق والمَخلوقين، والمعبود والعابدين، فسُبحانه من ربٍّ كريم، برٍّ رحيم[2].

بَرَاعَةُ التَّرَقِّي فِي الآيَةِ الكَرِيمةِ:

اجْتِمَاعُ مُتْعَةِ الأَجْسَامِ مَعَ مُتْعَةِ الأَرْوَاحِ لِأَهْلِ الصِّدْقِ فِي الآخِرَةِ

في قَوْلِ اللّهِ ﷻ: ﴿لَهُمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ﴾ أسلوبُ تَرَقٍّ؛ حيثُ ذكرَ اللّهُ سُبحانَهُ ما للصّادِقينَ من النَّعيم الذي به مُتعَةُ الأجسام في الجنّاتِ وما يتْبَعُها من جَرْيِ الأَنْهار، ثُمَّ ذكَرَ ما تَحصُلُ بهِ مُتعَةُ الأَرْواح، وهوَ رِضْوانُ اللّه تعالى عَلَيْهِمْ وهوَ أَعْظَمُ، كما قال اللّه تعالَى: ﴿وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۚ﴾ [التَّوبة: 72].

سِرُّ التَّعبير باسم الإشارة (ذَلك) في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾:

مِن دلالات اسْمِ الإشارة صرفُ الذّهن إلى تعظيم المُشارِ إليه

اسمُ الإشارة ﴿ذَٰلِكَ﴾ في الآية الكريمة جيء به لتعظيم المشار إليه، وهو الجنّات والرّضوانُ، وأشار إليه بإشارة البُعد دون القُرب؛ وذلك لعُلوِّ مرتبته وارتفاعِها، فإنَّه فوزٌ لا نظير له[3]، والتّعظيمُ باسم الإشارة المتّصلِ بلام البُعد (ذلك) مسلكٌ في البيان يسلكُه القرآن؛ ليُضفيَ هالةً منَ التّعظيم على المشار إليه باسم الإشارة، وهو هنا ﴿ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾.

---

(1) التّعطُّف: أن يأتي الشّاعرُ في المصراع الأوّل منَ البيت بلفظة ويعيدها بعينها، أو بما يتصرّف منها بالمصراع الثّاني، فشُبِّه مصراعا البيت في انعطاف أحدهما على الآخر بالعطفين، في كون كلّ عطف منهما يميل إلى الجانب الّذي يميل إليه الآخر. العسكريّ، الصّناعتين، ص: 420، والسّبكيّ، عروس الأفراح: 2/313، وابن معصوم، أنوار الرّبيع، ص: 468.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/119، والخطيب، التّفسير القرآنّي للقرآن: 4/86، والدّرّة، تفسير القرآن الكريم: 3/240.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/119، وابن عثيمين، تفسير القرآن الكريم - سورة المائدة: 2/568.

أَكْمَلُ أَنْوَاعِ الفَوْزِ دُخُولُ الجَنَّةِ وَمَا يَتْبَعُهَا مِنَ النَّعِيمِ وَتَحْصِيلُ رِضْوَانِ اللهِ تَعَالَى

دِلَالَةُ اللَّامِ فِي ﴿ٱلْفَوْزُ﴾ مِنْ قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾:

اللّامُ في ﴿ٱلْفَوْزُ﴾ مِنْ قَوْلِ اللّهِ ﷻ: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ يُرادُ بها الكمالُ والتَّعظيمُ، أي: ذلكَ المذكورُ مِنَ النَّعيم الجسديِّ والنَّعيم الرّوحيِّ هوَ الفَوْزُ الكامِلُ العظيمُ.

اجْتِمَاعُ العَظَمَةِ الذَّاتِيَّةِ وَالعَظَمَةِ الإِضَافِيَّةِ فِي فَوْزِ الآخِرَةِ

دِلَالَةُ وَصْفِ الفَوْزِ بِالعَظَمَةِ فِي قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾:

وُصِفَ الفَوْزُ بِالعَظَمَةِ في قَوْلِ اللّهِ سُبحانَهُ: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ مبالغَةً في تفخيمِ شأْنِ هذا الفَوْزِ، فاجتَمَع في الفَوْزِ العظمَةُ الذّاتيَّةُ المستفادَةُ مِنْ تعريفِ الكلِمَةِ باللّامِ، والعَظَمَةُ الإضافيَّةُ المستفادَةُ مِنْ وصْفِ الفَوْزِ بِالعَظَمَةِ.

بلاغة المجاز المُرسَل، في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾:

لا فوزَ أعلى من رضوان الله

في الآية الكريمة مجاز مُرسَل، وعلاقتُه التَّعلّقُ الاشتقاقيّ، حيث عبَّر بالمصدر عنِ المفعول؛ والمعنى: ذلك المَفوز به[1]، وبعد أن شاهدنا العرضَ القرآنيّ لذلك المشهد المهولِ، وسمعنا تفاصيل الاستجوابِ الإلهيّ للمسيح وأتباعِه، منَ الملحّين في طلب معجزة المائدة، وجدنا بلاغةَ القرآن في طريقته الإبداعيّة التّصويريّة المشوّقةِ، لم تدعْه وعدًا يوعدُ، ولا مُستقبلاً يُنتظرُ، ولم تدعْهُ عباراتٍ تسمعُها الآذان، أو تقرؤُها العيونُ، إنّما حرّكتْ به المشاعِرَ، وجسَّمَتْه واقعًا، تسمعه الآذان، وتراه العيون.

التّشابهُ بين آيتَي سورة المائدة والتّوبة، وسرُّ تقديم الرّضا في إحداهما دون الأخرى:

الآيتان قيدَ السّؤال هما: قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْۚ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾، وقوله تعالى:

(1) الإندونيسّي، الشّامل في بلاغة القرآن: 1/324.

﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلۡأَوَّلُونَ مِنَ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحۡسَٰنٖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُ وَأَعَدَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي تَحۡتَهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ١٠٠﴾ [التّوبة: 100].

لمَ خُصَّت كلُّ آية بما فيها من تقديم الرِّضا أو تأخيره؟

والجواب كالتّالي: ابتدأَتْ آية المائدة بقوله تعالى: ﴿قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوۡمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدۡقُهُمۡۚ﴾؛ فحينما كان النَّفعُ أكثرَ ارتباطًا بما هو محسوسٌ ناسبه تقديمُ: ﴿لَهُمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ﴾ على ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ﴾. أمّا آية التَّوبة فكانت بدايتُها بقوله تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلۡأَوَّلُونَ مِنَ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحۡسَٰنٖ﴾؛ فلمّا ذَكر هؤلاء مرتَّبين حسب أفضليّتهم، وكان رضَى اللّهِ عنهم أفضلَ ممّا أعدَّ لهم منَ الجنّات، ناسبه تقديمُ: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ﴾ على ﴿وَأَعَدَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي تَحۡتَهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ﴾[1].

الفرق بين ﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا﴾ وبين: ﴿تَجۡرِي تَحۡتَهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ [التوبة: 100]:

كلّ مَوضِع في القرآن ذُكِر فيه ﴿مِن تَحۡتِهَا﴾ فهو عامٌّ لقومٍ فيهم الأنبياءُ وغيرُهم، بل هم أوَّلُهم، والمَوضِعُ الَّذي لم يُذكَر فيه ﴿مِن﴾، إنَّما هو لقوم مخصوصينَ، ليس فيهم الأنبياءُ؛ و﴿مِن﴾ لابتداء الغاية، والأنهارُ مباديها أشرَفُ، والجنَّاتُ الَّتي مبادئ الأنهار من تحت أشجارها، أشرَفُ من غيرها؛ ولذا ناسبَ أن تكون لقومٍ فيهم الأنبياء، فلمّا خرجَ الأنبياءُ عنِ الآية الَّتي في سورة براءة؛ لأنَّ اللَّفظ لم يشتَمِل عليهم؛ لم يُخبرْ عن جنّاتهم بأنَّ أشرفَ الأنهار، على مَجرَى العادة في الدُّنيا، تحت أشجارها، كما أخبرَ به عنِ الجنّات الَّتي جعلها اللّه لجماعةٍ خيارُهم الأنبياءُ؛ كما في قوله تعالى مثلًا: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٖ مِّنۡهُۖ وَيُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱللَّهِۚ أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ٢٢﴾ [المجادلة: 22]، وكما في جميع مَواضِع القرآن الّتي ذُكِر فيها جريانُ الأنهار تحت الجنّات، سوى مَوضِع التّوبة هذا[2]، على قراءة جمهور القراءِ، وقرأ ابنُ كثير بزيادة ﴿مِن﴾ في هذا المَوضِع من سورة التّوبة.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/119، وابن عثيمين، تفسير القرآن الكريم - سورة المائدة: 2/568.

(2) الإسكافيّ، درّة التّنزيل: 1/472 - 473، والشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 1/208، 2/1159، والسّامرائيّ، برنامج (لمسات بيانيّة في آي القرآن الكريم): الحلقة 16.

والفرقُ بين القراءتين هنا بكونِ المعنى على قراءة ابن كثير المكّيّ بزيادة ﴿مِن﴾؛ أنَّ مبتدأ جَرْي الأنهار من أسفل الجنّات؛ لأنَّ ﴿مِن﴾ لابتداء الغاية، والمعنى على قراءة جمهور القراء بترك زيادة ﴿مِن﴾: أنَّ الأنهار جاريةٌ من جهة أسفلها[1].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(اليوم) و(النَّهار):

اليومُ الواحدُ منَ الأيّام، ثمّ يستعيرونه في الأمر العظيم[2]، "والجمع أيّام، وأصلُه أيْوامٌ فأُدْغم، قال الأخفشُ في قوله تعالى: ﴿أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ﴾ [التّوبة: 108]، قال: من أوّل الأيّام، كما تقول: لقيت كلَّ رجل، تريد كلَّ الرّجال. وعاملتُه مُياوَمَة، كما تقول: مشاهرةً، وربّما عبّروا عنِ الشّدّة باليوم. يقال: (يومٌ أيْوَمُ)، كما يُقال: (ليلةٌ ليلاء)"[3]، ويُعبَّر باليوم عنِ الحَدَث العظيم، كيوم القيامة ويوم الحساب، وهو ما عليه معنى الآية[4]، وأمّا النّهار: فضدّ اللّيل. ولا يُجمع كما لا يُجمع العذاب، والسّراب، فإن جمعته قلت في قليله نُهُر، مثل: سَحابٍ وسُحُب[5]، والنّهار: انفتاح الظّلمة عنِ الضّياء، ما بين طلوع الفجر إلى غروب الشّمس[6].

النَّفع والإحسان:

النّفع: ضدّ الضّرّ، يقال: نفعتُه بكذا فانتفع به، والاسمُ المنفعةُ[7]، وفي البصائر: هو ما يُستعان به في الوصول إلى الخير[8]. و"النّافع مِن أسماء اللّه الحسنى، وهو الّذي يوصل النّفع إلى مَن يشاء مِن خلقه، حيث هو خالقُ النّفع والضُّرّ، والخير والشَّرّ"[9]، وأمّا الإحسان فضدُّ الإساءة، والفرق بينه وبين الإنعام: أنّ الإحسان يكون لنفس الإنسان وغيرِه، والإنعام لا يكون إلّا لغيره[10]، ويُروَى: الإحسان يَستعبد الإنسانَ. قال الشّاعر:

(1) ابن أبي مريم، الكتاب الموضّح في وجوه القراءات وعللها: 2/603.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (يوم).
(3) الجوهريّ، الصّحاح: (يوم).
(4) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 551.
(5) الجوهريّ، الصّحاح: (نهر).
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نهر).
(7) الجوهريّ، الصّحاح: (نفع).
(8) الزَّبيديّ، تاج العروس: (نفع).
(9) الزَّبيديّ، تاج العروس: (نفع).
(10) الزَّبيديّ، تاج العروس: (حسن).

أَحسِنْ إلى النّاسِ تَستَعْبِدْ قُلوبَهُمُ***فَطالَما استَعبَدَ الإنسانَ إحسانُ[1]

والنَّفع قد يكون من غير قَصدٍ، والإحسان لا يكون إلّا مع القَصد[2].

الجنَّة والفِردوس:

الجَنَّةُ: كلُّ بستانٍ ذي شجر يستر بأشجاره الأرضَ، وسُمّيت الجنَّة؛ إمّا تشبيها بالجنَّة في الأرض - وإن كان بينهما بَونٌ - ، وإمّا لستره نِعمَها عنّا المشار إليها بقوله تعالى: ﴿فَلَا تَعۡلَمُ نَفۡسٞ مَّآ أُخۡفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعۡيُنٖ﴾ [السَّجدة: 17]. والفِردوسُ أصلُه البستان الَّذي هو الجنَّة بالحقيقة لانخفاض ما دونه عنه، وسترِ مَن يدخله بكثرة أشجاره، وسُمّيت الجنَّة بالفردوس؛ - وهو البستانُ يكونُ فيه الشَّجَرُ والزُّهورُ والنَّباتاتُ - وهي اسمٌ لأعلى الجَنَّةِ؛ لأنَّها درجةٌ في أعلى الجِنان وأوسطِها، وهي أفضَلُ وأعلى منزلةً في الجنَّةِ، وفي الفردوسِ مَنازِلُ الأنبياءِ، وجاء في الحديث: «الجنةُ مئة درجةٍ، كلُّ درجةٍ منها ما بين السّماءِ والأرضِ، وإنّ أعلاها الفردوسُ، وإنّ أوسطَها الفردوسُ، وإنّ العرشَ على الفردوسِ، منها تفجَّرُ أنهارُ الجنّةِ، فإذا ما سألتم اللّه فسلوهُ الفردوسَ»[3].

الأبَد والسَّرمد والأَمَد:

قالوا: الأبد: الدّهر، وجمعُه آباد، والعرب تقول: أبدٌ أبيد، كما يقولون دهرٌ دهير، والأَبْدَة: الفَعْلة تبقى على الأبد[4]، والأبدُ هو استمرار الوجود في أزمنة مُقدَّرة غيرِ متناهية في جانب المستقبل، والسَّرمدُ ما لا أوَّل له ولا آخر، وهو الَّذي لا فصلَ يقع فيه، وهو اتِّباع الشَّيء الشَّيءَ، وقالوا: (السّرْمد) الدّائم، والميم فيه زائدة، وهو من سرد، إذا وصل، فكأنّه زمان متّصل بعضه ببعض[5]، والسّرمد: دوام الزّمان من ليل أو نهار. وليل سرمد: طويل، وفي التّنزيل العزيز: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرۡمَدًا إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ [القَصص: 72][6]، وأمّا الأمد فيكون ظرفًا منَ الزَّمان والمكان، يُضاف إلى ذلك، أنَّ الأمد مدّةٌ لها حدٌّ مجهول، وقد

(1) السَّراج، اللّباب في قواعد اللّغة، ص: 267.

(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 548.

(3) أخرجه ابن ماجه، الحديث رقم: (4331)، وأحمد، الحديث رقم: (22140)، وصحح إسناده الألبانيُّ في صحيح ابن ماجه، الحديث رقم: (3512). الرّاغب، المفردات: (جنَّ)، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 12/149.

(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (أبد).

(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (السّرمد).

(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (السّرمد).

ينحصر[1]. ومن هنا نقفُ على حكمة استخدام القرآن الكريم للفظ (أبدًا) في هذا السّياق؛ لاستمرار خلود أهل الجنّة فيها وتَنَعُّمِهِم بها دون انقطاعٍ.

الرّضوان والرّضا:

الرِّضوان: بكسر الرّاء وتُضَمُّ، اسم مبالغة في معنى الرِّضى، هو الرِّضى الكثير.

وقرأ القراء كلّهم الرِّضوان، بالكسر إلّا شعبةَ عن عاصم فقرأ بالضّمّ[2]، ولمّا كان أعظمُ الرِّضى رِضى الرَّحمن، خُصَّ لفظُ الرِّضوان في القرآن، بما كان منَ اللّه تعالى[3].

الظَّفَر، والفَوز، والنَّجاة، والفَلاح:

فرَّق العسكريُّ بين الظَّفر والفَوز؛ بأنَّ الظَّفر هو العُلوُّ على المناوئ المنازع، وقد يُستعمل في مَوضِع الفوز، ولا يُستعمَل الفوز في مَوضِع الظَّفر.

وفرَّق بين النَّجاة والفَوز؛ بأنَّ النَّجاةَ هي الخلاص منَ المكروه، والفوز هو الخلاص منَ المكروه، مع الوصولِ إلى المحبوب، وذَكَر أنَّ الفلاحَ نيلُ الخير والنَّفع الباقي أثرُه، ويُقال أيضًا لكلِّ مَن عَقل وحزم، وتكاملَت فيه خلالُ الخير: قد أفلح[4].

العظيم والكبير:

العظيم: منَ العظم: مصدر الشّيء العظيم، تقول: عَظُمَ يَعْظُم عُظْمًا، وعظّمته أنا، فإذا عَظُم في عينيك، قلتَ: أعظمتُه واستعظمته[5]، والعظيم قد يكون من جهة الكثرة، ومن غير جهة الكثرة، ولذلك جاز أن يوصف اللّه تعالى بأنّه عظيم، وإن لم يوصف بأنّه كثير، وقد يعظمُ الشّيءُ من جهة الجنس ومن جهة التّضاعف. وأضاف الكفويُّ أنَّ العظيمَ نقيضُ الحقير، كما أنّ الكَبيرَ نقيضُ الصَّغير، والعظيم فوق الكَبير؛ لِأَنّ العَظيم لا يكون حَقيرًا لِكَونهما ضِدّين، والكَبير قد يكون حَقيرًا، كما أنَّ الصَّغير قد يكون عَظيمًا، إذ لَيسَ كلٌّ منهما ضِدّ الآخر[6].

---

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 71 - 276، والرّاغب، المفردات: (أمد)، والجرجانّي، التّعريفات، ص: 7/118.

(2) ابن الجزريّ، النّشر في القراءات العشر: 2/238، والزَّبيديّ، تاج العروس: 38/157.

(3) الرّاغب، المفردات: (رضي)، والكفويّ، الكلّيّات، ص: 478، والمناوي، التّوقيف، ص: 178.

(4) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 340 - 532 - 321.

(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عظم).

(6) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 361، والكفويّ، الكلّيّات، ص: 631.

﴿لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ١٢٠﴾ [المائدة: 120]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

تفنيدُ دعاوى النّصارى بألوهيّة المسيح، وتأكيدُ مُلْك الله وقدرته

لَمّا ادَّعتِ النَّصارى في عيسى عليه السلام وأمِّه الأُلوهيَّةَ، اقتضتِ الدَّعوى أن يكونا مالِكَين قادرين، فردَّ اللّه عليهم[1]، والآية تذييلٌ مُؤذنٌ بانتهاء الكلام؛ لأنَّ هذه الجُملة جمعَت عُبوديَّة كُلّ الموجودات للّه تعالى، فناسبت ما تقدَّم مِنَ الرَّدِّ على النَّصارى، وتضمَّنت أنّ جميع الكائناتِ في تصرّفه تعالى، فناسبت ما تقدَّم من جزاء الصّادقين[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مُلْكُ﴾: المُلْكُ هو ضبطُ الشَّيء المتصرَّف فيه بالحكم، يُذَكَّرُ ويُؤَنَّثُ كالسُّلطان؛ ومُلكُ اللّهِ تعالى ومَلَكوتُه: سُلطانُهُ وعَظمَتُه، وهو الحقُّ الدّائم للّه؛ ﴿لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُۖ﴾ [التّغابن: 1][3]، قال الشّاعر:

لولا مَلِكٌ رَؤوفٌ رَحيمٌ *** تَدارَكَني برَحمَتِهِ هَلَكتُ[4]

والمعنى: للّهِ سلطانُ السّماوات والأرض.

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

تنبيهُ اللهِ خلقَه على سَعة مُلكه ونافذِ قُدْرته

يخبرُ تعالى أنَّ له سلطانَ السّماوات والأرض وما فيهنّ، دون عيسى وأُمِّه اللَّذَين زُعِمَ أنّهما إلهان، فهما عبدان مملوكان للّه، مثل جميعِ مَن في السّماوات ومَن في الأرض؛ فاللّه قادرٌ على إهلاك

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/423.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/119.
(3) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (ملك).
(4) ابن سيده، المحكم: (عقص).

عيسى وأمِّه، ومَن في الأرض جميعًا كما ابتدأ خلْقهم، لا يُعجزُه ذلك؛ لأنّ قدرتَه القدرةُ الّتي لا تشبهها قدرةٌ، وسلطانَه السّلطانُ الّذي لا يشبهه سلطانٌ؛ فهو خالقُهما ومدبِّرُ أمرهما، وله مُلك ما فيهنّ من جميع المخلوقات، وهو على كلِّ شيءٍ قدير، فلا يُعجزه شيءٌ[1].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

عِلَّةُ فَصْلِ قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾:

أَثَرُ الاِسْتِئْنَافِ البَيَانِيِّ فِي إِبْرَازِ مُتَابَعَةِ المُتَلَقِّي وَشَوْقِهِ

فُصِلَ قَوْلُ اللهِ ﷻ: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ عمّا قبلَهُ؛ لوقوعِهِ استئنافًا بيانيًّا، فَبَيْنَه وبينَ ما قبلَهُ شِبْهُ كمالِ الاتِّصالِ، وذلك أنَّ قولَهُ سُبحانَهُ قبْلُ: ﴿لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ يَبْعَثُ في نفسِ المتَلَقّي سؤالًا، وهو: مَن يُعْطيهِم ذلك الفوزَ العظيمَ؟ أَوْ: مَن يَمْلِكُ ذَلِكَ ليُعْطيَهُم إيّاهُ؟ فأُجيبَ عن ذلك بقولِهِ: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، أي: يُعطيهمُ الفوزَ العظيمَ الذي له ملكُ السَّماواتِ والأرضِ[2].

ويَحْتَمِلُ أَن تَكونَ الجملَةُ استئنافًا ابتدائيًّا مقطوعًا عمّا قَبْلَهُ، والمرادُ بذلك خطابُ النَّبيِّ ﷺ[3].

والأوَّلُ أظْهَرُ لئلّا ينقطِعَ نظمُ الكلامِ.

بلاغةُ الحصر في تقديم الخبر في قوله تعالى: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾:

اخْتِصَاصُ كلِّ شيءٍ باللهِ ﷻ، دليلٌ على هيمنته على الوجود

ابتدأتِ الآية الكريمة بتقديم متعلَّق الخَبر ﴿لِلَّهِ﴾؛ لبيانِ اختصاصِ مُلكِ السّماوات والأَرضِ وما فيهنَّ باللهِ ﷻ؛ فتقديمُ ما حقُّه التَّأخيرُ يُفيد الحصرَ، سواءٌ كان هذا الَّذي حقُّه التَّأخيرُ خبرًا

(1) الطّبريّ، جامع البيان: 9/143، وجماعة من علماء التّفسير، المختصر في تفسير القرآن الكريم، ص: 127.

(2) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 12/469، والآلوسي، روح المعاني: 4/69.

(3) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/264.

أم مفعولًا، أو غيرَ ذلك ممّا حقُّه التَّأخيرُ[1]، ولذلك فإنَّ الملكَ كلَّه والقدرةَ كلَّها للّه وحده، فلا يجوز لإنسان أن يتوجّه إلّا إليه[2].

دلالةُ التَّصريح بذكر السّماوات والأرض وما فيهنَّ:

جيء بذِكر السَّماوات والأرض، والتَّصريح بما فيهنَّ؛ للإشارة إلى أنَّ كلَّ شيءٍ فيهنَّ مخلوقٌ له سبحانه، وليس فوقه أحدٌ، فلا يُقال: إنَّ أحدًا له سُلطان بجوار سلطانه، وإنَّ المعجزات الَّتي تجري على أيدي بعض النَّبيّينَ مِن خَلْقه، هو الَّذي خلقه على يديه، وليس النَّبيّ خالقَها[3]، وهو بذلك يتناول الأجناس كلّها تناولًا عامًّا، ويفيد أنّه تعالى المُهيمِنُ على كلِّ المخلوقات، فلا يندُّ عن سلطانه وقدرته شيءٌ في السّماوات ولا في الأرض.

كـــلُّ شيء مـخـلـوقٌ لله ﷻ، ولا خالقَ للكون سواه

عِلَّةُ تقديم السّماوات على الأرض، في قوله: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾:

في الجملة الكريمة تقدَّمتِ السّماواتُ على الأَرضِ؛ وعلَّةُ ذلك أنَّ السّماواتِ أشرفُ وأكبرُ، وآياتها أدلُّ وأكثرُ مِنَ الأرض على اتِّساعِهما وعِظَمِهما وتباعُدِ ما بينهما[4]، إضافةً إلى ذلك أنَّ بينهما طباقًا، ومجيءُ ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾ مُفردًا معرّفًا بلام الجنس يُفيد العموم أيضًا، والسّماوات العالية، والأرض الرّاقية، هما ظرفان للوجود بكلّ ما فيه من موجود، وقد اتّسعتِ السّماوات لمختلف الكائنات، وضمّتِ النّجومَ والكواكب والمجرّاتِ، وكانتِ الأرضُ جزءًا من ذلك الملكوتِ المتّسعِ الّذي لا يحيط بمعرفة سعتِه إلّا اللّه، لأنّ ذلك كلَّه للّه، مِلْكًا ومُلْكاً فهو سبحانه الّذي يملكُ كلَّ شيء، ويملكُ كذلك المالكَ للشّيء، فبدأ بما هو أظهرُ في العظمة والسّعة، وما هو أوضحُ في الاستدلال والبيان[5].

شرفُ السّماواتِ وكِبَرُها، وآياتُها أدلُّ وأكـثرُ مِـنَ الأرض

(1) ابن عثيمين، تفسير ابن عثيمين - سورة المائدة: 2/576.
(2) إبراهيم القطّان، تيسير التّفسير، ص: 251.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2415.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 6/370.
(5) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 6/482.

سِرُّ التَّعبير بقوله تعالى: ﴿وَمَا فِيهِنَّۚ﴾، عوض عن (ومن فيهنّ):

قال تعالى: ﴿وَمَا فِيهِنَّۚ﴾، ولم يقُلْ: (وَمَنْ فيهنَّ)، فغلَّب غيرَ العُقلاءِ على العُقلاءِ؛ لأنَّ كلمة (ما) تتناول الأجناس كلّها تناولًا عامًّا، بأصل الوضع، و(مَنْ) لا تتناول غيرَ العُقلاء بأصل الوضع، فكان استعمال (ما) هنا أَولَى، والسَّببُ فيه التّنبيهُ على أنَّ كلَّ المخلوقاتِ العاقلة منَ الإنس والجنّ والملائكة، مُسخَّرونَ في قبضةِ قَهْره وقُدرته، وقَضائِه وقَدَره، وهم في ذلك التَّسخيرِ كالجَماداتِ الّتي لا قُدرةَ لها، وكالبَهائِمِ الّتي لا عَقلَ لها، فعِلْمُ الكلِّ بالنِّسبة إلى عِلمه كَلا عِلمٍ، وقُدرةُ الكلِّ بالنّسبة إلى قُدرَته كَلا قدرةٍ[1]، إضافةً إلى ذلك، أنَّ السّماواتِ والأرض فيهنَّ شيء، وهذا أمر معلوم، فالسّماوات فيها الملائكة، والأرضُ فيها الإنس والجنّ والشَّياطين، كذلك الجماداتُ، وكلّها ملكُها ثابتٌ للّه[2] ﷻ.

التَّنبيهُ على أنَّ المخلوقاتِ العاقلةَ منَ الإنس والجنِّ والملائكة، مُسخَّرونَ لله

بَرَاعَةُ المَجَازِ المُرْسَلِ المُرَكَّبِ فِي قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾:

قولُ اللّه ﷻ: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّۚ﴾ جملةٌ خبريَّةٌ يُرادُ بها إعلامُ عمومِ مُلْكِهِ سُبحانَهُ، وفيهِ تَنْبيهٌ علَى عُبوديَّةِ عيسَى عليه السلام.

تَحْرِيضُ العِبَادِ عَلَى تَعْلِيقِ الآمَالِ بِاللهِ تَعَالَى وَحْدَهُ

وفي هذه الجُمْلَةِ أيْضًا تحريضٌ للعبادِ على تعليقِ الآمالِ باللّهِ تعالَى وحْدَهُ[3]؛ لأنَّ جميعَ ما يأمَلُهُ العبادُ هو مِلْكٌ للّهِ ﷻ، فكانَتْ هذه الجُملَةُ جامعةً بينَ المَعْنَى الحقيقيِّ الذي يُفيدُهُ أصلُ الإخبار، والمَعْنَى المجازيِّ اللّازمِ مِنْ هذا الإخبارِ، وهذا ضَرْبٌ مِنْ ضُروبِ استعمالِ اللَّفْظِ المُشْتَرِكِ في مَعْنَيَيْهِ أو معانيه، وهوَ جائزٌ علَى الصَّحيحِ.

(1) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 12/469، والبيضاويّ، أسرارُ التَّنزيل: 2/151، والطِّيبيّ، فتوح الغيب: 5/551، والزَّركشيّ، البرهان: 3/307.

(2) ابن عثيمين، تفسير ابن عثيمين - سورة المائدة: 2/578.

(3) ابن الجوزي، زاد المسير: 1/606.

دِلَالَةُ اللَّامِ فِي (الأَرْضِ) مِنْ قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾:

شُمُولُ لَفْظِ الأَرْضِ لِجَمِيعِ البِقَاعِ

اللّامُ في (الأَرْضِ) مِنْ قَوْلِ اللّهِ ﷻ: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ لامُ الجِنسِ المفيدَةُ عمومَ البقاعِ المندرجةِ في لفظها، وهيَ شاملَةٌ لكلِّ ما يقَعُ عليهِ هَذا اللَّفْظُ، فيدخُلُ في لفظِ (الأَرْضِ) الأرضونَ السَّبْعُ كُلُّها.

نُكْتَةُ عَدَمِ جَمْعِ (الأَرْضِ) فِي قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾:

تَصَرُّفُ النَّظْمِ القُرْآنِيِّ فِي الأَلْفَاظِ جَمْعًا وَإِفْرَادًا بِمَا يُحَقِّقُ جَزَالَتَهُ وَانْسِيَابَهُ

لَمْ تَرِدْ لفظَةُ (الأَرْضِ) مجموعَةً في القرآنِ الكريمِ مُطْلَقًا، فإنَّ السَّماءَ إذا ذُكِرَت مجموعَةً جيءَ بلفظِ الأرض مُفْرَدًا في جميعِ مواضِعِها، وعُدِلَ عن الجَمْعِ لِثِقَلِهِ، والجُسْأَةُ التي تعرِضُ للَّفْظِ حتَّى إنَّ النَّظْمَ لَيَخْتَلُّ بسببِ ذلك[1].

دلالةُ تقديم الجارّ والمجرور، في قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾:

عمومُ قدرة الله ﷻ على كلِّ شيء، لايماري فيه إلّا معاندٌ كنودٌ

تقديم الجارّ والمجرور، يفيد كمالَ قدرة اللّه تعالى على الأشياء، والتّقديم للمجرور بـ ﴿عَلَىٰ﴾، للرِّعاية على الفاصلة المبنيَّة على حرفين، بينهما حرف مدّ[2]، والتّقديم له فائدة شكليّة في مراعاة الفاصلة، الّتي تعطي السيّاقَ انسيابيّةً وجماليّةً وروعة، تنسجم فيها التّلاوةُ، وتأنس لها الآذان، وترتاح لها الأنفسُ، وله فائدة معنويّةٌ، حيث يستوعب الدّلالةَ المرادةَ مِن لَفت اللّه العقولَ والأبصارَ، إلى قدرته على كلّ شيء، وأنَّ مَن يكفرُ به ويعانده، لن يعجزَه أمرُه، ولكنّه يمهل الظّالمَ، حتّى إذا أخذه لم يفلتْه.

بَرَاعَةُ التَّذْيِيلِ فِي قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾:

عُمُومُ مُلْكِ اللهِ تَعَالَى وَشُمُولُ قُدْرَتِهِ سُبْحَانَهُ

قولُ اللّهِ ﷻ: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ تذييلٌ غيرُ جارٍ مَجْرَى المثَلِ؛ لعَدَمِ استقلالِهِ، وافتقارِهِ إلى ما قبلَهُ في إدراكِ تمامِ المُرادِ، وفائدتُهُ أنَّ اللّهَ سُبحانَهُ لمّا ذكرَ مُلْكَهُ للسَّماواتِ والأرضِ وما فيهِنَّ،

(1) الرافعي، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، ص: 160.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 7/120.

وذلك مُقْتَضٍ قُدْرَتَهُ على ذلكَ كُلِّه؛ عَمَّمَ الحُكْمَ في جُملَةِ التَّذْييلِ، فقال: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾.

بلاغةُ حُسن خِتام السُّورة، في قوله: ﴿لِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾:

حسنُ الانتهاء وبراعةُ المقطع، من بلاغة القرآن الرّاقية

ختم اللّه تعالى سورةَ المائدة، بأحسن خاتمة وأجزلها؛ لاشتمال الآية على التَّعظيم والتَّبجيل، وأنَّها مُتَّسقةٌ كلَّ الاتِّساق، لأنْ تكون خاتمةً لهذه السّورة العظيمة الَّتي ساقَت ما ساقَت مِن تشريعاتٍ وأحكامٍ، وآدابٍ وهدايات، ومِن حُججٍ حكيمةٍ، وأدلَّةٍ ساطعةٍ، دحضَتْ بها الأقوالَ الباطلةَ الَّتي افتراها أهلُ الكتاب، - خصوصًا النَّصارى - ، على عيسى وأمِّه مريم عليهما السلام، وبرهنت على أنَّ عيسى وأمَّه، ما كانا إلّا عبدين من عباد اللّه، يدينان له بالعبوديّة والطّاعة والخُضوع، ويأمران غيرَهما بأن ينهج نهجهما في ذلك[1].

مناسبةُ مُفتتح السُّورة ومُختتمِها:

التَّكاملُ في بِنية السُّورة بين التّشريع وصفات اللهِ المُشرِّعِ على أحسن الوجوه

إنَّ مُفتتح سورة المائدة، كان بذِكر العَهد المنعقِد بين الرُّبوبيّة والعُبوديَّة، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ﴾ [المائدة: 1]، وكمالُ حالِ المؤمن في أن يَشرعَ في العبوديَّة، وينتهيَ إلى الفناء المحض عن نفسه بالكلّيَّة، فالأوَّل هو الشَّريعة، وهو البداية، والآخر هو الحقيقةُ، وهو النِّهاية، فمُفتتح السّورة مِنَ الشَّريعة ومختتمُها بذِكر كبرياءِ اللّه وجلاله، وعزَّته وقُدرته وعُلوِّه، وذلك هو الوصولُ إلى مقام الحقيقة، فما أحسنَ المناسبةَ بين ذلك المُفتَتح، وهذا المُختَتم![2].

دلالةُ ذكْر عبارةِ ﴿وَمَا فِيهِنَّۚ﴾ في آية سورة المائدة دون آية سورة الشّورى:

الآيتان هما قولُ اللّه تعالى: ﴿لِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا فِيهِنَّۚ

(1) الزّركشّي، البرهان: 1/183، وطنطاويّ، التّفسير الوسيط: 4/354، الإندونيسّي، الشّامل في بلاغة القرآن: 1/324.

(2) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 12/469.

وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾، وقولُه تعالى: ﴿لِّلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ﴾ [الشّورى: 49]، والسّؤال: لِمَ خُصَّت آية المائدة بورود قوله تعالى: ﴿وَمَا فِيهِنَّۚ﴾ دون أن تُذكر في سورة الشّورى؟ وللإجابة عن ذلك نذكر ما يأتي:

بيانُ سَعة ملكِ الـلـه، لدحض شبهة مشاركته فيه سواه

إنّ آية المائدة وردَت في نهاية سياق تمام الرّدِّ على النَّصارى، الَّذين اتَّخذوا عيسى بن مريم وأمَّه عليهما السلام إلهين من دون اللّه؛ فلمّا كان ذلك دالًّا على المشاركة في الملك ناسبه المبالغةُ في بيان سَعة مُلك اللّه، بذكر عبارة: ﴿وَمَا فِيهِنَّۚ﴾، بقوله: ﴿لِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا فِيهِنَّۚ﴾، ولمّا كان الملكُ لا قوامَ له إلّا بتمام القُدرة وسعتِها ناسبه قولُه: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾، أمّا آية الشّورى فيسبقها قولُه: ﴿وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِنَّا رَحۡمَةٗ فَرِحَ بِهَاۖ وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةُۢ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ فَإِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ كَفُورٞ ٤٨﴾ [الشّورى: 48]؛ فلمّا لم يذكرْ ما يتعلَّق بالشِّرك أو المنازعة في الملك ناسبه عدمُ ذكر: ﴿وَمَا فِيهِنَّۚ﴾ بقوله: ﴿لِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾.

تغيّرُ الأسماء الحسنى بين ﴿قَدِيرٞ﴾ و﴿وَكِيلٞ﴾ و﴿شَهِيدٞ﴾ في مَواقعها من سورها:

الملاحظ في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾، وقولِه تعالى: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ ١٠٢﴾ [الأنعام: 102]، وقولِه تعالى: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٞ ٤٧﴾ [سبأ: 47]. والسؤالُ: لِمَ خُصَّت كلُّ آيةٍ بما فيها منَ الأسماء الحسنى؟

آية المائدة بُدِئت بقوله: ﴿لِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا فِيهِنَّۚ﴾؛ فلمّا كان الملكُ لا قوامَ له إلّا بتمام القُدرة وسعتها ناسبه قولُه: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾.

وأمّا آية الأنعام فقد بُدئت بقوله: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡۖ لَآ إِلَٰهَ

﴿إِلَّا هُوَۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ فَٱعۡبُدُوهُۚ﴾ [الأنعام: 102]؛ فلمّا كانتِ العِبادة قد يعكّر صفوَها الانشغالُ بالرِّزق والمعاش ناسبه طمأنةُ العِباد؛ بأنَّ الله هو القيِّمُ الكفيل بأرزاقهم وأرزاق غيرهم بقوله: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ﴾.

وأمّا آية سبأ فقد بُدئت بقوله: ﴿قُلۡ مَا سَأَلۡتُكُم مِّنۡ أَجۡرٖ فَهُوَ لَكُمۡۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۖ﴾ [سبأ: 47]؛ فلمّا كانت هذه شهادةً مِنَ الله تعالى أُمر الرَّسولُ ﷺ بتبليغها لأُمَّته، كي يشهدوا بذلك، ناسبه بيانُ أنَّ الله هو الشَّهيد على ذلك، وعلى غيره بقوله: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ﴾.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

المُلك والملكوت:

المَلكوت هو عالمُ الغَيب المُختَصُّ بالأرواح والنّفوس والعجائب، وفي التَّنزيل العَزيز: ﴿أَوَلَمۡ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٖ﴾ [الأعراف: 185][1]، والله تعالى" له الملكوت والعزّة والجبروتُ، خلق الخلقَ وأعمالَهم، وقدّر أرزاقهم وآجالَهم، لا تُحصى مقدوراتُه، ولا تتناهى معلوماتُه، عالم بجميع المعلومات، لا يعزب عنه مثقالُ ذرّة في الأرضِ ولا في السّماواتِ"[2]، وأمّا المُلك فيُقال: "ملك الشّيء وامتلكه وتملّكه، وهو مالكه وأحدُ مُلّاكه، وهذا ملكُه وملكُ يده، وهذه أملاكه. ومَلَكَ عليه أمره إذا استولى عليه[3]، وفي الفرق بينهما، قال أهلُ العربيَّة: الملكوتُ أبلَغُ مِنَ المُلك؛ لفخامة لفظه، زِد على ذَلك، أنَّ المُلك الحقّ الدّائم لله، فالمُلكُ ضبطُ الشَّيء المُتصرَّفِ فيه بالحُكم، والملكوت مختصٌّ بملكِ الله تعالى، وهو مصدرُ مَلَكَ أُدخِلَتْ فيه التّاءُ[4].

الأرض، والحافرة، والسّاهرة:

الأرض: الجِرْمُ المقابل للسَّماء. وهي اسمُ جنس، وقالوا: أرضون فجمعوا بالواو والنّون، على غير قياس، جعلوا الواو والنّون عوضًا من حذفهم الألف والتّاء، وتركوا

(1) مجمع اللّغة العربيّة بالقاهرة، المعجم الوسيط: 2/886.
(2) الأبشيهيّ، المستطرف في كلّ فنّ مُستظرف، ص: 11.
(3) الزّمخشريّ، أساس البلاغة: 2/227.
(4) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 155، والرّاغب، المفردات: (ملك).

فتحة الرّاء على حالها، وربّما سُكّنت، والأراضي أيضًا على غير قياس، وكلّ ما سفل فهو أرض[1]، والحافرة: الأرض الَّتي تُحفر فيها قبور النّاس، والمعنى المحفورة. والسّاهرة: أرضُ المحشر، تُسمَّى ساهرة؛ لأنَّه مِن شدَّة الخوف فيه يطير النَّوم عنِ الإنسان، فتلك الأَرض الّتي يجتمع الكفّارُ فيها في موقف القيامة، يكونون فيها في أشدِّ الخوف[2].

القدرة والاستطاعة:

والاستطاعة: هيَ التّهيُّؤ لتنفيذ الفِعل بإرادَة المُختار من غير عائق، قالَ المُحَقِّقونَ: هي اسمٌ للمعاني الَّتي يتَمَكَّن المَرء بها مِمّا يُريدهُ من إحداث فعل؛ وهي أخصّ منَ القُدْرَة، والحقُّ ما صرّح به الإمام أبو حنيفَة أنّ القُدرَة تصلح للضّدّين؛ بمعنى: أنَّها قوَّةٌ بها يتَمَكَّن الحَيُّ مع الفِعل والتّرك، وصِحَّةِ الأَمر والنَّهي، وقيل: القُدرَة ما يظهر منَ القوَّة، بِقدر العَمَل، لا زائِدًا عليه ولا ناقِصًا منهُ، ونفيُ الاستِطاعَة قد يُراد به نفيُ القُدرَة والإمكان، وقد يُراد به نفيُ الامتِناع، وقد يُراد به الوُقوعُ بِمَشَقَّة وكُلفةٍ[3].

(1) الجوهريّ، الصّحاح: (أرض).

(2) الرّاغب، المفردات: (أرض)، والفرّاء، معاني القرآن: 3/232، والرّازيّ، مفاتيح الغيب: 31/37.

(3) الكفويّ، الكلّيّات، ص: 108 - 109.

سُورَةُ الأَنعَامِ

سُورَةُ الأَنْعَامِ

التَّعريفُ العامُّ بالسُّورة:

سـورةُ الأنعـامِ هـيَ أوَّلُ سـورةٍ مكِّيَّةٍ مِنَ السَّبعِ الطِّوال السَّنيَّة

سورةُ الأنعام هي السورة السادسة في ترتيب المصحفِ، وهي مكّيّة بالاتّفاق "وهي مئةٌ وخمسٌ وسِتّونَ آيَةً في الكوفيّ، وستٌّ في البَصريّ والشّاميّ، وسبعٌ في المَدَنيّين والمكّيّ"[1].

وهي أوّلُ سورةٍ مكّيّةٍ منَ الطّوال في ترتيبِ المصحفِ، وتُعدّ في ترتيب النّزول الخامِسَةَ والخَمْسينَ في أَحَدِ الأقوال المُعتبرة، وقد نزلَت ليلًا في السّنة الرّابعة منَ البعثة، بعدَ سورة الحِجْرِ وقبلَ سورة الصّافّات[2].

ويرى بعضُ المفسّرين أنّ فيها آياتٍ مدنيّةً[3]، والّذي عليه المحقّقون منَ المفسّرين، وترتاحُ إليه القلوب، وتطمئنُّ له النّفوس، هو أنَّ السّورةَ بكلِّ آياتها مكّيّة، وذلك للأسباب الآتية:

أوّلًا: كثرةُ الآثار الّتي صرّحَت بنزولها بمكّة دُفعةً واحدةً، وهي منقولةٌ عنِ ابن عبّاس وابن عمر رضي الله عنهم وغيرهما، والّتي تناقلها معظمُ المفسّرين في تفاسيرهم.

فقد روي في بيان منزلة هذه السّورةِ أنَّها نزلَت مرّةً واحدةً، وشيّعها سبعونَ ألفَ ملكٍ، طبّقوا ما بين السّماوات والأرض، لهم زَجَلٌ بالتَّسبيح، فقال رسولُ الله ﷺ: «سبحان الله»!، وخرّ

(1) الدّانّي، البيان في عدّ آيّ القرآن، ص: 151.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/123، وجعفر شرف الدّين، الموسوعة القرآنيّة، خصائص السّور: 3/6.

(3) انظر تفاصيل ذلك في: السّمرقنديّ، بحر العلوم: 1/433، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2416، وابن أبي زَمَنين، تفسير القرآن العزيز: 2/58، والزّمخشريّ، الكشّاف عن حقائق غوامض التّنزيل: 2/3.

ساجدًا[1]، ومن ذلك ما رَواه الطَّبَرانيُّ في المعجم الصّغير بسَندِهِ إلى عَبدِ اللّهِ بنِ عُمَرَ: قالَ رَسولُ اللّه ﷺ: «نَزَلَت عليَّ سورةُ الأَنعامِ جُملَةً واحِدَةً، وشَيَّعَها سَبعونَ أَلفًا مِنَ المَلائِكَةِ، لَهُم زَجَلٌ بالتَّسبيحِ والتَّحميدِ»[2].

ثانيًا: أنّ المحقّقين منَ المفسّرين عندما بدؤوا في تفسير سورةِ الأنعامِ صرّحوا بأنّها جميعها مكّيّةٌ، وأنّها قد نزلَت جملةً واحدةً، ولم يذكروا روايةً واحدةً تُثبت أنّ فيها آيةً أو آياتٍ قد نزلَت بالمدينة، ومن هؤلاء ابن جرير الطّبريّ[3]، والواحديّ[4]، والنّسفيّ[5]، وابن كثير[6]، والسّيوطيّ[7]، وغيرهم منَ الحفّاظِ النّقادِ وأهلِ الرّواياتِ وأصحابِ التّفسيرِ بالمأثور.

ثالثًا: جميعُ الرّوايات الّتي اعتمد عليها القائلون بمدنيّةِ بعض الآيات، هي رواياتٌ فيها مَقال، ولم يعتمدها المحقّقون منَ العلماء، ولم يصحَّ بها نقل.

رابعًا: القارئُ لسورة الأنعامِ بتدبّر يجد فيها سماتِ القرآن المكّيِّ واضحةً جليّةً، وفي كلّ آياتها، فهي تتحدّث باستفاضة عن وحدانيّة اللّهِ، وعن مظاهرِ قدرتِه، وعن صدق النّبيّ ﷺ في دعوته، وعنِ الأدلّة الدّامغةِ الّتي تؤيّدُ صحّةَ البعث والثّواب والعقاب يوم القيامة، وغيرها منَ الموضوعات المرتبطة بالعقيدة والتّوحيد، ومن أجل ذلك اقتضَتِ الحكمةُ الإلهيّةُ أن تنزلَ - مع طولها وتنوّع آياتها - جملةً واحدةً.

خامساً: ثبت أنّ بعضَ الآياتِ كانَت تصدقُ على وقائعَ تحدثُ بعد نزولها أو قبله للاستشهاد أو الاحتجاج بها في الواقعة منها، فيظنّ مَن سمعها حينئذٍ منَ الصّحابة، ولم يكن سمعها من قبل، أنّها نزلَت في تلك الواقعة[8].

(1) قال الزّركشّي: "ذكر أبو عمرو بن الصّلاح في (فتاويه): أنَّ الخبَر من حديث أبيّ بن كعب عنِ النّبيّ ﷺ، وفي إسناده ضعفٌ، ولم نرَ له إسنادًا صحيحًا، وقد روي ما يخالفُه، فروي أنَّها لم تنزلْ جملةً واحدةً، بل نزل منها آيات بالمدينة". الزّركشيّ، البرهان: 1/186.

(2) الطّبرانّي، المعجم الصّغير، حديث رقم: (220).

(3) الطّبريّ، جامع البيان عن تأويل آي القرآن: 9/144.

(4) الواحديّ، الوسيط في تفسير القرآن المجيد: 2/250.

(5) النّسفيّ، مدارك التّنزيل وحقائق التّأويل: 1/489.

(6) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/237.

(7) السّيوطيّ، الدّرّ المنثور في التّفسير بالمأثور: 3/243.

(8) رضا، تفسير المنار: 7/237.

أسماءُ السّورة، على الرّوايات المشهورة:

اشتُهِرَت سورةُ الأنعام بهذا الاسم دون غيره، وذكر الفيروزباديّ أنَّ لسورة الأنعام اسمًا آخر هو: سورةُ الحجّة[1]؛ لأنّها اشتملَت علمًا كثيرًا من دلائل حجّةِ النّبوّةِ، وأَيضاً تكرّرت فيها الحجّةُ في قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الأنعام: 83]، و﴿قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ﴾ [الأنعام: 149]، وهذه التّسمية اجتهادٌ منَ الفيروزباديّ ومَن تبعه، ولا يوجد ما يؤيّده من سنّة النّبيّ ﷺ بخلاف الاسم الأوّلِ المذكور صراحةً في السّورة، وفي أكثر من مكان، والوارد في أحاديث النّبيّ ﷺ.

فعند ابن عاشور[2] ليس لسورة الأنعام إلّا هذا الاسم مِن عَهدِ رَسولِ الله ﷺ حتّى الآن، وقد ثبتَتْ تسميتُها في المصاحف وكتب التّفسير والسّنّة بهذا الاسم، فلم تُعرَف بسواه.

سببُ تسميتِها بالأنعام:

أمّا سببُ تَسْميَتِها بهذا الاسم فقد ذكروا في ذلك أقوالًا منها:

أنّ لفظَ الأنعامِ تكرّرَ في السّورة ستَّ مرّاتٍ من قوله: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا﴾ - إلى قَولِهِ - ﴿إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَا﴾ [الأنعام: 136 - 144]، ولما ورد من تفصيل أحوالِها مثل قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًا﴾ [الأنعام: 142] إلى قوله: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ﴾ [الأنعام: 144] حيث لم يرِد هذا التّفصيلُ في غيرها منَ السّور، ولأنّ السّورةَ انفردَت بهذا التّفصيل، استحقَّتِ التّسمية بها[3].

وسورةُ الأنعامِ سُمّيَت بهذا الاسم لأنّ أكثرَ أحكامِها وجهالاتِ المشركين فيها، وفي التّقرّب بها إلى أصنامهم مذكورةٌ فيها[4].

❁ المحورُ العامُّ لسورةِ الأنعامِ:

يدورُ محورُ السّورةِ الكريمةِ حولَ حشدِ الأدلّةِ الدّامغةِ والبراهينِ السّاطعةِ الدّالّةِ على توحيدِ الله وألوهيّته، ومحاجّةِ المشركين، وردِّ مزاعمِهم الباطلة ومعتقداتِهم الفاسدة،

(1) الفيروزباديّ، بصائر ذوي التّمييز: 1/187، والخطيب، التّفسير القرآنّي للقرآن: 4/116.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير، 7/121.
(3) الأبياريّ، الموسوعة القرآنيّة: 2/65.
(4) القاسميّ، محاسن التّأويل: 4/308.

توحيدُ الألوهيَّةِ، ومحاجَّةُ المشركين بردِّ مزاعمِهم الباطلةِ ومعتقداتِهم الفاسدةِ

وهذا واضحٌ من خلال مجرياتِ السّورةِ الكريمةِ وأساليبِها المتنوّعةِ، وذكر شهابُ الدّين الخفاجيُّ بأنّ قطبَ هذه السّورةِ الكريمةِ يدورُ على إثباتِ الصّانعِ، ودلائلِ التّوحيدِ، ونُقِلَ عن أبي إسحق الإسفراييني رحمه الله: في سورة الأنعام كلُّ قواعدِ التّوحيدِ[1].

وذكر القرطبيُّ أنَّ هذه السّورةَ أصلٌ في محاجّةِ المشركين وغيرهم منَ المبتدعينَ، ومَن كذّبَ بالبعث والنّشور، وهذا اقتضى إنزالَها جملةً واحدةً لأنّها في معنًى واحدٍ منَ الحجّة، وإن تصرّفَ ذلك بوجوهٍ كثيرةٍ، وعليها بنى المتكلّمون أصولَ الدّين؛ لأنّ فيها آياتٍ بيّناتٍ تردّ على القدريّة[2].

وأوجزها سيّد طنطاويّ بأنّ سورةَ الأنعام قد "جمعَتْ كلَّ العقائدِ الصّحيحةِ، وعُنيَت بالاحتجاج لأصولِ الدّين، وتفنيدِ شُبَهِ الملحدين، وإبطالِ العقائدِ الفاسدةِ، وهذه المعتقداتُ والمناظراتُ وكثرةُ الدّلائلِ والحججُ والبراهينُ والمحاوراتُ والسّجالاتُ بين الأنبياء وأقوامهم تتوافقُ وطبيعةَ المرحلةِ الّتي كانَت تجتازُها الدّعوة الإسلاميّة في ذلك الوقت"[3].

ملمحُ ارتباطِ التَّسميَةِ بِمِحْوَرِ السُّورةِ:

الّذي يغلبُ عليه الظّنّ أنّ تسميةَ السّورة بحسب تكرّر لفظةٍ ما فيها ليس أمرًا مطّردًا ليكون سببًا للتّسمية، بل لا بدّ من ارتباطٍ أعمق بمحورِ السّورةِ الكريمةِ، كما هو الحال هنا في كون محور السّورة يقوم على تقرير توحيدِ الألوهيّةِ المتضمّنِ حقّ الله وحدَه بالتّحليل والتّحريم دون غيره، وأنّه لا مُشرِّع سوى الله ﷻ دونَ تشريعاتِ البشرِ القاصرةِ، كما هو الشّأن في تشريعات أهلِ الجاهليّةِ فيما

(1) الخفاجيّ، عِنايةُ القاضي: 3/307.
(2) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 6/383.
(3) طنطاويّ، التّفسير الوسيط للقرآن الكريم: 5/7.

كانوا يعتقدونه في أحكام هذه الأنعام وغيرها، وكما هو الشّأن أيضًا في تشريعات أهلِ الكتابِ فيما حرّموه على أنفسهم دون ما شرعه اللّه تعالى لهم، فكانَت تسميتُها بالأنعام تحملُ إشاراتٍ إلى مَعلمٍ بارزٍ من معالمِ توحيدِ الألوهيّةِ، وحقّ اللّه وحدَه بالتّحليل والتّحريم.

اعتناءُ سورةِ الأنعامِ بعقائدِ الإسلامِ، وإلزامُ أهلِ الباطلِ الحُجَّةَ

قال الشّيخ رشيد رضا: "لَو سُمّيَتْ سورُ القُرآنِ بما يدُلُّ على جُلِّ ما تَشتَمِلُ عليه كلُّ سورةٍ أو على أهَمِّهِ؛ لسُمّيَتْ هذه السّورةُ سورَةَ عَقائِدِ الإسلامِ، أو سورَةَ التَّوحيدِ، على ما جَرَى عليه العُلماءُ مِنَ التَّعبيرِ عَن عِلمِ العَقائِدِ بالتَّوحيدِ؛ لأَنَّهُ أساسُها وأَعظَمُ أركانِها، فهي مُفَصِّلَةٌ لِعَقيدَةِ التَّوحيدِ معَ دَلائِلِها، وما تَجِبُ مَعرِفَتُهُ مِن صِفاتِ اللّهِ تعالى وآياتِهِ، ولِرَدِّ شُبُهاتِ الكُفّارِ على التَّوحيدِ، وما يَتبَعُ ذَلِكَ مِن هَدمِ هَياكِلِ الشِّركِ وتَقويضِ أَركانِهِ، ولإثباتِ الرِّسالَةِ والوَحيِ، وتَفنيدِ شُبُهاتِهِم على الرَّسولِ ﷺ، وإلزامِهِمُ الحُجَّةَ بآيةِ اللّهِ الكُبرَى؛ وهيَ القُرآنُ المُشتَمِلُ على الآياتِ الكَثيرَةِ، مِن عَقليَّةٍ وعِلميَّةٍ ومُبَيِّنَةٍ لِوظائِفِ الرّسولِ ودَعْوتِه وهَدْيِه"[1].

❁ الخصائصُ الموضوعيَّةُ والأسلوبيَّةُ لسورةِ الأنعامِ:

تمتازُ سورةُ الأنعام بعددٍ منَ الخصائصِ الموضوعيّةِ والأسلوبيّةِ الّتي مازتها عن غيرها منَ السّور، فمِن ذلك: أنّها منَ السّبعِ الطّوالِ الّتي وردَت عنِ النّبيّ ﷺ فعَن عائشةَ رضي الله عنها، أنَّ رَسولَ اللّه ﷺ قالَ: «مَن أَخَذَ السَّبعَ الأوَلَ مِنَ القُرآنِ فَهوَ حَبْرٌ»[2]، والسّبعُ الأوَلُ هي: البقرة، وآل عمران، والنّساء، والمائدة، والأنعام، والأعراف، والأنفال ومعها براءة؛ لأنّهما بحكم السّورةِ الواحدةِ، ولذلك لم يفصلِ الصّحابةُ بينهما بـ"بسم اللّه الرّحمن الرّحيم".

(1) رشيد رضا، تفسير المنار: 8/238.

(2) أخرجه أحمد، الحديث رقم: (24531) واللّفظ له، والبزّار كما في مجمع الزّوائد للهيثمي: 8/165، باختلافٍ يسيرٍ، والطّحاويّ، شرح مشكل الآثار، الحديث رقم: (1377) مختصرًا.

نزلَتْ دُفعةً واحدةً تشيّعُها الملائكةُ، وهي مِنَ السُّوَرِ المُحَمِّداتِ

ومن خصائصها: أنّها أوّل سورة مكّيّة جاءَت في ترتيب المصحفِ الشّريفِ بعدَ البقرةِ وآلِ عمران والنّساءِ والمائدةِ، وأنّها نزلَت جملةً واحدةً ليلًا، وشيّعها سبعون ألفًا منَ الملائكةِ حتّى سدّوا الأفق ما بين السّماء والأرض، فقد جاء في المعجم الكبيرِ عَنِ ابنِ عبّاسٍ، قالَ: «نَزَلَتْ سورَةُ الأَنعامِ جُملَةً بِمكَّةَ لَيلًا وحَولَها سَبعونَ أَلفَ مَلَكٍ يَجرونَ بالتَّسبيحِ»[1].

وروي أنّها من نجائب القرآنِ؛ أي: بمعنى: أفضله، ونواجبه أيضًا لبابه؛ فقد روى الدّارميّ في مُسنده عن عمر بنِ الخطاب رضي الله عنه، أنّه قال: «الأنعامُ من نواجبِ القرآن»[2].

فيها تسميةُ ثمانيةَ عشرَ نبيًّا

وهي أيضًا منَ المحمِّدات الخمسة إضافةً إلى الفاتحة والكهف وسبأ وفاطر.

وهي كذلك أكثرُ سورةٍ ذكرًا للأنبياء عليهم السلام، فقد ذكرَت ثمانيةَ عشرَ نبيًّا من أصل خمسةٍ وعشرين، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾﴾ [الأنعام: 83 - 86].

وممّا امتازَت به السّورة الكريمة كذلك أنّها ذكرَتْ جانبًا فريدًا من قصّة سيّدنا إبراهيم عليه السلام في حواره مع أبيه وقومه، جاءَت في الآياتِ [74 - 83]، والقصّةُ هذه حوارٌ عقليٌّ منطقيٌّ لإثبات وحدانيّةِ اللّه تعالى بالحجّة والبرهان.

(1) الطّبرانّي، المعجم الكبير، الحديث رقم: (12757).
(2) الدّارميّ، سنن الدّارميّ، الحديث رقم: (3444).

أكثرُ السُّورِ تصويرًا لأحوالِ العَربِ في الجاهليَّةِ، وردًّا لِشُبُهات المشركين

ومن خصائصها أنّها من أكثر السّورِ جمعًا وتصويرًا لأحوال العربِ في الجاهليّة، ومن أكثرِ السّورِ جدالًا مع المشركين في ردّ شبهاتهم جملةً وتفصيلًا، وأشدِّها مقارعةً وجدالًا لهم، واحتجاجًا على سفاهة أحوالهم، من قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا﴾ [الآية: 136]، وفيما حرّموه على أنفسهم ممّا رزقهم الله.

وفي صحيح البخاريّ أنَّ ابنَ عبّاس رضي الله عنهما قال: "إذا سرَّك أن تعلمَ جهلَ العرب فاقرأ ما فوق الثّلاثين ومئة في سورةِ الأنعام ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓاْ أَوْلَٰدَهُمْ سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُواْ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفْتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِۚ قَدْ ضَلُّواْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ١٤٠﴾ [الآية: 140]"[1].

تفرُّدُ سُورَةِ الأنعامِ بذِكْرِ بعضِ المُحرَّمات

ومن خصائصِها الموضوعيّةِ ذكرُ بعضِ المحرّماتِ الّتي لم تَرِد إلّا فيها، كما ورد في الآيات 143 إلى 146. وحديثها عنِ الخائضِ في آيات الله: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا﴾ الآية [الأنعام: 68].

واختصّتِ السّورةُ بذِكر عَشْرِ وصايا مُتتاليَةٍ، وهي الواردة في الآيات 151 إلى 153.

تَميُّزُ سورَةِ الأنعامِ بأسلوبَي التَّقْرير والتَّلقين.

ومِن ميِّزاتها أسلوبان بارزان فيها أكثر من أيّ سورةٍ أخرى: أسلوب التّقرير ﴿هُوَ ٱلَّذِى﴾ وأسلوب التّلقين ﴿قُلْ﴾، و"هذان الأسلوبان قد تناوبا معظم ما تضمّنته هذه السّورةُ الكريمةُ منَ الحُجَج وقضايا التّبليغ، وهما أسلوبان من أساليب الحُجّة القويّة الّتي تدلُّ على قوّةِ المعارضين وإسرافِهم في الدّعوة، ويدلّ على أنّهما صدرا في موقفٍ واحدٍ، وإيحاءٍ واحدٍ، وفي مقصدٍ واحدٍ، لخصم واحدٍ؛ ولهذا اقتضَتِ الحكمةُ الإلهيّةُ أن تنزلَ مع طولها جملةً

(1) البخاريّ، صحيح البخاري، الحديث رقم: (3524).

واحدةً"[1]، وقد اجتمع الأسلوبان في أكثر من مَوضِع كما في الآيات من 161 إلى 165.

فقد وردَ أسلوبُ التّلقينِ - كما تقدّم - بـ (قل) نحو (44) مرّة، فهي أكثرُ سورةٍ حظيَت بهذا الفعل الّذي يدلُّ على أهمية ما يأتي بعده، حتى إنّ النبيّ ﷺ هو الّذي يتولّى تبليغَه بنفسه، وكذلك أسلوب التّقرير بـ (هو) الّذي ورد فيها نحو (35) مرّة.

تـميُّـزُ الـسُّـورَةِ بِـجُـذورٍ لُـغويَّةٍ ذاتِ مَـدْلـولٍ خـــاصٍّ، وانفرادِها بِألفاظٍ لَمْ تَرِدْ إلَّا فيها

وممّا امتازَت به السّورةُ الكريمةُ كثرةُ استخدامِ بعضِ الموادِ والجذورِ اللّغويّةِ ذاتِ المدلولِ الخاصِّ، ومنها استخدامُ صيغِ الجذورِ (حجج، رأى، نظر) الدّالّة على الحجّة والمحاجّة والرّؤية والنّظر المؤدّية إلى العِبر، حيث وردت مادّة (حجج) نحو أربع مرّات[2].

ونلحظُ أنّ سورةَ الأنعامِ هي من أكثرِ السّور في استعمال هذه المادّةِ مقارنةً مع عددِ آياتِها، وهذا يدلُّ على التّركيزِ على دلالة هذه المفردة.

واستُعمل الجذرُ (رأى) في خمسةَ عشرَ مَوضِعاً، واستُعمل الجذرُ (نظر) في تسعةِ مَواضِعَ.

وهذه الكثرةُ في استعمالِ هذه الموادِ إنّما يتّسقُ تماماً مع محور السّورةِ في محاورة المشركين بالحجّة، والبرهان، ولفت الأنظارِ لآيات اللّهِ في الكون؛ لإثبات ما جاء به النبيُّ ﷺ.

وممّا امتازَت به هذه السّورةُ الكريمةُ كثرةُ استخدامِ الجذرِ اللّغويِّ (شَهِدَ) الدّالّة على الشّهود والشّهادة، وهي من أعظم الأدلّةِ في المحاجّة، وإثباتُ الشّيء أن تشهدَ عليه، حيث استُعملَت اثنتا عشرةَ مرّة.

(1) شلتوت، تفسير القرآن الكريم، ص: 305 - 306.
(2) سورة الأنعام: الآيات 80 (مرّتان) - 83 - 149.

وممّا امتازَت به السّورةُ الكريمةُ كذلك كثرةُ استعمالِ تصاريفِ الفعلِ (افترى)، فقد ورد مقطعٌ ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ﴾ [الأنعام: 21] في السّورة ثلاثَ مرّاتٍ[1]، وورد قوله: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ﴾ [الأنعام: 157] مرّةً واحدةً[2]، وكثرةُ استعمالِ (الافتراء) في السّورة يتّسق مع محورها من حيث إنّ المفتريَ لا ينطقُ من حجّة ولا برهان، وإنّما افتراءٌ هكذا دون بيِّنة، وجاءَت في مَعرِض ذكر الرّسالةِ والتّحليلِ والتّحريمِ، وهما منَ المحاورِ الرئيسةِ الّتي جاءَت السّورة لتعالجها بالحجّة والبرهان لا بالافتراء.

وممّا امتازَت به السّورةُ الكريمةُ ذِكْرُ بعضِ العباراتِ والجُملِ والقضايا الّتي لم تُذكَر بهذه الصّورة في غيرها نحو قوله: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ [الأنعام: 18، 61]، وهي صريحةُ الدّلالةِ في ارتباطها بتوحيد الألوهيّةِ الّذي هو معقِدٌ أساسٌ في هذه السّورة.

فضلًا عنِ انفرادها بألفاظٍ لم ترد إلّا فيها نحو: ﴿حَيْرَانَ﴾ [الأنعام: 71]، ﴿وَٱلنَّوَىٰ﴾ [الأنعام: 95]، ﴿قِنْوَانٌ﴾ [الأنعام: 99]، ﴿وَيَنْعِهِۦٓ﴾ [الأنعام: 99]، ﴿ٱلضَّأْنِ﴾ [الأنعام: 143]، و﴿ٱلْمَعْزِ﴾ [الأنعام: 143]، ﴿شُحُومَهُمَآ﴾ [الأنعام: 146].

والملاحظ على هذه الألفاظ الفريدةِ:

- أنّ منها ما هو وصفٌ لحال المجادلِ المنْهَكِ الّذي له أصحابٌ يدعونه إلى الهدى، وما زال مُتردّداً لا يحير جواباً.

- ومنها ما كان من خلال بيانِ قدرةِ اللّهِ ومنّتهِ على خلقه بأنْ خلقَ ويسّرَ، فالّذي خلقَ وأبدعَ، ولطفَ بعباده يستحقُّ وحدَه العبادة، وجاء ذلك من خلال المفردات: ﴿وَٱلنَّوَىٰ﴾ [الأنعام: 95]، ﴿قِنْوَانٌ﴾ [الأنعام: 99]، ﴿وَيَنْعِهِۦٓ﴾ [الأنعام: 99].

- ومنها ما جاء بالإضافة إلى ما سبق منَ الخلقِ والإبداعِ في سياقِ نقاشِ قضيّةِ التّحليلِ والتّحريم، وأنّ المُستحِقَّ المُتَفَرِّدَ بذلك هو اللّه تعالى فقط، وجاء ذلك من خلال المفرداتِ: ﴿ٱلضَّأْنِ﴾ [الأنعام: 143] و﴿ٱلْمَعْزِ﴾ [الأنعام: 143]، ﴿شُحُومَهُمَآ﴾ [الأنعام: 146].

وانفردتِ السّورةُ كذلك باشتقاقاتٍ لبعض الألفاظِ الّتي لم ترد إلّا فيها نحو: ﴿ٱلْفَٰصِلِينَ

(1) سورة الأنعام: 21 - 93 - 143.
(2) سورة الأنعام: 157.

﴿٥٧﴾ [الأنعام: 57]، ﴿رَطْبٍ﴾ [الأنعام: 59] و﴿يَابِسٍ﴾ [الأنعام: 59]، ﴿حَفَظَةً﴾ [الأنعام: 61]، ﴿ٱلْآفِلِينَ ٧٦﴾ [الأنعام: 76]، ﴿ٱلْإِصْبَاحِ﴾ [الأنعام: 96]، ﴿مُتَرَاكِبًا﴾ [الأنعام: 99] و﴿مُشْتَبِهًا﴾ [الأنعام: 99]، ﴿عَدْوًا﴾ [الأنعام: 108]، ﴿مُّقْتَرِفُونَ ١١٣﴾ [الأنعام: 113]، ﴿مُنَزَّلٌ﴾ [الأنعام: 114] و﴿مُفَصَّلًا﴾ [الأنعام: 114]، ﴿صَغَارٌ﴾ [الأنعام: 124]، ﴿سَفَهًا﴾ [الأنعام: 140]، ﴿حَمُولَةً وَفَرْشًا﴾ [الأنعام: 142]، ﴿طَاعِمٍ﴾ [الأنعام: 145]، ﴿ٱلْحَوَايَآ﴾ [الأنعام: 146]، ﴿تَمَامًا﴾ [الأنعام: 154]، ﴿قِيَمًا﴾ [الأنعام: 161].

ومِنَ المؤكّد هنا أنّ هذه الأبنيةَ التي انفردَت بها السّورةُ الكريمةُ مرتبطةٌ بمعاقدها الرّئيسة مِن أنّ للّه الحكمَ المُطلَقَ والتّشريعَ المُطلَقَ، ومِن إظهارِ ألوهيّته في الكون، وشريعتِه التّامّةِ القيَميّةِ الّتي يصلحُ بها حالُ الخلق.

تناسُقُ مَطلَعِ السُّورةِ مع خاتِمَتِها

ومن مزايا هذه السّورة الكريمة تناسقُ مَطلَعِها مع خاتمتها، فقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ١٦٥﴾ [الأنعام: 165] هو المراد بقوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ﴾ [الأنعام: 2]، وقوله: ﴿أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [الأنعام: 164] هو معنى قوله: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ١﴾ [الأنعام: 1]، فجاءَتِ الخاتمةُ متّسقةً مع البداية، فكانتِ الرّوعةُ في الاستهلالِ والبداياتِ، والبراعةُ والعظمةُ في الختامِ والنّهاياتِ[1].

وممّا سبق تبيّن لنا أنّ هذه الخصالَ الفريدةَ للسّورة تسهمُ في تشكيلِ محورِ السّورةِ، وهو إثباتُ ما جاء به النبيّ ﷺ مِنَ التّوحيد، والبعثِ بالحجّة والبرهان، ولفتِ الأنظار إلى آيات اللّه في الكون.

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/346.

مناسبةُ السُّورةِ الكريمةِ مع السُّورةِ قبلَها:

التَّرابطُ الوثيقُ مِنَ النَّاحيتَينِ: الموضوعيَّةِ والأسلوبيَّةِ بين سورتَي المائدةِ والأنعامِ

على الرّغم منَ الاختلافِ بين مكيّةِ سورةِ الأنعامِ ومدنيّةِ سورةِ المائدةِ إلّا أنّ هنالك تناسبًا وترابطًا وثيقًا من النّاحيتين: الموضوعيّة والأسلوبيّة بين السّورتين بشكل عامّ يتمثّل فيما يأتي:

أَنَّ اللهَ ﷻ لَمّا ذَكَرَ في خواتيمِ المائدةِ ما قالَتهُ النَّصارى في عيسى وأمّه مِن كَونِهما إلَهَينِ مِن دونِ اللّهِ، وجَرَت تِلكَ المُحاوَرَةُ، وذَكَرَ ثَوابَ ما لِلصّادِقينَ، وأَعقَبَ ذَلِكَ بأنَّ لَهُ مُلكَ السّماواتِ والأَرضِ وما فيهِنَّ، وأنَّهُ قادِرٌ على كُلِّ شَيءٍ، ذَكَرَ بأنَّ الحَمدَ لَه المُستَغرِقَ جَميعَ المَحامِدِ فلا يُمكِنُ أَنْ يَثبُتَ مَعَهُ شريكٌ في الإلهيّة فَيُحمَدَ، ثُمَّ نَبَّهَ في مَطلَعِ سورةِ الأنعام على العِلَّةِ المُقتَضيَةِ لجميعِ المَحامِدِ والمقتضيةِ كونَ مُلك السّماواتِ والأَرضِ وما فيهِنَّ له بِوَصف ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾؛ لأنَّ الموجِدَ للشَّيءِ المُنفَرِدَ باختِراعِهِ لَه الاستيلاءُ والسَّلطَنَةُ عليه[1].

لَمّا كان ختامُ السّورةِ السّابقةِ إثباتَ سلطانِ اللّهِ تعالى الكاملِ، وقدرتِه الشّاملةِ، وأنّه لا يعجزُه شيءٌ في السّماء ولا في الأرض، إذ قال سبحانه: ﴿لِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا فِيهِنَّۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرُۢ ١٢٠﴾ [المائدة: 120]، فناسبَ ذلك أن يكونَ في مَطلَعِ سورة الأنعام - الّتي أعقبتها - في قوله تعالى: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡ يَعۡدِلُونَ ١﴾ [الأنعام: 1]، بيانُ السّببِ في كمال سلطانِه، والمَظْهَرِ الأعظمِ لكمالِ قدرتِه، وهو خلقُ السّماواتِ والأرضِ، وخلقُ الإنسانِ، فهو مظهرٌ كاملٌ لكمالِ قدرتِه[2] ﷻ.

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/427.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2429.

وقد بيّن جلال الدّين السّيوطيّ[1] بعضَ أوجه هذا التّناسب، فذكر منها: أنّ سورةَ الأنعام افتُتحَت بالحمد، والمائدة خُتمَت بفصل القضاء، وهما متلازمان، كما قال: ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّۚ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٧٥﴾ [الزّمر: 75]؛ لأنّ الفصلَ في القضاء، وتحقيقَ العدلِ بين الخلق، يستحقُّ التّمجيدَ والثّناءَ لله وحمدَه على ذلك.

ومن الأوجه كذلك هو ما ذُكر في آخر المائدة: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّۚ﴾ [المائدة: 120] على سبيل الإجمال، فافتتح هذه السّورة بشرح ذلك وتفصيله.

وأنّه خلقَ النّوعَ الإنسانيّ، وقضى له أجلًا مسمًّى، وجعل له أجلًا آخرَ للبعث، وأنّه مُنشئُ القُرونِ قرنًا بعد قرنٍ، ثمّ قال: ﴿قُل لِّمَن مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ قُل لِّلَّهِۚ﴾ [الأنعام: 12]، فأثبت له مُلكَ جميعِ المنظوراتِ.

فضلًا عن عنايةِ كلا السّورتين الكريمتين بتقريرِ أصولِ العقيدةِ، والرّدِّ على شبهِ الكافرين وتفنيدِ مزاعمهم؛ فسورةُ المائدة معظمها في محاجّة أهلِ الكتابِ، والأنعامُ معظمُها بل كلّها في محاجّة المشركين.

ولمّا كان مِن مقصودِ سورةِ المائدة إبطالُ مزاعمِ النّصارى في تأليه عيسى عليه السلام؛ ناسَبَ أن تُعقَبَ سورة المائدة بسورة الأنعام الّتي يدور قطبُ رحاها على إثباتِ الصّانعِ، وإرساءِ قواعدِ التّوحيدِ ودعائمِ دلائله[2].

كما أنّ كلتا السّورتين قد تعرّضتا لذِكْرِ أحكامِ الأطعمةِ المحرَّمةِ، بَيْدَ أنّ سورةَ المائدة قد فصّلَت في ذلك، فقد قال الله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُواْ بِٱلْأَزْلَٰمِۚ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌۗ ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِۚ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًاۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٣﴾ [المائدة: 3]، بينما أتَت سورةُ الأنعام على ذِكر الأطعمةِ المُحرَّمةِ على وجهِ الإجمالِ، وذلك في

(1) السّيوطيّ، أسرار ترتيب القرآن: 1/80-86.

(2) الآلوسّي، روح المعاني: 4/73.

قول الله ﷻ: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ ۗ وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ ۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾﴾ [الأنعام: 121].

اشتراكُ السُّورتَينِ الكريمتَين في عَرْضِ مَشاهِدَ مِنْ يومِ الحَشْرِ

وممّا يجدرُ التّنبّهُ إليه في هذا المقام اشتراكُ السّورتين الكريمتين في عرضِ مشاهدَ من يومِ الحشرِ، حيث أجملَتْها سورةُ المائدة في بعض مَواضِع منها، نحو قوله تعالى:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفْتَدُوا۟ بِهِۦ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٣٦﴾﴾ [المائدة: 36]، وقوله ﷻ: ﴿۞يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا عِلْمَ لَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١٠٩﴾﴾ [المائدة: 109]، بينما فصّلَت سورةُ الأنعام في عرضِ مشاهدِ الحشرِ يومَ القيامة في مَواضِعَ شتّى، نحو قوله تعالى:

﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [الأنعام: 22]، وقوله ﷻ: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [الأنعام: 27]، وكذا قوله سبحانه: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ ۚ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الأنعام: 30]، وغيرها من مَواضِعِ سورةِ الأنعامِ الّتي عُنيَت ببسطِ مشاهدِ الحشرِ يومَ القيامة.

❁ مناسبةُ السُّورةِ الكريمةِ مع السُّورة بعدَها:

ذكرَ السّيوطيّ[1] أوجهَ التّناسبِ بين سورة الأنعام وسورة الأعراف التي أعقبَتْها، وممّا ذكره في ذلك:

أوّلاً: ركّزَت سورةُ الأنعام في مَطلَعها على ثلاثة أمور هي: بيان

(1) السّيوطيّ، أسرار ترتيب القرآن: 1/36.

الخَلْق، وذلك في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ﴾ [الأنعام: 2]، وبيان القرون في قوله تعالى: ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ﴾ [الأنعام: 6]، وأيضاً أشير فيها إلى ذِكْرِ المرسَلين، وتَعدادِ كثيرٍ منهم، ومن ذلك قوله: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝١٠﴾ [الأنعام: 10]، وكانتِ الأمورُ الثّلاثةُ على وجه الإجمالِ من غيرِ تفصيلٍ، فذُكِرت في سورة الأعراف عقبها؛ لأنّها مشتملةٌ على شرحِ الأمورِ الثّلاثةِ وتفصيلِها، فبُسطت قصّةُ آدم في الأعراف، وكان ذلك تفصيلًا لما أُجمِل في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ﴾ [الأنعام: 2]، وكذلك تفصيلُ قصصِ الأنبياءِ والمرسلينَ وأممهم وهلاكهم في سورة الأعراف كان بيانًا وشرحًا وافيًا لما أُجمل من ذكرِ الأنبياءِ والمرسلينَ في سورة الأنعام، وكذلك التّوسّعُ في بسطِ حالِ القرونِ الأولى وهلاكِهم كان مُنسجِمًا مع القرون الّتي تحدّثت عنها سورة الأنعام.

ثانيًا: صدَّر سورةَ الأعراف بخلق آدمَ الّذي جعله اللّهُ في الأرض خليفةً، فجاء ذلك تفصيلاً لقوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ﴾ [الأنعام: 165]، وقوله تعالى في قصّة عاد: ﴿جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾ [الأعراف: 69]، وقوله تعالى في قصّة ثمود: ﴿جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ﴾ [الأعراف: 74]

ثالثًا: قوله تعالى في سورة الأنعام: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: 54]، كان مختصرًا وموجزًا، فبسطَتْه سورةُ الأعراف بقوله تعالى: ﴿وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: 156] إلى آخره، فبيَّنت الآيةُ مَن كتبَ اللّهُ ﷻ الرّحمةَ لهم.

﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡ يَعۡدِلُونَ ١﴾ [الأنعام: 1]

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلۡحَمۡدُ﴾: مصدر (حَمِدَ يَحْمَدُ حَمْدًا)، وهي أوَّلُ كلمةٍ في كتابِ اللّهِ بعدَ البسملةِ في فاتحة الكتابِ، وجذرُها اللّغويُّ من (حَمِدَ)، والحمدُ نقيضُ الذَّمّ[1]، وهو "الثَّناءُ باللّسان على الجميل، سواء تعلَّقَ بالفضائل كالعلم، أم بالفواضل كالبرّ"[2]، وورد عن ابن سيده تعريفه بأنّه "الوصفُ بالجميل على جهة التّفضيل"[3]، وهو مِن أصحِّ التَّعريفات.

ويقربُ منه ما ذكره ابنُ تيميّة من أنّ الحمدَ هو الإخبارُ بمحاسنِ المحمودِ، مع المحبّة له، ومعناه في الآية: "الحمدُ الكاملُ للّه وحدَه لا شريكَ له، دون جميعِ الأندادِ والآلهةِ"[4].

2) ﴿خَلَقَ﴾: فعلٌ ماضٍ، وهو الجذرُ اللّغويُّ لمصدر (الخَلْق)، ومنه: الخَليقةُ بمعنى الطَّبيعة، والخالقُ بمعنى الصّانع، وخُلُقُ الإنسانِ هو ما كان طبيعةً له، ولأصله معنيان؛ الأوَّلُ تقديرُ الشَّيء، والثّاني ملاستُه، وهو أيضًا السّجيّة، كأنّ صاحبَه قد قُدِّر له[5].

وأجادَ الرّاغبُ في الحديثِ عنه، فذَكر أنّه يُستعملُ "في إبداعِ الشّيءِ من غير أصلٍ ولا احْتِذاء... ويُستعمَل في إيجاد الشّيءِ منَ الشّيءِ"[6]، والخلقُ هنا بمعنى التّقدير[7].

3) ﴿وَجَعَلَ﴾: فعلٌ ماضٍ، وجذرُه اللّغويُّ (جعل)، وهو يأتي على أنحاءَ عدّةٍ، منه اللّازمُ، ومنه المتعدّيّ لواحد واثنين، و(جَعَل) في الآية مِن أفعالِ التَّحويلِ والتَّصييرِ يتعدّى إلى اثنين، ولـ (جَعَلَ) كلماتٌ "غيرُ منقاسةٍ، لا يشبهُ بعضُها بعضًا"، و" وجعلتُ الشَّيءَ: صنعتُه، وهو لفظٌ عامٌّ في الأفعال كلِّها، وهو أعمُّ من "فعلَ" و"صنعَ" وسائر أخواتها.

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (حمد)، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (حمد).
(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 201، والرّاغب، المفردات: (حمد).
(3) ابن سيده، المخصّص: (حمد).
(4) ابن تيميّة، مجموع الفتاوى: 6/259، وابن جرير، جامع البيان: 11/247.
(5) الخليل، العين، وابن دريد، جمهرة اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (خلق).
(6) الرّاغب، المفردات، والسّمين، عمدة الحفّاظ: (خلق).
(7) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 12/154.

ومعنى (جَعَلَ)، وما تصرّف منها في القرآن يكونُ للتَّحويلِ والتّهيئةِ على وضعٍ، أو للخَلْقِ، وهو تحويلٌ للهيئة بإنشاء هيئةٍ جديدةٍ[1]، ومعنى الجَعْل في الآية: بمعنى الخَلْق؛ أي: وخَلَقَ.

4) ﴿ٱلظُّلُمَٰتِ﴾: جمعُ مؤنَّثٍ سالم، جذرُه اللّغويُّ من (ظلم)، وله أصلان صحيحان، أحدُهما خلاف الضّياءِ والنّورِ، والآخرُ وضعُ الشّيءِ غير موضعه تعدّيًا. والمراد هنا هو الأصل الأوّل. ومعناه المحوريّ "حجب ما ينبغي أو ما يُستَحقّ؛ أي: منعه أو انتقاصه، كمنعِ الضَّوءِ في حالةِ الظُّلمةِ، وكمنعِ المطرِ عنِ الأرضِ المظلومةِ"[2].

والمقصود بالظّلمات في قوله: ﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَۖ﴾؛ أظلم اللّيل، وأنار النّهار[3].

5) ﴿وَٱلنُّورَۖ﴾: اسمٌ ثلاثيٌّ، الجذرُ اللّغويُّ من (نَوَر)؛ وهو الضّياءُ بصورة عامّة، والأصل في معناه "إضاءةٌ واضطرابٌ وقلّةُ ثبات، منه: النّور والنّار، سُمّيا بذلك من طريقة الإضاءة؛ ولأنَّ ذلك يكون مُضطربًا سريعَ الحركة"، وهو الضَّوءُ المنتشرُ الّذي يعينُ على الإبصار[4].

6) ﴿يَعۡدِلُونَ﴾: فعل مضارع مُسندٌ إلى الجماعة، جذرُه اللّغويُّ من (عَدَلَ)، والعدلُ ما رضي منَ النّاس منَ القول والحكم، فـ" العدلُ منَ النّاس المرضيُّ المستوي الطَّريقة، يُقالُ: هذا عَدْلٌ، وهما عَدْلٌ، والعدلُ: الحكمُ بالاستواء، ويُقالُ للشَّيء يساوي الشَّيء، وقال أيضًا في تفسير (العدل): إنّه "نقيضُ الجَوْرِ، تقول: عَدَلَ في رعيّته، ويومٌ معتدلٌ، إذا تساوى حالا حَرِّهِ وبَرْدِهِ". و"العدالةُ والمعادلةُ: لفظٌ يقتضي معنى المساواة... لكنّ العدلَ يُستعملُ فيما يُدرَكُ بالبصيرة كالأحكام"[5]، ومعنى المساواة منطبقٌ على المفردةِ الواردةِ في الآية؛ إذ إنَّ الكافرين قد ساووا آلهتَهم المزعومةَ في العبادة والتّعظيم باللّه الخالقِ المُنعمِ.

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

الثّناءُ الجميلُ على اللّه تعالى بكمال الحمد للّه، وهو المُستحقُّ لكلِّ أنواعِ الحمدِ ومراتبِها، فهو الّذي قدَّر إيجادَ السّماواتِ والأرضِ، وصيَّر في الكون الظّلماتِ والنّورَ،

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (جعل).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (ظلم).
(3) ابن جرير، جامع البيان: 9/144.
(4) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (نور).
(5) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (عدل).

وتعاقبَ اللّيلُ والنَّهارُ، فما لهؤلاء الكافرين يشركون باللّه؛ فيساوون الخالقَ العظيمَ بهذه الآلهةِ المزعومةِ في العبادةِ والتّعظيم، مع عظيم دلائلِ الخالقِ القاطعةِ بقدرته وعلمه واستحقاقه العبوديَّة!

لا يعدِلُ اللهَ أحدٌ في استحقاقِ جميعِ صفاتِ الكمالِ، ونُعوتِ العظَمَةِ والجلالِ

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بَراعَةُ الاستهلالِ في افتتاحِ السُّورة:

في افتتاح سورةِ الأنعام بجملة ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾ حسنُ استهلالٍ، وبراعةٌ في المَطلَع؛ حيث إنَّ ابتداءَ السّورة به يَلفتُ الانتباهَ إلى الإيجاد والإمداد، وكفى بهما نعمتين، في كلٍّ منهما نِعَمٌ كثيرةٌ، قد يغفُلُ الإنسانُ عنها؛ لاعتياد مشاهدتِها، ومنها خلقُ السّماواتِ والأرضِ، وجعلُ الظّلماتِ والنّور.

المحامِدُ كُلُّها للهِ، في مبتدَأِ الأَمْرِ ومُنْتَهاهُ

دلالاتُ (أل) في لفظ ﴿ٱلۡحَمۡدُ﴾:

قوله تعالى: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾ جملةٌ، وردَت بهذا التّركيب في مَواضِعَ كثيرةٍ في سبعَ عشرةَ سورةً منَ القرآن الكريم[1]، كلُّها مكّيَّة[2]، وهذا هو الموضعُ الثّاني بعد فاتحةِ الكتابِ. والألفُ واللّامُ في الحمد تحتملُ دلالاتٍ عدّةً؛ أرجحُها أن تكونَ للاستغراق، وهو رأيُ ابن عطيّة[3]؛ فإنّ الحمدَ كلَّه للّه؛ فهو صاحبُ الفضلِ والمنّةِ في كلّ نعمه وآلائه، وذكر البيضاويّ أنّ الحمدَ كلَّه للّه؛ في إشارةٍ منه إلى ترجيحِ جانبِ الاستغراق[4]

تَعْريفُ اللَّفظِ باسْتِغراقِ الجِنْسِ والعهدِ والكمالِ، فصاحةٌ وجَمالٌ

قال القشيريّ: حقيقةُ (الحمد) الثَّناءُ على المحمود بذكر نعوتِه الجليلةِ، وأفعالِه الجميلةِ، واللّام هاهنا للجنس، ومقتضاها

(1) وردَت جملةُ (الحمد لله) ثلاثًا وعشرين مرّة. عبد الباقي، المعجم المُفهرس: (حمد).

(2) وهي سور: الفاتحة: 2، الأنعام: 1 - 45، الأعراف: 43، يونس: 10، إبراهيم: 39، النّحل: 75، الإسراء: 111، الكهف: 1، المؤمنون: 28، النّمل: 15 - 59 - 93، العنكبوت: 36، لقمان: 25، سبأ: 1، فاطر: 1 - 34، الصّافّات: 182، الزّمر: 29 - 74 - 75، غافر: 65.

(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 1/66.

(4) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 1/27.

الاستغراق، فجميعُ المحامدِ للّه سبحانه إمّا وصفًا وإمّا خلقًا، له الحمدُ لظهورِ سلطانِه، وله الشّكرُ لوفورِ إحسانِه، والحمدُ للّه لاستحقاقِه لجلالِه، والشُّكرُ للّه لجزيلِ نوالِه، وعزيزِ إفضالِه[1].

وهي "للجنس[2] تَنْبيهًا أنَّ الحمدَ كلَّه في الحقيقة لا يستحقُّ سواه، وإنَّ كلَّ حمدٍ لغيره فهو عاريةٌ له، واللّهُ تعالى هو المُستحقُّ له في الحقيقة"[3]، وهذا تصريحٌ بأنَّ اللّه تعالى هو الّذي يستحقُّ الحمدَ بأجمعه؛ لأنَّ الألفَ واللّامَ في (الحَمد) لاستغراق الجنس[4].

وتَحتملُ أن تكون (أل) عهديّةً على معنى أنّه "الحمدُ الّذي حَمِدَ به نفسَه، وحَمِدَه به أولياؤه"[5]. وقد تكون (أل) للكمال، وهو تخريجٌ ينبني على قولٍ لسيبويه في (أل) الدّاخلة على الصّفات[6].

نُكتَةُ التَّعبيرِ بالحَمدِ دُونَ الشُّكرِ والمَدحِ في الآية الكريمة:

اختيرَ لفظُ الحَمدِ دونَ الشُّكرِ؛ لكونِ الحَمدِ يعُمُّ الفضائلَ والفواضِلَ، بخلاف الشُّكرِ؛ فإنَّه خاصٌّ بالفواضل، فأوثرَ اللَّفظُ الأَعَمُّ.

الحَمدُ حُبٌّ وتعظيمٌ، واشتمالٌ على فَضائِلَ وفَواضِلَ

وجاء التَّعبيرُ بالحَمدِ دونَ المَدحِ، مع أنَّ المدحَ أَعَمُّ؛ لكونِه قَد يَعرى عَنِ المحبَّة والتَّعظيم، والأبلَغُ في الثَّناءِ اختيارُ اللَّفظِ الّذي يكون نصًّا في الحبِّ والتَّعظيم؛ وذلك هو لفظُ الحَمدِ.

دلالةُ التَّعبيرِ بالاسميَّةِ في جملة ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾:

قولُه تعالى: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾ جملةٌ اسميّةٌ منَ المبتدأ والخبر[7]، وأوثر التّعبيرُ بالاسميّة على الفعليّة في قول: (أحمدُ اللّه) لجملة أمور، منها:

استحقاقُ الحَمْدِ واستغراقُهُ ودوامُهُ مِن نِعَمِ اللهِ

(1) القشيريّ، لطائف الإشارات: 1/45.
(2) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 1/52، والكرمانّي: غرائب التّفسير: 1/97.
(3) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 1/52.
(4) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/265.
(5) الواحديّ، البسيط: 482 - 483/1.
(6) الشّربينيّ، السّراج المنير: 1/8.
(7) الدّرويش، إعراب القرآن وبيانه: 3/61.

أولاً: التّعبيرُ بالاسميّة فيه معنى استحقاق الحقّ ﷻ للحمد، قبل أن يحمدَه الخلقُ، وفيه استغراقُ المحامد كلِّها.

والتّعبيرُ بالفعليّة (أحمدُ اللّه) فيه إيهامٌ بالقدرة على توفية اللّهِ حقّه منَ الحمد، وليس ذلك بكائنٍ من لدُنِ البشر.

ثانيًا: ممّا قرّره اللّغويّون والبلاغيّون[1] أنَّ الجملةَ الاسميّةَ دالَّةٌ على الثُّبوت والاستقرار، وأنّ الجملةَ الفعليّةَ تدلُّ على التَّجدّدِ والحدوثِ، وممّا يناسبُ هذا المقامَ التعبيرُ بالجملة الاسميّةِ ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾، "وإنّما عدل عنه إلى الرّفع؛ ليدلّ على عموم الحمدِ وثباتِه، دونَ تجدّدِه وحدوثِه. وفيه تعليمُ اللّفظ، مع تعريض الاستغناءِ؛ أي: الحمد للّه، وإن لم تَحمدوه، ولو قال (أحمد اللّه) لما أفادَ هذا المعنى"[2].

بلاغةُ القولِ بخبريَّةِ ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾ لفظًا ومعنًى:

قوله تعالى: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾، تَحتملُ هذه الجملةُ أن تكونَ إنشائيّةً من جهة المعنى؛ "لحصول الحمد بالتّكلّم بها مع الإذعان لمدلولها"[3]، "يقول: أخلصوا الحمدَ والشّكرَ للّذي خَلَقَكم، أيّها النّاس، وخلقَ السّماواتِ والأرضَ"[4].

استحقاقُ اللهِ الحمْدَ أصالةً، قبل أن يَحْمَدَهُ الحامدونَ إقرارًا

وتَحتملُ أن تكونَ خبريّةً من جهة اللّفظِ والمعنى، وهو أبلغُ مِن سابقه؛ لأنَّ القولَ بإنشائيتها يُلزمُ الحمدَ عند نطقها، أمّا الخبريّةُ فالحمدُ واقعٌ قبلَ نطقِها، فالحقُّ ﷻ مُستحِقٌّ للحمد قبل أن يحمَدَه الحامدون، وقال ابنُ عاشور: "ثمَّ إنَّ جملةَ ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾ هنا خبرٌ لفظًا ومعنًى؛ إذ ليس هنا ما يَصرِفُ إلى قصدِ إنشاءِ الحمدِ بخلاف ما في سورة الفاتحة؛ لأنَّه عُقِّبَ بقوله: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾ [الفاتحة: 5]"[5].

(1) القزوينيّ، الإيضاح: 1/76، وحسن، النّحو الوافي: 2/145.
(2) ابن عجيبة، البحر المديد: 1/53.
(3) الشّربينيّ، السّراج المنير: 1/8.
(4) ابن جرير، جامع البيان: 11/247.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/125.

بلاغةُ القَصْرِ في قوله: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾:

الحمْدُ بكمالِه وتمامِهِ، لا يستحِقُّهُ إلَّا اللهُ بعظمتِهِ وجلالِهِ

في قوله تعالى: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾ جملةٌ تفيدُ استحقاقَ الله تعالى الحمدَ وحدَه دونَ غيره؛ لأنّها تدلُّ على الحصر، واللّام لتعريف الجنس، فدلّت على انحصار استحقاقِ هذا الجنسِ لله تعالى، "قَصْرًا إضافيًّا؛ للرَّدِّ على المشركين الَّذين حَمِدوا الأصنامَ على ما تخيَّلوه مِن إسدائها إليهم نِعمًا ونصرًا وتفريجَ كربات"[1]، وكونها للقَصْر الإضافيّ على معنى: أنَّ الحمدَ كلَّه لا يستحقُّه أحدٌ إلّا الحقَّ ﷻ.

سرُّ إيثارِ تركيبِ ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾، على: (لله الحمد):

الحمْدُ فيه تدريبٌ على الشُّكرانِ، لا يستحِقُّهُ إلَّا ربُّ الأكوانِ

جاء قوله تعالى هنا: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾، وورد في سورة الجاثية: ﴿فَلِلَّهِ ٱلۡحَمۡدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ [الجاثية: 36]، والفرقُ بينهما أنّ جملةَ (الجاثية) فيها معنى القصرِ بتقديم الخبرِ على المبتدأ، وليس كذلك في آية الأنعام؛ لأنّ الغرضَ منها تعليمُ العبادِ الثّناءَ عليه سبحانه بما هو أهلٌ له، ولأنّ آيةَ الجاثيةِ "على تقدير الجوابِ بعد إرغامِ المُكذِّبِ وقهرِه، ووقوعِ الأمرِ مُطابقًا لأخبار الرّسول ﷺ، وظهورِ ما كذّبَ الجاحدُ به، فعند وضوحِ الأمرِ كأن قد قيل: لمَنِ الحمدُ، ومَن أهله؟ فكان الجوابُ على ذلك، فقيل: فلله الحمدُ، نظيرُ هذا قولُه تعالى: لمَنِ الملكُ؟ ثمّ قال: لله الواحدِ القهّارِ"[2].

دلالةُ اللّامِ في قولِهِ: ﴿لِلَّهِ﴾، وأثرُها في السِّياقِ:

لا يختصُّ اللهُ إلَّا بما يَليقُ بجلالِهِ وكمالِهِ

في قوله تعالى: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾: لفظ الجلالة داخل عليه حرف الجرِّ اللّام، وهو مُتعلِّقٌ بخبرٍ محذوفٍ، وهذه اللّام تحتملُ أن تكونَ للاستحقاق، أو المُلك، أو الاختصاص[3]؛ إذ دلّت على أنّ جميعَ المحامدِ مختصَّةٌ به تعالى؛ إذ هو مُستحِقٌّ لها[4] ﷻ.

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/126.

(2) ابن الزّبير، ملاك التّأويل: 1/12.

(3) الواحديّ، البسيط: 1/483، والقنّوجيّ، فتح البيان: 11/161.

(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 1/153.

فكونها للاستحقاق؛ فلأنّ هذه اللّام حقّها أن تقع بين معنىً وذات[1]، فالمعنى هنا الحمد، والأخرى الذّات العليَّة، قال ابن عاشور: "جملة ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾ تفيد استحقاقَ اللّه تعالى الحمدَ وحدَه دون غيره"[2].

الغرضُ مِن ذِكْرِ اسمِ (الله) في قوله: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾:

التَّلذُّذُ والتَّبرُّكُ باسمِهِ تعالى عِبادةٌ وقُرْبٌ

لمّا كان الغرضُ منَ الحمد إثباتَ اختصاصِ اللّه به وحدَه، واستحقاقه به دون سواه - كان ذكرُ اسمِ الجلالةِ مُقترنًا بالحمد؛ لتعلّقه بالألوهيَّةِ، والوحدانيَّةِ، واستحقاقِ العبوديَّةِ، ولمناسبته استغراقَ جنسِ الحمدِ؛ إذ إنَّ اسمَ الجلالة يجمعُ كلَّ صفاتِ الجلالِ والجمالِ والكمالِ.

وهذا هو السّرُّ في اقترانه بلفظ الحمدِ دون غيره، كالرّحيم أو الرّحمن أو سواهما؛ لكونه دالًّا على الجمال والكمال، وعلى أنّ الحمدَ مُستحِقٌّ لذاته تعالى؛ ولأنّه هنا يرفعُ توهّمَ استحقاقِ الحمدِ لصفةٍ دون أخرى، فلو عُلِّقَ الحمدُ بالرّحمن؛ لتوهّمَ مُتوهّمٌ أنّه تعالى مُستحِقٌّ للحمد لرحمته دونَ غفرانِه وكرمِه وعظمتِه، وهلمّ جرًّا، وهو غيرُ مراد؛ فإنّ الحمدَ استحقاقٌ له تعالى بجميع أسمائِه وصفاتِه؛ إذ إنّ تعليقَ حكمٍ بلفظٍ مُشتقٍّ مُشعرٌ بعليّةِ ما منه الاشتقاق[3].

فائدةُ وصفِ اسمِ الجلالةِ بالاسم الموصولِ:

استحضارُ عظمةِ قدرةِ اللهِ تعالى تحقيقٌ لعبوديَّتِهِ

وُصِفَ اسمُ الجلالة بالاسم الموصول ﴿ٱلَّذِي﴾ في قوله تعالى: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾؛ توصُّلًا به إلى بيان أثرٍ من آثارِ قدرتِه، وعظيمِ آلائِه بأن يحمدَه الحامدون على ما أنعم عليهم، بأن خلقَ لكم "السّماواتِ الّتي تُظِلُّكم، مشتملةً على الأنوار

(1) ابن هشام، مغني اللّبيب، ص: 275.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/125.
(3) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 1/226.

الّتي تضيءُ عليكم، ومحلًّا لنزولِ الرّحماتِ والأمطارِ عليكم، وخلقَ الأرضَ الّتي تُقلُّكم، وفيها نباتُ معاشِكم في العادة"[1].

سرُّ التَّعبيرِ بالخَلْقِ والجَعْلِ، واختصاصُ كُلٍّ في الآية الكريمة:

في قوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَۖ﴾، جاءَ بفعل الخلقِ مُقترِنًا بالسّماوات والأرض، هنا وفي كلِّ موضعٍ في القرآن الكريم[2]، وجاء بفعلِ الجعلِ مع الظّلمات والنّور هنا، وليس له نظيرٌ في القرآن الكريم، والسّرُّ في ذلك محاجّةُ المشركين بالاستدلال بآثار صنعةِ الله، وإبطالِ ما هم عليه من شرك، وأنّ الخلقَ فيه معنى التّقدير، وفي الجعل معنى التَّضمين، كإنشاء شيءٍ من شيء، أو تصيير شيء شيئًا، أو نقله من مكان إلى مكان؛ لأنّ الظّلماتِ منَ الأجرامِ المتكاثفةِ، والنّورُ منَ النّار[3].

الخَلْقُ: قُدرةٌ وإبداعٌ، والجَعْلُ: تسخيرٌ وانتِفاعٌ

والتّفرقةُ "بين فعلِ (خَلَقَ)، وفعلِ (جَعَلَ) هنا معدودٌ مِن فصاحةِ الكلماتِ، وإنَّ لكلِّ كلمةٍ مع صاحبتها مقامًا، وهو ما يُسمَّى في عُرفِ الأدباء برشاقة الكلمةِ، ففعلُ (خَلَقَ) أليقُ بإيجاد الذَّوات، وفِعلُ (جَعَلَ) أليقُ بإيجاد أعراضِ الذَّواتِ وأحوالِها ونظامِها"[4].

ولمّا كان تقديرُ العوالم العلويَّةِ ثابتًا قبلَ خلقِ الإنسانِ، وكان إنشاءُ الظّلماتِ والنّورِ مُتعلِّقًا بالمخاطَبين - سواء أكان المرادُ بهما الحقيقة أم المجاز - قابلًا للتّغيير والتّحويل؛ ناسب كلُّ فعلٍ ما اقترن به.

سرُّ تقديم (السّماواتِ) على (الأرض):

قُدِّمَ ذكرُ السّماواتِ على الأرض في قوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾؛ لمجموعةٍ منَ الأسباب، هي:

السَّماوات رمزٌ للعظمة والسُّموِّ، ومورِدٌ للتَّنزُّل بالوحي المتلوِّ

(1) ابن عجيبة، البحر المديد: 2/96.

(2) اقترن الفعلُ (خلق) بالسّماوات والأرض، في تسعة وعشرين مَوضِعًا، وجاء مرّةً واحدةً مع السّماوات دونَ الأرضِ في الآية (10) من سورة لقمان.

(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/320.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/127.

أوّلًا: جريًا على عادة القرآنِ الكريمِ؛ فإنّ القرآنَ قدَّم ذكرَ السّماواتِ على الأرض بما يزيدُ على مئة آيةٍ، ولم يتأخَّر ذكرُها إلّا في آيتين لموجبٍ دلاليّ.

ثانيًا: تقديم السّماوات على الأرض هنا من باب التّقدّمِ الزّمنيِّ في الخلق؛ فقدّم الأسبق خلقاً، وهي السّماوات[1]؛ ولا سيّما أنّهما واردان في سياقِ الخلقِ؛ بدلالةِ الفعلِ ﴿خَلَقَ﴾؛ لأنّه منَ المهمِّ مراعاةُ السّياق الّذي تجري فيه الآية.

ثالثًا: تقديمُ الأعظم والأعلى والأشرف، فالشّأنُ أن يتقدَّم ذكرُ الأعظم والأعلى مكانًا على غيره، إلّا إن كان هناك ما يوجبُ خلافَه؛ فقدّمَ ذكرَ السّماواتِ على الأرض؛ باعتبارها الأشرف[2]؛ لما تحويه منَ المخلوقات العظيمةِ كالعرش.

فالأرضُ بالنّسبة إلى السّماوات كالخرزة في العقد، ومعلومٌ أنّ الآياتِ في السّماوات أعظمُ منها في الأرض؛ لِسعتِها، وعِظَمها.

رابعًا: التّقديمُ للأهمّيّة والقداسة، فالسّماواتُ فيها العرشُ والكرسيُّ، والأرواحُ تصعدُ إليها، وفيها الجنّةُ والنّارُ، وسوى ذلك منَ الغيبيات.

سرُّ جمعِ (السّماواتِ)، وإفرادِ (الأرضِ):

صيغةُ اللّفظ إفرادًا وجمعًا، تعتمِدُ على الخفَّةِ والدِّقَّةِ ومناسبةِ السِّياق

تدبّرَ بعضُ العلماءِ ذلك، وحاولوا بيانَ سرِّ جمعِ السّماواتِ هنا، وفي بعض المواضعِ، وإفرادِها في مواضعَ أُخَرَ، وإفرادِ الأرضِ في القرآن الكريم كلِّه، ويَتَّضِحُ بعضُ ما ذكروه فيما يأتي:

أوّلاً: لفظُ (أرض) بمقابلة لفظِ (السّماء أو السّماوات) تعني الوصف، مثل: (تحت وسُفل)، فسماءُ كلِّ شيء أعلاه، وأرضُه

(1) البغويّ، معالم التّنزيل: 3/126.
(2) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 2/153.

أسفلُه، ولا يُقصَدُ بها الجِرمُ أو الذّاتُ؛ فمن ثَمَّ جيء به مُفردًا؛ ليجري مَجرى المصدر لفظًا ومعنىً، ولأنَّ الجمعَ ثقيلٌ، سواء أكان جمعَ تكسير: (آرُض كأفلُس، أو آراض كأجمال، أو أُروض كفُلوس)، أو ملحقًا بجمعِ المذكَّر السّالم: (أَرَضون وأَرَضين).

ولمّا أرادَ القرآنُ تعدُّدَها قال: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ [الطّلاق: 12]، وتأمَّلْ كيف جاءَت مجموعةً في الحديث الشّريف في قوله: «طوِّقَه من سَبع أَرَضين»[1]؛ لمّا اعتمد الكلامَ على ذات الأرضين، دونَ الوصفِ لها بتحتٍ أو سُفلٍ في مقابلةِ فوقٍ وعُلوٍّ، فاستثقلوا هذا اللّفظَ؛ إذ ليس فيه منَ الفصاحةِ والحسنِ والعذوبةِ ما في لفظ (السَّماوات)، وأنت تجدُ السّمعَ يَستَثقِلُهُ بقدر ما يستحسنُ لفظَ (السّماوات)، ولفظ (السّماوات) يلجُ في السّمع بغير استئذان؛ لنصاعتِه وعذوبتِه.

ثانيًا: قد يكون لإفرادِ الأرضِ مع جمعِ السّماواتِ وجهٌ آخر، إذا أُريد بها الجِرمُ والذّاتُ؛ للإشارة إلى وحدتها في الجملة بالنّسبة إلى عالم السّماواتِ، وإن كانتِ الأرضُ طبقاتٍ؛ وللإشارة إلى أنَّ ما في الأرضِ ليس إلّا مظهرًا من حركات السّماء، وأنَّ الأرضَ شيءٌ صغيرٌ بجوار السّماوات وما فيها.

ثالثًا: أنَّ لفظَ (السّماوات) بالجمع، ولفظ (السَّماء) بالإفراد لم يأتِ في القرآن إلّا مناسبًا للسّياق؛ فإذا أراد تعدُّدَ ذاتِها جُمِعَ، وإذا أرادَ الوصفَ بالعُلوّ والفوق جاء مفردًا، ولكلٍّ سياقُه المناسبُ[2].

دِقَّةُ النَّظمِ القُرآنيِّ في التَّصرُّفِ في الألفاظِ تَقديمًا وتَأخيرًا

المتشابِهُ اللَّفظيُّ بين آية سورة الأنعامِ، وآية سورةِ طهَ:

قالَ اللّهُ ﷻ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾، وقال

(1) أخرجه البخاريّ، الحديث رقم: (2452)، ومُسلم، الحديث رقم: (1610) باختلافٍ يسيرٍ.

(2) ابن القيّم، بدائع الفوائد: 120 - 123/1، والنّيسابوريّ، غرائب القرآن: 3/47، والسّيوطيّ، نواهد الأبكار: 2/355، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 2/935.

سُبحانَهُ: ﴿تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى ۝٤﴾ [طه: 4]، ووجهُ الاختلافِ بينَ الآيتينِ أنَّ السَّماواتِ قُدِّمت في آيةِ الأنعام، وأُخِّرت في سورةِ طه، وذلك أنَّ آيةَ الأنعام صُدِّرت بقولِ الله ﷻ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾، فلمّا كان الحَمدُ أكثرَ تعلُّقًا بما كانَ عظيمًا شريفًا، وكانت السَّماواتُ أعظمَ وأشرفَ؛ لخلوِّها ممَّن يعدِلُ عنِ التَّوحيد إلى الشِّركِ؛ فكان الأنسبُ تقديمَ السَّماواتِ، بخلاف سورةِ طه، فقد صُدِّرت بقولِ الله تعالى: ﴿تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ﴾، فلمّا كان التَّنزيلُ أكثرَ تعلُّقًا بأهلِ الأرضِ وبتشريفِ المُنزَلِ عليهِ وهو النَّبيُّ ﷺ؛ كان الأنسبُ تقديمَ الأرضِ، ووُصِفَتِ السَّماواتُ بـ (العُلَى)؛ لأنَّ المرادَ الدِّلالةُ على علوِّ المُنَزَّل والمُنزَّلِ عليه، ولمُراعاةِ التَّناسُبِ الصَّوتيّ لآيِ القرآنِ الكريمِ.

المُتَشابِهُ اللّفظيُّ:

ذِكرُ اللَّفظِ القُرآنيِّ أو حَذفُهُ، مَنُوطٌ بملاءمَةِ السِّياقِ ومُقتضَى الحالِ

قال اللهُ سُبحانَهُ: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾، وقال عزَّ مِن قائلٍ: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾ [الأنعام: 73]، فقد خُصَّت الآيةُ الثّانيةُ مِنَ الأنعام بتقييدِ فِعل الخَلقِ بالحقِّ دونَ الآيةِ الأولَى منها؛ لأنَّ الأولَى صُدِّرت بـ ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾، فلمّا كان حمدُ اللهِ ﷻ لا يكونُ إلّا بما هو حقٌّ؛ استُغنيَ بذلك عن تقييده به، بخلافِ الآيةِ الثّانيةِ، فإنَّها في سياقِ إنكار ما يُدعَى مِن دونِ الله ﷻ، وذلك المدعوُّ من دون اللهِ سُبحانه باطلٌ وليس حقًّا، فكان الأنسبُ تقييدَ خَلقِ السَّماواتِ والأرض بكونِهِ ليس بالباطِلِ، بَل بالحقِّ.

بلاغةُ إفرادِ (النُّورِ) وجمعِ الظُّلماتِ:

النُّورُ: إشعاعٌ غامِرُ السَّريانِ، والظُّلماتُ: موجٌ يلفُّ بعتَمَتِه الأكوانَ

في قولِهِ تعالى: ﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ أفرد النّورَ، وجمعَ الظّلماتِ، وسرُّ ذلك أنّه أراد بالنّور جِنْسَه، كقوله تعالى: ﴿وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَا﴾ [الحاقة: 17]، "أو لأنّ الظّلماتِ كثيرةٌ؛ لأنّه ما من جنسٍ من

أجناسِ الأجرامِ إلّا وله ظِلٌّ، وظِلُّه هو الظُّلْمةُ، بخلاف النّور فإنّه من جنسٍ واحدٍ، وهو النّار"[1].

دلالةُ لفظَي (النُّورِ) و(الظُّلماتِ)، وأثرُ تنوُّعِ معانيهما في السِّياق:

طريقُ النُّور واحدٌ، ومسالكُ الظُّلماتِ شتَّى

تَحتملُ لفظةُ ﴿ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَۖ﴾ أن تكونَ بمعنى الكفرِ أو الجهلِ، ويَحتملُ أن يكونَ النّورُ بمعنى الإيمانِ أو العلمِ[2]، وهو تفسيرٌ يعتمدُ على الجانب المعنويّ؛ أي: أنّه لا يعني بالنّور الضّوءَ المادّيَّ، كما لا يعني بالظُّلمات الظّلامَ المادّيَّ، فإفرادُ النّور لأنّه طريقُ الحقِّ وهو الإسلام، وهو واحدٌ غيرُ مُتفرِّقٍ أبدًا، مهما بدا ذلك من تعدُّدِ المذاهبِ والآراءِ والاجتهاداتِ؛ لأنّ طريقَ الإسلامِ والهدى واحدٌ، وطرقَ الضّلالِ كثيرةٌ[3]، فهي طرقُ الغَوايةِ والباطلِ، والّتي عبّر عنها بصيغة الجمعِ ﴿ٱلظُّلُمَٰتِ﴾؛ فالشّيطانُ يعرضُ أمامَ ابنِ آدم مختلِفَ الطّرقِ الباطلةِ ليغويه، فتارةً بالمال، وتارةً بالنِّساء، وتارةً بالجاه، وتارةً بالمنصب، ولو أردنا استقصاءَ طرقِ الباطلِ الّتي عبّرَ عنها بالظّلمات لما استطعنا إلى ذلك سبيلًا، أمّا طريقُ الحقِّ والإسلامِ فهو واحدٌ، وآيةُ ذلك كلّه ما أُثر عنِ الرّسول عليه الصّلاة والسّلام في الحديث: «خطَّ رسولُ اللّهِ ﷺ خطًّا بيده، ثمَّ قال: هذا سبيل اللّه مُستقيمًا، قال: ثمَّ خطَّ عن يمينه، وشماله، ثمَّ قال: هذه السُّبلُ، ليس منها سبيلٌ إلّا عليه شيطانٌ يدعو إليه، ثمَّ قرأ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ﴾ [الأنعام: 153]»[4]. فانظرْ كيف جعلَ لطريق اللّه خطًّا واحدًا، وجعلَ لِطُرقِ الشَّيطان خطوطًا متعدِّدةً، فهذا الخطُّ الواحدُ هو النّورُ، والمتعدِّدةُ هي الظُّلماتُ.

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/321.
(2) البغويّ، معالم التّنزيل: 3/126.
(3) القاسميّ، محاسن التّأويل: 6/2237.
(4) الإمام أحمد، المسند، الحديث رقم: (4437)، والنّسائيّ، السّنن الكبرى، الحديث رقم: (11174)، والدّارميّ، سنن الدارمي، الحديث رقم: (202).

سرُّ تقديمِ لفظ (الظُّلماتِ)، على لفظ (النُّورِ)، في سيَاقِ الآية:

العدمُ في المُحدَثات، مُتقدِّمٌ على الوجود في كلِّ مُحدَثٍ موجودٍ

تقدّمَ لفظُ الظّلماتِ على لفظ النّورِ في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَۖ﴾ لِسَبَبٍ؛ وهو "أنّ الظُّلمةَ عبارةٌ عن عدمِ النّور عنِ الجسم الَّذي مِن شأنه قبول النّور، وليست عبارةً عن كيّفيَّةٍ وجوديَّةٍ مضادَّةٍ للنّور... وإذا ثَبَتَ هذا فنقول: عدمُ المُحدَثات مُتقدِّمٌ على وجودها، فالظُّلمةُ مُتقدِّمةٌ في التَّقديرِ، والتَّحقُّقِ على النّور، فوجب تقديمُها في اللَّفظ"[1].

تقدُّمُ الظُّلماتِ على النُّور من بابِ تقديم الكثرةِ على القلّةِ

عند قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَۖ﴾، فإنّه لم يرد في القرآن الكريم إلّا على هذه الصّورة، "وحكمةُ ذلك أنَّ النّورَ شيءٌ واحدٌ، وإنْ تعدَّدَت مصادرُه، ولكنَّه يكون قويًّا، ويكون ضعيفًا، وأمّا الظُّلمةُ فهي تحدُثُ بما يَحجُبُ النّورَ منَ الأجسام غير النَّيِّرة، وهي كثيرةٌ جدًّا"[2]، فهو من بابِ تقديمِ الكثرةِ على القلّةِ، وهو واقعٌ كثيرًا في آي الذِّكر الحكيم.

الظُّلماتُ أسبقُ منَ النُّور في جانبها المعنويِّ

في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَۖ﴾: تَحتملُ الظُّلماتُ والنّورُ جانبًا معنويًّا، وهو الضَّلالُ والهدى، فإن كان كذلك فالظُّلماتُ في جانبها المعنويّ أسبقُ منَ النّور، "فإنَّ نورَ العلمِ والهدايةِ كَسْبيٌّ في البشر، وما كان غيرَ كَسْبيٍّ في ذاته كالوحي فتلقّيه كسبيٌّ، وفَهمُه والعملُ به كَسْبيّان، وظلماتُ الجهل والأهواء سابقةٌ على هذا النّور، فالرَّسولُ لا يولَدُ رسولًا، وإنَّما يُؤتَى الرِّسالةَ إذا بلغَ أشدَّه واستوى، والعالمُ لا يولَدُ عالمًا، ولا الفاضلُ فاضلًا"[3]، وقد وردَ في الحديث الشّريفِ «إنَّما العِلمُ بالتَّعلُّم»[4].

(1) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 159 - 160/12.
(2) رضا، تفسير المنار: 7/245.
(3) رضا، تفسير المنار: 7/246.
(4) أخرجه البخاريّ مُعلَّقًا بصيغة الجَزْم: كتاب العلم، باب رقم (10)، وأخرجه موصولاً الطّبرانّي: 19/395، الحديث رقم: (929)، والبيهقيّ، المدخل إلى السّنن الكبرى، الحديث رقم: (352) باختلافٍ يسيرٍ، وحَسَّنَهُ الحافظ في (الفتح).

إيثارُ الظُّلماتِ والنُّورِ بالذِّكر دون غيرهما:

تعريضٌ بحالَي المُخاطَبين بالآية من كفرِ فريقٍ وإيمانِ فريقٍ

الظُّلماتُ والنّورُ منَ الأعراضِ والأحوالِ في حياةِ الإنسانِ، وهناك أعراضٌ أخرى كثيرةٌ، لكنّه آثرَ هنا ذكرَ هذين العَرَضَين "دونَ غيرهما منَ الأعراض إيماءً وتعريضًا بحالَي المُخاطَبين بالآية مِن كُفرِ فريقٍ، وإيمانِ فريقٍ، فإنَّ الكُفرَ يشبهُ الظُّلْمَةَ؛ لأنّه انغماسٌ في جهالةٍ وحَيرةٍ، والإيمانَ يشبهُ النّورَ؛ لأنَّه استبانةُ الهدى والحقِّ"[1]؛ فتناسبَ كلُّ فعلٍ مع قرينِه.

دلالةُ (ثمّ) على جملةٍ من المعاني في قوله: ﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾:

تعدُّدُ معاني حرفِ العطفِ (ثمّ)، ينفسِحُ به السِّياقُ لدلالاتٍ شتَّى

الأصل في (ثمّ)، أنّها "حرفُ عطفٍ يقتضي ثلاثةَ أمورٍ: التَّشريكُ في الحكم، والتَّرتيبُ، والمهلةُ"[2].

ويرى الزّمخشريُّ أنَّ معنى "ثمَّ" هنا الاستبعاد؛ أي: استبعادُ أن يعدلوا به بعدَ وضوح آيات قدرته[3]، فجيء بكلمة (ثمّ) الّتي للتَّراخي؛ دلالةً على الاستبعاد.

و﴿ثُمَّ﴾ هنا "دالَّةٌ على قبح فعل الَّذين كفروا؛ لأنّ المعنى أنَّ خلقَهُ السّماواتِ والأرضَ وغيرَهما قد تقرّر، وآياتِه قد سطعَت، وإنعامَه بذلك قد تبيّن، ثمّ بعدَ هذا كلّه عَدَلوا بربّهم، فهذا كما تقول: يا فلان أعطيتُكَ، وأكرمتُكَ، وأحسنتُ إليك، ثمّ تشتمني؛ أي: بعدَ مهلةٍ من وقوع هذا كلّه، ولو وقعَ العطفُ في هذا ونحوه بالواو لم يلزمِ التّوبيخَ كلزومه بـ (ثُمَّ)"[4].

وتَحتملُ ﴿ثُمَّ﴾ هنا التَّعجيبَ من أمر هؤلاء، بأنّهم على الرّغم من ظهور آياتِه تعالى في الخلقِ والجعل؛ عَدَلوا عنِ الإيمانِ به وعبادتِه، "وذلك شأنُ (ثمَّ) إذا وردت عاطفةً جملةً على أخرى، فإنَّ عدولَ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/127.
(2) ابن هشام، مغني اللّبيب، ص: 158.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/321.
(4) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/226.

المشركين عن عبادة الله، مع علمهم بأنّه خالقُ الأشياءِ، أمرٌ غريبٌ فيهم، أعجبُ مِن علمهم بذلك"[1].

سِرُّ تَعريفِ المُسنَدِ إليهِ بالمَوصولِيَّةِ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ في ثنايا الآية الكريمة:

الكُفرُ سَبَبٌ للفَسادِ، وتطاولٌ على مقام ربِّ العبادِ

عُرِّفَ المسنَدُ إليه ﴿ٱلَّذِينَ﴾ بالموصوليَّةِ في قولِه ﷻ: ﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡ يَعۡدِلُونَ﴾؛ للإشعارِ إلى نَوعِ الخَبرِ المَحكومِ بِهِ على المسنَدِ إليه؛ وأنَّه مِن جِنسِ الفسادِ والانحرافِ الّذي يصدُرُ عادةً بسببِ الكُفرِ.

دِلالَةُ (أل) في الاسم الموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾ في سياق الآيةِ:

الكافِرونَ باللهِ واقِعونَ في الشِّركِ لا محالةَ

اللّامُ في الاسم المَوصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾ مِن قَولِ اللهِ ﷻ: ﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡ يَعۡدِلُونَ﴾ يُرادُ بها الجِنسُ المفيدُ العُمومَ؛ فهي شامِلَةٌ لكلِّ مَن كفرَ باللهِ تعالى مِن أهلِ كُلِّ مِلَّةٍ.

نُكتَةُ إيثارِ التَّعبيرِ بِجُملَةِ الصِّلَةِ، فِعلًا ماضِيًا في الآية الكريمة:

تَحَقُّقُ الكُفرِ في المذكورين

جاءَت جملةُ الصِّلَةِ فِعلًا ماضيًا في قولِ اللهِ ﷻ: ﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡ يَعۡدِلُونَ﴾ للإيماءِ إلى حُدوثِ الكُفرِ وتحقُّقِه فيهم وتشبُّعِهم مِنهُ، لتلبُّسهم به في الظّاهر والباطن.

فائِدَةُ حَذفِ مُتَعَلَّقِ الكُفرِ مِن سيَاقِ الآيةِ الكريمة:

جُزأَةُ المُشرِكينَ على اعتقادِ ما لا يليقُ بالله

حُذِفَ مُتعلَّقُ الفعلِ ﴿كَفَرُواْ﴾ من قول الله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡ يَعۡدِلُونَ﴾، وهو الأَمرُ الّذي كُفِرَ بِهِ، لإرادَةِ العُموم؛ وذلكَ لأنَّ حَذفَ المُتعلَّقِ مُؤذِنٌ بالعُموم، والمعنى: كَفَروا بِجَميعِ ما وجبَ عليهِم أَن يُؤمِنوا بِهِ شَرعًا.

دلالةُ تقديمِ المُتعلَّق ﴿بِرَبِّهِمۡ﴾ على ﴿يَعۡدِلُونَ﴾:

زيادةُ التَّشنيعِ والتَّقريعِ عليهم، منوطٌ بفساد الفعلِ والاعتقادِ

في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡ يَعۡدِلُونَ﴾، تقدّمَ المُتعلَّق ﴿بِرَبِّهِمۡ﴾ على الفعل ﴿يَعۡدِلُونَ﴾، "أي: الَّذين كفروا يَعْدِلون بربِّهم

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/128.

غيرَهُ، والَّذين كفروا مبتدأ، ويعدلون الخبر، والمفعولُ محذوفٌ"[1]، وفي التَّقديم زيادةُ التَّشنيعِ والتَّقريعِ؛ فقد خلقَ لهم السّماواتِ والأرضَ، وجعلَ الظُّلماتِ والنّورَ، ومع ذلك مالوا، وانحرفوا، وبربّهم عَدَلوا.

معنى الباءِ في قوله: ﴿بِرَبِّهِمۡ﴾:

تجاوزُ الكفَّارِ عِبادةَ اللهِ إلى غيره، سفاهةٌ وتفاهةٌ

في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡ يَعۡدِلُونَ﴾، الباء هنا حرف جرّ، والغالبُ فيها الإلصاقُ، لكنّها هنا أفادَت معنى المجاوزة[2]؛ "بمعنى (عَن)، فلا يكون في الكلام مفعولٌ محذوفٌ، بل يكون ﴿يَعۡدِلُونَ﴾ لازمًا؛ أي: يعدلون عنه إلى غيره"[3].

سرُّ العدولِ عنِ اسمِ الجلالةِ (الله)، إلى لفظ (الرَّبِّ):

بيانُ عِظَمِ جُرمِ الكافرين، وبشاعةِ اعتقادِهم

لمّا ذكَّرهم باستحقاقه العبوديّة، لكمالِ أُلوهيَّتِهِ، وعظيمِ قدرتِه على الخلقِ والإيجادِ، وكان منهم الكفرُ والجحودُ - وضَحَ أنَّهم عَموا عن رؤيةِ دلائلِ ربوبيَّته، وآياتِ قدرتِه الشّاهدة على أنَّه ربُّهم الّذي أمدَّهم بالنّعم؛ فلذلك أوثِر التَّعبيرُ بلفظ ﴿بِرَبِّهِمۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡ يَعۡدِلُونَ﴾، لإظهار قبحِ عملِهم، وإنكارِ فعلِهم، وتسفيهِ عقولِهم، واستنهاضِ فطرتِهم الّتي كفَّروها بجرائمهم، فإذا كانوا قد عَموا عن دلائلِ ربوبيّتِه، فَهُم عن جلائلِ ألوهيَّتِهِ أشدُّ عَمًى، وأضلُّ سبيلًا.

وجهُ إضافةِ الرَّبِّ إلى ضميرِ الغائبين ﴿بِرَبِّهِمۡ﴾:

الزِّيادةُ في التَّعجيب بإقامة الحُجَّة عليهم في قُبحِ إنكارِهم

في إضافةِ الرّبِّ إلى ضميرِ الغائبين زيادةُ تعجيب؛ وإقامةُ الحُجّةِ عليهم في قُبْحِ إنكارهم؛ إذ إنَّ دلائلَ ربوبيَّتِه ظاهرةٌ في كلّ مَرْبوبٍ، وليسوا بمُطالَبين بإنْعامِ النّظرِ في غيرهم حتَّى يؤمنوا، ويُقِرّوا بالرّبِّ ﷻ، بل إنَّ ما أمدَّهم به ربُّهم من أصول النِّعم وفروعها لكفيلٌ بإرجاعهم إلى دائرةِ الحقِّ، ونورِ الإيمانِ، وعلى الرّغم من وضوح ذلك يشركون به!

(1) العكبريّ، التّبيان: 1/479.
(2) ابن هشام، مغني اللّبيب، ص: 141.
(3) العكبريّ، التّبيان: 1/479.

إيثارُ التَّعبيرِ بالفعلِ ﴿يَعۡدِلُونَ﴾:

الفعلُ ﴿يَعۡدِلُونَ﴾ أشملُ معنًى، وألصقُ بسياقِ التَّعبيرِ:

وردَ التّعبيرُ بالفعل ﴿يَعۡدِلُونَ﴾ بالمعنى نفسه هنا، وفي قوله تعالى منَ السّورةِ نفسِها: ﴿وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمۡ يَعۡدِلُونَ ١٥٠﴾ [الأنعام: 150]، كما جاء في قوله تعالى: ﴿أَمَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهۡجَةٖ مَّا كَانَ لَكُمۡ أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٞ يَعۡدِلُونَ ٦٠﴾ [النّمل: 60].

ولا يَعدِل هذا الفعلَ لفظٌ آخرُ؛ فلا يصلُح وضعُ (يكفرون) موضعَه؛ لِسَبق وصفهم بالكفر، ولا يحلُّ محلَّه (يُشركون)؛ لأنَّه لا يَعْدو وصْفَهم بأنَّهم جعلوا مع اللّه آلهةً أخرى، وهذا داخلٌ في دائرةِ الكفرِ المذكور.

فظهرَت مناسبةُ ﴿يَعۡدِلُونَ﴾ للسّياق؛ إذ إنَّ مادّتَه - كما سبق - يلزمُ عنها معنى الشّرك والكفر، ويزادُ عليه معنى الموازنةِ، والتَّساوي، ومحاولةِ التَّرجيح، وفي ذلك دعوةٌ إلى النَّظرِ، والتَّفكُّرِ، والتّأمُّل في دلائلِ الرّبوبيَّةِ، وفي آية سورة النَّمل المذكورة منَ الآيات العُلويَّة والأرضيَّة ما يدلُّ على جلاء تلك الدَّعوة، ويُسّرِ السّبيل إليها.

والفعل ﴿يَعۡدِلُونَ﴾ مناسبٌ للموازنة بين ﴿ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَۖ﴾؛ إذ إنَّ عدلَ المؤمن الّذي هو ضدُّ الظُّلم (نور)، وعدلَ الكافر الّذي هو مساواةُ ربِّه ﷻ بغيره (ظلمات)، فَعُدولُهم عنِ الإيمان بربِّهم دليلٌ على طَمْس بصيرتهم، ومساواتُهم الخالقَ بالمخلوق برهانٌ على النُّكران والكفران.

دِلالَةُ التَّعبيرِ بالفِعلِ المُضارِعِ في ﴿يَعۡدِلُونَ﴾:

الاستِمرارُ على الباطِلِ، رُغمَ ظُهورِ الأَدِلَّةِ على زَيفِهِ وتهافتِهِ

عُبِّر بالفعلِ المُضارِعِ ﴿يَعۡدِلُونَ﴾ في قَولِ اللّهِ ﷻ: ﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡ يَعۡدِلُونَ﴾ للإشعارِ باستمرارِ شِركِهم ودوامِهم عليه مع ظُهورِ الآياتِ والبيِّناتِ الدّالَّةِ على خلافِه، وهذا دالٌّ على شدَّةِ عنادِ هؤلاء الكفَرَةِ وتَأَصُّلِ جُحودِهم.

﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا ۖ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ۖ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ ۝٢﴾ [الأنعام: 2]

مناسبةُ الآيةِ لما قبلَها:

الـرَّبـطُ بين خلْقِ الأكوانِ وخلْقِ الإنسانِ، لدحضِ الإفكِ والكفرانِ

لمّا استدلَّ في الآيةِ السّابقةِ بخلقِ السّماواتِ والأرضِ، وجعلِ الظُّلماتِ والنّورِ، على وجود الصّانعِ الحكيمِ، أتبعَه بخلقِ الإنسانِ من طيّن، فأَبْطَلَ كفرَهم بالبعثِ مع مشاهدتهم ما يوجِبُ الإيمانَ به، بعد إبطالِ إشراكِهم به مع معاينتهم دلائلَ وحدانيَّتِه، وفي ذلك استدلالٌ بخَلْقِ العالَمِ الأصغرِ بعد العالَمِ الأكبرِ، وكلُّها واقعةٌ عنده تعالى بين الكاف والنّون.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿طِينٍ﴾: اسمٌ ثلاثيٌّ مُجرَّدٌ، الجذرُ اللّغويُّ منه (طَيَنَ)، والطّينُ معروفٌ، وأصلُه منَ الأرض، ويُقال: فلانٌ منَ الطّينةِ الأولى نسبةً إلى الخِلْقة والجِبِلَّة، وهو أيضًا الأصل في معناه، وهو الطّين المعروف[1].

و"الطّينُ: التّرابُ والماءُ المختلطُ، وقد يسمّى بذلك وإن زال عنه قوّةُ الماء، قال تعالى: ﴿مِّن طِينٍ لَّازِبٍ ۝١١﴾ [الصّافّات: 11][2]، والطّينُ مذكورٌ في القرآن الكريم في مواضعَ كثيرةٍ كلّها بمعنى المادَّة المعروفة المتكوّنة من امتزاج التُّرابِ بالماء[3].

2) ﴿قَضَىٰٓ﴾: فعلٌ ماضٍ معتلّ الآخر، جذرُه اللّغويُّ من (قَضَيَ)؛ لأنّ مضارعَه (يقضي)، ومنه القضاء بمعنى: الحُكْم؛ أي: حَكَمَ،

(1) الجوهريّ، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (طين).
(2) الرّاغب، المفردات، والسّمين، عمدة الحفّاظ: (طين).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (طين).

وهو الأصل في معناه؛ أي: أَنْ يُحْكِمَ الأَمْرَ ويُتْقِنَهُ، قال تعالى: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ﴾ [فصّلت: 12]، وعمومُ لفظِ القضاءِ وما اشتُقَّ منه يأتي بمعنى الحُكْم[1]، وهو منَ الألفاظِ المُشْتَرَكَةِ الدَّلالةِ، ويتعيّنُ معناه بحسب السّياق الواردِ فيه، وهو هنا بمعنى إحكامِ الأمرِ وإمضائِه.

3) ﴿أَجَلًا﴾: اسمٌ ثلاثيٌّ مُجرَّدٌ، جذرُه اللّغويُّ من (أَجَلَ)، وهو مُنتهى الوقت في انقضاء حياةِ الإنسانِ؛ أي: موته، وهو نقيضُ العاجل، وهو قريبٌ من أحد أصولِ معناه الخمسة عند ابن فارس[2].

والأجلُ: المدّةُ المقرّرةُ للشَّيء، ويُستعمَل كثيرًا للمدّة المقرَّرةِ المضروبةِ لحياة الإنسان في الدّنيا، فيُعبَّر عن ذلك بدُنوِّ الأجل، وهو حدُّ الموت، وحلولُ أجلِ الإنسان[3].

ومعناه في الآية: البقاءُ في الدّنيا حتّى الموت، أو البقاءُ في القبور حتّى النُّشور، أو النَّومُ حتّى الاستيقاظ[4].

4) ﴿مُّسَمًّى﴾: اسمُ مفعولٍ منَ الفعل المزيدِ (سمّى)، الجذرُ اللّغويُّ منه (سمو)؛ لأنّه مُشتقٌّ منَ السُّموِّ[5] على أرجح الأقوالِ، والفعل منه (سَما يَسْمو) فآخره واو، والسّموّ هو الارتفاع والعلوّ، "وسما إليه بصري؛ أي: ارتفعَ بصرُك إليه، وإذا رُفِعَ لك شيءٌ من بعيد فاستبنتَه"، والأصلُ في السّموّ العلوُّ والارتفاعُ أيضًا، والاسمُ هنا أُضيفَ إلى الضّمير العائد عليه سبحانه؛ فيرادُ به عند إضافتِه له تعالى ما يدلُّ على الذّات الإلهيّةِ، مع صفةِ الكمالِ القائمةِ به[6]. ومعنى المُسمَّى في هذه الآية - وهو صفةٌ للأجل - هو مدّةُ الأجلِ المضروبِ لبَعثكم يوم القيامة عند اللّه[7].

5) ﴿تَمْتَرُونَ﴾: فعل مضارع دالٌّ على الحال والاستقبال، مسنَدٌ إلى الجماعة، الجذرُ

(1) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والزّبيدي، تاج العروس: (قضي).
(2) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (أجل).
(3) الرّاغب، المفردات، والسّمين، عمدة الحفّاظ: (أجل).
(4) ابن الجوزيّ، زاد المسير: 2/8.
(5) الزّبيديّ، تاج العروس: 38/305.
(6) الخليل، العين: (سمو)، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (سمو)، والرّاغب، المفردات: (كلم)
(7) الطّبريّ، جامع البيان: 11/259.

اللّغويُّ منه (مَوَرَ)، من (مارَ يمورُ مَوْرًا)، ومعنى المَوْر: التّردُّد وعدم الاستقرار، "والبعير يمورُ عَضُداه، إذا تردَّدا في عرض جنبيه. والطّعنةُ تمورُ إذا مالت يمينًا أو شمالاً. والدّماءُ تمور في وجهِ الأرضِ، إذا انصبّت فتردّدت"، ولخّص ابنُ فارس أصلَ معناه في التّردُّد[1]. ومعنى ﴿تَمْتَرُونَ﴾ في الآية: تشكّون وتجادلون؛ تشكّون منَ المِرْيَةِ، أو تجادلون منَ المِراءِ[2]؛ فالشّاكُّ يكون مُتردّدًا مُتحيّرًا لا استقرارَ له.

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

بيانُ خَلقِ الإنسانِ، وامتحانُهُ في حالِهِ ومآلِهِ، ليؤمِنَ باللهِ دونَ امتراءٍ

ابتدأَ الحقُّ ﷻ الآيةَ بالضّمير ﴿هُوَ﴾ إشارةً إليه ﷻ الّذي خلقهم من طين، فأثبتَ أصلَ الإنسان، ثمّ جعل للابتلاء والامتحان أجلًا، وهو الدُّنيا، وجعل للعاقبة أجلًا، وهو الآخرة بعدَ البعثِ، وهو أجلٌ معيّنٌ عنده، لا يطّلعُ عليه سواه سبحانه، وبعدَ ذلك كلّه أنتم تشكّون في قدرةِ اللّه تعالى على البعث بعدَ الموتِ، ولا تؤمنون!

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالةُ الاستئنافِ:

السِّياقُ تعجُّبٌ من إنكارِهم الأجلَ المسمَّى بضلالِهم المعمَّى

في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ﴾ استئنافٌ لغرضٍ آخر للتَّعجيب من حال المشركين، إذ أنكروا البعثَ؛ فإنَّه ذكّرهم ابتداءً بخلق السّماواتِ والأرضِ، وعجِبَ مِن حالهم في تسويتهم ما لم يخلقِ السّماواتِ ولا الأرضَ باللّه تعالى في الإلهيَّة، ثمّ ذكَّرهم بخلقهم الأوَّل، وعجِبَ مِن حالهم كيف جمعوا بين الاعتراف بأنَّ اللّه هو خالقُهم الخلقَ الأوَّلَ فكيف يمترون في الخلق الثّاني[3].

(1) الخليل، العين، ابن فارس، مقاييس اللّغة: (مور).
(2) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/104.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/129.

سرُّ التَّعبيرِ بضميرِ الشَّأنِ ﴿هُوَ﴾ لمتقدِّمٍ على مفسِّرِه:

التَّشويقُ لما بعدَ الضَّميرِ، تحصيلٌ للبيانِ بعدَ الغُموضِ

في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ﴾، ﴿هُوَ ٱلَّذِى﴾ ابتداءٌ وخبرٌ[1]، والضّميرُ ﴿هُوَ﴾ هنا ضميرُ غَيْبَةٍ، وضميرُ الغَيْبَةِ يقتضي مَرجِعًا يفسِّره يكون سابقًا عليه، إلّا أنّ مرجعَه هنا مُتقدّمٌ عليه، فهو ضميرُ الشّأن[2]، وسرُّ التّعبيرِ بضمير الشّأنِ الّذي يكون مُتقدِّمًا على مُفسِّرِه إفادةُ التّشويقِ؛ فإنّ المؤمنَ مُترقِّبٌ ومُتشوِّقٌ لما بعدَ الضّمير؛ فيكون أحسنَ وقعًا في النّفس، وأشدَّ تمكّنًا لما فيه منَ البيانِ بعدَ الغموض.

فائدةُ أسلوبِ القَصْرِ في قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى﴾:

الدَّعوةُ إلى العودةِ للخالقِ قبلَ انقضاءِ الأجلِ مع الخلائقِ

في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ﴾، ﴿هُوَ ٱلَّذِى﴾ جملةٌ ابتدائيّةٌ من معرفتين؛ الضَّمير والاسم الموصول، فالمسنَدُ والمسنَدُ إليه مُعرَّفان، والجملةُ تفيدُ القصرَ في ركنَيْها ومُتَعَلَّقِها، ومعنى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم﴾؛ أي: هو خالقُكم على جهةِ القَصْرِ والتَّخصيصِ لا غيره[3]. وفيه إشارةٌ إلى الحضِّ على الرُّجوعِ والعودةِ إلى الخالق بالإيمان به، والتَّوبةِ والإنابةِ إليه قبلَ انقضاءِ الأجل.

إعجازٌ مبينٌ في قوله: ﴿خَلَقَكُم مِّن طِينٍ﴾:

الإنسانُ والأرضُ مُشتركانِ في عناصرِهما؛ لأنَّه مخلوقٌ من طينٍ

من خلال استعراضِ آياتِ القرآنِ الكريمِ يتّضحُ لنا أنَّ اللهَ ﷻ قد خلقَ الإنسانَ منَ الأرض، وهي تحوي التُّرابَ والماءَ، وباختلاطهما يتكوَّنُ الطّين، ثمّ يصيرُ الطّينُ لازبًا ذا لزوجة، ثمّ تتغيَّرُ رائحتُه، فيصيرُ حَمَأً مَسْنونًا، ثمّ يتبخَّرُ منه بعضُ الماء، ويصيرُ صَلصالًا كالفَخّار.

ولقد ثَبَتَ في السُّنَّةِ النَّبَويَّةِ أنَّ الطّينَ الّذي خُلِقَ منه أبونا آدم عليه السلام

(1) النّحّاس، إعراب القرآن: 2/3.
(2) ضميرُ غَيبةٍ تليه جملة تفسّره، مثل: ﴿قُلْ هوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾. ابن جنّي، الخصائص: 1/106.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/129.

أُخِذَ من جميع الأرض: «فَجاءَ بنو آدَمَ على قَدْرِ الأَرْضِ، جاءَ منهمُ الأَبْيَضُ والأَحْمَرُ والأَسْوَدُ وبَيْنَ ذَلِكَ، والخَبيثُ والطَّيِّبُ، والسَّهْلُ والحَزْنُ، وبَيْنَ ذَلِكَ»[1]. كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾﴾ [الرّوم: 22]. وخَلَقَ اللّهُ أُمَّنا حوّاءَ عليها السّلام من ضِلَعِ آدمَ، وخَلَقَ عيسى عليه السلام من أمِّه مريم عليها السّلام، من دون أبٍ، وخَلَقَ الذُّرِّيَّةَ كلَّها من نُطفةِ الذَّكَرِ وبوَيْضَةِ الأُنثى، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ﴾ [النّساء: 1]؛ للدَّلالة على طلاقةِ قدرةِ اللّهِ تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [الأعراف: 54].

فقوله تعالى: ﴿خَلَقَكُم مِّن طِينٍ﴾ يَحتملُ أن يكونَ المعنى: خَلَقَ أصلَكم آدمَ عليه السلام من طينٍ، فيكون إيجازًا بالحذف، و(مِن) ابتدائيَّة أو تبعيضيّة على اعتدادِ أنَّ أبانا آدمَ عليه السلام خُلِقَ من قبضةٍ من ترابِ الأرضِ، كما ورد في الحديث[2].

بَراعَةُ أُسلوبِ البَحثِ من خلالِ الآية:

في قولِ اللّه عزّ وجلّ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ﴾ أسلوبُ البَحثِ[3]، الّذي يُسمّيه جماعةٌ: المذهبَ الكلاميَّ، وذلك أنَّ في التَّنصيص على مادَّةِ الخَلقِ بقولِه: ﴿مِّن طِينٍ﴾ إظهارًا لفسادِ استدلالِ المُشركينَ على إنكارِ الخَلقِ الثّاني في الآخِرَةِ؛ وذلك أنَّهم استَبعَدوا إعادَةَ خلقِ الإنسانِ بعد أن يصيرَ ترابًا، وهُم يُقرّونَ أنَّهم يصيرونَ بعدَ الموتِ ترابًا، ويُقرّون أيضًا أنَّهم خُلِقوا من ترابٍ، فاستدَلّوا على إنكارِ الخلقِ الثّاني بما هو حقيقٌ أن يكونَ دليلًا على إمكانِه، ووجهُ ذلك: أنَّ صيرورَتَهم إلى ترابٍ يُقرِّبُ إعادَةَ خَلقِهم؛ لكونِهم قَد صاروا

قَلْبُ الدَّليلِ على المُخالِفِ، بِجَعْلِ دَليلِهِ دليلًا عليهِ، مِن أقوى طُرُقِ الاستدلال

(1) أحمد، المسند: الحديث رقم: (19582)، ورقم: (19642).
(2) الإمام أحمد، المسند: الحديث رقم: (19582).
(3) ابن عبد الحقّ العمريّ، درر الفرائد المستحسنة، ص: 443.

إلى مادَّةِ الخَلقِ الأوَّلِ، وهم مُقِرّونَ بِها، وهذا القَدحُ في استِدلالِ المُشرِكينَ يُسمَّى في عِلمِ الجدَلِ: القولَ بالموجَبِ. والمُنبَّهُ عليهِ من خطأِ استدلالِهِم يُقال لَهُ: فسادُ الوضعِ[1].

بلاغةُ الالتفاتِ من الغَيبة إلى الخطاب:

تلوينُ أساليبِ الخطابِ، ذو أثرٍ في التَّوبيخِ والتَّشنيعِ عليهم

قولُه تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ﴾ مبنيٌّ على الخطاب، وفيه التفاتٌ عن قوله تعالى في الآية السّابقة: ﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ فقد بناها هنا على الغَيبة، "والالتفاتُ لمزيدِ التّشنيعِ والتّوبيخِ؛ أي: ابتدأَ خلقَكم منهُ؛ فإنّه المادّةُ الأولى للكُلِّ، لما أنّه منشأُ آدمَ الذي هو أبو البَشَرِ"[2].

إضافةُ الخَلْقِ إلى ضميرِ المخاطَبين في قوله: ﴿خَلَقَكُم﴾:

إشارةٌ إلى وجوبِ الإيمانِ بالبَعْثِ، لتعلُّقِه بالمصيرِ الأخيرِ

لفظة ﴿خَلَقَكُم﴾ في قولِه تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ﴾، جاءت فيها إضافةُ الخلْقِ إلى ضمير المُخاطَبين؛ للإشارة إلى "إيجابِ الإيمانِ بالبعثِ، وبطلانِ الامتراءِ؛ لتوضيحِ منهاجِ القياسِ، وللمبالغةِ في إزاحةِ الاشتباهِ والالتباسِ، مع ما فيه من تحقيق الحقّ"[3]؛ فإنّ بعثَكم منَ الطّين أمرٌ مُحقَّقٌ.

دِلالَةُ (ثُمَّ) في قَولِ اللهِ تعالى: ﴿ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًاۖ﴾:

إفادةُ التَّرتيبِ، بصدورِ القضاءِ قبلَ الخلقِ، ووقوعِ المقدورِ بعد الخَلقِ

(ثُمَّ) مِن قَولِ اللهِ ﷻ: ﴿ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًاۖ﴾ على أصلِها في الدِّلالَةِ على التَّرتيبِ، وفي ذلكَ مَسلَكانِ: أحدُهُما: أن تكونَ للتَّرتيب في الذِّكرِ دونَ التَّرتيبِ في الزَّمانِ، وذلك إذا حُمِلَ معنَى القضاءِ على وجه الكِتابَة والتقدير، إذ إنّ ذلك متقدّمٌ وهو مكتوبٌ قبل إنشاء الخلق.

والآخَرُ: أن تكونَ للتَّرتيبِ في الزَّمانِ، إذا جاءت ﴿قَضَىٰٓ﴾ بمعنَى: أَظهَرَ، فيقعُ المقدور ويحدُث بعد الخلق[4].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/130.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/163.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/163.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/431.

ويجوزُ أن يُرادَ بـ (ثُمَّ) مَعنَى المُهلَةِ، إذا حُمِلَ مَعنَى ﴿قَضَىٰٓ﴾ على: (استَوفَى)، فقَضَى لهُ أجلَهُ، أي: استَوفاهُ لَهُ، ومَعنَى المُهلَة في (ثُمَّ) هيَ باعتبار التَّوزيعِ؛ أي: أنَّ اللّٰه ﷻ خلقَ كُلَّ فَردٍ مِنَ البشَرِ ثُمَّ قضَى لَهُ أَجَلَهُ[1].

دلالةُ لفظ ﴿أَجَلًا﴾، ولفظِ ﴿أَجَلٌ﴾ في السِّياقِ:

دلالةُ النَّصْبِ في الجملة الفعليَّةِ التَّغيُّرُ، ودلالةُ الرَّفْعِ في الجملة الاسميَّةِ الثُّبوتُ

قوله تعالى: ﴿قَضَىٰٓ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ﴾: في الآية أَجَلان؛ أَجَلٌ منصوبٌ بـ ﴿قَضَىٰٓ﴾، والأجلُ الثّاني على الابتداء[2]؛ ولذلك يحسنُ الوقوفُ على الأجل الأوّل، والواو فيما بعده للاستئناف[3]، ولم يأتِ معطوفًا على ﴿أَجَلًا﴾، "لأنّ الأجلَ المسمّى الّذي عنده لا يعلمُه غيره، والأجلُ الأوّلُ أجلُ الدّنيا وانقضاؤها"[4]، لكون المنصوب ﴿أَجَلًا﴾ واقعًا في جملة فعلية، والمرفوع ﴿وَأَجَلٌ﴾ واقعًا في جملة اسمية، والجملة الاسمية دالّة على الثّبوت. وفيه مناسبةٌ بيّنةٌ في أنّ الأجلَ الأوّلَ منقطعٌ، وهو أجلُ الدُّنيا، والأجلُ الثّاني ثابتٌ، وهو أجلُ الآخرة.

تقديمُ ﴿أَجَلًا﴾ على ﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى﴾:

ترتيبُ الأجلِ وَفقَ التَّقدُّمِ الزَّمنيِّ لفظًا ومعنًى، أساسٌ في فَهمِ المرادِ مِنَ السِّياق

قوله تعالى: ﴿قَضَىٰٓ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ﴾: في الآية أَجَلان، قُدِّمَ أَحَدُهُما على الآخر، وسببُ تقديم الأوّل ﴿أَجَلًا﴾ على الثّاني ﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ من باب التّقدّم الزّمنيّ لفظًا ومعنًى، أمّا من جهة اللّفظِ فإنّ النَّكرةَ المُطلَقَةَ سابقةُ النّكرةَ المخصّصةَ، وأمّا من جهة المعنى فلأنّ "الأجلَ الأوّلَ منَ الولادةِ إلى الموت، والأجلَ الثّانيَ منَ الموت إلى البعث... وقال مجاهد وسعيد بن جُبير: الأجلُ الأوّلُ أجلُ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/130.
(2) الأخفش، معاني القرآن: 1/293.
(3) السّيوطيّ، معترك الأقران: 3/362.
(4) الأنباريّ، إيضاح الوقف والابتداء: 2/629.

الدُّنيا، والأجلُ الثّاني أجلُ الآخرة"[1]، فأجلُ الدّنيا مُتقدِّمٌ على أجل الآخرة طبيعةً.

دلالةُ تنكيرِ ﴿أَجَلًا﴾، وتخصيصِ ﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى﴾:

الأجلُ الأوّلُ زائلٌ، والأجلُ الثّاني دائمٌ

ورد في قوله تعالى: ﴿قَضَىٰٓ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ﴾ أجلان؛ الأوّلُ: نكرةٌ محضةٌ ﴿أَجَلًا﴾، والثّاني مخصَّصةٌ ﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى﴾، والتَّخصيصُ يقرّب النّكرةَ منَ التَّعريف في جواز الابتداء بها؛ لأنّها ذاتُ فائدة، فهنا تخصّصَ بالصّفة؛ فأصبح قريبًا منَ المعرفة[2] فـ "الأجلُ الأوّلُ هو أجلُ الموتِ، والأجلُ المُسمَّى عندَ اللّه هو أجلُ القيامة؛ لأنَّ مدَّةَ حياتهم في الآخرة لا آخرةَ لها ولا انقضاءَ، ولا يعلم أحدٌ كيّفيَّةَ الحالِ في هذا الأجل إلّا اللّه ﷻ"[3].

دلالةُ تقديمِ النَّكرةِ المخصَّصةِ ﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ على الظَّرف ﴿عِندَهُۥ﴾:

إفادةُ التَّفخيمِ والتَّعظيمِ، هو العلَّةُ في التَّأخير والتَّقديم

لفظة ﴿وَأَجَلٌ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ﴾ نكرة، وقد خصّصها بالوصف ﴿مُّسَمًّى﴾، وقد قدّمَها على الظّرف ﴿عِندَهُۥ﴾ أنّ المعنى: وأيّ أجلٍ مُسمّى عنده! تعظيمًا لشأن السّاعة، فلمّا جرى فيه هذا المعنى وجبَ التّقديم[4]، فالتّقديمُ جاء هنا لأجل التّعظيم والتّفخيم.

دلالةُ التَّعبيرِ بالظَّرفِ ﴿عِندَهُۥ﴾:

لكلِّ أجلٍ كتابٌ، واللّه وحدَهُ المطَّلِعُ على ميقاتِ المآبِ

قوله تعالى: ﴿قَضَىٰٓ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ﴾: ﴿قَضَىٰٓ أَجَلًا﴾ ذكرَ آجالَ الماضين قبله، وآجالُ هؤلاء المقضيّةُ باتَت معلومةً، أمّا مَن لم يقضِ أجلَه فقد عبّر عنها بقوله: ﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ﴾، و"المرادُ منه آجالُ الباقين منَ الخلق... فهم بعدُ لم يموتوا، فلم

(1) البغويّ، معالم التّنزيل: 3/127.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/322.
(3) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 12/480. وجاء هذا التعليل على القول بأن الأجل الثاني هو أجلُ يوم القيامة.
(4) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/322.

تَصِرْ آجالُهم معلومةً؛ فلهذا المعنى قال: ﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ﴾"[1]؛ أي: لا يعلمُها سواهُ تعالى.

بَراعَةُ الاعتِراضِ في ثنايا سياق الآية الكريمة:

في قوله اللّهِ سُبحانَهُ: ﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ﴾ اعتراضٌ بينَ قولِه: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ﴾، وقولِه: ﴿ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ﴾، ونُكتَةُ هذا الاعتِراضِ: إعلامُ الخَلقِ بأنَّ اللّه ﷻ عالمٌ بآجالِ النّاسِ كُلِّهم، ردًّا على مقالَةِ المُشرِكينَ الزّاعمَةِ أنَّه إنَّما يُهلِكُهُمُ الدَّهرُ[2].

اعتقادُ المُشرِكينَ، أنَّهُ إنَّما يُهلِكُهُمُ الدَّهرُ، باطلٌ من القول والمعتَقَدِ

بلاغةُ التَّعبيرِ بجملة: ﴿ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ﴾:

في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ﴾ عطفَ هذه الجملةَ على ما سبقها، وصدَّرَها بالضّمير، وسرُّ ذلك إظهارُ العَجَب من حالهم بعد تذكيرهم بخلق السّماواتِ والأرضِ، وعجبُه مِن أنّهم ساوَوا بين مَن يَخْلُقُ ومَن لا يَخلُقُ، "ثمَّ ذكَّرهم بخَلْقهم الأوَّل، وعَجِبَ مِن حالهم كيف جمعوا بين الاعتراف بأنّ اللّه هو خالقُهم الخَلْقَ الأوّل، فكيف يمترون في الخلق الثّاني؟!"[3]، فكيف لهم بعد كلّ ذلك أن يشكّكوا في ما جئنا به منَ الخَلق؟!.

الاعترافُ بخَلْقٍ دونَ خَلْقٍ، محضُ افتراءٍ وامتراءٍ

إفادة ﴿ثُمَّ﴾ جملةً مِنَ المعاني:

حرفُ العطف ﴿ثُمَّ﴾ في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ﴾ قد يومئُ إلى معنًى له علاقة بجملةٍ سابقةٍ، وهي قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ﴾؛ فيدلّ هنا على قبح هؤلاء المُخاطَبين وتوبيخِهم؛ لأنّه تعالى قد خلقهم، وبيّنَ أصلَ خَلْقِهم، ثمّ بعد ذلك هُمْ يَمْترون، ويُشكّكون بذلك؛ فقد قابلوا الإنعامَ والإكرامَ بالمماراة والشّكّ بعد مهلةٍ وتراخٍ، وهذا ما تحقّقُه ﴿ثُمَّ﴾ فيما لا تحقّقُه حروفُ العطفِ الأخرى.

العجَبُ من مقابَلةِ المشركين إنعامَ اللّه بالمماراةِ بعدَ إمهالٍ وطولِ بيان

(1) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 12/162، ويأتي هذا التعليل على ضوء معنى: أنّ الأجل الثاني هو الأجل الذي لم ينقضِ بعدُ.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 130 - 131/7.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/129.

وقد تفيدُ ﴿ثُمَّ﴾ التَّعجيبَ من حالهم، في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ﴾، فحرفُ العطفِ هذا فيه معنى آخرُ بعد عطفِه هذه الجملة على سابقتها، وهي قولُه تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ﴾؛ وهذا المعنى هو التَّعجيبُ من حالِ هؤلاء؛ فإنّ مماراةَ هؤلاء، وارتيابَهم بعد أن علموا أنّه خالقُهم، وأنّ أصلَهم من طين لَهوَ أمرٌ يثيرُ العجبَ من حالهم، لعلّه أعجبُ مِن علمِهم ذاك.

تحتملُ (ثُمَّ) معنى الاستبعاد

وتحتملُ ﴿ثُمَّ﴾ معنى الاستبعاد، "والمرادُ استبعادُ امترائهم في وقوعِ البعثِ، وتحقّقه في نفسه مع مشاهدتهم في أنفسهم منَ الشَّواهد ما يقعُ مادَّةَ ذلك بالكلِّيّة، فإنَّ مَن قَدَر على إفاضة الحياةِ على مادَّةٍ غير مستعدّة لشيءٍ من ذلك، كان أوضحَ اقتدارًا على إقامته على مادّة قد استعدّت له، وقارنته مُدَّة"[1].

نُكتَةُ ذِكرِ المُسنَدِ إليهِ ﴿أَنتُمْ﴾:

تقريعُ المُشركينَ، جزاءُ امترائِهم

في قَولِ اللّهِ تعالى: ﴿ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ﴾، جيءَ بالمسنَدِ إلَيهِ ﴿أَنتُمْ﴾ ضميرًا بارزًا في قَولِ اللّهِ ﷻ: ﴿ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ﴾، والمرادُ بهِمُ المُشركونَ؛ لإرادَةِ المبالغَةِ في التَّقريعِ والتَّوبيخِ[2].

دلالَةُ الجُملَةِ الاسميَّةِ في قَولِ اللهِ تعالى: ﴿ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ﴾:

شِدَّةُ العِنادِ، تُلهي عَنِ النَّظَرِ في الآياتِ الكَونيَّةِ والشَّرعيَّةِ

في التَّعبير بالجملةِ الاسميَّةِ في قولِه ﷻ: ﴿ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ﴾ إيماءٌ إلى استمرارِهم في باطلِهم بالشَّكِّ في قُدرَةِ اللّهِ ﷻ على البَعثِ، وأنَّ الأدلَّةَ والبراهينَ الّتي نصَبَها اللّهُ ﷻ لإثباتِه لَم يُزَحزِحْ هذا الاعتقادَ الفاسدَ مِن قلوبِهم؛ لقوَّةِ عنادِهم، واستكبارِهم عنِ التَّأمُّلِ في أدلَّةِ ذلك.

سِرُّ تَقديمِ المُسنَدِ إليهِ على المُسنَدِ الفِعليِّ:

في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ﴾، قُدِّمَ فيه المسنَدُ إليه

(1) الآلوسّي، روح المعاني: 4/84.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/131.

﴿أَنتُمْ﴾ على المسنَدِ الفعليِّ ﴿تَمْتَرُونَ﴾ من قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ﴾؛ لتقويَةِ الإسنادِ؛ لاقتضائِهِ تَكرارَهُ، فقد أُسنِدَ الامتراءُ إلى ضمير المُشرِكين ﴿أَنتُمْ﴾، وهو مِن إسنادِ الخبرِ إلى المبتدَأ، وأُسنِدَ الامتراءُ أيضًا إلى واوِ الجماعةِ الرّاجعةِ إليهم، وهوَ مِن إسنادِ الفعلِ إلى فاعِلِهِ.

تَأكيدُ انحِرافِ المُشرِكينَ في نظرتِهم العقديَّةِ لقُدرَةِ اللهِ ﷻ

ونكتةُ تَكرارِ الإسنادِ تأكيدُ تحقُّقِ امترائِهم في قُدرَةِ اللّهِ ﷻ في البَعثِ؛ بيانًا لشدَّةِ عنادِهم واستكبارِهم وإعراضِهم عن آياتِ اللّه تعالى الدّالَّةِ على خلافِ اعتقادِهمُ الرَّديءِ.

سِرُّ التَّعبيرِ بالفِعلِ المُضارِعِ في قَولِه: ﴿تَمْتَرُونَ﴾:

عُبِّر بالفعلِ المضارِعِ ﴿تَمْتَرُونَ﴾ في قَولِ اللّهِ سُبحانَهُ: ﴿ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ﴾؛ للإشعارِ باستمرارِهم على هذا الباطِلِ الّذي اعتقَدوهُ مِنَ الشَّكِّ في قدرَةِ اللّهِ تعالى، على إحياء الموتَى وبَعثِهم.

استِمرارُ المُعَانِدِينَ على اعتِقادَاتِهِمُ السَّخيفةِ

عِلَّةُ حَذفِ مُتَعَلَّقِ الفِعلِ ﴿تَمْتَرُونَ﴾:

في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ﴾، حُذِفَ مُتَعَلَّقُ الفعلِ ﴿تَمْتَرُونَ﴾ مِن قَولِ اللّهِ ﷻ: ﴿ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ﴾؛ لِظُهورِهِ مِنَ السّياقِ، والمرادُ: أَنتُم تمترونَ في إمكانِ البعثِ بعدَ الموتِ، ودلَّ على أنَّ هذا الأَمرَ هو المُمارى فيه قولُهُ سُبحانَهُ قَبلُ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ﴾، وذلك أنَّهُ لَولا إرادَةُ التَّذكيرِ بدليلِ إمكانيَّةِ البعثِ بَعدَ المَوتِ؛ لَما كانَ لذِكرِ الخَلقِ مِنَ الطّينِ، وذِكرِ الأَجَلَينِ مُرجِّحٌ للتَّخصيصِ بالذِّكرِ[1].

طَيُّ الألفاظِ الَّتي تُدرَكُ مِن السِّياقِ، ممَّا يُستَحسَنُ في بابِ الإيجاز

المتشابِهُ اللفظيُّ بَينَ آيةِ الأنعام وآيات الأعراف، والرّوم، وغافر:

قالَ اللّهُ ﷻ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ﴾، وقال سُبحانَهُ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ [الأعراف: 189]، وقال تعالَى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى

دِقَّةُ البَيانِ القُرآنيِّ في انتِقاءِ الألفاظِ المُلائِمَةِ لِسِياقاتِها البليغةِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/132.

خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ﴾ [الرّوم: 54]، وقال ﷻ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾ [غافر: 67]؛ فتَنَوّعت هذهِ الآياتُ في ذِكرِ مادَّةِ الخَلقِ، ووجهُ ذلكَ:

أنَّ آيةَ الأنعامِ تقدَّمها قولُهُ سُبحانَهُ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾، فلمّا كان ذلك دالًّا على قدرةِ اللّهِ سُبحانَهُ على جمعِ الأضدادِ؛ ناسبَهُ أَن يكونَ المخلوقُ مِنهُ الطّينَ؛ لأنَّ فيه الجَمعَ بين الضِّدَّينِ، وهُما الماءُ النّازِلُ مِنَ السَّماءِ، والتُّرابُ المستَقِرُّ في الأرضِ، والأوَّلُ شفّافٌ، والآخَرُ كثيفٌ.

وأمّا آيةُ الأعرافِ فَتَقدَّمها قولُ اللّه سُبحانَهُ: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ ۚ﴾ [الأعراف: 188]، فلمّا كان ذلك دالًّا على عدَمِ التَّفريقِ بين الرَّسولِ ﷺ وغَيرِهِ منَ بَني آدمَ في خصوصِ ما ذُكِرَ؛ لكونِ الجميعِ بشَرًا يرجِعونَ إلى آدمَ عليه السلام؛ ناسبَهُ قولُهُ تعالَى: ﴿۞هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ [الأعراف: 189].

وأمّا آيةُ الرّوم فتقدَّمها قولُ اللّه تعالى: ﴿فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [الروم: 52 - 53]، فلمّا دلَّ ذلك على عَجزِ جميعِ بَني آدمَ على إسماعِ المَوتَى، ناسبَهُ بيانُ سببِ هذا العَجزِ؛ وهو الضَّعفُ الّذي خُلِقوا منه، فقال ﷻ: ﴿۞ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ﴾ [الروم: 54].

وأمّا آيةُ غافرٍ فتقدَّمَها قولُ اللّهِ ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [غافر: 59] والآياتُ بَعدَها، فلمّا كانَ السّياقُ مُتعلِّقًا بمُنكِري البعثِ؛ ناسبَهُ التَّصريحُ بقدرَةِ اللّهِ ﷻ على الخَلقِ؛ حيث خلقَهُم اللّهُ تعالى مِن شيءٍ لا قُدرَةَ له ولا حركَةَ، وهو التُّرابُ، فقال سُبحانَهُ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾ [غافر: 67].

﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِي ٱلۡأَرۡضِ يَعۡلَمُ سِرَّكُمۡ وَجَهۡرَكُمۡ وَيَعۡلَمُ مَا تَكۡسِبُونَ ٣﴾ [الأنعام: 3]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

ألوهيَّةُ اللهِ تعالى نتيجةٌ حتميَّةٌ لبدائعِ صُنْعِه في خلقِ الأكوانِ والإنسان

بعد أن حَمِدَ اللّه نفسَه بكونه خالقَ السّماواتِ والأرضِ، مبدعَ الكائناتِ كلِّها، وخلقَ الإنسانَ من طين؛ عَطفَ هذه الجملة على "قوله ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن طِينٍ﴾؛ أي: خلقكم ولم يهملْ مراقبتَكم، فهو يعلمُ أحوالَكم كلَّها"[1] من سرٍّ وجهرٍ، ويعلمُ كسبَكم من خير وشرّ؛ فتكون هذه الآيةُ مُتعلِّقةً بما قبلها تعلُّقَ النّتيجةِ بالسّبب، بدءًا من قوله تعالى: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾ حتّى هذه الآية.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَعۡلَمُ﴾: فعل مضارع، والجذرُ اللّغويُّ منه (عَلِمَ)، ولمعناه أصلٌ واحدٌ "يدلُّ على أثرٍ بالشّيء يتميّزُ به عن غيره، من ذلك العلامة". ومن معانيه أنّه ضدُّ الجهلِ ونقيضُه.

والعلم بمعناه الاصطلاحيّ "إدراكُ الشَّيءِ بحقيقته، وذلك ضربان: أحدُهما: إدراكُ ذاتِ الشَّيءِ، والثّاني: الحكمُ على الشَّيءِ بوجودِ شيءٍ هو موجودٌ له، أو نفيُ شيءٍ هو منفيٌّ عنه"[2].

والعلمُ يدلُّ أيضًا على "اليقين، يُقال: عَلِمَ يَعلَمُ إذا تيقَّن، وجاء بمعنى المعرفة أيضًا، كما جاءَت بمعناه ضُمِّنَ كلُّ واحدٍ معنى الآخر؛ لاشتراكهما في كون كلِّ واحدٍ مسبوقًا بالجهل"[3].

وعلمُ اللّهِ تعالى يفيدُ أنّه عالمٌ بكلِّ ما كان، وكلِّ ما هو كائنٌ إلى

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/132.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن دريد، جمهرة اللّغة، الرّاغب، المفردات: (علم).
(3) الفيوميّ، المصباح المنير: (علم).

يوم القيامة، ثمّ ما يكون بعد ذلك، لا يخفى عليه شيءٌ في الأرض ولا في السّماء، ولا يخفى شيءٌ من أمر الغيبِ كلِّه.

2) ﴿سِرَّكُمْ﴾: السّرُّ اسمٌ ثلاثيٌّ مُجرَّدٌ، الجذرُ اللّغويُّ منه (سرر)، والسّرُّ هو كتمانُ الشّيءِ وإخفاؤُه، والأصلُ في معناه إخفاءُ الأمرِ أيضًا، وهو خلافُ الإعلانِ والإظهارِ، ويكونُ استعمالُه في الأعيان والمعاني، وأيّ حديث كُتِمَ في النّفس فهو من هذا الباب[1]. والسّرُّ هو الجوفُ بعمقٍ. وسرُّ الوادي: وسطه، وهو مناسبٌ للمعنى المعروفِ منَ الإخفاءِ والكتمان[2].

ويجوزُ في معنى هذا الفعلِ الإظهارُ خلاف الكتمان؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ﴾ [يونس: 54]، فله معنيان متضادّان الإظهارُ والكتمانُ[3]، إلّا أنّ معناه في الآية هو الكتمانُ والإخفاءُ وعدمُ الإظهار؛ لأنّه لا يخفى عليه شيءٌ[4]، ولأنّه ذكرَ الجهرَ بعدَه نصًّا.

3) ﴿وَجَهْرَكُمْ﴾: الجهرُ اسمٌ ثلاثيٌّ مُجرَّدٌ، الجذرُ اللّغويُّ منه (جَهَرَ)، والجهر معناه الإعلان، وهو نقيضُ السّرِّ، وكلُّ ما يبدو فقد جهر، والأصلُ في معنى الجهرِ الإعلانُ والإظهارُ والعلوُّ، ويُقال الجهرُ: "لظهور الشّيء بإفراطِ حاسّةِ البصرِ، أو حاسّةِ السّمعِ"[5].

والجهرُ: الظّاهرُ المكشوفُ المناقضُ للسّرِّ، ويُقال: جهرتِ البئرُ، بمعنى: أظهرت ماءَها، والجهرُ: وضوحُ الشّيءِ، وانكشافُه، وبروزُه بزوال ما كان يغشاه[6].

4) ﴿تَكْسِبُونَ﴾: فعل مضارع دالٌّ على الحال والاستقبال، مُسندٌ إلى الجماعة، جذرُه اللّغويُّ من (كَسَبَ)، ومعنى الكَسْب هو طلبُ الرِّزق عمومًا[7]، أمّا الأصلُ في معناه فهو دلالته على ابتغاءٍ وطلبٍ وإصابةٍ، فالكسبُ من ذلك، ومن معانيه أيضًا "ما يتحرّاهُ الإنسانُ ممّا فيه اجتِلابُ نفعٍ، وتحصيلُ حظٍّ، ككسبِ المالِ، وقد يُستعمَلُ فيما يظُنُّ الإنسانُ أنّه

(1) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (سر)، الرّاغب، المفردات: (سرر).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (سرر).
(3) السّمين، عمدة الحفّاظ: (سر).
(4) ابن جرير، جامع البيان: 11/261.
(5) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة، الرّاغب، المفردات: (جهر).
(6) السّمين، عمدة الحفّاظ، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (جهر).
(7) الجوهريّ، الصّحاح: (كسب).

يَجلِبُ مَنفعةً، ثمّ استُجلِبَ به مَضَرَّةٌ، والكسبُ يُقال فيما أخذَهُ لنفسِهِ ولغَيرِه"[1].

وفعلُ الكسبِ في الآية ليس خاصًّا بالمال أو نحوه، بل هو عامٌّ في تحصيلِ المنافعِ المادّيّةِ وغيرِ المادّيَّةِ كالاعتقادات والأفعال والأقوال[2].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

استحقاقُ الله تعالى للعبوديّةِ المُطلَقةِ

يخبرُ الحقُّ ﷻ عن نفسه على جهة الالتفاتِ أنّه الإلهُ المعبودُ بحقٍّ في السّماوات وفي الأرض، ومن دلائل ألوهيّته أنّه يعلمُ جميعَ ما تخفونه - أيّها النّاس - وما تعلنونه؛ فخطابه للكافرين قصدًا، وللمؤمنين تنبيهًا، ويعلمُ فوقَ ذلك ما تكسبونه منَ الحسناتِ، والسّيّئاتِ، والأرزاقِ، والأموالِ، والخطايا، وسواها؛ فهو العليمُ الخبيرُ ﷻ الإلهُ المستحقُّ للعبادة.

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

عِلَّةُ وَصْلِ قَولِ اللهِ: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ﴾ بِما قَبلَهُ:

شُمولُ أَحكامِه لجَميعِ الخَلقِ، وإِحاطَتُهُ بأَحوالِ العِبادِ وكسبهم

وُصِلَ قَولُ اللهِ سُبحانَهُ: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ﴾ بِما قَبلَهُ، وهو قولُهُ تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ﴾؛ لِما بينَهُما منَ التَّوسُّطِ بينَ الكمالَين، وذلك لاشتراكِ الجُملتينِ في الخبريَّةِ، وكلاهُما خبرٌ عنِ اللهِ تعالى وعَن أوصافِهِ وأَفعالِه، وبين الجُملتَين تناسُبٌ مِن جِهَة أنَّ كِلْتَيْهِما جملةٌ اسميَّةٌ، والمُسنَدُ إليه فيهما ضميرُ الغائبِ (هوَ) الرّاجعِ إلى اللهِ ﷻ.

والجملَةُ معطوفَةٌ لبيانِ شمولِ أحكامِ ألوهيَّةِ اللهِ سُبحانَهُ لجميعِ الخَلقِ، وإحاطتِهِ بدقائقِ أحوالِ العبادِ وأعمالهم الّتي يَتَرَتَّب عليها الجَزاءُ[3].

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، الرّاغب، المفردات: (كسب).
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/268.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/107.

سرُّ تأخيرِ الاسمِ الظَّاهرِ عنِ الضَّمير في ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ﴾:

البَدءُ بالتَّعبير بالضَّمير، يجعلُ النَّفسَ مُتشوِّقةً إلى معرفةِ التَّفسيرِ

في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِي ٱلۡأَرۡضِ﴾، ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ﴾ جملةٌ ابتدائيّةٌ من مبتدأ وخبر[1]، و(وهو) ضميرُ غَيبةٍ، والاسمُ الظّاهرُ الّذي يفسّرُه هو لفظُ الجلالة ﴿ٱللَّهُ﴾ المتأخّر عنه، وهو ممّا يقتضي تشويقًا وتطلّعًا منَ السّامع لمعرفة المفسّرِ بعد قوله: ﴿وَهُوَ﴾، ونظيره قوله تعالى: ﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ [الإخلاص: 1]. كما أنّ تأخّر الاسم الظّاهر ﴿ٱللَّهُ﴾ على الضّمير ﴿هُوَ﴾، فيه دلالةٌ على انفراده ﷻ بالألوهيَّة، "ولمّا كان اسمُ الجلالةِ معروفًا عندهم لا يلتبسُ بغيره، صارَ قوله: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ﴾ في معنى الموصوف بهذه الصِّفات... كما يقول مَن يذكرُ جوادًا، ثمّ يقول: هو حاتمٌ في العرب، وهذا لقصد التَّنصيص على أنّه لا يشاركُه أحدٌ في صفاته، في الكائنات كلِّها"[2].

دلالةُ الظَّرفيَّة بالحرف (في)، وتعلُّقُها باسم الجلالة:

الله هو المعبودُ المالكُ، والمتصرِّفُ المدبِّرُ في السَّماواتِ والأرضِ

معنى قولِه تعالى: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِي ٱلۡأَرۡضِ﴾: هو الخالقُ العالمُ بما يصلحُ به أمرُ السَّماءِ والأرضِ، المتفرّدُ بالتَّدبيرِ في السّماواتِ والأرضِ[3]، فمُتعلَّقُ الجارِّ والمجرور - على ما قيل - بالمعنى الوَصفيّ الّذي تضمَّنَهُ الاسمُ الجليلُ، كما في قولك: هو حاتمٌ في طَيِّئٍ على معنى الجَوادِ.

والمعنى الّذي يُعتَبَرُ هنا يجوزُ أن يكونَ هو المأخوذُ من أصلِ اشتقاقِ الاسمِ الكريم، أعني: المعبودَ، أو ما اشتُهِر به الاسمُ من صفاتِ الكمالِ، إلّا أنَّه يُلاحِظُ في هذا المقام ما يقتضيهِ منها، أو ما يدلُّ عليه التَّركيبُ الحَصريُّ لتعريفِ طَرَفَي الإسنادِ فيه منَ

(1) العكبريّ، التّبيان: 1/479.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 132 - 133/7.
(3) الزّجّاج، معاني القرآن: 2/228.

التَّوحيدِ، والتَّفرّدِ بالألوهيّةِ، أو ما تقرَّر عندَ الكُلِّ من إطلاقِ هذا الاسمِ عليه تعالى خاصّةً فكأنَّه قيلَ:

وهو المعبودُ فيهما، أو هو المالكُ والمُتصَرِّفُ المُدَبِّرُ فيهما، حسبما تقتَضيه المشيئةُ المَبنيّةُ على الحِكَمِ البالغةِ أو هو المُتوحِّدُ بالألوهيّة فيهما، أو هو الّذي يُقال لهُ: اللّهُ فيهما لا يُشرَكُ به شيءٌ في هذا الاسم، ومعنى ذلكَ مُجرَّدُ مُلاحظةِ أحَدِ المعاني المذكورة في ضمن ذلك الاسمِ الجليلِ، ويكفي مثلَ ذلكَ في تعلُّقِ الجارِّ لا أنّهُ يحمِلُ لفظُ اللّه على معناه اللّغويِّ[1].

دلالةُ الوقفِ والابتداءِ على تعلُّقِ الظَّرفيَّة:

تمامُ المعنى على آخرِ الآية؛ لأنَّه المعبودُ في السَّماوات والأرض

يرى بعضُ أهل العلم أنَّ الوقفَ على قوله: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ﴾ تامٌّ، وقال آخرون: إنَّ قولَه: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ وقفٌ تامٌّ، ثمّ استأنفَ الخبرَ فقال: ﴿وَفِي ٱلۡأَرۡضِ يَعۡلَمُ سِرَّكُمۡ وَجَهۡرَكُمۡ وَيَعۡلَمُ مَا تَكۡسِبُونَ﴾، وهذا اختيارُ ابنِ جرير[2]. والتَّمامُ على آخر الآية، وهو الرّاجحُ عند أبي عمرو الدّانيّ وغيره[3]؛ لأنَّ المعنى على التَّقديم والتَّأخير: وهو اللّهُ يعلمُ سرَّكم وجهرَكم في السّماوات وفي الأرض، وهذا قولُ ابنِ عبّاس، أو المعنى: وهو المعبودُ في السّماوات وفي الأرض، أو المتفرِّدُ بالتَّدبير فيهنَّ[4].

السّماواتُ بينَ الجمعِ هنا، والإفرادِ في غيره:

المعبودُ في السّماوات، يُرادُ به المعبودُ من طرفِ جميع الكائناتِ

في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾، وردتِ السّماواتُ هنا بصيغةِ الجمعِ، فيما وردَت في آيات أخرى بالإفرادِ كقوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ إِنَّهُۥ لَحَقّٞ مِّثۡلَ مَآ أَنَّكُمۡ تَنطِقُونَ ٢٣﴾ [الذّاريات:

(1) الآلوسّي، روح المعاني: 4/315.

(2) نقله ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 3/240، عنه، وهذا الوقفُ غيرُ ظاهرٍ من كلام ابن جرير في تفسيره.

(3) الدّانّي، المُكتفى في الوقف والابتداء، ص: 65.

(4) النّحّاس، القطع والائتناف، ص: 219، وابن جرير، جامع البيان: 11/261، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 6/390، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 2/123.

23]؛ فإنّ المرادَ هنا الجنسُ، فهو تعالى ربُّ كلِّ ما عَلا، وكلِّ ما سَفَلَ؛ لذلك "أتى بالاسم الشّاملِ لكلِّ ما يُسمَّى سماءً، وكلِّ ما يُسمَّى أرضًا، وهو أمرٌ حقيقيٌّ لا يتبدلُ ولا يتغيّرُ، وإن تبدّلَت عينُ السّماءِ والأرضِ"[1]، أمّا ورودُها مجموعةً فعلى معنى كونه المعبودَ في كلِّ سماءٍ منها، وذكرُ الجمع أبلغُ، وأكثرُ مطابقةً منَ التَّعبير بالإفراد.

علَّةُ تقديمِ لفظ (السّماوات) على لفظ (الأرض) في الآية:

ترتيبُ عناصرِ الجملةِ له مزيّةٌ بلاغيَّةٌ في مراعاةِ الرُّتبةِ في الخطاب

في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ قدّم الحقُّ ﷻ السّماواتِ على الأرض، لأسبابٍ عدّة، منها: التّعظيمُ؛ فإنّ ملكَها أعظمُ شأنًا، وأكبرُ سلطانًا منَ الأرض، ومنها: الفضلُ والشّرفُ؛ فإنّها مشتملةٌ على الملائكةِ والأنبياءِ والمرسلين، ونحو ذلك، ممّا لا ريبَ في فضله وشرفه، وعلوِّ مكانته ومنزلته، ومنها: القِدمُ والأوليّةُ؛ فإنّ السّماءَ موجودةٌ قبلَ الأرضِ ببراهينَ وأدلّةٍ كثيرةٍ، لا يحدُّها حصرٌ ولا بيانٌ.

عِلَّةُ فَصلِ علْمِ السِّرِّ والجهرِ عمَّا قَبلَهُ في السّياق:

انفرادُ اللهِ تعالى بالألوهيَّةِ، يَقتَضي عِلمَهُ بأحوالِ الخَلقِ بالكليَّةِ

فُصِلَ قَولُ اللهِ ﷻ: ﴿يَعۡلَمُ سِرَّكُمۡ وَجَهۡرَكُمۡ﴾ عَمّا قَبلَهُ؛ لِكَونِهِ مُقرِّرًا لمعنَى قولِهِ قبلُ: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ﴾، فالجملَةُ مُنَزَّلَةٌ منزلةَ التَّوكيدِ المعنويِّ، وذلك لأنَّ انفرادَهُ بالألوهيَّةِ في السَّماواتِ والأرضِ يقتضي عِلمَهُ بأحوالِ الخَلقِ[2]، فبَينَ الجُملَتَينِ كمالُ الاتِّصالِ.

بلاغةُ الطِّباقِ بين السِّرِّ والجهر:

البيانُ والتَّوكيدُ

قولُه تعالى: ﴿يَعۡلَمُ سِرَّكُمۡ وَجَهۡرَكُمۡ﴾ تقريرٌ وتوكيدٌ لما قبله؛ لأنَّ الّذي يستوي في علمه السّرُّ والعلانيةُ هو اللّه وحده[3].

وبينَ السّرِّ والجهرِ طباقٌ؛ أي: ما أسررتموه، وما جهرتُم به منَ

(1) ابن القيّم، بدائع الفوائد: 1/116.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/133.
(3) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 7/73.

الأقوالِ، أو منها ومنَ الأفعالِ، وهو بيانٌ للمراد من معنى الظّرفيَّةِ السّابقةِ، وتوكيدٌ لما يُفهَمُ منَ الكلام، وعلمُه تعالى يشملُ ما ذكرَ منَ السّرِّ والجهرِ، وما لم يذكرْ من أحوالِ السّماواتِ والأرضِ، وما بينهما، وما تحت الثَّرى، ولكنَّه خصَّهما لمناسبة المُخاطَبين.

سببُ تقديمِ السِّرِّ على الجهر في ﴿سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ﴾:

السِّرُّ علَّةٌ للجهر، وتقديمُ العلَّةِ أولى عند أهلِ البيانِ

في قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ﴾، قدّمَ السّرَّ على الجهر، ومعنى السّرِّ الصّفاتُ القلبيّةُ الدّاعيَةُ للفعل، أو الصّارفةُ عنه، أمّا الجهرُ فهو الأفعالُ الحقيقةُ الظّاهرةُ، "وإنّما قدّمَ ذكرَ السّرِّ على ذكرِ الجهرِ؛ لأنّ المُؤثِّرَ في الفعل هو مجموعُ القدرةِ مع الدّاعي، فالدّاعية الّتي هي من باب السّرِّ هي المؤثِّرةُ في أعمالِ الجوارح المُسمّاة بالجهر، وقد ثبتَ أنّ العلمَ بالعلّة علّةٌ للعلم بالمعلول، والعلّةُ مُتقدِّمةٌ على المعلول"[1].

نُكتَةُ إضافَةِ السِّرِّ والجَهرِ إلى ضَميرِ المُخاطَبِينَ:

إحاطَةُ عِلمِ اللهِ تعالى بجميعِ العِبادِ، دليلٌ على أنَّه لا تخفى عنه خافيةٌ

أُضيفَ السِّرُّ والجَهرُ إلى ضَميرِ المُخاطَبينَ في قَولِ اللّهِ ﷻ: ﴿يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ﴾ مع أنَّه لو وردَ النَّظمُ القرآنيُّ بـ (يعلَمُ السِّرَّ والجَهرَ) لكانَ أعمَّ؛ ووجهُ ذلك أنَّ المقامَ مقامُ توجيهِ الخِطابِ للسّامعينَ، فَهو في قوَّةِ الوعدِ والوَعيدِ، وذلك أنَّ اللّهَ سُبحانَهُ إذا كان يعلَمُ الخَيرَ كُلَّهُ سرًّا كانَ أو جَهرًا؛ فهو يُجازي عليه الجزاءَ الحسَنَ، وإذا كانَ يعلَمُ الشَّرَّ كُلَّهُ سرًّا كان أو جهرًا؛ فإنَّهُ يعاقِبُ عليه، والخيرُ والشّرُّ اللَّذانِ يتعلَّقُ بهما الثَّوابُ والعقابُ هُما الصّادِرانِ عنِ المُكلَّفينَ منَ العِبادِ، فناسبَ ذلك أن يُضافَ الخيرُ والشَّرُّ إليهم.

السِّرُّ في تكرارِ ﴿يَعْلَمُ﴾، وبلاغةُ التَّعبيرِ بالفعل ﴿تَكْسِبُونَ﴾:

قوله تعالى: ﴿وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾؛ "أي: ما تفعلونه لجلبِ نفعٍ

(1) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 12/165.

إظهارُ الاعتناءِ بالكسب، وتعريضٌ بالوعدِ والوعيدِ، لمن ناكفَ وخالفَ

أو دفعِ ضرٍّ، منَ الأعمالِ المكتسَبةِ بالقلوبِ والجوارحِ سرًّا وعلانيةً، وتخصيص ذلك بالذِّكر مع اندراجه فيما تقدَّم على تقدير تعميمِ السّرِّ والجهرِ؛ لإظهارِ كمالِ الاعتناءِ به؛ لأنَّه مدارُ فَلَكِ الجزاءِ، وهو السّرُّ في إعادةِ ﴿يَعْلَمُ﴾"[1].

ولمّا كانَ الكسبُ في الخيرِ وفي الشّرِّ، وفي الحسناتِ والسّيّئاتِ، وفي الأعمالِ والاعتقاداتِ؛ فإنّ التّعبيرَ هنا به تعريضٌ بالوعد والوعيد[2]، بالوعد على جهةِ الخيرِ، والوعيد على غيرِ ذلك، ولكي لا يكونَ من باب عطفِ الشَّيءِ على نفسه فيمَن جعلَ الكسبَ مساويًا للسّرِّ وهي أفعالُ القلوبِ، والجهر وهي أفعالُ الجوارحِ.

دِلالَةُ (مَا) في قَولِ اللهِ تعالى: ﴿وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾:

شُمولُ عِلمِ اللهِ ﷻ دليلُ الإحاطةِ والعظمةِ

(ما) في قَولِ اللّهِ ﷻ: ﴿وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾ موصوليَّةٌ، والعائدُ محذوفٌ، والتَّقدير: ويعلَمُ ما تكسِبونَهُ، وهو مِن إيجازِ الحذفِ، وفي التَّعبيرِ بالاسم الموصولِ إيماءٌ إلى شمولِ علمِ اللّهِ ﷻ جميعَ ما يكسِبُهُ العبادُ؛ لأنَّ الاسمَ الموصولَ يدلُّ على العُمومِ. ويجوزُ أن تكونَ (ما) مصدريَّةً، فتُسبَكُ مع ما بعدَها بمصدَرٍ، والتَّقدير: ويعلَمُ كَسبَكُم.

دلالَةُ الخبرِ في قَولِ اللهِ تعالى: ﴿يَعْلَمُ سِرَّكُمْ﴾:

تَنبيهُ الكُفَّارِ، وتَذكيرُ أهلِ الإيمانِ الأبرار

الجُملَةُ في قَولِ اللّهِ سُبحانَهُ: ﴿يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾ جملَةٌ خبريَّةٌ، والمُخاطَبُ جميعُ السّامعينَ، سواءٌ أكانوا مسلِمينَ أم كُفّارًا، والخَبَرُ حينئذٍ لَهُ دِلالَتانِ:

إحداهُما: تعليمٌ وإيقاظٌ بالنِّسبَةِ للكُفّارِ. والأخرَى: التَّذكيرُ بالنِّسبَةِ لأهلِ الإيمانِ[3].

(1) الآلوسّي، روح المعاني: 4/85.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/133. والتّعريض: الإشارةُ على وجهِ الإجمالِ، والإيهامِ، وعدمِ التّصريح.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/133.

﴿وَمَا تَأۡتِيهِم مِّنۡ ءَايَةٖ مِّنۡ ءَايَٰتِ رَبِّهِمۡ إِلَّا كَانُواْ عَنۡهَا مُعۡرِضِينَ ٤﴾ [الأنعام: 4]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لمّا ذكرَ الحقُّ ﷻ في الآياتِ السّابقةِ ما يدلُّ منَ البيّناتِ على التّوحيد، بيَّن في هذه الآيةِ أنَّ الّذين طُمست فطرتُهم، فلم تدركِ الحقَّ لذاتِ الحقِّ لا تجدي معهم البراهينُ، مهما قويَت، ولا الآياتُ مهما بيِّنَت، فبيّن أنَّهم مُعرضون كمَن يرى ضوءَ الشّمس، فيضعُ غشاوةً لكيلا يراها، ومَن يسمعُ الحقَّ فيضعُ ثِقَلًا في أذنه، وما تأتيهم حجّةٌ إلّا أعرضوا[1].

على قلبِ المستكبِر غِشاوةٌ، فلا ينفعُ برهانٌ، ولا يدخُلُ إيمانٌ

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تَأۡتِيهِم﴾: فعل مضارع مبدوء بحرف المضارعةِ، والجذرُ اللّغويُّ منه (أتي)، ومنه أَتى يَأْتي، ومصدرُه الإِتْيانُ بمعنى المجيء، ومن معانيه أنّه "مجيءٌ بسهولة... والإتيانُ يُقال للمجيء بالذّات وبالأمر وبالتَّدبير، ويُقال في الخير وفي الشّرِّ، وفي الأعيان والأعراض"، ومعناه المحوريّ "وصولٌ أو تقدُّمٌ، وحضورٌ إلى مكان، أو شيء بتهيئة، أو قوَّةٍ تُزيلُ ما يعوق"[2]، ومعنى الإتيانِ هنا البلوغُ والوصولُ؛ أي: أنَّ الآيةَ تبلغُ إليهم[3].

2) ﴿ءَايَةٖ﴾: اسمٌ مؤنَّثٌ، الأصلُ فيه (أأْية)، ثمَّ صارتا مدّةً، والآيةُ بمعنى العلامة والنّظر، وهي مُشتقَّةٌ منَ التّأيّي الّذي هو التّثبّتُ، والإقامةُ على الشّيء، والآيةُ تأتي بمعنى العلامة والشّخص والجماعة،

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2436.
(2) الجوهريّ، الصّحاح: (أتا)، والرّاغب، المفردات: (أتي)، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (أتي).
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/31.

وسُمّيت آية القرآن بهذا الاسم لكونها مؤلّفةً منَ الكلمات والجمل، ولأنّها "طائفةٌ منَ القرآن، يتّصلُ بعضُها ببعض إلى انقطاعها، طويلة كانت أو قصيرة"[1]، و"الآيةُ هنا: العلامةُ على وحدانيّة اللّه وانفراده بالألوهيّة، وقيل: الرّسالة، وقيل: المعجز الخارق"[2].

3) ﴿مُعْرِضِينَ﴾: اسم فاعل مجموع، فعله منَ المزيد (أعرض) فهو مُعرِض، وجذرُه اللّغويُّ من (عَرَضَ)، والإعراضُ هو الصُّدود، وأعرض: أظهر عَرْضه؛ أي: ناحيتَه. "وأعرضَ بوجهه، وعن فلان هو من هذا، كأنّه انحرفَ عنه، وولّاه عُرْضه: جانبه، أو عارِضَه: جانِبَ وجهه لا مقدَّمه"[3]. والإعراضُ: التّولية، فمُعرضون؛ أي: مولّون عَرْضهم؛ أي: نواحيهم[4].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

إعراضُ المشركين عنِ الحقِّ، وصدودُهم عن البيِّناتِ الواضحةِ

يخبرُ اللّهُ تعالى عن إعراضِ المشركين، وشدَّةِ تكذيبِهم وعداوتِهم، بأنّهم إذا جاءتهم الحُجَجُ الواضحةُ والدّلالاتُ البيّنةُ على وحدانيّة اللّه - ﷻ - ، الدّالَّةُ على الحقِّ دلالةً قاطعةً، وعلى صِدقِ رسولِه محمدٍ ﷺ، الدّاعية لهم إلى اتّباعه، حتّى أعرضوا عن قَبولها، ولم يؤمنوا بها، وانصرفَت قلوبُهم إلى غيرها، فهي لا تَنْفَعُ فيهم ولا تؤثِّر[5]..

❁ الإِيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

دِلالَةُ الواوِ في: ﴿وَمَا تَأْتِيهِم﴾:

بَيانُ كُفرِ المُشركينَ بآياتِ اللهِ سُبحانَهُ

الواوُ في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ﴾ استئنافيَّةٌ، والكلامُ بعدَها مستأنَفٌ استئنافًا ابتدائيًّا، يُرادُ به بيانُ كُفرِهم بآيات اللّهِ

(1) الجوهريّ، الصّحاح: (أيا)، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (أي)، والرّاغب، المفردات: (أيّ).
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/436.
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (عرض).
(4) الخليل، العين، والرّاغب، المفردات، والسّمين، عمدة الحفّاظ: (عرض).
(5) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 250، ونخبة من العلماء، التّفسير الميسّر، ص: 128.

سُبحانه وإعراضِهم عنها بالكلّيَّةِ، بعدما بيَّنَ ﷻ في الآيةِ الأولَى إشراكَهُم بِهِ وإعراضَهم عَن آياتِ توحيدِهِ[1].

نكتةُ الالتفاتِ منَ الخطابِ إلى الغَيبةِ:

الإشعارُ بضرْبِ الخِطاب صَفْحًا عـن أعمالهم النَّشازِ

انتقلَت هذه الآيةُ منَ الخطاب في خواتيم الآية السّابقة بقوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾ إلى الغَيبةِ في هذه الآية في قوله تعالى: ﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾ على طريقةِ الالتفات؛ "للإشعارِ بأنَّ ذِكْرَ قبائحِهم قد اقتَضى أن يُضرَبَ عنهُمُ الخطابُ صَفْحًا، وتُعَدَّدَ جِناياتُهم لغيرِهم ذمًّا لَهم، وتقبيحًا لحالِهم"[2]، فهو من باب المعاقبةِ بالمثل؛ فمَن قَبُحَ عملُه صحَّ في حقّه الالتفاتُ عنهُ.

بلاغةُ الاستِعارةِ في قَولِ اللهِ تعالى: ﴿وَمَا تَأْتِيهِم﴾:

ظُـهـورُ الآيـاتِ الـدَّالَّـةِ على وَحـدانيَّـة اللـهِ تعالى

في قَولِ اللّهِ ﷻ: ﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ﴾ استعارَةٌ؛ حيثُ شُبِّهَ بلوغُ الآياتِ إلَيهم بِمَجيءِ الجائي، فحُذِفَ المشبَّهُ وصُرِّحَ بالمشَّبهِ به على طريقةِ الاستعارةِ التَّصريحيَّةِ التَّبعيَّةِ، وذلك مبالغةً في بيانِ ظهورِ هذهِ الآياتِ وقوَّتِها، حتَّى صارَت بمنزِلَةِ المَحسوساتِ[3].

دِلالَةُ إيجازِ الحَذفِ في: ﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ﴾:

طَـيُّ مـا دَلَّـتِ الـقَـرِيـنَـةُ عليه اختصارٌ لِلكلامِ

قَول اللّهِ ﷻ: ﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾، فيه إيجازٌ بالحذفِ، وذلك بِحَذفِ ما يدلُّ على الجانبِ المأتيِّ منه، والتَّقدير: (وما تأتيهم مِن عِندَ ربِّهم آيةٌ مِن آياتِهِ إلّا كانوا عنها مُعرِضين)، وإنَّما حُذِفَ ذلك؛ لظهورِهِ مِن قولِه سُبحانَهُ: ﴿مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾[4].

دلالةُ حرفِ الجرِّ (مِن) في قوله: ﴿مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾:

قوله تعالى: ﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾، وردَ فيه حرفا

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/109، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/134.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/168.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/134.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/134.

(مِن) للجنس في الموضعين، وأفادتِ الأولى التَّوكيدَ، والثَّانيةُ التَّبعيضَ

جرٍّ هما: ﴿مِّنْ﴾ الثّانية، وتفيد الجنسَ، أمّا الأولى فعلى تقدير: (وما تأتيهم آيةٌ)، وكثيرٌ منَ النّحويّين والمُعربين يجعلُها زائدةً[1]، ولفظ ﴿ءَايَةٍ﴾ مرفوعةٌ على الفاعليّة، وزيادة ﴿مِّنْ﴾ الأولى نظرًا إلى جانب الصّناعة النّحويّة، وفائدتُها التّوكيدُ الموصلُ إلى زيادةِ التَّشنيعِ على المُخاطَبين المُعرضين عنِ الآيات، وتفيدُ استغراقَ الجنسِ، فضلاً عنِ التّوكيد؛ فإنَّ بينهما علاقةً ووصلًا"، كقولك: ما أتاني مِن أحد، والثّانية وهي قوله: ﴿مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾ للتّبعيض، والمعنى: وما يظهرُ لهم دليلٌ قطُّ منَ الأدلَّة الّتي يجبُ فيها النَّظرُ والاعتبارُ، إلّا كانوا عنه مُعرِضين"[2].

نُكتَةُ التَّعبيرِ بالفِعلِ المُضارِعِ في قَولِه: ﴿تَأْتِيهِم﴾ وبَراعَةُ الاحتِباكِ:

شِدَّةُ الإعراضِ، وقُوَّةُ الإنكارِ، مَعَ تَجَدُّدِ وُرودِ الآياتِ

الفعلُ المضارِعُ ﴿تَأْتِيهِم﴾ مِن قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ معناهُ المُضيُّ، لقولِه تعالى: ﴿كَانُواْ﴾، ونُكتَةُ استعمالِ المُضارِعِ الدِّلالَةُ على تجدُّدِ وُرودِ الآياتِ عليهم[3]، وهذا أدخَلُ في بيانِ شدَّةِ إعراضِهم وقوَّةِ إنكارِهم.

ويَحتَمِلُ أن يكونَ الفعلُ باقيًا على دلالَتِه على الحال، ويَكون قولُهُ: ﴿كَانُواْ﴾ ماضيًا بمعنَى المضارعِ لقولِه قبلُ: ﴿تَأْتِيهِم﴾ دالًّا على ذَلِكَ[4].

وبالجَمعِ بينَ هذه المعاني يتحصَّلُ في الآية احتباكٌ، وهو المُسمَّى: حذفَ التَّقابُل أو الحذفَ المقابَليَّ، والتَّقدير: وما أتَتهُم أو تَأتيهِم مِن آيةٍ مِن آياتِ ربِّهم إلّا كانوا ويكونونَ عنها مُعرضينَ، فحُذِفَ مِن أوَّلِ الكلامِ (أتَتهُم) ما دلَّ عليهِ آخرُهُ ﴿كَانُواْ﴾، وحُذِفَ مِن آخرِهِ (يكونونَ) ما دلَّ عليه أوَّلُه: ﴿تَأْتِيهِم﴾.

(1) العكبريّ، التّبيان: 1/480، وابن عجيبة، البحر المديد: 2/98.
(2) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 12/166.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/134.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/436.

نُكتَةُ إضافَةِ الآياتِ في: ﴿مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾:

تَهويلُ الجَراءَةِ على آياتِ اللهِ تعالى

أُضيفَتِ الآياتُ إلى الاسمِ الأحسن (الرَّبِّ) في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾ تعظيمًا لَها وتفخيمًا لشَأنِها، وذلك يَستَتبِعُ تهويلَ ما اجترَؤوا عليه من تكذيبِها والإعراضِ عنها[1].

سِرُّ إضافَةِ اسمِ اللهِ (الرَّبِّ) إلى الضَّميرِ (هُمْ):

جُحودُ إحسانِ اللهِ تعالى، ومُقابَلَتُه بالعُقوقِ والإعراضِ

في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾، أُضيفَ فيه الاسمُ الأحسَنُ (الرَّبُّ) إلى الضَّميرِ (هُمْ) العائِدِ إلى المُشركينَ؛ للإيماءِ إلى أنَّه سُبحانَهُ أحسنَ إليهم بنصبِ الأدلَّةِ الدّالَّةِ على توحيدِهِ، وأرسلَ إليهم رسولًا، ورزقَهُم عقولًا يمكنُهُم الفِقهُ بها، ثُمَّ كان مآلُهُم أن أعرضوا، فالإضافَةُ واردَةٌ لقصدِ التَّسجيل عليهم بالعقوقِ لحقِّ الألوهيَّةِ[2].

بلاغَةُ القَصْرِ في قَولِ اللهِ تعالى: ﴿وَمَا تَأْتِيهِم ... إِلَّا كَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾:

الإعراضُ عَنِ الحَقِّ عادَةٌ لَهُم لاينفكُّون عَنها

في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ أسلوبُ قَصْرٍ، وطريقُهُ النَّفيُ والاستِثناءُ، وقد دلَّ القصرُ على إثباتِ أنَّ الإعراضَ عَنِ الحقِّ عادَةٌ لهم لا يتخلَّونَ عنها[3]، حتَّى كأنْ لَيسَ لَهُم صفةٌ إلّا ذلكَ.

سرُّ تقديم الجارِّ والمجرورِ على المسنَد:

المبالغةُ في التَّشنيعِ، من بابِ القَصْرِ الادِّعائيِّ، ومراعاةِ الفاصلة

في قولِه تعالى: ﴿إِلَّا كَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾، قُدِّم الجارُّ والمجرور ﴿عَنْهَا﴾ على المُسندِ ﴿مُعْرِضِينَ﴾؛ للاهتمام والاختصاص، فكأنّه يريدُ القولَ: إنّهم مِن بعد ما جاءَتهم الآياتُ من ربّهم لهم جعلَ الإعراضَ عن هذه الآياتِ وحدَها دون سواها؛ لأنّ الاستثناءَ "دلَّ على أنّهم لم يكنْ لهم حالٌ إلّا الإعراض"[4]، وهو من بابِ القصْرِ الادّعائيِّ؛

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/109.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/20، ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/134.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2436.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/134.

للمبالغة في التَّشنيع على هؤلاء المُعرضين؛ لأنَّ الإعراضَ عنِ الآياتِ يستحيلُ أن يكونَ مقصورًا عليها؛ فالمبالغةُ في القَصْر جاءَت اهتمامًا لهذا الأمر، ولذلك رأى العلماءُ أن يكونَ الوقفُ على ﴿مُعْرِضِينَ﴾[1]، وهناك سببٌ آخر لهذا التّقديم، وهو مراعاةُ الفاصلة[2].

دِلالَةُ التَّعبيرِ بِفِعلِ الكَونِ ﴿كَانُواْ﴾:

قَصدُهم إلى العِنادِ؛ لِئَلَّا تَلزَمَهُم حُجَّةٌ في زَعمِهِم

في التَّعبيرِ بفعلِ الكَونِ ﴿كَانُواْ﴾ مِن قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿إِلَّا كَانُواْ عَنۡهَا مُعۡرِضِينَ﴾ إشعارٌ بأنَّ الإعراضَ صِفَتُهم على سبيلِ الدَّوامِ والاستِمرارِ؛ قصدًا مِنهُم إلى العِنادِ؛ لئلّا تَلزَمَهُم في زَعمِهِم حجَّةٌ[3].

وجهُ التَّعبيرِ بالإعراضِ بينَ الحقيقةِ والمجازِ:

صرفُ الوجهِ عنِ الآياتِ المُبصرَةِ، إعراضٌ عن آياتِهِ المقرَّرة

قولُه تعالى: ﴿إِلَّا كَانُواْ عَنۡهَا مُعۡرِضِينَ﴾: التّعبير بـ ﴿مُعۡرِضِينَ﴾ هنا يشملُ أن يكونَ من بابِ الحقيقةِ "فيشملُ المعنى الحقيقيَّ بالنّسبة إلى الآياتِ المُبْصَراتِ كانشقاق القمر، ويشملُ تركَ الاستماعِ للقرآن"[4]، ومن بابِ المجازِ؛ لأنّ حقيقتَه الإظهارُ والبروزُ فحقيقتُه جسميّةٌ، قال أبو حيّان: "والإعراضُ ضدّ الإقبال، وهو مجازٌ؛ إذ حقيقته في الأجسام"[5]، وقال الآلوسيّ: "وأصلُ الإعراض صرفُ الوجهِ عن شيءٍ منَ المحسوسات، واستعمالُه في عدم الاعتناءِ، أو ترك النّظرِ مجازٌ"[6].

دلالةُ التَّعبيرِ بالاسمِ في قولِهِ: ﴿مُعۡرِضِينَ﴾:

الدّلالةُ على ثبوتِ المشركين وإصرارِهم على الكفر المُهين

في قوله تعالى: ﴿إِلَّا كَانُواْ عَنۡهَا مُعۡرِضِينَ﴾: عبّر عن إعراضهم هنا بالصّيغةِ الاسميّةِ ﴿مُعۡرِضِينَ﴾، "وإيثاره على أن يُقال: إلّا أعرضوا عنها، كما وقعَ مثلُه في قوله تعالى: ﴿وَإِن يَرَوۡاْ ءَايَةٗ يُعۡرِضُواْ

(1) السّخاويّ، جمال القرّاء، ص: 699.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/169.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/20، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2436.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/135.
(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/436.
(6) الآلوسّي، روح المعاني: 7/92.

﴿وَيَقُولُواْ سِحۡرٞ مُّسۡتَمِرّٞ ۝٢﴾ [القمر: 2]؛ للدَّلالة على استمرارهم على الإعراض حسب استمرار إتيان الآيات"[1]؛ فدلالةُ الصّيغةِ الاسميّةِ على الثّبوتِ والاستمرارِ خلاف الصّيغةِ الفعليّةِ الدّالّةِ على التّجدّدِ والحدوث.

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/169.

﴿فَقَدۡ كَذَّبُواْ بِٱلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمۡ فَسَوۡفَ يَأۡتِيهِمۡ أَنۢبَٰٓؤُاْ مَا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ٥﴾ [الأنعام: 5]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

العلاقةُ بين صدودِهم عن البيِّنات، واستهزائِهم وتكذيبِهم بالآيات

لمّا بيَّنَ الحقُّ ﷻ في الآياتِ السّابقةِ جزءًا من صفاتِ الكافرين، ومنها الإعراضُ الدّائمُ عنِ الآياتِ البيّناتِ، ذكرَ هنا أنَّ ذلك التّباعدَ كان سببًا في تكذيبهم بالحقّ والقرآن، وما جاءَ به الرّسول ﷺ؛ "فبسبب ذلك الإعراض العامّ عنِ النّظر في الآيات كذّبوا بالحقِّ الّذي جاءهم، حين جاءهم، ولم يتريّثوا، ولم يتأمّلوا؛ لأنّهم سدّوا على أنفسهم مسالكَ العلم"[1]، وانتهى بهم الأمرُ إلى سمةِ المُستهزِئين؛ ليصلوا بذلك إلى الرّتبة الثّالثةِ بعد رتبةِ الإعراضِ في الآية السّابقة، ورتبةِ التّكذيبِ في الآيةِ اللّاحقةِ.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿كَذَّبُواْ﴾: فعل ماضٍ، جذرُه اللّغويُّ (كَذَبَ)، ومصدرُهُ التّكذيب، والكَذِبُ عمومًا ضدُّ الصّدق، و"المعنى المحوريّ نقصُ الحِدّة، والشّدّةُ الجاريةُ في الشّيء... ومنه: الكذبُ منَ القول؛ لأنّه نقصٌ، بل فَقْدٌ للمتوقَّع منَ الكلام، بل لما وُجِد من أجله، وهو التّعبيرُ عن حقيقةِ ما في النّفس"[2].

وجمعَ الرّاغبُ بين الصّدقِ والكذبِ، وقال: إنّ "أصلَهما في القول، ماضيًا كان أو مستقبلاً، وعدًا كان أو غيره، ولا يكونان بالقصد الأوّل إلّا في القول، ولا يكونان في القول إلّا في الخبر، دون غيره من أصنافِ الكلامِ"[3].

(1) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 7/74.
(2) ابن دريد، جمهرة اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصَّل: (كذب).
(3) الرّاغب، المفردات: (صدق).

2) ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾: اسمٌ ثلاثيٌّ، جذرُه اللّغويُّ (حقق)، وعموم معناه أنّه نقيضُ الباطلِ، وله دلالةٌ على إحكامِ الشّيءِ وصحّتِه، وإذا حقَّ الشّيءُ فقد وجب، و"الحقُّ في الأصل: الثّبوتُ، والشّيءُ الثّابتُ، يُقال: حقَّ الأمرُ يَحِقُّ حَقًّا، فهو حقٌّ؛ أي: ثَبَتَ واستقرَّ"[1]. والحقُّ في الآية: القرآنُ والدّينُ، أو النّبيُّ ﷺ، وما أنزلَ اللّه لعباده عن طريق أنبيائِه ورسلِه، ويُفسَّرُ أيضًا "بالصّحيح الصّواب؛ أي: ضدّ الباطل الزّائف[2]، إذا جاء في سياقاتِ الدّين، وإنزالِ القرآن.

3) ﴿أَنۢبَٰٓؤُاْ﴾: جمعٌ مُكسَّرٌ، مفرده (نَبَأٌ)، وهو بمعنى الإخبار، أصلُه من (نَبَأَ)، ومعناه في الأصلِ المجيءُ من مكانٍ إلى مكانٍ آخر، والعلاقةُ مع الخبرِ لأنَّه يأتي من مكانٍ إلى مكانٍ، والمنبِئُ: المُخْبِرُ، وهو عند الرّاغب "خبرٌ ذو فائدةٍ عظيمةٍ، يَحْصُلُ به علمٌ، أو غَلَبَةُ ظنٍّ"[3].

ومعنى الأنباء في الآية "جمعُ نَبَأٍ، وهو الخبرُ الّذي له أهميّة، وأُطلِقَ النّبأُ هنا على تحقيقِ مضمونِ الخبرِ"[4].

4) ﴿يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾: فعل مضارع دالٌّ على الحال والاستقبال، مُسنَدٌ إلى الجماعة، والجذرُ اللّغويُّ منه (هزء)، ومعناه يدلُّ على السّخرية، وفسّره الرّاغب بأنّه المزحُ في الخفاء، أو ما يشبهُ المزحَ[5].

وأصلُ الاستهزاء "استخفافُ المُستهزئِ بالمُستهزَأ به، وذهابُ قيمتِه عنده... وكلُّ ما وردَ في القرآن منَ التَّركيب فهو بمعنى الاستهزاء: السّخرية، مع استخفافِ قدرِ المُستهزَأ به"[6]، والمعنى في الآية "أنّ مَن كذّبَ بشيءٍ؛ فقد استهزأَ به، واستخفَّ به"[7].

(1) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والسمين، عمدة الحفّاظ: (حقّ).
(2) الشّوكانّي، فتح القدير: 2/115، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (حق).
(3) لخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (نبأ).
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/136.
(5) الخليل، العين: (هزء)، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (هزأ)، والرّاغب، المفردات: (هزؤ).
(6) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (كان).
(7) مكّيّ بن أبي طالب، الهداية إلى بلوغ النّهاية: 8/5279.

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

إعلانُ الحربِ على المُستهزِئين بآياتِ اللهِ، جزاءَ صدودِهم ونكرانِهم للحقِّ

كان ينبغي على هؤلاء المكذِّبين أن يتَّبعوا الحقَّ الّذي جاءهم من ربِّهم، وتواترتِ الأدلَّةُ على صدقه؛ جَهْلًا منهم باللّه، واغترارًا بإمهاله إيّاهم، لكنَّهم كذَّبوا به، فالوعيد لهم بقرب عذابِهم وعقابِهم على جرائمِهم العظيمةِ، فإنّه سيأتيهم العذابُ؛ جزاءَ ما ارتكبوا، وقريبًا يكابدون وبالَ أمرِهم، ويذوقون عاقبةَ جحدِهم، وسوءَ استهزائِهم.

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالةُ الفاءِ في قوله: ﴿فَقَدۡ كَذَّبُواْ﴾:

نتاجُ الإعراضِ عنِ آياتِ اللهِ، التَّكذيبُ بالحقِّ وهداهُ

قولُه تعالى: ﴿فَقَدۡ كَذَّبُواْ﴾، ابتدأ الآيةَ بالفاء الفصيحة الَّتي تفصحُ عمّا قبلَها، وهي نتيجةٌ لما قبلها؛ وهي الّتي تُفصِحُ عن محذوفٍ يقدِّرُه المُخاطَب منَ السّياق، وجمهورُ البيانيّين يشترطون تضمينَ المُقدَّر شرطًا، وهو ليس بلازم؛ فإنّهم لمّا أعرضوا عن آياتِ ربِّهم الّتي كانت تأتيهم استحقّوا التّكذيبَ بالحقِّ الّذي وُصِفوا به، قال الزّمخشريّ: "﴿فَقَدۡ كَذَّبُواْ﴾ مردود على كلامٍ محذوفٍ، كأنّه قيل: إن كانوا مُعرِضين عنِ الآيات، فقد كذّبوا بما هو أعظم آية وأكبرها"[1]، فالفاءُ "رابطةٌ، أو واقعةٌ في جواب شرطٍ مُقدَّرٍ؛ لأنّها واقعةٌ في جوابٍ لكلامٍ مُتقدِّمٍ محذوفٍ"[2].

دلالَةُ (قَد) على التَّحقيقِ في: ﴿فَقَدۡ كَذَّبُواْ بِٱلۡحَقِّ﴾:

(قَد) في قَولِ اللّهِ سُبحانَهُ: ﴿فَقَدۡ كَذَّبُواْ بِٱلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمۡ﴾ مُؤكِّدَةٌ للخَبَرِ، مُشعِرَةٌ بقوَّةِ تكذيبِهم وتحقُّقِه، وأنَّه ليسَ تكذيبًا عارِضًا.

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/321 - 322.
(2) عبد الواحد، الإعراب المفصّل: 3/178.

دلالَةُ التَّعبيرِ بالفِعلِ الماضِي ﴿كَذَّبُواْ﴾:

تَرتِيبُ التَّهديدِ على التَّكذيبِ بالحَقِّ المبين

عُبِّر بالفعلِ الماضي في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿فَقَدۡ كَذَّبُواْ بِٱلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمۡ﴾؛ للدِّلالَةِ على تَحقُّقِ التَّكذيب بالحقِّ فيهم؛ ليكونَ مُلائِمًا للتَّهديدِ الوارِدِ بَعدُ في قولِهِ ﷻ: ﴿فَسَوۡفَ يَأۡتِيهِمۡ أَنۢبَٰٓؤُاْ مَا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾.

دِلالَةُ (أل) مِن قَولِه: ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾:

مَن كَذَّبَ بِشَيءٍ مِنَ الحَقِّ المُنَزَّلِ؛ كانَ بِمَنزِلَةِ مَن كَذَّبَ بجميعه

اللَّامُ في (الحَقِّ) مِن قَولِ اللّهِ تعالى: ﴿فَقَدۡ كَذَّبُواْ بِٱلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمۡ﴾ للاستِغراقِ، والمَعنَى: أنَّهم كذَّبُوا بالحقِّ كُلِّه، ووجهُ ذلك: أنَّ مَن كذَّبَ بشيءٍ كان بمنزِلَةِ مَن كذَّبَ بالجميعِ؛ إذِ الجميعُ مِن عِندِ اللّهِ تعالى[1].

ويجوزُ أن يُرادَ بالحقِّ خصوصُ القرآنِ الكريم؛ وذلك أنَّهم قد كذَّبوا بِهِ حينَ أعرضوا عنه آيةً آيَةً، ولم يَرِدِ النَّظمُ القرآنيُّ: (وما تَأتيهِم مِن آيَةٍ مِن آياتِ رَبِّهم إلّا كانوا عَنها مُعرِضينَ، فقَد كَذَّبوا بِها)؛ فأظهَرَ في مقامِ الإضمارِ؛ إظهارًا لكمالِ فظاعَةِ ما فعَلوهُ بِهِ مِنَ التَّكذيبِ[2].

التَّرقِّي، وتصعيدُ المعاني:

اختلافُ أحوالِ الكفَّارِ، حسبَ مراتبِ التَّكذيبِ والإنكارِ

قوله تعالى: ﴿فَقَدۡ كَذَّبُواْ بِٱلۡحَقِّ﴾ مع ما قبلَه مِن قوله تعالى: ﴿كَانُواْ عَنۡهَا مُعۡرِضِينَ﴾ مُترتِّبٌ مِنَ الأقلّ إلى الأكثر؛ فقد رتّبَ الحقُّ ﷻ: "أحوالَ هؤلاء الكفّارِ على ثلاثِ مراتبَ، فالمرتبةُ الأولى: كونهم مُعرِضين عنِ التّأمّلِ في الدّلائلِ، والتّفكُّرِ في البيّناتِ، والمرتبةُ الثّانيةُ: كونهم مُكذِّبين بها، وهذه المرتبةُ أزيدُ ممّا قبلها... والمرتبةُ الثّالثةُ: كونهم مُستهزِئين بها؛ لأنّ المُكذِّبَ بالشّيء قد لا يبلغُ تكذيبُه به إلى حدِّ الاستهزاءِ، فإذا بلغَ إلى هذا الحدِّ فقد بلغَ الغايةَ القصوى"[3].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/21.
(2) الآلوسّي، روح المعاني: 4/88.
(3) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 12/166.

نُكتَةُ تَعليقِ التَّكذِيبِ على مُطلَقِ مَجيءِ الحَقِّ:

شِدَّةُ تَعَنُّتِهِم في رَدِّ الحَقِّ، بلغَ غايتَه ومنتهاهُ

في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿فَقَدۡ كَذَّبُواْ بِٱلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمۡ﴾ عُلِّقَ تكذيبُ المُشرِكينَ على مُطلَقِ مَجيءِ الحَقِّ إليهم في الآية الكريمة؛ إظهارًا لكمالِ عنادِهم وشدَّةِ تعنُّتِهم؛ حيث سارَعوا إلى التَّكذيبِ بمجرَّدِ مجيءِ الحقِّ مِن غَيرِ تأنٍّ مِنهم ولا تأمُّلٍ لهذا الحقِّ الّذي جاءَهُم[1].

وجهُ دخولِ حرفِ التَّسويفِ ﴿فَسَوۡفَ﴾ في الجزاء:

تأكيدُ حصولِ النَّكالِ عليهم في المستقبل يقينًا

عبَّر اللّهُ تعالى عمّا سينالُ هؤلاء المُستهزِئين منَ النَّكالِ والعذابِ في العاجلة والآجلة بقوله سبحانَه: ﴿فَسَوۡفَ﴾، ودخولُ حرفِ التّسويفِ هنا يفيدُ تأكيدَ حصولِ ذلك عليهم في المستقبل[2]؛ جزاءً لما صنعوه واقترفوه.

دلالةُ استعمالِ الاستعارةِ في الفعلِ ﴿يَأۡتِيهِمۡ﴾:

إلقاءُ تحقُّقِ الموعود في رُوع المُستهزِئين

آثر القرآنُ استعمالَ فعلِ الإتيانِ في سياقِ الآية؛ للإشعار بأنّ الواقعَ على هؤلاء المُستهزِئين في الإصابةِ والحصولِ على سبيلِ الاستعارةِ؛ تفنّنًا في الإلقاء في روعهم تحقُّق ما توعَّدهم تعالى به.

سرُّ التَّعبيرِ بلفظ ﴿أَنۢبَٰٓؤُاْ﴾ في مقامِ الوعيد:

الزِّيادةُ في تهويلِ مَا سيقعُ بهم مِنَ العذاب، إنذارٌ بسوءِ المآبِ

الأنباء في قوله تعالى: ﴿فَسَوۡفَ يَأۡتِيهِمۡ أَنۢبَٰٓؤُاْ مَا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾، جمع تكسير بمعنى: الأخبار، وهذا ليس مرادًا في الآية، بل "المرادُ منه الوعيد والزّجر عن ذلك الاستهزاء، فيجب أن يكونَ المرادُ بالأنباء لا نفس الأنباء، بل العذاب الّذي أنبأَ اللّهُ تعالى به"[3]، كقوله تعالى: ﴿وَلَتَعۡلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعۡدَ حِينِۭ ٨٨﴾ [ص: 88]. فأنباؤه ما سيحيق بهم منَ العقوباتِ العاجلةِ والآجلةِ، عبَّر عنها بذاك؛ إمّا لكونها ممّا نبَّأ بها القرآنُ الكريمُ، وإمّا لأنَّهم بمشاهدتها يقفون على

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/142.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/136.
(3) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 12/166.

حقيقةِ حالِ القرآن، كما يقفون على الأحوالِ الخافيةِ عنهم باستماعِ الأنباءِ، وفيه تهويلٌ له؛ لأنَّ النَّبأَ لا يُطلَقُ إلّا على خبرٍ خطيرٍ، له وقعٌ عظيمٌ؛ أي: فسيأتيهم لا محالةَ مِصْداق ما كانوا يستهزئون به قبلُ من غير أن يتدبّروا في أحواله، ويقفوا عليها.

وقد يظهر سرُّ إيثارِ لفظِ (أنباء) مرادًا به العذاب، وهو أنَّ ما سيحلُّ بهم من جرّاء سماعِهم أخبارًا مؤكَّدة، لا تحتمل كذبًا، لهو أشدُّ وقعًا على أنفسهم منَ العذاب؛ لأنَّ ترقُّبَ البلاء وانتظارَه أشدُّ عذابًا من وقوعه.

دلالَةُ (مَا) في قَولِه: ﴿أَنۢبَٰٓؤُاْ مَا كَانُواْ﴾:

تَعظيمُ شَأنِ الحَقِّ المُنَزَّلِ، وتَهويلُ مُخالَفَتِهِ

(ما) في قَولِ اللّهِ ﷻ: ﴿فَسَوۡفَ يَأۡتِيهِمۡ أَنۢبَٰٓؤُاْ مَا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ اسمٌ موصولٌ، وهو عبارةٌ عنِ الحقِّ المذكور في قولِهِ تعالى قبلُ: ﴿فَقَدۡ كَذَّبُواْ بِٱلۡحَقِّ﴾، وعُبِّر عَنِ الحقِّ بالاسم الموصولِ؛ لِما في الموصولِ منَ الإبهامِ الصّالِحِ لإرادَةِ التَّهويل، وفيه أيضًا تعليلٌ للحُكمِ بما في حيِّزِ الصِّلَةِ[1].

دِلالَةُ التَّعبيرِ بِفِعلِ الكَونِ ﴿كَانُواْ﴾:

دَوامُ المُشرِكِينَ على الاستِهزاءِ، صَيَّرَهُ طَبعًا لَهُم وَجِبِلَّةً

التَّعبير بِفِعلِ الكَونِ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿فَسَوۡفَ يَأۡتِيهِمۡ أَنۢبَٰٓؤُاْ مَا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ إيماءٌ إلى أنَّ استهزاءَهُم بالآياتِ كانَ صفةً لَهُم على جهةِ الدَّوامِ والاستِمرارِ، حتَّى صارَ ذلك طَبعًا لهُم وجِبِلَّةً[2].

فائدةُ تقديمِ الجارِّ والمجرور في قوله: ﴿بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾:

اختِصاصُ استِهزائِهم بالحقِّ، كأنَّهم لم يستهزئوا إلَّا به

تقديمُ الجارِّ والمجرور في قوله تعالى: ﴿بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾، "فيه اختصاصٌ نسبيٌّ؛ أي: لا يستهزئون إلّا بالحقّ، وقلوبُهم مُعرِضةٌ، ونفوسُهم مصروفةٌ عنِ الحقّ إلى الباطل"[3]، فكأنّهم لم يستهزئوا

(1) الآلوسّي، روح المعاني: 4/89.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/21.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 10/5338.

إلّا بما جاءهم، وقد خصّصوا اهتمامَهم له، مع ما لهذا التَّقديم من زيادةِ ترهيبٍ وتخويفٍ، وبيان الفرقِ الهائلِ بينَ ما تصوّروه منَ العذابِ المتوعّدِ به، وما يأتيهم منَ العذابِ العظيمِ.

دلالَةُ الخَبَرِ في قَولِ اللهِ تعالى: ﴿فَسَوۡفَ يَأۡتِيهِمۡ﴾:

التَّهديدُ والزَّجرُ عَنِ الاستِهزاءِ بالحَقِّ، ضرورةٌ لردعِ المكذِّبين

قولُ اللّهِ ﷻ: ﴿فَسَوۡفَ يَأۡتِيهِمۡ أَنۢبَٰٓؤُاْ مَا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ خبَرٌ، لا يُرادُ بهِ مُجرَّدُ الإعلامِ، بل يُرادُ بهِ التَّهديدُ والوعيدُ والزَّجرُ عنِ الاستهزاءِ بالحقِّ[1]، فكانَ هذا مَجازًا مُرسَلًا مُركَّبًا، وفي التَّعبير عن هذا التَّهديدِ بالخَبَرِ إشعارٌ بتحقُّقِهِ فيمَن تجرَّأَ على الحقِّ بالاستهزاءِ.

نُكتَةُ تَعليقِ الوَعيدِ بالاستِهزاءِ:

الاستِهزاءُ هُوَ الغايَةُ القُصوَى في رَدِّ الحَقِّ وإنكارِهِ

عُلِّقَ الوعيدُ والتَّهديدُ بالاستهزاء في قَولِ اللّهِ ﷻ: ﴿فَسَوۡفَ يَأۡتِيهِمۡ أَنۢبَٰٓؤُاْ مَا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾، وكان مُقتضَى الظّاهِرِ تعليقُهُ بالتَّكذيبِ؛ لتقدُّمِ التَّصريح بهِ في صدرِ الآيةِ في قولِهِ تعالى: ﴿فَقَدۡ كَذَّبُواْ بِٱلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمۡ﴾، ونُكتَةُ هذا العدولِ أنَّ الاستِهزاءَ مُتضمِّنٌ للإعراضِ والتَّكذيب، فالاستهزاءُ هوَ الغايَةُ القُصوَى في ردِّ الحقِّ وإنكارِهِ[2].

العدولُ عنِ الاسمِ والفعلِ الماضي إلى الفعلِ المضارعِ في قوله: ﴿يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾:

الإعلامُ بمقارنة الإعراضِ والتَّكذيبِ للاستهزاء

في قوله تعالى: ﴿فَسَوۡفَ يَأۡتِيهِمۡ أَنۢبَٰٓؤُاْ مَا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ ذكرَ استهزاءَهم بالعذاب بصيغة المضارع، وعَدَلَ عمّا يقتضيه سائر ما سلفَ منَ الإعراض، بصيغة اسمِ الفاعلِ في قوله: ﴿مُعۡرِضِينَ﴾، والفعل الماضي في قوله: ﴿كَذَّبُواْ﴾ والتّكذيب؛ للإيذان بأنَّهما كانا مُقارنين للاستهزاء، كما أُشير إليه حسبما وقعَ في الآية الكريمة[3].

(1) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 12/484.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/437.
(3) الآلوسّي، روح المعاني: 6/234.

المتشابهُ اللَّفظيُّ في تقييد التَّكذيبِ بالحقِّ، والتَّعبيرِ بـ(سوف) في الأنعام، و(السّين) في الشُّعراء:

الأنعامُ مُتقدِّمةٌ على الشُّعراء، فلـمَّا أعادَها؛ اختصرَ، وجاءَ بحرف التَّنفيسِ الأقصرِ

قال تعالى: ﴿فَسَوۡفَ يَأۡتِيهِمۡ أَنۢبَٰٓؤُاْ مَا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾، وقال تعالى: ﴿فَقَدۡ كَذَّبُواْ فَسَيَأۡتِيهِمۡ أَنۢبَٰٓؤُاْ مَا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ٦﴾ [الشّعراء: 6]، في الآية الأولى جاءَ بحرف التّنفيس الأطولِ (سوف)، وفي الآية الثّانية جاءَ بحرف التّنفيس الأقصرِ (السّين)؛ لأنّه في "الآية الثّانية اعتمدَ على الاختصار لما سبقَ في الأولى منَ البيان، واقتصر على قوله: ﴿كَذَّبُواْ﴾، فصار قولُه تعالى في الشّعراء مِن هذا القبيل، بعدَ البيانِ الّذي سبقَ في سورة الأنعام"[1].

وذكرَ ابنُ الزّبير الغرناطيّ أنّ آيةَ الأنعامِ مبنيّةٌ على الإطنابِ والبسطِ، مِن حمدِه سبحانه، وخلقِه السّماوات والأرض، والنّور والظّلمات وغير ذلك[2]؛ ممّا يناسب حرفَ التّنفيسِ الأطول (سوف)، وممّا يناسبُ تقييدَ التّكذيبِ هنا، وإطلاقَه هناك.

(1) الإسكافيّ، درّة التّنزيل: 2/479، والكرمانيّ، أسرار التّكرار، ص: 104.
(2) ابن الزّبير، ملاك التّأويل: 1/140.

﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّـٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَـٰرَ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَـٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٦﴾﴾ [الأنعام: 6]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الاستِشهاد لِبَيان المقصود بالموعود مِنَ الأنباء

جاءَت هذه الآية استئنافًا مَسوقًا "لِتَعْيين ما هو المراد بالأنباء الّتي سبقَ بها الوعيد، وتقرير إتيانها بطريق الاستشهادِ"[1]؛ لترويَ لهم الأنباءَ المُشار إليها في الآيةِ السّابقةِ من إهلاكِ مَن تقدَّمَهم، ممّن هم أشدُّ قوّةً وشكيمةً منهم، وممّن أنعمَ اللّهُ عليهم بأسبابِ الخيراتِ، ثمّ طَغَوْا؛ فأهلكهم اللّهُ، وأنشأَ بعدَ هلاكِهم قومًا آخرين.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَهْلَكْنَا﴾: فعلٌ ماضٍ، الجذرُ اللّغويُّ منه (هلك)، ومعنى الهلاكِ: السّقوطُ والموتُ، والأصلُ في معناه "يدلُّ على كسرٍ وسقوطٍ، منه الهلاك: السّقوط؛ ولذلك يُقال للميّت: هلك"، وجعله الرّاغب على ثلاثةِ أنحاءَ: الأوّل: "افتقادُ الشّيءِ عنك، وهو عندَ غيركِ موجودٌ... وهلاكُ الشّيءِ باستحالةٍ وفسادٍ... والثّالث: الموت"[2]. ومعنى الإهلاك في الآية هو: الاستئصالُ، والمحوُ، والموتُ.

2) ﴿قَرْنٍ﴾: اسمٌ ثلاثيٌّ مُجرَّدٌ، جذرُه اللّغويُّ من (قرن)، ومعنى القرنِ: الأُمَّةُ والمدّةُ، والأصلُ في معناه اجتماعُ الشّيء إلى مثله، ومنه الأُمَّةُ منَ النّاس؛ لأنّهم مُجتمعون في وقتٍ واحدٍ، وهو "الأُمَّةُ تأتي

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/170 - 171.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، والسمين، عمدة الحفّاظ: (هلك).

بعدَ الأمّة، جيل ينشأُ بعدَ جيل، كأنّها دفعةٌ منَ النّاس خارجةٌ أو ناشئةٌ بعدَ دفعة... ثمّ يُطلَقُ القرنُ على زمانِ الجيلِ منَ النّاس"[1]، "واختلفَ النّاسُ في مدّة القرن كم هي؟ فالأكثر على أنّها مئةُ سنةٍ"[2].

وذهبَ بعضُهم إلى تحديدِ القرنِ بالحالةِ الاجتماعيّةِ الّتي يكونُ عليها القومُ، بحيثُ إنَّه عبارةٌ عن أهلِ عصرٍ فيهم نبيٌّ، أو فائقٌ في العلم، أو مَلِكٌ منَ الملوك، وهذا أقربُ إلى استعمالِ القرآنِ، فالظّاهرُ أنَّ قومَ نوحٍ قرنٌ، وإنِ امتدَّ زمنه فيهم زُهاء ألفِ سنةٍ، وقومَ عاد قرنٌ، وقومَ صالح قرنٌ، ويُطلَقُ القرنُ على الزّمان نفسه[3].

3) ﴿مَّكَّنَّٰهُمۡ﴾: فعل ماضٍ مزيد من (مَكَّنَ يُمَكِّنُ تَمْكينًا)، وجذرُه اللغويُّ من (مَكَّنَ)، وهو من المكانة، "والمُكْنَةُ: التّمكن، تقول العربُ: إنّ بني فلان لذو مُكْنَةٍ منَ السُّلطان؛ أي: ذو تمكُّن". والمكانُ هو الموضعُ الّذي يحوي مَن فيه كالأشياء ونحوها، والمتمكّنُ هو ذو القدْرِ والمنزلةِ العاليةِ، ومن معانيه أيضًا "رسوخُ الشّيءِ مُتجمِّعًا... التّمكّنُ: رسوخٌ في باطن، مكّنَه منَ الشّيء، ومكّن له: جعل له عليه سلطانًا... التّمكينُ منَ الشّيء: (إنالة) ما يصحّ به الفعلُ منَ الآلاتِ والقوى"[4].

ومعنى مكّناهم في الآية: "أعطيناهم ما لم نعطكم، يُقال: مكّنتُه ومكّنتُ له: إذا أقدرتَه على الشّيء بإعطاءِ ما يصحُّ به الفعلُ منَ العدّة"[5].

4) ﴿مِّدۡرَارٗا﴾: صيغةُ مبالغةٍ على زنة مِفعال، منَ الفعلِ المُضعّفِ (درّ)، والجذر اللّغويّ منه (درر)، والدَّرُّ يُستعملُ في اللَّبن حقيقةً، ويُستعملُ مع المطر مجازًا، ومنه درّتِ السّماءُ إذا كان مطرُها غزيرًا، والأصلُ في معنى "الدّال والرّاء في المضاعف يدلُّ على أصلين: أحدهما تولُّدُ شيءٍ عن شيء، والثّاني اضطرابٌ في شيء"، وكلا الأصلين علاقتُه واضحةٌ مع معنى الكلمة[6]، والتّعبيرُ عنِ المطرِ في الآية بالمِدرار بمعنى "المِغزار،

(1) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (قرن).
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/268.
(3) رضا، تفسير المنار: 7/255.
(4) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (مكن).
(5) ابن الجوزيّ، زاد المسير: 2/10.
(6) الخليل، العين، ابن فارس، مقاييس اللّغة، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (در).

ومِفعال من أسماء المبالغة، يُقال: ديمةٌ مِدرارٌ، إذا كان مطرُها غزيرًا"[1].

5) ﴿وَأَنشَأْنَا﴾: فعل ماض مزيد بالهمزة الدّالَّة على التَّعدية، الجذرُ اللّغويُّ منه (نشأ)، والإِنْشاءُ: البدء، ومنه "أَنْشَأَ فلانٌ حديثًا؛ أي: ابتدأ حديثًا ورفعه"، والأَصلُ في معناه الارتفاعُ، ومنه: أنشأَه اللّه، بمعنى: رفعه، وهو أيضًا إحداثُ الشَّيءِ وتربيتُه وإيجادُه[2].

و" الإنشاءُ: ابتداءُ الخَلْق، وكلُّ مَنِ ابتدأ خلقَ شيءٍ، واخترعَه، فقد أنشأَه، ومنه: أنشأَ الشّاعرُ القصيدةَ، وأنشأَ فلانٌ يفعل كذا؛ أي: ابتدأ في فعله، والإنشاءُ الاختراعيُّ غير المسبوقِ بمثالٍ لا يليقُ إلاّ بالباري تعالى، "والنّشوءُ يشملُ الإيجادَ، والدّخولَ في مرحلة النّمو، والتّكاملَ حتّى الاستواء"[3].

ومعنى ﴿وَأَنشَأْنَا﴾ في الآية: الإيجادُ المُبتَكَرُ، وليس المرادُ بالإنشاء الولادةَ والخلقَ؛ لأنّ ذلك أمرٌ مستمرٌّ في البشر لا ينتهي، وليس فيه عِظةٌ ولا تهديدٌ للجبابرة المشركين"[4].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

سُنَّةُ اللهِ في إهلاكِ الأممِ الظَّالمةِ، في كلِّ الصِّراعاتِ القائمةِ

أرشدَ الحقُّ ﷻ في الآيات السّابقةِ إلى دلائل وحْدانيَّتِه، ولكنّهم لم يؤمنوا، وكفروا وكذّبوا؛ فتوعّدهم اللّهُ بمجيء الأنباءِ الّتي لا تسرُّهم، فلينظروا إلى الأمم المُكذِّبةِ قبلَهم وما حلَّ بهم من هلاكٍ وتدميرٍ، أَفَلَم يكونوا أكثرَ منهم قوّةً وأشدَّ تمكينًا في الأرض، وأكثرَ نصيبًا واحتفالًا بخيرات الدّنيا، وأسباب المعيشةِ؛ إذ أنعمَ اللّهُ عليهم بإنزال الأمطارِ وجريان الأنهارِ من تحت مساكنِهم؛ استدراجًا

(1) الهمذانّي، الكتاب الفريد: 2/564.
(2) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (نشأ).
(3) السّمين، عمدة الحفّاظ، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (نشأ).
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/140.

وإملاءً لهم، لكنّهم مع ذلك جعلوا همَّهم الفوزَ بالطّيّبات، ووطّنوا قلوبَهم على كواذبِ الأمنياتِ، فجاءهم عذابُنا وأُهلكوا، ثمّ أنشأنا بعدهم قَرْنًا آخرين غيرهم، سكنوا مساكنَهم؛ فهذه سنَّتُه تعالى انتقامًا من أعدائه، وإكرامًا لأوليائه.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

عِلَّةُ فَصلِ قَولِ اللهِ تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا﴾ عمَّا قَبلَهُ:

فُصِلَ قَولُ اللهِ ﷻ: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم﴾ عمّا قَبلَهُ؛ لوقوعِهِ استئنافًا بيانيًّا، فبينَ الجُملتينِ شِبهُ كمالِ الاتِّصالِ، وذلك أنَّ اللهَ سُبحانَهُ لمّا ذكَرَ الأَنباءَ المُتوعَّدَ بها؛ أثارَ ذلك في نفسِ المُتَلَقّي سُؤالًا وهو: ما الأنباءُ الّتي توُعِّدوا بِها؟ فجاءَ الجوابُ في قولِ اللهِ ﷻ: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ﴾؛ لتعيينِها وتقريرِ إتيانِها بطريقِ الاستشهادِ[1].

تَعيينُ الأَنبَاءِ المُتَوَعَّدِ بِها، والاستشهادُ على الهلاك من بعد التَّمكينِ

دلالةُ الاستفهامِ الإنكاريِّ التَّوبيخيِّ:

في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ﴾: الهمزة هنا للاستفهامِ الإنكاريِّ التّوبيخيِّ، وفيه تيئيسٌ من أن يتّعظَ هؤلاء، أو يتفكّروا بما حصلَ من إهلاكِ القرونِ الماضيةِ "الّذين أهلكَتْهم حوادثُ خارقةٌ للعادة، يدلُّ حالُها على أنّها مُسلَّطةٌ عليهم منَ اللهِ عقابًا لهم على التَّكذيب"[2].

السِّياقُ يحمل معنى التَّيئيسِ ممَّن لا يتَّعظُ بما حصل للأممِ المُهلَكَةِ

دلالَةُ (كَمْ) في قَولِه تعالى: ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا﴾:

﴿كَمْ﴾ في قولِ اللهِ ﷻ: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم﴾ خبريَّةٌ، وهيَ الدّالَّةُ على العدَدِ الكثيرِ المُبهَمِ، وهيَ في الآيةِ مُفيدَةٌ

كَثرَةُ المُهلَكِينَ مِنَ الأُمَمِ الكافِرَةِ، عِبرةٌ لمن طغى وتجبَّر

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/110، والآلوسّي، روح المعاني: 4/89، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/136.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/136.

كثرةَ المُخبَرِ عنهم تهويلًا لهذا الخَبَرِ[1]، وفيه تعريضٌ بأنَّ إهلاكَ المُكذِّبينَ المُخاطَبينَ بالآيَةِ أصالَةً أمرٌ يسيرٌ على اللهِ سُبحانَهُ.

دلالةُ التَّعبيرِ بالهلاكِ، مع أنَّه أمرٌ واقعٌ على الجميع:

التَّعبيرُ بالهلاك؛ لأنَّ الكافرَ قد باعَ الدِّينَ بالدُّنيا

ظاهرُ قولِه: ﴿أَهْلَكْنَا﴾ مع ما تقدّمه مِن قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ﴾ يوهِم بأنّ التَّعبيرَ هنا من بابِ الزَّجرِ والرَّدعِ، وهو غيرُ مرادٍ؛ لأنّه "ليس المقصودُ منه الزَّجرَ بمجرَّد الموتِ والهلاكِ، بل المقصود أنّهم باعوا الدّين بالدُّنيا؛ ففاتهم وبقوا في العذاب الشَّديدِ بسبب الحرمانِ عنِ الدّين، وهذا المعنى غيرُ مُشْتَرَكٍ فيه بين الكافرِ والمؤمنِ"[2]، فكلاهما يقضي عليه الموتُ، إلّا أنّ خسارةَ الكافرِ أعظمُ من خسارة المؤمنِ، ويؤيّدُه أنَّ (كم) في هذا الموضعِ ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم﴾ جاءَت لإفادة التّعظيم[3].

سِرُّ إسنادِ فِعلِ الإهلاكِ إلى ضَميرِ العَظَمَةِ في: ﴿أَهْلَكْنَا﴾:

قُوَّةُ إهلاكِ المُكَذِّبينَ بالآياتِ وشِدَّتُهُ

أُسنِدَ فِعلُ الإهلاكِ إلى (نا) الدّالَّةِ على العَظَمةِ في قولِ اللهِ ﷻ: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم﴾ إشعارًا بشدَّةِ هذا الإهلاكِ وقوَّتِه؛ فإنَّ اللهَ سُبحانَهُ أهلَكَهُم بعظَمَتِه[4]، وما كانَ كذلِكَ فإنَّ إهلاكَهُ يكونُ شديدًا.

دلالَةُ ﴿مِن﴾ في قَولِ اللهِ تعالى: ﴿مِن قَبْلِهِم﴾:

أَثَرُ مَعاني الحُروفِ في إفادَةِ دَقائِقِ المَعاني

﴿مِن﴾ في قَولِ اللهِ ﷻ: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم﴾ أفادَت معنَيَيْنِ:

أحدُهُما: تَوكيدُ المَعنَى وتَقويَتُهُ، وهذا هو المَعنَى الغالِبُ على (مِنْ) الواقِعَةِ مَعَ (قَبلُ) و(بَعدُ).

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/22، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/137.
(2) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 12/168.
(3) العكبريّ، التّبيان: 1/481.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/23.

والآخَرُ: الإيماءُ إلى أنَّ المرادَ ناسٌ مُعَيَّنونَ لم يستغرِقوا زمنَ القَبلِ، والمرادُ بهم أهلُ التَّمكينِ الزّائدِ، كقومِ نوحٍ وهودٍ وصالحٍ[1].

وجهُ الإيجاز في قوله: ﴿مِّن قَرۡنٍ﴾:

قوله: ﴿مِّن قَرۡنٍ﴾، القرنُ هو المدّةُ منَ الزّمان في أحد معانيه[2]، ولمّا كان الهلاكُ مختصًّا بالأناسيّ والبشر؛ فإنّ قولَه: ﴿مِّن قَرۡنٍ﴾ هو على تقديرٍ من أهلِ قرنٍ على حذفِ مُضافٍ؛ للإيجاز.

الحذفِ على تقديرِ: أهلِ قرنٍ

عِلَّةُ فَصلِ قَولِ اللهِ تعالى: ﴿مَكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ عمَّا قَبلَهُ:

فُصِلَ قَولُ اللهِ ﷻ: ﴿مَكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَا لَمۡ نُمَكِّن لَّكُمۡ﴾؛ لكونِهِ استئنافًا بيانيًّا، فَبَينَ الجُملتَينِ شِبهُ كمالِ الاتِّصالِ، وذلك لأنَّ قولَهُ سُبحانَهُ: ﴿أَلَمۡ يَرَوۡاْ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَبۡلِهِم مِّن قَرۡنٍ﴾ أورَثَ في نفسِ المُتَلَقّي سُؤالًا، وهو: ما كانَ مِن حالِ هؤلاءِ؟ فجاءَ الجَوابُ في قَولِهِ تعالى: ﴿مَكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَا لَمۡ نُمَكِّن لَّكُمۡ﴾ لبيانِ كيفيَّةِ إهلاكِهِم وتفصيلِ مبادئِهِ[3].

بَيانُ كَيفيَّةِ هَلاكِ المُكَذِّبينَ وَتَفصِيلُ دواعيه

بلاغةُ الالتفاتِ منَ الغَيبةِ إلى الخطابِ:

قولُه تعالى: ﴿مَا لَمۡ نُمَكِّن لَّكُمۡ﴾، ﴿لَّكُمۡ﴾ تعبيرٌ فيه التفاتٌ منَ الغَيبةِ إلى الخطابِ؛ لأنّ ما قبلَه هو قوله: ﴿أَلَمۡ يَرَوۡاْ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَبۡلِهِم مِّن قَرۡنٍ مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾، وهي تعبيراتٌ دالّةٌ على الغَيبةِ من ﴿يَرَوۡاْ﴾ و﴿قَبۡلِهِم﴾ و﴿مَّكَّنَّٰهُمۡ﴾، ثمّ انتقل إلى الخطابِ ﴿نُمَكِّن لَّكُمۡ﴾، "ولكم خطابٌ لهم فهو التفاتٌ... وفي هذا الالتفاتِ تعريضٌ بقلّةِ تمكينِ هؤلاء، ونقصِهم عن أحوالِ مَن سبق، ومع تمكين أولئك في الأرض؛ فقد حلّ بهم الهلاكُ، فكيف لا يحلُّ بكم على قلّتِكم، وضيقِ خطّتِكم؟!"[4]،

التَّعريضُ بالمُخاطَبين، من كونهم أقلَّ تمكينًا ممَّن سبقَهم

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/22.
(2) البغويّ، معالم التّنزيل: 3/128.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/439، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/111.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/438.

وهذا التفاتٌ موجَّهٌ إلى الّذين كفروا؛ لأنّهم المُمكَّنون في الأرض وقتَ نزول الآيةِ، وليس للمسلمين يومئذٍ تمكينٌ، والمعنى فيه: أنَّ الأممَ الخاليةَ منَ العربِ البائدةِ كانوا أشدَّ قوّةً وأكثرَ جمعًا منَ العرب المُخاطَبين بالقرآن، وأعظمَ منهم آثارَ حضارةٍ وسطوةٍ.

وحسبُك أنَّ العربَ كانوا يضربون الأمثالَ للأمور العظيمةِ بأنّها عاديَّةٌ أو ثَموديَّةٌ أو سَبئيَّةٌ، كما قال تعالى: ﴿وَعَمَرُوهَآ أَكۡثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا﴾ [الرّوم: 9]؛ أي: عَمر الّذين من قبل أهلِ العصر الأرضَ أكثرَ ممّا عمرها أهلُ العصر[1].

والالتفاتُ لما في مواجهتهم بضعف حالِهم منَ التَّبكيت ما لا يخفى. وقيل: ليتَّضحَ مرجعُ الضّميرين، ولا يشتبهُ من أوَّل الأمر، وهي نكتةٌ في الالتفات لم يُعرِّج عليها أهلُ المعاني، كما ذكر الآلوسيّ[2].

الفرقُ بين (مكَّنه) و(مكَّن له)، وأثرُ ذلك في السِّياق:

مكَّنه: جعله مُتمكِّنًا منَ التَّصرُّف التّامِّ فيه، ومكَّنَ له: هيَّأ له أسبابَ التَّصرُّف

كان الظّاهرُ أن يُقال: مكّنّاهم في الأرض؛ أي: القرون ما لم نمكّنهم؛ أي: الكفّارُ المحكيُّ عنهم المُستفهَمُ عن حالهم، فعَدَل عن ذلك بالالتفات عنِ الغَيبةِ إلى الخطابِ لما في إيرادِ الفعلين بضميرَي الغَيبة من إيهامِ اتّحادِ مرجعِهما، وكونِ المثبَتِ عينَ المنفيِّ، فقيل: ما لم نمكّنْ لكم، وإنّما لم يقُلْ: (ما لم نمكّنكم) أو (ومكّنّا لهم ما لم نمكّنْ لكم)، وهو مُقتضَى المطابقة لنكتة دقيقةٍ لا يدركُها إلّا مَن عَلِم الفرقَ بين مكَّنَه ومكَّنَ له، "والتَّحقيقُ أنَّ معنى مكّنه في الأرض أو في الشّيء: جعلَه مُتمكّنًا منَ التَّصرُّفِ، تامَّ الاستقلالِ فيه. وأمّا مكَّن له فقد استُعملَ في القرآن مع التّصريح بالمفعول به ومع حذفه، فالأوّل: كقوله تعالى: ﴿وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ﴾ [النّور:

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/138.
(2) الآلوسّي، روح المعاني: 4/90.

55]، وقوله: ﴿أَوَلَمۡ نُمَكِّن لَّهُمۡ حَرَمًا ءَامِنًا﴾ [القصص: 57]، والثّاني: كقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [يوسف: 56]، وقوله في ذي القرنين: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَءَاتَيۡنَٰهُ مِن كُلِّ شَيۡءٖ سَبَبًا ٨٤﴾ [الكهف: 84]، فلا بدّ في مثلِ هذا من تقديرِ المفعولِ المحذوفِ مع مراعاةِ ما يناسبُ ذلك من نُكَتِ الحذفِ، ككون المفعول في هاتين الآيتين عامًّا يتناولُ كلَّ ما يصلحُ للمقام، كأن يُقال: مكّنّا ليوسف ولذي القرنين في الأرض جميعَ أسبابِ الاستقلالِ في التّصرف.

وجوهُ البلاغةِ في قوله: ﴿مَكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَا لَمۡ نُمَكِّن لَّكُمۡ﴾:

في هذه الآية احتباكٌ[1]، وهو منَ الأنواع البديعيّةِ، وهو مُترتِّبٌ على فَهْم ما سبق منَ الفرق بين (مكَّنه) و(مكَّن له) أنَّ في الآية احتباكًا تقديره: (مكَّنّاهم في الأرض ما لم نمكِّنكم)، و(مكّنّا لهم ما لم نمكِّن لكم)، ومعنى الأوّل: أنَّهم كانوا أشدَّ منكم قوَّة وتمكّنًا في أرضهم، فلم يكن يوجدُ حولهم مَن يضارعهم في قوّتهم، ويقدرُ على سلب استقلالِهم، ومعنى الثّاني: أنَّنا أعطيناهم من أسبابِ التّمكُّنِ في الأرض، وضروبِ التَّصرُّفِ، وأنواعِ النِّعم ما لم نعطكم. فَحُذِفَ مِن كلٍّ منَ المتقابلين ما ما أُثْبِتَ نَظيرُهُ في الآخر، وهذا من أعلى فنون الإيجازِ، الّذي وصل في القرآن إلى أوج الإعجازِ، ويصدقُ كلٌّ منَ التّمكينَين على قوم عادٍ وثمودَ وقوم فرعونَ وغيرهم، كما يُعلَمُ مِن قصص الرُّسلِ في القرآن، ومن التّاريخ العامِّ[2].

الأممُ السّابقةُ كانت أشدَّ تمكينًا في الأرض، وأكثرَ بطشًا وقوَّةً

ويُكنَّى بالتّمكين عنِ الإقدار وإطلاقِ التّصرّفِ؛ لأنَّ صاحبَ المكانِ يتصرّفُ في مكانه وبيته، ثمّ يُطلَقُ على التّثبيتِ والتّقويةِ والاستقلالِ بالأمر، ويُقال: هو مكينٌ بمعنى ممكَّن، فعيلٌ بمعنى مفعول. قال

(1) الاحتباك: وهو نوعٌ عزيزٌ، وهو أن يُحذَفَ منَ الأوّل ما أُثبت نظيرُه في الثّاني، ومنَ الثّاني ما أُثبت نظيرُه في الأوّل.

(2) رضا، تفسير المنار: 7/257.

تعالى: ﴿إِنَّكَ ٱلۡيَوۡمَ لَدَيۡنَا مَكِينٌ أَمِينٞ ٥٤﴾ [يوسف: 54]، فهو كنايةٌ أيضًا بمرتبةٍ ثانيةٍ، أو هو مجازٌ مُرسَلٌ مُرتَّبٌ على المعنى الكنائيّ. فمعنى مكَّنه: جعله متمكِّنًا، ومعنى مكَّن له: جعله متمكّنًا لأجله؛ أي: رعيًا له، مثل: حَمِدَه وحَمِدَ له، فلم تزدْهُ اللّام ومجرورُها إلّا إشارة إلى أنّ الفاعلَ فعلَ ذلك رغبةً في نفعِ المفعول. واستعمالُ التّمكينِ في معنى التّثبيتِ والتّقويةِ كنايةٌ أو مَجازٌ مُرسَلٌ؛ لأنّه يستلزمُ التّقويةَ، وقد شاعَ هذا الاستعمالُ حتى صار كالصّريح أو كالحقيقة[1].

دِلالَةُ (أل) في ﴿ٱلۡأَرۡضِ﴾:

مِن نِعَمِ اللهِ تعالى على عِبادِهِ، إمدَادُهُم بأسبَابِ التَّمكِينِ في الأَرضِ

اللّامُ في ﴿ٱلۡأَرۡضِ﴾ مِن قَولِ اللّهِ ﷻ: ﴿مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَا لَمۡ نُمَكِّن لَّكُمۡ﴾ لامُ العَهدِ العِلميِّ، والمُرادُ: تمكينُ اللّهِ تعالى لهؤلاءِ في الأَرضِ الّتي في حيِّزِهِم، لا في عموم الأرضِ.

ويجوزُ أَن تكونَ اللّامُ لامَ الجنسِ المُفيدَةَ عمومَ البقاعِ المندرجةِ تحتَ هذا اللَّفظِ، ويكونُ مِن العامِّ الّذي يُرادُ بهِ الخصوص، على طريقةِ المجازِ المُرسَلِ بعلاقَةِ العموميَّةِ، ونُكتَةُ التَّعبير بالعُموم: الإيماءُ إلى أنَّ تمكينَهُم في الأرضِ الّتي في حيِّزِهِم بمنزِلَةِ تمكينِهِم في عموم الأرضِ؛ لأنَّ ما أوتوهُ من أسبابِ التَّمكينِ في أرضٍ خاصَّةٍ صالِحٌ للتَّمكينِ في أرضٍ أُخرى.

نُكتَةُ إِسنَادِ فِعلِ الإرسالِ إلى ضَميرِ العَظَمَةِ: ﴿وَأَرۡسَلۡنَا﴾:

الإيماءُ إلى رفعة قَدرِ الماءِ المُنزَلِ مِنَ السَّمَاءِ

أُسنِدَ فِعلُ الإرسالِ إلى الضَّميرِ (نا) الدّالِّ على العَظَمةِ في قولِ اللّه سُبحانَهُ: ﴿وَأَرۡسَلۡنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡهِم مِّدۡرَارٗا﴾ إيماءً إلى رِفعَةِ هذا الإرسالِ وشرَفِهِ، وجليلِ منزلَةِ المُرسَلِ.

بلاغةُ المجازِ المُرسَلِ في قوله: ﴿وَأَرۡسَلۡنَا ٱلسَّمَآءَ﴾:

قوله تعالى: ﴿وَأَرۡسَلۡنَا ٱلسَّمَآءَ﴾ مجازٌ مُرسَلٌ علاقتُه المحليّة؛ لأنّ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/138.

الإرسالَ لا يكونُ للسّماء؛ "فالآيةُ تريدُ بالسّماء المطرَ، ولهذا فقد ذكرتِ المحلَّ الّذي يأتي منه المطرُ (السّماء)، وأرادتِ المطرَ نفسه؛ فالعلاقةُ إذًا محليّةٌ"[1].

علاقةُ المجازِ المحليَّةُ؛ للدَّلالة على الكثرة

وجهُ صيغةِ المبالغةِ على زنة (مفعال) في قوله: ﴿مِّدۡرَارٗا﴾:

لفظ ﴿مِّدۡرَارٗا﴾ في قوله تعالى: ﴿وَأَرۡسَلۡنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡهِم مِّدۡرَارٗا﴾، "أي: ذات غيثٍ كثيرٍ، ومِفعال من أسماء المبالغةِ، يُقال: ديمةٌ مدرارٌ، إذا كان مطرُها غزيرًا دائمًا، وهذا كقولهم: امرأةٌ مذكارٌ، إذا كانت كثيرةَ الولادةِ للذّكور، وكذا مئناث في الإناث"[2]، فالتَّعبيرُ عنِ المطر بالمدرارِ دالٌّ على الكثرةِ والغزارةِ؛ إشارة إلى فيضِ كرمِه تعالى على خلقه، وإنعامِه عليهم، قال الفخرُ الرّازيُّ: "يُقال: سحابٌ مِدرارٌ إذا تتابعَ أمطارُهُ، ومِفعالٌ يجيءُ في نعتٍ يُرادُ المبالغةُ فيه، قالَ مُقاتلٌ: (مِدرارًا) مُتَتابعًا مرّةً بعدَ أُخرى، ويستَوي في المِدرارِ المذكّرُ والمؤنّثُ"[3].

التَّعبيرُ بالمبالغةِ للإشارة إلى فَيْضِ كرمِهِ تعالى على خلقِهِ

سِرُّ التَّعبيرِ بِالجَعلِ دُونَ الإجرَاء:

عُبِّر بالجَعلِ في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿وَجَعَلۡنَا ٱلۡأَنۡهَٰرَ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمۡ﴾، دُونَ الإجراءِ، فلَم يَرِدِ النَّظمُ القرآنيُّ: (وأَجرَينا الأنهارَ مِن تَحتِهِم)؛ لِما في التَّعبير بالجَعلِ مِنَ الدِّلالَةِ على كونِها مُسخَّرةً لهُم، دائمةَ الجريانِ على الوَجهِ المذكورِ في الآيةِ ما ليسَ في: (وأَجرَينا الأنهارَ مِن تَحتِهِم)[4]، ففيه إبرازُ عظيمِ مِنَّةِ اللّهِ سُبحانَهُ عليهم، ويلزَمُ مِن هذا شناعَةُ كُفرانِهِم وجحودِهِم.

مِن مِنَنِ اللهِ على العِبادِ: تَسخِيرُهُ الأَنهارَ لَهُم، وإِدَامَتُهُ جَرَيانَها

دِلالَةُ (أل) في ﴿ٱلۡأَنۡهَٰرَ﴾:

اللّامُ في الأَنهار مِن قولِ اللّه سُبحانَهُ: ﴿وَجَعَلۡنَا ٱلۡأَنۡهَٰرَ تَجۡرِي مِن

الأَنهارُ شريانُ الحياةِ عند الأممِ

(1) ديب، علوم البلاغة، ص: 226.
(2) الزّجّاج، معاني القرآن: 2/229.
(3) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 12/168.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/111.

﴿تَحۡتِهِمۡ﴾، لِتَعريفِ الجِنسِ، فيكون في قوَّةِ النَّكرةِ، والمَعنَى: وجعلنا أنهارًا تجري مِن تَحتِهِم.

ويجوزُ أَن تكونَ لِلعَهدِ الحضوريِّ، والمرادُ: الأَنهارُ الّتي يتَمتَّعونَ بِمياهِها شُربًا واغتِسالًا ونظرًا، وغيرَ ذلكَ مِن وجوهِ الانتفاعِ والاستِمتاعِ.

دلالةُ المجازِ العقليِّ في قوله: ﴿ٱلۡأَنۡهَٰرَ تَجۡرِي﴾:

الأنهارُ لا تجري إنَّما الَّذي يجري ماؤُها

في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا ٱلۡأَنۡهَٰرَ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمۡ﴾ مجازٌ عقليٌّ، علاقته المكانيّة، وقوله: ﴿ٱلۡأَنۡهَٰرَ تَجۡرِي﴾ فيه إسنادٌ إلى المحلّ، أو المكان؛ "فقد أسندَ الجريَ إلى الأنهار، وهي أمكنةٌ للمياه، وليست جاريةً، بل الجاري ماؤها"[1]، والغايةُ توسيعُ النِّعم عليهم، يؤيّده سياقُ الجملة المشتملُ على ضروبٍ منَ التّعبيرات الجَمْعيَّةِ، كالضّمير (نا) في ﴿وَجَعَلۡنَا﴾، وصيغة جمعِ التّكسيرِ ﴿ٱلۡأَنۡهَٰرَ﴾، وضمير الجمعِ (هم) من ﴿تَحۡتِهِمۡ﴾، ومع كلّ ذلك، لكنّهم كَفَروها.

دلالَةُ وَصفِ الأَنهارِ بِجَريِ مائِها:

أَحسَنُ المِيَاهِ ما كانَ جارِيًا؛ لأنَّه متجدِّدٌ

وَصفُ الأَنهارِ بِجَريِ مائِها في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿وَجَعَلۡنَا ٱلۡأَنۡهَٰرَ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمۡ﴾، يُراد به المدحُ؛ وذلك لأنَّ أَحسَنَ المياهِ ما كانَ جاريًا؛ لأنَّ ذلك يَقتَضي كونَه جَديدًا كلَّما اغتُرِفَ أَوِ اغتُسِلَ منه. وَأَصلُ الجَريِ: شِدَّةُ سُرعةِ المَشيِ، وإطلاقُهُ على سَيَلانِ الماء سَيلًا مُتكرِّرًا مُتَعاقبًا مَجازٌ، وفيهِ مَسلَكانِ: أحدهما: أنَّه مجازٌ بالاستِعارَةِ؛ ووجهُهُ: أنَّه شُبِّهَ سيَلانُ الماءِ سَيلًا مُتَكرِّرًا مُتعاقِبًا لشِدَّة سُرعة المشيِ؛ لجامعِ سُرعةِ الانتِقال والحركةِ في كلٍّ مِنهُما، فيكونُ مِنَ الاستعارَةِ التَّصريحيَّة التَّبعيَّة.

والآخَرُ: أنَّه مجازٌ مُرسَلٌ بعلاقةِ الإطلاقِ والتَّقييدِ، فأصلُ

(1) الهاشميّ، جواهر البلاغة، ص: 255.

الجري: شدَّةُ سُرعة المشي، ثُمَّ أُطلِقَ عَن قَيدِ المشي، واستُعمِلَ في شِدَّة السُّرعةِ مُطلَقًا. وهو على كِلا الوَجهَينِ أدخَلُ في مَدحِ الماءِ الجاري؛ لاقتِضائهِ المبالغةَ في جِدَّتِهِ بشدَّةِ جَريِهِ.

دلالةُ دخولِ ﴿مِن﴾ على الظَّرف ﴿تَحۡتِهِمۡ﴾:

تفجُّرُ الأنهارِ يكونُ من منابعها السَّخيَّةِ بعنصرِ الحياةِ

في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا ٱلۡأَنۡهَٰرَ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمۡ﴾: ﴿مِن﴾ حرف جرٍّ، داخلٌ على الظَّرف ﴿تَحۡتِهِمۡ﴾، وهي ابتدائيّةٌ، أو لبيانِ ابتداءِ جريانِ الأنهارِ؛ فيصوّرُ تفجّرَها من منابعها، وهي إذ ذاك أطيبُ طعمًا، وأغنى شربًا؛ لأنَّه لو قال: (تجري تحتهم) لَفُهِم أنّها تنبعُ من مكان بعيدٍ، ثمّ تصلُ إليهم ممّا قد يحصل فيه تغيّرٌ لطعمها مدّةَ جريانها.

بلاغةُ تقديمِ إرسالِ السَّماءِ على جعلِ الأنهار تجري:

إرسالُ السَّماءِ سببٌ لجريانِ الأنهارِ، وبه اتِّساعُ الأرزاقِ

في قوله تعالى: ﴿وَأَرۡسَلۡنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡهِم مِّدۡرَارٗا وَجَعَلۡنَا ٱلۡأَنۡهَٰرَ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمۡ﴾، ذكرَ جملتين قدّمَ إحداهما على الأخرى؛ فقدَّمَ إرسالَ السّماءِ عليهم مدرارًا على إجراء الأنهارِ من تحتهم، "والمعنى: أنّه تعالى مكَّنَهم التّمكينَ البالغَ، ووسّعَ عليهم الرّزقَ؛ فذكرَ سببَه، وهو تتابعُ الأمطارِ على قَدْرِ حاجاتِهم، وإمساكُ الأرضِ ذلك الماء، حتّى صارتِ الأنهارُ تجري من تحتهم؛ فكثُرَ الخصبُ؛ فأَذْنَبوا؛ فأُهلِكوا بذنوبهم"[1]، فالجملةُ الأولى سببٌ للثّانية.

دلالةُ عطفِ الإهلاكِ، على جعْلِ الأنهار تجري:

الكفرُ والعصيانُ بعدَ الإنعامِ يؤدِّي إلى الإهلاكِ

في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا ٱلۡأَنۡهَٰرَ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمۡ فَأَهۡلَكۡنَٰهُم بِذُنُوبِهِمۡ﴾، جملةُ الإهلاك معطوفةٌ على ما سبقَ مِن جعلِ الأنهار، وظاهرُ الجملةِ الثّانيةِ أنّه حصلَ الإهلاكُ بعدَ الإنعامِ عليهم بتلك النّعم، فظاهرُه حصولُ الإهلاكِ بعد الإنعام؛ لأنّ الفاءَ للتّعقيب؛

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/440.

فيكون ثمّة محذوفٌ تقديره فكفروا، ثمّ عصوا؛ فأهلكهم اللّهُ[1]؛ فيكون كفرُهم وعصيانُهم سببًا لإهلاكهم، وليس الإنعامُ هو السّبب، على طريقة أنِ ﴿ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡحَجَرَۖ فَٱنفَجَرَتۡ﴾ [البقرة: 60]، أي: فضرب فانفجر.

سِرُّ التَّعبيرِ عَنِ الكُفرِ بالذَّنبِ في: ﴿فَأَهۡلَكۡنَٰهُم بِذُنُوبِهِمۡ﴾:

التَّحذيرُ مِن مُطلَقِ الذُّنُوبِ؛ لأنَّها مُهلِكَةٌ

الذُّنوبُ في قولِ اللّه ﷻ: ﴿فَأَهۡلَكۡنَٰهُم بِذُنُوبِهِمۡ﴾ يُرادُ بها الكفرُ وتكذيبُ الرُّسُلِ، كما يَدلُّ على ذلك التَّنظيرُ بحالِ مَن قالَ اللّه فيهم: ﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡ يَعۡدِلُونَ﴾، و﴿ثُمَّ أَنتُمۡ تَمۡتَرُونَ﴾، و﴿وَمَا تَأۡتِيهِم مِّنۡ ءَايَةٖ مِّنۡ ءَايَٰتِ رَبِّهِمۡ إِلَّا كَانُواْ عَنۡهَا مُعۡرِضِينَ﴾، و﴿فَقَدۡ كَذَّبُواْ بِٱلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمۡ﴾[2]، والذُّنوب في الأصلِ أعمُّ منَ الكُفرِ وتكذيبِ الرُّسلِ، فيكونُ في الآيةِ مجازٌ مرسَلٌ، بعلاقَةِ العموميَّةِ، والنُّكتَةُ في ذلكَ: التَّحذيرُ من مُطلَقِ الذُّنوبِ؛ لكونِ الذُّنوبِ يَجُرُّ بعضُها بعضًا، ولأنَّ الإهلاكَ الشَّديدَ كان بسَبَبِ الكُفرِ، وهو ضربٌ منَ الذُّنوبِ، فيُخشَى لِمَن تلبَّسَ بالذُّنوب الّتي هيَ دونَ الكُفرِ أن يُصيبَهُ نصيبٌ مِنَ الإهلاكِ، وإن كانَ دُونَ الإهلاكِ الشَّديدِ الّذي ينالُ أهلَ الكُفرِ الأكبَرِ.

بلاغةُ التَّعبيرِ بالإنشاءِ في الآيةِ الكريمة:

التَّعريضُ بهلاك الكافرين، وأنَّ غيرهم سيحلُّون محلَّهم

في قوله تعالى: ﴿وَأَنشَأۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِمۡ قَرۡنًا ءَاخَرِينَ﴾: الإنشاءُ هنا ليس المرادُ منه الخلقَ والولادةَ، فإنّ ذلك أمرٌ دائمٌ مستمرٌّ في البشر حتّى يرثَ اللّهُ الأرضَ ومَن عليها، وليس فيه تهديدٌ أو وعيدٌ لهؤلاء، إنّما المقصودُ "من هذا تعريضٌ بالمشركين بأنّ اللّه مهلكُهم، ومنشئٌ من بعدهم قَرْنَ المسلمين في ديارهم، ففيه نِذارَةٌ بفتحِ مكّةَ وسائرِ بلادِ العربِ على أيدي المسلمين"[3].

(1) ابن جُزَيّ، التّسهيل: 1/254.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/140.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/140.

دِلالَةُ (مِنْ) في قَولِ اللهِ تعالى: ﴿مِنۢ بَعۡدِهِمۡ﴾:

أَثَرُ مَعاني الحُروفِ في إفادَةِ دَقائِقِ المَعاني

﴿مِنۢ﴾ في قَولِ اللّهِ ﷻ: ﴿وَأَنشَأۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِمۡ قَرۡنًا ءَاخَرِينَ﴾ أفادَت معنَيَين:

الأوَّلُ: تقويَةُ المَعنَى وتَوكيدُهُ، وهذا المَعنَى هو الغالِبُ على (مِنْ) الواقِعَةِ مَعَ (بَعدُ) و(قَبلُ).

والآخَرُ: أنَّ قولَه: ﴿وَأَنشَأۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِمۡ﴾ إيماءٌ إلى أنَّ اللّهَ سُبحانَهُ لَم يجعَلْ لأحدٍ الخُلدَ، ولذا أدخلَ الجارَّ فقال: ﴿مِنۢ بَعۡدِهِمۡ﴾؛ أي: فيما كانوا فيه[1].

نُكتَةُ وَصفِ ﴿قَرۡنًا﴾ بـ ﴿ءَاخَرِينَ﴾:

إفناءُ اللهِ تعالى للقرون المُكَذِّبةِ فَناءً تامًّا

وُصِفَ القَرنُ بالآخَرينَ مِن قَولِ اللّهِ سُبحانَهُ: ﴿وَأَنشَأۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِمۡ قَرۡنًا ءَاخَرِينَ﴾؛ للدِّلالَةِ على أنَّ اللّهَ ﷻ لَم يُبقِ مِنَ المُهلَكينَ أَحَدًا، وأنَّ هذا القَرنَ الثّاني المذكورَ في قولِهِ: ﴿وَأَنشَأۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِمۡ قَرۡنًا ءَاخَرِينَ﴾ لا يَرجِعُ إلى القرنِ الأوَّلِ بِنَسَبٍ[2].

المتشابهُ اللَّفظيُّ في سرِّ دخولِ الواوِ بعدَ الاستفهامِ، في مواضعَ، وخلوِّه منها هنا:

دخولُ الواوِ مُؤذِنٌ بالتَّبكيت والتَّقريعِ لغفلتِهم

في قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ يَرَوۡاْ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَبۡلِهِم مِّن قَرۡنٍ﴾، ذكرَ في هذا الموضعِ ﴿أَلَمۡ﴾ الهمزةَ وحرفَ الجزم، وذكرَ معها الواو (أولم) في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ كَمۡ أَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجٍ كَرِيمٍ ۝٧﴾ [الشّعراء: 7]، فَيُسْأَلُ عنِ الفرق بين الموضعين؟ والجواب عن ذلك: أنَّ كلَّ "موضعٍ فيه بعد ألفِ الإنكارِ واو؛ ففيه تبكيتٌ على ما يسهّل الطّريقَ إلى ما بعد الواو، فالاعتبارُ به لكثرةِ أمثالِه، كقوله تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ كَمۡ أَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجٍ كَرِيمٍ ۝٧﴾ [الشّعراء: 7]، كأنّ قائلاً قال: كذّبوا الرّسولَ، وغفلوا عنِ الفكرِ والتّدبّرِ؛

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/24.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/24.

فقد فعلوا ذلك، ولم ينظروا إلى المشاهداتِ الّتي تنبّهُ الفكرَ فيها منَ الغفلة"[1]؛ لأنّ مثلَ تلكم الآياتِ معطوفةٌ على ما قبلها بالواو، أمّا غيرُ المعطوفة بالواو فالاعتبارُ حاصلٌ ابتداءً من غير عطفٍ، فذكر في تكملة الآيةِ من إهلاكِ مَن قبلهم، والتّمكينِ، وإرسالِ الرّسلِ وغيرها. وآيةُ الأنعام هذه لم يتقدّمْ قبلها ما يشيرُ إلى التّذكّرِ والعِبرةِ المُفْضيَيْنِ إلى التّقريع، وعن قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْاْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ﴾، أجابَ الغرناطيُّ عن خلوِّ هذه القطعة منَ الآيةِ من حرفِ العطفِ (الواو): بأنّ هذه الجملةَ "لم يتقدّمْ قبلها التّنبيهُ على ما به التَّذكار والاعتبار، مُفصحًا به تنبيهًا مع تخويفٍ وتهديدٍ، مُتأكّدٍ مُكرّرٍ يستدعي التّقريعَ والتّوبيخَ، بمقتضى الهمزةِ الدّاخلةِ على واو العطف، كما في سورة الشّعراء"[2]، أمّا سورةُ الشّعراء فقد تقدَّم قبلها ما هو أوضحُ في التّخويف والتّنبيه.

سرُّ دخولِ ﴿مِن﴾ على ﴿قَبْلِهِم﴾ هنا، وخلوِّهِ منها في آيات أخرى:

للتَّهديدِ وشدَّةِ التَّخويفِ لِعِظَمِ ما اقترفوه

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْاْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ﴾، في هذه القطعةِ منَ الآية أدخلَ حرفَ الجرّ ﴿مِن﴾ على ﴿قَبْلِهِم﴾، فيما لم تردْ في آياتٍ كثيرةٍ أخرى، كقوله تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَٰثًا وَرِءْيًا ﴿٧٤﴾﴾ [مريم: 74]، وغيرها منَ الآيات، وسرُّ دخولها هنا لإفادتها التّوكيد؛ فإنّها "تزاد في هذه الآي حيث يرادُ تأكيده ضمن الآي منَ المعطيات، والإشارة إلى الوعيد... فحيث ورد في هذه الآي ما قبله استيفاءُ تفصيلِ وعيدين في أمّةٍ بعينها، أو أكثر، أو تكرّرُ التّهديد، وشدّةُ التّخويف من مُقتضى السّياقِ وفحوى الكلامِ؛ فذلك موضعُ زيادتِها، والتّأكيدُ بإثباتها، وحيثُ لا يتقدّمُ في اقتضاء مُقتَضاها نفوذُ الوعيد؛ فهذا يناسبُه الإيجازُ بحذفها"[3]؛

(1) الإسكافيّ، درّة التّنزيل: 2/483.
(2) ابن الزّبير، ملاك التّأويل: 1/141.
(3) ابن الزّبير، ملاك التّأويل: 1/142.

فقد تقدّمَ هذه الآيةَ حمدُه سبحانه، وخلقُ السّماواتِ والأرضِ، وجعلُ الظّلماتِ والنّورِ، ثمّ إعراضُهم عنِ الآيات الّتي تأتيهم، ثمّ تكذيبُهم واستهزاؤُهم؛ فهذه كلّها تدلُّ على عظيم مرتكباتِهم، وقبائح أفعالِهم؛ فورد التّأكيدُ بورود ﴿مِن﴾ مع ﴿قَبْلِهِم﴾؛ لزيادة التّأكيد المناسبِ للتّهديد والوعيد الّذي يستحقونه.

﴿وَلَوۡ نَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ كِتَٰبٗا فِي قِرۡطَاسٖ فَلَمَسُوهُ بِأَيۡدِيهِمۡ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ٧﴾ [الأنعام: 7]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

العلاقةُ بين هلاكِ المكذِّبين، وبيانِ تكذيب النَّبيِّ ﷺ رغم المعجزاتِ

لمّا كان الرّسول ﷺ شديدَ الحرص على إيمانهم؛ كان لسانُ الحالِ يقتضي أن يقولَ: "أنزِلْ عليهم يا ربّ ما ينتقلون به منَ النّظر بالفكر إلى العيان، كما اقترحوا عليَّ، فأخبره أنّهم لا يؤمنون بذلك"[1]، ولو أنزلَ عليهم كتابًا في صحيفةٍ يلمسونه حقيقةً، ويرونه عيانًا، لكنّهم كفروا به، وكانت مقالتُهم فيه أنّه سحرٌ، وتمويهٌ، وخيالٌ مبينٌ ظاهرٌ.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿نَزَّلۡنَا﴾: فعلٌ ماضٍ مُضعّف، الجذرُ اللّغويُّ منه (نَزلَ)، والنُّزولُ هو الانتقالُ من علوّ إلى سُفْل، والأصلُ في معناه دلالتُه على هبوطِ شيءٍ ووقوعِه، ونزل عن دابّته نزولاً، ونزل المطرُ منَ السَّماء نُزولًا، و"النُّزول في الأصل هو انحطاطٌ من عُلوّ... ونزل في مكان كذا: حطَّ رحله فيه"[2].

و"المعنى المحوريّ انحدارٌ أو انفصال، وخلوصٌ إلى مقرّ أو حيّز يوجدُ فيه بقوّة، فالوجودُ معنى لزوميّ هنا، كالنّزول في المنزل"[3]. ونزّلنا في الآية يدلُّ على التّنزيل منَ السّماء، وأنّه ليس مكتوبًا في الأرض[4]، إلّا أنّه ليس نُزولًا حسّيًّا، مثلما دلَّ عليه التّفسيرُ اللّغويُّ في هبوطِ الشّيء، إنّما عبّر عن ذلك؛ لعلوّ شأن المنزَّل.

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/24.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، والفيّوميّ، المصباح المنير: (نزل).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (نزل).
(4) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنّة: 4/25.

2) ﴿قِرْطَاسٍ﴾: اسمٌ خماسيٌّ، جذرُهُ اللّغويُّ من (قَرْطَسَ)، خلافًا لمَن يرى أنّه مُعَرَّبٌ، وهو معروفٌ يتّخذُ من بَرْديٍّ مصرَ للكتابة، وهو "رَقٌّ ينبسطُ ممتدًّا يُخرَقُ بسهم، أو يُؤَثَّر فيه بما يشبهُ ذلك، وهو الكتابةُ بقلم له سنٌّ دقيقٌ يُرسَمُ فيه"[1].

والقِرْطاسُ ما "يُكتَبُ فيه كالرَّقّ والكاغَد ونحوِها، لا كالخشبة والحجر، وإن كانَ يُكتَبُ فيه؛ ولذلك قال ابن عرفة: العربُ تسمّي الصّحيفةَ قِرطاسًا من أيّ شيء كانت، فأجد في مسمّاه الصّحيفة، وهي مختصّةٌ بما يُطوَى ويُنشَر"[2]. وقد نشأتِ الكتابةُ نقشًا في الحجارة، وخَدْشًا في الطّين، ورسمًا على العُسُب.

ومعنى القِرْطاس في الآية: الصّحيفةُ الثّابتةُ الّتي يُكتَبُ فيها بقلم له سنٌّ دقيقٌ يُرسَمُ فيه[3].

3) ﴿سِحْرٌ﴾: اسمٌ ثلاثيٌّ مُجرَّدٌ، أو مصدرٌ، الجذرُ اللّغويُّ منه (سَحَرَ)، وله معانٍ عديدة، منه: معونة الشّيطان، وأخذة العين، والبيان في الفطنة، وله أصلٌ لمعناه وهو الخداعُ، والتَّخييلُ، والإيهامُ، وإخراجُ الباطلِ على صورةِ الحقِّ، وهو أيضًا "الخداعُ وتَخْييلاتٌ لا حقيقةَ لها، نحو: ما يفعله المشعوذُ بصرف الأبصارِ عمّا يفعلُه لخفّة يدٍ، وما يفعلُه النّمّامُ بقولٍ مُزخرَفٍ عائقٍ للأسماع"[4].

ومعنى السّحر في الآية؛ أي: "ما هذا الّذي جئتنا به إلّا سحرٌ سحرتَ به أعيننا، ليست له حقيقةٌ ولا صحّةٌ"[5].

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

يخبرُ الحقُّ ﷻ عن سابق عِلمِه وإحاطتِه بحال هؤلاء الكافرين بأنَّ

عِظَمُ عنادِ المشركين للنَّبيِّ الأمينِ، ومكابرتِهم، رغمَ الأدلَّةِ المفحِمَةِ

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (قرطس).
(2) السّمين، عمدة الحفّاظ: (قرطس).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (قرطس).
(4) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (سحر).
(5) ابن جرير، جامع البيان: 11/265.

تكذيبَهم ليس لقصورٍ فيما جئتَهم به أيُّها الرّسول، ولا لجهلٍ منهم بذلك، وإنّما هو ظلمٌ وبغيٌ منهم وعنادٌ واستكبارٌ، فلو أَراهُمُ اللّهُ بيِّنةً محسوسةً في إنزال كتابٍ في صحيفةٍ مكتوبةٍ يلمِسونه بأيديهم يحوي مرسومَ التَّنزيل، وبَيَّن لهم كلَّ طريقٍ وسبيلٍ، لما ازدادوا إلّا كفرًا وعنادًا، ولِنَطقَتْ ألسنتُهم بأنَّ ما نزلَ ما هو إلّا منَ السّحرِ والتّخييلِ والإيهامِ، وزادوا من وقاحتهم بِنَعْتِه بالواضحِ المبينِ.

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

نُكتةُ تلوينِ الخطابِ في معنى (الواو):

الآيةُ جملةٌ مستأنَفةٌ سيقَت بطريق تلوينِ الخطابِ؛ لبيانِ شدّة شَكيمَتِهم في المكابرة، وما يتفرّعُ عليها منَ الأقاويل الباطلةِ، إثرَ بيانِ إعراضِهم عن آيات اللّهِ تعالى، وتكذيبِهم بالحقّ، واستحقاقِهم بذلك لنزول العذابِ، ونسبةُ التّنزيلِ ههنا إليه ﷻ مع نسبة إتيانِ الآياتِ، ومجيء الحقِّ فيما سبق إليهم؛ للإشعار بقَدْحِهم في نبوّته ﷺ في ضمن قَدْحِهم فيما نزل عليه صريحًا[1].

العطفُ على أن تكونَ الآيةُ أوضحَ الآياتِ، دلالةٌ على صدقِ النبوَّةِ

ويجوزُ أن تكونَ الواو عاطفةً، والمعطوف عليه جملة: ﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾ الآية، وما بينهما جملًا تعلَّقَت بالجملة الأولى على طريقة الاعتراضِ، فلمّا ذكرَ الآياتِ في الجملة الأولى على وجه العموم، ذكر هنا فرضَ آيةٍ تكون أوضحَ الآيات دلالة على صدق محمّد ﷺ، وهي أن يُنزِلَ اللّهُ عليه كتابًا منَ السّماء على صورة الكتبِ المُتعارَفَةِ، فَرَأوهُ بأبصارِهم، ولمسوهُ بأيديهم - لما آمنوا ولادَّعَوا أنّ ذلكَ الكتابَ سحرٌ[2]. ويجوزُ أن تكونَ الواو للحال من ضمير ﴿كَذَّبُواْ﴾ في قوله: ﴿فَقَدْ كَذَّبُواْ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ﴾؛ أي: أنكروا كونَ القرآن من عند اللّهِ، وكَوْنَه آيةً على صدق الرّسولِ،

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/112.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/141.

وزعموا أنّه لو كانَ من عند اللّهِ لنزلَ في صورة كتابٍ منَ السّماء، فإنّهم قالوا: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً﴾ [الفرقان: 32]، وقالوا: ﴿حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ﴾ [الإسراء: 93]، فكان قولُه: ﴿فَقَدْ كَذَّبُواْ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ﴾ مُشتمِلًا بالإجمال على أقوالهم، فَصحَّ مجيءُ الحالِ منه، وما بينهما اعتراض[1].

معنى استعمال (لو) في ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا﴾:

في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ﴾، صدّر الآيةَ بعدَ العطفِ بالحرفِ (لو)، والّتي سمّاها سيبويه لما "كان سيقعُ لوقوع غيره"[2]، "حرف امتناع لامتناع؛ أي: أنّ اللّه سبحانه يمتنعُ عن أن يفعلَ ذلك، لأنّه عبثٌ لا يليقُ أن يصدرَ عن ذاته العليّة؛ إذ لا ثمرةَ له، فلن يؤمنوا مهما تكن قوّةُ الدّليل"[3]، وهو تعبيرٌ دقيقٌ؛ لأنّ هؤلاء لن يؤمنوا، فكانت ﴿وَلَوْ﴾ مُعبِّرةً عن حالتهم خيرَ تعبيرٍ؛ لأنّ قلوبَهم مُشربةٌ بالضّلال ومُتمكِّنةٌ فيه.

الدّلالةُ على الامتناع بأنَّ إنزالَ الكتابِ، لا يصحُّ أن يصدرَ عنه تعالى

وجهُ مجيءِ الفعلِ ﴿نَزَّلْنَا﴾ على صيغة (فعَّل) بالتَّضعيف:

مجيءُ الفعلِ ﴿نَزَّلْنَا﴾ على زِنة (فعّلنا) في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ﴾ يفيدُ تكثيرَ الفعلِ غالباً[4]، ومجيئه على هذه الصّيغةِ الدّالّةِ على المبالغةِ يفيدُ "أنّ هؤلاء الكفّار لو أنّهم شاهدوا نزولَ كتابٍ منَ السّماء دفعةً واحدةً عليك يا محمّد ﷺ لم يؤمنوا به، بل حملوه على أنّه سِحْرٌ ومَخْرَقَةٌ"[5].

الدّلالةُ على كثرة التنزُّل لقطْعِ الحجَّةِ عليهم

نُكتَةُ إسنادِ فِعلِ التَّنزيلِ إلى ضَميرِ العَظَمَةِ في قَولِه: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا﴾:

أُسنِدَ فِعلُ التَّنزيلِ إلى الضَّميرِ (نا) الدّالِّ على العَظَمةِ في قولِ

الإيماءُ إلى عَظَمَةِ التَّنزيلِ ومُتَعَلَّقاتِهِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/141.
(2) سيبويه، الكتاب: 4/224.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2441.
(4) سيبويه، الكتاب: 4/69.
(5) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 12/169.

اللّه سُبحانَهُ: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ﴾ إيماءً إلى عظمَةِ هذا التَّنزيلِ ومُتعلَّقاتِه؛ مِن بيانِ جلالَةِ المُنَزِّلِ سُبحانَهُ، وشرفِ المُنَزَّلِ، ورفيعِ مكانَةِ المُنَزَّلِ عليه ﷺ.

سِرُّ تَنكيرِ ﴿كِتَٰبًا﴾ في قَولِ اللهِ تعالى: ﴿كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ﴾:

تَعظِيمُ الكِتابِ، يَستَلزِمُ شَناعَةَ تَكذِيبِهِ

نُكِّرَ لفظُ ﴿كِتَٰبًا﴾ في قولِ اللّه سُبحانَهُ: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ﴾ لِقَصدِ التَّفخيمِ والتَّعظيم، كما يُشعِرُ بِذَلِكَ تعظيمُ المُنَزِّلِ في قَولِهِ: ﴿نَزَّلْنَا﴾، وهذا التَّعظيمُ لِلكِتابِ المُنَزَّلِ دالٌّ على شدَّةِ عنادِ المُكذِّبينَ؛ فإنَّ العظَمَةَ أحاطَت بالتَّنزيلِ وتوابِعِهِ، ومعَ ذَلِكَ قابَلوا ذَلِكَ بالجُحودِ والإنكارِ.

دلالةُ التَّعبيرِ باللَّمسِ دونَ المعاينةِ:

دفْعُ افترائِهم بأنَّه مِن سِحرِ النَّظرِ

في قوله تعالى: ﴿فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ﴾، عبّر عنِ الكتابِ المشتملِ على الآيات، ولم يعبّر بالنّظر إليه ومعاينته فقط؛ "لئلّا يقولوا سُكِّرَت أبصارُنا، ولا تبقى لهم علّةٌ، لقالوا: إن هذا إلّا سحرٌ مبينٌ تعنُّتًا وعنادًا"[1]؛ لأنّ السّحرَ يكون أشدَّ فعلاً ووقعاً مع النّظر؛ فإنّ البصرَ قد يُخدَعُ بالسّحر والتّخيّل؛ ولقوله تعالى حكايةً عن سحرة فرعون: ﴿سَحَرُوٓاْ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾﴾ [الأعراف: 116]، ولا تكونُ المظاهرُ السّحريّةُ ممّا يُدرَكُ باللّمس؛ ولأنّ اللّمسَ أبلغُ في إيقاعِ العلمِ منَ النّظر.

فائدةُ ذكرِ الأيدي بعدَ اللَّمسِ:

تأكيدُ النُّزولِ، ورفْعُ توهُّمِ أن يكونَ من باب المجازِ

في قوله تعالى: ﴿فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ﴾، ذكرَ الأيدي بعدَ اللّمسِ، مع أنّ اللّمسَ عادةً يكونُ بالأيدي، لكنْ في ذكره هنا "تأكيدٌ لمعنى اللّمسِ؛ لرفع احتمالِ أن يكونَ مجازًا في التّأمّل، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴿٨﴾﴾ [الجنّ: 8]،

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/325.

وللإفصاح عن مُنتهى ما اعتيد من مكابرتهم ووقاحتهم في الإنكار والتَّكذيب"[1].

سرُّ الإظهارِ في مقام الإضمارِ:

جاءَ قولُه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ دونَ أن يقولَ: (لقالوا)، على سبيل الإضمارِ والاختصارِ، كما قال: ﴿فَلَمَسُوهُ﴾: إظهارًا في مقام الإضمارِ؛ لقصد تسجيلِ أنّ دافعَهم إلى هذا التّعنُّتِ هو الكفر؛ لأنّ الموصولَ في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ يُؤْذِنُ بالتّعليل[2].

التَّسجيلُ عليهم بأنَّ دافعَهم إلى هذا التَّعنُّتِ، هو الكفرُ

دِلالَةُ العموم في ﴿ٱلَّذِينَ﴾ مِن قَولِهِ: ﴿لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾:

الاسم المَوصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾ مِن قَولِ اللّه ﷻ: ﴿لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ يُرادُ به الجِنسُ المفيدُ العُمومَ؛ فهي شامِلَةٌ كُلَّ معانِدٍ مِمَّن كَفَرَ باللّهِ تعالى، فهم لا يَنقادونَ لِلحَقِّ، ولَو كانَ في غايَةِ الوُضوحِ.

نُكتَةُ التَّعبيرِ بِالفِعلِ المَاضِي ﴿كَفَرُوٓاْ﴾ في الآية الكريمة:

جيءَ بِجُملةِ الصِّلَةِ فِعلًا ماضيًا في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾؛ لِلإشعارِ بِحُدوثِ الكُفرِ وتحقُّقِه فيهم وتشبُّعِهم منه.

سِرُّ حَذفِ مُتَعَلَّقِ الكُفرِ في قَولِ اللهِ تعالى: ﴿لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾:

حُذِفَ مُتعلَّقُ الفعلِ ﴿كَفَرُوٓاْ﴾ مِن قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾، وهو الأَمرُ الّذي كُفِرَ بِهِ، وذلك قصدًا لِإرادَةِ العُموم؛ إذْ إنَّ حَذفَ المُتعلَّقِ مُشعِرٌ بِالعُموم، والمعنى: كَفَروا بِجَميعِ ما وجبَ عليهم أَن يُؤمِنوا بِهِ شَرعًا.

كُفرُ المُكَذِّبِينَ بِجَميعِ ما يَجِبُ الإيمانُ بِهِ شَرعًا

دِلالَةُ القَصرِ في قَولِ اللهِ تعالى: ﴿إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ﴾:

في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ﴾ أسلوبُ قَصرٍ، وطريقُهُ النَّفيُ والاستِثناءُ؛ فإنَّ (إِنۡ) نافيَةٌ، والمَعنَى: لقال الّذين كفروا ما هذا إلّا سِحرٌ مُبينٌ، وفي سلوكِهِم مسلَكَ

بُلوغُ الكافِرِينَ غايَةَ العِنَادِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/142.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/142.

القصرِ في الكلامِ تأكيدٌ مِنهُم لحُكمِهم الباطِلِ، وهذا ناشئٌ عَن غايَةِ عنادِهِم.

دِلالَةُ وَصفِ السِّحرِ بِكَونِهِ مُبِينًا في الآية الكريمة.:

وُصِفَ السِّحرُ بكونِهِ مُبينًا في قولِ اللّه ﷻ: ﴿لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ﴾، ومُرادُهُم: أنَّه بيِّنٌ واضِحٌ في كَونِهِ سِحرًا، وهذا دالٌّ على أنَّ تبجُّحَهُم بالتَّكذيبِ بلغَ الغايَةِ، وأنَّ مكابرتَهُم كذَّبَت ما شهِدَت حواسُّهُم بصِدقِهِ، والقومُ الّذينَ بلَغوا هذه الدَّرجَة مِنَ العنادِ والمكابَرةِ لا تَنفَعُ فيهم معجِزَةٌ، ولا يُجدي معَهُم دليلٌ[1].

مَـن بَـلَـغَ غـايَـةَ العِنَادِ، لا يَنفَعُ فِـيـهِ مُـعـجِـزَةٌ، ولا يُـجدِي مَعَهُ دَلِيلٌ

(1) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 5/41.

﴿وَقَالُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ مَلَكٞۖ وَلَوۡ أَنزَلۡنَا مَلَكٗا لَّقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ٨﴾ [الأنعام: 8]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

مُهاتراتُ الكافرين متواليةٌ

هذه الآيةُ تتمَّةٌ لما سبقها؛ حيث أشارتِ الآيةُ السّابقةُ إلى ما أشارَ عليهم اليهودُ باقتراحهم من إنزال الكتابِ، فأَخبر هنا أنّهم اقترحوا لهم ظهورَ المَلَكِ، وبيّن لوازمَه، فإنّهم قالوا: لو بعثَ اللّه رسولاً لوجبَ كونه ملكًا؛ ليكون أكثرَ علمًا، وأقوى قدرةً، وأظهرَ امتيازًا عنِ البشر، فتكون الشّبهةُ في رسالته أقلّ، والحكيمُ إذا أراد تحصيلًا مهمًّا كان الأَولَى تحصيلَه بما هو أسرعُ إيصالاً إليه[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مَلَكٞۖ﴾: اسمٌ ثلاثيٌّ مُجرَّدٌ، جذرُه اللّغويُّ من (مَلَكَ)، وفيه خلافٌ في أنّ جذرَه اللّغويّ مِن (ألك)، والملك هو واحدُ الملائكة، ولفظه مَفعَل منَ الأُلوك، وهو الرّسالة، و"الميم واللّام والكاف أصلٌ صحيحٌ يدلُّ على قوّةٍ في الشّيء"، "وأمّا المَلَك فالنّحويّون جعلوه من لفظِ الملائكة، وجعلَ الميمَ فيه زائدةً، وقالَ بعضُ المُحقِّقين: هو منَ المِلْكِ، قال: والمُتوَلّي منَ الملائكة شيئًا منَ السّياسات يُقال له: مَلَكٌ بالفتح"[2].

"وقالوا: إنّ المَلَكَ كجبلٍ مِن هذا، وأصلُه مألك، ثمّ بالنّقل ملأك، ثمّ خُفِّفَ فصار ملكًا؛ لأنّ المَلَكَ رسولٌ يحملُ رسالةً منَ اللّه ﷻ إلى مَن أرادَ مِن عبادِه"[3].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/25 - 26.
(2) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (ملك).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (ألك - لأك).

2) ﴿ٱلۡأَمۡرُ﴾: اسمٌ ثلاثيٌّ مُجرَّدٌ مِن (أمرَ يأمرُ أمرًا)، وجذرُه اللّغويُّ مِن (أَمَرَ)، وله معانٍ عدّة، ومنه: "الأمرُ نقيضُ النَّهي، والأمرُ واحدٌ من أمور النّاسِ، وإذا أمرت منَ الأمر"، "فأمّا الواحدُ منَ الأمور فقولهم: هذا أمرٌ رضيتُه، وأمرٌ لا أرضاه، وفي المثل: أمرٌ ما أتى بك"، و"الأمر: الشّأن، وجمعه أمور... إذا كلّفتَه أن يفعلَ شيئًا، وهو لفظٌ عامٌّ للأفعال والأقوال كلِّها"[1].

والأصلُ في الأمر طلبُ الفعلِ، لكنّه قد يُطلَقُ "باعتبار الحالِ والبيانِ، فيشمل ذلك الأقوالَ والأفعالَ"[2]. ومعنى قُضي الأمر في الآية: "لَوَجَب العذابُ، وفُرغ منَ الأمر، وهذا سنّةُ اللّهِ في الكفّار أنّهم متى اقترحوا آيةً فأُنزِلَت، ثمّ لم يؤمنوا استُؤْصِلوا بالعذاب"[3].

3) ﴿يُنظَرُونَ﴾: فعل مضارع مبنيٌّ للمفعول، مسندٌ إلى الجماعة، الجذرُ اللّغويُّ منه (نَظَرَ)، والنّظرُ معروفٌ لكنّه على شطرين؛ نظرُ العينِ ونظرُ القلبِ، والأصلُ في معنى النّظر "تأمّلُ الشّيءِ ومُعايَنَتُهُ، ثمّ يُستعارُ، ويُتّسَعُ فيه"، و"النّظر: تقليبُ البصرِ والبصيرةِ لإدراك الشّيءِ ورؤيتِه، وقد يُرادُ به التّأمّلُ والفحصُ، وقد يرادُ به المعرفةُ الحاصلةُ بعد الفحصِ، وهو الرَّويّةُ، يُقال: نظرتَ فلم تَنْظُر؛ أي: لم تتأمَّلْ ولم تَتَروَّ، وقوله تعالى: ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ [يونس: 101]؛ أي: تأمّلوا"[4].

ومن معانيه: "الإمهالُ والانتظارُ المأخوذُ اشتقاقيًّا منَ التّرقُّبِ والتّفحُّصِ في المواجهة في المعنى المحوريّ، فإنّ التّفحُّصَ والتّأمُّلَ يستغرقُ زمنًا"[5]، وهو الواردُ في الآية؛ فإنّ معنى ﴿لَا يُنظَرُونَ﴾ "لا يؤخَّرون، ولا يُمْهَلون ليُؤمنوا"[6].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

وكان من أمانيهم الكاذبةِ قولُهم تحضيضًا: هَلّا أُنزل على محمّد مَلَكٌ منَ السّماء؛ كي نصدِّقَه، ونؤمنَ به! فبيَّنَ الحقُّ ﷻ أنّكم لا تطيقون التّلقّي عنِ المَلكِ، وأنّ مِن حكمته

(1) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (أمر).
(2) السّمين، عمدة الحفّاظ: (أمر).
(3) البغويّ، معالم التّنزيل: 3/129.
(4) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (نظر).
(5) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (نظر).
(6) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 7/80.

تعالى بكم أن لا يجيبَكم إلى ما طلبتم؛ فإنّه لو أنزل المَلَكَ، ثمّ نظروا إليه وعاينوه، ولم يؤمنوا؛ فعندئذٍ سيُعاجَلون بالعذابِ والعقوبةِ، ثمّ لا يُمهَلون لتوبةٍ؛ فقد سبقَ في علمِ اللّهِ أنّهم لا يؤمنون.

الصُّورةُ الثّانيةُ مِن تعنُّتِ الكافرين بطلب نزول مَلَكٍ مِن السَّماء

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

وجْهُ استعمالِ ﴿لَوْلَآ﴾ الدّالَّةِ على التَّحضيضِ:

في قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌۖ﴾، ﴿لَوْلَآ﴾: حرفٌ يفيدُ التّحضيضَ[1] بأن تكونَ بمعنى هَلّا، "والتّحضيضُ مُستعمَلٌ في التّعجيز على حسب اعتقادِهم"[2]؛ أي: أنّه لن يستطيعَ ذلك بحسب زعمِهم وظَنِّهم.

التَّعجيزُ بحسبِ اعتقادِهم

بلاغةُ تقديمِ المُتعلَّقِ على نائب الفاعل:

في قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌۖ﴾ قَدَّم المُتعلَّقَ ﴿عَلَيْهِ﴾ على نائب الفاعلِ ﴿مَلَكٌۖ﴾، والأصلُ تأخيرُه، والتّقديمُ يفيدُ الاختصاصَ، اختصاصَ نزولِ المَلَكِ عليه لا على غيره؛ ليشهدَ له بالرّسالة، وفي طلبهم هذا محاولةُ تعجيزِه ﷺ؛ ولأنّ الضّميرَ في المُتعلَّقِ عائدٌ عليه ﷺ[3]، وهو مفهومٌ منَ المقام.

اختصاصُ إنزالِ المَلَكِ على الرَّسولِ لا على غيره

تناسبُ جُملَتَيِ التَّحضيض ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ﴾، والشَّرطِ ﴿وَلَوْ أَنزَلْنَا﴾:

قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا﴾، هنا جملتان الأولى تحضيضيّة ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ﴾، وهي بمعنى: هَلّا[4]، والثّانية شرطيّة، وهو تناسبٌ يُعدُّ من محسّنات الوصلِ[5]، أن تكونَ الأولى مُطلَقةً عنِ التّقييد، والثّانيةُ مُقيّدةً؛ لوجود الجواب، وهو قضاؤُه بهلاكهم، وعدمُ الإيمانِ منهم مُقيّدٌ بطلبهم إنزالَ المَلَكِ؛ لذلك حسُن الوصل عطفًا بالواو بين الجملتين.

جملةُ التَّحضيضِ مُطلَقةٌ، وجملةُ الشَّرطِ مُقيَّدةٌ، وهو من محسِّناتِ الوصلِ

(1) الزّجّاجيّ، حروف المعاني والصّفات، ص: 4.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/143.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/143.
(4) ابن الجوزيّ، زاد المسير: 2/11.
(5) الدّسوقيّ، حاشية الدّسوقيّ على مختصر المعاني: 2/575.

دلالةُ فِعْلَي الجوابِ بينَ البناءِ للفاعل، والبناءِ للمفعول:

العظمةُ وتربيةُ المهابةِ، وتوهينُ المخاطَبين

في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ﴾، جاءَ بالفعل (أنزلنا) مبنيًّا للفاعل مع إسناده إلى (نا) الجمع الدّالّة على العظمة، "مع كونه في السّؤالِ مبنيًّا للمفعول؛ لتهويلِ الأمرِ، وتربيةِ المهابةِ، وبناءُ الثّاني للمفعول للجري على سنن الكبرياءِ"[1]، كما أنّ البناءَ للمفعول في الفعل (يُنظَرون) فيه توهينٌ واستصغارٌ للمُخاطَبين مِن أن يُقال في حقّهم: ثمّ لا ينظرُ اللّهُ إليهم.

نُكتَةُ حَذفِ حَرفِ الاستِعلاءِ في قَولِ اللهِ تعالى: ﴿وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا﴾:

سَدَّ القُرآنُ الكَريمُ جَميعَ مَداخِلِ أَهلِ الضَّلالِ

نُصَّ على حرفِ الاستعلاءِ (عَلَى) في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌۖ﴾، وحُذِفَ في قولِهِ سُبحانَهُ: ﴿وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا﴾، ولَم يَرِدِ النَّظمُ القرآنيُّ: (ولو أنزلنا عليهِ ملَكًا)، وذلك لنُكتَتَينِ:

إحداهُما: عَدَمُ الاحتياجِ إلى ذكرِها في ردِّ كلامِهِم؛ اكتفاءً بذِكرِها أوَّلًا.

والأُخرَى: لئلّا يَكونَ فيه تسليمٌ لِما أَلَمحوا إليهِ مِن إنكارِهِم نزولَ المَلَكِ عليهِ بالوَحيِ مِنَ اللّهِ تعالى[2].

وجهُ مجازِ الحذفِ في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ ٱلْأَمْرُ﴾:

قضاءُ الأمرِ بإهلاكهم، لا يحصلُ إلّا بعد تكذيبِهم

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ﴾، فيه مجازٌ بالحذف، التّقدير: ولو أنزلنا ما يطلبون منَ المَلَكِ، فإمّا أن يصدّقوا فينجوا، وإمّا أن يكذّبوا فيُقضَى عليهم الأمرُ بعذابهم وهلاكهم[3]، على الاحتمالين. أو المعنى: لو أنزلنا مَلَكاً فكفروا بعد ذلك؛ لَعَجَّل لهم العذابَ، ففي الكلامِ على هذا حذفٌ[4].

(1) الآلوسّي، روح المعاني: 7/97.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/26.
(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/270.
(4) ابن جزيّ، التّسهيل لعلوم التّنزيل: 1/254.

معنى (اللّام) الواقعةِ في جواب ﴿لَوْ﴾:

تفيدُ اللّامُ الواقعةُ في جواب ﴿لَوْ﴾ العِوضَ عنِ المضافِ إليه بقرينة السّياقِ؛ أي: لَقُضي أمرُ عذابِهم الّذي يتهدّدهم اللّهُ به[1].

العِوضُ عنِ المضاف إليه

فائدةُ التَّعبيرِ بـ (ثمّ) في قوله: ﴿ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ﴾:

في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ﴾ عبّر بحرف العطفِ الّذي يقتضي التّرتيبَ مع التّراخي، وفائدتُه "التّنبيهُ على أنّ عدمَ الإنظار أشدُّ من قضاءِ الأمر؛ لأنّ مفاجأةَ الشِّدّةِ أشدُّ من نفسِ الشِّدّةِ"[2].

نفيُ الإنظارِ أشدُّ من وقوع العذابِ

تَوجِيهُ المُتَشابِهِ اللَّفظِيِّ بَينَ: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾ وَقَولِهِ: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ﴾:

قالَ اللّهُ ﷻ: ﴿وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ﴾، وقالَ سُبحانَهُ: ﴿وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي ٱلْأَسْوَاقِ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ۝٧﴾ [الفرقان: 7]، فَخُصَّت كلُّ آيةٍ بحرفِ جرٍّ مغايرٍ، ووجهُ ذلك أنَّ آيةَ الأنعام تقدَّمَها قولُ اللّهِ ﷻ: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِي قِرْطَاسٍ﴾، فلمّا خُصَّ إنزالُ الكتابِ بحرفِ الجرِّ (علَى)؛ ناسبَهُ أن يُخصَّ إنزالُ المَلَكِ بالحرفِ نفسِهِ.

أمّا آيةُ الفرقانِ فقد صُدِّرت بقولِهِ تعالى: ﴿وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي ٱلْأَسْوَاقِ﴾، فلمّا كان هؤلاءِ يُريدونَ أن يكفَّ رسولُ اللّهِ ﷺ عنِ التَّنقُّلِ والحرَكَةِ، وأن يصلَ إليهِ ما يُريدُهُ مِن غيرِ تعبٍ مِنه؛ كان الأنسبُ التَّعبيرَ بحرفِ الجرِّ (إلَى).

دِقَّةُ النَّظمِ القُرآنِيِّ في استِعمالِ حُروفِ المَعاني في سِياقاتِها المُلائِمَةِ لها

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/143.

(2) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 12/171.

﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ۝٩﴾ [الأنعام: 9]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

تعليل سببِ بَوارِ منطقِهم

لمّا اقترحَ المُشركون بقولهم: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾، قال ابنُ عبّاسٍ: "قالوا: يا محمَّدُ ﷺ، لن نؤمن لك حتَّى تأتيَنا بكتابٍ من عند اللّهِ، ومعه أربعةٌ من الملائكةِ، يشهدون أنَّه من عندِ اللّهِ وأنَّك رسولُهُ"[1]؛ جاءت هذه الآيةُ ردًّا على قولِ من قال منهم هذا الكلامَ، فبيَّنتِ الآيةُ: أنَّ اللّه لو أنزلَ ملكًا؛ لظهرَ لهم بزيِّ رجلٍ، فلا يعرفونَهُ أنَّه ملكٌ.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿جَعَلْنَٰهُ﴾: جذر الكلمةِ هو (جعل)؛ وهو لفظٌ عامٌّ في الأفعال كلِّها، وهو أعمُّ من فعل (صنع)[2]، قال تعالى: ﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ [الأنعام: 1]، أي: خلقَهُما. و﴿وَجَعَلَ﴾ في الآية بمعنى: صيَّر، المقتضي تصييرَ شيءٍ آخر، أو تعويضه به[3].

2) ﴿وَلَلَبَسْنَا﴾: جذرُ الكلمةِ هو (لَبَس): من لَبَس يَلْبِس، واللَّبْسُ: خَلط الأمور بعضِها ببعضٍ؛ إذا التَبَسَت، يُقال: لبستُ عليه أمره، قال: ﴿وَلَا تَلْبِسُواْ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ﴾ [البقرة: 42]، وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ [الأنعام: 82][4]، والأصل الثّاني لهذه المادَّةِ هو اللِّباسُ: وهو ما وارَيتَ به جَسَدَك، من: لَبِسَ يَلبَس، ومنه: اللَّبوسُ: الدِّرع، وكلُّ ما تَحَصَّنتَ به، ولباسُ التَّقوى: الحَياءُ، وجعل التَّقوى

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/441.
(2) الراغب، المفردات: (جعل).
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 7/145.
(4) الراغب، المُفردات: (لبس).

لباسًا على طريقِ التَّمثيلِ والتَّشبيهِ، قال تعالى: ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ﴾ [الأعراف: 26]. ومعنى اللَّبس هنا: خلطٌ يعرض في الصِّفاتِ والمعاني، بحيث يعسرُ تمييزُ بعضِها من بعض.

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

يردُّ اللّٰهُ تعالى على المشركينَ مقترحَهُم؛ إذ لو جُعِلَ الرَّسولُ المرسلُ إليهم مَلَكًا - كما اقترحوا - لصُيِّرَ في صورةِ رجلٍ، وهو أمر يسير على اللّٰه تعالى؛ حتى يستطيعوا السَّماعَ منه ومخاطبتَه؛ لأنَّ النّاسَ لا طاقةَ لهم على رؤيةِ المَلَكِ في صورتهِ الملائكيَّةِ، فلو جعل اللّٰهُ الرَّجلَ المرسلَ إلى البشر ملكًا؛ لفرّوا من مقاربتهِ وما أنِسوا به، ولداخلهم الرُّعبُ من كلامِه، فلا تتحقَّقُ المصلحةُ والانتفاع بالرِّسالة، ولو نقلَ اللّٰهُ الرَّسولَ الملائكيّ الذي افترضوه عن صورةِ الملائكةِ إلى مثلِ صورتهِم لاشتبهَ الأمرُ عليهم، كما اشتبهَ عليهم أمرُ محمَّد ﷺ، ولقالوا: لستَ مَلَكًا، وإنَّما أنت بشرٌ[1].

إبطالُ مَطلَبِ المشركين، في بَعثِ الرَّسولِ على صُورةِ مَلَكٍ أمينٍ

وتُرشِدُ الآيةُ الكريمة إلى أنَّ الرَّسولَ ينبغي أن يكونَ من نوعِ المرسَل إليهم، كما أشارَ تعالى إلى ذلك بقوله: ﴿قُل لَّوۡ كَانَ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَلَٰٓئِكَةٞ يَمۡشُونَ مُطۡمَئِنِّينَ لَنَزَّلۡنَا عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكٗا رَّسُولٗا ٩٥﴾ [الإسراء: 95][2].

الإِيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالةُ التَّرقِّي في إجابةِ طلبِهم، بإنزالِ مَلَكٍ بالرّسالةِ:

قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ جَعَلۡنَٰهُ مَلَكٗا لَّجَعَلۡنَٰهُ رَجُلٗا﴾ عُطِفَ على قوله: ﴿وَلَوۡ أَنزَلۡنَا مَلَكٗا لَّقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ﴾ [الأنعام: 8]، فهو جوابٌ ثانٍ عن مقترحهم، فيه ارتقاءٌ في الجوابِ، فكان الأوَّلُ اقتراحَ إنزال المَلَك على هيئتِه

القُدراتُ البشريَّةُ قاصرةٌ عن إدراكِ الغيبِ، دونَ إيمانٍ ولا وحْيٍ

(1) أبو حيّان، البحر المُحيط: 4/425، ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 3/242.
(2) الشنقيطي، أضواء البيان: 2/218.

الحقيقيَّةِ، والثّاني: إنزالَ المَلَكِ بما يناسب حالةَ المخاطبين، فيكون مثلَهم؛ لأنَّ الإنسانَ عن الإنسانِ أفهمُ، وطباعَهُ بطباعِهِ آنسُ، وعلى قدرِ ذلك يكونُ موقعُ ما يسمع منه[1]، فيكونُ بهيئةِ رَجُلٍ، وهذا ما يستدعي اللَّبسَ عليهم مرَّةً أخرى.

ومقترحُهُم يستلزمُ الاستغناءَ عن بعثةِ رسولٍ من البشرِ؛ لأنَّه إذا كانت دعوةُ الرَّسولِ البشريِّ غير مقبولةٍ عندهم، فقد صار مجيءُ رسولٍ بشريٍّ إليهم، غير مجدٍ للاستغناءِ عنه بالمَلَكِ الَّذي يُصاحِبُهُ، على أنَّهم صرَّحوا بهذا اللّازم فيما حُكي عنهم في غيرِ هذه الآيةِ، وهو قوله تعالى: ﴿قَالُواْ لَوۡ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً﴾ [فصّلت: 14]، فجاء هذا الجوابُ الثّاني صالحًا لردِّ الاقتراحين[2].

سِرُّ إيثارِ استخدامِ الجُملةِ الشَّرطيَّةِ بأداةِ الشَّرطِ ﴿لَوۡ﴾:

امتناعُ حُصولِ مقترحِ إرسالِ المَلاكِ، صونٌ للبشريَّةِ من الهَلَاكِ

وقدِ اصطَفَى النَّظمُ الكَريمُ الجُملةَ الشَّرطيَّةَ بأداةِ الشَّرطِ ﴿وَلَوۡ﴾، وهو حرفُ امتناعٍ لامتناعٍ في الجَوابَين، وهو الأنسَبُ؛ لأنَّه يقيمُ الجوابَ على امتناعِ حصولِ ما يطلبون، إمّا صونًا لهم عن الهلاكِ التّامِ ﴿لَّقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ۝٨﴾ [الأنعام: 8]، وفي هَلاكِ هؤلاءِ وأمثالهم هلاكٌ للبشريَّةِ وانحسارٌ لها، وفي ذلك حكمة إلهيَّةٌ عظيمةٌ، وإمّا لعدمِ حصولِ اليقينِ بالتَّلبيسِ الَّذي يَصونُهم أيضًا مِنَ الهَلاكِ لو حَصَلَ ما طَلَبوا كما أرادوا.

ثَراءُ موقِعِ الضَّميرِ، في ﴿وَلَوۡ جَعَلۡنَٰهُ﴾ ... ﴿لَّجَعَلۡنَٰهُ رَجُلٗا﴾:

الضَّميرُ له أثرٌ بالغٌ في سَعَةِ المعنى وإيجازِ اللَّفظِ

إن عادَ الضَّميرُ للمطلوبِ (الملك)؛ فهو جوابٌ ثانٍ، وإن عاد الضَّميرُ للرَّسولِ، فهو اقتراحٌ ثانٍ، فإنَّهم تارةً يقولون: ﴿لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ مَلَكٞۖ﴾، وتارةً يقولون: ﴿لَوۡ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً﴾ [فصّلت: 14]، والمعنى: ولو جعلنا قرينًا لك مَلَكًا يُعاينونه، أو الرَّسولَ ملكًا لمثَّلناهُ

(1) الجاحظ، كتاب الحيوان: 1/35.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتَّنوير: 7/145.

رجلًا، كما مَثُلَ جبريلُ - عليه السلام - في صورة الصَّحابيِّ دِحيَةَ الكلبيِّ أمام النَّبي ﷺ؛ فإنَّ القوَّة البشريَّة لا تقوى على رؤية المَلَكِ في صورتهِ الحَقيقيَّةِ التي خَلَقه اللّه عليها، وإنَّما رآهم كذلك الأفرادُ مِنَ الأنبياءِ - عليهم الصلاة والسلام - بقوَّتهم القُدسيَّة[1]، فشملَ موقعُ الضَّميرِ الحالتين المذكورتينِ في القرآنِ مع إيجازٍ وبلاغةٍ.

نُكتةُ تَفصِيل الحِكمَةِ في جَعْلِ المرسَلِ بالوحْيِ، رَجُلًا لا مَلَكًا:

لا يُحَقِّقُ المَلَكُ الرَّسُولُ رُوحَ الرِّسَالَةِ وغَايَتَهَا

وحكمةُ جعلِ المَلَكِ المُقترحِ لأداءِ الرِّسالةِ رجُلًا؛ لعلمهِ سبحانه بعدمِ إمكانِ أداءِ الرِّسالةِ إلّا أن يكون الرَّسولُ رجُلًا؛ لاختلاف جنسِ النّاس عن جنسِ الملائكةِ، ثمَّ إنَّه لو جعله ملكًا على حقيقتهِ؛ فلعلَّ ذلك يكون سببًا في هلاكِهم خوفًا أو قهرًا أو طبيعةً، ثُمَّ إنَّ أصلَ الرِّسالةِ وقبولَها كونُها طواعيَّةً لا عنوةً أو جبرًا، ولو شاء اللّهُ لخلقَ النّاس مجبرين على الإيمانِ، ولو أنَّه أنزل ملكًا رسولًا؛ لهابهُ النّاس وآمنوا به ظاهرًا، ولانشغلَ النّاس بإخفاء ما في دواخلِهم من الكُفرِ والنِّفاقِ، وأظهروا الإيمانَ لرسولهم المَلائكيِّ وقايَةَ بَطشِهِ، وهكذا فلا يُحقِّق المَلَكُ الرَّسولُ روحَ الرِّسالةِ، وهي الإيمانُ بالطَّواعيَّةِ، قال تعالى: ﴿فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡۚ﴾ [الكهف: 29].

بلاغةُ التَّشبيهِ البليغِ، في قوله تعالى: ﴿لَّجَعَلۡنَٰهُ رَجُلٗا﴾:

قوّة الشَّبَهِ بين الطَّرَفيْن تُوهِمُ أنَّهما واحدٌ، وهما مُنفكّان عقلًا وواقعًا

قولُه: ﴿لَّجَعَلۡنَٰهُ رَجُلٗا﴾؛ أي: لجعلناهُ في صورةِ رجلٍ[2]، فيلبس عليهم كونه ملكًا، فقالوا: كيف يكونُ المَلَكُ رجلًا[3]؟ فحذف وجه الشَّبهِ وأداة التَّشبيهِ، فهو تشبيهٌ بليغ، دلَّ على قوَّةِ الشَّبهِ الموهِمَةِ عدمَ تحقُّق المطلوبِ، وقد آثرَ النَّظمُ الكريمُ: ﴿رَجُلٗا﴾ على بشرٍ؛ إيذانًا بأنَّ الجعْلَ بطريقِ التَّمثيلِ، لا بطريقِ قلبِ الحقيقةِ، وفيه

(1) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 2/155.
(2) مجاهد، تفسير مجاهد: 1/319.
(3) سفيان الثوري، تفسير سفيان الثّوري: 1/106.

تعيينٌ لما يقعُ به التَّمثيلُ[1]، كما أنَّ في التَّشبيهِ البليغِ بيانًا لرحمتِهِ - تعالى - بخلقِهِ.

سِرُّ ترتيبِ الضَّميرَيْنِ وتَكْرارِ ﴿جَعَلْنَٰهُ﴾، في سياقِ الآيةِ الكريمةِ:

المناسبةُ التَّامَّةُ بين الأسلوبِ والمعنى المرادِ، من بلاغةِ البيانِ المستفادِ

في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا﴾: روعي في تركيبِ اللّفظ ما يناسبُ المعنى الثّاني لكلامهم، فمعنى: ﴿جَعَلْنَٰهُ﴾ الأولى: اخترنا، ومعنى ﴿لَّجَعَلْنَٰهُ﴾ الثّانية: صيَّرنا أو صوَّرنا، أي: لو اخترنا رسولًا إليهم ملكًا؛ لتعيَّن أن نصوِّرَ ذلك المَلَكَ بصورة رجلٍ ليطيقوا رؤيتَه وخطابَه، وقد أحاطَ بالكلمتين سياقٌ واضحٌ في تحديدِ المرادِ من اللَّفظتين، ولم يقلِ النَّظْمُ: ولوِ اخترناه ملكًا لصيَّرناهُ رجلًا، وإنَّما جاء كذلك تناسبًا مع ما ينتجهُ مقترحُهم مِنَ اللَّبْس والخلطِ عليهم، فشاكلَ اللَّفظَ المرادَ؛ إذ يوهم عند بادِهِ النَّظرِ أنَّ معنى اللَّفظَتين واحدٌ.

بلاغةُ التَّعبيرِ بالتَّشبيهِ الضِّمنيِّ، في قولِهِ تعالى: ﴿وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم﴾:

تمامُ الحُجَّةِ قاطعٌ، في عدمِ تحقيقِ مطلوبِهم التّعجيزيِّ المتوهَّمِ

"جملة ﴿وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾ من تمام الدَّليلِ والحجَّةِ عليهم بعدم جدوى إرسال المَلَك[2]، والجملةُ تشبيهٌ ضمنيٌّ؛ إذ يفهمُ المشبَّهُ والمشبَّهُ به ضمنًا لا صراحةً، والمعنى: للبسنا عليهم لبسًا كالَّذي يلبسونهُ على كون الرَّسولِ بشرًا، وورودُ التَّعبيرِ على صورةِ التَّشبيهِ الضِّمنيِّ هو الألصقُ والأبرُّ بالمعنى المقصود؛ لما في التَّلبيس من خفاءِ وجهِ المراد، وتعدُّدِ الاحتمالاتِ، قال أبو حيان: أو كان يحصلُ التَّلبيسُ لاعتقادِهم أنَّ الملائكةَ إناثٌ، فلو رأوه في صورةِ رجلٍ حصل التَّلبيسُ عليهم كما حصلَ منهم التَّلبيسُ على غيرِهم"[3].

"أي: ولَلَبَسْنا عليهم لَبْسَهُم الَّذي وقعَ لهم حين قالوا: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ

(1) القاسمي، محاسن التأويل: 4/320.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/145.
(3) أبو حيّان، البحر المُحيط: 4/443.

﴿عَلَيۡهِ مَلَكٞۖ﴾، أي: مثل لبسِهم السّابق الَّذي عَرَضَ لهم في صدق محمَّدٍ ﷺ[1]، ولخلَطنا عليهم ما يخلطون على أنفسِهم حينئذٍ، فإنَّهم سيقولون: إذا رأوا المَلَكَ في صورةِ إنسانٍ: هذا إنسانٌ وليس بمَلَكٍ[2].

ردُّ ما قيلَ في قولهِ تعالى: ﴿عَلَيۡهِم﴾، بأنَّ المَعنَى في أهلِ الكِتَاب:

عند قوله تعالى: ﴿وَلَلَبَسۡنَا عَلَيۡهِم مَّا يَلۡبِسُونَ﴾: قال الضَّحّاك: يعني أهلَ الكتابِ؛ لأنَّهُم غيَّروا صفةَ النَّبي ﷺ في كتابهِم، وعَصَوا ما أمروا به، وقال الكسائيُّ: يُقال لبستُ عليهم الأمْرَ ألبسُهُ لَبسًا؛ إذا خلطْتُهُ، أي: أشكلْتُهُ[3]، وأورد الطَّبريُّ قولَ الضَّحّاكِ: ﴿وَلَلَبَسۡنَا عَلَيۡهِم مَّا يَلۡبِسُونَ﴾، يعني: التحريفَ، هم أهل الكتاب، فرَّقوا كُتُبهم ودينَهم، وكذَّبوا رسلهم، فلبَّس اللّهُ عليهم ما لبَّسوا على أنفسهم[4].

وقد ورد في معنى اللَّبسِ كثيرٌ من الآياتِ في أهلِ الكتابِ وتحريفهِم للكِتابِ، قال تعالى: ﴿وَلَا تَلۡبِسُواْ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ﴾ [البقرة: 42]، ﴿لِمَ تَلۡبِسُونَ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ﴾ [آل عمران: 71]، ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ﴾ [الأنعام: 82]، ويقال: في الأمرِ لُبْسَةٌ، أي: التِباسٌ، ولابَسْتُ الأمر؛ إذا زاولْتُهُ، ولابَسْتُ فلانًا: خالطْتُهُ[5].

سياقُ الآيةِ يشملُ جميعَ المُناوئين، وهو لكفَّارِ مكَّةَ خاصَّةً

والمعنى المستفادُ من سياقِ الآيةِ عامٌّ، وهو شاملٌ لجميعِ المُعارضين، لكنَّه يخصُّ كفّارَ مكَّةَ أكثرَ من غيرهِم، فهم من أنكرَ الرِّسالَةَ، وهم مَنْ كذَّبَ رسولَ الله ﷺ بحجَّةِ أنَّهُ بشرٌ مثلهم، فاشترطوا أن يكون الرَّسولُ ملكًا، كما اشترطوا من قبل لإيمانهِم آياتٍ مقترحاتٍ؛ ليصدِّقوا بالرِّسالة وبالرَّسول.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتَّنوير: 7/146.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/8.
(3) النّحّاس، معاني القرآن: 2/403.
(4) ابن جرير، جامع البيان: 11/271.
(5) الراغب، المفردات، ص: 735.

بلاغةُ الاحتِباكِ، في قوله تعالى: ﴿وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾:

إرخاءُ العِنانِ للخصمِ، إلجاءٌ له ليُسَلِّمَ بالحقِّ

وفي الكلام احتباكٌ عند ابن عاشور؛ لأنَّ كلا اللّبسَينِ هو بتقديرِ اللهِ تعالى؛ لأنَّه حرمَهُم التَّوفيقَ، فالتَّقديرُ: (وللبسْنا عليهم في شأنِ المَلَكِ ما يَلْبَسونَ على أَنْفُسِهم في شَأْنِ رسالةِ محمَّدٍ ﷺ، وهذا الكلامُ كلُّه منظورٌ فيهِ إلى حملِ اقتراحِهم على ظاهرِ حالِه من إرادتِهم الاستدلالَ، فلذلك أجيبوا عن كلامِهم إرخاءً للعنان، وإلّا فإنَّهم ما أرادوا بكلامِهم إلّا التَّعجيزَ والاستهزاءَ، ولذلك عقبَهُ بقوله: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ الآية[1]، فدلَّ على ذلك، ودلَّ كذلك على أنَّ مقترحَهم لم يكن نتاجَ شديدِ حرصِهم على طلبِ الإيمانِ، وإنَّما من منطلق الاستهزاءِ والتَّعجيزِ.

غرضُ طريقةِ الالتفاتِ الفعليِّ، في قوله تعالى: ﴿وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾:

تناسخُ الأفكارِ والأفعالِ، ملمحٌ لِلْفَشَلِ والاضمحلالِ

التفتَ من الماضي إلى المُضارع بين ﴿وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم﴾ و﴿يَلْبِسُونَ﴾، فجعلَ ما سيكونُ مستقبلًا في صيغة الماضي لما فيهِ من يقينِ التَّحقُّق، وأن لا احتمالَ سوى ذلك، فالتفتَ في الفعلِ مِنَ الماضي إلى المُضارع في قوله: ﴿يَلْبِسُونَ﴾، ودلالةُ هذا الفعلِ على التَّجدُّد والاستمرار هو دليلٌ واضحٌ على إصرارِهم في محاولاتِ تعجيزِهم للرَّسول، ومحاولاتِ الاستهزاءِ، وتجدُّدِ المقترحاتِ والأفكارِ في ذلك.

معنى ﴿مَّا﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿مَّا يَلْبِسُونَ﴾:

تناسُبُ إبهَامِ (ما) مَع إبهَامِ اللَّبسِ عليهِم، من بلاغةِ السّياقِ

(ما) اسمٌ موصولٍ بمعنى (الذي)، أي: ولَلَبَسْنا عليهم الذي كانوا يَلبِسون على أنفسِهم، وتقع (ما) على ذواتِ ما لا يعقلُ، وعلى صفاتِ من يعقلُ، وقوله: ﴿مَّا يَلْبِسُونَ﴾ هي مثالُ الأوَّلِ، وهي مبهمةٌ تقعُ على كلِّ شيءٍ، جاء في بدائعِ الفوائدِ: "أن (ما) اسمٌ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتَّنوير: 7/146.

مبهمٌ في غاية الإبهامِ، حتى أنَّها تقعُ على كلِّ شيءٍ، وتقعُ على ما ليس بِشَيءٍ، ألا تراك تقول: (إنَّ اللّه يعلم ما كان، وما لم يكن)، لفرطِ إبهامِها"[1].

وبناءُ (ما) يوافقُ استعمالها المتَّسع، فإنَّ مَدَّةَ الألفِ المُتَّسعة في آخرِها، تُشاكِلُ الاتِّساعَ في معناها في الأجناسِ[2]، فتظهرُ من ذلكَ عظيمُ اللَّبسِ الَّذي سيكونُ عليهم؛ إذ إنَّهم سيخفى عليهم: هل أنَّ الرَّسولَ الذي أرسل إليهم مَلَكٌ أم بَشَرٌ لِعَظيمِ اللَّبس، فأفادَ استعمالُ (ما) ودِلالَتُها المُتَّسعة على كُلِّ شَيءٍ في شكل المَلَكِ الَّذي سيظهرُ كالبَشَر تَمامًا بتمام، فيلتبس عليهم الأمرُ كلُّه، صوتُه وحركاتُه وإيماءاتُه، بل تلتبسُ عليهم حياتُه كُلُّها، فلا يُدركون أنَّه ملكٌ.

بيانُ العبرةِ المُستفادةِ مِنَ اللَّبسِ عليهم:

اللِّباسُ يعني: الشَّبيهَ في قوله: ﴿وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾ يعني: (ولشبَّهْنا عليهم ما يشبِّهون)[3]. والمعنى: أضلَلْناهُم بما ضَلّوا به قبلَ أن يُبْعَثَ الملكُ[4]، أي: لو أنزلنا إليهم ملكًا على هيئتِهِ لم يروه، فإذا جعلناهُ رَجُلًا؛ التبَسَ عليهم أيضًا ما يلبسون على أنفسِهم، فكانوا يقولون هذا ساحِرٌ مثلُكَ، وقال أبو إسحاق: كانوا يقولون لِضَعَفَتِهِم: (إنَّما محمَّدٌ بشرٌ، وليس بينه وبينكم فرقٌ)، فَيَلبِسونَ عليهم بهذا، ويُشَكِّكونَهُم، فأعلَمَ اللّهُ تعالى أنَّهُ لو أنزل ملكًا في صورة رجلٍ؛ لوجدوا سبيلًا إلى اللَّبس كما يفعلون[5].

اللَّبْسُ على المخاطبينَ، يُظهِرُ الضّعفَ، ومحدوديَّةَ قُدرةِ البشرِ

واللَّبس يُظهر محدوديَّةَ القُدرةِ البشريَّةِ في التَّمييز بين الواقع

(1) ابن قيّم الجوزيّة، بدائع الفوائد: 1/131.
(2) ابن قيّم الجوزيّة، بدائع الفوائد: 1/131.
(3) يحيى بن سلاّم، التّصاريف في تفسير القرآن: 1/120.
(4) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 151.
(5) النّحّاس، إعراب القرآن: 2/57.

والحَقيقةِ، فالمَلَكُ حقيقتُهُ أنَّهُ ملكٌ، ولكنَّ واقع ما سَيَكونُ عليه أنَّه سيأتي بهيئةِ بشرٍ، فيختَلِفُ الواقعُ عنِ الحقيقةِ، وقد أفادَ هذا المعنى: أنَّ كثيرًا من الحقائقِ تكونُ مغيَّبةً عن إدراكِ النّاسِ، فيأتي الوحيُ مِن عندِ اللّهِ ليكشفَ للنّاسِ عن تِلكَ الحقائقِ، فَمن آمنَ بالغيبِ؛ فقد نجى، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ٣﴾ [البقرة: 3].

﴿وَلَقَدِ ٱسۡتُهۡزِئَ بِرُسُلٖ مِّن قَبۡلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنۡهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ١٠﴾ [الأنعام: 10]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

طَلَبُهم لِلمَلَك الرّسول مَحْضُ استهزاء

بعد أن ذكرَ طلبَهم فيما سَبَق أن يُنزِّل عليهم ملكًا رسولًا؛ بيَّن في هذه الآيةِ أنَّ ذلك الطَّلبَ إنَّما كانَ على سبيلِ الاستهزاءِ برسولِ الله ﷺ فقال: ﴿وَلَقَدِ ٱسۡتُهۡزِئَ بِرُسُلٖ مِّن قَبۡلِكَ﴾، فدلَّ على أنَّ مقترحَهم كان استهزاءً، وأنَّهم لم يطلبوا ذلك بقصد الإيمانِ والتَّحقُّق، وبيَّن لرسولِه أنَّ هذا الطَّلبَ كان له سابقةٌ أذِيَّةٍ في قرونٍ خَلَتْ مع الرُّسلِ قبلَ بعثتِه ﷺ، فناسبَ وقوعُ الآيةِ من سابقتها موقعَ التَّسليةِ والتَّصبيرِ.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱسۡتُهۡزِئَ﴾: جذرُ الكلمةِ هو (هزأ)، من: هَزَأَ الرّاحلةَ؛ إذا حَرَّكها، والهُزءُ: مزحٌ في خفَّةٍ[1]، وأصل المادَّةِ من استخفافِ المستهزِئِ بالمُسْتَهزَأ به، وذَهاب قيمتهِ عندَهُ، وكلُّ ما ورد في القرآنِ من هذا التركيبِ؛ فهو بمعنى الاستهزاءِ والسُّخريةِ مع استخفافِ قدْرِ المستهزَأ بهِ[2].

2) ﴿فَحَاقَ﴾: جذرُ الكلمةِ هو (حيق)، والمصدرُ: الحَوقُ والحوقُ لغتان، وهو نزولُ الشَّيءِ بالشَّيءِ، والحَيْقُ: ما حاقَ بالإنسانِ مِن مُنكَرٍ أو سوءٍ يعملُهُ، فينزلُ بهِ ذلكَ، تقولُ: أحاقَ اللهُ به مكرَهُ[3]، قال تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلۡمَكۡرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهۡلِهِۦۚ﴾ [فاطر: 43]، أي: لا ترجعُ

(1) الراغب، المفردات: (هزؤ).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (هزأ).
(3) الخليل، العين، ابن فارس، مقاييس اللغة: (حيق).

عاقبةُ مكرهِم إلّا عليهِم![1] والحَوقُ: الكَنْسُ، حُقْتُ البيتَ أحوقُهُ؛ إذا كنستُهُ[2]، وهذا المعنى يدلُّ على جميلِ التَّعبيرِ في الآيةِ الكريمة في قولِه: ﴿فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ﴾، فصاروا باستهزائِهِم من الرُّسُلِ كالأوساخِ الَّتي تُكْنَسُ.

3) ﴿سَخِرُواْ﴾: جذرُ الكلمةِ هو (سخر): يقال: سَخِرَ منهُ وبه، أي: استهزأَ، والسُّخريَّةُ: مصدرٌ في المعنيينِ جميعًا، قال اللّهُ جلَّ وعزَّ: ﴿فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى﴾ [المؤمنون: 110]؛ أي: سُخريَّة، وسِخريًّا في الاستهزاء[3].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

تسليتُهُ ﷺ بأنَّ الاستهزاءَ بالرُّسلِ - عليهم السلام - ليس أمرًا حادِثًا

لمّا حكى اللّهُ طلبَ المشركينَ إنزالَ المَلَكِ على جهةِ الاستهزاءِ بمحمَّد ﷺ؛ بيَّن تعالى له أنَّ الاستهزاء بالمرسلين - عليهم السلام - ليس خاصًّا بك وحدَكَ، وهذا تسليةٌ لرسولِ اللّهِ ﷺ عمّا كان يلقَى من قومِه، وتأسٍّ بمن سبَقَ من الرُّسلِ، وتثبيتٌ للرَّسولِ على عدم اكتراثِه بهِم، وأنَّه تعالى يكفيه شرَّهم وإذايتهم، إذ قد وقعَ من الكفّارِ السّابقين مع أنبيائهِم، فأحاطَ بهِم العذابَ والعقابَ الشَّديدَ المرتَّبَ على الاستهزاءِ الَّذي كانوا ينكرون وقوعَهُ[4].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

سِرُّ العطفِ بالواوِ، في قولِه تعالى: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ﴾:

بيانُ أنَّ التَّعجيزَ ضربٌ مِنَ الاستهزاءِ، وهو دَيدنُ المكذّبين في كلِّ العصورِ

مناسبةُ عطفِ قوله: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ﴾، على قولِه: ﴿وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾ [الأنعام: 8]: أنَّهم كانوا في قولِهم ذلك قاصِدين التَّعجيزَ والاستهزاءَ معًا؛ لأنَّهم ما قالوه إلّا عن يقينٍ

(1) الزّبيديّ، تاج العروس: (حيق).
(2) الجوهريّ، الصّحاح: (حيق).
(3) الخليل، العين: (سخر).
(4) أبو حيّان، البحر المُحيط: 4/444، ونخبة من العلماء، التفسير الميسَّر، ص: 129.

منهم أنَّ ذلك لا يكونُ، فابتدئ الرَّدُّ عليهم بإبطالِ ظاهرِ كلامِهم بقولِه: ﴿وَلَوۡ أَنزَلۡنَا مَلَكٗا لَّقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ﴾ [الأنعام: 8]. ثمَّ ثنَّى بتهديدِهم على ما أرادوهُ مِنَ الاستهزاءِ، فقالَ: ﴿فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنۡهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾، والمقصودُ مع ذلك تهديدُهم بأنَّهم سيحيقُ بهمُ العذابُ، وأنَّ ذلك سنَّةُ اللهِ في كلِّ أمَّةٍ استهزأتْ برسولٍ له، والعطفُ لبيان تفنُّنِهم في المكابرة والعنادِ تصلُّبًا في شركِهم وإصرارًا عليه، فلا يتركون وسيلةً من وسائلِ التَّنفيرِ من قبولِ دعوةِ الإسلامِ إلّا توسَّلوا بها[1].

نُكتةُ التَّعبيرِ بلامِ القَسَم في قوله تعالى ﴿وَلَقَدِ ٱسۡتُهۡزِئَ﴾:

قولهُ: ﴿وَلَقَدِ ٱسۡتُهۡزِئَ بِرُسُلٖ مِّن قَبۡلِكَ﴾، اللّامُ للقسمِ فيه، و(قد) للتَّحقيقِ، وكلاهما يدلُّ على التَّأكيدِ، والمقصودُ تأكيدُ الإخبارِ باعتبار ما تفرَّع عنهُ، وهو قوله: ﴿فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ﴾ إلخ، فحالُ المشركين حالُ المتردِّدِ في أنَّ سببَ إهلاكِ السّالفين مِنَ الأمم الاستهزاءُ بالرُّسلِ، وفي التَّأكيدِ زيادةُ تصبيرٍ وتسليةٌ وتثبيتٌ للرَّسولِ ﷺ.

سنَّةُ اللهِ إهلاكُ المستهزئين، ممّن دأبُهم الاستهزاءُ بالرُّسلِ في كلّ حين

سِرُّ بناءِ الفعلِ للمفعولِ، في قولِه تعالى: ﴿ٱسۡتُهۡزِئَ﴾:

من أسبابِ البناءِ للمَفعولِ مراعاةُ غرضِ السّامِعِ، فلو كانَ السّامِعُ لا غَرَضَ له في ذكرِ الفاعِلِ، أو أنَّ الفاعِلَ لا يعنيه في شَيءٍ، فلا حاجَةَ لذِكرِه، ومثالُهُ في هذهِ الآيةِ قولهُ تعالى: ﴿وَلَقَدِ ٱسۡتُهۡزِئَ بِرُسُلٖ مِّن قَبۡلِكَ﴾؛ فليس مهمًّا هنا عندَ رسولِ اللهِ ﷺ أن يَعلَمَ من الذي استهزأَ بالرُّسُلِ من الأقوامِ الَّتي فعلت ذلك، ولكنَّ المُهمَّ أن يَعلَمَ أنَّ الاستهزاءَ بالرُّسُلِ كانت سُنَّةً كونيَّةً حصلتْ مع رُسُلٍ كثيرين.

الاستهزاءُ بالرُّسلِ دأبُ الكافرين، وهو معهودٌ مع الرّسُلِ أجمعين

ويكونُ الغرضُ من البناءِ للمفعول تحقيرَ الفاعلِ وتهوينَ أمرِه،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/146.

فلا يُذكرُ، وهذا غرضٌ آخر يُضافُ إلى البناء للمفعولِ في قوله: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ﴾، وجاء ذلك في قولهِ تعالى مخاطبًا رسلَهُ يوم القيامة: ﴿۞يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ﴾ [المائدة: 109]، أي: بأيِّ شيءٍ أجابتْ أمَمُكُم وأقوامُكُم لمّا أمرتُموهُم بعبادةِ اللّهِ وحدَهُ؟ إلا أنَّ فاعل أَجَبْتُم حُذِفَ، وبُني الفعل للمفعول؛ لأنَّه لا يستحقُّ الذِّكْرَ تحقيرًا لشأنِهِ، قال الآلوسيُّ في تفسيره: "وفي العدولِ عن ماذا أجاب أمَمُكُم ما لا يَخفَى من الإنباءِ عن كمالِ تحقيرِ شأنِهِم، وشِدَّةِ السَّخَطِ والغَيظِ عليهِم، والسُّؤالُ لتوبيخِ أولئِكَ أيضًا، وإلّا فهو سبحانه علّامُ الغُيوب"(1).

بلاغةُ التَّنكيرِ، في قولهِ تعالى: ﴿بِرُسُلٍ﴾:

قال: ﴿بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ﴾، ولو شاءَ لقالَ: (بِالرُّسُلِ مِن قَبلِكَ)، وذلك لفائدتين الأولى التَّكثيرُ: فتنكيرُ (رُسُل) هنا أفادت معنى: (أنَّ كثيرًا من الرُّسلِ من قَبْلِكَ قد استهزَأَتْ بِهِم أقوامُهُم)؛ ليُعلَمَ أنَّ أمرَ الاستهزاءِ سُنَّةٌ مجتمعيَّةٌ، وهي سُنَّةُ اللّهِ في رُسُله، فأكثر النّاس يكرهون الحقَّ، ويرفضون الهُدى، قال تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ۝٧٨﴾ [الزّخرف: 78]. والفائدةُ الثّانية: أنَّ التَّعريف يفيدُ جميع الرُّسلِ، ولعلَّ بعض الرُّسل لم يتعرَّضوا إلى ذلك الاستهزاءِ، مثالُ ذلك قومُ يونسَ، قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُواْ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْيِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ۝٩٨﴾ [يونس: 98].

الاستهزاءُ بالرُّسل سُنَّةٌ مجتمعيَّةٌ؛ لكراهةِ الحقِّ من كفّارِ البشريّةِ

دلالةُ حرفِ ﴿مِن﴾، في قولهِ تعالى: ﴿مِن قَبْلِكَ﴾:

﴿مِن﴾ ابتدائيَّةٌ للتَّوكيدِ، فلم يقلْ: (ولقد استُهزئَ برسلٍ قبلك)؛ وتُزاد (مِن) إنْ كانَ المجرورُ بها نكرةً، وفائدتُها: الإشعارُ بعميقِ الزَّمانِ الَّذي لاقَت فيه الرُّسُل ذلك الاستهزاءَ من أقوامِها، وعلى

زيادةُ حرفِ الجرّ مع الظّرف، مُوحٍ بإيغالِ ظاهرةِ الاستهزاءِ بالرُّسلِ في الزّمن

(1) الآلوسّي، روح المعاني: 4/53.

مدى القُرونِ، فقد لاقت الرُّسُلُ من عهدِ نوحٍ عليه السلام - وهو أوَّلُ الرُّسلِ - قال تعالى: ﴿وَيَصۡنَعُ ٱلۡفُلۡكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيۡهِ مَلَأٞ مِّن قَوۡمِهِۦ سَخِرُواْ مِنۡهُۚ قَالَ إِن تَسۡخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسۡخَرُ مِنكُمۡ كَمَا تَسۡخَرُونَ ٣٨﴾ [هود: 38]، إلى عيسى عليه السلام -وهو آخرهم - قبل محمَّد ﷺ، فكُلُّ أولئكَ لاقَوا ما لاقَوا من الإنكارِ والعناد والاستهزاء والإيذاء.

بلاغةُ التَّعبيرِ بفاءِ التَّفريعِ، في قوله تعالى: ﴿فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ﴾:

قوله: ﴿فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ﴾ تفريعٌ، على قوله: ﴿وَلَقَدِ ٱسۡتُهۡزِئَ بِرُسُلٖ مِّن قَبۡلِكَ﴾، وقدِ اصطفى النَّظمُ الكريمُ ﴿فَحَاقَ﴾ على (أهلَكَ) لما فيها من الإحاطةِ؛ دلالةً على تمكُّنِ ذلك منهم، وعدمِ إفلاتهِ أحدًا منهم، وفائدةُ ذلك التَّفريع؛ أنَّه لمّا كان الَّذين سَخِروا يدعون النّاس إلى السُّخريَّةِ من الرُّسل، فقد أحاطتْ بهم ذنوبُهُم، وذنوبُ الَّذين سخروا، وحقَّ عليهمُ العذابُ، قال الزَّمخشريُّ: فأحاطَ بهمُ الشَّيءُ الَّذي كانوا يستهزئونَ به، وهو الحقُّ، حيثُ أُهلِكوا من أجلِ الاستهزاءِ بهِ[1].

إهلاكُ السَّاخرينَ إعلامٌ بدفاعِ اللهِ عن أوليائِه المرسلين

علَّةُ التَّعبيرِ بالاسمِ الموصولِ، في قولهِ تعالى: ﴿بِٱلَّذِينَ﴾:

وعبَّرَ بالاسمِ الموصولِ في قوله: ﴿بِٱلَّذِينَ﴾، بدلًا من أن يَقولَ: (بالسّاخرين)؛ للإشعارِ بعلّةِ الحُكمِ، فالعُقوبَةُ والإحاطَةُ أصابَت الَّذين سَخِروا خاصَّةً، والباءُ للإلصاقِ تَناسُبًا مَعَ دِلالةِ ﴿فَحَاقَ﴾، وما فيها من الإحاطةِ، وفي ذلك كلِّهِ تأكيدٌ على الهَلاكِ التّامِّ بسببِ الاستهزاءِ بالرُّسلِ.

تكونُ العقوبةُ والإحاطةُ بالَّذين سَخِروا خاصَّةً، ولا يظلمُ ربُّك أحدًا

وَجهُ عَودِ الضَّميرِ، في قوله تعالى: ﴿مِنۡهُم﴾:

وللتَّعبيرِ بالضَّميرِ في ﴿مِنۡهُم﴾ موقعٌ بديعٌ، فيحتملُ أن يكونَ عائدًا على ﴿بِرُسُلٖ﴾، والمعنى: (فَحاق بالَّذينَ سَخِروا مِن الرُّسُلِ)،

تخصيصُ الهلاكِ بمن يستحقُّه، ولا يجني العقوبةَ إلّا من زرعَ المخالفةَ

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/8.

ويحتملُ أن يكونَ عائدًا على ﴿بِٱلَّذِينَ﴾، والمعنى: (فَحاقَ بالسّاخِرينَ أنفسَهُم)، فيكونُ فيه تخصيصُ الهلاكِ بمن سَخِرَ لا يتعدّاه لغيرِه.

بلاغةُ الاحتباكِ، في ثنايَا الآيةِ الكريمة:

سُنَنُ اللهِ في الوجودِ أقوَى وأبلغُ وأجدَى

قوله: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ يدلُّ على جملتينِ مطويَّتينِ إيجازًا، دلَّ على حذفِ جملةِ: (ولقدِ استهزِئَ بك)، وإثبات جملةِ: ﴿فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ دلَّ على حذف جملةِ: وسيُحاق بالَّذين سخروا منك ما كانوا به يَستَهزِئونَ، فأثبتَ ما وقعَ، وحذفَ ما لم يقع؛ اكتفاءً بالقياسِ على ما وقعَ، وهو أسلوبٌ بديعٌ موجزٌ.

معنى (الباء) في قولِهِ تعالى: ﴿بِهِۦ﴾:

إلصاقُ الاستهزاءِ بالرُّسُلِ وبالرِّسَالَاتِ؛ لبيانِ ما جنتهُ الضّلالاتُ

الباءُ للإلصاقِ تناسبًا مع دلالةِ ﴿فَحَاقَ﴾، وما فيها من الإحاطةِ، قال ابن هشام: "وهو معنًى لا يفارقُها، فلهذا اقتصرَ عليه سيبويهِ"[1]، وكلامُ سيبويهِ يفيدُ أنَّ معنى الإلصاقِ في (الباء) معنًى أصليٌّ، وغيره من المعاني تابعٌ له، فقد أُلصِقَ الاستهزاءُ بالرُّسلِ وبالرِّسالات، لِبَيانِ شَنيعِ ما تفعلُهُ الأقوامُ بالرُّسلِ من التَّكذيبِ والاستهزاءِ، ولبيانِ أنَّ هذه صفةٌ ملتصقةٌ بالأقوام، فهي سُنَّةُ اللهِ في الرُّسُل وأقوامِهم.

وجهُ تقديمِ الجارِّ والمجرور ﴿بِهِۦ﴾:

الهُزءُ بالدِّينِ والشَّرائعِ، أبشعُ صُورِ السُّخريةِ

والباءُ في ﴿بِهِۦ﴾ لتعدية فعلِ الاستهزاءِ، ووجود الباءِ مانعٌ من جعلِ ﴿مَّا﴾ غيرَ موصولةٍ، والمرادُ بـ ﴿مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ ما أنذرَهُمُ الرُّسلُ به مِن سوءِ العاقبةِ وحلولِ العذابِ بهم، فحصلَ بتقديمِ الجارِّ والمجرورِ ﴿بِهِۦ﴾ فائدةٌ أخرى، وهي أنَّ المستهزئينَ كانوا يستَهزِئون بالرُّسل، وبخاصَّةٍ فيما ينذرونَهُم به من حلولِ العذابِ، إنِ استمرّوا على عدم التَّصديقِ، بما جاؤوا بهِ.

(1) ابن هشام، مغني اللبيب، ص: 137.

بلاغةُ المجازِ العقليِّ في سياقِ الآية الكريمةِ:

إسنادُ الهلاكِ لسببهِ تفظيعٌ للاستهزاءِ، وتحفيزٌ على سُرعةِ الإقلاعِ عنهُ

قوله: ﴿فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنۡهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾، أصلُ تركيب الآيةِ: فحاقَ بالَّذين سَخِروا منهم العقابُ لاستهزائهم بما أُنذِروا به، وفي الآية الكريمةِ تمَّ إسنادُ الفعلِ إلى السَّببِ المؤدّي للعقابِ، وهو الاستهزاءُ بالمرسلين، وفي هذا الإسنادِ تبشيعٌ للسَّبب، وتفظيعٌ له في التَّصويرِ كأنَّه المُعاقِبُ، كما أنَّ في هذا الأسلوب إيجازًا ومبالغةً.

وقد ردَّ الآلوسيُّ هذا الإسنادَ إلى الفعل، فقالَ: "ومن النّاس من زعمَ أن (حاق بهم) كنايةٌ عن إهلاكهم، وإسنادُه إلى ما أسندَ إليه مجازٌ عقليٌّ من قبيلِ: أقدمني بلدَك حقٌّ لي على فلانٍ؛ إذ من المعلومِ من مذهبِ أهل الحقِّ أنَّ المُهلِكَ ليس إلّا اللّهُ تعالى، فإسنادهُ إلى غيره لا يكونُ إلّا مجازًا، وأنت تعلم أنَّ الحيقَ: الإحاطةُ، ونسبتها إلى العذابِ لا شبهةَ في أنَّها حقيقةٌ، ولا داعي إلى تفسيرهِ بالإهلاكِ وارتكابِ المجازِ العقلي، ولعلَّ مرادَ من فسَّر بذلك بيانُ مؤدَّى الكلامِ ومجموعِ معناهُ، نعم إذا قلنا: إنَّ الإحاطةَ إنَّما تكون للأجسامِ دون المعاني، فلا بدَّ من ارتكاب تجوُّزٍ في الكلام على تقديرِ إسنادِها إلى العذابِ، لكن لا على الوجهِ الَّذي ذكرهُ هذا الزَّعمُ كما لا يخفى"[1].

معنى ﴿مَّا﴾ في قوله تعالى: ﴿مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾:

كلُّ ما له صِلةٌ بالسُّخرية، قد حَاقَ بالأقوامِ نَكالُه ليُهلِكَهُم

﴿مَّا﴾ هنا اسمٌ موصولٌ بمعنى (الذي)، و(ما) تقعُ على ذواتِ ما لا يَعقِلُ، وعلى صفاتِ من يَعقِلُ، وبذلك فإنَّ (ما) أكثر إبهامًا مِنْ (مَنْ)، وتقعُ على كلِّ شيءٍ[2]. و﴿مَّا﴾ أفادت هُنا أنَّه قد حاقَ بالَّذين سخروا كُلُّ ما كانوا به يستهزئونَ، فكلُّ ما يَمُتُّ بِصِلَةٍ إلى السُّخريَّة مِنَ الرُّسُل ومن الرِّسالاتِ الَّتي جاؤوا بها من عندِ اللّهِ، قد حاقَ بهم، وأحاطَ بهم نكالُه ليُهلِكَهُم.

(1) الآلوسي، روح المعاني: 4/97.
(2) سيبويه، الكتاب: 2/309.

سرُّ ردِّ العَجُزِ على الصَّدرِ، في الآية الكريمة:

قدِ استشهد بالآيةِ في موضع التَّصديرِ، أو ردِّ العَجُزِ على الصَّدرِ، وفائدةُ هذا الفنِّ البلاغيِّ في الآيةِ الكريمة بيانُ ما قد أحاطَ بهؤلاءِ القوم من غَوايةِ الشَّيطان وإضلالِهِ، وتأكيدِ سببِ العذابِ.

تدورُ الدَّوائرُ على المقتفِين غيرَ الحقِّ، والمعانِدِين بالباطلِ

التَّشابهُ اللَّفظِيُّ مع آية الرّعد:

يظهرُ التَّشابُهُ اللَّفظيُّ للآيةِ مع قوله: ﴿وَلَقَدِ ٱسۡتُهۡزِئَ بِرُسُلٖ مِّن قَبۡلِكَ فَأَمۡلَيۡتُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ثُمَّ أَخَذۡتُهُمۡۖ فَكَيۡفَ كَانَ عِقَابِ ٣٢﴾ [الرعد: 32]. وهذه الآية تُفسِّرُ معنى (حاق) في آية الأنعام، فذكرَ بعد ما وقع مِنَ الأقوامِ من الاستهزاءِ بالرُّسلِ، فقال: ﴿فَأَمۡلَيۡتُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾، والذين كفروا هم أنفُسُهُم الذين استهزؤوا بالرُّسُل، وقال: ﴿ثُمَّ أَخَذۡتُهُمۡۖ﴾، فجعل معنى: ﴿وَحَاقَ بِهِم﴾ أن يتضمَّنَ الإملاءَ لهم، ثمَّ أخذهم بما أملَى عليهم.

الحَوقُ يَتَضَمَّنُ الإملاءَ لهم، ثمَّ أخذَهم بما أُمليَ عليهم

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(حاق) و(أحاط):

قولهُ تعالى: ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ٨﴾ [هود: 8]. قال ﷻ: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلۡمَكۡرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهۡلِهِۦۚ﴾ [فاطر: 43]، أي: لا ينزلُ ولا يصيب إلّا أهلَهُ، وأصلهُ حقٌّ، فَقُلِبَ[1]. فَحاقَ تَضَمَّنَتْ معنى إنزالِ العذابِ والإصابةِ، وما يُحقِّقُه من الأثرِ العظيم على خلاف الإحاطةِ، فالحائطُ الجدارُ الَّذي يحوطُ بالمكانِ، والإحاطةُ تُقالُ على وجهين: أحدهما: في الأجسام نحو: أَحَطْتُ بمكانِ كذا، أو تستعملُ في الحفظِ والقدرة نحو: ﴿إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءٖ مُّحِيطُۢ ٥٤﴾ [فصلت: 54]، أي: حافظٌ له من جميع جهاتِهِ، وقادر على التَّصرُّف به، وتستعمل في المنعِ نحو: ﴿إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمۡۖ﴾ [يوسف: 66]، أي: إلّا أن تمنعوا. والثاني: في العلم نحو قولِهِ: ﴿أَحَاطَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عِلۡمَۢا ١٢﴾ [الطلاق: 12]، وذلك ليسَ إلّا للّهِ تعالى، وقال ﷻ: ﴿بَلۡ كَذَّبُواْ بِمَا لَمۡ يُحِيطُواْ

لفظةُ (حاقَ) أبلغُ من (أحاطَ)، في معنى وقوعِ العذابِ وتلبُّسِهِم به

(1) الراغب، المفردات، ص: 266.

بِعِلۡمِهِۦ﴾ [يونس: 39]، فنفى ذلكَ عنهم[1]، فتكونُ الإحاطةُ تحتمل الحفظَ وتمام العلم، وتكونُ كلمةُ (حاق) أبلغَ في وقوعِ العذابِ وتلبُّسِهم به.

(سخروا) و(استهزأوا):

الاستهزاءُ مزحٌ في خفَّةٍ، والسُّخريَّةُ المُبالغةُ فيها

السُّخريَّةُ والاستهزاءُ يمكن أن يحدثا في موقفٍ واحدٍ، فهما درجتان أو مرحلتان؛ والاستهزاءُ يأتي أوَّلًا ثمَّ السُّخريَّةُ، والاستهزاءُ مزحٌ في خفَّةٍ، والسُّخريَّةُ المُبالغةُ في الاستهزاءِ وتسخير الجهدِ فيهِ، قال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوۡاْ ءَايَةٗ يَسۡتَسۡخِرُونَ ١٤﴾ [الصّافّات: 14]، أي: يدعو بعضُهم بعضًا للاستهزاءِ والسُّخريَّةِ.

والاستهزاءُ مرادفٌ للسُّخريَّةِ في كلام أئمَّةِ اللُّغة، فذكر ﴿ٱسۡتُهۡزِئَ﴾ أوَّلًا لأنَّهُ أشهرُ، ولمّا أعيدَ؛ عبَّر بـ ﴿سَخِرُواْ﴾، ولما أعيدَ ثالثَ مرَّةٍ؛ رجعَ إلى فعل ﴿يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾؛ لأنَّه أخفُّ من (يسخرون)، وهذا من بديعِ فصاحةِ القرآنِ المعجزةِ.

وأصلُ مادَّةِ (سخر) مؤذنٌ بأنَّ الفاعلَ اتَّخذ المفعولَ مسخَّرًا يتصرَّف فيه كيف شاءَ بدون حُرمة؛ لشدَّةِ قربِ مادَّةِ (سخر) المخفَّفُ من مادَّةِ التَّسخيرِ، أي: التَّطويعِ، فكأنَّهُ حوَّله عن حقِّ الحرمةِ الذّاتيَّةِ، فاتَّخذ منه لنفسِهِ سخريَّةً[2].

ولقد تعدَّى استهزأَ بـ (الباء)، وسَخِر بـ (من) كما قال: ﴿إِن تَسۡخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسۡخَرُ مِنكُمۡ كَمَا تَسۡخَرُونَ ٣٨﴾ [هود: 38]، وبالباءِ تقولُ: سَخِرْتُ بهِ، وتكرَّرَ الفعلُ في آيةِ هودٍ لخفَّةِ الثُّلاثي، ولم يتكرَّرْ في ﴿وَلَقَدِ ٱسۡتُهۡزِئَ﴾، فكان يكونُ التَّركيبُ، فحاقَ بالَّذين استهزَؤوا منهم؛ لثقلِ (استفعل)، والظّاهرُ في (ما) أن تكون بمعنى الَّذي، وجوَّزوا أن تكونَ (ما) مصدريَّةً[3].

(1) الراغب، المفردات، ص: 152.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتَّنوير: 7/148.
(3) أبو حيّان، البحر المُحيط: 4/445.

﴿قُلْ سِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ١١﴾ [الأنعام: 11]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

العلاقةُ بين ما حاقَ بالسّابِقِين، والدّعوةِ إلى النّظرِ في عاقبةِ المكذِّبين

هذه الجملةُ افتُتِحَتْ بالأمرِ بالقولِ؛ لأنَّها واردةٌ موردَ المحاورةِ على قولِهم: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾ [الأنعام: 8]، ووزَانها وزانُ البيانِ لمضمونِ الجُملةِ الَّتي قبلَها؛ ولذلك فُصِلت، فإنَّ الجملةَ الَّتي قبلَها، تُخبر بأنَّ الَّذين استَهزؤُوا بالرُّسل، قد حاقَ بهم عواقبُ استهزائِهم، وهذه تحدُّوهُم إلى مشاهدَةِ ديارِ أولئك المُستهزئين، وأن يشاهدوا مصارعَ من تمكَّن في قلوبِهم عِلمُ أنَّهم أُهلكوا بمثل تكذيبهم، من قومِ صالحٍ ولوطٍ وشعيبٍ وغيرهم؛ ليغنيهم ذلك عن مشاهدةِ ما اقترحوا، وليس افتتاحُ هذه الجملةِ بخطابِ النَّبيِّ ﷺ منافيًا لكونها بيانًا؛ لأنَّه خُوطبَ بأن يقول ذلك البيان، فالمقصودُ ما بعدَ القولِ[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿سِيرُواْ﴾: جذرُ الكلمةِ هو (سير)؛ والسَّير: معروفٌ، سار يَسير سَيرًا ومَسيرًا[2]، ورجل سَيّارٌ، وقوم سيّارةٌ، وساروا من بلدٍ إلى بلدٍ، وسارَ دابَّتَهُ وسيَّرها وأسارها إلى المرعى، وسيَّره من البلدِ: أشخَصَهُ وغرَّبَهُ[3].

والمعنى في الآية: أوقعوا السَّيرَ للاعتبارِ.

2) ﴿عَٰقِبَةُ﴾: جذرُ الكلمةِ هو (عقب)، والعَقِبُ: مُؤخَّرُ القَدَمِ، وتجمعُ على أعقابٍ، وعَقِبُ الرَّجُلِ: ولَدُه وولد ولَده الباقونَ من

(1) البقاعي، نظم الدرر: 7/29، ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/148.
(2) الخليل، العين: (سير).
(3) النيسابوري، المستدرك: 1821.

بَعدِه[1]، والعاقبةُ أصلُها كلُّ ما يأتي في عَقبِ الشَّيءِ، أي: آخره، أي: هي ما يؤولُ إليه أمرُهُ، ثمَّ تكونُ حَسَب حالَ الشَّيءِ من خيرٍ أو شرٍّ[2]. فالعُقْبُ والعُقْبَى يختصّانِ بالثَّوابِ، نحوُ: ﴿خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٤٤﴾﴾ [الكهف: 44]، والعاقبةُ إطلاقُها يختصُّ بالثَّوابِ، نحو: ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾﴾ [الأعراف: 128]، وقد تُستعملُ في العقوبة، قال تعالى: ﴿فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِى ٱلنَّارِ﴾ [الحشر: 17]، والعُقوبةُ والمُعاقبةُ والعقابُ يُختصُّ بالعذابِ، قال تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ﴾ [النحل: 126][3].

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

الآيةُ الكريمةُ خطابٌ للرَّسولِ ﷺ لمُشركي مكَّةَ بأن يَسيروا في الأرضِ طلبًا للمنافع، وأن ينظُروا أحوالَ الهالكينَ من الأممِ السّابقةِ، لعلَّهم يرتدعون بالمكذِّبين الَّذين أهلكَهُم تكذيبُهم بمشاهدةِ آثارِهم وسماعِ أخبارِهم.

الدَّعوةُ إلى مشاهَدةِ مصارعِ المكذِّبينَ، للاعتبارِ بمصيرِهم المهينِ

وترشدُ الآيةُ إلى أنَّ هذا السَّير المأمورَ به، هو سَيْرُ القلوبِ والأبدانِ الَّذي يتولَّد منه الاعتبارُ، وأمّا مجرَّدُ النَّظرِ من غيرِ اعتبارٍ، فإنَّ ذلك لا يُفيدُ شيئًا[4].

الإِيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

سِرُّ التَّعبيرِ بالأسلوبِ الإنشائيِّ، في قوله تعالى: ﴿قُلْ سِيرُواْ﴾ وما بعده:

قولُه: ﴿قُلْ سِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾: هذه بدايةُ سلسلةِ ردودٍ وأجوبةٍ عن مقالتِهم المحكيَّةِ آنفًا لتضمُّنِها التَّصميم على الشِّركِ وتكذيبِ الرِّسالة، فكانت منحلَّةً إلى شُبَهٍ كثيرة، أريد ردُّها وتفنيدُها، فكانت هاتهِ الرُّدودُ كلُّها مفتتحةً بكلمة

الحُججُ الإلهيّةُ المُوحَى بها، مُقنِعةٌ للعقل، داحضةٌ للخَصمِ

(1) الخليل، العين، والرّاغب، المفردات: (عقب).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (عقب).
(3) الرّاغب، المفردات: (عقب).
(4) السّعديّ، تيسير الكريم الرحمن، ص: 129.

﴿قُلْ﴾ عشرَ مرّاتٍ حتى نهايةِ الآيةِ التاسعةَ عشرةَ من هذا السياق التَّفنيديِّ لمقالاتِ المشركين، وجاءت الحجَّةُ ملقَّنةً بفعل الأمر ﴿قُلْ﴾؛ دلالةً على قوَّتها باعتبار من صدرت منهُ، وهو الحقُّ - ﷺ[1] -

معنى قوله تعالى: ﴿سِيرُواْ﴾، وقوله: ﴿ٱنظُرُواْ﴾ في الآيةِ الكريمة:

الآيةُ حضٌّ على الاعتبارِ بآثارِ من مضى ممَّن فعل فِعلَهم[2]، والظّاهرُ أنَّ السَّيرَ المأمورَ به، هو الانتقالُ من مكانٍ إلى مكانٍ، وأنَّ النَّظرَ المأمورَ به، هو نظرُ العينِ، وأنَّ الأرضَ هي ما قَرُبَ من بلادِهم من ديارِ الهالكين بذنوبهم؛ كأرضِ عادٍ ومَديَنَ ومدائن قوم لوطٍ وثمود، وأريد هُنا من السَّيرِ في الأرضِ: سيروا فيما حولكُم مِنَ القُرى، فذكرَ الكلَّ، وأراد الجُزءَ.. على سبيل المجاز، والعلاقةُ الكُلِّيَّة[3].

تَنوُّعُ الأسلوبِ ودلالتُهُ بين الحقيقةِ والمجازِ، من فصيحِ البيانِ

والنّاظرُ في الآيةِ الكريمةِ يراها جملةً نحويةً واحدةً إنشائيَّةً، تتابعَ فيها فعلُ الأمرِ ثلاثَ مرّاتٍ، والاستفهامُ مرَّةً ﴿قُلْ﴾ ﴿سِيرُواْ﴾ ﴿ٱنظُرُواْ﴾ ﴿كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾، والأسلوبُ الإنشائيُّ الطَّلبي أسلوبٌ حواريٌّ لا تلقيني، وهو الأنسبُ مع نهج الحوار وطرائقِه، والأمرُ الأوَّلُ على سبيل الحقيقةِ، والأمر الثّاني خرجَ من الأمر إلى الإباحَةِ، والأمرُ الثّالث عادَ إلى الحقيقة، فالنَّظرُ للتدبُّر، والاعتبارُ واجبٌ، وأسلوبُ الاستفهام خرجَ إلى المجازِ للتَّخويفِ والتَّهديدِ من عاقبة السّابقين، وإلماع لهلاكهم كما هَلَكوا، والآيةُ الكريمةُ على وجازتِها ضمَّت كلَّ هذه المعاني.

معنى الحرف ﴿فِي﴾ ودلالتُه في الآيةِ الكريمةِ:

انتشارُ حالاتِ العِقابِ الإلهيِّ، للأقوامِ في عُمومِ الأرضِ

فائدةُ حرفِ الجرِّ (في) عند قولهِ تعالى: ﴿قُلْ سِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾؛ هي الظَّرفيَّة المكانيَّةُ، وجاء في المُقتضَبِ: "وأمَّا (في)؛

(1) ابن عاشور، التّحرير والتَّنوير: 7/149.
(2) ابنُ عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/318.
(3) أبو حيان، البحر المحيط: 4/445.

فهي للوعاءِ"[1]، تقول: هو في الجِرَاب، وفي الكِيسِ، وهو في بطن أمِّهِ، وإن اتَّسعْتَ في الكلامِ، فهي على هذا، وإنَّمَا تكونُ كالمَثَلِ يجاءُ بهِ يقاربُ الشَّيءَ، وليسَ مثلَهُ[2]، فالمعنى المُستفادُ هُنا من الظَّرفيَّةِ المكانيَّة ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾، هو انتشارُ حالاتِ العذابِ في عموم الأرضِ، وهو مناسبٌ لتكثيرِ حالاتِ الاستهزاءِ بالرُّسُلِ. وتكون هنا بمعنى (على)، وإنما أتت ﴿فِي﴾ بمعنى (على)؛ لبيانِ أنَّهُ ينبغي أن يكونَ السَّيرُ في الأرضِ عميقًا، كأنَّما يسيرون في جوفِ الأرضِ؛ لاستجلابِ العظةِ والاعتبارِ

معنى لفظِ (الأرضِ)، في الآيةِ الكريمةِ:

جعلَ اللهُ في الأرضِ آياتٍ تَستَحِقُّ التّدبّرَ والتَّفكُّرَ

والأرضُ هي ما قربَ من بلادِهم من ديارِ الهالكين بذنوبِهم، كأرضِ عادٍ ومدين ومدائنِ قوم لوطٍ وثمود، أو أنَّ ﴿ٱلۡأَرۡضِ﴾ هنا لفظٌ عامٌّ؛ لأنَّ في كلِّ قطرٍ منها آثارًا لهالكين، وعبرًا للنّاظرين[3]. وقال: ﴿قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ والسَّيرُ عمومًا يكونُ في الأرضِ، ودلالةُ ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾، أي: في مواطنَ مختلفةٍ مِنَ الأرض، ويمكنُ أن يُفهمَ أيضًا تنوُّعُ الغايةِ مِن ذلك السَّيرِ، كأن تكونَ للعَمل، أو التِّجارة، أو السّياحة، أو غير ذلك، فإذا سرْتُم لمهامِّكُم؛ فانظُروا في مواطنَ مختلفةٍ من الأرض، وما تركَ اللهُ فيها من آياتٍ تَستَحِقُّ التَّفكُّرَ، مِمّا أصابَ الأقوامَ المستهزِئةَ بالرُّسلِ.

فائدةُ التَّرقِّي، منَ السَّيرِ إلى النَّظرِ إلى الاستنتاجِ:

السَّيرُ والنَّظرُ ميدانٌ عظيمٌ، في توعيّةِ الفكرِ والرُّقيِّ به

استخدمتِ الآيةُ حرفَ العطفِ ﴿ثُمَّ﴾ لبيان التَّراخي الرُّتبي، كما هو شأنُها في عطفِ الجُملِ، فإنَّ النَّظرَ في عاقبةِ المكذِّبين هو المقصدُ من السَّيرِ، فهو ممّا يُرتقى إليه بعدَ الأمرِ بالسَّير؛ ولأنَّ هذا

(1) المُبرّد، المُقتضب: 4/139.
(2) سيبويه، الكتاب: 2/308.
(3) أبو حيان، البحر المحيط: 4/445.

النَّظرَ محتاجٌ إلى تأمُّلٍ وترسُّمٍ، فهو أهمُّ من السَّيرِ، وبهِ يتحقَّقُ مناطُ السَّيرِ والغرضُ منه.

أمّا قوله: ﴿ثُمَّ ٱنظُرُواْ﴾؛ فمعناه إباحةُ السَّيرِ في الأرضِ للنَّظرِ في عظيمِ خلقِ اللّهِ ولتحقيق منافعَ أخرى غيرها، وإيجابُ النَّظرِ في آثارِ الهالكين، ونبَّهَ على ذلك بـ ﴿ثُمَّ﴾، لتباعدِ ما بين الواجبِ والمُباح[1].

دلالةُ استعارة النَّظرِ بالعينِ الباصرة، في قوله تعالى: ﴿ٱنظُرُواْ﴾:

ويمكنُ أن يكون النَّظرُ مجازيًّا، ففي قوله: ﴿ٱنظُرُواْ﴾ استعارةُ محسوسٍ لمعقول، فاستعار النَّظَرَ بالعَينِ الباصِرَةِ للتَّفَكُّر الذِّهنيِّ وهو عقليٌّ، ونكتتُه البلاغيَّةُ الإشارةُ إلى أنَّ المطلوبَ هو التَّفكُّرُ العميقُ الذي تتولَّدُ عنه حقائقُ الإيمانِ حتَّى لكأنَّها تُرى بالعين[2].

النَّظرُ هُنا للتَّفكُّرِ الذِّهنيِّ، والتّبصُّرِ الواعِي

معنى الاستفهامِ بقوله تعالى: ﴿كَيۡفَ﴾.

التَّعجيبُ من حالِ المكذِّبين، وما يؤولُ إليه حالُهم المهينُ.

كيفَ: اسمٌ مبنيٌّ على الفتح يستعملُ للاستفهامِ الحقيقيِّ ولغير الحقيقيِّ.

و﴿كَيۡفَ﴾ معلِّقةٌ لفعلِ النَّظرِ، ومحلُّ الجملةِ النَّصبُ بنزعِ الخافضِ، أي: تفكَّروا في أنَّهم كيفَ أهلكوا بعذابِ الاستئصالِ؟

ومعنى "كيف" هنا "حال"، أي: انظرْ حالَ عاقبةِ المكذِّبين بعد موتِهم أين البطشُ الَّذي كانوا يبطشونه، والجبروتُ الذي كانوا يطغونَ بهِ، وأين المالُ والبنونَ وما كانوا يغترّون به؟

سِرُّ تعليقِ ﴿كَيۡفَ﴾ بفعلِ النَّظرِ:

النَّظرُ يكونُ بمعايَنةِ الأحداثِ، والعِبرةُ بالمُرورِ بمواطنِها وآثارِها

في قولهِ تعالى: ﴿قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ ثُمَّ ٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ﴾ فعلَّق ﴿كَيۡفَ﴾ بفعلِ النَّظرِ، والنَّظرُ لا يكون إلا بمواطنِ

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/10.
(2) المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 1/282.

الأحداثِ والمُرور بها، فدلَّت ﴿كَيۡفَ﴾ على المشاهدةِ الفعليَّةِ لتلك المواضعِ ومُعاينتها، ومكانُ بدءِ السَّير ناءٍ عن مكان الأحداث، وإلا لَما أمرنا بالسَّير إليه، فجاءت (ثُمَّ) للدِّلالةِ على التَّباعد بين المكانين، أو جاءت ثمَّ للتَّباعُدِ في الرُّتبة؛ لأنَّ رتبةَ التَّأمُّل والنَّظر فوق رتبة مجرَّدِ السَّيرِ[1]، وقوله: ﴿كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ﴾ فمجموعُ هذا التَّركيبِ مستعملٌ في التَّعجيبِ ممّا حدث لهم، والتَّعريضُ بمشركي العربِ لمشابهةِ حالهم حال الأممِ الهالكةِ[2].

سِرُّ تذكيرِ الفعلِ: ﴿كَانَ عَٰقِبَةُ﴾، دونَ تأنيثِه: (كانت عاقبة):

تأتي العاقبةُ بمعنى محلِّ العذابِ أوِ العذابِ نفسِهِ

في لغةِ العربِ يجوزُ تذكيرُ الفعلِ وتأنيثُهُ، فإذا كان المعنى مؤنَّثًا؛ يُستَعملُ الفعلُ مؤنَّثًا، وإذا كان المعنى مذكَّرًا؛ يُستعملُ الفعلُ مذكَّرًا، والأمثلةُ في القرآنِ كثيرةٌ، منها هذه الآيةُ، وقوله: ﴿فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُنذَرِينَ ٧٣﴾ [يونس: 73]؛ إذ المقصودُ بالعاقبةِ هنا (محلُّ العذاب)؛ فجاء الفعلُ مذكَّرًا، أو (العذاب) نفسُه وهو مُذكَّرٌ، فجاء الفعل مُذكَّرًا أيضًا.

دلالةُ التَّعبيرِ بـ(العاقبة)، دون مرادفاتها، في سياق الآيةِ الكريمة:

التَّوعُّدُ في الآية بأنَّ خواتيمَ هؤلاءِ ستؤولُ إلى سُوءِ المصيرِ

و(العاقِبةُ) آخرُ الشَّيءِ ومآلُه، وما يعقبُهُ من مسبِّباتِه، وفيها معنى التَّوعُّدِ بأنَّ خواتيمَ هؤلاءِ ستكونُ من السّوءِ بمكان، والاسميَّةُ في قوله: ﴿ٱلۡمُكَذِّبِينَ﴾ لدلالةِ الاستقرارِ والثَّباتِ على حالِ التَّكذيب، فانسجَمَ ذلك المعنى مع معنى العاقبةِ في قوله: ﴿ثُمَّ ٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ﴾.

المتشابهُ اللَّفظيُّ، ووجهُ العطفِ بالحرف ﴿ثُمَّ﴾:

قولهُ تعالى: ﴿قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ ثُمَّ ٱنظُرُواْ﴾، وفي موضعٍ آخرَ بالفاء ﴿قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ﴾ [النمل: 69]، وقال هُنا ﴿عَٰقِبَةُ

(1) المطعنيّ، التفسير البلاغيّ للاستفهام: 1/282.
(2) المطعنيّ، التفسير البلاغيّ للاستفهام: 1/283.

سياقُ آيةِ الأنعامِ للأمرِ بالسَّيرِ، وآيةِ النَّملِ ونظائرِها، للأمرِ بالنَّظرِ بعدَ السَّيرِ

﴿ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾، وفي النَّمل: ﴿عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ۝٦٩﴾ [النمل: 69]، وتفسير ذلك أنَّ آيةَ الأنعامِ ظاهرةٌ بالأمرِ في السَّيرِ في بلادِ المُهلَكين، فناسَبَ (ثُمّ) المُرَتِّبةُ على السَّيرِ المأمورِ به، وفي المَواضعِ الأُخَرِ الأمرُ بالنَّظَرِ بعد السَّيرِ المُتقدِّمِ، كقولهِ تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ﴾ [الرّوم: 9]؛ فناسبَ أن يأتيَ بالفاءِ، كأنَّه قيل: (قد ساروا فلينظروا)، أو (قد ساروا فنظروا عند سيرهم)، ولما تقدَّمَ هُنا قوله تعالى: ﴿فَقَدْ كَذَّبُواْ بِٱلْحَقِّ﴾ [الأنعام: 5]، ناسَبَ قوله: ﴿عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾، ولم يتقدَّم مثلُهُ في النَّمل[1].

ويرى فخرُ الدّين الرازيُّ أنَّ الفرقَ بين الفاء و(ثمَّ) يتمثَّل بأنَّ "قوله: (فانظروا) يدلُّ على أنَّه تعالى جعل النَّظرَ سببًا عن السَّير، فكأنَّهُ قيلَ: سيروا لأجلِ النَّظرِ، ولا تسيروا سيرَ الغافلينَ، وأمّا قولُه: ﴿سِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُواْ﴾؛ فمعناهُ إباحةُ السَّيرِ في الأرضِ للتِّجارةِ وغيرها من المنافعِ، وإيجابُ النَّظرِ في آثارِ الهالِكين، ثُمَّ نبَّهَ اللّهُ تعالى على هذا الفرقِ بكلمة (ثُمّ) لتباعُد ما بين الواجبِ والمُباح"[2].

وجهُ الجمعِ بين النّهيِ النَّبويِّ، عن دخولِ ديارِ المُهلَكِين، والأمرِ في الآية بهِ:

لا تُدخلُ ديارُ المُهلَكينَ إلَّا للاعتبارِ والادّكارِ

الواضحُ من الآيةِ ما وردَ من جوازِ السَّيرِ في الأرضِ بشرطِ التَّفكُّرِ والنَّظَرِ والتَّدبُّرِ فيما حدثَ في أزمان غابرةٍ، بتلك الأقوامِ التي أنكرتِ الرِّسالاتِ، وكفرتْ واستهزأتْ برسلِها، أمّا ما وردَ مِن أحاديثَ نبويَّةٍ حول نهي النَّبيِّ عن دخولِ مواطنِ العذابِ، فقد ثبتَ عن النَّبيِّ ﷺ نهي المسلم عن الدُّخولِ إلى مواطنِ العذابِ والمُرورِ بها؛ إلّا أنْ يكونَ المارُّ باكيًا خاشعًا، فقد روى البخاريُّ عن عبدِ اللّهِ بنِ عمرَ رضي الله عنهما أنَّ رسول اللّه ﷺ قال: «لا تَدْخُلوا عَلَى هؤلاءِ المُعَذَّبينَ إلّا أَنْ تَكونوا باكينَ، فَإِنْ لَمْ تَكونوا باكينَ فَلا تَدْخُلوا عَلَيْهِمْ، لا

(1) ابن جماعة، كشف المعاني: 92 - 93.
(2) الرازي، مفاتيح الغيب: 12/488.

يُصيبُكُمْ ما أَصابَهُمْ»[1]. وكان هذا النَّهي منه ﷺ لمّا مرَّ مع أصحابهِ بالحِجْرِ، وهي ديارُ ثَمودَ عند توجُّههِم إلى تَبوك، وجامعُ ذلك ألّا يدخُلَ الإنسانُ تلك المَواضع إلا أن يكونَ لغايةِ العبرةِ واستذكارِ عظمةِ اللّه تعالى، وأن يسألَه رحمتَه والتَّوبةَ عليه.

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

التّكذيب والاستهزاء:

التَّكذيبُ يجمعُ بين المستهزئينَ والسَّاخرين في مُشتَركاتِ الطِّباعِ

وإنَّما وُصِفوا بـ ﴿ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ دون (المُستهزئين)؛ وذلك لأنَّ التَّكذيبَ يجمعُ المُستهزِئينَ والسّاخرين، ويضمُّ إليهم كذلك كلَّ من كذَّبَ، حتَّى وإن لم يسخر أو يستهزئ، للدَّلالة على أنَّ التَّكذيبَ والاستهزاءَ كانا خُلُقين من أخلاقهِم، وأنَّ الواحدَ مِن هذين الخُلُقين كافٍ في استحقاقِ تلك العاقبةِ؛ إذ قالَ في الآيةِ السّابقة: ﴿فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾، وقال في هذه الآية: ﴿كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾. وهذا ردٌّ جامعٌ لدحضِ ضَلالاتِهم الجاريةِ على سُنَنِ ضَلالات نُظَرائِهم مِنَ الأمَمِ السّالِفَة مِنَ المُكذِّبين[2].

(1) البخاري، صحيح البخاري، الحديث رقم: (433).
(2) ابن عاشور، التّحرير والتَّنوير: 7/149.

﴿قُل لِّمَن مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ قُل لِّلَّهِۚ كَتَبَ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَۚ لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا رَيۡبَ فِيهِۚ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ١٢﴾ [الأنعام: 12]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

التّدرُّجُ مِنَ النّظرِ في عاقبةِ المكذّبينَ، إلى التّبصُّرِ بالقُدرةِ على الحشرِ يومَ الدِّين

بعد أن أمرَ المُخاطَبينَ بالسَّير والنَّظر إلى مواقعِ المُكذِّبين ومساكنِهم، من أهل القرى الَّتي حولَهم وغيرها، لَفتَ هُنا أنظارَهم إلى عظيمِ ما خلقَ اللّهُ من السّماوات والأرضِ، وأمر رسولَه بمحاجَّةِ غيرِ المؤمنين بذلكَ، ثمَّ بيَّن أنَّ من خَلَقَ هذا الخلقَ لم يخلقْهُ عبثًا، وإنَّما سيجمعُ النّاسَ كُلَّهم إلى ذلك اليومِ.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿رَيۡبَ﴾: جذرُ الكلمةِ هو (ريب)؛ وأصلُ الرَّيبِ: الشَّكُّ، أو الشَّكُّ والخوفُ، والرَّيب: ما رابك من أَمرٍ تخوَّفتَ عاقبتَهُ[1]، والرَّيبُ والرِّيبةُ الظِّنَّةُ والتُّهمةُ، وربَّتْهُ أوصلْتُ إليهِ الرّيبَةُ، وقيل: رابني علمتُ منه الرِّيبةَ، وأرابني ظننتُ ذلك بهِ[2]، والرَّيبُ: صَرفُ الدَّهرِ، وعَرَضُه وحَدَثُهَ[3]، كما قال تعالى: ﴿أَمۡ يَقُولُونَ شَاعِرٞ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيۡبَ ٱلۡمَنُونِ ٣٠﴾ [الطّور: 30]، أي: نازلةُ الموتِ، والرَّيبُ أن تتوهَّم بالشَّيءِ أمرًا ما، فينكشفُ عمّا تتوهَّمُهُ[4]، والرَّيبُ هنا: بمعنى الشَّكِّ.

2) ﴿خَسِرُوٓاْ﴾: جذرُ الكلمةِ هو: (خسر)؛ والخُسرُ: النُّقصانُ[5]، والخسرانُ كذلك[6]، وسائرُ ما في القرآن من هذا التركيبِ هو

(1) الخليل، العين: (ريب).
(2) ابن سيده، المحكم: (ريب).
(3) الخليل، العين، وابن سيده، المحكم: (ريب).
(4) ابن سيده، المحكم، والزّمخشري، أساس البلاغة: (ريب).
(5) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللغة: (خسر).
(6) الخليل، العين: (خسر).

بمعنى فَوْتِ ما كان يمكنُ أن يفوزَ به صاحبُه من ثوابٍ ونعيمٍ، لو آمنَ باللهِ واتَّبعَ شرعَهُ[1].

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

بيانُ أَدلَّةِ وجودِ اللهِ ووَحدانيَّتِهِ، وشُمولِ مُلْكِهِ، وجمْعِه للعبادِ يومَ المعادِ

يبيِّنُ اللهُ تعالى في هذه الآيةِ أَدلَّةَ وجودِ اللهِ ووحدانيَّتِهِ وشمولِ مُلْكِه، ففيها أمرٌ من اللهِ لنبيِّهِ ﷺ أن يقرِّرَ قومَه بأنَّه - سبحانه - مالكُ السّماوات والأرضِ ومَن فيهنَّ، وأنَّه استعبَد كلَّ شيءٍ، وقهرَ كلَّ شيءٍ بملكِهِ وسُلطانِهِ، وأوجبَ على نفسهِ الرَّحْمةَ التّامَّة، فضلًا منه وكرمًا، فلا يعجِلُ بعباده العقوبةَ، ويقبل منهم الإنابةَ والتَّوبةَ، ومن مقتضى واسعِ رحمته أن يجمعَكُم - أيُّها الناسُ - إلى يوم القيامةِ الَّذي ليسَ من شأنه أن يرتابَ فيه من تدبَّرَ دلائلَ رحمةِ اللهِ وحكمتَهُ وقدرتَهُ، فالذين خسروا أنفسهم بإهدارِ قواهم العقليَّةِ، وتعطيلِها عن النَّظرِ في آياتِ اللهِ، هؤلاءِ لا يؤْمنون بما دعوتَهم إليه - أيُّها الرسول - من توحيدِ اللهِ، والإيمان بيومِ البعثِ والنشورِ. وترشدُ الآيةُ الكريمةُ إلى استعطافِ اللهِ الرَّحيم للمُعرضين عنه إلى الإقبالِ إليه بالتَّوبةِ، وإلى تحفيزِ المؤمنين على زيادةِ الطّاعةِ رغبةً فيما عندَ اللهِ من حسنِ الجزاءِ.

الإِيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ الاستفهامِ المجازيِّ، في مَطلعِ الآيةِ الكريمة:

النَّظرُ إلى الكونِ البديعِ، يُنبئُ بأنّه صنْعُ ذي الجلالِ الرّفيعِ

قوله: ﴿قُل لِّمَن مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾، هذا السُّؤالُ سؤالُ تبكيتٍ وتقريرٍ، وقوله: ﴿قُل لِّلَّهِۚ﴾ تقريرٌ لهم، أي: هو للهِ لا خلافَ بيني وبينكم[2]، والاستفهامُ مجازيٌّ؛ لأنَّ المُستفهمَ لا يطلبُ معرفةَ علمٍ لم يكن يعلمُهُ، بل هو تقريرٌ مُرادٌ بهِ لازمُ معناهُ، وهو تبكيتٌ

(1) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (خسر).
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/10.

للمشركين، وإلجاؤُهُم إلى الإقرارِ بما يفضي إلى معتقدِ الشِّركِ عندَهُم، فهو مستعملٌ في معناه الكنائيِّ مع معناه الصَّريح، فالمقصودُ هو المعنى الكنائيِّ[1]، والاستفهامُ مستعملٌ مجازًا لتقريرِ عظيم خَلقِ اللّهِ تعالى؛ إذ تفتح الآيةُ أمام النّاظرين المخاطَبين صفحةَ الكون، ولتقرير حقيقة الإيمان الَّتي هي خضوعُ عظيمِ هذا الخلقِ، لعظيمِ القدرة الإلهيَّة، ويجوز أن يجعلَ تصديرَ هذا الكلامِ بالأمرِ بأن يقولَهُ مقصودًا به الاهتمامُ، بما بعد فعل الأمرِ[2].

وجهُ الحذْفِ الواقعِ في قوله تعالى: ﴿قُل لِّلَّهِۚ﴾:

وفي الكلامِ حذفٌ تقديرهُ: فإذا لم يُجيبوا، فقل: للّه، وقال قومٌ: المعنى: أنَّهُ أمَرَ بالسُّؤال، فكأنَّهُ لمّا لم يُجيبوا؛ سألوا، فقيلَ لهم: ﴿قُل لِّلَّهِۚ﴾، وللّه خبرُ مبتدأٍ محذوفٍ، التَّقديرُ: قل: ذلك أو هو للّهِ، والجوابُ معروفٌ، الغايةُ منه تنبيهُ الغافلين إلى عظيمِ خلقِ اللّه، وإعادةِ النَّظرِ والتَّدبُّرِ والتَّفكُّرِ في عظمةِ الخالقِ سبحانه.

قيُّوميَّةُ اللهِ هي الشّاهدُ الأعظمُ، على إبداعِه لهذا الخلْقِ

دلالةُ ﴿مَّا﴾ في قوله تعالى: ﴿قُل لِّمَن مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾:

قوله: ﴿قُل لِّمَن مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾، (ما) اسمُ موصولٍ بمعنى (الّذي)، وهو لغيرِ العاقل، فشمل ﴿مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾ الموجوداتِ كلَّها؛ بل إنَّه شمل السّماواتِ والأرضَ نَفسَيهما، وضمَّ معهُما الأمواتَ والأحياءَ، وما يَعقِلُ وما لا يَعقِلُ؛ لأنَّ السّماواتِ والأرضَ وعاءُ ذلك كلِّهِ.

السّماواتُ والأرضُ وعاءُ المخلوقاتِ، الدّالّةِ على ربِّ الموجوداتِ

إفادةُ الحَصْرِ في قولِهِ تعالى: ﴿قُل لِّلَّهِۚ﴾:

قولهُ: ﴿لِّلَّهِۚ﴾؛ خبرُ مبتدأ محذوفٍ دلَّ عليه ﴿مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾ الآية، ويُقدَّر المبتدأُ مؤخَّرًا عن الخبرِ على وِزان السُّؤالِ؛ لأنَّ المقصودَ إفادةُ الحَصرِ، واللّامُ في قوله: ﴿لِّلَّهِۚ﴾ للمُلْك، وهذا

الفطرةُ السَّليمةُ تَهدِي بالتّفكير، إلى الخالقِ الخبيرِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/150.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/150.

استدلالٌ على المشركينَ بأنَّ غيرَ اللّهِ ليسَ أهلًا للإلهيَّةِ؛ لأنَّ غيرَ اللّهِ لا يملكُ ما في السّماواتِ وما في الأرض؛ إذ مُلْكُ ذلكَ لخالقِ ذلك، وهو تمهيدٌ لقولهِ بعده: ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾؛ لأنَّ مالكَ الأشياءِ لا يهملُ محاسبتَها[1].

سِرُّ المبادرةِ بالجوابِ عنِ السُّؤالِ، دونَ انتظارِ جوابِهم في: ﴿قُل لِّلَّهِ﴾:

الاستفهامُ يرادُ به الإلجاءُ إلى الإقرارِ؛ لذا كان الجوابُ عنه بما يريدُه السّائلُ مِن إقرارِ المسؤولِ محقِّقًا لا محيصَ عنه؛ إذ لا سبيلَ إلى الجحدِ فيه أو المغالطة، فلذلك لم ينتظرِ السائلُ جوابَهم، وبادرَهم الجوابَ عنه بنفسهِ بقوله: ﴿لِّلَّهِ﴾ تبكيتًا لهم؛ لأنَّ الكلامَ مسوقٌ مساقَ إبلاغِ الحجَّةِ مقدَّرٌ فيه المُحاورة، وليس هو مُحاورةً حقيقيَّةً، وهذا من أسلوبِ الكلامِ الصّادرِ من متكلِّمٍ واحدٍ، وهو واحدٌ من أساليب القرآنِ في الحِجاجِ، فتارةً لا يُذكر جوابٌ منهم كما هنا، وكما في قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ﴾ [الرعد: 16]، وقوله: ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ﴾ إلى قوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُ﴾ [الأنعام: 91]، وتارةً يذكرُ ما سيُجيبون به بعد ذكرِ السُّؤالِ منسوبًا إليهم أنَّهم يجيبون بهِ، ثمَّ ينتقل إلى ما يترتَّبُ عليهِ من توبيخٍ ونحوه، كقوله تعالى: ﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ إلى قوله: ﴿قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾﴾ [المؤمنون: 84 - 89][2].

فنُّ السّؤالِ المسبوكِ، والجوابِ المَحْبوكِ، مِن أرقى أساليبِ الحِجَاجِ

دلائلُ الفعلِ ﴿كَتَبَ﴾، بينَ الحقيقةِ والمجازِ:

قولهُ تعالى: ﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾، التزمَها تفضُّلًا وإحسانًا، والمرادُ بالرَّحمةِ ما يعمُّ الدارين، ومن ذلك الهدايةُ إلى معرفتِهِ، والعلمُ بتوحيدهِ بنصبِ الأدلَّةِ، وإنزال الكتبِ، والإمهالِ على الكفر[3]،

رحمةُ اللهِ شاملةٌ جميعَ خلقه، فيما يُخطّه القدرُ من نفعٍ وضُرٍّ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/150 - 151.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/150.
(3) البيضاوي، أنوار التّنزيل: 2/155.

وأريدَ حقيقةُ (الكَتْبِ)، والمعنى: أمرَ بالكتبِ في اللّوح المحفوظِ، وقيل: ﴿كَتَبَ﴾ هنا مجازٌ بمعنى (وعد) بها فضلًا وكرمًا، أو بمعنى (أخبَرَ) أو (عَلَّمَ)، وقيل: (أوجب) إيجابَ فضلٍ وكرم[1]، لا إيجاب لُزوم، وقيل: قضاها وأنفذها[2]، وإنَّما عبَّر بـ ﴿كَتَبَ﴾ لبيان أنَّ رحمةَ اللّهِ لا تتخلَّفُ كالأمرِ الواجبِ المكتوب، فإنَّهم كانوا إذا أرادوا تأكيدَ وعدٍ أو عهدٍ؛ كَتَبوه، فالرَّحمةُ هنا مصدرٌ، أي: كَتَبَ على نفسِهِ أن يرحمَ، وليس المرادُ الصِّفةَ، أي: كتبَ على نفسِهِ الاتِّصافَ بالرَّحمة، أي: بكونهِ رحيمًا؛ لأنَّ الرَّحمةَ صفةٌ ذاتيَّةٌ للّه تعالى واجبةٌ له.

سِرُّ تقديمِ الجارِّ والمجرورِ، في الآيةِ الكريمة:

قوله: ﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾، قدَّم الجارَّ والمجرورَ ﴿عَلَىٰ نَفْسِهِ﴾ للتَّخصيص، وأصلُ الجملة: (كتبَ الرَّحمةَ على نفسِه)، وفائدةُ هذا التَّخصيص بيانُ عظيمِ شأن الرَّحمةِ في خلقِهِ للسَّموات والأرض، وأنَّ هذا التخصيصَ من عظيمِ رحمتِه بكم.

إعلامُ اللهِ النَّاسَ برحمته، لتحسُّسِها في حياتِهِم المعيشةِ

وجهُ التَّعميمِ في ذكرِ (الرَّحمةِ)، في الآيةِ الكريمة:

قوله: ﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾، والرَّحمةُ هنا: الظّاهرُ أنَّها عامَّةٌ تعمُّ المُحسنَ والمُسيءَ في الدُّنيا، وهي عبارةٌ عن الاتِّصال إليهم، والإحسانِ إليهم، ولم يَذكُرْ متعلَّقَ الرَّحمةِ لمن هي، فذُكِرَتْ على العموم، وقيل: الألفُ واللّامُ للعهدِ، فيُرادُ بها الرَّحمةُ الواحدةُ الَّتي أنزلها اللّه - تعالى - من الرَّحمةَ الَّتي خلقها، وأخَّر تسعًا وتسعين يرحمُ بها عبادَه في الآخرةِ، ومناسبةُ ذكرِ رحمتِه هنا سبحانه[3]، ما ذكرتْهُ الآيةُ السّابقةُ من قولِه: ﴿فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾، فخصَّ الَّذين سَخِروا بالإحاطةِ والإحاقةِ دونَ غيرِهم.

رحمةُ اللهِ عامَّةٌ مُستفيضةٌ، تُصيبُ المؤمنين وغيرَهم

(1) أبو حيّان، البحر المُحيط: 4/446.
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/319.
(3) أبو حيّان، البحر المُحيط: 4/447.

بلاغةُ الاعتراضِ، بقولِهِ تعالى: ﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَۚ﴾:

رحمةُ اللهِ بالخلائقِ سِرُّ عدمِ التَّعجيلِ بأخذِهِم

من معاني جملةِ الاعتراضِ: ﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَۚ﴾: أنَّ الإخبارَ بأنَّ للّه ما في السّماواتِ وما في الأرض يثيرُ سؤالَ سائلٍ عن عدمِ تعجيلِ أخذِهم على شركِهِم بمن هم ملكُهُ، فالكافرُ يقول: لو كانَ ما تقولون صدقًا؛ لعجَّلَ لنا العذابَ، والمؤمنُ يستبطئُ تأخيرَ عقابِهِم، فكان قولُه: ﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَۚ﴾ جوابًا لكلا الفريقينِ بأنَّهُ تفضَّل بالرَّحمةِ[1]، فأجابَ عن السُّؤالِ بأسلوبِ الحكيمِ، فقال: ﴿قُل لِّلَّهِۚ كَتَبَ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَۚ﴾، وكان يُنتظَرُ أن يذكر معاني العزَّة والقوَّة، فيقول: قل: للّهِ القادرِ الجبّارِ العزيزِ المقتدرِ الَّذي له ملكُ كلِّ شيءٍ وخالقُ كلِّ شيءٍ.

ومعنًى آخرُ من معاني الاعتراضِ أنَّهُ ذكرَ رحمةَ اللّهِ تعريضًا ببشارةِ المؤمنينَ وبتهديد المشركين[2]، وبين قوله: ﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَۚ﴾ وقوله: ﴿لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا رَيۡبَ فِيهِۚ﴾ معنى المقابلةِ؛ إذ الرَّحمةُ تقتضي التَّركَ والعفوَ، والجمعُ ليوم القيامةِ يقتضي المحاسبةَ والعقابَ، فشملتِ الآيةُ الوعدَ والوعيدَ، وفائدةُ هذه المقابلةِ تقديمُ صورةِ الامتزاجِ بينَ الوعدِ الوعيدِ.

تحقيقُ الوَعيدِ باللَّام والنُّونِ، في قولِه تعالى: ﴿لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ﴾:

أوَّلُ بوادرِ الجمعِ الموتُ، فمَن ماتَ؛ فقَد قامَت قيامتُهُ

جملة: ﴿لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ واقعةٌ موقعَ النَّتيجةِ مِنَ الدَّليلِ، والمُسَبَّبِ من السَّببِ، فإنَّه لمّا أُبطلت أهليَّةُ أصنامِهِم للإلهيَّة، ومُحِّضت وحدانيةُ اللّه بالإلهيَّة؛ بطلَت إحالتُهم البعثَ بشبهةِ تفرُّقِ أجزاءِ الأجسادِ أو انعدامها[3].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتَّنوير: 7/151.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتَّنوير: 7/151.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتَّنوير: 7/152 - 153.

و ﴿لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ﴾: اللّامُ لامُ القسمِ، أَي: واللّهِ ليجمعنَّكم[1]، ونونُ التَّوكيدِ بعدَها، أفادتا تحقيقَ الوعيدِ، والمرادُ بـ (الجمع) استقصاءُ متفرِّقِ جميعِ النّاس أفرادًا وأجزاءً متفرِّقة، وتعديته بـ (إلى) لتضمينهِ معنى السَّوق، وضميرُ الخطاب في قوله: ﴿لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ﴾ مرادٌ به خصوصُ المحجوجين من المشركين؛ لأنَّهم المقصودون من هذا القولِ من أوَّلِه، فيكونُ نذارةً لهم وتهديدًا وجوابًا عن أقلِّ ما يحتملُ من سؤالٍ ينشأ عن قوله: ﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَۚ﴾[2].

أوجهُ التَّنَوُّعِ في عَوْدِ الضَّميرِ على (الجمعِ) أو على (القيامةِ):

تغزيرُ المعنى في عَودِ الضَّميرِ وتوكيدِهِ

قولهُ: ﴿لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا رَيۡبَ فِيهِۚ﴾، أي: لا ريبَ في اليومِ أو الجمع[3]. وفي إمكانِ عود الضَّميرِ عليهما تغزيرٌ للمعنى، وتحقيقٌ لما أفادهُ القسمُ من توكيدِ المعنى، وكلُّ ذلك زيادةٌ في الوعيدِ وإعلاءٌ للتَّهديد.

معنى ﴿إِلَىٰ﴾، في قولهِ تعالى: ﴿إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾:

الجمعُ يكونُ بموتِ الخلائقِ، ويَستمرُّ بحياةِ البَرزخِ إلى يومِ القيامَةِ

الأصلُ في (إلى) أن تكونَ لانتهاءِ الغايةِ، وتَحتَمِلُ معنًى آخرَ يرجعُ في حَقيقَتِهِ إلى معنى الانتهاءِ، جاءَ في المُقتضب: "وأمّا (إلى) فإنَّما هي للمُنتَهى"[4]. فعلى الأرجحِ أنَّها في قوله: ﴿لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ تكون ﴿إِلَىٰ﴾ بمعنى (في)، أي: (ليجمعنَّكم في يوم القيامة)، وأيضًا يمكن أن يُفهم المَعنى: ليجمعنَّكم في الدُّنيا بموتِكم إلى يوم القيامةِ، أي: يستمرُّ هذا الجَمعُ إلى يومِ القيامَةِ. قالَ أبو حيّان: "وأبعدُ من زعم أن ﴿إِلَىٰ﴾ بمعنى (في) أي: (في يوم القيامة) وأبعدُ منه من ذهب إلى أنَّها صلةٌ، والتَّقديرُ: ﴿لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ﴾ يوم القيامة"[5].

(1) السّمعاني، تفسير السّمعاني: 2/91.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتَّنوير: 7/153.
(3) البيضاوي، أنوار التّنزيل: 2/156.
(4) المُبرِّد، المُقتضب: 4/137.
(5) أبو حيّان، البحر المُحيط: 4/448.

دلالةُ معاني القيامةِ في الآيةِ الكريمة:

تَلوّنُ أسماءِ القيامةِ، دليلٌ على تنوُّعِ الأحداثِ وجَلالتِها.

سُمّيَ اليومُ الآخرُ بهذا الاسمِ لأمورٍ ثلاثةٍ: الأوَّلُ: قيامُ النّاسِ من قبورِهم لربِّ العالمين، بصيحةٍ واحدةٍ يحضرون كلُّهم لا يتخلَّف أحدٌ، وهذا قيامٌ عظيمٌ جدًّا، حتى الَّذي أكلتهُ السِّباعُ، وأحرقتهُ النّارُ، وأغرقَهُ الماء، لا بدَّ أن يخرجَ، ودليلهُ قولُ اللّه ﷻ: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٦﴾ [المطفّفين: 6]. والثّاني: لأنَّهُ يُقامُ فيه العدلُ، حتَّى يقتصَّ للشّاة الجَلْحاءِ من الشّاةِ القَرْناء، فقولهُ تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [الأنبياء: 47]، أي: لليومِ الَّذي يُقام فيه العدلُ.

والثّالث: يقومُ فيه الأشهادُ الذين يشهدونَ، فهذه الأمَّةُ تشهدُ على الأممِ السّابقةِ، والرُّسول ﷺ يكون شهيدًا على هذه الأمَّةِ، فدليلُ المعنى الثّالث قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ۝٥١﴾ [غافر: 51][1].

دلالةُ الاستعارةِ، في قولِه تعالى: ﴿خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾:

الخسرانُ مستعارٌ لإضاعةِ ما شأنُه أن يكونَ سببَ نفعٍ، فالخسرانُ كالإضاعةِ، فذكرَ المُشبَّهَ، وحذفَ المُشبَّهَ بهِ، فهي استعارةٌ مكنيَّةٌ تبعيَّةٌ، وفائدةُ هذه الاستعارةِ تحقيرُهم[2] كما أنَّ في الاستعارة تجسيدًا لمعنى عدمِ الانتفاعِ، وفي التَّجسيدِ عونٌ على الإقلاعِ عمّا هم عليه.

تنبيهُ المشركينَ إلى أنَّ الخَسارةَ ستُحيطُ بجميعِ أنواعِ الخُسرانِ

وجهُ التَّعبيرِ عنِ الذَّاتِ بالنَّفسِ:

النَّفسُ بمعنى حقيقةِ الشَّيءِ وجملتِه، يقالُ: قَتَلَ فُلانٌ نَفْسَهُ، أي: ذاتَهُ وجُملتَهُ، وأهلَكَ نَفْسَهُ، أي: أَوقَعَ الإهلاكَ بذاتِه كلِّها[3]،

خُسرانُ النَّفسِ بعدمِ الإيمانِ، هـو أعـظـمُ الخُسرانِ

(1) العثيمين، تفسير القرآن الكريم، تفسير سورة الأنعام، ص: 66.
(2) العلوي، الطّراز: 3/146.
(3) ابن سيدة، المُحكم: 8/525.

"والتَّكَبُّر: هو أن يرى المرءُ نَفْسَهُ أكبرَ من غيرِه"[1]، أي: ذاته، وفي قولِه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ﴾ تكونُ بهذا المعنى، أي: خسروا ذواتَهم كُلَّها بعدم إيمانِهم، وذلك هو الخسرانُ المبين.

وجوهُ تنوُّعِ إعرابِ جُملةِ: ﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ﴾:

عدمُ الإيمانِ باللهِ، يَجمعُ الخُسرانَ كلَّهُ

قوله: ﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾، وقعتِ الجملةُ موقعًا بديعًا؛ إذ تنوَّعَ إعرابُها، وكلُّ إعرابٍ ينتجُ عنه معنًى، وكلُّها متعانقةٌ، فالجملةُ إمّا أن تكون بدلَ بعضٍ من كلٍّ، ويكون الرابطُ محذوفًا تقديرهُ (منهم)، وإمّا أن تكون خبرًا لمبتدأ محذوفٍ، والتَّقديرُ: وأنتم الَّذين خسروا أنفسَهم، وإمّا أن تكونَ جملةً استئنافيَّةً، فيكون الاسمُ الموصولُ مبتدأً، ويكون الخبرُ ﴿فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾، وتكون الفاءُ واقعةً في الخبر لِتَضَمُّنِ الاسمِ الموصولِ معنى الشَّرط، وإنَّما أُشْرِبَ الموصولُ معنى الشَّرط؛ ليفيد شمولَه كلَّ من اتَّصفَ بمضمون الجملة، وإمّا أن يكونَ الاسمُ الموصولُ منصوبًا على الذَّمِّ، والتقدير: أذمُّ الذين خسروا[2]، وهذه الوجوهُ كلُّها متعانقةٌ في التَّعاونِ على التَّأكيدِ على خسرانِ غيرِ المؤمنين.

سِرُّ الفَصاحةِ بذكرِ السَّببِ بعدَ المسبَّبِ:

التَّرهيبُ بخُسرانِ الأنفُسِ، مُناسِبٌ لخطابِ الكافرينَ

قوله: ﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾، وأصلُ التَّعبيرِ أن يُقال: (الذين لا يؤمنون، فقد خسروا أنفسهم)، لكنَّه قدَّم المُسبَّبَ أو النَّتيجةَ، ثُمَّ أتبعها بذكْرِ السَّببِ، فقالَ: ﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾، وسرُّ ذلك أنَّ الكلامَ في الآيةِ عن المستهزئين المُعاندين، فقدَّمَ خسارةَ النَّفسِ على خسارةِ الإيمانِ، لأنَّ خسارةَ الإيمانِ لا تهمُّهُم بشيءٍ، لكن ما يهمُّهُم هي ذواتُهم وأنفُسُهُم،

(1) أبو البقاء، الكلّيّات، ص: 28.

(2) ينظر في هذه الوجوه: الزّمخشري، والكشّاف: 2/10، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 2/156، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/154.

فجعلها هي السَّابقةُ اهتمامًا بها، وترهيبًا للسَّامِعينَ منهم، أنَّهم يُقبِلُون بعملهم هذا على الخُسران المُبين:

وجهُ التَّعبيرِ بالمُضارعِ ﴿لَا يُؤۡمِنُونَ﴾:

عبَّرَ بالمضارعِ لبيان نفي إيمانِهم، والمضارعُ يفيدُ تجدُّدَ ذلك النَّفي مع الزَّمنِ، فهم لا يؤمنون مهما استدعَتْهم الأدِلَّةُ إلى الإيمانِ، وأُفْحِمت عُقولُهم الحُججَ؛ فلا يؤمنون، فأولئك الَّذين حقَّ عليهم ما قدَّمتهُ الآيةُ من المصيرِ الرَّهيبِ، أنَّهم خسروا أنفسَهم، فجعل الخُسران بصيغةِ الماضي، مع أنَّ الإيمانَ جاءَ بصيغةِ المُضارعِ.

المُستهزِئُونَ بالرِّسالةِ لا يُؤمنون، مهمَا قَوِيتِ الأدلَّةُ

دلالةُ الالتِفاتِ في صُورِ الفعلِ، منَ الآيةِ الكريمةِ:

الالتفاتُ الفعليُّ بيِّنٌ واضحٌ من الماضي ﴿خَسِرُوٓاْ﴾ إلى المضارع ﴿لَا يُؤۡمِنُونَ﴾، وفائدتُه الالتفاتُ إلى واقعِ حالِ الَّذين لا يُؤمنون، فقد أشركوا باللهِ وأهلكوا أنفسَهم، فهم لا يوحِّدون اللهَ، ولا يصدِّقونَ بوعدِه ووعيدِه، ولا يقرّونَ بنبوَّةِ محمَّد ﷺ، فهم سائِرونَ على نهجٍ مُنحرفٍ، وطريقٍ متحقِّقٍ خسرانُهُ.

الانشغالُ بالنَّفسِ وتَرقيّتِها، أَوْلَى منَ الانْشغالِ بالآخَرينَ

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(كتبَ) و(فرضَ):

(كتب)، أي: ما قدَّرهُ من الحكمةِ، وذلكَ إشارةٌ إلى قوله: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمۡ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَ﴾ [الأنعام: 54]، وقيل: إشارةٌ إلى قوله: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمۡ وَأَنتَ فِيهِمۡۚ﴾ [الأنفال: 33]، وقوله: ﴿لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا﴾ [التوبة: 51]؛ يعني: ما قدَّرَهُ وقضاه[1].

لفظُ (كتبَ) في القرآنِ الكريمِ، جاءَ في سياقِ ما أوجبَهُ اللهُ على نفسِهِ سُبحانه

والْفَرْض: الإيجابُ قال تعالَى: ﴿قَدۡ عَلِمۡنَا مَا فَرَضۡنَا﴾، فَهو بِمَعنى الإيجابِ، والمعنَى: قد علمَ اللهُ ما يجب فَرضه على المُؤمنينَ في الأزواجِ والإماء من المهر في الأزواج، وكلُّ مَوضِعٍ وردَ في القُرآن

(1) الراغب، المفردات، ص: 700.

(فرض اللّه عَلَيْهِ)؛ فَفي الإيجاب، و(ما فرض اللّه لَهُ) واردٌ في مُباحٍ أَدخلَ الإِنْسانُ فيهِ نَفسَهُ، وقَوله تَعالَى: ﴿فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ﴾، أَي: وقت[1].

ومما ذُكر يظهر أنَّ (كَتَبَ) فيها معنى الإيجاب بالاختيار، دون أن يكون على مَنْ كَتَبَ تأثيرٌ خارجيٌّ يفرضُ عليهِ الكِتابَة، أمّا قولُهُ: (فَرَضَ)؛ فتكون منها الإيجابُ بتأثيرٍ وضغطٍ خارجيٍّ، فيُفرض الأمرُ من جهة خارجيَّةٍ، من هنا فقد جاء الفرضُ في القرآن الكريم في سياقِ فرْضِ اللّه تعالى على عبادهِ، وجاء (كَتَبَ) في سياقِ ما أوجبَهُ اللّهُ على نفسِهِ سبحانهِ.

(1) أبو البقاء، الكُلّيّات: 688 - 689.

﴿۞وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِي ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ١٣﴾

[الأنعام: 13]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

اكتمالُ الحُجَّةِ العقليّةِ، بلَفْتِ النَّظَرِ إلى مُعجزةِ الزّمن

الآيةُ معطوفةٌ على قوله: ﴿قُل لِّلَّهِۚ﴾، للّهِ ما في السّماواتِ والأرض، وله ما سكنَ، فهو داخلٌ تحت ﴿قُل﴾، وهو احتجاجٌ ثانٍ على المشركين، فلمّا استنارتِ الأدلَّةُ استنارةَ الشَّمسِ، وانتصبتِ البراهينُ حتَّى لم يبقَ أصلًا نَوعُ لبسٍ؛ عمَّ بالخبرِ عمّا تقدَّم ممّا يشاهدونه وغيره، فقال ذاكرًا الزَّمانَ بعد المكانِ، وقدَّمَهُ؛ لأنَّه أظهرُ، فتمَّ بذلك الخبرُ عن الزَّمان والزَّمانيّات والمكان والمكانيّات[1]، وبعد أن ذكرَ عظيمَ خلق اللّهِ في السّماواتِ والأرض، وهذا الفضاءُ العظيم، والكونُ الهائلُ؛ لَفَتَ الأنظارَ إلى الأزمنةِ، وذكرَ منها اللَّيلَ والنَّهارَ؛ لتكتمل الحجَّةُ العقليَّةُ لدى المُخاطبين في أسلوبٍ علميٍّ نادرٍ صالحٍ لكلِّ زمانٍ ومكانٍ، فبيَّنَ أنَّ ذلك كلَّهُ ملكٌ للّهِ سبحانه، ولا أحد يستحقُّ أن يملك شيئًا منه.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿سَكَنَ﴾: السُّكونُ: ذهابُ الحركةِ، سكنَ المتحرِّكُ، وأسكنتُهُ وسكنتُهُ، وتناسبت حركاتُهُ وسكناته[2]، وكلُّ ما هدأ: فقد سكنَ، كالرّيح والحرِّ والبرد والمطر[3]، وسكن، أي: سكتَ، وسكنَ الغضبُ[4]، فالسُّكونُ ثبوتُ الشَّيءِ بعد تحرُّكٍ[5].

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 7/33.
(2) الزّمخشري، أساس البلاغة: (سكن).
(3) الخليل العين، وابن سيده، المحكم: (سكن).
(4) الخليل، العين: (سكن).
(5) الراغب، المفردات: (سكن).

قال القرطبيُّ: "المعنى: ما خَلَق، فهو عامٌّ في جميع المخلوقاتِ متحرِّكها وساكِنها، فإنَّه يجري عليه اللَّيلُ والنَّهار، وعلى هذا فليس المرادُ بالسُّكونِ ضدَّ الحركة، بل المرادُ الخلقُ، وهذا أحسنُ ما قيلَ؛ لأنَّهُ يجمعُ شَتات الأقوال"[1].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

بيانُ ما يَشْهدُ بشُمولِ عِلْمِ اللهِ وإحاطتِه وقُدرتِه

ثمَّ أخبرَ اللهُ سبحانه عن عمومِ ملكِهِ ﷻ، فهو مالكُ كلِّ شيءٍ وحركتِه وسكونِه وزمانِه، وهذا احتجاجٌ على المشركينَ؛ لأنَّهم لم ينكروا أنَّهُ خالقُ الكلِّ ومدبِّرهُ[2]، وهو تعالى يسمعُ كلَّ مسموعٍ وغيرَ مسموع، ويعلم كلَّ معلومٍ وغيرَ معلوم، فلا يخفى عليه شيءٌ سبحانه.

وترشدُ الآيةُ الكريمةُ إلى أنَّه ﷻ يَمْلك النّاسَ وما حولهم لا يخرجون عن قدرتِه، وهو المهيمنُ عليهم، إن شاءَ خَسَف بمن يخالفُهُ، وأهلكهم، ولم يجعل من الكافرين ديّارًا، وأنه عليمٌ بما يكون من الطّائعين، فيجزيهم، ويهديهم، وما يكونُ من العصاةِ، فيعاقبُهم ويرديهم، وفيه إنذارٌ للمشركين[3].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ عطْفِ الخاصِّ على العامِّ:

كلُّ موجودٍ هو للهِ وحدَه، ما تُدركُهُ حواسُّنا وما لا تُدرِكُهُ

العطفُ هنا من بابِ عطفِ الخاصِّ على العامِّ لتقرير عُمومِ الملك لله تعالى بأنَّ ملكَه شَمِلَ الظّاهراتِ والخفيّاتِ، فقوله: ﴿۞وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِي ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِۚ﴾ جملةٌ معطوفةٌ على ﴿لِلَّهِ﴾[4]. من قوله: ﴿قُل لِّلَّهِۚ﴾ [الأنعام: 12] الذي هو في تقديرِ الجملة، والمعنى: (لله ما في

(1) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 6/191.
(2) النّسفي، مدارك التّنزيل: 1/493.
(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 5/2451.
(4) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 2/155.

السَّماواتِ والأرضِ، ولهُ ما سكنَ)، فعطفَ الخاصَّ، وهو ﴿مَا سَكَنَ فِي ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِۚ﴾ على العام: وهو (للّه ما في السماوات والأرض).

وجهُ تقديمِ الجارِّ والمجرورِ على المسنَدِ إليه:

وتقديمُ الجارِّ والمجرور ﴿وَلَهُۥ﴾ في قوله: ﴿۞وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِي ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِۚ﴾، للدَّلالة على الحَصر، فهي للّه وحده سبحانه؛ لأنَّه هو الخالقُ المُقدِّرُ القيّوم على حركات اللَّيل والنَّهار وما يسكنُ فيهما، ثمَّ إنَّ اللَّيلَ أصلٌ والنَّهارَ طارئٌ، وهو حَصَرَ السّاكناتِ في كونِها له لا لغيرِه، أي: في كون أنَّ مُلكَها التّامَّ له، كما تقدَّمَ في قوله: ﴿قُل لِّمَن مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ قُل لِّلَّهِۚ﴾، ومعنى ذلك أنَّ كلَّ شيءٍ له مسكنُهُ وبيئته ومحيطُه في هذا الكونِ، فهو مقهورٌ في محيطِهِ لا يملكُ التَّحوُّلَ عنه إلّا بإذنِ اللّه تعالى.

كلُّ شيءٍ في هذا الكونِ بإذنِ اللهِ، ولا حركةَ ولا سكونَ إلّا به

دلالةُ الفعلِ الماضي ﴿سَكَنَ﴾ وسرُّ البدْءِ بِهِ:

قوله: ﴿سَكَنَ﴾: فعل ماضٍ مِنَ السُّكنى، وتعدّيه بـ (في) كما في قوله: ﴿وَسَكَنتُمۡ فِي مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ﴾ [إبراهيم: 45][1]. وإلى ذلك ذهبَ ابن عطيَّةَ، فقال: هي من السُّكنى ونحوه، أي: ما ثبتَ، وتقرَّر[2]، وهذا المعنى يحقِّقُ فائدةَ أنَّ كلَّ مخلوقٍ له سُكنى في هذا الكونِ، وإنَّما بدأ به؛ لأنَّه صفةُ أكثر الموجوداتِ، كما أنَّ لفظَ ﴿سَكَنَ﴾ يحتملُ حملهُ على الكنايةِ، فالسُّكونُ استقرارُ الجسم في مكانٍ، أيْ: حيِّزٌ لا ينتقلُ عنه مدَّةً، فهو ضدُّ الحركةِ، وهو من أسبابِ الاختفاءِ؛ لأنَّ المختفيَ يسكنُ، ولا ينتشرُ، والأحسنُ أن يكون كنايةً عن الخفاءِ، مع إرادةِ المعنى الصَّريحِ، ووجهُ كونِه كنايةً أنَّ الكلامَ مسوقٌ للتَّذكيرِ بعلمِ اللّهِ تعالى، وأنَّه لا يخفى عليه شيءٌ من أعمالكُم، وهو مُحاسبكُم عليها، يوم يجمعُكم إلى يومِ القيامة، فهو

السَّكنُ شاملٌ لكلِّ موجوداتِ الدُّنيا

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/11.
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/320.

كقولهِ تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَحۡمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ﴾ إلى أن قال: ﴿وَمَنۡ هُوَ مُسۡتَخۡفِۭ بِٱلَّيۡلِ﴾ [الرعد: 8 - 10][1].

دلالةُ الظَّرفيّةِ الزّمانيَّةِ، في قولهِ تعالى: ﴿فِي﴾:

اللَّيلُ وعاءٌ للسُّكنى، وآيةٌ على انتظامِ الزّمنِ وتعاقُبِه

فائدةُ تعديةِ السُّكنى بـ (في): أنَّ السُّكنى تكونُ في أيِّ وقتٍ من أوقات اللَّيل، وقد تستمرُّ تلك السُّكنى مع ذهابِ اللَّيلِ وطُلوع النَّهارِ، وهي على خلافِ دلالةِ قولِه: ﴿وَمَنۡ هُوَ مُسۡتَخۡفِۭ بِٱلَّيۡلِ وَسَارِبُۢ بِٱلنَّهَارِ ١٠﴾ [الرّعد: 10]؛ إذ إنَّ شرطَ الاستخفاءِ هو العتمَةُ، ووظيفةُ حرفِ الباءِ الإلصاق، ويكون الاستخفاءُ ملتصقًا باللَّيل وبعتمته، وتظهر دلالة الظَّرفيَّةِ الزَّمانيَّةِ لـ (في) أنَّها للوِعاء، فصارَ اللَّيلُ وعاءً للسُّكنى، فقدَّم الأنموذجَ الّذي تستقرُّ فيه المخلوقاتُ، وتَسكُنُ.

سِرُّ البدْءِ بلفظِ (اللَّيلِ) قبْلَ لفظِ (النّهار):

السَّواكنُ في اللَّيلِ تَزدادُ خفاءً

وتخصيصُ اللَّيلِ بالتّقديم في قوله تعالى: ﴿۞وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِي ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِۚ﴾؛ لأنَّ السّاكنَ في ذلك الوقتِ يزدادُ خفاءً، فهو كقولهِ: ﴿وَلَا حَبَّةٖ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡأَرۡضِ﴾ [الأنعام: 59]، وعطفَ النَّهارَ عليه لقصدِ زيادَة الشُّمولِ؛ لأنَّ اللَّيلَ لمّا كان مظنَّةَ الاختفاءِ فيه، قد يظنُّ أنَّ العالمَ يقصدُ الاطِّلاعَ على السّاكنات فيه بأهمّيَّة، ولا يقصد إلى الاطلاعِ على السّاكناتِ في النَّهارِ، فذكر النَّهارَ لتَحقيقِ تَمامِ الإحاطَةِ بالمَعلوماتِ.

بلاغةُ تقديمِ المكانِ على الزَّمانِ في السِّياق:

المكانُ هو الحيِّزُ في الوجودِ، وهو يقابِلُ الزَّمانَ

لمّا ذكر - تعالى - أنَّهُ له مُلْك ما حوى المكان من السّماواتِ والأرضِ، في الآيةِ السّابقةِ بقوله: ﴿قُل لِّمَن مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾؛ أعقبهُ بذكرِ ما حواهُ الزَّمان من اللَّيل والنَّهار، بقوله: ﴿۞وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِي ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِۚ﴾، وإن كان كلُّ واحدٍ من الزَّمانِ والمكانِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/154 - 155.

يستلزمُ الآخرَ، لكنَّ النَّصَّ عليهما أبلغُ في توكيدِ الملكيَّةِ، وقدَّمَ المكانَ؛ لأنَّه أقربُ إلى العقولِ والأفكارِ من الزَّمان[1].

دلالةُ الطِّباقِ في لفظَي ﴿ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِۚ﴾:

اللَّيلُ والنَّهارُ يَشملانِ الأوقاتِ، ظَرفاً لحياةِ جميعِ المخلوقاتِ

معلومٌ أنَّ بين اللَّيل والنَّهارِ طباقًا فائدته الشُّمولُ، فاللَّيل والنَّهار يشملانِ الأوقاتِ كلَّها، فيكونُ كلُّ كائنٍ حيٍّ متحرِّكٍ لابدَّ له أن يسكُنَ في ساعةٍ من ساعات اللَّيلِ والنَّهار، كما أنَّ لها إشارةً مهمَّةً، مفادها: أنَّ جميعَ المخلوقاتِ لا بدَّ لها وأن تسكُنَ في اللَّيلِ أو النَّهار، من أصغر خليَّةٍ إلى أكبرِ مخلوقٍ، ثُمَّ فيها معنى الضَّعفِ لتلك المخلوقات الَّتي تحتاجُ إلى السُّكون، ولا يمكنها العيشُ أو استمرارُ حياتِها دون ذلك السُّكون، وقد عَرَّف اللَّيلَ والنَّهارَ؛ لبيانِ أنَّهما ليلُ الأرضِ ونهارُها، وذلك بقرينةِ المخاطَبين بذلك، فهم أهلُ الأرضِ.

بلاغةُ الاكتفاءِ بـ ﴿سَكَنَ﴾، وحذْفِ المقدَّرِ في الآية:

السُّكُونُ صفةٌ للكائناتِ، يأتي بعدَ الحركةِ في الموجوداتِ

اكتفى بذكرِ السُّكونِ دونَ الحركةِ، إذا قَصَدَ معنى السُّكونِ، وليس السُّكنَى، فاكتفى بأحدِ الضِّدَّينِ عن الآخر[2]؛ لأنَّ الأجسامَ والمخلوقاتِ منها ساكنٌ ومنها متحرِّكٌ، فما هو ساكنٌ مُرادٌ بذاتِه وما يتحرَّك لابدَّ له من السُّكونِ، والمعنى: (ما سكن وما تحرَّك)[3] لمعطوفٍ محذوفٍ، وقيلَ: لا محذوفَ هنا، واقتصرَ على السّاكنِ؛ لأنَّ كلَّ متحرِّكٍ قد يسكنُ، وليس كلُّ ما يسكن، يتحرَّكُ[4].

قال أبو زهرة: "لا مانعَ من أن يُرادَ المعنيان معًا، إذ يعلمُ سبحانه كلَّ ما استقرَّ في السّماوات والأرض، ويعلمُ حركاتِهما وسكناتِهما"[5].

(1) أبو حيّان، البحر المُحيط: 4/449.
(2) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 2/156.
(3) ابن معصوم، أنوار الرّبيع: 1/183.
(4) أبو حيّان، البحر المُحيط: 4/449.
(5) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 5/2451.

بلاغةُ خَتْمِ الآيةِ بما يُناسبُ الوعيدَ والتَّهديدَ:

العلمُ بقُدرةِ اللهِ المُخصيّةِ والمُجازيةِ، أقوَى رادعٍ

قولِه: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾، منها قوله: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لكلِّ مسموعٍ، ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بكلِّ معلومٍ، فلا يخفى عليه شيءٌ، ويجوز أن يكونَ وعيدًا للمشركين على أقوالِهم وأفعالِهم[1]، وقولهُ: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ لما تقدَّم ذكرُ محاوراتِ الكفّارِ المكذِّبين، وذكرُ الحشرِ الَّذي فيه الجزاء؛ ناسبَ ذكرُ صفةِ السَّمع لما وقعت فيه المحاورةُ وصفة العلم لتضمُّنها معنى الجزاءِ؛ إذ ذلك يدلُّ على الوعيدِ والتَّهديد[2].

بلاغةُ اللَّفِّ والنَّشْرِ في الآيةِ الكريمةِ:

مغزَى ذكْرِ اللَّيلِ والسَّمعِ، وذكْرِ النَّهارِ والعِلمِ

قوله: ﴿وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِى ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾، كان به خَتْمُ الآيةِ الكريمةِ كالنَّتيجةِ للمقدِّمة؛ لأنَّ المقصودَ من الإخبارِ بأنَّ اللّه يملك السّاكناتِ، هو التَّمهيدُ لإثباتِ عمومِ علمِه، وإلّا فإنَّ مُلكَ المُتحرِّكات المُتصرِّفات أقوى من مُلكِ السّاكِنات الَّتي لا تُبْدي حَراكًا، فظهرَ حسنُ وقعِ قولِه: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ عقبَ هذا[3]. وفي الآيةِ لفٌّ ونشرٌ على التَّرتيبِ؛ إذ ذكرَ اللَّيلَ، وذكَرَ السَّمْعَ باعتبارِها الحاسَّة التّي تعملُ في الظَّلام، وذكرَ النَّهارَ والعِلم؛ إذ يكونُ في النَّهارِ نشاطُ المخلوقاتِ في الحَرَكة واكتِساب العِلمِ والخِبرَة والمَعرِفة.

دلالةُ وجهَيِ السَّمْعِ في الآيةِ الكريمةِ:

اللّه سميعٌ لا يَغيبُ عنه بالفَوْتِ، أدْنَى صَوتٍ.

من أسماءِ اللّهِ وصفاتِه "السميعُ"، وسمْعُ اللّهِ تعالى قسمان: سمعُ إجابةٍ، وسمْعُ صوتٍ، فسمعُ الإجابةِ مثلُ قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ۝٣٩﴾ [إبراهيم: 39].

(1) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 2/156.
(2) أبو حيّان، البحر المُحيط: 4/449.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 7/156.

وسمْعُ الصَّوتِ أقسامٌ وأنواعٌ، النَّوعُ الأوَّلُ: المقصودُ بهِ التَّأييدُ والنَّصرُ، كقولِ اللّهِ ﷻ لموسى وهارون: ﴿لَا تَخَافَآ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ ۝٤٦﴾ [طه: 46]. والثاني: المرادُ بهِ التهديدُ، كقوله تعالى: ﴿أَمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّا لَا نَسۡمَعُ سِرَّهُمۡ وَنَجۡوَىٰهُمۚ بَلَىٰ﴾ [الزخرف: 80]. والثالثُ: المرادُ به الإحاطة، كقول الله تعالى: ﴿قَدۡ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوۡلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوۡجِهَا وَتَشۡتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسۡمَعُ تَحَاوُرَكُمَآۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ ۝١﴾ [المجادلة: 1][1].

وجهُ المُبالَغَةِ في صِفتَي ﴿ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾:

أفادَ تعريفُ الاسمينِ (السَّميعُ العَليمُ) المُبالغَةُ في معناهُما، فهو سبحانهُ يسمعُ ما تسمعَهُ المَخلوقاتُ، وما لا تَسمَعُهُ، ويَعلَمُ ما تعلمُ وتُدرك المخلوقاتُ، وما لا تَعلَمُ أو تُدركُ، وجاءت صفتا (السَّميع) و(العَليم) كصِفَتَي مُبالغَةٍ لدلالَتِهما على ذلك.

اللـهُ سُبحانه سميعٌ لا يُدرَكُ سمعُهُ، وعليمٌ لا نهايةَ لعلْمه

(1) العثيمين، تفسير القرآن الكريم، تفسير سورة الأنعام، ص: 73.

﴿قُلۡ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيّٗا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَهُوَ يُطۡعِمُ وَلَا يُطۡعَمُۗ قُلۡ إِنِّيٓ أُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ أَوَّلَ مَنۡ أَسۡلَمَۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ١٤﴾ [الأنعام: 14]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

المناسبةُ بين إحاطةِ الله بالكونِ والزّمنِ، والتّعجُّبِ من عبادةِ سِواه

بعد أن قدَّم في الآيةِ السّابقةِ الأدلَّةَ الدّامغةَ على عظيمِ خلق اللّهِ تعالى، شاملًا المكان والزَّمان، استفهم هُنا تعجُّبًا وإنكارًا على أولئك الذين يتَّخذون غير اللّهِ خالقِ السّماواتِ والأرض وليًّا أو إلهًا، ثُمَّ أوغلَ في ذكرِ صفاتِ اللّهِ، فذكرَ أنَّه سبحانه قد تكفَّلَ بأرزاقِ الأحياءِ وأقواتها، ثُمَّ أعلنَ الرَّسولُ أنَّه أوَّلُ من أسلمَ إلى دينِ اللّه سبحانه.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَتَّخِذُ﴾: جذر الكلمة هو (أخذ)، وتَخِذَ، بمعنى: أخذ[1]. تَخِذتُ زيدًا خليلًا، بمعنى: جعلتُهُ، واتَّخذتُه كذلك[2]، ومنه قوله: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبۡرَٰهِيمَ خَلِيلٗا ١٢٥﴾ [النّساء: 125]، وقوله: ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبۡرَٰهِـۧمَ مُصَلّٗىۖ﴾ [البقرة: 125][3].

تلخيصٌ لمعاني ما جاء من مادة (أخذ) في القرآن: الأخذُ يعبِّر عن حوزٍ في الأثناءِ بغلظٍ، أي: قبضٍ بقوَّةٍ، وقد جاء أكثر (أخذ) بمعنى القبض الحقيقي أو المجازيِّ (55 مرة)، وجاء نحو (78 مرَّةً)، الأخذُ فيها بمعنى: إنزالِ عقوبةِ إهلاكٍ، وهذا قبضٌ؛ لأنَّه جَوْح واجتلاف، ومنها (18 مرَّةً) في أخْذِ الميثاقِ، وهو تقييدٌ من بابِ القبضِ، وجاءت صيغةُ المؤاخذةِ للمحاسبةِ والمعاقبة تسعَ مرّاتٍ،

(1) الراغب، المفردات: (أخذ).
(2) الفيومي، المصباح المنير: (تخذ).
(3) أحمد مختار، معجم اللغة العربية المعاصرة: (تخذ).

وهي نيلٌ بالعقوبةِ من باب القبضِ، وأخيرًا جاء على صيغة افتعل (اتخذ) وما تصرَّفَ منها نيِّفًا ومئة مرة، وأصلُ معناها - كما في الآية الكريمة - أَخْذٌ لنفسِه، فهي قبْضٌ أيضًا[1].

2) ﴿فَاطِرِ﴾: جذر الكلمة هو (فطر) الشَّيءَ يفطُرُه فطرًا، وفطره: شقَّه، والفطرُ: الشَّقُّ، وجمعُه: فُطورٌ، قال تعالى: ﴿هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ۝٣﴾ [الملك: 3]. وفطرَ الشَّيءَ، وتفطَّرَ، وانفطرَ، وفي التَّنزيلِ: ﴿ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ﴾ [المزمل: 18][2]. وفطر اللّٰهُ الخلقَ، وهو فاطرُ السّماواتِ: مُبتدعُها[3]. وقد فطرَ هذه البئرَ، وفطر اللّٰهُ الشَّجرَ بالورق، فانفطر به وتفطَّر، وتفطَّرتِ الأرضُ بالنَّباتِ[4]، وعن ابنِ عبّاسٍ ﵄: "ما عرفتُ معنى الفاطرِ حتَّى اختصمَ إليَّ أعرابيّان في بئرٍ، فقالَ أحدُهما: أنا فطرتُها، أي: ابتدأْتُها"[5].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

الحُججُ الدَّالَّةُ على وجوبِ وَلايةِ اللهِ، والإسلامِ له، دونَ إشراكٍ به

سيقتْ هذهِ الآيةُ تبكيتًا على الشِّركِ بأبلغِ ما يكونُ؛ فقد وجَّه الرَّسولُ ﷺ الإنكارَ إلى نفسِهِ بدلًا من توجيهِهِ إليهم؛ تقريرًا لكونِ ما يدعو إليه من اختصاصِ العبادةِ والتَّوجُّهِ للّٰهِ وحدَهُ تعالى هو الحقُّ المُبينُ، ثم دلَّل - سبحانه - على أنَّهُ هو وحده المستحقُّ للعبادةِ: بأنَّه مُبدعُ السَّماواتِ والأرضِ منظِّمُهما، وبأنَّه يرزقُ من يشاءُ من عبادِه، ولا أحدَ من عبادِه يرزقُه، فهو الغنيُّ عنهم، وفي هذين الدَّليلين تعريضٌ بمنِ اتَّخذ أولياءَ من دونهِ مِنَ البشرِ، المُحتاجين للطَّعامِ والعاجزينَ عن الخَلْقِ والإيجاد[6]. ثمَّ أمره تعالى بالخضوعِ له وبالبراءةِ من شِرْكهم ومن أفعالهم القبيحةِ: قل - أيُّها الرَّسولُ-:

(1) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (أخذ).
(2) ابن سيده، المحكم: (فطر).
(3) الزّمخشري، أساس البلاغة: (فطر).
(4) الزّمخشري، أساس البلاغة: (فطر).
(5) النّسفي، مدارك التنزيل: 2/7.
(6) الموصلّي، أولى ما قيل: 3/193.

إنّي أمرني ربي سبحانه أن أكونَ أوّلَ منِ انقادَ للّه، وخضَعَ له من هذه الأمَّةِ، ونهاني أن أكونَ من الَّذين يشركونَ معهُ غيرَه[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ الاستفهامِ، في ثنايَا الآيةِ الكريمةِ:

الولاءُ للهِ وحدَهُ سَندٌ في الدُّنيا، ومَلجأٌ في الآخِرةِ

دخلت همزةُ الاستفهامِ على الاسم دون الفعلِ الذي هو ﴿أَتَّخِذُ﴾؛ لأنَّ الإنكارَ في اتِّخاذِ غيرِ اللّهِ وليًّا، لا في اتخاذِ الوليِّ، فكان أولى بالتَّقديم[2]، ونظيرُ ذلك قوله: ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّيٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ ۝٦٤﴾ [الزمر: 64]، وقوله: ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ لمّا تقدَّم أنَّهُ تعالى خَلَقَ السّماواتِ والأرضَ، وأنَّهُ مالك لما تضمَّنه المكانُ والزَّمانُ، أمر تعالى نبيَّهُ أن يقولَ لهم ذلك على سبيلِ التَّوبيخِ لهم[3]، وانتصاب ﴿أَغَيْرَ﴾ على أنَّها مفعولٌ أولُ لـ ﴿أَتَّخِذُ﴾[4].

بلاغةُ التَّقديمِ في قولِهِ تعالى: ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا﴾:

تعيينُ المرادِ بالاستفهامِ، وأنَّه ليس أهلًا للوَلايةِ إلَّا اللهُ تعالى

قدَّم المفعولَ الأول لـ ﴿أَتَّخِذُ﴾ على الفعلِ وفاعله ليكون مواليًا للاستفهام؛ لأنَّهُ هو المقصودُ بالإنكارِ، لا مطلقُ اتَّخاذ الوليِّ، فالتَّقديمُ للاهتمام به، وداعي التَّقديم هو تعيينُ المرادِ بالاستفهام، والحقُّ أنَّ التَّقديمَ هنا ليس إلّا للاهتمام بشأن المقدَّم، ليَلِيَ أداة الاستفهام، فيُعْلَمَ أنَّ محلَّ الإنكارِ هو اتِّخاذُ غيرِ اللّهِ وليًّا[5]، كما أنَّ تقديمَ المفعولِ به دلَّ على أنَّ إنكارَ اتِّخاذ غير اللّهِ لا يبقى معه إلّا اتِّخاذُ اللّهِ وليًّا، فكان هذا التركيب مستلزمًا معنى القَصر، وليس هو بدالٍّ على القَصر مطابقةً، ولا مفيدًا لما يفيده القصرُ الإضافيُّ

(1) جماعة من العلماء، المختصر في تفسير القرآن الكريم، ص: 129.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/11.
(3) أبو حيّان، البحر المُحيط: 4/452.
(4) أبو حيّان، البحر المُحيط: 4/452.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/157.

من قلبِ اعتقادٍ، أو إفرادٍ أو تعيينٍ، فلو كان المفعولُ خلافَ كلمةِ ﴿أَغَيْرَ﴾ لما صحَّ اعتبارُ القَصر[1].

بلاغةُ المجازِ، في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُۗ﴾:

قولهُ: ﴿وَهُوَ يُطْعِمُ﴾ جملةٌ في موضعِ الحالِ، بمعنى: وهو يرزُقُ، ولا يُرزَق[2]، فقد ذكر الطَّعامَ وأراد الرِّزقَ، أي: ذكر المُسبَّب وأراد السَّببَ، فهو مجازٌ علاقتُه المُسَبَّبيَّة، وكذلك قوله: ﴿وَلَا يُطْعَمُۗ﴾؛ إذ أريد أنَّه لا يُرزَق، وهذا استدلالٌ على المشركين بما هو مسلَّمٌ عندهم؛ لأنَّهم يعترفون بأنَّ الرازقَ هو اللّهُ وهو خالقُ المخلوقاتِ، وإنَّما جعلوا الآلهةَ الأخرى شركاءَ في استحقاقِ العبادةِ، وقد كثر الاحتجاجُ على المشركين في القرآنِ بمثل هذا كقولهِ تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ۝٦٣ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ۝٦٤﴾ [الواقعة: 63، 64][3].

أرزاقُ اللهِ للعبادِ مُنهمرةٌ، وهو الرَّازقُ بعَطاءاتِه الغامرةِ

والمعنى: أنَّ المنافعَ كلَّها من عنده، ولا يجوزُ عليه الانتفاع[4].

وجهُ التَّعريضِ، في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُۗ﴾:

في قولهِ: ﴿يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُۗ﴾ تعريضٌ بالمُشركين الذين اتَّخذوا لهم آلهةً يقدِّمون إليهم القَرابين، فعرَّضَ بهم وبأفعالِهم، فقال: ﴿يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُۗ﴾، فهو سبحانه مالك المُلكِ، فلا يَحتاج من أحدٍ شيئًا، فلا يُطعَم من أحدٍ، بل إنَّ أسبابَ الرِّزقِ والإطعام كلَّها بيدهِ سبحانه.

أسبابُ الرِّزقِ والإطعامِ، بتصريفِ ذي الجلالِ والإكرامِ

بلاغةُ طِباقِ السَّلبِ، في قوله تعالى: ﴿يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُۗ﴾:

وقوله: ﴿وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُۗ﴾، أي: يَرزُقُ ولا يُرزَق، كقولهِ: ﴿مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ۝٥٧﴾ [الذّاريات: 57]، أي: إنَّ المنافعَ كلَّها من عندِ اللّه، وخصَّ الإطعام من أنواع الرِّزقِ لمَسِّ الحاجَةِ إليه

ملاءمةُ المحاوَرةِ لأسلوبِ الاستفهامِ الإنكاريِّ في الآيةِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتَّنوير: 7/ - 157 - 156.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/11.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتَّنوير: 7/158.
(4) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/11.

وشهرتهِ واختصاصِه بالإنسان[1]، وطباقُ السَّلبِ هو الألصقُ بسياق المحاورةِ؛ إذ هو تفريقٌ بين المعبودِ الحقِّ والمعبوداتِ العاجزة الَّتي اتَّخذوها أولياء، وقد جرى في سياقِ الإنكار التَّوبيخي على اتِّخاذ غيرِ اللّه وليًا، فكانتِ الجملةُ الحاليَّةُ الواردةُ طباقَ سلبٍ زيادةً في الإنكار وتأكيدًا له، وهذا واردٌ على كلِّ قراءةٍ واردةٍ كقراءة ﴿يُطْعِمُ﴾ بكسر العين، فيكون الرِّزقُ بتقديرِه واختياره، فيُطعِمُ من يشاء، ويَمنَعُ من يشاء.

وقرأ مجاهدٌ وابنُ جبير والأعمشُ وأبو حيوة وعمرو بنُ عبيد وأبو عمرو في رواية عنه (ولا يَطعَمُ) بفتح الياءِ والعين، والمعنى: أنَّه تعالى منزَّهٌ عن الأكلِ، ولا يشبه المخلوقينَ.

وفي قراءةِ من قرأَ باختلافِ الفعلين تجنيسُ التَّشكيلِ، وهو أن يكونَ الشَّكلُ فرقًا بين الكلمتين، وسمّاهُ أسامة بن مُنْقذ في بديعتِه (تجنيس التّحريف)، وهو بتجنيس التَّشكيل أولى[2]، وقال الزَّمخشريُّ: ويجوز أن يكون المعنى: وهو يُطعم تارةً، ولا يُطعَم أخرى على حسب المصالح، كقولك هو يُعطي، ويَمنع، ويبسطُ، ويقدرُ، ويُغني، ويُفقر[3].

سِرُّ بناءِ الفعلِ للمفعولِ، في قوله تعالى: ﴿وَلَا يُطْعَمُ﴾:

البناءُ للمفعولِ في قولِه: ﴿وَلَا يُطْعَمُ﴾ فائدتهُ: (عَدَمُ تَخصيصِ الفاعِلِ) لِقِلَّةِ شَأنِه، وفائدَتُهُ هُنا أيضًا لبَيان عَدَم وُجودِ فاعِلٍ أصلًا، وذلك لوجود النَّفي في النَّصِّ، فقال: ﴿وَلَا يُطْعَمُ﴾. وهذه المفردةُ مهمَّة جدًّا في بيانِ عظيم شأنِ الإله، وهي لا تكونُ إلا للّهِ وحده سبحانه، أنَّه هو وحدهُ ﴿يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾.

الإطعامُ يَتأتَّى مِنَ الخالقِ للمخلوقِ، ولا يتأتَّى مِنَ المخلوقِ للخالقِ

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/321.

(2) أبو حيّان، البحر المُحيط: 4/452، وهذه القراءة - (ولا يَطْعَم) - قراءة شاذة. الأخفش، معاني القرآن: 2/270، والسمين، الدر المصون: 3/21.

(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/11.

بلاغةُ إعادةِ الأمرِ ﴿قُلْ﴾، في الآيةِ الكريمة:

الاهتمامُ بالمقُولِ، وتقريرُ وجوبِ إفرادِ اللهِ بالعبادةِ

لم تُعطف جملةُ ﴿قُلْ﴾ على نظيرتها في أوَّلِ الآية للإشعارِ باستقلالِ موضوعِها عن الأولى؛ لأنَّ كلَّ جملةٍ تضمَّنت غرضًا بحالها غير الَّذي أمر فيه بالقولِ قبلَهُ، فإنَّهُ لمّا تقرَّرَ بالقول السّابقِ عبوديةُ ما في السّماوات والأرضِ للّه، وأنَّ مصيرَ كلِّ ذلك إليه، انتقلَ إلى تقريرِ وجوبِ إفرادهِ بالعبادة؛ لأنَّ ذلك نتيجةٌ لازمةٌ لكونه مالكًا لجميع ما احتوته السّماواتُ والأرضُ، فكان هذا التَّقريرُ جاريًا على طريقة التَّعريض؛ إذ أمرَ الرَّسول ﷺ بالتبرّي من أن يُعبدَ غيرُ اللّهِ، والمقصودُ الإنكارُ على الَّذين عبدوا غيرَهُ واتَّخذوهم أولياءَ؛ لدلالةِ المقام على أنَّ الرَّسولَ ﷺ لا يصدرُ منه ذلك، كيف وقد علِموا أنَّه دعاهم إلى توحيدِ اللّه من أوَّلِ بعثته[1]، وقد ذكر ابنُ عطيَّةَ عن بعض المُفسّرين أنَّ هذا القولَ أُمِرَ به الرَّسولُ ﷺ ليُجيبَ المُشركينَ الَّذين دعوه إلى عبادةِ أصنامهم، أي: هو مثلُ ما في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّيٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [الزمر: 64][2].

بلاغةُ التَّعبيرِ بالأوَّليَّةِ في قوله تعالى: ﴿أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ﴾:

تنوُّعُ الأغراضِ في الأوَّليَّةِ، دالٌّ على الصِّدقِ في كلِّ مَنحَى

قوله: ﴿قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ﴾ قال الزَّمخشريُّ: لأنَّ النَّبيَّ سابقُ أمَّتِهِ في الإسلامِ، كقولهِ: ﴿وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾ [الأنعام: 163]، وكقول موسى: ﴿سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾﴾ [الأعراف: 143][3]، قال ابن عطيَّةَ: المعنى: أوَّلُ من أسلمَ من هذه الأمَّةِ وبهذه الشَّريعةِ، ولا يتضمَّنُ الكلامُ إلّا ذلك[4]. وهو قولُ الحسن؛ إذ يقول: معناهُ: أوَّلُ من أسلمَ من أمَّتي، وهذا المعنى على الحقيقة.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتَّنوير: 7/156.
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/321
(3) الزّمخشري، الكشّاف: 2/11.
(4) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/321

وقيلَ: وفي هذا القولِ نظرٌ؛ لأنَّ النَّبيَّ ﷺ لم يصدرْ منه امتناعٌ عن الحقِّ وعدمُ انقيادٍ إليه، وإنَّما هذا على طريق التَّعريضِ على الإسلام، كما يأمرُ المَلِكُ رعيَّتَه بأمرٍ ثمَّ يتبعهُ بقولهِ: أنا أوَّلُ من يفعل ذلك ليحملَهم على فعلِ ذلك.

ويمكنُ أن يكون التَّعبيرُ كنايةً عن صفةِ السَّبقِ والفضيلةِ؛ إذ أراد الأوَّليَّةَ في الرُّتبةِ والفضيلة، كما جاءَ في الحديثِ: "نحن الآخِرون الأوَّلونَ يومَ القيامةِ"، وفي رواية "السّابقون"[1]، فالأوَّلُ كنايةٌ عن الأقوى والأمكنِ في الإسلام؛ لأنَّ الأوَّلَ في كلِّ عملٍ هو الأحرصُ عليه والأعلقُ به، فالأوَّليَّةُ تستلزم الحرصَ والقوَّةَ في العمل.

ويمكن أن يكون أيضًا ﴿أَوَّلَ﴾ بمعنى: هو أسرعُ إيمانًا باللّهِ، فهو مجازٌ مرسلٌ علاقته المُسبَّبيَّةُ، والخطابُ للنّاسِ جميعًا، قال تعالى: ﴿۞وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ [آل عمران: 133]. ويمكن أن يكون ﴿أَسۡلَمَۖ﴾ بمعنى أخلصَ، ولم يَعْدِل باللّهِ شيئًا، ويصلح معنى استسلمَ، أو أراد دخولهُ في دين إبراهيمَ - عليه السلام - كقوله: ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ﴾ [الحج: 78]، أو يكون ﴿أَوَّلَ مَنۡ أَسۡلَمَۖ﴾ يوم الميثاقِ، فيكون سابقًا على الخلقِ كلِّهم، كما قال: ﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمۡ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٖ﴾[2].

بلاغةُ الالتفاتِ منَ المتكلِّمِ إلى المُخاطَبِ في الآيةِ الكريمةِ:

الالتفاتُ في قولهِ تعالى: ﴿أَنۡ أَكُونَ أَوَّلَ مَنۡ أَسۡلَمَۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾[3]. التفتَ بفعلِ الكينونةِ من المتكلِّم إلى المُخاطَب، وفائدةُ ذلك أنَّهُ لما أعلن نفسه أوَّلَ من أسلمَ، وهذا مقتضى حالِ كلِّ مسلمٍ أن يقول: أنا أوَّلُ المسلمين، أي: أنشطُهم روحًا وطلبًا

الإسلامُ حَصانةٌ منَ الغيِّ، ووِقايةٌ منَ الشِّركِ

(1) أبو حيّان، البحر المُحيط: 4/453، والحديث أخرجه البخاري (برقم: 876)، ومسلم (برقم: 855)، وغيرُهما.

(2) أبو حيّان، البحر المُحيط: 4/453.

(3) الصّعيدي، بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح: 1/139.

وحُبًّا للإسلام، ثمَّ التفتَ إلى المخاطَب بقولِه: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾، أفادَ الخطابُ الإلهيُّ أنَّ على كلِّ مؤمنٍ أن يحذرَ مداخلَ الشيطانِ الَّتي تؤدّي به إلى الشِّرك، والالتفاتِ عن دواعيه والانصرافِ عن المشركين في جميع أحوالِهم.

بلاغةُ قولِه تعالى: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ بين الكِنايةِ والمجازِ:

قوله: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾، أي: كُن مؤمنًا، فالنَّهي عن الشِّرك كنايةٌ عن التزام التَّوحيدِ والإيمان الصَّحيح والمُعتقد القويم، فهي كنايةٌ عن نِسبة، فلا تنتسب إلى الشِّرك، ولا يُنتسب إليك الشِّرك والمُشركون.

الثَّباتُ على الإيمانِ، وِقايةٌ منَ الوقوعِ في بَراثنِ الشِّركِ

أو أنَّ الخطابَ للرَّسول ﷺ في قوله: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾، والمرادُ أمَّتُه وهذا هو الظّاهرُ على سبيلِ المجازِ المرسل بعلاقة الجزئيَّةِ؛ إذ ذكرَ الجزءَ، وأرادَ الكلَّ، فذكرَ الرَّسولَ، وأراد الرَّسولَ وأمَّتَه جميعًا، لقولِه: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزّمر: 65]؛ والعصمةُ تنافي إمكانِ الشِّرك، لذلك فإنَّه خطابٌ للأمَّةِ[1] ومجيئُه على هذا النَّحوِ فيه تربيةٌ لخُلُقِ التَّواضعِ في الأمَّةِ، وإلماعٌ إلى شدَّةِ التَّحرّي من الوقوعِ في براثنِ الشِّرك.

دلالةُ قوله تعالى: ﴿مَنْ أَسْلَمَ﴾ و﴿مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾، بين الإفرادِ والجمْعِ:

سياقُ الآيةِ الإفرادُ لا الجمعُ، قال تعالى: ﴿إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ﴾، ولم يقل: إنّي أمرتُ أن أكونَ أوَّلَ المسلمين، فاقتضى قوله: ﴿أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ﴾ أن يناسِبَ آخرُ الآية أوَّلها في السّياق، فيقولُ: ولا تكونَنَّ مشركًا، ولكنَّهُ آثرَ الجمعَ على الإفرادِ أولًا؛ لأنَّ الشِّركَ طرقُهُ كثيرةٌ منوَّعةٌ، ومداخلُ الشَّيطان هائلةٌ لا تُعدُّ، ولا تُحصى، فمن خرجَ من دائرةِ الإيمانِ، وهي سبيلٌ واحدٌ لا ثاني له، فقد أوغلَ

الإسلامُ طريقٌ واحدةٌ للهدايةِ، والشِّركُ طرائقُ شتَّى للغَوايةِ

(1) أبو حيّان، البحر المُحيط: 4/453.

في سُبُل الشِّركِ وتاه في أنواعِه وأشكالِه وطرقِه، ثمَّ إنَّه لم يُنسب إليه الشِّركُ ثانيًا رفعًا لمقام الإسلام، وصيانةً لمن قال: ﴿لِأَنۡ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ١٢﴾ [الزمر: 12].

بيانُ التّشابُهِ اللّفظيِّ بين آيةِ الأنعام (14)، وآية الزّمر: (12):

الإسلامُ دينُ اجتماعٍ وفاعليّةٍ، لا دينُ عُزلةٍ ورَهبانيَّةٍ

في قوله تعالى: ﴿إِنِّيٓ أُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ أَوَّلَ مَنۡ أَسۡلَمَۖ﴾؛ لأنَّ سياقَ الآياتِ يتحدَّثُ عن الإيمانِ أو عدمِه، فإمّا إيمانٌ وإسلامٌ، وإمّا كفرٌ وإعراضٌ، فقال: ﴿أَنۡ أَكُونَ أَوَّلَ مَنۡ أَسۡلَمَۖ﴾؛ وهذا لا ينبغي إلّا لرسولِ اللّه حقيقةً، ومعناهُ: أنَّه رسولُ هذه الأمَّةِ، وأنَّه قد أُمر بأداء الرِّسالةِ، فهو أوَّلُ من أسلمَ، أمّا قولهُ: ﴿وَأُمِرۡتُ لِأَنۡ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ١٢﴾ [الزّمر: 12]، فسياقُ الآيات في سورة الزُّمرِ يخاطب جماعة المؤمنين، فقال: ﴿قُلۡ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡۚ لِلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٞۗ وَأَرۡضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌۗ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجۡرَهُم بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾ [الزّمر: 10]، فأتبعها بقوله: ﴿قُلۡ إِنِّيٓ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ ١١ وَأُمِرۡتُ لِأَنۡ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ١٢﴾ [الزّمر: 11 - 12]، فجعلَ الخطاب في جماعة المسلمين، فقالَ: ﴿أَوَّلَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ١٢﴾ [الزّمر: 12]، تناسقًا وانسجامًا مع سياق الآيات، فثمَّةَ جماعةٌ مسلمةٌ ومجتمعٌ مسلمٌ، وقد أُمِرَ كلُّ مسلم أن يتصدَّر مجتمعه بالتَّقوَى والإيمان، فيكون أوَّلَ المسلمين. ثُمَّ إنَّهُ لم يقل: (وأمرت أن أكون مسلمًا)، وذلك لبيان أهمّيَّة الانتماءِ إلى المجتمع المسلم، وأنّ الإسلامَ دينُ مجتمعٍ وأخوَّةٍ، لا دين تفرُّدٍ وعُزلةٍ ورهبانيَّةٍ، والآياتُ القرآنيَّةُ الكريمة والأحاديثُ الصحيحة التي تؤيِّدُ ذلك كثيرةٌ.

دلالةُ معنى ﴿مِنَ﴾ في قوله تعالى: ﴿مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾:

قال: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾، ولم يقل: (ولا تكونَنَ مشركًا)؛ لأنَّ القصدَ ألّا ينتمي إلى جماعة المُشركينَ أو إلى مجتمع المشركينَ،

فيكون منهم، وإن كان مُسلِمًا، ولو قال: (ولا تكونَنَّ مشركًا)؛ لاكتفى بصفةِ الإشراكِ، لكنَّه أوغلَ في النَّهيِ، فنهى المُسلمَ أن ينتَميَ إلى مجتمع المُشركين؛ لأنَّ من عاشَ بين المشركين؛ أوشكَ أن يقعَ في الشِّركِ، وخيف على دينهِ.

مـــنْ عـــاشَـــرَ المشركينَ؛ خِيْفَ عليه من ضَياعِ الدّينِ

﴿قُلۡ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ١٥﴾ [الأنعام: 15]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

استكمال بيانِ أنَّ الشِّركَ بالله العظيمِ، جزاؤُه العذابُ الأليمُ

الآيةُ استئنافٌ مكرِّرٌ لما قبلَهُ، وهو تدرُّجٌ في الغرضِ المشترك بينهما، فبعدَ أن ذكرَ في الآيةِ السّابقةِ أنَّه أوَّلُ من أسلمَ لدين الله سبحانه، وأنَّه أمرَ أن يتجنَّبَ الشِّركَ وأهلَه؛ بيَّن في هذه الآية خوفَه من عظيمِ العذابِ يومَ القيامة[1]، يوم يُجمَعُ النّاس إليه، ويُحشرون من أجداثِهم ومن كلِّ مكانٍ.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَخَافُ﴾: جذرُ الكلمةِ هو (خوف)، والخَوفُ: ضدُّ الأَمن، خافَ يخاف خوفًا[2]. والخوفُ: الفزع[3]، وخَوَّفتُ الرَّجلَ: جعلت فيه الخَوفَ، والخيفةُ: الخوف[4].

2) ﴿عَصَيۡتُ﴾: جذرُ الكلمةِ هو (عَصَوَ)، عَصَى يَعصي عِصيانًا ومَعصية، والعاصي: اسم الفصيلِ خاصَّةً؛ إذا عصى أمَّه في اتِّباعها[5]. وعصى عِصيانًا؛ إذا خرج عن الطّاعةِ، وأصلهُ أن يتمنَّعَ بعصاه، قال: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ١٢١﴾ [طه: 121][6]. يقالُ: عَصا؛ إذا صَلُبَ واشتدَّ، واستعصى عليه الشَّيءُ: اشتدَّ، واعتصَتِ النَّواةُ قاصر: اشتدَّت، ومن هذا جاء العِصيانُ، فأصلهُ الصَّلابةُ وعدمُ الانثناءِ أو الانقياد، كما قال تعالى: ﴿وَمَنۡ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٣٦﴾ [إبراهيم: 36][7].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 7/160.
(2) ابن دريد، جمهرة اللغة: (خوف).
(3) ابن سيده، المُحكم: (خوف).
(4) الخليل، العين: (خوف).
(5) الخليل، العين: (عصو).
(6) الراغب، المفردات: (عصا).
(7) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (عصا).

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

تجنُّبُ المعصيّة، طَمعًا في رحمةِ الله، وخوفًا من عقابِه

أمرَ اللّهُ نبيَّه أن يتابعَ البيانَ عن جزاءِ من يخالفُ أمْره لهؤلاء المشركين مع اللّهِ غيره بالأسلوبِ السّابق نفسهِ بأن يقولَ: إنّي أخافُ إن عصيتُ ربي، فخالفتُ أمرَهُ، وأشركتُ معه غيره في عبادتهِ، أن ينزلَ بي عذابٌ عظيم يوم القيامةِ، والكلامُ مسوقٌ على جهةِ الفَرْضِ، أي: على فَرْضِ ظهور العِصيان منّي، وهو لونٌ من ألوان شدَّةِ البيان، أو تحقُّق الخوفِ على كلِّ من عصى، على نهجِ القرآنِ في مثله. وفي الآيةِ إشارةٌ إلى أنَّ هذا اليومَ لا محاباةَ فيه لأحدٍ مهما كان عظيمًا، وأنَّهُ منوطٌ بالأعمال[1].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

وجْهُ التَّرقّي في رفضِ الشِّركِ، بفعلِ الأمرِ ﴿قُلْ﴾:

الارتقاءُ في مَدارجِ الإيمانِ، تجنُّبٌ للشِّركِ وأهلِهِ

هذا استئنافٌ مكَرِّرٌ لما قبلَهُ، وهو تدرُّجٌ في الغرضِ المشتركِ بينها، من أنَّ الشِّركَ باللّهِ متوعَّدٌ صاحبُه بالعذابِ، وموعودٌ تاركُه بالرَّحمةِ، فقوله: ﴿أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا﴾ الآيةُ: رفضٌ للشِّرك بالدَّليلِ العقليِّ، وقوله: ﴿قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ﴾ الآية، رفضٌ للشِّرك امتثالًا لأمر اللّهِ وجلالهِ، وقوله هنا: ﴿قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ﴾ الآية تجنُّبٌ للشِّرك خوفًا من العقابِ وطمعًا في الرّحمةِ، وقد جاءتِ الآياتُ مترتِّبةً على ترتيبها في نفسِ الأمرِ[2]. وهو من قبيلِ التَّرقّي في رفضِ الشِّرك بحسبِ الغرض الَّذي سيقت من أجله العباراتُ المُتواليةُ.

بلاغةُ التَّعبيرِ بـ ﴿إِنْ﴾ الشَّرطيَّةِ دون (إذا):

لا يمكنُ أن يَعصيَ الأنبياءُ ربَّهُم؛ لأنّ هذا مُستحيلٌ في حقِّهم

قوله: ﴿إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي﴾ (إذا) تتضمَّنُ معنى الشَّرط، وهي كـ (إنْ)، ويفترقان في أنَّ (إنْ) تُستعمَلُ في المُحتَمَلِ المَشكوكِ فيه،

(1) الموصلّي، أولى ما قيل: 3/293، ونخبة من العلماء، التفسير الميسَّر، ص: 129.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتَّنوير: 7/160.

والمَوهومَةِ والنّادرة[1]، والمُستَحيلَةِ وسائر الافتراضاتِ الأخرى، فهي لتعليقِ أمرٍ بغيرِهِ عمومًا، فمِنَ المَعاني المُستَحيلَةِ قولهُ تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ ﴿٨١﴾﴾ [الزّخرف: 81]، فاستعملَ أداةَ الشَّرطِ (إنْ) في قوله: ﴿إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي﴾، فجعل ذلك من الأمور مُستَحيلَة الوُقوع؛ إذ لا يمكن أن يعصي الأنبياءُ ربَّهُم سبحانه.

فائدةُ صيغةِ الماضي في قولِه تعالى: ﴿عَصَيْتُ﴾:

إبرازُ الماضِي في صُورةِ الحاصلِ؛ للتَّنفيرِ منَ الشِّركِ

لفظةُ ﴿عَصَيْتُ﴾: عامَّةٌ في أنواع المعاصي، ولكنَّها ههنا إنَّما تشير إلى الشِّركِ الَّذي نُهيَ عنه[2]، والخوفُ ليس بحاصلٍ لعصمتِهِ؛ بل هو معلَّق بشرطٍ هو ممتنع في حقِّهِ ﷺ وجوابهُ محذوفٌ وجوبًا[3]. واستخدمَ هنا ﴿إِنْ﴾ الدّالَّةَ على احتمالِ وقوع مدخولها، وهو هنا جرْيٌ على العادة، لكنَّ المعصيةَ ممتنعةٌ عليه ﷺ، وفي التَّعبيرِ بالماضي ﴿عَصَيْتُ﴾ إبرازٌ له في صورةِ الحاصلِ على سبيل الفرضِ، ومعلومٌ أنَّ خوفَ المعصوم من المعصية لا يُنافي العِصمة.

وجهُ الكنايةِ في العُدولِ عنِ اسمِ الجلالةِ إلى ﴿رَبِّي﴾:

الاستسلامُ للهِ ركونٌ إلى ربِّ المخلوقاتِ جميعِها

يفهمُ من قولهِ: ﴿إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي﴾ أنَّ الآمرَ له بأن يكون أوَّلَ من أسلمَ والنّاهي عن كونِهِ من المشركينَ هو اللّه تعالى، وفي العدول عن اسم الجلالةِ إلى قوله: ﴿رَبِّي﴾ إيماءٌ إلى أنَّ عصيانَه أمرٌ قبيحٌ؛ لأنَّه ربُّه، فكيف يعصيه؟ ففي قوله: ﴿رَبِّي﴾ كنايةٌ عن الولاءِ للّه والاستسلام إليه سبحانه.

بلاغةُ الإطنابِ والإيغالِ في لفظ ﴿يَوْمٍ﴾:

جُعلتِ القيامةُ يومًا، لتأكيدِ حتميَّةِ قُدومِها

كان من الممكن أن تكونَ صيغةُ الكلامِ: (عذابًا عظيمًا)، لكنَّهُ ذكرَ اليومَ هنا إطنابًا في التَّعبيرِ وإيغالًا في المرادِ، وفائدةُ ذلك بيانُ

(1) الزّركشي، البرهان: 2/360.
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/321.
(3) أبو حيّان، البحر المُحيط: 4/457.

أنَّ هذا اليومَ وعدٌ محتومٌ، فكما تأتي الأيامُ المشهودةُ على النّاس في الدُّنيا، فسيأتي هذا اليومُ حتمًا على النّاس في الآخرةِ، ويوفَّى كلُّ حسابَه، وفيهِ كذلك عظيمٌ تهويلٍ من شديدِ العذابِ.

الوجهُ البلاغيُّ في وصْفِ ﴿عَذَابَ﴾، بأنّه ﴿عَظِيمٍ﴾:

إضافةُ العذابِ إلى اليومِ العظيمِ، تَستلزمُ عِظَمَ ما يَقعُ فيهِ

قوله: ﴿عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾: أضيفَ العذابُ إلى (يومٍ عظيم) تهويلًا له؛ لأنَّ في معتادِ العربِ أن يُطلقَ اليومُ على يومِ نصرِ فريقٍ وانهزامِ فريقٍ من المُحاربين، فيكونَ اليومُ نكالًا على المنهزمين؛ إذ يكثرُ فيهم القتلُ والأسرُ، ويُسام المغلوبُ سوءَ العذاب، فَذِكْرُ (يوم) يُثير من الخيال مخاوفَ مألوفةً، ولذلك قال اللّهُ تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ١٨٩﴾ [الشعراء: 189]، ولم يقل: عذابُ الظلَّةِ إنَّه كان عذابًا عظيمًا، وبهذا الاعتبارِ حَسُنَ جعلُ إضافةِ العذابِ إلى اليومِ العظيمِ؛ كنايةً عن عِظَمِ ذلك العذابِ؛ لأنَّ عظمةَ اليومِ العظيمِ تستلزمُ عِظَمَ ما يقعُ فيه عرفًا[1].

بلاغةُ الاعتراضِ، بالجملةِ الشَّرطيَّةِ المحذوفةِ الجوابِ:

وجهُ وصفِ (العذابِ)، بكونهِ عظيمًا

قوله: ﴿قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾، أصلُ التَّركيبِ: قل: (إنّي أخافُ عذابَ يومٍ عظيم)، لكنَّه اعترضَ بجملةِ الشَّرطِ ﴿إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي﴾، وهذه الجملةُ الشَّرْطيَّةُ - لا موضعَ لها من الإعرابِ، كالاعتراضِ بالقَسَم - اعتراضٌ بين الفِعْل وهو ﴿أَخَافُ﴾ وبين مفعولِه وهو ﴿عَذَابَ﴾، وليس ﴿أَخَافُ﴾ جوابه، لكنَّه دليلُ جوابهِ على الرّاجح[2]، والتَّقدير: إن عصيتُ أَخَفْ، وكأنَّ التَّعبيرَ بالخوفِ مرَّتين، المرَّة المصرَّح بها، وعلى التَّقديرِ في جوابِ الشَّرطِ، ممّا يدلُّ على عظيمِ الخوف، ففي الكلام مبالغةٌ في قطعِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتَّنوير: 7/160.
(2) السّمين، الدّر المصون: 4/559.

أطماعِهم، وتعريضٌ باستحقاقِهم العذابَ لكونهم عُصاةً[1]. ولمّا كان عظمُ الظَّرفِ بعظمِ مظروفِه، قال: ﴿عَظِيمٍ﴾، وهو عظيم، بما فيهِ من أمورٍ تحصلُ يوم القيامةِ، من تجلّي الله ﷻ، وحسابه وعقابه، والتَّنكيرُ في اللَّفظ للتَّعظيم، فهذا العذاب ذو عظمةٍ متكرِّرةٍ.

بيانُ التَّشابهِ اللَّفظيِّ بين آيةِ الأنعام: (15)، وآيةِ يونس (15):

دَأْبُ المُشركين في جميعِ الأزمنةِ؛ إحداثُ التَّبديلِ في الدِّينِ، لمعانَدةِ ربِّ العالمين

في الآية تطابقٌ لفظيٌّ مع قوله تعالى: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ١٥﴾ [يونس: 15]؛ إذ تضمَّنَتْ آيةُ الأنعامِ الأمرَ من اللّهِ بالقَول، أمّا آيةُ يونس ومن خلال سياقها؛ فتحكي قول رسول الله ﷺ وطاعته لله تعالى، واتِّباع ما يوحى إليه من اللّهِ سبحانه، فيتَّضح من سياقِ الآيتين أنَّ آيةَ يونسَ قد فَسَّرتْ ما ورد في آية الأنعام وما قبلها، فقوله: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ فسَّرتها آيةُ يونس بقوله: ﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٖ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا ٱئۡتِ بِقُرۡءَانٍ غَيۡرِ هَٰذَآ أَوۡ بَدِّلۡهُۚ قُلۡ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلۡقَآيِٕ نَفۡسِيٓۖ إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّۖ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ١٥﴾ [يونس: 15]، فما ذُكِرَ في هذه الآية يُظهِرُ دعوةَ المُشركين إلى تَبديلِ ما أوحيَ إلى الرَّسولِ، والتَّبديلُ بذاتِهِ إشراكٌ باللّه أو هو انعكاسٌ للإشراكِ باللّهِ.

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/116.

﴿مَّن يُصۡرَفۡ عَنۡهُ يَوۡمَئِذٖ فَقَدۡ رَحِمَهُۥۚ وَذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡمُبِينُ ١٦﴾

[الأنعام: 16]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

نزولُ هذه الآيةِ، مَوقعَ الصِّفةِ منَ الموصوفِ مع سابقتِها

بعد أن أبانَ اللّٰهُ تعالى هولَ ذلك اليومِ الَّذي لا ريبَ فيه بقوله: ﴿قُلۡ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾، تابع في هذه الآيةِ وصفَ ذلك اليَوْمِ بالهولِ، فقالَ: ﴿مَّن يُصۡرَفۡ عَنۡهُ يَوۡمَئِذٖ﴾، أي: يُصرفُ عنه عذابُ ذلك اليومِ، فقد أصابتْهُ رحمةُ اللّٰهِ، وفازَ بالجِنانِ، فوقعتِ الآيةُ من سابقتها موقعَ الصِّفةِ من الموصوف.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يُصۡرَفۡ﴾: جذرُ الكلمة هو (صرف): ويدلُّ على رجعِ الشَّيءِ، من ذلك: صرفتُ القومَ صرفًا، وانصرفوا؛ إذا رجَّعتَهم، فرجعوا، وكلُّ (صَرَف) ومضارعِها، وأمرِها، المبنيِّ للمفعول منها، كلُّها بمعنى التَّحويلِ[1]. والمعنى هنا: يُردُّ عنه العذابُ.

2) ﴿ٱلۡمُبِينُ﴾: جذر الكلمةِ هو (بين)، وبانَ الشَّيءُ بَينًا، وبانَ عنه، واستبان وبيَّنَ وتبيَّن: ظَهر ووضَح[2]، ورجلٌ بيِّنٌ: فصيحٌ ذو بيانٍ، والبيانُ: الكشفُ عن الشَّيءِ، وهو أعمُّ من النُّطق مختصٌّ بالإنسان، ويُسمَّى ما بُيِّن به بيانًا[3]، والمعنى هنا: الظّاهرُ الواضحُ.

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

الفوزُ الحقيقيُّ المبينُ، لمن شملَتْه عِنايةُ أرحمِ الرّاحمينَ

تقرِّرُ الآيةُ أنَّ من أنجاهُ اللّٰهُ مِنَ العذابِ المذكورِ؛ فقد رَحِمَهُ رحمةً شاملةً وآتاه الثَّوابَ لا محالةَ؛ لأنَّ صرْفَ العذابِ، وحصولَ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (صرف).
(2) الخليل، العين: (بين).
(3) الراغب، المفردات: (بين).

الرَّحْمَةِ هو النَّجاةُ والفلاحُ المُبين[1]، لما يتبعُ ردَّ العذابِ ودفعَه من النَّعيمِ المُقيم الَّذي لا ينقطعُ، ولا يزولُ.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ الإيجازِ في قولِهِ تعالى: ﴿مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ﴾:

الـبُـشـرَى في صـرْفِ الـعـذابِ تقتضِي بُشرَى الرَّحْمَةِ ودخولِ الجِنانِ

قوله: ﴿يُصْرَفْ﴾ مبنيٌّ للمفعولِ، ومعلومٌ أنَّ الصّارِفَ هو اللّهُ تعالى، فحُذِفَ للعلمِ به أو للإيجاز؛ إذ قد تقدَّمَ ذكرُ الرَّبِّ، وتُبَيِّنُهُ قراءةُ حمزةَ والكسائيِّ وشعبةَ وخلفٍ ويعقوبَ بالبناءِ للفاعل[2]، وفوقَ ما في الحذفِ من إيجازٍ؛ فإنَّ فيه لفتًا للسّياقِ لتقديرِ المعنى المحذوفِ.

إيثارُ تنوينِ العِوضِ في قولِهِ تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ﴾:

تـظـهـرُ بـراعـةُ النَّظْمِ في الإيجازِ وجـمـالِ المعنى المُقدَّرِ

ويجوزُ في هذا الوجهِ أن يكونَ الضَّميرُ في ﴿يُصْرَفْ﴾ عائدًا على ﴿مَّن﴾، والتَّنوينُ في ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ تنوينُ عوضٍ من جملةٍ محذوفةٍ يتضمَّنُها الكلامُ السّابقُ، والتَّقديرُ: (يومَ إذ يكونُ الجزاءُ)؛ إذ لم يتقدَّمْ جملةٌ مصرَّحٌ بها، يكون التَّنوينُ عوضًا عنها[3]، وأفادَ ذلك براعةً في الإيجازِ، وجمالًا في تقديرِ المعنى.

وجهُ الإطنابِ في تكريرِ ذكْرِ (اليومِ)، في قولِهِ تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ﴾:

تَـكـرارُ ذكـرِ يوم القيامةِ، لتأكيدِ عظيمِ شأنِهِ

بعد أن ذكرَ اليومَ في الآيةِ السّابقةِ، فقال: ﴿عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾، كرَّر ذكرهُ في هذه الآيةِ لبيانِ عظيمِ شأنِ هذا اليومِ، فقالَ: ﴿مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ﴾، وفائدةُ التَّكريرِ ليُفهم أنَّ هذا اليوم آتٍ لا محالةَ، وأنَّه يومٌ ليس كسائرِ الأيّامِ، وإنَّما هو ميزانُ أيّامِ الدُّنيا كُلِّها.

---

(1) الخازن، لُباب التّأويل: 2/122.

(2) ابن الجزري، النشر: 2/257.

(3) أبو حيّان، البحر المُحيط: 4/455 - 456.

حُسنُ اختيارِ الفِعلِ معَ الضَّميرِ في ﴿رَحِمَهُۥ﴾:

البناءُ للمعلومِ في قوله: ﴿فَقَدْ رَحِمَهُۥ﴾ على خلاف ما سبقَ؛ إذ قال: ﴿يُصْرَفْ﴾، فلم يُسَمِّ فاعِلَهُ، وعلى القراءةِ الأخرى الشّاذَّة (فقد رُحِمَ) ليتناسبَ الفعلان[1]، والكلامُ عن إنسانٍ تجاوز مِحَنَ ذلك اليومِ، فصرفَ اللّهُ عنه عذابَهُ، وتلك هي عينُ الرَّحمةِ بذلكَ الإنسانِ، فقال تعالى: ﴿فَقَدْ رَحِمَهُۥ﴾.

عينُ الرَّحمةِ بالإنسانِ، أن يُصرفَ عنهُ ما في العذابِ من هوانٍ

حكمةُ اتِّحادِ الشَّرطِ والجَزاء في المَعنَى:

في الآيةِ اتِّحادُ فعلِ الشَّرْطِ وهو ﴿يُصْرَفْ﴾، والجَزاءِ وهو ﴿رَحِمَهُۥ﴾ في المعنى؛ إذ إنَّ من يُصرَفُ عنه شرُّ ذلكَ اليومِ، فذلكَ عينُ الرَّحمةِ، فوقعَ في الجَزاءِ اتِّحادٌ معنويٌّ مع الشَّرط في قوله: ﴿فَقَدْ رَحِمَهُۥ﴾، وإذا اتَّحدَ الشَّرطُ والجَزاءُ؛ عُلِمَ منهُما المُبالَغَة في تعظيم الرَّحمةِ؛ إذ ليس بعد تلك الرَّحمةِ ما يستدعي الخوفَ والقَلقَ قَطعًا، ولَيسَ بَعدَها إلّا الفوزُ بِرضاءِ اللّهِ وفَضلِه.

المُبَالَغَةُ في تعظيمِ رحمةِ اللهِ، مقصدٌ عقديٌّ مهمٌّ

دلالةُ جمالِ المقابلةِ، بطريقِ المَذهَبِ الكَلاميِّ:

ومعنَى وصفِ العذابِ بمضمونِ جملةِ الشَّرطِ والجزاءِ، أي: من وفَّقَهُ اللّهُ لتجنُّبِ أسبابِ ذلك العذابِ؛ فقد قدَّرَ اللّهُ له الرَّحمةَ، ويَسَّرَ له أسبابَها، والمقصودُ من هذا الكلام إثباتُ مقابل قوله: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾، كأنَّهُ قال: أرجو إن أطعْتُهُ أن يرحمَني ربّي؛ لأنَّ من صرفَ عنه العذابَ؛ ثبتَت له الرَّحمةُ، فجاء في إفادةِ هذا المعنى بطريقةِ المذهبِ الكَلاميِّ، وهو ذكرُ الدَّليل ليُعلَمَ المدلولُ، وهذا ضربٌ من الكنايةِ وأسلوبٌ بديعٌ؛ بحيث يدخلُ المحكومُ له في الحكمِ بعنوان كونه فردًا من أفرادِ العمومِ الَّذين ثبتَ لهم الحكمُ[2].

مقابلةُ الحالاتِ المتعارضةِ، تُقدِّمُ أفضلَ الأدلَّةِ الضَّروريَّةِ للإقناعِ

(1) ابن عطيّة، المُحرّر الوجيز: 2/274.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتَّنوير: 7/161 - 162.

بلاغةُ التَّعبيرِ باسمِ الإشارةِ ﴿وَذَٰلِكَ﴾:

الإشارةُ بالبَعيدِ، تعظيمٌ لشأنِ الفَوزِ الّذي وصَفَهُ بالعَظيمِ

قوله تعالى: ﴿وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ﴾: يقترنُ اسمُ الإشارةِ بالكافِ ليدُلَّ على البعدِ، فتقولُ: (ذاك)، وللزّيادةِ في البُعدِ تُزاد اللّام، فيُقال: (ذلك)، وقد يُنزَّلُ القريبُ منزلةَ البعيدِ للتَّعظيم، كقولِ اللّه تعالى في سورة البقرة: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [البقرة: 2]، وليس المقصودُ من البُعد هنا البُعد المَكانيُّ ولا الزَّمانيُّ، بل بُعد المَنزلَة، ومِثلُه قولُ اللّه تعالى مُخبرًا عن يوم القيامةِ: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾﴾ [هود: 103]. ومثلُ ذلك في الآيةِ قولُهُ تعالى: ﴿وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٣﴾﴾ [النساء: 13]. فأشارَ باسمِ الإشارةِ للبَعيدِ أرادَ تعظيمَ شأنِ ذلك الفَوزِ الذي وصَفَهُ بالمُبين.

وجهُ التَّعريفِ في ﴿ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ﴾:

النَّجاةُ في الآخرةِ فوزٌ عظيمٌ، لا تَخفَى دَلائلُه على أحدٍ

قالَ سيبويه: "واعلم أنَّ النَّكرة أخَفُّ عليهم من المَعرفة، وهي أشَدُّ تَمكُّنًا؛ لأنَّ النَّكرة أوَّلُ، ثمَّ يدخلُ عليها ما تُعرَّفُ به، فمن ثَمَّ أكثرُ الكلام ينصرفُ إلى النَّكرةِ"[1]، أي: إنَّ النَّكرةَ تأتي أوَّلًا، ثمَّ تأتي المعرفةُ بعدَها، فالنَّكِرَةُ بمفردِها تدلُّ على الإطلاقِ، وأمّا المعرفةُ، فيُفهَمُ منها ذاتُ المعيَّنِ، ويُفهَمُ منها كونُه مَعلومًا للسّامِعِ، لِدلالَةِ اللَّفظِ على التَّعيينِ، فيفيدُ التَّعريفُ في قوله: ﴿ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ﴾ تعيينَ ذلكَ الفوزِ للَّذي قد صُرِفَ عنهُ سوءُ ذلك اليوم، وفي ذلك التَّعريفِ دلالةٌ على أنَّهُ هو فوزٌ عظيمٌ، بيِّنُ العظمة، فلا تَخفَى على أحدٍ عظَمَةُ ذلك الفوزِ.

سرُّ التَّذييلِ في قولِهِ تعالى: ﴿وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ﴾:

دفعُ العذابِ يومَ القيامةِ دخولٌ في رحمةِ اللهِ الشّاملةِ

قوله تعالى: ﴿وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ﴾، أي: الصَّرفُ أو الرَّحمةُ[2]، والجملةُ تذييلٌ لما قبلها، فبعد أن ذكرَ صرفَ العذابِ، ووجوبَ

(1) سيبويه، الكتاب: 1/22.
(2) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 2/156.

الرَّحمة، بيَّن موجزًا أنَّ ما ذُكر هو الفوزُ المُبينُ بعينهِ، الَّذي لا يلحقُ به فوزٌ مكانةً وضمانًا، والإشارةُ موجَّهةٌ إلى الصَّرفِ المأخوذِ من قوله: ﴿مَّن يُصۡرَفۡ عَنۡهُ﴾ أو إلى المذكورِ، وإنَّما كان الصَّرْفُ عنِ العذابِ فوزًا؛ لأنَّه إذا صُرِفَ عن العذابِ في ذلك اليوم، فقد دخلَ في النَّعيم في ذلك اليومِ، قال تعالى: ﴿فَمَن زُحۡزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدۡخِلَ ٱلۡجَنَّةَ فَقَدۡ فَازَۗ﴾ [آل عمران: 185]، و﴿ٱلۡمُبِينُ﴾ اسمُ فاعلٍ من أبانَ بمعنى بانَ[1].

بيانُ التَّشابهِ اللَّفْظِيِّ بين آيةِ الأنعام (16)، والجاثيّةِ (30):

الدُّخولُ في رحمةِ اللهِ، هو أعلَى دَرَجاتِ الفَوزِ في الآخرةِ

في سورةِ الأنعامِ قالَ: ﴿مَّن يُصۡرَفۡ عَنۡهُ يَوۡمَئِذٖ فَقَدۡ رَحِمَهُۥۚ وَذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡمُبِينُ﴾، وفي آيةِ الجاثيةِ قالَ: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُدۡخِلُهُمۡ رَبُّهُمۡ فِي رَحۡمَتِهِۦۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡمُبِينُ ٣٠﴾ [الجاثية: 30]. فسياقُ الأنعامِ هو صرفُ عذابِ يوم القيامةِ، فقالَ: ﴿وَذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡمُبِينُ﴾، وأمّا سياقُ الجاثيةِ؛ فالحديثُ عن رحمةِ اللّٰهِ وإدخالِ المؤمنين في رحمته - سبحانهُ - فقال: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡمُبِينُ﴾. والفرقُ كبيرٌ بين صرفِ العذابِ وبين الدُّخول في رحمةِ اللّٰهِ تعالى، ولذلك فقد خصَّصَ الثّانيةَ، وحَصَرَ الفَوزَ المُبينَ عليها، فكان حالُ المؤمنينَ في رحمةِ اللّٰهِ أرقى مآلًا من حالِ مَن صُرِفَ عنه عذابُ يومِ القيامةِ.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتَّنوير: 7/162.

﴿وَإِن يَمۡسَسۡكَ ٱللَّهُ بِضُرّٖ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَۖ وَإِن يَمۡسَسۡكَ بِخَيۡرٖ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ١٧﴾ [الأنعام: 17]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

العلاقةُ بين جزاء الإنكارِ الأثيمِ، وبيانِ أنّه لا نافعَ ولا ضارَّ إلّا اللهُ العظيمُ

بعد أن بيَّنَ عنادَ المنكرينَ للرِّسالةِ وللرَّسولِ في الآياتِ السّابقةِ، والإصرارَ على الاستهزاءِ والسُّخْريَةِ؛ أتى في هذه الآيةِ بما ينهجُهُ القرآنُ على إثر بيان عنادِ المُنكرين من تثبيتهِ ﷺ، ضدَّهم ووعده بالحفظِ من مكرهم، وذكر ذلك بِصورَةِ حقيقةٍ عامَّةٍ على نهج القرآن في مثلهِ، وقد نظمَهُ في سلكِ دليلِ التَّوحيدِ، وجعلَهُ تكميلًا له[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَمۡسَسۡكَ﴾: جذرُ الكلمةِ هو (مسس) استعملَ في الإصابةِ بمكروهٍ، كقوله تعالى: ﴿إِن يَمۡسَسۡكُمۡ قَرۡحٞ﴾ [آل عمران: 140]. وقد وردَ المسُّ بمعنى إيقاعِ الضُّرِّ ونحوِه، كالعذاب والنَّفحةِ منه، والنّارِ، والسّوءِ، والشَّرِّ، والضُّرِّ، والطّائِفِ الشَّيْطانيِّ، واللُّغوب، والنَّصَب في أكثر ما ورد في القرآنِ الكريمِ[2].

2) ﴿كَاشِفَ﴾: جذرُ الكلمةِ هو (كشف)، والكَشفُ: رَفعُكَ شيئًا عمّا يواريه ويغطّيه، كرفع الغطاءِ عن الشَّيء[3]، ومن المجاز: كشفَ اللّهُ غمَّهُ، قال تعالى: ﴿وَإِن يَمۡسَسۡكَ ٱللَّهُ بِضُرّٖ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَۖ﴾[4].

(1) الموصلّي، أولى ما قيل: 3/294.
(2) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (مسس).
(3) الخليل، العين، والزّمخشري، أساس البلاغة، والأزهري، تهذيب اللغة: (كشف).
(4) عياض، مشارق الأنوار: (كشف).

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

تفرُّدُ اللهِ بكشفِ الضُّرِّ وجلْبِ الخيرِ

يبيِّنُ اللهُ أَنَّ الأَمرَ في هذهِ الدُّنيا والتَّصرُّفَ فيه، إنَّما هو بمشيئتهِ وحده، فإن يَمَسَّكَ اللهُ - أيُّها الإنسانُ - بشدَّةٍ وبليَّةٍ، فلا يدفعُ ذلك الضُّرَّ إلّا اللهُ - ﷻ - وإن يَمسَسكَ بعافيةٍ ونعمةٍ ممّا ينالُ الإنسانَ من لذَّةٍ وفَرَحٍ وسُرور، فهو على كلِّ شيءٍ قديرٍ من دفع الضُّرِّ وإيصال الخير[1].

وترشدُ الآيةُ الكريمةُ إلى أنَّ المؤمنَ الصّادقَ في إيمانِهِ عليه ألّا يطلبَ شيئًا من أمورِ الدُّنيا والآخرة: من كَشْفِ ضُرٍّ، وصَرْفِ عذابٍ، أَو إيجادِ خيرٍ، ومَنْحِ ثوابٍ، إلّا مِنَ اللهِ تعالى وحده، دونَ غيرِهِ من الشُّفعاءِ والوسطاء، والمتكهِّنةِ، والأَولياء الذين لا يملكونَ لأَنفسِهم نفعًا ولا ضرًّا[2].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ التَّرقِّي في المُحاجَجَةِ، وإثباتِ الدَّليلِ:

تدرُّجُ الخطابِ في بيانِ قُدرةِ اللهِ، وإحاطتِها بالزّمانِ والمكانِ

الآيةُ في سياقِها سنامُ التَّرقّي في شمولِ قدرتِه - سبحانه - إذ بدأَ بشمولِ الأزمنةِ، فقالَ: ﴿۞وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِى ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِۚ﴾، وهذا الشُّمولُ يَتَّحِدُ بالفضاءِ والمكانِ، فارتقى بالخطابِ بإتباعِها قوله: ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾، فشملَ المكانَ والفضاءَ كلَّهُ، ولمّا ذكرَ الأرضَ؛ فقدِ اقتضى أن يدبِّرَ أقواتها، فقالَ: ﴿وَهُوَ يُطۡعِمُ وَلَا يُطۡعَمُۗ﴾، فذكر ما يشيرُ إلى الأرزاقِ والأطعامِ والأقواتِ، قال تعالى: ﴿وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقۡوَٰتَهَا فِيٓ أَرۡبَعَةِ أَيَّامٖ سَوَآءٗ لِّلسَّآئِلِينَ ١٠﴾ [فصّلت: 10]، والأقواتُ تقتضي شمولَ الأقدارِ، فختمَ هذا التَّرقّي بقولِهِ: ﴿وَإِن يَمۡسَسۡكَ ٱللَّهُ بِضُرّٖ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَۖ﴾.

(1) الخازن، لُباب التأويل: 2/122 - 123. بتصرف.

(2) مجموعة من العلماء، التفسير الوسيط للقرآن الكريم: 3/1207.

ومن وراءِ ذلك إثباتُ أنَّ المُتصرِّفَ المُطلقَ في أحوالِ الموجوداتِ هو اللّه - تعالى - بعد أن أثبتَ بالجملِ السّابقةِ أنَّه مُحدِثُ الموجوداتِ كلِّها، في السَّماءِ والأرضِ، فجعل ذلك في أسلوبِ تثبيتٍ للرَّسول ﷺ على عدمِ الخشيةِ من بأسِ المشركين وتهديدِهم ووعيدِهم، ووعدَهُ بحصولِ الخيرِ له من أثر رِضا ربِّهِ وحده عنه، وتحدّي المشركينَ بأنَّهم لا يستطيعون إضرارَه، ولا يجلبون نفعَه، ويحصلُ منه ردٌّ على المشركين الَّذين كانوا إذا ذُكِّروا بأنَّ اللّه خالقُ السّماواتِ والأرض، ومن فيهن، أقرّوا بذلك، ويزعمون أنَّ آلهتَهم تشفعُ عند اللّهِ، وأنَّها تجلبُ الخيرَ، وتدفعُ الشَّرَّ، فلمّا أبطلتِ الآياتُ السّابقةُ استحقاقَ الأصنامِ الإلهيَّة؛ لأنَّها لم تخلق شيئًا، وأوجبت عبادةَ المُستحِقِّ الإلهيَّةَ بحقٍّ؛ أبطلت هذه الآيةُ استحقاقَهم العبادةَ؛ لأنَّهم لا يملكون للنّاسِ ضُرًّا ولا نفعًا[1].

دلالةُ الاستعارتَيْنِ التّبعيَّتين، في قولِهِ تعالى: ﴿وَإِن يَمۡسَسۡكَ ٱللَّهُ بِضُرّٖ﴾:

تصويرُ عظيمِ أثرِ أقلِّ الضُّرِّ على الإنسانِ

﴿يَمۡسَسۡكَ﴾: معناهُ يُصِبْكَ، وحقيقةُ المسِّ هي بتلاقي جِسمين، فكأنَّ الإنسانَ والضُّرَّ يتماسّان، والضُّرُّ (بضم الضاد) سوءُ الحال في الجسمِ وغيره[2]، والمسُّ حقيقتُه وضعُ اليدِ على شيءٍ، وقد يكون مباشرةً، وقد يكونُ بآلةٍ، ويستعملُ مجازًا في إيصالِ شيءٍ إلى شيءٍ، فيُستعارُ إلى معنى الإيصالِ، فيكثرُ أن يذكرَ معهُ ما هو مُستعارٌ للآلة، ويدخلُ عليه حرفُ الآلةِ، وهو (الباء) كما هنا، فتكونُ فيه استعارتان تبعيَّتان؛ إحداهما في الفعلِ، والأخرى في معنى الحَرفِ[3]، وقدِ اصطفى النَّظمُ الكريمُ المسَّ على الإصابةِ لبيانِ أقلِّ الضُّرِّ، وفائدةُ هذه الاستعارةِ تصويرُ عظيمِ أثرِ أقلِّ الضُّرِّ على الإنسانِ.. فما بالُه إن أصابَه من عذابِ الآخرة؟ وأمّا في

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/162 - 163.
(2) ابنُ عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/322.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/163.

الخيرِ؛ فقولُه: ﴿وَإِن يَمۡسَسۡكَ بِخَيۡرٖ﴾، وهو قليلٌ مهما بلغَ، إن قورنَ بعظيمِ نعيمِ الآخرة.

معنى (الباءِ) في قولِهِ تعالى: ﴿بِضُرّٖ﴾:

تظهرُ حاجةُ الإنسانِ إلى اللهِ، عندما يمسُّهُ أقلُّ ضُرٍّ

الباءُ للإلصاقِ، وهو المعنى المُلازمُ لَها، قال سيبويه: "وباء الجرِّ إنَّما هي للإلزاق والاختلاط... فما اتَّسع من هذا في الكلام، فهو أصلُهُ"[1]، ولا يفارقُها هذا المعنى[2]. وفي الآية: ﴿وَإِن يَمۡسَسۡكَ ٱللَّهُ بِضُرّٖ﴾ إلصاقٌ مجازيٌّ؛ إذ التصقَ ضرٌّ بهِ، أي: بالمُخاطب. ويُصوِّرُ هذا الإلصاقُ حاجةَ هذا الإنسانِ إلى اللهِ تعالى عندما يمسُّهُ أقلُّ ضرٍّ.

دلالةُ النَّكرةِ في سياقِ الشَّرطِ، في قولِهِ تعالى: ﴿بِضُرّٖ﴾:

لا كاشفَ للضُّرِّ كُلِّهِ إلَّا اللهُ سُبحانه

دلالةُ النَّكرةِ في قوله: ﴿وَإِن يَمۡسَسۡكَ ٱللَّهُ بِضُرّٖ﴾ للتَّقليلِ والتَّهوينِ من شأنِ ذلك الضُّرِّ، فمهما كان ذلك الضُّرُّ صغيرًا؛ فإنَّهُ لا كاشفَ له إلا اللهُ سبحانه، ولو قال: (وإن يمسسكَ اللهُ بالضُّرِّ)، فيكون المعنى: بالضُّرِّ كلِّهِ، أو بعموم أنواع الضُّرِّ، أو أقوى أنواع الضُّرِّ، لكنَّهُ نكَّرَ الضُّرَّ لشُمولِ أهونِ أنواعِ الضُّرِّ أوَّلًا، ولفائدة بيانِ علمِ اللهِ بأدقِّ ما يصيب إنسانًا، أو أيَّ مخلوقٍ آخرَ.

وجهُ الطِّباقِ بين (الضُّرِّ) و(الخير):

كلُّ ما أصابَ الإنسانَ من خيرٍ أو شرٍّ، فهو من ربِّ البشر

و(الضُّرُّ) بفتحِ الضّادِ ضدُّ (النَّفع)، ونابَ (الضُّرُّ) في هذه الآيةِ منابَ (الشَّرِّ) وإن كان (الشَّرُّ) أعمَّ منه، فقابلَ (الخير)، وهذا في الفصاحةِ عدولٌ عن قانونِ التَّكلُّفِ والصَّنعة، فإنَّ بابَ التَّكلُّفِ وترصيعِ الكلامِ أن يكونَ الشَّيءُ مقترنًا بالَّذي يختصُّ به بنوعٍ من أنواعِ الاختصاصِ موافقةً أو مضادَّةً[3]. و(الضُّرُّ) الفقرُ، و(الخير) الغِنَى، والأحسنُ العمومُ في (الضُّرِّ) من المرضِ والفقرِ

(1) الكتاب، سيبويه: 2/304.
(2) ابن هشام، مُغني اللّبيب: 1/101.
(3) ابنُ عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/322.

وغير ذلك، وفي الخيرِ من الغِنَى والصِّحَّةِ وغير ذلك، وفائدتُه بيانُ أنَّ كلَّ ما أصابَك من خيرٍ أو شرٍّ مهما قلَّ أو كَثُرَ؛ فهوَ من عند اللّهِ، فلا كاشفَ للضُّرِّ إلّا اللّهُ، ولا مانعَ للخير إلّا هو سبحانه، فهو على كلِّ شيءٍ قديرٌ. وفي حديثِ ابن عبّاسٍ عن النَّبيِّ ﷺ: «واعلَم أنَّ الأُمَّةَ لَو اجتَمَعوا على أن يَنفَعوكَ، لَم يَنفَعوكَ إلّا بِشَيءٍ قَد كَتَبَهُ اللّهُ لَكَ، ولَو اجتَمَعوا على أن يَضُرّوكَ، لَم يَضُرّوكَ إلا بِشَيءٍ قَد كَتَبَهُ اللّهُ عَلَيكَ؛ رُفِعَتِ الأَقلامُ، وجَفَّتِ الصُّحُفُ»[1].

بلاغةُ تقديمِ (الضُّرِّ) على (الخير):

مناسبةُ تقديم (مسِّ الضُّرِّ) على (مَسِّ الخَيرِ) ظاهرةٌ؛ لاتِّصالِه بما قبلهُ، وهو التَّرهيبُ الدّالُّ عليه: ﴿قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ۝١٥ مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُۥ﴾، فيكونُ بين الآيتينِ شبهُ اللَّفِّ والنَّشرِ، فالآيةُ السّابقةُ فيها اللَّفُّ، وعنصراهُ الأوَّلُ قوله: ﴿عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾، والثّاني قوله: ﴿فَقَدْ رَحِمَهُۥ﴾، وهذه الآيةُ تضمَّنت نشرَه، فقالَ: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ﴾، ثم قال: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ﴾. وفائدتُهُ إلجاءُ العبادِ إليهِ - سبحانه - في طلبِ الخيرِ لَهُم، وصرفِ الضُّرِّ عنهم.

بيانُ تلهُّفِ الإنسانِ، إلى رفعِ الضَّراءِ حينَ وقوعِها

بلاغةُ الحصْرِ، في قولِهِ تعالى: ﴿فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ﴾:

جاء جوابُ قوله: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ﴾ بالحصرِ في قولِه: ﴿فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ﴾؛ مبالغةً في الاستقلالِ بكشفِه، فحَصَرَ كشفَ الضُّرِّ على قُدرتِه - ﷻ - فلا يقدرُ أحدٌ على كشفِ الضُّرِّ إلّا اللّهُ، فبيَّنَ أنَّ إصابةَ الضُّرِّ بيدِه، ولا يكونُ كشفُه إلّا منه سبحانه. وفي قولِه: ﴿فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ﴾ حذفٌ، تقديرُه: فلا كاشفَ له عنك إلّا هو[2].

المصيبُ بالضُّرِّ هو الكاشفُ له وحدَه، فلا لجوءَ لِسِواه

(1) الإمام أحمد، المسند، الحديث رقم: (2669)، والترمذي، السنن، الحديث رقم: (2516).
(2) أبو حيّان، البحر المُحيط: 4/456 - 457.

فائدةُ التَّعبيرِ بصيغةِ المبالغةِ، في: ﴿قَدِيرٌ﴾:

الأقدارُ كلُّها بيدِهِ سبحانَه، يُصرِّفُها كيف يشاءُ

وقوله: ﴿قَدِيرٌ﴾ بصيغةِ (فَعيل) هي صيغةُ مبالغةٍ لبيانِ عظيمِ قدرتِه سبحانه على كلِّ شيءٍ، وقوله: ﴿فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾: ناسبَ أن يكونَ دليلًا على جوابِ الشَّرطِ؛ لأنَّه علَّةُ الجوابِ المحذوفِ، والجوابِ المذكورِ قبلَهُ؛ إذ التَّقديرُ: وإن يَمسَسكَ بخيرٍ؛ فلا مانعَ له؛ لأنَّه على كلِّ شيءٍ قديرٍ في الضُّرِّ والنَّفعِ، وقد جُعِلَ هذا العمومُ تمهيدًا لقولِه بعده: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾، فلأنَّهُ ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ يكون سبحانه ﴿ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾؛ لأنَّ الأقدارَ كُلَّها بيدِهِ سبحانه.

بلاغةُ التّذييل، بقولِهِ تعالى: ﴿فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾:

القدرةُ الكاملةُ لله وحده؛ لأنّه المتصرّفُ في الأمرِ كلِّه

وبعد أن عُلِمَ أنَّ إصابةَ الشَّرِّ بيدِهِ - سبحانه - وإصابةَ الخيرِ بيدِه، ذيَّل بقوله: ﴿فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، فكان قادرًا على إدامتِهِ أو إزالتِهِ[1]، وفائدةُ هذا التَّذييل جمعُ الأفعالِ والإراداتِ بيدِهِ - سبحانه - وأنَّهُ هو المُتحكِّم بالخيرِ والشَّرِّ، وأنَّ الإنابةَ إلى اللهِ لكشفِ الضُّرِّ ودوامِ الخيرِ، فهو المُرتجى، وهو الملجأُ. والشَّيءُ أعمُّ العامِّ لوقوعِهِ على كلِّ ما يصحُّ أن يُعلَمَ، ويُخبَرَ عنه[2].

بيانُ التَّشابهِ اللَّفْظِيِّ بين هذهِ الآية (17)، وآيةِ سورة يونس: (107):

في الآيَتَينِ بِشَارَةٌ للمخاطَبِ، بإرادةِ الخيرِ وَنَيلِهِ إيَّاهُ

قوله تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، وفي يونس: ﴿وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ﴾ [يونس: 107]، قال هنا: ﴿يَمْسَسْكَ﴾، وفي يونس: ﴿يُرِدْكَ﴾ وقال هنا: ﴿فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، وفي يونس: ﴿فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ﴾ [يونس: 107]. فآيةُ الأنعام وصفتْ حالةَ نيلِ الخيرِ، فعبَّر عنهُ بالمسِّ المُشعِرِ بوُجودِهِ، ثُمَّ قالَ: ﴿فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، أي: على ذلك، وعلى خيراتٍ بَعدَهُ، وفيهِ بِشارَةٌ بِنَيلِ أمثالِهِ أيضًا، وآيةُ يونسَ: حالةُ إرادة الخَيرِ قبل نَيلِهِ، فقال:

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/11.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/11.

﴿يُرِدْكَ﴾، ثُمَّ قالَ: ﴿فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦۚ﴾ [يونس: 107]، أي: إذا أرادهُ قبل نيلِه، ولذلك قال: ﴿يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦۚ﴾ [يونس: 107]، وفي الآيَتَين بِشارَةٌ له بإرادة الخَيرِ ونَيلِه إيّاهُ[1].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(يَمْسَسْك) و(يُصِبْكَ):

المسُّ يقالُ في القليلِ مِنَ الأذى ممّا يصيبُ الإنسانَ، نحو قولِه: ﴿وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾ [البقرة: 80]، وقال: ﴿مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ﴾ [البقرة: 214]. والمَسُّ يُقال فيما يكونُ معه إدراكٌ بحاسَّةِ اللَّمسِ[2]، فورودُها هنا لدلالةِ الإحساسِ بذلك الضُّرِّ أو بذلك الخيرِ مهما كان قليلًا، فلا يكونُ إلّا مِنَ اللهِ وحده. أمّا الإصابَةُ؛ فتكون في الكبيرِ مِن أمورِ الخيرِ والشَّرِّ، ففي الشَّرِّ قال تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ﴾ [آل عمران: 166]، ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشّورى: 30]، وفي الخيرِ قال تعالى: ﴿إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ﴾ [التّوبة: 50]، ﴿وَلَئِنْ أَصَٰبَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [النّساء: 73][3].

المسُّ يكونُ في القليلِ المحسوسِ، والإصابةُ تكونُ في كبائرِ الأمورِ

(الضُّرُّ) و(الشَّرّ):

والَّذي يقابلُ (الخير) هو (الشَّرُّ)، ونابَ عنه هنا (الضُّرُّ)، وعدلَ عن (الشَّرِّ)؛ لأنَّ (الشَّرَّ) أعمُّ من (الضُّرِّ)، فأتى بلفظِ (الضُّرِّ) الَّذي هو أخصُّ، وبلفظ (الخَير) الَّذي هو أعمُّ تغليبًا لجهةِ الرَّحمةِ[4]. فتغليبُ الرَّحمة في القرآن الكريم منهجٌ سارٍ، ومثال ذلك أيضًا قولُه: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُاْ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾﴾ [طه: 118 - 119]، فجاءَ بالجوعِ مع العُري، وبابُه أن يكونَ مع الظَّمَأ[5].

الخيرُ عكسُ الشرّ، وينوبُ عنه الضّرُّ الّذي هو أخصُّ في الدّلالةِ

(1) ابن جماعة، كشف المعاني: 157 - 158.
(2) الراغب، المفردات، ص: 767.
(3) الراغب، المفردات: 321 - 322.
(4) أبو حيّان، البحر المُحيط: 4/455.
(5) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/322.

﴿وَهُوَ ٱلۡقَاهِرُ فَوۡقَ عِبَادِهِۦۚ وَهُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡخَبِيرُ ١٨﴾ [الأنعام: 18]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

بعدَ أن أثبتَ في الآيةِ السّابقةِ لجلالِه سُبْحانَهُ، كمالَ القدرةِ، تابعَ الكلامَ بما هو مُكمِّلٌ له ومؤيِّدٌ، فأثبتَ له في هذه الآيةِ كمالَ السُّلطان، فقالَ: ﴿وَهُوَ ٱلۡقَاهِرُ فَوۡقَ عِبَادِهِۦۚ وَهُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡخَبِيرُ﴾، فيضعُ الأمورَ حسبَ الحكمةِ البالغةِ[1].

رَبطُ قُدرة الله على النّفعِ والضّرِّ، بقهْرِه فوقَ العباد، كما شاءَ وأرادَ

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلۡقَاهِرُ﴾: جذرُ الكلمةِ هو (قَهَرَ) قهره، كمَنَعَهُ[2]، ويقالُ: قَهَرَهُ؛ إذا أخذَه قهرًا من غيرِ رضاه[3]، والقهرُ: الغلبةُ والأخذُ من فوقٍ على طريقِ التَّذليلِ، والقهّارُ: من صفاتِ اللّه تعالى[4]، واللّهُ القاهرُ القهّارُ[5]..

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

اللّهُ تعالى هو الغالبُ على عبادِه المُذَلِّلُ لهم بقدرتِه، المُستعلي فوقَ عبادِهِ من كلِّ وجهٍ الَّذي لا يُعْجِزُهُ شيءٌ، ولا يغلبه أحدٌ، الجميعُ له خاضعون، يدبِّرُ أمرَهُم بما يُريد، فيقعُ في ذلك ما يَشُقُّ عليهم، ويثقلُ، ويغمُّ، ويحزنُ، فلا يستطيع أحدٌ منهم ردَّ تدبيرِه، والخروج من تحتِ قهره وتقديرِه، وهو الحكيمُ في خَلْقِهِ وتدبيرِه وشَرْعِه، الخبيرُ فلا يخفى عليه شيءٌ[6].

كمالُ سُلطانِ اللهِ وغلبتِهِ، وخُضوعُ الخلائقِ لهُ

(1) الموصلّي، أولى ما قيل: 3/294.
(2) ابن سيده، المُحكم، والزّبيدي، تاج العروس: (قهر).
(3) الزّبيدي، تاج العروس: (قهر).
(4) الخليل، العين، وابن سيده، المُحكم: (قهر).
(5) الخليل، العين: (قهر).
(6) جماعة من العلماء، المختصر في تفسير القرآن الكريم، ص: 129.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالةُ تذييلِ الآية ﴿وَهُوَ ٱلۡقَاهِرُ﴾ لما قبلَها:

بيانُ عظيمِ قُدرةِ اللهِ وقَيّوميَّتِهِ، على الأحداثِ كلِّها

هذه الجملةُ معطوفةٌ على جملةِ ﴿وَإِن يَمۡسَسۡكَ ٱللَّهُ بِضُرّٖ﴾، والمناسبةُ بينهما أنَّ مضمونَ كلتيهما يبطلُ استحقاقَ الأصنام العبادةَ، فالآيةُ الأولى أبطلت ذلك بنفي أن يكونَ للأصنام تصرُّفٌ في أحوالِ المخلوقات، وهذه الآيةُ أبطلت أن يكونَ غيرُ اللهِ قاهرًا على أحدٍ، أو خبيرًا أو عالمًا بإعطاء كلِّ مخلوقٍ ما يُناسبه، ولا جرمَ أنَّ الإلهَ تَجِبُ له القدرةُ والعلمُ، وهما جماعُ صفاتِ الكمالِ، كما تجبُ له صفاتُ الأفعالِ من نفْعٍ وضرٍّ وإحياءٍ وإماتةٍ، وهي تعلُّقاتٌ للقدرةِ، والآيةُ بمجملها تذييلٌ لما سبقها من آياتٍ تدلُّ على عظيمِ قدرةِ اللهِ، وقيّوميَّتِهِ، ومُلكِهِ، وسَعَةِ خَلقِهِ، وتدبيرِهِ.

وجهُ ذكرِ العامِّ بعد الخاصِّ:

كُلُّ النّاسِ داخلٌ تحت قُدرتِهِ، وهو الغالبُ لكلِّ غالبٍ

قوله: ﴿وَهُوَ ٱلۡقَاهِرُ فَوۡقَ عِبَادِهِۦۚ﴾؛ إذ تُنَزَّلُ هذه الآيةُ من الَّتي قبلها منزلةَ التَّعميمِ بعد التَّخصيصِ ﴿وَإِن يَمۡسَسۡكَ ٱللَّهُ بِضُرّٖ﴾؛ لأنَّ التي قبلَها ذكرت كمالَ تصرُّفِهِ في المخلوقاتِ، وجاءت بهِ في قالبِ تثبيتِ الرَّسولِ ﷺ كما قدَّمنا، وهذه الآيةُ دلَّت على قدرتِهِ على كلِّ شيءٍ وعلمِهِ بكلِّ شيءٍ، وذلك أصلُ جميع الفعل والصَّنع.

دلالةُ القَصْرِ، في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلۡقَاهِرُ فَوۡقَ عِبَادِهِۦۚ﴾:

تفرُّدُ اللهِ بالقهْرِ والغلبةِ وحدَهُ دون سِواهُ

والقاهرُ: الغالبُ المُكرِهُ الَّذي لا ينفلتُ من قُدرتِهِ من عدّي إليه فعلُ القهرِ، وقد أفادَ تعريفُ الجزأين القَصرَ، أي: لا قاهرَ إلّا هو؛ لأنَّ قهرَ اللهِ - تعالى - هو القَهْرُ الحقيقيُّ الَّذي لا يجدُ المقهورُ منه ملاذًا؛ لأنَّهُ قَهَرَ بأسبابٍ لا يستطيعُ أحدٌ خلقَ ما يُدافعها، وممّا يشاهدُ منها دومًا النَّوم والموت، سبحان من قهرَ العبادَ بالموتِ[1]،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/164.

والقَصرُ يفيد تمكنَّهُ من عبادِهِ على وجهِ الغلبةِ، وفيه إيجازٌ بنفي هذه الصِّفةِ عن سِواه.

بلاغةُ الاستعارةِ التَّمثيليَّةِ، في قولِهِ تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾:

و﴿فَوْقَ﴾: ظرفٌ متعلِّقٌ لـ ﴿ٱلْقَاهِرُ﴾، وهو استعارةٌ تمثيليَّةٌ لحالةِ القاهرِ بأنَّهُ كالذي يأخذُ المغلوبَ من أعلاه، فلا يجدُ معالجةً ولا حَراكًا، وهو تمثيلٌ بديعٌ، ومنه قوله تعالى حكاية عن فرعون: ﴿وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ١٢٧﴾ [الأعراف: 127]؛ فقد "تضمَّنتِ الجملةُ تصويرًا لقهرِهِ وعلوِّهِ بالغلبةِ والقدرةِ[1]. وذكر علماءُ التفسيرِ أنَّ الفوقيَّةَ هنا مجازٌ، فهو سبحانه فوقَهم بالإيجادِ والإعدامِ. على حذفِ مضافٍ معناه فوقَ قهرِ عبادِهِ بوقوعِ مُرادِهِ دون مُرادِهِم[2]، أو هي صفةُ الاستعلاء الَّذي للّه - تَعالَى - الَّذي يعرفهُ أهل السُّنَّةِ، والصَّوابُ أنَّ المرادَ المعنيان جميعًا: فوقيَّةُ المكانِ، وفوقيَّةُ المكانةِ، وعليه فيكونُ المعنى: وهو القاهرُ فوق عبادِهِ من حيثُ المعنى لا يمكنُ أن تغلبه قوَّةٌ، ومن حيثُ المكانُ فاللّهُ - ﷻ - فوقَ كلِّ شيءٍ[3]. و﴿فَوْقَ﴾: منصوبٌ على الظَّرفِ إمّا معمولًا للقاهرِ، أي: المُستعلي فوقَ عبادِهِ تصويرًا للقهر والعلوِّ بالغلبة والقدرة، كقوله: ﴿وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ١٢٧﴾ [الأعراف: 127][4]. وإمّا أن تكون ﴿فَوْقَ﴾ في موضعِ رفعٍ على أنَّه خبرٌ ثانٍ لـ (هو)، أخبرَ عنه بشيئين أحدهما: أنَّه القاهرُ، والعربُ تستعملُ (فَوقَ) إشارةً لعلوِّ المنزلة وشفوفِها على غيره من الرُّتَبِ، ومنه قوله: ﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ [الفتح: 10]، وقوله: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ٧٦﴾ [يوسف: 76]. الثّاني: أنَّه فوق عبادِهِ بالرُّتبةِ والمنزلة والشَّرف؛ إذ هو الموجد لهم وللجهةِ غير المفتقر لشيءٍ من مخلوقاتِهِ، فالفوقيَّةُ مستعارةٌ للمعنى

الحقُّ ، سبحانه ، له عُلوُّ القَهرِ والـقَـدْرِ، ليس كمثلِهِ شيءٌ

(1) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 2/156.
(2) أبو حيّان، البحر المُحيط: 4/457.
(3) السمعاني، تفسير القرآن: 2/93، والعثيمين، تفسير القرآن الكريم (سورة الأنعام): 83.
(4) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/12.

من فوقيَّةِ المكان، وحكى المهدويُّ أنَّهُ في موضعِ نصبٍ على الحال، كأنَّه قال: وهو القاهرُ غالبًا فوقَ عبادِه، وقاله أبو البقاءِ، وقدَّرَهُ مستعليًا أو غالبًا، وأجاز أن يكون فوقَ عبادهِ في موضعِ رفعٍ بدلًا من القاهرِ[1].

علَّةُ ذِكْرِ الخاصِّ وإرادة العامِّ، في قوله تعالى: ﴿فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾:

العبادُ مملوكونَ للهِ، وتحت قَهرِه ومَشيئتِه

و(العبادُ): هُمُ المخلوقون من العقلاءِ، فلا يقالُ للدَّوابِّ عبادُ اللّه، وهو في الأصل جمعُ (عبد)، لكنَّ الاستعمالَ خصَّهُ بالمخلوقات، وخصَّ العبيدَ بجمع (عبد) بمعنى المملوكِ. فذكَرَ العبادَ بمعنى: العُقلاء، وأراد العُقلاءَ وغيرهم، ومعنى القَهرِ فوق العباد: أنَّهُ خالقُ ما لا يدخلُ تحت قدرتِهم بحيثُ يوجد ما لا يريدون وجودَه كالموتِ، ويمنعُ ما يريدون تحصيلَه كالولدِ للعقيم، والجهلِ بكثيرٍ من الأشياءِ، بحيثُ إنَّ كلَّ أحدٍ يجدُ في نفسِه أمورًا يستطيعُ فعلَها وأمورًا لا يستطيعُ فعلَها، وأمورًا يفعلها تارةً، ولا يستطيعُ فعلها تارةً، فيعلم كلُّ أحدٍ أنَّ اللّه هو خالقُ القَدَر والاستطاعات[2].

بلاغةُ اقترانِ الاسمينِ الكريمين: ﴿ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾:

مقامُ القهرِ والغلبةِ، يتناسبُ مع صِفتَي الحكيمِ الخبيرِ

قوله: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ إشارةٌ إلى كمال القدرةِ، ﴿وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾ إشارةٌ إلى كمال العلمِ، أمّا كونُه قاهرًا؛ فلأنَّ ما عداه تعالى مخلوقٌ من مخلوقاتِه سبحانه.

و ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ بمعنى المُحكِم و﴿ٱلْخَبِيرُ﴾ دالٌّ على مبالغةِ العلم، وهما وصفانِ مناسبانِ لنمط الآية[3]. و﴿ٱلْحَكِيمُ﴾: المُحكِمُ المُتقنُ للمصنوعاتِ، فعيلٌ بمعنى مُفعِل. و﴿ٱلْخَبِيرُ﴾: مبالغةٌ في اسمِ الفاعل من (خبر) المتعدي، بمعنى (عَلِمَ)، يقال: خبِرَ الأمرَ؛ إذا

(1) أبو حيّان، البحر المُحيط: 4/457 - 458.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/164.
(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/323.

عَلِمَه وجرَّبَهُ[1]. والحكمةُ تدلُّ على أنَّهُ عِلمٌ مُحكَمٌ، فقهرُ اللّهِ لعبادهِ بقدرتهِ وحكمتهِ، وهو خبيرٌ سبحانه بما يحتاجُ إليه هذا الخلقُ وما يناسِبُه؛ إذ خلقَ السّماواتِ والأرضَ على أدقِّ ما يمكنُ أن يتخيَّلَهُ العقلُ البشريُّ، ممّا يضمنُ استقرارَ هذا الكونِ وانسجامَهُ، وكلُّ ذلك يفوتُ لو قيل: الحَكيمُ العَليمُ.

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(عبادٌ) و(عبيدٌ):

(العبادُ) يَرِدُ في التَّفخيمِ والكرامةِ، و(العبيدُ) في التَّحقيرِ والذَّمِّ

لفظُ (العباد) يردُ في التَّفخيمِ والكرامةِ، و(العبيد) في التَّحقيرِ والاستضعافِ والذَّمِّ، قال ابن عطيَّةَ: و(العبادُ) بمعنى (العَبيدِ)، وهما جمعان (للعبد)، لكنَّ الواقعَ أنَّ ورودَ لفظةِ العبادِ في القرآنِ وغيرهِ في مواضعِ تفخيمٍ أو ترفيعٍ أو كرامةٍ، وورودُ لفظةِ العبيدِ في تحقيرٍ أو استضعافٍ أو قصدِ ذمٍّ[2]، والصَّواب أنَّ العبدَ بمعنى الإنسان المخلوقِ المملوكِ للّه، ومثناها وجمعُها: (عباد) و(عبيد) ليس لأيٍّ منها تمييزٌ إلّا ما يقضي به السّياقُ مِن اختصاصٍ للتَّكريم في مثل قوله: ﴿أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾ [الإسراء: 1]، و﴿نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ [البقرة: 23]، و﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ﴾ [مريم: 2]. وفي بعضِ سياقاتِ الآياتِ ما يقضي بعمومِ اللَّفظِ، مثل قوله: ﴿رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ﴾ [ق: 11]، و﴿إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ﴾ [نوح: 27]، و﴿يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ﴾ [يس: 30]، و﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ ﴿٤٨﴾﴾ [غافر: 48][3]، وأمّا العبيدُ، فتطلقُ على من استعبدهُ البشرُ أو غيرهم، أو من جعلَ نفسَهُ عبدًا لغيرِ اللّهِ من البشرِ والحيواناتِ والأموات والأصنامِ والشَّياطينِ وغيرهم.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتَّنوير: 7/165.
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/323.
(3) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (عبد).

﴿قُلۡ أَيُّ شَيۡءٍ أَكۡبَرُ شَهَٰدَةٗۖ قُلِ ٱللَّهُۖ شَهِيدُۢ بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡۚ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَۚ أَئِنَّكُمۡ لَتَشۡهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخۡرَىٰۚ قُل لَّآ أَشۡهَدُۚ قُلۡ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ وَإِنَّنِي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ١٩﴾ [الأنعام: 19]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

المناسبةُ بينَ كمالِ عظمةِ اللهِ، وكونِهِ الشَّاهدَ على صدقِ النُّبوَّة وسموِّ القدرةِ

لمّا أثبتتِ الآياتُ السّابقةُ كمالَ القدرةِ للّهِ تعالى، وعَظيمَ تصرُّفِهِ، وكمالَ سلطانِهِ، وتمامَ قهرِهِ لعبادِه، جاءت هذه الآيةُ لإثباتِ صدقِ رسالتِهِ ﷺ، وشهادةِ اللّه على ذلك، ويضافُ إلى ذلك أنَّه لمّا أقام الأدلَّةَ على الوحدانيَّة والقدرة، ووصلَ إلى صفة القهر المؤذنِ بالانتقام، لم يبقَ إلّا الإشهادُ عليهم؛ إيذانًا بما يستحقّونه من سوءِ العذاب، وإنذارًا به؛ لئلّا يقولوا؛ إذا حلَّ بهم: إنَّه لم يأتِنا نذيرٌ، فقال: ﴿قُلۡ أَيُّ شَيۡءٍ أَكۡبَرُ شَهَٰدَةٗۖ﴾[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿شَيۡءٍ﴾: أصلهُ: مصدرُ شاءَ، وهو الَّذي يصحُّ أن يُعلم، ويُخبَرَ عنه، وعند كثيرٍ منَ المتكلِّمينَ هو اسمٌ مُشْتَرَكُ المعنى؛ إذا استُعملَ في اللّه وفي غيره، ويقعُ على الموجودِ والمعدوم، وإذا وُصِفَ بهِ اللّهُ تعالى فمعناهُ: شاءٍ[2]، وإذا وصِفَ به غيرُهُ فمعناهُ: المَشيءُ[3]، وعند بعضهم الشَّيءُ: عبارةٌ عن الموجود، وقوله: ﴿قُلۡ أَيُّ شَيۡءٍ أَكۡبَرُ شَهَٰدَةٗۖ﴾، بمعنى: الفاعل، كقوله: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ ١٤﴾

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/40، ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/166.
(2) ضُبطت في المطبوع، مكتبة نزار الباز: ص: 357، بفتح الهمزة من (شاء) والصحيح ما أثبتناه من طبعة د. صفوان داوودي، ص: 471.
(3) الرّاغب، المفردات: (شيء).

[المؤمنون: 14]، وعند بعضهم: المشيئةُ في الأصل: إيجادُ الشَّيء وإصابتُهُ، فالمشيئةُ من اللّه هي الإيجادُ، ومن النّاس هي الإصابةُ"[1].

2) ﴿شَهَٰدَةٗۖ﴾: الشَّهادةُ: الحضور والمعاينة، يُقالُ: شهدَ الشَّيءَ؛ إذا حضره وعايَنَه، وتُطلَق بمعنى: الإخبار والإعلام، يُقالُ: شَهِد بالأمر: إذا أَخبرَ به، وأعلمَ غيرَه به، فالشَّهادة: إخبارٌ عن علمٍ يحصل عن طريق الحضورِ أو الرُّؤية ونحوِ ذلك. ومن معانيها: العلمُ والرُّؤية والإدراك[2]. وشهادةُ اللّه: إقامةُ البراهين المثلِجة للصُّدور، موقعةً للعلم، مزيلةً للشَّكِّ، فمن أعظم شهادته إتيانُهُ لمعجزاته كالقرآن.. ومنه قوله تعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [آل عمران: 18][3].

3) ﴿وَأُوحِيَ﴾: الوحيُ: الإشارةُ السَّريعة، ولتضمُّنِه السُّرعةَ، قيل: أَمْرٌ وحيٌّ، وذلك يكون بالكلام على سبيلِ الرَّمز والتَّعريضِ، وقد يكون بصوت مجرَّدٍ عنِ التَّركيبِ، وبإشارةٍ ببعض الجوارح، وبالكتابةِ. ويقالُ للكلمة الإلهيَّة الَّتي تُلقى إلى أنبيائهِ وأوليائه: وحيٌ[4]. والوحي: الكتابُ والرِّسالة، وكلُّ ما ألقيتَه إلى غيرك حتَّى علِمَه، فهو وحيٌ كيف كان، وأوحى اللّه تعالى، ووحى، قال: ﴿أَوۡحَىٰ لَهَا ۝٥﴾ [الزّلزلة: 5]، وكلُّ ما في باب الوحي، فراجعٌ إلى هذا الأصل، والوحيُ: السَّريعُ، والوحي: الصَّوت[5].

4) ﴿لِأُنذِرَكُم﴾: الإنذارُ: وأصله: الإعلام والإبلاغُ، ولا يكاد يكون إلّا في التَّخويفِ، يُقالُ: أنذرتُه أنذره إنذارًا، إذا أعلمتُهُ، فأنا منذرٌ ونذيرٌ: أي: مُعلِمٌ ومخوِّف ومحذِّر[6]، والمُنذِر: المُعْلِمُ الَّذي يُعرِّف القومَ بما يكونُ قد دهمهم، من عدوٍّ أو غيره، وهو المخوِّف أيضًا، "والإنذارُ إخبارٌ معه تخويفٌ في مدَّةٍ تتَّسع التَّحفُّظَ من المخوف منه، فإنْ لم تتَّسع له، فهو إعلامٌ وإشعارٌ لا إنذار، وأكثر ما يستعملُ في القرآن في التَّخويفِ من عذاب اللّه[7]، ومنه قد أعذرَ من أنذرَ، أي: قد بالَغ في العذرِ مَن تقدَّم إليك فأنذرك[8].

(1) الرّاغب، المفردات: (شيء)، وسميح عاطف الزّين، تفسير مفردات ألفاظ القرآن: (شيء).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن الأثير، النّهاية، والمطرّزيّ، المغرب: (شهد).
(3) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 4/233.
(4) الرّاغب، المفردات: (وحي).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (وحي)، والمُطرّزيّ، المغرب: (وحى).
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن الأثير، النّهاية: (نذر).
(7) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 6/376.
(8) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 6/376.

5) ﴿بَلَغَۚ﴾: الإبلاغُ: الإيصال، يُقال: بَلَّغَه، وأبلغَه السَّلامَ يُبَلِّغُه بلاغًا وتبليغًا وإبلاغًا؛ إذا أوصله، وأصله مِنَ البلوغِ، وهو الانتهاءُ إلى أقصى المقصد والمنتهى مكانًا كان أو زمانًا أو أمرًا منَ الأمور المقدَّرة، وربَّما يعبَّر بهِ عنِ المشارفةِ عليه، وإن لم ينتهِ إليه[1]، ويأتي الإبلاغُ بمعنى الإخبارِ والإنباءِ، تقول: بلَّغتُ الشَّيء، أي: أخبَرتُ به، ونشَرتُه بين النَّاس، ومن معانيه أيضًا: الإعلامُ والنَّقل[2].

6) ﴿ءَالِهَةً﴾: من أَلِهَ يألهُ؛ إذا تحيَّر؛ إذِ العقول تتحَيَّر في معرفته، وقيل: مِن أله الفصيل إذا أولِعَ بأمِّه؛ إذِ العبادُ مولعون بالتَّضرُّع إلى اللهِ، وأصلهُ: ولِهَ يولَهُ إلاهةً وأُلوهة وأُلوهيَّة، بضمِّهما، بمعنى: عبد عبادةً، وتألَّه تعبَّد، والإله المعبود، وهو الله (ﷻ)، ثمَّ استعارهُ المشركون لما عبدوه من دونِ الله تعالى منَ الأصنام وغيرهم؛ لاعتقادهم أنَّ العبادة تحقُّ لها، قال سيبويه: الإلهُ أصلُ اسم اللهِ تعالى، فحُذفت الهمزة، وجُعلت الألف واللّام عوضًا لازمًا، فصار بذلك كالاسمِ العلَم، والجمعُ: آلهة. وأَلَه إلاهةً بالكسر، ومنه قولنا: (الله)، وأصلهُ: إلاهٌ على فِعال، بمعنى: مَفعول؛ لأنَّه مألوهٌ، أي: معبود[3].

7) ﴿بَرِيٓءٌ﴾: البراءة: التَّخلُّص منَ الشَّيء، والخروج منه، والمفارقةُ له، يُقال: بَرِئَ مِنَ الدَّين، يبرأُ براءةً؛ إذا تخلَّص منه، وأصلها: التَّباعد مِنَ المكروه، وقيل: القَطعُ، والبراءةُ أيضًا: التَّقصّي ممّا يكره مجاورته، ولذلك قيل: بَرِئْتُ منَ المرض، وبرأتُ من فلانٍ، وتبرَّأْتُ، قال ﷻ: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُۥۚ﴾ [التّوبة: 3]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [الممتحنة: 4]. ويُطلق على التَّخَلّي والتَّرك، كقولك: برأْتُ منَ الشَّيء، أي: تخلَّيتُ عنه، وتركتُه[4].

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

يأمر الله نبيَّه محمَّدًا ﷺ أن يسألَ المكذِّبين: أيُّ شيء أعظمُ شهادةً على صدق ما جاءَ به؟ ثمَّ يأمره تعالى أن يجيبَهم: إنَّ أكبر الأشياء شهادةً هو اللهُ تعالى، هو الَّذي لا يجوز

(1) الرّاغب، المفردات: (بلغ).
(2) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والزّبيدي، تاج العروس: (بلغ).
(3) سيبويه، الكتاب: 2/196، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والجوهريّ، الصّحاح، والزّبيدي، تاج العروس: (أله).
(4) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والزّبيدي، تاج العروس: (برأ).

أن يقعَ في شهادته السَّهو والخطأُ والكذبُ، وهو الشَّهيدُ ﷻ بينه وبينهم، وهو سبحانه قد أوحى إليه هذا القرآنَ؛ لينذرَهم به منَ العذابِ، وينذرَ كلَّ مَن بلغه القرآنُ، ثمَّ أمره أن يسأل هؤلاءِ المكذِّبين: هل هم يشهدون أنَّ مع اللّه تعالى آلهةً غيرهُ تستحقُّ أن تُعبَد؟ فإن شهدوا بذلك، فليقل لهم: إنَّه لا يشهد معهم، إنَّما هو معبودٌ واحد، هو الَّذي يستحقُّ العبادة ﷻ، وأنَّه ﷻ بريءٌ ممّا يشركون[1].

شهادةُ الله، هي أكبرُ شهادةٍ؛ لأنَّه لا كذبَ فيها ولا خطأَ ولا زورَ

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالةُ قطعِ قولهِ تعالى: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً﴾ عن الجملةِ قبلها:

لم تعطف؛ لأنَّها استئنافيَّة ابتدائيَّة، متَّصلة بما قبلَها من جهة المعنى؛ فالآيةُ السّابقة فيها استدلال على كمال ألوهيَّته وسلطانهِ سبحانه؛ فهو القاهرُ فوق عبادهِ، وهذه الآيةُ إثباتُ صدقِ رسالةِ سيِّدنا محمَّد ﷺ[2].

تثبيتُ الله لنبيِّه ﷺ، بشهادتهِ على صدقهِ

سرُّ البدءِ بقوله: ﴿قُلْ﴾ في قوله: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً﴾:

بدأتِ الآيةُ بالفعل ﴿قُلْ﴾، وتكرَّر ذلكَ في الآيةِ أربعَ مرّاتٍ، والغرضُ منه تلقينُ النَّبيِّ ﷺ الحجَّةَ؛ ليضربَ بها وجهَ خصومهِ، بحيث تأخذُ أسماعَهم وقلوبهم؛ فلا يستطيعون التَّنكُّر لها أو التَّفلُّت منها، وفيه إشارةٌ إلى الاهتمام بما بعد القولِ، إذ الغايةُ من إيرادِ القول، ليستِ الأمرَ بالقول في حدِّ ذاته، بل ما يتضمَّنه القولُ المراد تبليغهُ من أحكام وحِكَم، سوف تنفع المبَلَّغينَ، وتصحِّح عقائدَهم، وفهمَهم للحقائقِ.

أسلوبُ التَّلقين بلفظ (قل) منَ الأساليبِ البلاغيَّةِ في القرآن الكريم

دلالةُ التَّعبيرِ بفعلِ الأمر ﴿قُلْ﴾:

التَّعبيرُ بـ ﴿قُلْ﴾ أمر منَ اللّه تعالى لنبيِّه ﷺ بسؤال قومه، وذلك

(1) جماعة من علماء التّفسير، المختصر في تفسير القرآن الكريم، ص: 130، والقسم العلمي، بمؤسسة الدّرر السّنيّة، التّفسير المحرّر للقرآن الكريم: 5/3232.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/166.

الكلمةُ المأمورُ بها، طمأنينةٌ في القلب، ولطفٌ من الرَّبِّ

أنَّ السُّؤال يبعث النَّفس على طلب الجواب، وتَبيُّن ما سُئل عنه، وقد أفادَ الفعل ﴿قُلْ﴾ التَّنبيهَ بأنَّ القول المحكيَّ به ذو أهمّيَّة بالغةٍ، أو هو رسالةٌ خاصَّة يجب تبليغُها فور تلقّيها، ومواجهةُ المقول له بها. وفيها تثبيتٌ للنَّبيِّ ﷺ من ربِّه، ووضع للكلمة الَّتي ينبغي أن يقولها على لسانهِ، وفي قلبه، يتلقّاها منَ اللّه، فتلتقي مع الكلمة الَّتي يريد أن يقولها، فإذا هي نورٌ في قلبه، وقوَّةٌ في عزمه، وطمأنينة في صدره، ولطفٌ عظيم من ألطاف ربِّه. ومن جهةٍ أخرى، فقد دلَّ تكرار ﴿قُلْ﴾ في الآية مع كلِّ قولٍ منَ اللّه تعالى لهم، على كمال عنايتهِ، وتمام رعايتهِ للنَّبيِّ ﷺ، حيث يجد مع كلِّ نَفَس يتنفَّسه وحْيَ السَّماءِ، يقول له: ﴿قُلْ﴾.. ﴿قُلْ﴾.. ﴿قُلْ﴾.. وبهذا يشتدُّ عزمه، وتثبت في لقاء الكافرين قَدَمُه[1].

الغرضُ من استعمالِ الاستفهامِ ﴿أَيُّ﴾:

من مقاصدِ الاستفهامِ إعدادُ السَّامعين لتلقِّي ما يَرِدُ بعدهُ

في قوله: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً﴾: ﴿أَيُّ﴾ اسم استفهام، يُطلَب به بيانُ أحد المشتركاتِ فيما أُضيفَ إليه هذا الاستفهامُ، والمضاف إليه هنا، هو ﴿شَيْءٍ﴾ المفسَّر بأنَّه من نوع الشَّهادةِ، وقد حمَل هذا الاستفهام تقريعًا شديدًا، ليتنبَّه الغافل، ويلتفتَ المُعرض، ويخلو المشغولُ، فهو يأتي لإعداد السّامعين، لتلقّي ما يَرِدُ بعده. والاستفهام هنا مجازيٌّ، والأصل فيه أنَّه لا يُذكر له جوابٌ، وإنَّما يوكَل الجوابُ فيه إلى نفوس المُخاطَبين، لتذهبَ في تصوُّره كلَّ مَذهَبٍ، ولكن في النَّظم القرآنيِّ، نجد إجاباتٍ مذكورةً لاستفهامات مجازيَّة على خلاف الأصل الَّذي أشرنا إليه، ولهذا الذِّكر مقتضًى بلاغيٌّ، رُبَّما كان مُطَّرِدًا في كلِّ استفهامٍ مجازيٍّ ذُكرت إجابته[2].

(1) الواحديّ، الوسيط: 8/33، والخطيب، التّفسير القرآنّي للقرآن: 4/146، والمطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 1/288.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/166، والخطيب، التّفسير القرآنّي للقرآن: 7/166، والمطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 1/288.

دلالةُ الاستفهام في الرَّدِّ على شُبهِ المشركين:

السُّؤالُ تبكيتٌ لمن كفرَ، وتأديبٌ لمن فجرَ

في قوله: ﴿أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً﴾: استعمل القرآنُ الكريم أسلوبَ الاستفهام في تقريرِ ما يريده من إبطالِ شُبَه المشركين، على نبوَّته ﷺ، والغرضُ تبكيتُ المشركين وإلجاؤهم إلى الإقرار بنبوَّته ﷺ، والمعنى: (ما أعظمُ شاهد يمكنُكم إحضارُه ليشهد بصدق دعوى النُّبوَّة؟).

ولعلّ هذا السؤال هو مفتاح الحوار بين النبي ﷺ وبين المشركين لإقامة الحُجَّة الواضحة؛ أي: (قل لهم يامحمد) في حوار عقليٍّ هادئٍ: (أيُّ شيءٍ شهادتُه في نفوسكم هي أكبرُ شهادةٍ في الوجود كلِّه، تريدون أن يشهدَ لي بأنّي صادقٌ فيما أُبلِّغ عنه؟).

بلاغةُ القرآنِ في إثبات نبوَّته ﷺ:

أسبابُ نزولِ الآيةِ، مبيِّنةٌ حجمَ التَّحدِّي بينهُ وبينَ الكفَّارِ

أجابَ القرآنُ الكريم على ما قالهُ رؤساءُ الشِّرك، في مكَّةَ للنَّبيِّ ﷺ، لمّا قالوا له: يا محمَّد، ما نرى أحدًا مصدِّقك بما تقول، فأَرِنا مَن يشهد أنَّك رسولُ الله؛ فكان هذا الجواب القاطع بشهادةِ الله لنبيِّه بنبوَّته ﷺ، وكفى بها شهادةً؛ فبدأ بقولهِ: ﴿قُلْ﴾؛ ليعلنَ بصوت عالٍ أنَّه رسول الله، والكونُ كلُّه يشهد بذلك[1].

دلالةُ أمرِ الله لنبيِّه بمباشرة البلاغِ بالقولِ:

شهادةُ اللهِ يقينٌ بصدق محمَّدٍ الأكرمِ، وبيقين معجزتِهِ القاهرةِ

في قوله: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً﴾: آثرَ القرآنُ الكريمُ أن يكونَ صدورُ الإعلان مباشرةً بنبوَّته عن طريق الرَّسولِ الأكرم ﷺ نفسه، وفي ذلك تثبيتٌ واعترافٌ بنبوَّته ﷺ، قال ابن عبّاسٍ: قال

(1) أخرج ابن إسحاق وابن جرير، عن ابن عبّاس، قال: جاء النّحام بن زيد، وقروم بن كعب، وبحريّ بن عمر، فقالوا: يا محمَّد، ما نعلم مع الله إلهًا غيره، فقال: لا إله إلا الله، بذلك بعثت، وإلى ذلك أدعو، فأنزل الله في قولهم: قُلْ: ﴿أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً قُلِ ٱللَّهُ شَهِيدُۢ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾، وقال الكلبيّ: إن رؤساء مكّة قالوا: يا محمّد، ما نرى أحدًا يصدّقك بما تقول من أمر الرّسالة، ولقد سألنا عنك اليهود والنّصارى، فزعموا أن ليس لك عندهم ذِكر ولا صفة، فأرِنا من يشهد لك أنّك رسول، كما تزعم! فأنزل الله تعالى هذه الآية. وقال الحسن البصريّ وغيره: إنَّ المشركين قالوا للنّبيّ ﷺ: من يشهد لك بأنّك رسول الله؟ فنزلت الآية. ينظر: الزّحيليّ، التّفسير المنير: 7/156.

اللّه لنبيِّه محمَّد ﷺ، قل لهم: أيُّ شيءٍ أكبرُ شهادةً؟ فإن أجابوك، وإلّا فقل لهم: اللّهُ شهيدٌ بيني وبينكم، قال ابنُ جُزيٍّ: "والمقصودُ بالآيةِ الاستشهادُ باللّه - الَّذي هو أكبر شهادة - على صدقِ رسول اللّه ﷺ، وشهادةُ اللّه بهذا، هي علمُه بصحَّة نبوَّة سيِّدنا محمَّد ﷺ، وإظهار معجزتهِ الدّالَّة على صدقهِ"[1].

استعمالُ لفظةِ ﴿شَيْءٍ﴾:

دلالتها على الشُّمول والإحاطة

أوثر لفظُ ﴿شَيْءٍ﴾ في الآية؛ لأنَّه يفيد الشُّمولَ والإحاطة والاستقصاء، فهو اسمٌ عامٌّ منَ الأجناس العالية، ذاتِ العموم الكثيرِ، قيل: هو الموجودُ، وقيل: هو ما يُعلم ويصحُّ وجوده، والأظهرُ في تعريفه أنَّه الأمر الَّذي يُعلم، ويجري عليه الإخبارُ، سواءٌ كان موجودًا أو صفة موجود، أو معنى يُتعقَّلُ ويُتحاوَر فيه[2].

دلالةُ إيثارِ لفظ ﴿شَيْءٍ﴾ دون لفظِ (شهيد) في قوله: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ﴾:

لفظُ (شيء) عامٌّ، يصدقُ فيه كونه حقيقةً متى صدقَ عليه كونُه شيئًا

آثر القرآنُ استعمالَ لفظ ﴿شَيْءٍ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَيُّ شَيْءٍ﴾ وأراد: أيَّ شهيدٍ، فوضع "شيئًا" مقام "شهيد"؛ ليبالغَ في التَّعميم، وذلك أنَّه لو قيل: أيُّ شهيدٍ أكبر شهادة؟ خصَّ بالشّاهد المتعارف، ومن يُقال له: (شهيدٌ) فيعمُّ؛ ليعرض ما يصلحُ للشَّهادة من أيِّ جنس كان، مُتعارفًا وغيرَ متعارفٍ، فيكون أدخلَ في المبالغة[3]، ويرى الرّازيُّ أنَّ "لفظ الشَّيء أعمُّ الألفاظ، ومتى صدق الخاصُّ؛ صدق العامُّ، فمتى صدق فيه كونهُ ذاتًا وحقيقةً؛ وجب أن يصدقَ عليه كونهُ شيئًا"[4].

(1) ابن جُزيّ، التسهيل: 2/5.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/166، وطنطاويّ، التفسير الوسيط: 5/52.
(3) الواحديّ، البسيط: 8/47، والزّمخشريّ، الكشّاف: 2/11، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/275، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/167.
(4) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 12/499، والطّيبيّ، فتوح الغيب: 6/43.

سرُّ التَّعبير بلفظِ ﴿أَكْبَرُ﴾ دون أعظمَ:

شهادةُ اللهِ أكبرُ شهادةً؛ لأنَّها صادرةٌ عن ذاتٍ هي الكمالُ المطلَق

في قوله: ﴿أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً﴾: آثر القرآنُ الكريم التَّعبيرَ بلفظ ﴿أَكْبَرُ﴾ دون (أعظم)؛ لأنَّه اعتبرَ فيه المنزلة والرِّفعةَ كما في هذه الآية؛ ولأنَّه أقوى وأعدلُ في جنس الشَّهادات؛ لأنَّ كمالَ الشَّهادة يتأتَّى من رفعة صاحب الشَّهادة ومنزلته، ولأنَّه لا يجري فيها الخطأُ ولا السَّهو ولا الكذب، وهو من إطلاقِ ما مدلولهُ عِظمُ الذّات على عِظم المعنى، كقوله تعالى: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [التّوبة: 72]، وقوَّة الشَّهادة بقوَّة اطمئنان النَّفسِ إليها، وتصديق مضمونها، وقيل: معناها أفضلُ؛ لأنَّ مراتبَ الشَّهادات في التَّفضيل تتفاوت بمراتبِ الشّاهدين[1].

دلالةُ الشَّهادةِ في قوله تعالى: ﴿أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً﴾:

الشَّهادةُ بابٌ من أبواب حَلِّ الخلافِ في كلِّ أمرٍ عظيم

علَّم اللّه ﷻ رسولَه ﷺ، عندما اختلف معه قومه أن يلجأَ إلى إقامة الدَّليل، والشَّهادة من أقوى الأدلَّة؛ لأنَّ الشّاهدَ هو الَّذي يبيِّن دعوى المدَّعي في المنازعات والخصومات، وهنا أمر اللّه نبيَّه ﷺ، بأن يحتجَّ عليهم بشهادة اللّهِ الواحد القهّارِ، مؤكِّدًا " بأنَّ أكبرَ الأشياء شهادةً، هو من لا يجوز أن يقعَ في شهادته كذبٌ، ولا خطأٌ، ولا زور، وهو اللّه تعالى، الشَّهيدُ بيني وبينكم"[2]، وشهادتهُ تعالى هي شهادةُ آياتهِ في القرآن، وآياتهِ في الأنفسِ والأكوان، وآياته في العقلِ والوجدان[3].

دلالةُ إيثارِ لفظ (الشَّهادة) دون غيرهِ من الألفاظ:

شهادةُ اللهِ لرسوله بصدقِ رسالتهِ، دامغٌ لكلِّ افتراءٍ أثيمٍ

آثرَ القرآنُ الكريم لفظَ الشَّهادة؛ لأنَّها لفظ عامٌّ يشمل الشَّهادةَ بالآيات والمعجزات، ومن ذلك ما أيَّد اللّهُ به رسوله منَ المعجزات

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/460، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/166.
(2) الحجازيّ، محمّد محمود، التّفسير الواضح: 1/596.
(3) أسعد حومد، أيسر التّفاسير، ص: 809.

الحسّيَّة، ومنَ الآياتِ العقليَّة، وعلى رأسِها القرآن الكريم، ومنها شهادةُ كُتب اللّه السّابقةِ، وبشارة الرُّسلِ به، ومنها ما كان بشهادةِ ربِّنا لرسوله في القرآن الكريم برسالتهِ، قال تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ﴾ [الفتح: 29]، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٢٥٢﴾ [البقرة: 252]، إلى غيرِ ذلك منَ الآيات الَّتي تثبت شهادةَ اللّه لنبيِّه؛ لذلك كان لفظُ الشَّهادة هو الأَولَى في السّياقِ.

لفظُ الشَّهادةِ يحملُ معنى القسمِ في الآية الكريمةِ:

دلالــةُ الكناية عنِ القسم، في (أُشـهِـد اللـه)، مقرونًا بمعنى الإشهادِ

منَ الإشارات: أنَّ لفظ الشَّهادةِ يحمل معنى القسم؛ لأنَّه لمّا كانت شهادةُ اللّه على صدق الرَّسول ﷺ، غيرَ معلومةٍ للمُخاطَبين المكذِّبين بأنَّه رسول اللّه، صارت شهادةُ اللّه عليهم في معنى القسم، على نحو قوله تعالى: ﴿وَيَدْرَؤُاْ عَنْهَا ٱلْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٨﴾ [النّور: 8]، أي: أن تُشهِدَ اللّه على كذبِ الزَّوج، أي: أن تَحْلِفَ على ذلك باسم اللّه، فإنَّ لفظ (أُشهِد اللّه)، مِن صيغ القسَم إلّا أنَّه إن لم يكن معه معنى الإشهادِ، يكون مجازًا مُرسلًا، وإن كان معه معنى الإشهادِ - كما هنا - فهو كنايةٌ عنِ القسم، مراد منه معنى إشهاد اللّه عليهم، وبذلك يظهرُ موقع قوله: ﴿ٱللَّهُ شَهِيدُۢ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْۚ﴾، أي: أُشهِدُه عليكم[1].

دلالةُ عدمِ عطفِ جملة ﴿قُلِ ٱللَّهُ شَهِيدُۢ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْۚ﴾ على ما قبلها:

اللــهُ تـعـالى مـوجـودٌ، وهـو بـين الـنَّـبـيِّ وخصومهِ شهيدٌ

لم تعطف هذه الجملةُ على ما قبلَها؛ لأنَّها جوابٌ، أُمر به المأمور بالسُّؤال على معنى أن يسأل، ثمَّ يبادرُ هو بالجواب، ويكون المرادُ بالسُّؤال التَّقرير، "وقوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُ﴾ جوابٌ، أي: (اللّهُ أكبرُ شَهادَةً)، فاللّهُ مبتدأٌ والخبر محذوف، فيكون دليلًا على أنَّه يجوز إطلاق اسم الشَّيء على اللّه تعالى، وهذا لأنَّ الشَّيءَ اسمٌ للموجود، ولا يُطلقُ على المعدوم، واللّه تعالى موجود، فيكون شيئًا، ولذا تقول:

(1) السّمرقنديّ، بحر العلوم: 1/439، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/166 - 167.

(اللّه تعالى شيء لا كالأشياء)، ثمَّ ابتدأ ﴿شَهِيدُۢ بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡۚ﴾ أي: هو شهيدٌ بيني وبينكم"[1].

دلالةُ الجوابِ بقوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُۖ شَهِيدُۢ بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡۚ﴾:

حَذْفُ المُرَتَّبِ عليه، لدلالةِ المُرَتَّبِ إيجازًا في الآيةِ الكريمة

هذه الجملةُ جوابٌ للسُّؤال في قولهِ تعالى: ﴿أَيُّ شَيۡءٍ أَكۡبَرُ شَهَٰدَةٗۖ﴾؛ ولذلك فُصِلَت جملته المصدَّرة بـ ﴿قُلۡ﴾، وكذلك هي أمرٌ للنَّبيِّ ﷺ، بأن يتولَّى الجواب بنفسه؛ إمّا للإيذانِ بتعيُّنه وعدم قدرتهم على أن يجيبوا بغيرهِ؛ وإمّا لأنَّهم ربَّما يتلعثمون فيه لا لتردُّدهم في أنَّه أكبرُ من كلِّ شيءٍ، بل في كونه شهيدًا في هذا الشَّأن، ووقع قوله: ﴿ٱللَّهُۖ شَهِيدُۢ بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡۚ﴾، جوابًا على لسانهم؛ لأنَّه مُرتَّب على السُّؤال، وهو المقصودُ منه، فالتَّقدير: قل شهادةُ اللّه أكبرُ شهادةً، فاللّه شهيدٌ بيني وبينكم، فَحَذَفَ المُرَتَّبَ عليه لدلالةِ المُرَتَّبِ إيجازًا، كما هو مُقتضى جزالةِ أسلوب الإلجاءِ والجَدَلِ[2].

دلالةُ المبادرةِ بالجوابِ عنِ السُّؤال في قوله: ﴿قُلۡ أَيُّ شَيۡءٍ أَكۡبَرُ شَهَٰدَةٗۖ﴾:

القرآنُ يعلِّم الدَّاعيةَ حُسنَ التَّخلُّصِ في منازعةِ الخصوم

لمّا كان المرادُ بالسُّؤال الإلجاءَ إلى الإقرار؛ كان الجواب منه ﷺ، إذ لا سبيل إلى الجحدِ فيه، أو المغالطة؛ لذلك لم ينتظرْ ﷺ جوابَهم، بل بادرهم بالجواب تبكيتًا لهم؛ لأنَّ الكلام مسوقٌ مساقَ إبلاغ الحجَّة، وهذا أسلوب مُتَّبع في القرآن الكريم؛ فتارةً لا ينتظر جوابًا منهم - كما هنا - وكما في قوله تعالى: ﴿قُل لِّمَن مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ قُل لِّلَّهِۚ﴾ [الأنعام: 12]، وقوله: ﴿قُلۡ مَنۡ أَنزَلَ ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِي جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ﴾، إلى قوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُ﴾ [الأنعام: 91]، وتارةً يذكر ما سيجيبونَ به كما في سورة (المؤمنون) في قولهِ تعالى: ﴿قُل لِّمَنِ ٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٨٤ سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ﴾ [المؤمنون: 84 - 85]، وما بعدها من آياتٍ[3].

(1) النّسفيّ، مدارك التّنزيل: 1/495.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/118، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/167.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/150.

دلالةُ التَّعبيرِ بقولهِ: ﴿شَهِيدٌۢ﴾ دون شاهدٍ:

العدولُ من صيغةٍ إلى أخرى له دلالةٌ مؤثِّرة في المعنى

آثر القرآنُ الكريم التَّعبيرَ بـ ﴿شَهِيدٌۢ﴾ دون (شاهد)؛ لأنَّه على وزن فاعلٍ، وليس فيه معنى المبالغة؛ لذلك عُدل عنه إلى وزن فعيلٍ ﴿شَهِيدٌۢ﴾، لما فيه من معنى التَّكثيرِ في إثبات الشَّهادةِ، وكأنَّ المعنى: أن قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الكِتابَ الَّذي جاءَ بِهِ موسَى، فكلَّما عانَدَ الكفّارُ رسولَ اللّه، واعترضوا على نبوَّته؛ شهد اللّه له بها لفظًا ومعنًى، وقوله: ﴿ٱللَّهُ شَهِيدُۢ﴾، "أَي: اللّهُ الَّذي اعترفتم بأنَّه خالق السّماوات والأرض، والظُّلمات والنّور، يشهد لي بالنُّبوَّة بإقامة البراهين، وإنزال القرآن عليَّ"[1].

دلالةُ تكرار (بين) في قولهِ تعالى: ﴿بَيْنِي وَبَيْنَكُمْۚ﴾ بدلًا من قوله: (بَيْنَنَا):

دلالةٌ على الاحتكامِ إلى الله

عدل التَّعبيرُ القرآنيُّ عن أن يقول: (قُلِ اللّهُ شَهيدٌ بَيْنَنا)، إلى تكريرِ كلمة (بين)؛ لأنَّه لمّا أضيفت إلى ياء المتكلِّم، لم يكن بُدٌّ من إعادة (بين)[2]، وكرِّرت أيضًا؛ لتحقيق المقابلة، وللتَّأكيدِ، ومعنى السّياق في ﴿بَيْنِي وَبَيْنَكُمْۚ﴾، "أَي: يشْهد لي بالحَقِّ، وعَلَيْكُم بالباطِلِ"[3].

دلالةُ تقديمِ ﴿بَيْنِي﴾ في قوله: ﴿بَيْنِي وَبَيْنَكُمْۚ﴾:

من فنونِ القولِ في العربيَّة إضافةُ ما يزيل الإلباسَ في اللَّفظ

وجه تقديمِ ﴿بَيْنِي﴾ في قوله: ﴿بَيْنِي وَبَيْنَكُمْۚ﴾: أنَّ اللّه شهيدٌ له، كما هو مقتضى السّياق، فمعنى البَين: أنَّ اللّه شهيدٌ للرَّسول ﷺ بالصِّدق؛ لردِّ إنكارهم رسالتَه، كما هو شأن الشّاهد في الخصومات[4]، وقوله: ﴿بَيْنِي وَبَيْنَكُمْۚ﴾ متعلِّقٌ بقوله: ﴿شَهِيدٌۢ﴾، وكان الأصلُ: (قُلِ اللّهُ شهيدٌ بَيْنَنا)، فكُرِّرَتْ (بَيْنَ) توكيدًا، وهو نظير قوله:

---

(1) الواحديّ، الوجيز: 1/347.

(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/91.

(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/275.

(4) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/11، وابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 8/65، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/118، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/168.

فلئِنْ لَقيتُكَ خاليَيْنِ لَتَعْلَمَنْ ***أيّي وأيُّك فارِسُ الأَحْزابِ[1]

والجامع بينها: أنَّه لَمّا أضافَ إلى الياء وحدَها، احتاجَ إلى تكريرِ ذلك المضاف[2].

دلالةُ التَّعبيرِ بقولِهِ تعالى: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ﴾:

دلَّ هذا التَّعبيرُ على صدْقِ نبوَّته ﷺ في خطابهِ لأهل مكَّة بقوله: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ﴾، والوحيُ لا يكون إلّا للنَّبيِّ والرَّسول بمعناه الشَّرعيِّ، ولمّا كان الوحيُ معناه إعلامٌ في خفاء؛ ذكر القرآن وهو أثرُ الوحي الظّاهرِ، وفي ذلك تأكيدٌ على نبوَّته ﷺ وتبكيتٌ لمشركي مكَّة؛ لعدم إيمانهِم بالقرآن؛ لعلمهم بدقَّة ألفاظهِ، وجمالِ معانيه.

بعثتهُ ﷺ بمعجزةِ القرآن، دليلٌ على صدق دعوتِهِ

دلالةُ اختيارِ الفعل ﴿وَأُوحِيَ﴾ دون غيرِهِ:

اختارَ القرآنُ الكريم فعلَ ﴿وَأُوحِيَ﴾ الَّذي يدلُّ على صدقِ رسالته ﷺ؛ لأنَّ الوحيَ من خصائصِ النُّبوَّة، والمقصودُ هنا الوحي الشَّرعيُّ؛ لإخراج إسناد الوحي إلى بعضِ الأجناسِ الأخرى، مثل: الأرض، والنَّحل، وإلى أمِّ موسى؛ فهو بمعنى الإلهام، وليس وحيًا شرعيًّا، وأيضاً؛ لأنَّ الوحيَ الشَّرعيَّ يلزم فيه التَّبليغ بخلاف الإلهام.

وحيُ الله بلاغَ الرُّسل عن الحقِّ، مرادهُ من الخلقِ

دلالةُ تقديمِ الجارِّ والمجرور ﴿إِلَيَّ﴾ في قوله: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ﴾:

قوله تعالى: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ﴾، أوحي: فعلٌ ماضٍ مبنيٌّ للمجهول، تعلَّق به الجارُّ والمجرور، واسمُ الإشارة المبنيُّ على

كلُّ ادِّعاءٍ للوحي من غيرِ تكليفٍ، هو محضُ ضلالٍ وتزييفٍ

(1) البيت غير منسوب إلى قائل، واستشهد به بعض المفسّرين، مثل: أبي حيان، البحر المحيط: 3/141، والسمين، الدّرّ المصون: 3/167، وابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 5/211، والمراغي، تفسير المراغيّ: 27/91.

ونسبه أبو سعيد السيرافي في شرح كتاب سيبويه: 3/168، وأبو إسحاق الشاطبي في شرح الألفية: 4/109، إلى عنترة، وهو غير موجود في ديوانه.

(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/11، وابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 8/65، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/118، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/168.

السُّكون: نائبُ فاعله، القرآنُ: بدلٌ، والجملة معطوفة[1]، وقدَّم الجارَّ والمجرور ﴿إِلَيَّ﴾ لإفادة الاختصاصِ، وكمالِ العناية الإلهيَّة، وفيه إشارةٌ إلى تكذيب كلِّ مَن يدَّعي النُّبوَّة منَ البشريَّة إلى يوم القيامة، والسّياق يؤكِّد أنَّ نزولَ الوحي عليه، لكونهِ القدوةَ في البلاغ، "فحَقٌّ على من اتَّبع رسول الله ﷺ، أن يَدْعوَ كالَّذي دعا رسول الله ﷺ، وأن يُنْذِرَ كالَّذي أَنذر، فلم يكن رسول الله ﷺ يقاتل أحدًا من النّاس حتَّى يَدْعوَهُ إلى الإسلام، فإذا أبوا ذلك؛ نَبذ إليهم على سواء"[2].

دلالةُ التَّعبيرِ باسم الإشارة في قوله: ﴿هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ﴾:

عبَّر باسم الإشارة ﴿هَٰذَا﴾ في قوله: ﴿هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ﴾، إشارةً إلى ما هو في ذهنِ المتكلِّم والسّامع، ويؤكِّد ذلك أنَّ لفظَ القرآنِ يُعرَب عطفَ بيان، بعد اسم الإشارةِ، ليبَيِّن المقصود بالإشارة[3]، وقوله: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ﴾، وهو شهادة أخرى قاطعةٌ ناصعة؛ فأيُّ شهادةٍ أكبر من هذا تطالبونني بها، وتُلزمونني بإبدائِها؟[4].

الإشارةُ إلى القرآنِ لتأكيد مباشرتهِ بالوحي، وأنَّه واقعٌ مَعيشٌ

دلالةُ اختيارِ لفظِ القرآن دون الكتابِ:

جاءَ هذا الاختيار للفظ ﴿ٱلْقُرْءَانُ﴾ دون الكتابِ؛ للإعلام باختصاصهِ ﷺ بالقرآن، بخلاف لفظ الكتابِ، فهو وإن كان يُطلق على القرآن، إلّا أنَّ هذا الاسمَ يُطلق على غيره منَ الكتب السَّماويَّة؛ مثل: التَّوراة والإنجيل، وعند ذلك يظنُّ أعداءُ الإسلام أنَّه أوحي إليه منَ التَّوراةِ والإنجيل، وليس له كتابٌ مستقلٌّ؛ لذلك كان اختيارُ لفظ القرآن بِمنزِلَةِ الرَّدِّ على كلِّ من يدَّعي في القديم والحديث أنَّه أخذ منَ التَّوراة أو الإنجيل. وفيه إشارةٌ إلى أنَّه مقروء ومسموع؛ فلا

القرآنُ معلنٌ لمن سمعَ به، ولا عذرَ لمن لم يؤمن بهِ

(1) الدرويش، إعراب القرآن الكريم وبيانه: 3/81، أحمد الدّعاس - وآخران، إعراب القرآن الكريم: 1/294.

(2) ابن أبي حاتم، تفسير القرآن العظيم: 4/1272. والكلام المُقتَبَس للرَّبيع بن أنس.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/167.

(4) محمّد الخطيب، أوضح التّفاسير: 1/152.

عذرَ للمشركين في عدمِ الإيمان به؛ لأنَّه تحدّاهم أن يأتوا بعشر سوَرٍ أو بسورة من مثله؛ فعجزوا، فضلًا عنِ الإتيانِ بمثله.

دلالةُ بناءِ الفعل ﴿وَأُوحِيَ﴾ في قولهِ تعالى: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ﴾:

وحيُ الله تذكيرٌ للنَّاس وتنويرٌ

بُني الفعل ﴿وَأُوحِيَ﴾ للمفعول؛ للعلم بالفاعلِ الَّذي أوحاه إليهِ، وهو اللّه تعالى، "هذا النَّصُّ فيه المعجزةُ الَّتي تدلُّ على صدق الرَّسول ﷺ، وهو يشتملُ على شهادة اللّه القوليَّة بأنَّه واحدٌ أحد، ليس بوالدٍ ولا ولد، وأنَّه القادر على كلِّ شيءٍ، وأنَّه القاهر فوق عباده، وهو أمرٌ حسّيٌّ يتلى عليهم ليلًا نهارًا، ويقرأ عليهم جهارًا"[1].

دلالةُ الإيجازِ بالحذفِ في قوله تعالى: ﴿وَمَنۢ بَلَغَۚ﴾:

الإيجاز أُسلوبٌ يحقِّق المعاني الدَّقيقة ببلاغةٍ أنيقة

في الآية إيجازٌ بالحذفِ في قوله: ﴿وَمَنۢ بَلَغَۚ﴾، فحذف ضميرَ النَّصب الرّابط للصِّلة؛ لأنَّ حذفَهُ كثيرٌ حسنٌ، وعمومُ ﴿وَمَنۢ﴾ وصِلَتِها يشمل كلَّ مَن يَبلُغُه القرآنُ في جميع العصورِ، والتَّقدير: ومَن بلَغَه هذا القرآن[2]، "والنِّذارة إنَّما تكونُ بذِكْر ما ينذرُهم به من التَّرغيب والتَّرهيب، وببيان الأعمالِ والأقوال الظّاهرة والباطنةِ الَّتي مَن قام بها، فقد قَبِل النِّذارة، فهذا القرآن فيه النِّذارةُ لكم أيُّها المخاطَبون وكلُّ من بلغه القرآنُ إلى يوم القيامة، فإنَّ فيه بيانَ كلِّ ما يحتاج إليه من المطالبِ الإلهيَّة"[3].

سرُّ التَّعبيرِ بالنِّذارة دون البشارةِ في قولهِ: ﴿لِأُنذِرَكُم بِهِۦ﴾:

النِّذارةُ منهجٌ دعويٌّ مفيدٌ، يعتمده القرآن المجيدُ

اقتصرَ التَّعْبيرُ في الآيةِ على جعل علَّة نزول القرآن للنِّذارة، دون ذكر البشارةِ؛ لأنَّ المُخاطَبين في حال مُكابرتهم الَّتي هي مقامُ الكلام لا يناسبهم إلّا الإنذار، فغايةُ القرآن بالنِّسبة إلى حالهم هي الإنذارُ؛ ولذلك قال: ﴿لِأُنذِرَكُم بِهِۦ﴾، مُصرِّحًا بضمير المُخاطَبين،

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2462.
(2) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 12/499، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/168.
(3) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 252.

ولم يقل: لأُنذِر به، وهم المقصودون ابتداءً من هذا الخطاب. وممّا يذكر في سرِّ التَّعبير بالنِّذارَةِ دونَ البِشارَة، أنَّ القرآن اكتفى بها؛ لأنَّ البشارةَ من روادفِ الإنذار، لاقتران ذِكْرِها بذِكْره، في مواضع كثيرةٍ منَ القرآن؛ فلو ذكر الإنذارَ منفردًا في بعض المواضعِ، تكون البشارةُ ملحوظةً فيها. وأيضًا لمّا لم يكن الكلام مع الكفّار خاصَّة، بل كان عامًّا بقرينة قوله: ﴿وَمَنۢ بَلَغَۚ﴾؛ احتيجَ إلى عدم ذكرِ البشارةِ صراحةً؛ لأنَّ أحد الضِّدَّين أسرع حضورًا بالبالِ عند ذكر الضِّدِّ الآخر[1].

دلالةُ اللّام في قولهِ تعالى: ﴿لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَۚ﴾:

دلَّ التَّعبيرُ على أنَّ (اللّام) في قوله: ﴿لِأُنذِرَكُم﴾ للتَّعليل، وهي لا تُؤْذِنُ بِانْحِصارِ العلَّةِ في مَدْخولها؛ إذ قد تكون للفعلِ المعدَّى بها عللٌ كثيرة[2].

دلالةُ عطف ﴿وَمَنۢ بَلَغَۚ﴾ على ضميرِ المُخاطَبين ﴿لِأُنذِرَكُم﴾:

دلَّ هذا العطفُ على العموم، والمعنى: لأنذركم به - يا أهل مكَّة - وأُنذرَ كلَّ مَن بلغه القرآن منَ الثَّقلين، "وذلك أنَّ القرآن لمّا كان متواترًا بلفظه ومعناه، كان مَنْ بَلَغه بعده ﷺ، كمن سمعهُ منه، وإن كثُرت الوسائطُ؛ لأنَّه هو الَّذي بلغه بلا زيادةٍ، ولا نقصانٍ"[3].

دلالةُ اختيارِ (من) دون (الَّذي) في قوله: ﴿وَمَنۢ بَلَغَۚ﴾:

قيامُ الحجَّة على مَن بلَغَهُ القرآنُ

اختار القرآنُ الكريمُ (مَنْ) دون (الَّذي)؛ لإفادة العموم، في بلاغ الدَّعوةِ، بخلاف (الَّذي)؛ فلا تؤدّي هذا العمومَ، وفيها إشارةٌ إلى عموم بعثتهِ ﷺ للإنس والجنِّ.

(1) القونَويّ، حاشية القونوي على البيضاويّ: 8/41.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 7/168.
(3) رضا، تفسير المنار: 7/285.

دلالةُ اختيارِ لفظِ البلاغ دون غيرِهِ في قوله: ﴿وَمَنۢ بَلَغَۚ﴾:

البلاغ لفظٌ عامٌّ يندرج تحته السَّماعُ والكتابةُ والإشارة والسُّلوك

اختارَ (البلاغ) دون غيرِه؛ لأنَّه وظيفةُ الرَّسول ﷺ بنصِّ آياتِ القرآنِ الكريمِ، قال تعالى: ﴿۞يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ﴾ [المائدة: 67]، وقوله: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيۡكَ ٱلۡبَلَٰغُ﴾ [الرّعد: 40]، ومن يأتي بعده منَ العلماء يقومون بدور البلاغِ، قال ﷺ: (بلِّغوا عنِّي ولو آيةً)[1]. وإنَّ البلاغ يحمل معنى حُسن الدَّعوة، والدّاعيةُ عليه - أخذًا من دلالةِ هذه المادَّة - ، أن يراعي حال المدعوِّ؛ فيختار الزَّمان المناسب، والكلام المناسب، لكي تؤثِّر دعوته في المَدعوّين، وتصل إلى قلوبهم، وهو منتهى البلاغ، وهو لفظ عامٌّ، تندرج تحته كلُّ طرق البلاغ، وفيه إشارةٌ إلى أنَّ مَن لم تبلغه الدَّعوة الإسلاميَّة؛ فلا إثمَ عليه، وإنَّما إثمه على الَّذين قصَّروا في البلاغ.

التَّعبيرُ بالماضي والمرادُ المستقبل في قوله: ﴿وَمَنۢ بَلَغَۚ﴾:

بيان أنَّ دعوة البلاغ عن الله بالغةٌ ما بلغَ اللَّيلُ والنَّهارُ

آثر التَّعبيرَ بالفعلِ الماضي للإشارة إلى تحقُّق الوقوعِ للبلاغ، وأنَّه على علماء الأمَّة القيام بهذا الواجب، وفيه إعجازٌ غيبيٌّ، هو أنَّ الدَّعوة الإسلاميَّة يمكِّن الله تعالى لها حتَّى تصلَ في البلاغ إلى ما بلغَ اللَّيل والنَّهار.

دلالةُ حذفِ الضَّميرِ في قوله: ﴿وَمَنۢ بَلَغَۚ﴾:

البلاغُ مهمَّةُ العلماءِ للكون كلِّه، وللبشريَّة بأجمعِها

حُذف الضَّمير؛ ليعطي معنىً أوسعَ في البلاغ، ولا سيَّما أنَّ الدَّعوة عالميَّةٌ للعرب وغير العرب، والبلاغُ يكون على هذا بالقرآنِ أو بترجمة معاني القرآنِ، وعند ذلك تُقام الحجَّة على مَن بلَغَتْه الدَّعوة، وفيه إشارةٌ إلى مدحِ الأمَّة لوجودِ مَن يقومُ بالبلاغ، وهذا مقصودٌ به علماؤها؛ فهم الَّذين يتحمَّلون قضية البلاغ، و"استُدلَّ به أيضًا على أنَّ أحكام القرآن تعمُّ الموجودين يومَ نزوله، ومن سيوجد بعدُ إلى يوم القيامةِ"[2].

(1) البخاري، الصحيح، الحديث رقم: (3461)، وأحمد، المسند، الحديث رقم: (6486).
(2) القاسميّ، محاسن التّأويل: 4/330.

بلاغةُ التَّعبيرِ بالأسلوبِ الإنشائيِّ دون الخبريِّ:

تـوبـيـخُ الـلـهِ للكافرين دليلٌ على عـدمِ رضاه لـمـا اسـتـنـكـرهُ عليهِم

استخدم القرآنُ الكريم التَّعبيرَ بالأسلوبِ الإنشائيِّ؛ ليشيرَ إلى أنَّهم وقعوا في جعلهم آلهةً مع الله تعالى وتأكَّد وقوعهُ، ولم ينكروه، ولذلك كان التَّأكيدُ على وقوعِهم في جعلِ آلهة مع الله، ظاهرًا من خلال هذا الأسلوبِ، وإنكار الواقع توبيخٌ[1]، يؤكِّد هذا الغرضَ منَ الاستفهام في الآية أنَّه إنكاريٌّ؛ لتَقريعِهم وتوبيخِهم، وهو يفيد إنكارَيْنِ؛ أحدهما: صريحٌ بأداة الإنكارِ، والآخر: كِنائيٌّ بلازمِ تأكيد الإخبار؛ لغرابة هذا الزَّعم بحيثُ يشكُّ السّامع في صدورهِ منهم، والمقرَّرُ عليه هنا أمر ينكرونه بدلالةِ المقام[2]. وممّا يؤكِّد ذلك أنَّ الفعلَ جاء مضارعًا؛ ليشير إلى استحضار الصّورة الَّتي عليها المشركون، في اتِّخاذ آلهة مع الله، وتجدُّد وقوعِ ذلك منهم.

علَّةُ التَّوكيدِ بقولهِ تعالى: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ﴾:

تـأكـيـدُ الـخـبـر بمؤكِّدَيْن دليلٌ على أهميَّتِهِ

أُكِّدَ الخبرُ في الجملة بمؤكِّدَيْن: (إنَّ) واللّامِ المزحْلَقةِ؛ ليفيدَ أنَّ شهادتَهم هذه ممّا لا يكادُ يُصدِّق السّامعون أنَّهم يشهدونها؛ لاستبعادِ صدورها من عقلاءَ؛ فاحتاج المخبِر عنهم بها إلى تأكيد خبرهِ بمؤكِّدَيْن[3]، وقيل: "هو تقريرٌ لهم من الرَّسول، وهم في هذا الموقفِ، بعد أن أوقفهم بين يدي الله، وأشهدَه عليهم، ومع هذا، فإنَّ العنادَ لا يزال مستوليًا عليهم، وإنَّ اللَّجاج لا يزال يضرب بأمواجهِ فوقهم؛ ولهذا، فإنَّ الرَّسول الكريم، لا ينتظر جوابهم، إذ كان جوابًا منحرفًا عن الحقِّ، بعيدًا عن الهدى.. فليتركهم وشأنَهم، وبين أيديهم دعوة الحقِّ، وأمامهم طريق الهدى، فإنْ أطاعوا؛

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2464.

(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/11، والرّازيّ، مفاتيح الغيب: 15/377، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/459 - 461، وأبو السّعود: إرشاد العقل السّليم: 3/118، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/169.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/169.

فقد اهتَدَوا، وإن تولَّوا فإنَّما هم في ضلالٍ وخسران"[1]. وفي هذا التَّساؤل الاستنكاريِّ استقصاءٌ في الإعذار لهم، والتَّوبيخ لهم، وأنَّه تعالى يسألهم إن كانوا سيشهدون أنَّ مع اللّه آلهةً أخرى، بما يماثلُ شهادته على الحقِّ الَّذي أبانه لهم، وأعطاهُ لهم جليًّا واضحًا لا غبار عليه ؟ وتلك شهادةٌ منهم مستحيلةٌ لاتتأتَّى أبدًا.

دلالةُ التَّعبيرِ بقوله: ﴿لَتَشۡهَدُونَ﴾ في الآيةِ الكريمة:

إطلاقُ (لتشهدون) مشاكلةٌ

عبَّر بلفظ ﴿لَتَشۡهَدُونَ﴾ للإشارةِ إلى قوَّة الضَّلال في نفوسِهم؛ إذ إنَّهم مع ضلالِ الفكرة الوثنيَّة يعتقدونها أشدَّ الاعتقاد؛ لأنَّ الشَّهادة لا تكون إلّا بالعلم اليقينيِّ، فهم يؤمنون بـ ﴿لَتَشۡهَدُونَ﴾ بالشِّرك، أي: بأنَّ مع اللّهِ آلهةً أخرى، فإطلاق ﴿لَتَشۡهَدُونَ﴾ مشاكلةٌ لقوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُۖ شَهِيدُۢ بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡۚ﴾[2].

دلالةُ التَّعبيرِ بالمعيَّةِ في قوله: ﴿أَئِنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخۡرَىٰۚ﴾:

الشِّركُ باللهِ ضلالٌ، وشتَّان بين الخالقِ والمخلوقِ

تدلُّ ﴿مَعَ﴾ على أنَّ هذه الآلهة لها دورٌ في عقيدة المشركين؛ فهم يلجؤونَ إليها، ويطلبون منها ما لا يصحُّ طلبُهُ، فكأنَّهم يساوون بينها وبين اللّهِ تعالى، تعالى اللّهُ عمّا يقولون علوًّا كبيرًا، ويؤكِّدُ هذا المعنى اختيارُ لفظِ الجلالةِ ﴿ٱللَّهِ﴾ في قولهِ: ﴿مَعَ ٱللَّهِ﴾ دون الرَّبِّ.

دلالةُ وصفِ الآلهةِ بالتَّأنيثِ في قولهِ: ﴿ءَالِهَةً أُخۡرَىٰۚ﴾:

وصفُ الآلهةِ بلفظِ (أخرى) يدلُّ على بطلانِ عبادتِها وهوانِ أمرِها

الآلهةُ جمعُ إلهٍ، وأُجري عليه الوصفُ بالتَّأنيث تنبيهًا على أنَّها لا تعقل، فإنَّ جمع غير العاقل يكون وصفُه كوصفِ الواحدةِ المؤنَّثة، ووصِفت بـ ﴿أُخۡرَىٰۚ﴾ مع أنَّها جمعٌ، وكان الظّاهر أن توصف بـ (أخَر)، ليوصف الجمعُ بالجمع، ولكن لأنَّها مشتركةٌ في وصفٍ جامع؛ وهو أنَّها أحجارٌ، فهي في المعنى شيءٌ واحدٌ؛ لذا وصفت بما يوصف به الواحدُ، لا بما يوصف به العددُ، والوصف بـ ﴿أُخۡرَىٰۚ﴾

(1) عبد الكريم الخطيب، التّفسير القرآنّي للقرآن: 4/146.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/169، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2464.

فيه إشارةٌ إلى بطلان عبادتها[1]، وإشارةٌ إلى النَّعي على هذه الآلهة لضعفِها، حيث وُصِفت بوصف المؤنَّث الَّذي يدلُّ على الضَّعف دائمًا.

دلالةُ التَّعبيرِ في قوله: ﴿ءَالِهَةً أُخۡرَىٰۚ﴾:

التَّوبيخ والتَّهكُّم

عبَّر عن أوثانهم بأنَّها ﴿ءَالِهَةً أُخۡرَىٰۚ﴾، مُجاراةً لهم في زعمهم الباطلِ، ومبالغةً في توبيخهم، والتَّهكُّم بهم[2]؛ لأنَّهم خالفوا باحتمال الشَّهادةِ هاتهِ - بأنَّ هناك آلهةً أخرى - ما فطرهم اللّه عليه من التَّوحيدِ، وفي ذلك تناقضت أقوالهُم على إثبات ما يدَّعونَه من أنَّ مع اللّه آلهة أخرى، مع أنَّه لا يقومُ على ما قالوه أدنى شبهة، فضلًا عن الحجج الدّاحضةِ، والدَّعاوى الباطلةِ الَّتي لا يقبلها عقلٌ، ولا يستقيمُ بها منطق[3].

علَّةُ تَكرارِ الأمرِ بـ﴿قُلۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَشۡهَدُۚ قُلۡ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ﴾:

دلالةُ اتِّحاد المسنَدِ (قل) والمسنَدِ إليهِ الضَّميرُ المستكنُّ في الفعلين

علَّةُ تَكرارِ الأمر ﴿قُلۡ﴾ في مبتدأ الجملتينِ سببهُ أنَّ كُلًّا منَ الجملتين موضوعٌ برأسهِ، وأنَّ ما بعد الفعلِ رسالةٌ خاصَّة ذاتُ أهمّيَّةٍ بالغةٍ، تقتضي المبادرة بتبليغها والمواجهة بها، وممّا يؤيِّد هذا المعنى تركُ العطف بين الجملتين: ﴿قُلۡ﴾، ﴿قُلۡ﴾ مع قيام الدّاعي إلى العطف؛ لأنَّ كُلًّا منهما إنشائيَّةٌ لفظًا ومعنًى، فبينهما التَّوسُّط بين الكمالين، وكان من محسِّنات الوصلِ - أي: العطف بالواو - فيهما اتِّحادُ المسند ﴿قُلۡ﴾ والمسندِ إليه، وهو الضَّميرُ المستكنُّ وجوبًا في الفعلين[4].

دلالةُ أمرِ اللهِ تعالى لنبيِّه ﷺ بلفظ القولِ ﴿قُلۡ﴾:

لا يضرُّ البحرَ الزَّخَّارَ أن رَمى فيه غلامٌ بأحجارٍ

في أمرِ اللّه تعالى له بالقولِ مع التَّنديدِ لهم، والتَّوبيخِ لهم، ما يدعو إلى الاقتداءِ والتَّأسّي به ﷺ، وهو العاقلُ الصّادق الأمين

(1) الفرّاء، معاني القرآن: 1/329، والرّازيّ، مفاتيح الغيب: 12/499، والقنّوجيّ، فتح البيان: 4/117، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2464.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/169، وطنطاويّ، الوسيط: 5/53.

(3) عبد الرّحمن السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 252.

(4) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 1/289.

المعروفُ بذلك بينهم جاهليَّةً وإسلامًا، وإن ذهبت اللَّجاجةُ ببعضهم إلى إنكار المعروفِ بلسانهِ لا بقلبه[1]، وإنكارُ الكمال النَّبويِّ، والتَّطاولُ على مقامهِ العالي، لا يحطُّ من مقامه، ولا ينقص من شأنِه، لأنَّهُ ذو فضل وارفٍ، شهدَ به العدوُّ قبل الصَّديق، وما ضرَّه ما شهدتهُ مراحلُ دعوته، من مناوأة ومشاكسة وعدم تصديقٍ، وقد قيل:

ما ضَرَّ شَمْسَ الضُّحَى في الأُفْقِ ساطِعَةً *** ألّا يَرَى نورَها مَنْ لَيْسَ ذا بَصَرِ.

دلالةُ الفصلِ بين قوله: ﴿قُل لَّآ أَشۡهَدُۚ﴾، وقولِهِ: ﴿قُلۡ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ﴾:

الموازاةُ بينَ نفي شهادةِ الإشراكِ، وتأكيدِ شهادةِ الوحدانيَّة

لمّا كان قوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَشۡهَدُۚ﴾ جوابًا للاستفهامِ الَّذي في قوله: ﴿أَئِنَّكُمۡ لَتَشۡهَدُونَ﴾، وجملة: ﴿قُلۡ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ﴾، بيانٌ لجملة ﴿لَّآ أَشۡهَدُۚ﴾، فُصِلَت؛ لأنَّها بمنزلةِ عطف البيان؛ لأنَّ معنى ﴿لَّآ أَشۡهَدُۚ﴾، بأنَّ معه آلهةً؛ هو معنى أنَّه: ﴿إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ﴾، وأُعيدَ فعلُ القولِ لتأكيدِ التَّبليغ[2]، وقوله: ﴿قُلۡ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ﴾، ذُكِرَت هذه الجملةُ بعد نفي الرَّسولِ ﷺ لوجودِ آلهةٍ أخرى، بدليلِ قوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَشۡهَدُۚ﴾؛ فكان ذكرُها لإضافة معنًى جديدٍ، هو إثباتٌ لصفة الوحدانيَّة لله تعالى، وعلى ذلك يوجدُ فرقٌ بين الجملتين؛ فالأولى نفَت تعدُّد الآلهة، والثّانية أثبتتِ الوحدانيَّة، وقد أُلزِموا الحُجَّةَ بما عندهم من آياتِ الوحدانيَّة، وحجج الرُّبوبيَّة، وقد عرفوا أنَّه خالقهم وخالقُ السّماوات والأرض، به العيشُ، وبه الحياةُ، وبه الموتُ، ومع استبانة ذلك لهم؛ أشركوا مع اللهِ آلهةً أخرى، ولذا فأنا لا أشهد، وإنَّما أشهد أنَّه إلهٌ واحد[3].

دلالةُ القَصْرِ في قوله تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ﴾:

التَّعبيرُ بأقوى الأساليبِ لإثباتِ الوحدانيَّةِ لله تعالى

تأتي (إنَّما) كما يقولُ العلّامة عبدُ القاهر (رحمه الله): "لخبرٍ

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2464.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/169، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2465.
(3) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنة: 4/42.

لا يجهله المُخاطَب، ولا يدفع صحَّتَه، أو لا يُنزَّلُ هذه المنزلةَ، وتفسير ذلك: أنَّك تقول للرَّجلِ: (إنَّما هو أخوك)، و(إنَّما هو صاحبك القديم)، لا تقولهُ لمَن يجهل ذلك، ويدفعُ صحَّته، ولكن لِمَن يعلمه، ويُقرُّ به، إلّا أنَّك تريدُ أن تُنَبِّهَه للَّذي يجب عليه من حقِّ الأخِ، وحرمةِ الصّاحب"[1]، ففي الآية نجد المخاطبَ مُنزَّلٌ منزلة (غير المنكِر)، وإن كانوا منكِرين لهذا الأمر، فخاطبهم على أنَّ هذه حقيقةٌ مسلَّمٌ بها، لا ينبغي لأحدٍ أن ينكرَها أو يجهلها، فكلُّ الدَّلائل والآياتِ الكونيَّة تُثبت هذه الحقيقةَ وتؤكِّدها. يضاف إلى ذلك أنَّ الجملة إثباتٌ لوحدانيَّة اللّه (ﷻ) بأقوى الأساليب؛ وهو القصر؛ لما يتميَّز به هذا الأسلوبُ من قوَّةٍ في التَّأكيد مع الإنجاز. وزِدْ على ذلك ما أفادتهُ (إنَّما) في سياق الآية من تعريضٍ بضلال المشركينَ الَّذين يعدِّدون الآلهةَ الَّتي يعبدونها، وهذا من أدلَّة بطلانِها، إذ لو كان في السّماوات والأرض آلهةٌ غيرُ اللّه لفسدتا، بل هو إلهٌ واحدٌ لا شريكَ له[2].

مؤكِّداتُ وجوبِ التَّوحيد في قوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ ﴿مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾:

وجوبُ البراءةِ ممَّا عليه المشركون منَ الشِّرك

في الآيةِ الكريمةِ تأكيدٌ على إيجاب التَّوحيد، وتصريحٌ ببراءة النَّبيِّ ﷺ ممّا يعبدون، وتنديدٌ شديد بعبادة الأوثان؛ لأنَّ الرَّجُلَ العاقل يتبرَّأ منها، وقد أكَّد براءته بـ (إنَّ)، وبالوصف ﴿بَرِيٓءٌ﴾، وبـ ﴿إِنَّمَا﴾ الَّتي تفيدُ الحصر، ولفظُ ﴿وَاحِدٌ﴾ الصريحُ في التَّوحيد ونفيِ الشُّركاء، وفيه قطعٌ للمجادلة معهم على طريقة المتاركةِ، فثبتَت دلالةُ هذه الآية على إيجاب التَّوحيدِ، بأعظمِ طرقِ البيان، وأبلغِ وجوه التَّأكيد[3].

(1) الجرجانّي، دلائل الإعجاز: 1/330.
(2) العُبيد، آيات العقيدة في سورة الأنعام، ص: 664.
(3) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 12/499، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/169 - 170، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2465.

دلالةُ اختيارِ ﴿بَرِيٓءٌ﴾ دون غيرها في قوله: ﴿وَإِنَّنِي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ﴾:

مَن بَرِئَ من أرجاسِ الشِّركِ؛ ذاقَ صفاءَ التَّوحيدِ

اختارَ لفظَ ﴿بَرِيٓءٌ﴾؛ لأنَّ المادَّة اللُّغويَّة لهذه الكلمة تدلُّ على التَّقصّي ممّا يُكره مجاورتُه؛ لذلك كان استعمالها ظاهرًا في البراءةِ منَ المشركين ومن أعمالِهم وعبادتهم، قال تعالى: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٌ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ وَرَسُولُهُۥۚ﴾ [التّوبة: 3]، وقال تعالى على لسانِ سيِّدنا إبراهيم: ﴿إِنَّنِي بَرَآءٞ مِّمَّا تَعۡبُدُونَ ٢٦﴾ [الزّخرف: 26]، وعلى هذا كان اختيارُ ﴿بَرِيٓءٌ﴾، هو المناسبُ لهذا السّياق؛ فهو يحمل البراءةَ والتَّبرّي منَ المشركين ظاهرًا وباطنًا، وأيضًا للمبالغة في البراءةِ منَ المشركين وشركهم؛ لأنَّها جاءَت على وزن (فَعيلٌ).

دلالةُ التَّعبيرِ بـ(ما) في قوله تعالى: ﴿مِّمَّا تُشۡرِكُونَ﴾:

البراءةُ من الشِّركِ منسجمةٌ مع عقيدةِ الرَّسولِ ومهمَّتِهِ

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّنِي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ﴾، عبَّر في آخر الآيةِ بـ(ما)، ومعناها الموصوليَّة، أي: من أصنامكم الَّتي تشركونَ بها، وفيه حذفُ العائدِ المجرور؛ لأنَّ حرفَ الجرَّ المحذوف مع العائد مُتعيِّنٌ، تقديرهُ: بلا لبسٍ، وذلك هو ضابطُ جوازِ حذف العائدِ المجرور. أو تكون (ما) مصدريَّةً، أي: (من إشراككم باللّه)، وقد أمره بالجَوابِ عقيبَ السُّؤال على أنَّه بريءٌ من الشِّرك الممارَسِ في البيئة المكتظَّةِ بهذه الممارساتِ، والَّتي وجدوا لها مختلِفَ المسوِّغات الباطلة.

دلالةُ التَّعبيرِ بالفعلِ المضارعِ في قوله: ﴿تُشۡرِكُونَ﴾:

البراءةُ من الشِّركِ تتجدَّد، بتجدُّد ممارستِهِ المستنكَرةِ

عبَّر بالفعل المضارعِ للدَّلالةِ على استمرارهم، فيما هم فيه منَ الشِّرك المقيت[1]، والمضارعُ ذو دلالةٍ في السّياق العامِّ للآيةِ القائمةِ على الاستفهامِ المكرَّس للتَّقرير مع الإنكارِ والاستبعاد، وقد أمره تعالى أنْ يُجيب بأنَّه لا يشهدُ كما يشهدونَ، بقولِه: ﴿قُل لَّآ أَشۡهَدُۚ﴾، وهي بصيغة الفعل المضارع أيضًا، ثمَّ أمرهُ أمرًا آخَرَ، بأن يشهدَ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/169.

بنقيض ما يزعمون ويَتَبَرَّأَ منه بالتَّصريحِ بأنَّ الإلهَ لا يكون إلّا واحدًا، وهو منطق الدّين، ومطلوب الفطرةِ. وفي الختام أمر بأن يعلنَ براءتَهُ ممّا يشركون به من الأصنام وغيرها، وكلُّ ذلك حاصلٌ بالتَّجدُّد الَّذي يتيحهُ الفعلُ المضارع ﴿تُشۡرِكُونَ﴾[1].

مناسبةُ الفاصلةِ في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّنِي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ﴾:

مـعـبِّرة عن سياقِ التَّوبيخِ، منسجمةٌ مع الدَّلالة

قرَّرتِ الآيةُ الكريمة أنَّ اللّه تعالى أعظمُ شاهدٍ على صدق النُّبوَّة والقرآن، كما قرَّرت نفيَ الشِّرك عنه ﷺ، وجاءَتِ الفاصلةُ لتُقرِّر هذا المعنى، فهي مثبِّتة للتَّوحيد، ومنزِّهة للّه تعالى عنِ الشِّرك، وكأنَّها تقولُ: لا إله إلّا اللّه وحده لا شريك له[2]، والفاصلةُ تسهمُ في جمال الإيقاعِ، وانسجام محتوى السّياق، مع الدَّلالةِ المقصودة.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(الشَّهادة) و(الإقرار):

الشَّـهـادةُ: بيانُ الحقِّ، والإقرارُ: إثـبـاتُ الـشَّيء بالقلبِ واللِّسان

الشَّهادة مأخوذةٌ من مادَّةِ (شَهِدَ)، وهي بمعنى الحضورِ مع المشاهدةِ إمّا بالبصرِ، وإمّا بالبصيرة، والشَّهادة: بيانُ الحقِّ، سواءٌ كان عليه أم على غيرهِ، وخبرٌ قاطعٌ يختصُّ بِمَعْنًى يتضمَّن ضررَ غير المُخْبِرِ، فيخرجُ الإقرار، وقال الرّاغب: الشَّهادة: قولٌ صادرٌ عن علمٍ حصل بمشاهدة بصيرةٍ أو بصر، ويعبَّر بِالشَّهادَةِ عنِ الحُكم، قال تعالى: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٞ مِّنۡ أَهۡلِهَآ﴾ [يوسف: 26]، وعنِ الإقرار مع العلم وثباتِ اليقين، قال تعالى: ﴿وَلَمۡ يَكُن لَّهُمۡ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمۡ فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمۡ أَرۡبَعُ شَهَٰدَٰتِۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ٦﴾ [النّور: 6]، ويعبَّر بها عنِ الإخبار، قال تعالى: ﴿وَمَا شَهِدۡنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمۡنَا﴾ [يوسف: 81][3]. أمّا الإقرارُ؛ فمأخوذٌ من قرَّ في المكان؛ إذا ثبت فيه، والإقرارُ إثباتُ

(1) رضا، تفسير المنار: 7/169.
(2) عقيلان، المناسبة بين الفواصل القرآنيّة وآياتها، ص: 55.
(3) الرّاغب، المفردات: (شهد).

الشَّيء، وقد يكون ذلك الإثباتُ إمّا بالقلب وإمّا باللسان، وإمّا بهما معًا، والإقرارُ بالتَّوحيد وما يجري مجراه، لا يُغني باللِّسان ما لم يُضامَّهُ الإقرارُ بالقلب، ويضادُّه الإنكار[1]. وعلى هذا الإقرار ليس مرادفًا للشَّهادة؛ لأنَّ الإقرارَ يقع في الإثباتِ، وأيضًا أنَّه قد ينفكُّ عنِ الشَّهادة، يؤكِّد هذا ما ذكره الله تعالى من تكذيبهِ للمنافقين في قولهم: ﴿نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ﴾ [المنافقون: 1]، ولو قالوا: نُقِرُّ إنَّك لرسول الله؛ لم يكذبوا[2].

(وسط) و(بين):

(الوسط) كلُّ ما وقعَ بين طرفين، و(البين) منَ المكان بين متباينين

(وسط) يُضاف إلى الشَّيءِ الواحد، و(بين) يُضاف إلى شيئين فصاعدًا؛ لأنَّه منَ البَينونةِ، تقولُ: قَعدتُ وسَطَ الدّار، ولا يُقال: قعدتُ بين الدّارين، أي: حيثُ تُباين إحداهما صاحبتَها، وقعدتُ بينَ القوم، أي: حيثُ يتباينوا منَ المكان، والوسطُ يقتضي اعتدال الأطرافِ إليه، ولهذا قيلَ: الوسط: العدلُ في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة: 143]. زد على ذلك أنَّ الوسطَ شبِّه به كلُّ ما وقع بين طرفين إفراطٌ وتفريطٌ، كالجودِ بين السَّرف والبخل، والشَّجاعة بين التَّهوُّرِ والجُبن، ثمَّ جُعِلَ عِبارَةً عنِ المختار من كلِّ شيءٍ حتَّى قيل: فلان مِن أوسطهم نسبًا[3].

(الوحي) و(الإلهام):

الإلهامُ عِلْمٌ من غير استدلالٍ ولا حجَّةٍ، والوحيُ فيوضُ اللهِ لإبانةِ المحجَّة

الإلهامُ: هو إيقاعُ الشَّيء في القلبِ من علم يدعو إلى العملِ به، من غير استدلال تامٍّ، ولا نظر في حُجَّة شرعيَّة، وقد يكونُ بطريق الكَشْفِ، وقد يحصلُ منَ الحقِّ من غير واسطة الملك، بالوجه الخاصِّ الَّذي له مع كلِّ موجود. والوحي يحصل بواسطة الملكِ،

(1) الرّاغب، المفردات: (قر).

(2) الرّاغب، تفسير الراغب: 1/249، والعسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 305، والكفويّ، الكلّيّات، ص: 527.

(3) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 1/328 - 329، والعسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 572.

ولذلك لا تسمَّى الأحاديثُ القدسيَّة بالوحي، وإن كانت كلامَ اللّه.

والإلهامُ: منَ الكشف المعنويِّ، والوحي: منَ الشُّهوديِّ المتضمِّن لِلْكَشْفِ المعنويِّ؛ لأنَّه إنَّما يحصلُ بشهود الملك، وسماع كلامه، والوحي من خواصِّ النُّبوَّة، والإلهام أعمُّ، والوحي مشروطٌ بالتَّبليغِ دون الإلهام[1].

(الإنذار) و(الإعلام):

إنَّ الإنذار تخويفٌ مع إعلام موضعِ المخافة، وهو إحسانٌ مِنَ المُنذِر، وكلَّما كانتِ المخافة أشدَّ، كانتِ النِّعمةُ بالإنذارِ أعظمَ؛ ولهذا كان النَّبيُّ ﷺ أعظمَ النّاس منَّةً بإنذارهِ لهم عقاب اللّه تعالى. أمّا الإعلامُ؛ فهو التَّعريض لأن يعلم الشَّيء، وقد يكون ذلك بوضعِ العلم في القلب؛ لأنَّ اللّه تعالى قد علَّمنا ما اضطررنا إليه، ويكون الإعلامُ بنصب الدِّلالة[2]، وعلى هذا فالإعلامُ يختلفُ عنِ الإنذار[3].

الإنذارُ: إعلامٌ معه تخويفٌ، فكلُّ مُنذِرٍ مُعلِمٌ، وليس بالعكسِ

(الإبلاغ) و(الإيصال):

الإبلاغُ: إيصالُ ما فيه بيانٌ للأفهام، ومنه البلاغةُ، وهي إيصالُ المعنى إلى النَّفس في أحسن صورة، وأمّا الفرقُ بين الإبلاغ والإيصالُ؛ فالإبلاغ أشدُّ اقتضاء للمُنتهي إليه منَ الإيصال؛ لأنَّه يقتضي بلوغَ فهمه وعقلِه، كالبلاغةِ الَّتي تَصِل إلى القلب. وقيل: الإبلاغُ اختصار الشَّيء على جهة الانتهاء، ومنه قولهُ تعالى: ﴿ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ﴾ [التّوبة: 6][4].

الإبلاغُ أشدُّ اقتضاءً للمُنتهي إليه منَ الإيصالِ؛ لاقتضائهِ بلوغَ فهمهِ وعقلِهِ

(الكفر) و(الشِّرك):

الكفرُ: اسمٌ يقع على ضروبٍ مِنَ الذُّنوب، منها الشِّرك باللّه، ومنها الجَحدُ للنُّبوَّة، ومِنها استحلالُ ما حرَّم اللّه، ومنها إنكارُ ما

(1) الكفويّ، الكلّيّات، ص: 173.
(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 111.
(3) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 78.
(4) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 12 - 30.

عُلِم مِنَ الدّين بالضَّرورة. أمّا الشِّرك؛ فهو خصلة واحدة؛ هو اتِّخاذ إلهٍ مع اللّه، وقد يُطلق الشِّرك على كلِّ كفر على سبيلِ المبالغة، فعلى هذا يكون كلُّ شركٍ كفرًا، ولا يكون كلُّ كفرٍ شركًا إلّا على سبيل المبالغةِ[1].

الكفرُ: ضروبٌ مِنَ الذُّنوب يُبيِّنها الشَّرع، والشِّرك: اتِّخاذُ إلهٍ معَ الله

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 454 - 455، والموسوعة الفقهيّة الكويتيّة: 5/8.

﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمُۚ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ٢٠﴾ [الأنعام: 20]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

العلاقةُ بين شهادةِ اللهِ بنبوَّتِهِ ﷺ، وتكذيبِ أهلِ الكتابِ له رغمَ معرفتِهم به

لمّا أنكر كفّارُ مكّة نبوَّته ﷺ، وادَّعوا أنَّهم سألوا أهل الكتاب عنه، وقالوا: لا نعرفه؛ شهد اللّه تعالى على نبوَّته ﷺ: ﴿قُلِ ٱللَّهُ شَهِيدُۢ بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡۚ﴾، جاءَت هذه الآيةُ لتبيِّن كذِبَ أهل الكتاب في قولهم - لا نعرف محمَّدًا - وأثبتت أنَّهم يعرفونه نبيًّا ورسولًا، كما يعرفون أبناءهم.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَعۡرِفُونَ﴾: المعرفة: إدراكُ الشَّيء بتفكُّرٍ وتدبُّرٍ لأثرِه، فهي أخصُّ منَ العلم، ويضادُّها الإنكارُ[1]، قال أهلُ التَّحقيق: كمالُ الإنسان أن يعرفَ الحقَّ لذاته، لأجل العمل به، ورأسُ المعرفة اليقينيَّة معرفة اللّه تعالى"[2]. والتَّعريفُ قد يطلق، ولا يلزم منه المعرفة الحقيقيَّةُ، كما يقال: عرَّفتهُ، فلم يعرف، وفي قوله تعالى: ﴿فَلَعَرَفۡتَهُم بِسِيمَٰهُمۡۚ وَلَتَعۡرِفَنَّهُمۡ فِي لَحۡنِ ٱلۡقَوۡلِۚ﴾ [محمّد: 30]، فكان المعنى هنا: عَرَّفناكَهُمْ تعريفًا تعرفهم به، ففيه إشارةٌ إلى قوَّة ذلك التَّعريف الَّذي لا يقع معه اشتباهٌ"[3]. ومعنى: ﴿يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمُۚ﴾، أي: "يعرفون رسول اللّه ﷺ بحِلْيته ونَعْتِه الثّابت في الكتابين ﴿كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمُۚ﴾، بحُلاهُمْ ونُعوتِهم، وهذا استشهادٌ لأهل مكَّة، بمعرفة أهل الكتابِ به، وبصحَّة نبوَّته"[4].

2) ﴿خَسِرُوٓاْ﴾: الخُسرُ: النُّقصان، والخسران كذلك، والفعل:

(1) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن سيده، المحكم: (عرف).
(2) الخازن، لباب التّأويل: 4/87.
(3) الخازن، لباب التّأويل: 4/87.
(4) النّسفيّ، مدارك التّنزيل وحقائق التّأويل: 1/496.

خَسِرَ يَخسَرُ خُسرانًا، والخاسرُ: الَّذي وُضع في تجارته، ومصدرهُ: الخسارةُ والخُسر، ويُستعمل ذلك في المقتنيات الخارجةِ كالمال والجاه في الدُّنيا، وهو الأكثرُ، وفي المقتنيات النَّفسيَّة كالصِّحَّة، والسَّلامة، والعقلِ، والإيمان، والثَّواب، وهو الَّذي جعله اللّهُ تعالى الخسرانَ المبين، وقال: ﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَأَهۡلِيهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ ١٥﴾ [الزّمر: 15][1].

3) ﴿أَنفُسَهُمۡ﴾: النَّفس: الرّوح، يُقال: خَرَجَت نَفسُ فلان، أي: روحه، وتأتي بمعنى العينِ، فيُقال: أصابَت فلانًا نَفسٌ، أي: عينٌ، ونَفسُ الشَّيء: عينُه، وأصلُ الكلمة مِنَ التَّنفيس، وهو: الخروجُ منَ الجَوف. ويُطلَق النَّفس على الدَّم؛ لأنَّه أساسُ الحياة، أو لأنَّ الرُّوح تخرج بخروجهِ، يُقال: سالَت نَفسه، أي: دَمه. ومن معانيها أيضًا: الجسد، والحسد، والذَّات، والحقيقةُ، والعزَّة، والهمَّة[2].

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

بيانُ كفرانِ أهلِ الكتابِ بمحمَّدٍ ﷺ، رغم أنَّهم يعرفونه كأبنائِهم

يُخبِرُ تعالى أنَّ الَّذين أوتوا التَّوراة والإنجيل منَ اليهود والنَّصارى يعرفون محمَّدًا ﷺ، كما يعرف الواحد منهم ابنَه، والَّذين خسروا أنفسهم كلَّ الخسارة هم الَّذين كفروا بمحمَّد ﷺ، وفاتهم الإيمانُ بهِ، وبرسالتهِ[3]، فقد بشَّر الرُّسل كُلُّهُمْ ببعثةِ محمَّدٍ ونعته، وصفته ومكان هجرتهِ، وصفة أمَّتهِ[4].

(1) الخليل، العين، والرّاغب، المفردات: (خسر).

(2) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (نفس).

(3) الزّحيلّي، التّفسير المنير: 3/180. ويؤكّد معرفةَ أهلِ الكتاب للنّبيّ الأكرم ﷺ ما ذكرته بعض الرّوايات؛ فمن ذلك ما رويَ أنَّ النَّبيّ ﷺ لمّا قَدِمَ المدينة، وأسلم عبد الله بن سلام، قال له عمر بن الخطّاب ﷺ: إنَّ الله ﷻ أنزلَ على نبيِّه محمَّد ﷺ بمكّة ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمۡۖ﴾ [البقرة: 146]، فكيف هذه المعرفة؟ فقال عبد الله بن سلام: يا عمر، لقد عرفتُه حين رأيته، كما أعرف ابني، ولأنا أشدُّ معرفةً بمحمَّد ﷺ، منّي بابني، فقال عمر: وكيف ذاك؟ قال: أشهد أنَّه رسول الله حقًّا، ولا أدري ما يصنع النِّساء، فقال عمر: وفَّقك الله يا ابن سلام. ينظر: الواحديّ، الوسيط: 1/231، والهرريّ، حدائق الرَّوح والرّيحان: 8/245.

(4) أسعد حومد، أيسر التّفاسير: 3/180.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالةُ التَّعريفِ بالاسمِ الموصول في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ﴾:

علماءُ اليهودِ هم أعرفُ النَّاسِ بنبوَّة محمَّدٍ ﷺ

دلَّ اسمُ الموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾ في الآية الكريمة على علماءِ اليهودِ الَّذين كانوا في زمنِ النَّبيِّ محمَّدٍ ﷺ، ونلحظ أنَّهم قد عُرِّفوا بالموصوليَّة؛ وهذا لتقويَةِ الغرض الَّذي من أجله سيق الكلام؛ وهو بيانُ معرفتِهم برسول الله ﷺ وصدقِه، واليهود ليسوا في العلم سواءً، فلا يمكن أن يُستدلَّ بعلم عامَّتهم في أمرٍ عظيم كهذا، فأفاد تعريفُهم بالموصوليَّة أنَّهم الَّذين درسوا الكتاب - توراةً أو إنجيلًا - وعرفوا ما فيه من صفاتِ النَّبيِّ ﷺ؛ وهم الأحبارُ، ولمّا كانوا كذلك، فهذا يعني: أنَّهم قد بلغوا منَ العلم أقصاه، واستحقّوا بهذا أن يُستدلَّ بعلمِهم، وأن تذكر شهادتُهم.

وأكَّد ذلك الرّازيُّ بقوله: "وإن كان عامًّا بحسب اللَّفظ لكنَّه مختصٌّ بالعلماء منهم، والدَّليل عليه أنَّه تعالى وصفهم بأنَّهم يعرفونهُ كما يعرفون أبناءَهم، والجمع العظيمُ الَّذي علموا شيئًا استحالَ عليهم الاتِّفاق على كتمانهِ في العادة"[1].

سرُّ التَّعبيرِ بالفعل ﴿ءَاتَيۡنَٰهُمُ﴾ دون (أعطيناهم):

النُّبوَّةُ مَحْضُ فضلٍ منَ الله، لمَن اصطفاهُ

لأنَّ الإيتاءَ لا يكون إلّا في الشَّيءِ العظيمِ، مثل: القرآنِ والتَّوراةِ والإنجيلِ والمُلك والحكم والنُّبوَّة، قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَٰكَ سَبۡعٗا مِّنَ ٱلۡمَثَانِي وَٱلۡقُرۡءَانَ ٱلۡعَظِيمَ ٨٧﴾ [الحجر: 87]، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَتۡلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾ [البقرة: 121]، وقال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحُكۡمَ وَٱلنُّبُوَّةَۚ﴾ [الأنعام: 89]، وقال تعالى: ﴿تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلۡمُلۡكَ﴾ [آل عمران: 26]، كلُّ هذه المعاني تكونُ مع الإيتاءِ الَّذي ليس للعبد فيه دخلٌ، ولا اجتهادٌ، إنَّما هو مَحضُ فضلِ

(1) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 4/110.

للّه تعالى على مَن يختارهُ لرسالته، قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا﴾ [الحجّ: 75]، وقال لموسى عليه السلام: ﴿إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي﴾ [الأعراف: 144]. أمّا الإعطاءُ؛ فهو فِعلٌ له مقابلٌ، أعطاني فأعطيتُه، ويُسمَّى بفعل المطاوعةِ، ويكون في الشَّيء القليلِ، قال تعالى: ﴿وَأَعۡطَىٰ قَلِيلٗا وَأَكۡدَىٰٓ ٣٤﴾ [النّجم: 34]، وقد يرد العطاءُ مفيدًا للكثرة إذا كان مضافًا للرَّبِّ، كما في قوله: ﴿وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحۡظُورٗا ٢٠﴾ [الإسراء: 20]، وقد يَرد العطاءُ كرهًا كما في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ ٢٩﴾ [التّوبة: 29]، لذلك كلِّه آثرَ القرآنُ التَّعبيرَ بفعل الإيتاء؛ لأنَّ السّياق هنا في المعاني العظيمةِ.

سرُّ مجيءِ الفعل مسنَدًا إلى نونِ العظمةِ في قوله: ﴿ءَاتَيۡنَٰهُمُ﴾:

إيتاءُ الكتاب تكريمٌ من الله تعالى لأهله

آثرَ القرآنُ التَّعبيرَ بالفعل ﴿ءَاتَيۡنَٰهُمُ﴾ دون (أوتوا)؛ حيثُ جاء مسندًا إلى نون العظمةِ الَّتي تدلُّ على اللّه تعالى، وفيه إشارةٌ إلى تكريمِ اللّه تعالى لأهل الكتاب؛ لأنَّ هذه النّونَ في إسنادها إلى بعض الأفعالِ، تفيدُ الإكرامَ والاصطفاء، ولم يدرج السّياق ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبٗا مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ يَشۡتَرُونَ ٱلضَّلَٰلَةَ﴾، قال تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبٗا مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ يَشۡتَرُونَ ٱلضَّلَٰلَةَ﴾ [النّساء: 44]، وقال تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبٗا مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡجِبۡتِ وَٱلطَّٰغُوتِ﴾ [النّساء: 51] إلى غير ذلك منَ الآيات الَّتي ذكر فيها الفعل ﴿أُوتُواْ﴾ ليحمل ذمًّا لهم على مخالفتِهم وضلالاتهم، وعلى هذا كان إيثارُ الفعل ﴿ءَاتَيۡنَٰهُمُ﴾ هو الأوفقُ بهذا السّياق.

دلالةُ تخصيصِ أهلِ الكتابِ بالمعرفةِ دون غيرِهم منَ الأممِ:

معرفةُ أهلِ الكتابِ بالنَّبيِّ ﷺ، معلومٌ بالصِّفات وقرائن المعجزات

خصَّ أهل الكتاب؛ لأنَّهم أصحابُ كتابٍ سماويٍّ، فيه البشارات بالنَّبيِّ ﷺ، بخلاف غيرهم منَ الأمم، فليسوا أهل كتاب؛ فلا علمَ لهم بذلك النَّبيِّ ﷺ، "قال المهايمي: لأنَّه ﷺ ذُكر في الكتاب نعتهُ، وهو وإن لم يُفد تعيُّنَه باللَّون والشَّكل والزَّمان والمكان، تعيَّن بقرائنِ

المعجزات. فبقاءُ الاحتمال البعيدِ فيه، كبقائهِ في الولد، بأنَّه يمكن أن يكونَ غير ما ولدتهُ امرأته، أو يكون من الفجورِ، مع دلالةِ القرائن على براءتِها من التَّزويرِ والفجورِ، فهو كما يعرفون أبناءهم في ارتفاعِ الاحتمال البعيدِ بالقرائنِ على براءتِها"[1]. ثمَّ لأنَّهم كانوا يسكنون في الجزيرة العربيَّة، وبالأخصِّ اليهود في المدينة؛ فهم على قربٍ زمانيٍّ ومكانيٍّ بالبيئة للرِّسالة المحمَّديَّة.

دلالةُ دخولِ (أل) على لفظ ﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾ في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ﴾:

لفظُ (الكتاب) يرادُ به التَّوراةُ أو الإنجيل أو هما معًا

استُعمل لفظ ﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾ مُعرَّفًا للدَّلالة على التَّوراة والإنجيلِ، وعند استقراء الاستعمال القرآنيِّ نجد أنَّ القرآن الكريمَ أرادَ بلفظ (الكتاب) في أغلبِ الأحيان (التَّوراة) وليس الإنجيلَ، إذ إنَّ هذا اللَّفظَ ورد في كثيرٍ منَ المواضع في سياقِ الحديث عنِ اليهود، فضلًا عنِ التَّركيب، قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ﴾ [البقرة: 87]، الَّذي يُشير بوضوحٍ إلى أنَّ المرادَ هو التَّوراة فقط، إذِ استُعمل هذا التَّركيب في عشرة مواضعَ مِنَ التَّنزيل، ويلاحظ أنَّ (الكتاب) إذا كان بمعنى: التَّوراة يكون مقترنًا بالفعل (آتى)، أمّا إذا أريدَ بلفظ (الكتاب) التَّوراةُ والإنجيل، فإنَّ هناك قرائنَ تُعين على ذلك، منها السّياقُ، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلۡكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيۡنِ﴾ [الأنعام: 156]، إذ دَلَّت لفظة ﴿طَآئِفَتَيۡنِ﴾ على اليهود والنَّصارى، وفي موضع واحدٍ فقط أريد بلفظ (الكتاب) معنى الإنجيلِ، وذلك في قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنِّي عَبۡدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلۡكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيّٗا ٣٠﴾ [مريم: 30]، إذ ذهب الزَّمخشريُّ إلى أنَّ المرادَ بالكتاب في هذا الموضع (الإنجيل)؛ لأنَّ اللَّفظ ورد في سياقِ الحديث عن قصَّة النَّبيِّ عيسى [2] عليه السلام.

(1) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 4/110.

(2) داود، دلالة لفظ (الكتاب) في الاستعمال القرآنّي، ص: 104.

دلالةُ إيحاءِ لفظ ﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾ في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ﴾:

هذا الاختيارُ فيه إشارةٌ إلى التَّقريع والتَّأنيب لليهود والنَّصارى؛ لأنَّهم خرجوا عنِ القيمة الإيمانيَّة الَّتي ينبغي أن تكون عندهم من أثر هذا الكتابِ، وكان عليهم أن يبادروا إلى الإيمان بالنَّبيِّ ﷺ؛ لأنَّ وصفه مكتوبٌ عندهم في كتابهم، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلۡأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكۡتُوبًا عِندَهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ﴾ [الأعراف: 157]، فهو مدحٌ يشبه الذَّمَّ لهم.

تخلِّي أهلِ الكتاب عن مضمونِهِ، اقتضى أسلوبَ المدحِ الَّذي يشبه الذَّمَّ

سرُّ اختيارِ التَّعبيرِ القرآنيِّ لكلمة ﴿يَعۡرِفُونَهُۥ﴾ دون (يَعلَمونَه):

اختارَ التَّعبيرُ القرآنيُّ ﴿يَعۡرِفُونَهُۥ﴾ دون (يعلمونه)؛ للدَّلالة على أنَّ المقصودَ بالكلام النَّبيُّ ﷺ؛ لأنَّ المعرفة تتعلَّق غالبًا بالذَّوات والأمور الحسّيَّةِ[1]، قال تعالى: ﴿تَعۡرِفُ فِي وُجُوهِهِمۡ نَضۡرَةَ ٱلنَّعِيمِ ٢٤﴾ [المطفّفين: 24]؛ فالمعرفةُ تختلفُ عنِ العلم؛ فتقول: عرفتُ فلانًا، ولا تقولُ: عرفتُ علمَ فلانٍ؛ لأنَّ العلمَ إدراكُ الشَّيء على حقيقته، ونقيضه الجهلُ؛ أمّا المعرفةُ؛ فهي إدراكٌ لآثار الشَّيء، وضدُّها الإنكارُ. وعلى هذا أُسندت المعرفة في جانب المولى سبحانه؛ فتقول: عرفت اللّه؛ لأنَّك أدركتَ آثارَ خلقه، ولا تقول: علمتُ اللّه. وعلى هذا استُخدمتِ المعرفة في الدَّلالةِ على صفاتِ النَّبيِّ ﷺ، وعلاماتِهِ المذكورة في كتبهم، وهي واضحةٌ جليَّة كأنَّها في حكم المحسوسِ، وفيه إشارةٌ إلى أنَّ علاماتِ النُّبوَّة ظاهرةٌ في وجهِهِ ﷺ وفي سيرتِهِ، فلا تحتاجُ إلى إقامة الدَّليل الَّذي هو العلم؛ إنَّما لوضوحها عُبِّر عنها بالمعرفة.

الحجَّةُ قائمةٌ على أهلِ الكتابِ في صحَّة بعثةِ النَّبيِّ ﷺ

تعدُّد أقوالِ المفسِّرين في عودِ الضَّميرِ في قوله تعالى: ﴿يَعۡرِفُونَهُۥ﴾:

يرى أكثرُ المفسِّرين أنَّ الضَّمير في قوله: ﴿يَعۡرِفُونَهُۥ﴾ يعودُ على النَّبيِّ ﷺ، ويُؤيِّد ذلك سبب نزول الآيةِ. ويرى بعضُهم أنَّه يعود على

سرُّ التَّعبيرِ عنه بالضَّميرِ دونَ الاسمِ الظَّاهرِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/40.

القرآن لتقدُّمه في قوله: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ﴾ [الأنعام: 19]، أو على التَّوحيد لدلالةِ قوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ [الأنعام: 19]، والأَوْلى عودةُ الضَّمير على جميع ما ذُكِرَ؛ لأنَّ معرفتَهم بما في كتابهم يتناول كلَّ ذلك[1]. والمعنى: أنَّهم يعرفون رسولَ الله ﷺ معرفةً جليَّة يميِّزون بينه وبين غيرهِ بالوصف المعيَّن المشخَّص؛ وذلك لصفتهِ الَّتي جاءَت في كتابهم[2]، وقد جاء إضمارُ ذكره ﷺ، وإن لم يسبق له ذكرٌ؛ لأنَّ الكلامَ يدلُّ عليه، ولا يلتبسُ على السّامع، كما أنَّ في إضماره عليه الصَّلاة والسَّلام تفخيمًا له، وإشعارًا بشهرته، وكونه معلومًا بغير إعلامٍ[3].

دلالةُ التَّشبيهِ في قولهِ تعالى: ﴿كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ﴾:

القيمةُ البلاغيَّةُ للتَّشبيه في الآية الكريمة

لمّا كان المقامُ هنا مقامَ استدلالٍ ومجابهة منكر، فلا يكفي فيه مجرَّدُ سَوقٍ لما لدى أهل الكتاب من شهادة، بل لا بدَّ من أسلوبٍ يزيد تلك الشَّهادَةَ وذلك المعنى قوَّةً ووضوحًا وبيانًا؛ لتقوم الحجَّة عليهم، فأُتي بكافِ التَّشبيهِ؛ لتزيد المعنى وضوحًا وبيانًا وقوَّة؛ فشبَّهت معرفة علماء اليهود للنَّبيِّ ﷺ، أو للحقِّ الَّذي أتى به ﷺ بمعرفتهم لأبنائهم، وأداة التَّشبيهِ الكاف، ووجه الشَّبهِ "التَّحقُّق والجزم"[4]. وتظهر القيمة البلاغيَّةُ لهذا التَّشبيهِ، في بيان مقدار معرفة أهل الكتاب به ﷺ، وأنَّها معرفةٌ بلَغت درجةً لا ترتقيها ذرَّة شكٍّ، ومَن ينكر ولده حينئذٍ إلّا جحدًا وعنادًا وغيرهما، وهو في قرارة نفسهِ يعلمُ أنَّه ابنه بلا شكٍّ، ففي التَّشبيهِ منَ الإيضاح والتَّأكيدِ ما فيه، فكيف يمكن للشَّكِّ أن يتسرَّب إلى النُّفوس بعد ذلِكَ؟ وممّا يُظهِر

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/276، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/461 - 162، والقنّوجيّ، فتح البيان: 4/118، ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/171، وطنطاويّ، الوسيط: 5/54.

(2) الفرّاء، معاني القرآن: 1/329، والماورديّ، النّكت والعيون: 2/101، والواحديّ، الوسيط: 3/396.

(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/204.

(4) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 4/101، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/171.

القيمةَ - أيضًا- أنَّ هذا التَّشبيه لا يخفى على ذي لبٍّ؛ فهم يعرفون أنَّ محمَّدًا ﷺ نبيٌّ مبعوثٌ من ربِّه، وأنَّ الَّذي معه هو الحقُّ من عند اللّه تعالى.

سرُّ اختيارِ لفظِ الأبناء دون غيرِهم في قوله تعالى: ﴿كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمُۚ﴾:

المعرفةُ وجهُ الشَّبهِ الجامعُ في كلٍّ منهما

سببُ اختيارِ لفظ الأبناء دون غيرِهم في الآية؛ لأنَّه لفظ خاصٌّ بالذُّكور، ولأنَّهم أكثرُ مباشرة ومعاشرة للآباء، وألصق وأعلقُ بقلوب الآباء، فهم الأشهرُ والأعرفُ، وظاهر هذا التَّشبيه أنَّ المعرفةَ أريد بها معرفةُ الوجه والصّورة، وتشبيهها بمعرفة الأبناء يقوّي ذلك، ويقوّي أنَّ الضَّميرَ عائدٌ على الرَّسول ﷺ، حتَّى تكون المعرفتان تتعلَّقان بالمحسوسِ المشاهدِ، وهو آكدُ في التَّشبيه من أن يكون التَّشبيهُ وقع بينَ معرفة متعلَّقها المعنى، ومعرفة متعلَّقها المحسوس[1]. ثمّ إنَّ لفظ الأبناء أعمُّ؛ فالأولادُ لا يكونون إلّا لمَن كانوا من صلبِه، أمّا الأبناءُ؛ فهو أعمُّ؛ فيشمل ما كان منَ الصُّلب، ومن غيرِه كالرَّضاع، ويحتمل أن يُرادَ بالأبناء الأولاد، فيكون ذلك من بابِ التَّغليبِ؛ لذا اختيروا للتَّشبيه بمعرفة آبائِهم بهم، وهذا قوَّى التَّشبيهَ والخبر.

دلالةُ عدمِ عطفِ جملة: ﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ﴾ على ما قبلَها:

إيضاحُ مدى تصلُّبِ المشركين، وإصرارِهم على الشِّرك

لم تُعطف جملةُ: ﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ﴾ على ما قبلها؛ لأنَّها كلام مُستأنَفٌ، ولاتَعَلُّقَ له بالأوَّل، وأُريدَ به كفّارُ مكَّة الَّذين لم يؤمنواْ بمحمَّدٍ ﷺ، والغرضُ منه زيادةُ إيضاحٍ لمدى تصلُّب المشركين وإصرارِهم على الشِّرك. وأيضًا على رأيِ مَن يقول: إنَّها صفة (الَّذين) الأولى؛ فلشدَّة اللُّصوق بين الصِّفة والموصوف لم تُعطف، ويكون المقصودُ من ذلك وعيدَ أهل الكتاب الَّذين يعرفون محمَّدًا ﷺ، ويجحدون نبوَّتَه.

(1) أبو حيّان: البحر المحيط: 2/33.

دلالةُ اختيارِ لفظِ (الخُسْران) في قوله تعالى: ﴿خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ﴾:

الإعراضُ عن دينِ الله أعظمُ خُسرانٍ في حياةِ الإنسان

اختار القرآنُ هذا اللَّفظ؛ لأنَّ معناه أنَّهم أضاعوا أنفسَهم، كما يضيع التّاجر رأسَ ماله، فهو مستعارٌ لإضاعة ما شأنه أن يكونَ سببَ نفعٍ، أي: إنَّهم عدموا فائدة الانتفاع بما ينتفع به النّاسُ من أنفسهم، وهو العقلُ والتَّفكير، فإنَّه حركةُ النَّفس في المعقولات لمعرفةِ حقائق الأمور[1]، فعبَّر القرآن الكريم بهذا التَّعبيرِ البليغ؛ ليكون أكثرَ إقناعًا للمُتلقّي الَّذي يدرك هذا المعنى المرتبطَ بواقعه، والقريبَ من فهمهِ وإدراكه، فكأنَّه ﷻ جعلَ نفوسهم لهم بمنزلة العروضِ المملوكة، إذ كانوا يوصفونَ بأنَّهم يملكونَ نفوسَهم، كما يوصفون بأنَّهم يملكون أموالهم، وذكر خسرانَهم لها؛ لأنَّهم عرَّضوها للخسارة، وأوجبوا لها عذابَ النّار، فصارت في حكمِ العروض المتلَفات، وتجاوزوا حدَّ الخسران في الآثام إلى حدِّ الخسران في الأعيان.

معنى التَّعبيرِ بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ﴾ في الآية الكريمةِ:

أزمةُ أهلِ الكتابِ خسارةُ الأنفسِ، وهي خسارةٌ في رأسِ المالِ

عبَّرَ بخسارةِ النَّفس؛ لأنَّ المرادَ إفْسادُ فطرتِها، وعدمُ اهتدائِها بما منحها الله تعالى منَ الهدايات الَّتي توصلُهم إلى الإيمان بالنَّبيِّ ﷺ، حيث ذُكرت صفاتُه في التَّوراةِ والإنجيلِ؛ فلا اهتَدَوا إليها بما عندهم منَ النَّقل المقدَّس، ولا بالعقل الَّذي يؤكِّد صدقَ نبوَّتهِ ﷺ، فاجتمعَ له دليلان على نبوَّته: دليلٌ نقليٌّ، ودليلٌ عقليٌّ، ومع ذلك آثروا مكاسبَ الدُّنيا ومتاعَها، كما صوَّر القرآنُ ذلك عنهم بقوله: ﴿ٱشۡتَرَوۡاْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنٗا قَلِيلٗا﴾ [التّوبة: 9]، مقابل إنكارِ النُّبوَّة؛ فناسَبَ هنا التَّعبيرُ بالخسارة؛ لأنَّ القضيَّة مع أهل الكتاب بيعٌ وشراءٌ، وذلك مجاله الخسارة في رأس المال، والَّذين أنكروا نبوَّته ﷺ، خسِروا أنفسَهم، وهو رأسُ مالِهم. وأيضًا لأنَّهم خسروا الجنَّة في مقابلِ ربحٍ قليل في الدُّنيا، وهذا في الميزان التِّجاريِّ الحقيقيِّ عينُ الخسارة.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/154.

دلالةُ التَّعبيرِ بالجملة الاسميَّةِ في قوله تعالى: ﴿فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾:

عبَّر بالجملة الاسميَّة؛ لأنَّها وقعت خبرًا لما قبلها، ولأنَّها تفيد ثبوتَ الخسرانِ ودوامَه الحاصل لهم بسبب الكفرِ وعدمِ الإيمان، "وقد علموا أنَّه الصّادِقُ الأَمينُ، وإنْ لجَّ قادتُهم في الخصومةِ حتَّى فَجَروا فيها، وشهدتِ الكتبُ السّابقة والَّذين يعتنقون ما فيها، فلماذا يكذِّبون ويشركون؟ فماذا بعدَ الحقِّ إلّا الضَّلال؟ وأيُّ خسارةٍ نفسيَّةٍ أكثر من الفُجر في الخصومة، واللَّجاجةِ في البهتان ؟ حتَّى أصبحوا لا يُتَصوَّر الإيمان منهم"[1].

من لم يُؤمن مع البراهينِ، لا يستحقُّ أن يُعدَّ مع المؤمنينَ

سرُّ اقترانِ الضَّمير (هم) بالفاءِ في قوله: ﴿فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾:

اقترنَ بالفاءِ لِتضمُّن المبتدأ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ معنى الشَّرط، وقيل: "و(الفاء) رابطة لما في الموصول من رائحةِ الشَّرط، و(هم) مبتدأ ثانٍ وجملة ﴿لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ خبر (هم)[2]، وفائدةُ ضمير الفصل: التَّأكيد على عدم إيمانهم، فَهُمْ لا يُؤْمِنونَ به؛ لأنَّهم جمعوا بين أمرين متناقضَين، فكذبوا على اللّه بما لا حجَّة عليه، وكذَّبوا بما ثبتَ بالحجَّة والبرهان الصَّحيح[3].

فائدةُ ضميرِ الفصلِ في الآيةِ الكريمة

سرُّ العدولِ عنِ الوصف بالكفرِ إلى نفي الإيمانِ في قوله: ﴿فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾:

عدلَ القرآنُ الكريمُ عن وصفهم بالكفرِ أو الشِّرك، إلى نفي الإيمان؛ لإظهارِ جمالِ القرآن في عرض الدَّعوةِ، حيثُ يختارُ الألفاظَ الَّتي تفتحُ البابَ للدُّخول في الإسلام والإقبال عليه؛ فمع ما حدثَ من أهل الكتاب في إنكار نبوَّتهِ ﷺ، وحَضِّهِمْ كُفّارَ قريشٍ على عدمِ الإيمان به، لم يَصِفْهُمُ القرآنُ بالكفرِ أو الشِّركِ، بل وصفَهم بعدمِ الإيمان، وهذا يعني: أنَّ أمرَ الإيمان منهم واردٌ، وفيه حثُّهم على الإيمان بالنَّبيِّ الأكرم ﷺ.

أدبُ القرآنِ في اختيارِ العباراتِ نموذجٌ راقٍ في الخطابِ

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/154.

(2) محيي الدّين درويش، إعراب القرآن وبيانه: 3/83.

(3) إبراهيم الأبياريّ، الموسوعة القرآنيّة: 9/422.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

السِّفر، والكتاب، والصُّحف:

الفروقُ المأنوسةُ للكتابِ وما في حقلِهِ، تحكمُها ضوابطُ الاستعمال لكلٍّ منها

قال الرّاغبُ: السِّفْرُ: الكتابُ الكبيرُ الَّذي يُسْفِرُ عنِ الحقائق؛ أي: يكشفُ عنها، وفي القاموس: السِّفْر: الكتابُ الكبير، أو جزءٌ من أجزاء التَّوراة[1]، والكتاب: هو السِّفرُ، وجمعُه أسفارٌ، قال الزَّجاجُ: وإنَّما قيل للكتاب: سِفْرٌ، بكسر السّين، وللكاتب: سافرٌ؛ لأنَّ معناه أنَّه يبيِّنُ الشَّيءَ، ويوضِّحُه[2] قوله تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ ثُمَّ لَمۡ يَحۡمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلۡحِمَارِ يَحۡمِلُ أَسۡفَارَۢاۚ﴾ [الجمعة: 5]، فالمرادُ تشبيهُ حال اليهودِ في جهلها بما معها مِنَ التَّوراة، بحال الحمارِ في جهله بما يحملُ من أسفارِ الحكمةِ[3]. وَقَوْلُهُ: ﴿فِي صُحُفٖ مُّكَرَّمَةٖ ١٣﴾ [عبس: 13].

يعني: اللَّوحَ المحفوظ، وقيل: كتب الأنبياء (عليهم السلام)، دليلهُ قولُه سبحانه: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِي ٱلصُّحُفِ ٱلۡأُولَىٰ ١٨ صُحُفِ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ١٩﴾ [الأعلى: 18 - 19][4]، ومن الصُّحفِ: المصحفُ. وقد فرَّق العسكريُّ بين الكتاب والمصحف؛ بأنَّ الكتابَ يكون ورقةً واحدة، ويكون جملةَ أوراق، والمصحفُ لا يكون إلّا جماعةَ أوراق صُحِفَتْ، أي: جُمِعَ بعضُها إلى بعضٍ، وأكثرُ ما يُقال: المصحفُ لمصحف القرآن، والكتابُ أيضًا يكون مصدرًا بمعنى: الكتابة، تقول: كتبتُه كتابًا، وعلَّمتُه الكتاب[5].

(المعرفة) و(العلم):

المعرفةُ تتعلَّقُ بذاتِ الشَّيءِ، والعلمُ يتعلَّقُ بأحوالِهِ

فعلُ المعرفةِ يقعُ على مفعولٍ واحدٍ، تقول: عرفتُ زيدًا، كقولهِ تعالى: ﴿يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمۡۖ﴾، وفعلُ العلم يقتضي مفعولين، كقوله تعالى: ﴿فَإِنۡ عَلِمۡتُمُوهُنَّ مُؤۡمِنَٰتٖ﴾ [الممتحنة: 10]، وإن

(1) الرّاغب، المفردات، والفيروزابادي، القاموس المحيط: (سفر).
(2) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: (سفر).
(3) النّسفيّ، مدارك التّنزيل: 1/57.
(4) الثّعلبيّ، الكشف والبيان: 10/131.
(5) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 447.

وقعَ على مفعولٍ واحدٍ كان بمعنى المعرفةِ، كقولهِ: ﴿وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمۡ لَا تَعۡلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعۡلَمُهُمۡۚ﴾ [الأنفال: 60]، والمعرفةُ تتعلَّق بذات الشَّيء، والعلم يتعلَّق بأحواله، فتقولُ: عرفتُ أباك، وعلمْتُهُ صالحًا عالمًا؛ ولذلك جاء الأمر في القرآن بالعلم دون المعرفة، كقوله تعالى: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [محمّد: 19]. فالمعرفة: حضورُ صورةِ الشَّيء، ومثاله العلميُّ في النَّفس، والعلم: حضورُ أحوالهِ وصفاتهِ ونسبتُها إليه، فالمعرفةُ: تشبه التَّصوُّر، والعلم: يشبهُ التَّصديقَ[1].

(النَّفس) و(الرُّوح):

الفرقُ بين النَّفسِ والرُّوحِ، فرقٌ بالصِّفات لا بالذَّات

النَّفسُ تُطلَق على أمورٍ، وكذلك الرّوح، فيتَّحد مدلولهُما تارةً، ويختلف تارةً، فالنَّفس تُطلق على الرّوح، ولكن غالبًا ما تُسمَّى نفسًا؛ إذا كانت مُتَّصلة بالبدن، وأمّا إذا أُخذِت مجرَّدة؛ فتسميةُ الرّوح أغلب عليها، والنَّفس: العينُ، يُقال: أصابت فلانًا نفسٌ، أي: عين، والنَّفس: الذّات، كقوله تعالى: ﴿فَسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ﴾ [النّور: 61]، وقوله: ﴿وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡۚ﴾ [النّساء: 29]، ونحو ذلك، والفرقُ بين النَّفس والرّوح فرقٌ بالصِّفات لا بالذّات، والرّوح لا تُطلَق على البدن لا بانفراده، ولا مع النَّفس، وتُطلَق الرّوح على القرآنِ وعلى جبرائيل، كما في قوله تعالى: ﴿أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ﴾ [الشّورى: 52]، وقوله تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ١٩٣﴾ [الشّعراء: 193]، وتُطلَق الرّوح على الهواء المتردِّد في بدنِ الإنسان أيضًا[2].

(الإسلام) و(الإيمان):

الإسلامُ هو الانقيادُ لطاعة الله تعالى، وقبولُ ما جاء به النَّبيُّ ﷺ، وبه يُحقَنُ الدَّمُ، فإن كان مع الإظهار اعتقادٌ وتصديقٌ

الإسلامُ: هو الانقيادُ لمرادِ الله تعالى، والإيمانُ تصديقٌ بهِ وبما جاءَ منه

(1) ابن القيّم، مدارج السّالكين: 3/314، والسّمين، الدّرّ المصون: 5/630، وابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 9/556.

(2) ابن جبرين، شرح العقيدة الطّحاويّة: 59/7، والتّميميّ، توضيح الأحكام من بلوغ المرام: 3/155.

بالقلب، فذلك الإيمان، وأمّا مَن أظهرَ قبولَ الشَّريعة، واستسلم لدفعِ المكروه، فهو مُسلمٌ في الظّاهر، والإيمانُ لابدَّ أن يكون صاحبُه صدّيقًا؛ لأنَّ قولك: آمنتُ بكذا، معناه: صدَّقتُ به"[1].

والإسلامُ هو تسليم النَّفسِ لله خالصةً سالمة، لا يجعل لغيره فيها حقًّا، والإيمان هو أن يصدقَ الله بالرُّبوبيَّة في نفسه، وفي كلِّ شيءٍ. وهما في الحقيقة واحد، وفي العبارة مختلفان؛ لأنَّه إذا جعل نفسَه وكلَّ شيء سالِمًا لله تعالى؛ أقرَّ بالرُّبوبيَّة له في نفسه وفي كلِّ شيءٍ، وإذا صدَّقه، وأقرَّ له بالرُّبوبيَّة في نفسِه، وفي كلِّ شيءٍ جعلها للهِ، وجعل كلَّ شيء له[2].

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 574.

(2) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنة: 6/139.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الأنعام: 21]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

المناسبةُ بين خُسرانِ المنكرينَ، وكونِ الافتراءِ والتَّكذيبِ بالآياتِ سببين له

لمّا حكمَ اللّهُ تعالى على أولئك المنكرين بالخسرانِ في الآية الأولى؛ بيَّن في هذه الآية سببَ ذلك الخسرانِ، وهو أمران: أحدُهما: أن يفتريَ على الله كذبًا، والآخرُ من أسباب خسرانهم: تكذيبُهم بآياتِ اللّه[1] الكونيَّةِ والشَّرعيَّةِ، وقَدْحُهُم في نبوَّته ﷺ.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱفْتَرَىٰ﴾: الافْتِراءُ: الكذب، والجمع: فِرًى، يُقالُ: افترى يفتري افتراءً، أي: كَذَب، وقيل: الافتراءُ: الكذبُ العظيم، وقيل: الكذبُ المتعلِّق بالأعراض. ويأتي الافتراءُ بمعنى: البُهتان والظُّلم، وأصله منَ الفَرْي، وهو: القطعُ والشَّقُّ، يُقالُ: أفرَى الذِّئبُ بطنَ الشَّاة، يُفري فَريًا، أي: شقَّه، ومنه الفراءُ وهو الجلد؛ لأنَّه يُقطع، ويأتي الفَرْي بمعنى: الصُّنْع والاختلاق، وسُمّيَ الكذب: فريةً وافتراءً؛ لأنَّ المفتري يقتطع الكلامَ اقتطاعًا من تلقاءِ نفسه، ويقطعُ، ويفسدُ في عِرْضِ غيره[2].

2) ﴿كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ﴾: الكذبُ: الإخبارُ بخلاف الواقع، وضدُّ الكذب: الصِّدق، ويُطلقُ الكذبُ صفةً للخبر الَّذي بخلاف الواقع، وضدُّه الحقيقة. ومن معاني الكذب أيضًا: الجُحودُ، والافتراء، والزَّيف، والخِداع، والخطأ[3]، وقد شنَّع اللّه بالكذب، وجعل الكاذبَ

(1) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 12/501، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/172.
(2) ابن سيده، المحكم، وابن الأثير، النّهاية، وابن منظور، لسان العرب: (فرا).
(3) الخليل، العين، والجوهريّ، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (كذب).

أسوأَ النّاس عاقبةً، وجعل مصيرَه إلى الخسران، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ۝٦٩﴾ [يونس: 69]. ولفظا (كَذَبَ) و(كَذَّبَ) من هذا الباب، قال أبو حيّان: "قيل: هما بمعنًى واحدٍ نحو كثر وأكثر، وقيل: بينهما فرقٌ، حكى الكسائيُّ أنَّ العرب تقول: (كذَّبتُ الرَّجل)، إذا نسبتَ إليه الكذب، وأكذبتُه إذا نسبتَ الكذبَ إلى ما جاء به، دون أن تنسبه إليه، وتقول العرب أيضًا: "أكذبتُ الرَّجلَ؛ إذا وجدتَه كذّابًا، كما تقول: أحمدتُ الرَّجل؛ إذا وجدتَه محمودًا، فعلى القول بالفرقِ يكون معنى التَّخفيف: لا يجدونك كاذبًا، أو لا ينسبون الكذبَ إليك، وعلى معنى التَّشديد يكون إمّا خبرًا محضًا عن عدم تكذيبهم إيّاه... وإمّا أن يكون نفي التَّكذيب لانتفاءِ ما يترتَّب عليه من المضارِّ"[1].

3) ﴿لَا يُفْلِحُ﴾: الفَلْحُ: الشَّقُّ، وقيل: الحديدُ بالحديد يُفلَحُ، أي: يُشَقُّ، والفلّاح: الأكّار لذلك. والفَلاحُ: الظَّفَر وإدراك بُغْيَةٍ، وذلك ضَرْبان: دنيويٌّ وأخرويٌّ، فالدُّنيويُّ: الظَّفر بالسَّعادات الَّتي تطيب بها حياة الدُّنيا، وهو البقاءُ والغِنى والعزُّ، وفلاحُ أخرويٌّ: وذلك أربعةُ أشياء: بقاءٌ بلا فناءٍ، وغِنًى بلا فقرٍ، وعزٌّ بلا ذلٍّ، وعِلمٌ بلا جهلٍ[2].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

لا أحدَ أظلمُ من شخصٍ افترى على الله كذبًا، واختَلَق بُهتانًا، حيث قال: إنَّ لله شريكًا، وله ولدٌ، أو كذَّب بِحُجَجِه وبراهينِه الَّتي أنزلها على رسولِه، وبآياته الكونيَّةِ والشَّرعيَّة الَّتي تدلُّ على وحدانيَّته ﷻ؛ فهو الحقيقُ بالعبادة، ولا يُشْرَكُ معه آلهةٌ أخرى، ومَن أشركَ؛ فهو ظالمٌ، ولا فلاح له في الدُّنيا ولا في الآخرة[3].

لا أظلمَ ممَّن يفتري على اللهِ الكذبَ، أو يكذِّب بالدِّين الحقِّ

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/488، والنّيسابوريّ، إيجاز البيان: 1/292.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (فلح).
(3) حجازيّ، التّفسير الواضح: 7/67.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالةُ عطفِ قوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ﴾ على ما قبلَها:

أعظمُ الظُّلم افتراءُ الكذبِ على الله

هذه الجملةُ معطوفةٌ على قوله: ﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾؛ وذلك لشدَّةِ الاتِّصال بينهما، حيثُ ذُكِرَ في الآية السّابقة الحُكْمُ بالخسرانِ على المنكِرينَ، وفي هذه الآيةِ بيانُ أسبابِ ذلك الحكم.

فائدةُ العدولِ منَ النَّفي إلى الاستفهامِ في قوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ﴾:

السِّياق القرآنيُّ يريدُ إرادةً مقتنعةً، لا موافقةً منتزَعةً

تظهرُ فائدةُ العدولِ عنِ النَّفي إلى الاستفهام في إيقاعِ المخاطَب، واستدراجِهِ نحو الاقتناع والإقرارِ بما جاء في مضمونِ الاستفهام، وأيضًا يحملُ الخصمَ على الإقرارِ بهذا النَّفي، أي: أنَّه يدفعهُ إلى الإقرارِ بما يتضمَّنهُ تركيبُ الاستفهام، بخلاف مجرَّدِ النَّفي؛ فهو يزيد منَ الخصومةِ الواقعةِ أساسًا، ذلك أنَّ في النَّفي دحضًا للرَّأي المُخالف والرَّدِّ عليه، والقرآن الكريم عمومًا، لم يأتِ لدعم الخصومات، وتضخيم الخلافاتِ، بل جاء لاحتواءِ المخالفين، وتغيير مواقفهم، وكسبِ تأييدهم، والسَّعي إلى إقناعهم.

ومعنى الاستفهام هنا: النَّفيُ، أي: لا أحدَ أشدُّ وأعظمُ ظلمًا منَ الَّذي كذَّب بآياتِ اللهِ الَّتي بلَغَتْ أعلى غاياتِ العظمة[1]؛ بهذه الصّيغة البليغة، فقد نفى ﷻ أن يكون أحدٌ أشدَّ ظلمًا لنفسه، من هذا الَّذي يتقوَّل على الله الكذبَ؛ ليصدَّ النّاسَ عن دين الله بجهلهِ وسَفَهِه[2]، ولا شكَّ أنَّ النَّفي بهذه الصّيغة أبلغُ منَ التَّصريح به، خاصَّة أنَّ الآية - كما يظهر منَ السّياق - جاءَت لمخاطبة المكذِّبين على الله، وهي أعلى درجاتِ الظُّلم، وفي هذا الإقرارِ إلزامٌ لهم بقبول الحجَّة من مجرَّد النَّفي، وردِّ الرَّأي المُخالف[3].

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/258.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 11/296.
(3) المحاقريّ، بلاغة الحجاج في سورة الأنعام، ص: 152.

سرُّ التَّعبيرِ بـ(أفعل) التَّفضيلِ في قوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ﴾:

أشدُّ الظَّالمين ظلمًا من اكتسب من افترائهِ مذمَّةً وإثمًا

عبَّر بـ (أفعل) التَّفضيل ﴿أَظْلَمُ﴾، للدَّلالة على مدى جسامةِ ظلمِ هؤلاءِ المفترين، ووصولهم إلى أعلى درجاتِ الظُّلم، وذلك بالافتراءِ على اللهِ تعالى في نسبةِ الولد والصّاحبة له سبحانه، والتَّكذيب بالآيات، وإنكار نبوَّة رسول الله ﷺ، ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾، أي: أكفر، قال الحسن: "فلا أحدَ أظلمُ مِمَّنِ افْتَرى، اختلق عَلَى اللهِ كَذِبًا، فأشرك به غيره، أَوْ كَذَّبَ بِآياتِهِ يعني: القرآن"[1]، والمعنى: من أشدُّ ظلمًا ممَّن اختلقَ على الله قول الباطل، أو جَحَد آياته[2]. والتَّعبيرُ في سياق الاستفهامِ باسم التَّفضيل دلالةٌ على التَّبشيع والتَّهويل، ممّا يضفي على الاستفهام هالةً من الرَّهبة بتصوُّر ما تَسِمُهُ به آياتُ الكتاب المبين بوصفه بأقبح الظُّلم إلى يوم الدّين.

دلالةُ اختيارِ (مَنْ) بدلًا من (الَّذِي) في قوله: ﴿مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾:

من قال في الدِّين بالافتراءِ والهوى؛ فقد ضلَّ السَّبيلَ وهوى

اختارَ التَّعبير بـ (مَنْ) الموصوليَّة للدَّلالة على العموم، والمعنى: كلُّ مَن افترى أو قال على الله كذبًا، وليس المرادُ فردًا مُعَيَّنًا؛ فالمشركون، مثلًا: منَ الَّذين افتروا على الله كذبًا؛ لأنَّهم حلَّلوا، وحرَّموا بهواهم، وزعموا أنَّ الله تعالى أمرهم بذلك، كما أنَّ هناك غيرَهم ممَّن يدخل تحت هذه الآية[3].

دلالةُ اختيارِ الوصفِ بالظُّلمِ دون غيرهِ في قوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ﴾:

لفظُ الظُّلم أنسبُ وأشملُ؛ لأنَّ الكفرَ والشِّركَ من أفرادِ الظُّلم

آثرَ القرآنُ الكريم التَّعبيرَ بالظُّلم؛ لأنَّ الظُّلم في الأصل وضعُ الشَّيءِ في غير موضعه، ومشركو مكَّة وضعوا الآياتِ الكونيَّةَ والشَّرعيَّة الَّتي كان ينبغي عليهم أن يستدلّوا بها على الوحدانيَّة لله ربِّ العالمين، بدلًا من نسبةِ الشِّرك إليه سبحانه، في غَيرِ مَوضِعِها.

(1) الثَّعلبيّ، الكشف والبيان: 4/141.
(2) مكيّ بن أبي طالب، الهداية: 3/1982.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/375.

وأيضًا لأنَّ الظُّلم يُطلق على مجاوزة الحقِّ، وهم قد جاوزوا الحقَّ في اتِّخاذ الشُّركاء من دون اللهِ، وجاوز أهلُ الكتاب الحقَّ في إنكار نبوَّته ﷺ، وفيه إشارةٌ إلى العموم؛ فيشمل الظُّلم بينَ الإنسانِ واللهِ تعالى، وأعظمه الكفر والشِّركُ والنِّفاق، وغَيْرُهُ مِن أفْرادِ الظُّلْم. والَّذين افتروا على الله كذبًا، وكذَّبوا بآياتهِ، جمعوا بين هذه الصِّفات، وبذلك يكون اختيارُ لفظ الظُّلم هو الأنسبُ؛ لأنَّ لفظَ الكفرِ أو الشِّرك، لا يؤدّي هذا المعنى؛ لأنَّهما من أفراد الظُّلم.

دلالةُ (مَنْ) الموصوليَّة وصِلَتِها في قوله: ﴿مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾:

نكتةُ هذا التَّعريف - والله أعلم - التَّنصيصُ على اتِّصافهم بما في حيِّز الصِّلة من وصف، والإشعارُ بعلَّة الحكم أو وجه بناءِ الخبرِ؛ لأنَّ مَن ثبت له مضمونُ تلك الصِّلة، كان حقيقًا بأن لا أحدَ أظلمُ منه[1]، وقد جاءت أداة الموصول (مَن) وجملةُ الصِّلة ﴿ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾، في سياق الاستفهام الَّذي وردَ للتَّوقيف والتَّقرير، وكان المعنى: "لا أحدَ أظلمُ ممَّن افترى، وافْتَرى معناهُ: اختلق، والمكذِّب بالآيات مفتري كَذبٍ، ولكنَّهما مَنْحَيان من الكفرِ، فلذلك نُصّا مُفسَّرَين"[2].

التَّحذيرُ مِن ظلمِ الافتراءِ وفحواه مخافَةَ سوءِ عقباه

سرُّ التَّعبيرِ بلفظ (افتراء) دون غيرِهِ من المرادفات القريبةِ الدَّلالةِ:

آثَرَ القرآنُ الكريمُ التَّعبيرَ بالافتراءِ؛ لأنَّه كذبٌ مزيَّن مبالَغٌ فيه؛ فظهر في ثوب جميلٍ؛ لأنَّ أصله منَ الافتراء، ومنه لَبِسَ الفِراءَ بقصد التَّجمُّل، وعلى ذلك؛ فالافتراءُ في الكذب يدور حول الإجادةِ في التَّلفيقِ، وإلْباسِ الباطلِ ثوبَ الحقِّ، وهذا ما برع فيه اليهودُ في افتراءاتهم على الله تعالى، حتَّى قال القرآن في حقِّهم: ﴿ٱنظُرۡ كَيۡفَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۖ وَكَفَىٰ بِهِۦٓ إِثۡمٗا مُّبِينًا ۝٥٠﴾ [النّساء: 50]، فَسُمّيَ كذبُهم: افتراءً؛ لأنَّه ليس كذِبًا معتادًا، بل تقوَّلوا على الله، وبدَّلوا،

الافتراءُ الإجادةُ في التَّلفيقِ، وإلباسُ الباطلِ ثوبَ الحقِّ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/202، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/182.
(2) ابن عطية الأندلسّي، المحرّر الوجيز: 2/277.

وحرَّفوا كتابهم، ومن ذلك تحريفُ البشاراتِ الواردة في شأن نبوَّة نبيِّنا ﷺ.

دلالةُ تقديمِ الجارِّ والمجرورِ في قوله: ﴿يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۖ﴾:

قُدِّم الجارُّ والمجرور من باب التَّشنيعِ على افترائِهم، وأنَّه ما كان ينبغي لهم أن يفتروا على الله؛ لأنَّه لا يغيب عن علمهِ شيءٌ؛ فلو جازَ لهم أن يفتروا على النّاس، ويجمِّلوا كذبَهم، ما كان لهم أن يفعلوا ذلك مع اللهِ، وذلك لِعِظَمِ ما يفعلون، وقدرةِ المُتَطاوَلِ عليه بالإفك، أن يَقْصِمَ ظهورهم، ويُصيبَهم بعذابٍ، من حيثُ لا يحتسبون.

مَنْ تطاوَلَ على اللهِ بما افتراهُ سَحَقَتْهُ قدرةُ الله

تقديمُ الافتراءِ على الكذبِ:

في قوله: ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾: قُدِّم الافتراءُ؛ لأنَّه الكذبُ المتعمَّدُ، وقولهُ: ﴿كَذِبًا﴾ مصدرٌ مؤكِّدٌ له، وهو أعمُّ منَ الافتراء، والتَّأكيد يحصل بالأعمِّ، وقد ذكرتِ الآيةُ الكريمة نوعين للكفر: افتراءَ الكذب على الله تعالى، ثمَّ التَّكذيبَ بآيات الله تعالى، وقُدِّم النَّوعُ الأوَّل على الثّاني لشناعةِ الأوَّل؛ ولأنَّه أَقْبَحُ منَ التَّكذيب بآياتِ الله، وفيه تعمُّدٌ لارتكاب هذا الإثم، واختلاقِ أمورٍ يَنْسِبُها المفتري إلى الله، وهو يعلم يقينًا أنَّه كاذبٌ فيها. وكثيرًا ما يجتمع هذان النَّوعان في كافرٍ واحد، مثل: افتراء أهل الكتاب الكذبَ على الله كادِّعائهم الصّاحبةَ والولدَ لله سبحانه، ثمَّ تكذيبهم بالقرآن رسالة خاتم النَّبيّين ﷺ.

جناسُ الاشتقاقِ؛ وإفادتهُ قباحةَ الكذبِ ودناءتَهُ

أضف إلى ذلك أنَّ السّياق تضمَّن جِناسَ اشتقاقٍ بين ﴿كَذِبًا أَوۡ كَذَّبَ﴾؛ ليفيدَ قباحةَ الكذبِ ودُنوَّهُ.

دلالةُ ﴿أَوۡ﴾ في قولهِ تعالى: ﴿أَوۡ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓۚ﴾:

آثَرَ القرآنُ الكريمُ التَّعبيرَ بـ ﴿أَوۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَوۡ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓۚ﴾؛ لإفادةِ الجمع بين الكذب والافتراءِ، ولذلك وصَفَهم ربُّنا بالظّالمين؛ لأنَّهم جمعوا بين أمرين متناقضين: فَكَذَبوا على الله

كلُّ لونٍ من الكذبِ والتَّكذيبِ، هو غايةُ الإفراطِ في الظُّلم

تعالى بما لاحُجَّةَ فيه، وكذَّبوا بما ثبتَ بالحُجَّة البيِّنة والبرهان الصَّحيح[1]. وممّا تدلُّ عليه ﴿أَوۡ﴾: أنَّهم جمعوا بين الافتراءِ والكذبِ، وفيه تنبيهٌ على أنَّ كلًّا منهما وحده بالغٌ غايةَ الإفراطِ في الظُّلم على النَّفْس[2].

دلالةُ التَّضعيفِ في قولهِ تعالى: ﴿أَوۡ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓۚ﴾:

آثرَ القرآنُ الكريمُ الفعلَ (كذَّب)، مُضَعَّفًا دونَ: كَذَبَ، مع اشتراكِهما في أصل التَّكذيبِ؛ لأنَّ كذَّب كلمةٌ تقتضي أنَّه بذل جهدًا في تكذيب آياتِ اللّه، وذلك بمحاولةِ طمسِ معانيها، وإبطالِ دلالتِها، وإلقاءِ الشُّبهِ عليها، وفيه إشارةٌ إلى إعلانِ عداوتِه للّه ولرسولِه، حيث انتقلَ منَ الكذبِ إلى التَّكذيبِ. وهو بالتَّضعيف: "تكذيبٌ لآيات اللّه، بتأويلِها تأويلًا فاسدًا، وحَمْلِها على مفاهيمَ منكرةٍ، تَحْجُب وجْهَ الحقِّ فيما في كتابهم من دلائلَ، تدلُّ على النَّبيِّ، وتحدِّد صفَتَهُ، وصفةَ رسالتِه"[3].

من جمعَ بينَ الكذبِ والتَّكْذيبِ، فقد أعلنَ عداوتَه للهِ ولرسولِهِ

دلالةُ دخولِ حرف الجرِّ على قوله تعالى: ﴿بِـَٔايَٰتِهِۦٓۚ﴾:

أفاد دخولُ (الباء) تلبُّسَه بالكذبِ، وكأنَّهُ لبِسَ ثوبَ الكذبِ؛ فلا ينفكُّ عنه؛ فكلَّما وجدَ آيةً من آيات اللّه تصدَّى لتكذيبها، وتكذيبِ مَن يؤمن بها، "ومن افترى على اللّه كَذِبًا، أو كذَّبَ بآياتِه يكون أظلمَ الظّالمين، ولا يفلحُ الظّالمون يومَ الحساب بالنَّجاة من عذابِ اللّه في النّارِ، ولا يفوزون بنعيمِ اللّهِ في الجنَّة"[4].

من تلبَّسَ بالكذبِ؛ استهانَ بالجُرأةِ على آيات اللهِ، فَهَلَكَ

دلالةُ التَّعبيرِ بـ ﴿بِـَٔايَٰتِهِۦٓۚ﴾ دون القرآن، في قوله: ﴿أَوۡ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓۚ﴾:

آثَرَ التَّعبيرُ القرآنيُّ لفظَ ﴿بِـَٔايَٰتِهِۦٓۚ﴾؛ لأنَّها أعمُّ؛ فتشمل الآياتِ الكونيَّةَ والآياتِ القرآنيَّةَ، وفي ذلك إشارةٌ إلى تكذيبِهِ للدَّليل

التَّكذيبُ بالآيات الكونيَّة أوِ القرآنيَّة، كلاهما تطاولٌ وضلالٌ

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2467.
(2) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 6/49.
(3) عبد الكريم الخطيب، التّفسير القرآنّي للقرآن: 4/147.
(4) أسعد حومد، أيسر التّفاسير، ص: 811.

النَّقليِّ والعقليِّ، ويلاحَظ أنَّ المشركين جمعوا بين الكذبِ على اللّه، والتَّكذيبِ بآياتِ اللّه، الدّالَّةِ على التَّوحيدِ، وعلى إثبات رسالةِ النَّبيِّ محمَّد ﷺ[1].

دلالةُ تعريفِ كلمةِ (آيات) بالإضافةِ في قوله: ﴿أَوۡ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓۚ﴾:

وجوبُ التَّصديقِ بكلِّ آياتِ اللهِ المعجزةِ من مطلوباتِ الدِّين المتينِ

أُضيفتِ الآياتُ إلى الضَّمير العائد إلى اسم الجلالة (اللّه)، تعظيمًا لها، وتهويلًا للتَّكذيب بها، وتنبيهًا على أنَّ تكذيبَ أيِّ آيةٍ من آيات اللّه تعالى، كافٍ في الأظلميَّة... فما الظَّنُّ بتكذيبِ القرآنِ المنطوي على الكلِّ؟! وفي هذا زيادةُ إنكارٍ أن يكونَ أحدٌ أظلمَ ممَّن فعل ذلك[2]. وفيه إشارةٌ إلى وجوبِ التَّصديق بكلِّ آياتِ اللّه؛ فمَن آمن ببعضِها، وكفرَ ببعضها؛ فقد كفرَ بالجميع.

دلالةُ فاصلةِ الآيةِ في قولِه: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾:

لا فلاحَ للظَّالمين في الدُّنيا، ولا فوزَ لهم في الآخرة

دلَّت هذه الفاصلةُ على بشارةٍ للمظلومين الَّذين ظُلِموا من أعدائِهم بالاستهزاءِ بدينهم وبقرآنهم؛ فكلُّ مَن تُعدّيَ عليه في دينِه أو مالِه أو عرضِه؛ لَنْ يَنالَ ظالِمُهُ الفَلاحَ، لا في الدُّنيا ولا في الآخرة، والحقيقةُ أنَّه "ليس أحدٌ أشدَّ ظلمًا لنفسه وللحقِّ ممَّن افترى على اللّه الكذب، وادَّعى أنَّ له ولدًا أو شريكًا، أو نسبَ إليه ما لايليق، أو أَنكر أدلَّتَه الدّالةَ على وحدانيَّته وصِدْقِ رسلِه، وعلى قدرِ عِظَمِ الجَريرَة، كانت النَّتائج الأولى والأخيرة، حيثُ إنَّ الظّالمين لا ينالون فوزًا بخير في الدُّنيا ولا في الآخرة"[3].

دلالةُ التَّعبيرِ بالجملة الاسميَّةِ في قولِه تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾:

تأكيدُ نفيِ الفلاحِ عنِ الظَّالمِ من خلالِ الآيةِ الكريمة

خُتمتِ الآية بهذه الجملةِ الاسميَّةِ الَّتي تفيد الثُّبوتَ والدَّوامَ في نفيِ الفلاحِ عنِ الظّالمين، والمعنى: "لا أحدَ أشدُّ ظُلمًا من أولئك

(1) وهبة الزّحيلّي، التّفسير المنير: 7/164.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/202.
(3) إبراهيم الأبياريّ، الموسوعة القرآنيّة: 9/422.

المشركين الَّذين كذَّبوا باللّه وملائكته وكُتبه ورسلِه واليومِ الآخر، وإنَّ هؤلاءِ الَّذين سقطوا في أقصى دَرَكاتِ الكذبِ لن يفوزوا، ولن يفلحوا"[1]، وذلك أشبهُ بالقانون الكونيِّ الَّذي يطال الظَّلمَةَ المفترين على اللّه كذبًا، والمكذِّبين بآياتهِ.

دلالةُ التَّأكيدِ بالأداةِ: (إنَّ) في قوله: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾:

أُتي بـ (إنَّ) الَّتي تفيدُ التَّأكيدَ؛ لدفع توهُّم في واقع النّاس من فلاحِ بعض الظّالمين؛ فجاء التَّأكيد ليدفع هذا الوهم، وليشير إلى أنَّ ما يراه النّاس من دعوى الفلاحِ لبعض الظّالمين في بعض الأوقات، هو فلاحٌ مقيَّدٌ؛ يفلح في زمن معيَّنٍ أو مكان معيَّنٍ أو قضيَّةٍ معيَّنةٍ، وهذا لا يعني فلاحًا، بل هو إمهالٌ، يُعطى للظّالم حتَّى يغترَّ بما هو فيه، فيتمادى في ظلمِه، ثمَّ يأخذُه اللّه أخذَ عزيزٍ مقتدرٍ.

إنَّ الله تعالى، يمهلُ الظَّالم، حتَّى إذا أخذهُ لم يُفلِتْهُ

دلالةُ مجيءِ الخبرِ جملةً فعليَّةً في قوله: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾:

جاء الخبرُ جملةً فعليَّة منفيَّة في قوله: ﴿لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾؛ ليفيد التَّجدُّدَ والاستمرار، كلَّما كذَّبوا أو افتروا، وقد نفى فلاحَهم، فَعَمَّ كلَّ فلاحٍ في الدُّنيا والآخرة، فإنَّ الفلاحَ المعتدَّ به في نظر الدّين في الدُّنيا هو الإيمانُ والعمل، وهو سبب فلاحِ الآخرة[2]. والمعنى المستفادُ من السّياق أنَّه: "لا يَسْعَد مَنْ جحدَ ربوبيَّةَ ربِّه، وكذَّب رسلَه، وهم الَّذين ظلموا أنفسَهم بإهلاكها بالعذابِ"[3].

من طالهُ عذابُ اللهِ، تجدَّدَ له الألمُ والحِرمانُ، كلَّما عصى الرَّحمنَ

دلالةُ التَّعبيرِ بوضعِ الظَّاهرِ موضعَ الضَّميرِ في قوله: ﴿لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾:

وضَعَ الظّاهرَ موضعَ الضَّميرِ، والقياس أن يُقال: (إنَّهم لا يُفلحون)، ولو ذَكر الظّاهرَ؛ لقيل: (لا يفلحُ المفترون)، "لكن صرَّحَ بالظُّلمِ تنبيهًا على أنَّ عِلَّة عدمِ الفلاح هي الظُّلمُ"[4]، وفيه ردُّ العَجُزِ

ردُّ العَجُزِ على الصَّدْرِ، وأهميَّتُه في رسوخِ المعنى وجمالِه

(1) طنطاويّ، التفسير الوسيط: 5/55.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/172.
(3) الواحديّ، الوجيز، ص: 348.
(4) الزّركشّي، البرهان: 2/493.

على الصَّدْرِ، حيث وافقتْ كلمةُ (الظّالمون) - وهي آخر كلمة في الكلامِ - كلمةَ (أظلم) في صدْرِه.

دلالةُ التَّعبيرِ بنفيِ الفلاحِ دونَ غيرِهِ في قوله: ﴿لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾:

الفلاحُ في الدُّنيا غفرانٌ، وعدمُه في الآخرة حرمانٌ

آثرَ التَّعبيرُ القرآنيُّ نفيَ الفلاحِ دونَ غيرِه، كالفوز؛ لأنَّ الفلاحَ هو عبارةٌ عن حصول الخيرِ والنَّفعِ في الدُّنيا والآخرةِ، والظّالم لمّا أعرضَ عن آياتِ اللّهِ من أجل منافعَ شخصيَّةٍ في دنياه، دون نظرٍ إلى أُخراه، عاقبَهُ اللّه بهذا الحرمانِ، وفيه إشارةٌ إلى أنَّ ما أصابه بما قدَّمت يداهُ.

سرُّ التَّعبير بلفظِ ﴿ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ دون (الأظلمون):

الظُّلمُ يترك سيِّئَ الأثرِ، وهو وخيمُ العُقبى قَلَّ أو كَثُرَ

أتى التَّعبيرُ القرآنيُّ في الآية بلفظ ﴿ٱلظَّٰلِمُونَ﴾، ولم يأتِ بـ (الأظلمون)، جريًا على الظّاهر، والدّاعي البلاغيُّ للعدول عنِ الأظلميَّة إلى الظّالميَّة: أنَّه لو قيل: لا يفلح الأظلمون؛ لكان مفهوم هذه العبارةِ أنَّ (الظّالمين) الأقلَّ ظلمًا منَ الأظلميَّة قد يفلحون، وتأكَّد من باب أَوْلى خسرانُ الأظلمين؛ لأنَّ قليلًا منَ الظُّلم، صار سببًا في الخُسران، فما بالُكَ بكثيرِ الظُّلم؟ إنَّه أتعسُ حالًا من قليل الظُّلم[1].

التَّشابهُ بين آيتي الأنعامِ ويونسَ في: ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾:

أوّلًا: قوله تعالى: ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوۡ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾، وقوله تعالى في سورة يونس: ﴿فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوۡ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ١٧﴾ [يونس: 17].

التَّشابهُ بين ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ﴾، و﴿فَمَنۡ أَظۡلَمُ﴾:

والجوابُ عنه أن يُقال: إنَّ ما تقدَّم الآيةَ الأولى من قوله: ﴿قُلۡ أَيُّ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/172، والمطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 1/295.

شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً﴾، إلى قوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾ جُمَلٌ عُطِفَ صدورُ بعضِها على بعضٍ بالواو، ولم تتعلَّق الثّانية بالأولى تعلُّقَ ما هو من سببها، فأجرى قوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾ مجراها، وعطف بالواو عليها. وأمّا الآية الثّانيةُ؛ فإنَّ ما قبلها عُطِفَ بَعْضُها على بعضٍ بالفاء، فتعلَّق كلُّ ما بعد الفاء بما قبله تعلُّقَ المسبَّب بسببه؛ فعُطف بعضُ هذا الكلامِ على بعضٍ بالفاء. وفي الأعراف أيضًا: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ﴾ بالفاء، فالجوابُ عنه مثل ما مضى.

اختصاصُ خَتْمِ الأولى بقوله: ﴿ٱلظَّٰلِمُونَ﴾، والثّانيةِ بقوله: ﴿ٱلْمُجْرِمُونَ﴾:

والجواب عنهُ أنَّه لمّا قال في الآية الأولى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾، وكان المعنى: أنَّه لا أحدَ أظلمُ لنفسهِ ممَّن وصفَ اللّه تعالى بخلاف وصفه، فأوردها العذابَ الدّائم، كان قوله: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ﴾ عائدًا إلى مَن فعلَ هذا الفعلَ، فبناء الآخر على الأوَّل اقتضى أن يكون: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾. وأمّا الآية الثّانيةُ في سورة يونسَ وتعقيبُها بقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾، دون قوله: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾، وإن كان الوصفان لفريقٍ واحد؛ فَلأنَّها تقدَّمَتْها الآية الَّتي تضمَّنتْ وصْفَ هؤلاء القوم بما عاقبهم به، فقال: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾﴾ [يونس: 13]، فوصفَهم بأنَّهم مجرمون عند تعليقِ الجزاء بهم[1].

تَوَهُّمُ التَّعارُضِ بَيْنَ ظاهرِ هاتَيْنِ الآيَتَيْنِ وغَيْرِهِما:

وممّا يُذكر في هذا السّياق فيما قد يُتَوَهَّمُ من ظاهره التَّعارضُ بين هاتين الآيتين وغيرهِما في مثل هذا الأسلوب، يُقال: لا تعارضَ بين هذه الآياتِ؛ فجميعُ هذه الأشياءِ المذكورة في الآيات اشتركت في المرتبةِ العليا في الظُّلم؛ فكلُّها في مقامِ الأَظْلَميَّة؛ لأنَّ أفعلَ التَّفضيل لا يمنع التَّساوي، ولكن يمنعُ الزّيادة، وعلى هذا؛ فهؤلاءِ المذكورون في مثل هذا الأسلوب القرآنيِّ لا يوجد أحدٌ أظلمُ منهم؛ فهم متساوون في مرتبة الظُّلم. وممّا يُقال أيضًا: إنَّ هذه المواضع تُخَصَّص بِصِلاتها، ومعناه: أنَّ كلَّ موضعٍ من هذه الآيات يفصلُ بصلةِ موصوله؛ فكلُّ واحدةٍ منهم تختصُّ ببابها، ويكون المعنى: لا أحدَ أظلمُ ممَّنِ افترى على اللّه كذبًا، ولا أحد منَ المانعين أظلمُ ممَّن منعَ مساجدَ اللّه[2].

(1) الإسكافي، درّة التّنزيل: 2/498 - 502، والكرمانّي، البرهان، ص: 106، وابن الزّبير، ملاك التّأويل: 1/149 - 151.
(2) الزّركشّي، البرهان: 4/74.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(الظُّلم) و(الجَوْر):

الظُّلمُ نقصانٌ في الحقوقِ، والجورُ حيفٌ وتسلُّطٌ وعقوقٌ

أصلُ الظُّلمِ نقصانُ الحقِّ، والجَور: العدول عنِ الحقِّ، وخُلْفٌ بين النَّقيضين، فقيل في نقيض الظُّلم: الإنْصاف، وهو إعطاء الحقِّ على التَّمام، وفي نقيض الجَورِ: العدل، وهو العدول بالفعلِ إلى الحقِّ[1]، وقد "جمع لأعدائهِ المعرضين عن منهجهِ عذاب الدُّنيا وعذاب الآخرة، لا ظُلْمًا منه، فهو سبحانه مُنَزَّهٌ عن الظُّلم والجَوْر، بل عَدْلًا وقِسطًا بما نَسوا آياتِ اللّه، وانصرفوا عنها"[2].

(الافتراء) و(الكذب):

الكذبُ: مخالفةُ الخبرِ للواقعِ أو الاعتقادِ، وهو أيضًا اسمٌ موضوعٌ للخبرِ الَّذي لا مخبرَ لهُ على ما هو به، سواءٌ كان الكذبُ فاحشَ القبحِ، أم غير فاحش القبح، والافتراء: كذبٌ مبالغ فيه، قد أُعدَّ إعدادًا متقنًا، فظهر في ثوبٍ جميلٍ، وهو مأخوذٌ من لبس الفراءِ بقصد التَّجمُّل، وفرَّق العَسْكَريُّ بين الكذبِ والافتراءِ، بأنَّ الكذب هو عدمُ مطابقة الخبرِ للواقعِ، أو الاعتقاد المُخبر له على خلافٍ في ذلك، والافتراء أخصُّ منه؛ لأنَّه الكذبُ في حقِّ الآخرِ بما لا يُرضيه، بخلاف الكذب، فإنَّه قد يكون في حقِّ المتكلِّم نفسِه، وأيضًا قد يحسن الكذبُ على بعضِ الوجوه، كالكذبِ في الحربِ، وإصلاحِ ذات البين، بخلاف الافتراءِ[3].

الكذبُ: ما خالفَ الواقعَ والاعتقادَ، والافتراءُ: اختلاقُ ما يؤذي

(الظَّفر) و(الفوز) و(الفلاح):

الظَّفَرُ: هو العلوُّ على المُناوِئ المُنازِع، وقد يُستعملُ في موضع الفَوزِ، ولا يُستعمل الفوزُ في موضع الظَّفَر، والفلاحُ: نيلُ الخير،

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 172 - 341 - 342.
(2) الشّعراويّ، تفسير الشّعراوي (الخواطر): 14/8391.
(3) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 224.

والنَّفع الباقي أثرُه، ويُقال أيضًا لكلِّ مَن عَقل، وحزمَ، وتكاملت فيه خِلالُ الخيرِ: قد أفلح[1]. قال صاحبُ المنار: "الظَّفرُ مقرونٌ بالصَّبر، وبالظَّفر حفظُ الحقِّ الَّذي يناضلُ من يجاهد في سبيلِ اللّه دونَهُ، ويدافعُ عنه، ويحاولُ إظهاره، ويبغي انتشاره، وهذا هو المأمورُ من اللّه تعالى بالصَّبر حين البأسِ"[2].

الظَّفَرُ: يُستَعمل في الفَوز، والفلاحُ: خيرٌ يرقى، ونفعٌ يبقى

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 340 - 321.

(2) رضا، تفسير المنار: 2/98.

﴿وَيَوۡمَ نَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشۡرَكُوٓاْ أَيۡنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمۡ تَزۡعُمُونَ ٢٢﴾ [الأنعام: 22]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

العلاقةُ بين مصيرِ الكَذَبَةِ المفتَرينَ، وبين حَشْرِهم مع شركائِهم المزعومينَ

لمّا دلَّتِ الآيةُ السّابقة على أنَّ الَّذين خَسِروا أنفسَهم، وأنَّهم أكذبُ النّاس وأَشَدُّهُمُ افتراءً على اللّه - دلَّل على كذبِهم وافترائِهم، بسؤالِهم في يوم الحَشْر عن شركائِهم الَّذين كانوا يعبدون. وأيضًا لمّا خُتمتِ الآيةُ السّابقة بنفي الفلاح عنِ الظّالمين؛ جاءت هذه الآيةُ لِتُبيِّنَ أنَّهم يجدون ذلك - فَضْلًا عنِ الدُّنيا - في يوم الحشر، عندما يقفُ هؤلاء الَّذين ظَلموا ومعبوداتُهم في أرض المحشر، كما قال تعالى: ﴿۞ٱحۡشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزۡوَٰجَهُمۡ وَمَا كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ٢٢ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [الصّافات: 22 - 23].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿نَحۡشُرُهُمۡ﴾: الحشْرُ: الجمعُ، يُقال: حَشَرْتُ مالي، أَحشُرهُ، حَشْرًا، أي: جمعتُه، ومنه سمّيتِ الحشراتُ بذلك؛ لاجتماعِها وكثرتها، والمَحشَر: الموضعُ الَّذي يُجتَمَع فيه. ويأتي الحَشرُ بمعنى السَّوْق، فيُقال: حشرَ إبلَه، أي: ساقَها، والحَشرُ أيضًا: الطَّرد والإخراج عنِ الأوطان ومن معانيه: الإزعاجُ، والتَّدقيق، والتَّلطيف[1]، والحَشْر: جمعُ الأقوام من كلِّ (صُقْعٍ) في مَوضِع واحِدٍ، قال تعالى: ﴿يَوۡمَ نَحۡشُرُ ٱلۡمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحۡمَٰنِ وَفۡدٗا ٨٥﴾ [مريم: 85][2].

2) ﴿تَزۡعُمُونَ﴾: الزَّعمُ: حكايةُ قولٍ يكون مَظِنَّةً للكذب، يُقال: أمرٌ فيه مزاعم، أي: أمرٌ غير مستقيمٍ فيه منازعةٌ بعد؛ ولهذا جاء

(1) السّمعانّي، تفسير القرآن: 3/314.

(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن سيده، المحكم، والجوهريّ، الصّحاح، والزّبيدي، تاج العروس: (حشر).

في القرآن في كلِّ موضع ذُمَّ القائلون به، نحو: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ [التّغابن: 7]، وقيل: للمُتكفِّل والرَّئيس: زعيمٌ؛ للاعتقاد في قوليهما أنَّهما مَظِنَّةٌ للكذب، قال تعالى: ﴿وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ ۝٧٢﴾ [يوسف: 72]، وقوله تعالى: ﴿سَلۡهُمۡ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ ۝٤٠﴾ [القلم: 40]، إمّا منَ الزَّعامة، أي: الكفالة، وإمّا منَ الزَّعم بالقول[1].

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

واذكُرْ يومَ القيامة حين نجمعُهم جميعًا، لا نغادرُ منهم أحدًا، ثمَّ نقولُ للَّذين عبدوا مع اللّه غيرَه توبيخًا لهم: أينَ شركاؤكمُ الَّذين كنتُم تدَّعون كاذبين أنَّهم شركاءُ للّه؟[2]، هنالك تتهافتُ المعبوداتُ، وتَبْطُل الأباطيلُ، ولا يبقى إلّا ملكُ اللّهِ الجليل، فتوفَّى كلُّ نفسٍ ما كسبت، وهم لا يُظلَمون.

عند الحَشْرِ الأكبرِ، يُنادى على الشُّركاء المزعومين، ولكنَّهم لا ينفعون

الإِيضاحُ اللُّغَوِيُّ والبَلاغِيُّ:

دلالةُ العطفِ في قولِهِ تعالى: ﴿وَيَوۡمَ نَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا﴾:

قولُه تعالى: ﴿وَيَوۡمَ نَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا﴾، عطفٌ على جملة: ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾، أو على جملة: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾، لما بينهما من شدَّة الاتِّصال، فإنَّ مضمونَ هذه الجملِ المعطوفة له مناسبةٌ بمضمون جملة: ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ﴾، ومضمونِ جملة: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾؛ لأنَّ مضمونَ هذه من آثار الظُّلم، وآثارِ عدم الفلاحِ، ولأنَّ مضمون الآيةِ جامعٌ للتَّهديد على الشِّرك والتَّكذيب، ولإثباتِ الحشر، ولإبطالِ الشِّركِ.

تسليةُ اللهِ لنبيِّه ﷺ، تثبيتٌ له في مواجهةِ المشركين

دلالةُ النَّصبِ للَّفظ ﴿وَيَوۡمَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَيَوۡمَ نَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا﴾:

جاءت كلمةُ ﴿وَيَوۡمَ﴾ منصوبةً على المفعوليَّة بفعلٍ مُضمَر مُقدَّمٍ،

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (زعم).
(2) جماعة من علماء التّفسير، المختصر في تفسير القرآن، ص: 130.

ذكرَ الظَّرفَ تنويهًا بهولِه، وإبرازًا لما يحدثُ فيه من عظائمَ

تقديرهُ: اذكُرْ أوِ انظُرْ؛ تهويلًا للأمر، وللتَّخويفِ، والتَّحذيرِ، وفيه تسليةٌ للنَّبيِّ ﷺ بذِكْرِ مآلِ المكذِّبين له. ويجوز أن تكونَ منصوبةً لمحذوف مُتأخِّرٍ، تقديرهُ: (ويوم نحشرُهم ... كان كَيْتَ وكيتَ)؛ فتُرِكَ ليبقى على الإبهامِ الَّذي هو أَدْخَلُ في التَّخويف، وقد قُدِّر الفعلُ المتروكُ هذا ماضيًا ليدلَّ على التَّحقُّق[1]. و﴿وَيَوْمَ﴾: هو يومُ الحشر، يوم القيامة، وجاء بصيغة النَّكرةِ للتَّهويلِ والتَّعظيم. "انتصب ﴿وَيَوْمَ﴾ بمحذوفٍ تقديرهُ: واذكر يومَ نحشرهُم، قال ابن جرير: والمعنى: لا يُفلحونَ اليومَ، ولا يوم نحشرُهم"[2].

إيثارُ لفظِ (الحَشْر) على (الجَمْع) في قولِه: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾:

تصويرُ حالةِ المخلوقاتِ في صعيدِ المحشرِ المهولِ

آثَر القرآنُ الكريمُ الحشرَ دون الجمعِ؛ لأنَّ الجمعَ له معنًى يختلفُ عنِ الحشرِ؛ فالجمعُ ضمُّ الشَّيء بتقريبِ بعضِه من بعضٍ؛ يُقال: جمعتهُ فاجتمعَ، بخلاف الحشرِ: فهو إخراجُ الجماعة عن مقرِّهم، وعلى ذلك؛ فالجمعُ يكون للمتفرِّق، وضمِّ الأجزاء بعضِها إلى بعضٍ؛ أمّا الحشرُ؛ فهو جمعٌ وزيادة؛ فكلُّ حشرٍ جمعٌ، وليس كلُّ جمعٍ حشرًا. وأيضًا الحشر فيه معنى السَّوق؛ لذلك قالوا: إنَّ معنى الحشرِ هو السَّوْقُ إلى أرضِ المحشرِ للحساب والجزاءِ، والجمع: (جمع الخلائق في أرض المحشر). وأيضًا: إنَّ التَّعبير بالحشرِ يشيرُ إلى كثرةِ الأعداد، بالنِّسبة للمكان؛ لذلك كان التَّعبيرُ القرآنيُّ مناسبًا لتصوير حالةِ الزِّحام الموجودة في أرض المحشر، حيثُ لم يقتصر الحشرُ على الإنسان، بل جمعَ معه ما عبَدَه من دون اللهِ، وفي هذا منَ التَّهويلِ والتَّفظيع ما فيه.

دلالةُ التَّعبيرِ بالفعلِ المضارعِ في قوله: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾:

جاء التَّعبيرُ بالمضارع؛ ليصوِّرَ حالةَ الحشر للمشركين مع

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/12، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/463، وأبو السّعود: إرشاد العقل السّليم: 3/119.

(2) ابن الجوزيّ، زاد المسير: 2/16.

أصنامهِم، وكأنَّك تراهم في أرض المحشر، يُحشرُ كلُّ صنم مع عابده، قال تعالى: ﴿۞ٱحۡشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزۡوَٰجَهُمۡ وَمَا كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ٢٢ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [الصّافات: 22 - 23]، والمعنى: أي: نجمعُهم بما لنا من هَيْمَنةٍ وسطوةٍ وعظَمةٍ، وهم كارهون مذلولون صاغرون، لا حولَ لهم ولا قوَّة، والمقصودُ بهم أهلُ الكتاب والمشركون، والمخلوقون كلُّهم بلا استثناءٍ، ومعهم معبوداتهم الَّتي كانواْ يعبدونها لتقرِّبهم إلى اللّه زُلفى، وفي ذلك إشارةٌ إلى عظمةِ ذلك اليوم، وطولِه ومشقّاتِه وأهوالِه، مع التَّعبيرِ بفعل ﴿نَحۡشُرُهُمۡ﴾، على حشر البشريَّةِ كلِّها في صعيدٍ واحدٍ أمامَ اللّه ربِّ العالمين.

لا أعظمَ من موقفِ الحشرِ المهولِ في عَرَصاتِ القيامةِ

دلالةُ ضميرِ الجمعِ (هم) في قوله تعالى: ﴿وَيَوۡمَ نَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا﴾:

دلَّ ضميرُ الجمع على المشركين وأصنامهم، وفيه إشارةٌ إلى التَّهوين من شأنِهم؛ لأنَّهم في حكم الغَيْبةِ، فلا يأبه بهم، ولا يتكلَّم معهم، ومن موقف الحوارِ، ينتقل هؤلاء جميعًا انتقالًا سريعًا إلى موقفٍ آخر، هو موقفُ الحشرِ يوم القيامة... وإذا هم يلقون الجزاءَ الَّذي يستحقّونه، لِكُفرهِم باللّه، وتكذيبهِم لرسولِ اللّه[1].

تَقليلُ شأنِ المشركينَ ومَعْبوداتِهِمْ

دلالةُ التَّعبيرِ بقوله: ﴿جَمِيعٗا﴾ في قوله تعالى: ﴿وَيَوۡمَ نَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا﴾:

آثَر القرآنُ الكريمُ التَّعبيرَ بلفظ ﴿جَمِيعٗا﴾؛ ليدلَّ على أنَّ الحشر عامٌّ شامل، لا يَشِذُّ عنه أحد، حيث أكَّده، ونبَّه عليه اللّه (ﷺ)، باسم الإحاطةِ والشُّمول ﴿جَمِيعٗا﴾، فتعيَّن أنَّ ذِكْر ﴿جَمِيعٗا﴾، قُصِدَ منه التَّنبيهُ على ذلك، وفائدتُها: رفعُ احتمالِ التَّخصيصِ، أي أنَّ جميع المشركين ومعبوداتهم سيُحشرونَ أمامَ اللّه للحسابِ، والمقصودُ مِن حشر أصنامهِم معهم أن تَظهر مذلَّةُ الأصنام، وعدمُ جدواها[2]،

يُحشرُ أمامَ اللهِ المشركون والشُّركاءُ في خوفٍ وذلَّةٍ وترقُّبٍ

(1) عبد الكريم الخطيب: التّفسير القرآنّي للقرآن: 4/148.

(2) الآلوسّي، روح المعاني: 4/115، والقنّوجيّ، فتح البيان: 4/119، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/174، وابن عثيمين، تفسير ابن عثيمين - سورة الأنعام، ص: 128.

وصرَّح بـ ﴿لِلَّذِينَ أَشۡرَكُوٓاْ﴾؛ لأنَّهم بعضُ ما شملَه الضَّمير، أي: ثمَّ نقولُ للَّذين أشركوا من بين ذلك الجمع.

سرُّ التَّعبيرِ بلفظِ ﴿جَمِيعًا﴾ دون (كلٍّ) في الآية:

جمعُ الجميعِ في محشرِ القيامة، دليلٌ على كمالِ قدرةِ اللهِ

التَّعبيرُ بلفظ ﴿جَمِيعًا﴾ في الآية يَحْتَمِلُ معنيين: الأوَّل: أن يكونَ بمعنى (كُلّ)، فيكون المعنى: ويوم نحشرهُم كلَّهم. والثّاني: أن يكون بمعنى (مُجتَمِع)، فيكون المعنى: ويوم نحشرهُم مجتمِعين، وقد يُراد المعنيان معًا، أي: يحشرهُم كلَّهم مجتمِعين، فبعدولِهِ إلى المفردة كسبَ المعنيين معًا، وهذا فيه كمالُ القدرة، وعظيمُ القهر، حيث جمعَهم مع أصنامِهم على هيئةٍ واحدة في مكانٍ واحد وزمانٍ واحد.

سرُّ التَّعبيرِ بلفظ ﴿جَمِيعًا﴾ دون (جميعِهم) في الآية:

الإطلاقُ للَّفظِ المعبَّرِ بهِ، أحسنُ من تقييدهِ بالضَّميرِ المضافِ إليه

عبَّر بلفظِ ﴿جَمِيعًا﴾؛ لأنَّها أوسعُ استعمالًا ومعنًى منَ المضافة، ألا ترى أنَّك لو قلتَ: (اللهم اكفني شرَّ مخلوقاتِكَ جميعًا)؛ كان المعنى محتمِلًا جميعَ الشَّرِّ، وجميعَ المخلوقات، ولو قلتَ: (اكفني شرَّ مخلوقاتِك جميعَه)؛ لكان نصًّا في الشَّرِّ، ولو قلت: (جَميعِها)؛ لكان نصًّا في المخلوقات[1].

سرُّ التَّعبيرِ بحرف العطف ﴿ثُمَّ﴾ في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشۡرَكُوٓاْ﴾:

الانتقالُ بالتَّرتيبِ الرُّتبيِّ من خبرٍ إلى أعظمَ منه، فصاحةٌ وبيانٌ

عبَّر القُرآنُ الكَريمُ بحرفِ العطف ﴿ثُمَّ﴾؛ لأنَّ القولَ متأخِّرٌ عن زمن حشرهِم بمهلةٍ؛ لأنَّ حصَّة انتظارِ المجرِم ما سيحلُّ به أشدُّ عليه؛ ولأنَّ في إهمال الاشتغالِ بهم تحقيرًا لهم. إضافة إلى ذلك كان العطفُ بـ (ثمَّ) لتعدُّدِ الوقائعِ قبل هذا الخطاب الموجَّهِ للمشركين؛ إذ قبل ذلك سيكونُ قيامُهم من قبورِهم، ويكون هولُ الموقف، ويكون إحصاءُ الأعمال، وقراءةُ كلِّ امرئٍ لكتابه ... إلخ، ثمَّ يقول اللّه تعالى للَّذين أشركوا: ﴿أَيۡنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمۡ

(1) السّامرائيّ، معاني النّحو: 4/145.

تَزۡعُمُونَ﴾ ؟ فـ (ثمَّ) للتَّرتيب الرُّتبيِّ؛ وهو الانتقالُ من خبرٍ إلى خبرٍ أعظمَ منه[1].

دلالةُ القولِ في قولِهِ تعالى: ﴿ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشۡرَكُوٓاْ﴾:

دلَّ القولُ على التَّقريع والتَّبكيت للمشركين، ولإقامة الدَّليل على بُطْلانِ عقيدتهم، وعَجْزِ أصنامِهم؛ فلا يستطيعون القولَ في هذا اليوم؛ لا دفاعًا عنكم، ولا دفاعًا عن أنفسهم، وهذا واضحٌ في إبراز عظمة المولى سبحانه، وأنَّه هو وحده المستحِقُّ للعبادة دون سِواهُ.

لا قولَ ولا شريكَ في المحشرِ يعلو على قولِ اللهِ وعظمةِ سلطانِهِ

دلالةُ التَّعبيرِ بقوله: ﴿لِلَّذِينَ أَشۡرَكُوٓاْ﴾ بدلًا (منَ المشركين):

عبَّر القرآنُ الكريم بقوله: ﴿لِلَّذِينَ أَشۡرَكُوٓاْ﴾ بدلًا منَ المشركين؛ للإشارةِ إلى دورهِم في اتِّخاذ الأصنام والأوثان الَّتي أشركوها مع اللهِ في العبادة؛ فهمُ الَّذين صنعوها، واعتقدوا فيها، وكلُّ ذلك مأخوذٌ من دلالةِ الفعل ﴿أَشۡرَكُوٓاْ﴾؛ لأنَّ الفعل يلزم منه وجودُ الحدثِ الَّذي يدلُّ على مَن قام به؛ أمّا لفظُ المشركين؛ فهو نتيجةٌ لهذا الفعل؛ فما وُصِفوا بالمشركين إلّا بعد أن أشركوا، وفيه إشارةٌ للإشعار بِعلَّةِ التَّوبيخ والتَّقريع لهم.

دورُ المشركين أنفسِهم في صناعةِ الهالةِ لمعبوداتِهم

إيثارُ الاستفهامِ بدلًا منَ الخبرِ في قولِهِ تعالى: ﴿أَيۡنَ شُرَكَآؤُكُمُ﴾:

آثَرَ القُرآنُ الاستفهامَ في الآية للتَّقرير، وهو: حملكَ المُخاطَب على الإقرارِ والاعتراف بأمرٍ قد استقرَّ عنده، وفيه تثبيتٌ للأمر وتحقيقُه، فحينَ يُنتزَعُ إقرارُ المُخاطَبِ واعترافُه، يَكونُ ذلك أدلَّ على الالتزام، فهو استفهامُ إفضاحٍ لا إيضاح، وهذا يعني: أنَّ القضيَّة - موضوعَ الاستفهام - من معتقداتِ المُخاطَبين أساسًا، وممّا استقرَّ في أذهانِهم، واستيقَنَتْها أنفسُهم، وإنَّما جاء الحديث عنها بصيغة الاستفهامِ ليُقِرّوا بها من تلقاء أنفسِهم، وهو من أساليبِ الإقناع المؤثِّرة.

الاستفهامُ عن المعلومِ سلفًا للتَّقريرِ من أساليبِ الإقناعِ المؤثِّرةِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/175، وطنطاويّ، الوسيط: 5/56، وابن عثيمين، تفسير ابن عثيمين - سورة الأنعام، ص: 128.

دلالةُ جناسِ الاشتقاقِ في قوله: ﴿لِلَّذِينَ أَشۡرَكُوٓاْ أَيۡنَ شُرَكَآؤُكُمُ﴾:

جناسُ الاشتقاقِ من المحسِّنات البديعيَّةِ الرَّائقةِ

في قوله: ﴿ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشۡرَكُوٓاْ أَيۡنَ شُرَكَآؤُكُمُ﴾، جناسُ اشتقاقٍ، فقد نُسِب المخاطَبون إلى الشِّرك، ووُصِفوا به على أنَّه علامةٌ لهم، وكان مضمون السُّؤالِ عن الأندادِ المعبودين من دون اللّه، وقد نُسِبوا هم أيضًا إلى الشِّرك، باعتبارهم مشرَكًا بهم اللّه، وقد تكرَّسوا لهذا الملمح ببيانٍ ودقَّةٍ.

بلاغةُ المجازِ في قوله تعالى: ﴿أَيۡنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمۡ تَزۡعُمُونَ﴾:

التَّحذيرُ منَ الشِّرك وأهلِهِ، وأنَّهُ من الجرائمِ العظمى في الإسلامِ

أين: أداةُ استفهام عنِ المكان، واستُعمل هذا الاستفهامُ في الآيةِ عنِ الشُّركاء، وهم أشخاص، أي: إنَّ الاستفهام هنا عنِ المكان، والمرادُ منهُ ما مِن شأنه أن يكون حالًا في ذلك المكان، فهو مجازٌ مرسَلٌ علاقته الحاليَّة، وقد تولَّد عن هذا المجازِ كنايةٌ لطيفة عن انعدام الشُّركاء؛ لأنَّ السُّؤالَ عنِ المكان يعني عدمَ تعلُّقِ علمِ السّائل به، فإذا كان السّائلُ هو اللّه، تحوَّلَ عدم تعلُّق العلم بالمكان إلى انعدامِ الشُّركاء الَّذين دعاهم المشركونَ آلهةً؛ لأنَّهم لو كانوا بهذه الصِّفة لَعَلِمهمُ اللّه تعالى، ونفيُ علمِ اللّه تعالى بشيء، معناه الكنائيُّ: انعدامُ الشَّيء نفسه، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمۡ خَيۡرٗا لَّأَسۡمَعَهُمۡۖ﴾ [الأنفال: 23]، فنفيُ علم اللّه تعالى هنا معناه انعدامُ الخير فيهم، ولو كان موجودًا لَعَلِمَهُ اللّهُ موجودًا[1].

علَّةُ الإضافةِ في قوله تعالى: ﴿أَيۡنَ شُرَكَآؤُكُمُ﴾:

الأصنامُ لا تنفعُ عابديها؛ لأنَّها لا تملكُ لهم نفعًا ولا ضُرًّا

أضاف الشُّركاءَ إليهم إضافةَ اختصاصٍ؛ لأنَّها لم تكن شركاءَ للّه في الحقيقةِ؛ بل لمّا سمَّوها شركاءَ أُضيفت إليهم، وهي ما كانوا يعبدونه من دون اللّهِ أو معَ اللّه، أو لأنَّهم كانوا من جنسِهم وجوهرِهم، يَفنَون كما يَفنَون هم[2]، "فإضافةُ الشُّركاءِ إليهم لأدنى

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/174، والمطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 1/297.
(2) الواحديّ، البسيط: 3/471، والجمل، الفتوحات الإلهيّة: 1/330، والقنّوجيّ، فتح البيان: 4/119.

ملابسة، أي: لمجَرَّد العلاقة النَّفسيَّة والفكريَّة الَّتي نَحَلَتْها عقولهُم السَّقيمةُ في إدراكها لهم، وهل كانوا غائبين عنهم، حتَّى يبحث عن مكانهم؟ لعلَّ ذلك يكون، ولعلَّ حالهم من أنَّهم لا قوَّة لهم، وليس لهم الشَّفاعة القريبة، ولا النُّصرةُ القادرة، يعتبرون كأنَّهم شيءٌ معدوم، يسألون عنه"[1].

سرُّ العدولِ عن ذكرِ الأصنامِ والأوثانِ إلى التَّعبيرِ بالشُّركاءِ:

كلُّ ما يعبدُ من دونِ اللهِ في الأرضِ أو السَّماءِ فهو شريكٌ

عَدَلَ القرآنُ الكريم عن ذِكر الأصنامِ والأوثان؛ للتَّقليل والتَّهوين من شأنهم؛ فليسوا أهلًا للذِّكر ولا للخطاب، وسمّاهم شركاءَ على زَعْمِهم وتسميتِهم، والشُّرَكاءُ ليستِ التماثيلَ والأصنامَ المعبودةَ عندهم فحسبُ، بل تشمل كلَّ معبودٍ من دون اللهِ في الكون، فقال: "﴿أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾، في الدُّنيا أنَّها تشفعُ لكم، وعبدتُموها من دون الله، الملائكة وغيرهم، منَ الإنسان والكواكبِ والحيوانِ والجماد"[2].

دلالةُ التَّعبيرِ بـ﴿كُنتُمْ﴾ في قولهِ: ﴿ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾:

مَنْ ضَلَّ في دينهِ عن درايةٍ وعلمٍ كان من الخاسرينَ

عبَّر القرآن الكريمُ بالفعل ﴿كُنتُمْ﴾، للدَّلالة على تمكُّنِ هذه العقيدة الباطلةِ فيهم؛ فما كان شِرْكُهُم لهذه الأصنام عفويًّا، بل كان عن قناعةٍ واعتقاد، والحال أنَّ النَّقلة من الدُّنيا إلى الآخرة قد تمَّت، وأنَّهم كانوا يعبدونها، وما أصبحت معبودةً في الآخرة، بل كانت معبودةً قبل ذلك، فقال لهم: أين شركاؤكم الَّذين كنتم تزعمونَ، أي: تزعمونها شركاءَ، لقد غابت عنهم في ذلك الموقفِ العصيب، أو كانت حاضرةً ولكن لا ينتفعون بها بوجهٍ من الوجوهِ، فكان وجودُها كعدمها[3].

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 4/119.
(2) عبد القادر العاني، بيان المعاني: 3/331.
(3) الشّوكانّي، فتح القدير: 2/122.

عند الوقوفِ بين يديهِ يتبرَّأُ الشَّريكُ من عابديهِ

دلالةُ حذفِ مفعولَي (زعم) في قولهِ تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كُنتُمۡ تَزۡعُمُونَ﴾:

في الآية الكريمة حُذِفَ مفعولا زعمَ، أي: الَّذين كنتم تزعمونَهم شركاءَ، فحُذفا اختصارًا لدلالةِ الكلام عليهما؛ وتحقيرًا للزَّعم والشُّركاء الَّذين يزعمونهم، وكأنَّما الآيةُ الكريمة بهذا الحذفِ تصوِّرُ هؤلاء المشركين، وأنَّ أمرهم إلى ضياعٍ"[1]. وهذا السُّؤالُ المُنبِئُ عن غَيْبة الشُّركاءِ، مع عموم الحشرِ لها، لقوله تعالى: "﴿۞ٱحۡشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزۡوَٰجَهُمۡ وَمَا كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ٢٢ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [الصّافّات: 22 - 23]، وغيرِ ذلك من النُّصوص - إنَّما يقعُ بعد ما جرى بينها وبينهم من التَّبرُّؤِ من الجانبين، وتقطُّعِ ما بينهم من الأسبابِ والعلائقِ"[2].

بين الزَّعمِ والكذبِ عمومٌ وخصوصٌ، ولم يأتِ في القرآنِ إلَّا في الذَّمِّ

سرُّ التَّعبيرِ بـ(الزَّعم) في قولهِ: ﴿ٱلَّذِينَ كُنتُمۡ تَزۡعُمُونَ﴾:

عبَّر بالزَّعم، وهو القولُ الموسوم بمخالفةِ الواقعِ خطأً، فمنه الكذبُ الَّذي لم يتعمَّد قائلهُ أن يُخالف الواقعَ في ظنِّ سامعه، ويُطلَق على الخبرِ المُستغرَبِ المشكوك في وقوعِ ما أخبرَ به، وعن شريحٍ: لكلِّ شيءٍ كنيةٌ، وكنية الكذب: زعموا، (أراد بالكنية الكنايةَ)، فبين الزَّعم والكذب عمومٌ وخصوص وجهيٌّ، ولم يأتِ في القرآن إلّا في محلِّ الذَّمِّ، ونبَّه عليه الرّاغب والمُناويُّ[3]. وقد عبَّر القرآن الكريم عن شِرْكِهم وعبادتهم بالزَّعم؛ لأنَّه كذبٌ، فلا أصلَ له في الوجودِ ولا في الحقيقة؛ فحقيقةُ الإنسان الفطرةُ الإيمانيَّة الخالصةُ، فلا تَعرفُ إلّا اللّهَ إلهًا واحدًا، وكلُّ الأجناس في الوجود تُنكِرُ الشِّركَ باللّهِ ربِّ العالمين، بل تتبرَّأُ ممَّن عبدَها من دون اللّه.

دلالةُ التَّعبيرِ بالفعلِ المضارعِ في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ كُنتُمۡ تَزۡعُمُونَ﴾:

عبَّرَ بالفعلِ المضارع ﴿تَزۡعُمُونَ﴾ للدَّلالةِ على تجدُّد هذا الزَّعم؛

(1) أبو شادي، الحذف البلاغيّ في القرآن الكريم، ص: 59.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/119، والسمين، الدر المصون: 4/572.
(3) الرّاغب، المفردات: (زعم)، والمناويّ، التّوقيف: 1/386.

فكلَّما دعاهم الرَّسول ﷺ إلى ترك الإشراكِ باللّه، وتركِ الأصنامِ والأوثان، زعموا أنَّها تضرُّ وتنفعُ، واعتقدوا فيها؛ بل اعترضوا على الرَّسول ﷺ، وقالوا: كيف يجعلُ هذهِ الآلهةَ المتعدِّدةَ إلهًا واحدًا! واعتبروا ذلك شيئًا عجيبًا، وتفسيرُ ذلك الزَّعمِ مرتبطٌ بتهافتِ هاتهِ الآلهةِ المزعومة، إذْ "سيَسأل اللّه المشركينَ عن الَّذين عبدوهم من دونِ اللّهِ كذبًا: أين هؤلاءِ الآلهة الَّتي أشركَها الكافرون في العبادةِ مع اللّهِ؟ ولماذا لا يتقدَّمون لإنقاذ عبيدِهم من العذابِ الَّذي يصليه اللّهُ لهم؟ ويقرِّع سبحانه المشركين، ويحشرُهم مع ما عبدوهم من دون اللّهِ من الأصنامِ والأوثان، وفي ذلك قمَّة الإهانة لهم، ولتلك الآلهةِ"[1].

تجدُّدُ الزَّعمِ الباطلِ، دليلٌ على تجدُّدِ الضَّلالةِ في كلِّ الأزمانِ

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(الحشر) و(الجمع):

الحشرُ: هو الجمعُ مع السَّوْقِ، ومنه يومُ الحشر؛ لأنَّ الخلقَ يُجمعون فيه، ويُساقون إلى الموقفِ، قال الرّاغب: "ويُقال ذلك في الإنسانِ وفي غيره، ولا يُقال الحشرُ إلّا في الجماعة، قال اللّه تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلۡوُحُوشُ حُشِرَتۡ ۝٥﴾ [التَّكوير: 5]"[2]. وأمّا الجمعُ؛ فهو ضمُّ الشَّيءِ بتقريب بعضهِ من بعض؛ يقال: جمعتهُ فاجتمعَ، وعلى ذلك فالحشرُ يختلف عنِ الجمع؛ فكلُّ حشرٍ جمعٌ، وليس كلُّ جمعٍ حشرًا.

الحَشْرُ جمعٌ مع سَوْقٍ، وكلُّ حشرٍ جمعٌ، وليس كلُّ جمعٍ حشرًا

(كلّ) و(جميع):

فرَّقَ العلماءُ بين (كلٍّ) و(جميع) أيضًا، فقالوا: "إنَّ (كلَّ) تدلُّ على كلِّ فردٍ بطريق النُّصوصيَّةِ، بخلاف (جميع)، فإنَّه يدلُّ على كلِّ الأفرادِ، وهو الَّذي يرادُ من قولهم: وإنَّ (جميع) للعمومِ الإحاطيِّ، وفرَّقتِ الحنفيَّة بينهما؛ بأنَّ (كلَّ) تعمُّ الأشياءَ على الانفراد،

لَفْظَةُ (كلٍّ) تدلُّ على كلِّ فردٍ خصوصًا، و(جميع) تدلُّ على كلِّ الأفرادِ

(1) الشّعراوي، تفسير الشّعراويّ (الخواطر): 6/3560.
(2) الراغب، المفردات: (حشر).

و(جميع) تعمُّها على سبيل الاجتماع"[1]، وفي القرآن: ﴿وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [يس: 32]، "فإنْ قال قائلٌ: كلٌّ وجميعٌ بمعنًى واحدٍ، فكيف جعل جميعًا خبرًا لكلٍّ، حيثُ دخلت اللّامُ عليه؛ إذ التَّقديرُ: وإنْ كلٌّ لجميع؟ نقول: معنى جميع: مجموعٌ، ومعنى كلٍّ: كلُّ فردٍ بحيث لا يخرج عن الحكمِ أحدٌ، فصار المعنى: كلُّ فرد مجموعٌ مع الآخر مضمومٌ إليه"[2].

(الزَّعم) و(الظَّنّ) و(الحِسْبان):

يكون الزَّعمُ والحِسْبانُ غالِبًا فيما هو باطلٌ، والظَّنُّ ترجيحًا لأحدِ طرفي الشَّكِّ

الظَّنُّ: ضربٌ من الاعتقادِ، وقد يكونُ حِسْبانًا ليس باعتقادٍ، قال العسكريُّ رحمه الله تعالى: أصلُ الحِسْبانِ منَ الحساب، ثمَّ كثُر حتَّى سمّي الظَّنُّ حِسْبانًا على جهة التَّوسُّع، وصار كالحقيقة بعد كثرةِ الاستعمال، وفرَّق العسكريُّ بين الحِسْبانِ والزَّعم؛ بأنَّ الحِسْبانَ لا يكون إلّا باطلًا، والزَّعم قد يكون حقًّا، وقد يكون باطلًا، قال الشّاعر:

تُعاتِبُني في الرِّزق عِرْسي وإنَّما*** على الله أرزاقُ العبادِ كما زَعَم!

فإنَّ هذا الزَّعمَ حقٌّ[3].

وما قاله العسكريُّ فيه نظرٌ؛ فالحِسْبانُ قد يكون فيما ليس باطلًا، كقوله تعالى: ﴿حَسِبَتْهُ لُجَّةً﴾ [النّمل: 44]، وقوله تعالى: ﴿حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا﴾ [الإنسان: 19]، فالغالبُ أن يكون الزَّعمُ والحِسْبانُ فيما هو باطلٌ، والحِسْبانُ توهُّمُ كونِ الشَّيءِ على صفةٍ ليس عليها، والزَّعم: حكايةُ قولٍ يكون مَظِنَّةً للكذب، والظَّنُّ ترجيحُ أحدِ طرفي الشَّكِّ[4].

(1) السِّغناقيّ، الكافي شرح أصول البزدويّ: 2/717، والسّامرائّي، معاني النّحو: 4/146.
(2) الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/271.
(3) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 41 - 42.
(4) عبد العظيم، موسوعة الفروق القرآنيّة: 2/705.

﴿ثُمَّ لَمۡ تَكُن فِتۡنَتُهُمۡ إِلَّآ أَن قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشۡرِكِينَ ٢٣﴾

[الأنعام: 23]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الرَّبطُ بين الفتنةِ بالشِّركِ في الدُّنيا، والتَّبرُّؤ منهُ في الآخرةِ

لمّا بيَّن الله تعالى كونَ المشركين مفتونينَ بِشِركهم مُتهالِكينَ على حبِّه؛ أعلمَ في هذه الآية أنَّه لم يكن افتتانهُم بِشِركهم وإقامتهم عليه، إلّا أن تبرَّؤوا منه، وتباعدوا عنه، فَحَلفوا أنَّهم ما كانوا مشركينَ[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فِتۡنَتُهُمۡ﴾: الفتنةُ: الابتلاءُ والامتحانُ والاختبارُ، يُقالُ: فَتَنتُه، أفتِنُه، فَتْنًا وفُتونًا: إذا امتَحَنتُه، وأصلُ الفتنةِ مِنَ الفَتْنِ، وهو الإحراقُ، يُقالُ: فَتَنتُ الذَّهبَ، أي: أحرَقتُه بالنّار؛ لتمييز الجيِّد منَ الرَّديء، ويُسمَّى الصّائغ: الفتّانَ، ومن معاني الفتنةِ: التَّنقيةُ، والإزالةُ، والإعجابُ، والإثمُ، والقتلُ[2].

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

تبرُّؤ المشركين من شِركهم يومَ العرضِ على اللهِ في موقفِ الحشرِ

بيَّن اللهُ في هذه الآيةِ موقفَ الَّذين أشركوا يوم القيامةِ، بقولِه عنهم: ثمَّ لم تكن عاقبةُ الشِّرك ونتيجتُهُ الَّتي رأوها ماثلةً للعيان يوم القيامة، إلّا قولهم كذِبًا: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشۡرِكِينَ﴾، بل كنّا مؤمنين بك، موحِّدين لكَ، وذلك موقفٌ لهم في غايةِ التَّخاذلِ والخزي والحَيْرة[3]، بعدما كانوا مغترّين بالشِّرك، وبدينِ آبائهم وأجدادِهم[4].

(1) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 12/502، والقاسميّ، محاسن التّأويل: 4/333.
(2) ابن سيده، المحكم، والرّاغب، المفردات، والجرجانّي، التّعريفات: (فتن)، والكفويّ، الكلّيّات، ص: 692.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 9/189 - 192، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/176، وطنطاويّ، الوسيط: 5/57.
(4) حجازي، التّفسير الواضح: 7/68.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

إيثارُ التَّعبيرِ بـ ﴿ثُمَّ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ﴾:

كلُّ قولٍ فاسدٍ، أو اعتقادٍ ضالٍّ، فهو فتنةٌ بَلْقاءُ

آثَرَ القرآنُ الكَريمُ التَّعبيرَ بـ ﴿ثُمَّ﴾ الَّتي تفيدُ التَّرتيبَ الرُّتبيَّ، وهو الانتقالُ من خبرٍ إلى خبرٍ أعظمَ منه[1]، وأيضًا فيه إشارةٌ إلى أنَّ المشركين تحيَّروا في أمرِ الإجابةِ، فدفَعَتْهم حَيْرتُهم إلى الكذبِ المتعمَّد لمّا ضاقَت عليهم السُّبل، وفي ورود ﴿ثُمَّ﴾ هنا "إشارةٌ إلى أنَّ هذا القول الَّذي قالوه، هو فتنةٌ أخرى؛ إذ ما زالوا على ضلالهِم القديم، وتصوُّرِهم الفاسدِ، أنَّه تعالى لا يعلمُ ما قدَّموا وما أخَّروا، وما أَسَرّوا وما أَعلنوا.. فسمَّى (ﷻ) هذا القولَ منهم فتنةً.. ولم يقل (سبحانه): ثمَّ لم يكن قولهُم، أو جوابُهم.. إذ كان قولهُم هذا، هو فتنةٌ لهم وضلال مبينٌ"[2].

دلالةُ اختيارِ ﴿لَمْ﴾ دون غيرِها في قولِهِ تعالى: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ﴾:

أداةُ النَّفي ربطٌ لحاضرِهم في الحشرِ، بماضيهم الآثمِ في الدُّنيا

اختار القرآنُ الكريم التَّعبيرَ بـ ﴿لَمْ﴾؛ لأنَّها تحوِّل المضارعَ إلى ماضٍ، وفي هذا إشارةٌ إلى تمكُّنِ وصْفِ حالتِهم الَّتي هم عليها في يومِ القيامة، وفيه إشارةٌ إلى أنَّ سببَ الفتنة شركُهم، وهو موصولٌ بما فعلوا في دنياهم، ومعنى السّياق: "لم يكن جوابُهم حين يُفتنون ويُختبرون بذلك السُّؤال؛ إلّا إنكارَهم لشركِهم، وحَلِفَهُمْ أنَّهم ما كانوا مشركين"[3].

التَّعبيرُ بلفظِ (الفتنة) في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ﴾:

لفظُ (الفتنة) أوفقُ منَ التَّعبيرِ بجوابِهم؛ لأدائِهِ معنًى واحدًا فقط

آثَرَ التَّعبيرُ القرآنيُّ لفظَ الفتنة؛ لأنَّها في كلام العرب لفظةٌ مُشْتَرَكةٌ لها إطلاقاتٌ عديدةٌ، تتناسب بعضُها مع سياقِ الآيةِ؛ فمن هذه المعاني: أنَّها حُبُّ الشَّيء والإعجاب به، كما تقول: فُتِنْتُ بكذا، ومعنى الآية على هذا أنَّهم كانوا معجَبين بِكُفْرِهم، مفتخِرين به.

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/175.

(2) عبد الكريم الخطيب، التّفسير القرآني للقرآن: 4/148..

(3) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 253.

وتُطلق على اضطرابِ الرَّأي، والحَيرة في الأمرِ، ويكون التَّقدير على هذا في المعنى، لمّا سُئِلوا: أين شركاؤكم الَّذين كنتُم تزعمون؟ فاضطربوا واحتاروا في الجوابِ؛ فافتتنوا فيمَ يجيبون، فكان جوابُهم أن قالوا: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشۡرِكِينَ﴾.

وتُطلقُ أيضًا على معنى الاختبارِ، والمرادُ به السُّؤال؛ لأنَّ السُّؤال اختبارٌ عمّا عندَ المسؤولِ منَ العِلم، أو منَ الصِّدق، ويتعيَّن حينئذٍ تقديرُ مضافٍ، أي: لم يكن جوابُ فتنتِهم، أي: سؤالهُم عن حالِ إشراكهِم إلّا أن قالوا: واللّه ربِّنا ما كنّا مشركين[1].

وتُطلق الفتنةُ على الشِّرك والافتتانِ بالأوثانِ، ويُؤيِّد هذا الوجهَ ما روى عطاءٌ عن ابن عبّاس في هذه الآيةِ في قوله: ﴿ثُمَّ لَمۡ تَكُن فِتۡنَتُهُمۡ﴾، قال: (يريد شركَهم في الدُّنيا)، وهذا القولُ في التَّأويل راجعٌ إلى حذْف المضافِ؛ لأنَّ المعنى: لم تكن عاقبةُ فتنتهم إلّا البراءةَ، ومثلهُ قولُك: ما كانت محبَّتك لفلانٍ إلّا أنِ انتفيتَ منه، أي: عاقبةُ محَبَّتك[2].

ولأجل هذه المعاني كان اصطفاءُ لفظ الفتنةِ أوفقَ منَ التَّعبير بجوابِهم؛ لأنَّه سيؤدّي معنًى واحدًا فقط.

دلالةُ إضافةِ الفتنةِ إلى الضَّميرِ في قولِهِ: ﴿ثُمَّ لَمۡ تَكُن فِتۡنَتُهُمۡ إِلَّآ أَن قَالُواْ﴾:

يندمُ المشركون يومَ القيامةِ، ولاتَ حين مَنْدَمٍ

أضافَ الفتنةَ إلى لفظِ ضميرِهم؛ للدَّلالةِ على أنَّهم هم الَّذين أوقعوا أنفسَهم فيها بسبب شركِهم وإعجابِهم بما فعلوا، "إنَّ الحقيقةَ الَّتي تجلَّت عنها الفتنة، أو الَّتي تبلورت فيها الفتنةُ، هي تَخَلّيهم عن ماضيهم كلِّه وإقرارُهم بربوبيَّة اللّه وحده، وتعرّيهم من الشِّرك الَّذي زاولوه في حياتِهم الدُّنيا.. ولكن حيثُ لا ينفعُ

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/278، ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/175 - 176.
(2) الواحديّ، البسيط: 8/57، وطنطاويّ، الوسيط: 5/57.

الإقرارُ بالحقِّ والتَّعرّي من الباطلِ.. فهو إذًا بلاء هذا الَّذي تمثِّله قولتُهم، وليس بالنَّجاة.. لقد فات الأوانُ.. فاليوم للجزاءِ لا للعمل.."[1].

دلالةُ أسلوبِ القَصْرِ في قولِهِ: ﴿ثُمَّ لَمۡ تَكُن فِتۡنَتُهُمۡ إِلَّآ أَن قَالُواْ﴾:

دلالةُ الاستثناءِ في الآيةِ الكريمةِ

في الآيةِ أسلوبُ قَصْرِ صفةٍ على موصوفٍ، الفتنةُ مقصورٌ، والمقصورُ عليهِ هو الكذبُ الغليظُ، وهي مرتكزةٌ على الاستثناءِ، وعليه فإمّا أن يكون استثناءً مُفَرَّغًا، فيكونُ المستثنى منه منَ الأقوالِ الموصوفةِ بأنَّها فتنةٌ، فالتَّقدير: لم يكن لهم قولٌ هو فتنةٌ لهم إلّا قولَهم: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشۡرِكِينَ﴾، وإمّا أن يكونَ القولُ المستثنى دالًّا على فتنتهم، أي: على أنَّهم في فتنةٍ حين قالوهُ، وأيًّا ما كان؛ فقولهم: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشۡرِكِينَ﴾، متضمِّنٌ أنَّهم مفتونون حينئذٍ[2]، والتَّقدير: (ثمَّ لم تكن فِتْنَتُهم إلّا قولُهم)، وإنَّما كانت أفصحَ؛ لأنَّه إذا اجتمع اسْمانِ: أحدهما أعرفُ، فالأحْسَنُ جعلُه اسمًا مُحَدَّثًا عنه، والآخر خَبَرًا حديثًا عنه"[3].

دلالةُ التَّعبيرِ بالفعلِ الماضي (قالوا) في موضعِ المضارعِ:

ما ذكرهُ القرآنُ ممَّا سيقعُ وكأنَّه من الماضي؛ من الإعجازِ الغيبيِّ

عبَّر بصيغةِ الفعلِ الماضي (قالوا) في موضع المستقبل تحقيقًا لوقوعه[4]، والمعنى: "ثمَّ لم تكن عاقبةُ كفرهم - الَّذي لزموه أعمارَهم، وقاتلوا عليه، وافتخروا به، وقالوا: دين آبائنا - إلّا جحودَهُ والتَّبرُّؤَ منه"[5]، وهذا الملمحُ المذكورُ، سوف يكون واقعًا بلفظهِ ومعناهُ؛ لأنَّ الإخبارَ من عالِم السِّرِّ وأخفى، ومَن بيدهِ مقاديرُ الأمورِ، وتصاريفُ الأحوال، فلا يقع المقدور إلّا بما هو في علمهِ مسطورٌ.

(1) سيّد قطب، في ظلال القرآن: 2/1064.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/120، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/176.
(3) ابن عادل الدّمشقيّ، اللُّباب في علوم الكتاب: 8/72.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/467.
(5) إبراهيم الأبياريّ، الموسوعة القرآنيّة: 9/422.

دلالةُ توكيدِ الخبرِ بالقَسَمِ في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشۡرِكِينَ﴾:

توكيدُ الخبرِ بالقَسَم في الآيةِ دليلٌ على إحساسِهم النَّفسيِّ بأنَّ كذِبَهم مفضوحٌ لا يمكنُ تصديقُه، فَحَمَلَهم جهلُهُم بمعرفة اللّه في الدُّنيا على إعلان الكذبِ عليه في الآخرةِ، وهم في الواقعِ لم يكذبوا إلّا على أنفُسِهم، وفيه كنايةٌ عنِ التَّبرّي عنِ الشِّرك، وانتفاءِ التَّديُّن به.

القَسَمُ بيانٌ لعظمةِ المُقْسَمِ به في سياقِ الآيةِ الكريمة

دلالةُ ذِكْرِ الرُّبوبيَّةِ بعد ذكرِ الأُلوهيَّةِ في قولِهِ تعالى: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا﴾:

دلَّ قولهم: (ربِّنا)، ووصفُهم للمولى بذلك على المبالغةِ في التَّبرُّؤ منَ الإشراكِ[1] به شيئًا منَ المعبوداتِ، وذِكرُ المشركين الرَّبَّ (ﷻ) بالإضافة إلى ضميرِهم، ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا﴾ مبالغةٌ منهم في التَّنصُّل منَ الشِّرك، أي: لا رَبَّ لنا غيره، وقد كذَّبوا، وحلفوا على الكذب؛ جرّيًا على سَنَنِهم الَّذي كانوا عليه في الحياة[2].

القَسَمُ بالاسْمَيْنِ الجليلينِ مبالغةً في التَّنصُّلِ منَ الشِّرك

أثرُ القراءاتِ في تفسيرِ قولِهِ تعالى: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشۡرِكِينَ﴾:

في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشۡرِكِينَ﴾، قراءتان: الأولى: قراءةُ ﴿وَٱللَّهِ رَبَّنَا﴾ بنصبِ (ربَّنا) على النِّداء، بمعنى: (واللّهِ يا ربَّنا)، وفيه معنى الخضوعِ والتَّضرُّع للّه تعالى[3]. والقراءةُ الأخرى: قراءة ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا﴾ بجرِّ (ربِّنا) على النَّعتِ للّه (ﷻ)، والثَّناء عليهِ بما هو أهلُه[4].

تنوُّعُ القراءةِ في ألفاظِ الآيةِ، يفسحُ المجالَ لأكثرَ من معنى

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(الفتنة)، و(الابتلاء)، و(الاختبار):

الفتنةُ أشدُّ الاختبارِ وأَبْلَغُه، ويكون في الخيرِ والشَّرِّ، أَلا تسمعُ

(1) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 6/53، والسّمين، الدّرّ المصون: 7/81، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/120، والآلوسيّ، روح المعاني: 4/11، والمطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 1/197.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/177.

(3) قرأ بها حمزة والكسائّي وخلَف. يُنظر: ابن الجزريّ، النّشر، ص: 230، ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ابن خالويه، الحجَّة، ص: 137، ومكّيّ بن أبي طالب، الكشف: 1/427.

(4) قرأ بها الباقون. يُنظر: ابن الجزريّ، النّشر، ص: 230. ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ابن زنجلة، حجّة القراءات، ص: 244.

الفتنةُ خيرٌ وشرٌّ، والابتلاءُ تحمُّلُ مكروهٍ

قوله تعالى: ﴿أَنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞ﴾ [الأنفال: 28]، وقوله تعالى: ﴿لَأَسۡقَيۡنَٰهُم مَّآءً غَدَقٗا ١٦ لِّنَفۡتِنَهُمۡ فِيهِۚ﴾ [الجنّ: 16 - 17]، فجَعلَ النِّعمةَ فتنةً؛ لأنَّهُ قَصَدَ بها المبالغةَ في اختبارِ المُنْعَم عليهِ بها، كالذَّهب إذا أُريدَ المبالغةُ في تعرُّف حالهِ أُدْخِل النّار، واللّه تعالى لا يختبر العبدَ لتغيير حالهِ في الخيرِ والشَّرِّ، وإنَّما المرادُ بذلك شدَّةُ التَّكليف.

الاختبارُ يكون في فعل محبوب وفي تحمُّلِ مكروهٍ

أمّا الفرقُ بين الاختبار والابتلاءِ: فالابتلاءُ عادة لا يكون إلّا بتحميلِ المكارهِ والمشاقِّ، والاختبار يكون بذلك، وبفعل المحبوبِ، ألا ترى أنَّه يُقال: اختبرهُ بالإنعامِ عليه، ولا تقولُ: ابتلاه بذلك، ولا هو مبتلى بالنِّعمةِ، والاختبارُ يقتضي وقوعَ الخبر بحالهِ في ذلك، والخبرُ العلم الَّذي يقع بِكُنْهِ الشَّيءِ وحقيقتهِ، فالفرقُ بينهما بيِّنٌ. والفتنة تأتي أيضًا بمعنى الابتلاءِ، كما في قوله تعالى: ﴿الٓمٓ ١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ٢ وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ ٣﴾ [العنكبوت: 1 - 3][1].

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 396، وعدد منَ المتخصّصين، نضرة النّعيم: 1/8.

﴿ٱنظُرۡ كَيۡفَ كَذَبُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡۚ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ٢٤﴾

[الأنعام: 24]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

ما صارَ إلَيْهِ حالُهُمْ بعد أن ضلَّ عنهم ما أشركوا

لمّا بيّنتِ الآيةُ السّابقة كونَ المشركين مفتونين بِشِرْكِهم، مُتهالِكين في حبِّهِ؛ جاءت هذه الآية لِتُبَيِّنَ العاقبةَ الوخيمةَ لكفرِهم وشركِهم الَّذي لزموه أعمارَهم، والحسرةَ الَّتي أصابتهم عندما ضلَّ عنهم ما كانوا يشركونهُ مع اللّهِ[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَضَلَّ﴾: الضَّلالُ: الانحرافُ والمَيْلُ عنِ الطَّريق، يُقالُ: ضَلَّ فلانٌ، يَضِلُّ، ضلالًا؛ إذا انحرف وضاعَ ولم يهتدِ إلى الطَّريق، وأصلهُ: ضياعُ الشَّيء وذهابهُ في غير حقِّه. وقيل هو: الغيبوبةُ، والخفاء، والسَّتر[2]، وأضللتُ الشَّيءَ: ضيَّعته، والتَّضليل: تصييرُ الإنسانِ إلى الضَّلال، والتَّضْلال كالتَّضليل[3].

المَعْنَى الإجْمَالِيُّ:

تَأَمُّلُ فَظاعَةِ كذبِ المشركين بإنكارِهم شِرْكَهُمْ في الدُّنيا

أمر اللّه نبيَّه محمَّدًا ﷺ أن يتأمَّل كيف كَذَبَ هؤلاء المشركون على أنفسهم يومَ القيامة، وغاب عنهم شركاؤهم الَّذين زعموهم معَ اللّهِ تعالى، فلم ينفعوهم بشيءٍ، يقول لرسوله ﷺ: (انظر كيف كذَّبوا باليمينِ الفاجرةِ الَّتي أقسموها لِنَفْيِ شركِهم، وكيف ذهبَ عنهم ما كانوا يفترون من الإشراكِ، حتَّى نَفَوا صُدورَهُ عنهم)[4].

(1) رضا، تفسير المنار: 7/285.

(2) ابن دريد، جمهرة اللّغة، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن الأثير، النّهاية: (ضلل)، وابن فارس، معجم مقاييس اللغة: (ضلّ).

(3) ابن سيده، المخصّص: (الضّلال والباطل).

(4) أسعد حومد، أيسر التّفاسير، ص: 814.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ الاستعارةِ التَّصريحيَّة التَّبعيَّة في قوله تعالى: ﴿ٱنظُرۡ كَيۡفَ كَذَبُواْ﴾:

تقريبُ المعاني باستعارةِ الصُّورةِ، وتوظيفِها بإيجابيَّةٍ

في إطلاقِ النَّظرِ على التَّأمُّل استعارةٌ تصريحيَّةٌ تبعيَّةٌ، باسْتِعارَةِ محسوسٍ، وهو النَّظر بالعين الباصرة لمعقولٍ، وهو التَّأمُّل الذِّهنيُّ، وسِرُّه إظهارُ كذبِهم لفظاعتهِ حتَّى لكأنَّه يُرى رؤيةَ عينٍ، "وهنا تساؤلٌ ذكرهُ الزَّمخشريُّ: كيف يصحُّ أن يكذبوا حين يطَّلعون على حقائقِ الأمور، وعلى أنَّ الكذب والجحودَ لا نفع فيه؟ ثمَّ أجاب: المُمْتَحَنُ ينطقُ بما ينفعه، وبما لا ينفعه، من غير تمييزٍ بينهما، حيرة ودهشة، وهناك حالةٌ مماثلة: يقولون وهم يُعذَّبون في النّارِ: ﴿رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا مِنۡهَا فَإِنۡ عُدۡنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ١٠٧﴾ [المؤمنون: 107]، مع أنَّهم قد أيقنوا بالخلودِ، ولم يشكّوا فيه"[1].

دلالةُ المجازِ المُرسلِ في قولهِ: ﴿ٱنظُرۡ كَيۡفَ كَذَبُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡۚ﴾:

أسلوبُ التَّعجيبِ والمجازِ، يُسهمان في جلاءِ المعنى وتَوَخِّيه

والمرادُ منَ الأمرِ ﴿ٱنظُرۡ﴾: التَّعجيبُ، فهو مجازٌ مُرسَلٌ علاقته الإطلاقُ والتَّقييد، حيث أطلقَ النَّظرَ من معناهُ، وهو الوجوب، ثمَّ قَيَّدَ باستعمالهِ في مُطلَق التَّوجيه للتَّعجيب من كيفيَّة كذبِهم على أنفسِهم[2]، فذَكَر أنَّ عاقبةَ كفرِهم الَّذي لزموهُ أعمارَهم، وقاتلوا عليه، وافتخروا به، وقالوا: إنَّه دينُ آبائِنا - لم تكن إلّا الجحودَ والتَّبرُّؤَ منه والحلفَ على عدم التَّديُّن به[3].

القيمةُ الدَّلاليَّة للفعل ﴿ٱنظُرۡ﴾ في قولهِ تعالى: ﴿ٱنظُرۡ كَيۡفَ كَذَبُواْ﴾:

النَّظرُ في المآلاتِ من الحوادث الواقعاتِ، مسلكٌ للاتِّعاظِ والعبرةِ

في الفعل ﴿ٱنظُرۡ﴾ قيمةٌ دلاليَّةٌ تجعل المتلقّي في جوِّ المشاهدةِ الحقيقيَّةِ للموقفِ، والمتابعة لكلِّ ما يحدثُ أمامهُ لهؤلاء المكذِّبين من أحداثِ الحساب، فيجعلهُ أكثر إدراكًا ويقينًا بصدق الوعدِ،

(1) الزّحيلّي، التّفسير المنير: 7/165.
(2) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 1/298.
(3) رضا، تفسير المنار: 7/289.

وقربِ يوم الجزاء. من ذلك أيضًا تصويرُ اللَّحظات الَّتي يعيشها هؤلاءِ المشركون المكذِّبون، وهم واقفون أمام النّار، يعتصرون حسرةً وندامة على ما فرَّطوا في دنياهم، ثمَّ تمنّيهم العودةَ إلى الدُّنيا ليعملوا بعمل أهلِ الصَّلاح، وينتقلوا إلى دار النَّجاةِ والفلاح.

دلالةُ الاستفهامِ بالأداة ﴿كَيۡفَ﴾ من قولهِ: ﴿ٱنظُرۡ كَيۡفَ كَذَبُواْ﴾:

آثرَ القرآنُ الكريم استخدامَ أداةِ الاستفهامِ ﴿كَيۡفَ﴾؛ لأنَّها تصوِّر الهيئةَ والحالة النّاتجة عن شركهم، وكذبهِم على أنفسِهم، والنَّظر إلى الحالة بالتَّأكيد، هو نظرٌ لأصحابها، وواقعُ الحال أنَّهم كَذَبوا عَلى أَنۡفُسِهِمۡ بنفي أنَّهم أشركوا يومًا ما، وكان ذلك الإنكارُ العجيب أمام علّام الغيوبِ، وبحضرةِ من لا ينحصرُ من الشُّهود، ولكنَّهم غابَ عنهم ما كانوا يَفۡتَرونَ من الشُّركاء، فلم تغنِ عنهم من اللّه شيئًا، ففقدوا رجاءهم في شفاعتِها، وأملَهم في نصرتها لهم[1].

الكذبُ على الله سفاهةٌ وطيشٌ ممَّن يمارسه

سرُّ التَّعبيرِ بالفعلِ الماضي في قوله تعالى: ﴿كَيۡفَ كَذَبُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡۚ﴾:

عبَّر القرآنُ الكريم بالفعلِ الماضي ﴿كَذَبُواْ﴾، وإن كان معناهُ مستقبلًا؛ لأنَّه في يوم القيامة لمّا كان المعنى مُتحقِّقًا أبرزه في صورة الماضي، وهو على شاكلةِ الفعل (قالوا) من قبل، فالأمر وإن لم يكن قد أتى بعدُ؛ فإنَّ هذا على حكاية الحال، واللّه ﷻ دائمًا يحكي الأشياء المستقبلة حتَّى يتصوَّرها الإنسان وكأنَّها واقعةٌ، وإنَّما يكون ذلك لأنَّ الشَّيء المستقبَل المُحقَّق يكون كالواقعِ تمامًا؛ ولهذا قال اللّه ﷻ: ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ﴾ [النّحل: 1] مع أنَّه ما أتى، بدليل قوله: ﴿فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ﴾؛ فيكون التَّعبير بالماضي على حكاية الحالِ حتَّى يتصوَّر الإنسان وكأنَّ الشَّيء بين يديه[2].

المستقبلُ المُحقَّقُ بعلمِ اللهِ، يكونُ كالواقعِ تمامًا

(1) القاسميّ، محاسن التّأويل: 4/334.

(2) ابن عادل، اللّباب: 8/77، وابن عثيمين، تفسير القرآن الكريم - سورة الأنعام، ص: 127.

دلالةُ ذكرِ الجارِّ والمجرورِ في قوله: ﴿عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡۚ﴾:

التَّعجيبُ من كذبِهم على أنفسِهم، وبلادةِ الإحساسِ لديهم

ذكرَ القرآن الكريم الجارَّ والمجرورَ ﴿عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡۚ﴾ للدَّلالة على سَفَهِ عقولهم وضحالةِ تفكيرهم؛ لأنَّ مَن له مُسْكَةُ عقلٍ، إن كذب على النّاس فلا يكذب على نفسه؛ لأنَّه يعلم الحقيقة، وهذا دليلٌ على بلادة المشركينَ وبلاهتِهم، "وهذا تعجيبٌ لرسول الله ﷺ من حالهم المختلفة، ودعواهم المتناقضةِ. وقيل: لا يجوز أن يقع منهم كذبٌ في الآخرة، لأنَّها دار لا يجري فيها غير الصِّدق، فالمعنى: نفيُ شركهم عند أنفسِهم وفي اعتقادهم، ويؤيِّد هذا قوله تعالى: ﴿وَلَا يَكۡتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثٗا ٤٢﴾ [النّساء: 42]"[1].

دلالةُ العطفِ في قوله تعالى: ﴿وَضَلَّ عَنۡهُم﴾:

المعطوفاتُ منسجمةٌ في الدَّلالة لاشتراكِها في الحالة

دلَّتِ الواو على أنَّ الفعل ﴿وَضَلَّ﴾ معطوفٌ على ﴿كَذَبُواْ﴾، وبذلك يكون داخلًا في حيِّز النَّظر، ويكون المعنى على ذلك: انظرْ كيف كذبوا على أنفسِهم عندما عاينوا أهوالَ القيامة، وشاهدوا فيها صنوفَ العذاب، وبحثوا عن شركائِهم فما وجدوهم؛ فكان حالهم حالَ اليائسِ الحائر.

بلاغةُ الاستعارةِ التَّصريحيَّةِ التَّبعيَّةِ في قولِهِ: ﴿وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ﴾:

كلُّ مُفترًى من العقائدِ والأقوالِ، آيلٌ لا محالةَ إلى زوالِ

في ﴿وَضَلَّ﴾ استعارةٌ تصريحيَّة تبعيَّة، حيثُ استعارَ الضَّلال للاختفاء بجامع عدم الرُّؤيةِ في كلٍّ منهما، ومفاده: "انظر كيف كذَّبوا باليمينِ الفاجرةِ بإنكار صدورِ ما صدر عنهم؟ وكيف ذهب عنهم ما كانوا يفترونهُ من الإشراكِ، حتَّى نَفَوا صدورَهُ عنهم بتاتًا، وتبرَّؤوا منه غاية البراءة؟"[2]، وقد أبانتِ الاستِعارةُ هذا المعنى الممتدَّ، وأوضحت تلاشي الافتراءاتِ والمفتريات بما يؤكِّدُ بُطلانها.

(1) الشوكانّي، فتح القدير: 2/123.
(2) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 7/97.

التَّعبيرُ بالضَّلالِ دون الغَيبةِ في قولِهِ: ﴿وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ﴾:

آثَرَ القرآنُ الكريم التَّعبيرَ بالضَّلال في قوله: ﴿وَضَلَّ عَنۡهُم﴾، وإن كان فيه معنى التَّغييبِ، كما في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلۡنَا فِي ٱلۡأَرۡضِ أَءِنَّا لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدِۭۚ﴾ [السّجدة: 10]، فهو يشيرُ مع معنى الغيابِ للأصنام وللأوثانِ في الأرض، وصارت ترابًا اختلطَ بترابِ الأرض، فلا يعرفون لها رسمًا ولا وزنًا؛ أو غابت في وقودِ المشركين في جهنَّم؛ فمع هذا المعنى الحسّيِّ إلّا أنَّه يشير إلى التَّقريعِ والتَّوبيخِ لهؤلاء المشركين، بأنَّهم على ضلالٍ، وهذا واضحٌ في استعمالِ القرآنِ الكريم لهذا الفعل (ضلَّ)، في موقفِ المشركين مع شركائهم في البحثِ عنهم يوم القيامة في كثيرٍ منَ الآيات.

السِّياقُ يجمعُ بين المعنى الحسِّيِّ والمعنويِّ لتقريعِ المشركينَ

دلالةُ ﴿مَّا﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ﴾:

في التَّعبير عنِ الشُّركاءِ باللَّفظِ (ما) الَّذي يُطلَق على غير العاقلِ، بعد أن عبَّرَ عنهم بـ (الَّذين) الَّذي يُطلَق على (العاقل)؛ دليلٌ على تحقيرِ أولئك الشُّركاءِ، أو المقصود بـ (ما) الباطل الَّذي كانواْ عليه[1]. ويضاف إلى ذلك إفادةُ العموم؛ فكلُّ ما أشركوه منَ الأصنام حَجَرًا أو خَشبًا، أو من أيِّ جنسٍ آخرَ غاب عنهم، حتَّى لَوْ بحثوا فلن يجدوه، وأصبحت عبادتُهم لشركائهم ﴿كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥۗ﴾ [النّور: 39].

المفترى من الشُّركاءِ يومَ الحسابِ كالمرئيِّ بالعيونِ منَ السَّراب

الجمعُ بين الماضي والمضارع في قوله: ﴿وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ﴾:

جُمع بين صيغتَي الماضي والمضارعِ في الآية الكريمة للدَّلالة على الاستمرارِ في الأزمنة الثَّلاثة، إن كان التَّعجيبُ من حالهم تعجيبًا للنَّبيِّ ﷺ في الدُّنيا من حالهم يوم القيامة، أمّا إن كان للتَّعجيبِ الَّذي سيقعُ يوم القيامة فهو بالنِّسبةِ إلى زمان الحكمِ إخبارٌ عنِ

تنوُّعُ أزمنةِ الأفعالِ في السِّياق الواحدِ، يعينُ على التَّصوُّرِ والفهمِ

(1) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 1/298.

الاستمرار في الدُّنيا، أي: في الماضي، ولا ريب أنَّ الدَّلالة الاستقباليَّة لهذا التَّركيب، ترجع لوقوع المضارعِ خبرًا للفعلِ النّاسخ (كان).

دلالةُ الفعلِ ﴿كَانُواْ﴾ في قولِهِ: ﴿وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ﴾:

الفعلُ النّاسخُ (كان)، إنَّما يدلُّ على الاستمرار في المضيِّ بمعونةِ القرينة، فإذا ما دلَّ على استمرارٍ مُستقبَليٍّ، فليس ذلك إلّا لوجودِ ما يُساعد على ظهورِهِ من قرينةٍ، كوقوع المضارع خبرًا له ﴿يَفۡتَرُونَ﴾؛ أو كأنْ يكونَ خبرها ممّا يقتضي الاستمرار في الأزمنة الثَّلاثة، أو أن يكون خبرها أمرًا أزَليًّا، كما في صفاتِهِ (ﷻ) في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ۝٥٦﴾ [النّساء: 56][1].

دلالةُ فعلِ الكينونةِ الماضي على الاستمرارِ في المستقبلِ تبرزهُ القرينةُ

دلالةُ التَّعبيرِ بقولِهِ: ﴿مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ﴾ بدلًا من (مَا كَانُواْ يَعۡبُدُونَ):

آثر القُرآنُ التَّعبيرَ بالفعل ﴿يَفۡتَرُونَ﴾ إشارةً إلى أنَّ ماكانوا يعبدونهم من دون اللّهِ قد أخلَوا أيديهم منهم، وتبرَّؤوا منَ الصِّلة الَّتي أقامها المشركونَ معهم؛ فلم يعتدّوا بعبادتِهم؛ بل أنكروها؛ لأنَّ ما فعله المشركون هو محضُ افتراءٍ لا أصلَ له لا في العقلِ، ولا في الشَّرعِ.

ما يفتريه المضلُّون، لا يقبله عقلٌ، ولا ترتضيه شريعةٌ

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(النَّظر) و(البصر) و(الرُّؤية):

النَّظر: تقليبُ البصيرةِ لإدراك الشَّيءِ ورؤيتِهِ، وقد يرادُ به التَّأمُّلُ والفحص، وقد يُراد به المعرفة الحاصلةُ بعد الفحص، واستعمالُ النَّظرِ في البصر أكثرُ عند العامَّةِ، وفي البصيرة أكثر عند الخاصَّة[2]، والبَصَر: يُطلق على الجارحةِ تارَة، وعلى القوَّة الَّتي فيها أخرى، والبصيرةُ: للإدراك الَّذي في القلب، ويُقال لها بصرٌ أيضًا، فالبصرُ يُطلَق بإزاء هذه المعاني الثَّلاثة[3]، وأمّا الرُّؤيةُ: فهي إدراكُ

النَّظرُ: تدبُّرُ الشَّيءِ، والبصرُ: إبصارهُ بالحاسَّةِ، والرُّؤيةُ: إدراكُ حقيقتِهِ

(1) العمريّ، بلاغة القرآن الكريم، ص: 241.
(2) الفيروزابادي، بصائر ذوي التّمييز: 5/82.
(3) الرّاغب، المفردات، والسمين، عمدة الحفّاظ: (نظر)، (بصر).

المرئيِّ، وذلك على أوجهٍ بحسب اختلاف قوى الإنسان، فالأوَّل: الرُّؤيا بالحاسَّة، وهو إدراكُ البصر، والثّاني: بالوهم والتَّخيُّل، والثّالث: بالتَّفكير، والرّابع: بالعقل[1]. وقد تبيَّن من تعريف أهل اللُّغةِ للنَّظر والبصر والرُّؤية أنَّ بينها فروقًا واضحةً، ولكن لكثرةِ استعمال كلٍّ منها في باب المجازِ أدَّى إلى تداخل دلالاتها، ويمكن إجمالُ الفروق الأساسيَّة بينها؛ أنَّ بصرَ الشَّيء يعني: إبصارَ صورته وشكلهِ بحاسَّة البصر، ورؤية الشَّيء يعني: إدراكَ حقيقته بالحاسَّة، أو بالوهم والتَّخيُّلِ، أو بالتَّفكُّر، أو بالتَّعقُّل، فالفرقُ بين البصر والرُّؤية؛ أنَّ بصرَ الشَّيء يعني: إبصارَهُ بحاسَّة البصر، ورؤيتَهُ تعني: إدراكَ حقيقته؛ لأنَّ إدراك الشَّيء يكون بعد إبصارهِ. فقولهُ تعالى على سبيل المثال: ﴿يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ﴾ [آل عمران: 13]، تقديره: أبصروهُم، فرأَوْهم مثلَيْهم، والنَّظرُ في الشَّيء، يعني: تدبُّرَهُ وتأمُّلَه؛ ولهذا كثر تعدّيه إلى مفعوله بـ (في)، وإذا تعدَّى بـ (إلى) أفاد توجيهَ النَّظرِ إليه سواءٌ أبصره ورآهُ، أم لم يبصرهُ ولم يرَهُ[2].

(الضَّلال) و(السَّفاهة) و(الغيّ):

الضَّلالُ من صفات الفعل، تقول: ضلَّ فهو ضالٌّ، والسَّفاهة من صفات النَّفس، وهي ضدُّ الحِلْم، وهي معنًى ثابتٌ يولِدُ الخفَّة والعجلة المذمومتَيْن، والحِلمُ معنًى ثابتٌ يولِد الأناة المحمودة[3]، والضَّلال أعمُّ منَ الغَواية، وهو ألّا يجدَ السّالك إلى مقصده طريقًا أصلًا، والغَواية ألّا يكونَ له إلى المقصد طريقٌ مستقيم؛ ولهذا لا يُقال للمُؤمن: إنَّه ضالٌّ أو غير مُهتدٍ، ويقال له: إنَّه غويٌّ غير رشيد[4].

الضَّلالُ: صفةٌ للفعل، والسَّفاهةُ: صفةٌ للنَّفسِ، والغَواية: انحرافٌ عن الجادَّةِ

(1) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 1/195 - 196.
(2) زيدان، الفروق اللّغويّة، ص: 285.
(3) الإسكافيّ، درّة التّنزيل: 2/605.
(4) الخازن، لباب التّأويل: 4/203، والنّيسابوريّ، غرائب القرآن: 6/199، والشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 7/4209.

﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ۖ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا ۖ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنعام: 25]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

ربطُ أحوالِ المشركين في الآخرة ببيانِ أسبابِ الجهلِ والكفرِ والتَّكذيبِ

بعد أن بيَّن الحقُّ تعالى أحوالَ الكفّارِ في الآخرة أَتْبَعهُ بما يوجِبُ اليأسَ من إيمان بعضهم، فقال: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾[1]، وهو كلامٌ مَسوقٌ لحكاية ما صدرَ في الدَّنيا عن بعض المشركين من أحكامِ الكفرِ، ثمَّ بيانِ ما سيصدر عنهم يوم الحشرِ؛ تقريرًا لما قبله، وتحقيقًا لمضمونه[2] - جاءت هذه الآيةُ لتبيِّن سببَ ما وصلوا إليه في هذه الحالة، وذلك بأنَّهم عندما كانوا يسمعون دعوة الرَّسول ﷺ كانت قلوبهم مغلَقةً لا يصل إليها النّور الإلهيُّ؛ لشدَّة إعراضِهم عنِ القرآن، ووصفِهم له بالأساطيرِ.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَسْتَمِعُ﴾: السَّماعُ: هوَ إيناسُ الشَّيء بالأُذن منَ النّاس وكلِّ ذي أُذنٍ، تقول: سَمِعتُ الشَّيء سَمعًا، ويأتي بمعنى: الطَّاعة، فيُقال: سَمِعَ الأمرَ، إذا أطاعه، والسَّمع: قوَّةٌ في الأُذنِ بها تُدرك الأصواتُ، والسَّماع: اسمُ ما استلذَّتِ الأذنُ من صوت حسن، ومن معانيه أيضًا: الإجابةُ، والفهمُ، والغناء، وما سَمِعتَ به، فشاع، وتُكلِّم به[3].

2) ﴿أَكِنَّةً﴾: الكِنانُ: الغطاء الَّذي يُكَنُّ فيه الشَّيءُ، والجمع

(1) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 12/504.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/121، والآلوسّي، روح المعاني: 4/118.

(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والجوهريّ، الصّحاح، وابن منظور، لسان العرب: (سمع).

أَكِنَّةٌ، نحو: غطاءٍ وأَغطية. والكِنُّ: كلُّ شيءٍ وقى شيئًا، فهو كِنَّةٌ وكِنانَةٌ[1]. يعني في أَكِنَّةٍ عَلَيْها الغطاء، فلا تَفْقَه ولا تفهم ما تَقولُ[2]. والأَكِنَّةُ: جمعُ كِنانٍ بكسر الكاف، وهو وِقاءُ كلِّ شيءٍ وسَتْرُه، ويُجمعُ على أَكْنانٍ أيضًا، وكَنَّه وأَكنَّه: سَتَره، قال أبو زيد: الثُّلاثيُّ والرُّباعيُّ لغتان في السَّتْرِ والإخفاء جميعًا، واستَكَنَّ: اسْتَتَر، وأَكننتُهُ في نفسي: سَترتُهُ وأضمرتُه، وسمّيتْ جَعْبَةُ السِّهام: كنانةً؛ لأنَّها تستُرها، فإذا أراد إخراجَها؛ نثرَها[3].

3) ﴿يَفْقَهُوهُ﴾: الفِقْهُ: الإدراكُ والعلمُ بالشَّيءِ، والفقيهُ: العالِمُ، وكلُّ علم بشيءٍ فهو فقه. وقيل الفقهُ: إدراكُ دقائق الأمورِ، وأصلهُ: الفتحُ والشَّقُّ. ويأتي الفقهُ بمعنى: الفهم، يُقال: فَقِهتُ الحديثَ، أي: فهمتُه، وقيل: هو الفهمُ بعد الجهلِ. ويُستَعمَل أيضًا بمعنى: العقلِ، والفِطْنةِ[4]، يقال: فَقِه يفقَه؛ إذا فهمَ، وأَفقَه غيرَه؛ إذا أفهمَه، وفقُه يفقَه؛ إذا صار فقيهًا[5]. وقيل: الفقهُ يدلُّ على إدراكِ الشَّيء والعلم به، تقول: فَقِهْتُ الحديثَ أَفْقَهُهُ، وكلُّ علمٍ بشيءٍ فهو فِقهٌ، يقولون: (لايَفْقَه ولايَنْقَه)، ثمَّ اختصَّ بذلك علمُ الشَّريعة، فقيل لكلِّ عالمٍ بالحلال والحرام: فقيهٌ، وأَفْقَهْتُك الشَّيءَ؛ إذا بيَّنْتُه لك"[6].

4) ﴿وَقْرًا﴾: الوَقْرُ: ثِقَلٌ في الأُذُن، أو هو ذهابُ السَّمع كلِّه، والثِّقل أخفُّ من ذلك، وأصلُ الوَقْر: ثِقلٌ في الشَّيء، يُقالُ: وقَر الشَّيءُ يَقِرُ وقْرًا، أي: ثَقُلَ، والوِقْرُ: الحِملُ، ومنه الوَقارُ: الحِلمُ والرَّزانةُ[7]، قال ابن عبّاس: صَممًا، وقال الضَّحّاك: ثِقلًا، وليس المعنى: أنَّهم لم يعلموا ولم يسمعوا، ولكنَّهم حُرِموا الانْتِفاعَ به، فكانوا بمنزلة مَن لم يعلم، ولم يسمع"[8].

5) ﴿يُجَٰدِلُونَكَ﴾: الجدَلُ: شدَّةُ الخصومةِ، والمجادلةُ والجِدالُ: المناظرةُ والمخاصَمة، يُقال: جادله، أي: ناظرَهُ وخاصمه، ويأتي بمعنى الغَلَبةِ، وأصله منَ الجَدْل، وهو: القوَّة والصَّلابة، ومنه سُمّيتِ المناظرةُ جَدَلًا؛ لأنَّ فيها إظهارًا للقوَّة والشِّدَّة[9].

---

(1) الخليل، العين: (كنّ)، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والجوهريّ، الصّحاح: (كنن)، والرّاغب، المفردات: (كنّ).
(2) مقاتل بن سليمان، تفسير مقاتل: 1/419.
(3) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 3/85.
(4) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللّغة، والزّبيدي، تاج العروس: (فقه).
(5) مكيّ بن أبي طالب، الهداية: 6/4463.
(6) ابن فارس، معجم مقاييس اللّغة: 4/442.
(7) الخليل، العين، وابن عباد، المحيط، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والزّبيدي، تاج العروس: (وقر).
(8) النّيسابوريّ، الوسيط في تفسير القرآن المجيد: 2/261.
(9) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن سيده، المحكم، وابن منظور، لسان العرب: (جدل).

6) ﴿أَسَٰطِيرُ﴾: الأساطيرُ: الأباطيلُ، والأساطير: أحاديثُ لا نِظامَ لها، واحدتها إسطارٌ وإسطارةٌ، بالكسرِ، وسطَّرها: ألَّفها، وسطَّر علينا: أتانا بالأساطير، يُقالُ: سطَّر فلانٌ علينا يُسطِّرُ؛ إذا جاء بأحاديثَ تشبه الباطل[1]، وهذه أُسطورةٌ من أساطير الأولين: مما سطَّروا من أعاجيبِ أحاديثِهم، وسطَّر علينا فلانٌ: قصَّ علينا من أساطيرهم[2]، وقال الزَّجّاج في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ [الفرقان: 5]، خبرٌ لابتداء محذوفٍ، المعنى: وقالوا الَّذي جاء به أساطير الأوّلين، معناه: سطَّرَه الأوَّلون، وواحدُ الأساطير: أسطورةٌ، كما قالوا: أحدوثةٌ وأحاديثُ"[3].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

بيانُ أنَّ من المشركين من في أذنيهِ وقرٌ، يحجبهُ عن التَّأثُّرِ بالقرآن وتصديقِهِ

يُخبِرُنا تعالى أنَّ مِنَ أولئك المشركين، مَن لا ينتفعون بسماعِ القرآن الكريم من النَّبيِّ المبلِّغ، حيث جعلَ اللّٰه في آذانهم وقْرًا، وعلى أبصارهِم غشاوةً، وعلى قلوبهِم رانًا، فلا يتأثَّرون بالقرآن ولا يهتدون بنوره السّاري، وقد جُبلوا على المكابرةِ، وفُطروا على المنابذةِ، وتمرَّسوا على العناد الشَّديد، والجحود العتيدِ، ولم تُغْنِهم حُجَجٌ واضحةٌ، ولا براهينُ ساطعة، ولا بلاغة محكَمةٌ، ولا أحكامٌ ملهمَة، بل راحوا يجادلون النَّبيَّ الأكرم، ويتَّهمون الكتاب الأعظم بأنَّه أساطيرُ مقتبسةٌ عن السّابقين، وهم بذلك ينصرفون عن الحقِّ، وينهون النّاس عن اتِّباعه، ولا يدرون أنَّهم يضرّون أنفسَهم دون شعورٍ بالعواقب.

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالةُ عطفِ قوله: ﴿وَمِنۡهُم مَّن يَسۡتَمِعُ إِلَيۡكَۖ﴾ على قولهِ: ﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ﴾:

لا تعجلْ بالحُكْمِ على المضمونِ، فعندَ الخُبْرِ تنقطع الظُّنونُ

عُطِفَت جملة ﴿وَمِنۡهُم مَّن يَسۡتَمِعُ إِلَيۡكَۖ﴾ على قوله: ﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ﴾، لما بينهما منَ الاتِّصال؛ فهو من باب عطف جملة ابتدائيَّةٍ

(1) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (سطر).
(2) الزّمخشريّ، أساس البلاغة: (سطر).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (سطر).

على الجمل الابتدائيَّة الَّتي قبلها من قوله: ﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ﴾، وفي هذا العطفِ إشارةٌ إلى أنَّ الحديثَ ما زال موصولًا عنِ المشركين الَّذين بدأ الحديث عنهم في أوَّل السّورة بقوله: ﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡ يَعۡدِلُونَ ١﴾ [الأنعام: 1]، والمعنى: ومنَ الكفّارِ مَن يستمعُ إليك[1].

دلالةُ التَّعبيرِ بـ (من) التَّبعيضيَّة في قولِهِ: ﴿وَمِنۡهُم مَّن يَسۡتَمِعُ إِلَيۡكَۖ﴾:

التَّعبيرُ بـ (من) الَّتي تفيد التَّبعيضَ، فيه إشارةٌ قرآنيَّةٌ إلى تصنيف كفّارِ مكَّةَ، فليسوا كلُّهم على حالةٍ واحدة؛ فهناك مَن يجعلون أنفسهم منَ العقلاءِ الَّذين يربؤون بأنفسِهم عن أن يقابلوا دعوة الرَّسول ﷺ بمثل ما يقابلهُ به سفهاؤهم، منَ الإعراضِ التّامِّ[2]، بل يسمعون أوَّلًا، حتَّى يوهموا ضعفاءَ العقول، بأنَّهم رفضوا عن قناعةٍ لا عن حماقةٍ، فيستميلونهم إلى الإنكار والكفرانِ بطريقة ذكيَّةٍ، واستدراج ماكرٍ لئيم، وهذا منهجٌ واضحٌ في تضليل أئمَّة الكفر لأَتْباعهم، ينبغي الحذرُ منه في القديم والحديث، وهذا ما يفعلهُ المستشرقون وأعداء الإسلام في قراءتِهم للقرآن الكريم، يقولون: نحن نقرؤُه، ولكن نجد فيه تناقضًا وأخطاءَ من جوانبَ عديدةٍ في زعمهم.

مَنِ استعملَ عقلَهُ؛ أبصرَ السَّبيلَ، ومن عاندَ؛ تنكَّبَ الحقَّ

دلالةُ التَّعبيرِ بضميرِ الغَيبةِ ﴿وَمِنۡهُم﴾، للتَّهوينِ من شأنِ المشركينَ:

التَّعبيرُ بالضَّمير فيه تسليةٌ للرَّسول ﷺ، وتهوينٌ من شأن هؤلاء المشركينَ؛ لأنَّ الرَّسولَ ﷺ، كان يَحْزُنُه عدمُ إيمانِهم؛ فعبَّر القرآنُ عنهم بالضَّميرِ؛ لبيان أنَّهم مع ادِّعائهم زعامةَ قريش؛ فهم عند اللّهِ لا وزنَ لهم؛ لأنَّهم في حكم الغَيبةِ. ويؤكِّد هذا المعنى ما رواهُ ابن عبّاسٍ بقوله: إنَّ أبا سفيان بن حرب، والوليد بن المغيرة، والنَّضْرَ بن

كلُّ من عاندَ الرَّسول وأنكرَ القرآنَ؛ آلَ إلى الهَلكةِ والهوان

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/178.

(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/279، والقنّوجيّ، فتح البيان: 4/12، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/179، والخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 4/150.

الحارثِ، وعُتبة وشَيبة ابنَيْ ربيعة، وأميَّة بن خلف؛ استمعوا إلى رسول الله ﷺ وهو يقرأ القرآنَ، فقالوا للنَّضْر: يا أبا قتيلةَ ما يقول محمَّد؟ فقال: والَّذي جعلها بيتَه (الكعبة) ما أدري ما يقولُ، إلّا أنّي أرى تحرُّكَ شفتيه يتكلَّم بشيءٍ، فما يقول إلّا أساطيرَ، مِثْلَ ما كنتُ أحدِّثكم عنِ القرون الماضية، وكان النَّضْر كثيرَ الحديث عنِ القرون الأولى، وكان يحدِّثُ قريشًا، فيستملحون حديثَه[1].

دلالةُ التَّعبيرِ بصيغةِ الإفرادِ في قوله تعالى: ﴿مَّن يَسۡتَمِعُ إِلَيۡكَۖ﴾:

في قوله تعالى: ﴿يَسۡتَمِعُ﴾، جاء الفعلُ بصيغة الإفرادِ مراعاةً للَّفظ (مَن)؛ لأنَّ (مَن) الموصولة يجوز أن يُراعى معناها، وأن يُراعى لفظها، فإذا روعي معناها؛ جُعِل العائد عليها حسب ما يراد بالمعنى، وإذا روعي اللَّفظ؛ صار مفردًا[2]، فالقرآنُ لايصلُ إليهم أفرادًا وجماعة، لِلوَقْرِ الَّذي وُصِدَتْ به مسالكُ السَّمع لديهم، وقد تفاهموا فيما بينَهم على الإعراضِ، ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ ٢٦﴾ [فصّلت: 26]، وعلى ذلك لايكون لاستماعِهم جدوى، ولا لدعوتهم فائدةٌ[3].

إذا سُدَّت منافذُ الهدايةِ؛ انتهى صاحبها إلى أَسْوأِ نهايةٍ

دلالةُ اختيارِ الاستماعِ (إليك) دون الجلوسِ أو الإتيانِ:

عبَّر بالسَّماع دون الجلوسِ أو الإتيان؛ لأنَّ السَّماع يلزمُ منه ذلك، بخلاف الإتيانِ والجلوس؛ فلا يلزم منه السَّماع، فقد يأتي ولا يسمعُ، وفيه إشارةٌ إلى أنَّ سماعَهم ليس لغرضٍ محمود، بل لغرضٍ مذموم.

مَنْ ساءَتْ بالحقِّ نواياهُ؛ لم يتعرَّف على هدايةِ مولاهُ

دلالةُ التَّعبيرِ بالجارِّ والمجرور (إليك) بدلًا منَ (اللَّام):

عدل التَّعبيرُ القرآنيُّ عنِ اللّام إلى (إليك)؛ ليفرِّقَ بين نوعين منَ السَّماع؛ فالفعل المتعدّي باللّام يفيد سماعَ قبولٍ ورضا، قال

(1) الآلوسّي، روح المعاني: 4/118، وطنطاويّ، الوسيط: 5/58.
(2) ابن عثيمين، تفسير القرآن الكريم - سورة الأنعام، ص: 132.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5: 2472.

تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ۝٢٠٤﴾ [الأعراف: 204]، بخلاف المتعدّي بـ (إلى)؛ فإنَّه يفيد أنَّ سماعَهم لا يتجاوزُ زمان السَّماع ومكانه؛ فلا يصلُ إلى قلوبهم؛ فالغايةُ عندهم مجرَّد السَّماعِ، وليس الإيمان، وفيه إشارةٌ إلى إظهارِ المبالغة في السَّماع؛ كأنَّهم يسمعون إليك في كلِّ ما تقول.

لاينفعُ أن تكونَ الأذنُ سامعةً، والقلبُ في صَممٍ

إيثارُ كافِ الخطابِ في (إليك) من قوله: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾:

آثَرَ القُرْآنُ الكَريمُ كافَ الخطابِ في قوْلِهِ: ﴿إِلَيْكَ﴾ للإشعار بعلوِّ قدرِهِ ﷺ، وأنَّه في محلِّ الخِطاب، وكان عليهم أن يسمعوا سماعًا حقيقيًّا، يصل بهم إلى الإيمانِ، فالعيبُ فيهم، وليس فيما تقولُ يا رسولَ الله ﷺ، وقد كان أصدقَ النّاس لهجةً، وأفصحَهم لسانًا، وأصدقَهم نُصحًا، وأسرعَهم تطبيقًا لما يقول على نفسِه، فكان الاستماعُ إليه مفيدًا ومؤثِّرًا، لو أنَّهم استمعوا إليه بإنصافٍ وصدقٍ، ولكنَّهم لا يشعرون بذلك، فَعَموا وصَمّوا.

رسولُ اللهِ قدوةٌ وكمالٌ، والإصغاءُ إليه طاعةٌ للهِ ونوالٌ

دلالةُ التَّعبيرِ بالجَعْل مكانَ الخَلْقِ في قوله: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾:

عبَّر بالجَعْل للإشارة إلى أنَّ ما جعله اللهُ على قلوبهم منَ الأكنَّةِ، وفي آذانهم منَ الوَقْر؛ لعلم الله الأزليِّ القديم، بأنَّهم سيكونون على هذه الحالةِ من صمِّ آذانِهم، وإغلاقِ قلوبهم عن قَبول الدَّعوة الإسلاميَّة إلّا النَّزرَ اليسيرَ منهم؛ بخلاف الخَلْق، فقد يُتصوَّرُ أنَّ الأمرَ فُرض عليهم، ولا دخلَ لهم فيه، ومعاذَ الله أن يظلمَ ربُّك أحدًا.

مَنِ انغلقَ قلبُه عنِ الهُدى، تخبَّطَ في الضَّلالةِ وما اهتدى

دلالةُ الجارِّ والمجرورِ في قوله: ﴿عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾:

(على) تفيدُ الاستعلاءَ، والمرادُ: استعلاءُ الأكنَّة على القلوب، وبذلك تكون تحت الغطاءِ، وتمكَّنت منه، بحيثُ لا يصل إليه شيءٌ، ولعلَّ السِّرَّ في ذلك، أنَّهم قالوا في سورة فصِّلت: ﴿وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ﴾ [فصّلت: 5]؛ ليُعْلِنوا إعراضَهم التّامَّ عن سماع القرآن؛ فلمّا قالوا ذلك؛ عاقبَهم الله تعالى، بأن جعلَ

مَن طُمِسَ قلبُهُ لم تجدِ الهدايةُ إليه سبيلًا

الأكنَّةَ على قلوبِهم؛ بحيثُ تتمكَّن منهم؛ فلا يستطيعون إخراجَ ما فيها منَ الكفرِ.

دلالةُ اختيارِ لفظِ القلوبِ دونَ الأفئدةِ أو الصُّدورِ:

اختار القلوبَ لأنَّها محلُّ التَّكليف، قال تعالى: ﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ [البقرة: 225]، ولأنَّها محلُّ الإيمان ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ﴾ [المجادلة: 22]؛ ولأنَّها محلُّ القوَّة العاقلةِ، قال تعالى: ﴿وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾ [الحج: 46]، إلى غير ذلك منَ الخصائص الَّتي تؤكِّد أصالةَ القلب، وأنَّ الفؤادَ والصَّدر تابعان له.

القلبُ موئلُ الإيمانِ، وجارحةُ الوصلِ بالرَّحمنِ

دلالةُ إضافةِ الضَّميرِ في قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾:

أضاف القلوبَ إلى الضَّميرِ؛ لإفادةِ التَّخصيص، وكأنَّها تشير إلى فريقٍ من مشركي مكَّة؛ هم الَّذين جعلَ اللّٰه على قلوبهم أكنَّةً، وفي آذانهم وقْرًا، أمّا بقيَّة مشركي مكَّةَ؛ فدخلوا في دينِ اللّٰه أفواجًا، وقد نصر اللّٰه بهم الدّينَ، وهداهم إلى طريقه المستقيم.

من المشركين أشقياءُ هلكوا، وسعداءُ أسلموا وتألَّقوا

سرُّ تقديم السَّمعُ قبل الفقهِ:

من خلال قوله: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾ وقوله: ﴿أَن يَفْقَهُوهُ﴾ جاء تقديم السَّمع على الفِقه؛ لأنَّه أوَّل عضوٍ يؤدّي وظيفته في الدُّنيا، فله سبقُ الوجود، ولأنَّ السَّمع مُتقدِّمٌ في الوجود على الفقهِ؛ إذ لا يَفْقَه الإنسانُ الشَّيءَ حتَّى يسمعه، فقدَّم في اللَّفظَ ما هو مُتأخِّر في الوجود، وفيه إشارةٌ إلى أنَّ السَّماع يشمل المكتوب وغيره؛ لأنَّ الدَّلائلَ السَّمعيَّةَ منها مسموعٌ، ومنها مكتوبٌ، وكلُّها راجعةٌ للسَّمع؛ لأنَّ المكتوب يُسمع قبل كتبه، وحينئذٍ يُكتب، ومعلومٌ أنَّ نفيَ الأعمِّ يستلزم نفيَ الأخصِّ، وثبوتَ الأخصِّ يستلزم ثبوتَ الأعمِّ ولا ينعكس، والمسموعُ أعمُّ؛ لأنَّ منه ما يُفهم، ومنه ما لا يُفهم، فلو قُدِّم أوَّلًا لكان نفيُ الفهم عنه تأكيدًا، فلمّا قيل: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ

نفيُ الأعمِّ يستلزمُ نفيَ الأخصِّ، وثبوتُ الأخصِّ يستلزمُ ثبوتَ الأعمِّ

﴿أَكِنَّةً﴾، انتفى عنهم الفهم، وبقي السَّمع بلا فهم، فبقي ثانيًا، وكان تأسيسًا. وأجابَ بعضهم: بأنَّ المرادَ الفهم بقصد، والسَّمع أصلُه، والمقصدُ أشرفُ منَ الوسيلة فقُدِّم للاهتمام[1].

التَّعبيرُ بالاستماعِ بدلًا منَ السَّماع في قوله: ﴿مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾:

عبَّر بالاستماعِ لأنَّه في الآية بمعنى الإصغاءِ المشوبِ بالاستعلاءِ والانتقاد، لا استماع تدبُّرٍ وانقياد، وهو لازم يعدَّى بـ (اللّام) و(إلى)، كما صرَّح به أهل اللُّغة، وقيل: إنَّه مُضمِّن معنى الإصغاءِ، ومفعوله مُقدَّرٌ، وهو القرآن[2].

الزِّيادةُ في المبنى تُفضي إلى زيادةٍ في المعنى

دلالةُ إسنادِ الفعل (جعل) للهِ تعالى:

وجهُ إسنادِ الفعل إلى ذاتهِ تعالى في قوله: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾ جاء للدَّلالة على أنَّه أمرٌ ثابتٌ فيهم، لا يزولُ عنهم، كأنَّهم مجبولون عليه، أو هي حكايةٌ لما كانوا ينطقون بهِ من قولهم: ﴿وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾ [فصّلت: 5].

عطاءُ اللهِ لا ينتهي، وكلُّ ما جعل؛ فلحكمةٍ يعلمُها هو

دلالةُ الفعلِ الماضي في قوله: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾:

دلَّ هذا التَّعبيرُ على أنَّ اللّه خلقهم على هذه الخصلةِ الذَّميمة والتَّعقُّل المُنحرِف؛ لعلمه الأزليِّ بما يكونون عليه، فهم لهم عقولٌ وإدراكٌ؛ لأنَّهم كسائر البشر، ولكنَّ أهواءهم تُزيِّن لهم المنعَ من اتِّباعِ الحقِّ، فالجَعْلُ بمعنى الخَلْق، وليس للتَّحويل من حالٍ إلى حال[3].

مَن طَبعَ اللهُ على قلبهِ، فلا أملَ لهُ في دنيا ولا آخرة

تقديمُ قوله: ﴿عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ ﴿وَفِيٓ ءَاذَانِهِمْ﴾ على مفعوليهما:

وذلك في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾ وقوله: ﴿وَفِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ حيث إنّ قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾، وقوله:

تقديمُ دواعي الفضاضةِ من انغلاقِ القلوب، وانسدادِ الآذانِ

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/149.
(2) الآلوسّي، روح المعاني: 4/118.
(3) علويّ السّقّاف، الدّرر السّنيّة: التّفسير المحرّر للقرآن الكريم. (سورة الأنعام)، كتاب إلكترونّي غير مرقّم.

﴿وَفِيٓ ءَاذَانِهِمۡ﴾ يتعلَّقان بـ ﴿وَجَعَلۡنَا﴾، وقدَّم كلًّا منهما على مفعول ﴿وَجَعَلۡنَا﴾، للتَّنبيهِ على تعلُّقه به من أوَّلِ الأمر، وهذا تمثيلٌ مُعرِبٌ عن كمال جهلهم بشؤون النَّبيِّ ﷺ، وفرط نَبْوَةِ قلوبهِم عن فهم القرآنِ الكريم، ومجِّ أسماعهم له[1].

بلاغةُ الاستعارةِ التَّصريحيَّة في قوله: ﴿وَجَعَلۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ أَكِنَّةً﴾:

والأكنَّةُ جمع كِنانٍ، وهي الأغطيةُ، والمعنى: أنَّه لا يصل الحقُّ إلى قلوبهم؛ لوجود ذلك الغطاء الحاجزِ المانع من أن يصلَ نورُه إلى قلوبهم، بل إنَّه لا يصلُ إلى مسامعهم، فقد جعلَ اللّٰه تعالى في آذانهم وقْرًا، والوَقْر، بفتح الواو ثِقَلُ السَّمع، وهذا النَّص كنايةٌ عن كمال الإعراضِ، فهم لا يصل إليهم القرآن، وقد تفاهموا فيما بينهم على الإعراضِ ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ ٢٦﴾ [فصّلت: 26]، وإذا وصل إلى سمعِهم فهنالك غشاوةٌ على قلوبهم، تمنعهم من أن يُشْرِقَ فيها نورُه، وعلى ذلك لا يكون لاستماعهم جدوى وفائدةٌ[2]. فمن خلال هذه الاستعارةِ، جُسِّمت الأمور النَّفسيَّة، وأصبحت ظاهرةً للعيان، يتأمَّلُها المتلقّي، ويلاحظها، فيزداد إدراكُه وفهمُه للمعنى المراد إيصالُه، ومن ثمَّ يحدث لديه التَّأثيرُ والإقناع، وهي الغايةُ من هذا التَّصوير.

الفِقهُ محلُّهُ القَلبُ، وبهِ تُفقَهُ الأحكامُ، وتُدركُ الحقائقُ

سرُّ الجمعِ بين الوَقْر والأكنَّةِ في الآية الكريمة:

قولهُ تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ أَكِنَّةً أَن يَفۡقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٗاۚ﴾، ففي جعلِ الأكنَّةِ على القلوب، والوَقْر في الآذان، تشبيهٌ للحُجُبِ والموانعِ المعنويَّةِ بالحُجُبِ والموانعِ الحسّيَّة؛ فإنَّ القلب الَّذي لا يَفقهُ الحديثَ، ولا يتدبَّره، كالوعاءِ الَّذي وُضِع عليه الكِنُّ أو الكِنانُ – وهو الغطاءُ – حتَّى لايَدْخُلَ فيه شيءٌ، والآذان الَّتي لا تسمع الكلامَ

عدمُ الانتفاعِ بالسَّماعِ، هو لونٌ من ألوانِ الصَّممِ التَّامِّ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/121، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/180.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2471.

سماعَ فهم وتدبُّرٍ، كالآذان المصابةِ بالثِّقل أو الصَّمم؛ لأنَّ سمعَها وعدمَهُ سواءٌ، وفيه كنايةٌ في جعل الأكنَّة على القلوب، والوَقْر في الآذان، وهذا كنايةٌ عن نُبوِّ قلوبهِم ومسامعهم عن قَبول الحقِّ، والاعتقاد بصحَّتهِ[1].

سرُّ الجمعِ بين الوَقْرِ والأكنَّةِ في قوله: ﴿أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾:

جمع بين الوَقْر والأكنَّةِ؛ لتمثيل فَرْطِ بُعدهِم عن فهم الحقِّ وسماعه، كأنَّ قلوبَهم لا تعقل، وأسماعَهم لا تدرك، قال قتادة: يسمعون بآذانهِم، ولا يعون منه شيئًا، كمثل البهيمةِ الَّتي لا تسمعُ النِّداء، ولا تدري ما يُقال لها[2].

من لا قلبَ له؛ فهو كالأنعام السَّائمةِ، أو أقلُّ شأنًا

دلالةُ اختيارِ ﴿أَكِنَّةً﴾ دون (أغطيةٍ) في قوله: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾:

اختار القرآنُ الكريم (الأكنَّة) دون الأغطيةِ، وإن كان بينهما اشتراكٌ في المعنى، إلّا أنَّ الأكنَّة أبلغ في هذا المقام؛ لأنَّها تعني: الغطاءَ السّاتر؛ فكأنَّ القلبَ داخلٌ في هذه الأكنَّة؛ بخلاف الغطاء فلا يلزم منه ذلك، أيضًا أنَّ الأكنَّة تُستعمل في الغالب في المعاني النَّفسيَّةِ، مثل قوله تعالى: ﴿أَوْ أَكْنَنتُمْ فِيٓ أَنفُسِكُمْ﴾ [البقرة: 235]، وأيضًا لأنَّ الأكنَّة تفيدُ سترَ الشَّيء ووقايتَهُ بخلاف الغطاء.

صُوَرُ القرآنِ البيانيَّةُ تقرِّب المعنى، وتجلِّي الدَّلالة

دلالةُ اختيارِ جمع (أكنَّة) دون غيرِه، من بلاغةِ القرآنِ:

اختارَ القرآنُ الكريمُ هذا الجمع الَّذي مفرده (كِنان)، يُجمع على أكنَّةٍ في القلَّةِ والكثرة؛ لتضعيفه، وذلك أنَّ فَعالًا وفِعالًا بفتح الفاءِ وكسرها يجمع في القلَّة على أَفْعِلة، وفي الكثرة على (فُعُل) إلّا أن تكون مضاعفًا؛ مثل (كنان) أو معتلَّ اللّام: كخِباء؛ فيلزم جمعهُ على أفعِلة، ولا يجوز جمعُه على فُعُل إلّا في القليل النّادر[3].

القرآنُ يختارُ الأفصحَ في الجُموعِ الصَّرفيَّة في الاستعمال

(1) رضا، تفسير المنار: 7/290، والزّمخشريّ، الكشّاف: 2/13، ودرويش، إعراب القرآن وبيانه: 3/88.
(2) القنّوجيّ، فتح البيان: 4/122.
(3) السّمين، الدّرّ المصون: 4/577.

دلالةُ اختيارِ لفظ (الفقه) دون لفظِ (الفهم):

الفقهُ: العلمُ بالشَّيء، وإدراكُ دقائقِه، والفهمُ: سرعةُ الإدراك لحقائقِه

آثرَ التَّعبيرَ بالفقه؛ لأنَّه أبلغُ، فالفقه: العلمُ بالشَّيء، وإدراكُ دقائقِه، وعلى هذا فإنَّ الفقه يحمل معنى طولِ النَّظر، والتَّأمُّل، وعمق الاستيعابِ للجوانب الخفيَّةِ والغامضة، ولذلك لا يقال للرَّجل: فقيهٌ، حتَّى يبلغ مبلغًا عظيمًا منَ العلم، يؤهِّله لاستنباط الأدلَّة، ومن هنا استخدمَ القرآنُ لفظ الفقهِ في القضايا الدَّقيقة، مثل: قضايا الأرزاق، وتدبيرِ الأمور؛ فقال عنِ المنافقين عندما ذكرَ القرآن عنهم: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَۚ﴾ [النّساء: 78]، فما أدركوا أنَّ الأمورَ كلَّها بيدِ اللّه، بدليل قوله: ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِۖ﴾ [النّساء: 78]، وكان تعقيبُ القرآن على موقفهم بقوله: ﴿فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٨﴾﴾ [النّساء: 78]، وقال - أيضًا - في حقِّ المشركين: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ﴾ [الإسراء: 46]، فلم ينفِ عنهم صفةَ الفهم، بل نفى عنهم الفقه؛ لأنَّ لهم عقولًا يدركون بها أسرارَ القرآن الكريم، ولكنَّ أهواءهم حرمَتْهم من هذا الفقه، وطول النَّظر؛ لذلك آثرَ القرآنُ استعمالَ الفقه في هذه الآية، أمّا الفهمُ؛ فوَرَد في سورة الأنبياء في قصَّة سليمان وداود عليهما السلام في قوله تعالى: ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًاۚ﴾ [الأنبياء: 79]؛ فالملاحظ استعمالُ الفعل (فهَّمنا) دون (فقَّهنا)؛ لأنَّ داود وسليمان عليهما السلام كليهما، كانا فقيهين بدليلِ ختام الآية: ﴿وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًاۚ﴾ [الأنبياء: 79]، لكنَّ سُليمان - عليه السلام - كان أسرعَ إلى إدراك القضيَّة، والبتِّ فيها، وعلى هذا؛ فالفهم يدلُّ على سرعةِ الإدراك، وإن كان ذلك من بابِ الإلهام منَ اللّه لسيِّدنا سليمان عليه السلام.

دلالةُ التَّعبيرِ بالضَّميرِ في قوله تعالى: ﴿أَن يَفْقَهُوهُ﴾:

القرآنُ مصدرُ الفقهِ، ومنبعُ الأحكامِ

عبَّر بالضَّمير المنصوب في ﴿أَن يَفْقَهُوهُ﴾؛ لأنَّه عائدٌ إلى القرآنِ المفهوم من قوله: ﴿مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَۖ﴾، ويجوز عَوْدُ الضَّمير على

حديثه ﷺ، "ومعنى أَنْ يَفْقَهوهُ، أي: كراهة أن يفهموا ببواطن قلوبهم بواطنَهُ الَّتي بها إعجازهُ وإرشاده، بإقامة الدَّلائل ورفعِ الشُّبَه"[1].

دلالةُ اختيارِ (الوقر) دون الصَّممِ في قوله: ﴿وَفِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٗاۚ﴾:

اختار القرآنُ الكريم (الوَقْرَ) لما فيه منَ الجمع بين الصَّمم والثِّقلِ، من قولهم: أوقرتُ ظهرَهُ، أي: أثقلتُه، وعلى هذا فالوَقْرُ هو المناسب لهذا السّياق؛ لأنَّه يشير إلى المبالغةِ المفرطة منَ المشركين في الإعراض عنِ القرآن، وأيضًا؛ لأنَّ الأذنَ توصفُ بأنَّها صمّاء، ولا توصف بأنَّ فيها وقْرًا إلّا على وجه المبالغة، وهذا واضحٌ في حديث القرآن عنِ المشركينَ، عندما تُتلى عليهم الآيات: ﴿كَأَنَّ فِيٓ أُذُنَيۡهِ وَقۡرٗاۖ﴾ [لقمان: 7].

الوَقرُ إبانةٌ عن مبالغةِ المشركين في الإعراضِ عن القرآنِ

دلالةُ التَّعبيرِ بـ (إنْ) في قوله تعالى: ﴿وَإِن يَرَوۡاْ كُلَّ ءَايَةٖ لَّا يُؤۡمِنُواْ بِهَاۖ﴾:

عبَّر بـ (إن) الدّالَّة على الشَّكِّ، وعدمِ الوقوع؛ لأنَّ رؤيَتهم لكلِّ الآية لم تقع، وإنَّما الواقع رؤيتُهم لبعضها[2]، وفيه زيادةٌ في التَّشنيع على المشركين، بأنَّهم لا يؤمنونَ إلّا بالمسموع أو بالمرئيِّ، وفي الآية "إشارةٌ إلى أنَّه لا يختصُّ ما ذكر منهم بالقرآنِ، لرؤيتهم قصورًا فيه، بل مهما يروا من الآياتِ والحُجج، ممّا يدلُّ على صدق الرَّسول لا يؤمنوا بها، ويحملوها على السِّحر لفَرْطِ عنادهم، واستحكامِ التَّقليدِ فيهم، فلا فَهْمَ عندهم ولا إنصافَ"[3].

مَن عَمِيَ بصرُهُ عن الحقائقِ؛ انطمسَتْ بصيرتُه عن هُدى الخالقِ

دلالةُ الجملةِ الشَّرطيَّةِ في قوله تعالى: ﴿وَإِن يَرَوۡاْ كُلَّ ءَايَةٖ لَّا يُؤۡمِنُواْ بِهَاۖ﴾:

المقصودُ منَ الجملةِ الشَّرطيَّة في الآيةِ الإخبارُ عنِ المبالغة التّامَّة، والعِنادِ المفرِط في عدم إيمانهم، حتَّى إنَّ الشَّيء المرئيَّ الدّالَّ على صدق الرَّسولِ حقيقةً، لا يرتِّبون عليه مقتضاه، بل يرتِّبون عليه ضدَّ مقتضاه[4].

الكفَّارُ لا ينتفعون بما سمعوا من رقائقَ، ولا ما شاهدوا من حقائقَ

(1) القاسميّ، محاسن التّأويل: 4/336.
(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/149.
(3) القاسميّ، محاسن التأويل: 2/149.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/470.

المرادُ منَ الرُّؤية في قوله تعالى: ﴿وَإِن يَرَوۡاْ كُلَّ ءَايَةٖ لَّا يُؤۡمِنُواْ بِهَاۖ﴾:

دلالـةُ التَّعبير بالرُّؤية في الآية الفارطةِ

المرادُ منَ الرُّؤية هنا البصريَّة، ومنَ الآياتِ المعجزات الحسّيَّة كانشقاقِ القمر، ونبعِ الماء من بين أصابع النَّبيِّ ﷺ الشَّريفة، وقد دلَّ التَّعبير على أنَّ هذه الجملةَ الكريمة المقصود بها ذمُّهم لعدم انتفاعهم بحاسَّة البصرِ بعد ذمِّهم لعدم انتفاعِهم بعقولهم وأسماعهم.

التَّعبيرُ بالآيةِ دونَ المعجزةِ في قوله: ﴿وَإِن يَرَوۡاْ كُلَّ ءَايَةٖ لَّا يُؤۡمِنُواْ بِهَاۖ﴾:

وفي كلِّ شيءٍ له آيـةٌ، تـدلُّ على أنَّه الواحدُ

لأنَّ لفظ الآية أعمُّ؛ فيشمل الآياتِ الكونيَّةَ والشَّرعيَّة والمعجزاتِ، والمعنى: أنَّهم إذا رأوا أيَّ آيةٍ من هذه الآيات الدّالَّةِ على الوحدانيَّة، وصِدْقِ الرِّسالة لا يؤمنون بها لفرطِ عنادهم، والمعْنى: "وإن يروا كلَّ آيةٍ من الآياتِ الدّالَّة على صحَّة نبوَّتِكَ، وصدقِ دعوتِك، وحقيقةِ ما تدعو إليه، لا يؤمنوا بها؛ لأنَّهم لا يفقهونها، ولا يدركون كُنْهَ المراد منها، لعدم التَّوجُّه، أو لوقوف أسماعهم عند ظواهرِ الألفاظ"[1].

دلالةُ التَّعبيرِ بنفي الإيمان بدلًا مِنَ الكفر في قوله: ﴿لَّا يُؤۡمِنُواْ بِهَاۖ﴾:

أدبُ القرآنِ في تأليفِ القلوب، وجذبِها للحقِّ، أسلوبٌ متفرِّدٌ

آثرَ التَّعبيرُ القرآنيُّ نفيَ الإيمان دون أن يصفَهم بالكفرِ، مع وجودِه؛ لفتحِ الباب للدُّخول في الإيمان، وكأنَّ الآية تشير إلى أنَّ بعضَهم مؤهَّلٌ للإيمان بهذه الآيات، وهذا ماحدثَ في فتح مكَّةَ، فقد آمنَ الكثيرُ من عُتاة قريشٍ، وانقادوا للإسلام، وهم في قرارةِ أنفسِهم، كانوا يرون الحقَّ ناصعًا، ولكنَّهم يُكابِرون ويجحدونَ، وبقيتِ الفئةُ المذكورة في هذه الآية تعاندُ الحقَّ إلى آخرِ رَمَقٍ.

دلالةُ التَّعبيرِ بـ﴿حَتَّىٰٓ﴾ في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ﴾:

حرف (حتَّى) موضوعٌ لإفادةِ الغاية، أي: إنَّ ما بعدها غايةٌ لما قبلَها، وأصل (حتَّى) أن يكونَ حرف جرٍّ مثل (إلى)، فيقع بعده اسمٌ مفرد مدلولُه غايةٌ لما قبل (حتَّى)، وقد يعدل عن ذلك، ويقع

(1) رضا، تفسير المنار: 7/290.

بعد (حتَّى) جملة، فتكون (حتَّى) ابتِدائيَّةً، أي: تُؤْذِنُ بابتداءِ كلامٍ مضمونُه غايةٌ لكلامٍ قبل (حتَّى)؛ ولذلك قال ابن الحاجبِ في الكافية: إنَّها تفيدُ السَّببيَّة[1]، فليس المعنى: أنَّ استماعَهم يمتدُّ إلى وقت مجيئهم، ولا أنَّ جَعْلَ الأكنَّة على قلوبِهم، والوَقر في آذانهم، يمتدُّ إلى وقت مجيئِهم، بل المعنى: أن يتسبَّب على استماعهم بدون فَهْم، وجعل الوقرِ على آذانهم، والأكنَّة على قلوبهم، أنَّهم إذا جاؤوك؛ جادلوك[2].

المجادلةُ رمزيَّةٌ للصِّراعِ بين الحقِّ والباطلِ في مكابرةٍ وعنادٍ

سرُّ التَّعبير بـ ﴿إِذَا﴾ بدلًا من (إن):

في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ﴾ عبَّر القرآن الكريم بـ ﴿إِذَا﴾ الَّتي تفيدُ تحقُّق الوقوعِ؛ للإشارةِ إلى أنَّ النَّبيَّ ﷺ عَرَض عليهم الدَّعوةَ، وقدَّم لهم الأدلَّة على صدقِ دعوته ﷺ؛ فقابلوا ذلك بالجدالِ والخصام، وجاؤوا مجادِلينَ للرَّسول بِصَفاقَةٍ وجُرأةٍ، يُكابِرون في الحقِّ، ويَصِمون النَّبيَّ المرسَل والكتابَ المنزَلَ بما لا يعقله عقلٌ، ولا تقبله فطرةٌ.

جدالُ الكفَّارِ مبالغةٌ في الإنكارِ

سرُّ التَّعبيرِ بالفعل الماضي ﴿جَآءُوكَ﴾ دون (أتوك):

عبَّر بالفعلِ الماضي ﴿جَآءُوكَ﴾ الَّذي يفيد تحقُّق الوقوعِ دون أَتَوْك؛ لبيانِ أنَّ مجيئَهم لم يكن لطلب الهدى، ولا لاتِّباعه ﷺ، بل مَجيءَ تحدٍّ واستكبارٍ، يؤكِّد هذا أنَّ المجيءَ في أصل اللُّغة يحمل معنى الصُّعوبة المادِّيَّة والمعنويَّة، بخلاف أَتَوْك؛ ففيه سهولةٌ ولينٌ، وليس هذا من شأنِ المشركين، وقد عبَّر السِّياق بـ ﴿جَآءُوكَ﴾ للإشارةِ إلى أنَّ المشركين كانوا على عداءٍ للنَّبيِّ ﷺ من قبلُ، ثمَّ جاؤوه، ولم يكن مجيئُهم إذعانًا للحقِّ، ولا طلبًا لحقيقةٍ، بل كان مجيئهم تحدِّيًا للرَّسول، ومبالغةً في الإنكار، واستهانةً بالقرآن الحكيم، وهو الآية

كانَ اختيارُ لفظِ المجيءِ أوفقَ لِحالِهم في تطلُّبِ الجدالِ

(1) ابن الحاجب، الكافية في علم النّحو، ص: 45.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/181.

الكبرى؛ ولذا قال الَّذين كفروا: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝٣١﴾ [الأنفال: 31][1]، ومباشرةُ الفعل الماضي بالمضارع يُشْعِرُ بحدَّة الحوارِ، وسوءِ أدبهم مع رسول الله ﷺ.

المجادلةُ مطلَقُ المنازعةِ من خلال قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ﴾:

دلالةُ اختيارِ لفظِ الجدالِ دون الحوارِ، أقربُ إلى طبيعةِ الفاعلين

اختار الجدالَ لأنَّه في أكثر أحواله تمويهٌ، وليس طلبَ حقٍّ، والمجادلةُ مُطلَقُ المنازعة، وسُمّيت بذلك لما فيها منَ الشِّدَّة، أو لأنَّ كلَّ واحدٍ منَ المتجادلين يريد أن يلقيَ صاحبه على الجدالة، أي: الأرضِ[2]. فجاء اللَّفظُ مناسبًا للسّياق دون الحوار؛ لأنَّ مشركي مكَّةَ جاؤوا مجادلين للرَّسول ﷺ؛ ليُظْهِروا لقومهم أنَّهم على خبرةٍ بأسلوب الجدالِ، وأرادوا إنهاءَ دعوته ﷺ عن طريقِ الجدال الَّذي لا ينتهي إلى الحقِّ، بل هو سبيلُ الباطل، بخلاف المحاورة؛ فَيُلمَحُ فيها الهُدوءُ للوصول إلى الحقِّ.

سرُّ التَّعبيرِ بالمضارع بدلًا منَ الماضي في قوله: ﴿يُجَٰدِلُونَكَ﴾:

العنادُ واللَّجاجُ في الجدال دَيْدَنُ المجادِلين بالباطلِ

عبَّر بالمضارعِ مع سبقِ التَّعبيرِ بالماضي ﴿جَآءُوكَ﴾؛ ليشير إلى استحضارِ صورةِ المجادَلة؛ فكأنَّك ترى صورةَ المجادَلة أمام عينيك، رسولُ الله يدعوهم، وهم يطلبون منه مجادلين آياتٍ سبق الحديثُ عنها في أوَّل السّورة، من نزول مَلَكٍ منَ السَّماء أو من كتاب يقرؤونَ فيه نبوَّتَه ﷺ.

بلاغةُ العدولِ في قوله تعالى: ﴿يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾:

مَن جادلَ بالباطلِ لإدحاض الحقِّ، فهو إلى الكفر أقربُ

في الجملة عدولٌ عنِ الإضمار إلى الإظهار، حيثُ قال: ﴿يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾، ولم يقُل: (يقولون)؛ لزيادة التَّسجيل عليهم بالكفرِ، وأنَّهم ما جاؤوا طالبين الحقَّ كما يدَّعون، ولكنَّهم قد دخلوا بالكفر وخرجوا به، فيقولون: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾؛ فهم قد عدلوا عنِ الجدل إلى المباهَتةِ والمكابرة[3].

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2473.
(2) الآلوسّي، روح المعاني: 4/119.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/181 - 182.

دلالةُ التَّعبيرِ بالفعلِ المضارعِ في قوله: ﴿يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾:

والتَّعبيرُ بالفعل المضارع (يقول) أفادَ معنى الاستمرارِ على صفتهِم وطريقتِهم في القول وغيره، وفيه إشارةٌ إلى علوِّ صوت الكافرين وقوَّتِهم، وتَكرارِ هذا القول كلَّما استمعوا للقرآنِ، وهم في تلك الغَطْرسة الزّائفةِ، لايعرفون للّه وقارًا، ولا للرَّسول اعتبارًا، بل كانوا يرفعونَ عقائرَهم بالكُفْران، ويجاهرونَ الدّين بالنُّكران، يُسوِّغون ذلك بتسويغاتٍ واهيةٍ، تدلُّ على سذاجةٍ وقصور نظرٍ، وسوء خُلقٍ.

مَن عرف الحقَّ، وناوأه، وناورهُ؛ كان من الخاسرين الهالكين

بلاغةُ قَصْرِ القلبِ في قوله: ﴿يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾:

في الآية قَصْرُ قلبٍ؛ لأنَّ الكافرين عندما سمعوا القرآنَ الكريمَ قالوا لرسول اللّه ﷺ: إنَّ ما تقوله - يا محمَّد - ليس وحيًا سماويًّا منَ اللّه، وإنَّما هو أساطيرُ الأممِ الغابرة؛ وبذلك فقد قَلَبوا الحقيقةَ في قولهم هذا، ومعناه: "إنْ هذا إلّا أساطيرُ الأوَّلينَ، فيجعلون كلامَ اللّه وأصدقَ الحديث خرافاتٍ وأكاذيبَ هي الغاية في التَّكذيب"[1].

القَصْرُ بابٌ واسعٌ في البلاغةِ، يُضْفي على السِّياق جمالًا وانسجامًا

موقعُ الفاصلةِ في السِّياق في قوله: ﴿إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾:

جاءتِ الفاصلةُ هنا ﴿يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾، جملةً مبيِّنةً للجدل الَّذي يخوضون فيه عند استماعِهم للقرآن، وجملةُ مقول القول اسميَّةٌ، وهي تفيدُ الحَصْر والقَصْر، فهم قد قصروا ما يستمعون منَ الآيات، على أنَّها لا تخرجُ عن كونِها من أساطير الأوَّلين.

جملةُ مقولِ القولِ اسميَّةٌ، وهي تفيدُ الحصرَ

دلالةُ إظهارِ الفاعلِ في قوله: ﴿يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾:

أُظهِرَ الفاعلُ ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ مع أنَّ حقَّه الإضمارُ؛ وذلك لبيان أنَّ كفرَهم هو سبب هذا القول، والمقصودُ نخبةٌ من عُتاة

مَن جادلَ النَّبيَّ هو المقصودُ بالَّذين كفروا

(1) الزمخشريّ، الكشّاف: 2/14.

قريش، "بَلَغ تكذيبُهم الآياتِ إلى أنَّهم إذا جاؤوك يُحاجّونك، ويناظرونك في الحقِّ بالباطلِ، ثمَّ فسَّر المجادَلة بقوله: ﴿يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾، أي: أباطيلُهم وأحاديثُهم الَّتي لا نظام لها"[1].

مناسبةُ الفاصلةِ لصدر الآيةِ الكريمة:

المناسبةُ بين مطلعِ الآيةِ ونهايتِها، دليلٌ على تماسكِ السِّياق وتكاملِه

أمّا مناسبةُ الفاصلة؛ فبيَّنتِ الآيةُ حال المشركين حين استماعِ القرآن، وأنَّ هناك ما يمنعُ من أن يفقهوه، وجاءتِ الفاصلة تؤكِّد على أنَّهم بالفعلِ لم يفقهوه، فوصفوه أنَّه من أَباطيلِ الأمم الغابرةِ وخرافاتِها.

اتِّهامُ القرآنِ بأساطيرِ الأوَّلين كفرٌ صُراحٌ:

سرُّ إيثارِ الكفَّارِ لوصفِ القرآنِ بأساطيرِ الأوَّلين

أراد المشركونَ بهذا الوصفِ نزعَ القداسةِ عنِ القرآن، حتَّى يطعنوا في نبوَّةِ النَّبيِّ ﷺ، ويُعلِنوا لأتْباعِهم أنَّه من كلام البشر، وهذا أسلوبُ المعاندين عندما يعجزونَ عن إقامة الحُجَّة؛ فلا تجدُ منهم إلّا المكابرةَ والمغالطةَ.

دلالةُ الإفرادِ والجمعِ في ما يشابهُ آيةَ الأنعامِ في سورة يونسَ:

قال تعالى: ﴿وَمِنۡهُم مَّن يَسۡتَمِعُ إِلَيۡكَۖ وَجَعَلۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ أَكِنَّةً﴾.

وقال تعالى: ﴿وَمِنۡهُم مَّن يَسۡتَمِعُونَ إِلَيۡكَۚ أَفَأَنتَ تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوۡ كَانُواْ لَا يَعۡقِلُونَ ۝٤٢﴾ [يونس: 42]، وللسّائلِ أن يسألَ عن قولهِ تعالى: ﴿مَّن يَسۡتَمِعُ إِلَيۡكَۖ﴾ في آية الأنعام، وتوحيدِ الضَّمير العائد إلى (مِن) حملًا على لفظها؟ وعن قوله: ﴿مَّن يَسۡتَمِعُونَ إِلَيۡكَۚ﴾ في آية يونس، وجمع الضَّمير العائدِ إلى (مِن) حملًا على معناها؟ ولماذا اختصَّ الأوَّل بالتَّوحيدِ، والثّاني بالجمعِ؟ والجوابُ أن يُقال: إنَّ لكلٍّ منَ الموضعين ما يوجِبُ اختصاصَه باللَّفظ الَّذي جاء فيه، فأمّا قوله تعالى: ﴿وَمِنۡهُم مَّن يَسۡتَمِعُ إِلَيۡكَۖ﴾ فقد قيل فيه: إنَّه في قوم منَ

(1) القاسميّ، محاسن التّأويل: 4/336.

الكفّار كانوا يستمعون إلى النَّبيِّ وإلى قراءتهِ باللَّيل، كأبي سفيانَ والنَّضرِ بن الحارث وعتبةَ وشيبةَ وأميَّةَ وأبيِّ بنِ خلفٍ، فلم يَكْثُروا كثرةَ مَن في سورة يونسَ؛ لأنَّ المراد بهم في سورة يونسَ جميعُ الكفّار، فَحُمِل ههنا مرَّةً على لفظ (مِن) فوحَّد لقلَّتهم، ومرَّةً على المعنى فجمع؛ لأنَّهم وإن قلّوا كانوا جماعة، وجمع ما في سورة يونسَ ليوافق اللَّفظُ المعنى[1].

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(الاستماع)، و(السَّماع)، و(الإصغاء)، و(الإنصات):

المعنى الدِّلاليُّ لكلِّ لفظٍ، تُحدِّدُهُ الحالةُ والآلةُ في وضعيَّاتِ الاستماع

السَّمع: هو إدراكُ المسموع، والسَّمع: أيضًا اسمُ الآلة الَّتي يُسمعُ بها، والإصغاء: هو طلبُ إدراك المسموع بإمالةِ السَّمع إليه، يُقال: صغا يصغو؛ إذا مالَ وأصغى إلى غيره، ويُقال: استمع لما كان بقصدٍ؛ لأنَّه لا يكون إلّا بالإصغاء، وهو الميلُ، وسَمِعَ يكون بقصدٍ، وبدونه[2].

إضافةً إلى ذلك أنَّ الإنصاتَ سكوتٌ مع استماعٍ، ومتى انفكَّ أحدهما عنِ الآخر؛ لا يُقال له: إنصاتٌ، وعليه قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟﴾ [الأعراف: 204][3].

(الوَقْر) و(الصَّمم):

الوَقر: الثِّقل في الأذن، لعلَّ أصله مادّيٌّ مِن تراكم قذى الأذنِ فيها، حتَّى يسدَّها، ثمَّ صار كنايةً، ومنَ المادّيِّ الوَقْر - بالفتح - : الصَّدعُ في السّاق، والعظم، والحَجَر، والحافِر، لعلَّه نُظِر إلى أنَّه لا يحدث إلّا من ضغط أو صدمٍ ثقيل، ومنَ الثُّقل الذّاتيِّ المادّيِّ يأتي الثُّقل المعنويُّ؛ الوَقارُ: الحِلم والرَّزانةُ (الثقل)، وكذلك معنى

الوَقر: الثِّقلُ في الأذنِ، ثمَّ صار كنايةً، والصَّمم: فقدانُ حاسَّة السَّمع

(1) الإسكافيّ، درّة التّنزيل: 2/505 - 506، والكرمانيّ، البرهان في متشابه القرآن، ص: 106، والآلوسّي، روح المعاني: 4/118.

(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 245 - 248.

(3) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 22/43، وزكريّا الأنصاريّ، الغرر البهيّة: 2/28.

العظمةِ من لازم الثُّقل، ومن هنا دلَّ الوقارُ على العِظَم المعنويِّ ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾﴾ [نوح: 13]، لا تخافون للّهِ عظمةً. والصَّمم: فقدانُ حاسَّة السَّمع، وبه يوصفُ مَن لا يُصغي إلى الحقِّ ولا يقبلهُ، قال تعالى: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ﴾ [البقرة: 18]، وقال: ﴿صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾﴾ [الفرقان: 73]، وأصله انسدادُ مسامِّ الشَّيء مع صلابةٍ، فلا ينفذُ فيه أو منه شيءٌ - كما في القناةِ الصَّماءِ المكتنز جوفها[1].

(1) الرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (وقر - صمم).

﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُۖ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ٢٦﴾ [الأنعام: 26]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

العلاقةُ بين القائلينَ بأُسطوريَّةِ القرآنِ، وكونهم ينأَوْنَ ويَنْهَون عنه

لمّا بيَّن الله ﷻ أنَّهم طعنوا في كون القرآن مُعجِزًا بأن قالوا: إنَّه من جنسِ أساطير الأوَّلين وأقاصيص الأقدمين[1]؛ بَيَّن في هذه الآية أنَّهم لم يكتفوا بذلك، بل تعدَّى شرُّهم إلى غيرهم؛ حيث ينهون النّاس عنِ اتِّباع الرَّسولِ الأكرم ﷺ، وعنِ اتِّباع القرآن؛ فما اكتفوا ببعدهِم عنه، بل أرادوا إبعادَ الآخرين[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَنْهَوْنَ﴾: النَّهيُ: الكَفُّ والزَّجر والمنعُ، ومنه النُّهية؛ وهي العقلُ؛ لأنَّه يمنع صاحبه منَ القبيحِ، وضدُّه: الأمر، وأصلُ النَّهيِ منَ الانتهاء، وهو التَّوقُّف عند حدٍّ معلوم، ويُطلَق النَّهيُ بمعنى: البلوغ والوصول، والنِّهاية: الغاية والحدُّ، ومن معاني النَّهيِ أيضًا: التَّحريمُ والرَّدُّ والصَّرف[3].

2) ﴿وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُۖ﴾: النَّأي: البُعْدُ، نأى ينأى: بَعُدَ، بوزن نعى ينعى، ونأوتُ: بَعُدت، لغة في نأيتُ، والنَّأي: المفارقة، وقول الحطيئة:

وهِندٌ أتى مِن دونها النَّأيُ والبُعدُ

إنَّما أراد المفارقةَ، ولو أراد البُعدَ لما جمع بينهما، وقيل: نأى، أي: أعرض[4].

(1) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 12/507.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 4/2473.
(3) الخليل، العين، والجوهري، الصّحاح، وابن سيده، المحكم: (نهي).
(4) ابن منظور، لسان العرب، والسمين، عمدة الحفّاظ: (نأي).

3) ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾: الشُّعور: جنسٌ منَ العلم لطيفٌ دقيقٌ، أخذًا من نفاذ الشَّعر الدَّقيق، وفي اللِّسان: شَعَرَ بهِ: عَلِمَهُ، أَشْعَرْتُهُ فَشَعَرَ: أَدْرَيْتُهُ فَدَرى، شَعَرَ بهِ: عَقَلَهُ، شَعَرَ بِكذا: فَطِنَ لهُ[1]، فاستعمالُ الدِّرايةِ والعقلِ والفِطْنةِ، وهي كلُّها دقيقةٌ خفيَّة. والشُّعور عِلْمُ الشَّيءِ عِلْمَ حِسٍّ (أخذًا) منَ الشِّعار، ومشاعرُ الإنسان: حواسُّه"[2].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

الوعيدُ بهلاكِ مَن ينهى النَّاس عن الحقِّ، وينأى عنه بنفسهِ

بيَّنتِ الآيةُ أنَّ منَ المشركين مَن يَنْهَون النّاس عنِ اتِّباعِ الحقِّ، ويبتعدون عنه بأنفسِهم، وما يُهلكون إلّا أنفسَهم بصدِّهم، وإعراضِهم عنِ الحقِّ، ولا يشعرون بذلك، "قال ابن عبّاس: لا يأتونه، ولا يَدَعونَ أحدًا يأتيه"[3].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بيانُ عداوةِ المشركينَ للقرآنِ الكريمِ من خلالِ النَّهيِ والنَّأيِ

دلالةُ العطفِ في الآيةِ الكريمةِ من خلال قوله: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ﴾:

عُطفت هذه الجملةُ على قولهِ تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾، وذلك لما بينهما من شدَّة الاتِّصال؛ لأنَّ الأولى بيَّنت عداءَهم الشَّخصيَّ، والجملة الثّانية بيَّنت تعدّي أذاهم إلى الآخر، "فهم يقومون بأعمالٍ ثلاثةٍ، كلُّها انحرافٌ عن الصِّراط المستقيم واتِّباعٌ للغَواية: أوَّلها: الإعراضُ عن آياتِ اللّه تعالى، وتكذيبُ النَّبيِّ ﷺ. وثانيها: أنَّهم ينهون النّاس عن اتِّباع الحقِّ، فهم ضالّون مُضِلّون. والثّالث: أنَّهم لكي يباعِدوا بينهم وبين الحقِّ، ولا يجعلون سبيلًا لقلوبهم؛ يجتهدون في ألّا يلتقوا بالنَّبيِّ ﷺ، فيتجافوا عن مجالسهِ لكيلا يكون منه منفَذٌ للحقِّ إلى قلوبهم، ففيهم غَوايةٌ ولجاجة"[4].

(1) ابن منظور، لسان العرب: (شعر).
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/59.
(3) مكيّ بن أبي طالب، الهداية: 3/1991..
(4) أبوزهرة، زهرة التّفاسير: 5/2474.

دلالةُ إيثارِ التَّعبيرِ بالضَّمير (هم) بدلًا منَ الظَّاهر في: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ﴾:

آثَرَ التَّعبيرَ بالضَّميرِ لتعدُّد المرادِ في مرجعِه؛ فبعض المفسِّرين، يرى أنَّه يعود على المشركين الَّذين سبق الحديثُ عنهم في هذه السّورة، ويرى البعض الآخر أنَّه يرجع إلى عشيرة النَّبيِّ ﷺ، فيكون المعنى: وهم - أي: أعمامُ النَّبيِّ ﷺ وعشيرته - ينهونَ النّاس عن إيذائهِ، والتَّعرُّض له بسوء، ولكنَّهم في الوقتِ نفسهِ ينأون عنه، أي: يبتعدون عن دعوتهِ فلا يؤمنون بها، ولعلَّ أوضحَ مَثَلٍ لذلكَ أبو طالب، فقد كان يدافعُ عنِ النَّبيِّ ﷺ إلّا أنَّه لم يدخل في الإسلامِ مع تصريحه بأنَّه هو الدّين الحقُّ.

المعانِدونَ لا يكتفونَ بالإعراضِ عن الحَقِّ، بل تعدَّى شرُّهم إلى غيرِهم

والَّذي تطمئنُّ إليه النَّفس: أنَّ الرَّأيَ الأوَّل هو الأرجحُ؛ لأنَّ الكلام مَسوقٌ في بيان موقف المشركين منَ النَّبيِّ ﷺ، وأنَّهم قد بلغَ بهمُ السَّفَهُ والعِنادُ أنَّهم لا يكتفون بالإعراضِ عن الحَقِّ الَّذي جاء به محمَّد ﷺ، بل تعدَّى شرُّهم إلى غيرهم، وأنَّهم كانوا يُحرِّضون النّاس على إيذائه، وعلى الابتعادِ عنه[1].

دلالةُ التَّعبيرِ بالفعل ﴿يَنْهَوْنَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُۖ﴾:

الملاحَظ أنَّ التَّعبير القرآنيَّ ﴿يَنْهَوْنَ﴾، تعبيرٌ دقيقٌ جمع كلَّ وسائلِ النَّهي، وقد اختار القُرآنُ فعل النَّهي دون غيرهِ؛ لإبرازِ عداوةِ المشركين للرَّسول ﷺ في الظّاهر والباطنِ؛ لأنَّ لفظ النَّهي يحمل معنى الزَّجر، بأيِّ صيغةٍ كانت، بالقولِ أو بغيره، بلفظِ الفعل وعدم الفعلِ.

أعداءُ الإسلامِ ينهونَ عنهُ بطرقٍ شتَّى لئيمةٍ وماكرةٍ

دلالةُ التَّعبيرِ بالنَّأْي دون البُعْدِ في قوله: ﴿وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُۖ﴾:

آثرَ القرآنُ الكريم النَّأيَ دون البعدِ؛ لأنَّه يجمع بين معنيين: البعد المادّيِّ والمعنويِّ، وهذا ما يسعى إليه المشركون من إبعاد

النَّأْيُ في الغالبِ يكونُ في موضع الذَّمِّ بخلافِ البُعْدِ

(1) رشيد رضا، تفسير المنار: 7/292، وطنطاويّ، الوسيط: 5/60.

النّاس مادّيًّا، فلا يجلسون في مجلسِه، ومعنويًّا؛ فلا يقتربون منَ الإيمان به، وأيضًا لأنَّ النَّأيَ في غالب استعمالاتهِ يكون في موضع الذَّمِّ بخلافِ البُعد، قال تعالى: ﴿وَإِذَآ أَنۡعَمۡنَا عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ أَعۡرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ﴾ [فصّلت: 51].

دلالةُ حذفِ مفعولِ الفعلينِ في قوله: ﴿وَهُمۡ يَنۡهَوۡنَ عَنۡهُ وَيَنۡـَٔوۡنَ عَنۡهُۖ﴾:

النَّأيُ والنَّهيُ لَونانِ من الحصار العَقَديِّ لمنعِ البلاغ

حُذِفَ المفعولُ (النّاس) لإفادة العموم، كأنَّهم يريدون نهيَ كلِّ النّاس عن سماع القرآن الكريم، وعنِ الإيمانِ بالنَّبيِّ ﷺ، ولا يقف أمرُ المنع والنَّأي عند قومِهم أو أهلِ مكَّة، بل يريدون المنْعَ الكُلّيَّ، وهذا ما كان يفعله المشركون عندما يأتي بعضُ النّاس إلى مكَّة للسَّماع منَ الرَّسول ﷺ؛ لشدَّة عداوتِهم.

عدمُ ذكرِ متعلَّق النَّهيِ والنَّأْيِ في قوله: ﴿وَهُمۡ يَنۡهَوۡنَ عَنۡهُ وَيَنۡـَٔوۡنَ عَنۡهُۖ﴾:

استعمالُ الألفاظِ المتلازمةِ للتَّعبيرِ عن تلوُّنِ أحوالِ الصِّراعِ مع الباطلِ

لم يُذكَر متعلَّق النَّهيِ والنَّأيِ، والمرادُ به سماعُ القرآن، وعدم الإيمان بمَن أُنزلَ عليه، وفي هذا إشارةٌ إلى أنَّهم يَنهون عنِ القرآنِ كلّيَّةً سماعًا، وقراءةً، وتعبُّدًا، "وهم: أي المشركون بالله، المكذِّبون لرسولِه، يَجمعون بين الضَّلال والإضلال، يَنهون النّاسَ عن اتِّباع الحقِّ، ويُحذِّرونهم منه، ويَبعدون بأنفسِهم عنه"[1].

بلاغةُ الجناسِ في قوله تعالى: ﴿وَهُمۡ يَنۡهَوۡنَ عَنۡهُ وَيَنۡـَٔوۡنَ عَنۡهُۖ﴾:

الجناسُ النَّاقص في هذهِ الآيةِ له دلالةٌ لفظيَّة ودلالةٌ معنويَّةٌ

فالدَّلالةُ اللَّفظيَّةُ بين ﴿يَنۡهَوۡنَ﴾ و﴿وَيَنۡـَٔوۡنَ﴾ تظهر في التَّلفُّظ بهما، والنُّطق، حيث ينساب على اللِّسان بسلاسة وعذوبة، انسيابًا تستعذِبُه الأُذنُ، ويَطْرَب له القلبُ، فَتُقْبِلُ النَّفس على الكلام بكلّيَّتها، وتُنصِتُ بإمعانٍ...! والدَّلالة المعنويَّة تظهر في أنَّ هذين الفعلين: نهي النّاس عنِ القرآن، ونأيهم بأنفسِهم عنه - قد تشابها في عِظَم الإجرامِ والجِناية بهما؛ فإلحاقُ المرء الضُّرَّ بنفسِه؛ بصدِّها عنِ

(1) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 254.

القرآن استماعًا واتِّباعًا، يشبهُ في ضَررِهِ وسوئِهِ وقُبْحِه مَنْعَهُ الناسَ عنِ الاستماع إلى القرآن، ومعرفةِ الحقِّ الَّذي فيه.. وهذا يدلُّ على تشابهِ قلوب الكفّار في موقفِها من هذا القرآن.

سرُّ التَّعبيرِ بتقديم: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ﴾ على قوله: ﴿وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُۖ﴾:

الضَّالُّ عن الهدى مجرمٌ سفيهٌ، وأضلُّ منه مَن حثَّ النَّاس عليهِ

لمّا كان صدُّهم لأنفسهم أمرًا واقعًا، ولم يكن مستحدَثًا منهم، وإنَّما الَّذي استحدثوهُ بعد أن أخذوا ذلك الموقفَ لأنفسهم، هو أنَّهم جاؤوا إلى غيرهم ليأخذوا معهم هذا الموقفَ الَّذي هم فيه، فكان منَ الحكمة في مواجهة المشركين بِجُرْمِهِمْ أن يواجَهوا أوَّلًا بما أحدثوا من جُرْمٍ؛ وهو صدُّ النّاس، ثمَّ يُساق إليهم بعد ذلك ما كان لهم من سابقةٍ في هذا المضمار، وهو صدُّ أنفسِهم[1]. وفيه إشارةٌ للدَّلالة على شدَّة بشاعة هذا الفعلِ؛ فهو محاربةٌ للّه تعالى ولرسوله - عليه الصَّلاة والسَّلام - فإلحاق الشَّخص الضَّرَرَ بنفسه؛ بمنعِها عنِ الاستماع إلى القرآن وآياته البيِّناتِ منَ الأمور المستبشَعة، لكنَّ أَشَدُّ منه بشاعةً منعُ النّاس من هذا القرآن. والتَّعقيب بقوله: ﴿وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُۖ﴾، بعد قوله: ﴿يَنْهَوْنَ عَنْهُ﴾، لإظهارِ غايةِ نفورهم منَ القرآن، ولتأكيدِ نهيهم عنه؛ إذ إنَّ اجتنابَ النّاهي عنِ المنهيِّ عنه من متمِّمات النَّهي[2].

سرُّ التَّعبيرِ بالجملة الفعليَّة بقوله تعالى: ﴿يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُۖ﴾:

من كان هدفُه في الحياة الإضلالَ، فقد خابَ في الحاضرِ والمآلِ

جاء التَّعبيرُ القرآنيُّ هنا بالجملة الفعليَّةِ، للدَّلالة على تجدُّد هذين الفعلينِ منهم؛ فكلُّ يوم لهم مكيدةٌ، وطريقةٌ في النَّهي والنَّأي؛ إمّا بالفعلِ وإمّا بالقول، وإمّا بهما معًا، وفيه بيان لشِدَّةِ حرصهم على هذا النَّهي والنَّأي؛ فكأنَّه هدفُهم في هذه الحياة، وهمُّهمُ

(1) الخطيب، التّفسير القرآني للقرآن: 4/152.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم، والآلوسي، روح المعاني: 4/120، والقاسميّ، محاسن التّأويل: 4/337.

الأوحدُ الَّذي سخَّروا حياتهم وما يستطيعون في سبيلِ تحقيقه؛ نُصرةً لأهوائهم، ولباطل يتمسَّكون به، وفي هذا ذمٌّ وتقبيحٌ لهم[1].

بلاغةُ المجازِ العقليِّ في قوله: ﴿وَإِن يُهۡلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ﴾:

قولهُ تعالى: ﴿وَإِن يُهۡلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ﴾، نلاحظُ أنَّ في الجملة مجازًا عقليًّا، حيثُ نسب الإهلاك إليهم لما تسبَّبوا إليه بنهيهم، فالمُهلِكُ في الآخرة هو اللّه تعالى في الحقيقةِ، وقد عبَّر بلفظِ الهلاكِ؛ لأنَّ الأصلَ فيه الموتُ، ويُطلَق على المضرَّة الشَّديدة؛ لأنَّ الشّائع بين النّاسِ أنَّ الموتَ أشدُّ الضُّرِّ، فالمرادُ بالهلاك هنا ما يَلقونهُ في الدُّنيا منَ الهلاك والمذلَّة، عند نصرِ الإسلام، وفي الآخرة منَ العذاب[2].

دلالةُ القَصْرِ في قوله تعالى: ﴿وَإِن يُهۡلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ﴾:

جيءَ بأسلوبِ القَصْرِ بطريقِ النَّفي والاستثناء ليُعبِّر عنِ المقام بكلِّ دقَّةٍ ووضوحٍ؛ ليكون مُفحِمًا للكافرين والمشركين والمنافقين، فالقَصْرُ في الجملة إضافيٌّ، وأفاد قَلْبَ اعتقادِ المشركين؛ لأنَّهم كانوا يظنّون أنَّهم بنهيهم، ونأْيِهم عنِ القرآن، أنَّهم بهذا يضرّون النَّبيَّ - عليه الصَّلاة والسَّلام - وأنَّهم يطفِئون نورَ الإسلام! فكان الإتيانُ بالقَصْر للتَّأكيد على أنَّ أولئك بإضلالهم النّاسَ وبضلالهم لن يضرّوا اللّه تعالى، ولا رسولَه - عليه الصَّلاة والسَّلام - ولا المؤمنين، بل هم يضرّون أنفسهم[3]؛ لأنَّهم بضلالهم يحملون أوزارًا، وبإضلالهِم النّاسَ يحملون أوزارًا مع أوزارهم.

دلالةُ التَّعبيرِ بنَفْيِ الشُّعورِ دون نفيِ العلمِ في قوله: ﴿وَمَا يَشۡعُرُونَ﴾:

نفيُ الشُّعورِ عنهم بإهلاكهم أنفسَهم أبلغُ في هذا المقام مِنْ نفيِ العلمِ؛ لأنَّه نفيٌ عامٌّ يقتضي أنَّ صاحبه لا يعلم ولا يحسُّ، وفي هذا

دلالةُ التَّعبيرِ بلفظ (الهلاك) في الآيةِ الكريمة

أهلُ الضَّلالِ لا يشعرون بأنَّهم يسقطون في الهاويةِ

إذا تبلَّدَ عند المعاندِ الشُّعورُ؛ تأجَّجتِ العداوةُ، وازداد النُّفورُ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/182، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2472، والعبيد، آيات العقيدة في سورة الأنعام، دراسة بلاغيّة تحليليّة، ص: 595.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/183.

(3) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 254.

مذمَّةٌ عظيمةٌ لهم؛ إذ بلغَ بهم الحالُ إلى أن صاروا أحطَّ شأنًا منَ البهائم؛ إذِ البهائم تشعرُ وتحسُّ، أمّا هؤلاء فلا..![1]، كما فيه إظهارٌ لضعف عقولهِم مع أنَّهم كانوا يعدّون أنفسهم سادةَ النّاس وقادتهم[2].

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(النَّأْي) و(البُعْد):

النَّأْيُ: يأتي بمعنى الإعراض والصَّدِّ والإشاحة، بصريح السّياق في آيات القرآن؛ مثلُ قوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ﴾ [الإسراء: 83، وفصّلت: 51]. وأمّا البُعدُ؛ فيأتي بمختلِف صيغهِ في القرآن على الحقيقةِ أو المجاز، في البعد المكانيِّ أو الزَّمانيِّ، المادّيِّ منهما والمعنويِّ بصريحِ آيات القرآن، والبعدُ فيها جميعًا نقيضُ القُرْب، على حين يخلص النَّأي للصَّدِّ والإعراضِ نقيضِ الإقبال، كقوله تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ۝ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ۝﴾ [المعارج: 5 - 6][3].

النَّأْيُ: الإعراضُ والصَّدُّ، والبُعْدُ: نقيضُ القُرْبِ

(الهلاك) و(الموت):

الهلاكُ يأتي على أوجهٍ: افتقادِ الشَّيءِ عنك، وهو عند غيرك موجودٌ، كقوله تعالى: ﴿هَلَكَ عَنِّي سُلْطَٰنِيَهْ ۝﴾ [الحاقّة: 29]. وهلاكِ الشَّيء باستحالة وفسادٍ، كقوله: ﴿وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ﴾ [البقرة: 205]. ويُطلَق على الموت، كقوله: ﴿إِنِ ٱمْرُؤٌا۟ هَلَكَ﴾ [النّساء: 176]. ويُطلَق على بطلانِ الشَّيءِ منَ العالم وعدمهِ رأسًا، وذلك المسمَّى فَناءً، قال تعالى: ﴿كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القَصص: 88]. ويُقال: للعذابِ والخوف والفقر، قال تعالى: ﴿وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ﴾[4]. أمّا الموت الَّذي هو ضدُّ الحياة؛ فهو مفارقةُ الرّوح للجسد، وذلك يكون

الهلاكُ أعمُّ منَ الموت الاعتياديِّ، لِتَضَمُّنِه مَنْ قُتِلَ بأيِّ سببٍ كان

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/473.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/183.
(3) بنت الشّاطئ، الإعجاز البيانّي للقرآن، ص: 220.
(4) الرّاغب، المفردات: (هلك).

بزوال القوَّةِ النّامية الموجودة في الإنسان والحيوان والنَّبات، ويلزمُ من ذلك زوال القوَّة الحاسَّة، والقوَّة العاقلة[1].

وعلى هذا فالهلاكُ أعمُّ منَ الموت؛ لأنَّه يدخلُ فيه مَن قُتل، ومَن مات غرقًا أو حَرْقًا، أو بأيِّ سببٍ كان. ثمَّ إنَّ الهلاكَ استُعمل في موضعِ الذَّمِّ، قال تعالى: ﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا﴾ [الأعراف: 4]، وتعدَّد ذكرُ الهلاكِ مع الأمم السّابقةِ، ممّا يدلُّ على أنَّه يستعمل في العقابِ، وهذا بخلاف الموت.

(الشُّعور) و(العلم):

العلمُ: هو اعتقادُ الشَّيء على ما هو به على سبيل الثِّقة، والشُّعورُ علمٌ يوصَل إليه من وجه دقيق، كدقَّة الشَّعر، ولا يُقال: اللّهُ تعالى يَشعر؛ لأنَّ الأشياء لا تدقُّ عنه. وقال بعضهم: الذَّمُّ للإنسان بأنَّه لا يشعر أشدُّ مبالغةً من ذمِّه بأنَّه لا يعلم؛ لأنَّه إذا قال: لا يشعر، فكأنَّه أخرجه إلى معنى الحمارِ، وكأنَّه قال: لا يعلم من وجهٍ واضحٍ ولا خفيٍّ، وهو كقولك: لا يحسُّ، وهذا قولُ مَن يقول: إنَّ الشُّعور هو أن يُدْرَكَ بالمشاعرِ، وهي الحواس، كما أنَّ الإحساسَ هو الإدراكُ بالحاسَّة، ولهذا لا يوصف اللّهُ بذلك[2].

العلمُ: اعتقادُ الشَّيء على ما هو به، والشُّعور: علمٌ يوصَلُ إليه من وجهٍ دقيقٍ

(1) الرّاغب، المفردات: (موت).

(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 372 - 374، والشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 14/8499.

﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُواْ يَٰلَيۡتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٢٧﴾ [الأنعام: 27]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الرَّبطُ بين إعراضِ المشركين في الدُّنيا، وندمِهم في العذابِ بلا أملٍ في الإيابِ

لمّا ذكرتِ الآياتُ السّابقة حالَ المشركين في الدُّنيا، ولجاجَتَهم في الكفر بإعراضِهم عنِ الآيات البيِّنات، وجحودَهم للنُّبوَّة، ونهيَهم غيرَهم عنِ اتِّباعه ومجافاتهم له عليه الصَّلاة والسَّلام - جاءت هذه الآيةُ تسليَةً للنَّبيِّ ﷺ؛ لبيان حالهم يومَ القيامة، وهم موقوفون على النّار، ورأَوا لهيبها وسعيرَها، عند ذلك ندموا على موقفهم، وتمنَّوا العودةَ للدُّنيا؛ للإيمان بالرَّسول واتِّباع القرآن[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وُقِفُواْ﴾: الوقوفُ خلاف الجلوسِ، وقف بالمكان وقفًا ووقوفًا، والوقوف انتصابٌ مع ثباتٍ في المكانِ - كحال الواقف - قال تعالى: ﴿وَقِفُوهُمۡۖ إِنَّهُم مَّسۡـُٔولُونَ ٢٤﴾ [الصّافات: 24]، وقوله تعالى: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ﴾، مجازٌ عنِ الحبس، والتَّوبيخ، والسُّؤال[2]، وقوله تعالى: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ﴾، "تحتمل ثلاثةَ أوجهٍ: جائزٌ أن يكونوا عاينوها، وجائزٌ أن يكونوا عليها وهي تحتهم، والأجودُ أن يكونَ معنى: ﴿وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ﴾: أُدخلوها، فعرفوا مقدار عذابها"[3]. وذكر هذه الأقوالَ الثَّلاثةَ الزَّجّاجُ، واختار الأخيرَ، وقيل: جُعِلوا عليها وقْفًا، كالوقوف المؤبَّدة على سُبُلِها[4].

2) ﴿نُرَدُّ﴾: الرَّدُّ: صرفُ الشَّيء، يُقالُ: ردَّه عن طريقِه، أي:

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 4/2475.
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (وقف).
(3) ابن سيده، المحكم: (وقف).
(4) ابن الجوزي، زاد المسير: 2/20.

صرَفَهُ، ويأتي بمعنى: المنعِ والرَّفْض، وشَيءٌ مَرْدودٌ: أي مَرْفوضٌ، ورَدَّ فلانًا: خَطَّأَهُ، أي: لم يَقبلْه. ومن معانيه أيضًا: الإعادةُ والإرجاعُ، تقول: ردَّه إلى منزلهِ، أي: أعاده، وردَّ إليه جوابًا، أي: أرجعهُ وأرسَلَه[1].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

إعلامُ الرَّسول بندمِ المشركين، وتمنِّيهم الاسْتِدْراكَ

ولو ترى - أيُّها الرَّسول ﷺ - المشركين حين يُعرَضون يوم القيامة على النّار، فيقولون تحسُّرًا: يا ليَتنا نُردُّ إلى الحياة الدُّنيا، ولا نكذِّبُ بآياتِ الله، ونكون منَ المؤمنين بالله، لرأيتَ عجبًا من سوءِ حالهم[2].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالةُ دخولِ ﴿وَلَوْ﴾ على المضارعِ:

دخول (لو) على الفعل المضارعِ في قوله: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ﴾؛ لاستحضارِ الصّورةِ المستقبَليَّةِ، وهي صورةُ رؤيةِ الكافرين موقوفين على النّار، والمعنى: "أَيْ: حُبسوا على الصِّراط فوق النّار"[3]. وقيل (وقفواْ) أَي: دخلوا النّار، وقيل: عُرضوا على النّار[4]. وما في هذه الصورة الأسلوبية من التهكُّم بهم بعد أن كانوا يكفرون بالنبي ﷺ، فَهاهُم يوم القيامة موقوفون على النار.

حذفُ جوابِ ﴿وَلَوْ﴾ الشَّرطيَّة:

شدَّةُ ندمِ الكافرين إذا وُقِفوا على نارِ جهنَّمَ، موقفٌ مَهولٌ

وسرُّ حذفِ جواب (لو) الشَّرطيَّة في قوله: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ﴾، للعلمِ به في الجملة، وتقديرُه: لو رأيتَ وقوفَهم في ذلك الذُّلِّ والانكسار، والخِزْيِ والعارِ لرأيتَ عجبًا؛ ولرأيتَ أمرًا شنيعًا، ففي الحذف تفخيمٌ لذلك الأمر، وتهويلٌ وتعظيمٌ لشأنهِ؛ لتذهبَ النَّفسُ

(1) الجوهريّ، الصّحاح، وابن منظور، لسان العرب، والزّبيدي، تاج العروس: (ردد).
(2) جماعة من علماء التّفسير، المختصر في تفسير القرآن الكريم، ص: 130.
(3) الواحديّ، الوجيز، ص: 349.
(4) السّمعانّي، تفسير القرآن: 2/97.

فيه كلَّ مذهبٍ[1]. والقاعدةُ: أنَّ حذْفَ جوابِ الشَّرط في مقاماتِ الوعيد، يدلُّ على تعظيم الأمرِ، وشدَّته[2].

دلالةُ حذفِ مفعولِ ﴿تَرَىٰٓ﴾:

الحذفُ للإيجازِ من بلاغةِ السِّياق وأسرارِه

في قوله: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ حُذِف مفعول ﴿تَرَىٰٓ﴾؛ ودلَّ عليه الضَّميرُ في قوله تعالى: ﴿وُقِفُواْ﴾، فكان التَّقدير: (لو تراهم)، وهذا أيضًا من قَبيل الإيجاز الَّذي استدعاه المقام؛ وربَّما كان الغرضُ منه التَّقليلَ من شأن أولئك المكذِّبين، فهم أقلُّ وأَحقرُ من أن تحزنَ بسببهم، فالنّارُ موعدُهم، وينتظرهُم إذ ذاك أمر مَهولٌ عظيم؛ لذا حُذِف ما يدلُّ عليهم منَ الكلمة[3].

دلالةُ التَّعبيرِ بصيغةِ المضارعِ في قوله: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ﴾:

استحضارُ الصُّورةِ من مَلْمَحِ السِّياقِ، مؤثِّرٌ في المخاطَب

جاء التَّعبيرُ عنِ الرُّؤية في الآية بصيغة المضارعِ ﴿تَرَىٰٓ﴾؛ لاستحضارِ الصّورة الَّتي سيصير إليها أولئك المشركون، وكلُّ مَن كفر، وكأنَّها حاضرةٌ أمام أعينِ السّامعين، وهذا الاستحضارُ أوقعُ في نفس السّامع؛ فإن كان موحّدًا محزونًا يَسْلو، وإن كان منَ المكذِّبين المشركين يهتزُّ ويخافُ... وقد يَرْتَدِعُ ويُقْلِعُ عن غيِّه، فيكون سببًا في إسلامه[4].

دلالةُ التَّعبيرِ عنِ المستقبل بالماضي في قوله: ﴿إِذۡ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ﴾:

إثباتُ حقيقةِ النَّارِ الَّتي أعدَّها اللهُ للكفَّارِ في تلك الدَّار

الفعل ﴿وُقِفُواْ﴾ هو فعلٌ ماضٍ لفظًا، والمعنى به الاستقبالُ، أي: إذ يوقَفون، وجيءَ فيه بصيغة الماضي؛ للتَّنبيهِ على تحقيق وقوعه، لصدوره عمَّن لاخِلافَ في خبره[5]، وعلى قدر الثِّقةِ في مصدرِ الخبر، تكون قيمةُ الخبرِ. ولا شكَّ أنَّ هذا الوقوفَ المنوَّهَ به في الآية، هو من

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/87.
(2) السّبت، قواعد التّفسير: 1/372.
(3) العبيد، آيات العقيدة في سورة الأنعام، ص: 595.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/184.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/184.

أخبار الغيبِ الَّتي لا يتحكَّم في زمانها ومكانها وورودِها على صفتِها إلّا اللّهُ العليمُ بما كان وما يكونُ، وما لَمْ يَكُنْ، لو كان كيف يكون.

دلالةُ التَّعبيرِ بـ (إذْ) بدلًا من (إذا) في قوله: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ﴾:

عبَّر سبحانه بـ ﴿إِذۡ﴾ الَّتي تدلُّ على الماضي، بدلًا من (إذا) الَّتي تدلُّ على المستقبل، مع أنَّ الحديث عمّا سيحصل لهم في الآخرة، فكانَ يناسبهُ (إذا)، لإفادة تحقُّقِ الوقوعِ وتأكُّدِه، وليُتَصوَّرَ المستقبلُ على أنَّه موجود لا على أنَّه سيوجدُ. وقيل: كلمة (إذْ) تُقام مقام (إذا)، إذا أراد المتكلِّم المبالغةَ في التَّكرير والتَّوكيد، وإزالة الشُّبهة؛ لأنَّ الماضي قد وقع واستقرَّ، فالتَّعبيرُ عنِ المستقبل باللَّفظِ الموضوعِ للماضي يفيد المبالغةَ من هذا الاعتبار[1].

كلُّ شيءٍ قدَّرهُ اللهُ في أزَلِهِ، فهو واقعٌ ـ لامحالة ـ في أوانِهِ بقدرتِهِ

دلالةُ بناء الفعلِ لما لم يُسَمَّ فاعلُهُ في قوله: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ﴾:

بُني ﴿وُقِفُواْ﴾ لما لم يُسَمَّ فاعلُه؛ لأنَّ المقصودَ الأعظمَ هو التَّركيزُ على فعل الإيقاف وحدوثه؛ لتهويلِهِ وتعظيمه[2]، وهو: "شروعٌ في حكايةِ ما سَيصدُر عنهم يومَ القيامةِ، من القولِ المناقضِ لما صدر عنهم في الدُّنيا من القبائحِ المَحْكيَّة مع كونِهِ كَذِبًا في نفسِه، والخطابُ إمّا لرسولِ اللّه ﷺ، أو لكلِّ أَحَدٍ"[3].

الوقوفُ على النَّارِ من أعظمِ المواقف إحراجًا للفجَّارِ

الدَّلالةُ على الاستعارة التَّبعيَّةِ التَّصْريحيَّةِ في قولِهِ: ﴿إِذۡ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ﴾:

عُبِّر بـ ﴿عَلَى﴾ في الآية؛ لدلالتِها على معنى الظَّرْفيَّة، ويكون المعنى: إذ حُبِسوا في النّار، فيكونون في جوف النّار غائِصينَ فيها، وذلك جائزٌ؛ لأنَّ النّار دَرَكاتٌ بعضها فوق بعض، فلا يخلو من معنى الاستعلاء[4]، وعلى هذا التَّوجيهِ يكونُ في الآية استعارةٌ بالحرفِ، فيه شبّهتِ الظَّرفيَّة

الوُقُوفُ على النَّار ورُؤيةُ سعيرِها عذابٌ قبْلَ العذاب

(1) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 12/528، ورشيد رضا، تفسير المنار: 7/293.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/86.

(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/122.

(4) ابن جرير، جامع البيان: 11/318، والرّازيّ، مفاتيح الغيب: 12/508، والنّيسابوريّ، غرائب القرآن: 3/66.

بالاستعلاء؛ بجامع التَّمكُّن، ثمَّ استُعير الاستعلاءُ للظَّرفيَّة على سبيل الاستعارة التَّبعيَّة التَّصريحيَّة، وقد عُبِّر بـ ﴿عَلَى﴾ للإشارةِ إلى أنَّ مجرَّد الاطِّلاعِ عليها، والعلم بها للعيان، يلقي للنَّفس بهولها وشدَّتها، فما بالُكَ بالوقوعِ فيها ! وعلى هذا يكون الاستعلاءُ على حقيقته، أي: هم فوقها على الصِّراطِ، وهي تحته، قالَ النَّسفيُّ: ﴿إِذْ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ أُروها حتَّى يعاينوها، أو حُبسوا على الصِّراط فوق النّارِ[1]، "وقيل: معنى ﴿وُقِفُواْ﴾ على النّار: أُدخلوها، فتكونُ ﴿عَلَى﴾ بمعنى (في) وقيل: هي بمعنى الباء، أي: وُقِفوا بالنّارِ، أي: بِقُربِها معاينين لها، ومفعول ﴿تَرَىٰٓ﴾ محذوفٌ، وجوابُ (لو) محذوفٌ ليذهب السّامعُ كلَّ مذهب، والتقدير: لو تراهم إذ وُقِفوا على النّار؛ لرأيت منظرًا هائلًا، وحالًا فظيعًا"[2].

فائدةُ العطفِ بالفاءِ في قوله: ﴿فَقَالُواْ يَٰلَيۡتَنَا نُرَدُّ﴾:

في العطفِ بالفاءِ دلالة على أنَّ أوَّل شيءٍ يقع حينئذٍ في قلوبهم، ويَسبِقُ التَّعبير عنه إلى ألسنتهم، هو النَّدمُ على ما سلف منهم، وتمنّي الرُّجوعِ إلى الدُّنيا ليؤمنوا[3].

سوف يعاني المنكِرُ الجاني من ضَياعِ الأماني

دلالةُ التَّعبيرِ بحرف النِّداء (يا) في قوله تعالى: ﴿فَقَالُواْ يَٰلَيۡتَنَا نُرَدُّ﴾:

حرف النِّداء (يا) هنا لمجرَّد التَّنبيه؛ فهو حرفُ تنبيهٍ لاحرفُ نداءٍ، وقيل: هو حرفُ نداء مُستعمَل في التَّحسُّر؛ لأنَّ النِّداء يقتضي بُعدَ المنادى؛ فاستُعمِل في التَّحسُّر، وتحسُّرهم يدُّل على شدَّةِ ما هم فيه من كَرْبٍ[4]، فتمنّيهم كان بالنِّداء لصيغته، وهي (ليتَ)؛ كأنَّه يقول: يا ليتَ أَقْبِلي، فهذا وقْتُكِ الَّذي نستغيثُ بك فيه، إذ لا نملك إلّا التَّمنِّي؛ فهو أداتُنا الوحيدةُ، وهي أداةُ العاجزين[5].

في مواجهةِ النَّارِ المتأجِّجةِ لا يبقى للكافرِ إلَّا الصَّرخاتُ المتشنِّجةُ

(1) ابن عطيّة، المحرّرالوجيز: 349، والنّسفيّ، مدارك التّنزيل: 1/498.
(2) الشّوكانّي، فتح القدير: 2/124.
(3) رشيد رضا، تفسير المنار: 7/293.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/184.
(5) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2475.

دلالة التَّمنِّي في قولهِ تعالى: ﴿يَٰلَيۡتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا﴾:

في صعيدِ العدلِ الرَّبَّاني، لا يُدرَكُ الغفرانُ بالأماني

تمنَّى المشركون، وهم في هذه الحالِ منَ الحسرة أمنيةً قد علموا استحالة تحقُّقِها بدليلِ إتيانهم بـ (ليتَ) الَّتي يُتمنَّى بها، ويكون عادةً في الميؤوس منَ الحصول عليهِ، أو فيما هو بعيدُ المنال، لكنَّهم بعدما عاينوا العذابَ الَّذي ينتظرهم، ومن شدَّة ندمِهم وحسرتهم تمنَّوا ما تمنَّوا من أجل الخلاصِ ممّا هم فيه، ولاتَ حينَ مَناصٍ[1].

دلالةُ التَّعبيرِ بالرَّدِّ دون الرُّجوعِ في قوله: ﴿يَٰلَيۡتَنَا نُرَدُّ﴾:

الرَّجعُ: الإعادةُ بدون تقييدٍ، والرَّدُّ الإعادة، مع كراهة له

آثَر القرآنُ الكريمُ التَّعبيرَ بالرَّدِّ دون الرَّجوعِ في الآية، مع وجود تقاربٍ بينهما في الدَّلالة إلّا أنَّ الاستعمال القرآنيَّ يفرِّق بينهما؛ فالرَّجع في اللُّغة ردُّ الشَّيء إلى أوَّل حاله، بخلاف الرَّدِّ فهو صرف الشَّيءِ عن وجْهِه؛ لذلك تضمَّن الرَّجعُ الإعادةَ مطلَقًا بدون تقييد؛ بخلاف الرَّدِّ فتضمَّن الإعادةَ، لكن عن كراهةٍ له لما فيه من معنى الصَّرفِ والتَّغيير، وعلى هذا؛ فالرَّدُّ يختلف عنِ الرَّجعِ بأنَّه إعادةٌ مع الكراهة، ولذلك عندما تقرأُ في آيات القرآن الكريم تجد أنَّ الرَّدَّ يأتي مقترنًا بمكروهٍ، كما في قوله تعالى: ﴿وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلۡعَذَابِۗ﴾ [البقرة: 85]، أو الرَّدَّ إلى الحساب؛ كما في شأن المنافقين في قوله: ﴿وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ [التّوبة: 105][2].

توجيهُ القراءاتِ في قوله: ﴿وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾:

الاحتمالاتُ الإعرابيَّةُ في توجيه القراءاتِ، تتيحُ المجالَ لمعانٍ متنوِّعةٍ

الفعلان ﴿نُكَذِّبَ﴾ و﴿وَنَكُونَ﴾، قُرِئا بالنَّصب فيهما، وبالرَّفع فيهما، وبنصبِ الأوَّل ورفع الثّاني، وبالعكس[3]؛ فهذه أربعةُ أوجهٍ في الإعراب:

فأمّا نصبُ الفعلين: فهو بإضمار (أن) بعد الواو الَّتي بمعنى

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/186، وتفسير ابن عثيمين - سورة الأنعام، ص: 146.
(2) محمّد ياس خضر الدّوريّ، دقائق الفروق اللّغويّة في البيان القرآنّي، ص: 168.
(3) ابن الجزري، النشر: 2/257.

(مع)؛ مثل: (ليتَ لي مالًا وأنفقُ منه)، و(أن) المضمرة مصدريَّة ينسبكُ منها ومنَ الفعل بعدها مصدرٌ، والواو حرف عطفٍ، فيقدَّر المعطوفُ عليه مصدرًا مُتوهَّمًا، يُعطَف هذا المصدر المنسبِكُ من (أن) وما بعدها عليه، والتَّقدير: (يا ليتنا لنا ردٌّ)، وانتفاءُ تكذيب بآيات ربِّنا، وكون منَ المؤمنين، أي: (ليتنا لنا ردٌّ مع هذين الشَّيئين)؛ فهذه الثَّلاثةُ الأشياء مُتمنّاة بقيد الاجتماعِ، لا أنَّ كلَّ واحد مُتمنًّى وحدَه؛ لأنَّ هذه الواو شرطُ إضمار (أن) بعدها أن تصلح (مع) في مكانها. أو يكون النَّصب على جوابِ التَّمنّي؛ فلا يكون التَّكذيبُ، وكونهم منَ المؤمنين، داخلين في التَّمنّي، والواو بمعنى الفاء حينئذٍ، فالواو مُبدَلةٌ منَ الفاء، والتَّقدير: (يا ليتنا نُردُّ فلا نكذِّبَ ونكونَ)؛ فتكون الواوُ هنا بمنزلة الفاءِ في قوله: ﴿لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝٥٨﴾ [الزّمر: 58]، وقيل: غيرُ ذلك.

وأمّا رفعُ الفعلين: فعلى وجهين: الأوَّل: العطفُ على نُردُّ، فيكون عدم التَّكذيب، والكون منَ المؤمنين، داخلَيْن في التَّمنّي كالرَّدِّ، ويكونون قد تمنَّوا ثلاثةَ أشياء: الرَّدَّ إلى دار الدُّنيا، وعدمَ تكذيبهم بآيات ربِّهم، وكونَهم منَ المؤمنين. الثّاني: أن يكونَ الرَّفعُ على القَطْع بتقديرِ مبتدأ، وتكون جملةُ الفعل هي الخبر، والتَّقدير: ونحن لا نُكذِّب، ونحن نكون منَ المؤمنين، وعلى هذا فجملةُ: (نحن لا نُكذِّب)، و(نحن نكون...)؛ إمّا في محلِّ نصبٍ على الحال منَ الضَّمير في نُرَدُّ؛ فيكونان داخلَيْن في التَّمنّي كذلك، وإمّا استئنافًا لا تعلُّق له بما قبله؛ ويكون المعنى: أنَّهم ضَمِنوا ألّا يكذِّبواْ بعد الرَّدِّ، وأن يكونوا منَ المؤمنين، وقيل: غير ذلك.

وأمّا نصبُ الأوَّل، ورفع الثّاني، والعكس، فإعراب كلِّ فعلٍ، بحسب ما مرَّ من توجيه الرَّفع والنَّصب، لكلِّ واحدٍ منهما[1].

دلالةُ اختيارِ المشركينَ التَّعبيرَ بالرَّدِّ في هذا السِّياقِ:

اعـترافُ الكفَّارِ بالتَّقصير في دارِ الدُّنيا

من خلال تعبيرهم في قوله تعالى: ﴿يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ﴾: تمنَّى الكفّارُ الرَّدَّ إلى حالة التَّكليف في أمنيتهم، وآثَروا في التَّعبيرِ عن هذه الأمنيةِ لفظَ (الرَّدِّ)؛ لأنَّه إذا استُعمل في المستقبلِ من حالٍ

(1) مكّيّ بن أبي طالب، مشكل إعراب القرآن: 1/249 - 250، والعكبريّ، التّبيان: 1/489، والسّمين، الدّرّ المصون: 4/584 - 590.

إلى حالٍ، فالمعهودُ منه الرَّدُّ إلى الحالةِ الأولى؛ ليسعى في إزالةِ جميعِ وجوهِ التَّقصيرِ، بعد أن عاينوا الشَّدائد والأهوالَ[1].

دلالةُ تنصيصِ المشركينَ على أسبابِ تداركِ التَّقصيرِ في الآيةِ:

يُوقَفُ المشركُون على النَّارِ، بما اقترفوا من جرائرَ وأوزارٍ

عيَّن المشركونَ وسائلَ التَّدارُكِ بأنفسِهم، من باب التَّمنّي؛ لأنَّهم يعلمون أنَّ الرَّدَّ لا يحصل البتَّةَ، ولكنَّها الحسراتُ الَّتي في صدورِهم؛ فذكروا الأسبابَ الَّتي أدَّت بهم إلى هذا الهلاك، فأعلنوا أنَّهم لا يُكذِّبون بآيات ربِّهم، وهم قد كذَّبوا في الدُّنيا بها، وحدَّدوا أن يكونوا منَ المؤمنين، وهم في الدُّنيا منَ المشركين، وبذلك أجابوا عن سؤالٍ يردُ في الخاطر: لماذا أوقِفوا على النّار ؟ فكان الجوابُ: لأنَّهم كذَّبوا بآيات ربِّهم، ولم يؤمنوا باللّه ولا برسوله.

دلالةُ تقديمِ ﴿وَلَا نُكَذِّبَ﴾ على قولِهم: ﴿وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾:

قدَّموا ما يُناطُ بهم من تركِ التَّكذيبِ، وأخَّروا ما له تعلُّقٌ بالآخر

قدَّموا نفيَهم للكذبِ، وإعْلانَ تَبَرُّئِهم منه، من باب التَّخْليَةِ قبل التَّحْليَةِ، ولبيانِ السَّببِ الَّذي من أجلهِ أوقِفوا على النّار، وفي هذا اعترافٌ منهم بما فعلوا في دارِ الدُّنيا من تكذيبٍ، وهم "تمنَّوا الرَّدَّ إلى الدُّنيا الَّتي هي دارُ التَّكليف ليؤمِنوا ويصدِّقوا، والتَّمنّي لا يدخلُه صدقٌ ولا كذبٌ؛ لأنَّه ليس بخبرٍ"[2].

دلالةُ اختيارِ لفظِ الرُّبوبيَّةِ في قوله: ﴿وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا﴾:

كُلُّ مَنْ مِنَ اللهِ يُعانْ، تكُونُ حياتُهُ مُسيَّجَةً بالأمان

اختاروا لفظ الرُّبوبيَّة من بابِ طلبِ التَّعطُّفِ والتَّحنُّنِ عليهم، وأنَّى لهم ذلك، وقد فات الأوانُ! وقولهم: ﴿وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا﴾، "قالَ سيبَوَيْه: هوَ ابْتِداءُ كَلام، يَعْني: لا نُكذِّبَ أبدًا، رُدِدْنا أوْ لم نُرَدَّ. وقالَ غَيره: هوَ على نسقه، أيْ: يا ليتنا نردُّ ولا نُكذِّبَ بآيات رَبِّنا، أي: لا نكفر بعد الرَّدِّ إلَى الدُّنْيا ﴿وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾"[3]، إذ قد كان

(1) ابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 8/95.
(2) الماورديّ، النّكت والعيون: 2/105.
(3) السّمعانّي: تفسير القرآن: 2/97.

المجالُ مفتوحًا لهم على مصراعيهِ، للتَّوبة والإنابةِ، ولكنَّهم ضلّوا وأَضلّوا بخروجهِم عن منهجِ اللّه الَّذي غمرَهم بِأَنْعُمِهِ، وواساهُم برحمتِه، وما استطاعوا شيئًا إلّا بلُطْفهِ وحمايتِه.

سرُّ العدولِ عن نفيِ الإشراكِ إلى الإيمانِ:

مَن كان من زمرةِ المؤمنينِ؛ نالَ الحُسنى وزيادةً يومَ الدِّين

في قوله: ﴿وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ آثَروا التَّعبيرَ في تمنّيهم أن يكونوا منَ المؤمنين؛ ليؤكِّدوا ما ذكروه بنفي التَّكذيبِ، وأيضًا لأنَّ نفيَ الإشراكِ لايلزمُ منه الإيمانُ، فأرادوا تأكيدَ إيمانِهم، يؤكِّد ذلك وجودُ (مِن) الَّتي تشير إلى أنَّهم يَتَمَنَّوْنَ الانضمامَ إلى المؤمنين لِما رأوا منَ النَّعيم المُعدِّ لهم، ويكونون من جنسِهم.

سرُّ التَّعبيرِ بـ ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ دون (الّذين آمنوا):

الإيمانُ لايتحقَّقُ على كمالِ صفاتهِ بالأماني الكاذبةِ، والمطامحِ المجَنَّحةِ

آثَروا التَّعبيرَ بتمنّي أن يكونوا منَ ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ بدلًا منَ (الذين آمنوا)؛ لإفادةِ صفة الرُّسوخ في الإيمان، والتَّأكيد على تحقُّقِه فيهم ظاهرًا وباطنًا، وهذا مجرَّدُ أمنيةٍ في موقفِ الهَوْلِ الأعظمِ، وهو أوبةٌ شكليَّة للصَّواب، كانت بسببِ ما يتوقَّعونه من مصيرٍ، وما سوف يذوقونهُ من عذابٍ أليم، وأمّا حقيقتُهم؛ فقد كانوا في الدُّنيا على خِلاف ذلك، وهم يتمنَّون العودةَ على خلاف ما كانوا عليه. وقال بعضُهم بتأويل رفْعٍ فنصْبٍ للأفعال؛ لأنَّهم تمنَّوا الرَّدَّ وأن يكونوا من المؤمنين، وأخبروا أنَّهم لا يُكذِّبون بآياتِ ربِّهم، إنْ رُدّوا إلى الدُّنيا، بَلْ ظَهَر لَهُمْ ما كانوا يسترون في الدُّنيا من كفرِهم ومعاصيهم"[1].

سرُّ التَّكرارِ في: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ و﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْۚ﴾:

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ﴾، وفي أخرى بعدها

(1) الثّعلبيّ، الكشف والبيان: 4/142.

تتكرَّرُ الآياتُ البيِّناتُ بزيادةِ ما يُلمَحُ مِنْ لَفْظِهِ تغيُّر المعنى وتناميه

﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ وُقِفُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمۡۚ﴾ [الأنعام: 30] أنَّ علَّة إعادةِ الآيةِ مع اختلاف دلالةِ الوقوفِ: هي لأنَّهم أنكروا النّارَ في القيامة، وأنكروا جزاءَ اللّه ونَكالَهُ، فقال في الأولى: ﴿عَلَى ٱلنَّارِ﴾، وفي الثّانية: ﴿وُقِفُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمۡۚ﴾، أي: على جزاءِ ربِّهم، ونَكالهِ في النّارِ[1].

(1) الكرمانّي، البرهان في متشابه القرآن، ص: 107.

﴿ بَلۡ بَدَا لَهُم مَّا كَانُواْ يُخۡفُونَ مِن قَبۡلُۖ وَلَوۡ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنۡهُ وَإِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ٢٨ ﴾ [الأنعام: 28]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

ربطُ مآلِ الكافرين في نار الآخرةِ بسُوء النّوايَا، وفسادِ الطّوايَا في الدّنيا

لَمّا حدَّثنا بيانُ اللّه تعالى في الآيةِ السّابقةِ عن حال الكافرين، عند إحضارِهم إلى النّار يومَ القيامة، واصطلائِهم بعذابها، وتَمنّيهم أن يعودوا إلى الدّنيا ليكونوا منَ المؤمنين الصّادقين، وقد جاء بيانُ اللّه تعالى في هذه الآيةِ الكريمةِ؛ ليَفضَحَ نواياهُم، ويَكشفَ خباياهم، في إخفائِهمُ المقاصدَ الفاسدةَ الَّتي انطوَت عليها قلوبُهمُ الحاقدةُ، وما اتّصفوا به من كُفرٍ ومُكابرةٍ، مؤكِّدًا بأنَّهم كَذَبوا في هذه الأمنيّةِ، وإنَّما قصدُهم أن يَدفعوا عن أنفسِهمُ العذابَ، وذلك لا يتأتّى مع كونِهم كاذبين فيما يدّعون.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿بَدَا﴾: بَدَوَ: الباء والدّال والواو أصلٌ واحدٌ، وهو ظهورُ الشَّيءِ. يُقالُ: بدا الشَّيءُ يَبدو: إذا ظَهَرَ، فهو بادٍ، وسُمّيَ خلافُ الحضَر بَدْوًا من هذا؛ لأنَّهم في بَرازٍ منَ الأرض، وليس لهم قُرًى تسترُهم أبنيتُها، وكلُّ شيءٍ ظهر لك فقد بدا لك، قال الشّاعر:

قَد كُنَّ يَخبَأْنَ الوُجوهَ تَستُّرًا *** فالآنَ حينَ بَدَوْنَ لِلنُّظّارِ[1]

وأبديتُه: أظهرتُه. وقُرئ قولُه تعالى: ﴿هُمۡ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ ٱلرَّأۡيِ﴾ [هود: 27]؛ أي: في ظاهر الرّأي[2]، وفي الحديث: «نَهَى النَّبيُّ ﷺ عَنْ بَيْعِ الثَّمَرَةِ حَتَّى يَبْدوَ صَلاحُها»[3]، والباديّةُ خلافُ الحاضرة[4].

(1) ابن دريد، جمهرة اللّغة: (بدو).
(2) الجوهريّ، الصّحاح: (بدا).
(3) البخاري، الصحيح، الحديث رقم: (1415): 2/541.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (بدو)، الحميري، شمس العلوم: (بدا).

وتقولُ: بَدا لي في هذا الأمر بَداءٌ؛ أي: تَغيَّر رَأيي عمّا كان عليه[1]، وجاء الفعلُ ﴿بَدَا﴾ في سياق الآيةِ الكريمةِ بالمعنى الأوَّل، وهو ظهورُ الشَّيء؛ أي: ظهرَ لهم ما كانوا يُخفون.

2) ﴿يُخْفُونَ﴾: (خَفيَ) الخاء والفاء والياء، أصلان متباينان متضادّان. فالأوّل السَّترُ، والثّاني الإظهارُ. فالأوّل خَفيَ الشّيءُ يَخفَى، وأخفيتُه، وهو في خُفيةٍ وخفاءٍ، إذا سترتَه، ويقولون: برحَ الخفاءُ، أي وضح السّرُّ وبدا، والثّاني: خفا البرقُ خَفْوًا، إذا لمعَ، ويقال خَفيتُ الشّيءَ، إذا أظهرتُه[2]، وبعضُهم يجعلُ حرفَ الصِّلة فارقًا فيقولُ: خَفي عليه، إذا استترَ، وخَفي له، إذا ظهرَ، فهو خافٍ، وخَفي أيضًا[3]، والخفيُّ: الخافي، قال تعالى: ﴿مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾ [الشّورى: 45][4] والخِفاء ما يُستَترُ به كالغطاءِ، وأخفيتُه إذا سترتُه وهي مقابلُ الإبداءِ والإعلانِ، قال تعالى: ﴿إِن تُبْدُواْ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة: 271]، والاستخفاءُ طلبُ الخفاء قال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُواْ مِنْهُ﴾ [هود: 5][5] ومعنى ﴿مَّا كَانُواْ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ﴾ إمّا ما كانوا يفعلون ويخفون، أو ما كانوا يُخفون من عذابِ الآخرة الّذي يُنكرون، وكِلا المعنيين صحيحٌ.

3) ﴿رُدُّواْ﴾: رَدَّ: الرّاء والدّال أصلٌ واحدٌ مُطَّردٌ مُنقاسٌ، وهو رَجْعُ الشَّيء وعَودُه، تقولُ: رَدَدتُ الشَّيءَ أَرُدُّهُ رَدًّا، وأُعيدُه عَوْدًا. وسُمّيَ المُرتَدُّ بهذا الاسم؛ لأنَّه ردَّ نَفسَه إلى كُفرِه، وأعادَها إليه. والرَّدُّ: عِمادُ الشَّيء الَّذي يَرُدُّهُ؛ أي: يُرجِعُه عنِ السُّقوط والضَّعف. والمَردودةُ: المرأةُ المُطلَّقةُ. ويُقالُ: شاةٌ مُرِدٌّ، وناقةٌ مُرِدَّةٌ، وذلك إذا أضرَعَتْ، كأنَّها لم تكنْ ذاتَ لَبَنٍ فرُدَّ عليها، أو رَدَّتْ هي لَبَنَها. ويُقالُ: هذا أمرٌ لا رادَّ له، أي: لا مَرجوعَ له ولا فائدةَ فيه[6]، والارتداد: الرّجوع؛ ومنه المُرتَدُّ، واستردّه الشّيء: سأله أن يَرُدَّهُ عليه، والرِّدِّيدَى: الرّدُّ، وفي الأثرِ: «لا رِدّيدَى في الصّدقة»[7].

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (بدا).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (خفي).
(3) الفيوميّ، المصباح المنير: (خفي).
(4) الحميري، شمس العلوم: (خفي).
(5) سميح عاطف الزّين، تفسير مفردات ألفاظ القرآن الكريم: (خفي).
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ردّ).
(7) الجوهريّ، الصّحاح: (ردد). والأثر قولُ عمرَ بنِ عبد العزيز رحمه الله. يُنظر: أبو عبيد، غريب الحديث: (خلف).

4) ﴿نُهُواْ﴾: منَ النّهي: خلافُ الأمر، تقولُ: نهيتُه عنه، وفي لغة: نهوْتُه عنه[1] ويقال: نهاه ينهاه نهيًا، فانتهَى وتناهَى، أنشد سيبَويه لزيادِ بن زيدٍ العُذريِّ:

إذا ما انْتَهَى عِلْمي تَناهَيْتُ عِنْدَهُ *** أَطالَ فَأَمْلَى أَوْ تَناهَى فَأَقْصَرا[2]

وتناهَوْا عنِ الشّيءِ: نهى بعضُهم بعضًا، وفي التّنزيل: (كانوا لا يَتَناهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلوهُ) [المائدة: 79]، وقد يجوزُ أن يكونَ معناهُ يَنتهون[3]، وهم أمَرَةٌ بالمعروفِ نُهاةٌ عنِ المنكر. وهو نَهْوٌ عن الشّرِّ. وما تنهاهُ عنّا ناهيةٌ، أي ما تكفُّه كافّةٌ، وما ينظرُ في أوامرِ اللّه ونواهيه[4]، والنَّهيُ قد يكونُ نهيًا من حيثُ المعنَى أو اللَّفْظُ.

فالأوّلُ من حيثُ المعنى قد يكونُ بالقولِ أو بغيرِه، وما كانَ بالقولِ، فلا فرقَ بين أن يكونَ بلفظةِ (افعلْ)، نحوَ: اجْتَنِبْ كذا، أو بلفظِ (لا تَفعل)، والثّاني: من حيث اللَّفظُ هو قولُهم: (لا تفعل كذا)، وقيل إنّ ذلك نَهْيٌ من حيثُ اللَّفظُ والمعنَى جميعًا، نحوَ قولِه تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾ [البقرة: 35][5].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

يُخبرُنا بيانُ اللّه تعالى في جليل كلامِه، أنَّه قد ظهرَ للكافرينَ يومَ القيامة ما كانوا يُخفونَه في أنفسِهم منَ الكُفرِ والتَّكذيبِ والمعانَدةِ، وإنْ أَنكروا ذلك وتناسَوْهُ، ويُحتَملُ أنَّهم قد ظهرَ لهم ما كانوا يَعلمونَه من أنفسِهم من صِدْقِ ما جاءَتْهم به الرُّسُلُ في الدُّنيا، وإنْ كانوا يُظهِرونَ لأتباعِهم خلافَه، كما قال تعالى مُخبِرًا

التّأكيدُ على بُدوِّ ما أُخفيَ من حالِ الكَفرةِ، وأنّهم لا ريبَ عائدُون لمَا نُهُوا عنه

(1) الخليل، العين: (نهي).
(2) البغداديّ، خزانة الأدب: 11/182، وابن منظور، لسان العرب: (نهي)، والزبيدي، تاج العروس: (نهي).
(3) ابن سيده، المحكم (نهي).
(4) الزّمخشريّ، أساس البلاغة: (نهي).
(5) الرّاغب، المفردات، ابن منظور، لسان العرب: (نَهَى).

عن فرعونَ وقومِه: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّاۚ﴾ [النَّمل: 14]، وهم ما طَلبوا العَوْدَ إلى الدُّنيا رَغبةً ومحبَّةً في الإيمان؛ بل خَوفًا منَ العذابِ الَّذي عايَنوه جزاءَ ما كانوا عليه منَ الكُفر، فسألوا الرَّجعةَ إلى الدُّنيا؛ ليتَخلَّصوا ممّا رأته أعينُهم منَ النّار، ولهذا أخبرَنا بيانُ اللّه تعالى، أنَّه لو حُقِّقَ لهم طَلَبُهم ذاك لَرجعوا لما نُهوا عنه منَ الكُفر والمعاندةِ، وذلك دَيدنُهم الّذي عليه دأبوا، وبه عُرفوا، وهم كاذبونَ لا مَحالة، في دعواهُم خلافَ ذلك[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

أثرُ ﴿بَلۡ﴾ في البيان:

من أسرَّ سريرةً ألبسَه اللهُ رِداءَها

قوله تعالى: ﴿بَلۡ بَدَا لَهُم مَّا كَانُواْ يُخۡفُونَ مِن قَبۡلُۖ﴾ إضرابٌ عمّا يُنبئ عنه التَّمنّي منَ الوعد بتصديق الآيات، والإيمانِ بها، أي: أنّ ذلك لم يكن عن عزيمةٍ صادقةٍ منَ الكافرينَ، ناشِئةٍ عن رَغبةٍ في العَوْدِ للإيمان الَّذي جَحدوه في الدُّنيا، بل لأنَّه ظهرَ لهم الآن ما أكرهَهُم في هذا الموقفِ العصيبِ؛ ليقولوا ما قالوا أمامَ النّارِ الَّتي سَيَصلَونَها شاؤوا أم أَبَوا. وقد سيقَ الكلامُ لتهويلِ أمْرِ النّار، والتَّعجُّبِ من فظاعة حالِ الموقوفينَ عليها، وبإخفائِهم تكذيبَهم بها، فإنَّ التَّكذيبَ بالشَّيءِ كفرٌ به وإخفاءٌ له لا مَحالةَ، وإيثارُه على صريحِ التَّكذيبِ الواردِ في قولِه تعالى: ﴿هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ١٤﴾ [الطّور: 14]، مع كونِه أنسبَ لما قبْلَه في الآيةِ السّابقةِ من قولِهم: ﴿وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا﴾ [الأنعام: 27]؛ ذلكَ لمراعاة ما في مُقابَلَتِه منَ البُدوّ، وهو الَّذي تَستَدعيهِ جزالةُ النَّظم الكريم.

بلاغةُ المجازِ في قوله تعالى: ﴿بَدَا لَهُم﴾ ودلالةُ انْتقاءِ الفعلِ ﴿بَدَا﴾:

بدا الشَّيء: ظَهَرَ، ويُقالُ: بَدا له الشَّيءُ إذا ظهرَ له عيانًا، وليس

(1) ابن كثير، تفسير القرآن الكريم: 2/120.

الأمرُ هنا كذلك، بل هو هنا مجازٌ في زوالِ الشَّكِّ في الشَّيءِ، ولَمّا قوبلَ ﴿بَدَا لَهُم﴾ في هذه الآية بقولِه تعالى: ﴿مَّا كَانُواْ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ﴾ عَلِمْنا أنَّ البَداءَ هو ظهورُ أمْرٍ في أَنْفُسِهم كانوا يُخفونَه في الدُّنيا، أي: خطَرَ لهم حينئذٍ ذلك الخاطرُ الَّذي كانوا يُخفونَه، أي: الَّذي كان يبدو لهم، أي: يَخْطُرُ ببالِهم وقوعُه فلا يُعلِنون به، فبدا لهمُ الآن فأعلَنوا به وصرَّحوا به، وهذا المعنَى الدَّقيقُ لا يتحقَّقُ إلّا بالفعل ﴿بَدَا﴾، كما تبيَّن[1].

زوالُ الشَّكِّ في الشَّيءِ وظهورُ الحقيقةِ في وقتٍ لا ينفعُ فيه الاعترافُ

بلاغةُ الاحتباك، في قوله تعالى: ﴿بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُواْ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ﴾:

قولُه تعالى: ﴿بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُواْ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ﴾ في الكلام احتباكٌ، وتقديرُه: (بل بدا لهم ما كان يبدو لهم في الدّنيا، فأظهروه الآن، وكانوا يُخفونَه)، وذلك أنّهم كانوا يَعرضُ لهم الإيمانُ لِما يَرَوْن من دلائلِه الغالبةِ وبراهينِه القاطعةِ، وما يؤكّدُه واقعُ الأحداثِ من نصْرِ المؤمنين، فيصدُّهم عنه العِنادُ والحِرصُ على استبقاءِ السّيادةِ، والأنفةِ منَ الاعترافِ بفضل الرّسولِ، وبسبْقِ المؤمنين إلى الخيراتِ قبْلَهم، وفيهم ضُعفاءُ القومِ وعبيدُهم، كما ذُكرَ عند قولِه تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ﴾ [الأنعام: 52] وقد أشار إلى هذا المعنى قولُه تعالى: ﴿رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ كَانُواْ مُسْلِمِينَ ۝٢﴾ [الحجر: 2][2].

ذكْرُ الدّليلِ على ما يُحذفُ من بلاغةِ التّركيبِ

دلالةُ مرجعِ ضَميرِ الجمْعِ الغائبِ (لهم) من قولِه تعالى: ﴿بَلْ بَدَا لَهُم﴾:

مرجعُ ضميرِ الجمعِ الغائبِ (لهم) في قولِه تعالى: ﴿بَلْ بَدَا لَهُم﴾، قد يعودُ الضّميرُ إلى كفّارِ مكّةَ أو للكفّار الَّذين أَخْفَوْا الخوفَ عن أتباعهم، أو لليهود والنَّصارى وسائر الكفّارِ، على أنَّ الضَّميرَ في ﴿لَهُم﴾ و﴿يُخْفُونَ﴾، عائدٌ على جِنْسٍ واحدٍ، ويمكنُ أن يكونَ الضَّميرُ مختلفًا كأن نقول: (بَدا للأَتباعِ ما كانَ الرّؤساء يُخفونَه عنهم منَ الفساد أو أنّه

الضَّميرُ يجمعُ الكُفَّارَ والمُشركين وأهلَ الكتابِ والمُنافقِين

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 7/185.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 7/185.

بَدا لمشركي العربِ، ما كان أهلُ الكتابِ يُخفونَه عنهم، أو أنَّه بدا لهم، أي: لبعضِهم ما كان يُخفيه عنه بعضُهم، فأطلق كُلًّا على بعضٍ مجازًا. ويَصحُّ أن يكونَ مقصودُ الآية الإخبارَ عن هَوْلِ يوم القيامة، فعبَّرَ عن ذلكَ بأنَّهم ظَهرتْ لهم مَسْتوراتُهم في الدُّنيا، من معاصٍ وغيرِها، أو أنَّ المرادَ أنَّه بدا لهم، أي: لمن تقدَّمَ ذكرُهم ما كانوا يُخفونَ من النّاسِ من قبائِحهم وفضائحِهم في صُحُفِهم وشهادةِ جوارحِهم عليهم[1]، وهذا من مُعجزِ اللّغة حيث ينفسحُ الضّميرُ لجملةِ تأويلاتٍ كلُّها مقنعٌ وفصيحٌ، ويُمكنُ أن يتساوق معه المعنى وتُشحنَ به الدّلالةُ.

المبالغةُ في وصفِ قبائِحِ المُنكرين الَّتي كانوا يُخفونَها

سرُّ استعمالِ اسمِ الموصول (ما)، في قوله تعالى: ﴿مَّا كَانُواْ يُخۡفُونَ﴾:

قولُه تعالى: ﴿مَّا كَانُواْ يُخۡفُونَ﴾ المرادُ بما يخفون، النّارُ التّي وُقفوا عليها، إذ هي التّي سيقَ الكلامُ لتهويل أمرِها، والتّعجيبِ من فظاعة حالِ الموقوفين عليها، ومن إخفائِها تكذيبُهم بها فإنَّ التّكذيبَ بالشّيءِ كفرٌ به، وإخفاءٌ له وإيثارُه على صريح التّكذيبِ الواردِ في قولِه ﷻ: ﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا ٱلۡمُجۡرِمُونَ ۝٤٣﴾ [الرّحمن: 43]، وقولِه تعالى: ﴿هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ۝١٤﴾ [الطّور: 14]، مع كونِه أنسبَ بما قبْلَه، من قولِهم: ﴿وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا﴾، "لمراعاةِ ما في مقابلته منَ البُدوّ، هذا هو الّذي تستدعيه جزالةُ النّظمِ الكريم، وأمّا ما قيلَ من أنّ المرادَ بما يُخفون: كفرُهم ومعاصيهم، أو قبائحُهم وفضائحُهم الّتي كانوا يكتُمونَها من النّاس، فتظهرُ في صحُفِهم، وبشهادةِ جوارحِهم عليهم، أو شِرْكُهُمُ الّذي يَجحَدون به في بعض مواقفِ القيامة، بقولهم: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشۡرِكِينَ﴾، ثمّ يظهرُ بما ذُكر من شهادةِ الجوارحِ عليهم وغيرِ ذلك ممّا كانوا يُخفون من حقائقِ الدّين، في التَّوحيدِ والنُّبوَّةِ واليومِ الآخرِ[2].

(1) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 2/13، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/477 - 478.

(2) الواحدي، الوسيط: 3/263، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 6/410، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/377 - 478.

بديعُ المقابلةِ بين ﴿بَدَا لَهُم﴾، وقولِه تعالى: ﴿مَّا كَانُواْ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ﴾:

ما يُخفِيه النّاسُ في الدُّنيا سوف يظهرُ في الآخرةِ

لمّا قوبِلَ قولُه: ﴿بَدَا لَهُم﴾ في هذه الآيةِ، بقولِه تعالى: ﴿مَّا كَانُواْ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ﴾، عُلِمَ بذلكَ أنَّ البداءَ، هو ظهورُ أمرٍ في أنفُسِهم، كانوا يُخفونَه في الدُّنيا، أي: خَطَرَ لهم حينئذٍ ذلكَ الخاطرُ الَّذي كانوا يُخفونَه، أي: الَّذي كانَ يَبْدو لهم، أي: يخطُرُ ببالِهم وقوعُه، فلا يُعلنونَ به، فبدا لهم الآنَ، فأعلَنوا به وصرَّحوا مُعترِفينَ به، والعبارتان تُفيدان حالتَيْن يتقابلُ فيهما المعنى تِباعًا فهو يقول: (فبدا لهم آنئذٍ ماكانوا يخفون من قبل)، وهي في غاية البيان المُفصحِ الجميلِ.

دلالةُ استعمالِ قولِه تعالى: ﴿مَّا كَانُواْ يُخْفُونَ﴾، عِوضًا عن (أخْفَوا):

تحقُّقُ إخفائِهم لِما كانوا يعلَمونَ صِدْقَه، واستمرارُهم في ذلك

في قولِه تعالى: ﴿مَّا كَانُواْ يُخْفُونَ﴾ اسْتعملَ بيانُ اللّهِ الفعلَ الماضي النّاقصَ ﴿كَانُواْ﴾ مُسنَدًا إلى الفعلِ المضارعِ ﴿يُخْفُونَ﴾؛ للدَّلالةِ على أمرين: الأوَّلُ: التَّحقُّقُ والتَّأكيدُ على أنَّ هناك أمورًا كانوا يُخفونَها وذلكَ باسْتخدامِ الفعلِ الماضي ﴿كَانُواْ﴾، والثّاني: أنَّ الفعلَ المضارع ﴿يُخْفُونَ﴾ يفيدُ تجدُّدَ ما كانوا يُخْفونَه واستمرارَه، حتَّى وافاهُم أجلُهم وهُم على هذه الحالة. وهذان المعنيانِ الجليلانِ، لا يتحقَّقان باستخدامِ الفعْلِ (أَخْفَوْا).

دلالةُ (الواوِ) بين العطفِ والاستئنافِ في قولِه تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّواْ﴾:

الارتـــدادُ إلى الغَيِّ بعدَ المصيرِ دالٌّ على سُوءِ التّقديرِ

الواوُ في قولِه تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّواْ﴾ عاطفةٌ، ويُمكنُ أنْ تكونَ اسْتئنافيَّةً، وهي في مَعرِضِ الإخبارِ عن أمرٍ غيبيٍّ لايعلمُه إلّا اللّه[1] ﷻ. والجُملةُ تعني أنّهم لو ردَّهم اللّه إلى الدّنيا بعد وقوفِهم على النّارِ لعادوا إلى سوءِ ما كانوا فيه يَرفلون وفي حَمأتِه يخوضون ممّا نُهوا عَنْهُ في الدّنيا منَ الكُفرِ البَواحِ والإنكارِ الصُّراحِ.

(1) ابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 2/282 - 283.

دلالةُ قطْعِ الظّرف ﴿قَبۡلُۖ﴾:

يتناسبُ قطْعُ الظَّرفِ، مع قطْعِ ادّعائِهمُ الكاذبِ

دلَّ قولُه تعالى: ﴿مِن قَبۡلُۖ﴾ في قوله تعالى: ﴿مَّا كَانُواْ يُخۡفُونَ مِن قَبۡلُۖ﴾: على أنَّ إخفاءَهم كانَ في بعضِ الزَّمان، أي: ما يدَّعونَ أنَّه خَفيٌّ في ذاكَ الزَّمانِ المُتقدِّمِ في حياتهم الدُّنيا؛ بل لا حقيقةَ له[1].

دلالةُ أسلوبِ الشّرطِ في تجليةِ المعنى، في قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنۡهُ﴾:

مَن شبَّ على شيءٍ شابَ عليه، ومَن اعتادَ مَنهيًّا عادَ إليه

هذا القولُ الكريمُ مصدَّرٌ بأداةِ الشّرط ﴿وَلَوۡ﴾، وفي الأسلوبِ الشّرطيِّ ارتقاءٌ في إبطال قولِهم، ونسْفِ دَعواهُم، حتَّى يكونَ بمَنزلةِ التَّسليمِ الجَدَليِّ في المُناظرةِ؛ أي: لو أُجيبتْ أُمْنيتُهم، ورُدّوا إلى الدُّنيا، لعادوا لتكذيبِهم وإنكارِ البعثِ؛ وذلكَ لأنَّ كفرَهم ناشئٌ عن كِبْرٍ وجحودٍ للآيات البيِّنات، فالنُّفوسُ والعقلُ والتَّفكيرُ، كلُّ ذلكَ هوَ هو، في الدُّنيا وفي الآخرةِ، مَحكومٌ بالأهواءِ والشَّهواتِ، وسيعودُ حكمُها عليهم فيما لو تحقَّقتْ أُمنيتُهم ورجعوا إلى الدُّنيا[2]، وهذا تأكيدٌ لما أفادَه نظمُ الشَّرطِ في أداتِه ﴿وَلَوۡ﴾ وفعلِه وجوابِه.

نُكتةُ التّعبيرِ بالرَّدِّ في الشّرطِ والعَوْدِ في الجواب:

مَن ألِفَ التّكذيبَ والمُكابرةَ لم يَتوانَ عن تَكرارِ المُغامَرةِ

في قولِه تعالى: ﴿وَلَوۡ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنۡهُ﴾ الرّدُّ والعوْدُ، كلاهما يَنُمُّ عن إيجازٍ في العبارةِ، وسَعَةٍ في الدَّلالةِ، ويُعدُّ ذلكَ في غايةِ البلاغةِ وجمالِ البيانِ في القرآن، فما بين الرَّدِّ والعَوْدِ، والفعلِ المبنيِّ للمجهولِ ﴿رُدُّواْ﴾ والفعلِ المبنيِّ للمعلوم ﴿لَعَادُواْ﴾ مع اللّامِ الَّتي تفيدُ التَّأكيدَ تفصيلٌ لِمعانٍ أثارَها صدرُ الآيةِ الكريمةِ، بقولِه تعالى: ﴿بَلۡ بَدَا لَهُم مَّا كَانُواْ يُخۡفُونَ مِن قَبۡلُۖ﴾، وقد قالوا: ﴿يَٰلَيۡتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾، فلو أجيبتْ أُمنيتُهم، وردّوا إلى الدُّنيا، لَعادوا للأمرِ الَّذي نهاهُمُ اللّهُ عنه، وهو التَّكذيبُ

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 7/87.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتَّنوير: 7/186.

وإنكارُ البعث، وما يَتبعُه من عذابٍ، وإنَّما تمنَّوْا ما تَمنَّوْا من شدَّةِ الهَوْلِ، فتوهَّموا التَّخلُّصَ منه بهذا التَّمنّي، فلو تحقَّقَ تمنّيهم ورُدّوا واسْتراحوا من ذلكَ الهَوْلِ، لَغَلَبتْ أهواؤهم رُشدَهم، فَنَسوا ما حَلَّ بهم ورَجَعوا إلى ما أَلِفوا منَ التَّكذيبِ والمُكابرةِ[1].

دلالةُ حذْفِ مُتعلّقِ فعْلِ الرّدِّ في قولِه تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّواْ﴾:

لم يذكرْ بيانُ اللّهِ تعالى متعلَّقَ فعْلِ الرَّدِّ، في قولِه تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّواْ﴾، فيكونُ السّؤالُ: رُدّوا إلى ماذا؟ وردّوا إلى أين؟ وجوابُه راجعٌ إلى أمرَيْن اثْنين: الأوَّلُ: ما أفادَه قولُه من بعدُ: ﴿لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ﴾، فَعَوْدُهم ردٌّ لما كانوا عليه في حياتِهمُ الدُّنيا الَّتي هي مكانُ الرَّدِّ منَ الكفرِ والمعاصي، وسائرِ القبائحِ الَّتي عملوها، والثّاني: الإخبارُ منَ اللّهِ تعالى عن أمرٍ لا يكونُ، كيف كانَ سيوجَدُ ويكون، وهذا ممّا اسْتأثرَ اللّهُ بعلمه، فإنْ أَعْلَمَ بشيءٍ منه عُلِم، وإلّا طَواه، ولم يتكلَّمْ فيه[2].

اسْتِئْثارُ اللّه بعلْمِ ما أرادَ من ألطافِه بالعبادِ

دلالةُ اللّامِ في قولِه تعالى: ﴿لِمَا نُهُواْ عَنْهُ﴾:

أفادتِ اللّامُ في قولِه تعالى: ﴿لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ﴾، اسْتغراقَهم في عَوْدِهم لِما عُهِدَ عنهم، أي: للَّذي نُهوا عنه منَ الكفرِ، وذُيولِه منَ المعاصي، وذلكَ لأنَّهم قد كفروا بعدَ وجوبِ الحُجَّةِ عليهم، وفي ذلك دَلالةٌ على غُلوِّهم في الإصْرارِ على الكُفرِ وعدمِ الرَّغبةِ في الإيمان[3]، وهذا العودُ لما نُهوا عنه "من فنونِ القبائحِ الَّتي من جُملتِها التّكذيبُ المذكورُ، ونسوا ما عايَنوه بالكُليّةِ؛ لاقتصارِ أنظارِهم على الشّاهدِ دونَ الغائبِ"[4].

الاسْتِغراقُ في المَنهيّاتِ والإصْرارُ على الكُفْرِ، دَيدَنُ الكفَرةِ الفَجرةِ

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 7/87 - 88، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 7/186.
(2) ابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 2/282 - 283.
(3) الزَّجاج، معاني القرآن: 2/240، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/478.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/124.

دلالةُ نَوعِ النّهْيِ ودرجتِه، وماهيَّةِ المَنهيِّ عنه في السّياقِ:

رأسُ المَنهيَّاتِ الكُفرُ، وإنكارُ الدَّلائلِ الواضحةِ

في قولِه تعالى: ﴿لِمَا نُهُواْ عَنۡهُ﴾، أي: ما نُهوا عنه منَ الشِّركِ والكُفرِ وإنكارِ البعث، وسائرِ الفضائحِ الَّتي كانوا عليها، وسَتْرِ ما اتَّضحَ لعقولِهم منَ الدَّلائلِ على وجودِ اللّه ووَحْدانيّتِه وصِدْقِ نبوَّةِ محمَّدٍ ﷺ [1]، "ولو ردَّهم اللّه تعالى من موقفِهم ذلك إلى الدّنيا كما سألوا، وغابَ عنهم ما شاهدوه منَ الأهوال، لم يحصلْ منهم فعْلَ الإيمان وتركَ التّكذيب، بل كانوا يَستمرّون على الكُفر والتّكذيبِ"[2].

دلالةُ أسلُوبِ التّذْييلِ، في قولِه تعالى: ﴿وَإِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ﴾:

مَن كذبَ في الأُمنياتِ، فُضحَ أمرُهُ في الحياةِ وبعدَ المماتِ

وقولُه تعالى: ﴿وَإِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ﴾ تَذييلٌ لما قَبلَه[3]، و"هو فضحٌ لكلماتِهم الكاذبةِ، الّتي أجراها على ألسنتِهم سوءُ الموقفِ، ولفحُ السّعيرِ[4]، ومعنى قولِه: ﴿وَإِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ﴾؛ "أي: متّصفون بهذه الصّفةِ لا يَنفكّون عنها بحالٍ منَ الأحوال، ولو شاهدوا ما شاهدوا، وقيل: كاذبون فيما أخبروا به عن أنفسِهم منَ الصّدق والإيمانِ"[5]، وكان الأصلُ في الجُملةِ التّذييليّةِ المُؤكّدةِ أن تأتيَ من غيرِ عطفٍ، ولكنّها جاءت معطوفةً بالواو؛ للإشعارِ بحكمٍ جديدٍ عليهم بكذبٍ آخرَ غيرِ الكذبِ الواردِ في الآيةِ السّابقةِ.

بيانُ مُتعلَّقِ قولِه تعالى: ﴿لَكَٰذِبُونَ﴾ في الآيةِ الكريمةِ:

أُمنيةُ تركِ الكفرِ، لو أُعيدُوا للدُّنيا، سَفهٌ وقِلّةُ عقْلٍ

في قولِه تعالى: ﴿لَكَٰذِبُونَ﴾ أي: فيما أخبروا به عن أنفُسِهم من مضمونِ تَمنّيهم أنَّهم يفعلونَه لو رُدّوا، وفي ذلك تأكيدُ طَبعِهم على الكفرِ ومُرودِهم عليه[6]، "لأنّه هو المعهودُ منَ البشر. ولعلهم يتمنّون

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/478، والبقاعي، نظم الدُّرر: 7/87 - 88.
(2) محمد بن عمر نووي، مراح لبيد لكشف معنى القرآن المجيد: 1/311.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/186.
(4) عبد الكريم الخطيب، التّفسير القرآنّي للقرآن: 4/155.
(5) القِنَّوجيّ، فتح البيان: 4/125.
(6) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 7/88.

ذلك جاهلين أنّه محالٌ، على أنّ النّاس يتمنّون المُحالَ، ولو على سبيل التّحسُّرِ"[1].

أثرُ تعدُّدِ المُؤكّداتِ في جلاءِ المعنَى في قولِه تعالى: ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾:

جيءَ بالجُملة الاسميَّةِ الدّالّةِ على الدَّوامِ والثَّباتِ، فالكَذِبُ سَجيَّتُهم، وقد قَوّى التّأكيدَ بإنَّ ولامِ الابتداء الّتي دَخَلَت على الخبر، والجملةِ التّذييليّةِ المؤكّدةِ لِما قبْلَها، وتَعَدُّدُ وسائلِ التّأكيدِ على شيءٍ غيبيٍّ لا يكونُ إلّا منَ العليمِ الخبيرِ، بما كان وما سيكونُ.

مَـنْ أكّـدَ اللهُ كذِبَه في كتابِه، فـهـو بـالـغٌ في الـكـذبِ أقـصَى غاياتِه

تناسُبُ الجُملةِ المُؤكَّدةِ بعْدَ جُملةِ التّأكيدِ، مع ذِكْرِ العامِّ بعد الخاصِّ:

ذكرُ الجُملةِ التّذييليّةِ المؤكّدةِ لِما سبقَ من وصْفِهم بالكَذِبِ في السّياقِ، يتناسبُ مع ذِكْرِ العامِّ بعد الخاصِّ؛ أي: الحُكمُ العامُّ عليهم بالكذبِ دائمًا، وفي كلِّ الأحوالِ، في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾، بعد الكذبِ الخاصِّ في قولهم: ﴿يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا﴾، وقد تضمَّن تَمنّيهم وعدًا، وهو العَوْدُ للإيمان باللّه ﷻ؛ فلذلك صحَّ إدخالُه في حُكم كَذِبهم دُخولَ الخاصِّ في العامِّ؛ لأنَّ التَّذييلَ يُؤذِنُ بشُمولِ ما ذُيِّلَ به وزيادةٍ، فليس وصفُهم بالكَذب بعائدٍ إلى التَّمنّي؛ بل إلى ما تضمَّنَه مِنَ الوَعْد بالإيمان باللّه، وعدمِ التّكذيبِ بآياته[2] ﷻ.

تـداخـلُ الـكَـذبِ وتـوالِـيـه، دليلٌ على عِظمِ الجُرمِ وتَنامِيه

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

البُدُوّ والظُّهور:

"الظُّهورُ يكون بقَصدٍ وبغيرِ قَصدٍ، تقولُ: استَتَرَ فلانٌ ثمَّ ظَهَر، ويَدُلُّ هذا على قَصدِه للظُّهور، ويُقالُ: ظهرَ أمرُ فُلانٍ، وإنْ لم يقصدْ لذلك، وأمّا قولُه تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ [الرّوم: 41] فمعنى ذلكَ الحُدوثُ، وكذلك قولُك: ظَهَرتْ في وجهِه حُمرةٌ؛ أي: حدثتْ،

البُدوُّ يكونُ بغيرِ قصْدٍ، والظُّهورُ يـكـونُ بـقـصْـدٍ وبدُونِه

(1) رضا، المنار 7/294.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/187.

ولا يَعني أنَّها كانتْ فيه فظَهَرت، "ومن أسماء اللّه تعالى (الظّاهر)؛ هو الّذي ظهر فوقَ كلِّ شيءٍ وعلا عليه. وقيل: هو الّذي عُرف بطرُقِ الاستدلال العقليّ بما ظهرَ لهم من آثار أفعالِه وأوصافِه"[1]، وأمّا البُدوُّ فهو ما يكونُ بغير قَصْدٍ، تقولُ: بَدا البَرقُ، وبَدا الصُّبحُ، وبَدتِ الشَّمسُ، وبَدا لي في الشَّيءِ؛ لأنَّكَ لم تقصِدْ للبُدوّ"[2]، قال عمرُ رضي الله عنه: "إنّي أحلفُ على قومٍ أن لا أعطيَهم، ثمّ يبدو لي فأُعطيهم"[3]؛ أي: يتغيّرُ رأيي عمّا كان عليه، وقد بدا يبدو بِداءً، من حدِّ دخَلَ، والمصدرُ على وزن الفِعال، والبُدوّ الظّهورُ[4]، وممّا تقدَّم بيانُه يتَّضحُ أنَّ استخدامَ الفعل ﴿بَدَا﴾ أَليَقُ بالسّياقِ، فأولئك الكافرونَ، عندما يوقَفون يومَ القيامة على النّار الَّتي كانوا يُنكرون، يَبدو لهم كلُّ شيءٍ كانوا يكفرونَ به ويَجحدونَه في الدُّنيا، دونَ أن يكونَ لذلكَ قصْدٌ منهم؛ بل هو أمرٌ حتْميُّ الظُّهور؛ لأنَّ القضيَّةَ قضيَّةُ إيمانٍ باللّه والبَعثِ ليوم الحساب والمآلِ، وهذا من معاني قولِ اللّه ﷻ: ﴿لَّقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾﴾ [ق: 22].

الرَّدّ والعَوْد:

الرَّدُّ والعَودُ من مُفرداتِ القرآن، ولا تُغني إحداهُما عنِ الأخرى

الرَّدُّ رجعُ الشَّيءِ وعَوْدُه، والعودُ: "تثنيةُ الأمر عودًا بعد بَدءٍ، بدأ ثمّ عاد، والعودةُ مرّةٌ واحدةٌ[5]، وأمّا الفعلُ ﴿لَعَادُواْ﴾ الَّذي ورد في السّياق فهو هنا بمعنى عَوْدِ الكافرِ لِكُفره، فليسَ مُجرَّدَ الرَّدِّ والرُّجوعِ، وإنَّما هو ردٌّ ورجوعٌ مع شيءٍ يَحملُه في قَلبه، وهو الكفرُ باللّه ﷻ وبيوم البعثِ، ودلَّ على ذلك قولُه تعالى بعدَه: ﴿وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ﴾، وهو ما نَهاهُمُ اللّهُ عنه مِنَ الكُفرِ والضَّلال،

(1) ابن الأثير، النّهاية في غريب الحديث والأثر: (ظهر).
(2) الرّاغب، المفردات: (بدا).
(3) عبد الرّزاق الصّنعاني، المصنّف، الحديث رقم: (16075).
(4) نجم الدّين النّسفيّ، طلبة الطّلبة: (بدو).
(5) الخليل، العين: (عود).

ولذلك كان استخدامُ كُلٍّ منَ الفعلَين ﴿رُدُّواْ﴾ و﴿لَعَادُواْ﴾ في سياقه المناسبِ من حيثُ المعنى المُرادُ، ودَورُه المُناطُ به في مَوضعِه، ولا يُجزِئُ أحدُهما عنِ الآخَرِ في تبادُلِ المواقع، ولا يخفى أنّ الفعلَ ﴿رُدُّواْ﴾ مُشاكِلٌ للرّدِّ في طلبِهم: ﴿يَٰلَيۡتَنَا نُرَدُّ﴾، وسرُّ مجيء طلبِهم بهذا الفعل ﴿نُرَدُّ﴾؛ لأنَّ في الرّدِّ منعًا لهم منَ السّقوطِ، كما تدلُّ إحدى الاستعمالاتِ اللّغويّةِ للرّدِّ.

الإخفاء والكتم والسِّرّ:

الإخفاءُ أعمُّ من لفظَي الكَتْم والسِّرِّ في الدّلالةِ والاستعمالِ

الكِتمانُ: لفظٌ يدلّ على إخفاءٍ وسترٍ، من ذلك: كتمتُ الحديثَ كتمًا وكتمانًا. قال اللّه تعالى: ﴿وَلَا يَكۡتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثٗا ٤٢﴾ [النّساء: 42] ويقالُ: ناقةٌ كتومٌ: لا ترغو إذا رُكبت، قوّةً وصبرًا[1]، وأمّا الإخفاءُ فهو: ما يُستَرُ به كالغطاء، تقولُ: أَخْفَيْتُ الدِّرهمَ في الثَّوْبِ، ولا تقولُ: كتمتُ ذلك، وتقولُ: كتمتُ المعنَى وأخفيتُه، فالكتْمُ يختصُّ بالمعاني كالأسْرار والأخبار، فهو لا يُستعمَلُ إلّا فيهما، والإخْفاءُ أعمُّ منَ الكتمان، وأمّا السِّرُّ: فهو الحديثُ المكتَّمُ في النَّفس، قال تعالى: ﴿يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخۡفَى ٧﴾ [طه: 7]. والمستورُ: يختصُّ بالخُبَثِ والأعيان؛ لأنَّ الأصلَ في السِّرِّ تغطيةُ الشَّيءِ بغطاء، وهو في هذا المعنَى يشتركُ مع الإخفاء، لكنَّ السِّرَّ اسْتُعمِلَ في غيرِها تجوُّزًا لا حقيقةً[2].

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (كتم).

(2) العسكريّ، الفروق اللغوية: 447 - 448، والرّاغب، المفردات: (ستر)، والحسينيّ، الكليّات: 3/38، والجرجانيّ، التّعريفات، ص: 123.

﴿وَقَالُوٓاْ إِنۡ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا وَمَا نَحۡنُ بِمَبۡعُوثِينَ﴾ [الأنعام: 29]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

العلاقةُ بين كذِبِ الكفّار في أمانِيهم، وبين التّكذيبِ بالبعثِ والآخرةِ

لَمّا فضَحَتِ الآيةُ السّابقةُ الكافرينَ بإظهارِ ما انْطوتْ عليه قلوبُهم منَ الأغراضِ الفاسدةِ، وأنَّ أمنيّتَهم في العَوْدِ للإيمان - إنْ أُعيدوا إلى الدُّنيا - كاذبةٌ، جاءَ مَنطوقُ هذه الآيةِ الكريمةِ ليضعَ النِّقاطَ على الحُروف في تَلخيص عَقيدتِهم الباطلةِ، بمَنطوقِ قولِهم الواضحِ بأنَّ حقيقةَ الحالِ عندَهم، والمقصودَ من إيجادِهم، ما هو إلّا الحياةُ الدُّنيا وحدَها، وليس وراءَها حياةٌ أخرَى يُبعَثونَ إليها، فيكونُ في هذه الآية برهانٌ على الحُكم عليهم بالكذبِ في قولِه: ﴿وَإِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ﴾؛ لأنّ إنكارَ البعثِ بعد الموت منْ أعظمِ الكذبِ.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلدُّنۡيَا﴾: نقيضُ الآخرة، وسمّيت دنيا لدُنوّها منّا، وهو منَ الواو، والنّسبةُ إليها دُنياويٌّ ودُنيويٌّ[1]، و"الدّنيا أيضًا اسمٌ لهذه الحياة؛ لبعدِ الآخرة عنها، والسّماءُ الدّنيا لقُربِها من ساكني الأرض، ويقال: سماءُ الدّنيا على الإضافة[2]، والدّنيا "الحياةُ الحاضرةُ، عكسُها الآخرةُ، وفي الحديث: «لَو كانَتِ الدُّنيا تَعْدِلُ عِندَ اللّهِ جَناحَ بَعوضَةٍ ما سَقَى كافِرًا مِنها شَرْبَةَ ماءٍ»[3]، والدّهرُ زمنُ الحياة الدُّنيا كلِّها؛ أي: مُدَّةُ بقائِها إلى انقضائها، قال الشّاعر:

الدَّهرُ كالدَّهرِ والأيّامُ واحِدَةٌ *** والنّاسُ كالنّاسِ والدُّنيا لِمَن غَلَبا[4]

(1) الحميريّ، شمس العلوم: (الدُّنيا).
(2) ابن الأثير، النّهاية في غريب الحديث والأثر: (دنا).
(3) أحمد مختار عمر، معجم اللّغة العربيّة المعاصرة: (دنو)، والحديث المذكور رواه التّرمذيّ في سننه (رقم: 2320).
(4) أحمد مختار عمر، معجم اللّغة العربيّة المعاصرة: (دهر).

2) ﴿بِمَبۡعُوثِينَ﴾: البعثُ: الإرسالُ، كبعثِ اللّه مَن في القبورِ. وبعثتُ البعيرَ: أرسلتُه وحلَلتُ عِقالَه، أو كان باركًا فَهِجتُهُ. قال:

أُنيخُها ما بَدا لي ثُمَّ أَبعَثُها *** كأنَّها كاسِرٌ في الجَوِّ فَتّخاءُ[1]

وبَعَثَهُ، كمَنَعهُ: أرسلَهُ، كابتَعَثَهُ فانبَعَثَ، وبَعَثَ النّاقةَ: أثارَها، وبعثَ فلانًا من منامِه: أهَبَّهُ، والبَعثُ، ويُحرَّكُ أيضًا بفتح العَين؛ أي: البَعَثُ: الجيشُ، وجَمْعُه: بُعوثٌ، والبَعثُ كذلك: النَّشرُ[2]، وهذه المعاني كلُّها: أرسلَه، أَهَبَّه، أثارَه، النَّشرُ، تَصدُق على قولِه تعالى في الآية: ﴿بِمَبۡعُوثِينَ﴾.

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

إيضاحُ عقيدةِ الكفَرةِ في إنكارِ البعثِ، وجُحودِ الآخرةِ

أظهرَ لنا بيانُ اللّه ﷻ حقيقةَ ما انْطوتْ عليه قلوبُ الكافرينَ من عقيدةٍ باطلةٍ؛ حيث قالوا: ما هي إلّا هذه الحياةُ الدُّنيا، ثمَّ لا مَعادَ بعدَها، ولا بعثَ بعدَ الموتِ، "هكذا كان دينُهم في الحياة الدّنيا، دينٌ يقطعُ أصحابَه عنِ النّظر فيما وراء هذه الحياة الدّنيا الّتي استغواهم فيها الغيُّ، وركِبهمُ الضّلالُ، فأضافوا وجودَهم كلَّه إلى هذه الأيّام الّتي يعيشونَها من مولدِهم إلى موتِهم"[3].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالةُ العطْفِ في قولِه تعالى: ﴿وَقَالُوٓاْ إِنۡ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا﴾:

إفادةُ السِّياقِ تأكيدَ إنكارِ الكافرينَ للبَعثِ والنّشورِ

قولُه تعالى: ﴿وَقَالُوٓاْ إِنۡ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا وَمَا نَحۡنُ بِمَبۡعُوثِينَ﴾ عطْفٌ على قولِه السّابق: ﴿لَعَادُواْ﴾؛ أي: ولو رُدّوا لَكفَروا ولَقالوا: ﴿إِنۡ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا﴾، كما كانوا يقولونَ قبْلَ يوم القيامة، ويجوزُ أنْ يُعطَفَ على قولِه في ذَيل الآية السّابقة: ﴿وَإِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ﴾ على معنى: وإنَّهم لقومٌ كاذبونَ في كلِّ شيءٍ، وهُمُ الَّذين قالوا: إنْ هي إلّا حياتُنا الدُّنيا، وكفَى به دليلًا على كَذِبهم[4].

(1) الخليل العين: (بعث).
(2) الفيروزآباديّ، القاموس المحيط: (بعث).
(3) عبد الكريم الخطيب، التّفسير القرآنّي للقرآن: 4/154.
(4) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/13.

بيانُ عَوْدِ الضّميرِ في ﴿وَقَالُوٓاْ﴾، مِن: ﴿وَقَالُوٓاْ إِنۡ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا﴾:

عَــوْدُ الضَّـميرِ على الكافرين عُمومًا، ولأقربِ مذكُورٍ خُصوصًا

قولُه تعالى: ﴿وَقَالُوٓاْ إِنۡ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا﴾ أنّ الضَّميرَ في ﴿وَقَالُوٓاْ﴾ عادَ للكافرين الَّذين قالَ اللّهُ عنهم: ﴿يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٢٥﴾ [الأنعام: 25] وهُمُ الَّذينَ قالَ اللّهُ فيهم: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُواْ يَٰلَيۡتَنَا نُرَدُّ﴾ [الأنعام: 27].

ولِمن قالَ فيهم: ﴿بَلۡ بَدَا لَهُم مَّا كَانُواْ يُخۡفُونَ مِن قَبۡلُۖ وَلَوۡ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنۡهُ وَإِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ٢٨﴾ [الأنعام: 28] فالسّياقُ كلُّه في حديثِه عن أقوالِ الكافرين في الدُّنيا، وما سَيقولونَه كذلكَ في الآخرةِ في تمنّيهمْ أنْ يعوّدوا للدُّنيا ليؤمنوا، ولكنَّهم كاذبونَ فلو رُدّوا لَعادوا لما كانوا عليه من قبلُ منَ الكفرِ والتَّكذيبِ[1].

فهو على وجهِ الخُصوصِ معطوفٌ على ﴿وَقَالُوٓاْ﴾ داخلٌ في حيِّزِ جوابِ ﴿وَلَوۡ﴾.

دلالةُ استعمالِ (إنْ) على نفْيِ الجنسِ في قوله تعالى: ﴿إِنۡ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا﴾:

حـصـرُ الـحـيـاةِ في الـدُّنـيـا فقطْ سَـفـاهـةُ رأيٍ وسُوءُ تقديرٍ

﴿إِنۡ﴾ في قولِه تعالى: ﴿إِنۡ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا﴾ نافيةٌ للجِنْس، ولم يكْتفوا بالإخبارِ عن المحصورِ، فيقولوا: هي حياتُنا الدُّنيا، حتَّى أَتَوْا بالنَّفْيِ والحَصْر؛ أي: لا حياةَ إلّا هذه الحياةُ الدُّنيا فقط، وهي ضميرُ الحياةِ، وفسَّره الخبرُ بعدَه، والتَّقديرُ: وما الحياةُ إلّا حياتُنا الدُّنيا، أوْ إنِ الحياةُ لنا إلّا حياتُنا الدُّنيا، فلا حياةَ لنا غيرُها فَبَطَلَتْ حياةٌ بعد الموت، وهذا المعنَى المفصَّلُ جاءَ موجَزًا بكلماتٍ قليلةٍ في الآية، وهو القَصْدُ من إبهامِه، وهذا الإيجازُ من بلاغةِ الإعجازِ البيانيِّ للنَّصِّ القرآنيِّ[2].

(1) الزَّمخشري، الكشّاف: 2/13، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/479، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السليم: 2/193.

(2) ابن عطيَّة، المحرّر الوجيز: 2/283، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/479، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 7/187.

دلالةُ الحصْرِ بالنّفْيِ والاستثناءِ المُفرّغِ في قولِه تعالى: ﴿إِنۡ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا﴾:

الاقتصارُ على الدّنيا قُصورٌ في التّقديرِ، وانحصارٌ في التّفكيرِ

"قولُه: ﴿إِنۡ هِيَ﴾: ﴿إِنۡ﴾ نافيةٌ للجنس، والضَّميرُ بعدَها مُبهَمٌ يُفسِّرُه ما بعدَ الاستثناء المُفرَّغ، قُصِدَ من إبهامِه الإيجازُ اعتمادًا على مُفسِّرِه، والضَّميرُ لَمّا كان مُفسَّرًا بنكرَةٍ فهو في حُكم النَّكِرة، وليس ضميرَ قصَّةٍ وشَأنٍ؛ لأنَّه لا يستقيمُ معه معنى الاستثناءِ، والمعنى: إنِ الحياةُ لنا إلّا حياتُنا الدُّنيا؛ أي: انحصَرَ جِنسُ حياتِنا في حياتِنا الدُّنيا، فلا حياةَ لنا غيرُها، فبطَلَتْ حياةُ ما بعد الموت، فالاسمُ الواقعُ بعدَ ﴿إِلَّا﴾ في حُكمِ البَدَلِ منَ الضَّمير"[1]، وهذا من قصْرِ الموصوف على الصِّفةِ؛ وذلك على التّأويل في الحياة الدّنيا، على أنّ المقصودَ ما ارتبطَ بها منَ الصّفاتِ في أذهان الكافرين من بهجةٍ، ونُعومةٍ، وترَفٍ، ومَلذّات، وهو ما يَعنيه وصفُ ﴿ٱلدُّنۡيَا﴾ مؤنثِ (أدنَى)، وهو الحاضرُ القريبُ العاجلُ.

دلالةُ وصْفِ الحياةِ بـ(الدّنيا)، في الآيةِ الكريمةِ:

توكيدُ ما استقرَّ في نفوسِ الكافرين، جلاءٌ للحقِّ المبينِ

قولُه تعالى: ﴿وَقَالُوٓاْ إِنۡ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا﴾ الدُّنيا صفةٌ لقولِه: ﴿حَيَاتُنَا﴾، ولم يُؤْتَ بها على أنَّها صفةٌ تزيلُ اشْتراكًا عارضًا في معرفةٍ؛ لأنَّهم لا يُقرّونَ بأنَّ ثَمَّ حياةً غيرَ دُنيا؛ بل ذلكَ وصفٌ على سبيلِ التَّوكيدِ، إذْ لا حياةَ عندَهم إلّا هذه الحياةُ[2]، وفي الصّفة والموصوف ﴿حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا﴾ ثلاثُ فوائدَ: أوّلها: نفيُ وجودِ أيِّ حياةٍ غيرِ الحياةِ التّي يعيشونها، والثّانية: أنّهم يَنسبون الحياةَ إليهم؛ لأنّها موطنُ المتعةِ وسببُها، والثّالثة: إنكارُهم صراحةً لبَعثِهم، وتأكيدُ ذلك بالنّفي بالباء، وباسميّةِ الجُملةِ[3]

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/187.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/480.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2478.

دلالةُ النّفي مع تأكيدِه في قوله تعالى: ﴿وَمَا نَحۡنُ بِمَبۡعُوثِينَ﴾:

فلسفةُ الإنكارِ للآخرةِ وَهَمٌ يُسيطرُ على العقولِ القاصرةِ

وقولُه تعالى: ﴿وَمَا نَحۡنُ بِمَبۡعُوثِينَ﴾ نَفيٌ منَ الكافرينَ للبَعث، يُؤكِّدُ النّفيَ المتضمَّنَ قبلُ في ﴿إِنۡ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا﴾، وهو يَستلزِمُ تأكيدَ نفْيِ أيِّ حياةٍ بعد الحياة الدُّنيا؛ لأنَّ البعثَ يَقتضي وجودَ حياةٍ بعدَ، وجاءتِ الباءُ في ﴿بِمَبۡعُوثِينَ﴾ لتأكيدِ إنكارِ البَعْثِ مرّةً بعد مرّةٍ؛ ليعكسَ ثقةً متوهَّمةً لطَمأنةِ النّفسِ المكذِّبَةِ بما تعيشُه من وهمٍ، وهو دأبُ أصحابِ الباطلِ في إقناعِ النّاس بباطلِهم؛ إذ يسوقونَه بأساليبَ مؤكَّدةٍ لإيهام النّاسِ وطَمأنةِ الأنفُسِ، واليقينُ الّذي تأنسُ إليه العقولُ السّليمةُ؛ أنّ ذلك الوَهمَ بنفيِ الآخرة هو عُقمٌ في التّفكيرِ، وقصورٌ في النّظرِ؛ لأنّ إلغاءَ الآخرة هو محضُ خُسرانٍ، تذهبُ به الحقوقُ، ويُهضمُ به سعيُ المُحسنين، ويَستفيدُ به العصاةُ منِ انفلاتِهم، بحُكمِ استيفاءِ ملذّاتِهم في حياتهم الدّنيا.

دلالةُ العطْفِ في قولِه تعالى: ﴿وَمَا نَحۡنُ بِمَبۡعُوثِينَ﴾:

الاحتكامُ إلى الحوارِ المنطقيِّ مُبطلٌ لإنكارِ البعثِ بعدَ الموتِ

جاء العطفُ في هذه الجُملة، ولم تُفصَلْ فتكونُ مُؤكِّدةً للجُملة الّتي قبلَها؛ لأنَّ قصدَ الكافرين إبطالُ قولِ الرَّسول ﷺ في وجود حياةٍ لهم ثانيةٍ، وقولِه ﷺ إنَّهم مبعوثون بعدَ الموت، وقد ورد ذلك بمنطقِ القرآن الكريم في الإقناع والبيان، في قولِه تعالى: ﴿قَالَ مَن يُحۡيِ ٱلۡعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٞ ٧٨ قُلۡ يُحۡيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٖۖ﴾ [يس: 78 - 79]. وقولِه تعالى: ﴿وَلَئِن قُلۡتَ إِنَّكُم مَّبۡعُوثُونَ مِنۢ بَعۡدِ ٱلۡمَوۡتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ٧﴾ [هود: 7][1]، وقد ورد نقاشُ هذه العقيدةِ الفاسدةِ عند الكفرةِ المُنكرين، وعند الملاحدةِ الجاحِدين، في مواقعَ شتَّى منَ القرآن الكريم، وفي جميعِها يَعرِضُ القرآن دعاواهم الباطلةَ، وأقاويلَهم الزّائفةَ، ومكرَهم الكُبّارَ، ومآلَهم

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/187.

الأكيدَ إلى الخَسارِ والبوارِ، ويَردُّ عليها بمنطقٍ سليمٍ، وحُججٍ دامغةٍ، وأمثلةٍ واضحةٍ داحضةٍ، ممّا لا يستطيعون إنكارَه.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(البَعْث) و(النُّشور):

البعثُ: اسمٌ لِبَعثِ الخَلقِ من قُبورِهم؛ أي: إخراجُهم من قُبورِهم إلى الموقفِ للحساب والجَزاء ومَعرفةِ المآل، إمّا إلى جنَّةٍ وإمّا إلى نارٍ، كما قال تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰوَيۡلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرۡقَدِنَاۜۗ﴾ [يس: 52]. وقد أوضح القرآنُ لزومَ البعثِ، ومُطلقَ قُدرةِ اللّٰه على فعلِه، إذِ البادئُ بالخلق قادرٌ على إعادة بعثِ ما خلقَ، وكانوا يقولون: ﴿أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ ١٦ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلۡأَوَّلُونَ ١٧﴾ [الصّافّات: 16 - 17]؛ فهذا الّذي تشابهَ عليهم، ولذلك أعلَمهم اللّٰه الوجهَ الّذي يَنبغي أن يستدلّوا به على أنّ هذا المُتشابهَ عليهم كالظّاهرِ لو تدبّروه، فقال: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلٗا وَنَسِيَ خَلۡقَهُۥۖ قَالَ مَن يُحۡيِ ٱلۡعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٞ ٧٨ قُلۡ يُحۡيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٖۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلۡقٍ عَلِيمٌ ٧٩﴾ [يس: 78 - 79][1].

البعثُ إخراجٌ من القبور، وظهورُ المبعوثين وأعمالِهم هو النّشورُ

وأمّا النُّشورُ فهو اسمٌ لِظُهور المَبعوثينَ، وظُهورِ أعمالِهم للخلائقِ، ومنه قولُك: نَشَرْتُ اسمكَ، ونَشَرْتُ فضيلةَ فُلان، إلّا أنَّه قيلَ: أَنشَرَ اللّٰهُ الموتَى بالألف، ونَشَرْتُ الفضيلةَ والثَّوبَ؛ للفرق بين المعنَيَين[2]، ويتَّضحُ منَ الفرق بين الاسْمَين أنَّ ذِكرَ البعث أَولى بالسّياق منَ النُّشور الَّذي يُخبرُنا به بيانُ اللّٰه تعالى عن إنكار الكافرينَ لإخراج النّاس من قُبورهم للحساب من أَصلِه، وما وراءَه من ظُهور المبعوثينَ، وظُهورِ أعمالِهم للخلائق تَبَعًا، وليس أَصلًا.

(1) ابن منظور، لسان العرب: (شبه).
(2) العسكريّ، الفُروق اللغوية، ص: 103.

﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ وُقِفُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمۡۚ قَالَ أَلَيۡسَ هَٰذَا بِٱلۡحَقِّۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَاۚ قَالَ فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ ٣٠﴾ [الأنعام: 30]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الرّبطُ بين إنكار البعث، وحِوارِ القيامة المُخرِسِ لكلّ لسانٍ

لمّا ذكرَ بيانُ اللّه إنكارَهُمُ البَعثَ أعقَبَه هنا بوصف حالِهم حين يُحشَرونَ إلى اللّه، وهو حالُ البعثِ الّذي أنكروه، وبِكُفرهم سَيذوقونَ العذابَ لا محالةَ، "إذ يقول اللّه لهم: أليس هذا (الّذي) تشاهدونَه الآن هو الحقُّ الّذي أنكرتموه في دُنياكم؟ فيقولون مُتذلّلين: بلى وربِّنا إنّه الحقُّ، فيقول اللّه لهم بعد ذلك: ادخلوا النّار، بسببِ ما كنتم حريصين عليه منَ الكفرِ"[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وُقِفُواْ﴾: "وَقَفَ: الواو والقاف والفاء: أَصلٌ واحدٌ يَدُلُّ على تَمَكُّثٍ في شيءٍ، ثمَّ يُقاسُ عليه، ومنه: وقَفْتُ أَقِفُ وُقوفًا"[2]، الوقوفُ: خلافُ الجُلوسِ، ووقفَ بِالمَكانِ وقْفًا، ووُقوفًا، فهو واقفٌ، والجمع: وقفٌ، ووُقوفٌ، ووقفَ الدّابَّةَ: جعلها تقفُ[3]، والمعنى "لو تراهم حين يقفون للحساب أمامَ ربّهم، ويَعرفون صدقَ ما أنزله على رُسله، لرأيتَ سوءَ حالهم"[4].

2) ﴿فَذُوقُواْ﴾: ذَوَقَ: الذّال والواو والقاف: أصلٌ واحدٌ، وهو اختبارُ الشَّيءِ من جهةِ تَطَعُّم، ثمَّ يُشتَقُّ منه مجازًا، فيُقالُ: ذُقتُ المأكولَ أَذوقُه ذَوْقًا، قال الزّبيديّ: "ومنَ المجاز: قولُه تعالى: ﴿ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ ٤٨﴾ [القمر: 48]؛ أي: أوّلَ ما ينالُكم منها، قال الأخفشُ: جعل

(1) لجنة من علماء الأزهر، المنتخب في تفسير القرآن الكريم، ص: 176.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (وقف).
(3) ابن سيده، المحكم: (وقف).
(4) لجنة من علماء الأزهر، المنتخب في تفسير القرآن الكريم، ص: 176.

المسَّ مذاقًا، كما يقال: كيف وجدتَ طعمَ الضّرب؟ وكقولك: وجد فلان مسَّ الحُمّى؛ أي: أوّلَ ما ناله منها"[1]، وبهذا الاشتقاق يكونُ معنى ﴿فَذُوقُواْ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ﴾، وذُقْتُ ما عندَ فُلانٍ: اختَبَرتُه، وكلُّ ما نَزَلَ بإنسانٍ من مَكروهٍ فقد ذاقَه، ويُقالُ: ذاقَ القَوسَ، إذا نظرَ ما مقدارُ إعطائِها، وكيف قوَّتُها[2].

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

بيانُ موقفِ الجاحِدين، حالَ رُؤيةِ البعثِ الّذي كانوا يُنكرُون

ولو ترى الكافرينَ حين حُبِسوا عندَ ربِّهم يومَ القيامة، وقال لهم موَبِّخًا ومُقرِّعًا على كُفرهم السّابقِ بالبعث في الحياة الدُّنيا: أليس هذا الَّذي تَرَوْنَه الآنَ منَ العذاب بالحقِّ والصِّدقِ؟! فأَقرّوا على أنفسِهم واعترفوا، حيثُ لا يَنفعُهم ذلك؛ بل يُقالُ لهم: ذوقوا العذابَ الَّذي كنتُم تكذِّبونَ وُقوعَه[3].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

التّناسبُ السِّياقيّ بين الآيتَيْن المفتتحتَيْن، بقوله تعالى: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ وُقِفُواْ﴾:

لا مفرَّ للمُنكرين في المَحشرِ، منَ المُساءلةِ والعذابِ الأكبرِ

هنالك مناسبةُ الجوارِ، وهي مناسبةٌ سيّاقيّةٌ بين الآيتَين المفتتحتَيْن بقولِه تعالى: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ وُقِفُواْ﴾، وذلك في قولِه تعالى: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ وُقِفُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمۡۚ﴾، عطفًا على نظيرِها في السّياق قبْلَها، في قولِه تعالى: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ﴾، وهذا العطفُ لا يفيدُ ترتيباً زمنيًّا؛ لأنّ التّرتيبَ في الذّكر ومراعاةِ التّرقّي هو المعتبرُ ههنا، وفي كلا الحالَيْن؛ هنالك موقفٌ مَهولٌ، سوف يتعرّض له أولئك الكفرةُ المعانِدون للّه، والمُنكرون للبعث، فيتمنّونَ وهُم يقفون على النّار عودةً للدّنيا، ما يلبثُ السّياقُ أن يكشف فيها سرائرَهم، وأنّهم سوف يَبقَون على ضلالِهم ونُكرانِهم، حتّى لو أُعطوا فُرصةً

(1) الزّبيديّ، تاج العروس: (مَسَسَ).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (وقف).
(3) السّعديّ، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 209.

للعودة، وعند وقوفِهم على ربِّهم، سوف يَرون العذابَ رأيَ العين، ويَصطلون بحرِّ النّار الّتي كانوا بها يكذّبون.

دلالةُ أسلُوبِ الشَّرطِ في قولِه تعالى: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ وُقِفُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمۡۚ﴾:

دورُ السِّياقِ في توبيخِ المُنكرِين علـى كُـفـرِهـم بما أخبرَ به ربُّ العالمين

قولُه تعالى: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ وُقِفُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمۡۚ﴾ شروعٌ في حكاية ما سَيَصدُرُ عنهم يومَ القيامة، منَ القول المُناقِض لما صدرَ عنهم في الدُّنيا من كُفرِهم بالبعثِ، وهذا الخطابُ إمّا لرسولِ اللّه ﷺ، أو لكلِّ أحدٍ من أهل المُشاهَدَة والعَيان، قَصدًا إلى بيان سوءِ مُعتَقدِهم باللّه والبَعث بعد الموت، وما كانَ لذلك من أَثَرٍ كبيرٍ في كمال سوء حالِهم وبُلوغِها منَ الشَّنّاعة والفَظاعةِ، ممّا أدَّى بهم إلى سوء العذابِ الَّذي سيُعانونَه[1]

دلالةُ استعمالِ أداةِ الشّرطِ ﴿وَلَوۡ﴾، مع حذْفِ جوابِها:

تجليةُ مقْصَدِ الآيـةِ، وتأكيدُ صِـدْقِ الرّسولِ النّذيرِ فيما يُنذِرُ به

هذا مشهدٌ من مشاهدِ القيامةِ، يُساق إليه المُشركون، بعد دُنياهم التّي اغترّواْ بها وأنكروا ما وراءها.. من بعثٍ، وحسابٍ وجزاءٍ.. وقد عبّرَ القرآنُ في هذا السّياقِ عن مشهدِ المُحاكمةِ ومشهَدِ الحُكم[2]، بهذه الجملةِ الشّرطيّةِ التّي خاطبتِ الوجدانَ النّبويَّ المُبلّغَ بالنّذارةِ وتخاطبُ كلَّ تالٍ للقرآن على مدى الأزمان؛ لأنّ العواقبَ واحدةٌ ينتهي إليها كلُّ كافرٍ لدودٍ ويقطفُ غِراسَها كلُّ مُنكرٍ كَنودٍ في كلّ عصرٍ ومصرٍ، وقد ورد جوابُ ﴿لَوۡ﴾ الشَّرطيَّةِ محذوفًا، تقديرُه: (ولو تَرَى ... لَرَأيتَ أمرًا شَنيعًا)[3]، وعِلَّةُ الحذفِ الثِّقةُ بظُهورِه والإيذانُ بقصورِ العبارةِ عن تفصيلِه، وتجليةُ مقصدِ الآية، وهو الإخبارُ عن هَوْلِ ما لَقوه والتَّعظيمُ لما شُقوا به، وبيانُ أمرِ رسولِ اللّهِ ﷺ وصدقِه وتحذيرِه وإخبارِه بعقابِ مَنْ كفرَ[4].

(1) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 2/12.
(2) عبد الكريم الخطيب، التّفسير القرآنّي للقرآن: 4/155.
(3) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 2/12.
(4) ابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 2/282.

نُكتةُ التّعبيرِ بالمضارع في قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ﴾:

المخاطَبُ رسولُ الله ﷺ وكلُّ مَنْ يَسمعُ هذا الخبرَ، مع تجدُّدِ الرُّؤيةِ

قولُه تعالى: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ﴾ جاءَ التَّعبيرُ بالمضارعِ لتجدُّدِ واسْتمرارِ رُؤيةِ المخاطَبينَ، بحيث لا يختصُّ اسْتغرابُها براءٍ دونَ راءٍ ممَّنِ اعْتادَوا مشاهدةَ الأمورِ العجيبةِ؛ بل كلُّ من يتأتَّى منه الرُّؤيةُ يستمرُّ في تعجُّبِه مع اسْتمرارِ حصولِ ما يُتعجَّبُ منه من وُقوفِهم، كوقوفِ العبدِ الجاني بين يديِّ سيِّدِه، للعقابِ الَّذي يَسْتحقُّه[1].

دلالةُ حذْفِ مفعولِ ﴿تَرَىٰٓ﴾:

يندمُ المُنكِرُ للبعثِ بعدَ بعْثِه، ولاتَ حينَ مَندمِ

في قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ وُقِفُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمۡۚ﴾: حُذِفَ مفعولُ ﴿تَرَىٰٓ﴾؛ لدلالةِ ما في حيِّزِ الظَّرفِ ﴿إِذۡ﴾ عليه؛ أي: لو تَراهُم حينَ يوقَفونَ على ربِّهم، وهم يُسألونَ هذا السُّؤالَ التَّقريريَّ، - وفيه ما فيه كذلك منَ التَّوبيخِ والتَّقريعِ لكُفرهم بالبعْثِ، وهم الآن في خِضَمِّ مَشاهدِه ومُعاينةِ أحوالِه وأهوالِه - لَرَأيتَ ما لا يَسَعُه التَّعبيرُ، وهو مشهدٌ لو استحضره المُنكِرُ، وتمثَّلَ جلالتَه وهولَه، لبادرَ إلى الاستدراكِ في هذه الحياة قبل أن تضيع الفرصةُ بالفوات.

دلالةُ صِيغةِ الماضي المبنيِّ للمفعول ﴿وُقِفُواْ﴾:

تنويعُ صِيغِ الفعلِ تستوعبُ مشهدَ الكَفرةِ المهُولَ بين يدي الله

في قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ وُقِفُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمۡۚ﴾ وصيغةُ الماضي في ﴿وُقِفُواْ﴾ للدَّلالةِ على التَّحقُّقِ[2]، وبناءُ الفعلِ للمفعولِ؛ لعدمِ تعلّقِ الغرضِ بذكرِ الفاعلِ، والتّركيزُ هنا على الحدَثِ، وقد بُني للمفعولِ وسُترَ الفاعلُ؛ لأنّ المعلومَ أنّ الّذي يوقِفُ العبادَ أمامَ اللّه همُ الملائكةُ، ويُبنى الفعلُ على ما لم يُسمَّ فاعلُه؛ للعلْمِ به، وهو شبيهٌ بقوله تعالى: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ طِبۡتُمۡ فَٱدۡخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ٧٣﴾ [الزّمر: 73]، والسّوقُ كالإيقافِ، هو حشرٌ للمَغْنيّين في

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السليم: 2/190، 193، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 7/184.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/190.

صعيدٍ واحدٍ أمامَ اللّه، ومعنى آيةِ الزُّمر: ﴿وَسِيقَ﴾ بصيغةِ الماضي المبنيِّ لما لم يُسمَّ فاعلُه: "وحُشر الّذين اتّقَوا ربّهم بأداء فرائضِه، واجتنابِ معاصيه في الدّنيا، وأخلصوا له فيها الأُلوهةَ، وأفردوا له العبادةَ، فلم يُشركوا في عبادتهم إيّاه شيئًا، ﴿إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا﴾[1]، والمعنى كذلك في قولِه تعالى: ﴿إِذْ وُقِفُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾: "ولو ترى حالَ المُشركين، حين تَقِفُهمُ الملائكةُ بين يدَيْ ربِّهم، لوجدتَ هولَ أمرِهم، ورأيت أمرًا خطيرًا مُدهشًا لا يحدُّه وصفٌ"[2].

دلالةُ المَجازِ في قولِه تعالى: ﴿إِذْ وُقِفُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾:

وقولُه تعالى: ﴿إِذْ وُقِفُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾، الوقوفُ ههنا مجازٌ عن الحَبْسِ للتَّوبيخ والسُّؤال، كما يوقَفُ العبدُ الجاني بين يَدَيْ سَيِّدِه ليُقَرِّرَهُ، أو أنَّهم عَرَفوا ربَّهم حقَّ المعرفةِ[3]، ويمكنُ أن يُرادَ كذلك: وُقِفوا على جزاءِ ربِّهم وحُكمِه وقضائِه فيهم[4]، وهو توجيهُ مَن يُؤَوِّلُ على الإيجاز بالحذفِ سعيًا إلى التّنزيه، مثلِ: القولِ بالحذفِ في ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾ [الفجر: 22] على تقدير: وجاء أمرُ ربّك، أو حُكمُ ربّك، ونَحْوِهِ.

المُنكرون موقوفون بواسطةِ الملائكةِ، امتثالًا لأمرِ الله ووعْدِه فيهم

بيانُ الاستعارةِ التّمثيليّةِ في: ﴿وُقِفُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾:

وثمّةَ تأويلٌ آخرُ في: ﴿وُقِفُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾، أنّه تمثيلٌ لحضورِهم المَحشرَ عند البعثِ، شُبِّهتْ حالُهم في الحُضور للحسابِ بحال عَبدٍ جنى جِنايةً فقُبضَ عليه فوقفَ بين يدي سَيِّده، وهكذا يكون الأمرُ في هذا المشهد يومَ القيامة، وُقوفُ العبد بين يَدَيْ ربِّه ﷻ للحسابِ، وبهذا تَظهرُ مَزيَّةُ التَّعبيرِ بلفظِ ﴿رَبِّهِمْ﴾ دونَ اسمِ الجلالةِ (اللّه)[5]، واعتبارُ التّمثيلِ أَولى؛ لأنّه يُحفِّزُ خيالَ المستمعِ حتّى يَحسُنَ تلقّيه

الجانِي موقوفٌ بين يدَيْ سيّدِهِ لتَطالَه عدالةُ الله

(1) ابن جرير، جامع البيان: 21/338.
(2) الزّحيلّي، التّفسير المنير: 7/177.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/13.
(4) ابن جرير، جامع البيان: 7/178.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/187.

لهذا المعنى المهيبِ، واعتبارُه لا يؤثّرُ في عقيدة التّنزيه لله سبحانه عن مماثلة المخلوقين، قال الزّحيليّ: "وظاهرُ الآية غيرُ مُرادٍ قطعًا؛ لأنّه استعلاءٌ على ذات الله تعالى، وهو باطلٌ بالاتّفاق، وإنّما هذا من قبيل المجازِ ... وهم موقوفون ومحبوسون بوساطةِ الملائكة، امتثالًا لأمرِ الله فيهم، كما قال تعالى: ﴿وَقِفُوهُمۡۖ إِنَّهُم مَّسۡـُٔولُونَ﴾ [الصّافّات: 24]، وعبّرَ بهذا التّعبير: ﴿وُقِفُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمۡۚ﴾؛ للدّلالةِ على أنّ أمرَهم مقصورٌ على الله، لا يتصرّفُ فيهم غيرُه"[1].

نُكتةُ مجيءِ ﴿وُقِفُواْ﴾ ماضيًا وبيانُ حذفِ مُتعلّقِه:

الوقوفُ بين يدي الله الحسيبِ وقوفٌ مُزلزلٌ مَهيبٌ

قولُه: ﴿وُقِفُواْ﴾ ماضٍ لفظًا، ومعناه في السّياقِ الاسْتقبالُ، أي: إذْ يوقَفونَ، وحُذِفَ مُتعلَّقُهُ ثقةً بظهورِه، وإيذانًا بقُصورِ العبارةِ عن تفصيلِه، أي: لو تراهم حين يوقَفون على ربِّهم للسُّؤالِ والعقابِ لَرأيتَ ما لا يَسعُه التَّعبيرُ. وصيغةُ الماضي في ﴿وُقِفُواْ﴾ للدَّلالةِ على التَّحقُّقِ، فهو آتٍ مُستقبلًا، ولكنَّه في حيِّز الوقوعِ الحاليِّ لتأكيدِ تحقُّقِه[2]، والمعنى: "وُقِفوا على ما وعدَهم ربُّهم من عذابِ الكافرين وثوابِ المؤمنين، وعلى ما أخبرَهم به من أمرِ الآخرة أو يكونُ المرادُ وقوفَ المعرفةِ"[3].

سِرُّ اختيارِ لفظِ الرُّبوبيّةِ، في قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ رَبِّهِمۡۚ﴾:

المَقامُ مَقامُ إجلالٍ وإظهارِ أفضالِ ذي الجلالِ

جاءَ التَّعبيرُ بقوله: ﴿عَلَىٰ رَبِّهِمۡۚ﴾؛ لأنَّ هذا المقامَ من مقاماتِ الجَلالِ، بما اقْتضاهُ إضافةُ الرَّبِّ إليهم، أي: الَّذي طالَ إحسانُه إليهم، وحِلْمُه عنهم، فأَظْهرَ لهم ما أَظْهرَ في ذلكَ المقامِ، من تبكيتِهم وتوبيخِهم وتقريعِهم[4] والمعنى: "ولو ترى يا محمّدُ، هؤلاء

(1) الزّحيلّي، التّفسير المنير: 7/177.
(2) الزَّمخشري، الكشّاف: 2/13، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/480، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السليم: 2/190، 193.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/480، والرّازيّ، مفاتيح الغيب: 4/480.
(4) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 7/88 - 89.

القائلين: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾، إذ حُبسوا ﴿عَلَىٰ رَبِّهِمْۚ﴾: أي: على حُكم ربّهم وقضائِه وعدلِه فيهم"[1]، فقيل لهم ما قيل في ثنايا الحوارِ المُدرَجِ في السّياقِ.

دلالةُ الاستئنافِ البيانيِّ في قولِه تعالى: ﴿قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّۚ﴾:

قولُه تعالى: ﴿قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّۚ﴾ استئنافٌ بيانيٌّ؛ لأنَّ قولَه: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ﴾ قد أَذِن بمشهدٍ عظيمٍ مَهولٍ، فكان من حقِّ السّامعِ أن يسألَ: ماذا لَقوا من ربِّهم؟، فيُجابَ: أنَّه قال ﷻ لهم: ﴿أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَاۚ قَالَ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾[2].

أفادَ السِّياقُ اعترافَ الكافرينَ بالإنكارِ، وسيقَ الحوارُ خلالَه للاعتبارِ

الاستفهامُ التّقريريُّ وأثرُه في المعنى، في قوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّۚ﴾:

إنَّ الاستفهامَ في قولِه تعالى: ﴿أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّۚ﴾ استفهامٌ تقريريٌّ، وهو قد دخلَ على نَفيِ الأمرِ المُقرَّرِ به؛ لاختبارِ مِقدارِ إقرارِ السّائلِ؛ فلذلكَ يُسأَلُ عن نَفيِ ما هو واقعٌ؛ لأنَّه إنْ كان له مَطمَعٌ في الإنكار تَذرَّعَ إليه بالنَّفيِ الواقعِ في سؤالِ المُقرِّرِ، والمقصودُ: (أَهَذا حقٌّ؟)، فإنَّهم كانوا يَزعُمونَه باطلًا، ولذلك أجابوا بالحرفِ الموضوعِ لإبطالِ ما قبْلَه، وهو ﴿بَلَىٰ﴾ حرفُ الإضراب، فهو يُضرِب عمّا قبلَه ويَعتمِدُ ما بعدَه، وهو هنا أَبطلَ النَّفيَ السّابقَ له، فهو إقرارٌ بوقوعِ مضمونِ السُّؤال؛ ولذلك قالوا: ﴿بَلَىٰ وَرَبِّنَاۚ﴾؛ أي: بلى هو حقٌّ"[3].

دورُ (بلى) في الإضرابِ، وإبطالِ النّفيِ المُسوقِ في الآيةِ

بيانُ المُشارِ إليه بـ (هذا) في قوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّۚ﴾:

المُشارُ إليه بـ ﴿هَٰذَا﴾ في قولِه تعالى: ﴿أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّۚ﴾ هو ما شاهدوه وعايَنوه من البعثِ وما يتبعُه من الأُمورِ العِظامِ، حيثُ كانوا في الدُّنيا يُكذِّبونَ وقوعَ ذلكَ كُلِّه[4].

المُشارُ إليه هو البعثُ وما يتبعُه من كلِّ ما يُرسّي العقيدةَ

(1) مكيّ بن أبي طالب، الهداية إلى بلوغ النهاية: 3/200.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/188.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/188.
(4) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 2/13، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السليم: 2/193.

دلالةُ الباءِ الزّائدةِ في سياقِ الاستفهامِ المَنفيّ، في قوله تعالى: ﴿أَلَيۡسَ هَٰذَا بِٱلۡحَقِّۚ﴾:

الاعترافُ أمامَ عدالةِ اللهِ لا يُعفِي من عذابِ النّارِ

قولُه تعالى: ﴿أَلَيۡسَ هَٰذَا بِٱلۡحَقِّۚ﴾، نلاحظُ في سياقه تجلّي اللّه على طائفة الكفرةِ الجاحِدين من عباده، بسؤالِ المُستنكِرِ لحالِهم في الدّنيا ولِحُجَّتِهِمْ في قولِهم: ﴿وَمَا نَحۡنُ بِمَبۡعُوثِينَ﴾، بسؤالٍ منطقيٍّ وجيهٍ، هو قولُه لهم: ﴿أَلَيۡسَ هَٰذَا بِٱلۡحَقِّۚ﴾؛ أي: أليس هذا البعثُ الّذي تُعاينونَه، وتَشهدون أهوالَه، شهادةَ معاينةٍ وإبصارٍ، هو بعثٌ ثابتٌ بالحقّ واليقين، فقولُه: ﴿بِٱلۡحَقِّۚ﴾ متعلّقٌ بمحذوف، أو نقولُ: إنّ (الباء) زائدةٌ، ويكونُ المعنى: أليس هذا البعثُ هو الحقُّ الّذي لا ريبَ فيه؟ وتكونُ (الباء) لتأكيدِ معنى الإنكارِ الّذي هو بمعنى النّفْيِ، وقد دخل على نفْيٍ، ونفيُ النّفي إثباتٌ، ولقد كانت إجابتُهم مصدّقين؛ لأنّ الواقعَ يحملُهم على التّصديق والإذعان، لما يدعو إليه ربُّ العالمين، بقولِهم كما حكى ربُّهم[1]، ولا مندوحةَ عنِ الإذعان والإقرارِ، بما ذكره الحكيمُ الجبّارُ، إذ عادةُ المُنكِرِ إذا ما ووجِهَ بالدّليل القاطع، أن لا يستطيعَ الإنكارَ، بلِ الغالبُ أن يُعلنَ الاعترافَ، ويَسوقَ الاعتذارَ.

إيرادُ القسَمِ لتأكيدِ لازمِ فائدةِ الخبرِ، في قوله تعالى: ﴿بَلَىٰ وَرَبِّنَاۚ﴾:

الاعترافُ مع القسَمِ، ردعٌ عنِ الإنكارِ، وإيحاءٌ بالنّدمِ على الإصرارِ

لقد أكَّدَ المُنكرون اعترافَهم ذلك بالقسَمِ، تَحقيقًا لاعترافِهم؛ لأنَّه معلومٌ للّه ﷻ؛ أيْ: نُقِرُّ ولا نَشُكُّ فيه، فلذلك نُقسِمُ عليه، وهذا مِن استعمالِ القسَمِ لتأكيدِ لازمِ فائدةِ الخبر[2]، مع ما في القسَمِ بالرّبِّ سُبحانه، في قولِهم: ﴿وَرَبِّنَاۚ﴾ منَ الدّلالةِ على تضمين القسَمِ اعترافًا بربوبيّة الخالقِ وتدبيرِه، وقدرتِه وتصريفِه؛ حيثُ لا ينفعُ الاعترافُ، وهذا الحِوارُ استدعاه السّياقُ منَ الغيبِ المستقبليِّ،

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2479.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/188.

وجَعَله حاضِرًا أمامَنا، كأنّنا نراه، ونسمعُه، مع ما فيه من تشويقٍ وتأثيرٍ، فإنّه رادعٌ قويٌّ لمن حرَّفوا فطرةَ اللّه الّتي فطرَ النّاسَ عليها، حتّى يثوبوا إلى رُشدِهم قبْلَ أن يقفوا هذا الموقفَ المهولَ.

سِرُّ استعمالِ مادّةِ الرُّبوبيّةِ في القَسَم، في قوله تعالى: ﴿قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَاۚ﴾:

القسمُ بتوحيدِ الرُّبوبيَّة تغليظٌ للقسَمِ وتعظيمٌ له

اسْتعملَ بيانُ اللّهِ القَسَمُ بالرُّبوبيَّة، فقالَ تعالى: ﴿قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَاۚ﴾، ولم يأتِ القَسَمُ بالأُلوهيَّة؛ لأنَّ المُشركينَ كانوا يُؤمنونَ بتوحيدِ الرُّبوبيَّة، ولم يكونوا يؤمنونَ بتوحيدِ الألوهيَّة، فجاءَ قَسَمُهم اسْتصحابًا لحالِ ما كانوا يؤمنون به في الدُّنيا، وهذا مصداقُ قولِ اللّهِ تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ۝٨٧﴾ [الزُّخرف: 87]، فهم كانوا يؤمنون بأنَّ اللّه هو الخالقُ لهم وللمكوَّناتِ، والخَلْقُ من معاني الرُّبوبيَّةِ.

بيانُ عوْدِ الضَّميرِ المُستَتِرِ في: ﴿قَالَ فَذُوقُواْ﴾:

عَوْدُ الضَّميرِ المُستَتِرِ إلى الكافرين

يعودُ الضَّميرُ في قولِه: ﴿فَذُوقُواْ﴾ على المُشركين المُكذِّبين بالبعثِ والنُّشورِ والجنَّةِ والنّار، ولذلك قال بعدَه: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ أي: بسببِ كُفرِكم في الدُّنيا بذلك أو بكلِّ ما يجبُ الإيمانُ به[1].

دلالةُ فاءِ التَّفريعِ في: ﴿قَالَ فَذُوقُواْ﴾:

ترتيبُ عذابِ الكافرينَ على اعترافِهم بكُفرِهم مُفيدٌ في الدّلالةِ

قولُه تعالى: ﴿قَالَ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾؛ أي: ذوقوا العذابَ الَّذي عايَنتُموه، و(الفاءُ) هنا للتَّفريعِ عن كلامهم، أو هي الفاءُ الفصيحةُ؛ أي: إذا كان هذا الحقَّ فَذوقوا العذابَ على كُفركم؛ أي: بالبعث، وجاءتِ الفاءُ لترتيب التَّعذيبِ على اعترافِهم بحَقيَّةِ ما كفروا به في الدُّنيا، لكنْ لا على أنَّ مَدارَ التَّعذيب هو اعترافُهم بذلك؛ بل هو كُفرُهُمُ السّابقُ بما اعترفوا بحقيَّته الآن، كما نطقَ به قولُه ﷻ: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾[2]، ولا شكّ أنّ ذلك الاعترافَ المذكورَ في السّياقِ على ألسنة أولئك الكفرةِ الفجَرةِ، هو إيذانٌ بسَريان العدالةِ

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السليم: 2/193.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السليم: 2/193.

السّماويّةِ في الأرض والسّماءِ، وفي الدّنيا والآخرةِ، وأنّ الاعترافَ الذّاتيَّ لكلّ جاحدٍ كنودٍ هو الّذي يؤكّدُ مصداقيّةَ الأخبارِ الّتي حدّثنا عنها القرآنُ الكريم، وخصوصًا ما تعلّق منها بمشهدِ القيامةِ، حيث يكونُ الاعترافُ عنِ النّفسِ سببًا في ذوقِ العذاب.

مفهومُ الاستعارةِ في قولِه تعالى: ﴿فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ﴾:

أبلغُ في الدّلالةِ على بشاعةِ الذّنبِ وهوْلِه

"وذَوْقُ العذابِ استعارةٌ لإحساسِه؛ لأنَّ الذَّوقَ أقوى الحواسِّ المباشِرةِ للجسم، فشُبِّه به إحساسُ الجِلْدِ"[1]، ومعنى قولِه تعالى: ﴿فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ﴾؛ "أي: فانْغمِسوا في العذابِ ذائقين لآلامِه، مُحسّين بها، فالذّوقُ هنا كنايةٌ عنِ الإحساسِ الشّديدِ بعد الانغماسِ فيه، والأمرُ هنا أمرٌ تكوينيٌّ، يَحكي الواقعَ الحقَّ، وقد يكونُ مع ذلك أمرًا قَوليًّا، لا اختيارَ لهم فيه، بل إنّه مجابٌ بالاضطرارِ"[2].

الباءُ السّببيّةُ وأثرُها في المعنى، في قولِه تعالى: ﴿بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ﴾:

عاقبةُ الكفّارِ إلى بَوارٍ وخَسارٍ

قولُه تعالى: ﴿بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ﴾ (الباءُ) سببيَّةٌ، و(ما) مَصدريَّةٌ؛ أي: بسببِ كُفركم؛ أي: بهذا الَّذي كفرتُم به في الدُّنيا، أو بكلِّ ما يجبُ الإيمانُ به، فيدخلُ كفرُهم به دخولًا أوَّليًّا، ولعلَّ هذا التَّوبيخَ والتَّقريعَ، إنَّما يقعُ بعدَما وُقِفوا على النّارِ، فقالوا ما قالوا، إذِ الظّاهرُ أنَّه لا يَبقَى بعدَ هذا الأمرِ إلّا العذابُ، فهو يقول لهم: "﴿فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ﴾؛ أي: بسببِ دوامِكم على سَترِ ما دلّتْكم عليه عقولُكم من صدْقِ رسولِكم، ولا شكَّ أنّ الكلامَ - وإن كان على هذه الصّورةِ - فيه نوعُ إحسانٍ؛ لأنّه أهونُ منَ التّعذيب مع الإعراض في مقامِ ﴿قَالَ ٱخۡسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ١٠٨﴾ [المؤمنون: 108]، ولذلك كان ذلك آخرَ المَقاماتِ"[3].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/188.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2479.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/90.

سِرُّ استعمالِ مادّةِ ﴿تَكۡفُرُونَ﴾ دونَ (تجحدون) أو (تشركون):

الكفرُ: اسْمٌ يقعُ على ضُروبٍ من الذُّنوبِ كالشِّركِ باللّهِ، والجَحْدِ للنُّبوَّةِ واستِحلالِ ما حرَّمَ اللّهُ، وغيرِها من الخِصالِ المضادّة لخصال الإيمان؛ لأنَّ العبدَ إذا فعلَ خَصْلَةً منَ الكُفرِ، فقد ضيَّعَ خَصلةً منَ الإيمان، فهو تغطيةٌ لكلِّ أساسٍ ورُكنٍ من أركانِ العقيدةِ الإيمانيَّة.

الكفرُ أوسعُ دَلالةً منَ الجُحودِ والشِّركِ

والشِّركُ من أبشعِ الصّفاتِ الّتي ندّد بها القرآن كثيرًا[1]، والجُحودُ دونَه، وأكثرُ ما يُطلَقُ على جَحْدِ النِّعمة، ونقيضُه الشُّكرُ، وبذلكَ يتبيَّنُ أنَّ اسْتخدامَ البيانِ الإلهيِّ لمادّة ﴿تَكۡفُرُونَ﴾ أَوْفى بالسّياقِ القرآنيِّ، حيث إنَّ صفةَ الكُفرِ فيها المبالغةُ في صفةِ أولئكَ الَّذين أنكروا ألوهيَّةَ اللّهِ، فلم يَعبُدوه، ولذلك قيل لمضيِّعِ الإيمانِ: كافرٌ، لِتَضييعِه حقوقَ اللّهِ تعالى وما يجبُ عليه من شُكرِ نِعَمِه، فهو بمنزلةِ الكافرِ لها، وقيل لكلّ كفرٍ: شركٌ للمبالغةِ في صفته، وذلك لِعظَمِ وخُطورةِ ما معه منَ المعصيةِ[2] فيكونُ قولُه: ﴿تَكۡفُرُونَ﴾ عامًّا، قدِ اسْتوعَبَ بمفهومِه ودَلاليّتِه كلًّا منْ (تُشْرِكونَ) و(تَجْحَدونَ).

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(وُقِفوا) و(حُبِسُوا):

يُقالُ: حَبَسَ الرَّجُلَ عن حاجَتِه، إذا مَنَعَه عنِ التَّصرُّفِ فيها، ويجوزُ أن يُقالَ: إنَّ الحَبسَ يكونُ لمن تمكَّنَتَ منه، فالحَبْس يكونُ بعدَ التَّمكُّن[3]. والحَبسُ: المَنعُ منَ الانبعاث، قالَ ﷻ: ﴿تَحۡبِسُونَهُمَا مِنۢ بَعۡدِ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ [المائدة: 106]. والتَّحبيسُ: جَعلُ الشَّيءِ مَوقوفًا على

الوقوفُ مؤقَّتٌ لا حَبْسَ فيه، بينما الحَبسُ تأبيدٌ أو مَنعٌ منَ الانبعاثِ

(1) العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 454 - 455.
(2) العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 455.
(3) العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 190.

التَّأبيدِ، يُقالُ: هذا حَبيسٌ في سبيل اللّه. ويُقالُ في الوُقوف: وقَفتُ أقِفُ وُقوفًا، وهو يَدُلُّ على تمكُّثٍ في شيء، ثمَّ يُقاسُ عليه[1]، وقولُه تَعالى: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ يَحتَمِلُ ثلاثةَ أوجُهٍ: جائزٌ أن يَكونوا عايَنوها، وجائزٌ أن يَكونوا عليها، وهي تحتَهم، والأجودُ أن يكون معنى: ﴿وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ﴾: أُدخِلوها فعرفوا مِقدار عذابِها، كما تقول: وقفتُ على ما عِند فلان: تُريدُ قد فهمتَه وتبيّنتَه[2].

ممّا سبقَ يتَّضحُ أنَّ استخدامَ البيان القرآنيّ للفعلِ ﴿وُقِفُواْ﴾ أنسَبُ منَ الفعلِ (حُبِسوا) لسياق النَّصِّ القرآنيّ في عَرضه لمَشهد الكافرينَ المُنكرينَ للبعث؛ لأنّه وقوفٌ مؤقّتٌ لا حَبسَ فيه. وقد شُبِّهت حالُهم بمنِ ارتكبَ جُرْمًا، ومَكَثَ بينَ يدي سيِّدِه ليعاتِبَه أو يُعاقبَه، وهو ما دلَّ عليه الفعلُ ﴿وُقِفُواْ﴾ بالتَّحديد، دونَ حاجةٍ لاستعمالِ معنى التَّأبيدِ أو المنعِ منَ الانبعاث اللَّذين يدُلُّ عليهما فعلُ الحَبس.

(الذَّوق) و(الإحساس):

"الإحساسُ: هو الشُّعورُ بالشَّيءِ، وكلُّ ما شَعَرتَ به فقد أَحسَستَه، ومعناه: أَدرَكتَه بحسِّك، كما في قولِه تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأۡسَنَآ﴾ [الأنبياء: 12]، وقولِه سبحانه: ﴿فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ [يوسف: 87]؛ أي: تعرَّفوا عليه بإحساسِكُم"[3]. والذَّوقُ: إدراكُ الطُّعوم، حتَّى إنَّه استُعمِلَ مجازًا في الإحساسِ بالعذاب، كما في الآية الكريمة من قولِه تعالى: ﴿فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ﴾، مع الإطلاقِ الَّذي يُفيدُ فيما يَقِلُّ تناوُلُه، وفيما يَكثُرُ منَ الطَّعام، فخُصَّ بالذِّكر هنا ليَعُمَّ الأمرَينِ معًا، ولذلكَ كَثُرَ استعمالُه في العذاب في آياتٍ كثيرةٍ[4]، ثمَّ إنَّ

الذّوقُ الإحساسُ بالعذابِ مجازًا، بينما الإحساسُ الشُّعورُ به حقيقةً

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (وقف).
(2) ابن سيده، المحكم: (وقف).
(3) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 23.
(4) الرّاغب، المفردات: (ذوق).

الإحساسَ أثَرٌ للذَّوق، وليس هو الذَّوقُ، واستعمالُ الأَصلِ أصلٌ دونَ استعمالِ فَرعِه أو أثَرِه، وأولئك الَّذين أنكَروا البعثَ هم الآنَ وجهًا لوجهٍ أمامَ البعثِ؛ بل هم في داخل أحداثِه وأحوالِه وأهوالِه، فَليَذوقوا العذابَ في اليوم الَّذي كانوا يُنكرونَه ويَستهزئون به، ولذلكَ كُلِّه كانَ استخدامُ البيانِ الإلهيِّ الكريمِ للفعل ﴿فَذُوقُواْ﴾ أقربَ وأنسبَ من أيِّ فعلٍ يتعلَّقُ بمجرَّدِ الإحساسِ.

﴿قَدۡ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتۡهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغۡتَةً قَالُواْ يَٰحَسۡرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطۡنَا فِيهَا وَهُمۡ يَحۡمِلُونَ أَوۡزَارَهُمۡ عَلَىٰ ظُهُورِهِمۡۚ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ٣١﴾ [الأنعام: 31]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

المناسبةُ بين حضورِ الكافرين المَحشَرَ، ومشهدِ حسرتهم عند قيامِ السّاعة

لَمّا حدَّثنا بيانُ اللّه تعالى عن حُضور الكافرينَ المَحشَرَ عندَ البَعث الَّذي كانوا يُنكرون، مُعترفينَ بإنكارِهم الَّذي ذاقوا بسببه العذابَ، جاءتْ هذه الآيةُ الكريمةُ لِتُعلِنَ خَسارتَهمُ الفادحَةَ، وهي تُصوِّرُ مَشهدَ تحسُّرِهم على ما ضيَّعوا في جَنبِ اللّه، وها هم يَحملونَ ذُنوبَهم وسيِّئاتِهم الَّتي قَوَّسَتْ ظُهورَهم حسّيًّا ومعنويًّا، فأضعَفَتْها عنِ السَّيرِ إلّا إلى الجحيم، حيث يَندمون ويقولون: ياحسرتَنا على التّفريطِ في اتِّباع الحقِّ في الدّنيا، وهم يومئذٍ يَرزحون تحت أعباءِ ذنوبِهم، فيا قُبحَ ما يحملون منَ الذّنوبِ الثّقيلةِ[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿خَسِرَ﴾: يَخسرُ خُسرانا. والخاسرُ: الّذي لم يربح في تجارتِه، ومصدرُه: الخسارةُ والخُسْرُ. كِلتُه ووزنتُه فأخسرتُه، أي: نقصتُه وصفقةٌ خاسرةٌ، أي: غيرُ مُربحةٍ[2]، والخُسْرُ والخُسران: انْتقاصُ رأسِ المال، ويُنسَبُ ذلكَ إلى الإنسان، فيُقالُ: خَسِرَ فلانٌ، وإلى الفعل، فيُقال: خَسِرتْ تجارتُه، قالَ تعالى: ﴿تِلۡكَ إِذٗا كَرَّةٌ خَاسِرَةٞ ١٢﴾ [النّازعات: 12]، ويُستعملُ ذلكَ في المقتَنَياتِ الخارجةِ كالمالِ والجاهِ في الدُّنيا وهو الأكثرُ[3]، وفي المُقْتَنَياتِ النَّفْسيَّةِ، كالصِّحَّةِ

(1) لجنة من علماء الأزهر، المنتخب في تفسير القرآن الكريم، ص: 176.
(2) الخليل، العين: (خسر).
(3) الرّاغب، المفردات: (خسر).

والسَّلامَةِ والعَقْلِ والإيمانِ والثَّوابِ، وكلُّ خُسرانٍ ذكرَه اللهُ تعالى في القرآنِ فهو على هذا المعنَى الأخيرِ، دونَ الخُسران بالمُقْتَنياتِ الدُّنيويَّةِ والتِّجاراتِ البشريَّةِ[1]، ولذلك كان معنَى التَّخسير: الإهلاكَ، حتَّى إنَّ الكلماتِ الثَّلاثَ: الخَسارَ، والتَّخسيرَ، والخَيْسَرَى، بفتحِ الخاء في الثَّلاثة، هي بمعنَى الضَّلالِ والهَلاكِ، وكلاهُما الخُسرانُ الحقيقيُّ[2].

2) ﴿بِلِقَآءِ﴾: (لقى) لقيتُه لقاءً بالمدّ، ولُقى بالضّمّ والقصر، والتقَوا وتلاقَوْا بمعنى واحدٍ[3] اللِّقاءُ: مقابلةُ الشَّيءِ ومصادفتُه معًا، وقد يُعبَّرُ به عن كلِّ واحدٍ، يُقالُ: لَقيَهُ يَلْقاهُ لقاءً ولُقيًّا ولُقْيَةً، ويُقالُ ذلكَ في الإدراكِ بالحسِّ، وبالبَصَر، وبالبَصيرة، قالَ تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ﴾ [آل عمران: 143]، واللِّقاءُ: الملاقاةُ، قالَ تعالى: ﴿۞وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا﴾ [الفرقان: 21]، وقولُه تعالى: ﴿يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ ۝١٥﴾ [غافر: 15]، وتخصيصُه بذلكَ لالْتقاءِ مَنْ تقدَّمَ ومَنْ تأخَّر، والتقاءِ أهلِ السَّماءِ والأرض، ومُلاقاةِ كُلِّ أحدٍ بعملِه الَّذي قدَّمه[4]، وقال اللّيث: يقال: لقيَ فلانٌ فلانًا، لقاءً ولُقيا ولُقية واحدة، وهي أقبحُها على جوازها، وكلُّ شيءٍ استقبل شيئًا أو صادفَه، فقد لَقيه، منَ الأشياءِ كلِّها[5].

3) ﴿ٱلسَّاعَةُ﴾: السّاعة: في الأصلِ الوقتُ الحاضرُ، والجمعُ السّاعُ والسّاعاتُ. قال القِطاميُّ:

وكُنّا كالْحَريقِ لَدَى كِفاحٍ *** فَيَخْبو ساعَةً ويَهُبُّ ساعا[6].

وقولُه تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُواْ غَيْرَ سَاعَةٍۚ﴾ [الرّوم: 55]، يعني: السّاعة الّتي تقوم فيها القيامةُ، وقال الزّجاجُ: السّاعة اسمٌ للوقت الّذي يُصعقُ فيه العبادُ، وللوقت الّذي يُبعثون فيه وتقوم فيه القيامَةُ[7]، قالَ تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ﴾ [القمر: 1]، وقولُه تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ﴾ أي: يومُ القيامةِ[8].

(1) الرّاغب، المفردات: (خسر).
(2) الرّازي اللغوي، مختار الصّحاح: (خَسِرَ).
(3) الجوهريّ، الصّحاح: (لقي).
(4) الرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (لَقى).
(5) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (لَقى).
(6) الجوهريّ، الصّحاح: (سوع).
(7) ابن سيده، المحكم: (سوع).
(8) ابن جرير، جامع البيان: 7/178.

4) ﴿بَغۡتَةً﴾: من ألفاظِ القرآنِ الكريم "بَغَتَ: الباء والغَين والتّاء أصلٌ واحدٌ، لا يُقاسُ عليه، منه البَغتُ، وهو أنْ يَفجَأَ الشَّيءُ"[1]، البغتُ: المفاجأةُ. قال الشّاعر:

وَلَكِنَّهُم بانوا ولَم أَدرِ بَغتَةً *** وأَنْكَأُ شَيءٍ حينَ يَفجَؤُكَ البَغتُ

وباغتَه الأمرُ، مباغتةً وبُغاتًا وبغتةً، إذا فاجأه[2]، ويُقالُ: جاءَ بَغْتَةً، أَي: فَجْأَةً[3]، وقولُهم: جاءنا فلانٌ بَغتَةً، قال أبو عبيدة: البغتةُ: الفجأةُ، وقال العربُ: تقول: بغتني الأمرُ يَبغتُني بَغْتًا وبَغتَةً. قال اللّه ﷻ: ﴿فَأَخَذۡنَٰهُم بَغۡتَةً وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ٩٥﴾ [الأعراف: 95][4]، وفي قولِه تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتۡهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغۡتَةً﴾؛ فهذه السّاعةُ تَفجأُ المُكذِّبينَ بلقاءِ اللّه، فإذا بهم وجهًا لوَجهٍ أمامَ تَفريطِهم وأوزارِهم الَّتي قدَّموها في دُنياهم.

5) ﴿يَٰحَسۡرَتَنَا﴾: "الحَسرةُ: التَّلهُّفُ على الشَّيء الفائت، ويُقالُ: حَسِرتُ عليه حَسَرًا وحَسرَةً، وذلك انكشافُ أمرِه في جَزَعِهِ وقِلَّةِ صَبره"[5]، والحَسرَة: النَّدامةُ، قال اللّه تعالى: ﴿يَٰحَسۡرَةً عَلَى ٱلۡعِبَادِۚ﴾ [يس: 30][6]، قال أبو ذُؤَيب:

أودَى بَنيَّ وأعقَبوني حَسرَةً *** بعد الرُّقادِ وعَبرَةً ما تُقلِعُ[7]

والحسرةُ هو حالُ المُكذِّبين بالبعث، يَتلهَّفونَ على ما فاتَهم منَ الإيمان، والطّاعاتِ، والقُرُباتِ.

6) ﴿فَرَّطۡنَا﴾: أصلُ فرَّطْنا منَ الفعل (فَرَطَ)، وهو في فائه ورائه وطائه أصلٌ صحيح، يَدُلُّ على إزالة شيءٍ من مكانِه، وتَنحيَتِه عنه، يُقالُ: فرَّطْتُ عنه ما كَرِهَه؛ أي: نحَّيتُه، ثمَّ يُقالُ: أَفرَطَ؛ إذا تجاوزَ الحدَّ في الأمر، يقولونَ: إيّاكَ والفَرَطَ؛ أي: لا تُجاوِزِ القَدْرَ، وهذا هو القياسُ؛ لأنَّه إذا جاوزَ القَدْرَ فقد أزالَ الشَّيءَ عن جهتِه، وكذلكَ التَّفريطُ: وهو التَّقصيرُ؛ لأنَّه إذا قصَّرَ فيه فقد قَعَدَ به عن رُتبَتِه الَّتي هي له[8]. وأولئكَ المُكذِّبونَ بالبعثِ

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (بغت).
(2) ابن دريد، جمهرة اللّغة: (بغت).
(3) الفارابيّ، معجم ديوان الأدب: 1/135.
(4) الأنباريّ، الزّاهر: 2/5.
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حسر).
(6) الحميريّ، شمس العلوم: (الحَسرَة).
(7) ابن سيده، المحكم: (عقب).
(8) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (فرط).

ليوم الحساب تَجاوزوا حُدودَ الله، وقصَّروا أيَّما تَقصيرٍ، فقَعَدوا عن رُتبة العُبوديَّة الحقَّةِ لله إلى دَرَكةِ العُبوديَّةِ لغيره ﷻ.

7) ﴿أَوْزَارَهُمْ﴾: الأوزارُ: جمعُ وِزرٍ، وهو منَ الفعلِ (وَزَرَ)، وفيه الواو والزاء والرّاء أصلان صحيحان: أَحَدُهما المَلجَأُ، والآخرُ الثِّقَلُ في الشَّيء، والَّذي نحتاجُه في سياق النَّصِّ القرآنيِّ الأصلُ الثّاني من معنى (وَزَرَ)، وهو: الثِّقَلُ في الشَّيء. ومعنى (الوِزر): حِملُ الرَّجُلِ إذا بَسَطَ ثَوبَه، فجَعلَ فيه المتاعَ، وحَمَلَهُ، ولذلك سُمّيَ الذَّنْبُ وِزرًا، وكذا سُمّيَ السِّلاحُ وِزرًا. والوزيرُ سُمّيَ به؛ لأنَّه يَحمِلُ الثِّقَلَ عن صاحبه[1]، ومجازُ الأوزار: الآثامُ[2]، وفي التّنزيل: ﴿يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ﴾؛ أي: أثقالَهم، ووضعتِ الحربُ أوزارَها: إذا وضع القومُ السّلاحَ عنهم، فجعل الفعْلَ للحربِ، وإنّما هو لأهلِها[3]، وأيُّ حِملٍ أَثقلُ على صاحبِه منَ الكُفر بالله والتَّكذيبِ بلقائه ﷻ؟!

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

هذا إخبارٌ منَ الله تعالى عن خسارةِ مَن كذَّبوا بلقائِه، وعن خَيبَتِهم إذا جاءتهمُ السّاعةُ فجأةً، وعن ندامتِهم على ما فرَّطوا منَ العمل الصّالحِ، وما أَسلَفوا من قبيحِ الفعل، "ويقولون: ياحسرتَنا على ما فرّطنا في حياتنا الدّنيا فكذّبْنا، واستكبرْنا، واستسلمْنا للشّهواتِ، ونحن نظنُّ أنّه لا حياةَ أخرى، ولا بعثَ، ولا حسابَ، ويأتون الله في ذلك اليوم العصيبِ، وهم يحملون ذنوبَهم وخطاياهم على ظهورِهم... وما أسوأَ ما يحملون"[4].

خُسرانُ المُنكرين وحسرتُهم على ما فرّطُوا في جنْبِ الله

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (وزر).
(2) أبو عبيدة، مجاز القرآن: 1/65.
(3) ابن دريد، جمهرة اللّغة: (وزر).
(4) ابن دريد، جمهرة اللّغة: (وزر).

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

أثرُ الاستئنافِ في ثراءِ المعنى:

أسوأُ الخُسرانِ خُسرانُ يومِ القيامةِ، حيث لا تنفعُ النّدامةُ

قولُه تعالى: ﴿قَدۡ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِۖ﴾، جاءَ الاستئنافُ للتَّعجيبِ من حالِهم حين يَقعونَ يومَ القيامة في العذاب على ما استداموهُ منَ الكُفر، والَّذي جَرَّأهُم على استدامتِه اعتقادُهم نَفيَ البعثِ، فذاقوا العذابَ لذلك، فتلك حالةٌ يستحقّونَ بها أنْ يُقالَ فيهم: قد خَسِروا وخابوا، والخسارةُ هنا حِرمانُ خَيرات الآخرةِ لا الدُّنيا؛ لأنَّها هي الخسارةُ الحقيقيَّةُ الَّتي تَرتبطُ بالمآل والمصير[1].

دلالةُ حرفِ التّحقيقِ ﴿قَدۡ﴾ في قولِه تعالى: ﴿قَدۡ خَسِرَ﴾:

تهاوِي بُنيانِ الكافرينَ، مُتحقّقٌ في الخُسرانِ

صُدِّرتِ الآيةُ: ﴿قَدۡ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِۖ﴾ بحرف التَّحقيقِ ﴿قَدۡ﴾ الَّذي أعقبَه الفعلُ الماضي ﴿خَسِرَ﴾[2]، والخُسرانُ هنا محقَّقٌ لا مريةَ فيه، وهو خسارةٌ نفسيّةٌ وروحيّةٌ كبرى، وخسارةُ مصيرٍ، في دار يبقَى فيها الحالُ على المدَى دون تغييرٍ، ولذلك فهي تورثُ أصحابَها حسرةً لا تنقضي، وندامةً لا تنتهي.

فائدةُ التّعبيرِ بمادّةِ الخُسران، في قوله تعالى: ﴿قَدۡ خَسِرَ﴾:

مَن خَسرَ الآخرةَ بالنُّكران ذاقَ في آخرتِه مرارةَ الخُسرانِ

"وخُسرانُهم أوّلًا: لأنّهم يفقدون العزاءَ الرّوحيَّ الّذي يُصيب كلَّ إنسان، ممّا يُعاني في الحياة، فلو كانت الحياةُ الدّنيا لا حياةَ بعدها يكونُ الشّقاءُ النّفسيُّ المقيمُ، لكلِّ من يُصيبُه ألمٌ فيها، أو يقعُ في نفسه أنّه في شقاءٍ؛ لأنّ فيها السّعادةَ في زعمِه، ولأنّه بفقْدِ معاني الإنسانيّةِ يكونُ كالحيوان الّذي يأكلُ ليعيشَ، ويعيشُ ليأكلَ، فيفقدَ كلَّ المَعنويّاتِ العاليةِ، ولأنّه ثالثًا: يرتعُ في الشّهوات الموبقةِ، ولأنّه رابعًا: يكونُ في تناحرٍ مستمرٍّ، إذ لا يخشَى اللّه، ولا

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/188.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/188.

يرهبُ عقابَه، وأخيرًا يخسرُ بتلقّي العذابِ الّذي يقعُ عليه، يومَ تقومُ القيامةُ"[1].

دلالةُ العُدولِ منَ الإضمارِ إلى الإظهارِ، في قوله تعالى: ﴿قَدۡ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ..﴾:

مَن كـذّبَ بلقاءِ الله خسرَ الدّنيا والآخرةَ

قولُه تعالى: ﴿قَدۡ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِۖ﴾ امتدادٌ لقول الذّينَ قالوا: ﴿إِنۡ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا﴾، وكان حقَّه الإضمارُ على سَنَن قولِه تعالى السّابق: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ [الأنعام: 27] وما تبعَه، فيُقالُ حينئذٍ: (قد خَسِروا)، لكنَّ هذا العُدولَ منَ الإضمار إلى الإظهار لسببين؛ الأوَّلُ: ليكونَ الكلامُ بشخصيَّةٍ مُستقلَّةٍ، والثّاني: ليُبنَى عليه ما في قولِه تعالى: ﴿كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِۖ﴾ من تفصيلِ قولِه تعالى القادم: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتۡهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغۡتَةً قَالُواْ يَٰحَسۡرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطۡنَا فِيهَا﴾. "ووَضْعُ الموصولِ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ مَوضعَ الضَّمير؛ للإيذان بسببِ خُسرانِهم بما في حيِّزِ الصِّلةِ منَ التَّكذيبِ بلقائِه تعالى بقيامِ السّاعة، وما يترتَّبُ عليه منَ البعث، وأحكامِه المتفرِّعةِ عليه، واستمرارِهم على ذلك"[2].

أثرُ صِلةِ الموصولِ في ربْطِ السّياقِ، في قولِه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِۖ﴾:

في الآخـرة تُبلَى السّرائرُ، وتُحدّدُ المَصائرُ

جاءت صلةُ الموصولِ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ في قولِه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِۖ﴾، تحملُ الكثيرَ منَ التّعْبيرِ والتّشنيعِ، والبيانِ لأسباب الخُسرانِ. واللهُ ﷻ قد أمهَلَ هؤلاء المُعاندين في الحياة الدُّنيا، فأنزلَ عليهمُ الكُتُبَ، وأرسلَ إليهمُ الرُّسُلَ، ورغَّبَ ورَهَّبَ، ووعَدَ وتوَعَّدَ، ولم يُعجِّلْ جزاءَهم في الدُّنيا، ولم يقبضْهم إليه دون بشيرٍ منه ونذيرٍ، كما قال تعالى: ﴿۞وَلَوۡ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسۡتِعۡجَالَهُم بِٱلۡخَيۡرِ لَقُضِيَ إِلَيۡهِمۡ

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2480.

(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/193 - 194.

أَجَلُهُمۡۖ﴾ [يونس: 11]، وقال تعالى: ﴿رُّسُلٗا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ﴾ [النّساء: 165]، ولكنْ لمّا يَحينُ موعدُ قيامِ السّاعةِ تظهَرُ أفعالُهم، وتَحضُرُ أعمالُهُم ماثلةً أمامَهم، كما قال تعالى: ﴿وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرٗاۗ﴾ [الكهف: 49]، وهناك يُدركون مغبّةَ التّكذيبِ، وعاقبةَ النُّكران، ومساوئَ الكُفران، فيندمون على ذلك، ولاتَ حين مَندمٍ.

دلالةُ الاستعارةِ التّمثيليّةِ، في قولِه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِۖ﴾:

"فاللِّقاءُ في قولِه تعالى: ﴿بِلِقَآءِ ٱللَّهِۖ﴾ استعارةٌ تمثيليَّةٌ[1]، شَبَّهتْ حالةَ الخَلْقِ عندَ المصير إلى تنفيذِ وعْدِ اللّه ووعيدِه، بحالةِ العبيدِ عند حضورِ سيِّدهم بعد غيبةٍ، ليَجزيَهم على ما فعلوا في مدَّة المَغيبِ"[2]. ولقاءُ اللّه هو نهايةُ المطافِ، والشّاطئُ الّذي تنتهي إليه الرّحلةُ في بحر الحياة اللُّجّيِّ، وهناك سيندمُ المكذِّبُ بلقاء اللّه، ولكن لا ينفعُه النّدمُ آنئذٍ.

العُبوديّةُ للّه شرفٌ، والعبوديّةُ للمخلوقِين مَذلّةٌ

دلالةُ ﴿حَتَّىٰٓ﴾ على الغايةِ:

قولُه تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتۡهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغۡتَةٗ﴾، لفظُ ﴿حَتَّىٰٓ﴾ غايةٌ لقولِه: ﴿كَذَّبُواْ﴾ لا لقولِه: ﴿خَسِرَ﴾؛ لأنَّ خُسرانَهم لا غايةَ له؛ أي: ما زالَ التَّكذيبُ إلى حَسْرتهم وقتَ مجيءِ السّاعة، فإنْ سألَ سائلٌ: أَما يتحسَّرونَ عند موتِهم؟ فالجوابُ: أنَّه لمّا كان الموتُ داخلًا في أحوال الآخرةِ، ومن مُقدِّماتِها، جُعِلَ من جنسِ السّاعة، وسُمّيَ باسمِها، أو جُعِلَ مَجيءُ السّاعة بعد الموتِ لسُرعته كالواقع بغير فَترةٍ[3]، ويُمكنُ أن تكونَ ﴿حَتَّىٰٓ﴾ ابتدائيَّةً، تفيدُ السَّببيَّةَ؛ أي: فإذا جاءتْهمُ السّاعةُ

الخلافُ في تأويلِ موقعِ الحرفِ يستوعبُ احتمالاتِ المعنَى في السّياقِ

(1) الاستعارةُ التّمثيليّةُ هي تشبيهُ صورةٍ بصورةٍ لما بينهما من صِلةٍ من حيث المعنى، ثمَّ تُحذفُ الصّورةُ الأولى (المُشبَّه) ويبقى (المُشبَّه به). يُنظر: فضل عبّاس، أساليب البيان، ص: 332.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/189.

(3) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 13/ 2.

بَغتةً[1]، وقولُه: ﴿بَغۡتَةً﴾ فيه ثلاثةُ وجوهٍ إعرابيَّةٍ[2]: الأوَّلُ: مصدرٌ في موضع الحال؛ أي: باغِتةً. والثّاني: مصدرٌ لفعلٍ محذوفٍ في موضع المفعول المطلَق المؤكِّد. والثّالثُ: مصدرٌ بـ ﴿جَآءَتۡهُمۡ﴾ من غير لفْظِه، وكونُه حالًا هو الأظهرُ؛ لأنّ الحالَ فيه معنى الوصْفِ، والمقصودُ: وصفُ كيفيّةِ مجيءِ السّاعة، وأنّها تُفاجِئُهم، وهم على تكذيبِهم وإنكارِهم، وفي ذلك ما فيه منَ التّحذيرِ.

دلالةُ جُملتَي الشَّرْطِ والجوابِ:

تأكيدُ وقوعِ مضمونِ السّياقِ الشّرطيِّ يومَ القيامةِ

في قولِه تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتۡهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغۡتَةً قَالُواْ يَٰحَسۡرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطۡنَا فِيهَا﴾ جاءتْ جملةُ الشَّرطِ بأداتِه ﴿إِذَا﴾ وفعلِه ﴿جَآءَتۡهُمُ﴾ بالفعل الماضي، لبيانِ تحقُّقِ وقوعِ السّاعةِ وقوعًا مفاجئًا لهم، ثمَّ جاءَ جوابُ الشَّرطِ مُصدَّرًا بالفعلِ الماضي ﴿قَالُواْ﴾، ليكونَ على شاكلةِ فعْلِ المجيءِ ليتَّحدَ السّياقُ حينذاكَ، وكأنَّه قد وقعَ وحصلَ ما حصلَ من مفرداتِ هذا المشهدِ، مع بيانِ شدَّةِ تحسُّرِهم على أَنْفُسِهم لا على غيرِهم، فهُمُ المُتحسِّرونَ والمُتَحسَّرُ عليهم، ولذلك جاءت (على) داخلةً على الأمرِ الَّذي كان سببًا في التَّحسُّرِ، وهو قولُهم: ﴿عَلَىٰ مَا فَرَّطۡنَا فِيهَا﴾ أي: في الدُّنيا[3].

نُكتةُ تَسْمِيَةِ يومِ القيامةِ بالسَّاعةِ:

سُرعةُ انقضاءِ الحسابِ يومَ القيامةِ كأنَّه ساعةٌ

سُمّيت القيامةُ بالسّاعة؛ لسُرعةِ انقضاءِ الحسابِ فيها للجزاءِ، لقولِه تعالى: ﴿أَسۡرَعُ ٱلۡحَٰسِبِينَ ٦٢﴾ [الأنعام: 62][4]، والألفُ واللّامُ في ﴿ٱلسَّاعَةُ﴾ علَمٌ للغَلَبَة، كهيَ في البيتِ للكعبةِ، والنَّجمِ للثُّريّا؛ لأنَّها غلبتَ على يومِ القيامة.

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 7/189.
(2) العكبريّ، الإملاء: 1/239.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 7/190.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/481، والسَّمين، الدُّرُّ المصون: 4/595.

نُكتةُ إدْخالِ (أل) من تعريف العهدِ على ﴿ٱلسَّاعَةُ﴾ دون تقدُّمِ ذكرِها:

السَّاعةُ معهودةٌ بشُهرتِها، وهي واقعةٌ لا ريبَ فيها

أُدخِلَ على ﴿ٱلسَّاعَةُ﴾ لام التعريف للعهدِ دون تقدُّمِ ذِكْرِها، وذلك لشُهرتِها واسْتقرارِها في النُّفوسِ وذَيَعانِ ذِكرِها، وأيضًا فقد تضمَّنها قولُه تعالى ﴿بِلِقَآءِ ٱللَّهِ﴾[1] وكونُ السّاعة جاءتْهم فهي غايةٌ لتكذيبِهم، لا لخُسرانِهم، فإنّه أبديٌّ لا حدَّ له[2] وقد باغتتْهُم على حينِ غرّةٍ.

دلالةُ الوجوهِ الإعرابيّةِ للفظِ ﴿بَغْتَةً﴾، وأثرُها في توسيعِ المعنى:

اختصاصُ الله وحدَه بقيامِ السّاعةِ يُعطِي الكونَ حمايةً ومَناعةً

قولُه تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً﴾، نصبَ السّياقُ لفظَ ﴿بَغْتَةً﴾ على المصدرِ في موضعِ الحالِ، كما تقول: قتلتُه صبرًا، ولا يُجيزُ سيبَويه القياسَ عليه، ولا تقولُ: جاء فلانٌ سرعةً ونحوَه[3]، ومعلومٌ أنّ علْمَ السّاعة مخصوصٌ بالله وحده، وأنّها لا يعلمُها ملَكٌ مقرّبٌ، ولا نبيٌّ مرسَلٌ، وذكرُ حالةِ مجيئِها بغتةً، من باب التّأكيدِ على استئثارِ الله بعلْمِ أوانِها، ومعرفةِ زمانِها، ومنه قولُه تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ﴾ [الأعراف: 187].

المَجازُ وأثرُه في إبرازِ المعنى في قولِه تعالى: ﴿قَالُوا۟ يَٰحَسْرَتَنَا﴾:

التّعبيرُ بلفْظِ الحسراتِ يُنبئُ عن شِدّةِ النّدمِ على ما فاتَ

قولُه: ﴿يَٰحَسْرَتَنَا﴾ هذا مجازٌ؛ "لأنَّ الحَسرةَ لا يتأتَّى منها الإقبالُ، وإنَّما المعنَى على المبالغةِ في شدّةِ التّحسُّر، وكأنّهم نادَوْا التّحسُّرَ، وقالوا: إن كان لكَ وقتٌ فهذا أوانُ حُضورِكَ. ومثلُه: (يا

(1) ابن عطيَّة، المحرّر الوجيز: 2/283.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/125.

(3) "قال سيبَوَيه: في باب ما يَنتصب منَ المصادر: لأنَّه حالٌ وقع فيه الأمرُ، تقول: قَتَلْتُه صَبراً ولَقيتُه فُجاءةً ومُفاجأةً وكِفاحاً ومُكافَحةً، ولَقيتُه عياناً، وكَلَّمْتُه مُشافَهةً، وأَتَيْتهُ رَكضاً وعَدْواً ومَشياً، وأَخَذتُ ذلك عنه سَماعاً وسَمعاً، وليس كلُّ مصدر، وإن كان في القياس مثلَ ما مضى من هذا الباب، يوضعُ هذا الموضعَ؛ لأنّ المصدرَ هنا في مَوضِع فاعلٍ إذا كان حالًا، ألا ترى أنَّه لا يَحسُنُ أن تقول أتانا سرعةً، ولا أتانا رُجْلةً، كما أنه ليس كلُّ موضعٍ يُستعمَل في باب سَقيًا وحَمدًا، فقد تبيَّن من كلام سيبَوَيه أنّ هذا الباب عنده غيرُ مُطَّرِد". ابن سيده، المخصّص: 4/338.

ويلتا)، والمقصودُ: التّنبيهُ على خطأ المُنادي، حيث تركَ ما أحْوجَه تركُه إلى نداءِ هذه الأشياءِ"[1].

فائدةُ النّداءِ في قولِه: ﴿يَٰحَسۡرَتَنَا﴾:

أفادَ النّداءُ الاستغراقَ في التّحسُّرِ والتّندُّبِ

"إذا قال القائلُ: ما الفائدةُ في مُناداةِ الحَسرةِ، والحسرةُ ممّا لا تجيب؟ قال أبو إسحاق: والفائدةُ في مناداتِها كالفائدةِ في مناداةِ ما يَعقِلُ؛ لأنّ النّداءَ بابُ تنبيهٍ، إذا قلت: يا زيدُ، فإن لم تكن دعوْتَه لتخاطبَه بغير النّداء فلا معنى للكلام، إنّما تقولُ: يا زيدُ لتُنبّهَه بالنّداءِ، ثمّ تقولُ له: فعلتَ كذا"[2]، فنداءُ الحسْرةِ على سبيل المَجازِ إنّما هو إنشاءٌ للمبالغةِ في التّحسُّرِ.

إضافةُ الحَسرةِ إلى ضميرِ جمْعِ المُتكلّم:

الإقرارُ على أنفسِهم بوقوعِ الحَسْرةِ الأبديّةِ

قولُه: ﴿يَٰحَسۡرَتَنَا﴾ فيه إضافةُ الحَسرةِ إلى أنفسِهم؛ وذلك ليكونَ تَحسُّرُهم لأجلِ أنفُسِهم، فهمُ المُتحسِّرونَ والمُتحَسَّرُ عليهم، بخلاف مَن قال: يا حَسرةً، فإنَّه في الغالبِ تحسَّرَ لأجل غيرِه، فهو يتحسَّرُ لحالِ غيرِه، ولذلك تجيءُ معه (على) الَّتي تَدخُلُ على الشَّيءِ المُتحَسَّرِ من أجلِه، داخلةً على ما يدُلُّ على غيرِ التَّحَسُّر، كقولِه تعالى: ﴿يَٰحَسۡرَةً عَلَى ٱلۡعِبَادِۚ﴾ [يس: 30]، فأمّا مع (يا حَسرتي، أو يا حَسرَتا) فإنَّما تَجيءُ معهما (على) داخلةً على الأمر الَّذي كان سببًا في التَّحَسُّر، كما في قولِه تعالى من هذه الآية: ﴿قَالُواْ يَٰحَسۡرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطۡنَا فِيهَا﴾[3].

نُكتةُ استعمالِ (ما) في قولِه تعالى: ﴿مَا فَرَّطۡنَا﴾:

الحسرةُ على التّفريطِ بعدَ المماتِ ندمٌ بعدَ الفواتِ

(ما) في قولِه: ﴿مَا فَرَّطۡنَا﴾ "موصولةٌ، ماصَدَقُها[4]: الأعمالُ

(1) السّمين، الدّرّ المصون: 4/595.
(2) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (حسر).
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/190.
(4) الماصدق: مركّب مَزجيٌّ بضم القاف، وهو عند المناطقة ما يصدُق عليه المفهوم الكلّي. يُنظر: حاشيتا قليوبي وعميرة: 1/21، والقرافي، الفروق: 1/281.

الصّالحةُ"[1]، وهي محلُّ عَوْدِ مفعولِ ﴿فَرَّطْنَا﴾ المحذوفِ، تقديرُه: ما فرَّطْناه، أي: نَدِمْنا على إضاعةِ كلِّ ما مِنْ شأنِه أن ينفَعَنا ففرَّطناه، فهي تعبيرٌ عنِ المبالغةِ في ندمِهم يومَ لا ينفعُ النَّدمُ[2]، والمعنى: "أيْ على تفريطِنا في شأنِ السّاعةِ، وتقصيرِنا في مراعاة حقِّها، والاستعدادِ لها بالإيمان بها واكتسابِ الأعمالِ الصّالحةِ كما في قولِه تعالى: ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾ [الزّمر: 56][3].

دلالةُ الضّميرِ في ﴿فِيهَآ﴾ من قولِه تعالى: ﴿عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا﴾:

قولُه تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا﴾؛ المرادُ بالضّميرِ في قولِه: ﴿فِيهَا﴾ أنّهم يَتندَّمونَ على تفريطِهم، وتقصيرِهم في مراعاةِ حقِّ السّاعةِ عليهم بالاستعدادِ لها، بالإيمانِ بها، وعمَلِ الصّالحاتِ، كما في قولِه تعالى: ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾ [الزُّمَر: 56]، ويُمكنُ أن يكونَ المرادُ بالضَّميرِ في قولِه: ﴿فَرَّطْنَا فِيهَا﴾ الحياةَ الدُّنيا، جيءَ بضميرِها وإنْ لم يَجْرِ لها ذِكرٌ لكونِها مَعلومةً[4]، وقد يكونُ ضميرُ ﴿فِيهَا﴾ عائدًا إلى السّاعة، وتكون (في) تَعليليَّةً؛ أي: ما فوَّتْناه منَ الأعمالِ الصّالحةِ النّافعةِ لأجلِ نفْعِ هذه السّاعةِ، وفي كلِّ ذلك نجدُ التّعبيرَ دقيقًا، ووجودُ الضّمير يوسّعُ دائرةَ الفهم، لِما ذكره هؤلاء المُفرّطون، ممّن عصفت بهمُ الأهواءُ، وطالَهم العذابُ والهوانُ في الآخرة.

الهالكُ مَنْ فرّطَ في اغتنامِ دُنياه؛ للفوْزِ في أُخراه

أحوال تَعْدِيَةِ الفعْلِ (فرّط)، في قولِه تعالى: ﴿عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا﴾:

الفعلُ (فرّطَ) يتعدَّى إلى المفعول بنفسِه، نحوَ: "فرَّط العقدَ ونحوه: فرَّق حبَّه"، والأكثرُ أن يتعدَّى بحرف الجرِّ (في) فيُقالُ: فَرَّطَ في ماله، إذا أضاعَه. ومنه قولُه تعالى: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ

مَـن فـرّطَ أنكرَ وتـــركَ، ومَـن نوقِشَ في آخرته هلكَ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 7/190.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط 4/482، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 7/191.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/125.
(4) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 2/14.

مِن شَيۡءٖۚ﴾ [الأنعام: 38]، ومفعولُ ﴿فَرَّطۡنَا﴾ محذوفٌ يعود إلى (ما)، تقديرُه: ما فَرَّطْناه، وعلى أنّ (ما) مصدريةٌ يكون الفعلُ لازمًا لا مفعولَ له، ويجوزُ أن يكونَ الحرفُ (في) للتَّعدية، بتقديرِ مُضافٍ إلى الضَّمير؛ أي: في خيراتِها، والمعنى (على ما فرَّطْنا في السّاعة) يَعنونَ: ما شاهدوه من نجاةٍ ونعيمِ أهل الفلاح، وهم أهلُ الجنَّةِ[1].

دلالةُ الجُملةِ الحاليَّةِ، في قولِه تعالى: ﴿وَهُمۡ يَحۡمِلُونَ أَوۡزَارَهُمۡ﴾:

بيانُ حالِ المكذِّبينَ في حملِ الأوزارِ، والحَسرةِ على مغبّةِ الإنكارِ

جُملة ﴿وَهُمۡ يَحۡمِلُونَ﴾: جملةٌ تُعرَبُ حالًا من فاعل ﴿قَالُواْ﴾، وهو الضَّميرُ (الواو)؛ أي: قالوا ذلك في حالِ أنَّهم يحمِلونَ أوزارَهم، وفائدتُه: الإيذانُ بأنَّ عذابَهم هو بين تَلهُّفٍ على التَّفريطِ في الأعمالِ الصّالحةِ والإيمانِ، وبين مُقاساةِ العذابِ على الأوزارِ الَّتي اقترفوها فصارتْ أثقالًا على ظُهورِهم[2].

بلاغةُ المَجازِ في قولِه تعالى: ﴿يَحۡمِلُونَ أَوۡزَارَهُمۡ عَلَىٰ ظُهُورِهِمۡۚ﴾:

حملُ الأوزارِ على الظّهورِ شَبيهٌ بالكسْبِ بالأيدي في المشهورِ

قولُه تعالى: ﴿وَهُمۡ يَحۡمِلُونَ أَوۡزَارَهُمۡ عَلَىٰ ظُهُورِهِمۡۚ﴾ على سبيلِ المجازِ؛ يعني: يحملون وبالَ ذلك وعُقوبَتَهُ على ظُهورِهم، ويُقالُ: وقرتْ ظهورُهم منَ الآثام، ثقُلتْ وحملتْ، وأصلُ الوزر في اللّغة: هو الثِّقَلُ، وقولُه: ﴿أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾؛ يعني: يحمِلون، وقد وردَ في بعض الرّوايات عنِ السّدّيِّ، قال: ليس من رجلٍ ظالمٍ يدخلُ قبرَه إلّا أتاه مَلكٌ قبيحُ الوجه، أسودُ اللّون، مُنتنُ الرّيحِ، عليه ثيابٌ دنسةٌ، فإذا رآه قال: ما أقبحَ وجهَك! فيقول: كذلك كان عملُك قبيحًا، فيقولُ: ما أنتنَ ريحَك! فيقولُ: كذلك كان عملُك مُنتنًا، فيقولُ: مَن أنت؟ فيقولُ: أنا عملُك، فيكونُ معه في قبرِه، فإذا بُعِث يومَ القيامة، قال له: إنّي كنتُ أحملُك في الدّنيا باللّذّاتِ والشّهواتِ، فأنت اليومَ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 7/191.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/194.

تحملُني، فيركبُ على ظهْره، حتّى يدخلَه النّارَ[1]، وذِكرُ الظُّهورِ كذكْرِ الأيدي في قولِه تعالى: ﴿فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشّورى: 30]؛ فإنَّ المُعتادَ حَملُ الأثقالِ على الظُّهور، كما أنَّ المألوفَ هو الكسبُ بالأيدي، والمعنى: أنَّهم يتحسَّرونَ على ما لم يَعملوا منَ الحسناتِ، والحالُ أنَّهم يَحمِلونَ أوزارَ ما عَمِلوا منَ السَّيّئات[2].

دلالةُ الكنايةِ بإضافةِ الأوزارِ إليهم، في قولِه تعالى: ﴿وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ﴾:

مَن لازمتْه الأوزارُ كبّتْه على وجهِه في النّارِ

يُفسِّرُ الزّجّاجُ قولَه تعالى: ﴿يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ﴾؛ بأنّ أوزارَهم لا تزايلُهم، ولا تفارقُهم أبدًا، فهو كما تقول لصاحبك: شخصُك نَصبُ عيني، وذكرُك نَجيُّ قلبي[3]، وعلى هذا التّفسير تكونُ في الجملة كنايةٌ عن ملازمةِ أوزارِهم لهم لا تفارقُهم، منَ الكنايةِ عن نسبةٍ، وفيها دلالةٌ على المعاناةِ الشّديدةِ من ثِقَلِ الأوزارِ، والتّشهيرِ بهم في موقف الحسابِ، والأوزارُ ملازمةٌ لهم.

الاستعارةُ تُجسّدُ الآثامَ في صورة الأوزارِ، في قوله تعالى: ﴿يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ﴾:

مَن أثقلَه في دُنياه الوزرُ، ناء منه بحِملِه في آخرته الظّهرُ

وبالنّظر إلى الأصل اللّغويّ للأوزار جمعِ (وزر): من حِمْلِ الرّجل، إذا بسطَ ثوبَه، فجعل فيه المتاعَ وحَمَلَهُ، فيكونُ في تَسْميَةِ الآثام أوزارًا استعارةٌ تُجَسِّد تلك الآثامَ، وتجعلُ لها صورةً ثقيلةً مُنَفّرَةً، ومع أنّها صارت منسيّةً؛ لكنْ يبقَى إيحاءُ الأوزار بالثِّقلِ، وتعبيرُ القرآن ﴿يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ﴾ يُرشّحان تلك الاستعارةَ، ويُمدّانها بالحياةِ.

اقترانُ التّنْكيتِ والمبالغةِ، في قولِه تعالى: ﴿يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ﴾:

بلاغةُ التّرشيحِ والتّصديرِ، منَ البديعِ الأثيرِ

اقترنَ في قولِه تعالى: ﴿عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ﴾ ضربانِ من فنونِ البديعِ في الكلام؛ وهما: التّنكيتُ والمبالغةُ، والسّؤالُ: ما النّكتةُ الّتي رجّحتْ اختصاصَ الظّهورِ بالحمل دونَ الرّؤوس؟ والجوابُ: أنّ النّكتةَ في

(1) السّمرقنديّ، بحر العلوم: 1/443.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/14.
(3) الزّجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 2/242.

ذلك الإشارةُ إلى ثِقَل الأوزار؛ لأنّ الظّهورَ أحملُ للثِّقل منَ الرّؤوسِ، وما يلزمُ من ذكْرِ الظّهورِ مِنْ عجْزِ الرّؤوسِ عن حمْلِ هذه الأوزارِ منَ المبالغةِ في ثِقلِها مُقترنٍ بالتّنكيت، وما اكتنفَ هذا الاقترانَ من تجنيسِ المزاوجةِ في قولِه تعالى: ﴿أَوْزَارَهُمْ﴾ قبل قولِه: ﴿عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ﴾، وقولِه تعالى: ﴿يَزِرُونَ﴾ بعدَها، وترشيحُ هذا التّجنيسِ لتمكينِ الفاصلةِ بالتّصدير، واقترانِ التّرشيحِ بالتّصدير[1]، والتّرشيحُ أن يقوّيَ التّشابهَ بين المشبَّه والمشبَّه به، وكأنّ الكلامَ كلَّه موجّهٌ للمشبَّه به، والمقصودُ هو المشبَّهُ؛ لأنّهما في نفس المنزلةِ، وقد شبَّهَ الذّنوبَ بالأوزارِ، وهي الأحمالُ، وتغاضَى عنِ المشبَّه، وركّزَ على المشبَّهِ به، وكأنّه الأصلُ في ملمحِ التّرشيحِ المُنوَّهِ به في هذا المبحثِ، وأمّا التّصديرُ فيظهرُ في قولِه تعالى: ﴿وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾، وهو ردُّ العجُزِ على الصّدْرِ في قولِه: ﴿أَوْزَارَهُمْ﴾ و﴿يَزِرُونَ﴾، وهو شبيهٌ بقولِه تعالى: ﴿وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾ [الأحزاب: 37].

أهمّيّةُ أسلُوبِ الاستئنافِ بالتّذْييلِ في قولِه تعالى: ﴿أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾:

إذا شُنّعَ الفعْلُ، عظُمَ الوِزرُ

قولُه تعالى: ﴿أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾ هو تَذييلٌ مُقرِّرٌ لما قبلَه، وتكملةٌ له؛ أي: بِئسَ شيئًا يَزرون وِزرَهم، كقولِه تعالى: ﴿سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ﴾ [الأعراف: 177][2]، ومعنى ﴿أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾: بئسَ الشّيءُ شيئًا يزرونه؛ أي: يحملونَه[3]، قال البِقاعيُّ: ولمّا كان ذلك الحمل أَمْرًا لا يبلغُ الوصفَ الّذي تحتملُه عقولُنا؛ لحقيقةِ ما هو عليه منَ البشاعةِ والثِّقَلِ، أشار إلى ذلك بقولِه جامعًا للمذامّ: ﴿أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾[4].

(1) درويش: إعراب القرآن: 3/96.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/14.
(3) ابن الجوزيّ، زاد المسير: 2/22.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/92.

دَوْرُ الأداةِ (أَلَا) الاسْتِفْتاحِيَّةِ في قولِه تعالى: ﴿أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾:

العنايةُ بالخبرِ المَسوقِ من أغراضِ الاستفتاحِ المَشوقِ

﴿أَلَا﴾ حرفُ اسْتفتاحٍ يُفيدُ التَّنبيهَ للعنايةِ بالخَبرِ، وهو ما أصابَهم من ثِقَلِ ذلكَ الحِمْلِ، وهي أوزارُ ما عَمِلوا منَ السَّيِّئات[1]، كذلكَ فإنَّ في ﴿أَلَا﴾ إخبارًا عن سوءِ ما يَأْثَمون، مُضَمَّنًا لاستعظامه والتَّشهير به[2]، والمعنى: "فما أشأمَ ذلك الحمْلَ، وما أسوأَه، إذ كان هو الجريمةُ التّي تُدين حاملَه، والشّهادةُ الّتي تشهدُ عليه، وتجرُّه إلى النّارِ"[3].

دلالةُ الفعْلِ ﴿سَآءَ﴾ في السِّياقِ، وأثرُ ذلك في المعنى:

(ساءَ) مُتَعَدِّيَةٌ أوْ للتَّعجُّبِ أو للمبالغةِ في الذَّمِّ

الفعْلُ ﴿سَآءَ﴾ في قولِه تعالى: ﴿أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾ قد تكونُ متعدّيةً متصرِّفةً، بمعنى: (ألا ساءَهُم ما يَزرون) وقد تكونُ محوّلةً إلى فَعُلَ بضمِّ العَيْن، مُشربةً معنَى التَّعجُّب، والمعنَى: (ما أَسْوَأَ وِزْرَهم) أو تكونُ محوّلةً إلى فعُلَ بضمِّ العَيْن، وأُريدَ بها المبالغةُ في الذَّمِّ، فتكونُ مساويةً لِبِئْسَ في المعنَى والأحكام[4]، وأيّا كان التّأويلُ فإنّ لفظَ ﴿سَآءَ﴾ تعبيرٌ عن سوءِ ما يحملون من أوزارٍ، ودلالةُ التّعجّبِ فيها بارزةٌ، وقولُه: ﴿أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾ بيانٌ لسوءِ ما يحملون، ولفظُ ﴿سَآءَ﴾ بمعنى ما أسوأَ ما يزرون وما يحملون لسوءِ عاقبتِه، وما وراءه من عذابٍ[5].

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(البغتة) و(الفَجأة):

يُقالُ "فَجَأَهُ: كسَمِعهُ ومَنَعَهُ، فَجئًا وفُجاءةً: هَجَم عليه، كفاجَأَهُ

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السليم: 2/195، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 7/191.
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/284.
(3) عبد الكريم الخطيب، التّفسير القرآنّي للقرآن: 4/157.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/483 - 484، والسَّمين، الدُّرُّ المصون: 4/597 - 598.
(5) أبو زهرة زهرة التّفاسير: 5/2482.

وافْتَجأَهُ، والفُجاءةُ: ما فاجَأَكَ"[1]، وكذلك البَغتُ: الفَجأَةُ؛ وهو أنْ يَفجَأَ الشَّيءُ، والبَغتةُ فيها معنى الإتيان من غير إظهارٍ وإعلام، ومن غير عيانٍ، فإنَّ مجيئَها ليس بلا مُقدِّمةٍ، بينما الفجأةُ هي الإتيانُ بدون مقدِّمةٍ، والهجومُ دفعةً واحدةً، ومجيءُ السّاعةِ والعذابِ والأخذُ من نوعِ البَغتةِ، حيثُ يكونُ التَّعبيرُ فيه ألطفَ منَ الفَجأةِ[2].

استعمالُ (البَغتةِ) في أحداثِ الدُّنيا والآخرةِ، و(الفجأةُ) في أحداثِ الدُّنيا فقط

ويُلاحَظُ كذلك استعمالُ (البَغتةِ) في أحداثِ الآخرة والدُّنيا، وفي الآخرة أغلبُ، واستعمالُ (الفجأة) في أحداث الدُّنيا فقط، كما في نظر الفَجأةِ، وموتِ الفَجأةِ الَّذي ورد في بعض أحاديث الرَّسول ﷺ، ولذلك كلِّه يظهرُ جليًّا أنَّ استخدامَ البيان الإلهيِّ لكلمة ﴿بَغۡتَةً﴾ أنسبُ في السّياق الَّذي وردتْ فيه في حقِّ أولئك المُكذِّبين بلقاءِ اللّه ﷻ.

(الحَسرة) و(الأسَف):

الحَسرةُ: غَمٌّ يَتجدَّدُ لِفَوْتِ فائدةٍ، فليس كلُّ غمٍّ حسرةً، والأسفُ: حسرةٌ معها غضبٌ أو غيظٌ، و"الحسرةُ: التّلهفُّ على الشّيءِ الفائتِ، ويقال: حسرتُ عليه حَسرًا وحسرةً، وذلك انكشافُ أمرِه في جزعِه، وقلّةِ صبره، ومنه ناقةٌ حَسرَى إذا ظلَعَتْ، وحَسَر البصرُ إذا كَلَّ، وهو حسيرٌ؛ وذلك انكشافُ حالِه في قلّة بصرِه وضعفِه، والمُحَسَّر، المُحَقَّر، كأنّه حُسرَ؛ أي: جُعِل ذا حَسرَةٍ"[3]، والأَسِفُ: الغضبانُ المُتلَهِّفُ على الشَّيءِ، ثمَّ كَثُرَ ذلك حتَّى جاء في معنى الغضبِ وحدَه في قولِه تعالى: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ﴾ [الزّخرف: 55]؛ أي: أغضَبونا"[4]، والحَسرةُ: التّلهُّفُ على الشَّيء الفائتِ[5]، وهذا المعنى هو الَّذي يَجعلُ استعمالَ فعلِ الحَسرة مُصدَّرًا بالنِّداء: ﴿يَٰحَسۡرَتَنَا﴾ أليقَ بالسّياق

الحَسرةُ: التّلهُّفُ على الشَّيء الفائتِ، وهي أعمُّ وأوسعُ دَلالةً منَ الأسَفِ

(1) الفيروزآباديّ، القاموس المحيط: (فَجَأَ).
(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 186.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حسر).
(4) الجوهريّ، الصّحاح، وابن منظور، لسان العرب: (بَغت).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حسر).

القرآنيِّ؛ لأنَّه حالُ المكذِّبين بالبعثِ حين تبغتُهم السّاعةُ، فهم ليسوا في حالة غضبٍ؛ إذِ الغَضبُ لا مكانَ له هنا في هذا الوقت العصيبِ، وإنَّما هو ذُلٌّ وانكسارٌ وندمٌ شديدٌ على الشَّيءِ العظيمِ الَّذي فاتَهُم في الدُّنيا؛ وهو الإيمانُ باللّه ولقائِه وعَمَلُ الصّالحات، ولذلك كانتِ الحَسرةُ أعمَّ وأوسعَ دَلالةً منَ الأسف.

(التَّفريط) و(التَّضييع):

التَّفريطُ تقصيرٌ وإهمالٌ، والتّضييعُ فَقْدٌ لما يُحازُ أو يُنالُ

التَّفريطُ: التّقصيرُ في الشّيء حتّى يضيعَ ويَفوتَ، قاله الجوهريُّ[1]، وقيل: بدَّده، قصَّر فيه وضيّعه، وفي الأثر: (لا إفراط ولا تفريط)؛ أي: بوسطيَّةٍ واعتدالٍ[2]، وفي القرآن قال تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰحَسۡرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطۡنَا فِيهَا﴾، وقال: ﴿تَوَفَّتۡهُ رُسُلُنَا وَهُمۡ لَا يُفَرِّطُونَ ٦١﴾ [الأنعام: 61][3]، وهو أيضًا تَنحيةُ الشَّيء وإزالتُه عن مكانه، وهذا المعنى ألصقُ بالسّياق من معنى إضاعةِ الشَّيء الَّذي قد يكونُ بقصدٍ وغيرِ قصدٍ، أمّا أولئكَ المكذِّبونَ فقد تَجاوزوا حدودَ اللّه، ونَحَّوا دينَه وشريعتَه من حياتِهم، وأزالوا قاصدينَ كلَّ معالمِ الإيمان وأركانِه من قلوبِهم وعقولِهم، وهذا هو التَّفريطُ الحقيقيُّ، وأمّا التّضييعُ فيقال: ضاع الشّيء: يضيع ضياعًا وضيْعةً، وتركتُه بمَضيعةٍ: إذا تركتَه في موضعِ ضَياعٍ[4]، قال تعالى: ﴿لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٖ مِّنكُم﴾ [آل عمران: 195]، "وضَيعةُ الرَّجُل: عقارُهُ الَّذي يَضيعُ ما لم يُفتقَد، وتَضَيُّعُ الرّيحِ: إذا هبَّتْ هُبوبًا يُضيِّع ما هبَّتْ عليه"[5]، ولذلك كان استخدامُ البيان الإلهيِّ للفعل الَّذي نطقوا به ﴿فَرَّطۡنَا﴾ مُتحسِّرين مُتندِّمين أَولى بسياقِ النَّصِّ القرآنيِّ، وأَجدَرَ به من غيره.

(1) شمس الدّين البعلّي، المطلع على ألفاظ المقنع، ص: 179.
(2) أحمد مختار عمر، معجم اللّغة العربيّة المعاصرة، ص: 179.
(3) أحمد مختار عمر، معجم اللّغة العربيّة المعاصرة، ص: 179.
(4) ابن دريد، جمهرة اللّغة: (ضاع).
(5) الرّاغب، المفردات: (ضيع).

(الوِزر) و(الإثم) و(الذَّنْب):

لفظُ الوِزرِ آثرُ في هذه الآيةِ، وأبلغُ في الـدّلالـةِ منَ الإثمِ والذّنْبِ

"الوِزرُ يفيدُ أنَّه يُثقِلُ صاحبَه، وأصلُه الثِّقَلُ، ومنه قولُه تعالى: ﴿وَوَضَعۡنَا عَنكَ وِزۡرَكَ ۝٢ ٱلَّذِيٓ أَنقَضَ ظَهۡرَكَ ۝٣﴾ [الشرح: 2 - 3]، وقال تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلۡحَرۡبُ أَوۡزَارَهَاۚ﴾ [محمّد: 4]؛ أي: أثقالَها، يعني السِّلاحَ"[1]. والوِزرُ في كلام العرب: الجبلُ الّذي يُلتجأ إليه، هذا أصلُه، وكلُّ ما التجأتَ إليه، وتحصّنتَ به، فهو وِزر، وقال اللّه جلّ وعزّ: ﴿وَٱجۡعَل لِّي وَزِيرٗا مِّنۡ أَهۡلِي ۝٢٩﴾ [طه: 29]، فالوزير في اللّغة اشتقاقُه منَ الوِزر... وكذلك وزير الخليفة معناه الّذي يعتمدُ على رأيه في أموره، ويلتجىءُ إليه، وقولُه تعالى: ﴿كَلَّا لَا وَزَرَ ۝١١﴾ [القيامة: 11]؛ معناه: لا شيءَ يُعتصم به من أمرِ اللّه[2]، وأمّا الإثمُ في أصل اللُّغة فهو التَّقصيرُ، أَثِمَ يَأثَمُ: إذا قصَّرَ، وبهذا المعنى سُمّيتِ الخمرُ إثمًا، ونُعِتَ شاربُها بالآثم؛ فهيَ تقصِّرُ بشاربها لذهابها بعقله[3]، والذَّنْبُ: ما يَتبعُه الذَّمُّ، وأصلُه الإتّباعُ، فهو ما يُتبَعُ عليه العبدُ من قبيح فعلِه، فأمّا قولُهم للصّبيِّ قد أَذنبَ فإنَّه مجازٌ[4]، ومِن تَتَبُّعِ المعاني السّابقةِ لتلكُمُ المفرداتِ، يتجلَّى أنَّ معنى (الوِزر) أجدَرُ بسياق الآيةِ الكريمةِ؛ للتَّرابط الكبير بين الظَّهر والثِّقَل، فالظَّهرُ هو الَّذي يَحملُ الأثقالَ، ولكن أيُّ أثقالٍ أشدُّ عِبئًا عليه، وآلَمُ به، من ثِقل الأوزارِ وتَبِعاتِها؟!

(1) الراغب، المفردات (وزر).
(2) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (وزر).
(3) الرّاغب، المفردات: (إثم).
(4) الراغب، المفردات: (ذنب).

﴿وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا لَعِبٞ وَلَهۡوٞۖ وَلَلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ٣٢﴾ [الأنعام: 32]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

خسارةُ المكذّبين يومَ البعثِ، وعلاقتُه بإيثارِ الآخرةِ على الدّنيا

لَمّا أعلنَتِ الآيةُ السّابقةُ عن خسارة المكذِّبين بالبعث في اليوم الَّذي أنكروه، جاءتْ هذه الآيةُ الكريمة لتُعطيَ للعباد التَّصوُّرَ الصَّحيحَ الرَّشيدَ عنِ الحياة الدُّنيا والحياةِ الآخرة، فالأولى: لَعِبٌ ولهوٌ لا طائلَ منه، وهي الفانيةُ، والثّانيةُ: خيرٌ للمتَّقين، فهي الباقيةُ، والعاقلُ مَن يعملُ للباقي، ويَتجافَى عنِ الفاني، ثمّ إنّه لمّا قال سبحانه قبْل ذلك على لسان المُنكرين للبعث: ﴿وَقَالُوٓاْ إِنۡ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا وَمَا نَحۡنُ بِمَبۡعُوثِينَ ٢٩﴾ [الأنعام: 29] جاء الردُّ هنا بقوله تعالى: ﴿وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا لَعِبٞ وَلَهۡوٞۖ﴾ كاشِفاً عن خطلِ تفكيرِهم، وخطأِ نظرِهم، ومبيِّناً حقيقةَ الحياةِ الدّنيا، وأنّ الآخرةَ خيرٌ وأبقى لمنِ اتّقى.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿لَعِبٞ﴾: اللَّعِبُ: منَ الفعلِ (لَعِبَ) كسَمِعَ، لَعَبًا ولَعِبًا ولِعْبًا وتَلعابًا، وهو ضدُّ الجِدِّ[1]، "وقد لَعِبَ يلعَب. وتلعَّب: لعب مرّة بعد أخرى، ورَجلٌ تِلعابَة: كثيرُ اللّعِب، والتَّلعاب بالفتح: المصدرُ، وجارية لَعوب، والأُلعوبة: اللَّعِبُ، والمَلعَب: موضعُ اللّعِب، واللُّعبَة بالضّمّ: لعبةُ الشِّطرنج والنَّرد، وكلّ ملعوب به فهو لُعبَة؛ لأنّه اسمٌ، ومنه قولُهم: اقعُدْ حتّى أفرغَ من هذه اللُّعبة"[2]، واللَّعِبُ ضدّ الجِدّ، لَعِبَ لَعِبًا ولِعبًا، ولَعَّبَ وتَلاعَبَ وتَلَعَّبَ، قال امرؤُ القيس:

(1) الفيروزآبادي، القاموس المحيط: (لَعِبَ).
(2) الجوهريّ، الصّحاح: (لَعِبَ).

تَلَعَّبَ باعثٌ بِذِمَّةِ خالِدٍ *** وأوْدَى عِصامٌ في الخُطوبِ الأوائلِ[1].

2) ﴿وَلَهْوٌ﴾: اللَّهوُ: ما لهَوتَ به وشغلَك، مِن هوًى وطربٍ ونحوِهما، وقولُه ﷻ: ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا﴾ [الجمعة: 11]، قيل: اللَّهوُ: الطّبلُ، وقيل: اللَّهوُ: كلّ ما يُلهَى به، لها لَهْوًا والتَهى وألهاه ذلك[2]، و(لهوٌ) منَ الفعل (لَهَوَ) واللّامُ والهاءُ والحرفُ المعتلُّ، أصلان صحيحان: أحدُهما يَدُلُّ على شُغلٍ عن شيءٍ بشيء، والآخَرُ على نَبْذِ شيءٍ منَ اليد، فالأوَّلُ: اللَّهوُ وهو أنّ كلَّ شيءٍ شَغَلَكَ عن شيءٍ فقد ألهاك، ولَهَوتُ مِنَ اللَّهو، ولَهيتُ عَنِ الشَّيء: إذا تركتُهُ لغيره، والقياسُ واحدٌ، وإنْ تغيَّرَ اللَّفظُ أدنى تغيُّرٍ، ويقولون: إذا استأثرَ اللّه تعالى بشيءٍ فالهَ عنه؛ أي: اترُكْهُ ولا تَشتغلْ به[3]، وتقول: لَهيتُ عنِ الشّيء، ولَهيتُ منه، وآلهَ عن هذا الأمرِ، ومنه قولُ اللّه ﷻ: ﴿لَوْ أَرَدْنَا أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّاتَّخَذْنَاهُ مِن لَّدُنَّا﴾ [الأنبياء: 17][4].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

هذا إخبارٌ منَ اللّه تعالى عن حقيقة الحياةِ الدُّنيا؛ فإنَّها لَعِبٌ ولَهوٌ، تَنشغِلُ الأبدانُ بها، والقلوبُ لها والِهَةٌ وبها مُعلَّقَةٌ، والاشتغالُ بها كلَعِب الصِّبيان، وأمّا الآخرةُ في ذاتها، وصفاتِها، وبقائِها، ودوامِها، ففيها ما تَشتهيه الأنفسُ، وتلذُّ الأعين منَ النَّعيم المُقيم للأبدان والأرواح، وكثرةِ السُّرور والأفراح، كما قال تعالى: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٧١﴾﴾ [الزُّخرف: 71]، ولكنَّها ليستْ إلّا للمتَّقين الَّذين يَلتزمونَ أوامرَ اللّه، ويَجتنبونَ نواهيَه[5].

الدُّنيا لعبٌ ولهوٌ للغافلين، والآخرةُ خيرٌ للمتّقين

(1) ابن سيده، المحكم: (لَعِبَ).
(2) ابن سيده، المحكم: (لهو).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (لهو).
(4) الخليل، العين: (لهو).
(5) السَّعديّ، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 209.

الإيضاحُ البلاغيُّ واللُّغويُّ:

معنى الواوِ وعلاقتُه بالقَصْرِ:

من قوانينِ الكونِ المرسّاةِ: (الدّنيا دارُ مَمرٍّ، والآخرةُ دارُ مَقرٍّ)

قولُه تعالى: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾، أفادَ أسلوبُ القَصرِ بالنّفي مع الاستثناء المبالغةَ في جعْلِ الحياةِ الدُّنيا نَفسَ اللَّعب واللَّهوِ، ويمكنُ اعتبارُه جوابًا لقولِ المشركينَ السّابقِ: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ۝٢٩﴾ [الأنعام: 29]، فتكونُ الواو هنا للحال؛ أي: تقولون: إنْ هي إلّا حياتُنا الدُّنيا، والحالُ أنّكم لو تأمَّلتُم حقَّ التَّأمُّل لَعَلمتُم يقينًا أنَّ الحياةَ الدُّنيا لعبٌ ولهوٌ وتفاخرٌ وتكاثرٌ بالعَرَض الزّائلِ، وأنَّ وراءَها حياةً أخرى باقيةً، وهي إمّا العذابُ الشَّديدُ للكافرينَ المُكذِّبين، وإمّا المغفرةُ والرِّضوانُ للمؤمنينَ المُتَّقين، وفي الآيةِ إعادةٌ لدعوتِهم إلى الإيمان والتَّقوى.

قصْرُ الموصوفِ على الصّفةِ:

اللّهوُ واللّعبُ هما غالبُ ما ينشغلُ بهما العمومُ، وتأتي منهما الهمومُ

قولُه تعالى: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ صيغةُ قصرٍ لتلك الحياة على اللَّعب واللَّهو، وأداتُها ﴿إِلَّا﴾، وهو قصرُ موصوفٍ على صفةٍ[1]، فهذه الحياةُ الدُّنيا عبارةٌ عن زمنٍ هو وعاءٌ للأحداث، وهي موصوفةٌ بأوصافٍ هي أوصافُ الزَّمنِ الكائنةِ به من طول أو قِصَر، وأوصافٌ جاءتْ في سياق النَّصِّ القرآنيّ، فهي لعبٌ ولهوٌ، وهذان وصفان يَغلِبان سائرَ الأوصاف، وهما مصدرانِ أُريدَ بهما الوصفُ للمبالغةِ[2]، وقَصرُ الحياة الدّنيا على هاتين الصّفتين لا يخلو من مبالغةٍ؛ لأنّ للحياة الدّنيا أحوالًا أخرى؛ ففيها جِدٌّ، وسعيٌ، وبناءٌ، وعبادةٌ، لكنّ الأسلوبَ اقتصرَ على الصّفتَين اللّتين انشغل بهما الكافرون، وكانتا سببًا لتعلّقِهم بالدّنيا، وإنكارِهم البعثَ.

---

(1) القَصرُ: هو أحدُ الأساليبِ البلاغيَّةِ الَّتي يقتضيها المقامُ، ويدعو إليها حالُ المخاطَبِ: وهو تخصيصُ أمرٍ بأمرٍ بطريقٍ مخصوصٍ، ويُقسَم من حيثُ طرفاهُ إلى قسمَين: قَصرُ موصوف على صفة، وقَصرُ صفةٍ على موصوف، والَّذي في الآية كما هو ظاهرٌ ومبيَّنٌ في المتن من قبيل الأوَّل، ويُقاسُ عليه قولُه تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ﴾ [آل عمران: 144]؛ حيث قَصَرَ بيانُ الله محمّداً ﷺ على الرِّسالة. فضل عبّاس، أساليب البيان، ص: 168 - 170.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 192 - 194/7.

ملمحُ الاعتراضِ بين الجُملتين، بقوله تعالى: ﴿وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا لَعِبٞ وَلَهۡوٞۖ﴾:

عَطفَ جملةَ البِشارةِ على حكايةِ النِّذارة؛ لما بينَهما من تناسبٍ بالتّضادّ

يمكنُ اعتبارُ السّياق اعتراضًا في ثنايا حكايةِ حالِهم في الآخرة، فإنَّه لمّا حكى قولَهم: ﴿يَٰحَسۡرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطۡنَا فِيهَا﴾ [الأنعام: 31] علمَ السّامعُ أنَّ سببَ حَسرتِهم هو تفريطُهم في الأمور النّافعةِ لهم في الآخرة، منَ الإيمانِ والعملِ الصّالحِ، والَّذي جرَّهم إلى هذا التَّفريطِ انهماكُهم في زخارف الدُّنيا، وانغماسُهم في مُتَعِها ولَعبها ولهوِها، فجاء بعد ذلك بخطاب المؤمنينَ تعريفًا بقيمةِ تلك الزَّخارفِ والمُلهياتِ، وتبشيرًا لهم بأنَّ الآخرةَ هي دارُ الخيرِ للمؤمنين، وحينئذٍ تكونُ الواو في قولِه تعالى: ﴿وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ﴾ عاطفةً، عطَفتْ جملةَ البِشارةِ على حكايةِ النِّذارةِ، والمناسبةُ بينهما التَّضادُّ، وفيه كذلك ما فيه من إظهار سخافةِ عقولِ المكذِّبينَ بالبعث إذْ غرَّتهمُ الدُّنيا الفانيةُ، وسوَّلتْ لهمُ الإعراضَ عن دعوة اللّه لهم إلى الحقِّ على لسان رُسلِه، ومنطوقِ كُتبه، لينتهي السّياق بقوله: ﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾.

دلالةُ (أل) على تعريف الجنْسِ، في ﴿ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ﴾:

الدّنيا سحابٌ خُلّبٌ، ومتاعٌ لمَن يلهو ويلعبُ

واللّام في ﴿ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ﴾ للتَّعريف، وهو تعريفُ الجنس؛ أي: الحياةُ المعروفةُ الَّتي يحياها كلُّ واحد منَ المخلوقات، والمعروفةُ بالدُّنيا؛ أي: الأولى، والقريبةُ منَ النّاس بوقتِها المضروبِ، وأحوالِها المُقَدَّرةِ بقدَر اللّه وقُدرتِه، "والمعنى: أنّ هذه الحياةَ الدّنيا الّتي قال الكفّار: إنّه لا حياةَ غيرُها - وهي ما يتمتّعون به منَ اللّذّاتِ المقصودةِ عندَهم لِذاتها، أو الملهيةِ لهم عن همومِها وأكدارِها - ليست إلّا لعبًا ولهوًا، أو كاللّعبِ واللّهو في عدم استتْباعِها لشيءٍ منَ الفوائد والمنافع، يكونُ في حياةٍ بعدَها، أو هي دائرةٌ بين عملٍ لا يفيدُ في العاقبة - فهو كلعب الأطفال - وبين عملٍ له فائدةٌ عاجلةٌ سلبيّةٌ، كفائدة اللّهو، هو دفعُ الهمومِ والآلامِ"[1].

(1) رضا، المنار: 7/303.

سِرُّ الجمْعِ بين اللّعبِ واللّهو في قوله تعالى: ﴿إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾:

بين اللّعبِ واللّهوِ عُمومٌ وخُصوصٌ وَجْهيّ

قولُه تعالى: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ وردَ الجمعُ بينَ اللَّعِبِ واللَّهْوِ للعُمومِ والخُصوصِ الوَجْهيِّ بينهما، فهما يجتمعانِ في العملِ الَّذي فيه مُلاءمةٌ، ويُقارِنُه شيءٌ منَ الخِفَّةِ والطَّيْش، كالطَّرَبِ واللَّهْوِ بالنِّساء، وينفردُ اللَّعِبُ في لَعِبِ الصِّبيان، وينفردُ اللَّهْوُ في نَحْوِ المَيْسِرِ والصَّيدِ[1] وللمفارقةِ بين المعنيين فإنّ وجودَ كلٍّ منهما ضروريٌّ لا يستغني عنه السّياقُ وكونُ الحياةِ الدّنيا لعبًا ولهوًا لأنّ الإنسان، حالَ اشتغالِه باللّعب واللّهو، يلتذُّ به، ثمّ عند انقراضِه وانقضائِه، لا يبقى منه إلّا النّدامةُ، فكذلك هذه الحياةُ، لا يبقى عند انقراضها إلّا الحسراتُ والآهاتُ[2].

نُكتةُ تقديمِ اللَّعبِ على اللَّهوِ، في قولِه تعالى: ﴿إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾:

الخسارةُ غالبًا منَ اللّعبِ والشّياطينُ تُزيّنُه باللّهو

تقديمُ اللَّعبِ على اللَّهْوِ؛ مردُّهُ إلى أنَّ السّياقَ القرآنيَّ في هذه الآيةِ مكرَّسٌ لبيان الخَسارةِ، وهي أكثرَ ما تكونُ منَ اللَّعبِ - وهو فعلُ ما يَزيدُ سُرورَ النَّفْسِ على وجهٍ غيرِ مشروع، وسرعان ما ينقضي - فقدَّمَه لذلك؛ لأنّه سببٌ للغَفْلَةِ عمّا ينفعُ، أمّا اللَّهْوُ فتأخيرُه إشارةٌ إلى أنَّ الجَهَلَةَ، كُلَّما فتَروا في اللَّعِبِ، وهو اشْتغالٌ بالأمورِ السّافلَةِ، والشَّواغِلِ الباطلةِ، بعلوِّ النُّفوسِ، أثاروا الشَّهواتِ بالملاهي[3] لما بينَهما منَ العلائق إذْ إنَّ هذا يُعينُ على ذلك ويُحفّز عليه، ولا شكّ أنّ الاختيارَ القرآنيَّ بتقديم اللّعب على اللّهو كان سديدًا كما هو دَيدنُه في تقديم المفرداتِ وتأخيرِها، وفقًا لمطلوب السّياقِ وتأكيدًا على سَعةِ العربيّة وثَرائِها.

---

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 7/193.

(2) القاسميّ، محاسن التّأويل: 4/344.

(3) البقاعي، نظم الدُّرر: 7/93، مع ملاحظة أنّ كلّ الآياتِ في القرآنِ جاءَ فيها اللَّعبُ مقدَّمًا على اللَّهو إلّا في مَوْضعَيْن: الأوَّلُ: في قولِه تعالى: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [العنكبوت: 64]. والثّاني في قولِه تعالى: ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ [الأعراف: 50 - 51].

أثرُ القِراءاتِ القرآنيَّةِ في تَجْلِيَةِ المعنى، في قولِه تعالى: ﴿وَلَلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ﴾:

تنوّعُ القراءةِ القرآنيّةِ، يُوسّعُ الدّلالةَ، ويُفتّقُ المعاني

أوّلًا: قولُه تعالى: ﴿وَلَلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ﴾ فيها قراءتانِ مُتواترتان[1]: الأولى: ﴿وَلَلدَّارُ﴾ - بلامَين - لامِ الابتداءِ ولامِ التَّعريف، و﴿ٱلۡأٓخِرَةُ﴾ بالرَّفع، والثّانية: ﴿وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ بلام الابتداء فقط، وبإضافة ﴿وَلَدَارُ﴾ مُنَكَّرَةً إلى ﴿ٱلۡأٓخِرَةِ﴾، فهو من إضافة الموصوف إلى الصِّفة، كقولهم: مَسجدُ الجامعِ، أو هو على تقدير مُضافٍ؛ تكونُ الآخرةُ وصفًا له، والتَّقديرُ: دارُ الحياةِ الآخرةِ، والقراءةُ الأولى الّتي عُرِّفت فيها الدّارُ الآخِرَةُ أنسبُ لخطاب المؤمنين؛ لأنّهم آمنوا باليوم الآخر، فالدّارُ الآخرةُ معهودةٌ معروفةٌ لهم، والقراءةُ الثّانيةُ الّتي نُكِّرت فيها ﴿وَلَدَارُ﴾ أنسبُ لخطاب المُنكرين بالآخرة والبعث، وثانيًا: في قوله: ﴿تَعۡقِلُونَ﴾ أيضًا قراءتانِ مُتواترتان[2]: الأولى: بتاء الخطاب ﴿تَعۡقِلُونَ﴾ على طريقة الالتفاتِ. والثَّانيةُ: بياءٍ تحتيَّةٍ ﴿يَعۡقِلُونَ﴾، وهو على هذه القراءة عائدٌ لما عادَت إليه ضمائرُ الغَيبة قبْلَه، والاستفهامُ حينئذٍ للتَّعجيبِ من حالِهم بعدَ توبيخِهم، وتقريعِهم على كفرِهم، وإنكارِهم للبعثِ[3].

بيانُ التَّكْنيةِ عنِ القيامة في قولِه تعالى: ﴿وَلَلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ﴾:

الآخرةُ خيرٌ للمتّقين وملاذٌ للمؤمنين الصّادقين

قولُه تعالى: ﴿وَلَلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَۚ﴾، الدّارُ محلُّ إقامةِ النّاس، وهي الأرضُ الَّتي فيها بُيوتُ النّاسِ من بناءٍ أوْ خيامٍ أوْ قِباب، والآخرةُ مُؤنَّثُ وصْفِ الآخِرِ - بكسرِ الخاء-، أي: مقرُّ النّاسِ الأخيرِ الَّذي لا تَحوُّلَ بعدَه، فهي محلُّ الحياةِ الأُخْرَى والإقامةِ الدّائمةِ[4]، والتّعبيرُ عنِ الآخرة بالدّار إيحاءٌ بالعمارِ والاستقرارِ بتحصيل قرْبِ

(1) الأولى: قراءةُ العَشَرة إلاّ ابن عامر، والثّانية: قراءةُ ابن عامر الشّاميّ، ابن مجاهد، السَّبعة، ص: 256، ابن الجزريّ، النَّشر: 2/290.

(2) الأولى: قراءةُ نافع، وابن عامر، وحفص عن عاصم، وأبي جعفر، ويعقوب، والثّانية: قراءة الباقين منَ العَشَرة. ابن الجزريّ، النَّشر: 2/290.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/196.

(4) أبو السُّعود، إرشاد العقل السليم: 2/195، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 7/195.

اللّه الأعلى وتحصيلِ جزائِه الأوفى حيثُ النّعيمُ المقيمُ الّذي لا يحولُ ولا يزولُ.

معنَى لفظِ ﴿خَيۡرٞ﴾ وسِرُّ حذفِ المفضَّلِ عليه:

تفضيلُ الآخرةِ بنعيمِها الدَّائمِ المتَّصلِ على الدُّنيا بنعيمِها المُنفصلِ

قولُه: ﴿خَيۡرٞ﴾ تفضيلٌ للدّارِ الآخرةِ على الدُّنيا، وحُذِفَ المفضَّلُ عليه للعلْمِ به، أي: ولَلدّارُ الآخرةُ خيرٌ منَ الدُّنيا، وذلك باعْتبارِ أنَّ ما في الدُّنيا نعيمٌ عاجلٌ زائلٌ يلحَقُ مُعظَمَه مُؤاخذةٌ وعذابٌ[1]، ولفظُ ﴿خَيۡرٞ﴾ " يجوز أن يكون للتّفضيلِ، وحُذِفَ المفضَّلُ عليه للعلمِ به، أي: خيرٌ منَ الحياةِ الدّنيا، ويجوزُ أن يكونَ لمجرَّدِ الوَصْفِ بالخَيْرية، كقولِه تعالى: ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ يَوۡمَئِذٍ خَيۡرٞ مُّسۡتَقَرّٗا﴾ [الفرقان: 24][2].

دلالةُ وجوهِ الأفضليّةِ في خَيراتِ الآخرةِ في قولِه تعالى: ﴿وَلَلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ﴾:

نعيمُ الآخرةِ آسِرٌ بالإبهارِ مُنزَّهٌ عنِ المُنغِّصاتِ والأضرارِ

لَمّا وصَفَ بيانُ اللّهِ الآخرةَ بأنَّها ﴿خَيۡرٞ﴾، دلَّ مع التَّفضيلِ على الدُّنيا على عُمومِ الخيريَّةِ في كلِّ شيءٍ يُستلَذُّ ويُستطابُ، مع الدَّوامِ وعَدَمِ الانْقطاعِ، ومع الخُلوصِ عنِ المَضارِّ، واللَّذّاتُ فيها خالصةٌ لأصحابِها لا يُصيبُها تَنْغيصٌ بألمٍ أو نُقصانٍ أو انقطاعٍ وفُقدانٍ، فخَيراتُ الآخرةِ شريفةٌ وخَيْراتُ الدُّنيا خَسيسةٌ[3].

العُدولُ عنِ الاسْمِ الصّريحِ إلى الموصولِ وصلتِه:

أهلُ التّقوَى والخيريّةِ ينالون التّكرمةَ والأفضليّةَ

العُدولُ عنِ الاسمِ الصّريحِ إلى الموصولِ وصِلتِه، في قولِه تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَۚ﴾ للمبالغةِ في وصفِ المتَّقينَ، حيث إنَّ الدّارَ الآخرةَ كانت خيرًا لهم، لا لغيرِهم منَ الكفرةِ فهي وبالٌ عليهم وعذابٌ أليمٌ واللّامُ الدّاخلةُ على الاسمِ الموصولِ للبيانِ أي: أعني (للّذين)، وكذا كلُّ ما جاء مِنْ نحوِه، نحوَ: ﴿خَيۡرٞ لَّكَ مِنَ ٱلۡأُولَىٰ ٤﴾ [الضّحى: 4][4]

(1) السَّمين، الدُّرُّ المصون: 4/601.
(2) السَّمين، الدُّرُّ المصون: 4/601.
(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السليم: 2/195.
(4) السّمين، الدّرّ المصون: 4/601.

وجملةُ الصّلةِ مُبيّنةٌ لخُلقِ التّقوى ومُظهِرةٌ لمكانةِ أصحابِه ومُظهرةٌ لَمحيّةِ الأفضليّةِ في الخيريّةِ الّتي قام عليها الموصولُ وصِلتُه في هذا السّياقِ.

دلالةُ المُبالغةِ على التّعريضِ بالمُشركين، والتّنويهِ بالمتّقين:

ما سِوَى التّقوَى لعبٌ زائلٌ، ولَهوٌ باطلٌ

وفي قولِه تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَۚ﴾ تعريضٌ بالمُشركينَ المُكذِّبين بالبعثِ، بأنَّهم صائرونَ إلى الآخرةِ، لكنَّها ليستْ لهم بخيرٍ ممّا كانوا عليه في الدُّنيا، وفي هذا التَّعريضِ تأييسٌ للمُشركين، والآخرةُ خيرٌ للمتَّقين خيرٌ محضٌ، بدخولِ الجنَّة والخلودِ فيها[1]، والمعنى: "﴿لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَۚ﴾ الشّركَ، واللّعبَ، واللّهوَ، أو المعاصيَ، وفيه دليلٌ على أنّ ما سوى أعمالِ المتّقين لعبٌ ولهوٌ"[2]، وأنّ الدّارَ الآخرةَ خيرٌ للَّذين يتَّقونَ؛ لدوامِها، وخُلوصِ منافعِها ولذّاتِها عنِ المضارّ والآلامِ[3].

دلالةُ أسلُوبِ الاحتباكِ، في قولِه تعالى: ﴿وَلَلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَۚ﴾:

حـالُ أهـلِ الـدّنـيـا وأهـلِ الآخـرة مُتضادٌّ، وبضدِّها تتميّزُ الأشياءُ

لمّا كان التّقديرُ بما أرشدَ إليه المعنى في هذه الآية الكريمة يفيدُ قولَه: (وما الدّار الآخرة إلّا جدٌّ وحضور، وبقاءٌ للأتقياء الأنقياء)، أتبعه قولَه مُؤَكِّدًا: ﴿وَلَلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ﴾، "ولمّا كان الكلُّ مآلَهم إلى الآخرةِ خَصّصَ، فقال: ﴿لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَۚ﴾؛ أي: يوجِدون التّقوى، وهي الخوفُ منَ اللّه الّذي يحملُ على فعْلِ الطّاعاتِ وترْكِ المعاصي، ليكونَ ذلك وقايةً لهم من غضبِ اللّه، فذكرَ حالَ الدّنيا، وحذفَ نتيجتَها لأهلِها؛ لدلالة ثمرةِ الآخرةِ عليه، وحذفَ ذكرَ حالِ الآخرةِ؛ لدلالة ذكْرِ حالِ الدّنيا عليه، فهو احتباكٌ بليغٌ[4]، ويتحقّقُ الاحتباكُ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 195 - 196/7.
(2) القِنَّوجيّ، فتحُ البيان: 4/129.
(3) القاسميّ، محاسن التّأويل: 4/344.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/93.

بدلالةِ ما في أوائلِ السّياقِ على المحذوف من أواخرِه، ودلالةِ ما في أواخره على المحذوفِ من أوائلِه.

نوعُ الاستفهامِ ودلالتُه في سياقِ قولِه تعالى: ﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾:

أسلوبُ التّوبيخِ أو التّحذيرِ في الآيةِ، في غاية الدّقّةِ والبلاغةِ

الاستفهامُ في قولِه تعالى: ﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ توبيخيٌّ إنْ كان خطابًا للمُشركين، وتحذيريٌّ إنْ كان خطابًا للمؤمنين، لكنَّ نفيَ التّعقّلِ يرجِّحُ أن يكونَ الخطابُ للمشركين على سبيل الالتفاتِ، وقولُه: ﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾؛ أي: أفلا تعقلون ذلك؛ حتَّى تتَّقوا ما أنتم عليه منَ الكُفرِ والعِصيانِ؟"، ويُمكنُ أن تكونَ (الفاءُ) معطوفةً على مُقدَّرٍ محذوفٍ؛ أي: (أَتَغفُلون فلا تَعقِلون)، أو أَلا (تَتفكَّرونَ فتَعقِلون)"[1].

أثرُ أسلُوبِ التّذْييلِ في الدّلالةِ، بقولِه تعالى: ﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾:

إيثارُ الكافرين الفانيةَ على الباقيةِ دليلٌ على أنّهم لا يعقلُونَ

جاء التَّذييلُ في قولِه تعالى: ﴿وَلَلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَۚ﴾، فكان ذلك خطابًا مُستأنَفًا للمؤمنين، تحذيرًا لهم ممّا وقعَ فيه المُكذِّبونَ من غَفلتِهم عنِ الحقِّ، بمُغرياتِ الدُّنيا وصوارفِها عنِ الإيمان بالآخرة، والعملِ لها، وكونُ هذه الجملة حاليةً، هو الأَولى لتكونَ موصولةً بزعمِ المُنكرين، بقولِهم: ﴿إِنۡ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا وَمَا نَحۡنُ بِمَبۡعُوثِينَ﴾، وهي الآيةُ الواردةُ قبلَ ذلك، فأكّدَ في مخاطبته للعقولِ بأنّ الحياةَ الدّنيا وما يتعلّقُ بها، وبما فيها، من سعيٍ، وأعمالٍ، ومبادراتٍ، وآمالٍ، ما هي "إلّا لعبٌ يشغَلُ النّاسَ، ويُلهيهم بما فيه من منفعةٍ سريعةِ الزّوالِ، ولذّةٍ وشيكةِ الاضمحلال، عمّا يُعَقِبُهُمْ منفعةً جليلةً باقيةً، ولذّةً حقيقيةً غيرَ متناهيةٍ منَ الإيمان والعملِ الصّالحِ"، ولكنّهم في غيّهم سادِرون؛ لأنّهم - كما وصفَهمُ السّياقُ - لا يعقلون[2].

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/195.

(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/126.

دلالةُ تضافُرِ أسلوبَي الالْتفاتِ والاستفهامِ:

المدلولاتُ الكنائيَّةُ تتعدَّدُ، دونَ لُزومِ الاشْتراكِ؛ لأنّ دَلالتَها إلزاميَّةٌ

قولُه تعالى: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾، ورد بتاءِ الخطابِ[1] على طريقةِ الالْتفات منَ الغَيبةِ إلى الخطابِ، وقد تصدَّرَ هذا الالْتفاتَ الاسْتفهامُ المصحوبُ بفاءِ العطفِ، على جملةِ: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾؛ لأنَّه يتفرَّعُ عليه مضمونُ الجملةِ المعطوفةِ، ولذلك جاءَ الاستفهامُ تعبيرًا عن عَدَمِ عقْلِهم، مع توجيهِ الخطابِ بالتّاءِ في ﴿تَعْقِلُونَ﴾ لفريقَيْنِ اثْنَيْن: الأوَّلُ للمشركين فيكونُ الاسْتفهامُ توبيخًا لهم، والثّاني للمؤمنينَ فيكونُ تحذيرًا لهم، على أنَّه لما كانَ اسْتعمالُ هذا الخطابِ في أَحَدِ هَذَين على وجه الكنايةِ، صحَّ أنْ يُرادَ منه الأمرانِ باعْتبارِ كلا الفريقَيْن؛ لأنَّ المدلولاتِ الكنائيَّةِ تتعدَّدُ، ولا يلزَمُ من تعدُّدِها الاشْتراكُ؛ لأنَّ دَلالتَها إلزاميَّةٌ، على أنَّه يمكنُ اسْتعمالُ المُشتَرَكِ في مَعْنَيَيْه، وقد حُذفَ مفعولُ ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ للعلْمِ به، أي: أفلا تعقلونَ أنَّ الأمرَ كما ذُكِرَ، فتزهدوا في الدُّنيا، أو تعقلوا أنَّ الآخرةَ خيرٌ منَ الدُّنيا[2].

دلالةُ الاستفهامِ على التّبكيتِ والتّوبيخِ، في قوله تعالى: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾:

العقلُ عنوانُ التّكريمِ، وميزانُ التّقييمِ

ورد خطابُ هؤلاء المُنكرين في قولِه تعالى: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾، باعتبار أنّهم الأَوْلى بهذا التّوبيخِ والتّبكيتِ المفهومِ منَ الاستفهام، وهمُ الأَولى بنفيِ التّعقُّلِ عنهم، قال البِقاعيُّ: "ولمّا كان من شأن العقلاء الإقبالُ على الخير، وتركُ غيره، تسبّبَ عن إقبالِهم على الفاني، وتركِهم الباقي، قولُه مُنكرًا: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾"[3]، والإنكارُ عليهم مُبرَّرٌ ومعقولٌ، ذلك أنّ العقولَ الّتي وهبها اللّه لهم، مؤهَّلةٌ لكي تُرشدَهم إلى الحقِّ، وتَهديَهم إلى سواءِ السّبيلِ، وبها تكونُ

(1) وهي قراءة نافع، وابن عامر، وحفص، وأبو جعفر، ويعقوب، وقرأ الباقون من العشرة ﴿أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾ بياء تحتيَّة، ينظر: ابن الجزري، النشر: 2/257، وهو على هذه القراءة عائدٌ لما عادت إليه ضمائرُ الغَيْبة قبله، والاسْتفهامُ حينئذٍ للتعجيب من حالهم.

(2) السَّمين، الدُّرُّ المصون: 4/601، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 7/195 - 196.

(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/93 - 94.

الموازنةُ بين الدّنيا وغُرورِها، والآخرةِ ونَعيمِها؛ لاختيار ما فيه النّفعُ، ممّا هو باقٍ لا يفنَى، ودائمٌ لا يحولُ.

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(اللَّعب) و(اللَّهو):

وصْفُ الدّنيا باللّعبِ واللّهوِ، وكلاهُما ضَياعٌ ومَفسدةٌ

توجَدُ فروقٌ دقيقةٌ بين هاتين الكلمتَين، قد يكونُ لعبٌ ليس بلهوٍ؛ لأنَّ اللَّعبَ يكونُ للتَّأديب والتَّدريب، كالرَّمي وركوبِ الخيل وغيرِهما، ولا يُقالُ لذلك: لهوٌ. ولا يكونُ اللَّهوُ إلّا لعبًا، وإنَّما اللَّهوُ لعبٌ لا يَعقُبُ نفعًا، وسُمّيَ لهوًا؛ لأنَّه يُشغِلُ عمّا يُعني، من قولِهم: أَلهاني الشَّيءُ؛ أي: شَغَلَني، ومنه قولُه تعالى: ﴿أَلۡهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ١﴾ [التَّكاثر: 1]، فهو يُشغِلُ الإنسانَ عمّا يُعنيه، وما هو أهمُّ له وأنفعُ. واللَّعِبُ كذلك: طلبُ المَزحِ بما لا يَحسُنُ أن يُطلَبَ به، ومنه اشتُقَّ اللُّعابُ؛ وهو المُرورُ على غير استواءٍ[1]، وحاصلُ ما تقدَّمَ من بيانِ الفروقِ بين الكلمتَين؛ أنَّ البيانَ الإلهيَّ استخدمَ الكلمتَين متجاورَتَيْن؛ لِما لكلِّ واحدةٍ منهما من خَصيصةٍ تمتازُ بها عن صاحبتِها، فاللّعبُ فعلُ الصّبيان الّذين يُتعبون أنفسَهم جدًّا من غير فائدةٍ، واللَّهوُ فعلُ الشُّبّانِ، والغالبُ أنْ لا يبقَى بعد انقضائِهما إلّا الحسرةُ؛ لذهابِ المالِ والعمرِ وانقضاءِ اللّذّاتِ[2]، والنَّصُّ القرآنيُّ ساقَ لنا تَينِكَ المُفردتَيْن، وحصرَ مفهومَ الحياة الدُّنيا بهما، ليجمَعَ فيه بين السَّوأتَين، فيَنزِلَ باعتبارِها إلى تلكُما الدَّرَكتَين؛ فإنّ مدّةَ اللَّهو واللَّعبِ قليلةٌ سريعةُ الانقضاءِ والزّوالِ، ومدّةُ الحياة كذلك[3].

(1) الجرجانّي، التَّعريفات، ص: 202 - 204، والعسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 469 - 470.
(2) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 29/233.
(3) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 12/200.

﴿قَدۡ نَعۡلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحۡزُنُكَ ٱلَّذِي يَقُولُونَۖ فَإِنَّهُمۡ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ ٣٣﴾ [الأنعام: 33]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

عـلاقـةُ غُـرورِ الـدّنـيـا ونـعـيـمِ الآخـرةِ بتخفيفِ مُعاناةِ النّبيّ مع المُكذّبين

لَمّا أبانَ اللّه أنّ الدّنيا فانيةٌ، والآخرةَ باقيةٌ، وأنّ الدّارَ الآخرةَ دارُ السّرورِ وأنّ الدّنيا دارُ الغُرور، وأنّ الآخرةَ خيرٌ لهم من هذه الدّارِ المليئةِ بالأكدارِ والمحفوفةِ بالأخطارِ راحَ يُسلّي النّبيَّ ويُسرّي عنه ليرفعَ معنوياتِه ويُثبّتَ قلبَه ويمسحَ عنه أحزانَه في غَمرةِ الصّراعِ بينه وبين المكذّبين من قومِه الّذين لا يؤمنون، ويفترون الكذبَ عليه، ويُسلقونَه بألسنةٍ حدادٍ في تلك الأعوامِ الشّدادِ فيؤكّدُ له أنّهم يعلمون صدقَه وأمانتَه ويوقنون في قرارةِ أنفُسِهم أنّه صادقٌ مصدوقٌ ولكنّهم يُمارون في الحقِّ ويجادلون في آياتِ اللّه فهم بذلك أسوأُ حالًا وأشدُّ وبالًا؛ لأنّ الكُفرَ المستقرَّ في نفوسِهم دفعَهم إلى الظُّلمِ العظيمِ فاستحقّوا به العقابَ وسوءَ العذابِ.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿لَيَحۡزُنُكَ﴾: الحُزْنُ والحَزَنُ: ضدُّ السُّرور، وقد حَزِنَ - من باب طَرِبَ - حُزْنًا، فهو حَزِنٌ وحَزينٌ، يُقالُ: أَحزَنتَ الرَّجُلَ - بهمزةِ تعديةٍ - لفعْلِ حَزَن، ويُقالُ: حَزِنْتُه أيضًا، وحَزَنْتُهُ، جَعَلتُ فيه حُزنًا، وهي أكثرُ استعمالًا[1]، قال اللّيثُ: للعربِ في الحزن لغتان؛ إذا ثقّلوا فتحوا، وإذا ضمّوا خفّفوا، يقال: أصابَه حُزْنٌ شديدٌ، وحَزَنٌ شديدٌ، وروى يونسُ عن أبي عمْرٍو قال: إذا جاء الحزنُ منصوبًا فتحوا، وإذا جاء مرفوعًا أو مكسورًا ضمّوا الحاءَ، ففي موضعِ الخفْضِ قال

(1) ابن منظور، لسان العرب: (حَزِنَ).

تعالى: ﴿وَٱبۡيَضَّتۡ عَيۡنَاهُ مِنَ ٱلۡحُزۡنِ﴾ [يوسف: 84]، وفي موضعِ النّصبِ قال: ﴿تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ حَزَنًا﴾ [التّوبة: 92]، وفي ضمِّ الحاءِ قال: ﴿إِنَّمَآ أَشۡكُواْ بَثِّي وَحُزۡنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [يوسف: 86][1].

2) ﴿يَجۡحَدُونَ﴾: الجَحْدُ، نقيضُ الإقرار.. وقولُه تعالى: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا﴾ عدّاهُ بالباء؛ لأنَّه في معنى كفروا، وكذلك قولُه تعالى: ﴿وَمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ ۝٥١﴾ [الأعراف: 51]؛ أي: بكُفرِهم بآياتنا[2]، ولفظُ" جَحَدَ: الجيمُ والحاءُ والدّالُ، أصلٌ يدُلُّ على قِلَّةِ الخيرِ، يُقالُ: عامٌ جَحِدٌ قليلُ المطَر، ورَجُلٌ جَحْدٌ - بسكون الحاء وكسرِها - فقيرٌ، وقد جَحِدَ وأَجْحَدَ، والجَحْدُ من كلِّ شيءٍ: القِلَّةُ، ومن هذا البابِ الجُحودُ، وهو ضدُّ الإقرارِ، ولا يكونُ إلّا مع علْمِ الجاحدِ به أنَّه صحيحٌ، قال اللّه تعالى: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ أَنفُسُهُمۡ﴾ [النّمل: 14]، وما جاء جاحدٌ بخيرٍ قطّ"[3].

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

تَسلِيةُ النّبيِّ بكونِ تكذِيبِهم له، هو تكذيبٌ لآيـــات الـلـه وهدْيِه

يُخبرُ اللّهُ تعالى رسولَه ﷺ مُسلّيًا له في تكذيب قومِه له، ومُخالَفتِهم إيّاه: قد أَحَطْنا علمًا بتكذيبِهم لك، وحُزنُكَ وتأسُّفُكَ عليهم، فهم لا يتَّهِمونَكَ بالكذبِ في الأمرِ نفسِه، ولكنَّهم يُعانِدونَ الحقَّ وآياتِه الدّالّةَ عليه[4]، وقد وردَ في ذلك، "عن عليّ قال: قال أبو جهل للنّبيّ ﷺ: إنّا لا نكذّبُك يا محمّدُ، ولكنْ نكذّبُ ما جئتَ به، فأنزل اللّه قولَه: ﴿فَإِنَّهُمۡ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ﴾[5].

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (حَزِنَ).
(2) ابن سيده، المحكم: (جحد).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (جحد).
(4) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 2/121.
(5) طنطاويّ، الوسيط: 5/65.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالةُ الاستئنافِ في قولِه تعالى: ﴿قَدۡ نَعۡلَمُ﴾:

التّكذيبُ العامُّ والخاصُّ دليلٌ على تأصُّلِ العنادِ في نُفوسِ الكُفّارِ

قولُه تعالى: ﴿قَدۡ نَعۡلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحۡزُنُكَ ٱلَّذِي يَقُولُونَۖ﴾، هذه الآيةُ منَ الاستئنافِ الّذي يتضَمّنُ تكذيبًا عامًّا لكلّ آياتِ اللّه؛ إذْ كانوا يقولون: أساطيرُ الأوّلين بعد تكذيبٍ خاصٍّ للآياتِ الّتي تتضمّنُ البعثَ بعدَ الموتِ، و"هذا القولُ استئنافٌ مَسوقٌ لتسليةِ رسولِ اللّه ﷺ عنِ الحُزْنِ الّذي يَعتَريه؛ بسببِ إصرارِ الكَفرةِ على التّكذيبِ، والمبالغةِ فيه، ببيانِ أنّه عليه الصّلاةُ والسّلامُ بمكانةٍ عظيمةٍ عندَ اللّه ﷻ، وأنّ ما يَفعلونَ في حقِّه، إنّما هو راجعٌ إليه تعالى في الحقيقةِ، وأنّه ينتقمُ منهم لا محالةَ أشدَّ انتقام"[1]، وحزنُ الرّسولِ ﷺ يتناسبُ مع أخلاقِه العاليةِ، واتّساعِ فؤادِه لاستيعابِ المُؤالفِ والمخالفِ، وحزنِه على تأخّرِ إسلامِ زُعماءِ الكُفرِ الّذين كانوا يناصبونَه العداءَ، ولكنّه كان لا يفتأُ داعيًا اللّه لهم بالهدايةِ، ومُلتمِسًا لهم العذرَ، بقوله: «اللهم اهْدِ قومي فإنّهم لا يعلمون»[2].

أثرُ لفْظِ التّحقيقِ ﴿قَدۡ﴾:

(قد) تكونُ للتّكثيرِ أوِ التّقليلِ، بحسْبِ مَنطقيّةِ الأسبابِ أو عدمِ ذلك

في قولِه تعالى: ﴿قَدۡ نَعۡلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحۡزُنُكَ ٱلَّذِي يَقُولُونَۖ﴾ جاءت كلمةُ ﴿قَدۡ﴾ لتحقيقِ الخبرِ الفعليِّ ليُفيد تأكيدَ العلْمِ بما ذُكِرَ، وهو تأكيدُ الوعيدِ؛ أي: قد عَلِمْنا، فالمستقبلُ بمعنى الماضي[3]، كما في قولِه تعالى: ﴿قَدۡ يَعۡلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ﴾ [النّور: 63]، وقولِه تعالى: ﴿۞قَدۡ يَعۡلَمُ ٱللَّهُ ٱلۡمُعَوِّقِينَ﴾ [الأحزاب: 18] ونحوِهما، بإخراجِها إلى معنى التّكثير، جَرْيًا على سَنَن العرب عند قَصْدِ الإفراط في التّكثير، وعليه قولُه ﷻ: ﴿رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ كَانُواْ مُسۡلِمِينَ ۝٢﴾ [الحِجر:

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/195 - 196.

(2) رواه البيهقي في شعب الإيمان، مرسلا: 3/45، ثمّ رواه من رواية سهل بن سعد، مرفوعًا، بلفظ: «اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون».

(3) العكبريّ، الإملاء: 1/240.

2]، وهذه طريقةٌ إنَّما تُسلَكُ عندَ كَونِ الأمرِ منَ الوضوحِ بحيثُ لا تحومُ حولَه شائبةُ رَيبٍ حقيقةً، كما تقدَّمَ في الآياتِ الكريمةِ[1].

و"(قد) تكونُ للتّكثيرِ إن كانت منطقيّةَ الأسباب، وهي للتّقليلِ إن كانت غيرَ منطقيّةِ الأسباب، ولكنْ كلُّنا يعلمُ أنّ علْمَ اللّه هو علمٌ أزليٌّ، ولا قوّةَ ولا أمرَ، يَخرجان عن معلومِ اللّه، إذن (فقد) هنا للتّحقيقِ، وهي داخلةٌ على الفعل المضارع، فالحقُّ أراد أن يُبلّغنا أنّه عَلمَ أزلاً بما حدث، وجاء (بقد)؛ لنستحضرَ صورةَ الفعْلِ في قولِه تعالى: ﴿قَدۡ نَعۡلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحۡزُنُكَ ٱلَّذِي يَقُولُونَۖ﴾"[2]، وقال أبو حيّانَ: "قال بعضُ أصحابنا: فذكَرَ بما في التّقليل والصّرف إلى معنى المُضيّ، يعني: إذا دخلتْ على المضارع، قال: هذا ظاهرُ قولِ سيبويه، فإنْ خلتْ من معنى التّقليل خلتْ غالبًا منَ الصّرفِ إلى معنى المُضيِّ، وتكونُ حينئذٍ للتّحقيق والتّوكيدِ نحوَ قولِه تعالى: ﴿قَدۡ نَعۡلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحۡزُنُكَ﴾، وقولِه: ﴿لِمَ تُؤۡذُونَنِي وَقَد تَّعۡلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡۖ﴾ [الصّف: 5]، وقولِ الشّاعر:

وقَد تُدرِكُ الإنسانَ رَحمَةُ رَبِّه *** ولَو كانَ تَحتَ الأَرضِ سَبعينَ واديا"[3]

معنى الفعْلِ المضارعِ ﴿نَعۡلَمُ﴾ بعد ﴿قَدۡ﴾:

تحقيقُ علْمِ اللهِ واستمرارُه أمرٌ حقيقٌ بالاعتقادِ والتّسليمِ

في قولِه تعالى: ﴿قَدۡ نَعۡلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحۡزُنُكَ﴾، أفادتْ ﴿قَدۡ﴾ تحقيقَ الخبرِ الفعليِّ، فهو في تحقيقِ الجملةِ الفعليَّةِ، بمنزلةِ (إنَّ) في تحقيقِ الجُملةِ الاسْميَّة، فمعنَى ﴿قَدۡ نَعۡلَمُ﴾: أي: قد عَلِمْنا بأنَّ الَّذي يقولونه يُحزنُك مُحقَّقًا فَتَصبَّرْ[4]، و﴿نَعۡلَمُ﴾ تتضمَّنُ إذا كانتْ من اللّهِ تعالى اسْتمرارَ العلم وقِدَمَه، فهي تعمُّ المُضيَّ والحالَ والاسْتقبالَ، ولذلك كانَ المجيءُ بالمضارع ﴿نَعۡلَمُ﴾ يُفيدُ وجودَ العلمِ

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/196.
(2) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 6/3594.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/488.
(4) العكبريّ، الإملاء: 1/240، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/197.

من غيرِ نظرٍ إلى زمان، وعدَلَ عنِ الماضي لئلّا يُظَنَّ الاختصاصُ به، فالمرادُ تحقُّقُ التَّجدُّدِ لتعلُّقِ العلم بتجدُّدِ الأقوال[1]، وهذا السّياقُ تأكيدُ اللّه اسْتِجابَتَهُ "لشكاة النّبيِّ ﷺ قبل أن يشكوَ، وفي هذا تطمينٌ لقلبِه، وتثبيتٌ لقدمِه، وأنّ اللّه يرعاه، ويعلَمُ ما يجدُ في نفسِه من حُزنٍ وألم، لِما يرميه به قومُه من باطلِ القولِ، وزورِ الكَلِمِ.. وهم يعلمون أنّه الإنسانُ الّذي لا يكذبُ أبدًا"[2].

توجيهُ المعنَى في اختلافِ القراءةِ، في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَيَحۡزُنُكَ﴾:

كان إصرارُ الكفّارِ على الإنكارِ، يُحزنُ قلبَ النّبيِّ المُختارِ

وفي قوله: ﴿لَيَحۡزُنُكَ﴾ قراءتان[3]: الأولى: بضمِّ الياء وكسرِ الزّاي ﴿لَيُحۡزِنُكَ﴾، وهي منَ الفعل الرّباعي (أَحزَنَ)، والثّانية: بفتح الياء وضمِّ الزّاي ﴿لَيَحۡزُنُكَ﴾، وهي منَ الثّلاثي (حَزَن). والقراءةُ الأولى تدُلُّ على حُزنٍ أكثرَ؛ لأنَّ زيادةَ المبنى تدلُّ على زيادة المعنى، فالقراءتان معًا تدلّان على تعدّدِ مرّاتِ التّكذيب، وتعدّدِ مرّاتِ الحُزن، مع تفاوُتِ مقدارِه. وقولُه تعالى: ﴿ٱلَّذِي يَقُولُونَۖ﴾ هو قولُهم: ساحرٌ، ومجنونٌ، وشاعرٌ، فعدَلَ عن تفصيل قولِهم إلى إجمالِه؛ إيجازًا أو تحاشيًا عنِ التَّصريح به في جانب المُنَزَّهِ عنه. والحُزنُ: هو خروجُ النّفس من سياق انبساطِها، أو هو انفعالٌ لمجيء وحصولِ أمرٍ غيرِ مطلوبٍ للنّفس، وحزنُ النّبيِّ ﷺ نتجَ عن رقّةٍ في قلبِه، ونُبْلٍ في نفسِه، حيث كان مطلبُه أن يؤمنَ كلُّ الّذين استمعوا إلى البلاغِ عنه، ولكنّهم استنْكفوا عن قَبول الدّين، والدّخولِ في حِماه، فكذّبوا بالهُدى، وأعرضوا عنه[4]، وفي هذا يقولُ تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ إِن لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَسَفًا ٦﴾ [الكهف: 6]، ويقولُ: ﴿فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ عَلَيۡهِمۡ حَسَرَٰتٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ ٨﴾ [فاطر: 8].

(1) ابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 2/285، والبقاعيّ، نظم الدُّرر: 7/94.
(2) عبد الكريم الخطيب، التّفسير القرآنّي للقرآن: 4/159.
(3) الأولى: قراءة نافع، والثّانية: قراءة الباقين منَ العَشَرة. يُنظر: ابن الجزري، النّشر: 2/257.
(4) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 6/3595.

نُكتةُ المُرادِ منَ التّعبيرِ باسْمِ الموصولِ ﴿ٱلَّذِى﴾ دونَ (ما) الموصولةِ:

ما كُذِّبَ به رسولُ الله ﷺ، لا أثرَ له عليه ولا استمرارَ لأذيّتِه

آثرَ بيانُ اللّه تعالى التَّعبيرَ بالاسْمِ الموصولِ ﴿ٱلَّذِى﴾ دون (ما) في قولِه تعالى: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ﴾، وكلاهما اسْمٌ موصولٌ، لكنَّ ﴿ٱلَّذِى﴾ اسْمٌ موصولٌ يُطلقُ عليه (المُختصّ)؛ لأنَّه يختصُّ بالمُفردِ المُذكَّرِ تحديدًا، و(ما) تُستعمَلُ للمذكَّرِ والمؤنَّثِ وللمُفردِ والمثنَّى والجمع، وبهذا يكونُ ﴿ٱلَّذِى﴾ أعرفَ من (ما)، مع أنَّ كِلَيْهما معرفةٌ، لكنَّ المختصَّ أَعْرفُ[1]، وهذا الَّذي يقولونَ فَحَزَّنَ رسولَ اللّهِ ﷺ معروفٌ، دلَّ عليه اللِّحاقُ في سياقِ الآيةِ الكريمةِ، بقولِه تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ﴾، مع أنَّهم قالوا لرسولِ اللّهِ ﷺ: ساحرٌ كذّابٌ، ولكنَّ قولَهم ذاك نابعٌ عن جُحودٍ ومُكابرةٍ، لا عن يقينٍ منهم بما قالوا، فعائدُ ﴿يَقُولُونَ﴾ محذوفٌ، أي: للَّذي يقولونَه، وهو قولُهم: ساحرٌ كذّاب، أو أساطيرُ الأوَّلين ونحوُ ذلك، وهذا كلُّه يُعَدُّ تكذيبًا لرسول اللّهِ ﷺ، وقد دلَّ عليه قولُه بعدَه: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَىٰ مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا﴾ [الأنعام: 34][2].

نُكتةُ العُدولِ إلى الاسْمِ الموصولِ في قوله تعالى: ﴿لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ﴾:

التَّلطُّفُ مع رسولِ الله ﷺ، من مقاصدِ البيانِ في القرآنِ

عَدَلَ بيانُ اللّهِ تعالى عن ذكرِ اسْمِ التَّكذيب، وأقامَ مقامَه اسْمَ الموصولِ ﴿ٱلَّذِى﴾ وصلتَه؛ تنزيهًا للرَّسولِ ﷺ عن ذِكْرِ هذا اللَّفظِ الشَّنيعِ في جانبِه تلطُّفًا معه ورعايةً لحقِّ ما اتَّصفَ به من خُلُقٍ عظيم[3]، وهذا الكلامُ مبتدأٌ مَسوقٌ لِتَسْلِيَةِ رسولِ اللّه ﷺ عمّا نالَه مِنَ الغمّ والحُزن، بتكذيبِ الكفارِ له[4]، وما يقولون فيه مُؤذٍ لمقامِه وجاهِه ومعنى ذلك: "قد نعلمُ أنّ الّذي يقول المكذّبون فيك يُحزنُكَ ويَسوؤُك، ولم نأمُرْك بما أمرناك به منَ الصّبرِ إلّا لتَحصُلَ

(1) ابن عقيل، شرح ألفيَّة ابن مالك: 1/141، 147.
(2) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 2/14، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السليم: 2/196.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 7/198.
(4) الشّوكانّي، فتح القدير: 2/127.

لك المنازلُ العاليةُ والأحوالُ الغاليةُ، فلا تظنَّ أنّ قولَهم صادرٌ عن اشتباهٍ في أمرِك، وشكٍّ فيك، ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ﴾؛ لأنّهم يعرفون صدْقَك، ومدخلَك ومَخرجَك، وجميعَ أحوالِك"[1].

دَلالةُ الفعلِ المضارع في قولِه تعالى: ﴿ٱلَّذِى يَقُولُونَ﴾:

اسْتمرارُ المُشركينَ في تكذيبِ رسولِ اللهِ ﷺ واقعٌ معلومٌ

دلَّ المضارعُ ﴿يَقُولُونَ﴾ في الآية، على اسْتمرارِهم في أقوالِهم الدّالّةِ على عدمِ تصديقِهم الرَّسولَ ﷺ، ومعلومٌ أنّ اللّه يعلمُ أنّ ما قاله أهلُ الشّرك عن رسولِ اللّه هو قولٌ مردودٌ، فهُم أمّةُ البلاغةِ والفصاحةِ والبيانِ، ولاتخفَى عليهم صَنعةُ الشّعرِ ولا بنيةُ السّجعِ ولا التّمييزُ بين قولِ العاقلِ والمجنونِ، ولكنّ الّذي يقولون على إطلاقِه إنّما كان أباطيلَ هم أدرَى النّاس بزَيفِها واستمرارُهم في ذلك ينطبقُ على ما قالوا وما سيقولون؛ لأنّ التّكذيبَ مستمرٌّ على المدَى، ولذلك ناسبَ أن يكونَ الفعلُ مضارعًا.

فائدة عدمِ ذكر ما يقولون:

الإيجازُ والتّنزيهُ ردٌّ مُفحمٌ على كلِّ مُتقوّلٍ سفيهٍ

في قوله تعالى: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ﴾: عَدَل بيانُ اللّهِ تعالى عن تفصيلِ قولِهم إلى إجمالِه إيجازًا أو تحاشيًا عن التَّصريحِ به، في جانبِ المنزَّهِ عنه[2]، والمعنى: الكلامُ الّذي يقولون لك، هو تكذيبُك واتّهامُك بالسّحرِ، والتّقوُّلِ على اللّه، وما إلى ذلك ممّا هو إساءةٌ لك...[3]، وعدمُ التّفصيلِ إيجازٌ بليغٌ وتنزيهٌ نبيلٌ وردٌّ مُفحمٌ أصيلٌ على كلِّ مُتقوّلٍ على مقامِ النّبوّة عليلٍ، ووصْمِه بما ليس فيه من غيرِ بُرهان ولا دليلٍ.

نُكتةُ الفرقِ بين ﴿لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ﴾ و﴿فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ﴾:

في قولِه تعالى: ﴿لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ﴾، واللّامُ لامُ القَسَم، وفعلُ ﴿لَيَحْزُنُكَ﴾ فعلُ القَسَم، وكلاهُما يُفيدُ تأكيدَ حُزْنِ رسولِ اللّه

(1) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 254.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 7/198.
(3) أبو بكر الجزائريّ، أيسر التّفاسير: 2/53.

ﷺ على تكذيبِهم له، واتِّهاماتِهمُ الباطلةِ في حقِّه ﷺ، وكأنَّ بيانَ اللّه يقول: فلا تَحزَنْ يا محمَّدُ ﷺ، فإنَّهم لا يُكذِّبونك، مع ما أفادَه الاسْمُ الموصولُ منَ المبالغةِ في وصْفِ قُبحِ وشناعةِ الَّذي يقولون؛ مع أنَّ ما يقولون يوقِعُ على سبيلِ التَّجديدِ والاسْتمرارِ لكَ الحُزْنَ على ما فاتكَ من حالاتِ الصَّفاء الَّتي كدَّرها الَّذي يقولون من تكذيبِك، وهذا المعنَى بتأكيدِه وتحقيقِه والمبالغةِ فيه، لا يوفِّرُهُ القولُ بـ ﴿فَلَا يَحۡزُنكَ قَوۡلُهُمۡۘ﴾[1].

دورُ السّياقِ في دفْعِ الحُزنِ وتلطيفِ الأجواءِ بين النّبيِّ وقومِه

نُكتةُ حذفِ جملةِ (فَلَا تَحْزَنْ)، لدَلالةِ المقامِ الخطابيِّ عليها:

أصلُ الكلامِ في قولِه تعالى: ﴿لَيَحۡزُنُكَ ٱلَّذِي يَقُولُونَۖ﴾، قد نعلمُ إنَّه لَيحزُنُكَ الَّذي يقولونَ فلا تحزنْ، فإنَّهم لا يُكذِّبونَك، وقد حُذِفتْ جملةُ (فلا تحزن)؛ لأنَّها في مقامِ المعلَّلِ المحذوفِ، حيث إنَّ الفاءَ في قوله: ﴿فَإِنَّهُمۡ﴾ للتَّعليلِ في أحدِ وجوهِها، وقد دلَّ على هذا المعلَّلِ المحذوفِ قولُه تعالى: ﴿قَدۡ نَعۡلَمُ﴾، أي: فلا تحزنْ يا محمَّدُ ﷺ، فإنَّهم لا يُكذِّبونك، أي: لأنَّهم لا يُكذِّبونَك، فكانَ المقامُ الخطابيُّ دليلًا على حذفِ جملةِ (فلا تحزنْ)[2]. ولا شكَّ أنَّ الحزنَ عندَ وقوعِ ما يسوءُ من طَبْعِ البشَرِ الَّذي لا يقدرُ على الانفكاكِ عنه، فالنَّهيُ عنه، وإن لم يُذكرِ النَّهيُ صراحةً في السّياق إنَّما هو نهيٌ عمّا ينشأُ منَ الاسْترسالِ المُؤدّي إلى الجَزَعِ، المؤدّي إلى عدمِ الصَّبرِ، ونسيانِ ما يُعزّي، فهو منَ النَّهيِ عنِ السَّببِ، للمُبالغةِ في النَّهيِ عنِ المسبَّب[3].

الحذفُ منَ الجُملةِ له أثرٌ في تقليصِ المعنى أو توسيعِه

مَعاني (الفاء) ودورُها في ثَراءِ المعنى، في قولِه تعالى: ﴿فَإِنَّهُمۡ لَا يُكَذِّبُونَكَ﴾:

قولُه تعالى: ﴿فَإِنَّهُمۡ لَا يُكَذِّبُونَكَ﴾، الفاءُ في ﴿فَإِنَّهُمۡ﴾ فيها ثلاثةُ وجوه: الأوَّلُ: أن تكونَ للتَّعليل، والمُعَلَّلُ محذوفٌ دلَّ عليه قولُه:

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 7/94، وابن عاشور، التَّحرير والتّنوير: 7/198.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 7/198.
(3) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 7/95.

الإنكارُ على تكذيبِ الكافرينَ المُهينِ لَهُمْ لا لآياتِ القرآنِ المُبينِ

﴿قَدْ نَعْلَمُ﴾؛ أي: لأنَّهم لا يُكذِّبونَك، والثّاني: كونُها لِلفصيحةِ، والتَّقديرُ: فإنْ كان يُحزِنُكَ ذلك لأجل التَّكذيبِ فإنَّهم لا يُكذِّبونَك، والثّالثُ: أن تكونَ للتَّفريعِ على ﴿قَدْ نَعْلَمُ﴾؛ أي: فَعلِمْنا بذلك يتفرَّعُ عليه أنّا نُثبِّتُ فؤادَك، ونَشرحُ صَدرَكَ بإعلامِكَ أنَّهم لا يُكذِّبونَك، ونُذكِّرُكَ بسُنَّةِ الرُّسُل من قبلك، ونُذكِّرُكَ بأنَّ العاقبةَ هي نَصرُكَ كما سبقَ في علْمِ اللّه[1]، وأيًّا كان تأويلُ معنى الفاء، للتّعليلِ، أو للفصيحةِ، أو للتّفريعِ، فإنّ لها دورًا في الإبانة عنِ المعنى المُستفادِ من نفيِ تكذيبِ الرّسول ﷺ بذاتِه، والتّوجيهِ إلى أنّ تكذيبَه هو تكذيبٌ للرّسالة، وردٌّ للهُدى على مَن أرسله، دون اكتراثٍ لمغبّاتِ ذلك، ولا اهْتِمامٍ لعواقبِه الوخيمةِ.

دَلالةُ قولِه تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ﴾ على أنَّ القرآنَ كلامُ الله، ومعجزتُهُ في خلْقِه:

ما أخبرَ به القرآنُ عنِ الأمرِ المحجوبِ، هو تجلّياتٌ من عالَمِ الغيوبِ

أوردَ ابنُ الأنباريِّ في قولِه تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ﴾ أنّ سائلًا سألَ: كيف خبّرَ عنهم أنّهم لا يكذِّبون النّبيَّ ﷺ، وقد كانوا يُظهرون تكذيبَه ويُخفونَه؟ وخلاصةُ الجوابِ بأنّ المُرادَ يأتي على أوجُهٍ واضحةٍ لا لَبْس فيها، فإنّهم لا يكذّبونَ النّبيَّ ﷺ بقلوبِهم، بل يكذّبونَه ﷺ بألسنتِهم، فمَهما بحثوا فلن يَجدوه كذّابًا ولوْ تدَبّروا وفتَّشوا، بل ستقِف كُتبُهم وأخبارُهم حجّةً بالغةً ضدَّهم تثبِتُ صِدْقَه ﷺ، ولا يستطيعون سبيلاً لتكذيبِه، لأنّ ذلك من أعظمِ الحُجج عليهم[2]. ومع تنوّعِ الفهمِ لهذه الآيةِ، فإنّ ملمحَ الإعجازِ فيها أنّها تُنبئُ عمّا تختلجُ به قلوبُ الكافرين، وتجيشُ به صدورُهم، ممّا لا يعلمُه إلّا عالمُ السِّرّ وأخفَى، وهو محضُ غيبٍ لايطّلعُ عليه إلّا العليمُ بخائنةِ الأَعيُن، وما تُخفي الصّدورُ، وما يُؤكّدُ إعجازَه،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/198.
(2) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (كذب).

أنّهم سمِعوه في أوانِه، وما تجرّؤوا على نُكرانِه، ممّا يدلُّ على أنّ كلامَ اللّه حقٌّ لا يشوبُه ريبٌ، وصدقٌ لا يخالطُه كذبٌ، تعالى اللّه عن ذلك علوًّا كبيرًا.

توجيهُ المعنَى باختلافِ القراءةِ، في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ﴾:

التّكذيبُ تُهمةُ الآخَرِ بالكذبِ، والإكذابُ أن تجدَه مُتلبِّسًا به

قولُه: ﴿لَا يُكَذِّبُونَكَ﴾، فيه قراءتان[1]: الأولى: بسكون الكاف، وتخفيف الذّال ﴿لَا يُكْذِبُونَكَ﴾، والثّانيةُ: بفتح الكاف، وتشديد الذّال ﴿لَا يُكَذِّبُونَكَ﴾، "تقول العربُ: أَكْذَبْتُ الرَّجُلَ: إذا أخبرتُ أنَّه جاءَ بالكذبِ فرَواه، وكَذَّبتُه: إذا أخبرتُه أنَّه كاذبٌ"[2]، فالقراءتان تدلّان على تعدُّدِ مرّاتِ التّكذيبِ وأحوالِه، والفرقُ بين التَّكذيبِ والإكذابِ: أنّ التَّكذيبَ: هو أن يقول له: كذبْتَ، والإكذابَ: هو أن يجدَه كاذبًا[3]، "والمعنى أنّ تكذيبَك أمرٌ راجعٌ إلى اللّه؛ لأنّك رسولُه المُصدَّقُ بالمُعجزاتِ، فهم لا يكذّبونَك في الحقيقةِ، وإنّما يكذّبون اللّه؛ لأنّ تكذيبَ الرُّسلِ تكذيبُ المُرسِلِ"[4].

الاستدراكُ لدفْعِ التّوهُّمِ، في قولِه تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ﴾:

الكافرُون المعانِدُون كذبُهم بواحٌ، وظُلمُهم صُراحٌ

قولُه تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ﴾ استدراكٌ لِدَفعِ أن يُتَوَهَّمَ من قولِه: ﴿لَا يُكْذِبُونَكَ﴾ على القراءة الأولى أنَّهم صدَّقوا وآمَنوا، وعلى القراءة الثّانية ﴿لَا يُكَذِّبُونَكَ﴾ أنَّهم لم يصدُرْ منهم أصلُ التَّكذيب، مع أنَّ الواقعَ خلافُ ذلك، فاستدركَ عليه بأنَّهم يَجحدونَ بآيات اللّه، فيظهرُ حالُهم كحالِ من يَنسُبُ الآتيَ بالآيات إلى الكذبِ، وما هم بمُكذِّبين في نفوسِهم.

(1) الأولى: قراءة نافع، والكِسائيّ، والثّانية: قراءة الباقين منَ العَشَرة. يُنظر: ابن مجاهد، السَّبعة، ص: 257، وابن الجزري، النشر: 2/257.

(2) ابن قتيبة، أدب الكاتب: 1/434، والنَّحّاس، معاني القرآن: 2/419.

(3) أبو المظفر السّمعانّي، تفسير القرآن: 2/99.

(4) النّسفيّ، مدارك التّنزيل: 1/500.

دلالةُ إقامةِ الظّاهرِ مقامَ المُضمَرِ، في قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾:

الظّلمُ علّةٌ لكلِّ جحودٍ، وشرٌّ يطالُ كلَّ موجودٍ

وقولُه تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ من إقامةِ الظّاهرِ مَقامَ المُضمَر؛ بأن يقولَ: (ولكنَّهُمْ بآياتِ اللّهِ يَجْحَدونَ)؛ للدَّلالةِ على أنَّهم ظلموا في جُحودِهم، وفيه ما فيه منَ الذَّمِّ لهم، والإعلامِ بأنَّ شأنَ الظّالمِ الجَحْدُ بالحجَّة، وتسجيلِ صِفةِ الظُّلْمِ مُلازِمةً لهم[1]، قال أبو حيّانَ: "وفي الكلام حذفٌ تقديرُه: (فلا تحزن فإنّهم لا يكذّبونك)، وأقيمَ الظّاهرُ مقامَ المُضمَر، تنبيهًا على أنّ علّةَ الجحودِ هي الظّلمُ، وهي مجاوزةُ الحدِّ في الاعتداء؛ أي: (ولكنّهم بآيات اللّه يجحدون)"[2].

حرفُ الجرِّ (الباء) بين التّعلُّقِ والتّضمينِ، في قوله تعالى: ﴿بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ﴾:

تضمينُ الظُّلمِ معنَى التّكذيبِ إيجازٌ بديعٌ، قرينتُهُ حرفُ التّعديةِ

"وقولُه تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ﴾ الباءُ تتعلَّقُ بـ ﴿يَجۡحَدُونَ﴾؛ وذلك على أنَّ الجارّ والمجرور مُقَدَّمٌ على الفعل المتعلِّق به، ويُمكنُ أن تتعلَّقَ بالظّالمين، كما في قولِه تعالى: ﴿وَءَاتَيۡنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبۡصِرَةً فَظَلَمُواْ بِهَاۚ﴾ [الإسراء: 59]"[3]، وعلى أنّ الباءَ مُتعلّقةٌ بـ ﴿يَجۡحَدُونَ﴾ يكونُ تعديةُ هذا الفعل بالباء؛ لتأكيدِ تعلُّقِ الجَحدِ بالمجحود، كما في قولِه تعالى: ﴿وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ﴾ [المائدة: 6][4]، وعلى الوجه الثّاني: يكونُ الظّلمُ قد ضُمِّن معنى التّكذيبِ؛ لأنّ فعلَ الظّلمِ لا يتعدَّى بالباء، ولكنَّ فعلَ التّكذيبِ هو الّذي يتعدَّى بها، وفي التّضمين إيجازٌ بديعٌ، قرينتُهُ حرفُ التّعديةِ، ويُمكنُ أن يكونَ التَّعدّي بالباء لتَضمينِ الجحودِ معنَى التَّكذيبِ.

بلاغةُ القصْرِ بتقديم الجارِّ والمجرورِ، في قوله تعالى: ﴿بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ﴾:

وتقديم الجارِّ والمجرور ﴿بِـَٔايَٰتِ﴾ على الفعل ﴿يَجۡحَدُونَ﴾؛ لإفادة

(1) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 2/15.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/489.
(3) العُكبريّ، الإملاء: 1/240.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/199.

القَصْرِ في جحودِهم بآيات اللّه تعالى[1]، "يُقال جحد حقَّه وبحقِّه: إذا أنكرَه وهو يعلَمُه، وقيلَ: هو لتضمين الجحودِ معنى التّكذيبِ، وأيًّا ما كان فتقديمُ الجارِّ والمجرور للقصْرِ، وقيل: المعنى فإنّهم لا يكذّبونك بقلوبِهم، ولكنّهم يجحَدون بألسنتِهم، ويَعضُده ما رويَ من أنّ الأخنَسَ ابنَ شُرَيقٍ قال لأبي جهلٍ: يا أبا الحكم، أخبرني عن محمّدٍ أصادقٌ هو أم كاذبٌ؟ فإنّه ليس عندنا أحدٌ غيرُنا، فقال له: واللّه إنّ محمّدًا لصادقٌ، وما كذَب قطُّ، ولكن إذا ذهب بنو قُصيّ باللّواءِ، والسِّقايةِ، والحِجابةِ، والنُّبوّةِ، فماذا يكونُ لسائر قريش؟ فنزلَتْ"[2].

تقديمُ أحدِ طرفَي الإسنادِ ذو دلالةٍ بلاغيّةٍ متميّزةٍ

دلالةُ الجُحودِ بآيات الله، في قولِه تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ﴾:

والمرادُ بالجحودِ في الآية إنكارٌ ومُكابرةٌ؛ لأنَّ الجُحودَ إنكارٌ للأمر المعروفِ؛ أي: الإنكارُ مع العلْمِ بوقوعِ ما يُنكرُ، فهو نَفيُ ما يَعلمُ النّافي ثُبوتَه، والمُكابَرةُ مع وضوحِ الحقِّ سببٌ لصرفِ المُتكبِّر عنِ الحقِّ وعَنْ سبيل الرُّشد، وعنِ الآيات البيِّنات، كما قال تعالى: ﴿سَأَصۡرِفُ عَنۡ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَإِن يَرَوۡاْ كُلَّ ءَايَةٖ لَّا يُؤۡمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلرُّشۡدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗا وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلۡغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗاۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنۡهَا غَٰفِلِينَ ١٤٦﴾ [الأعراف: 146][3].

الـمُكابَرةُ مع وضُوحِ الحقِّ واستبانَتِه سببٌ في إصرارِ المُكابرِ على ضلالتِه

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(الحُزْن) و(البَثّ) و(الهمّ):

الحُزنُ: خلافُ السّرور، وقال اليزيديّ: (حَزَنَهُ) لغةُ قريش، و(أَحزَنَهُ) لغةُ تميم، وقد قُرئ بهما، واحتزن وتحزّن بمعنًى..

الحُزنُ ألمٌ داخليٌّ مكتومٌ، يطُولُ فيكونُ همًّا، ويُنشرُ فيَصيرُ بثًّا

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/197.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/127.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/199.

والحزنُ: ما غلظ منَ الأرض. وفيها حَزونةٌ[1]، والحُزنُ يُفيدُ غِلَظَ الهمِّ، أمّا البَثُّ فيُفيدُ أنَّه يَنبَثُّ، لا يَنكَتِم، من قولك: أَبَثَثْتُه ما عندي، وبَثَثْتُه إذا أعلمتَه إيّاه، وأصلُ الكلمة: كثرةُ التَّفريقِ، منه قولُه تعالى: ﴿كَٱلۡفَرَاشِ ٱلۡمَبۡثُوثِ ۝٤﴾ [القارعة: 4].

والحُزن: أشدُّ الهَمّ، والبَثُّ: ما أبداهُ الإنسان، والحُزنُ ما أخفاه؛ لأنَّ الحُزنَ مُستكِنٌّ في القلب، والبَثُّ: ما بُثَّ وأُظهِرَ[2].

والهمُّ: هو الحُزنُ الَّذي تَطولُ مدَّتُه حتَّى يُذيبَ البَدَنَ، واشتقاقُه من قولك: همَّ الشَّحمُ: إذا ذاب، وهَمَّهُ: إذا أذابَه، والهَمُّ يكونُ قبل نزولِ الأمرِ[3].

وممّا تقدَّمَ بيانُه يَظهَرُ جليًّا أنَّ استخدامَ البيانِ الإلهيِّ لكلمة (الحُزنِ) بفعْلِها أَولَى بالسّياق من كلمتَي (البَثّ) و(الهمَّ)، فرسولُ اللّه ﷺ كانَ يُخفي حُزنَه في قلبه مُدَّةً طويلةً، ولكنَّ اللّه ﷻ هو وحدَه الَّذي كان يَعلمُ ذلك كلَّه، ولذلك سلّاه وصبَّره.

(الجَحْد) و(الإنكار):

الجَحدُ: أخصُّ منَ الإنكار، وذلك أنَّ الجَحدَ إنكارُ الشَّيءِ الظّاهرِ، كما في الآية الَّتي معنا: ﴿بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ﴾؛ فجعلَ الجَحدَ لِما تدُلُّ عليه الآياتُ، ولا يكونُ ذلك إلّا ظاهرًا. وأمّا الإنكارُ فيكونُ للنِّعمةِ، وقد تكونُ خَفيَّةً، كما قال تعالى: ﴿يَعۡرِفُونَ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾ [النَّحل: 83]. ويجوزُ أن يُقالَ: الجَحْدُ هو إنكارُ الشَّيءِ مع العلْمِ به، كما قال تعالى: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ أَنفُسُهُمۡ﴾ [النَّمل: 14]، فجعلَ الجَحدَ مع اليقين، وأمّا الإنكارُ فيكونُ مع العلْم وغيرِ العلمِ[4]، وقال ابنُ القطّاعِ: ونكرتُ الشّيءَ وأنكرتُه، ضدُّ عرفتُه، إلّا

الجَحْدُ: كتمُ الشَّيءِ الظَّاهرِ للعَيانِ، والإنكارُ يكون بالقلبِ أو باللّسانِ

(1) الجوهريّ، الصّحاح: (حزن).
(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 184 - 185.
(3) الجُرجانّي، التَّعريفات، ص: 378، والعسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 560.
(4) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 157.

أنّ نكرتُ لا يتصرّفُ تصرّفَ الأفعال، وقال ابنُ سيده: واستنكره وتناكرَه كلاهما كنَكرَه، وفي الأساس: وقيل: نَكِرَ أبلغُ من أنْكرَ، وقيل: نكرَ بالقلب. وأنكرَ بالعين. وفي البصائر: وقد يُستعمل ذلك مُنكرًا باللّسان الإنكارُ بالقلب، لكن ربّما يَنكرُ اللّسانُ الشّيءَ وصورتُه في القلب حاضرةٌ[1]، وعليه فالجَحدُ أنسبُ للسّياقِ منَ الإنكار لثلاثةِ أسبابٍ: الأوَّلُ: أنَّه أخصُّ منه، والثّاني: تعلُّقُه بالشَّيءِ الظّاهرِ، والثّالثُ: أنَّه يأتي معَ اليقين.

(1) الزَّبيديّ، تاج العروس: (نكر).

﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَىٰ مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَاۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِيْ ٱلْمُرْسَلِينَ ٣٤﴾ [الأنعام: 34]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

تكذيب الأقوام في عهدِ النّبيِّ ﷺ، وفي كلِّ العُهودِ

لمّا سلَّى بيانُ الله تعالى رسولَ الله ﷺ، وصبَّرَه على تكذيب قومِه له، وبيَّنَ جُحودَهم بآيات الله، جاءتْ هذه الآيةُ الكريمةُ لتقدّمَ مَشهدًا عمليًّا لتلك التَّسليّةِ؛ حيث كان مَنْ سبقه من الرّسُل - عليهم السلام - الَّذين صبَروا على تكذيب قومِهم وإيذائِهم لهم، حتَّى أيَّدهُمُ اللهُ بنصرِه، وهي سُنَّةُ الله الثّابتةُ، كما بيَّنَها اللهُ لرسوله ﷺ في قَصَص المُرسَلين، على أنّه قال في الآية السّابقة: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ﴾، يعني: في الحال؛ لأنّهم يعلمون أنّك صادقٌ، وهذه الآيةُ تعني: إن كذبوك فاصبِرْ، كما صَبَر مَن قبلَك مِنَ الرُّسلِ[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَصَبَرُواْ﴾: "الصَّبرُ: هو الحَبسُ، يُقالُ: صَبَرتُ نَفسي على ذلك الأمرِ؛ أي: حَبَستُها. والمَصبورةُ: المحبوسةُ على الموتِ. ومنَ الباب: الصَّبيرُ، هو الكَفيلُ، وإنَّما سُمّيَ بذلك؛ لأنَّه يَصبِرُ على الغُرم، يُقالُ: صَبَرتُ نَفسي به أَصبُرُ صَبرًا، إذا كَفَلتُ به، فأنا بِه صَبيرٌ"[2]، وصبرتُ نفسي على الأمر: إذا حبستُها عليه، قال الشّاعر:

فَصَبَرتُ عارِفَةً لِذلِكَ حُرَّةً *** تَرسو إذا نَفسُ الجَبانِ تَطَلَّعُ[3]

وأنبياءُ الله تعالى - عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ - حَبَسوا أنفسَهم،

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/490.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (صبر).
(3) الأنباريّ، الزّاهر: 2/201.

وصبروا على تكذيبِ قومِهم وإيذائِهم لهم بالقولِ والفعلِ، فآتاهم تَقواهُم، وبلّغَهم مُناهُم، فنالوا بالصّبر أعلى الدّرجاتِ، وحققّوا مرادَ اللّه في البلاغِ الأمينِ، ومصابرةِ الحوادثِ والأزماتِ، وإعطاءِ القُدوةِ في أحلك الأوقاتِ.

2) ﴿وَأُوذُواْ﴾: "أذَيَ: الهمزة والذّال والياء أصلٌ واحدٌ، وهو الشَّيءُ تَتكَرَّهُهُ ولا تَقَرُّ - بفتح القاف وكسرها - تقولُ: آذَيتُ فلانًا أوذيهِ، ويُقالُ: بعيرٌ أَذٍ، وناقةٌ أَذيَّةٌ: إذا كان لا يَقِرُّ في مكان من غير وجَعٍ، وكأنَّه يَأذَى بمكانِه"[1]، والأذى قد يكون مادّيًّا، وقد يكون معنويًّا، فمنه ما يطالُ البدنَ، ومنه ما يصيبُ العِرْضَ، ويؤلمُ القلبَ، أو يمسُّ الدّينَ والقيمَ العليا للأمّة، وذلك أشدُّ وآلمُ على الإنسان منَ الأذى المادّيّ.

3) ﴿وَلَا مُبَدِّلَ﴾: "بَدَلَ: الباء والدّال واللّام أصلٌ واحدٌ، وهو قيامُ الشَّيءِ مَقامَ الشَّيء الذّاهبِ، يُقالُ: هذا بَدَلُ الشَّيءِ وبَديلُه، ويقولونَ: بَدَّلتُ الشَّيءَ، إذا غيَّرتَه، وإنْ لم تأتِ له بِبَدَل، وأَبدَلتُه إذا أتيتُ له ببَدَلٍ"[2]، وكلُّ ما يطرأُ عليه التّبديلُ فهو متاعٌ زائلٌ، وعرَضٌ فانٍ، غيرَ أنّ كلماتِ اللّه، وقوانينَ الكون الضّابطةَ للميزان، والمسيّرةَ للأفلاكِ، هي قدرُ اللّه الّذي لا تبديلَ له، إلّا ما شاء من أمرٍ في الوجودِ، فإنّه لا رادَّ لحُكمِه، ولا مبدّلَ لكلماتِه، وقد قال تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٤٠﴾ [النّحل: 40].

4) ﴿نَّبَإِيْ﴾: "النَّبَأُ: خَبرٌ ذو فائدةٍ عظيمةٍ يحصُلُ به علمٌ أو غَلَبةُ ظنٍّ، ولا يُقالُ للخبرِ في الأصل نبأٌ حتَّى يتضمَّنَ هذه الأشياءَ الثَّلاثةَ، وحقُّ الخبرِ الَّذي يقالُ فيه نبأٌ أنْ يتعرَّى عنِ الكذب، كالتَّواتُر، وخبرِ اللّهِ تعالى، وخبرِ النَّبيِّ ﷺ، كما قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ نَبَؤٌاْ عَظِيمٌ ۝٦٧ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ۝٦٨﴾ [ص: 67 - 68]، وقال سبحانه: ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ۝١ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ ۝٢﴾ [النَّبأ: 1 - 2]"[3]، والنّبأ: الخبرُ، تقول: نبأ ونبّأ، أي: أخبرَ، ومنه أُخذَ النّبيُّ؛ لأنّه أنبأ عنِ اللّه تعالى، وهو فعيلٌ، بمعنى فاعلٍ[4].

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (أذي).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (بدل).
(3) الرّاغب، المفردات: (نبأ).
(4) الجوهريّ، الصّحاح: (نبأ).

❁ المَعْنَى الإجْمَالِيُّ:

دعوةٌ للاقتداء بالأنبياءِ السّابقين في الصّبرِ، والتّحمُّلِ، والبلاغِ الأمينِ

هذه الآيةُ الكريمةُ تَسليةٌ لرسول الله ﷺ وتَعزيةٌ له، فيمَنْ كذَّبَه من قومِه، وأمرٌ له بالصَّبر بطريق الإيحاءِ، كما صبَر إخوتُه أولو العزم منَ الرُّسُل، ووعدٌ له بالنَّصرِ كما نُصِروا، وبالظَّفَرِ والتَّمكينِ كَما مُكِّنوا حتَّى كانتْ لهم العاقِبةُ، بعدَ ما أصابَهم منَ التَّكذيب والأذى من قومِهِمُ الشَّيءُ الكثيرُ، ثمَّ جاءَهُم نَصرُ الله في الدُّنيا، كما لهمُ الفوزُ في الآخرة، وهذه سُنَّةُ الله في نصْرِ عبادِه المؤمنين في الدُّنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾﴾ [الصّافّات: 171 - 173]، وهذا ما أنبأ الله به رسولَه محمّدًا ﷺ من خَبرِهم، كيف نَصرَهم، وأيَّدَهم، وجعلَ لهمُ الغَلَبةَ على من كذَّبَهم وآذاهم؟!، ولرسولِ الله ﷺ وجماعةِ المؤمنينَ إلى يومِ الدّين في أنبياءِ الله ورُسُلِه - عليهم السلام - الأُسوةُ والقُدوةُ الحَسَنةُ[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

أثرُ العطْفِ في دلالةِ السّياقِ، في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ﴾:

تاريخُ الرُّسلِ مع أقوامِهم يَعكسُ عُمقَ الصّراعِ بين الحقّ والباطلِ

قولُه تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ﴾ الواوُ عاطفةٌ عَطَفتْ هذه الجملةَ على قولِه السّابق: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ﴾ [آية: 33]، أو على جملةِ: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [آية: 33]. ويجوزُ أن تكونَ الواوُ واوَ الحالِ منَ الكلام المحذوفِ قبلَ الفاء؛ أي: فلا تَحزَنْ، أو إنْ أحزَنكَ ذلك فإنَّهم لا يُكذِّبونَك، والحالُ أنّه قد كُذِّبتْ رُسُلٌ من قَبْلِك[2]، وتكذيبُ الرّسل دَيدنُ الأقوام في جميع العصورِ، وقد كان للنّبيِّ الخاتمِ ﷺ فيهم قدوةٌ وعِبرةٌ، وما كان القَصصُ القرآنيُّ

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 2/122.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/200.

إلّا تجليةً للصّراعِ العنيفِ الّذي كان بين الدّعاةِ المُرسَلين وأقوامِهم؛ ليخفّفَ اللّه بذلك عن نبيِّه الأكرمِ وطأةَ البلاءِ، وآلامَ المواجهةِ مع كفَرةِ زمانِه، الّذين سلقوه بألسنةٍ حدادٍ، وأذاقوه ألوانًا منَ السِّبابِ، وأصنافًا منَ الشّتائمِ، وسلّطوا على المُستضعفين من أصحابه سوءَ العذابِ، وقد قال اللّه له: ﴿مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴿٤٣﴾﴾ [فصّلت: 43].

دلالةُ تصديرِ الكلامِ بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ﴾ الجامعةِ بين القسَمِ والتّحقيقِ:

وتصديرُ الكلام بالقسَم في ﴿وَلَقَدْ﴾ لتأكيدِ التَّسلية لرسولِ اللّه ﷺ، تلك التَّسليةُ الَّتي تفنَّنَ بيانُ اللّه في إيرادها، فقد جاءتْ في الآية السّابقة بأسلوبِ التَّحقيق المُصدَّر بـ (قدْ)، ثمَّ أعادَ الكَرَّةَ هنا بـ (قدْ)، لكنْ بتصديرها بلام القسَم؛ وذلك لتهوين أمرِ المُصاب؛ فإنَّ عمومَ البَليَّةِ ربَّما يُخفِّفُ شدَّةَ وطأتِها، فكأنَّ اللّه تعالى يقولُ لنبيِّه: لقد أصابَ الرُّسلَ من قبلك مثلُ ما أصابَك، فصبَروا ثمَّ نُصِروا، فلتكنْ مُقتديًا بهم، مُعتَدًّا بعُدَّتِهم منَ الصَّبرِ وعدمِ الجَزَع، فستُنصرُ كما نُصِروا، وسَتَسودُ كما سادوا، ونظيرُ قولِه تعالى في هذه الآية: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ﴾ قولُه تعالى: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤﴾﴾ [فاطر: 4]، وقولُه تعالى: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾﴾ [الحجّ: 42]، وكأنّ هذا الصّراعَ لونٌ منَ الابتلاء، لا تنأى عنه أيّةُ رسالةٍ، ولا يسلمُ منه أيُّ رسول، وتلك سنّةُ اللّه في خلْقِه، لا مناصَ منها، ولا فِكاكَ عنها.

عمومُ البَليَّةِ يُخفِّفُ الرّزيّةَ، والمصيبةُ إذا عمّتْ هانتْ

دلالةُ اتّصالِ ﴿كُذِّبَتْ﴾ بتاءِ التّأنيث، والأفعالِ بعدَها بواوِ الجمْعِ:

لمّا كانَ المحكيُّ في قولِه تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ﴾، هو التَّكذيبُ لا كونُه من مُعيَّن، بُنِيَ للمفعول، وقُرِنَ بتاءِ التَّأنيث، الَّتي تنوبُ عنِ الجماعة، وذلك عندما يكونُ فاعلُ الفعلِ جمعَ تكسير، وهو ﴿رُسُلٌ﴾

الفروقُ بين حروفِ المعاني في الاستعمالِ والدّلالةِ

هنا، وفيه: "إرشادٌ له عليه الصَّلاةُ والسّلامُ إلى الاقتداءِ بمن قبلَه منَ الرُّسلِ الكرامِ عليهمُ الصّلاةُ والسّلامُ في الصّبرِ على ما أصابهُم من أُمَمهم، من فنون الأَذيَّة، وعِدَةٌ ضِمنيّةٌ له عليه الصّلاةُ والسّلامُ بمثل ما مُنِحوه منَ النّصرِ"[1]، ولَمّا أنْ جحدَ القومُ رُسُلَهم مع ما يَعرفونَ من صِدقِهم وأمانتِهم، كما فُعِل بكَ يا محمَّد ﷺ كانَ هذا الحالُ سببًا في صَبْرِ الرُّسل، فقال: ﴿فَصَبَرُواْ﴾ أي: صَبَر الرُّسُلُ على تكذيبِ قومِهم وإيذائِهم لهم، وذلك بقولِه: ﴿عَلَىٰ مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ﴾، أي: فصبروا أيضًا على ما أوذوا، فجاءت هذه الأفعالُ عند ذلك مُقترنةً بواوِ الجماعةِ، تعبيرًا عن ضميرَيْهما المتَّصلَيْن المذكَّرَيْن: بمعنى صبرِ جميعِ الرُّسلِ، على تكذيبِ وإيذاءِ جميعِ قومِهم[2].

أثرُ البناءِ للمفعولِ في توجيه المعنَى:

تـمـيّـزَ الـعـربُ بوضُوحِ المواقفِ، وصدْقِ المشاعرِ، تجاهَ الـمُؤالِفِ والمُخالِفِ

في قولِه تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ﴾ بُني الفعلُ ﴿كُذِّبَتْ﴾ للمفعول، فحُذِف الفاعلُ اختصارًا؛ لكثرة الأقوامِ المُكذِّبين، وعدمِ تَعلّق الغرضِ بذِكرهم؛ "أي: إنّ الرّسل الّذين أُرسلوا قبلك قد كذّبتْهم أقوامُهم، فصبروا على تكذيبِهم، وإيذائِهم لهم إلى أنْ نصرَ اللّه الرّسلَ بالانتقام من أعدائهم المكذِّبين لهم"[3] وفي سياق هذه الآية وموقعِها بعدَ الّتي قبلَها - وكلتاهما في تَسليَةِ رسولِ اللّه وتَصْبيرِه - إيحاءٌ برجاحةِ العقولِ عند بعض العرب، مقارَنةً بعقولِ مَن سبقَهم منَ الأمم، بدليلِ أنَّ الأُمَمَ كذَّبتْ رُسُلَها باعتقادِ قلوبِها، ونُطقِ ألسنتِها، والعَرَبُ كذَّبوا باللِّسان، وأَيقَنوا بصدْقِ الرَّسول ﷺ بعقولهم الَّتي لا يَروجُ عندها الزَّيفُ، وإنْ كان القاسِمُ المشتركُ بين الفريقين الكِبرَ والعِنادَ في قَبول الحقِّ[4]، والمسألة نسبيّةٌ، كثرةً وقلّةً،

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/127.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 7/98، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 7/201.
(3) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 7/111.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتَّنوير: 7/201.

وعمومًا وخصوصًا، ويبقى الكفرُ ملّةً واحدةً، وهو كفرٌ مهما أوغلَ في الزّمن، وتلوّنَ في الكيّفيّات، وتنوّعَ في الطّرائقِ والوسائلِ.

سِرُّ اختيارِ لفظِ ﴿رُسُلٌ﴾ دونَ ما يُقاربُه في المعنَى والصِّيغةِ:

الرُّسُلُ أصحابُ شريعةٍ جديدةٍ وكُلُّهم تعرَّض للتَّكذيبِ والأذَى

لَمَّا كانَ المقامُ هنا لِتَسْلِيَةِ الرَّسولِ ﷺ ناسبَ أن يذكرَ ابتلاءَ الرُّسُلِ بتكذيبِ أُمَمِهم على اختلافِ أحوالِ الرُّسُل، ذلك أنَّ الرَّسولَ من أتى قومَه بشريعةٍ جديدةٍ، ليُبلِّغَها للنّاس، وكانَ محمَّدٌ ﷺ خاتمَ الرُّسُلِ، ومَنْ أتى بشريعةٍ جديدةٍ كان قومُه أشدَّ ضراوةً في تكذيبِه ومناصبتِه العَداء، لا كالَّذي دعا قومَه إلى شريعةٍ سابقةٍ - وهو النَّبيُّ - اعْتادَ النّاسُ على دعوتِهم لها ما بين مُؤمنٍ ومُكذِّب، فإذا كانَ الرُّسُلُ قبلَك يا محمَّد ﷺ قد أصابَهم ما أصابَهم منَ التَّكذيبِ الشَّديدِ، معَ العداوةِ والأذى، فصبروا على ما ألمَّ بهم من قومِهم حتَّى إنَّ منَ الرُّسُلِ من قتلَهم قومُهم، كما قالَ تعالى: ﴿قُلْ قَدْ جَآءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِي بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِى قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ﴾ [آل عمران: 183]، فلْتصبرْ كما صَبروا، فإنَّ مهمَّتكَ في تبليغِ شريعتِكَ كَمُهمَّتِهم، بل هي أشدُّ وطئًا وأصعَبُ طريقًا، فهي الشَّريعةُ الجديدةُ الخاتمةُ، فما عليكَ إلّا التَّأسّي بهم بالصَّبرِ الَّذي يعقُبُه النَّصرُ، فإنَّ ذلك سُنَّةُ الرُّسلِ قبلَك"[1]، والنّصرُ الموعودُ للصّابرين، يحتملُ أن يكون بطريق إظهارِ الحُججِ والبراهين، ويحتملُ أن يكون بطريق القهْرِ والغلبةِ، أو بإهْلاكِ الأعداء"[2].

دلالةُ تعلّقِ حرفِ ﴿مِّن﴾، في قولِه تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ﴾:

تاريخُ الصّراعِ بين الرُّسلِ وأقوامِهم، عِبرةٌ وتَسريةٌ وتَسليةٌ

قولُه تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ﴾ فيه لفظ ﴿مِّن﴾، إمّا مُتعلِّقةٌ بـ ﴿كُذِّبَتْ﴾، أو بمحذوف وقعَ صفةً لـ ﴿رُسُلٌ﴾[3]؛ أي: وباللّه لقد كُذِّبتْ مِن قبل تكذيبِك رُسُلٌ أولو شأنٍ خطيرٍ، وذوو عددٍ

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 4/490، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 4/185 - 186.

(2) إسماعيل حقّي، روح البيان: 3/25.

(3) العُكبَريّ لا يُجيز أن يكونَ قولُه: ﴿مِّن قَبْلِكَ﴾ صفةً لرُسل؛ لأنَّه زمان، والجُثَّةُ لا توصَفُ بالزَّمان، وإنَّما مُتعلِّقةٌ بـ﴿كُذِّبَتْ﴾ فقط. يُنظر: العُكبريّ، الإملاء: 1/240.

كثيرٍ، أو كُذِّبتْ رسلٌ كانوا مِن زمانٍ قبلَ زمانك[1]، وكونُها مِن قبْلك، فهي صفحةٌ منَ التّاريخ مفتوحةٌ، ترى فيها عِظمَ البلاءِ، وشدّةَ المُصابرةِ، لتُدركَ أنّك لستَ الأوّلَ فيما تلقاه، ولكنّه مسلكُ الحقِّ في كلّ العصورِ، وفي ذلك عِبرةٌ لك، وتسليةٌ لقلبِك، وتقويةٌ لعزيمتِك في التّحمّلِ، كما فعل إخوانُك الأنبياءُ من قبْلك، وما منهم إلّا له مقامٌ معلومٌ.

دلالةُ عطْفِ العامِّ على الخاصِّ، في قولِه تعالى: ﴿فَصَبَرُواْ عَلَىٰ مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ﴾:

قولُه تعالى: ﴿وَأُوذُواْ﴾ عطفٌ على ﴿كُذِّبُواْ﴾ داخلٌ في حُكمِه[2]؛ لأنَّ التَّكذيبَ أذًى، وهو فردٌ من أفرادِه، فيكونُ الأذَى أعمَّ مِنَ التَّكذيبِ؛ لأنَّ الأذَى هو ما يَسوءُ ولو إساءةً ما، ويُطلقُ كذلك على الشَّديدِ منه، فيكونُ من باب عطفِ العامّ على الخاصّ، والمعنى: أنّ الرّسل قبْلك، على اختلاف أزمانِهم وشرائعِهم، قد لاقَوْا ألوانًا منَ التّكذيب المُقيتِ، والإيذاء المُميتِ، كما تجدُ أنت الآن من قومِك، فصبروا حتّى أيّدْناهم بالنّصرِ السّاحقِ، فما عليك إلّا أن تحذوَ حذْوَهم، وتسيرَ على شاكلتِهم، لينالَك ما نالهم، وليس ذلك ببعيدٍ.

أفادَ العَطفُ حَتميّةَ الصّراعِ، وأنَّ النّصرَ آتٍ لا محالةَ

نُكتة تعْديةِ فعْلِ الصّبرِ بالحرفِ ﴿عَلَىٰ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَصَبَرُواْ عَلَىٰ مَا كُذِّبُواْ﴾:

الحرفُ ﴿عَلَىٰ﴾ يُفيدُ الاسْتعلاءَ، أي: صبرَ الرُّسُلُ مُستعلينَ بصبرِهم، على تكذيبِ مَنْ كذَّبَهم، ولم يُبالوا بتكذيبِهم؛ بلِ اسْتمرّوا في دعوتِهم ورسالتِهم، صابرينَ مُحْتسبين، وقد كانت الأحداثُ تتكرّرُ وتتجدّدُ "فاحْتيجَ إلى تكرارِ تَسْليَتِهِ وأمْرِه بالصّبر المرّةَ بعد المرّةِ؛ لأنّ الحُزن والأسفَ اللّذَين كانا يَعرِضان له ﷺ من شأنِهما

تَعالِي الرُّسُلِ على تكذيبِ قومِهم، من عُلوِّ الهِمّةِ

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/198.
(2) العكبريّ، الإملاء: 1/240.

أن يتكرّرا بتَكرُّر سببِهما وبتذكرِّه حتّى عند تلاوة الآياتِ الواردةِ، في بيانِ حالِ الكفّارِ، ومحاجّتِهم وإنذارِهم"[1].

سِرّ الحرف ﴿مَا﴾ ودلالتُه، في قولِه تعالى: ﴿عَلَىٰ مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ﴾:

﴿مَا﴾ في قولِه: ﴿مَا كُذِّبُواْ﴾ مصدريَّةٌ، أي: فصَبروا على تكذيبِهم، والمعنَى: فتَأسَّ بهم في الصَّبرِ على التَّكذيبِ والأذَى حتَّى يأتيَكَ النَّصرُ والظَّفَرُ كما أتاهم[2]، وعليه " فهناك رُسلٌ كثيرون من رُسُلِ اللّه، قد كُذّبوا من أقوامِهم، وأوذوا في أنفسِهم من سُفهاءِ قومِهم، ولكنّهمُ اعتصموا بالصّبر، واحتملوا الأذَى في سبيلِ الرّسالةِ الكريمةِ الّتي شرّفهم اللّه بها"[3].

الصّبرُ على تكذيبِ الكَفرةِ وأذاهُم دَيْدنُ الرّسلِ الرّاسِخين

دَلالةُ بناءِ ﴿كُذِّبُواْ﴾ لما لم يُسَمَّ فاعلُه، في الآيةِ الكريمةِ:

لَمّا كانَ المَحكيُّ هو التَّكذيبَ، لا كونَه من مُعَيَّنٍ، بُنِيَ للمفعول، فالحاصلُ هو تكذيبُ الرُّسُلِ لِما أَوْحَى اللّهُ به إليهم من دين الإسلام[4]، ونذكرُ أنّ الكفرةَ والمشركينَ يَستقبلون رسولَهم، بإيذاءٍ يناسبُ الرّسالةَ الّتي جاء بها، فإن كان الإرسالُ على مستوى القبيلةِ أو القوم، كانتِ المواجهةُ باعتبار ذلك، وإن كانت على مستوى أعلى، كانتِ المواجهةُ أكبرَ، وفي حالةِ الرّسالةِ الخاتمةِ فإنّ الإرسالَ يكونُ على مستوى العالَم برُمّتِه تأكيدًا لمضمونِ قولِه تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾ [الأنبياء: 107] وقولِه: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا﴾ [سبأ: 28] وعليه فستكونُ المُهمّةُ أكبرَ والمواجهةُ أخطرَ "وما دام محمّدٌ ﷺ رسولاً إلى النّاس كافّةً، فعليه أن يجدَ المتاعبَ الكثيرةَ ويتحمّلَها، وقد أعدَّه اللّه وهيّأه لذلك، وقد أخذ الرّسلُ السّابقون منَ الإيذاء على قدْرِ دعوتِهم، أمّا رسولُ اللّه ﷺ فهو للنّاس كافّةً، ولا

المُعوَّلُ عليه في السّياقِ هو التّكذيبُ، الّذي هو محورُ الصّراعِ

(1) رضا، المنار: 7/315.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/490، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السليم: 2/198.
(3) عبد الكريم الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 4/160.
(4) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 7/98.

رسالةَ من بعدِه، لذلك يتجمّعُ ضدَّ هذا الرّسولِ وهذه الرّسالةِ أقوامٌ كثيرون"[1]، وتبقَى المواجهةُ شاملةً ومفتوحةً عبر العصورِ ويبقَى التّكذيبُ واردًا إلى أن يرثَ اللّه الأرضَ ومَنْ عليها.

سرُّ عطْفِ الإيذاءِ على التّكذيبِ:

عطفُ العامِّ على الخاصِّ من بلاغةِ السّياقِ

في قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ﴾ جاء عَطفُ الإيذاءِ على التَّكذيبِ من بابِ عَطْفِ الأعمِّ على الأخصّ، والأذَى أعمُّ منَ التَّكذيب؛ لأنَّ الأذَى هو ما يَسوءُ، ولو إساءةً ما، قالَ تعالى: ﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى﴾ [آل عمران: 111]. ويُطلَقُ على الشَّديدِ منه، فالأذَى اسْمٌ اشْتُقَّ مِنْ أَذيَ: إذا جعلَ له أذًى وأَلْحقَه به[2]، والحاصلُ أنّ التّكذيبَ قد طال الرُّسلَ كلَّهُمْ، كما وقع مع النّبيِّ الخاتمِ فقابلواْ ذلك الحالَ بالصّبر على التّكذيبِ والإيذاءِ حتّى أتاهم النّصرُ، بتمكينِهم في الأرض وهلاكِ قومِهم، لذلك وجّهَ اللّه الخطابَ للرّسولِ ﷺ فقال له: "فاصبرْ يا أشرفَ الخلقِ، كما صبرواْ، تظفرْ كما ظفرواْ، بل أنت أولى بالتزام الصّبر؛ لأنّك مبعوثٌ إلى جميع العالمين، ولا مُبَدِّلَ لِكَلِماتِ اللّهِ بالنُّصرة، فإنّ وعْدَ اللّه إيّاك بالنّصرِ، حقٌّ وصدقٌ، ولا يُمكنُ تطرّقُ الخُلفِ والتّبديلِ إليه"[3].

ورودُ الحرفِ ﴿حَتَّىٰٓ﴾ مفيدًا الغايةَ:

مَن صَبرَ على بلاءِ الله لا يَلبثُ أن يَحوزَ نَصرَ الله

وقولُه تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا﴾ ﴿حَتَّىٰٓ﴾ ابتدائيَّةٌ أفادَتْ غايةَ ما قبلَها، وهو التَّكذيبُ، والأذَى، والصَّبرُ عليهما، فإنَّ النَّصرَ كان بإهلاك المكذِّبينَ المُؤْذين، فكانَ غايةً للتَّكذيب والأذى، وكان غايةً للصَّبرِ الخاصِّ، وهو الصَّبرُ على التَّكذيب والأذَى، وبقيَ صبرُ الرُّسُل على أشياءَ ممّا أُمِرَ ﷺ بالصَّبر عليه، "وقد دلَّ على أنّ

(1) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 6/3600.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 7/201.
(3) محمّد بن عمر نوويّ، مراح لبيد لكشف معنى القرآن المجيد: 1/314.

موضعَ الصّبرِ هو تكذيبُهم وإيذاؤُهم، وكانوا صابرين حتّى أتاهم نصرُ اللّه تعالى، وأنّه مع الصّبرِ الأجرُ، وفي ذلك يقول تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾﴾ [البقرة: 214]"[1].

سِرُّ اسْتعمالِ مادّةِ الإتيانِ مع النَّصرِ:

الإتْيانُ في قولِه: ﴿حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا﴾، مجازٌ في وقوعِ النَّصرِ بعدَ انْتظارِه، فشبَّهَ وقوعَه بالمجيءِ من مكانٍ بعيدٍ كما يجيءُ المنادَى المنتَظَرُ، وهذا يدلُّ على تحقُّقِ أمرَيْن: الأوَّلُ: إهلاكُ المكذِّبينَ المُؤْذين، فإنَّ النَّصرَ كان بإهلاكِهم. والثّاني: وقوعُ النَّصرِ لا مَحالةَ، فهو أمرٌ متقرِّرٌ لا مَردَّ له، وأنَّه متوجِّهٌ إليهم لا بدَّ من إتيانِه، فإنَّ القائلَ: ﴿أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا﴾، هو اللّهُ[2] ﷻ ومجيءُ النّصر: "غايةٌ للصّبر، وفيه إيذانٌ بأنَّ نَصرَه تعالى إيّاهم أمرٌ مقرَّر لا مردّ له، وأنّه متوجِّهٌ إليهم، لا بدّ من إتيانِه البتّةَ"[3].

تحقُّقُ وُقوعِ النَّصرِ بعدَ انتظارِه، أمرٌ محسومٌ لا ريبَ فيه

دلالةُ المجازِ في قولِه تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا﴾:

الإتيانُ في قولِه تعالى: ﴿أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا﴾ مجازٌ في وقوعِ النَّصر بعدَ انتظاره، فشبَّه وقوعَه بالمجيءِ من مكانٍ بعيدٍ كما يَجيءُ المُنادَى المُنتظَرُ[4]، وفي هذه الغايةِ مع ما يَليها إيذانٌ بأنَّ نصرَه تعالى إيّاهم أمرٌ مُقرَّرٌ لا مرَدَّ له، وأنَّه مُتَّجهٌ إليهم لا بُدَّ من إتيانه.

والمعنى: "لقد قوبلَ رُسلٌ قبْلَك يا محمّد بالتّكذيبِ والإيذاءِ من أقوامِهم، كما تجدُ أنت الآن من قومِك، فصبروا حتّى نصرْناهم، فاصبرْ أنت مثلَهم"[5].

مَن نالَ نصْرَ اللهِ، أحاطَه بلُطفِه وحَماهُ

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2485.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السليم: 2/198، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 7/202.
(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/128.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتّنوير: 7/202.
(5) إبراهيم القطّان، تيسير التّفسير، ص: 465.

معنى الإضافة في ﴿نَصۡرُنَاۚ﴾ وسِرُّ الالتفاتِ:

مَن نصرَه الله، فلا غالبَ له سِواه

في قولِه تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمۡ نَصۡرُنَاۚ﴾ جاء الالتفاتُ إلى نونِ العَظَمة، وذلك في كلمة: ﴿نَصۡرُنَاۚ﴾؛ لإبراز الاعتناءِ بشأنِ النَّصرِ[1]، ومع أنَّ الخطابَ لرسولِ الله ﷺ؛ فإنّ العبرةَ والمغزَى المُفادَ عامٌّ، وهو حثُّ أصحابِ الدّعوةِ إلى الله على التَّحلّي بالصّبر، وعدمِ استعجالِ قَطْفِ الثّمارِ، والثّقةِ في نصر الله الّذي لا يتخلّفُ عن الصّادقين الصّابرين، وفائدةُ هذا الالتفات - بالإضافةِ إلى تَطْريَةِ الكلامِ وتنويعِه - "إسنادُ النّصرِ إلى ضميرِ المُتكلّم المُشعرِ بالعظَمةِ، والحافزِ على وجوبِ مداومةِ الجهاد، والنّضالِ، والصّمودِ، في سبيل تحقيقِ المطمَحِ الكبيرِ، وتأديةِ الرّسالةِ السّاميةِ المثلَى"[2].

دلالةُ العَطفِ، وأثرُه في المعنَى:

كلماتُ الله وَحيُه المُبينُ، ووعدهُ رسُلَه بالنَّصرِ والتّمكينِ

جُملةُ: ﴿وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ﴾ عطفٌ على جُملةِ: ﴿أَتَىٰهُمۡ نَصۡرُنَاۚ﴾، ويمكنُ أن تكونَ اعتراضًا مُقرِّرًا لما قبْله من إتيان نصرِه إيّاهم، وكلماتُ الله وحيُه للرُّسُلِ على وعدِه إيّاهم بالنَّصر، وهو ما يُنبئُ عنه قولُه تعالى: ﴿وَلَقَدۡ سَبَقَتۡ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلۡمُرۡسَلِينَ ١٧١ إِنَّهُمۡ لَهُمُ ٱلۡمَنصُورُونَ ١٧٢ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ ١٧٣﴾ [الصّافات: 171 - 173]، وقولُه تعالى: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغۡلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ﴾ [المجادلة: 21][3]، وهو ما دَلَّت عليه إضافةُ النَّصر إلى ضمير الجلالةِ في قولِه: ﴿نَصۡرُنَاۚ﴾، وغَلَبةُ المرسَلينَ تعني هَلَكةَ المُكذِّبين، وهذه سُنَّةُ الله في الأُمم المتكبِّرةِ الكافرةِ، وهذه السُّنَّةُ المكتوبةُ في أزَل الله وقَدَره يمكنُ أن تكونَ هي كلماتُ الله، وأيًّا كان المرادُ بكلمات الله، فالسّياقُ يَحملُ في ظاهره وباطنه بِشارةَ النَّصر لرسول الله ﷺ، كما نصرَ الله الرُّسُلَ الَّذين تَوارَدوا قبْلَه.

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/198.
(2) درويش، إعراب القرآن: 3/101.
(3) درويش، إعراب القرآن: 198 - 199/2.

دلالةُ الكِنايةِ في قولِه تعالى: ﴿وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ﴾:

كلماتُ الله لا يَعرُوها تغييرٌ، ولا يطالُها تبديلٌ

في قولِه تعالى: ﴿وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ﴾ نجدُ أنّ "نَفيَ المُبدِّلِ في قولِه: ﴿وَلَا مُبَدِّلَ﴾ كنايةٌ عن نَفي التَّبديل؛ أي: لا تبديلَ؛ لأنَّ التَّبديلَ لا يكونُ إلّا من مُبَدِّل؛ ومعناه: أنَّ غيرَ اللّه عاجزٌ عن أن يُبدِّلَ مُرادَ اللّه، وأنَّ اللّهَ أرادَ أن لا يُبدِّلَ كلماتِه في هذا الشَّأنِ"[1]، وهو القائلُ: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾﴾ [الصّافّات: 171 - 173]، والقائلُ أيضًا: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾﴾ [المجادلة: 21]، وذهب بعضُ العلماء إلى أنّ كلمات اللّه تضمُّ ما هو أعمُّ منَ الوعْدِ بالنّصرِ، قال أبو زهرة: "وفسّر بعضُ العلماء كلماتِ اللّه تعالى بما هو أعمُّ منَ النّصر، وهو شرائعُه، وآياتُه، وتوحيدُه، وصفاتُه، ونصرُه، أي: إنَّهُ إذا كان النّبيُّ ﷺ يُشفقُ على رسالته أن يَعروها تغييرٌ؛ بسبب تكذيبِهم، وإيذائِهم، فلا مُبدّلَ لكلماتِ اللّه تعالى، ونحن لهذا نميلُ"[2].

دلالةُ الالتفاتِ إلى اسمِ الجلالةِ، في قوله تعالى: ﴿وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ﴾:

خلودُ كلماتِ الله ورُسوِّها ضمانٌ لانتصارِ الحقِّ وأهلِه

"الالتفاتُ إلى الاسمِ الجليلِ ﴿ٱللَّهِۚ﴾؛ لتربيةِ المهابةِ في القلوبِ مع الإشعارِ بعلَّةِ الحُكمِ، فإنَّ مِن موجباتِ الألوهيَّةِ أنْ لا يُغالبَه أحدٌ في فعلٍ منَ الأفعال، ولا يقَعُ منه تعالى خُلفٌ في قولٍ منَ الأقوال"[3]، وإضافةُ الكلماتِ إلى اللّه من شأنِه أن يُعطيَها كثيرًا منَ التّعظيم والجلالِ؛ لتبقَى خالدةً على المدى، ضامنةً لانتظام الكونِ وتوازُنِه، واللّه هو الّذي أيّدَ رُسلَه بعونِه، وأحاطهم بتأييدِه، وكتب لهم السّلامةَ والنّجاةَ، ولأعدائِهمُ الدّمارَ والهلاكَ، تحقيقًا لما ذكرَه من عدمِ تبدُّلِ كلماتِ اللّه، وهو تعالى لا يخلفُ الميعاد.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/202.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2486.
(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/199.

نُكتةُ تكريرِ لفظِ ﴿وَلَقَدْ﴾:

تحقيقُ النَّصرِ وتأكيدُه لرسولِ اللهِ ﷺ من عطائِه الجَزِلِ له

تكرّرت في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ﴾ وفي قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِيْ﴾ حيث إنّ (قَدْ) حرفُ تحقيقٍ، فلمّا تكرَّرتْ، وجاءتْ في الأولى في جُملةٍ قَسَميَّةٍ في قولِه تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ﴾ لتسليتِه ﷺ ببيانِ ما ابْتُلِيَ به الرُّسلُ، فإنَّ عمومَ البَليّةِ ربَّما يُهوِّن من أمرِها بعضَ تهوينٍ، جاءتْ هنا كذلك في جملةٍ قَسَميَّةٍ في قولِه تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِيْ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾، لتحقيقِ ما مُنِحوا منَ النَّصر، وتأكيدِ ما في ضمْنِه منَ الوعدِ لرسولِ اللّهِ ﷺ بالنَّصر، أو لتقريرِ جميعِ ما ذُكِرَ من تكذيبِ الأُمم، وما ترتَّبَ عليه من أمورٍ في إهلاكِ المُكذِّبينَ، ونَصْرِ رُسُلِ اللّهِ المبلِّغين[1].

دلالةُ المجازِ في قولِه تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِيْ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾:

تصويرُ المَعنويِّ في صُورةِ المحسوسِ، أسلوبٌ بلاغيٌّ مأنوسٌ

قولُه تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِيْ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ صدّرت الآيةُ بقولِه: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكَ﴾، وهو مجازٌ في بلوغ ذلك وإعلام النَّبيِّ ﷺ بالأنباء؛ حيث شبَّه بلوغَ النَّبأِ النَّبيَّ ﷺ بالمجيءِ من قلبِ الأحداثِ الَّتي وقعتْ للأنبياء مع أقوامِهم، وكأنَّها ماثلةٌ أمامَهُ بعد انتظارِ ورودِها، وهي صورةٌ تعبيريّةٌ بديعةٌ، تُصوّر المعنويَّ في صورة المحسوسِ، وتُؤكّدُ مُطلقَ قدرةِ اللّه في تصرّفِه في المكانِ والزّمانِ والأحداثِ، وأنّه لا يُحجب عنه غيبٌ، ولا يَندُّ عن علمِه وتصريفِه أمرٌ.

نُكتةُ العُدولِ منَ الإتيانِ إلى المَجيء:

مع تحمُّلِ مشاقِّ المسارِ جاءَ الرُّسلَ عظيمُ الانتصارِ

في قولِه تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا﴾ ثمّ في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِيْ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ عدولٌ منَ الإتيانِ إلى المَجيء فلَمّا كانَ الإتْيانُ مجازًا في وقوعِ النَّصرِ بعد انْتظارِه، كانَ المجيءُ مجازًا في بلوغِه، وإعْلامِ النَّبيِّ ﷺ به، ففي الإتيانِ مَسْلاةٌ لرسولِ اللّه ﷺ، ودعوةٌ للصَّبرِ حتَّى يأتيَ النَّصرُ، وفي المجيءِ لنبأِ المرسلينَ بيانٌ

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/199.

لعظيم ما تحمَّلَه الرُّسُلُ من قبلِه، عليهم السلام ولعظيمِ ما قوبِلوا وجوزوا به منَ النَّصرِ[1].

تضافُرُ القَسَمِ وحرفِ التّحقيقِ في البيانِ والتأكيدِ:

تأكيد ما مُنِحَه رسولُ الله ﷺ منَ الوعْدِ بالنّصرِ

قولُه: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِيْ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾، جاءتْ هذه الجملةُ مُصَدَّرةً بالقسَم مع التَّحقيق بلفظ ﴿وَلَقَدْ﴾؛ لتأكيدِ ما منحهمُ اللّهُ منَ النَّصر، وما أُنجِزَ منَ وعد اللّه تعالى لرسول اللّه ﷺ في ضمن الوعدِ بالنَّصر مِن نشرِ رسالة الإسلام، وغَلَبتِه على الدّين كُلِّه، والتَّمكينِ لأصحابها تحت لواء رسولِ اللّه ﷺ، كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ [الصّف: 9].

استتار فاعل ﴿جَآءَكَ﴾:

أهمّيّةُ الإضمارِ في الاختصارِ، وتجنُّبِ التَّكرارِ

قولُه تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكَ﴾: فاعلُ ﴿جَآءَكَ﴾ مُضمَرٌ، وفيه وجهان: الأوَّلُ: المجيءُ، والثّاني: النَّبأُ، ودلَّ على الثّاني ذِكرُ الرُّسُلِ؛ لأنَّ من ضرورة الرَّسولِ الرِّسالةَ، وهي نَبَأٌ، وعلى كلا الوجهَين السّابقَين يكونُ قولُه: ﴿مِن نَّبَإِيْ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ حالًا من ضمير الفاعل، والتَّقديرُ: من جنس نبأِ المُرسلين، وإنّما أُضمر الفاعلُ للاختصار، وتجنّبِ التّكرار فيما لو ظهرَ.

دلالةُ ﴿مِن﴾، على أنّ الإنسانَ لا يُؤتَى منَ العلْمِ إلّا بعضَه:

الأنباءُ تُمثّلُ صورةً متكاملةً، لمعاناةِ الرّسلِ في البلاغِ

قولُه تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِيْ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ تحوي الحرفَ (مِن)، وفيه وجهان: الأوَّلُ: إمّا اسمٌ بمعنى (بعض)، فتكون فاعلًا مُضافًا إلى النَّبأ، وهو مُستلٌّ من قولِه تعالى: ﴿مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ [غافر: 78]. والثّاني: أن تُجعلَ صفةً لموصوفٍ محذوفٍ تقديرُه: لقد جاءكَ نَبَأٌ مِن نَبأ المرسَلين. ونبأُ المرسَلين بمعنى أنبائِهم، والنَّبأُ: هو الخبرُ عن أمرٍ عظيمٍ، كما قال

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 7/202 - 203.

تعالى: ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ۝١ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلۡعَظِيمِ ۝٢﴾ [النَّبأ: 1-2]، وقال تعالى: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَۚ﴾ [هود: 120][1]، ولئن جاءه بعضُ الأنباء، فإنّ في الأنباء كلِّها ما تشيبُ من هولِه الوِلْدان، ولكنّ اللّه رحمةً بعبادِه لم يُخبرْهم إلّا ببعضها، وهي كافيةٌ لتعطيَ صورةً متكاملةً عمّا كان عليه الرّسلُ مع أقوامِهم، وقد عبّرت القَصصُ القرآنيّةُ عن ذلك، وأغفلتْ ما ليس ضروريًّا في البناءِ القَصصيِّ، والتّراكيبُ السّياقيّةُ المُعبّرةُ عن ذلك الصّراع المريرِ، بين الحقِّ والباطلِ، والإيمانِ والكفرِ، ممّا جاء في غاية الرّوعةِ والمُتعةِ والفائدةِ.

الغرضُ من استعمالِ مادّةِ (النّبأ):

النَّبأُ الخبرُ الأعظمُ المُساقُ وهو الأنسبُ هنا للسِّياقِ

جاءَ استعمالُ مادَّةِ النَّبأِ في قولِه تعالى: ﴿مِن نَّبَإِيْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾؛ لأنَّ النَّبأَ الخَبرُ عن أمرٍ عظيمٍ، قالَ تعالى: ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ۝١ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلۡعَظِيمِ ۝٢﴾ [النَّبأ: 1، 2]، وهنا في قولِه تعالى: ﴿مِن نَّبَإِيْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ أي: خبرِ المرسَلينَ العظيمِ، وهو تأكيدُ نصرِ اللّهِ لهم نصرًا عظيمًا بعد تحمُّلِهم وصَبْرِهم على مشاقِّ الدَّعوةِ وتبليغِ رسالةِ الإسلامِ لأقوامِهم[2].

العُدولُ في الصِّيغةِ من ﴿رُسُلٌ﴾ إلى ﴿ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾:

مناسبةُ كلٍّ منَ الصِّيغتَيْن لما تقدَّمَهما منَ التَّكذيبِ والنَّبأِ

عدَلَ بيانُ اللّهِ تعالى عن: ﴿رُسُلٌ﴾ في صدْرِ الآيةِ: ﴿وَلَقَدۡ كُذِّبَتۡ رُسُلٌ﴾، إلى: ﴿ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ في ذيْلِ الآية: ﴿وَلَقَدۡ جَآءَكَ مِن نَّبَإِيْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾؛ لأنَّ من ضرورةِ الرَّسولِ الرِّسالةَ، وهي نبأٌ، وقد دَلَّ عليه ذكرُ الرُّسُل أوَّلًا، ثمَّ خُتمتِ الآيةُ بما فيه بيانُ حالِ هؤلاءِ الرُّسُلِ، وهو أنَّهم مُرسَلونَ بمهمَّةِ ذاكَ النَّبأِ، وهو تبليغُ الرِّسالة، أي: ولقد جاءك هذا الخبرُ العظيمُ، من تكذيبِ أتباعِ الرُّسُلِ للمرسَلين إليهم، والصَّبرِ والإيذاءِ إلى أنْ نُصِروا.

(1) العكبريّ، إملاء ما منّ به الرّحمن: 1/240.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السليم: 2/199.

فالرَّسولُ يقتضي إطلاقَ لسانِه بالرِّسالةِ المكلَّفِ بتبليغِها للنّاس، ولذلك أُسنِدَ إليه التَّكذيبُ، في قوله: ﴿كُذِّبَتْ رُسُلٌ﴾، أي: تكذيبُ ما نطقتْ به ألسنتُهم، من دعوةِ النّاسِ لرسالةِ ربِّهم. والمرسَلُ: يقتضي إطلاقَ غيرِه له، وهو المرسِلُ وهو اللّهُ ﷻ، ولذلك أُسنِدَ إليه النَّبأ، فقال: ﴿مِن نَّبَإِيْ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾[1].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(الإيذاء) و(الضَّرر):

الإيذاءُ: إحداثُ ضَرَرٍ في النَّفْسِ أو الجسمِ دُنيويًّا أو أُخرويًّا، فهو أعمُّ من الضَّررِ

الأذَى: ما يصلُ إلى الإنسانِ منَ الضَّررِ، إمّا في نَفْسِه أو جسمِه، أو تبعاتِه، دُنيويًّا كان أو أُخرويًّا، قالَ تعالى: ﴿لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ﴾ [البقرة: 264]، وقالَ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٦١﴾ [التَّوبة: 61]، وقالَ ﷻ: ﴿وَأُوذُواْ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا﴾ [الأنعام: 34]، يقالُ: آذَيْتُه أو أَذَيْتُهُ إيذاءً وأَذيَّةً وأذًى[2]، وقال الخطابي: الأذى الشّرُّ الخفيفُ، فإن زاد فهو ضررٌ، والأذيُّ، كَغَنيّ: الشّديدُ التأذّي[3]، وأمّا الضُّرُّ: فضدُّ النَّفع، والضَّررُ، أي: لا يضرُّ الرَّجلُ أخاهُ فَيُنقِصُه شيئًا من حقِّه، والضُّرُّ: يكونُ من حيث لا يُعلمُ المقصودُ به، ويُقال: ضَررتُ فلانًا من حيث لا يعلمُ، والضُّرُّ: سوءُ الحال، إمّا في نَفْسه، وإمّا في بَدَنِه، وإمّا في حالةٍ ظاهرةٍ من قلَّةِ مالٍ وجاه، وقولُه تعالى: ﴿فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ﴾ [الأنبياء: 84]، فهو مُحتمِلٌ لثلاثتِها[4].

(التَّبديل) و(التَّغيير):

التَّبديلُ قيامُ الشَّيءِ مَقامَ آخرَ، والتَّغييرُ تحويلُه إلى صورةٍ مغايرةٍ

تبيَّن في شرح المفردات أنَّ التَّبديلَ قيامُ الشَّيءِ مَقامَ الشّيءِ الذّاهبِ، يأتي بمعنى التَّغييرِ، وإنْ لم يُؤتَ له ببَدَل، تَبديلُ الشَّيء

(1) العكبري، الإملاء: 1/240، والسَّمين، الدُّرّ المصون: 4/606، والرّاغب، المفردات: (رسل).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أذي)، والرّاغب، المفردات: (أذي).
(3) الزَّبيديّ، تاج العروس: (أذي).
(4) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 328، والرّاغب، المفردات، وابن الأثير، النِّهاية: (ضَرَرَ)، والكفوي، الكلّيّات: 3/147.

والإتيانُ بغيره، ثمّ إنّ تبديلَ الشّيءِ لا يكون إلّا برفْعِه ووضْعِ آخرَ مكانَه، هو غيرُ الإتيان بغيره، ولو كان تبديلُه والإتيانُ بغيره سواءً لم يكن لقولِه تعالى: ﴿ٱئۡتِ بِقُرۡءَانٍ غَيۡرِ هَٰذَآ أَوۡ بَدِّلۡهُۚ﴾ [يونس: 15] معنى في هذا السّياقِ[1]، وأمّا التَّغييرُ فيُقالُ على وجهَين: الأوَّلُ: لتغييرِ صورةِ الشَّيء دون ذاتِه، يُقالُ: غيَّرتُ داري، إذا بَنيتُها بناءً غيرَ الَّذي كان، والثّاني: لتبديلِه بغيره، كما في قولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ﴾ [الرَّعد: 11]، وسياقُ النَّصِّ القرآنيِّ يناسبُه معنى التَّبديل لا التَّغييرِ، فلا يمكنُ أن تُبدَّلَ كلماتُ اللّه بشيءٍ يقومُ مقامَها، ولا أن تُغيَّرَ إلى بَدَل، فالأمرُ والشَّأنُ في ذلك للّه وحدَه، لا لأحدٍ سواه ﷻ.

(النَّبأ) و(الخبر):

أنبأ بمعنى أخبرَ بعظيمٍ طَريفٍ، وأخبرَ أعلمَ بما هو مألوفٌ

نبَّأ وأنبَأ؛ أي: أخبرَ، ومنه أُخذَ النّبئ؛ لأنّه أنبأ عنِ اللّه تعالى، وهو فعيلٌ، بمعنى فاعل. قال سيبَويه: ليس أحدٌ منَ العرب إلّا ويقول: تنبّأ مسيلمةُ بالهمز، غير أنّهم تركوا الهمزَ في النّبيّ[2]، وأمّا الخبرُ فهو الإخبارُ بما يعلمُه المخبَرُ، وبما لا يَعلُمه، ولهذا يُقال: تخبرُني عن نَفسي، وعمّا عندي، ولا يقالُ: تُنبئُني عن نفسي، وعمّا عندي[3]، والخبرُ لا يتضمَّنُ الأخبارَ العظيمةَ، فإذا تضمَّنَها سُمّيَ نبأً، وكما تقدَّمَ في شرح المفردات النَّبأُ لا يُطلَقُ إلَّا على الأخبار العظيمةِ ذاتِ الشَّأن الجَلَلِ، ولذلك فإنَّ سياقَ النَّصِّ القرآنيِّ يُناسِبُه إيرادُ كلمةِ (النَّبأ)؛ لأنَّه متعلِّقٌ بأخبار المرسَلينَ السّابقةِ، وهي عظيمةُ الشَّأنِ عاليةُ القَدْرِ.

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 238.
(2) الجوهريّ، الصّحاح: (نبأ).
(3) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 528 - 529.

﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَـٰهِلِينَ ﴿٣٥﴾﴾ [الأنعام: 35]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الرّبطُ بين التّسليةِ والتّسريةِ، وبين التّأكيدِ على مجافاةِ الأسَى والقُنوطِ

لمَّا حَمَلَ سياقُ الآيةِ السّابقةِ تسليةً لرسولِ ﷺ، بإيراد سُنَّةِ الله الثَّابتةِ، بتأييد أنبيائه، ونصرِهم على أقوامِهم المكذِّبين، جاءَ سياقُ الآيةِ الكريمةِ هنا مُخاطِبًا رسولَ الله ﷺ، أنَّه إنْ آلَمَهُ إعراضُ قومِه عن دعوتِه، فليفعلْ على سبيل الفَرَضِ ما يجعلُهم يُؤمنونَ بدعوتِه، وليكن بأن يأتيَهم بآيةٍ منَ الأرض، أو بآيةٍ منَ السَّماء تكونُ أفضلَ ممّا آتاهُم به من آيةِ القرآن أو غيرِها منَ الآيات، لكنَّ أمرَ هدايتِهم أو عدمِها موصولٌ بمشيئة الله لا غيرَ، فما يزال الخطابُ لرسولِ الله ﷺ، ولكنْ في الآية السّابقةِ تسليةٌ ووعدٌ بالنّصر، وفي الآيةِ اللّاحقةِ (ههنا) تنبيهٌ على عدم الإفراطِ في الأسَى عليهم؛ لأنّه لا يكونُ من أمرِ هدايتِهم إلّا ما قدّرَهُ الله.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿كَبُرَ﴾: الكبيرُ والصَّغيرُ منَ الأسماء المُتضايِفَة الَّتي تُقالُ عندَ اعتبارِ بعضِها ببعض، فالشَّيءُ قد يكونُ صغيرًا في جَنْبِ شيءٍ، وكبيرًا في جَنبِ غيره.. وأصلُ ذلك أن يُستعمَلَ في الأعيان، ثمَّ استُعيرَ للمعاني، كما في قولِه تعالى: ﴿لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا﴾ [الكهف: 49]، والكبيرةُ متعارَفَةٌ في كلِّ ذَنبٍ تعظُمُ عُقوبتُه، وتُستعمَلُ الكبيرةُ فيما يَشُقُّ ويَصعُبُ، نَحْوِ: ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَـٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [البقرة: 45]، ومن هذا المعنى ما نحن بصددِه في تفسير قولِه تعالى: ﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ﴾ [الأنعام: 35]، فهي كذلك

فيها معنى: عَظُمَ ذلك، وشَقَّ عليك يا محمَّد ﷺ، وفيه بيانُ عِظَم الإعراض عنِ الحقِّ وعِظَم عُقوبتِه[1].

2) ﴿إِعْرَاضُهُمْ﴾: أَعرَضَ: أَظهرَ جانبَه؛ أي: ناحيَتَه، فإذا قيلَ: أَعرَضَ لي كذا؛ أي: بدا عَرضُهُ فأَمكنَ تَناولُه، وإذا قيلَ: أَعرَضَ عنّي؛ أي: ولَّى مُدبرًا عَرضَه، كما قالَ تعالى: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ﴾ [النّساء: 63]، وهو المعنى المرادُ في الآية الَّتي معنا: ﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ﴾؛ أي: تولّيهم عنِ الحقِّ، وإدبارُهم عن دَعوتِك[2].

3) ﴿تَبْتَغِيَ﴾: الباء والغين والياء أصلان: أحدُهما: طَلَبُ الشَّيءِ، والثّاني: جنسٌ منَ الفساد، فمنَ الأوَّل – وهو ما يُعنينا هنا – : بَغَيتُ الشَّيءَ أَبغيه: إذا طَلَبتُه، وأبغيتُكَ الشَّيءَ: إذا أَعَنتُكَ على طلبه، والبُغيَةُ والبِغيَةُ: الحاجَة، وتقولُ: ما يَنبغي لك أن تفعلَ كذا، وهذا من أفعال المطاوَعةِ، تقولُ: بَغَيتُه فابتغَى، كما تقولُ: كَسَرتُه فانكَسَر[3]، ويُقال: ابتغى الأجرَ وغيرَه: أراده وطلبَه، وتصدَّق ابتغاءَ مرضاةِ اللّه، قال تعالى: ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَانًا﴾ [المائدة: 2]، ويُقال ابتغى الرَّجلَ: صحبَه، قال تعالى: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي ٱلْجَٰهِلِينَ ۝٥٥﴾ [القصص: 55][4].

4) ﴿نَفَقًا﴾: النَّفَقُ: المُرادُ به سَرَبٌ في الأرض له مَخلَصٌ إلى مكانٍ، ومنه اشتقاقُ النِّفاقِ؛ لأنَّ صاحبَه يَكتُمُ خلافَ ما يُظهِرُ، فكأنَّ الإيمانَ يخرجُ منه، أو يخرُجُ هو منَ الإيمان في خفاءٍ، ويمكنُ أنَّ الأصلَ في الباب واحدٌ، وهو الخروجُ، والنَّفَقُ: المَسلَكُ النّافذُ الَّذي يُمكنُ الخروجُ منه[5]، وفي الصّحاح والتّهذيب: له مَخلَصٌ إلى مكانٍ آخرَ. ومنه قولُه تعالى: ﴿فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾[6] وفي المثلِ: (ضَلَّ دُرَيْصٌ نَفَقَهُ)؛ أي: جُحره، والنّافِقاء: إحدى جِحَرَةِ اليربوع، يكتُمها، ويُظهرُ غيرَها، وهو موضعٌ يرقّقه، فإذا أُتيَ من قِبَلِ القاصِعاء ضربَ النّافِقاءَ برأسه فانْتَفَقَ، أي: خرَ، والجمعُ النّوافِقُ[7].

(1) الرّاغب، المفردات: (كبر).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عرض).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (بغي).
(4) أحمد مختار عمر، معجم اللّغة العربيّة المعاصرة: (بغي).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نفق).
(6) الزَّبيديّ، تاج العروس: (نفق).
(7) الجوهريّ، الصّحاح: (نفق).

5) ﴿سُلَّمًا﴾: السُّلَّمُ: مشتقٌّ من السَّلامَةِ، وهو الشّيءُ الّذي يُسلّمُك إلى مصعدك[1]، السّلّمُ الدّرجةُ والمرقاةُ، يذكّر ويؤنّث، قال ابن مُقبل:

لا تُحْرِزِ المَرْءَ أَحْجاءُ البِلادِ، ولا *** يُبْنَى لَهُ في السَّماواتِ السَّلاليمُ

والسُّلَّمُ: السّببُ إلى الشّيء، سُمّي بهذا الاسْم، لأنّه يؤدّي إلى غيره، كما يؤدّي السّلّمُ الّذي يُرتقى عليه، قال الجوهريّ: وربّما سُمّي الغَرْزُ بذلك[2]، والسُّلَّمُ أيضا ما يُتوصَّلُ به إلى الأمكنةِ العالية، فيُرْجَى به السَّلامةُ، ثمَّ جُعِلَ اسْمًا لكلِّ ما يُتوصَّلُ به إلى شيءٍ رفيعٍ كالسَّببِ، قالَ تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِۖ﴾ [الطّور: 38][3]. والسُّلَّمُ من السَّلامةِ، وهو الَّذي يُسلِّمكَ إلى مَصْعدِك[4]، وقولُه تعالى في الآية هنا: ﴿أَوْ سُلَّمًا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾، أي: دَرَجًا ومَصْعدًا في السَّماء فَتَصْعَدَ فيه[5].

6) ﴿ٱلْجَٰهِلِينَ﴾: الجهلُ نقيضُ العلم، تقول: جهلتُ الشّيءَ جهلًا وجهالةً واستجهلتُ الرّجلَ: جعلتَه جاهلًا[6]، والجهلُ على قسمين: بسيطٌ ومركّبٌ، فالبسيط: عدمُ العلمِ عمّا من شأنِه أن يُعلمَ، والمركّبُ: اعتقادٌ جازمٌ غيرُ مطابقٍ للواقع[7]، وقال الرّاغبُ: الجهلُ على ثلاثةِ أَضْرُب: الأوَّلُ: خُلوُّ النَّفْسِ منَ العلْمِ، هذا هو الأصل. والثّاني: اعْتقادُ الشَّيءِ بخلافِ ما هو عليه. والثّالثُ: فعلُ الشَّيء بخلافِ ما حقُّه أنْ يُفعل، سواء اعْتقدَ فيه اعْتقادًا صحيحًا أو فاسدًا. والجاهلُ تارةً يُذكَرُ على سبيلِ الذَّم، وهو الأكْثَر، وتارةً لا على سبيلِ الذَّمّ، نحو: ﴿يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ﴾ [البقرة: 273] أي: من لا يعرفُ حالَهم، وليس يعني المتخصِّصَ بالجهلِ المذموم[8]. وقولُه تعالى هنا: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ أي: مِنَ الَّذين يجهلونَ ذلك - أي: قولَه: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰۚ﴾ - ، ويَرومون ما هو خلافُهُ[9].

(1) الزّجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 2/244.
(2) ابن منظور، لسان العرب: (سلم).
(3) الرّاغب، المفردات: (سلم).
(4) الزَّجاج، معاني القرآن: 2/244.
(5) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 2/122.
(6) ابن سيده، المخصّص: (جهل).
(7) الزَّبيديّ، تاج العروس: (جهل).
(8) الرّاغب، المفردات: (جهل).
(9) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 2/16.

❁ المَعْنَى الإجْمَالِيُّ:

الله هو الهادِي بـالـحـقّ وإلى الحقّ، والرّسولُ مبلّغٌ ودالٌّ على الحقّ

يُخبرُ اللّهُ تعالى نبيَّه ﷺ قائلًا: إنْ شقَّ عليكَ إعراضُ المكذِّبين؛ لشدَّة حرصِكَ على إيمانهم، فابذُلْ وُسعَكَ في ذلك، فليس بمَقدورِكَ أن تهديَ مَن لم يُرِدِ اللّهُ هدايتَه، حتَّى لو دخلتَ نَفَقًا في الأرض أو صَعِدْتَ سُلَّمًا في السَّماء ليكونَ ذلكَ سبيلًا لهدايتِهم، فإنَّ ذلك لن يُفيدَ مَن عاندَ الحقَّ شيئًا، ولكنَّها حكمةُ اللّه تعالى اقتضَتْ بقاءَهم في الضَّلال، فلا تكنْ يا محمَّدُ ﷺ مِنَ الَّذين لا يَعرِفونَ حقائقَ الأمور، ولا يُنزلونَها على منازلِها[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بيانُ معنَى (الواو) في تجليةِ المعنى، في قوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ﴾:

لا مَـنـاصَ مِـنَ الصّبر، إذ لا رادَّ لـقـدَرِ الـلـه، ولا فرارَ مِن حُكمِه

هذا كلامٌ مُستأنَفٌ مَسوقٌ لتأكيدِ إيجابِ الصَّبرِ المُستفادِ منَ التَّسليةِ، ببيانِ أنَّه أمرٌ لا مَحيدَ عنه أصلًا؛ لأنّ ما كبُر على النّبيّ من إعراضهم سوف يَشقُّ على نفس النّبيّ ﷺ، ويكونُ سببًا في إيلامه، وتعكّرِ حالِه، ولكنّه لا يُغيّرُ من حقائقِ القدَر شيئًا، والسّياقُ مرتبطٌ في معناه بما بعدَه، إذ يؤكّدُ للرّسولِ المتأثّرِ بحالِهم، والحزينِ على مآلهم؛ بأنّه مهما ابتغى نفقًا في الأرض أو سلّمًا في السّماء فسيبقون على ما قدّر الله لهم، ولا رادَّ لحُكم الله.

دلالةُ المَجاز المُرسَل، في قولِه تعالى: ﴿كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ﴾:

تـصـويـرُ مشقّةِ الـحـيرةِ، وثِـقـلِ الـحُـزنِ، على قـلـب الـرّسـولِ ونفسِه

ومعنَى ﴿كَبُرَ﴾ هنا: شَقَّ عليك، وأصلُه عِظَمُ الجُثَّةِ، فهو يُستعمَلُ في الأعيان، ثمَّ استعيرَ للمعاني - كما هو هنا - حيثُ استُعمِلَ مجازًا في الأمور العظيمةِ الثَّقيلةِ؛ لأنَّ عِظَمَ الجُثَّة يَستلزمُ الثِّقَلَ، ثمَّ استُعمِلَ مجازًا في معنى (شَقَّ)؛ لأنَّ الثَّقيلَ يَستلزمُ مَشقَّةَ حَمْلِه، فهو مجازٌ

(1) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 209 - 210.

مُرسَلٌ[1] بلُزومَين[2]، والمعنى: "إنْ كان قد شقّ عليك انصرافُهم عن دعوتك، فإنِ استطعتَ أن تتّخذَ طريقًا في باطن الأرض، أو سلّمًا تصعدُ به إلى السّماء، فتأتيهم بدليلٍ على صدقك، فافعل، ليس في قدرتك ذلك يا محمّد، فأرِحْ نفسَك، واصبرْ لحُكم اللّه"[3]، وقد كان الاستعمالُ المجازيُّ مؤدّيًا غرضَه، من إيضاحٍ لتصوير مشقّةِ الحَيْرةِ، وثِقل الحُزن المُطبقِ، على صدر النّبيّ الرّحيم ونفسِه، وهو أمرٌ لا حيلةَ له فيه؛ لأنّه بيد اللّه وحده دون سواه، جلّ في علاه.

نكتةُ تعديةِ الفعلِ (كبُرَ)، بأداةِ الاسْتعلاءِ (على)، في الآيةِ الكريمةِ:

عدَّى بيانُ اللّهِ الفعلَ ﴿كَبُرَ﴾ بأداة الاسْتعلاء (على)، فقال: ﴿كَبُرَ عَلَيْكَ﴾؛ لبيانِ عِظَمِ ومَشقَّةِ هذا الأمرِ على رسولِ اللّهِ ﷺ وهو إعراضُهم عن دعوتِه وتكذيبُهم لها، فجاءَ هذا البيانُ على طريقةِ الاسْتعمالِ المجازيِّ، حيث إنَّ كَبُرَ هنا بمعنَى شقَّ عليك، وأصلُه عِظَمُ الجُثَّة، ثمَّ اسْتُعمِلَ مجازًا في الأمورِ العظيمةِ الثَّقيلةِ؛ لأنَّ عِظَمَ الجثَّة يستلزمُ الثِّقَلَ، ثمَّ اسْتُعمِلَ مجازًا في معنَى (شقَّ)؛ لأنَّ الثَّقيلَ يَشُقُّ حَملُه، والحِمْلُ يكونُ غالبًا على الظَّهرِ فينوءُ به حاملُه ويَسْتصْعِبُه، فهو مجازٌ مرسلٌ بلزومَيْن[4].

مُعاناةُ رسولِ اللّهِ ﷺ من إعراضِ المُشركين ومضايقاتِهم

سِرُّ استعمالِ مادّةِ الإعراضِ دونَ غيرِها في قولِه تعالى: ﴿كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ﴾:

آثرَ بيانُ اللّهِ استعمالَ كلمةِ الإعراضِ دونَ ما يُقاربُها في المعنَى؛ لأنَّ إعراضَ المشركين هو حالةٌ أُخرى غيرُ حالةِ التَّكذيبِ، وجميعُها

الإعراضُ هو التَّولِّي والإدْبارُ التَّامُّ عن دعوةِ الرَّسولِ ﷺ

(1) المجاز المُرسَل: هو اللَّفظ المُستعمَلُ في غير ما وُضع له لعلاقةٍ ما مع قرينةٍ تمنعُ إيرادَ المعنى الحقيقيّ، وسُمّيَ مُرسَلًا؛ لأنَّ الإرسالَ هو الإطلاقُ، فهو مُطلَقٌ في علاقاته؛ أي: ليس له علاقةٌ مُعيَّنةٌ، كما استُعمل معنى ﴿كَبُرَ﴾ مجازًا فيما ذُكِر في المتن، وليس على الحقيقة. يُنظر: فضل عبّاس، أساليب البيان، ص: 272 - 295.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/203.

(3) إبراهيم القطّان، تيسير التّفسير، ص: 465.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/203.

من أسبابِ اسْتمرارِ كُفرِهم، فإنَّ الإعراضَ هو التَّكذيبُ والتَّولّي والإدبارُ التّامُّ عنِ الحقِّ ورفضُ دعوةِ الرَّسولِ بالكُلّيَّة، ومناصبتُه العَداءَ بشتَّى ألوانِ الأذى، وهذا المعنَى أوْفَى بالسّياقِ، وأقومُ قيلًا من غيرِه ممّا يصدُقُ على واقعِ مُقابلةِ المشركينَ لرسولِ اللّهِ ﷺ، إزاءَ تبليغِ رسالةِ ربِّه إليهم[1]، فقولُه تعالى: ﴿إِعْرَاضُهُمْ﴾ مرفوعٌ بـ﴿كَبُرَ﴾، وتقديمُ الجارِّ والمجرورِ عليهِ للاهتمام بالمقدَّم والتّشويقِ إلى المؤخَّرِ، والجملةُ في محلّ النّصب على أنّها خبرٌ لكان، مفسّرةٌ لاسمها الّذي هو ضميرُ الشّأنِ.."[2].

أثرُ أسلوبِ الشّرطِ في قولِه تعالى: ﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ﴾:

لفظُ (كان) الزّائدةِ، وأثرُه في قُوّة الدَّلالةِ على المُضِيِّ

وقولُه: ﴿وَإِن﴾ حرفُ الشَّرط، ويَكثرُ ورودُه في الشَّرط الَّذي لا يُظَنُّ حصولُه؛ للإشارة إلى أنَّ الرَّسولَ ﷺ ليس بمَظِنَّة ذلك، ولكنَّه على سبيل الفَرَض، لا القَطْع، وزيدتْ ﴿كَانَ﴾ بعدَ ﴿وَإِن﴾ الشَّرطيَّةِ، بينها وبين ما هو فعلُ الشَّرط في المعنى؛ ليبقى فعلُ الشَّرط على معنى المُضيِّ فلا تُخلِّصُه ﴿وَإِن﴾ الشَّرطيَّةُ إلى الاستقبال، كما هو شأنُ أفعالِ الشّرط بعد (إنْ)، و﴿كَانَ﴾ مَنحَه قوَّةَ الدَّلالة على المُضيِّ، فلا تَقلِبُه أداةُ الشَّرط إلى الاستقبال، كما هو الأصلُ فيها[3].

دلالةُ التّقديمِ والتّأخيرِ في قولِه تعالى: ﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ﴾:

تقديمُ الجارِّ والمجرور ﴿عَلَيْكَ﴾ للاهتمامِ بالمقدَّم والتَّشويقِ إلى المُؤَخَّرِ، وفي تقديم ﴿عَلَيْكَ﴾ أيضاً إشعارٌ بالإشفاق منَ المشقّة عليه.

تقديمُ الخبرِ (عليك) يُوحِي بالإشفاقِ على النّبيِّ المُثْقَلِ بما لا يُطاقُ

وجملةُ ﴿كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ﴾ خبرٌ لـ﴿كَانَ﴾، مفسِّرةٌ لاسمها الَّذي هو ضميرُ الشَّأن. ويمكنُ أن يكونَ ﴿إِعْرَاضُهُمْ﴾ هو اسمَ ﴿كَانَ﴾،

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 7/204.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/129.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/204.

وجملةُ ﴿كَبُرَ﴾ الفعليَّةُ في محلِّ النَّصب على أنَّها خبرٌ لها مُقدَّمٌ على اسمها؛ لأنّه فعلٌ رافعٌ لضميرٍ مُستَتِرٍ، كما هو المشهور[1]، وهو المرجَّحُ، ويترتّبُ عليه مزيّةُ تقديم خبرِ كان على اسمِها؛ وذلك بالنَّظرِ إلى أنّ الأصلَ: (وإنْ كان إعراضُهم كبُر عليك)، فيكونُ تقديمُ جملةِ الخبرِ ﴿كَبُرَ عَلَيْكَ﴾ للتّنبيه ابتداءً على عِظمِ المشقّةِ، وأنّ رسولَ الله ﷺ قد بلغَ منه الحزنُ ما بلغَ، حتّى وصلَ المرحلةَ الّتي عبّر عنها في سورة الشّعراء بقولِه: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفۡسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ۝٣﴾ [الشّعراء: 3]، فضُرب له هذا المثلُ ليَكبحَ جِماحَ الحُزن ﴿فَإِنِ ٱسۡتَطَعۡتَ أَن تَبۡتَغِيَ نَفَقٗا﴾ الآية.

دلالةُ أسلُوبِ الشّرط، في قولِه تعالى: ﴿فَإِنِ ٱسۡتَطَعۡتَ أَن تَبۡتَغِيَ نَفَقٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾:

"قولُه تعالى: ﴿فَإِنِ ٱسۡتَطَعۡتَ﴾ جوابُ شرطِ ﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيۡكَ﴾؛ فالشَّرطُ الثّاني جوابُ الأوَّل، وجوابُ الشَّرط الثّاني محذوفٌ تقديرُه: فافعل، وحُذِفَ لظهور معناهُ وطولِ الكلام"[2]، والاستطاعةُ: القُدرةُ، والسّينُ والتّاءُ فيها للمبالغةِ في (طاعَ)؛ أي: انقادَ. والابتغاءُ هنا بمعنى: أنْ تطلُبَ نفقًا أو سُلَّمًا لِتبلُغَ خبايا الأرض وأسرابَها العميقةَ إلى خبايا وعجائبِ السَّماء، والطَّلَبُ هنا يَقتضي البحثَ، وهو بمعناه[3]، وقولُه: ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ صفةٌ لـ ﴿نَفَقٗا﴾، وحرفُ الجرِّ ﴿فِي﴾ أفادَ المبالغةَ في العُمق، وإلّا فإنَّ النَّفقَ لا يكونُ إلّا في الأرض، ويجوزُ أن تتعلَّق بـ ﴿تَبۡتَغِيَ﴾، ويجوزُ أن يكونَ حالًا من ضمير الفاعل؛ أي: وأنتَ في الأرض، وكذلك القولُ في قولِه: ﴿فِي ٱلسَّمَآءِ﴾[4].

مخاطبةُ السّياقِ القرآنيِّ الرّسولَ ﷺ لصيقةٌ بالواقعِ المَعيشِ من حولِه

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السليم: 2/200.
(2) العكبريّ، الإملاء: 1/240.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/204.
(4) العكبريّ، الإملاء: 1/240.

بلاغةُ المُقابلةِ بين قولِه تعالى: ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ وقولِه ﴿فِي ٱلسَّمَآءِ﴾:

في استغراقِ جميعِ الجهاتِ إظهارُ حِرصِ الرّسولِ ﷺ على انتشارِ الإيمانِ

ومِن لطائف الجارِّ والمجرور ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أنّه يقابلُ ﴿فِي ٱلسَّمَآءِ﴾؛ لاستقصاء الجهات عُلوًّا وسفلًا؛ وذلك أمعَنُ في الدّلالة على استحالة الفعلِ المفترضِ، وقولُه: ﴿فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ فوصفَ به سُلَّمًا؛ أي: كائنًا في السَّماء؛ أي: واصِلًا إلى السَّماء، والمعنى: تبلُغُ به إلى السَّماء، وكذلك أفادَ بيانُ اللّه هنا في استخدام حرفِ الجرِّ ﴿فِي﴾ المبالغةَ في الصُّعود داخلَ السَّماء، وإلّا فإنَّ الصُّعودَ لا يكونُ إلّا إلى السَّماء وداخِلَها مع العُلوِّ، فجمعَ بين الارتقاءِ والدُّخولِ.

"والسُّلَّمُ منَ السَّلامة، وهو الَّذي يُسلِّمُكَ إلى مصعدك"[1]، وإيرادُ بيانِ اللّه في الآية: ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ و﴿فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ دلالةٌ على طلب الآية من جميع الجهات، وفيه استغراقُ ما يمكنُ أن يُحقِّقَ حصولَ الإيمانِ للنّاس من حوله ﷺ، وفي هذا الأمر إظهارُ شدَّةِ حِرصِ رسولِ اللّه ﷺ على دُخول النّاسِ جميعًا في الإيمان.

دورُ جُملةِ الشّرط في حصْرِ مُهمّةِ النّبوّةِ في البلاغِ لا في الإكراهِ:

مهمّةُ الرّسولِ الدّلالةُ، واللّه هو الهادِي بالأصالةِ

جاء توظيفُ جملةِ الشّرط كمَثَلٍ، لحصرِ مهمّةِ الرّسول في التّبليغ، وليس في إمكانه الهدايةُ، فمثلُه حين يحاولُ ما ليس في مُكنتِه، كمثل مَن يبتغي نفقًا في الأرض أو سُلَّمًا في السّماء، بحثًا عن وسيلةٍ لإلجاء غيره على ما يريد، وهي صورةٌ تُبيِّنُ استحالةَ قَسرِهم على الهداية، وذلك لكيلا يشقَّ الرّسولُ ﷺ على نفسه، ويمكنُ أن يكونَ مَرَدُّ ذلك لما ساقَه بيانُ اللّه في آياتٍ عديدةٍ من سؤال المشركينَ رسولَ اللّه ﷺ آياتٍ من جنس ما في الأرض، وجنسِ ما في السَّماء، فمِنَ الأوَّل قولُه تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَفۡجُرَ لَنَا مِنَ ٱلۡأَرۡضِ يَنۢبُوعًا ٩٠﴾ [الإسراء: 90]، ومِنَ الثّاني: قولُه تعالى: ﴿أَوۡ تَرۡقَىٰ فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [الإسراء: 93].

(1) الزَّجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 2/244.

دلالةُ إيثارِ (الابتغاءِ) على (الاتِّخاذِ)، في قولِه تعالى: ﴿أَن تَبۡتَغِيَ نَفَقٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾:

مُفادُ ذكرِ النّفَقِ والسُّلَّم، هو بيانُ حرصِ النّبيِّ ﷺ لا إزجاءُ عِتابٍ له

"إيثارُ بيانِ اللّه لـ (الابتغاء) على (الاتِّخاذ) ونحوِه؛ للإيذان بأنَّ ما ذُكِرَ منَ النَّفَق والسُّلَّم ممَّا لا يُستطاعُ ابتغاؤُه، فكيفَ باتّخاذِه؟!"[1]، وكأنَّ سياقَ النَّصِّ القرآنيِّ يُخبرُنا أنَّه لو تمَّ هذا الأمرُ بالحصولِ على آيةٍ منَ الأرض، أو منَ السَّماء، فإنَّهم لن يؤمنوا بها، كما قالَ تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ أَكِنَّةً أَن يَفۡقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٗاۖ وَإِن تَدۡعُهُمۡ إِلَى ٱلۡهُدَىٰ فَلَن يَهۡتَدُوٓاْ إِذًا أَبَدٗا ٥٧﴾ [الكهف: 57]، ولا يُفهَمُ من سياق الآيةِ الكريمةِ توجيهُ لَومٍ أو عتابٍ منَ اللّهِ تعالى إلى نبيِّه ﷺ؛ بل هو زيادةُ حِرصٍ من رسولِ اللّه ﷺ على إيمان قومِه، وإنقاذِهم منَ النّار.

نُكتة المُراد بابْتغاءِ النَّفقِ في الأرضِ والسُّلَّمِ في السَّماء:

المبالغةُ في العُمْقِ والارْتفاعِ مُجاراةً لطلبِهم آيةً يؤمنون بها

ابْتغاءُ النَّفَقِ في الأرض، أي: أنْ يكونَ نفقًا مُتغلغِلًا، فذكرَ هذا المجرور ﴿فِي﴾؛ لإفادةِ المبالغةِ في العُمْقِ مع اسْتحضارِ الحالةِ، وتصويرِ حالِ الاسْتطاعةِ، إذْ منَ المعلومِ أنَّ النَّفقَ لا يكونُ إلّا في الأرض. وابْتغاءُ السُّلَّم في السَّماء، أي: مصْعدًا واصلًا إلى السَّماء والمعنَى: تعرُجُ وتبلُغُ به إلى السَّماء. ولعلَّ اختيارَ الابْتغاءِ في الأرضِ والسَّماءِ، أنَّ المشركينَ سألوا رسولَ اللّه ﷺ آياتٍ من جِنْسِ ما في الأرض، كقولِهم: ﴿حَتَّىٰ تَفۡجُرَ لَنَا مِنَ ٱلۡأَرۡضِ يَنۢبُوعًا ٩٠﴾ [الإسراء: 90]، ومن جِنْسِ ما في السَّماء، كقولِهم: ﴿أَوۡ تَرۡقَىٰ فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [الإسراء: 93]، ويجوزُ أن يكونَ المرادُ بابتغاءِ النَّفقِ في الأرض، أوِ السُّلَّم في السَّماء، هو الإتيانَ بالآيةِ، كأنَّه قيل: لو اسْتطعتَ النُّفوذَ إلى ما تحتَ الأرض، أو الرُّقيَّ إلى السَّماءِ لفعلتَ، لعلَّ ذلك يكونُ لكَ آيةً يؤمنون

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/200.

عندها[1]، وخلاصةُ المرادِ من ابتغاء نفقٍ في الأرض، أو ارتقاءِ سُلّم في السّماء "بيانُ حرصِه ﷺ على إسلام قومِه وتهالُكِه عليهم وأنّه لو استطاع أن يأتيَهم بآيةٍ من تحت الأرض، أو من فوق السّماء لأتى بها رجاءَ إيمانِهم"[2].

دلالةُ أسلُوبِ الشَّرط وحذْفِ مفعولِ المشيئةِ في الآيةِ الكريمةِ:

إفادةُ السِّياقِ تعلُّقَ الهدايةِ الإيمانيّةِ، بالمَشيئةِ الإلهيَّةِ

قولُه تعالى: ﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمۡ عَلَى ٱلۡهُدَىٰۚ﴾. صُدِّرتْ جملةُ: ﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ﴾ بـ ﴿وَلَوۡ﴾، وهي حرفُ امتناعٍ لامتناع؛ أي: امتناعُ جوابها لامتناع الواقعِ هنا بعدَها، فأفادتِ امتناعَ اجتماعِهم على الهدى لامتناع المشيئةِ الإلهيَّة؛ أي: لو شاء اللّهُ أن يجمعَهم على الهُدى لجمعَهم عليه، فمفعولُ المشيئة محذوفٌ؛ لقصدِ البيانِ بعد الإبهامِ على الطَّريقة المَسلوكةِ في فعلِ المشيئةِ، إذا كان تعلُّقُه بمفعولِه غيرَ غريب، وكان شرطًا لإحدى أدواتِ الشَّرطِ كما هنا، وكقولِه تعالى: ﴿إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ﴾ [النِّساء: 133]، وفي الجملةِ إشارةٌ إلى أنّه تعالى لَوْ شاءَ "لجعلَهم بحيث يختارون الهُدى، ولكن لمّا علمَ أنّهم يختارون الكفرَ، لم يشأْ أن يجمعَهم على ذلك"[3].

دلالةُ الجارّ والمجرورِ في قولِه تعالى: ﴿فَتَأۡتِيَهُم بِـَٔايَةٖۚ﴾:

الإتيانُ بآيةٍ ممَّا اقترحُوه قدرُ المُقدّرِ لا مرغوبُ البشرِ

قولُه تعالى: ﴿بِـَٔايَةٖۚ﴾ أي: بآية ممّا اقْترحوه يُسلّمونَ بها، فهنالكَ وصفٌ محذوفٌ دلَّ عليه قولُه: ﴿إِعۡرَاضُهُمۡ﴾، أي: عنِ الآياتِ الَّتي جئتَهم بها[4]، والمعنى " لو شاء اللّه لأظهرَ لهم آيةً تُلجئُهم إلى الإيمان، لكن لم يفعلْ لخروجِه عنِ الحكمةِ"[5].

(1) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 2/16، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السليم: 2/200، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 7/205.
(2) إبراهيم الأبياريّ، الموسوعة القرآنية: 9/426.
(3) إبراهيم الأبياريّ، الموسوعة القرآنية: 9/426.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السليم: 2/200، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 7/205.
(5) ابن عجيبة، البحر المديد: 2/113.

دَلالةُ الفاءِ في ﴿فَتَأْتِيَهُم﴾، وتنوينِ لفْظِ: ﴿بِـَٔايَةٖ﴾:

الفاءُ في ﴿فَتَأْتِيَهُم﴾ تفسيريَّةٌ، أي: للآيةِ الَّتي من جِنْس ما اقْترحوهُ منَ الآيات، وتنوينُ ﴿بِـَٔايَةٖ﴾ للتَّفخيم، أي: أن تجعلَ ذلك آيةً لهم فافعلْ[1]، وفيه منَ الدّلالة على حِرْصِه عليه الصّلاةُ والسّلامُ، على إسلامِهم ومُبالغتِه في ذلك إلى حيثُ لو قدَرَ على أن يأتيَ بآيةٍ من تحتِ الأرضِ أو من فوقِ السّماءِ لفعَلَ؛ للإيذانِ بأنَّ ما ذُكر منَ النّفق والسُّلّم ممّا لا يُستطاعُ ابتغاؤُه، فكيف باتّخاذِه[2] وقال في نوادر الأصول: "أنَّ الخطاب به تربيَةٌ له، وترقيةٌ من حالٍ إلى حالٍ.. قلتُ: تشديدُ الخطابِ على قدْرِ عُلوِّ المقامِ، كما هو معلومٌ"[3].

التَّفسيرُ والتَّفخيمُ يُوحِي بعجزِ البشرِ عمّا لم يأذنْ به اللهُ

مخالفةٌ تركيبيّةٌ في التّعبيرِ عنِ الهُدى بقوله تعالى: ﴿لَجَمَعَهُمۡ عَلَى ٱلۡهُدَىٰۚ﴾:

وقولُه تعالى: ﴿لَجَمَعَهُمۡ عَلَى ٱلۡهُدَىٰۚ﴾؛ أي: لَهَداهم أجمعين، وهذا تَفَنُّنٌ لطيفٌ جميلٌ في أُسلوبِ التَّعبيرِ، حيث صار تركيبًا خاصّيًّا عَدَلَ به بيانُ اللّه تعالى عنِ التَّركيب المشهورِ في نحوِ قولِه تعالى: ﴿فَلَوۡ شَآءَ لَهَدَىٰكُمۡ أَجۡمَعِينَ ١٤٩﴾ [الأنعام: 149]، وفي هذا التَّركيبِ الجليلِ إيماءٌ إلى تَمييزِ الَّذينَ آمنوا من أهلِ مكَّةَ على مَن بَقيَ فيها منَ المشركين؛ أي: لو شاءَ اللّهُ لَجمعَهم معَ المؤمنينَ على ما هدى إليه المؤمنينَ من قومِهم، وفي هذه المخالفةِ التّركيبيّةِ الّتي تجعلُ الهُدى مُستَعلًى عليه (بدلالة على) إشارةٌ إلى أنّ هذا، وإنْ كان غيرَ بعيدٍ على مشيئة اللّه فإنّه مخالفٌ لسُنّته - سبحانه - في خلْقه، وقد قال تعالى: ﴿وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخۡتَلِفِينَ ١١٨ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمۡۗ﴾ [هود: 118 - 119].

الاختلافُ سُنّةٌ كونيّةٌ، ولكنّه لا يفسدُ للودِّ قضيّةً

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/200.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/200.
(3) ابن عجيبة، البحر المديد: 2/113.

دلالةُ التّذْييلِ آخرَ الآية، في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾:

النّهيُ عن الجهل في آخرِ الآية، أنسبُ لظاهرِ ما وردَ به صَدرُها

والمرادُ بقوله تعالى: ﴿ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ يجوزُ أن يكونَ منَ الجَهل الَّذي هو ضدُّ العلم، كما في قولِه تعالى لنوح - عليه السلام - : ﴿إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ۝٤٦﴾ [هود: 46]، ويجوزُ أن يكونَ منَ الجَهلِ الّذي هو ضدُّ الحِلْم؛ أي: لا تَضِقْ صَدرًا بإعراضِهم، وهو أنسبُ لظاهرِ ما ورد به صَدرُ الآية، بقولِه تعالى: ﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ﴾، وكلا المعنَيَين سائغٌ؛ لأنَّه ينتظمُ مع مُفادِ الجملتَين القُرآنيَّتين؛ الأولى: ﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ﴾، والثّانية: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾، ومع كَونِ هذه الجملة تَذييلًا للكلام السّابقِ، فالمعنى: فلا يَكبُرْ عليك إعراضُهم، ولا تَضِقْ به صَدرًا، وأيضًا فكُنْ عالِمًا بأنَّ اللّه لو شاء لَجَمعَهم على الهُدى.

دلالةُ العُدولِ عنِ الأمر بالعِلمِ، إلى قوله تعالى: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾:

النَّهيُ عن الجهل ينطوِي ضِمْنًا على استحضَارِ العلْمِ

الجوابُ: هو أنَّ النَّهيَ عنِ الجَهل يَتضمَّنُه؛ فيتقرَّرُ في الذِّهنِ مرَّتَين، ولأنَّ في النَّهي عنِ الجهل بذلك تَحريضًا على استحضار العلْمِ به، فيكونُ تحصيلًا للحُسْنيَين[1]، والحاصلُ أنّ هذه التّتمّةَ التّذييليّةَ بمعنى: "فلا تكونَنَّ منَ الجاهلين بحكمةِ اللّه في خلْقِه، وبسُننِه الّتي اقتضاها علْمُه"[2]، أو بمعنى: "فلا تكونَنَّ - أيّها الرّسولُ ﷺ - منَ الجاهلين الّذين اشتدَّ حُزنُهم، وتحسَّروا حتّى أوصَلَهم ذلك إلى الجزعِ الشّديدِ"[3]، أو أنّ قولَه: ﴿مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ جارٌّ ومجرورٌ متعلّقان بمحذوفٍ، خبرِ الفعْلِ النّاقصِ ﴿تَكُونَنَّ﴾، والجملةُ لا محلَّ لها جوابُ شرطٍ مقدّرٍ: (إذا علمت ذلك فلا تكونَنّ منَ الجاهلين)[4].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/206 - 207.
(2) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 5/68.
(3) نخبة من أساتذة التّفسير، التفّسير الميسّر، ص: 131.
(4) أحمد عبيد الدّعاس وآخران، إعراب القرآن الكريم: 1/300.

توجيهُ الفرقِ بين قوله تعالى: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ﴾ و﴿فَلَا تَكُن﴾ و﴿أَن تَكُونَ﴾:

الجزعُ في مواضعِ الصّبرِ من دأبِ الجاهلين المُتهالِكين

قولُه تعالى: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ﴾ للمبالغةِ في الإنكارِ، ووردتْ في حقِّه ﷺ في مواضعَ منَ القرآن دون هذه المبالغةِ، كما في قولِه تعالى: ﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ۝٦٠﴾ [آل عمران: 60]، وقولِه تعالى: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ۝٢٠٥﴾ [الأعراف: 205]، ولم يكنْ رسولُ اللّهِ ﷺ منَ المُمترين الشّاكّين في أنَّ الحقَّ من ربِّه، ولم يكنْ كذلكَ منَ الغافلينَ عن ذكرِ اللّهِ في جميعِ أحوالِه؛ بلِ الغرضُ من ذلكَ الحضُّ على التزامِ الحقِّ منَ اللّهِ تعالى بيقينٍ، وعدمِ الغَفْلةِ عن ذكرِه في جميعِ الأحوالِ، باعتبارِ أنَّ الخطابَ لرسولِ اللّه ﷺ خطابٌ لأمَّتِه وهو القُدوةُ الحسنةُ لها[1]، ويظهرُ تبايُنُ ذلكَ كذلك في خطابَيْن، ما بين قولِه تعالى لمحمَّدٍ ﷺ: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾، وبين قولِه لنوحٍ عليه السلام: ﴿إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ۝٤٦﴾ [هود: 46]، والوجهُ هنا أنَّ ذلك لم يجئْ بحسَبِ النَّبيّيْن، وإنَّما جاءَ بحسَبِ الأمرَيْن اللَّذيْن وقعَ النَّهيُ عنهما والعتابُ فيهما، وبيَّنَ أنَّ الأمرَ الَّذي نُهيَ عنه محمَّدٌ ﷺ، أكْبرُ قدرًا وأخْطرُ مواقعةً منَ الأمرِ الَّذي واقعَه نوحٌ[2] عليه السلام، والنّهيُ عنِ الجهالةِ مُفادهُ التّذكيرُ بأنّ مشيئةَ العباد تابعةٌ لمشيئةِ اللّه وهو لم يشأْ جمْعَهم على الهُدى لحكمةٍ لا يعلمُها إلّا هو فلا تُتعبْ نفسك واصبرْ على قدَرِ اللّه وحُكمِه "فإنّ إتعابَ النّفس فيما لا يفيدُ، والجزعَ في مواضعِ الصّبرِ من دأبِ الجاهلين، أو المعنى: لا تكونَنَّ منَ الجاهلين، بأنّ هدايتَهم بمشيئةِ اللّه تعالى لا بمشيئتِك"[3].

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 2/260.
(2) ابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 2/288.
(3) المظهريّ، التّفسير المظهريّ: 3/233.

بيانُ الغرَضِ من توكيدِ النَّهي، في قولِه تعالى ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾:

الزَّجرُ عن حالةِ الجهالةِ تنزيهٌ للنّبيِّ عن مقارفتِها

المقصودُ من توكيدِ النَّهيِ في قولِه تعالى: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ﴾ التَّغليظُ والتَّبعيدُ والزَّجرُ له ﷺ، عن مثلِ هذه الحالة[1]، والمعنى" ولا تحزنْ لعدمِ حصولِ ما يطلبونَه منَ الآيات الّتي لو بدا لهم بعضُها، لكان إيمانُهم بها اضطراراً لخروجِه عنِ الحكمةِ التّشريعيّةِ المؤسَّسةِ على الاختيارِ، وإنّما نهاه عن هذه، وغلّظ له الخطابَ تبعيداً له عن هذه الحالةِ"[2].

بيانُ المُرادِ بلفظِ (الجاهلينَ) في سياقِ الآيةِ الكريمةِ:

النّهيُ عنِ التّحسُّرِ على الغيبِ دفعًا للجهالةِ والرّيبِ

يمكنُ أن يُرادَ بوصفِ الجاهلين بقولِه تعالى: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾، أي: في أن لا تعلمَ أنَّ اللّه لو شاءَ لجمعَهم على الهدَى، ويُحتملُ أنَّ المرادَ هنا نهيُهُ عمّا كان عليه ﷺ منَ الحرصِ الشَّديدِ على إسلامِهم، والميلِ إلى إتيانِ ما يقترحونَه منَ الآياتِ طمعًا في إيمانِهم، وهو مُرتَّبٌ على بيانِ عدمِ تعلُّقِ مشيئتِه تعالى بهدايتِهم[3]، ويمكنُ أنْ يُرادَ بالجاهلين: المُقترحونَ، ويُرادَ بالنَّهي منعُه ﷺ منَ المساعدةِ على اقْتراحِهم. وأمّا الوجهُ الأوَّل فلا يجوزُ أن يكونَ جاهلًا، بأنَّه تعالى لو شاءَ لجمعَهم على الهُدَى؛ لأنَّ هذا من قبيلِ الدّين والعقائدِ، فلا يجوزُ أن يكونَ جاهلًا بها[4]. وما أَحْسَنَ ما ذهب إليه الرّازيُّ في هذه المسألة بقولِه: "قولُه تعالى في آخرِ الآية ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾، نهيٌ له عن هذه الحالة، وهذا النَّهيُ لا يقتضي إقْدامَه على مثلِ هذه الحالة، كما أنَّ قولَه: ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ [الأحزاب: 48]، لا يدلُّ على أنَّه ﷺ أطاعَهم وقَبِلَ

(1) الرّازي، مفاتيح الغيب: 12/521.
(2) القِنَّوجيّ، فتحُ البيان: 4/133.
(3) ابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 2/288، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/495، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السليم: 2/201.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/495.

دينَهم، والمقصودُ هنا أنَّه لا ينبغي أنْ يشتدَّ تحسُّرُكَ على تكذيبِهم، ولا يجوزُ أن تجزَعَ من إعراضِهم عنك، فإنَّكَ لو فعلتَ ذلك قرُبَ حالُكَ من حالِ الجاهل"[1].

سرُّ العُدولِ عن قولِه تعالى: (فلا تكنْ جاهلًا) إلى: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾:

عدَل بيانُ اللهِ تعالى عن خطابِه لرسولِه ﷺ بقولِه: (فلا تكن جاهلًا) إلى قولِه: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾؛ لأنَّ الأوَّلَ يقتضي وصفَ رسولِ اللهِ بالجهل، وهذا لا يجوزُ في حقِّه ﷺ؛ لأنَّه ﷺ معصومٌ منَ الجهل بلا خلافٍ، ولكنَّ العصمةَ لا تمنعُ الامْتحانَ بالأمرِ والنَّهي، أو لأنَّ ضيقَ صَدْرِه، وكَثْرَةَ حُزنِه، منَ الجِبلّاتِ البشريَّة، وهي لا ترفعُها العصمةُ.

عصمتُه ﷺ من الجهل، عصمة إلهيّة له من كلّ نقيصة

ويمكنُ أنْ لا يكونَ الرَّسولُ ﷺ هو المرادَ بهذا الخطاب، وذلك أنَّه تعالى قالَ: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾، فهذا إخبارٌ وعقدٌ كُلّيٌّ، أنَّه لا يقعُ في الوجودِ إلّا ما شاءَ وُقوعَه، ولا يختصُّ هذا الإخبارُ بهذا الخطابِ بالرَّسولِ ﷺ؛ بلِ الرَّسولُ عالمٌ بمَضْمونِ هذا الإخبار، فإنَّما ذلك للسّامع، فالخِطابُ والنَّهيُ في: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ﴾ للسّامعِ دونَ الرَّسولِ، فكأنَّه قيل: ولو شاءَ اللهُ - أيُّها السّامعُ الَّذي لا يعلمُ أنَّ ما وقعَ في الوجودِ بمشيئةِ اللهِ - جمْعَهُمْ على الهُدَى لَجمعهُم عليه، فلا تكونَنَّ أيُّها السّامعُ منَ الجاهلينَ، بأنَّ ما شاءَ اللهُ إيقاعَهُ وقع، وأنَّ الكائناتِ معذوقةٌ بإرادتِه[2].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(كَبُرَ) و(شَقَّ):

كبُرَ بالضّمّ يكبُرُ؛ أي: عظُم، فهو كبير وكُبارٌ، فإذا أفرط قيل: كُبّار بالتّشديد[3]، وكلُّ ما جَسُم فقد كَبُر، وفي التَّنزيل: ﴿۞قُلْ كُونُوا۟

الفعلُ (كَبُرَ) آثرُ في بيان حالةِ الرّسولِ ﷺ، وهو حزينٌ على حالِ المُعانِدين

(1) الرّازي، مفاتيح الغيب: 12/521.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/495 - 496.
(3) الجوهريّ، الصّحاح: (كبر).

حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ﴾ [الإسراء: 50 - 51]، قال ثَعلبٌ: "قَولُه: ﴿أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ﴾ مَعناهُ: كونوا أشدَّ ما يكون في أنفسكم فإنّي أميتُكم وأُبليكم[1]، وأمّا لفظُ شقّ فإنّ "شقَّ: الشّين والقاف أصلٌ واحدٌ صحيحٌ يدُلُّ على انصداعٍ في الشَّيء، ويُقالُ: أصابَ فُلانًا شِقٌّ ومَشَقَّةٌ، وذلك الأمرُ الشَّديدُ، كأنَّه من شدَّتِه يَشُقُّ الإنسانَ شَقًّا، قال الله تعالى: ﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنفُسِ﴾ [النّحل: 7]"[2]، وسياقُ النَّصِّ القُرآنيِّ يتناولُ حالةَ رسولِ الله ﷺ فيما كان يُصيبُه من همٍّ كبيرٍ في تكذيبِ قومِه، وإعراضِهم عنِ الحقِّ، وهذا ما كان يتسلَّلُ إلى صدرِه فيُضَيِّقُه عليه، فتظهرُ علاماتُه على وجهِه، فيكبُرُ عليه ذلك، ولا أكبَرَ في الذُّنوب وأشدَّ قُبحًا منَ الكُفرِ بالله والشِّركِ به؛ ولذلك كان يُخاطبُه ربُّه قائلًا: ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾﴾ [الكهف: 6]؛ أي: مُهلِكُها بسبب عدمِ إيمانِهم، وهذه الحالُ منَ الضّيق في النَّفْسِ يُناسِبُ سياقَ الحديث عنها استخدامُ الفعْلِ ﴿كَبُرَ﴾ أكثرَ من غيرِه.

(الإعراض) و(الإدبار):

لفظُ (الإعـراضِ) أَوفَـى بالسِّياقِ والمعنى من لفظِ (الإدبارِ)

معنى (الإعراض) هو الإدبارُ التّامُّ، بحيث يكون موليًّا عُرْضَه، وحقيقةُ الإعراض: عدمُ الالتفات إلى الشّيءِ بقصْدِ التّباعُدِ عنه، ثمّ استُعملَ استعمالاً شائعًا في التّرك والإمساكِ عنِ المخالطةِ والمحادثة، يقالُ: أعرض عنه كما يقال: صدَّ عنه، ومنه قولُه تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾ [الأنعام: 68] ولذلك كثُرَ هذا اللّفظُ في أشعارِ المُتيَّمين

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (شقّ).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (شقّ).

رَديفًا للصُّدودِ، وهذا أقربُ المعاني إلى المعنى الحقيقيّ[1]، وأمّا الإدبار فيُقالُ: دَبَرَ السَّهمُ الهدفَ: سَقطَ خَلفَه، ودَبَرَ فلانٌ القومَ: صارَ خلفَهم، قالَ تعالى: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ [الأنعام: 45]، والدّابرُ يُقالُ للمُتَأخِّرِ، وللتّابع، إمّا باعتبار المكانِ، أو باعتبار الزَّمانِ، أو باعتبار المرتبةِ، وأدبَرَ: أَعرَضَ وولَّى دُبُرَه، قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾﴾ [المدّثر: 23]، وتَدابَرَ القومُ ولَّى بعضُهم بعضًا[2]، وبمقارنةِ هذا المعنى بذاك يتَّضحُ أنَّ الإعراضَ الَّذي كان يَشُقُّ ويَكبُرُ على رسول الله ﷺ، ليس بالتَّأخُّر بالزَّمانِ أو المكانِ أو الرُّتبةِ، أو بأيِّ تأخُّرٍ عنه ﷺ، وعن دعوتِه للإسلامِ، وإنَّما هو إعراضٌ بالكُلّيَّة بالتَّكذيبِ والكُفرِ التّامَّين، ولذلك جاء استخدامُ البيانِ الإلهيّ لكلمة الإعراض، أَوفَى بالسّياقِ، والمعنى المُرادِ من كلمة الإدبارِ.

(الابْتغاء) و(الطَّلَب):

استخدامُ السِّياقِ الفعْل (تبتغي) أَوفَى منَ الفعْلِ (تَطلُبَ)

الطَّلبُ: الفَحصُ عن وجود الشَّيء عَينًا كان أو معنى، قال تعالى: ﴿أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ﴿٤١﴾﴾ [الكهف: 41]، وأطلبتُ فُلانًا: إذا أسعفتُه لِما طلَبَ، وإذا أَحوَجتُه إلى الطَّلَب. وأَطلبَ الكلأُ: إذا تباعدَ حتَّى احتاجَ أن يُطلَبَ. وأمّا (الابتغاءُ) الَّذي تقدَّمَ بيانُه في شرح المفردات فهو بمعنى الطَّلب الَّذي يحتاجُ إعانةً عليه، واتّخاذَ السُّبُل للحصول عليه، كما هو في سياقِ النَّصِّ القرآنيِّ في ابتغاء النَّفقِ في الأرض أو السُّلَّم في السَّماء للحصول على آيةٍ تكونُ سببًا لإيمان المُكذِّبين. ولذلك كان استخدامُ السّياقِ للفعلِ ﴿تَبْتَغِىَ﴾ أَوفَى بالغرضِ المنشودِ، وتحقيقِه منَ الفعلِ (تَطلُبَ) أو غيرِه منَ الأفعال المرادِفة.

(1) محمّد عطيّة متوليّ، التّوليّ والإعراض عن الحقّ في القرآن الكريم، حوليّة كليّة الدّراسات الإسلاميّة والعربيّة، العدد: 33، القاهرة، 2016م، ص: 1821.

(2) الرّاغب، المفردات: (دبر).

(النّفَق) و(المغارة):

النَّفقُ: الطَّريقُ النّافذ، والسَّرَبُ في الأرضِ النّافذُ فيه له مَخْلَصٌ إلى مكانٍ[1]، قال الزّجّاجُ: "النّفقُ: الطّريقُ النّافذُ في الأرض. والنّافقاء، ممدود: أحد جِحَرةِ اليربوعِ يَخرِقه من باطن الأرض إلى جِلدةِ الأرض، فإذا بلغ الجلدةَ أرقَّها، حتّى إنْ رابَه ريبٌ، دفعَ برأسه ذلك المكانَ وخرجَ، ومنه سُمّي المنافقُ؛ لأنّه أبطنَ غيرَ ما أظهر"[2]، وأمّا الغَوْرُ: فهو المُنهَبطُ منَ الأرض، يُقال: غارَ الرَّجلُ، وأغار، وغارتْ عينُه غَوْرًا وغُئورًا، قالَ تعالى: ﴿أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا﴾ [الكهف: 41]، أي: غائرًا، وغَوْرُ كلِّ شيء قَعْرُه. والغارُ في الجبل، قالَ تعالى: ﴿إِذْ هُمَا فِي ٱلْغَارِ﴾ [التّوبة: 40]، والغارُ، والمَغارُ، والمَغارةُ كالكهفِ في الجبل، قالَ تعالى: ﴿لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا أَوْ مَغَـٰرَٰتٍ أَوْ مُدَّخَلًا﴾ [التّوبة: 57][3].

النَّفقُ: طريقٌ نافذٌ في الأرضِ لـه مَخرَجٌ، والمغارةُ خلافُه

(السُّلّم) و(المِعراج):

السُّلَّمُ: ما يُتوصَّلُ به إلى الأمكنةِ العالية، فيُرْجَى به السَّلامةُ، ثمَّ جُعِلَ اسْمًا لكلِّ ما يُتوصَّلُ به إلى شيءٍ رفيعٍ كالسَّبب، قالَ تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ﴾ [الطّور: 38][4]

ويقال للسُّلّم المرقاة وهو ما يُصعد عليه إلى الأماكن العالية، ومنه قولُ الشّاعرِ:

وَلا لَكُما مَنْجىً عَلَى الأَرْضِ فابْغيا *** بِهِ نَفَقًا أَوْ في السَّماواتِ سُلَّما[5]

وأمّا المِعراج فمن العُروجِ وهو: ارْتقاءٌ وذهابٌ في صُعودٍ، قالَ تعالى: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ﴾ [المعارج: 4]. والمعارِجُ: المصاعدُ،

السُّلَّمُ: سَبَبُ الصُّعودِ والارْتقاءِ ولكلِّ ما يُرجَى الوصولُ إليه

(1) الرّاغب، المفردات: (نفق)، والرّازي، مختار الصّحاح: (نَفَقَ).
(2) ابن الجوزيّ، زاد المسير: 2/25.
(3) الرّاغب، المفردات، والرّازي اللغوي، مختار الصّحاح: (غَوَرَ).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات: (سلم).
(5) البيت لكعب بن زهير. ينظر: أبو حيان، البحر المحيط: 4/114، والسمين، الدّرّ المصون: 4/610، والماوردي، النّكت والعيون: 2/109.

قالَ تعالى: ﴿ذِى ٱلۡمَعَارِجِ ۝٣﴾ [المعارج: 3]، وعَرَجَ عُروجًا وعَرَجانًا: مَشَى مَشْيَ العارِج أوِ العُرجان، أي: الذّاهبِ في صُعود، وعَرَجَ في السُّلَّمِ: ارْتَقَى[1]، قال الأخفشُ: "إن شئتَ جعلت الواحدَ (مَعْرَج)، و(مِعْرَج) بكسر الميم وفتحِها، كما تقول: (مِرْقاة) و(مَرْقاة)، و(المعارج) أيضا المصاعدُ[2] ومنه قولُه تعالى: ﴿لَّجَعَلۡنَا لِمَن يَكۡفُرُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ لِبُيُوتِهِمۡ سُقُفٗا مِّن فِضَّةٖ وَمَعَارِجَ عَلَيۡهَا يَظۡهَرُونَ ۝٣٣﴾ [الزّخرف: 33].

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات: (عرج).
(2) الرّازيّ اللغويّ، مختار الصّحاح: (عرج).

﴿۞إِنَّمَا يَسۡتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسۡمَعُونَۘ وَٱلۡمَوۡتَىٰ يَبۡعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيۡهِ يُرۡجَعُونَ ٣٦﴾ [الأنعام: 36]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

إعراض الكافرين، ومساواتهم الموتى في عدمِ الانتفاعِ والاتّعاظِ

لَمّا أفادَتِ الآيةُ السّابقةُ تَأْييسَ وُلوجِ الإيمانِ إلى قلوبِ الكافرين، خاطبَ اللّهُ تعالى نبيَّه ﷺ قائلًا له: لا تُطْمِعْ نفسَكَ فيما لا مَطمَعَ فيه؛ فإنَّ ما شاءَه اللّهُ تعالى لا يكونُ غيرَه، ولَمّا أَفْهمَ هذا القضاءُ الحَتْمُ أنَّه قد صارَ حالُهم حالَ من حُتِمَ بالموت، فلا يمكنُ إسْماعه إلّا اللّه تعالى، ولا يُمكِنُ أنْ يستجيبَ عادةً، قال: ﴿إِنَّمَا يَسۡتَجِيبُ﴾ في مجاري عاداتكم الَّذين فيهم قابليَّةٌ للسَّمْع؛ لأنَّهم أحياء، فَيتدبَّرونَ حينئذٍ ما يُلْقى إليهم، فينتفعونَ به، وهؤلاء قدْ ساوَوُا الموتَى في عدم قابليَّةِ السَّماعِ للخَتْمِ على مشاعرِهم، والموتى كلُّهم حِسًّا ومعنًى يَبْعثُهم اللّهُ تعالى بإعادةِ الرّوحِ إليهم، فَيسْمعونَ حينئذٍ سماعًا لا يَنفعُهم، وقد حُرِموا فائدةَ السَّمعِ يومَ أنْ كان السَّمْعُ وفهمُ المسموع ينفعُهم[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَسۡتَجِيبُ﴾: جوابُ الكلام: هو ما يقطعُ الجَوْبَ، فيصِلُ من فمِ القائلِ إلى سمعِ المتلقّي، لكن خُصَّ بما يعودُ منَ الكلام دونَ المبتدأ منَ الخطاب، قالَ تعالى: ﴿۞فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوۡمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ﴾ [النّمل: 56].

والاستجابةُ قيل: هي الإجابةُ، وحقيقتُها هي التَّحرّي للجوابِ والتَّهيُّؤُ له، لكنْ عُبِّرَ به عنِ الإجابةِ لقلَّةِ انْفكاكِها منها، قالَ تعالى: ﴿ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ﴾ [الأنفال: 24][2]، والمقصودُ في الآية: ﴿إِنَّمَا

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 7/101 - 102.
(2) الرّاغب، المفردات: (جوب)، والرّازي، مختار الصّحاح: (جَوَبَ).

﴿يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾: العملُ بما يطلبه الآمر، فالَّذي لا يسمعُ لا يُجيبُ، وليس عنده القُدرة على التَّحرّي والتَّهيُّؤِ للجواب فضلًا عنِ العمل.

2) ﴿يَسْمَعُونَ﴾: السَّمْعُ: قوَّةٌ في الأُذُنِ، به تُدرَكُ الأصواتُ، وفعلُه يُقالُ له: السَّمعُ أيضًا، وقد سَمِعَ سمعًا، ويُعبَّرُ تارةً بالسَّمعِ عنِ الأُذن، نحو: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ﴾ [البقرة: 7]، وتارةً عن فعلِه بالسَّماع، نحو: ﴿إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴿٢١٢﴾﴾ [الشُّعراء: 212]، وتارةً عنِ الفَهْم، وتارةً عنِ الطّاعة، تقولُ: اسْمَعْ ما أقولُ لك، ولم تسمعْ ما قلتُ، وتعني: لم تفهم، قالَ تعالى: ﴿سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾ [النِّساء: 46]، أي: فَهِمْنا قولَك، ولم نأتمرْ لك.

وقولُه تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الأنفال: 21]، يجوزُ أنْ يكونَ معناه: فهِمْنا وهم لا يَفهمون، وأنْ يكونَ معناه: فَهِمْنا وهم لا يعملونَ بموجبِه، وإذا لم يُعمَلْ بموجبِهِ؛ فهو في حُكمِ مَنْ لم يُسْمَع[1].

ومنه الآيةُ الَّتي معنا: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾، أي: الَّذين يَفهمون، أو الَّذين يعملون بموجب ما يفهمون، فَعدَمُ عملِهم بما فهموا لا فائدةَ منه، ولذلك قالَ بعدَه: ﴿وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ﴾، فالَّذي لا يعملُ فيهم كالميِّتِ سواءً بسواء.

3) ﴿يَبْعَثُهُمُ﴾: أصلُ البعث: إثارةُ الشَّيءِ وتوجيهُه، يُقالُ: بعثْتُه فانْبعَث، ويختلفُ البعثُ بحسَبِ اخْتلافِ ما عُلِّقَ به، فبعثْتُ البعيرَ: أَثَرْتُه وسيَّرتُه[2]، وقولُه تعالى: ﴿وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ﴾ أي: يُخرجُهم، ويُسيِّرهم إلى القيامة[3].

4) ﴿يُرْجَعُونَ﴾: الرُّجوعُ: العَوْدُ إلى ما كان منه البَدْءُ، أو تقديرُ البَدء مكانًا كان أو فعلًا أو قولًا، وبذاتِه كان رجوعُه، أو بجزءٍ من أجزائه، أو بفعلٍ من أفعاله، قالَ تعالى: ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ [المائدة: 48][4]، وكما هنا في قولِه تعالى: ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾، أي: يعودون إلى اللهِ بذواتِهم كاملةً؛ ليُحاسَبوا على ما قدَّموه في دنياهم من أقوالٍ وأعمال.

(1) الرّاغب، المفردات: (سمع)، والرّازي، مختار الصِّحاح: (سَمِعَ).
(2) الرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (بَعثَ).
(3) الرّاغب، المفردات: (بعث).
(4) الرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (رَجَعَ).

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

المعرضون عن هداية الله كالموتى، يُتْرَكُ أمرهم إلى الله

يقولُ اللهُ تعالى مخاطبًا نبيَّه ﷺ: إنَّما يَستجيبُ لدعائكَ - يا محمَّدُ - مَنْ يسمعُ الكلامَ، ويَعيه، ويَفْهمُه، والكفّارُ موتَى القلوب؛ لأنَّهم لم يؤمنوا بدعوتِكَ ورسالتِك، هم كذلكَ كمن ماتتْ أجسادُهم، سيبعثُكم، ويبعثُهم إليه، وفي هذا ما فيه من التَّهكُّمِ والازْدراء بهم[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ فصلِ جملة ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ﴾ عنِ الآيةِ السَّابقة:

تقريرُ المعاني السَّابقة، وتعليلُ الواقع، من بيان السّياق الرّائع

قولُه تعالى: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾ تقريرٌ لما مرَّ من أنَّ على قلوبهم أكنَّةً مانعةً منَ الفِقْه، وفي آذانِهم وقْرًا حاجزًا منَ السَّماع، وفيه كذلك تحقيقٌ مع التَّعليلِ من أنَّه كما لا يُتصوَّرُ الإيمانُ من الموتَى البتَّة، والاسْتجابةُ الأكيدةُ المقارِنةُ للقَبول، فكذلكَ هؤلاءِ الَّذينَ لم يَقبلوا دعوتَك - يا محمَّدُ ﷺ - إلى الإيمان، لو سمعوا ما يُلقى إليهم سماعَ تفهُّمٍ وتدَبُّرٍ؛ لاسْتجابوا[2].

سرُّ أسلوب القصرِ بـ ﴿إِنَّمَا﴾ دون بقيَّةِ الأساليبِ:

واجب الدَّاعي بذلُ الوُسع في الدَّعوةِ، دون إفراطٍ ولا تفريط

جاءَ القَصْرُ في صَدْرِ الآيةِ الكريمةِ بـ ﴿إِنَّمَا﴾ وهي الَّتي يليها المقصورُ دائمًا دون غيرها من أساليب القَصْر وطُرقه[3]، وهذا المفهومُ للقَصْرِ مُؤذِنٌ بإعمالِ منطوقِه الَّذي يومِئ إلى إرجاءٍ بعدَ تأييسٍ: بأنَّ اللهَ جعلَ لقومٍ آخرينَ قلوبًا يفقهونَ بها، وآذانًا يسمعونَ بها، فأولئكَ هم الَّذين يَسْتجيبون[4].

---

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 2/122.

(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السليم: 2/201، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 7/207.

(3) وهذه خصيصةٌ للقَصْر بـ (إنَّما) أمّا غيرُها من أساليب القصر وأدواته؛ فإنها تختلف عن (إنَّما) فالقصر بـ (ما) و(إلّا) يكون المقصور عليه هو الَّذي يذكر بعد (إلّا) وإذا كان القصر بالعطف بـ (لا) كان المقصور عليه قبلها، وإذا كان العطف بـ (بل) أو (لكن) فالمقصور عليه بعدهما دائمًا، وإذا كان بتقديم ما حقُّه التَّأخير، فالمقدَّمُ هو المقصور عليه دائمًا، والمؤخَّر هو المقصور، ولكلٍّ من هذه الأدوات موضعٌ لا يصلح له غيرُها وهذا يدلُّ على دقَّةِ اللُّغة العربيَّة وسُموِّ بلاغتها ورقَّة طبع العرب في أفانين كلامهم، ينظر: الدكتور فضل عبّاس، أساليب البيان، ص: 175 - 177.

(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 7/207.

وأفادَ القصرُ بـ ﴿إِنَّمَا﴾ أنَّ ما بعدَها هو ممّا لا يجهله المخاطَبُ، ولا يدفع صحتَّه[1]، وفائدةُ ذلك: تهوينُ الخَطبِ على رسولِ اللّه ﷺ، فهو يعلمُ أنَّه لا يستجيبُ إلّا المؤمنون الذين يسمعون، فليس عليه أن يكبُر عليه إعراضُ الكافرين موتى القلوبِ، فهذا حالُ المستجيبين وغيرِ المستجيبين، وفيه تقريرٌ لقاعدةٍ عظيمةٍ من قواعد الدَّعوةِ إلى اللّه تعالى، وهي أنَّ الأمرَ بيد اللّه تعالى، وأنَّه ليس على الدّاعي أن يبذلَ فوق طاقتِه في دعوتِه لدين اللّه، فالاستجابةُ مقترنةٌ بالسَّماعِ.

نكتةُ إيثارِ لفظِ ﴿يَسْتَجِيبُ﴾ على مرادفاتِه:

في قولِه تعالى: ﴿يَسْتَجِيبُ﴾ معنَى موافقةِ الدّاعي إلى الفعل لمجرَّدِ أنَّه دَعا به، مع كاملِ التَّهيُّؤ له والامتثال، دون تردُّدٍ مع قَصْدِ التَّبَع؛ لأنَّ الدّاعيَ والآمرَ هو اللّهُ ﷻ، وهو أعلى مقامًا من المجيب ومن غيرِه.

الاستجابة أوسعُ دلالةً، من الطَّاعةِ والإقبالِ

لذا لم يَذكرِ الفعلَ (يُطيعُ) أو (يُقْبِلُ)؛ لأنَّهما قد يكونان بغيرِ قصْدٍ للتَّبع، وقد يكونُ الآمرُ آمرًا بخير، أو آمرًا بشرٍّ، وهذا لا ينسجمُ مع سياقِ الآيةِ الكريمة[2]، ولاشتمالِ الاستجابةِ على الطّاعة والإقبالِ ضمنًا، فهي أوسعُ دلالةً وأرحبُ معنًى.

معنَى السِّين والتَّاء في ﴿يَسْتَجِيبُ﴾:

قولُه تعالى: ﴿يَسْتَجِيبُ﴾ بمعنَى يُجيب، فالسّينُ والتّاءُ زائدتان لإفادةِ التَّأكيد[3]، كما في قولِه تعالى: ﴿ٱسْتَوْقَدَ نَارًا﴾ [البقرة: 17]، فاسْتجابَ أخصُّ من أجاب؛ لأنَّ (اسْتجابَ) يقال لمن قَبِلَ ما دُعيَ إليه، وأجابَ أعمُّ، فيُقال لمن أجابَ بالقَبولِ وبالرَّدِّ، وفي قولِه تعالى: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾ بيانُ قَبولِ الدَّعوةِ ممَّن يَسْمع[4].

تأكيد استجابة مَنْ يَسمع، مفيدة في البلاغ وتأثيره

(1) الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص: 330.
(2) الرّاغب، المفردات: (جوب)، والعسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 334 - 335.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 7/207.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 4/202.

فائدةُ التَّعبير بصيغةِ المضارعِ ﴿يَسۡتَجِيبُ﴾:

تجدُّد الاستجابةِ وعدمِ انقطاعِها

جاءتْ صيغةُ ﴿يَسۡتَجِيبُ﴾ بالمضارع؛ لأنَّه يفيدُ التَّجدُّدَ والاسْتمرار، دون الانْقطاع؛ فالَّذين يَسمعونَ بتفهُّمٍ وتدبُّرٍ هُمُ الَّذين لا يَفْتأونَ يستجيبونَ لأوامرِ الدّاعي إلى الحقِّ والخير.

علَّةُ حذفِ مُتعلَّقِ الفعلِ ﴿يَسۡتَجِيبُ﴾:

الاستجابة الحقيقيّة لا تكون إلّا لله ورسوله

حُذِفَ مُتعلَّقُ الفعلِ ﴿يَسۡتَجِيبُ﴾؛ فلم يقل: يستجيب إلى رسول اللّه، أو إلى اللّه تعالى؛ لظهورِه من السّياق؛ لأنَّ المقامَ مقامُ الدَّعوةِ إلى عقيدةِ التَّوحيد، وتصديقِ الرَّسول في دعوته.

فائدةُ التَّعبيرِ بالاسْمِ الموصولِ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ دون الظَّاهر:

مَدْحُ السَّامعين، يشمل كلّ من يتحقَّقُ منه السَّمعُ والتَّدبُّر

جاءَ في قولِه تعالى: ﴿إِنَّمَا يَسۡتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسۡمَعُونَۘ﴾ الاسمُ الموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾ دون الظّاهر، فلم يقل: (السّامعون)؛ لأنَّه أفادَ التَّعريفَ فيهم بقابليتهمُ السَّمعَ؛ فهم أحياءٌ يتدبَّرون حينَ دعوتِهم ما يُلْقى إليهم، فينتفعون به[1]، ولبيان مَدْحهم بما في حيِّز الصِّلة، فهم يسمعون على الدَّوامِ، ولإفادةِ العموم؛ لأنّ اسم الموصول (الذين) يشملُ كلَّ من يسمع، ولو قال: السّامعون؛ لظُنَّ أنَّهم سامعون مخصوصون.

دَلالةُ لفظِ ﴿يَسۡمَعُونَۘ﴾، وأثرها في السّياق:

السَّمع بمعنى الفقهُ والاعتبار، لا مجرَّد السَّماع

وردَ التَّعبيرُ بالسَّماعِ في قولِه تعالى: ﴿يَسۡمَعُونَۘ﴾؛ بمعنى سماعِ الاعْتبارِ، لا سماعِ الأصوات، لأنَّ المرادَ بالسَّمعِ هنا الفِقْهُ، أي: يَفْقهونَ ما يُلْقَى إليهم منَ الإرشاد، فالمقصودُ سمعٌ خاصٌّ، وهو سمعُ الاعْتبار[2]، وليس كلُّ مُؤمنٍ يفقهُ ما يوجَّهُ إليه منَ الأوامرِ والنَّواهي وغيرِها من أمور الدّين والشَّريعة والأخلاق، وإنْ كانَ الإيمانُ بريدَ ذلكَ وسببَه.

(1) البقاعي، نظم الدُّرَر: 7/101.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 7/207.

نكتةُ التَّعبير بالسَّماع ﴿ٱلَّذِينَ يَسۡمَعُونَۘ﴾ دون الإيمان، في الآية:

مقابلةُ لفظ الموتى لمن يسمعُ، ولا يَستجيب

ورد قولُه تعالى: ﴿وَٱلۡمَوۡتَىٰ يَبۡعَثُهُمُ ٱللَّهُۘ﴾، وهذا الوجهُ مقابلٌ لـ ﴿ٱلَّذِينَ يَسۡمَعُونَۘ﴾ فكما أنَّ الموتَى لا يسمعونَ سماعَ اسْتجابةٍ فكذلكَ الَّذينَ يَسمعونَ، ولا يتدبَّرونَ، هم في واقعِ الحالِ لا يَستجيبون؛ ولذلك لم يقل: (الَّذين يؤمنون)، فلا وجهَ له هنا في سياق الآية الكريمة[1].

دلالةُ الوقفِ على ﴿يَسۡمَعُونَۘ﴾:

الاستجابةُ المعتبرةُ هي المقرونةُ بسماعِ فقهٍ وتدبُّرٍ

جاءَ الوقفُ على ﴿يَسۡمَعُونَۘ﴾ مقابلَ قولِه بعده: ﴿وَٱلۡمَوۡتَىٰ﴾، ليؤكِّد أنَّ الاسْتجابة لا تكون إلّا لمن يسمعُ بفقهٍ وتدبُّر[2]، والوقفُ تامٌّ[3]، ولو عطفَ؛ لترتَّبَ معنًى باطلٌ، وهو أنَّ الموتى يستجيبون.

بلاغةُ عطف جملة ﴿وَٱلۡمَوۡتَىٰ﴾ على سابقتها:

أمواتُ القلوبِ في حاجة إلى بعثٍ، لأنّهم لا يَستجيبونَ للحقِّ

ولذلكَ بعدَ انْتهاءِ الجملةِ الأولى بـ ﴿يَسۡمَعُونَۘ﴾ حَسُنَ عطْفُ جُملة: ﴿وَٱلۡمَوۡتَىٰ يَبۡعَثُهُمُ ٱللَّهُۘ﴾ على الجملةِ الأولى ﴿يَسۡتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسۡمَعُونَۘ﴾، وهي جملة لا محلَّ لها من الإعراب؛ لأنَّها استئنافيَّة، فأصبحَ معنَى الكلام: وأمّا المعرِضونَ عنك - يا محمَّدُ ﷺ - فَهُمْ مثلُ الموتَى، فلا يَسْتجيبون، كقولِه تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تُسۡمِعُ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾ [النَّمل: 80].

فحُذِفَ من الكلامِ ما دلَّ عليه السّياق، فإنَّ الَّذي لا يسمعُ قد يكونُ فقدانُ سمعِهِ من عِلَّةٍ كالصَّمَم، وقد يكونُ من عَدَمِ الحياة.

فتضمَّنَ عطفُ ﴿وَٱلۡمَوۡتَىٰ يَبۡعَثُهُمُ ٱللَّهُۘ﴾ تعريضًا بأنَّ هؤلاء كالأموات، لا تُرجَى منهمُ اسْتجابة، وتخلَّصَ إلى وعيدِهم بأنَّه يبعثُهم بعدَ موتِهم، أي: لا يُرجَى منهم رجوعٌ إلى الحقِّ إلى أن يُبعَثوا، وحينئذٍ يُلاقونَ جزاءَ كُفرِهم[4].

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 7/207.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 7/207.
(3) مكي، الهداية: 3/2012.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 7/208.

براعةُ الاحْتباكِ بين جملتي: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ﴾ و﴿وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ﴾:

السَّماعُ للهدى بفهمٍ وتدبُّرٍ حياةٌ

بيَّن اللّهُ ﷻ بقولِه: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾ أنَّ الَّذين فيهم قابليَّةُ السَّمْعِ همُ الَّذين يستجيبون؛ لأنَّهم أحياءٌ، فيتدبَّرون ما يُلقَى إليهم، فينتفعونَ به، وهؤلاء الكافرون قد ساوَوُا الموتى في عدمِ قابليَّةِ السَّماعِ للخَتْمِ على مشاعرِهم، ﴿وَٱلْمَوْتَىٰ﴾ أي: كُلُّهم حِسًّا ومعنًى ﴿يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ﴾، أي: المَلِكُ المحيطُ علمًا وقدرة، فهو قادرٌ على بعثِهم بإفاضةِ الإيمانِ على الكافر، وإعادةِ الرّوحِ إلى الهالكِ، فيسمعونَ حينئذٍ، ولذلك جاءتْ براعةُ الاحْتباكِ بين كلتا الجُملتَيْن في سياقِ الآيةِ الكريمة، حيث حذَفَ من الأوَّلِ: الحياةَ؛ لدَلالةِ ﴿وَٱلْمَوْتَىٰ﴾ عليها، ومن الثّاني: السَّماع؛ لدَلالة ﴿يَسْمَعُونَ﴾ عليه[1]، والتَّقدير: إنَّما يستجيبُ الأحياءُ الذين يسمعون، والموتى الذين لا يسمعون يبعثهم اللّه، وعلى هذا التَّقدير يتَّضح معنى الاستعارةِ في لفظ ﴿وَٱلْمَوْتَىٰ﴾.

بلاغةُ الاسْتعارةِ التَّصريحيَّة، في قوله: ﴿وَٱلْمَوْتَىٰ﴾:

أفادتِ الاستعارةُ التَّهكُّمَ بالمُعرِضينَ عنِ الاستجابةِ للحقِّ

قولُه تعالى: ﴿وَٱلْمَوْتَىٰ﴾ استعارةٌ، حيث شبَّه الكافرين بالموتى، وصرَّح بالمشبَّه به على سبيل الاستعارةِ التَّصريحيّة الأصليّة، فهي للكُفَّارِ الَّذين لا ينتفعونَ بعقولِهم ومَواهبِهم الَّتي وهَبَها اللّهُ لهم[2]، ويبعثُهم على هذا حقيقةً، فذكرُ البعث في قولِه تعالى: ﴿يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ﴾ ترشيحٌ للاسْتعارة التَّصريحيَّة؛ لأنَّ البعثَ من مُلائماتِ المشبَّه به في العُرف، وإنْ كانَ الحيُّ يُخبَرُ عنه بأنَّه يُبْعَث، أي: بعدَ موته، ولكنَّ العُرفَ لا يذكُرُ البعثَ إلّا باعْتبارِ وصفِ المبعوثِ بأنَّه ميِّت[3].

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 7/101 - 102.
(2) الشَّنقيطيّ، أضواء البيان: 2/189.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 7/208.

وجهُ اسْتعارةِ البعثِ للهدايةِ في ﴿يَبْعَثُهُمُ﴾:

هدايةُ الكافرينَ غيرُ مُمتنعةٍ في المأثور، وهي بأمر الله وقَدَرِه المقدور

في قولِه تعالى: ﴿يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ﴾ اسْتعارةٌ للهدايةِ بعد الضَّلالِ، تَبَعًا لاسْتعارةِ الموتِ لعدمِ قبولِ الهُدى على الوجهَيْن المعروفين في الاسْتعارةِ التّرشيحيَّة[1]، فالوجهُ الأوَّلُ: يكون بقاءُ البعثِ على حقيقتِه لا يُقصَدُ منه إلّا تقويةُ الاسْتعارة، وعلى الوجهِ الثّاني: يُستعارُ من ملائمِ المُشَبَّهِ به إلى شِبهِه من مُلائمِ المشَبَّه، فيكونُ على هذا الوجهِ في الكلامِ وعدٌ للرَّسولِ ﷺ بأنَّ بعضَ هؤلاء الضّالينَ المكذِّبينَ سَيهديهمُ اللّهُ تعالى إلى الإسلام، وهم مَنْ لم يَسْبق في علمِه حِرمانُهم منَ الإيمان[2]، وهذا تفسيرُ الحسن البصري رحمه اللّه تعالى حيث قال: "الكفّارُ مثل الموتى، واللّه يوفِّق منهم من يشاء إلى الإيمان، فيكون ذلك بعثَهم من موتهم"[3]، وهو تفسير إشاريٌّ مليحٌ.

وجهُ القصرِ والحصْرِ المستفاد في جملة ﴿ثُمَّ إِلَيۡهِ يُرۡجَعُونَ﴾:

كلُّ الخلقِ راجعون إلى الله، ولا أحد يتأبّى عن مصيره ومنتهاه

قدَّم المعمولَ في جملة: ﴿ثُمَّ إِلَيۡهِ يُرۡجَعُونَ﴾، وهو الجارُّ والمجرورُ إيذانًا بالحصرِ؛ أي: أنّهم يرجعون إلى اللّه تعالى وحده؛ لأنّه ليس هناكَ عدةُ ملوكٍ يَرْجِعُ بعضُ الناسِ إلى واحدٍ ليحاسبَه، وبعضٌ إلى واحدٍ ليُحاسِبَهُ، بل هو المَلِكُ الواحدُ القهارُ، الذي إليه مَرْجِعُ الجميعِ؛ ولذا قَدَّمَ المعمولَ فقال: ﴿ثُمَّ إِلَيۡهِ يُرۡجَعُونَ﴾[4].

---

(1) الاستعارة التَّرشيحيَّة أقوى أنواعِ الاستعارة وأكثُرها مبالغة؛ لأنَّ الاسْتعارةَ فيها تقوم على تناسي التَّشبيه، وذكر ما يلائم المشبَّه به، وهو (اللَّفظُ المستعار) الَّذي يُساعد على تناسي التَّشبيه، وأصلُ التَّرشيح في الاصطلاح: هو أن يُذكر في الكلام ما يُناسب المشبَّه به، وهو المستعار في أسلوب الاسْتعارة، والتَّرشيحُ وصفٌ عارضٌ للاسْتعارة، ولا يدخل في عناصرِها الأوَّليَّة المكوِّنة لها، وهو ليس بلازم فيها، وإنَّما رُشِّح ليقوّي الصّورة البلاغيَّة، ينظر: الحموي، خزانة الأدب، ص: 49، والزَّركشي، البرهان في علوم القرآن: 3/208.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 7/208.

(3) مكي، الهداية: 3/2012.

(4) الشنقيطي، العذب النمير: 1/198.

نكتة اختيار صيغة ﴿يَبۡعَثُهُمُ﴾ دون (سيبعثهم):

هداية الكافرين متحقِّقةٌ في كلِّ وقتٍ وحين

آثر النَّظمُ ذكرَ صيغةِ المضارعِ ﴿يَبۡعَثُهُمُ﴾ دون ذكر ما يفيدُ الاسْتقبالَ كأن يُقال: (سيبعثهم)، مع أنَّه ظاهرُ الحالِ، وحقيقة المآل، فالبعثُ وإن كان مستقبَلًا لكنَّه في حكمِ الواقعِ المتحقِّق الَّذي لا رَيْب فيه، وهذا على المعنى الحقيقيِّ، أما على تفسير البعث بالهداية فتكون صيغة المضارع دالَّةً على تجدُّدِ الهدايةِ في قلوبِ الكافرين زمانًا بعد زمان، وحينًا بعدَ حين، بفعل الاستجابة لنداءِ الفطرةِ في قلوبِهم، ونداء القرآن في عقولِهم.

بلاغةُ إسنادِ فعلِ ﴿يَبۡعَثُهُمُ﴾ إلى لفظِ الجلالة:

قدرةُ اللهِ على البعثِ حقيقيَّةٌ، والجزاءُ بعدَه لا مِرْيةَ فيه

في إسنادِ الفعلِ ﴿يَبۡعَثُهُمُ﴾ إلى لفظِ الجلالةِ ﴿ٱللَّهُ﴾ دون بنائه للمفعول - فلم يقل: (يُبعثون) - بلاغةٌ تتجلّى من وجوهٍ:

الأوَّلُ: تربيةُ المَهابةِ في النُّفوس، والثّاني: إثباتُ عقيدةِ البعثِ الَّتي كان يُنكرُها كُفّارُ قريشٍ وغيرُهم، والثّالثُ: زيادةٌ في التَّهديدِ والوعيد، والرّابعُ: بيانُ أنَّ أمر البعث الحقيقيِّ بعد الموتِ أو الهدائيِّ بأمر الله وحده، والخامسُ: الحثُّ على الإيمان، والتَّرغيبُ فيه، وبيانُ قدرةِ اللهِ على البعث[1].

معنَى حرفِ التَّراخي ﴿ثُمَّ﴾ ودلالته في السّياق:

الحشرُ قائمٌ لا محالةَ، بعدَ البعثِ منَ القبور

في هذا التَّراخي بـ ﴿ثُمَّ﴾ بين قولِه تعالى: ﴿يَبۡعَثُهُمُ ٱللَّهُ﴾، وقولِه تعالى: ﴿إِلَيۡهِ يُرۡجَعُونَ﴾: اسْتطرادٌ تَخلَّصَ به إلى قَرْعِ أسْماعِهم بإثباتِ الحشرِ الَّذي يقعُ بعدَ البعثِ الحقيقيِّ[2].

براعةُ التَّرهيبِ باستعمالِ ﴿إِلَيۡهِ﴾ العائدِ على لفظِ الجلالة:

خوَّفَ اللهُ تعالى من سَطَواتِه بقوله تعالى: ﴿إِلَيۡهِ﴾ أي: إليه وحَده

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 7/102.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 7/208.

يُرجعون، فلم يقل: (ثمَّ يُرجَعونَ)، وذلك لبيانِ أنَّ رجوعَهم إلى الذي كفروا به، ولم يستجيبوا لأمره، وإظهارَ هذا المعنى أرهبُ من تضمينه، فإنَّه تعالى قادرٌ على كلِّ ما يشاءُ منهم، لا يَخرُجُ شيءٌ من أحوالِهم عن مُرادِه أصلًا وحِسًّا بعدَ الموت، فيُساقونَ قَهْرًا إلى موقفٍ يُفصَلُ فيه بين كلِّ مظلومٍ وظالمه[1].

الرُّجوعُ إلى اللهِ للفصلِ بين العبادِ، مصير لامفرّ منه

بلاغة استعمالِ لفظِ الرُّجوع ﴿يُرۡجَعُونَ﴾:

الرُّجوعُ في قولِه تعالى: ﴿ثُمَّ إِلَيۡهِ يُرۡجَعُونَ﴾ هو العَوْدُ إلى ما كانَ منه البَدْء، سواء أكانَ بذاتِه أم بجزءٍ من أجزائه، أم بفعلٍ من أفعالِه، فالنّاسُ جميعًا يعودون إلى اللّهِ بذواتِهم كاملةً، ليُجْزَوا، ويُحاسَبوا على ما قدَّموه في حياتِهمُ الدُّنيا من أقوالٍ وأعمال كما قالَ تعالى: ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗا﴾ [المائدة: 48][2]، وبلاغة استعمالِ الرُّجوعِ لبيانِ أنَّ العبدَ سيرجعُ إلى موطنِه الذي أتى منه، ومكانِه الذي خُلقَ فيه، وفيه بيانُ أنَّ الجميعَ لآدم، وآدمَ من ترابٍ، فالاستجابة الطَّوعيَّةُ أنجى منَ القهريَّة.

التَّنبيه على أنَّ الرُّجوعَ للموطنِ الّذي أتى منه الإنسان، قدرٌ محتوم

نكتةُ استعمالِ المضارعِ دون المصدرِ، في ﴿يُرۡجَعُونَ﴾:

أفادَ استخدامُ فعلِ المضارعِ ﴿يُرۡجَعُونَ﴾ - فلم يقل: (ثمَّ إليه المرجع) - الدِّلالةَ على حدوثِ الرُّجوع، كما دَلَّ على زمنِ وقوعِ الرُّجوع، فجمعَ بين أمرَيْن في قضيَّةٍ مهمَّةٍ أنكرَها الكُفّار، وهي عقيدةُ البعثِ في وقوعِه حَدَثًا وزمنًا، ولذا لم يستخدمِ النَّظمُ المصدرَ (الرُّجوع)؛ لأنَّه يدلُّ على عمليَّةِ الرُّجوعِ دون زمنِها الَّذي ستقعُ فيه يومَ القيامةِ بأمرِ اللّهِ وقدَرِه[3].

الرُّجوعُ إلى اللهِ واقعٌ حَدَثًا وزَمَنًا، وهو المصير في الدّنيا الغَرُور

بلاغةُ الاستطرادِ، في قولِه تعالى: ﴿ثُمَّ إِلَيۡهِ يُرۡجَعُونَ﴾:

جاءَ قولُه تعالى: ﴿ثُمَّ إِلَيۡهِ يُرۡجَعُونَ﴾ اسْتطرادًا تخلَّصَ به إلى

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 7/102.
(2) الرّاغب، المفردات: (رجع).
(3) ابن هشام، شرح شُذور الذّهب، ص: 18، 491 - 492.

أفادَ الاستطرادُ إثباتَ الحشرِ بعدَ البعث في المعاد

قَرْعِ أسماعِهم بإثباتِ الحشر الَّذي يقعُ بعدَ البعثِ الحقيقيِّ، فيكونُ البعثُ في قولِه: ﴿يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ﴾ مُستعمَلًا في حقيقتِه ومجازِه، وقريبٌ منه في التَّخلُّصِ قولُه تعالى: ﴿فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَاۚ كَذَٰلِكَ يُحْيِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [البقرة: 73][1].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الاستجابة والطَّاعة:

الاستجابةُ: هي الإجابة، وهي موافقةُ الدّاعي إلى الفعلِ من أجلِ أنَّه دعا به؛ ولذا يُقالُ: أجابَ اللّهُ فُلانًا، ولا يُقالُ: أطاعَه، وهي تقعُ عن حكمةٍ ومصلحة[2].

الاستجابةُ: هي الإجابة، والطَّاعةُ اتّباع الآمر، والأولى أحسن في السّياق وآثر

والطّاعةُ تكونُ من الأَدْنَى إلى الأعلى؛ لأنَّها في موافقةِ الإرادةِ الواقعةِ موقعَ المسألة، والطّاعةُ إنَّما تقعُ رغبةً أوْ رهبة[3]، وهي تكونُ للخالقِ والمخلوق.

والطّاعةُ في مجازِ اللُّغة تكونُ اتّباع المدعوِّ الدّاعي إلى ما دعاه إليه، وإنْ لم يقصدِ التَّبَع، كالإنسانِ يكونُ مطيعًا للشَّيطان، وإن لم يقصدْ أن يُطيعَه، ولكنَّه اتَّبعَ دعاءَه وإرادتَه[4].

ومن بيانِ الفرقِ بين الكلمتَيْن يتَّضحُ أنَّ استخدامَ السّياقِ القُرآنيِّ في الآيةِ الكريمةِ للفعل ﴿يَسْتَجِيبُ﴾ أوفرُ حظًّا وأقومُ قيلًا من الفعل (يُطيع)؛ لسببَيْن:

الأوَّلُ: تلبيةُ دعوةِ مَنْ دَعا، وهو أعلى رُتبة، وهو الخالقُ ﷻ عن قَصْدٍ في اتِّباع أمره.

والثّاني: لأنَّه صاحبُ الخَلْقِ والأمرِ والحكمةِ فيما يَدْعو إليه،

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 7/208.
(2) الرّاغب، المفردات: (جوب)، والعسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 334 - 335.
(3) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 335.
(4) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 349.

ولذلك أخبرَ أنَّ الَّذين يَسْتجيبون همُ الَّذين يسمعونَ سماعَ تفهُّمٍ وتدبُّر، لا سماعَ هُروبٍ وتَذَمُّر.

الرّجوع والردّ:

الرّجوع ما يعاد وهو محبوب، والرّدّ ما يرجع وهو مكروه

تُستعمل إحدَى الكلمَتَيْن مكانَ الأُخرى، لكنّ الأصلَ في الرّجْع أن يكونَ فيما يجوزُ أن تُرجِعَه من غيرِ كراهةٍ له، كما في قوله تعالى: ﴿فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ﴾، ولا يجوزُ أن تردَّه إلا إذا كرهتَ حالَه[1].

البعث والنّشر والإحياء والإخراج:

تدور هذه الألفاظ حول معنى الرّجوع إلى الحياة، باستقبال الآخرة وأهوالها

بعثُ الخلق اسْمٌ لإخراجهم من قُبورهم إِلَى الموقفِ، ومِنْه قَوْله تَعالَى: ﴿مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَاۜ﴾. وأمّا النّشور فهو اسْم لظُهور المبعوثين وظُهورِ أعمارهم لِلْخَلائِقِ، ومِنْه قَوْلُك: نشرتُ اسْمك ونشرتُ فَضيلَة فلان، إلّا أنّه قيلَ: أنشرَ اللّه المَوْتَى بالألف، ونشرتُ الفَضيلَةَ والثَّوْبَ؛ للْفرقِ بَين المَعْنيين[2]. والإخراج مرادف للبعث يعني إخراجَ الموتى من قبورِهم، وإعادةَ الحياةِ إليهم، وبعثِهم مما كانوا فيه من العدمِ والتّلاشي إلى الوجودِ والإعادةِ والإحياءِ.

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 114.
(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 289.

﴿وَقَالُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦۚ قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةٗ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ٣٧﴾ [الأنعام: 37]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

طلبهم آية قد تعجّل بهلاكهم

لَمَّا سلَّى اللّٰهُ تعالى نبيَّه ﷺ فيما أخبرَه به من أقوالِهم بما شرحَ صدرَه، وسرَّ خاطرَه، وأَعْلَمَه تخفيفًا عليه أنَّ أمرَهم إنَّما هو بيدِه ﷻ؛ ذكرَ بعضَ كلامِهم الآيلِ إلى التَّكذيبِ عَقِبَ إخبارِه بالبعثِ والحشرِ الَّذي يُجازي فيه كلًّا بما يفعلُ حاكيًا تعجُّبَهم الَّذي سبقَه تعجُّباتٌ فيما قالوه: ﴿وَقَالُوٓاْ إِنۡ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا﴾ [الأنعام: 29]، ومن قبلُ في قولِهم: ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ مَلَكٞۖ﴾ [الأنعام: 8]. وتعجُّبُهم في قولِه تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦۚ﴾ قائمٌ على المغالطةِ والعِنادِ والمكابرة، والَّذي لا يُناسبه إلّا الجوابُ الفَصْل المُفحِمُ بقولِه تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةٗ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ءَايَةٞ﴾: الآيةُ: العلامةُ الظّاهرة، وهي مُشتقَّةٌ من التَّأيّي الَّذي هو: التَّثبُّتُ والإقامةُ على الشَّيء[2]، يُقالُ: قد تأيَّيْتُ، أي: تلبَّثْتُ، وتَحبَّسْت[3].

والآيات: إشارةٌ إلى الأدلَّة، والمرادُ بـ ﴿ءَايَةٞ﴾ في قولِه تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ﴾ العلامةُ الخارقةُ الَّتي تضطرُّهم إلى الإيمانِ كنزولِ الملائكة، أو نَتْقِ الجبل أو غيرِها منَ الآيات[4].

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 7/102 - 103.
(2) الرّاغب، المفردات: (أي).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (أيا).
(4) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 2/122، والشَّوكاني، فتح القدير: 2/159.

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

يُخبرُ اللّهُ تعالى عن المشركين قيلهم: لولا أُنزِلَ عليه آيةٌ من ربِّه، أي: خارقٌ على مُقتضى ما كانوا يُريدون، وممَّا يتعنَّتون، كقولِهم: ﴿لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفۡجُرَ لَنَا مِنَ ٱلۡأَرۡضِ يَنۢبُوعًا ۝٩٠﴾ إلى قولهم: ﴿أَوۡ تَرۡقَىٰ فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤۡمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيۡنَا كِتَٰبٗا نَّقۡرَؤُهُۥ﴾ [الإسراء: 90 - 93] الآيات، فقلْ لهم: إنَّ اللّه تعالى قادرٌ على ذلك، ولكنَّ حكمتَه تعالى تَقْتَضي تأخيرَ ذلك؛ لأنَّه لو أنزل وفقَ ما طَلَبوا، ثمَّ لم يؤمنوا، لَعاجلَهم بالعقوبة، كما فعلَ بالأُمم السّالفة، ولكنَّ أكثرَهم لا يعلمون أنَّ اللّه قادرٌ على ذلك، وأنَّه ترَكه لحكمةٍ بالغةٍ لا تَبْلُغُها عقولُهم[1].

لا تَعارُضَ بين قُدرةِ الله وحِكْمتِه، في تَأْخِيرِ آياتِه بعُقوبَةِ المُعانِدِين الحمقى

الإِيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

معنَى الواو في قولِه تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ﴾:

صدرُ الآية عَطفٌ على جُملة: ﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيۡكَ إِعۡرَاضُهُمۡ﴾ [الأنعام: 35]، وهو عَوْدٌ إلى ما جاءَ في أوَّلِ السّورة من ذكرِ إعراضِهم عن آياتِ اللّهِ بقولِه تعالى: ﴿وَمَا تَأۡتِيهِم مِّنۡ ءَايَةٖ مِّنۡ ءَايَٰتِ رَبِّهِمۡ إِلَّا كَانُواْ عَنۡهَا مُعۡرِضِينَ ۝٤﴾ [الأنعام: 4][2].

إعراضُ المشركين عن آياتِ الله فعلٌ مُتكرِّرٌ

ذِكْرُ المفردِ ﴿ءَايَةٞ﴾ وإرادةُ الجمع (آيات):

جاءَ التَّعبيرُ بـ ﴿ءَايَةٞ﴾ مع أنَّهم اقْترحوا آياتٍ مختلفةً في مجالاتٍ عديدة، ولكنَّ النَّظمَ أَجْملَها بقولِه: ﴿ءَايَةٞ﴾ اعْتمادًا على علمِها عندَ رسولِ اللّهِ ﷺ والمؤمنين، فقالَ: ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦۚ﴾[3].

إفرادُ الآيةِ دليلٌ على استمرارِهم في تكذيبِ كلِّ آيةٍ نازلةٍ

وكذلك فإنَّهم قالوا ذلك مع تكاثُرِ ما أُنْزِلَ من الآياتِ على رسولِ اللّهِ ﷺ لتركِهمُ الاعْتدادَ بما أُنزِلَ عليه، كأنَّه لم يَنزلْ عليه شيءٌ منَ الآياتِ عِنادًا منهم[4].

---

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 2/122، والشَّوكاني، فتح القدير: 2/160.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 7/209.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 7/209.
(4) الزَّمخشري، الكشّاف: 2/16.

ويمكنُ أن يُرادَ بالآيةِ هنا: آيةٌ واحدةٌ تكونُ ثابتةً بالتَّدريجِ لا تنقطعُ، وهذا إشارةٌ منهم إلى أنَّهم لا يَعدّونَ القرآنَ آيةً ولا شيئًا ممّا رَأَوْه منه ﷺ من غيرِ ذلك كما في انْشقاقِ القمر[1].

نكتةُ التَّعبيرِ بالضَّمير ﴿وَقَالُواْ﴾، لا بالاسْمِ الصَّريح:

التَّهكُّمُ بالمشركينَ ومُقترحاتِهم، لونٌ من تبشيع مقالهم

في ذكرِ القائلينَ بالضَّمير في قوله: ﴿وَقَالُواْ﴾ دونَ الاسْمِ الصَّريح (المشركين) وجهانِ اثْنان:

الأوَّلُ: الاستهانةُ والتَّهكُّمُ بهم، وعدمُ الاعْتدادِ بأقوالِهم ومُقترحاتِهم.

الثّاني: الاكْتفاءُ بذكرِهم بالاسْمِ الصَّريح في آياتٍ تقدَّمتْ، كما في قولِه تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ﴾ [الأنعام: 22].

ثمَّ جاءتِ الآياتُ تترى في بيانِ أوصافِهم منَ الكذب، وإنكارِ البعث، والظُّلم، والجُحودِ، ثمَّ جاءَ طلبُهم الآياتِ لا طمعًا في الإيمان أوْ بحثًا عن الحقِّ، وإنَّما جاء تَعْجيزًا واسْتهزاءً.

دلالة التَّحْضيضِ في قولِه تعالى: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ﴾:

﴿لَوْلَا﴾ حرفُ تحضيضٍ بمعنَى: (هلّا)، والتَّحضيضُ هنا لقطْعِ الخَصْمِ وتعجيزِه[2]، وتعجيز الرّسول ﷺ بتحدّيه تطاولٌ لا يحبّه اللّه ولا يرتضيه.

نكتةُ إيثارِ صيغةِ (نُزِّلَ) على (أُنزِل):

(نُزِّل) أبلغُ في السّياق، من حيثُ تكرارُ النُّزولِ والتَّحدِّي

في تشديدِ الفعلِ ﴿نُزِّلَ﴾ و﴿يُنَزَّلَ﴾ إشارةٌ إلى آيةِ القرآنِ المتكرِّرةِ عليهم كلَّ حين، تدعوهُم إلى المبارزةِ، وتتحدّاهم بالمبالغةِ والمعاجَزة، وفيه كذلكَ إشارةٌ إلى أنَّهم بَلَغوا في الوقاحةِ الغايةَ، وأنَّهم لو قالوا: لولا أُنزِلَ، أي: مرَّةً واحدة؛ لكان أخفَّ في الوقاحة، أو إلى أنَّه أنزلَ عليهم أيَّ آيةٍ، كانتْ تُلجئُهم وتَضْطرُّهم إليه في آنٍ واحد، كما قالَ

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 7/103.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 7/209.

تعالى: ﴿إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ ۝٤﴾ [الشُّعراء: 4]، ولكنَّه لا يسألُ ذلكَ إلّا بالتَّدريج، كما تُشيرُ إليه صيغةُ التفعيل، بأنَّ آيةَ القرآن لا تَنقضي؛ بل كلَّما سَمعَها أحدٌ منهم أو من غيرِهم طولَ الدَّهرِ كانت مُنزَّلةً عليه؛ لكونِها واصلةً إليه، فهو أبلغُ من مطلوبِهم آيةً تُنزّلُ عليه وحدَه[1]، وفي إيثار هذه الصّيغةِ دليلٌ على أنَّ المقصودَ بالآية الجمعُ لا الإفرادُ.

سببُ تذكير الفعلِ ﴿نُزِّلَ﴾ دون تأنيثه:

ذُكِّرَ الفعلُ ﴿نُزِّلَ﴾ مع أنَّ الفاعلَ ﴿ءَايَةً﴾ مؤنَّثٌ؛ لأنَّ تأنيثَ ﴿ءَايَةً﴾ غيرُ حقيقيٍّ، وحَسُنَ للفَصل، فاجتمعَ مُسَوِّغانِ لتجريدِ الفعلِ من علامةِ التَّأنيث، فإنَّ الفصلَ وحدَه مُسوِّغٌ لتجريدِ الفعل منَ العلامة[2].

دَلالةُ اسْتعمالِ حرف الاستعلاء ﴿عَلَيْهِمْ﴾:

اقْترانُ الآيةِ بالتَّنزيلِ مع العُلْويَّةِ في ﴿عَلَيْهِمْ﴾ دليلٌ قويٌّ على أنَّ المرادَ بالآية هنا ما هو منَ الخوارق الموجِبَةِ لهلاكهم، كإنزالِ ملائكةِ العذاب، أو نارٍ مُحْرِقةٍ منَ السَّماء، أوْ حجارةٍ من سِجّيلٍ تجعلُهم كَعصْفٍ مأكول، أوْ سَنا برقٍ يذهبُ بالأبْصار، أو نحوِ ذلك ممّا ينزِلُ من عُلْوٍ إلى سُفْل[3].

أفادَ النَّظمُ أنَّ الآيةَ المطلوبَ إنزالُها عُلْويَّةٌ سمائيَّة

نكتةُ إيثارِ حرفِ الاستعلاءِ ﴿عَلَيْهِ﴾:

استُعمل ﴿عَلَيْهِ﴾ دون (إليه)، مع أنَّ الظّاهر استعمالُ حرف انتهاء الغايةِ، ذلك أنَّه استُعمل حرفُ ابتداء الغاية: ﴿مِّن رَّبِّهِمْ﴾ فهي تفيدُ ابْتداءَ غايةِ الإنْزال، أي: الإنزالُ من اللّه تعالى، والابتداءُ له انتهاءٌ، لكنه عدلَ عن ذلك باستعمال حرف الاستعلاء، ونكتةُ

تهكُّمُ المشركين مآلُه الاعترافُ بالحقِّ

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 7/103 - 104.
(2) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 2/16.
(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 2/202.

ذلك التَّعرُّضُ لعنوانِ رُبوبيَّتِه تعالى المُشعِرِ بالعِلِّيَّةِ[1]، وأنَّ القومَ اعترفوا ضِمنًا بأنَّ الإنزالَ فيه تشريفٌ لمن نزل عليه الحقُّ، أو أنَّهم يذكرون ذلك من قَبيل التَّعريض بالنَّبيِّ ﷺ - أي: فيما يزعمُ - فيكونُ تهكُّمًا من جهتِهم، وغايةَ الوقاحةِ في ازْدرائهم.

غرضُ تقديمِ الجارِّ والمجرور على نائبِ الفاعل:

في قولِه تعالى: ﴿نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ﴾ تقدَّم الجارُّ والمجرورُ ﴿عَلَيْهِ﴾ على نائبِ الفاعل ﴿ءَايَةٌ﴾ والأصلُ تأخُّرُه، وذلك بقصدِ قَصْرِ الإنزالِ عليه خاصَّةً لا على غيرِه[2].

قصر الإنزال عليه ﷺ دون غيره

سرُّ تأخيرِ قَيْدِ ﴿مِّن رَّبِّهِۦٓ﴾:

في تأخيرِ قولِه تعالى: ﴿مِّن رَّبِّهِۦٓ﴾ إشعارٌ بالمحسنِ إليه ﷺ على حسب ما يدَّعيه، أي: لِنستدِلَّ بها على ما يقولُ من التَّوحيدِ والبعث، وفي ذلكَ أيضا تَهكُّمٌ من المشركين، وإعلانٌ مقدَّمٌ عن عدمِ إيمانِهم، ولو جاءَ بتلك الآية[3].

الإشعارُ بالنُّكوصِ عن الإيمانِ بها سَلفًا، لكونه طبعا فيهم

إيثارُ عُنوانِ الرُّبوبيَّةِ على الأُلوهيَّة ﴿مِّن رَّبِّهِۦٓ﴾:

آثر النَّظمُ ذكر الرُّبوبيَّة في قولِه: ﴿مِّن رَّبِّهِۦٓ﴾؛ لسبَبَيْن اثْنَيْن:

الأوَّلُ: إيمانُ المشركينَ بتوحيد الرُّبوبيَّةِ دون توحيدِ الأُلوهيَّة، فهم يُعْنَوْن بما يؤمنون، ولو قالوا: (مِنَ اللهِ)؛ لأشعر ذلك بإيمانِهم باللّه تعالى.

الثّاني: إنزالُ الآياتِ لتحقيقِ مصالحِ العباد، وهي جَلْبُ المنافعِ ودَفْعُ المضارِّ، وخاصَّةً في قضيَّة الإيمان وهذه من معاني الرُّبوبيَّة، وهم فيما يزعمون أنَّهم إن أُنزلتْ هذه الآيةُ الَّتي يطلبون؛ فسيؤمنون، وإن كانوا في واقع الحال مُتهكِّمين كاذبين.

إنزالُ الآياتِ من مقتضياتِ الرُّبوبيَّةِ الدَّالَّةِ على القدرةِ والحكمةِ

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 2/202.
(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 7/103.
(3) البقاعي، نظم الدُّرر: 7/103.

دلالةُ إضافةِ (ربِّ) إلى ضميرِ النَّبيِّ ﴿رَّبِّهِۦٓ﴾:

في إضافةِ (ربِّ) إلى ضميرِ النَّبي ﷺ في قولِه تعالى: ﴿مِّن رَّبِّهِۦٓ﴾ تعريضٌ بتهكُّمِهم به[1] ﷺ، أي: إنْ كنتَ يا محمَّدُ ﷺ مُرسَلًا من ربِّك؛ فأثبتْ ذلكَ بنزول آيةٍ عليكَ ممَّن تدَّعي أنَّك رسولُه إلينا.

إنكار المشركين دائمًا لرسالة النّبيّ ﷺ

بلاغةُ فصلِ جملةِ المقاوَلة: ﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ﴾:

يرى ابنُ عاشور أنَّ الفصلَ هو استعمالٌ عربيٌّ، وهي عادةُ القرآنِ، ويصرِّح بأنَّه غيرُ مسبوقٍ إلى هذا الكشفِ في هذا الأسلوبِ القرآنيِّ الفريدِ، حيث وجَّه الفصلَ بقولِه: "فَصَلَ الجَوابَ، ولَمْ يَعْطِفْ بالفاءِ أَوِ الواوِ جَرْيًا بِهِ عَلَى طَريقَةٍ مُتَّبَعَةٍ في القُرْآنِ في حِكايَةِ المُحاوَراتِ، وهيَ طَريقَةٌ عَرَبيَّةٌ قالَ زُهَيْرٌ:

قيلَ لَهُمْ أَلا ارْكَبوا أَلا تا*** قالوا جَميعًا كُلُّهُمْ ألافا

أَيْ: فارْكَبوا، ولَمْ يَقُلْ: فَقالوا، وقالَ رُؤْبَةُ بْنُ العَجّاجِ:

قالَتْ بَناتُ العَمِّ يا سَلْمَى وإِنْ*** كانَ فَقيرًا مُعْدِمًا قالَتْ وإِنْ

وَإِنَّما حَذَفوا العاطِفَ في أَمْثالِهِ كَراهيَةَ تَكْريرِ العاطِفِ بِتَكْريرِ أَفْعالِ القَوْلِ؛ فَإِنَّ المُحاوَرَةَ تَقْتَضي الإِعادَةَ في الغالِبِ، فَطَرَدوا البابَ، فَحَذَفوا العاطِفَ في الجَميعِ، وهوَ كَثيرٌ في التَّنْزيلِ، ورُبَّما عَطَفوا ذَلِكَ بالفاءِ لِنُكْتَةٍ تَقْتَضي مُخالَفَةَ الاسْتِعْمالِ، وإِنْ كانَ العَطْفُ بالفاءِ هوَ الظّاهِرَ والأَصْلَ، وهَذا مِمّا لَمْ أَسْبَقْ إِلَى كَشْفِهِ مِنْ أَساليبِ الاسْتِعْمالِ العَرَبيِّ"[2].

حذف العاطف أسلوبٌ قرآنيٌّ في حكايةِ المحاورات

غرضُ توكيدِ جملةِ مَقولِ القول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ﴾:

في الاقْتصارِ في الجوابِ على بيانِ قُدرتِه تعالى على تنزيلِ الآيةِ مع أنَّها ليست في حيِّزِ الإنكار - فهم لا يُنكرون أنَّ اللّه قادرٌ؛ ولذلك سألوا الآية - للإيذانِ بأنَّ عدمَ تنزيلِه إيّاها مع قدرتِه عليها لحكمةٍ

التَّوكيدُ بأنَّ قدرةَ اللهِ تعالى في الإنفاذِ، مَنوطةٌ بالحِكمة

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 2/202.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/401.

بالغةٍ يجبُ معرفتُها، وهم عنها غافلون، كما يُنبئُ عنه الاسْتدراكُ القادمُ بقولِه تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾[1].

بلاغةُ العدولِ عن (ربِّي) إلى لفظِ الجَلالَة ﴿ٱللَّهَ﴾:

التَّعريفُ بصاحبِ الرُّبوبيَّة الحقَّةِ ﷻ

في قولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً﴾ عدولٌ عن الرُّبوبيَّة في (ربّي) إلى الألوهيَّة، وفي ذلك بلاغةٌ جليلةٌ فائقةٌ وهي أنَّ إظْهارَ الاسْم الجليلِ ﴿ٱللَّهَ﴾ لتربية المهابةِ في النُّفوسِ مع ما فيه من الإشعارِ بعلَّةِ القُدرةِ الباهرةِ من اللّهِ المعبودِ بحقٍّ، لا معبودَ بحقٍّ سواه[2]، وتعليمِ المخاطبين بأنَّ ربي - الذي تُنكرون وحدانيتَه على الوجه الحقِّ هو اللّه تعالى - قادرٌ على ما طلبتُم.

سرُّ اسْتعمالِ حرفِ الاسْتعلاء ﴿عَلَىٰٓ﴾:

الإشارةُ إلى إنزالِ العقوبةِ بالمشركينَ إنْ لم يؤمنوا

ذُكِرَ في قولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً﴾ حرفُ الاسْتعلاءِ ﴿عَلَىٰٓ﴾ متوسِّطًا بين القُدرةِ وإنْزالِ آية؛ إشارةً إلى المشركينَ أنَّ اللّه قادرٌ على إنزالِ العقوبةِ بهم كذلك؛ إنْ لم يؤمنوا، وخاصَّةً؛ إذا كانتِ الآيةُ تضطرُّهم إلى الإيمان، كنَتْقِ الجبلِ على بني إسرائيلَ الَّذين نَكثوا عَهْدَ إيمانهم، وجَحَدوا بآيات ربِّهم[3].

سرُّ التَّعبيرِ عن الإنْزالِ بأنْ والفعلِ المضارعِ دونَ المصدر:

التَّلويحُ بالعقوبةِ النّافذةِ بالمشركين، صدق في وعيد المكذّبين

وردَ الفعلُ المضارعُ ﴿يُنَزِّلَ﴾ بعدَ ﴿أن﴾ في قولِه تعالى: ﴿أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً﴾، دون التَّعبيرِ بالمصدَرِ (إنزال) بدلَ المضارع، والسِّرُّ في هذا التَّعبيرِ: هو أنَّ الفعلَ المضارعَ يَدُلُّ على أمرَيْن: الأوَّلُ: حدوثُ الإنزال، والثّاني: زمنُ وقوعِ الإنزال، وهو ما لا يدُلُّ عليه المصدرُ (إنزال)؛ إذ يتحقَّقُ فيه الحدوثُ دونَ زمنِه[4]، ففيه إيماءٌ إلى أنَّ إنزالَ الآيةِ قد يقعُ في أيِّ وقتٍ، فهو تلويحٌ بالعقوبةِ النافذة.

(1) أبو السِّعود، إرشاد العقل السَّليم: 2/202، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 7/210.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 2/202.
(3) الزَّمخشري، الكشّاف: 2/16.
(4) ابن هشام، شرح شذور الذَّهب، ص: 18، 491 - 492.

فائدةُ تكرارِ لفظِ ﴿ءَايَةٌ﴾ وتنكيرِها:

الآيةُ الثَّانيةُ عَيْنُ الأولى، وفيه إبطالُ القول بالتَّغايُرِ

إعادةُ لفظِ ﴿ءَايَةٌ﴾ بالتَّنكير في قولِه: ﴿أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً﴾ من بابِ إعادةِ النَّكِرَةِ نكِرَةً، وهي عَيْنُ الأولى، وهذا يُبطِلُ القاعدةَ المُتداولَة بين المُعرِبين: من أنَّ اللَّفظَ المُنكَّرَ إذا أُعيدَ في الكلام مُنكَّرًا؛ كان الثّاني غيرَ الأوَّل، ومثالُ إعادةِ النَّكرةِ نكرَةً - وهي عَيْنُ الأولى لا غيرُها - قولُه تعالى: ﴿۞ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً﴾ [الرّوم: 54][1]. و﴿ضَعْفٍ﴾ الثَّانية هي عَيْنُ الأولى.

فالآيةُ الأولى الَّتي طلبَها المشركون هي عَيْنُ الثّانيةِ الَّتي أكَّدَ النَّظمُ قدرةَ اللهِ على إنزالِها، وإلّا لَما كانَ لوجهِ إعادةِ ﴿ءَايَةٌ﴾ مُحاطةً بالقُدرةِ على الإنْزالِ أيُّ فائدة[2].

غرضُ عطفِ جملةِ الاستدراكِ على مقولِ القَوْل:

الجمعُ بين قدرةِ الله تعالى ورحمتِه بعبادِه

الغرضُ من عطفِ قولِه تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ على جملةِ مقولِ القولِ، الجمعُ بين قدرةِ اللّه تعالى ورحمته، فالمعنَى: أنَّه تعالى قادرٌ على أن يُنزِّلَ آيةً من ذلك، أو آيةً أيَّ آية، ولكنَّ أكثرَهم لا يعلمون، فلا يَدْرونَ أنَّ عدمَ تنزيلِها مع ظهورِ قدرتِه تعالى عليها لِما أنَّ في تنزيلِها قَلْعًا لأساسِ التَّكليفِ المبنيِّ على قاعدةِ الاخْتيار، أوِ اسْتئصالًا لهم بالكُلِّيَّةِ، فيقترحونَها جَهْلًا، ويَتَّخذونَ عدمَ تنزيلِها ذريعةً إلى التَّكذيب[3]، ففيه تنبيهٌ لهم على أنَّ عدمَ إجابتِهم فيه فائدةٌ لهم ورحمةٌ بهم، وهو اسْتبقاؤهم، فيحسَبونَ أنَّ عدمَ إجابتِهم إلى مُقترحِهم يدلُّ على عدَمِ صدقِ الرَّسولِ ﷺ وذلكَ من ظُلمةِ عقولِهم، فلقدْ جاءهم من الآياتِ ما فيه مُزْدَجَر[4].

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 7/212 - 213.
(2) ابن هشام، مغني اللَّبيب: 2/656.
(3) أبو السِّعود، إرشاد العقل السَّليم: 2/203.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 7/210.

دَلالةُ التَّعبير بلفظ (أكثر) في السّياق:

بعض المشركين يعلمون الحقَّ، وهم ما بين مكابرٍ ومستعدٍّ للهداية

في قولِه تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ جاءَ تخصيصُ عدمِ العلمِ بأكثرِهم لما أنَّ بعضَهم واقفونَ على حقيقةِ الحال، وإنَّما يُظهرون خلافَه مكابرةً وعنادًا[1]، ومنهم من عنده استعدادٌ للهداية فهي من قبيل تثبيت دعائم الهدايةِ في قلوب بعض المشركين، ممَّن أراد اللّه هدايتَه.

دلالةُ إضافةِ (أكثر) إلى الضَّميرِ دونَ الاسْمِ الظَّاهر:

الرَّبطُ بين فاصلةِ الآيةِ وصدرِها، بالإشارةِ إلى فريقٍ واحد منَ المشركين

في قولِه تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ أتى لفظُ (أكثر) مضافًا إلى الضَّمير (هم)، فلم يَقُلْ: (أكثرَ المشركين)؛ لأنَّ الَّذين طلبوا الآيةَ فريقٌ خاصٌّ منَ المشركين، وهمُ الَّذينَ أشارَ إليهم النَّظمُ في صَدْرِ الآية بقوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ﴾، وهم أصحابُ المُقْتَرَحات، وطلبِ الخوارقِ والمعجزاتِ، ولكنَّ اللّه مع قدرتِه على ما يَطلُبون، فإنَّ الحكمةَ تقتضي عدمَ إنزالِها[2]، وفيه إشارةٌ إلى أنَّ المشركين كانوا على درجاتٍ في العداوةِ والتَّصدّي لدينِ اللّه تعالى.

ولم يقلْ كذلك: (ولكن أكثر النّاس لا يعلمون)، ولو قال ذلك؛ لكان انتقالًا منَ الحديثِ الخاصِّ عن المشركين، إلى عمومِ النّاس، وهذا ما لم تُردْه الآيةُ الكريمةُ.

نكتةُ نفيِ العلمِ دونَ الإيمان ﴿لَا يَعۡلَمُونَ﴾:

أكثرُ المشركين لا يَعلَمون، ومن جهل شيئًا عاداه

جاءَ قولُه تعالى: ﴿لَا يَعۡلَمُونَ﴾ دونَ قولِه: لا يؤمنون؛ لأنَّ الجميعَ في واقعِ الحالِ مشركون لا يؤمنون، فهم بعيدونَ عنِ الإيمانِ بالكُلّيَّة، ولكنَّ الَّذين لا يعلمونَ فريقٌ منهم، أي: لا يَدْرونَ أنَّ عدمَ تنزيلِ الآيةِ مع ظهورِ قدرتِه تعالى إنَّما هو دليلٌ عليهم لا لهم، وحُجَّةٌ عليهم بأنَّهم يتَّخذونَ عدمَ تنزيلِها ذريعةً إلى التَّكذيب[3].

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 2/203.
(2) الزَّمخشري، الكشّاف: 2/17.
(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 2/203.

نكتةُ إيثارِ النَّفيِ على الإثباتِ، في قولِه: ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾:

نفيُ العلمِ عن المشركين، إشارةٌ إلى اللُّطفِ بهم من ربّ العالمين

آثَرَ النَّظمُ نفيَ العلمِ في قولِه تعالى: ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ على إثباتِ الجهلِ في حقِّهم، فلم يقلْ: (يَجهلونَ)، وعدمُ العلمِ هو جهلٌ، وذلك لما في نفي العلم دون إثبات الجهل منَ التَّلطُّفِ بالمخاطَب؛ استدراجًا للإيمانِ، وحثًّا له على الإقبال، ولما فيه من إثباتِ العلمِ للمؤمنين بصريح اللَّفظِ المنفيِّ عنِ المشركين.

غرضُ حذفِ مفعولِ ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾:

جهلهم يُطبق على جميع نواحي المعرفة

حُذفَ المفعولُ في قولِه تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾، وهو إمّا مطروحٌ بالكُلّيَّة، لا وجودَ له أساسًا، أو هو مُقدَّر، أي: لا يعلمونَ شيئًا، فهو محذوف مدلولٌ عليه بقرينةِ المَقام، والمعنَى: أنَّه تعالى قادرٌ على أن يُنزِّلَ آيةً من ذلك، أوْ آيةً أيَّ آيةٍ، وعلى عدمِ تنزيلِها، لما أنّ في تنزيلها قلعًا لأساسِ التَّكليفِ المبنيِّ على قاعدةِ الاخْتبار، أوِ اسْتئصالًا لهم بالكلّيَّة، فيقترحونَها جهلًا[1].

ويمكنُ أن يكونَ غرضُ حذفِ مفعولِ ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ الإشارةَ إلى زعْمِهم أنَّ عدمَ إجابتِهم لما اقْترحوه علامةٌ على أنَّ اللّه لم يُصدِّقِ الرَّسولَ ﷺ في دَعْوى الرِّسالة، فهم في هذه الحالِ لا يعلمونَ وجهَ الارْتباط بين دَلالة الآيةِ ومَدْلولِها، وفي ذلك تنبيهٌ على أنَّ فيهم من يعلمُ ذلكَ، ولكنَّه يكابرُ، ويُظهِرُ أنَّه لا يتمُّ عنده الاسْتدلالُ إلّا على نحوِ ما اقْترحوه[2].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الآية والسُّلطان والبُرهان:

الآيةُ: العلامةُ الظّاهرة، وهي مشتقَّةٌ منَ التَّأيّي الَّذي هو التَّثبُّتُ والإقامةُ على الشَّيء[3]، والسُّلطانُ: إظهارُ ما يُتسلَّطُ به على نقيضِ

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 2/203.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 7/211 - 212.
(3) الرّاغب، المفردات: (أي)، وابن منظور، لسان العرب: (أيا).

المعنَى بالإبطال، والبُرهان: إظهارُ صحَّةِ المعنَى وإفسادُ نقيضِه[1].
وبهذا يتبيَّن أنَّ السُّلطانَ والبُرهانَ متقاربان.

الآيةُ علامة ظاهرة، والسُّلطانُ هيمنة بنقيض المعنى، والبُرهان إبطال نقيضه

وأمّا الآية؛ ففيها زيادةُ معنَى: وهو ظُهورُ العلامةِ الفارقة، والتَّثبُّتُ منَ الشَّيء والإقامةُ عليه، وهذا ما طلبَه المشركون من إنزالِ علامةٍ ظاهرةٍ يَرَوْنَها كإنزالِ الملائكة، أو نَتْقِ الجبلِ أو غيرِ ذلكَ منَ الآياتِ الَّتي اقْترحوها، كما وردَ في آياتٍ عديدة.

العلم والفقه:

الكافر بعيد عن مُدْرَكاتِ العُلومِ فضلًا عن فقْهِهَا

العلمُ: هو اعتقادُ الشَّيءِ على ما هو به على سبيلِ الثِّقةِ، كان ذلكَ بعدَ لَبْسٍ أوْ لا.

وهو يُحقِّقُ المعلومَ، ويتناولُ الموجودَ والمعدوم، فالعلمُ يقعُ بالمعدومِ، ولا يُدرِكُ إلّا الموجود.

والعلمُ لا يُضافُ إلى ما عندَ أحدٍ إذا كان المعلومُ في نفسِه على علم، وسُمّيَ علمُنا: يقينًا؛ لأنَّ في وجودِه ارتفاعَ الشَّكِّ.

والعالِمُ بالشَّيءِ على ما هو به كالعاقدِ المُحكِم لما عَقَدَه، ومثلُ ذلك تسميتُهم العلمَ بالشَّيءِ حفظًا له. وحقيقةُ العالِمِ هو مَنْ يَصحُّ منه فعلُ ما علمَه مُتيقِّنًا؛ إذا كان قادرًا عليه[2].

وأمّا الفقهُ: فهو العلمُ بمقتضى الكلامِ على تأمُّلِه، ولهذا لا يُقالُ: إنَّ اللهَ يَفْقه؛ لأنَّه لا يوصفُ بالتَّأمُّل، وتقولُ لمن تخاطبُه: تفقَّهْ ما أقولُه، أي: تأمَّلْه لتعرفَه، ولا يُستعمَلُ إلّا على معنَى الكلام، ومنه قولُه تعالى: ﴿لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾﴾ [الكهف: 93].

(1) العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 108، والجرجانّي، التَّعريفات، ص: 35، وهنري لامنس، الفرائد، ص: 34.

(2) الفروق اللّغوية، ص: 57، 343، 373، 374، وأبو القاسم الحسينّي، الكلّيّات: 3/204: 4/296، والجرجانيّ، التَّعريفات، ص: 160.

وسُمّيَ علمُ الشَّرْع: فقهًا، والعالمُ به فقيهًا؛ لأنَّه مبنيٌّ على معرفة كلامِ اللّهِ تعالى وكلام رسولِه [1] ﷺ.

ولذلك كلِّه نفتِ الآيةُ عن المشركينَ العلمَ؛ لأنَّه لا يوجد عندَهم اعْتقادٌ صحيحٌ عنِ اللّه ورسوله، ومن ثَمّ فَهُمْ أبعدُ عنِ الفقهِ والتَّأمُّل.

(1) العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 412، 313، وابن منظور، لسان العرب: (فَقِهَ).

﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا طَٰٓئِرٖ يَطِيرُ بِجَنَاحَيۡهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمۡثَالُكُمۚ مَّا فَرَّطۡنَا فِي ٱلۡكِتَٰبِ مِن شَيۡءٖۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ يُحۡشَرُونَ ٣٨﴾ [الأنعام: 38]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الله تعالى ربّ كلّ دابّة، وهي راجعة إليه بأمره، فأيّ آية يطلبون؟

لمّا طلبَ المشركون آيةً على صدقِ رسولِ الله ﷺ فيما جاءَ عن ربِّه، ذكر الله تعالى لهم في هذه الآيةِ آياتٍ عظيمةً ممّا يرون منَ الأمم؛ فكلُّ أمَّة هي آيةٌ قائمةٌ بذاتِها، ولمّا قَدَّمَ اللهُ جلّ شأنه أنَّ الكُفّارَ يَرجعونَ إليه، ويُحشرون؛ بيَّنَ بعدَه أنَّ الدَّوابَّ والطَّيرَ أممٌ أمثالُهم في أنَّهم يُحشرون، والمقصودُ بيانُ أنَّ الحشرَ والبعثَ كما هو حاصلٌ في النّاسِ حاصلٌ في البهائم، فيناسبُ أنْ تكون جملةُ: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ عطفًا على جملة: ﴿وَٱلۡمَوۡتَىٰ يَبۡعَثُهُمُ ٱللَّهُ﴾؛ فإنَّ المشركينَ يُنكرونَ البعثَ، ويجعلونَ إخبارَ الرَّسولِ ﷺ به من أسباب تُهمتِه فيما جاءَ به، فلمّا توعَّدهمُ اللهُ بالآيةِ السّابقةِ بأنَّهم إليه يُرجعونَ؛ زادَ فسجَّل عليهم جَهْلَهم، فأخبرَهم بما هو أَعْجبُ ممّا أنكروه، وهو إعلامُهم بأنَّ الحَشْرَ ليس يختصُّ بالبَشَر، بل يَعُمُّ كلَّ ما فيه حياةٌ من الدَّوابِّ والطَّيْر، وذلك يقتضي لا مَحالةَ أن يُقتصَّ لها، فقد تكونُ حكمةُ حَشْرِها تابعةً لإلقاءِ الأرض وما فيها، وإعادةِ أجزاء الحيوان[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿دَآبَّةٍ﴾: الدَّبُّ والدَّبيبُ: مشيٌ خَفيف، ويُستعملُ ذلكَ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 7/215.

في الحيوان، وفي الحشراتِ أكثر، ويُستعمَلُ في كلِّ حيوان، وإنِ اخْتصَّتْ في التَّعارفِ بالفَرَس، قالَ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ﴾ [النّور: 45][1].

وعنَى بدابَّةٍ – في قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهۡرِهَا مِن دَآبَّةٍ﴾ [فاطر: 45] – الإنسانَ خاصَّةً[2].

وفي قولِه تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ عنَى بقوله: ﴿دَآبَّةٍ﴾: عمومَ من يَدِبُّ على الأرضِ منَ الإنسانِ والحشراتِ والحيوان[3].

2) ﴿أُمَمٌ﴾: أُمَمٌ: جمعُ أُمَّة، والأُمَّةُ: كلُّ جماعةٍ يجمعُهم أمرٌ ما، إمّا دينٌ واحدٌ، أوْ زمانٌ واحد، أوْ مكانٌ واحد، سواءٌ أكانَ ذلكَ الأمرُ الجامعُ تسخيرًا أو اخْتيارًا[4].

وقولُه تعالى: ﴿إِلَّآ أُمَمٌ أَمۡثَالُكُمۚ﴾، أي: كلُّ نوعٍ من الأحياء على طريقٍ قد سخَّرها اللهُ عليها بالطَّبْع[5]، فالنّاسُ أُمَّة، والطَّيْرُ أُمَّة، والسِّباع أُمَّة، والدَّوابُّ أُمَّة[6].

3) ﴿فَرَّطۡنَا﴾: فَرَطَ: الفاءُ والرّاءُ والطّاءُ أصلٌ صحيح يدلُّ على إزالة شيءٍ من مكانِه وتَنْحيَتِه عنه، يُقالُ: فَرَّطْتُ عنه ما كرِهَه، أي: نحَّيْتُه، فهذا هو الأَصلُ، ثمَّ يقالُ: أَفْرَطَ، إذا تجاوز الحدَّ في الأمر. يقولون: إيّاكَ والفَرَطَ، أي: لا تُجاوِزِ القَدْر، وهذا هو القياسُ؛ لأنَّه إذا جاوزَ القدرَ فقد أزالَ الشّيءَ عن جهتِه.

وكذلك التَّفريطُ، وهو التَّقصيرُ؛ لأنَّه إذا قصَّرَ فيه؛ فقد قَعدَ به عن رُتْبَتِه الَّتي هي له. وفَرَّط في الأمرِ قصَّر فيه وضيَّعَه حتَّى فاتَ[7]، وقولُه في الآية: ﴿مَّا فَرَّطۡنَا﴾ أي: ما أَغْفَلْنا عنه، ولا ضَيَّعْنا[8].

4) ﴿ٱلۡكِتَٰبِ﴾: كَتَبَ: الكافُ والتّاءُ والباءُ: أصلٌ صحيحٌ واحدٌ يدُلُّ على جَمْعِ شيءٍ إلى شيء، من ذلكَ الكتابُ والكتابةُ، يُقالُ: كتبتُ الكتابَ أكتُبُه كَتْبًا.

---

(1) الرّاغب، المفردات: (دب).
(2) قال أبو عبيدة في مجاز القرآن: 2/156: "ومجازُ ﴿دَآبَّةٍ﴾ هنا: الإنسان".
(3) السَّعدي، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 210.
(4) الرّاغب، المفردات: (أمّ)، والفيروزآبادي، القاموس: (أَمَمَ).
(5) الرّاغب، المفردات: (أمّ).
(6) تفسير عبد الرَّزاق: 2/208، والطَّبري، جامع البيان: 7/188.
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: 4/490، والرّازي، مختار الصِّحاح: (فَرَطَ).
(8) الشَّوكاني، فتح القدير: 2/160.

ومنَ الباب: الكتابُ: وهو الفَرْضُ، قالَ اللّهُ تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾ [البقرة: 183]، ويُقالُ للحُكْم: الكتابُ، قالَ تعالى: ﴿فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ﴾ [البيِّنة: 3]، أي: أحكامٌ مستقيمةٌ، ويُقالُ للقَدَرِ: الكتابُ[1]، و﴿ٱلْكِتَٰبِ﴾ في الآية: اللَّوح المحفوظ[2]، وقيل: إنَّ المراد به القرآنُ[3].

5) ﴿يُحْشَرُونَ﴾: الحَشْرُ: إخْراجُ الجماعةِ من مقرِّهم وإزعاجُهم عنه إلى الحربِ ونَحْوِها.

ويُقالُ ذلكَ في الإنسانِ وفي غيرِه، يُقالُ: حَشَرَتِ السَّنةُ مالَ بني فلان، أي: أزالتْه عنهم، ولا يُقالُ الحشرُ إلّا في الجماعة، قالَ تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾ [التَّكوير: 5]، وقالَ في وصفِ القيام: ﴿وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ [الكهف: 47]، وسُمّيَ يومُ القيامة: يومَ الحشر، كما سُمّيَ: يومَ البعثِ والنَّشر[4]، وقولُه تعالى: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ هو من هذا القَبيل في حشرِ الأمم وجمعِها بعدَ بعثِهم من قبورِهم[5].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

تُقرِّرُ الآيةُ الكريمة أنَّ جميعَ الحيواناتِ من البهائمِ والوحوشِ والطُّيور، كلُّها أُمَمٌ أمثالُ بني آدم، خلقَها اللّه جلّ شأنه كما خلقَ غيرَها، ورزقَها كما رزقَ غيرَها، ومشيئةُ اللّه وقدرتُه نافذةٌ فيهم، كما هي في البشر، ما أَهملَ ولا أَغفلَ ﷻ في اللَّوحِ المحفوظِ شيئًا من الأشياء، فكلُّ شيءٍ مُثبَتٌ فيه، وجميعُ الأُمَم تُجمَعُ، وتُحشَرُ إلى اللّهِ تعالى في موقفِ القيامة العسير، فيجازيهم بعدلِه وإحسانِه[6].

كلّ الدّوابّ والمخلوقات بأمر الله تسعى، وإليه يوم القيامة الرّجعى

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: 5/158 - 159، والرّازي، مختار الصِّحاح: (كَتَبَ).
(2) وهو اختيار الطَّبري في جامع البيان: 7/188، والبغوي في معالم التنزيل: 3/142.
(3) الشَّوكاني، فتح القدير: 2/160، والسَّعدي، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 210.
(4) الرّاغب، المفردات: (حشر)، والفيروزآبادي، القاموس: (حَشَرَ).
(5) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 2/123، والشَّوكاني، فتح القدير: 2/161.
(6) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 2/122 - 123، والسَّعدي، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 210.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

معنَى (الواو) في مطلع الآية:

قولُه تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ﴾ أفادتِ الواوُ الاستئنافَ المَسوقَ لبيانِ كمالِ قُدرتِه ﷻ، وشمولِ علمِه وسَعةِ تدبيره؛ ليكونَ كالدَّليل على أنَّه تعالى قادرٌ على تنزيلِ الآية، ولكنَّهُ سبحانه لا يُنزلُها محافظةً على الحِكمةِ البالغة، ولَمَّا توعَّدهم بالآيةِ السّابقة بأنَّهم إليه يُرجَعون؛ أعلَمَهم بهذه الآيةِ شدَّةَ جهلِهم، حيث إنَّ الحشرَ لا يختصُّ بالبشر، بل يعمُّ كلَّ ما فيه حياةٌ منَ الدَّوابِّ والطَّير.

أفادَ الاستئنافُ بيانَ سَعَةِ علمِ اللهِ، وكمالِ قُدرتِه

دَلالةُ ﴿مِن﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ﴾:

جاءتْ ﴿مِن﴾ هنا في موقعِها لتأكيدِ الاسْتغراق، أي: استغراقِ الدّابةِ والطّائر؛ ولذلك قالَ بعدَها: ﴿إِلَّآ أُمَمٌ﴾[1].

شمولُ الحشْرِ جميعَ الخلْقِ

سرُّ التَّعبيرِ بلفظِ ﴿دَآبَّةٍ﴾:

كلمةُ ﴿دَآبَّةٍ﴾ تفيدُ العموم، فهي أوسعُ في دَلالتِها وشمولِها من غيرِها منَ الألفاظ، فكلُّ ما يدِبُّ في الأرض، وينتقلُ برِجْلٍ وغيرِ رِجْل[2]، حيوانًا كان أو طيرًا لا يطير بجناحيه كالبطريق أو دوابّ البحر؛ فإنَّه يدخلُ تحت لفظ دابَّة، فاختيارُ هذا اللَّفظِ سيق ليعمَّ كلَّ ما يتحرَّكُ على هذه الأرض، إلّا ما استُثني بدلالة السّياق، وهو الإنسانُ ﴿أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾.

أدقُّ تعبيرًا عن المعنى، لعمومِه وشمولِه

فائدةُ تعلُّقِ الجارِّ والمجرورِ ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾ بمحذوف:

في تعلُّقِ الجارِّ والمجرور بمحذوفٍ صفةٍ لدابَّة إفادةُ زيادةِ التَّعميم والإحاطة، كأنَّه قيل: وما فردٌ من أفرادِ الدَّوابِّ يَستقرُّ في قُطْرٍ من أقطارِ الأرض[3]، إلا هو ضمْنَ أمَّةٍ منَ الأمم كما أنَّ

استقرارُ الأمم في الأرض، مبنيٌّ على السّنن الإلهيّة

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 7/105، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 2/203.
(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 7/105.
(3) الزَّمخشري، الكشّاف: 2/17، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 2/203.

البشر أمّةٌ، فذكرُ الأرض لبيان الاستقرار فيها، والحياةِ ضمْنَ نواميسها وسننها التي جعلها اللّه تعالى حاكمةً لشؤون الخلق، ولولا تلك السّننُ الكونيّةُ؛ لما استقرَّتْ في الأرض أمّةٌ منَ الأمم؛ ففي هذا القيدِ امتنانٌ ضمنيٌّ.

دَلالةُ حرفِ الظَّرفيَّة ﴿فِي﴾ على الاسْتغراقِ:

جيء بحرف الظَّرفيَّة (في) دون حرف الاستعلاء (على)، وهو ما يقتضيه الظّاهرُ؛ فإنَّ الدَّبيبَ يكونُ على الأرض لا فيها؛ لإفادة العمومِ والشُّمول، فإنَّ حرفَ الظَّرفيّة يشتملُ على البرّ والبحر، وما يدِبُّ على التُّراب وما تحت التُّرابِ، ولو قال: على الأرض؛ لفُهِم أنَّ المرادَ السّطحُ الترابيُّ فقط، والمقصودُ أعمُّ من ذلك، ممّا يراه الإنسانُ وما لا يراه، وفي ذلكَ غرضٌ جليلٌ، وهو الدَّلالةُ على عِظَم قُدرتِه تعالى ولُطفِ علمِه وسَعَةِ سُلطانِه، وتدبيرِه تلك الخلائقَ المتفاوتةَ الأجناسِ المتكاثرةَ الأصنافِ، وهو حافظٌ لما لها وما عليها، مُهيمِنٌ على أحوالِها لا يَشغلُه شأنٌ عن شأنٍ[1].

العموم هنا، يدخلُ فيه البَرُّ والبحرُ، وما ظهر وما بطَن من الأرض

بلاغةُ عطفِ الخاصّ على العامّ:

عدَّ بعضُ أهل العلم العطفَ في قوله تعالى ﴿وَلَا طَٰٓئِرٖ يَطِيرُ بِجَنَاحَيۡهِ﴾ من قَبيلِ ذكرِ الخاصِّ بعد العامِّ؛ لأنَّ الدابَّةَ تشملُ كلَّ ما دبَّ من طائرٍ وغيرِه، فهو كقولِه تعالى: ﴿وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ﴾... ﴿وَجِبۡرِيلَ﴾ [البقرة: 98] ويرى السّمينُ الحلبيُّ أنَّ المقابلة تنفي دخولَ الطّائر تحت اسمِ الدّابة[2]، وهو صحيحٌ في كونه طائرًا يطيرُ بجناحيه، وبلاغةُ العطفِ تظهرُ في ذكرِ كلِّ ما يراه الإنسانُ في البرّ والبحر والسّماء في حالة الانتقال؛ فإنَّ العبرةَ في الدَّوابّ انتقالُها، وكذلك الطّيرُ الذي ينتقل بالطَّيران، وهو الأنسبُ بكونِهم أممًا، أي: ينتقلون ضمْنَ

عنصر الانتقال في الدَّوابّ والطّيور، لبيان أنَّهم أُمَمٌ كالبشر

(1) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 2/17.
(2) الدُّرُّ المصون: 4/611.

قوانينَ كونيَّةٍ ثابتةٍ، كما أنَّ البشرَ ينتقلون في حياتهم ضمْنَ القوانينِ التي وضعَها اللّه لهم، فالدّوابُّ والطيور أممٌ كالبشر.

سرُّ الاختلافِ بين النّفي بـ (ما)، والنّفي بـ (لا):

إفادة العموم وتأكيد النّفي

اختلف التّعبيرُ بالنَّفي عنِ الجُملتين: ففي الأولى: جيء بـ ﴿وَمَا﴾ التي تدلُّ على النَّفيِ والعُموم، وهو ما يتناسبُ مع دخول ﴿مِن﴾، وعموم مفردةِ ﴿دَآبَّةٍ﴾، بينما في الجملة الثّانية جيءَ بحرف ﴿وَلَا﴾؛ ليُفيد تأكيدَ النَّفي، إذ هو المقصودُ، وليس المقصودُ الاستغراقَ، فالجملة خاصّةٌ بالطّائر الّذي فيه خاصيّةُ الطَّير بجناحيه.

نكتةُ التَّعبيرِ بصيغةِ اسْمِ الفاعل ﴿طَٰٓئِرٍ﴾ دونَ (طَيْر):

الطّيرُ اسمٌ لجنس الطّيور، بينما لفظ (طائر) وصفٌ للطّير حين طيرانِه

جاءَ التَّعبيرُ بـ ﴿طَٰٓئِرٍ﴾ دونَ طَيْر؛ لأنَّ طائرًا - وهو اسمُ فاعلٍ - يوصف به الطَّيرُ حين قيامه بالطَّيران، ولو قال: (ولا طَير)؛ لدخل كلُّ ما يدخلُ تحت اسم الطيوريّات ما طار منها، وما لم يطِرْ، فأتى باسم الفاعل ليقتصرَ على الطّيور التي تطيرُ بجناحَيها، دون التي لا تطيرُ، فيكون قيدُ ﴿يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾ من باب التَّوكيد، وهو المناسبُ في هذا السّياق، فيدخلُ في مفهوم دابّةٍ الطّيرُ الذي لا يطير، وهو بخلاف قوله تعالى: ﴿وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ﴾ [النّور: 41] إذِ الطَّيرُ ذُكر في سياقٍ لم يقترن بالمقابل، وهو الدّابةُ، فيكون قولُه: ﴿صَٰٓفَّٰتٍ﴾ [النّور: 41] مفيدًا للتَّخصيص.

بلاغةُ الاحْتباكِ بين جُملتي ﴿دَآبَّةٍ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾، و﴿طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيۡهِ﴾:

دلّ نظمُ الجملتَيْنِ على الإيجازِ، بما يُنبئُ عنِ الأَظْهَرِ منَ المعاني

تقديرُ الاحْتباك[1] في الآية كالآتي: (وما من دابَّةٍ تَدِبُّ في الأرض، ولا طائرٍ يَطيرُ بجناحَيْه في السَّماء)، فحذف من الأولى: (تدبُّ) ومن الثّانية: (في السماء)، وبلاغةُ الاحتباك تظهر في اختصار الألفاظ والإيماء إلى المعاني الكثيرة.

(1) الاختباك: هو أن يجتمع في الكلام متقابلان، فيُحذَف من كلِّ واحد منهما مقابلُه لدَلالة الآخر عليه، ينظر: الزَّركشي، البرهان في علوم القرآن: 3/129، والجرجانيّ، التّعريفات، ص: 25.

وهذا احْتجاجٌ بالأَظْهرِ فتخصيصُ ما في الأرضِ بالذِّكرِ دالٌّ على أنَّ الدَّبيبَ يكونُ بالأقدام وما يقوم مقامها، وفعلُ (يطيرُ) لا يكون إلّا في السَّماء[1].

نكتةُ تأكيدِ الطّيران، بقوله ﴿يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾:

إفادة السّياق بالتّوكيد معنى الشُّمولِ والإحاطةِ

في وصفِ طائرٍ بقولِه تعالى: ﴿يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾ قصدُ الشُّمولِ والإحاطة؛ لأنَّه وصفٌ آيلٌ إلى معنَى التَّوكيد؛ لأنَّ مُفادَ (يطيرُ بجناحَيْه) أنَّه طائرٌ، كأنَّه قيل: ولا طائرٌ ولا طائرٌ، والتَّوكيدُ هنا: يؤكِّدُ معنَى الشُّمولِ الّذي دلَّتْ عليه ﴿مِن﴾ الزّائدةُ في سياقِ النَّفْي، فحصَلَ من هذَيْن الوصفَيْنِ تقريرُ معنَى الشُّمولِ الحاصلِ من نفي اسمَي الجِنْسَيْن، ونكتةُ التَّوكيد: أنَّ الخبرَ لغرابتِه عندَهم وكونِه مَظِنَّةَ إنكارِهم أنَّه حقيقٌ بأنْ يُؤكَّد[2].

لطيفةُ التَّعبيرِ بـ ﴿يَطِيرُ﴾، دون (يُحلِّقُ):

لفظُ (يطيرُ) أعمُّ الألفاظ الدَّالة على استيعاب بقيَّةِ المعاني

دلَّتْ صيغةُ الفعلِ ﴿يَطِيرُ﴾ على لطيفةٍ بلاغيَّةٍ، وهي لفتُ الانْتباهِ إلى أنَّ المقصودَ هو بيانُ وظيفةِ الطَّيرانِ باعتبارِها العامِّ لا بالاعْتبارِ الخاصّ، فيدخُلُ التَّحليقُ والانْتقالُ والصَّيدُ ونحوُ ذلك، فالغرضُ هو اشْتمالُ عمومِ الأغراضِ الَّتي من أجلِها يطيرُ الطّائر، فهي لإفادةِ الجنسِ الشّاملِ لا لبعضِ الأفرادِ دونَ بعض[3].

معنَى (الباء)، في قولِه تعالى: ﴿بِجَنَاحَيْهِ﴾:

الاستعانة أوِ الحال المؤكَّدة، وكلاهما له دور في الدّلالة

في (الباء) في قولِه تعالى: ﴿بِجَنَاحَيْهِ﴾ قولان:

أحدُهما: أنَّ الباءَ مُتعلِّقةٌ بـ ﴿يَطِيرُ﴾ وتكونُ الباءُ للاسْتعانة.

والثّاني: أنْ تتعلَّق بمحذوفٍ على أنَّها حال، وهي حالٌ مؤكَّدة، وفيها رفعُ مجازٍ يُتوَهَّم؛ لأنَّ الطَّيرانَ يُستعارُ في السُّرعة[4].

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 12/524.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 7/216.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 7/216.
(4) العكبري، التبيان في إعراب القرآن: 1/241، والسَّمين الحلبي، الدُّرُّ المصون: 4/611.

نكتةُ تثنيةِ الجناحَيْن دونَ الجمعِ (لم يقلْ: بأجنحتِه):

دلَّت تثنيةُ الجناحَيْن على مراعاةِ اللَّفظِ المفرد، وهو من فصيح الاستعمال

وردتْ تثنيةُ الجناحَيْن دونَ الجمع؛ لأنَّ المُسنَدَ إلى الجناحَيْن مُفْرَدٌ، وهو ﴿طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ﴾، ولو قالَ: طَيْرٌ بالجمعِ؛ لَناسبَ أنْ يذكرَ الجمعَ معَهما بقولِه: (طيرٌ يطيرُ بأجنحتِه)، فراعَى في هذا التَّركيبِ اللَّفظَ المفرد، دونَ عُمومِ كلمةِ ﴿طَٰٓئِرٍ﴾، ولذلك كانَ قولُه: ﴿يَطِيرُ﴾ في محلِّ جرٍّ باعتبارِ لفظِه[1].

سرُّ استعمالِ أسلوبِ القَصْرِ، بالنَّفيِ والاستثناء:

إفادة هذا الأسلوب الشُّمولَ، وتحقيقَ المقصدِ منَ السِّياق

جاءَ في الآيةِ الكريمةِ أسلوبُ القصرِ بالنَّفي في قولِه تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ﴾ والاستثناءِ في قولِه: ﴿إِلَّآ أُمَمٌ﴾، وهو أسلوبُ القصرِ الحقيقيِّ الَّذي يعني: الشُّمولَ والعُموم، ويأتي المقصورُ عليه بعد ﴿إِلَّآ﴾، وما تقدَّمَها هو المقصورُ، وفي هذا توجيهُ العنايةِ الخاصَّةِ والمقصدِ الأساسِ فيما وراء ﴿إِلَّآ﴾؛ لأنَّه هو المُعوَّلُ عليه من قصدِ السِّياق، ولذلك تكونُ ﴿إِلَّآ﴾ هنا أداةَ حَصْر، تَقصُرُ المعنَى المنشودَ بما يليها، وهو من أقوَى أساليبِ القَصْر، لا يَصلُحُ ذكرُ بديلٍ عنه في تحقيقِ المراد[2].

دَلالةُ التَّعبيرِ بصيغةِ الجمعِ ﴿أُمَمٌ﴾، دونَ الإفراد:

لَمّا كانَ قولُه تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ﴾ دالًّا على معنَى الاستغراقِ ومُغنيًا عن أنْ يُقالَ: وما من دوابَّ ولا طَيْرٍ؛ حُمِلَ قولُه: ﴿إِلَّآ أُمَمٌ﴾ على المعنَى[3].

بلاغةُ التَّعريضِ، في قولِه تعالى: ﴿أُمَمٌ أَمۡثَالُكُمۚ﴾:

العقلُ ميزانُ الفرق بين الإنسان والدّوابّ والطّير

كلُّ نوعٍ من الحيوانات والطير تجتمعُ أفرادُه في صفاتٍ مُتَّحدةٍ بينَها، فكلُّ نوعٍ وجِنْسٍ منها له من الطَّبائعِ الَّتي تخصَّصَ بها بما

(1) السَّمين الحلبي، الدُّرُّ المصون: 4/611.
(2) فضل عبّاس، أساليب البيان، ص: 176 - 178.
(3) الزَّمخشري، الكشّاف: 2/17.

به قوامُه، وألهمَه اللّهُ اتِّباعَ نظامِه، وأنَّ له حياةً مؤجَّلةً لا محالة، كما لأُمَمِ البشرِ خصائصُها[1]، وفي ذلك تعريضٌ بالبشر من حيث التّماثلُ مع أُمم الحيوانات والطّيورِ، وأنَّهم مثْلُهم لا يختلفون إلّا بالعقل، الذي هو مناطُ التَّكليف، فإن تركوه؛ فقد وقع التَّماثلُ من كلِّ وجهٍ.

دلالة التَّشبيه، في قولِه تعالى: ﴿أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ﴾:

الرِّفقُ بالحيوان، من مآثر الإحسان في القرآن

المماثلةُ في قولِه تعالى: ﴿أَمْثَالُكُمْ﴾ التَّشابهُ في فصولِ الحقائقِ والخاصّيّاتِ الَّتي تميِّزُ كلَّ نوعٍ عن غيرِه، وهي النُّظُمُ الفطريَّةُ الَّتي فطرَ اللّهُ عليها أنواعَ المخلوقات، فالدَّوابُّ والطَّيرُ تُماثِلُ الأناسيَّ في أنَّها خُلِقتْ على طبيعةٍ تشتركُ فيها أفرادُ أنواعِها، وأنَّها مخلوقةٌ للّهِ مُعْطاةٌ حياةً مُقدَّرةً مع تقديرِ أرزاقِها وولادتِها وشبابِها وهَرَمِها، ولها نُظُمٌ لا تستطيعُ تبديلَها.

وفي ذلك كُلِّه تنبيهٌ للمسلمينَ على الرِّفق بالحيوان، فإنَّ الإخبارَ بأنَّها أممٌ أمثالُنا تنبيهٌ على المشاركةِ في المخلوقيَّةِ وصفاتِ الحيوانيَّة كلِّها[2].

غرضُ الاعْتراضِ بجملةِ: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ﴾:

تقرير المضمون

جاءتْ هذه الجملةُ مُعترِضَةً؛ لبيانِ سَعَةِ علمِ اللّهِ تعالى وعظيم قدرتِه[3]، وهذا الاعتراض مقرِّرٌ لمضمون ما قبلَها[4].

سرُّ النَّفي بـ(ما)، ودخول ﴿مِن﴾ على ﴿شَيْءٍ﴾:

رعايةُ اللهِ، شاملةٌ مصالحَ مخلوقاتِه، بلا استثناء

﴿مِن شَيْءٍ﴾ في قوله تعالى: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ﴾ مفعولٌ لـ ﴿فَرَّطْنَا﴾، و﴿مِن﴾ مَزيدةٌ للاسْتغراق، وجاءت قبلهما ﴿مَّا﴾ النّافيةُ لتأكيدِ هذا الاستغراق، والتَّقديرُ: ما تركْنا في القرآنِ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 7/213.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 7/217 - 218.
(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 2/204.
(4) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 2/204.

- على القول بأنَّ المقصودَ بالكتاب القرآنُ - شيئًا منَ الأشياءِ المهمَّةِ الَّتي من جُملتِها بيانُ أنَّه تعالى مُراعٍ مصالحَ جميعِ مخلوقاتِه على ما يَنْبغي[1].

نكتةُ إسنادِ فعلِ التَّفريطِ إلى الضمير (نا):

المبالغة في إثباتِ ما يحتاجُه المكلَّفُ في كتابِ ربِّه

في قولِه تعالى: ﴿مَّا فَرَّطْنَا﴾ أُسندَ فعلُ التَّفريطِ إلى (نا) الدّالَّةِ على العظمةِ الإلهيَّة، ولم يقل: (ما فُرِّط)؛ لبيانِ أنَّ الكتابَ كتابُه ﷻ، كأنَّه قال: ما فرَّطنا في كتابنا من شيء، وفي هذا الإسنادِ تربيةٌ للمهابةِ في نفوسِ السّامعين، وبيانٌ في نهايةِ المبالغةِ في أنَّه تعالى ما تركَ شيئًا ممّا يحتاجُ المكلَّفُ إلى معرفتِه في هذا الكتاب[2].

دَلالةُ اسْتعمالِ لفظِ (فرَّطَ)، دون ما يُقاربُها في الدلالة:

الفعلُ الأوسعُ في دَلالتِهِ وشمُوليَّتِهِ من غيرِه، يقدّم في الاستعمال

التَّفريطُ يجمعُ في معناه دلالةَ: قصَّرَ وفوَّت وأَغْفَلَ؛ لأنَّ الأصلَ في معناه تنحيةُ الشَّيءِ وإزالتُه من مكانِه، والأصلُ فيه كذلك: تجاوزُ القَدْر، وهو القياس؛ لأنَّه إذا جاوزَ القَدْر؛ فقد أزالَ الشَّيءَ عن جهتِه[3].

فقولُه تعالى: ﴿مَّا فَرَّطْنَا﴾ التَّقديرُ: ما فرَّطْنا شيئًا، وتَضمَّنَ ﴿فَرَّطْنَا﴾ معنَى: تَركْنا وأَغْفَلْنا، والمعنَى: ما أَغْفَلنا ولا تَرَكْنا شيئًا[4]، فدَلالةُ لفظِ (فرَّطَ) أشملُ وأبلغُ في معنَى السّياق من مرادفاتها لاشتمالها عليها وزيادة.

دَلالةُ التَّعبيرِ بالكتابِ عن اللَّوْحِ المحفوظِ أوِ القرآن:

لفظُ الكتابِ يُوحي بتوثيق المكتوبِ

الكتابُ هنا بمعنى: المكتوب، وفي التَّعريف فيه قولان:

القول الأوَّلُ: وهو المُكْنى عنه بالقلم المرادُ به ما سَبقَ في علمِ اللّهِ وإرادتِه الجاريةِ على وفْقه، وهو الكتابُ المُسمَّى: باللَّوحِ المحفوظِ في

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 7/217.
(2) الرّازي، مفاتيح الغيب: 12/528.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: 5/158 - 159.
(4) السَّمين الحلبيّ، الدُّرُّ المصون: 4/612.

العَرْش، وعالَمِ السّماواتِ المُشْتمِلِ على جميعِ أحوالِ المخلوقاتِ على التَّفصيلِ التّام.

القولُ الثّاني: أنَّ المرادَ منه القرآنُ؛ لأنَّ الألفَ واللّامَ إذا دَخَلا على الاسْمِ المفردِ؛ انْصرفَ إلى المعهودِ السّابق، والمعهودُ السّابقُ منَ الكتابِ عندَ المسلمينَ هو القرآن، فوجبَ أنْ يكونَ المرادُ منَ الكتابِ في الآية: القرآنَ، وهو لا يعني: أنَّه يشملُ جميعَ العلومِ بتفاصيلها، بل يكونُ مخصوصًا ببيانِ الأشياءِ الَّتي يجبُ معرفتُها والإحاطةُ بها، وهذا معنى قولِه تعالى: ﴿مَّا فَرَّطۡنَا فِي ٱلۡكِتَٰبِ مِن شَيۡءٖۚ﴾[1]. وعلى القولين: فإنَّ التعبيرَ بالكتابِ دالٌّ على توثيقِ المكتوب.

دَلالةُ حرفِ التَّراخي ﴿ثُمَّ﴾، على التّهديد بالوعيد:

مهما تأخّرَ الحشرُ في نظرِ النّاس، فإنّه آتٍ لاريب فيه

دلَّ حرفُ العطفِ ﴿ثُمَّ﴾ على تراخي الحشر، أي: يُحشرونَ في الآخرةِ بعدَ طولِ الحياةِ الدُّنيا وأحوالِها[2]، وفيه مزيدُ تهديد، فمهما طالَ الزَّمنُ؛ فإنَّ الحشرَ آتٍ غيرُ متخلّفٍ عنِ الوقوع.

نكتةُ تقديم الجارِّ والمجرور ﴿إِلَىٰ رَبِّهِمۡ﴾، على الفعلِ ﴿يُحۡشَرُونَ﴾:

كلُّ الخلق راجعٌ إلى ربّه، ولا مندوحة له عن حشره

تقديمُ ما حقُّه التَّأخيرُ في قولِه تعالى: ﴿إِلَىٰ رَبِّهِمۡ يُحۡشَرُونَ﴾، فإنَّ الأصل أن يكون النَّظم: (ثمَّ يُحشرون إلى ربهم)، قُصِدَ منه التَّخصيصُ، أي: لربِّهم وحدَه يُحشرون، لا لأحدٍ غيرِه، ففيه إثباتُ أمرين: إثباتُ الحشرِ، وأنَّه للّهِ وحدَه دون سواه[3].

---

(1) القول الثّاني: ترجيحُ الفخر الرّازي في مفاتيح الغيب: 12/526. ومن المفسِّرين من رجَّحَ القولَ الأوَّل، وهو أنَّ المراد بِ (الكتاب): اللَّوح المحفوظ، كالطَّبري في جامع البيان: 7/188، والبغوي في معالم التَّنزيل: 3/142، والزَّمخشري في الكشّاف: 2/17، حيث لم يذكر غيره، والسَّمين الحلبي في الدُّر المصون: 4/612، والشَّوكاني في فتح القدير: 2/160، وذَكَرا القولَ الثّاني بصيغة التَّضعيف: (قيل). وابن عاشور في التّحرير والتَّنوير: 7/217، وقال: "وقيل: الكتابُ القرآن، وهذا بعيدٌ؛ إذْ لا مناسبةَ بالغَرَضِ على هذا التَّفسير، فقد أورد كيف يشتملُ القرآن على كلِّ شيءٍ". وهذا هو الرّاجحُ والأظْهرُ، ومن المفسِّرين من جمع بينهما دون ترجيح، كالبقاعي في نظم الدُّرر: 7/106، قال: "﴿فِي ٱلۡكِتَٰبِ﴾ أي: اللَّوح المحفوظ والقرآن".

(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 7/107، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 2/204.

(3) فضل عبّاس، أساليب البيان، ص: 107.

دلالةُ إيثارِ عُنوانِ الرُّبوبيَّةِ على الألوهيَّة في: ﴿إِلَىٰ رَبِّهِمۡ﴾:

مناسبةُ الرُّبوبيَّةِ لمناقشةِ المشركين، في إثبات الرِّسالة

الإماتةُ والبعثُ والحشرُ هذه كلُّها من معاني الرُّبوبيَّة، فناسبَ ذكرُ الرُّبوبيَّةِ في قولِه تعالى: ﴿إِلَىٰ رَبِّهِمۡ يُحۡشَرُونَ﴾. وكذلكَ فإنَّ الآيةَ نزلتْ؛ لتقرِّرَ وتؤكِّدَ عقيدةَ الحشرِ الَّتي كان يُنكرُها المشركون، فجاءَ بيانُ اللّٰهِ هنا ليُجابهَهم بها، إضافةً إلى أنَّهم كانوا يؤمنونَ بتوحيدِ الرُّبوبيِّة، فجاءَ السّياقُ بذكرِ ما كانوا يؤمنون به، وأنَّ من معانيه موتَهُم ثمَّ بعثَهم؛ لإقامةِ الدَّليل عليهم، وهي تختلفُ عن سياق قولِه تعالى: ﴿وَلَئِن مُّتُّمۡ أَوۡ قُتِلۡتُمۡ لَإِلَى ٱللَّهِ تُحۡشَرُونَ﴾ [آل عمران: 158]، فالسّياقُ هنا سياقُ مناقشة المشركين، فذكْرُ الرُّبوبيَّة أقوى أثرًا في نفوسهم، بينما آية آل عمران فهي في الحديث عنِ الموت في سبيل اللّٰه تعالى، فكان الأنسبَ ذكرُ الألوهيَّة.

دَلالةُ استعمالِ ضميرِ جمعِ العقلاءِ ﴿إِلَىٰ رَبِّهِمۡ﴾:

الحشرُ والقِصاصُ لا يختصُّ بالنّاس، بل يعمُّ جميعَ الأجناس

في قولِه تعالى: ﴿إِلَىٰ رَبِّهِمۡ﴾ دَلالةٌ على جمعِ العقلاء؛ لأنَّ غالبَ إطلاقِ الحشرِ في القرآنِ على الحَشْرِ للحساب، فيُناسبُ أن تكونَ الجملةُ السّابقة: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ عطفًا على جُملةِ ﴿وَٱلۡمَوۡتَىٰ يَبۡعَثُهُمُ ٱللَّهُ﴾؛ فإنَّ المشركينَ ينكرون البعث، ويجعلونَ إخبارَ الرَّسولِ ﷺ به من أسبابِ تُهمتِه فيما جاءَ به، فلمّا توعَّدهم اللّٰهُ بالآيةِ السّابقةِ بأنَّهم إليه يُرجعونَ؛ زادَ بأن سجَّلَ عليهم جَهْلَهم، فأخبرَهم بما هو أعجبُ ممّا أنكروه، وهو إعلامُهم بأنَّ الحشرَ ليس يختصُّ بالبشر، بل يَعُمُّ كلَّ ما فيه حياةٌ من الدَّوابِّ والطَّير، فهي تُبعَثُ كالبشَرِ، وتحضُرُ أفرادُها كلُّها يومَ الحشر، وذلكَ يقتضي لا مَحالةَ أنْ يُقتصَّ لها[1].

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 7/215.

سرُّ استعمالِ لفظِ (الحشرِ)، دون (الرُّجوع):

ذِكرُ الحشرِ يستلزِمُ الجزاءَ والقِصاصَ

قولِه تعالى: ﴿إِلَىٰ رَبِّهِمۡ يُحۡشَرُونَ﴾، هذا الحشرُ للخلائق جميعِها إنْسِها وجِنِّها ودوابِّها وطيرِها هو حشرٌ للجزاءِ والحسابِ والقِصاصِ، ويؤيِّدُه حديثُ أبي هريرةَ ﵁ قال: «يَحشرُ اللّهُ الخلقَ كلَّهم يومَ القيامة: البهائمَ والدَّوابَّ والطَّيْرَ وكلَّ شيء، فيبلُغُ من عدلِ اللّهِ - يومئذٍ - أنْ يأخذَ للجمّاءِ من القَرْناء، ثمَّ يقول: كوني تُرابًا، فعندَ ذلكَ ﴿وَيَقُولُ ٱلۡكَافِرُ يَٰلَيۡتَنِي كُنتُ تُرَٰبًا﴾ [النَّبأ: 40]»[1].

وفي صحيحِ مسلم أنَّ رسولَ اللّهِ ﷺ قالَ: «لَتُؤدُّنَّ الحقوقَ إلى أهلِها يومَ القيامةِ حتَّى يُقادَ للشّاةِ الجَلْحاءِ من الشّاةِ القَرْناء»[2]، وليس الأمرُ في ﴿يُحۡشَرُونَ﴾ مجرَّدَ رجوعٍ أو مَوْت[3]. فدلَّ على أنَّ الحشرَ للجزاءِ والقصاصِ في قولِه تعالى فيما سبق: ﴿إِلَّآ أُمَمٌ أَمۡثَالُكُمۚ﴾، أي: أمثالُكم في الخَلْقِ والموتِ والبعثِ والجزاء[4].

فنُّ الإدْماجِ، في قولِه تعالى: ﴿إِلَىٰ رَبِّهِمۡ يُحۡشَرُونَ﴾:

إفادة الآيةِ تأكيدَ حَشْرِ الكافرينَ إلى الله

الظّاهرُ أنَّ ضميرَيْ ﴿رَبِّهِمۡ﴾ و﴿يُحۡشَرُونَ﴾ عائدان إلى ﴿دَآبَّةٍ﴾، و﴿طَٰٓئِرٍ﴾ باعْتبارِ دَلالتِهما على جماعات الدَّوابِّ والطَّيرِ لوقوعِهما في حيِّزِ حرفِ ﴿مِن﴾ المفيدةِ للعموم في سياقِ النَّفْي، والضميرانِ فيهما موضوعانِ للعقلاء فكيف توجيهُه؟

أوَّلَ المفسّرون ذلك بوجهَيْن: أحدُهما أنَّه بناء على التَّغليب، إذ جاءَ بعدَه ﴿إِلَّآ أُمَمٌ أَمۡثَالُكُمۚ﴾. والوجهُ الثّاني: أنَّهما عائدان إلى ﴿أُمَمٌ أَمۡثَالُكُمۚ﴾، أي: إنَّ الأُمَمَ كلَّها محشورةٌ إلى اللّهِ تعالى.

---

(1) الحاكم، المستدرك على الصَّحيحين: 2/345، وصحَّحه على شرط مسلم، ووافقه الذّهبي، ورواه من طريقه الطَّبريّ في جامع البيان: 7/188 - 189، وصحَّحه أيضا الشيخ أحمد شاكر في تعليقه على الطَّبري.

(2) مسلم، الصَّحيح: الحديث رقم: (2582).

(3) وهو أثَرٌ أخرجه الطَّبريُّ عن ابن عبّاس ﵄، جامع البيان: 7/188، بسند ضعيف.

(4) الزَّجاج، معاني القرآن: 2/235، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 6/420.

وذهب ابنُ عاشور إلى أنْ يكونَ الضَّميران عائدَيْن إلى ما عادتْ إليه ضمائرُ الغَيْبةِ في هذه الآياتِ الَّتي آخرُها ضميرٌ: ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦۚ﴾ وعليه فيكونُ موقعُ جملةِ ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ يُحۡشَرُونَ﴾ موقعَ الإدْماجِ والاسْتطرادِ مجابهةً للمشركينَ بأنَّهم محشورونَ إلى اللهِ لا مَحالةَ وإنْ أنْكَروا ذلك[1].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الحَشْر والجَمْع:

الحَشرُ هو الجَمْعُ مع السَّوْق، والشّاهدُ قولُه تعالى: ﴿وَٱبۡعَثۡ فِي ٱلۡمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ﴾ [الشُّعراء: 36]، أي: ابْعَثْ مَنْ يجمعُ السَّحَرَةَ، ويَسوقُهم إليك، ومنه يومُ الحشر؛ لأنَّ الخَلْقَ يُجمعونَ فيه، ويُساقونَ إلى الموقف. والأصلُ في الحشرِ لغةً: إخراجُ الجماعةِ عن مقرِّهم، وإزعاجُهم، وسَوْقُهم إلى الحربِ ونحوِها، ثمَّ خُصَّ في عُرْفِ الشَّرْعِ عندَ الإطلاقِ بإخراجِ الموتَى من قبورِهم، وسَوْقِهم إلى الموقفِ للحسابِ والجزاء[2]. والجَمْعُ: ضمُّ الشَّيءِ بتقريبِ بعضِه من بعض، يُقالُ: جَمعتُهُ فاجْتمع، قالَ تعالى: ﴿وَجُمِعَ ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ ۝٩﴾ [القيامة: 9]. ويُقالُ: أجْمعَ المسلمونَ على كذا، أي: أجْمعتْ آراؤهم عليه. وقولُهم: يومُ الجُمُعة، لاجْتماعِ النّاسِ للصَّلاة، قالَ تعالى: ﴿إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ﴾ [الجمعة: 9][3].

الحشر إخراج الموتَى من قبورِهم، وسَوْقهم إلى موقفِ الحسابِ والجزاء، والجمع لمٌّ وضمٌّ

ولا يُقال: الجمعُ فيما يَصِحُّ في السَّوْقِ كالحَشْر[4].

ويتبيَّنُ ممّا تقدَّمَ أنَّ الأَوْفَى والأَقْوى في مناسبةِ سياقِ الآيةِ الكريمةِ اسْتخدامُ الفعلِ ﴿يُحۡشَرُونَ﴾ بدَل (يجمعون). فالحشرُ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 7/214.
(2) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 189، وهنري لامنس، الفرائد، ص: 69.
(3) الرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (جَمَعَ).
(4) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 189.

هو الَّذي يُفيدُ إخراجَ الموتى من قبورِهم وسَوْقَهم إلى موقفِ الحسابِ والجزاء.

الأمم والشّعوب والقبائل:

الأُمَم: جمع أُمّة، وهي كلُّ جماعة يجمعهم أمر ما، إمّا دين واحد، أو زمان واحد، أو مكان واحد سواء كان ذلك الأمر الجامع تسخيرًا أو اختيارًا، قال تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾ [الأنعام: 38]، ولكلِّ أُمَّةٍ نبيٌّ أرسله الله إليها بشيرًا ونذيرًا.

لفظ (أمم) هي أقوام تجمعها عوامل مشتركة، وهي المؤثِّرَةُ في السّياق عن غيرها

والشعوب: جمع شعْبٍ: وهو القبيلةُ المتشعّبةُ من حيٍّ واحدٍ، قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ﴾ [الحجرات: 13]، والقبائلُ جمعُ قبيلةٍ: وهي الجماعةُ المجتمعةُ التي يُقبلُ بعضُها على بعض[1].

(1) الرّاغب، المفردات: (أمّ، شعب، قبل).

﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا صُمّٞ وَبُكۡمٞ فِي ٱلظُّلُمَٰتِۗ مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضۡلِلۡهُ وَمَن يَشَأۡ يَجۡعَلۡهُ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٣٩﴾ [الأنعام: 39]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

هَيْمَنَةُ الله على الوجود

في مناسبةِ هذه الآيةِ لما قبلها وجهانِ: أحدهما: أنَّ اللّه سبحانهُ لمّا بيَّن حالَ الكفّار، وأنَّهم قد بَلَغوا مِنَ الكفر مبلغًا بحيثُ صاروا كأنَّ قلوبَهم ميِّتةٌ فلا تَقْبَلُ شيئًا مِنَ الإيمان، فقالَ تعالَى: ﴿*إِنَّمَا يَسۡتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسۡمَعُونَۘ وَٱلۡمَوۡتَىٰ يَبۡعَثُهُمُ ٱللَّهُ﴾؛ ذكرَ في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا صُمّٞ وَبُكۡمٞ فِي ٱلظُّلُمَٰتِۗ﴾ تقريرًا لذلك المَعْنَى[1].

الآخرُ: لمّا ذكر من خلائقِه وآثارِ قدرته ما يشهدُ لربوبيَّته، ويُنادي على عظمتِه؛ قال: (والمكذِّبون صُمٌّ لا يسمعون كلامَ المنبِّه، بُكْمٌ لا ينطقون بالحقِّ، خابِطون في ظلمات الكفر، فهم غافلون عن تأمُّلِ ذلك، والتَّفكُّرِ فيه)[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾: الهمزَةُ والياء والحرفُ المعتَلُّ[3]: تدلُّ علَى بقاءِ الشَّيء في مكانه شاخِصًا، عَلامَةً لِشَيْءٍ وأمارَةً عليه، ومِنْهُ قولُهم: خرجَ القومُ بآياتِهم، أي: بجماعاتِهِمْ، فَلَمْ يَدَعوا شيئًا مِمّا يكونَ شاخصًا إلّا حَمَلوهُ، وفيهِ معنَى الكَثْرَةِ والجسامَةِ أيضًا[4].

والآيَةُ: كلُّ شيءٍ ظاهرٍ ملازمٍ لشيءٍ باطنٍ يُعْرَفُ بِهِ، حسّيًّا كان أو عقليًّا[5].

(1) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 12/530.
(2) الزمخشريّ، الكشاف: 2/22.
(3) في اشتقاق (الآية) خلافٌ، يُنظر: الآلوسي، روح المعاني: 1/242.
(4) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصَّل: (أيى).
(5) الرّاغب، المفردات: (أي).

والصَّوابُ في المرادِ بآياتِ اللّهِ تعالى المذكورةِ في قوله سُبْحانَه: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾: أنَّها جميعُ الأدلَّةِ والحُججِ، فيدخل فيهِ الآياتُ الشَّرعيَّةُ والكونيَّةُ[1].

2) ﴿صُمٌّ﴾: الصّادُ والميمُ تدور تصريفاتُها على معنَى انْسِدادِ سُموم الشَّيء بالنَّفاذ فيها[2].

ومِنْهُ: الصَّمَمُ في الأُذن؛ وهو ذهاب سَمْعِها، أَوِ انسدادُها وثِقَلُ السَّمع، ويقال لِلْمُتَّصِف به: أصمُّ، والأُنْثَى: صمّاءُ، والجمعُ: صُمٌّ[3].

وقد يُطلقُ الأصمُّ على مَن لا يَهْتَدي إلى الحقِّ مجازًا، فيكون مِن صَمَمِ العَقْلِ لا الأذُنِ[4].

3) ﴿وَبُكْمٌ﴾: الباءُ والكافُ والميم تدورُ اشتقاقاتُها على معنَى: الخَرَسِ[5]، يقال لِلرَّجل: بكِمَ عَنِ الكلام؛ إذا امتنَعَ عَنْهُ جَهْلًا أو تَعَمُّدًا[6].

ويقال لِلرَّجل الأخرس: أَبْكَمُ، ولِلْمَرْأَةِ: بَكْماء[7]، والجمعُ: بُكْمٌ، وخصَّ ابنُ الأثير الأبكَمَ بمَنْ وُلِدَ أخرسَ لا يتكلَّم[8].

والمشهورُ: أنَّ الأبكمَ هوَ الذي لا يَنْطِقُ، ولا يَفْهَم، فإذا فَهِمَ معَ عدَمِ نُطقِهِ؛ فهو الأَخْرَسُ[9].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

تُبيِّن الآيةُ حالَ الذينَ كَذَّبوا بحُجَجِ اللّه وأدلَّته، بأنَّهُم صمٌّ عن سماع الحقِّ، فلا يَسْمَعون ما يَنْفَعُهم، بُكْمٌ عَن قيلِه، لا يتكلَّمون به، في

المكذّب أصمُّ أبكمُ، لا ينتفع بالهدى

(1) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 12/531.
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصَّل: (صمم).
(3) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة: (صم)، والزّبيديّ، تاج العروس: (صمم).
(4) جمال الدّين الفتّني، مجمع بحار الأنوار: (صمم).
(5) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (بكم).
(6) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة: (بكم).
(7) ابن دُريد، جمهرة اللُّغة: (بكم).
(8) ابن الأثير، النِّهاية في غريب الحديث، والسَّمين، عمدة الحفّاظ: (بكم).
(9) ابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 1/100، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 1/214، والشَّوكانّي، فتح القدير: 1/55.

ظُلمات الكُفْرِ والجَهل والعِناد، فهُمْ حائرونَ فيها، مَن يَشَأِ اللّهُ تعالى إضلالَه؛ يُضلِلْهُ، ومن يشأْ هِدايتَهُ؛ يَجْعَلْه على صِراطٍ مستقيمٍ[1].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

دلَالَةُ (الوَاوِ) بَيْنَ العَطْفِ وَالاسْتِئْنَافِ:

الواو في قول الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ تحتملُ وجْهَيْنِ[2]:

أحدهما: أن تَكون عاطفةً، والمعطوفُ عليه هو قولُ الله سُبحانه قبلُ: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾، والمَعنى على هذا الوجهِ: (والذين كذَّبوا بآياتنا - ولم يستجيبوا لها - هُم بمنزلةِ الصُّمِّ البُكْم).

ويكون بينَ الجُمْلَتَيْنِ - على هذا الوَجْهِ - توسُّطٌ بين الكمالَيْنِ؛ لاشْتِراكِهما في الخبريَّةِ، ووجودِ مناسبةٍ بينَهُما؛ إذِ الصِّنْفُ المذكور في قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾ مضادٌّ للصِّنْفِ المذكور في هذه الآيةِ، فبينَ الجُمْلَتَيْنِ جامعٌ وهميٌّ؛ وهو التَّضادُّ.

والآخَرُ: أن تَكون الواوُ استئنافيَّةً، فلا يكون لِلْجُمْلَةِ ارتباطٌ بجملةٍ بعَيْنِها ممّا تقدَّم، ولكنَّها ناشئةٌ عن جميع الكلام السّابقِ؛ وذلك أنَّ الله سُبحانه لمّا ذكر أدلَّةَ وحدانيَّتِهِ وصِدْقِ رسولِهِ ﷺ أعقبَهُ ببيانِ حالِ المكذِّبينَ، وأنَّهم في ضلالٍ عظيمٍ عَنِ التَّأمُّل، وانحرافٍ شديد عنِ الاهْتِداء.

تعيينُ المرادِ بالموصولِ ﴿ٱلَّذِينَ﴾:

المرادُ بالموصولِ في قولِهِ سُبحانَهُ: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ قومٌ مَعْهودونَ، وهم المذكورونَ في قوله تعالى قبلُ: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ [الأنعام: 25][3]، قَدْ جَعَلَ اللّهُ في قُلوبِهِمْ أَكِنَّةً وفي آذانِهِمْ وقْرًا، أَوْ أَنْ يَكونَ

المُكَذِّبُ بِآيَاتِ اللهِ تَعَالَى بِمَنْزِلَةِ الأَصَمِّ الأَبْكَمِ

يُعبّرُ عن المشركينَ، إجمالًا وتفصيلًا

(1) ابن جرير، جامع البيان: 11/350، ونخبة من العلماء، التّفسير الميسّر، ص: 132.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/218.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/131.

المُرادُ بِهِم المُشْرِكينَ الَّذينَ مَضَى الكَلامُ عَلَى أَحْوالِهِمْ عُمومًا وخُصوصًا[1] في هذه السّورةِ، وهذا مِن بيانِ القُرآنِ للقُرآنِ.

علَّةُ التَّعبيرِ بِالاسْمِ الموصول:

أدنى مُكذِّبٍ بالآياتِ، موصوفٌ بالصَّمَمِ والبَكَمِ للتّحقير

قولِه: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾، عُرِّفَ المسندُ إليهِ بالاسْمِ الموصولِ فيه، دونَ الاسمِ الظّاهرِ فلمْ يقُل: (والمُكذِّبونَ بآياتِنا)؛ للإيماءِ إلى وجْهِ استحقاقِهِمُ الصَّمَمَ والبكَمَ، وهو التَّكذيبُ بالآياتِ، فتكذيبُهم بآياتِ اللّهِ دليلٌ أكيدٌ على أنَّهُم لم يَسْمَعوا الحَقَّ، ولم يَنطِقوا بالخَيْرِ؛ فكذَّبوا بآياتِ اللّه، ولو كانَ مِنهُم سماعٌ حقيقيٌّ؛ لآمنوا بالآياتِ، وللإشارةِ إلى أنَّ أدنى مُكذِّبٍ بالآياتِ ينطبِقُ عليه حُكمُ الآيةِ، وليسَ بالضَّرورةِ أنْ يكونَ راسِخًا في التَّكذيبِ.

نُكْتةُ جمعِ صلةِ الموصولِ، في قولِه: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ﴾:

المُكذِّبونَ لفيفٌ اتَّفقَ على محاربَةِ الحقِّ، ومُنابذَةِ الإسلامِ

وفي إيرادِ الاسمِ المَوْصولِ جَمْعًا - ﴿وَٱلَّذِينَ﴾ - إشارةٌ إلى أنَّهم فريقٌ اجتَمعَ على التَّكذيبِ، واتَّفقَ عَلَيه، وزيَّنَ بعضُهم لبعضِهم الآخر ذلك، وقد أبانتِ الآياتُ السّابقةُ عنِ اجتماعِهم على الباطلِ ومجادلتِهم في الحقِّ، وأنَّهم بليدونَ عن فهمِ الحقِّ، متلبِّدون في الباطلِ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ۝٢٥ وَهُمۡ يَنۡهَوۡنَ عَنۡهُ وَيَنۡـَٔوۡنَ عَنۡهُۖ وَإِن يُهۡلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ وَمَا يَشۡعُرُونَ﴾ [الأنعام: 25 - 26]

نُكْتةُ التَّعبيرِ بصيغةِ الماضِي في ﴿كَذَّبُواْ﴾:

تكذيبُ المشركينَ، قائمٌ على إصرارٍ بليغٍ، وعنادٍ صفيقٍ

ومَجيءُ صلةِ الموصولِ فعلًا ماضيًا - ﴿كَذَّبُواْ﴾ - دالٌّ على تحقُّقِ وصْفِ التَّكذيبِ فيهِمْ، فهم مُكذِّبون عن إصرارٍ بليغٍ، وعنادٍ ظاهرٍ، فتكذيبُهم قائمٌ على معانَدَةِ الحقِّ، ومناصرةِ الباطلِ.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 7/218.

دلالة (الباءِ)، في قوله: ﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾:

تصويرُ المُكَذِّبينَ بِمَنْ يُمسكُ بشيءٍ ثُمَّ يُنكِرُه

الباءُ في قولِهِ سُبحانَهُ: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ تحملُ معنى الإلصاقِ، أي: أنَّهم كذَّبوا، وهم ملتصقونَ بالآياتِ معرفةً ووقوفًا على حقائقِها، ففيه تصويرُ حالِ المكذِّبين بالآياتِ، كأنَّهُم يمسِكونَ الآياتِ بأيديهم، ويُكذِّبونها في الوقتِ نفسِه، وفي هذا التَّصويرِ لحالِهم شتمٌ وإهانةٌ، فإنَّ من يُمسِكُ شيئًا، ويُنكِرُه مستحقٌّ للتَّوبيخِ والتَّقريعِ.

ويُحتملُ أن تكونَ الباءُ للسَّببيَّةِ، والمعنى: والذينَ كذَّبوا بسببِ آياتِنا التي تدعوهم إلى الإيمانِ باللّٰه، وتركِ عبادةِ الأوثانِ، حالُهم كيتَ وكَيْت.

سِرُّ جَمْعِ الآيَاتِ، فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾:

عِظَمُ عِنادِ المُكَذِّبينَ وَغِلَظُ تَكْذِيبِهِم وَكُفْرِهِم

الآياتُ في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ تحتملُ وجهين:

أحدُهما: أن يُرادَ بها القرآنُ ومحمَّدٌ ﷺ.

والآخر: أن يُراد بها جميعُ الأدلَّة والحُجج، فيدخلُ فيه الآياتُ الشَّرعيَّةُ والكونيَّةُ، وهذا أصحُّ[1]؛ لأنَّ ﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾ جمعٌ مضافٌ، فيدلُّ على العمومِ، وقَصْرُهُ على نوعٍ مِنْها يفتقِرُ إلى الدَّليلِ الواضحِ البيِّنِ.

وإيرادُ الآياتِ مجموعةً إشعارٌ بكثْرتها، وفي ذلك تغليظٌ لتكذيبِهم وكفرهم، حيث لم يقتصِرْ تكذيبُهم على تَكْذيبِ الآيةِ والآيتين - وإن كان هذا عظيمًا شنيعًا - بل أَمْعَنوا في التَّكذيبِ، حتَّى إنَّهم ما تَرَكوا آيةً إلّا كذَّبوا بها وجحدوها، وهذا غايةٌ في العِنادِ.

نُكْتَةُ إِضَافَةِ (الآيَاتِ)، إِلَى ضَمِيرِ العَظَمَةِ ﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾:

التَّكْذِيبُ بِآيات العَظِيمِ، جُرْمٌ عند الله عَظِيمٌ

أُضيفَتِ الآياتُ إلى الضَّميرِ (نا) الرّاجعِ إلى اللّٰه سُبحانَهُ في قَوْلِهِ: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ لتعظيمِ المُضافِ وهو الآياتُ، ويُقوّيه مجيءُ الضَّميرِ (نا) وهو دالٌّ على العَظَمَةِ؛ وذلك لإدخالِ المهابَةِ

(1) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 12/531.

والرَّوعةِ في نفوسِ المتلقّين، وفي هذا التَّعظيمِ بيانٌ لشناعَةِ التَّكذيبِ بهذه الآياتِ؛ إذِ التَّكذيبُ بالعظيمِ عظيمٌ.

تَوْجِيهُ المُتَشَابِهِ اللَّفْظِيِّ، بَيْنَ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿صُمٌّ وَبُكْمٌ﴾ وقوله: ﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ﴾:

ناسَبَ مجيء العطف قَصْدَ التّوزيع، وعدم العطف قصد الشّمول

قال اللّه سُبحانه هنا: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا صُمٌّ وَبُكۡمٞ فِي ٱلظُّلُمَٰتِۗ﴾، وقال في سورة البقرة: ﴿صُمُّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ فَهُمۡ لَا يَرۡجِعُونَ﴾ [البقرة: 18]، فسيقتِ الأوصافُ دونَ عطفٍ في سورة البقرة؛ لأنَّ المرادَ اتِّصافُهم بها، أَيْ: كُلُّ واحِدٍ مِنْهُمُ اجْتَمَعَتْ لَهُ الصِّفاتُ الثَّلاثُ، وذَلِكَ شَأْنُ الأَخْبارِ الواردَةِ بِصيغَةِ الجَمْعِ بَعْدَ مُبْتَدَأٍ هوَ اسْمٌ دالٌّ عَلَى جَمْعٍ، فالمَعْنَى: كُلُّ واحِدٍ مِنْهُمْ كالأَصَمِّ الأَبْكَمِ الأَعْمَى، ولَيْسَ المَعْنَى عَلَى التَّوْزيعِ، فَلا يُفْهَمُ أَنَّ بَعْضَهُمْ كالأَصَمِّ، وبَعْضَهُمْ كالأَبْكَمِ، وبَعْضَهُمْ كالأَعْمَى[1].

أمّا آيةُ الأنعام؛ فالمرادُ فيها التّوزيعُ، أي: بعضُهم كالأصمِّ، وبعضُهم كالأبْكَم؛ ولذا عُطِفَ بينهما بالواوِ، فقال تعالى: ﴿صُمٌّ وَبُكۡمٞ فِي ٱلظُّلُمَٰتِۗ﴾.

سِرُّ تَقْدِيمِ صِفَةِ (الصَّمَمِ) عَلَى (البَكَمِ):

السَّماعُ الحسنُ طريقُ الهداية والعلم

قُدِّمَ الصَّمَمُ على البَكَمِ في قولِهِ تعالَى: ﴿صُمٌّ وَبُكۡمٌ﴾؛ مِن جهةِ أنَّ السُّكوتَ عَنِ التَّلفُّظِ بالحقِّ فرعُ عَدمِ سماعِه، كما أنَّ التَّلفُّظَ به فرعُ سماعِه.

وقُدِّمَ؛ لأنَّ اللّه مدح المستجيبين في الآيات السّابقة بأنَّهم يسمعون: ﴿إِنَّمَا يَسۡتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسۡمَعُونَۘ﴾ فحسُن تقديمُ الصِّفة المقابلة لدى المشركين، ولأنَّ الآيةَ صُدِّرت بِقَوْلِهِ سُبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾، والمكذِّبُ أكثرُ اعتمادِهِ على السَّمْعِ؛ ليسمعَ ما يُريدُ تكذيبَهُ، وأمّا الكلامُ؛ فتابِعٌ.

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/313 - 314.

تقديمُ (العمى) و(البَكَم) على (السَّماعِ) في آيةِ الإسراءِ:

طلَبُ المكذّبين، للآية البصريَّة، تنكّب عن العقيدة السّويّة

قُدِّمَ البَكَم على الصَّمَم في آية سورة الإسراء بخلافِ الموضعِ هنا؛ فإنَّ اللّه تعالى قال فيها هناك: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا﴾ [الإسراء: 97]، وقال هنا: ﴿صُمٌّ وَبُكْمٌ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ فأخّر الظّلمةَ هنا، وقدّم العمى هناك، فالسّياقُ في سورة الإسراء هو حديثٌ عن حشرِهم يومَ القيامةِ، والأنسبُ فيه تقديمُ العمى، فالبَكم، فالصَّمَم؛ لأنَّ العمى هو أصعبُ العذابِ على المحشورينَ على وُجوهِهم، والبكم أنكى في انقطاع استغاثتِهم واستيضاح ما حلّ بهم منَ العذاب بعد أن عاينوه بلا بصرٍ، ولسببٍ آخرَ، وهو أنَّ الآية سبقَها ذكرُ ما طلبَهُ الكفّارُ منَ النَّبيِّ ﷺ كما قال تَعالَى عنهم: ﴿وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ﴾ [الإسراء: 90 - 93]، ولمّا كان ما طلبوهُ متوقِّفًا إدراكُهُ على البصَرِ؛ ناسبَ ذلك تَقْديمَه، فقال تعالَى: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا﴾، ثمّ لمّا كان ما طلبوه غايةً في الإعراض والتّكذيب في الدّنيا، فإنّهم مستحقّون لانقطاع منطقِهم، واضمحلال صوتِهم في الآخرة.

نُكْتَة العدولِ عن وصفِ العمى إلى: ﴿ٱلظُّلُمَٰتِ﴾:

الغارقُ في الكُفرِ، فاقدٌ لأسبابِ الحياةِ

قال اللّهُ سُبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ﴾، فنصَّ على صِفَتَي الصَّمم والبَكَم، دونَ العَمَى؛ وذلك لأنَّه قال بعدَهما: ﴿فِى ٱلظُّلُمَٰتِ﴾، فكَنَّى عن عماهُمْ بكونهم في الظُّلماتِ؛ إذِ الكائنُ فيها لا يُبْصِرُ شيئًا[1]. وفي العدولِ عن التَّصريح بِعَماهُمْ إلى التَّعبير بكونهم في الظُّلُماتِ نُكْتَتانِ:

(1) الشِّنقيطي، العذب النَّمير: 1/223.

إحداهما: زيادةُ فائدةٍ؛ إذْ في قولِه: ﴿فِي ٱلظُّلُمَٰتِۗ﴾ اقترانُ الدَّليلِ على عماهم بالبُرْهانِ عليه؛ فجُعِلَتِ الظُّلُماتُ ظَرْفًا لَهُمْ، وجُمِعَتْ لاخْتِلافِ جِهاتِ الكُفْرِ، كَما قيلَ في قَوْلِه: ﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَۖ﴾ [الأنعام: 1]، وفي قَوْلِه: ﴿يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِۗ﴾ [البقرة: 257].

والأخرَى: أن يكون لبعضِ أجْزاءِ الهَيْئَةِ المُشَبَّهِ بها ما يَصْلُحُ لِشبه بعض أجزاء الهيئةِ المُشَبَّهة؛ إذِ الكفرُ الغارقونَ فيه يُشبه الظُّلماتِ في كون كلٍّ منهما حائلًا بين الدّاخل فيه وبين الاهتداءِ إلى سبيلِ النَّجاة[1].

دلالة حرفِ الظَّرفيَّة في قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿فِي ٱلظُّلُمَٰتِۗ﴾:

في قوله تعالى: ﴿فِي ٱلظُّلُمَٰتِۗ﴾ إشعارٌ بانغماسِ المُشْرِكينَ في الظُّلُماتِ، كما يدلُّ عَلَيْهِ حرفُ الجرِّ ﴿فِي﴾ المفيدُ للظَّرفيَّةِ، وفيه بيانُ تمكُّنِ الظُّلمةِ من أبصارِهم وبَصائِرهم.

ظلمات المعتقد، ضياعٌ وتيهٌ وهلاك

نُكتةُ جمعِ الظُّلُمَاتِ، في قَوْلِهِ: ﴿فِي ٱلظُّلُمَٰتِۗ﴾:

في إيرادِ ﴿ٱلظُّلُمَٰتِۗ﴾ جمعًا في قولِه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا صُمّٞ وَبُكۡمٞ فِي ٱلظُّلُمَٰتِۗ﴾ جريٌ على الفصيح من كلامِ العربِ منَ العدولِ عنِ استعمالِ لفظِ الظُّلْمَة مفردًا[2]، ولهذا الاستعمالِ نكتتان:

المُكَذِّبونَ غارِقُونَ فِي ظُلُماتٍ ظاهرةٍ وباطنةٍ

إحداهُما: المبالغةُ في وصفهم بالعمَى بصيغةِ الجمعِ؛ ليكونَ ذلك مناسبًا لجمعِ الآياتِ في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾، وهو من مناسبةِ الجمعِ للجمعِ.

الأُخرى: الإشارةُ إلى أنواعِ الظُّلماتِ التي هم غارقونَ فيها مِن ظُلْمَةِ: الكُفْرِ والجهْلِ والعناد، وغيرِها من الظُّلُماتِ النَّفسيّةِ والرّوحيّة والفكريّة، فهي ظلماتٌ ظاهرةٌ وباطنةٌ.

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 7/219.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 7/219.

بَلَاغَةُ التَّشْبِيهِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿صُمٌّ وَبُكْمٌ﴾:

تشبيهُ المكذِّبينَ في انْسِدَادِ بَابِ الفَهْمِ، بمَن فَقَدَ طُرُقَ النَّجاة

في قول الله تعالى: ﴿صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي ٱلظُّلُمَٰتِۗ﴾، تمثيلٌ لحالِ المكذِّبين في فسادِ عقائدهم وبُعدهم عَنِ الهدايةِ بحالِ قومٍ صُمٍّ وبُكْمٍ في ظُلماتٍ، فالصَّمم مانعٌ لهم مِن تلَقّي هُدَى الهادي، والبكَمُ حاجبٌ لهم عَنِ الاسترشادِ بالمارِّ بهم، والظُّلماتُ مانعةٌ لهم مِنَ التَّبصُّر في الطَّريقِ أو فيما يُخْرِجُهم مِن مَأْزِقِهم[1]، فانسدَّت عنهم طرقُ النَّجاةِ؛ إذِ الأصمُّ الأبكَمُ إذا كان بصيرًا رُبَّما فَهِمَ شيئًا ما بإشارةِ غيرِه، بخلاف ما إذا كان أَعْمَى أو في الظُّلمات؛ فإنَّ بابَ الفهم والتَّفهيم ينسدُّ عليهِ بالكُلّيَّةِ، وكذلك هؤلاءِ المذكورون في الآيةِ انعدمت عندَهُمُ الآثارُ النّافعةُ للحواسِّ التي تؤهِّلهم للهدايَةِ والنَّجاة منَ الضَّلالِ، فكانوا كَمَنْ سُلِبَها، فالمرادُ بهذا التَّشبيهِ بيانُ كمالِ عراقتِهم في الجهالةِ وسوءِ الحال[2].

والجاري على القَواعدِ البلاغيَّةِ أن تكون الآيةُ من قَبيلِ التَّشْبيهِ البليغِ لا الاستعارةِ؛ للتَّصريحِ بطرفَي التَّشبيه[3].

وَجْهُ حملِ الوَصْفَيْنِ ﴿صُمٌّ وَبُكْمٌ﴾ على الاستِعَارَةِ:

تشبيهُ مَن لم ينتفعُوا بأذهانِهم، بالصُّمِّ والبُكمِ

وقد ذهب أبو حيّانَ إلى أنَّ قولَه تعالى: ﴿صُمٌّ وَبُكْمٌ﴾ اسْتِعارَةٌ عَنْ عَدَمِ الانْتِفاعِ الذِّهْنيِّ بِهَذِهِ الحَواسِّ، لا أَنَّهُمْ صُمٌّ وبُكْمٌ في الظُّلُماتِ حَقيقَةً[4]، فيكونُ المعنى عِندَه تشبيهَ عَدَمِ انتفاعِهم الذِّهنيِّ بهذِه الحواسِّ، بمَنْ فَقَدَها على الحقيقةِ فلم يَنْتفِعْ بِها، وصَرَّحَ بوَصْفِ مَنْ فَقَدَها على الحقيقةِ لبيانِ تمكُّنِ الوَصْفِ منهم، فهي استعارةٌ تَصريحيَّةٌ.

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 7/218 - 219.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السَّليم: 3/132.
(3) الخفاجي، عناية القاضي: 4/56، وإبراهيم بغدادي، من أسرار البيان في سورة الأنعام، ص: 10 - 11.
(4) أبو حيان، البحر المحيط: 4/505.

والقولُ بأنَّها من قَبيل التّشبيه البليغِ أوضحُ مسلكًا، قال الآلوسيُّ: وهو منَ التَّشبيه البليغ على القولِ الأصحِّ في أمثالِه، أي: إنَّهم كالصُّمِّ وكالبُكم، فلا يسمعون الآياتِ سماعًا تتأثَّرُ منه نفوسُهم، ولا يقدرون على أنْ يَنطِقوا بالحقِّ، ولذلك لا يستجيبون، ويقولون في الآياتِ ما يقولون[1].

ضَـــــــلَال المُكذِّبين، إنّما يكون بِإِرَادَةِ اللهِ تَعَالَى الكَوْنِيَّةِ

عِلَّةُ الفَصْلِ في جملة: ﴿مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضۡلِلۡهُ﴾:

فُصِلَ قولُه تعالى: ﴿مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضۡلِلۡهُ﴾ عمّا قبله؛ لوقوعِه استئنافًا بيانيًّا، فبَيْنَ هذهِ الجملَةِ وما قبلَها شبهُ كمالِ الاتِّصالِ، وذلك أنَّ في قولِه سُبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا صُمّٞ وَبُكۡمٞ فِي ٱلظُّلُمَٰتِۗ﴾ ذِكْرًا لحالهم العجيبَةِ الباعثَةِ في نفسِ السّامعين سؤالًا؛ وهو: ما شأنُهم لا يسلكون طريقَ الهدايةِ مع وضوحِ الأدلَّةِ والبراهين؟ فجاء الجوابُ في قول الله تعالى: ﴿مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضۡلِلۡهُ﴾، مبيِّنًا أنَّ الله تعالى قد أضلَّهم، وأنَّه سُبحانَهُ يُضلُّ مَن يشاءُ ويَهْدي مَن يشاءُ[2].

تنبيهُ العبادِ وتحذيرُهم من مسلكِ الضَّلَالِ الاختياريّ

فائدةُ التَّعبيرِ بالمضارعِ في الآية الكريمة:

جاءَتِ الأفعالُ في قولِه تعالى: ﴿مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضۡلِلۡهُ وَمَن يَشَأۡ يَجۡعَلۡهُ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ بصيغةِ المضارعةِ؛ للتَّنبيهِ والتَّحذيرِ، فإنَّ الإضلالَ والهدايةَ لم تتحتَّم على أحدٍ من العبادِ جبرًا محضًا، وإنَّ الله خيَّرَ العبادَ بينَ طريقِ الهدى وطريقِ الضَّلالِ، فعليهم أنْ يَحْذَروا من مسلكِ الضَّلالِ؛ كي لا يقعوا في مضمونِ قولِه تعالى: ﴿مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضۡلِلۡهُ﴾، وعليهم أن يجتَهِدوا في البحثِ عنِ الحقِّ ليجعلَهم اللهُ على صِراطٍ مستقيم، ففي هذا التَّعبيرِ تنبيهٌ على أمرٍ مستقبليٍّ بالنّسبةِ إلى العبادِ المخاطَبين، لا على أمرٍ حتميٍّ وقعَ ولا مجالَ للرَّجعةِ عنه.

(1) الآلوسي، روح المعاني: 4 - 140.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنْوير: 7/219.

نُكتة حذفِ مفعولِ المشيئةِ، في: ﴿مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضۡلِلۡهُ﴾:

الإبْهَامُ الحَاصِلُ فِي الحَذْفِ، يَبْعَثُ النَّفْسَ عَلَى التَّفَكُّرِ

قوله تعالى: ﴿مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضۡلِلۡهُ﴾، حُذِفَ من سياقه مفعولُ المشيئةِ، في والتَّقديرُ: من يشأِ اللّهُ إضلالَهُ؛ يُضلِلْهُ، وحَذْفُ المفعولِ معَ فِعْلِ المشيئة شائعٌ في كلام العربِ؛ إذا وقعَ فِعْلُها شرطًا[1]، وفي هذا الحذفِ نُكْتَتانِ:

إحداهُما: الإيجازُ، والدّالُّ على تعيينِ المحذوفِ هو جوابُ الشَّرْطِ.

والأخرى: الإيضاحُ بعدَ الإبهامِ، وفي ذلك مِنَ التَّشويق ما لا يخفَى؛ إذْ إنَّ الإبهامَ الحاصلَ في الحذفِ يبعثُ النَّفسَ على التَّفكُّرِ والاستِنباطِ اعتمادًا على القرائنِ، فإذا جاءَ الإيضاحُ؛ وقعَ على نفسٍ مُسْتَشرِفَةٍ له، فيتمكَّنُ منها غايةَ التَّمكُّن.

دلالةُ اختيارِ لفظِ ﴿يَجۡعَلۡهُ﴾، دُونَ (يَهْدِهِ):

امتنانُ اللهِ على عبادِه، أنْ أنقذَهُم مِنَ الضَّلالةِ

ذكرَ تعالى فعلَ الجَعْلِ دون الهدايةِ في قولِهِ تَعالَى: ﴿وَمَن يَشَأۡ يَجۡعَلۡهُ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ فلم يقُلْ: (يَهدِهِ إلى صراطٍ مسْتقيم)، وذلك لأنَّ الجَعْلَ فيه معنى التَّصييرِ، فإنَّ المجعولَ محوَّلٌ عنِ الضَّلالةِ إلى الهدايةِ، فهو نصٌّ في التَّصييرِ، ولمحٌ إلى الأصلِ، ففيه امتنانٌ على المهديّينَ، بما آلوا إليه،

براعةُ اختلافِ التَّعبيرِ في التَّقابلِ اللَّفظيِّ:

ذكرُ المؤمنينَ في مقابلِ المكذِّبينَ، يقترنُ بمزيدِ مَدْحٍ وحمدٍ، من ربِّ العالمين

قال تَعالَى: ﴿وَمَن يَشَأۡ يَجۡعَلۡهُ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾، ولم يقل: (ومَنْ يَشأ يَهْدِهِ) كما في المقابلِ: ﴿مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضۡلِلۡهُ﴾، وفي هذا عدولٌ عن التزامِ ما يقتضيه التَّقابلُ اللَّفظيُّ، إلى ما يقتضيه المعنى السّياقيُّ، وهو مقتضَى البلاغةِ، فإنَّ اللّه جعلَ ما يُقابلُ الإضلالَ الجعلَ على صراطٍ مستقيم؛ لأنَّه أرسخُ في بيانِ الهدايةِ، فلفظُ الهدايةِ يوحي بالخبرِ، أمّا الجعلُ على صراطٍ مستقيمٍ؛ ففيه الخبرُ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنْوير: 7/219.

والدَّليلُ على التَّمكينِ، فقولُنا: فلانٌ مهديٌّ، ليس كقولنا: فلانٌ على صِراطٍ مستقيم، فالثّانيةُ أمدحُ وأحمدُ، فاكتفى في الجملة الأولى: ﴿مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضۡلِلۡهُ﴾ بالإخبار، وفي الثّانية: ﴿وَمَن يَشَأۡ يَجۡعَلۡهُ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ بالإخبار مع الدَّليلِ على التَّمكين.

بلاغةُ استعمالِ حَرْفِ الاستعلاءِ:

حرفُ الجرِّ ﴿عَلَىٰ﴾ في قولِهِ تَعالَى: ﴿وَمَن يَشَأۡ يَجۡعَلۡهُ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ دالٌّ على الاسْتِعْلاءِ، والمرادُ استعلاءُ سالكِ الطَّريقِ المستقيم، والكلامُ خرجَ مخرجَ التَّمثيلِ لحالِ مَنْ خلقَهُ اللّه تعالى ومنَّ عليه بالعَقْلِ وأبلَغَ إليهِ الشَّرْعَ، فهو ينتهي عن ضلالِهِ، ويُصغي إلى النُّصْحِ، فيتَّبعُ الدّينَ الحقَّ، ويعدِلُ عن طريق الباطلِ، بحالِ السّائر في طريقٍ واضحةٍ بيِّنَةٍ، فهو لا يتحيَّرُ، ولا يُخطئُ قصدَهُ، وهي طريقٌ مستقيمَةٌ، فلا يَطولُ به السَّيْرُ[1].

الـمَـهْـدِيُّـونَ سَـائِـرُونَ عـلى الـصّـراط المـسـتـقـيـم، لَا يُـخْـطِـئُـونَ قَصْدَهُمْ

وفي حرف الجرِّ ﴿عَلَىٰ﴾ إيماءٌ إلى التَّمكُّنِ مِن طريق الهدايةِ والعَراقَةِ فيها، وفي التَّعبير به أيضًا استعارةٌ؛ إذْ قد شُبِّهَتْ حالُ المتمكِّنِ من طريق الهدايَةِ والمستقرِّ عَلَيْهِ بحال مَنِ اعْتَلَى شيئًا، بجامعِ مطلقِ التَّصرُّف.

نُكْتَةُ التَّعْبِيرِ بِلفظ (الصِّرَاطِ) دُونَ (الطَّرِيقِ):

جاءَ التَّعبيرُ في قولِ اللّهِ تعالَى: ﴿وَمَن يَشَأۡ يَجۡعَلۡهُ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ بلفظ الصِّراط دون الطَّريق، وذلك أنَّ لفظ الطَّريقِ يعمُّ كلَّ ما يَطْرُقُهُ طارقٌ، معتادًا كان أو غيرَ معتادٍ، بخلافِ الصِّراط؛ فإنَّه يختصُّ بما ليس فيه التِواءٌ مِنَ الطُّرُقِ مِمّا هو معتادُ السُّلوكِ[2]، ففي التَّعبير به إيماءٌ إلى أنَّ الطَّريقَ الذي يَهْدي اللّهُ تعالى إليهِ

صِراطُ اللهِ تَعالَى مُوافِقٌ لِلْفِطْرَةِ الإنْسانِيَّةِ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتنوير: 7/220.

(2) الكفويُّ، الكلّيّات، ص: 512 - 513، وإسماعيل حَقّي، روح البيان: 5/13.

مَن يشاءُ طريقٌ قَدِ اعْتيدَ سلوكُهُ مِمَّن مَنَّ اللّه سبحانه عَلَيْهِمْ بالاستقامَةِ، وفيه تَأْنيسٌ لَهُمْ؛ إذْ لم يَنْفَرِدوا بهذا المَسْلَكِ.

كما أَنَّ في لفظِ الصِّراط إيماءً إلَى سُهولةِ هذا الطَّريقِ لموافقتِهِ الفطرَةَ، بخلاف ما لو عُبِّر بلفظِ الطَّريقِ؛ إذِ الطَّريقُ لا يَستلزمُ السُّهولةَ[1].

سِرُّ تَنْكِيرِ لفظ ﴿صِرَٰطٍ﴾:

نُكِّر لفظُ ﴿صِرَٰطٍ﴾ من قوله تعالى: ﴿وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ لإرادَةِ تفخيمِهِ وتعظيمِهِ.

سُلُوكُ صِرَاطِ اللهِ تَعَالَى، يَؤُولُ إِلَى السَّعَادَةِ الأَبَدِيَّةِ

ويَجوزُ أن يكون التَّنكيرُ لبيانِ النَّوعيَّةِ، أي: يجعلْهُ على نوعٍ من الصِّراطِ مخالفٍ لِلْمَعْهودِ مِنْهُ، وذلك أنَّ سلوكَ هذا الصِّراطِ يَؤولُ بسالِكِهِ إلى السَّعادَةِ الأبديَّةِ.

ولا تنافيَ بين الدِّلالتين؛ فإنَّ هذا الصِّراطَ طريقٌ معنويٌّ مخالفٌ للمعهودِ مِنَ الطُّرق الحسّيَّةِ، وهو طريقٌ فخمٌ عظيمٌ في نفسِهِ.

دِلَالَةُ وَصْفِ ﴿صِرَٰطٍ﴾ بلفظ ﴿مُّسْتَقِيمٍ﴾:

في وصْفِ الصِّراط بالاستقامة في قولِهِ تَعالَى: ﴿وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ دِلالةٌ على خُلوِّهِ مِنَ الاعْوِجاجِ والانحرافِ، وذلك موجِبٌ يُسْرَهُ على السّائرِ؛ إذِ استقامَةُ الطَّريقِ تُصيِّرُ الوصولَ إلى المقصودِ أقربَ[2].

اسْتِقَامَةُ الطَّرِيقِ، تُصَيِّرُ الوُصُولَ إِلَى المَقْصُودِ أَقْرَبَ

وفي قولِه: ﴿مُّسْتَقِيمٍ﴾ مبالغةٌ في وصفِ الطَّريق بالاستقامةِ، بحيثُ إنَّ السّائرَ فيه لا يَضِلُّ، ولا تزلُّ به القدَمُ[3].

(1) العسكريُّ، الفروق اللُّغويَّة، ص: 289.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتنوير: 7/220.
(3) إبراهيم بغدادي، من أسرار البيان في سورة الأنعام، ص: 10 - 11.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الكَذِب والتَّكْذِيب:

الكَذِبُ ما كانَ خلافَ الحقيقةِ، والتَّكذيبُ نسبةُ الآخرِ إلى الكذبِ، إنكارًا واتِّهامًا

الفَرْقُ بينَهُما مِن وجْهَيْنِ:

أحدهما: لفظيٌّ؛ وهو أنَّ فعل الكذِبِ: (كَذَبَ) وهو ثلاثيٌّ مجرَّدٌ، وفعلَ التَّكذيبِ: (كذَّب) وهو ثلاثيٌّ مزيدٌ بحرفٍ، وهو التَّضعيفُ.

والآخرُ: معنويٌّ؛ وهو أنَّ الكذِبَ الإخبارُ عنِ الشَّيءِ بخلافِ ما هو عَلَيْهِ مطلقًا، سواءٌ أَوقَعَ ذلك الإخبارُ عن عَمْدٍ أم خطَأٍ، إلّا أنَّ الإثْمَ في الشَّرْعِ مُعَلَّقٌ على ما وقعَ مِنْهُ عَمْدًا[1].

وأمّا التَّكذيبُ - بزنةِ (التَّفعيلُ) - فالمرادُ بِه: نسبةُ القولِ إلى الكذبِ؛ إذْ صيغةُ (التَّفعيل) ترِدُ لإرادةِ النِّسبة، فالتَّكذيبُ: النِّسبةُ إلى الكذب[2].

فالتَّكذيبُ هو نسبةُ الغيرِ إلى الكذبِ تُهمةً أو افتراءً أو إنكارًا أو صدقًا، فمن كذَّبَ بآياتِ اللّٰه فقد أنْكَرَها، ومن كذَّب محمَّدًا ﷺ فقد رماه بالكذبِ فيما يقولُ، فهي تختلف باختلافِ السّياقِ الواردةِ فيه.

(1) الزَّبيديّ، تاج العروس: (كذب)، والفيوميّ، المصباح المنير: (كذب).
(2) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة: (كذب).

﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٤٠﴾ [الأنعام: 40]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الاحتجاجُ على المشركين

لَمّا بَيَّن ﷺ غايةَ جَهلِ أولئك الكفّار؛ بَيَّن مِن حالِهم أيضًا أنَّهم إذا نزَلتْ بهم بَليَّةٌ أو مِحْنةٌ؛ فإنَّهم يَفزَعون إلى اللّه تعالى، ويَلجَؤون إليه، ولا يَتمرَّدون عن طاعته، فهذا ابتداءُ احتجاجٍ على الكفّارِ الذين يجعلون للّه شركاء[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَرَءَيْتَكُمْ﴾: جَرَى (أَرَأَيْت) - هنا - مجرى أَخْبِرْني، أي: أخبِروني إخبارَ مَنْ لَهُ عِلمٌ ودِرايةٌ، أَخبِروني بشيءٍ مِنَ التَّأكيد، والرُّؤْيَةُ: النَّظَرُ بالعَيْنِ وبالقَلْبِ، يُقال: رأيتُه، رُؤْيَةً ورَأْيًا: إذا أبصرْتُهُ، ويُقال: رأَيْتُه بعَيْني رُؤيَةً، ورأَيْتُه رَأْيَ العَيْنِ، أي: حَيْثُ يَقَعُ البَصَرُ عليه، والرُّؤيَةُ - أيضًا- إدْراكُ المَرْئيِّ، والرُّؤْيَةُ بالعَيْنِ تَتَعَدَّى إلى مَفْعولٍ واحِدٍ، وبِمعنى العِلْمِ، تَتَعَدَّى إلى مَفْعولَيْنِ[2].

2) ﴿عَذَابُ﴾: الشِّدَّةُ والعُقوبَةُ. وأَصْلُ الكَلِمَةِ منَ العَذْبِ، وهو المَنْعُ، يُقالُ: عذَّبْتُ عَنْهُ الماءَ، أيْ: مَنَعْتُهُ عَنْهُ، وسُمِّيَ العَذابُ عَذابًا؛ لأنَّه يَمْنَعُ الشَّخْصَ مِنَ الرُّجوعِ إلى الجَريمَةِ، والعَذابُ: الضَّرْبُ بِعَذَبَةِ السَّوْطِ، أي: طَرَفِها، ويأْتي التَّعْذيبُ بِمعنى الإيلامِ والإيجاعِ الشَّديدِ، وإلْحاقِ المَشَقَّةِ بِغَيْرِه[3].

3) ﴿ٱلسَّاعَةُ﴾: السّاعَةُ في الأَصْلِ تُطْلَق بمعْنيين: أحدُهما: أَنْ تكونَ عبارةً عَنْ جُزءٍ مِنْ أربعةٍ وعِشْرينَ جُزءًا، هيَ مجموعُ اليَومِ واللَّيلةِ، والثّاني: أَن تَكونَ عبارةً عَنْ جُزءٍ قَليلٍ مِنَ النَّهارِ أَوِ اللَّيْلِ، ثُمَّ استُعير لاسْمِ يَوْمِ القيامَةِ، قال الزَّجّاج: مَعْنَى السّاعَةِ في كُلِّ القُرآن:

(1) الرازي، مفاتيح الغيب: 12/532، وأبو حيان، البحر المحيط: 4/507.

(2) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، وابن سيده، المحكم، والراغب، المفردات: (رأى).

(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (عذب).

الوَقْتُ الَّذي تَقوم فيهِ القيامَةُ، يُريد أَنَّها ساعَةٌ خَفيفَةٌ يَحْدُثُ فيها أمرٌ عظيمٌ؛ فلِقلَّة الوَقْتِ الَّذي تقوم فيهِ سَمّاها: ساعَةً[1].

4) ﴿تَدْعُونَ﴾: الدُّعاءُ: النِّداءُ، تقولُ: دَعَوْتُ فُلانًا دُعاءً ودَعْوَةً، أيْ: نادَيْتُهُ، والدَّعْوَةُ: المَرَّةُ الواحِدَةُ مِن الدُّعاءِ، ويأْتي الدُّعاءُ بِمعنى الطَّلَبِ والسُّؤالِ، يُقال: دَعَوْتُ اللّه، أَدْعوهُ، أيْ: سَأَلْتُهُ، وأَصْلُه: إمالَةُ الشَّيْءِ إلَيْكَ بِصَوْتٍ وكَلامٍ يكون مِنْكَ، ومنه سُمّيَت الرَّغْبَةُ إلى اللّهِ - ﷻ - دُعاءً، ويطلَق على الحَثِّ إلى الشَّيْءِ والتَّرْغيبِ فيهِ، فيُقال: دَعا قَوْمَهُ إلى اتِّباعِهِ، أيْ: حَثَّهُمْ، ورَغَّبَهُم، ومِن مَعانيه أيضًا: التَّضَرُّعُ والتَّسْمِيَةُ والقَوْلُ والشَّرَفُ، وجمْعُ الدُّعاءِ: أدْعِيَةٌ ودَعَواتٌ[2].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

عندَ حلولِ عذابِ اللهِ، لا ينفعُ المشركين ما يدْعُون مِن دون الله

قُل يا أَيُّها الرَّسول ﷺ لهؤُلاء المشركين، تبكيتًا لهم على عِبادَتهم غَيْرَ اللّه تعالى، وإلزامًا لَهُم بِما لا يستطيعون إنكارَه: أخْبِروني إنْ أتاكم عذابُ اللّه المنتقم الجبّار، أو أتاكم يَومُ القيامةِ؛ هل ستَدْعونَ في ذلك الوقتِ أحدًا غيرَ اللّه؛ ليُنْجيَكم ممّا حَلَّ بكم إنْ كنتم صادِقينَ في اتِّخاذِكُم آلهةً من دونه؟[3].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

غرضُ الاستئناف في ﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ﴾:

التَّعريض بالحثِّ على خلْعِ الشِّرْك ونبذه

قوله جلّ شأنه ﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ﴾ قولٌ مُستأنَفٌ أمرَ اللّهُ تعالى رسولَه ﷺ أن يوجِّهه إلى المشركين، يتضمَّن تهديدًا بالوعيد طردًا للأغراض السّابقة، وهو تقريرُ الإنسانِ بما لا يُمْكِنُه دفعُه؛ وذلك بأن يُقَرَّرَ بشيءٍ يُقِرُّ به، ولا يُمكِنُه دَفْعُه؛ لأنَّهم في هذه الحال لا

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، وابن الأثير، النهاية في غريب الحديث، وابن منظور، لسان العرب: (سوع).

(2) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة، وابن سيده، المحكم، وابن منظور، لسان العرب: (دعو).

(3) النسفي، التيسير في التفسير: 6/73، ومجموعة من العلماء، التفسير الوسيط: 3/1238، والزحيلي، التفسير المنير: 7/199.

يدْعونَ إلّا اللّهَ تعالى، فإذا كان ذلك كذلك، فلماذا يُخْلِصون في الشِّدَّةِ، ويُشْرِكون في الرَّخاءِ؟ وفيه: تعريضٌ بالحثِّ على خلْع الشِّرْك ونبذه؛ إذ ليس لشركائِهم نفعٌ بأيديهم، فذُكِّروا بأحوالٍ قد تعرض لهم يلجؤونَ فيها إلى اللّهِ تقدّست أسماؤه، إضافةً إلى ذلك فيه اكتفاءٌ عن عبادة غير اللّه تعالى للعلم بحالهم[1]..

بلاغة تركيب: ﴿أَرَءَيْتَكُمْ﴾:

التَّصوُّر الذِّهنيّ بالرُّؤية، في قوّة الظُّهور والمثول

قوله تعالى: ﴿أَرَءَيْتَكُمْ﴾ تركيبٌ شهيرُ الاستعمالِ، يُفتتَحُ بمِثلِه الكلامُ الذي يُرادُ تحقيقُه والاهتمامُ به، وهي كلمةُ استفهام وتَعجُّب، وليس لها نظيرٌ؛ فهمزةُ الاستفهامِ فيه للتَّقرير والتَّعجيب[2]، وفيه: تعريضٌ بالحثِّ على خلْع الشِّرْك؛ إذ ليس لشركائِهم نفعٌ بأيديهم، فذُكِّروا بأحوالٍ قد تعرض لهم يلجؤونَ فيها إلى اللّهِ[3].

إنَّ هذا الأسلوب الاستفهاميَّ الّذي تدخل فيه همزةُ الاستفهام على فِعل الرُّؤية المُثبَت، كثيرُ الورود في كتاب اللّه العزيز، ويختصُّ بالاستعمال في الحالات العجيبة؛ ولذلك نراه يقترن كثيرًا بأسلوبِ شرطٍ، وجملةٍ استفهاميَّةٍ أخرى، كما في آيتنا هذه. وهذا الاقتران أضفى على الجملة ﴿أَرَءَيْتَكُمْ﴾ فخامةً في التَّركيب وسموّا في المعنى، والبلاغيّون على أنَّه بمعنى أخْبِرْني أو أخبِروني، وهذا المعنى ليس بلازم، وقد كانت نشأتُه في أروقة النُّحاة أوَّلًا، ثمَّ تلقّاها البلاغيّون عنهم.

ليس المرادُ من (أرأيتكم، وأرأيت، وأرأيتم): أخبِرْني أو أخبِروني، وإنَّما المرادُ: هو استحضارُ الأمر المستفهَمِ عنه، وتصوُّره

(1) شهاب الدين، حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي: 1/55، والخطيب، تفسير المنار: 7/340، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 7/221، وابن عثيمين، تفسير القرآن الكريم - سورة الأنعام، ص: 215.

(2) البيضاوي، أنوار التنزيل: 2/161، وأبو حيان، البحر المحيط: 4/507، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 7/221.

(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/132، والأنصاري، فتح الرحمن، ص: 166 - 167.

في الذِّهن ليُحكَمَ عليه، وهو حاضرٌ ماثلٌ في النُّفوس، وعُبِّر عن هذا التَّصوُّر الذِّهنيّ بالرُّؤية (البصَريَّة) في قوَّة الظُّهور والمثول، أعني: أنَّ الاستحضار الذِّهنيَّ المطلوب ينبغي أن يكون كاملًا حتَّى لكأنَّ صاحبَه يراه ماثلًا أمامه، كما يكون شخصٌ ماثلًا أمامه ينظرُ إليه بكلِّ وضوح.

وتطبيقُ هذه الفكرة على آيتنا هذه ميسورٌ، فإنَّ اللّه تعالى يدعو المخاطَبين إلى أن يتصوَّروا أنفسَهم واقعًا عليهم عذابٌ عظيم من فوقهم ومن تحت أرجلِهم ومن ورائِهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم؛ ليتصوَّروا أنفسَهم في لُجَّة هذا العذاب، فتقعُ منهم الإجابةُ صادقةً[1].

نكتة استعمال ﴿إِنْ﴾ دون (إذا) في السِّياق:

حرص القرآن على زرع بذور الأمل، في هداية الضّالين

آثر النَّظمُ الكريم استعمالَ ﴿إِنْ﴾ الشَّرطية هنا دون (إذا)؛ لأنَّها تختصُّ بالدُّخول على غير مُتحقِّقِ الوقوع، وهو أنَّهم لن يدعوا غيرَ اللّه في هذا الموقف، وعليه قد عدلَ عنِ استعمال (إذا) في هذا المقام؛ لأنَّ (إذا) تختصُّ بدخولها على مُتيقَّنِ الوجود، ففي هذا الاستعمال إرخاءٌ لعَنان التَّفكر والاهتداء، ولو قال: (إذا أتاكم..)؛ لوقع اليأسُ منَ الإيمان.

سرُّ إيثار لفظِ (الإتيان) على (المجيء)، في قوله: ﴿أَتَىٰكُمْ﴾:

تلويحٌ للمخاطَبين بهوانِهم على اللّه تعالى، إن أصرُّوا على شركِهم

ذكر السّيوطيُّ أنّ " (جاء) تُقالُ في الجواهرِ والأعيانِ، و(أتى) في المعاني والأزمانِ"[2]، و(أتى) أخفُّ من (جاء)[3]؛ لأنّه مجيءٌ بسهولة؛ وقد آثر السّياقُ اختيارَ لفظِ الإتيانِ، وذلك لبيان يُسرِ إتيانِ العذابِ، وأنَّ حالَ المخاطَبين ليس في رفعةٍ مانعةٍ من حلولِ العذابِ

(1) محمد رشيد رضا، تفسير المنار: 7/341، والمطعنيّ، التفسير البلاغي للاستفهام: 1/302 - 308.
(2) الآلوسّي، روح المعاني: 5/30.
(3) الرّاغب، المفردات: (أتى، جاء).

بهم، ففي استعمالِ هذا اللَّفظِ إيماءٌ وتلويحٌ بهوانِ المخاطَبين عند اللّه تعالى، إنْ هم أصرّوا على ما هم عليه.

سرُّ التَّعبير بلفظ (العذاب)، دون ما يقاربه في الدّلالة:

أهوالٌ تبرزها المعاني، في ظلالِ ألفاظِها

جاء التَّعبيرُ بلفظ العذاب في الآية دون مرادفاتِه؛ لأنَّه يتضمَّنُ دائمًا ملمحَ الشِّدة، حتَّى وإن لم يوصفْ بالشَّديد أو الأليم ونحوِ ذلك، أمّا العقابُ - مثلًا - فقد يكونُ يسيرًا؛ لارتباط العقوبةِ بالذَّنْب، فإذا عظُم الذَّنبُ؛ عظُمتِ العقوبةُ، زِدْ على ذلك أنَّ العذابَ يكونُ عامًّا فيمن يستحقُّه ومن لا يستحقُّه بالشِّدّة نفسِها، وبما أنَّ الشِّركَ باللّه من أعظم الذُّنوب؛ آثر استعمالَ العذاب على غيره من مرادفاتِه.

فائدةُ تعريف ﴿عَذَابُ ٱللَّهِ﴾، بالإضافة دون (الْ):

الإضافة للتّهويل

إضافةُ العذابِ إلى اسمِ الجلالةِ في قوله: ﴿عَذَابُ ٱللَّهِ﴾ دون أن يأتي معرَّفًا (العذاب) لزيادةِ تَهويلِه؛ وذلك لصُدورِه عن أقدَرِ القادرينَ[1].

بلاغةُ المجاز في لفظ ﴿أَتَىٰكُمْ﴾:

الإشارةُ إلى حصول شيءٍ لم يكنْ حاصلًا

إتيان العذاب: حلوله وحصوله، فهو مجازٌ؛ لأنَّ حقيقة الإتيان المجيء، وهو الانتقال من موضع بعيد إلى الموضع الذي استقر فيه مفعول الإتيان، فيطلق مجازًا على حصول شيء لم يكن حاصلًا، وكذلك القول في إتيان السّاعة سواء[2].

وجاهةُ تقديم ذِكر (العذاب) على ذكر (السَّاعة):

تقديم العذاب على السّاعة، ترهيبٌ للمنكرين، ورحمةٌ للمذنبين

المقصودُ بعذاب اللّه في الآية الكريمةِ ما يقعُ على المشركين من عذابٍ متوقَّعٍ في الدُّنيا نتيجةَ شركهم وعبادتهم غيرَ اللّه تعالى، أمّا السّاعة؛ فهي اسمٌ للوقت الذي يُصعقُ فيه العبادُ، واسمٌ للوقت الذي يُبعث فيه العبادُ، وفيه منَ الهول العظيمِ ما لا يوصفُ، وهو مآلٌ واقعٌ لا مفرَّ منه.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/223.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 7/223.

وقد تأخَّر ذِكرُ إتْيانِ السّاعةِ على العذاب، في قولِه: ﴿إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ﴾ لمجموعةٍ من النِّكات: الأولى: الاعتناء بما هو متقدِّمٌ زمانًا على المتأخر زمانًا، والثّانية: مزيدُ تحذير من وقوع عذاب اللّه في الدُّنيا، فإنَّ ذكرَه يُلوِّح بحلوله إن أصرّوا على كفرِهم، والثالثة: تقديم المتوقَّع على المتحقق بغرض التَّرهيب والوعيد، فينال كُلُّ ظالمٍ جزاءَه ويتبيَّن لكلِّ مُشرك أنَّ اللّه واحدٌ أحَدٌ فَرْدٌ صَمَدٌ، وبهذا الترتيب تتَحَقَّقُ القيمةُ الهِدائيّةُ.

معنى حرف ﴿أَوْ﴾ في الآية الكريمة:

عذاب الله يَتَلوّنُ بِتَلَوّن الكفر والعصيان

أفاد حرف العطف (أو) في قوله تعالى: ﴿إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ﴾ معنى التَّفصيل، حيث ربط بين السّابق واللّاحق، مع إفادة تعدّد الأحوال التّي يوقِعُها اللّه تعالى على عبيده، لأنّه هو المتصرّف الّذي بيده أمرُ كلِّ شيء.

نكتةُ تكرير ﴿أَتَتْكُمُ﴾، دون الاكتفاء بإتيان العذاب:

إعادةُ اللّفظ لتقريره في النّفوس، وترسيخه في الأذهان

أعادَ الفِعْلَ (أتى) مَع كَونِ حَرفِ العَطفِ ﴿أَوْ﴾ مُغنيًا عَن إعادةِ العامِلِ؛ بِأن يُقالَ: (إنْ أتاكُم عَذابُ اللّهِ أَوِ السّاعَةُ)، وهو ما يوَجَّهُ به الإظهارُ في مَقامِ الإضمارِ مِن إرادةِ الاهتمامِ بِالمُظْهَرِ، بحيث يُعادُ لفْظُه الصَّريحُ؛ لأنَّه أقوَى استِقرارًا في ذِهنِ السّامِعِ[1].

قال ابنُ عرفةَ: "إن قلتَ: لمَ أعاد الفعلَ، والأصلُ في المعطوفات المتَّفقةِ الألفاظِ الاكتفاءُ بالأول، فيُقال: أرأيتم إنْ أتاكُم عذابُ اللّه أو السّاعةُ، فأجاب بأنَّه إذا كان صدورُ الفعل الأوّلِ من فاعله أقوى بالمعنى من صدور الثّاني عن فاعله أو العكسُ، فيُعادُ لفظُ الفعل الأوّل، وإن لم يكن بينهما تفاوتٌ، ولا اختلافٌ في إحداث الفعل؛ فيُكتفى بالأوّل، ولا شكَّ أنّ إتيان عذابِ اللّه مغايرٌ لإتيان السّاعة"[2].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 7/223.

(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/154.

نكتةُ ذكرِ السّاعة دون مرادفاتها المفيدةِ:

السّاعةُ اسمٌ لوقتٍ تقومُ فيه القيامةُ، سُمّي بها؛ لأنَّها ساعةٌ خفيفةٌ يحدثُ فيها أمرٌ عظيمٌ وهي القيامةُ[1]، فذِكْرُها أغنى عن ذكر القيامةِ ومرادفاتِها؛ لأنَّها هي المقصودةُ بالذِّكر.

غرضُ الاستفهام في قولِه: ﴿أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ﴾:

إلجاءٌ إلى الإقرار بالجواب

قولُه تعالى: ﴿أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ﴾ مناطُ الاستخبار ومحطُّ التَّبكيت، وهو استفهامٌ تقريريٌّ، جيء به للتَّوبيخ والتَّقريع والتَّعجّب من حالهم، يُراد به أخذُ اعترافِ هؤلاء المشركين بالله[2].

وقد أضاف تصدّرُ همزةِ الاستفهام لجملة القصر معنًى آخرَ؛ جاء من خروج الاستفهام عن معناه الحقيقيِّ: وهو تبكيتُهم وإلجاؤُهم إلى الإقرار بالجواب[3]، فتمَّ بهذا الاحتجاجُ على الكفّار الجاعلين لله شركاءَ.

دلالةُ لفظ ﴿أَغَيْرَ﴾ على العُموم:

كلّ من يدعو غيرَ الله، فهو مَهين ومُهان

التَّعبيرُ بـ ﴿أَغَيْرَ﴾ أفاد العمومَ، وقد جاءت لتُصَوِّرَ عِظمَ جُرْم مَنْ يدعو غيرَ الله تعالى، أو يتوكَّلُ على غيره من مخلوقاته، ويُلحظُ أنَّ هذا التَّعبيرَ فيه تقزيمٌ وتجهيلٌ واستهانةٌ بالدّاعي وتحقيرٌ بالمدعوّ، وفي الوقت نفسِه أفادتْ حصرَ العبادة بالله ﷻ دون غيره.

سرُّ تقديم ﴿أَغَيْرَ ٱللَّهِ﴾ على فعل ﴿تَدْعُونَ﴾:

الأفعالُ لا تُذمُّ إلَّا باعتبارِ متعلَّقاتِها، ودورها أساسيّ في التّركيب

في قوله تعالى: ﴿أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ﴾ مِنَ التَّبكيتِ ما هو ظاهرٌ، وسرُّ تقديم ﴿أَغَيْرَ ٱللَّهِ﴾ على عاملِه ﴿تَدْعُونَ﴾؛ لتكونَ الجملةُ المُستفهَمُ عنها جملةَ قَصْرٍ، وذلك إمّا للاختصاص، بمعنى: أَتَخُصّون آلهتَكم بالدَّعوة فيما هو عادَتُكم إذا أصابكم ضُرٌّ، أم تَدْعونَ الله دونَها؟

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/154، والبروسويّ، روح البيان: 3/29.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/132، والبروسويّ، روح البيان: 3/29، والخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 4/177، وطنطاويّ، الوسيط: 5/72.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/22، وزاده، حاشية على البيضاويّ: 2/165.

وإمّا للإنكارِ عليهم في دُعائِهم للأصنام؛ لأنَّ المُنْكَر إنَّما هو دعاءُ الأصنام، لا نفسُ الدُّعاءِ، ألا ترى أنَّك إذا قُلْتَ: أزيدًا تَضْرِبُ؟ إنما تُنْكِرُ كونَ زيدٍ مَحَلًّا للضَّرْب، ولا تُنْكِرُ نفسَ الضَّرْب[1].

دلالة ذكرِ لفظ الجلالةِ ﴿ ٱللَّهِ﴾ في السّياق:

انتهاجُ أسلوبِ اللّين، لاستمالة القلوبِ، وإقامةِ الحُجّة عليها

لا يخفَى ما في اسمِ الجلالة منَ الهيبة والعظمةِ والأثرِ العظيم في النُّفوس؛ رهبةً، وخوفًا، ولينًا، وانقيادًا، وهذا ما نجدُه متحقِّقًا في الآية الكريمة، وأبعدُ من ذلك فالآية مصنَّفةٌ عند علماء البيان من باب استدراجِ المخاطَب، وهو أن يليّنَ الخطابَ، ويمزجَه بنوع منَ التَّلطّف والتَّعطّف حتَّى يوقعَ المخاطَبَ في أمر يعترفُ به، فتقومَ الحجَّةُ عليه، واللّه تعالى خاطب هؤلاء الكفّارَ بلينٍ منَ القول، وذَكَر لهم أمرًا لا ينازِعون فيه، وهو أنَّهم كانوا إذا مسّهم الضُّرُّ دعَوُا اللّه لا غيرَه[2].

نكتةُ استعمال الفعل ﴿تَدْعُونَ﴾ دون (تُنادُون):

لفظُ (الدُّعاء) يجمعُ بين النِّداءِ والعبادة

استُعمل لفظُ الدُّعاء في هذه الآية، في معنى الاستغاثة، ويكونُ الدُّعاءُ بصوتٍ جَهريٍّ أو خفيٍّ، ويكونُ الدُّعاءُ عبادةً، كما في هذه الآية الكريمة، أمّا النِّداء فلا يُستعملُ في معنى العبادة، وكذلك لم يُستعملْ في معنى الدُّعاء السّري، ولا في معنى الكلام القلبيِّ، بل في معنى الصَّوت الجَهري أو الكلام الجَهري؛ لذلك آثر استخدامَ ﴿تَدْعُونَ﴾ دون (تنادون)؛ فهو أشملُ وأوسعُ دلالةً، لدخول معنى النِّداء والعبادة.

موقعُ جملة ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ ممَّا قبلها:

في التّذييل تبكيتٌ وتوبيخٌ

تذييلٌ لما سَبق أفاد تأكيد التَّبكيت، الَّذي في جملة القصر؛ ﴿أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ﴾.

(1) الزمّخشريّ، الكشّاف: 2/22، والبيضاوي، أسرار التّأويل: 2/161، والسّمين، الدّر المصون: 4/627، وابن عاشور التّحرير والتّنوير: 7/224.

(2) أبو حيان، البحر المحيط: 4/511.

حذفُ جوابِ جملة ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾:

جملةُ ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ مستأنفةٌ، وجوابُها محذوفٌ دلَّ عليه قولُه: ﴿أَرَءَيْتَكُمْ﴾ الذي هو بمعنى التَّقرير، وتقديرُ الجواب: إن كنتم صادقين فأنتم مُقرّون بأنَّكم لا تدعون غيرَ اللّه[1].

عند الاضطرار لا أمل للمشركين في دعاء غيرِ الله

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

(أتى) و(جاء):

تشترك المادّتانِ المُعجميّتان في دلالة القُدوم والإقبال، غير أنَّ بينهما فُروقًا تتكشَّفُ عند تأمُّلِ السّياق، إذ نجدُ (أَتَى) مُستعمَلةً في الأمور التّي يُتوصَّل إليها بسهولة، أو تكونُ في سياقٍ تَنْسابُ فيه المعاني بسهولةٍ؛ لذلك جاء التَّعبيرُ بها في هذه الآية؛ لأنَّ أمرَ عذابهم سهلٌ في الدُّنيا ويومَ القيامة، وأمّا المجيءُ فيأتي لِما فيه صُعوبةٌ ومشقَّةٌ، ولعلَّ ذلك يعودُ إلى لفظ كلٍّ منَ الفعلَيْن، فـ (أتى) أخفُّ من (جاء)، وممّا يدلُّنا على ذلك أنَّ (أَتَى)، يؤخذُ منهما الأزمنةُ الثَّلاثةُ: الماضي، والمضارعُ، والأمرُ، فنقولُ: أتى، ويأتي، وائْتِ، وكلُّها وردت في القرآن، في حينِ وردَ الفعلُ (جاء) ملازِمًا حالةً واحدةً، وهي صيغةُ الماضي فحسبُ، لثِقَلها فلا تجدُ في القرآن الكريم يجيء أو جِئْ، ولا يخفى ما فيها منَ الثِّقل والصُّعوبة[2].

الإتيان للأمور الّتي يُتوصَّل إليها بسهولة، والمجيء لِمَا فيه صُعوبةٌ ومشقَّةٌ

العذاب والعقاب والجزاء:

العِقابُ يُنبئُ عنِ استحقاقٍ، وسُمّي بذلك؛ لأنَّ الفاعلَ يستحقُّه عَقيبَ فِعله، ويجوزُ أن يكون العذابُ مُستحَقًّا وغيرَ مُستحَقٍّ، وأصلُ العقاب التُّلوّ، وهو تأديةُ الأوَّل إلى الثّاني يُقال: عقبَ الثّاني الأوَّلَ إذا تَلاه. وذَكر الكفويُّ أنَّ العِقاب هو جزاءُ الشَّرِّ، والنَّكالُ أخصُّ منه،

العذابُ الألمُ الثَّقيلُ، والعِقابُ ما يكون عن استحقاق، والجزاء للمقابل أيّا كان

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 7/224، وطنطاوي، الوسيط: 5/72.
(2) الراغب، المفردات: (أتي)، والدوري، دقائق الفروق البيانية، ص: 229.

وأنَّ الجزاءَ إذا أُطلقَ في معرِض العقوبات يُراد به ما يجبُ حقًّا للّه تعالى بمقابلةِ فِعلِ العبد؛ لأنَّه المجازي على الإطلاق... والعذابُ: الألمُ الثَّقيلُ[1].

الدُّعاء والنِّداء:

قال العسكريُّ: النِّداءُ: هو رفعُ الصَّوت بما له معنى، والدُّعاءُ: يكونُ برفع الصَّوت وخفْضِه، يُقال: دعوتُه من بعيد، ودعوتُ اللّه في نفسي، ولا يقال: ناديتُه في نفسي، وأصلُ الدُّعاء طلبُ الفعل؛ دعا يدعو. وقال الرّاغبُ: الدُّعاء مثلُ النِّداء، إلّا أنَّ النِّداء قد يُقال: بـ (يا) أو أَيا ونحوِ ذلك من أدوات النِّداء من غير أن يُضمَّ إليه الاسمُ، أمّا الدُّعاء، فلا يكاد يُقال إلّا إذا كان معه الاسمُ، نحوَ: يا فلان، وقد يُستعمل كلٌّ منهما في موضع الآخر، قال تعالى: ﴿كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنۡعِقُ بِمَا لَا يَسۡمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءًۚ﴾ [البقرة: 171][2].

الـدُّعـاء طلبُ الفعل أو النّفع، وأصله طلبٌ من الـلـه، والـنّـداء رفعُ الصَّوت بما له معنى

(1) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 364، والكفوي، الكليات، ص: 653، و654.
(2) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 534، والرّاغب، المفردات: (دعا).

﴿بَلۡ إِيَّاهُ تَدۡعُونَ فَيَكۡشِفُ مَا تَدۡعُونَ إِلَيۡهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوۡنَ مَا تُشۡرِكُونَ ٤١﴾ [الأنعام: 41]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

عندما يَحيقُ بالمشركين عذابُ الله يلجأُون إليه ليكشفَ عنهم ما أصابهم

لَمّا كان استفهامُ الإنكارِ في قوله تعالى: ﴿أَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَدۡعُونَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ من الآيةِ السّابقة، بمعنى: النَّفْي، كأنَّه قيل: لا تَدْعوا غيرَهُ؛ عَطَفَ عليه قولَه: ﴿بَلۡ إِيَّاهُ تَدۡعُونَ فَيَكۡشِفُ مَا تَدۡعُونَ إِلَيۡهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوۡنَ مَا تُشۡرِكُونَ﴾[1]، ليكون جوابًا كاشفًا عن حقيقةِ فعلِهم عند الاضطرار ووقوعِ الأخطار.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَيَكۡشِفُ﴾: الكَشْفُ: رَفْعُ الغِطاءِ والحِجابِ، وأَصْلُه: إزالَةُ شَيْءٍ عن شَيْءٍ وتَعْرِيَتُهُ مِنْهُ، ويأْتي بِمعنى الإظْهارِ والبَيانِ، يُقالُ: كَشَفَتِ المَرْأَةُ عن وجْهِها، أي: أَظْهَرَتْه وبَيَّنَتْه، ومِنْ مَعانيه أيضًا: الإبْرازُ، والتَّفْسيرُ[2].

2) ﴿وَتَنسَوۡنَ﴾: النِّسيانُ: جَهْلُ الإنْسانِ بما كانَ يَعْلَمُهُ ضَرورَةً مَعَ عِلْمِهِ بِأُمورٍ كَثيرَةٍ لا بِآفَةٍ، أو هوَ عَدَمُ ذِكْرِ ما قَدْ كانَ مَذْكورًا، وهو ضِدُّ الذِّكر والحِفْظِ، ومِن مَعانيه: الغَفْلَةُ والسَّهْوُ والتَّرْكُ[3].

المَعْنَى الإجْمَالِيُّ:

المُكذّب مُضطرٌ للّجوء إلى الله وحده عند المِحَن

استرسالاً في تقرير الحُجّة على المشركين يأتي الجواب على لسان المقرّر يقول: إنّكم أيُّها المشركون المكذّبون لا يُمكِنكم أن

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/112، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/132.
(2) الخليل، العين، وابن دريد، جمهرة اللغة، والأزهريّ، تهذيب اللغة، وابن سيده، المحكم، وابن منظور، لسان العرب: (كشف).
(3) الخليل، العين، وابن دريد، جمهرة اللغة: (نسي).

تلجأوا لغير اللّه تعالى إن أتاكم عذابُه، حتّى إنّكم تتوجّهون إلى اللّه بالدعاء في ساعات البلاء، وتخُصّونَه بالتّضرُّعِ؛ ليكشفَ عنكم ما نَزَلَ بكم من عذاب الدّنيا، فيرفع عنكم البلاء إن شاء أن يرفَعَه، تفضّلًا منه، بلْ إنّكم تَتْركون أصنامكم حين نزول البلاء لعلمكم أنّها لا تضرُّ ولا تَنْفَع[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

سِرُّ الإضراب بالحرف ﴿ بَلْ ﴾، عنِ السُّؤال بالجواب عنه:

﴿ بَلْ ﴾ في قوله تعالى: ﴿بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ﴾ حرف إضراب وانتقال إلى معنى آخر دون أن يبطل ما تقدَّم؛ لأنَّ هذا لا يكون في كلام اللّه تعالى، فهو حرف جيء به للحكم على دعوة غير اللّه بالبطلان، أي: فأنا أُجيب عنكم بأنَّكم لا تدعون إلّا اللّه، ووجه تَولّي الجواب عنهم مِن السّائل نفسِه أنَّ هذا الجواب لمّا كان لا يسعُ المسؤولَ إلّا إقرارُه؛ صحَّ أن يتولَّى السّائلُ الجوابَ عنه[2].

لا يسَعُ المسؤول أنْ يُجيبَ بغير هذا الجوابِ

فائدةُ تقديمِ المفعولِ ﴿ إِيَّاهُ﴾، على الفعل ﴿ تَدْعُونَ﴾:

قدَّم سبحانه المفعولَ على الفعل في قوله تعالى: ﴿بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ﴾، لإفادة الاختصاص والقَصْر، وهو قصرُ صفةٍ على موصوف قصرًا حقيقيًّا تحقيقيًّا، أي: لا تدْعون إلّا إيّاه؛ لأنَّ دعاءَهم اللّهَ عند الشَّدائد دون سواه حقيقةٌ يشهدُ الواقعُ بها، وكذلك يدلُّ على أنَّ المشركين مهما بلغ ضلالُهم؛ فإنَّهم عند الشَّدائد يتَّجهون بتفكيرهم إلى القوَّة الحقيقيَّة المُنجية الخالقةِ لهذا الكون[3].

تتوجّهُ القلوبُ إلى الله تعالى، عند نزولِ الضُّرّ والبلاء

سببُ ذكر ضميرِ الجلالة ﴿ إِيَّاهُ﴾:

في قوله تعالى: ﴿بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ﴾: ذكرتِ الآية المفعولَ به ضميرًا

(1) الدّرة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 3/285.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 7/224، وأبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 5/2494.
(3) البيضاوي، أسرار التَّأويل: 2/161، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 7/224 - 225، وطنطاوي، الوسيط: 5/73.

بدلَ الاسم الظّاهرِ وهو لفظُ الجلالةِ، كما في قولِه تعالى: ﴿بَلِ ٱللَّهَ فَٱعۡبُدۡ﴾ [الزمر: 66]، لنُكتةٍ إيحائيّةٍ وهي تلويحُ الخطاب بما استقرَّ في نفوس المخاطَبين، أي: الذي تعرفونه مُنجيًا مُنقذًا على الحقيقة، والإضمارُ هنا أبلغُ منَ التَّصريح، لاسيَّما أنَّه صُرِّح باسمه سبحانه في الآية السّابقة.

الإضمارُ أبلغُ منَ الإظهار، في مخاطَبة النُّفوسِ المتكبّرةِ

غرضُ حذفِ مفعولِ الفعل ﴿تَدۡعُونَ﴾:

حُذِف مَفْعولُ: ﴿تَدۡعُونَ﴾ في قولِه تعالى: ﴿فَيَكۡشِفُ مَا تَدۡعُونَ إِلَيۡهِ﴾، وهوَضَميرُ اسْمِ الجَلالَةِ، أَيْ: ما تَدْعونَهُ[1] إلى كشْفِه، وغرضُ الحذفِ تمحيضُ النَّظرِ للدُّعاءِ، وهو ما يُصوِّرُ شدَّةَ احتياجهم بسببِ كبيرِ الاضطرار، وللعلمِ بمن يُدعى حينئذٍ؛ إذ هو الواحدُ الأحدُ في القدرةِ على الاستجابةِ دون سواه.

تفرُّدُ الله تعالى بالإجابة، هو ما تقرُّ به نفوسُ المخاطَبين

دلالة العطف بحرف الفاء في ﴿فَيَكۡشِفُ﴾:

دلَّت الفاءُ في قوله تعالى: ﴿فَيَكۡشِفُ مَا تَدۡعُونَ إِلَيۡهِ﴾ على ترتيب فعل الكشفِ على الدُّعاء وسرعة الإجابة، وهذا إطماعٌ في رحمَةِ اللّهِ؛ لعلَّهم يَتَذكَّرونَ[2].

تطميعُهم بدوام الالتجاء

بلاغةُ استعمالِ فعلِ (يكشف)، دون ما يُقاربه في المعنى:

في قوله تعالى: ﴿فَيَكۡشِفُ مَا تَدۡعُونَ إِلَيۡهِ﴾ جاء التَّعبيرُ بالفعل (يكشف) لما يتضمَّنه من قوة معنى لا تتوافر في مرادفاته، فمعنى (يكشف): يُزيل الضُّرَّ، فكأنَّ الشِّدَّة غطاءٌ غامرٌ محيطٌ، وإزالتُه: كشفُه، ففي هذا التَّعبير استعارةٌ فيها تشبيهُ حال إزالةِ الشَّرِّ، بحال كشفِ غطاءٍ غامرٍ مُؤلم، بجامع إزالةِ الضُّرّ في كلٍّ، وإظهارِ السَّلامة[3]، وفي هذه الاستعارةِ تصويرُ إحاطة الضُّرِّ بهم، ويأسِهم من دفعِه بأنفسِهم.

تصويرُ إحاطةِ الضُّرِّ، وبيان اليأس من دفعِه

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتنوير: 7/225.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتنوير: 7/224 - 225، وأبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 5/2494.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2495، وطنطاويّ، الوسيط: 5/73.

سِرُّ تقديمِ ﴿فَيَكْشِفُ﴾ على ﴿وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ﴾:

نسيانُ الآلهةِ المزعومةِ في مواضعِ الاضطرارِ، دليلُ عقيدةِ الاجترار

عطف قوله: ﴿فَيَكْشِفُ﴾ على ﴿تَدْعُونَ﴾، وقد قدَّم الكشفَ - مع تأخره - على النِّسيان، وعلى الدُّعاء أيضًا؛ ولو نُظِم الكلامُ في غير القرآن؛ لقيل: بل تنسون ما تشركون، وإيّاه تدعون، فيكشفُ ما تدعون إليه إن شاء؛ والسِّرُّ في هذا التَّقديم؛ إظهارُ كمالِ العنايةِ بشأنِ الكَشْفِ والإيذان بترتُّبه على الدّعاء خاصّةً، وفيه إطماعٌ في رحمة الله لعلّهم يتذكَّرون[1]، فهو توجيهُ الأنظارِ إلى المعتبرِ في الدُّعاءِ على الحقيقةِ، وبيانِ حال الآلهةِ، وأنَّها في موضعِ نسيانٍ وتناسٍ في النَّفسِ والذِّكر اللَّفظيِّ.

نكتةُ التَّعبير بـ ﴿مَا﴾، بدلًا منَ الاسم الموصول الظَّاهرِ:

اشتمال السّياق على كلِّ مدعوٍّ في دفع الضُّرِّ من دون الله تعالى

عبَّر عن آلهتهم بـ ﴿مَا﴾ الَّتي هي لغير العاقل؛ تحقيرًا للمشركين، وقيل: هي على حذف مضافٍ، والتَّقديرُ: وتنسون دعاءَ ما تشركون، أو ﴿مَا﴾ مصدريَّةٌ، والتَّقديرُ: وتنسون الإشراكَ[2]، والصَّحيحُ: أنَّها موصوليَّةٌ جيءَ بها لتعمَّ كلَّ ما أشركوه مع الله تعالى في دفعِ الضُّرِّ، ولتنزيلِها منزلةَ غيرِ العاقل، بغرضِ تحقيرِ ذلك العقلِ الذي يدعو من لا يعقلُ الأمرَ، ولا يفهم السِّرَّ.

بلاغةُ استعمالِ حرف (إلى)، في قوله: ﴿تَدْعُونَ إِلَيْهِ﴾:

تحقيقُ مقامِ الإخلاص عند الدّعاء، ضرورة للقبول

عُدّيَ الفعلُ ﴿تَدْعُونَ﴾ بحرف الانتهاءِ (إلى) في قولِه جلّ شأنُه: ﴿تَدْعُونَ إِلَيْهِ﴾: لتضمُّنِه معنى التّضرّعِ، والمعنى: فيكشفُ سبحانه ما تدعون مُتضرّعين إليه، وفائدةُ التّضمينِ الإيجازُ وتوسيعُ الدّلالةِ، حيث تضمّنتِ العبارةُ القرآنيّةُ معنَيَيْن باستعمالِ فعْلٍ واحدٍ.

غرضُ قيْدِ ﴿إِن شَآءَ﴾:

غرضُ القيدِ: ﴿إِن شَآءَ﴾ الاستثناءُ؛ لأنَّ المحنةَ إذا أظلَّت عليهم؛

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السليم: 3/133، وابن عاشور، التَّحرير والتنوير: 7/225.
(2) ابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 8/146.

فدعَوْه إلى كشفها وصرفِها، فهو لا إله إلّا هو كاشفٌ إن شاء، ومصيبٌ إن شاء لا يجبُ عليه شيء، وإنَّما قيَّد كشف الضُّرّ عنهم بالمشيئة؛ لأنَّه إطماعٌ لا وعدٌ[1].

كشفُ الضُّرِّ إطماعٌ لا وعدٌ

دلالة حذفِ جواب الشّرط ﴿إِن شَآءَ﴾:

حُذفَ جوابُ الشَّرطِ في قولِه تعالى: ﴿إِن شَآءَ﴾؛ لفهم المعنى ودلالة ما قبله عليه، أي: إن شاءَ أن يكشف الضُّرَّ كشَفَه؛ لأنَّه سبحانه لا يُسألُ عمّا يَفعل، وذلك في عذاب الدّنيا، وأمّا إتيان السّاعة؛ فلا يكشفُ إلّا أن يُراد بإتيانها ما يحصل معها منَ القوارع والمصائب من خسفٍ وشِبْهِه، فيجوز كشفُه عن بعض النّاس، وممّا كشفه اللّه عنهم من عذاب الدُّنيا عذابُ الجوع الَّذي في قوله تعالى: ﴿فَٱرۡتَقِبۡ يَوۡمَ تَأۡتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٖ مُّبِينٖ ۝١٠ يَغۡشَى ٱلنَّاسَۖ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ [الدخان: 10 - 11][2].

الله كاشفُ كُربِ الدّنيا والآخرة إن شاءَ، لا سلطانَ لأحدٍ معه

دقّةُ التّعبير بفعل النّسيان: ﴿تَنسَوۡنَ﴾:

ذهب الشِّهاب في حاشيته إلى أنَّ قوله: ﴿وَتَنسَوۡنَ﴾ يحتمل معنيين، الأول: مجازٌ عنِ التَّرك، والثّاني: أنَّه لشِدَّة الهول ينسونَهم، فيكونُ حقيقةً، ولا يلزمُ أن يُنسى اللّه؛ لأنَّ المعتاد فيها أن يُلهَجَ بذكره ويُنسى ما سواه[3]، وإطلاقُ النِّسيان على التَّرك شائعٌ في كلام العرب، كما في قوله تعالى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰكُمۡ كَمَا نَسِيتُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَا﴾ [الجاثية: 34][4]، فالنِّسيانُ هنا بمعنى: التَّرك، لا بمعنى: الغفلةِ، وهو أقوى في التَّبكيت[5].

النِّسيانُ يرادُ به هنا التَّرك، وهو في اللّغة عدم التّذكّر

إضافةً إلى أنَّ التَّعبير بـ ﴿وَتَنسَوۡنَ﴾ فيه إشارةٌ إلى أنَّ النِّسيان

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/291، وابن عاشور، التحرير التنوير: 7/225.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتنوير: 7/225، وطنطاوي، الوسيط: 5/73.
(3) الشهاب، حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي: 4/59، والآلوسي، روح المعاني: 4/142.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/293.
(5) الواحدي، التفسير البسيط: 14/88، والبروسوي، روح البيان: 3/29.

مُؤقَّتٌ، بخلاف التَّرك؛ فهو كُلّيٌّ، أو الكفرُ، ففيه كشفٌ للنَّفس البشريةِ وما يعتريها من أحوالٍ مؤقَّتةٍ تستجيبُ فيها لفطرتها، فهو دليلٌ على أنَّ القومَ لم يعبدوا الآلهةَ إلّا عن مصلحة مؤقَّتةٍ، ومتابعةٍ للآباءِ جهلًا وحماقةً.

نكتةُ المضارع، في قوله: ﴿وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ﴾:

ترك الآلهةِ عند وقوع المصائبِ، دليلُ الغفلة قبل حصولها

جاءت الفاصلةُ هنا ﴿وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ﴾ جملةً فعليَّةً، معطوفةً على ﴿بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ﴾، والجملةُ الفعليَّةُ تفيدُ التَّجدُّدَ والتَّكرارَ، أي: نسيانُكم هذا مُتجدِّدٌ ومُتكرِّرٌ كلّما وقعتُمْ في الشِّدة، أو عرضَ لكم العذابُ، وفي قوله: ﴿وَتَنسَوْنَ﴾ إمّا أن يكون المرادُ النِّسيانَ الحقيقيَّ، أي: الغفلةُ عنِ الأصنام حين يرون العذابَ، وينشغلون بالَّذي أَرسل العذابَ، فينسَوْن الأصنامَ الَّتي اعتادوا أن يَستشفعوا بها، وإمّا أن يكون النِّسيانُ مجازيًّا في التَّرك والإعراض، أي: وتُعرضون عنِ الأصنام، لعلَّهم في تلك اللَّحظة يستدلّون فيها على أنَّ غيرَ اللّه لا يكشفُ عنهم شيئًا من هذا العذاب.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [الأنعام: 42]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

بَيَّن الله تعالى في الآية السّابقة أنَّ الكفّارَ عند نُزول الشَّدائد يَرجعون إلى الله تعالى، ثُمَّ بَيَّن في هذه الآية أنَّهم لا يَرجعون إلى الله عند كُلِّ ما كان من جِنس الشَّدائد، بل قد يَبْقَونَ مُصِرّين على الكُفر مُنجَمِدين عليه غيرَ راجعين إلى الله تعالى[1].

الكافرون يَمتنعون عن قَبول الحقِّ في السّرّاء والضّرّاءِ

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَأَخَذْنَٰهُم﴾: الأَخذُ هنا يدلُّ على الانتقام بشِدَّة وقوَّةٍ، وهو أيضًا تَناوُلُ الشَّيْءِ والحُصولُ عليه، وضِدُّه: العَطاءُ والتَّسْليمُ، وأَصْلُه: حيازَةُ الشَّيْءِ وجَمْعُهُ، ومِن مَعانيه أيضًا: الشُّروعُ والبَدْءُ والقَبْضُ والالْتِزامُ والإِمْساكُ والتَّلَقّي والمُجازاةُ[2].

2) ﴿بِٱلْبَأْسَآءِ﴾: البَأْساءُ: اسمٌ للبُؤسِ، وهو المكروهُ والضَّرَرُ والشِّدَّةُ وسوءُ الحالِ، وقيل: البَأْساءُ الفَقْرُ والفاقةُ، وهو مِن البُؤسِ، وأصلُ (بأس): الشِّدَّةُ وما ضاهاها، وقيل: البأساءُ ضرّاءُ مَعها خوفٌ، وأصلُها مِنَ البأسِ، وهو الخَوفُ؛ يُقال: لا بَأسَ عليكَ، أي: لا خوفَ عليكَ[3].

3) ﴿وَٱلضَّرَّآءِ﴾: أي: المرضُ والزَّمانةُ، وسوءُ الحالِ، والفَقْرُ والقَحْطُ، وهي مقابِلُ السَّرّاءِ، والضُّرُّ: خلافُ النَّفْعِ[4].

(1) الرازي، مفاتيح الغيب: 12/533.
(2) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (أخذ).
(3) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 70، و81، وابن جرير، جامع البيان: 3/89، والعسكري، الفروق اللغوية، ص: 89، وابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (بأس، بؤس).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (ضر)، وابن الهائم، التبيان، ص: 156.

4) ﴿يَتَضَرَّعُونَ﴾: التَّضَرُّعُ: إظهارُ التَّذلُّل، والخُضوع للّه تعالى، والمبالَغةُ في السُّؤال، والرَّغبةُ مع الإخلاص، وأَصْلُ التَّضَرُّعِ: مِنَ الضَّرَعِ، وهو: اللّينُ والضَّعْفُ، ورَجُلٌ ضَرَعٌ، أي: ضَعيفٌ، ومِنْهُ ضَرْعُ الشّاة، سُمّيَ بذلك؛ لِما فيه مِنْ لينٍ، ومِنْ مَعاني التَّضَرُّعِ أيضًا: التَّخَشُّعُ والسُّكونُ والاسْتِغاثةُ[1].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

البأساءُ والضّراءُ علاجٌ لأدواءِ الكفرِ والشِّركِ، يُنعمُ اللّه به على عبادِه ليرجعوا عمّا هم فيه، ويعودوا إلى رُشْدِهم، وقد أخبرتِ الآيةُ أنَّ اللّه ﷻ قد أرسل رُسلَه - عليهم السلام - إلى الأممِ السّابقةِ، لكنّهم كفروا وعاندوا فعاقبَهمُ اللّه بألوانٍ منَ العذابِ الشّديدِ والبلاءِ المُؤلِمِ؛ لعلّهم يخضَعون ويَرجعون عن كُفرِهم وشِركِهم.

تقليبُ العباد بين البأساء والضرّاء، لعلّهم يتضرّعون

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

معنى الواو في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ﴾:

جُمْلَةُ ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ﴾ معطوفةٌ عَلَى جُمْلَةِ ﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ﴾، فالواوُ لِعَطْفِ الجُمَلِ، وقد تَكونُ اسْتِئْنافيَّةً إذْ كانَتِ المَعْطوفُ عَلَيْها اسْتِئْنافًا[2].

غرضُ الابتداء بلام القسم و(قدْ) في ﴿وَلَقَدْ﴾:

الجملةُ خبريَّةٌ ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ﴾ صُدِّرتْ باللّام الموطّئة للقسَم، و(قد)[3]؛ لتوكيد مضمونِ الجملة؛ وهو المفرّعُ بالفاء في قوله تعالى: ﴿فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾[4]، فهو من باب تنزيل المخاطَبين منزلةَ من يُنكر أن تكون الأممُ السّابقة عوقِبَتْ على

تنزيلُ المخاطَبِ منزلةَ المُنكر، من فصيح البيان

(1) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، وابن الأثير، النهاية: (ضرع).
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 7/226.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/133.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 7/227.

الكفر والتّكذيب، وذلك بسبب موقفِ المشركين منَ الإيمانِ، وعدمِ تصديقِهم بما جاء فيه.

دلالةُ إسناد فعْلِ الإرسال إلى ضمير العظَمة في ﴿أَرۡسَلۡنَآ﴾:

الكفر بالأنبياء يعاقب الله عليه، بأشدّ العُقوبة

إذا كان الأخذُ الإمساكَ بقوَّة، فإنَّ قوَّة هذا الأخذ ستكون أكثر تمكُّنًا؛ لأنَّه أخذ مِن قوي عزيز، وهذا ممّا دلّ عليه اتِّصالُ الفعل بـ (نا) الدّالّةِ على العظَمة، فإنَّ من شأنِ العظيم أن يُستجابَ له، ويُطاعَ فيما يأمرُ به، ويَنهى عنه، فإذا خالفَ المرسَلُ إليه أمرَ المرسِلِ؛ فقد تعرَّض للعقوبةِ.

نكتةُ حذفِ مفعولِ ﴿أَرۡسَلۡنَآ﴾:

البلاغةُ تكمنُ في الإفصاحِ عنِ المقصودِ، وطيِّ ما سِواه

منَ البلاغة في الآية الكريمة حذفُ مفعولِ: ﴿أَرۡسَلۡنَآ﴾؛ والتّقديرُ: رُسُلًا، وحَسُن ذلك؛ لدلالة الكلامِ عليه[1]، وفي الآية حذفٌ آخر، دلَّ عليه الكلامُ أيضاً؛ تقديرُه: ولقد أرسلنا إلى أُمم مِن قبلك رُسلًا، فكذَّبوهم فأخذْناهم؛ وقُدِّر المحذوفُ على نحو ما ذُكر؛ لأنَّ سببَ أخْذِه ﷻ إيّاهم تكذيبُهم الرُّسلَ، ومخالفةُ أمره، وهذا من قبيل الإيجاز بالحذف، والَّذي سوَّغه عِلْمُ السّامع به، ودلالةُ الكلام عليه[2]، ونُكتتُه العنايةُ بالإرسال والأخذِ الصّادرَيْن عنِ الله تعالى، بقطعِ النَّظر عن ذكرِ المرسَلِ، وبيانِ موقف المكذِّبين، فإنَّ السّياق هو سياقُ تهديدٍ ووعيدٍ، فالأنسب طيُّ الكلامِ بما يناسبُ المطلوبَ.

وجهُ تعدِيةِ فعلِ الإرسال، بحرف انتهاءِ الغايةِ:

تعديةُ الإرسال بـ (إلى) للتَّبليغ، وبـ (في) للمكث

تعدَّى فعلُ الإرسال بحرف انتهاء الغاية (إلى) دون حرف الظَّرفيَّة كما في قوله تعالى: ﴿كَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِيكُمۡ رَسُولٗا مِّنكُمۡ﴾؛ ذلك أنَّ الإرسالَ في هذه الآية يقتضي التَّبليغَ، ولا يقتضي المكثَ، نقول: أرسلتُه إليه إرسالًا، أمّا تعديةُ الفعل بحرف الظرفيَّة، كقوله

(1) ابن جرير، جامع البيان: 11/355، والبقاعي، نظم الدرر: 7/113.

(2) ابن جرير، جامع البيان: 11/355، والرّازي، مفاتيح الغيب: 12/533.

تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّآ أَخَذۡنَآ أَهۡلَهَا بِٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمۡ يَضَّرَّعُونَ﴾ [الأعراف: 94]؛ فيقتضي التَّبليغَ والمكثَ.

دلالةُ الجمع والتَّنكير في لفظ: ﴿أُمَمٖ﴾:

المكذِّبون ينتهي بهمُ الحال، إلى النَّكارةِ النَّكراء

دلَّ الجمع والتَّنكير في قوله تعالى: ﴿أُمَمٖ﴾ على أمرين: التَّنكيرِ والتَّكثير، أي: أُممٌ كثيرون من قَبْل، وهذه الدَّلالة مُستفادةٌ بمعونة السّياق، فالمقامُ مقامُ تسليةٍ للنَّبي ﷺ وتكرمةٍ له بإيذانه بأنَّ الله ناصرُه على مُكذّبيه، وأنَّ الله تعالى قادرٌ على أخْذِهم باقتدار، فذكرُ الأممِ دون وصفٍ أو تعريفٍ يدلُّ على أنَّ حالَ المكذِّبين منَ المشركين سينتهي بهم إلى ما انتهت إليه الأممُ السّابقة من النَّكارةِ.

سرُّ استعمال لفظ ﴿أُمَمٖ﴾ دون أقوام:

الأقوام أدعى لأن يُؤخذوا، ما دامت الأمم الكبرى قد أُخِذَتْ

مِن دِقّة التَّعبير في النَّظم القرآني: التَّعبيرُ عمَّن أرسل الله تعالى إليهم رُسلَه، وأخْذِهم بالعذاب بكلمةِ ﴿أُمَمٖ﴾ دون غيرها ممّا يحمل معنى الجماعة، ولعلَّ ذلك لما تؤدّيه هذه الكلمةُ من معنى، فـ (أمم) جمع أمَّة، أي: أناس يؤمُّ بعضُهم بعضًا، وهم أهلٌ لأن يقصدَهم القاصدون؛ لكثرتهم وعظَمَتِهم[1].

ولعلَّ في ذلك دلالةً على أنَّ عظمتَهم وكَثرتَهم ما كانت لتغني عنهم مِنَ الله شيئًا حين استكبروا وعصَوا الله تعالى ورُسلَه ﷺ، فكأنَّ فيه تحذيرًا للسّامعين مِن مغبَّة إعراضِهم، وتماديهم في غيِّهم، فإذا كانت الأممُ الكبيرةُ قد أُخِذت؛ فكيف بالأقوام؟ فهو تنبيهٌ للأدنى بالأعلى.

وجه تقديم ﴿إِلَىٰٓ أُمَمٖ﴾، على ﴿مِّن قَبۡلِكَ﴾:

يعني أنّ الله تعالى أرسلَ رُسلًا كثيرين إلى أُممٍ كثيرةٍ كانت قبْلَ زمانِ النّبيّ ﷺ، فقيدُ ﴿مِّن قَبۡلِكَ﴾ صفة ساغ تأخيرها عن

(1) البقاعي، نظم الدرر: 7/113.

موصوفها الذي هو ﴿أُمَمٍ﴾ بحسب الرّتبة النحوية، وقد جاءت على مقتضى الظاهر، إشارةً إلى أن ما يقتضيه الإرسالُ إلى الأممِ انْتهى، وأنّ النّبيَّ ﷺ هو خاتم الأنبياء، وفيها إشعارٌ بأنّ أمّته ﷺ هي الأمَّة الخاتمة، والتّقديرُ: لقد أرسلنا إلى أممٍ ماضيةٍ أو سابقةٍ لعصرك، وعليهِ فإنّ تقديم ﴿إِلَىٰٓ أُمَمٍ﴾ يفيدُ مزيدَ الاهتمامِ، والتقديم في الكلام لما بيانُه أعنَى ووجْهُه أنْسَبُ للسّياقِ الذي جاءت به سورةُ الأنعام.

سـاغ تقديم الموصوف على الصّفة لأهميّته في ترسيّة المعنى

دلالةُ حرفِ ﴿مِّن﴾، في قوله: ﴿قَبۡلِكَ﴾:

من جمال التَّعبير القرآني الإتيانُ بحرف الجرّ ﴿مِّن﴾ في قولِه تعالى: ﴿مِّن قَبۡلِكَ﴾، فيقال - في غير القرآن - : (ولقد أرسلنا إلى أمم قبلك)، لكنَّ هذا - وإن استقام بناءً - فلن يستقيم معنًى؛ لأنَّ في ذِكر حرف الجرِّ هنا لطيفةً تفيدُ الإشارةَ إلى بعض الأُمم المرسَلِ إليها، لا كلِّها، وهي الَّتي أراد اللّه تعالى قصَّ أخبارِها، وهي التي عاقبها - ﷻ - على تكذيبِها[1]، ويظهرُ كذلك أنَّ النَّصَّ على القبْليَّةِ لبيانِ قُربِ عهدِهم، فهم ليسوا بعيدين في الزَّمانِ، فما حصلَ لهم يحصلُ لمن جاء بعدَهم.

الإشـارةُ إلى أنّ ما حصلَ للسّابقين، سوف يحصلُ للمُعاصِرين

بلاغةُ الإشارة إلى المرسلين في قوله: ﴿قَبۡلِكَ﴾:

لما حذف ذِكر مفعول ﴿أَرۡسَلۡنَآ﴾، وهم المرسلون؛ كان مِن اللَّطيف أن تكون الإشارة إليهم - ضِمنًا - من خلال إضافة الظَّرف إلى الضَّمير المقصودِ به النَّبي ﷺ، الّذي هو خاتم النّبيّين.

رسالةُ النّبيّ ﷺ، استمرارٌ لرسالات السّابقين

نوع الفاء في قوله: ﴿فَأَخَذۡنَٰهُم﴾:

قولُه تعالى: ﴿فَأَخَذۡنَٰهُم﴾ عطفٌ على ﴿أَرۡسَلۡنَآ﴾ باعتبار ما يُؤذنُ به وصفُ ﴿مِّن قَبۡلِكَ﴾ من معاملة أُممِهم إيّاهم بمثل ما عاملك

(1) البقاعي، نظم الدرر: 7/113.

معرفةُ حكمةِ اللـه تعالى، تُعينُ على تقديرِ المحذوفاتِ في نظْمِ القرآن

به قومُك، فيدلُّ العطفُ على محذوفٍ تقديرُه: (فكذّبوهم)، وهذه الفاء هي الفصيحة التي تُنبئُ عن كلام محذوف، وهذا التَّقديرُ مبنيٌّ على معرفة حكمةِ اللّه تعالى المتمثِّلةِ بزجْرِ الأمم عنِ التَّكذيب، وإكرامِ الرُّسلِ بالتَّأييد بمرْأًى منَ المكذِّبين، وفيه تكرمةٌ للنَّبي ﷺ بإيذانِه بأنَّ اللّه ناصرُه على مُكذِّبيه[1].

دلالةُ (الفاء) على سرعةِ الأخْذ في زمان الرُّسل:

أخْذُ المُكذّبين، دليلُ نصرِ الرّسل المكرّمين

عُطفتْ جملةُ ﴿فَأَخَذْنَٰهُم﴾ بالفاء دون (ثمَّ)، ولعلَّ ذلك للإشارة إلى أنَّ أخذَهم بالبأساء والضَّراء كان مقارِنًا لزمن وجود رُسلهم بين ظَهْرانَيْهِم، وفي هذا تنبيهٌ إلى أنَّ ذلك الأخذَ كان بمرأًى من رُسلِهم، وقبل رحيلهم عنِ الدُّنيا؛ ليكونَ إشارةً إلى أنَّ اللّه تعالى أيَّد رُسلَه ونصرَهم في حياتِهم، وهذا إيذانٌ بأنَّ اللّه تعالى ناصرٌ نبيَّه محمَّدًا ﷺ على مُكذِّبيه، ففيه تكريمٌ له ﷺ ووعيدٌ لمن كذَّب به[2]، وهذا ما يشهدُ له عمومُ الآياتِ القرآنيَّة.

سرُّ استعمالِ لفظِ ﴿فَأَخَذْنَٰهُم﴾، دون (فعاقبناهم):

عقابُ اللـه المشركين شديدٌ، وعذابه دائمٌ وأليمٌ

في قوله تعالى: ﴿فَأَخَذْنَٰهُم﴾ مجازٌ؛ فالأخذُ هو الإمساكُ بقوَّةٍ، وبطشٍ وقهرٍ، فهو مجازٌ عن مُتابعة العُقوبة والملازمة[3]، أمّا العقوبة فهي مجازاة بالذَّنب، ولا يُشترطُ أن تكونَ شديدةً أو أليمةً أو مُهينةً، فقد تكونُ يسيرةً؛ لارتباطها بالذَّنب. ويوضّحُ ذلك بجلاءٍ قولُه تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ﴾ [النحل: 126][4]؛ لذلك جاء التَّعبيرُ القرآني بـ ﴿فَأَخَذْنَٰهُم﴾ مناسبًا لسياق التَّهديدِ والتَّرهيب، وما يوحي به منَ الشِّدَّةِ والقَهْر.

(1) العبيد، رسالة العقيدة في سورة الأنعام، ص: 41.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 7/227.
(3) أبو حيان، البحر المحيط: 4/514.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (عقب).

دلالةُ إسنادِ فعلِ ﴿فَأَخَذْنَٰهُم﴾ إلى ضمير الجلالةِ:

أخذُ الله عظيمٌ شديدٌ، إن وقع فلا منجى منه

من عادة الأُمم مع رُسلهم التَّكذيبُ والمبالغةُ في قسوة القلوب حتَّى هم إذا أُخِذوا بالبلايا، لا يتذلَّلون لله، ولا يسألونه كشفَها، وهؤلاء الأُمم الَّذين بعث الله تعالى إليهم الرُّسلَ أبلغُ انحرافًا، وأشدُّ شكيمةً، وأجلدُ منَ الَّذين بُعث إليهم رسولُ الله ﷺ[1]؛ لذلك جاء التَّعبير مناسبًا لحالهم: ﴿فَأَخَذْنَٰهُم﴾، دون أن يقول: (فأُخذوا)، أي: إنَّ الأخذ كان شديدًا منَ الله تعالى، ويعزِّزُ هذا المعنى، ويُقوّيه إسنادُ الفِعل إلى الضَّمير العائدِ على لفظ الجلالة.

نكتةُ التّعبير بضمير العُقلاء العائدِ على الأمم:

الأخذُ وَقَعَ على الأممِ باعتبارِها مكلَّفةً، لا باعتبارِها الاجتماعيِّ

عبَّر بضمير العقلاء في قولِه: ﴿فَأَخَذْنَٰهُم﴾، ولم يقل: (فأخذناها) لصحَّة ذلك الضّمير لهم، باعتبار أنَّ لهم عقلًا مكلَّفون به، ولأنَّ إرسالَ الرُّسل لا يكونُ إلّا للعقلاء، فالآية توجِّهُ النَّظرَ إلى موضع التَّكليفِ، وهو عقلُ تلك الأمم، ففيه إشارةٌ إلى أنَّ الأممَ مكلَّفةٌ بمجموعها بالإيمان والامتثال، فإنَّ الأخذَ وقع عليها باعتبارِها التَّكليفيِّ لا باعتبارِها الاجتماعيِّ.

نكتةُ ذكرِ متعلَّق الأخذ، وهو البأساءُ والضّراءُ:

الأخذُ الخاصُّ تنبيهٌ على الأخذ العامّ

ذكرتِ الآيةُ متعلَّقَ الأخذِ؛ وهو قولُه تعالى: ﴿بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾؛ وذلك لأنَّه أخذٌ خاصٌّ، بخلاف الآتي بعده، وهو قولُه تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾ [الأنعام: 44][2]، فهو أخذُ عقابٍ، فكان الأخذُ الخاصُّ مقدِّمةً للأخذِ العامِّ، وهذا من تمام نعمةِ الله على عبادِه، أن يأخذَهم أخذَ تنبيهٍ قبل أخذِ العقاب الماحقِ.

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 4/513.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 7/227.

معنى حرف (الباء) الدّاخلِ على (البأساءِ) و(الضّراءِ):

بيان شدّةِ العذابِ الواقعِ على الكفّارِ، بالتّفصيل والإظهار

الباءُ الدّاخلةُ على (البأساءِ) و(الضّراءِ) في قوله تعالى: ﴿بِٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾ أفادتِ الاستعانةَ، وقد أدّت إلى إظهار شدَّة العذاب بهما، وإن كان بعضُ العلماء لا يُجيزُ إطلاقَ لفظ الاستعانةِ على الباء الواقعة في القرآن، فلا يجوزُ التَّعبيرُ بالاستعانة في الأفعال المُسنَدةِ إلى الله تعالى، فسمَّوها: سببيّةً.

توجيهُ المخصوصِ بالذِّكر في ﴿بِٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾:

البأساء والضّراء، تدفعان العبادَ إلى التَّضرُّعِ إلى الله تعالى

فُسِّرتِ البأساءُ بالجوعِ، والضَّراءُ بالمرض[1]، وهو تخصيصٌ لا وجه له؛ لأنَّ ما أصاب الأُممَ مِنَ العَذاب كان أصنافًا كثيرةً، ولعلّ من فسَّره بذلك اعتبرَ ما أصاب قريشًا بدعوة النَّبي ﷺ، فالبأساء والضَّراء اسمان على وزن فعلاء، وليسا وصفَيْن؛ إذ لم يُسمع لهما أفعلُ مذكّرًا، والبأساء مُشتقة منَ البُؤس، وهو سوءُ الحالة من فقرٍ ونحوِه منَ المكروه، قال الرّاغب: وقد غلب في الفقر، ومنه البئيس: الفقيرُ، فالبأساء: الشِّدّةُ في المال، والضَّرّاءُ شدَّةُ الحال على الإنسان مُشتقَّةٌ منَ الضُّرِّ، ويقابلُها السَّرّاءُ: وهي ما يَسرُّ الإنسانَ من أحواله، والبأسُ: النِّكايةُ والشِّدّةُ في الحرب ونحوِها[2]، فذكرُ البأساء والضَّراء من بابِ استيعابِ كلِّ معاني الشِّدَّة التي تُصيبُ الأممَ، التي من شأنِها أن تدفعَها إلى الالتجاءِ إلى الله تعالى؛ للتَّضرُّعِ والإنابة.

دلالةُ حرفِ التّرجي (لعلّ) في سياق الآية:

إيثار ما يرجوه المخاطَب عند سماعِ الحدثِ

في قوله تعالى: ﴿لَعَلَّهُمۡ يَتَضَرَّعُونَ﴾ قُيِّدت الجملةُ بـ (لعلّ) الَّتي تفيدُ التَّرجّي، وهي تحملُ معنى الرَّجاء والشَّك؛ لأنَّ معنى التَّرجّي يقتضي عدمَ الجزم بوقوع المرجوِّ عند المتكلِّم، فللشَّكِّ جانبٌ في

(1) ابن جرير، جامع البيان: 11/354 - 355.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/132، و7/227.

معناها، فعلى هذا فهي لا تفيدُ هذا المعنى هنا؛ لأنَّها أتت في هذا المقام من كلام الله ﷻ، فمعناها لا يناسبُ عِلمَ الله تعالى العالِم بأحوال الأشياء قبل وقوعِها؛ ولأنَّها قد وردت في أخبارٍ مع عدم حصول المرجوّ، كما في هذه الآية، وكما في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ١٣٠﴾ [الأعراف: 130]، فآلُ فرعون لم يتذكَّروا كما بيَّنته الآياتُ من بعدُ[1].

وقد اجتهد المفسِّرون في تأويل (لعلّ) بما يتناسبُ وكلامَ الله تعالى، فأوِّلت في هذا المقام على معنيين: الأوَّل: أنَّها بمعنى: التَّعليل، والمعنى: فعلنا بهم ذلك ليتضرّعوا، ويُخلصوا العبادةَ لي، ويُفردوا رغبتَهم لله دون غيره[2].

الثّاني: أنَّ التّرجّي في هذه الآية إنَّما هو على مُعتقد البشر، أي: لو أنَّ أحدًا رأى ما حلَّ بهم من عذابٍ؛ لرجا تضرُّعَهم، وابتهالَهم إلى الله تعالى؛ ليكشفَ ما بهم من سوءٍ[3].

بلاغةُ استعمالِ لفظِ (التّضرّع)، دونَ (التّذلُّل):

في قوله تعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾: التَّضرُّع: تفعُّلٌ منَ (الضَّراعة)؛ وهي الذِّلّةُ، والاستكانةُ، والتَّخشُّعُ، بمعنى الانقياد وترك التَّمرُّد[4]، وهو هنا كنايةٌ عنِ الاعتراف بالذَّنب والتَّوبة منه، وهي الإيمانُ بالرُّسل.

الـتَّـضـرُّعُ هو انكسارٌ مع لِينٍ، واعترافٌ بتلطّفٍ ورجاء دائمٌ

ويُلحظ شيءٌ من الثِّقل في جرس هذه الكلمة؛ لأمور منها: عدمُ إدغام تاء التَّفعُّل في فاء الكلمة، وقوّةُ بعض حروفها: (الضّاد، والرّاء)، والتَّشديدُ في حرف (الرّاء)، ثمَّ يخفّ لضعف (العين)، و(الواو)، و(الياء)، ولعلَّ ذلك ممّا يوحي بشدَّة التَّذلّل، والخُضوع،

(1) الرازي، مفاتيح الغيب: 12/534، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/329.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 11/355، ومكي، الهداية: 4/2456، والنسفي، التيسير في التفسير: 6/437.
(3) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/291.
(4) أبو حيان، البحر المحيط: 4/497، وطنطاوي، الوسيط: 5/287.

والتَّخشُّعِ، ولا يكملُ ذلك إلّا بصدق الانطراح بين يدي اللّه ﷻ، وصِدْقِ اللّجأ إليه، بإخلاص الدُّعاءِ له وحده، مع انكسارِ القلب، وتمريغ الجبينِ تذلُّلًا له، والإلحاحِ بالدُّعاء مرَّة بعد أخرى؛ عَلَّه سبحانه أن يغفرَ، ويرحمَ، ويتوبَ عليهم[1]، أمّا التَّذلُّلُ؛ فهو إظْهارُ العَجْزِ عَن مقاومة من يُتذلَّل لَهُ، ولفظُ التَّضرُّع أولى بالمقام لما يحويه من معانٍ تُناسبُ المطلوبَ من تلك الأمم.

نُكتةُ استعمال صِيغة الفعلِ المضارع ﴿يَتَضَرَّعُونَ﴾:

التّضرّع إلى الله عزّة وفخار

أفاد الفعلُ المضارع ﴿يَتَضَرَّعُونَ﴾ التَّجدُّدَ والاستمرارَ، فكان المرجوُّ منهم تجدُّدَ التَّضرُّع منهم آنًا بعد آخرَ، أي: يدعون اللّه بضراعة، ويتذلَّلون، ويَحطّون أرديةَ الكِبْر والعِزَّةِ عن أكتافهم.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الإرسال والبعث:

البعثُ هو التّوجيه مع التّنبيه، والإرسالُ؛ هو توجيه الشَّيء برِفقٍ وتُؤَدةٍ

البعثُ: الإثارةُ والتَّوجيهُ والتَّنبيه، ويختلف البَعثُ باختلاف ما عُلِّق به، فتارةً يكون عامًّا في معنى التَّوجيه والإثارة، كما يُقال: بعثتُ البعيرَ، أي: سيَّرته، وبعثتُ رسولًا، أي: وجَّهته، والبعثُ إيقاظٌ منَ النَّوم، وتنبيهٌ منَ الغفلة والضَّلالة، وإحياءُ اللّه الموتى بعثٌ لهم، وتجتمع هذه المعاني في التَّوجيه والتَّنبيه.

أمّا الإرسالُ؛ فهو توجيه الشَّيء برِفقٍ وتُؤَدةٍ ورحمةٍ، ومنه التَّرسُّل في الكلام والمشي، أي: الهدوء والتَّأنّي وعدمُ العجلة، ومنه قولُهم: على رِسْلِكَ، أي: ترفَّقْ، وتأنَّ في القول والفعل، والاسترسالُ: الطُّمأنينةُ والسُّكونُ[2]. وبهذا يتَّضحُ أنَّ البعثَ والإرسالَ يشتركان في معنى لُغويٍّ عامٍّ هو التَّوجيهُ، ويختلفان في: أنَّ البعثَ يتميَّزُ بمَلمَح التَّنبيه والإيقاظِ[3].

(1) العبيد، رسالة العقيدة في سورة الأنعام، ص: 41.
(2) الراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (بعث)، وداود، معجم الفروق الدلالية، ص: 136.
(3) داود، معجم الفروق الدلالية، ص: 136.

الأخذ والعقوبة:

الأَخْذُ: حوْزُ الشَّيء وتحصيلُه، وذلك تارةً بالتَّناوُل خلافَ العطاء، نحوَ: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأۡخُذَ إِلَّا مَن وَجَدۡنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ﴾ [يوسف: 79]، وتارةً بالقَهر والغِلظة، أي: تحصيلُ الشَّيء في الحوزة بقوَّة: ﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّيۡحَةُ مُشۡرِقِينَ﴾ [الحجر: 73]، ﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ﴾ [العنكبوت: 37]، كلُّ ذلك أحاطت بهم في جوفها وبلعتْهُم، وأتت عليهم، مِن غِلظ الحوز في الأصل، ونلاحِظ الغلظةَ في كلِّ ذلك حتى في الأخذ خلافَ العطاء. أمّا العُقوبة؛ فتُنبئ عنِ استحقاق، وسُمّيت بذلك؛ لأنَّ الفاعل يستحقُّها عَقيبَ فعلِه، فهي مجازاةٌ بالذَّنْب، ولا يُشترط أن تكون شديدةً أو أليمةً أو مُهينةً، فقد تكون يسيرةً؛ لارتباطها بالذَّنْب، فإذا عظُم الذَّنبُ؛ عظُمتِ العقوبةُ، وإذا صغُر؛ كانتِ العقوبةُ على قدرِه، ويوضّحُ ذلك بجلاء قولُه تعالى: ﴿وَإِنۡ عَاقَبۡتُمۡ فَعَاقِبُواْ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبۡتُم بِهِۦۖ﴾ [النّحل: 126][1].

الأخذ يكون بالتَّناوُل أو بالقَهر، أمّا العُقوبة، فتُنبئ عنِ استحقاق لذنب ما

ونخلصُ ممّا سبق: إلى أنَّ لفظي (الأخذ والعقوبة) بينهما تقاربٌ دلاليٌّ، حيث يشتركان في النَّكال والمُجازاة، ولكنْ تتميَّزُ العقوبةُ بأنَّها قد تكونُ شديدةً، وقد تكونُ يسيرةً، وأنَّها تُنبئُ عن استحقاق؛ لأنَّها لا تكونُ إلّا عَقِبَ الذُّنوب، بينما يتمَّيز الأخذُ بالغِلظة والشِّدَّة والمباغتةِ في العذاب، وكونِه عامًّا فيمن يستحقُّه، ومن لا يستحقُّه.

البأساءُ والبأسُ:

ذهب الرّاغبُ الأصفهانيُّ، إلى أنَّهما بمعنًى واحدٍ، قال: "البُؤس والبَأْس والبأساء: الشِّدَّةُ والمكروه، إلّا أنَّ البُؤسَ في الفَقر والحرب أكثرُ، والبَأْسَ والبأساءَ في النِّكاية"[2]، ولكنَّ ورودَ اللَّفظين (البأساء، والبَأْس) معطوفَيْن في القرآن الكريم، يقتضي تغايُرَهما، وذلك في قوله

البأساءُ: الفَقرُ، والبَأْسُ: القتال

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (أخذ، وعقب).
(2) الرّاغب، المفردات: (بؤس).

تعالى: ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلۡبَأۡسِۗ﴾ [البقرة: 177]. فالبأساءُ: الفَقرُ، والضَّراء: المرَض، والبَأْسُ: القتال، وهذا من باب التَّرقّي في الصَّبر مِنَ الشَّديد إلى الأشدِّ، ونلحظُ أنَّ لفظَي (البَأْس والبأساء)، مُتقاربان في الدِّلالة؛ حيث يشتركان في معنى الشِّدَّة والمكروه، ويتميَّز لفظُ (البأساء)، بنوعٍ مِنَ الشِّدَّة هي شِدَّةُ الفَقر، بينما يتميَّزُ (البَأْس)، بنوعٍ مِنَ الشِّدَّةِ هي شدَّةُ القِتال، والعذاب والنَّكالِ[1].

الضَّرَّاءُ والضُّرُّ:

الضَّرّاءُ تعني: البلاءَ الَّذي يُصيبُ البَدَن من أمراضٍ وجوعٍ وعُرْيٍ ونحوِها، وهو ما عليه معنى الضُّرِّ في الآية، وكذلك في قولِه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٣٤﴾ [آل عمران: 134][2]. أمّا الضُّرّ (بالضَّم)؛ فالبَلاءُ منَ المرض أو الفقرِ أو غيرِ ذلك، فليس الضُّرُّ مقصورًا على نوعٍ بعيْنه منَ البَلاء، بل هو عامٌّ في كُلِّ بلاءٍ يصيبُ الإنسانَ، وهو اسمٌ للحال الَّتي تُؤلمُ الإنسانَ[3].

الضَّرَّاءُ كلّ بلاء يُصيبُ البَدَن، والضُّرُّ كُلّ ما يصيبُ الإنسانَ عمومًا

التّضرّع والجُؤار:

﴿يَتَضَرَّعُونَ﴾: من التَّضَرُّع، وهو إظهارُ الضَّراعَة[4]، قال تعالى: ﴿تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةٗ﴾ [الأنعام: 63]، فإذا أفْرطَ في الدّعاءِ والتّضرّعِ قيل: جأر؛ تشبيهًا له بجُؤارِ الوحشيّاتِ، كالظّباءِ ونحوِها[5]، ومن معاني الجُؤار أيضًا التّضرّع الذي يُصاحبُه الجزعُ ورفعُ الصّوت.

التَّضَرُّعُ إظهارُ الضَّراعَة، والاجتئار الإفْراطُ في الدّعاءِ والتّضرّعِ

(1) الآلوسي، روح المعاني: 1/445، وداود، معجم الفروق الدلالية، ص: 427.
(2) الزمخشري، الكشاف: 2/132، وابن عطية، المحرر الوجيز: 3/153، وأبو حيان، البحر المحيط: 2/140.
(3) الزمخشري، الكشاف: 2/673، و3/197، وأبو حيان، البحر المحيط: 4/455.
(4) الراغب، المفردات: (ضرع).
(5) الراغب، المفردات: (جأر).

﴿فَلَوۡلَآ إِذۡ جَآءَهُم بَأۡسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَٰكِن قَسَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٤٣﴾ [الأنعام: 43]

مُناسَبَةُ الآيةِ لما قبْلَها

قسوةُ قلوبِ الكافرين منعتْهم منَ الانتفاع

لمّا أخبر تعالى نبيَّه ﷺ أنَّه قد أَرْسَلَ قبْلَه رُسُلًا إلى أقوام بلغوا في القسوة إلى أن أُخذوا بالشِّدّة في أنفسِهم وأموالِهم، ولكنّ كثيرًا منَ النّاس يصلون إلى حالٍ منَ الشّرك والفُجور لا يُغيِّرُها بأسٌ ولا يحوِّلها بؤسٌ، فلا تُجدي معهم العبرُ والمواعظُ، ولا تُؤثِّرُ فيهم صروفُ الدَّهر وغِيَرُهُ؛ بيَّن تعالى بعد ذلك أنَّ تلك الأممَ لم تَعتبر بما أصابَها من شدائدَ، فقال: ﴿فَلَوۡلَآ إِذۡ جَآءَهُم بَأۡسُنَا تَضَرَّعُواْ﴾[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿بَأۡسُنَا﴾: (البأس والبؤس) أصلٌ واحد يدلُّ على الشِّدَّة، البَأْسُ: العذابُ، والشدَّةُ في الحرب، ويُستعملُ البأسُ والبأساءُ في النّكاية، نحوَ: ﴿وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأۡسٗا وَأَشَدُّ تَنكِيلٗا﴾[2]، وقولِه تعالى: ﴿جَآءَهُم بَأۡسُنَا﴾ معناه نزولُ العذاب[3].

2) ﴿قَسَتۡ﴾: القاف والسين والحرف المعتلّ أصلٌ يدلُّ على شدَّة وصلابةٍ، من ذلك الحجرِ القاسي، والقسوةُ: غِلظُ القلب وشدَّته، يقال: أقْساهُ الذّنْبُ، وهي من قسوة الحجر[4]، وقولُه تعالى: ﴿وَلَٰكِن قَسَتۡ قُلُوبُهُمۡ﴾، أي: صلُبتْ وغلُظتْ[5].

3) ﴿وَزَيَّنَ﴾: (زين) أصلٌ يدلُّ على حُسن الشَّيء وتحسينِه،

(1) الرازي، مفاتيح الغيب: 12/533، والمراغي، تفسير المراغي: 7/124، وطنطاوي، الوسيط: 5/73.
(2) الجوهري، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (بأس)، والراغب، المفردات: (بؤس).
(3) الشّوكاني، فتح القدير: 2/132.
(4) الجوهري، الصّحاح: (قسا)، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (قسي)، والراغب، المفردات: (قسو).
(5) الشّوكاني، فتح القدير: 2/132.

فالزَّينُ نقيضُ الشَّين، يقال: زيَّنتُ الشَّيءَ تزيينًا[1]، وقولُه تعالى: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ "أي: أغواهُم بالتَّصميم على الكفر والاستمرارِ على المعاصي"[2].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

قسوةُ القلوبِ وتزيينُ الشّيطانِ مانعٌ للمشركين مِنَ التّضرّع والإيمان

يذكر اللّه تعالى من تمام إخبار النَّبيِّ ﷺ عن شأن أولئك الأقوام بأنَّهم تركوا التَّضَرُّعَ، فوبَّخهم، إذ لم يتضرَّعوا للّه خاشعين تائبين حين جاءتهم مقدِّمات العذاب وبوادره، وحذروا عواقبه وأواخره، لنكشفه عنهم قبل أن يحيط بهم، ولكن قلوبهم كانت كالحجارة، أو أشدَّ قسوة، فلم تؤثِّر فيهم النُّذر، وزيَّن لهم الشَّيطان ما هم عليه من الشِّرك والفجور[3]، "وهذا عتاب لهم على ترك الدُّعاء في كلِّ الأحوال حتَّى عند نزول العذاب بهم لشدَّة تمرُّدهم وغلوِّهم في الكفر"[4].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالةُ حرفِ الفاءِ، في قولِه: ﴿فَلَوۡلَآ﴾:

بيان أنَّ إعراضَهم عنِ التَّضرُّع، كان سببًا في الإنكارِ عليهم

لمّا أصابهم اللّه تعالى بالبأساء والضَّرّاء رجاءَ إظهار عُبوديَّتهم للّه تعالى بدعائِه واللُّجوءِ إليه، فإذ لم يُظهروا تلك الاستكانةَ والعبوديَّةَ للّه تعالى أنكر عليهم ذلك مبيِّنًا أنَّه بسبب قسوةِ قلوبهم، وفي ذلك قال البِقاعيّ: "ولما لم يقعْ منهم ما أوجبتِ الحالُ رجاءَه؛ تسبّب عنه الإنكارُ عليهم"[5].

دلالة حرفِ (لولا) بين النّفي والتّحضيض:

حثُّ المعاصرين على الاعتبار، تعريضًا بهم، وتوبيخًا للسَّابقين

ذهب فريق منَ المفسِّرين إلى أنَّ (لولا) في قوله تعالى: ﴿فَلَوۡلَآ إِذۡ جَآءَهُم بَأۡسُنَا﴾ للنَّفي، أي: إنَّهم ما خَشعوا، ولا تضرَّعوا وقتَ البأس،

(1) الجوهريّ، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (زين).
(2) الشّوكاني، فتح القدير: 2/132.
(3) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 7/124.
(4) الشّوكاني، فتح القدير: 2/132.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/114.

فقد "نفى التَّضرُّعَ، كأنَّه قيل: فلم يتضرَّعوا إذ جاءهم بأسُنا، ولكنَّه جاء بـ (لولا) ليفيدَ أنَّه لم يكن لهم عذرٌ في ترك التَّضرُّع إلّا عنادُهم وقسوةُ قلوبهم، وإعجابُهم بأعمالهم التي زيَّنها الشَّيطانُ لهم"[1].

وذهب فريقٌ إلى أنَّها للحثِّ والتَّحضيض بمعنى: (هلّا)، لأنَّه دخل على الماضي لإفادة التّنديمِ والتَّوبيخ[2]، فهو على جهة المعاتَبةِ[3]، "والتَّوبيخُ إنّما يليقُ بالحاضرين دون المُنقرضين لفوات المقصودِ"[4].

وذهب فريقٌ إلى أنَّها مع ذلك تدلُّ على التَّمنّي، "كأنَّه قيل: لمَ لمْ يتضرَّعوا؟ ولَيْتهم تضرَّعوا، وكانوا متمكِّنين منه، غيرَ ممنوعين"[5]، وفي بيان كيفيَّة التَّمنّي في هذا السّياق يقول أبو زهرة: "(لولا) هنا للنَّفي مع تمنّي الوجود، فهي لنفي تضرُّعهم مع تمنّي أن يكونوا قد تضرَّعوا، والتَّمنّي هنا معناه: يَنبغي، كأنَّ المعنى هكذا: لم يتضرَّعوا، وكان يَنبغي أن يكونَ البأسُ الشَّديدُ مُؤدّيًا إلى ضراعتهم؛ لأنَّه يُشعرهم بضَعفهم أمام قدرةِ الله تعالى"[6].

فتكونُ (لولا) قد أفادت تلك المعانيَ منَ النَّفي والتَّمنّي والحثِّ والتَّوبيخ شاملةً المنقرضين والمعاصرين، مُسفرةً عن متانة الإعجاز وبلاغة التَّعبير في لغة القرآن.

دلالةُ تقديم ﴿إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا﴾ على ﴿تَضَرَّعُواْ﴾:

قدَّم الظَّرفَ وأصلُ الكلام في غير النَّظم القرآني: (فلولا تضرَّعوا إذ جاءهم بأسنا)، وهذا التَّقديمُ "للاهتمام بمضمون

تصويرُ العنادِ المقترنِ بالغباوةِ، وعاقبتِه الوخيمةِ

(1) الزمخشري، الكشاف: 2/23، والرازي، مفاتيح الغيب: 12/534، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 2/162، والنيسابوري، غرائب القرآن: 3/79، والبقاعي، نظم الدرر: 7/114.

(2) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 6/85، والسّمين، الدر المصون: 4/633، وابن عادل، اللباب في علوم الكتاب: 8/147.

(3) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/292، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/514.

(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 7/228.

(5) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 6/85.

(6) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 5/2498، وينظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير: 7/228.

جملِته، وأنَّه زمنٌ يحقُّ أن يكون باعثًا على الإسراع بالتَّضرّع ممّا حصل فيه منَ البأس"[1]؛ فإنَّ مجيءَ البأسِ سببٌ عظيمٌ في التَّضرُّع، فقُدِّم ذكرُ مجيءِ البأسِ لزيادةِ تحسُّرِ المخاطَبين، وبيانِ فظاعة وشناعةِ ما وقعت به الأممُ السّابقةُ منَ الغباوة والعِناد.

بلاغةُ المجاز في قوله: ﴿جَآءَهُم بَأۡسُنَا﴾:

إسنادُ المجيء إلى البأس مجاز، والمرادُ حدوثُه وحصولُه

أَخبر عن مجيء البأس، والبأسُ لا يجيءُ، فالمجيءُ "مُستعارٌ للحدوث والحصول بعد أن لم يكن تشبيهًا لحدوث الشَّيء بوصول القادم من مكان آخرَ بتنقُّل الخَطوات"[2]، إذ هو من صفات الأحياء، وإنَّما أخبر بذلك مجازًا، فـ "إسنادُ المجيء إلى البأس مجازٌ عن وصوله إليهم، والمرادُ أوائلُ البأس وعلاماتُه"[3].

نكتةُ استعمال (البأس) دون (العقوبةِ) أو (العذابِ):

أخصُّ منَ العذابِ

العذابُ والعقابُ يدلّان على الجزاء على وجه العُموم، ولكنَّ البأسَ هو الجزاءُ الشَّديدُ، فهو أخصُّ في الدِّلالة، "والمرادُ به هنا: الشّدّةُ على العدوّ وغلبتُه"[4]، وكذلك فهو نزولُ العذاب[5].

دلالةُ إضافةِ (البأس) إلى ضمير العظَمةِ في ﴿بَأۡسُنَا﴾:

بأسُ الله شديدٌ يتناسبُ مع عظمتِه ﷻ

قولُه جلَّ شأنه: ﴿فَلَوۡلَآ إِذۡ جَآءَهُم بَأۡسُنَا تَضَرَّعُواْ﴾ أضاف البأسَ إلى نون المتكلِّمين الدّالِّ على التَّعظيم إشارة إلى شدَّة البأس وقوَّته، فهو بأسُ اللّه لا بأس سواه، وقد أراده لتلك الأمم كما أراد لهم التَّضرُّع.

دلالةُ تكرارِ لفظِ ﴿تَضَرَّعُواْ﴾:

تكرَّر لفظُ التَّضرُّع مرَّتين في قوله جلَّ شأنُه: ﴿فَأَخَذۡنَٰهُم بِٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمۡ يَتَضَرَّعُونَ ۝٤٢ فَلَوۡلَآ إِذۡ جَآءَهُم بَأۡسُنَا تَضَرَّعُواْ﴾؛ للتَّأكيد

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 7/228.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 7/228.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/514، وينظر: ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/292.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 7/228.
(5) الشّوكاني، فتح القدير: 2/132.

بأنَّ التَّكبُّرَ عنِ التَّضرُّع هو سببُ النِّقمة منهم، فاستكبارُهم عنِ التَّضرُّع لله تعالى دليلُ كِبْرهم وكفرِهم، وفيه بيانُ استحقاقهم ما نالوا منَ البأس الشَّديدِ.

الامتناع عن التَّضرُّع، سببٌ في استحقاق العذابِ وشدّته

بلاغةُ استعمال حرفِ الاستدراك ﴿وَلَٰكِن﴾ معطوفًا:

عقَّب بحرفِ الاستدراك ﴿وَلَٰكِن﴾ في قوله جلَّ شأنُه: ﴿فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ عطفًا على عزوفهم عنِ التَّضرُّع، ببيان نقيضِه المسبِّبِ له، فهو "استدراكٌ عمّا قبْلَه، أي: فلم يتضرَّعوا إليه تعالى برقَّةِ القلب والخضوعِ مع تحقُّق ما يدْعوهم إليه، ولكنْ ظهر منهم نقيضُه حيث قستْ قلوبُهم"[1]، وعبَّرتِ الآيةُ عن معنيَيْن متناقضَيْن، وعليه فإنَّ "وقوعَ ﴿وَلَٰكِن﴾ هنا حسنٌ؛ لأنَّ المعنى انتفاءُ التَّذلُّل عند مجيء البأس، ووجودُ القسوة الدّالةِ على العتوِّ والتَّعزُّز، فوقعتْ ﴿وَلَٰكِن﴾ بين ضِدَّين، وهما: اللّينُ والقسوةُ"[2]؛ لأنَّ قولَه تعالى: ﴿تَضَرَّعُواْ﴾ "مُشْعِرٌ باللّين والسُّهولة"[3]، وعند البِقاعيّ أفاد الاستدراكُ نفيَ لازمه، "ولمّا كان معنى الإنكار أنَّهم ما تضرّعوا؛ قال: ﴿وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ أي: فلم يذكروا ربَّهم أصلًا"[4]؛ لأنَّ من قسا قلبُه انتفى عنه الخشوعُ المتحصِّل بذكر الله تعالى؛ "لأنَّ التَّضرُّع ينشأُ عن لين القلب، فكان نفيُه المُفادُ بحرف التَّوبيخ ناشئًا عن ضدِّ اللّين وهو القساوةُ، فعطفَ بـ (لكن)"[5].

ذو القلب القاسِي لا يتضرَّع، والمتضرِّع لا يُوصفَ بالقاسي

والخلاصة: أنَّ فائدةَ الاستدراك الإشارةُ إلى أنَّ الضَّراعةَ وقسوةَ القلوب لا يجتمعان؛ لأنَّ القسوةَ غِلظٌ في النَّفوس والطِّباع،

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/133.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/514.
(3) السّمين، الدر المصون: 4/633، وابن عادل، اللباب في علوم الكتاب: 8/148.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 7/114.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 7/228.

وإنَّ بعضَ النُّفوس لتَقسو حتَّى تكونَ كالحجارة، ﴿وَإِنَّ مِنَ ٱلۡحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنۡهُ ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ وَإِنَّ مِنۡهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخۡرُجُ مِنۡهُ ٱلۡمَآءُۚ وَإِنَّ مِنۡهَا لَمَا يَهۡبِطُ مِنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِۗ﴾ والضَّراعةُ رقَّةٌ في القلب ورأفةٌ في النَّفس، فأنَّى يجتمعان؟[1].

سرُّ استعمالِ لفظِ القَسوة دونَ غيره:

أخطرُ أمراضِ المجتمعِ القسوةُ، وتجنّبها أمانٌ ونجاة

الكفرُ والختمُ والقسوةُ تشتركُ في معاني الانتفاء والسَّلب والعدم؛ فالكفرُ: هو انتفاءُ الاستجابة لآيات الله ودعوتِه، والختمُ: إنَّما هو بسبب عدمِ الانتفاعِ بآيات الله تعالى، ﴿وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمۡ﴾ معناه: "وطبعَ على قلوبهم، فلم يَعقِلوا الهُدى"[2]، وعدمُ اللُّجوء إلى الله تعالى في وقت الشِّدَّة إنَّما هو بسبب القسوةِ، فعبَّر بالقسوة لدلالتِه على نقيض الخشوع واللّينِ، فالتَّعبيرُ بالقسوة أنسبُ في عدم الاستجابة لما يأتيهم منَ البأساء والضَّرّاء، ويصدِّقُه أنَّ أهلَ الكتاب يؤمنون بأصول الدّين العامَّةِ كالتَّوحيد والبعثِ والجنَّةِ والنّارِ، ويتَّبعون الشَّريعةَ في غالب أمورهم فلم يناسبْ أن يصفَهم بالختم والطَّبع، لما لديهم من بقيَّة إيمانٍ بالله تعالى، ولكنْ كان في قلوبهم قسوةٌ لما فيهم من حبِّ الدُّنيا وغيرِه منَ الاستكبار عنِ الحقِّ، فقال: ﴿ثُمَّ قَسَتۡ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَٱلۡحِجَارَةِ أَوۡ أَشَدُّ قَسۡوَةٗۚ﴾؛ لأنَّ قلوبَهم لم تتأثَّرْ بآيات الله، وهم أهلُ إيمانٍ به.

بلاغة الاستعارة، في لفظ ﴿قَسَتۡ﴾:

القسوةُ تعني انتفاء تأثُّر قلوبِهم بأسباب الاتِّعاظِ

القسوةُ تدلُّ على الشِّدَّة والصَّلابة من قسوة الحجر، فاستُعيرت تلك القسوةُ للقلب لانتفاء تأثُّره بطروِّ البأس، فلمّا لم يتضرَّعوا إلى الله تعالى في زمان البأساء والضَّرّاء؛ كانت قلوبُهم كالحجر في صلابته، "والمعنى: ولكنِ اعتراهم ما في خِلْقتهم منَ المكابرة وعدمِ

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 5/2498 - 2499.
(2) الرازي، مفاتيح الغيب: 12/536.

الرجوع عنِ الباطل، كأنّ قلوبَهم لا تتأثَّرُ، فشُبِّهت بالشّيء القاسي، والقسوةُ: الصلابةُ"[1]، وفائدةُ وصْفِ القلوب بالقسوة: أنَّها تمثيلٌ "في بُعدِه عنِ الاعتبار وقَبول الحقِّ"[2]، فلمّا جَمدتْ قلوبُهم عنِ التأثُّر بآثار البأساء والضَّرّاء، ولم يَنسبوا ذلك للإله الحقِّ؛ كانت كصلابة الحجَر في انتفاءِ التأثُّر بما يطرأُ عليه.

دلالةُ المضي في ﴿قَسَتْ﴾:

تنبيهُ المؤمنين إلى عظيمِ خَطرِ القَسوةِ

قولُه جلَّ شأنُه: ﴿وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ عبَّر بالفعل الماضي للدَّلالة على القطْع بوجودِ القسوة، وإشارةً إلى بقائها مع طروِّ البأس، فهي قسوةٌ مستمرَّةٌ، فقولُه تعالى: ﴿قَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾، "أي: استمرَّتْ على ما هي عليه منَ القساوة أوِ ازدادَتْ قساوةً"[3]؛ لأنَّهم ثبتوا على الكفر، فقلوبُهم" صلُبتْ، وغلُظتْ، وهي عبارةٌ عنِ الكفر، والإصرارِ على المعاصي"[4]، والقسوةُ أمرٌ تدريجيٌّ، لكنَّه عبَّر عنها بالماضي؛ لبيانِ أنَّها إنْ وقعت في القلبِ؛ استقرَّتْ، وهذا هو خطرُها وعظيمُ شرِّها.

بلاغةُ عطف ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾، على الجملة السّابقة:

الشَّيطان مستمرٌّ في التَّزيين، حفاظًا منه على قسوة القلوب

الجملةُ في قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ معطوفةٌ على الجملة في قوله تعالى: ﴿قَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾[5]، وفائدةُ عطف التَّزيين على القسوة الدَّلالةُ على استمرار الشَّيطان بالتَّزيين، والمرادُ أنَّه "أغواهم بالتَّصميم على الكفر والاستمرارِ على المعاصي"[6].

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 7/229.

(2) القونوي، حاشية على البيضاوي: 8/96.

(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/133، والجمل، الفتوحات الإلهية: 2/351، والآلوسي، روح المعاني: 4/143.

(4) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 6/425.

(5) الهرري، حدائق الروح والريحان: 8/327.

(6) القنّوجي، فتح البيان: 4/141.

فالتَّزيين له مقامان: مقامٌ ابتدائيّ، ومقامٌ استمراريّ، والمقصودُ هنا: الاستمرارُ، إذ التَّزيين جاء عَقِب قسوة القلب، فكان تزيينُ الشَّيطان مستمرًّا للحفاظ على القسوة، التي أبعدتْهم عنِ الاتِّعاظ، وفي ذلك تحذيرٌ بليغٌ أن يقع الإنسانُ في شَرَك المزّين فاسقًا كان أو كافرًا، أمّا كيفيةُ تزيين الشَّيطان لهم، فهي "بأن يوحى إليهم بأنَّ ما هم عليه من كفرٍ وشِركٍ وعصيانٍ هو عينُ الصَّواب، وأنَّ ما أتاهم به أنبياؤهم ليس خيرًا؛ لأنَّه يتنافى مع ما كان عليه آباؤهم"[1].

نكتةُ استعمال ﴿وَزَيَّنَ﴾ دون مرادفاتها:

قولُه تعالى: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ آثر التَّعبيرَ بالفعل ﴿وَزَيَّنَ﴾ دون حسَّن أو غيرِه، فلم يقل: "(حسَّن لهم الشَّيطان)، كما يجري على الألسنة، فلانٌ يُحَسِّن القبيحَ؛ لأنَّ القبيح لا ينقلبُ حسنًا، والسَّيِّئَ لا ينقلبُ، ولكنَّ السَّيِّئَ أو القبيحَ بتمويهاتٍ وتزييناتٍ يُظنُّ معها أنَّه حسنٌ، وما هو إلّا تمويهٌ باطلٌ"[2]، فالزينةُ أمرٌ ظاهرٌ زاهرٌ، يراه ضعيفُ العقلِ زاهيًا، فيستمرُّ فيه ظنًّا منه أنَّه يُحسِن صنعًا.

الزِّينةُ مظهر خارجيّ زائف، وهي لا تؤثِّر إلَّا في ضِعافِ العقول

نكتةُ تقديم الجارّ والمجرور على المسنَدِ إليه:

في قولِه تعالى: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ قدَّم الجارَّ والمجرورَ على المسنَد إليه، فلم يقل: (وزيّن الشّيطان لهم)؛ تخصيصًا لهم بذلك التَّزيين؛ لأنَّه لا يقدرُ على أن يزيِّن للمؤمنين، لذلك كان التَّزيينُ خاصًّا بهم، فقدَّم الجارَّ والمجرورَ لذلك، وفي ذلك تزكيةٌ للمؤمنين ببيان ضَعفِ الشَّيطان أن يُزيِّن لهم أعمالَ الباطلِ، وهو ما يُبرهنُ على أنَّهم هم أصحابُ العقلِ السَّويِّ.

المؤمنون أقوى من الوقوع في حبال زينةِ الشَّيطان

(1) طنطاوي، الوسيط: 5/74.

(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 5/2499.

معنى التّعريفِ في لفظِ ﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾:

كلُّ داعٍ إلى الباطلِ، فهو شيطانٌ يجبُ الحذرُ منه

قولُه جلَّ شأنُه: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ عرَّف ﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾ باللّام الدّالَّةِ على الاستغراق، فالشَّيطانُ وصفٌ يدخل فيه شياطينُ الإنس والجنّ، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّٗا شَيَٰطِينَ ٱلۡإِنسِ وَٱلۡجِنِّ يُوحِي بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ زُخۡرُفَ ٱلۡقَوۡلِ غُرُورٗاۚ﴾ [الأنعام: 112]، فكلُّ من يُزيِّن للنّاسِ أعمالَهم الضّالَّةَ فهو شيطانٌ، وإنَّما عبَّر بلفظ ﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾ إشارةً إلى الصّفة وهي الإبعادُ والطَّردُ عنِ الحقِّ، وهي مناسبةٌ للسّياق إذِ الشَّيطانُ يزيِّن المعاصيَ ليُبعدَ النّاسَ عن ربِّهم ﷻ، فيتكاثرُ المطرودون.

دلالة ﴿مَا﴾، في قولِه: ﴿مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾:

تراوح المعنى بين المصدريّة والموصوليّة

يحتملُ في ﴿مَا﴾ في قوله تعالى: ﴿مَا كَانُواْ﴾ "أن تكونَ موصولةً اسميَّة أي: الذي كانوا يعملونَه، وأن تكونَ مصدريَّةً، أي: زَيَّن لهم عملَهم، كقوله تعالى: ﴿زَيَّنَّا لَهُمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾"[1]، ويكونُ المعنى - لو اعتُبر أنَّها مصدريَّةٌ - : أعمالَهم، فالمصدر المؤوَّل ﴿أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ يدلُّ على أنَّ العمل ذاتَه مُزيَّن من غير تعلُّقه بالأعمال المفردةِ، أمّا لو اعتُبر أنَّها اسمٌ موصولٌ، فإنَّه يدلُّ على تزيين عملٍ مفردٍ بعيْنه، والمرادُ به هنا الاستكبارُ عنِ التَّضرُّع لله تعالى عند نزول العذاب.

دلالةُ استعمالِ فعْلِ ﴿يَعۡمَلُونَ﴾ دونَ (يفعلون) أو (يصنعون):

التعبير بالعمل أنسب لعامّة النّاسِ

آثَرَ التَّعبيرُ القرآنيّ لفظَ العملِ، دون الصُّنع والفِعلِ؛ لأنَّ الصُّنعَ ترتيبُ العمل وإحكامُه، وتَقَدُّمُ العلمِ به بما يوصلُ إلى المراد منه؛ ولذلك قيل للنَّجّار: صانعٌ، ولا يقال للتّاجر: صانعٌ؛ لأنَّ النَّجارَ قد سبق علمُه بما يريد عملَه من سريرٍ أو بابٍ، ويعلمُ الأسبابَ التي توصل إلى ذلك، والتّاجرُ لا يعلمُ إذا اتَّجر أنَّه يصلُ الى ما يريده

(1) السّمين، الدر المصون: 4/634، وابن عادل، اللباب في علوم الكتاب: 8/148، والصّاوي، حاشية الصّاوي: 2/14.

منَ الرِّبح، فالعملُ لا يقتضي العلمَ بما يعملُ له، والصُّنعُ يدلُّ على الجودة[1]، فهو أخصُّ منَ العمل، فحيثما ذُكر كافَّتُهم قال: ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾، وحيثما ذُكر خاصّتُهم وحفظةُ العلم ذُكر: ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ﴾[2]. وأمّا الفعلُ؛ فهو عبارةٌ عمّا وُجد في حال كان قبْلَها مقدورًا سواءٌ أكان عن سبب أم لا[3]. وفي الآية استُعمل ﴿يَعْمَلُونَ﴾؛ لأنَّه حديثٌ عن عامَّة النّاس، فالتَّعبيرُ به أنسبُ.

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 135 - 136.

(2) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 5/392، البيضاويّ، أنوار التنّزيل: 2/134.

(3) العسكريّ، الفروق اللغّويّة، ص: 133 - 134.

﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحۡنَا عَلَيۡهِمۡ أَبۡوَٰبَ كُلِّ شَيۡءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذۡنَٰهُم بَغۡتَةٗ فَإِذَا هُم مُّبۡلِسُونَ ٤٤﴾ [الأنعام: 44]

مُناسَبَةُ الآيةِ لما قبلها:

الفرح بالنّعماء بعد الابتلاءِ بالبأساءِ والضّراءِ، استدراجٌ

قال الرّازي في بيان مناسبة الآية: "هذا الكلام من تمام القصَّة الأولى، فبيَّن الله تعالى: أنَّه أخذَهم أوّلًا بالبأساء والضَّرّاء لكي يتضرَّعوا، ثمَّ بيَّن في هذه الآية أنَّهم لمّا نسوا ما ذكِّروا به منَ البأساء والضَّرّاء؛ فتحنا عليهم أبوابَ كلِّ شيء، ونقلناهم منَ البأساء والضَّرّاء إلى الرّاحة والرَّخاء وأنواعِ الآلاء والنَّعماء"[1]، فلمّا لم تُهذِّبهم الشَّدائدُ وتركوا الاتِّعاظَ بها؛ اختبرهم بالنِّعم، ففتح عليهم أبوابَ الرِّزق، فقال تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحۡنَا عَلَيۡهِمۡ أَبۡوَٰبَ كُلِّ شَيۡءٍ﴾[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿نَسُواْ﴾: النون والسين والحرف المعتلّ أصلٌ يدلُّ على إغفال الشَّيء، وعلى تركه، نسيتَ الشَّيءَ، إذا لم تذكرْه، والنِّسيانُ: تركُ الإنسان ضبطَ ما استودع، إمّا لضعف قلبِه، وإمّا عن غفلة، وإمّا عن قصد حتَّى ينحذفَ عنِ القلب ذكرُه[3]، وقولُه تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ﴾ أي: "تركوا ما ذُكِّروا به منَ المواعِظِ والإنذارِ"[4].

2) ﴿فَتَحۡنَا﴾: (فتح) أصلٌ يدل على خلاف الإغلاق، والفتحُ: إزالةُ الإغلاق والإشكال، ويقال: فتح، وقولُه: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ

(1) الرازي، مفاتيح الغيب: 12/534، والنيسابوري، غرائب القرآن: 3/79.
(2) ابن جزي، التسهيل: 1/261، والمراغي، تفسير المراغي: 7/124، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 5/2499.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات: (نسي/نسى).
(4) العليميّ، فتح الرحمن: 2/396.

﴿وَٱلۡفَتۡحُ ۝١﴾ [النصر: 1] يحتملُ النُّصرةَ والظَّفرَ والحكمَ[1]، و"الفتحُ: جعلُ الشَّيء الحاجز غيرَ حاجزٍ وقابلًا للحجز، كالباب حين يُفتحُ"[2].

3) ﴿بَغۡتَةً﴾: (بغت) أصلُ البغت: أنْ يَفْجَأ الشَّيءَ، والمباغتةُ: المفاجأةُ[3]، ﴿أَخَذۡنَٰهُم بَغۡتَةً﴾ فجأةً، ومفاجأةً[4]، وهو الأخذُ على غِرَّة من غير تقدمةِ أمارةٍ، فلم يتقدَّم عندهم منها علمٌ[5]، والبغتةُ "فَعْلة منَ البَغت وهو الفجأة، أي: حصولُ الشَّيء على غيرِ ترقُّب عند مَن حصلَ له، وهي تستلزمُ الخفاءَ؛ فلذلك قوبلت بالجهرةِ في الآية الآتية"[6].

4) ﴿مُّبۡلِسُونَ﴾: (بلس) أصلٌ يدلُّ على اليأس، أبلس الرَّجل سكتَ، والإبْلاسُ: الانكسارُ والحُزن، يقال: أَبْلَسَ فلانٌ؛ إذا سكت غمًّا، وهو: الحُزنُ المعترضُ من شدَّة البأس، ولمّا كان المبلس كثيرًا ما يلزم السُّكوتَ، وينسى ما يُعنيه؛ قيل: أَبْلَسَ فلان: سكت، وانقطعت حجَّتُه[7]، وقولُه تعالى: ﴿فَإِذَا هُم مُّبۡلِسُونَ﴾ (المبلس) الحزينُ الباهتُ اليائسُ منَ النَّجاة عند ورود الهَلكة، لا يُحيرُ جوابًا لشدَّة ما نزل به من سوء الحال[8]، وهو "الوُجومُ والسُّكوتُ عند طلب العفو يأسًا منَ الاستجابة"[9]، والحزنُ المعترضُ من شدةِ اليأسِ والنَّدم[10].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

لما أعرض أولئك الأقوام عما أنذرهم به رسلهم، وتركوا الاهتداءَ به؛ بُلوا بالحسنات، وفُتحت عليهم أبوابُ الرزق ورخاء العيش، فلم تربِّهم تلك النِّعمُ، بل بَطِروا، واستكبروا حتى إذا ظنّوا أنَّ الذي أوتوا إنما هو باستحقاقهم؛ أخذناهم بعذاب الاستئصال حالَ كونِهم مبغوتين، إذ فاجأهم على غِرة من غير سبْقِ أماراتٍ ولا إمهالٍ للاستعداد أو للهرب، فإذا هم يائسون منَ النّجاة[11].

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات: (فتح).
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 7/229.
(3) الجوهري، الصحاح، وابن فارس، مقاييس اللغة: (بغت).
(4) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 134، والواحدي، البسيط: 8/150، والزّجاج، معاني القرآن وإعرابه: 2/249.
(5) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/293، والشّوكاني، فتح القدير: 2/133.
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 7/231.
(7) الجوهري، الصحاح، وابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات: (بلس).
(8) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/292، والرازي، مفاتيح الغيب: 12/535.
(9) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 7/231.
(10) العليميّ، فتح الرحمن: 2/397، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/515.
(11) المراغي، تفسير المراغي: 7/124 - 125، وينظر: رضا: المنار: 7/346.

والمعنى: "فلمّا أعرضوا عن النُّذُر والعظات التي وجّهها إليهم الرّسلُ؛ فتحنا عليهم أبوابَ كلِّ شيء منَ الرِّزق وأسبابِ القوَّة والجاه، حتَّى إذا اغتروا، وبَطِروا، بما أوتوا من ذلك أخذناهم بغتةً، فإذا هم متحسِّرون يائسون منَ النَّجاة"[1].

نسيان التّذكير، والفرح بالخير الغزير انتهى بهم إلى الهلاك والإبلاس

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

أثرُ الفاء الفصيحةِ في تقدير المحذوفِ في قولِه: ﴿فَلَمَّا نَسُواْ﴾:

قولُه تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ﴾ عبَّر بالفاء الفصيحة التّي "تُفصحُ أنَّ الكلام مبنيٌّ على اعتبار الحذف"[2]، فإنَّ النّسيان لا يتحقَّق إلّا بالانشغال، فهو "عطفٌ على مقدَّرٍ ينساقُ إليه النَّظمُ الكريمُ، أي: فانهمَكوا فيه، ونسوا ما ذُكِّروا به منَ البأساء والضَّراء، فلمّا نسوه ﴿فَتَحۡنَا عَلَيۡهِمۡ أَبۡوَٰبَ كُلِّ شَيۡءٍ﴾ من فنون النَّعْماء على منهاج الاستدراج"[3].

إفصاح الحرف عن المحذوف، يزيد السّياق روعة وجماليّة

بلاغةُ معنى الظّرف والشَّرطِ في ﴿فَلَمَّا﴾ وما يتبعها:

في قولِه تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحۡنَا عَلَيۡهِمۡ أَبۡوَٰبَ كُلِّ شَيۡءٍ﴾ عبَّر بـ ﴿فَلَمَّا﴾ الدّالّةِ على الزّمان والشّرط للدّلالة على اقتران النّسيانِ بوقتِ فتْحِ أبواب الخيرِ، فهو "حرفُ شرطٍ يدلُّ على اقتران وجود جوابِه بوجود شرطِه، وليس فيه معنى السّببية مثلُ بقيَّة أدوات الشرط"[4]، ونفى بعضُ العلماء أن يكون فيه معنى الشَّرط، فذهبوا إلى أنَّه "ظرفٌ بمعنى: حين، وليس فيه معنى الشّرط؛ إذ لا يظهر وجهُ سببية النّسيان لفتح أبواب الخير"[5]، وأورد الآلوسيُّ توجيهًا لهذا الاعتراض: "واستُشكل ذلك بأنَّه لا

أهميّة الاقتران بين النّسيان وفتحِ أبوابِ الخير

(1) طنطاوي، الوسيط: 5/74.
(2) زاده، حاشية على البيضاوي: 4/43.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/133.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 7/229.
(5) الخفاجي، عناية القاضي: 4/60.

يظهر وجهُ سببيَّة النِّسيان لفتح أبواب الخير، وأجيب بأنَّ النِّسيان سببٌ للاستدراج المتوقِّف على فتح أبواب الخير، وسببيَّةُ شيء لآخر تستلزم سببيَّته لما يُتوقَّف عليه"[1].

بلاغةُ المجاز المرسَلِ في استعمال مادّة النّسيان:

التّهاونُ يُورِّث النِّسيانَ، ومن نسيَ القليلَ؛ نسيَ الكثيرَ

في قولِه تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ﴾ عبَّر بالنّسيان عن تركهم الاتّعاظَ، "أي: تركوا الاتّعاظَ بما ذُكروا به منَ البأساء والضّراء، ولم ينزجروا"[2]، فالتّعبيرُ بالنّسيان إنّما هو "مجازٌ عنِ التَّرك، وعدمِ العمل والاتّعاظ"[3]؛ لأنَّ نسيانَ الشّيء يدلُّ على تركه بدلالة اللّزوم[4]، وإنّما فُسِّر النّسيانُ بالترك هنا؛ "لأنَّ النّسيان لو كان على حقيقته لم يُؤاخَذوا به، إذ ليس هو من فعْلِهم"[5]، والغايةُ منَ التّعبير بالنّسيان دون التّصريح بالتّرك المبالغةُ في عدم اتِّعاظهم[6]؛ لأنَّ النِّسيان يدلُّ على أنَّ التَّذكير قد زال من أذهانهم[7]، وهذا أبلغُ في بيان تركهم الاتّعاظَ، والمعنى: أنَّهم قد "كانوا بتلك القسوة وتزيينِ السّوء ناسين لِما ذُكِّروا به؛ فقد ذُكِّروا بالبأساء والضَّرّاء وبسبب قسوةِ قلوبهم تركوا ما ذُكِّروا به، والنِّسيان هنا ليس هو مجرَّدَ التِّرك، إنَّما هو نسيانُ آثار الضَّرّاء والبأساء"[8].

نكتةُ استعمالِ ﴿مَا﴾ بدلًا منَ الاسم الموصولِ الظّاهرِ:

النِّسيانُ كان عامًّا لكلِّ ما ذُكِّر به الأقوامُ

عبَّر بالاسم الموصولِ ﴿مَا﴾ في قوله تعالى: ﴿مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ﴾ للدّلالة على نِسيانهم عمومَ ما ذكِّروا به، فنسيانُهم ليس مقتصِرًا على ما ذكِّروا به من شأن البأساء والضّراء، بل نسوا جميعَ ما

(1) الآلوسي، روح المعاني: 4/144.
(2) ابن عجيبة، البحر المديد: 2/118.
(3) الخفاجي، عناية القاضي: 4/61.
(4) القونوي، حاشية على البيضاوي: 8/97.
(5) الشّوكاني، فتح القدير: 2/132، والقنّوجي، فتح البيان: 4/141.
(6) القونوي، حاشية على البيضاوي: 8/97.
(7) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/292.
(8) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 5/2500، وينظر: طنطاوي، الوسيط: 5/74.

ذُكِّروا به، واللّه تعالى إنَّما استدرجَهم بفتح أبواب الخير لما أنَّهم أوغلوا في النِّسيان، فلمّا نسوا عمومَ ما بُلِّغوا به أملى لهم استدراجًا.

بلاغةُ العُدول عن لفظ (الدّعوةِ)، إلى لفظ (التّذكير):

عبَّر تعالى عنِ الرِّسالة في قوله جلَّ شأنُه: ﴿مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ﴾ فآثر لفظَ (التَّذكير) دونَ (الدَّعوة)؛ فلم يقل: (ما دُعوا إليه)؛ لما فيه منَ الدَّلالة على أنَّ الرِّسالةَ كانت تامَّةً والشَّريعةَ بيِّنةً، ولكنَّهم أعرضوا عنها، فناسب لفظُ التَّذكير؛ لأنَّه يقابلُ النِّسيانَ، ولم يناسبْ لفظَ الدّعوة؛ لأنَّهم قد دعَوا من قبلُ، وتبيَّن لهمُ الحقُّ، فعزَفوا عنه، ونسوه إهمالًا له، وفيه تناسبٌ لفظيٌّ؛ إذ سبقه لفظ النِّسيانِ، فكان يناسبُه التَّذكيرُ.

التَّذكيرُ يُقابل النِّسيانَ، وهو مرحلةٌ ناجمة عنِ الدَّعوة

دلالةُ بناء فعْلِ ﴿ذُكِّرُواْ﴾ للمفعول، وتعديته بحرف (الباء):

في قوله جلَّ شأنُه: ﴿مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ﴾ عبَّر عمّا ذكِّروا به بالفعل المبني للمفعول؛ اهتمامًا بالمذكَّر به لا بالنَّظر إلى تعيين من ذكَّرهم، فالمقصودُ أنَّهم غفَلوا عن مضمون الدَّعوة، وفي هذا تأكيدُ استقلال الرِّسالة بالمكانة الرَّفيعة، وجدارتِها بأن تُتَّبع لذاتها لا بالنِّسبة إلى المُبلِّغ والرَّسول.

الاهتمامُ بالمذكَّر به لذاتِه، لا بكونِه صادرًا عن مُعيَّن

براعةُ استعمالِ ﴿فَتَحْنَا﴾، دونَ (بسطنا عليهم) أو (رزقناهم):

عبَّر عن بسط الخير لهم بفتح الأبواب على طريقة الاستعارة؛ حيث "شبَّه الأسبابَ التي هيأها اللّه لهم، المقتضيةَ لبسط الرّزق عليهم بالأبواب، بجامع الوصولِ إلى المقصودِ في كلٍّ على طريقة الاستعارة التّصريحية"[1]، وفي هذا التَّعبير منَ الدَّلالة على السَّعَة ما ليس في (رزقناهم)؛ إذِ الفتحُ يدلّ على فتح المغلَق وإزالةِ الحاجز، "فالفتحُ هنا استعارةٌ لإزالة ما يُؤلم ويغمُّ، كقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّ

التَّعبيرُ بفتحِ الأبواب عن بسط الرِّزق لإزالة ما يمنعُ الخيرَ

(1) الهرري، حدائق الروح والريحان: 8/337.

أَهۡلَ ٱلۡقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ لَفَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَرَكَٰتٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾، ومنه تسميةُ النّصر فتحًا لأنّه إزالةُ غمّ القهر"[1].

بلاغةُ تعديّةِ ﴿فَتَحۡنَا﴾، بحرف الاستعلاء ﴿عَلَيۡهِم﴾ دون اللّام:

تمكُّن الخير منَ الأمم للشُّكرِ، لكنَّهم أرادُوه استدراجًا

التّعبيرُ بحرف الاستعلاء في قوله تعالى: ﴿فَتَحۡنَا عَلَيۡهِمۡ أَبۡوَٰبَ كُلِّ شَيۡءٍ﴾ "يرسم صورةً بليغةً لإقبال الدّنيا عليهم من جميع أقطارها بجميع ألوان نِعَمها، وبكل قوّتها وإغرائِها، فهو اختبارٌ لهم بالنّعمة بعد أنِ ابتلاهم بالبأساء والضّراء"[2]، وفيه إشعارٌ باستعلاء الفاتحِ أبوابَ الخير عليهم، وفيه منَ الامتنان الدّاعي إلى الامْتنان، لكنَّهم أرادوا الامتنانَ استدراجًا.

توجيهُ القراءاتِ القرآنيّة، في قوله تعالى: ﴿فَتَحۡنَا﴾:

دلَّ التَّضعيفُ على التَّكثير، والتّخفيفُ على اليُسر

في قوله تعالى ﴿فَتَحۡنَا عَلَيۡهِمۡ أَبۡوَٰبَ كُلِّ شَيۡءٍ﴾ قراءتان؛ فقرأ الجمهورُ بالتَّخفيف ﴿فَتَحۡنَا﴾، وقرأ ابنُ عامر: (فتّحنا) بالتّثقيل، "والتّثقيلُ مُؤذِنٌ بالتَّكثير؛ لأنّ بَعْدَهُ ﴿أَبۡوَٰبَ﴾ فناسب التّكثير"[3]، فالتّثقيلُ أفاد المبالغةَ "في الفتح بكثرته كما أفاده قولُه: ﴿أَبۡوَٰبَ كُلِّ شَيۡءٍ﴾"[4]، وأمّا التَّخفيف ففيه سهولةُ الفتحِ ويُسرُه على الفاتحِ سبحانه، فهو خيرٌ كثيرٌ جاء بيُسر وسهولةٍ، وهذا من ألطفِ أنواع الرِّزق الذي يُصيبُ العبادَ.

نكتةُ تقديم ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾، على المفعول ﴿أَبۡوَٰبَ﴾:

إفادة التّقديم التَّخصيصَ للمقدَّم، والتَّشويقَ للمؤخَّر

قدَّم الجارَّ والمجرورَ على المفعول به في قوله تعالى: ﴿فَتَحۡنَا عَلَيۡهِمۡ أَبۡوَٰبَ كُلِّ شَيۡءٍ﴾، وأصلُ الكلام في غير النَّظم الكريم: (فتحنا أبواب كلِّ شيء عليهم)؛ وإنَّما قدَّمه للدَّلالة على تخصيصِهم بذلك الفتحِ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 7/229، 230.
(2) طنطاوي، الوسيط: 5/75.
(3) ابن عادل، اللباب في علوم الكتاب: 8/150، وزاده، حاشية على البيضاوي: 4/44، وينظر: أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/133.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 7/230.

مبالغةً في استدراجهم، وفي تأخير المفعول به دلالةٌ على التَّشويق، فإنَّ تأخيرَ ما حقُّه التَّقديمُ يضعه تحت ترقُّب السّامع، فيتطلَّعُ له بتشوُّق.

بلاغةُ استعمال لفظِ ﴿أَبْوَابَ﴾:

الفتح يشير إلى أنَّ أبوابَ الرّزق كانت شبهَ مغلقةٍ

قولُه تعالى: ﴿فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ لمّا ذكر أنَّه يفتحُ الأبوابَ دلَّ على أنَّها كانت شبْهَ مغلقةٍ، والمعنى: فتحنا أبوابَ كلِّ شيء منَ النِّعم والخيرات بعد أن كانت قليلةً صعبةَ المنال، أي: كثَّرنا لهم ذلك، والتَّقديرُ: فتحنا عليهم أبوابَ كلِّ شيءٍ كان مغلقًا عنهم منَ الخير[1]، و"نقلناهم منَ الشِّدّة إلى الرَّخاء، وذلك استدراجًا لهم"[2].

دلالةُ جمعِ أبوابٍ المضافة لمضاف:

عموم المضافات ترقٍّ في العموماتِ، وهذا من بديع الوصْفِ للاستدراج

في قوله ﴿أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾: ذكر تعالى الأبوابَ بصيغة الجمع، وأضافه لـ ﴿كُلِّ﴾ الدّالِّ على الشُّمول، وأضافه إلى لفظ ﴿شَيْءٍ﴾ الواردِ بصيغة التّنكير، كلُّ ذلك دلَّ على السّعةِ والعموم، "والإبهامُ في هذا العموم لتهويل ما فُتحَ عليهم وتعظيمِه"[3]، وذلك للإيغال في الاستدراج، أي: "استدرجْناهم بفتح أبوابِ كلِّ نوعٍ من أنواع الخيرِ عليهم"[4].

بلاغةُ التَّخصيصِ السِّياقيّ في: ﴿أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾:

المرادُ بالعموم: التَّكثيرُ لا الإحاطةُ

العمومُ الواردُ في قوله تعالى: ﴿كُلِّ شَيْءٍ﴾ ليس على إطلاقه، فهو يدلُّ على "ما كان سُدَّ عليهم بالبأساء والضَّرّاء منَ النِّعم الدنياويَّة، فهو عمومٌ معناه: خصوصٌ"[5]، وهذا التَّعميمُ إنَّما يختصُّ بما يُتصوَّر في حياة النّاس، فقولُه: ﴿كُلِّ شَيْءٍ﴾ "المرادُ به التَّكثيرُ لا التَّعميمُ والإحاطةُ"[6].

---

(1) الرازي، مفاتيح الغيب: 12/535، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 6/426، وابن عادل، اللباب في علوم الكتاب: 8/151، والنيسابوري، غرائب القرآن: 3/79.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 7/114 - 115.

(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/515، والهرري، حدائق الروح والريحان: 8/337.

(4) القنّوجي، فتح البيان: 4/141.

(5) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/292.

(6) الخفاجي، عناية القاضي: 4/61.

دلالةُ اجتماع (حتّى) مع (إذا)، في: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا﴾:

اقتران نزولِ النِّعم وطول مُكثِها بقسوةِ القلبِ، استدراجٌ يوجبُ الفرارَ

اجتمع في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذۡنَٰهُم بَغۡتَةٗ﴾ حتَّى الابتدائيّةُ مع إذا الشّرطيّةِ، والمرادُ منه مدُّ الزّمان حتى يطمئنّوا، "ومددْنا زمانَه وطوَّلنا أيّامَه ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ﴾، أي: تناهى بهم الفرحُ ﴿بِمَآ أُوتُوٓاْ﴾"[1]، فإنَّ إمهالهم بسبب الاستدراج أوهمَهم "أنَّ الذي نزل بهم منَ البأساء والضّراء ما كان على سبيل الانتقام منَ اللّه ولمّا فتحَ اللّه عليهم أبوابَ الخيرات ظنّوا أنَّ ذلك باستحقاقهم، فعند ذلك ظهرَ أنّ قلوبَهم قستْ، وماتتْ، وأنه لا يُرجى لها انتباهٌ بطريقٍ منَ الطُّرق"[2]، وهذا الإمهال ومدُّ الزّمان بالخيرات من تمام الاستدراج، وإظهارٌ لمدّة نسيانِهم.

دلالةُ لفظ ﴿فَرِحُواْ﴾ على تحقّق مقصودِ فتحِ الأبواب:

فتحُ أبوابِ الرِّزقِ طريقُ فتحِ أبوابِ الفرحِ

لمّا كان المرادُ من فتح الأبواب بخيرات الأرض استدراجَهم وإيهامَهم بالرِّضا؛ عبَّر عن تحقُّق المراد بأنَّهم فرحوا؛ إذِ الفرحُ يدلُّ "على البَطَر والاشتغالِ بالنّعمة عنِ المُنعِم، معرضين عنه، وعنِ القيام بحقِّه[3]، فأخبر بذلك تمهيدًا لأخذهم، "وغيّا الفتحَ بفرحهم بما أوتوا، وترتَّب على فرحِهم أخذُهم بغتةً، أي: إهلاكُهم فجأةً، وهو أشدُّ الإهلاك"[4]، كما أنَّ فيه دلالةً على ظنِّهم بكونِه لا ينقطعُ، بمعنى: أنَّهم "بطِروا، وأشِروا، وأُعجبوا، وظنّوا أنَّ ذلك العطاءَ لا يبيدُ، وأنَّه دالٌّ على رضاء اللّه ﷻ عنهم"[5].

سرُّ التّعبير بصِيغة الماضي ﴿فَرِحُواْ﴾:

تصويرُ مشهدِ النِّهايات الّذي يتحقَّقُ فيه الاعتبار

آثر النَّظمُ أنْ يعبِّرَ عن فرحهم بالفعل الماضي، فقال: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ﴾ ولم يعبِّر بالمضارع الدّالِّ على الاستمرار: (إذا هم

(1) البقاعي، نظم الدرر: 7/115

(2) الرازي، مفاتيح الغيب: 12/535، وينظر: أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/133 - 134.

(3) القونويّ، حاشية على البيضاوي: 8/100.

(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/515.

(5) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 6/426.

يفرحون)؛ لأنه أراد استحضارَ نهاية فرحِهم في ذهنِ المخاطَب، ولم يُرد استحضارَ استمراره، فالفعل الماضي دلّ على أنه فرحٌ لم يدُمْ طويلًا، ويدلُّ على ذلك حرفُ الابتداء ﴿حَتَّىٰٓ﴾؛ إذ عند أوَّلِ فرحهم حلَّت نهايتُهم، ففيه تصويرُ مشهدِ النِّهايات، إذِ العبرةُ فيه لا في امتدادِه واستمرارِه.

بلاغةُ التّعبير عن فتحِ الأبواب ﴿بِمَآ أُوتُوٓاْ﴾:

الإشـــارةُ إلى ظـنّـهـم أنّـهـم أُوتوه بأنفسِهم، وهذا مبلغُ الدَّاء ورأسُ البلاء

قولُه ﷻ: ﴿بِمَآ أُوتُوٓاْ﴾ تعبيرٌ عن ظنّهم أنّهم أوتوه بعلمِهم، دلالةٌ على كمال إعراضِهم عنِ اللّه تعالى، أي: "معرضين عمّن آتاهم هذا الرّخاءَ بعد أن كان ابتلاهم بذلك"[1]، وفيه إشارةٌ إلى أنَّهم نسوا فاعلَ ذلك الإيتاء؛ فلذا عبَّر عنِ الإيتاء "بالبناء للمفعول؛ لأنَّهم يَحسبون أنَّ ذلك بعلمِهم وقدرتِهم وحدَهم، كما جاء على لسان واحد من أمثالهم، وهو قارون: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ﴾"[2].

دلالةُ فعل الأخْذِ المسنَدِ إلى ضمير العظَمةِ:

مـن أخـذه الله بـذنـوبـه، فلا مـلـجـأ لـه ولا منجى

عبَّر عنِ الأخذ في قوله تعالى: ﴿أَخَذۡنَٰهُم﴾ بإسناده إلى نون العظَمة للدَّلالة على أنَّ اللّه تعالى يأخذُهم بما له من صفات العظَمة[3]، كما أنَّ الأخْذَ يُشعر بالشِّدَّة لا سيما بنون العظَمة[4]، ففي ذلك مبالغةٌ وتأكيدُ شدّة أخْذِه ﷻ.

دلالةُ حذفِ متعلّقِ فعلِ (أخذنا):

الـعـبرةُ بـوقـوع الأخـذِ بغتةً، لا تعيينُ ماهيَّتِه

في قوله جلَّ شأنُه: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذۡنَٰهُم بَغۡتَةٗ﴾ أطلقَ الأخذَ ولم يقيِّدْه بالعذاب، فلم يقل: (أخذناهم بالعذاب)؛ ليشملَ جميعَ ما يُتوقَّع، وما يكونُ سببًا في استئصالهم؛ لأنَّ " ﴿أَخَذۡنَٰهُم﴾

(1) البقاعي، نظم الدرر: 7/115.
(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 5/2501، وطنطاوي، الوسيط: 5/75.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 7/115.
(4) القونويّ، حاشية على البيضاوي: 8/100.

في هذا الموضع معناه استأصلْناهم، وسطَوْنا بهم"[1]، فالإطلاقُ فيه إرخاءُ سبيلِ العنان للخيال بتصوُّر ما نالهم بأخذِه لهم ﷻ، ولأنَّ المقصودَ بالأخذ أنَّه جاء بغتةً لا ما هو الآتي.

نكتةُ استعمالِ ﴿بَغْتَةً﴾ دونَ فجأة:

البغتُ فيه خفاءٌ وعدمُ ظهورٍ، أمّا الفجأة ففيها الهجومُ من غير مقدِّماتٍ؛ فلذا عبَّر القرآن عنِ العذاب والقيامة بأنَّها تأتي بغتةً، وقابل البغتةَ بالجهرة، والجهرةُ تعني الإعلانَ، فالبغتةُ هي خلافُ الإعلان، ودأبَ القرآنُ الكريم على التّعبير بالبغتة في موضوعين: نزولِ العذاب، ومجيءِ السّاعة، وكلاهما يأتيان بخفاء، لكنَّ البغتةَ أشدُّ خفاءً.

البغتةُ تدلُّ على الخفاء، والفجأةُ على الهجومِ بلا مقدِّماتٍ

دلالةُ دخولِ (الفاء)، على (إذا) الفجائيّةِ:

(إذا) في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾ فجائيةٌ[2]، والفاءُ "للسببية، فإنّ مفاجأتَهم إبلاسَهم مسبّبةٌ عنِ الأخذ، أو للعطف بحسب المعنى، أي: أُخذوا بغتةً فاجَؤوا إبلاسَهم"[3]، وفائدةُ دخول الفاء على (إذا) الفجائيّةِ: الدّلالةُ على السّرعة والسّببيّةِ، فبعد الأخذِ بغتةً سقطَ في أيديهم، فلم يُحيروا جوابًا، ولم يعقِّبوا على ما حدثَ، "فاجأ عَقيبَه الإبلاس، أي: التَّحسُّر واليأس"[4].

تفريعُ الإبلاس على الأخذ، ذهول من سُرعةِ الأخْذِ

سرُّ استعمال ﴿مُّبْلِسُونَ﴾، دون ما يُقاربُها في المعنى:

لمّا أراد النَّظمُ بيانَ حالتهم في تلقّي ذلك الأخذِ المفاجئِ عبَّر عن ذلك بالإبلاس الدّالِّ على الوجومِ والسّكوت، دون أن يذكرَ الإياسَ أو التَّحيُّرَ، وهذا تصويرٌ دقيقٌ للحدث "أي: تسبّبَ عن ذلك البغت:

الإبلاسُ دالٌّ على الدَّهشة من سُرعة الأخذ، وهو مُصوّرٌ لحالتِهم

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/292.
(2) طنطاوي، الوسيط: 5/75.
(3) القونويّ، حاشية على البيضاوي: 8/100.
(4) القونويّ، حاشية على البيضاوي: 8/100.

أن فاجؤوا السّكوتَ على ما في أنفسهم، واليأسَ تحسُّرًا وتحيُّرًا، واستمرّوا بعد أن سكتوا إلى أن همَدوا وخفَتوا"[1].

دلالةُ التّعبير بالجملةِ الاسميّةِ ﴿ هُم مُّبْلِسُونَ﴾:

قولُه تعالى: ﴿فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾ عبّر عن حالهم بالجملة الاسميَّة في بيان حسرتهم، وأنَّهم واجمون "دلالةً على استقرارهم على تلك الحالة الفظيعةِ"[2] التي انتهوا عليها.

حالةُ الإبلاس والوجومِ مستمرّةٌ لا تزول

الفروقُ اللُّغويَّة:

(النّسيان) و(الغفلة):

الغفلةُ: عبارةٌ عن عدمِ التَّفطُّن للشَّيء، وعدمِ عقليته بالفعل، سواء بقيت صورتها أو معناه في الخيال، أو الذِّكر، أو انمحت عن أحدهما، وهي أعمُّ منَ النّسيان؛ لأنَّه عبارةٌ عنِ الغفلة عنِ الشَّيء مع انمحاء صورته أو معناه عنِ الخيال، أو الذَّكر، بالكليَّة، ولذلك يحتاجُ النّاسي إلى تجشُّم كسْبٍ جديدٍ وكُلفةٍ في تحصيله ثانيًا[3].

النِّسيانُ انمحاء الشَّيء منَ الذِّهن بالكلِّيَّة، والغفلةُ عدمُ التَّفطُّن للشّيء

والّذي يناسبُ الآيةَ (النِّسيان)؛ لأنَّهم غفلوا عمّا ذكِّروا به، فإنَّ "النِّسيان إنَّما يكون عمّا كان"[4]، فهم نسوا التَّذكيرَ من أصله، وليس أنَّهم غفلوا عنِ التَّفطُّن له، والنِّسيانُ يعبِّرُ عن خُلوِّ ذهنهم من ذكره لانتفاء مُبالاتهم به.

(الفرح) و(البطر):

"البطرُ سوءُ استعمال النّعمة"[5]، أمّا الفرح؛ فهو قريبٌ من السُّرور، ويختلف عنه بأنَّه سرورٌ" بما ليس بنفعٍ ولا لذَّةٍ، كفرح الصَّبي بالرَّقص والعَدْو والسِّباحة وغيرِ ذلك ممّا يُتعبه، ويُؤذيه، ولا

البطرُ سوءُ استعمال النِّعمة، والفرحُ سرورٌ بما ليس بنفعٍ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 7/115.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/134.
(3) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 389.
(4) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 97.
(5) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 231.

يُسمَّى ذلك سرورًا؛ ألا ترى أنَّك تقول: الصِّبيان يفرحون بالسِّباحة والرَّقص، ولا تقول يُسرّون بذلك"[1]، وفي الآية لم يرد أنَّهم أساؤوا استعمالَ النّعمة بكُفرها وعدمِ شُكرها، بل أراد أن يبيِّن أنَّهم كانوا مسرورين بما ليس فيه انتفاعٌ.

(الفرح) و(السّرور):

"السُّرور لا يكون إلّا بما هو نفعٌ، أو لذَّةٌ على الحقيقة، وقد يكون الفرحُ بما ليس بنفعٍ ولا لذَّة، كفرح الصَّبي بالرَّقص والعَدْو والسِّباحة وغيرِ ذلك ممّا يُتعبه ويُؤذيه، ولا يسمَّى ذلك سرورًا؛ ألا ترى أنَّك تقول: الصِّبيان يفرحون بالسِّباحة والرَّقص، ولا تقول: يُسرّون بذلك، ونقيضُ السُّرورِ الحُزنُ، ونقيضُ الفرحِ الغمُّ"[2].

السُّرور يكون بما هو نفعٌ، أو لذَّةٌ، والفرحُ يكون بما ليس بنفعٍ

وفي الآية آثر التَّعبيرَ بالفرح دون السرور؛ لأنَّه فرحٌ بعرض الدُّنيا الزّائلِ مما لا نفعَ فيه على وجه الحقيقة، ولأنَّه أدَّى إلى إعراضِهم عنِ التَّضرُّع إلى الله تعالى، فهو فرحٌ بضرَرٍ.

(بغتة) و(فجأة):

دأب اللُّغويّون على تفسير البغتة بالفجأة، والفجأة بالبغتة، "البَغْت: مفاجأة الشَّيء من حيث لا يُحتسب"[3]، وأصلُ البغت: أنْ يَفْجَأ الشَّيء، والمباغتةُ: المفاجأة[4]، والبغتةُ "فَعْلة منَ البَغت، وهو الفجأةُ، أي: حصولُ الشَّيء على غير ترقُّب عند مَن حصلَ له، وهي تستلزمُ الخفاءَ"[5].

الفجأةُ: الإتيانُ دون مقدِّمة، والبغتةُ الإتيانُ من غير عيانٍ وإظهارٍ

أمّا الفجأةُ؛ فمن قولهم: "فجأ الأمرُ: هجم عليه من غير أن يشعرَ به، وقيل: إذا جاءه بغتةً من غير تقدُّم سببٍ، وكلُّ ما هجم عليك من أمر لم تحتسبْه، فقد فجأك"[6].

---

(1) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 265 - 266.
(2) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 265 - 266.
(3) الخليل، العين، والرّاغب، المفردات: (بغت).
(4) الجوهري، الصحاح، وابن فارس، مقاييس اللغة: (بغت).
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 7/231.
(6) الدوري، دقائق الفروق اللغوية في البيان القرآني، ص: 155 - 156.

والفجأةُ: هي مواجهةُ شيءٍ دفعةً وبدون مقدِّمة ظاهرةٍ، وقولُه تعالى: ﴿إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً﴾؛ فإنَّ مقابلة البغتةِ بالجهْرةِ تدلُّ على أنّ حقيقةَ البغتة عبارةٌ عن إتيان شيءٍ دونَ إعلام وإظهارٍ؛ فإنّ الجهرة: هي العيانُ والظهورُ، وبهذا يظهرُ الفرقُ بين البغتة والفجأة: فإنّ الفجأةَ: هي الإتيانُ بِلا مقدِّمة، وهي الهجومُ دفعةً، وأمّا البغتةُ؛ فهي الإتيانُ من غير عيانٍ وإظهارٍ، فمجيءُ السّاعةِ والعذابِ، والأخذِ من هذا النَّوع، وهذا التَّعبيرُ ألطفُ منَ الفجأة؛ فإنَّ مجيئَها ليس بلا مقدِّمة، بل بلا مقدِّمةٍ ظاهرةٍ، ونجدُ أنَّ لفظَ البغتة استُعمل مع نزول العذاب ومع قيام السّاعةِ، وكلاهما الفجأةُ فيهما شديدةٌ.

(الشَّيْطَان) و(إِبْلِيس):

إبليسُ هو زعيمُ الشّياطين

يَرِدُ لفظُ (إِبْلِيس) في القُرْآنِ الكَريمِ مُرادًا به اسمٌ عَلَمٌ على الذي امْتَنَعَ عن السُّجودِ لآدَمَ عليه السلام، كما في قولِ اللّه سُبحانَهُ: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [البقرة: 34]، وهوَ مشتَقٌّ مِنَ الإِبْلاسِ، وهو شدَّة اليأْسِ؛ لأنَّ اللّه سُبحانَهُ آيسَهُ مِنْ كُلِّ خيرٍ.

أمّا الشَّيطانُ؛ فيقَعُ وصفًا لكلِّ عاتٍ متمرِّدٍ مِنَ الجنِّ والإنسِ والدَّوابِّ، فلفظُ الشَّيطانِ أَعَمُّ مطلقًا مِنْ إبليسَ[1].

(التّزْيين) و(التّسْويل):

التَّزيينُ خطابُ النَّفس، والتَّسويلُ خطابُ العقل

التَّسْويل: تَحْسينُ الشَّيْءِ وتزيينُه وتَحْبيبُه إلى الإنسان ليَفْعَلَهُ أَو يَقولَهُ، كما في قوله تعالى على لسان يعقوب عليه السلام: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ﴾ [يوسف، 18، 83][2].

وكذا التَّزيينُ هو إظهارُ حسنِ الشّيء، إمّا بالفعل، أو بالقول،

(1) ابن الأثير، النّهاية، وابن منظور، لسان العرب: (فجأ).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (سول).

ومنه قولُ اللّه تعالى عن فعلِ الشّيطانِ مع الكفّارِ: ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ [الأنفال: 48][1].

والفرقُ بينهما أنَّ التَّزيينَ يغلبُ في خطابِ النَّفسِ وهواها، أمّا التَّسويل فيغلبُ في خطابِ العقلِ، فيبدأ الأمر مزيَّنًا فيرفضه العقل، فيأتي دورُ التَّسويلِ ليُكمِل المسير، فالتَّزيينُ ابتداءً، والتَّسويل انتهاءً.

(1) الراغب، المفردات: (زين).

﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾﴾

[الأنعام: 45]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

تسليةُ المؤمنين باستئصالِ شَأْفةِ الظَّالمين

لمّا ذكرتِ الآياتُ السّابقةُ أنَّ اللّه ﷻ أرسلَ الرُّسُلَ إلى أقوامِهم ليدْعوهم إلى توحيدِ اللّه تعالى، وترْكِ الأصنام والأوثان، ولكنَّهم لم يؤمنوا، بل كذَّبوا، وعاندوا، فابتلاهمُ اللّه تعالى بالسَّراء والضَّراء، وظلّوا على عنادهم؛ بيَّن هنا في هذه الآية مصيرَهم بأخذهم على جهةِ الاستئصالِ، فقطعَ دابرهم؛ ليستريحَ منهمُ الرُّسلُ والمؤمنون، وهذه نِعمةٌ تَستوجبُ الشُّكرَ؛ لأنَّ اللّه أنجزَ وعْدَه، وصدَّق رُسلَه بهلاك المُعاندين.

وذهب البقاعي إلى أنَّه "لمّا كان من عادة الغالب من أهل الدُّنيا أن يفوتَه آخرُ الجيوش وشُذّابهم لملل أصحابه منَ الطَّلب وضجرهم منَ النَّصب والتَّعب، وقصورِهم عنِ الإحاطة بجميع الأرب؛ أخبرَ تعالى أنَّ أخْذَهُ على غير ذلك، وأنَّ نيلَهُ للآخر كنيلِهِ للأوَّل على حدٍّ سواءٍ"[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَقُطِعَ﴾: القطعُ: أصلٌ يدلُّ على صَرْمٍ وإبانةِ شيءٍ من شيءٍ[2]، مُدْرَكًا بالبصر، كالأجسام، أو مُدرَكًا بالبصيرة، كالأشياءِ المعقولةِ، فمِن ذلك قطعُ الأعضاء، نحو: ﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ﴾ [الأعراف: 124]، ومنِ استعماله في المعاني المعقولة: قطعُ الوصْلِ، وقطعُ الرَّحِم، قال تعالى: ﴿وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾﴾

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 7/116.

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قطع).

[محمد: 22]، ويُستعملُ بمعنى: الهلاك، قال تعالى: ﴿لِيَقۡطَعَ طَرَفٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ [آل عمران: 127]، ومنه: قطعُ دابرِ الإنسان، أي: إفناءُ نوعِه، قال تعالى: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْۚ﴾[1].

2) ﴿دَابِرُ﴾: (دَبَرَ) أَصْلُه: آخِرُ الشَّيْءِ وخَلْفُهُ، خِلافُ قُبُلِهِ[2]، ودبَرَه: تبعَه من ورائِه، ودابرُ الشَّيءِ: آخرُه[3]، ودابِرُ القَومِ: آخِرُهم، التّابعُ لهم من خلْفِهم[4].

وقولُهم: قَطَعَ اللّه دابِرَه، أَي: أذهب اللّه أَصلَه، دعاءٌ عليه بانقطاع العقِبِ حتَّى لا يبقى أحدٌ يخلُفُه، تذهبُ أصولُهم، ولا يبْقى لَهُم أَثرٌ[5]، وقطعُ دابرِ الإنسان: هو إفناءُ نوعِه، قال تعالى: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْۚ﴾[6]، أي آخرُ من بقيَ منهم[7]، فاستُؤصلَ آخرُهم، ولم يُتركْ منهم أحدٌ[8].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

تعليلُ مُقتضَى حُكمِ الاستئصال بالمشتقِّ للدَّلالة على علِّيَّةِ ما منه الاشتقاقُ (الظلم)

يُخبرُ اللّه تعالى أنَّه قد "استُؤصلَ دابرُ القومِ الذين ظلموا أنفسَهم بإهلاكِهم بالكُليَّة عن آخرهم، فلم يبقَ منهم أحدٌ، أي: فهلكَ أولئك القومُ الذين ظلموا أنفسَهم بتكذيبِ الرُّسلِ والإصرارِ على الشِّرك، وأعمالِهم الخبيثةِ بالكُليّةِ أصلًا وفرعًا بسببِ ظُلمِهم، فلم تبقَ لهم باقيةٌ؛ لأنَّهم استُؤصلوا بالعذابِ"[9]، وهذه نعمةٌ تستوجبُ الحمدَ؛ لأنَّ إبادةَ الظّالمين نعمةٌ منَ اللّه ربِّ العالمين.

(1) الراغب، المفردات: (قطع).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (دبر).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (دبر).
(4) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 134، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/515.
(5) الأزهري، تهذيب اللغة: (دبر).
(6) الراغب، المفردات: (قطع).
(7) ابن منظور، لسان العرب: (دبر).
(8) الزمخشري، الكشاف: 2/23.
(9) الواحدي، البسيط: 8/145.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ الكنايةِ عنِ الاستئْصالِ بقطْعِ الدَّابر:

استئصالُ الآخِرِ يستلزمُ انمحاءَ آثارِ مَن قبْلَه

في قوله: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ﴾ ذكرَ دابرَ القوم، وأراد أنَّ القومَ جميعًا قُطعوا واستُؤصِلوا، فهو "كنايةٌ عنِ استئصالِ شأْفَتِهم ومَحْوِ آثارِهم، كأنَّهم وردوا العذابَ حتَّى وردَ آخرُهم الذي دبَرَهم"[1]؛ لأنَّ ذهاب آخرِ الشيء يستلزمُ ذهابَ ما قبْلَه[2].

دَلالةُ عطفِ جملةِ ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ﴾:

حملُ عمومِ الأخْذِ على خصوصِ الاستئصالِ

عُطِفتْ هذه الجملةُ على قوله: ﴿فَأَخَذْنَٰهُم﴾؛ وذلك لما بينهما مِن اتِّصال في المعنى، فتكونُ هذه الجملةُ تفسيرًا للأخْذ، والمرادُ: أخذْناهم بالاستئْصالِ.

إيثارُ العطفِ بالفاءِ دون الواو:

التَّعجيلُ بالعذابِ عَقِبَ تَمَحُّضِ ما يُعابُ

آثرَ التَّعبيرَ بالفاء في قولِه تعالى: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ﴾؛ لبيان أنَّ القطعَ مُسبَّبٌ عنِ الأخذِ الموصوفِ[3]، وفي الفاء دَلالةٌ على السُّرعةِ في إيقاعِ العذابِ حيث لم يتأخَّرْ قطعُ دابرهم عن أوَّلِهم؛ وذلك لما فيها منَ التَّعقيب بلا مُهلة.

دَلالةُ اختيارِ لفظِ ﴿دَابِرُ﴾ دون (آخِر):

دلالةُ قطْعِ الدَّابرِ الموصولِ على استئصالِ الفروعِ الأصولِ

آثرَ القرآنُ لفظَ ﴿دَابِرُ﴾ دون آخِر؛ لأنَّه يشيرُ إلى الاستئصال الكلِّيِّ، وذلك ليفرِّقَ بين فعل المُنتصِر في الدُّنيا، وبين فعلِ اللّه تعالى مع هؤلاء الظّالمين؛ لأنَّ من عادةِ الغالبِ من أهل الدُّنيا أن يفوتَه آخِرُ الجيوش لِمَلَلِ أصحابِه منَ طلبِهم، بخلاف فعلِ اللّه تعالى؛ فنَيْلُه للآخِر كنَيْلِه للأوَّل على حدٍّ سواء[4].

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/292، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 7/231.
(2) القاسمي، محاسن التأويل: 4/361.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 7/116.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 7/116.

ويُزادُ عليه أنَّ لفظَ الدّابرِ يكونُ بمعنى الأصل، وفي هذا إشارةٌ إلى قطع أصولِهم؛ فلا تمتدُّ بعد ذلك، وهذا ما فعلَه اللّه مع الأممِ السّابقةِ؛ فلم يبقَ لهم أصلٌ ولا فرعٌ بخلاف لفظِ آخِر؛ فإنَّه لا يؤدّي هذه المعاني.

إيثارُ صيغةِ الفعلِ المبنيِّ لما لم يُسمَّ فاعلُه:

إخفاءُ الاسمِ الأجلِّ هيبةٌ، وصرفُ النَّظرِ إلى فَداحةِ الفعلِ

بنَى الفعلَ لما لم يُسمَّ فاعلُه في قولِه: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ﴾؛ لأنَّه معلومٌ هنا، وهو اللّه تعالى، وإنَّما آثَرَ إخفاءَه لما في الإخفاء منَ الهيبةِ والتَّفخيم، وفي حذف الفاعلِ (المعروفِ الذي لا يُجهل) إرادةٌ للتَّنبيه على فداحةِ الفعلِ نفسِه وصرْفِ النَّظر إليه دون الفاعل، فآثر إخفاءَه "مُشيرًا بالبناء للمفعول إلى تمام القُدرة"[1].

وفيه إشارةٌ إلى بيان أسلوبِ القرآنِ في الأشياءِ التي يكونُ في ظاهرِها الشَّرُّ، يُبنى الفعلُ للمفعول كراهةَ أن يُسندَ الشّرُّ إلى اللّه تعالى تأدُّبًا.

دَلالةُ إيثارِ التَّعبير بالموصولِ:

تعليقُ الحكمِ بالمشتقِّ يدلُّ على علِّيَّةِ ما منهُ الاشتقاقُ

آثرَ التَّعبيرَ بالموصول في قولِه: ﴿ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ مقامَ المُضمر، فلَمْ يقلْ: (دابرَهم)[2] "للإشعارِ بعلَّةِ الحُكم؛ لأنَّ الحكمَ إذا عُلِّقَ على وصفٍ صار ذلك الوصفُ علّةً له، يزدادُ الحكمُ قوّةً بقوّتِه، وينقصُ بنقْصِه، ووَفْق هذه القاعدةِ: فإنَّ هلاكَهم بسببِ ظُلمهم الذي هو وضعُ الكفر موضعَ الشُّكرِ، وإقامةُ المعاصي مُقامَ الطاعات"[3]، فآثرَ استعمالَ الموصول اهتمامًا بما في حيِّزِ الصِّلة، تنصيصًا على عِلَّةِ استئْصالهم، فنبَّه على "سببِ الاستئصال بذكرِ الوصفِ الذي هو الظُّلمُ"[4].

(1) البقاعي، نظم الدرر: 7/116.
(2) السيوطي، قطف الأزهار: 2/875.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/134، والآلوسي، روح المعاني: 4/144.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/515.

إيثارُ القطعِ دونَ الجثِّ:

آثرَ الفعلَ (قُطع)؛ لأنَّه أشدُّ في النِّكاية والعذابِ مِنَ الجثِّ؛ لأنَّ الجثَّ يشيرُ إلى القطعِ من فوقِ الأرض كما في جثِّ الشَّجرةِ، قال تعالى: ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجۡتُثَّتۡ مِن فَوۡقِ ٱلۡأَرۡضِ﴾ [إبراهيم: 26] بخلاف القطعِ؛ فهو يدلُّ على القطع في الظّاهرِ والباطنِ المُدرَكِ بالبصر أو البصيرةِ، كما يدلُّ على الهلاك والفناءِ أيضًا؛ لذلك استعمله القرآنُ في مواطنَ عديدةٍ مؤكّدًا هذا المعنى، فاستعملَه في قطع أعضاءِ الإنسان، قال تعالى: ﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَرۡجُلَكُم﴾ [الأعراف: 124]، واستُعملَ في قطع الطَّريقِ وفي قطعِ الأرحام، وفي إفناءِ الظّالمين والكافرين، قال تعالى: ﴿لِيَقۡطَعَ طَرَفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ [آل عمران: 127]، وفي قولِه: ﴿وَقَطَّعۡنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۖ﴾ [الأعراف: 72]، إلى غير ذلك ممّا يؤكِّدُ أنَّ القطعَ أعمُّ بخلاف الجثِّ؛ فلم يَردْ إلّا في موضعٍ واحدٍ في قطع الشَّجرةِ الخبيثةِ، وذلك من فوق الأرضِ، وليس من باطنِها.

القطع استئصالٌ مآلُهُ إلى الفناءِ

وعلى هذا كان اختيارُ القرآن لهذا الفعل؛ لما له من دلالاتٍ في موقفِ الكافرين المُعانِدين للرُّسل - عليهم السلام - منها: أولاً: قطعُ أصلِ الكافرين المعانِدين ونسْلِهم من بعدِهم، وهذا ماحدثَ مع الأقوام السّابقةِ، كقومِ نوحٍ وعادٍ وثمودَ، فلا أصلَ لهم يُذكرُ، وثانيًا: التَّهوينُ من شأنِ هؤلاء الكفّارِ، وذلك باختيارِ هذا اللَّفظِ الذي يُستعملُ في مواطنِ الذَّمِّ؛ فقال في حقِّ الكافرين المُعانِدين من قوم عاد: ﴿وَقَطَّعۡنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۖ﴾ [الأعراف: 72]، وثالثًا: تحذيرُ كفّارِ مكَّةَ من فعل السّابقين حتى لا يُقطعَ دابرُهم.

في حرفَيِ القافِ والطَّاء مِنَ الصِّفات ما يناسبُ القُوَّةَ والشِّدَّةَ

وممّا يدلُّ على أنَّ الفعل (قطع) أقوى منَ الفعل (جثَّ): أنَّ حرفَ القاف فيه قوَّةٌ لا توجدُ في حرف الجيم في (جثَّ)، فحرفُ الجيم يوجدُ مع الجسمِ الذي فيه هشاشةٌ، وإن كان حجمُه كبيرًا؛

بخلاف حرف القاف، فيوجدُ مع الجسم القَويِّ الصَّلبِ، وكذا حرفُ الطّاءِ فيه شدَّةٌ واستعلاءٌ، كلُّ ذلك يؤكِّدُ على أنَّ البِنيةَ اللُّغويةَ لمادّةِ (قطعَ) أقوى منَ البِنيةِ اللُّغويةِ لمادّةِ (جثَّ).

علَّةُ التَّعبيرِ بلفظِ القومِ:

بالغوا في معاداتِهم وظلمِهم باجتماعِهم وشدّتِهم

قد يُتَصوَّرُ إمكانُ الاستغناءِ عنِ الإتيان بلفظِ القومِ في قولِه: ﴿دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾، ويكونُ المعنى واضحًا من خلال جملة: (فقُطع دابرُ الذين ظلموا)، لكنْ أُتيَ بلفظ ﴿ٱلْقَوْمِ﴾ لأنَّ النّاظرَ في تصاريفِها، وهي مأخوذةٌ من مادَّة (قَوَمَ)، يجدُ أنَّها في بعض معانيها تشيرُ إلى القوَّةِ والشِّدَّةِ والاجتماع، وفي هذا دلالةٌ على أنَّ هؤلاء الذين قُطع دابرُهم كانوا يتَطاولون على الرُّسُلِ - عليهم الصّلاةُ والسّلامُ - بقوَّتِهم وكِبْرِهم وغطْرستِهم، وممّا يؤكِّدُ ذلك أنَّ لفظ (القوم) في أصل إطلاقه يكون للرجال دونَ النساء عند أغلب المعجميّين.

وفيه إشارةٌ إلى هلاك كلِّ الأقوامِ السّابقةِ؛ لأنَّ كلَّ نبيٍّ يُبعثُ إلى قومِه؛ فالمرادُ بالقوم: أهلُ دعوتِه، ويشيرُ - أيضًا - إلى عدمِ هلاكِ أمَّةِ سيّدِنا محمدٍ ﷺ لأنَّ دعوتَه عالَميَّةٌ لكلِّ البشرِ، فليست خاصّةً بقومِه، فمع وجودِ الظّالمين والكافرين لم يَقطعِ اللهُ دابرَهم، بلْ أبقاهم لبقاءِ الأمَّةِ الإسلاميةِ.

دَلالةُ اختيارِ الوصفِ بالظُّلمِ دون الكُفرِ:

الاستئناسُ بسببيَّةِ الظُّلمِ لإدراجِ الأنواعِ في الأجناسِ

نبَّه على سبب الاستئصال بذكر الوصْفِ الذي هو الظلمُ، وهو هنا الكفرُ[1]، وقدِ اختار القرآنُ الكريمُ التَّعبيرَ بالظُّلمِ دونَ الكُفرِ؛ لأنَّه أعمُّ، فيشملُ الكفرَ والشِّركَ والمعاصي، وكلُّ ذلك يندرجُ تحت الظُّلم، وهذه الأقوامُ لم تقفْ عند حدِّ الكفر، بل كفرتْ، وأشركتْ، وظلمتْ، وأيضًا؛ لأنَّ الظّلمَ: وضعُ الشَّيءِ في غير موضعِه، وهؤلاء

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 4/134.

الكفّارُ وضعوا الآياتِ التي أنزلها اللّه عليهم منَ البأساء والضَّراء في غير موضعِها، فجحدوا بها، وأصرّوا مُستغرقين في غيِّهم، فظلموا الآياتِ، وظلموا أنفسَهم.

دلالةُ (الواو) في قولِه: ﴿وَٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾:

يعلِّمُ اللهُ عبادَهُ أنْ يحمَدُوهُ على عميمِ فضْلِهِ

يجوزُ أن تكونَ (الواو) عاطفةً لهذه الجملةِ على قولِه تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٖ مِّن قَبۡلِكَ﴾ [الأنعام: 42]؛ وذلك لِما بينهما مِن اتِّصالٍ، ويكونَ العطفُ من باب عطفِ غرضٍ على غرضٍ، ويجوزُ أن تكونَ اعتراضيةً، وعلى كلٍّ فغرضُها الأصليُّ أن تكونَ هذه الجملةُ تعليمًا للرَّسول ﷺ والمؤمنين أن يحمَدوا اللّه على نصره رُسلَه بإهلاكه الظّالمين[1].

فائدةُ التَّعقيبِ بالحمْدِ على إهلاكِ الظَّالمين:

إنجازُ الوَعدِ بقطعِ دَابرِ الكافرين يقتضي حمْدَ الشَّاكرين

عقَّبَ بالحمد على الإهلاكِ لبيان أنَّه نعمةٌ تقتضي الشُّكرَ، وذلك في قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ حمِدَ اللّه تعالى نفسَه في هذا الموضعِ على قطْعِ دابرِ الظّالمين، واسْتئْصالِهم[2]، ومعنى هذا: "أنَّ قطْعَ دابرِهم نعمةٌ على الرُّسُل الذين أرسلَ إليهم، فكذَّبوهم، فذكْرُ الحمدِ هاهنا تعليمٌ لهم، ولمن آمن بهم، ليحمَدوا اللّه تعالى على كفايتِه إيّاهم شرَّ الذين ظلموا"[3]، حيث إنَّ تخليصَ أهلِ الأرض من شُؤمِ عقائدِهم وأعمالِهم نعمةٌ جليلةٌ يحقُّ أن يُحمدَ عليها[4]، و"لِما فيه من إنجازِ وعدِ اللّه للرُّسل بالنَّصر"[5]، وفيه "إيذانٌ بوجوبِ الحمدِ عند هلاكِ الظَّلمة"[6]، "لا سيما مع ما فيه من إعلاءِ كلمةِ الحقِّ التي نطقتْ بها رُسلُهم عليهم السلام"[7].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 7/232.
(2) الزّجاج، معاني القرآن وإعرابه: 2/249.
(3) الواحدي، البسيط: 8/145، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/515.
(4) البيضاوي، أنوار التنزيل: 2/162، وشيخ زاده، حاشية على البيضاوي: 4/45.
(5) السيوطي، قطف الأزهار: 2/879.
(6) الزمخشري، الكشاف: 2/24.
(7) القاسمي، محاسن التأويل: 4/361.

دَلالةُ اختيارِ (الحمد) دونَ غيرِه:

هلاكُ الظَّالمين الأعمُّ يورِّثُ نعمةً تحرِّض على مقام الثَّناءِ الأتمِّ

في قولِه: ﴿وَٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾: اختار القرآنُ (الحمد) دون غيرِه؛ لأنَّه أعمُّ ألفاظِ الثَّناءِ على اللّه ربِّ العالمين، حيث يكونُ من باب الحمدِ لذاتِه ولصفاتِه التي فيها إنعامٌ على خلْقِه، ويكونُ على النِّعمةِ الواصلةِ إليك أو إلى غيرِك، وهذا هو المناسِبُ لسياقِ الآية؛ لأنَّ هلاكَ الظالمين نعمةٌ على الكلِّ سواءٌ كانت بطريقٍ مباشرٍ أم غيرِ مباشر؛ فهلاكُ الظّالمين صلاحٌ للمجتمعِ وحِفاظٌ على بنيتِه وإبقاءٌ لشريعتِه؛ لأنَّ الظلمَ يعملُ على تغييرِ الحقوقِ وإبطالِ الشَّرائعِ ومحاربةِ الفضيلةِ؛ لذلك كان إهلاكُهم من أعظمِ النِّعمِ للفردِ وللمجتمعِ.

سِرُّ التَّعبيرِ بالمصدرِ (الحمد) دونَ الفعل:

سوقُ المصادرِ في مَعرِض نثرِ المحامدِ تشَوُّفًا إلى صلاحيَّة الاستعمالِ دون حدٍّ

عبَّر بصيغةِ المصدر دونَ الفعل (أحمدُ أو نَحمدُ)؛ لإفادة العُموم، بخلاف قولِك: (أحمَدُ اللّه)، فقد أخبرتَ عن حمْدِك دونَ غيرِك، ولو قلتَ: (نحمَدُ اللّه)؛ كان الفاعلُ للمُتكلِّمين، ولم تُدخلْ غيرَهم في حمْدِه؛ أمّا المصدر؛ فأفاد معنى عدمِ تحديدِ الفاعل، وهو بذلك يشيرُ إلى حمْدِ الكلِّ لربِّه طوعًا أو كرهًا، فضلًا عن أنَّ التَّعبيرَ بجُملةِ (الحمد للّه) - وهي جملةٌ اسميةٌ - تفيدُ الثُّبوتَ والاستمرارَ، بخلاف (نحمدُ) أو (أحمَدُ)؛ فهي جملةٌ فعليةٌ، ومعلومٌ أنَّها تدلُّ على التَّجدُّد والحُدوثِ، فهي مرتبطةٌ بزمنٍ، في حينِ أنَّ الاسميةَ لا ترتبطُ بزمن، فهي أدلُّ على ثبوتِ الحمْدِ مِنَ الفعليةِ، وفيه إشارةٌ إلى ثُبوتِ نعمةِ الحمْدِ على هلاك الظّالمين في كلِّ زمان ومكان.

دَلالةُ إسنادِ الحمْدِ إلى لفظِ الجلالةِ ﴿لِلَّهِ﴾:

تعليقُ الحمْدِ بالصِّفاتِ أشْوفُ، ورفعُهُ إلى الذَّاتِ أشْرفُ

في قولِه: ﴿وَٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾: أسندَ التَّعبيرُ القرآنيُّ ﴿وَٱلۡحَمۡدُ﴾ إلى لَفْظِ الجلالة ﴿لِلَّهِ﴾ مباشرةً، ولم يُسندْه إلى ﴿رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾؛ ولغيره من أسمائِه الحُسنَى كالقاهرِ أو القادرِ مع مناسبتِهما سياقَ هلاكِ الظالمين؛ تنبيهًا على استحقاقِه الحمدَ

لذاتِه، أمّا إسنادُه إلى ربِّ العالمين أو إلى غَيره من الصفات؛ فيكونُ إشارةً إلى استحقاقِه الحمْدَ لصفاتِه المذكورة دون ذاته.

سِرُّ الوصفِ بـ ﴿رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ بعد ذكرِ العذابِ:

وصفَ نفسَه تعالى بأنَّه ربُّ العالمين بعد الحمْدِ في قولِه: ﴿وَٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾؛ إشعارًا بأنَّ "القضاءَ على الذين ظلموا بعد أنِ اختُبِروا بالبأساءِ والضَّراء، ثمَّ بالسَّراء والنَّعماء هو من تقدير الرُّبوبيّةِ، وتدبيرِه سبحانه ربِّ العالمين"[1].

الابتلاءُ بالسَّراءِ والضَّراءِ من تقديراتِ الرُّبوبيَّةِ

علَّةُ التَّعبيرِ بـ ﴿رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ دونَ (ربِّ النَّاس):

عبَّر بـ ﴿رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ دون ربِّ النّاس؛ لأنّه أعمُّ، فيشملُ كلَّ الأجناسِ، والنّاسُ جنسٌ منهم، وهذا مناسبٌ لقطعِ دابرِ الظّالمين؛ لأنَّ الظُّلمَ مرضٌ خطيرٌ وشرٌّ مستطيرٌ يهدّدُ البلادَ والعبادَ؛ لذلك كلُّ الأجناس تحمدُ الله على زوال الظّالمين مِنَ الوجود.

تظاهرُ الأجناسِ على أذيَّةِ الظَّالمِ، وإجماعُهم على حُسنِ ردِّ المظالم

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 5/2502، والطيبي، فتوح الغيب: 6/88.

﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِنۡ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمۡعَكُمۡ وَأَبۡصَٰرَكُمۡ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنۡ إِلَٰهٌ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَأۡتِيكُم بِهِۗ ٱنظُرۡ كَيۡفَ نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ ثُمَّ هُمۡ يَصۡدِفُونَ ٤٦﴾ [الأنعام: 46]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

من تمامِ تصوُّرِ مناسبةِ العذابِ لسُوءِ صنيعِهم تَرديةُ حالِهم

لَمّا ذكرَ في الآيةِ السّابقةِ أنَّه استأصلَ الظّالمين بنزول عذابه بهم، ذكرَ هنا ما يدلُّ على كمالِ قدرتِه، وتوحيدِه[1]، وذلك أنَّه لمّا قدَّمَ التَّنبيهَ بإتيانِ مُطلقِ العذابِ في مُطلق الأحوالِ، وأتبعَه أنَّ أخْذَ الأمم كان بغتةً، أعقبَه التَّنبيهَ بعذابٍ خاصٍّ يهزُّ تَصَوُّرُ شناعتِه الأركانَ؛ فإنَّه لا أشنعَ حالًا من أصمَّ أعمى مجنونٍ[2] مسلوبِ العقل والتَّمييز.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَرَءَيۡتُمۡ﴾: مِن (رأى) العِلميَّة التي ضُمِّنتْ معنى: أخبروني، وفي (أَرَأَيْتَ) معنيان، أحدُهما: أن يسأل الرجلُ: أرأيت زيدًا؟ أي: أعلمتَ، وثانيهما: أن تقول: أرأيتَ، بمعنى: أَخْبِرْني[3]، وهي في الآية بمعنى: الإخبار، فقولُه تعالى: ﴿أَرَءَيۡتُمۡ﴾، أي: أخبروني[4].

2) ﴿أَخَذَ ٱللَّهُ﴾: الأَخْذُ: حوزُ الشَّيء وتحصيلُه[5]، "وأَخَذَ اللّهُ، معناه: أذهبَه، وانتزعَه بقُدرته"[6]، ﴿أَخَذَ ٱللَّهُ سَمۡعَكُمۡ وَأَبۡصَٰرَكُمۡ﴾ "أي: أصمَّكم وأعْماكم[7].

3) ﴿وَخَتَمَ﴾: (ختم) أصلٌ يدلُّ على بلوغِ آخرِ الشَّيء، خَتَمْتُه:

(1) النسفي، مدارك التنزيل: 1/504.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 7/117.
(3) السّمين، الدر المصون: 4/615، 617.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 4/145.
(5) الراغب، المفردات: (أخذ).
(6) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/293.
(7) الآلوسي، روح المعاني: 4/144، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 7/233 - 234.

بلغتُ آخرَه، ومنه الختمُ: الطَّبعُ على الشَّيء؛ لأنَّه لا يكون إلّا بعد بلوغ آخرِه[1]، ﴿وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم﴾، معناه: "وطبعَ على قلوبِهم، فلم يعقلوا الهُدى"[2].

4) ﴿نُصَرِّفُ ٱلْآيَٰتِ﴾: الصَّرْفُ: ردُّ الشَّيء من حالةٍ إلى حالةٍ، أو إبدالُه بغيره، وتَصْريفُ الرّياح: هو صرفُها من حال إلى حالٍ، و"تصريفُ الآياتِ: هو نصبُ العِبَرِ، ومجيءُ آياتِ القرآن بالإنذارِ والإعذارِ والبِشارةِ ونحوِه"[3].

5) ﴿يَصْدِفُونَ﴾: (صَدَفَ) أصلٌ يَدُلُّ عَلَى المَيْلِ، صَدَفَ عَنِ الشَّيْءِ؛ إذا مالَ عَنْهُ ووَلَّى ذاهِبًا[4]، وصَدَفَ عنه: عدلَ، وأعرضَ إعراضًا شديدًا[5]، ومعنى قولِهِ جلَّ شأنُه: ﴿ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ﴾، أي: "يُعرضون عنِ الآيات بعد ظهورِها"[6]، فلا يَعتبِرون"[7].

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

تهافتُ مآخذِ الإعراضِ عنِ اللهِ بعد تواترِ الآياتِ البيِّناتِ

في هذه الآيةِ يقولُ اللّه سبحانه لنبيِّه ﷺ: قلْ لهؤلاء المشركين، أخبروني ماذا أنتم فاعلونَ إنْ أخذَ اللّه سمعَكم وأبصارَكم، وختمَ على قلوبِكم، إذْ هو الذي وهبَها لكم؟ فإنَّه ليس هناك إلهٌ غيرُ اللّه تعالى يردُّ إليكم تلك الحواسَّ، ثمَّ أخبرَ تعالى أنَّه يُصرِّفُ لهمُ الآياتِ، وينوِّعُها بألوانٍ مختلفةٍ وعلى أساليبَ متعدِّدةٍ في غاية الوضوحِ والبيانِ؛ لأنَّها تدلُّ على توحيدِه وصحَّةِ نُبوّةِ نَبيِّه ﷺ ثمّ هم مع ذلك يُعرضون عمّا وضحَ لهم، وظهرَ عندهم[8].

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والجوهري، الصحاح: (ختم).
(2) الرازي، مفاتيح الغيب: 12/536.
(3) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/293، والواحدي، البسيط: 8/149.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (صدف).
(5) الراغب، المفردات: (صدف)، وابن سيده، المخصص: 3/349.
(6) النسفي، مدارك التنزيل: 1/504.
(7) ابن الجوزيّ، زاد المسير: 2/30.
(8) الواحدي، البسيط: 8/150، والحجازي، التفسير الواضح: 7/84.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ الفصلِ بفعلِ القول:

الفصلُ بالقول أمارةُ العنايةِ بالإبلاغ

صُدِّرتِ الآيةُ: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ﴾ بقوله: ﴿قُلْ﴾؛ للاهتمام بإبلاغِه وتلقينًا له ﷺ وإلّا فإنَّ مُعظمَ ما في القرآن مأمورٌ الرَّسولُ ﷺ بأن يقولَه لهم[1].

دَلالةُ إيثارِ التَّعبيرِ بقولِه: ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾:

عذابُهم واقعٌ مُتحقَّقٌ مُتعجَّبٌ منه

آثرَ القرآنُ الكريمُ التَّعبيرَ بجملة ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾؛ لأنَّها أسلوبٌ قرآنيٌّ يُفتتح بمثلِه الكلامُ الذي يرادُ تحقيقُه والاهتمامُ به، وهمزةُ الاستفهام فيه للتَّقرير، وهي تجمعُ بين الاستفهامِ والتَّعجُّبِ[2].

سرُّ تركِ كافِ الخطابِ في ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾:

ترديدُ زيادةِ الكافِ أو حذفِها لعِظَمِ التَّهديد وجودًا وعدمًا

لم تُذْكَرْ كافُ الخِطابِ في الفعل ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾ كما ذُكرت سابقًا في قوله: ﴿أَرَءَيْتَكُمْ﴾؛ "لأنَّ التَّهديدَ هناك أعظمُ، وذلك لأنَّ المتوعَّدَ به عذابُ اللّه، وهو أشدُّ من أخْذِ السّمعِ والأبصارِ، فناسبَ التَّأكيدُ بالإتيان بكاف الخطاب"[3]، ولمّا كان التَّهديدُ أخفَّ من ذلك لم يؤكَّد به، بل اكتُفيَ بخطاب الضَّمير، فقيل: ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾[4].

مطلعُ الخطابِ مُؤذِنٌ بسوقِ ما يدلُّ على المبالغةِ

ووجهُ مجيءِ الكاف - أيضًا - أنَّه لما كانت الأولى مبدأَ الخطاب، بولغ في الخطاب فيها، والثانيةُ: اكتفى فيها بالخطاب الأول، فلم يحتج إلى المبالغة، والثّانية: وقع الفصل بينها وبين الأول، وفيه شبه طول؛ فَأُعيدتِ الكافُ فيها للخطاب[5].

دَلالةُ التَّعبيرِ بـ (إن) بدلًا من (إذا):

في قولِه تعالى: ﴿إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ﴾ عبَّر بـ ﴿إِنْ﴾ التي تفيدُ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 7/221، 240.
(2) السّمين، الدر المصون: 4/615.
(3) السّمين، الدر المصون: 4/636.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/516.
(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/516.

الشَّكَّ في الوقوعِ أو قلَّتِه، بدلًا من (إذا) التي تفيدُ تحقُّقَ الوقوع؛ لأنَّ مساقَ الآية للتَّرهيب والتَّخويفِ حتى يُقلعوا عمّا هم فيه منَ الشِّركِ وعبادةِ الأوثانِ، وممّا يؤكِّدُ ذلك أنَّه تحذيرٌ وترهيبٌ، وأنَّه لو سلَبَ السَّمعَ والبصرَ، وختمَ على القلوبِ؛ فلن يكونوا مؤهَّلين للتَّغيير عمّا هم فيه؛ لأنَّهم سُلبوا وسائلَ الإدراكِ.

التَّرهيبُ والتَّخويفُ لقصد الإمهال دفعًا لمفسدةِ الوقوعِ والإهمالِ

دَلالةُ التَّعبيرِ بالأخذِ دونَ السَّلْبِ:

عبَّر القرآنُ عن سلْبِهم تلك الحواسَّ بالأخذِ، في قولِه جلَّ شأنُه: ﴿أَخَذَ ٱللَّهُ سَمۡعَكُمۡ وَأَبۡصَٰرَكُمۡ﴾، والمعنى: "أصمَّكم وأعماكم، فأخْذُهما مجازٌ عنِ سلْبِ الحواسِّ؛ لأنَّ سلبَ الحواسِّ يلزمُ منه الصَّممُ والعَمى[1]، ويُضاف إلى ذلك أنَّه عبَّر بالأخذ دون السَّلب؛ لبيان أنَّها ملكٌ له تعالى، أو هي محضُ إنعامٍ منه ﷻ، قادرٌ على أخذِها، فهي ليست ملكًا لكم، فيكونُ سلبًا.

ما خلقَهُ اللهُ تعالى محضُ إنعامٍ منه، وله سلبُهُ أنَّى شاء

ويُزاد على ذلك أنَّه عبَّر بالأخذ؛ لأنَّه يدلُّ على العقابِ والمُجازاةِ؛ فهم لم يُقابلوا نعمةَ الحواسِّ التي منحهم اللهُ إيّاها بالشُّكرِ والإيمانِ بخالقِها؛ فهدَّدهم ربُّنا بسلْبِها، وأكَّد ذلك التَّعبيرُ بفعل (الأخذ) الذي يُستخدم غالبًا في القرآن في مَقام العقوبةِ.

لما جَحدُوا إنعامَ اللهِ عليهم بهذه الحواسِّ هدَّدهم بسلْبِها

نكتةُ إسنادِ الأخذِ للسَّمع والبصرِ دونَ القلبِ:

أُسْنِدَ الأخذُ إلى السَّمعِ والبصرِ دونَ القلبِ؛ لأنَّ القلبَ مناطُ التَّكليفِ، فلو أُخذَ لسقطَ التَّكليفُ، والعقلُ محلُّه القلبُ يُحجبُ ويُستر، ولا يؤخذُ؛ أمّا السَّمعُ والبصرُ؛ فيكونُ أخْذُهما بعدم السَّماعِ والإبصارِ.

تعليقُ الأخذِ بالسَّمعِ والبصرِ صونٌ لمناطِ التَّكليفِ

دَلالةُ إسنادِ الختْمِ على القلوبِ:

عبَّر القرآنُ الكريمُ بالختْمِ في قولِه تعالى: ﴿وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم﴾ ولم يقلْ: (وأخذ عقولكم)؛ لأنَّ العقلَ شرطٌ في التَّكليف، فلو أخذَ

شرطُ التَّكليفِ سلامةُ العقلِ

(1) الآلوسي، روح المعاني: 4/144، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 7/233 - 234.

العقلَ؛ لسقطَ التَّكليفُ[1]، "والقلوبُ مرادٌ بها العقولُ في كلام العرب؛ لأنَّ القلبَ سببُ إمدادِ العقل بقوَّةِ الإدراكِ"[2].

السِّرُّ في إفراد السَّمعِ وجمْعِ الأبصار:

جاء السَّمعُ مفردًا، والأبصارُ جمعًا في قولِه جلَّ شأنُه: ﴿أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ﴾؛ لأنَّه مصدرٌ مفردٌ يدلُّ على جمعٍ[3]، والمصدرُ يقعُ للقليلِ والكثيرِ[4]، فجاء مفردًا لقلَّة المُفاوتةِ فيه؛ لأنَّ السَّمعَ أعظمُ الطُّرق للإدراك[5].

النَّاسُ في السَّمعِ متساوُون، وفي الإدراكِ متفاوِتون

ولأنَّ القلوبَ متفاوتةٌ في إدراكِ الأدلَّةِ التي تَعرِضُ لها، وكذا الأبصارُ متفاوتةٌ في التَّعلُّقِ بالمرئياتِ التي فيها أدلَّةُ الوحدانيةِ؛ فلكلِّ بصرٍ حظُّه في النَّظر وأخذِ العِبرة والعِظة، أمّا الأسماعُ؛ فإنَّها تتعلَّقُ بما يُلقَى إليها منَ القرآن؛ فالنّاسُ إذا سمعتِ القرآنَ، سمعوه سماعًا واحدًا متساويًا، وإنَّما يتفاوتون في الإدراك والتَّدبُّرِ[6].

علَّةُ تقديمِ السَّمعِ على البَصَرِ:

النّاظرُ في آيات القرآنِ الكريمِ، يجدُ أنَّ تقديمَ السَّمع على البصر هو الغالبُ فيها، وذلك لأنَّ السَّمع أوَّلُ عُضوٍ يُؤدّي وظيفتَه في الدُّنيا، وهذا واضحٌ بعد ولادة الطّفلِ، ولأنَّ العينَ تحتاجُ إلى النّورِ لكي تُؤدّي وظيفتَها، بخلاف الأُذن فتُؤدّي وظيفتَها دون عائقٍ في اللَّيل والنَّهار، وفي الظَّلامِ والنّورِ على حدٍّ سواءٍ، ولأنَّ مركزَ السَّمع يتقدَّمُ على مركزِ البصر؛ كما أثبت ذلك علماءُ التَّشريحِ، وهذا إعجازٌ علميٌّ لم يعرفْه العلماءُ إلّا حديثًا[7].

السَّمعُ أشرفُ لكونِه سبيلَ تأثيرِ القلبِ، ولأوَّليَّتِهِ وتقدُّمِ مركزه، وتعلُّقِه بالغائب

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/156.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 7/234.
(3) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/293، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 6/427.
(4) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 1/190.
(5) البقاعي، نظم الدرر: 7/118.
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/256.
(7) عادل الصعدي، الإعجاز العلمي في تقديم السّمع على البصر. شبكة المعلومات الدولية.

ويُزادُ على ذلك أنَّ السّمعَ يتعلَّقُ بآيات القرآنِ، فهو مُوردُها القلبَ، فالاستجابةُ للقرآن تقعُ بالسَّمع: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾[1]، وقد أحسن أبو السُّعود بقولِه: "وأمّا تقديمُ السَّمع على الأبصار؛ فلأنَّه موردُ الآياتِ القرآنية"[2]، والبصرُ يتعلّقُ بالآيات الكونيّة المُشاهَدةِ، وبعضُ المفسِّرين ذهب إلى تفضيل السَّمع على البصر، لتقدُّمِه عليه في أكثرَ من موضعٍ، قال تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾ [النحل: 78][3].

ومنْ عِلل تقديمِ السَّمع التّنبيهُ على أنَّه أشرفُ من حيث تعلُّقه بالغائب، والبصيرُ لا يرى إلا الحاضرَ[4].

نكتةُ إيثارِ الختمِ على الطّبْعِ:

الطَّبع مظنَّةٌ لغلقِ بابِ العمل، وفي الختْمِ بريقُ أملٍ

اختارَ الختمَ في قولِه جلَّ شأنه: ﴿وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ﴾ دون الطّبع؛ لأنَّه المناسبُ لسياقِ الآيةِ في التَّخويف والتَّهديد؛ لذا ناسبَ أن يهدِّدَهم بالختْم دون الطّبْع؛ لأنَّ الختمَ لا يدلُّ على المنع على وجه الثُّبوتِ، فالأصلُ في الخَتْم ختمُ الكتاب؛ لِأَنَّهُ يَقع بعد الفَراغ مِنْهُ، ومِنْه قَوْلُه تَعالَى: ﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ﴾ [يس: 65] دالًّا على المنع، وقَولُه تعالى: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ [البقرة: 7] ليس دالًّا على المنع، لكنَّه ذمٌّ بِأَنَّها كالممنوعةِ من قَبول الحقِّ[5]، وأمّا الطَّبْعُ فهو أثرٌ يثبتُ في المطبوع، ويلْزمهُ، فَهوَ يُفيدُ من معنى الثَّبات واللُّزوم ما لا يُفيدُه الخَتْمُ، ولِهَذا قيلَ: طُبِعَ الدِّرْهَم طبعًا، وهوَ الأَثرُ الَّذي يُطبع عليه، فلا يَزول عَنهُ، كَذَلِك - أَيْضًا - قيل: طبعُ الإنسان؛ لِأَنَّهُ ثابتٌ غيرُ زائل"[6]، فهدَّدَهم بالختْمِ؛ لأنَّه يريدُ أن يوقظَ الإيمانَ فيهم، ولو

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/293.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/134.
(3) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/293، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 1/189.
(4) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/155.
(5) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 72.
(6) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 73.

عبَّر بالطَّبع؛ فلن يكونَ لدعوتِهم وتهديدِهم وجهٌ، فالختمُ مناسبٌ لهذا الموضع دونَ الطَّبعِ الدّالِّ على اليأس من إيمانهم.

بيانُ المُتشابهِ في تقديمِ الختمِ في سورتَي البقرةِ والأنعامِ:

سوقُ مقامِ التَّهديدِ والتَّخويفِ بأخذِ ذرائعِ الإيمانِ الآيلةِ إلى تعطيلِ عملِ القلبِ

قدَّمَ الختمَ على القلوب في سورة البقرة على السَّمع والأبصار في قولِه تعالى: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞۖ﴾ [البقرة: 7]، وأخَّرَه في سورة الأنعام عن أخْذِ السَّمع والأبصار، كما في الآية التي معنا، وذلك لاختلاف السّياق؛ ففي سورة البقرة يتحدَّثُ القرآنُ عنِ الكافرين الذين لا يؤمنون مع الإنذار وعدمِه، فبيَّن السَّببَ في ذلك؛ لأنَّ اللّه ختمَ على قلوبِهم فلا ينفذُ إليها الإيمانُ؛ لأنَّ القلبَ هو وسيلةُ الإدراك، وهو محلُّ الإيمان، والإيمانُ عملٌ قلبيٌّ، فناسبَ تقديمُ الختم على القلب لذلك، بخلاف موضعِ سورة الأنعام؛ فالمَقام فيها تهديدٌ وتخويفٌ، والسَّمعُ والبصرُ هما آلتا توصيلِ الأدلَّةِ إلى الإيمان؛ لذلك هدَّدَ بأخْذِ آلتَي التَّوصيلِ، وإذا سُلبتِ الآلةُ؛ تعطَّلَ عملُ القلبِ.

علَّةُ إفرادِ الضَّميرِ ومرجعُهُ جمعٌ:

إجراءُ الضَّميرِ مُجرى اسمِ الإشارةِ في استعمالِهِ لمُتعدِّدٍ

أفردَ الضَّميرَ، والمتقدِّمُ جمعٌ، وهو قولُه: ﴿سَمۡعَكُمۡ وَأَبۡصَٰرَكُمۡ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم﴾ فلم يقلْ: (بهنّ)، وإنَّما قال جلَّ شأنُه: ﴿يَأۡتِيكُم بِهِۗ﴾ "إجراءً للضَّمير مجرى اسم الإشارةِ، أي: بذلك"[1]، فالضَّميرُ مستعارٌ لاسم الإشارةِ المفردِ؛ لأنَّ اسمَ الإشارة كثُرَ أن يُشارَ به إلى أشياءَ عدَّةٍ[2].

ويجوز أن تكون الهاء عائدةً على السَّمع؛ فتكونَ موحَّدةً لتوحيد السَّمع[3]، وبعضُ المُفسِّرين جعلَه عائدًا على معنى مقدَّرٍ مدلولٍ عليه

(1) السيوطي، قطف الأزهار: 2/879، والزمخشري، الكشاف: 2/24.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 4/144.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 5/197.

منَ الكلام السّابقِ، فهو يعودُ على معنى الفعل، والتَّقديرُ: مَنْ إلهٌ غيرُ اللّه يأتيكم بما أخذ منكم؟ أي: المأخوذُ المدلولُ عليه بـ (أخذ)[1].

علَّةُ تخصيصِ ذكْرِ السَّمعِ والبصرِ والقلبِ:

تعليقُ التَّهديدِ والتَّخويفِ بأشرفِ متعلَّقات العقلِ تحريضًا على النَّظر

ذكرَ الأعضاءَ الثَّلاثةَ في قوله جلَّ شأنُه: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم﴾ دون غيرِها؛ لأنَّها أشرفُ أعضاءِ الإنسان[2]، "فإذا تعطَّلتِ اختلَّ نظامُ الإنسان، وفسدَ أمرُه، وبطُلتْ مصالحُه في الدّين والدُّنيا"[3]، ويُزادُ على ذلك أنَّها الحواسُّ والأعضاءُ التي يكونُ بها البحثُ والنَّظرُ ومعرفةُ الحقِّ، فلمّا عطَّلوها؛ هدَّدَهم بأخذِها على الخصوصِ، والكلامُ تهديدٌ لتخويفِهم، واختير فيه التَّهديدُ بانتزاع سمعِهم وأبصارِهم وسلْبِ الإدراك من قلوبِهم؛ لأنَّهم لم يشكروا نعمةَ هذه المواهبِ، ولم ينتفعوا بها[4].

سِرُّ إيثارِ النَّفيِ والإنكارِ بالاستفهام دونَ النَّفيِ الصَّريحِ:

الاستفهامُ وسيلةٌ لإقامةِ الحُجَّةِ البالغةِ على بُطلان الشِّرك

آثرَ أن ينفيَ وجودَ إلهٍ سواهُ تعالى - يُعيد لهم المسلوبَ منهم - بالاستفهام المجازيِّ دون النَّفيِ الحقيقيِّ، فقالَ: ﴿مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِۦٓ﴾، ولم يقلْ: (ما من إله يأتيكم به)؛ لأنَّه أرادَ إشراكَهم بتقرير ذلك، إجبارًا لهم على النَّظرِ في جوابِه، فيوقنوا أنَّه لا إله غيرُ اللّه يأتيهم بذلك[5]، فهو "استفهامٌ معناه: توقيفُهم على أنه ليس ثَمَّ سواه، فالتَّعلُّقُ بغيره لا ينفعُ"[6]، وفيه توبيخٌ لهم[7].

إيثارُ التَّعبيرِ بالفعلِ (يأتي) دون (يردّ):

لا شيءَ يستحيلُ على اللهِ فعلُه أو يصْعُبُ بَعثُهُ من جديدٍ

آثرَ الفعلَ (يأتي به) دون (يردُّه، أو يرجعه) في قولِه جلَّ شأنُه:

(1) الرازي، مفاتيح الغيب: 12/536، والنيسابوري، إيجاز البيان: 1/295.
(2) النيسابوري، غرائب القرآن: 3/80، والخازن، لباب التأويل: 2/113.
(3) الخازن، لباب التأويل: 2/113، والقاسمي، محاسن التأويل: 4/362.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 7/235.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 7/234.
(6) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/516، والهرري، حدائق الروح والريحان: 8/320.
(7) الشّوكاني، فتح القدير: 2/134.

﴿يَأۡتِيكُم بِهِۗ﴾؛ للإشارة إلى أنه يكونُ كالجديد"[1]؛ لأنَّ الإرجاعَ والرَّدَّ يكونُ للشَّيءِ ذاتِه، والإتيانُ مطلقٌ، فعبَّر به إيحاءً إلى أنَّه أراد سمعًا وبصرًا جديدًا، وفي هذا إشارةٌ إلى أنَّ المقصودَ بالأخذِ أخذُ العضوِ كلِّه، وفيه إشارةٌ إلى سهولة الإتيان، وأنَّه أهونُ عليه؛ فلا يُتصوَّرُ صعوبةُ فعلِ ذلك.

دَلالةُ التَّعبيرِ بالفعلِ المضارعِ ﴿يَأۡتِيكُم﴾:

لا يُعجِزُ إتيانَ الله تعالى زمنٌ أو هيئةٌ، ونفيُ ذلك عمَّن سواهُ

عبَّر بالفعل المضارع الذي يُفيد التَّجدُّدَ والحدوثَ لإثبات قدرتِه ﷻ على الإتيان بالمسلوب مِنَ الحواسِّ في أيِّ زمنٍ وعلى أيِّ هيئةٍ، وفيه توبيخٌ للمشركين لعجزِ أصنامِهم عن فعلِ ذلك.

نكتةُ الخطابِ بفعْلِ الأمرِ ﴿ٱنظُرۡ﴾:

التَّشنيعُ على المُعرضِين عنِ القطعيَّات، والتَّعجيبُ من عدمِ تأثُّرِهم بالآيات

الخطابُ في قولِه: ﴿ٱنظُرۡ كَيۡفَ نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ﴾ خطابٌ عامٌّ لكلِّ سامعٍ، إعلامًا بأنَّ تصريفَ الآيات لكثرتِه يُبصرُه كلُّ أحد، فكلُّ سامعٍ يبصرُ تلك الآياتِ التي تنوَّعت، وكثرتْ، والمرادُ بيانُ حالِ المُشركين بأنَّهم لا تؤثِّر الحجَّةُ فيهم مهما تكنْ واضحةً[2].

والغرضُ منه التَّعجيبُ من عدمِ تأثُّرِهم بما رأَوْا، وعاينوا مِنَ الآياتِ الباهراتِ[3]، و"إنَّ كلمة ﴿ٱنظُرۡ﴾ معطيةٌ معنى التَّعجُّبِ، نحو: (ألم تر) ؟ و(أرأيت) ؟ تَعَجُّبُ السّامعِ من شدَّةِ شكيمةِ أولئك المشركين، وإصرارِهم على العنادِ، ونفورِهم عنِ الحقِّ، بعد تكرير الآياتِ المُنذرةِ المخوِّفةِ"[4].

بلاغةُ الفصلِ في جملة: ﴿ٱنظُرۡ كَيۡفَ نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ﴾:

دوامُ المكابرةِ مع ظهورِ البرهانِ محلُّ عجبٍ

لم تُعطفْ هذه الجملةُ على ما قبْلَها؛ لأنَّها مستأنفةٌ استئنافًا

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 5/2504.
(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 5/2504.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 4/145، والقاسمي، محاسن التأويل: 4/362.
(4) الطيبي، فتوح الغيب: 6/90.

ابتدائيًّا؛ فكانت بمنزلةِ التَّذييلِ للآياتِ السّابقةِ؛ لأنَّه سبحانه لمّا غمرَهم بالأدلَّةِ على الوحدانيةِ وصدقِ الرّسولِ ﷺ وأبطلَ شُبَههم، جاءت هذه الجملةُ للتَّعجُّبِ مِن استمرارِهم في الإعراضِ والمكابرةِ، مع قوَّة الأدلَّةِ[1].

سرُّ اختيارِ النَّظر دونَ الرُّؤيةِ:

تنزيلُ المعقولِ منزلةَ المنظورِ في مظنَّة التَّأثيرِ

آثرَ القرآنُ التَّعبيرَ بالفعل ﴿ٱنظُرۡ﴾ تنزيلًا للأمر المعقولِ منزلةَ المُشاهَدِ، وهو تصريفُ الآيات مع الإعراضِ عنها كأنَّ النّاظرَ يستطيعُ أن يراها[2].

الأمرُ بالنَّظرِ أمارةُ بلوغِ الآياتِ مَنصَّةَ البيانِ

وجَّهَ الأمرَ بالنَّظرِ إلى تصريف الآيات دونَ اسمِ الإشارةِ ﴿كَذَٰلِكَ﴾، فلم يقلْ: (كذلك نصرّف الآيات) للدَّلالةِ على أنَّ تصريفَ الآياتِ وتنويعَها لإظهار الحقِّ ظاهرٌ بحيث يمكنُ رؤيتُه، "حتى إنَّ النّاظرَ يستطيعُ أن يراها"[3]، ولمّا بلغت هذه الآياتُ مِنَ الإبلاغ في البيان أعلى المقامات، نبَّه على ذلك بالأمر بالنَّظر[4].

دَلالةُ الأمرِ بالنَّظرِ إلى كيفيَّةِ التَّصريفِ:

فعلُ النَّظرِ تأكيدٌ لظهورِ التَّصريفِ وكثرتِه

الأمْرُ بالنَّظر في قولِه جلَّ شأنُه: ﴿ٱنظُرۡ كَيۡفَ نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ﴾ متَّجهٌ إلى تصريف الآيات، تأكيدًا لكثرتِها؛ إذِ الكثرةُ مدلولٌ عليها من صيغة تشديدِ الفعلِ في قولِه: ﴿نُصَرِّفُ﴾، والتَّصريفُ ذاتُه يدلُّ على الكثرةِ، فالفعلُ ﴿ٱنظُرۡ﴾ تأكيدٌ لظهورِ هذا التَّصريفِ وكثرتِه، فتصريفُها تكرارُها وتنوُّعُها، فتأتي مرَّةً بالنِّقمةِ ومرَّةً بالنِّعمةِ، ومرَّةً بالتَّرغيبِ ومرَّةً بالتَّرهيبِ، فتُتابعُ لهم الحُجَجُ، وتُضربُ لهم الأمثالُ، للدَّلالةِ على صحَّةِ توحيدِه تعالى[5].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 7/235.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 7/235.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 7/235.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 7/118.
(5) البيضاوي، أنوار التنزيل: 2/162، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/516.

إيثارُ صيغةِ التَّعظيمِ لإظهارِ العظَمةِ في التَّصريفِ

آثرَ التَّعبيرَ بصيغةِ التَّعظيمِ في الفعلِ المضارعِ: ﴿نُصَرِّفُ﴾ في قولِه جلَّ شأنُه: ﴿ٱنظُرۡ كَيۡفَ نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ﴾؛ لإظهارِ العظَمةِ في التَّصريفِ، والمعنى: ﴿ٱنظُرۡ كَيۡفَ نُصَرِّفُ﴾ بما لنا مِنَ العظمَةِ[1].

فائدةُ تصريفِ الآياتِ في قولِه: ﴿نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ﴾:

ترتيبُ حُجَجِ المنقولِ رعيًا لتفاوتِ مَدارِكِ العُقُولِ

آثرَ ﷻ أنْ تُساق الآياتُ بأساليبَ متفاوتةٍ، وبأنواعٍ مختلفةٍ، والغايةُ من ذلك لتُناسبَ أفهامَ النّاس، عامِّها وخاصِّها، بحيث تستوعبُ الإحاطةَ بالأفهام على اختلافِ مداركِ العقولِ[2]، وهذه ألطافٌ ورحمةٌ منَ اللّه تعالى بخَلْقِه.

غرضُ تعريفِ الآياتِ في قولِه: ﴿نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ﴾:

إحالةُ الآياتِ على المعهوداتِ البيانِ، يؤذِنُ بالإذعانِ وهجْرِ الكفرانِ

جاء لفظُ ﴿ٱلۡأٓيَٰتِ﴾ معرَّفًا بالألف واللّام، التي تدلُّ على العَهْدِ، إشارةً إلى الآياتِ المكرَّرةِ من أوَّل السّورة[3]، وفي هذا إشارةٌ إلى أنَّ هذه الآياتِ معروفةٌ ومعهودةٌ لهم؛ فكان عليهم أن يستحضروها ويوظِّفوها لإثباتِ الوحدانيةِ بدلًا منَ الشِّرك، وفيه تعليمٌ للدّاعيةِ عند المُحاجَّةِ أن يأتيَ بآياتٍ معروفةٍ مناسبةٍ لحال المدْعو.

دَلالةُ عطفِ قولِه: ﴿ثُمَّ هُمۡ يَصۡدِفُونَ﴾:

سوقُ الأدلَّةِ يقضي العجبَ، واستمرارُ المكابرةِ أعجبُ

عُطفتْ هذه الجُمْلةُ على ما قبْلَها بـ ﴿ثُمَّ﴾ التي تفيدُ التَّرتيبَ الرُّتبي لما بينهما مِنَ الاتِّصال؛ لأنَّها أدْخلُ في الغرضِ المَسوقِ له الكلامُ، وهو هنا التَّعجيبُ من قوَّة الأدلَّةِ، والأعجبُ منها استمرارُ الإعراضِ والمكابرةِ[4].

إيثارُ التَّعبيرِ بحرف العطفِ ﴿ثُمَّ﴾:

آثرَ التَّعبيرَ بحرف العطفِ ﴿ثُمَّ﴾ الدّالِّ على التَّعقيبِ والتَّراخي

(1) البقاعي، نظم الدرر: 7/118.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 7/236.
(3) الطيبي، فتوح الغيب: 6/90.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 7/236.

المُشعرِ بطولِ الزَّمان، ولم يقلْ: (ولكنّهم يعرضون) وغيرَه؛ إشعارًا بكثرة الآياتِ التي مرَّت عليهم وطولِ زمانِها، بحيث إنَّها جديرةٌ بأن توقِظَ فيهم وازعَ الإيمان، ولكنَّهم مع ذلك أعرضوا، وفيه بيانٌ لصلابةِ كفرهم وغِلظِ قلوبهم، "ولمّا كان الإعراضُ عن مثل هذا في غاية البُعدِ عبَّر بأداة التَّراخي، فقال: ﴿ثُمَّ هُمْ﴾، أي: بعد هذا البيانِ بصميم ضمائرِهم ﴿يَصْدِفُونَ﴾"[1]، فـ ﴿ثُمَّ﴾ لبيان بُعْدِ إعراضِهم عنِ الآيات بعد تصريفِها على نمَطٍ موجبٍ للإقبالِ عليها[2].

طولُ زمانِ الآياتِ وكثرتُها جديرٌ بأن يُوقِظَ في الكفر وازعَ الإيمان

بلاغةُ التَّعبيرِ عن إعراضِهم بالجملةِ الاسميَّةِ:

آثرَ التَّعبيرَ بالجملةِ الاسميَّةِ لبيان قوَّةِ إعراضِهم، وهذا واضحٌ في تقديم المُسنَدِ إليه ﴿هُمْ﴾ على الخبر الفعليِّ ﴿يَصْدِفُونَ﴾ لتقويةِ الحُكم[3]، وهذا يناسب تصديرَ الجملةِ بالأمر إلى النَّظرِ تعجيبًا من حالِهم وكثرةِ الآيات المُتصرِّفةِ، فلو لم يكن إعراضُهم متَّصفًا بالثَّبات والقوَّة؛ لأبصروا ما تدلُّ عليه تلك الآياتُ.

شدَّةُ الإعراضِ عنِ الآياتِ مِن طباعِ الكافرين

نكتةُ الإخبارِ بالمضارع ﴿يَصْدِفُونَ﴾:

جاء الخبرُ في الجملةِ الاسميةِ في قولِه جلَّ شأنُه: ﴿ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ﴾ فعلًا لبيانِ تجدُّدِ إعراضِهم ودوامِه[4]، وهذا الدَّوامُ يناسبُ تصريفَ الآيات، فكلَّما تجدَّدتِ الآياتُ؛ قابلوها بالإعراض، فكان إعراضُهم متجدِّدًا على الدَّوام.

قابلَ الكُفَّارُ تَجَدُّدَ الآياتِ بدوامِ الإعراضِ

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(يُعرِضون) و (يَصْدِفون):

الصَّدْفُ: إعراضٌ مخصوصٌ بالشِّدَّةِ، يقال صدَف عَنهُ: أعرضَ

الصَّدفُ إعراضٌ مخصوصٌ بالشِّدَّةِ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 7/119، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 3/257، وابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/156.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/134، والهرري، حدائق الروح والريحان: 8/321، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 5/2505، والآلوسي، روح المعاني: 4/145.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 7/236.

(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 7/236.

إعراضًا شديدًا[1]، ففيه معنى الشِّدَّةِ في الميلِ والإعراضِ، وممّا يُعبِّرُ عن تلك الشِّدَّة حرفُ الصّاد، وبالنَّظر إلى ثُنائيَّةِ (الصّاد والدّال) وما يُثلِّثُهما، نجدُ أنَّ تلك المُفرداتِ كلَّها تتَّصفُ بالشِّدَّةِ والقوَّة، قولُه: ﴿ثُمَّ هُمۡ يَصۡدِفُونَ﴾: "يُعرضون عنِ الآيات بعدَ ظهورِها"[2]، والإعراضُ بعد ظهورِ الآياتِ يدلُّ على شدَّة الميلِ، فناسبَه التَّعبيرُ بـ (صدف)، فمعنى: ﴿يَصۡدِفُونَ﴾: يُعرضون إعراضًا شديدًا[3].

وعلى ذلك، فالصَّدْفُ هو المناسبُ لهذا السّياق؛ لما يحملُه من معنى الشِّدَّةِ في الإعراض، فهو إعراضٌ وزيادةٌ؛ لأنَّه لا يقفُ عند إعراضِه هو عنِ الآيات بل يتعدَّى إلى صدْفِ النّاس عنها، بدليلِ قولِه تعالى في آخر سورة الأنعام: ﴿فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنۡهَاۗ﴾ [الأنعام: 157].

(1) الراغب، المفردات: (صدف).
(2) النسفي، مدارك التنزيل: 1/504.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 7/236.

﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [الأنعام: 47]

مُناسَبَةُ الآيةِ لما قبْلَها

تغليظُ لهجةِ الخِطابِ في التَّهديدِ وتَعميمِ الوعيدِ

لَمّا ذكر اللّه في الآيةِ السّابقةِ تهديدَه للمُشركين بسلْبِ حواسِّهم والختْمِ على قلوبِهم إن لم يُقلعوا عن هذا الشِّرك، وبيَّنَ إصرارَهم على الإعراض وعدمِ الاعتبار بالآياتِ؛ جاءت هذه الآيةُ بتهديدٍ أكبرَ وبإنذارٍ شديدٍ لكي يتركوا عبادةَ الأصنام، وعلى هذا تكونُ هذه الآيةُ أعمَّ في العذابِ مِنَ الآية السّابقةِ، يؤكِّدُ ذلك ما ذكره الرّازيُّ بأنَّ هذا العذابَ عامٌّ في جميع أنواعِه"[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَرَءَيْتَكُمْ﴾: مِن (رأى) العِلميَّةِ ضُمِّنتْ معنى: أخبروني، وليسَ لهذه الجملة في العَرَبيَّة نَظيرٌ؛ لِأنَّه جمع بَين علامتَيْ خطابٍ وهما تاءُ الفاعل، وكافُ الخطاب[2]، ﴿أَرَءَيْتَكُمْ﴾ بمعنى: "أخبروني، وهو أسلوبٌ يُذكرُ للتَّعجيب والتَّنبيهِ إلى أنَّ ما يُذكرُ بعدَه غريبٌ عجيبٌ، تقومُ به الحجَّةُ على المخالِف"[3].

2) ﴿بَغْتَةً﴾: (بغت) أصلُ البغت: أنْ يَفْجَأَ الشَّيء[4]، ولقيته بغتةً، أي: فجأة، والمباغتةُ: المُفاجأةُ[5]، ﴿أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً﴾ فجأةً، ومُفاجأةً[6]، لم يتقدَّمْ عندَهم منها علمٌ[7].

(1) الرازي، مفاتيح الغيب: 12/536، والبقاعي، نظم الدرر: 7/119.
(2) الكرماني، أسرار التكرار، ص: 108.
(3) الهرري، حدائق الروح والريحان: 8/334.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بغت).
(5) الجوهري، الصحاح: (بغت).
(6) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 134.
(7) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/293.

3) ﴿جَهْرَةً﴾: (جهر) أصلُ الجهر: إعلانُ الشَّيءِ وكشفُه[1]، الجهرُ: الظّاهرُ المكشوفُ ضدُّ السِّرِّ، جَهرْتُ الشَّيءَ: كشفتُه، ورآه جهرةً: لم يكن بينهما سترٌ، ﴿أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ [النساء: 153] عِيانًا غيرَ مُحْتَجِبٍ ولا مستترٍ عنّا بشيء[2]، ﴿أَوْ جَهْرَةً﴾، أي: يأتيهم، وهم يرونَه معاينةً[3].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

لا يعجزُ اللهَ مباغتةُ الظّالمين بعذابٍ

يخاطبُ اللّه تعالى النَّبيَّ ﷺ بأن يقولَ لهم: أخبروني عن شأنِكم إنْ أتاكُم عذابُ اللّه مباغِتًا ومفاجِئًا لكم، فأخذَكم على غِرَّةٍ لم تتقدَّمْهُ أماراتٌ تُشعرُكم به، أو أتاكم وأنتم تعاينونَه، هل يُهلكُ اللّه به إلّا القومَ الظّالمين؟ وذلك لظلْمِكم أنفسَكم وجنايتِكم عليها بما اخترتُم لها منَ الشِّركِ والفُجورِ وعبادةِ من لا يستحقُّ العبادةَ، وتركِ عبادةِ من هو حقيقٌ وجديرٌ بها[4].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

الغرضُ مِنَ الفصلِ بالاستئنافِ:

الإعراضُ عنِ الآياتِ عاقبتُه العذابُ الشَّديدُ

استأنفَ الكلامَ في قولِه جلَّ شأنُه: ﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ﴾ بعد أنْ ذكرَ إعراضَهم عنِ الآياتِ الكثيرةِ التي صرّفها اللّه تعالى، تهديدًا وتوعُّدًا لهم "بأنَّ إعراضَهم لا يرجعُ بالسّوءِ إلا عليهم ولا يضرُّ بغيرِهم"[5].

دَلالةُ افتتاحِ الكلامِ بفعلِ القولِ:

عنايةُ اللهِ برسولِه ﷺ من حيثُ استفتاحُ الآي بالأمرِ بالقولِ

افتتحَ التَّهديدَ بالأمرِ بالقولِ للاهتمامِ بإبلاغِه وتلقينًا له ﷺ،

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (جهر).
(2) السّمين، عمدة الحفّاظ: (جهر)، وابن منظور، لسان العرب: (جهر).
(3) الواحدي، البسيط: 8/150، والزّجاج، معاني القرآن وإعرابه: 2/249.
(4) المراغي، تفسير المراغي: 7/127.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 7/236.

وإلّا فإنَّ مُعظمَ ما في القرآن يجبُ على الرّسولِ ﷺ أن يقولَه لهم لكونِه مبلِّغًا[1].

دَلالةُ كافِ الخطابِ:

المبالغةُ في التَّنبيهِ على شدَّة العذابِ بكافِ الخطاب

ذُكِرَت كافُ الخطابِ في قولِه جلَّ شأنُه: ﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ﴾ ولم تُذكَر في الآيةِ السّابقةِ ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم﴾ وهذا يدلُّ على شدَّةِ العذابِ؛ لأنَّه لمّا كان التَّهديدُ شديدًا، جمعَ فيه بين أداتَي الخطابِ[2]، ولأنَّ المتوعَّدَ به في الآية عذابُ اللّه، وهو أشدُّ من أخْذِ السَّمعِ والأبصارِ، جمعَ بين حرفَي الخطابِ الكافِ والتّاءِ في ﴿أَرَءَيْتَكُمْ﴾ مبالغةً في تأكيد التَّنبيهِ[3]، فلمّا كان المتوعَّدُ به شديدًا أكَّد في التَّنبيه عليه مبالغةً فيه[4]، ولمّا كان التَّهديدُ أخفَّ من ذلك لم يؤكِّد به، فاكتُفيَ بخطاب الضَّمير، فقال: ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾[5].

دَلالةُ إضافةِ العذابِ إلى لفظِ الجلالةِ:

التَّهديدُ بعذابِ اللهِ أبلغُ من حيثُ إضافتُهُ

أضافَ العذابَ إلى لفظِ الجلالةِ في قولِه جلَّ شأنُه: ﴿إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ﴾؛ تهويلًا للعذابِ ولمزيدِ قوَّةِ التَّهديدِ، فالعذابُ الذي سيأتيكم هو عذابُ "الذي له جميعُ صفاتِ الكمالِ فلا يُعجزه شيءٌ"[6].

سرُّ التَّعبيرِ بالفعلِ ﴿أَتَىٰكُمْ﴾ دونَ (جاءكم):

لا مانعَ من عذابِ المشركينَ ولا دافِعَ

عبَّر القرآنُ الكريمُ بالإتيان بعذابِ اللّه دونَ المجيء؛ لأنَّ الإتيانَ يُشيرُ إلى السُّهولةِ، وفي هذا دَلالةٌ على أنَّ إتيانَ العذاب إلى المشركين المُعاندين أمرٌ سهلٌ وميسورٌ، فلا يوجدُ مُعارضٌ ولا مانعٌ.

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 7/221، 240.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 4/132.
(3) السيوطي، قطف الأزهار: 2/875.
(4) ابن جماعة، كشف المعاني، ص: 161، وزكريّا الأنصاريّ، فتح الرحمن: 1/167.
(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/516.
(6) البقاعي، نظم الدرر: 7/119.

دَلالةُ الجمعِ بين البَغتةِ والجَهرةِ:

خفاءُ العذابِ أنسبُ للشِّدَّة والإيلامِ

جمعَ بين البَغتةِ والجَهرةِ في قولِه جلَّ شأنُه: ﴿بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً﴾، وكان الظّاهرُ أن يقولَ: (خُفيةً وجَهرةً)؛ لأنَّ نقيضَ الجهرةِ الخُفيةُ، ولكنَّه قابل الجهرةَ بالبغتة؛ لأنَّ البغتةَ متضمِّنةٌ معنى الخُفية، فصحَّت مقابلتُها للجَهرة؛ لأنَّ العذابَ يأتيهم من حيث لا يَشعرونَ، فخفيَ سببُه[1]، فأرادَ أنَّ العذابَ سيأتيهم من غيرِ أن يَشعروا به، وتظهرَ أماراتُه، فقال: ﴿بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً﴾[2].

علَّةُ إيثارِ البغتةِ على الخُفيةِ:

التَّحذيرُ من سرعةِ الأخْذِ بالبغتةِ

لَمّا وصفَ عذابَه بالأخذِ آثرَ لفظَ (البغتة) على الخُفية؛ لأنَّ الأخذَ يُشعرُ أنَّه يأتي بغتةً؛ وفائدةُ ذلك الدَّلالةُ على السَّطوةِ والقهرِ، وغايتُه التَّحذيرُ من سرعة الأخْذِ[3]، وحديثُ السّياقِ يقتضي التَّعبيرَ بالبغتة لا بالخُفية؛ لأنَّ الخفاءَ لا يقتضي المُفاجأةَ، بلِ الخفاءُ هو دلالةٌ على عدمِ الظُّهورِ، وهذا يتناقضُ مع مَجيءِ العذابِ من غيرِ أن يشعروا به، بحيث لا يُرى إلا مُتَلبِّسًا بكم من غيرِ أن يشعرَ به ويظهرَ شيءٌ من أماراتِه[4]، وبهذا فإنَّ البغتةَ أليقُ بالسّياق؛ لأنَّها تدلُّ على مجيءٍ مفاجئٍ، وهو المرادُ، وليس المرادُ الخفاءَ، "سمّاه اللّه تعالى بالبغتة؛ لأنَّه فاجأَهم بها"[5]، ولأنَّ البغتةَ يصحُّ تأويلُها باسْمِ الفاعلِ، أي: مباغِتين لهم أو باسْمِ المفعولِ: مبغوتين، وفي هذا دَلالةٌ على الجمعِ بين الفاعلِ والمفعولِ.

فائدةُ تقديمِ البغتةِ على الجهرةِ:

البغتةُ أهولُ وأشدُّ ردْعًا

قدَّمَ البغتةَ على الجهرةِ في قولِه جلَّ شأنُه: ﴿بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً﴾،

(1) الواحدي، البسيط: 8/150، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/517
(2) الزمخشري، الكشاف: 2/24، والطيبي، فتوح الغيب: 6/91، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 7/237
(3) البقاعي، نظم الدرر: 7/117
(4) البقاعي، نظم الدرر: 7/119
(5) الرازي، مفاتيح الغيب: 12/536

وبُدئَ بها؛ لأنَّها أردعُ منَ الجَهْرةِ، وأهْولُ وأفْظعُ[1]؛ لأنَّ الخفاءَ أخوفُ للنّاس، وذلك أنسبُ لسياقِ التَّهديدِ والتَّخويفِ.

دَلالةُ ﴿أَوْ﴾ في قولِه: ﴿بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً﴾:

قدرةُ اللهِ مطلقةٌ وعجزُ المعذَّبينَ مُطبِقٌ

دلّتْ ﴿أَوْ﴾ على أنَّ العذابَ الذي توعَّدهم اللّه به غيرُ موقوتٍ بزمن، إنَّما أمْرُ ذلك إلى اللّه؛ فقد يأتيهم على حينِ غفلةٍ من حيث لا يشعرون أو يتوقَّعون كما فُعل ذلك بقوم لوطٍ وقومِ عادٍ، أو يأتيهم بعد أن يُنذَروا به، ويُحدَّدَ لهم وقتُه كما فُعل مع قومِ صالحٍ، قال تعالى: ﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍۖ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ۝٦٥﴾ [هود: 65]، وهذا دليلٌ على مُطلَق قُدرتِه سبحانه وعجزِ المُعذَّبين[2].

سرُّ المقابلةِ بين البَغتةِ والجَهرةِ:

الخفاءُ والعلانيةُ والمفاجأةُ والتَّمهيدُ صُوَرٌ لاستحكام العذابِ

ذُكرتِ الجَهرةُ في مقابلةِ البَغتة؛ لأنَّ البغتةَ بمقتضى المُعتادِ تكونُ في خُفية، ولا إعلانَ فيها من قبلُ، أو على الأقلِّ تَجيءُ من غيرِ ترقُّبٍ ولا انتظارٍ؛ فهي خافيةٌ على من نزلتْ عليهم، ولذلك قابلتْها جَهرةٌ، ويجوزُ أن تكونَ البغتةُ بمعنى: ليلاً، وجهرةٌ بمعنى: نهارًا؛ لأنَّ المفاجأةَ تكونُ باللَّيل، والعلانيةَ تكونُ بالنَّهار عادةً، وهذا من باب دَلالةِ المُقابلة[3]، والجمعُ بين حالَي العذابين تصويرٌ لاستحكام العذاب، وتحقُّقِ حدوثه، ودفعٌ لتوهُّم وقوعِه في حالٍ دون أخرى.

بلاغةُ الاستفهامِ في الآية:

عنادُهم وكِبْرُهم محلُّ إنكارٍ

الاستفهامُ في قولِه جلَّ شأنُه: ﴿هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ بمعنى: النَّفيِ؛ ولذلك دخلت ﴿إِلَّا﴾، وهو استثناءٌ مفرَّغٌ، والتَّقديرُ:

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/517، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/135

(2) عبد الكريم الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 3/185.

(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 5/2505.

ما يُهْلَكُ إلّا القومُ الظّالمون[1]، والغرضُ منه الإنكارُ، أي: ما يُهلكُ بالعذاب إلّا أنتم؛ لأنَّكم كفرتُم وعاندتُم[2].

فائدةُ التَّعبيرِ بالاستفهام عنِ النَّفي:

إثارةُ البحثِ عن هالكٍ بوصفٍ آخرَ

عبَّر عنِ النَّفي بالاستفهام، ولم يقلْ: (ما يُهلك) "للتَّنبيه، كأنَّه كان سؤالٌ وكانت إجابةٌ، وذلك تأكيدٌ للنَّفي فضلَ تأكيدٍ"[3]؛ لأنَّه أراد من قولِه تعالى: ﴿هَلۡ يُهۡلَكُ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ إثارةَ النَّظرِ للبحث عن هالكٍ بوصفٍ آخرَ، ليَقصرَ الهلاكَ عليهم للمبالغةِ والتَّأكيدِ؛ إذِ العِلمُ المتحقِّقُ بعد البحثِ أبلغُ منَ العلمِ بالإخبار ابتداءً، فالنَّظرُ والبحثُ يُزيلُ الشَّكَّ، فيثبتُ المعنى على وجهِ اليقين.

توجيهُ البناءِ للمفعولِ في ﴿يُهۡلَكُ﴾:

قَصْرُ العنايةِ بالهلاكِ دون فاعلِه

عبَّر عن هلاكِ الظّالمين بالفعلِ المَبنيِّ للمفعولِ في قولِه جلَّ شأنُه: ﴿هَلۡ يُهۡلَكُ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾؛ اهتمامًا بالمعنى المضمَّنِ في الفعل، وهو الهلاكُ؛ ليقصرَ الاهتمامَ عليه، فلا ينصرفُ نظرٌ إلى الفاعل، ولأنَّ "المخوِّفَ بالذّات هو الهلاكُ من غير نظرٍ إلى تعيين الفاعلِ، بُني للمفعول"[4].

وجهُ إيثارِ لفظِ ﴿ٱلۡقَوۡمُ﴾:

اجتماعُ الكافرين على الظُّلم مَدعاةٌ لإيقاعِ العقوبةِ بهم

عبَّرَ عن هؤلاءِ الظّالمين الهالكين بـ ﴿ٱلۡقَوۡمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾، ولم يقلْ: (هل يهلك إلّا الظالمون)؛ لأنَّه أراد التَّنبيهَ على أنَّهم تجمَّعوا على الظُّلم "أي: لا يُهلك إلا القومُ الذين تجمَّعوا على الظلم، وتحزَّبوا، وتضافروا عليه، وتعاونوا على إثمِه"[5].

---

(1) السّمين، الدر المصون: 4/637، وابن عطية، المحرر الوجيز: 2/293، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/517، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 2/162.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 7/237

(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 5/2505

(4) البقاعي، نظم الدرر: 7/119.

(5) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 5/2505.

وفيه إشارةٌ إلى قوَّة هؤلاء الظالمين وتجبُّرِهم؛ لأنَّ لفظَ القوم مأخوذٌ منَ القيام، وهو يعني الانتصابَ والوقوفَ، وهو أدعى لإيقاع العقوبة بهم جزاءً لتعنُّتهم.

بلاغةُ العُدول مِنَ الإضمارِ إلى الإظهار:

الظُّلمُ سببُ الهلاكِ، وهو عامٌّ لا يختصُّ بالمخاطَبين

ظاهرُ السّياقِ في قولِه جلَّ شأنُه: ﴿هَلۡ يُهۡلَكُ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ أنْ يقولَ: (هل يُهلَكُ إلا أنتم)؛ إذِ الخطابُ في صدرِ الآية جاء بصيغة الخطابِ، ولكنَّه وضعَ الاسمَ الظّاهرَ موضعَ المُضمرِ التفاتًا؛ ليُصرِّحَ بعلَّة الإهلاكِ، فيبيِّنَ "أنَّ مناطَ إهلاكِهم ظلمُهم الذي هو وضعُهم الكفرَ موضعَ الإيمان"[1]، ويُزاد على ذلك أنَّ فائدةَ الالتفات هنا إرادةُ التَّعميم، فالإهلاكُ لا يختصُّ بالمخاطَبين، بل لكلِّ من وافقَهم في وصفِهم، ولو عبَّر عنهم بالضَّمير؛ لفاتَ هذا العمومُ.

سِرُّ التَّعبيرِ بالوصفِ دونَ الضَّميرِ:

إيرادُ الأوصافِ معلَّقةً بأحكامها يؤذِنُ بتحقُّقها

وصفَ القومَ الذين حصرَ الإهلاكَ عليهم بأنَّ صفتَهم ظالمون؛ إذْ "في ذكرِ الظُّلم تنبيهٌ على علَّة الإهلاكِ، والمعنى: هل يهلك إلّا أنتم لظُلمِكم؟"[2]، "تسجيلًا عليهم بالظُّلم وإيذانًا بأنَّ مناطَ إهلاكِهم ظُلمُهم الذي هو وضعُهم الكفرَ موضعَ الإيمان"[3].

وجهُ تخصيصِ العذابِ بالظَّالمين:

العذابُ للمؤمن رفعُ درجاتٍ، وللظَّالم خسرانٌ وحسراتٌ

اختصَّ العذابَ بالظّالمين في قولِه جلَّ شأنُه: ﴿هَلۡ يُهۡلَكُ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾؛ لفعلِهم موجباتِه، وهو في حقِّ المؤمنين بلاءٌ يورثُهم الخيرَ؛ لأنه لا يحصلُ بنزولِه تمييزٌ بين مؤمن وكافرٍ؛ لأنَّ الهلاكَ عندما يقعُ يعمُّ الجميعَ، فإن عمَّ الأبرارَ والأشرارَ في الظّاهر، إلا أنَّه في الحقيقةِ مختصٌّ بالظّالمين؛ لأنَّ الأخيارَ يَستوجبون بسبب

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/135.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/517.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/135، والآلوسي، روح المعاني: 4/145، والقاسمي، محاسن التأويل: 4/363.

نزولِه أنواعًا عظيمةً مِنَ الثَّواب والدَّرجاتِ الرَّفيعةِ عند اللّه تعالى، والظّالمون إذا نزل البلاءُ بهم؛ فقد خسروا الدُّنيا والآخرةَ معًا؛ فلذلك وصفَهم اللّه تعالى بكونِهم هالكين[1].

إذا طغى الظُّلمُ وعـمَّ؛ هلك الظَّالمون

اللّهُ ﷻ لا يُهلِكُ الظّالمين إلا إذا ساد الظُّلمُ وعمَّ، فبعضُهم وقعَ منهمُ الظُّلمُ فعلًا، والآخرون سكتوا عنه، فكانوا ظالمين بسكوتِهم، يؤكِّدُ هذا ما ذكره اللّه تعالى في شأن بني إسرائيلَ بعد عصيانِهم واعتدائِهم بأنَّهم كانوا يَسكتون عنِ المعصية، قال تعالى: ﴿كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُۚ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ٧٩﴾ [المائدة: 79]"[2].

نكتةُ التَّعبيرِ بالظُّلم دونَ غيرِه:

صُـوَرُ الظُّـلـمِ متعدِّدةٌ

عبَّر بوصفِ الظُّلمِ، وجعلَه سببَ الهلاك لتعدُّدِ أنواعِه؛ فقد ظلموا بسبب الشِّركِ، وظلموا بعدمِ الطّاعة، وظلموا أنفسَهم بضلالها[3].

(1) الرازي، مفاتيح الغيب: 12/537، والهرري، حدائق الروح والريحان: 8/321.
(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 5/2506.
(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 5/2505.

﴿وَمَا نُرۡسِلُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَۖ فَمَنۡ ءَامَنَ وَأَصۡلَحَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٤٨﴾ [الأنعام: 48]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لمّا تحدَّثتِ الآياتُ السّابقةُ عنِ اعتراض المشركين على نُبوَّته ﷺ وطلبوا منه الآياتِ المعجزاتِ لكي يؤمنوا به ﷺ جاءت هذه الآيةُ ردًّا على مُقترحاتِهم، وبيانًا لوظيفة الرُّسل، وأنَّ الله أرسلَهم لتبليغ دعوتِه، مبشِّرين من آمن، ومُنذرين من عصى، وليس للإتيان بالآياتِ التي يقترحونَها.

ما قَدَرُوا الله حقَّ قدرِه، فنبَّههم بجزاءِ مَنْ آمنَ بالرُّسلِ وأصلحَ

وممّا يُذكرُ - أيضًا - في المناسبةِ أنَّه لمّا ذكرَ محاججةَ من كذَّبَ الرُّسلَ، وأعرض عمّا أرسلَهم به ربُّهم منَ الآيات التي ما منها إلا ما آمن على مثلِه البشرُ، وطلبَه منهم ما لا يقدرُ عليه إلا مُرسلُهم مِنَ الإتيان بغير ما أتَوْا به مِنَ الآيات؛ بيَّن لهم حقيقةَ الرِّسالة إشارةً إلى ظُلْمِهم في طلبِهم منَ الرُّسلِ ما لا يُطلبُ إلا منَ الإله[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مُبَشِّرِينَ﴾: (بَشَرَ) أصلٌ يدلُّ على ظهورِ الشَّيءِ مع حسنٍ وجمالٍ[2]، والبِشارةُ عبارةٌ عن خبرٍ سارٍّ يتغيَّرُ له البشرُ[3]؛ لأنَّها تُظهرُ طلاقةَ الإنسان وفرحَهُ في البَشرة، وهي ظاهرُ جلدِ الإنسان[4]، والبشيرُ والمُبشِّر: الذي يُبشِّرُ القومَ بأمرٍ خيرٍ أو شَرٍّ[5]، ﴿وَمَا نُرۡسِلُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ﴾ يُبشِّرون بالثَّواب على الطّاعة،

(1) البقاعي، نظم الدرر: 7/120، والرازي، مفاتيح الغيب: 12/537.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بشر).
(3) السّمين، عمدة الحفّاظ: (بشر).
(4) ابن الأثير، النهاية: (بشر)، والسّمين، الدر المصون: 1/209.
(5) الخليل، العين: (بشر)، والأزهري، تهذيب اللّغة: (بشر).

واتِّباعِ الرِّسالة وتصديقِ الرُّسل[1]، يُبشِّرون بالجنَّة وبإنعامِنا ورحمتِنا لمن آمن وأطاعَ[2].

2) ﴿وَمُنذِرِينَۖ﴾: (نَذَرَ) كلمةٌ تدلُّ على تخويفٍ[3]، ومنه الإنذارُ الذي يعني الإبلاغَ، ولا يكونُ إلّا في التَّخويف[4]، فهو "إخبارٌ فيه تخويفٌ، كما أنَّ التَّبشيرَ إخبارٌ فيه سرورٌ"[5]، ﴿وَمُنذِرِينَۖ﴾ يُنذرون من كذَّبَ وأبَى الإيمانَ بالعقابِ على المعصيةِ[6]، يُخبرون النّاسَ، ويُخوّفونَهم بالنّار، إذا كفروا وعصَوْا[7].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

مهمَّةُ الرُّسلِ البِشارةُ والإنذارُ

يُخبرُ اللّه تعالى أنَّه لا يرسلُ المُرسَلين إلا ببشارةِ أهلِ الطّاعةِ بالفوزِ بالجنَّةِ جزاءً على طاعتِهم، وبإنذارِ من أصرَّ على الشِّركِ بالنّار، فمن آمنَ، وصدَّقَ، وعملَ صالحًا؛ فلا خوفٌ عليهم من عذاب الدُّنيا الذي ينزل بالمُكذِّبين الجاحدين، ولا من عذاب الآخرةِ الذي أعدَّه للكافرين، ولا هم يحزنون يومَ لقاء اللّه على شيءٍ فاتَهم؛ لأنَّ اللّه يحفظُهم من كلِّ فزَعٍ[8].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ الوصلِ في الآية:

الاستدراكُ على الظَّالمين بأنَّ إرسالَ الرُّسلِ مِنَّةٌ وإنذارٌ من ربِّ العالمين

عُطفتْ جملةُ: ﴿وَمَا نُرۡسِلُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَۖ﴾ على قولِه تعالى: ﴿ٱنظُرۡ كَيۡفَ نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ ثُمَّ هُمۡ يَصۡدِفُونَ﴾؛ لِما بينَهما من مناسبةٍ؛ إذ إنَّهم كانوا يتعلَّلون لصدوفِهم وإعراضِهم بأنَّهم يَرومون آياتٍ على وفْقِ مُقترحِهم، وأنَّهم لا يَقنعون بآياتِ الوحدانيةِ،

(1) ابن جرير، جامع البيان: 9/407، والواحدي، البسيط: 7/197.
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/137، 293.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نذر).
(4) الجوهري، الصحاح: (نذر).
(5) الراغب، المفردات: (نذر).
(6) ابن جرير، جامع البيان: 9/408، والواحدي، البسيط: 7/197.
(7) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/138، 293.
(8) المراغي، تفسير المراغي: 7/127 - 128.

ألا تَرى إلى قولِهم: ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَٰتٞ مِّن رَّبِّهِۦۚ﴾ [العنكبوت: 50]، وتفسيرُ هذه الآية في سورة الإسراء في قوله تعالى: ﴿لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفۡجُرَ لَنَا مِنَ ٱلۡأَرۡضِ يَنۢبُوعًا ٩٠﴾ [الإسراء: 90] إلى آخرِ ما ذكره اللّه عنهم هناك في هذه السّورة؛ فأنبأهم اللّه بأنَّ إرسالَ الرُّسل للتَّبليغ والتَّبشير، لا للتَّلهّي بهم باقتراح الآيات[1].

تحتملُ الجملةُ الاستئنافَ لبيانِ الغرَضِ مِن إرسالِ الرُّسلِ

يجوز في الآية أنْ تكونَ كلامًا مستأنَفًا؛ لبيان الغرضِ من إرسالِ الرُّسلِ - عليهم السلام - أي: مُبشرّين لمن أطاعَهم بحُسنِ الجزاءِ، ومُنذرين لمن عصاهم بسوءِ المُنقلب[2]، ولإظهارِ أنَّ ما يقترحه الكفرةُ مِنَ المعجزاتِ ليس ممّا يتعلَّقُ بالرِّسالةِ أصلًا[3].

دَلالةُ القصْرِ في الآية:

حَصْرُ الهدفِ مِنَ الرِّسالةِ بالتَّبشيرِ والإنذارِ، ونفيُ غيرِهما ممَّا يتصوَّرُ الظالمون

الآية فيها قصْرُ قَلْبٍ[4]، لنفيِ ما يظنُّه النّاس في شأن الرُّسلِ ووظيفتِهم - عليهم السلام - أي: ليس من وظيفةِ الرُّسل أن يأتوا النّاسَ بما يقترحونه عليهم منَ الآيات، وإنَّما قصدُهم التَّبشيرُ والإنذارُ[5]، "والقصرُ إضافيٌّ للرَّدِّ على من زعموا أنَّه إن لم يأتِهم بآية كما اقترحوا؛ فليس برسولٍ من عندِ اللّه، فهو قصرُ قَلْبٍ، أي: لم نُرسلِ الرَّسولَ للإعجاب بإظهار خوارقِ العاداتِ"[6].

إيثارُ التَّعبيرِ بالفعلِ المضارعِ ﴿نُرۡسِلُ﴾:

مِنَ العاداتِ الإلهيَّةِ تجدُّدُ إرسالِ الرُّسلِ رحمةً بالعبادِ

عبَّرَ عن إرسالِ الرُّسل في قولِه جلَّ شأنُه: ﴿وَمَا نُرۡسِلُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَۖ﴾ بالفعلِ المضارعِ، دونَ (أرسلنا)؛ "لبيانِ أنَّ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 7/238.
(2) الشّوكاني، فتح القدير: 2/134.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/135.
(4) قصرُ القلب: عكس الحكم الذي اشتمل على القصرِ؛ لأنّ الغرض منه قلبُ ما عند المخاطَبِ، فإذا اعتقد المخاطَبُ عكسَ الحكم الذي تُثبته نحو: ما سافر إلا عليّ، ردًّا على منِ اعتقدَ أنّ المسافرَ خليلٌ لا عليٌّ، فقد قلبتَ وعكستَ عليه اعتقادَه. يُنظر: القزويني، الإيضاح: 3/15، وعصام، الأطول شرح تلخيص مفتاح العلوم: 1/540، وأحمد الهاشمي، جواهر البلاغة، ص: 173.
(5) الزّجاج، معاني القرآن وإعرابه: 2/250، وابن عطية، المحرر الوجيز: 2/293.
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 7/238.

ذلك أمرٌ مستمرٌّ جرتْ عليه العادةُ الإلهيةُ"[1]، ومع استمرارِها فإنَّ المرادَ الاستمرارُ على الحالَين المذكورَين كذلك، وهما التَّبشيرُ والإنذارُ، أي: "تجدُّدُ الإرسالِ مُقارنًا لهذين الحالَين"[2].

علَّةُ وصفِ الرُّسلِ بالبِشارةِ والإنذارِ:

مهمَّةُ الرُّسلِ الإبلاغُ من غيرِ إرغامٍ، أو تحمُّلِ وزرٍ

نصَّتِ الآيةُ على الوصْفَين: ﴿مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ إظهارًا لِعلَّة الإرسال، وهي البلاغُ، فليس عليهم أن يحمِلوا النّاسَ على الهدايةِ إن لم يهتدوا، ولا يتحمَّلوا وِزرَ العُصاة إن عصَوْا[3].

معنى التَّبشيرِ والإنذارِ في الآية:

التَّرغيبُ والتَّرهيبُ منهجُ الأنبياءِ في الدَّعوةِ

المرادُ بهما: التَّرغيبُ والتَّرهيبُ، مُبشِّرين بسَعةِ الرِّزقِ في الدُّنيا والثَّوابِ في الآخرةِ، يدلُّ على ذلك قولُه تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف: 96]، ومعنى ﴿وَمُنذِرِينَ﴾: مخوِّفون عقابَ اللّٰه[4].

وتعبيرُ القرآنِ عن وظيفةِ الرُّسلِ يُشيرُ إلى أنَّ النّاسَ في قَبولِ الدَّعوةِ يَنقسمون إلى فريقين، فريقٌ يؤمنُ بها؛ فتُبشرُّه الرُّسلُ بالجزاء الحَسَنِ في الدُّنيا والآخرة كما سبق ذكرُه، والفريقُ الثّاني: الذين يَعترضون على الأنبياء ودعواتِهم، يحذِّرونَهم ويخوِّفونَهم من سوءِ العاقبة في الدُّنيا والآخرةِ.

دَلالةُ التَّعبيرِ بالمرسَلين على مقامِ الفضلِ تحمُّلًا وتبليغًا:

اختارَ التَّعبيرَ بالمُرسلين، وهو اسمُ مفعولٍ للدَّلالةِ على أنَّ أمْرَ الرِّسالةِ محضُ فضلٍ منَ اللّٰه، وليس باكتسابِ البَشر، وفيه إشارةٌ إلى أنَّ دورَهم حملُ الأمانة وتبليغُها.

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/135.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 7/238.
(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 5/2506.
(4) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 6/429.

القصدُ إلى البِشارةِ قبل النِّذارة دعوةً لتوقيتها شرعة:

قُدِّمتِ البِشارةُ للإعلامِ بأنَّ الرُّسلَ - عليهم الصّلاةُ والسّلامُ - يَحرصون على إيمانِ من يدعونَهم، ويقدِّمون لهم الأدلَّةَ، وما أعدَّه اللّه لهم منَ الثَّوابِ، ويُبشِّرونهم بالنَّعيم المُقيمِ، وفي هذا تعليمٌ للدُّعاة أن يبدؤوا بالبِشارة قبل النِّذارةِ.

دَلالةُ الجمعِ بين البِشارةِ والنِّذارةِ في قولِه: ﴿مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾:

جمعَ بينهما كنايةً عن وظيفةِ الرُّسلِ وهي التَّبليغُ، ويلزمُ منه التَّبشيرُ لمن آمن والتَّحذيرُ لمن عصَى.

دَلالةُ الفاءِ في قولِه جلَّ شأنُه: ﴿فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ﴾:

الفاءُ للتَّفريعِ وترتيبِ ما بعدَها على ما قبْلَها[1]، فما قبْلَ الفاءِ التَّفريعيَّةِ يُسبِّبُ ما بعدَها، فالإيمانُ والكفرُ يترتَّبان على الرِّسالةِ ويتفرَّعان عنها.

الإيمانُ وحدَه ليس كافيًا بل لا بدَّ منَ العملِ الصّالحِ

دَلالةُ الجمعِ بين ﴿ءَامَنَ﴾ و﴿وَأَصْلَحَ﴾:

جمعَ القرآنُ بينَهما للإشارة إلى أنَّ الإيمانَ وحدَه لا يكفي، بل لا بدَّ منَ العملِ الصّالحِ؛ فالإيمانُ من غيرِ عملٍ يكونُ أجوفَ لا يُنتجُ آثاراً صالحةً، ولذلك تجدُ القرآنَ الكريمَ يحرصُ دائمًا على الجمع بين الإيمانِ والعملِ الصّالحِ في كثيرٍ من آياتِه.

دَلالةُ اختيارِ ﴿وَأَصْلَحَ﴾ دونَ (وعمل صالحًا):

آثرَ القرآنُ الكريمُ التَّعبيرَ بالفعل ﴿وَأَصْلَحَ﴾ للإشارةِ إلى أنَّ المشركين أفسدوا فطرتَهم باتّخاذِهم شركاءَ من دونِ اللّه، وبعدم توظيفِهم الآياتِ التي أنزلَها اللّه على رُسلِه في إصلاح نفوسِهم؛ لذلك كان التَّعبيرُ بالفعل ﴿وَأَصْلَحَ﴾ هو المناسبُ للمَقام؛ لأنَّ التَّخليةَ مُقدَّمةٌ على التَّحليةِ.

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/135، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 7/238.

دَلالةُ تقديمِ الخوفِ على الحُزن:

في قولِه جلَّ شأنُه: ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ قدَّمَ الخوفَ على الحُزن في النَّفيِ مراعاةً للمَقام[1]؛ إذْ يومُ الحساب مُخوِّفٌ أكثرَ منَ الحزن على فوات الثَّواب.

إيثارُ التَّعبيرِ بالجملةِ الاسمية:

في قولِه جلَّ شأنُه: ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾: "الجملةُ الاسميةُ تدلُّ بمعونةِ المقامِ على استمرار الثُّبوت، فإذا دخل عليها حرفُ النَّفيِ؛ دلَّت على استمرار الانتفاءِ لا على انتفاءِ الاستمرارِ"[2].

دَلالةُ التَّعبيرِ بالفعلِ المضارعِ المَنفيِّ:

في قولِه جلَّ شأنُه: ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾: "المضارعُ الخالي عن حرف النَّفيِ يفيدُ استمرارَ الثُّبوتِ، فإذا دخل عليه حرفُ النَّفي؛ يفيدُ استمرارَ الانتفاء"[3]، وليس المرادُ نفيَ الدَّوام، بمعنى: أنَّهم يَحزنون ولكنَّ حزنَهم لا يدومُ، فهذا المعنى ليس صحيحًا؛ لأنَّ نفيَ المضارع يدلُّ على استمرار الحدثِ المَنفيِّ، فهم لم يحزنوا، ولن يحزنوا، وذلك للمبالغة في شأن جزاءِ المؤمنين فهم لا يتطرَّق إليهم خوفٌ ولا حزنٌ على وجه الثُّبوت والاستمرار.

سرُّ التَّعبيرِ عنِ الخوفِ بالاسم، والحزنِ بالفعل:

في قوله: ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ جاء التّعبيرُ بالاسم في حقّ الخوف، وبالفعل في حقّ الحزن؛ لأنَّ الخوفَ يتعلَّقُ بالمستقبل، والحزنَ بالماضي؛ فالإنسان يخافُ من مستقبلِه، ويحزنُ على ما فاتَه في الماضي، ومعلومٌ أنَّ الإنسانَ يتعلَّقُ بالمستقبل، وخوفُه وتألُّمُه منه أشدُّ من تألُّمِه على الماضي؛ لأنَّ طبيعةَ الإنسان تتناسى الماضي؛ إذا بعُدَ زمنُه، بخلاف المستقبل؛ فيشتدُّ الخوفُ منه متى قربَ أمرُه، وتأكَّدَ ثبوتُه في النَّفس[4].

دَلالةُ تقديمِ الخوفِ على الحُزنِ في الآية:

قدَّمَ الخوفَ على الحُزنِ في الآية تماشيًا مع طبيعةِ النَّفس الإنسانيةِ في حرصِها على المنافعِ والمصالحِ الدُّنيوية المُستقبَلَةِ، وأيضًا تماشيًا مع طبيعتِها في نسيان الماضي.

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/135.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/136.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/136.
(4) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/312.

دَلالةُ التَّعبيرِ بالإفرادِ في ﴿ءَامَنَ وَأَصۡلَحَ﴾ والجمعِ في ﴿وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾:

جمعَ الضَّمائرَ مُراعاةً لمعنى (مَن)، وأفردَ في الفعلَيْن مراعاةً للفظِها.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الإرسال والبعث:

عبَّرَ بالفعل ﴿نُرۡسِلُ﴾ دون (نبعثُ)؛ لوجود فرقٍ بينهما؛ لأنَّ الإرسالَ يحملُ معنى الانبعاث على تؤدةٍ، وهذا فيه إشارةٌ إلى أنَّ اصطفاءَ اللّٰه رُسلَه مبنيٌّ على حكمتِه وعلْمِه، قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥۗ﴾ [الأنعام: 124]، وفيه ردٌّ على قولِ المُشركين لمّا قالوا: ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ عَظِيمٍ ٣١﴾ [الزخرف: 31]؛ ولأنَّه يدلُّ على الرِّفق، فتقولُ: على رِسْلِكَ، إذا أمرتَه بالرِّفق، وفي هذا إشارةٌ إلى رِفق الرُّسل بالمُرسَل إليهم.

حكمةُ اللّٰه وراسخُ علمِه مَبْنَى اصطفاءِ اللّٰه للرُّسل

﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَمَسُّهُمُ ٱلۡعَذَابُ بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ ٤٩﴾

[الأنعام: 49]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

كما أنَّ للمُصدِّق ثوابًا، فإنَّ للمكذِّب عقابًا

لَمّا ذكرَ ثوابَ المُصدِّقِ في الآية السّابقةِ، أعقبَه بذكرِ عقابِ المُكذِّبِ في قولِه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَمَسُّهُمُ ٱلۡعَذَابُ﴾[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَمَسُّهُمُ﴾: (مَسَّ) أَصْلٌ يدلُّ عَلَى جَسِّ الشَّيءِ باليدِ[2]، والمسُّ: مباشرةُ الجسم[3]، وهو التقاءُ الشَّيئَيْن من غير فصلٍ، ﴿يَمَسُّهُمُ ٱلۡعَذَابُ﴾، لأنَّه يحلُّ فيهم، وكأنَّه مماسٌّ لهم[4]، أي: يُباشرُهم، ويلصقُ بهم[5].

2) ﴿يَفۡسُقُونَ﴾: (فسق) الفِسقُ: الخروجُ عنِ الطاعة[6]، تقول العرب: فَسَقَتِ الرّطبةُ؛ إذا خرجت عن قِشْرها، وفَسَقَ الرّجلُ، أي: فَجَرَ، وخرج عن أمر ربِّه[7]، أي: خرج عنِ الحدِّ في كفرانِه وعِصيانِه[8].

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

جزاءُ من يكفرُ بآيات اللهِ مصاحبةُ العذابِ الشَّديدِ

يُخْبرُ اللّه تعالى عن جزاءِ من لم يُؤمنْ، أي: الذين كذَّبوا بآياتنا التي أرسَلْنا بها الرُّسلَ يُصيبُهم العذابُ، ويلاصقُهم، في الدُّنيا أحيانًا عند الجُحودِ والعنادِ، وفي الآخرة على سبيل الدّوامِ

(1) الواحدي، البسيط: 8/151.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (مسّ)، وابن منظور، لسان العرب: (مسس).
(3) السّمين، عمدة الحفّاظ: (مسس).
(4) الواحدي، البسيط: 8/151.
(5) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/293.
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (فسق).
(7) الجوهري، الصحاح: (فسق).
(8) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/293.

والاطِّرادِ، جزاءَ كفرِهم وإفسادِهم، وخروجِهم عن أمرِ اللّٰه وطاعتِه، وارتكابِهم مَناهيَه ومَحارمَه[1].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ الوصلِ في الآيةِ:

الوصلُ إتمامُ مقابلةِ كلِّ حالٍ بجزائِهِ

(الواو) عاطفةٌ، عَطفت قولَه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ﴾ على قولِه: ﴿فَمَنۡ ءَامَنَ﴾، ويكونُ ذلك من باب ذكرِ المُكذِّبين والجزاءِ المُعدِّ لهم بعد الجزاءِ المعَدِّ للمؤمنين، فالوصلُ لإتمام مقابلة الحالين بجزاءَيْهما، وإظهارِ نعمة مجازاة المؤمنين.

إيثارُ التَّعبيرِ عنِ المكذِّبين بالاسمِ الموصولِ:

حقَّقَ البيانُ القرآنيُّ صفةَ ذمِّ المكذِّبين، وبيَّن سببَ الحكمِ، واستحقاقَهم له

في قولِه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ عَبَّرَ عنِ المكذِّبين بالاسمِ الموصولِ، دونَ الوصفِ، فلم يقلْ: (والمكذّبون يمسُّهم)؛ للدَّلالةِ على صفةِ ذمِّهم وبيانِ العلَّةِ في جزائِهم، واستحقاقِهم لهذا الذمِّ، فضلًا عمّا في الموصول من دلالة العُموم.

نكتةُ إضافةِ الآياتِ إلى ضميرِ الجمعِ:

تعظيمُ آياتِ الله أمرٌ عقديٌّ

في إضافة الآياتِ إلى ضمير المُعَظِّم نفسَه ﷻ في قولِه تعالى: ﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾؛ إشارةٌ إلى أنَّ ما ينطِقُ به الرُّسلُ - عليهم السلام - عند التَّبشيرِ والإنذارِ هو آياتُه تعالى، وفيهِ منَ التَّرغيبِ في الإيمان به والتَّحذيرِ مِن تكذيبِه ما لا يخفَى[2].

وجْهُ التَّعبيرِ بالفعلِ الماضي المضعَّفِ ﴿كَذَّبُواْ﴾:

القصدُ إلى المبالغةِ في تأكيدِ كذِبِ المكذِّبينَ

عبَّرَ بالفعلِ الماضي دونَ المضارعِ؛ للدَّلالةِ على تحقُّقِ وقوعِ الكذبِ، وأنَّهم بالغوا في التَّكذيبِ بآيات اللّٰهِ التي أنزلَها اللّٰه على رُسلِه، وأنَّ ذلك التَّكذيبَ لم يكنْ جهلاً منهم، بل كان عمْدًا، يؤكِّد ذلك التَّضعيفُ في الفعلِ ﴿كَذَّبُواْ﴾.

(1) المراغي، تفسير المراغي: 7/128.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/136.

إيثارُ التَّعبيرِ عنِ العذابِ بالمسِّ دونَ غيرِه:

لسُوءِ صنيعِ المكذِّبين جُعِلَ العذابُ طالبًا لهم

عبَّرَ سبحانه عن عذابِهم بـ﴿يَمَسُّهُمُ﴾، فجعلَ العذابَ هو الطّالبَ أن يصلَ إليهم، فكأنَّه حيٌّ مُريدٌ، قريبٌ منهم يفعلُ بهم ما يشاءُ مِنَ الآلام[1]، ولأنَّ موضعَ الإحساسِ بالألم هو الجِلدُ، فمسُّه بالعذاب هو الإيلامُ الشَّديدُ[2].

فائدةُ التَّعبيرِ عنِ المسِّ بالفعلِ المضارعِ:

من صُوَرِ إرعابِ المكذِّبين أنَّ عذابَهم دائمُ التَّجدُّدِ

عبَّرَ عن عذابِهم بالفعلِ المضارعِ ﴿يَمَسُّهُمُ﴾؛ دلالةً على تجدُّدِ ذلك العذابِ واستمرارِه، فقولُه تعالى: ﴿يَمَسُّهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ أي: الدّائمُ المُتجدِّدُ المستمرُّ[3]، بحيث إنَّه لا ينقطعُ، تصويرًا لمشهد المسِّ تهويلًا وتخويفًا للسّامعين.

بلاغةُ الاستعارةِ في إسنادِ المسِّ إلى العذابِ:

المسُّ من خواصِّ الأحياءِ، وأُسنِدَ إلى العذابِ تصويرًا لشدَّتِه

وفي جَعْلِ العذابِ ماسًّا إيذانٌ بتنزيلِه منزلةَ الحيِّ الفاعلِ لما يريدُ، ففيه استعارةٌ مكنيةٌ[4]، أو هي استعارةٌ تصريحيَّةٌ تبعيَّةٌ؛ إذ شبَّهَ العذابَ بكائنٍ حيٍّ يفعلُ بهم ما يريده من الآلام؛ لأنَّ المسَّ من خواصِّ الأحياء[5]، وذلك أوقعُ في النفس تمثُّلًا لإيلامه وشدَّته.

دَلالةُ الباءِ في قولِه جلَّ شأنُه: ﴿بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ﴾:

إيقاعُ العذابِ مِن عدالةِ اللهِ تعالى معَ خَلْقِه

الباءُ في قولِه ﷻ: ﴿بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ﴾؛ لبيان سببِ عذابِهم، فهمُ استحقّوا العذابَ "بسبب فسقِهم وخروجِهم عن طاعة الله تعالى بالكفر"[6]، ليبيِّنَ أنَّهم نالوا ذلك بفعْلِهم، وليس حُكمًا منَ الله تعالى، فإنَّه لا يظلمُ أحدًا مثقالَ ذرَّةٍ.

---

(1) الزمخشري، الكشاف: 2/25، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/517، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 2/163، والبقاعي، نظم الدرر: 7/121.

(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 5/2507.

(3) البقاعي، نظم الدرر: 7/121.

(4) الآلوسي، روح المعاني: 7/154.

(5) محمد عفيف، الشامل في بلاغة القرآن: 1/342.

(6) النسفي، مدارك التنزيل: 1/505، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/136.

سرُّ تقييدِ العذابِ بالفِسْقِ:

الفِسْقُ الموجبُ العذابَ هو المقترنُ بالكفرِ

قيَّدَ العذابَ بالفِسق في قولِه جلَّ شأنُه: ﴿يَمَسُّهُمُ ٱلْعَذَابُ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّه ليس كلُّ فِسقٍ موجِبًا العذابَ، بل الفسقُ مع الكفر؛ لأنَّ ظاهرَ الآية يُشعرُ أنَّه تعالى علَّلَ عذابَ الكفّار بكونِهم فاسقين، وهذا يقتضي أن يكون كلُّ فاسقٍ كذلك، لكنَّ هذا مُعارَضٌ بأنَّه خصَّ الذين كذَّبوا بآيات اللّه بهذا الوعيد، وهذا يدلُّ على أنَّ من لم يكن مُكذِّبًا بآيات اللّه تعالى لا يلحقُه الوعيدُ أصلًا[1]، فالعذابُ للكافرين بسببِ فسْقِهم الذي أدَّى بهم إلى الكفر، وليس لكلِّ فاسقٍ.

نكتةُ التَّعبيرِ بالفِسقِ دونَ التَّكذيبِ:

القصدُ إلى التَّعميمِ برفعِ الأنواعِ إلى جنسِ الفِسقِ مبالغةٌ في الذَّمِّ

آثرَ القرآنُ التَّعبيرَ بالفِسقِ دونَ التكذيب؛ لأنَّ الفسقَ معناه الخروجُ، فهو أعمُّ منَ التَّكذيب؛ لأنَّه نوعٌ من أنواعه، فالفسقُ يشملُ الكفرَ والشِّركَ والتَّكذيبَ؛ لذلك كان التَّعبيرُ مُشيرًا إلى أنَّهم جمعوا كلَّ هذه الأنواعِ.

فائدةُ التَّعبيرِ بالفعلِ (كانوا):

الإتيانُ بما يدلُّ على تثبيتِ الفِسقِ والدَّوام عليه؛ تعليلًا لاستحقاقِ العذابِ

آثرَ القرآنُ الكريمُ الإتيانَ بالفعلِ ﴿كَانُواْ﴾ في قولِه جلَّ شأنُه: ﴿بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ﴾، ولم يقلْ: (بما يفسقون)؛ لأنَّ الإتيانَ بهِ يفيدُ الدَّلالةَ على الاستمرارِ؛ "لأنَّ (كان) إذا لم يُقصَدْ بها انقضاءُ خبرِها فيما مضى دلَّتْ على استمرارِ الخبرِ بالقرينةِ، كقولِه تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾"[2].

توجيهُ مجيءِ خبرِ (كان) جملةً مضارعيَّةً:

من رحمةِ اللهِ تعالى مقابلةُ تجدُّدِ الفِسقِ بحِلْمِهِ سبحانه

جيءَ بخبرِ (كان) جملةً مضارعيَّةً؛ للإشارةِ إلى أنَّ فِسْقَهم كان مستمرًّا متجدِّدًا مُتكرِّرًا[3]، وفيه إشارةٌ إلى حِلْمِ اللّه عليهم؛

(1) الرازي، مفاتيح الغيب: 12/537.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 7/239.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/136، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 7/239.

فلم يأخذْهم بالعذابِ من أوَّلِ مرَّة، بل حذَّرهم ونهاهم على ألسنةِ رُسلِه، ومع ذلك أصرّوا على الفِسقِ والخروجِ؛ لكونهم "يُديمون الخروجَ ممّا ينبغي الاستقرارُ فيه منَ الإيمان وما يقتضيه، وأمّا الفِسقُ العارضُ؛ فإنَّ صاحبَه يصدرُ التَّوبةَ منه، فيُعفَى عنه"[1].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

اللَّمس، والمسّ، والجسّ:

المـسُّ إصـابـةٌ مُدركَةٌ مقصودةٌ مآلُها إلى التَّأثُّر

اللَّمس: إدراكٌ بظاهر البشرة، فهوَ لصوقٌ بإحساس، وهو أَعمُّ مِمّا هوَ بِاليَدِ، وقد يُقال لطلب الشَّيْء وإن لم يوجد، والمسُّ: الإصابة، وهو في اللّغة التقاءُ الشَّيئين من غير فصل، أوِ الجمعُ بين الشّيئين على نهاية القُرب، ويُقال فيما مَعَه إدْراكٌ بحاسة اللّمس، فحقيقتُه اللَّمسُ باليد، ونُقِلَ منَ الإحساس إلى المعاني، ليكنَّى بِهِ عَنِ النِّكاح والجُنون، وقد يُقالُ في كلِّ ما ينالُ الإنْسان من أَذًى[2]، فالمسُّ اتّصالُ الشَّيء بالبَشرة بحيث تتأثَّر الحاسّة به، واللَّمسُ كالطلب له ولذلك يقال: ألمسُه فلا أجده[3]، ومن هنا فالمسُّ واللَّمس والجسُّ متقاربة، إلا أنَّ الجَسَّ عامٌّ في المحسوسات، والمسُّ فيما يخفى ويدقُّ، والمسُّ واللّمس بظاهر البَشرة[4]، ويناسبُ معنى الإصابة المدركَةِ المقصودة دلالةُ لفظ المسِّ في الآية بوصفه سبيلَ إيصال العذاب المستحق جزاءً لتكذيبهم بآيات الله سبحانه.

المـسُّ: إذاقتُهم الإيلامَ الشَّديدَ الذي لا يفنِيهم

عبَّرَ بالمَسِّ دونَ اللَّمسِ؛ لأنَّ اللَّمسَ يكونُ باليد خاصَّةً ليُعرف اللّينُ منَ الخُشونةِ والحرارةُ منَ البُرودةِ، والمسُّ يكونُ باليد وبالحَجر وغيرِ ذلك، ولا يقتضي أن يكونَ باليد، ولهذا قال تعالى:

(1) البقاعي، نظم الدرر: 7/121.

(2) الراغب، المفردات: (مسس، ولمس)، وأبو حيان، البحر المحيط: 1/231، والكفوي، الكليات، ص: 799.

(3) البيضاوي، أنوار التنزيل: 1/90.

(4) أبو حيان، البحر المحيط: 1/231.

﴿مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ﴾ [البقرة: 214]، وقال: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ﴾ [الأنعام: 17] ولم يقلْ: يلْمسْكَ[1]، ومنه هذا الموضعُ، فهو مسُّ العذابِ، ولا يكونُ باليدِ، واختارَ المسَّ دونَ اللَّمسِ في إصابة العذابِ وإدخالِهم جهنَّمَ بالمسِّ؛ لأنَّ موضعَ الإحساس بالألم هو الجلدُ، فمسُّه بالعذاب هو الإيلامُ الشَّديدُ[2]، وذكرَ البعضُ أنَّه أُشيرَ بالمَسِّ إلى أنَّ العذابَ لا يأخذُهم بحيث يُعدمُهم حتى يتخلَّصوا بالهلاك[3].

(1) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 303، والواحدي، البسيط: 8/151.

(2) أبو زهرة: زهرة التفاسير: 5/2507.

(3) الآلوسي، روح المعاني: 7/155.

﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ إِنِّي مَلَكٌۖ إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّۚ قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُۚ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ٥٠﴾ [الأنعام: 50]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

بشريَّةُ النَّبيِّ ﷺ من دلائلِ نبوَّتِه

لما تحدّثتِ الآياتُ القرآنيةُ عن عنادِ المشركين مع النَّبيِّ ﷺ في طلبِهم منه لآياتٍ غريبةٍ، ومُقترحاتٍ غيرِ مقبولةٍ ليست من مهامِّه ﷺ ولا هي من وظائفِ الرِّسالة؛ جاءت هذه الآيةُ لتردَّ عليهم، فقال الله لنبيِّه ﷺ: قلْ لهؤلاء: أنا لا أدَّعي لكم أنَّ عندي خزائنَ الله أملكُها، وأتصرَّفُ فيها، ولم أدَّعِ أنِّي أعلمُ الغيبَ الذي استأثر الله بعلمِه، ولم أدَّعِ أنِّي مِنَ الملائكةِ، وإنَّما أنا بشرٌ شرَّفني الله بالنُّبوَّة، وما أتَّبعُ إلا ما يوحَى إليَّ فقط[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿خَزَآئِنُ﴾: (خزن) أصلٌ يدلُّ على صيانة الشَّيءِ، يقال: خزنتُ الدِّرهمَ والسِّرَّ[2]، والخِزانةُ، واحدةُ الخَزائِنِ: اسْمُ المَوْضِعِ الَّذي يُخْزَن فيهِ الشَّيْءُ[3]، ﴿لَّآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ﴾، وخزائنُ الله مقدوراتُه، وخزائنُ رزقِه، ورحمتِه[4].

2) ﴿تَتَفَكَّرُونَ﴾: الفاءُ والكافُ والرّاءُ يدلّ على تردُّد القلبِ في الشَّيءِ، وتفكَّرَ؛ إذا ردَّد قلبَه مُعتبِرًا[5]، والتَّفَكُّرُ: التَّأمُّلُ[6]، وهو

(1) حجازي، التفسير الواضح: 7/87.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (خزن).
(3) الجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب: (خزن).
(4) الواحدي، البسيط: 8/152، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 2/163، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 6/430.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (فكر).
(6) الجوهري، الصحاح: (فكر).

إعمالُ الخاطِرِ في الشَّيْءِ[1]، والتَّفكُّرُ: جولانُ تلك القوَّةِ بحسب نظرِ العقل، وذلك للإنسان دونَ الحيوان، والفكرُ: هو بحثُ الأمور طلبًا للوصولِ إلى حقيقتِها[2]، ﴿أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾، أي: أفلا تَعتبرون؟[3]

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

يُخبرُ اللّه تعالى النَّبيَّ ﷺ أن يقولَ للنّاس: إنّي لا أدَّعي ما يُستبعدُ في العقولِ أن يكونَ لبشرٍ من مُلك خزائنِ اللّه ورزقِه لعبادِه، ولا أدَّعي علمَ الغيبِ، ولا أنّي منَ الملائكة، أي: لم أدَّعِ إلهيةً ولا مَلَكيَّةً، حتَّى تستبعدوا دعوايَ، وتستنكروها، وإنَّما أدَّعي ما كان مثلُه لكثيرٍ منَ البشر، وهو النُّبوَّةُ، وإنَّما أنا تابعٌ متَّبِعٌ للوحيِ[4].

عِلمُ الغيبِ مخصوصٌ باللّه استئثارًا ويبلِّغُه نبيَّهُ وحيًا

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ الفصلِ في الآية:

لم تُعطفْ هذه الجملةُ على ما قبْلَها؛ لأنَّها "استئنافٌ مبنيٌّ على ما جرتْ عليه السُّنَّةُ الإلهيةُ في شأنِ إرسالِ الرُّسلِ، مَسوقٌ لإظهار تبرئتِه ﷺ عمّا يدورُ عليه مُقترحاتُهم[5]، والغرضُ منه تأكيدُ حصْرِ وظيفةِ الرُّسلِ عليهم السلام بتجريدِهم منَ القُدراتِ المُخالفةِ لصفةِ البشريَّةِ.

تبرئةُ النَّبيِّ ـ ﷺ ـ من ادِّعاءِ ما يُستَبعدُ في العقول

دَلالةُ افتتاحِ الكلامِ بفعلِ القولِ:

افتُتِح الكلامُ بالأمرِ بالقولِ في قولِه جلَّ شأنُه: ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ﴾؛ للاهتمامِ بإبلاغِه؛ ودليلُ الاهتمامِ بهذا القولِ أنَّ الرّسولَ ﷺ مأمورٌ بتبليغِ ما في القرآن كلِّه، وذلك بأن يقولَه لهم[6].

تلقينُ الحُجَّةِ للنَّبيِّ ـ ﷺ ـ دليلُ عنايةِ المولَى به

(1) ابن منظور، لسان العرب: (فكر).
(2) الراغب، المفردات: (فكر).
(3) الواحدي، البسيط: 8/154.
(4) الزمخشري، الكشاف: 2/25.
(5) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/136.
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 7/221، 240.

المواجهةُ بالخطابِ تقتضي تقويةً لفعلِ القَولِ

فائدةُ (لام) التَّبليغِ في قولِه: ﴿لَكُمْ﴾:

عبَّرَ بلام التَّبليغِ في قولِه جلَّ شأنُه: ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ﴾؛ تقويةً لفعلِ القولِ؛ لأنَّه يواجهُ قومًا بالخطابِ.

ذكْرُ (لكم) هنا لتقويةِ فعلِ القولِ

بيانُ المُتشابهِ في ذكرِ لفظِ ﴿لَكُمْ﴾:

عبَّرَ بتوجيهِ الخطابِ ﴿لَكُمْ﴾ هنا دونَ موضعِ هودٍ، حيث وردَ مُجرّدًا عنها، وهو قولُه تعالى: ﴿وَلَآ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ﴾ [هود: 31]، وهذه اللّامُ " لامُ التَّبليغِ، وهي مفيدةٌ تقويةَ فعلِ القولِ عندما لا تكونُ حاجةٌ لذكرِ المواجَهِ بالقول"[1]، فكأنَّه يسألُهم: هل بلغَكُم أنّي أدَّعي قُدرةً ما؟ وثمَّةَ توجيهٌ آخرُ مُفادُه أنَّه لم يُكَرَّر (لكم) في (هود) لتقدُّم (لكم) مرّاتٍ عديدةً، فاكتفيَ به، كقوله: ﴿إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ﴾ [هود: 25]، وعقبُه ﴿وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ﴾ [هود: 27][2]، فلتَكَرُّر (لكم) في آيات سورة هود حذفَه لظهور المخاطَب.

بلاغةُ تكرارِ النَّفيِ:

الإحالةُ على اللهِ في تقريرِ المعجزاتِ، وتأكيدُ نفيها عن غيرِهِ إلَّا بإذنِهِ سبحانه

تكرَّرَ النَّفيُ في قولِه جلَّ شأنُه: ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّ ذلك ليس من خصائصِ النَّبيِّ ﷺ، وليس له أن يأتيَ لهم بما اقترحوه من هذه الآياتِ المذكورةِ إلّا بإذن اللّه؛ لذلك أمرَه اللّه تعالى بنفيِ الإتيان بهذه الأشياء؛ لأنَّ القومَ طلبوا منه إظهارَ المُعجزاتِ، والمعنى: لا أدَّعي إلّا الرِّسالةَ، وأمّا ما طلبْتموه، فلا يمكنُ تحصيلُه إلا بقُدرةِ اللّه، والمرادُ: أنّي لا أدَّعي كَوني موصوفًا بالقُدرةِ اللّائقةِ بالإله، ولا بعلمِه؛ إظهارًا للعجزِ والضَّعفِ، ونفيًا لاستقلالِه بتحصيل هذه المعجزاتِ؛ وبمجموع ذلك حصلَ أنَّه لا يدَّعي الإلهيَّةَ[3]، والمعنى: أنّي لستُ إلهًا لتطلبوا منّي قسمةَ الرِّزقِ، ومعرفةَ الغيبِ[4].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 7/240 - 241.
(2) الكرماني، أسرار التكرار: ص: 109، وابن جماعة، كشف المعاني: ص: 161.
(3) الرازي، مفاتيح الغيب: 12/538، والنيسابوري، غرائب القرآن: 3/81.
(4) الطيبي، فتوح الغيب: 6/94.

السِّرُّ في تخصيصِ المذكوراتِ بالنَّفي دونَ غيرِها:

نفيُ المذكوراتِ في الآيةِ ناسبَ ما قبلَها

خصَّ المذكوراتِ بالنَّفي لمناسبتِها ما تقدَّمَ منَ الآيات التي سألوها في السّورة كقولِه تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ مَلَكٞۖ﴾ [الأنعام: 8]، وقولِه: ﴿فَإِنِ ٱسۡتَطَعۡتَ أَن تَبۡتَغِيَ نَفَقٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [الأنعام: 35][1].

توجيهُ نفْيِ القولِ دونَ نفيِ النِّسبةِ:

نفيُ القولِ أبلغُ من نفْيِ النِّسبةِ وأقوى

في قولِه جلّ شأنُه: ﴿لَّآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ﴾، و﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ إِنِّي مَلَكٞۖ﴾ نفَى القولَ ردًّا لما طلبوه؛ فهو لم يَقرنْ رسالتَه بادِّعاء تلك الصِّفاتِ والقُدرات، فلم يقلْ: (ليست عندي خزائنُ اللّه)، (ولست ملكًا)، كما قال: ﴿وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ﴾، وهذا أقوى وأبلغُ من نفيِ القول؛ لأنَّهم توهَّموا أنَّ ذلك عنده، وللدَّلالةِ على أنَّ هذا القولَ لم يقترنْ بدعوَى الرّسالةِ؛ ردًّا لاقتراحِهم تلك الأمورَ[2].

علَّةُ نفيِ النّبيّ ﷺ معرفةَ الغيبِ، دونَ نفيِ القولِ بمعرفتِه:

أبلغُ في الدَّلالةِ؛ تحقيقًا لمقصدِ استئثارِ اللهِ بالمغيَّباتِ

نفَى معرفتَه بالغيب بقولِه: ﴿وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ﴾ دونَ أن يقولَ: (ولا أقول إني أعلم الغيب)؛ لأنّه أرادَ نفيَ ذلك من أصلِه، لا نفيَ القولِ فقط كما في سابقِه ولاحقِه[3]؛ لأنَّ كونَه ليس عنده خزائنُ اللّه، وكونَه بصورةِ البشر معلومٌ للنّاس، فنفَى ادِّعاءَهما ولم ينفِهما من أصلِهما؛ لأنَّ انتفاءَ ذلك من أصله معلومٌ عندهم، ولمّا كان علمُ الغيب أمرًا قد يدَّعيه كثيرٌ منَ النّاس كالكُهّان؛ نفَى علمَ الغيب من أصلِه[4].

فائدةُ تكرارِ حرفِ النَّفي (لا):

في تَكرار الحرفِ دفْعٌ لتوهُّم إرادةِ نفيِ المجموعِ عطفًا بين المنفيَّات

تكرَّرَ حرفُ النَّفي ثلاثَ مرّات، لبيان أنَّ النَّفيَ يتعلَّقُ بكلِّ واحدةٍ من تلك المَنفيّاتِ، دفعًا لتوهُّمِ أنَّ المقصودَ بالنَّفي مجموعُ الجُملِ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 7/240.
(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/157، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 7/240.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 7/123.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/518 - 519.

الثَّلاثِ، فأُعيدَ مع كلِّ جملةٍ "على طريقة عطفِ المنفيّاتِ بعضِها على بعضٍ؛ لتأكيدِ استقلالِها بالنَّفي، ودفعاً لتوهُّمِ إرادةِ نفي المجموعِ؛ فإنَّ الغالبَ أن يُعادَ معها حرفُ النَّفي للتَّنصيصِ على أنَّ تلك المُتعاطفاتِ جميعَها مقصودةٌ بالنَّفيِ بآحادِها"[1].

براعةُ التَّرتيبِ في الجُملِ المنفيَّة:

التَّرقِّي منَ العامِّ إلى الخاصِّ فالأخصِّ منهجٌ للمُعتَبرِ

في الآية ثلاثُ جُملٍ منفيَّةٍ، وجاء ترتيبُها على سبيل التَّرقّي، فنفَى أوّلًا ما يتعلَّقُ بالرّزق، وهو يتعلَّقُ برغبات النّاس أجمعين، ثمَّ نفَى ثانيًا ما يتعلَّقُ به، وتتشوَّفُ إليه النُّفوسُ الفاضلةُ من معرفةِ ما يجهلون وتَعرُّفِ ما يقعُ منَ الكوائن، ثمّ نفَى ثالثًا ما هو مختصٌّ بذاته، فنفَى صفةَ الملائكة، فترقَّى في النَّفي من عامٍّ إلى خاصٍّ إلى أخصَّ[2].

وجهُ الاستئنافِ في جملةِ: ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾:

نـفـيُ مـعـرفـةِ الـرَّسـولِ ﷺ بـالـغـيـبِ لا ينفي عنهُ صفةَ التَّبليغِ عَنِ الله

موقعُ هذه الجملةِ استئنافٌ بيانيٌّ؛ لأنَّه لمّا نفَى ملكيّةَ الخزائنِ وعلمَ الغيب وكونَه ملكًا؛ كان ذلك مثيرًا للسُّؤال: فماذا تدَّعي بالرّسالةِ؟ لأنَّ الجهلةَ يتوهَّمون أنَّ معنى النُّبوَّةِ هو تلك الأشياءُ المنفيّةُ في قولِه: ﴿لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ﴾، فيُجابُ بقولِه: ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾، أي: ليستِ الرِّسالةُ إلا التَّبليغَ عنِ اللّه تعالى[3].

بلاغةُ الحصْرِ والقصْرِ في الآيةِ:

لا ينطقُ رسولُ الله عنِ الهوى، ولا يدَّعي شيئًا من نفسِه

في قولِه جلَّ شأنُه: ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ حصرَ دعواه في اتِّباع الوحيِ لكونِه نبيًّا، والنُّبوَّةُ من كمالاتِ البشرِ، بعد أن تبرّأ عن دعوَى الألوهيّةِ والمَلَكيةِ؛ ردًّا لاستبْعادِهم دعواه[4]، والغرضُ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 7/241.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/519.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 7/242.
(4) البيضاوي، أنوار التنزيل: 2/163.

منَ القصرِ قلبُ اعتقادِهم أنَّ الرَّسولَ لا يكونُ رسولًا حتى يأتيَهم بالعجائبِ المسؤولَةِ[1]، وهذا تجريدٌ لنفسِه عنِ الابتداع؛ لأنَّه لا يدَّعي شيئًا منكرًا، ولا ما يُستبعدُ في العقول كمُلك خزائنِ اللّه وعلْمِ الغيبِ، وإنَّما ادَّعى كونَه رسولًا، كما كان غيرُه منَ الرُّسل[2].

فائدةُ تكرارِ فعلِ الأمر ﴿قُل﴾:

تكرَّرَ فعلُ القولِ في الآية: ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ﴾، وقولِه: ﴿قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُۚ﴾، تبكيتًا وتقريعًا لهم وتأكيدًا للأمرِ بالتَّبليغِ[3]، وفيه زيادةٌ في التَّنبيهِ، ولتقويةِ الإيمانِ بأنَّه يتكلَّمُ عن ربِّه[4].

تقريعٌ للمُعرِضين، وتقويةٌ لإيمانِ النَّبيِّ الأمين

بلاغةُ الاستفهامِ في الآيةِ:

جاء الاستفهامُ في قولِه جلَّ شأنُه: ﴿هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُۚ﴾ على غير حقيقتِه، والمرادُ منه النَّفيُ لغرض الإنكار، وتقديرُ الكلام: "أنَّهما لا يستويان"[5]، "والمرادُ إنكارُ استواءِ مَنْ لا يعلمُ ما ذُكرَ منَ الحقائق ومَن يعلمُها، وفيه منَ الإشعار بكمالِ ظهورِها، ومنَ التّنفير عنِ الضّلالِ، والتّرغيب في الاهتداء ما لا يَخْفى"[6].

تسويةُ العالمِ بالحقائقِ مع غيرِه مَظنَّةُ الإنكارِ

بَلاغةُ الاستعارةِ في ﴿ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُۚ﴾:

تظهرُ بلاغةُ الاستعارةِ في تشبيهِ مَن لا يَرى الحقَّ بالأعمى، وتشبيهِ المؤمن بالبصير؛ تمثيلًا لنور البصيرةِ، وظلام الضَّلالِ، فقال تعالى: ﴿قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُۚ﴾ والمعنى: إنَّه لا يستوي المتفكّرُ النّاظرُ في الآيات والمُعرضُ المهملُ للنَّظر؛ فالأعمى والبصيرُ

سبيلُ الهدايةِ نورٌ ودرايةٌ، وخُطا الزَّيغِ ظَلامٌ وتيهٌ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 7/242 - 243.
(2) النسفي، مدارك التنزيل: 1/505، وابن جزي، التسهيل: 1/261 - 262.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/137، والقاسمي، محاسن التأويل: 4/365.
(4) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 5/2509.
(5) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 6/430.
(6) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/137، والقاسمي، محاسن التأويل: 4/365، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 5/2509.

مثالان للمؤمن والكافرِ، على سبيل الاستعارة[1] التّصريحيَّة؛ حيث شُبِّهت حالةُ مَنْ لا يفقهُ الأدلَّةَ بحالة الأعمَى الذي لا يعرُف أين يقصدُ؟ ولا أين يضعُ قدمَه؟ وشُبِّهت حالةُ من يميِّزُ الحقائقَ بحالة القويِّ البصرِ، وهذا تمثيلٌ لحال المشركين ولحالِ المؤمنين[2]، فالكلامُ تشبيهُ الضَّلال بالعمَى، وإدراكِ الحقِّ بالبصرِ؛ لأنَّه يعيشُ في نور البصيرةِ، والأوَّلُ يعيشُ في ظلام الجهلِ والضَّلالِ[3].

بيانُ الحضِّ على التَّفكُّرِ في الفاصلةِ:

عرضًا وتحضيضًا بلوازم التَّقريع والتَّوبيخِ

في قولِه جلَّ شأنه: ﴿أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ جاءتِ الدَّعوةُ إلى التَّفكُّرِ "في عبارةِ العرضِ والتَّحضيضِ"[4]، دونَ فعل الأمر أو غيرِه، ليكونَ الطَّلبُ على وجه التَّأكيدِ والحثِّ على فعله، فهو عرضٌ وتحضيضٌ، معناه: الأمرُ؛ تحريضًا على التَّفكير، أي: ففكِّروا[5]، وهو تقريعٌ وتوبيخٌ داخلٌ تحت الأمرِ[6].

بلاغةُ حذفِ متعلّقِ التَّفكُّرِ:

من يتفكَّرْ في الأحوالِ يُحسِنْ ضبطَ المآلِ

حُذِفَ متعلّق التَّفكُّرِ؛ لأنَّه متعلِّقٌ بمضمون الكلامِ السّابقِ، لا مطلقَ التَّفكرِ، والمرادُ أنَّه دعاهم وحثَّهم؛ لأن يَتفكَّروا في مضمون الكلامِ السّابقِ، وتقديرُ الكلام: هلّا تفكَّرتم بأنّي ما ادَّعيتُ ما لا يليقُ بالبشرِ، وأنّي أتَّبعُ ما يوحى إليَّ[7]، يعني: "أفلا تتفكرون في أحوالي وأحوالِكم، لتميِّزوا بين الحقِّ والباطلِ، ولتعلموا الضّالَّ والمُهتديَ؟!"[8].

(1) الهرري، حدائق الروح والريحان: 8/368.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 7/243.
(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 5/2509 - 2510.
(4) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/294، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/519.
(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/519، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 5/2510.
(6) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/137.
(7) النسفي، مدارك التنزيل: 1/506، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/519، والصاوي، حاشية على تفسير الجلالين: 2/15.
(8) الطيبي، فتوح الغيب: 6/96.

نكتةُ تقديمِ العَمى في الذِّكْرِ على البَصَرِ:

قُدِّمَ العَمى في الذِّكْر على البصرِ؛ لأنَّ المشركين يدَّعون أنَّهم مع ضلالِهم وجهلِهم أعلى منْ أَتباعِ النّبيِّ ﷺ الذين آمنوا به؛ لكثرةِ أموالِهم وقلَّةِ أموالِ المؤمنين، فبيَّن اللّه ﷻ أنَّهم لا يمكنُ أن يُساووهم؛ فضلًا عن أن يعلوا عليهم؛ لأنَّ الأعمَى - ولو غنيًّا - لا يُساوي المُبصرَ؛ ولو فقيرًا[1].

إنَّ المشركين أرْدَاهُمْ سوءُ ظنِّهم فادَّعَوا استعلاءَهم عنِ اتِّباع النّبيِّ عليه الصلاة والسّلام

إيثارُ لفظِ التَّفكيرِ على لفظِ الإيمانِ:

آثرَ الخطابُ الإتيانَ بالتَّفكيرِ في قولِه: (أفلا تتفكرون) دون أن يقول: (أفلا تؤمنون)؛ لأنَّه البابُ الموصلُ للإيمان، ولذلك كان عليهم أن يتفكَّروا في أسباب الفقرِ، والغنى، وأسبابِ الفضلِ، وأسبابِ العلوِّ حتى يصلوا إلى الهدى، ويتركوا الضَّلالَ، وذلك من خلال الاعتبارِ بالعظاتِ والأمثالِ التي تساق إليهم[2].

التَّفكُّرُ بوَّابةُ الإيمانِ، وسبيلُ تمثُّلِهِ

وجْهُ اصطفاءِ لفظِ ﴿خَزَآئِنُ ٱللَّهِ﴾:

آثرَ التَّعبيرَ بلفظِ ﴿خَزَآئِنُ ٱللَّهِ﴾؛ لأنَّه مُستعارٌ لتعلُّقِ قُدرةِ اللّه بالإنعام وإعطاءِ الخيراتِ النّافعةِ للنّاسِ في الدُّنيا؛ فشُبِّهتْ تلك التَّعلُّقاتُ الصُّلوحيَّةُ والتَّنجيزيَّةُ في حجبِها عن عيونِ النّاسِ بخزائنِ أهلِ اليسار والثَّروةِ التي تجمعُ الأموالَ والطَّعامَ، ونحوَ ذلك[3].

مُلْكُ اللهِ لا يَسَعُهُ عقلٌ، وأُعطياتُه لا يُحصيها عدٌّ، ولا يحدُّها حدٌّ

نكتةُ تقديمِ لفظةِ ﴿عِندِى﴾:

قُدِّمتْ لفظة ﴿عِندِى﴾ في قولِه تعالى: ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ﴾؛ لمزيد العنايةِ والاهتمامِ في دفع ما يطلبُه المشركون ممّا ليس في قُدرتِه ﷻ.

في التَّقديمِ عنايةٌ بمدافعةِ طلباتِ المشركين

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 5/2510.
(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 5/2510.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 7/241.

سرُّ إفرادِ الغيبِ دونَ جمْعِه:

في صِيَغِ الإفراد نفيٌ لمطلق الغيبِ، ولادِّعاءِ النَّبيِّ ما لا يعلمُ

عبَّرَ بالغيب مُفرَدًا دونَ الجمعِ؛ لأنَّ التَّعبيرَ بالمفردِ يُشيرُ إلى نفيِ مطلَقِ الغيبِ؛ لأنَّ الغيبَ قسمان: غيبٌ مطلقٌ، وغيبٌ مقيَّدٌ، ورسولُ الله ﷺ لا يُخبرُ عنِ الغيبِ المقيَّدِ إلا بإعلامِ الله له، وفيه إشارةٌ إلى أنَّ الرَّسولَ ﷺ لا يدَّعي ما ليس مِن شأن البشرِ، فالغيبُ كلُّه للهِ.

دَلالةُ الإتيانِ بقولِه: ﴿هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُۚ﴾:

العملُ بغيرِ وحيٍ عمًى، والعملُ بوحيٍ بصيرةٌ

جاءت جملةُ ﴿هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُۚ﴾؛ لتأكيدِ المعنى السّابقِ في قولِه: ﴿إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّۚ﴾؛ لأنَّ العملَ بغير الوحي يجري مجرَى عملِ الأعمى، والعملُ بمقتضَى الوحي يجري مجرَى عملِ البصيرِ.

سرُّ التَّعبيرِ بلفظِ: ﴿أَتَّبِعُ﴾:

يبلِّغُ رسولُ الله ﷺ ما يُوحَى إليه، لا ما يُملَى عليه

آثرَ القرآنُ التَّعبيرَ بالاتِّباع في قولِه: ﴿إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّۚ﴾؛ لأنَّه يشيرُ في معناه اللُّغوي إلى الارتسام في القول والفعل، وأنَّه ﷺ لم يكُنْ ليحكمَ في حُكمٍ منَ الأحكام أَو أمرٍ منَ الأمور من تلقاء نفسِه؛ لأنَّه لا ينطق عنِ الهوى، بل كلُّ ما يصدرُ منه ﷺ إن هو إلا وحيٌ يوحَى.

﴿وَأَنذِرۡ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحۡشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ لَيۡسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِيّٞ وَلَا شَفِيعٞ لَّعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ ٥١﴾ [الأنعام: 51]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

توجيهُ الإنذارِ لمن لم تعِظْهُ الآياتُ واجبٌ

لمّا ذكرَ اللّه تعالى في الآياتِ السّابقةِ أنَّ الكفرةَ لا يتَّعظون ولا يخافون، أمره ربُّه في هذه الآية أن يتوجَّهَ بالإنذارِ والاتِّعاظِ لمن يُتوقَّعُ منه الاتِّعاظُ والخوفُ[1].

وأيضًا لمّا وصفَ تعالى الرُّسلَ بكونِهم مبشِّرين ومنذِرين، وأخبرَ أنَّ النَّبيَّ ﷺ لا يتَّبعُ إلا ما يوحَى إليه، أمرَه اللّه تعالى في هذه الآية بالإنذارِ، فقال: ﴿وَأَنذِرۡ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحۡشَرُوٓاْ﴾[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يُحۡشَرُوٓاْ﴾: (حشر) الحشرُ: الجمعُ مع سَوْقٍ وبَعْثٍ[3]، يحشرُهم: يجمعُهم، والحشرُ: جمعُ النّاسِ يومَ القيامة[4]، قال تعالى: ﴿وَحَشَرۡنَٰهُمۡ﴾ [الكهف: 47]، أي: جمعْناهم[5].

2) ﴿شَفِيعٞ﴾: (شَفَعَ) أصلٌ يدلُّ على مقارنةِ الشَّيئَيْن[6]، وملازمتِهما، فـ"الشَّفاعَةُ: الانضمامُ إلى آخرَ ناصرًا له وسائلًا عنه، وأكثرُ ما يُستعملُ في انضمامِ مَن هو أعلى حُرْمةً ومرْتبةً إلى مَن هو أدنى، ومنه: الشَّفاعَةُ في القيامة، ﴿لَّا يَمۡلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحۡمَٰنِ عَهۡدٗا ٨٧﴾ [مريم: 87]"[7]، والشَّفيعُ: صاحبُ الشَّفاعَةِ، وهو

(1) الجمل، فتوحات الوهاب: 2/32.
(2) الرازي، مفاتيح الغيب: 12/539، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/519.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (خزن).
(4) ابن منظور، لسان العرب: (حشر).
(5) السّمين، عمدة الحفّاظ: (حشر).
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (شفع).
(7) الراغب، المفردات: (شفع).

مِن انضمَّ إلى غيره، وعاونَه، وصار مُناصِرًا له، والشَّفاعةُ أن يَشرعَ الإنسانُ للآخر طريقَ خيرٍ أو طريقَ شرٍّ، فيقتدي به، فصار كأنَّه شفعَ له[1].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

هولُ المحشَرِ مَدعاةٌ للتَّبليغ والإنذارِ بما يُوحي الله لنبيِّه ﷺ

يخاطبُ اللّه تعالى النَّبيَّ ﷺ آمرًا إيّاه بأن أَنذرْ بما يوحَى إليك المؤمنين باللّه الذين يخافون أهوالَ الحشْرِ وشدَّةِ الحساب، في ذلك اليومِ الذي لا بيعٌ فيه ولا خلَّةٌ ولا شفاعةٌ، يومَ لا وليٌّ يَنصرُ، ولا شفيعٌ يدفعُ العذابَ، فهؤلاء المؤمنون هم الذين يُرجَى أن يتَّقوا اللّه، ويهتدوا بدعوتِك[2].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

دَلالةُ الأمرِ في قولِه: ﴿وَأَنذِرْ﴾:

وجوبُ الإنذارِ بالقرآنِ، ولزومِ اتِّباعِ أوامرِ الدَّيَّان

دلَّ الأمرُ في قولِه: ﴿وَأَنذِرْ﴾ على أنَّ الرَّسولَ ﷺ مُتَّبِعٌ لأوامرِ ربِّه، ولا يدَّعي الخروجَ عنِ العبوديةِ للّه ﷻ، وفيه ردٌّ على المشركين في رفض مُقترحاتِهم بأنَّها ليست من مهامِّ الرَّسولِ؛ لأنَّ مهمَّتَه البلاغُ.

فائدةُ العطفِ في قولِه: ﴿وَأَنذِرْ بِهِ﴾:

إنذارُ النَّبيِّ الخاتمِ لجميعِ الخلائقِ

جملةُ: ﴿وَأَنذِرْ بِهِ﴾ معطوفةٌ على قولِه تعالى: ﴿قُلْ﴾، والجامعُ في ذلك أنَّ الرّسولَ ﷺ مأمورٌ فيهما بإنذار جميعِ الخلائقِ.

بيانُ مرجعِ الضَّميرِ في قولِه: ﴿بِهِ﴾:

لا يُتَصوَّرُ الإنذارُ والبيانُ من الرسولِ ﷺ إلَّا بالقرآن

الضَّميرُ يرجعُ إلى القُرآنِ الكريمِ، والمرادُ أنَّه يُنذرُ بالقرآن، والدَّليلُ عليه قولُه تعالى قبل هذه الآية: ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾؛ لأنَّ الإنذارَ والتَّخويفَ إنَّما يقعُ بالقول وبالكلامِ لا بذاتِ اللّه تعالى[3].

---

(1) الفيروز آبادي، القاموس المحيط (3/329).

(2) المراغي، تفسير المراغي: 7/133.

(3) الرازي، مفاتيح الغيب: 12/539، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 6/430.

إيثارُ التَّعبيرِ بالاسمِ الموصولِ في: ﴿ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحۡشَرُوٓاْ﴾:

إظهارُ الصِّلةِ أمارةُ المدحِ، واستجلابِ النَّفعِ

عبَّرَ عنهم بالموصولِ دونَ الوصفِ وغيرِه في قولِه جلَّ شأنُه: ﴿ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحۡشَرُوٓاْ﴾؛ "لما تدلُّ عليه الصِّلةُ منَ المدح، ومنَ التَّعليل بتوجيه إنذارِه إليهم دونَ غيرهم؛ لأنَّ الإنذارَ للذين يخافون أن يُحشروا إنذارٌ نافعٌ، خلافًا لحال الذين يُنكرون الحشرَ، فلا يخافونَه فضلًا عنِ الاحتياج إلى شفعاءَ"[1].

السِّرُّ بذكرِ الذين يخافُون الحشرَ دونَ غيرِهم:

تخصيصُ الإنذارِ بالخائفين أدعى لقَبولِهم؛ من غيرِ نفيِ الدَّعوة عن غيرِهم

خصَّ الإنذارَ بالذين يخافون الحشْرَ في قولِه جلَّ شأنُه: ﴿ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحۡشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ﴾؛ لأنَّ الحجَّةَ أُقيمتْ عليهم؛ لأنَّهم أفهمُ بالميعاد"[2]، و" لأنَّ انتفاعَهم بذلك الإنذارِ أكملُ، بسببِ أنَّ خوفَهم يحملُهم على إعداد الزّادِ ليومِ المعادِ"[3]، لأنَّه إنذارٌ خاصٌّ، وهو الإنذارُ المُؤثِّرُ النّافعُ"[4]، فخصَّهم؛ لأنَّهم مظنَّةُ الإيمان[5]، "ولم يُرِدْ أنَّه لا يُنذرُ سواهم، بلِ الإنذارُ العامُّ ثابتٌ مستقرٌّ"[6].

وفيه توجيهٌ للدُّعاة إلى أن يتَّجهوا بدعوتِهم لمن لهم آذانٌ تسمعُ، وقلوبٌ تعقلُ، عند ذلك تُرجى الاستجابةُ لدعوتهم، وظهورُ ثمرتِها في المجتمع.

نكتةُ التَّعبيرِ بالفعلِ المضارعِ ﴿يَخَافُونَ﴾:

الإحالةُ على مَن يَتَجَدَّدُ إيمانُهم بتجدُّدِ خوفِهم

عبَّرَ بالفعلِ المضارعِ ﴿يَخَافُونَ﴾ للدَّلالةِ على تجدُّدِ ذلك منهم ممّا يجعلُ في قلوبِهم رقَّةً تجعلُها تنفتحُ للهدايةِ، ويدخلُها النّورُ بخلاف الذين لا يخافونَ، فقلوبُهم مُظلمةٌ؛ لأنَّها قاسيةٌ، فهي كالحجارةِ تجعلُ ما وراءَها في ظلامٍ دامسٍ.

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 7/244.

(2) الزّجاج، معاني القرآن وإعرابه: 2/251، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 6/430.

(3) الرازي، مفاتيح الغيب: 12/540.

(4) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/158، وابن جزي، التسهيل: 1/262.

(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/519 - 520.

(6) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/294، والقاسمي، محاسن التأويل: 4/367.

التَّعبيرُ بجملةِ الصِّلةِ دونَ الاسميَّةِ (الخائفون):

عبَّرَ باسمِ الموصولِ وصِلتِه في قولِه جلَّ شأنُه: ﴿ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحۡشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ﴾؛ لإفادةِ العُموم، فهو يشملُ كلَّ منْ آمن بالبعثِ من مسلمٍ ويهوديٍّ ونصرانيٍّ مؤمنًا كان أو كافرًا، مُقرًّا به أو متردِّدًا فيه، فإنَّ الإنذارَ ينجعُ فيهم دون الفارغين الجازمين باستحالتِه، فلا يتخصَّصُ بالمسلمين المُقرّين بالبعثِ[1]، وذهبَ البعضُ إلى قصْرِه على المؤمنين، وإن كان الأولَى العمومَ؛ لأنَّه لا عاقلَ إلا وهو يخاف الحشْرَ؛ ولأنَّه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ كان مبعوثًا ومأمورًا بالتَّبليغِ للكلِّ.

القَصْدُ إلى تَعميمِ الخطاب على وجهٍ يتعدَّى المسلمين المُقرِّين بالبَعْثِ

دَلالةُ التَّعبيرِ بالخوفِ بدلًا منَ العلْمِ:

عبَّرَ بالخوف في قولِه: ﴿ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ﴾ مَوضعَ العلْمِ؛ لأنَّ خوفَهم كان من أجل علْمِهم بوقوعِ الحشْرِ ووجودِه، من غيرِ شكٍّ منهم في ذلك[2].

العلمُ سبيلُ الخشيةِ والخوفِ

إيثارُ صِيغةِ الفعلِ المبنيِّ للمفعولِ:

عبَّرَ بالفعلِ المبنيِّ للمفعول في قولِه جلَّ شأنُه: ﴿أَن يُحۡشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّ المرهوبَ هو الحشْرُ نفسُه، فهو جديرٌ بأن يُخشَى لذاتِه، من غيرِ أن يقيَّدَ بكونِه من مُعيَّنٍ[3].

الحشْرُ موقفٌ يستحقُّ الخشيةَ

بلاغةُ التَّعريضِ في لفظ ﴿إِلَىٰ رَبِّهِمۡ﴾:

دلَّ التَّعبيرُ بالجارِّ والمجرور ﴿إِلَىٰ رَبِّهِمۡ﴾ على حشْرِهم إليه ﷻ لا إلى غيرِه، وفي هذا تعريضٌ بالمشركين الذين اتَّخذوا الأصنامَ آلهةً من دونِ اللّٰه؛ لأنَّهم لن يلحظوا لهم وجودَ إنعام وعزٍّ في هذا اليومِ، وفيه ردٌّ على الذين يُنكرون الحشرَ وما فيه.

ليس للكافرين في يومِ القيامةِ وجودُ إنعامٍ يُذكرُ

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/520، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 2/163، والنسفي، مدارك التنزيل: 1/506.

(2) ابن جرير، جامع البيان: 5/200.

(3) البقاعي، نظم الدرر: 7/126.

سرُّ العُدولِ عن ذكرِ المَحشَرِ:

الحشرُ إلى ربِّ العالمين أبلغُ في تقريرِ الخوفِ والخشيةِ

عدلَ عَن لفظِ المكانِ (المَحشر) إلى قولِه: ﴿إِلَىٰ رَبِّهِمۡ﴾؛ لأنَّهم لا يخشَوْنَ المكانَ، بل يخشَوْن اللّٰه تعالى؛ لأنَّه المقصودُ بالخَشيةِ، فهو الَّذي أوجدَ الخلقَ، وقدَّر الحشْرَ، ووضعَ الحسابَ والميزانَ، فالحشْرُ وإن كان ممّا يُخشَى، ولكنَّ خشيتَه فرعٌ عن خَشيةِ اللّٰه تعالى التي هي الأصلُ.

إيثارُ التَّعبيرِ بلفظِ الرُّبوبيَّةِ:

القصدُ إلى تربيةِ المهابةِ في نفوسِهم مِنَ اللهِ

آثرَ التَّعبيرَ بلفظ الرَّبِّ في قولِه جلَّ شأنُه: ﴿ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحۡشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ﴾، ولم يقلْ: (إلى اللّٰه) "تنبيهًا على أنَّهم إذا خافوا مولاهُم مع استحضارِهم ما عندَه منَ الحنان والشَّفقةِ، فأحرَى أن يخافوا مع استحضارِهم أنَّه عزيزٌ ذو انتقام"[1]، وفيه تربيةٌ لهم لمعرفةِ مهابةِ اللّٰه تعالى وخَشيتِه حقَّ الخَشيةِ[2].

فائدةُ التَّعبيرِ بـ ﴿مِّن دُونِهِۦ﴾:

كلُّ ما يُعبَدُ من دونِ اللهِ حقيرٌ شأنُهُ

في قولِه جلَّ شأنُه: ﴿لَيۡسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ﴾ إشارةٌ إلى تحقير ما سواه وسُفولِه، فكلُّ ما عُبد من دونِه فهو حقيرٌ لا يُعبدُ؛ لأنَّه منَ المعلومِ أنَّ كلَّ شيءٍ تحت قهرِ عظمتِه، ومتضائلٌ عن رُتبتِه"[3].

نكتةُ تقديمِ الوليِّ على الشَّفيعِ:

تقديمُ الوليِّ على الشَّفيعِ من عطْفِ الأعمِّ على الأخصِّ

قدَّم الوليَّ في قولِه جلَّ شأنُه: ﴿لَيۡسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِيّٞ وَلَا شَفِيعٞ﴾؛ لأنَّه أخصُّ مِنَ الشَّفيعِ، وذلك لأنَّ "الوليَّ يكونُ قريبًا بخلاف الشَّفيعِ؛ فلا يلزمُ أن يكون قريبًا لذلك، فالوليُّ هو النّاصرُ مُقيَّدٌ بكونِه قريبًا، أو يكونُ بينه وبين وليِّه لُحمةٌ بوجهٍ، بخلافِ الشَّفيعِ فهو النّاصرُ مطلقًا قريبًا كان أو أجنبيًّا، وهو من عطْفِ الأعمِّ على الأخصِّ"[4].

---

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/158.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/138.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 7/126.
(4) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/158.

فائدةُ نفيِ الوليِّ والشَّفيعِ عنهم:

التَّعريضُ بالمشركين الذين اتَّخذُوا الأولياءَ والشُّفعاءَ من دونِ الله

نفَى الوليَّ والشَّفيعَ عنهم تعقيبًا على خوفِهم منَ الحشْرِ؛ "لأنَّ النَّصارَى، واليهودَ ذكرتْ أنَّها أبناءُ اللّه وأحِبّاؤُه، فأعلمَ اللّهُ أنَّه لا وليَّ له إلّا المؤمنون، وأنَّ أهلَ الكُفْرِ ليسَ لهم منْ دون اللّهِ وليٌّ ولا شَفيعٌ"[1]، وكذلك المشركون الذين أشركوا مع اللّه آلهةً أُخرى؛ فلا يستطيعون حيلةً ولا يهتدون سبيلًا.

دَلالةُ التَّعقيبِ على الإنذارِ برجاءِ التَّقوَى:

التَّقوَى باعثٌ يحثُّ المؤمنين على الثَّباتِ على الإيمانِ

عقَّبَ القرآنُ الكريمُ بجملة: ﴿لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾؛ لأنَّ التَّقوَى غايةٌ أُرسلَ من أجلِها الرُّسلُ؛ لذلك كانت هذه الجملةُ فيها معنى التَّعليلِ؛ إذِ الرَّجاءُ في (لعلَّ) لا يصحُّ أن يُنسب للّه جلَّ ذكرُه؛ فالرَّجاءُ ليس منه تعالى، بل هو رجاءٌ مسوقٌ مساقَ التَّعليل للأمرِ بإنذارِ المؤمنين ممَّن يُرجَى تقواهُم لإيمانِهم بالبعثِ، بخلافِ مَن لا يؤمنون به[2]، أي: لعلَّهم يدخلون في زُمرة أهلِ التَّقوَى، رجاءً لحصولِ تقواهُم؛ إذا حصلَ الإنذارُ[3]، فالإنذارُ يُرتجَى منه أن يحقِّق وازعًا يحثُّ المؤمنين على الثَّباتِ على الإيمانِ"[4].

علَّةُ التَّعبيرِ بالفعلِ المضارعِ ﴿يَتَّقُونَ﴾:

الخوفُ وازعٌ للتَّقوَى في أصحابه

ختم الفاصلةَ بالفعلِ المضارعِ ﴿يَتَّقُونَ﴾؛ لتوافُقِه مع الفعلِ ﴿يَخَافُونَ﴾؛ فكلَّما تجدَّدَ الخوفُ تجدَّدتِ التَّقوَى، وفي هذا إشارةٌ إلى التَّلازُم بين الخوفِ والتَّقوَى.

التَّعبيرُ بالفعلِ ﴿يَتَّقُونَ﴾ دون (يؤمنون):

التَّقوى عبارةٌ حاويةٌ الإيمانَ والإسلامَ

لمّا كانتِ التَّقوَى هي المرحلةُ الأعلى ولا تتأتَّى إلا بعد الإيمانِ، والإيمانُ الصحيحُ يُثمرُ في قلبِ صاحبِه الخوفَ منَ الوقوف في أرض المَحشرِ؛ فعلى هذا كانتِ التَّقوَى هي الأعمَّ؛ لأنَّها تشملُ الإسلامَ والإيمانَ.

---

(1) الزّجاج، معاني القرآن وإعرابه: 2/251.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 7/245.

(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/520.

(4) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 6/431، والرازي، مفاتيح الغيب: 12/540.

﴿وَلَا تَطۡرُدِ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ مَا عَلَيۡكَ مِنۡ حِسَابِهِم مِّن شَيۡءٖ وَمَا مِنۡ حِسَابِكَ عَلَيۡهِم مِّن شَيۡءٖ فَتَطۡرُدَهُمۡ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٥٢﴾ [الأنعام: 52]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

أردفَتِ الآيةُ إنذارَ غيرِ المتَّقين، بإكرامِ المتَّقين

بعد ما أمرَه بإنذارِ غيرِ المُتَّقين لعلَّهم يتَّقون، أردف ذلك بتقريبِ المُتَّقين وإكرامِهم، ونهاهُ عن طردِهم[1]، فهذه الآيةُ وسابقتُها فيهما توجيهاتٌ للنَّبيِّ ﷺ في كيفيَّة مُعاملتِه النَّاسَ بالإنذارِ رجاءً في أن يكونوا منَ المتَّقين، وإكرامِ المُتَّقين الذين اتَّبعوه وملاطفتِهمK بالنَّهيِ عن ظُلْمِهم بالطَّردِ تقريبًا لقريشٍ[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَلَا تَطۡرُدِ﴾: (طرد) أصلٌ يدلُّ على إبعادٍ[3]، فالطَّردُ: الإبعادُ والإزعاجُ على سبيلِ الاستخفافِ، يقال: طَرَدْتُهُ، ﴿وَلَا تَطۡرُدِ ٱلَّذِينَ﴾، ﴿فَتَطۡرُدَهُمۡ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، طَرَدَهُ السّلطانُ؛ إذا أخرجَه عن بلدِه، وأمرَ أن يُطْرَدَ من مكانٍ حَلَّهُ[4]، نُهيَ أن يُؤخِّرَ فقراءَ المسلمين، وأن يُبعدَهم عنه تقريبًا لكفرةِ قريشٍ[5].

2) ﴿بِٱلۡغَدَوٰةِ﴾: (غدو، غدا) أصلٌ يدلُّ على زمانٍ[6]، وهو ما بينَ صلاةِ الغداةِ وطُلوعِ الشَّمس، يقال: أتيتُه غدوةَ غيرَ مصروفةٍ؛ لأنَّها

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 2/163، والنسفي، مدارك التنزيل: 1/506، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/521.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 7/126، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/138.

(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (خزن).

(4) الجوهري، الصحاح، والراغب، المفردات: (طرد).

(5) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/295.

(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (غدو).

معرفةٌ مثلُ سَحَرَ، إلّا أنَّها منَ الظُّروفِ المتمكِّنةِ[1]، وقوبل في القرآن الغُدوُّ بالآصال، نحوَ قولِه: ﴿بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ﴾ [الأعراف: 205]، وقوبل الغَداةُ بالعشيِّ، قال تعالى: ﴿بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ﴾ [الأنعام: 52][2]، والمرادُ أنَّهم يَعبدون ربَّهم بالصَّلاة المكتوبةِ، يعني: صلاةَ الصُّبحِ[3].

3) ﴿وَٱلۡعَشِيِّ﴾: (عشو، عشا) أصلٌ يدلُّ على ظلام وقلّةِ وضوحٍ في الشَّيءِ[4]، العَشيُّ: إذا زالَتِ الشَّمْسُ دُعيَ ذَلِك الوَقْتُ العشيَّ، فتحوَّلَ الظِّلُّ شرقيًّا، وتحوَّلَتِ الشَّمْسُ غربيةً، وصلاتا العشيِّ: هما الظّهْرُ والعصرُ، ويَقَع العشيُّ على ما بين زوال الشَّمسِ إلى وقت غُروبِها، كلُّ ذلك عشيٌّ، فَإذا غابَتِ الشَّمْسُ؛ فَهوَ العِشاء[5]، والعَشيُّ: آخرُ النَّهار[6]، من زوال الشَّمسِ إلى الصَّباحِ، قال تعالى: ﴿عَشِيَّةً أَوۡ ضُحَىٰهَا ۝٤٦﴾ [النازعات: 46][7]، والمرادُ أنَّهم يَعبدون ربَّهم بالصَّلاةِ المكتوبةِ يعني: صلاةَ العصْرِ[8].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

يُخاطبُ اللّه تعالى النَّبيَّ ﷺ بألّا تُبْعِدَ عن مجلسِك فقراءَ المسلمين الذين هم في عبادةٍ دائمةٍ للّه، لا تُبعدْهم لتستميلَ أكابرَ المشركين؛ إذ ليس عليك من حسابِ هؤلاء الفقراءِ شيءٌ، إنَّما حسابُهم عند ربِّهم، وما عليهم من حسابك شيءٌ، فإنَّك إن أبعدتَهم عن مجلسِك؛ فإنَّك تكونُ منَ الظالمين بوضعِكَ الشَّيءَ في غير محلِّه ظلمًا لهم، فإنَّ طردَك هؤلاء ليس سببًا لإيمان أولئك[9].

ليس على الرَّسولِ ﷺ من حسابِ الفقراءِ شيءٌ

(1) الجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب: (غدا).
(2) الراغب، المفردات: (غدا)، والسّمين، عمدة الحفّاظ: (غدو).
(3) الواحدي، البسيط: 8/162.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (غدو).
(5) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (عشا).
(6) الخليل، العين: (عشا).
(7) الراغب، المفردات: (عشا)، والسّمين، عمدة الحفّاظ: (عشو).
(8) الواحدي، البسيط: 8/162.
(9) مجموعة من المؤلفين، المختصر في تفسير القرآن الكريم: 1/133، والبقاعي، نظم الدرر: 7/129.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ الوصلِ في الآية:

أهلُ العبادةِ محلُّ العنايةِ

عطفَ قولَه سبحانه: ﴿وَلَا تَطۡرُدِ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم﴾ على قولِه ﷻ: ﴿وَأَنذِرۡ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحۡشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ﴾؛ لأنَّه في معنى: "أنذرْهم ولازمْهم وإن كره ذلك مُتكبِّرو المُشركين"[1]، فالقومُ الذين حُصِرَ الإنذارُ بهم هم أنفسُهم الذين نُهيَ عن طردِهم، للدَّلالةِ على الإنذارِ والملازمةِ لهم، وفيه إيماءٌ إلى النَّبيِّ ﷺ بأن يزهدَ في إنذارِ من لا يخشَى لقاءَ اللّٰه تعالى منَ الذين كرهوا جلوسَه إلى ضعَفَةِ النّاسِ.

دَلالةُ التَّعبيرِ بالموصولِ:

أبانَ القرآنُ بالموصولِ صفاتِ مدحِ فقراءِ المسلمين

في قولِه جلَّ شأنُه: ﴿وَلَا تَطۡرُدِ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم﴾ عبَّرَ عنهم بالموصول دونَ الضَّمير، فلم يقلْ: (ولا تطردهم)؛ للدَّلالة على صفاتِ مدْحِهم وبيانِ علَّةِ النَّهي، فقد "أُجريت عليهم هنا صِلةٌ أخرى هي أنسبُ بهذا الحُكمِ منَ الصِّلةِ التي قبْلَها، كما أنَّ تلك أنسبُ بالحكمِ الذي اقترنتْ معه منها بهذا"[2].

وممّا يُذكرُ في تعليل التَّعبير بالاسمِ الموصولِ الإشارةُ إلى هؤلاء المؤمنين الذين نزلتْ بسببِهمُ الآيةُ: صهيب، وعمّار، ومن معهما رضي الله عنهم كما روى ذلك مسلمٌ في صحيحه عن سعدِ بن أبي وقّاص[3] رضي الله عنه، وفي هذا إعلاءٌ وإعلامٌ بمكانتِهم، فصاروا عُنوانًا للعُبوديةِ والإخلاصِ للّٰه ربِّ العالمين.

نكتةُ إيثار ﴿يَدۡعُونَ﴾ على (يعبدون):

الدُّعاءُ سبيلُ القُرْبِ منَ الله

عبَّرَ بالدُّعاء في قولِه جلَّ شأنُه: ﴿يَدۡعُونَ رَبَّهُم﴾؛ لأنَّه الأعمُّ؛ فيشملُ دعاءَ المسألةِ ودعاءَ العبادةِ، وممّا يؤكِّدُ علاقةَ الدُّعاء

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 7/245.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 7/245.
(3) مسلم، صحيح مسلم، الحديث رقم: (2413).

بالعبادةِ، قولُه سبحانه: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي﴾ [غافر: 60]؛ فعدلَ منَ الدُّعاء إلى العبادةِ للدَّلالةِ على أنَّ الدُّعاءَ مخُّ العبادةِ، فوصفَهم ربُّنا بهذا الوصفِ للدَّلالةِ على كمالِ عبوديَّتِهم لربِّهم.

نكتةُ التَّعبيرِ بالفعلِ المضارعِ في قولِه: ﴿يَدۡعُونَ﴾:

الدُّعاءُ أمارةُ حُسنِ الصِّلةِ، وتجدُّدِ القُربِ

عبَّرَ بالفعلِ المضارعِ للدَّلالةِ على أنَّ دعاءَهم لربِّهم مُتجدِّدٌ ومُستمرٌّ، فلم ينقطعوا عنه؛ وفي هذا إشارةٌ إلى حُسْنِ صِلتِهم باللّٰه وقُربِهم منه.

سرُّ إيثارِ الرُّبوبيَّةِ على الألوهيَّةِ:

وصفُ الرُّبوبيَّة يناسِبُ مقامَ الإنعامِ

عبَّرَ بالرُّبوبيَّةِ؛ لأنَّ المَقامَ مقامُ إنعامٍ وتفضُّلٍ منَ اللّٰه - ﷻ - عليهم؛ لأنَّ اللّٰه نهى رسولَه ﷺ عن طردِهم؛ وفي هذا إشعارٌ بعلوِّ قدرِهم ورفعةِ مكانتِهم.

دَلالةُ التَّعبيرِ بالنَّهيِ عنِ الطَّردِ دونَ الإبعادِ:

في الطَّردِ استخفافٌ بالمبعَدِين

عبَّرَ بالنَّهيِ عنِ الطَّردِ دونَ الإبعادِ في قولِه: ﴿وَلَا تَطۡرُدِ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم﴾؛ لوجودِ فرقٍ بينهما: فالإبعادُ لا يلزمُ منه الاستخفافُ والتَّهوينُ من شأنِ المُبعَدين، بخلافِ الطَّردِ؛ فهو يأتي على سبيلِ الاستخفافِ، وهذا ما طلبَه مشركو مكَّةَ منَ الرّسولِ ﷺ من طردِ هؤلاءِ الضُّعفاءِ استخفافًا بهم.

فائدةُ النَّهيِ في قولِه: ﴿وَلَا تَطۡرُدِ﴾:

في النَّهيِ قرعٌ لأسماعِ زعماءِ الشِّركِ، وتمسُّكٌ بالفقراء

جاء النَّهيُ إلى النَّبيِّ ﷺ ليقرعَ أسماعَ زعماءِ المشركين، وليُريَهم أنَّه ﷺ لن يتخلَّى أبدًا عن هؤلاء الفقراءِ؛ لأنَّهم عند ربِّهم هم أفضلُ من أغنياء المُشركين وزعمائِهم.

وفيه إشارةٌ إلى الحفاظِ على هؤلاء المؤمنين وإعطاءِ الرُّسولِ ﷺ الوقتَ كلَّه لهم، وأن يصبرَ نفسَه معهم حتى يقوموا هم.

وفيه إشارةٌ إلى خفَّةِ ميزانِ الكافرين عند الله ﷻ؛ لأنَّ الميزانَ الحقيقيَّ يكونُ بتقوَى الله وبالقُرْبِ منه.

السِّرُّ في ذكرِ وقتَي الغداةِ والعَشيِّ:

الدَّوامُ على العبادةِ من سِماتِ الصَّالحين بالغداةِ والعَشِيِّ

خصَّ ذكرَ الغداةِ والعَشيِّ في قولِه جلَّ شأنُه ﴿يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ﴾؛ لبيانِ فضيلةِ العبادةِ في هذا الوقتِ، وإشعارًا بدوامِهم عليه، "المرادُ بذكرِ الغداةِ والعَشيِّ: الدَّوامُ"[1]، فهو "عبارةٌ عنِ استمرارِ الفعلِ وأنَّ الزَّمنَ معمورٌ به، كما تقولُ: الحمدُ للّه بكرةً وأصيلًا، فإنَّما تريدُ الحمدَ للّه في كلِّ وقتٍ"[2]، والمعنى: أنَّهم يدعون اللّه اليومَ كلَّه، وقُصدَ بهما استيعابُ الزَّمان والأيّامِ كما يُقصدُ بالمشرق والمغرب استيعابُ الأمكنةِ[3]، فيكونُ التَّقديرُ: الذين يواظبون على ذكر ربِّهم دائمين[4].

وخصَّهُما بالذِّكرِ أيضًا؛ لأنَّ الشُّغلَ فيهما غالبٌ على النّاسِ، ومن كان في هذين الوقتَيْن يغلبُ عليه ذِكرُ اللّه ودعاؤُه كان في وقت الفراغِ أغلبَ عليه[5].

سرُّ التَّقييدِ بالحالِ في قولِه جلَّ شأنُه: ﴿يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥ﴾:

الإخلاصُ من أقوَى مُوجباتِ الإكرام

أفادَ هذا التَّقييدُ بيانَ حالِ الذين نُهيَ عن طردِهم بقولِه: ﴿وَلَا تَطۡرُدِ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم﴾ بأنَّهم يُريدون وجهَ اللّه تعالى، فهو "حالٌ من ضميرِ ﴿يَدۡعُونَ﴾، أي: يدعونَه تعالى مخلصين له فيه، وتقييدُه به لتأكيدِ علِّيَّته للنَّهيِ؛ فإنَّ الإخلاصَ من أقوى موجباتِ الإكرامِ المُضادِّ للطَّردِ"[6].

---

(1) الزمخشري، الكشاف: 2/27.
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/295.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 7/247.
(4) الطيبي، فتوح الغيب: 6/100.
(5) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 6/432، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/521.
(6) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/139.

سرُّ التَّعبيرِ بقولِه: ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾:

لما سَلمتِ النِّيّاتُ برزَ الإخلاصُ

دلَّ هذا التَّعبيرُ على أنَّهم "يُريدون ما عندَ اللّه فَشهِدَ لهم بصحَّةِ النِّيّاتِ، وأنَّهم مُخْلِصونَ في ذلك للّهِ"[1]، فعبادتُهم وأعمالُهم للّه، ويتوجَّهون إليه لا لغيرِه، لا يُريدون بذلك عرضًا منَ الدُّنيا[2]

دَلالةُ الإخبارِ بنفيِ حسابِهم عنه:

لا يُؤاخَذُ النَّبيُّ ﷺ بالسَّرائرِ والنِّيّات

أفادَ النَّفيُ في قولِه جلَّ شأنُه: ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ﴾؛ الرَّدَّ على طعْنِ الكفّارِ في إيمانِ الفقراءِ، بأنَّهم إنَّما آمنوا لأنَّهم يجدون بهذا السَّببِ مأكولًا وملبوسًا عند النَّبيِّ ﷺ فقال اللّه تعالى: إنْ كان الأمرُ كما يقولون، فيلزمُك اعتبارُ الظّاهرِ، وإن كان لهم باطنٌ غيرُ مرضيٍّ عند اللّه، فحسابُهم عليه، لا يتعدَّى إليك، كما أنَّ حسابَك عليك لا يتعدَّى إليهم[3]، والمعنى: إذا كان الأمرُ كذلك فأَقْبِلْ عليهم وجالسْهم، ولا تطردْهم؛ إن أرادوا بصُحبتِك غيرَ وجهِ اللّه؛ فهو كالتَّعليلِ لما قبْله[4]، فيكونُ المعنى: أنَّك غيرُ مؤاخَذٍ بسرائرِهم في كونِهم غيرَ مُخلصين النِّيَّةَ[5].

توجيهُ جملةِ الحسابِ بينَ النَّهيِ وجوابِه:

سَوقُ الجُمَلِ الاعتراضيَّةِ تقريرًا للنَّهي عن طردِ فقراءِ المؤمنين، ودفعًا لتوهُّم ضعفِ دينِهم

جاءت جملةُ ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ﴾ اعتراضيَّةً تقريرًا للنَّهي، ودفعًا لأن يكونَ هناك ضعفٌ في دينهم يُسوِّغُ طردَهم، كأقاويلِ الطّاعنين في دينِهم، كدأبِ قومِ نوحٍ حيث قالوا: ﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْيِ﴾ [هود: 27]"[6].

---

(1) الزّجاج، معاني القرآن وإعرابه: 2/251، والزمخشري، الكشاف: 2/27، والنسفي، مدارك التنزيل: 1/506.

(2) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 6/432، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 7/247.

(3) الرازي، مفاتيح الغيب: 12/542.

(4) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 6/433، والصّاوي، حاشية على تفسير الجلالين: 2/16.

(5) الطيبي، فتوح الغيب: 6/103.

(6) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/139.

دَلالةُ الإتيانِ بـ ﴿مِنْ﴾:

أدخلَ على حسابِهم المَنفيِّ ﴿مِنْ﴾ التي للتَّبعيضِ[1]، في قولِه جلَّ شأنُه: ﴿مِنْ حِسَابِهِم﴾؛ فأفاد ذلك نفيَ البعضِ، تأكيدًا لنفيِ الكُلِّ مبالغةً، فلمّا انتفَى بعضُ حسابِهم؛ كان ذلك دليلًا على انتفائِه كلّيَّةً.

نَفيُ بعضِ الحساب دليلُ انتفائِه كلِّيًّا

وجهُ تأكيدِ النَّفيِ:

لما نفَى بعضَ حسابِهم عنه لتأكيدِ نفيِ كُلّيَّتِه، أكَّدَ ذلك النَّفيَ بإدخال ﴿مِنْ﴾ للتَّوكيد، استغراقًا للنَّفيِ[2]، فهي لتوكيدِ النَّفيِ، وللتَّنصيص على الشُّمولِ في سياقِ النَّفيِ[3]، مبالغةً في انتفاءِ أسبابِ طردِهم.

أفادت (مِن) توكيدَ النَّفيِ مبالغةً في انتفاءِ أسبابِ طردِ فقراء المؤمنين

بلاغةُ التَّتميمِ في الآية:

دَلالةُ عدمِ الاكتفاءِ بجملة: ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ﴾، والإتيانِ بقولِه جلَّ شأنُه: ﴿وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ﴾ فجاءت جملةُ ﴿وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ﴾؛ لإفادةِ التَّتميم[4] لقولِه تعالى: ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ﴾؛ "لأنَّه إنَّما ذُكِرَ لمجرَّدِ تتميمِ الفائدةِ وتأكيدِها، وإلّا فالكلام قد تمَّ بدونِه"[5]؛ إذ إنَّ أصلَ التَّعليلِ قد حصلَ بالجملةِ الأولَى[6]، والغرضُ من ذلك المبالغةُ في بيانِ انتفاءِ كوْنِ حسابِهم عليه ﷺ[7].

المبالغةُ في بيانِ انتفاءِ كوْنِ حسابِ الفقراء مِنَ المؤمنين عليه ﷺ

توجيهُ ردِّ العَجزِ على الصّدْرِ:

في قولِه جلَّ شأنُه: ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ

---

(1) النّحّاس، إعراب القرآن: 2/11، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 6/433.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 7/127، والنّحّاس، إعراب القرآن: 2/11، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 6/433.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 7/249.

(4) التّتميم: "هو الإتيان بجملة عقيب كلام متقدم لإفادة التّوكيد له والتّقرير لمعناه"، وذلك بأن تأخذ في بيان معنًى، فيقع في نفسك أنّ السّامع لم يتصوّرْه على حدّ حقيقته، فتعودَ إليه مؤكّدًا له. يُنظر: العلوي، الطّراز: 3/201.

(5) الهرري، حدائق الروح والريحان: 8/369.

(6) الصاوي، حاشية على تفسير الجلالين: 2/16.

(7) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/139، والقاسمي، محاسن التأويل: 4/369.

حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ﴾ من أنواع التَّحسينِ اللَّفظيَّةِ ردُّ العَجُزِ على الصَّدر[1]، فردَّ آخرَ الجملةِ الثّانيةِ على أوَّلِ الجملةِ الأولَى وهو ﴿عَلَيْكَ﴾، وردَّ أوَّلَ الجملة الثّانية على آخرِ الجملة الثّانية، وهو ﴿مِنْ حِسَابِهِم﴾ وغيَّر بين الضَّمائر، كقولِهم: عاداتُ السّاداتِ ساداتُ العاداتِ[2].

ردُّ الآخِر (حسابك، عليهم) على الأوَّلِ (عليك، حسابهم) إبداعٌ في تجميلِ اللَّفظِ

دَلالةُ تقديمِ كافِ الخطابِ في الجُملتَيْن:

في الآيةِ جملتان فيهما تقديمٌ وتأخيرٌ، قولُه جلَّ شأنُه: ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ﴾، وقولُه تعالى: ﴿وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ﴾ فقدَّمَ في كلتا الجُملتين الضّميرَ العائدَ على النَّبيِّ ﷺ تشريفًا له بخطابِه، واعتناءً به، فقدَّمَ خطابَه في الجُملتين، وكان مقتضَى الجملةِ الأولى أن يكون ترتيبُ الجملة الثّانية: (وما عليهم من حسابك من شيء)، لكنَّه "قدَّم خطابَ الرَّسولِ وأمْرَه تشريفًا له عليهم، واعتناءً بمخاطبتِه[3].

في التَّقديم بكافِ الخطابِ علُوُّ قدْرِه وتشريفُ مكانتِه ﷺ

فائدةُ تقديمِ المُسنَدِ على المسنَدِ إليه:

أصلُ الكلام قبْلَ النَّفي: (حسابهم عليك)، وتقديمُ المسنَدِ سيُفيدُ تخصيصَه بالمخاطَب (عليك حسابهم) ليس على غيرِك، ونفيُ هذه الجملة (ما عليك حسابهم) هو نفيٌ لحسابِهم على جهة الاختصاصِ[4]، تأكيدًا لنفيِ سببِ طردِهم.

في تقديمِ المسنَدِ تخصيصٌ للحسابِ بالمخاطَبِ

توجيهُ التَّعبيرِ بالضَّمير عنِ الفقراء:

الضَّمائرُ في ﴿حِسَابِهِم﴾ و﴿عَلَيْهِم﴾ عائدةٌ إلى "الذين يدْعون

(1) ردّ العجز على الصّدر هو: "أن يجعل أحد اللفظين المكرّرين أو المتجانسين أو الملحقين بهما في أوّل الفقرة، والآخر في آخرها؛ نحو: ﴿وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾ [الأحزاب: 37]"، يُنظر: عصام الدّين الحنفي، الأطول شرح تلخيص مفتاح العلوم: 1/115.

(2) الصاوي، حاشية على تفسير الجلالين: 2/16، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/524، والهرري، حدائق الروح والريحان: 8/369.

(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/524، والقاسمي، محاسن التأويل: 4/370.

(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/139.

ربَّهم بالغداة والعشيِّ، وهمُ الفقراءُ، وذلك أشبهُ بالظّاهر، والدَّليلُ عليه أنَّ الكنايةَ في قولِه: ﴿فَتَطۡرُدَهُمۡ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ عائدةٌ لا محالةَ إلى هؤلاءِ الفقراءِ، فوجبَ أن يكونَ سائرُ الكنايات عائدةً إليهم"[1]، ويُضافُ إلى ذلك أنَّ نفيَ الحساب جاء تعليلًا للنَّهيِ، فلا بدَّ من ترابطِ النَّهيِ وعلَّتِه، فظهرَ أنَّ مرجعَ الضَّمير إليهم.

الفقراءُ ألصقُ بالدُّعاءِ، وأشدُّ في الالتجاء

معنى الفاءِ في الآية:

جاءتِ الفاءُ السَّببيَّةُ مع مدخولِها ﴿فَتَطۡرُدَهُمۡ﴾ في قولِه جلَّ شأنُه: ﴿وَمَا مِنۡ حِسَابِكَ عَلَيۡهِم مِّن شَيۡءٖ فَتَطۡرُدَهُمۡ﴾ جوابًا للنَّفيِ في قولِه: ﴿مَا عَلَيۡكَ﴾ لبيانِ انتفاءِ ما يكونُ علَّةً لطردِهم[2]، "ومعناه: ما عليك من حسابهم من شيء فتطردَهم، بمعنى: أنَّه لم يكن عليك حسابُهم حتى إنَّك لأجل ذلك الحسابِ تطردُهم"[3]، والآية كقولنا: ما تأتينا فتحدِّثَنا، والمعنى: ما تأتينا فكيفَ تُحدثُّنا؟ أي: لا يقعُ هذا، فكيف يقعُ هذا؟ فحسابُهم لا يقع عليك، فكيف تطردُهم؟[4]

سببيَّةُ الفاء؛ لبيانِ انتفاءِ ما يكونُ عِلَّةً لطردِ الفقراء

بلاغةُ تكرارِ فعلِ الطَّردِ:

تكرَّرَ فعلُ الطَّردِ في قولِه جلَّ شأنُه: ﴿وَلَا تَطۡرُدِ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم﴾ وقولِه: ﴿فَتَطۡرُدَهُمۡ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، ولم يقلْ: (لا تطردِ الذين يدّعون ربّهم فتكونَ منَ الظّالمين)؛ فأعاد فعلَ الطَّردِ لإفادةِ تأكيدِ ذلك النَّهيِ، وليبنيَ عليه قولَه: ﴿فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾؛ لأنَّ الفصلَ بين النَّهيِ وجوابِه طالَ، فكانت إعادةُ الفعل المنهيِّ عنه لبيانِ ارتباطِ الكلام، فحصلَ بإعادة فعْلِ الطَّردِ غرَضانِ: لفظيٌّ ومعنويٌّ[5].

في تكرار فعلِ الطَّردِ إفادةُ تأكيدِ النَّهيِ

(1) الرازي، مفاتيح الغيب: 12/542.
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/296.
(3) الرازي، مفاتيح الغيب: 12/543.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/524.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 7/251 - 252.

دَلالةُ الفاءِ في قولِه: ﴿فَتَكُونَ﴾:

منْعُ الإنسانِ حقَّهُ ظُلْمٌ

وقعتِ الفاءُ في "جوابِ النَّهي في قولِه: ﴿وَلَا تَطْرُدِ﴾"[1]، فأفادت أنَّ طردَهم جديرٌ بأن يجعلَك تتَّصفُ بالظُّلم، فتكونَ منَ الظّالمين لهم؛ لأنَّهم لمّا استوجبوا مزيدَ التَّقريب والتَّرحيبِ؛ كان طردُهم ظُلمًا لهم، فتكونُ منَ الظّالمين لنفسِك بهذا الطَّردِ[2].

علَّةُ جعْلِ الطَّردِ ظُلمًا:

إذا تقرَّرَ عدمُ التَّكليفِ بحسابِ الفقراء؛ صارَ طردُهم لأجلِ إرضاءِ غيرِهم ظلمًا لهم

علَّق وصفَه بالظُّلم بطردِهم في قولِه جلَّ شأنُه: ﴿فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، فيقولُ للنَّبيِّ ﷺ: وضعُكَ الشَّيءَ في غير محلِّه ظلمٌ لهم، فإنَّ طردَك هؤلاء ليس سببًا لإيمان أولئك[3]، فإنَّما "جُعل طردُهم ظلمًا؛ لأنَّه لمّا انتفَى تكليفُه بأن يحاسبَهم؛ صار طردُهم لأجل إرضاءِ غيرِهم ظلمًا لهم"[4].

دَلالةُ تأخيرِ جوابِ النَّهيِ:

عاقبةُ الاستخفافِ بالذين يَدعُون ربَّهم وخيمةٌ

أخَّرَ جوابَ النَّهيِ المُتضمِّنَ صفةَ الظُّلم في قولِه جلَّ شأنُه: ﴿فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾؛ ليكون تعقيبًا شاملًا لما قبْلَه، وسوَّغَه تكرارُ لفظِ الطَّردِ في جوابِ النَّفيِ في الآيةِ، واجتمعَ نهيٌ ونفيٌ وجوابُهما، وجاء جوابُ النَّهيِ متأخِّرًا، وتقديرُ الكلام: (ولا تَطرُدِ الذين يَدعون ربَّهم؛ فتكونَ من الظالمين)، (وما مِنْ حسابك، عليهم من شيءٍ؛ فتطردَهم)[5]، فأخَّر جوابَ النَّهي؛ ليكونَ كالختامِ الشّاملِ لكلِّ ما جاءَ في الآية، ولأنَّ جوابَ النَّفيِ - وهو قولُه: ﴿فَتَطْرُدَهُمْ﴾ - تضمَّنَ الفعلَ نفسَه المنهيَّ عنه، وهو قولُه: ﴿وَلَا تَطْرُدِ﴾، فكان كالدَّليلِ عليه.

---

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/296.
(2) الرازي، مفاتيح الغيب: 12/543.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 7/129.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 7/252.
(5) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 6/434.

﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنۢ بَيۡنِنَآۗ أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَعۡلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ٥٣﴾ [الأنعام: 53]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

مِنْ صُوَرِ الابتلاء تفاوتُ المكانةِ في الدّنيا

لَمّا نُهي ﷺ عن طَردِ فقراء المؤمنين؛ استجابةً لاستكبار المشركين، بيّن أنّ التّفاوُتَ في المكانةِ الدّنيويّة، والتّفاوتَ في الاستجابة لداعي الإيمان إنّما هو ابتلاءٌ وفتنةٌ لهم، ومِنَ المناسبة أنّه بعد أنْ ذكَر استكبارَهم بيّن مقولتَهم في شأن المُستضعفين[1]: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنۢ بَيۡنِنَآۗ﴾، وهي مقولةٌ تعكسُ احتقارَ كبارِ القوم لهؤلاء المؤمنين واستضعافَهم، وتحريضَ محمّد ﷺ ليطردَهم، حتّى لا يكونوا معهم في مجلسٍ واحد، فنهى اللّه تعالى رسولَه عن هذا: ﴿وَلَا تَطۡرُدِ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم﴾، ثمّ أبانَ في الآية التّالية (53) عن سبب ذلك الاحتقار والاستصغار، وأنّه نوعٌ مِنَ الافتتان والابتلاء دفعَهم لأنْ يقولوا ما قالوه: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنۢ بَيۡنِنَآۗ﴾.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَتَنَّا﴾: أصلُ الفَتن: الإحراق، قال تعالى: ﴿يَوۡمَ هُمۡ عَلَى ٱلنَّارِ يُفۡتَنُونَ ١٣﴾ [الذّاريات: 13][2]. فتنتُ الفضّة والذّهبَ إذا أذبتَهما بالنّار لتميّزَ الرّديءَ منَ الجيّد[3]، فالفتنةُ: الابتلاء، والامتحان، والاختبار[4]، و﴿فَتَنَّا﴾: ابتلَيْنا واختبرنا[5]؛ أي: عاملناهم معاملةَ المختبَرين[6].

2) ﴿مَنَّ﴾: (منّ) أصلٌ يدلّ على اصطناع خيرٍ. مَنّ: صنع صُنعًا

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/129، والمراغيّ، تفسير المراغيّ: 7/136.
(2) الخليل، العين: (فتن).
(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (فتن).
(4) الجوهريّ، الصّحاح: (فتن).
(5) ابن الجوزيّ، زاد المسير: 2/34.
(6) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 6/434، والقونويّ، حاشية على البيضاويّ: 8/116.

جميلًا[1]، ومَنَّ عليه: أَحسنَ وأَنعمَ إنعامًا بلا تَعبٍ ولا نَصَبٍ، وبلا انتظارِ ثناءٍ واستثابةٍ[2]، ويُطلقُ على النّعمة الثّقيلة[3]، ولا يكون ذلك إلّا للّه، فإذا قيل بين النّاس كان ذلك قبيحًا، ولِقُبح ذلك، قيل: "المِنَّةُ تهدمُ الصَّنيعةَ"؛ أي: أهؤلاء الّذين أُنعِمَ عليهم؟[4].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

مِنْ حكمةِ الله وضعُ فضلِه لمَن هو أهلٌ له

يُخبر اللّه تعالى أنّه عاملَ الخَلْقَ معاملةَ المُخْتَبِر، فجعلَهم متفاوتين في حظوظهمُ الدّنيويّةِ، فإذا مَنَّ اللّه بالإيمان على الفقراء سيقول الكافرون الأغنياءُ محتقِرين لهم: أهؤلاء الفقراءُ تفضّلَ اللّه عليهم بالهداية مِن بيننا؟! لو كان الإيمانُ خيرًا ما سبقونا إليه، فردّ تعالى على استكبارهم بقوله جلّ شأنُه: ﴿أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَعۡلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ﴾ الّذين يعرفون النّعمةَ، ويُقرّون بها، فيضعُ فضلَه ومنّتَه عليهم، فإنّ اللّه تعالى حكيمٌ، لا يضعُ فضلَه عند مَن ليس له بأهلٍ[5].

❁ الإِيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

الغرضُ منَ الاستئنافِ:

بيّنَ الخطابُ علّةَ استكبارِ المشركين

قولُه جلّ شأنُه: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ﴾ استئنافٌ بيانيٌّ، يبيّن وجهَ التّفاوُت بين النّاس في الغِنى، والفقر، والإيمانِ، والكفر، وعلّةَ استكبار المشركين[6]؛ لأنّ ترجيحَهم البقاءَ في الضّلالة تكبُّرًا عن غشيانِ مجلسٍ فيه ضعفاءُ النّاس يُثير تعجّبَ السّامع، فأُجيب بأنّ هذا الفعلَ مسبَّبٌ عنِ الفتنة الّتي سنّها اللّه تعالى في عباده[7].

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (منّ).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (منن)، والأزهريّ، تهذيب اللّغة: (منّ)، والصّاحب، المحيط في اللّغة: (منّ).
(3) الرّاغب، المفردات: (منن).
(4) العُليميّ، فتح الرّحمن: 2/402.
(5) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 258، والمختصر في تفسير القرآن الكريم: 1/134.
(6) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/139.
(7) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/252.

وكان الأصلُ ألّا تُعطف بالواو كما لا يُعطف بين السّؤال والجواب، ولكنْ لأنّ هذه الآيةَ اعتراضٌ بين النّهي عن طرد المؤمنين في الآية السابقة في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ [الأنعام: 52] وتكريمِهم في الآية اللّاحقة في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ﴾، جيء فيها بالواو للتّنبيه على الاعتراض، ولا مانعَ من كوْنِ الجملة استئنافًا بوساطة الاعتراض.

دلالةُ اسمِ الإشارة: ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾:

تعظيمُ المُشارِ إليه، وعُلوِّ درجتِه

(ذلكَ) في قوله جلّ شأنُه: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾ إشارةٌ إلى الفتون المدلولِ عليه بقوله: ﴿فَتَنَّا﴾[1]، وهو هنا تقديمُه تعالى لفقراء المؤمنين في أمر الدّين بتوفيقهم للإيمان مع ما هُم عليه في أمر الدّنيا من سوء الحال[2].

وعبّر باسم الإشارة الدّالِّ على البُعد إيذانًا بعلوِّ درجة المشارِ إليه، وبُعدِ منزلتِه في الكمال تعظيمًا له، وتفخيمًا[3].

دلالةُ الكافِ في التّشبيهِ:

آثَرَ التّشبيهَ بالكاف تأكيدًا لفخامةِ المعنى المقصودِ باسمِ الإشارةِ

آثرَ التّشبيهَ بالكاف دون غيرِها في قوله جلّ شأنُه: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾؛ لأنّه أراد المُماثلةَ على وجه التّأكيد؛ لأنّ سنّة الابتلاء بحيث لا تُنكَرُ، "والكاف مُقحَمَةٌ لتأكيد ما أفادَهُ اسمُ الإشارة منَ الفخامةِ"[4].

بلاغةُ التّشبيهِ في الآية:

لا تُكالُ المآثرُ بالمكاييلِ، ولا يَضرُّ المؤمنَ الفقيرَ الزّادُ القليلُ

في قوله جلّ شأنُه: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾ شبّه اللّه تعالى تفاوُتَ النّاس في الغِنى والفقر بتفاوتِهم في قَبول الإيمان، فكما

(1) السّمين، الدّرّ المصون: 4/646.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/139 - 140، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/296.
(3) الآلوسّي، روح المعاني: 4/153، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/253.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/140، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/525.

منّ على بعض النّاس بالغِنى، منّ على غيرهم بأنْ جعلَهم سابقين للإيمان متقدّمين على الأغنياء[1]، فكلٌّ أحدٍ مبتلًى بضدّه[2]، فمعنى التّشبيه: "مثلُ ما فتنّا الكفّار بحسب غناهم، وفقرِ المؤمنين، حتّى أهانوهم لاختلافهم في الأسباب الدّنيويّة فتنّاهُم بحسبِ سبْق المؤمنين إلى الإيمان، وتخلُّفِهم عنه، حتّى حسدوهم"[3]؛ أي: "شُبِّهت الصّورةُ الكلّيّة لاختبار اللّه تعالى لخلقه - أو على الحقيقة معاملتُه معاملةَ المُختبِر لهم - شُبِّهت تلك الصّورةُ بهذه الحالة القائمةِ الّتي آمن فيها الضّعفاءُ، وسبقوا بها الأقوياءَ، وصار لهم فضلُ السّبق؛ والتّشبيهُ للتّقريب والتّوضيح"[4].

علّةُ إسنادِ فعْلِ الفتنةِ إلى الله تعالى:

تنزيهُ مقامِ الرُّبوبيةِ عن لوازمِ الاختبارِ، ومعاملةُ النّاسِ معاملةَ المُخْتَبِر

أخبر تعالى بقوله: ﴿فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾ أنّه يفتنُ النّاس ويختبرُهم، واللّه تعالى لا يخفى عنه شيءٌ من حالهم؛ لأنّه يعلمُ السّرَّ وأخفى، فهو تعالى لا يحتاجُ إلى الاختبار، ولكنّه عاملَهم معاملةَ المُختَبِر[5]؛ وذلك لتقفَ كلُّ نفسٍ على حقيقتِها، وتكتشفَ دواخلَها بنفسِها؛ فيعلمَ المستكبرُ حقيقةَ نفسه الّتي حرَمتهُ منَ الاهتداء.

دلالةُ اللّام على العاقبةِ والصّيرورةِ:

مآلُ الابتلاءِ هو الاستدلالُ على عدْلِ اللهِ في مشيئتِه وتقديرِه

في قوله جلّ شأنُه: ﴿لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنۢ بَيۡنِنَآۗ﴾ أخبر تعالى أنّ مآلَ المستكبرين أنّهم سيقولون هذه المقولةَ، فهي لامُ العاقبةِ والصّيرورةِ[6]؛ أي: وما كانت هي الباعثَ على الاختبار، ولكن كانت عاقبةَ الاختبار ونتيجتَه[7]، كقول أبي العتاهية:

(1) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 2/164، والنّسفيّ، مدارك التّنزيل: 1/507.
(2) الجمل، الفتوحات الإلهيّة: 2/358.
(3) الشّهاب، عناية القاضي: 4/67، والزّمخشريّ، الكشّاف: 2/28، والخازن، لباب التّأويل: 2/116، وزاده، حاشية على البيضاويّ: 4/52.
(4) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2515.
(5) الواحديّ، البسيط: 8/172.
(6) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 2/164، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/140.
(7) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2515.

لِدوا للموت، وابنوا للخَرابِ[1].

والمعنى: فَعَلْنا هذا ليؤولَ أمرُهم إلى أن يقولوا في شأن الضّعفاء منَ المؤمنين: أهؤلاء العبيدُ والفقراءُ خصّهم اللّه بهذه النّعمة العظيمةِ من جُملتِنا؟[2]، فكان في قولهم هذا دلالةٌ على طبائعِهمُ المستكبِرةِ، وأنّ اللّه سبحانه قَدَّر حرمانَهم منَ الاهتداء بسبب هذه الطّبيعة الفاسدةِ.

الغرضُ منَ الاستفهامِ:

التّلويحُ بقصدِ الاستخفافِ والتّهَكُّمِ بمن لو أقسمَ على الله لأبرَّه

قوله جلّ شأنُه: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنۢ بَيۡنِنَآۗ﴾ الاستفهامُ ليس للسّؤال على وجه الحقيقة، ولكن أظهروا استهزاءَهم واستخفافَهم بفقراء المسلمين[3]؛ إنكارًا لأن يكونَ أمثالُهم على الحقّ، وممنونًا عليهم من بينهم، احتقارًا لهم واستصغارًا، كقولهم: ﴿لَوۡ كَانَ خَيۡرٗا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيۡهِۚ﴾[4].

نكتةُ التّعريف باسمِ الإشارةِ:

سَوْقُ دلالةِ الإشارةِ لترسيخِ الاحتقارِ البادِي منَ الاستفهامِ بالعبارةِ

وكذلك تعريفُ هؤلاء الفقراء باسم الإشارة (هؤلاء)، مُستنكفين أن يخاطبوهم بالضّمير، فلم يقولوا: (أهم، أأنتم)؛ لأنّهم لا يرونَهم أكْفاءَ بمخاطبتِهم بالضّمير، فاسمُ الإشارة مُستعمَلٌ في التّحقير، كما في قوله تعالى: ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِي يَذۡكُرُ ءَالِهَتَكُمۡ﴾ [الأنبياء: 36]"[5]، فكأنّهم كما طالبوا بطردِهم حتّى لا يرَوهم في المجلس ذكروهم بالإشارة احتقارًا لهم.

---

(1) السّمين، الدّرّ المصون: 4/647، والجمل، الفتوحات الإلهيّة: 2/358، والقنّوجيّ، فتح البيان: 4/149. وعجز البيت: فكُلّكُمُ يَصيرُ إلى تَبابِ. يُنظر: ديوان أبي العتاهية، ص: 15.

(2) الواحديّ، البسيط: 8/172، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/296، والمراغيّ، تفسير المراغيّ: 7/136.

(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/296.

(4) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 2/164، والنّسفيّ، مدارك التّنزيل: 1/507، وابن الجوزيّ، زاد المسير: 2/34، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 7/129.

(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/254.

دلالةُ إردافِ الاستفهامِ بالفعلِ ﴿مَنَّ﴾:

استَبعادُهم مِنّة الله تعالى، وإنكارُهم وقوعَها بُغضًا، واستكبارًا

ومِثْلُ ذلك التّعبيرُ بالفعل ﴿مَنَّ﴾ في قوله جلّ شأنُه: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم﴾ ذِكْرُ المنّ بعد الاستفهام الإنكاريّ يدلُّ على أنّهم قالوا ذلك على وجه الاستبعاد[1]، وغرضُهم إنكارُ وقوعِ المنِّ أصلًا[2]، وفيه ما فيه منَ الدّلالة على تلك المشاعرِ البغيضةِ الّتي تآزرت عدّةُ وسائلَ تعبيريّةٍ للدّلالة عليها، وهي تدلُّ في مُجملِها على استكبار هؤلاء المشركين ونظراتِهم الطّبقيّةِ المُستعليةِ لفقراء المسلمين، وهي من مساوئ الجاهلية الّتي قضى عليها الإسلامُ.

تقديمُ المسنَدِ إليه على الفعلِ:

يفيدُ التّقديمُ التّقويةَ، وإفادتُه للتّخصيصِ أوقعُ

قوله جلّ شأنُه: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنۢ بَيۡنِنَآۗ﴾ جملةٌ اسميّةٌ بتقديم المسنَد إليه ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ﴾ على المسنَد ﴿مَنَّ﴾ وهو فعلٌ، ولم يقل: (أمنّ اللّه على هؤلاء) فقدّم اسمَ الإشارة، وأسند إليه الفعلَ على أنّه خبر؛ تنويهًا بتقويّة الخبر[3]. وقد يفيدُ التّقديمُ التّخصيصَ، والمعنى: أهؤلاء خصوصًا مَنَّ عليهم مِن بيننا؟ وهذا أوقعُ في الدَّلالة على النّظرة المُستعليةِ، ويرشّحُه الظّرفُ ﴿مِّنۢ بَيۡنِنَآۗ﴾، فإنّه يعني نفيَ المنّة عنهم في مقابل إثباتِها لهؤلاء الفقراء، وشأنُ كلِّ تخصيص أن يتضمّنَ إثباتًا ونفيًا، وقد جاء هذا في سياق الاستفهام الإنكاريِّ التّعجّبيِّ بمعنى: أخصَّ اللّه هؤلاء بالهداية رغمَ فقرِهم وغِناكم؟!

دلالةُ التّعبير بالظّرفِ:

سيقَ الظّرفُ للدَّلالةِ عن تعجُّبِهم من تفضيلِ الفقراءِ عليهم بمعرفة الحقِّ دونَهم

قوله جلّ شأنُه: ﴿مِّنۢ بَيۡنِنَآۗ﴾ كان الكلامُ يصحُّ من غير التّقييد بالظّرف ﴿بَيۡنِنَآۗ﴾، ولكنّهم عبّروا به لبيان أنّ المنَّ على الفقراء لم يكن موضعَ إنكارٍ لذاتِه، ولكنّهم أنكروه بالنّظرِ إلى أنفسهم، واعتقادِ أفضليّتِهم، وهذا

(1) ابن جُزَيّ، التّسهيل: 1/262.

(2) الواحديّ، البسيط: 8/173، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/140، والجمل، الفتوحات الإلهيّة: 2/358، والهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 8/350.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/254.

يبيّنُ حسدَهم واستكبارَهم. و(بين) ظرفٌ يدلّ على التّوسط، فالمعنى ميَّزهم علينا[1]، مختارًا لهم من وسطِنا، فكيف يُظَنُّ في زعمهم أنّ اللّه يمنُّ على فقراءَ وعبيدٍ، ويتركُ سادةَ مكّةَ؟[2]، وهذا يدلّ على أنّ الظّرفَ ﴿مِّنۢ بَيۡنِنَآۗ﴾ يرشّحُ لدلالة تقديمِ المسنَد إليه على الاختصاص.

الغرضُ منَ الاستفهام في: ﴿أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَعۡلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ﴾:

ربُّ العزّةِ أعلمُ بمَن يستحقُّ الهدايةَ، ومَن يستحقُّ الضّلالةَ

الاستفهامُ في قوله جلّ شأنُه: ﴿أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَعۡلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ﴾ من ربّ العزّة تقريرٌ لعباده بأنّه أعلمُ بمَن يستحقُّ الهدايةَ ومَن لا يستحقُّ، والتّعبيرُ بالشّاكرين إشارةٌ إلى أنّ الامتنانَ بالإيمان إنّما هو لمَنْ عرفَ حقَّ المُنعِم[3]، والمعنى: أنّ اللّه يعلمُ مَن يشكرُ فيهديه للإسلام، ومَن يجحَدُ نِعَمَهُ فيُبقيه في ضلالِه.

سرُّ إيثارِ الاستفهامِ المَجازيِّ على الإخبارِ:

يُقرّرُ سُبحانه علْمَه باستحقاقِ المنونِ عليهم، ويُنكرُ على المشركين إنكارَهم

قوله جلّ شأنُه: ﴿أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَعۡلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ﴾ خرج الاستفهامُ إلى غرضٍ مجازيٍّ؛ فإنّ اللّه تعالى لا يَسألُ على الحقيقة، فهو استفهامٌ لتقرير علمِه البالغِ؛ أي: اللّه أعلمُ بمَن يشكرُ فيضعُ فيه هدايتَه دون مَن يكفرُ فلا يهديه[4]، وهو إنكارٌ لإنكارهم، والمعنى: أنّ مرجعَ الاستحقاق لنِعم اللّه سبحانه هو الشّكرُ، وله جميعُ الأمر، فلا اعتراضَ عليه[5].

ثمّ إنّ الاستفهامَ التّقريريَّ أبلغُ منَ الإخبار؛ لأنّ التّقريرَ فيه إلزامٌ، وهو أبلغُ في إثبات المعنى؛ إذ فيه اعترافٌ مِنَ السّامع بما يقدّمُ، وليس كذلك الإخبارُ، "فجاء إعلامُهم بذلك في لفظ التّقرير؛ إذ ذلك بيّنٌ لا تمكِنُهم فيه معاندةٌ"[6].

---

(1) السّمين، الدّرّ المصون: 4/648.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/254 - 256

(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/140.

(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/526، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/140، والواحديّ، البسيط: 8/173.

(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/130، والقنّوجيّ، فتح البيان: 4/149.

(6) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/296.

نكتةُ وضْعِ الظّاهر موضعَ المُضمَر:

في ذكر الاسمِ الجليلِ تفخيمٌ مَحسُوسٌ، وتربيةٌ للمهابةِ في النّفوسِ

قولُه جلّ شأنُه: ﴿أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَعۡلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ﴾ عبّر بالاسمِ الظّاهر، ولم يقل: (ألستُ بأعلم) باعتبارِ أنّه قال في صدر الآية: ﴿فَتَنَّا﴾ بضميرِ المتكلّم؛ وإنّما عدلَ عنِ الإضمار إلى الإظهار؛ التفاتًا منَ المتكلّم إلى الغَيبة[1]؛ وذلك لتربية المهابةِ بذكر اسمِ اللّه الجليلِ في مقام الرّدّ على استكبارِهم تعظيمًا لعلمِه بخفايا القلوب.

علّةُ إيثارِ الوصْفِ بالشّاكرين:

آثرَ البَيانُ القرآنيُّ وصفَهم بالشّكر لتقدُّمِ ذكرِ الامتنان، والشّكرُ يُناسبُ الامتنانَ بالنّعمةِ

قولُه جلّ شأنُه: ﴿بِٱلشَّٰكِرِينَ﴾ آثرَ التّعبيرَ بصِفة الشّاكرين دون غيرها؛ لأنّ المشركين قالوا: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنۢ بَيۡنِنَآۗ﴾؛ أي: أنعمَ عليهم، فناسبَ ذكرُ الامتنان لفظَ الشُّكر[2]، وفيه إشارةٌ إلى أنَّ اللّه سبحانه يَمُنُّ بنِعمه وهُداه على مَن يعرفُ حقَّ المُنعِم، فيقبلُ عليه بالشّكر والعرفان، وعِلمُ اللّه سبحانه بالشّاكرين يستلزمُ توفيقَهم، والإنعامَ عليهم، والتّعبيرُ عنِ العلم بصيغة التّفضيل (أعلم) إشارةٌ إلى أنّه خيرُ مَن يجزي ويكافئُ بأفضلِ العطاء والخير والإنعام، وناسبَه التَّعبيرُ باسم الفاعل (الشّاكرين) الدّالِّ على ثبوت الشّكر واستمرارِه في كلّ الأحوال، وهذا مِن تلاؤمِ الصّيَغ لتوافقَ دلالاتِها.

دلالةُ ذِكْرِ الشُّكرِ بعد إنكارِ المشركين:

دلّ ذكرُ الشُّكر بعد إنكارِ المشركين أنّ الشّكرَ سببٌ للامتنان بالإيمان

قولُه جلّ شأنُه: ﴿أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَعۡلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ﴾ فيه إشارةٌ إلى أنّ أولئك الضّعفاءَ عارفون بحقِّ نِعَم اللّه تعالى والتّوفيقِ للإيمان، شاكرون له تعالى على ذلك، وفيه تعريضٌ بالمستكبرين[3]، والمعنى: أنّ مرجعَ الاستحقاق لنِعم اللّه سبحانه هو الشّكرُ[4]، وأنّ اللّه ﷻ حَرَم المشركين من تلك النّعمةِ العظيمةِ بسبب جحودِهم وإعراضِهم.

(1) السّيوطي، قطف الأزهار: 2/882.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/526.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/140.
(4) الشّوكانّي، فتح القدير: 2/137، وملاّ حويش، بيان المعاني: 3/347.

الفروقُ اللّغويّةُ:

(الفتنة) و(الابتلاء):

الفتنة فيها تمييزٌ، والابتلاء فيه تمحيص

الابتلاءُ في الأَصل: التّكليفُ بالأمر الشّاقّ[1]، ولا يكونُ إلّا بتحميل المكاره[2]، والفتنةُ ما يتَبَيَّن بها حالُ الإنسان منَ الخَير والشَّرّ يُقال: فتنتُ الذَّهَب بالنّار، لتعلمَ أَنّه خالصٌ أَو مشوبٌ[3]، فهي أشدُّ الاختبار؛ لأنّها مشتقّةٌ منَ الحرق بالنّار، ومنه قولُه تعالى: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ ﴿١٣﴾﴾ [الذّاريات: 13][4]، وإنّما آثرَ أن يعبّرَ عنِ الاختبار بالفتنة في هذا المَوضِع؛ لأنّ فتنةَ النّاس بعُلوّ المكانةِ في الدّنيا أو في الآخرة، فيها شدّةٌ على النّفس؛ لشدّةِ طلبِ النّاس ذلك، وحرصِهم عليه، ولأنّ التّعبيرَ بالفَتن أنسبُ في مقام التّمييز بين مَنْ شَكَرَ فمنَّ اللّه عليه، ومَن جَحَدَ فحرمَه.

(المنّ) و(الإنعام):

المـنّـةُ نعمةٌ مختصّة لمُعيّن

المِنَّةُ: النّعمةُ الثّقيلةُ، منَّ فلان على فلان: إذا أثقله بالنّعمة، وعلى ذلك قولُه: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: 164][5]، وهي النِّعمَةُ المقطوعةُ من جوانبها كأَنَّها قِطعَةٌ، وأصلُ الكلمة القطعُ، ومنه قوله تعالى: ﴿لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ [فصّلت: 8، الانشقاق: 25]، والنّعمةُ عامّةٌ[6].

فإيثارُ لفظ المنّة في قوله جلّ شأنُه: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ﴾؛ لكون الإنعام بالإيمان أثقلَ نعمةٍ، وأنّها بلا سببٍ منهم، فهو منّةٌ عليهم بلا تَعبٍ ولا نَصَب[7].

---

(1) الكفويّ، الكلّيّات، ص: 34.
(2) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 216.
(3) الكفويّ، الكلّيّات، ص: 692.
(4) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 217.
(5) الرّاغب، المفردات: (منن).
(6) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 197.
(7) ابن منظور، لسان العرب: (منن)، والأزهريّ، تهذيب اللّغة: (منّ)، والصّاحب، المحيط في اللّغة: (منّ).

﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلۡ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡۖ كَتَبَ رَبُّكُمۡ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَ أَنَّهُۥ مَنۡ عَمِلَ مِنكُمۡ سُوٓءَۢا بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ وَأَصۡلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٥٤﴾ [الأنعام: 54]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

القَصدُ إلى رَدِّ الاعتبارِ بعد النّهيِ عن طَرْدِ المستضعَفين

بعد أن نهى سبحانه نبيَّه ﷺ عن طرد المستضعَفين من حضرته، استمالةً للكبراء من قومه، في قوله قبْلُ: ﴿وَلَا تَطۡرُدِ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ﴾ [الأنعام: 52]، أمَره بمقابلتِهم بالإكرام، والإعظام، والتّبجيل، والاحترام، فقال: ﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلۡ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡۖ﴾"[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡۖ﴾: (سلم) السَّلامُ: السَّلامَةُ والبراءةُ منَ العيوب، والعاهة، والأذى[2]، ومعنى السّلام عليكم: أمّنكم منَ العذاب في الدّنيا والآخرة[3]، وهو كلمةٌ للأمان قالتها العربُ عند لقاء المرء بغيره دلالةً على أنّه مُسالمٌ لا محاربٌ؛ ليأمنَ أحدُهما الآخر[4].

2) ﴿كَتَبَ﴾: (كتب) يدلُّ على الإثبات والإيجابِ والفرضِ. الكتاب: الفَرضُ والحُكمُ والقَدَرُ[5]، وذلك أنّ الشّيءَ إذا أُريد توكيدُ وجوبِه عُبِّر عنه بالكتابة، قال: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغۡلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ﴾ [المجادلة: 21][6]، ﴿كَتَبَ رَبُّكُمۡ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَ﴾؛ أي: أوجبَها[7].

(1) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 258، والهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 8/339، والمراغيّ، تفسير المراغيّ: 7/138.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سلم)، والجوهريّ، الصّحاح: (سلم).
(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/297، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/527.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/257.
(5) الجوهريّ، الصّحاح: (كتب).
(6) الرّاغب، المفردات: (كتب).
(7) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/297، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/528.

3) ﴿بِجَهَٰلَةٍ﴾: (جهل) أصلٌ يدلّ على خلاف العلم[1]، والجهالةُ: أن تفعل فعلًا بخلاف ما حقُّه أن يُفعَل[2]، ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوۡبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ﴾ [النّساء: 17]؛ أي: عملَ سوءًا عن حماقةٍ مِن نفسِه وسفاهةٍ[3].

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

يقول اللّه جلّ شأنُه لنبيّه ﷺ: إذا جاءك المؤمنون، فحَيِّهم، ورحِّب بهم، ولَقِّهم منك تحيّةً وسلامًا، وبشِّرْهم بما يُنشِّطُ عزائمَهم وهممَهم من رحمة اللّه، وسَعة جودِه وإحسانِه، وحُثَّهم على التّوبة منَ المعاصي؛ لينالوا مغفرةَ ربّهم وجودَه، فلا بدّ من إصلاح العمل بعد ترك الذّنوب، فإذا وُجد ذلك كلُّه ﴿فَأَنَّهُۥ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾[4]، والجمهورُ على أنّها نزلت في الّذين نهى اللّه تعالى عن طردِهم[5]، والأقربُ أن تُحملَ هذه الآيةُ على عمومِها، فكلُّ مَن آمن باللّه تعالى دخل تحت هذا التّشريف[6].

مِن صُور التّشريفِ شُمولُ اللهِ مَن تابَ مِنَ المعاصي بواسعِ رحمتِه

الإِيضاحُ اللُّغَوِيُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ الوَصلِ في الآية:

قولُه جلّ شأنُه: ﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلۡ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡۖ﴾ عطفٌ على قوله: ﴿وَلَا تَطۡرُدِ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم﴾، وهو ارتقاءٌ في إكرام الّذين يدعون ربّهم بالغداة والعشيّ، فهمُ المرادُ بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا﴾[7]، وهذا العطفُ يشير إلى قصدِ إفشال سعْيِ المشركين لإهانة ضعفاءِ المسلمين، ومقابلتِه

مَن يديمُ ذكرَ اللهِ غداةً وعشيّةً يستحقُّ الإكرامَ

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (جهل)، والجوهريّ، الصّحاح: (جهل).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (جهل)، والرّاغب، المفردات: (جهل).
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/259.
(4) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 258
(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/526 - 527، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 6/435.
(6) زاده، حاشية على البيضاويّ: 4/53.
(7) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/256، والشّوكانّي، فتح القدير: 2/137.

بإكرامهم، والحفاوةِ بهم؛ إذ لم يكتفِ بالنّهي عن طردهم، بل زاد عليه الأمرَ بإكرامهم.

فائدةُ التّعبيرِ بـ ﴿وَإِذَا﴾:

قولُه جلّ شأنُه: ﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ﴾ ﴿وَإِذَا﴾ دالّةٌ على الظّرفيّةِ الزّمانيّةِ؛ أي: قلْ: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡۖ﴾ وقتَ مجيئهم، وأوقِعْ هذا القولَ كلَّه في وقت مجيئهم إليك[1]؛ لإشعارهم بالأُنس والتّرحيب وحسنِ الاستقبال لإزالة الوحشةِ، فيكونُ ذلك كلُّه في وقت مجيئِهم وإقبالِهم على رسول الله ﷺ ليكونَ أوقعَ في الدّلالة على التّرحيب، والأصلُ في: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡۖ﴾ أن تُقال ممّن يجيءُ لرسول الله ﷺ، فأُمر أن يقولَها هو عند مجيئِهم على سبيل مبادرتِهم بالتّحيّة منه؛ ليكونَ أبلغَ في التّرحيب بهم، والإشعارِ بالمحبّة والمودّة الّتي تليقُ بالمؤمنين الشّاكرين.

مِن أماراتِ التّشريفِ إظهارُ الأُنسِ بالمؤمنين، وحُسنِ التّرحيبِ

فائدةُ التّعريفِ بالاسمِ الموصولِ:

قولُه جلّ شأنُه: ﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ﴾ المرادُ بـ ﴿ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ﴾ مَن نُهي عن طردهم[2]، عبّرَ عنهم بالاسم الدّالِّ على العموم من باب العامّ أُريدَ به الخاصُّ[3]؛ زيادةً في إكرامهم، فوصفَهم بالإيمان بما أنزل الله واتّباعِ هداه بعد ما وصفَهم بالمواظبة على العبادة، والشّكرِ[4]. والتّعريفُ بالاسم الموصول للتّنبيه بصلتِه على الصّفة الّتي نالوا بها التّكريمَ والتّشريفَ تعميمًا للحُكم ليشملَ غيرَهم، وعبّر عنهم بالموصول دون الوصف، فلم يقل: (وإذا جاءك المؤمنون)؛ لأنّه أراد المذكورين آنفًا، وهم مَن نُهي عن طردِهم[5].

التّنبيهُ بالصّلةِ على عِلّةِ التّكريمِ، تَشوُّفًا إلى تعميمِ الحُكمِ ليشملَ غيرَهم

(1) السّمين، الدّرّ المصون: 4/648.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/140، وابن جُزَيّ، التّسهيل: 1/262.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/526.
(4) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 2/164.
(5) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/140.

سرُّ تقديمِ ذكرِ العبادة على الإيمان:

قولُه جلّ شأنُه: ﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ﴾ ذكرَ وصْفَهم بالإيمان بعد وصْفِهم بالعبادة في قوله جلّ شأنُه: ﴿وَلَا تَطۡرُدِ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم﴾ فقدّمَ الوصفَ بالعبادة، وأخّر الوصفَ بالإيمان مع أنّه مَنشأُ صفةِ العبادة؛ لأنّ "مدار الوعد بالرّحمة هو الإيمانُ، كما أنّ مَناطَ النّهي عنِ الطّرد فيما سبق هو المداومةُ على العبادة"[1].

قدّمَ ذكرَ العبادةِ على الإيمان؛ لأنّها علّةٌ للنّهي عنِ الطّردِ المذكورِ أوّلًا

وقد وصفَهم بالإيمان بآيات اللّه ﷻ بعد وصْفِهم بالمداومة على عبادته تعالى[2]؛ تنبيهًا ومدحًا لهم بأنّهم جامعون لفضيلتَي العلمِ والعملِ[3].

دلالةُ الباءِ على السّببيّةِ:

قولُه جلّ شأنُه: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ عبّر بالباء السّببيّة؛ لبيان أنّهم إنّما آمنوا به بسبب نزولِ الآيات، والنّظرِ فيها، والتّفكّرِ فيها[4]، وهي الآياتُ الّتي يسمعُها الجميعُ، فليس هناك سببٌ اختصّهم اللّه تعالى به دون غيرهم، إقامةً للحُجّة على النّاس.

الآياتُ هي سببُ إيمانِ المؤمنين، وعلّةُ إقامةِ الحُجّةِ على الكافرين

توجيهُ إضافةِ الآيات إلى ضمير المُتكلّمِ المُعظِّم نفسَه:

قولُه جلّ شأنُه: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ أضاف الآياتِ إلى ضمير الجمع المعبِّر عنِ التّعظيم؛ إشارةً إلى أنّهم آمنوا بالآيات الّتي هي جديرةٌ بالإيمان بها؛ لِما لها منَ العظمة بانتسابها إلى اللّه تعالى[5]، فاللّه تعالى هو الّذي أنزلها، وهو الّذي يعلم أنّها في غاية الكمال لإحداث الإيمان لمَن آثرَ الهدايةَ.

فخّمَ الخطابُ الآياتِ؛ لبيان جدارتِها لأن تكونَ سببًا في الإيمان

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/140، والآلوسّي، روح المعاني: 4/154، والجمل، الفتوحات الإلهيّة: 2/358.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/140.

(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/164، والآلوسّي، روح المعاني: 4/154.

(4) الآلوسّي، روح المعاني: 4/154.

(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/130.

فائدةُ الأمر بالبدءِ بالسّلام:

بدءُ السّلامِ تشريفٌ، وتبشيرٌ، وإكرامٌ

قولُه جلّ شأنُه: ﴿فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ أُمر ﷺ بابتداء السّلام عليهم؛ تشريفًا، وإكرامًا لهم، وتطييبًا لقلوبهم، وتبشيرًا بحصول الكرامة لهم في الدّارين[1].

وفيه تبليغٌ عنِ اللّه تعالى، كما تقولُ لصاحبك: إذا رأيت فلانًا فبلِّغه سلامي؛ والمعنى: أنّ اللّه يسلّمُ عليكم، وفيه تشريفٌ لهم، وتعظيمٌ، وتكرمةٌ لهم لمضادّة طلب المشركين طرْدَهم[2].

إيثارُ الرّفعِ في لفظِ السَّلامِ:

القصدُ إلى التّبشيرِ بثباتِ الإيمانِ على الدّوامِ بإيثارِ الرّفعِ في لفظِ السَّلامِ

وآثرَ الرّفع على النّصب، فلم يقل: (قل: سلامًا عليكم)؛ لأنّ الرّفعَ يدلّ على أنّه جُملة اسميّةٌ، بخلاف النّصب فهو جملةٌ فعليّةٌ؛ أي: أُسلِّم سلامًا، فالتّعبيرُ بالرّفع أبلغُ منَ التّعبير بالنّصب؛ لاقتضاء الاسمِ الثّبوتَ بخلاف الفعل[3]؛ أي: أنّهم في سلام دائم لا ينقطعُ؛ وهذه بشارةٌ بثباتهم على إيمانهم بما أنزل اللّهُ ثباتًا يجعلُهم في سلامٍ دائمٍ.

فائدةُ التّنكيرِ في لفظِ (سلام):

أفادَ التّنكيرُ العمومَ والشّمولَ والتّعظيمَ

قولُه جلّ شأنُه: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ عبّر بالنّكرة في التّحيّة ولم يقُل: (السّلام عليكم)؛ لأنّه لو قاله بصيغة التّعريف لدلّ على التّحيّة المعهودةِ بينهم، فنكّرها لتشملَ الدّلالةَ على التّحيّة، مع عمومِها منه ومنَ اللّه تعالى، ولتشملَ سلامًا من جميع مصائبِ الدّنيا، فالتّنكيرُ للعموم، والشّمولِ، والتّعظيمِ[4].

نُكتةُ الابتداءِ بالنّكرةِ:

المبادرةُ بتنكيرِ السَّلامِ في الابتداءِ لضربٍ منَ الطُّمأنينةِ والتّفاؤُلِ

قدّمَ المبتدأ وهو نكرةٌ على الخبر، فلم يقُل: (عليكم سلامٌ)؛

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/29، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/527، والشّوكانّي، فتح القدير: 2/137.
(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/159، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/297، والزّمخشريّ، الكشّاف: 2/29، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/257، وزاده، حاشية على البيضاويّ: 4/53.
(3) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/159، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/297.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/130.

لعناية القادم بإدخال الطّمأنينة في نفس المقدوم عليه، بأنّه طارقُ خيرٍ لا طارقَ شرّ، فهو منَ التّقديم لضربٍ منَ التّفاؤل[1].

سِرُّ تقييدِ السّلام بالعِلّيّةِ:

عِلّيّة السّلام إيحاءٌ بالأمان

ويدلّ الاستعلاءُ في التّحيّة بقوله: ﴿عَلَيْكُمْ﴾ على تمكّن السّلام والأمان منَ السّامع، بتنزُّلِه من علٍ، رحماتٍ، وأفياءَ طمأنةٍ، وغيثَ سكينةٍ؛ نفيًا لأسباب الخوف.

إيثارُ الفصْلِ على الوصل:

مِن عطايا المنّان تعاقُبُ المُبشِّراتِ لقصدِ التّكثيرِ

قولُه جلّ شأنُه: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ آثَرَ الفصلَ على الوصل في الجملة، ولم يَعطِفْ على جملة: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ﴾ مع أنّه محكيٌّ بالقول أيضًا؛ إشارةً إلى استقلال مضمون الجُملتين بالبِشارة، فيبشّرُهم بالسّلامة منَ المكاره، ويُبشِّرُهم بشارةً أخرى بسَعة رحمتِه تعالى ومغفرتِه[2]، ويحتملُ أن يكون تركَ العطفَ؛ لأنّ الجملة الثّانية استئنافٌ بيانيٌّ، وذلك على المعنى الثّاني لـ ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ﴾، وهو سلامُ اللّه عليهم، ممّا يُثير في النّفس استشرافًا لمعرفة كُنْه ذلك السّلامِ وحقيقتِه، فأسعفتِ الجملةُ التّالية بالجواب المبين عن ذلك السّلام، وأنّه رحمةٌ منَ اللّه مؤكّدةٌ.

نُكتةُ إيجابِ الرّحمةِ:

إيجابُ الرَّحْمَةِ على معهودِ خطابِ الأُمّيّين

قولُه جلَّ شأنُه: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ أخبرَ تعالى أنّه أوجبَ الرّحمة إيجابًا مؤكَّدًا، واللّه تعالى لا يجبُ عليه شيءٌ، ولكنّه خاطب الخلقَ بما يعقلون، وهم يعقلون أنّ توكيد الشّيء إنّما يُحفظُ بالكتاب[3].

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/257.

(2) الآلوسّي، روح المعاني: 4/155، والنّسفيّ، مدارك التّنزيل: 1/507.

(3) الواحديّ، البسيط: 8/176، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 6/435، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2517.

لا واسطةَ بين الله وعبادِه؛ وإيجابُ الرّحمة تفضّلٌ منه وإحسانٌ

توجيهُ تعلُّقِ إيجابِ الرّحمةِ على نفسِه:

وتعلّقُ إيجابِ الرّحمة بشِبْه الجملة: ﴿عَلَىٰ نَفۡسِهِ﴾؛ لبيان أنّه أوجبها على ذاته المقدّسة تفضّلًا وإحسانًا منه لا بتوسّط شيءٍ خارجيّ، إيجابًا لإكرامه، ولا يستحقُّ بتركه الذّمَّ[1].

رحمةُ الله سُنّةٌ مِن سُننه يتصرّفُ بها كيف يشاءُ

أُمر أن يقول لهم ذلك تبشيرًا لهم بسَعةِ رحمة الله تعالى، وتفريحًا لقلوبهم[2]، ولبيان أنّ رحمة الله لا تتعلّقُ بفعل أحدٍ، وأنّه تعالى جعلَها كسُنّةٍ مِن سننه الّتي لا تتبدّل تطمينًا لهم ورحمةً بهم، أمّا علّةُ الإيجاب المفهومِ من لفظ الكتابة فلِبيان أنّه أكرمُ الأكرمين، وأرحمُ الرّاحمين، وأنّه يتصرَّف في عباده كيف يشاء.

علّةُ إسنادِ الكتابةِ للرّبِّ سُبحانه:

مِن بشاراتِه تلطّفًا بعبادِه إعمامُ الرّحمةِ

وقد أسندَ الكتابةَ إلى لفظ الرّبوبيّة إشارةً إلى أنّ مَن أوجبَها هو النّاظرُ لكم في مصالحِكم، والّذي يُربّيكم ويحفُّكم برحمته، وهذا تبشيرٌ بعموم الرّحمة، وإشعارٌ بعلّة الحكم[3]؛ وأضاف لفظَ الرّبوبيّة إلى ضميرِهم لإظهار اللُّطفِ بهم[4].

دلالةُ القراءةِ في (إنّه) و(أنّه):

قراءةُ الكسرِ استئنافٌ لتفسيرِ الرّحمةِ، وقراءةُ الفتحِ على الإبدالِ

قولُه جلّ شأنُه: ﴿أَنَّهُۥ مَنۡ عَمِلَ مِنكُمۡ سُوٓءَۢا بِجَهَٰلَةٖ﴾ قرأ ابنُ عامر وعاصمٌ ويعقوبُ بفتح الهمزة فيهما؛ وافقَهم المدنيان في الأولى، وقرأ الباقون بالكسر فيهما[5]، وتوجيهُ الكسر أنّه استئنافٌ لتفسير الرّحمة[6]، فهو استئنافٌ بيانيٌّ لجواب سؤالٍ متوقَّعٍ عن كيّفيّة الرّحمة، فأجيب بأنّه بمغفرة ذنوبهم[7].

---

(1) الآلوسّي، روح المعاني: 4/155.

(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/528.

(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/528.

(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/140، والآلوسّي، روح المعاني: 4/155.

(5) ابن الجزريّ، النّشر في القراءات العشر: 2/258.

(6) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 2/164، وزاده، حاشية على البيضاويّ: 4/54، وابن جُزَيّ، التّسهيل: 1/263.

(7) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/258.

وتوجيهُ فتح الهمزة على أنّه بدلُ اشتمالٍ منَ الرّحمة[1]؛ لأنّ الرّحمة العامّةَ تشتمل على غفرانِ ذنْبِ مَن عملَ ذنبًا ثمّ تابَ وأصلح، فأبدل المغفرةَ منَ الرّحمة، ولأنّ البدلَ يأخذ حكمَ المبْدَل منه فدلّ هذا على أنّه سبحانه أوجبَ على نفسه المغفرةَ تكرّمًا منه، وعطفًا على عباده المؤمنين.

العُدولُ عنِ الحالِ الصّفةِ إلى الحال شبْهِ الجُملةِ:

قولُه جلّ شأنُه: ﴿مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ﴾ الجارّ والمجرور ﴿بِجَهَٰلَةٍ﴾ أفاد بيان الحال؛ أي: وهو جاهل[2]، وآثر التّعبير عن حالة الجهل بالجارّ والمجرور، لم يقل (جاهلًا)؛ لما في الباء من معنى الإلصاق؛ لبيان أنّه ملتصقٌ بالجهل؛ أي: عملَ الذّنبَ ملتبسًا بجهالة[3]، وهذا أوقعُ في التماس العذر، واستحقاقِ المغفرة والرّحمةِ.

القصدُ إلى التماسِ الأعذارِ بإلصاقِ المجرور بالجارّ

إيثارُ التّنكيرِ في (جهالة)، وفائدةُ التّقييدِ بها:

آثرَ التَّعبيرَ بصيغة التّنكير في قوله: ﴿بِجَهَٰلَةٍ﴾ لجَعلِها مطلقةً غيرَ مقيَّدة؛ للمبالغة، فسواءً أكانت جهالةً ضئيلةً أم كبيرةً فإنّها مُعتبرةٌ في مغفرة الذّنوب[4]. وقيّدَ ارتكابَ السّوء بالجهل؛ "للإيذان بأنّ المؤمنَ لا يباشرُ ما يعلمُ أنّه يؤدّي إلى الضّرر"[5]؛ لأنّ المؤمن لا يأتي السّيّئاتِ إلّا عن غلبَةِ هواهُ رشدَه[6]، ولا يفعلُ الذّنْبَ عامدًا.

مِن صُورِ تشريفِ المؤمنِ، تنزيهُهُ بمطلقِ الجهالةِ عن قصديّةِ الذّنْبِ

إيثارُ عطْفِ التّوبةِ بـ ﴿ثُمَّ﴾:

قولُه جلّ شأنُه: ﴿ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ آثرَ التّعبيرَ بحرف العطف

مِن رحمة الله تعالى قَبولُ التّوبةِ، وإن تأخّرتْ

(1) البيضاويّ، أنوار التّنزيل، 2/164، وابن جُزَيّ، التّسهيل: 1/263، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/258.

(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/29، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/528.

(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/141، وزاده، حاشية على البيضاويّ: 4/54، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/259.

(4) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 6/107.

(5) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/140 - 141، والجمل، الفتوحات الإلهيّة: 2/360، والقنّوجيّ، فتح البيان: 4/151.

(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/259.

المُشعرِ بالتّراخي، وطولِ الفاصل بين المتعاطفَين؛ للدّلالة على الرّجوع بالنّدم والإقلاعِ، وإن طال الزّمان[1]، وهذا أدلُّ على سَعة الرّحمة بقَبول التّوبة، فهو لا يقتضي المسارعةَ بالتّوبة.

علّةُ عطْفِ الإصلاحِ على التّوبةِ:

دَيمومةُ الإصلاحِ بالتّوبة شرطُ قَبولِها

وعطفَ الإصلاحَ على التّوبة للدّلالة على أنّ استدامةَ الإصلاح في الشّيء الّذي تاب منه شرطٌ لقَبول التّوبة[2]، واشتراطُ الإصلاح بعد ذكر التّوبة في سياق الرّحمة: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾، يدلُّ على تعظيم شرطِ الإصلاح.

سِرُّ التّعبير بصِيغةِ المبالغةِ ﴿غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾:

رحمةُ اللهِ لا يَحدُّها حدٌّ، ومغفرتُه لا يستغرقُها عدٌّ

قولُه جلّ شأنُه: ﴿فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ عبّر بصيغة المبالغة ﴿غَفُورٌ﴾، للدّلالة على أنّه بالغُ السَّتر والمحْو لذنوب عبادِه[3]، وفيه إشارةٌ إلى أنّ الذّنوبَ والسّيّئاتِ، وإن عظُمت، فإنّ مغفرة اللّه أعظمُ ورحمتَه أوسعُ من تلك الذّنوب، وذلك عند حصول شروطِ استحقاقِ تلك المغفرة العظيمةِ والرّحمة الواسعةِ، وهي أن يكون قد دخل في زُمرة المؤمنين كما يدلُّ قولُه: ﴿مِنكُمْ﴾، وأن يكون الذّنبُ ﴿بِجَهَٰلَةٍ﴾، وأن يتوب، ويؤكّدَ على صدق التّوبة بالعمل الصّالح: ﴿ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ﴾.

❁ الفروقُ اللّغويّةُ:

(السّلام) و(التّحيّة):

التّحيّة أعمُّ منَ السّلام؛ فيدخل فيها: حيّاك اللّه، ولكَ البشرى، ولقيتَ الخيرَ، ولا يُقال لذلك سلامٌ، إنّما السّلامُ قولُك:

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/131.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/528.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/131.

سلامٌ عليك[1]، والتّحيّةُ: (حيّاك اللّهُ) مشتقّةٌ منَ الحياة. وقولُ المصلّي في التَّشَهُّد: التّحيّاتُ للّه، معناه: البقاءُ للّه[2]، فالتّحيّة (حيّاك اللّه) هي دعاء، بمعنى: أبقاك اللّهُ، وعَمَّرك اللّهُ[3].

وأمّا التّحيّة بـ (السّلام عليكم) فمعناها: أمّنكم منَ العذاب، والعاهةِ، والأذَى[4].

فقولُه جلّ شأنُه: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡۖ﴾ آثرَ لفظَ السّلام؛ لأنّه أراد السّلامةَ والتّأمينَ لهم؛ فلمّا طلب الكافرون إبعادَهم منَ المجلس أمّنهم اللّه تعالى بخُذلان مسعَى الكافرين، فكان اختيارُ لفظ السّلامة أدقَّ.

(1) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 59.

(2) الخليل، العين: (حيو).

(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (حيا).

(4) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/297، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/527، والجوهريّ، الصّحاح: (سلم).

﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ۝٥٥﴾ [الأنعام: 55]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

تفصيلُ الآيات بيانٌ لسبيلِ المجرمينَ

لَمّا بيّن في سابق الآيات تفصيلَ كلّ الأحوال ذكر هنا تفصيلَ الآيات لتَبْيين السُّبُلِ، فهذه الآية تُجمِلُ في إشارةٍ موجَزةٍ ما سبق من دلائل عظمةِ الخالق - الّتي تستوجبُ الثّناءَ عليه - ، ومقابلةِ الّذين كفروا هذا بالنّكران، وتشيرُ في الوقت نفسِه إلى سبيل المجرمين في التّكذيب كما بيّنتْه الآيات السّابقة في السورة[1]؛ تمهيدًا لما بعدها من تفصيل سبيلِ المؤمنين الموحّدين ابتداءً من قوله: ﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [الأنعام: 56].

ولمّا أتى في هذه السّورة من عجائب التّفاصيل لجميع الأحوال متضمِّنةً واضحَ الدّلالات أعقبَه بذكر الآيات الّتي بتفصيلها يتّضحُ سبيلُ المصلحين[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

4) ﴿نُفَصِّلُ﴾: (فصلَ) أصلٌ يدلُّ على تمييز الشّيء منَ الشّيء، وإبانتِه عنه[3]. التَّفصيلُ: التّبيينُ، والتّمييز بين المعاني المُلتبَسة[4]، وتفصيلُ الآيات تبيينُها، وشرحُها، وإظهارُها[5]، لمّا كانتِ الأشياءُ المختلطةُ، إذا فُصلت يتبيّن بعضُها من بعض، أُطلق التّفصيلُ على التّبيين بعلاقة اللّزوم[6].

(1) كما في الآيات: 4، 20، 31، 39، 49.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/131.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (فصل).
(4) الجوهريّ، الصّحاح: (فصل).
(5) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/297، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 6/436.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/60.

5) ﴿وَلِتَسۡتَبِينَ﴾: (بَيَن) أصلٌ يدلّ على البُعد والانكشاف، وبان الشّيءُ وأبان وبَيّن واستبان بِمَعنًى واحد: اتّضح وانكشف[1]، والمُستبينُ بمَعنى المُبين[2]، ﴿وَلِتَسۡتَبِينَ سَبِيلُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾: لتظهر سبيلُ المجرمين وتتّضحَ[3].

6) ﴿ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾: (جرمَ) أصل الجَرْم: قطعُ الثّمرة عنِ الشّجر، واستُعير لكلّ اكتسابٍ مكروهٍ[4]، والجُرم والجريمة: الذّنْب[5]، والإجرام: ارتكابُ الجريمة، والجريمة: الجناية[6]، المجرمون: المطبوعُ على قلوبهم، لا يُرجى إسلامُهم[7].

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

في اتّضاحِ سبيلِ المجرم عِبرةٌ، فيَتَوجَّب تجنّبُها

يخبرُ اللّه تعالى النّبيَّ ﷺ: كما بينّا لك ما ذُكر نبيّنُ أدّلتَنا ونوضّحُها، ونميّزُ بين طريقَي الهدى والضّلال؛ ليهتدي بذلك المهتدون، ويتبيّنَ الحقُّ الّذي ينبغي سلوكُه، ﴿وَلِتَسۡتَبِينَ سَبِيلُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ الموصلةُ إلى سخط اللّه وعذابِه، فإنّ سبيل المجرمين إذا استبانت واتّضحت أمكن اجتنابُها، والبعدُ منها[8].

الإِيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ التّشبيهِ في الآية:

قولُه جلّ شأنُه: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ﴾ شبّه تفصيلَ الآيات

التّمييزُ بين السُّبلِ فرعٌ عن تفصيل أحوالِ السَّالكين

(1) الخليل، العين: (بين)، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (بين).
(2) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (بون، بين).
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/529، والعليميّ، فتح الرّحمن: 2/404.
(4) الرّاغب، المفردات: (جرم).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (جرم)، والجوهريّ، الصّحاح: (جرم).
(6) الجرجانّي، درج الدّرر: 1/611.
(7) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/29.
(8) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 58، ومجموعة من المؤلفين، المختصر في تفسير القرآن الكريم: 1/134.

الواردة بشأن التّمييز بين سبيل الحقّ وسبيل الباطل بتفصيلِ الآيات الواردةِ في هذه السّورة بشأن الإيمان والتّوحيد، يعني: وكما فصّلنا لك في هذه السّورة دلائلَنا على صحّة التّوحيد، وإبطالِ ما هم عليه منَ الشّرك، كذلك نبيّن لك أدلّتَنا في كلّ حقٍّ ينكرُه أهلُ الباطل[1]، وذلك ليكون أهلُ الحقّ على بيِّنةٍ ونورٍ، فلا تلتبسَ عليهم ألاعيبُ أهلِ الباطل، وخداعُهم، ومحاولاتُهم للإضلال: ﴿وَلِتَسۡتَبِينَ سَبِيلُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾.

بيانُ المشارِ إليه في: ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾:

قولُه جلّ شأنُه: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ﴾ المشار إليه هو تفصيلُ الآيات الواردةِ في السّورة بشأن النّبوّة والتّوحيد والبعث[2]، فاسمُ الإشارة (ذلك) يشير "إلى التّفصيل الواقعِ في هذه السّورة، أي: ومثلُ ذلك التّفصيلِ البيّنِ"[3].

المُشارُ إليه ما وردَ في السّورةِ منَ التّفصيلِ في أصول الدّين

إيثارُ التّعبير باسمِ الإشارة الدّالِّ على البُعد:

قولُه جلّ شأنُه: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ﴾ آثرَ التّعبيرَ باسمِ الإشارة الدّالِّ على البُعد؛ إشارةً إلى علوّ رُتبة البيان، والمعنى: نفصّلُ الآياتِ تفصيلًا مثلَ هذا التّفصيل الواضحِ البيّنِ، الّذي لا تفصيلَ فوقَه، فيحصلُ به المرادُ بيّنًا[4].

آثرَ الخطابُ التّعبيرَ بالبُعد دلالةً على التّناهي في عُلوّ رُتبة البيانِ، فلا بيانَ بعدَه

سرُّ التّعبير بالفعلِ المضارع:

قولُه جلّ شأنُه: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ﴾ عبّر بالفعل المضارع عن تفصيل الآيات للدّلالة على الاستمرار، والتّجدّدِ، وتناولِ الماضي والمستقبل[5]، فهو تفصيلٌ لا ينقطعُ في سائر سور القرآن.

دَيمومةُ رحمتِه تستلزمُ التّفصيلَ الدّائمَ المتجدّدَ

(1) الخازن، لباب التّأويل: 2/117، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 6/436، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2518، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/529، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 2/164.

(2) الخازن، لباب التّأويل: 2/117، وزاده، حاشية على البيضاويّ: 4/54.

(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/529، وابن جُزَيّ، التّسهيل: 1/263، والسّيوطيّ، قطف الأزهار: 2/883.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/260، والنّسفيّ، مدارك التّنزيل: 1/508، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 2/164.

(5) الشّهاب، عنايه القاضي: 4/70، وزاده، حاشية على البيضاويّ: 4/55.

دلالةُ اللّام في فعلِ الإبانةِ:

غايةُ تفصيلِ الآيات هي تبيينُ السُّبلِ

قولُه جلّ شأنُه: ﴿وَلِتَسۡتَبِينَ سَبِيلُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ تدلّ اللّام على التّعليل، فسببُ تبيينِ الآيات وتفصيلِها هو التّمييز بين سبيلَي الحقّ والباطل[1].

بلاغةُ الإظهارِ مَوضِعَ الإضمار:

إجراء وصْفِ الإجرام عليهم، ولتعميمِ الحُكمِ على كلِّ مَنِ اتّصفَ بالصّفة

قولُه جلّ شأنُه: ﴿وَلِتَسۡتَبِينَ سَبِيلُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ وضعَ الظّاهرَ مَوضِعَ المُضمَر فلم يقُل: (ولتستبين سبيلهم)؛ تنصيصًا على أنّهم هم المرادُ، ولإجراء وصْفِ الإجرام عليهم[2]، ولو قال: (سبيلهم) لفات إظهارُ معنى الإجرام، وبيانِ اتّصافهم به مع تعميم الإجرام لكلّ مَنِ اتّصف بصفاتهم، وسلك سبيلَهم.

بلاغةُ العطْفِ في جملةِ ﴿وَلِتَسۡتَبِينَ﴾:

الجملةُ من عطف الخاصِّ على العامّ بيانًا أو تعليلًا

عطفُ ﴿وَلِتَسۡتَبِينَ﴾ على علّةٍ محذوفة لقوله: ﴿نُفَصِّلُ﴾ لم يقصدْ تعليلَه بها بخصوصها، وإنّما قصد الإشعارَ بأنّ له فوائدَ جمّةً من جملتِها ما ذُكر؛ أي: وكذلك نفصّلُ الآياتِ لما في تفصيلها منَ الأحكام والحِكَم، وبيانِ الحُجج والمواعظِ والعِبر، ولأجل أن تستبين سبيلُ المجرمين، فيكونَ من عطف الخاصّ على العامّ، أو: إنّه علّةٌ لفعلٍ مُقدَّرٍ هو عينُ المذكور؛ أي: ولأجل أن تستبين سبيلُ المجرمين؛ لأنّ الشّيء يُعرف بضدّه، بل بيّن قبْلَه سبيلَ المجرمين منَ الكفّار أيضًا[3].

توجيهُ القراءةِ في (تستبين):

خطابُ النّبيّ ﷺ خطابٌ لأمّته

اختلفوا في ﴿وَلِتَسۡتَبِينَ﴾ فقرأ حمزةُ والكسائيُّ، وخلفٌ، وأبو بكر عن عاصم بالياء على التّذكير، وقرأ الباقون بالتّاء على التّأنيث، أو الخطاب[4]، وقراءةُ التّاء خطابٌ للنّبيّ ﷺ؛ أي: ولتستبين يا محمّدُ

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/529 - 530.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/261.
(3) رضا، تفسير المنار: 7/377.
(4) ابن الجزريّ، النشر في القراءات العشر: 2/258.

سبيلَ المجرمين. فإن قيل: فقد كان ﷺ يستبينُها؟ فالجواب عند الزّجّاج أنّ الخطاب للنّبيّ ﷺ خطابٌ لأمّته، فالمعنى: ولتستبينوا سبيلَ المجرمين[1].

الخطابُ للغائبِ والمُخاطَبِ من أجل الاعتبارِ

وفائدةُ الجمع بين الغيبة والخطاب فيها؛ هي أنّ تفصيل الآيات هو في نفسه موضّحٌ لسبيل المجرمين، وأنّه ينبغي للمُخاطَب بذلك أوّلًا، وبالذّات، ثمّ لغيره أنْ يستبينَه منها بتأمّلِها، وفهمِها، والاعتبارِ بها[2].

بيانُ قراءتَي الفتحِ والضّمِّ في ﴿سَبِيلُ﴾:

الخطابُ للنّبيّ ﷺ بمباشرةِ البيانِ

واختلفوا في ﴿سَبِيلُ﴾ فقرأ المدنيّان بنصب اللّام، وقرأ الباقون بالرّفع[3]. ونصبَ السّبيلَ على أنّ الفعل متعدٍّ، وتاؤُه للخطاب؛ أي: ولتستوضحَ أنت يا محمّدُ سبيلَ المجرمين فتعامِلَهم بما يليقُ بهم[4].

علّةُ ذكرِ التّصريحِ بسبيلِ المجرمين:

الأشياءُ تتميّزُ بأضدادِها

قولُه جلّ شأنُه: ﴿وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ ذكرَ سبيلَ المجرمين، وتَركَ سبيلَ المؤمنين؛ لعلمِه من تبيينِ سبيل المجرمين ضِمْنًا[5]؛ لأنّ ذكرَ أحدِ المتقابلَين يدلُّ على الآخر، كقوله تعالى: ﴿سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾ [النّحل: 81]، فلم يذكرِ البرْدَ استغناءً بذكر الحرّ، والمعنى: وتقيكم البرد[6]، وإذا بان أحدُ السّبيلين فقد بان الآخرُ؛ لأنّ الأشياء تُعرف بأضدادها[7].

تخصيصُ المجرمين بالذّكر؛ لأنّ دفعَ المفاسد قبل الوقوعِ أَولَى، ودرءَ المضارِّ حالَ الاشتباه أحرَى

وخصَّ سبيلَ المجرمين بالذّكر؛ لأنّهم همُ الّذين أثاروا ما تقدّم منَ الأقوال؛ فذِكرُهم أهمُّ في هذا المَوضِع؛ لأنّ الآياتِ جاءَت

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2518.
(2) رضا، تفسير المنار: 7/376.
(3) ابن الجزريّ، النّشر في القراءات العشر: 2/258.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/141.
(5) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/298، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/529، وزكريّا الأنصاريّ، فتح الرّحمن: 1/168.
(6) الواحديّ، البسيط: 8/1826.
(7) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 6/437.

ردًّا عليهم[1]، ولأنّ دفعَ المفاسد أهمُّ[2]، فإنّ سبيل المجرمين، إذا اتّضحت، أمكَنَ اجتنابُها[3].

وذَكَر المجرمين دون المؤمنين؛ لأنّ طريق الحقّ واحدٌ، والمجرمون أصنافٌ يَشتبهُ أمرُهم، فمنهم مطبوعٌ على قلبه، ومنهم مَن يُرجى إسلامُه، ومنهم مَن دخل الإسلامَ إلّا أنّه لا يحفظ حدودَه، فينبغي أن يستوضحَ سبيلَهم ليعامل كلًّا منهم بما يجب[4].

❁ الفروقُ اللّغويّةُ:

(التّفصيل) و(والشّرح):

التّفصيلُ يأتي بعد الإجمال، والشّرحُ بعد الإشكال

الشّرحُ بيان المشروح وإخراجُه من وجه الإشكال إلى التّجلّي والظّهور، ولهذا لا يُستعملُ الشّرحُ في القرآن.

والتّفصيل هو ذكر ما تتضمّنُه الجملةُ على سبيل الإفراد، ولهذا قال تعالى: ﴿ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۝١﴾ [هود: 1]، ولم يقُل: (شرحت)[5].

وقولُه جلّ شأنُه: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ﴾ عبّر بلفظ التّفصيل دون الشّرح؛ لأنّ القرآن لا إشكال في بيانه فلا يحتاج إلى الشَّرح، بل هو مُجملٌ يحتاج إلى التّفصيل.

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/298، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/529.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/131.
(3) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 258.
(4) النّيسابوريّ، غرائب القرآن: 3/88.
(5) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 58 - 59.

﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [الأنعام: 56]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

يناسبُ ذكرَ سبيلِ المجرمين النّهيُ عنِ التّخلّقِ بأخلاقِهم

بعد أن ذكر سبحانه فيما سلف أنّه يفصّل الآيات؛ ليظهرَ الحقُّ، وليستبين سبيلُ المجرمين، ذكر هنا أنّه نهاه عن سلوك سبيلِهم[1].

ومِن مناسبة الآية، أنّهم لمّا سألوا طردَ الضّعفاء، قصدًا لاتّباع أهوائهم، أمره تعالى بأن يخبرَهم أنّه مباين لهم بعد اتّضاح سبيل المجرمين، مباينةً لا يمكنُ معها اتّباعُ أهوائهم؛ وهي المباينةُ في الدّين فقال: ﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ﴾[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿نُهِيتُ﴾: النّهي: الزّجرُ عنِ الشّيء[3]، وهو خلاف الأمر، ونَهَيتُهُ عن كذا، فانتَهى عنه، وتَناهى؛ أي: كَفَّ[4]، ﴿إِنِّي نُهِيتُ﴾ نُهيتُ: صُرفتُ وزُجرتُ، بما رُكّب فيّ من أدلّة العقل، وبما أوتيت من أدلّة السّمع عن عبادة ما تعبدون مِن دون اللّه[5].

2) ﴿أَهْوَآءَكُمْ﴾: (هوي) أصلٌ يدلّ على خلوٍّ وسقوط، وكلّ خالٍ هواءٌ، والهَوَى: هَوَى النّفس، والجمع الأهواءُ: ميلُها إلى الشّهوة؛ لأنّه خالٍ من كلّ خير، ويهوي بصاحبه فيما لا ينبغي: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾﴾ [النّجم: 3][6]، وقولُه تعالى: ﴿قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ﴾؛ أي: لا أتّبعُ ما تميل إليه أنفسُكم من عبادة غيرِ اللّه[7].

---

(1) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 13/8، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/530، والمراغيّ، تفسير المراغيّ: 7/140.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/132، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/141.
(3) الرّاغب، المفردات: (نهى).
(4) الجوهريّ، الصّحاح: (نهى).
(5) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/30، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 2/164.
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (هوي)، والجوهريّ، الصّحاح: (هوى)، والسّمين، عمدة الحفّاظ: (هوي).
(7) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/530.

3) ﴿ضَلَلْتُ﴾: (ضلّ) أصلٌ يدلّ على ضياع، ضَلَّ يضِلّ: ضاعَ[1]، والضّلال ضدُّ الهُدَى والرَّشاد، بطلانُ العمل وضياعُه، والعدولُ عنِ الطّريق المستقيم، ويُقال لكلّ عدولٍ عنِ المنهج[2]؛ أي: إنِ اتّبعتُ أهواءكم فأنا ضالٌّ[3].

4) ﴿ٱلْمُهْتَدِينَ﴾: (هدي) أصلٌ يدلّ على التّقدّم للإرشاد[4]، والمهتدي مَن هداه الله إلى الحقّ[5]، والاهتداء هو الاستقامةُ على هدى[6]، ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ﴾؛ أي: لستُ منَ المتّبعين الّذين سلكوا سبيل الهدى إنْ فعلتُ ذلك[7].

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

أمر الله تعالى نبيَّه ﷺ أن يجاهرَ بمخالفة هؤلاء المشركين، وأن يتبرَّأ من عبادتهم غيرَ الله؛ منَ الأوثان والأنداد الّتي لا يستندون في عبادتها إلى حُجّةٍ أو منطقٍ، ولكنّه الهوى والضّلالُ، والرّسولُ ﷺ إنّما كان رسولًا ليُتَّبع، ولا يلتفتَ لأهوائهم، وإنّما يمضي على طريق الله المستقيم الّذي يؤدّي إلى الهداية والرّشاد.

المجاهرةُ بمخالفةِ المشركين، والتّبرّؤُ ممّا يعبدونَ

الإِيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

فائدةُ الأمرِ بالقولِ دونَ النّهي:

في قولِه جلّ شأنُه: ﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾، أَمرُ الله تعالى النّبيَّ ﷺ أن يُجاهر المشركين بالبراءة من عبادتهم غيرَ الله[8]، وتلقينُ القَول بمقولٍ ما، دليلٌ على أهمّيّة

الأمرُ بالقولِ للمجاهرةِ، وتلقينُ المقول تأكيدٌ لنصّه ومضمونِه

(1) الخليل، العين: (ضلل)، والصّاحب، المحيط في اللّغة: (ضلّ)، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (ضلّ).
(2) ابن الأثير، النّهاية: (ضلل)، وابن منظور، لسان العرب: (ضلل)، والرّاغب، المفردات: (ضلّ).
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/30.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (هدي).
(5) ابن منظور، لسان العرب: (هدي).
(6) ابن جرير، جامع البيان: 18/348.
(7) مكّيّ القيسّي، الهداية: 3/2040، والواحديّ، الوجيز، ص: 356، والواحديّ، الوسيط: 2/278.
(8) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/530، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/298.

مضمونه، وأنّه بحيث أن يُقال بصيغة لا يشوبها شكّ؛ قطعًا لأطماعهم عن ركونه إليهم[1].

إيثارُ التّعبير بالفعلِ المبنيِّ للمجهولِ:

آثرَ قولُه جلّ شأنُه: ﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ﴾ التّعبير بصيغة الفعل المبنيّ للمجهول للاستغناء عن ذكر الفاعل؛ لظهور المراد؛ أي: نهاني اللّه تعالى[2]، فإنّ الاقتصادَ في الألفاظ أنسبُ لما يُقال إعلانًا ومجاهرةً.

علّةُ التّعبير بالنّهي دون النّفي:

النّهيُ أبلغُ دلالةً في النّفي؛ لمَا فيه من زجرٍ وتكليفٍ ودلالةٍ على الوجوبِ

عبّر بالإخبار عنِ النّهي دون النّفي في قولِه جلّ شأنُه: ﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾، ولم يقُل: (لا أعبد)؛ لأنّه أبلغُ لما في النّهي منَ الدّلالة على التّكليف[3]؛ إذِ النّهيُ فيه إلزامٌ، ولا يحتملُ الصّدقَ والكذبَ، فكان أبلغَ في الدّلالة على التّوحيد.

فائدةُ الإخبارِ عن نهيهِ عن عبادةِ غيرِ الله تعالى:

قطعَ اللهُ أطماعَ أهلِ الكفرِ في استمالتِه ﷺ

في قولِه جلّ شأنُه: ﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ نَهيٌ عن عبادة غيرِ اللّه تعالى؛ لأنّه أراد قطعَ أطماعهم في ركونِه ﷺ إليهم، وبيانًا لكونِ ما هم عليه منَ الدّين إنّما هو الهوى والضّلالُ[4].

سرُّ التّعبير بالمصدرِ المؤوَّلِ دونَ الصّريحِ:

تجديد النّهي عن عبادةِ غيرِ اللهِ تعالى

سيق قولُه جلّ شأنُه: ﴿أَنْ أَعْبُدَ﴾ بتأويل المصدر، والتّقدير: عن عبادة، فوضعَ ﴿أَنْ أَعْبُدَ﴾ مَوضِعَ المصدر[5]؛ لأنّ إظهار الفعل يستدعي الدّلالةَ على الحدوث والتّجدّد، فيتسلّطُ النّهيُ على التّجدّد والحدوث، والمعنى: أنّه نهى عن إحداث العبادة، وتجدّد هذا المنعُ.

---

(1) الآلوسّي، روح المعاني: 4/159.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/262.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/530، والسّيوطيّ، قطف الأزهار: 2/884.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/141، وزاده، حاشية على البيضاويّ: 4/56.
(5) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/298.

إيثارُ التّعبيرِ عنِ الأصنامِ بالاسمِ الموصولِ:

إنزالُ الخطاب على وَفْقِ مَعهُودِ مُعتقدَاتِهم وزعمِهم مُحاجّةٌ لهم

بقوله جلّ شأنُه: ﴿ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۚ﴾ أراد بـ﴿ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ﴾: الأصنامَ، وعبّر عنها بـ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ على زعم الكفّار؛ لأنّهم أنزلوها منزلة مَن يعقلُ[1]؛ لأنّه يخاطبُهم فجعل الكلامَ على زعمهم محاجّةً لهم.

إيثارُ التّعبيرِ بلفظِ ﴿مِن دُونِ﴾:

مِن زَيْغِ المُشركينَ عبدوا مُنحطًّا في الرُّتبةِ، ساقطًا في الاعتبارِ

في قولِه جلّ شأنُه: ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِۚ﴾ تعبيرٌ عن إشراكهم باللّه تعالى بلفظ ﴿دُونِ﴾، ولم يقل: (من غير اللّه)؛ لأنّه أراد أن يبيّن سُفولَ رُتبتهم، إذ تركوا الأعظمَ، ولزموا الدّونَ[2]؛ استجهالًا لهم، بأنّهم كانوا على غير بصيرةٍ[3].

نُكتةُ فَصلِ الأمرِ الثّاني ﴿قُل لَّآ أَتَّبِعُ﴾ عنِ الأوّلِ:

فَصَلَ الخطابُ جُملةَ النّهيِ عن جُملةِ الأمرِ استئنافًا لبيانِ علّةِ النّهيِ عن عبادةِ آلهتِهم

فَصَل قولَه جلّ شأنُه: ﴿قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهۡوَآءَكُمۡ﴾ عنِ الأمر الأوّل: ﴿قُلۡ إِنِّي نُهِيتُ﴾ للاستئناف البيانيّ؛ إشارةً إلى علّة النّهي[4]، كأنّه قيل: لمَ نُهيتَ عمّا نحن فيه مِن عبادة غيرِ اللّه؟ فأجاب: لأنّ ما أنتم عليه هوًى، ليس بهُدًى، فكيف أتّبعُ أهواءَكم؟![5].

علّةُ تكرارِ الأمرِ بالقول مع قُربِ ذِكْرِه:

كرّرَ الخطابُ الأمرَ بالقول اهتمامًا بالمأمور به، وإشعارًا باختلافِ المَقولَين

قولُه جلّ شأنُه: ﴿قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهۡوَآءَكُمۡ﴾ قد سُبِق بقوله تعالى: ﴿قُلۡ إِنِّي نُهِيتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۚ﴾ فكرّر الأمرَ بالقول مع أنّه قريبُ العهد بالذِّكر؛ اعتناءً بشأن المأمور به، وإيذانًا باختلاف المَقولَيْن، فالنّهيُ منَ اللّه تعالى، والنّفيُ منه ﷺ[6]، فكرّر القولَ اهتمامًا بالمَقول، وبيانًا لاستقلاله[7]، ثمّ إنّ تكرارَ هذا

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/298، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/530.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/132.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/530.
(4) الإيجيّ، جامع البيان: 1/540.
(5) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 6/109.
(6) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/141، والجمل، الفتوحات الإلهيّة: 2/360.
(7) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/262.

الأمر ﴿قُلْ﴾ يدلُّ على تكرار محاولات المشركين مع رسول الله ﷺ؛ لاستمالته نحوَهم، ويؤيّدُه ما ورد في سبب نزول سورة (الكافرون) من محاولات المشركين لتمييع الدّعوةِ إلى التّوحيد، واتّباعِ أهوائهم، فنزلت سورة (الكافرون) بصيغة الأمر (قُل)[1]، والتقى مضمونُ المَقول فيها مع مضمون المَقول هنا؛ وهو الثّباتُ على عبادة الله وحدَه.

إيثارُ الجمع على الإفراد في لفظ الأهواء:

إيثارُ جَمعِ الأَهوَاءِ لتعدّدِها في عبادتِهم غيرَ اللهِ تعالى، وتعدّدِ ما طلبُوه

جمعَ قولُه جلّ شأنُه: ﴿قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهۡوَآءَكُمۡ﴾ الأهواءَ لتفرّقِها واختلافِها، فكانت أصنامُهم مختلفةً، وكان لكلِّ عابدِ صنمٍ منهم هوى يخصُّه، فجمعَ الأهواء[2]، ومِن "لوازم اتّباعِها الجمعُ بين النّقيضين، وهو محالٌ"[3]، وليعمَّ عبادةَ الأصنام، وما طلبوه من طرد المؤمنين وغيرِه[4].

والمعنى: لا أتّبعكم فيما طلبتموه من عبادة هذه الأشياءِ، ومِن طَرْدِ مَن أردتم طردَه[5].

بلاغةُ المجازِ المُرسَل ومزيّتُه:

اتّباعُ الأهواءِ نصٌّ على السّببِ الّذي يكمنُ فيه البلاءُ

في قولِه جلّ شأنُه: ﴿قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهۡوَآءَكُمۡ قَدۡ ضَلَلۡتُ إِذٗا﴾ مجازٌ مُرسَلٌ بعلاقة السّببيّة، فلم يقُل: (لا أتّبعكم)؛ للنّصّ على أنّ سببَ نفيه اتّباعَهم أنّهم يتّبعون الهوى؛ واتّباعُ الهوى سببٌ للضّلال، فهو تنبيهٌ على السّبب الّذي حصل منه الضّلالُ[6]، وإشعارٌ بما يوجب النّهيَ والانتهاءَ؛ وهو اتّباعُ الأهواء[7].

(1) النّيسابوريّ، أسباب النّزول، ص: 316.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/530.
(3) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/161.
(4) السّيوطيّ، قطف الأزهار: 2/882.
(5) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 6/437.
(6) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/30، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/530.
(7) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/141، والآلوسّي، روح المعاني: 4/160.

علّةُ تركِ العطفِ:

كمالُ اتّصال الجُملتَين يُزيلُ الحواجزَ بينهما فيُترَكُ العطفُ بينهما

تُرك عطفُ جملة: ﴿قَدۡ ضَلَلۡتُ إِذٗا﴾ على ما قبلها؛ لكمال الاتّصال بينهما؛ لأنّ الثّانيةَ بمنزلة التّوكيد المعنويّ لها، فإنّها تؤكّدُ كونَهم في غاية الضّلال، وتحتملُ أن تكون استئنافًا مُعلِّلًا للنّهي عنِ اتّباع أهوائهم؛ أي: إنِ اتّبعتُ أهواءَكم فقد ضَلَلْتُ[1].

نُكتةُ تصديرِ الجُملة بـ (قد):

التّوكيدُ بـ (قد) إشارةٌ إلى تحقُّقِ الوقوعِ

صُدِّرت الجملةُ الثّانية بـ (قد) لتأكيد وقوعِ الضّلال مع كونِه على سبيل الفرْضِ، وليس بواقعٍ، إشارةً إلى أنّ وقوعَه محقّقٌ لو تحقّق اتّباعُه لهم[2].

فائدةُ نفْيِ الاهتداءِ بعد ذكرِ الضّلالِ:

إيرادُ المعنى إثباتًا، ودفعُ ضدِّه نفيًا؛ لضلال اتّباعِ الهوى تقريرًا وتأكيدًا

قولُه جلّ شأنُه: ﴿قَدۡ ضَلَلۡتُ إِذٗا﴾ هو المعنى ذاتُه في قوله: ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾، فهذه الجملةُ مؤكّدةٌ لقوله: ﴿قَدۡ ضَلَلۡتُ﴾[3]، فأثبتَ الضّلالَ، ونفى الهُدى، مع أنّهما متلازمان للتّقرير والتّأكيد[4]؛ ولبيان شناعةِ اتّباعه أهواءَ المشركين، وآثرَ أن ينفيَ كونَه منَ المهتدين، ولم يقُل: (وما أنا مهتدٍ)؛ لأنّ (هو منَ المهتدين) أبلغُ مِن (هو مهتدٍ)[5]؛ لأنّه أفاد معنى الاستغراق في نفي الهدى[6]، تأكيدًا للنّفي، كأنّه قيل: إنِ اتّبعتُ أهواءكم ضللتُ، وكنتُ مثلَكم متوغّلًا في الضّلال منغمسًا فيه، ولا أكونُ منَ الهدى في شيءٍ، وهو يدلّ على أنّه من زمرة المهتدين المُسهمين فيه[7].

---

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/141، والجمل، الفتوحات الإلهيّة: 2/361، والآلوسّي، روح المعاني: 4/160.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/263.

(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/530، وزاده، حاشية على البيضاويّ: 4/56.

(4) النّيسابوريّ، غرائب القرآن: 3/88 - 89.

(5) زاده، حاشية على البيضاويّ: 4/56.

(6) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 6/110.

(7) الشّهاب، عناية القاضي: 4/70.

الثّباتُ على الضّلال، والرُّسوخُ فيه، علّةُ عدمِ الاهتداءِ

بيانُ العُدولِ عنِ الجُملة الفعليّةِ إلى الجُملة الاسميّةِ:

قولُه جلّ شأنُه: ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾ عطفٌ على قوله: ﴿قَدۡ ضَلَلۡتُ إِذٗا﴾، فعدلَ إلى الجملة الاسميّة دون الفعليّة فلم يقُل: (قد ضللتُ ولم أهتدِ)؛ للدّلالة على الدّوام والثّباتِ[1]؛ لعراقتِهم في الضّلال[2]، فهاتان جملتان لنفي الهداية وإثباتِ الضّلال، وجاءتِ الأولى فعليّةً لتدلَّ على التّجدّد، وجاءتِ الثّانيةُ اسميّةً لتدلّ على الثّبوت[3].

والرّسولُ ﷺ قد عصَمهُ اللّه تعالى منَ الضّلال، ولكن جرى هذا الأسلوبُ الافتراضيُّ لتحذير سائرِ المؤمنين منَ الانخداع بوسائلِ المشركين وحيلِهم؛ لاستمالة أهل الحقّ إلى باطلهم، وسبحان علّام الغيوب فإنّ أهل الباطل لا يكفّون عن ممارسة تلك الحيَل الخادعةِ عن طريق الإعلام الموجَّهِ، الّذي لا يَفطنُ له إلّا أهلُ اليقظة، والثّابتون على طريق الهدى والحقّ.

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/141، والآلوسّي، روح المعاني: 4/160، والقنّوجيّ، فتح البيان: 4/152.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/132 - 133.

(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/530، والهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 8/369.

﴿قُلۡ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبۡتُم بِهِۦۚ مَا عِندِي مَا تَسۡتَعۡجِلُونَ بِهِۦٓۚ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۖ يَقُصُّ ٱلۡحَقَّۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡفَٰصِلِينَ ٥٧﴾

[الأنعام: 57]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

تأكيدُ الثّباتِ على الحقِّ ديمومةٌ له

لمّا نفى أن يكون متّبِعًا لأهوائهم، نبّه على ما يجبُ اتّباعُه بقوله: ﴿قُلۡ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي﴾، وهو الأمرُ الواضحُ منَ اللّه تعالى[1]، وإذا كانتِ الآيةُ السّابقة تعني الثّباتَ على الحقّ، فإنّ الآية اللّاحقةَ تؤكّد على هذا الثّبات، وتعزّزُه.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿بَيِّنَةٖ﴾: (بَيَن) أصلٌ يدلّ على الانكشاف، وبان الشّيءُ: اتّضح وانكشفَ[2]. البيّنةُ: الحجّةُ الواضحةُ الّتي تفصل الحقَّ منَ الباطل.

﴿قُلۡ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي﴾ يريد: على يقين، ودلالةٍ، وحجّةٍ، وبرهانٍ من ربّي، لا على هوًى[3]، وهي المعجزةُ الّتي تبيّنُ صدقي؛ وهي القرآن؛ والمعنى: على أمرٍ بيّنٍ[4].

2) ﴿تَسۡتَعۡجِلُونَ﴾: (عجل) أصلٌ يدلّ على الإسراع، والعجلةِ في الأمر[5]، والاستِعجالُ: الاستِحثاثُ والتّعجيلُ بطلب الشّيء قبل وقته[6]، وقولُه تعالى: ﴿مَا تَسۡتَعۡجِلُونَ بِهِۦٓۚ﴾ استعجالُهم الآياتِ والمعجزاتِ، والقيامَةَ، والنّقمَ، والعذابَ؛ لأنّهم طلبوه قبل حينِه[7].

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/30، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/531، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 7/133.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (بين).
(3) الواحديّ، البسيط: 8/183، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 6/438، والعليميّ، فتح الرّحمن: 2/405.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/530 - 531.
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (منّ).
(6) الجوهريّ، الصّحاح: (عجل)، وابن منظور، لسان العرب: (عجل)، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 6/440.
(7) الواحديّ، البسيط: 8/184، ومكّيّ القيسّي، الهداية: 3/2041، والسّمعانّي، تفسير القرآن: 2/109.

3) ﴿ٱلۡحُكۡمُ﴾: (حَكَمَ) أصلُه المنعُ للإصلاح[1]، وردُّ المرء عنِ الظّلم، ومنه حَكَمَةُ اللّجام؛ لأنّها تردُّ الدّابّةَ[2]، والحُكم: القضاءُ بالعدل[3]، وقولُه تعالى: ﴿إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۖ﴾ [يوسف: 40]؛ أي: القضاءُ والإنفاذ[4]؛ لأنّه تعالى يمنعُ الباطلَ[5]، والمرادُ: الحكمُ الفاصل بين الحقّ والباطلِ[6].

4) ﴿يَقُصُّ﴾: (قصّ) أصلٌ يدلّ على تتبُّعِ الشّيء[7]، القَصُّ: تتبّعُ الأثر، قَصَّ أثرَه؛ أي: تتبَّعه[8]، و﴿يَقُصُّ ٱلۡحَقَّۖ﴾: مِن قصَّ الأثرَ؛ أي: يتّبعُ الحقّ والحكمةَ فيما يحكمُ به ويقدّرُه[9]، أو مِن قصّ الحديث، كقوله: ﴿نَقُصُّ عَلَيۡكَ أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ﴾ [يوسف: 3] فجميعُ ما أنبأ به هو مِن أقاصيص الحقِّ[10]؛ لأنّه يُخبِرُ بالحقِّ، ولا خُلْفَ في وعدِه ووعيده[11].

5) ﴿ٱلۡفَٰصِلِينَ﴾: (فصل) أصلٌ يدلّ على تمييز الشّيء منَ الشّيء وإبانتِه عنه[12]، والفصلُ: بَوْنٌ ما بَينَ الشَّيئَين[13]، وقولُه تعالى: ﴿خَيۡرُ ٱلۡفَٰصِلِينَ﴾ هو خيرُ مَن بيّنَ، وميّزَ بَين المُحِقّ والمُبطلِ[14]، وخيرُ مَن فصل بَين الحقّ والباطلِ بما يقضي به بين عباده، ويفصّلُه لهم في كتابه[15].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

يخاطبُ اللّه تعالى نبيَّه ﷺ أن يُعلن لهؤلاء المشركين أنّه على يقينٍ مبين، وبرهانٍ واضح من ربّي، لا على هوًى، وأنتم كذّبْتم باللّه تعالى، وبهذا البرهانِ، ليس عندي ما

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حكم)، والرّاغب، المفردات: (حكم).
(2) الجوهريّ، الصّحاح: (حكم)، وابن منظور، لسان العرب: (حكم).
(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (حكم).
(4) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/299.
(5) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 2/165.
(6) الشّوكانّي، فتح القدير: 2/139 - 140.
(7) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (قصّ).
(8) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (قصص)، والجوهريّ، الصّحاح: (قصص)، وابن منظور، لسان العرب: (قصص).
(9) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/30، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/531.
(10) الزّجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 2/257، والواحديّ، البسيط: 8/185.
(11) النّسفيّ، التّيسير في التّفسير: 6/91.
(12) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (فصل).
(13) الخليل، العين: (فصل).
(14) الخازن، لباب التّأويل: 2/118.
(15) الشّوكانّي، فتح القدير: 2/140، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 3/264.

تستعجلون به منَ العذاب والآيات الخارقةِ الّتي طلبتموها، إنّما ذلك بيد اللّه، فليس بيدي منَ الأمر شيءٌ؛ فليس الحكمُ إلّا للّه تعالى وحده؛ ومن جُملتِه ما طلبتم، يقول الحقَّ ويحكمُ به، وهو سبحانه خيرُ مَن يفْصلُ بين عباده، في الدُّنيا والآخرة[1].

إنّما رسولُ الله بشرٌ يُوحَى إليه، والأمرُ كلُّه لله

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ الفصْلِ في الآية:

قولُه جلّ شأنُه: ﴿قُلۡ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٖ﴾ استئنافٌ لإثبات صدْقِ الرّسالةِ بدليلٍ منَ اللّه مؤيِّدٍ للأدلّة السّابقةِ؛ ليأسوا من محاولة إرجاعِه ﷺ عن دعوته إلى الإسلام وتشكيكِه في وحْيِه بقولهم: ساحرٌ، مجنونٌ، شاعرٌ، أساطيرُ الأوّلين[2].

بيان صدْقِ الرّسالة تأييسًا للمُشركين من تخلِّي صاحبِها عن دعوتِه

فائدةُ الأمر بالقولِ وتَكرارِه:

قولُه جلّ شأنُه: ﴿قُلۡ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٖ﴾ أمرٌ للنّبيِّ ﷺ أن يُعلن ذلك بالمجاهرة؛ لأنّ تلقينَ القَول دليلٌ على أهمّيّة مضمونِه، وإنّه بحيث أن يُقال بصيغةٍ لا يشوبُها شكٌّ؛ قطعًا لأطماعهم عن ركونِه إليهم[3]، وقد تكرّرَ الأمرُ بالقول بعد قولِه جلّ شأنُه: ﴿قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهۡوَآءَكُمۡ﴾؛ تكريرًا للاهتمام[4]، واعتناءً بشأن المأمور به[5].

تلقينُ المَقولِ تأكيدٌ لنَصِّه ومضمونِه، واعتناءٌ بشأن المأمورِ به

توجيهُ تأكيدِ الخبرِ:

لمّا كان الخطابُ في قولِه جلّ شأنُه: ﴿إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبۡتُم بِهِۦۚ﴾ للمكذّبين الّذين ينكرون الرّسالةَ والوحيَ أخبرهم بذلك على وجه التّأكيدِ؛ إزالةً لشكّهم.

أكّدَ المَقولَ ردًّا لإنكارِ المخاطَبِ به

(1) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن: ص: 258، ومجموعة من المؤلِّفين، المختصر في تفسير القرآن الكريم: 1/134.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/264.

(3) الآلوسّي، روح المعاني: 4/159.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/265.

(5) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/141، والآلوسّي، روح المعاني: 4/160.

فائدةُ التّعبيرِ بحرفِ الاستعلاءِ:

استعلاءُ النّبيِّ ﷺ وتمكُّنِهِ منَ حُجَجِه،

عُبّر في قولِه جلّ شأنُه: ﴿عَلَىٰ بَيِّنَةٍ﴾ بالحرف (على) الدّالِّ على الاستعلاء والتّمكّنِ، كقولهم: فلانٌ على بصيرة؛ للدّلالة على التّمكّن منَ اليقين في أمر الوحي[1]، وإشارةً إلى تمكّنه في الأدلّة والحُجج القاهرةِ؛ ثقةً بنصر اللّه تعالى، ولوثوقِه بأنّه على الحقّ[2].

بيانُ التّنكيرِ في ﴿عَلَىٰ بَيِّنَةٍ﴾:

تفخيمُ شأنِ البيّنةِ حيث وردَ تَنكيرُها

آثرَ التّعبيرَ عنِ البيّنة في قوله جلّ شأنُه: ﴿إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ﴾ بصيغة التّنكير؛ تفخيمًا لشأنها، وتعظيمًا لليقين الّذي هو عليه[3].

دلالةُ (مِن) الابتدائيّةِ:

فخامةُ البيّنةِ مصدرُها الإلهيُّ وقوّةُ اليقينِ بها

عُبّر بقولِه جلّ شأنُه: ﴿إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي﴾: عن مصدر البيّنة بـ (من) الابتدائيّة، والمعنى: أنّها كائنةٌ من جهته سبحانه؛ لأنّ الوحيَ منه تعالى[4]، وفيه زيادةُ تقويةٍ لليقين بأنّه على الحقّ.

توجيهُ نسبة البيّنةِ إلى الرّبِّ:

تأكيدُ تفخيمِ البيّنةِ بالرّبوبيّةِ

نسبةُ البيّنة بكونِها منَ الرّبّ تعالى في قوله جلّ شأنُه: ﴿إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي﴾ تأكيدٌ لفخامتها بالإضافة، فقولُه: ﴿مِّن رَّبِّي﴾ صفةٌ مؤكِّدةٌ، ووصفَها بذلك لتأكيد ما أفاده التّنوينُ منَ الفخامةِ، وتعظيمًا لها، ولكمالِها[5].

وجهُ إضافةِ الرّبِّ:

نبيُّ اللهِ رفيعُ المقامِ عند ربّه حيث أُضيفَ اسمُه إلى اسمِه

إضافة الرّبوبيّة إلى ضمير النّبيّ ﷺ تشريفٌ له، ورفعٌ لمنزلته، وإعلاءٌ لشأنه، وتصريحٌ بقُربِه مِنَ الرّبّ ﷻ.

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/265.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/133.

(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/142، والآلوسّي، روح المعاني: 4/160.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/265، والآلوسّي، روح المعاني: 4/160.

(5) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/142، والآلوسّي، روح المعاني: 4/160.

مرجعُ الضّمير في بيان المكذَّبِ به:

تكذيبُ البيّنةِ، وتكذيبُ الله تعالى، جحودٌ بربوبيّتِه

اختلف المفسّرون في بيان مَرجِع الضّمير في قولِه جلّ شأنُه: ﴿وَكَذَّبْتُم بِهِۦ﴾، فالضّمير عائدٌ على الرّبّ أو على البيّنة[1]، والظّاهرُ عَودُه على الرّبّ؛ أي: كذّبتم بربّي؛ لأنّه جرى ذكرُه[2]، وذهب آخرون إلى أنّه عائدٌ على بيّنة؛ لأنّها في معنى البيان، كما قال: ﴿وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُوْلُواْ ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينُ فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ﴾ [النّساء: 8][3]، والمعنى: كذّبتم بالبيان الّذي جئت به من عند ربّي؛ وهو القرآن[4]، والأَولى عوْدُ الضّمير إلى الرّبّ سبحانه؛ لأنّه أقربُ مذكورٍ قبل هذا الضّمير، وما لا حاجة فيه إلى تأويلٍ أَولى ممّا يستلزم التّأويلَ فيه.

فائدةُ ذكرِ تكذيبِهم بعد ذكْرِ البيّنةِ:

ذِكرُ التّكذيب بعد ظهورِ الحقِّ تقبيحٌ له، وتأكيدٌ لبُطلانِه

قولُه جلّ شأنُه ﴿وَكَذَّبْتُم بِهِۦ﴾ بعد قوله: ﴿إِنِّى عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى﴾ على الاستئناف أو الحال على تقدير (قد) استقباحًا له، فالتّكذيبُ قبيحٌ لذاته، ومجيئُه بعد ذكر البيّنة الواضحةِ الّتي تقتضي التّصديقَ فيه تأكيدٌ على قُبحه[5]، وفيه تعجّبٌ منهم أن كذّبوا بما دلّت عليه البيّنةُ[6]، وتعديةُ الفعل بالباء الدّالّةِ على الملاصقة؛ للدّلالة على شدّةِ التّكذيب.

غرَضُ الاستئنافِ في قوله تعالى: ﴿مَا عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ﴾:

بعدَ تقبيح تكذيبِ المشركين، استأنفَ الخِطابُ بإبطالِ عِللِ المُكذِّبين

في قولِه جلّ شأنُه: ﴿مَا عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ﴾ استئنافٌ مُبيّنٌ لخطئِهم في الاستدلال، حيث جعلوا منشأ تكذيبِهم عدمَ مجيءِ العذابِ الّذي كانوا يستعجلونَه؛ أي: أنّ ما تستعجلونَه منَ العذاب

(1) ابن جُزَيّ، التّسهيل: 1/263.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/531، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 6/438، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 2/165.
(3) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 6/438، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/531.
(4) الخازن، لباب التّأويل: 2/117.
(5) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/142، والجمل، الفتوحات الإلهيّة: 2/361.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/266.

الموعودِ في القرآن، وتجعلون تأخُّرَه ذريعةً إلى تكذيبه ليس في حُكمي وقُدرتي حتّى أَجيءَ به، وليس أمرُه بمُفوَّضٍ إليّ[1].

توجيهُ المجاز في ذكرِ العِنديّة:

نفيُ العِنديّةِ مجازٌ في نفيِ القُدرةِ على ما طلبوُه واستَعجلُوه

التّعبيرُ بالعِنديّة في قولِه جلّ شأنُه: ﴿مَا عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ﴾ مجازٌ عنِ التّصرف بالعلم والقُدرة، ونفيُها نفيٌ للقدرة والعلم، والمعنى: ليس في مقدرتي، فأنا لستُ العليمَ القديرَ، ولكنّني عبدٌ مُرسَلٌ أقفُ عند ما أُرسلتُ به، وحقيقةُ (عند) أنّها ظرفُ مكان، وتُستعمل مجازًا في استقرار الشّيء لشيءٍ، وملكِه إيّاه، كقوله: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ﴾ [الأنعام: 59][2].

فائدةُ الحصْرِ بقصْرِ القلْبِ:

الوعيدُ والعذابُ بيدِ الله تعالى وحدَه

تقديمُ المسنَدِ الظّرفِ ﴿عِندِى﴾ في قوله جلّ شأنُه: ﴿مَا عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ﴾ أفاد قصْرَ القلبِ[3]؛ "لأنّهم توهّموا مِن توعُّد النّبيّ ﷺ إيّاهم أنّه توعّدَهم بعقابٍ في مقدرتِه، فجعلوا تأخّرَه إخلافًا لتوعّدِه، فردّ عليهم بأنّ الوعيدَ بيد اللّه"[4].

إيثارُ التّعبير بالاسمِ الموصولِ:

العذابُ واقعٌ موصولٌ بالمشركين لا محالةَ، وإنْ تأخّرَ

عبّر بالاسم الموصول في قولِه جلّ شأنُه: ﴿مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ﴾، ولم يقُل: (العذاب) إشارةً لما في حيّز الصّلة منَ الاستعجال، وهو يُنبئ أنّه مؤخّرٌ مدّخرٌ لهم، واقعٌ بهم لا محالة[5].

دلالةُ الحصْرِ في قولِه تعالى: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾:

في قولِه جلّ شأنُه: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ حصرُ الحكم في اللّه

---

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/142، والآلوسّي، روح المعاني: 4/160.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/267.

(3) قصر القلب: قلب ما عند المُخاطَب، وذلك بعكس الحكم، نحو: ما سافر إلاّ عليّ، ردًّا على من اعتقد أنّ المسافر خليلٌ لا عليٌّ، فقد قلبتَ، وعكستَ الحكم لدى السّامع. يُنظر: القزوينيّ، الإيضاح: 3/15، وعصام، الأطول: 1/540، وأحمد الهاشميّ، جواهر البلاغة، ص: 173.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/268.

(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/267 - 268.

تعالى؛ في معرضِ نفيِ قُدرته وعلمِه بنزول العذاب؛ لتفويض أمرِ العذاب إلى الله تعالى[1]، ونفيِ أن يكونَ لغيره سبحانه دخلٌ ما فيه بوجهٍ منَ الوجوه[2].

فـوّضَ الـقـرآنُ أمرَ العذاب إلى الله، ونفاه عن كلّ أحدٍ سواه

توجيهُ عُمومِ المحصور وخُصوصِه:

حصرَ قولُه جلّ شأنُه: ﴿إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۖ﴾ الحُكمَ بمعناه العامِّ في الله تعالى بواسطة النّفي والاستثناء، وكلُّ صفةٍ مسنَدةٍ إلى الله تعالى بهذا الأسلوب فالقصرُ فيها حقيقيٌّ تحقيقيٌّ؛ لتعميمِ نفيِ الصّفة عمّن عداه سبحانه، وحسمِ الجدال في نسبتِها إلى الله وحده، والمرادُ به عمومُ الحكم، وذُكِر عقبَ استعجالهم بالعذاب؛ لبيان أنّ الحكمَ في تعجيل العذاب وتأخيرِه[3] لله تعالى وحده، فهو خاصٌّ يندرجُ ضمْنَ ذلك العموم[4].

لا حُـكـمَ في تأخيرِ العذابِ أو تقديمِه إلّا لله تعالى

إيثارُ التّعبير بالفعل المضارع ﴿يَقُصُّ﴾:

في قوله جلّ شأنُه: ﴿يَقُصُّ ٱلۡحَقَّۖ﴾ تعبيرٌ بالفعل المضارع للدّلالة على التّجدّدِ والاستمرارِ بلا انقطاعٍ، فجميعُ أحكامِه تعالى تابعةٌ للحقّ، فهو لا يَحكُم إلّا بما هو حقٌّ[5].

إنّ تَتَبُّعَ الحقّ متجدّدٌ لا ينقطعُ في كلّ زمانٍ

فائدةُ التّذييلِ:

في قوله جلّ شأنُه: ﴿وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡفَٰصِلِينَ﴾ اعتراضٌ تَذْييليٌّ؛ مقرِّرٌ لمضمون ما قَبْلَهُ مُشيرٌ إلى "أنّ قصَّ الحقّ ههنا بطريقٍ خاصٍّ، هو الفصلُ بين الحقِّ والباطل"[6].

في التّذييلِ تقريرٌ لمضمونِ الفصْلِ بـين الـحـقّ والباطلِ

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/531.
(2) الآلوسّي، روح المعاني: 4/160.
(3) الإيجيّ، جامع البيان: 1/540، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/142.
(4) الخازن، لباب التّأويل: 2/118، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/142، والآلوسّي، روح المعاني: 4/160 - 161.
(5) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/142.
(6) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/142.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

البيِّنة واليقين:

إدراكُ المحسوسِ أظهرُ

البيِّنة في الآية بمعنى اليقين على أرجح الأقوال، لكنّ اليقينَ هو العلمُ المؤكَّدُ، وهو سُكونُ الفهم مع ثبات الحُكم[1]، فهو خاصٌّ بالمعاني القلبيّةِ المعقولةِ، ولكنّ البيِّنةَ هي الدّلالةُ الواضحةُ عقليّةً كانت أم محسوسةً، وإدراكُ المحسوس أقوى وأظهرُ[2]، ولهذا آثرها النّظمُ القرآنيُّ في هذا السّياق.

الاستعجال والإسراع:

طلبُ الشّيء قبلَ أوانِه استعجالٌ مذمومٌ

الإسراع محمودٌ؛ لأنّه تقديمُ الشّيء في وقته، والاستعجالُ مذمومٌ؛ لأنّه طلبُ الشّيء قبلَ وقته.

العَجَلَةُ: طلبُ الشّيء، وتحرّيه قبلَ أوانِه، وهو مِن مُقتضَى الشّهوةِ، فلذلك صارت مذمومةً في عامّة القرآن".

وأمّا السّرعة والإسراع فهي التَّقدُّم فيما ينبَغي أن يُتقدَّم فيه، وهي محمودةٌ، ونقيضُها مَذمومٌ، وهو الإبطاءُ. والعجلةُ: التَّقَدُّمُ في ما لا ينبغي أن يُتَقَدَّم فيه، وهي مذمومةٌ، ونقيضُها مَحمودٌ، وهو الأناةُ.

فالاستعجال مذمومٌ؛ لأنّه مطالبةٌ بتعجيل الشّيء قبلَ وقته، والإسراع محمودٌ؛ لأنّه تقديمُ الشّيء في وقته. وفي الآية لفظُ الاستعجال أدقُّ وأنسبُ؛ لأنّهم طلبوا العذابَ قبل وقته.

فَأَما قولُه تعالى: ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴿٨٤﴾﴾ [طه: 84] فذكر أنّ عَجَلَتَه - وإن كانت مذمومة - فالّذي دعا إليها أمرٌ محمودٌ، وهو طلبُ رضا اللّه تعالى.

---

(1) الرّاغب، المفردات: (يقين).

(2) الرّاغب، المفردات: (بين).

(الفصْل) و(الحُكْم):

الفَصلُ تبيانٌ للحقِّ منَ الباطل

في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ﴾ لم يقُل: وهو خيرُ الحاكمين؛ لفرقٍ بين الفصلِ والحُكمِ، فالحكمُ فيه منع، يقال: أحكمتُه، منعتُه، والحكمُ بالشّيء أن تقضي بأنّه كذا، أو ليس بكذا سواء ألزمت ذلك غيرَك أم لم تُلزمْه[1].

أمّا الفصلُ فإنّه تبيينُ الحقّ منَ الباطل، وفصلُ الخطاب[2]: ما فيه قطعُ الحُكمِ، وهذان المعنيان هما المقصودان هنا، ولهذا قال: ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ﴾.

(1) الرّاغب، المفردات: (حكم).

(2) الرّاغب، المفردات: (فصل)، والعسكريّ: الفروق اللغوية، ص: 151.

﴿قُل لَّوۡ أَنَّ عِندِي مَا تَسۡتَعۡجِلُونَ بِهِۦ لَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡۗ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ ٥٨﴾ [الأنعام: 58]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

التَّقديمُ لنفْيِ القُدرة بالبُرهانِ

بعد أنّ نفى قُدرتَه صلواتُ ربّي وسلامُه عليه على إنزال العذاب، أكّدَ ذلك المعنى بالبرهان لمَن زاد إنكارُه وعنادُه، فقال: ﴿قُل لَّوۡ أَنَّ عِندِي﴾[1]. الآية.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿لَقُضِيَ﴾: قضي: قَضَى يَقضي حَكَمَ، وانقَضَى الشّيءُ وتَقَضَّى؛ أي: فَنيَ وذهبَ[2]، أصلُ القضاء: انقطاعُ الشّيء وتمامُه[3]، وقضَى فلانٌ صلاتَه؛ أي: فرغَ منها[4]، وهو على ضروبٍ كلُّها يرجعُ إلى معنى انقطاع الشّيء وتمامِه، ومنه: قضى القاضي بين الخصوم؛ أي: قد قطعَ بينهم في الحكم[5].

2) ﴿ٱلۡأَمۡرُ﴾: الأَمرُ: الشّأنُ، وجمعُه أُمور[6]، ومعنى ﴿لَّقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ﴾؛ أي: لتمّ بإهلاكِهم، وانقضى[7].

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

إمهالُ اللهِ الكافرين عِظَةٌ لهم قبل إيقاعِ العذابِ

يخاطبُ اللّه تعالى نبيَّه ﷺ أن يقول للمشركين المُستعجلين لنزول العذاب: لو أنّ عندي ما تستعجلون لم أُمهلْكم، ولَأوقعتُه بكم، ولا خيرَ لكم في ذلك، ولكنّ الأمرَ عند الحليمِ الصّبورِ؛ أي: لو كان في قُدرتي

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/134.
(2) الخليل، العين: (قضي).
(3) النّيسابوريّ، إيجاز البيان: 1/289.
(4) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (قضي).
(5) الزّجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 2/230.
(6) الرّاغب، المفردات: (أمر).
(7) الزّجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 2/230، والنّيسابوريّ، إيجاز البيان: 1/289.

الوصولُ إلى ما تستعجلون به منَ العذاب لبادرتُ إليه، ووقع الانفصالُ بيني وبينكم[1]، وشاءَ اللّهُ بحكمتهِ ورحمتهِ ألّا يُعجِّلَ لكفّارِ هذه الأمّة العذابَ، وإنّما يُمهلُهم، فمَنِ ارتدع واتَّعظَ نَجا، ومَن أصَرَّ على ظُلمهِ فإنّ عقابَ اللّه في الآخرة ينتظرُه: ﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ الفصْلِ في الآية:

تأكيدُ نفيِ الاستطاعةِ ترسيخٌ لبشريّةِ رسولِ الله ﷺ

في قولِه جلّ شأنُه: ﴿قُل لَّوۡ أَنَّ عِندِي مَا تَسۡتَعۡجِلُونَ بِهِۦ﴾ استئنافٌ يُبيِّنُ أنَّه سبحانه يأتي بالأمر في الوقت الذي حدَّهُ لَهُ على ما هو الأليقُ بهِ من غيرِ قدرةٍ لأحدٍ غيرهِ[2]، وللإجابة عن سؤال السّامعِ عند سماع قولِه: ﴿مَا عِندِي مَا تَسۡتَعۡجِلُونَ بِهِۦٓ﴾، فيقول: فلو كان بيدك إنزالُ العذاب بهم ماذا تصنعُ؟ فأجيبَ بقوله: ﴿قُل لَّوۡ أَنَّ عِندِي مَا تَسۡتَعۡجِلُونَ بِهِۦ﴾[3].

إيثارُ الأمر بالقولِ دون الإخبارِ:

تأكيدٌ لأهمّيّة مضمونِ البيان، وحاجتِه إلى المجاهَرةِ والإعلان

سيق قولُه جلّ شأنُه: ﴿قُل لَّوۡ أَنَّ عِندِي مَا تَسۡتَعۡجِلُونَ بِهِۦ﴾ للدلالة على أنّه لمّا بُني الكلامُ السّابق على تلقين الرّسولُ ما يقوله لهم، لقّنَه ما يتطلّعُ له السّامع[4]؛ وتلقينُ القَول بمقولٍ ما دليلٌ على أهمّيّة مضمونِه، وأنّه بحيث أن يُقال بصيغةٍ لا يشوبُها شكٌّ[5].

بلاغةُ المجازِ في لفظِ (عندي):

عبّرَ بالعِنديّة للدّلالة على التّمكّنِ من إنجازِ الوعيدِ

في قولِه جلّ شأنُه: ﴿قُل لَّوۡ أَنَّ عِندِي﴾ تَعبيرٌ بالعِنديّة للدّلالة على التّمكّن والقدرةِ، ونفيُ العِنديّة في الآية هو نفيٌ للقدرة والتّمكّن؛ أي: لو في قُدرتي ومُكْنتي[6].

---

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/532، والخازن، لباب التّأويل: 2/118، والسّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 259.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/134.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/269.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/269.

(5) الآلوسّي، روح المعاني: 4/159.

(6) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 2/165.

إيثارُ التّعبير بالفعلِ المبنيِّ للمفعولِ:

آثرَ التّعبيرَ بالمفعولِ اهتمامًا بالمَخُوفِ، وأدبًا مع الله تعالى

جاء قولُه جلّ شأنُه: ﴿لَقُضِيَ ٱلْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ بالفعل مبنيًّا للمفعول، اهتمامًا بالحدثِ في ذاتِه وهو الإهلاكُ؛ لأنّ المَخوف إنّما هو الإهلاكُ، لا كونُه من معيَّن[1]، فظاهرٌ أنّ قاضيَه هو مَن بيده ما يستعجلون به[2]، وهو اللّه تعالى، فلم يصرّح به؛ تهويلًا، ومراعاةً لحُسن الأدب معه[3] ﷻ.

فائدةُ التّذييلِ في فاصلةِ الآية:

أفادَ التّذييلُ تقريرَ مضمونِ الآيةِ؛ وهو انتفاءُ قُدرةِ الرّسولِ على إنزالِ العذابِ

وردَ قولُه جلّ شأنُه: ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾ تذييلا مقرِّراً لِما أفادتْه الجملةُ الامتناعيّةُ من انتفاءِ كونِ أمرِ العذاب مفوَّضًا إليه ﷺ؛ أي: اللّه أعلَمُ منّي، ومن كلّ أحدٍ بحكمة تأخيرِ العذاب، وبوقت نزولِه؛ لأنّه العليمُ الخبيرُ الّذي عنده ما تستعجلون به[4].

فائدةُ التّعبيرِ بالعِلْم في مَعرِض التّهديدِ:

الإخبارُ بالعلْمِ تهديدٌ للظّالمين؛ للزومِ القُدرةِ على عقابِهم

عبّر عن تهديدهم في قولِه جلّ شأنُه: ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾ بأنّه عليمٌ بهم؛ زجرًا لهم، فمَن علمَ بحالِهم كان على مجازاتِهم أقدرَ، وهذا منَ الكناية عن موصوفٍ هو التّهديدُ بالعذاب، والتّعبيرُ الكنائيُّ أقوى في أداء المعنى؛ لاقتران المعنى المقصودِ بدليله، وفيه ما فيه منَ التّلويح بالتّهديد الشّديدِ.

علّةُ وضْعِ الظّاهرِ مَوضِعَ المُضمَر:

إيثارُ الإظهارِ على الإضمارِ كشْفاً لصفاتِ المشركين

في قولِه جلّ شأنُه: ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾ عدل إلى الاسم الظّاهر فقال: ﴿بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾، والمرادُ: (واللّه أعلم بكم)، فوضعَ الظّاهرَ المعبِّرَ عن صفة الظّلم مَوضِعَ المُضمَر[5]، فأظهرَ الظّلمَ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/134.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/269.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/142، والآلوسّي، روح المعاني: 4/161.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/142 - 143، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/270.
(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/532، والهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 8/369.

للتّعبير عن وضْعِهم الاستعجالَ بالعذاب مَوضِعَ قَبول الحقّ، فظلموا أنفسَهم بالشّرك أوّلًا، وبمطالبةِ العذاب ثانيًا، ولو عبّر بالضّمير لَفاتَ هذا المعنى؛ وفيه عمومٌ يتناولُهم، ويتناولُ أمثالَهم منَ الظّالمين.

المحتويات

الجزء السابع 7

سورة المائدة 9

- [المائدة: 107] 10
- [المائدة: 108] 28
- [المائدة: 109] 41
- [المائدة: 110] 50
- [المائدة: 111] 75
- [المائدة: 112] 81
- [المائدة: 113] 89
- [المائدة: 114] 93
- [المائدة: 115] 106
- [المائدة: 116] 118
- [المائدة: 117] 137
- [المائدة: 118] 150
- [المائدة: 119] 160
- [المائدة: 120] 176

سورة الأنعام 185

- [الأنعام: 1] 200
- [الأنعام: 2] 217
- [الأنعام: 3] 229
- [الأنعام: 4] 237
- [الأنعام: 5] 244
- [الأنعام: 6] 252
- [الأنعام: 7] 268
- [الأنعام: 8] 275
- [الأنعام: 9] 280
- [الأنعام: 10] 289
- [الأنعام: 11] 298
- [الأنعام: 12] 306
- [الأنعام: 13] 317
- [الأنعام: 14] 324
- [الأنعام: 15] 334
- [الأنعام: 16] 339
- [الأنعام: 17] 344
- [الأنعام: 18] 351
- [الأنعام: 19] 356
- [الأنعام: 20] 382
- [الأنعام: 21] 395
- [الأنعام: 22] 408
- [الأنعام: 23] 419
- [الأنعام: 24] 425
- [الأنعام: 25] 432
- [الأنعام: 26] 451
- [الأنعام: 27] 459
- [الأنعام: 28] 469
- [الأنعام: 29] 482
- [الأنعام: 30] 488
- [الأنعام: 31] 501
- [الأنعام: 32] 519
- [الأنعام: 33] 530
- [الأنعام: 34] 544
- [الأنعام: 35] 561
- [الأنعام: 36] 580
- [الأنعام: 37] 592
- [الأنعام: 38] 604
- [الأنعام: 39] 619
- [الأنعام: 40] 633
- [الأنعام: 41] 643
- [الأنعام: 42] 649
- [الأنعام: 43] 661
- [الأنعام: 44] 671
- [الأنعام: 45] 685
- [الأنعام: 46] 694
- [الأنعام: 47] 707

- [الأنعام: 48] 715
- [الأنعام: 49] 722
- [الأنعام: 50] 728
- [الأنعام: 51] 737
- [الأنعام: 52] 743
- [الأنعام: 53] 753
- [الأنعام: 54] 762
- [الأنعام: 55] 772
- [الأنعام: 56] 778
- [الأنعام: 57] 785
- [الأنعام: 58] 794

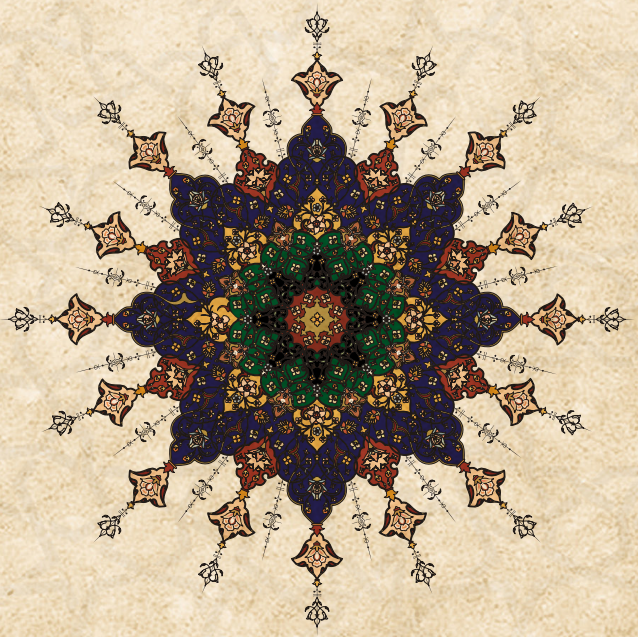

مجمع القرآن الكريم بالشارقة

موسوعة التفسير البلاغي

المُجلَّدُ الحَادي عَشَرَ

سورة الأنعام من الآية 59 إلى الآية 123

موسوعة التفسير البلاغي

Government of Sharjah حكومة الشارقة
مجمع القرآن الكريم بالشارقة
HOLY QURAN ACADEMY IN SHARJAH

موسوعة التفسير البلاغي

المُجَلَّدُ الحَادي عَشَرَ

سورة الأنعام من الآية 59 إلى الآية 123

نُخْبَةٌ مِنْ عُلَماء مَجْمَعِ القُرْآنِ الكَرِيمِ بِالشّارِقَةِ

منشورات القاسمي
AL QASIMI PUBLICATIONS
20/24

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الحادي عشر، سورة الأنعام من الآية 59 إلى الآية 123
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: سورة الأنعام من الآية 59 إلى الآية 123 [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 11 ، 808 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-798-63-7
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 11 : سورة الأنعام من الآية 59 إلى الآية 123.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-798-63-7
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-9795022 بتاريخ 2023/12/19م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الجُزْءُ السَّابِعُ

سُورَةُ الأَنعَامِ

﴿۞وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ لَا يَعۡلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۚ وَمَا تَسۡقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعۡلَمُهَا وَلَا حَبَّةٖ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡأَرۡضِ وَلَا رَطۡبٖ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ٥٩﴾ [الأنعام: 59]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

نفيُ علمِ الغيب عـنِ النّبـيّ ﷺ يلزمُ منه إثباتُهُ لنفسِه جـلَّ في عُلاه

لمّا قال سبحانه في فاصلة الآيةِ السّابقةِ: ﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾ عطفَ عليها بما هو أشملُ مِن هذا، ولمّا نفى عن رسول الله ﷺ عِلمَه بما يستعجلونه منَ العذاب أثبتَ عِلمَه سبحانه بكلّ ما في الغيب بطريق الحصر.

ومن عادة بناءِ السّورة القرآنيّةِ أن يستأنفَ في قلبها تفصيلًا لمعنًى منَ المعاني الّتي وردت في صدرها، وقد قال سبحانه في صدر سورةِ الأنعام: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِي ٱلۡأَرۡضِ يَعۡلَمُ سِرَّكُمۡ وَجَهۡرَكُمۡ وَيَعۡلَمُ مَا تَكۡسِبُونَ ٣﴾ [الأنعام: 3]، فجاء قولُه بعد ذلك ﴿۞وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ لَا يَعۡلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ﴾، وقد تضمّنت تفصيلًا من علم الله سبحانه.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ﴾: (فتح) أصلٌ يدلّ على خلاف الإغلاق[1]، والمِفتاحُ: مفتاحُ الباب، وكلِّ مُستغلقٍ[2]، يُقال للَّذي يُفتَح بِهِ المِغْلاق مِفتحٌ ومِفتاحٌ، وجمعُهما مَفاتحُ ومفاتيح[3]، والمفاتحُ: المخزنُ، ﴿مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ﴾: خزائنُه؛ وهي الطّرقُ الموصلةُ إلى علمهِ تشبيهًا بمفتاح الدّار[4].

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (فتح)، والرّاغب، المفردات: (فتح).
(2) الجوهريّ، الصّحاح: (فتح).
(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (فتح)، وابن الجوزيّ، زاد المسير: 2/37، والعُليميّ، فتح الرّحمن: 2/408.
(4) العُليميّ، فتح الرّحمن: 2/408، والإيجيّ، جامع البيان: 1/540.

2) ﴿وَرَقَةٍ﴾: ورَقُ الشّجرِ. جمعه: أَوراقٌ، الواحدة: ورَقَةٌ، والورقُ: ما تبسّط، وكان له عِرْق في وسطه، تنتشر عنه حاشياته، من أوراق الشّجر والكِتاب[1]، ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ﴾؛ هي واحدةُ الورق منَ النّبات[2].

3) ﴿تَسْقُطُ﴾: (سقط) أصلٌ يدلّ على الوقوع[3]، سقط: وقع من أعلى إلى أسفلَ[4]، وانحدارٌ في الهواء[5]، وقولُه تعالى: ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا﴾، "يعلم كم انقلبَت إلى أنْ سقطتْ على الأرض"[6].

4) ﴿رَطْبٍ﴾: (رطب) أصلٌ يدلّ على خلاف اليَبَس[7]، ورطُبَ الشّيءُ نَديَ، وشيءٌ رَطْبٌ إذا كان مبتلًّا بالماء أو ليّنًا[8]، ﴿وَلَا رَطْبٍ﴾: الرّطبُ الماءُ: يريد النّبات، أو الحيّ[9]، فالرّطبُ ما فيه حياةٌ منَ الشّجر والنّبات والحيوانات[10].

5) ﴿يَابِسٍ﴾: (يبس) أصلٌ يدلّ على جفافٍ[11]، وهو نقيضُ الرّطوبة، وطريقٌ يبسٌ لا بَلَلَ فيه[12] إذا جفَّ بعد رطوبته فهو يابس، ومكانٌ يَبَسٌ إذا كان فيه ماءٌ فذهب[13]، ﴿وَلَا يَابِسٍ﴾: ما فارقته الحياةُ منَ الأشجار والنّبات والحيوانات[14]، وقولُه تعالى: ﴿وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ﴾، يريد: ما ينبتُ وما لا ينبت[15]، ولا حَيٌّ ولا مواتٌ[16].

6) ﴿كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾: الكتابُ المبينُ: هو اللّوح المحفوظ، مرسومٌ فيه عددُه ووقتُه في

(1) ابن منظور، لسان العرب: (ورق)، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (ورق).
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/533.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سقط).
(4) الفيوميّ، المصباح المنير: (سقط).
(5) الجرجانّي، درج الدّرر: 1/611.
(6) البغويّ، معالم التّنزيل: 2/130.
(7) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (رطب)، والجوهريّ، الصّحاح: (رطب).
(8) الفيوميّ، المصباح المنير: (رطب)، والأزهريّ، تهذيب اللّغة: (رطب).
(9) الخازن، لباب التّأويل: 2/119، والماورديّ، النّكت والعيون: 2/122.
(10) ابن عجيبة، البحر المديد: 2/127.
(11) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (يبس).
(12) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (يبس).
(13) الفيوميّ، المصباح المنير: (يبس).
(14) ابن عجيبة، البحر المديد: 2/127.
(15) الواحديّ، البسيط: 8/191.
(16) السّمعانّي، تفسير القرآن: 2/111.

اخضِراره ويُبسِه وسقوطِه، وكلُّ ذلك غيرُ خارج عن علم الله تعالى[1]؛ يعني: أَنّ الكلّ مَكتوبٌ فيه[2]، ﴿مُّبِينٍ﴾: يبيّن عن صحّة ما هو فيه، بوجود ما رُسم فيه على ما رُسم[3].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

وسعَ ربُّنا كلّ شيء عِلْمًا، وإحاطةً

يخبرُ الله تعالى عن سعة علمه، فعنده وحده تعالى خزائنُ الغيب، لا يعلمُها غيرُه، ويعلمُ كلَّ ما في البرّ والبحر من موجودات، وما تسقطُ من ورقة في أيّ مكان، ولا توجدُ حبّةٌ في أعماق الأرض، ولا يوجدُ رطبٌ، ولا يوجد يابسٌ، إلّا كان مثبَتًا في اللّوح المحفوظ[4]، فسبحان مَن أحاط بكلّ شيءٍ علمًا.

❁ الإِيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

سرُّ تقديمِ الظّرف:

الغيبُ مخصوصٌ بالله ﷻ

قولُه جلّ شأنُه: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ﴾ تقديمٌ للظّرفِ الواقعِ خبرًا ﴿وَعِندَهُۥ﴾ على المبتدأ؛ لإفادة التّخصيصِ والحصر[5]؛ أي: عنده وحده لا عند غيره[6]، فالجملةُ بيانٌ لاختصاص الغيب به تعالى من حيثُ العلمُ[7].

بلاغةُ الاستعارةِ التّمثيليّةِ في المفاتِحِ:

علمُ الله تعالى الغيوبَ أكمل وأشملُ

استُعيرت المفاتحُ في قولِه جلّ شأنُه: ﴿مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ﴾؛ للتّوصّل إلى الغيب، كما يُتوصّلُ بالمفاتح إلى ما في الخزائن[8]؛ فقد جَعلَ للغيب

(1) مكّيّ القَيسّي، الهداية: 3/2044، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/536.
(2) السّمعانّي، تفسير القرآن: 2/111.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 11/403.
(4) مجموعة من المؤلفين، المختصر في تفسير القرآن الكريم: 1/134.
(5) زاده، حاشية على البيضاويّ: 4/57، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2522 - 2523.
(6) الآلوسّي، روح المعاني: 4/162، والسّيوطيّ، قطف الأزهار: 2/886، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 7/135، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/270.
(7) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/143.
(8) ابن جُزَيّ، التّسهيل: 1/263، والسّخاويّ، تفسير القرآن العظيم: 1/251، والسّيوطيّ، قطف الأزهار: 2/886.

مفاتيحَ على طريق الاستعارة؛ لأنّ المفاتيح هي التّي يُتوصّل بها إلى ما في الخزائن المُستَوثَقِ منها بالإغلاق، فمَن علمَ كيف يُفتح بها، ويُتوصّلُ إلى ما فيها، فهو عالم[1]، وفي هذه الاستعارة التّمثيليّةِ مزايا عدّةٌ، منها: الإشارةُ إلى أنّ الله سبحانه قد أحصى كلَّ شيءٍ علمًا كإحصاء مَن بيده مفاتيحُ الخزائن لما فيها، والإشارةُ إلى عِلْمِهِ سبحانه بخفايا الأمور كعِلْم مَن بيده مفاتيحُ الخزائن بما فيها من أشياءَ لا يعلمُها غيرُه، وهذا المَغزَى في الاستعارة يؤكّد دلالةَ القصر، ويتفاعلُ معها.

نُكتةُ تعدّدِ الكيفيّات الدّالّةِ على اختصاصِ علْمِ الغيبِ بالله تعالى:

قولُه جلّ شأنُه: ﴿لَا يَعۡلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ﴾ حصرُ العلم بتلك المفاتح بالله تعالى، فلا يطّلعُ عليها غيرُه[2]، فهو تأكيدٌ لمضمون الجملة الأولى: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ﴾ الدّالّةِ على الاختصاص[3]، وتأكيدُ دلالةِ الاستعارة في ﴿مَفَاتِحُ﴾ على أنّه لا يعلمُ خفايا الغيب إلّا الله كما أنّ مَنْ بيده مفاتحُ الخزائن لا يعلم ما فيها غيرُه، وتعُّددُ تلك الوسائل التّعبيريَّةِ الدّالّةِ على اختصاص علم الغيب بالله يقطعُ أطماعَ بعضِ مَردةِ الإنسِ والجنِّ في معرفة شيءٍ من ذلك العلمِ.

تأكيدُ نسبةِ العلْمِ بالغيب لله تعالى وحدَه؛ ردْعًا للطّامعين في ادّعاءِ معرفةِ شيءٍ منه

براعةُ كمالِ الاتّصالِ بين الجُملتين:

في قولِه جلّ شأنُه: ﴿۞وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ لَا يَعۡلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ﴾ جملتان متّحدتان في المعنى، وهما قولُه: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ﴾، وقولُه: ﴿لَا يَعۡلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ﴾ ففصَل بينهما ولم يعطفْ؛ لأنّ معناهما واحدٌ، فالثّانيةُ مؤكّدةٌ[4]، وهذا مِن كمال الاتّصال الّذي يحقّقُ الرّبطَ المعنويَّ بين الجُملتين، ويُغني عن أداة عطفٍ.

قوّةُ الرّبط المعنويِّ بين الجُملتين أغنى عنِ العطْفِ الظّاهرِ

(1) الخازن، لباب التّأويل: 2/118، والزّمخشريّ، الكشّاف: 2/31، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/299، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 2/165، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/143.

(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/534 - 535.

(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/143، والقنّوجيّ، فتح البيان: 4/154، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2522 - 2523.

(4) الشّهاب، عناية القاضي: 4/71.

توجيهُ عطْفِ علْمِ ما في الأرضِ على علْمِ الغيبِ:

لمّا ذكر معرفته بعلم الغيب في: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ﴾ أتبعَه بعلم الشّهادة في ﴿وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۚ﴾؛ تكملةً له، وتنبيهًا على أنّ الكلَّ بالنّسبة إلى علمِه المحيطِ سواءٌ في الجَلاءِ[1].

علمُ اللهِ سبحانه يجمعُ علمَ الغيبِ وعلمَ الشّهادة؛ تأكيدًا لعُمومِ معرفتِه

فائدةُ التّخصيصِ بعدَ التّعميمِ:

بعد أن ذكر عمومَ علمه سبحانه تعالى خصّ علمَه بما في البرّ والبحر بقولِه جلّ شأنُه: ﴿وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۚ﴾، وهما داخلان تحت ذلك العموم، وإنّما أفردَهما بالذّكر؛ لأنّه لمّا قال: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ﴾ بيّن علمَه على سبيل الإجمال، فذكرَهما بعده على سبيل التّفصيل؛ ليدلّ بهما على سائر مخلوقاتِه[2]، وخصّ البرَّ والبحرَ بالذّكر؛ لأنّهما أعظمُ مخلوقات اللّه تعالى المجاورةِ للبشر؛ أي: يعلمُ ما فيهما من شيء[3].

ذكرَ القرآنُ البرَّ والبحرَ تفصيلًا بعد الإجمالِ، وتمثيلًا على سائرِ مخلوقاتِه

مزيّةُ الطّباقِ في البرِّ والبحرِ:

قولُه جلّ شأنُه: ﴿وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۚ﴾ جمعَ لفظَيِ البرّ والبحر في جملةٍ واحدةٍ، والتّضادُّ بينهما يدُلُّ على شُمول علمِ اللّه تعالى بما في مخلوقاته على اتّساعِها؛ ففي البرّ أشياءُ لا تُحصى عدًّا، وفي البحر أشياءُ لا تُحصَى كذلك، ولكنّ اللّه يعلمُها على خفائها.

فضلًا عن الجمالِ المعنويِّ، دلّ الطّباقُ على شُمولِ علمِ الله تعالى

فائدةُ التّعبيرِ بالموصولِ:

قولُه جلّ شأنُه: ﴿وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۚ﴾ عبّر بالموصول الحَرفيّ الدّالِّ على العموم؛ لأنّه أراد تعميمَ المعرفة لتشملَ الذّواتِ والمعانيَ كلَّها[4].

شَمِل علمُ الله المعانيَ والذّواتِ

---

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/143، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 7/135، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/535.

(2) الخازن، لباب التّأويل: 2/119.

(3) القنّوجيّ، فتح البيان: 4/155، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/299، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/535، والشّوكانيّ، فتح القدير: 2/140.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/272.

علّةُ تقديم البرِّ على البحرِ:

البرُّ أكثرُ ملابسةً للنّاسِ، وهم أكثرُ إحاطةً بأحوالِه من البحرِ

بدأ قولُه جلّ شأنُه: ﴿ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۚ﴾ بذكر البرّ قبل البحر؛ فقدّم ذكرَ البرّ؛ لأنّ الإنسانَ أكثرُ ملابسةً له ولأحواله، ولكثرةِ مشاهدته بما اشتمل عليه منَ المدن، والقُرى، والمفاوزِ، والجبالِ، والحيوانِ، والنّباتِ، والمعادنِ؛ وأخّرَ البحرَ؛ لأنّ إحاطةَ الحسّ بأحواله أقلُّ[1].

بلاغةُ القَصْرِ في قوله تعالى: ﴿وَمَا تَسۡقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعۡلَمُهَا﴾:

العلمُ بالأحوالِ أبلغُ في الدّلالةِ على دقّةِ العلْمِ

عبّر عنِ العِلم في قولِه جلّ شأنُه: ﴿وَمَا تَسۡقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعۡلَمُهَا﴾ بسقوط الورقة، وهو حالٌ مِن أحوال الورقة؛ مبالغةً في علمِه بلطائفِ الأشياء؛ لأنّ التّعبيرَ عنِ العلم بالأحوال أدلُّ على دقّة العلم منَ التّعبير عنِ العلم بالذّات، فذَكَرَه مبالغةً في إحاطة عِلْمِه بالجُزئيّات[2]؛ لأنّ سقوطَ الورقة حَدَثٌ لا يُؤبَهُ بِهِ لدى النّاس، فالتّعبيرُ بالعلم به دليلٌ على دقّة عِلْمِه ﷻ.

وأسلوبُ القصر بالنّفي والاستثناء يخصُّ عِلْمَ هذا الأمر باللّه سبحانه، وتتجلّى قيمتُه في إعجاز الخلق جميعًا أن يعلمَ واحدٌ منهم بما يسقطُ من أوراق شجرة حديقتِه، فما بالُ أشجارِ الدّنيا الّتي أحاط اللّه سبحانه علمًا بكلّ ما يسقط من أوراقها.

نُكتةُ التّعبيرِ عنِ السّقوطِ بالمضارع:

يَدِقُّ علْمُ اللهِ بمتجدِّدِ الأحداثِ لا عُمومِها

عبّر بالفعل المضارع في قوله تعالى: ﴿وَمَا تَسۡقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعۡلَمُهَا﴾ الدّالِّ على الحدوث والتّجدّدِ عن سقوط الورقة إشارةً إلى أنّ عِلْمَه تعالى لا يتعلّق بمعنى السّقوط العامّ، بل هو يعلمُ الحدَثَ المتجدّدَ؛ فكلّما تسقط ورقة فإنّه تعالى يعلمُ حدوثَ سقوطها.

علّةُ إيثارِ لفظِ السّقوطِ:

وخصّ البيانُ بالذّكر حالَ السّقوط من بين أحوال الورقة، فلم

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/535، والنّيسابوريّ، غرائب القرآن: 3/90، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 7/136.
(2) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 2/165.

مَصيرُ كلِّ حيٍّ ومآلُه إلى السّقوطِ

يقل: (وما تنمو) مثلًا؛ لأنّه اكتفى بحال السّقوط عن سائر الأحوال، باعتبارِه أُنموذَجًا لغيره منَ الأحوال[1]، وتنبيهًا لأولي الألباب على النّهاية الحتميّة لكلّ حيٍّ، وكما يعلمُ سبحانه بتساقُطِ الأوراق ورقةً ورقةً، فإنّه يعلمُ بتساقُط الأنفسِ في هذه الدّنيا نفسًا نفسًا ﴿لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾﴾ [مريم 94 - 95]

فإن قيل: لمَ خصَّ الورق السّاقِط بالذّكر، وهو يعلمُ السّاقِط والثّابِت؟ جوابُه: أنّه يتضمّن إشارةً إلى معنى السَّقَط، وهو ما لا أهمّيّةَ له ولا فائدةَ، فعلمُه بالثّابت المنظور من بابِ أولى[2]، والمرادُ التّنبيهُ إلى أنّه لا يغادر صغيرةً ولا كبيرةً إلّا سيحاسِبُ عليها.

دلالةُ (مِن) في ﴿مِن وَرَقَةٍ﴾، وفائدةُ التّنكيرِ:

تدلُّ (مِن) على استغراق الجنسِ؛ لتأكيدِ النّفْي؛ والتّنكيرُ للتّعميمِ

قولُه جلّ شأنُه: ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا﴾ عبَّر بحرف الجرّ (مِن) الّتي تفيدُ استغراقَ الجنس[3]؛ لتأكيد النّفي والتّعميم، بحيث إنّه يستغرقُ كلَّ ورقة[4]. وذَكَرَ الورقةَ بصيغة التّنكير؛ إتمامًا للتّعميم[5]، وهنا تتآزرُ دلالاتُ الكيفيّات التّعبيريّة، فتظلّ ﴿مِن﴾ على استغراق جنس الورقة، حتّى لا تبقى ورقةٌ من أشجار الدّنيا كلِّها إلّا ويعلمُها الله، ويعضّدُ تنكيرُ ﴿وَرَقَةٍ﴾ هذا المعنى.

فائدةُ إطلاقِ العلْمِ بالورقةِ دونَ تقييدِه:

تعلّقُ العلْمِ بجميعِ أحوالِ الورقةِ تعظيمٌ لعلْمِه ﷻ

جاء الفعلُ (يعلم) في قولِه جلّ شأنُه: ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا﴾ مطلقًا[6]، فلم يقُل: (يعلم سقوطها) فآثرَ أن يكون العلمُ مطلقًا؛ لشمول جميعِ أحوالها وتقلّباتِها: فعلمُه بها مُطلقٌ قبْلَ السّقوط، ومعَه، وبعدَه، يعلمُها ساقطةً وثابتةً، ويعلمُ متى تسقطُ؟

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/143، والآلوسّي، روح المعاني: 4/163.
(2) السّمعانّي، تفسير القرآن: 2/110 - 111.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/535، والنّسفيّ، مدارك التّنزيل: 1/510.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/136، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/272.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/136.
(6) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/299.

وأين تسقطُ؟ وكم تدورُ في الهواء؟! ويعلمُ كيف انقلبت ظهرًا لبطن إلى أن وقعت على الأرض؟![1].

وجهُ ذكْرِ الخاصّ بعد العامّ:

بعدما ذكرَ قولُه جلّ شأنُه: ﴿وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ﴾ علمَه على وجه العُموم، أتبعَه بذكر علمِه بالورقة والحبّةِ والرّطبِ واليابسِ على سبيل الخُصوص، فتحصّل إخبارُه تعالى بأنّه عالمٌ بالكلّيّاتِ والجُزئيّات[2].

شُمولُ علْمِ الله تعالى لكلِّ شيءٍ إجمالًا وتفصيلًا

سِرُّ التّعبيرِ عنِ العلمِ بمعرفةِ الحبّةِ:

قولُه جلّ شأنُه: ﴿وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ﴾ بعد أنْ ذكر تعالى عِلْمَه بالأشياء الكثيرة عدلَ إلى إعلام عبادِه بصِغَر المُدرَك وخفائِه؛ تعظيمًا لإحاطة عِلْمِه تعالى[3].

إحاطةُ علْمِه سُبحانه بالصّغائرِ من كمالِ نُفوذِ علْمِه

وتقييدُ ﴿حَبَّةٍ﴾ بقوله تعالى: ﴿فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ﴾؛ ليبيّنَ أنّه يعلمُ الأشياءَ بصفاتِها وأحوالِها، فالعلمُ بالحبّة قائمٌ، ولكنّه أضاف وصفًا للحبّة يخلعُ عليها مزيدًا منَ الخفاء؛ لأنّه "يريدُ في أشدّ حالات التّغيّب"[4]، فهذه الصّفةُ مفيدةٌ لكمال نفوذِ علمِه تعالى[5].

الغرَضُ منَ الإخبارِ بدقّةِ العلْمِ:

في قولِه جلّ شأنُه: ﴿وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ﴾ في ذكْرِ الحبّة والورقة وغيرِها تنبيهٌ على غيرها؛ لأنّها أشدُّ تغييبًا من كلّ شيء[6]، إشارةً للمكلّفين على أمر الحساب؛ لأنّه إذا كان بحيث لا يهملُ أمرَ الأشياء الّتي لا يُؤبهُ بها، وليس لها ثوابٌ ولا

عِلْمُ الله تعالى يَشملُ ظاهرَ الأعمالِ، وخَفيَّها

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/536، والخازن، لباب التّأويل: 2/119.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/535.
(3) النّيسابوريّ، غرائب القرآن: 3/90.
(4) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/299، وابن جُزَيّ، التّسهيل: 1/263.
(5) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/143، والآلوسّي، روح المعاني: 4/163.
(6) ابن جُزَيّ، التّسهيل: 1/263.

عقاب، فلأنْ لا يُهملَ أمرَ المكلّفين أَولَى[1]، وليُعلَمَ أنّ الأعمال أولَى بالإحصاء للجزاء[2].

سرُّ جمعِ ﴿ظُلُمَٰتِ﴾:

إيثارُ الجمعِ يؤذنُ بالمبالغةِ في دقّة علمِه سُبحانه وسَعتِه

آثرَ التّعبيرَ بالجمع في قولِه جلّ شأنُه: ﴿وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ﴾، ولم يقُل: (في ظلمة الأرض)؛ مبالغةً في تعلّق علمِه بالتّفاصيل، فعبّر عن داخل الأرض بظلماتٍ، وهو ظُلمةٌ واحدةٌ؛ لأنّه ظُلمةٌ متكاثفةٌ متكاثرةٌ بسبب جهْلِ الإنسان ما يجري في باطنها من أسبابٍ لا يدركُها الإنسانُ إلّا بعد أن تظهرَ[3].

فائدةُ تنكيرِ الرّطْبِ واليابسِ:

نكّرَ الوصْفَ؛ لإفادةِ عمومِ الرّطْبِ واليابسِ

قولُه جلّ شأنُه: ﴿وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ﴾ ذكرَ الرّطبَ واليابسَ بصيغة التّنكير، ولم يقُل: (ولا الرّطب ولا اليابس)؛ لأنّه أراد التّعميمَ؛ فكلُّ شيء اتّصف بالرّطوبة أو اليبوسةِ فإنّه يعلمُه تعالى[4].

نُكتةُ تعديدِ المستثنَى منه في قوله تعالى: ﴿وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ﴾:

تَعْدَادُ المستثنَى منه للتّأكيدِ على شُمولِ علمِه سُبحانه

وقد تعدّد المستثنى منه لإفادة التّوكيد؛ لأنّ معنى قولِه: ﴿إِلَّا يَعْلَمُهَا﴾، وقولِه: ﴿إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ واحدٌ[5]؛ وحسّنَ هذا التّأكيدَ طولُ الكلام، فَبعُدَ الأوّل بالمعطوفات وصفاتِها، وأُعيد بعبارة أخرى تفنّنًا على سبيل التّوكيد، والمبالغة[6]، ولإزالة وهْمِ مَن يتوهّمُ أنّ أحدًا يعلمُ الغيبَ غيرَه تعالى[7]؛ وتخصيصُ هذه الأشياء بكونها في كتاب مبين، وهو اللّوحُ المحفوظ؛ لإعلام العباد بأنّ اللّه سبحانه لا

(1) النّيسابوريّ، غرائب القرآن: 3/90.
(2) النّيسابوريّ، إيجاز البيان: 1/297.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2524.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/536.
(5) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/31.
(6) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/536، والجمل، الفتوحات الإلهيّة: 2/364، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/273.
(7) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 6/116.

يفوتُه شيءٌ ممّا يصنعونَه؛ لأنّ مَن أثبتَ ما لا ثوابَ فيه ولا عقابَ في كتابٍ؛ فهو إلى إثبات ما فيه ثوابٌ وعقابٌ أسرعُ[1].

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(سقطَ) و(هويَ) و(وقعَ):

السقوطُ الوقوعُ من علٍ بتؤُدَةٍ، ومن غيرِ عاملٍ خارجيٍّ

(هوي): أصل يدلّ على خُلوٍّ وسقوطٍ؛ أصلهُ الهواءُ بين الأرض والسّماء، سمّي لخُلوّه[2]. ويُقال: أهوَيْتُه، إذا ألقَيْتَه من فوق. الهَويُّ: السّقوطُ السَّريعُ إلى أسفلَ، هَوَت العُقابُ تَهوي هَويًّا، إذا انقضّت على صَيدٍ أو غيرِه[3]، ففيه معنى الإلقاء والسّقوطِ السّريع.

والسّقوط أصلُه: الوقوعُ من عُلوٍّ إلى سُفلٍ[4]، وكذلك (الوقوع) إلّا أنّه أخصُّ؛ لارتباطه بنزول الشّدائد والعذابِ، في حين يرتبط معنى السّقوط بالنّدم[5].

فقولُه جلّ شأنُه: ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا﴾ آثر لفظَ السّقوط؛ لأنّ سقوط الورقة وقوعٌ من أعلى إلى أسفلَ حتّى تصلَ إلى الأرض، من غير سرعةٍ في السّقوط ولا قذفٍ ولا رميٍ، فهو تعالى "يعلم كمِ انقلبت ظهرًا لبطنٍ إلى أن سقطت على الأرض؟!"[6].

(1) الخازن، لباب التّأويل: 2/119.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (هوي).
(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (هوى)، والخليل، العين: (هوى)، والواحديّ، البسيط: 14/484.
(4) السّمين، عمدة الحفّاظ: (سقط).
(5) داود، معجم الفروق الدّلاليّة في القرآن الكريم، ص: 296.
(6) البغويّ، معالم التّنزيل: 2/130.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيۡلِ وَيَعۡلَمُ مَا جَرَحۡتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبۡعَثُكُمۡ فِيهِ لِيُقۡضَىٰٓ أَجَلٞ مُّسَمًّىۖ ثُمَّ إِلَيۡهِ مَرۡجِعُكُمۡ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٦٠﴾ [الأنعام: 60]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الرّبْطُ بين علْمِ اللهِ مفاتِحَ الغيب، وكَونِه إليه الرُّجعَى والمصيرُ

لَمّا قصَرَ بيانُ اللهِ تعالى في الآيةِ السّابقةِ علْمَ مفاتحِ الغَيبِ على اللهِ تعالى وحدَه جاءتْ هذه الآيةُ الكريمةُ لتُعرِّفَ العبادَ؛ بأنّه تعالى هو لا غيرُه الَّذي يَقبِضُ نُفوسَهم في اللَّيلِ في مَنامِهم، ويعلمُ ما اكتسبوُه منَ السّيّئاتِ في نهارِهم، ثمَّ يُحييهم باليَقَظةِ من نَومِهم، حتَّى يَقضيَ آجالَهمُ الَّتي قدَّرَها لهم، ثمَّ يكونُ إليه الرّجوعُ، وينتهي إليه المصيرُ، ثمّ يُنبِّئُهم بعدَ بعْثِهم منَ الموتِ بما عمِلوا في دُنياهم، من خيرٍ مأثورٍ، أو شرٍّ مذكورٍ، وصفْوةُ القولِ: أنّه لمّا بيّن تعالى كمالَ علْمِه بالآية الأولى بيّن كمالَ قُدرتِه بهذه الآيةِ.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَتَوَفَّىٰكُم﴾: تَوْفيةُ الشَّيءِ: بذلُهُ وافيًا، واستيفاؤُه: تناولُه وافيًا، قالَ تعالى: ﴿وَوُفِّيَتۡ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡ﴾ [آل عمران: 25]، وقد عبَّرَ بيانُ اللهِ عنِ الموتِ والنَّومِ بالتَّوَفّي، فمِنَ الأوَّل قولُه تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلۡأَنفُسَ حِينَ مَوۡتِهَا﴾ [الزُّمر: 42]، ومنَ الثّاني قولُه تعالى في الآية الَّتي معنا: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيۡلِ﴾ [الأنعام: 60][1]، وخلاصةُ ذلك أنّ: "الرّوحُ هو الّذي به الحياةُ، والنّفْسُ هي الّتي بها العقلُ، فإذا نامَ النّائمُ قبضَ اللهُ نفسَه، ولم يقْبضْ روحَه، ولا يقبضُ الرّوحَ إلّا

(1) الرّاغب، المفردات: (وفى).

عندَ الموت"[1]، وأصلُ التّوفّي "استيفاءُ العددِ؛ أي: يَستوفي عددَ أيّامه، وأنفاسَه، وأرزاقَه، ونحوَ ذلك"[2].

2) ﴿جَرَحۡتُم﴾: جُرْحٌ: الجيمُ والرّاءُ والحاءُ أَصلان: أحدُهما: الكَسْبُ، والثّاني: شَقُّ الجِلْدِ، والأوّلُ هو المرادُ في سياقِ الآيةِ الكريمة، من قولِهم: اجْترحَ: إذا عَمِل وكَسَبَ، ومنه قولُ اللّهِ تعالى: ﴿أَمۡ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجۡتَرَحُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [الجاثية: 21]، وإنَّما سُمّيَ ذلكَ اجْتراحًا؛ لأنَّه عَمَلٌ بالجوارحِ؛ وهي الأعضاءُ الكواسِبُ[3]، قال الشّاعرُ:

وكُلُّ فَتًى بِما عَمِلَتْ يَداهُ *** وما اجْتَرَحَتْ عَواملُهُ رَهينُ[4]

وقولُهم: (اجْترحَ الذَّنبَ) "أكثرُ ما يُستعملُ في الشَّرِّ والخطيئةِ، وهو ما يوحي به سياقُ الآيةِ في قولِه تعالى: ﴿أَمۡ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجۡتَرَحُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجۡعَلَهُمۡ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [الجاثية: 21][5].

3) ﴿يَبۡعَثُكُمۡ﴾: يقالُ: بعثَه من منامِه، وبعثَه لِكذا فانْبعثَ له، وفي القرآن: ﴿وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمۡ فَثَبَّطَهُمۡ﴾ [التّوبة: 46]، وبعثَ الشّيءَ: أثارَه[6]، أَصلُ البَعثِ: إثارةُ الشَّيءِ وتوجيهُه، يُقالُ: بعثْتُه فانْبعثَ، ويختلفُ البعثُ باختلافِ ما عُلِّقَ به، فَبَعثْتُ البعيرَ: أَثَرتُه وسَيَّرتُه، وقولُه تعالى: ﴿وَٱلۡمَوۡتَىٰ يَبۡعَثُهُمُ ٱللَّهُ﴾ [الأنعام: 36]؛ أي: يُخرجُهم ويُسيِّرهم إلى القيامةِ، ومن المعنَى الأوّل - وهو الإثارةُ لإعادتِهم إلى يَقَظَتِهم - قولُه تعالى في الآية الّتي معنا: ﴿وَيَعۡلَمُ مَا جَرَحۡتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبۡعَثُكُمۡ فِيهِ﴾، فالنَّومُ من جِنسِ الموتِ، فجعلَ التَّوفّي فيهما، والبعثَ منهما سواءً[7].

4) ﴿لِيُقۡضَىٰٓ﴾: القضاءُ: فَصلُ الأمرِ قولًا كان أو فعلًا، وكلُّ واحدٍ منهما على وجهَيْن: إلهيٍّ وبشريٍّ، فمِنَ القولِ الإلهيِّ، قولُه تعالى: ﴿۞وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: 23]؛ أي: أمَرَ بذلك، ومنَ الفعلِ الإلهيِّ قولُه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَقۡضِي بِٱلۡحَقِّۖ وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، ص: 879.
(2) النّسفيّ، طلبة الطّلبة، ص: 54.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (جرح).
(4) البيتُ غيرُ منسوبٍ إلى قائلٍ، وقد ذكره الخليل في كتاب العين: (جرح)، والحربي في غريب الحديث: 3/244.
(5) أحمد مختار عمر، معجم اللّغة العربيّة المعاصرة: (جرح).
(6) الزّمخشريّ، أساس البلاغة: (بعث).
(7) الرّاغب، المفردات: (بعث).

﴿دُونِهِۦ لَا يَقۡضُونَ بِشَيۡءٍۗ﴾ [غافر: 20]، ومنَ القولِ البشريِّ، نحوَ: قضى الحاكمُ بكذا، فإنَّ حُكمَ الحاكم يكونُ بالقول، ومنَ الفعلِ البشريِّ، قولُه تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَيۡتُم مَّنَٰسِكَكُمۡ﴾ [البقرة: 200][1]، ويُعبَّرُ عنِ الموتِ بالقضاءِ، فيُقالُ: فُلانٌ قَضَى نَحْبَه، كأنَّه فصلَ أمرَه المُختصَّ به في دنياه، ومنه الآيةُ الَّتي معنا في قولِه تعالى: ﴿لِيُقۡضَىٰٓ أَجَلٞ مُّسَمّٗىۖ﴾ إمّا أجَلُ الحياةِ بالموت، أو أجلُ البَعثِ[2].

5) ﴿يُنَبِّئُكُم﴾: منَ النّبأِ، وهو "خبرٌ ذو فائدةٍ عظيمةٍ، يحصلُ به علمٌ، أو غلبةُ ظنٍّ، ولا يُقالُ للخبرِ في الأصلِ نبأٌ، حتّى يُضمّنَ هذه الأشياءَ الثلاثةَ"[3]، ولفظُ نَبَأَ: النُّون والباء والهَمزة، قياسُه الإتيانُ من مكانٍ إلى مكان، ومن هذا القياسِ النَّبأُ: الخَبَرُ؛ لأنَّه يأتي من مكانٍ إلى مكان. والمُنبِىء: المُخبِرُ، وأنبأْتُه ونبَّأْتُه. والنَّبْأَةُ: الصَّوتُ، وهذا هو القياسُ؛ لأنَّ الصَّوتَ يَجيءُ من مكانٍ إلى مكانٍ. ومَنْ هَمَزَ النَّبيَّ فلأنَّه أنبأَ عنِ اللّه تعالى، ويُطلَق النَّبأُ على الخَبرِ العظيم، كما في قولِه تعالى: ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ۝١ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلۡعَظِيمِ ۝٢﴾ [النَّبأ: 1 - 2]؛ وهو يومُ القيامة[4].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

بيانُ تدبيرِ اللّه لأحوالِ عبادِه، في النّومِ واليَقَظةِ، والإماتَةِ والبعْثِ

هذا البيانُ الإلهيُّ تقريرٌ لأُلوهيَّةِ اللّه ﷻ، واحتجاجٌ على المشركين به، وفيه إخبارٌ بأنَّ اللّه تعالى هو المُتفرِّدُ بتدبيرِ أحوالِ عبادِه، في يَقظَتِهم ومنامِهم، فهو الَّذي يتوفّاهُم باللَّيل، وفاةً مُؤقَّتةً بالنَّوم، ويعلمُ ما كَسَبوا منَ الأعمال في نهارِهم، بعد أن يبعثَهم فيه من منامِهم؛ ليُمارسوا شؤونَ حياتِهم حتَّى يَستَوفوا آجالَهم إلى أجل

(1) سميح عاطف الزّين، تفسير مفردات ألفاظ القرآن الكريم: (قضى).
(2) الرّاغب، المفردات: (قضى).
(3) الزّين، تفسير مفردات ألفاظ القرآن الكريم: (نبأ).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نبأ).

مسمًّى، وهو وقتُ موتِهم، ثمَّ بعثِهم ليومِ القيامةِ؛ ليُخبرَهم بحصيلةِ أعمالِهم، إنْ خيرًا أو شرًّا[1].

الإيضاحُ البلاغيُّ واللُّغويُّ:

دَلالةُ العطْفِ في قولِه تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم﴾:

قولُه تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم﴾ عطفٌ على قولِه تعالى السّابق: ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا﴾ [آية: 59]، وفي هذا العطفِ انتقالٌ من بيان سَعةِ علمِه تعالى، إلى بيانِ عظيمِ قُدْرتِه؛ وهذا كُلُّه من دلائلِ وحْدانيَّته تعالى في أُلوهيِّته، وفيه تعليمٌ لأوليائِه، ونَعيٌ على المشركينَ أعدائِه، وهذه عادةُ القرآنِ الكريمِ في ذكر دلائلِ وحْدانيَّته في أَنْفُسِ النّاس عَقِبَ ذكْرِ دلائلِها في الآفاق، كما قالَ تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ [فُصّلت: 53]، فجُمعَ ذلك هنا على وجهٍ بديعٍ مُؤذِنٍ بتعليمِ صفاتِه في ضمنِ دلائلِ وحْدانيَّتِه؛ وفي هذا تقريبٌ للبعث بعدَ الموت[2].

لله في صُنعِه وتقديرِه، ما يدلُّ على حِكمةِ تدبيرِه

وفي كلِّ ذلك جمعٌ لمعاني الاستدلال على تفرُّدِ اللّه بتدبيرِ أحوالِ الأنفُسِ، كما تفرَّدَ بتدبيرِ حركةِ الآفاقِ العجيبةِ في ملكوته الشّاسعِ، بحكمتِه السّاطعةِ، وقوانينِه القاطعةِ، ممّا لا يدَعُ مجالًا للتّشكيكِ، في قُدرةِ المدبّرِ الخبيرِ.

اللهُ حافظُ الأنفُسِ ومُدبِّرُ حركةِ الآفاقِ

دلالةُ الاستعارةِ التّبعيّةِ في قولِه تعالى: ﴿يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ﴾:

قولُه تعالى: ﴿يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ﴾؛ أي: يُنيِّمُكم فيه على سبيل المجاز؛ لِشَبَه النَّومِ بالموتِ، وأصلُه قَبضُ الشَّيء بتمامِه[3]، وقد "استُعيرَ التّوفّي منَ الموت للنّوم؛ لما بينهما منَ المشاركة في زوالِ

النّوم مَوْتٌ أصغَرُ، والموتُ أمرٌ مُقدَّرٌ

(1) السَّعديّ، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 213.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 7/275.
(3) أبو السُّعود، الإرشاد: 2/223.

إحساسِ الحواسِّ الظّاهرةِ والتّمييزِ، قيل: والباطنةُ أيضًا"[1]، والمعنى "يُميتُكم فيه؛ لأنّ النّومَ وفاةٌ، لما بينه وبين الموت منَ المشاكلةِ، في زوال الإحساسِ وغفْلةِ الحواسِّ الظّاهرةِ والباطنةِ"[2]، "فأرادَ بالوفاةِ هنا النّومَ، على التّشبيه، وفائدتُه أنّه تقريبٌ لكيّفيّةِ البعْثِ يومَ القيامة، ولذا استُعيرَ البعثُ للإفاقةِ منَ النّوم؛ ليتمَّ التّقريبُ في قوله: ﴿ثُمَّ يَبۡعَثُكُمۡ فِيهِ﴾[3]، قال شيخُ زادَه في حاشيتِه على البيضاويِّ: "ليس في ابنِ آدمَ إلّا روحٌ واحدةٌ، يكونُ لابنِ آدمَ بحسَبِها ثلاثةُ أحوال: حالُ يقظةٍ، وحالةُ نوم، وحالةُ موتٍ، فباعتبارِ تعلُّقِها بظاهرِ الإنسانِ وباطنِه تعلّقًا كاملًا، تثبتُ له حالةُ اليقظةِ، وباعتبارِ تعلُّقِها بظاهرِ الإنسانِ فقط، تثبتُ له حالةُ النّومِ، وباعتبارِ انقطاعِ تعلُّقِها عنِ الظّاهرِ والباطنِ، تثبتُ له حالةُ الموت"[4]، ودلالةُ الموت على النّومِ إشارةٌ إلى فقْدِ الوعْيِ، وعدمِ القُدرةِ على التّحكّمِ في حركةِ الأعضاءِ ووظائفِ الجسمِ، وأنّ اللّه هو الّذي يحفظُه ويَتولّاه، حينما يكونُ نائمًا لا يَستطيعُ حيلةً، ولا يَعي بخطَرٍ مُحْدِقٍ، أو ضررٍ مُطْبِقٍ.

دلالَةُ الباءِ في قولِه تعالى: ﴿بِٱلَّيۡلِ﴾ على معنى (في) الظّرفيّةِ:

اللّيلُ آيةُ الله في إمسَاكِ الأنفُسِ وإرسَالِها

والباءُ في قوله تعالى: ﴿بِٱلَّيۡلِ﴾ بمعنَى (في)، وجازَ ذلك؛ لأنَّ الباءَ للإلصاقِ، والملاصِقُ للزّمانِ والمكانِ حاصلٌ فيهما[5]، وتخصيصُ اللّيل بالنّومِ والرّاحةِ، جريًا على المُعتادِ المألوفِ في حياةِ النّاسِ؛ لأنّ الغالبَ أن يكونَ النّومُ ليلًا، واللّيلُ يقابِلُ النّهارَ في الذِّكرِ والمهمّةِ، غيرَ أنّ الإنامةَ المعبّرَ عنها بالتّوفّي تكونُ في ظرْفٍ زمانيٍّ معروفٍ ومعهودٍ، وهو اللّيلُ، الّذي هو آيةٌ من آياتِ اللّه العظيمةِ.

(1) محمود صافي، الجدول في إعراب القرآن وصرفه وبيانه: 7/174.
(2) عبد القادر بن ملاّ العاني، بيان المعاني: 3/351.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/276.
(4) الدّرّة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 3/308.
(5) العكبريّ، الإملاء: 1/245.

إيثارُ ﴿يَتَوَفَّىٰكُم﴾ على (لِتسكُنُوا)، في قوله تعالى: ﴿يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيۡلِ﴾:

دِقّةُ اختيارِ لفظٍ دونَ سِواه، من بلاغةِ كلامِ الله

المتوفّي هو اللّه تعالى، وهو سُبحانَه الّذي في مَناطِ قُدرتِه أن يَتوفَّى العبادَ باللّيلِ، وهو بذلك يُعبّرُ عن إتاحتِه الفُرصةَ للبشرِ، حتّى ينالوا قِسْطَهم منَ الرّاحةِ والسّكينةِ والاطْمئنانِ، والمرادُ: الإنامةُ، ولم يُعبِّرْ بصيغةِ (تسكنوا)، كما هو واردٌ في قولِه تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ﴾ [يونس: 67]؛ "لأنّ السّياقَ لبيانِ قُدرةِ اللّه تعالى، وسُلطانِه عليهم، وكونِهم في قبْضةِ يدِه، وأنّه يُحصي عليهم أعمالَهم، فكان التَّعبيرُ بالوفاةِ عنه أنْسبَ، والنّومُ يُعتبرُ من قَبيلِ الوفاة[1].

دلالةُ أسلُوبِ القصْرِ في قولِه تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَتَوَفَّىٰكُم﴾:

النّومُ تَزوُّدٌ بالعافيّةِ، وتجدُّدٌ بالطّاقةِ الضّافِيةِ

ولمّا كان قولُه تعالى السّابقُ: ﴿لَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡۗ﴾ [الأنعام: 58] موجَّهًا للمُشركين، جاءَ هذا الخطابُ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَتَوَفَّىٰكُم﴾ بصيغةِ قَصْرٍ لتعريفِ جُزْأَيِ الجملةِ، بمعنَى: أنَّه تعالى هو الَّذي يتوفَّى الأَنفُسَ دونَ الأصنامِ الَّتي تعبدونها، فإنَّها لا تملِكُ موتًا ولا حياةً ولا نُشورًا[2]، فلا قُدرةَ لأحدٍ سواه على التّصرُّفِ في الأنفُسِ والأرواحِ؛ لأنّه تعالَى عليمٌ بمقتضياتِ نفْعِها، وعارفٌ بسُبُلِ ضُرِّها، ومن رحمتِه بها، أنّ ذلك النّفعَ والضّررَ مُنحصِرٌ في قُدرتِه وحدَه دونَ سواه، إذْ هو المتلطّفُ بعبادِه، في حالتَيِ اليقظةِ والنّومِ، وما سنَّ لهم ذلك إلّا ليَحميَ الكيانَ الإنسانيَّ، ويضمنَ له التّزوّدَ بالعافيةِ، والتّجدُّدَ بالطّاقةِ الّتي يضمَنُها النّومُ، وتَتأتّى باليقظةِ بعدَه، للضّربِ في الأرضِ، بقوّةٍ أثيرةٍ، وفتوّةٍ جديرةٍ.

المرادُ باللّيلِ والنّهارِ، في قولِه تعالى: ﴿يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيۡلِ وَيَعۡلَمُ مَا جَرَحۡتُم بِٱلنَّهَارِ﴾:

تقديرُ اللّه لا يَحجبُه ليلٌ، ولا يُعجِزُه نهارٌ

المرادُ باللَّيلِ والنَّهارِ هنا الجنسُ المتحقِّقُ في كلِّ فردٍ من أفرادِهما؛ إذ بالتَّوفّي والبعثِ الموجودَين فيهما يتحقَّقُ قضاءُ

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2525.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/275.

الأجَلِ المسمَّى المترتِّبِ عليها لا في بعضِها[1]، والأصلُ في ذلك أنّ اللّه تعالى يَمنعُكم التّصرّفَ بالنّوم ليلًا، كما يَمنعُكم بالموتِ أبدًا، والحالُ أنّه يعلمُ ما كسبْتُم بالنّهار الّذي تعقّبَه النّومُ، منَ الذّنوبِ الموجبةِ للإهلاكِ، ويُعاملُكم فيها بالحِلْمِ بعدَ العلْمِ، ولا يَعجلُ عليكم[2]، وفي تكامُلِ مهمّةِ اللّيلِ ومهمّةِ النّهار، دليلٌ على عظَمةِ الصّانعِ، وإعجازِ المصنوعِ.

علّةُ تقديمِ اللّيلِ على النّهارِ، في قوله تعالى: ﴿بِٱلَّيۡلِ﴾ ﴿بِٱلنَّهَارِ﴾:

تعاقبُ اللّيلِ والنّهارِ، يُجدّدانِ الحكمةَ من تقديمِ اللّيلِ

قدّمَ السّياقُ اللّيلَ على النّهار، في قوله تعالى: ﴿يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيۡلِ وَيَعۡلَمُ مَا جَرَحۡتُم بِٱلنَّهَارِ﴾، ذلك أنّ مَناطَ الاستدلالِ في الآيةِ هو المشابهةُ بين النّومِ والموتِ، وبينَ اليقظةِ والبعثِ، وهما ظاهرتانِ متلازِمتانِ، إلّا أنّ الأصلَ أن يكونَ البعثُ بالاستيقاظ مُتأخّرًا عنِ النّومِ، فكان السّياقُ يقتضي أن يتقدّمَ اللّيلُ، وهو ظرْفُ النّومِ، على النّهارِ الّذي هو رمزُ الحركةِ والدّأبِ، والضّربِ في الأرض، والابتغاءِ من فضلِ اللّه؛ ويُؤيّدُه بنفْسِ التّرتيبِ السّياقيِّ، قولُه تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا ٱلَّيۡلَ لِبَاسٗا ١٠ وَجَعَلۡنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشٗا ١١﴾ [النّبأ: 10 - 11].

دلالةُ تخصيصِ التَّوفِّي باللَّيلِ، والجرْحِ بالنَّهارِ:

وضْعُ الشّيءِ في مَوضِعِه حِكمةٌ بالغةٌ، وبلاغةٌ راقيةٌ

جاءَ تخصيصُ التَّوفّي باللَّيلِ والجرحِ بالنَّهارِ - مع تحقُّقِ كُلٍّ منهما فيما خُصَّ بالآخر - للجَرْيِ على سَنَنِ العادة[3]، في التّعبيرِ عنِ المعاني المتلازمةِ، بحُكم اتّصالِ بعضِها ببعضٍ في الواقعِ، فاتّصلَ بعضُها ببعضٍ في الاستعمالِ السّياقيِّ، بغايةِ إيضاحِ المُرادِ، والتّعبيرِ عنِ الصّورةِ المُنتقاةِ للدّلالةِ على المقصَدِ من إيرادِها.

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/177.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/138.
(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/223.

دلالةُ تقديمِ ﴿وَيَعۡلَمُ مَا جَرَحۡتُم بِٱلنَّهَارِ﴾، على قولِه تعالى: ﴿ثُمَّ يَبۡعَثُكُمۡ فِيهِ﴾:

تعميمُ الخطابِ أرجَحُ، في إفادةِ إحاطةِ اللهِ بأحوالِ المؤمنِ والكافِرِ

هناك إشكالٌ في هذه الآية، إذْ قولُه تعالى: ﴿وَيَعۡلَمُ مَا جَرَحۡتُم بِٱلنَّهَارِ﴾، كان ينبغي أن يكونَ بعد قولِه تعالى: ﴿ثُمَّ يَبۡعَثُكُمۡ فِيهِ﴾؛ لأنّ البعْثَ في النّهارِ مُقدّمٌ على الكسْبِ فيه، بل على تعلُّقِ العلْمِ بالكسْبِ، قال النّيسابوريّ: "ويُمكنُ أن يُجابَ بأنّ المرادَ: (ويَعلَمُ ما جَرحتُم في النّهارِ الماضي)، بدليلِ قولِه ﴿جَرَحۡتُم﴾ دون (تجرحون)، ثمّ يَبعثُكم في النّهارِ الآتي، والغرَضُ: بيانُ إحاطةِ علمِه وقُدرتِه بالزّمانَيْن المحيطَيْن باللّيل"[1]، وقد عدلَ صاحبُ الكشّافِ عن هذا التّفسيرِ إلى أنّ الخطابَ للكفرةِ، وهو خلافُ جمهورِ المفسِّرين، فقال: "أي: أنتم مُنسدِحون[2] اللّيلَ كالجيفِ، والانْسِداحُ: الانبِطاحُ أو الاستلْقاءُ، و﴿وَيَعۡلَمُ مَا جَرَحۡتُم بِٱلنَّهَارِ﴾؛ أي: ما كسبْتُم منَ الآثام فيه، ثُمَّ يَبعَثُكُمْ منَ القبورِ، في شأْنِ ذلك الّذي قطعْتُم به أعمارَكم منَ النّومِ باللّيلِ، وكسْبِ الآثامِ في النّهارِ"[3]. قال القُمّيُّ: "والأصْوبُ عندي أن يُقالَ: الخطابُ عامٌّ، وكذا الكسْبُ في النّهارِ، فينبغي أن لا يقيَّدَ بالآثامِ، أمّا الضّميرُ في (فيهِ) فيكونُ جاريًا مَجرَى اسمِ الإشارةِ إلى الكسْبِ، والبعْثُ: هو البعْثُ منَ القبورِ"[4].

ملمحُ التّنزيلِ المنظومِ، في قولِه تعالى: ﴿وَيَعۡلَمُ مَا جَرَحۡتُم بِٱلنَّهَارِ﴾:

ليسَ القرآنُ شِعرًا فيُنظَمُ، ولا سَجْعًا فيُلزَمُ

في هذه الآيةِ يُلمحُ ما يُسمّى عند البلاغيّين بالتّنزيلِ المنظومِ، وهو ما وردَ في القرآنِ موزونًا، بغيرِ قصْدِ الشّعرِ، إذْ إنّه لا يكتسِبُ اسْمَ الشّعرِ، ولا يوصفُ بأنّه شِعرٌ، مثالُه من هذه الآية، في قولِه

(1) القمّيّ، غرائب القرآن ورغائب الفرقان: 3/91.

(2) (منسدحون): أي: منسطحون على القفا، أو منقلبون على الوجه، قال في الصّحاح: "السّدح: الصّرع بطحًا على الوجه، أو إلقاءً على الظّهر، لا يقع قاعدًا ولا متكوِّرًا"، الجوهريّ، الصّحاح: (سدح).

(3) الجوهريّ، الصّحاح: 3/91، والزّمخشريّ، الكشّاف: 2/31، وما بعدها.

(4) القمّيّ، غرائب القرآن ورغائب الفرقان: 3/91.

تعالى: ﴿وَيَعۡلَمُ مَا جَرَحۡتُم بِٱلنَّهَارِ﴾، فهي جملةٌ على شاكلةِ شَطرِ بيتٍ منَ البحرِ الوافرِ، وقد وُجدتْ مثيلاتٌ لها في القرآن الكريم، كقولِه تعالى: ﴿وَٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ بِأَعۡيُنِنَا﴾ [هود: 37] منَ الوافرِ، وقولِه تعالى: ﴿لَا يَكَادُونَ يَفۡقَهُونَ حَدِيثٗا ٧٨﴾ [النّساء: 78] منَ الخفيفِ، وهكذا دواليْكَ، ونلاحظُ أنّ الإيقاعَ المُنسجِمَ مع الدّلالةِ، يُعطي موسيقَى داخليّةً، لا تُشبهُ الشّعرَ بنظْمِه، ولا تعكسُ النّثرَ بسجْعِه، ولكنّها ترانيمُ القرآن، بما فيه من روعةٍ، وما يتميّزُ به من بلاغةٍ، وما يكتنزُه من سَلاسةٍ وجماليّةٍ وعُذوبةٍ، تأسِرُ التّاليَ، وتَجذبُ القاريَ، وتأخذُ بمجامعِ النّفوس، ومعاقدِ القلوب، وتؤكّدُ ما ذكره الوليدُ بنُ المغيرةِ: "واللّه إنّ لِقَولِه لحلاوةً، وإنّ عليه لَطلاوةً، وإنّه لمنيرٌ أعلاه، مُثمرٌ أسفلُه، وإنّه ليعلو وما يُعلَى، وإنّه لَيحطِّمُ ما تحته"[1].

دلالةُ الجملةِ الاعتراضيّة: ﴿وَيَعۡلَمُ مَا جَرَحۡتُم بِٱلنَّهَارِ﴾:

لُطْفُ اللهِ يَستغرِقُ الزّمانَ برُمّتِه

و"جملةُ: ﴿وَيَعۡلَمُ مَا جَرَحۡتُم بِٱلنَّهَارِ﴾ مُعترِضةٌ لقصدِ الامتنانِ بنعمةِ الإمهال؛ أي: ولولا فضلُه تعالى عليكم لَما بعثَكم في النَّهارِ مع علْمِه بأنَّكم تكتَسبونَ في النَّهار عبادةَ غيرِه، ويَكتسِبُ بعضُكم بعضَ ما نهاهُم عنه كالمؤمنين"[2]، وأشار أبو السّعودِ إلى أنّ توسيطَ قولِه تعالى: ﴿وَيَعۡلَمُ مَا جَرَحۡتُم بِٱلنَّهَارِ﴾ بينَهما؛ لبيانِ ما في بعْثِهم من عظيمِ الإحسانِ إليهم، بالتَّنبيهِ على أنَّ ما يكتسبونَه منَ السَّيِّئاتِ، مع كونِها موجبةً لإبقائِهم على التَّوفّي؛ بل لإهلاكِهم بالمرَّةِ، يُفيضُ عليهم الحياةَ ويُمهلُهم، كما تُنبئُ عنه كلمةُ التَّراخي؛ كأنَّه قيل: هو الَّذي يتوفّاكم في جنْسِ اللَّيالي، ثمَّ يبعثُكم في جنْسِ النَّهار مع علْمِه بما ستَجرَحونَ فيها[3].

(1) السّيوطيّ، لباب النّقول، ص: 206.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 7/276.
(3) إسماعيل حقي، روح البيان: 3/44.

ويُفهمُ منَ الآية أنّ المعنى مُفادُه أنّه: "يوقظُكم بالنّهار، ويعلمُ ما كسبتُم فيه، حتّى ينتهيَ أجلُ كلٍّ منكم في الدّنيا بموتِه، ثمّ يومَ القيامة تَرجعون جميعًا إلى اللّه - وحده - يُخبرُكم بأعمالِكم في الدّنيا من خيرٍ أو شرٍّ، ويُجازيكُم عليها"[1].

وقد أضافتِ الجملةُ المُعترِضةُ ما هو ضروريٌّ لاستكمالِ الدّلالةِ، بما يقعُ في النّهارِ، مُقابلًا لما يحصلُ باللّيل، وهو ممّا تَفرضُه طبيعةُ العِصيانِ في الإنسانِ، فيقعُ الاجتراحُ بالنّهارِ، واللّه يحفظُ البشرَ، ويَحميهم، ويُمهلُهم في الحالتَيْن؛ تلطُّفًا منه ورحمةً.

الاقتصار على العلم بكسب النّهار:

الزّمانُ ظرفٌ للطّاعةِ والعصيانِ، وملمحٌ لامتحانِ الإنسانِ

في قولِه تعالى: ﴿وَيَعۡلَمُ مَا جَرَحۡتُم بِٱلنَّهَارِ﴾: اقتصرَ بيانُ اللّهِ على الإخبارِ بعلْمِه تعالى لِما يَكسِبُ النّاسُ في النَّهارِ دون اللَّيلِ - مع علمِه سُبحانه بما يقعُ منهم بكليهما - رَعْيًا للغالبِ؛ لأنَّ النَّهارَ هو وقتُ أكثرِ العملِ والاكتسابِ، ففي الإخبارِ أنَّه يعلمُ ما يقعُ فيه تحذيرٌ منِ اكتسابِ ما لا يَرضَى اللّهُ باكتسابِه، بالنِّسبةِ للمؤمنين، وتهديدٌ للمشركين[2]، وهو سُبحانَه قهّارٌ لكلّ ضدٍّ بضدِّه، فيقهرُ النّورَ بالظُّلمةِ، والظُّلمةَ بالنّور، والنّهارَ باللّيل، واللّيلَ بالنّهار، وتمامُ تقريرِه في قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلۡمُلۡكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُۖ بِيَدِكَ ٱلۡخَيۡرُۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٢٦﴾ [آل عمران: 26][3].

دلالةُ عطْفِ جملةُ: ﴿ثُمَّ يَبۡعَثُكُمۡ فِيهِ﴾:

البعثُ منَ السُّباتِ، كالبعثِ منَ المماتِ

جملةُ: ﴿ثُمَّ يَبۡعَثُكُمۡ فِيهِ﴾ معطوفةٌ على جُملة: ﴿يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيۡلِ﴾ فتكونُ ﴿ثُمَّ﴾ للمُهلةِ الحقيقيَّةِ، ويُمكنُ أن تكونَ ﴿ثُمَّ﴾

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 7/276.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 7/276.
(3) طنطاويّ، الوسيط: 5/95.

للتَّرتيبِ الرُّتَبيّ، فتُعطفَ على جُملة: ﴿وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم﴾؛ أي: وهو يعلمُ ما تكتسبونَ منَ المَناهي، ثمَّ يَرُدُّكم ويُمهلُكم، وهذا المعنَى أنسبُ بفريقِ المشركين[1].

وجُمّاعُ معنى الجُملتين مُفادُه قولُه: "ثمّ يعيد أرواحكم إلى أجسامكم باليقظة منَ النّوم نهارًا، بما يُشبهُ الإحياءَ بعد الموتِ؛ لتُقضَى آجالُكم المحدّدةُ في الدّنيا، ثمّ إلى اللّه تعالى مَعادُكم بعْدَ بعثِكم من قبورِكم أحياءً، ثمّ يُخبركم بما كنتم تعملون في حياتِكم الدّنيا، ثمّ يُجازيكُم بذلك"[2].

أثرُ الاستعارةِ المُرشَّحةِ في تجْليةِ المعنى، في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ﴾:

تعاقبُ اللّيلِ والنّهارِ، هو أجَلُ اللهِ الّذي لا يعلمُه سِواه

والبَعثُ مُستعارٌ للإفاقةِ منَ النَّوم؛ لأنَّ البعْثَ شاعَ في إحياءِ الميِّت، وخاصَّةً في اصطلاح القرآنِ، كما قالَ تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [المؤمنون: 82]، وحَسَّنَ هذه الاستعارةَ كونُها مبنيَّةً على استعارةِ التَّوفّي للنَّوم، تقريبًا لكيفيَّةِ البعثِ الَّتي حارتْ فيها عقولُهم، فكلٌّ منَ الاستعارتَين مُرشِّحٌ للأُخرى، "أُطلقَ البعثُ ترشيحًا للتّوفّي؛ لأنّه من خواصّ المشبّه به، فتكونُ الاستعارةُ ترشيحيّةً، ولا يَضرُّه كونُه بمعنى الإيقاظِ؛ لأنّ التّرشيحَ يجوزُ أن يكونَ باقيًا على حقيقتِه، وأن يكونَ مُستعارَ الملائمِ المشبَّه؛ فكونُه ترشيحًا باعتبارِ كونِه لفظًا موضوعًا للمشبَّه به، صرّح به القاسمُ اللّيثيُّ في رسالته"[3]، ويُقالُ: "إنّ تداوُلَ اللّيل والنّهار مستمرٌّ؛ فليلٌ يعقبُه نهارٌ، ونهارٌ يعقبُه ليلٌ لنهايةٍ واحدةٍ، وهو قضاءُ أجَلٍ مُسمًّى عند اللّه تعالى، وإن كان لا يعلَمُه إلّا اللّه تعالى"[4].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/276.
(2) نخبة من أساتذة التّفسير، التّفسير الميسّر، ص: 135.
(3) نخبة من أساتذة التّفسير، التّفسير الميسّر، ص: 135.
(4) القونويّ، حاشية القونويّ على تفسير البيضاويّ: 8/135.

أثرُ لامِ التَّعليلِ في بيانِ المعنى، في قوله تعالى: ﴿لِيُقۡضَىٰٓ أَجَلٞ مُّسَمّٗىۖ﴾:

لكُلِّ أجلٍ كتابٌ، ولا رادَّ لقضائِه سبحانه في خلْقِه ولا مُلْكِه

اللّامُ في قولِه تعالى: ﴿لِيُقۡضَىٰٓ أَجَلٞ مُّسَمّٗىۖ﴾ لامُ التَّعليل؛ "لأنَّ من الحِكَمِ والعِلَلِ الَّتي جعلَ اللّهُ لها نظامَ اليَقَظَةِ والنَّوم، أن يكونَ ذلكَ تَجزئةً لعُمُرِ الحيِّ، وهو أجلُه الَّذي أُجِّلتْ إليه حَياتُه يومَ خَلقِه، كما جاء في الحديث: «يُؤمرُ بكَتْبِ رزقِه وأجَلِه وعمَلِه»[1]، والعِلَّةُ الَّتي بمعنَى الحكمةِ لا يلزمُ اتِّحادُها فقد يكونُ لفعلِ اللّهِ حِكَمٌ عديدةٌ، فلا إشكالَ في جعل اللّام هنا للتَّعليل، و"القَضاءُ: هو فصْلُ الحُكم على التَّمام، ومَعناهُ هاهُنا: استيفاءُ أجَلِ العُمرِ على التَّمام"[2]، والمرادُ بالأجَلِ آجالُ بني آدمَ، ﴿ثُمَّ إِلَيۡهِ مَرۡجِعُكُمۡ﴾؛ يريدُ: بالبعثِ والنُّشورِ، ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُكُم﴾؛ أي: يُعلمُكم إعلامَ توقيفٍ ومحاسبةٍ[3]، ولامُ التّعليلِ ذاتُ أثرٍ في بيان أنّ ما مضَى من وعودٍ ودلالاتٍ على قُدرةِ اللّه، أنّ غايتَه التّعليليّةَ إنّما هي تنفيذُ أجَلِ اللّه المقيَّدِ في القَدرِ المرسومِ بإرادةِ اللّه وحُكمِه، فلا بدَّ أن يُقضَى الأجلُ المسمَّى، ولا رادَّ لحُكمِه، ولا مُعقّبَ لكلماتِه، وقولُه تعالى: ﴿مُّسَمًّى﴾؛ أي: هو مُعيَّنٌ مُحدَّدٌ لكلِّ فردٍ، بحيث لا يكادُ يتخطَّى أحدٌ ما عُيِّنَ له طَرفةَ عَين.

دلالةُ الحصْرِ بتقديمِ المسنَدِ ﴿إِلَيۡهِ﴾:

حقيقةُ الرّجوعِ إلى اللّه، إمّا بالموتِ وإمّا بالنُّشورِ

في قولِه تعالى: ﴿ثُمَّ إِلَيۡهِ مَرۡجِعُكُمۡ﴾: تقديمُ المسنَدِ شبْهِ الجملة ﴿إِلَيۡهِ﴾، على المسنَدِ إليه ﴿مَرۡجِعُكُمۡ﴾، يدلُّ على أنّ الرّجوعَ في الآخرةِ إلى اللّهِ وحدَه دون سواه، وذلك ما يدلُّ عليه قولُه تعالى: ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجۡعَىٰ ٨﴾ [العلق: 8]، وقولُه: ﴿كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۖ ثُمَّ إِلَيۡنَا تُرۡجَعُونَ ٥٧﴾ [العنكبوت: 57]، ثمّ إنّ قولَه تعالى: ﴿ثُمَّ إِلَيۡهِ مَرۡجِعُكُمۡ﴾ يمكنُ أن يكونَ المرادُ بالرُّجوعِ الموتَ، حيثُ تَصيرُ الأرواحُ في قبضتِه

(1) شرح النّوويّ على مسلم، (كتاب القدر): 16/144.
(2) السّمعانّي، تفسير القرآن: 2/111.
(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/300.

ﷻ، ويمكنُ أن يكونَ المرادُ بالرُّجوعِ الحشرَ يومَ القيامة، وكِلاهما رجوعٌ إلى اللّهِ ﷻ[1]، والمعنى: "استكمالُ العُمرِ وانقضاءُ الأجلِ بالموتِ، ﴿ثُمَّ إِلَيۡهِ مَرۡجِعُكُمۡ﴾؛ يعني: بالبعْثِ والنّشورِ في القيامة"[2].

دلالةُ (ثمّ) على المُهلةِ، في قولِه تعالى: ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾:

قولُه تعالى: ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾، ﴿ثُمَّ﴾ هنا التَّمهيليَّةُ؛ أي: يُحاسبُكم على أعمالِكم بعدَ الموت، أو بعدَ الحَشرِ، فأفادتْ ﴿ثُمَّ﴾ وجودَ مُهلةٍ بين الحَشرِ وبين ابتداءِ الحسابِ زمنًا، اللّهُ أعلمُ بمُدَّته، وذلك التّنقّلُ من حالِ الوفاةِ إلى حالِ البعثِ، ثمّ الرّجعةِ إلى اللّه تعالى؛ لأجْلِ أن يقضيَ كلُّ فردٍ أجلَه المسمَّى في علْمِ اللّه تعالى، والمقدّرَ له في هذه الدّنيا، فقد جعل سُبحانه لأعمارِكم آجالًا محدّدةً لا بدَّ من قضائِها وإتمامِها، وجملةُ: ﴿ثُمَّ يَبۡعَثُكُمۡ فِيهِ﴾ معطوفةٌ على ﴿يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيۡلِ﴾، فتكونُ ﴿ثُمَّ﴾ للمُهلةِ الحقيقيّةِ، وهو الأظهرُ.

الإنباءُ بالأعمالِ، يكونُ بعْدَ استِيفاءِ الآجالِ

ذِكْرُ بعضِ عناصرِ الحدَثِ للكنايةِ عنِ الكُلِّ، في آخرِ الآيةِ:

قولُه تعالى: ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ إشارةٌ إلى ما سوفَ يقعُ في موقفِ الحشْرِ الأكبَرِ يومَ القيامة، "يُقيمُ لكلِّ واحدٍ منكم في محكمتِه حسابَه، وفصْلَ القضاءِ بشأنِه؛ ليكونَ جزاؤُه بعد ذلك بالعدْلِ أو بالفضْلِ، على وفْقِ قضائِه ﷻ.

عدْلُ اللّه في فحْواه أن يُنبَّأَ الإنسانُ بما قدّمتْ يدَاه

جاء التّعبيرُ عنِ الحساب، وفصْلِ القضاء، بذِكْرِ بعضِ مُجريات يوم الحساب، وهو إخبارُ كلِّ واحدٍ منَ العباد بما كان يعملُ، في رحلةِ امتحانِه في الحياة الدّنيا، وهذا منَ الكناياتِ الّتي تكرّرتْ نظائرُها في القرآن المجيدِ، إذ يذكرُ بعضَ أجزاء الحدَث؛ ليدلَّ على سائرِه.

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2526.
(2) الماورديّ، النّكت والعيون: 2/123.

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

التوفّي والموت:

التّوفّي ينطبقُ على الموتِ وعلى النّومِ

يقالُ: "توفاّه اللّه ﷻ: إذا قبضَ نفْسَه؛ وفي الصّحاح: روحَه، وقال غيرُه: "توفّي الميتِ استيفاءُ مدّتِه الّتي وُفيتْ له، وعددِ أيّامِه، وشهورِه، وأعوامِه في الدّنيا؛ ومنه قولُه تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ [الزّمر: 42]؛ أي: يستوفي مُددَ آجالِهم في الدّنيا"، والتَّوفيةُ للشَّيء: بذلُه وافيًا[1]، وأمّا الموتُ فعَرَضٌ يُضادُّ الحياةَ، ولا يكونُ إلّا من فعْلِ اللّه، وهو يَنفي الحياةَ مع سلامةِ البِنْية[2]، والتَّوفّي باللَّيل وهو النَّومُ، موتٌ مُؤقَّتٌ، تعقُبهُ الحياةُ، وليس موتًا دائمًا، وانتقالًا من حياةٍ فانيةٍ إلى حياةٍ دائمةٍ، ولذلك جاءَ التَّعبيرُ بالفعْلِ (يتوفّاكم) مُسنَدًا إلى زمنٍ مؤقَّتٍ، وهو اللَّيلُ، فهو استيفاءٌ بقَدرٍ محدَّدٍ لا مُطْلقٍ، فأوثر اصطفاءُ التّوفّي على الإماتة هنا؛ لكونِ الأوّلِ انقطاعًا مؤقّتًا عنِ الحياة وكون الثاني انقطاعًا نهائيًّا عنِ الحياة، وهو مايأباه السّياقُ.

الجَرْح والكسبُ:

الاجْتراحُ يَصدُقُ على مُباشرةِ عملٍ مكروهٍ، وهو موضعُ التّهديدِ

الجُرحُ والاجتراحُ يُفيدانِ معنَى الكَسْبِ والعملِ بالجوارح[3]، و"في الأساسِ: وبئسما جرحتْ يداك، واجترحَت؛ أي: عملَتا وأثّرتا، وهو مستعارٌ من تأثير الجارحِ، وفي العناية للخفاجيّ أنّه صار استعارةً حقيقةً فيه"[4]، أمّا الكَسبُ فلا يفيدُ هذا المعنَى من جهة اللَّفظ[5]، فالكسبُ: طلبُ الرّزق، وأصلُه الجمْعُ، تقول منه: كسبتُ شيئًا واكتسبتُه، بمعنًى واحد، وفلانٌ طيّبُ الكسب[6]، حلالُه ونقيُّه، ولذلك وردَ تعبيرُ البيانِ الإلهيِّ بالفعلِ ﴿جَرَحْتُم﴾ دون (كَسَبتُم).

(1) الرّاغب، المفردات: (وفى).
(2) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 420.
(3) الحربيّ، غريب الحديث: 1/244.
(4) الزَّبيديّ، تاج العروس: (جرح).
(5) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 160.
(6) الجوهريّ، الصّحاح: (كسب).

وبذا يتبيّنُ أنّ الكسبَ أعمُّ منَ الجرحِ، فاصطفَى الجرحَ في هذا المَوضِع الوحيدِ، وفي مقابلِه استخدمَ (كسبَ) في سبعةٍ وخمسين مَوضِعًا، ولعلّ استخدامَ (جرح) ملائمٌ للظّرفِ الواقعِ فيه، وهو النّهارُ تشنيعًا للمجاهرةِ بالمعصيّةِ الّتي تُشبهُ الجرحَ لما في ذلك من هتْكِ السّترِ، وإبرازِ الفجورِ؛ وفيه منَ التّهديدِ للمُجاهرين ما فيه.

البَعث والتَّسْيير:

البعثُ إثارةُ الهمّةِ لمتابعةِ الحياةِ الدُّنيا

البعثُ: فيه إثارةُ الشَّيءِ، وتوجيهُه لوجهةٍ محدّدةٍ، وأمّا التَّسييرُ ففيه حركةٌ دون تقييدٍ بقصْدٍ، فليس فيه معنَى البعثِ، والبعثُ منَ النَّومِ للحياةِ: هو إخراجٌ من حالةِ النَّومِ إلى حالةِ الحياة مرَّةً أخرى، ولذلك استخدمَ البيانُ الإلهيُّ الفعلَ (يبعثُكم)، دون (يُسيِّركم)؛ لأنَّ في البعثِ إثارةً مع تَسْييرٍ بقُدرةِ اللّه تعالى إلى وُجْهةٍ، والنَّومُ من جِنسِ الموتِ، فكما أنَّ البعثَ مِنَ الموتِ فيه إخراجٌ منَ القبور، وتَسْييرٌ إلى يوم القيامة، فكذلك البعثُ منَ النّوم فيه إخراجٌ منَ النَّومِ، وتَسييرٌ إلى متابعةِ الحياةِ الدُّنيا؛ ففي البعثِ تَسْييرٌ يسبقُه إخراجٌ، وإثارةٌ لمقصودٍ.

النّبأ والخبر:

هَـولُ الحسابِ يومَ النّشورِ نَبَؤُه عظيمٌ

النَّبَأُ: الخَبَرُ الَّذي له شأنٌ عظيمٌ[1]، ومنه قولُه سُبحانه: ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ۝١ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلۡعَظِيمِ ۝٢﴾ [النَّبأ: 1 - 2][2]، وأمّا الخَبَرُ فهو العِلمُ بالأشياءِ المعلومةِ من جهة الخَبَر، وخَبَرْتُه خُبْرًا وخِبرةً، وأَخْبرتُ فُلانًا: أعلمتُه بما حصلَ لي منَ الأخبارِ والأحوالِ[3]، فاستخدامُ الفعلِ (يُنبِّئُكم) هنا أوْلى من (يُخبركم)، لأمرَينِ: أوّلهما: تعليقُ

(1) أبو البقاء الكفوي، الكلّيّات: 2/279.
(2) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 529.
(3) الرّاغب، المفردات: (خبر).

المصيرِ على العملِ، وهو أمرٌ ذو خطَرٍ، وثانيهما: إيقاظٌ للهِمَم؛ ليجدَّ أصحابُها بأقوالِهم وأعمالِهم للفوزِ بالمصيرِ السَّعيدِ، وفيه كذلك تحذيرٌ لمَن تنكَّبَ طريقَ الحقِّ، وسَدَرَ في غَيِّه، ليعودَ إلى رُشْدِهِ ويُصحِّحَ مسارَه بما يُرضي ربَّه ﷻ.

﴿وَهُوَ ٱلۡقَاهِرُ فَوۡقَ عِبَادِهِۦۖ وَيُرۡسِلُ عَلَيۡكُمۡ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ تَوَفَّتۡهُ رُسُلُنَا وَهُمۡ لَا يُفَرِّطُونَ ٦١﴾ [الأنعام: 61]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

المناسبةُ بين النّومِ واليقظَةِ، ودورِ الحفظَةِ في توفِّي الأنفُسِ

هذا نوعٌ آخَرُ منَ الدّلائلِ الدّالّةِ على كمالِ قُدرةِ اللّه تعالى، وكمالِ حِكمتِه. فلَمّا حدَّثَنا بيانُ اللّهِ تعالى في الآيةِ السّابقةِ عنِ النَّوم، وهو قهرٌ للإنسانِ لا يستطيعُ أن يعيشَ بدونِه، جاءتْ هذه الآيةُ الكريمةُ ببيانِ ما يقهَرُ الإنسانَ بأشدَّ ما يكونُ عليه؛ وهو الموتُ، فالنَّومُ والموتُ بخلْقِ اللّه، وكلاهما ناطقٌ بقَهرِ اللّهِ عبادَه بهما، ولذلك "يرسلُ حفظَةً منَ الملائكة على العبادِ، يتعاقبون عليهم ليلًا ونهارًا، يحفظون أعمالَهم، ويُحصونَها، ما داموا على قيْدِ الحياةِ، ولا يُفرّطون في شيءٍ منها، حتّى إذا جاء أحدَهم أجلُه، توفّتْه ملائكةُ الموتِ الموكّلون بذلك بإذنِ ربِّهم، وهم لا يُقصّرون فيما يوكَلُ إليهم"[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلۡقَاهِرُ﴾: القهرُ: الغلبةُ والأخذُ من فوقٍ على طريق التّذليلِ، و(قهرهَ) (كمنَعه) قهرًا: غلبَه. ويُقال: قهرَه: إذا أخذَه قهرًا من غيرِ رِضاه[2]، والقافُ والهاءُ والرَّاءُ كلمةٌ صحيحةٌ، تدُلُّ على غَلَبةٍ وعُلوٍّ، يُقالُ: قَهَرَهُ يَقهَرُهُ قَهرًا، والقاهرُ: الغالبُ، وهو اسمٌ جليلٌ من أسماءِ اللّهِ [3]ﷻ، والقهّار: اسمٌ من أسماء اللّه الحُسنى، ومعناه: الّذي يقصمُ ظهرَ الجبابرةِ من أعدائه، فيقهرُهم بالإماتةِ

(1) أسعد حومد، أيسر التّفاسير، ص: 273.
(2) الزَّبيديّ، تاج العروس: (قهر).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (قهر).

والإذلالِ، قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّٰرُ ١٦﴾ [الرّعد: 16]"[1]، وقال ابنُ الأثير: "القاهرُ: هو الغالبُ جميعَ الخلْقِ"[2].

2) ﴿وَيُرۡسِلُ﴾: من رَسَلَ: الرّاءُ والسّينُ واللّامُ أَصلٌ واحدٌ مُطَّرِدٌ مُنقاسٌ، يدُلُّ على الانبعاثِ والامتدادِ، والرَّسولُ: هو الَّذي يُكلَّف بوَحْيٍ منَ اللّه تعالى برسالةٍ يُبلِّغُها إلى مَنْ أُرسِلَ إليهم، وهو الَّذي يأنَسُ المؤمنون به، وهو من معنَى قول القائل: استرسَلتُ إلى الشَّيءِ: إذا انبَعثَتْ نَفسُكَ إليه، وأَنِستَ به[3]، وأرسلتُ فلانًا في رسالة، فهو مُرسَلٌ ورسول،.. والرّسولُ أيضًا: الرّسالةُ، ومنه قولُه تعالى: ﴿إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٦﴾ [الشّعراء: 16]، ولم يقُل: رُسُلُ ربّ العالمين؛ لأنّ فعولًا وفعيلًا، يستوي فيها المذكّرُ والمؤنّثُ، والواحدُ والجمعُ، مثلُ: عدوٍّ وصديقٍ[4]، و"الإرسال أيضًا: التّوجيهُ، وبه فُسّر إرسالُ اللّه ﷻ أنبياءَه ﷺ، كأنّه وجّه إليهم أن أنذروا عبادي، قاله أبو العبّاس. والاسم: الرّسالةُ، بالكسر، والفتح[5].

3) ﴿حَفَظَةً﴾: حَفِظَ: الحاءُ والفاءُ والظّاءُ أصلٌ واحدٌ يدُلّ على مُراعاة الشَّيءِ، يُقالُ: حَفِظتُ الشَّيءَ حِفظًا، والحِفظُ يُستعمَلُ في كُلِّ تَفقُّدٍ، وتَعهُّدٍ، ورعايةٍ، قال اللّه تعالى: ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ١٢﴾ [يوسف: 12][6]، ومنه الآيةُ الَّتي معنا في قولِه تعالى: ﴿وَيُرۡسِلُ عَلَيۡكُمۡ حَفَظَةً﴾، وهُمُ الملائكةُ الَّذين يَحفَظونَ الإنسانَ، ويتعهَّدونَه بالرِّعايةِ في أحوالِه كُلِّها بأمْرِ اللّه، وهمُ المعقِّباتُ الَّذين وردَ ذكرُهم في قولِه تعالى: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٞ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ﴾ [الرّعد: 11]. والحَفَظَةُ، محرّكةً: الّذين يُحصون أعمالَ العباد، ويكتبونَها عليهم منَ الملائكة، وهم الحافظون، قال الجوهريّ: والحفظَةُ: الملائكةُ الّذين يكتبون أعمالَ بني آدمَ[7].

4) ﴿لَا يُفَرِّطُونَ﴾: فَرَطَ: الفاءُ والرّاءُ والطّاءُ أصلٌ صحيحٌ، يدُلُّ على إزالةِ شيءٍ من مكانِه وتَنحيتِه عنه، يُقالُ: فرَّطتُ عنه ما كرِهَه؛ أي: نَحَّيتُه، وهذا هو الأَصلُ. والتَّفريطُ:

(1) أحمد مختار عمر، معجم اللّغة العربيّة المعاصرة: (قهر).
(2) الزَّبيديّ، تاج العروس: (قهر).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (رسل).
(4) الجوهريّ، الصّحاح: (رسل).
(5) الزَّبيديّ، تاج العروس: (رسل).
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حفظ).
(7) الزَّبيديّ، تاج العروس: (حفظ).

هو التَّقصيرُ؛ لأنَّه إذا قصَّرَ فيه فقد قَعَدَ به عن رُتبَتِه الَّتي هي له[1].

"وفَرَّطَ في الشَّيءِ، وفَرَّطَه: ضَيّعَه وقَدَّمَ العَجزَ فيه، وفي التَّنزيل: ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ۝٥٦﴾ [الزّمر: 56]؛ أي: مَخافَةَ أن تَصيروا إلى حالِ الندّامَةِ للتَّفريطِ في أَمر اللّه، والطَّريقِ الَّذي هو طَريقُ اللّه الّذي دَعا إليه، وهو توحيدُ اللّهِ، والإقرارُ بنُبوَّةِ رسولِه ﷺ[2].

والمعنَى المرادُ في قولِه تعالى: ﴿وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾؛ أي: أنَّ الرُّسُلَ، وهم هنا الملائكةُ، لا يُقصِّرونَ ولا يتخلَّفونَ عن أمْرِ اللّه، في قبْضِ أرواحِ العبادِ.

❁ المَعْنَى الإجْمَالِيُّ:

يُخبرُ اللّهُ ﷻ عبادَه بأنَّه هو الغالبُ عليهم، ويُرسلُ عليهم ملائكةً تحفظُهم منَ الآفات، ويحفظونَ كذلك أعمالَهم، حتَّى إذا قدَّر اللّهُ الموتَ على أحدِهم، تنحَّتِ الحَفظَةُ، وجاءَتْ ملائكةُ الموتِ لتقبِضَ روحَه دون أيِّ تقصيرٍ في تنفيذِ أمرِ اللّه ﷻ، ومهمّتُهم إحصاءُ الأعمال مُدّةَ الحياةِ، حتّى إذا انتهى الأجَلُ، وحُمَّ القضاءُ، وجاءتْ أسبابُ الموت ومُقدّماتُه، توفّتْه رسلُنا، والحالُ أنّهم لا يُفرّطون، ولا يُقصّرون بزيادةٍ في الأوامرِ، أو نقصانٍ في التّعليماتِ[3].

يُرسلُ اللهُ الملائكةَ؛ لإحصاءِ الأعمالِ، وقبْضِ الأرواحِ

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

العطْفُ يُبيّنُ قُدرةَ الله على عبادِه، في الحياةِ، وعندَ المماتِ:

قولُه تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾، عُطِفَت على جملة: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم﴾، وقولُه: ﴿ٱلْقَاهِرُ﴾؛ أي: الغالبُ المُكْرِهُ الَّذي لا يَنفلِتُ مِن قُدرتِه مَن عُدّيَ إليه فعلُ القَهرِ منَ الآلهةِ المزيَّفةِ الَّتي اتَّخذَها

توكيلُ تنفيذِ قدَرِ اللهِ إلَى الملائكةِ الأطْهارِ

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (فرط).
(2) ابن سيده، المحكم 9/157.
(3) الحجازيّ، التّفسير الواضح، ص: 622.

كثيرٌ منَ النّاس آلهةً لهم من دونِ اللّه، كالأصنامِ والبَشرِ والحجرِ والشَّجر، وغيرِ ذلك ممّا عُبِدَ من دونِ اللّهِ أو معَ اللّه، وقد جاء العطفُ لبيان قُدرةِ اللّه الغالبِ، فيؤكّدُ لهم أنّه المُستعلي بسُلطانه على عبادِه، حيث يرسلُ عليهم ملائكةً، يُحصونَ الأعمالَ، إلى أن تجيءَ الآجالُ، فتُقبَضَ الأرواحُ منَ الملائكة المكلَّفين بذلك، وهم لا يُقصّرون فيما يوكلُ إليهم من مهامَّ، ولا يَعصون اللّه ما أمرَهم، في البدْءِ، ولا في الختامِ[1].

دلالةُ أُسلوبِ القَصْرِ على مُطلَق قهْرِه سُبحانَه، ونفاذِ مُرادِه في خلْقِه:

قهْرُ القاهرِ لا يُغالَبُ بأسُه، ولا يُتّقَى بطْشُه

قولُه تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾، معنى "القاهر هو المتحكّمُ بقُدرةٍ فائقةٍ محيطةٍ مستوعِبةٍ"[2]، وقد أفادَ تعريفُ الجُزأَين، في الضّميرِ المنفصلِ المبنيِّ (هو)، و(اللّام) في قولِه: (القاهر)؛ القَصْرَ؛ أي: لا قاهرَ إلّا هو ﷻ؛ لأنَّ قهرَ اللّه تعالى هو القهرُ الحقيقيُّ الَّذي لا يجدُ المقهورُ منه مَلاذًا؛ لأنَّه قهرٌ بأسبابٍ لا يستطيعُ أحدٌ منَ الخَلْقِ أن يُدافعَها؛ ومنها ما يُشاهَدُ دومًا كالنَّومِ والموتِ، ففي القَهرِ معنًى زائدٌ ليس في القُدرةِ، وهو منعُ غيرِه من بُلوغِ المرادِ، "فالنّومُ قهرٌ؛ لأنّ الإنسانَ قد يريدُ أن لا ينامَ، فيغلبَه النّومُ، والموتُ قهْرٌ؛ وهو أظهرُ، ومنَ الكَلِمِ الحقِّ: سبحانَ مَن قهَرَ العبادَ بالموتِ"[3].

دلالةُ الاستعارةِ التّمثيليَّةِ، في قولِه تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾:

قَدْرُ اللّه لا مَفرَّ منه، ولا مَندوحَةَ عنه

لفظُ ﴿فَوْقَ﴾ ظرفٌ مُتعلِّقٌ بـ ﴿ٱلْقَاهِرُ﴾، وهو استعارةٌ تمثيليَّةٌ لحالةِ القاهرِ، بأنَّه كالَّذي يأخذُ المغلوبَ مِن أعلاه، فلا يجدُ مُعالجةً، ولا حَراكًا، وهو تمثيلٌ بديعٌ، ومنه قولُه تعالى حكايةً عن

(1) لجنة من علماء الأزهر، المنتخب في تفسير القرآن الكريم، ص: 182.
(2) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ، ص: 182.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/277.

فرعونَ: ﴿وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ١٢٧﴾ [الأعراف: 127]، ولا يُفهَمُ من هذا جهةٌ، كما قد يُتوهَّمُ، تنزَّه اللّٰهُ تعالى عن الجهاتِ، ويكونُ معنَى القهرِ فوقَ العباد: أنَّه تعالى خالقُ ما لا يَدخُلُ تحتَ قُدَرِهم، بحيث يوجِدُ ما لا يُريدونَ وجودَه كالموتِ، ويمنعُ ما يُريدونَ تحصيلَه كالولَدِ للعقيم[1]، وعلى ظاهر اللّفظ: "يصحُّ أن تُجعلَ ﴿فَوْقَ﴾ ظرفيّةً للجهةِ؛ لأنّ هذه الأشياءَ، إنّما تعاهَدَها العبادُ مِن فوقِهم، وإنْ أُخِذَ القاهِرُ صفةَ ذاتٍ، بمعنى القُدرةِ والاستيلاءِ، فـ ﴿فَوْقَ﴾: لا يجوزُ أن تكونَ للجهة، وإنّما هي لعلوِّ القَدْرِ والشّأن"[2].

عطْفُ القصْرِ على سابِقه، في قولِه تعالى: ﴿وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً﴾:

إرْسالُ الحفظَةِ الكرامِ، حُجّةُ الله على الأنامِ

قولُه تعالى: ﴿وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً﴾ عطْفٌ على ﴿ٱلْقَاهِرُ﴾، فيُعتَبَرُ أيضًا بقرينة المقامِ؛ أي: القاهرُ الَّذي يُرسِلُ عليكم حَفَظَةً دونَ غيرِه، والقَصرُ هنا حقيقيٌّ، حيث لا يَستدعي ردَّ اعتقادٍ مُخالِفٍ؛ وفي هذا الإعلامِ تحذيرٌ للسّامعينَ مِن ارتكاب المعاصي، والمعنى: أنّ الملائكةَ الحفظةَ: "يَحفظون عليكم كلَّ حركةٍ وسُكونٍ، لتَستَحْيوا منهم، وتخافوا عاقبةَ كتابتِهم. ويقومُ عليكم بشهادتِهم الحُجّةُ على مجاري عاداتِكم، وإلّا فهو سُبحانَه غنيٌّ عنهم؛ لأنّه العالمُ القادرُ، فيَحفظونَكم على حسَبِ مُرادِه فيكم"[3]، وفي هذا البيانِ حكمةٌ جليلةٌ ونعمةٌ عظيمةٌ، فعند ما يعلمُ المكلَّفُ أنَّ أعمالَه تُحفَظُ، وتُضبَطُ عليه، وستُعرضُ على رؤوس الأشهادِ يومَ القيامةِ، فإنه سينزجرُ عن ارتكابِ المعاصي، وإلّا فإنَّه إنْ رَكَنَ إلى عَفوِ سيِّده، وأمِنَ عقوبتَه، فإنَّه سَيستمرئُ الغِوايةَ، ويَتمادَى في الضَّلالةِ، وهَيهات هَيهات أن يَرعَوِيَ، أو يَعودَ إلى رُشدِه.

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 7/164 - 165.
(2) الثّعالبيّ، الجواهر الحسّان 2/475.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/139.

دلالةُ عطْفِ الفعْلِ على الاسمِ، في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ﴾ ﴿وَيُرْسِلُ﴾:

الـمُغايَرةُ بين الصّفاتِ الإلهيّةِ وصِفاتِ المخلوقِين

في ذِكْرِ الصِّفةِ الإلهيّةِ بالجملةِ الاسميّةِ بأسلوبِ القصْرِ تأكيدٌ على كونِها صِفةً ثابتةً، وفي العطْفِ عليها بقوله: ﴿وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً﴾، فلم يكُنْ: والمُرسلُ عليكم حفظةٌ؛ تنبيهًا على تجدُّدِ فعْلِ المرسَلين، وتنوُّعِهم، وتغيّرِهم، وكثرتِهم، وهم مخلوقون، واختلافُ الأحوالِ شأنُهم وصفتُهم.

دلالةُ حرفِ الاستعلاءِ (على) في قولِه تعالى: ﴿وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً﴾:

قهْرُ الله يَطالُ كلَّ البشرِ، ويَستوفي ما بطنَ وما ظهرَ

تظهرُ هنا أهمّيّةُ استخدامِ البيانِ الإلهيِّ للحرفِ (على) الَّذي يُفيدُ هنا الاستعلاءَ المجازيَّ، وهو متعلِّقٌ بـ ﴿وَيُرْسِلُ﴾؛ أي: إرسالَ قهرٍ وإلزام، فهذا الاستعلاءُ فيه معنَى العلوّ والقهر، وتقديمُه على المفعولِ الصَّريح ﴿حَفَظَةً﴾؛ لمزيدِ الاعتناءِ بالمُقدَّم، والتَّشويقِ إلى المُؤخَّر، ويمكنُ أن يكونَ مُتعلِّقًا بمحذوفٍ، هو حالٌ من ﴿حَفَظَةً﴾، إذ لو تأخَّر لكان صفةً؛ أي: كائِنينَ عليكم، ويمكنُ كذلكَ أن يكونَ مُتعلِّقًا بـ ﴿حَفَظَةً﴾، والمحفوظُ محذوفٌ على كلِّ حال؛ أي: يُرسلُ عليكم ملائكةً يحفظونَ أعمالَكم كائنةً ما كانت[1]، ولفظُ (على) يوحي بمعنى المرافقةِ الدّائمةِ، والرّقابةِ على الأفعال، خيِّرةً كانت أم شرّيرةً، ولذلك كان قهرُه مُستغرِقًا كلَّ البشرِ، مؤمنِهم وكافرِهم، قال القُمّيّ: "وهو القاهرُ بوصْفِ الجلال للأولياءِ، قهّارٌ بوصْفِ الجبروتِ للأعداء"[2]، وقد يُؤوَّلُ على أنّه "متعلّق بقولِه: ﴿وَيُرْسِلُ﴾، ومنه: ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا﴾ [الرّحمن: 35]، والثّاني: أنّه متعلّق بـ ﴿حَفَظَةً﴾، يُقال: (حَفِظْتُ عليه عملَه)، فالتّقديرُ: (ويُرْسل حَفَظَة عليكم يحفظون أعمالَكم)، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ۝١٠﴾ [الانفطار: 10]، و﴿عَلَيْكُمْ﴾ هو الخبرُ، لقولِه: ﴿وَإِنَّ﴾، فيتعلّقُ بمحذوفٍ،

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/223 - 224.

(2) القمّيّ، غرائب القرآن ورغائب الفرقان: 3/100.

والثّالث: أنّه متعلِّقٌ بمحذوف على أنّه حالٌ من ﴿حَفَظَةً﴾، إذ لو تأخَّر لجاز أن يكون صفةً لها[1].

دلالةُ ﴿حَتَّىٰٓ﴾ على الغايةِ، في قولِه تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ﴾:

كلُّ لذّةٍ في الحياةِ تنتهي بلحظةِ المماتِ

قولُه: ﴿حَتَّىٰٓ﴾ غايةٌ لما بعدَها، وهي الجملةُ الشَّرطيَّةُ، في قولِه تعالى: ﴿إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ﴾، وهو مُتعلِّقٌ بـ (الحَفَظَة) الَّذين يُحصونَ أعمالَ العبادِ ويَضبِطونَها؛ أي: فينتهي الإحصاءُ بالموتِ، فإذا جاءَ وقتُ انتهاءِ أجلِ الحياةِ الدُّنيا، توفَّتْه ملائكةُ الموتِ المكلَّفونَ بقبضِ الأرواحِ.

والسّياقُ يقتضي أنَّ لكلِّ واحدٍ منَ النّاس عددًا منَ الملائكة يتولَّوْن قَبْضَ روحِه[2]، ومعنى قولِه: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ تَوَفَّتۡهُ رُسُلُنَا﴾، أنّ ﴿حَتَّىٰٓ﴾: "هنا للغايةِ، والمعنى المرادُ: أنّ هذه الحالَ، سوف تستمرُّ، حتّى يجيءَ أحدَهم الموتُ"[3]، فهي إنذارٌ بأنّ أفعالَ كلِّ بشرٍ، هي تحت المجهَرِ، وأنّ الرّقابةَ دائمةٌ لا تفترُ، فعلى النّاس أن يحسبوا حسابًا للعُقبَى، وأن يعلموا أنّ الغايةَ في المُنتهَى؛ هي هجومُ الموتِ بغتةً على الإنسانِ، فلا يجدُ منه فرارًا، ويجدُ ما عَملَ مِن عَملٍ مُحضرًا، وهناك لا ينفعُه مالٌ ولا بنون، قال الآلوسيّ: "و﴿حَتَّىٰٓ﴾ في قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ﴾، هي الّتي يُبتدَأ بها الكلامُ، وهي مع ذلك تجعلُ ما بعدها منَ الجملةِ الشّرطيّةِ غايةً لما قبْلَها، كأنّه قيلَ: (ويرسلُ عليكم حفظةً، يحفظون ما يحفظون منكم مُدّةَ حياتِكم، حتّى إذا انتهت مُدّةُ أحدِكم، وجاءَت أسبابُ الموتِ ومباديه، توفّتْه رسلُنا الآخرون، المفوّضُ إليهم ذلك، وانتهى هناك حفْظُ الحفظَةِ)"[4].

(1) السّمين، الدّرُّ المصون: 4/666.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 7/278.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2528.
(4) طنطاويّ، الوسيط: 5/93.

دلالةُ وُرودِ المضافِ المشتقِّ ﴿رُسُلُنَا﴾ في قُوَّةِ النَّكرَةِ:

ملائكةُ تنفيذِ التّدبيرِ، غيرُ ملائكةِ إنفاذِ التّقديرِ

قولُه: ﴿رُسُلُنَا﴾ في قوَّة النَّكرةِ؛ لأنَّ المُضافَ مُشتقٌّ فهو بمعنَى اسمِ المفعولِ، فلا تُفيدُه الإضافةُ تعريفًا، ولذلك فالمرادُ منَ الرُّسُلِ الَّتي تتوفَّى العبادَ رُسُلٌ غيرُ الحَفَظَةِ المرسَلين عليهم، بناءً على الغالبِ في مجيءِ نكرةٍ عَقِبَ نكرةٍ أنَّ الثّانيةَ غيرُ الأولى[1]، و"هؤلاء الرّسلُ هم أعوانُ مَلكِ الموتِ، كما قال تعالى: ﴿۞قُلۡ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلۡمَوۡتِ ٱلَّذِي وُكِّلَ بِكُمۡ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ تُرۡجَعُونَ ١١﴾ [السّجدة: 11]، قال ابنُ عبّاس وغيرُه: لملكِ الموتِ أعوانٌ منَ الملائكة، يُخرجون الرّوحَ منَ الجسدِ، فيقبضُها ملكُ الموتِ، إذا انتهَتْ إلى الحُلقوم"[2].

تعلُّقُ الفعْلِ بالضَّميرِ، في قوله تعالى: ﴿جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ تَوَفَّتۡهُ﴾:

لا مَنجَى مِن هاذمِ اللّذّاتِ، ومُفرِّقِ الجماعاتِ

قولُه: ﴿تَوَفَّتۡهُ﴾ عائدٌ لضميرِ ﴿أَحَدَكُمُ﴾ الّذي هو في معنى الذّاتِ، وهو دليلٌ على أنَّ استيفاءَ حياةِ الإنسانِ وخَتمتِها يكونُ بقبضِ روحِه في الوقتِ المقدَّرِ بأمرِ اللّه[3]، وكونِ الضّميرِ المتّصلِ بالفعْلِ دالًّا على مَن قُصدَ بالوفاة، وهو ﴿أَحَدَكُمُ﴾، فإنّ الموت سوف يَطالُ كلَّ أحدٍ، ولا ينجو منه أحدٌ، لكنّ المعاناةَ تتجدّدُ لدَى البشرِ بتجدُّدِ الأدوارِ، على سبيلِ الإلزامِ لا على سبيلِ الاختيارِ، حيث تتوفَّى الملائكةُ، منِ استنفدَ أجلَه، وحانت منيّتُه، فيقومون بقبْضِ روحِه في لحظةِ التّقديرِ، من غير تقديمٍ ولا تأخيرٍ؛ وفي تقديمِ المفعولِ به على الفاعلِ (أحدكم الموت) قصْرُ مجيءِ الموت على المقصودِ به دون سِواه تنبيهًا على حتميّةِ الآجالِ؛ وفي إسنادِ المجيءِ إلى الموتِ مجازٌ عقليٌّ يُرادُ منه تأكيدُ حُدوثِه، وكأنّه جاءَ بنفسِه، والحقيقةُ أنّ الّذي يأتي همُ الملائكةُ الموكَّلون بقبْضِ الأرواحِ.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/278.
(2) الزّحيلّي، التّفسير المنير: 7/231.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/278.

توجيهُ المعنَى وَفْقًا لاختلافِ القراءةِ القرآنيّةِ في قولِه تعالى: ﴿تَوَفَّتْهُ﴾:

فـهْـمُ الـقـراءةِ القرآنيّةِ، لا بدَّ أن يتطابقَ مع وجْهٍ في العربيّةِ

قولُه تعالى: ﴿تَوَفَّتْهُ﴾، وردت فيه قراءتان[1]: الأولى: ﴿تَوَفَّتْهُ﴾ بالتّاء على تأنيثِ الجماعة. والثّانيةُ: (تَوفّاهُ)، بألفٍ مُحالةٍ على إرادةِ الجَمعِ، وهذه القراءةُ تحتملُ وجهَين: الأوّلُ، وهو أظهرُهما: ماضٍ، وإنَّما حذفَ تاءَ التَّأنيثِ لسببَيْن: أحدُهما: كونُه تأنيثًا مجازيًّا، والثّاني: أنَّه مضارع، وأصلُه تتوفّاه بتاءَيْن[2]، وقرأ الأعمش: (يَتَوَفّاهُ) مُضارعًا بياء الغَيبَةِ، اعتبارًا بكونِه مؤنّثًا مجازيًّا، أو للفَصْلِ، وقال أبو البقاء: وقرئ شاذًّا (سَتَوفّاهُ) على الاستِقبالِ، ولم يذكر بياء، ولا تاء[3]، وهذا التّنوّعُ في القراءاتِ القرآنيّةِ، يفسحُ المجالَ واسعًا، لانقداحِ الذّهنِ عن معانٍ متنوّعةٍ، قد يرتضيها العقلُ، وتقبلُها قواعدُ اللّغةِ، وتأنسُ لها أصولُ التّفسير، وقد تكونُ القراءةُ شاذّةً فترفضُها وتُجانِفُها، وهذا بذاتِه ثراءٌ كبيرٌ في هذا المضمارِ العلْميّ والذّوقيِّ، المنفتحِ على أصول المعرفةِ القرآنيّةِ وتطبيقاتِها.

بلاغةُ القَيْدِ بالحالِ في الإبانةِ، في قولِه تعالى: ﴿وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾:

الحفظَةُ جنسٌ عابدٌ لطيفٌ، لا يُفرّطُ في أمرٍ ولا تكليفٍ

فجُملةُ: ﴿وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ تحتملُ وجهَين، أظهرُهما: أنَّه: حالٌ؛ أي: والحالُ أنَّ ملائكةَ الموتِ لا يُقصِّرون في العملِ المُناطِ بهم، فهم لا يَتوانَونَ في قبضِ أرواحِ العبادِ عندَ حُلولِ أجلِها، ولا يَترُكونَ أيًّا منها قد حانَ أجلُه. والثّاني: أنَّها استئنافيَّةٌ، سيقتْ للإخبارِ عنهم بهذه الصِّفةِ[4]، وكونُها جملةً حاليّةً أقربُ إلى مدلولِ السّياقِ؛ والجمهورُ على التّشديدِ في قولِه: ﴿يُفَرِّطُونَ﴾؛ ومعناه: لا يُقَصِّرون[5]..

---

(1) الأولى: قراءة الجمهور، والثّانية: قراءة حمزة. يُنظر: ابن الجزري، النشر: 2/258، ويُنظر: العكبريّ، إملاء ما منَّ به الرَّحمن: 1/245.

(2) السَّمين الحلبيّ، الدُّرُّ المصون: 4/667.

(3) ابن عادل الدّمشقيّ، اللّباب في علوم الكتاب: 8/197.

(4) السَّمين الحلبيّ، الدُّرُّ المصون: 4/667.

(5) "قال الزّمخشريّ: (فالتّفريط: التَّواني والتَّأخير عنِ الحَدِّ، والإفراطُ مُجاوَزَةُ الحدِّ؛ أي: لا ينقصون ممّا أمروا بِهِ، ولا يزيدون). والثّاني: أنَّ معناه لا يتقدَّمون على أمرِ الله، وهذا يحتاج إلى نَقلِ أنَّ (أفرَطَ) بمعنى (فَرَّط)، أي: تقدَّم. قال الجاحِظُ قريبًا من هذا، فعنه قال: (معنى لا يُفْرِطون: لا

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

القاهر والعزيز والقادر:

القهْرُ أعمُّ منَ العِزّةِ، والقُدرةُ أشملُ منهُما

العزيزُ: الغالبُ الَّذي لا يفوتُه شيءٌ، ولا يُعجِزُه شيءٌ، والصِّفةُ بعزيزٍ لا تتضمَّنُ معنَى القهْرِ، والصِّفةُ بقاهرٍ تتضمَّن معنَى العِزِّ، يُقال: قَهرَ فلانٌ فلانًا، إذا غلبَه وصارَ مُقتدِرًا على إنفاذِ أمرِه فيه[1]، وعزَّ فلانٌ؛ أي: صارَ عزيزًا؛ أي: قويَ بعد ذِلّةٍ، وأعزّه اللّه، وعززْتُ عليه أيضًا: كرُمتُ عليه[2]، ومن أسماءِ اللّه تعالى (العزيز)، وهو الغالبُ القويُّ الّذي لا يُغلبُ[3].

والعزّةُ: حالةٌ مانعةٌ للإنسان مِن أن يُغلَبَ، وهي يُمدحُ بها تارةً، ويُذمُّ بها تارةً، كعزّةِ الكفّار: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ۝٢﴾ [ص: 2][4]، وأمّا القُدرةُ فتكونُ على صغيرِ المقدورِ وكبيرِه، وأمّا القهرُ فيدلُّ على كِبَرِ المقدورِ، لهذا يُقالُ: مَلِكٌ قاهرٌ إذا أُريدَ المبالغةُ في مدْحِه بالقُدرةِ، ولا يُقالُ في هذا المعنَى: مَلِكٌ قادرٌ؛ لأنَّ إطلاقَ قولِنا: قادرٌ، لا يَدُلُّ على عظيمِ المقدورِ، كما يدلُّ عليه إطلاقُ قولِنا: قاهرٍ[5]، وممّا تقدَّمَ يتبيَّنُ أنَّ استخدامَ البيانِ الإلهيِّ لاسمِ (القاهرِ) أقوَى في دَلالةِ قهْرِ اللّهِ على عبادِه، وغَلَبتِه عليهم، وعظمةِ مقدورِه، وقُدرتِه على إنفاذِ أمرِه فيهم.

الإرسال والبَعث:

البعثُ يأتي بمعانٍ عدّةٍ، منها: الإحياءُ: ﴿وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ﴾ لما فيه من إثارتِهم وتحريكِهم، فمعناه مرتبطٌ بالإثارةِ والتّحريكِ، وهو

البعثُ فيه معنَى الحركَةِ، والإرسالُ أخَصُّ منه

يدعون أحَدًا يَفْرُط عنهم؛ أي: يَسبِقُهم ويفوتهم)، وقال أبو البقاء: (ويقرأ بالتّخفيف؛ أي: لا يزيدون على ما أمِروا به، وهو قريبٌ ممّا تقدَّم)". النّصّ من ابن عادل الدّمشقيّ، اللّباب في علوم الكتاب: 8/198.

(1) العسكريّ، الفروق، ص: 358.

(2) الجوهريّ، الصّحاح: (عزز).

(3) ابن الأثير، النّهاية في غريب الحديث والأثر: 3/228.

(4) الزَّبيديّ، تاج العروس: (عزز).

(5) العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 421.

يُستخدمُ بمعنى الإرسالِ المقترِنِ بالتّحريكِ والإثارةِ، فالمعنَى المحوريُّ: إثارةُ الحيّ - من مكانٍ - يلزمُه بقوّةٍ، فيندفعُ ناهضًا أو مُبتعدًا، والبعثُ: الإثارةُ والدّفعُ نحو عملِ شيءٍ ما، والبعثُ: إنهاضٌ بعد موتٍ مؤقَّتٍ، والرّسولُ ينطلقُ من طرَفِ مَنْ أرسلَه برسالةٍ متميّزةٍ عنه؛ أي: ليس هو مُنشِئَها[1]، والإرسالُ مختصٌّ بمَن كان معه رسالةٌ أو تكليفٌ، واستُخدم هنا لأنّه الأنسبُ بالسّياقِ.

(1) جبل: المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (بعث - رسل).

﴿ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوۡلَىٰهُمُ ٱلۡحَقِّۚ أَلَا لَهُ ٱلۡحُكۡمُ وَهُوَ أَسۡرَعُ ٱلۡحَٰسِبِينَ ٦٢﴾ [الأنعام: 62]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

العلاقةُ بين قهرِ اللـه لعبادِه، وبين مآلِهم إلى عدْلِه وحسَابِه

لَمّا بيَّنَ اللّهُ تعالى في الآيةِ السّابقةِ قهرَه لعبادِه بأمرَينِ اثنَين: أحدُهما: إرسالُ الملائكةِ الَّتي تحفظُ عليهم أعمالَهم، والثّاني: إرسالُ ملائكةِ الموتِ تقبِضُ أرواحَهم، ناسبَ أن تأتيَ هذه الآيةُ الكريمةُ لبيانِ أنَّ مردَّ أولئكَ العبادِ ومَصيرَهم - بعدَ كلِّ ما سبقَ - إلى اللّهِ الَّذي يتولَّى أمرَهم، ويحاسبُهم بأسرعِ ما يكونُ وفقَ عِلْمِه وقُدرتِه، "فيحكمُ فيهم بعدْلِه، وهو يومئذٍ صاحبُ الحُكمِ، والقولِ الفصلِ، وهو تعالى أسرعُ الحاسبين"[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿رُدُّوٓاْ﴾: الرَّدُّ: صرفُ الشَّيءِ بذاتِه، أو بحالةٍ من أحوالِه، يُقالُ: ردَدْتُه فارتدَّ، قالَ تعالى: ﴿وَلَا يُرَدُّ بَأۡسُهُۥ عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ١٤٧﴾ [الأنعام: 147]. ومنَ الرَّدِّ بالذّات قولُه تعالى: ﴿فَرَدَدۡنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ﴾ [القصص: 13]، ومنَ الرَّدِّ إلى حالةٍ كانَ عليها: الرَّدُّ إلى اللّهِ تعالى، وهو المرادُ بقولِه: ﴿ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوۡلَىٰهُمُ ٱلۡحَقِّۚ﴾، فالرَّدُّ كالرَّجْعِ، كما في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ٢٨﴾ [البقرة: 28]، وهو المرادُ هنا بقرينةِ: ﴿وَهُوَ أَسۡرَعُ ٱلۡحَٰسِبِينَ﴾[2].

2) ﴿مَوۡلَىٰهُمُ﴾: الوَلايةُ: توَلّي الأمرِ، والوِلايةُ النُّصْرةُ، والوِلايةُ والوَلايةُ نحوُ: الدَّلالةُ والدِّلالةُ، وحقيقتُه: تولّي الأمر. والوَليُّ والمَولَى يُستعملانِ في ذلكَ، كلُّ واحدٍ منهما يُقال في معنَى الفاعل؛ أي:

(1) أسعد حومد، أيسر التفاسير، ص: 852.
(2) الرّاغب، المفردات: (رد).

الموالي، وفي معنَى المفعول؛ أي: الموالَى، فيُقالُ: اللّهُ تعالى وليُّ المؤمنين ومَولاهُم؛ أي: ناصرُهم، ومُتولّي أمرِهم؛ فمِنَ الأوَّل قولُه تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [البقرة: 257]، ومِنَ الثّاني - وهو بمعنَى متولّي أمرِهم - قولُه تعالى: ﴿ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوۡلَىٰهُمُ ٱلۡحَقِّۚ﴾[1]، والوالي في قولِه تعالى: ﴿وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ١١﴾ [الرّعد: 11]؛ بمعنى: الوليّ.

ونفى اللّه تعالى الوَلايةَ بين المؤمنين والكافرين في آيات كُثُرٍ، منها قولُه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمۡ أَوۡلِيَآءَ﴾ [الممتحنة: 1]، وهذا اللّفظُ بصيَغِه الاشتقاقيّةِ المختلفةِ كثيرُ الورودِ في القرآن الكريم؛ لأهمّيّتِه الدّلاليّةِ[2].

3) ﴿ٱلۡحُكۡمُ﴾: حَكَم، أصلُه: منعَ منعًا لإصلاحٍ، ومنه سُمّيتِ اللِّجامُ حَكَمةَ الدّابَّة، فقيل: حكَمْتُه، وحكَمْتُ الدّابَّة: منعتُها بالحَكَمَةِ، وأحْكمتُها: جعلتُ لها حَكَمَةً[3]، ومنه قولُ جرير:

أَبَني حَنيفَةَ أَحكِموا سُفَهاءَكُمْ *** إنّي أخافُ عَلَيْكُمُ أنْ أغْضَبا[4]

والحُكمُ بالشَّيءِ: أن تقضيَ بأنَّه كذا، أو ليس بكذا[5]، وهذا المعنَى هو المرادُ هنا في قولِه: ﴿أَلَا لَهُ ٱلۡحُكۡمُ﴾؛ فالحُكمُ على العبادِ للّهِ وحدَه ﷻ دونَ غيرِه، وله الحُكمُ في كلِّ شيءٍ.

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

ردُّ العبادِ إلى اللّه مولاهُم الحقِّ؛ ليحكُمَ بينهم بالعدْلِ والحقِّ

بعدَ الموتِ يُعيدُ اللّهُ ﷻ عبادَه إليه ليتولَّى الحُكمَ فيهم بالجزاءِ، فيُثيبَهم على ما عملوا منَ الخَيراتِ، ويُعاقبُهم على الشُّرورِ

(1) الرّاغب، المفردات: (ولى).
(2) سميح عاطف الزّين، تفسير مفردات ألفاظ القرآن الكريم: (ولي).
(3) الرّاغب، المفردات: (حكم).
(4) البيت للشّاعر جرير وهو في ديوانه، ص: 47، والزَّمخشريّ، أساس البلاغة: 1/206. يقول: "يا بني حنيفة امنعوا سفهاءكم عنّي كما تُمنع الدّابّة بالحَكمة، فإنّ غضبي عليكم شديد". وفيه ضرب منَ التّهديد؛ فخوفه عليهم كنايةٌ عن ذلك. يُنظر: الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/377 (الهامش).
(5) الرّاغب، المفردات: (حكم).

والسَّيِّئاتِ، وهو تعالى يُحاسبُهم في أسرع زمانٍ وأَقصرِه، لا يَشغلُه حسابٌ عن حسابٍ، ولا شأنٌ عن شأنٍ[1]، بل يحاسبُ النّاسَ جميعًا في مِقدارِ حلْبِ شاةٍ، وهو أسرعُ الحاسبين[2].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالةُ أسلُوبِ الالتفاتِ في سياقِ الجُملِ المعطوفاتِ:

أثـرُ الالتـفـاتِ في التّـشـويـقِ والتّنويعِ

قولُه تعالى: ﴿ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ عطفٌ على ﴿تَوَفَّتۡهُ رُسُلُنَا﴾، وجاءَ الضَّميرُ في ﴿رُدُّوٓاْ﴾ للكُلِّ المدلولِ عليه بـ ﴿أَحَدَكُمُ﴾، وهو السِّرُّ في مجيئِه بطريقِ الالتفاتِ - منَ الخطابِ إلى الغَيبَةِ تَغليبًا[3]، ووردَ الإفرادُ أوَّلًا، والجمْعُ آخِرًا؛ لوقوعِ التَّوفّي على الانفراد، والرَّدِّ على الاجتماعِ. والالتفاتُ تشويقٌ للمضمونِ، وتنويعٌ للعَرضِ، وترصيعٌ للسّياق بالانتقالِ من صيغةٍ صرفيّةٍ إلى صيغةٍ صرفيّةٍ أخرى، وهو ما اعتمدَه القرآنُ في كثيرٍ منَ الآياتِ البيّناتِ.

إيثارُ الحرفِ (ثمّ) للدّلالةِ على التّراخِي في الرّدِّ إلى الله:

لكلِّ أجَلٍ كتابٌ، ولـكـلِّ مرحلةٍ أوانٌ

جاءَ العطْفُ بـ ﴿ثُمَّ﴾ الَّذي يُفيدُ تراخيَ الرَّدِّ عنِ التَّوفّي، "والتّراخي هنا لبيانِ مكانةِ الحسابِ، والرّدِّ على الله تعالى؛ لأنّ الالتقاءَ بحسابِ الله أمرٌ ذو خطرٍ عظيم، لما كانوا يفعلون، غيرَ متوقّعين بعد ذلك من وقائعَ تزلزلُ قلوبَ الفاسقين، وتطمئنُّ لها قلوبُ المؤمنين"[4].

وقد جاءتِ الجملةُ معبِّرةً عنِ التّراخي؛ لكوْنِ الرّدِّ إلى الله يأتي آخرَ المطافِ، وسوفَ تمرُّ الأممُ على مراحلَ قبْلَه، ثمّ يُردّون إلى الله؛ ليَحكُمَ بينهم ويحاسِبَهم، فجاءَ السّياقُ متّسِقًا مع المعاني السّياقيّةِ المقدّمةِ في هذه الآيةِ الكريمةِ.

(1) السَّعديّ، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 214.
(2) محمّد الخطيب، أوضح التفاسير، ص: 159.
(3) الشَّوكانّي، فتح القدير: 2/176.
(4) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2528.

دلالةُ وقوعِ الظّاهرِ مَوقِعَ الضّميرِ في قولِه تعالى: ﴿ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾:

لِلفظِ الجلالةِ سِرٌّ مخصوصٌ، لا يَستوعِبُه الضّميرُ

جاء قولُه: ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾ منتظِمًا مع قولِه: ﴿وَهُوَ ٱلۡقَاهِرُ فَوۡقَ عِبَادِهِۦۖ﴾، إلى آخرِ الآيةِ السّابقةِ، فالَّذي يقهَرُ عبادَه، ويُرسِلُ عليهمُ الحَفَظَةَ، وملائكةَ الموتِ، هو اللّهُ لا أحدَ غيرُه، فذِكْرُ الاسمِ الظّاهرِ للفظِ الجَلالة (اللّه) له هيبتُه، حيث مُؤدَّى كلِّ ما سبَقَ إلى المصيرِ والخاتمةِ، والحُكمِ والجزاءِ يومَ القيامة، ولا ريبَ أنّ هيمنةَ اللّه وقهْرَه في كونِه، سوف يضعُ الأمورَ في نِصابِها، ويُرجِعُ الحقائقَ إلى ميزانِها، وأنّ الالتجاءَ إلى اسمِ الجلالةِ، وهو الاسمُ الأعظمُ للّه، عند جمهورِ علماءِ الملّةِ؛ لأنّ في ذكرِه الأكيدِ، يقينًا بأنّ المؤمنَ يأوي إلى ركْنٍ شديدٍ.

الصِّفةُ وأثرُها في دِقَّةِ المعنَى، في قولِه تعالى ﴿مَوۡلَىٰهُمُ ٱلۡحَقِّۚ﴾:

وَلايةُ اللهِ على عبادِه ومالكيَّتُه الدَّائمةُ، يقينٌ لا شكَّ فيه

قولُه تعالى: ﴿مَوۡلَىٰهُمُ ٱلۡحَقِّۚ﴾؛ أي: مالكُهم الَّذي يلي أمورَهم على الإطلاق، لا ناصرَهم، كما في قولِه تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلۡكَٰفِرِينَ لَا مَوۡلَىٰ لَهُمۡ ١١﴾ [محمّد: 11]. ولمّا كان المولَى هو المالكَ، جاءَت لفظةُ ﴿ٱلۡحَقِّۚ﴾ بالجرِّ صفةً لـ ﴿مَوۡلَىٰهُمُ﴾، الَّذي هو صفةٌ لِلَفظ الجَلالةِ ﴿ٱللَّهِ﴾[1]؛ أي: مالِكُهم الحقُّ الَّذي لا يَشوبُ مُلكَه باطلٌ يوهِنُه، كما هو الحالُ في مُلكِ غيرِه منَ المخلوقين، فهو مُلكٌ غيرُ نابعٍ من ذاتِه، وهو آيلٌ للزَّوال، وكلُّ مُلك للّه فهو رمزٌ لمُطلَق الحُكم، دقّةَ تسْييرٍ، ونظامَ تدبيرٍ، وحكمةَ تصرُّفٍ؛ وهو بذلك مالكُ المُلكِ، وصاحبُ الملكوتِ، فهو مَولَى العبادِ صدقًا، وهو المهيْمنُ على مصائرِهم حقًّا؛ لأنّه مولاهُمُ الحقُّ.

بلاغةُ التّذييلِ بقولِه تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلۡحُكۡمُ﴾:

تذْييلُ معاني المصائرِ يُؤكّدُ حصولَها بيُسْرٍ لقهْرِه وقُدرتِه سُبحانَه

الجملةُ تذْييلٌ جارٍ على اللّسانِ العربيِّ فيما يُذكرُ منَ الأخبارِ المهمّةِ والعامّةِ الجامعةِ، ولأنّها تُؤكّدُ السّابقَ لم تحتَجْ إلى رابطٍ

(1) العكبريّ، الإملاء: 1/245.

بحرفٍ، وإنّما جاءَت مستأنفةً؛ لتأخذَ طابعَ المعاني التّأسيسيّةِ المستقلّةِ ممّا يُناسبُ أهمّيّتَها، فقد جاءتِ الجملةُ ابتداءَ كلامٍ مُضمّنُه التّنبيهُ كما ذكرَ الماورديُّ في تفسيرِه.

دلالةُ أداةِ الاستفتاحِ في قولِه تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلۡحُكۡمُ وَهُوَ أَسۡرَعُ ٱلۡحَٰسِبِينَ﴾:

جاءَ السّياقُ في الجملةِ من قولِه تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلۡحُكۡمُ وَهُوَ أَسۡرَعُ ٱلۡحَٰسِبِينَ﴾، مُصَدَّرًا بـ ﴿أَلَا﴾ الاستفتاحيَّةِ الّتي تُؤذِنُ بالتّنبيهِ إلى أهمّيَّةِ الخبرِ[1] الّذي يَعقبُها، "وقولُه تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلۡحُكۡمُ﴾، ورد لفظُ ﴿أَلَا﴾ فيه للتّنبيهِ، وتقديمُه له على لفظِ ﴿ٱلۡحُكۡمُ﴾؛ للإشارةِ إلى أنّه وُجدَ له الحُكمُ، ولا حُكمَ لأحدٍ سواه، فليترقّبوا جزاءَ ما عملوا، والحسابُ قائمٌ ومؤكَّدٌ"[2]، لذلك استُملِحَ البدءُ بأداةِ الاستفتاحِ؛ لِلفْتِ النّظرِ إلى أهمّيّةِ المصيرِ، وحساسيّةِ الحسابِ.

تفرّدُه بالحُكمِ معنًى جليلُ القَدْرِ في الاعتقادِ، يجبُ فتحُ القلبِ بالافتتاحِ قبْلَ ذِكرِه

سِرُّ ورودِ لفْظِ ﴿ٱلۡحُكۡمُ﴾ في قولِه تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلۡحُكۡمُ﴾:

قولُه تعالى: ﴿ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوۡلَىٰهُمُ ٱلۡحَقِّۚ أَلَا لَهُ ٱلۡحُكۡمُ﴾، وقد جاء بكلمة ﴿ٱلۡحُكۡمُ﴾ هنا؛ "لأنّنا في دنيا الأغيار، قد يُسند سبحانه بعض الأحكام إلى بعض خلقه؛ فهذا يحكم، وذلك يتصرّف، وآخر يصدر قرارًا بالتّعيينات، وكلّها أحكام، أمّا في الآخرة فالحقّ يقول: ﴿لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَۖ لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ ١٦﴾ [غافر: 16]"[3]، والمراد من أسلوب القصر تخصيص الحكم الأخرويّ بالله وحده، وتفرّده به.

لا حُكمَ يومَ الدّينِ إلّا لله ربِّ العالمين

دلالةُ الاختصاصِ بالقصْرِ في تقديمِ ﴿لَهُ﴾، في قولِه تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلۡحُكۡمُ﴾:

في قولِه تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلۡحُكۡمُ﴾ قُدِّمَ الجارُّ والمجرورُ ﴿لَهُ﴾ على ﴿ٱلۡحُكۡمُ﴾ وهو مبتدأ، وخبرُه محذوفٌ مُقدَّمٌ عليه مُتعلِّقٌ بـ (له)؛ أي: الحكمُ كائنٌ أو مقرَّرٌ له ﷻ، وأفادَ هذا التَّقديمُ الاختصاصَ؛

الحُكمُ على الحقيقةِ لله، ولا اعتِدادَ بحُكمِ مَن سِواه

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/279.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2529.
(3) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 6/3686.

أي: الحكمُ للّهِ لا لغيرِه، فإنْ كانَ المرادُ منَ الحُكمِ جنسَه فقَصْرُه على اللّهِ، إمّا حقيقيٌّ للمبالغةِ في عدمِ الاعتدادِ بحُكمِ غيرِه، وإمّا إضافيٌّ للرَّدِّ على المشركين؛ أي: ليس لأصنامِكُم حُكمٌ معَ اللّه، وإنْ كانَ المرادُ منَ الحُكمِ الحسابَ؛ أي: الحكمُ المعهودُ يومَ القيامة، فالقصرُ حقيقيٌّ.

ولعلَّ المعنَى الثّانيَ هو الرّاجحُ بدليلِ قولِه بعدَه: ﴿وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ﴾، فهو سُبحانَه أسرعُ مَنْ يُحاسِبُ فلا يتأخَّرُ جزاؤُه[1]، والمرادُ من أسلوبِ القصْرِ تخصيصُ الحُكمِ الأخرويِّ باللّه وحدَه، وتفرُّدُهُ به.

العطْفُ على جملةِ التّذييلِ وأثرُه في المعنَى، في قولِه تعالى: ﴿وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ﴾:

أَسرَعُ الحاسِبِينَ لا يَشغلُه حسابٌ عن حسابٍ

جاءَ العطفُ على جملةِ التَّذييلِ بجملة: ﴿وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ﴾؛ للتَّنبيهِ إلى أهمّيَّةِ الخبرِ[2] الَّذي تتضمّنُه الآيةُ، وهي بلاغةٌ ضافيةٌ اعتنَى بها العربُ؛ لأنَّ العِبرةَ بالخواتيم، والتَّذييلُ زُبدةٌ وكلامٌ جامعٌ، يُقرّرُ أنَّ الحاكميَّةَ للّهِ وحدَه، وأنَّه أسرعُ الحاسبين دونَ سواه؛ أي: أنّه ﷻ له الفصْلُ والقضاءُ لا يَشغلُه حسابٌ عن حسابٍ، ولا شأْنٌ عن شأْنٍ؛ يُحاسبُ الخلائقَ كلَّهم في مقدارِ نصْفِ يومٍ مِن أيّامِ الدّنيا، كما وردَ به الحديثُ، ورويَ أنّه يُحاسبُ النّاسَ في مقدارِ حلْبِ شاةٍ.

ولقد حسّنَ العطْفَ على التّذييلِ دفعُ ما يدورُ في الأذهان من كَثرةِ أعدادِ المُحاسَبين، وإنجازِ حسابِهم في وقتٍ طويلٍ، وقد سبَقَ قصْرُ الحسابِ والحُكم عليه وحدَه، فدفعَ العطفُ بالجملةِ ذلك المعنَى.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/280.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 6/3686.

علاقةُ سُرعةِ الحسابِ التّذْييليّةِ، بلفظِ ﴿ثُمَّ﴾ التَّمهيليَّةِ في الآيةِ:

قد تضمَّنَ هذا السّياقُ بوعدِه ووعيدِه لَطيفةً بلاغيَّةً، لها صلَةٌ بما تقدَّمَها من حرفِ ﴿ثُمَّ﴾ التَّمهيليَّةِ، وكانَ المخاطَبونَ فريقَين: فريقَ المؤمنينَ الصّالحين، وفريقَ الكافرينَ المتكبِّرين؛ وكلاهما مَرجعُه إلى اللّهِ تعالى، وكان المقامُ حينذاكَ مقامَ طَماعيَةٍ ومُخالفَةٍ؛ فالمؤمنونَ الصّالحونَ لا يُحبّونَ المُهلةَ؛ لما لهم عندَ اللّهِ تعالى منَ النَّعيم، والكافرونَ المتكبِّرونَ يُحبّون المُهلةَ؛ لما ينتظرُهم عندَ اللّهِ منَ الجحيم، فعُجِّلتْ بوعدِ اللّهِ المَسرَّةُ للصّالحين، والمُساءةُ للكافرين بقولِ مَن له الحُكمُ تعالى: ﴿وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ﴾.

علَى قَدْرِ العمَلِ تكونُ المعاجَلةُ في الحسابِ والثّوابِ

بلاغةُ التّعبيرِ بالجملةِ الاسميّةِ في قولِه تعالى: ﴿وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ﴾:

قولُه تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ﴾، نلاحظُ استعمالَ السّياقِ لوصْفِ اللّه تعالى، بأنّه ﴿أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ﴾، ولا شكَّ أنّ الحُكمَ على العبادِ يومَ يقومُ الأشهادُ، يقتضي محاسبَتَهم على الفَتيلِ والقِطميرِ، وحيث إنّهم يعتقدون أنّ محاسبةَ البشرِ من بدءِ الخليقةِ إلى قيامِ السّاعةِ، وهُم ملايينُ منَ الأناسيِّ، سوف تستغرقُ محاسبُتهم زمنًا طويلًا، ودهرًا مَديدًا، كان منَ المناسبِ أن يصفَ اللّه نفسَه بأنّه أسرعُ الحاسبين، فهو إذا شاء حاسبَ عبادَه جميعًا في ساعةٍ واحدةٍ، كما هو مهيمِنٌ بربوبيّتِه على كلّ ذرّةٍ في كونِه، وقد أجاب أحدُ العارفين باللّه عن هذا السّؤال، فقد سُئل: كيف يحاسبُ اللّه النّاسَ يومَ القيامةِ؟ فقال: (كما يرزقُهم في الدّنيا في فَورٍ واحدٍ، يحاسبُهم في الآخرة في فوْرٍ واحدٍ، وهو الّذي لا يَشغلُه شيءٌ عن شيءٍ)، وممّا يُقوّي هذا المعنى التّعبيرُ بالجملةِ الاسميّةِ الدّالّةِ على كونِ ذلك صِفةً ثابتةً للّه ربِّ العالمين في الدّنيا، وهي كذلك في الآخرةِ قياسًا على الدّنيا.

كَثرةُ المخلوقين والوفاءُ بأرزاقِهم في وقتٍ واحدٍ، دليلٌ على القُدرةِ على حسابِهم في وقتٍ واحدٍ

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الرُّجوع والعَودة والرَّدّ:

العَوْدُ: رجوعٌ مخصوصٌ، والرَّدُّ: فيه معنَى الغلَبةِ والقُوّة

الرُّجوعُ: نقيضُ الذّهاب، يُقال: رجع رجوعًا، فهو راجعٌ، ورجعتُه أنا رجْعًا، فهو مرجوعٌ؛ أي: مردودٌ، يتعدَّى ولا يتعدَّى، قال اللّه تعالى: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ﴾ [البقرة: 210]، وقال: ﴿وَإِلَيۡنَا تُرۡجَعُونَ﴾ [الأنبياء: 35][1]. والرُّجوعُ: فعلُ الشَّيءِ ثانيةً، ومصيرُه إلى حالٍ كانَ عليها؛ أي: المصيرُ إلى المَوضِعِ الَّذي قد كانَ فيه قبلُ[2]. والعَوْد: يُستعمَلُ في هذا المعنى على الحقيقةِ، ويُستعمَلُ في الابتداءِ مجازًا[3]، يُقالُ: قد عادَ إليَّ من فلانٍ مكروهٌ، وإن لم يكنْ قد سبقَه مكروهٌ قبلَ ذلكَ، وتأويلُه: أنَّه لحقَني منه مكروهٌ، ومنه قولُه تعالى: ﴿لَنُخۡرِجَنَّكَ يَٰشُعَيۡبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ مِن قَرۡيَتِنَآ أَوۡ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَاۚ﴾ [الأعراف: 88]، والمعنَى: أو لَتدخُلُنَّ في ديننا، فإنَّه عليه السلام لم يكن على دينِهم قطّ[4]، وبالنَّظرِ في هذه المعاني والرّجوعِ إلى معنَى (الرَّدِّ)، وهو الرَّدُّ إلى الحياة بذواتِ الأشخاص، يظهرُ جليًّا أنَّ استخدامَ البيانِ الإلهيِّ في سياقِه للفعْلِ (رُدّوا) أَليقُ من غيرِه.

المولَى والوَليّ والنَّصير:

بين الوَليّ والمولَى عمومٌ وخصوصٌ، والنّصيرُ خاصٌّ بالأفعالِ

الوَليُّ يَجري في الصِّفةِ على المُعانِ والمُعين، تقولُ: اللّهُ وليُّ المؤمنين؛ أي: معينُهم، والمؤمنُ وليُّ اللّه؛ أي: المُعانُ بنصرِ اللّهِ عز وجل، ويُقالُ أيضًا: المؤمنُ وليُّ اللّه، والمرادُ أنَّه ناصرٌ لأوليائِه ودينِه، ويجوزُ أن يُقالُ: وليُّ المؤمنين؛ بمعنَى: أنَّه يَلي حفظَهم وكلاءَتَهم. والوَلايةُ قد تكونُ بإخلاصِ المودَّة، و(الوليّ) و(المَولَى): متقاربان، لكنّ الوليَّ منَ الأسماء المتضايفةِ، ويقتضي أنّ مَن واليتَه مواليك، قال

(1) الحميري، شمس العلوم: 4/2433.
(2) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 249 - 250.
(3) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 250، والكفَوي، الكلّيّات: 2/390.
(4) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 250.

تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ﴾ [البقرة: 257]، وقال في مَوضِع آخر: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوۡلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَأَنَّ ٱلۡكَٰفِرِينَ لَا مَوۡلَىٰ لَهُمۡ ١١﴾ [محمّد: 11]، وقال: ﴿يَوۡمَ لَا يُغۡنِي مَوۡلًى عَن مَّوۡلًى شَيۡـٔٗا﴾ [الدّخان: 41]، وقال: ﴿مَأۡوَىٰكُمُ ٱلنَّارُۖ هِيَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ﴾ [الحديد: 15][1]، وأمّا النُّصرةُ فهي الوِلاية، وتكونُ بالمعونةِ والتَّقويةِ، وقد لا تُمكنُ النُّصرةُ مع حُصولِ الوَلاية، إذ لا بدَّ منَ المعونة والتَّقويةِ[2]، وأمّا المَولَى فهو مُتولّي أمورِ عبادِه، وسيِّدُهم، تقولُ: اللّهُ مَولَى المؤمنينَ بمعنَى أنَّه مُعينُهم، ولا يُقالُ: إنَّهم مَواليه بمعنَى أنَّهم مُعينوا أوليائه، كما تقول: إنَّهم أولياؤه بهذا المعنَى[3]، ولذلك فإنَّ هذا المعنَى للمَولى لا يُقالُ إلّا للّهِ ﷻ، فالمولَى الَّذي يتولَّى أمورَ عبادِه يومَ القيامة بعد أن يُردّوا إليه بعد البعث - كما في سياق الآية الكريمة - هو اللّهُ لا أحدَ سواه، فالنُّصرةُ والولايةُ منَ العبادِ لا محلَّ لها في هذا المقام، وبهذا يكونُ استخدامُ البيان الإلهيّ لكلمةِ ﴿مَوۡلَىٰهُمُ﴾ أجدرَ بمقام السّياق من غيرِها منَ المفردات.

الحُكم والقَضاء:

الحُكمُ مَرحلةٌ إلى القضاءِ

"القضاءُ يقتضي فصلَ الأمرِ على التَّمام، من قولِكَ: قَضاه، إذا أتمَّه وقطعَ عملَه، ومنه قولُه تعالى: ﴿ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلٗاۖ﴾ [الأنعام: 2]؛ أي: فصلَ الحُكمَ به، وأمّا الحُكمُ فإنَّه يقتضي المنعَ منَ الخصومةِ، من قولِكَ: أحكمتُه، إذا منعتَه.. ويجوزُ أن يُقالَ: الحُكمُ فصلُ الأمرِ على الأحكامِ بما يقتضيه العقلُ والشَّرعُ، فإذا قيل: حَكمَ بالباطل، فمعناهُ أنَّه جعلَ الباطلَ مَوضِعَ الحقِّ. ويُستعمَلُ الحُكمُ في مَواضِعَ لا يُستعمَلُ فيها القَضاءُ، كقولِكَ: حُكمُ هذا كحُكمِ هذا؛ أي: هما

(1) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 4/382.
(2) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 577 - 578.
(3) الرّاغب، المفردات: (ولى)، والعسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 578.

مُتماثلانِ في السَّببِ أوِ العلَّةِ أو نَحوِ ذلك. وأحكامُ الأشياءِ تنقسمُ قسمَين: حكمٌ يُردُّ إلى أَصلٍ، وحكمٌ لا يُردُّ إلى أصل؛ لأنَّه أوَّلٌ في بابه، ومنَ الثّاني حكمُ اللّهِ ﷻ؛ فأحكامُه ﷻ هي الأصلُ الأوَّلُ في بابِها[1]، وقال قتادة: الحِكمةُ: السُّنّةُ وبيانُ الشّرائع، وقيل: الحُكمُ والقضاءُ خاصّةً، والمعنَى متقاربٌ[2].

وممّا تقدَّمَ يتَّضحُ أنَّ الحُكمَ المسندَ إلى اللّهِ تعالى لا حُكمَ قبلَه ولا بعدَه، فليس هو مجرَّدَ قضاءٍ لفصلِ الأمر، أو إتمامِه، أو قَطْعِه، فهذا لا يليقُ في حقِّ اللّه ﷻ، وكذلكَ فإنَّ الحكمَ أشملُ وأوسعُ دَلالةً منَ القَضاء، ولهذا استَخدمَ سياقُ الآيةِ الكريمةِ كلمةَ (الحُكم) دونَ (القَضاء).

(1) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 431 - 432.

(2) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 2/131.

﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٣﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [الأنعام: 63 - 64]

مُناسَبَةُ الآيَتَينِ لِمَا قَبلَهما:

المناسبةُ بين بيانِ حُكمِ الله وحسابِه، وبين تذكيرِ مَنْ أشركَ

لَمّا بيَّنتِ الآيةُ السّابقةُ أنَّ مردَّ العبادِ إلى اللّهِ الَّذي يتولَّى أمورَهم، وله الحُكمُ عليهم، وهو المحاسِبُ لهم، جاءتْ هذه الآيةُ الكريمةُ بالتَّهديدِ والوعيدِ للمشركين الَّذين لا يُقِرّونَ بوَحدانيَّةِ اللّهِ وقدرتِه إلّا وقتَ الشَّدائدِ، فيدعونَه مُتضرِّعينَ ومُسِرّين، فلمّا يكشفُ عنهم كربَهم يعودونَ لِشركهم، ومع كونِه تعالى، هو الّذي يُنقذُهم من هذه الأهوال، ومن كلِّ شدّةٍ أخرى على التّوالي، إلّا أنّهم مع ذلك مشركون معه في العبادة غيرَه، ممّا لا يدفعُ عنهم شرًّا، ولا يجلبُ لهم خيرًا[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يُنَجِّيكُم﴾: أصلُ النَّجاء: الانفصالُ منَ الشَّيء، ومنه: نَجا فُلانٌ من فُلان، وأَنْجيتُه ونجَّيتُه، قالَ تعالى: ﴿وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [النَّمل: 53]، وقيل: "النّجاةُ: الخلاصُ ممّا فيه المخافةُ، ونظيرُها السّلامةُ: وذكرَه الحرالّيُّ، وقال غيرُه: هو منَ النّجوةِ، وهي الارتفاعُ منَ الهلاك"[2]، قال الشّاعر:

إنْ يَنْجُ منها أبو نَصرٍ فعَنْ قَدَرٍ *** يُنجي الرِّجالَ ولَكِنْ سَلْهُ كَيفَ نَجا[3]

والنَّجْوَةُ والنَّجاةُ: المكانُ المرتفعُ المنفصلُ بارتفاعِه عمّا حولَه،

(1) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 2/131.
(2) الزَّبيديّ، تاج العروس: (نجو).
(3) عبد الله المعتزّ، البديع في البديع، ص: 146.

سُمّي به لكونِه ناجيًا منَ السَّيلِ، ونجَّيتُه: تركتُه بنَجْوَةٍ، وعلى هذا قولُه تعالى: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ﴾ [يونس: 92][1]. والإنجاءُ والتَّنجيةُ كلاهما بمعنَى التَّخليصِ منَ المَهلَكة[2]. وهذا هو المعنى المرادُ في الآية، ومنه قولُه تعالى: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيۡنَا نُنجِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٠٣﴾ [يونس: 103].

2) ﴿تَضَرُّعًا﴾: يُقال: تضرّعَ إلى الله تعالى؛ أي: ابتهَلَ وتذلّل، وقيل: أظهَرَ الضّراعةَ، وهي شدّةُ الفقرِ والحاجةِ إلى الله ﷻ، ومنه قولُه تعالى: ﴿تَدۡعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفۡيَةً﴾؛ أي: مُظهرين الضّراعةَ، وحقيقتُه الخشوعُ، وقولُه تعالى: ﴿فَلَوۡلَآ إِذۡ جَآءَهُم بَأۡسُنَا تَضَرَّعُواْ﴾ [الأنعام: 43]؛ أي: تذلّلوا وخضعوا، وقيل: التّضرّعُ: المبالغةُ في السّؤالِ والرّغبةِ[3]. وضَرَعَ الرَّجُلُ ضَراعةً: ضَعُفَ وذَلَّ، فهو ضارِعٌ، وضَرِعٌ. وتَضرَّعَ: أظهرَ الضَّراعَةَ[4]، وهو المرادُ في هذه الآيةِ الكريمةِ؛ فإنَّ هؤلاء المشركين يَضعُفونَ ويَذلّونَ حالَ الشَّدائدِ الَّتي تُصيبُهم، فيُظهِرونَ الضَّراعةَ لخالقِهم، رجاءَ أن يكشِفَ عنهم ما حلَّ بهم من ضيقٍ وكَرْبٍ.

3) ﴿وَخُفۡيَةً﴾: قال الأصمعيُّ: خفَيتُ الشّيءَ أُخفيه: كتمتُه، وخَفيتُه أيضًا: أظهرتُه، وهو منَ الأضداد، وأبو عبيدةَ مثلُه[5]، وقال اللِّحيانيّ: خُفيةً: في خفْضٍ وسُكونٍ، وقال الأخفشُ: المستخفي: الظّاهرُ؛ وبه فُسّر قولُه تعالى: ﴿وَمَنۡ هُوَ مُسۡتَخۡفِۭ بِٱلَّيۡلِ﴾ [الرّعد: 10]، وخطّأه الأزهريُّ[6]. وخَفيَ الشَّيءُ خُفيَةً: استتَرَ. والخَفاءُ: ما يُستَرُ به كالغِطاء. وخَفَيتُه: أزَلْتُ خَفاه، وذلكَ إذا أظهرتُه. وأخفيتُه: أولَيْتُه خَفاءً، وذلكَ إذا سَترتُه[7]، ومنه قولُه تعالى: ﴿تَدۡعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفۡيَةً﴾؛ أي: وأنتُم مُستَترون، أو بمعنى: "اعتقِدوا عبادتَه في أنفُسِكم؛ لأنّ الدّعاءَ معناه العبادةُ"[8].

4) ﴿كَرۡبٍ﴾: الكُرْبَةُ: بالضَّمِّ: الغَمُّ الَّذي يأخذُ النَّفَسَ، وكذا الكَربُ، تقولُ: كَرَبَه الغمُّ؛

(1) الرّاغب، المفردات: (نجو).
(2) الكفوي، الكلّيّات: 1/338.
(3) الزَّبيديّ، تاج العروس: (ضرع).
(4) الرّاغب، المفردات: (ضرع)، وابن منظور، لسان العرب: (ضَرَعَ).
(5) الجوهريّ، الصّحاح: (خفى).
(6) الزَّبيديّ، تاج العروس: (خفى).
(7) ابن فارس، مجمل اللُّغة: 2/297، والرّاغب، المفردات: (خفي).
(8) الزّجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 2/344.

أي: اشتدَّ عليه من بابِ نَصَرَ[1]، يُقال: مَفاصِلُ مُكْرَبَةٌ؛ أي: شديدةٌ قويّةٌ، وأصلُه الكَرَبُ، وهو عَقدٌ غليظٌ في رِشاء الدّلو يُجعَلُ طرفُه في عَرقوّةِ الدّلوِ، ثمّ يُشدّ ثِنايتُه رِباطًا وثيقًا، يُقال منه أكربتُ الدّلوَ، ومن ذلك قولُ الحُطيئة:

قَومٌ إذا عَقَدوا عَقْدًا لِجارِهِمُ *** شَدّوا العِناجَ وشَدّوا فَوْقَهُ الكرَبا[2]

وبهذا يفسَّرُ قولُه تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ﴾؛ أي: من كلِّ همٍّ وضيقٍ.

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

يُخبرُ بيانُ اللّهِ تعالى بامتنانِه على عبادِه في إنجائهِ المضطرّينَ منهم من ظُلماتِ البرِّ والبحرِ، الحائرينَ الواقعينَ في المَهامهِ البرّيَّة، وفي اللُّجَجِ البحريَّة، إذا هاجتِ الرّياحُ العاصفةُ العاتيةُ، أولئك الَّذين يُلجئُهم هذا الضّيقُ الشَّديدُ إلى خالقِهم، فيُفرِدونَه بالدُّعاءِ وحدَه لا شريكَ له، جهرًا وسرًّا: لئن أنجانا اللّهُ من هذه الضّائقةِ لنكونَنَّ بعدَها منَ الشّاكرين، وعندما يستجيبُ اللّهُ دعاءَهم المضطَّرَ، ويكشفُ عنهم كُربتَهم تلك، إذا هم يعودون لشِركهم وكُفرِهم[3]، ولا يفون للّه بما قالوا، ويَنسَون نِعمَه عليهم، وذلك برهانٌ واضحٌ على بُطلانِ الشّركِ، وصحّةِ التّوحيدِ[4].

كلّما كشَفَ اللّه الكرْبَ عنِ الإنسانِ، قابلَ إحسانَه بالكُفرانِ

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

سِرُّ التّعبيرِ بـ ﴿قُلْ﴾:

إنّ المعانيَ الملقَّنةَ تدلُّ على التّأكيدِ على عُلوِّ قدرِها، وعِظمِ حُجّتها وبُرهانِها، وهذا سِرٌّ عامٌّ لكلّ المعاني الملقَّنةِ في الذِّكرِ الحكيمِ.

المعاني الملقَّنةُ أقوَى أثرًا وآكَدُ معنًى

(1) الفيروزآبادي، القاموس المحيط: (كَرَبَ).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (كَرَبَ).
(3) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 2/130.
(4) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن: 1/260.

أثرُ الاستفهامِ التّقريريِّ في توجيهِ المعنى وتوضيحِه:

لا مَلجأَ منَ اللهِ إلّا إليه، والشّركُ به ضلالٌ مبينٌ

جاءَ قولُه تعالى: ﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم﴾ استئنافًا ابتدائيًّا، صُدِّر بالاستفهامِ التَّقريريِّ الَّذي أوضحَ انحطاطَ شُركاءِ المشركين عن رُتبةِ الإلهيَّة[1]، وفائدةُ الاستفهامِ التّقريريِّ إلجاءُ الخصْمِ إلى الإقرار، كما أنّ التّعبيرَ أفادَ كذلكَ التَّهديدَ والوعيدَ للمشركينَ، بسوءِ ما انطَوَتْ عليه قلوبُهم منَ التَّحايلِ والكذِبِ على اللّهِ تعالى، وهو أعلمُ ﷻ بهم، وحتّى يُقيمَ الحُجَّةَ عليهم بسوءِ صنيعِهم ونِفاقِهم في إظهارِ التَّذلُّل للّه، وإبطانِ الكُفرِ باللّه، جاءتِ الضَّمائرُ جميعُها تَصدحُ بأنَّ الخطابَ في سياقِ الآيتَين لهم لا لغيرِهم، وزادَ هذا المعنَى تأكيدًا قولُه تعالى في ذَيلِ الآيةِ الثّانية: ﴿ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ﴾.

دلالةُ الحقيقةِ والمجازِ في قولِه تعالى: ﴿مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾:

لا مَلاذَ في الكُروبِ، إلّا إلى عَلّامِ الغُيوبِ

نُلاحظُ أنّ قولَه تعالى: ﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ أنّ لفْظَ (ظُلمات)، إمّا أن يكون حملًا على الحقيقة، وهو الأصلُ في الخطابِ، وإمّا حملًا على المجاز، وإذا كانَ الوجهُ الأوَّلَ، فيتعيَّن تقديرُ مُضافٍ؛ أي: من أضرارِ ظُلماتِ البَرِّ والبَحر ومخاوِفِهما، ممَّا ألفَه النّاسُ وعَرَفوه عنها، فاللَّيلُ إذا أرخَى سُدولَه، انتابَ السّائرين في ظُلماتِ البرِّ المخاوفُ منَ العدوِّ والآفاتِ، وأصابتْهمُ الخَشيةُ في البحرِ منَ العدوِّ والتّيهِ والغَرق[2]، وأمّا إجراءُ معنَى الظُّلماتِ على المجاز فقدِ استُعيرتْ فيه الشَّدائدُ الهائلةُ - الَّتي تُبطِلُ الحواسَّ، وتَدحَضُ العقولَ - للظُّلماتِ المُبطلةِ لحاسَّةِ البصَر، حيث يُقالُ لليومِ الشَّديد: يومٌ مُظلمٌ، ويومٌ ذو كواكبَ. أو منَ الخَسْفِ في البَرِّ، والغَرَقِ في البَحر[3]، ولا موجِبَ ولا صارفَ لأيٍّ منَ الوجهَين دونَ الآخر؛ بل الجمعُ بينَهما ألزَمُ في سَننِ الفَصاحةِ، والَّتي تعدُّ رأسًا في البلاغةِ.

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/224 - 225.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 7/280 - 281.
(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/225.

أثرُ القراءاتِ القُرآنيَّةِ في تعزيزِ المعنَى وترسيتِه:

زيادةُ المبنَى دلالةٌ على زيادةِ المعنَى

أوّلًا: قولُه تعالى: ﴿مَن يُنَجِّيكُم﴾ قُرِىء بالتَّخفيفِ ﴿يُنجِيكُم﴾، وقُرِىء ﴿يُنَجِّيكُم﴾ بالتَّشديد[1]، والقراءاتُ واضحةٌ فإنّها مِن نجَّى وأَنْجى، فالتّضعيفُ والهمزةُ كلاهما للتّعديةِ[2]، وقراءةُ التَّشديدِ تُفيدُ التَّكثيرَ، فزيادةُ المبنَى تدلُّ على زيادةِ المعنَى، ومعنَى ﴿وَخُفۡيَةً﴾ أن تُبطِنوا التَّذلُّلَ، وهو في مقابَلةِ ﴿تَضَرُّعًا﴾ ومعناه: أن تُظهِروا التَّذلُّلَ[3]، وهو منَ الطّباق الخفيّ.

بلاغةُ القَيْدِ بالحالِ جملةٌ فعليّةٌ، فعْلُها مضارعٌ في قولِه تعالى: ﴿تَدۡعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفۡيَةً﴾:

التّذكيرُ بحالِ المخالِفِ بالخضوعِ والذّلّةِ، إلجاءٌ له على الإقرارِ بالتّفرُّدِ بالألوهيّةِ

قولُه تعالى: ﴿تَدۡعُونَهُۥ﴾ نصبٌ على الحاليَّةِ من مفعولِ ﴿يُنَجِّيكُم﴾، والضَّميرِ لـ ﴿مَن﴾؛ أي: مَنْ يُنجّيكم منها حالَ كونِكم داعينَ إيّاه. أو من فاعلِه؛ أي: مَنْ يُنجّيكم منها حالَ كونِه مَدْعوًّا من جهتِكم. وقولُه تعالى: ﴿تَضَرُّعًا وَخُفۡيَةً﴾؛ إمّا حالٌ من فاعلِ ﴿تَدۡعُونَهُۥ﴾ أو مصدرٌ مؤكِّدٌ له؛ أي: تَدْعونَه مُتضرِّعينَ جهارًا ومُسِرّين، أو تَدْعونَه دُعاءَ إعلانٍ وإخفاءٍ[4]، ومهمّةُ هذا القيْدِ تذكيرُهم بحالِ الضَّعفِ والذّلّةِ سِرًّا وجَهرًا، والتّعبيرُ بالمضارع بيانٌ لتكرارِ ذلك مستقبلًا، واستحضارٌ لما سبَقَ في الماضي، ولو عبَّر بالماضي لما لاءمَ المقامَ.

دلالةُ العطْفِ للألفاظِ في قولِه تعالى: ﴿تَضَرُّعًا وَخُفۡيَةً﴾:

إفادةُ السّياقِ حالَ الدّاعِين، وهم يَتضرّعُون لربِّ العالمين

قولُه تعالى: ﴿وَخُفۡيَةً﴾ عطفٌ على ﴿تَضَرُّعًا﴾[5]، ويُفيدُ العطْفُ تنوُّعَ أحوالِهم عند الدّعاءِ وقْتَ الشّدائدِ، وانقطاعِ الأسبابِ، وفي العطْفِ تناسقٌ بين ظرْفِ الدّعاءِ ﴿ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ﴾ أيضًا.

(1) قرأَ بالتَّخفيف يعقوب، وقرأ الباقون منَ العشرة بالتَّشديد. محمَّد كريِّم راجح، القراءات العَشر المتواترة، ص: 135.

(2) السّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 4/668.

(3) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 7/8.

(4) العكبريّ، الإملاء: 1/246، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السليم: 2/225.

(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 7/281.

دلالةُ النّصْبِ بإرادةِ القوْلِ: ﴿لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾:

مَن أنجاهُ الله لا تضرُّه النّوازلُ في دُنياه

وجُملةُ ﴿لَّئِنْ أَنجَىٰنَا﴾ منصوبةٌ بإرادة القولِ[1]، والقولُ حالٌ منَ الفاعل على تقديرِ القَول؛ أي: تَدْعونَه قائلين: لئن أنجَيتَنا مِن هذه الشِّدة الَّتي نزلتْ بنا[2]، ولم تُذكرْ ألفاظُ القولِ ولا مشتقّاتُها، لانفكاكِ جهاتِ القوْلِ، ووضوحِ مَن قالَ ومَن حكى القولَ. وقد ذكرَ اللّه فحوى قولِهم في ذلك الموقفِ الّذي تطيشُ فيه الألبابُ، وتذهلُ فيه العقولُ، وينسَى الإنسانُ فيه الدّنيا ومَن فيها، ولا يبقَى له منفذٌ إلّا الضّراعةُ إلى اللّه المغيثِ، في كلِّ كرْبٍ شديدٍ.

دلالةُ أسلُوبِ القَسَمِ في قولِه تعالى: ﴿لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ﴾:

الضّراعةُ بالدّعاءِ في الكُروبِ، قرعٌ لِبابِ علّامِ الغُيوبِ

واللّامُ في ﴿لَئِنْ﴾ الموطِّئةُ للقسَم، وجوابُها اللّامُ في ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾، وجملةُ (نكونَنّ منَ الشّاكرين) لا محلَّ لها؛ لأنّها جوابُ القَسمِ لتقدّمِه، حسبَ القاعدةِ، وحُذفَ جوابُ الشّرط لتأخّرِه[3]، وجيءَ بضميرِ الجمْعِ؛ إمّا لأنَّ المقصودَ حكايةُ اجتماعِهم على الدُّعاء، بحيثُ يدعو كلُّ واحدٍ عن نفسِه وعن رفاقِه، وإمّا أنَّه أُريدَ التَّعبيرُ عن الجمْعِ باعتبارِ التَّوزيع، كقولِنا: رَكِبَ القومُ خَيلَهُم، وإنَّما ركبَ كلُّ واحدٍ فَرَسًا، وهذا البناءُ على ذكْرِ جوابِ القَسمِ ألصَقُ بحالِهم من ذكْرِ جوابِ الشّرطِ، إذ حالُهم في تلك الكُربةِ والشّدّةِ لايليقُ معه ذكْرُ شرطٍ وجوابِه، ولكن يليقُ به القسَمُ المفيدُ توكيدَ الوعدِ بالشُّكرِ.

دلالةُ خطابِ الله بقراءةِ: ﴿لَّئِنْ أَنجَىٰنَا﴾، وقراءةِ: ﴿لَئِنْ أَنجَيْتَنَا﴾:

إذا قسَا القلبُ لا تنفعُه موعظةٌ، ولا تُليّنُه عِبرةٌ

وفي قولِه تعالى: ﴿لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ﴾، قرأ الكوفيّون: ﴿أَنجَىٰنَا﴾ بلفْظِ الغَيبةِ، مراعاةً لقوله: ﴿تَدْعُونَهُۥ﴾، والباقون ﴿أَنجَيْتَنَا﴾ بالخطابِ حكايةً لخطابِهم في حالة الدّعاء، وقد قرأ كلٌّ بما رُسِم

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 3/139.
(2) الشّوكانّي، فتح القدير: 2/177.
(3) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 3/140.

في مصحفه، فإنَّ في مصاحفِ الكوفة: ﴿أَنجَىٰنَا﴾، وفي غيرِها: ﴿أَنجَيْتَنَا﴾[1]، والقراءةُ الأولى تفضحُ العِنادَ والغطرسةَ و" تكشفُ عن تلك الطّبائعِ المنكَرةِ، وهذه القلوبِ القاسيّةِ، الّتي تأبَى أن تُخلصَ الإيمانَ، حتّى وهي في مواجهةِ الموتِ، فلا يدْعون اللّه دعاءَ مَن هو حاضرٌ في نفوسِهم، مُسْتَولٍ على كَيانِهم، بل يدْعونه دعاءَ الغائب، البعيدِ عنهم ﴿لَّئِنْ أَنجَىٰنَا﴾؛ لأنّهم لا يعرفونَه، ولا يعلمون أنّه قريبٌ منهم، يسمعُ سِرّهم ونجواهم"[2]، وهذا تعسُّهم، وضلالُ سعيِهم، وبعدُهم عنِ اللّه في العمْقِ، وإنِ اضطرّهم الكربُ إلى القسَمِ والضّراعةِ إليه سبحانه. والقراءة الأخرى بالخطاب ﴿لَّئِنْ أَنجَيْتَنَا﴾ كاشفةٌ عن حالِهم وقْتَها، والأولى كاشفةٌ عن طبائعِهم الثّابتةِ.

والقراءتان تؤكّدان الخَشيةَ المزيّفةَ، الّتي ما فتِئَ هؤلاء الأقوامُ يُظهرونَها، بخطاب اللّه أن يُفرّجَ كُروبَهم؛ ليكونوا منَ الشّاكرين، وهم يعلمون أنّهم غيرُ جادّين، فيما يقولون.

اعتباراتُ فهْمِ اسمِ الإشارةِ في قولِه: ﴿لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ﴾:

في سَاعةِ الكَرْبِ تَمثُلُ المصيبةُ، وكأنّها مُبصِرةٌ قريبةٌ

قولُه تعالى: ﴿لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ﴾ الإشارةُ بـ ﴿هَٰذِهِۦ﴾ فيها ثلاثةُ اعتباراتٍ: الأوّلُ: باعتبارِ الظُّلمةِ المشاهدَةِ للمتكلِّم، وما يَنشأُ عنها. والثّاني: باعتبارِ المعنَى المجازيّ، وهو الشِّدَّةُ. والثّالثُ: باعتبارِ الحالةِ الّتي يُعبَّرُ عنها بلفظٍ مؤنَّثٍ، مِثل: الشِّدَّةِ أوِ الوَرطةِ أوِ الرِّبقَةِ[3].

والإشارةُ إليها بلفْظِ ﴿هَٰذِهِۦ﴾؛ يدلُّ على عِظَمِ المصيبةِ الّتي كانت ماثلةً أمامَهم، وكأنّهم يرونَها شاخصةً لأعينِهم، فهم يُبصرونَها، ويُشيرون إليها، بقولهم: ﴿لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ﴾.

(1) الثّانيةُ: ﴿لَّئِنْ أَنجَىٰنَا﴾ قراءة عاصم، وحمزة، والكسائّي، وخلف، والأولى: ﴿أَنجَيْتَنَا﴾، قراءة الباقين. يُنظر: السّمين الحلبيّ، الدّرُّ المصون: 4/670، وابن الجزري، النشر: 2/259.

(2) عبد الكريم الخطيب، التّفسير القرآنّي للقرآن: 4/205.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/282.

دلالةُ التّعبيرِ بحرفِ الجرِّ ﴿مِنۡ﴾ مع إمكان الاستغناء عنه لُغةً:

لو كانَ المُبتلَون مـنَ الشّاكـرين لـمَا كـانُـوا منَ المشركين

في قولِه تعالى: ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾، أبلغُ من أن يُقال: (لَنكونَنَّ شاكرين)، حيث أفادَ هذا السّياقُ زيادةً في معنَى الشُّكر، فهو ليس مجرَّدَ شُكرٍ، وإنَّما رسوخٌ في الشُّكرِ ودوامٌ عليه؛ أي: لَنكونَنَّ منَ الرّاسخينَ في الشُّكرِ المُداومينَ الثّابتينَ عليه؛ لأجلِ هذه النِّعمةِ، أو جميعِ النِّعمِ؛ ومن جُملتِها هذه النِّعمةُ[1].

وهناك ملمحٌ آخرُ يُفهمُ منِ استعمالِ الأداةِ (مِن)؛ وهو فضْلُ الجماعةِ الشّاكرين على الفردِ الشّاكرِ، لذلك قالوا: ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾؛ إذ وجودُ الشّاكرين دليلٌ على شيوعِ الشّكرِ، واتّصافِ المجموعِ به، ولو كانت نواياهُم صادقةً - وهي لم تكن كذلك - لكان في ذلك ما يضمَنُ لهم الوفاءَ للّه بما وعدوه، ولكنّ ديدنَهم الخُلْفُ، والبَطرُ، ونُكرانُ الجميلِ.

فصْلُ جملةِ: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنۡهَا﴾؛ لجَريانِها مَجرَى القولِ في المحاوَرة:

الـجـوابُ مـنَ الـلـه يـقـينٌ، فلا مَـنـدوحـةَ مـنَ التّسليمِ

قولُه تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنۡهَا﴾، أمرٌ لرسولِ اللّهِ ﷺ بتقريرِ الجوابِ للاستفهامِ السّابق: ﴿مَن يُنَجِّيكُم﴾، ولذلكَ فُصِلت جملةُ ﴿قُلِ﴾؛ لأنَّها جاريةٌ مَجرَى القولِ في المحاوَرة؛ وتولَّى الجوابَ عنهم؛ لأنَّ هذا الجوابَ لا يَسَعُهم إلّا الاعترافُ به، فهو مُتعيِّنٌ عندَهم لا مفرَّ منه، ولبناءِ قولِه تعالى في ذَيلِ الآية: ﴿ثُمَّ أَنتُمۡ تُشۡرِكُونَ﴾ عليه[2].

تقديمُ المُسنَدِ إليه ﴿ٱللَّهُ﴾ على الخبرِ الفعليِّ؛ لإفادةِ الاختصاصِ:

مَـن ظـنَّ أنّ غيرَ الله يُنجّيه، فقد خابتْ مساعِيه

قُدِّم المُسنَدُ إليه، لفظُ الجَلالةِ ﴿ٱللَّهُ﴾ على الخبرِ الفعليِّ ﴿يُنَجِّيكُم﴾ في قولِه تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنۡهَا﴾؛ لإفادةِ الاختصاص؛ أي: اللّهُ يُنجّيكم لا غيرُه، ولأجلِ هذا صَرَّحَ بالفعلِ

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/225.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/225.

المستَفهَم عنه، ولولا هذا لاقتصَرَ على: ﴿قُلِ ٱللَّهُ﴾، والمعنى: "قل: اللّه - وحده - هو الّذي يُنقذُكم من هذه الأهوالِ، ومن كلِّ شدّةٍ أخرى، ثمّ أنتم مع ذلك تُشركون معه في العبادةِ غيرَه، ممّا لا يدفعُ شرًّا، ولا يجلبُ خيرًا"[1]، ومَن اعتقدَ أنّ غيرَ اللّه سَيُنجّيه منَ الهول العظيمِ، والكرْبِ المبينِ، فقد ضلَّ سعيُه، وخسرَ خُسرانًا مبينًا.

دلالةُ عطْفِ شِبْهِ الجُملة ﴿وَمِن كُلِّ كَرْبٍ﴾ على الضَّميرِ في ﴿مِنْهَا﴾:

قولُه تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ﴾، نجدُ أنّ الضَّميرَ في ﴿مِنْهَا﴾ عائدٌ للظُّلُمات، وقد زادَ على تفريج الظُّلماتِ الغاشيةِ، أنّه سَيُنجّيهم من كلّ كربٍ، وهو بقوله: ﴿وَمِن كُلِّ كَرْبٍ﴾، يُفيدُ التَّعميمَ، وأنَّ الاقتصارَ على ظُلُماتِ البَرِّ والبحرِ بالمعنَيَين، لمجرَّدِ المثالِ[2]، واللّه لا يُعجزُه شيءٌ في الأرض ولا في السّماء، فهو "يُنجّيهم منَ الظّلماتِ المادّيّةِ في البرّ والبحرِ، و(هو) سُبحانَه بعلْمِه الأزليِّ، يعلمُ أنّهم بعدَ النّجاةِ، سيعودون إلى ما نَهاهُم عنه من شِركٍ به؛ لأنّ الإنسانَ بطبيعتِه، عندما يجدُ حياتَه مُكتفيةً بما يملكُه، قد يقعُ فيما قاله الحقُّ ﷻ: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۝٧﴾ [العلق: 6 - 7]"[3]، وهذا يدلُّ على سَعةِ رحمةِ اللّه ولُطفِه، وصبرِه على عبادِه وحلْمِه.

ظُلماتُ البرِّ والبحرِ، مثالٌ لاتّساعِ الفتنِ والكُروبِ

تنوّعُ القراءاتِ القُرآنيّةِ، وثراءُ المعنى في قراءةِ: ﴿يُنجِيكُم﴾، وقراءةِ: ﴿يُنَجِّيكُم﴾:

قولُه تعالى: ﴿ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم﴾ في ﴿يُنَجِّيكُم﴾ قراءتان[4]: الأولى: ﴿يُنجِيكُم﴾ بسكون النّون، وكسرِ الجيم. والثّانية: ﴿يُنَجِّيكُم﴾ بفتح النّون، وكسرِ الجيم المشدَّدة.

مِن بَنِي الإنسانِ مَن لا يذكرُ اللهَ إلّا إذا ادلَهمَّ الخطبُ، واشتدَّ الكربُ

(1) لجنة من علماء الأزهر، المنتخب في تفسير القرآن الكريم، ص: 182.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 7/282.
(3) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 6/3696.
(4) قرأ بالأولى: نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، وابن ذكوان، ويعقوب، وقرأ بالثّانية: الباقون منَ العشرة، يُنظر: ابن الجزري، النشر: 2/259.

وقراءةُ التَّشديدِ تفيدُ التَّكثيرَ[1]، فزيادةُ المبنى تدلُّ على زيادةِ المعنَى، وفي التّشديدِ منَ المبالغةِ والدّلالةِ على التّكرارِ ما ليس في التّخفيفِ"[2]، وهي بالتّخفيفِ، تعني: أنّ النّجاةَ في تلك الحالة كائنةٌ لا محالةَ، وهي بالتّشديدِ تُفيدُ المبالغةَ والتّكثيرَ في الفعل، "والمعنى: أنّ اللّه يُنجّيكم المرّة بعد المرّة، من تلك الظّلماتِ، ومن كلِّ كرْبٍ يَعرضُ لكم، ثمّ أنتم تُشركون به غيرَه - بعد النّجاةِ - أقبحَ الشّرك، مُخلفي وعْدِكم له بالشّكرِ، حانثين بما وكّدتموه به منَ اليمينِ، مواظِبين على هذا الشّركِ مُستمرّين، لا تكادون تَنسَونَه إلّا عند ظُلمةِ الخطْبِ، وشدّةِ الكرْبِ"[3].

دلالةُ ﴿ثُمَّ﴾ في قوله: ﴿ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ﴾:

الـخِـسّـةُ في الشِّركِ رُتبٌ من دونها رُتَبٌ

أفادتْ ﴿ثُمَّ﴾ من قولِه تعالى: ﴿ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ﴾ التَّرتيبَ الرُّتَبيَّ؛ لأنَّ المقصودَ أنَّ إشراكَهم مع اعترافِهم بأنَّهم لا يَلجؤونَ إلّا إلى اللّه في الشَّدائدِ أمرٌ عجيبٌ، فليس المقصودُ المُهلَةَ[4]، وقد عبّرَ بالدّلالةِ على قُربِ النّكوصِ، والمبادرةِ إلى الشّركِ فورًا، وكأنّه يقول لهم: "إنّ اللّه وحده هو الّذي يُنقذُكم من هذه الأهوال، ومن كلِّ شدّةٍ أخرى، وعلى ذلك، فسُرعانَ ما تَحنثون بأقسامِكم، وتُشركون معه في العبادةِ غيرَه"[5]، فدلّت (ثمّ) على السّرعةِ والهرعِ إلى ذلك الفعْلِ المذموم.

تقديمُ المسنَدِ إليه على الخبرِ الفعليّ، في قولِه تعالى: ﴿ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ﴾:

مَنْ أشركَ باللّه حبِطَ عملُه، وضاعَ أملُه

تقدَّمَ المسنَدُ إليه ﴿أَنتُمْ﴾ على الخبرِ الفعليِّ ﴿تُشْرِكُونَ﴾؛ لبيانِ الاهتمامِ بخبرِ إسنادِ الشِّركِ إليهم؛ أي: أنتُمُ الَّذينَ تتضرَّعونَ إلى اللّهِ باعترافِكم، تُشركونَ به من قبلُ ومن بَعدُ، من بابِ قولِه تعالى: ﴿ثُمَّ أَنتُمْ هَـٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ﴾ [البقرة: 85].

(1) الشّوكانّي، فتح القدير: 2/177.
(2) رضا، تفسير المنار: 7/407.
(3) رضا، تفسير المنار: 7/407.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/283.
(5) إبراهيم القطّان، تيسير التّفسير: 1/476.

وجيءَ بالمسنَدِ فعلًا مضارعًا؛ لإفادةِ تجدُّدِ شركِهم، وأنَّ ذلكَ التَّجدُّدَ والدَّوامَ عليه أَعْجبُ. والمعنَى: أنَّ اللّٰه أنْجاكم فوعدتُم أنْ تكونوا منَ الشّاكرين، فإذا أنتم تَستبدِلونَ الشّركَ بالشُّكرِ[1]! قال الشّوكانيُّ: "ثمّ أنتم تُشركون باللّٰه سبحانه - بعد أن أحسنَ إليكم، بالخُلوصِ منَ الشّدائد، وذهابِ الكُروبِ - شركاءَ لا ينفعونَكم، ولا يضرّونَكم، ولا يَقدرون على تخليصِكُم من كلِّ ما ينزلُ بكم، فكيف وضعتُم هذا الشّركَ مَوضِعَ ما وعدتُم به من أنفسِكم منَ الشّكر؟"[2].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الخُفية والنَّجْوَى والسِّر:

أَجمَعَ المُفَسِّرونَ على أنَّ السِّرَّ: "ما أَسرَرتَهُ في نَفسِكَ، وأَخفَى مِن ذلك: ما لم تُحَدِّثْ به نَفسَكَ، وقالوا أَقوالًا كُلّها تَرجِعُ إلى الكِتمانِ لا الإظهارِ، وكذلك ﴿بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُواْ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ﴾ [الأنعام: 28]؛ يعني: ما يَستُرونَ، وقال: ﴿وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ۝٢٥﴾ [سورة النمل: 25][3]، وقال إبراهيمُ عليه السلام: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ﴾ [إبراهيم: 38]، ومِثلُ هذا كثيرٌ في القُرآن، والعَربيَّةِ، والشِّعرِ"[4].

الخُفيةُ لفظٌ عامٌّ فيما لا يظهرُ، والنّجوَى لا تكونُ إلّا في الكلامِ، والسّرُّ في الكلام وغيرِه

وأمّا النَّجوى فاسمٌ للكلامِ الخَفيِّ الَّذي تُناجي به صاحبَك، كأنَّك ترفعُه عن غيرِه، وذلكَ أنَّ أصلَ الكلمةِ الرِّفعةُ، ومنه: النَّجوةُ منَ الأرض، وسُمّيَ تكليمُ اللّٰهِ تعالى موسى عليه السلام مناجاةً؛ لأنَّه كان كلامًا أخفاهُ عن غيرِه.

والنَّجوَى: تتناولُ جملةَ ما يُتناجَى به منَ الكلام، ولا تكونُ إلّا كلامًا، وأمّا السِّرُّ فإخفاءُ الشَّيء في النَّفسِ، ولوِ اختفى بِستْرٍ أو وراءَ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 7/283.
(2) الشّوكانّي، فتح القدير: 2/143.
(3) قرأ القرّاء العشرة - عدا حفص والكسائي - بياء الغيبة، يُنظر: ابن الجزري: النشر: 2/337.
(4) إبراهيم بن إسحاق الحربيّ، غريب الحديث: 2/847.

جدارٍ لم يكن سرًّا، ويُقالُ: في هذا الكلامِ سرٌّ، تشبيهًا بما يَخفَى في النَّفس، والسِّرُّ يتناولُ المعانيَ، وقد يكونُ في غيرِها مجازًا، تقولُ: فعلَ هذا سِرًّا، وقد أسَرَّ الأمر[1]، وسياقُ الآية الكريمة استخدمَ كلمةَ (خُفيةً)؛ لأنَّها تعني السِّتر[2]؛ لأنَّ المشركينَ كانوا يَدْعونَ اللّٰه بحالتين: التَّضرُّعِ؛ أي: بضعفٍ وذُلّ، والخُفيةِ؛ أي: وهم مُستترون بسترٍ فيما بينَهم وبينَ أنفُسِهم أو من وراءِ ستار يَستَترون به، وليس السِّرُّ ولا النَّجوى كذلك، فكانتْ كلمةُ ﴿وَخُفۡيَةً﴾ أحقَّ من غيرِها في المَوضِعِ والسّياقِ الَّذي وردتْ فيه.

الكَرْب والحُزْن:

الكَرَبُ أقوَى منَ الحُزنِ

الحُزنُ: الحزنُ، ضدُّ السّرور، وقد حزِن من باب طَرِبَ، وحَزَنَهُ لغةُ قريش، وأَحزَنَهُ لغةُ تميم؛ وقُرِئَ بهما. تكاثُفُ الغَمِّ وغِلَظُه. مأخوذٌ منَ الأرضِ الحَزْن؛ وهو الغليظُ الصُّلبُ[3]، وأمّا الكَرْبُ فهو تكاثُفُ الغَمِّ مع ضيقِ الصَّدر، ولهذا يُقالُ لليوم الحارّ: يومُ كَرْبٍ، أي: كَرُبَ مَن فيه، وقد كَرُب الرجُلُ وهو مَكروبٌ، وقد كَرَبَه: إذا غمَّهُ وضَيَّق صَدرَه[4].

وبهذا يتَّضحُ أنَّ الكَربَ أشدُّ منَ الحُزن، وأثرُه في الصَّدر أقوَى من أَثَرِ الحُزْن.

والسّياقُ القرآنيُّ في مَعرِض مِنَّةِ اللّٰه على أولئك المشركين، بأنَّه لا يُنَجّيهم ممّا يَدْعونَ به من كشفِ الشِّدَّةِ فَحَسْبُ؛ بلِ اللّٰهُ يُخلِّصُهم منها ومن أيِّ كَربٍ يُسبِّبُ لهم الغمَّ أو الضّيْقَ الذي يجدونَه في صدورِهم، ويثقُل عليها، وبهذا المعنَى اتَّضحَ أنَّ استخدامَ البيانِ الإلهيِّ لكلمةِ (كَرْب) أشدُّ وطْئًا فيما سيقتْ من أجلِه، وأقْومُ قيلًا.

(1) أبو هلال العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 533.
(2) ابن فارس، مجمل اللّغة: 2/297.
(3) الرّازيّ اللغوي، مختار الصّحاح: (حزن).
(4) أبو هلال العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 185.

﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [الأنعام: 65]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

العلاقةُ بين مقابلةِ الفرَجِ بالشِّركِ، وتهديدِ كلِّ جاحدٍ بالعذابِ

لَمّا أخبرَنا بيانُ اللّهِ عن تضرُّعِ المشركينَ إلى اللّهِ تعالى؛ ليكشفَ عنهمُ الشَّدائدَ والكُرَبَ الَّتي تصيبُهم، ثمَّ يَرجِعونَ إلى شِركهم بعد تَنجيةِ اللّهِ لهم، جاءتْ هذه الآيةُ الكريمةُ بمنطوقِ التَّهديدِ والوعيدِ بأنواعٍ منَ العذاب لأولئكَ الكاذبينَ الجاحِدينَ لنِعَمِ اللّهِ وفضلِه عليهم؛ واللّهُ لا يُعجزُه أيُّ لونٍ من ألوان العذابِ، مهما تلوّنَ أو تنوّعَ؛ لأنّه المتصرِّفُ في مُلكِه وخَلْقِه، بالرّحمةِ إن شاء، وبالعذابِ إن أراد.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَلْبِسَكُمْ﴾: لَبِسَ: اللّامُ والباءُ والسّينُ أصلٌ صحيحٌ واحدٌ، يدلُّ على مُخالَطةٍ ومُداخَلَةٍ، من ذلك لَبِستُ الثَّوبَ أَلبَسُه، وهو الأصلُ، ومنه تتفرَّعُ الفُروعُ. واللَّبْسُ: اختلاطُ الأمر، يُقالُ: لَبَستُ عليه الأمرَ ألبِسُه بكسرِها[1]، كما في الآيةِ الَّتي معنا: ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا﴾؛ أي: يَخلِطَكم فِرَقًا مُتحزِّبين، ويَبُثَّ فيكمُ الأهواءَ المختلفةَ، فتتقاتلونَ فيما بينَكم[2]، ومنه قولُه تعالى: ﴿وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾﴾ [الأنعام: 9]. واللّبسُ أيضًا: اختلاط الظّلام، وقولهم: (في الأمرِ لُبْسَةٌ) بالضّمّ؛ أي: شُبْهةٌ؛ ليس بواضحٍ[3]، وقال ابنُ عرفةَ في

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (لبس).
(2) الكشّاف، الزَّمخشريّ: 2/26، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 2/130.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (لبس).

تفسير قولِه تعالى: ﴿وَلَا تَلۡبِسُواْ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ﴾؛ أي: لا تخلِطوه به، ولَبسُ النّاس شيعًا؛ أي: بخلْطِ أمرهم خلطَ اضطرابٍ، لا خلْطَ اتّفاقٍ[1].

2) ﴿شِيَعًا﴾: شيعةُ الرَّجُلِ: أتباعُه وأنصارُه، والفِرقةُ على حِدَة، ويقعُ على الواحدِ والاثنينِ والجمع، والمذكَّرِ والمؤنَّث. والجمعُ: أَشياعٌ وشيَعٌ، ويُقالُ: شاعَكُمُ السَّلامُ: تَبِعَكُم، أو لا فارقكُم، أو ملأَكُم، وشاعَكُمَ اللّهُ بالسَّلام، وأَشاعَكُم به: أَتبعَكُم؛ أي: جعلَهُ صاحبًا لكم وتابِعًا[2]، و"معنى الشّيعةِ: الّذي يتبعُ بعضُهم بعضًا، ومعنى الشّيَع: الفرقُ الّتي كلُّ فرقة منهم يتبعُ بعضُهم بعضًا، وليس كلُّهم متّفقين، قال اللّه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمۡ وَكَانُواْ شِيَعًا﴾ [الأنعام: 159]، قال معنى قولِه: ﴿وَكَانُواْ شِيَعًا﴾؛ أي: كانوا فرقًا في دينهم، كلُّ فرقة تكفّرُ الفرقَ المخالفةَ لها، يعني: اليهودَ والنّصارَى بعضُها يكفّرُ بعضًا"[3].

3) ﴿نُصَرِّفُ﴾: الصَّرْفُ: ردُّ الشَّيء من حالةٍ إلى حالةٍ، أو إبدالُه بغيره، قال تعالى: ﴿ثُمَّ صَرَفَكُمۡ عَنۡهُمۡ﴾ [آل عمران: 152]. والتَّصريفُ، كالصَّرفِ إلَّا في التَّكثير، وأكثرُ ما يُقالُ في صرْفِ الشَّيءِ من حالةٍ إلى حالةٍ، ومن أمرٍ إلى أمرٍ[4]. ومنه الآية الَّتي معنا في قولِه تعالى: ﴿نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ﴾؛ أي: نبيِّنُ لهم الحُجَجَ والدَّلالاتِ من وُجوهٍ مختلفةٍ[5].

4) ﴿يَفۡقَهُونَ﴾: الفِقهُ: هو التَّوصُّلُ إلى علمٍ غائبٍ بعلمٍ شاهِد، فهو أخصُّ منَ العلم، قال تعالى: ﴿فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلۡقَوۡمِ لَا يَكَادُونَ يَفۡقَهُونَ حَدِيثًا ٧٨﴾ [النِّساء: 78].

والفِقهُ: العلمُ بأحكامِ الشَّريعة. يُقالُ: فَقُهَ الرَّجُلُ فَقاهةً: إذا صارَ فقيهًا، وفَقِهَ؛ أي: فَهِمَ. وفَقِهَهُ؛ أي: فَهِمَه. وتَفَقَّهَ: إذا طلبَهُ فتَخصَّصَ به، قال تعالى: ﴿لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ﴾ [التَّوبة: 122][6].

"والفقه هو: الفهْمُ. قال: أوتي فلانٌ فقهًا في الدّين؛ أي: فهمًا فيه، ودعا النّبيُّ ﷺ لابن عبّاسٍ وقال: «اللهم عَلِّمهُ الدّينَ، وفقّهه في التّأويل»؛ أي: فهِّمه تأويلَه، فاستجاب

(1) الزَّبيديّ، تاج العروس: (لبس).
(2) الفيروزآباديّ، القاموس المحيط: (شاعَ).
(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (شَيعَ).
(4) الرّاغب، المفردات: (صرف).
(5) الشَّوكانّي، فتح القدير: 2/178.
(6) الرّاغب، المفردات: (فقه).

اللّه جلّ وعزّ دعاءَ نبيّه فيه، وكان من أعلمِ النّاس بكتاب اللّه في زمانِه، ولم يُلحَقْ شأْوُه من بعْدِه"[1].

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

التَّحذيرُ ممّا يُسلّطُه الله على الأمّةِ، مِن تقاتُلٍ وفُرقةٍ وتمزُّقٍ

يُخبرُ اللّهُ عبادَهُ وخاصَّةً المشركينَ مُحذِّرًا إيّاهم منَ الكُفرِ به والإقامةِ على معاصيه، وإلّا فإنَّه يُصيبُهُم بعذابٍ من كُلِّ جهةٍ، ويَجعلُهم أحزابًا مختلفين، يقتُل بعضُهم بعضًا، وقال ابنُ عبّاس: "إنّ المرادَ بقولِه تعالى: ﴿مِّن فَوۡقِكُمۡ﴾؛ أي: من حُكّامِكم وأمرائِكم، وإنّ المرادَ بقوله: ﴿مِن تَحۡتِ أَرۡجُلِكُمۡ﴾؛ أي: من عبيدِكم وسفلَتِكم"[2]، وعلى الأوّل والثّاني، فإنّ عذابَ اللّه شديدٌ، واللّهُ ﷻ يُبيِّن الحُجَجَ لعبادِه، ويُقلِّبُ لهم البيِّناتِ من وُجوهٍ مختلفةٍ؛ ليفهَموا مُراداتِ اللّهِ، فيتَّعِظوا ويَعتبِروا[3].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالةُ الاستئنافِ وبيانِه في قولِه تعالى: ﴿قُلۡ هُوَ ٱلۡقَادِرُ﴾:

القادرُ مِن شأنِه أن يُخافَ بأسُه، ويُرهَبَ جانبُه

جُملةُ ﴿قُلۡ هُوَ ٱلۡقَادِرُ﴾ استئنافٌ مَسوقٌ لبيانِ قدرةِ اللّهِ على إلقاءِ المشركينَ في المهالك، إثرَ بيانِ أنَّه هو المنجّي لهم منها، وفيه وعيدٌ ضِمنيٌّ بالعذابِ؛ لإشراكِهم المذكورِ على طريقة قولِه تعالى: ﴿أَفَأَمِنتُمۡ أَن يَخۡسِفَ بِكُمۡ جَانِبَ ٱلۡبَرِّ﴾ إلى قولِه: ﴿أَمۡ أَمِنتُمۡ أَن يُعِيدَكُمۡ فِيهِ تَارَةً أُخۡرَىٰ﴾ [الإسراء: 68 - 69][4]، فالخبرُ مُستعمَلٌ على سبيلِ التَّعريضِ بأمرٍ أهمَّ من بيانِ قُدرةِ اللّهِ - فإنَّها معلومة - ؛ وهو التَّهديدُ بتذكيرِهم بأنَّ القادرَ من شأنِه أن يُخافَ بأسُه[5].

---

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (فقه)، والحديث نصُّه: «اللهُمَّ فَقِّهْهُ في الدّينِ، وعَلِّمْهُ التَّأْويلَ»، وهو عند أحمد، المسند، ط: الرسالة، الحديث رقم: (2397): 4/225، وعند غيره.

(2) أسعد حومد، أيسر التّفاسير: 5/263.

(3) الشَّوكانّي، فتح القدير: 2/178، والسَّعديّ، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 214.

(4) أبو السُّعود، إرشاد العقل السليم: 2/225.

(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 7/283.

رسالةُ اللهِ لرسولِه الأكرمِ بلاغٌ، وقُدوةٌ، وأمانةٌ

دلالةُ أمْرِ النّبيِّ بالقولِ بصِيغةِ ﴿قُلْ﴾، في قولِه تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ﴾:

إنّ تصديرَ الكلام بقولِه: ﴿قُلْ﴾ فيه فضلُ تنبيهٍ، وفيه بيانٌ لمقامِ النّبيِّ ﷺ، أنّه هو الصّلةُ بينهم وبين ربِّهم، وأنّه المبعوثُ إليهم من قِبَلِه، وأنّه هو الّذي يُخاطبُهم عنه سُبحانَه في كشْفِ الضّرِّ عنهم، ورفْعِ الغُمّةِ إن نزلتْ بهم، وهو مُنذرُهم بالعذابِ الشّديدِ[1]، ولعلّ التّأثّرَ البالغَ للنّبيِّ بالقرآن - عملًا وتلاوةً، وتأثّرًا وخُلُقًا، حتّى كان خُلُقُه القرآنَ - راجعٌ إلى معرفتِه بثِقَلِ هذا الخطابِ الموجَّهِ إليه، بصيغةِ ﴿قُلْ﴾؛ لأداءِ أمانةِ البلاغِ من جهةٍ، وإبرازِ مظاهرِ العبوديّةِ، بالتّسليمِ لأوامرِ اللّه، والمسارَعةِ إلى تطبيقِها في ذاتِه، وخاصّةِ أهلِه، قبْلَ أن يتابعَ تطبيقَها في واقعِ الأمّةِ، وعقيدتِها، ومعاملاتِها.

القاهرُ مخصوصٌ بالكمالِ، لا يُعجِزُهُ أحدٌ من مخلوقاتِه

التّعبيرُ بأسلُوبِ القصْرِ، على كمالِ قُدرةِ الله:

﴿ٱلْقَادِرُ﴾ تعني تمامَ التّمكُّن، وأنّه لا قُدرةَ ولا حيلةَ لأحد، حيالَ قُدرةِ اللّه؛ لأنّ الحقَّ ﷻ يُملي للقوم الظّالمين، ويمدُّ لهم الأمرَ، ثمّ يأخذُهم بغتةً بالعذاب[2]، والقاهرُ لا يُعجزُه شيءٌ، فهو تعالى يملكُ أسبابَ القوّةِ الّتي لا تواجَهُ ولا تُغالَبُ، وقد جاءَ تعريفُ المُسنَدِ والمُسنَدِ إليه في قولِه تعالى: ﴿هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا﴾؛ ليُفيدَ القصرَ في اختصاصِه ﷻ بالقُدرةِ على بعثِ العذابِ على المشركينَ دونَ غيرِه، فأينَ أصنامُهمُ الّتي لا تستطيعُ فعلَ أيِّ شيء ؟! فالّذي يَستحِقُّ الخوفَ من عذابِه، وإفرادَه بالعبادةِ هو اللّهُ لا أحدَ سواه؛ ولذلكَ كان هذا القصرُ إضافيًّا للذّاتِ الإلهيَّة فَحَسب، فالضَّمير ﴿هُوَ﴾ مَعرِفةٌ، والألفُ واللّامُ في ﴿ٱلْقَادِرُ﴾ لتعريفِ الجنس، فلا يَقدِرُ على القيامِ بهذا العذابِ - من فوقِهم مثل: الصَّواعقِ والرّيح، ومن تحتِ أرجلِهم، مثل: الزَّلازل والخَسْف والغَرَق - إلّا اللّهُ[3] ﷻ.

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2534.
(2) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 7/283.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/284.

تقديمُ شِبْهِ الجُملةِ ﴿عَلَيْكُمْ﴾ على مفعولِ الفعْلِ الصَّريحِ ﴿عَذَابًا﴾:

عـذابُ اللـه لا يُطاقُ، وسيُصَبُّ على أهلِ الشِّركِ والنِّفاقِ

تمّ تقديمُ شِبهِ الجُملةِ ﴿عَلَيْكُمْ﴾ على المفعولِ الصَّريحِ ﴿عَذَابًا﴾، في قولِه تعالى: ﴿عَلَىٰٓ أَن يَبۡعَثَ عَلَيۡكُمۡ عَذَابٗا﴾؛ وذلك للاعتناءِ به، والمسارَعةِ في كونِ المبعوثِ ممّا يَضرُّهم، ولتهويلِ أمرِ المؤخَّر وهو ﴿عَذَابًا﴾[1]، فـ ﴿عَذَابًا﴾: إمّا أن يكون مُتعلِّقًا بـ ﴿يَبْعَثَ﴾ أو أن يكونَ مُتعلِّقًا بمحذوفٍ على أنَّه صفةٌ لـ ﴿عَذَابًا﴾؛ أي: عذابًا كائنًا من هاتينِ الجهتَين[2].

دلالةُ تصويرِ العذابِ بأنّه آتٍ من أعلَى أو من أسفَلَ:

دِقّةُ الاستعمالِ القرآنيِّ للجهاتِ، دليلٌ على الإعجازِ في هذه الآياتِ

قولُه تعالى: ﴿قُلۡ هُوَ ٱلۡقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبۡعَثَ عَلَيۡكُمۡ عَذَابٗا مِّن فَوۡقِكُمۡ أَوۡ مِن تَحۡتِ أَرۡجُلِكُمۡ﴾ فيه تصويرُ العذاب، بأنّه آتٍ من أعلَى، أو من أسفَلَ، وذلك أشدُّ وقعًا في النّفسِ من تصويرِه بأنّه آتٍ من جهة اليمينِ أو من جهة الشّمالِ؛ لأنّ الآتي من هاتين الجهتينِ، قد يُتوهّمُ دفعُه، أمّا الآتي من أعلى أو من أسفلَ، فهو عذابٌ قاهرٌ مُزلزِلٌ، لا مُقاومةَ له، ولا ثباتَ معه[3]، ويدلُّ على أنّ الفوقيّةَ والسُّفليّةَ من اختصاصِ اللّه، ولا سلطانَ عليها لأحدٍ سواه، كما في قولِه تعالى على لسان إبليسَ: ﴿قَالَ فَبِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي لَأَقۡعُدَنَّ لَهُمۡ صِرَٰطَكَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ١٦ ثُمَّ لَأٓتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ وَعَن شَمَآئِلِهِمۡۖ وَلَا تَجِدُ أَكۡثَرَهُمۡ شَٰكِرِينَ ١٧﴾ [الأعراف: 16 - 17]، فذَكَرَ الأمامَ والخلْفَ، واليمين والشِّمال، ولم يذكرِ الفوقَ والأسفلَ؛ لأنّه لا قُدرة لأحدٍ عليهما إلّا للّه، قال الشّعراويّ: "ولماذا لم يأتِ الشّيطان للإنسان من فوقٍ ومن تحتٍ؛ لأنّ الفوقيّةَ هي الجهةُ الّتي يلجأُ إليها مستغيثًا ومُستجيرًا بربّه، والتّحتيّةَ هي جهة العبوديّةِ الخاصّةِ، فالعبدُ أقربُ ما يكون من ربّه وهو ساجدٌ؛ فهو في هاتين الحالَتيْن محفوظٌ مِن

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/225.
(2) السَّمين الحلبيّ، الدُّرُّ المصون: 4/670.
(3) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 5/96.

تسلُّطِ الشّيطان عليه؛ لأنّ اللّه تعالى يقول: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾ [الحجر: 42][1].

دلالةُ العطْفِ بالحرفِ ﴿أَوْ﴾، وأثرُها في المعنى:

مَن طالَهُ عذابُ اللـه الجبّارِ لم يُفلِتْه، ولو حاولَ الفرارَ

قولُه تعالى: ﴿مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾، أفادَ حرف (أو) عدمَ المنعِ من تحقُّقِ العذابِ من فوقِهم ومن تحتِهم، وسيقتْ ﴿أَوْ﴾ لمنعِ الخُلوِّ دونَ الجمْعِ، فلا مَنْعَ لما كان منَ الجهتَين معًا، كما فُعِلَ بقومِ نوحٍ عليه السلام، قالَ تعالى: ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى﴾ [هود: 44][2].

دلالةُ الكِنايةِ في قولِه تعالى: ﴿أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾:

مَن طالَهُ العذابُ النّابتُ فلا مفرَّ له منَ الهلاكِ الثّابتِ

في ألوانِ إرسالِ العذابِ هنا تهديدٌ بما سوف يُصيبُهم من أليمِ العذابِ، ومنه ما عبّرَ عنه بأنّه من تحتِ أرجُلِهم، مقابلَ ما ذكرَه بقولِه: ﴿مِّن فَوْقِكُمْ﴾، وهو كنايةٌ عنِ الأرضِ، بحيث ينزلُ بالمعذّبين عذابٌ آخرُ، يأخذُهم من تحتِهم، كالكوارثِ والنّكباتِ، وذلك تقديرُ اللّه الّذي لا مردَّ له؛ ومَن أنزلَ اللّه به عذابَه فلا واقيَ له مِن بطْشِه، ولا حاميَ له من غضَبِه.

بلاغةُ التّعبيرِ بلفْظِ: ﴿يَلْبِسَكُمْ﴾:

ما فرّقتْهُ يدُ اللـه لا يجمعُه جامِعٌ، ولا يمنَعُه مانعٌ

قولُه تعالى: ﴿يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا﴾، بمعنى: "يَخلطُكم فرقًا مختلفةَ الأهواءِ، متباينةَ المشاربِ، مضطربةَ الشّؤونِ، كلُّ فرقةٍ تتبعُ إمامًا لها تقاتلُ معه غيرَها، فيزولُ الأمنُ، ويعمُّ الفسادُ"[3]. وقد أفادَ معنَى خَلطِ الأمورِ واضطرابِها عندَ أولئك الأشخاصِ الّذين تعدّاهم الفعلُ ﴿يَلْبِسَكُمْ﴾، فكما أنَّ الاستقامةَ سُمّيتْ نِظامًا، فكذلكَ سُمّيتِ الفَوضَى واضطرابُ الأمورِ لَبسًا؛ وذلكَ بزوالِ الأمنِ

(1) محمّد متوليّ الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ (الخواطر): 7/4074.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/225.
(3) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 5/96.

ودخولِ الفسادِ في أمورِ الأُمَّةِ. ولذلكَ جاءَ قولُه: ﴿شِيَعًا﴾ تعبيرًا عن حالِ أولئكَ الَّذين تقدَّمَ ذكرُهم ممَّا حَلَّ بهم، وفي صُفوفِهم منَ الاختلافِ والتَّقاتُل. ويُمكنُ أن يكونَ ﴿شِيَعًا﴾ مصدرَ ﴿يَلْبِسَكُمْ﴾ من غيرِ لفظِه، ويجوزُ على هذا أن يكونَ حالًا أيضًا؛ أي: مُختلفين[1].

بلاغةُ الاستعارةِ المكنيّةِ في قولِه تعالى: ﴿وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍۗ﴾:

قولُه تعالى: ﴿وَيُذِيقَ﴾ على نسقِ ﴿يَبْعَثَ﴾، والإذاقةُ: استعارةٌ للألم، كما في قولِه تعالى: ﴿ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ﴾[2] [القمر: 48]؛ أي: جهنَّم، والإذاقةُ الأوْلى في الدُّنيا بدليلِ قولِه بعدَها: ﴿بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍۗ﴾، والبعضُ الأوَّلُ الكفّارُ، والآخَرُ المؤمنون؛ ففيه وعدٌ للمؤمنين، ووعيدٌ للكافرين. وعُطِفَ ﴿وَيُذِيقَ﴾ على ﴿يَلْبِسَكُمْ﴾؛ لأنَّ من عواقبِ ذلكَ اللَّبْسِ التَّقاتُلَ[3]، وقد جعلَ التّناوُشَ كالمأكولِ، وحذفَ المشبَّه به، وجاء بشيءٍ من لوازمه وهو (يُذيق)، على سبيل الاستعارةِ المكنيّةِ، وذلك بغرَضِ التّهويلِ، وتعظيمِ أمرِ النّزاعِ والخصامِ بين النّاس، وقال البعضُ: يُذيقُ بعضَكم بأسَ بعض: يُسلّطُ بعضَكم على بعضٍ بالقتلِ والعذابِ[4]، يَلبِسَكُم: منَ اللَّبْس، والمرادُ: يخلطُ أمرَكم عليكم خلْطَ اضطرابٍ واختلافٍ؛ وأصلُ التّركيبِ: (يُلْبِسُ عَلَيكُمْ أَمرَكُمْ)[5].

مَن ذاقَ عرفَ، ومَن استقامَ شرُف

تَنزيلُ المعقولِ مَنزلةَ المحسوسِ في النَّظَرِ إلى تصريفِ الآياتِ:

وفي قولِه تعالى: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾ استئنافٌ ورَدَ بعد الاستفهامَينِ السّابقَين، وفي الأمرِ بالنَّظَرِ تنزيلٌ للمعقولِ مَنزلةَ المحسوسِ لِقَصدِ التَّعجيبِ منه، وتصريفُ الآياتِ:

النّظرُ في الآياتِ يهدِي إلى الإقرارِ بالأُلوهيّةِ

(1) العكبريّ، الإملاء: 1/246.
(2) السَّمين الحلبيّ، الدُّرُّ المصون: 4/672.
(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/226.
(4) حكمت بن ياسين، موسوعة الصّحيح المسبور منَ التّفسير بالمأثور: 2/247.
(5) الحجازيّ، التّفسير الواضح: 1/623.

تنويعُها بالتَّرغيبِ تارةً، والتَّرهيبِ أُخرَى. فالمرادُ بالآيات آياتُ القرآنِ الكريم[1] الَّتي أتَتْ بِذَينِك الأمرَين، وذلك ليفقَهوا، ويَقِفوا على جَليَّةِ الأمر، فيرجِعوا عمَّا هم عليه منَ المُكابرةِ والعِناد.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(يَلبِسَكُم) و(يخْلِطَكم):

اللَّبسُ نوعٌ منَ الخلْطِ فيه خفاءٌ

اللَّبسُ: اخْتلاطُ الأمر، وأَصلُ اللَّبس سَترُ الشَّيءِ، ويُقالُ ذلكَ في المعاني، يُقال: لَبَسْتُ عليه أمرَه، قالَ تعالى: ﴿وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ۝٩﴾ [الأنعام: 9]، ويُقالُ: في الأمر لُبْسَةٌ؛ أي: التِباس. ولابَستُ الأمرَ: إذا زاولْتُه، ولابَستُ فلانًا: خالطتُه[2].

وأمّا الخَلطُ فهو الجمعُ بين أجزاءِ الشَّيئَين فصاعِدًا، سواء كانا مائِعَين، أو جامدَين، أو كان أحدُهما مائعًا والآخَرُ جامدًا، وهو أعمُّ منَ المَزج. ويُقالُ: اختلطَ الشَّيءُ، قالَ تعالى: ﴿فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ﴾ [يونس: 24]. ويُقالُ للصَّديقِ والمُجاوِرِ والشَّريك: خَليطٌ، قالَ تعالى: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [ص: 24]. ويُقالُ الخليطُ للواحدِ والجمع[3]، قالَ تعالى: ﴿خَلَطُواْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا﴾ [التَّوبة: 102]؛ أي: يَتعاطونَ هذا مرَّةً وذاكَ مرَّة.

وممّا تقدَّمَ من معاني الكلمتَين يتَّضحُ جَليًّا أنَّ سياقَ النَّصِّ القرآنيِّ يُناسبُه استخدامُ الفعلِ ﴿يَلْبِسَكُمْ﴾ في حديثِه عن وعيدِ اللّهِ، بجعلِ مَن يتخلَّفُ عن دينِه وشريعتِه، ويُعرِضُ عنهما أحزابًا وفِرَقًا مختلفينَ مُتقاتلين، حيث إنَّ (اللَّبْسَ) كما سبقَ يتعلَّقُ بالمعاني لا بالمباني، وبجواهرِ الأشياءِ لا بصورِها، والخلْطُ يتعلّق بالمباني، والصّورِ، فاصطفى النّظمُ اللّبسَ؛ لأنّه بالسّياق أبرُّ.

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 7/286.
(2) الرّاغب، المفردات: (لبس).
(3) الرّاغب، المفردات: (خلط).

(شِيَعًا) و(فِرَقًا):

الشّيَاعُ: الانتشارُ والتَّقويةُ. يُقالُ: شاعَ الخبرُ؛ أي: كثُرَ وقَوِيَ. وشاعَ القومُ: انتشَروا وكَثُروا. وشَيَّعتُ النّارَ بالحَطَب: قوَّيتُها. والشّيعةُ: مَنْ يتقوَّى بهمُ الإنسانُ، وينتشرونَ عنه، ومنه قولُه تعالى: ﴿وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا﴾ [القصص: 4]، والآيةُ الّتي معنا: ﴿يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا﴾[1] [الأنعام: 65]. وأمّا الفَرقُ فيُقالُ اعتبارًا بالانفصال، قال تعالى: ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ﴾ [البقرة: 50]، والفِرْقُ: القِطعةُ المُنفَصِلةُ، ومنه: الفِرقةُ للَجماعةِ المُتفرِّدةِ منَ النّاس، والفِراقُ والمفارقةُ تكونُ بالأبدانِ أكثرَ، قالَ تعالى: ﴿هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ﴾ [الكهف: 78][2].

الشّيعُ فيه معنَى الكثرةِ والانتصارِ، والفِرَقُ فيه معنَى القِلّةِ والانكسارِ

ويتَّضِحُ ممّا تقدَّمَ بيانُه أنَّ كلمةَ ﴿شِيَعًا﴾ أَنسَبُ للسّياق من كلمةِ (فِرَقًا) لأمورٍ ثلاثة: الأوَّلُ: أنَّ شيَعًا تكون بمَن يتقوَّى بهم الإنسانُ، وينتشرون عنه للدّعوةِ إلى عقيدتِه ومَذهبِه، كما في قولِه تعالى: ﴿۞وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ ﴿٨٣﴾﴾ [الصّافّات: 83]؛ أي: من شيعةِ نوحٍ عليه السلام، كما هو في سياقِ الآياتِ، وقد يكونُ ذلكَ في معنَى (فِرَقًا)، وقد لا يكونُ.

الثّاني: الفِراقُ والمفارقةُ تكونُ في الأبدانِ أكثرَ، وأمّا الشّيَاعُ فالأغلبُ أنَّه في المنهجِ والدّينِ والفِكرِ، وقد تكونُ معه مفارقةٌ في الأبدانِ، وقد لا تكونُ.

الثّالث: يُلاحَظ في معنَى ﴿شِيَعًا﴾: الكَثرةُ والانتشارُ والتَّقويةُ، وأمّا معنَى (فِرَقًا) فيقومُ على تشتيتِ الشَّملِ والكلمةِ، ويترتّبُ عليه الضَّعفُ والهوانُ.

(نُصرِّفُ) و(نُقلِّبُ):

الصَّرفُ والتَّصريفُ: هو ردُّ الشَّيءِ من حالةٍ إلى حالةٍ أُخرَى

التّصريفُ أعَمُّ منَ التَّقليبِ

(1) الرّاغب، المفردات: (شيع).
(2) الرّاغب، المفردات: (فرق).

مختلفةٍ، وإبدالُه بغيرِه[1]، وأمّا قَلبُ الشَّيء فهو تصريفُه وصرفُه عن وجهٍ إلى وجه - كقَلبِ الثَّوب، وقَلبِ الإنسان - أي: صرفُه عن طريقتِه، قال تعالى: ﴿وَإِلَيۡهِ تُقۡلَبُونَ ٢١﴾ [العنكبوت: 21]، والانقلابُ: الانصرافُ، وسُمّي قلبُ الإنسانِ به؛ لكَثرةِ تَقَلُّبه، ويُعبَّرُ بالقلب عنِ المعاني الَّتي تختصُّ به منَ الرّوحِ والعلْمِ والشَّجاعةِ وغيرِ ذلك[2]، ولذلك كانَ لفظُ ﴿نُصَرِّفُ﴾ أَوْلى بالسّياقِ الَّذي يريدُ أنْ يوصِلَ العبدَ إلى فِقهِ الأمورِ، بعد تَبيينِ الحُججِ والبراهين، واستبدالِ الباطل بالحقِّ.

(يَفقَهونَ) و(يَعلَمونَ):

الفِقهُ: هو العلمُ بمقتضَى الكلام على تأمُّله، وهو أخصُّ منَ العلم، ولهذا لا يُقالُ: (اللّٰهُ يفقَهُ)؛ لأنَّه لا يوصفُ بالتَّأمُّل، وتقولُ لمَن تخاطبُه: تفقَّهْ ما أقولُه؛ أي: تأمَّلْه لتعرفَه، ولا يُستعملُ إلّا على معنَى الكلام، ومنه قولُه تعالى: ﴿لَّا يَكَادُونَ يَفۡقَهُونَ قَوۡلٗا ٩٣﴾ [الكهف: 93]. وسُمّيَ علمُ الشَّرعِ فِقهًا؛ لأنَّه مَبنيٌّ عن معرفةِ كلامِ اللّٰهِ تعالى، وكلامِ رسولِه ﷺ[3].

الفِقهُ أدقُّ وأعمَقُ منَ العلْمِ

وأمّا العلمُ فهو اعتقادُ الشَّيءِ على ما هو به على سبيلِ الثِّقةِ، كانَ ذلكَ بعد لَبْسٍ أم لا[4]، والعلمُ يقعُ بالمعدوم، ولا يُدْرِكُ إلّا الموجودَ، ويقعُ على أشياءَ مَخصوصةٍ وغيرِ مَخصوصة[5].

والبيانُ الإلهيُّ في سياق الآيةِ الكريمةِ، استخدمَ فعلَ الأمرِ ﴿ٱنظُرۡ﴾، ثمّ ﴿نُصَرِّفُ﴾، ثمَّ ختمَها بقوله: ﴿يَفۡقَهُونَ﴾ الَّذي يفيدُ التَّجدُّدَ والاستمرارَ. والنَّظرُ والتَّصريفُ منَ الأدواتِ والسُّبُلِ الموصلةِ

(1) الرّاغب، المفردات: (صرف).
(2) الرّاغب، المفردات:. (قلب).
(3) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 413.
(4) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 371.
(5) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 31.

إلى الفقه القائمِ على العلمِ بمُقتضَى الكلامِ عن التَّأمُّلِ، والتَّفكُّرِ، والتَّدَبُّر، وهو حثٌّ على إعمالِ ذلكَ كلِّه، ليحصُلَ الفقهُ المفيدُ للوصول إلى الحقِّ والتزامِه، وليس مجرَّدَ العلم، وهو المرادُ في سياقِ الآيةِ الكريمةِ.

﴿وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوۡمُكَ وَهُوَ ٱلۡحَقُّۚ قُل لَّسۡتُ عَلَيۡكُم بِوَكِيلٖ ٦٦﴾

[الأنعام: 66]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

ربطُ قُدرةِ الله على الجاحدِين، بتكذيبِ الكَفرةِ بالقرآنِ المبينِ

لَمّا حملتِ الآيةُ السّابقةُ في جليلِ بيانِها التَّهديدَ والوعيدَ بألوانٍ شتَّى منَ العذابِ والنَّكالِ، لأولئكَ الجاحدينَ بنعمِ اللّهِ وإحسانِه إليهم، جاءتْ هذه الآيةُ مصرّحةً بتكذيبِ كفّارِ قريشٍ، ومَنْ حولَهم بنعمةِ القرآنِ الكريمِ، مع أنَّه الحقُّ الَّذي لا ريبَ فيه، وليس رسولُ اللّهِ الَّذي يَدعوهم إلى اللّهِ حافظًا لأعمالِهم، ولا مُحاسِبَهُم عليها، ولا وكيلًا عنهم.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿بِوَكِيلٖ﴾: وكَلَ: الواوُ والكافُ واللّامُ أصلٌ صحيحٌ يدلُّ على اعتمادِ غيرِكَ في أمرِك، والتَّوكُّلُ: هو إظهارُ العَجْزِ في الأمرِ، والاعتمادُ على غيرِك، وسُمّيَ الوكيلُ لأنَّه يوكَلُ إليه الأمرُ[1]، وفي الوكيل ثلاثةُ أقوالٍ:

أوّلًا: الكافي؛ كما قال ﷻ: ﴿أَلَّا تَتَّخِذُواْ مِن دُونِي وَكِيلٗا ٢﴾ [الإسراء: 2].

وثانيًا: الوكيلُ: الرّبُّ، فالمعنى عندهم: حسبُنا اللّه، ونِعمَ الرّبُّ، وقالوا: معنى قولِه ﷻ: ﴿أَلَّا تَتَّخِذُواْ مِن دُونِي وَكِيلٗا﴾؛ ألّا تتّخذوا من دوني ربًّا.

وثالثًا: الوكيلُ: الكفيلُ، والمعنى عندهم: حسبُنا اللّه، ونِعمَ الكفيلُ بأرزاقِنا[2].

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (وكل).
(2) الأنباريّ، الزّاهر: 8/01.

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

عاقبةُ المكذِّبين بالكتابِ، وبيانُ ما ينتظرُهم منَ العذابِ

يُخبرُنا بيانُ اللّهِ تعالى بأنَّ قومَ رسولِ اللّه ﷺ كذَّبوا بالقرآنِ مع أنَّه الحقُّ الَّذي لا مِرْيةَ فيه، ويأمرُ اللّه نبيَّه ﷺ أن يُخبرهم بأنَّه ﷺ ليس من مُهمَّتِه حفظُ أعمالِهم، ومُجازاتُهم عليها، إنَّما هو بشيرٌ، ونذيرٌ، ومُبلِّغٌ[1].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

تعانُقُ المعاني بعطْفِ المباني، في الآياتِ المتواليةِ:

التّكذيبُ بالقرآنِ غايةُ الطَّيشِ والهوانِ

قولُه تعالى: ﴿وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوۡمُكَ﴾ عطفٌ على قولِه السّابق: ﴿ٱنظُرۡ كَيۡفَ نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ﴾؛ أي: لعلَّهم يفقهونَ بتصريفِنا للآيات، لكنَّهم لم يَفقَهوا، وفي هذا تشنيعٌ مغلَّظٌ على زُمرةِ المعانِدين منَ الكبراءِ والسّادةِ الغطارفِ من قريشٍ؛ حيث إنّهم جحدوا الحقَّ، وأنكروا صدْقَ الكتابِ، وهم لا يعلمون أنّهم جحدوا مع ذلك كلِّه عاطفةَ القرابةِ، ووشائجَ الرّوابطِ الأسريّةِ، الّتي تجمعُهم بخير البريّةِ، فقد شنّوا عليه حربًا شعواءَ، وآذَوْا مَن آمنوا به، وظاهروه، عِوضًا مِن شدِّ أزرِه، والاعتدادِ برسالتِه ونهجِه، وذلك منتهَى السّفهِ والغُرورِ[2].

عودةُ الضّميرَيْن في قولِه تعالى: ﴿وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوۡمُكَ﴾، وأثرُهما في المعنى:

لا يَضرُّ الكتابَ مَن جحدَ به أوِ ارتابَ

والضَّميرُ الأوّل في قوله تعالى: ﴿بِهِۦ﴾؛ إمّا عائدٌ على العذابِ الموعودِ في الآيةِ السّابقةِ، ومعناه: تكذيبُهم بأنَّ اللّه يُعذِّبُهم لأجلِ إعراضهم، وإمّا عائدٌ إلى القرآنِ المجيدِ[3] النّاطقِ بمجيءِ العذابِ، وبجميعِ ما وردَ فيه من وعيدٍ على وجهِ الخصوصِ، وما جاءَ به من عقيدةٍ وشريعةٍ، والأَوْلى حملُ عَوْدِ الضَّميرِ على كلا المعنيَين، إذ لا مُنافاةَ بينَهما، والضّميرُ الثّاني: في إسنادِ القوم لكاف الخطاب في:

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 2/134.
(2) عبد الكريم الخطيب، التّفسير القرآنّي للقرآن: 7/286.
(3) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 2/26.

﴿قَوۡمُكَ﴾، وهو تسجيلٌ لسوءِ مُعاملتِهم لِمَنْ هو مِن أنفُسِهم[1]، وكلا الضّميرَيْن كان مُتناسبًا مع دلالتِه، وقد أدّى دورَه بنجاعةٍ وبيانٍ.

بلاغةُ الاعتراضِ بقولِه تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلۡحَقُّۚ﴾:

التّعجيلُ ببيانِ تحقيقِ القُدرةِ على بَعثِ العذابِ على المُكذِّبين

وقعتِ الجملةُ اعتراضًا بين ما قبْلَها وتقارُب ما بعدَها؛ وذلك لقصْدِ تحقيقِ القُدرةِ على أن يَبعثَ عليهم عذابًا، وقد تحقّقَ بعضُ ذلك بعذابٍ من فوقِهم وإذاقتِهم بأسَ المسلمين يومَ بدرٍ.

دلالةُ وقوعِ الواو قبْلَ الجُملةِ الاسميّةِ في: ﴿وَهُوَ ٱلۡحَقُّۚ﴾:

تنوّعُ الموقعِ الإعرابيِّ ثَراءٌ للمعنَى

الواوُ إمّا أن تكونَ حاليّةً، وتكونَ الجُملةُ على ذلك حالًا منَ الضّميرِ (به)، وفي ذلك تشنيعٌ شديدٌ على المشركين، وزيادةُ تقبيحِ تكذيبِهم؛ لأنّ التّكذيبَ عند رُسوخِ الحقّ وثُبوتِه يكونُ أقبحَ، وإمّا أن تكونَ الواوُ استئنافيةً، ويكونَ معنى بيانِ أنّ القرآنَ هو الحقُّ جديرًا بالاستقلالِ والتّأسيسِ، "وأيًّا ما كانَ منَ الوجهَين ففيه دَلالةٌ على عظيمِ جنايتِهم ونهايةِ قُبحِها"[2]، قال صاحبُ زهرةِ التّفاسير تَعليقًا على قولِه تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلۡحَقُّۚ﴾ من حيث إنَّ إنكارَهم باطلٌ لا محالةَ: "فيه إشارةٌ إلى أنّهم لا دليلَ عندهم ولا موجبَ؛ لأنّه الحقُّ الثّابتُ الّذي قامَ الدّليلُ عليه، وشهدتْ له البيّناتُ، وقام من أنفُسِهم دليلُ صدْقِه، فالواوُ ما يُسمّى في عُرْفِ النّحويّين واوَ الحال؛ أي: أنّى يُكذّبون ذلك التّكذيبَ، والحالُ أنّه حقٌّ ثابتٌ"[3].

أثَرُ أسلُوبِ الأمْرِ، في ثَراءِ المعنَى وبَيانِه:

لا وَكيلَ على العبادِ سِوى الله

قولُه تعالى: ﴿قُل لَّسۡتُ عَلَيۡكُم بِوَكِيلٖ﴾ تنبيهٌ للمشركين بفعلِ الأمر (قُلْ)، على ما يؤولُ إليه أمرُهم، إنِ استمرّوا على تكذيبِهم، وفيه تعريضٌ بأنّه ﷺ قد قامَ بما عليه من أداءِ الأمانةِ، وتبليغِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/286.
(2) السّمين الحلبي، الدُّرّ المصون: 4/673.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 4/673.

الرِّسالة، فهو ﷺ ليس عليهم بوكيلٍ؛ إنَّما هو بشيرٌ ونذيرٌ، ومبلِّغٌ عنِ اللّه[1]، وأكَّدَ هذا المعنَى، وأظهرَ مزيدَ الاهتمامِ به ثلاثةُ أمورٍ: الأوَّلُ: تعديةُ (الوَكيلِ) بـ (على) المتضمِّنةِ معنَى الغَلبةِ والسُّلطةِ؛ أي: لستُ بقيِّمٍ عليكم يَمنعُكم منَ التَّكذيبِ، كقولِه تعالى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُواْ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًاۖ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُۗ﴾ [الشّورى: 48][2].

والثّاني: تقدُّمُ شِبهِ الجُملةِ على (الوكيلِ)، والأصلُ أن يكونَ ترتيبُ الجملة: (قلْ: لستُ وكيلًا عليكم). والثّالثُ: حرفُ الباءِ في (بوَكيل)، وهي للإلصاق، وقولُه تعالى: ﴿لَّسْتُ عَلَيْكُم﴾، يُلمحُ مُتعلِّقًا بـ (وكيل)، ويجوزُ على هذا أن يكونَ حالًا من وكيلٍ، على قولِ مَن أجازَ تقديمَ الحالِ على حرفِ الجرّ[3].

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/226.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 7/287.

(3) العكبريّ، الإملاء: 1/246، والسَّمين الحلبيّ، الدُّرُّ المصون: 4/673.

﴿لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسۡتَقَرٌّۚ وَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ٦٧﴾ [الأنعام: 67]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الغيبُ آتٍ لا محالةَ لا يُؤخّرُه تكذيبُ المُكذّبين

لمّا ذكرَ تعالى في الآيةِ السّابقةِ تكذيبَهم صراحةً، أعقبَه بما يُجيبُ عن موعدِ العذابِ، وأنّ تلك المواقيتَ بيَدِ علّامِ الغيوبِ، وأنّه آتٍ لا محالةَ فلا تتهكّموا معاشرَ المكذّبين.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مُّسۡتَقَرٌّۚ﴾: قرَّ في مكانِه يَقِرُّ قَرارًا: إذا ثبتَ ثُبوتًا جامدًا، وأصلُه منَ القَرِّ، وهو البَرْدُ، وهو يَقتضي السُّكونَ. والمستَقَرُّ: هو مكانُ القَرارِ، قال تعالى: ﴿جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ قَرَارٗا﴾ [غافر: 64]؛ أي: مُستقرًّا، ومكانَ استقرارٍ، وقال اللّهُ في الجنَّة: ﴿خَيۡرٞ مُّسۡتَقَرّٗا وَأَحۡسَنُ مَقِيلٗا ٢٤﴾ [الفرقان: 24][1]، وقولُ اللّه جلّ وعزّ: ﴿فَمُسۡتَقَرٌّ وَمُسۡتَوۡدَعٞۗ﴾ [الأنعام: 98]، بمعنى: "ولكلّ نبإٍ غايةٌ ونهايةٌ، ترونَه في الدّنيا والآخرةِ، وقولُه: ﴿وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَاۚ﴾ [يس: 38]؛ أي: لمكانٍ لا تجاوزُه وقتًا ومحلًّا، والمستقرُّ: القَرارُ والثُّبوتُ، وقولُه تعالى: ﴿لِّكُلِّ نَبَإٖ مُّسۡتَقَرّٞۚ﴾؛ أي: غايَةٌ يصلُ إليها، ونِهايَةٌ ينتهي إليها. وصارَ الأمْرُ إلى مستقرِّه: تناهَى وثَبتَ.

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

تَوقيتُ العذابِ من شأنِ اللهِ تعالى وحدَه

لكلِّ نبأٍ حقيقةٌ، ولكلِّ خبرٍ وقتٌ يستقرُّ فيه، لا يَحيدُ عنه، ومنه نبأُ عذابِهم الَّذي ينتظرُهم بسببِ تكذيبِهم وعِنادِهم، ولكن ذلك ممّا استأثر اللّه بعلْمِه، وأخْفاهُ عن خَلْقِه تهديدًا للمُكذّبين.

(1) الرّاغب، المفردات، ص: 662.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالةُ الاستئْنافِ في قولِه تعالى: ﴿لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ﴾:

الأمُـورُ مرهُونةٌ بأوقاتِها

قولُه تعالى: ﴿لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾، "الجملةُ مستأنفةٌ مَسوقةٌ للدّلالةِ، على أنّ الأمورَ مرهونةٌ بأوقاتِها، أو أماكنِها"[1]

ما ورد من توجيه لغويّ في قوله تعالى: ﴿لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ﴾:

لكلِّ نبأٍ مِنَ الله أوَانٌ

في تقديم الخبرِ ﴿لِّكُلِّ نَبَإٍ﴾ على المبتدأ تأكيدٌ واهتمامٌ على العنايةِ بالنّبأِ، والنَّبأُ في قولِه: ﴿لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ﴾ الخبرُ المهمُّ، ويجوزُ أن يكونَ على حقيقتِه؛ أي: لكلِّ خبرٍ من أخبارِ القرآن. ويجوزُ أن يكونَ أطلقَ المصدرَ على اسم المفعول؛ أي: لكلِّ مُخْبَرٍ به، أي: ما أُخبروا به من قولِه السّابقِ: ﴿أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ﴾ [الأنعام: 65].

والمُستَقَرُّ: وقتُ الاستقرارِ، فهو اسمُ زمانِه، ولذلكَ صيغَ بوزنِ اسمِ المفعول، كما هو قياسُ صَوْغِ اسمِ الزَّمان المشتقِّ من غيرِ الثُّلاثيِّ. والاستقرارُ بمعنَى الحصولِ؛ أي: لكلِّ موعودٍ به وقتٌ يحصُلُ فيه، وهذا تحقيقٌ للوعيدِ وتفويضُ زمانِه إلى علمِ اللّهِ تعالى، وقد يكونُ المستقَرُّ هنا مُستعمَلًا في الانتهاءِ والغايةِ مجازًا، كقوله تعالى: ﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا﴾ [يس: 38]، وهو شاملٌ لوعيدِ الدُّنيا ووعيدِ الآخرةِ ولكلِّ مَستقَرٍّ[2].

ويجوزُ أن يكونَ ﴿مُّسْتَقَرٌّ﴾ مبتدأً، والخبرُ الظَّرفُ قبْلَه، أو فاعلٌ والعاملُ فيه الظَّرفُ، وهو مصدرٌ بمعنَى الاستقرارِ، ويجوزُ أن يكونَ بمعنَى المكان[3]، والمعنى المُدرَك من قولِه: ﴿لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ﴾: "قد جاءتْهم الأنباءُ بالنُّذرِ، وجاءَتِ المؤمنين الأنباءُ بما سيجدون من نعيمٍ مقيمٍ، وجنّاتِ عدْنٍ خالدين فيها، وإنّه نبأٌ في الدّنيا، أو في

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 3/142.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 7/287 - 288.
(3) العكبريّ، الإملاء: 1/246.

الحاضرِ، وتحقّقُه ومستقرُّه في القابلِ، وستجدون حقيقتَه ثابتةً معلومةً علْمَ اليقين بالمشاهَدةِ المحسوسةِ"[1].

دلالةُ ﴿وَسَوْفَ﴾ في الجَملةِ المعطوفةِ:

الدّلالةُ على المستقبَلِ، تَستغرقُ الزّمنَ الآتِي بلا حدٍّ

قولُه تعالى: ﴿وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾، عطفٌ على قولِه: ﴿لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ﴾؛ أي: حالَ نَبئِكم في الدُّنيا، أو في الآخرة، أو فيهما معًا.

ولفظُ ﴿وَسَوْفَ﴾ للتَّأكيدِ، وفي قولِه تعالى: ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍ ۝٨٨﴾ [سورة ص: 88]، وهو أظهرُ في وعيدِ العذابِ في الدُّنيا[2]، قال سيبَويه: "(سوفَ) كلمةُ تنفيسٍ، فيما لم يكنْ بعدُ، ألا ترى أنّك تقولُ: سوّفتُه إذا قلتَ له مرّةً بعد مرّةٍ: سوفَ أفعلُ، ولا يُفصلُ بينها وبين الفعل؛ لأنّها بمنزلة السّينِ في (سيفعَل)"[3]، وهي هنا تدلُّ على التّهديدِ، كأنّه يقولُ لهم: (وسوف تعلمون ما توعدون به منَ العذابِ)، وقد كانتِ الآيةُ برُمَّتِها تهديدًا ووعيدًا لأولئك المكذّبين؛ لتأكيدِ أنّ وعيدَ اللّه واقعٌ، كما أنّ وعدَه لا يُخلَفُ.

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2543.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/226.
(3) الجوهريّ، الصّحاح: (سوف).

﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٨﴾﴾ [الأنعام: 68]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

المناسبةُ بين وعيدِ الكفّارِ والدّعوةِ للإعراضِ عنِ الباطل وأهْلِه

لَمّا حدَّثَنا بيانُ اللهِ في الآيتَين السّابقتَين عن تكذيبِ الكفّار بالقرآن الكريم، وأنَّ رسولَ اللهِ ﷺ ليس وكيلًا على أحد، وأنَّ لكلِّ نبأٍ وقتًا سيستقرُّ فيه، جاءتْ هذه الآيةُ الكريمةُ تأمرُ رسولَ الله ﷺ وأُمَّته من بعدِه أن يُعرِضوا عن أولئكَ الكَفَرةِ المكذِّبين، الَّذين يتكلَّمون بالباطلِ ويَدْعون إليه، وعن مجالسِهم ما داموا على ذلك، وإن حصل لك نسيانٌ، وجالسْتَهم في أثناء حديثِهم الباطلِ، ثمّ تذكّرتَ أمْرَ الله بالبُعدِ عنهم، فلا تجلس بعدَ التّذكُّرِ مع القومِ الظّالمين، فإنّ القرينَ إلى المقارَنِ يُنسبُ[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَخُوضُونَ﴾: خَوَضَ: الخاءُ والواوُ والضّادُ أصلٌ واحدٌ يدلُّ على توسُّطِ شيءٍ ودُخول. يُقالُ: خُضْتُ الماءَ وغيرَه، وتخاوَضوا في الحديثِ والأمر؛ أي: تفاوَضوا وتداخَلَ كلامُهم[2]. وخاض القومُ: أمعنوا في الباطلِ، وتوغَّلوا فيه " ﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟﴾ [الزّخرف: 83]، خاضَ الشَّخصُ في الماءِ: دخلَه ومشى فيه، توغَّل فيه. وخاض الغمراتِ: اقتحمَ الشّدائدَ والمكارهَ، يخوضُ المنايا؛ أي: يُلقي بنفسِه في المهالكِ، وخاض القومُ في الحديث: تبادَلوه، وتفاوضوا فيه، قال تعالى: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ﴾ [الأنعام: 68].

(1) لجنة من علماء الأزهر، المنتخب في تفسير القرآن الكريم، ص: 183.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (خوض).

وخاض في أعراض النّاس: اغتابَهم[1]، وبهذا يكونُ معنَى ﴿يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا﴾ يَخلِطونَها بالتَّكذيبِ والاستهزاءِ[2].

2) ﴿فَأَعۡرِضۡ﴾: أَعرَضَ: أظهرَ عَرْضَه؛ أي: ناحيتَه، وإذا قيل: أَعْرِضَ عنّي، فمعناه: ولَّى مُبْدِيًا عَرْضَه، قالَ تعالى: ﴿فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ وَعِظۡهُمۡ﴾ [النِّساء: 63][3]، وبهذا التَّولّي والبُعدِ عن أحاديثِ المشركينَ ومجالِسهم أُمِرَ رسولُ اللّه ﷺ وأُمَّتُه من بَعدِه. أعرضَ عنه؛ أي: أضْرَبَ، قال اللّه تعالى: ﴿يُوسُفُ أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَاۚ﴾ [يوسف: 29]. وأعرضَ بوجهه؛ أي: مالَ، قال اللّه تعالى: ﴿وَهُم مُّعۡرِضُونَ ٢٣﴾ [آل عمران: 23][4].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

يأمرُ اللّهُ ﷻ رسولَه ﷺ بالبُعدِ عن أحاديثِ المشركينَ، ومُجانبةِ مجالِسِهم القائمةِ على التَّكْذيبِ بالدّين، والاستهزاءِ به، وبدعوةِ رسولِه ﷺ حتَّى يأخُذوا في كلامٍ آخرَ غيرِ ما كانوا فيه، فإنْ جلسَ أحدٌ معهم ناسيًا، ثمّ تذكَّرَ هذا الأمرَ بالإعراضِ عنهم، فيجبُ عليه أن يَنِدَّ عنهم، ويبتعدَ عن مجالِسِهم[5].

مُجانبةُ مجالِسِ الخوْضِ في الباطلِ، في حالتَي التّذكُّرِ والنِّسيانِ

❁ الإِيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالةُ الاسْمِ الموصولِ في الجُملةِ المعطوفةِ على الآياتِ السّابقةِ:

جملةُ: ﴿وَإِذَا رَأَيۡتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا﴾ عطفٌ على الجُملةِ السّابقة، وهي قولُه تعالى: ﴿وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوۡمُكَ﴾، وأفادَ هذا العطفُ أنَّ الَّذين يخوضونَ في آياتِ اللّه، هم مَنْ كذَّب رسولَ اللّه ﷺ مِن كُفّارِ قومِه، لكنَّ اسمَ الموصولِ الظّاهرَ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ دلَّ على أنَّ الَّذينَ

الإعراضُ عنِ الخائضِين في الآياتِ، مَسلكٌ لحمايةِ المقدَّساتِ

(1) أحمد مختار عمر، معجم اللّغة العربيّة المعاصرة: (خوض).
(2) الشَّوكانّي، فتح القدير: 2/181.
(3) الرّاغب، المفردات: (عرض).
(4) الحميري، شمس العلوم: 7/4497.
(5) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 2/134.

يخوضونَ في تلكَ الآياتِ فريقٌ خاصٌّ منَ القومِ الَّذين كذَّبوا بالقرآنِ أو بالعذابِ، فهؤلاء أشدُّ كفرًا، وأَشنَعُ عِنادًا، وأَقذَعُ خُلُقًا؛ وهمُ الَّذين أُمِرَ رسولُ اللّه ﷺ بالإعراضِ عن مُجادلتِهم، وتركِ مُجالستِهم، حتَّى يرعَووا عن ذلك، حيث أفادَ الموصولُ وصِلتُه التَّعليلَ، وهو الإعراضُ عنهم؛ لأنَّهم يخوضونَ في آياتِ اللّه.

ولو أنَّ رسولَ اللّه ﷺ أُمِرَ بالإعراضِ عن جميعِ المشركينَ لتعطَّلتِ الدَّعوةُ إلى الإسلام، إذْ همُ الأرضُ المناسبةُ لِلحرثِ، والاستصلاحِ، وإلقاءِ البُذورِ، لتُنبِتَ بعد ذلكَ، وتحيا بأفرادٍ مؤمنينَ صالحين[1].

أسلُوبُ الشَّرطِ ودلالتُه، في قولِه تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ﴾:

اعتزالُ مجالِسِ الباطلِ الآثمِ، امتثالٌ للنّصِّ القُرآنيِّ الجازمِ

قولُه تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ﴾: ﴿وَإِذَا﴾ منصوبٌ بجوابِها، وهو ﴿فَأَعْرِضْ﴾؛ أي: أعرضْ عنهم في هذا الوقت[2]، وإذا: لما يُستقبلُ منَ الزّمان، ولكنّها تربطُ الإعراضَ عنِ الخائضين بالرّؤيةِ، فهي توحي بأنّ مجرّدَ رؤيتِهم تقتضي مجانفَتَهم، والنّأْيَ عنهم، بلا انتظارٍ أو تأخيرٍ.

دلالةُ الرُّؤيةِ، في قولِه تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا﴾:

الآيةُ قطعيّةُ الدّلالةِ، والالتزامُ بها واجبٌ في كلِّ زمانٍ

﴿رَأَيْتَ﴾ هنا تَحتملُ أن تكونَ البصريَّةَ؛ وهو الظّاهرُ، ولذلك تعدَّتْ لواحدٍ. وقولُه تعالى: ﴿يَخُوضُونَ﴾ مضارع، والرَّاجحُ حاليّتُه، و﴿ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ﴾ في قوَّةِ (الخائضين)، واسمُ الفاعلِ حقيقةٌ بلا خلافٍ، فيُحمَلُ هذا على حقيقتِه، فيُستغنَى هنا عن حذفِ الحال، فهو موجودٌ - كما أسلفتُ - بل هي حالٌ مؤكَّدةٌ كذلك. ويُحتملُ أن تكونَ ﴿رَأَيْتَ﴾ علميَّةً، وهذا الوجهُ ضعيفٌ؛ لأنَّه يلزمُ منه حذفُ المفعول الثّاني، وحذفُه إمّا اقتصارٌ وإمّا اختصارٌ؛ فإن كان الأوَّلَ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 7/288.
(2) السَّمين الحلبيّ، الدُّرُّ المصون: 4/674.

فَممنوعٌ اتِّفاقًا، وإن كانَ الثّاني فالصَّحيحُ المنعُ[1]. وهذه المعاني هنا تأكيدٌ لما سبقَ في بيانِ اسمِ الموصولِ وصِلتِه وفائدتِهما.

دلالةُ الاستعارةِ، في قولِه تعالى: ﴿يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا﴾:

الغيرةُ على القِيمِ، دَينٌ باقٍ في الذِّممِ

قولُه تعالى: ﴿يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا﴾، أَصلُ الخَوضِ: في الماء، ثمَّ استُعمِلَ في غَمَراتِ الأشياءِ الَّتي هي مجاهلُ، كما هنا في خَوضِ فريقٍ منَ المشركين بآياتِ القرآنِ تكذيبًا واستهزاءً، فاستُعيرَ منَ المحسوسِ للمَعقول[2]، و"الاستعارةُ في (الخوض) لأنّه في اللّغة: الشّروعُ في خوْضِ الماء والعبورِ فيه، وقد استُعيرَ للأخذِ في الحديث، والشّروعِ فيه على أفانينَ متنوّعةٍ، وأساليبَ متعدّدةٍ، على وجه العبثِ واللّهوِ؛ فهي استعارةٌ مكنيّةٌ تبعيّةٌ[3]، فالآياتُ شبّهَها كالوادي الّذي يُخاضُ فيه، وحُذفَ المشبّهُ به وجيءَ بشيءٍ من لوازمِه، وهو الخوضُ، على سبيلِ الاستعارةِ المكنيّةِ، وقد أفادتِ الاستعارةُ تبشيعَ الخوضِ في الآياتِ، "وسِرُّ هذا النّهْيِ أنّ الإقبالَ على أولئك الخائضين، والقعودَ معهم، يُغريهم في التّمادي، ويدلُّ على الرّضا به، والمشاركةِ فيه؛ وهذا خطرٌ كبيرٌ، لمَا فيه من سماعِ الكُفرِ، والسّكوتِ عليه"[4].

دلالةُ ﴿حَتَّىٰ﴾ على الغايةِ، في قولِه تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيۡرِهِۦٓ﴾:

لا يمنعُ الشّرعُ إلّا ما فيه ضررٌ للملّةِ أوِ الأُمّةِ

قولُه تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيۡرِهِۦٓ﴾: ﴿حَتَّىٰ﴾ غايةٌ للإعراض؛ لأنَّه إعراضٌ فيه توقيفُ دعوتِهم زمانًا أوجَبَه رَعْيُ مصلحةٍ أُخرى، هي من قَبيلِ الدَّعوةِ، فلا يَضُرُّ توقيفُ الدَّعوةِ زمانًا، فإذا زالَ موجِبُ ذلك عادتْ محاولةُ هَدْيِهم إلى أصلِها؛ لأنَّها تمحَّضتْ للمصلحةِ.

(1) السَّمين الحلبيّ، الدُّرُّ المصون: 4/674.
(2) الشّوكانّي، فتح القدير: 2/181.
(3) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 3/144.
(4) إبراهيم القطّان: تيسير التّفسير، ص: 478.

وعبَّرَ عنِ انتقالِهم إلى حديثٍ آخَرَ بالخَوْضِ؛ لأنَّهم لا يتحدَّثونَ إلّا فيما لا جدوَى له من أحوالِ الشِّركِ وأمورِ الجاهليَّة.

وقولُه تعالى: ﴿غَيۡرِهِۦٓ﴾ صفةٌ لـ ﴿حَدِيثٍ﴾، والضَّميرُ المضافُ إليه عائدٌ إلى الخَوضِ باعتبارِ كونِه حديثًا، حَسبَما اقتضاهُ وصفُ (حديثٍ) بأنَّه غيرُه[1]، ويمكنُ أنَّه ذكرَ الهاءَ في: (غيرِه)؛ لأنَّه أعادَها على معنى الآيات؛ لأنَّها حديثٌ وقرآنٌ[2].

القِراءاتُ القرآنيَّةُ وتوجيهُها، في الآيةِ الكريمةِ:

قولُه تعالى: ﴿وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ﴾ وردَ فيها قراءتان[3]: الأولى: ﴿يُنسِيَنَّكَ﴾ بسكونِ النّون وتخفيفِ السّين مِن أنساه، والثّانية: (يُنَسِّيَنَّكَ) بفتح النّون وتشديدِ السّين، مِنَ التَّنسيَةِ، وهي مبالغةٌ في أنساهُ. فالأولى: كقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾ [الكهف: 63]، وقولِه تعالى: ﴿فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾ [يوسف: 42]. والثّانيةُ: من (نَسّاهُ)، والتَّعدّي جاء في هذا الفعل بالهمزة مرَّة، وبالتَّضعيفِ أُخرى كما في: (أَنْجى، ونَجَّى) و(أَمْهلَ، ومهَّلَ). والمفعولُ الثّاني محذوفٌ في القراءتَين، وتقديرُه: وإمّا يُنسيَنَّك الشَّيطانُ الذِّكرَ أوِ الحقَّ. والأحسنُ أنْ تقدَّرَ بما يليقُ بمعنَى السّياق؛ أي: وإمّا يُنسيَنَّكَ الشَّيطانُ ما أُمِرتَ به مِن تَركِ مجالسةِ الخائضينَ بعدَ تذكيرِك، فلا تقعدْ بعدَ ذلكَ معهم[4].

عـدمُ المـؤاخَـذةِ على النِّسيانِ، مِـن لُـطْـفِ الله المنّانِ

دورُ أسلُوبِ الشّرطِ في إيضاحِ الحُكْمِ وتَرسِيخِ مقاصِدِه:

جاءَ الشَّرطُ الأوَّلُ بـ ﴿وَإِذَا رَأَيۡتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ﴾؛ لأنَّ خوضَهم في الآياتِ محقَّقٌ غيرُ مشكوكٍ فيه، وفي الشَّرط الثّاني: ﴿وَإِمَّا

يُؤْثِرُ السّياقُ أداةَ الشَّرطِ المناسبةَ للأمْرِ أوِ النّهْيِ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 7/289 - 290.
(2) العكبريّ، الإملاء: 1/246.
(3) الأولى: قراءة ابن عامر، والثّانية: قراءة الباقين منَ العشرة. يُنظر: ابن مجاهد، السَّبعة، ص: 260، وابن الجزريّ، التَّيسير، ص: 103.
(4) السَّمين الحلبيّ، الدُّرُّ المصون: 4/675.

﴿يُنسِيَنَّكَ﴾ بـ (إنْ)؛ لأنَّ إنساءَ الشَّيطانِ له ليس أمرًا محقَّقًا؛ بل قد يقعُ وقد لا يقعُ، وهو معصومٌ منه[1]، و(إمّا) الشَّرطيَّةُ تلزمُها غالبًا نونُ التَّوكيدِ الثَّقيلةُ، ولا تلزمُها نادرًا[2]، وقد جاء الشّرطُ بالأداةِ (إذا)، جوابُه جملةٌ مصدَّرةٌ بفعل أمْرٍ؛ لأنّ السّياقَ يستلزمُ الأمْرَ بالإعراض عنِ الخائضين، وجاء الشّرطُ بالأداة (إنْ)، جوابُه جملةٌ فعليّةٌ، مصدَّرةٌ بفعل مضارعٍ مسبوقٍ بأداة النّهي (لا)، وكان كلُّ سياقٍ مناسبًا للأسلوبِ الاستفهاميِّ الملائم له بدقّةٍ وحُسنِ بيانٍ، والمخاطَبُ هو الرّسولُ ﷺ، والمرادُ الأمّةُ، وفي توجيهِ الخطابِ إليه إعلانٌ عن أهمّيّته، وبيانٌ للعنايةِ به.

عطْفُ حالةِ النّسيانِ؛ لتأكيدِ الأمْرِ بالإعراضِ عنِ الخوْضِ المذمومِ:

مـا سُـمّـيَ الإنسانُ إنسانًا إلّا لنِسيانِه

قولُه تعالى: ﴿وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾، هذه جملةٌ معطوفةٌ على الجملةِ الافتتاحيّةِ، وهي قولُه تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيۡتَ﴾، وذلك بعَطْفِ حالةِ النِّسيانِ زيادةً في تأكيدِ الأمْرِ بالإعراضِ، وإسنادُ الإنساءِ إلى الشَّيطانِ، دَلَّنا على أنَّ النِّسيانَ من آثارِ الخِلقةِ الَّتي جعلَ اللّهُ فيها حظًّا للشّيطانِ، وليس هذا من وسوَسةِ الشَّيطانِ في أعمالِ الإنسان؛ لأنَّ الرَّسولَ ﷺ معصومٌ من وسوَسةِ الشَّيطانِ في ذلك، فالنِّسيانُ منَ الأعراضِ البشريَّةِ الجائزةِ على الأنبياءِ في غيرِ تبليغِ ما أُمِروا بتبليغِه من رسالةِ ربِّهم[3].

ومن هذا ما وردَ من قولِه ﷺ: «إنَّما أنا بشرٌ أَنْسَى كما تَنْسَون، فإذا نَسيتُ فذكِّروني»[4].

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 3/144.
(2) الشَّوكانّي، فتح القدير: 2/181.
(3) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 7/13، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 7/290.
(4) أحمد، المسند: 1/379، وأبو داود، السُّنن، الحديث رقم: (1022).

وضْعُ المُظهَرِ مَوضِعَ المُضمَرِ، في قولِه تعالى: ﴿مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾:

السِّياقُ يَعتبرُ الخائضِينَ في آياتِ اللهِ منَ الظّالمين

قولُه تعالى: ﴿فَلَا تَقۡعُدۡ بَعۡدَ ٱلذِّكۡرَىٰ مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾؛ أي: فلا تقعدْ بعد أنْ تتذكَّرَ الأمرَ، بل عليك بالإعراضِ، فالذِّكرَى اسمٌ للتَّذكُّر، وهو ضدُّ النِّسيان، فهي اسمُ مصدرٍ؛ أي: إذا أغفَلْتَ بعد هذا فقعَدتَ إليهم، فإذا تذكَّرتَ فلا تقعُدْ، وهو ضدُّ فأعرِضْ، وذلكَ أنَّ الأمرَ بالشَّيءِ نهيٌ عن ضدِّه. والقومُ الظّالمون همُ الَّذين يخوضونَ في آياتِ اللّه، فهذا منَ الإظهارِ في مَقامِ الإضمار؛ لزيادةِ فائدةِ وصْفِهم بالظُّلم، فيُعلَمُ أنَّ خوضَهم في آياتِ اللّهِ ظُلمٌ، فيُعلَمُ كذلكَ أنَّه خَوضُ إنكارٍ للحقِّ ومُكابرةٍ للمُشاهَدة[1]، كما أنّ في وضْعِ المُظهَرِ مَوضِعَ المُضمَرِ إعلانًا لسببِ التّكليفِ كعادةِ الذّكرِ الحكيمِ إذا كلّفَ أقنَعَ، فالتّعليلُ مُعينٌ على قَبولِ التّكليف، والأصلُ: (فلا تقعدْ بعدَ الذِّكرى معهم)، لكنّه آثرَ الإظهارَ على الإضمارِ، فقالَ: ﴿مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الإعراض والتَّولِّي:

التّولِّي نوعٌ خاصٌّ منَ الإعراضِ

الفعلُ تولَّى: إذا عُدّيَ بالحرف (عن)، لفظًا أو تقديرًا، اقتضَى معنَى الإعراضِ، وتَركَ قُرْبه، كما قالَ تعالى: ﴿إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ٢٣﴾ [الغاشية: 23]، وأمّا الإعراضُ فهو التَّولّي التّامُّ، والبُعدُ الكاملُ عنِ الشَّيءِ حِسًّا ومعنًى، وبهذا يكونُ الأمرُ بالإعراضِ عنِ المشركين في أحاديثِهم الكاذبةِ، ومجالِسِهم المُنكرَة في سياق الآيةِ الكريمةِ أمرًا حسّيًّا ومعنويًّا بتَركِ مجالِسِهم بالكُلّيَّةِ، وعدمِ مشاركتِهم في طَعْنِهم في الدّينِ، وعدَمِ تصديقِ قلوبِ المؤمنينَ لما يقولونَه بألسنتِهم.

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السليم: 2/227، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 7/291 - 292.

﴿وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٦٩﴾﴾ [الأنعام: 69]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

النّهيُ عن مجالسةِ الخائضين، ونفيُ التَّبِعَةِ عنِ التُّقاة النّاصحين

بعد أن نهى اللّه تعالى المسلمين عن مجالسةِ المشركين عند خَوْضِهم في الآيات، بيَّنَ تعالى أنّهم إذا فعلوا ذلك فلَنْ يُشارِكوهُم في الإثْم، ولا تَبِعةَ عليهم إذا أَعرَضوا عن مجلسِ الخائِضينَ فقال: ﴿وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ﴾[1]، أي: أنّ أهل التّقوى ما داموا قد أدَّوْا واجبَ الإرشادِ والتّذكيرِ، فلا حِسابَ عليهم، ولا يَنالُهم أَذًى من حِسابِ أولئكَ الخائضينَ[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ذِكْرَىٰ﴾: مصدر ذَكَرَ، ولم يَجِئْ على (فِعْلَى)[3]، بِكَسْر الفاء غيرُه. و(ذكر) أصلٌ يدلّ على خلافِ النِّسيان، ثمّ حُمِلَ عليه الذِّكْرُ باللّسان. ويقولون: اجْعَلْهُ منكَ على ذُكْرٍ، بضمّ الذّال؛ أي: لا تَنْسَهُ. والذِّكرَى: اسمٌ أُقيمَ مُقام التّذكير، كما تقول: اتَّقيتُ تَقْوى، ومنه قوله تعالى: ﴿وَذِكْرَىٰ لِأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٤٣﴾﴾ [سورة ص: 43]؛ أي: وعِبرة لهم[4]، وقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ بمعنى: التّذكير[5]، أو بمعنى: "ذكِّروهم بالقرآنِ وبمحمَّدٍ ﷺ، فَرَخَّصَ لهم بالقعودِ بشرطِ التَّذكيرِ والموعظةِ"[6].

(1) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 7/160، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/147، والعليميّ، فتح الرّحمن: 2/414، وطنطاويّ، الوسيط: 5/100.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2547.
(3) محيي الدّين درويش، إعراب القرآن وبيانه: 3/145.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، والفيروزآباديّ، القاموس المحيط: (ذكر).
(5) ابن جرير، جامع البيان: 11/439، والواحديّ، البسيط: 8/211.
(6) الواحديّ، الوجيز، ص: 360.

2) ﴿يَتَّقُونَ﴾: اتَّقى يَتَّقِي، أصلُه اوْتَقَى على افْتَعَلَ، فقُلبت الواوُ ياءً لانكسار ما قبلها، وأُبدِلَتْ منها التّاءُ وأُدغِمَت[1]، ورجلٌ تقيٌّ، كَغَنيٍّ؛ قال ابن دُرَيد: معناه أنّه مُوقٍ نفسَه منَ العذابِ والمعاصي، بالعملِ الصّالحِ، مِن وقَيتُ نفسي أَقِيها[2]. وتَقْوى اللّه: خشيتُه والخوفُ منه، بامتثالِ أوامرِه واجتنابِ نواهيه، وهي استشعارُ رقابةِ اللّهِ، والالتزامُ بشَرْعِه، ومُوافقةُ الظّاهرِ للباطن، وهو مضمونُ قولِه تعالى: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ [آل عمران: 102]، وقد قيل:

وَغيرُ تَقِيٍّ يَأْمُرُ النَّاسَ بِالتُّقَى *** طَبِيبٌ يُدَاوِي النَّاسَ وَهوَ مَرِيضُ[3].

❁ المَعْنى الإِجْماليُّ:

رفعُ الحرجِ عنِ المتّقين في مجالسةِ المشركين؛ لِتذكيرِهم وزَجْرِهم

يخبرُ اللّهُ تعالى أنّ الّذينَ يتّقون اللّهَ سبحانه، ليس عليهم تَبِعَةٌ من أعمال الخائضين، إذا هم تجنَّبوهم وأَعْرَضوا عنهم كما أُمِروا[4]، ففي الآية ترخيصٌ للمتّقين منَ المؤمنين في مجالسةِ الكفّارِ، إذا اضْطُرّوا إلى ذلك[5]، والمعنى: ما عليكم شيءٌ من حسابِ المشركين، بل عليكم تذكيرُهم وزَجْرُهم، فإن أَبَوا فَحِسابُهم على اللّه[6]، "قال الكلبيُّ: وذلك أنّ أصحابَ رسولِ اللّه ﷺ، قالوا: يا رسولَ اللّه: لَئِنْ كُنَّا كلّما استَهْزَؤوا بالقرآن، قُمْنا من عندِهم، لا نستطيعُ أن نجلسَ في المسجدِ الحرامِ، فنزلَ: ﴿وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ﴾"[7].

(1) الجوهريّ، الصّحاح: (وقى).
(2) الزَّبيديّ، تاج العروس: (وقى).
(3) أحمد مختار عمر، معجم اللّغة العربيّة المعاصرة: 3/2486.
(4) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 7/160، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2547.
(5) الشّوكانّي، فتح القدير: 2/147.
(6) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 7/15.
(7) السّمرقنديّ، بحر العلوم: 1/457.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ الاستئنافِ في قوله: ﴿وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾:

ليس على المتّقين شيءٌ من حسابِ الخائضينَ في آيات الله

دلّتِ الواو في قوله جلّ شأنه: ﴿وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ﴾ على الاستئناف[1]، فلمّا نهى عن مجالسةِ المشركين الّذين يخوضون في آياتِ اللّه تعالى، استأنفَ لبيانِ عذرِ المؤمنين في الأخذِ عليهم؛ ومفادُ ذلك: "وما على الّذين يتّقون اللّهَ شيءٌ من حسابِ الخائضين، على ما ارتَكَبوا من جرائمَ وآثام، ما داموا قد أعرضوا عنهم، ولكنْ عليهم أن يُعرِضوا عنهم، ويُذكِّروهم ويمنعوهم عمّا هم فيه منَ القبائح، بما أمكنَ منَ العِظَةِ والتّذكيرِ، لعلّ أولئك الخائضين يجتنبون ذلك، ويتّقون اللّهَ في أقوالهم وأفعالهم"[2].

دلالةُ التّخصيصِ بتقديمِ المسنَدِ المنفيّ على المسندِ إليه:

بيانُ نفيِ مؤاخذة المتّقين على ما فَعَلَه الخائضون في آيات الله

قوله جلّ شأنه: ﴿وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ﴾ فيه تقديمٌ وتأخيرٌ، فَقَدَّمَ الخبرَ: ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ﴾، وأَخَّرَ المبتدأَ ﴿مِّن شَيْءٍ﴾[3]، وأصلُ الكلامِ: (ليس شيءٌ من حسابِهم على المتّقين)، والتّقديمُ يفيدُ التّخصيصَ، والنَّفيُ هو نفيٌ لحسابهم على جهة الاختصاصِ[4]؛ تأكيدًا لنفيِ تَبَعِيَّتِهم، وهذا التّأكيدُ ناسَبَ تحرُّجَ المسلمين وخَوْفَهم منَ الإثم.

دلالةُ الاستعلاءِ بالحرفِ ﴿عَلَى﴾ في الآية:

دلَّ الاستعلاءُ على الإلزامِ، ونفيُه أفادَ تخليَتَهُم منَ التَّبِعة

قوله جلّ شأنه: ﴿وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾، عبّر حرفُ الاستعلاءِ على الإلزام، ونفيِهِ الإلزام؛ أي: وما يلزم المتّقين الّذين يجالسون المشركين شيءٌ، ممّا يحاسَبون عليه من قبائحِ أعمالِهم وأقوالِهم[5]،

(1) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 8/401.
(2) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 5/100.
(3) الجمل، الفتوحات الإلهيّة: 2/37، والصّاويّ، حاشية الصّاويّ: 2/21.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/139.
(5) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 2/167، والنّسفيّ، مدارك التّنزيل: 1/513.

والمعنى: "وليس على الّذين يتّقون اللّه شيءٌ من إثم هؤلاء الظّالمين، إذا استمرّوا على ضلالهم، ولكن يجب أن يُذكِّروهم، لعلّهم يخشون عذابَ اللّه، ويكفّون عن الباطل"[1].

فائدةُ التّعبيرِ بالاسمِ الموصولِ دونَ الضّمير:

دلالةُ الموصولِ على تعميمِ الحُكْم، ودلالةُ الصّلةِ على تجدُّدِه

قوله جلّ شأنه: ﴿وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾، عبّر عنِ المؤمنين بالاسم الموصول دون الضّمير، فلم يَقُلْ: (وما عليكم من حسابهم)؛ لأنّ الموصولَ كتعريفِ الجنسِ، فيكون شاملًا لجميع المسلمين[2]، فيعمّ جميع الأزمنة، لئلّا يُتوهَّم اختصاصُه بالمخاطَبين، فَضْلًا عن كون التّعريفِ بالاسمِ الموصولِ هنا يفيدُ التّفخيمَ والتّعظيمَ لشأن المؤمنين.

والتّعبيرُ بالموصول إشارةٌ إلى ما في حيِّزِ الصِّلَةِ منَ الفعل المضارعِ، فأرادَ أنّهم يُجدِّدونَ اتّقاءَ مخالَطَتِهم؛ لأنّهم تحرَّجوا وخافوا الإثمَ؛ لأنّهم يَتَّقونَ الشّركَ[3]، ولو قالَ: (المتّقين) لَفاتَ معنى الإحداثِ والتّجدُّدِ.

بلاغةُ الإضمارِ في قوله تعالى: ﴿مِنْ حِسَابِهِم﴾:

المـــــرادُ مـنَ الـحـسـابِ، هـو حـسـابُ الـخـائِـضـينَ في آياتِ الله

الضّميرُ في قوله تَعالى: ﴿حِسَابِهِم﴾ عائدٌ على المستهزئين الخائضين في الآيات[4]، وأعرضَ القرآنُ الكريمُ عن إظهارهم هنا بوصفهم الصّريح، إلى الإشارة لهم بالضّمير العائدِ عليهم، تَبْكيتًا لهم وتقليلًا لشأنهم، "ولا على الّذين يتّقون اللّه من أوزار هؤلاء الظّالمين من شيءٍ، وليس عليكم من حسابهم من شيءٍ، ومجرَّدُ قيامِكم من مجلسِهم هو تذكرةٌ لهم لعلّهم يتفكّرون في منطقِ الحقِّ، ويخشَون اللّهَ، ويُبعِدون أنفسَهم عنِ الوقوعِ في الباطلِ"[5].

(1) لجنة من علماء الأزهر، المنتخب في تفسير القرآن الكريم، ص: 183.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/292.
(3) الخازن، لباب التّأويل: 2/123.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/546.
(5) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 6/3711.

السّرُّ في استغراقِ النّفْيِ والتّنكيرِ، في قوله ﴿مِّن شَيۡءٍ﴾:

تأكيدُ النّفي للشُّمُولِ بزيادة (مِن)؛ للمبالغةِ في انتفاءِ مؤاخَذَتِهم

قوله جلّ شأنُه: ﴿مِّن شَيۡءٍ﴾ لمّا نفى حسابَهم عنِ المؤمنين، أَكَّدَ ذلك النّفي بإدخال ﴿مِّن﴾ المزيدةِ للتّوكيد؛ استغراقًا للنّفي[1]، وللتّنصيص على الشّمول في سياق النّفي[2]، مبالغةً في انتفاءِ مؤاخذتِهم؛ أي: ما عليكم من حسابهم أيُّ قَدْرٍ ولو ضَؤُلَ[3].

والتّنكير لـ ﴿شَيۡءٍ﴾ للتّعميم وللتّقليل، و﴿مِّن﴾ "هنا للدّلالة على عمومِ النّفي واستغراقِه، أو تأكيدِ استغراقِه؛ أي: ما عليكم أيُّ قَدْرٍ - ولو ضَؤُلَ - من تبعاتِ أعمالهم، ما دمتُم قد ذكَّرتموهُمُ العاقبةَ، لِما هم عليه؛ فالواجبُ عليكمُ التّذكيرُ"[4].

المجازَ المُرسَل بالتّعبير عنِ الأعمال بالحساب:

ذكرَ الحسابَ دونَ الأعمالِ؛ لأنّ الحسابَ مسبَّبٌ عنها

قولُه جلّ شأنه: ﴿وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنۡ حِسَابِهِم﴾، عبّر عن أعمالِ المشركين بالحساب؛ أي: أعمالهم المحسوبة عليهم، باعتبار أنّ العملَ هو السّببُ في الحساب، وهو من المجازِ المُرسَلِ في إطلاقِ المسبَّبِ، وإرادةِ السّببِ[5]، فالمرادُ بالحساب المعاصي، وكفرُهم، ومخالفتُهم أمرَ اللّه[6]؛ وفيه إشارةٌ إلى أنّ حسابَهم على أعمالهم واقعٌ لا محالةَ.

بلاغةُ الاستدراكِ في قوله: ﴿وَلَٰكِن﴾:

على الدّاعية البلاغُ والذّكرى، إنْ نفعتِ الذّكرى

قولُه جلّ شأنه: ﴿وَلَٰكِن ذِكۡرَىٰ﴾ استدرك ليبيّنَ أنّ رفعَ التّبعيّة عنهم، لا يُسقطُ عنهم واجبَ الدّعوةِ والتّذكيرِ، فهو استدراكٌ منَ النّفي السّابقِ؛ أي: ولكن عليهم أن يُذكِّروهم، ويمنعوهم عمَّا

(1) الآلوسّي، روح المعاني: 4/174، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/147، والطِّيبِيّ، فتوح الغيب: 6/128، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2547.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/249.

(3) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/166، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2547.

(4) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2548.

(5) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2547، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/293.

(6) القونويّ، حاشية على البيضاويّ: 8/147، والزّجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 2/261.

هُم عليهِ منَ القبائح، بما أمكن، إذا سمعوهم يخوضون؛ بالعِظة والتّذكير ويُظهروا لهم الكراهَةَ والنّكير[1]، يعني: ما عليكم شيءٌ من حسابهم، ولكن عليكم أن تذكّروهم[2]، أي "ولكنْ قيامُهم وعدمُ القعودِ معهم لتذكيرهم بالقيام عنهم، وإظهارِ الكراهةِ لهم، ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ الخوضَ في آيات اللّه"[3].

لفظ ﴿ذِكْرَىٰ﴾ بين الحاليّة والعطف، وأثره في المعنى:

الاشتراكُ بحرفِ العطفِ بين طرفَي العطفِ، لايُنفَكُّ عنه إلّا بقرينةٍ صارِفَةٍ

عطفُ ﴿ذِكْرَىٰ﴾ على محلّ ﴿مِّن شَيْءٍ﴾، فيه خلافٌ عند البلاغيّين، فهو لا يجوزُ عند الشّيخ سعد الدّين، حيث يرى: أنّه حالٌ ﴿مِّن شَيْءٍ﴾، قُدِّم عليه، فصار قَيْدًا للعامِلِ، فإذا عَطف ﴿ذِكْرَىٰ﴾ على ﴿شَيْءٍ﴾ عَطْفَ المفردِ على المفردِ، كانت جهةُ القيد معتبَرَةً فيه، ويَؤولُ المعنى إلى (أنَّ عَليك من حسابهم ذكرى)، وذكرى ليس من حسابهم.

وذهب الحَلَبيُّ إلى كونه عطفًا، فقال: أهلُ اللّسان والأصوليّون يقولون: إنّ العطفَ ظاهرٌ في التَّشْريكِ، فَإنْ كان في المعطوف عليه قيدٌ، فالظّاهرُ تَقَيُّدُ المعطوف بذلك القيد، إلّا أن تجيءَ قرينةٌ صارفةٌ فيُحالُ الأمرُ عليها[4]، فإذا قلتَ: (ضربتُ زيدًا يوم الجمعة وعَمْرًا)، فالظّاهرُ اشتراكُ عَمْرٍو مع زيدٍ في الضّرب مقيَّدًا بيوم الجمعة، فإنْ قلتَ: (وعَمْرًا يومَ السّبتِ)، لم يُشارِكْهُ في قَيْدِه؛ والآيةُ الكريمةُ من قَبيل النّوعِ الأوّلِ؛ أي: لم يُؤْتَ مع المعطوف بقرينةٍ تُخْرِجُهُ، فالظّاهرُ مُشاركَتُهُ للأوّلِ في قَيْدِه[5]، وتغايرُ الموقعِ بين الحاليّةِ والعطفِ، يؤثّر في المعنى، إذِ الحاليَّةُ توصيفٌ لحالِ صاحبِ الحالِ عند وقوعِ الفعلِ، بينما العطفُ جمعٌ للمعنى بين طرفَي العطفِ؛ جُمْلَتَيْنِ كان الطَّرفانِ أَم مُفْرَدَيْنِ.

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/147، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/547، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 2/167، والنّسفيّ، مدارك التّنزيل: 1/513، والآلوسيّ، روح المعاني: 4/174.

(2) الخازن، لباب التّأويل: 2/123، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/293.

(3) محمّد عبد اللّطيف الخطيب، أوضح التّفاسير، ص: 160.

(4) السّمين، الدّرّ المصون: 4/677.

(5) السّيوطيّ، نواهد الأبكار: 3/362.

دلالة اختيار المصدر: ﴿ذِكۡرَىٰ﴾:

جوهرُ الذّكرى التّسديدُ والتّقريبُ، بما في القرآن من ترغيبٍ وترهيبٍ

وعبّر عن فعلِ التّذكيرِ بالمصدر؛ ليدلّ على ضرورةِ استفراغِ كلِّ أسبابِ التّذكيرِ معهم، وحَذَفَ مُتَعَلَّقَها للتّعميم، والتّقديرُ: ذكرى للخائضين في آياتِ اللّهِ ولغيرِهم. وإيرادُ السّياق للمصدر ﴿ذِكۡرَىٰ﴾، "دليلٌ على أنّه ينبغي أن يستعملَ المذكِّرُ منَ الكلام ما يكون أقربَ إلى حصول مقصودِ التّقوى، وفيه دليلٌ على أنّه إذا كان التّذكيرُ والوعظُ ممّا يزيدُ الموعوظَ شرًّا إلى شرّه - إلى أنّ تركَه هو الواجبُ؛ لأنّه إذا ناقض المقصودَ كان تركُهُ مقصودًا"[1].

بلاغةُ الاستئنافِ في قوله: ﴿لَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ﴾:

استئنافٌ بيانيٌّ سِيق جوابًا لسؤالٍ نشأ عن عِلّةِ تذكيرِ الخائضين

جملةُ: ﴿لَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ﴾ "مسوقةٌ لتعليلِ ما قبلها"[2]، فهي مستأنَفةٌ استئنافًا بيانيًّا للإجابةِ عن سؤالٍ نشأ عن قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن ذِكۡرَىٰ﴾ تقديرُه: ما فائدةُ تذكيرِهم، وهم لا يؤمنون؟ فقيل: ذكّروهم ﴿لَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ﴾، والضّمائر تعود إلى الّذين يخوضون في الآيات، و﴿يَتَّقُونَ﴾؛ أي: لعلّهم يتركون الخوضَ[3]، والمعنى: أنّ تذكيرَ المؤمنين للمشركين بتركِ مجالستهم حالَ الخوض؛ يحثُّ المشركين على تجنُّبِ الخوضِ في آيات اللّه تعالى.

علّة تعليق الرّجاء بالخائضين:

تركُ مجالسةِ الخائضين، رجاءَ تَرْكِهم الخوضَ سديدٌ مُحَبَّبٌ

وقولُه جلّ شأنُه: ﴿لَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ﴾ التّعبير بالرّجاء لا يدلّ على أنّ اللّهَ تعالى يرجو ذلك؛ فاللّهُ تعالى منزَّهٌ عنِ الرّجاء لمَا فيه من معنى الطّمع والتّوقّع، فالرّجاءُ مُتعلِّقٌ بالخائضين، ليُرجَى منهم التّقوى، فلعلَّهم يخافون فَيتّقون[4]؛ يعني: لعلَّ تلك الذّكرى تمنعُهم

(1) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 260.
(2) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 8/402.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/293.
(4) الواحديّ، البسيط: 8/212، 217، والزّجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 2/261.

منَ الخوضِ والاستهزاءِ[1]، حياءً منكم، ورغبةً في مجالستكم[2]، وإكرامًا للجليس[3].

علّةُ إسنادِ فعل التّقوى إلى المشركين:

قد يكون المرادُ بالتّقوى المعنى اللُّغويَّ لا الشّرعيَّ

قوله جلّ شأنه: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ أَسْنَدَ التّقوى إلى المشركين؛ والمعنى: أنّهم يتركون الخوضَ، فالتّقوى قد تكون مُستعملةً في معناها اللُّغويِّ الّذي هو: حفظُ الشّيءِ ممّا يؤذيه ويضرُّه، قال تعالى: ﴿وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ۝٥٦﴾ [الدّخان: 56]، ولا يريد المعنى الشّرعيّ[4]، الّذي هو: "حفظُ النّفس عمّا يُؤَثِّمُ، وذلك بتَرْكِ المحظورِ"[5]، فهم يتركون الخوضَ في الآيات محافظةً على مجالسةِ المؤمنين، ويكون مفعولُ التّقوى محذوفًا يعودُ على الخوض. وقد يكون المرادُ بالتّقوى المعنى الشّرعيّ على اعتبار أنّ تعليقَ تقواهم بحرفِ الرّجاءِ، فيه دعوةٌ لهم، ليلتحقوا برَكْبِ المتّقين، أو للتّعريض والسّخريةِ بهم، على سبيل الاستعارة التّهكُّميَّة في تشبيه تركِهم الكفرَ بالتّقوى.

(1) الخازن، لباب التّأويل: 2/123، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 13/23، والقنّوجيّ، فتح البيان: 4/167.

(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/547، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/147، والزّمخشريّ، الكشّاف: 2/35، والنّسفيّ، مدارك التّنزيل: 1/513.

(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/147، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2548.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/293.

(5) الرّاغب، المفردات: (وقى).

﴿وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمۡ لَعِبٗا وَلَهۡوٗا وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۚ وَذَكِّرۡ بِهِۦٓ أَن تُبۡسَلَ نَفۡسُۢ بِمَا كَسَبَتۡ لَيۡسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٞ وَلَا شَفِيعٞ وَإِن تَعۡدِلۡ كُلَّ عَدۡلٖ لَّا يُؤۡخَذۡ مِنۡهَآۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبۡسِلُواْ بِمَا كَسَبُواْۖ لَهُمۡ شَرَابٞ مِّنۡ حَمِيمٖ وَعَذَابٌ أَلِيمُۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡفُرُونَ ٧٠﴾ [الأنعام: 70]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

المناسبةُ بين النّهي عن مخالطةِ الخائضين، والأمرِ بتركِ مصاحَبَتِهم

لمّا نهى عنِ القعود مع الّذين يخوضون في آيات اللّه، أكَّدَه بصيغة الأمرِ، فأمرَ نبيَّهُ ﷺ بتركِ مصاحبةِ مَن بَنَى دينَه على اللّعبِ واللّهو، وغرَّتْهُ الحياةُ الدّنيويّةُ فقال: ﴿وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمۡ لَعِبٗا وَلَهۡوٗا وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۚ﴾[1]، لينطلقَ في تبليغِ دعوته دون أن يَشْغَلَ نفسَه بسَفاهةِ السُّفهاء[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَذَرِ﴾: (ذر) أصله منَ (الوَذَرَة): قطعةٌ منَ اللّحم، وتسميتُها بذلك لقلّة الاعتداد بها، فلانٌ يَذَرُ الشّيءَ؛ أي: يَقْذِفه لقلَّة اعتدادِه به، ذَرْهُ؛ أي: دَعْه[3]، قال تعالى: ﴿وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمۡ لَعِبٗا وَلَهۡوٗا﴾؛ أي: "أَعْرِضْ عنهم، ولا تبالِ بتكذيبهم واستهزائهم"[4]. "وقال اللّيث: العربُ قد أماتتِ المصدرَ من (يذر)، والفعلَ الماضي، فلا يُقال: وَذَرَهُ ولا واذِرٌ، ولكن تركَه وهو تارِكٌ"[5].

(1) الطِّيبيّ، فتوح الغيب: 6/131، والبِقاعيّ، نظم الدّرر: 7/147، والنّيسابوريّ، غرائب القرآن: 3/98، والمراغيّ، تفسير المراغيّ: 7/161.
(2) طنطاويّ، الوسيط: 5/101.
(3) الجوهريّ، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (وذر).
(4) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/36.
(5) الزَّبيديّ، تاج العروس: (وذر).

2) ﴿لَعِبًا﴾: لَعِبَ فلانٌ: إذا كان فِعْلُه غيرَ قاصدٍ به مقصدًا صحيحًا. واللَّعِبُ: ضدُّ الجِدِّ[1]، وهو الفعلُ الّذي ليس له مقصدٌ يُقِرُّهُ أهلُ العقلِ[2]، وقوله تعالى: ﴿وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَعِبًا﴾؛ أي: سَخِروا به واستهزؤُوا[3]، يُقال: لَعِبَ يَلعَبُ لَعِبًا ولِعابًا فهو لاعبٌ، ومنه الحديث: «لايَأْخُذَنَّ أَحَدُكُمْ مَتاعَ أَخيهِ لاعِبًا ولا جادًّا»؛ أي: يَأْخُذُهُ ولايريدُ سَرِقَتَه، ولكنْ يريدُ إِدْخالَ الهَمِّ والغَيْظِ عليه، فهوَ لاعِبٌ في السَّرِقَةِ، جادٌّ في الأَذِيَّةِ[4].

3) ﴿وَلَهْوًا﴾: (لهو) أصلٌ يدلُّ على شُغْلٍ عن شيءٍ بشيءٍ، وكلُّ شيءٍ شَغَلَكَ عن شيءٍ، فقد أَلْهاكَ. وهو اللَّهو: ما لَهَوْتَ به ولَعِبتَ به، وشغلَكَ من هَوًى وطَرَبٍ ونحوِهما، عن مُهِمّات الأمور[5]، وهو ما يُتَلهّى به، ويُشْغَل به عن الأمرِ الجادِّ المنتِجِ المثمِرِ، والمقصدِ المطلوبِ[6]، ومن ذلك حديثُ سَهْلِ بنِ سَعْدٍ: «فَلَها رسولُ اللّهِ ﷺ بِشَيْءٍ كانَ بَيْنَ يَدَيْهِ»؛ أي: اشْتَغَل، ومنه قصيدُ كعبٍ:

وقَالَ كُلُّ صَدِيقٍ كُنتُ آمُلُهُ *** لا أُلْهِيَنَّكِ إِنِّي عَنْكَ مَشْغُولُ

أي: لا أَشْغَلُكَ عن أمرِكَ، فَإِنّي مشغولٌ عنكَ[7].

1) ﴿وَغَرَّتْهُمُ﴾: (غرر) أصله منَ الغَرِّ، وهو الأَثَرُ الظّاهرُ منَ الشّيء، يُقال: غررتُ فلانًا: أصبتُ غِرَّتَهُ، ونِلْتُ منه ما أُريده. والغِرّة: غَفْلَةٌ في اليَقَظَة. واغْتَرَّ بالشّيء: خُدِعَ به[8]، وقال أبو بكر ابنُ الأَنْباريِّ، في قولهم: غَرَّ فلانٌ فُلانًا: وقال بعضُهم: معناه: قد عَرَّضَه لِلهَلَكَةِ والبَوارِ، من قولهم: ناقةٌ مُغارٌ، إذا ذَهَبَ لبنُها بالجَدْبِ، أو لِعِلَّةٍ[9]. وقوله

(1) الرّاغب، مفردات، وابن منظور، لسان العرب: (لعب).
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2549.
(3) الآلوسّي، روح المعاني: 4/175.
(4) ابن الأثير، النّهاية: 4/252. والحديث أخرجه: أبو داود، سنن أبي داود، الحديث رقم: (5003)، واللّفظ له، والترمذيّ، سنن الترمذي، الحديث رقم: (2299)، وأحمد، المسند، الحديث رقم: (17940)، وغيرهم.
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب، والسّمين، عمدة الحفّاظ: (لهو).
(6) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2549.
(7) ابن الأثير، النّهاية: 4/283. والحديث أخرجه مسلم: الحديث رقم: (2149)، وروايته (فَلَهِيَ)، وهي لغةُ أكثر العرب، ويُنظر: النووي، شرح صحيح مسلم.
(8) الجوهريّ، الصّحاح، والرّاغب، المفردات: (غرر).
(9) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (غرّ).

تعالى: ﴿وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾؛ أي: خَدَعَتْهم منَ الغَرورِ، وهو الإِطْماعُ بما لا يُتحَصَّلُ، فاغْتَرّوا بِنِعَمِ اللّهِ ورزقِه وإمْهالِهِ إيّاهُم[1].

2) ﴿تُبْسَلَ﴾: (بَسَل) أصلٌ يدلُّ على المَنْعِ والحَبْسِ، وكلُّ شيءٍ امتَنَع فهو بَسْلٌ، ولِتَضَمُّنِه لمعنى المنع، قيل للمُحَرَّم والمُرتَهَنِ: بَسْلٌ. والإِبْسال: أن يُبْسَلَ الرّجلُ فَيُخْذَل[2]، فمعنى ﴿أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ﴾: تُرْتَهنَ وتُحْبَسَ في جهنّم، وتُحرَم منَ الثّواب، فَتُرْهَنُ بعملِها، فتكون غيرَ قادرةٍ على التّخلّص[3]. ﴿أُبْسِلُواْ﴾؛ أي: "أُسْلِموا لِلهَلاكِ، ارتهنوا بما كسبوا"[4]، فالمنعُ مُتحقِّقٌ في تسليمِ النّفسِ إلى الهلاكِ، باعتبار أنّه ممنوعٌ منَ النّجاةِ والثّوابِ[5].

3) ﴿تَعْدِلْ﴾: (عدل) أصلٌ يدلُّ على استواء، يُقالُ للشّيء يساوي الشّيء: هو عِدْلُهُ، ومِن البابِ: العِدْلان: حِمْلا الدّابّة، سُمِّيا بذلك لتَسَاويهِمَا، والعَدْلُ: اسمٌ للمِثْلِ، وما عادَلَ الشّيءَ من غير جِنْسِه، وهو: قيمةُ الشّيءِ وفِداؤُه. قال تعالى: ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾ [البقرة: 123]؛ أي: فِدية، وهو منَ المساواة[6]، وهو ما يُعادِلُ به المفدِيّ[7]، وفي الحديث: «لا يُقْبَلُ مِنه يَومَ القِيامَةِ صَرْفٌ ولا عَدْلٌ»، فَالصَّرْفُ: التّوبةُ، والعَدْلُ: الفِدْيةُ، ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ﴾؛ أي: تفدِ كلَّ فداءٍ[8].

4) ﴿حَمِيمٍ﴾: (حمم) أَصْلُهُ الحَرارةُ، والحَميم: الماء الحارّ، والاستحمام: الاغتسال به. وحَمَّمْتُ الماء؛ أي: سَخَّنْته[9]، وقوله تعالى: ﴿شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ﴾؛ أي: ماءٌ سخينٌ حارٌّ[10]. وقد رُوي أنّ أهلَ النّارِ يُورَدون الحميمَ لِشُرْبِه، وهو خارجٌ منَ الجحيم، كما تُورَدُ الإبلُ الماءَ، ثمّ يُرَدُّون إلى الجحيمِ، يدلّ على ذلك قوله تعالى: ﴿يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ﴿٤٤﴾﴾ [الرّحمن: 44][11].

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/305، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/549.
(2) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (بسل).
(3) الزّجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 2/261، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/534، والخازن، لباب التّأويل: 2/123.
(4) الواحديّ، البسيط: 8/219.
(5) القونويّ، حاشية على البيضاويّ: 8/152.
(6) الجوهريّ، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (عدل)، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/306.
(7) السّخاويّ، تفسير القرآن العظيم: 1/253.
(8) الجوهريّ، الصّحاح: (عدل).
(9) الجوهريّ، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (حمّ، حمم).
(10) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/534، والنّسفيّ، مدارك التّنزيل: 1/514.
(11) العسكريّ، الفروق اللّغويّة: 1/492.

المَعْنى الإجْماليُّ:

الأمرُ بِتَرْكِ المُستهزئينَ، والحَثُّ على تذكيرهم؛ قيامًا بحقّ الدّعوة

يخاطبُ اللّهُ تعالى النّبيَّ ﷺ أن يَتْرُكَ هؤلاء الّذين اتّخذوا الدّين - الّذي كان يحقّ عليهم العملُ به، والدّخولُ فيه، وهو الإسلامُ - لَعِبًا ولَهْوًا، حيث سَخِروا به واستهزؤُوا فيه، ويقول له: فلا تُعلِّقْ قلبَك بهم، فإنّهم أهلُ تعنُّتٍ، وإن كنتَ مأمورًا بإبلاغِهِمُ الحُجَّةَ، وذَكِّرْ به خشيةَ أن تُرتَهَنَ أنفسُهُم بما كسبَت، وتُسْلَمَ للهَلَكَةِ، وتُحبَسَ في جهنَّمَ، وتُحرَمَ منَ الثّواب، بسبب ما كَسَبَتْ مِنَ الآثام[1]. والمعنى هنا: لا تَشْغَلْ نفسَك بِلَهْوِهِم وعَبَثِهِم، ولا يَمنعنَّك ذلك من أن تَسْتَمِرَّ في تذكيرِهِم، حتّى لَا يُسلَمُوا إلى الهلاك، ويُمنَعُوا منَ الخير، ويكون نصيبُهم جَهَنَّمَ وبِئْسَ المصير[2].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

وجهُ تخصيصِ النّبيِّ الأكرمِ بالخطاب:

المُبَلِّغُ للرّسالة هو المعنيُّ ببلاغِ المشركين المستهزئين

قوله جلّ شأنُه: ﴿وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمۡ﴾ خَصَّ الخطابَ للنَّبيِّ ﷺ، يعني: وذَرْ يا أيّها النّبيّ وأَعْرِضْ عن هؤلاء المشركين[3]، ولا تبالِ بتكذيبهم واستهزائهم، ولا تُقِمْ لهم في نظرك وزنًا[4]، و"قَالَ الفرّاءُ في كِتَابه: عيدُ (أهلِ كلِّ مِلَّة)، يَومُ لَهْوٍ ولَعِبٍ، إلَّا عيد المُسلمين؛ فإنَّهُ يَومُ الصَّلاةِ وفعلِ الخيرِ والتَّكبير"[5]. ولذلك أُمِرَ النّبيُّ ﷺ أن يَستنكِفَ ويُعرِضَ عن الّذين اتّخذوا دينَهم استهزاءً، وقد وُجِّهَ الخِطابُ إليه ﷺ، لكي يتعاملَ مع الموقفِ وَفْقًا لتعاليمِ اللّهِ، الّذي أمرَهُ بالدّعوة، وكلّفَهُ بالبلاغ.

(1) القنّوجيّ، فتح البيان: 4/168-169، والنّسفيّ، التّيسير في التّفسير: 6/110.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2551.
(3) الخازن، لباب التّأويل: 2/123.
(4) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 13/24، والمراغيّ، تفسير المراغيّ: 7/161.
(5) السّمعانّي، تفسير القرآن: 2/116.

دلالةُ الأمرِ بتَركِهم: ﴿وَذَرِ﴾:

الإعراضُ عنهم لونٌ منَ التّهديدِ المعنويِّ بالقطيعةِ

قولُه جلَّ شأنُه: ﴿وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمۡ﴾ أمرَ اللّهُ تعالى نبيّه ﷺ بترك دعوتهم تهديدًا لهم، والمعنى: أَعْرِضْ عنهم، ولا تُبالِ بأفعالهم وأقوالهم، تهديدًا لهم؛ كقوله تعالى: ﴿ذَرۡهُمۡ يَأۡكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ﴾ [الحِجْر: 3][1]، فيتركهم في غيّهم حتّى يُفاجَؤوا بمآلهم[2]، وهو تهديدٌ معنويٌّ، مرتَكَزُه القطيعةُ، ومناطُه التّحسيسُ ببشاعةِ ما يَصْدُرُ عنهم منِ استهزاءٍ بالدّين، واستهانةٍ بالمقدّسات.

وجهُ الأمرِ بالتّركِ، مع الأمرِ بالدّعوةِ والتّذكير:

أمرَ اللهُ بتركِ معاشرتِهم، والاختلاطِ بهم، ولمْ يأمُرْ بترك الإنذارِ

قولُه جلّ شأنه: ﴿وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمۡ﴾ أمرَه بتركهم، وظاهرُ هذا أنّه يتعارضُ مع واجبِ الدّعوةِ والرّسالةِ، ولكنّ المرادَ تركُ معاشرتِهم ومُلاطَفَتِهم على تقديرِ محذوفٍ، لا أن يتركَ إنذارَهم وتخويفَهم؛ لأنّه قال بعده: ﴿وَذَكِّرۡ بِهِۦٓ﴾، ونظيره قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُ ٱللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمۡ فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ﴾ [النّساء: 63][3]، والتّركُ المطلوبُ هنا لونٌ منَ التّعبير عن عدمِ الموافقةِ على أقوالهم المَشينةِ، وأفعالِهم الذّميمةِ؛ لأنّ الاستهزاءَ بالدّينِ المُعتَنَقِ استهزاءٌ باللّه ربّ العالمين، وتهوينٌ لقداسته في أَنفُس النّاس، فلا يرجون في ذلك الوضعِ للّه وقارًا، ولا يقيمون لدينه اعتبارًا، ممّا يُفضي إلى الهلكةِ والتّردّي في هاويةِ الضّلالةِ الماحقةِ.

المجازُ بذكرِ التّركِ، وإرادةِ عدمِ الاكتراثِ:

ذكرَ التّركَ مجازًا، والمرادُ تركُ الاهتمام بما يقولون استهزاءً

قوله جلّ شأنُه: ﴿وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمۡ﴾، ومعنى: ﴿وَذَرِ﴾ اتْرُك؛ أي: لا تخالط. وهو هنا ليس على ظاهره في طلبِ الفعلِ على جهة الاستعلاءِ، بل هو مجازٌ في عدم الاهتمامِ بهم، وقلّةِ

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/305، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 2/167، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/148، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/548.

(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2550.

(3) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 13/23.

الاكتراثِ باستهزائهم، كقوله تعالى: ﴿ذَرۡنِي وَمَنۡ خَلَقۡتُ وَحِيدٗا ١١﴾ [المدّثر: 11][1].

عِلّةُ التّعبيرِ عن اللّاعبين اللّاهين بالاسم الموصولِ:

إيثارُ الموصولِ والصِّلةِ، تعميمٌ للحُكْمِ على كلّ المشركين

قوله جلّ شأنُه: ﴿وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمۡ﴾، عبَّر عن اللّاعبين اللّاهين عن الاهتمام بأمر الدّين بالاسم الموصول، ولم يقُل: (وذرهم) بالضّمير؛ لأنّه أرادَ وَصْفَهم بما في حيّز الصّلة، وتعميمًا لكلّ المشركين، سواءً أكانوا منَ الخائضين أم لم يكونوا، فَهُمْ أَعمُّ منَ الّذين يخوضون[2]. والتّعبيرُ بالاسمِ الموصولِ فيه تشويقٌ لما يُذكَرُ في حيّز الصّلة؛ وغرضُهُ هنا النَّعيُ عليهم بفعلهم هذا.

إيثارُ التّعبيرِ عن ضلالهم بالاتّخاذ:

الفعلُ (اتّخذ) يفيدُ بذلَ الجهدِ، ولكن ليسَ كلُّ جُهْد صوابًا

قوله جلّ شأنُه: ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمۡ﴾؛ "أي: كَلَّفوا أنفسَهم في اتّباع الهوى بمخالفة العقلِ المستقيم، والطّبعِ الفِطريِّ السّليم، بأنْ أخَذُوا ﴿دِينَهُمۡ﴾ على نَمَطِ الأسخَفِ من دنياهم"[3]، "حيث سخِروا به واستهزؤوا، أو بنَوْا أمرَ دينهم على ما لا يَكاد يتعاطاه العاقلُ بطريق الجِدّ، وإنّما يصدُر عنه لو صدَر بطريق اللّعِبِ واللّهوِ كعبادةِ الأصنامِ، وتحريمِ البحائرِ والسّوائبِ، ونحوِ ذلك"[4].

دلالةُ إضافةِ الدّينِ إليهم:

الدّينُ المستهزأُ به، هو دينُهم الّذي ينبغي لهم اتّباعه

قوله جلّ شأنُه: ﴿ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمۡ﴾، عرّف الدّين بإضافته إليهم، ولم يَقُل: (اتّخذوا الدّين) بالتّعريف بالألف واللّام؛ للدّلالة على أنّهم اتّخذوا دينَهم الّذي كان ينبغي لهم لعبًا ولهوًا[5]، والدّين هو عنوانُ هُوّيةٍ للإنسان، وبه يُعرَفُ مشربُه، وتتحدّدُ معالمُ عقيدتِه،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/295.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/296.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/147.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/148.
(5) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/305، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/548.

وهو مَظْهَرُ العبادة، ومَلْمَحُ العبوديّة، الّتي خلقَ اللّهُ الإنسانَ من أجلها، حيث قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾ [الذّاريات: 56].

المرادُ بدينهم في قوله: ﴿ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا﴾:

الدّين الّذي اتّخذوه لعبًا ولهوًا، هو الإسلام

قوله جلّ شأنُه: ﴿ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ﴾ المرادُ بالدِّين هو الدّينُ الّذي دُعوا إليه، وهو الإسلامُ؛ لأنّه الدّينُ الّذي جاءَ إليهم، وهم مُخاطَبون به، ومُكلَّفون أن يتّبعوه، فهو دينُهم الّذي جاء به رسولٌ منهم[1]، وهو الدّين الّذي استهانوا به، واتّخذوه هزؤًا.

وفي هذا المضمارِ، قال صاحب المنار: "إنّ المُحَقِّقَ في الدّين هو الّذي ينصرُ الدّينَ، لأَجْلِ أنّه أقامَ الدّليلَ على أنّه حقٌّ وصدقٌ وصوابٌ، فأمّا الّذين ينصرونه لِيَتَوسَّلوا به إلى أخذِ المناصبِ والرّياسةِ، وغلبةِ الخصمِ، وجَمْعِ الأموالِ، فَهُمُ الّذين نصروا الدّين للدّنيا، وقد حكم اللّهُ على الدّنيا في سائرِ الآياتِ بأنّها لعبٌ ولهوٌ، فالمرادُ من قوله: ﴿وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا﴾ هو الإشارةُ إلى مَن يتوسّل بدينه إلى دنياه، وإذا تأمّلتَ في حال أكثرِ الخلقِ، وَجَدْتَهُم موصوفينَ بهذه الصّفةِ، وداخِلينَ تحت هذه الحالةِ"[2].

كَيْفِيَّةُ اتّخاذِ الخائضين الدّينَ لَعِبًا ولهوًا:

الاستهزاءُ لَعِبٌ ولهوٌ، وعُزوفٌ عنِ الجدِّ في عظائمِ الأمورِ

قوله جلّ شأنُه: ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا﴾، معنى اتّخاذه لعبًا ولهوًا: أنّهم سَخِروا به، واسْتَهْزَؤوا بمَنِ اتّبعه، وتَهَكَّموا على أهلِه، وأخذوا يخوضون فيه لعبًا في مجالسهم[3]، وقد أوَّلَه الزّمخشريُّ بأَوْجُهٍ: **الأوّل**: أنَّهُمُ اتّخذوا الدّين المفترَض عليهم، شيئًا من جنس اللّعب واللّهو، كعبادة الأصنام ونحوِها. والدّينُ

(1) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 7/15، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2550.
(2) رضا، تفسير المنار: 7/432.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/548، والآلوسّي، روح المعاني: 4/175، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2550.

المُفْتَرَضُ الواجبُ عليهم، وإنْ كان في الواقع دينَ الإسلام، لكن على هذا الوجه ليس المُرادَ به هذا المفهوم، بل مجرّد ما يَصْدُقُ عليه مفهومُ الدّينِ الواجبِ. **والثّاني**: أنّهم اتّخذوا اللّعبَ واللّهوَ دينًا لهم، كما صرّح به الزّمخشريّ. **والثّالث**: أنّهم اتّخذوا دينَهم، الّذي فُرِض عليهم وكُلِّفُوهُ، أعني الإسلام، لعبًا ولهوًا، حيث سخروا به واستهزؤوا. **والوجهُ الرّابعُ**: أنّ المرادَ بالدّين العيدُ الّذي يُعاد إليه كلَّ حين معهودٌ بالوجه الّذي شرعَه اللّهُ كعيد المسلمين، أو بالوجه الّذي اعتادوه منَ اللّعب واللّهو كأعياد الكفرة؛ لأنّ أصلَ معنى الدّين العادةُ؛ والعيدُ مُعتادٌ في كلّ عام[1].

سِرُّ التّعبير عنِ الكفر باتّخاذ الدّين لعبًا ولهوًا:

الكفرُ اتّخاذُ الدّين لَعِبًا ولهوًا، وهو دليلٌ على الطَّيْش وقِلّة المروءة

قوله جلّ شأنُه: ﴿ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمۡ لَعِبٗا وَلَهۡوٗا﴾ عبَّرَ عن كُفرِهم بالإسلام بأنّهم اتّخذوه لعبًا ولهوًا على سبيل الكناية؛ لأنّهم بنَوا أمرَ دينِهم على التّشهِّي، وعلى مسلكٍ لا يتعاطاه العقلاءُ بطريق الجِدّ[2]، ولمّا كان يجب على كلّ مُكلَّفٍ أن يَتديَّنَ بدينٍ، فإنّ هؤلاء تديَّنوا باللَّعِبِ واللّهو[3]، فَعمِلوا بما لا يُزكّي نفوسَهم، وأضاعوا الوقتَ فيما لا يفيد[4].

إيثارُ وَصْفِهم باتّخاذ الدّين هزؤًا، دون غيره منَ الصِّفات:

العلاقةُ بين اتّخاذِ الدّينِ لعبًا ولهوًا، وبين الخوضِ في آيات الله تعالى

قوله جلّ شأنُه: ﴿ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمۡ لَعِبٗا وَلَهۡوٗا﴾، آثَرَ أن يَصِفَ كفرَهم بكونهم اتّخذوا الدّينَ لعبًا ولهوًا، دون غيره منَ الصّفات؛ لأنّ اللّعبَ واللّهوَ يناسبان ما ذُكِرَ سابقًا، منَ الخوض بآياتِ اللّهِ تعالى، والاستهزاءِ بالدّين[5]، "حيث سَخِروا به واستهزؤُوا، أو بنَوْا أمرَ

(1) الخفاجيّ، عناية القاضي: 4/79.
(2) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 2/167، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/148.
(3) الطِّيبيّ، فتوح الغيب: 6/129.
(4) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 7/161.
(5) السّيوطيّ، قطف الأزهار: 2/892.

دينِهم، على ما لا يكاد يتعاطاه العاقلُ بطريق الجِدّ، وإنّما يصدُر عنه لو صدَر بطريق اللّعِبِ واللّهوِ"[1].

نُكْتَةُ الجمعِ بين صفتَي اللَّهوِ واللّعبِ:

قوله جلّ شأنُه: ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمۡ لَعِبٗا وَلَهۡوٗا﴾، جَمَعَ بين صفتي اللّعب واللّهو بيانًا لدوامِ لَعِبِهم، إذ ربّما يُظَنُّ أنّهم إذا انقضى اللَّعبُ، عادوا إلى الاشتغال بالدّين، فأَتْبَعَه بِذِكْرِ الباعثِ عليه وهو اللّهو؛ إشارةً إلى أنّه كلّما مَلُّوا اللّعبَ بَعثوا النّفوسَ إليه باللّهو[2]. ومعنى اتّخاذه لعبًا ولهوًا: أنّهم سَخِروا به واستهزؤوا، "واللّعبُ عملٌ يشغل النّفسَ وينفّرها عمّا تنتفعُ به، واللّهوُ صرفُها عنِ الجدّ إلى الهزل"[3]. يقول ابن عاشور: "وإنّما لم يَقُل: اتَّخَذوا اللّهوَ واللّعبَ دينًا لمكانِ قولِه: ﴿ٱتَّخَذُواْ﴾؛ فإنّهم لم يجعلوا كلَّ ما هو منَ اللَّهوِ واللَّعبِ دينًا لهم، بل عمدوا إلى أن يَنتَحِلُوا دينًا، فَجَمَعوا له أشياءَ منَ اللَّعبِ واللَّهوِ، وسَمَّوْها دينًا"[4].

مَن أَلِفَ اللّعبَ واللّهوَ أصبح طبعًا فيه، لا يَنفَكُّ عن تعاطيه

دلالةُ التّنكيرِ في لفظَي اللّهو واللّعب:

لا شكّ أنّ تنكيرَ اللّفظتَيْن هنا يفيد التّحقيرَ؛ لبيان أنّ سببَ ذلك الاتّخاذِ هو غرورُهم بالدّنيا، واعتقادُهم بأنّها غايةُ الوجودِ ونهايتُه[5]، فأَعْرَضوا عن حقيقة الدّين، واقتصروا على تزيين الظّواهر[6]، وهذا غرورٌ بالسّرابِ الخُلَّبِ، منَ الدّنيا الدّنيّة، الّتي تشرقُ وتومِضُ، ثمّ لا تلبثُ أن تنقلبَ على أهلها، فَتُكشِّرَ عن أنيابها، وتَقْلِبَ لهم ظَهْرَ المِجَنِّ، وتأتيَ مصائبُها تترى، والشّخصُ المغرورُ إذا رَكَنَ إليها، واطْمَأَنَّ إلى نعيمها، أَرَتْهُ ألوانًا منَ التّنكُّر، وقابلَتْهُ

الدّنيا دارُ غرورٍ، إذا أَضْحَكَتْ أَبْكَتْ، وإذا أَيْنَعَتْ نَعَتْ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/148.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/148.
(3) إسماعيل حقّي، روح البيان: 3/23.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/295.
(5) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2550.
(6) النّيسابوريّ، غرائب القرآن: 3/98.

بوجهها المكشِّرِ العبوسِ، فأَرَتْه من بعد ذلك ألوانًا منَ الحزن، وأصنافًا منَ الأَذِيّةِ، وقد قال النّابغة الذّبيانيّ:

المَرءُ يَأْمُلُ أَنْ يَعيـ *** ـشَ وَطُولُ عَيشٍ قَد يَضُرُّهْ

تَفنَى بَشَاشَتُهُ وَيَبـ *** ـقَى بَعدَ حُلوِ العَيشِ مُرُّهْ

وَتَخُونُهُ الأَيّامُ حَتّـ *** ـتَى لَا يَرَى شَيئًا يَسُرُّهْ

كَم شامِتٍ بِي إِنْ هَلَكـ *** ـتُ، وَقائِلٍ للّهِ دَرُّهْ[1]

نُكْتَةُ المجازِ في إسنادِ الغرورِ إلى الحياةِ الدّنيا:

لفظُ (الغرور) اكتفاءٌ بالدّنيا الغَرور، ونكرانٌ للبعثِ والنّشورِ

أسند قولُه جلَّ شأنُه: ﴿وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾، لفظَ (الغرور) إلى الحياةِ الدّنيا، والمرادُ لذّاتُها وشهواتُها، على سبيلِ المجازِ العقليِّ لعلاقةِ السّببيّةِ والمسبَّبيَّةِ، فهمُ اطمأنّوا بالدّنيا، حتّى زعموا أنْ لا حياةَ بعدها[2]، فعبَّر بذلك عن اعتقادِهم هذا، فهم يتصرّفون بشهواتهم، تَصَرُّفَ اللّاعبِ اللّاهي[3]، فغرّتهم الدّنيا، فقالوا: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [الأنعام: 29]"[4].

دلالة (أل) التّعريف في لفظ ﴿ٱلْحَيَوٰةُ﴾:

الحياةُ الدّنيا: زمانٌ قصيرٌ، وتنغيصٌ كثيرٌ

تعريفُ ﴿ٱلْحَيَوٰةُ﴾ باللّامِ العهديّةِ؛ للدّلالة على أنّ ماغَرَّهُم وخَسِروا بسببه الآخرةَ دارَ البقاءِ، إنّما هو هذه الحياةُ المعهودةُ بقِصَرِها، وكثرةِ منغِّصاتِها، يقولُ تعالى ذِكْرُهُ لنبيِّه: "ذرْ هؤلاء الّذين اتّخذوا دينَ اللّهِ وطاعتَهم إيّاه لعبًا ولهوًا، فجعلوا حظوظَهم من طاعتِهم إيّاه اللّعبَ بآياته، واللّهوَ والاستهزاءَ بها، إذا سمعوها وتُلِيَت عليهم، فأَعْرِضْ عنهم، فإنّي لهم بالمرصاد، وإنّي لهم من وراءِ الانتقامِ منهم والعقوبةِ لهم على ما يفعلون، وعلى اغترارهم

(1) الأبياتُ من شعر النّابغة الذّبيانّي، يُنظر: أبو تمّام الطّائّي، الوَحشيَّات (وهوَ الحمَاسَة الصُّغرى)، ص: 155، وأحمد مصطفى الهاشميّ، السّحر الحلال في الحِكم والأمثال، ص: 55.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/148.

(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/305.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/296.

بزينةِ الحياةِ الدّنيا، ونسيانِهم المعادَ إلى اللّه تعالى ذكرُه، والمصيرَ إليه بعدَ المماتِ"[1].

سرُّ نَعْت الحياةِ بوصف ﴿ٱلدُّنۡيَاۚ﴾:

الحياةُ دُنْيَا؛ لقلّة شأنها، وفداحةِ خسرانِ المغترِّ بها

وصفُ الحياةِ بالدّنيا: مأخوذٌ منَ الفعل دنا يدنو، بمعنى قَرُب، والأدنى: السَّفِل[2]، والدّنيء: الخسيس؛ وسُمِّيَتْ بذلك لدنوِّها؛ ولأنّها دنَتْ، وتأخّرَتِ الآخرةُ، وكذلك السّماءُ الدّنيا هي القربى إلينا، والدّنيا نقيضُ الآخرة[3]. فوصفها بالدّنيا للدّلالة على أنّها الحاضرةُ غيرُ المُنتَظَرَةِ، وأفادَت هذه الصّفةُ الاحترازَ عنِ الآخرة[4]، وهذا الوصفُ يدلُّ على تقليلِ شأنِها، والحطِّ من قدْرِها عندَ اللّهِ تعالى، وفي ذلك إشارةٌ إلى عِظَمِ خسارةِ الكافرين المغترِّين بها.

نكتةُ الإضمارِ في محلِّ الإظهارِ، في قوله ﴿وَذَكِّرۡ بِهِۦٓ﴾:

القرآنُ مُقدَّرٌ ذِكرُه في السّياق؛ لأنّ التّذكيرَ يكونُ بالقرآن أساسًا

قولُه جلَّ شأنُه: ﴿وَذَكِّرۡ بِهِۦٓ﴾ الضّميرُ عائدٌ على القرآن[5]؛ لأنّه معلومٌ بقرينة الحال[6]، فكأنّه مذكورٌ يعودُ الضّميرُ عليه[7]، فظهورُه أغنى عن ذِكْره[8]، وقد صرّح به في قوله: ﴿فَذَكِّرۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ۝٤٥﴾ [ق: 45][9]، والتّذكيرُ يناسبُ القرآنَ[10]؛ لأنّ التّذكيرَ باللّه، وبالبعث، وبالنّعيم، والعذاب، إنّما يكونُ بالقرآن[11].

---

(1) ابن جرير، جامع البيان: 11/441.
(2) الأزهري، تهذيب اللّغة: (دنا).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (دنا).
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/331.
(5) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 13/24، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/549، والنّسفيّ، مدارك التّنزيل: 1/513.
(6) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 7/161، والقاسميّ، محاسن التّأويل: 4/395.
(7) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2551.
(8) القونويّ، حاشية على البيضاويّ: 8/151.
(9) الخفاجيّ، عناية القاضي: 4/79، والآلوسّي، روح المعاني: 4/176.
(10) القونويّ، حاشية على البيضاويّ: 8/151.
(11) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/296.

بلاغةُ الإيجازِ بالحَذْفِ في قوله تعالى: ﴿وَذَكِّرۡ بِهِۦٓ﴾:

حذفُ المفعولِ به المعلومِ، مفيدٌ في إيجازِ العبارةِ

قولُه جلّ شأنُه: ﴿وَذَكِّرۡ بِهِۦٓ﴾، حُذف المفعولُ به للإيجاز، وذلك لدلالة قوله تعالى: ﴿وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمۡ لَعِبٗا وَلَهۡوٗا﴾ عليه؛ أي: وذكّرهم به[1].

فائدةُ الأمرِ بالتّذكير، بعدَ الأمرِ بتركِ الخائضين:

الأمرُ بالتّذكيرِ بعدَ الإعراضِ عنهم، رحمةً بهم، وطمعًا في إيمانهم

قولُه جلّ شأنُه: ﴿وَذَكِّرۡ بِهِۦٓ﴾، فيه أمرُ اللّهِ تعالى بتذكيرهم، بعدَ الأمرِ بالإعراضِ عنهم؛ تنبيهًا على عدمِ تركِهم في كلّ حالة؛ أي: دَعْهُمْ يفعلوا ما أرادوا، لا تبالِ بشيءٍ من ذلك، ولا تترُك وَعْظَهم بهذا القرآن[2]، فَأَمَرَهُ رحمةً بهم أن يذكّرَهم دائمًا[3].

دلالةُ المصدرِ المؤَوّلِ ﴿أَن تُبۡسَلَ نَفۡسُۢ﴾:

التّذكيرُ منهجٌ في البلاغِ جديرٌ، والعلّةُ فيه مخافةُ الإبْسالِ

قولُه جلّ شأنُه: ﴿أَن تُبۡسَلَ نَفۡسُۢ﴾ عبّر بالمصدر لبيانِ علّةِ الإنذارِ، فهو مفعولٌ من أَجْلِه لبيانِ علّةِ التّذكيرِ[4]؛ أي: خوفَ الإبسالِ، وكراهةَ أن تُبْسَلَ[5]، حتّى لا تُسْلَمَ إلى العذابِ وتُرتَهنَ به[6]، والمعنى: ذكِّرِ النّاسَ بالقرآن، اتّقاءَ أن تُبْسَلَ كلُّ نفسٍ في الآخرة بالعذاب[7].

فائدةُ تخصيصِ الإبسالِ بالتّذكيرِ:

خُصَّ الإبسالُ بالتّذكيرِ، لما فيه من مَغَبَّةِ سوءِ المصيرِ

قوله جلّ شأنه: ﴿وَذَكِّرۡ بِهِۦٓ أَن تُبۡسَلَ نَفۡسُۢ بِمَا كَسَبَتۡ﴾ أمَرَهُ بتذكيرِهم ووعظِهم بالإبْسالِ دون غيره، ممّا يكون التّذكيرُ له؛ لما فيه منَ التّهويلِ وسوءِ المصيرِ[8].

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/296.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/148 - 149، والقونويّ، حاشية على البيضاويّ: 8/151.

(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2550 - 2551.

(4) الصّاويّ، حاشية الصّاويّ: 2/22.

(5) السّيوطيّ، قطف الأزهار: 2/893، وابن جزيّ، التّسهيل: 1/265، والنّسفيّ، التّيسير في التّفسير: 6/110.

(6) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/36، والنّسفيّ، مدارك التّنزيل: 1/513، والعليميّ، فتح الرّحمن: 2/415.

(7) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 7/161.

(8) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/297.

الغرضُ من بناءِ الفعلِ للمجهول في ﴿أَن تُبۡسَلَ﴾:

الاهتمامُ مُنصَبٌّ على الإبسالِ ذاته؛ تعظيمًا له وتفخيمًا لشأنه

في قوله جلّ شأنُه: ﴿وَذَكِّرۡ بِهِۦٓ أَن تُبۡسَلَ نَفۡسُۢ بِمَا كَسَبَتۡ﴾، جاءَ الفعلُ مبنيًّا للمجهول؛ اهتمامًا بالإبسالِ نفسِه دونَ النّظرِ إلى كونه من معيّن؛ فهو إبسالٌ عظيمُ الشّأنِ لذاته؛ وفي ذلك تعظيمٌ له.

إيثارُ التّنكيرِ في قوله: ﴿نَفۡسُۢ﴾:

آثرَ التّنكيرَ للتّعميمِ المناسبِ في مقامِ الوعظِ

قولُه جلَّ شأنُه: ﴿أَن تُبۡسَلَ نَفۡسُۢ بِمَا كَسَبَتۡ﴾ آثرَ لفظَ التّنكير في ﴿نَفۡسُۢ﴾ في سياقِ الوعظِ؛ قصدًا للتّعميم بقرينةِ الوعظِ؛ وهو عامٌّ لكلِّ أحدٍ، كقوله تعالى: ﴿عَلِمَتۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ وَأَخَّرَتۡ ۝٥﴾ [الانفطار: 5]؛ أي: كلّ نفس[1].

الخلافُ في إسنادِ فعلِ ﴿تُبۡسَلَ﴾:

إسنادُ الفعلِ مَلمَحٌ جوهريٌّ في تَوَخّي العلائقِ بين عناصرِ التّركيب

في لفظ ﴿تُبۡسَلَ﴾، من قوله تعالى: ﴿أَن تُبۡسَلَ نَفۡسُۢ بِمَا كَسَبَتۡ﴾: يمكن أن يُرادَ بضميره الفِديةُ، على ما هو طريقُ الاستخدام، فَيَصِحُّ الإسنادُ إليه، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا يُؤۡخَذُ مِنۡهَا عَدۡلٌ﴾ [البقرة: 48]، لكنّه تكلُّفٌ لا حاجةَ إليه، مع صحّةِ الإسنادِ إلى الجارّ والمجرور، كما في قولك: (سيرٌ منَ البلد)، و(أخذٌ منَ المال)، وقال أبو حيّان: هو مُسْنَدٌ إلى ضميرِ المعدولِ به المفهومِ منَ السّياق.

وهذا بخلاف قوله ﴿وَلَا يُؤۡخَذُ مِنۡهَا عَدۡلٌ﴾ فإنّه المفدى به.

قالَ الطِّيبِيُّ: فإنْ قيلَ: كيف صحّ إسنادُه في هذه الآية، على تأويل المَفْديِّ به، ولم يصحّ في ﴿كُلَّ عَدۡلٖ لَّا يُؤۡخَذۡ مِنۡهَآۗ﴾؟ أجيب: بأنّه فيها لم يقع مفعولًا مطلقًا ابتداءً، بخلافه في الأخرى[2].

تقييدُ النّفسِ بالحالِ:

الافتقارُ لا يكونُ إلّا إلى الله الّذي لا وليَّ غيره ولا شفيعَ سواه

قولُه جلّ شأنُه: ﴿لَيۡسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٞ وَلَا شَفِيعٞ﴾، الجملة

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/297.
(2) السّيوطيّ، نواهد الأبكار: 3/363.

المنفيّة في محلِّ النّصبِ على أنّها حالٌ[1]، والمعنى: ذَكِّرْ بالقرآن كراهةَ أن تُبْسَلَ نفسٌ عادمةً وليًّا وشفيعًا[2]، إيقاظًا للنّاس.

فائدةُ ذِكْرِ (لا) النّافية في قوله ﴿وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾:

قولُه جلَّ شأنُه: ﴿لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾ كرَّرَ النّفيَ فقال: ﴿وَلَا شَفِيعٌ﴾، وكان يتأتّى أن يقول: (ليس لها وليٌّ وشفيع)؛ ليكونَ كلُّ لفظٍ منَ المنفيَّيْنِ مُستقلًّا بأداةِ نفيٍ، تأكيدًا لانتفائهما[3].

كرَّرَ النّفيَ؛ ليستقلَّ كلُّ لفظٍ بالنّفي تأكيدًا

فائدةُ تقديمِ الجارّ والمجرور ﴿لَهَا﴾:

قدّمَ النّظمُ الجارَّ والمجرورَ ﴿لَهَا﴾ في قولِه جلَّ شأنُه: ﴿لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾؛ اهتمامًا بشأنها؛ لأنّ سياقَ الحديثِ عنِ النّفسِ، فقدّمَ نفيَ امتلاكِها ما ينصُرُها على النّاصرِ.

قدّمَ النّظمُ الجارَّ والمجرورَ، اهتمامًا بالنّفس؛ لأنّ سياقَ الحديثِ عنها

دلالة ﴿مِن﴾ في قوله: ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾:

قولُه جلّ شأنُه: ﴿لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾، عبّر النّظمُ بـ ﴿مِن﴾ الدّالّة على ابتداءِ الغايةِ[4]؛ للدّلالة على أنّ بدايةَ الانتفاءِ واقعةٌ من دونِ اللّهِ تعالى، والمعنى: "ما لكم وليٌّ ولا ناصرٌ غيرُ اللّه تعالى"[5].

دلَّتْ (مِن) على ابتداء الغاية نفيًا لكلّ ناصرٍ غيرِ الله تعالى

الغرضُ منَ تنكير لفظي ﴿وَلِيٌّ﴾ و﴿شَفِيعٌ﴾:

آثرَ النّظمُ في قوله جلّ شأنُه: ﴿لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾، تنكيرَ (الوليّ والشّفيع)؛ للدّلالةِ على العموم، وأكّد ذلك العمُومَ مجيؤُهُ في سياق النّفي فَدَلَّ على الاستغراق، فلا يوجدُ مَن ينصرهم من عذابِ اللّه تعالى وحسابِه، وذلك تأييسٌ لهم وتفجيعٌ.

عدمُ وجودِ الوليِّ والشّفيعِ البتّةَ؛ هو مَحْضُ تَيْئيسٍ لهم

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/148، والآلوسّي، روح المعاني: 4/176 - 177.
(2) النّسفيّ، مدارك التّنزيل: 1/513.
(3) القونويّ، حاشية على البيضاويّ: 8/152.
(4) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/306.
(5) الآلوسّي، روح المعاني: 11/118.

غرضُ تقديمِ ﴿وَلِيٌّ﴾ على ﴿شَفِيعٌ﴾:

بدأ بالأخصّ وانتهى بالأعمّ، لأنّ الوليّ أقربُ منَ الشّفيع

في قوله جلّ شأنُه: ﴿لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾، قَدَّم الوليَّ على الشّفيع؛ لأنّ الوليَّ يدلُّ على القرابة والولاية، والشَّفيعَ أعمُّ؛ فهو لا يشترط أن يكون بينهما صلةُ قربى أو ولايةٌ، فقدّم الوليَّ لأنّه أخصُّ، ولأنّه أوّلُ مَن يُرجى بِرُّهُ، فَقُدِّمَ في النّفي زيادةً في التّفجيعِ والتّأييسِ، وهو كما يدلُّ السّياقُ مرحلتان؛ ما يحتاجُ إلى الوليّ، وما يحتاجُ إلى الشّفيع؛ فالمرحلةُ الأُولى: أنّه لا وجودَ لوليٍّ يَمنع ويُناصِر، في مَأْزِقِ الآخرةِ الكبيرِ، حيث العذابُ الأليمُ. والمرحلةُ الثّانية: ليس له مِن شفيعٍ يشفعُ عندَ مَن يملكُ النُّصْرةَ، وحدَه دون سواه، وهو اللّهُ، "فالّذي يُحِبُّكَ إنْ لم يَنصرْكَ بذاتِه، فإنَّه قد يشفعُ لك عند مَن يستطيعُ أن ينصرَك. وهذا أيضًا لا يوجد، لِمَن لم يتذكّرْ ويتَّعظْ، ولم يتّبعِ المنهجَ الإيمانيَّ"[1].

بلاغةُ عطفِ ﴿وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ﴾ على الآيةِ السّابقةِ:

ذِكْرُ الفداءِ بعدَ الوليّ والشّفيع استِئنافٌ لكلِّ سُبُلِ الخَلاصِ

الجملةُ في قوله جلّ شأنه: ﴿وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ﴾، معطوفةٌ على قوله تعالى: ﴿لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾[2]؛ لاشتراكِهما بِسُبل النّجاةِ والخلاصِ، فلمّا نَفَى انتفاعَهم بالولايةِ والشّفاعةِ، عطَفَ عليه نَفْيَ انتفاعِهم بالفداء، استقصاءً لنَفْيِ سُبلِ الخلاصِ بغير الإيمان، "وهذا ما يشيرُ إليه قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا﴾ [الأنعام: 158]، والمرادُ ببعض آيات ربّك، هو ما يكون بين يدَيِ السّاعة من علاماتٍ وإرهاصاتٍ"[3].

(1) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 6/3717.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/297.
(3) عبد الكريم الخطيب، التّفسير القرآنّي للقرآن: 4/213.

إيثارُ التّعبيرِ بالشّرطِ بـ ﴿إن﴾:

قوله جلّ شأنُه: ﴿وَإِن تَعْدِلْ﴾ جيءَ في الشّرط بـ ﴿وَإِن﴾ المفيدة عدم تحقّقِ حصولِ الشّرطِ؛ لأنّ هذا الشّرطَ مفروضٌ، كما يُفْرَضُ المُحالُ[1]، "والمرادُ من هذه الآيات وما في معناها، إبطالُ أصلٍ من أصولِ الوَثنيَّةِ، وهو تعليقُ النّجاةِ في الآخرة - كَنَيْلِ كثيرٍ منَ المقاصد في الدّنيا - بتقديمِ الفِدْيةِ للّه تعالى، أو بشفاعةِ الشّافِعينَ عنده؛ أي: بوساطةِ الوسَطَاءِ، وتقريرِ أصلِ الدّينِ الإلهيِّ، وهو أنّ النّجاةَ في الآخرة، ورضوانَ اللّه، والقربَ منهُ، لا تُنالُ إلّا بما شرعَهُ اللّهُ على ألسنةِ رسلِهِ منَ الإيمانِ والإسلامِ"[2].

لا شفاعةَ يوم القيامة عند الله، إلّا بما شرعه ورسّاه

الغرضُ من تأكيدِ الفداءِ:

أَكَّد في قوله جلّ شأنُه: ﴿وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ﴾ العدلَ المذكور؛ أي: إن تفدِ كلَّ فِداءٍ، فهو مصدرٌ مُؤكّدٌ[3]؛ لأنّ ﴿كُلَّ﴾ "منصوبٌ على المصدريّة؛ لأنّه بحسب ما يُضاف إليه؛ لأنّ العَدْلَ هنا مصدرٌ لوقوعه مفعولًا مُطلقًا"[4].

ودلّ التّأكيدُ على نفي فائدة الفداء؛ فإنّه مهما كان مُحقِّقًا الإيفاءَ بِالجُرْمِ، فإنّه لا يُقبَلُ، تأييسًا لهم - مِن انتظارِ العَوْنِ - من كلِّ شيءٍ.

أَكَّدَ العَدْلَ لِلقَطْعِ بأنّه لن يُقْبَلَ في كلّ حالٍ، حتّى لو كان وافيًا، تأييسًا لهم

السّرُّ بنفي قَبولِ الفداءِ، باعتبار أن لا فداءَ يومَ الحسابِ:

قوله جلّ شأنُه: ﴿وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ﴾، خاطَبَهم على ما تُدركه عقولُهم، وعَبَّر عنه بالافتراض فقال: ﴿وَإِن﴾، فلو كان في الآخرة فداءٌ، وقدّموا "كلَّ نوعٍ من أنواعِ الفداءِ، بما يقابل العذاب، لا يُقبَلُ

نفى الفداءَ على سبيل الفَرْضِ؛ لأنّه خاطبهم على ما تعارفوا

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/298.
(2) رضا، تفسير المنار: 7/434.
(3) النّسفيّ، مدارك التّنزيل: 1/513، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/148.
(4) الخفاجيّ، عناية القاضي: 4/80، والقونويّ، حاشية على البيضاويّ: 8/153.

منها، لبعدهم عن مقام الفداء"[1]، وفيه تأييسٌ لهم، وهو "إبطالٌ لأصلٍ من أصول الوثنيّة، وهو رجاءُ النّجاةِ في الآخرةِ، كما هو الحالُ في الدّنيا، بتقديمِ الفديةِ، وتقريرٌ لأصلٍ دينيٍّ، وهو أن لا نجاةَ في الآخرة ولا رضوانَ منَ اللّه، ولا قُرْبَ منه إلّا بالعمل بما شَرَعَه على ألسنةِ رُسُلِه، من إيمانٍ به، وعملٍ صالحٍ يزكّي النّفسَ ويطهِّرُها"[2].

إيثارُ التّعبيرِ بالنّكرةِ في لفظ ﴿عَدْلٍ﴾:

آثـرَ أن يـعـبّرَ بالتّنكيرِ ليشملَ كلَّ الفِداء

قولُه جلّ شأنُه: ﴿كُلَّ عَدْلٍ﴾ عَبَّرَ بالنَّكِرة للتّتميم والشُّمولِ والتّعظيم، والمعنى: "كلُّ شيءٍ يُظَنُّ أنّه يَعْدِلُها، ولو كان أنفَسَ شيءٍ"[3]، وقوله: ﴿وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ﴾؛ أي: إن تَفْدِ تلك النّفسُ كلَّ فِداءٍ لا يُؤْخَذْ مِنْهَ، على إسنادِ الفعلِ إلى الجارّ والمجرور، لا إلى ضميرِ العَدْلِ، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾ [البقرة: 48]، فإنّه المَفْدِيُّ به لا المصدرُ، كما نحن فيه"[4].

المجازُ في لفظ ﴿كُلَّ﴾:

عَبِّر بلفظ (كلّ) عن كثرةِ الفداءِ؛ فليس للفداء حدودٌ يُحاطُ بها

قوله جلّ شأنُه: ﴿وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ﴾ عبّر عنِ المبالغة في الفداء بإضافة لفظِ ﴿كُلَّ﴾ للمصدر ﴿كُلَّ عَدْلٍ﴾، وهذا التّعبيرُ مجازٌ في الكَثْرة، إذ ليس للفِداءِ حَصْرٌ حتّى يُحاط به كلّه، واستعمالُ (كلّ) بمعنى الكثرة، وهو مجازٌ شائعٌ، كقوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ﴾ [البقرة: 145][5].

جمالُ الجناسِ الاشتقاقيّ:

جمالُ التّعبيرِ اللّفظيّ، بإيرادِ ألفاظٍ من جذرٍ واحدٍ في جملةٍ واحدةٍ

قولُه جلّ شأنُه: ﴿وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ﴾ فيه جناسٌ اشتقاقيٌّ، حيث جاءَ اسمٌ وفعلٌ ﴿وَإِن تَعْدِلْ﴾، و﴿عَدْلٍ﴾، وكلاهما منَ الجذر

(1) القاسميّ، محاسن التّأويل: 4/395.
(2) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 7/162.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/149.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/148.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/298.

(عدل)، في جملةٍ واحدةٍ، وهذا يَخْلَعُ على الألفاظِ جمالًا في التّعبيرِ[1]، وتأكيدًا للمعنى.

دلالة المبنيّ للمجهول في قوله: ﴿لَّا يُؤۡخَذۡ مِنۡهَآ﴾:

قولُه جلّ شأنُه: ﴿لَّا يُؤۡخَذۡ مِنۡهَآ﴾، آثرَ التّعبيرَ بالأهمِّ، وهو انتفاءُ أخْذِ ذلك الفداء؛ لأنّه يحقّقُ الضَّررَ للّذين أُبْسِلوا، ذكرَه بصيغةِ المبنيِّ للمجهول؛ لأنّ المرادَ ليس بيانَ الآخذ، بل الاهتمام بعدم الأخذِ[2].

الاهتمامُ مُنْصَبٌّ على عدمِ الأخْذِ، لا على بيانِ الآخِذِ

الغرضُ منَ الاستئناف في ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ﴾:

قوله جلّ شأنُه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبۡسِلُواْ بِمَا كَسَبُواْۖ﴾، جملةٌ مُسْتَأْنَفَةٌ بيانيًّا، ذُكِرتْ إثرَ التّذكيرِ والتّحذيرِ منَ الإبْسالِ، إخبارًا وبَيانًا أنّ المُبْسَلينَ هم أُولئكَ المتَّخِذونَ دينَهُم لَعِبًا ولهوًا، وهُمُ الّذين أُبْسِلوا بما كَسَبُوا[3]؛ لأنّ الكلامَ يثيرُ سؤالًا عن حالِ الّذين اتّخذوا دينَهم لعبًا ولهوًا، من حالِ الّذين أُبْسِلوا، فأُجيبَ بأنّهم همُ الّذين أُبْسِلوا[4].

الأَوْلى بالإبْلاسِ، المتَّخِذون دينَهُم لَعِبًا ولهوًا

التّعبيرُ بالمسنَد إليه باسم الإشارة:

قولُه جلّ شأنُه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبۡسِلُواْ﴾ عَبَّرَ باسم الإشارةِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارةً إلى الّذين اتَّخذوا دينَهُم لَعِبًا ولهوًا، وغَرَّتْهُمُ الحياةُ الدّنيا[5]، ولم يُعبِّرْ عنهم بالضَّميرِ، فلم يَقُلْ: (همُ الّذين أُبْسِلُوا)؛ إشارةً إلى أنّ هؤلاء الّذين اتَّخذوا دينَهم لعبًا ولهوًا مشهورون ظاهرون، وأَمْرُهُم لا يَخفى، فَهْم بحيث يُشارُ إليهم.

لا تَتَحَقَّقُ الإشارةُ إلّا بمعروفٍ ظاهرِ الحضورِ والتّأثيرِ

إيثارُ التّعبيرِ باسمِ الإشارةِ الدّالِّ على البُعْدِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾:

قولُهُ جَلَّ شأنُه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبۡسِلُواْ بِمَا كَسَبُواْۖ﴾، آثَرَ التّعبيرَ باسم الإشارةِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾، وهو دالٌّ على البُعْدِ، ولم يَقُلْ: (هؤلاء)

التّعبيرُ على التّوَغُّلِ في الضَّلالِ، وقباحةِ اتّخاذِ الدّينِ لَعِبًا ولهوًا

(1) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 8/410.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/149.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/148.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/298.
(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/550، والخازن، لباب التّأويل: 2/124، والشّوكانّي، فتح القدير: 2/147.

إيذانًا بِبُعْدِ درجَتِهم في سُوءِ الحال[1]، وإعلامًا بِبُعْدِ درجَتِهم في الضّلال وسوءِ المصيرِ، مبالغةً في قباحةِ فِعْلِهم باتِّخاذِ الدّينِ لعبًا ولهوًا، وعبَّرَ باسمِ الإشارةِ الدّالِّ على الجَمْعِ للدّلالةِ على عموم الأَنْفُسِ.

دلالةُ التَّعبيرِ بالاسمِ الموصولِ، في ﴿ٱلَّذِينَ أُبۡسِلُواْ﴾:

قولُه جلّ شأنُه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبۡسِلُواْ بِمَا كَسَبُواْۖ﴾، عَبَّر عنهم بالموصولِ، والمرادُ بيانُ اتِّصافِهم بما ذُكِر في جملة الصِّلَةِ[2]، ولم يعبِّرْ عنهم بالصِّفَةِ بأن يقولَ: (أولئك المُبْسَلونَ)؛ لأنّ صلةَ الموصولِ تَتَضَمَّنُ معنى الحُدوثِ والقَطْعِ المعبَّرِ عنه بالفعل الماضي، ولأنّ التّعبيرَ بالاسمِ الموصولِ، فيه إبهامٌ ثمّ إعلامٌ، من خلال جملة صِلَةِ الموصولِ.

عَبَّرَ عنهم بالاسمِ الموصولِ إشارةً إلى ما في حَيِّزِ الصِّلةِ

السّرُّ في بناء ﴿أُبۡسِلُواْ﴾ للمفعول:

في قوله جلّ شأنُه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبۡسِلُواْ بِمَا كَسَبُواْۖ﴾، جاءَ الفعلُ مَبْنِيًّا للمجهولِ؛ تَهْويلًا لشأنِ الإبْسالِ، واهتمامًا به لذاته، لا لِكَوْنِه من مُعيَّنٍ، وفي ذلك مبالغةٌ في سوءِ ذلك الإبْسالِ، ومعنى الإبْسالِ لِلنَّفْسِ: أنْ تُسْلَمَ للهَلاكِ، أو أنْ تُحْبَسَ، أو أنْ تُرْتَهَنَ، أو أنْ تُجْزَى، ويُقال: (فُلانٌ مُسْتَبْسِلٌ): إذا اسْتَسْلَمَ لِلهَلاكِ، قالَ الشّاعرُ:

وَإِبْسَالِي بَنِيَّ بِغَيرِ بَعْوٍ *** جَرَمْناهُ ولا بدَمٍ مُرَاقِ[3]

وحقيقَةُ المَعنى: وَذكِّرْ بِهِ، لأنْ لا تُسْلَمَ نفسٌ لِلهَلاكِ بعملِها[4].

بُنِيَ الفعلُ للمفعولِ تعظيمًا لشأنِ الإبْسالِ، واهتمامًا به، لا لِكَوْنِه من مُعَيَّنٍ

بلاغةُ القَصْرِ بالتّعريف:

قولُه جلّ شأنُه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبۡسِلُواْ﴾، جيءَ بالتّعريف للجزأين المسنَدِ

جعلَ الإبْسالَ مقصورًا عليهم؛ لإفادةِ المبالغةِ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/148، والآلوسّي، روح المعاني: 4/177.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/148، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/298.

(3) البيت لعوف بن الأحوص، يُنظر: الزّجّاج، معاني القرآن: 2/287، والرّاغب، المفردات: (بسل)، وابن منظور، لسان العرب: (بعا)، والسّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 4/681، ونصّ الشّاهد من معجم لسان العرب.

(4) السّمعانّي، تفسير القرآن: 2/116.

إليه والمسنَد لإفادة القَصْر؛ أي: أولئك همُ المُبْسَلونَ لا غيرُهم[1]، حيث قَصَرَ صفةً على موصوف، فقَصرَ صفةَ الإبْسالِ عليهم، وهو قَصْرُ مبالغةٍ؛ لأنّ إبْسالَهُم هو أشدُّ إبسالٍ يقعُ فيه النّاسُ، فَجَعلَ ما عداه كالمعدوم[2].

دلالةُ الباءِ في قوله ﴿بِمَا كَسَبُواْۖ﴾:

قولُه جلّ شأنُه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبۡسِلُواْ بِمَا كَسَبُواْۖ﴾، دلّتِ الباءُ على السّببيّة؛ لبيانِ أنّ الجزاءَ الّذي نالوه، إنّما هو بسبب فِعْلِهم، وليس منَ اللّه تعالى، تبرئةً من نسبةِ الظُّلم إليه سبحانه؛ أي: أُسْلِموا إلى العذابِ، بسبب أعمالِهم القبيحةِ، وعقائدِهم الزّائغةِ[3].

الجزاءُ المرصودُ للذين أُبسلوا ليس ظُلْمًا، بل عَدْلٌ وجزاءٌ بالحقّ

فائدةُ التّعبيرِ بـ ﴿بِمَا﴾ في قوله: ﴿بِمَا كَسَبُواْۖ﴾:

في قوله جلّ شأنُه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبۡسِلُواْ بِمَا كَسَبُواْۖ﴾، عَبَّرَ بـ ﴿بِمَا﴾ المصدريَّةِ، والتّقدير: "أعمالهم القبيحة وعقائدهم الزّائغة"[4]؛ والتّعبيرُ بـ ﴿بِمَا﴾ المصدريّة يُفيدُ أنّ كَسْبَهُم عمومًا هو ما أودى بهم. ويمكن أن تكونَ ﴿بِمَا﴾ موصولةً على معنى أنّ إبْسالَهم كان بسببِ الّذي كَسَبوُه من أعمال.

الأعمالُ القبيحةُ المكتسَبةُ هي الّتي أوردَتْ أصحابَها المهالكَ

بلاغةُ الاستئنافِ بجملة ﴿لَهُمۡ شَرَابٞ مِّنۡ حَمِيمٖ﴾:

قولُه جلَّ شأنُه: ﴿لَهُمۡ شَرَابٞ مِّنۡ حَمِيمٖ﴾، استئنافٌ بيانيٌّ، يُبيّنُ كيْفيَّةَ الإبسالِ المذكورِ وعاقِبَتَهُ، وهو إجابةٌ عن سؤالٍ نشأَ منَ الكلام، كأنَّه قيل: ماذا لهم حين أُبْسِلوا بما كَسَبوا؟ أو: كيفَ حالُ هؤلاءِ؟ فقيل: لهم شرابٌ من ماء مَغْليّ[5]. فَبَيَّنَ ما صاروا مُرتَهَنين به، وهو الشّرابُ من حميمٍ، والعذابُ الأليم[6].

أَهمّيَّةُ الإجابةِ عن السّؤالِ المقدَّرِ، عن حالهم وجزائهم

(1) السّمعانّي، تفسير القرآن: 7/298.
(2) السّمعانّي، تفسير القرآن: 7/298.
(3) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 2/168، والخازن، لباب التّأويل: 2/124، وابن عجيبة، البحر المديد: 2/132.
(4) الآلوسّي، روح المعاني: 4/177.
(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/550، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/148، والشّوكانّي، فتح القدير: 2/147 - 148، والآلوسيّ، روح المعاني: 4/177، والقنّوجيّ، فتح البيان: 4/169، والجمل، الفتوحات الإلهيّة: 2/375.
(6) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 13/25.

العلّةُ بتخصيصِ ذِكْرِ الشّرابِ:

اعتبارُ الشّراب عذابًا؛ لأنّ في شرابهم زيادةً في عذابهم

قولُه جلَّ شأنُه: ﴿لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ﴾ خَصَّ الشّرابَ منَ الحَميم من بين بقيّة أنواعِ العذابِ المذكورِ؛ للإشارة إلى أنّهم يعطشون فلا يشربون إلّا ماءً يزيدُهم حرارةً على حرارةِ العطشِ[1]، فَذِكْرُ الشّرابِ يبيّنُ مزيدًا من أَوْجُهِ العذابِ الّذي سَيَنالونه. ومعنى الآية: أولئك الّذين أُبْسِلوا أُسْلِمُوا للهلاك بما كسبوا: ﴿لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ﴾[2].

العدولُ عنِ الاسمِ إلى الصّفةِ:

التّعبيرُ بالصّفةِ المشبَّهةِ مبالغةً في وَصْفِ حرارةِ الماءِ

قولُه جلّ شأنُه: ﴿لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ﴾، عَبَّرَ عنِ الماء الحارّ بـ ﴿حَمِيمٍ﴾، وهو صفةٌ مشبّهةٌ[3] على وزن (فعيل)، فاستَعْمَل اسمًا بمعنى الماء البالغ الحرارة[4]، فَعَدَلَ إلى الصّفة المشبَّهة لدلالتِها على الثُّبوتِ؛ أي: بمعنى بقائها زمانًا ثابتًا[5]، فَكأَنَّ صفةَ الحميم هي الماءُ ذاته، فهم يشربون منَ الحَميمِ لا من ماءٍ ساخنٍ، مبالغةً في حرارته؛ فهو حميمٌ لا يتغيّر ولا يَفتُر.

غرضُ تقديمِ شبهِ الجملةِ ﴿لَهُمْ﴾:

تقديمُ المسنَدِ على المسنَدِ إليه، دلالةٌ على أنّ الشّرابَ لهم دونَ غيرِهم

في قوله جلّ شأنُه: ﴿لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ﴾ قدّم الجارَّ والمجرور ﴿لَهُمْ﴾ على المبتدأ للدّلالة على التّخصيص، فـ ﴿شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ﴾ لهم وحدَهم دونَ غيرِهم. ويمكن أن يكونَ التّقديمُ لتعجيلِ المضَرَّة، "وقولُه: ﴿لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ﴾؛ أي: ماءٌ سَخِينٌ حارٌّ، خبرٌ ثانٍ لـ ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ﴾، والتّقدير: أولئك المبْسَلون ثابتٌ لهم شرابٌ من حَميمٍ أو مُستأنَفٌ[6].

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/299.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/299.

(3) الصّفةُ المشبّهةُ: وهي ما اشْتُقَّ من فعلٍ لازمٍ لَمن قام به على معنى الثّبوت. يُنظر: أبو الفداء، الكنّاش: 1/333، والحملاويّ، شذا العرف، ص: 63.

(4) محمود صافي، الجدول في إعراب القرآن: 4/187.

(5) أبو الفداء، الكنّاش: 1/334.

(6) النّسفيّ، مدارك التّنزيل: 1/514.

إيثارُ التّنكيرِ في لفظِ ﴿شَرَابٌ﴾:

في قوله جلّ شأنُه: ﴿لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ﴾، آثرَ التّعبيرَ بصيغة التّنكيرِ؛ تحقيرًا وتهوينًا لشأنِ شرابِهم، ولو قال: (لهم الشَّرابُ) لَدَلَّ على أنّه شرابٌ معهودٌ، وهم لا عهدَ لهم به. ويمكن أن يكونَ التّنكيرُ للتّنويع؛ أي: نوع منَ الشّراب غير الّذي عرفوه.

مِن أشدِّ أنواعِ العذابِ الأليمِ ما يتَجَرَّعون من شرابِ الحَميمِ

دلالةُ ﴿مِّنْ﴾ على البيان، في ﴿مِّنْ حَمِيمٍ﴾:

جاءَ النَّظْمُ في وصفِ شرابهم في قوله جلّ شأنُه: ﴿لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ﴾؛ لبيانِ نوعِ هذا الشّرابِ، فعَبَّر بـ ﴿مِّنْ﴾ الدّالَّة على البيانِ تَبْيينًا لنوعِ الشّرابِ. ويمكن أن تكونَ ﴿مِّنْ﴾ ابتدائيّة؛ أي: شراب يَبدأ منَ الحميم، حيث إنّهم صاروا رَهْنَ العذاب، وأُبْسِلوا بسبب ما اجْتَرَحوه منَ الذّنوب، سيكون شرابُهم، يومَ القيامة، من ماءٍ شديدِ الحرارةِ، يُوصَف بأنّه حميمٌ، ويتأكّد أنّ لهم عذابًا أليمًا، جزاءً لهم على كفرهم[1].

الوصفُ لعذابِ جهنَّمَ، تقريبٌ لِعِظَمِ العذابِ وهَوْلِه

دلالةُ إيثارِ التّنكيرِ في قوله تعالى ﴿مِّنْ حَمِيمٍ﴾:

في قوله جلّ شأنُه: ﴿لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ﴾، آثرَ التّعبيرَ بصيغة التّنكيرِ لتعظيمِ صفةِ الحرارة وتهويلِها، فهو ماءٌ حارٌّ مَغْليٌّ يَتَجَرْجرُ ويَتردَّدُ في بُطونهم وتتقطَّعُ به أمعاؤهم[2]. أو يكون التّنكيرُ للتّنويع على أنّه حميمٌ غيرُ الّذي يَعْهَدونَهُ.

الحميمُ شدّةُ حرارةِ الشّرابِ الّتي تقطّعُ الأمعاءَ، وتُلْهِبُ الأحشاءَ

إيثارُ التّعبيرِ عنِ المفعولِ بالصّفة المشبّهة:

قوله جلّ شأنُه: ﴿وَعَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، آثرَ التّعبيرَ عن عذابهم بالصِّفَةِ المُشَبَّهَة (فعيل)[3]، وأراد أنّه مُؤلِمٌ بصيغة مُفعِلٌ[4]، فعَبَّرَ بالصّفة المشبَّهة للدَّلالةِ على أنَّهُ بالِغُ الألمِ؛ لأنّه ألمٌ ثابتٌ لا يزولُ بِمرِّ الزّمنِ.

تنويعُ الصّيغةِ بما هو آثَرُ في الدّلالة، تعبيرٌ على شدَّة الأَلَمِ

(1) أسعد حومد، أيسر التّفاسير، ص: 860.
(2) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 2/168، والآلوسّي، روح المعاني: 4/177.
(3) محمود صافي، الجدول في إعراب القرآن: 1/56.
(4) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/306، والقنّوجيّ، فتح البيان: 4/169.

إيثارُ التّنكيرِ في لفظ ﴿عَذَابٌ﴾:

إيثارُ تنكيرِ (عذاب)؛ تعظيمًا لِشَأْنِه، وتَهويلًا لِشِدَّتِه

في قوله جلّ شأنُه: ﴿وَعَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، آثرَ التّعبيرَ بصيغةِ التّنكيرِ؛ تعظيمًا لشأنِ العذابِ، وتهويلًا له، ولو جاءَ التّعبيرُ بالتّعريف، كأن يقول: (والعذاب الأليم)، لَمَا دلّ على التّعظيمِ المُستَفادِ منَ التّنكير.

فائدة التّعبيرِ بالباءِ الدّالّةِ على السَّبَبِيَّةِ:

بيانُ السِّياقِ لِعَدْلِ اللهِ تعالى، وأنّه يُعاقِبُ مَن كَفَرَ بكُفْرِه

قَوْلُه جلَّ شأنُه: ﴿بِمَا كَانُواْ يَكۡفُرُونَ﴾، تعبيرٌ عن سبب ما نالوا منَ العذاب البَئِيسِ؛ إذ "الباء في: ﴿بِمَا كَانُواْ يَكۡفُرُونَ﴾ للسَّببيَّةِ، و(ما) مصدريَّةٌ"[1]، والتّقديرُ: ولهم عذابٌ أليمٌ بِكَوْنِهم يكفرون؛ وإنّما عَلَّلَ ذلك إظهارًا لعدل الله تعالى، ونَفْيًا للظُّلم عنه، فالعذاب إنّما وقعَ لهم بسبب كفرِهم[2]. ويمكن أن تكونَ (ما) موصولةً على معنى: بالّذي كانوا يكفرون فيه.

علّةُ التّفريقِ بين سببِ الإبْسالِ، وسببِ العذابِ الأليمِ:

التّناسبُ بين الإبْسالِ والضّلالِ، وبين العقاب وشدّة العذاب

قوله جلّ شأنُه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبۡسِلُواْ بِمَا كَسَبُواْۖ﴾، بَيَّنَ أنّهم نالوا الإبْسالَ بسبب كَسْبِهم، وفي قوله تعالى: ﴿لَهُمۡ شَرَابٞ مِّنۡ حَمِيمٖ وَعَذَابٌ أَلِيمُۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡفُرُونَ﴾ بَيَّن أنّهم نالوا ذلك الشّرابَ والعذابَ بسبب كُفرِهم؛ وذلك لما بين الجزاء والفعل منَ التّناسب؛ لأنّ الإبْسالَ هو الجنسُ المُطلَقُ منَ العذاب، فعُلِّق بالكسب المُطلَقِ، فـ (كسب) يتناول جميعَ المعاصي منَ الكفر وما دونه، وشراب الحميم والعذاب الأليم نوعٌ خاصٌّ منَ العذاب، فَعَلَّلَ بعقابٍ أخصّ، وهو الكفر[3].

السّرُّ في جعل العذاب مُسبَّبًا على الكُفْر:

الكفرُ أَصْلُ المعاصي، وعمدةُ أسبابِ العذابِ الأليمِ

قوله جلّ شأنُه: ﴿لَهُمۡ شَرَابٞ مِّنۡ حَمِيمٖ وَعَذَابٌ أَلِيمُۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡفُرُونَ﴾، ترتيب ما ذكرَ منَ العذابَيْنِ على كُفْرِهم، مع أنّهم معذَّبونَ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/299.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/148، والخازن، لباب التّأويل: 2/124، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 7/150.

(3) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/167.

بسائرِ معاصيهم، حسبما ينطقُ به قوله سبحانه: ﴿بِمَا كَسَبُواْ﴾؛ لأنّ الكفرَ هو العمدةُ في أسباب العذابِ، والأهمُّ في باب التّحذيرِ[1].

دلالة التّعبيرُ عن كُفْرِهم بالفعل ﴿كَانُواْ﴾:

الاستمرارُ في الكفرِ، استخفافٌ بأحكامِ الله، واستِنكافٌ عن مُرادِهِ

قولُهُ جلَّ شأنُه: ﴿بِمَا كَانُواْ يَكۡفُرُونَ﴾، لم يَقُلْ: (بما يكفرون)؛ لأنّ التّعبيرَ بـ (كان) يفيد الدّلالةَ على الاستمرار؛ "لأنّ (كان) إذا لم يُقصَدْ بها انقضاءُ خبرِها فيما مضى دلَّتْ على استمرارِ الخبرِ بالقَرينةِ، كقوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝٩٦﴾ [النّساء: 96]"[2]. وجاء فعلُ (كان) ليدلَّ على تمكُّنِ الكفرِ منهم، واستمرارِهم عليه؛ لأنّ فِعْلَ مادَّةِ الكَوْنِ تدلُّ على الوجود، فَالإخبارُ به عن شيءٍ مُخْبَرٍ عنه بغيره أو مَوْصوفٍ بِغَيْرِهِ؛ لا يفيدُ فائدةَ الأوصافِ، سوى أنّه أفادَ الوجودَ في الزّمنِ الماضي، وذلك مُسْتَعْمَلٌ في التّمَكُّنِ[3].

إيثارُ التّعبيرِ بالفعلِ المضارعِ ﴿يَكۡفُرُونَ﴾:

الكفرُ بالله وآياتِه يوجِبُ العذابَ ومَغبّاتِه

قولُهُ جَلَّ شأنُه: ﴿بِمَا كَانُواْ يَكۡفُرُونَ﴾، آثرَ التّعبيرَ بالفعل المضارع دون الفعل الماضي، فلم يَقُلْ: (بما كفروا) للدّلالة على أنّ كُفْرَهُم كان مستمرًّا متجدِّدًا[4]، وهو ما أوجبَ لهم العذابَ، "فكانوا يُحدثُون كلّ وقت من مظاهر ما أَوْجَبَ استحقاقَهُم لهذا الألم: فَمَرَّةً يَسْخَرون منَ النّبيّ ﷺ ومَنْ معه، ومرَّةً يؤذون المستضعَفين منَ المؤمنين، ومرّةً يقْطَعون عنهمُ الميرةَ، ويقاطعونهم وأهلَهم، ومرّةً يؤذون النّبيَّ ﷺ، وأخرى يخوضون في آيات اللّه تعالى، ويتّخذون الدّينَ الّذي بُعِثَ به رسولٌ منهم لَعِبًا ولهوًا! فهو كُفْرٌ مُستَمِرٌّ متعدِّدُ الوجوه، أساسُه الجحود، والآياتُ قائمةٌ"[5]. وبذلك الكُفْرِ الصُّراحِ

(1) الآلوسّي، روح المعاني: 4/177.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/239.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/299.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/148، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2552.
(5) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2552.

والعَمَلِ الوَقَاحِ؛ في محاربةِ اللّهِ ورسولِهِ، وإيذاءِ المؤمنينَ، والاسْتِهزاءِ بآياتِ الوَحْيِ المُبينِ، يستمرُّ كفرُهم، ويتجدّدُ زَيْغُهم، ويَصْدُقُ عليهم مضمونُ الآية.

بلاغةُ المتشابهِ اللّفظيّ:

التّقديمُ والتّأخيرُ في لَفْظَي (اللَّعِبِ) و(اللَّهْوِ): مجاراةُ الواقعِ في تقديمِ اللّعبِ على اللّهو؛ لاختلاف زمانهما

اجتمعَ لَفْظا (اللّهو واللّعب) في القرآن، في ستّة مواضِعَ؛ أربعة منها قَدَّمَ فيها اللَّعِبَ على اللَّهْوِ، وهي قوله تعالى: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ [الأنعام: 32]، ﴿وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا﴾، ﴿إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ [محمّد: 36]، ﴿ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ [الحديد: 20]، وموضعان منها قَدَّمَ اللَّهوَ على اللَّعِبِ، وهما قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا﴾ [الأعراف: 51]، ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ﴾ [العنكبوت: 64]. ولا شكّ أنّ اللَّهْوَ أعمُّ منَ اللَّعِبِ؛ إذ كلُّ لعبٍ لهوٌ لا العكس، فلِمَ قدَّم اللّعب في هذه السّورة وأخّره في غيرها؟ وجوابه: أنّه إنّما قَدَّم اللّعبَ، في المواضِعِ الأربعةِ؛ لأنّ زمانَ اللّعبِ - وهو زمانُ الصّبا - مقدَّمٌ على زمانِ اللّهو - وهو زمانُ الشّباب - فجاء التّقديمُ على الأصل. وقَدَّمَ اللّهوَ في سورة الأعراف لأنّ ذلك في القيامة؛ فبدأَ بما انتهى عليه الإنسانُ، وهو اللّهو. وأمّا تقديمُه في العنكبوت فَلأنَّ المرادَ بذِكْرِهما ذكرُ زمانِ الدّنيا، وإنّه سريعُ الانقضاء، قليلُ البقاء، ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ﴾ [العنكبوت: 64]؛ أي: الحياة الّتي لا غايةَ لأَمَدِها، ولا نهايةَ لأَبَدِها، فبدأ بذِكْرِ اللّهوِ؛ لأنّه في زمان الشّباب، وهو أكثرُ من زمان اللّعب الّذي هو زمان الصّبا[1].

(1) الكرمانيّ، غرائب التّفسير: 1/365 - 366.

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(العدل) و(الفداء):

"الفداءُ ما يُجعل بدلَ الشّيء، لينزلَ على حاله الّتي كان عليها، وسواء كان مثلَه أو أنقصَ منه، والعدلُ ما كان منَ الفداء مِثلًا لمَا يُفدَى، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾، وقال تعالى: ﴿أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا﴾ [المائدة: 95]؛ أي: مثله"[1]، فجاء التّعبيرُ عن فدائهم بالعَدْل، في قوله جلّ شأنُه: ﴿وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ﴾؛ لأنّ "الفاديَ يعدلُ الفداءَ بمثله"[2]، فعَبَّرَ بالعدل؛ للدّلالة على أنّهم يأتون بالفداء الّذي يُعادِل ما ارتكبوا[3]، ولم يعبّر بالفداء؛ لأنّ العدلَ أظهرُ في مقام التّعجيز عنِ التّخلص من آثامهم الّتي اجترحوها في سالِفِ حياتهم، فالمعنى: إنّهم وإن أوفروا بالفداء، فَجاؤوا بمثله على التّمام، فإنّه لن يُقبل منهم، ولذلك أَكَّدَه بقوله تعالى: ﴿كُلَّ عَدْلٍ﴾؛ لتأكيدِ انتفاءِ الفداءِ يومَ القيامة.

الفِداءُ ما يُجعَل بَدَلَ الشّيء، والعَدْلُ فِداءٌ فيه شَرْطُ المماثلةِ

(الكسب) و(الفعل):

"الكسبُ: الفعلُ العائدُ على فاعله بنفعٍ أو ضرٍّ، وقال بعضُهم: الكسبُ ما وقع بمراسٍ وعلاجٍ"[4]، وأمّا العملُ فإنّه أعمُّ منَ الكسب؛ "لأنّ الكسبَ واقعٌ على ما للإنسان فيه تعمُّلٌ وعلاجٌ"[5]، فعبَّرَ في قوله جلّ شأنُه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبْسِلُواْ بِمَا كَسَبُواْ﴾، بالكسبِ دونَ الفعلِ للإشارةِ إلى أنّهم قد فعلوا ذلك متقصّدين، لأنّهم يريدون الكسبَ[6]؛ لأنّ "الكسبَ: كلُّ عملٍ يعملُه الإنسانُ بِكَدِّهِ؛ لجلْبِ نفعٍ،

الكسبُ أخصُّ منَ الفعل؛ لأنّه مُشتمِلٌ على دَفْعِ ضررٍ أو جَلْبِ نَفْعٍ

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 298.
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/306، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/550، والسّخاويّ، تفسير القرآن العظيم: 1/253، والنّيسابوريّ، غرائب القرآن: 3/98.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2551.
(4) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 137.
(5) ابن الزبير الغَرناطيّ، ملاك التّأويل: 2/427.
(6) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2552.

أو دفعِ ضرٍّ، ولذلك لا يُوصَفُ فعلُ اللّه بالكسب؛ لأنّ فعلَه برئَ عن جلبِ المنافعِ ودفعِ المضارِّ"[1]، فأعمالُهم السّيّئةُ الّتي اجترحوها كانت بقصدٍ وتعمّلٍ وعلاجٍ؛ لأنّهم قصدوا الانتفاعَ بها، فكان التّعبيرُ بالكسب عن أفعالهم تلك في سياق الشّرّ أدقَّ وأبلَغَ.

(1) الواحديّ، البسيط: 7/81، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 19/54، والسّمعانّي، تفسير السّمعانّي: 2/87.

﴿قُلۡ أَنَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعۡقَٰبِنَا بَعۡدَ إِذۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِي ٱسۡتَهۡوَتۡهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِي ٱلۡأَرۡضِ حَيۡرَانَ لَهُۥٓ أَصۡحَٰبٞ يَدۡعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلۡهُدَى ٱئۡتِنَاۗ قُلۡ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلۡهُدَىٰۖ وَأُمِرۡنَا لِنُسۡلِمَ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٧١﴾ [الأنعام: 71]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

العلاقةُ بين جزاءِ المشركين، وثباتِ المسلمين على الهدى والدّين

لمّا ذكر جزاءَ الّذين اتّخذوا دينَهم لعبًا ولهوًا، بأنّه لا وليَّ لهم ولا شفيعَ، وأنّهم مُبْسَلونَ في عذابِ جهنّم؛ أَمَرَ نبيَّه ﷺ، بأن يقولَ لهم: كيف ندعُو مِن دون اللّه أصنامًا لا تنفعُنا، ولا نخشى ضرَّها، ولا تستحقُّ العبادةَ؟ وذلك توبيخًا لهم، وإنكارًا عليهم، ما يقومون به من عبادتها من دون اللّه[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَنفَعُنَا﴾: (نفع) أصلٌ يدلُّ على خلاف الضَّرِّ، والنَّفعُ: ما يُستَعَانُ به في الوُصولِ إلى الخَيرَاتِ، جاء النَّفعُ مقابلَ الضَّرِّ في القرآن كلّه، وذلك في كلّ شيءٍ بحسبه[2]، "وفي البصائرِ: هو ما يُستعانُ به في الوصول إلى الخير، وقد نَفَعَه نَفْعًا، وانتفع به، والاسم: المنفعة، وعليه اقتصر الجوهريّ"[3].

2) ﴿يَضُرُّنَا﴾: الضُّرُّ والضَّرُّ لغتان، فإذا جمعتَ بين الضَّرِّ والنَّفع فتحتَ الضّادَ، وإذا أفردتَ الضُّرَّ ضمَمتَ الضّاد إذا لم تجعله مصدرًا، كقولك: ضَرَرتُ ضُرًّا، هكذا يستعملُه العربُ. وقال اللّه تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلۡإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوۡ قَاعِدًا أَوۡ قَآئِمٗا﴾ [يونس:

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/150، والهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 8/411 - 412.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (نَفَعَ).
(3) الزَّبيديّ، تاج العروس: (نَفَعَ).

12][1]، و(ضرّ) أصلٌ، وهو خلافُ النّفعِ، والضُّرُّ: سوءُ الحال، إمّا في النّفسِ لقلّةِ العلمِ والفضلِ والعفّةِ، وإمّا في البدن لفقدانِ جارحةٍ، وإمّا في حالةٍ ظاهرةٍ من قلّةِ مالٍ وجاهٍ[2].

3) ﴿نُرَدُّ﴾: (ردد) أصلٌ يدلُّ على رَجعِ الشّيء، رَدَّ إليه جوابًا؛ أي: رجع، الرّدُّ: صرفُ الشّيء بذاته أو بحالةٍ من أحواله، عمّا هو عليه، وسُمِّيَ المرتَدَّ؛ لأنّه رَدَّ نفْسَه إلى كُفْرِه، ﴿وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعۡقَابِنَا﴾، نرجع ونصير إلى حالة الكفر، بعد أن فارَقْناهُ[3]؛ أي: نرجع إلى الكفر والشّرك[4]، تقول: رددتُ الشّيءَ أردّه ردًّا، وسُمِّيَ المُرْتَدَّ لأنّه ردّ نفسَه إلى كفره[5]. وقدِ ارْتَدَّ، وارْتَدَّ عنه: تَحوَّلَ، ومنه الرِّدَّةُ عنِ الإسلام؛ أي: الرّجوع عنه، وارتدَّ فلانٌ عن دينه، إذا كَفَر بعد إسلامه[6].

4) ﴿أَعۡقَابِنَا﴾: (عقب) أصلٌ يدلُّ على تأخُّرِ الشّيءِ، وإتيانِه بعد غيره، العَقِبُ: مُؤَخَّرُ القَدَم، وجمعه: أعقاب، ورجع على عَقِبِه: إذا انثنى راجعًا، وانقلبَ على عَقِبَيْهِ[7]. وكَذَلِكَ كلّ شَيءٍ خَلَفَ بعد شَيء، فَهوَ عاقِبٌ له، وقد عَقَبَ يَعقُب عَقْبًا وعقوبًا، ولِهَذا قيل لولد الرّجل بعده: هُمْ عَقِبُه"[8]، وقول النّبيّ ﷺ: «أنا العاقب»[9] يعني: آخر الأنبياء، وكلُّ مَن خَلَفَ بعد شيءٍ فهو عاقِبُه[10]، وقوله تعالى: ﴿وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعۡقَابِنَا﴾؛ أي: نَرْجِعُ منَ الهدى إلى الكفر والضّلال؛ وأصلُ الرّجوعِ على العَقِبِ إلى وراء، لِعِلَّةٍ في المشي، ثمّ استُعير في المعاني[11].

---

(1) الخليل، العين: (ضرّ).

(2) الجوهريّ، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (ضرّ، ضرر).

(3) الجوهريّ، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والسّمين، عمدة الحفّاظ: (ردّ، ردد).

(4) الزّجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 2/262، والنّسفيّ، مدارك التّنزيل: 1/514.

(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ردّ).

(6) الزّبيديّ، تاج العروس: (ردد).

(7) الجوهريّ، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (عقب).

(8) الجوهريّ، الصّحاح: (عقب).

(9) هذا طَرَفٌ من حديثِ جُبَيْرِ بنِ مُطْعِمٍ قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «إنَّ لي أَسْماءً: أَنا محمدٌ، وأَنا أحمدُ، وأَنا الماحي الّذي يَمْحو اللهُ بي الكُفْرَ، وأَنا الحاشِرُ الّذي يُحشَرُ النّاسُ على قَدَمي، وأَنا العاقِبُ الّذي ليسَ بَعْدَهُ نَبِيٌّ». أخرجه البخاريّ، صحيح البخاري، : الحديث رقم: (3532)، ومسلم، صحيح مسلم، الحديث رقم: (2354)، والتّرمذيّ، سنن الترمذي، - واللّفظ له -: الحديث رقم: (3052)، وأحمد، المسند، الحديث رقم: (16734)، وغيرهم.

(10) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (عقب).

(11) ابن الجوزيّ، تذكرة الأريب، ص: 97، وابن جزيّ، التّسهيل: 1/265، وابن عجيبة، البحر المديد: 2/133.

5) ﴿ٱسۡتَهۡوَتۡهُ﴾: (هوي) أَصلٌ يدلُّ على خُلُوٍّ وسُقوطٍ. أَصلُهُ الهوَاءُ بَينَ الأَرضِ والسَّماءِ، وهَوَى الشَّيءُ يَهوِي: سَقَطَ. واستهواهُ الشّيطان؛ أي: استَهامَهُ[1].

وقوله تعالى: ﴿ٱسۡتَهۡوَتۡهُ ٱلشَّيَٰطِينُ﴾ الاستهواءُ استفعالٌ مِن هَوَى في الأرض إذا ذهَب فيها كأنّها طلبت هُوِيَّهُ، وحَرَصَتْ عليه[2]؛ أي: سقوطه منَ الموضعِ العالي إلى الوَهْدَةِ العميقة[3]؛ أي: أَخرجَتْهُ عنِ الطّريق[4].

6) ﴿حَيۡرَانَ﴾: (حير) أصلٌ يدلُّ على التَّرَدُّدِ في الشّيء. وتَحَيَّرَ الماءُ: اجتمَعَ ودار. ورجلٌ حائرٌ بائِرٌ، إذا لم يتّجه لشيء. وحَيْران، وتحيَّر واسْتَحارَ: إذا تَبَلَّد في الأمر وتردَّدَ فيه[5]. قال تعالى: ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ حَيۡرَانَ﴾، الحَيْرة: هي التّردّد في الأمر لا يَهتدي إلى مخرَجٍ منه ولا يتوجّهُ له طريق[6]؛ أي: تائهاً ضالًّا عنِ الجادَّة، لا يدري كيف يصنع، كيف يسلك، وأين يذهبُ[7]. "وتَحَيَّرَ واستَحارَ: نَظَرَ إلى الشّيءِ، فَغُشِيَ عليه، ولم يَهتَدِ لسبيلِهِ، فهو حَيرانُ وحائِرٌ، وهي حَيْراءُ، وهم حَيارَى، ويُضَمُّ[8].

7) ﴿أَصۡحَٰبٌ﴾: (صحب) أصلٌ يدلُّ على مقارنةِ شيء ومقارَبَتِه، وكلُّ شيءٍ لاءَمَ شيئًا فقد استصحبه. والصّاحِبُ: الملازِمُ؛ إنسانًا كان أو حيوانًا، ولا يُقال في العُرْفِ إلّا لمَن كثُرَت ملازمتُه[9]، ﴿لَهُۥٓ أَصۡحَٰبٌ يَدۡعُونَهُۥٓ﴾؛ أي: رُفقة[10]، والصّاحب: المعاشِر، لا يتعدَّى تعدِّي الفعل، يعني: أنّك لا تقول: زيدٌ صاحبٌ عمرًا، لأنّهم إنّما استعملُوه استعمالَ الأسماء، نحو: غلامُ زيدٍ. ولو استعملوه استعمالَ الصّفة، لقالوا: زيدٌ صَاحِبٌ عمرًا، وزيدٌ صَاحبُ عَمرٍو، وعلى إرادةِ التّنوين كما تقولُ: زيدٌ ضَاربٌ عَمرًا، وزيدٌ ضاربُ عَمرٍو. تريدُ بغيرِ التّنوين ما تريدُ بالتّنوين[11].

---

(1) الجوهريّ، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (هوى، هوي).

(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/37، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 2/168، والنّسفيّ، مدارك التّنزيل: 1/514، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/149.

(3) النّيسابوريّ، غرائب القرآن: 3/99.

(4) ابن جزيّ، التّسهيل: 1/265.

(5) الجوهريّ، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (حير).

(6) الواحديّ، البسيط: 8/223، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/534، والنّيسابوريّ، غرائب القرآن: 3/99.

(7) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/37، والنّسفيّ، مدارك التّنزيل: 1/514، وابن جزيّ، التّسهيل: 1/265، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 7/151.

(8) الفيروزآباديّ، القاموس المحيط: (حير).

(9) الجوهريّ، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (صحب).

(10) النّيسابوريّ، غرائب القرآن: 3/99.

(11) الزّبيديّ، تاج العروس: (صحب).

❁ المَعْنى الإجْمالِيُّ:

إنكارُ ارتدادِ المسلمين عن عبادة الله، والأمرُ بالإسلام لربّ العالمين

يخاطبُ اللّهُ تعالى النّبيَّ بأنْ قُلْ للمشركين الّذين دَعَوكَ إلى دين آبائك: أَنَعْبُدُ الأصنامَ الّتي لا تنفعُ مَن عَبَدَها، ولا تَضُرُّ مَن ترك عبادتها، ونُرَدُّ إلى الشّرك، بَعْدَ أن هَدانا اللّهُ تعالى إلى دين الإسلام والتّوحيدِ[1]! والمقصودُ من هذه الآية الرّدُّ على عَبَدَة الأصنام، وتأكيدًا لقوله تعالى قبل ذلك: ﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [غافر: 66]، فقال: قُلْ: أَنَدْعو من دون اللّه؛ أي: أَنعبدُ مِن دونِ اللّهِ النّافعِ الضّارِ ما لايَقْدِر على نَفْعِنا، ولا على ضرِّنا، ونُرَدُّ على أعقابنا، راجعينَ إلى الشّرك بعد أن أنقذَنا اللّهُ منه، وهدانا للإسلام؟[2].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

الغرضُ منَ الاستئناف في جملة ﴿قُلْ أَنَدْعُواْ﴾:

التّأييسُ من ارتدادِ المسلمينَ عنِ التّوحيدِ، مَلمَحٌ قرآنيٌّ سديدٌ

قولُه جلّ شأنُه: ﴿قُلْ أَنَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا﴾، استئنافٌ ابتدائيٌّ لتأييس المشركين من ارتداد بعضِ المسلمين عنِ الدّين، فقد كان المشركون يحاولون ارتدادَ بعضِ قرابَتِهم، أو مَنْ لهم به صلةٌ[3]، "يَدلُّ السّياقُ على أنّ عَرْضًا منَ المشركين كان لبعض المؤمنين، لأنْ يعبدوا معهم آلهتَهُم، فأَمَرَ اللّهُ تعالى رسولَه أن يردّ عليهم عَرْضَهمُ الرَّخيصَ، مُنْكِرًا عليهم ذلك أشدَّ الإنكار"[4].

فائدةُ الأمرِ بالقولِ دونَ التّعبيرِ المباشرِ:

الأمرُ بالقول وتلقينُ المقولِ، بغرضِ تأكيدِ النّصِّ والمضمونِ

قولُه جلّ شأنُه: ﴿قُلْ أَنَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾، أمر اللّهُ تعالى النّبيَّ ﷺ والمسلمين، بأن يقولوا في احتجاجهم هذه المقالة[5]، فَيُجاهِرونَ

(1) الخازن، لباب التّأويل: 2/124.
(2) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 13/25.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/299.
(4) أبو بكر الجزائريّ، أيسر التّفاسير: 2/78.
(5) الشّوكانّي، فتح القدير: 2/148، والقنّوجيّ، فتح البيان: 4/170.

باستنكارِهم عبادةَ غير اللّه[1]. وتلقينُ القَولِ بمقولٍ ما يدلُّ على أهميَّتِه؛ لأنّه يجب أن يُقالَ بصيغةٍ لا يشوبُها شكٌّ، قَطْعًا لأطماعهم عنِ ارتدادهم[2].

الغرضُ المجازيُّ منَ الاستفهام في ﴿قُلۡ أَنَدۡعُواْ﴾:

قولُه جلّ شأنُه: ﴿أَنَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا﴾، جاء الاستفهامُ لغرضٍ مجازيٍّ وهو النّفيُ، للدّلالة على الإنكار والتّوبيخ[3]؛ أي: كيف ندعو أصناماً من دون اللّه لا تنفعُنا إن أردنا منها نفعًا، ولا نخشى ضرَّها، ومَن كان هكذا فلا يستحقُّ العبادةَ[4]، توبيخًا للمشركين[5]، فيقولون: (هل يصحُّ أن نعبدَ غيرَ اللّه، ممّا لا يملكُ جلبَ نفعٍ، ولا دفعَ ضرٍّ، وننتكسُ في الشّركِ، بعد أن هدانا اللّهُ إلى الإيمان)[6].

دلالةُ الاستفهامِ على نفيِ وقوعِ الشّركِ منَ المؤمنين، توبيخٌ للمشركين

بلاغةُ التّعبير بالدّعاء عن العبادة:

قولُه جلّ شأنُه: ﴿أَنَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ ذكرَ الدّعاءَ وأرادَ العبادةَ، فذكرَ الجزءَ وأراد الكلَّ[7] على سبيل المجاز المُرسَل؛ لأنّ الدّعاءَ يَعمُّ العبادةَ وغيرها؛ لأنّ مَن جعلَ شيئًا موضعَ دعائِه فقد عبدَه[8]، والدّعاءُ أظهرُ أشكالِ العبادةِ وأخصُّها.

الدّعاءُ أظهرُ أشكالِ العبادة، وهو وشيجةُ الوصلِ بالله

دلالةُ ﴿مِن﴾ في قوله: ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾:

عَبَّرَ النّظمُ القرآنيُّ في قوله جلّ شأنُه: ﴿أَنَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا﴾ بـ ﴿مِن﴾ الدّالّة على ابتداء الغايةِ، للدّلالة

تسليطُ نفيِ النّفعِ والضّرِّ على كلّ مدعوٍّ سِوى الله تعالى

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/306.
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/298، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/530، والآلوسّي، روح المعاني: 4/159.
(3) الجرجانّي، درج الدّرر: 2/718، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/551، وابن جزيّ، التّسهيل: 1/265، والنّسفيّ، التّيسير في التّفسير: 6/113، وابن عجيبة، البحر المديد: 2/133.
(4) القنّوجيّ، فتح البيان: 4/170.
(5) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2554.
(6) أسعد حومد، أيسر التّفاسير، ص: 861.
(7) القونويّ، حاشية على البيضاويّ: 8/154.
(8) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/306.

على أنّهم نَفَوا دعاءَ كلِّ أحدٍ غير اللّه تعالى، "هَذَا مَثَلٌ ضَرَبَه اللّهُ للآلهةِ وللدُّعاةِ الَّذين يدعونَ إِلَى اللّه، كَمَثَلِ رجلٍ ضَلَّ عَنِ الطَّرِيق تائهًا ضالًّا، إذ ناداه مُنَادٍ: فُلانَ بنَ فُلانٍ، هَلُمَّ إِلَى الطَّرِيق، وَله أَصحَابٌ يَدعُونَهُ: يا فُلانَ بنَ فُلانٍ، هَلُمَّ إلى الطَّرِيق، فَإِنِ اتّبع الدَّاعِيَ الأوّلَ، انْطَلَق بِهِ حَتَّى يُلقيه في هَلَكَةٍ، وَإِنْ أجَابَ مَن يَدعُو إِلى الُهدى، اهتَدَى إِلَى الطَّرِيق؛ وهذه الدّاعية الَّتي تَدعُو في البَرِيَّة الغيلان"[1]، يَقُول: مثلُ مَن يعبدُ هَذِه الآلهَةَ من دون اللّه فإِنَّهُ يرى أنّه في شَيءٍ حتّى يَأتِيهِ المَوتُ فيستقبل الهلكة.

فائدةُ التّعبيرِ بقوله: ﴿مِن دُونِ﴾ الدّالِّ على دُنوِّ الرُّتْبةِ:

قولُه جلّ شأنُه: ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾، عبّر عن غير اللّه تعالى بلفظ ﴿دُونِ﴾؛ إشارةً إلى تحقيرِ ما سواه وسُفولِه، أي: أَنَعبدُ متجاوزينَ عبادةَ اللّه الجامعِ لجميعِ صفاتِ الألوهيّةِ، ومنها: النّفع والضّرّ، إلى عبادةِ ما لايَقْدِرُ على نَفْعِنا ولا ضَرِّنا؛ وأدنى مراتبِ المعبوديّةِ القُدرةُ على ذلك[2]؟! وفيه إشارة إلى أنّه مهما كان في نَظَرِهم، فهو دون اللّه؛ لأنّ اللّهَ هو العليُّ المسيطرُ على كلّ شيء[3].

الإشـــارةُ إلى تحقيرِ ما سوى الله، وتدنّي رتبةِ ما عداه

السّرُّ بنَفْيِ النّفع والضّرّ في سياق نفيِ الشّركِ وإنكاره:

قولُه جلَّ شأنُه: ﴿أَنَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا﴾، نفى قدرةَ الأصنامِ على النّفع والضَّرِّ، لينفيَ اسْتِحقاقَهُمُ العبادةَ؛ لأنّ نفيَ استحقاقِ العبادةِ إنّما يكون بنفيِ القدرة[4]، فلمّا نفى ذلك عنهم، أَبانَ أنّه لا يمكن أن يَعبدوهم بحالٍ منَ الأحوالِ؛ ليكونَ المشركون على غايةِ اليأسِ من اتِّباعِ المسلمينَ لهم[5].

اتّـبـاعُ آلهتهم الـعـاجـزة، مُـسـتـنـكَـرٌ في العقل السّليم والدّين القويم

(1) السّيوطيّ، الدّرّ المنثور: 3/295.

(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/551، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/149، والآلوسّي، روح المعاني: 4/177، والجمل، الفتوحات الإلهيّة: 2/375.

(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2552.

(4) القونويّ، حاشية على البيضاويّ: 8/154.

(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/150.

العلّةُ بنفي النّفع والضّرّ، دون التّصريح بنفي القدرةِ:

نفيُ مُتعلَّقات القدرة، من النّفع والضّرّ، أبلغُ في نفي القدرة

قولُهُ جَلَّ شأنُه: ﴿أَنَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا﴾، نفى القدرةَ عنِ الأصنام بنفي القدرةِ على النّفع والضّرّ؛ لأنّ الواقعَ أنّهم لا يَقْدِرون على ذلك؛ ولأنّ نفيَهُما أبلغُ[1]؛ لِمَا فيه منَ النّصِّ على انتفاء أوجُهِ القدرةِ، الّذي يؤولُ إلى انتفاء القدرةِ منَ الأصل، "ولو كانت تستطيعُ الضّرَّ لأَضرَّتْ بالمسلمين؛ لأنّهم خَلَعوا عبادتَها، وسَفَّهوا أَتْباعَها، وأَعْلَنوا حقارَتَها"[2].

علّةُ تقديمِ ذِكْرِ النّفع على الضّرّ:

السّياقُ مضى في تعدادِ النِّعم؛ لأنّ الدّاعي إنّما يطلبُ النّفعَ

قولُه جلّ شأنُه: ﴿أَنَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا﴾، قَدَّمَ نفيَ النّفعِ على نفيِ الضّررِ؛ لأنّ نفيَ النّفعِ أَجْلَبُ للتَّرْكِ، إذ إنّ مَن يدعو إنّما يدعو لنفْعِه لَا للضّرر، ولذا قُدِّمَ عليه[3]، ولأنّ سياقَ سورةِ الأنعام فيه تعدادُ النِّعَم، كقوله: ﴿وَيُرۡسِلُ عَلَيۡكُمۡ حَفَظَةً﴾ [الأنعام: 61]، ﴿قُلۡ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ﴾ [الأنعام: 63][4].

جماليّةُ الطِّباقِ في قوله: ﴿مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا﴾:

تأكيدُ المعنى بالجمع بين النّفع والضّرّ في جملةٍ واحدةٍ

قولُه جلّ شأنُه: ﴿مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا﴾ طِباقٌ بين قوله: ﴿يَنفَعُنَا﴾، و﴿يَضُرُّنَا﴾، وهو منَ المحسِّنات البديعيّة[5]؛ حيث جمع بين كلمتين متضادّتين في المعنى، والمرادُ من ذلك تأكيدُ المعنى وتوضيحُه.

حكايةُ المقولِ بصيغةِ المتُكلِّمينَ:

السّياقُ يعمدُ إلى تأييسِ المشركين من ارتدادِ أحدٍ منَ المسلمين

قولُه جَلَّ شأنُه: ﴿قُلۡ أَنَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا﴾، أَمرَ اللّهُ تعالى نبيَّه ﷺ أن يقولَ هذه العبارةَ، بصيغةِ المُتكلِّمينَ، وما

(1) الخفاجيّ، عناية القاضي: 4/80.
(2) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 5/104.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2554.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/150.
(5) الصّابونّي، صفوة التّفاسير: 1/370.

بعده كذلك: ﴿وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعۡقَابِنَا بَعۡدَ إِذۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ و﴿وَأُمِرۡنَا لِنُسۡلِمَ﴾، فالنّبيُّ ﷺ كان يتكلّمُ ومعه المؤمنون[1]؛ ليلقي اليأسَ في قلوبِ المشركين من أن يعودَ أحدٌ إلى الشّركِ بعد الوحدانيّة[2].

بلاغةُ العطفِ في: ﴿وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعۡقَابِنَا﴾:

العطفُ على فعلِ الدّعوةِ في صدر الآيةِ؛ يُدخِلُه في النّفيِ والإنكارِ

قولُهُ جَلَّ شأنُه: ﴿وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعۡقَابِنَا بَعۡدَ إِذۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ عطفٌ على قوله: ﴿أَنَدۡعُواْ﴾[3]، فيكون داخلًا في حكم الإنكارِ والنّفي[4]، فكيف يردُّنا أحدٌ إلى الضّلال بعد الهدى، وإلى الباطل بعد الحقّ، والله تعالى هادينا[5].

السّرُّ بالتّعبيرِ بما لم يُسَمَّ فاعله في ﴿وَنُرَدُّ﴾:

البناءُ للمفعول اهتمامٌ بالرّدّ على الأعقاب، لا بِمَن حاولَ أنْ يردّ

قولُهُ جلَّ شأنُه: ﴿وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعۡقَابِنَا﴾ آثرَ التّعبيرَ بالأهمّ، وهو انتفاءُ ارتدادهم وإنكاره، فذكره بصيغة المبنيّ للمجهول؛ لأنّ نفيَه في هذا السّياق أهمُّ من بيان مَنِ الرّادُّ، فالمُنكَرُ هو الرّدُّ نفسه من أيِّ رادٍّ كان[6].

إيثارُ التّعبيرِ بـ ﴿وَنُرَدُّ﴾ دون (نرتدّ):

لم يعبّر بـ (نرتدّ) قطعًا لأطماعهم برجوع المسلمين إلى الشّرك

قولُهُ جَلَّ شأنُه: ﴿وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعۡقَابِنَا﴾ آثرَ التّعبيرَ بـ ﴿وَنُرَدُّ﴾ الدّالَّ على أحدٍ يردّهم، دون (نرتدّ) الدّالّ على الارتداد بأنفسهم؛ لتوجيه الإنكارِ إلى الارتدادِ بردِّ الغير، تصريحًا بمخالفة المُضلِّين، وقطعًا لأطماعهم، وإيذانًا بأنّ ارتدادَهم بأنفسهم ليس في حيِّزِ الاحتمالِ ليُحتاجَ إلى نفيه وإنكاره[7]، وأنّ التّفكيرَ في الارتداد الذّاتيّ أمرٌ غيرُ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/300، وطنطاويّ، الوسيط: 5/104.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2555.
(3) النّسفيّ، التّيسير في التّفسير: 6/113.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/149، والجمل، الفتوحات الإلهيّة: 2/375، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/300.
(5) الجرجانّي، درج الدّرر: 2/718، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2553.
(6) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/151.
(7) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/149، والآلوسّي، روح المعاني: 4/178.

واردٍ أصلًا، وإنّما الكلامُ عن وجود المحاولةِ اليائسةِ من مُريدِ ذلك من غيرِهم، كدليلٍ على رسوخ الإيمانِ وثباتِه.

السّرُّ في التّعبير عنِ الشّرك بالرّجوع على الأعقاب:

الشّركُ مقبَّحٌ في الذِّكر، منبوذٌ وراء الظَّهر

قولُه جلّ شأنُه: ﴿وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعۡقَابِنَا﴾، عبّر عنِ الشّرك بكونه رجوعًا على الأعقاب، بتصويره بصورة ما هو عَلَمٌ في القُبْح؛ زيادةً في تقبيحِه، وإشارةً إلى كون الشّركِ حالةً قد تُركَت ونُبِذتْ وراءَ الظّهر[1]؛ أي: أَنرجِعُ مُدْبِرينَ على أَعْقابِنا، مُنَكَّسِينَ بعد أن أبانَ اللّهُ الحقَّ واهتدينا، وذُقْنا حلاوةَ الإيمان[2].

بلاغةُ الاستعارةِ في قوله: ﴿وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعۡقَابِنَا﴾:

الرّجوعُ على الأعقابِ ارتدادٌ عنِ الدّين، وهو قَبيحٌ مستنكَرٌ في كلّ حين

قولُه جلّ شأنُه: ﴿وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعۡقَابِنَا﴾ شبّه الرّاجعَ عن دينه بالرّاجع على عَقِبِه، فَحَذفَ المشبّه وأَبقى المشبَّه بهِ للاستعارة التّصريحيّة، بجامعِ الرّجوعِ عنِ المقصد والتّخلّفِ عنِ التّقدّمِ، وذلك لِذَمّ الارتداد.

مَلْمَحِيّة الكِناية في قوله: ﴿وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعۡقَابِنَا﴾:

الرّدُّ على الأعقاب ضلالٌ بعدَ هدايةٍ، وجهالةٌ بعد عنايةٍ

قوله: ﴿وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعۡقَابِنَا﴾: "قيل: إنّه كنايةٌ عنِ الذّهاب من غير رؤيةِ موضعِ القدم، وهو ذهابٌ بلا عِلْم، بخلافِ الذّهابِ مع الإقبال. وخِطابُ (قُلْ)، وإنْ كان للنّبيِّ، لكن فاعلُ (ندْعُو) و(نُردُّ) عامٌّ له ولغيره، والمعنى: (أَيَليقُ بنا معاشرَ المُسلمين ذلك؟)، فلا يَرِدُ أن ذلكَ لم يكنْ منَ النّبيِّ ﷺ حتّى يُتصوّر ردّه إليه؛ لأنّه لتغليبِ مَن أسلم منَ المؤمنين، وليس مخصوصًا بالصّدّيق أيضًا، بسبب النّزول. وقيل: الرَّدُّ على الأعقاب بمعنى: الرّجوع إلى الضّلال والجهل، شِركًا أو غيره"[3]. وقيل: "أَنُردُّ إلى الضّلال بعد الهدى،

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/149، والآلوسّي، روح المعاني: 4/178، والقاسميّ، محاسن التّأويل: 4/396، والصّابونيّ، صفوة التّفاسير: 1/370.

(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2553، وطنطاويّ، الوسيط: 5/104.

(3) الخفاجيّ، عناية القاضي: 4/79.

وإلى الباطل بعد الحقّ، وإلى الظّلمات بعد النّور، وعبّر ﷻ عن ذلك بقوله: ﴿وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعۡقَابِنَا﴾"[1].

علّةُ دلالةِ الرّجوعِ على الأعقابِ على الذّمّ:

الرّجوعُ على العَقِبِ رجوعٌ منَ العِلم والهدى إلى الجهل والضّلال

قولُه جلّ شأنُه: ﴿وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعۡقَابِنَا﴾ استُعملَ لتقبيحِ الرّجوعِ منَ الإسلام إلى الكفر؛ لأنّه ذهابٌ من غير رؤيةِ مَوضِع القدم، فهو ذهابٌ بلا علمٍ بخلافِ الذّهاب مع الإقبال[2]، فاستُعملَ تمثيلًا في التَّلبُّس بحالةٍ ذميمةٍ فارَقَها صاحبُها ثمّ عاد إليها، وذلك أنّ مَن يخرجُ في حاجة فإنّه يمشي إلى غرضه مُتقدِّمًا، فإذا رجع قبل الوصول فقد أضاعَ مَشْيَه فيكون رجع على عَقِبَيْه[3]. "ويُقال لكلّ مَن أعرض عنِ الحقّ إلى الباطل: إنّه رجعَ إلى الخَلْف، ونَكَصَ على عقبَيْه، ورجعَ القَهْقَرى، والسّببُ: أنّ الأصلَ في الإنسان هو الجهلُ، ثمّ إذا ترقّى وتكامل حصل له العلم، قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ﴾ [النّحل: 78]، فإذا رجع منَ العلم إلى الجهل مرّةً أخرى، يُقال له: رُدَّ على عَقِبَيْه"[4].

إيثارُ التّعبيرِ عنِ الرِّدّة بـ﴿وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعۡقَابِنَا﴾:

عبارةُ (الرَّدّ على الأعقاب) أَبْلَغُ في الدّلالةِ على الذَّمِّ والاستقباحِ

قولُه جلّ شأنُه: ﴿وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعۡقَابِنَا﴾، تمثيلٌ لحالِ المرتدِّ إلى الشِّركِ بعد أن أَسْلَمَ، بحالِ مَن خرجَ في مُهِمَّةٍ فرجعَ على عقِبَيْه، ولم يَقْضِ ما خَرج له، وهذا أبلغُ في تمثيلِ سوءِ الحالةِ من أن يُقال: (نَرْجِعُ إلى الكفرِ بعدَ الإيمانِ)[5].

(1) الخفاجيّ، عناية القاضي: 4/79.
(2) الخفاجيّ، عناية القاضي: 4/80.
(3) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 13/25، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/300.
(4) وهبة الزّحيلّي، التّفسير المنير: 7/254.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/300.

تأكيدُ إنكارِ الارتدادِ بذِكْرِ الهدايةِ:

قولُه جلّ شأنُه: ﴿بَعۡدَ إِذۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾، عَقَّبَ بهدايةِ اللّه تعالى لهم، على نفيِ ارتدادِهِم وإنكارِه؛ لتأكيد ذلك النّفي والإنكار[1]، فكيف نَكْفُرُ بعد أنْ وَفَّقَنا اللّهُ للإيمان به، وأَنْقَذَنا منَ الشّرك[2].

الـرّدّةُ بالرّجوعِ إلى الكفرِ شقاءٌ؛ لأنّه سَلْبٌ بعد عطاءٍ

دلالةُ إسنادِ الهدايةِ لله تعالى:

قولُهُ جَلَّ شأنُهُ: ﴿بَعۡدَ إِذۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾، أسندَ الهدايةَ إلى اللّه تعالى، فلم يقُل: (إذ اهتدينا)، كأنّه قيل: أَنُرَدّ إلى ذلك بإضلالِ المُضلِّ بعد إذ هدانا اللّه الّذي لا هاديَ سِواهُ[3].

أُسـنِـدَ فعلُ الهدايةِ إلى الله سبحانه؛ لأنّه لا موفِّقَ للهُدى سِواهُ

بلاغةُ التّشبيهِ التَّمْثيليِّ:

قولُه جلّ شأنُه: ﴿كَٱلَّذِي ٱسۡتَهۡوَتۡهُ ٱلشَّيَٰطِينُ﴾، تشبيهٌ لمَن يدعو إلى الشّرك بعبادةِ الأصنامِ الّتي لاتَضرُّ ولاتَنفعُ، ولمَن يدعو إلى عبادة اللّه ﷻ الّذي يَضرُّ وينفعُ، ومعنى التّشبيه: "أَنُرَدُّ على أَعقابِنا مشبَّهين بالّذي استَهْوَتْه مَرَدَةُ الجِنِّ واستغوَتْه إلى المهالك؟"[4]. والخلاصةُ من هذا التّشبيه أنّ مَن يرتدَّ مشرِكًا بعد الإيمان كمَن جعلَه الجنونُ ضالًّا في الفَلَواتِ، حيرانَ لايَهْتدي، تاركًا رِفاقَه على الطّريق المستقيم، ينادونه: عُدْ إلينا، فلا يستجيبُ لهم لانْجِذابِه وراءَ ما تراءَى له بغيرِ عقْلٍ؛ وهذا مبنيٌّ على ما كانت تزعمه العرب وتعتقده من أنّ الجنّ تستهوي الإنسانَ، والغِيلان تستولي عليه"[5].

تـشـبـيـهُ حـالِ مـجـيـبِ داعـي الـضّـلال، بحالِ التّائهِ عن سبيلِ المحجَّةِ

دلالةُ صيغةِ الاستفعالِ في الفعل ﴿ٱسۡتَهۡوَتۡهُ﴾:

آثرَ التّعبيرَ بصيغة استَفعَلَتْهُ ﴿ٱسۡتَهۡوَتۡهُ﴾، ولم يقُل: (أهوَتْه

بـيـانُ أنّ المُـسْـتَـهْـوَى مـطـلـوبٌ على وَجْهِ المبالغةِ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/149.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/151.
(3) الآلوسّي، روح المعاني: 4/178.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/149.
(5) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/37، والنّسفيّ، مدارك التّنزيل: 1/514، والنّيسابوريّ، غرائب القرآن: 3/99، والمراغيّ، تفسير المراغيّ: 7/165.

الشّياطينُ) للمبالغة، كأنّها طلبَت من نفسها هُوِيَّهُ وحَرَصَت عليه[1]، والمبالغةُ تُظهِرُ بأنّ الهُوِيَّ كان مطلوبًا؛ وما كان مطلوبًا كان أجدرَ بالوقوع والتّحقُّق، وعلى هذا فـ ﴿ٱسۡتَهۡوَتۡهُ﴾ تأتي بمعنى: أَسقطَتْه، أو جاءَتْه من قبل هَواهُ.

توجيهِ القراءاتِ القرآنيّة في ﴿ٱسۡتَهۡوَتۡهُ﴾:

اختلافُ القراءة يَفْسَحُ المجالَ لأكثرَ من معنًى

قرأ الجمهورُ ﴿ٱسۡتَهۡوَتۡهُ﴾ بالتّاء السّاكنة من غير ألفٍ[2]، على تأنيث الفعلِ على معنى جماعة الشّياطين، وقرأ حمزة (استهواه) بألفٍ مُمالَةٍ بعد الواو[3]، على تذكير الفعل لكون الفاعل جمع تكسير، فالتّذكيرُ على معنى جمع الشّياطين.

نُكتةُ إيثارِ الجمع على الإفراد في لفظ ﴿أَصۡحَٰبٞ﴾:

التّعبيرُ بالجمع دونَ المفرَد دلالةٌ على تمكُّن الحَيرةِ والضّلالِ منه

قولُه جلّ شأنُه: ﴿حَيۡرَانَ لَهُۥٓ أَصۡحَٰبٞ يَدۡعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلۡهُدَى﴾: آثَرَ التَّعْبيرَ بصيغةِ الجَمْع: ﴿أَصۡحَٰبٞ﴾، لِبَيانِ تَمَكُّنِ الحَيرةِ منه، فَكَثْرَةُ النّاصحيَن مع عدمِ الاستجابةِ لهم، دليلٌ على تمكُّنِ الكفرِ[4].

دلالةُ مجيءِ الصّفةِ جملةً فعليّة مضارعيّة ﴿يَدۡعُونَهُۥٓ﴾:

إفادةُ تَجَدُّدِ الدّعوةِ إلى الهُدى واستمرارِ الحَيْرةِ

قولُه جلّ شأنُه: ﴿يَدۡعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلۡهُدَى﴾، صفةٌ لأصحابٍ؛ أي: لذلك المُستَهوَى رُفْقَةٌ يَهدونه إلى الطّريق المستقيم[5]، وعبّر بالفعل المضارع للدّلالة على استمرار دعوتهم له وتجدُّدِها، وفيه استحضارٌ للصّورة بزيادةٍ في بيانِ تمكّنِ الحَيْرةِ منه، فهو مستمرٌّ على حَيْرَتِه، وامتناعِه عن قَبول دعوةِ أصحابِه المتجدّدة.

فائدةُ التّعبيرِ المدعوّ إليه بالمصدر ﴿إِلَى ٱلۡهُدَى﴾:

التّعبيرُ عن الصّراط المستقيم على أنّه هو الهُدى نفسه

قولُه جلّ شأنُه: ﴿يَدۡعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلۡهُدَى﴾ الهدى مصدرٌ أُطلِقَ

(1) القونويّ، حاشية على البيضاويّ: 8/155.
(2) ابن الجزري، النشر: 2/258.
(3) ابن الجزري، النشر: 2/258.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/151.
(5) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/149.

على الصّراطِ المستقيمِ[1]، تسميةً للصّراط بالهُدى للمُبالغةِ، كأنّه نَفْسُ الهدى[2].

بلاغةُ الإيجازِ بالحَذْفِ:

في قوله جلّ شأنُه: ﴿يَدۡعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلۡهُدَى ٱئۡتِنَاۗ﴾، أَضْمَرَ فِعْلَ القول قبلَ قوله: ﴿ٱئۡتِنَاۗ﴾ لدلالة ﴿يَدۡعُونَهُۥٓ﴾ على ذلك؛ والتّقديرُ: يقولون له: ائْتِنا؛ أي: وله أصحابٌ يدعونه إلى الطّريق المستقيم قائلين له: دَعْ طريقَ الضَّلالِ، وعُدْ إلينا[3].

الإيجازُ جمالٌ للمَبْنى، وإيحاءٌ بالمعنى

الغرضُ من تَكْرارِ فعل الأمر ﴿قُلۡ﴾:

قولُه جلّ شأنُه: ﴿قُلۡ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلۡهُدَىٰۖ﴾، كرّر الأمرَ بالقول اعتناءً بشأن المأمورِ به؛ ولأنّ الّذي سَبَقَ كان للزَّجْرِ عنِ الشِّرك، وهذا حثٌّ على الإسلام[4].

تَكْرارُ القولِ يفيدُ اختلافَ المضمونِ المأمورِ بقوله

فائدةُ الأمرِ بالقول دونَ الإخبارِ:

قولُه جلّ شأنُه: ﴿قُلۡ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلۡهُدَىٰۖ﴾، أَمَرَهُ اللّهُ سبحانه بأن يقولَ لهم: إنّ هُدى اللّهِ؛ أي: دينَه الّذي ارْتَضاهُ لعبادِهِ هو الهُدى وما عَداهُ باطِلٌ[5]، والتَّلقينُ بمقولٍ يدلّ على أهميَّتِه، لِيُقالَ بصيغةٍ لا يَشوبُها تغييرٌ أو شَكٌّ[6].

بُطْلانُ كلِّ هدايةٍ غيرِ هدايةِ اللهِ تعالى هو مضمونُ القولِ هنا

فائدةُ إضافةِ الهدى إلى اللهِ تعالى في ﴿هُدَى ٱللَّهِ﴾:

قولُه جلّ شأنُه: ﴿قُلۡ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلۡهُدَىٰۖ﴾، تعريفُ المسنَدِ إليه بإضافته إلى اللّه تعالى؛ للدّلالة على الهُدى الواردِ مِن عنده ﷻ، وهو الدّينُ المحصورُ بالهداية، وهو هنا الإسلام، بقرينةِ قوله:

الهدى واردٌ منه ﷻ، ولذلك وَجَبَ الالتزامُ به

(1) الطِّيبِيّ، فتوح الغيب: 6/135.
(2) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 2/168، والنّسفيّ، مدارك التّنزيل: 1/514، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/551، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/149.
(3) النّسفيّ، التّيسير في التّفسير: 6/114، وطنطاويّ، الوسيط: 5/104.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/150.
(5) الشّوكانّي، فتح القدير: 2/148، والقنّوجيّ، فتح البيان: 4/171.
(6) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/298، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/530، والآلوسّي، روح المعاني: 4/159.

﴿بَعۡدَ إِذۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُۗ﴾[1].

اجتماعُ المؤكِّداتِ والقَصْرِ في قوله: ﴿إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلۡهُدَىٰۖ﴾:

الهدى من الله تعالى، وما خالفه ضلالٌ محضٌ

قولُه جلّ شأنُه: ﴿قُلۡ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلۡهُدَىٰۖ﴾، جاءتِ العبارةُ في غايةِ القوّةِ والتّأكيدِ؛ لأنّهم كانوا يزعمون "أنّ دينَهم هُدًى، فلذلك خُوطِبوا بصيغةِ القَصْرِ وهي: ﴿إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلۡهُدَىٰۖ﴾، فجيءَ بتعريفِ الجزأين، وضميرِ الفصل، وحرفِ التّوكيد، فاجتمع في الجملة أربعةُ مؤكِّداتٍ؛ لأنّ القصْرَ بمنزلة مؤكِّدَيْن؛ إذ ليس القصرُ إلّا تأكيدًا على تأكيدٍ، وضميرُ الفَصْلِ تأكيد، و﴿إِنَّ﴾ تأكيد، فكانَت مقتضى حالِ المشركين المنكِرين أنّ الإسلامَ هدًى"[2]. ويُضاف إلى ذلك أنّ النّظمَ بدأ بالفعل ﴿قُلۡ﴾، وتضمّنَ: ﴿إِنَّ﴾، وإضافةَ (الهدى) إلى اللّه تعالى، والتّصريحَ بِعَلَمِ الجلالة، وضميرَ الفصل، وتعريفَ الهدى تعريفَ الجنسِ الشّاملِ لأفرادِ الهدايةِ، وأسلوبَ الحصرِ بتعريفِ الجزأين، والتّعبيرَ بالجملة الاسميّة؛ وذلك تأكيدًا لمضمون الخبرِ وتقويةً له، وقطعًا لكلِّ شبهة قد يُثيرها مَن دَأَبَ على الجَدَل ومَرَنَ عليه، كقوله تعالى: ﴿فَمَاذَا بَعۡدَ ٱلۡحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُۖ﴾ [يونس: 32]"[3]؛ يعني: هو الهدى الكاملُ النّافعُ، كما إذا قلتَ: (عِلْمُ زيد هُو العلمُ)، معناه ما ذكرناه من تقريرِ أمرِ الكمالِ[4]، وهو قَصْرُ صفةٍ على موصوفٍ، فَقَصْرُ صفةِ الهدايةِ على هدايةِ اللّه تعالى هو قَصْرٌ حقيقيٌّ؛ لأنّ الهُدى حقُّ اللّه تعالى وحدَه حقيقةً وواقعًا، ومن هنا فقوله جلّ شأنُه: ﴿قُلۡ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلۡهُدَىٰۖ﴾، يفيدُ أنّ الهدى حقٌّ للّه تعالى وحده؛ لنفي الهدايةِ عن سواه؛ إذ كانوا يزعمون أنّ دينَهم

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/303.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/303.

(3) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 2/168، والنّسفيّ، مدارك التّنزيل: 1/514، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/150.

(4) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 13/26.

هدًى، فلذلك خُوطِبوا بصيغةِ القَصْرِ[1]، وهي بمعنى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ﴾ [آل عمران: 19][2].

دلالة (أل) التّعريف في قوله: ﴿ٱلۡهُدَىٰۖ﴾:

قولُه جلّ شأنُه: ﴿قُلۡ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلۡهُدَىٰۖ﴾، عرّف الهدى بـ (ال) الدّالّة على الجنس[3]؛ ليشملَ كلَّ أنواع الهدى، ليناسبَ الحَصْرَ؛ فليس الهدى المحصورُ هدًى واحدًا، بل إنّ كلَّ أنواع الهدى هي حقٌّ للّه تعالى وحدَه.

جميعُ أنواعِ الهُدى لله وحده، وما عداها وهمٌ وباطلٌ

بلاغةُ العطفِ في قوله تعالى ﴿وَأُمِرۡنَا﴾:

قولُه جلّ شأنُه: ﴿وَأُمِرۡنَا﴾ معطوفٌ على قوله تعالى: ﴿إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلۡهُدَىٰۖ﴾، فهو ممّا أُمِرَ بقوله وإعلانه[4]، فالعطفُ للدّلالة على أنّ الجملةَ داخلةٌ في المقول، فكلاهما مأمورٌ بقوله: (قلْ: هذا القول)، وقلْ: أُمِرنا ﴿لِنُسۡلِمَ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾"[5].

الأمرُ بالإسلام والأمرُ بالهدى، كلاهما مُعتَبرٌ في البلاغ

الغرضُ من بناءِ الفعلِ ﴿أُمِرۡنَا﴾ لِما لم يُسَمَّ فاعِلُه:

قولُه جلّ شأنُه: ﴿وَأُمِرۡنَا لِنُسۡلِمَ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، جاء الفعلُ مبنيًّا للمفعول؛ للإيجاز بحذف الفاعل، اعتمادًا على العِلْم به وشهرتِه؛ فالآمرُ هو اللّهُ تعالى، وكَوْنُ اللّهِ تعالى هو الآمر، معلومًا علمًا لا يقعُ فيه لَبسٌ، فأوجزَ اعتمادًا على ذلك.

عدمُ ذكرِ الفاعل في السّياق؛ لاشتهارِ أنّ الأمرَ منه تعالى دون غيره

فائدةُ التّعليلِ باللّام في قوله: ﴿لِنُسۡلِمَ﴾:

قولُه جلّ شأنُه: ﴿لِنُسۡلِمَ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، جاءتِ اللّامُ لتعليلِ الأمرِ بالقول[6]، وتعيينِ ما أُريد به، كأنّه قيل: أُمرنا بالإخلاص، لكي

الإسلامُ لله تعالى والانقيادُ له هو لُبُّ الهدى وغايةُ البلاغ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/303، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2555.
(2) الصّاويّ، حاشية الصّاويّ: 2/23.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/304.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/150.
(5) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 2/168، والنّسفيّ، مدارك التّنزيل: 1/515، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/553.
(6) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 7/19، والقنّوجيّ، فتح البيان: 4/171.

ننقادَ ونستسلمَ لربِّ العالمين[1]؛ أي: أُمرنا أن نقولَ ذلك عن خُلوصٍ طَويّةٍ لننقادَ لأمره[2].

إيثارُ التّعبيرِ بـ(لنفعل) دون (بأن نفعل):

بيانُ علّةِ الأمرِ يُحدّدُ الغايةَ منَ الصّيغةِ المتوخّاةِ

قولُه جلّ شأنُه: ﴿وَأُمِرۡنَا لِنُسۡلِمَ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، وردَ في الآية الكريمة التّعبيرُ ﴿وَأُمِرۡنَا لِنُسۡلِمَ﴾، ولم يقُل: (أُمرْنا بأنْ نُسلمَ)؛ لأنّ الباءَ للإلْصاقِ، فَتَدلُّ على وقوع الأمر بالإسلام، ولكنّه تعالى أراد أن يخبرَ بالعِلَّةِ الّتي لها وقَعَ الأمرُ، فعَبَّر باللّام الدّالَّة على التّعليل، والمعنى: أُمرْنا للإسلام[3].

دلالةُ اللّامِ على التّخصيص في قوله: ﴿لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾:

إخلاصُ الدّين لله تعالى هو جَوْهرُ الامتثالِ والعبوديّةِ

عَبَّر النَّظْمُ عن إخلاص الدّينِ كلِّه لله تعالى، بإدخالِ لام التّخصيصِ على لفظ الجلالة، في قوله جلّ شأنُه: ﴿وَأُمِرۡنَا لِنُسۡلِمَ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، والمعنى: "وأُمِرْنا بأنْ نُسْلِمَ، ونُخْلِصَ العبادةَ لله ﷻ مالكِ العالمين؛ فأَسْلَمْنا؛ لأنّه هو الّذي يستحقّ العبادةَ منّا، لا غيره"[4].

التّعبير بالاسم الظّاهر في ﴿لِنُسۡلِمَ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾:

رُبوبيّةُ الله للعالمين هي عِلّةُ وجوبِ انقيادِ النّاسِ له أجمعين

قولُه جلّ شأنُه: ﴿وَأُمِرۡنَا لِنُسۡلِمَ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ عَبَّروا عن أمرِهم بالإسلام لله ربّ العالمين، فأَظْهَروا الاسمَ الجليل فقالوا: ﴿لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، وكان ظاهرُ السّياقِ أن يقولوا: (لنسلمَ له)، فأقاموا الظّاهرَ مقامَ المضْمَرِ، تنبيهًا على سببِ اسْتِحْقاقِهِ أن ينقادَ له النّاس؛ وهو أنّه مالِكُ العَوالمِ كلِّها[5].

---

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/37، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 2/168، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/553، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/150.

(2) الخفاجيّ، عناية القاضي: 4/81.

(3) الزّجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 2/262، والواحديّ، البسيط: 8/226.

(4) الهرويّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 8/416.

(5) السّيوطيّ، قطف الأزهار: 2/895.

إيثارُ التّعبيرِ بكَوْنِه ربَّ العالمين:

وصفُ الله بأنّه ربُّ العالمين، تعليلٌ لِلأَمْرِ بالإسلامِ له

قولُهُ جَلَّ شأنُه: ﴿لِنُسۡلِمَ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ وَصَفوا إسلامَهم بأنّه لربّ العالمين؛ تنبيهًا على أنّه مالكُ العالمِ كلِّه، ومِن ضِمْنِه تلك الأصنامُ الّتي عَبَدها المشركون[1]، وقد كان الإعراضُ عنِ المالك، وعِبادةُ المملوك، دليلًا على سَفَهِ الاختيارِ، وسوءِ القرارِ، فكان أنْ جاء السّياقُ مؤكِّدًا الأمرَ بالإسلام للمالِكِ لا لِلْمَمْلوكِ؛ وفي ذلك وعظٌ حكيمٌ، وتنبيهٌ لطيفٌ إلى الحقيقة الجَليَّةِ البعيدةِ عنِ التّزييف، كما أنّ في هذا الوصفِ تعليلًا للأمْرِ بالإسلام، وتأكيدًا لوجوبِ الامتثالِ له[2]، بحيثُ يكون المعنى: وأُمِرْنا أن نُخْلِصَ العبادةَ ﴿لِنُسۡلِمَ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾؛ لأنّه هو الّذي يستحقُّ العبادةَ لا غيره[3]. وفي ذِكْرِ اسمِ اللّه تعالى بوَصْفِ الرّبوبيّة لجميع الخَلْقِ، دونَ اسْمِه العَلَم، إشارةٌ إلى تعليل الأمرِ وأحَقِّيّته[4].

المتشابِهُ اللّفظيُّ:

العبادةُ والدّعاءُ يُقدَّمان في النَّفْعِ، ولَفْظا المُلك والقُدْرَة بِعَكْسِهما

قولُه جلّ شأنُه: ﴿قُلۡ أَنَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا﴾، جاء بتقديم النّفعِ على الضَّرّ، وكذلك في سورة الأنبياء: ﴿مَا لَا يَنفَعُكُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يَضُرُّكُمۡ ٦٦﴾ [الأنبياء: 66]، وفي مَواضِعَ أُخرى كما في يونسَ والحجّ والفُرقان وغيرها: يُقدَّم الضَّرُّ على النّفع، كقوله تعالى: ﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمۡ وَلَا يَنفَعُهُمۡ﴾ [يونس: 18]، وعلَّةُ ذلك أنّ دَفْعَ الضّرّ أهمُّ من جَلْبِ النّفعِ، فلمّا تقدّم ذِكْرُ نفي المُلك والقدرة عنهم، كان تقديمُ ذكرِ دفْعِ الضّرِّ، وانتفاءِ القدرةِ أهمَّ، أمّا في سِياقِ العبادةِ والدّعاءِ فإنَّ المقصودَ بهما غالبًا طلبُ النّفعِ وجلبِه، فكان تقديمُ النّفع أهمَّ[5].

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/554.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/150.
(3) الخازن، لباب التّأويل: 2/124، والقنّوجيّ، فتح البيان: 4/171.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/304.
(5) ابن جماعة، كشف المعاني، ص: 162، والسّيوطيّ، قطف الأزهار: 2/893.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(الرِّدَّة) و(الرُّجوع):

الرِّدَّةُ: الرّجوعُ في الطّريق الّذي جاءَ منه، وكذا الارتدادُ، لكنّ الرّدَّةَ تختصُّ بالكفر، والرّجوعَ أعمّ، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرۡتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدۡبَٰرِهِم﴾ [محمّد: 25][1]. فالرِّدَّةُ عَوْدٌ خاصٌّ، وهو العَوْدُ إلى الحالة الأُولى الّتي كان الإنسانُ عليها منَ الجهل[2]، فكان التّعبيرُ بـ ﴿وَنُرَدُّ﴾ أنسبَ وأدقَّ؛ لأنّها في سياق تركِ الإسلامِ والرّجوعِ إلى الكفر.

الرِّدّةُ رَجْعَةٌ مقصودةٌ منَ الإيمان إلى الكفر والرّجوعُ عامٌّ من كلّ شيء

(الصَّديق) و(الصَّاحب):

"الصّداقةُ اتّفاقُ الضَّمائرِ على المَوَدَّة، فإذا أَضْمَرَ كلُّ واحد منَ الرَّجُلَيْنِ مودَّةَ صاحبِه، فصار باطِنُه فيها كظاهِرِه، سُمِّيا صديقَيْنِ"[3]، و"الصّحبةُ تفيد انتفاعَ أحدِ الصّاحبَيْنِ بالآخَر"[4].

الصّداقةُ منَ الصِّدْقِ، والصّحبةُ قد تكون في الصّدق وفي غيره

وللصّدِيق خصوصيّةٌ ينمازُ بها عنِ الصّاحبِ، وبذلك جاءَت آياتُ القرآن الكريم، فنجد أنّ الصّديقَ يحظى بمكانة رفيعة، قال تعالى: ﴿أَوۡ صَدِيقِكُمۡۚ﴾ [النّور: 61]، فذكر الصّديقَ في سياق مَن يُؤكل في بيته، وقُرن مع ذِكْر الأقاربِ، ومنه قولِه تعالى: ﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ١٠٠ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٖ ١٠١﴾ [الشّعراء: 100 - 101]، حيث يصفُ حالَ المُشركينَ، وهُم يصرخونَ في النّار، نافيًا وجودَ صديقٍ، وهذا يبيّنُ مكانةَ الصّديق، وأمّا الصّاحبُ فوَرَد له استعمال آخرُ غير ما مضى، فقد تكونُ الصُّحبةُ بينَ مُسلم وكافر، كما في قولِه تعالى: ﴿قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرۡتَ بِٱلَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٖ﴾ [الكهف: 37]، وقد تكونُ الصُّحبةُ بينَ نبيٍّ وكافرٍ، كما في صُحبةِ النّبيّ يوسف عليه السلام لِمن كانَ معَه في السّجن. ولذا فإنّ المرادَ من قوله جلّ جلاله:

(1) الكفويّ، الكلّيّات، ص: 477.
(2) النّيسابوريّ، غرائب القرآن: 3/99.
(3) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 285.
(4) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 283 - 284.

﴿لَهُۥٓ أَصۡحَٰبٌ يَدۡعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلۡهُدَى ٱئۡتِنَاۗ﴾، مجرّدُ الأصحابِ المرافقين في الطّريق، من غير أن يكونَ بينهم لونٌ منَ الودّ، أو شيءٌ من قوّة القُرْبِ والانسجامِ.

ثُمَّ قد ترِدُ الصُّحبَةُ بخصوصيّة أخرى تُمثّلُ وصفًا راقيًا بحسبِ الموصوفِ بِها، فصاحبُ النّبيّ ﷺ في الغار وُصِف بالصّحبة لشرف المصحوب، وتمثّل كذلك حالًا ملازِمًا للصاحب في معنى اصطحاب المصحوب وكثرة ملازمته، بما لا يتوفّر في معنى الصّديق.

﴿وَأَنْ أَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّقُوهُۚ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ٧٢﴾ [الأنعام: 72]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

بعد أن ختمَ الآية السّابقة بالأمر بالإسلام لله ربّ العالمين، أَتْبَعَهُ بذِكْرِ الأمرِ بأهمِّ شرائعِ الإسلام، ومنها: إقامةُ الرّكنِ الأساسِ في الدّين، وهو الصّلاةُ، ثمّ أَمَرَ المؤمنين بالتّقوى، وهي خشيةٌ لله واستشعارٌ لعظمتِه في الظّاهر والباطن، فهو الّذي إليه تُحشَر الخلائقُ بِرُمَّتِها، يومَ يقوم النّاسُ لربّ العالمين، فيُحاسِبُهُم على أعمالهم كلِّها، في يوم الحشر العظيم. وإقامةُ الصّلاة والتّقوى، هما الأمران اللّذان يكون بهما التّحضيرُ لذلك الموقفِ المهيبِ، حيث تتطايرُ الصّحائفُ، ويشتدُّ الهَلَعُ، والنّاسُ من بعد الحشر والحساب إمّا إلى الجَنّة، وإمّا إلى النّار.

بعدَ الأمرِ بالإسلامِ لربِّ العالمين، أَورَدَ الأمرَ بالصّلاة والتّقوى

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تُحْشَرُونَ﴾: منَ الحشر، وأهل اللّغة يقولون: الحَشْرُ: الجَمْعُ مَعَ سَوْقٍ، وكلُّ جمعٍ حشرٌ، قال الله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [الفرقان: 17][1]، وقال النّبيّ ﷺ، "قال: إنّ لي أسماءً، وعَدَّ فيها: وأَنا الحاشِرُ؛ أي: الّذي يُحشَر النّاس خَلْفَه وعلى مِلَّتِه، دون ملَّةِ غيره"[2]. و(حشر) أصلٌ يدلُّ على جمعٍ مع السَّوْق والبَعْثِ والانبعاثِ، أَحشُرُهُمْ حَشْرًا: جمعتُهم، ومنه يومُ الحَشْر. والحَشْرُ: إخراجُ الجماعةِ عن مَقَرِّهِم وإزعاجُهُم عنه إلى الحرب ونحوها[3]. وقوله جلّ شأنُه: ﴿إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ يعني: تُجمَعون يومَ

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حشر).
(2) ابن الأثير، النّهاية: (حشر).
(3) الجوهريّ، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (حشر).

القيامة[1]، فيُحاسِبُ الخلائقَ على أعمالهم، ويجازيهم عليها[2]، ولا يضيعُ سعيٌ، ولا يخيبُ رجاءٌ في غفران.

المَعْنى الإجْماليُّ:

السّياقُ أمرٌ بإقامة الصّلاة على الوجه الأكمل، وأَمرٌ بتقوى اللّه تعالى، وامتثالٌ لأوامره، واجتنابٌ لنواهيه، فهو وحده الّذي يُحْشَرُ العباد إليه يوم القيامة، ليجازيَهُم على أعمالهم[3]. واستشعارُ ذلك الموقف المهيب مِن شأنه أن يحفّزَ النّفسَ على الصّلاة، ويحرّكَ الوجدانَ بالخشية والتّقوى، وينشّطَ الأعضاءَ على العبادة، لتتهيّأَ للحَشْر الأكبر، حيث تُبلَى السّرائرُ، ويَهلِكُ النّاسُ أو يَنجونَ.

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ العطف بين الجمل وأثره في المعنى:

عطفُ الخاصّ على العامّ للإشادة بالخاصّ

قوله جلّ شأنُه: ﴿وَأَنْ أَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّقُوهُۚ﴾ فإنْ قلتَ: علامَ عطفَ قوله: ﴿وَأَنْ أَقِيمُواْ﴾؟ قلتُ: على مَوضِع ﴿لِنُسْلِمَ﴾؛ أي: للإسلام ولإقامة الصّلاة، كأنّه قيل: وأُمرنا أن نُسْلِمَ، وأن أقيموا؛ أي: للإسلام ولإقامة الصّلاة[4]، فهو مِن عطف الخاصّ على العامّ للإشادة بالخاصّ، لإنزال التّغاير العنوانيّ منزلةَ التّغاير الذّاتيّ. وقال الطِّيبِيُّ في العطف على موقع ﴿لِنُسْلِمَ﴾؛ أي: لو وقع مَوقِعَهُ (أَنْ نُسْلِمَ) بحذف الجارِّ صَحَّ العطف، فعَطَف عليه بذلك الاعتبار، كما في قوله تعالى: ﴿فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن﴾ [المنافقون: 10]. وقال الشّيخ سعد الدّين: قيل: المرادُ أنّه كثيرًا ما يقع في هذا الموقع (أنْ نُسْلِمَ)، فعَطف عليه ﴿وَأَنْ أَقِيمُواْ﴾ بهذا الاعتبار، على طريقة ﴿فَأَصَّدَّقَ

(1) العليميّ، فتح الرّحمن: 2/417.
(2) وهبة الزّحيلّي، التّفسير المنير: 1/569.
(3) الخازن، لباب التّأويل: 2/124، وجماعة من العلماء، المختصر في تفسير القرآن الكريم: 1/136.
(4) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/308، والزّمخشريّ، الكشّاف: 2/38، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 2/168، والنّسفيّ، مدارك التّنزيل: 1/515.

﴿وَأَكُن﴾ [المنافقون: 10]، وبهذا يُشعِر قولُه كأنّه قيل: (أُمِرْنَا أَنْ نُسْلِمَ، وَأَنْ أَقِيمُوا)، لكن لا يخفى أنَّ (أنْ) المقدّرة في ﴿لِنُسْلِمَ﴾ مصدريّةٌ ناصبةٌ للمضارع، وفي ﴿وَأَنْ أَقِيمُواْ﴾ مُفسّرةٌ، وقيل: لا حاجةَ إلى هذا الاعتبار، بل المُرادُ أنّه عَطَفَ على مجموع اللّام وما بعدها[1].

بلاغةُ الالتفاتِ في سياقات الآيات الكريمة:

الالتفاتُ من ضمير المتكلّم إلى الغائب للاهتمام بالصّلاة

قوله جلّ شأنُه: ﴿وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، ثمّ قال: ﴿وَأَنْ أَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾، فيه التفاتٌ منَ المتكلِّم إلى الخطاب[2]، فكان الظّاهرُ أن يُقال: (أُمرنا لنسلمَ ولأن نقيمَ)، وإنّما عدلَ إلى قوله: ﴿وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ﴾، ﴿وَأَنْ أَقِيمُواْ﴾؛ "لأنّ الكافرَ ما دام يبقى على كُفْرِه، كان كالغائب الأجنبيّ، فلاجَرَمَ يُخاطَبُ بخطابِ الغائبين، فيُقال له: وأُمرنا لنسلمَ لربّ العالمين. وإذا أَسْلَم وآمَنَ، ودخل في الإيمان، صار كالقريب الحاضر، فلاجَرَمَ يُخاطَبُ بخطاب الحاضرين، ويُقال له: وأن أقيموا الصّلاةَ واتّقوه، وهو الّذي إليه تحشرون. فالمقصودُ من ذكر هذين النّوعين منَ الخطاب التّنبيهُ على الفَرْق بين حالتَي الكفر والإيمان، وتقريرُه: أنّ الكافرَ بعيدٌ غائبٌ، والمؤمنُ قريبٌ حاضرٌ. والله أعلم"[3].

العلّةُ بتخصيصِ ذِكْرِ الصّلاة:

الصّلاةُ أهمُّ شرائعِ الإسلام، وهي وسيلةُ القُرْبِ إلى الله

قوله جلّ شأنُه: ﴿وَأَنْ أَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ خَصَّ ذِكْرَ الصّلاة من سائر شرائعِ الإسلامِ؛ لأنّها أهمُّ تلك الشّرائع، وأعظمُ أركان الإسلام[4]، وفي ذلك دليلٌ على تفخيم أمرها، وعِظَمِ شأنها[5].

(1) السّيوطيّ، نواهد الأبكار: 3/365.
(2) الصّاويّ، حاشية الصّاويّ: 2/23.
(3) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 13/27.
(4) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/168، والصّاويّ، حاشية الصّاويّ: 2/23.
(5) القاسميّ، محاسن التّأويل: 4/397، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/306.

علّةُ حكايةِ الأمرِ بالصّلاة:

قوله جلّ شأنُه: ﴿وَأَنۡ أَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾، ولم يقُل: (لنصلِّ)؛ فجاء "الأمرُ بإقامة الصّلاة بصيغة قول الله تعالى، لَا قول النّبيّ ﷺ؛ لمكانة الصّلاة في الدّين"[1].

الصّلاةُ مأمورُ المولى تعالى، وهي شعيرةٌ روحيّةٌ ذاتُ مكانةٍ وقداسةٍ

السّرُّ بالتّعبير عنِ الأمر بالصّلاة بـ ﴿أَقِيمُواْ﴾:

قوله جلّ شأنُه: ﴿وَأَنۡ أَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ عَبَّرَ عنِ الأمر بالصّلاة بفعل الإقامة، ولم يَقُلْ: (لنصلِّ أو وأن صلّوا) لِسببَيْن: **أحدهما**: أنّ الصّلاة لمّا كانت متكرّرةً، فهي مرشّحةٌ أن تتركَ، فأفاد لفظُ الإقامة المواظبةَ عليها، وعدمَ الإخلال بشيء منها. **الثّاني**: إنّما يحتاج إلى شرائطَ وأركانٍ منَ الطّهارة وسَتْر العورة، وغير ذلك، فأفاد لفظُ الإقامة التّوفيةَ لجميع شرائطها وأركانها[2]. فالأمرُ بالإقامة يُوجِبُ أن يأتي بها "مقوّمةً كاملةً في أركانها الظّاهرة ومعانيها؛ من خشوعٍ وخضوعٍ"[3].

إقامةُ الصّلاة في السّياق: المواظبةُ عليها وتوفيةُ شروطها

دلالةُ الواو في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ﴾:

الجملةُ المصدَّرةُ بالواو في قوله جلّ شأنُه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ﴾ "مستأنَفَةٌ موجِبةٌ لامتثالِ ما أُمر به منَ الأمور الثّلاثة"[4]، فالاستئنافُ تأكيدٌ على إيجاب ما مرَّ بالتّذكير بأنّ مَن أمركم بذلك هو مَن ستُحشَرون إليه، فيحاسبكم. ويجوز أن تكونَ عاطفةً على المعنى، والمعنى هو: الإسلامُ والتّقوى والحشرُ. وإذا كانت للحال فالمعنى: أُمِرْنا أن نُسْلِمَ له، وأن نتّقيه، في حال كون الحشرِ محصورًا إليه، وهي عندئذٍ حالٌ لازمةٌ، وكلُّ ذلك جائزٌ دلالةً على سعة معاني الكتاب الكريم.

تلوُّنُ معاني الواو ينفسحُ بها السّياق إلى أكثر من معنى

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2556.
(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/168، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 7/152.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2556.
(4) القنّوجيّ، فتح البيان: 4/171.

الحديثُ عن الحشر بعد جملةٍ منَ الأوامر:

قولُهُ جَلَّ شأنُه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ﴾، جملةٌ خبريّةٌ تتضمّنُ التّنبيهَ والتّخويفَ، لِمَن تركَ امتثالَ ما أُمر به منَ الإسلام والصّلاة واتّقاء الله، وإنّما تظهرُ ثمراتُ فعل هذه الأعمال وحسراتُ تركها يوم الحشر والقيامة[1]، إيماءً إلى أنّ "منافعَ هذه الأعمال إنّما تظهر في يوم الحشر"[2].

أَخبرَ بالحشر إشارةً إلى أنّ الثّمراتِ والحسراتِ تظهرُ يومَ الحشر

إيثارُ التّعبيرِ بالحشر دون ما يُقاربه في المعنى:

قوله جلّ شأنُه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ﴾، عَبَّر عن جمع النّاس يوم القيامة بلفظ الحشر، وآثره على غيره؛ لأنّ الحشرَ يدلّ على "الجمع مع السَّوْق"[3]، وهذا القيدُ في الجمع أنسبُ في مقام التّهديد.

التّعبيرُ بالحشْرِ هو المعنى المناسبُ لمقام التّهديد

بلاغةُ القَصْرِ بتعريف طرفَي الإسناد:

قوله جلّ شأنُه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ﴾، فيه ورودُ طرفي الإسناد ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ﴾ مَعرفتين؛ دلالةً على القَصْر، والمعنى: الّذي يُحشرُ إليه النّاسُ هو الله تعالى وحدَه لا غيره، وفي ذلك نفيٌ لانتفاع المشركين من آلهتهم يوم الحشر، تأييسًا لهم وتفجيعًا، كما أنّ فيه إلطافًا بهم، بتنبيههم إلى ما ينتظرهم يوم القيامة، دعوةً لهم وموعظةً لعلَّهُم يفقهون.

يكون الحشرُ إلى الله بيقين، في ساحة القيامة يوم الدّين

فائدةُ تقديم الجارّ والمجرور ﴿إِلَيۡهِ﴾:

قوله جلّ شأنُه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ﴾ قَدَّم معمولَ الفعل، وأصلُ العبارة أن يقول: (وهو الّذي تحشرون إليه)؛ وإنّما قدَّمَهُ "لإفادةِ الحَصْرِ، مع رعاية الفواصل؛ أي: إليه سبحانه لا إلى غيره تُحشرون يوم القيامة"[4]. وفيه زيادةٌ للتّرهيب، فليس هناك أحدٌ تُحشرون إليه، إلّا مَن أمركم بهذه الشّرائع، فلا مَفَرَّ منَ الحساب.

الحشرُ إلى الله تعالى مجالٌ للنّجاة، أو مُنحَدَرٌ للهَلاكِ والأذاةِ

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/308، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/555.
(2) النّيسابوريّ، غرائب القرآن: 3/99.
(3) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 144.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/153، والآلوسّي، روح المعاني: 4/179، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2557.

الغرضُ من بناء الفعلِ ﴿تُحۡشَرُونَ﴾ لما لمْ يُسَمَّ فاعله:

في قوله جلّ شأنُه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ﴾، جاء الفعلُ مبنيًّا للمجهول؛ اهتمامًا بالحشر نفسه، لا كونه من معيَّن، ولأنّه قد سبق ذكرُ اللّه تعالى بالضّمير والموصول في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ﴾، والغرضُ من ذلك تفخيمُ شأنِ الحشرِ.

يُستغنى عن ذِكْر الفاعلِ في العبارة، اعتمادًا على ذِكْرِه في الصّدارة

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(الحشر) و(الجمع):

الحَشرُ: جَمعُ النَّاسِ لِلقِيامَةِ، وَالمَحْشَرُ: المُجْتَمَعُ. وَحَشَرَتْهُمُ السَّنَةُ: جَمَعَتْهُمْ وسَاقَتْهُمْ إلى الْخِصبِ[1]. قال اللَّيثُ: الحشرُ: حشرُ يوم القيامةِ، والمَحشَر: المَجمَع الّذي يُحشَر إليه القومُ. وقال اللّه جلَّ وعزَّ: ﴿وَإِذَا ٱلۡوُحُوشُ حُشِرَتۡ ۝٥﴾ [التّكوير: 5]، وقال: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ يُحۡشَرُونَ ۝٣٨﴾ [الأنعام: 38]، وأكثر المفسّرين قالوا: تُحشَرُ الوحوشُ كلُّها وسائرُ الدّوابِّ، حتّى الذّباب للقصاص، وأُسند ذلك إلى النّبيّ[2] ﷺ.

الحشرُ جمعٌ يصحبه سَوقٌ ودفعٌ إلى مكانِ الحسابِ

قال تعالى في هذه الآية: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ﴾، فعَبَّر بالحشر دون الجمع، فما الفرقُ بين الحشر والجمع؟ "الحشرُ: هو الجمعُ مع السَّوْق، والشّاهد قوله تعالى: ﴿وَٱبۡعَثۡ فِي ٱلۡمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ۝٣٦﴾ [الشّعراء: 36]؛ أي: ابعث مَن يجمعُ السّحرةَ ويَسوقُهم إليك، ومنه يومُ الحشر؛ لأنّ الخلقَ يُجمَعون فيه ويُساقون إلى الموقف"[3]. وآثر في الآية التّعبيرَ بالحشرِ لأنّه في مقام التّهديدِ، فالمناسبُ له ما يُعَبِّرُ عن جمعٍ خاصٍّ، وهو الجمعُ الّذي فيه سَوْقٌ إلى الحساب، إظهارًا لشدّة الموقف، وهذا أنسبُ في سياق التّهديد والوعيد.

(1) الحربيّ، غريب الحديث: 1/282.
(2) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: 4/105.
(3) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 144.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ ۚ قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ ۚ وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: 73]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

العلاقةُ بين ذِكرِ الحشرِ إلى الله، وبين كونِهِ المتصرِّفَ في الدّنيا والآخرة

لمّا ذكرَ تعالى أنّه إلى جزائه يُحشَرُ العالم، وهو منتهى ما يؤولُ إليه أمرُهم، ذكرَ مبتدأَ وجودِ العالمِ واختراعه له بالحقّ[1]، فقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾، عَقِبَ قولِه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾، سِيقَ مَساقَ "الاحتجاجِ على قدرته تعالى على البعث، ردًّا على منكِري ذلك منَ المشركين، الّذين السّياق فيهم"[2] واردٌ، وهو قد خَلَق السّماواتِ والأرضَ، قائمًا بالحقّ، وقيّومًا بالحكمة، وحين يقول لشيءٍ منَ الأشياء: كنْ، فيكون ذلك الشّيء[3]، ممّا يؤكّد مُطلقَ قدرته، وعظيمَ سُلطانِه.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يُنفَخُ﴾: (نفخ) أصلٌ يدلُّ على انتفاخٍ وعلوٍّ، وانتَفَخَ الشّيءُ: علا، والنّفخ: نفخُ الرّيح في الشّيء. وفي الحديث: «أنّه نهى عنِ النَّفْخِ في الشّرابِ»[4]، وإنّما نهى عنه من أجل مايُخافُ أن يَبْدُرَ من ريقِه فيقع فيه، فربّما شَرِبَ بعده غيرُه فيتأذّى به[5]. والنّفخ في الصّور؛ يعني به: النّفخةَ الأولى، قال الفرّاء: يُقال: إنّها أوّلُ

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/555 - 556، والهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 8/412.
(2) القاسميّ، محاسن التّأويل: 4/397.
(3) إبراهيم الأبياريّ، الموسوعة القرآنيّة: 9/441.
(4) الحديثُ رواه غير واحدٍ منَ الصّحابةِ، منهم: أبو سعيد الخُدْرِيُّ: «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ نَهى عَنِ النَّفْخِ في الشَّرابِ»، أخرجه التّرمذيّ، سنن الترمذي، - واللّفظ له -: الحديث رقم: (1996)، وأحمد في المسند: الحديث رقم: (11203)، وغيرهما.
(5) ابن الأثير، النّهاية: 5/90.

النّفختين[1]، قال تعالى: ﴿يَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِۚ﴾[2]، وهناك النّفخة الثّانية، كما ورد في قوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخۡرَىٰ فَإِذَا هُمۡ قِيَامٞ يَنظُرُونَ ٦٨﴾ [الزّمر: 68].

2) ﴿ٱلصُّورِۚ﴾: الصُّورُ: القَرْنُ، وهو قرنٌ يُنفخُ فيه، فيجعلُ اللّهُ سبحانه ذلك سببًا لِعَوْدِ الصُّوَرِ والأرواحِ إلى أجسامها[3]، ﴿يَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِۚ﴾ هو قرنٌ يُنفَخُ فيه[4]، وهو القرنُ الّذي ينفخُ فيه إِسْرافيلُ نفختين، نفخةَ الصَّعْق، ونفخةَ البَعْثِ للحساب"[5]، والصّورُ: قَرنٌ يُنفَخُ فيه. ورُوِيَ عن عبد اللّه بن عَمْرو بن العاص، أنّه سأل رسولَ اللّه عنِ الصّور فقال: «هو قَرْنٌ يُنفخُ فيه»[6].

3) ﴿ٱلۡغَيۡبِ﴾: كلُّ ما غابَ عنك، تقول: غاب عنه غَيْبَةً، وغَيْبًا، وغِيابًا، وغُيُوبًا، ومَغِيبًا، وجَمْعُ الغائبِ: غُيَّبٌ، وغُيّابٌ، وغَيَبٌ[7]. و(غيب) أصلٌ يدلُّ على تَسَتُّرِ الشَّيءِ عنِ العُيون[8]؛ يعني: أنّه تعالى يعلمُ ما غابَ عن عبادِه؛ فلا يغيبُ عن عِلْمِهِ شيءٌ[9].

4) ﴿وَٱلشَّهَٰدَةِۚ﴾: (شهد) أصلٌ يدلُّ على حضورٍ وعِلْمٍ وإعلامٍ[10]، والشّهادة: الخبر القاطع، وعِلْمه تعالى في قوله: ﴿وَٱلشَّهَٰدَةِۚ﴾ معناه ما حضر[11]؛ أي: ما يشهده الخلق[12]، فهو تعالى يعلمُ ما غابَ عن عباده، وما يشاهدونه، فلا يغيبُ عن عِلْمِهِ شيءٌ[13].

(1) ابن منظور، لسان العرب: (نقر).
(2) الجوهريّ، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (نفخ).
(3) الجوهريّ، الصّحاح، والرّاغب، المفردات: (صور)، والعليميّ، فتح الرّحمن: 2/417.
(4) الكرمانّي، غرائب التّفسير: 1/367، وابن الجوزيّ، تذكرة الأريب، ص: 97، والنّسفيّ، مدارك التّنزيل: 1/515.
(5) الخازن، لباب التّأويل: 2/125.
(6) الأنباريّ، الزّاهر: 1/416، الحديث أخرجَه عن عبدِ اللهِ بن عَمْرٍو: أبو داود: رقم (4742)، والتّرمذيّ: رقم (2599)و (3525)، وأحمد، المسند: رقم (6507)، وغيرهم.
(7) الجوهريّ، الصّحاح: 1/196.
(8) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (غيب).
(9) الخازن، لباب التّأويل: 2/125، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 7/154.
(10) الجوهريّ، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (شهد).
(11) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/310، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/557.
(12) ابن الجوزيّ، تذكرة الأريب، ص: 97.
(13) الخازن، لباب التّأويل: 2/125، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 7/154.

❁ المَعْنى الإجْمالِيُّ:

اللهُ خالقُ السّماواتِ والأرضِ، وبيدِهِ المُلكُ، ومصيرُ الخلائقِ إليه

يُخبِرُ اللّه تعالى ذِكْرُه أنّ الّذي "خلقَ السّماواتِ والأرضَ وما بينهما بالحقّ، والّذي قولُه الحقّ تكوينًا وتكليفًا، والّذي له الملكُ وحدَه، يوم يَحشُر الخلائقَ، هو عالمُ الغيب والشّهادة، وهو الحكيمُ الّذي يضعُ الأشياءَ مواضعَها، وهو الخبيرُ بدقائقها وخفاياها، ولا يشذُّ عن علمه شيءٌ منها، فلا ينبغي لعاقل أن يدعو غيره معه"[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ العطفِ في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى﴾:

عطفُ مشاهدِ الخَلْقِ والقيامةِ على بعضها، دليلٌ على وحدانيّة الخالق

قولُه جلّ شأنُه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾، يَنتظِم مع قوله في ختام الآية الّتي قبل هذه الآية، فَيُلاحَظ وَحْدَةُ النَّسَقِ والسّياقِ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ۝٧٢ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾، فعطفُ الضّمير على الضّمير جريًا على نسقٍ واحدٍ، إشارةٌ إلى أنّهما سِيقَتا في سياقٍ واحدٍ، فالّذي أَمَرَكم بتلك الشّرائعَ، هو الّذي تُحشَرون إليه في المعاد، وهو الّذي أَوجدَ البدايةَ، تأكيدًا على وحدانيَّته ووجوبِ طاعتِه ﷻ.

بلاغةُ الحَصْرِ في قوله ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾:

خلقَ اللهُ الوجودَ، ولا يُنازِعه في خَلْقِه موجودٌ

أفاد قولُه جلّ شأنُه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾، أسلوبَ الحَصْرِ من تعريف طرفَي الإسناد: المسنَد إليه والمسنَد، حيث حَصَرَ خلْقَ السّماواتِ والأرضِ به تعالى، والقَصْرُ حقيقيٌّ؛ إذ ليس ثمَّ رَدُّ اعتقادٍ؛ لأنّ المشركين يعترفون بأنّ اللّهَ هو الخالقُ للأشياء الّتي في السّماء والأرض؛ فالمقصودُ الاستدلالُ بالقَصْرِ على أنّه هو المُستحِقُّ للعبادة وحدَهُ تعالى[2].

(1) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 7/166.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/306.

ذِكْرُ السّماواتِ بصيغة الجمع:

قوله جلّ شأنُه: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾، عبّر عنِ السّماوات بصيغة الجمع في هذا الموضع دلالةً على التّعظيم، ولأنّه في سياق ذِكْر أنّه الخالقُ، فناسَبَ التّعميمَ والإحاطةَ بالجمع، ولأنّها كذلك في الواقع.

ورد السّياقُ في توحيد الخالق وطاعته، فناسَبَه التّعظيمُ بالجَمْع

نكتةُ تقديمِ السّماواتِ على الأرض:

قَدَّمَ ذكرَ السّماوات في قوله جلّ شأنُه: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾ على الأرض؛ لأنّها أعظمُ ما تراه عينُ الإنسان، وهي أكبرُ منَ الأرض، وبذلك تكون أكثرَ إظهارًا للتّعظيم، فقدّمها، والسّماواتُ تحوي المجرّاتِ الكونيّةَ الّتي تنطوي على مليارات الكواكب، ممّا لا يُحيطُ به إلّا علمُ اللّه اللّامحدود، ولا يَحفظُ سَيْرَها وانتظامَ حركتِها إلّا اللّهُ الّذي ليس لقدرتِهِ حدودٌ.

السّماواتُ أعظمُ منَ الأرض، وكلاهما صنعُ الله الّذي أتقن كلَّ شيء

بلاغةُ التّعبير بالباء، في ﴿بِٱلۡحَقِّۖ﴾:

قوله جلّ شأنُه: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۖ﴾، عبّر بالباء الدّالَّة على الملابَسَة[1]، تنزيهًا لأفعاله ورَدًّا على منكري البعث؛ إذ إنكارُ البعثِ يدلُّ على عَبَثِيّة الخَلْق، ونفى اللّهُ تعالى ذلك العبثَ بقوله ﷻ: ﴿أَفَحَسِبۡتُمۡ أَنَّمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ عَبَثٗا وَأَنَّكُمۡ إِلَيۡنَا لَا تُرۡجَعُونَ ١١٥﴾ [المؤمنون: 115]، "وقوله: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۖ﴾؛ أي: بكمالِ قدرته، وشمولِ علْمِه، وإتقانِ صُنْعِه؛ وكلُّ ذلك حقٌّ"[2]. وقيل: لإظهَار الحقِّ؛ لأنَّهُ جعل صُنْعَه دَليلًا على وَحْدانيَّته[3].

كلُّ أفعالِ المولى سبحانه ملابسةٌ للحقّ وقائمةٌ به

من ناحية أخرى، عبّر بقوله: ﴿بِٱلۡحَقِّۖ﴾، نَفْيًا لأن يكون قد خَلَقَهما "باطلًا بغير معنًى، بل لمعانٍ مفيدةٍ، ولحقائقَ بيّنةٍ منها

خَلْقُ الله للكونِ البديعِ قائمٌ على الحكمة والحقّ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/306.
(2) الواحديّ، الوجيز، ص: 361.
(3) السّمعانّي، تفسير القرآن: 2/117.

ما يُحسُّه البشرُ منَ الاستدلال بها على الصّانع، ونزول الأرزاق وغير ذلك"[1]. ومعنى ﴿بِٱلۡحَقِّۖ﴾؛ أي: حقًّا وصوابًا، لا باطلًا. وقيل: المعنى: خَلَقَ السّماواتِ والأرضَ بكلامه، وقوله لهما: ﴿ٱئۡتِيَا طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهًا﴾ [فصّلت: 11]، فالحقّ هنا: كلامه ودليله... وقيل: المعنى: خلقهنّ (للحقّ)، يعني: المعاد[2]. وأيًّا كان المعنى ممّا سبق ذِكْرُه، فَخَلْقُه تعالى السّماواتِ والأرض قائمٌ بالحِكَم والغايات الصّحيحة[3]، وذلك أنّه خلقَها "وَفْقَ سُنَنِه المطَّرِدة المشتمِلة على الحِكَم البالغةِ الدّالّةِ على وجودِه ووحدانيّتِه، وقدرتِه البالغة"[4].

الاستئناف بالواو في قوله تعالى: ﴿وَيَوۡمَ﴾:

خلقُ المخلوقات العظيمة أمرٌ يسيرٌ على قدرة الله القدير

افتتح قوله جلّ شأنُه: ﴿وَيَوۡمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُۚ﴾ بالواو الاستئنافيّة[5]؛ "لبيانِ أنّ خَلْقَه تعالى لِما ذُكر منَ السّماواتِ والأرضِ، ليس ممّا يَتوقَّفُ على مادّةٍ أو مُدّة، بل يَتِمُّ بمحضِ الأمرِ التّكوينيِّ من غير توقّفٍ على شيءٍ آخَرَ أصلًا"[6]، وهذا يدلّ على كمال التّعظيم الوارد في سياق وحدانيّتِه، واستحقاقِه العبادةَ، وقُدرتِه على الفَصْل في مصائر المخلوقاتِ في المعاد.

تقديمُ الظّرف على المبتدأ:

تقديمُ المسنَد على المسنَد إليه، دلالةٌ على أنّ ما في ذلك اليوم هو الحقُّ

قولُه جلّ شأنُه: ﴿وَيَوۡمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُۚ قَوۡلُهُ ٱلۡحَقُّۚ﴾، جملةٌ اسميّةٌ قَدَّم فيها الخبَرَ: ﴿وَيَوۡمَ يَقُولُ﴾ على المبتدأ: ﴿قَوۡلُهُ ٱلۡحَقُّۚ﴾، والتّقدير: قولُه الحقُّ يومَ يقول، كقولك: القتال يوم الجمعة[7].

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/308، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/556.
(2) مكّيّ، الهداية: 3/2068.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/38، والنّسفيّ، مدارك التّنزيل: 1/515، والنّيسابوريّ، غرائب القرآن: 3/100، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 7/153.
(4) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 7/166، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2557.
(5) الآلوسّي، روح المعاني: 4/179، والصّاويّ، حاشية الصّاويّ: 2/23.
(6) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/150.
(7) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 2/168، والنّسفيّ، مدارك التّنزيل: 1/515.

وتقديمُه عليها "للاعتناءِ به من حيث إنّه مدارُ الحقّيّةِ"[1]، اهتمامًا بعموم الوقت[2]، فالحقّ ليس مخصوصًا بذلك اليوم، ولكنّ ذلك اليوم مقصورًا على الحقّ.

الإيجازُ بحذف مَقولِ القولِ:

حذفُ المقولِ له وهو (الشّيءُ) إيجازًا لِلَّفظ

قولُه جلّ شأنُه: ﴿وَيَوۡمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُۚ قَوۡلُهُ ٱلۡحَقُّۚ﴾، لم يذكرْ في الآية المقولَ له، كقوله تعالى: ﴿يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ٨٢﴾ [يس: 82]؛ لكونه مشهورًا، "وتركُ ذكرِ المقولِ له للثّقةِ بغاية ظهوره"[3]، وذلك للإيجاز في اللّفظ؛ والإيجازُ لبُّ البلاغة.

دلالةُ وصفِ القولِ بالحقّ في قوله: ﴿قَوۡلُهُ ٱلۡحَقُّۚ﴾:

وصفُ القول بأنّه حقٌّ، تأكيدٌ لِصِدْقِ القضاءِ، ودقّة الحسابِ

قولُه جلّ شأنُه: ﴿وَيَوۡمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُۚ قَوۡلُهُ ٱلۡحَقُّۚ﴾، وصَفَ القولَ بأنّه حقٌّ بمعنى أنّه

"لا يكون شيئًا منَ المكوّنات إلّا عن حكمةٍ وصوابٍ"[4]، والمرادُ أنّ قضاءَه في ذلك اليوم حقٌّ، وصدقٌ خالٍ عنِ الجَوْرِ والعَبَثِ[5]، ودلالةٌ على أنّه "كائنٌ لا محالةَ"[6].

بلاغةُ الخطاب بفعل الأمر ﴿كُن﴾ في الخلق والإيجاد:

التّنبيهُ على نفاذ قدرةِ اللهِ تعالى، وسرعةِ امتثالِ المخلوقاتِ له

قولُه جلّ شأنُه: ﴿كُن فَيَكُونُۚ﴾، فعل الأمر إنّما يُوَجَّه إلى مُخاطَبٍ، فإن كان موجَّهًا إلى شيءٍ معدومٍ قبل خَلْقِه، فإنّه محالٌ، وإن كان موجَّهًا لموجودٍ، فهو أمرٌ بأن يصيرَ الموجودُ موجودًا، وهو محالٌ كذلك، فمن ذلك عُلِمَ أنّ المرادَ منه التّنبيهُ على نفاذ قدرته ومشيئته، في تكوين الكائناتِ، وإيجاد الموجوداتِ[7].

---

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/150، والخفاجيّ، عناية القاضي: 4/82.
(2) الآلوسّي، روح المعاني: 4/180.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/150، والقونويّ، حاشية على البيضاويّ: 8/159.
(4) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/38.
(5) النّيسابوريّ، غرائب القرآن: 3/100.
(6) الخازن، لباب التّأويل: 2/124، والعليميّ، فتح الرّحمن: 2/417.
(7) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 13/28.

الغرضُ من ذِكر جملة ﴿كُن فَيَكُونُۚ﴾:

أخبرَ بأنّه يخلقُ بقوله (كن)، دلالةً على سرعة البعث والحساب

عبّر تعالى بقوله جلّ شأنُه: ﴿كُن فَيَكُونُۚ﴾، عن إيجاده الكائناتِ بذلك القول، ليدلَّ على سرعة أمر البعثِ والسّاعةِ، كأنّه قال: ويوم يقول للخَلْقِ موتوا فيموتون، وانتشِروا فينتشِرون، كأنّه يأمر الحياةَ فتكون فيهم[1]، وهو "إشارةٌ إلى سرعة الحساب والبعث"[2]، تقريبًا لتلك المشيئةِ النّافذةِ والسّرعةِ الباهرةِ من عقول النّاس، وإلّا فلا (كاف) ولا (نون)، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَمۡرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمۡحِ ٱلۡبَصَرِ أَوۡ هُوَ أَقۡرَبُۚ﴾ [النحل: 77][3]، "لأنّ سرعةَ قدرته تعالى أقلُّ زمنًا من زمن النّطق بـ ﴿كُن﴾"[4]. "والمرادُ من هذا الأمر التّنبيهُ على نفاذ قدرته ومشيئته، في تكوين الكائناتِ، وهذا بيانٌ أنّ خلقَه تعالى للسّموات والأرض، ليس ممّا يَتوقّف على مادّة ولا مدّة، بل يتمّ بمحض الأمرِ التّكوينيِّ، من غير توقّف على شيء آخرَ أصلًا. والمرادُ بالقول كلمة ﴿كُن﴾ تمثيلٌ؛ لأنّ سرعةَ قدرته تعالى أقلُّ زمنًا من زمن النّطق بـ ﴿كُن﴾"[5]. وممّا يُنسب إلى أميرِ المؤمنين عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه، قوله:

لَا تَخْضَعَنَّ لِمَخلوقٍ عَلى طَمَعٍ *** فَإِنَّ ذَلِكَ وَهْنٌ مِنكَ فِي الدِّينِ
وَاسْتَرْزِقِ اللّهَ مِمَّا في خَزائِنِهِ *** فَإِنَّمَا الأَمرُ بَينَ الكَافِ وَالنُّونِ[6]

دلالةُ الفاء في قوله: ﴿كُن فَيَكُونُۚ﴾:

التّكوينُ يترتّبُ على أمره بكُنْ فيكون، ترتُّبَ المسبَّب على السّبب

عبّر تعالى بقوله جلّ شأنُه: ﴿كُن فَيَكُونُۚ﴾ بالفاء الاستئنافيّة؛ للدّلالة على أنّ استئنافَ التّكوين يكون عَقِبَ القول بـ ﴿كُن﴾، وهو

(1) الزّجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 2/264، والواحديّ، البسيط: 8/228، والخازن، لباب التّأويل: 2/124.
(2) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 7/20، والشّوكانّي، فتح القدير: 2/149.
(3) الصّاويّ، حاشية الصّاويّ: 2/23.
(4) القنّوجيّ، فتح البيان: 4/172.
(5) محمّد بن عمر الجاويّ، مراح لبيد: 1/327.
(6) الثّعالبيّ، رسائل الثّعالبيّ، ص: 29، وأحمد قبش، مجمع الحكم والأمثال في الشّعر العربيّ: 6/321.

مترتِّبٌ عليه؛ لأنّ الفاءَ لا تفارقها السّببيّةُ، كما أنّ ذلك التّكوينَ يكون بلا مُهْلَةٍ، لما تدلّ عليه الفاءُ منَ التّعقيب، "وقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُۚ﴾، إشارةٌ إلى أنّ هذا الخلقَ الّذي خلقه اللّه سبحانه، كان عن أمره وتقديره، وأن لا شيءَ يُعْجِزه، وأنّ تقديرَ المخلوقات، ومجيئَها على صفاتها وأحوالها وأزمانها، كلُّ ذلك كان بالحقّ، وبالحساب، وبالتّقدير"[1].

دلالةُ صيغةِ القَصْرِ بتعريف الطّرفين:

حَصْرُ الحقِّ في قولِه تعالى، مبالغةٌ في انتفاء الباطل والخطأ عن قوله

قوله جلّ شأنُه: ﴿قَوۡلُهُ ٱلۡحَقُّۚ﴾ جَعل قولَ الحقِّ منحصِرًا به ﷻ؛ لأنّ "أكثرَ قولِ غيرِه باطلٌ؛ لأنّه يقول شيئًا فلا يكون ما أراد"[2]. وأفاد القصرُ المبالغةَ؛ أي: "هو الحقُّ الكاملُ لأنّ أقوالَ غيره، وإن كان فيها كثيرٌ منَ الحقّ، فهي مُعرَّضةٌ للخطأ، وما كان فيها غيرُ مُعرَّضٍ للخطأ، فهو من وَحْيِ اللّه أو من نعمتِه بالعقل والإصابة، فذلك اعتدادٌ بأنّه راجعٌ إلى فضل اللّه"[3].

دلالة (ال) على العهد الذّهنيّ أوالكنائيّ في ﴿ٱلۡحَقُّۚ﴾:

إنْ كان لا مَرَدَّ لأمرِ اللّه التّكوينيّ، فلا مَفَرَّ من أمرِه التّكليفيّ

قوله جلّ شأنُه: ﴿قَوۡلُهُ ٱلۡحَقُّۚ﴾ إذا كان الحقُّ صفةً للقول، فإنّ اللّامَ تدلّ على العهدِ الذّهنيِّ، للدّلالة على الحقّ المعهود في الأذهان، وإذا كان الحقُّ خبرًا عنِ المبتدأ ﴿قَوۡلُهُ﴾ فاللّامُ تكون للعهدِ الكِنائيّ، إشارةً إلى العبارة: ﴿كُن فَيَكُونُۚ﴾، "وقوله هو الحقّ، يوم يقول للشّيء كُنْ فيكون، وهو وقتُ الإيجادِ والتّكوين، فلا مَرَدَّ لأمره التّكوينيّ ولا تَخَلُّفَ، فكذلك يجبُ الإسلامُ والخضوعُ لأمره التّكليفيّ، بلا حَرَجٍ في النّفس ولا تكلُّفٍ، لأنّ الأمرَ حقٌّ، والخلقُ حقٌّ ﴿أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُۗ﴾ [الأعراف: 54]"[4].

(1) عبد الكريم الخطيب، التّفسير القرآنّي للقرآن: 4/218.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/154.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/308، وطنطاويّ، الوسيط: 5/106.
(4) رضا، تفسير المنار: 7/442.

السّرُّ بتقديم الجارّ والمجرور في ﴿وَلَهُ ٱلۡمُلۡكُ﴾:

دلالةُ السّياق على اختصاص المُلك بالله وحده ﷻ

قوله جلّ شأنُه: ﴿وَلَهُ ٱلۡمُلۡكُ يَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِۚ﴾، جملةٌ اسميّةٌ، قَدَّم فيها الخبرَ على المبتدأ[1]، والتّقدير: (المُلكُ لَهُ)، فقَدَّم الخبرَ للتّخصيص؛ أي: انفرد الملكُ له وحدَه في ذلك اليوم، ظاهرًا وباطنًا، حقيقة ومجازًا[2]، وهذا التخصيصُ لردِّ ما عسى أن "يطمع فيه المشركون، من مشاركة أصنامهم يومئذٍ، في التّصرُّف والقضاء"[3].

السّرُّ بتخصيص المُلك به يوم القيامة:

المُلكُ مُمَحَّضٌ لله وحده يوم القيامة، بلا شريك ولا منافس

قوله جلّ شأنُه: ﴿وَلَهُ ٱلۡمُلۡكُ يَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِۚ﴾ منَ المعلوم بالضّرورة، أنّ الله تعالى له المُلك في مُطْلَق الزّمان، في الدّنيا والآخرة، فما وجهُ تخصيصِ مُلكِه بذلك اليوم؟ وجوابُه: أنّه "لا مُنازِعَ يومئذٍ يدّعي المُلك، وأنّه المنفردُ بالمُلك يومئذٍ"[4]، فلا يمكن لأحدٍ أن يدَّعِيَ فيه المُلك[5].

دلالةُ (أل) في قوله ﴿وَلَهُ ٱلۡمُلۡكُ﴾:

التّعريف بـ (ال) الجنسيّة دالٌّ على أنّه لا نوعَ من المُلك يعزُبُ عن مُلكه

قوله جلّ شأنُه: ﴿وَلَهُ ٱلۡمُلۡكُ يَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِۚ﴾ عرّف المُلكَ بـ (ال) الدّالّة على الجنس؛ ليدلّ على أنّ جنسَ المُلك محصورٌ لله تعالى فلا مُلْكَ لأحد سواه ﷻ. وقوله: ﴿وَلَهُ ٱلۡمُلۡكُ يَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِۚ﴾، إنّما أخبر الله عن مُلْكه يومئذٍ لأنّه لا منازعَ له يومئذٍ، فإنّ الملوك اعترفوا بأنّ المُلك لله الواحدِ القهّار"[6]، ويؤيّده قوله تعالى: ﴿يَوۡمَ هُم بَٰرِزُونَۖ لَا يَخۡفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنۡهُمۡ شَيۡءٌۚ لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَۖ لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ ١٦﴾ [غافر: 16].

---

(1) النّسفيّ، مدارك التّنزيل: 1/515.

(2) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 13/27، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 7/154، وابن عجيبة، البحر المديد: 2/134.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/308.

(4) الخازن، لباب التّأويل: 2/124، والجمل، الفتوحات الإلهيّة: 2/376، والقنّوجيّ، فتح البيان: 4/173.

(5) السّخاويّ، تفسير القرآن العظيم: 1/253، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/557.

(6) الجاويّ، مراح لبيد: 1/327.

العهدُ الحضوريُّ الذّهنيُّ في لفظ ﴿ٱلصُّورِۚ﴾:

يـوم يُـنـفَـخُ في الصّور المشهود، يـواجِـه الـكـونُ مصيرَه الموعود

قوله جلّ شأنُه: ﴿وَلَهُ ٱلۡمُلۡكُ يَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِۚ﴾، عَرَّفَ الصُّورَ بـ (ال) الدّالّة على العهد العلميّ الحضوريّ؛ لكون الصّور حاضرًا في الأذهان، للعلم به؛ لأنّه ذُكِر في آيات أخرى، كقوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۖ﴾ [الزّمر: 68].

إيثارُ التّعبير بالفعل المبنيّ للمفعول ﴿يُنفَخُ﴾:

النّفخُ في الصّور حـــدثٌ زمـنـيٌّ فـارِقٌ بين الدّنيا والآخرة

"لمّا كان المقصودُ تعظيمَ النّفخةِ، بُنِيَ للمفعولِ قوله: ﴿يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِۚ﴾"[1]، فالنّفخُ بذاته عظيمٌ، فذُكِرَ مُجرَّدًا عن فاعله؛ للدّلالة على عظمته من غير ملاحظة أنّه من معيّن."قال ابن كثير: والصّحيح أنّ المرادَ بـ (الصّور)، القرنُ الّذي يَنفخُ فيه إسرافيل عليه السلام، وهكذا قال ابن جرير: الصّواب عندنا ما تظاهرَت به الأخبارُ عن رسول الله ﷺ، أنّه قال: «إنّ إسرافيلَ قدِ التقمَ الصّور، وحنا جبهتَه، ينتظر متى يُؤمر، فينفخ»[2].

السّرُّ في تَكْرار لفظ (يوم):

النّفخُ في الصّور صفةٌ متفرّدةٌ في حالها وزمانها وأثرها في الكون

قوله تعالى: ﴿وَيَوۡمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُۚ قَوۡلُهُ ٱلۡحَقُّۚ وَلَهُ ٱلۡمُلۡكُ يَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِۚ﴾، تكرّرَ ذِكرُ لفظ (يوم) في الآية مرّتين، فقوله تعالى: ﴿يَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِۚ﴾، هو ذاته اليوم الّذي قال عنه: ﴿وَيَوۡمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُۚ﴾، "ولكنّه عبّر عنه هنا بـ ﴿يَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِۚ﴾؛ لإفادة هذا الحال العجيب، ولأنّ اليومَ لمّا جُعِلَ ظرفًا للقول، عُرِّفَ بالإضافة إلى جملة: ﴿يَقُولُ كُن فَيَكُونُۚ﴾، ولمّا جعلَ اليوم ظرفًا للمُلك ناسبَ أن يُعرِّفَ اليومَ بما هو من شعار المُلكِ والجندِ"[3].

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/154.

(2) القاسميّ، محاسن التّأويل: 4/398، روى هذا الحديثَ جماعةٌ منَ الصّحابة، منهم: أبو سعيدٍ الخُدْرِيّ عنِ النّبيِّ ﷺ قال: «كَيْفَ أَنْعَمُ وقَدِ الْتَقَمَ صاحِبُ الْقَرْنِ الْقَرْنَ، وحَنى جَبْهَتَهُ، وأَصْغى سَمْعَهُ، يَنْظُرُ مَتى يُؤْمَرُ». أخرجه أحمد، المسند: الحديث رقم: (11039)، واللّفظ له، والتّرمذيّ: الحديث رقم: (2600).

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/308 - 309.

التّعبيرُ عن علمِهِ تعالى المطلق بكونه عالمَ الغيب والشّهادة:

معرفةُ الغيب والشّهادة بيانٌ لوحدانيّتِه تعالى وسعةِ علمِه

عبّر عن علمه ﷻ، بقوله تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِۚ﴾، وهو يعني: أنّه يعلم ما غاب عنّا وما حَضَر، وهذا يَعمُّ جميعَ الموجودات[1]، والتّعبيرُ بذلك يدلُّ على كمالِ العلم[2]، وهذا مرتبطٌ بِفَهْم النّاس حيث إنّ معرفةَ الغيبِ ممّا يُعجِزهم، ولا يعرفُه إلّا الإلهُ الحقُّ، فعبّر به للدّلالة على سعةِ علمِه، ولبيان أنّه الإلهُ الحقُّ.

السّرُّ في ذِكْرِ الغيبِ، ولا غيبَ يغيبُ على الله تعالى:

ذكـرُ علـمِ الله للغيبِ باعتبارِ مـا غـاب عـنِ النّاس

ذكرَ تعالى أنّه يعلم الغيبَ، في قوله جلّ شأنُه: ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِۚ﴾، ولا شيءَ يغيب عن علمه تعالى، ومعنى ذلك: أنّه "عالمٌ ما غابَ علمُه عنِ الخلقِ"[3]، فالغيبُ المذكورُ إنّما هو "بالنّسبة للخلق، وإلّا فالكلُّ عند اللّه شهادةٌ، ولا يغيبُ عليه شيءٌ، بل ما في تُخومِ الأرضين والسّماوات بالنّسبة له كما على ظَهْرِها سواء بسواء"[4]، ومنه قوله تعالى: ﴿عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِۖ لَا يَعۡزُبُ عَنۡهُ مِثۡقَالُ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَآ أَصۡغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرُ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ٣﴾ [سبأ: 3].

دلالةُ ذِكْرِ علْمِه تعالى بالغيب والشّهادة بعد ذِكْر البعثِ:

اللـهُ قـادرٌ على جميعِ الممكِنات، وعـالـمٌ بجميعِ الـكـلّـيّـات والجزئيّات

قوله جلّ شأنُه: ﴿وَلَهُ ٱلۡمُلۡكُ يَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِۚ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِۚ﴾، وصفَ اللّهُ تعالى ذاتَه الكريمةَ بما يدلّ على أنّه يعلم كلَّ ما يفعله الّذين يُبعَثُونَ، دلالةً على أنّه يُكافِئُ النّاسَ على ما عَمِلوا؛ إنْ خيرًا فخيرٌ، وإنْ شرًّا فَشرٌّ[5]، وقوله هذا "من تمام التّرهيبِ؛ أي: أنّه لا يخفى عليه شيءٌ من أحوالكم، فاحْذَروا جزاءَه يوم تنقطعُ الأسبابُ، ويذهبُ التّعاضُدُ والتّعاونُ؛ وهو على عادته سبحانه، في

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/310، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/557.
(2) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 13/28.
(3) النّسفيّ، التّيسير في التّفسير: 6/116.
(4) الصّاويّ، حاشية الصّاويّ: 2/23، وطنطاويّ، الوسيط: 5/106.
(5) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2558.

أنّه ما ذَكرَ أحوالَ البعثِ إلّا قرَّر فيه أصلَيْن: القدرة على جميع الممكناتِ، والعلم بجميع المعلومات الكلّيّات والجزئيّات؛ لأنّه لا يَقْدِرُ على البعثِ إلّا مَن جمعَ الوصفين"[1].

بلاغةُ الطّباق في ذكر ﴿ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِۚ﴾:

ذِكْرُ اللّفظِ ومُقابِله تحسينٌ للعبارة، وتلميحٌ للإشارة

منَ المحسِّنات البديعيّة في قوله تعالى: ﴿ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِۚ﴾ الطِّباق[2]، وهو طِباقُ إيجابٍ، فأوردَ اللّفظَ وضدَّه ومقابلَه، وفي ذلك تأكيدٌ على علمه تعالى، بشمول النَّقيضَيْن منَ العلم والشّهادة، وعبارةُ: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِۚ﴾: "تشرحُ لنا أنّه سبحانه مادام عالمَ الغيب، فمن باب أَولى أنّه يعلمُ المشهودَ، وهذا تعبيرٌ دقيقٌ، وأنَّهُ يعلمُ الغيبَ ويعلمُ الشّهادةَ؛ وعلمُه يترتّب عليه جزاءٌ، لا عَنْ تَحكُّمٍ ولكن عن حِكْمةٍ"[3].

دلالة الاستغراق في لفظي ﴿ٱلْغَيْبِ﴾ و﴿وَٱلشَّهَٰدَةِۚ﴾:

علمُ الله محيطٌ بالغيبِ المكتومِ، والمشهدِ المرئيِّ المعلومِ

عبّر تعالى عنِ الغيب والشّهادة في قوله ﷻ: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِۚ﴾ بالتّعريف؛ للدّلالة على "الاستغراق؛ أي: عالم كلّ غيب وكلّ شهادة"[4]، وفي ذلك دلالةٌ على سعة عِلْمِهِ تعالى على وجه الحقيقة، ومعنى عِلْمِهِ الغيبَ والشّهادةَ، أنّه تعالى "يعلم ما غاب في خزائن الغيب عن كلِّ أحدٍ، ويعلم الشّهادةَ والحضورَ، لا يخفى عليه أحدٌ، وهو الحكيمُ في تصرُّفاته وسائر أفعاله، وتدابيره لمخلوقاته، الخبيرُ ببواطنِ الأمور وظواهرِها، لا يخفى عليه شيءٌ في الأرض ولا في السّماء، بهذا كان المَعْبودَ الحَقَّ الّذي لا يجوز أن يُعبَدَ سِواهُ، بأيّ عبادةٍ منَ العبادات الّتي شَرَعها ﷻ ليُعْبَد بها"[5].

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 13/28، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 7/154 - 155.
(2) الصّابونّي، صفوة التّفاسير: 1/370.
(3) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 6/3730.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/309.
(5) الجزائريّ، أيسر التّفاسير: 2/79.

دلالةُ الواو بين الاستئنافِ والعطفِ:

التّذييلُ بِصِفتَي الحِكمةِ والخبرةِ، تعقيبًا على ما تقدّمَ منَ الآية

افتتح الجملةَ في قوله ﷻ: ﴿وَهُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡخَبِيرُ﴾، بالواو الّتي يمكن أن تكون استئنافيّةً، نظيرًا لقوله تعالى: ﴿جَزَيۡنَٰهُم بِمَا كَفَرُواْۖ وَهَلۡ نُجَٰزِيٓ إِلَّا ٱلۡكَفُورَ ١٧﴾ [سبأ: 17]، وهو ما يُسمّى بالتّذييل[1]، ويمكن أن تكونَ عاطفةً بين الصّفات، أو حاليّةً على معنى: كيف لا يعلم غيبَ السّماوات والأرض، وحالُه أنّه الحكيمُ الخبيرُ!

بلاغةُ القَصْرِ الإضافيِّ في ﴿وَهُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡخَبِيرُ﴾:

حكمةُ اللهِ دالّةٌ على تمام الحكمة، ودقّةِ الإحكامِ في أفعاله تعالى

قوله جلّ شأنُه: ﴿وَهُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡخَبِيرُ﴾، قَصَرَ صفتَي الحكمةِ والخبرةِ على اللّه تعالى بالتّعريف، فهو "وحده ﴿ٱلۡحَكِيمُ﴾؛ أي: التّامُّ الحكمةِ، فلا يَضَعُ شيئًا في غير محلِّهِ، ولا على غير إحْكام، فلا مُعقِّبَ لأمره"[2]، وهو قَصْرُ صفاتٍ على موصوف، فَقُصِرَتْ صِفَتا العلم والحكمة التّامَّتانِ على اللّه تعالى وحده، وهوَ قصْرٌ إضافيٌّ، لأنّ اللّهَ تعالى يتّصف بصفات أخرى، غير الحكمة والعلم.

تخصيصُ ختامِ الآية بِصِفَتَي الحكيمِ والخبيرِ دون سواهما:

التّذييل بصفتي الحكيم والخبير مناسبٌ لمضمون الآية

قوله جلّ شأنُه: ﴿وَهُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡخَبِيرُ﴾، عَبَّر بصفتي الحكمة والخبرة، لمَا فيهما من "مناسبة آخرِ الآية لأوّلِها، وإنّ الحكيمَ الخبيرَ أَوْقَعُ هنا من بين الأسماء الحسنى"[3]، ومدارُ التّعبيرِ بصفات اللّه تعالى في ختام الآياتِ ورأسِ الفواصلِ هو تحقيقُ المناسبةِ المعنويّةِ، وفي هذا الموضعِ تحقّقتِ المناسبةُ على وجه التّمام؛ فلمّا "ذَكَرَ خَلْقَ الخلقِ، وسُرعَةَ إيجادِه لما يشاءُ، وتضَمَّنَ البَعْثُ إفناءَهم قبل ذلك، ناسَبَ ذِكْرَ الوصفِ بالحَكيم، ولمّا ذَكَرَ أنّه عالمُ الغيبِ والشّهادةِ، ناسَبَ ذِكْرَ الوصفِ بالخبيرِ، إذ هي صفةٌ تدلُّ على عِلْمِ ما لَطُفَ إدراكُه من الأشياء"[4].

(1) الخفاجيّ، عناية القاضي: 4/83.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/155.
(3) القونويّ، حاشية على البيضاويّ: 8/161.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/557، والهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 8/412.

دلالةُ الفَذْلَكَةِ في الجَمْع بين الحكمةِ والخبرةِ في الآية:

الحكمةُ دالّةٌ على إتقانِ الصُّنعِ، والخبرةُ دالّةٌ على العلمِ الفَسيحِ

جمع في قوله جلّ شأنُه: ﴿وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾، صفتي الحكمة والخبرة للفَذْلَكة[1]، فالوصفُ بالحكيم "جامعٌ لجميع أفعاله المُتْقِنَةِ، الجاريةِ على وَفْقِ المصالح، والخبيرُ جامعٌ لعلم الغيب والشّهادة، والمرادُ بالفَذْلَكَةِ إجمالُ ما فُصِّل أوّلًا"[2]، فالوصفانِ مُتعلِّقانِ بمضمونِ الآية الدّالِّ على الحكمةِ والخبرةِ.

بلاغةُ اللّفِ والنَّشْرِ في ﴿وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾:

عَوْدُ (الحكيم) على شطر الآية الأوّل، و(الخبير) على الشّطر الثّاني

في الآية لفٌّ ونشرٌ[3]، فقوله جلّ شأنُه: ﴿وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾، ذَكَر الصِّفَتَيْنِ؛ فالحكيم "هو المُحْكِمُ المُتْقِنُ في أفعالِه، وأوّلُ الآية يدلّ على إتقان الأفعالِ، والخبيرُ وهو العالمُ بالباطن، ويَلزَمُه كونه عالمًا بالظّاهر؛ فالمرادُ به هنا هو العالمُ بالغيب والشّهادة، وفيه لَفٌّ ونَشْرٌ مرتَّبٌ[4]؛ فالحكيمُ يعود على أوّل الآية، والخبيرُ يعود على شطرها الثّاني على التّرتيب.

الفرق بين اسم الفاعل وصيغة المبالغة:

يعبّر بـ لفظ (عالم) لإفراد الغيبِ، وبلفظ (علّام) بالجمع للمبالغة

جاء قوله تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ﴾ بصيغة المفرَد كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَٰلِمُ غَيْبِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ [فاطر: 38]، وجاء بصيغة الجمع في قوله جلّ شأنُه: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ۝٧٨﴾ [التّوبة: 78].

---

(1) الفذلكة: مشتقَّةٌ من قولهم إذا أجمل حسابه: فَذلَكَ كذا وكذا، إشارة إلى حاصل الحساب ونتيجته، وأُخِذَ منه الفعل (فَذْلَكَ)، يقال: فَذلَكَ حسابه: أنهاه وفرغ منه، فالمشتغلون بالحساب "إذا ذكروا عددين، ثمّ ضمّوا أحدهما إلى الآخر، فلا بدّ من ذكر تلك الجملة، الّتي يؤولان إليها عند اجتماعهما، ويسمّون ذلك الفذلكة". يُنظر: العلويّ، الطّراز: 3/247، والفيروزآباديّ، القاموس المحيط: (فَذْلَكَ)، وص: 7804.

(2) الخفاجيّ، عناية القاضي: 4/83، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/309 - 310، وطنطاويّ، الوسيط: 5/107.

(3) اللّفّ والنّشر: ذكرُ الشّيئين على جهة الاجتماع، مُطلَقين من غير تقييد، ثمّ يلحقُ بكلّ واحد منهما ما يستحقّه، ومثاله قوله تعالى: ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [القصص: 73]، فجمع أوّلًا بين اللّيل والنّهار بواو العطف، ثمّ إنّه بعد ذلك أضاف إلى كلٍّ واحدٍ منهما ما يليقُ به. يُنظر: العلويّ، الطّراز: 3/199.

(4) القونويّ، حاشية على البيضاويّ: 8/161.

وقوله تعالى: ﴿عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ ٧٨﴾ [التّوبة: 78] جاء بصيغة المبالغة؛ لأنّ المضافَ إليه ﴿ٱلۡغُيُوبِ﴾ جاء بصيغة الجمع، على معنى: علّام غيوبِ البشرِ كلّهم، فلمّا كَثُر المُتعلَّقُ جاء بصيغة المبالغة للتّعبير عنِ الكثرة. ولمّا أفرد الغيبَ الدّالّ على عموم الغيبِ؛ عَبَّر عن علْمِه به بلا مبالغةٍ، فقال: ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ﴾؛ لأنّ الغيبَ مفردٌ، لا يحتاجُ إلى صيغة المبالغة.

﴿۞وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصۡنَامًا ءَالِهَةً إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوۡمَكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ٧٤﴾ [الأنعام: 74]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

اقتداء النبيّ ﷺ بإبراهيم عليه السلام في إنكار الشّرك على أهله

لمَّا تحدَّثتِ الآياتُ السَّابقةُ عن مواقفِ المشركين مِنَ الدَّعوة الإسلاميَّة وإعراضِهم عنها بعد أن جاءتهمُ الآياتُ الواضحاتُ البيّنات، لكنَّهم ظلُّوا على ضلالهم، وتمسُّكِهم بعبادةِ الأصنام الَّتي لا تنفعُ، ولا تضرُّ؛ لأنَّها لا تملكُ من أمرِ نفسِها شيئًا حتَّى تملكَ من أمرِ غيرها، وسجَّل القرآنُ ذلك بقوله: ﴿قُلۡ أَنَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا﴾ [الأنعام: 71].

جاءتْ هذه الآيةُ لتُبيِّن أنَّ ما فعلَه رسولُ الله ﷺ هو مُقتَدٍ فيه بأبي الأنبياء: إبراهيمَ عليه السلام حيثُ أنكرَ عبادةَ الأصنامِ، وعدَّها ضلالًا مبينًا، وظهر ذلك في خطابهِ لأبيهِ مستنكِرًا عبادتَهُ إيَّاها، ووصفَهُ وقومَهُ بالضَّلالِ المبينِ.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ءَازَرَ﴾: أَبُو إبراهيمَ عليه السلام؛ وهو اسْمٌ أَعجميٌّ يدلُّ على ذَمٍّ في لغتِهم، ومعناه: الخاطِئ الضَّالُّ والأعرج والخَرِفُ، أو تعني: كلمةَ زَجْرٍ ونَهيٍ عنِ الباطل، وقد ذَكَرَ النَّسَّابون أنَّ والدَ إبراهيم عليه السلام كان اسمه (تارخ) ليس بينهم اختلافٌ في ذلك، ثُمَّ عُرِّب، فجُعل آزر، فيكون (آزَرَ) لقبًا عن (تارَخَ)، وقيل: إنَّ (آزر): هو اسمُ عمٍّ إبراهيمَ عليه السلام وإنَّما سُمِّيَ العَمُّ أَبًا، جَرْيًا على عادةِ العَرَبِ في ذلك؛ لأنَّهم كثيرًا مَا يُطلِقُون الأَبَ على العَمِّ، والظَّاهرُ أنَّ (آزَرَ) و(تارَخَ) اسمان لَهُ، كإسرائيلَ ويعقوبَ[1].

(1) الرَّاغب، المفردات، والأزهريُّ، تهذيب اللُّغة، وابن سيده، المحكم، وابن منظور، لسان العرب، والزَّبيدي، تاج العروس: (آزَر)، والقرطبيُّ، تفسير القرطبيِّ: 7/22.

2) ﴿أَصْنَامًا﴾: جمعُ صَنَم، وهو الصُّورةُ الَّتِي تُعْبَدُ، وتُتَّخذُ إلهًا مِنْ دُونِ اللّهِ، وَلَا يُسمَّى صَنَمًا حَتَّى تكون لَهُ صُورَةٌ أَو جُثَّةٌ، وأصل (صنم): ما يُنْحَتُ من خَشبٍ، ويُصاغُ من فِضّةٍ أو نُحاسٍ أو حَدِيدٍ أَو حِجَارَة ونَحْوِ ذَلِك مِمَّا يُعبدُ[1].

3) ﴿مُّبِينٍ﴾: واضحٌ بَيِّنٌ ظاهرٌ، يقالُ: بانَ واستبان وتبيَّن، وأصلُ (بين) يدلُّ على انكشافٍ، يقالُ: بَانَ الشَّيْءُ، وَأَبَانَ؛ إِذَا اتَّضَحَ وَانْكَشَفَ، ومنه البَيِّنَةُ، وهي الحجَّةُ الوَاضِحَةُ، وفلان أَبْيَنُ مِن فلانٍ، أَي: أَفْصَحُ مِنْهُ وأَوْضَحُ كَلامًا، والمعنى هنا: ضلالٌ بَيِّنٌ وَاضِحٌ لِكُلِّ ذِي عَقْلٍ صَحِيحٍ[2].

❁ المَعْنى الإِجْمالِيُّ:

مُحاجَّةُ إبراهيم عليه السلام لأبيه، وإنكارُه عليه عبادةَ غيرِ الله

بيَّنَ اللّهُ تعالى في هذه الآية مُحاجَّةَ إبراهيم عليه السلام لأبيه، وإنكارَهُ عليه عبادةَ غيرِ اللّه، بقوله: واذكر - أيُّها الرَّسولُ ﷺ - مُحاجَّة إبراهيم عليه السلام لأبيه المشرك آزرَ؛ إذ قال له مُنكرًا عليه عبادةَ غيرِ اللّهِ: أتجعلُ منَ الأصنام آلهةً تَعْبُدها من دون اللّه تعالى؟ إنِّي أراك وقومَكَ الذين يعبدون الأوثانَ في بُعْدٍ واضحٍ بَيِّنٍ عن طريق الحقِّ؛ بسبب عبادتِكم غيرَ اللّه، فهو سُبحانه المعبودُ بحقٍّ، وغيرُه معبودٌ بالباطل[3].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

وجهُ ذكرِ قصَّةِ إبراهيمَ عليه السلام دونَ غيرِه:

اختُصَّت هذه السُّورةُ بقصَّةِ سيِّدنا إبراهيمَ؛ لأنَّ التَّذكارَ بها مع

(1) ابن دريد، جمهرة اللُّغة: (صمن)، وابن سيده، المحكم، وابن منظور، لسان العرب، وابن فارس، مقاييس اللُّغة: (صنم).

(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والسَّمين، عُمدة الحُفَّاظ، والزَّبيدي، تاج العروس: (بين)، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 3/289.

(3) لجنة من عُلماءِ الأزهر، المنتخَبُ في تفسير القرآنِ الكريم، ص: 184، ونُخْبة من العلماء، التَّفسير الميَسَّر، ص: 137، وجماعَةٌ من علماء التَّفسير، المُختَصَر في تفسير القرآن الكريم، ص: 137.

جميعُ الطَّوائفِ والمِلَلِ يَعْتَرِفُون بفضلِ إبراهيمَ عليه السلام

أبيه وقومِه أنسَبُ لرُجوعِ العَرَب إليه؛ إذ هو جَدُّهم الأعلى، فذُكِّروا بأنَّ إنكارَ هذا النَّبيِّ محمَّدٍ ﷺ عليكم عِبادَةَ الأصنامِ هو مِثْلُ إنكارِ جَدِّكم إبراهيمَ على أبيه وقَوْمِه عِبادَتَها، فقالَ تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً﴾[1].

والنَّاظرُ في القرآنِ الكريم يجدُ أنَّ اللهَ سبحانه كثيرًا ما يحتجُّ على مشركي العربِ بأحوال إبراهيمَ عليه السلام؛ وذلك لأنَّه يَعْتَرِفُ بفضلِه جميعُ الطَّوائفِ والمِلَلِ، فالمشركون كانوا مُعترفين بفضلِه مُقرِّينَ بأنَّهُم من أولادِه، واليهودُ والنَّصارى والمسلمون كُلُّهُمْ مُعَظِّمون له مُعترفون بجلالةِ قدره، فتمَّم الاحتجاجَ عليهم بذكرِ محاجَّةِ إبراهيمَ لأبيهِ وقومه[2].

ولمَّا كانت كلُّ أمورِ إبراهيمَ النُّسُكيَّةِ في مكَّة، ورفعُه للكعبةِ كان في هذا المكانِ - والكعبةُ هي مركزُ السِّيادةِ لقريشٍ؛ ولولا الكعبةُ لكانت قريشٌ كسائرِ القبائل - فأراد الحقُّ ﷻ أن يَدخُلَ إلى قلوبهم بالحنانِ الَّذي يعرفونه لإبراهيمَ الَّذي هو سببُ هذا العزِّ وسببُ هذا الجاه والسِّيادة، فهُناك ارتباطاتٌ مُتعدِّدة؛ فأتى الحقُّ هُنا بقصَّةِ سيدنا إبراهيمَ ليُرقِّقَ بها قلوبَ هؤلاءِ المشركين[3].

دلالةُ العطفِ في قولِه تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ﴾:

تبكيتُ المشركينَ وبيانُ فسادِ عقائدِهم بذِكْرِ حالِ جدِّهم الَّذي يدَّعون اتِّباعَهُ

أفادتِ (الواو) العطفَ في ذكْرِ احتجاجِ إبراهيمَ على أبيهِ وقومِه بعد ذكْرِ الاحتجاجِ على مُشركي العرب في قولِه تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ﴾، فقولُه تعالى: ﴿وَإِذْ﴾ منصوبٌ على المفعوليَّة بمضمرٍ خُوطِبَ به النَّبيُّ ﷺ معطوفٌ على ﴿قُلْ أَنَدْعُواْ﴾، أي: واذكر لهم بعد ما أنكرتَ عليهم عبادةَ ما لا يقدرُ على نفعٍ أو ضرٍّ، وحقَّقتَ أنَّ

(1) أبو حيَّان، البحر المحيط: 4/561، والهرري، حدائق الرَّوح والرَّيحان: 8/412.
(2) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 13/29.
(3) الشَّعراوي، تفسير الشعراوي: 6/3735.

الهدى هو هدى اللّه، ونبَّهتَهم أنِّي أنا الَّذي خلقتُهم، وخلقتُ جميعَ ما يُشاهِدون مِن الجواهرِ والأعراضِ، فإنْ تَنبَّهوا؛ فهو حظُّهم، وإلَّا فاذْكُرْ لهم مُحاجَّةَ خليلِنا إبراهيمَ (1) عليه السلام، وقتَ قولِ إبراهيمَ الذي يدَّعون أنَّهم على مِلَّتِه موبِّخًا لهم على عبادة الأصنام؛ فإنَّ ذلك ممَّا يُبَكِّتُهم، وينادي بفساد طريقتِهم(2).

دلالةُ الإيجازِ بالحذفِ في ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ﴾:

العاملُ في ﴿وَإِذْ﴾ فعلٌ مُضمرٌ، تقديرهُ: واذكر أو قُصَّ(3)، حُذِفَ الفعلُ وفاعلُهُ (اذْكُرْ)، أي: اذكر أنتَ، وتقديرُ الفعلِ يُومئُ إلى تجدُّدِ هذا التَّذكيرِ، وحِكمةُ التَّذكيرِ بوقتِه التَّنبيهُ على أنَّ هذا لم يَزلْ ثابتًا مُقرَّرًا على ألْسنةِ جميعِ الأنبياءِ في جميعِ الدُّهور(4)، كما أنَّ توجيهَ الأمرِ بالذِّكر إلى الوقت - دونَ ما وقعَ فيه منَ الحوادث مع أنَّها المقصودةُ - للمبالغةِ في إيجاب ذكرِها(5)، وما دُمتَ تَذكرُ هذا - أيُّها النَّبيُّ الكريم - ففي التَّذكرة تسليةٌ لك عمَّا يُصيبُك في أمر الدَّعوة(6).

التَّذكيرُ بحالِ إبراهيمَ لتظلَّ مسيرةُ دعوته متجدّدة في الأذهان

نكتةُ تعريفِ المُسندِ إليهِ بالعلَميَّةِ:

ذِكْرُ ﴿إِبْرَٰهِيمُ﴾ وهو المسند هُنا، وهو عَلَمُ شخصٍ على النَّبي الكريم أبِي الأنبياءِ خليلِ اللّه عليه السلام والتَّصريحُ باسمه العَلَم دون اللَّقب أو الوصفِ، لإحضارِه في ذهنِ السَّامع ابتداءً باسمٍ يختصُّ به(7).

ذكرُ إبراهيم باسمه العلَم إحضارٌ له في الأذهان

سرُّ العُدولِ عنِ النِّداءِ إلى القولِ:

عدلَ القرآنُ الكريم عنِ النِّداءِ إلى القول؛ لأنَّه سبق النِّداءُ في محاورة إبراهيمَ عليه السلام لأبيه في سورة مريمَ في مرَّاتٍ عديدة، بدءًا من

(1) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 7/156.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 3/151.
(3) ابن عطية، المُحرَّر الوجيز: 2/310.
(4) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 7/156.
(5) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 3/151.
(6) الشَّعراوي، تفسير الشعراوي: 6/3732.
(7) عبد المتعال الصَّعيديُّ، بغية الإيضاح: 1/78، وابن عبد الكافي، عروس الأفراح: 1/168.

مقامُ الدَّعوةِ مقدَّمٌ على مقامِ الأُبوَّةِ

قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ﴾ [مريم: 42] في محاورةٍ طويلةٍ بينهما، كان النِّداءُ النديُّ عنوانَها، ومع ذلك لم يستجب أبوهُ لهذهِ الدَّعوة، فما كان من سيِّدنا إبراهيم إلا أن غيَّر أسلوبَه في الدَّعوة، فكان القولُ الَّذي يحملُ شدَّةً في غير عنفٍ، وقوَّةً في غير قسوةٍ؛ لأنَّ دعوةَ اللّه هي الهدفُ الأعلى، وهذا هو المناسبُ لهذه الحلقةِ في قصَّة سيّدنا إبراهيمَ؛ لأنَّها مبنيَّةٌ على مجاراة الخصمِ لإبطال شبهتهِ، وحتَّى لا يتوهَّم متوهِّمٌ بوجود شائبةٍ في عقيدة سيِّدنا إبراهيم عليه السلام بسبب ما سيصدرُ عنه بعد ذلك من أقاويلَ يُجاري بها خصومَه لإبطالِ شُبهِهم ومزاعمِهم؛ فكان هذا القولُ الصَّريحُ الَّذي يدلُّ على عُلوِّ صوتِ الحقِّ في مواجهةِ الباطلِ.

دلالةُ التَّعبيرِ بقوله: ﴿لِأَبِيهِ﴾ دون والدِهِ:

شمولُ إرادةِ الأبِ المباشرِ وغيرِهِ منَ الآباء

اختلف المفسِّرون في بيان معنى (الأب) المقصودِ في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ﴾، هل هو والدُ إبراهيمَ المباشرُ أم عمُّه؟ على قولين مشهورين لأهل العلم، ولكلٍّ وجهُهُ وقوَّتُهُ؛ لأنَّ الأبَ يمكنُ أن يكونَ الوالدَ المباشرَ، ويمكنُ أن يكون الجدَّ أو العمَّ، فقد أُطْلِقَ الأبُ في القرآن على الجدِّ، وإن علا، كقول يوسفَ عليه السلام: ﴿وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾ [يوسف: 38]، فيعقوبُ هو الوالدُ، وإسحاقُ هو الجدُّ، وإبراهيمُ هو والدُ الجدِّ، بل قد يُطلقُ على الجدِّ البعيد، كقوله تعالى: ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الحج: 78][1]، ويُطلق أيضًا على العمِّ، كقول أبناء يعقوب ليعقوب عليه السلام: ﴿قَالُواْ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ﴾ [البقرة: 133]، ومعلوم أنَّ إسماعيل عليه السلام هو العمُّ المباشر لأبيهم يعقوبَ عليه السلام، وهذا الاستعمالُ القرآنيُّ الشَّاملُ لمعاني التَّفسير مُرتبطٌ باتِّساع الأصل اللُّغويِّ لكلمة (أب) وشمولِها لكلِّ هذه المعاني.

(1) العسكريُّ، الفروق اللُّغويَّة، ص: 566.

دلالةُ الإضافةِ في قولِه: ﴿لِأَبِيهِ﴾:

احترامُ القرآنِ للأبوّة، ولو شانَها اختلافٌ في الدِّين

دلَّتِ الإضافةُ في قولِه تعالى: ﴿لِأَبِيهِ﴾ مع أنَّه كافرٌ على أنَّ الإسلامَ يحترمُ الأبوَّة مع اختلاف الدِّين، فإبراهيمُ أبو الأنبياء كان حنيفًا مسلمًا، وأبوه كافرٌ، وهذا يدلِّلُ على أنَّ حقوقَ الأبوَّة لا تسقطُ بالكفر، يؤكِّدُ ذلك ما ذكره القرآنُ الكريم في سورة لقمانَ عنِ الإحسان إلى الوالدين بقوله: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ فَلَا تُطِعۡهُمَاۖ وَصَاحِبۡهُمَا فِي ٱلدُّنۡيَا مَعۡرُوفٗاۖ﴾ [لقمان: 15]، فأُمِرَ الابنُ بصحبة والديه المشركَيْن بالمعروف.

سرُّ انفرادِ موضعِ الأنعامِ بذكرِ ﴿ءَازَرَ﴾ دونَ بقيَّةِ المواضعِ:

جاء ذكرُه في أوَّلِ موضعٍ ليُحملَ ما جاء في المواضع الأخرى عليه

الَّذي يقرأ قصَّةَ سيِّدِنا إبراهيمَ عليه السلام يجد أنَّها وردتْ في سورٍ عديدةٍ في القرآن الكريم منها: (سورة البقرة، وسورة الأنعام، وسورة هود، وسورة مريم، وسورة الحج، وسورة العنكبوت، وسورة الزخرف، وسورة الذاريات، وسورة الممتحنة)، وكلُّ سورةٍ من هذه السُّور تناولتْ جانبًا من قصَّتِه عليه السلام، والَّذي يعنينا في هذا المقام ما يتعلَّق بمعالم دعوته، وما اتَّبعه من أساليبَ في عرضِها منَ الحوارِ والمحاجّةِ مع أبيه وقومه.

ولمَّا كانت سورةُ الأنعام هي السُّورةَ الأولى في ترتيب المصحفِ الَّتي تناولت هذا الجانبَ في دعوته عليه السلام لأبيه وقومه؛ ناسب هنا الإتيانُ بالتّعريف بأبيه ﴿ءَازَرَ﴾، وليُحملَ ما جاء بعد ذلك من عدمِ ذكرِ اسم آزرَ فيهِ على الموضعِ الأول، وهو في سورة الأنعام.

دلالةُ لفظ ﴿ءَازَرَ﴾ بين الحقيقةِ والمجازِ:

مراعاةُ المُناسبةِ بين اسمِ (آزر) وحالِهِ

اختلف المفسِّرون في معنى كلمة ﴿ءَازَرَ﴾: هل هي اسمٌ لأبي إبراهيمَ حقيقةً، أم هي لقبٌ عليه أو وصفٌ له؟

ومن جُملة ما ذكرُوه أنَّ ﴿ءَازَرَ﴾ كان اسمَ صَنَمٍ يعبدُه والِدُ

إبراهيم، وإنَّما سَمَّاهُ اللّه بهذا الاسم لوجْهَيْن: **أَحدُهُمَا**: أَنَّهُ جَعَلَ نَفْسَهُ مُخْتَصًّا بِعِبادَتِهِ؛ وَمَنْ بالَغَ في محبَّةِ أحدٍ فقد يَجْعَلُ اسْمَ المَحبوبِ اسْمًا لِلمُحبِّ[1]، فيكونُ هذا من قبيل المجاز المُرسلِ بعلاقة المجاورةِ.

الثَّاني: أنَّه من قبيل إيجاز الحذف: أَن يكونَ المُرادُ عابِدَ آزَرَ، فَحُذِفَ المُضَافُ، وَأُقِيمَ المُضَافُ إِلَيْهِ مَقَامَهُ[2].

توجيهُ القراءاتِ في لفظ ﴿ءَازَرَ﴾:

اختلفَ القُرَّاءُ في لفظة ﴿ءَازَرَ﴾: فَقَرَأَ يَعْقُوبُ بِرَفْعِ الرَّاءِ، وَقَرأَ البَاقُونَ بِنَصْبِهَا[3]، ومن قرأ بالنَّصب على أنَّه عطف بيان أو بدل لقوله: ﴿لِأَبِيهِ﴾ فَأُبْدِلَ لِبَيانِ إرادَةِ الأَبِ حَقِيقَةً[4].

بيانُ إرادةِ الأبِ على وجهِ الحقيقةِ

ومن قرأ بالضَّمِّ على النِّداء، والنِّداءُ بالاسم هنا فيه زجرٌ للمُنادَى، وذلك لائقٌ به؛ لأنَّه كان مُصِرًّا على كفرِه، فَحَسُنَ أن يُخاطَبَ بالغِلْظة زجرًا له عن ذلك القبيح، بخلاف قَوْلِهِ: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ﴾ [الأعراف: 142] حيثُ قُرِئَ ﴿هَٰرُونَ﴾ بالنَّصب، وما قُرِئَ البتَّةَ بالضَّم، فقد كان موسى عليه السلام يستخلفُ هارون على قومه، وهو مقامُ تشريفٍ، فما كان الاستخفافُ لائقًا بذلك الموضعِ[5].

دلالةُ الاستفهامِ في قوله ﴿أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً﴾:

الاستفهامُ في قوله تعالى: ﴿أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا﴾ للإنكارِ والتَّوبيخِ[6]، إذ قال عليه السلام لأبيه مُنكرًا عليه منبِّهًا له على ظهور فسادِ ما هو مرتكبُه: ﴿أَتَتَّخِذُ﴾، فالهمزةُ هنا للإنكار[7].

الإنكارُ والتَّوبيخُ المنبِّهان على فسادِ معتقدِ آزرَ وقومِه

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 13/32.
(2) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 13/32.
(3) ابن الجزريُّ، النَّشر: 2/259.
(4) السُّيوطيُّ، الإتقان: 3/238، والبقاعي، نظم الدُّرر: 7/156.
(5) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 13/34.
(6) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 7/312.
(7) أبو حيَّان، البحر المحيط: 4/562، والقرطبيُّ، تفسير القرطبيُّ: 7/23.

وقدْ نبَّه بهذا الإنكارِ على أنَّ مَعرفةَ بُطلانِ ما هو مُتدَيِّنٌ به لا يحتاجُ إلى كثيرِ تأمُّلٍ[1]، بل هو أمرٌ بديهيٌّ أو قريبٌ منه، فإنَّهم يُباشِرونَ أمْرها بجميعِ جوانبِهم، ويَعلَمون أنَّها مصنوعةٌ، وليستْ بصانعةٍ، وكثرتُها تدلُّ على بُطلانِ إلهيَّتِها بما أشارَ إليه قولُه تعالى: ﴿لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ﴾ [الأنبياء: 22][2].

وفيه أيضًا دليلٌ على الإنكار على من أُمِرَ الإنسانُ بإكرامه؛ إذا لم يكن على طريقةٍ مستقيمةٍ، وعلى البداءةِ بمنْ يقرب من الإنسانِ كما قال: ﴿وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ ٢١٤﴾ [الشُّعراء: 214][3].

سِرُّ التَّعبيرِ بصيغةِ الافتعالِ (الِاتِّخَاذِ):

الاتِّخاذُ دالٌّ على التَّكلُّفِ والمبالغةِ في تحصيلِ الفعلِ

في قوله تعالى: ﴿أَتَتَّخِذُ أَصۡنَامًا﴾ عبَّرَ بصيغةِ الافتعالِ في (تتَّخِذ) - وهو افتعالٌ منَ الأخْذِ - للدَّلالة على التكلُّفِ للمبالغةِ في تَحصيل الفِعلِ، وأنَّ ذلك مُصطنَعٌ مُفتعَلٌ، وأنَّ الأصنامَ ليست أهلًا للإلهيَّة، وفي ذلك تعريضٌ بسخافةِ عَقْلِه، أن يجعَلَ إلهَه شيئًا هو صَنَعَه[4]، فالظَّاهرُ أنَّ (تَتَّخِذ) يتعدَّى إلى مفعولين، وجوَّزوا أن يكون بمعنى (أتعمل وتصنع)؛ لأنَّه كان ينحتُها ويعملُها[5].

سِرُّ التَّعبيرِ بالاتِّخاذِ دونَ العبادةِ:

المقصودُ الأصليُّ من عبادتِهم أنَّها كانت موجَّهةً أصالةً إلى الكواكِبِ

في قوله تعالى: ﴿أَتَتَّخِذُ أَصۡنَامًا﴾ عبَّرَ النَّظمُ الكريمُ باتِّخاذ الأصنام دونَ العبادةِ، مع أنَّ القومَ اشتغلوا بعبادتِها وتعظيمِها؛ لأنَّهم لمَّا رأوا أنَّ الكواكبَ قد تغيبُ عنِ الأبصارِ في أكثر الأوقاتِ؛ اتَّخذوا لكلِّ كوكبٍ صنمًا منَ الجوهر المنسوبِ إليه، واتَّخذوا صنمَ الشَّمسِ مِنَ الذَّهب، وزَيَّنوهُ بالأحجارِ المنسوبة إلى الشَّمس، وهي الياقوتُ

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 7/157.
(2) أبو حيَّان، البحر المحيط: 4/562، وابن عادل، اللُّباب في علوم الكتاب: 8/231، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 7/312.
(3) أبو حيَّان، البحر المحيط: 4/562.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 7/313، وطَنطاوي، الوسيط: 5/108.
(5) أبو حيَّان، البحر المحيط: 4/562.

والألماس، واتَّخذوا صنمَ القمر منَ الفضَّة وعلى هذا القياس، ثُمَّ أقبلوا على عبادةِ هذه الأصنام، وغرضُهم من عبادةِ هذه الأصنام هو عبادةُ تلكَ الكواكب والتَّقرُّبُ إليها، وعند هذا البحثِ يظهر أنَّ المقصودَ الأصليَّ من عبادة هذه الأصنام هو عبادةُ الكواكب[1].

سِرُّ جمعِ الأصنامِ في قولهِ تعالى: ﴿أَصْنَامًا﴾:

بيانُ كثرةِ معبوداتِهم الباطلةِ، وتقبيحُ أفعالِهم

في ذكرهِ ﴿أَصْنَامًا ءَالِهَةً﴾ بالجمع تقبيحٌ عظيمٌ لفعلهم واتِّخاذهم جمعًا آلهةً[2]، فإيرادُ صيغةِ الجمع باعتبار الوقوعِ[3]، فهي أصنامٌ كثيرة، وكثرتُها تدلُّ على بطلانِ إلهيَّتها[4]، ذلك أنَّ هذه الأصنامَ لو حَصَلَت لها قدرةٌ على الخيرِ والشَّرِّ؛ لكانَ الصَّنمُ الواحدُ كافيًا، فلمَّا لم يكُنِ الواحِدُ كافيًا؛ دلَّ ذلك على أنَّها وإن كثُرت؛ فلا نَفْعَ فيها البتَّةَ[5].

سرُّ التَّعبيرِ بالجمعِ في ﴿ءَالِهَةً﴾ دونَ الإفرادِ:

بطلانُ عِبادة الآلهة أمرٌ مُقَرَّرٌ في الوجدان، وثابتٌ في الأذهان

عبَّرَ بالجمْعِ في قوله: ﴿ءَالِهَةً﴾ دونَ الإفرادِ (إلهًا) ليدلَّ على بطلانِ عبادتها؛ لأنَّ القولَ بكثرة الآلهة يُبطلهُ العقلُ؛ لأنَّ كثرة الآلهةِ تتنازعُ في السِّيادة والسلطة، يؤكِّد هذا المعنى قولُه تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: 22].

بلاغةُ التَّعريضِ بمشركي العربِ:

فضحُ مُشركي العربِ ببيانِ مُخالفتِهم لأبيهم الذي ينتسبونَ إليهِ

قوله تعالى ﴿أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً﴾ احتجاجٌ على مشركي العربِ بأحوالِ إبراهيمَ ومحاجَّتِه لأبيه وقومه؛ لأنَّهم كانوا يُعَظِّمون إبراهيمَ عليه السلام ويعترفون بفضلهِ، فلا جرمَ ذُكِرَ إنكارُ إبراهيم عليه السلام على أبيهِ وقومهِ في معرض الاحتجاجِ على المشركين[6]، والتَّعريض بهم في مُخالفتهم لأبيهم الذي ينتسبونَ إليه.

---

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 13/30.
(2) أبو حيَّان البحر المحيط: 4/562.
(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 3/151، والآلوسي، روح المعاني: 4/184.
(4) البقاعي، نظم الدُّرر: 7/157.
(5) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 13/34.
(6) الخازن، لباب التَّأويل: 2/125 - 126.

دلالةُ التَّنْكيرِ في ﴿أَصْنَامًا﴾:

الإشارةُ إلى كثرتها من غيرِ عددٍ معيَّنٍ

دلَّ التَّنكيرُ - بدلًا من أن يقولَ: أتَّتخذ الأصنامَ آلهةً - على كثرتِها، وعلى حقارةِ شأنِها؛ لأنَّ كثرتَها أنبأتْ عن ضعفِها، وفيه إشارةٌ إلى أنَّ كلَّ إنسانٍ منهم يمكنُ أن يتَّخذَ صنمًا، فلا حدَّ لعدد الأصنامِ؛ بخلافِ المعرفةِ (الأصنام)، فإنَّها تشيرُ إلى عددٍ معيَّنٍ منَ الأصنام معروفٍ لديهم لا يصحُّ تجاوزُه، وهذا على غير الواقعِ الموجودِ آنذاك.

دلالةُ التَّعبيرِ بالأصنامِ دونَ الأوثانِ:

الإشارةُ إلى أنَّها شيءٌ مصنوعٌ مبالَغٌ في نحتهِ وتصويرِه

النَّاظرُ في قصَّة سيِّدنا إبراهيم عليه السلام في دعوتهِ لقومهِ إلى توحيدِ اللّهِ وترك الأصنام والأوثان، يجدُ استعمالَ لفظ الأصنام والأوثان، ففي سورة العنكبوتِ مثلًا يقصُّ القرآن علينا موقفَ سيِّدنا إبراهيمَ عندما دعا قومَهُ إلى عبادةِ اللّه، وحذَّرهم من عبادة الأوثان، فقال لهم: ﴿وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [العنكبوت: 25]، فذكر لفظ (الأوثان)، وفي موضع آخر يعيبُ عليهم عبادةَ الأصنام، فردُّوا عليه قائلين: ﴿قَالُوا۟ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾﴾ [الشعراء: 71]، وعلى هذا نلاحظُ استعمالَ لفظِ الأصنام مرَّةً والأوثان مرَّةً، ففي المواطنِ التي استُعملت فيها كلمةُ (الأصنام) يشيرُ السِّياقُ إلى أنَّها شيءٌ مصنوعٌ مبالَغٌ في نحتهِ وتصويره، ومتكلَّفٌ في إيجاده، بخلاف (الوثن) فهو مجرَّدُ حجرٍ لا صورةَ له، ولا نحتَ فيه، وهذا ما كانَ في موضع سورةِ الأنعام من النَّحت والصّناعةِ.

سِرُّ التَّعبيرِ بـ ﴿ءَالِهَةً﴾ دونَ الأربابِ:

الإنكارُ على قوم إبراهيم في شِركهم تعريضٌ بمشركي قريش

عبَّرَ بالآلهةِ دونَ الأرباب؛ لأنَّ هذه الأصنامَ المصنوعةَ مربوبةٌ ليس لها من صفاتِ الرُّبوبيَّةِ شيءٌ؛ لأنَّ الرَّبَّ يُعَبَّر به عن الخالقِ المالك المربِّي لمخلوقاتهِ بنعمِه الَّذي ينمِّيهما أجسامًا وعقولًا[1].

(1) الهرري، حدائق الرَّوح والرَّيحان: 28/276.

والمشركون أغلبُ شِركهم في الألوهيَّة دون الرُّبوبية؛ لعلمِهم أنَّ هذه الآلهةَ المعبودةَ لا تملكُ الخلقَ والملك والتَّدبيرَ، فلا تصلحُ أن تكونَ أربابًا، وإنَّما عبدوها باتِّخاذهم لها وسائلَ ووسائطَ تُقرِّبُهم إلى الله زلفى: ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ [الزُّمر: 3].

سِرُّ تقديمِ إبطالِ أُلوهيَّةِ الأصنامِ على رُبوبيَّةِ الكواكبِ:

التَّرقّي في إبطالِ الخفيِّ إلى الأخفى

تقديمُ بُطلانِ إلاهيَّةِ الأصنامِ على رُبوبيَّةِ الكواكبِ جاء من باب التَّرقّي منَ الخفيِّ إلى الأخفى، وقيل: إنَّ القومَ كانوا يعبدون الكواكبَ، فاتَّخذوا لكلِّ كوكبٍ صنمًا منَ المعادن المنسوبةِ إليهِ، كالذَّهب للشَّمس، والفضَّةِ للقمر؛ ليتقرَّبوا إليها، فأنكرَ أوَّلًا عبادتَهم للأصنام بحسب الظَّاهر، ثُمَّ أبطلَ مَنْشَأَها، وما نُسبت إليه منَ الكواكِبِ بعدم استحقاقِها لذلك أيضًا[1].

سرُّ بدء إبراهيمَ بدعوة أبيهِ قبل دعوة قومِهِ:

الأقْرَبُونَ أَولَى بالنُّصْحِ والإرشَادِ والإحْسَانِ

يجدُ القارئُ لهذهِ الآياتِ في سورةِ الأنعام: أنَّ سيِّدنا إبراهيمَ وجَّه دعوتَه لأبيهِ أوَّلًا قبْلَ قومِه، كما في سُوَرِ الأنبياء والشّعراء والصّافّات؛ وذلك لأنَّ النُّصحَ وسائرَ الأفعال الجميلة يُبْدأُ فيها بالأقربِ، وهذا ما فعله سيِّدنا إبراهيمُ عليه السلام حيث بدأ بأبيه، كما قال ربُّنا في أمر الدَّعوة مع الرَّسول ﷺ فقال له: ﴿وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ ٢١٤﴾ [الشعراء: 214]، وفي هذا إشارةٌ إلى أنَّ الدّاعيةَ يقوم بالإنكارِ على أقرب الأقربين، إذا كان على غير طريقةٍ مستقيمةٍ، ويعَدُّ ذلك من باب الإكرام[2].

سببُ فصلِ قولِهِ تعالى: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰكَ﴾ عَمَّا قَبْلُ:

الجمعُ بين الإنكارِ بالمفهومِ والإنكارِ بالمنطوقِ

فُصلتْ جملة ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوۡمَكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ عمَّا قبلها؛ لأنَّها جملةٌ مُبَيِّنةٌ للإنكارِ في جملة: ﴿أَتَتَّخِذُ أَصۡنَامًا ءَالِهَةً﴾[3]، وهو

(1) الآلوسي، روح المعاني: 4/188.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 4/164.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 7/313.

حكمٌ تولَّدَ عنِ الاستفهامِ السَّابق وتعليلٌ للإنكار والتَّوبيخ[1]، فجيءَ بالفصل لاختلاف الجُملتين خبرًا وإنشاءً مع الارتباطِ القويِّ بينهما في المعنى لشبَهِ كَمال الاتِّصال، وذلك ليجمعَ بين الإنكارِ بالمفهوم والإنكارِ بالمنطوق.

نكتةُ التَّأكيدِ في قولهِ تعالى ﴿إِنِّيٓ﴾:

تأكيدُ وقوعِ آزر وقومه في ضلالٍ مبين في الاعتقاد

أكَّدَ الإخبارَ بحرفِ التَّأكيدِ في ﴿إِنِّيٓ﴾؛ لِمَا يتضمَّنه ذلك الإخبارُ من كونِ ضلالهم بيِّنًا، وذلك ممَّا يُنكره المخاطَبُ؛ ولأنَّ المخاطبَ لَمَّا لم يكن قد سمع الإنكارَ عليه في اعتقادهِ قبْلَ ذلك؛ يَحسبُ نفسَه على هدًى، ولا يحسبُ أنَّ أحدًا يُنكر عليه ما هو فيه، ويظنُّ أنَّ إنكارَ ابنه عليه لا يبلغُ به إلى حَدّ أن يراهُ وقومَهُ في ضلالٍ مبين، فقد يتأوَّلُه بأنَّه رام منه ما هو أولَى[2].

دلالةُ فعلِ الرُّؤيةِ في قولهِ ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰكَ﴾:

استعمالُ اللَّفظِ المشتركِ في مَعْنَيَيْهِ: الإبصارِ والاعتبارِ

الرُّؤيةُ إمَّا علميَّةٌ؛ فالظَّرفُ مفعولُها الثَّاني، وإمَّا بصَريَّةٌ؛ فهو حالٌ منَ المفعول[3]، و﴿أَرَىٰكَ﴾ في هذا الموضع يشتركُ فيها البصرُ والقلبُ؛ لأنَّها رؤيةُ قلبٍ ومعرفتُه، وهي متركِّبةٌ على رؤية بصرٍ[4]، فهو من دلالةِ استعمالِ اللَّفظ المشتركِ في مَعْنَيَيْهِ.

وممَّا يُذكرُ في هذا المقامِ أنَّ التَّعبيرَ بالرُّؤية فيه إشارةٌ إلى كمال اليقين المتمثِّلِ عن طريق المشاهَدةِ، إلى أنَّ ضلالَ أبيه وقومِه، ظاهرٌ للعَيانِ، وفي قوله: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰكَ﴾ أيضًا دليلٌ على هِدايةِ إبراهيمَ وعِصمَتِه[5].

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/151.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 7/313.
(3) أبوالسُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 3/151.
(4) ابن عطيَّة، المُحرَّر الوجيز: 2/311.
(5) أبو حيَّان، البحر المحيط: 4/562.

دلالةُ عطفِ القومِ في ﴿وَقَوْمَكَ﴾ على ضميرِ الخطابِ:

التَّصريحُ بضلالِ أبيهِ وقومه، ولو تكاثَروا في الضَّلال

في قوله: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوۡمَكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ عَطفَ ﴿وَقَوۡمَكَ﴾ على ضَميرِ المخاطَبِ في ﴿أَرَىٰكَ﴾، من غير إعادة الفعل ﴿أَرَىٰكَ﴾، مع العِلم بأنَّ رؤيتَه أباه في ضَلالٍ تَقتضي أنْ يرَى مماثِليه في ضلالٍ أيضًا، وفائدةُ ذلك أنَّ المقامَ مقامُ صراحةٍ، لا يُكتَفَى فيه بدَلالةِ الالتزام، ولِيُنَبِّئَهُ من أوَّلِ وهْلةٍ على أنَّ موافقةَ جَمْعٍ عظيمٍ إيَّاه على ضَلالِه لا تُعَضِّدُ دِينَه، ولا تُشَكِّك مَن يُنْكِرُ عليه ما هو فيه[1]، وفيه إشارةٌ إلى أنَّ أباهُ قائدُهم في ذلك، وهم أتباعٌ له.

دلالةُ إضافةِ القومِ إلى ضميرِ الخطابِ:

تَبَرُّؤُ إبراهيم من شِرك أبيه ومن شِركِ قومه

دلَّت هذه الإضافةُ إلى أبيهِ دون أن يقولَ: (وقومي)؛ للإشارةِ إلى تبرُّئِه منهم؛ لشركِهم، فلم ينسبْهم إليه، وفي هذا دليلٌ على تَحقُّقِ إيمانِ سيِّدنا إبراهيم وإنكارِه على قومه.

نوعُ الظَّرفيّة في قوله ﴿فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾:

بيانُ تمكُّنِهم في الضَّلال البَواحِ وانغماسِهم فيهِ

جيءَ بحرفِ الظَّرفيَّةِ ﴿فِي﴾ المستعارِ لِشدَّةِ التَّلَبُّسِ بالوصفِ، دون (على)؛ تَمثيلًا لحالِهم في إحاطة الضَّلالِ بهم بحالِ الشَّيءِ في ظَرْفٍ محيطٍ به لا يتركهُ يُفارقُه، ولا يتطلَّعُ منه على خلاف ما هو فيه من ضيقٍ يُلازِمُهُ، فأخبرَ أنَّه وقومَه في ضلالٍ، وجعلَهم مَظروفين للضَّلال، وهو أبلغُ من وصفهم بالضَّلالِ، كأنَّ الضَّلالَ صار ظرفًا لهم[2].

إذًا فحَرْفُ الظَّرفيَّة، يشيرُ إلى تَمَكُّنِهم مِنَ الضَّلالِ وانْغماسهم فِيهِ لإِفَادَةِ أَنَّهُ ضَلَالٌ بَوَاحٌ لَا شُبْهَةَ فِيهِ، مؤكَّدٌ بِوَصْفِهِ بـ ﴿مُّبِينٖ﴾[3].

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 7/314.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 4/562.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 17/95، 22/193.

سِرُّ التَّعبيرِ بالضَّلالِ عنِ الكفرِ والشِّركِ:

عبَّرَ بالضَّلالِ؛ لأنَّهُ أعمُّ منَ الكفرِ والشِّركِ، حيثُ يُطلَقُ عنِ العدولِ عنِ الطَّريقِ المستقيم، ويقالُ ذلك لكلِّ عُدولٍ عنِ المنهجِ، عمدًا كان أو سهوًا، يسيرًا كان أو كثيرًا، وهذا ما وقع فيه قومُ إبراهيمَ عليه السلام مع أبيه[1].

عمومُ انحرافِ قومِ إبراهيمَ عليه السلام عنِ المنهجِ المستقيمِ

نُكتةُ تنكيرِ لفظ ﴿ضَلَٰلٍ﴾:

قولهُ: ﴿فِي ضَلَٰلٍ﴾، أي: عظيم عن الحقِّ[2]، فالتَّنكيرُ للتَّعظيمِ وللتَّهويل، فهو ضلالٌ هائلٌ لا حدَّ له، ويجوزُ أن يكونَ لبيان النَّوعيةِ، أي: إنَّهُ نوعٌ خاصٌّ منَ الضَّلالِ ليس من جنس الضَّلالِ المعهودِ، ولا تعارُضَ بين الدِّلالتين؛ لأنَّهما يَؤولانِ إلى المعنى المقصودِ في شدَّة الضَّلال.

تهويلُ ضلالِ قومِ إبراهيمَ وتشنيعُهُ

فائدةُ وصفِ الضَّلالِ بالمبُين:

وَصْفُ الضَّلال بأنّه ﴿مُّبِينٍ﴾ دون (البعيد) أو ما يُقاربه دليلٌ على شدَّةِ فسادِ عقولهم، حيثُ لم يتفطَّنوا لضلالهم مع أنَّه كالواضح المشاهَدِ المرئيِّ[3].

بيانُ شِدَّةِ عَمايتِهم؛ مع وُضوحِ الحقِّ وجلائهِ

نُكْتَةُ التَّعْبِيرِ بِاسْمِ الفَاعِلِ ﴿مُّبِينٍ﴾:

التَّعبيرُ باسم الفاعل ﴿مُّبِينٍ﴾ للمُبالغةِ في وضوحِ الضَّلالِ، أي: الضَّلالُ مُبيِّنٌ لنفسهِ مُوَضِّحٌ لها؛ إذ كيفَ تصنعُ بيديك حجرًا، ثُمَّ تعبدُه؟[4] فهو ضلالٌ بيِّنٌ كونُه ضلالًا لا اشتباهَ فيه أصلًا[5].

قومُ إبراهيمَ كانوا منغمسين في ضلالٍ مبين وشركٍ بيّنٍ جليّ

وممَّا يُذكر في هذا المقام أنَّه إذا كان مُبيِّنًا لضلالهم وغيِّهم، فبالتَّأكيدِ هو بَيِّنٌ في نفسه من باب أولى.

---

(1) الراغب، المفردات: (ضلَّ).

(2) الآلوسي، روح المعاني: 4/185.

(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 7/314، وطنطاوي، الوسيط: 5/108.

(4) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 5/2560.

(5) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 3/151.

مصارحةُ إبراهيمَ عليه السلام أباهُ وقومه:

الدَّلالةُ على هدايةِ إبراهيمَ عليه السلام وعصمتِهِ

إنكارُ إبراهيمَ على أبيه وقومه في قوله ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوۡمَكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾، وتأكيده على ضلالهم المبين، أدلُّ دليلٍ على هدايةِ إبراهيمَ وعِصْمَتِهِ عليه السلام، ممَّا يوهم ظاهرُ قولِهِ تعالى بعد ذلك: ﴿قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ﴾ من نسبة ذلك إليه على أنَّه أخبر عن نفسهِ، وإنَّما قال ذلك على سبيلِ التَّنزُّل مع الخصمِ، وتقرير ما يُبنى عليه من استحالة أن يكونَ الإلهُ مُتَّصفًا بصفاتِ الحدوثِ منَ الجسمانيَّة، وقَبولِه التَّغيُّراتِ منَ البزوغ والأفول ونحوِها[1].

سرُّ التَّعبيرِ بقوله ﴿فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ دون (ضالِّين):

الظَّرفيَّةُ أبلغُ منَ الحاليَّةِ

عبَّرَ بكونهم في الضَّلالِ دونَ (ضالين)؛ لأنَّهُ أبلغُ من وصفِهم به، فكأنَّ الضَّلالَ صارَ ظرفًا لهم.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الوالد والأب:

الوالدُ خاصٌّ بالأبِ المُباشرِ، والأبُ أعمُّ

الوالدُ في اللُّغة هو الأبُ المُباشر الذي أنجبَ، فالوالدُ لا يُطلقُ إلَّا على من أولدَكَ من غير واسطةٍ[2]، لذلك حينما يقول ﷻ: ﴿أَنِ ٱشۡكُرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيۡكَ﴾ نعلم أنَّ كلمة (وَالِدَيْكَ) هُنا هُما الأبُ والأمُّ[3]، أي: الأبوان المُباشران، أمَّا الأبُ؛ فقد يكون الأبَ المُباشرَ، وقد يُطلق على العمِّ والجدِّ[4]، قال تعالى: ﴿قَالُواْ نَعۡبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ﴾ [البقرة: 133]، بل قد يُطلق على الجدِّ البعيد، ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ﴾ [الحج: 78][5]، فيُطلق الأبُ على الجَدِّ وإن علا، فالوالدُ خاصٌّ، والأبُ عامٌّ، وهذا الاستعمالُ القرآنيُّ مُرتبطٌ باتِّساع الأصلِ

(1) أبو حيَّان، البحر المحيط: 4/562.
(2) العسكريُّ، الفروق اللُّغويَّة، ص: 566.
(3) الجوهريُّ، الصِّحاح، وابن منظور، لسان العرب: (ولد).
(4) الراغب، المفردات: (أبا)، والزَّبيدي، تاج العروس: (أبى).
(5) العسكريُّ، الفروق اللُّغويَّة، ص: 566.

اللُّغوي لكلمة (أب) وشمولِها لكلِّ ما كان سببًا في وجود الشَّيءِ أو رعايتِه، أو إصلاحِهِ، أو ظُهورِه[1].

وممَّا يُذكرُ في الفرق بينهما: أنَّ الوالدَ لم يردْ مجموعًا في القرآن الكريم؛ بخلاف الأب، فقد وردَ مجموعًا كما سبقَ في قولهِ تعالى: ﴿قَالُواْ نَعۡبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ﴾ الآية، وفي قوله تعالى: ﴿وَٱتَّبَعۡتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ﴾ الآية، وفي هذا دليلٌ على أنَّ لفظَ الوالدِ مقصورٌ على الأبِ المباشرِ دون غيره، الذي هو السببُ المباشرُ في وجود الابنِ.

الأخْذ والاتِّخاذ:

الأخْذُ مَصْدر (أَخَذْتُ بيديَّ)، ويُستعارُ، فيقال: أخذه بلسانه؛ إذا تَكَلَّمَ فيه بمكروه، وجاء بمعنى العَذابِ في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخۡذُ رَبِّكَ﴾ [هود: 102]، وقولِه تعالى: ﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّيۡحَةُ مُشۡرِقِينَ ٧٣﴾ [الحجر: 73]، وأصلُه في العربيَّة: حَوْزُ الشَّيء وجَبْيُهُ وجَمْعُهُ[2]، والاتِّخاذ: أخْذُ الشَّيء لأمر يَسْتَمِرُّ فيه، فيُستَعمَلُ بمعنى جَعَلَ[3]، مثلَ الدَّارِ يتَّخذها مَسكنًا، ويكونُ الاتِّخاذ في التَّسمية والحُكْم، ومنه قوله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً﴾ [الفرقان: 3] أي: سمَّوها بذلك، وحكموا لها به[4].

الأخـــذُ: حَـــوْزُ الشَّيء وجمعُه، والاتِّخاذُ: جَعْلُ الـــشَّيءِ لأمـــرٍ والاستمرارُ عليه والـتّـكـلُّـفُ في الحصول عليه

وممَّا يُذكرُ في الفرقِ بينهما: أنَّ الاتِّخاذ على صيغة الافتعالِ، وهي دالَّةٌ على التَّكلُّف للمبالغة في تحصيل الفعل، وهذا المناسبُ لاستعمالِ القرآن في فعلهِم مع الأصنام.

الصَّنم والوَثَن:

الصَّنمُ: مَا كَانَ مُصَوَّرًا من حجرٍ أَو نحاسٍ أو فضَّةٍ أَو نَحْو ذَلِك، والوثنُ: مَا كَانَ من غير صورةٍ[5].

الـوثـنُ أعـمُّ منَ الصّنم

(1) الرَّاغب، المفردات: (أبا).
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (أخذ).
(3) الفيوميُّ، المصباح المنير: (ءخذ).
(4) العسكريُّ، الفروق اللُّغويَّة، ص: 29.
(5) ابن عزيز السِّجستاني، غريب القرآن، ص: 66.

فمَا اتَّخَذَهُ النَّاس من آلهةٍ، فكانَ من غير صُورةٍ؛ فَهُوَ وَثَنٌ، فَإِذَا كَانَ لَهُ صُورَةٌ؛ فَهُوَ صَنَمٌ[1].

وفَرَّق بَيْنَهُما هِشامٌ الكَلْبِيُّ في كِتابِ الأَصْنام: بِأَنَّ المَعْمُولَ مِنَ الخَشَبِ أَو الذَّهَبِ والفِضَّة أَو غَيْرِها من جَوَاهِرِ الأَرْضِ صَنَمٌ، وَإِذا كَانَ من حِجارةٍ؛ فَهُوَ وَثَنٌ[2].

وَقيل: الصَّنمُ: مَا كَانَ على صُورَة خِلْقَةِ البَشَرِ خاصَّةً، والوَثَنُ: مَا كَانَ على غَيْرِها[3].

ويُطْلَقُ الوَثَنُ على الصَّلِيبِ، وعلى القبرِ إذا عُبِدَ من دون اللّهِ، وعلى كلِّ معبودٍ من دون اللّه؛ فالوثنُ أعمُّ سواءٌ كان شيئًا مجسَّدًا على صورة أو غير ذلك، وقد جاء في القرآن ما يدلُّ على هذا، فإنَّ في قصة إبراهيم: مرةً سُمِّيَت أصنامًا، ومرةً سمِّيت أوثانًا، قال تعالى ﴿وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [العنكبوت: 25]، وقال تعالى: ﴿قَالُوا۟ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ۝٧١﴾ [الشُّعراء: 71] فهذا يدلُّ على أنَّها تُطلق على هذا مرَّةً، وتُطلق على هذا مرَّةً أخرى.

(1) ابن منظور، لسان العرب: (صنم).
(2) ابن بشر الكلبي، كتاب الأصنام، ص: 53.
(3) الزَّبيدي، تاج العروس: (صنم).

﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ ٧٥﴾ [الأنعام: 75]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

تبصيرُ إبراهيمَ عليه السلام بملكوتِ السّماواتِ والأرضِ بعد تبصيرِهِ بِبُطلان عبادةِ الأصنامِ

لَمَّا ذكرتِ الآيةُ السَّابقةُ أنَّ اللهَ ﷻ أرى إبراهيمَ عليه السلام الحقَّ في أمرِ أبيه وقومِه، وهو أنَّهم كانوا في ضلالٍ مبينٍ في عبادتهم للأصنامِ والأوثانِ، فعقَّبَ هذا الإنذارَ القويَّ من إبراهيمَ عليه السلام لقومه ببيان فضلِ اللهِ تعالى عليه في تبصيرِهِ طريقَ الحقِّ، فجاءت هذهِ الآيةُ لبيان التّبصيرِ العظيمِ لسيِّدنا إبراهيمَ، وذلك برؤيا ملكوتِ السّماوات والأرض[1] بالبصرِ والبصيرةِ.[2]

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مَلَكُوتَ﴾: مُلْكٌ وسلطانٌ، وهو أعظمُ المُلْك، وهو مُختصٌّ بمُلْكِ اللهِ تعالى، والملكوتُ: مَصدرٌ منَ المُلْك، كالرَّغبوتِ مِنَ الرَّغبة، والرَّهبوتِ منَ الرَّهبة؛ زِيدَتْ فيه الواوُ والتاءُ، وبُنِي على (فَعَلُوت)، وهو بِناءُ مُبالغةٍ؛ لأنَّ الواوَ والتَّاءَ تُزادان للمبالغةِ، فالملكوتُ أبلغُ مِنَ المُلك، لفَخامةِ لفْظِه، وأصلُ (ملك): يدُلُّ على قُوَّةٍ في الشَّيءِ وصِحَّةٍ[3].

2) ﴿ٱلۡمُوقِنِينَ﴾: جمْعُ موقِنٍ، مُشتقٌّ منَ اليقينِ، وهو إزاحةُ الشَّكِّ، وتحقيقُ الأمر، وقد أيقن يُوقِن إيقانًا، فهو مُوقِنٌ، ويَقِنٌ، واليقينُ من صفاتِ العلمِ، فوق المعرفةِ والدِّراية، يُقال: علمٌ يَقِينٍ، وهو سكونُ

(1) الهرري، حدائق الرَّوح والرَّيحان: 8/421 - 422.
(2) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 7/157.
(3) الخليل، العين: (كلم)، والأزهريُّ، تهذيب اللُّغة، والصَّاحب ابن عباد، المحيط في اللُّغة، وابن فارس، مقاييس اللُّغة، وابن منظور، لسان العرب: (ملك)، وابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 156، والنَّيسابوريُّ، إيجاز البيان: 1/299، والسَّمين، الدُّر المصون: 2/547.

الفَهم، وأصل (يقن) يَدُلُّ على زَوَالِ الشَّكِّ وثبوتِ الحُكم، فاليَقينُ: هو الاعتقادُ الجازمُ الثَّابِتُ المُطابِق للواقِع[1].

المَعْنى الإجْماليُّ:

توفيقُ اللهِ إبراهيمَ عليه السلام برؤيةِ الأدلَّةِ الدّالّة على الإله الخالق ليزدادَ إيمانًا مع إيمانِهِ

والمعنى في هذه الآيةِ: وكما أرَينا إبراهيمَ ضلالَ أبيه وقومِه؛ أريناهُ مُلْكَ السّماواتِ والأرض الواسعَ؛ ليستدلَّ بذلك على وحدانيَّةِ اللّه واستحقاقِه العبادةَ وحدَهُ؛ ليكونَ منَ الرَّاسخين في الإيمانِ، وليكونَ منَ المُوقنين بأنَّ اللّه واحدٌ لا شريكَ له، وأنَّه قادرٌ على كلِّ شيء[2].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالةُ الوصْلِ في قولِهِ تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ﴾:

جمعُ دلائلِ الحقِّ لإبراهيمَ وتعريفُه بِهِ من جميعِ الوجوهِ

قولُه: ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾، أي: وكما هدينا إبراهيمَ إلَى تَوْحِيدِ اللّهِ، وأرَيناه الحقَّ في أمر أبيه وقومه، وهو أنَّهم كانوا في ضلالٍ مُبينٍ في عبادتهم للأصنام؛ أَشْهَدْنَاهُ مرَّةً بعد مرَّةٍ مَلَكُوتَ السّماوات وَالأَرْضِ[3]، فكما أراه بعين البصيرةِ أنَّ أباه وقومَه على غير الحقِّ، فخالفَهم؛ جزاه اللّه بأن أراه بعد ذلك ملكوتَ السَّماواتِ والأرضِ، فحسُنت هذه العبارةُ لهذا المعنى[4]، فهو عُطِفَ عَلَى جُمْلَةِ: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ﴾[5] ووُصِلَتْ بها لاتِّحادهما في الخبريَّة.

مُكوّنات لفظ ﴿كَذَٰلِكَ﴾ ودوره في إيضاح المعنى:

إفادةُ القصرِ والاختصاصِ لإبراهيمَ عليه السلام بهذه الهدايةِ والرُّؤيةِ

الكافُ في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ لتأكيدِ ما أفاده اسمُ الإشارة منَ الفخامة، ومحلُّها في الأصل النَّصبُ على أنَّه نعتٌ لمصدرٍ

(1) الخليل، العين (يقن)، والأزهريُّ، تهذيب اللُّغة: (وقن)، والجوهري، الصَّحاح، وابن فارس، مقاييس اللُّغة: (يقن)، والكفويُّ، الكليَّات، ص: 979.

(2) لجنة من عُلماءِ الأزهر، المنتخَبُ في تفسير القرآنِ الكريم، ص: 184، ونُخْبة من العلماء، التَّفسير المُيَسَّر، ص: 137، وجماعَةٌ من علماء التَّفسير، المُخْتَصَر في تفسير القرآن الكريم، ص: 137.

(3) أبو حيَّان، البحر المحيط: 4/563، والهرريُّ، حدائق الرَّوح والرَّيحان: 8/422.

(4) الخازن، لباب التَّأويل: 2/126.

(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 7/315.

محذوفٍ، وأصلُ التَّقدير: (نُري إبراهيم إراءةً كائنة مثلَ تلك الإراءة)، فقُدِّم على الفعل لإفادة القصر[1].

سِرُّ التَّعريفِ بالإشارةِ ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾:

الإيذانُ بعُلوِّ درجةِ المُشارِ إليه وبُعْدِ منزلتِه في الفضلِ

التَّعريفُ بالإشارةِ في (كذلك) فيه من معنى البُعْدِ للإيذان بعُلوِّ درجة المُشارِ إليه، وبُعدِ منزلتِه في الفضل، وكمالِ تمييزِه بذلك وانتظامِه بسببِه في سِلكِ الأمور المُشاهَدة[2]، أَيْ: مِثْلَ ذَلِكَ الإِرَاءِ العَجِيبِ والتَّبصير العظيم الشَّأن، نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السّماواتِ وَالأَرْضِ، وَهَذَا عَلَى طَرِيقَةِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة: 143][3].

من معاني ﴿كَذَٰلِكَ﴾ في مواضعَ من الذّكر:

بيانُ جريانِهِ مجرى المثلِ

اسمُ الإشارةِ ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ في مثل هذا الاستعمالِ يلازمُ الإفرادَ والتَّذكيرَ؛ لأنَّهُ جرى مجرى المثل[4].

نُكتةُ اختيارِ التَّعبيرِ بالمضارعِ ﴿نُرِىٓ﴾:

استحضارُ الإراءةِ في صورةِ المشاهَدِ الحاضرِ

كان الظَّاهرُ (أرَينا) بصيغة الماضي، إلا أنَّه عدلَ إلى صيغةِ المستقبلِ حكايةً للحال الماضية واستحضارًا لصورةِ تلك الإرادةِ العجيبة[5]، حتى كأنَّها حاضرةٌ مشاهَدةٌ، ولبيان أنَّ مُتعلَّقَ الرُّؤية يتجدَّدُ على مرِّ الزَّمان، وللصَّالحين ممَّن جاء بعدَه.

فالنَّظمُ الكريم حكى الحالَ الماضية بقوله: ﴿نُرِىٓ﴾ أي: بالبصرِ والبصيرة على مَرِّ الزَّمانِ وكَرِّ الشُّهور والأعوام إلى ما لا آخرَ له بنفسهِ والصُّلحاء من أولادِه[6]؛ لأنَّ مُتَعَلَّقَ الإراءةِ لا يتناهى وجهُ

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 3/152.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 3/152.
(3) البقاعي نظم الدُّرر: 7/157، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 7/315.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 7/315.
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 7/315.
(6) البقاعي، نظم الدُّرر: 7/157 - 158.

دلالته[1]، فالمقصود أن يراها، فيتوسَّلَ بها إلى معرفة جلالِ اللّه تعالى وقُدسه وعُلوِّه وعظمتِه[2]، ولبيانِ جزاء التَّبْصيرِ وتجدُّدِه لإبراهيم عليه السلام عبَّر عن هذه الرُّؤية بلفظ المستقبل في قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ﴾؛ لأنَّهُ تعالى كان أراه بعينِ البصيرة أنَّ أباه وقومه على غيرِ الحقِّ، فخالفهم، فجزاه اللّه بأن أراه بعد ذلك ملكوتَ السّماوات والأرض، فحَسُنت هذه العبارةُ لهذا المَعنى[3].

دلالةُ اختيار مادّة الرُّؤيةِ ﴿نُرِيٓ﴾:

شمولُ الرُّؤيةِ لحقيقةِ الرُّؤية البصريَّةِ والمعرفةِ والبصيرةِ

قوله: ﴿نُرِيٓ﴾ تحتملُ رؤيةَ البَصرِ والبَصيرة[4] على حدٍّ سواء، فإنْ كانت على حقيقتها؛ فالمقصودُ أن يراها حقيقةً، فيتوسَّلَ بها إلى معرفة جلالِ اللّه تعالى وقُدسه وعلُوِّه وعظمتِه[5]، وإن كانت على المجاز، فهذه الإراءةُ تكونُ مِنَ الرُّؤيةِ البصَريَّةِ المستعارةِ للمعرفة ونظرِ البصيرة، أي: عرّفاناه وبصَّرناه[6]، فَتُخرَّجُ على الاستعارَةِ التَّصريحيَّةِ التَّبعيَّة، أو على المجاز المُرسل بعلاقة السَّببيَّة من باب إطلاق السَّببِ على المُسَبَّب[7].

سرُّ إسناد فعل الرّؤية إلى الباري:

الدَّلالة على عظمةِ الإراءةِ، والتَّفريقِ بين إراءةِ البشرِ وإراءةِ ربِّ البشرِ

عبَّرَ بالفعلِ ﴿نُرِيٓ﴾ دون (أُري) للدَّلالة على عظمة الإراءةِ؛ لأنَّ الفاعلَ عظيمٌ، ولا يصدر عن العظيم إلَّا الشَّيءُ العظيمُ، وللتَّفريقِ بين إراءةِ البشر وإراءةِ ربِّ البشر؛ فبعضُ الطُّغاة يُعبِّرون بالفعل ﴿أَرَىٰ﴾ كما قال فرعونُ: ﴿مَآ أُرِيكُمۡ إِلَّا مَآ أَرَىٰ﴾؛ فجاء التَّعبير بالنُّونِ ليفرِّقَ بينهما.

---

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 3/152، والآلوسي، روح المعاني: 4/186.
(2) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 13/35.
(3) الخازن، لباب التأويل في معاني التنزيل: 2/126.
(4) البقاعي، نظم الدُّرر: 7/157 - 158.
(5) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 13/35.
(6) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 3/151 - 152.
(7) الآلوسي، روح المعاني: 4/186.

بلاغةُ الإظهارِ في قولِه: ﴿نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ﴾:

بيانُ عُلوِّ قدرِه ﷻ، وإفادةُ اختصاصِه بهذه الرُّؤيةِ

عبَّرَ بالإظهارِ بلفظِ ﴿إِبۡرَٰهِيمَ﴾ دون الإضمارِ بأن يقولَ: (نُريه)؛ لبيان عُلوِّ قدره ﷻ، ولإفادةِ اختصاصِه بهذه الرُّؤية؛ لأنَّهُ قد يُتوهَّمُ أنَّ البعضَ برؤيته لما في الكون، قد شاركَ إبراهيمَ ﷺ في ذلك، وهذا وهمٌ؛ لذا كان الإظهارُ في هذا السِّياق هو الأوفقُ مِنَ الإضمارِ.

نُكتةُ التَّعبيرِ بالملكوتِ:

المبالغةُ في الوصفِ إرشادٌ للعِلْمِ به ومعرفتِه

لفظ ﴿مَلَكُوتَ﴾ دالٌّ على المُلك، دون المِلك، وزيدتِ الواوُ والتَّاء للمُبالغة في الصِّفة[1]، أي: المُلْكُ القويُّ الشَّديدُ، وأنسبُ أنَّها للمُبالغة في سِرِّ المُلْكِ، وهو دلالتُهُ على الخالق المُنشِئِ ليَعْلَمَ إبراهيمُ ويَعْرَفَ، ويَحْكُمَ بالحقِّ[2].

ويضافُ إلى ذلك، التَّخصيصُ في موقف إبراهيمَ ﷺ عن غيرِه؛ لأنَّ الذي حاجَّ إبراهيمَ في ربِّه كان له الملكُ، فجاءَ التَّعبيرُ هنا برؤيةِ إبراهيمَ للملكوت؛ ليفرِّقَ بين ما آتاه اللّٰهُ لإبراهيمَ وغيره.

سرُّ التَّعبيرِ بالملكوتِ دونَ الآياتِ:

الملكوتُ أوسعُ وأشملُ، ولسياقِ الحوارِ والحِجَاجِ أنسب

عبَّر بـ ﴿مَلَكُوتَ﴾ دون (الآيات)؛ لأنَّ الملكوتَ أوسعُ وأشملُ، فتندرجُ فيه الآياتُ، وأيضًا لأنَّ السِّياق هنا مبنيٌّ على الحوارِ والحِجَاجِ مع قومٍ يعبدون الكواكبَ والنّجومَ، وهذا في مجال ﴿مَلَكُوتَ﴾ أكثرُ منه في (الآيات).

بلاغةُ المجازِ في لفظ ﴿مَلَكُوتَ﴾:

تِبيانُ عظمةِ اللهِ وسُلطانِه على جميعِ مخلوقاتِه

الملكوتُ سلطانُ اللّٰهِ، ويُطلق مصدرًا للمبالغةِ في المُلك، وأنَّ المُلك لَمَّا كان مِلْكًا عظيمًا يُطْلَقُ عليه أيضًا الملكوتُ، فأمَّا في هذه الآية؛ فهو مجازٌ مرسلٌ على كلا الإطلاقين؛ لأنَّهُ من إطلاق المصدرِ وإرادةِ اسمِ المفعول، وهو المَمْلُوك، كالخلقِ على المخلوق، والمعنى: نكشفُ

(1) القرطبي، تفسير القرطبي: 7/23، والشَّعراوي، تفسير الشَّعراوي: 6/3739.
(2) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 5/2561.

لإبراهيمَ دلائلَ مَخلوقاتنا أو عظمةَ سُلطاننا كشفًا يُطلعُه على حقائقِها، ومعرفةِ أنْ لا خالقَ ولا متصرِّفَ فيما كشفْنا لهُ سِوانا[1].

سرُّ إضافةِ ﴿مَلَكُوتَ﴾ إلى السّماواتِ قبلَ الأرضِ:

في قوله تعالى: ﴿مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أضافَ الملكوتَ إلى السَّماوات قبل الأرضِ، وإن كان اللَّفظُ يشملُهما؛ إلّا أنَّ ما أودعه اللّه في السّماواتِ منَ الكواكبِ والنُّجومِ والشُّموسِ، وما يكتشفُه العلمُ الحديثُ الآن في المجرَّات وما يتبعُها، يؤكِّدُ إضافةَ الملكوتِ إلى السّماوات، فالموجودُ في الأرض قليلٌ بالنِّسبة لما هو في السّماوات.

ما في الأرضِ قليلٌ بالنِّسبةِ لما هو في السّماواتِ

دلالةُ (أل) في قولِه: ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾:

تدلُّ (أل) فيهما على الجنسِ، وليس على العهدِ؛ لأنَّ البعضَ قد يتصوَّر خطأً أنَّ المراد: السَّماءُ المعهودةُ، والأرضُ المعهودةُ، وهذا من المُلك، أمَّا الملكوتُ؛ فيندرجُ تحتَه كلُّ الأجناسِ.

بيانُ أنَّ الملكوتَ يندرجُ تحتَهُ كلُّ الأجناسِ

بلاغةُ الاعتراضِ في ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ﴾:

هذه الجملةُ اعتراضيَّةٌ بين قولِه تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ﴾، وقولِه تعالى: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ﴾، والغرضُ بيانُ وجهِ الإنكارِ عليهم في اتِّخاذهم الأصنامَ، ولبيان الاستدلالِ عليهم بإفرادِ المعبود، وكونِهِ لا يشبهُ المخلوقين[2].

الإنكارُ على قوم إبراهيم في عبادة الأصنام، والاستدلالُ على صحّة التّوحيد

دلالةُ الواوِ بين الاستئنافِ والعطفِ:

اختلفَ أهلُ التَّفسير في (الواو) في قوله: ﴿وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ﴾، وذكروا فيه وجوهًا:

الأوَّل: الواوُ صلةٌ، والتَّقدير: نُري إبراهيم ملكوتَ السّماوات والأرضِ؛ ليستدلَّ بها ليكون منَ الموقنين، وتكونُ الجملةُ معطوفةً على علَّةٍ محذوفةٍ ينسحبُ عليها الكلامُ، أي: ليستدِلَّ بها وَلِيَكُونَ مِنَ

دلالةُ الواوِ على العطفِ أو الاستئنافِ، من التّوسّع في الدلالة

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 7/316.

(2) أبو حيان، البحر المحيط: 4/165.

المُوقِنِينَ[1]، فيكونُ من قبيل العطفِ على المعنى[2]، ويكونُ في الجملة إيجازُ حذفٍ.

الثَّاني: أن يكون هذا كلامًا مُستأنَفًا لبيان عِلَّة الإراءة، والتَّقديرُ: وليكونَ منَ الموقنين نُريه ملكوتَ السّماوات والأرض[3].

سِرُّ إدخالِ اللَّامِ في قوله تعالى: ﴿وَلِيَكُونَ﴾:

بيانُ علَّةِ الإراءةِ السَّابقةِ

واللَّام في ﴿وَلِيَكُونَ﴾ متعلِّقة بفعلٍ مُؤَخَّرٍ، تقديرُه: (وليكون من الموقنين أريناه)، وفيها بيانٌ لعِلَّة الإراءة[4].

سرُّ التَّعبيرِ بالفعل (يكون):

الكينونةُ تدلُّ عَلى تَمَكُّنِ الشَّيءِ وثبوتِه

عبَّرَ بقوله ﴿وَلِيَكُونَ﴾ في قولِه: ﴿وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ﴾ لإفادة أنَّ أمْرَ اليقينِ عند سيِّدنا إبراهيم عليه السلام مركوزٌ في فطرته، وأنَّ رؤياه لملكوتِ السّماوات والأرض وافقت ما انطوت عليه فطرتُه السَّليمةُ.

دلالة النّسق التّعبيري ﴿مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ﴾:

انتماءُ إبراهيم إلى كوكبة الموقنين، بل هو في مقدّمتهم

التَّعبيرُ في قوله: ﴿وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ﴾، أبلغُ من أن يُقال: وليكون موقنًا، فإنَّ التَّعريف في الموقنين يشملُ جنسَهم، فإخبارُ المتكلِّم عن نفسِه بأنَّه منَ الموقنينَ يُفيد أنَّه واحدٌ منَ الفئةِ الَّتي تُعرف عند النَّاس بفئةِ الموقنين، أي: وليكونَ من زُمرةِ الرَّاسخين في الإيقان البالغين درجةَ عينِ اليقينِ من معرفة اللّه تعالى[5]، فيُفيدُ أنَّه موقنٌ إفادةً بطريقةٍ تشبه طريقةَ الاستدلال، فهو من قبيل الكناية التي هي إثباتُ الشَّيءِ بإثبات مَلزومه، وهي أبلغُ منَ

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 3/152.

(2) ابن الجوزي، زاد المسير: 2/47.

(3) ذكر الرازي أنَّ الإراءة قد تحصل وتصيُر سببًا لمزيد الضَّلال، كما في حقِّ فرعون، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ۝٥٦﴾ [طه: 56]، وقد تصير سببًا لمزيد الهداية واليقين، فلمَّا احتملتِ الإراءةُ هذين الاحتمالَيْن، قال تعالى في حقِّ إبراهيم عليه السلام: إنَّا أريناه هذه الآياتِ ليراها ولأجل أن يكونَ منَ الموقنين لا منَ الجاحدين. يُنظر: الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 13/37.

(4) ابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 2/312، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 13/37.

(5) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 3/152.

التَّصريح[1]، فإنَّ قول القائلِ: فلانٌ منَ العلماء، أبلغُ من قوله: فلانٌ عالمٌ؛ لأنَّه يشهدُ له بكونهِ معدودًا في زمرتهم، ومعروفةً مُساهمتُه لهم في العلم[2].

سِرُّ إيثارِ التَّعبيرِ بـ ﴿ٱلۡمُوقِنِينَ﴾ دون (المهتدين):

بيانُ التَّرقِّي من علمِ اليقينِ إلى عين اليقينِ

قولهُ: ﴿مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ﴾، أي: عِيانًا كما أيقن بيانًا، حيث انتقلَ من علم اليَقينِ إلى عين اليقين، كما سألَ في قوله: ﴿أَرِنِي كَيۡفَ تُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰۖ﴾ [البقرة: 260]، واليقينُ عبارةٌ عن علم يحصل بعد زوالِ الشُّبهة بسببِ الفكرِ والتَّأمُّل، وإذا كثرت الدَّلائل، وتوافقت، وتطابقت؛ صارت سببًا لحصول اليقين؛ إذ يحصل بكلِّ واحدٍ منها نوعُ تأثيرٍ وقوَّة، فتتزايدُ حتَّى تصلَ إلى مرحلة الجزمِ[3].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

النَّظر والبَصر والرُّؤية:

النَّظرُ: الإقبالُ بالبصرِ نحو المرئيِّ، والرُّؤيةُ: إدراك المرئيِّ، والبصرُ: القوَّةُ الباصرة

أصلُ مادَّة (نظر) في اللُّغة: تأمُّلُ الشَّيء ومعاينتُه، وأصلُ مادة (بصر) في اللُّغة: وضوحُ الشَّيء، وأصلُ مادَّة (رأى): العلمُ بالشَّيء إمَّا بالعين أو بالقلب[4].

وعلى ذلك: فالنَّظر هو عبارةٌ عن تقليبِ العينِ نحوَ المرئيِّ التماسًا لرؤيته؛ فهو طلبُ ظهورِ الشَّيء، ويكونُ النَّاظرُ الطَّالبُ لظهور الشَّيء بإدراكهِ من جهةِ حاسَّةِ بصرهِ أو غيرها من حواسِّه، والنَّظرُ بالقلب من جهة التَّفكُّر، والنَّظرُ أيضًا هو الفكر والتَّأمُّلُ لأحوال الأشياء[5]، والرُّؤية هي إدراكُ المرئيِّ، ولذلك قد ينظرُ؛ ولا يراه، ولمَّا كانتِ الرُّؤيةُ من توابعِ النَّظرِ ولوازمهِ غالبًا، أُجْرِيَ لفظُ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 7/316.
(2) الزمخشريُّ، الكشَّاف: 3/331.
(3) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 13/37، وأبو حيَّان، البحر المحيط: 4/564.
(4) الجوهري، الصِّحاح، وابن فارس، مقاييس اللغة، وابن سيده، المُحكم: (رأى، نظر، بصر).
(5) العسكريُّ، الفروق اللُّغويَّة، ص: 543.

النَّظرِ على الرُّؤية على سبيل إطلاق اسم السَّبب على المسبَّب[1]، كما ورد في حكايةٍ عن طلب موسى، ﴿رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ﴾ [الأعراف: 143]، فكان الرَّدُّ: ﴿قَالَ لَن تَرَىٰنِي﴾ [الأعراف: 143]، وأيضًا فإنَّه قد يطلُب جماعةٌ الهلالَ، فيراه جماعةٌ منهم، ولا يستطيعُ الآخرون رؤيتَهُ مع أنَّهُم جميعًا ناظرون[2]، فالفرقُ بينهما أنَّ الرُّؤيةَ هي: إدراك المرئيِّ، والنَّظر: الإقبالُ بالبصرِ نحو المرئيِّ.

أمَّا البصرُ: فَهوَ إدراكُ العين، ويُطلق على القوَّة الباصرة الَّتي من شأنِها إدراك أشباح الصُّور[3]، والعينُ هي أداةُ الإبصار، قال تعالى: ﴿أَمۡ لَهُمۡ أَعۡيُنٞ يُبۡصِرُونَ بِهَآۖ﴾ [الأعراف: 195]، وقد يُطلقُ البصرُ؛ ليدلَّ على العلمِ القويِّ المُضاهِي لإدراك الرُّؤية، فيُقال: بصرَ بالشَّيء: عَلِمَهُ عن عيانٍ، فهو بصيرٌ به[4] قال تعالى: ﴿بَصُرۡتُ بِمَا لَمۡ يَبۡصُرُواْ بِهِۦ﴾ [طه: 96]، وحينَها يكونُ الفرقُ بين النَّظر والبصرِ كالفرقِ بين النَّظر والرُّؤية، قال تعالى: ﴿وَتَرَىٰهُمۡ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ وَهُمۡ لَا يُبۡصِرُونَ ١٩٨﴾ [الأعراف: 198].

وخلاصةُ القولِ في الفرق بينها: أنَّ الإبصارَ يتميَّزُ بالوضوح، والرّؤيةَ تتميَّز بالعلمِ، والنَّظرَ يميِّزُه التأمُّلُ؛ وهذا واضحٌ في استعمالاتِ القرآنِ لهذه الألفاظ.

المُلك والملكوت:

المـلـكـوتُ مُـلـكُ اللـهِ وسُلطانهُ خـاصَّـةً، والمُلْك مَـظْـهَـرُ عـالَـمِ الملكوتِ

كلمتا الملكِ والملكوتِ كلمتان مشتقَّتانِ من الجذر (ملك)، والمُلك، بالضَّم: ما يُدرك بالحسِّ، ويُقال له: عالَمُ الشَّهادة، والملكوتُ: ما لم يدركْ به، وهو عالَمُ الغيب، وعالمُ الأمر[5]، ولكون عالَم الشَّهادة

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 29/457.
(2) العسكريُّ، الفروق اللُّغويَّة، ص: 543.
(3) الكفويُّ، الكليَّات، ص: 247، والتَّهانويُّ، كشاف اصطلاحات الفنون: 1/938.
(4) الحميري، شمس العلوم: 1/544.
(5) الجرجانيُّ، التَّعريفات، ص: 228، والعسكريُّ، الفروق اللُّغويَّة، ص: 511.

بالنِّسبة إلى عالَم الغيب كالقَطرةِ منَ البحر، سُمِّيَ الأوَّل: مُلكًا، والثَّاني: ملكوتًا، لما تقرَّرَ أنَّ زيادةَ المباني تَدُلُّ على زيادة المعاني[1]، فعالَم المُلْك مَظْهَرُ عالَم الملكوت[2].

وحين ننظرُ في استعمال الملكِ والملكوت في القرآن الكريم نجدُ أنَّ الملكَ يمكنُ أن يوجَّه إلى عبيدِ الله ﷻ، أي: إلى البشرِ، لكنَّ الملكوتَ لم يردْ في القرآنِ الكريم أنَّه أُعطي للبشر: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ مَن تَشَآءُ﴾ [آل عمران: 26]، فالمُلك ملك الله ﷻ، يُؤتي منه مايشاء من عباده، أمَّا المَلَكُوتُ؛ فهو العِزُّ والسُّلطان، وملكوتُ الله سُلطانُه، فالملكوتُ ملكُ الله خاصَّة، أي: لا يُعطي منه لأحد، والملكُ داخلٌ في الملكوت والملكوتُ عامٌّ واسعٌ[3].

(1) العسكريُّ، الفروق اللُّغويَّة، ص: 511.

(2) المناويُّ، التَّوقيف على مهمات التَّعاريف، ص: 141.

(3) الحميري، شمس العلوم: 9/6374، والسَّمين، عُمدة الحُفَّاظ: 4/110، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (ملك).

﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيۡهِ ٱلَّيۡلُ رَءَا كَوۡكَبٗاۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلۡأٓفِلِينَ ٧٦﴾ [الأنعام: 76]

مُناسبةُ الآيةِ لما قبْلَها:

نصبُ الحِجَاجِ بالأمورِ السَّماويَّةِ بعدَ الإراءةِ لملكوتِ السَّماواتِ والأَرضِ

لَمَّا ذكرَ سبحانه في الآيةِ السَّابقةِ ﴿مَلَكُوتَ﴾، ومنه الأمورُ السّماويَّةُ مُشاهَدةً لجميعِ الخَلْقِ: دَانِيهم وقاصِيهم، وهي أشرفُ مِنَ الأرضيَّةِ، فإذا بَطَلَت صلاحيَّتُها للإلهيَّة؛ بَطَلَتِ الأرضيَّةُ من بابِ الأَوْلى، جاءت هذه الآيةُ لتقيمَ لهم الحِجَاجَ في أَمْرِها، فقال مسبِّبًا عنِ الإراءةِ المذكورةِ: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيۡهِ ٱلَّيۡلُ رَءَا كَوۡكَبٗاۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ﴾[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿جَنَّ عَلَيۡهِ﴾: أي: أظلَمَ عليه وسَترَه، وغَطَّى عليه، يقال: جنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ وجنَّه وأجنَّه؛ إذا أظلم، وسترَه بظلمتِه، وأصلُ (جنن): السَّتْرُ والتّستُّر، يُقال: استجنَّ فلانٌ؛ إذا استتر بشيءٍ، وبه سُمِّي الجنُّ؛ لاستتارهم واختفائِهم عنِ الأبصار، والجنينُ لاستتاره في بطن أمِّه[2].

2) ﴿كَوۡكَبٗاۖ﴾: يقالُ: كوكبُ الحديدِ برقَ وتوقَّدَ، والكوكبُ يُطلقُ على بريق الحديد أو الحصى وتوقُّدِه، والكوكبُ في علمِ الفَلك: جِرْم سماويٌّ يدورُ حول الشَّمس، يستضيءُ بضوئها[3]، ووزنه (فَوْعَلَ) عند البصريِّين، فالواوُ زائدةٌ، وأصولُه الكافان والباء.

(1) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 7/158.

(2) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرَّاغب المفردات: (جن)، وجمال الدِّين الكجراتي، مجمع بحار الأنوار: 1/402، وابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 156، وابن عزيزالسِّجستانيُّ، غريب القرآن: 1/175.

(3) مجموعة من المؤلفين، المعجم الوسيط: (كوكب).

وقال الصَّاغاني: حقُّ لفظِ كوكب أن يُذكر في تركيب (وَكَبَ) عند حُذَّاق النَّحويِّين، فإنّها صُدِّرت بكافٍ زائدة، إلا أنَّ الجوهريَّ أوردها في تركيب ﴿كَوۡكَبٗاۖ﴾، ولعله تَبِع فيه اللَّيثَ، فإنَّه ذكره في الرُّباعي، ذاهبًا إلى أنَّ الواو أصليَّةٌ[1].

3) ﴿أَفَلَ﴾: غابَ، والأُفُول: غَيبوبةُ النَّيِّراتِ، كالقَمَرِ والنُّجوم، يُقال: أَفَلَتِ الشَّمسُ تَأْفِلُ، وتَأْفُلُ أَفْلًا وأُفولًا: غَرَبت، وأصلُ (أفل) يدلُّ على الغيبة، و﴿ٱلۡأٓفِلِينَ﴾ الغائبينَ عنِ العُيونِ[2].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

الشُّروعُ في استدلالِ إبراهيمَ على قومِهِ ببعضِ الظَّواهرِ الكونيَّةِ

يبيِّنُ اللهُ في هذه الآيةِ، أنَّه لما أظلم على إبراهيمَ عليه السلام اللَّيل وغطَّاه، رأى نجمًا متألِّقًا، فقال - مُستدرِجًا قومَه لإلزامِهم بالتَّوحيد -: هذا ربي، فلمَّا غاب الكوكبُ قال: لا أحبُّ الآلهةَ الَّتي تغيبُ؛ لأنَّ الإلهَ الحقَّ حاضرٌ لا يغيبُ، فعرَّفهم جهلَهم وخطأَهم في تعظيم النُّجوم، ودلَّ على أنَّ مَنْ غاب بعد الظُّهورِ كان حادثًا مُسخَّرًا وليس بربٍّ[3].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالةُ حرفِ الفاءِ في قولِهِ ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيۡهِ ٱلَّيۡلُ﴾:

تفسيرُ الإراءةِ السّابقةِ وتفصيلُها

الفاءُ في قوله: ﴿فَلَمَّآ﴾ رابطةٌ جملةَ ما بعدَها، وهي تُرجِّحُ أنَّ المرادَ بالملكوتِ هو هذا التَّفصيلُ الَّذي في هذه الآية[4]، فهي تفريعٌ على قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ بقرينة قولِهِ: ﴿رَءَا كَوۡكَبٗاۖ﴾، فإنَّ الكوكبَ من ملكوتِ السّماوات[5]، فإنَّه تعالى

(1) أبو حيان، النهر الماد من البحر: 4/166، ومجموعة من المؤلفين، المعجم الوسيط: (كوكب).
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرَّاغب المفردات، والسَّمين عُمدة الحُفَّاظ، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل (أفل)، وابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 260، وابن الجوزي، تذكرة الأريب: 1/98.
(3) لجنة من عُلماءِ الأزهر، المنتخَبُ في تفسير القرآنِ الكريم، ص: 184، ونُخْبة من العلماء، التَّفسير المُيَسَّر، ص: 137، وجماعَةٌ من علماء التَّفسير، المُختَصَر في تفسير القرآن الكريم، ص: 137.
(4) ابن عطية، المُحرَّر الوجيز: 2/312.
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 7/317.

لمَّا ذكرَ هذه الإراءةَ في أوَّل الآية على سبيل الإجمالِ؛ فسَّرها بعد ذلك بقولِه: ﴿فَلَمَّا جَنَّ﴾، فهي كالشَّرحِ والتَّفسيرِ لتلكَ الإراءةِ[1].

سِرُّ التَّعبيرِ بالفعل ﴿جَنَّ﴾:

بيانُ أنَّ المُرادَ بالجَنِّ السَّتْرُ عنِ الحاسَّةِ دون المعنى

وأصلُ الجَنِّ: سَترُ الشَّيءِ عنِ الحاسَّة[2]، ولعلَّهُ عبَّر بالجَنِّ دون الإظلامِ في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ﴾؛ ليُبْعِدَ الوهمَ عن إظلامِ المعاني عن إبراهيم عليه السلام فبيَّن ابتداءً أنَّ المرادَ السَّتْرُ عنِ الحاسَّةِ فحسب.

وفيه إشارةٌ إلى ما يتضمَّنُه هذا الفعلُ منَ الإشعار بالحمايةِ الَّتي تُؤدِّي إلى السَّكِينة والهدوء من أجل صفاءِ الفكر لمن يتأمَّلُ الملكوتَ.

دلالةُ التَّعبيرِ بالفعلِ ﴿جَنَّ﴾ لازمًا:

الإشارةُ إلى شِدَّةِ ظلامِ تلك اللَّيلةِ

جاء قولهُ تعالى: ﴿فَلَمَّا جَنَّ﴾ لازمًا، أي: سَتَرَ وأظلم، وقصْرُه - وإن كان مُتعديًا - فلم يقل: (جنَّه اللَّيل)؛ دلالةً على شِدَّةِ ظلامِ تلك اللَّيلةِ[3].

دلالةُ العُدولِ عن دخولِ اللَّيلِ إلى ﴿جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ﴾:

إفادةُ المبالغةِ في التَّمكُّنِ والسَّترِ

عدلَ عن دخولِ اللَّيلِ إلى ﴿جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ﴾، لما في معنى (جَنَّ) من تمكُّن الدُّخول؛ بخلاف (دخل) فإنَّه يُطلقُ على أوَّل اللَّيلِ، ولا يلزمُ منه السَّترُ؛ بخلافِ (جنَّ) فإنَّه جمعَ بين الدّخول والسَّترِ.

دلالةُ حرفِ الجرِّ (على) في قولِه: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ﴾:

إفادةُ المبالغةِ في السَّترِ والتَّغطيّةِ

قولهُ: ﴿عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ﴾ أي: وقع السِّتْرُ عليه، فحجبَ ملكوتَ الأرضِ، فشرع يَنْظُرُ في ملكوت السَّماء.

ولذلك عدَّاه بأداةِ الاستعلاءِ[4]، التي يُقصَد بها المبالغةُ في

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 13/36.
(2) الرَّاغب، المفردات: (جن)، والآلوسي، روح المعاني:/187.
(3) البقاعي، نظم الدُّرر: 7/158.
(4) البقاعي، نظم الدُّرر: 7/158.

السَّترِ بالظُّلْمَةِ حتَّى صارتْ كأنَّها غِطاءٌ؛ إذِ الأصْلُ أنْ يُقالَ: جَنَّه اللَّيلُ، أي: أخْفاهُ[1].

دلالةُ تقديم الجارِ والمجرور ﴿عَلَيْهِ﴾:

قُدِّم الجارُّ والمجرورُ ﴿عَلَيْهِ﴾ للإشارة إلى تخصيصِ سيِّدنا إبراهيمَ عليه السلام في هذا المشهد العامّ؛ لأنَّ جَنَّ اللّيلِ وسترَهُ يكونُ لإبراهيم عليه السلام ولغيره منَ الخلق، لكن لمَّا كان موقفُ إبراهيمَ موقفَ المتدبِّر والمتأمِّل، وغيرُه لا يفكِّر ولا يتأمَّل، قُدِّم الجارُّ والمجرورُ؛ ليَبرزَ الفرقُ بينهما.

الإشارةُ إلى تخصيصِ إبراهيمَ عليه السلام في هذا المشهدِ العامِّ

سرُّ التَّعبيرِ بالإضمارِ في قولِه: ﴿عَلَيْهِ﴾:

عبَّرَ بالإضمارِ بدلًا مِنَ الإظهارِ بأن يقولَ: (جنَّ على إبراهيمَ اللَّيلُ)؛ لأنَّ الإضمارَ هو ضدُّ الظّهور؛ لمناسبة المقام، فالفعلُ (جَنَّ) وفاعلُه (اللّيل)، يحملان معنى السَّتر والخفاء، فلا مجال للظُّهور، وهذا من بديعِ المعنى.

مناسبةٌ للمقامِ وما فيه من معنى السَّترِ والخفاءِ

من دلالة ذكر ﴿ٱلَّيۡلُ﴾ في الآية:

عَبَّر بـ ﴿ٱلَّيۡلُ﴾ دونَ الظَّلام؛ لأنَّهُ مقابلُ النَّهار، كما قال ربنا: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ خِلۡفَةً﴾ [الفرقان: 62]، فكلٌّ منهما يخلفُ الآخرَ، أمَّا الظَّلام؛ فهو ضدُّ النُّور، فلو عُبِّر به لَتُوهِّمَ معنى الظلام المعنويِّ، وهو الشُّبَه والحيرةُ وعدمُ البصيرة، وهذا غيرُ لائقٍ بمقام سيِّدنا إبراهيم عليه السلام؛ لأنَّ غرضَهُ هو إخراجُ قومِه من ظُلماتِ الشِّركِ إلى نور التَّوحيد.

غرضُهُ إخراجُ قومِهِ من ظُلماتِ الشِّركِ إلى نورِ التَّوحيدِ

نُكْتَةُ تنكيرِ ﴿كَوۡكَبٗا﴾:

ظاهرُ قولِه: ﴿رَءَا كَوۡكَبٗا﴾ أنَّه حصلت له رؤيةُ الكواكبِ عَرَضًا من غير قصدٍ للتَّأمُّلِ، وإلَّا فإنَّ الأفقَ في اللَّيل مملوءٌ بالكواكب،

بيانُ عدمِ تَقَصُّدِ رؤيةِ كوكبٍ بعينِهِ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 7/318.

وأنَّ الكوكبَ كان حين رآه واضحًا في السَّماء مُشرقًا بنوره؛ وذلك أنورُ ما يكونُ في وسط السَّماء، فالظَّاهر أنَّه رأى كوكبًا من بينها شديدَ الضَّوءِ[1].

دلالة التَّعبيرِ بالفعلِ ﴿رَءَا﴾:

الرُّؤيةُ تجمعُ المشاهدةَ والعِلمَ، وتفيدُ الجمعَ بينَ البصرِ والبصيرةِ

عبَّر بالرّؤيةِ دونَ المُشاهدةِ؛ لأنَّها تجمعُ معها المشاهدةَ والعِلمَ، ولإفادة الجمعِ بين البصر والبصيرة؛ بخلاف المشاهَدة، فإنَّها تكونُ بالبصر، ولا يلزمُ معها البصيرةُ غالبًا، وليفرِّق بين رؤية إبراهيمَ عليه السلام، ومشاهدةِ القومِ.

سرُّ التعبيرِ بالمفردِ ﴿كَوۡكَبٗا﴾:

الاحتجاجُ بأيِّ كوكبٍ ظهرَ، لا بكوكبٍ مخصوصٍ

عبَّر بالكوكبِ مفردًا، مع أنَّ السَّماء فيها كواكبُ؛ لعدم الحاجةِ إلى تعيينه، فهو كوكبٌ منَ الكواكب السيَّارة في الأفق، استدلَّ به إبراهيم عليه السلام لشدَّةِ ظهوره، وللتَّدليلِ به على ضلال قومهِ بما يحدثُ له منَ الأُفولِ.

علَّةُ فصلِ جملة ﴿قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ﴾ عمَّا قَبلَها:

حملُ السَّامِعِ على استكشافِ ما ظهرَ مِن إبراهيمَ عليه السلام من آثار تلك الإراءةِ

قولهُ تعالى: ﴿قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ﴾ استئنافٌ مبنيٌّ على سؤالٍ نشأ منَ (الجملة) الشَّرطيَّةِ السَّابقةِ المتفرِّعةِ عن بيان إراءته عليه السلام ملكوتَ السّماواتِ والأرض، فكأنَّه قيل: فماذا صنعَ عليه السلام حين رأى الكوكبَ؟ فقيل: قالَ على سبيلِ الوضْعِ والفرضِ: هذا ربِّي مجاراةً مع أبيه[2]، فهو استئنافٌ بيانيٌّ لشبهِ كمالِ الاتِّصال بين الجُملتين، فإنَّ ذلك ممَّا يحملُ السَّامعَ على استكشافِ ما ظهرَ منه عليه السلام من آثارِ تلك الإراءةِ وأحكامِها[3].

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 7/317.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السليم: 3/153، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 7/318.
(3) البقاعي، نظم الدُّرر:/158 - 159.

نُكْتَةُ تعريفِ المسندِ إليه بالإشارةِ:

تمييزُ المُشارِ إليهِ بتعيينهِ على وجهِ الخصوص

اسمُ الإشارةِ في قوله سبحانه ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾ يُقصَدُ به تمييزُ الكوكبِ مِن بَيْنِ الكواكبِ، وهذا يُعيِّنُ أن يكونَ القصدُ الأصليُّ منه هو الكنايةَ بالإشارةِ عن كون المشار إليه أمرًا مطلوبًا مبحوثًا عنه، فإذا عُثِرَ عليه أُشيرَ إليه؛ لأنَّ القومَ كانوا من عَبَدَةِ الكواكب، فهم يعظِّمونَها ضمْنَ معبوداتِهم الباطلةِ[1].

براعةُ القصْرِ بتعريفِ الجُزأين:

التَّنزُّلُ مع الخصْمِ ومجاراتُه لاستدراجِهِ إلى معرفةِ الحقِّ من أنفع أدوات الحِجاج

تعريفُ الجزأينِ في قولِه: ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾ مفيدٌ للقصر؛ لأنَّه لم يقل: (هذا ربٌّ)؛ فدلَّ على أنَّ إبراهيمَ عليه السلام أراد استدراجَ قومِه، فابتدأ بإظهارِ أنَّه لا يَرى تعدُّدَ الآلهَةِ؛ ليصِلَ بهم إلى التَّوحيدِ، واستبقى واحدًا من معبوداتِهم، ففَرَض استحقاقَهُ الإلهيَّةَ؛ كيلا ينفرُوا منَ الإصغاءِ إلى استدلالِه[2].

وإنَّما قال إبراهيمُ ذلك على سبيل التَّنزُّلِ مع الخصم لا على سبيل الاعتقادِ، فقد سَبَقَ قولُه لأبيه: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰكَ﴾ وهو دليلٌ على هِدايةِ إبراهيمَ وعِصمَتِه مِن سَبْقِ ما يُوهِم ظاهرُ قولِه: ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾ مِن نِسبةِ ذلك إليه على أنَّه أخبَرَ عن نَفْسِه، وإنَّما ذلك على سَبيلِ التَّنزُّلِ مع الخَصْمِ، وتقريرِ ما يَبني عليه مِن استحالةِ أن يكون متَّصفًا بصفاتِ المخلوقين[3]، فإنَّ المستدِلَّ على فساد قولٍ يَحكيه على رأي خصمِه، ثم يَكُرُّ عليه بالإبطال من أقوى وجوه الاستدلالِ.[4]

جملة ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾ بين الخبرِ والاستِفهامِ:

شَدُّ الانتباه لاستجلاب المخاطَبين إلى النَّظر في خطئهم وضَلالهم

﴿قَالَ هَٰذَا رَبِّي﴾: فكأنَّهُ مِنْ بَصره أن أتى بهذا الكلام الصَّالحِ لأن يكونَ خبرًا واستفهامًا؛ ليُوهِمَهم أنَّه مُخبِرٌ، فيكونَ ذلك أنفى للغرضِ وأنجى مِنَ الشَّغَبِ، فيكونَ أشدَّ استجلابًا لهم إلى إنعامِ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 7/318 - 319.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 7/319.
(3) أبو حيَّان، البحر المحيط: 4/562.
(4) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 3/153.

النَّظرِ، وتنبيهًا على موضع الغلط وقَبولِ الحُجَّةِ[1]، فعلى الاستفهام يكون توبيخًا يُقصَدُ به الإنكارُ، وتقديرُه: أهذا ربِّي؟[2]

التَّعبيرُ بالرُّبوبيَّةِ مع الكواكبِ، والألوهيَّةِ مع الأصنامِ:

اعتقادُ قومِ إبراهيمَ تأثيرَ الكواكبِ فيما هو من خصائصِ الرُّبوبيَّةِ

لعلَّ سلوكَ هذه الطَّريقةِ في بيان استحالةِ ربوبيَّةِ الكواكبِ، دون بيانِ استحالةِ إلهيَّة الأصنام؛ لِما أنَّ هذا أخفى بُطلانًا واستحالةً منَ الأوَّل، فلو صدَعَ بالحقِّ من أوَّل الأمرِ، كما فعلَه في حقِّ عبادةِ الأصنام؛ لتمادَوْا في المكابرةِ والعِناد، ولجُّوا في طُغيانهم يعمهون[3]، ولعلَّهم كانوا يعتقدون تأثيرَها استقلالًا دون تأثير الأصنامِ؛ ولهذا تعرَّض لبُطلان الإلهيَّة في الأصنام والرُّبوبيَّةِ فيها[4].

سرُّ إضافةِ لفظِ (ربّ) إلى ياءِ المتُكلِّم ﴿رَبِّيٓ﴾:

إشعارُ إبراهيمَ قومَهُ بما يفتحُ قلوبَهم ويُهيِّئُهم لقبول دعوته

أضافَ لفظَ (الرّبّ) إلى ياء المُتكلم دون الإضافةِ إلى القوم (هذا ربكم)؛ لإشعارهِم بما يفتح قلوبهم لسماع دعوتهِ بعد ذلك بالتَّوحيد، والتَّبرُّؤ من كلِّ شركٍ، فكانتِ الإضافةُ الَّتي تحملُ معنى القُربِ منه، والإشعارِ بتفخيمه وتعظيمِه، وكلُّ ذلك على سبيل الفرضِ والتّقدير، مجاراةً لأبيه وقومهِ في مناظرتهِ لهم، وهو بذلك يمهِّدُ لإبطال مزاعِمهم في هذه الكواكبِ وإقامةِ الحُجَّة عليهم[5].

سرُّ التَّعبيرِ بالفاءِ في قولهِ تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَفَلَ﴾:

ربطُ الجملةِ السَّابقةِ باللَّاحقةِ لإفادة التَّرتيبِ

عبَّرَ بالفاءِ دونَ الواوِ، فلم يقلْ: (ولمَّا أفل)؛ لأنَّ الفاءَ تربطُ الجملةَ التي بعدها بما قبلها، وهي بذلك تفيد التَّرتيب، فدلَّت على أنَّ هذا المشهد ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيۡهِ ٱلَّيۡلُ﴾ كان بعد الإراءةِ الَّتي بسببِها وُصف بأنَّه منَ الموقنين.

---

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 7/159.

(2) الماوردي، النُّكت والعيون: 2/136 - 137.

(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 3/153.

(4) الآلوسي، روح المعاني: 4/188.

(5) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 3/153، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 7/309.

سرُّ التَّعبيرِ بـ ﴿فَلَمَّا﴾ دونَ غيرِها مِنَ الحروفِ:

الإشارةُ إلى أنَّ الأُفولَ لا يأتي مرَّةً واحدةً

عبَّر القرآنُ الكريم بـ ﴿فَلَمَّا﴾ في قوله: ﴿فَلَمَّآ أَفَلَ﴾، للإشارةِ إلى أنَّ الأفولَ لا يأتي مرَّةً واحدةً، بل يأخذ فترةً زمنيَّة للاختفاءِ بالكامل، لذلك كانت (لمَّا) هي المناسبةَ للتَّعبيرِ عن هذه الحالةِ مِنَ التَّدرُّجِ في الأفولِ، بخلاف غيرها، فلا يفِي بوصفِ هذه الحالةِ.

بلاغةُ التَّعبيرِ بالأفولِ:

الاستدلالُ بالحركةِ والحدوثِ على زوالِ السُّلطان وحقارةِ شأنِ المعبودِ الباطلِ

قولُه: ﴿لَآ أُحِبُّ ٱلۡأٓفِلِينَ﴾ الأفولُ حركةٌ، والحركةُ تَدُلُّ على حدوثِ المُتَحرِّك، ولا يُظَنُّ به ﷺ أنَّه قال ما قاله أوَّلًا عنِ اعتقادِ رُبوبيَّة الكواكبِ؛ لأنَّ اللهَ تعالى قد دلَّ على بُطلان هذا التَّوهُّم بالإخبارِ بأنَّه أراه ملكوتَ الخافقين، وجعله موقنًا، فأسندَ الأمرَ إلى نفسِه تنبيهًا لهم، واستدلَّ بالأُفول؛ لأنَّ دلالتَهُ لزوالِ سُلطانِ الكوكبِ وحقارةِ شأنِه أتمُّ[1]، فالَّذي يأفلُ، ويغرُبُ، ويزولُ نورُه، وينتقصُ ضوؤُهُ، ويذهب سلطانُه، ويصيرُ كالمعزول؛ ومن كان كذلك لم يصلح للإلهيَّةِ.

وممَّا يُذكرُ في سرِّ بلاغة التَّعبيرِ بالأفول: أنَّه ﷺ إنَّما كان يُناظرُهم، وهم كانوا مُنجِّمينَ، ومذهبُ أهلِ النُّجوم أنَّ الكوكب إذا كان في الرُّبُع الشَّرقيِّ، وكان صاعدًا إلى وسط السَّماء؛ كان قويًّا عظيمَ التَّأثير، أمَّا إذا كان غربيّا وقريبًا من الأفولِ؛ فإنَّه يكون ضعيفَ الأثرِ، قليلَ القوَّةِ، فنبَّهَ بهذه الدَّقيقةِ على أنَّ الإلهَ هو الذي لا تتغيَّر قُدرتُه إلى العجزِ، وكمالُه إلى النُّقصان، ومذهبُكم أنَّ الكوكبَ حالَ كونِه في الرُّبع الغربيِّ يكونُ ضعيفَ القوَّةِ ناقصَ التَّأثير عاجزًا عنِ التَّدبير، وذلك يَدُلُّ على القدْحِ في إلهيَّته[2].

(1) البقاعي، نظم الدرر: 7/159.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 4/191.

سرُّ إضمارِ الفاعلِ في قوله: ﴿فَلَمَّآ أَفَلَ﴾:

الإضمارُ يناسبُ مقامَ اختفاءِ الكوكبِ وأفولِهِ

أضمرَ الفاعلَ في قوله: ﴿فَلَمَّآ أَفَلَ﴾، ولم يقل: (فلما أفل الكوكبُ)؛ لسبْقِ ذكرِهِ في قوله: ﴿رَءَا كَوۡكَبٗا﴾، وحذْفُ ما يُعلمُ جائزٌ، أيضًا لأنَّ أفولَ الكوكبِ غيابٌ، واختفاءٌ عن رؤية المشاهِدين، والإضمارُ يناسب مقامَ الاختفاء والأفول.

ترتيبُ النّتائج على (الأفول) دون الطُّلوع أو الظّهور:

ظهورُ آثارِ الضَّعفِ وزوالِ السُّلطانِ عند الأفولِ والغيابِ

ترتيبُ هذا الحكمِ ونظيرَيْه على الأفولِ دونَ البزوغِ والطُّلوعِ والظُّهور من ضروريَّاتِ سَوْق الاحتجاجِ على هذا المساقِ الحكيم؛ فإنَّ كُلًّا منهما، وإن كان في نفسهِ انتقالًا مُنافيًا لاستحقاقِ الرُّبوبيَّة قَطْعًا، لكن لَمَّا كان الأوَّلُ حالةً مُوجبةً لظهور الآثار والأحكام مُلائِمَةً لتوهُّم الاستحقاق في الجملة؛ رتَّب عليه الحكمَ الأوَّلَ، أي: ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾، على الطَّريقة المذكورةِ في التَّنَزُّل مع الخصم، وحيث كان الثَّاني حالةً مقتضيةً لانطماسِ الآثارِ وبُطلانِ الأحكام المُنافِيَيْن للاستحقاقِ المذكورِ مُنافاةً بَيِّنَةً يكادُ يعترفُ بها كلُّ مكابرٍ عنيدٍ؛ رتَّب عليها ما رتَّب[1]، ولم يستدلَّ بالطُّلوع والظُّهورِ؛ لأنَّه وإن كان حركةً دالَّةً على الحدوث والنُّقصان، فهو شرفٌ في الجملة من نظرِ معبوديه، أمَّا الأفولُ؛ فأهلُ الفهم والبصيرةِ يأخذون منه عدمَ صلاحيَّتِهِ للألوهيَّة؛ لأنَّ الأفولَ منَ الإمكان، والممكنُ لا بدَّ له من مُوجدٍ واجبِ الوجود، وأيضًا لأنَّهم يفهمونَ منه الحدوثَ والحركة، وأيضًا الأفولُ فيه زوالٌ لنورِهِ وسلطانه؛ وما كان كذلك لا يصلحُ للإلهيَّة[2].

سرُّ تكرارِ ﴿قَالَ﴾ في مشهد الحوارِ والمجادلةِ:

القولُ الحسنُ من مناهجِ الدَّعوةِ في الحوارِ

تكرَّرَ لفظُ ﴿قَالَ﴾ في هذه الآياتِ؛ لأنَّه مبنيٌّ على الحوارِ الدَّائرِ بين إبراهيمَ وقومِه، وفي هذا إشارةٌ إلى أن يَسلُكَ الدّاعيةُ في دعوتِهِ

(1) الآلوسي، روح المعاني: 4/191.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 7/159.

القولَ اللَّيِّنَ؛ لأنَّه يفتحُ القلوبَ ويهدِي العقولَ، وهذا ما سلكه إبراهيمُ عليه السلام في استدراجِ قومِه لإقامةِ الحُجَّةِ عليهم.

إيثارُ الكنايةِ بنفْيِ حُبِّ الآفلين:

لزومُ نفي المحبَّةِ لنفي العبادةِ

كنَّى بعدمِ المحبَّةِ عن عدمِ العبادةِ؛ لأنَّه يلزمُ من نفْيِ المحبَّة نَفْيُ العبادة بالطَّريق الأَوْلى؛ فَلَمَّا غاب قالَ: ﴿لَآ أُحِبُّ ٱلۡأٓفِلِينَ﴾ فضلًا عن عبادتهم[1]، فأبطلَ ربوبيَّةَ الكوكب بعُروضِ الأفول له بالتَّكْنيةِ عنِ البطلانِ بأنَّه لا يحبُّه لأفولِه؛ لأنَّ المربوبيَّة والعبوديَّة متقوَّمةٌ بالحُبِّ، فليس يَسعُ من لا يحبُّ شيئًا أن يعبدَه، وقدَّر بعضُهم في الكلام مُضافًا، أي: لا أحبُّ عبادة الآفلين، أو لا أحبُّ أن أتَّخذَهم آلهةً، فحذفَ بدلَ الاشتمالِ لجواز حذفِه، أو: لا أحبُّ ربوبيَّةَ الآفلين لعدم صحَّتِها، فحذفَ المضافَ، أو: يقدَّرُ مضافٌ ناصبٌ لمفعولين، أي: لا أحبُّ اتِّخاذَ الآفلين آلهةً[2].

وممَّا يُذكَرُ في سرِّ التَّعبير بنفي الحُبِّ، الإشارةُ إلى أنَّ التَّعبيرَ بعدمِ المحبَّةِ في قوله: ﴿لَآ أُحِبُّ ٱلۡأٓفِلِينَ﴾ عن عدمِ العبادة، مُشعِرٌ بأنَّ العبادةَ يجبُ أن تُؤسَّسَ على المحبَّة المتمكِّنة في قلب العابدِ؛ ليكونَ إقبالُهُ على العبادةِ بشغفٍ وهمَّةٍ.

دلالةُ اختيارِ لفظِ ﴿ٱلۡأٓفِلِينَ﴾ في مقامِ المناظرةِ:

الأفولُ يدلُّ على بُطلانِ رُبوبيَّةِ الكوكبِ

اختارَ لفظَ (الأفول) في مقامِ المناظرة؛ لأنَّ الأفولَ حركةٌ، والحركةُ تدلُّ على حدوثِ المتحرِّك وإمكانِه، وفي هذا دلالةٌ على عدمِ صلاحيَّتِه للرُّبوبيَّة، لزوال سلطانِه وغيابِ مراقبتِه لمعبودِيه.

دلالةُ حذفِ الموصوفِ وإبقاءِ الصِّفةِ:

في قوله تعالى ﴿لَآ أُحِبُّ ٱلۡأٓفِلِينَ﴾ موصوفٌ محذوف، وتقدير الكلام: لا أحبُّ الأشياء التي تأفل، ولا أُحبُّ الكواكب الآفلة، وقد دلَّ

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 2/169.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 4/189.

الغرضُ الأصليُّ مِنَ المناظرةِ يُبيِّنُ عجزَ الكوكبِ عن أيّ وصفٍ من خصائص الأُلوهيَّةِ

حذفُ الموصوف وإبقاءُ الصِّفة على الغرضِ الأصليِّ لهذه المحاورةِ والمناظرةِ بين إبراهيمَ عليه السلام وبين أبيه وقومه؛ لأنَّ الغرضَ ليس الحديثَ عن ذاتِ الكواكبِ بقدْرِ ما يكونُ عنِ الصِّفةِ الَّتي تُنْبِئُ عن عجْزِ الكوكبِ عن وصفِ الأُلوهيَّة.

دلالةُ التَّعبيرِ بِالآفِلين دونَ المصدر «الأفولِ»:

تعريضُ إبراهيم باعتقادِ قومِهِ، وسقوطِ مزيَّةِ هذا الكوكبِ وغيرِه

عبَّر بـ ﴿ٱلْآفِلِينَ﴾ بصيغةِ جمعِ الذُّكور العقلاء؛ بناءً على اعتقاد قومِهِ أنَّ الكواكبَ عاقلةٌ متصرِّفةٌ في الأكوان، وليدلَّ على وجود آفِلين كثيرين ساواهم هذا الكوكبُ في الأفولِ، فلا مزيَّةَ له عليهم في أن يُعبدَ للاشتراك في الصِّفة الدَّالَّة على الحدوث[1].

جناسُ الاشتقاقِ بين: ﴿أَفَلَ﴾ ﴿ٱلْآفِلِينَ﴾:

تصويرُ الحركةِ الدَّالَّةِ على التَّغَيُّرِ والحدوثِ حِسًّا

انتظرَ إبراهيمُ عليه السلام الكوكبَ إلى أن يأفل - مع علمه السَّابق بأنَّه سيأفل - حتَّى يُحاجَّهُم بما وقع عليه الحِسُّ عند أفوله؛ فلمَّا أفلَ قال: لا أحبُّ عبادةَ الآفلين المُتَغيِّرين عن حالٍ إلى حال، المنتقلين من مكانٍ إلى مكانٍ، المُحتجبين بسترٍ، فإنَّ ذلك من صفات الأجرام، فإنَّ الكوكبَ الغاربَ يَنقطعُ بغروبِهِ ممَّن طلع عليه، ولا يستقيمُ تدبيرٌ كونيٌّ مع الانقطاع[2].

وأيًّا ما كان، فمبتدأُ الاشتقاق علَّةٌ للحكم؛ لأنَّ الأفولَ انتقالٌ واحتجابٌ، وكلٌّ منهما ينافي استحقاقَ الرُّبوبيَّة والألوهيَّة التي هي من مُقتضيات الرُّبوبيَّة لاقتضاء ذلك الحدوثِ والإمكانِ المستحيلَيْن على الرَّبِّ المعبودِ القديم[3]، فَجيءَ بهذا الجناسِ الاشتقاقيِّ لتصويرِ تلك الحركةِ الدَّالَّةِ على التَّغَيُّرِ والحدوثِ حِسًّا.

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 167، 565/4، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 7/320.
(2) أبو حيَّان، البحر المحيط: 4/565، والهرري، حدائق الرَّوح والرَّيحان: 8/448.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 4/189.

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الأفول والغيوب:

الأفولُ غيوبُ الشَّيءِ وراءَ الشَّيءِ، أي: استتارهُ بهِ؛ ولهذا يقالُ: أفلَ النَّجمُ؛ لأنَّهُ يغيبُ وراء جهة الأرضِ، والغُيوبُ يكونُ في ذلك وفي غيره، ألا ترى أنَّك تقول: غاب الرَّجلُ؛ إذا ذهب عنِ البصرِ، كما أنَّ الأفولَ لم يُستعملْ إلَّا في الشَّمسِ والقمر والنُّجوم، أمَّا الغيوبُ؛ فيُستعملُ في كلِّ شيءٍ[1].

الأفـولُ استتارُ الشَّيءِ بشيءٍ آخرَ، والغيوبُ أعمُّ

وممَّا يُذكرُ في الفرقِ بينهما: أنَّ الأفولَ يُستعملُ في اختفاءِ الشَّيء بعد ظهورهِ وبزوغِهِ؛ لذلك استُعملَ في اختفاءِ الكواكبِ والشَّمسِ والقمرِ بعد بزوغِها، ولذلك يُقال: (أفلَ نجمُ فلانٍ): لمن ظهرَ، واشتهرَ، ثم قلَّت شهرتُه؛ أمَّا الغيبُ فهو: كلُّ ما غابَ عن عينِ الإنسان وحواسِّهِ، وهو ما كان ضدَّ الحاضرِ والمُشاهَدِ كالجنِّ والملائكة[2].

(1) العسكريُّ، الفروق اللُّغويَّة، ص: 63.

(2) د. عبد الجبار فتحي زيدان، الفروق اللغوية في القرآن الكريم، ص: 165.

﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾﴾ [الأنعام: 77]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

ارتقابُ القمرِ - الَّذي هو أنورُ وأضوأُ مِنَ الكوكبِ - بَعْدَ ارتقابِ الكوكَبِ

لَمَّا ذكرَ اللّهُ تعالى لهم في الآية السَّابقةِ على لسان إبراهيم عليه السلام أنَّ هذا النَّيِّرَ، وهو الكوكبُ الَّذي رآه لا يَصْلُحُ أن يكون ربًّا، جاءت هذه الآيةُ؛ لتُبَيِّن أنَّه ارتقبَ ما هو أنورُ منه، وأَضْوَأُ على سبيلِ إلحاقهِ بالكوكبِ[1]، فقالَ: ﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى﴾.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلْقَمَرَ﴾: جذرهُ من (قمر)، وهو أصلٌ صحيحٌ يدلُّ على بياضٍ في شيءٍ، ومن ذلك القمرُ: قمرُ السَّماء، سمِّي قمرًا لبياضِه، ولأنَّه يقمُرُ ضوءَ الكواكبِ، ويفوزُ بهِ، ويُطلقُ عليه عند الامتلاءِ، ويُسمَّى بذلك منَ اللّيلةِ الثَّالثةِ إلى الخامسةِ والعشرين، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا﴾، والقَمراءُ ضَوءُهُ[2].

2) ﴿بَازِغًا﴾، أي: مُبتدئًا في الطُّلُوع، مأْخوذٌ مِنَ البَزْغِ، وهو الشَّقُّ، يقال: بزغتِ الشَّمس بَزْغًا وبزوغًا: بدا منها طلوعٌ، أو طَلَعت وشَرَقت، كأَنَّها تُشَقُّ بنورِه الظُّلْمَةُ شَقًّا، وبَزَغ النَّجْمُ والقمرُ: ابتدأ طُلوعُهما، وأصلُ البُزوغِ: طُلُوعُ الشَّيءِ وظُهورُه، والمعنى هُنا، أي: طالعًا مُنتَشِرَ الضَّوءِ[3].

(1) أبو حيَّان، البحر المحيط: 4/566.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (قمر).
(3) الرَّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، وابن قتيبة، غريب القرآن، وابن عزيز السِّجستاني، غريب القرآن: 1/120، وابن فارس، مقاييس اللُّغة، وجبل، المعجم الاشتقاقيُّ المؤصَّل: (بزغ)، وابن الهائم، التِّبيان، ص: 158، والكفوي، الكليَّات، ص: 251.

المَعْنى الإجْماليُّ:

التَّرقِّي في الحِجَاجِ مع الخصمِ لبيانِ ضلالِهِ

بيَّنَ اللّه تعالى في هذه الآيةِ أنَّ إبراهيمَ عليه السلام لمَّا رأى القمرَ طالعًا؛ قال لقومه - على سبيل استدراج الخَصْمِ -: هذا ربِّي، فلمَّا غابَ هو الآخرُ، قال - مُفتقرًا إلى هداية ربِّه -: لئن لم يُوفِّقْني ربِّي إلى الصَّواب في توحيدِهِ، لأكونَّن منَ القومِ البعيدين عن دينه الحقِّ بعبادةِ غيرِ اللّه تعالى[1].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالةُ العطفِ بالفاءِ ﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا﴾:

التَّعقيبُ والإشارة إلى قُربِ الحَدَثَيْنِ

قولُه: ﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا﴾ عطفٌ على جملةٍ محذوفةٍ دلَّ عليها الكلام، والتَّقدير: فطلعَ القمرُ، فلمَّا رآه بازغًا، فحُذفتِ الجملةُ للإيجاز، وهو يقتضي أنَّ القمرَ طلعَ بعد أُفول الكوكبِ، ولعلَّه اختارَ لمحاجَّة قومهِ الوقتَ الَّذي يَغْرُبُ فيه الكوكبُ، ويطلعُ القمرُ بقربِ ذلك، وأنَّه كان آخرَ اللَّيلِ لِيَعْقبَهما طلوعُ الشَّمس[2].

بلاغةُ أسلوبِ التَّرقِّي من الكوكب إلى القمر:

التَّدرُّجُ فيه استئناسٌ، وأوقعُ في إقامةِ الحُجَّةِ على الخصمِ

لمَّا بدأَ إبراهيمُ عليه السلام المُحاجَّة مع قومهِ بالكوكبِ، وانتهى أمرُهُ إلى الأفولِ، ترقَّى بعد ذلك إلى ما هو أضوأُ وأنورُ، وهو القمرُ، ليقيمَ عليهمُ الحُجَّةَ، وليأنسوا بموقفهِ عليه السلام حتى لا ينفروا منه، ويُصغوا إلى الاستدلال الَّذي يرنُو إليه إبراهيمُ عليه السلام من نصبِ الأدلَّةِ على بُطلان رُبوبيَّةِ هذه الكواكبِ وإثباتِ أنَّ الربَّ له صفاتٌ تختلف عن هذه الحوادثِ، وكلُّ ذلك مع الملاطفةِ، وإبعادِ القومِ عنِ العنادِ والمخاصمةِ.

---

(1) لجنة من عُلماءِ الأزهر، المنتخَبُ في تفسير القرآنِ الكريم، ص: 185، ونُخْبة من العلماء، التَّفسير المُيَسَّر، ص: 137، وجماعَةٌ من علماء التَّفسير، المُختَصَر في تفسير القرآن الكريم، ص: 137.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 7/321.

نكتةُ الاستعارةِ في ذِكْر بزوغِ القمر:

تصويرُ طُلوعِ القمرِ بالشَّيءِ الذي يَشُقُّ غيرَه

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا﴾ أي: طالعًا أوَّلَ طلوعه، منتشرَ الضَّوء، و﴿بَازِغًا﴾: مأخوذٌ منَ البزغِ الَّذي هو الشَّقُّ، كأنَّه بِنُوره يَشقُّ الظُّلمةَ شَقًّا[1]، ويقال: بزغَ النَّابُ؛ إذا ظهرَ، فيمكنُ أن يكونَ بزوغُ القمر مُشَبَّهًا بما ذُكر[2]، فالتَّعبيرُ عنِ الطُّلوع بالبزوغ استعارةٌ تصريحيَّةٌ تبعيَّةٌ تصوِّرُ الطُّلوعَ في هذه الصُّورة الظَّاهرةِ.

دلالةُ ذكْرِ البُزوغِ مع القمرِ:

بيانُ اختلافِ الظُّهورِ باختلافِ انتشارِ النُّورِ

جاء في الآية الكريمة ذِكرُ بزوغ القمرِ دونَ بزوغِ الكوكبِ؛ لاختلاف الظُّهورِ باختلاف النُّور، فالبزوغُ هو ظهورٌ وانتشارٌ يشقُّ الظَّلامَ، ويظهرُ على الأرض[3]، وهذا يكونُ في النَّيِّرَيْنِ: الشَّمسِ والقمرِ، أمَّا الكواكبُ؛ فلا يظهرُ نُورهَا مُنْتَشِرًا كالشَّمس والقمر طالعًا مُنتَشِرَ الضَّوءِ، بل يظهرُ نورهُ في نفسه.

سرُّ التَّعبيرِ بالبُزوغِ دون الظّهور:

الإشارةُ إلى ابتداءِ بُزوغِ القمرِ، وأنَّه يظهرُ بعد أفولِ الكواكبِ

عبَّرَ بالبُزوغِ دون الظُّهورِ؛ لأنَّه يدلُّ على أنَّ القمرَ يظهرُ بعد أفولِ الكواكبِ، فأوَّلُ أمره بزوغٌ، وآخره ظهورٌ؛ لأنَّ البزوغَ هو ابتداءُ الشُّروق، ولا يكونُ في ذلك ظهورٌ.

ولأنَّ البُزوغَ ينصرفُ إلى القمرِ والنَّيِّراتِ الَّتي من جنْسِه؛ بخلاف الظُّهورِ فهو أعمُّ منَ البُزوغ.

دلالةُ القصْرِ بتعريف الطّرفين ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾:

التَّرقِّي بنفيِ الرُّبوبيَّةِ عنِ الأَضْوَإِ بعد نفيِها عنِ الأضعفِ ضوءًا

قولُه: ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾ أفادَ بتعريف الجُزأين أنَّه أكثرُ ضوءًا منَ الكوكب، فإذا كان استحقاقُ الإلهيَّة بسبب النُّور، فالَّذي هو أشدُّ نورًا أولى بها منَ الأضعفِ[4].

---

(1) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 7/160.

(2) الآلوسي، روح المعاني: 4/189.

(3) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (بزغ).

(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 7/321.

سِرُّ تعريف المسنَدِ إليه بالإشارةِ في ﴿قَالَ هَٰذَا رَبِّي﴾:

تمييزُ المُشارِ إليه بتعْيينهِ على وجهِ الخصوصِ

استعملَ اسمَ الإشارةِ لقصدِ تمييز القمرِ، والإشارةِ إلى كونهِ أمرًا مطلوبًا مبحوثًا عنه، فإذا عُثِرَ عليه؛ أُشير إليه، وذلك كالإشارةِ في قولهِ تعالى: ﴿فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ﴾[1].

براعةُ أسلوبِ البحثِ والانتقال في الاستدلال:

نفيُ الرُّبوبيَّة عنِ القمرِ بطريقٍ يُبعِدُ الخصمَ عمَّا يُوجبُ عنادَهُ

لما كان تأمُّلُ أنَّ الكوكبَ محلُّ الحوادث بالأفولِ قد طرقَ أسماعَهم، فخالج صدورَهم، قال: ﴿فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي﴾، فكانت هذه أشدَّ منَ الأولى وأقربَ إلى التَّصريح بنفْيِ الرُّبوبيَّة عنِ الكواكبِ وإثباتِ أنَّ الرَّبَّ غيرُها، مع الملاطفة وإبعادِ الخصم عمَّا يُوجبُ عنادَه[2].

دلالةُ تَكْرارِ قولِهِ: ﴿قَالَ هَٰذَا رَبِّي﴾ في المحاورةِ:

الوصولُ إلى نقضِ اعتقادِ المشركين

النّاظرُ في هذه الآياتِ من أوَّل قولهِ تعالى: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ﴾ إلى قولهِ: ﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً﴾ الآية، يجدُ تكرارَ هذه الجملةِ ﴿قَالَ هَٰذَا رَبِّي﴾، وذلك لتكونَ جوابًا لسؤالٍ ينشأُ عن مضمونِ الجملة الَّتي ورد فيها عند رؤيتهِ للكوكب والقمرِ والشَّمسِ، بأن يسألَ سائلٌ: ماذا قالَ إبراهيمُ عليه السلام عند رؤيتهِ لهذهِ الأشياءِ، فيكونُ الجوابُ: قال: ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾، على سبيل الفَرْض؛ جريًا على معتقدِ قومهِ ليصلَ بهم إلى نقضِ اعتقادِهم، فأظهرَ أنَّه موافقٌ لهم، ليَهُشُّوا إلى ذلك، ثم يَكُرَّ عليهم بالإبطالِ إظهارًا للإنصافِ وطلبِ الحقِّ[3].

سرُّ تكرارِ الفعلِ ﴿أَفَلَ﴾ في مُحاورةِ إبراهيم مع قومه:

أفولُ المعبودات دليلُ ضعفِها وعجزِها

القارئُ لهذهِ الآياتِ يجدُ أنَّ مادَّة (أفل) تكرَّرت مع الكوكبِ، ومع القمر ومع الشَّمسِ؛ وهذه الكواكبُ النَّيِّراتُ لها وقعٌ على النُّفوس

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 7/317.
(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 7/160 - 161.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 7/319.

وتأثيرٌ في المشاعرِ؛ لأنَّها يتلألأُ ضوؤُها، وأكثرُ إلفاتًا للنَّظر؛ لذلك كان اعتقادُ قومِ إبراهيمَ في عبادتها، فكان لفظُ (الأفول) مع كلِّ هذه النَّيِّراتِ هو من أقوى الأدلَّةِ على بُطلانِ إلهيَّتها؛ لأنَّ الأفولَ علامةُ ضعفٍ وحدوثٍ، وهذا لا يليق بالمعبودِ الحقِّ.

دلالةُ تقديمِ المفعولِ على الفاعلِ:

الهداية لا تكونُ إلَّا منَ الله

تقديمُ المفعولِ على الفاعلِ في قوله تعالى: ﴿لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي﴾ يدلُّ على أنَّ الهدايةَ ليستْ إلَّا مِنَ اللهِ تعالى[1].

بلاغةُ التَّعريضِ في ﴿لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي﴾:

الإشارةُ إلى ضلالِهم قبل مصارحتِهم بذلك

قولهُ: ﴿لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ﴾ فيه تعريضٌ حسنٌ، حيث عرَّضَ بقومِه أنَّهم ضالُّون، وهيَّأَهم قبل المصارَحَةِ للعِلْمِ بأنَّهم ضالُّون؛ لأنَّ قَوْلَه: ﴿لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ﴾ يُدخِلُ على نفوسِهم الشَّكَّ في معتقَدِهم أن يكونَ ضَلالًا[2].

والتّعريضُ بضلالهم هُنا أصرحُ وأقْوَى مِن قولِه أوَّلًا: ﴿لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ﴾؛ وإنَّما ترقَّى إلى ذلك لأنَّ الخُصومَ قد أقامَ عليهم بالاستدلالِ الأوَّلِ حُجَّةً، فأَنِسُوا بالقَدْحِ في مُعتقَدِهم؛ ولو قيل هذا في الأوَّل فلعَلَّهم كانوا يَنْفِرون، ولا يُصغونَ إلى الاستدلالِ، فما عرَّض إبراهيمُ عليه السلام بأنَّهم في ضلالةٍ إلَّا بعد أن وَثِقَ بإصغائِهم إلى تمامِ المقصودِ، واستماعِهم إلى آخِرِه[3]، فعرَّض بضلالِهم في أمْرِ القَمَرِ؛ لأنَّه أَيِسَ منهم في أمْرِ الكوكب[4].

دلالةُ التَّأكيدِ بالقسم المحذوف:

التَّأكيدُ مِن أجلِ تقريرِ المعنى وتحقيقِه

جاءت هذه الآية مؤكّدة بجملةٍ من المؤكّدات لا تدعُ مجالًا للشَّكِّ في أنَّ مصدرَ الهدايةِ الحقيقيَّةِ لا يكون إلَّا منَ اللهِ ﷻ؛ وفي هذا

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 13/46.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 7/321.
(3) ابن المُنيِّر، الانتصاف: 2/40، ومحاسن التأويل، القاسمي: 4/403.
(4) ابن المُنيِّر، الانتصاف: 2/40، ودرويش، إعراب القرآن وبيانه: 3/157.

طعنٌ وذمٌّ للأصنام الَّتي عبدوها من دون الله سبحانه. والمؤكّدات هي: القَسَمُ المحذوف، واللَّامُ الموطّئة للقسم، ولامُ التّوكيد المقترنة بالفعل المضارع ﴿لَأَكُونَنَّ﴾، ونونُ التّوكيد الثقيلة.

سرُّ التَّعبيرِ بالهدايةِ في ﴿لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي﴾:

الهدايةُ أعمُّ مِنَ الإرشادِ والدّلالةِ، ومن أنواعِها ما يُجريهِ اللهُ على ألسنةِ أنبيائهِ

آثرَ القرآنُ الكريمُ التَّعبيرَ بالهداية دونَ الدَّلالةِ والإرشاد؛ لوجود فرقٍ بينهما في الاستعمال القرآنيِّ، فلفظُ الدَّلالة يُستعمَلُ في الدَّلالةِ على شيءٍ دنيويٍّ باستثناء قولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ١٠﴾ [الصف: 10]، يؤكِّد ذلك ما قاله الراغب في تعريف الدَّلالة بأنَّها ما يُتوصَّل به إلى معرفة الشَّيء؛ كدلالة الألفاظ على المعاني، ودلالة الإشارة والرُّموز ... وسواءٌ كان ذلك بقصدٍ ممن يجعله دلالةً، أو لم يكن بقصدٍ، كمَن يرى حركةَ إنسانٍ، فيعلم أنَّه حيٌّ، قال تعالى: ﴿مَا دَلَّهُمۡ عَلَىٰ مَوۡتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلۡأَرۡضِ﴾ [سبأ: 14]، أمَّا مادّةُ الرَّشادِ، فالقارئُ لها يجدُ أنَّها تدلُّ على البيانِ والتَّعريف والإشارة إلى إصابة الحقِّ والنَّفع، كما في قوله تعالى: ﴿وَهَيِّئۡ لَنَا مِنۡ أَمۡرِنَا رَشَدٗا ١٠﴾ [الكهف: 10]، وهذا يدلُّ على أنَّ المرشدَ يُبَيِّنُ وجهَ الحقِّ والخير، أمَّا الهدايةُ؛ فلها إطلاقاتٌ عديدةٌ في القرآن، حيث ذكر الرَّاغبُ أنَّها تُطلقُ على الدّلالةِ والبيانِ بلُطفٍ، وأنواعُها متعدِّدَةٌ كما ذكرها الرَّاغبُ في مفرداته[1]، وعلى هذا، اختارَ القرآنُ الكريم الهدايةَ؛ لأنَّها أعمُّ منَ الإرشادِ والدّلالة، ولأنَّ الهدايةَ من أنواعِها ما يُجريهِ اللهُ على ألسنةِ الأنبياءِ، ومن معنى التَّوفيق الَّذي يختصُّ به مَنْ شاء من عبادِه، ولأنَّ ضدَّ الهداية الضّلالُ؛ وفي هذا إشارةٌ إلى توفيقِ اللهِ لإبراهيم عليه السلام وأنَّ القومَ الذين عبدوا الأصنامَ في ضلالٍ مبين.

(1) الراغب، المفردات: (هدى).

سرُّ التَّعبيرِ بالمضارعِ ﴿يَهۡدِنِي﴾:

العبدُ في حاجةٍ مستمرَّةٍ إلى هدايةِ ربِّهِ

آثرَ القرآنُ الكريمُ التَّعبيرَ بالمضارع ﴿يَهۡدِنِي﴾ الذي يدلُّ على التَّجدُّدِ والاستمرار، دون الماضي، وهذا هو المناسبُ لحال العبد عمومًا في معتركِ الحياة، والابتلاءاتِ بالشَّهوات التي تذهبُ بالإنسان إلى سوء العاقبة؛ لأنَّهُ ضلَّ الطَّريقَ؛ لذلك كانتِ الهدايةُ المستمرَّةُ منَ اللّٰه لعباده سبيلَ الحفظِ ودليلَ العِنايةِ والرّعايةِ.

دلالةُ إسنادِ الهدايةِ إلى الرُّبوبيَّةِ دونَ الألوهيَّةِ:

المقامُ مقامُ إنعامٍ وعطاءٍ، وفيه توبيخٌ للَّذين عبدوا الكواكبَ

في قوله تعالى: ﴿لَئِن لَّمۡ يَهۡدِنِي رَبِّي﴾، أُسندتِ الهدايةُ إلى الرُّبوبيَّة؛ لأنَّ المقامَ مقامُ إنعامٍ وعطاء؛ بخلاف الأُلوهيَّةِ فهي مقامُ تشريعٍ وتكليفٍ؛ والمناسبُ هنا في هذا السِّياق هو الإنعامُ والعطاءُ قبل التَّكليف.

وفيه إشارةٌ إلى توبيخ الذين عبدوا الكواكبَ، وأعطَوْها صفةَ الرُّبوبيَّةِ، وهي لا تملكُ من أمرها شيئًا؛ فضلًا عن أن تهديَ مَن عبَدها.

فائدةُ الإضافةِ في لفظِ ﴿رَبِّي﴾:

تقريعٌ لقوم إبراهيم وحرمانُهم من عطاءِ الرُّبوبيَّة

أفادتِ الإضافةُ في لفظ ﴿رَبِّي﴾ التَّخصيصَ، وفي هذا توبيخٌ وتقريعٌ لقوم إبراهيم الذين يعبدون الأصنامَ، وحرمانُهم من عطاء الرُّبوبيَّة.

دلالةُ اللَّام والنُّون في ﴿لَأَكُونَنَّ﴾:

ماذا بعد الهداية إلَّا الضلال؟

اللَّام والنُّون في قولهِ تعالى: ﴿لَأَكُونَنَّ﴾ تفيدُ تأكيدَ وجودِ الضَّلال في حالة عدمِ الهدايةِ منَ اللّٰه، وفي هذا تعريضٌ بقومهِ، وتنبيهٌ لهم على أنَّ من لم يهدِهِ اللّٰه، فهو ضالٌّ.

دلالةُ التَّعريفِ في لفظي ﴿ٱلۡقَوۡمِ﴾ ﴿ٱلضَّآلِّينَ﴾:

الإشارةُ إلى قوم إبراهيم بالتَّلميحِ دونَ التَّصريحِ

دلَّ التّعريفُ في كلمتي ﴿ٱلۡقَوۡمِ﴾ و﴿ٱلضَّآلِّينَ﴾ على التَّخصيصِ والتَّعيين، وفي هذا إشارةٌ إلى قومهِ بالتلميح دون التَّصريحِ.

دلالةُ التّعريفِ باسمِ الفاعلِ ﴿ٱلضَّآلِّينَ﴾:

آثرَ التَّعبيرَ باسم الفاعل ﴿ٱلضَّآلِّينَ﴾ بدلًا مِنَ القومِ الَّذين ضلُّوا؛ لأنَّه يدلُّ على ثبوتِ الضَّلالِ فيهم في الحال والاستقبال، وفيه إشارةٌ إلى ثبوت الضَّلال، فلا يُرجى لهم خيرٌ، ولا يُنتظر منهم نفعٌ.

ثبوتُ الضَّلالِ في قوم إبراهيم في الحالِ والاستقبالِ

سرُّ التَّعبيرِ بالضَّلالِ دونِ الشِّركِ أو الكفرِ:

عبَّر بالضَّلال، فلم يقل: منَ القوم المشركينَ أو الكافرين؛ لأنَّه أعمُّ، فهو العُدولُ عن كلِّ طريقٍ مستقيم؛ وعلى ذلك، فالكفرُ والشِّرك من أفراد الضَّلال، لما فيهما منَ العُدولِ عنِ الفطرةِ السّليمةِ الَّتي خُلقوا عليها.

لفظ «الضّلال» يفيد التَّعميمَ، والكفرُ والشِّركُ من أفرادِ الضَّلالِ

سِرُّ التّعبير بنسق ﴿مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلضَّآلِّينَ﴾:

لأجلِ التَّعريضِ السَّابقِ لم يقل: (لأكونَنَّ ضالًّا)، وقال ﴿لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلضَّآلِّينَ﴾؛ ليُشيرَ إلى أنَّ في النَّاس قومًا ضالِّين، يعني قومَه؛ فهو من قبيل الكنايةِ الَّتي هي إثباتُ الشَّيء بإثبات مَلزومه، وهي أبلغُ منَ التَّصريح[1].

إثباتُ ضلالِهم بطريقِ الكنايةِ لإثباتِ الشَّيء بإثباتِ مَلزومه

بلاغةُ الطِّباق بين الهداية والضّلال:

في كلامِ إبراهيم بأنَّ له ربًّا يهديه، وهم لا يُنكرون عليه ذلك؛ لأنَّهم قائلون بعدَّةِ أربابٍ، وفي قَولِه: ﴿لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلضَّآلِّينَ﴾، تنبيهٌ لقومِه على أنَّ منِ اتَّخذ القمرَ إلهًا، وهو نظيرُ الكواكبِ في الأفول، فهو ضَالٌّ، وأنَّ الهدايةَ إلى الحقِّ بتوفيق اللّهِ ولطفِه، هذا أَكْبَرُ من بابِ استعمالِ النَّصَفَةِ مع خصومِه[2].

انتصافُ إبراهيم من خصومِه وتهيئتُهم للمصارحةِ بضلالِهم

ففي ذكرِ الهدايةِ والضَّلال في هذا المقام تهيئةٌ لنفوسِ قَومِه لِمَا عَزَمَ عليه منَ التَّصريحِ بأنَّ له ربًّا غيرَ الكواكب[3]، وهو من كمال الانتصافِ والعدل مع خصومِه.

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 7/322.
(2) الزمخشريّ، الكشَّاف: 2/40، والآلوسي، روح المعاني: 4/189.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 7/322.

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

البُزوغ والطُّلوع والشُّروق:

البُزوغُ: ابْتِداءُ الطُّلوعِ، والطُّلوعُ: الظُّهورُ، والشُّروقُ: الإضاءةُ

البزوغُ أوَّلُ الطُّلوعِ وابتداؤه[1]، والطُّلوعُ: الظُّهورُ، والشُّروق الإضاءة، يقال: أشرقتِ الشَّمسُ؛ إذا أضاءت على وجهِ الأرض[2]، وامتدَّ ضوؤُها وانتشرَ، والإضاءةُ تكون مع الارتفاعِ[3]، فالطُّلوع أعمُّ.

(1) الزَّبيدي، تاج العروس: (بزغ).
(2) ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث والأثر: (شرق).
(3) العسكريُّ، الفروق اللُّغويَّة، ص: 98.

﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكْبَرُۖ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ٧٨﴾ [الأنعام: 78]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

استدراجُ الخصمِ لدَحض أباطيله

لَمَّا ذكرَ اللهُ في الآياتِ السَّابقةِ على لسانِ إبراهيمَ عليه السلام نفيَ الرُّبوبيَّة عنِ الأجرام السَّماويةِ من كوكبٍ وقمرٍ، جاءت هذه الآيةُ في نفس السِّياق، وذلك من خلالِ رؤيتهِ للشَّمس بازغةً، فأشارَ إليها مجاراةً لقومهِ على سبيل التَّنزُّل؛ لأنَّها أنوَرُ منَ القمر وأضوأُ وأكبرُ جِرمًا وأعمُّ نفعًا، ومنها يَسْتَمِدُّ القمرُ نُورَه[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلشَّمْسَ﴾: يقالُ للقرصةِ، وللضَّوءِ المنتشر عنها، وتُجمعُ على شموسٍ، قال تعالى: ﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَاۚ﴾ [يس: 38]، ويدلُّ أصلُها على تلوُّنٍ وقلَّةِ استقرار، فالشَّمس معروفةٌ، وسُمِّيت بذلك؛ لأنَّها غيرُ مستقرَّة، ويقال: شَمُسَ فلانٌ شماسًا؛ إذا نَدَّ، ولم يستقرَّ، تشبيهًا له بالشَّمْسِ في عدمِ استقرارها[2].

2) ﴿بَرِيٓءٌ﴾: أصلُ (برأ) يدلُّ على التَّبَاعُدِ مِنَ الشَّيْءِ وَمُزايلتِه، ويقال: بَرِىءَ الرَّجُلُ مِنَ الأَمْرِ، يَبْرَأُ بَرَاءَةً؛ إذا تخَلَّصَ، وتَنَزَّهَ، وتباعَدَ عنه، والبَرِيءُ: المُتَنحِّي عَنِ البَاطِلِ وَالكذِبِ، البعيدُ عَنِ التُّهَمِ، النَّقيُّ القلبِ مِنَ الشِّرك[3].

المَعْنى الإِجْمالِيُّ:

يبيِّنُ اللهُ تعالى في هذه الآيةِ أنَّ إبراهيم عليه السلام حين رأى الشَّمسَ

(1) أبو حيَّان، البحر المحيط: 4/566، والبقاعيُّ، نظم الدُّرر: 7/161.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (شمس).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (برئ).

إبطالُ رُبوبيَّةِ الشَّمْسِ بأُفولِها وغُيوبِها

طالعةً؛ قال لقومه: هذا الطَّالعُ ربِّي - مجاراةً لقومه على سبيل التَّنزُّل معهم - هذا أكبرُ مِنَ الكوكبِ والقَمرِ، فلمَّا غابت؛ قال لقومه: إنِّي بريءٌ ممَّا تُشركون من عبادة الأوثانِ، والنُّجومِ والأصنامِ التي تُشركونها مع اللهِ في العبادة[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالةُ الفاءِ في قولِهِ تعالى: ﴿فَلَمَّا﴾:

التَّعقيبُ المُفيدُ لقربِ الحدثِ

التَّعقيبُ بالفاءِ، يدلُّ على القُرب في بدُوِّ الكوكبِ، ثُمَّ بزوغِ القمرِ، وأنَّه كان آخرَ اللَّيلِ ليعقبَهُما طلوعُ الشَّمس[2]، ويمكن أن يكون تعقيبًا عُرفيًّا، مثل: تزوَّج، فَوُلِدَ له؛ إشارةً إلى أنَّه لم تمضِ أيَّامٌ وليالٍ بين ذلك[3].

دلالةُ تكرارِ أسلوبِ ﴿فَلَمَّا رَءَا﴾ في المناظرة:

المشاهدةُ مِن أقوى الأدلَّةِ في إثباتِ القضيَّةِ

اختارَ القرآنُ الكريمُ التَّعبيرَ بهذا الأسلوبِ؛ لأنَّه أرادَ أن يُقيمَ الاستدلالَ على أساسِ المُشاهدةِ مع هذه النَّيِّرات على ما هو المعتادُ في التَّعامُلِ معها، ولأنَّ المشاهدةَ مِن أقوى الأدلَّةِ في إثباتِ القضيَّةِ الَّتي أثارها إبراهيمُ عليه السلام في هذه المُحاورةِ.

نُكْتَةُ تذكيرِ اسمِ الإشارةِ في قولِهِ تعالى: ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾:

مراعاةُ الإشارةِ في معنى الخبرِ

قولُهُ: ﴿هَٰذَا﴾ مُذَكَّرًا مع وصفِ الشَّمسِ بالمؤنَّثِ ﴿بَازِغَةً﴾، إشارةٌ لوجودِ المسوِّغِ، وهو تذكيرُ الخَبَرِ؛ لأنَّه اعتبرَها رَبًّا، فرُوعيَ في الإشارةِ معنى الخبرِ، فَكَأنَّه قال: هذا الجِرْم الَّذي تدعونَه الشَّمْسَ تبيَّنَ أنَّه هو ربِّي[4]، إظهارًا لتعظيمها إبعادًا عنِ التُّهمة، وتنبيهًا من

(1) لجنة من عُلماءِ الأزهر، المنتخَبُ في تفسير القرآنِ الكريم، ص: 185، ونُخْبة من العلماء، التَّفسير المُيَسَّر، ص: 137، وجماعةٌ من علماء التَّفسير، المُختَصَر في تفسير القرآن الكريم، ص: 137.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 7/321.

(3) الخفاجي، حاشية الشِّهاب على البيضاويِّ: 4/86.

(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 7/322.

أوَّل الأمر على أنَّ المُؤَنَّثَ لا يصلحُ للرُّبوبيَّة[1]، فذكرَ اسمَ الإشارةِ تذكيرًا للخبرِ وصيانةً للرَّبِّ عن شُبهة التَّأنيثِ[2].

وذكر المفسِّرون لهذا التَّذكير تأويلاتٍ أخرى، وهي:

أحدُها: أنَّه رأى ضوءَ الشَّمس، لا عينَها، **والثَّاني**: أنَّه أرادَ: هذا الطَّالِعُ ربّي، **والثَّالث**: أنَّ الشَّمس بمعنى: الضِّياء والنُّور، فحمل الكلامَ على المعنى، **والرَّابع**: أنَّ الشَّمس ليس في لفظِها علامةٌ من علاماتِ التَّأنيث، وإنَّما يشبهُ لفظها لفظَ المذكَّر، فجاز تذكيرُها[3].

دلالةُ تكرارِ جملةِ ﴿قَالَ هَٰذَا رَبِّي﴾:

تمييزُ المُشارِ إليه بتعيينِهِ على وجهِ الخصوصِ

اسمُ الإشارةِ هَذَا في قوله تعالى ﴿قَالَ هَٰذَا رَبِّي﴾ لقَصْدِ تمييزِ الشّمس مِنْ بينِ سائر النّجوم والكواكب، ولكِنْ إجراؤُه على نظيرَيهِ في قولهِ حينَ رأى القَمَرَ، وحين رأى الشَّمْسَ: (هذا ربِّي - هذا ربِّي) يُعَيِّن أن يكون القَصْدُ الأصليُّ منه هو الكنايةَ بالإشارةِ عن كونِ المشارِ إليه أمرًا مطلوبًا مبحوثًا عنه، فإذا عُثِرَ عليه؛ أُشِيرَ إليه[4].

عِلَّةُ فصْلِ قولهِ تَعَالَى: ﴿هَٰذَآ أَكۡبَرُۖ﴾ عمَّا قبْلَهُ:

جملةُ (هذا أكبر) تعليلٌ لجملة (هذا ربي)

جملةُ ﴿هَٰذَآ أَكۡبَرُۖ﴾ جاريةٌ مجرى العلَّة لجملةِ ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾، وفيها تأكيدٌ لما رامَه من إظهارِ النَّصَفَة للقوم، ومجاراتِهم في مزاعمِهم؛ تمهيدًا لدحضِها بالحُجَّة البالغة، كما أنَّ فيها إشارةً خفيَّةً إلى فسادِ دينِهم ببيان أنَّ الأكبرَ أحقُّ بالرُّبوبيَّةِ مِنَ الأصغرِ[5].

ولمَّا كانت هذه الجملةُ ﴿هَٰذَآ أَكۡبَرُۖ﴾ تقتضي نقضَ ربوبيَّةِ الكوكبِ والقمر، وحَصْرَ الرُّبوبيَّةِ في الشَّمس ونَفْيَها عنِ الكوكبِ

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 7/161.
(2) البيضاوي، أنوار التنزيل: 2/169.
(3) ابن الجوزي، زاد المسير: 2/48، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 13/46، والبقاعيُّ، نظم الدُّرر: 7/161.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 7/318 - 321.
(5) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/154.

والقمر[1]، علَّلَ ذلك بيانًا للوجهِ الَّذي فارق فيه ما مضى، فقال: ﴿هَٰذَآ أَكۡبَرُۖ﴾[2]، ولهذا فُصِلَتِ الجملتان.

بلاغةُ إيجازِ الحذفِ في جملة: ﴿هَٰذَآ أَكۡبَرُۖ﴾:

حذفُ المُفضَّل عليه لظهورِه، أي (هو أكبر منهما)، يعني: أنَّ الأكبرَ الأكثرَ إضاءةً أَوْلى باستحقاق الإلهيَّة[3]، ففيه إشارةٌ خفيَّةٌ إلى فساد دينهم من جهةٍ أخرى ببيان أنَّ الأكبرَ أحقُّ بالرُّبوبيَّةِ مِنَ الأصغرِ[4].

الإشارةُ إلى فسادِ اعتقادِهم بخضوعهم لمعبوداتٍ متفاوتةٍ في الصِّغر والكِبر

سرُّ تكرارِ اسمِ الإشارةِ في قولِه: ﴿هَٰذَآ أَكۡبَرُۖ﴾:

كرَّرَ اسمَ الإشارةِ لتمييز الشَّمسِ أكملَ تمييزٍ، وذلك من خلال الإشارةِ إليها، وما يحملُه ذلك من معنى القُرْبِ المشعرِ بتفخيمِ الشَّمسِ وتعظيمِها.

تمييزُ الشَّمسِ أكملَ تمييزٍ، وتفخيمُ شأنها

سرُّ التَّعبيرِ بقولِه: ﴿أَكۡبَرُۖ﴾ مع الشَّمس دون غيرها:

عبَّر بأفعل التفضيل ﴿أَكۡبَرُۖ﴾ مع الشَّمسِ؛ لأنَّها أكبرُ جِرْمًا ممَّا سبق - منَ الكوكب والقمر - فهي أنورُ منَ القمر وأضوأُ، ومنها يستمدُّ القمرُ نُورَه.

الشَّمسُ أكبرُ الأجرامِ السَّماويَّة في مجموعتها

من ناحية أخرى، عبَّر هنا بأكبرَ دونَ أعظمَ؛ لمناسبةِ ما تقدَّم، وهو الكوكبُ والقمرُ؛ والشَّمسُ أكبرُ منهما كمًّا وكيفًا، فكانَ اختيارُ الوصفِ بالأكبرِ هو المناسبَ للحجم عن هذه النَّيِّرات، وفيه إشارةٌ إلى مخاطبة عقول قومِه بالانتقالِ مِنَ الصَّغيرِ إلى الكبيرِ، ثُمَّ الأكبرِ، وفي هذا تعليمٌ للدُّعاة في كيفيَّة مخاطبةِ المدعُوِّين.

مخاطبةُ عقولِ قومِه بالانتقالِ مِنَ الصَّغيرِ إلى الكبيرِ، ثم الأكبرِ

نكتةُ الاحتجاجِ بالأفولِ في المقاماتِ الثَّلاثةِ:

في قولِه تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَفَلَتۡ﴾: لَمَّا كانَ الأُفولُ حاصلًا في الشَّمس،

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 7/322.
(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 7/161.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 7/322.
(4) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 3/154.

والأُفولُ يمنعُ من صفةِ الرُّبوبيَّة، وإذا ثبت امتناعُ صفةِ الربوبيَّة للشَّمس؛ كان امتناعُ حصولها للقمرِ ولسائرِ الكواكبِ من بابٍ أَوْلَى، وبهذا الطَّريقِ يظهرُ أنَّ ذِكْرَ هذا الكلامِ في الشَّمْس يُغني عن ذِكْره في القَمَر والكواكب، ولكنَّه ذكرَ الأفولَ في كلِّ هذا من بابِ الأَخْذِ مِنَ الأَدْوَنِ فالأدونِ، مُترقِّيًا إلى الأعلى فالأعلى، وهذا له تأثيرٌ قويٌّ في التَّقريرِ والبيانِ والتَّأكيدِ، ولايتأتَّى ذلك من غيره، فكان ذِكْرُه على هذا الوَجْهِ أَوْلَى[1]، وفيه إشارةٌ إلى المعنى النَّفسي الَّذي يريده إبراهيمُ عليه السلام من تكرار ترسيخِ صفةِ الضَّعفِ في هذه المعبوداتِ عند عابدِيها؛ لأنَّ تَغَيُّرَها بالأفولِ دليلٌ على أنَّها مُدَبَّرةٌ مُحَدثةٌ، وما كان بهذه الصِّفة استحالَ أن يكون إلهًا معبودًا[2].

التَّرقِّي مِنَ الأدنى إلى الأعلى للتَّأثير في التَّقرير والبيان

دلالةُ التَّعبيرِ بالفعلِ الماضي ﴿أَفَلَتْ﴾:

دلَّ التَّعبيرُ بالفعلِ الماضي ﴿أَفَلَتْ﴾، الَّذي يفيدُ تحقُّقَ الوقوع، على أنَّ سيِّدنا إبراهيم عليه السلام لم يعلن تبرُّؤَه من عبادة الشَّمسِ إلَّا بعد أن تحقَّقَ الأفولُ، وذهبَ نورُها، وغابَ جِرمُها، فلم يبقَ لها وجودٌ ذاتًا وصفةً؛ وفي هذا تعليمٌ للدُّعاة ألَّا يتعجَّلوا في إصدارِ الحُكم.

التَّثَبُّتُ في إصدارِ الأحكامِ مطلوبٌ ومرغوبٌ فيه

بلاغةُ النِّداءِ في قولِهِ تعالى: ﴿يَقَوْمِ﴾:

دلَّ النِّداءُ على تنبيهِ القَومِ، وإيقاظِ هممِهِم، وفتحِ قلوبِهم وعقولِهم لتلقِّي هذا الإعلانِ الواضحِ ببراءتِهِ مِن هذا الشِّركِ الَّذي يقعُ منهم.

تنبيهُ القومِ، وإيقاظُ هِممِهِم، وفتْحُ قلوبِهم

وفي استعمال أداة النِّداء (يا) للبعيدِ مع قُربهم إشارةٌ إلى غفلتِهم، وما هم فيه مِنَ اللَّهوِ والإعراضِ عَن قَبولِ الحقِّ، وفيه إشعارٌ بقوَّةِ ندائهِ عليه السلام، وعُلوِّ حُجَّته عليهم.

الإشارةُ إلى غفلتِهم، وما هم فيه مِنَ اللَّهوِ والإعراضِ عن قَبولِ الحقِّ

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 13/46.
(2) الماوردي، النُّكت والعيون: 2/137.

سرُّ التَّعبيرِ بالقولِ في قولهِ تعالى: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ﴾:

التَّعبيرُ بالقولِ دونَ الدُّعاءِ أو النِّداءِ في هذا المُقام يدلُّ على قوَّةِ حُجَّتِهِ، وعُلوِّ صوته، وأنَّه المناسبُ لسياق تبرُّئِهِ من شِركهم؛ بخلافِ الدُّعاءِ أو النِّداء، فهو منَ المقاماتِ الَّتي استعملَها مع قومه قبل إعلان تبرُّئِهِ من شِركهم.

دلالةُ قوَّةِ حُجَّةِ إبراهيمَ، وأنَّهُ المناسبُ لسياقِ تبرُّئِهِ من شِركِ قومه

دلالةُ نداء إبراهيم قومه برابطة القوميّة:

نادى خليلُ اللّهِ قومَه بقولهِ: ﴿يَٰقَوۡمِ﴾؛ للإشارةِ إلى حرصِهِ عليهم، ولُطفهِ بهم، فهو مهتمٌّ بأمرِهم، مخلصٌ لهم في نصيحَتِه، مُحِبٌّ لهم، يهمّه ما يهمّهم، ويُسعده ما يُسعدهم، ويُحزنه ما يُحزنُهم.

الإشارةُ إلى حرصِهِ عليهم، ولطفِهِ بهم

دلالةُ حذفِ الياءِ مِن قولهِ تعالى: ﴿يَٰقَوۡمِ﴾:

حُذِفَتِ الياءُ، فلم يقل: (يا قومي)، كما يقول اللُّغويُّون؛ لأنَّ الكسرةَ قبلَها دلَّت عليها، ومع ذلك يمكنُ القولُ بأنَّ حَذْفَ الياءِ يشيرُ إلى عدمِ التصاقِهِ بقومهِ الذين أشركوا؛ لأنَّ الإيمانَ والشِّركَ لا يلتقيانِ.

الحذفُ لتخفيف النُّطقِ، ويشيرُ إلى عدمِ التصاقِهِ بقومهِ المشركين

سِرُّ التَّعبيرِ بِالبراءةِ دونَ ما يُقاربُها في المعنى:

عبَّرَ بالبراءة دونَ غيرِها في قوله: ﴿إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ﴾؛ لأنَّها المناسِبةُ في هذا السِّياق بعد ما قال على سبيلِ الفرضِ والمجاراة لقومهِ في شأنِ الكوكبِ والقمرِ والشّمسِ ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾، فكانَ هذا التَّعبيرُ هو الأوفقَ؛ لأنَّه يدلُّ على براءتهِ وتنزُّهِهِ عن مخالطتِهم، وأنَّه لا صلةَ بينه وبين ما يُشركونَ في الظَّاهرِ والباطن، ولأنَّ البراءةَ مِنَ الشِّركِ تعني التَّوجُّهَ إلى اللّه تعالى وإخلاص العبوديّة له سبحانه.

البراءةُ مِنَ الشِّرك تعني التَّوجُّهَ إلى اللّه تعالى والإخلاص في عبادته

دلالةُ التَّعبيرِ بالاسميَّةِ ﴿إِنِّي بَرِيٓءٞ﴾:

عبَّرَ بالاسميَّةِ دون الفعليَّةِ (أتبرأ)؛ للدَّلالةِ على ثبوتهِ واستمرارهِ على هذه البراءةِ مِنَ الشِّرك، وفيه إشارةٌ إلى أنَّ البراءةَ منَ الشِّرك والمشركين ليست جديدةً عليه، فهي من فطرتِه الَّتي خُلقَ عليها.

ثباتُ إبراهيمَ واستمرارُهُ على البراءةِ مِنَ الشِّرْكِ

دلَالَةُ (مَا) فِي قوله تعالى: ﴿مِّمَّا تُشۡرِكُونَ﴾:

بيانُ البراءةِ مِنَ الشِّركِ والمعبوداتِ الباطلةِ؛ ما يعقلُ منها وما لا يعقل

(ما) في قوله: ﴿مِّمَّا تُشۡرِكُونَ﴾ مصدريَّةٌ أو موصولةٌ، والمعنى: إنِّي بريءٌ مِن إشراكِكم أو من الذي تشركونَه مِنَ الأجرامِ المحدَثةِ المتغيِّرةِ من حالٍ إلى أخرى المُسَخَّرةِ لمُحدِثِها[1].

والأظهرُ أنَّ (ما) في قوله: ﴿مَا تُشۡرِكُونَ﴾ موصولةٌ، وأنَّ العائدَ محذوفٌ لأجل الفاصلة، أي: بتقدير: (مَا تُشۡرِكُونَ بِهِ)؛ لأنَّ الغالبَ في فعل البراءةِ أن يتعلَّقَ بالذَّوات، ولئلَّا يتكرَّرَ مع قولِه بعده: ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾، ويجوزُ أن تكونَ (ما) مصدريَّة، أي: من إشراكِكم، أي: لا أتقلَّدُه[2].

سرُّ التَّعبيرِ بالفعلِ المضارعِ ﴿تُشۡرِكُونَ﴾:

عمومُ براءةِ إبراهيم من كلِّ أنواعِ الشِّركِ في الحالِ والاستقبال

عبَّرَ بالمضارعِ الَّذي يفيدُ التَّجدُّدَ والحدوثَ ليُشيرَ إلى عُمومِ براءتِه مِن كُلِّ ما يُشركون منَ الأصنامِ في الحالِ والاستقبال، وبالتَّأكيدِ من بابٍ أولى لما كان منهم في الماضي؛ لأنَّ شِركهم موصولٌ بالحاضر.

سرُّ تأخيرِ حُكمِ سيِّدِنا إبراهيمَ على قومه بالشِّرك:

التَّعجُّلُ في الحُكم فيه تنفيرٌ وصدٌّ

السِّرُّ في تأخيرِ حُكمِه عليه السلام بالشِّرك، فلم يذكرْهُ مع الكوكبِ والقمر؛ لإيناسِهم أوَّلًا، وللتلطُّفِ مَعهم؛ فلو حكمَ عليهم بالشِّرك في أوَّلِ الأمرِ لنفرُوا من قولِه، وما صَغَوا إلى استدلالِه، ولكنَّه عليه الصلاة والسلام بعد أن وثقَ بإصغائِهم إلى حُجَّته، ترقَّى في الحُكم، وصرَّحَ بالبراءةِ منهم، ووصفَهم بأنَّهم منَ المشركين.

نُكْتَةُ تذييلِ الآيَةِ بقوله: ﴿إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ﴾:

التَّصريحُ بالبراءةِ منهم لظُهورِ الدَّلائلِ وقيامِ الحُجَّةِ عليهم

لَمَّا كانتِ القلوبُ قد فُرِّغَت بما أُلقِيَ مِن هذا الكلامِ المُعَجَّبِ للحُجَّة، وتهَّيأت لقَبول الحقِّ؛ ختم الآية بقوله: ﴿إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا

(1) الآلوسي، روح المعاني: 4/191.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 7/323.

﴿تُشۡرِكُونَ﴾ أي: من هذا وغيره من بابٍ هو الأولى، فصرَّح بالمقصودِ؛ لأنَّه لم يبقَ في المحسوسِ منَ العالم العُلويِّ كوكبٌ أكبرُ منَ الشَّمس ولا أنورُ[1].

فهو إقناعٌ لهم بألَّا يحاولوا تحصيلَ موافقتِه إيَّاهم على ضلالهم؛ لأنَّه لمّا انتفى استحقاقُ الإلهيَّةِ عن أعظمِ الكواكب الَّتي عبدوها، فقد انتفى عمَّا دونها بالأحرى[2].

ولذلك ترقَّى في المشهد الثَّالثِ إلى التَّصريحِ بالبراءةِ منهم، والتَّقريعِ بأنَّهم على شِرْكٍ، حين أقام الحُجَّة عليهم، بوضوحِ الحَقِّ، وبلوغِه مِنَ الظُّهورِ غايةَ المقصودِ[3].

الإشارةُ إلى ذَمِّهم وتقريعِهم على شِركِهم، وإلى علَّةِ البراءةِ منهم

سرُّ العدولِ عن ذكرِ عبادَتِهم للأَصنامِ إلى الشِّركِ:

عدلَ عن ذكرِ عبادتِهم للأصنامِ إلى وَصْمِهم بالشِّرك في قوله ﴿مِّمَّا تُشۡرِكُونَ﴾، لذمِّهم وتقريعِهم على شركهم، وفيه إشارةٌ إلى علَّة البراءةِ منهم.

التَّدرُّجُ في الحوارِ بما يناسبُ المقامَ والحالَ

سرُّ اختلافِ مَقُول القولِ بعد الأفولِ في الآيات السَّابقةِ:

النَّاظرُ في هذه المحاورةِ يجدُ تغيُّرَ مقولِ القول؛ ففي المشهدِ الأوَّلِ قال: ﴿لَآ أُحِبُّ ٱلۡأٓفِلِينَ﴾، ومع القمرِ قال: ﴿لَئِن لَّمۡ يَهۡدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلضَّآلِّينَ﴾، ومع الشَّمسِ قال: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ﴾.

والمتأمِّلُ في هذه الأقوالِ الثَّلاثةِ يجدُ أنَّها بُنيتْ على مجاراةِ إبراهيمَ عليه السلام لأبيهِ وقومِه في إبطالِ مزاعمِهم في الكواكب، فكان كلُّ مقولٍ مناسبًا في محلِّه: ففي الأولى: ﴿قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلۡأٓفِلِينَ﴾، وهذا من باب التَّلميحِ، وليس من باب التَّصريحِ، وأمَّا مع القمرِ

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 7/161.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 7/322.
(3) ابن المُنيِّر، الانتصاف: 2/40.

الذي كان حجمُ ضوئِه أكثرَ منَ الكوكبِ، كان مقولُ إبراهيمَ عليه السلام يقربُ إلى التَّصريحِ منه إلى التَّلميح بأنَّهم في الضَّلالِ، أمَّا مع الشَّمس؛ فكان قولُه مناسبًا لحجم الشَّمس ذاتًا وصفةً في الانتقال منَ التَّلميحِ والتَّصريحِ إلى الإعلان الظّاهر والواضح بشِركهم؛ كظهورِ الشَّمس في كبد السَّماء.

﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٧٩﴾ [الأنعام: 79]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

التَّوَجُّهُ إلى الإلهِ الحَقِّ، بعد دَحض المعتقدات الباطلة

لَمَّا ذكرتِ الآياتُ السَّابقةُ أنَّ إبراهيمَ عليه السلام أنكرَ على أبيه وقومه عِبادةَ الأصنام، ثُمَّ استدَلَّ على ضلالِهم بقضايا العُقولِ؛ إذْ لا يُذعِنونَ للدَّليلِ السَّمعيِّ، وأَبْدَى تلك القضايا منوطةً بالحِسِّ الصَّادِقِ، وتبرَّأَ من عِبادتِهم؛ جاءت هذه الآيةُ لتخبرَ أنّه وجَّه عبادَتَه لمُبدِعِ العالَمِ الذي له مُلكُ هذه النَّيِّراتِ[1]، فبعد أن أبطلَ جميعَ مذاهَبِهم، أظهرَ التَّوجُّهَ إلى الإلهِ الحَقِّ[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَجَّهْتُ﴾: لهذه المادة أصلٌ واحدٌ يدلُّ على مقابلةٍ لشيءٍ، وأصلُ الوجهِ الجارحةُ، قال تعالى: ﴿فَٱغْسِلُوا۟ وُجُوهَكُمْ﴾ [المائدة: 6]، ولمَّا كان الوجهُ أوَّلَ ما يَستقبلُك، وأشرفُ ما في ظاهر البدن؛ استُعملَ في مُستقبل كلِّ شيءٍ، وفي أشرفِه ومبدئِه، ويُعبَّرُ بالوجه عنِ التَّوجُّهِ، والمرادُ: إخلاصُ العبادة لله، ومن ذلك قولُه تعالى: ﴿فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ﴾ [آل عمران: 20][3].

2) ﴿فَطَرَ﴾: خلَق، يقال: فَطَر اللهُ الخَلْقَ، يفطُرهم فَطْرًا، أي: خَلَقَهم، وأصلُ الفَطْر: فتْحُ الشَّيءِ وإبرازُه، ومنه الفِطْرَةُ، وهي الجِبِلَّةُ الَّتي فطرَ الله تَعَالَى عَلَيْهَا الخَلْقَ[4].

(1) أبو حيَّان، البحر المحيط: 4/568.
(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 7/161.
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرَّاغب، المفردات: (وجه).
(4) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرَّاغب، المفردات: (فطر)، وابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 341، وابن عزيز السِّجستانيُّ، غريب القرآن: 1/371.

3) ﴿حَنِيفًا﴾: أصْلُ الحنَفِ: الميلُ، أي: الميلُ عنِ الشّيءِ بالإقبالِ على آخرَ، فالحَنَفُ: مَيلٌ عنِ الضَّلالِ إلى الاستقامةِ، والمعنى في الآية: مُقبلًا على اللّه، مُعرضًا عمَّا سِواه، أي: مائلًا عَنِ الشِّرك والدِّينِ الباطِلِ؛ قَصدًا إلى التَّوحيدِ والدِّين الحقِّ المُستقيم، والدِّينُ الحنيفُ هو الإقبالُ على اللّهِ وحدَه، والإعراضُ عمَّا سِواه، وهو الإخلاصُ.[1]

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

بيَّنتِ الآيةُ: أنَّ إبراهيمَ عليه السلام أعلنَ أمامَ قومِهِ توجُّهَهُ للّه، فقال: إنِّي أقبلتُ بوجهي على اللّه ﷻ وحدَه - فهو الَّذي خلقَ السّماواتِ والأرضَ على غير مثالٍ سابقٍ - مائلًا عنِ الشِّرك إلى التَّوحيد، ولستُ منَ المشركين الذين يعبدون معه غيرَهُ[2].

الإذعانُ بتوحيدِ اللّه والتَّبرُّؤ منَ الشِّرك

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

عِلَّةُ فَصْلِ قولِهِ تعالى: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ﴾ عَمَّا سبق:

فُصِلَت جملةُ ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ﴾ عمَّا قبلَها؛ لأنَّها بمنزلةِ بدلِ الاشتمالِ من جملةِ ﴿إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾؛ لأنَّ البراءةَ مِنَ الإشراكِ تشتملُ على توجيهِ الوجهِ إلى اللّه، وهو إفرادُهُ بالعبادة[3]، وهذا البدلُ هو الذي تتمُّ به فائدةُ الكلامِ، فصارَ كأنَّه المقصودُ حقيقةً، ففصلَ بين الجملتينِ لكمال الاتِّصال.

بيان أنَّ البراءةَ مِنَ الشِّركِ تكونُ بتوجيهِ الوجهِ للّهِ وإفرادِهِ بالعبادةِ

دلالةُ التَّأكيدِ في قوله: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ﴾:

دلَّ التَّأكيدُ بقوله: ﴿إِنِّي﴾ على تحقيقِ مضمونِ كلام إبراهيم عليه السلام وتقريرِهِ في تَوَجُّهِهِ إلى اللّه سبحانه في مقامٍ يحتاجُ إلى ذلك التَّأكيد.

تحقيقُ إبراهيم مضمون كلامِهِ وتصريحُهُ بتَوَجُّهِهِ إلى اللّه سبحانه

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرَّاغب، المفردات: (فطر)، وابن جرير، جامع البيان: 2/591، وابن عزيز السِّجستانيُّ، غريب القرآن، ص: 184، وابن الجوزي، تذكرة الأريب، ص: 291، وابن تيميَّة، مجموع الفتاوى: 9/319.

(2) لجنة من عُلماءِ الأزهر، المنتخَبُ في تفسير القرآنِ الكريم، ص: 185، ونُخْبة من العلماء، التَّفسير الميُسَّر، ص: 137، وجماعَةٌ من علماء التَّفسير، المُختَصَر في تفسير القرآن الكريم، ص: 137.

(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 7/323.

دلالةُ اختيارِ ﴿وَجَّهْتُ﴾ دونَ توجَّهتُ:

بيانُ أنَّه مُتوجِّهٌ إلى اللهِ قبل هذه المناظرةِ

اختارَ التَّعبيرَ بالفعلِ ﴿وَجَّهْتُ﴾ للدَّلالةِ على أنَّه مُتوجِّهٌ إلى اللهِ قبل هذه المناظرةِ، وقبل إعلانِه البراءةَ أمامَ قومِه من شِركِهم؛ بخلاف (توجَّهْتُ) فقد يُفهَمُ منها أنَّ التَّوجُّهَ كان بعد نهايةِ المناظرةِ، وهذا ليس بدقيقٍ، فتوجُّهُهُ إلى اللهِ أمرٌ فطريٌّ مجبولٌ عليه، وما قاله هو إظهارٌ للتَّوجُّه، وليس إنشاءً له.

ومنَ الفروقِ بينهما: أن وجَّه يتعدَّى باللَّام، وأن توجَّه يتعدَّى بـ (إلى)[1].

دلالةُ إيثارِ التَّعبيرِ بالفعل ﴿وَجَّهْتُ﴾ دون أخلصتُ:

الجمعُ في إعلانِ العبوديَّةِ للهِ بينَ الظَّاهرِ والباطنِ

آثر التَّعبيرَ بقوله: ﴿وَجَّهْتُ﴾ ليجمعَ في إعلانِ العبوديَّة للهِ بينَ الظَّاهرِ والباطنِ، بخلاف أخلصتُ، فهو عملٌ قلبيٌّ، والمقامُ هنا يحتاجُ إلى الإعلانِ الظَّاهريِّ أمام المشركين؛ ليضعَ حدًّا لشِركِهم، وليعلنَ عن وظيفتهِ بينَهُم.

دلالةُ إيثارِ التَّعبيرِ بقوله: ﴿وَجَّهْتُ﴾ دون أمَّلتُ:

الدَّلالةُ على تمامِ الإقبالِ

قولُهُ: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ﴾ أبلغُ من (إنِّي أمَّلت) للإشعار بأنَّه تَبتَّل إليه تَعَالَى بشراشرِه، أي: بِكُلِّه، ولأجل هذا جيءَ بجناسِ الاشتقاقِ، فَذَكَرَ الوجهَ؛ لأنَّه العضوُ الَّذي يُعرف به الشَّخصُ، أو لأنَّه يُطلقُ على الشَّخصِ[2].

سِرُّ إيثارِ التَّعبيرِ بالمضيّ في ﴿وَجَّهْتُ﴾:

بيانُ أصالةِ إبراهيمَ في التَّوحيدِ وعصمتهِ مِنَ الشِّركِ

وصيغةُ المَاضي لكونهِ عَلَى تلك الحالِ في الزَّمان المَاضي لإفادة أنَّ ما ذُكِرَ أوَّلًا في قول إبراهيم آنفًا ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾ كان عَلَى طريق الفرْضِ والجدَلِ والتَّنزُّلِ مع الخصمِ[3].

---

(1) الآلوسي، روح المعاني: 7/203.

(2) القونوي، حاشية القونوي على البيضاويِّ: 8/170، والقنَّوجيُّ، فتح البيان: 4/179.

(3) القونوي، حاشية القونوي على البيضاويِّ: 8/170.

دلالةُ إيثارِ ﴿وَجْهِيَ﴾ دونَ (قلبي):

آثرَ التَّعبيرَ بالوجه في قبوله ﴿وَجَّهْتُ وَجْهِيَ﴾؛ لأنَّه أساسُ التَّوجُّه والمقابلةِ، ولأنَّهُ مظهرُ الخضوعِ والطّاعةِ، ولأنَّ توجُّهَ القلبِ لا يأتي إلَّا بعد توجُّه الوجه؛ فتوجُّهُ الوجهِ إسلامٌ، وتوجُّهُ القلبِ إيمانٌ، والإسلامُ سابقٌ على الإيمان.

توجُّهُ الوجهِ إسلامٌ، وتوجُّه القلب إيمانٌ؛ والإسلامُ سابقٌ

دلالةُ إضافةِ (وجه) في قوله: ﴿وَجْهِيَ﴾ إلى ياءِ المتكلِّم:

دلَّت الإضافةُ على تخصيصِ وجههِ دون بقيَّةِ وجوه القوم، ودلَّت أيضًا على هدايته دون قومهِ، وأنَّ الرسولَ ليس عليه إلَّا البلاغُ.

تخصيصُ وجههِ دونَ بقيَّةِ وجوهِ القومِ

تأكيدُ الكلام بالإثبات والنّفي:

اختيارُ ﴿وَجَّهْتُ﴾ للإخبارِ أنَّه وجَّه عبادَتَه لِمُبدِعِ العالَم، وهذه النيِّراتُ المستدَلُّ بها بعضُ هذا العالم، ثمَّ نفى عن نفْسِه أن يكون منَ المشركينَ؛ مُبالغةً في التَّبرُّؤِ منهم.[1]

تأكيدُ إبراهيم تبرُّؤه من قومه ومن شركِهم

سِرُّ الكنايةِ عنِ الطَّاعةِ بتوجيهِ الوجهِ:

المُرادُ بـ ﴿وَجَّهْتُ وَجْهِيَ﴾، أخلصتُ ديني، وأفردتُ عبادتي[2]، وسببُ هذا التَّأويلِ أنَّ من كان مُطيعًا لغيره مُنقادًا لأمره، فإنَّه يتوجَّه بوجهه إليه، فجعلَ توجيهَ وجهِه إلى اللّه سبحانه كنايةً عنِ طاعته[3].

الطَّاعة تكونُ بتوجيهِ الوجهِ للّه تعالى والإقبالِ عليه

جمالُ الاستعارةِ التَّمثيليَّةِ فِي قول إبراهيم عليه السلام:

وقد يكون توجيهُ الوجهِ في قوله تعالى: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ﴾ من قَبيل التَّمثيلِ حيث شُبِّهَتْ حالَةُ إعْراضِهِ عَنِ الأصْنام وقَصْدِهِ إلى إفْرادِ اللّهِ تَعالى بالعبادةِ بمنِ استقبلَ بوجههِ شيئًا، وقصدَه، وانصرفَ عن غيره[4]، فيكونُ الكلامُ من قَبيل الاستعارةِ التَّمثيليَّةِ.

تشبيهُ صورةِ المقبلِ على التَّوحيد بمن استقبلَ بوجههِ شَيئًا، وانصرفَ عن غيرِه

(1) أبو حيَّان، البحر المحيط: 4/568.
(2) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 3/291.
(3) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 13/47.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 7/323.

عِلَّةُ تعدية فعل ﴿وَجَّهْتُ﴾ باللَّام دون (إِلَى):

بيانُ معنى التَّوجُّهِ إلى الله سبحانه وأنَّه إرضاءٌ وطاعةٌ

فعْلُ (وَجَّهَ) يَتَعَدَّى إِلَى المَكَانِ المَقْصُودِ بـ (إلى)، وَقَدْ يَتَعَدَّى بِاللَّام إِذَا أُرِيدَ أَنَّهُ انْصَرَفَ لِأَجْلِ ذَلِكَ الشَّيْءِ، فَيَحْسُنُ ذَلِكَ إِذَا كَانَ الشَّيْءُ المَقْصُودُ مُرَاعًى إِرْضَاؤُهُ وَطَاعَتُهُ، كَمَا تَقُولُ: تَوَجَّهْتُ لِلْحَبِيبِ، وَلِذَلِكَ اخْتِيرَ تَعَدِّيهِ هُنَا بِاللَّام؛ لِأَنَّ فِي هَذَا التَّوَجُّهِ إِرْضَاءً وَطَاعَةً[1].

سِرُّ التَّعْبِيرِ بِالِاسْمِ الموصول ﴿لِلَّذِى﴾:

الإيماءُ إلى عِلَّةِ توجُّهِهِ إلى عبادةِ اللهِ

جيءَ بالموصولِ في قوله: ﴿لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ دون (فاطر)؛ ليُبيِّن عِلَّة توجُّهِهِ إلى عبادة الله وإفراده بها؛ لأنَّهُ فاطرُ السّماوات والأرض، ومدبِّرُ الكون كلِّه؛ فهو الإلهُ الحقيقُ بالعبادةِ، وللرَّدِّ على قومِهِ الذين كانوا يعتقدون أنَّ هذا الكونَ من صنعِ الله، ولكنَّهم يُشركون معه آلهةً أخرى، كما كان حالُ مُشركي مكَّة، وللإشارةِ إلى أنَّ الكواكبَ من موجودات السَّماء، والأصنامَ من موجودات الأرض فهي مفطورةٌ لله تعالى[2]، فكيف تُعبدُ من دونِه؟!

نُكْتَةُ الكنايةِ فِي قولِهِ ﴿فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾:

الاكتفاءُ بذكرِ الظَّرفِ عنِ المظروفِ

اكتفى بالظَّرفِ عنِ المظروفِ لعمومِهِ؛ إذ هذه النَّيِّراتُ مظروفُ السّماوات، ولما كانت الأصنامُ التي يعبدُها قومُه مِنَ النَّيِّرات ومن خشبٍ وحجارةٍ، وذكرَ ظرفَ النَّيِّرات؛ عطفَ عليه الأرضَ الَّتي هي ظرفُ الخشب والحجارة في قوله: ﴿لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾، فهو كنايةٌ عن موصوفٍ[3].

سرُّ إيثارِ الفعلِ ﴿فَطَرَ﴾ دونَ (خلق):

آثرَ القرآنُ الكريمُ التَّعبيرَ بـ ﴿فَطَرَ﴾ دون (خلق) في قولِهِ تعالى: ﴿فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾؛ لأنَّ الفعل ﴿فَطَرَ﴾ يدلُّ على خلْقِ الشيء

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 7/323 - 324.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 7/323.
(3) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 13/47.

ابتداءً على غير مثالٍ سابقٍ؛ بخلاف الخلْقِ فهو يُطلقُ على الإيجادِ من عدم والإيجادِ من موجودٍ، والمناسبُ للسِّياق هنا لفظُ ﴿فَطَرَ﴾؛ لأنَّه يدلُّ على أنَّ اللهَ ﷻ، هو الَّذي أوجد السّماواتِ والأرضَ وما فيهما على غيرِ مثالٍ سابقٍ، فهو المستحقُّ للعبادَةِ.

خلق الشَّيءِ ابتداءً على غيرِ مثالٍ سابقٍ

سرُّ تقديمِ فَطْرَ السّماواتِ على الأرضِ:

قدَّمَ فَطرَ السّماواتِ على (فطر الأرض)، وذلك لما فيها من عجيبِ الصُّنع في المخلوقات، كالنُّجوم والكواكبِ، والشَّمسِ والقمر، الَّتي أبهرت قومَ إبراهيمَ؛ فعبدوها لما فيها من جميلِ الصُّنع، وغفلوا عن أنَّ الذي خلقها هو اللّه.

عجيبُ صُنْعِ اللهِ في خلق السّبع الشّداد

سرُّ العطف بالواوِ في قولهِ: ﴿وَٱلْأَرْضَ﴾:

أتى بالواوِ الَّتي تدلُّ على مُطلق الجمعِ في فطرِ السّماوات وفطرِ الأرضِ، للإشارةِ إلى قدرتهِ سبحانه، وأنَّ أمرَ فطرهِما معًا لا يُعجزُه؛ فأَمْرُه بين الكافِ والنُّونِ.

الإشارةُ إلى قُدرتهِ سبحانهِ في الخلقِ

دلالةُ التَّعبيرِ بالسّماواتِ والأرض عنِ المُلْكِ والملكوتِ:

عبَّر بالسّماوات والأرض، وهما من المُلك والملكوتِ؛ لأنَّهما في محلِّ المشاهَدةِ والنَّظرِ والاستدلال، ولمعرفة النّاسِ بهما.

السّماواتُ والأرضُ محلُّ المشاهدةِ والنَّظرِ والاستدلالِ

فائدةُ ذكر الحال ﴿حَنِيفًا﴾:

كلمة ﴿حَنِيفًا﴾ في قوله سبحانه: ﴿حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ صيغةُ مُبالغةٍ في الاتِّصاف بالحَنَفِ وهو الميلُ[1]، وهي حالٌ من إبراهيم فاعل ﴿وَجَّهْتُ﴾ أي: مائلًا عنِ الأديانِ الباطلةِ مَيْلًا لا رُجوعَ فيه[2] مُقْبلًا على التَّوحيد والإخلاص، وقد غلب استعمالُ هذا

المبالغةُ في الميلِ عنِ الشِّرك والباطلِ والإقبالِ على التَّوحيدِ والحقِّ

(1) وقيل: إنَّ (حَنِيفًا) معناه: مستقيمٌ، والحنفُ الميلُ في كلام العرب، وأصلُه في الأشخاص، وهو في المعاني مُستعارٌ، فالمُعْوَجُّ في الأجرام أحنفُ على الحقيقة، أي: مائلٌ، والمستقيم فيها أحنفُ على تَجَوُّزٍ، كأنَّه مال عن كلّ جهة إلى القوام. يُنظر: ابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 2/314.

(2) الآلوسي، روح البيان: 3/128.

الوصفِ في الميلِ عنِ الباطل، أي: العُدول عنه بالتَّوجُّه إلى الحقِّ، أي: عادلًا ومنقطعًا عنِ الشِّرك[1].

سرُّ الاكتفاءِ بـ ﴿حَنِيفًا﴾:

إثباتُ حنيفيَّتِهِ في الميلِ عَن كلِّ باطلٍ

اكتفى القرآنُ الكريمُ في موضعِ سورةِ الأنعام في حوارِ إبراهيمَ مع قومهِ بوصفِ الحَنيفيَّة في قوله: ﴿حَنِيفًا﴾، ولم يَذكرْ ﴿مُّسْلِمًا﴾، كما في سورةِ آل عمران في قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا﴾ [آل عمران: 67]؛ لاختلافِ السِّياقين، فالذي ورد في سورةِ آل عمرانَ كان ردًّا على اليهودِ والنَّصارى في دعواهم بأنَّ إبراهيمَ كان على دينِهم، ويقصدون بذلكَ الطَّعنَ في رسالة الإسلام، فكان الإتيانُ بوصفِ ﴿مُّسْلِمًا﴾ [آل عمران: 67] من باب التَّزكيةِ لدينِ نبيِّنا ﷺ، وأنَّه هو الدِّينُ الخاتمُ، وأنَّ أتباعَهُ هم المسلمون؛ بخلاف موضعِ سورةِ الأنعام، فالأمرُ محمولٌ فيه على إثباتِ حَنيفيَّتِهِ في الميلِ عن كلِّ باطلٍ.

دِلَالَةُ ذكر البراءة من الشّرك بعد توجيه الوجه لله تعالى:

ما كانَ إبراهيمُ مِنَ المشركين ولن يكون

أفادت جملةُ ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ التَّأكيدَ لجملة ﴿إِنِّي وَجَّهۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ حَنِيفًا﴾، وإنَّما عُطِفَت؛ لأنَّها قُصِدَ منها أنّه لن يكونَ منَ المشركين أبد الآبدين[2].

نُكْتَةُ التَّعْبِيرِ بالنّفي على جِهةِ الجَمْع في ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾:

المبالغةُ في الوصفِ المقتضي للبراءةِ والتَّعميمِ

أكَّدَ إبراهيم بَراءته من قومه على جهة الجمْع، دُونَ الإفرادِ: (وَمَا أَنَا مُشْرِكًا)، بقوله: ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ أي: مِنْكُمْ، ولكنَّه أَظْهَرَ الوصفَ المقتضيَ للبراءةِ والتَّعميم، أي: لا أُعَدُّ في عِدادكم بِشيءٍ أُقاربُكم به[3]، فنفى عن نفسِه أَنْ يكونَ من المشركينَ مُبَالَغَةً في التَّبَرُّؤِ منهم[4].

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 21/89.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 7/324.
(3) البقاعي، نظم الدُّرر: 7/162.
(4) أبو حيَّان، البحر المحيط: 4/568.

دلالةُ اختلافِ فاصلة الآيةِ عمَّا قبلَها:

نفى إبراهيم عن نفسِهِ أن يكونَ مـنَ المشركين، مبالغةً في التَّبرُّؤِ من قومه

القارئُ لفاصلةِ الآيةِ السَّابقةِ، يجدُ أنَّها خُتِمت بقوله: ﴿إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ﴾، وفيها إعلانٌ ببراءتِه من شِرْكِهم، ثم ترقَّى الأسلوبُ في الآيةِ التَّالية المختومةِ بقوله: ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾؛ لتدلَّ على أنَّه نفى عن نفسِهِ أن يكونَ منَ المشركينَ، مبالغةً في التَّبرُّؤِ منهم، فلا أُعَدُّ في عدادِكم بشيءٍ أقاربُكم فيه[1].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الفَطْر والخَلْق:

الفطرُ: إيجادُ الشَّيءِ منَ العدم، وإظهارُ الحادث بإخراجه منَ العدمِ إلى الوجودِ، وفطرَ الشَّيءَ: ابْتَدَأَ خلْقَهُ على غير مِثَالٍ سَابق[2]، قال تعالى: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ فَاطِرِ﴾ [فاطر: 1]، وأمَّا الخلقُ؛ فقد يأتي بمعنى الفطر، ويُستعملُ في إبداع الشَّيءِ على غير مثالٍ سابقٍ، نحوَ قولِه تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾ [النحل: 3]، وقد يدلُّ على التَّشكيل والصَّيْرورة، قال تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِن صَلۡصَٰلٖ كَٱلۡفَخَّارِ ١٤ وَخَلَقَ ٱلۡجَآنَّ مِن مَّارِجٖ مِّن نَّارٖ ١٥﴾ [الرحمن: 14 - 15]، أي: أوجدَ الطِّينَ، ثم خلقَكم، وشكَّلكم منه، فالخلقُ هنا: إيجادُ شيءٍ مَعدومٍ من شيءٍ موجودٍ[3]، ليس الخلقُ الَّذي هو الإبداعُ إلَّا للّه تعالى، ولهذا قال تعالى في الفصل بينه وبين غيره: ﴿أَفَمَن يَخۡلُقُ كَمَن لَّا يَخۡلُقُۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ١٧﴾ [النحل: 17]؟ وأمَّا الخلْقُ الذي يكون بالتَّشكيلِ والتَّصوير؛ فقد جعلَهُ لغيره في بعض الأحوال، كعيسى عليه السلام، حيث قال: ﴿وَإِذۡ تَخۡلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ بِإِذۡنِي﴾ [المائدة: 110].

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 7/162.
(2) الأزهري، الزَّاهر في غريب ألفاظ الشافعي، ص: 61.
(3) العسكريُّ، الفروق اللُّغويَّة، ص: 407.

﴿وَحَآجَّهُۥ قَوۡمُهُۥۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدۡ هَدَىٰنِۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشۡرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيۡـٔٗاۚ وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمًاۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ٨٠﴾ [الأنعام: 80]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

بيانُ توجُّهِ إبراهيم للهِ ربِّ العالمينَ بعد براءتهِ من شِركِ المشركين

لَمَّا أخبر في الآيةِ السَّابقةِ أنَّه وجَّه عبادتَه للَّذي فطرَ السّماواتِ والأرضَ حنيفًا، ونفَى عن نفسِه أن يكون منَ المشركين؛ جاءت هذه الآيةُ لتُبيِّن أنَّهم لم يلتزموا قولَه، ولم يؤمنوا بمعتقدِهِ؛ بل حاجُّوهُ، وجادلُوه في أنَّهم لا يتركون عبادتَها.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَحَآجَّهُۥ قَوۡمُهُۥۚ﴾: أَصْلُ (حجج) يدلُّ على القصدِ، فتكونُ الحُجَّةُ مُشْتَقَّةً مِنْ هَذَا؛ لِأَنَّهَا تُقْصَدُ، أَوْ بِهَا يُقْصَدُ الحَقُّ المَطْلُوبُ، يُقَال: حاججْتُهُ أُحَاجُّه حِجَاجًا ومُحاجَّة، والمُحاجَّةُ: أنْ يَطْلُبَ كلُّ واحدٍ أن يَرُدَّ الآخَرَ عن حُجَّتِهِ ومَحَجَّتِهِ، والحُجَّةُ: البُرهانُ والسُّلطانُ ووَجْهُ الظَّفَر عند الخُصومة، والمعنى هنا: أي: جادَلُوهُ، وخاصَموه، وغالَبُوه[1].

2) ﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾: أصْلُ الذِّكر خلافُ النِّسيان، يقال: ذَكَّرَه تَذْكِيرًا، وتَذْكِرَةً، والتَّذْكِيرُ: الوَعْظُ، والمعنى هُنا: تتدبَّرون، وتتّعظون، وتعتبرون، أنَّ هذه الأصنامَ جماداتٌ لا تَضُرُّ، ولا تنفعُ[2]

(1) الخليل، العين: (حج)، والأزهريُّ، تهذيب اللُّغة، وابن فارس، مقاييس اللُّغة: (حجج)، والرَّاغب، المفردات، وابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 66، وابن الجوزي، تذكرة الأريب: 1/24، وابن الهائم، التِّبيان، ص: 96.

(2) ابن عبَّاد، المحيط في اللُّغة، والزَّبيدي، تاج العروس: (ذكر)، والقنوجي، فتح البيان: 4/180.

المَعْنى الإجْماليُّ:

ردُّ إبراهيمَ حُجَجَ قومه الواهيةَ وإنكارُهُ عليهم

بيَّنَ اللّهُ تعالى في هذهِ الآيةِ أنَّ قومَ إبْراهيمَ خاصموه، وجادلوهُ في توحيدِ اللّهِ سبحانه، وخَوَّفُوهُ من أصنامِهم، فقالَ لهم: أتخاصمُونَني في توحيدِ اللّهِ وإفرادِه بالعبادةِ، وقد وفَّقني ربّي إليه؟! فإن كنتم تخوِّفونَني بآلهتكم أن تُوقِعَ بي ضررًا؛ فإنَّني لا أرهبُها، فلن تضرَّني إلَّا أن يشاءَ اللّهُ، فما شاء اللّهُ كائنٌ، وقد أحاط علمُ ربِّي بالأشياءِ كلِّها، أتغْفَلون عن كلِّ ذلك، فلا تُدركُون أنَّ العاجزَ الجاهلَ لا يستحقُّ أن يُعْبَدَ![1]

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالةُ الواوِ في قولِهِ: ﴿وَحَآجَّهُۥ قَوۡمُهُۥۚ﴾:

العطفُ المبيِّنُ نتيجةٌ لما أعلنهُ إبراهيمُ عليه السلام من توجُّهِهِ لله

دلَّت الواوُ على عطف قوله: ﴿وَحَآجَّهُۥ قَوۡمُهُۥۚ﴾ على جملةِ ﴿إِنِّي وَجَّهۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾، وذلكَ لما بينهما من شدَّة التَّناسُبِ، حيثُ جاءت هذه الجملةُ ﴿وَحَآجَّهُۥ قَوۡمُهُۥۚ﴾ نتيجةً لما أعلنه إبراهيمُ عليه السلام من توجُّهِهِ للّه، ونفى عن نفسه أن يكون من المشركين.

سِرُّ العطفِ بالواو دونَ الفاءِ في قوله: ﴿وَحَآجَّهُۥ﴾:

بيانُ كون الجملة مُستقلَّةً بالإخبارِ بمضمونِها مع تفرُّعِها عمَّا قبلَها

جُملةُ ﴿وَحَآجَّهُۥ﴾ عطفٌ على جُملة ﴿إِنِّي وَجَّهۡتُ وَجۡهِيَ﴾، وعُطِفَتِ الجملةُ بالواو دون الفاء؛ لتكونَ مُستقلَّةً بالإخبارِ بمضمونِها، مع أنَّ تَفَرُّعَ مَضمونِها على ما قَبْلَهَا معلومٌ من سياق الكلام[2].

دلالةُ اختيارِ مادّة المحاجَّةِ:

دلَّت صِيغةُ المُحاجَّةِ في قوله تعالى ﴿وَحَآجَّهُۥ قَوۡمُهُۥۚ﴾ على المُفاعلة بين طرفَيْن، وتركيبُ الجملةِ يدلُّ على أنَّهم بدؤوا بالمغالبة

(1) لجنة من عُلماءِ الأزهر، المنتخَبُ في تفسير القرآنِ الكريم، ص: 185، ونُخْبة من العلماء، التَّفسير المُيَسَّر، ص: 137، وجماعَةٌ من علماء التَّفسير، المُخْتَصَر في تفسير القرآن الكريم، ص: 137.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 7/325.

والمخاصمةِ، وتُطلقُ الحُجَّةُ على كلِّ ما يُدلي به أحدُ الخصمَيْن في إثبات دعواه أو ردِّ دعوى خصمِه؛ وعلى هذا فالمحاجَّةُ على نوعين: الأولى: تكونُ مُوجِبَةً للمَدْحِ العظيمِ، والثَّناءِ البالغِ، وهي المُحاجَّةُ الَّتي ذَكَرها إبراهيمُ عليه السلام، وذلك المَدْحُ والثَّناء هو قولُه تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾.

مَدْحُ إبراهيمَ عليه السلام بإيتائِهِ الحُجَّةَ، وذمُّ قومِه في حِجاجِهم بالباطلِ

والثّانية: تكونُ موجِبَةً للذَّمِّ، وهو قوله: ﴿قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ﴾، ولا فَرْقَ بين هذينِ البابَينِ إلَّا أنَّ المُحاجَّةَ في تقريرِ الدِّينِ الحَقِّ توجِبُ أعظَمَ أنواعِ المدحِ والثَّناءِ، والمحاجَّةَ في تقريرِ الدِّين الباطِلِ تُوجِبُ أعظَمَ أنواعِ الذَّمِّ والزَّجْر[1].

نُكْتَةُ إبْهَامِ تفاصيل المحاجَّة:

تَنزيهُ المقامِ عن ذِكْرِ حُجَجِهِمْ لضعفِها وتهافُتِها

التَّقديرُ: (وحاجَّه قَوْمُهُ فقالوا: كيت وكيت)، وقد ذُكرت حُجَجُهم في مواضعَ في القرآن، منها قولُه في سورة الأنبياء: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِيٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ۝٥٢ قَالُواْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ۝٥٣﴾ [الأنبياء: 52 - 53]، وقولُه في سورة الشُّعراء: ﴿هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ۝٧٢ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ۝٧٣ قَالُواْ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ۝٧٤﴾ [الشُّعراء: 72 - 74]، وفي سورة الصَّافات أيضًا، وكلُّها محاجَّةٌ حقيقيَّةٌ، ويدخلُ في المُحاجَّة ما ليس بحُجَّة، ولكنَّه ممَّا يرونَه حُجَجًا بأن خوَّفوه غضبَ آلهتهم، كما يَدُلُّ عليه قولُه: ﴿وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ﴾، ولمَّا كان منَ المعلوم أنَّ محاجَّتهم - بعد هذه الأدلَّة الواضحةِ في غاية منَ السُّقوط - سَفُلَتْ عنِ الحضيض، نزَّهَ المقامَ عن ذكرها، إشارةً إلى أنَّها بحيث لا تَستحقُّ الذِّكر[2].

دلالةُ إسناد المُحاجّة إلى جميع القوم:

إسنادُ المحاجَّةِ إلى القومِ كلِّهم؛ لرضاهم بذلك

عبَّر القرآنُ الكريمُ بالقوم دونَ البعضِ مع أنَّ المحاجَّةَ لا تكونُ من

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 13/48.
(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 7/163.

كلِّ القومِ، بل من بعضهم، لكنَّه نسبَها إلى القومِ كاملة؛ لرضاهم بذلك، وعدمِ إنكارِهم على من قام بالمُحاجَّةِ.

وجهُ الإضافةِ في قوله: ﴿قَوۡمُهُۥۚ﴾:

الإشارةُ إلى التَّقريعِ والتَّبكيتِ لهم

دلَّتِ الإضافةُ على التَّقريعِ والتَّبكيتِ لهم، وأنَّ ما صدر منهم جاءَ على خلاف المناصرةِ والمؤازرة التي يُتوقَّعُ حدوثُها من قومِه.

دلالةُ التَّشديدِ في الفعل ﴿وَحَآجَّهُۥ﴾:

شدَّةُ موقفِهم من إبراهيمَ عليه السلام

عبَّرَ بالتَّشديدِ دون أن يقولَ: (حاججه قومُه) بفكِّ الإدغام، فدلَّ التَّشديدُ على شدَّة موقفِهم مِن إبراهيم عليه السلام، وإصرارهم على شركهم، وأنَّهم واجهوهُ بالقسوةِ والتّخويف.

دلالةُ إيثارِ التَّعبيرِ بالمُحاجَّةِ دون المناظرةِ والمجادلةِ:

قومُ إبراهيم كانوا يطلبون الظُّهورَ عليه

آثرَ التَّعبيرَ بالحِجاجِ؛ لأنَّ صاحبَهُ يطلبُ بهِ ظهورَ الحُجَّة؛ بخلافِ المناظرة: وهي الكلامُ بين شخصَيْن، يقصدُ كلُّ واحدٍ منهما تصحيحَ قولِه، وإبطالَ قولِ صاحبِه، أمَّا الجدالُ؛ فهو أشدُّ منهما لما فيه من إلزامِ الخصمِ ومغالبتِه، والسِّياقُ هنا يناسبهُ الحِجاجُ؛ لأنَّ قومَ إبراهيمَ كانوا يطلبون الظُّهورَ على إبراهيمَ عليه السلام من خلال حُجَجهم مع أنَّها واهيةٌ وباطلةٌ.

سِرُّ فصلِ قولِهِ تعالى: ﴿قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي﴾ عمَّا قبلَها:

محاجَّةُ إبراهيمَ عليه السلام قومَه كانت على سبيلِ المُحاورةِ

جملة ﴿قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي﴾ جوابُ مُحاجَّتِهم، ولذلك فُصِلَتْ، على طريقةِ المُحاورات، كما في قولهُ تعالى: ﴿وَإِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ خَلِيفَةٗۖ قَالُوٓاْ﴾ [البقرة: 30]، فإنْ كانت المُحاجّةُ على حقيقة المُفاعلةِ؛ فقوله: ﴿أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي﴾ غَلْقٌ لباب المجادلةِ وخَتْمٌ لها، وإن كانت المُحاجَّةُ مستعمَلةً في الاحتجاج؛ فقوله: ﴿أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي﴾ جوابٌ لمحاجَّتهم، فيكونُ كقوله تعالى:

﴿فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ﴾ [آل عمران: 20][1]، فبَيَّن جوابَه لما فيه منَ الفَوائدِ الجمَّةِ[2].

سرُّ إعادةِ المُحاجَّةِ على لسانِ إبراهيمَ عليه السلام:

تَكريرُ فعل المُحاجّة هو من بابِ الرَّدِّ عليهم، والتَّوبيخِ اللَّاذعِ

أعاد القرآنُ الكريمُ المُحاجَّةَ على لسان سيِّدنا إبراهيم عليه السلام ليكونَ ذلكَ من بابِ الرّدِّ عليهم، والتَّوبيخِ اللَّاذعِ لهم ليتناسبَ مع حُججهم المتهافتةِ، ومزاعمهم الباطلةِ.

سرُّ اختيارِ الفعلِ ﴿أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي﴾ بالإدغامِ:

المناسبةُ التّقابليَّةُ بين الفِعلينِ

جاء التَّعبيرُ بالفعل المُدغم ﴿أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي﴾ على قراءةِ جمهورِ القرَّاء، دون (أتُحاجِجونَني) بالإظهارِ؛ مناسبةً للفعل ﴿وَحَآجَّهُۥ قَوۡمُهُۥۚ﴾، فكلٌّ منهما جاء مُشدَّدًا، وفيه إشارةٌ إلى طول مُحاجَّتهم لإبراهيم عليه السلام ويدلُّ على ذلك المدُّ اللَّازمُ النَّاتجُ عنِ الإدغام.

دِلَالَةُ الاستِفهامِ فِي ﴿أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ﴾:

دلالة الاستفهام على الإنكار والتَّأْييس مِنْ رُجُوعِهِ إلى معتقدِهِم

﴿قَالَ﴾ أي: بقولٍ، مُنْكِرًا عليهم موبِّخًا لهم: ﴿أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي﴾، فالاستفهامُ استفهامُ إنكارٍ وَتَأْييسٍ مِنْ رُجُوعِهِ إلى معتقدِهِم[3].

دلالةُ الظَّرفيَّةِ في قوله تعالى: ﴿أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ﴾:

دخولُ حرف الظّرفيّة على مضافٍ يصلحُ له المقامُ

(في) للظَّرفيَّة المجازيَّة مُتعلِّقةٌ بـ ﴿أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي﴾ ودخولُها على اسم الجلالة على تقدير مُضافٍ، لأنَّ المُحاجَّةَ لا تكونُ في الذَّوات، فَتَعَيَّنَ تقديرُ ما يصلحُ له المقامُ، وهو صفاتُ الله الدَّالةُ على أنَّه واحدٌ، أي: في توحيد الله، وهذا كقوله تعالى: ﴿يُجَٰدِلُنَا فِي قَوۡمِ لُوطٍ﴾ [هود: 74] أي: في استئصالِهم[4].

وممَّا يُذكرُ في هذا المقامِ أنَّ حذفَ المضافِ فيه دلالةٌ على

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 7/327.
(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 7/163.
(3) البقاعي، نظم الدُّرر: 7/163، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 7/327.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 7/327.

تهويل محاجَّتِهم والتَّشنيعِ بها؛ لأنَّها جاءت في اللهِ تعالى الَّذي له الخلقُ والأمرُ.

سِرُّ اخْتِيارِ اسمِ الجلالةِ (الله) دونَ الرَّبِّ:

بيانُ أنَّ المقامَ مقامُ توحيدٍ وعبادةٍ

صرَّحَ باسمِ الجلالة العَلَمِ الأعظمِ في قولهِ تَعَالَى: ﴿قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ﴾ أي: أتُحاجّوني في شيء ممَّا يختصُّ به الإلهُ الحقُّ المستجمِعُ لصفاتِ الكمال لا سيَّما التَّوحيد[1]، وفيه إشارةٌ إلى تربيةِ المهابةِ والخشيةِ في قلوبهم.

سرُّ دخولِ (قد) على الفعلِ الماضي ﴿هَدَىٰنِۚ﴾:

تقريبُ الماضي منَ الحالِ دحضٌ لحُجَّةِ المشركين

(قَدْ): حرف تحقيقٍ يُقرِّبُ الماضيَ منَ الحال، والجملةُ في محلِّ نصبٍ حالٌ من ياء ﴿أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي﴾؛ أي: أتجادلونِّي في اللهِ حالَ كوني مُهتديًا من عندهِ، أو حالٌ من لفظِ الجلالة، أي: أتخاصمونِّي فيه حالَ كونهِ هاديًا لي، فحجَّتُكم داحضةٌ لا تُجدي شيئًا[2].

سرُّ التَّعبيرِ بالهدايةِ في قوله ﴿هَدَىٰنِۚ﴾:

الإشارةُ إلى توبيخِ قومهِ بأنَّهم حُرِموا الهدايةَ وانغمسوا في الضَّلال

عبَّر بالهدايةِ دون غيرِها على لسان إبراهيمَ عليه السلام لأنَّ الهدايةَ تحملُ معاني الدّلالةِ والإرشادِ والتّوفيق، وفي هذا اعترافٌ من إبراهيمَ عليه السلام بأنَّ الله وفَّقَهُ لمراده، وفيه إشارةٌ إلى توبيخ قومِهِ بأنَّهم حُرموا الهدايةَ؛ لأنَّ الهدايةَ ضدُّ الضَّلالِ.

دلالةُ بناءِ الفعلِ ﴿هَدَىٰنِۚ﴾ للفاعلِ:

بناءُ الفعلِ للفاعل دالٌّ على أنَّ مصدرَ الهدايةِ منَ اللهِ

دلَّ بناءُ الفعلِ للفاعل على أنَّ مصدرَ الهدايةِ منَ اللهِ، فهو صاحبُ الهدايةِ، وهو موليها والمُنعِمُ بها، وفي هذا إشارةٌ إلى التَّخصيصِ، بخلاف البناءِ للمفعول، فالفاعلُ فيه غيرُ معلومٍ.

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 7/163.

(2) الهرري، حدائق الرَّوح والرَّيحان: 8/441، وسليمان الجمل، حاشية الجمل على الجلالين: 2/386، والدُّرة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه: 3/332.

دلالةُ حذفِ الياءِ في الفعل ﴿هَدَىٰنِۚ﴾:

إثباتُ الهدايةِ لإبراهيمَ ولغيرِه

الفعلُ ﴿هَدَىٰنِۚ﴾ يدورُ أمرُه بين القُرَّاءِ على إثباتِ الياء وعلى حذفِها[1]، وتناولنا لذلك من ناحيةِ المعنى، فعلى حذفِ الياءِ يكونُ المعنى إثباتَ الهدايةِ لإبراهيمَ ولغيره، أمَّا على قراءة إثباتِ الياءِ، فهي إشارةٌ إلى تخصيصهِ بالهدايةِ، ونفيها عن قومهِ.

دلالةُ التَّقييدِ بالجملةِ الحاليَّةِ ﴿وَقَدْ هَدَىٰنِۚ﴾:

تأكيدُ الإنكارِ عليهم، والتَّنبيهُ على كمالِ حاله أثناء المُحاجَجَةِ

فائدةُ جملةِ: ﴿وَقَدْ هَدَىٰنِۚ﴾ - كونَها حالًا - أنّها مؤكِّدةٌ للإنكارِ، أي: لا جدوى لمحاجَّتكم إيَّاي بعد أن هداني اللّهُ إلى الحقِّ، فإنَّ كونَه عليه السلام مَهدِيًّا من جهةِ اللّه تعالى ومؤيَّدًا من عنده ممَّا يُوجبُ استحالةَ مُحاجَّتِه عليه السلام، وشأنُ الحالِ المؤكِّدة للإنكارِ أن يكونَ اتِّصافُ صاحبها بها معروفًا عند المخاطَب، فالظَّاهرُ أنَّ إبراهيمَ نزَّلهم في خطابهِ منزلةَ من يعلمُ أنَّ اللّه هداهُ؛ كنايةً عن ظُهور دلائلِ الهدايةِ[2]، فقُيِّدَ بهذهِ الحالِ تنبيهًا لكمالِ المحاجَّة وشناعتِهِ مع هذه الحالِ[3].

دلالةُ العطفِ بالواوِ في قوله: ﴿وَلَآ أَخَافُ﴾:

تأكيدُ الإنكارِ بالقولِ بعد تأكيدِهِ بالحالِ

قولُهُ تعالى: ﴿وَلَآ أَخَافُ مَا تُشۡرِكُونَ بِهِۦٓ﴾ معطوفٌ على ﴿أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي﴾ فتكونُ إخبارًا، أو على جملة ﴿وَقَدۡ هَدَىٰنِۚ﴾ فتكونُ تأكيدًا للإنكار، وتأكيدُ الإنكارِ بها أظهرُ منه لقوله: ﴿وَقَدۡ هَدَىٰنِۚ﴾؛ لأنَّ عدمَ خوفهِ من آلهتِهم قد ظهرت دلائلُهُ عليهِ، وهو يُؤذِنُ بأنَّهم حاجُّوه في التَّوحيد، وخوَّفوه بطشَ آلهتِهم ومَسَّهُم إيَّاه بسُوء؛ إذ لا مُناسبةَ بينَ إنكارِ مُحاجَّتهم إيَّاه وبين نفْيِ خوفهِ من آلهتهم، ولا بَيْنَ هدى اللّه إيَّاه وبين نفْيِ خوفهِ من آلهتِهم، فتَعيَّن أنَّهُم خوَّفوه مَكَرَ آلهتهم[4].

---

(1) القاضي، البدور الزاهرة في القراءات العشر المتواترة: 1/106.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 3/154، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 7/327.
(3) القونوي، حاشية القونويِّ على البيضاويِّ: 8/170.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 7/328.

سرُّ نفي الخوفِ بـ ﴿وَلَآ﴾ في قولِهِ ﴿وَلَآ أَخَافُ﴾:

بلاغةُ النَّفي ومُشاكلةِ الألفاظِ للمعاني

اختارَ النَّفيَ بـ ﴿وَلَآ﴾؛ لأنَّها أبلغُ من (لن)؛ لأنّ (لن) على رأي ابنِ الزَّمْلَكَاني، لنفْيِ ما قَرُبَ، وعدمِ امتداد النّفي معها، ثم قال: وسرُّ ذلك: أنَّ الألفاظَ مُشاكلةٌ للمعاني، و(لا) آخرها (الألف)، و(الألف) يمكنُ امتدادُ الصَّوت بها بخلاف النُّون، فطابقَ كلُّ لفظٍ معناه، وأكَّد ذلك المعنى بقوله: بأنَّ استعمالَ النَّفي بـ ﴿لَن﴾ جاء في الدُّنيا، حيث قال: ﴿لَن تَرَىٰنِي﴾ [الأعراف: 143]، وجاء بـ ﴿لَا﴾ في قوله تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [الأنعام: 103] حيثُ أُريدَ نفيُ الإدراكِ على الإطلاق[1].

جمالُ الاحتباكِ في ﴿وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ﴾:

الهدايةُ لا تكونُ إلَّا منَ اللهِ القادرِ، والخوفُ لا يكونُ إلَّا منه سبحانه

قوله تعالى على لسان نبيّه إبراهيم عليه السلام ﴿وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ﴾، يُشيرُ إلى المعنى المقابل: ولا أرجُو ما تشركون به لهدايةٍ ولا إضلالٍ ولا غيرِهما؛ لأنَّ ما تعبدون من معبودات هي عاجزةٌ أن تفعل شيئًا، فأثبتَ للهِ القُدْرَةَ بالهدايةِ؛ لأنَّها أشرفُ، وطوى الإضلالَ لِدلالة الهداية على ضدّها، ودلالةُ (ما) نفيٌ في جانب الشُّركاءِ عليه، وأثبتَ لآلهتِهم العجزَ بنفيِ الخَوفِ المستلزمِ لنفي القُدرةِ على الضُّرِّ، وذلك دالٌّ على أنَّ اللهَ تعالى أهلٌ لأن يُخاف منهُ، فهم في مُخالفتِهم لله في غايةٍ منَ الخطر[2].

سرُّ التَّعبيرِ بالخوفِ دونَ الخشيةِ:

مناسبةُ توقُّعِ حلولِ مكروهٍ بإبراهيمَ عليه السلام في المُستقبل

عبَّر بالخوفِ في قوله تعالى ﴿وَلَآ أَخَافُ ما تُشركون﴾، وهو توقُّعُ حلولِ مكروهٍ بإبراهيمَ عليه السلام في المُستقبل، وهذا ما خَوَّفوه به من أصنامهم؛ بخلاف الخَشية: فهي خوفٌ يشوبُه تعظيمٌ، وليس هذا مناسبًا للسِّياق.

---

(1) السيوطي، الإتقان: 4/1173.

(2) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 7/164.

دلالةُ اختيارِ ﴿مَا﴾ في قوله: ﴿مَا تُشْرِكُونَ﴾:

الإبهامُ يحملُ بين طيّاته تجاهلَ التَّصريحِ بذكرِ الأصنامِ

اختار ﴿مَا﴾ لما فيها من معنى الإبهام، الَّذي يتجاهلُ التَّصريحَ بذكرِ الأصنام، وفي هذا تحقيرٌ لشأنِها، وأنَّها غيرُ جديرةٍ بالذِّكر، وفيها إشارةٌ إلى إفادةِ العُمومِ في نفيِ الخوفِ عنه من كلِّ ما يشركون بهِ من أصنامٍ وكواكبَ وغيرِها.

سرُّ التَّعبيرِ بالفعلِ المضارعِ ﴿تُشْرِكُونَ﴾:

قوّته عليه السلام وعدمُ خوفِهِ من شركِهم في الحالِ والاستقبالِ

عبَّرَ بالفعلِ المضارعِ ﴿تُشْرِكُونَ﴾ دونَ الماضي؛ للدَّلالة على قوَّةِ إبراهيمَ عليه السلام وعدمِ خوفِهِ من شِركِهم في الحالِ والاستقبالِ.

سرُّ التّعبير بلفظ الشّرك عن عبادتهم للأصنامِ:

لفظ الشّرك يحملُ جريمتهم النَّكراء وشناعتها

عبَّرَ بالشِّركِ عمَّا يعبدونَ لذمِّهم، ولبيان جريمتِهم النَّكراءِ، والتَّشنيعِ عليهم في عبادتِهم لهذهِ الكواكبِ وما نَحتوهُ مِنَ الحجارةِ.

دلالةُ التَّعبيرِ بالضَّميرِ في قولِهِ: ﴿بِهِۦٓ﴾:

صيانةُ الجلالة عن ذكرها في مقام الشّرك

عبَّرَ بالضَّميرِ بدلًا منَ الاسم الظّاهر (اللّه)؛ صيانةً للاسم الكريمِ عن مقام الشِّرك والإشراك.

سِرُّ الاستدراكِ بالاستثناءِ:

المؤمن يُعلّقُ النَّفعَ والضَّرَّ باللهِ تعالى وحدهُ دون غيرِهِ

ذكَر عليه السلام هذا الاستثناءَ؛ لأنَّه لا يَبعُدُ أنْ يَحدُثَ للإنسانِ في مستقبلِ عُمُرِه شيءٌ منَ المكارِهِ؛ والحمقى مِن النَّاسِ يحملون ذلك على أنَّه إنَّما حدَثَ ذلك المكروهُ بسبب طعْنِه في الأصنامِ، فذكر إبراهيمُ عليه السلام ذلك حتى لو أنَّه حدثَ به شيءٌ منَ المكارهِ لم يُحمَلْ على هذا السَّبَب[1].

وفي هذا الاستدراكِ أيضًا زيادةُ نِكايةٍ لقومِهِ إذ كانَ لا يخافُ آلهتَهم في حين أنَّه يخشى ربَّه المُستحقَّ للخَشْية[2].

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 13/48، وابن عادل، اللُّباب في علوم الكتاب: 8/256.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 7/329.

دلالةُ اختيارِ المشيئةِ دونَ الإرادةِ:

المشيئةُ أعمُّ مِنَ الإرادةِ وهي لِما لم يتراخَ وقتُهُ

اختار المشيئةَ في قولِه: ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي﴾؛ لأنَّها أعمُّ منَ الإرادةِ؛ فالإرادةُ تكونُ لما يتراخَى وقتُه ولما لا يتراخَى؛ بخلاف المشيئةِ، فهي لِما لم يتراخَ وقتُهُ، وأيضًا لأنَّ الإرادةَ هي العزمُ على الفعلِ أو التركِ؛ لذلك كانت أخصَّ منَ المشيئةِ[1].

دلالةُ تعليقِ المَشيئَةِ بالرُّبوبيَّةِ:

اقتضاءُ صفةِ الرُّبوبيَّةِ للرَّأفةِ والرَّحمةِ والكفايةِ والحمايةِ

في قولِ إبراهيمَ عليه السلام: ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيۡـًٔاۚ﴾ لَمَّا كان المحذورُ المنفيُّ هُنا إنَّما هو خوفُ الضَّرَرِ من آلهَتِهم، وكان حصولُ الضَّرَرِ لُمخالِفِها بواسطة أتباعِها أو غيرِهم مِن سُنَنِ اللّٰه الجاريةِ في عبادِه؛ اقتصر الخليلُ عليه السلام على صفة الربوبيَّةِ المقتَضِيَة للرَّأفةِ والرَّحمةِ والكفاية والحمايةِ، فهُو المحسنُ إليَّ في حال الضُّرِّ، كما هو محسنٌ في حال النَّفعِ، وقد وقعَ في قِصَّتِه الأمران: إمكانُهم من أسبابِ ضَرَرِه بإيقادِ النَّارِ، وإلقائِهم له فيها، ورحمتُه بِجَعْلِها عليه بردًا وسلامًا[2].

سرُّ الإضافةِ في قولِه ﴿رَبِّي﴾:

انقيادُ إبراهيمَ لحكمِ رَبِّهِ، واستسلامُهُ لأمرِه

دلَّتِ الإضافةُ على انقيادِه لحكمِ ربِّهِ واستسلامِه لأمرِه، واعترافِه كونَهُ تحتَ ملكوتِه وربوبيَّتِه[3].

دلالةُ تنكيرِ ﴿شَيۡـًٔاۚ﴾:

العمومُ لنفْيِ وجودِ أيِّ أثرٍ من أصنامِهم

جاء لفظُ ﴿شَيۡـًٔاۚ﴾ نكرةً في قوله سبحانه ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيۡـًٔاۚ﴾ لإفادةِ العُمومِ، وفي هذا احتراسٌ من إبراهيمَ عليه السلام لنفْيِ وجودِ أيِّ أثرٍ من أصنامِهم، فكأنَّه يقول: لا أخافُ شيئًا من معبوداتِكم في وقتٍ منَ الأوقاتِ إلَّا في وقتِ مشيئتِه تعالى شيئًا من إصابةِ مكروهٍ به من جهتِها، وهذا من جهتِه سبحانه من غير دخلٍ لآلهتكم أصلًا[4].

---

(1) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 35، والكفوي، الكليَّات: 1/105.

(2) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 7/166.

(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/155.

(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/155.

بلاغةُ جناسِ الاشتقاقِ بين ﴿يَشَآءَ﴾ و﴿شَيۡـٔٗاۚ﴾:

بين ﴿يَشَآءَ﴾ و﴿شَيۡـٔٗاۚ﴾ جناسُ الاشتقاق، وهو يُضفِي على العبارةِ قوَّةً وجمالًا وإيقاعا صوتيًّا مُحبّبًا.

دلالةُ التَّعبيرِ بـ﴿شَيۡـٔٗاۚ﴾ عَنِ الضُّرِّ والأذى:

التَّحاشي للَّفْظِ المكروهِ الَّذي لا تُحبُّهُ النُّفوسُ

عبَّرَ بـ﴿شَيۡـٔٗاۚ﴾ مع أنَّ المرادَ به المكروهُ والأذى، تحاشيًا للَّفظِ المكروهِ الذي لا تحبُّهُ النُّفوسُ، ولا ترضى به العقولُ؛ لأنَّهُ راجعٌ إليه سبحانه.

دلالةُ فصْلِ جملةِ ﴿وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمًاۚ﴾ عمَّا قبْلَها:

حكمةُ اللهِ في إيقاعِ النَّفْعِ والضُّرِّ، وأنَّهُ جارٍ تحتَ عِلْمِهِ

جملةُ: ﴿وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمًاۚ﴾ استئنافٌ بيانيٌّ؛ لأنَّه قد يختلجُ في نفوسِهم كيف يشاء ربُّك شيئًا تخافُه، وأنت تزعمُ أنَّك قائمٌ بمرضاته، ومُؤَيِّدٌ لدينه؛ فما هذا إلَّا شَكٌّ في أمرك؟ فلذلك فُصِلَتْ، أي: إنَّما لم آمنْ إرادةَ اللّه بي ضُرًّا، وإن كنتُ عبدَه وناصرَ دينِه؛ لأنَّه أعلمُ بحكمةِ إلحاقِ الضُّرِّ، أو النَّفْعِ بمن يشاءُ من عبادِه؛ وهذا مقامُ أدبٍ عظيمٍ مع اللّه تعالى: ﴿فَلَا يَأۡمَنُ مَكۡرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ٩٩﴾ [الأعراف: 99][1].

فذكرَ تعالى عَقِيبَ الاستثناءِ ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيۡـٔٗاۚ﴾ سَعةَ علمِ اللّه في تعلُّقِه بجميعِ الكوائن في قوله تعالى: ﴿وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمًاۚ﴾؛ فقد لا يستبعدُ أن يتعلَّق علمُه بإنزال المَخُوف بي، إمَّا من جِهتِها إن كان استثناءً مُتَّصِلًا، أو مُطْلَقًا إن كان مُنْقَطِعًا[2].

سرُّ التَّعبيرِ بالفعْلِ ﴿وَسِعَ﴾:

الفعلُ (وَسِعَ) أشملُ وأعمُّ مِنَ فعل الإحاطةِ

آثرَ التَّعبيرَ بالفعل ﴿وَسِعَ﴾ دون غيرِه كالإحاطةِ؛ لأنَّهُ أشملُ وأعمُّ منَ الإحاطة؛ ولأنَّ المقامَ يستدعي التَّعبيرَ بسَعَةِ علمِ اللّهِ تعالى في تعلُّقِه بجميعِ العوالمِ، أمَّا الإحاطةُ؛ فهي جزءٌ مِنَ السَّعة.

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 7/329.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 4/570.

سرُّ التَّعبيرِ بالرُّبوبيَّةِ في قولِهِ: ﴿وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾:

عبَّرَ بالرُّبوبيَّةِ مع الإضافةِ إلى ضميرِهِ ﷺ لإظهارِ كمالِ الانقيادِ لحكمِهِ سبحانه والاستسلامِ لأمرِهِ، والاعترافِ بأنَّهُ تحتَ ملكوتِهِ ورُبوبيَّتِهِ واستجلابِهِ لعطفِهِ ورحمتِهِ[1].

إظهارُ كمالِ الانقيادِ لحُكْمِهِ سبحانه

سرُّ تكرارِ لفظِ ﴿رَبِّي﴾:

في قولِهِ تعالى: ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيْـًٔا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾، كرَّرَ إبراهيمُ ﷺ ذِكْرَ ﴿رَبِّي﴾ من بابِ التَّلذُّذِ بذكرِهِ، والتَّعبُّدِ بنُطقِهِ.

دلالةُ اختيارِ ﴿كُلَّ﴾ دونَ (جميعَ):

اختارَ التَّعبيرَ بـ ﴿كُلَّ﴾ في قوله: ﴿وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾؛ لأنَّها تفيدُ الإحاطةَ والشُّمولَ، وهذه هي الدّلالة المناسبةُ لسياق الآيةِ.

دلالةُ التَّمييزِ ﴿عِلْمًا﴾:

قولُه: ﴿عِلْمًا﴾ تمييزٌ مُحوَّلٌ عنِ الفاعلِ، وأصلُ التَّعبيرِ: وسعَ علمُ ربّي كلَّ شيء، لكنَّ التَّعبيرَ القرآنيَّ أسندَ الفعلَ إلى لفظِ الرَّبِّ ﷻ الَّذي لا يُعجزهُ شيءٌ، وهذا مُشعرٌ بعلَّةِ الحُكم.

تمييزٌ مُحوَّلٌ عَنِ الفاعلِ مُشعرٌ بعلَّةِ الحُكمِ

دلالةُ اختيارِ صِفةِ العلمِ:

اختارَ القرآنُ صفةَ العلم دونَ غيرِها في هذا المقام، لما فيها منَ التَّعريضِ بالأصنامِ الَّتي يعبدونها من دونِ اللّهِ، فهي لا تعلمُ، ولا تعقلُ شيئًا؛ وبكماء صمّاء، لا تُسمنُ ولا تُغني من جوع، وجمادٌ لا عقلَ له.

التَّعريضُ بجهالةِ الأصنامِ الَّتي يعبدونها من دونِ اللهِ سبحانه

دلالةُ التَّنكيرِ في قولِهِ ﴿عِلْمًا﴾:

دلَّ التَّنكيرُ على شمولِ العلمِ وعُمومِهِ لكلِّ شيءٍ.

التَّذييل بالاستفهامِ ﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾:

الاستفهامُ هُنا إنكارٌ لعدم تذكُّرِهم مع وضوحِ دلائلِ التَّذكُّر، والمُرادُ التَّذكُّرُ في صفاتِ آلهتِهم المنافيةِ لمقامِ الإلهيَّةِ، وفي صفاتِ

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/155.

الإله الحقِّ التي دلَّت عليها مصنوعاتُهُ[1]، وفيه أيضًا تنبيهٌ لهم على غَفلَتِهم - حيثُ عبَدوا ما لا يضرُّ، ولا ينفَعُ، وأشركوا باللّه - وعلى ما حاجَّهُم بِهِ من إظهارِ الدَّلائلِ الَّتي أقامَها على عَدمِ صلاحِيَّةِ هذه الأصنامِ للرُّبوبيَّةِ[2].

الإنكارُ عليهم بعدمِ تَذَكُّرِهم مع وضوحِ الدَّلائلِ إيقاظٌ لهم من غفْلَتِهم

دلالةُ اختيارِ مادّة ﴿تَتَذَكَّرُونَ﴾:

وفي إيرادِ التَّذكُّر دون التَّفكُّرِ ونظائرِه، إشارةٌ إلى أنَّ أمْرَ أصنامِهم مركوزٌ في العقول، لا يتوقَّفُ إلَّا على التَّذكُّر[3].

الإشارةُ إلى أنَّ أمرَ أصنامِهم وعجزَها وبُطلانها مركوزٌ في العقولِ

وفيه إشارةٌ إلى توبيخِهم بالغَفلةِ ونِسيانِ ما هو ظاهرٌ للعَيانِ من عجْزِ آلهتِهم وعدمِ قدرتِها على فعلِ شيءٍ.

دلالةُ التَّعبيرِ بالإفرادِ ﴿رَبِّي﴾:

جاء موضعُ سورةِ الأنعامِ بالإفراد ﴿وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ دونَ الجمعِ مثل: (وسع ربنا كل شيء علمًا)؛ لأنَّهُ ورد في سياقِ المناظرةِ الَّتي بينَ إبراهيمَ عليه السلام وقومِهِ، وكان إبراهيمُ هو وحده المُدافعَ عن عقيدةِ التَّوحيدِ، وهو المُتحدَّثُ عنه، فناسبَ ذلك إفرادَ المضاف إليه مراعاةً لحال المُتكلِّم، ومراعاةً لمقام التَّوحيد.

إبراهيمُ وحدَهُ المُدافعُ عنِ التَّوحيدِ، والمُتحدّثُ عنهُ؛ فناسبَ إفرادَ المضافِ إليهِ

أمَّا الآية الثانيةُ، وهي قولُه تعالى: ﴿قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴿٨٩﴾﴾ [الأعراف: 89]؛ فجاءت في سياقِ الحوارِ بينَ شعيبٍ عليه السلام وأتباعِهِ من جانبٍ، ومن كفروا به من جانبٍ آخرَ، فناسبَ ذلك التَّعبيرَ بالجمع، مراعاةً للسِّياق وللجماعة الَّتي آمنت مع شُعيبٍ عليه السلام.

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 7/329.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 4/570.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/155.

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الجِدال والحِجاج:

الفرقُ بينهما أنَّ المطلوبَ بالحِجاج هو ظهورُ الحجَّة، والمطلوبَ بالجِدَال: الرُّجوعُ عنِ المذهبِ، فإنَّ أصلَهُ منَ الجدْلِ، وهو اسْتِحْكَامُ الشَّيْءِ[1]، قال تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدۡ جَٰدَلۡتَنَا فَأَكۡثَرۡتَ جِدَٰلَنَا﴾ [هود: 11]، وذلك أنَّ دأبَ الأنبياءِ - عليهم السلام - كان ردْعَ القومِ عنِ المذاهبِ الباطلةِ، وإدخالَهم في دين اللّٰهِ ببذلِ القوَّةِ والاجتهادِ في إيرادِ الأدلَّةِ والحُججِ؛ فالجدلُ يُرادُ منهُ إلزامُ الخصمِ ومغالبتُهُ.

الحِجاجُ يُطلبُ بهِ ظهورُ الحُجَّةِ، والجدالُ إلزامُ الخصمِ

وقد يُرادُ بالجدالِ مطلقُ المخاصمةِ، كقوله تعالى: ﴿يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡۖ﴾ [غافر: 35][2].

المحاورة والمناظرة:

المناظرةُ: هي تردُّدُ الكلامِ بين شخصَيْن، يقصدُ كلُّ واحدٍ منهما تصحيحَ قولِه، وإبطالَ قولِ صاحبِه، مع رغبةِ كلٍّ منهما في ظهورِ الحقِّ، والمحاورةُ: هي المراجعةُ في الكلامِ، ومنه التَّحاورُ، أي: التَّجاوبُ، وهي ضربٌ منَ الأدبِ الرَّفيعِ، وأسلوبٌ من أساليبه، وقد وردَ لفظُ الجدلِ والمحاورةِ في موضعٍ واحد من سورة المجادلةِ في قوله تعالى: ﴿قَدۡ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوۡلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوۡجِهَا وَتَشۡتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسۡمَعُ تَحَاوُرَكُمَآۚ﴾ [المجادلة: 1]، وقريبٌ من ذلك المناقشةُ والمباحثةُ[3].

المناظرةُ تردُّدُ الكلامِ بين طرفين، والمحاورةُ أعمُّ

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (جدل).
(2) العسكريُّ، الفروق اللُّغويَّة، ص: 158.
(3) زاهر الألمعي، مناهج الجدل في القرآن الكريم، ص: 25.

﴿وَكَيۡفَ أَخَافُ مَآ أَشۡرَكۡتُمۡ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمۡ أَشۡرَكۡتُم بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ عَلَيۡكُمۡ سُلۡطَٰنٗاۚ فَأَيُّ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ أَحَقُّ بِٱلۡأَمۡنِۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٨١﴾ [الأنعام: 81]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

إظهارُ تَعَجُّبِ إبراهيمَ من تخويفِ قومِهِ لهُ من معبوداتِهم الباطلةِ

لَمَّا أنكرَ إبراهيمُ عليه السلام على قومِه في الآياتِ السَّابقةِ عَدَمَ خوفِهم من اللّهِ؛ أظهرَ في هذه الآيةِ تعَجُّبَهُ منهم في ظَنِّهم خوفَهُ من معبوداتِهم بقولِه مُنكِرًا مرَّةً أخرى: ﴿وَكَيۡفَ أَخَافُ مَآ أَشۡرَكۡتُمۡ﴾ أي: مِن دونِ اللّهِ مِنَ الأصنامِ وغيرِها، مع أنَّها لا تقدرُ على شيءٍ[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿سُلۡطَٰنٗاۚ﴾: أصلُ (سلطان) مِنَ القوَّة والقَهْرِ، يقال: سلَّطته فتسلَّط، والسَّلاطة: التَّمكُّنُ منَ القَهرِ، وإنَّما سُمِّيَت الحُجَّةُ سُلْطانًا لما لِلْحَقِّ مِنَ الهُجومِ عَلَى القُلوبِ، لكِنَّ أكْثَرَ تَسَلُّطِهِ عَلَى أَهْلِ العِلْمِ والحِكْمَةِ، والمعنى هنا، أي: حُجَّةً وبُرهانًا تثبتُ ضدَّ مُدَّعيها[2].

المَعْنى الإجْمالِيُّ:

عدمُ خوفِ إبراهيمَ مِن أصنامِهم

بيَّنت هذه الآيةُ أنَّ إبراهيمَ عليه السلام قال لقومِه: كيف يقعُ منِّي خوفٌ لما تعبدون من دونِ اللّهِ من أوثانٍ، ولا يقعُ منكم أنتم خوفٌ لشِركِكم باللّه من غيرِ حُجَّةٍ لكم على ذلك؟ فأيُّ الجَمْعَيْنِ: جَمْعِ الموحِّدين وجَمْعِ المشركين أولى بالطُّمأنينَةِ والسَّلامةِ؟ إن كنتم تعلمون الحقَّ، وتدركونه؟[3].

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 7/165.

(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرَّاغب، المفردات، والزَّبيدي، تاج العروس: (سلطان)، وابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 113.

(3) لجنة من عُلماءِ الأزهر، المنتخَبُ في تفسير القرآنِ الكريم، ص: 185، ونُخْبة من العلماء، التَّفسير الميَسَّر، ص: 137، وجماعَةٌ من علماء التَّفسير، المُختَصَر في تفسير القرآن الكريم، ص: 137.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالةُ الواوِ في قولِهِ تعالى ﴿وَكَيۡفَ أَخَافُ﴾:

الواوُ في قوله: ﴿وَكَيۡفَ أَخَافُ﴾ عاطفةٌ؛ لأنَّها عطفتْ جملةَ ﴿وَكَيۡفَ أَخَافُ﴾ على جملةِ ﴿وَلَآ أَخَافُ مَا تُشۡرِكُونَ بِهِۦٓ﴾؛ ليبيِّنَ لهم أنَّ عدمَ خوفِهِ من آلهتِهم أقلُّ عجبًا من عدمِ خوفِهم منَ اللّه تعالى.

بيانُ أنَّ عدمَ خوفِ إبراهيم من آلهتِهم أقلُّ عجبًا مِن عدَمِ خوفِهم مِنَ اللهِ

دلَالَةُ الِاستفهامِ ﴿وَكَيۡفَ أَخَافُ مَآ أَشۡرَكۡتُمۡ﴾:

الِاستفهامُ في قولِهِ تعالى: ﴿وَكَيۡفَ أَخَافُ مَآ أَشۡرَكۡتُمۡ﴾ خرجَ عن أصلِهِ في إرادةِ طلبِ العلم بشيءٍ لم يكن معلومًا من قبلُ، والمرادُ بهِ هنا: التَّعجُّبُ والإنكارُ مِن أن يكونَ في قلبهِ شيءٌ منَ الخوفِ لما يَعْبُدُه المشركُون مِن دونِ اللّه تعالى.

مَنْ يَمْلِكُ الضُّرَّ وَالنَّفْعَ حَقِيقٌ أَنْ يُخَافَ منه

والتَّعجُّبُ ههنا منَ المفارقةِ الَّتي صدرَت منهم؛ إذْ كانوا يُخوِّفون إبراهيم عليه السلام من أن تصيبَه آلهتُهم بسوءٍ، وهم مع ذلك لا يخافونَ من إشراكِهم باللّه تعالى، والعجبُ مِنْ جهتين: **إحداهُما**: أنَّ آلهتَهم لا تملكُ نفعًا ولا ضرًّا، واللّه سُبحانه يملك النَّفعَ والضُّرَّ. **والأخرى**: أنَّهم يُخَوِّفُون إبراهيمَ عليه السلام وليس ثَمَّتَ سَببٌ لِلتَّخْوِيفِ، وهُمْ لا يخافُونَ، وقَدِ اجتمعتْ فيهم أسبابُ المخَاوف[1].

نُكْتَةُ الاستفهام بـ ﴿وَكَيۡفَ﴾:

وردَ الاستفهامُ الإنكاريُّ بـ (كيف) - وهي في الأصلِ لِلْحَالِ - دونَ الهمزةِ، وذلك أبلغُ وأَعَمُّ مِنَ الإنكار بالهمزةِ بِأن يقالَ: (أَأَخَافُ ما أشركتُم؟) وذلك أنَّ الإنكارَ متوجِّهٌ إلى كيفيَّة الخوفِ، وفيه مِنَ المُبَالغَةِ مَا لَيْسَ في (أأخافُ؟) وذلك أنَّ كلَّ موجودٍ يفتقرُ إلى أن يكون وُجُودُه على حالٍ مِنَ الأحوالِ وكيفيَّةٍ منَ الكيفيَّاتِ، فإذا انتفى جميعُ أحوالِهِ وكيفيَّاتِه؛ فقدِ انتفى وجودُه من جميع الجهاتِ بالطَّريقِ البُرهانيِّ.

نَفْيُ خَوْفِ إِبْرَاهِيمَ عليه السلام من مَعْبُودَاتِهِمْ مُؤَكَّدٌ محسوم

(1) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 5/2568.

والاستفهامُ بـ (كَيْفَ) أعمُّ منَ الاستفهامِ بالهمزةِ، وذلكَ أنَّ الاستفهامَ بالهمزةِ مطلقٌ في الشَّيءِ، والاستفهامَ بـ (كيف) عامٌّ في جميعِ أحوالِ الشَّيءِ؛ ودلالةُ العامِّ أقوى مِنْ دلالةِ المطلق؛ لكونِ العامِّ يتناولُ جميعَ أفرادِهِ دفعةً واحدةً؛ فالهمزةُ دالَّةٌ على إنكار خوفِهِ من معبودِهم في جميعِ الأحوالِ[1].

دلالةُ توجيهِ الاستفهامِ إلى كيفيَّةِ الخوفِ:

توجيهُ الإنكارِ إلى الكيفيّة أبلغُ في نفي الخوف عن نفسه

وُجِّهَ الإنكارُ إلى كيفيَّةِ الخوفِ لما فيه من المُبالغة التي لا توجدُ في توجيهِهِ إلى نفسِهِ بأن يقال: أأخاف؟ لما أنَّ كلَّ موجودٍ يجبُ أن يكون وجودُهُ على حالٍ منَ الأحوال، وكيفيَّةٍ منَ الكيفيَّات قطعًا، فإذا انتفى جميعُ أحوالِهِ وكيفيَّاتِه، فقدِ انتفى وجودُهُ من جميع الجهات بالطَّريق البُرهاني[2].

دلَالَةُ الِاسم الموصولِ ﴿مَآ﴾:

حَقَارَةُ مَا يُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللهِ تَعَالَى

جاءَ التَّعبيرُ بالاسم الموصولِ ﴿مَآ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ﴾، وهو في الأصلِ موضوعٌ لغيرِ العاقِلِ[3] لِنُكْتَتَيْنِ: إحداهُمَا: الإشارةُ إلى حقارَةِ ما يَعبدُونَهُ؛ حيث إنَّهُ لا يَقدِرُ على تدبيرِ نفسِهِ، فكيفَ يُدبِّرُ غيرَهُ؟ والأخرَى: بيانُ تعدُّدِ ما يعبدُونَهُ، وأنَّ هؤلاء المَعْبُودِينَ ليسُوا بشيءٍ، وإن كانُوا مجتمِعينَ؛ لما تدلُّ عليه ﴿مَآ﴾ منَ العُمُومِ.

سرُّ التَّعبيرِ بالفعلِ الماضي ﴿أَشْرَكْتُمْ﴾:

الدَّلالةُ على تمكُّنِ الشِّركِ فيهم، وأنَّهم ألِفُوه

عبَّرَ بالفعلِ الماضي ﴿أَشْرَكْتُمْ﴾ دونَ المضارعِ للدَّلالةِ على تمكُّنِ الشِّركِ من نفوسهم، وأنَّهم ألِفُوه، وصارَ جزءًا من طبيعتِهم، جعلَهم يدافعونَ عنه.

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السَّليم: 3/155.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السَّليم: 3/155.
(3) أبو حيَّان، البحر المحيط: 4/570.

دلالةُ الواوِ في قولهِ ﴿وَلَا تَخَافُونَ﴾:

الواوُ عاطفةٌ من غيرِ حاجةٍ إلى الضَّميرِ العائدِ

قولُه: ﴿وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ﴾ "حالٌ من ضمير ﴿أَخَافُ﴾ بتقديرِ مبتدأ، والواوُ كافيةٌ في الرَّبط من غيرِ حاجةٍ إلى الضَّميرِ العائدِ إلى ذي الحالِ"[1].

دلالةُ موقعِ جملةِ ﴿وَلَا تَخَافُونَ﴾:

تقريرُ إنكارِ الخوفِ ونفيهِ عنه عليه السلام

جملةُ ﴿وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ﴾ مُقرِّرةٌ لإنكارِ الخوفِ ونفيِهِ عنهُ عليه السلام، ومفيدةٌ لاعترافِهم بذلك؛ حيث لم يخافوا في محلِّ الخوفِ، فكيفَ يخافُ إبراهيمُ في محلِّ الأمنِ من بابٍ أولى؟[2].

وَجْهُ نفْيِ الخوفِ بالمضارعِ ﴿وَلَا تَخَافُونَ﴾:

المضارعُ لنفي الخوفِ في الحالِ أو الاستقبال

عبَّرَ في إثبات الشِّركِ بالفعل الماضي ﴿أَشْرَكْتُمْ﴾، وعبَّر بالفعلِ المضارع ﴿وَلَا تَخَافُونَ﴾ في نفي الخوف؛ لأنَّهُ يدلُّ على نفيِ الخوف الذي من شأنِهِ أن يقعَ في الحال أو الاستقبال، فكأنَّهُ يقول: أنتم لا تخافونَ عقابَ خالقِ المخلوقاتِ الَّتي تعبدونَها، وأمْرُ العقابِ يقعُ في الحال أو الاستقبالِ بخلافِ أَمْرِ الشِّركِ، فهو ثابتٌ ومتحقِّقٌ فيهم.

سِرُّ اخْتِلَافِ مُتَعَلَّقِ الخوفِ:

وُجُوبُ سُلُوكِ الأَدَبِ مَعَ اللهِ تَعَالَى

اختلفَ متعلَّقُ الخوفِ في قول الله تعالى: ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ﴾، فجُعِلَ متعلَّقَه بالنِّسبة إلى إبراهيمَ عليه السلام: الأصنامُ، وبالنِّسبة إليهم: إشراكُهم بالله تعالى، وكان مقتضَى الظَّاهرِ تعليقَ خوفِهم بالله تعالَى، وعُدِلَ عن ذلك مراعاةً للأدب مع اللهِ تعالى؛ لئلَّا يكونَ الله سُبحانه عديلًا لأصنامِهم[3].

نُكْتَةُ ذِكرِ الاِسْمِ الأَحْسَنِ (الله) في الموضعِ الثّاني:

ذُكِرَ مُتَعَلَّقُ الإشراكِ في الموضعِ الثَّاني، وهو الاسمُ الأحسنُ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السَّليم: 3/155.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السَّليم: 3/155.
(3) أبو حيَّان، البحر المحيط: 4/570، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/155.

المُبَالَغَةُ فِي تَنْزِيهِ اللهِ سُبْحَانَهُ عَنْ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ

(الله)، فقالَ سُبحانه: ﴿وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ﴾ دونَ الموضعِ الأوَّلِ، وهو قولهُ: ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ﴾، وذلك لفائدتَيْن:

إحداهُمَا: أنَّ المرادَ بالجملةِ الثَّانية، وهي جملةُ الحالِ: ﴿وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ﴾؛ تهويلُ الأمرِ؛ والتَّنصيصُ على المُشْرَكِ بهِ أبلَغُ في تحقيقِه.

والأخرَى: أنَّه لمَّا قال في الآية قبْلَهَا: ﴿وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ﴾، وكان ﴿مَا﴾ بمنزلةِ التَّكرارِ لهُ؛ ناسبَه الاختصَارُ، فلم يقل: (وكيف أخافُ مَا أَشْرَكْتُم باللّه)، فحُذِفَ الاسمُ الأحسَنُ للإيماءِ إلى بُعْدِ وحدانيَّته سبحانَهُ عن الشِّرْكِ، فلا يَحْسُنُ عِنْدَهُ أن يُنسَبَ إلى اللّه تعالى، ولا أن يُذْكرَ مَعهُ[1].

ذِكْرُ المَعْبُودَاتِ بـ ﴿مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا﴾:

المُعَوَّلُ عَلَيْهِ فِي الأُمُورِ الدِّينِيَّةِ هُوَ الحُجَّةُ المُنَزَّلَةُ مِنَ اللهِ تَعَالَى

عُبِّرَ عنِ المخلوقاتِ الَّتي جُعِلَت آلهةً تُعبدُ من دونِ اللّهِ تعالى أو مَعَهُ بـ: ﴿مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا﴾ دُونَ التَّصريح بحقيقَتِهَا لفائدتين[2]:

إحداهما: أنَّ في ذلك تهكُّمًا بهم.

والأخرى: أنَّ فيه إيماءً إلى أنَّ المعوَّلَ عليه في الأمور الدِّينيَّةِ هو الحُجَّةُ المُنَزَّلَةُ مِن عند اللّه تعالى.

سرُّ التَّعبيرِ بالسُّلطانِ دونَ الحُجَّةِ:

عُمُومُ معنى السُّلطان وحملُهُ معنى القوَّةِ

عبَّرَ بالسُّلطان دون الحُجَّةِ في قوله: ﴿مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا﴾؛ لأنَّهُ أعمُّ منها، ويحمل معنى القوَّةِ والبُرهان السّاطع.

دلالةُ تقديمِ الجارِّ والمجرورِ ﴿عَلَيْكُمْ﴾:

الاهتمامُ ببيانِ عدمِ نزولِ حُجَّةٍ عليهم

قُدِّمَ الجارُّ والمجرور ﴿عَلَيْكُمْ﴾ على المفعولِ ﴿سُلْطَٰنًا﴾؛

(1) الآلوسي، روح المعاني: 4/194 - 195.

(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السليم: 3/155.

للاهتمامِ ببيانِ عدمِ نزولِ حُجَّةٍ عليهم بما يُشركون حتَّى يتَّخذوهُ شريكًا، وفي نفْيِ نزولِ سلطانٍ به عليهم نفيٌ لنزولِه على غيرِهم.

بلاغةُ الإيجازِ في الآية:

الشُّركاءُ الَّذين أشركتموهُم لا ثبوتَ لهم أصلًا

جملةُ ﴿أَشۡرَكۡتُم بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ عَلَيۡكُمۡ سُلۡطَٰنٗاۚ﴾ مبنيَّةٌ على الإيجازِ؛ لأنَّ المعنى: أشركتُم باللهِ شركاء؛ لا ثبوتَ لها أصلًا، ولا أنزلَ اللهُ بإشراكِها حُجَّة[1].

دلَالَةُ سَوْقِ المَعْلُومِ مَسَاقَ غَيْرِهِ:

سَوْقُ المَعْلُومِ مَسَاقَ غَيْرِهِ نَافِعٌ فِي مَقَامِ المُنَاظَرَةِ

في قولِه تعالى: ﴿فَأَيُّ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ أَحَقُّ بِٱلۡأَمۡنِۖ﴾: سَوقُ المعلومِ مساقَ غيرِه - وهو الذي يسمِّيه بعضُ البلاغيِّين: تجاهلَ العارف - وذلك أنَّ إبراهيم عليه السلام يعلمُ قطعًا أنَّه هو الآمِنُ لا هُمْ، إلَّا أنَّهم لمَّا خوَّفوهُ في مكانِ الأمن، وهُمْ لَم يخافُوا في مكانِ الخَوْفِ؛ أُبرِزَ الاستفهامُ في صورة الأمْرِ المحتملِ[2].

نُكْتَةُ الإِظْهَارِ فِي مَقَامِ الإِضْمَارِ:

مِنْ صِفَاتِ عِبَادِ اللهِ الصَّالِحِينَ مُجَانَبَةُ تَزْكِيَتِهِمْ أَنْفُسَهُمْ

قال اللهُ تعالى: ﴿فَأَيُّ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ أَحَقُّ بِٱلۡأَمۡنِۖ﴾، وكان مقتضَى الظَّاهرِ: فأيُّنَا أحقُّ بالأمنِ؟ لجريَانِ الكلامِ قبلُ على الضَّمائرِ، وفي العُدولِ عنِ الإضمارِ إلى الإظهارِ ثلاثُ نكَاتٍ:

إحداهَا: إرادَةُ تعميمِ المَعْنَى لكلِّ فريقٍ يعبُدُ اللهَ تعالَى وحدَهُ، وفريقٍ يُشْرِكُ في عبادتِه سُبحانَهُ[3].

ثانِيهَا: الاحترازُ مِن تجريدِ نَفْسِه، فيكونُ في ذلك تَزْكِيَةٌ لَهَا[4].

ثالثُهَا: تأكيدُ الإلجاءِ إلى الجوابِ الحقِّ، وذلك بالتَّنْبيهِ على علَّةِ الحُكْمِ، وتجنُّبًا التَّصريحَ بتَخْطِئَتِهِمْ[5].

(1) السكَّاكي، مفتاح العلوم، ص: 280.
(2) أبو حيَّان، البحر المحيط: 4/570 - 571.
(3) البقاعي، نظم الدُّرر: 7/167.
(4) أبو حيَّان، البحر المحيط: 4/570 - 571.
(5) أبو السّعود، إرشاد العقل السَّليم: 3/156.

مِنَ الأَسَالِيبِ القُرْآنِيَّةِ فِي المُحَاوَرَاتِ الإِنْصَافُ فِي الخِطَابِ

بَرَاعَةُ الإِنْصَافِ فِي ﴿فَأَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ﴾:

جيءَ باسم التَّفضيل ﴿أَحَقُّ﴾ في قولِهِ اللّه سُبحانه: ﴿فَأَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ﴾ وهي مشعرَةٌ باستحقاقِهم الأَمْنَ في الجملةِ، ونُكْتَةُ ذلكَ: اسْتِنْزَالهُم عن رُتبةِ المُكَابرةِ بإيرادِ الكلَامِ معَهُمْ على سَنَنِ الإنصافِ[1]، وهذا الأسلوبُ المسمَّى: المُنْصِفَ مِنَ الكلامِ[2].

الإِشَارَةُ إِلَى رُجْحَانِ عَدَمِ عِلْمِهِم

سرُّ التَّعبيرِ بـ ﴿إِن﴾ دون إذا في قولِهِ: ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾:

التَّعبيرُ بـ ﴿إِن﴾ في قوله: ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ دون (إذا)، مُشعرٌ برُجْحَان عدمِ علمِهم، فهم يتجاهلون الحقائِقَ أو يجهلونَها.

الحَثُّ لَهُم إِلَى المُسَارَعَةِ إِلَى الجَوَابِ

دلالةُ حذفِ جوابِ الشَّرطِ في ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾:

جوابُ الشَّرطِ محذوفٌ، تقديره: (أخبروني) للإيجاز، وفيه حثٌّ لهم إلى المسارعة إلى الجواب؛ لمناسبة مقامِ المُحَاجَّة والمناظرةِ.

سُكُونُ القَلْبِ وَالنَّفْسِ وَانْتِفَاءُ الخَوْفِ أَعَمُّ مِنَ الطُّمَأْنِينَةِ

دلالةُ التَّعبيرِ بالأمنِ:

عبَّر بالأمنِ دون الطُّمأنينةِ في قوله سبحانه ﴿فَأَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ﴾؛ لأنَّ لفظ (الأمن) أعمُّ، فمعناه سكونُ القلبِ والنَّفسِ، وانتفاءُ الخوفِ، والسَّلامةُ منَ العدوِّ؛ بخلافِ (الطمأنينة) فهي أمرٌ قلبيٌّ يُطلقُ على هدوءِ البالِ، والسِّياقُ هنا يناسبه التَّعبيرُ بالأمن؛ لأنَّه مقابلُ الخوفِ الَّذي حاولَ قومُ إبراهيم ترويجَهُ.

حَذْفُ المَفْعُولِ يُفِيدُ العُمُومَ وَيُوَسِّعُ الدَّلَالَةَ

نُكْتَةُ حَذْفِ مَفْعُولِ الفعل ﴿تَعْلَمُونَ﴾:

حُذِفَ مفعولُ العِلْمِ في قوله تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾، وفي ذلك مسالكُ[3]:

أَوَّلُهَا: أن يكونَ محذوفًا لدلالةِ السِّياقِ عليه.

ثَانِيهَا: أن يُرادَ العمومُ، أي: إن كنتُمْ تعلمونَ شيئًا مَا، وذلك لأنَّ حذْفَ المعمولِ مؤذِنٌ بالعُمُومِ.

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السَّليم: 3/156.
(2) السّكّاكي، مفتاح العلوم، ص: 246.
(3) أبو السّعود، إرشَاد العقل السَّليم: 3/156.

ثالثُهَا: أن يُنزَّل الفعلُ المُتَعَدِّي منزلَةَ الفعلِ اللَّازمِ، فلا يُقدَّر له مفعولٌ أصلًا، والمعنى: إن كنتم مِنْ أهلِ العلم.

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الخوف والخَشية:

الخوفُ: توقُّعُ حلولِ مكروهٍ، أو فواتِ محبوبٍ[1]، والخَشيةُ تألُّمُ القلبِ لتوقُّع المكروه مُستقبلًا[2]، وهما متقاربانِ في اللُّغةِ، أمَّا ما كان منهما منَ العبدِ في حقِّ ربِّهِ؛ فإنَّ الخوفَ تألُّم النَّفس منَ العقابِ المتوقَّع بسبب ارتكابِ المنهيَّاتِ، والتَّقصيرِ في الطَّاعات؛ وهو يحصلُ لأكثرِ الخلقِ وإن كانت مراتبُهُ متفاوتةً جدًّا، والمرتبةُ العليا منه لا تحصلُ إلَّا للقليلِ[3].

والخَشيةُ: حالةٌ تحصلُ عند الشُّعورِ بمعرفة جلالِ اللّٰه وهيبتِه[4]، وخوفِ الحجْبِ عنه، وهذه حالةٌ لا تحصلُ إلَّا لمن علمَ وذاقَ لذَّةَ القُربِ، ولذا قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: 28]، فالخوفُ من شرطِ الإيمانِ، والخشيةُ من شرطِ العلم[5]، فالخَشيةُ: خوفٌ خاصٌّ يشوبُه تعظيمٌ[6]، ويؤيِّدُ هذا قولُه تعالى يصفُ المؤمنينَ: ﴿وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ۝٢١﴾ [الرعد: 21]؛ حيثُ ذكرَ الخَشيةَ في جانبِهِ سبحانه والخوفَ في جانبِ الحساب.

السُّلطان والبُرهان:

البُرهان: الحُجَّةُ الفاصلةُ البيِّنةُ، يقال: بَرهَن يُبَرهِنُ بَرهَنةً؛ إذا جاء بحُجَّةٍ قاطعةٍ لِدفع الخَصمِ، فهو مُبَرهِنٌ[7]، فيُبَرهِنُ، بمعنى:

البُرهانُ: الحُجَّةُ الفاصلةُ البيِّنةُ، والسُّلطان أعمُّ

(1) الجرجاني، التَّعريفات، ص: 101.
(2) المناوي، التَّوقيف على مهمات التعاريف، ص: 155.
(3) العسكريُّ، الفروق اللُّغويَّة، ص: 218.
(4) الجرجاني، التَّعريفات، ص: 98، والمناوي، التوقيف على مهمات التَّعاريف، ص: 155.
(5) البعلي، المطلع على ألفاظ المقنع، ص: 239.
(6) الراغب، المفردات، والسَّمين، عُمدة الحُفَّاظ، والزَّبيدي، تاج العروس: (خشي).
(7) ابن منظور، لسان العرب: (برهن).

يُبَيِّنُ، وقد بَرهَنَ عليه: أَقام الحجَّةَ، قال تعالى: ﴿قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١١١﴾﴾ [البقرة: 111]، وفي الحديث: «الصَّدقة برهان»[1] أي: هي دَليلٌ على صحَّةِ إيمان صاحبِها لطِيبِ نَفسِهِ بإخراجِها، وذلك لعَلاقةِ ما بين النفس والمالِ[2].

أمَّا السُّلطانُ عند العرب؛ فيُطلَقُ على الحُجَّةِ، ويُذكَّرُ ويُؤَنَّثُ؛ فمن ذكَّر السُّلطان ذَهبَ به إلى معنى الرَّجل، ومن أَنَّثه ذهبَ بهِ إلى معنى الحُجَّة، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾﴾ [هود: 96] أَي: وحُجَّةٍ بَيِّنَةٍ، والسُّلطانُ: الحاكم، إنَّما سُمِّيَ سُلطانًا؛ لأَنَّه حُجَّةُ اللّهِ في أَرضه، أو هكذا ينبغِي أن يكونَ[3]، وقولُه تعالى: ﴿هَلَكَ عَنِّي سُلْطَٰنِيَهْ ﴿٢٩﴾﴾ [الحاقة: 29] معناه: ذهبتْ عَنِّي[4] حُجَّتي؛ فالسُّلطان أعمُّ.

(1) مسلم، صحيح مسلم، كتاب الطهارة، الحديث رقم: (223).
(2) الزَّبيدي، تاج العروس: (برهن).
(3) الزَّجَّاج، معاني القرآن وإعرابه: 5/217.
(4) الثَّعلبي، الكشف والبيان: 10/31، وابن جزيّ، التسهيل لعلوم التنزيل: 2/407.

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ ٨٢﴾ [الأنعام: 82]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الآيةُ الكريمةُ جوابٌ عنِ السُّؤالِ عن مقارنةِ الأمنِ مع اللهِ لا معَ سواهُ

لمّا ذكرَ سؤالَهُم في الآيةِ السَّابقةِ "ألزمَهم بالجوابِ حتمًا بقولِه: ﴿إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٨١﴾ [الأنعام: 81]؛ أي: إن كان لكم علمٌ، فأخبروني عمَّا سألتُكم عنهُ، ثُمَّ وصلَ بذلكَ - دلالةً على أنَّه لا علمَ لهم أصلًا، لِيُخبِرُوا عمَّا سُئِلُوا عنهُ - قولَهُ مُستأنِفًا: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾"[1]، ممَّن أخلصُوا، ولم يخلطُوا إيمانَهم بظلمٍ بواحٍ، أو كفرٍ صراحٍ، فكانُوا حقيقينَ بالأمنِ يومَ القيامةِ، وبالهدايةِ في الدُّنيا والآخرةِ.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَلۡبِسُوٓاْ﴾: (لبس) أصلٌ يدلُّ على مُخالَطَةٍ ومُدَاخَلَةٍ، وفي الأمرِ لَبْسَةٌ؛ أي: ليس بواضحٍ. واللَّبْسُ: اختلاطُ الظَّلامِ[2]، واللَّبْس واللَّبَس: اختلاطُ الأمرِ، لبسُه عليهِ يلبسُه لُبسًا، فالتبسَ وتلبَّسَ بي الأمرُ: اختلطَ، وتعلَّق، أنشدَ أبو حنيفة:

تَلَبَّسَ حُبُّهَا بِدَمِي وَلَحْمِي *** تَلَبُّسَ عِطْفَةٍ بِفُرُوعِ ضَالِ[3]

والتَّلبيسُ: التَّخليطُ، مُشدَّدٌ للمُبالغَةِ، وهو شبهُ التَّدليسِ[4]، وقولُه تعالى: ﴿وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ﴾، أي: لم يخلطوا إيمانَهم بشركٍ[5].

2) ﴿بِظُلۡمٍ﴾: (ظلم) أصلٌ يدلُّ على وضعِ الشَّيءِ في غيرِ مَوضعِه تعدِّيًا[6]، والظُّلمُ الاعتداءُ على حقِّ صاحبِ حقٍّ؛ وكلُّ مَن وضعَ شيئًا

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/167.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والجوهريّ، الصّحاح: (لبس).
(3) ابن سيده، المحكم: (لبس).
(4) الزَّبيديّ، تاج العروس: 16/470.
(5) الواحديّ، البسيط: 8/255.
(6) الجوهريّ، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (ظلم).

في غيرِ مَوضعِهِ فقد ظلمَ، فكأنَّ الظَّالمَ هو الَّذي يزيلُ الحقَّ عن جهتِهِ، ويأخذُ ما ليسَ لهُ[1]، ألَا تَراهم يقولونَ: (مَن أشبهَ أباهُ فَما ظَلم)؛ أي: ما وضعَ الشَّبهُ غيرَ مَوضعهِ قالَ كعبٌ:

أَنَا ابنُ الَّذي لَمْ يُخزِني في حياتِهِ *** قَديمًا ومَنْ يُشبِهْ أَبَاهُ فَمَا ظَلَمْ[2]

والمرادُ به هنا إشراكُ غيرِ اللّهِ مع اللّهِ في اعتقادِ الإلهيَّةِ وفي العبادةِ، قالَ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ ١٣﴾ [لقمان: 13]"[3].

3) ﴿ٱلۡأَمۡنُ﴾: من (أمن)، وهو ضدُّ الخوفِ، والفعلُ منه: أمِنَ يأمَنُ أمنًا، والمأمَنُ: مَوضعُ الأمنِ، والأمَنَةُ منَ الأمنِ، اسمٌ موضوعٌ من أمنْتَ[4]، وأصلُ الأَمنِ: طمأنينةُ النَّفسِ وزوالُ الخوفِ[5]، والمرادُ بالأمنِ: "الأمنُ من عذابِ اللّهِ الَّذي يحلُّ بمَن لا يرضى إيمانَه ولا عبادتَهُ"[6].

المَعْنى الإجْمالِيُّ:

يخبرُ اللّهُ تعالى أنَّ "هؤلاء الَّذين أخلصُوا العبادةَ للّهِ وحدَهُ لا شريكَ له، ولم يشركوا بهِ شيئًا، هم الآمنون يومَ القيامةِ، المهتدونَ في الدُّنيا والآخرةِ"[7]، عن ابنِ مسعودٍ قال: لمّا نزلَت: ﴿وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ﴾ شقَّ ذلك على أصحابِ رسولِ اللّهِ ﷺ، قالوا: وأيُّنا لم يظلمْ نفسَهُ؟ فقالَ رسولُ اللّهِ ﷺ: «ليس كما تظنُّون، إنَّما قالَ لقمانُ لابنِهِ: ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تُشۡرِكۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ ١٣﴾ [لقمان: 13]»[8].

الَّذين تنزَّهوا عَنِ الشِّركِ المهينِ لَهم الأمنُ والهدايةُ يومَ الدِّينِ

(1) الدّينوريّ، غريب الحديث: 1/248.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: 3/468. (ظلم).
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/332.
(4) الخليل، العين: (أمن).
(5) الرّاغب، المفردات: (أمن).
(6) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 8/432.
(7) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 3/294.
(8) البخاريّ، صحيح البخاريّ، الحديث رقم: (6937).

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

براعةُ الاستئنافِ الابتدائيِّ في قولِهِ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾:

التَّوحيدُ أحقُّ بأن يكونَ في صدارةِ التَّركيبِ

لَمَّا تقدَّمَ في الآيةِ السَّابقةِ السُّؤالُ على لسانِ إبراهيمَ؛ استأنفَ الكلامَ للإجابةِ بالجوابِ الحقِّ الَّذي لا محيدَ عنهُ[1]، "فتكون الجملةُ مُستأنَفَةً استئنافًا ابتدائيًّا تصديقًا لقولِ إبراهيمَ"[2]، وفائدةُ الاستئنافِ: تأكيدُ أمرِ التَّوحيدِ، بالنَّصِّ عليه دفعًا للجِدالِ، وقَطعًا لسبيلِ الأوهامِ ممَّا يعصفُ بالأنفسِ، ويوردُها المهالِكَ، خصوصًا وأنَّ التَّوحيدَ مركزُ الكونِ، ومجلى العلاقةِ بالخالقِ، وضابطُ الوصلِ بينَهُ وبينَ الخلائقِ.

فائدةُ التَّعبيرِ عن أهلِ الإيمانِ بالاسمِ الموصولِ والصّلة:

التَّعبيرُ بالاسمِ الموصولِ يقتضي إيرادَ صلةٍ تُبَيِّنُ استحقاقَهم الأمنَ

في قولِهِ جلَّ شأنُه: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾، عبَّر عنِ الفريقِ الأحقِّ بالأمنِ بالاسمِ الموصولِ؛ لإظهارِ أسبابِ أحقِّيَّتِهم به في صلةِ الموصولِ، "والمعنى: أنَّ الَّذين حصلَ لهم الأمنُ المُطلَقُ، همُ الَّذين يكونونَ مُستجمعينَ لهذين الوصفينِ: أوَّلهما: الإيمانُ، وهو كمالُ القوَّةِ النَّظريَّةِ، وثانيهما: ﴿وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾، وهو كمالُ القوَّةِ العمليَّةِ"[3].

نكتةُ مجيءِ جملةِ صلةِ الموصولِ ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ فعليَّةً بصيغةِ الماضي:

بيانُ تحقُّقِ إيمانِهم وتأكيدِ حصولِهِ في قولِهِ:

جاءَت صلةُ الموصولِ في قولِهِ جلَّ شأنُه: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ فعلًا ماضيًا؛ للدَّلالةِ على تحقُّقِ إيمانِهم وتأكيدِهِ؛ فإنَّ الفعلَ الماضي يدلُّ على أنَّ الحدثَ قد أُنجزَ، وصارَ محقَّقًا في الواقعِ، لذلك كان السِّياقُ بوصفِ الإيمانِ تدليلًا على يقينِ احتمائِهم بكنفِ اللهِ الَّذي هم به مُؤمنونَ، وما يتطلَّبُه ذلك من صفاءِ عقيدةٍ، ونقاءِ وجهةٍ، يقتضيها

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/42، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/156.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/332.
(3) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 13/49.

مدلولُ السِّياقِ في هذه الآيةِ مِن تَطَلُّبِ الأمنِ والهدايةِ المنصوصِ عليهما في آخرِ السِّياقِ.

علَّةُ حذفِ مُتعلَّقِ الفعلِ في جملة: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾:

أطلقَ الإيمانَ في قولهِ جلَّ شأنُه: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، فلم يبيِّنْ مُتعلَّقَ فعلِ الإيمانِ؛ إذ لم يقُلْ: (آمنوا باللّٰه)، فحذفَه؛ "لظهورِه منَ الكلامِ السَّابقِ، والتَّقديرُ: (الَّذين آمنوا باللّٰهِ)"[1]، ولا جرمَ أنَّ العقلَ السَّليمَ، والفطرةَ السَّويَّةَ، تدركُ بيقينٍ أنَّ الإقرارَ في ميدانِ الاعتقادِ ينصرفُ مباشرةً إلى الإيمانِ باللّٰهِ جَلَّ في علاه، دونَ أحدٍ سواهُ، وهذا مَلمَحٌ منَ الواقعِ العقديِّ، المتجلِّي في فلاحِ أهلِ الإيمانِ، وخسرانِ أهلِ الكفرانِ على مدى الأزمانِ.

التَّعويلُ على ما سبقَ ذكرُهُ اعتدادٌ بعقلِ المتلقِّي، وبصيرتِهِ النَّافذةِ

بلاغةُ عطفِ جملةِ: ﴿وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ﴾ على جملة: ﴿ءَامَنُواْ﴾:

قولهُ جلَّ شأنُه: ﴿وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ﴾ معطوفٌ على الصِّلةِ: ﴿ءَامَنُواْ﴾[2]، فدلَّ العطفُ على أنَّهم إنَّما استحقُّوا الأمنَ بسببِ تحقيقِهم الوصفين معًا: الإيمان المُحقَّق، والإخلاص المُستمرّ، وعليه فالَّذين لم يخلطوا إيمانَهم بظلمٍ، ولا كفرٍ، ولا شركٍ باللّٰه، فهؤلاء هم الآمنونَ يومَ القيامةِ منَ الخلودِ في العذابِ، والمهتدون في الدُّنيا، والنَّاجونَ في الآخرةِ[3].

الأمنُ أعظمُ منَّةً، لا يُنالُ إلَّا بصدقِ الإخلاصِ، وصوابِ العملِ

فائدةُ عطفِ المضارعِ: ﴿يَلۡبِسُوٓاْ﴾ على الماضي: ﴿ءَامَنُواْ﴾:

أثبتَ السِّياقُ الإيمانَ لهم بالفعلِ الماضي؛ للدَّلالةِ على تحقُّقِ الإيمانِ فيهم، ونفى اللَّبسَ بإدخالِ (لم) على الفعلِ المضارعِ؛ للدَّلالةِ على استمرارِ النَّفي، إشارةً إلى دوامِهم على صفةِ الإخلاصِ في إيمانِهم، ومعنى الاستمرارِ والتَّجدُّدِ لا يتحقَّقُ لو قالَ: (وما ألبسُوا إيمانهم)، ومقتضى رسوِّ إيمانِهم بربِّهم، يتطلَّبُ تنزيهَ الإيمانِ عنِ اللَّبسِ بما يعكِّرُهُ ويفسدُهُ، لا في الزَّمانِ الماضي فحسبُ، بل في

ثباتُ الإيمانِ يتحقَّقُ باستمرارِ الإخلاصِ لمَن بيدِهِ الخلاصُ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/332.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/572.
(3) أسعد حومد، أيسر التّفاسير، ص: 872.

الحاضرِ والمستقبلِ، وهذا المَلمَحُ في الاستمرارِ بتواصلِ الماضي مع الحاضرِ، هو الَّذي اقتضى أن يعطفَ المضارعِ على الماضي؛ ليتكاملَ الزَّمانُ في استيعابِ تنزيهِ أهلِ الإيمانِ عن أيِّ شركٍ أو عصيانٍ.

دلالةُ التَّعبيرِ بنفي اللَّبسِ دونَ ذكرِ الإخلاصِ:

التَّأكيدُ على الإخلاصِ أعلى مِن إثباتِهِ

قولُه: ﴿وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم﴾: لو قال: (وأَخلصوا) لمّا كان نصًّا في نفي الشِّركِ عنهم، فقد يُنتقضُ بأن يفعلوا ذلك مرَّةً أو مرَّتين، فلمَّا عبَّرَ عنِ الإخلاصِ بنفي اللَّبسِ بالفعلِ الدَّالِّ على الاستمرارِ، دلَّ ذلك على انتفاءِ ما يشوبُ إخلاصهم على وجهِ التَّأكيدِ، فالنَّفيُ نصٌّ على الخلوِّ، والإثباتُ لا يقتضي الخلوَّ على وجهِ التَّمامِ.

بلاغةُ الاستعارةِ في الفعل ﴿يَلۡبِسُوٓاْ﴾:

تجسيدُ تصويرِ المعنى بالاستعارةِ تحقيقٌ لقدرِهم عندَ ربِّهم

عبَّرَ السِّياقُ عن خلطِهم أعمالَ الإيمانِ بأعمالِ الشِّركِ بالفعلِ ﴿يَلۡبِسُوٓاْ﴾؛ لأنَّهم عملُوا بشيئينِ في وقتٍ واحدٍ، فهو "هنا مجازٌ في العمل بشيئينِ متشابهينِ في وقتٍ واحدٍ؛ شُبِّهَ بخلطِ الأجسامِ"[1]، وفي الاستعارةِ تجسيدٌ للمعاني، وإظهارٌ لها في شكلٍ مُصوَّرٍ، وفي ذلك منَ التَّأكيدِ ما فيه؛ إذ إنَّ الاستعارةَ تزيدُ المعنى تأكيدًا، وتضفي على العبارةِ رونقًا وجماليَّةً، تتلاءمُ مع بلاغةِ القرآنِ، ودقَّتِهِ في اختيارِ اللَّفظِ وبناءِ الصُّورةِ.

نكتةُ إضافةِ الإيمانِ لهم، وإيثارِ التَّعبيرِ عنِ الشِّركِ بالظُّلمِ:

التَّخصيصُ بالإيمانِ تشريفٌ؛ وأبشعُ صفاتِ الشِّركِ الظُّلمُ

أضافَ الإيمانَ إليهم؛ لأنَّ التَّخصيصَ بالإيمانِ تشريفٌ، وقد أطلقَ الظُّلمَ على الشِّركِ؛ "لأنَّه تجاوزَ الحدَّ المعقولَ ... فالشِّركُ أشدُّ الأمورِ تجاوزًا للحدِّ"[2]، ففيه تصريحٌ بأبشعِ صفةٍ، وهو إعطاءُ الحقِّ لغيرِ مُستحقِّهِ، ولو قال: (ولم يُشركُوا) لَمَا دلَّ على ذلك الوصفِ الزَّائدِ، وفي هذا منَ الممازجةِ بين الشِّركِ والظُّلمِ،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/332.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2570.

ما يعطي فكرةً عنِ التَّبعاتِ المرهقةِ، والمخازي المفسدةِ الَّتي لحقَتِ المجتمعَ الجاهليَّ بفعلِ الشِّركِ الَّذي صعدَ إلى الأصماخِ والأمخاخِ، فباضَ وعشَّشَ وفرَّخَ، واستولى على العقولِ والقلوبِ، وقيَّدَ الحركةَ والتَّصرُّفَ، فكانَ في ذلك أعظمَ الظُّلمِ، وأكبرَ الحيفِ.

إيثارُ التَّعبيرِ بنفي (اللَّبس) دونَ نفي (الظُّلم):

نـفـيُ مـلابـسـةِ الـشَّـيءِ في الـدَّلالـة أبـلـغُ من نفي الشَّيءِ بالأصالةِ

لم يقُل: (ولم يظلموا في إيمانِهم)؛ لأنَّ نفيَ المخالطةِ أبلغُ من نفي الظُّلمِ، وفي ذلك تأكيدُ أنَّهم لم يشركوا بأيِّ وجهٍ من وجوهِ الشِّركِ، فقولُك: (لم يقْرَبِ الظُّلمَ) أبلغُ من قولِك: (لم يظلمْ)، ونفيُ اللَّبسِ هنا مُتعلِّقٌ بالإيمانِ لا بالعملِ؛ لأنَّ الوصلَ باللّه مُرتبِطٌ في الأساسِ بعقيدةِ التَّوحيدِ، ونفي الشَّريكِ، باعتبار أنَّ الاستمدادَ منه تعالى ابتداءً، والتَّوكُّلَ عليه وحدَه دونَ سواهُ، ممَّا يقتضي أن يتنزَّهَ عنِ اللَّبسِ، فلا يطالُ دائرةَ الإيمانِ العقديَّةَ، من حيثُ إنَّ الإيمانَ تدفُّقٌ ينبوعيٌّ في القلبِ، والعملُ ينشأُ عنِ الالتزامِ الَّذي شرعَهُ الإيمانُ، وقد رُوِيَ في الأثر: «إنَّ الإيمَانَ لَيسَ بالتَّحَلِّي ولَا بالتَّمَنِّي، إنَّما الإيمَانُ مَا وَقَرَ في القَلبِ، وصَدَّقَهُ العَمَلُ»[1]، وعليه فإنَّ النَّفيَ هنا مُرتبطٌ باللَّبسِ الَّذي يشوبُ العقيدةَ في تعظيمِ اللّهِ ذاتًا وصفاتٍ، واليقينُ بأنَّه ليسَ كمثلِه شيءٌ، فإنْ وقعَ اختلالٌ في ذلك اليقينِ كانَ اللَّبسُ المفضي إلى الظُّلمِ؛ فتعبيرهُ باللَّبسِ أوفقُ وأجدى منَ التَّعبيرِ بالظُّلمِ وحدَهُ؛ لأنَّ الظُّلمَ أثرٌ ماديٌّ، واللَّبسَ نسبةٌ ذهنيَّةٌ، فإذا صفَتِ العقيدةُ منَ اللَّبسِ انتفى الظُّلمُ، وانزاحَ الوهمُ، وذلك ديدنُ هؤلاءِ المؤمنين الَّذين حَباهُم اللّهُ بالأمنِ، وخصَّهُم بالهدايةِ[2].

(1) الحديث رواه أبو بكر بن أبي شيبة، عنِ الحسن، أبو بكر بن أبي شيبة، الكتاب المصنّف في الأحاديث والآثار: 7/189.

(2) يُستأنس في هذه المعاني، بما ورد في تفسير الشّعراويّ: 6/3758، وما بعدها.

فائدةُ تنكيرِ لفظِ ﴿بِظُلۡمٍ﴾:

تجبُ البراءةُ من أيِّ شركٍ، فهو آفةٌ كبرى وظلمٌ عظيمٌ

جاءَ لفظُ (الظُّلم) في قولِهِ جلَّ شأنُه: ﴿وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ﴾ بصيغةِ التَّنكيرِ دلالةً على التَّقليلِ، وذلك "دالٌّ على الحثِّ على التَّبرِّي عن قليلِ الشِّركِ وكثيرِه، فآلَ الأمرُ إلى أنَّ المرادَ: ولم يلبسوا إيمانَهم بشيءٍ منَ الشِّركِ"[1]، أي: لم يخلطوا إيمانَهم بأقلِّ شركٍ، وفيه بيانٌ لرسوخِ إيمانِهم وعلوِّ قدرِهم فيه، ممَّا يتطلَّبُه صفاءُ الاعتقادِ ويقتضيه، ولا فرقَ بين قليلِ الشِّركِ وكثيرِه، فهو كالدَّاءِ العُضالِ؛ يبدأُ قليلًا خفيفًا، ثمَّ ما يلبثُ أن يتفاقمَ ويتراكمَ؛ ليُهلكَ صاحبَهُ ويُرديَه.

العدولُ عنِ الجوابِ بـ (أحقَّ بالأمن) إلى ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ﴾:

إثباتُ الجوابِ بالطَّريقِ الأبلغِ تعظيمٌ للقدرِ وتبريزٌ للمقامِ

جاءَ الجوابُ على هذا الحالِ لبيانِ قدرِهم وعظيمِ منزلتِهم، وقد تحقَّقَ ذلك من عدَّة جهاتٍ بلاغيَّةٍ، ويمكنُ تفصيلُ ذلك كالتَّالي:

أوَّلاً: استخدامُ اسمِ الإشارةِ البعيد تنبيهًا على علوِّ مكانتِهم، وتمييزِهم أكملَ تمييزٍ؛ ففي التَّعبيرِ عنهم باسم الإشارةِ، "إيذانٌ بأنَّهم تميَّزُوا بذلكَ عن غيرِهم، وانتظمُوا في سِلكِ الأمورِ المُشاهَدَةِ"[2]، فكانوا ظاهرينَ معروفينَ بتلك الصِّفاتِ، بحيثُ إنَّها تشاهَدُ، فيشارُ إليها، كما أنَّ فيه تنبيهًا على العلَّة، فهم "بسببِ هذينِ الوصفينِ؛ كان لهم الأمنُ من أن يصيبَهم في الدُّنيا سوءٌ"[3]؛ وقد آثرَ صيغةَ البُعدِ "للإشعارِ بعلوِّ درجتِهم وبُعدِ منزلتِهم في الشَّرفِ"[4].

ثانيًا: التَّعبيرُ بلامِ الملكِ: فقد عبَّر عن استحقاقِهم الأمنَ باللَّام،؛ للدَّلالةِ على "أنَّ الأمنَ مُختَصٌّ بهم وثابتٌ، وهو أبلغُ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/167 - 168.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/156.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2570 - 2571، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/333.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/156، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 7/167.

من أن يُقالَ: آمنون"[1]، فاللَّامُ تدلُّ على التَّمليكِ والتَّخصيصِ؛ أي: إنَّ الأمنَ لهم، كأنَّه صارَ خاصًّا بهم؛ وفي ذلك مبالغةٌ في استحقاقِهم له.

ثالثًا: التَّقديمُ المفيدُ القصرَ: وهو مُشعرٌ باختصاصِ الأمنِ بهم، وأهليَّتِهم له وحدَهم، وذلك بتقديمِ الجارِّ والمجرورِ على الاسمِ في قولِهِ جلَّ شأنُه: ﴿لَهُمُ ٱلْأَمْنُ﴾؛ لإفادةِ القصرِ، فالأمنُ لهم على وجه الخصوصِ، لا يتعدَّاهم إلى سواهم.

رابعًا: تعريفُ لفظِ الأمنِ: فقد عبَّرَ باختصاصِ الأمنِ بهم ﴿لَهُمُ ٱلْأَمْنُ﴾ دونَ الوصفِ، و(لم يقُل: هم الآمنون)؛ لإثباتِ الاستحقاقِ بطريقٍ أوكد، كأنَّه قال: جنسُ الأمنِ لهم، واللَّامُ للدَّلالةِ على الجنسِ، و"التَّعريفُ في الأمن تعريفُ الجنسِ، وهو الأمنُ المُتَقَدِّمُ ذِكرُهُ؛ لأنَّه جنسٌ واحدٌ، وليس التَّعريفُ تعريفَ العهدِ حتَّى يجيءَ فيه قولُهم: إنَّ المعرفةَ إذا أُعيدَت مَعرِفةً فالثَّانيةُ عينُ الأولى؛ إذ لا يُحتَمَلُ هنا غَيرُ ذلك"[2].

خامسًا: عطفُ الجملةِ المفيدةِ فيه زيادةُ المدحِ وتأكيدُ الاستحقاقِ، فقد عطفَ الجملةَ الاسميَّةَ على الجوابِ زيادةً في مدحِهم، وتأكيدًا لرسوخِهم في الإيمانِ، وبيانًا لعوائدِ الإيمانِ على أهلِهِ.

نكتةُ الإخبارِ بالاسميَّةِ في قولِهِ: ﴿وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾:

التَّعبيرُ بالجملةِ الاسميَّةِ للدَّلالةِ على ثباتِهِ، وانتفاءِ زوالِهِ

أُثبِتَ لهم الاهتداءُ بالجملةِ الاسميَّةِ في قولِهِ: ﴿وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾، لِمَا في اسميَّةِ الجملةِ من عدمِ التَّقيُّدِ بزمنٍ، وثبوتِ الصِّفةِ على الدَّوامِ، فهو اهتداءٌ غيرُ زائلٍ، بذلك كان أولئكَ - الَّذينَ لم يخلطُوا إيمانَهم بظلمٍ عظيمٍ، كعبادةِ أحدٍ سواه - هُمُ الأكثرَ أمنًا، كما أنَّهم هُمُ المهتدونَ إلى طريقِ الحقِّ والخيرِ، وهو وصفٌ يصلحُ لكلِّ زمانٍ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/333.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/333.

على سبيلِ الصَّلاحيَّةِ للتَّجسيدِ، ما دامَت شروطُ الأمنِ، وأوصافُ الهِدايةِ مرعيَّةً على نحو ما هو مُلْمَحٌ إليه في سياقِ الآيةِ[1].

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(الأمن) و(السَّلام):

الأمنُ: أصلُ الأَمنِ: طمأنينةُ النَّفسِ وزوالُ الخوفِ، وهو ضدُّ الخوفِ[2]، وقد أمِنْتُ فأنا آمِنٌ. وآمَنتُ غيري، منَ الأمنِ والأمانِ، والإيمانُ: التَّصديقُ، واللّهُ تعالى المؤمنُ؛ لأنَّه آمَنَ عبادَه من أن يظلمَهم، وأصلُ آمَنَ: أَأْمَنَ بهمزتين، لُيِّنَت الثَّانية[3]، وقولهُ تعالى: ﴿وَهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ٱلۡأَمِينِ ۝٣﴾ [التِّين: 3]، قال الأخفشُ: يريدُ الآمنَ، وهو منَ الأمنِ، قال: وقد يُقالُ: الأمينُ: المأمونُ، كما قال الشَّاعر:

أَلَم تَعلَمِي يا أَسمَ وَيحَكِ أَنَّنِي *** حَلَفتُ يَمِينًا لَا أَخُونُ أَمِينِي[4].

أمَّا السَّلامُ من (سلم) فهو أصلٌ يدلُّ على الصِّحَّةِ والعافيةِ؛ فالسِّلمُ والسَّلامةُ: أن يَسْلمَ الإنسانُ منَ العاهةِ والأذى، والتَّعرِّي منَ الآفاتِ الظَّاهرةِ والباطنةِ، قال: ﴿بِقَلۡبٖ سَلِيمٖ ۝٨٩﴾ [الشّعراء: 89]؛ أي: مُتعرٍّ منَ الدَّغلِ، فهذا في الباطن، وقال تعالى: ﴿مُسَلَّمَةٞ لَّا شِيَةَ فِيهَاۚ﴾ [البقرة: 71]، واللّه جلَّ ثناؤهُ هو السَّلامُ؛ لسلامته ممَّا يلحقُ المخلوقينَ منَ العيبِ والنَّقصِ والفناءِ. وجمعَ بينَ السَّلامِ والأمنِ، لمَا بينَهما منَ الفرقِ في الظَّاهرِ، فقالَ تعالى: ﴿ٱدۡخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ۝٤٦﴾ [الحِجر: 46][5]، وقد عبَّرَ في الآية قيد التَّحليلِ بالأمنِ دونَ السَّلامِ؛ لأنَّه في سياقِ الحديثِ عنِ الخوفِ من أهوالِ يومِ القيامةِ.

الأمـــــنُ: الطُّمأنينةُ بلا خوفٍ، والسَّلامُ: سلامةٌ بلا عاهةٍ ولا أذًى

(1) إبراهيم القطّان، تيسير التّفسير: 1/482.
(2) الجوهريّ، الصّحاح، والرّاغب، المفردات: (أمن).
(3) الجوهريّ، الصّحاح: (أمن).
(4) الجوهريّ، الصّحاح: (أمن)، وابن منظور، لسان العرب: (أمن)، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (أمن).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (سلم).

اللَّبسُ يتعلَّقُ بالاعتقادِ، والخلطُ بالأعمالِ والمحسوساتِ

(اللَّبس) و(الخلط):

"اللَّبسُ يُستعمَلُ في الأعراض مثل: الحقِّ والباطلِ، وما يجري مجراها، وتقول: في الكلام لَبسٌ، وحدُّ اللَّبسِ: منعُ النَّفسِ من إدراكِ المعنى، بما هو كالسِّترِ له؛ وقلنا ذلك لأنَّ أصلَ الكلمةِ السِّترُ"[1]، وفي الحديث: صلَّى رسولُ اللهِ ﷺ الفجرَ، فقرأَ فيهما بالرُّوم، فالتبسَ عليه في القراءةِ، فلمَّا صلَّى قال: «ما بالُ رجالٍ يحضرون معنا الصَّلاةَ بغيرِ طهورٍ، أولئك الَّذين يَلْبِسُونَ علينا صلاتَنا، مَن شهدَ معنا الصَّلاة فليحسنِ الطُّهور»، و(يلبِسون) بكسرِ الباءِ منَ اللَّبسِ، بفتحِ اللَّام بمعنى: الخلطِ، ويمكن أن يجعلَ منَ التَّلبيس[2]، وقد استعملَ اللُّغويُّون والنُّحاةُ مصطلحَ (قرينة أمنِ اللَّبسِ)، على أساسِ أنَّ "اللُّغةَ العربيَّةَ - وكلَّ لغةٍ أخرى في الوجودِ - تنظرُ إلى أمْنِ اللَّبسِ باعتبارِه غايةً، لا يمكنُ التَّفريطُ فيها؛ لأنَّ اللُّغةَ الملبسةَ لا تصلحُ واسطةً للإفهامِ والفهمِ"[3]، و"الخلطُ يُستعمَلُ في العرضِ والجسمِ، فتقولُ: خلطتُ الأمرينِ، ولبستُهما، وخلطتُ النَّوعين منَ المتاعِ، ولا يقالُ: لبستهما"[4]، وفي قولِه جلَّ شأنُه: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ﴾، عبَّرَ بـ (اللَّبس)؛ لأنَّهُ يتعلَّقُ بالمعاني، فهو أنسبُ للتَّعبيرِ عن خلطِ الإيمانِ بالشِّركِ، كما في قولِه تعالى: ﴿وَلَا تَلۡبِسُواْ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ﴾ [البقرة: 42]، ولذلك فإنَّ الخلطَ يكونُ في العملِ، واللَّبسَ يكونُ في الاعتقادِ.

(الظُّلم) و(الجَور):

"الجورُ: خلافُ الاستقامةِ في الحكمِ، وفي السِّيرةِ السُّلطانيَّةِ

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 302.

(2) مسند الإمام أحمد بن حنبل: 38/169، والحديث إسناده حسن، أخرجه عبد الرّزاق في المصنّف، رقم: 2725، والمزّي في تهذيب الكمال: 12/372 - 373، والنّسائيّ في المجتبى: 2/156، والنّسائي، السّنن الكبرى، رقم: (1019).

(3) تمّام حسّان، اللّغة العربيّة معناها ومبناها، ص: 233.

(4) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 302.

الجورُ: الميلُ عن حدِّ الاستقامةِ، والظُّلمُ: إنكارٌ للحقائقِ، وحَيْفٌ على الخلائقِ

تقولُ: جارَ الحاكمُ في حكمِهِ والسُّلطانُ في سيرتِهِ: إذا فارقَ الاستقامةَ في ذلك، والظُّلمُ ضررٌ لا يستحقُّ ولا يعقبُ عوضًا، سواء كانَ من سلطانٍ أو حاكمٍ أو غيرِهما؛ ألَا ترى أنَّ خيانةَ الدَّانقِ والدِّرهم تسمَّى ظلمًا، ولا تسمَّى جورًا، فإن أُخذ ذلك على وجهِ القهرِ أو الميلِ سمِّي جورًا، وهذا واضحٌ، وأصلُ الظُّلم نقصانُ الحقِّ، والجورُ العدولُ عنِ الحقِّ من قولِنا: جارَ عنِ الطَّريقِ، إذا عدلَ عنه؛ وخُولِفَ بين النَّقيضين، فقيل في نقيضِ الظُّلم الإنصافُ، وهو إعطاءُ الحقِّ على التَّمام، وفي نقيضِ الجورِ العدلُ، وهو العدولُ بالفعلِ إلى الحقِّ"[1]، وفي الحديث: «إِيَّاكُم وَالظُّلمَ، فَإِنَّ الظُّلمَ ظُلُمَاتٌ يَومَ القِيَامَةِ»[2]، وأصلُ الظُّلم: وضعُ الشّيءِ في غيرِ مَوضِعِه... وظَلَمتُ فلانًا تَظليمًا، إذا نسبتَهُ إلى الظُّلمِ، فانظَلَمَ؛ أي: احتملَ الظُّلمَ، قالَ زهير بن أبي سلمى:

هُوَ الجَوَاد الَّذي يُعطِيكَ نَائِلَهُ *** عَفوًا، وَيُظلَمُ أَحيَانًا فَيَنظَلِمُ[3]

وفي الآية عبَّرَ بالظُّلم دونَ الجورِ؛ لأنَّ السِّياقَ في المؤمنين الَّذين لم يقعْ في إيمانِهم شركٌ؛ أي: إيمانُهم كان تامًّا، لا نقصانَ فيه، والنُّقصانُ مدلولُ الظُّلم، ولا يناسبُ السِّياق أنَّ يعبِّرَ بالجور؛ لأنَّه في الحكم، وفيه دلالةٌ على القهرِ، وهو نقيضُ العدلِ لا نقيض التَّمام، والآيةُ تتعرَّضُ لتمامِ الإيمانِ، ونفي نقصانِهِ بشيءٍ منَ الشِّركِ؛ فكان الأنسبُ التَّعبيرَ بالظُّلمِ قولًا واحدًا.

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 172.
(2) أحمد بن حنبل، المسند، الحديث رقم: (9570).
(3) الجوهريّ، الصّحاح: (ظلم).

﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾﴾ [الأنعام: 83]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الرَّبطُ بين محاجَّةِ إبراهيمَ لقومِهِ وبيانِ حُجَّةِ اللهِ للنَّاس على لسانِهِ وشرعِهِ

لمّا انتهَت محاجَّةُ إبراهيمَ لقومِهِ، ممَّن كانوا يعبدونَ الأوثانَ والكواكبَ والنُّجومَ، وقد كانَت محاجَّةً بينَ حكمِ العقلِ، وحكمِ الأصنامِ، بيَّن ﷺ أنَّ حجَّةَ إبراهيمَ، هي حجَّةُ العقلِ، وهي الجديرةُ بأن تنسبَ إلى اللهِ تعالى، فقال: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ﴾[1]، وهي حجَّةُ اللهِ الدَّامغةُ، على وجودِ اللهِ ووحدانيَّتِهِ وعظمتِهِ، أرشدَ إليها إبراهيمَ عليه السلام ليوجِّهَها إلى قومِهِ، وهم يجادلونَهُ في ربِّه الحكيمِ العليمِ[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿حُجَّتُنَآ﴾: (حجج)، أصلٌ يدلُّ على القصدِ، والحُجَّةُ: البرهانُ، مُشتقَّةٌ من هذا؛ لأنَّها تُقصَد، أو بها يُقصَد الحقُّ المطلوب، يقالُ: حاججتُ فلانًا فحجَجْتُهُ؛ أي: غلبتُهُ بالحجَّة، وذلكَ الظَّفرُ يكونُ عندَ الخصومةِ، والجمعُ: حُجَجٌ، والحُجَّة: هي الكلامُ المستقيمُ[3]، قولهُ تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ﴾ أطلقَها على "ما جرى بينَه وبينَ قومِهِ منَ الاستدلالِ على حدوث الكواكبِ والقمرِ والشَّمسِ"[4]، فالمرادُ طريقةُ الاستدلالِ.

2) ﴿دَرَجَٰتٍ﴾: (درج) أصلٌ يدلُّ على مُضيِّ الشَّيءِ، والمُضيِّ في الشَّيءِ؛ والدَّرجةُ تقالُ للمنزلةِ إذا اعتُبِرت بالصُّعودِ دونَ الامتدادِ

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2571.
(2) أسعد حومد، أيسر التّفاسير، ص: 873.
(3) الجوهريّ، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (حجّ، حجج).
(4) ابن الجوزيّ، تذكرة الأريب، ص: 98.

على البسيطةِ، كَدَرَجةِ السَّطحِ والسُّلَّم، ويُعبَّرُ بها عنِ المنزلةِ الرَّفيعةِ[1]؛ والدَّرَجَةُ جمع: دَرَجاتٍ، وهي: رتبةٌ ومنزلةٌ في الشَّرفِ، ومرتبةٌ منَ المراتبِ؛ والجَنَّةُ دَرَجَاتٌ، وَالنَّارُ دَرَكَاتٌ، قال تعالى: ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ [البقرة: 228]، وفسَّرُوها بأنَّ الدَّرجةَ هنا هي الصَّداقُ أو حقُّ التَّأديبِ أو غير ذلك"[2].

المَعْنى الإِجْماليُّ:

يخبرُ تعالى أنَّ "تلك الحُجَّة، وهي قولُه: ﴿فَأَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ﴾ - الَّتي غلبَ إبراهيمُ بها قومَه، حتَّى انقطعَت حجَّتُهم -، هي حجَّتُنا، وفَّقْناه لمُحاجَّةِ قومِهِ بها، وأعطيناه إيَّاها، نرفعُ مَن نشاءُ مِن عبادِنا مراتبَ في الدُّنيا والآخرة، إنَّ ربَّكَ - أيُّها الرَّسول ﷺ - حكيمٌ في خَلقِهِ وتدبيرِهِ، عليمٌ بعبادِهِ"[3].

حُجَّةُ اللهِ في بلاغِ إبراهيمَ على قومِهِ، وهو الرَّافعُ مَن يشاءُ بحكمتِهِ وعلمِهِ

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ عطفِ جملةِ: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ﴾ على جملةِ: ﴿وَحَآجَّهُۥ﴾:

قولُهُ جلَّ شأنُه: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ معطوفٌ على الجملةِ في قوله تعالى: ﴿وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ﴾[4]، فعطفَ الحجَّةَ الَّتي آتاها اللهُ تعالى لإبراهيمَ عليه السلام على المحاجَّةِ بين إبراهيمَ وقومِهِ؛ إظهارًا لنعمةِ اللهِ تعالى عليه؛ فإنَّ احتجاجَهُ إنَّما هو بتأييدِ اللهِ تعالى وتوفيقِهِ، ومَن حظيَ بتأييدِ اللهِ تعالى قويَت حجَّتُهُ، واستبانَت محجَّتُهُ، فتهاوَت أمامَها الأباطيلُ، وتلاشَتْ دونَها الضَّلالاتُ؛ لأنَّها حجَّةُ اللهِ القاطعةُ الَّتي تستمدُّ قوَّتَها النَّافذةَ، وحكمتَها الرَّاشدةَ مِن عظمةِ المولى وقدرتِهِ وسلطانِهِ.

الاحتجاجُ للحقِّ بالحقِّ تأييدٌ منَ اللهِ تعالى

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (درج).
(2) أحمد مختار عمر، معجم اللّغة العربيّة المعاصرة: (درج).
(3) جماعة منَ العلماء، المختصر في تفسير القرآن الكريم: 1/138.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/334.

فائدةُ اسمِ الإشارةِ في قولِهِ: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ﴾:

تعظيمُ الحُجَّةِ المأتيَّةِ لإبراهيمَ، وبيانُ مكانتِها في تأييدِ الحقِّ

اسمُ الإشارةِ في قولِهِ جلَّ شأنُهُ: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾، يشيرُ "إلى جميع ما احتجَّ بهِ إبراهيمُ عليه السلام على قومِهِ من قولِهِ: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ﴾ [الأنعام: 76] إلى قولِهِ: ﴿وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾"[1]، وقد آثرَ النَّظمُ اسمَ الإشارةِ الدَّالَّ على البعدِ، "لتفخيمِ شأنِ المُشارِ إليه، والإشعارِ بعلوِّ طبقتِهِ، وسموِّ منزلتِهِ في الفضلِ"[2]، ولمَّا ذكرَ الكثيرَ منَ الحججِ ناسبَهُ الإشارةُ بالبعيدِ، وفيه إظهارٌ لعظمِ الفكرِ، وقوَّةِ الاستدلالِ[3].

فائدةُ التَّعريفِ بالإضافةِ إلى ضميرِ العظمةِ في: ﴿حُجَّتُنَآ﴾:

إضافةُ الحجَّةِ إلى اللهِ تعالى تشريفٌ لها، وتَعظيمٌ لإبراهيمَ

في قولِهِ جلَّ شأنُه: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ﴾، أضافَ الحجَّةَ إلى الضَّميرِ المُعبِّرِ عنِ التَّعظيمِ؛ إذ فيه منَ التَّفخيمِ والتَّشريفِ ما لا يخفى[4]، وفي ذلك تعظيمٌ لإبراهيم عليه السلام، وأحسنَ البقاعيُّ في الكشفِ عن وجهِ التَّعظيمِ، فقالَ: "وعظَّمَهُ بتعظيمِها، فقال: ﴿حُجَّتُنَآ﴾؛ أي: الَّتي يَحِقُّ لها بما فيها منَ الدّلالةِ أن تُضافَ إلينا؛ لأنَّها من أشرفِ النِّعمِ وأجَلِّ العطايا"[5]، فدلَّت تلك الإضافةُ على علوِّ مكانتِها وشأنِها، وصدقِها وصحَّتِها، وتضمَّنَت تشريفًا لمَن أجراها على لسانِهِ وقلبِهِ[6]، أي: ﴿ءَاتَيْنَٰهَآ﴾؛ "أي: بما لنا منَ العظمةِ"[7].

التَّعبيرُ عنِ الحُجَّةِ بالإيتاءِ:

الحجَّةُ منَ الظُّهورِ، بحيثُ إنَّها تُؤتَى إيتاءً، وكان ذلك بتفضُّلٍ

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/43، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/572، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/334.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/156 - 157، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 7/168.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2571.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/572، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/157.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/168.
(6) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2571، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/335.
(7) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/168.

الإيتاءُ على قدرِ المُؤتي، وهو كاشفٌ عن مَنزلةِ مَن أُوتي

منَ اللّهِ تعالى بـ "إلهامهِ إيَّاها، وإلقاءِ ما يعبِّرُ عنها في نفسِه"[1]، قولُه: ﴿ءَاتَيۡنَٰهَآ إِبۡرَٰهِيمَ﴾ "يَدُلُّ على أنَّ تلك الحُجَّةَ، إنَّما حَصَلَتْ لإبراهيمَ عليه السلام بإيتاء اللّهِ وإظهارِهِ تلك الحُجَّةِ في عَقلِهِ، وذلك يَدُلُّ على أنَّ الإيمانَ والكُفرَ لا يَحصُلانِ إلَّا بِخَلقِ اللّهِ تعالى، ويؤكِّدُه قولُه: ﴿نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُۗ﴾، فإنَّ المرادَ أنَّه تعالى رَفَعَ درجاتِ إبراهيمَ، بسببِ أنَّه تعالى آتاه تلك الحُجَّة، ولو كان حُصُولُ العِلمِ بتلك الحجَّةِ من قبلِ إبراهيمَ، لا من قِبَلِ اللّهِ تعالى؛ لكان إبراهيمُ عليه السلام هو الَّذي رفعَ درجاتِ نفسِه"[2]، وهذا غيرُ معقولٍ، فإنَّ الإشادةَ برفعِ الدَّرجاتِ إنَّما عَظُمَ شأنُها لأنَّها أُوتِيَها إبراهيم حجَّةً قاطعةً، وبرهانًا ساطعًا، منَ اللّهِ العليِّ الأعلى.

نكتةُ تقديمِ المفعول الثّاني على المفعول الأوّل:

الحجَّةُ هي مدارُ السِّياقِ، فَحُقَّ التَّنويهُ بأهمِّيَّتِها

قدَّمَ الضَّميرَ العائدَ على الحجَّةِ في قولِهِ جلَّ شأنُه: ﴿وَتِلۡكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيۡنَٰهَآ إِبۡرَٰهِيمَ﴾، ولم يقُل: (آتينا إبراهيمَ إيَّاها)؛ لأنَّ السِّياقَ في الحجَّةِ، وفي الإنعامِ على إبراهيمَ بعدَ ذلك، فهي الأولى بالتَّقديمِ للاهتمامِ بها، "والمرادُ بالحجَّةِ جنسها، لا فردٌ من أفرادِها؛ أي: وتلكَ الحجَّةُ الَّتي تضمَّنها ما تقدَّمَ منَ المقالِ، البعيدةُ المرمى في إثباتِ الحقِّ، وتزييفِ الضَّلالِ، هي حجَّتُنا البالغةُ الَّتي لا تنالُ إلَّا بهدايتِنا السَّابغةِ، أعطيناها إبراهيمَ حجَّةً على قومِهِ مُستعليةً عليهم، قاطعةً لألسنتهم"[3]، وقد جاءَت مُستدلًّا عليها بالضَّميرِ المتَّصلِ بالفعلِ، وهي مفعولٌ ثانٍ، وتَقَدُّمُهُ موقعيًّا مُسوَّغٌ؛ لأنَّه ضميرٌ مُتَّصلٌ، والمفعولُ الأوَّلُ اسمٌ ظاهرٌ، واللُّجوءُ إلى هذا التَّرتيبِ، هو الَّذي أعطى السِّياقَ دلالتَهُ، حيث كان الغرضُ أنَّ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/335.
(2) ابن عادل، اللّباب: 8/260.
(3) رضا، تفسير المنار: 7/485.

الاهتِمامَ منوطٌ بالحجَّةِ الَّتي أُوتيها إبراهيم، فكان تقدُّمُها على شكلِ ضميرٍ أولى وأجدى.

سرُّ استعمالِ حرفِ الاستعلاءِ في قوله: ﴿عَلَىٰ قَوۡمِهِۦۚ﴾:

الحجَّةُ الباهِرَةُ تُعلي أهلَ الحقِّ على أهلِ الباطِلِ

في قولِه تعالى: ﴿عَلَىٰ قَوۡمِهِۦۚ﴾ عبَّر بحرفِ الاستعلاءِ المتعلِّقِ بـ ﴿حُجَّتُنَآ﴾ للتَّنبيه على "ارتفاعِ شأنِها بأداةِ الاستعلاءِ مُضَمِّنًا لـ (آتينا) و(أقمنا)، فقال: ﴿عَلَىٰ قَوۡمِهِۦۚ﴾؛ أي: مُستَعلِيًا عليهم، غالبًا لهم، قائمةٌ عليهم الحُجَّةُ الّتي نَصَبَها"[1]، "وعلى: للاستعلاء المَجازِيِّ، وهو تشبيهُ الغالِبِ بالمُستَعلِي المُتَمَكِّنِ منَ المغلوبِ، وهي مُتعلِّقَةٌ بحُجَّتِنا خلافًا لمَن مَنَعَهُ"[2]، "لقد أعطى اللّهُ سبحانَه إبراهيمَ الحُجَّةَ على قومِه؛ أي: كانت له عليهم درجاتٌ وسموٌّ وارتفاعٌ؛ لأنَّ إقامةَ الحجَّةِ على الآخرِ انتصارٌ، والانتصارُ رفعٌ لدرجةِ موضوعِكَ، ورفعٌ أيضًا لموضوعِ عملِكَ"[3].

دلالةُ التَّعبيرِ بضميرِ العظمة في: ﴿نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُۗ﴾:

قيمةُ الحُجَّةِ في الدَّلالةِ على قدرِها، وقدرِ مَن أُوتيها

قولُه جلَّ شأنُه: ﴿نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُۗ﴾، إمَّا أن يكونَ حالًا منَ الضَّميرِ (نا)، ويكون المعنى: رافعين درجةَ مَن نشاءُ، فيكون قيدًا محدَّدًا لإيتاءِ الحجَّةِ مُنبِّهًا على أثرِها ومنزلتِها، ويمكن أن يكونَ استئنافًا "لبيانِ أنَّ مثلَ هذا الإيتاء تفضيلٌ للمُؤتَى، وتَكرِمَةٌ له"[4]، والوجهان مُتعانقان في التَّظاهرِ على بيانِ منزلةِ الحجَّةِ، ومنزلةِ مَن أُوتيها، وقد عبَّرَ عن رفعِهِ الدَّرجاتِ بالفعلِ المضارعِ بصيغةِ الجمعِ الدَّالَّةِ على التَّعظيمِ إظهارًا لعظيمِ فضلِه، فقد آثرَ التَّعبيرَ بصيغةِ الجمعِ في الفعلِ؛ لأنَّه أرادَ الزِّيادةَ "في الإعلامِ بفضلِهِ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/168، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/335.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/335.
(3) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 6/3766.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/335.

بقولهِ مُستأنِفًا: ﴿نَرۡفَعُ﴾؛ أي: بعظمتِنا"[1]، وهذا المعنى يفوتُ لو عبَّرَ بصيغة المفردِ (أرفع)، وقد بُنيَتِ الآيةُ مِن أوَّلِها على التَّعظيمِ.

بلاغةُ الاستعارةِ بالتّعبير برفعِ الدَّرجاتِ:

المجازُ يصوِّرُ الدَّرجاتِ، ويحقِّقُ علوَّها

جُبِلَ الإنسانُ على تفضيلِ جهةِ العلوِّ والارتفاعِ، لذلك جاءَ المدحُ بالرِّفعةِ والعلوِّ، والشَّرفِ والظُّهورِ، وجاءَ الذَّمُّ بنقيضِه كالأسفلِ وغيرِه، وفي الآية أرادَ بيانَ تفضيلِه تعالى لإبراهيمَ عليه السلام، فالدَّرجاتُ تعني: "مراتبَ ومنزلةَ مَن نشاءُ، وأصلُ الدَّرجاتِ في المكانِ، ودلالةُ السِّياقِ أنَّه بالحجَّةِ والبيانِ"[2]، والمرادُ من ذلك الإخبارُ عن تفضيلِ الشَّأنِ[3]، وجاء لفظُ الدَّرجاتِ جمعًا، وذلك للتَّناسب مع دلالةِ قولِه: ﴿مَن نَّشَآءُۗ﴾ على الكثرةِ، والكثرةُ تقتضي التَّفاوتَ، و"الإتيانُ بصيغةِ الجمعِ في درجاتٍ باعتبارِ صلاحيَّةِ ﴿مَن نَّشَآءُۗ﴾ لأفرادٍ كثيرين مُتفاوتينَ في الرِّفعةِ"[4]، فلمَّا كان أهلُ الفضلِ هم المستحِّقين أن تُرفَعَ درجتُهم، كلٌّ بقدرِه وفضلِه، كانَتِ الدَّرجةُ متفاوتةً، فعبَّر بالجمعِ للدَّلالةِ على ذلك التَّفاوتِ.

تأخيرُ المفعولِ بهِ في قولِهِ: ﴿نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُۗ﴾:

الاعتناءُ بالمقدَّمِ تشويقٌ للمُؤخَّرِ

أخَّر المفعولَ، وهو قولُهُ تعالى: ﴿مَن نَّشَآءُۗ﴾، وأصلُ الكلامِ: (نرفعُ مَن نشاءُ درجاتٍ)، وفائدةُ التَّأخيرِ: "الاعتناءُ بالمُقدَّمِ والتَّشويقُ إلى المُؤخَّرِ"[5]، فالتَّعجيلُ بذكرِ الدَّرجات تنويهٌ بمكانتِها واهتمامٌ بها، وفي تأخيرِ المفعول به تشويقُ السَّامعِ لمعرفةِ مَن ذا الّذي نالَ رفعةَ الدَّرجاتِ، "والدَّرجاتُ في الأصلِ تُطلَقُ على مراقي السُّلَّمِ، والمرادُ بها هنا المراتبُ المعنويَّةُ في الخيرِ على سبيلِ التَّمثيلِ، فقد شُبِّهَت

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/168.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/572.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/335.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/336.
(5) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/157.

حالةُ المفضَّلِ على غيرِهِ، بحالِ المُرتقي في سلَّمٍ؛ إذا ارتفعَ من درجةٍ إلى درجةٍ"[1].

سرُّ التَّعبيرِ بالموصولِ، والعدولِ عنِ الضَّميرِ إليه:

عبَّر بالاسمِ الموصولِ ﴿مَّن﴾ الدَّالِّ على التَّعميمِ والشُّمولِ، نفيًا لاختصاصِ رفعِ الدَّرجاتِ بالَّذين ذُكِروا في السِّياقِ؛ فاللهُ تعالى لا يشاءُ رفْعَ الدَّرجاتِ للأنبياءِ وذرِّيَّتِهم وحسب، ولكنَّه يرفعُ درجاتِ الصَّالحينَ من عبادِهِ، وعلى رأسِهم الأنبياءُ المصطفون، ومنهم أولو العزمِ منَ الرُّسلِ، وفي مقدِّمَتِهم الخليلُ إبراهيم عليه السلام، ولعلَّ مِن رفْعِ الدَّرجاتِ ما أوتيه إبراهيمُ "حجَّةً له على قومِهِ، ولا غرابةَ في ذلك، فاللهُ يرفعُ مَن يشاءُ من عبادِهِ درجاتٍ، بعضها فوق بعضٍ، فهذه درجةُ الإيمانِ، وأخرى درجةُ العلمِ، وثالثةٌ درجةُ الحكمةِ والتَّوفيقِ، وذلك فضلُ اللهِ يؤتيه مَن يشاءُ"[2]، كما أنَّه عبَّرَ بالموصولِ دونَ الضَّميرِ، فلم يقُل: (نرفعُ درجاتِهم)؛ تأسيسًا لِمَا سيأتي؛ أي: فعدلَ إلى الموصولِ ليبنيَ عليهِ القيدَ الآتيَ في الصِّلةِ.

فضلُ الله واسعٌ عميمٌ، وعطاؤُه سخيٌّ كريمٌ

دلالةُ تقييدِ الرَّفعِ بالمشيئةِ:

قولُهُ تعالى: ﴿مَّن نَّشَآءُ﴾ دلَّ "على أنَّ هذا التَّكريمَ لا يكونُ لكلِّ أحدٍ؛ لأنَّه لو كان حاصلًا لكلِّ النَّاسِ؛ لم يحصلِ الرَّفعُ ولا التَّفضيلُ"[3]، فلو رفعَ كلَّ النَّاسِ لفاتَ التَّفاضلُ ولغابَ التَّحفيزُ، واستوى الفاضلُ والمفضولُ، وزهدَ المجدُّ عنِ الطُّموحِ إلى مراقي التَّميُّزِ والسُّموقِ، وفي ذلك قتلٌ لروحِ المبادرةِ الإيجابيَّةِ الَّتي قاعدتُها: (على قدرِ المشقَّةِ يكونُ الأجرُ)، و(على مقدارِ المبادراتِ تكونُ الدَّرجاتُ).

الرَّفعُ بمشيئتِهِ تعالى عزيزٌ، لا ينالُه إلَّا مَنِ اصطفاهُ اللهُ

إيثارُ التَّعبيرِ بالفعلِ المضارعِ ﴿نَرْفَعُ﴾:

آثرَ النَّظمُ الكريمُ التَّعبيرَ بالفعلِ المضارعِ: ﴿نَرْفَعُ﴾؛ "للدَّلالةِ

(1) طنطاويّ، الوسيط: 5/118.
(2) الحجازيّ، التّفسير الواضح: 1/635.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/336.

عَلى أنَّ ذلكَ سُنَّةٌ مُستَمِرَّةٌ جاريةٌ، فيما بين المُصطَفَيْنَ الأخيارِ، غيرُ مُختصَّةٍ بإبراهيمَ عليه السلام"[1]، فلو عبَّرَ بالفعلِ الماضي (رفعنا) لكان رفعًا مُنقطعًا مُختصًّا فيمَن سيقَ له الكلام، ولكنَّ اللّهَ تعالى مُتفضِّلٌ على عباده في كلِّ زمانٍ، فعبَّرَ بالفعلِ المضارعِ؛ "لتجدُّدِ الرِّفعةِ المُستمرَّةِ، فالوجودُ الإنسانيُّ يستمرُّ الخيرُ فيه، بوجودِ الهداةِ المرشدينَ، والمُستمعينَ الأخيارِ الَّذين يستمعونَ، فيقولون: سمعنا وأطعنا"[2].

تجدُّدُ الرِّفعةِ سُنَّةٌ من سننِ اللهِ تعالى في عبادِهِ

بلاغةُ تنوُّعِ القراءاتِ القرآنيَّةِ في لفظِ ﴿دَرَجَٰتٍ﴾:

قرأَ نافعٌ وابنُ كثيرٍ، وأبو عمرو وابنُ عامر: ﴿نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَن نَّشَآءُ﴾ - بغير تنوينٍ - بإضافة الدَّرجاتِ إلى ﴿مَن﴾، وقرأَ عاصمٌ وحمزة والكسائيُّ: ﴿نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ﴾؛ فمَن قرأَ بالتَّنوين فقد أوقعوا الفعلَ على ﴿مَّن﴾، والتَّقدير: (ونرفعُ مَن نشاءُ إلى درجاتٍ)، ومَن قرأَ بالإضافةِ فقد أوقعَ الفعلَ على الدَّرجاتِ؛ لأنَّ الدَّرجاتِ إذا رُفعَت فقد رُفِعَ صاحبُها، فالقراءتان مُتقاربتان؛ لأنَّ مَن رُفِعت درجاتُه فقد رُفِعَ، ومَنْ رُفِعَ فقدْ رُفِعَتْ درجاتُه، فالمعنى المقصودُ بهما واحدٌ[3]، كما أنَّ الإضافةَ تدلُّ على تمكُّنِهم منَ الدَّرجاتِ؛ "فإضافةُ الدَّرجاتِ إلى اسمِ الموصولِ، باعتبارِ مُلابسةِ المُرتَقِي في الدَّرجةِ لها؛ لأنَّها إنَّما تُضافُ إليهِ إذا كانَ مُرتَقيًا عليها"[4]، والقراءتانِ تآزرتا في الدِّلالةِ على حصولِ الرَّفعِ للدَّرجاتِ على حِدةٍ، ولصاحبها على حِدةٍ، فهو رفْعٌ لمرفوعِ القدر.

تعانقُ معنى الرَّفعِ للدَّرجاتِ، ورفعِ أصحابِها كأنَّهما عطاءانِ

بلاغةُ شبهِ كمالِ الاتِّصالِ في: ﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾:

قولُه جلَّ شأنُه: ﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ استئنافٌ سِيقَ لتعليلِ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/157.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2572.
(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/316، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 7/30 - 31.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/335.

الرَّفعُ تكمنُ وراءَهُ حكمةُ الحكيمِ وعلمُ القديرِ

ما قبلَه[1]، فهو استئنافٌ تعليليٌّ؛ "لأنَّ قولَهُ: ﴿نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُۗ﴾ يثيرُ سؤالًا، يقول: لماذا يرفعُ بعضَ النَّاسِ دون بعضٍ؟ فأجيبَ بأنَّ اللّٰهَ يعلمُ مُستحِقَّ ذلك، ومقدارَ استحقاقِهِ، ويخلقُ ذلك على حسب تعلُّقِ علمِهِ"[2]، واللّٰهُ لا يُسألُ عمَّا يُفعلُ، فهو العليمُ بالسَّرائرِ، والمتحكِّمُ في المصائرِ، وحكمتُهُ ظاهرةٌ في كلِّ ما ينكشفُ لنا من تصرُّفِهِ في الكونِ، وهو في رفعِهِ للبعض درجاتٍ عالمٌ أنَّ ذلك يصلحُ لهم، وأنَّهم جديرون به، وخصوصًا الأنبياءَ الَّذين اصطفاهم، وميَّزَهم عن سائرِ النَّاسِ، وقد رفعَ بعضَهم فوقَ بعضٍ درجاتٍ، وهو ما يؤكِّدُهُ تعالى في قولِهِ: ﴿۞تِلۡكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلۡنَا بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۘ مِّنۡهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُۖ وَرَفَعَ بَعۡضَهُمۡ دَرَجَٰتٖۚ﴾ [البقرة: 253]، وهو القائلُ في مَعرِضِ التَّفضيلِ بين الفائزينَ من أهل الإيمانِ في مقاماتِ الجنانِ: ﴿ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ٥٤﴾ [المائدة: 54].

بلاغةُ تأكيدِ الخطاب معَ كونِ النّبيّ من الموقنين:

قوَّةُ المعنى في الخبرِ تقضي بأن يُساقَ مُؤكَّدًا

قولُه جلَّ شأنُهُ: ﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾، جاءَ مُؤكَّدًا لا بالنَّظر إلى حال المخاطَبِ؛ لأنَّ المخاطَبَ النَّبيُّ ﷺ، وهو لا يحتاجُ أن يخبرَ بذلكَ على وجهِ التَّأكيدِ، بل جاءَ التَّأكيدُ بالنَّظر إلى قوَّةِ الخبرِ، وكونِ اتِّصافِهِ ﷻ بالعلمِ والحكمةِ على غايةِ الاتِّصافِ.

إيثارُ لفظِ الرُّبوبيَّةِ في قولِهِ: ﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾:

الرُّبوبيَّةُ اعتناءٌ، ولُطفٌ، وترفُّقٌ من المولى، وعطف

آثرَ التَّعبيرَ بلفظ الرُّبوبيَّةِ دونَ عَلَمِ الجلالةِ (اللّٰه)، المعبِّرِ عن الهيبةِ؛ لأنَّ السِّياقَ في بيانِ رعايةِ إبراهيمَ بإيتائِهِ الحجَّةَ، وتفضيلِهِ بها، إذ في ذلك "إظهارٌ لمزيدِ لُطفٍ وعنايةٍ به عليه السلام"[3]، ومقامُ العطاء والمَنّة يُناسبُ التَّعبيرَ بالرَّبِّ، لِمَا فيه من معنى التَّودُّدِ والإشفاقِ،

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/157.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/336.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/157.

وما يحملُهُ من دلائِلَ التَّرفُّقِ والإغداقِ، وهو قد أعطى إبراهيمَ منَ الحجَّةِ البالغةِ، والحمايةِ السَّابقةِ، والنِّعَمِ السَّابغةِ، وجعلَهُ خليلَ الرَّحمنِ، ورزقَهُ امتدادَ ذكْرٍ في أبنائِهِ وأحفادِهِ، منَ الأنبياءِ الكرامِ، والرُّسلِ العظامِ، فكانَ ذلك الإكرامُ كلُّه بعضًا من مظاهرِ التَّجلِّي في معاني الرُّبوبيَّةِ السَّاميَةِ في قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾.

دلالةُ إضافةِ لفظِ الرَّبِّ إلى ضميرِ النّبيّ ﷺ:

أضافَ تعالى لفظَ الرَّبِّ في قولِهِ جلَّ شأنُه: ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ إلى ضميرِ النَّبيِّ ﷺ اعتناءً به، وإظهارًا لعلوِّ مكانتِهِ وقربِهِ منَ المولى ﷻ، وقد خاطبَهُ بما مفادُهُ: "إنَّ (ربَّكَ) اللهَ الَّذي ربَّاكَ، وقامَ على نفسِكَ وعلى عقلِكَ، وَهَدى الأنفسَ فُجورَها وتقواها، وعلَّمَكَ ما لم تكن تعلمُ؛ عليمٌ بكلِّ شيءٍ، حكيمٌ يضعُ كلَّ شيءٍ بميزانٍ، ولهُ - فيما يشاءُ ويختارُ- الحكمُ والعِبرُ البالغاتُ، تباركَ اللهُ ربُّ العالمين"[1].

في الإضافةِ اعتناءٌ بالمضافِ، وإظهارٌ لقربِهِ منَ المولى تعالى

بلاغةُ الالتفاتِ في قولِهِ: ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾:

ضميرُ المُخاطَبِ في قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾، يحتملُ أن يكونَ لنبيِّنا ﷺ، وهو "التفاتٌ من ربٍّ كريمٍ إلى النَّبيِّ الكريمِ، وقد نازعَتهُ نفسُه، وهفَت به أشواقُهُ، إلى فضلِ اللهِ وإحسانِهِ الَّذي رأى آثارَهُ في إبراهيمَ عليه السلام .. فجاءَ قولُه سبحانَه: ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾؛ ليشعرَ النَّبيَّ أنَّه في ضيافةِ ربِّه، وكفى ما يلقاه الضَّيفُ الَّذي ينزلُ في ضيافةِ ربِّ العالمين"[2]، ويحتملُ أن يكونَ المرادُ به إبراهيمَ عليه السلام، فإذا أريدَ به إبراهيمُ "فيكون من بابِ الالتفاتِ، والخروجِ من ضميرِ الغيبةِ إلى ضميرِ الخطابِ على سبيلِ التَّشريفِ بالخطابِ"[3].

الالتفاتُ منَ الغيبةِ إلى المخاطَبِ تشريفٌ للمُخاطَبِ بكلامِ اللهِ تعالى

مناسبةُ الفاصلةِ لمضمونِ الآيةِ:

لمّا ذكرَ في صدرِ الآيةِ أنَّه يرفعُ درجاتِ مَن يشاءُ من عبادِهِ عقَّبَ

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2752.
(2) الخطيب، التّفسير القرآنّي للقرآن: 4/228.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/573، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/157.

خـتـمَ الآيـةَ بتنزيهِ أفعالهِ تعالى عنِ الخلوِّ مـنَ الـغـايـاتِ السَّاميةِ

في رأسِ الآيةِ، بأنَّه "إنَّما يرفعُ درجاتِ مَن يشاءُ، بمُقتضَى الحكمةِ والعلمِ، لا بمُوجبِ الشَّهوةِ والمُجازَفَةِ، فإنَّ أفعالَ اللهِ مُنزَّهةٌ عنِ العبثِ والفسادِ والباطلِ"[1].

سرُّ تقديمِ الحكيمِ على العليمِ:

التَّفضيلُ لا يقعُ إلَّا بحكمةٍ منهُ تـعـالى قـائـمـةٍ على العلمِ

لمّا ذكرَ التَّفضيلَ في الآية كان الأنسبُ أن يقدِّمَ في ختمِ الآيةِ في قولِه: ﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ وصفَ الحكمةِ؛ "لأنَّ هذا التَّفضيلَ مُظهِرٌ للحكمةِ، ثمَّ عُقِّبَ بـ ﴿عَلِيمٌ﴾؛ ليشيرَ إلى أنَّ ذلك الإحكامَ جارٍ على وفقِ العلمِ"[2]، "فلا يضعُ العلمَ والحكمةَ، إلَّا في المحلِّ اللَّائقِ بها، وهو أعلمُ بذلك المحلِّ، وبما ينبغي له"[3].

المتشابه اللّفظي:

العلاقَةُ بينَ قولِه هنا: ﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ و﴿إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝٦﴾ [يوسف: 6]، أنّ آية الأنعام يسبقُها حديثٌ عمَّا دارَ بين إبراهيمَ عليه السلام وقومِه، حيثُ أرادَ إبراهيمُ عليه السلام أن يدلَّهم على توحيدِ الرُّبوبيَّةِ، حتَّى يتركوا ما هم فيهِ من عبادةِ الأصنامِ، ودلَّتِ الآياتُ على تفضيلِ الَّذين آمنوا - ولم يلبسوا إيمانَهم بظلمٍ؛ أي: بشركٍ - على الَّذين أشركوا باللهِ ما لم ينزِّلْ به سلطانًا، وعلى تفضيلِ إبراهيمَ على الّذين آمنوا، بل على غيرِه منَ الأنبياءِ والرُّسلِ الَّذين أتوا من بعدِه؛ لأنَّه أبوهم، وهم أولادُهُ وأحفادُهُ، وقد خصَّه اللهُ بما لم يخصَّ به أحدًا منهم، فقد أراه اللهُ ملكوتَ السَّماواتِ والأرضِ؛ فلمَّا كان السِّياقُ أكثرَ تعلُّقًا بالحكمةِ؛ ناسبَهُ تقديمُ (حكيم) على (عليم)، أمَّا الآيةُ في سورة يوسفَ فقد سبقَها حديثٌ عن علمِ يعقوبَ، فلمَّا كان السِّياقُ أكثرَ بالعلمِ؛ ناسبَه تقديمُ (عليم) على (حكيم).

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 13/51.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/336، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 7/169.
(3) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 263.

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(الحُجَّة) و(الآية) و(الدَّليل) و(البُرهان):

"البرهانُ لا يكون إلَّا قولًا يشهدُ بصحَّةِ الشَّيءِ"[1]، فهو مُختصٌّ بكونِهِ قولًا، و"الآيةُ هي العلامةُ الثَّابتةُ من قولِك: تأيَّيْت بالمكان؛ إذا تحَبَّست به، وتثَبَّت"[2]، و"الدّلالةُ عند شيوخِنا ما يؤدِّي النَّظرُ فيهِ إلى العلمِ"[3]. أمَّا الحجَّةُ فهي الاستقامةُ في النَّظرِ والمضيِّ فيه على سننٍ مستقيمٍ، من ردِّ الفرعِ إلى الأصلِ، وهي مأخوذةٌ منَ المحجَّةِ؛ وهي الطَّريقُ المستقيمُ، وهذا هو فعلُه المستدلُّ، وليس منَ الدَّلالَةِ في شيءٍ؛ والحجَّةُ مُشتقَّةٌ من معنى الاستقامةِ في القصدِ، تقولُ: حجَّ يحجُّ إذا استقامَ في قصدِه[4]، فقولُه جلَّ شأنُه: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ المرادُ طريقةُ الاستدلالِ، فاستعملَ لفظَ (الحجَّة) للإشارة إلى الطَّريقةِ الَّتي استدلَّ بها إبراهيمُ، وليس إلى الدَّليلِ الواحدِ الَّذي قدَّمَهُ، ولكنَّ المرادَ الكيفيَّةُ، فلذا عبَّرَ بالحجَّةِ دونَ غيرِها.

إيثارُ لفظِ (حجّتنا) للإشارةِ إلى طريقةِ الاستدلالِ، لا إلى الدَّليلِ الواحدِ

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 71.
(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 71.
(3) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 69.
(4) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 70.

﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾﴾ [الأنعام: 84]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

ربطُ بيانِ نِعَمِ اللهِ على إبراهيمَ بِتَفَرُّعِ النُّبوَّاتِ مِن نسلِهِ الكريمِ

لمّا عدَّدَ تعالى نعمَهُ على إبراهيمَ عليه السلام، فذكرَ إيتاءَهُ الحُجَّةَ على قومِهِ، وأشارَ إلى رفعِ درجاتِهِ؛ ذكرَ هنا ما مَنَّ بهِ عليهِ مِن هِبَتِهِ لهُ، فتفرَّعت منهُ أنبياءُ بني إسرائيلَ، ومن أعظم المننِ أن يكونَ من نسلِ الرَّجلِ الأنبياءُ والرُّسلُ[1]، ومنَ المناسبةِ أنَّه بعد أن بيَّنَ اللّهُ تعالى "هدايةَ إبراهيمَ عليه السلام، والتَّفكيرَ المستقيمَ الَّذي هداه إلى ربِّه، وأنَّ اللّهَ رفعَهُ بذلكَ الإدراكِ المستقيم ليكونَ هاديًا مُرشدًا، ذكرَ اللّهُ سبحانه وتعالى ذرِّيَّتَهُ منَ النَّبيِّينَ الهداةِ المهديِّين"[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَوَهَبْنَا﴾: (وهب) أصلٌ يدلُّ على حَوْزِ النَّافعِ بلا مقابلٍ، الهِبَةُ: أن تجعلَ ملكَكَ لغيرِك بغيرِ عِوَضٍ، يقالُ: وَهَبْتُهُ هِبَةً ومَوهِبَةً ومَوهِبًا، قال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ﴾ [الأنعام: 84]، وقال تعالى في قصَّةِ مريمَ: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾﴾ [مريم: 19]، "نسبَ الملَكُ إلى نفسِهِ الهبةَ، لمّا كان سببًا في إيصالِهِ إليها، وقد قُرِئَ (لِيَهَبَ لَكِ)، فنسبَ إلى اللّهِ تعالى على الحقيقةِ، والأوَّل على التَّوسُّعِ"[3]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٨﴾﴾ [آل عمران: 8] هو كثيرُ الهبةِ؛ أي: العطيَّة من غيرِ استحقاقٍ عليه، بل هو تفضُّلٌ منه على خلقِهِ[4].

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/573.

(2) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 13/51، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 7/170، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2573.

(3) سميح عاطف الزّين، تفسير مفردات ألفاظ القرآن الكريم: (وهب).

(4) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (وهب).

2) ﴿ذُرِّيَّتِهِۦ﴾: (ذرأ) أصلٌ يدلُّ على الشَّيءِ يُبذرُ ويُزرعُ، ذرأْنا الأرضَ؛ أي: بذَرناها. ذرأَ اللّهُ الخلقَ يذرؤُهُمْ ذرْءًا: خَلَقَهُمْ، ومنه: الذُّرِّيَّةُ، وهي نَسلُ الثَّقَلَينِ، إلَّا أنَّ العربَ تركَت همزَها، والجمعُ: الذَّرارِيُّ[1]، والذَّراريُّ جمع ذرِّيَّة، وهي من كان دونَ البلوغِ منَ الأولادِ، والمرادُ غير المقاتلةِ من أولادِ المحاربينَ[2]، وقيل: (ذرّيَّة) اسمٌ لنسلِ الإنسِ والجنِّ، وتُطلقُ على الآباءِ والأبناءِ ومَن تناسلَ منهم[3]، قال تعالى: ﴿ذُرِّيَّةَۢ بَعۡضُهَا مِنۢ بَعۡضٖۗ﴾ [آل عمران: 34].

المَعْنى الإجْماليُّ:

يخبرُ اللّهُ تعالى أنَّه رزقَ إبراهيمَ إسحاقَ ويعقوبَ، ووَفَّقَ كلًّا منهما للصِّراط المستقيم، ووفَّقَ نوحًا من قبلِهم، ووفَّقَ داودَ وابنَه سليمانَ وأيُّوبَ ويوسفَ وموسى وأخاهُ هارون عليهم السلام، ثمّ بيّنَ جلّ شأنّ أنّ مثل هذا الجزاء الَّذي جازينا بهِ الأنبياءَ على إحسانِهم، نجازي بهِ المحسنينَ من غيرِهم على إحسانِهم[4]، "والمقصودُ من هذهِ الآياتِ تعديدُ أنواعِ نعمِ اللّهِ على إبراهيمَ عليه السلام، جزاءً على قيامهِ بالذَّبِّ عن دلائلِ التَّوحيدِ، فقال: ووهبْنا له إسحاقَ لِصُلبِهِ، ويعقوبَ بعدَهُ مِن إسحاقَ"[5].

بيانُ إنعامِ اللهِ على إبراهيمَ بإصلاحِ ذُرّيّتهِ وجعلِهم من الأنبياءِ والمرسلين

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ عطفِ جملة: ﴿وَوَهَبۡنَا﴾ على ﴿ءَاتَيۡنَٰهَآ﴾:

عطفَ جملةَ ﴿وَوَهَبۡنَا﴾ على جملة: ﴿ءَاتَيۡنَٰهَآ﴾؛ "لأنَّ مضمونَها تكرمةٌ وتفضيلٌ"[6]، فلمَّا ذكرَ أنَّه أيَّدَهُ على قومِهِ بالحجَّةِ عطفَ عليه

في عطفِ هبةِ الذُّرِّيَّةِ على إيتاءِ الحجَّةِ بيانُ إكرامِ إبراهيمَ بذلك

(1) الجوهريّ، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (ذرأ).
(2) هامش التحقيق: الجامع المسند الصّحيح للبخاري، تح: محمّد زهير النّاصر: 2/15.
(3) هامش التحقيق: الجامع المسند الصّحيح للبخاري: 4/163.
(4) جماعة منَ العلماء، المختصر في تفسير القرآن الكريم: 1/138.
(5) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 13/51.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/337.

تكريمَه بالذُّرِّيَّةِ المباركةِ، زيادةً في التَّفضُّلِ عليه. ومجملُ النِّعَمِ منَ الحكمةِ والحجَّةِ وما يصبو النَّاسُ إليه من مالٍ ومتاعٍ وحيازةٍ، لا تكتملُ إلَّا بوجودِ الذُّرِّيَّةِ الصَّالحةِ الَّتي بصلاحِها تقرُّ العينُ، ويطمئنُّ القلبُ، وتنتظمُ الحياةُ، وقد وهبَ اللهُ لإبراهيمَ ذرِّيَّةً صالحةً على كبرِ سنِّهِ، بعد أن طلبَ منَ اللهِ تمامَ النِّعمةِ بذلك.

نكتةُ التَّذييلِ بذكرِ الذُّرِّيَّةِ الصَّالحةِ النَّافعةِ:

التَّذييلُ بهبةِ الذُّرِّيَّةِ للتَّصريحِ ببقاءِ العَقِبِ، وعدمِ انقطاعِ الصَّلاحِ

بيَّن ﷻ بهبتهِ الذُّرِّيَّةَ الصَّالحةَ لإبراهيمَ عليه السلام أنَّ الصَّلاحَ باقٍ بينَ النَّاسِ، وأنَّ سبيلَ الدَّعوةِ إلى اللهِ لا ينقطعُ، فإنَّ موقعَ "هذه الجملة - وإن كانت معطوفةً - هو موقعُ التَّذييلِ للجُملِ المقصُودِ منها إبطالُ الشِّركِ، وإقامةُ الحُجَجِ على فسادِهِ، وعلى أنَّ الصَّالحينَ كلَّهم كانوا على خلافِهِ"[1].

دلالةُ التَّعبيرِ بضميرِ العظمةِ في: ﴿وَوَهَبْنَا﴾:

تعظيمُ الواهبِ آيةٌ على عِظَمِ الهبةِ ونفاستِها

عظَّمَ السِّياقُ الهبةَ بإسنادِها إليه بضميرِ التَّعظيمِ في قولِهِ تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ﴾؛ "أي: لخليلِنا عليه السلام، بما لنا منَ العظمةِ"[2]؛ وتعظيمُ الواهبِ دليلٌ على عظمِ الهبةِ، وعطاءُ اللهِ لا كفاءَ لامتنانِه، ولا نهايةَ لإنعامِهِ، فهو المعطي على قدرِ كمالِهِ، وعطاؤهُ محضُ تكرمةٍ؛ فقد وهبَ الولدَ، وضَمِنَ نسلَ التَّعاقبِ، ووهبَ استمرارَ النُّبوَّةِ في بيتِ أبي الأنبياءِ إبراهيمَ، وكان مِن نسلِهِ أنبياءُ بني إسرائيل، من جدِّهم إسحاق، ومن نسلِهِ خاتمُ الأنبياء محمَّد ﷺ من جدِّهِ إسماعيل؛ وكلاهما هبةُ اللهِ لخليلِهِ.

بلاغةُ الكنايةِ في وصفِ إيتاءِ الذُّرِّيَّةِ بأنَّه هبةٌ:

عبَّر ﷻ عن إيتاءِ الذُّرِّيَّة إلى إبراهيمَ بالهبةِ، فقال: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ﴾؛ لأنَّه وُلِدَ له "على الكبرِ حيثُ لا يولدُ لمثلِهِ ولا لمثلِ زوجتِهِ"[3]؛

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/337.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/170.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/170.

بيانًا لتفضُّلِهِ عليهم، فهو "هنا كنايةٌ في التُّفضلِ والتَّيسيرِ"[1]، وقد وهبَ اللّهُ لإبراهيمَ إسحاقَ بمعجزةٍ، فقد كان إبراهيمُ وامرأتُه يرجوانِ الولدَ، ويلحَّان على اللّه في الدُّعاء، من أجلِ ذلك، وحينما زارتهم الملائكةُ وبشَّروهما بإسحاقَ، ومن وراءِ إسحاقَ يعقوبُ، كانتِ البشارةُ هبةً عظمى؛ لأنَّها بشارةٌ بالولدِ وولدِ الولدِ، وهذا أمرٌ لا يتأتَّى لأحدٍ سوى اللّه عالم الغيبِ والشَّهادةِ، لذلك عبَّرَ القرآنُ عن الدَّهشةِ الممزوجةِ بالبهجةِ في قولِ امرأتِه: ﴿قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾﴾ [هود: 72 - 73].

الإخبارُ بالهبةِ عنِ الذُّرِّيَّةِ دلالةٌ على محضِ التَّفضُّلِ

معنى اللَّامِ في (له) من قولِهِ: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥ﴾:

دلَّتِ اللَّامُ في قولِهِ جلَّ شأنُه: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ﴾ على التَّمليكِ والتَّخصيصِ؛ للدَّلالةِ على اختصاصِ إبراهيمَ عليه السلام بهذه الهبةِ، وقد ذكرَ السِّياقُ قولَه: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ﴾؛ "أي: لإبراهيم عِوضًا عن قومِه لمّا اعتزلَهم وما يعبدونَ، ﴿إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ﴾؛ أي: ولدًا وولدَ ولدٍ؛ لتقرَّ عينُه ببقاءِ العقبِ"[2]، وهذا العطاءُ المتدفِّقُ بالتَّكرمةِ والتَّجلَّةِ خُصَّ به إبراهيمُ، ولم يُذكرْ في القرآن مَن وُهِبَ مثلُه منَ الأنبياءِ، ولا من غيرِهم.

دلَّتِ اللَّامُ على اختصاصِ إبراهيمَ بهذهِ الهبةِ

نكتةُ تقديمِ شبهِ الجملةِ ﴿لَهُۥٓ﴾ على المفعولِ بِهِ:

في قولِهِ جلَّ شأنُه: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ﴾ قدَّم الجارَّ والمجرورَ على المفعول به، وتقديرُ الكلام: (وهبنا إسحاقَ ويعقوبَ له)؛ وذلك اهتمامٌ بالموهوبِ لهُ، فالسِّياقُ يجري في بيانِ الإنعامِ على إبراهيمَ، فهو أولى بالتَّقديم منَ الهبةِ ذاتِها.

العنايةُ بالموهوبِ لهُ تقتضي التَّقديمَ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/337.
(2) القاسمي، محاسن التأويل: 4/416.

دلالةُ التَّعبيرِ بهبةِ الحفيدِ يعقوبَ لإبراهيمَ عليهما السلام:

عبَّر بهبةِ يعقوبَ إشارةً إلى أنَّه وُلِدَ في حياتِهِ، وإظهارًا لمزيدِ الإكرامِ

قرنَ بينَ إسحاقَ وابنِهِ يعقوبَ بالهبةِ؛ دلالةً على أنَّ إبراهيمَ عليه السلام قد طالَ عمرُهُ حتَّى أدركَ بلوغَ حفيدِهِ، "ومعنى هبةِ يعقُوبَ لإبراهيمَ: أنَّه وُلِدَ لابنِهِ إسحاقَ في حياةِ إبراهيمَ، وَكَبرَ، وتزوَّجَ في حياتِهِ، فكان قُرَّةَ عينٍ لإبراهيمَ"[1].

الغرضُ من تقديمِ ذكرِ إسحاقَ ويعقوبَ في السِّياقِ:

تقديمُ ذكرِ الأبناءِ يلائمُ الفطرةَ؛ لحبورِ الأبِ بأبنائِهِ عادةً

قدَّم ذكرَ ابنِهِ وحفيدِه جريًا على طبائعِ النَّاسِ باحتفائِهم بأبنائِهم، والابنُ يُطلَقُ على الحفيدِ مهما نزلَ، فابتدأَ سبحانَه "بهما؛ لأنَّ السِّياقَ للامتنانِ على الخليلِ عليه السلام، وهو أشدُّ سُرُورًا بابنِهِ الَّذي مُتِّعَ به، ولم يُؤمَرْ بفراقِهِ، وابنِ ابنِهِ الَّذي أكثرُ الأنبياءِ الدَّاعينَ إلى اللهِ مِن نَسلِهِ ومِن خواصِّهِ"[2].

علَّةُ عدمِ ذكرِ (إسماعيلَ مع إسحاقَ) في قولِهِ: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ﴾:

هبةُ إسحاقَ أعلى إعجازًا لِفقدِ أُمِّهِ الأسبابَ المعهودةَ في الإنجابِ

لم يُذكر إسماعيلُ عليه السلام معَ إسحاقَ في أمرِ الهبةِ، بل أخَّرَهُ إلى الآياتِ اللَّاحقةِ، "وإنَّما ذُكرَ إسحاقُ دون إسماعيلَ؛ لأنَّه هو الَّذي وهبهُ اللهُ تعالى بآيةٍ منه بعد كِبَرِ سنِّهِ وعقمِ امرأتِهِ سارةَ، جزاءَ إيمانِهِ وإحسانِهِ وكمالِ إسلامِهِ وإخلاصِهِ، بعد ابتلائِهِ بذبحِ ولدِهِ إسماعيلَ، ولم يكن لهُ ولدٌ سواهُ على كبرِ سنِّهِ"[3]، فإسماعيلُ "لم يُعدَّ في موهبتِهِ؛ لأنَّ هبةَ إسحاقَ كانت في كِبَرِهِ وكِبَرِ زوجِهِ، فكانَت في غايةِ الغَرابةِ"[4]، وذهبَ بعضُ المفسِّرين إلى أنَّه لم يُذكر إسماعيلُ هنا؛ "لأنَّ المقصودَ بالذِّكرِ هاهنا أنبياءُ بني إسرائيلَ، وهم بأسرِهم أولادُ إسحاقَ ويعقوبَ، وأمَّا إسماعيلُ فإنَّه ما خرجَ من صُلبِهِ أحدٌ منَ الأنبياءِ إلَّا محمَّدٌ ﷺ"[5].

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/337.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/170.

(3) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 8/452.

(4) الخفاجيّ، عناية القاضي: 4/89، والآلوسّي، روح المعاني: 4/201.

(5) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 13/51، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/573.

نكتةُ الفصلِ في قولِهِ تعالى: ﴿كُلًّا هَدَيْنَا﴾:

نعمةُ اللهِ بالهدايةِ ونعمتُهُ بالوهبِ، كلتاهما نعمةٌ لذاتِها

جاءت جُملةُ ﴿كُلًّا هَدَيْنَا﴾ في قوله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا﴾ من غيرِ أن يعطفَ على قوله: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ﴾؛ فلم يقل: (وكُلًّا هَدينا)؛ فالهدايةُ تأكيدٌ للنِّعمة[1]، فإنَّ مجرَّدَ الذُّرِّيَّةِ لا تعدُّ نعمةً في عُرفِ الصَّالحينَ حتَّى يتَّصفَ الأبناءُ بالصَّلاح، فعندها تكونُ النِّعمةُ على التَّمام؛ لذا أكَّدَ اللهُ تعالى تلك النِّعمةَ على إبراهيمَ عليه السلام، وجاء الدُّعاءُ بطلبِ الذُّرِّيَّةِ في القرآنِ مَقرونًا بالصَّلاحِ، قال تعالى: ﴿رَبِّ هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ١٠٠﴾ [الصّافّات: 100]، وقال: ﴿رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ٣٨﴾ [آل عمران: 38]، وقال: ﴿فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ٥ يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ۖ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ٦﴾ [مريم: 5 - 6]، وهكذا في كلِّ مواطنِ الطَّلبِ للذُّرِّيَّةِ، لا تخلو من إشارةٍ إلى الصَّلاحِ والطِّيبةِ والرِّضا.

حذفُ المضافِ إليهِ في قولِهِ: ﴿كُلًّا هَدَيْنَا﴾:

حَذْفُ المضافِ إليه تعويلًا على ظهورِهِ من سُننِ البُلغاءِ في الإيجازِ

حُذِفَ المضافُ إليه تعويلًا على ظهورِ المعنى، وإيجازًا في الألفاظ، والتَّقدير: "كلُّ هؤلاء هَدَيناهم، يعني: إبراهيمَ وإسحاقَ ويعقوبَ، فحَذَفَ المضافَ إليه لظهورِهِ، وعَوَّضَ عنهُ التَّنوينَ في ﴿كُلًّا﴾ تنوينَ عِوَضٍ عنِ المضاف إليه"[2]، والإيجازُ مَسلكٌ من مسالك البلاغةِ والإعجازِ رفيعٌ.

علَّةُ تقديمِ المفعولِ بهِ في قولِهِ: ﴿كُلًّا هَدَيْنَا﴾:

قدَّمَ المفعولَ بهِ اهتمامًا بإسحاقَ ويعقوبَ وبالهدايةِ المذكورةِ

قولُه تعالى: ﴿كُلًّا هَدَيْنَا﴾، وأصلُ الكلامِ: (هَدَينا كلًّا)، فقدَّم المفعولَ بهِ عَلى الفعلِ "ليشملَ الكلامُ إيَّاهما"[3]، وفيه نصٌّ على أنَّ الهدايةَ شملَتهما فردًا فردًا؛ "أي: كُلَّ واحدٍ منهما ﴿هَدَيْنَا﴾ لا

(1) الخفاجيّ، عناية القاضي: 4/90، والآلوسّي، روح المعاني: 4/201.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/337.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/170.

أحدَهُما دونَ الآخَرِ"[1]، ويُضافُ إلى ذلك أنَّ هذا التَّعبيرَ يدلُّ على استقلالِ كلٍّ واحدٍ منهما بهِدايةٍ، فلم تكنْ هِدايتُهما تبعًا لبعضِهما؛ إعلامًا باستحقاقِهما الهدايةَ، وبيانًا لفضلِهما، قال في تفسيرِ المنارِ: "وتقديمُ ﴿كُلًّا﴾ على ﴿هَدَيْنَا﴾؛ لإفادةِ اختصاصِ كلٍّ منهما بما ذكرَ منَ الهِدايةِ على سبيلِ الاستقلالِ لا التَّبعِ؛ لأنَّ كُلًّا منهما كان نبيًّا هاديًا مهديًّا"[2].

إيثارُ التَّعبيرِ بقولِهِ: ﴿كُلًّا هَدَيْنَا﴾:

آثرَ التَّعبيرَ بـ (كلّ) تبيينًا لاستحقاقِهِ إيَّاها بذاتِهِ

في قولِهِ تعالى: ﴿كُلًّا هَدَيْنَا﴾ عبَّرَ عن هدايتِهما على وجهِ الاستقلالِ؛ "أي: كلَّ واحدٍ من إسحاقَ ويعقوبَ هَدَينا"[3]، ففي التَّعبيرِ بـ (كلٍّ) إشارةٌ إلى استقلالِ الهدايةِ بكلِّ واحدٍ منهما؛ تفخيمًا لشأنِ الهِدايةِ، وبيانًا لاستحقاقِهِ إيَّاها بذاتِهِ، وليس لكونِهِ من ذرِّيَّةِ إبراهيمَ وحسب، وفي هذا إعلامٌ بفضلِهما، فقولُه تعالى: ﴿كُلًّا هَدَيْنَا﴾؛ "أي: أعطى اللّهُ تعالى كلَّ واحدٍ منهما هدايةً قائمةً بذاتِها؛ لأنَّ كلَّ واحدٍ كان نبيًّا مبعوثًا، وتلك مَكرمةٌ لإبراهيمَ أن جعلَ ابنَهُ وحفيدَهُ نبيِّين، كلٌّ له هدايةٌ وبعثةٌ"[4].

فائدةُ الاعتراضِ بذكرِ هدايةِ إسحاقَ ويعقوبَ:

الإنعامُ بهبةِ الذُّرِّيَّةِ لا يتمُّ إلَّا بالهدايةِ؛ تنويهًا بشأنِ هدايتِهما

صرَّح بهِداية إسحاق ويعقوب في قوله سبحانه ﴿كُلًّا هَدَيْنَا﴾، بعد أن ذكرَ أنَّه وهبَهما لإبراهيمَ عليه السلام؛ لأنَّ "النِّعمةَ لا تتمُّ إلَّا بالهدايةِ"[5]، فالذُّرِّيَّةُ الموهوبةُ لا تكونُ نعمةً، ما لم تكن مَهديَّةً[6]، فقوله تعالى: ﴿كُلًّا هَدَيْنَا﴾ "اعتراضٌ، وفائدةُ ذكرِ هدايتِهما: التَّنويهُ بإسحاقَ ويعقوبَ، وأنَّهما نبيَّان نالا هُدى اللّهِ كهَديِهِ إبراهيمَ، وفيهِ أيضًا

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/157، والآلوسّي، روح المعاني: 4/200.
(2) رضا، تفسير المنار: 7/487.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/573.
(4) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2575.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/170.
(6) الخفاجيّ، عناية القاضي: 4/89.

إبطالٌ للشِّركِ، ودمغٌ لقريشٍ ومُشركي العربِ، وتسفيهٌ لهم بإثباتِ أنَّ الصَّالحينَ المشهورينَ كانوا على ضدِّ مُعتَقَدِهِم"[1].

علَّةُ حذفِ المهديِّ إليه في قولِهِ: ﴿كُلًّا هَدَيْنَا﴾:

ذكرَ الهِدايةَ على وجهِ الإطلاقِ تعميمًا لِمَا هُدوا إليه، فلم "يذكرِ المهديَّ للتَّعميم، أو لظهورِ أنَّه الَّذي أُوتي إبراهيم، وأنَّهما مُقتديان به"[2]، وفي ذلك منَ التَّفخيم في شأنِ هدايتِهِ لهم ما لا يخفى؛ إذ التَّعميمُ دليلُ الاتِّساعِ، والمرادُ به هنا التَّفخيمُ.

حُذِفَ مُتعلَّقُ فعلِ الهدايةِ تعميمًا وتفخيمًا لشأنِ هدايتِهِ لهم

بلاغةُ عطفِ جملةِ: ﴿وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ﴾ على جملةِ: ﴿كُلًّا هَدَيْنَا﴾:

في قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ﴾ عطفَ على الجملةِ قبلَه؛ "أي: وهدينا نوحًا من قبلِهم، وهذا استطرادٌ بذكرِ بعضِ مَن أنعمَ اللهُ عليهم بالهدى، وإشارةٌ إلى أنَّ الهدى هو الأصلُ"[3]، وفيه إشارةٌ إلى تعظيمِ سلفِ إبراهيمَ وتشريفِهم؛ فلمَّا "ذكرَ شرفَ أبناءِ إبراهيمَ ذكرَ شرفَ آبائِه، فذكرَ نوحًا الَّذي هو آدمُ الثَّاني"[4]، وإنَّما ذكرَ نوحًا عطفًا على أبناءِ إبراهيمَ؛ "لأنَّ قومَهُ عبدُوا الأصنامَ، فذكرهُ ليكونَ له به أسوةً، وإمَّا أنَّه لمّا ذُكِرَ إنعامه من جهة الفرعِ؛ ثُنِّي بذكرِ النِّعمةِ من جهةِ الأصلِ"[5]، فنوحٌ عليه السلام هو من أجلِّ أجدادِ إبراهيمَ، وأوَّلِ مَن نهى عن عبادةِ الأصنام[6]، والمرادُ بذلك "بيانُ كرامةِ إبراهيمَ عليه السلام بحسبِ الأولادِ، وبحسبِ الآباءِ"[7]؛ أي: أنَّه تنويهٌ بالأصولِ الأصيلةِ، والفروعِ الأثيلةِ، وهو بيانٌ أنَّ الهدايةَ أصلٌ مُستمرٌّ في السَّادةِ الأنبياءِ، قال تعالى: ﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ﴾ [الأعراف: 58].

تعدادُ الأنبياءِ في سلكِ الهدايةِ تعظيمٌ لشأنِ الهِدايةِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/337.
(2) القونويّ، حاشية على البيضاويّ: 8/176.
(3) القونويّ، حاشية على البيضاويّ: 8/177، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/337.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/573.
(5) الخفاجيّ، عناية القاضي: 4/89.
(6) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/171.
(7) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 13/52.

علَّةُ تقديمِ المفعولِ بهِ على فعلِهِ في: ﴿وَنُوحًا هَدَيْنَا﴾:

قدَّمَ المفعولَ بهِ على الفعلِ اهتمامًا بالمقدَّم، "وانتصبَ ﴿وَنُوحًا﴾ على أنَّه مفعولٌ مُقدَّمٌ على ﴿هَدَيْنَا﴾ للاهتمام"[1]، وقد ذكرَ أنَّ نهجَ إبراهيمَ في الهِدايةِ لم يكنْ جديدًا، بل هو نهجٌ مُتوارثٌ كابرًا عن كابرٍ، ولذلك قال: "وهَدَينَا جدَّهُ نوحًا إلى مثلِ ما هَدينَا له إبراهيمَ وذرِّيَّتَه، فآتيناه النُّبوَّةَ والحكمةَ وهدايةَ الخلقِ إلى طريقِ الرَّشادِ"[2].

قدَّمَ المفعولَ بهِ (نوحًا) للعنايةِ بالمهديِّ

دلالةُ التَّعبيرِ بضميرِ التَّعظيمِ في الفعل ﴿هَدَيْنَا﴾:

أسندَ الهدايةَ إلى ضميرِ التَّعظيم فقال: ﴿هَدَيْنَا﴾؛ تعظيمًا للهدايةِ الَّتي تأتي منَ اللّه تعالى؛ "أي: بما لنا منَ العظمةِ من بين ذلك الجيلِ الأعوجِ"[3]؛ وهدايةُ اللّهِ مَنهجٌ قويمٌ، وطريقٌ مستقيمٌ، وحمايةٌ عُلويَّةٌ، ورعايةٌ كلِّيَّةٌ؛ فمَنِ اهتدى بهدى اللّه فلا يخافُ دركًا، ولا يخشى.

تعظيمُ الهدايةِ لعظمةِ الهادي

فائدةُ التَّعبيرِ بقبليَّةِ هداية نوحٍ:

صرَّحَ في الآية بأنَّ نوحًا كان قد هُدي قبلَهم، وقبليَّةُ نوح معلومةٌ، فلو اكتفى بقولِهِ: ﴿وَنُوحًا هَدَيْنَا﴾ لتمَّ المعنى، فقال: ﴿مِن قَبْلُ﴾ للدَّلالةِ على حالِ نوحٍ، "وفائدةُ ذكرِ هذا الحالِ التَّنبيهُ على أنَّ الهدايةَ مُتأصِّلةٌ في أصولِ إبراهيمَ وإسحاقَ ويعقوبَ"[4]، والتَّأكيدُ على ذلك كقولِكَ: رأيتُه بعيني؛ إذْ ما حكاه السِّياقُ يقينٌ لا يداخلُه ريبٌ.

التَّعبيرُ بهدايةِ نوحٍ قبلَهم دالٌّ على أنَّ الهدايةَ مُتأصِّلةٌ في أصلِهم

دلالةُ قطعِ ﴿قَبْلُ﴾ عنِ الإضافةِ:

في قولِه تعالى: ﴿وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ﴾ حَذفَ المضافَ إليه، وقطعَ ﴿قَبْلُ﴾ عنِ الإضافةِ، فلم يقُل: (من قبلِهم)؛ وذلك "لتراخي

حُذِفَ المضافُ إليه للدَّلالةِ على بُعدِ زمانِهِ عن زمانِهم

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/338.
(2) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 7/181.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/171.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/338.

زمانِهم كثيرًا عن زمانِهِ"[1]، فالهوَّةُ سحيقةٌ بين عصرِ إبراهيمَ وأبيهِ الثَّاني بعد آدمَ الَّذي هو نوحٌ عليه السلام، فكان القطعُ عنِ الإضافةِ مُؤذِنًا ببُعدِ الزَّمنِ، وبصعوبةِ تحديدِ ذلك بالسِّنواتِ، وإنَّما تُرِكَ للذِّهن فقط.

فائدةُ التَّعبيرِ بالحالِ في قولِهِ: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ﴾:

نسبةُ الأنبياءِ لأبوَّةِ إبراهيمَ عليه السلام إظهارٌ لفضلِهِ

كما أنَّ نوحًا كانَ منَ المعلومِ أنَّه قبلَهم، فصرَّحَ بالقبليَّةِ للدَّلالةِ على هدايةِ أصولِهِم، صرَّحَ هنا بأنَّ داودَ من ذرِّيّتِهِ هو معلومٌ أيضًا، فقوله: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ﴾ "حالٌ من داودَ، وفائدةُ هذا الحالِ التَّنويهُ بهؤلاء المَعدُودينَ بشرَفِ أصلِهِم، وبأصلِ فضلِهِم، والتَّنويهُ بإبراهيمَ"[2]، فهو إثباتٌ لمسيرةِ الهدايةِ في هذا الأصلِ من نوحٍ ومرورًا بإبراهيمَ وعبورًا إلى ذرِّيّتِه عليه السلام، و(مِن) في قولِهِ: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ﴾ بيانيَّةٌ، وقد حذفَ الفعلَ (هَدَينا) للإيجاز، والتَّقدير: (وهَدَينا من ذرّيَّتِه داوودَ وسليمانَ)[3].

بلاغةُ تقديمِ الحالِ على المفعولِ به:

قدَّمَ الحالَ ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ﴾ على المفعولِ به ﴿دَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ﴾؛ "للاهتمامِ بشأنِهِ مع ما في المَفاعيلِ من نَوعِ طُولٍ ربَّما يُخِلُّ تأخيرُهُ بتجاوبِ النَّظمِ الكريمِ؛ أي: وهَدَينا من ذرّيَّتِه داودَ وسليمانَ"[4]، فالمرادُ التَّأكيدُ على ديمومةِ الهدايةِ منَ الأصولِ إلى الفروعِ، وليس المرادُ الاهتمامَ بمَن هدي منهم، فلذا قدَّمَ ذكرَ الذُّرِّيَّةِ على اسمِ النَّبيَّينَ عليهم السلام.

قدَّمَ الحالَ على المفعولِ بهِ؛ اهتمامًا بجريانِ الهدايةِ في ذرِّيّتِهِ

مناسبةُ اقترانِ أيُّوبَ ويوسفَ عليهما السلام:

إنَّما ذكرَ أيُّوبَ ويُوسفَ معًا؛ "لاشتراكِهما في الامتحانِ: أيُّوبُ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/171.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/338.
(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/316.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/158.

بالبلاءِ في جسدِه، ونبذِ قومِه له، ويُوسفُ بالبلاءِ بالسّجنِ ولغُربَتِه عن أهلِه، وفي مآلِهما بالسَّلامةِ والعافيةِ، وقدَّم أيُّوبَ؛ لأنَّه أعظَمُ في الامتحان"[1]، وفي ذلك براعةٌ في الخطابِ؛ إذ جُبِلَتِ العقولُ على استدعاءِ المناسبةِ، وتقديمِ الحدثِ الأظهرِ، والبلاءِ الأكبرِ؛ لمراعاةِ التَّدرُّجِ في التَّصوُّرِ والمعالجةِ والحكمِ.

قرنَ بينَ أيُّوبَ ويوسفَ لاشتراكِهما في الصَّبرِ على البلاءِ الشَّديدِ

وجهُ عدمِ اقترانِ إسماعيلَ ويُوسفَ مع أبويهما:

ذكرَ اللّهُ تعالى إسماعيلَ ويُوسفَ عليهما السلام مفصولَين عن أبويهما؛ "إشارةً إلى فراقِ كلٍّ منهما لأبيهِ في الحياةِ، وأنَّه ما حفظَ كلًّا منهما على سُنَنِ الهدى طولَ المَدى إلَّا اللّهُ"[2].

منهجُ السِّياقِ في جعلِ التَّشابهِ في الابتلاءِ من أسبابِ الاقترانِ

مناسبةُ اقترانِ موسى وهارونَ عليهما السلام في الآية:

ذكرَ اللّهُ تعالى موسى وهارونَ عليهما السلام مقترنَين؛ "لاشتراكِهما في الأخوَّةِ، وقدَّمَ موسى؛ لأنَّه كليمُ اللّهِ"[3]، وفي ذلك براعةٌ في الإيرادِ؛ إذ كان موسى وأخوه مُتعاضدَينِ في البلاغِ، متعاونَين في الدَّعوة، وقد اعتادَ السِّياقُ في قَصصِ موسى ودعوتِه أن يذكرَهما معًا؛ لأنَّ أغلبَ ما أُمرا به، وما بادرا له في رحلتِهما الدَّعويَّةِ الشَّاقَّةِ كانا يقومان به معًا، ونموذجُ ذلك واضحٌ في قولِه تعالى على لسانِ موسى عليه السلام: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي لَآ أَمۡلِكُ إِلَّا نَفۡسِي وَأَخِيۖ فَٱفۡرُقۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ ٢٥﴾ [المائدة: 25].

علاقةُ النَّسبِ تؤهِّلُ القريبينِ لاقترانٍ في السِّياقِ

بلاغةُ الاعتراضِ بأسلوبِ التَّشبيهِ في ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾:

قولُهُ جلَّ شأنُهُ: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾، جملةٌ اعتراضيَّةٌ "بينَ المتعاطفاتِ، والواوُ للحالِ؛ أي: وكذلك الوَهبُ الَّذي وهبنا لإبراهيمَ، والهَديُ الَّذي هَدَينا ذُرِّيَّتَهُ نَجزي المُحسنينَ مثلَه"[4]، وفائدةُ هذا الاعتراضِ: تقريرُ ما قبلَه[5]، كما أنَّه "وعدٌ منَ اللّه عزّ وجلّ

اعترضَ بينَ المتعاطفاتِ لتقريرِ صفةِ الإحسانِ وتأكيدِ عظمِ الجزاءِ

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/574، والهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 8/454.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/172.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/574.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/340.
(5) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/158، والآلوسّي، روح المعاني: 4/202.

لَمن أحسنَ في عملِهِ، وترغيبٌ في الإحسانِ"[1]، كما أنَّ فيه معاجلةً ببيانِ سببِ العطاءاتِ الإلهيَّةِ؛ فكلُّ مَن أحسنَ كان لهُ منَ العطاءِ ما يلائمُ مقامَهُ في الإحسانِ، فقدرُ العطاءِ على قدرِ المقامِ.

دلالةُ حرفِ التَّشبيهِ في ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾:

دلالةُ الكافِ على التَّشبيهِ، بوصفهِ دالًّا على التَّماثلِ

الكافُ في قولِهِ تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾، بمعنى: (مِثْلَ) دالٌّ على المشابهةِ؛ "أي: ونجزي المُحسنينَ جزاءً مِثلَ ما جَزَينا إبراهيمَ برفعِ درجاتِهِ، وَكَثْرَ أولادُهُ والنُّبوَّةُ فيهم"[2]، والكافُ وصفٌ للمصدرِ المحذوفِ[3]؛ لبيانِ نوعِ الجزاءِ؛ أي: هو جزاءٌ كجزاءِ إبراهيمَ عليه السلام، وهذا يشيرُ إلى عظمةِ الجزاءِ باعتبارين: **الأوَّل**: أنَّه جعلَ جزاءَ إبراهيمَ مثالًا ومَرجعًا، يُضرَبُ به المثلُ في حُسنِ الجزاءِ وعظمتِهِ، **والثَّاني**: أنَّه لمّا كانَ جزاءُ إبراهيمَ بهذه الدَّرَجَةِ، فإنَّ الجزاءَ الَّذي يشابُهُهُ يدلُّ على عظمِ مَن سِيقَ الجزاءُ لهُ.

دلالةُ اسمِ الإشارةِ البعيدِ في: ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾:

الإشارةُ إلى ما نالوه منَ الحجَّةِ والهِدايةِ والبركةِ في الذُّرِّيَّةِ

اسمُ الإشارةِ في قولِهِ تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾، يشيرُ إلى "الجزاءِ من إيتاءِ الحجَّةِ، وهبةِ الأولادِ الخَيِّرينَ نَجزي مَن كانَ مُحسِنًا"[4]، فالمشارُ إليه هو المصدرُ المتصيَّدُ منَ الكلامِ السَّابقِ، "وهو عبارةٌ عمَّا أُوتِيَ المذكورونَ من فنُونِ الكَرامَاتِ"[5]، آثر التَّعبيرَ باسمِ الإشارةِ الدَّالِّ على البُعدِ، إيذانًا بعلوِّ صفتِهِ وطبقتِهِ[6]، ولو قالَ: (كهذا نجزي المُحسنينَ) لفاتَ هذا المعنى، والسِّياقُ يقتضي تفخيمَ الجزاءِ، والأنسبُ لهذه الغايةِ الإشارةُ بالبُعدِ.

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/316 - 317.
(2) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 2/171.
(3) السّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 5/28.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/574.
(5) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/158.
(6) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/158.

علَّةُ تقديمِ المفعولِ المطلقِ المحذوفِ في ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾:

التَّقديمُ لحصرِ جزائِهم في الجزاءِ العظيمِ، لا جزاءَ أقلَّ شأنًا منه

أصلُ الكلامِ: نجزي المحسنين جزاءً مثلَ ذلك الجزاءِ، ولكنَّه قُدِّم على الفعلِ لإفادةِ القصْرِ، والمعنى: وذلكَ الجزاءَ العظيمَ نجزي المُحسنينَ، لا جزاءً آخرَ أدنى منهُ[1].

نكتةُ إسنادِ المضارعِ إلى ضميرِ العظمةِ في ﴿نَجۡزِي﴾:

إظهارُ عظيمِ الجزاءِ واستمرارِهِ وتجدُّدِهِ، تدلُّ عليه نونُ العظمةِ

عبَّر ﷻ عن مجازاتِه المُحسنينَ بالفعلِ المضارعِ بصيغةِ الجمعِ؛ لأنَّه أرادَ أنَّ ذلك الجزاءَ مُتحقِّقٌ بعظمتِنا، وأنَّه ليس مُنقطعًا، بل هو مُتجدِّدٌ مُستمرٌّ، ولو قالَ: (أرفع) لفاتَ معنى التَّعظيم، واللَّامُ في قولِهِ: ﴿ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ هي لامُ العهدِ[2]، فيكون المرادُ بالمُحسنين: "أولئك المَهديِّينَ من ذرّيَّةِ نوحٍ أو من ذرّيَّةِ إبراهيمَ. فالمعنى: أنَّهم أحسَنُوا، فكان جَزاءُ إحسانِهم أن جَعلناهم أنبياءَ"[3].

سرُّ الإظهارِ في مَوضعِ الإضمارِ في لفظ ﴿ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾:

الغايةُ منَ الإظهارِ التَّنصيصُ على أعلى صفاتِ الموصوفين

وضعُ الظَّاهرِ موضعَ المضمرِ فيه تصريحٌ بصفتِهم الَّتي نالوا بها ذلك الإكرامَ، ولو قالَ: (كذلك نجزيهم) لَمَا ظهرَ وصفُ الإحسانِ؛ فوضعَ الإظهارَ موضعَ الإضمارِ "للثَّناء عليهم بالإحسانِ الَّذي هو عِبارةٌ عنِ الإتيانِ بالأعمالِ الحَسَنةِ على الوجهِ اللَّائقِ الَّذي هو حُسنُها الوَصفيُّ المُقارنُ لحُسنِها الذَّاتيِّ"[4].

المتشابِهُ اللَّفظيُّ:

بينَ ذكرِ الهدايةِ في سورةِ الأنعامِ، وذكرِ الصَّلاحِ في سورةِ الأنبياءِ

قولُهُ تعالى: ﴿وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۚ كُلّٗا هَدَيۡنَاۚ﴾ [الأنعام: 84]، وقولُهُ: ﴿وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ نَافِلَةٗۖ وَكُلّٗا جَعَلۡنَا صَٰلِحِينَ ٧٢﴾ [الأنبياء: 72]، لِمَ خُصَّت كلُّ آيةٍ بما فيها بعدَ قولِهِ: ﴿وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/158.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/158، والآلوسّي، روح المعاني: 4/202.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/340.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/158، والآلوسّي، روح المعاني: 4/202.

وَيَعۡقُوبَۚ﴾؟ والجواب: أنَّ آيةَ الأنعامِ بُدِئَت بقولِهِ: ﴿وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۚ﴾، فلمَّا كان قولُهُ: ﴿كُلّٗا هَدَيۡنَاۚ﴾ شديدَ الاتِّصال بما سبقه؛ لأنَّه أشبهُ بالتَّأكيد له؛ ناسبَه الفصلُ، ولمّا كانَ يسبقُ ذلك قولُهُ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ﴾، وكان إبراهيمُ عليه السلام قد طلبَ الهدايةَ من ربِّه؛ ناسبَه قولُه: ﴿كُلّٗا هَدَيۡنَاۚ﴾، أمَّا آيةُ الأنبياء فيسبقُها قوله: ﴿وَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيۡدٗا فَجَعَلۡنَٰهُمُ ٱلۡأَخۡسَرِينَ ٧٠ وَنَجَّيۡنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَا لِلۡعَٰلَمِينَ ٧١﴾ [الأنبياء: 70 - 71]، فلمَّا كان ذلك جزاءً وفاقًا، لما أرادَه به أعداؤه، وكانتِ الهبةُ زيادةً على ذلك، ناسبَه ذكرُ نافلةٍ، ولمّا كان الجمعُ بين النِّعمِ أدلَّ على زيادةِ الإنعامِ ناسبَه العطفُ بالواوِ، ولمّا كان الكيدُ لأولياءِ اللّٰه إفسادًا ناسبَه أن تكونَ الذُّرِّيَّةُ صالحةً بقولِهِ: ﴿وَكُلّٗا جَعَلۡنَا صَٰلِحِينَ ٧٢﴾ [الأنبياء: 72].

التَّشابُه في ذكرِ جزاءِ المُحسنينَ في سورتي الأنعام والصَّافّات

قولُهُ تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٨٤﴾ [الأنعام: 84]، وقولُهُ تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١١٠﴾ [الصّافّات: 110] لمَ خُصَّت كلُّ آيةٍ بما فيها منَ الفصلِ والوصلِ؟ والجوابُ عن ذلك أنَّ آيةَ الأنعامِ بدأَت بقولِهِ: ﴿وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۚ كُلّٗا هَدَيۡنَاۚ وَنُوحٗا هَدَيۡنَا مِن قَبۡلُۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَۚ﴾؛ فلمَّا كانَ التَّقديرُ كذلك جزيناهم لإحسانِهِم؛ ناسبَه العطفُ عليهِ بما يفيدُ العمومَ بقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾، أمَّا آيةُ الصَّافّات فيسبقُها قوله: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ ١٠٩﴾ [الصّافّات: 109]؛ فلمَّا كان بين هذا القولِ، وقولِه: ﴿كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [الصّافّات: 110] اختلافٌ في الأسلوبِ؛ لأنَّ القولَ الأوَّلَ خبريٌّ لفظًا إنشائيٌّ معنًى، والقول الآخر خبريٌّ لفظًا؛ ناسبَه الفصلُ بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١١٠﴾ [الصّافّات: 110].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(الهبة) و(العطاء):

الهبةُ: تمليكُ الشَّيء لغيرِك بغير عوضٍ، ومن غيرِ ثمنٍ، والعطاءُ ليس كذلك

"الإعطاءُ: هو اتِّصالُ الشَّيءِ إلى الآخذِ له؛ ألَا ترى أنَّك تعطي زيدًا المالَ ليردَّه إلى عمرو، وتعطيه ليتَّجرَ لك به، والهبةُ تقتضي التَّمليكَ؛ فإذا وهبتَه له فقد ملَّكتَه إيَّاه"[1]، والهبةُ: تمليكُ الشَّيءِ لغيرِكَ بغيرِ عوضٍ، ومن غير ثمنٍ، ومن غير استحقاقٍ عليه، فهي تفضُّلٌ منَ اللّهِ على خلقِهِ[2]، فكانَ التَّعبيرُ في الآية بالهبةِ أدقَّ؛ لأنَّه محضُ عطاءٍ منَ اللّهِ تعالى بلا وجوبٍ عليه تعالى، وبلا ثمنٍ، ومن غير استردادٍ، بل على وجهِ التَّمليكِ.

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 167.

(2) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (وهب)، والرّاغب، تفسير الرّاغب: 2/432.

﴿وَزَكَرِيَّا وَيَحۡيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلۡيَاسَۖ كُلّٞ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ٨٥﴾ [الأنعام: 85]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

ذكرُ الأنبياءِ في السِّياقِ بحسبِ الأحداثِ

"لمّا كانَ المَذكُورانِ قبلَهُ ممَّن سلَّطَهُما على الملوكِ، أتبعَهُما مَن سلَّطَ المُلُوكَ عليهما بالقتلِ، فقال: ﴿وَزَكَرِيَّا وَيَحۡيَىٰ﴾، ثمَّ أتبعَهُما مَن عاندَهُما المُلُوكُ، ولم يُسَلَّطوا عَلَيهما، وأدامَ اللهُ سبحانَه حياتَهُما إلى أن يُريدَ سبحانه، فقالَ: ﴿وَعِيسَىٰ وَإِلۡيَاسَۖ﴾"[1].

المَعْنى الإجْماليُّ:

ذكرَ أربعةً منَ الأنبياءِ الصَّالحينَ، وهم رسلُ اللهِ إلى أقوامِهم

يخبرُ اللهُ تعالى قائلا أنَّنا "وفَّقنا كذلك كُلًّا من زكريَّا ويحيى وعيسى ابن مريمَ وإلياسَ عليهم السلام؛ وكلُّ هؤلاء الأنبياءِ منَ الصَّالحينَ اختارَهم اللهُ رسلًا"[2].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

وجهُ ذكرِ الأنبياءِ ﴿وَزَكَرِيَّا وَيَحۡيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلۡيَاسَۖ﴾ معًا:

اشتركَ الأنبياءُ الأربعةُ في صفةِ الزُّهدِ، فاقترنوا مع بعضِهم في السِّياقِ

قولُهُ تعالى: ﴿وَزَكَرِيَّا وَيَحۡيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلۡيَاسَۖ﴾، ذكرَ الأنبياءَ الأربعةَ عليهم السلام معًا؛ "لاشتراكِهم في الزُّهدِ الشَّديدِ والإعراضِ عنِ الدُّنيا"[3]، وكلُّهم ذاقَ من مرارةِ الحياةِ، وشظفِ العيشِ، ومناوأةِ المنكِرينَ والكافرينَ، وعدمِ وجودِ البيئةِ المواتيَةِ لنشرِ دعوتِهم، والبلاغِ عن ربِّهم، فكان التَّنويهُ بهم في سياقٍ واحدٍ، وكانَت وسيلةُ الرَّبطِ بينهم في التَّركيبِ الواحدِ هي الواو العاطفة.

علَّةُ ترتيبِ ذكرِ الأنبياءِ في ﴿وَزَكَرِيَّا وَيَحۡيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلۡيَاسَۖ﴾:

جاءَ التَّرتيبُ في قولِهِ تعالى: ﴿وَزَكَرِيَّا وَيَحۡيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلۡيَاسَۖ﴾؛

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/175.
(2) جماعة منَ العلماء، المختصر في تفسير القرآن الكريم: 1/138.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/574، والهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 8/454.

اعتبارُ الزَّمن في التَّرتيبِ، وتقديمُ عِيسَى على إلياسَ للأفضليَّةِ

مراعاةً لأكثرِ مِن اعتبارٍ، فبدأَ "بزكريّا ويحيى لِسَبقِهما عيسى في الزَّمانِ، وقدَّمَ زكريَّا؛ لأنَّه والدُ يَحيى، فهو أصلٌ ويَحيى فرعٌ، وقدَّمَ عيسى؛ لأنَّه صاحبُ كتابٍ"[1].

فائدةُ الاعتراضِ بجملة ﴿كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾:

في الاعتراضِ دفعٌ للسَّآمَةِ، ومبادرةٌ بالثَّناءِ على أولي الكرامةِ

قولُهُ تعالى: ﴿كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ جملةٌ اعتراضيَّةٌ[2]، وهذا الاعتراضُ "جيءَ به للثَّناءِ عليهم بالصَّلاحِ"[3]، ويُضافُ إلى فائدتِهِ: أنَّ الاعتراضَ خلالَ العطفِ بينَ أسماءِ الأنبياءِ، يدفعُ عارضَ السَّآمةِ والملِ برتابةِ العطفِ؛ كسرًا لنسقِ العطفِ بالمفرداتِ؛ ودليلُ ذلك أنَّ الوصفَ بالصَّالحينَ لا يختصُّ" بهؤلاءِ الأربعةِ، بل يَعُمُّ جميعَ مَن سبقَ ذكرُهُ منَ الأربعةَ عَشَرَ نَبيًّا"[4]، فذكْرُ وصفٍ يَعُمُّ الأنبياءَ المذكورينَ جميعًا بينَ سردِ تلك الأسماءِ الكثيرةِ؛ إنَّما هو لدفعِ ما قد يطرأُ من مللٍ جرَّاءَ رتابةِ الكلامِ.

حذفُ المضافِ إليه في قولِهِ: ﴿كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾:

حَذفُ المضافِ إليه لإيجازٍ، واحتمالُ انصرافِ الحكمِ إلى كلِّ النَّبيّين

حَذَفَ المضافَ إليهِ، وأقامَ التَّنوينَ مقامَه، "والتَّنوينُ في (كلٌّ) عِوَضٌ عنِ المضافِ إليه؛ أي: كلُّ هؤلاء المَعدُودِينَ؛ وهو يَشمَلُ جَميعَ المَذكورين؛ إسحاقَ ومَن بعدَهُ"[5]، والتَّقديرُ: "كلُّ واحدٍ من أولئك المذكُورين"[6].

معنى (اللَّام) في لفظ ﴿ٱلصَّٰلِحِينَ﴾:

الصَّلاحُ صفةٌ محمودةٌ لعامَّةِ النَّاسِ؛ لكنْ مجَّردُ الصَّلاح لا يُوصَفُ به الأنبياءُ؛ إذْ هُمُ الكُمَّلُ في الصَّلاح عليهم السلام، فلذا قيَّدَ بعضُ

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/574، والهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 8/454.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/341.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/158، والآلوسّي، روح المعاني: 4/203.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/575.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/341، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2578.
(6) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/158.

المُفسِّرينَ الصَّلاحَ بكونهِ الصَّلاح الكامل، وهو الإتيانُ بما ينبغي، والتَّحَرُّزُ عمَّا لا ينبغي[1]، "وقد وصفَهُم اللهُ تعالى بوصفِ الصَّلاحِ الكاملِ؛ لأنَّه ذهبَت عنهم كلُّ أدرانِ المادّيَّةِ الدَّاعيةِ إلى النِّزاعِ في الأرض"[2]، والمعنى: "أنَّ كلَّ واحدٍ مِن أولئك المذكورين، هو منَ الكاملينَ في الصَّلاحِ"[3].

الـــــلَّام في الصَّالحينَ لامُ الكمالِ؛ لأنَّهم أنبياءُ مُصْطَفَوْنَ منَ البشر

سرُّ العدولِ عنِ التَّعبيرِ بالإحسانِ إلى التَّعبيرِ بالصَّلاحِ:

عدلَ عنِ التَّذييلِ بالإحسانِ لأنَّه ذُكِرَ قريبًا، وآثرَ التَّذييلَ بالصَّلاحِ لأنَّ المذكورينَ هنا مشهورونَ بالزُّهدِ؛ وهو يناسبُ الوصفَ بالصَّلاحِ؛ فبعد أن ذكرَ الأنبياءَ الأربعةَ ﷺ في قولهِ تعالى: ﴿وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ﴾ معًا؛ "لاشتراكهم في الزُّهدِ الشَّديدِ، والإعراضِ عنِ الدُّنيا"[4]، عقَّبَ عليهم ما يناسبُ الزُّهدَ، وهو الوصفُ بالصَّلاحِ، فقالَ تعالى ذكرُه: ﴿كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾.

الـــصَّـــلاحُ عـلى كـمـالـهِ ورقـائـهِ وصـفٌ لـلـصَّـالـحـينَ مـنَ الأنـبـيـاءِ والمرسلينَ

(1) القونويّ، حاشية على البيضاويّ: 8/178.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2578.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/158.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/574، والهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 8/454.

﴿وَإِسۡمَٰعِيلَ وَٱلۡيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطٗاۚ وَكُلّٗا فَضَّلۡنَا عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ٨٦﴾

[الأنعام: 86]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الأنبياءُ الَّذين لم يكن لهم شأنٌ مع الملوك

بعد أن ذكرَ مِنَ الأنبياءِ مَن كان لهم مواقفُ وشأنٌ ما معَ الملوكِ، "أتبعَهم مَن لم يكُن بينَهُما وبينَ الملوكِ أمرٌ، وهدى بهِما مَن كان بينَ ظَهرانَيهِ، فقالَ: ﴿وَإِسۡمَٰعِيلَ وَٱلۡيَسَعَ﴾"[1].

المَعْنى الإجْمالِيُّ:

أربعة أنبياءَ آخرين ممَّن فضَّلَ اللهُ على العالَمينَ

يخبرُ اللّهُ تعالى من تمامِ نعمتِهِ أنَّه هدى "إسماعيلَ واليسعَ ويونسَ ولوطًا عليهم السلام، وكلُّ هؤلاءِ الأنبياءِ وعلى رأسِهم النَّبيُّ محمَّد ﷺ، فضَّلناهم على العالَمين"[2].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

مناسبةُ اقترانِ الأنبياءِ في قولِهِ: ﴿وَإِسۡمَٰعِيلَ وَٱلۡيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطٗاۚ﴾:

قرنَ بينَ الأنبياءِ الأربعةِ لاشتراكِهم بعدمِ بقاءِ أتباعٍ لهم

ذكرَ اللّهُ تعالى الأنبياءَ الأربعةَ عليهم السلام مُقترنينَ معًا؛ "لأنَّهم لم يبقَ لهم منَ الخلقِ أتباعٌ ولا أشياعٌ"[3]، ذلك أنَّ وجودَ دعوتِهم لم ينتقلْ إلى أشياعِهم من بعدِهم، فاندثرَت دعوتُهم، وما بقي لهم ذكرٌ إلَّا في القرآنِ، باعتبارِ شهرتِهم في زمانِهم، لكنَّ مساحةَ تأثيرِهم من بعدِهم كانَت معدومةً، فلم يبقَ لهم أتباعٌ يذكرون.

علَّةُ تأخيرِ ذكرِ إسماعيلَ بعدَ عيسى وغيره، وهو سابقٌ لهم:

أخَّرَ ذكرَ إسماعيلَ إلى هنا؛ لاستطرادِ السِّياقِ بذكرِ ذرِّيَّةِ إسحاقَ

لمّا ذكرَ إسحاقَ أعقبَهُ بذكرِ ذرِّيَّةِ إبراهيمَ منه، فلمَّا انتهى من ذلك ذكرَ إسماعيلَ، في قوله تعالى: ﴿وَإِسۡمَٰعِيلَ وَٱلۡيَسَعَ وَيُونُسَ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/175 - 176.
(2) جماعة منَ العلماء، المختصر في تفسير القرآن الكريم: 1/138.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/576.

﴿وَلُوطًا﴾، فهو إنَّما "أخَّرَ ذكرَهُ إلى هنا؛ لأنَّه ذكرَ إسحاقَ، وذكرَ أولادَهُ من بعدِهِ على نسقٍ واحدٍ، فلهذا السَّببِ أخَّرَ إسماعيلَ إلى هنا"[1].

فائدةُ الاعتراضِ بجملة ﴿وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾:

اعتراضٌ للتَّصريحِ بإنعامِ اللهِ تعالى عليهم بتفضيلِهم بأنعمِهِ

الجملةُ مُعترِضَةٌ، "والجملةُ اعتراضٌ كأختِها"[2]، جيءَ بهذا الاعتراضِ للتَّصريحِ بإنعامِ اللهِ تعالى عليهم، بتفضيلِهم بما شاءَ منَ الحججِ، والنُّبوَّةِ، وكمالِ الصَّلاحِ، وهي أنعمٌ جليلةٌ وأثيرةٌ، والتَّذكيرُ بالتَّفضيلِ على العالَمينَ يدخلُ في سياقِها، ويُبرِزُ النِّعمَ ويجلِّيها.

غرضُ تقديمِ ﴿وَكُلًّا﴾ على الفعلِ ﴿فَضَّلْنَا﴾:

تقديمُ المفعولِ به للاهتمامِ، واستقلالِ كُلٍّ بالتَّفضيلِ على عصرِهِ

قولُهُ جلَّ شأنُه: ﴿وَكُلًّا فَضَّلْنَا﴾، جاءَ المفعولُ به مُقدَّمًا على فعلِهِ، وأصلُ الكلامِ: (فضَّلنا كلًّا)، فقدَّمَ المفعولَ به على الفعلِ للنَّصِّ على أنَّ التَّفضيلَ شملَهم فردًا فردًا؛ أي: كلُّ واحدٍ منهم فضَّلناه، فلم يخرجْ أيُّ واحدٍ عنِ التَّفضيلِ، وفيه أنَّ التَّفضيلَ كانَ لكلِّ واحدٍ بالأصالةِ لا بالتَّبعيَّةِ، فليس تفضيلُ أحدٍ منهم لكونهِ ابنَ أحدِ المفضَّلين، بل لاستحقاقِهِ ذلك؛ وفي ذلك إعلامٌ بمكانتِهِم وعلوِّ شأنِهِم.

حذفُ المضافِ إليه في: ﴿وَكُلًّا﴾:

حَذْفُ المضافِ إليهِ تعويلًا على العلمِ به ولغرضِ الإيجاز

حذفَ المضافَ إليه، ودلَّ عليه بالتَّنوين؛ "أي: كلُّ أولئك المذكورين من إسحاقَ إلى هنا"[3]، هم مفضَّلونَ، والغرضُ من ذلك الإيجازُ، مع أنَّ المعنى لقولِهِ: ﴿وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾: "أي: كلُّ واحدٍ من هؤلاءِ فُضِّلَ على عالَمِه الَّذي كانَ يعيشُ فيه، إذ كان رسولَ اللهِ المبعوثَ لهدايةِ عالَمِه هذا، وهو بهذهِ الصِّفةِ صفوةُ هذا العالم، والإنسانُ المتخيَّرُ لرسالةِ السَّماءِ"[4].

(1) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 8/455.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/159، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/343.
(3) القونويّ، حاشية على البيضاويّ: 8/179، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/343.
(4) الخطيب، التّفسير القرآنّي للقرآن: 4/229.

فائدةُ التَّعبيرِ بـ ﴿وَكُلًّا فَضَّلْنَا﴾:

عبَّرَ عن تفضيلِهم بلفظِ (وكُلًّا) لإثباتِ الحكمِ لكلِّ واحدٍ منهم

أرادَ تعالى أن يخبرَ أنَّه فضَّلَ كلَّ واحدٍ منهم، فعبَّر عن ذلك بـ (كلٍّ)؛ "أي: وكلَّ واحدٍ من أولئك المذكورين ﴿فَضَّلْنَا﴾ بالنُّبوَّةِ لا بعضَهم دونَ بعضٍ"[1]؛ لأنَّ (كلًّا) يدلُّ على الاستغراقِ، "وحكمُ الاستغراقِ أن يَثبُتَ الحُكمُ لكلِّ فردٍ فردٍ، لا للمَجموعِ، والمرادُ تفضيلُ كلِّ واحدٍ منهم على العالَمِينَ من أهلِ عصرِهِ، عدا مَن كانَ أفضلَ منه، أو مُساويًا لهُ"[2].

دلالةُ إسنادِ الفعلِ إلى ضميرِ العظمة في ﴿فَضَّلْنَا﴾:

إسنادُ التَّفضيلِ إليهِ تعالى بصيغةِ التَّعظيمِ؛ لتعظيمِ التَّفضيلِ

عظَّمَ التَّفضيلَ بإسنادِهِ إليه تعالى، بضميرِ الجمعِ الدَّالِّ على التَّعظيمِ في قولِهِ تعالى: ﴿فَضَّلْنَا﴾؛ "أي: بما لنا منَ العظمةِ بتمامِ العلمِ وشمولِ القُدرةِ"[3]، وفي ذلك تعظيمٌ لتفضيلِهِ لهم، وإشارةٌ إلى أنَّه لا تفضيلَ بعدَهُ.

دلالةُ اللَّامِ في قولِهِ: ﴿عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ على الاستغراقِ المقيَّدِ:

تفضيلُ لوطٍ على العالَمِين في زمانِهِ، لا يعني: أنَّه أفضلُ من إبراهيمَ

دلَّتِ اللَّامُ في قولِهِ: ﴿عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ على "الاستغراقِ العُرفيِّ[4]، فقد كان لوطٌ في عصرِ إبراهيمَ، وإبراهيمُ أفضلُ منه"[5]، فهو مُفضَّلٌ على العالَمِين في زمانِهِ؛ أي: العالَمِين من غيرِ إبراهيمَ، فإنَّ تفضيلَ لوطٍ لا يدلُّ على أنَّه أفضلُ من إبراهيمَ، حيث إنَّهما في عصرٍ واحدٍ، والنَّصُّ يجب أن يُستثنَى منه ما لا يدخلُ في دائرةِ الاستغراقِ.

---

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/158، والآلوسّي، روح المعاني: 4/203.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/343.

(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/177.

(4) لام الاستغراق، وهو قسمان: إمَّا حقيقيّ أو عرفيّ، ولأنَّه إن أشبَر بها للحقيقة في ضمن جميعِ الأفرادِ الَّتي يتناولُها اللَّفظُ بحسب اللّغةِ، فهي للاستغراقِ الحقيقيِّ، وإن أشبرَ بها للحقيقةِ في ضمن جميعِ الأفرادِ الَّتي يتناولُها اللَّفظُ بحسب العرفِ، فهي للاستغراقِ العرفيِّ، كقوله تعالى: ﴿وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ﴾، أي: سحرةُ مملكتِهِ، لا كلُّ سَحَرَة العالم. يُنظر: الدّسوقيّ، حاشية على مختصر المعاني: 1/543 - 544.

(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/343.

دلالةُ العطفِ بالواوِ بين أسماءِ الأنبياءِ مطلقَ الجمع:

عطفُ الأنبياءِ بحرفِ الواوِ جامعٌ لهم في حكمِ التَّفضيلِ

التَّرتيبُ بذكرِ الأسماءِ، إمَّا بحسبِ الفضلِ والدَّرجةِ، أو بحسب الزَّمانِ والمدَّةِ، والتَّرتيبُ بحسب هذين النَّوعين غيرُ مُعتَبرٍ في هذه الآيةِ؛ لأنَّ "حرفَ الواوِ لا يُوجِبُ التَّرتيبَ، وأحدُ الدَّلائلِ على صحَّةِ هذا المطلوبِ هذه الآيةُ، فإنَّ حرفَ الواو حاصِلٌ هاهنا، مع أنَّه لا يُفيدُ التَّرتيبَ البَتَّةَ، لا بحَسَبِ الشَّرفِ، ولا بحسَبِ الزَّمانِ"[1].

السِّرُّ بذكرِ الأنبياءِ بهذا التَّرتيبِ في مجملِ الآيةِ الكريمةِ:

جاءَ ذكرُ الأنبياءِ مُرتَّبًا لاعتباراتٍ عديدةٍ، تُفهَمُ بالتَّأويلِ لا بالتَّقييدِ

وقد التمسَ بعضُ العلماءِ حكمةً لهذا التَّرتيبِ، فذكروا أنَّ المناسبةَ في ترتيبِهم أنَّ إسحاقَ ويعقوبَ موهبةٌ لإبراهيم، وهما أبٌ وابنُه، فلمَّا ذكرَهما أردفَ بذكرِ نبيِّين من ذرِّيَّتِهما، وهما أبٌ وابنُه؛ داوود وسليمان، وبدأَ بهما؛ لأنَّهما نالا مجدي الدُّنيا والآخرة، بالنُّبوءَةِ والمُلكِ، ثمَّ أردفَ بذكرِ نبيَّين تماثلا في الضُّرِّ والصَّبرِ؛ أيُّوب ويُوسف، ثمَّ بذكرِ رسولَين أخَوَين: موسى وهارون، فهؤلاء السِّتَّةُ شمَلَتهم الفاصلةُ الأولى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾، ثمّ بذكرِ نَبِيَّيۡنِ؛ أبٍ وابنِه؛ في قوله: ﴿وَزَكَرِيَّا وَيَحۡيَىٰ﴾، فناسبَ أن يُذكرَ بعدَهما رسولانِ لا ذُرِّيَّةَ لهما: عيسى وإلياس، وهما مُتماثلان في أنَّهما رُفِعا إلى السَّماء، وابتدِئَ بعيسى عطفًا على يحيى؛ لأنَّهما قريبان ابنا خالةٍ، ولأنَّ عيسى رسولٌ، وإلياسَ نبيٌّ غيرُ رسولٍ، وهؤلاءِ الأربعةُ تضمَّنَتهُمُ الفاصلةُ الثَّانيةُ: ﴿كُلّٞ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾، وعطفَ اليسعَ لأنَّه خليفةُ إلياسَ، وأدمجَ بينَه وبينَ إلياسَ إسماعيلَ تنهيةً بذكرِ النَّبيِّ الَّذي إليه ينتهي نسبُ العربِ من ذرِّيَّةِ إبراهيمَ، وخُتِمُوا بيونسَ ولوطٍ؛ لأنَّ كلًّا منهما أُرسِلَ إلى أمَّةٍ صغيرةٍ، وهؤلاءِ الأربعةُ تضمَّنَتهم الفاصلةُ الثَّالثةُ: ﴿وَكُلّٗا فَضَّلۡنَا عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾[2]،

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 13/52.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/347 - 348، والمراغيّ، تفسير المراغيّ: 7/182 - 183.

وبهذا يظهرُ أنَّ القرآنَ قد ذكرَهُم "فيما يبدو مجموعاتٍ ظاهرةً، تجمعُ كلَّ مجموعةٍ منها صفةٌ بارزةٌ فيها"[1].

نكتةُ الاعتراضِ بالصِّفاتِ خلال سردِ الأسماءِ:

تضمينُ مسردِ الأسماءِ صفاتِ الفضلِ والثَّناءِ، نفيٌ للسَّآمةِ

وردَ في الآياتِ ثمانيةَ عشرَ اسمًا منَ الأنبياءِ ﷺ، وقد تخلَّلَ تلك الأسماءَ ثلاثةُ اعتراضاتٍ، وهي قولُهُ: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾، وقولُهُ: ﴿كُلّٞ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾، وقولُهُ: ﴿وَكُلّٗا فَضَّلۡنَا عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، ولم يجمعْ تلك الاعتراضاتِ في آخرِ ذكرِ الأسماءِ تعقيبًا عليها، بل جعلَها ضمنَ ذلك السَّردِ تنويعًا للكلامِ، وقصدًا لدفعِ الملِ والسَّآمةِ النَّاشئةِ عن رتابةِ التَّعبيرِ المتولِّدِ منَ الاكتفاءِ بذكرِ الأسماءِ الكثيرةِ، فعدلَ القرآنُ عن ذلك لذلكَ.

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2575.

﴿وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ ۖ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾﴾ [الأنعام: 87]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

المناسبةُ بين ذكرِ أفضليَّةِ الأنبياءِ، وبيانُ تعميمِ الهدايةِ والاستقامةِ في غيرِهم

قالَ البقاعيُّ في مناسبةِ الآيةِ: "لمّا نصَّ سبحانَهُ على أولئكَ الأنبياءِ، وختمَ بتفضيلِ كلٍّ على العالَمين؛ أتبعَه على سبيلِ الإجمالِ أنَّ غيرَهُم كان مَهديًّا، وأنَّ فَضلَ هؤلاءِ عِلَّةُ النَّصِّ لهم على أسمائِهم، فقالَ تَرغيبًا في سُلوكِ هذا السَّبيلِ بكثرةِ سالِكيهِ، وحَثًّا على منافَستِهم في حُسنِ الاستقامةِ عليه والسُّلوكِ فيهِ: ﴿وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ ۖ﴾"[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ﴾: اجتبى يجتبي، اجتباءً، فهو مُجتبٍ، والمفعولُ مجتبًى، اجتبى الشَّيءَ: اصطفاهُ واختارَهُ لنفسِهِ، قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ﴾ [يوسف: 6][2]، والاجتباءُ: الجَمعُ على طريقِ الاصطفاءِ، قال ﷻ: ﴿فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ﴾، واجتباءُ اللّهِ العبدَ: تخصيصُهُ إيَّاه بفيضٍ إلهيٍّ، يتحصَّلُ له منه أنواعٌ منَ النِّعَمِ بلا سعيٍ منَ العبدِ، وذلك للأنبياءِ، وبعضِ مَن يُقاربُهُم منَ الصِّدِّيقينَ والشُّهداءِ، كما قال تعالى: ﴿وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[3].

2) ﴿وَهَدَيْنَٰهُمْ﴾: هداهُ للسَّبيلِ وإلى السَّبيلِ هِدايةً وهدًى، وهداه منَ الضَّلالةِ فاهتدى، وهَدَى هَدْيَ فلان: سار سيرتَه... وما أحسنَ هَديَهُ! ورأى هَديَ أمرِهِ، وهِديَةَ أمرِهِ: جهتَه، واستهديتُه

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/180.
(2) أحمد مختار عمر، معجم اللّغة العربيّة المعاصرة: (جبو).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة (جبي)، والرّاغب، المفردات: (جبى).

فهداني، وهو لا يتهدَّى لذلك[1]، وَفِي الحَدِيث: «اهدوا هَدْيَ عمَّار»[2]. وقالَ الشَّاعر:

ويُخْبِرُني عن غائِبِ المَرْءِ هَدْيُهُ *** كَفَى الهَدْيُ عَمّا غَيَّبَ المَرْءُ مُخْبِرا[3]

❁ المَعْنى الإجْمالِيُّ:

بيانُ هدايةِ أقاربِ الأنبياءِ لطريقِ الهِدايةِ، وتأكيد التزامهم بالطَّريقِ المستقيمِ

يذكرُ اللّهُ تعالى أنَّنا كما هَدينا الأنبياءَ ﷺ كذلك قد هَدينا "بعضَ آبائِهم وبعضَ أبنائِهم وبعضَ إخوانِهم ممَّن شئنا توفيقَه، واخترناهم، ووفَّقناهم لسلوكِ الطَّريقِ المستقيمِ الَّذي هو طريقُ توحيدِ اللّهِ وطاعتِه"[4].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ عطفِ جملة ﴿وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ﴾ على جملة ﴿وَكُلًّا فَضَّلْنَا﴾:

هدايةُ الأنبياءِ شملَت عوائلَهم وقراباتِهم إكرامًا لهم

قولُهُ تعالى: ﴿وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ﴾ عطفٌ على قولِه: ﴿وَكُلًّا﴾، والتَّقدير: "وهدينا من آبائِهم وذرِّيَّاتِهم وإخوانِهم"[5]؛ للدَّلالة على أنَّ الهِدايةَ شملَت عوائلَهم إكرامًا لهم، والمعنى: وهدينا بالنُّبوَّةِ والإسلامِ من آبائِهم جماعاتٍ كثيرةً، ومن ذرِّيَّاتِهم جماعاتٍ أخرى، ومن إخوانِهم كذلك، واصطفيناهم بالنُّبوَّةِ والرِّسالةِ، إلى صِراطٍ مُستَقيمٍ، وقد آمنوا واهتدوا[6].

إفادةُ ﴿مِنْ﴾ التَّبعيض والبيان في ﴿وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ﴾:

إيرادُ معنى التَّبعيضِ في السِّياقِ؛ لأنَّهم لم يكونوا كلُّهم أنبياءَ

ذهبَ المفسِّرونَ إلى أنَّ (مِن) تدلُّ على التَّبعيض؛ لأنَّ ليس كلُّهم كان نبيًّا؛ "أي: بعضًا منهم فضَّلنا، فمِن للتَّبعيض؛ لأنَّ منهم من لم يكن نبيًّا ولا مهديًّا"[7]، فليس كلُّهم داخلين ضمنَ الحكمِ،

(1) الزّمخشريّ، أساس البلاغة: (هدي).
(2) أحمد، المسند، الحديث رقم: (23386).
(3) الزّمخشريّ، الفائق في غريب الحديث والأثر: (هدي).
(4) جماعة منَ العلماء، المختصر في تفسير القرآن الكريم: 1/138.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/349.
(6) الجاويّ، مراح لبيد: 1/331.
(7) القونويّ، حاشية على البيضاويّ: 8/180، والواحديّ، البسيط: 8/264، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/318.

وذهبَ آخرون إلى أنَّها تدلُّ على الابتداءِ " (مِن) ابتدائيَّة، والمفعولُ محذوفٌ؛ أي: وهدينا من آبائِهم وذرِّيَّاتِهم وإخوانِهم جماعاتٍ كثيرةً"[1]، والدَّليلُ على عدم تعميمِ الحكمِ "أنَّ بعضَ هؤلاء الأقربينَ لم يهتدِ بهدى ابنهِ أو أبيهِ أو أخيهِ، ألَا ترى إلى أبي إبراهيمَ وابنِ نوحٍ، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [الحديد: 26]"[2].

بلاغةُ الحذفِ في قولِهِ تعالى: ﴿وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ﴾:

في قولهِ جلَّ شأنُه: ﴿وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ﴾ حذفَ الفعلَ (هدينا) للإيجاز، والتَّقدير: "هدينا من آبائِهم وذرِّيَّاتِهم وإخوانِهم"[3]، فحذفَ الفعلَ اعتمادًا على ذكرِهِ سابقًا؛ طلبًا للإيجاز بالاستغناءِ عن ذكرِ المعلومِ، وقيلَ تأويلُه: "كلًّا منهم فضَّلنا، وفضَّلنا بعضَ آبائِهم، أو هَدَينا من آبائِهم، ومَن مَعَهم للدِّين الخالصِ جماعاتٍ كثيرةً؛ فالمفعولُ مَحذوفٌ"[4]، والمرجعُ في فهمِ ذلك الاعتمادُ على السِّياقِ السَّابقِ، وربطُ التَّأويلِ الإعرابيِّ به.

حذفُ اللَّفظِ اعتمادًا على المذكورِ سابقًا، غايتُه طلبُ الإيجازِ

علَّةُ جمعِ الذُّرِّيَّةِ في لفظ ﴿وَذُرِّيَّٰتِهِمْ﴾:

ذكرَ تعالى الذُّرِّيَّةَ بصيغةِ الجمعِ؛ للدَّلالةِ على شمولِ الهدى لذرِّيَّةِ كلِّ واحدٍ منَ المذكورين، "ووجهُ جمعِهِ: إرادةُ أنَّ الهدى تعلَّقَ بذرِّيَّةِ كلِّ مَن له ذرِّيَّةٌ منَ المذكورين؛ للتَّنبيهِ على أنَّ في هَدي بعضِ الذُّرِّيَّةِ كرامةً لِلْجَدِّ، فكلُّ واحدٍ من هؤلاءِ مُرادٌ وقوعُ الهَدي في ذرِّيَّتِهِ، وإن كانت ذرِّيَّاتُهم راجعين إلى جَدٍّ واحدٍ، وهو نُوحٌ عليه السلام"[5].

الدَّلالةُ على شُمولِ الهدى لذرِّيَّةِ كلِّ واحدٍ منَ المذكورين

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/159، والآلوسّي، روح المعاني: 4/203 - 204.
(2) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 7/182.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/349.
(4) القاسميّ، محاسن التّأويل: 4/420.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/349.

إسنادُ (هَدينا وفضَّلنا ووهبنا) إلى اللهِ، ووصف الأنبياء بالصّالحين:

إسنادُ الأفعالِ إلى اللهِ إظهارٌ لتفضُّلِهِ، والتَّعبيرُ بالصَّلاح إظهارٌ لفضلِهم

لمّا ذكرَ التَّفضيلَ والهُدى والهبةَ أسندَها إليه تعالى، أمَّا الصَّلاحُ فعبَّرَ عنه بالوصفِ، فقال: ﴿كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾؛ ليدلَّ على أنَّ الصَّلاحَ أمرٌ ذاتيٌّ، هم قاموا به، وبهذا نالوا التَّفضيلَ والتَّكريمَ، أمَّا التَّفضيلُ فهم لا يفضلون أنفسَهم على أحدٍ، فليس منَ الخيرِ أن يفضِّلَ أحدٌ ما نفسَه على الآخرين، فنسبَ التَّفضيلَ إلى اللّه تعالى والهدى والهبةَ، ومنَ المعلوم أنَّها فضلٌ محضٌ منَ اللّهِ تعالى.

بلاغةُ عطف جملة ﴿وَٱجۡتَبَيۡنَٰهُمۡ﴾ على جملة ﴿وَكُلّٗا فَضَّلۡنَا﴾:

عطفُ الاجتباءَ على التَّفضيلِ تأكيدًا للتَّفضيلِ، وبيانًا لكيفيَّتِه

في قولِه تعالى: ﴿وَكُلّٗا فَضَّلۡنَا عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ٨٦ وَمِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡ وَإِخۡوَٰنِهِمۡۖ وَٱجۡتَبَيۡنَٰهُمۡ﴾ عطفَ الاجتباءَ على تفضيلِهم[1]، وفائدةُ ذلك تأكيدُ التَّفضيلِ، وبيانٌ لكيفيَّةِ التَّفضيلِ، فإنَّه إذ اختارَهُم فإنَّه قد فضَّلَهم.

بلاغةُ عطفِ قولِهِ: ﴿وَهَدَيۡنَٰهُمۡ﴾ على قولِهِ: ﴿وَٱجۡتَبَيۡنَٰهُمۡ﴾:

عطفُ الهُدى على الاجتباءِ هو تأكيدٌ للهُدى

عطفَ الجملةَ في قولِه: ﴿وَهَدَيۡنَٰهُمۡ﴾ على الجملةِ في قولِه: ﴿وَٱجۡتَبَيۡنَٰهُمۡ﴾ "عطفًا يؤكِّدُ إثباتَ هُداهم؛ اهتمامًا بهذا الهدي"[2]، والظَّاهرُ منَ السِّياق أنَّ الاجتباءَ يُفضي إلى الهُدى، وأنَّ الاجتباءَ اصطفاءٌ، ومَن اجتباهُ اللّهُ حبَّبَ إليه الإيمانَ، وزيَّنَهُ في قلبِه، وجعلَ له نورًا يمشي بهِ في النَّاسِ، فالتزمَ واستقامَ على الجادَّةِ.

دلالةُ تَكرارِ مادّة الهِدايةِ في السياق:

تأكيدُ الهِدايةِ المذكورةِ سابقًا، تمهيدٌ لتفسيرِ ما هُدُوا إليه

ذكرَ سابقًا أنَّه قد هداهم ﴿كُلّٗا هَدَيۡنَاۚ﴾، وكرَّرَ ذكرَ الهِدايةِ هنا بقوله ﴿وَهَدَيۡنَٰهُمۡ﴾، "على سبيلِ التَّوضيحِ للهِدايةِ السَّابقةِ، وأنَّها هِدَايةٌ إلى طريق الحقِّ المستقيم القويم الَّذي لا عوجَ فيه، وهو توحيدُ اللّهِ تعالى وتنزيهُهُ عنِ الشِّركِ"[3]، والتَّكرارُ في القرآن لا يخلو من

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/576.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/350.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/576.

فائدةٍ - على الاستقراءِ - وهو في هذا الموضعِ "تكريرٌ للتَّأكيدِ، وتمهيدٌ لبيانِ ما هُدوا إليه"[1]، فيتَّضحُ أنَّ ذكرَ الهدى كان على وجهِ الضَّرورةِ؛ لأنَّه أرادَ أن يقولَ: إنَّ الصِّراطَ المستقيمَ هو ما هُدوا إليه.

دلالةُ إسنادِ الفعلِ إلى ضميرِ العظمة في ﴿وَٱجۡتَبَيۡنَٰهُمۡ وَهَدَيۡنَٰهُمۡ﴾:

أسندَ الاجتباءَ والهدايةَ إليهِ دلالةً على تعظيمِ هذه الأفعالِ

عظَّمَ اختيارَهم وهدايتَهم بإسنادِهما إليه تعالى بضميرِ الجمعِ الَّذي يدلُّ على التَّعظيمِ في قولِهِ تعالى: ﴿وَٱجۡتَبَيۡنَٰهُمۡ وَهَدَيۡنَٰهُمۡ﴾؛ أي: بما لنا منَ العظَمَةِ القائمَةِ على الحكمةِ والمعرفةِ، وفي ذلك بيانٌ لفضلِهم، فاختيارُ اللّٰه تعالى على وجهِ التَّعظيمِ دالٌّ على عظمِ الاستحقاقِ.

نكتةُ تعديَةِ فعلِ الهدايةِ بـ ﴿إِلَىٰ﴾:

الإشارةُ إلى أنَّ نهايةَ الهدى هو الصِّراطُ المستقيمُ؛ وتفخيمٌ لشأنِهِ

عدَّى فعلَ الهدايةِ بحرفِ الجرِّ ﴿إِلَىٰ﴾ الدَّالِّ على انتهاءِ الغايةِ في قوله سبحانه ﴿وَهَدَيۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾، إشارةً إلى أنَّ نهايةَ الهُدى هو الصِّراطُ المستقيمُ، وفي ذلك تفخيمٌ لهذا الصِّراط، وهو تعاليمُ اللّٰهِ تعالى ونهجُه القويمُ، في الشَّريعةِ والاعتقادِ، والمعنى: "والصِّراطُ المستقيمُ، هو صراطُ الحقِّ ﷻ، ومَن سارَ فيه لَا يضلُّ، ولا يغوى، وإنَّ ما عليه أولئك النَّبيُّونَ من صبرٍ في النّعماءِ والضَّرَّاءِ، والقوَّةِ والضَّعفِ، والشِّدَّةِ والرَّخاءِ، ومن سيطرةٍ للرُّوح على الجسدِ، وجعله خادمًا لمطالبِ الحياةِ، والعزَّةِ الَّتي لَا ذلَّة فيها، والتَّواضعِ الَّذي لَا ضعة فيه، هذه هي الهدايةُ الَّتي تُؤخَذُ من أخلاقِ النُّبوَّةِ"[2].

تشبيهُ الدِّينِ بالصّراط المستقيمِ:

الهدايةُ إلى الصّراط المستقيمِ الموصلِ إلى الغايةِ بلا ضلالٍ

مثَّل ﷻ الهدايةَ إلى الدِّين الحقِّ بالهدايةِ إلى الصراط المستقيم الواضحِ الخالي منَ العوجِ والانحرافِ في قولِهِ: ﴿وَهَدَيۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّه موصلُه إلى غايتِه بلا ضلالٍ، "فضربَ الصِّراطَ المستقيمَ مثلًا لذلك، تشبيهًا لهيئةِ العاملِ؛ لينالَ ما يطلُبُه

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/159.

(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 5/2579.

منَ الكمالِ، بهيئةِ السَّاعِي إلى طريقٍ مستقيم، يُوصِلُهُ إلى ما سارَ إليه، بدون تردُّدٍ ولا تحيُّرٍ ولا ضلالٍ، وذكَرَ منَ ألفاظِ المُرَكَّبِ الدَّالِّ على الهيئةِ المُشبَّهِ بها بعضُهُ، وهو الصِّراطُ المستقيمُ؛ لدلالتهِ على جميعِ الألفاظِ المحذوفةِ للإيجاز"[1].

نكتةُ وصفِ الصِّراطِ بالاستقامةِ مع كونِه كذلك:

الاستقامةُ مفهومةٌ منَ الدَّلالةِ المعجميَّةِ، وقد نصَّ عليها للتَّأكيدِ

في قولهِ تعالى: ﴿وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾، وصفَ الصِّراطَ بالاستقامةِ، والصِّراطُ هو الطَّريقُ الخالي منَ العوجِ، فهو دالٌّ على الاستقامةِ في دلالتِهِ المعجميَّةِ؛ وإنَّما وصفه بكونِهِ مُستقيمًا مع ذلك تأكيدًا لاستقامتِهِ، وللنَّصِّ على الاستقامةِ دونَ الاكتفاءِ بالدَّلالةِ الضِّمنيَّةِ الَّتي قد يُسهى عنها.

المتشابِهُ اللَّفظيُّ:

قولُهُ تعالى هنا: ﴿وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾، وقولُهُ تعالى: ﴿وَهَدَيْنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١١٨﴾﴾ [الصّافّات: 118]، لمَ خُصَّت كلُّ آيةٍ بما فيها منَ الجمعِ والتَّثنيةِ من وسيلةِ تعديةِ الفعلِ؟ والجوابُ: أنَّ آيةَ الأنعامِ بُدِئَت بقولِهِ: ﴿وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ ۖ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ﴾، فلمَّا كان هؤلاء جمعًا، وكان منهم مَن ضلَّ عنِ الطَّريقِ المستقيمِ، كأبي إبراهيمَ وقومِهِ، ممَّا جعلَهُم في حاجةٍ إلى إرشادِهِم إليهِ؛ ناسبَه الجمعُ وتعديَةُ الفعلِ (هدى) بـ (إلى)، أمَّا آيةُ الصَّافَّات فيسبقُها قولُهُ: ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١١٤﴾ وَنَجَّيْنَٰهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١١٥﴾ وَنَصَرْنَٰهُمْ فَكَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٦﴾ وَءَاتَيْنَٰهُمَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ ﴿١١٧﴾﴾ [الصّافّات: 114 - 117]، فلمَّا كان ذلك خاصًّا بموسى وهارونَ عليهما السلام، وكان ما ذُكِر منَ الإنعامِ عليهما دالًّا على إرشادِهِما إلى الطَّريقِ المستقيمِ، وتثبيتِهِما عليه؛ ناسبَه التَّثنيةُ وتعديةُ الفعلِ (هدى) بنفسِهِ.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/350.

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(اجتبينا) و(اصطفينا):

اجتباءُ العبدِ: تخصيصُهُ بفيضٍ منَ النِّعمِ، والاصطفاءُ: إيجادُه صافيًا عنِ الشَّوبِ

والاجتباءُ: الجمعُ على طريقِ الاصطفاءِ، واجتباءُ اللّهِ العبدَ: تخصيصُهُ إيَّاه بفيضٍ إلهيٍّ يتحصَّلُ له منه أنواعٌ منَ النِّعم، بلا سعيٍ منَ العبدِ، وذلك للأنبياءِ وبعضِ مَن يُقارِبُهُم منَ الصِّدِّيقينَ والشُّهداءِ، كما قالَ تعالى: ﴿وَٱجۡتَبَيۡنَٰهُمۡ وَهَدَيۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾[1]، والاصطفاءُ: أصلُ الصَّفاءِ: وهو خلوصُ الشَّيءِ منَ الشَّوبِ، ومنهُ: الصَّفا للحجارةِ الصَّافيةِ، والاصطفاءُ: تناولُ صفوِ الشَّيءِ، كما أنَّ الاختيارَ تناولُ خيرِه، والاجتباءَ تناولُ جبايتِه؛ واصطفاءُ اللّهِ بعضَ عبادِهِ قد يكون بإيجادِهِ تعالى إيَّاهُ صافيًا عنِ الشَّوبِ الموجودِ في غيرِه[2]، والاختيارُ يدلُّ على "أنَّ اختيارَك لشيءٍ أخذُكَ خيرَ ما فيه في الحقيقةِ أو خيرهُ عندك، والاصطفاءُ: أخْذُ ما يصفو منه"[3]، فآثرَ التَّعبيرَ في الآيةِ بلفظِ الاجتباءِ؛ لأنَّه جمعٌ بعدَ الاصطفاءِ، فقوله تعالى: ﴿وَمِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡ وَإِخۡوَٰنِهِمۡۖ وَٱجۡتَبَيۡنَٰهُمۡ﴾ يدلُّ على كثرةٍ، فهو يجمعُهم باصطفائِهم، فلذا كان التَّعبيرُ بالاجتباءِ الدَّالِّ على الجمعِ بعدَ الاصطفاءِ.

(1) الرّاغب، المفردات: (جبى).
(2) الرّاغب، المفردات: (صفو).
(3) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 285.

﴿ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۚ وَلَوۡ أَشۡرَكُواْ لَحَبِطَ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٨٨﴾ [الأنعام: 88]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

العلاقةُ بينَ هداياتِ الأنبياءِ وصراطِ اللهِ المستقيمِ بلا شركٍ مُحبطٍ للأعمال

بعد أن ذكرَ ما هدى إليهِ الأنبياءَ، وعظَّمَه، وبيَّن أنَّ الصِّراطَ المستقيمَ هو صراطُ الحقِّ، بيَّن هنا أنَّ تلك الهدايةَ هي هدى اللهِ تعالى، ولذا قالَ تعالى بعدَ قصصِ الأنبياءِ السَّابقينَ: ﴿ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾[1]، "ولو أشركَ هؤلاءِ المختارون لضاعَت كلُّ أعمالِ الخيرِ الَّتي يعملونها، فلا يكون عليها ثواب"[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿لَحَبِطَ﴾: الحبط: وجعٌ يأخُذُ البعيرَ في بَطنه، من كلأٍ يَستَوبِلُه، (يقال): حَبِطَتِ الإبلُ تحبَط حَبَطًا، وحَبِطَ عَمَلُه: فَسَدَ، وأحبَطَه صاحبُه، واللهُ مُحبِطٌ عَمَلَ من أشرَكَ[3]، وفي حديثه ﷺ: «وإنَّ ممَّا يُنبِتُ الرَّبيعُ ما يَقتُلُ حَبَطًا أو يُلِمُّ»[4]، ومنَ المجاز: حبطَ عملُه حُبُوطًا وحَبْطًا بالسُّكون، وأحبَطَ اللهُ عملَهُ، وتقولُ: (إنْ عَمِلَ عملًا صالحًا؛ أتبعَهُ ما يُحبِطُه، وإنْ أصعدَ كَلِمًا طيِّبًا؛ أرسلَ خلفَه ما يُهبِطُه)[5]، والإحباطُ: أن يذهبَ ماءَ الرَّكِيَّةِ، فلا يَعُودَ كما كان، حَبِطَ عملُهُ، وأَحْبَطَهُ اللهُ: بطَلَ ثوابُه[6]، وقوله: ﴿لَحَبِطَ﴾ معناه: لبطلَ وسقطَ[7].

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2579.
(2) لجنة من علماء الأزهر، المنتخب في تفسير القرآن الكريم، ص: 186.
(3) الخليل، العين: (حبط).
(4) ابن حبّان، صحيح ابن حبان، الحديث رقم: (2679)، ورُوي بلفظ آخر عند البخاري، ط: السلطانية، الحديث رقم: (2842)، ويُنظر: الهرويّ، غريب الحديث: 1/89.
(5) الزّمخشريّ، أساس البلاغة: 1/165. (حبط).
(6) الجوهريّ، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (حبط).
(7) الآلوسّي، روح المعاني: 4/204.

المَعْنى الإجْماليُّ:

بيانُ هدى اللهِ الَّذي يهدي به الصَّفوةَ، ويحبطُ أعمالَ مَن أشركَ

يخبرُ اللهُ تعالى أنَّ "ذلك الَّذي حصلَ لهم منَ التَّوفيقِ هو توفيقُ اللهِ، يوفِّقُ له مَن شاءَ من عبادِهِ، ولو أشركوا مع اللهِ غيرَهُ لبطلَ عملُهم؛ لأنَّ الشِّركَ مُبطِلٌ للعملِ الصَّالحِ"[1]، وقوانينُ العملِ والجزاءِ لا تحابي أحدًا، فلو أنَّ الرُّسلَ والأنبياءَ أشركوا باللهِ - على سبيلِ الفرضِ والتَّقديرِ - لأبطلَ اللهُ عملَهم، ولعاقبَهم على فعلِهم بأشدِّ العقوبةِ؛ لأنَّ الشِّركَ مُحبِطٌ للأعمالِ، ومُخيِّبٌ للآمالِ؛ ولكنَّ الأنبياءَ معصومون، ولا يُتصوَّرُ منهم ذلك.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

براعةُ الاستئنافِ البيانيِّ في قولِهِ: ﴿ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾:

الاستئنافُ لنفي العجبِ تأكيدٌ لتعلُّقِ ذلك بمشيئةِ اللهِ تعالى

لمّا ذكرَ في آخرِ الآيةِ السَّابقةِ، أنَّه هداهم الصِّراطَ المستقيمَ، استأنفَ لنفي العجبِ من ذلك، إذ إنَّه مُتعلِّقٌ بمشيئتِهِ تعالى، فهو "استئنافٌ بيانيٌّ؛ أي: لا تَعجَبُوا مِن هَديِهِم وضَلالِ غيرِهِم"[2]، فجيءَ بالاستئنافِ عَقِبَ الصِّراطِ المستقيمِ؛ "بيانًا لكمالِهِ، وتعظيمًا لفضلِهِ وإفضالِهِ"[3].

نكتةُ التَّعبيرِ بالفذلكةِ في قولِهِ: ﴿ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾:

ما مرَّ من بيانِ فضائلِ الأنبياءِ والصَّالحينَ، إنَّما هو من هدايةِ اللهِ ومشيئتِهِ

الفَذْلَكَة: هي أن تأتي بمعنى خلاصةٍ أو مجملِ ما قد ذُكِرَ بالتَّفصيلِ، فبعد أن ذكرَ تعالى فضائلَ الأنبياءِ، و"بيَّنَ مراتبَهم وطبقاتِهم: تارةً بالإحسانِ، وتارةً بتفضيلِهم على العالَمين، وأخرى بالاجتباءِ والهدايةِ على صراطٍ مستقيمٍ، فَذْلَكَ ذلك بقولِه: ﴿ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾"[4].

(1) جماعة منَ العلماء، المختصر في تفسير القرآن الكريم: 1/138.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/350.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/180.
(4) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 6/153.

فائدةُ التَّعبيرِ عن هدى اللهِ تعالى باسمِ الإشارةِ في ﴿ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ﴾:

في قولِه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۚ﴾، أشارَ تعالى "إلى ما يُفهَمُ من النَّظمِ الكريمِ، من مصادرِ الأفعالِ المَذكورةِ"[1]، فهو إشارةٌ إلى جميعِ ما مرَّ، وفائدةُ التَّعبيرِ عن ذلك باسمِ الإشارةِ: زيادةُ الاهتمامِ "بشأنِ الهَدي؛ إذ جُعِلَ كالشَّيءِ المُشاهَدِ، فزيدَ باسمِ الإشارةِ كمالُ تمييزٍ"[2].

الإشارةُ إلى الهدى مبالغةٌ في ظهورِه، وكأنَّه مُشاهَدٌ للعيان

إيثارُ التَّعبيرِ باسمِ إشارةِ البُعدِ، فقال: ﴿ذَٰلِكَ﴾، ولم يقُل: (هَذَا):

آثرَ التَّعبيرَ عنِ الإشارةِ بصيغةِ البُعدِ في قولِه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي﴾؛ للدَّلالةِ أنَّه "الهدى العظيمُ الرُّتبَةِ"[3]. والهُدَى عطيَّةُ اللهِ للصَّفوةِ من عبادِه المخلَصينَ، وهو توفيقٌ جليلٌ، وتسديدٌ أثيلٌ، يستحقُّ أن يُشارَ إليه باللَّفظِ الدَّالِّ على المكانةِ والعِظَمِ.

الإشارةُ بصيغةِ البُعدِ دالَّةٌ على عِظَمِ رتبةِ الهُدى

دلالةُ إضافةِ الهُدى إلى اللهِ تعالى في قولِه: ﴿ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ﴾:

في قولِه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ﴾ أضافَ الهُدى إلى اللهِ تعالى، لفائدتينِ: الأولى: تعظيمِ الهدى، وتشريفٍ له بنسبتِه إليه سبحانَهُ تعالى، فنسبةُ الشَّيءِ إلى اللهِ "المُستَجمِعِ لصفاتِ الكمالِ"[4] يفيدُ تعظيمَ ذلك الشَّيءِ، والفائدة الثَّانية: تفصحُ بأنَّ الهدى مُختَصٌّ به تعالى[5].

أضافَ الهُدى إلى اللهِ تعالى؛ تعظيمًا للهدى، وبيانًا لاختصاصِه به

دلالةُ الجملةِ في قولِه: ﴿يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾:

الجملةُ الفعليَّةُ في قولِه جلَّ شأنُه: ﴿يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾، "في محلِّ النَّصبِ حالٌ منَ الهُدى"[6]، ودلَّ التَّقييدُ بالحالِ على تخصيصِ هُدى اللهِ تعالى بهيئةِ الاختيارِ والاصطفاءِ، فالهُدى ليسَ مُطلَقًا عن مشيئةِ اللهِ تعالى، فلذا عبَّرَ بالحالِ لبيانِ ذلك القيد.

دلَّتِ الجملةُ على الحالِ تقييدًا للهدايةِ بمشيئتِه تعالى

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/159.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/350 - 351.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/180، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/159.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/180، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/159.
(5) القونويّ، حاشية على البيضاويّ: 8/181.
(6) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 8/474.

التَّعبيرُ بالفعلِ المضارعِ في قولِهِ: ﴿هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ﴾:

في قولِهِ جلَّ شأنُه: ﴿ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي﴾ عبَّر عنِ الهِدايةِ بالفعلِ المضارعِ للدَّلالةِ على أنَّ الهدى فعلٌ مُتجدِّدٌ؛ لأنَّ هدايةَ اللهِ تعالى لا تنقطعُ، وإن انقطعَ الأنبياءُ فهي مُستمرَّةٌ مُتجدِّدةٌ، ونورُ النُّبوَّاتِ يبقى مُعظَّمًا عندَ المؤمنينَ، مهما امتدَّ الزَّمانُ، وطالَت الآمادُ، وقد تجلَّى هُدى اللهِ في صورة تمامِهِ وكمالِهِ في النّبوَّةِ الخاتمةِ الَّتي تجسِّدُ مفهومَ التَّجدُّدِ، وتعكسُ ملمحَ الاستمرارِ إلى أن يرثَ اللهُ الأرضَ ومن عليها.

التَّعبيرُ عن الهِدايةِ بالفعلِ المضارعِ للدَّلالةِ على استمراريَّةِ الهُدى وتجدُّدِه

دلالةُ الباءِ في قولِهِ: ﴿يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۚ﴾:

دلَّتِ الباءُ على الواسِطَةِ؛ "أي: بواسطةِ الإقامةِ عليه"[1]، وذلك للدَّلالةِ على أنَّ الهِدايةَ تكونُ به لا بغيرِهِ، وفي ذلك دلالةٌ على أنَّ المرادَ به منهجٌ وتعاليمُ ووصايا، وليس مجرَّدَ معنًى، فلو كان مجَرَّدَ معنًى؛ لكانَ التَّقديرُ: يهديهم بالهِدايةِ، ومن هنا تظهرُ براعةُ تعبيرِ البقاعيِّ ودقَّته، إذ قال: "بواسِطَةِ الإقامةِ عليه"[2]؛ أي: الإقامةُ على التَّعاليمِ الَّتي هداهم إليها بالوحي.

الهِدايةُ تكونُ بهُدى اللهِ لا بغيرِهِ، وهي التَّعاليمُ المُوحَى بها إلى رسله

غرضُ تَكرارِ لفظِ الهِدايةِ في قولِهِ: ﴿هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ﴾:

من أساليبِ البلاغةِ الرَّفيعةِ في قولِهِ تعالى: ﴿هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ﴾ تكرارُ مجيءِ لفظين من جذرٍ واحدٍ، فـ (هُدَى) و(يَهۡدِي) كلاهما منَ الجذرِ (هَدَى)، وهذا يُسمَّى: جناسَ الاشتقاقِ[3]، والغرضُ من ذلك تأكيدُ الهِدايةِ من خلالِ تكرارِ ألفاظِها.

جناسُ الاشتقاقِ تجميلٌ للألفاظِ، وتبريزٌ للمعاني

نكتةُ تقديمِ الجارِّ والمجرورِ (به) على المفعولِ بهِ في الآية:

في قولِهِ جلَّ شأنُه: ﴿يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾، قدَّمَ الجارَّ والمجرورَ

التَّنويهُ بالهُدى، والاهتمامُ به باعتبارِهِ المعنيَّ بالسِّياق

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/180، والقونويّ، حاشية على البيضاويّ: 8/181.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/180.
(3) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 8/487.

على المفعولِ بهِ؛ لتضمُّنه الضَّميرَ العائدَ على هدى اللّهِ تعالى؛ تنويهًا به واهتمامًا؛ لأنَّه هو المعنيُّ بالسِّياق.

نكتةُ التَّعبيرِ بالاسمِ الموصولِ في قولِهِ: ﴿مَن يَشَآءُ﴾:

في قولِهِ جلَّ شأنُهُ: ﴿يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۚ﴾، جعلَ الاسمَ الموصولَ مَعمولًا لفعلِ الهِدايةِ "إشارةً إلى عِلِّيَّةِ مَضمونِ الصِّلَةِ"[1]؛ فالهِدايةُ لأحدٍ ما، إنَّما هي بسببِ مشيئتِهِ تعالى، ومشيئةُ اللّهِ لا يعزبُ عنها أمرٌ من أمورِ الحاضرِ أو المصيرِ، فلا شيءَ يقعُ، أو يُتوقَّعُ إلَّا بمشيئةِ اللّهِ، وهو جوهرُ الإيمانِ بالقضاءِ والقدرِ الَّذي تُعهَدُ الأمورُ فيها إلى المشيئةِ، وقوعًا وانتفاءً، وقد قالَ تعالى: ﴿وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُۖ فَذَرۡهُمۡ وَمَا يَفۡتَرُونَ ١١٢﴾ [الأنعام: 112].

التَّعبيرُ بالموصولِ دالٌّ على علَّةِ الهِدايةِ، وهي مشيئتُه تعالى

دلالةُ الاسمِ الموصولِ في قولِهِ: ﴿مَن يَشَآءُ﴾:

عبَّر بالاسمِ الموصولِ الدَّالِّ على العمومِ؛ لأنَّ اللّهَ يهدي الأنبياءَ وغيرَهم، وأنَّ هدايتَه لا تختصُّ بأحدٍ، وفيه كذلك دلالةٌ على "الإبهامِ، ما يبعثُ النُّفوسَ على تَطلُّبِ هُدى اللّهِ تعالى والتَّعرُّضِ لِنَفَحَاتِهِ، وفيه تعريضٌ بالمُشركينَ الّذين أنكَرُوا نبوَّةَ محمَّدٍ ﷺ حَسَدًا"[2].

دلالةُ الموصولِ على العمومِ تأكيدٌ لعمومِ المشيئةِ الإلهيَّةِ الحكيمةِ

فائدةُ تعليقِ الهدايةِ بمشيئةِ اللهِ تعالى في قولِهِ: ﴿يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾:

لمّا أخبرَ تعالى أنَّه يهدي مَن يشاءُ، فإنَّ هذا "دليلٌ على أنَّ الهدى بمَشيئةِ اللّهِ تعالى"[3]، فلمَّا كانَ ذلك كذلك، فإنَّ مَن تحقَّقَ له الهدى عُلِمَ أنَّ اللّهَ تعالى "مُتفضِّلٌ عليهم بالهِدايَةِ"[4]، قال الرَّازيُّ: "واعلم أنَّه يجبُ أن يكونَ المرادُ مِن هذا الهُدى هو مَعرفةَ التَّوحيدِ، وتَنزيهَ اللّهِ تعالى عنِ الشِّركِ؛ لأنَّه قالَ بعدَهُ: ﴿وَلَوۡ أَشۡرَكُواْ لَحَبِطَ

علَّقَ الهدايةَ بمشيئتِهِ تعالى بيانًا لتفضُّلِهِ على خلقِهِ بها

(1) الآلوسّي، روح المعاني: 4/204.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/351.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/577.
(4) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 2/171، والآلوسّي، روح المعاني: 4/204.

عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾، وذلك يَدلُّ على أنَّ المرادَ مِن ذلك الهُدى ما يكونُ جَاريًا مَجرى الأمرِ المُضادِّ للشِّركِ"[1]، واللّٰهُ لا يتفضَّلُ إلَّا بما فيه مصلحةُ العبادِ العاجلةُ والآجلةُ؛ وفي مشيئتِه بهِدايةِ مَن يشاءُ هدايتَهُ نفعُ الدُّنيا، وفوزُ الآخرةِ؛ ولا نفعَ إلَّا منهُ، ولا هِدايةَ إلَّا به، ولن ينفَع العبدَ في ذلك غيرُ اللّٰه، قال تعالى: ﴿مَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِۖ وَمَن يُضۡلِلۡ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيّٗا مُّرۡشِدٗا ١٧﴾ [الكهف: 17].

معنى (مِن) في ﴿مِنۡ عِبَادِهِۦۚ﴾:

في قولِه: ﴿يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۚ﴾: تدلُّ ﴿مِنۡ﴾ على البيانِ؛ لبيانِ الَّذين يشاءُ لهم الهِدايةَ: أنَّهم من عبادِهِ؛ لأنَّ لفظَ العبادِ يدلُّ على التَّكريمِ، وحُسنِ المكانةِ، ولو دلّت ﴿مِنۡ﴾ على التَّبعيض لكان بعضُ أولئك العبادِ غيرَ مشمولٍ بالهِدايةِ، وهذا يناقضُ التَّكريم؛ لذا فإنَّ ﴿مِنۡ﴾ بيانيَّة؛ لتبيين أنَّ مَن شاءَ لهم الهِدايةَ، فهم عبادُهُ ﷻ.

دلالةُ السِّياقِ على أنَّ مَن شاءَ لهم اللهُ الهِدايةَ، هم عبادُهُ الصَّالحونَ

سرُّ التَّعبيرِ بلفظِ ﴿عِبَادِهِۦۚ﴾:

عبَّرَ النَّظمُ في قولِهِ جلَّ شأنُه: ﴿يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۚ﴾ عن الَّذين شاءَ اللّٰهُ تعالى لهم الهِدايةَ بلفظ (العباد)؛ لأنَّ هذا اللَّفظَ مُستعمَلٌ في التَّكريمِ دونَ (العبيد)، وفي ذلك يقولُ ابنُ عطيَّةَ نقلًا: "قال القاضي أبو محمَّد: والَّذي استقريت في لفظةِ العباد: أنَّه جمعُ (عبدٍ) متى سِيقتِ اللَّفظةُ في مضمارِ التَّرفيعِ، والدَّلالةِ على الطَّاعةِ، دون أن يقترنَ بها معنى التَّحقيرِ، وتصغيرِ الشَّأنِ"[2]، فلمَّا كان السِّياقُ في تكريمِهم بالهِدايةِ ناسبَهُ لفظُ ﴿عِبَادِهِۦۚ﴾.

لفظُ (العباد) مُستعمَلٌ في السِّياقِ، وهو الأنسبُ للتَّكريمِ بالهِدايةِ

فائدةُ إضافةِ العبادِ إلى ضميرِ الجلالةِ في قولِهِ: ﴿مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۖ﴾:

أضافَ العبادَ إلى الضَّميرِ العائدِ للّٰه ﷻ تكريمًا لهم؛ إذ اختصَّهم

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 13/54.

(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 1/461.

إضافةُ العبادِ إلى اللهِ تعالى محضُ تكريمٍ لهم، وتنويهٌ بشأنِهم

بهِ تعالى، وهذا التَّكريمُ بإضافتِهم إلى اللّهِ تعالى مناسبٌ لسياقِ الحديثِ عن تعلُّقِ الهِدايةِ بمشيئتِهِ ﷻ؛ إذ الهِدايةُ منحةٌ يستحقُّها أولئك المكرَّمون.

دلالةُ ذكرِ الشِّركِ بعدَ ذكرِ الهُدى في قولِهِ: ﴿ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ﴾ ﴿وَلَوۡ أَشۡرَكُواْ﴾:

ذكرُ الهُدى والتَّنويهُ بهِ من غاياتِهِ التَّحذيرُ منَ الشِّركِ ومغبَّتِهِ

بعد أن ذكرَ ﷻ الهُدى للأنبياءِ المذكورين، ذكرَ الشِّركَ بعدَهُ؛ تهديدًا لمَن تركَ الهُدى[1]؛ أي: "لو أشركوا مع فَضلِهم وتَقدُّمِهم، وما رُفِعَ لهم منَ الدَّرَجاتِ، لكانوا كغيرِهم في حُبُوطِ أعمالِهم"[2]، وفي ذلك بيانٌ لفداحةِ جرمِ الشِّركِ، وتقبيحٌ لهُ.

دلالةُ الشَّرطِ بـ (لو) في قولِهِ: ﴿وَلَوۡ أَشۡرَكُواْ﴾:

تَحقُّقُ الشِّركِ مُتسبِّبٌ في بطلانِ العملِ، ممَّا يدلُّ على فداحةِ الشِّركِ

قولهُ جلَّ شأنُه: ﴿وَلَوۡ أَشۡرَكُواْ لَحَبِطَ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾، عبَّرَ عن عِظمِ الشِّركِ بـ (لو) الشَّرطِيَّة الَّتي تدلُّ على عقدِ السَّببِ بَين الجملتين بعدَهَا؛ للدَّلالةِ على امتناعِ الشَّرطِ[3]، فلو تحقَّقَ شركُهم لبطلَ عملُهم، وفي ذلك دلالةٌ على عظمِ الشِّركِ باللّه تعالى؛ "أي: لو أشركوا، وهو مُمتنِعٌ عليهم لاختيارِ اللّهِ، لحبطَت أعمالُهُم، وهو أيضًا مُمتنِعٌ لامتناعِ الشَّرطِ"[4]، فعبَّرَ بـ (لو) الشَّرطيَّة "للتَّحريضِ على الوحدانيَّةِ، وتركِ الشِّركِ تركًا تامًّا، وبيانِ أنَّه يُحبطُ كلَّ عملٍ يُظنُّ فيه الخيرُ، ألَا ترى أنَّه يحبطُ عملَ الأنبياءِ وهداهُم، فكيف لَا يحبطُ عملَ مَن دونِهم، فالنَّصُّ تقبيحٌ للشِّركِ، أيًّا كانَت صورتهُ، وحثٌّ لهم على فعلِ الخيرِ، وحمايتِهِ بالوحدانيَّة"[5].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/181.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/577.
(3) ابن هشام، مغني اللّبيب، ص: 337 - 340.
(4) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2579.
(5) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2580.

نكتةُ دخولِ اللَّامِ في: ﴿لَحَبِطَ﴾:

الدَّلالةُ على تأكيدِ تحقُّقِ الحبطِ؛ إذا تحقَّقَ الشِّركُ

في قولِهِ جلَّ شأنُه: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُواْ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾، دخَلَتِ اللَّامُ على (حبط) لأنَّها رابطةٌ لجواب (لو)[1]؛ تأكيدًا على قوَّةِ التَّرابطِ بينَ الفعلين (الشِّرك، وحبط العمل)، فهي تدلُّ على تحقُّقِ الجوابِ وتأكيدِهِ، "لأنَّ توحيدَ اللهِ تعالى، لمّا كانَ مُنتَهَى الكَمَالِ المُزَكِّي للأنفُسِ كان ضِدُّهُ - وهو الشِّركُ - مُنتَهَى النَّقصِ والفسادِ المُدَسِّي لها، والمُفسدِ لفطرَتِهَا، فلا يبقى معه تأثيرٌ نافعٌ، لعملٍ آخرَ فيها، يُمكنُ أن يَترتَّبَ عليهِ نَجَاتُها وفَلَاحُهَا"[2].

بلاغةُ المجازِ في التَّعبيرِ بالحبطِ:

بطلانُ الأعمالِ بما كان يُرجَى منهُ النَّفعُ، كموتِ الإبلِ بالأكلِ المُرتَجَى منهُ النَّفعُ

في قولِهِ جلَّ شأنُه: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُواْ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾، عبَّر النَّظمُ عن فسادِ أعمالِهم وبطلانِها بالفعل (حبط) الَّذي يدلُّ على انتفاخِ بطونِ الإبلِ، بسببِ تناولِها ما كان يُرتجى منه النَّفعُ، ولكنَّه آلَ إلى أن يكونَ سببًا لموتِها، "فإطلاقُه على إبطالِ الأعمالِ تمثيلٌ؛ لأنَّ الإبلَ تأكلُ الخُضرَ شهوةً للشَّبعِ، فيؤولُ عليها بالموت، فشبَّه حالَ مَن عملَ الأعمالَ الصَّالحةَ لنفعِها في الآخرة، فلم يجدْ لها أثرًا، بالماشيةِ الَّتي أكلَت حتَّى أصابَها الحبطُ، ولذلك لم تُقيَّدِ الأعمالُ بالصَّالحاتِ، لظهورِ ذلك التَّمثيل"[3].

نكتةُ تقديمِ شبهِ الجملةِ ﴿عَنْهُم﴾:

تقديمُ تحقُّقِ الخسرانِ تفجيعٌ لهم قبلَ ذكرِ ماذا خسرُوا

في قولِهِ جلَّ شأنُه: ﴿لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾، تقديمٌ وتأخيرٌ، وأصلُ الكلامِ: (لحبطَ ما كانوا يعملون عنهم)، فقدَّمَ شبهَ الجملةِ: ﴿عَنْهُم﴾؛ تعجيلًا بذكرِ المحذورِ، وهو تحقُّقُ الخسرانِ لهم قبلَ ذكرِ ما خسروا؛ اهتمامًا بالشَّخصِ الَّذي خسرَ، قبلَ النَّظرِ إلى

(1) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 8/475.
(2) رضا، تفسير المنار: 7/492.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/332.

ما خسرَ، وقد خسروا ببطلانِ أعمالِهم، كلَّ ما كانوا يعملون منَ الطَّاعات قبلَ ذلك؛ لأنَّ اللّهَ لا يقبلُ مع الشِّركِ منَ الأعمالِ فتيلًا ولا قطميرًا[1].

غرضُ التَّعبيرِ بـ (ما) ومعناها:

اسمُ الموصولِ (ما) الدَّالُّ على العمومِ، أفادَ فسادَ جميعِ أعمالِهم

في قولِهِ جلَّ شأنُه: ﴿لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾، عبَّرَ باسمِ الموصولِ (ما) الدَّالِّ على العمومِ؛ للدَّلالةِ على عمومِ ما عملُوا، وفي ذلك تغليظٌ عليهم بفسادِ جميعِ أعمالِهم، والغرضُ من ذلك بيانُ قباحةِ الشِّرك، والتَّنويهُ بِعِظمِ جُرمِهِ.

التَّعبيرُ بـ (كان) والفعلِ المضارعِ في قولِهِ: ﴿كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾:

دلالةُ السِّياقِ على تجدُّدِ بطلانِ الأعمالِ الصَّالحةِ معَ الإشراكِ باللهِ

في قولِهِ جلَّ شأنُه: ﴿لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ قرنَ بينَ (كان) والفعلِ المضارعِ؛ للدَّلالةِ على الاستمرارِ والتَّجدُّدِ، فكلُّ أعمالِهم الصَّالحةِ الَّتي عملوها، وهم الآن مُستمرُّون بعملِها، باطلةٌ؛ فالبطلانُ مُتجدِّدٌ مُستمرٌّ كذلك.

إطلاقُ العملِ وإرادةُ العملِ الصَّالحِ:

الدَّلالةُ على فسادِ الأعمالِ الصَّالحةِ بدلالةِ (حبط) ما كانَ يُرتَجى خيرُهُ

في قولِهِ جلَّ شأنُه: ﴿لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾، دلَّ الموصولُ ﴿مَّا﴾ على العمومِ، وجاءَ لفظُ ﴿يَعْمَلُونَ﴾ مُطلَقًا، فدلَّ ذلك على جميعِ الأعمالِ، غير أنَّ المرادَ هو فسادُ الأعمالِ الصَّالحةِ فقط، وهي الأعمالُ الَّتي كانوا ينتظرون الخيرَ منها، وفي بيان ذلك يقولُ العلَّامةُ ابنُ عاشور: "والمرادُ بالأعمال: الأعمال الَّتي يتقرَّبون بها إلى اللّهِ تعالى، ويرجون ثوابَها بقرينةِ أصلِ المادَّةِ ومقامِ التَّحذيرِ؛ لأنَّه لو بطُلَتِ الأعمالُ المذمومةُ لصارَ الكلامُ تحريضًا، وما ذُكِرَتِ الأعمالُ في القرآن مع (حبطَ) إلَّا غيرَ مقيَّدةٍ بالصَّالحاتِ اكتفاءً بالقرينة"[2].

(1) القِنَّوجيّ، فتحُ البيان: 4/187.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/333.

إيثارُ التَّعبيرِ بـ ﴿يَعۡمَلُونَ﴾ دون يفعلونَ:

في قولِهِ: ﴿مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ آثرَ التَّعبيرَ بالفعلِ ﴿يَعۡمَلُونَ﴾ دونَ (يفعلون) أو غيره؛ لأنَّه أرادَ الأعمالَ الصَّالحةَ الَّتي كانوا يعملونها؛ وهذه الأعمالُ تكون بقصدٍ ونيَّةٍ، قال الرَّاغبُ: "العَمَلُ: كلُّ فعلٍ يكونُ من الحيوانِ بقصدٍ، فهو أخصُّ منَ الفعلِ؛ لأنَّ الفعلَ قد ينسبُ إلى الحيوانات الَّتي يقعُ منها فعلٌ بغيرِ قصدٍ، وقد يُنسَبُ إلى الجماداتِ، والعَمَلُ قلَّما يُنسَبُ إلى ذلك"[1].

العملُ: ما كان بعِلمٍ وقصدٍ، والفعلُ: ما عَرِيَ عنِ القصدِ

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(حبط) و(بطل):

"الإحباطُ: هو إبطالُ عملِ البرِّ منَ الحسناتِ بالسَّيِّئاتِ، ومنهُ قولُهُ تعالى: ﴿وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا﴾ [هود: 16]، وهو من قولِكَ: حبِطَ بطنُهُ؛ إذا فسدَ بالمأكلِ الرَّديِّ"[2]، و"الباطلُ: من (بطل اللَّحم)؛ إذا دوَّدَ وسوَّسَ، وصارَ بحيثُ لا يمكنُ الانتفاعُ به"[3]، فـ (حبط) يدلُّ على فسادِ ما كان صالحًا يُتوقَّعُ نفعُه، فالحسناتُ تُحبَطُ بالسَّيِّئات، كما يُحبَطُ البطنُ بالمأكلِ الفاسدِ؛ فلذا عبَّرَ عن أنَّ الشِّركَ بعدَ الهدايةِ يحبِطُ العملَ الَّذي كان صالحًا، فخسارةُ الحسناتِ كانَت بسببِ فعلِهِم، كما أنَّ انتفاخَ بطنِ الدَّابَّةِ يكونُ بسبب الأكلِ.

الإحباطُ: إبطالُ أعمالِ البرِّ بجرائرِ الإثمِ، والبطلانُ: الفسادُ وانتفاءُ الحلِّيَّةِ

(العمل) و(الصُّنع):

الصُّنعُ ترتيبُ العملِ وإحكامُه، وتقدُّمُ العلمِ بهِ، وبما يوصلُ إلى المرادِ منه، ولذلك قيل للنَّجَّارِ: صانعٌ، ولا يقالُ للتَّاجر: صانعٌ؛ لأنَّ النَّجّارَ قد سبقَ علمُه بما يريدُ عملَه من سريرٍ أو بابٍ، ويعلمُ الأسبابَ الَّتي تُوصلُ إلى ذلك، والتَّاجرُ لا يعلمُ إذا اتَّجرَ أنَّه يصلُ

الصُّنعُ: يقتضي العلمَ والجودةَ، والعملُ: لا يُشترطُ فيه ذلك

(1) الرّاغب، المفردات: (عمل).
(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 236.
(3) الكفويّ، الكلّيّات، ص: 692.

إلى ما يريدُهُ منَ الرِّبح، فالعملُ لا يقتضي العلمَ بما يعملُ له، والصُّنعُ يدلُّ على الجودةِ[1]، فهو أخصُّ منَ العملِ، فلا يقالُ إلَّا لما كانَ منَ الإنسانِ بقصدٍ واختيارٍ، وبعدَ فكرٍ وتحرٍّ وإجادةٍ، فحيثما ذكرَ كافَّتَهم؛ قال: ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [المائدة: 62]، وحيثما ذكرَ خاصَّتَهم وحفظةَ العلم ذكرَ: ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [المائدة: 63][2].

(العمل) و(الكسب):

العملُ: عامٌّ غيرُ مُقيَّدٍ، والكسبُ: خـاصٌّ بما كان نافعًا أو بجارحةٍ

"العملُ: المهنةُ، وأصلُ المهنةِ: العملُ باليد، ورجلٌ ماهنٌ، من قومٍ مَهَنَةٍ، وفلانٌ يقومُ بمهنة مالهِ؛ أي: بإصلاحِهِ"[3]، و"عملَ عملًا، وأعملَه غيرُه، واستعملَه بمعنى، واستعملَه أيضًا؛ أي: طلبَ إليه العملَ، واعتملَ: اضطربَ في العملِ[4]، وقيل: "العملُ: المهنةُ والفعلُ، والجمعُ: أعمالٌ، عملَ عملًا وأعملَهُ واستعملَه، واعتملَ: عملَ بنفسِهِ، أنشدَ سيبويه:

إِنَّ الكَرِيمَ وَأَبِيكَ يَعْتَمِلْ *** إِنْ لَم يَجِدْ يَومًا عَلَى مَنْ يَتَّكِلْ"[5]

والكسبُ: "الفعلُ العائدُ على فاعلِهِ، بنفعٍ أو ضرٍّ، وقال بعضُهم: الكسبُ: ما وقعَ بمراسٍ وعلاجٍ، وقال آخرون: الكسبُ: ما فُعِلَ بجارحةٍ"[6]، أمَّا العملُ فهو يشملُ أعمالَ القلوبِ وأعمالَ الجوارحِ.

(العمل) و(الفعل):

العـمـلُ أخـصُّ منَ الفعلِ؛ لأنَّ العـمـلَ بقصدٍ ونـيَّـةٍ؛ والفعـلُ بهما وبدونهما

الفِعلُ: التَّأثيرُ من جهةِ مُؤثِّرٍ، وهو عامٌّ لما كان بإجادةٍ أو غيرِ إجادةٍ، ولما كان بعلمٍ أو بغيرِ علمٍ، وقصدٍ أو بغيرِ قصدٍ، ولما كانَ مِنَ الإنسانِ والحيوانِ والجماداتِ[7]، والعَمَلُ: كلُّ فعلٍ يكونُ من الحيوانِ

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 135 - 136.
(2) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 5/392، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 2/134.
(3) ابن دريد، جمهرة اللّغة: (منه).
(4) الجوهريّ، الصّحاح: (عمل).
(5) ابن سيده، المحكم: (عمل).
(6) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 137.
(7) الرّاغب، المفردات: (كسب)، (فعل).

بقصدٍ، فهو أخصُّ مِنَ الفعلِ، لأنَّ الفعلَ قد يُنسَبُ إلى الحيواناتِ الَّتي يقعُ منها فعلٌ بغير قصدٍ، وقد يُنسَبُ إلى الجماداتِ؛ والعَمَلُ قلَّما ينسبُ إلى ذلك، ولم يُستعملِ العَمَلُ في الحيواناتِ إلَّا في قولِهِم: البقرُ العَوَامِلُ، والعَمَلُ يُستعمَلُ في الأَعمَالِ الصَّالحةِ والسَّيِّئةِ[1]، فلذا كان الأنسبُ للآية هو العملَ؛ لأنَّ أعمالَهم الصَّالحةَ أخصُّ منَ الفعلِ؛ لأنَّ الفعلَ يشملُ ما لا قصدَ له؛ والعملُ أعمُّ من (الصُّنع)، ومنَ (الكسب)؛ لأنَّ الصُّنعَ مُختصٌّ لما كانَ بإجادةٍ، والكسبَ مُختصٌّ بما له نفعٌ، وبما كان بجارحةٍ؛ فالعملُ يشملُ أعمالَ القلوبِ الَّتي هي ليسَت من أعمالِ الجوارحِ؛ ولا يشترطُ في العملِ الجودةُ، بل مطلقُ العملِ.

(1) الرّاغب، المفردات: (عمل).

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحُكۡمَ وَٱلنُّبُوَّةَۚ فَإِن يَكۡفُرۡ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدۡ وَكَّلۡنَا بِهَا قَوۡمٗا لَّيۡسُواْ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ٨٩﴾ [الأنعام: 89]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

المناسبةُ بين تفضيلِ المذكورينَ مِنَ الأنبياءِ والصَّالحينَ، وبيانِ ما فُضِّلوا بِهِ

بعد أنْ ذكرَ جلَّ شأنُه تفضيلَ من ذكرَ منَ الأنبياءِ والصَّالحينَ، بيَّنَ بأيِّ شيءٍ فضَّلَهم، فقال عزَّ مِن قائلٍ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحُكۡمَ وَٱلنُّبُوَّةَۚ﴾، فلمَّا "ذكرَ أنَّه تعالى فضَّلَهم واجتباهم وهَدَاهم ذكرَ ما فُضِّلوا به"[1]، واسمُ الإشارةِ رابطٌ للآياتِ بما قبلَها، فهو يشيرُ إلى الأنبياءِ الثَّمانيةَ عشَرَ الَّذين سبقَ ذكرُهم، كما ذكرَ الفخرُ الرَّازيُّ.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾: كتبَ الكتابَ يكتبُهُ كتبًا؛ إذا جمعَ حروفَه، وأصلُ الكَتبِ: ضمُّكَ الشَّيءَ إلى الشَّيءِ، وكتبتُ المزادةَ وغيرها، أكتبُها كتبًا، إذا خرزتُها[2]، واكتتبتُ الكتابَ؛ أي: كتبتُه، ومنه قوله تعالى: ﴿وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٱكۡتَتَبَهَا فَهِيَ تُمۡلَىٰ عَلَيۡهِ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا ٥﴾ [الفرقان: 5][3]، والمرادُ بالكتابِ هنا الجنسُ؛ أي: جنسُ الكتبِ الإلهيَّة، يعني: الكتبَ الَّتي أنزلَها اللّٰهُ عليهم: التَّوراةَ والإنجيلَ والزَّبورَ، وصُحُفَ إبراهيمَ وموسى، وكتبًا أنزلَها اللّٰهُ تعالى كثيرة، وهو أعلمُ بها[4].

2) ﴿وَٱلۡحُكۡمَ﴾: (حكم) أصلٌ يدلُّ على المَنعِ، وأوَّلُ ذلك الحُكمُ،

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/577، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2580، والهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 8/450.
(2) ابن دريد، جمهرة اللّغة: (كتب).
(3) الجوهريّ، الصّحاح: (كتب).
(4) الواحديّ، البسيط: 8/265، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/577.

وهو المنعُ منَ الظُّلمِ، والحُكْمُ بالشَّيءِ: أن تقضيَ بأنَّه كذا، أو ليس بكذا، سواءٌ ألزمتَ ذلك غيرهُ، أم لم تلزمْهُ، قال تعالى: ﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِٱلْعَدْلِۚ﴾[1]، وتقولُ: حَكَّمتُ فلانًا تَحكِيمًا: مَنَعتُهُ عمَّا يُريدُ، وحُكِّمَ فلانٌ في كَذَا؛ إذا جُعِلَ أمرُهُ إليهِ، والمُحَكَّمُ: المُجَرِّبُ المَنسُوبُ إلى الحكمةِ، قال طَرَفةُ:

لَيتَ المُحَكَّمَ وَالمَوْعُوظَ صَوْتُكُمَا ***تَحْتَ التُّرَابِ إِذَا مَا البَاطِلُ انْكَشَفَا[2]

ومعنى قوله تعالى: ﴿وَٱلْحُكْمَ﴾؛ أي: "فصلَ الأمرِ بينَ النَّاسِ بالحقِّ أو الحكمةِ، وهي مَعرفةُ حقائقِ الأشياءِ"[3].

3) ﴿وَكَّلْنَا﴾: (وكَّل) أصلٌ يدلُّ على اعتمادِ غيرِكَ في أمرِكَ، والتَّوكِيلُ: أن تعتمدَ على غيرِكَ، وتجعلَهُ نائبًا عنك[4]، ﴿فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا﴾؛ أي: أرصَدنا لِلإيمانِ بِها[5]، وقوله تعالى: ﴿فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا﴾، قالَ الزَّجّاجُ: "قيل: عَنَى بالقومِ هنا: الأنبياء ﷺ، الَّذين جرى ذكرُهم؛ آمنوا بما أتى به النَّبيُّ ﷺ في وقتِ مبعثِهم"[6]، "ومعنى توكيلِهم بها: أنَّهم وُفِّقوا للإيمانِ بها، والقيامِ بحقوقها، كما يُوكَّلُ الرَّجلُ بالشَّيءِ ليقومَ به، ويتعهَّدَه ويحافظَ عليه"[7].

المَعْنى الإِجْماليُّ:

يخبرُ اللهُ تعالى أنَّ أولئك الأنبياءَ المذكورينَ "هم الَّذين أعطيناهُم الكتبَ، وأعطيناهُم الحكمةَ، وأعطيناهم النُّبوَّةَ، فإن يكفر قومُك بما أعطيناهم من هذه الثَّلاثةِ، فقد هيَّأنا لها، وأرصَدنا

أمانةُ الوحي والبلاغِ أُوتِيَها الأنبياءُ الأبرارُ، وتحمَّلَها الصَّحابةُ الأخيارُ

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (حكم).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حكم).
(3) الآلوسّي، روح المعاني: 4/204.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (وكل).
(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/577.
(6) ابن سيده، المحكم: (قمو).
(7) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/43.

قومًا ليسُوا بكافرينَ بها، بل هم مُؤمنونَ مُستمسكونَ بها؛ وهم المهاجرونَ والأنصارُ والَّذين اتَّبعوهم بإحسانٍ إلى يوم الدِّين"[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

براعةُ الاستئنافِ الابتدائيِّ في الآية:

للتَّنويهِ بذكرِ المناقبِ معانٍ تأسيسيَّةٌ ذاتُ قيمةٍ وأهمِّيَّةٍ

قولُه جلَّ شأنُهُ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحُكۡمَ وَٱلنُّبُوَّةَۚ﴾، لمّا ذكرَ تعالى أنَّه فضَّلَهم واجتباهم وهداهم استأنفَ هنا تعقيبًا على ذلك، فهو "استئنافٌ ابتدائيٌّ للتَّنويهِ بهم"[2]، وما أوتوه داخلٌ في ملامحِ التَّكريمِ الَّتي أوتوها؛ أوَّلها: الكتابُ، وهو المنهجُ الَّذي أنزلَهُ اللهُ لهدايةِ البشرِ، وثانيها: الحكمُ، وهو ما أعطاهُ اللهُ لبعضِهم منَ السَّيطرةِ والغلبةِ، وثالثها: النُّبوَّةُ؛ بحيثُ جعلَهم نماذجَ سلوكيَّة للبشرِ، وذلك منتهى التَّكريمِ، وغايةُ الاصطفاءِ الحكيمِ[3].

فائدةُ الإخبارِ عنهم بالإشارةِ في قولِهِ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾:

تعظيمُ المقاماتِ بحسبِ العطاءاتِ

في قولِهِ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ﴾: أشارَ تعالى إلى الأنبياءِ المذكورين سابقًا مِنَ "الأنبياءِ الثَّمانيةَ عشَرَ، والمَعطُوفِين عَلَيهم ﷺ، باعتبارِ اتِّصافِهم بِما ذُكِرَ منَ الهدايةِ وغَيرِها منَ النُّعُوتِ الجَليلةِ الثَّابتةِ لَهم"[4]، وإنَّما عبَّرَ عنهم باسمِ الإشارةِ؛ "لزيادةِ الاعتناءِ بتَمييزِهِم وإخطارِ سيرتِهم في الأذهانِ"[5]، وقد آثرَ التَّعبيرَ باسمِ الإشارةِ الدَّالِّ على البُعدِ، لمَا فيهِ منَ "الإيذانِ بعُلُوِّ طبقتِهم وبُعدِ مَنزلَتِهم في الفَضلِ والشَّرفِ"[6].

---

(1) جماعة منَ العلماء، المختصر في تفسير القرآن الكريم: 1/138.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/352.

(3) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 6/3774.

(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/159، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 13/54، والآلوسّي، روح المعاني: 4/204.

(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/352، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2580.

(6) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/159.

بلاغةُ القصرِ بطريقِ تعريفِ طرفي الإسنادِ:

في قولِه تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحُكۡمَ وَٱلنُّبُوَّةَۚ﴾، جاءَ طرفا الإسنادِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ﴾ معرفتين للقصرِ؛ للدَّلالةِ على أنَّ الَّذين أوتوا تلك المكرماتِ، هم المذكورون المشارُ إليهم دونَ سواهِم، والغايةُ من ذلك بيانُ فضيلتِهم، وهو من قصرِ صفةٍ على موصوفٍ، فقصُرَت تلك الصِّفاتُ عليهم؛ وفي التَّخصيصِ تشريفٌ وتكريمٌ.

الاصطفاءُ بالوحي عطاءٌ مخصوصٌ، لا يكونُ إلَّا لمخصوصٍ

دلالةُ التَّعبيرِ بالموصولِ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ دونَ (من):

في: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ﴾ استعملَ القرآنُ الكريمُ التَّعبيرَ عنهم بـ ﴿ٱلَّذِينَ﴾؛ لأنَّ مَن أُوتي الكتابَ، إنَّما هم المعهودونَ بالذِّكرِ، وهم الأنبياءُ الَّذين سبقَ ذكرُهم، وإيتاءُ الكتابِ ليس عامًّا ليُعبَّرَ عنه بـ (مَن)؛ لِمَا في ﴿ٱلَّذِينَ﴾ من دلالةٍ على التَّعيينِ والعهدِ؛ فالتَّعبيرُ بالاسمِ الموصولِ المخصوصِ ملائمٌ للتَّخصيصِ الَّذي تجري عليه العبارةُ.

المعهودونَ المعروفونَ يُعبَّرُ عنهم بالموصولِ (الَّذين)

فائدةُ جملةِ الصِّلةِ في قولِه: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ﴾:

في قولِه تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحُكۡمَ وَٱلنُّبُوَّةَۚ﴾، عبَّرَ بالموصولِ، والغرضُ من ذلك إظهارُ تكريمِهم، المعبَّر عنه بالجملةِ في صلةِ الموصولِ، فأشارَ إلى تكريمِهم بما ذَكرَ في حيِّزِ الصِّلةِ؛ وفي الإسنادِ إلى ضميرِ العظَمةِ زيادةٌ في قدرِ العطاءِ؛ "أي: (بعظمتِنا)"[1].

مناطُ التَّخصيصِ في العطاءِ المخصوصِ

إيثارُ التَّعبيرِ بإيتاءِ الكتابِ دونَ إنزالِه:

آثرَ السِّياقُ التَّعبيرَ بالإيتاءِ دونَ التَّنزيلِ، فقال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ﴾؛ لأنَّ التَّنزيلَ يخصُّ عددًا محدودًا منهم، والإيتاءُ يشملُ من لم ينزلْ عليه كتابٌ منهم، فآثرَهُ؛ لأنَّ الإيتاءَ "أعمُّ من أن يكونَ ذلك بالإنزالِ ابتداءً أو بالإيراثِ بقاءً، فإنَّ

اصطفاءُ الأعمِّ الأشملِ مُناسبٌ عِظَمَ العطاءِ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/181.

المَذكُورِينَ لم يُنْزَلْ على كُلِّ واحدٍ منهم كتابٌ مُعيَّنٌ"[1]، ومعنى ﴿ءَاتَيۡنَٰهُمُ﴾: "أنَّهم أوتوا علمَه، وعلَّمُوه، ونشرُوه، وتوارثوا ما اشتملَ عليهِ؛ فيشملُ الَّذين أوتوه مَن نزلَ عليهم، ومن جاؤوا داعينَ إلى ما فيهِ، والتَّكليفات الَّتي اشتملَ عليها؛ كبعض الأنبياءِ الَّذين لم ينزلْ عليهم كتابٌ، ولكن بيَّنوا الكتابَ الّذي جاؤوا لبيانِهِ، كأيُّوبَ ويوسفَ، وسليمانَ، ويشملُ الَّذين أوتوا مَن عملُوا به، وأقامُوا دعائمَه مِن أتباعِ النَّبيِّينَ المُخلصينَ"[2] فقد عبَّرَ القرآنُ بالأعمِّ الأشملِ، وفي كلِّ ذلك تعظيمٌ للعطاءِ.

وجهُ إفرادِ النُّبوَّةِ بالذِّكرِ في قولِهِ: ﴿وَٱلنُّبُوَّةَۚ﴾:

في إفرادِ النُّبوَّةِ تصريحٌ وبيانٌ للشَّرفِ

في قولِهِ جلَّ شأنُه: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحُكۡمَ وَٱلنُّبُوَّةَۚ﴾، ذكرُ إيتاءِ الكتابِ يدلُّ على النُّبوَّةِ، فأفردَ ذكرَها مع أنَّها مُضمَّنةٌ بما سبقَ "لشرفِها باتِّصالها باللهِ تعالى وللتَّصريحِ بالأنبياءِ الَّذين لم ينزلْ عليهم كتابٌ، ولبيانِ مكانِ العلمِ الَّذي أوتوه، واتَّبعوه، وأنَّه عنِ اللهِ العليِّ الحكيمِ، وليرتِّبَ الحكمَ على الكفرِ بها؛ إذ كانَ منَ العربِ مَن كفرَ بالنُّبوَّةِ، وقالَ: ما أنزلَ اللهُ على بشرٍ من شيءٍ"[3].

إيثارُ ذكرِ النُّبوَّةِ على الرِّسالةِ في قولِهِ: ﴿وَٱلنُّبُوَّةَۚ﴾:

كلُّ رسولٍ نبيٌّ، وليس كلُّ نبيٍّ رسولًا

آثرَ تعالى أن يذكرَ النُّبوَّةَ دونَ الرِّسالةِ فلم يقُل: (آتيناهم الكتابَ والحكمَ والرِّسالةَ)؛ لأنَّه "ذكرَ الأعمَّ في النَّظمِ الكريمِ؛ لأنَّ بعضَ مَن دخلَ في عمومِ آبائِهم وذرِّيَّاتِهم، ليسوا برُسُلٍ"[4].

دلالةُ ذكرِ ﴿ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحُكۡمَ وَٱلنُّبُوَّةَۚ﴾ دونَ سواها على هذا التَّرتيبِ:

قولُه جلَّ شأنُه: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحُكۡمَ وَٱلنُّبُوَّةَۚ﴾، ذكرَ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/159، والقونويّ، حاشية على البيضاويّ: 8/182، والآلوسّي، روح المعاني: 4/204.

(2) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 13/55، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2580.

(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2580 - 2581.

(4) الآلوسّي، روح المعاني: 4/204.

التَّخصيصُ والتَّرتيبُ والعطفُ دلالةٌ على مقاماتِ التَّفضيلِ

هذه الثَّلاثةَ دونَ سواها؛ تناسبًا مع المذكورين منَ السَّادةِ النَّبيِّينَ؛ فمنهم مَن أُوتيَ كتابًا كإبراهيمَ وداودَ وموسى وعيسى عليهم السلام، وهو أعلى مراتبِ التَّفضيلِ لذا ذُكِرَ أوَّلًا، ومنهم مَن أُوتيَ حكمًا كداودَ وسليمانَ عليهما السلام، ومنهم مَن أُوتي النُّبوَّةَ، وهم مَن بقيَ منَ الأنبياءِ عليهم السلام، وهو عطاءٌ للمذكورين أجمعين، فقدَّمَ الأخصَّ فالأخصَّ، وأخَّرَ الأعمَّ، وجاءَت معطوفةً بالواو تنبيهًا على أنَّ كلَّ واحدٍ منها عطاءٌ لوحدِهِ يغايرُ غيرَهُ "فقولُه: ﴿ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ إشارةٌ إلى أنَّه تعالى أعطاهم العلمَ الكثيرَ، وقولُهُ: ﴿وَٱلۡحُكۡمَ﴾ إشارةٌ إلى أنَّه تعالى جعلَهُم حكَّامًا على النَّاس نافِذِي الحُكمِ فيهم بحسبِ الظَّاهرِ، وقولُهُ: ﴿وَٱلنُّبُوَّةَۚ﴾ إشارةٌ إلى المرتبةِ الثَّالثةِ، وهي الدَّرجةُ العاليَةُ الرَّفيعةُ الشَّريفةُ"[1].

دلالةُ الفاءِ في عطفِ ﴿فَإِن يَكۡفُرۡ﴾:

التَّوحيدُ محورُ المعنى في السُّورةِ، فيعودُ إليه النَّظمُ كلَّما بَعُدَ الكلامُ

عطفَ جملةَ الشَّرطِ ﴿فَإِن يَكۡفُرۡ﴾ على ما قبلَها: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ بالفاءِ "للتَّنبيهِ على ترتُّبِ ما بعدَها لِمَا قبلَها"[2]؛ فكُفْرُ مُشركي العربِ بالنُّبوَّةِ لا يضرُّ شأنَ النُّبوَّةِ؛ إذ إنَّها مرتبةٌ ساميةٌ يؤمنُ بها أهلُ الفهمِ والاعتبارِ، وفي ذلك يقولُ ابنُ عاشور رحمه الله تعالى: "والفاءُ في قولِهِ: ﴿فَإِن يَكۡفُرۡ﴾ عاطِفةٌ جُملةَ الشَّرطِ على جُملةِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ﴾، عُقِّبَت بجملةِ الشَّرطِ، وفُرِّعَت عَلَيها؛ لأنَّ الغَرضَ منَ الجملِ السَّابقةِ من قولِهِ: ﴿وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ﴾ هو تَشويهُ أمرِ الشِّركِ بالاستدلالِ على فسادِهِ، بنبذِ أهلِ الفضلِ والخيرِ إيَّاه، فكانَ للفاءِ العاطفةِ عَقِبَ ذلك مَوقِعٌ بديعٌ مِن إحكامِ نَظمِ الكلامِ"[3].

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 13/55.
(2) القونويّ، حاشية على البيضاويّ: 8/182.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/353.

فائدةُ التَّعبيرِ بـ (إنْ) الشَّرطيَّة دونَ (إذا):

الكفرُ غيرُ جديرٍ بأن يكونَ مقطوعًا به، وفي ذلكَ توبيخٌ لهم

في قولِهِ تعالى: ﴿فَإِن يَكۡفُرۡ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ﴾، عبَّرَ بأداةِ التَّعليقِ الَّتي تفيدُ الشَّكَّ في كفرِهِم؛ لأنَّ الأصلَ ألَّا يكفروا؛ فإنَّ الكفرَ غيرُ جديرٍ بأن يكونَ منَ المقطوعِ به؛ وفي ذلك توبيخٌ لهم، فعبَّرَ بصيغةِ "الشَّكِّ مع أنَّ كفرَهم مُتحقِّقٌ؛ لأنَّ المقامَ لاشتمالِهِ على ما يقلعُ الشَّرط عن أصلِهِ، لا يصلحُ إلَّا لفرضِهِ فيكون للتَّوبيخ"[1].

إيثارُ التَّعبيرِ بالفعلِ المضارعِ في: ﴿يَكۡفُرۡ﴾:

التَّعبيرُ بالفعلِ المضارعِ دلالةٌ على تجدُّدِ كفرِهم

آثرَ التَّعبيرَ بالفعلِ المضارعِ في قولِهِ: ﴿فَإِن يَكۡفُرۡ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ﴾ للدَّلالةِ على الحاضر والمستقبل، ولو قيل: (كفرَ بها هؤلاءِ) لدلَّ على أنَّه يتناولُ كُفرَ مَن كفر؛ فعبَّر بالمضارع للدَّلالةِ على استمرار كفرِهم وتجدُّدِهِ، ودلَّ كذلك على أنَّ الحكمَ مُستمرٌّ في كلِّ زمانٍ؛ فالكفرُ لا ينقطعُ في شأنِ المذكوراتِ، وكذلك ما عقَّبَ بهِ في جوابِ الشَّرطِ من توكيلٍ بالهِدايةِ؛ فإنَّ هديَه تعالى لا ينقطعُ.

دلالةُ الباءاتِ والإضماراتِ:

تمكُّنُ الكافرين منَ الكفرِ، يقابلُه تمكينُ المؤمنين منَ الهِدايةِ

في قولِهِ: ﴿فَإِن يَكۡفُرۡ بِهَا﴾، و﴿وَكَّلۡنَا بِهَا﴾، و﴿لَّيۡسُواْ بِهَا﴾ دخلَت الباءُ على ضميرِ المذكوراتِ، فالهاءُ "تعودُ على الثَّلاثة الأشياءِ، وهي: الكتابُ والحكمُ والنُّبوَّةُ"[2]؛ للدَّلالةِ على شدَّةِ ملابسةِ الكفرِ والتصاقِهِ بها، فإنَّ الحكمَ على شيءٍ، بأنَّ الكفرَ حلَّ به، يدلُّ على شدَّةِ الكفرِ، وكذا التَّوكيلُ، والتَّوكيلُ هنا معناهُ: التَّوفيقُ بالشَّيءِ يحيلُ الموكَّلَ إلى شدَّةِ التَّمكُّنِ على ما أُوكِلَ بهِ، وهذا يدلُّ على قوَّةِ تعهُّدِهم بأمرِ المذكوراتِ، وقد تكرَّرَ الإضمارُ ثلاثَ مرَّاتٍ في سياقِ الحديثِ عنها؛ تأكيدًا لشأنِها واهتمامًا بها، فإنَّ ما كانَ مهمًّا للسِّياق، فإنَّ ذكرَهُ يتكرَّرُ في النَّصِّ تنويهًا بتلك الأهمِّيَّةِ وتنبيهًا عليها.

(1) القونويّ، حاشية على البيضاويّ: 8/182.
(2) ابن عادل، اللّباب: 8/269.

دلالةُ تقديمِ الجارِّ والمجرورِ:

قدَّم الجارَّ والمجرورَ على الفاعل في قولِه: ﴿فَإِن يَكۡفُرۡ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ﴾، والأصلُ: (إن يكفرْ هؤلاءِ بها)؛ للاهتمام "بالمُقدَّم والتَّشويقِ إلى المُؤَخَّرِ"[1]، فقدَّم ضميرَ النُّبوَّةِ والمذكوراتِ اهتمامًا بها؛ إذ التَّوبيخُ إنَّما جاءَ بسببِ الكفرِ بها، لا بسببِ أنَّهم هم الَّذين كفروا.

الأصلُ أن يذكرَ النُّبوَّةَ الَّتي بسببِ كفرِهم بها نالوا التَّوبيخَ

دلالةُ الإشارةِ إلى غيرِ مذكورٍ في قولِه: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾:

المرادُ باسمِ الإشارةِ في قولِه: ﴿فَإِن يَكۡفُرۡ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ﴾ "كفَّارُ قريشٍ، وكلُّ كافرٍ في ذلك العصر"[2]، والتَّعبيرُ عنهم بالإشارة وهم غيرُ مذكورين، فهي إشارةٌ "إلى حاضرٍ في أذهانِ السَّامعينَ، وقد تقصَّيتُ مَواقعَ آيِ القرآنِ، فوجدتُهُ يعبِّرُ عن مُشركي قُريشٍ كثيرًا، بكلمةِ (هؤلاء)، كقوله: ﴿بَلۡ مَتَّعۡتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمۡ﴾ [الزّخرف: 29]، ولم أرَ مَن نبَّهَ عَليه مِن قبلُ"[3]، فقدِ اشتهروا بأنَّهم هم "الَّذين أنكروا نبوَّتَه، وحاربوا رسالتَه، وآذَوْه هو والمستضعفينَ منَ المؤمنينَ، وصابرَهُمْ حتَّى كانتِ الهجرة؛ وهذه السُّورةُ مكيَّةٌ، فتعيَّنتِ الإشارةُ إلى مَن ناوؤوا الرَّسولَ ﷺ"[4]، وقد عبَّرَ عنِ الكافرين باسم الإشارةِ تقليلًا مِن شأنِهم، معرضًا عنِ التَّصريحِ بذكرِهم تحقيرًا لهم[5].

تحقيرُ شأنِ كلِّ الكفَّارِ بالإعراضِ عن خطابِهم بعنوانِهم

بلاغةُ الإيجازِ بحذفِ جوابِ الشَّرطِ:

الشَّرطُ في قولِه تعالى: ﴿فَإِن يَكۡفُرۡ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدۡ وَكَّلۡنَا بِهَا قَوۡمٗا لَّيۡسُواْ بِهَا بِكَٰفِرِينَ﴾ محذوفُ الجوابِ، حيثُ "يدلُّ عليه المذكورُ؛ أي: فإن يكفُرْ بها هؤلاءِ، فلا اعتِدادَ به أصلًا، فقد وفَّقْنا للإيمان بها قومًا فِخامًا، ليسُوا بكافرينَ بها"[6]، فلمَّا دلَّ عليه الكلامُ حَذَفَه

التَّعويلُ على دلالةِ السِّياقِ شحذٌ للتَّدبُّرِ، واعتدادٌ بعقلِ المخاطَبِ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/159.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/577.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/353.
(4) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2581.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/182.
(6) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/160.

إيجازًا، والإيجازُ لبُّ البلاغةِ، وكأنَّ الحذفَ إشارةٌ إلى عدمِ الاعتدادِ بهم في الواقعِ، كما لم يعتدَّ بهم في الكلامِ، وإنَّما لم يكنْ قولُهُ جلَّ شأنُه: ﴿فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُواْ بِهَا بِكَٰفِرِينَ﴾ جوابًا للشَّرط؛ لأنَّ التَّوكيلَ ليس هو السَّببَ في كفرِهم، وليس كفرُهم هو السَّببَ في توكيلِ الإيمانِ بها إلى قومٍ آخرين.

دلالةُ دخولِ الفاءِ في قولِهِ: ﴿فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا﴾:

خطابُ التَّعليلِ يمتِّعُ العقولَ، ويقوِّي الإقناعَ

في قولِهِ جلَّ شأنُه: ﴿فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا﴾ الفاءُ سببيَّةٌ تبيِّنُ علَّةَ جوابِ الشَّرطِ المحذوفِ الَّذي تقديره: إن يكفروا فلا اعتدادَ بكفرِهم، أو: فلا يضرُّك كفرُهم، فأرادَ بيانَ علَّةِ انتفاءِ ضررِهم، فقال: ﴿فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُواْ بِهَا بِكَٰفِرِينَ﴾، والمعنى: "إن يكفُرِ المشركونَ بنبوءَتِكَ، ونبوءَةِ مَن قبلَكَ، فلا يضُرُّكَ كُفرُهم؛ لأنَّا قد وفَّقْنا قومًا مُؤمنينَ للإيمانِ بكَ وبهِم"[1].

دلالةُ التَّعبيرِ في قولِهِ: ﴿فَقَدْ وَكَّلْنَا﴾:

حديثُ البشارةِ يشرحُ الصُّدورَ، ويسحقُ المغرورَ

في دخولِ (قد) على الفعلِ في قولِهِ جلَّ شأنُه: ﴿فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا﴾ دلالةٌ على تأكيدِهِ، وذلك "تبشيرٌ للنَّبيِّ ﷺ، بأنَّ هذا سينتشرُ بينَ النَّاسِ، وستخالفُ فيه الأقوامُ، ولن يكونَ مقصورًا على العربِ، بل يتجاوزُهم إلى الفرسِ والرُّومانِ، والشَّامِ ومصرَ، وسيعتنقُهُ الأبيضُ والأسودُ، وكلُّ مَن له في الدَّعوةِ إليه فضلٌ عظيمٌ، وأكَّدَ اللهُ ﷻ ذلك بـ (قد)"[2]؛ وفي الآيةِ أيضًا تهديدٌ للكافرين وتخييبٌ لآمالِهم.

بلاغةُ الاستعارةِ في قولِهِ: ﴿فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا﴾:

تصويرُ المعنى يحقِّقُ البشارةَ ويؤكِّدُها

التَّوكيلُ "هنا استعارةٌ للتَّوفيقِ لِلإيمانِ بها، والقيامِ بحُقُوقِها، كما يُوكَّلُ الرَّجلُ بالشَّيءِ ليقومَ به، ويتعهَّدَهُ ويُحافظَ عَلَيه"[3]، وفي

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/354.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2581 - 2582.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/577.

ذلك منَ الدِّلالةِ على الرِّعايةِ والحفظِ ما فيه، والمعنى ﴿وَكَّلْنَا﴾: "عهدنا إلى قومٍ من بعدِ كفرِكم يحفظونها، ويصونونها، وينقلونها للأخلافِ من بعدِهم، جيلًا بعدَ جيلٍ، فيقالُ: وكَّلتُ فلانًا بهذا الأمرِ؛ أي: عهدتُ بهِ إليهِ، يقومُ عليهِ، ويُحافظُ"[1]، وقد عظَّمَ التَّوكيلَ بإسنادِهِ إليه تعالى بضميرِ التَّعظيمِ؛ أي: "لما لنا منَ العظمةِ"[2]، وفيه بيانٌ عن مقامِ الموكَّلِ.

فائدةُ تقديمِ الجارِّ والمجرورِ في قولِهِ: ﴿وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا﴾:

قدَّم الجارَّ والمجرورَ على المفعول به، والأصل: (وكَّلنا قومًا بها)؛ للاهتمام "بالمُقدَّمِ والتَّشويقِ إلى المُؤخَّرِ، ولأنَّ فيه نوعَ طُولٍ، ربَّما يؤدِّي تقديمُه إلى الإخلالِ بتجاوبِ النَّظمِ الكريمِ، أو إلى الفصلِ بين الصِّفةِ والموصوفِ"[3]، فقدَّمَ ضميرَ النُّبوَّةِ اهتمامًا بها، فإنَّ التَّوكيلَ يتعلَّقُ بالنُّبوَّةِ بالدَّرجةِ الأساس.

النُّبوَّةُ جديرةٌ بالتَّقديمِ؛ لأهمِّيَّتِها في مصيرِ البشريَّةِ

إيثارُ التَّعبيرِ بـ ﴿قَوْمًا﴾ مُنكَّرةً دونَ (ناسٍ) أو (فئةٍ):

آثرَ التَّعبيرَ عنِ المؤمنينَ بها بأنَّهم (قوم) لِمَا فيهِ من دلالةٍ على أنَّهم جماعةٌ يقومونَ قومةً واحدةً؛ لشدَّةِ بأسِهم، فقولُه تعالى: ﴿بِهَا قَوْمًا﴾؛ "أي: ذوي قُوَّةٍ على القيامِ بالأمورِ بالإيمانِ بها، والحفظِ لحقوقِها"[4] وقد آثرَ النَّظمُ الكريمُ أن يعبِّرَ بصيغةِ التَّنكيرِ في قولِهِ جلَّ شأنُهُ: ﴿وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا﴾؛ ليكونَ دالًّا على العمومِ، كما أنَّه يدلُّ على تفخيمِ شأنِهم[5]، وفيه "تبشيرٌ للنَّبيِّ ﷺ بأنَّ هذا سينتشرُ بينَ النَّاسِ، وستخالفُ فيه الأقوامُ، ولن يكونَ

التَّرابطُ والكثرةُ تزيدُ البشارةَ حُسنًا

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2581، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/353 - 354.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/182.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/160.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/182.
(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/578، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/160، والآلوسّي، روح المعاني: 4/205.

مقصورًا على العربِ، بل يتجاوزُهم إلى الفرسِ والرُّومانِ والشَّامِ ومصرَ، وسيعتنقُه الأبيضُ والأسودُ"[1].

بلاغةُ الوصفِ بالجملةِ الاسميَّةِ في قولِهِ: ﴿لَّيْسُواْ بِهَا بِكَٰفِرِينَ﴾:

في قولِهِ جلَّ شأنُهُ: ﴿فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُواْ بِهَا بِكَٰفِرِينَ﴾، جاءَ التَّقييدُ بالوصفِ "للدَّلالة على أنَّهم سارعوا إلى الإيمانِ بها، بمجرَّدِ دعوتِهم إلى ذلك؛ فلذلك جِيءَ في وصفِهم بالجملةِ الاسميَّةِ المؤَلَّفةِ من اسم (ليس) وخبرِهِ"[2]؛ وقد أكَّدَ نفيَ كفرِهم بالنُّبوَّةِ، بالجملةِ الاسميَّةِ للدَّلالةِ على أنَّهم ليسوا بكافرينَ بها "في وقتٍ منَ الأوقاتِ، بل مُستمرُّونَ على الإيمانِ بها؛ فإنَّ الجملةَ الاسميَّةَ الإيجابيَّةَ، كما تفيدُ دوامَ الثُّبُوتِ، كذلك السَّلبيّةُ، تُفيدُ دوامَ النَّفيِ بمعونةِ المَقامِ، لا نَفيَ الدَّوامِ"[3]، وتأكيدُ نفي الكفرِ عنهم يدلُّ على تأكيدِ "إيمانِ أولئك الَّذين سينصرونَها، بأنَّهم ليسوا بها بكافرينَ، فنفى عنهم الكفرَ نفيًا مُؤكَّدًا، مُستغرقًا شاملًا"[4]، وقد دلَّتِ الباءُ في قولِهِ: ﴿بِكَٰفِرِينَ﴾ على مزيدِ تأكيدِ ذلك النَّفي"[5]، وقدَّمَ الجارَّ والمجرورَ، وهو ﴿بِهَا﴾ على ﴿بِكَٰفِرِينَ﴾ ؛ للاهتمام، والتَّنبيهِ"[6]، كما أنَّ تأخيرَ ﴿بِهَا﴾ سيفوِّتُ التَّوافقَ في الفاصلةِ، فقُدِّمَت محافظةً على الفواصل[7].

سرعةُ الاستجابةِ والثَّبات عليها، تزيدُ البشارةَ بهاءً، والتَّوبيخَ لذعًا

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2581 - 2582.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/354.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/159، والهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 8/459.
(4) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2582، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/354.
(5) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/43، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/318.
(6) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2581.
(7) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/160، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/354.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًاۖ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرَىٰ لِلۡعَٰلَمِينَ ٩٠﴾ [الأنعام: 90]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

رَبْطُ ذِكْرِ الأنبياءِ بهدايتِهم، وضَرورَةُ القدوةِ بهم احتسابًا وتذكيرًا للعالَمين

جاءتِ الآيةُ الكريمةُ بعد "أن ذكرَ ﷻ الأنبياءَ، من ذرِّيَّةِ إبراهيمَ ومَن قبلَه، وما اختصَّ به بعضَهم منَ الصَّبرِ وشكرِ النِّعمةِ، والعدالةِ في القوَّةِ، وبعضَهم منَ الزُّهدِ والرَّوحانيَّةِ، وبعضَهم منَ الصِّدقِ في القولِ والوعدِ، بيَّنَ اللهُ تعالى أنَّ أولئك الأنبياء نالوا هدى اللهِ، وصبروا على أقوامِهم، وأنَّه حقٌّ على محمَّدٍ خاتمِ النَّبيِّينَ أن يقتديَ بهم"[1]، واسمُ الإشارةِ رابطٌ للآيةِ بما سبقَها.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱقۡتَدِهۡۗ﴾: (قدو) أصلٌ يدلُّ على اقتباسٍ بالشَّيءِ واهتداءٍ، ومُقَادرةٍ في الشَّيءِ، حتَّى يأتيَ به مُسَاويًا لغيرِه، والاقتداءُ: الاتِّباع، ومنه الاقتداءُ بإمامِ الصَّلاةِ، وذلك أن يتَّبعَ أفعالَه، فلا يتقدَّمُ عليه، ولا يتأخَّرُ عنه، ولا يزيدُ عليه، ولا ينقصُ عنه[2]، وقولهُ تعالى: ﴿فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ﴾؛ أي: موافقتُهم "في سلوكِ الطَّريقِ الَّذي سلكُوه، والهدى الَّذي اتَّبعوه، والمنهجِ الَّذي نهجوه"[3]، قال الأخفشُ: "وكلُّ شيءٍ من بناتِ الياءِ والواوِ في موضعِ الجزمِ، فالوقفُ عليه بالهاء ليلفظَ به كما كانَ"[4]، ومعنى (اقتده)، يا محمَّد ﷺ؛ "أي: فاعملْ، وخذْ بهِ، واسلكْه، فإنَّه عملٌ للهِ فيه رضًا، ومنهاجُ مَن سلكَه اهتدى"[5].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/182 - 183، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2582.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (قدو).
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2583.
(4) الأخفش الأوسط، معاني القرآن: 1/307.
(5) ابن جرير، جامع البيان: 11/519.

2) ﴿أَجْرًا﴾: (أجر) أصلٌ يدلُّ على الكِرَاءِ على العملِ، الأجرُ: جزاءُ العملِ. والإجارةُ: ما أعطيْتَ مِن أجرٍ في عملٍ، وهو ما يعودُ من ثوابِ العملِ دنيويًّا كان أو أخرويًّا[1]، "والأجر أصله: الثَّواب، وسمَّى اللّهُ تعالى المهرَ أجرًا، فقال: ﴿وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ [النّساء: 25]، ومعنى قوله: ﴿أَن تَأْجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٍ﴾ [القَصص: 27]؛ أن تجعلَ مهرَ ابنتي رعيك غنمي ثماني حجج، فكأنَّه قال: تثيبني من بضعِها رعي الغنم"[2]، وقوله تعالى: ﴿لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾؛ أي: "لا أطلبُ على تبليغ الرِّسالةِ جُعْلًا"[3].

3) ﴿ذِكْرَىٰ﴾: (ذكر) أصلٌ ضدُّ النِّسيانِ، حُمِلَ عليه الذِّكرُ باللِّسَانِ، ويَقُولُون: اجعلْهُ منكَ على ذُكْرٍ، بضمِّ الذَّالِّ؛ أي: لا تَنسَهُ، والذِّكْرَى: كثرةُ الذِّكرِ، وهو أبلغُ منَ الذِّكر[4]، قال الزَّجّاج: "فأمَّا ذِكْرَى فمصدرٌ، فيه ألفُ التَّأنيثِ، بمنزلةِ دعوتُ دعوى، وبمنزلةِ رَجَعْتُهُ رُجْعَى، واتَّقَيْتُ تقوى، إلَّا أنَّه اسمٌ في مَوضِعِ المصدرِ"[5]، والذِّكرى الذِّكر، والمرادُ بها هنا ذِكرُ التَّوحيدِ والبعثِ والثَّوابِ والعقابِ[6]؛ "أي: عظةٌ وتذكيرٌ"[7].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

بيَّن اللّهُ تعالى أنَّ "أولئك الأنبياء، ومَن ذُكِرَ معهم مِن آبائِهم وأبنائِهم وإخوانِهم، هم أهلُ الهِدايةِ حقًّا، فَاتَّبِعْهُم وتَأسَّ بهم، وقل - أيُّها الرّسول - لقومِكَ: لا أطلبُ منكم على إبلاغِ هذا القرآنِ جزاءً، فالقرآنُ ليسَ إلَّا موعظةً للعالَمين مِنَ الإنسِ والجنِّ؛ ليسترشدوا به إلى الصِّراطِ المستقيمِ، والطَّريقِ الصَّحيحِ"[8].

الأنبياءُ أهلُ هدايةٍ وقدوةٍ، فعليكَ التَّأسِّي بهم غيرَ منتظرٍ جزاءً ولا شكورًا

(1) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (أجر).
(2) الهرويّ، الزّاهر، ص: 167.
(3) الخازن، لباب التّأويل: 2/133.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (ذكر).
(5) الزّجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 2/316.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/360.
(7) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/160.
(8) جماعة منَ العلماء، المختصر في تفسير القرآن الكريم: 1/138.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

براعةُ الاستئنافِ في قولِهِ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ﴾:

الجملةُ في قولِهِ تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ﴾ جملةٌ استئنافيَّةٌ "قُصِدَ من استئنافِها استقلالُها للاهتمامِ بمضمونِهَا، ولأنَّها وقعَت مَوقعَ التَّكريرِ لمضمونِ الجُملتينِ اللَّتينِ قبلَها، جُملةِ: ﴿وَهَدَيۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾، وجُملةِ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحُكۡمَ وَٱلنُّبُوَّةَۚ﴾، وحَقُّ التَّكريرِ أن يكونَ مَفصولًا، ولِيُبنى عَلَيها التَّفريعُ في قولِهِ: ﴿فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ﴾"[1].

الإشادةُ والتَّنويهُ والاقتداءُ معانٍ جوهريَّةٌ في البلاغِ عنِ اللهِ

دلالةُ التَّعبيرِ باسمِ الإشارةِ في قولِهِ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾:

اسمُ الإشارةِ في قولِهِ تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ﴾ للأنبياءِ المذكورينَ سابقًا[2]، والإشارةُ "إلى ما كانُوا عليه من صفاتِ الصَّبرِ والشُّكرِ والزُّهدِ والصِّدقِ والتَّوحيدِ ومجالدةِ المنكرِ والصَّبرِ على أذى المعاندينَ، فالإشارةُ إلى أشخاصِهم المتَّصفين بهذه الصِّفاتِ العليا، وهي أساسُ هِدايةِ اللهِ"[3]، وقد عبَّرَ عنهم باسمِ الإشارةِ للبعيدِ، لِمَا "فيه من معنى البُعدِ؛ للإيذانِ بعُلوِّ رُتبتِهم"[4]، وقد تكرَّر اسمُ الإشارةِ مع الآيةِ السَّابقةِ للتَّأكيدِ على "تمييزِ المُشارِ إليه، ولِما يقتضيه التَّكريرُ منَ الاهتمامِ بالخَبرِ"[5].

المقتدَى بهِم وأئمَّةُ الهدى هم أهلُ المقاماتِ العاليةِ لمَا اتَّصفوا به

بلاغةُ القصرِ بتعريفِ طرفي الإسنادِ:

في قولِهِ جلَّ شأنُه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ﴾، جاءَ المسندُ والمسندُ إليه معرفتين؛ للدَّلالة على القصرِ، فقَصَر "جنسَ الَّذين هداهُمُ اللهُ على المَذكورين تَفصيلًا وإجمالًا؛ لأنَّ المهديِّين منَ البشرِ لا يَعدُونَ

الهدايةُ أكبرُ عطاءٍ، وهي الأحرى بالتَّخصيصِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/354.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/160.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2583.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/160، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 7/183.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/355.

أن يكونوا أولئك المُسَمَّينَ، ومِن آبائِهِم وذُرِّيَّاتِهِم وإخوانِهِم"[1]، فهم مخصوصونَ بهدى اللّهِ تعالى العظيمِ، والدَّليلُ على أنَّ قولَهُ: ﴿هَدَى ٱللَّهُۖ﴾ يدلُّ على التَّخصيصِ، أنَّه "لو هدى جميعَ المُكَلَّفين لم يكن لقولِه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ﴾ فائدةٌ وتخصيصٌ"[2]، والقصرُ حقيقيٌّ، قصر صفةٍ على موصوفٍ، وفي القصرِ تعظيمٌ للهِدايةِ، لذا جاءَ الطَّرفُ الأوَّلُ اسمًا موصولًا مخصوصًا للتَّناسُبِ مع عدمِ الشُّيوعِ، وممَّا زادَ من تعظيمِ الهِدايةِ أنَّه أضافَ الهدى إليه تعالى؛ تفخيمًا لها وتعظيمًا لشأنِها، فإضافتُها باعتبارِ الاسمِ الحائزِ لرتبِ الكمالِ[3] "تشريفٌ لمعناها، وبيانٌ أنَّه اختارَها، واختيارُ اللّه تعالى يُوجِبُ اتِّباعَها، والسَّيرَ في طريقِها"[4].

بلاغةُ الالتفاتِ في قولِهِ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ﴾:

أسندَ الهُدى إلى الاسمِ الظَّاهرِ، وكان الأصلُ أن يقولَ: (أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَيْنَاهُمْ)، فعدلَ عنِ الضَّميرِ إلى الاسمِ الظَّاهرِ، فقالَ: ﴿هَدَى ٱللَّهُۖ﴾ الْتِفاتًا منَ التَّكلُّمِ إلى الغَيْبَةِ، فالْتفتَ "إلى الاسمِ الجليلِ؛ للإشعارِ بعِلَّةِ الهِدايةِ"[5]، وفي ذلك تفخيمٌ للهِدايةِ ومبالغةٌ فيها؛ "إذ هِدايةُ مَن هو مُستجمعٌ بجميعِ صفاتِ الكمالِ، لا هدايةَ فوقَها، ولا احتمالَ يغيّرُه"[6]، فهي هِدايةٌ ثابتةٌ لكونِها منَ اللّهِ تعالى، وفي ذلك سوقٌ للخبرِ مقرونًا بالمهابَةِ والجلالِ[7].

الالتفاتُ تنشيطٌ للذِّهنِ، وإعلاءٌ لشأنِ الهِدايةِ

دلالةُ الفاءِ على التَّفريعِ في قولِهِ تعالى: ﴿فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ﴾:

قولُهُ تعالى: ﴿فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ﴾ دلَّتِ الفاءُ على التَّفريعِ، فالأمرُ

الهُدى هو الأجدرُ بالاتِّباعِ، والأنبياءُ قدوةٌ للأتباعِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/355.
(2) الواحديّ، البسيط: 8/268.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/183.
(4) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2583.
(5) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/160، والآلوسّي، روح المعاني: 4/205.
(6) القونويّ، حاشية على البيضاويّ: 8/183.
(7) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/355.

بالاقتداءِ "تفريعٌ على كمالِ ذلك الهدى"[1]، فالفاءُ تدلُّ على ترتيبِ ما بعدَها على ما قبلَها؛ "لأنَّه إذا كان ذلك الهُدى منَ اللهِ، فإنَّه يجبُ اتِّباعُه، والاقتداءُ بهم فيه"[2].

معنى الباءِ في قولِهِ تعالى: ﴿فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ﴾:

في قولِهِ جلَّ شأنُه: ﴿فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ﴾، تدلُّ الباءُ على الملابسةِ والمصاحبةِ، وهما من لوازمِ دلالتِها على الإلصاقِ، والمعنى: (اقتدِ بهم مُصاحِبًا لهداهم، ومُلتَصِقًا بسُننِهم)، وفي ذلك دلالةٌ على شدَّةِ الاتِّباعِ، كما أنَّ الباءَ تدلُّ على تقويَةِ الالتصاقِ، وتأكيدِ الاتِّباعِ، مع بيانِ الشَّيءِ الَّذي وقعَ فيه الاتِّباعُ، وهو هنا الهُدى.

الهدايةُ أجدرُ بالاتِّباعِ حتَّى الالتصاقِ بالمهتدى بِهِ

فائدة إضافة الهدى إلى الضمير (هم):

فائدة إضافةِ الهدى إليهم في قولِه: ﴿فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ﴾ بعدَ قولِه: ﴿ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ﴾ - حيث ذكرَ أوَّلًا أنَّ اللهَ تعالى هداهم، وفي الثَّانيةِ أسند الهُدى إليهم - ؛ للدَّلالةِ على تمثُّلِهم ذلك الهدى، وتمكُّنِه منهم، وأنَّهم قد عَمِلوا به على ما يجبُ، حتَّى صارَ يُنسبُ إليهم، بيانًا لعُلوِّ هدايتِهم، حيثُ إنَّ خاتمَ الأنبياءِ ﷺ يُؤمَرُ بأن يقتديَ بهم عليهم السلام.

الّذين يهديهِمُ الله مِثالٌ معبّر عن الهداية

نكتةُ تقديمُ الجارِّ والمجرورِ في قولِهِ: ﴿فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ﴾:

قدَّم الجارَّ والمجرورَ على الفعلِ في قولِهِ تعالى: ﴿فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ﴾؛ للدَّلالةِ على التَّخصيصِ، والمعنى: "فاختصَّ هداهم بالاقتداءِ، ولا تقتدِ إلَّا بهم"[3]، وإنَّما أمرَهُ بتخصيصِ اقتدائِهِ بهم، "للاهتمام بذلك الهُدى؛ لأنَّه هو مَنزلتُكَ الجامعَةُ للفضائلِ والمزايا، فَلا يليقُ به الاقتداءُ بهُدًى، هو دُونَ هُداهم"[4].

طريقُ الأنبياءِ واحدٌ، فلا اقتداء بسواهُ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/355.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2583.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/43، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/160.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/355، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2583.

فائدةُ تخصيصُ النَّبيِّ ﷺ بالذِّكرِ:

الإفرادُ بالذِّكرِ؛ للتَّفرُّدِ في المكانةِ وختمِ الرِّسالاتِ

أفردَ ذكرَ النَّبيِّ ﷺ بالذِّكرِ بعدَ أن ذكرَ الأنبياءَ السَّابقينَ؛ للدَّلالةِ على "أنَّه جَمَعَ هُدى الأوَّلينَ، وأُكمِلَت له الفَضائلُ، وجمعَ لهُ ما تَفَرَّقَ منَ الخصائصِ والمَزايا العظيمةِ، وفي إفرادِهِ بالذِّكرِ، وتركِ عَدِّهِ مع الأوَّلينَ، رمزٌ بديعٌ إلى فذاذتِهِ، وتفرُّدِ مِقدارِهِ، ورَعيٌ بديعٌ لحالِ مجيءِ رسالتِهِ، بعدَ مرورِ تلك العُصُورِ المُتباعدَةِ أو المُتَجاورَةِ"[1].

بلاغةُ التَّعريضِ في قولِهِ تعالى: ﴿فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ﴾:

الأحمقُ هو مَنِ استنكفَ عنِ اتِّباعِ الرَّسولِ المُقتدِي بكُلِّ المُرسلينَ

الأمرُ في قولِهِ تعالى: ﴿فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ﴾ يدلُّ على متابَعَتِهِ الرُّسلَ، وأنَّه ما جاءَ بما يخالفُهم، فهو "تعريضٌ للمشركينَ بأنَّ محمَّدًا ﷺ، ما جاءَ إلَّا على سُنَّةِ الرُّسلِ كلِّهم، وأنَّه ما كان بِدعًا منَ الرُّسلِ"[2].

بلاغةُ الوقفِ على هاءِ السَّكتِ في قولِهِ: ﴿فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ﴾:

الهادي المتَّبعُ المهتدين، يجبُ الاقتداءُ بهِ، والسَّكتُ عن سواهُ

في قولِهِ تعالى: ﴿ٱقۡتَدِهۡۗ﴾، وَقْفٌ بهاءِ السَّكتِ، فأشارَ بها "إلى أنَّ الاقتداءَ بهم، كانَ غيرَ محتاجٍ إلى شيءٍ"[3]، والوقفُ عليها مستحسنٌ "لثباتِ الهاءِ في المصحفِ"[4]. فالوقفُ على الأمرِ بالتَّقوى فيه تنبيهٌ بليغٌ على الكلمةِ الَّتي يقفُ عليها، والوقفُ بطريقةِ السَّكتِ، بإخراجِ النَّفَسِ في تلفُّظِ الهاءِ المهموسةِ، مع ما سبقَ بهِ من حشدٍ منَ الهاءاتِ: ﴿ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ﴾، يزيدُ الاهتمامَ بهذهِ الكلمةِ الَّتي هي غايةُ الهُدى وثمرتُه.

دلالةُ الأمرِ بالاقتداءِ في قولِهِ تعالى: ﴿ٱقۡتَدِهۡۗ﴾:

الاقتداءُ بالأنبياءِ في الأخلاقِ الفاضلةِ والصِّفاتِ الكاملةِ، ضرورةٌ ملحَّةٌ

النَّبيُّ ﷺ هو خاتمُ الرُّسلِ والأنبياءِ، ولا يجوزُ لنبيٍّ أن يقلِّدَ غيرَهُ، فكيفَ أُمِرَ بذلكَ؟ والجوابُ عن ذلك أنَّ "المرادَ الاقتداءُ بهم في جميعِ الأخلاقِ الحميدةِ، والصِّفاتِ الرَّفيعةِ الكاملةِ، منَ الصَّبرِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/355.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/356.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/183.
(4) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/43.

على أذى السُّفهاءِ والعفوِ عنهم"، وإعطاءُ كلِّ حالٍ حقَّها من مكارمِ الأخلاقِ، وأحاسنِ الأعمالِ: كالصَّبرِ والشُّكرِ والشَّجاعةِ والحِلمِ والزُّهدِ والسَّخاءِ والحُكمِ بالعدلِ[1].

نكتةُ تركِ العطفِ في قولِهِ: ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ﴾:

قولُهُ تعالى: ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًاۖ﴾ استئنافٌ ذُكِرَ بعد بيانِ أحوالِ كثيرٍ منَ الأممِ، والإيماءُ إلى نبوَّةِ الأنبياءِ والصَّالحين، وبيانُ طريقةِ الجدلِ في تأييدِ الدِّينِ، وأنَّه جاءَ كما جاءَ الرُّسلُ قبلَه؛ فلذلك ذيَّلَه اللهُ تعالى بأمرِ النَّبيِّ ﷺ، أن يخبرَ قومَهُ بأنَّه يُذَكِّرُهُم، كما ذَكَّرَ الرُّسلُ أقوامَهُم، وأنَّه جاءَ بالنُّصحِ لهم، كما جاءَ الرُّسلُ[2].

سنَّةُ جميعِ الرُّسلِ الكرامِ البلاغُ احتسابًا على الكمالِ والتَّمامِ

سرُّ افتتاحِ الجملةِ بالقولِ: ﴿قُل﴾:

أمرَ اللهُ تعالى نبيَّه أن يقولَ ذلك الكلامَ بالقولِ، فقال تعالى: ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًاۖ﴾؛ "للتَّنبيهِ على أهمِّيَّتِهِ"[3]، وأنَّ الأمرَ بقولِ مقولٍ ما دليلٌ على أهمِّيَّتِهِ، وأنَّه يجبُ أن يُقالَ بصيغةٍ مُلقَّنةٍ.

الكلامُ المهمُّ يُلقَّنُ منَ اللهِ لنبيِّهِ المصطفى الأوَّاه

دلالةُ نفي سؤالِهِ الأجرَ في قولِهِ: ﴿لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًاۖ﴾:

نفى أن يكونَ طالبًا للنَّفعِ والأجرِ في تبليغِ القرآنِ؛ "تنبيهًا للاستدلالِ على صدقِهِ؛ لأنَّه لو كان يريدُ لنفسِهِ نفعًا لَصَانَعَهم ووافَقَهم"[4]، وفي ذلك بيانٌ لمقصودِ الرِّسالةِ فهو "ليس مالًا يأخذُه، ولا سلطانًا يفرضُه، ولا سيادةً يطلبُها، وإنَّما جاءَ للذِّكرى، والموعظةِ، والهدايةِ للعالَمين"[5].

نفيُ طلبِ الأجرِ دليلٌ على الصِّدقِ وإرادةِ وجهِ الحقِّ

فائدةُ التَّعبيرِ بالمضارعِ في قولِهِ تعالى: ﴿لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ﴾:

قولُهُ جلَّ شأنُه: ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًاۖ﴾ آثرَ فيهِ التَّعبيرَ

(1) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 8/460.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/359 - 360.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/360.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/360.
(5) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2584.

بالفعلِ المضارعِ، ولم يقُل: (ما سألتكم)؛ دلالةً على تجدُّدِ النَّفي واستمرارِهِ، وفي ذلك إشارةٌ إلى ثباتِهِ ﷺ على الحقِّ، وعن دوامِ تجرُّدِهِ عن الأغراضِ والمنافعِ الشَّخصيَّةِ، قالَ اللّهُ تعالى مُخاطِبًا نبيَّه: ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ۝٧٩﴾ [النّمل: 79].

الاستمرارُ في الإعلانِ عن نفي الأجرِ تأكيدٌ على الثَّباتِ على الحقِّ

عودُ الضَّميرِ في: ﴿عَلَيْهِ﴾:

في قولِهِ جلَّ شأنُهُ: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾، دلَّ الضَّميرُ على القرآنِ الكريم[1]، فأُضمِرَ من غيرِ ذكرِ القرآنِ، فالضَّميرُ "راجعٌ إلى معروفٍ في الأذهانِ، فإنَّ معرفةَ المقصُودِ منَ الضَّميرِ مُغنِيَةٌ عن ذكرِ المُعادِ"[2]؛ اعتمادًا على حضورِهِ، وفي ذلك إيماءٌ إلى ظهورِ أمرِ القرآنِ.

الإضمارُ من غيرِ سبقِ ذكرٍ آيةٌ على الحضورِ الدَّائمِ في القلوبِ

الغرضُ البلاغيُّ لتقديمِ شبهِ الجملةِ ﴿لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾:

في قولِهِ جلَّ شأنُهُ: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾، قدَّمَ ضميرَ العائدِ على القرآن، في الجارِّ والمجرور؛ تنزيهًا للقرآنِ عنِ الامتنانِ، فإنَّه هو المقصودُ، بنفي سؤالِ الأجرِ، ولأنَّ سؤالَ الأجرِ، لو كان، إنَّما سيكونُ بسببِ القرآنِ، فهو الأصلُ في وجودِ الأجرِ من عدمِهِ.

القرآنُ الكريمُ مُنزَّهٌ عنِ الامتنانِ

بلاغةُ التَّعبيرِ في قولِهِ: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾:

تكرَّرَ الأمرُ له ﷺ بإعلانِ براءتِهِ من طلبِ الأجرِ في سورٍ مُتعدِّدةٍ، كقوله: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ [الشورى: 23] جريًا على سُننِ الأنبياءِ، فلمَّا "أمَرَهُ بالاقتداءِ بهدى الأنبياءِ عليهم السلام المُتقدِّمينَ، وكانَ من جُملةِ هُداهم ترْكُ طَلَبِ الأجرِ في إيصالِ الدِّينِ، وإبلاغِ الشَّريعةِ، لا جَرَمَ اقتدى بهم في ذلك"[3]، وفي استخدام لفظِ (أجْرًا) مُنكَّرًا تأكيدٌ للنَّفي "فالتَّنوين للتَّقليل"[4].

شأنُ الرُّسلِ أجمعينَ احتسابُ البَلاغِ المُبِينِ

(1) الآلوسّي، روح المعاني: 4/206.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/360.
(3) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 13/58، والهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 8/462155.
(4) القونويّ، حاشية على البيضاويّ: 8/185.

شبهُ كمالِ الاتِّصال:

دلائلُ صدقِ المبلِّغِ تقتضي تأكيدَ المعنى

بين قوله تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ﴾ وقوله تعالى: ﴿لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ شبهُ كمالِ اتِّصالٍ، فالثَّانية استئنافٌ بيانيٌّ لبيانِ الغرضِ من رسالتِه، سيق للإجابةِ عن سؤالٍ نشأَ من قولِه: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾، فكأنَّه قيل: فلماذا تدعوننا إذًا؟ فقال: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ﴾، فبيَّنَ الغايةَ منَ الرِّسالةِ، وهي التَّذكيرُ والموعظةُ، وفيه تأكيدٌ لنفي طلبِه الأجرَ؛ فلمَّا قصرَه على كونِه ذكرى دلَّ ضمنًا على التَّجرُّدِ عن طلبِ الأجرِ.

بلاغةُ أسلوبِ القصرِ بأقوى أدواتِه:

حصرُ المهمَّةِ في التَّذكيرِ تأكيدٌ لصدقِ الرَّسولِ

قولُهُ تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ﴾ جاءَ أسلوبُ القصرِ بالنَّفي والاستثناءِ؛ لأنَّ مضمونَ الجملةِ لا يجهلُ ولا يُنكرُ[1]، وفي ذلك تأكيدٌ لكونِه مُختصًّا بالتَّذكيرِ والدَّعوةِ، وليس للأجرِ، وقصرُ القرآنِ على التَّذكيرِ هو قصرٌ إضافيٌّ، فهو ليسَ محصورًا بالتَّذكيرِ، بل فيه هدًى وموعظةٌ، وتشريعٌ وأخلاقٌ، وغيره، فهو ليسَ مُختصًّا بالتَّذكيرِ، ولكنَّه لمّا أرادَ بيانَ تجرُّدِه للدَّعوةِ، وأنَّه صادقٌ في نبوَّتِه نفى عنه طلبَ الأجرِ، وحصرَ عملَه بالتَّذكيرِ.

بلاغةُ الإخبارِ بالمصدرِ مُضافًا للعالَمين في قولِه: ﴿ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ﴾:

القرآنُ ذكرى للعالَمين، والرسالةُ لِهدايَتِهم أجمعين

الضَّميرُ ﴿هُوَ﴾ في قولِه تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ﴾ المرادُ به القرآنُ، وبهذا فإنَّ الذِّكرى مُسنَدٌ إلى القرآن، وهو مصدرٌ، "وحملُه على ضميرِ القرآنِ للمبالغة"[2]، فكأنَّ القرآنَ هو الذِّكرى ذاتُها، والتَّصريحُ بكوْنِ الذِّكرى للعالمين جميعًا، "يدلُّ على أنَّه ﷺ مبعوثٌ إلى كلِّ أهلِ الدُّنيا، لا إلى قومٍ دونَ قومٍ"[3]، وفي ذلك تفخيمٌ

(1) الجناجيّ، البلاغة الصّافية، ص: 175.
(2) الآلوسّي، روح المعاني: 4/206.
(3) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 13/58.

لشأنِ النَّبيِّ ﷺ، فهو رسولٌ "للنّاسِ جميعًا أسودِهم وأحمرِهم، إنسِهم وجنِّهم"[1]، "ودَعْوَتُه ﷺ عامَّةٌ لسائرِ النَّاسِ"[2]، وهذا يدلُّ على أنَّ القرآنَ "عظةٌ وتذكيرٌ لهم كافَّةً، من جهتِهِ سبحانَه، فلا يختَصُّ بقومٍ دونَ آخرين"[3].

بلاغةُ المتشابهِ اللَّفظيِّ:

قولُهُ تعالى: ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًاۖ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرَىٰ لِلۡعَٰلَمِينَ﴾، وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مَالًاۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۚ﴾ [هود: 29]، جاءَ لفظُ الأجرِ في سورة الأنعام؛ لأنَّه أرادَ أن ينفيَ عمومَ الانتفاعِ، أمَّا في سورة هودٍ فقد وردَ لفظُ المالِ في مَقولةِ نوحٍ عليه السلام؛ "لأنَّ قصَّةَ نوحٍ وقعَ بعدَها ﴿خَزَآئِنُ﴾، والمالُ بها أنسَبُ"[4]، وتمامُ سياقِ الآيةِ في سورة هود: ﴿وَيَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مَالًاۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۚ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ قَوۡمٗا تَجۡهَلُونَ ٢٩ وَيَٰقَوۡمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمۡۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ٣٠ وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ﴾ [هود: 29 - 31]؛ فلمَّا ذكرَ الخزائنَ في نصِّ الآيةِ ناسبَ أن يُمهِّدَ له بذكرِ ما يناسبُه، وهو لفظُ المالِ.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(الاقتداء) و(الاتِّباع):

لفظ (تبع) أَصلٌ وَاحِدٌ، وَهُوَ التُّلُوُّ وَالقَفوُ، يُقَالُ: تَبِعتُ فُلَانًا؛ إِذَا تلوتَهُ وَاتَّبَعتَهُ، وأَتْبَعتُهُ إِذَا لحقتَهُ، والأَصلُ وَاحِدٌ[5]، تقول: اتَّبعتُهم: بمعنى: سرتَ خلفَهم وماثلتَهم في منهجِهم، فالاتِّباع: لحوقٌ بمتقدِّمٍ

الاقتداءُ أخصُّ منَ الاتِّباعِ، لما فيه من معنى التَّساوي مع الأصلِ في المقادرةِ

(1) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 7/186، والهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 8/463.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/361.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/160، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2584.
(4) الأنصاريّ، فتح الرّحمن: 1/264.
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (تبع).

ليلحقَ بهِ، وأمَّا لفظُ (قدو) فأَصلٌ صَحِيحٌ يَدُلُّ على اقتِبَاسٍ بالشَّيءِ واهتِدَاءٍ، وَمُقَادَرَةٍ في الشَّيءِ حَتَّى يَأتِيَ بِهِ مُسَاوِيًا لِغَيرِهِ، والقَدو: الأصلُ الّذي يتشعَّبُ منه الفُرُوعُ[1]، "القدو: أصلُ البناءِ الَّذي ينشعبُ منه تصريفٌ"[2]، الاقتداءُ: امتدادٌ وانجذابٌ لشيءٍ ومقادرتُه حتَّى يكونَ مثلَه (قياسٌ وتقديرٌ لتحقيقِ التَّماثلِ والتَّساوي)، فالاقتداءُ أخصُّ منَ الاتِّباعِ لِمَا فيه من معنى التَّساوي معَ الأصلِ، تقول: اقتديتُ بهم، بمعنى: تبعتُهم وماثلتُهم بهدفِ المساواةِ والتَّماثلِ المُطابقِ، وليس مجرَّدَ المتابعةِ والاتِّصالِ، فالاقتداءُ متابعةُ أصلٍ سابقٍ.

(القدوة) و(الأسوة):

(أسو): أَصلٌ وَاحِدٌ يَدُلُّ على المُدَاوَاةِ والإِصلَاحِ[3]، والتَّأسِّي: هو العملُ على العودةِ إلى الأصلِ بتصحيحِ الخللِ والعودةِ إلى الحالةِ المستويةِ السَّليمةِ، والاقتداءُ: هو اتِّباعُ الفروعِ المتشعِّبةِ الَّتي تقودُ إلى الأصلِ، فالأسوةُ والقدوةُ كلتاهما تؤدِّيان إلى العودةِ إلى الأصلِ: الأسوةُ: عودةٌ من ضعفٍ بطريقةِ المماثلةِ، أمَّا القدوُة فهي اتِّصالٌ بالأصلِ بطريقةِ الاتِّباعِ، وتُعبّرُ عنِ التَّمسكِ بالهدايةِ والعقيدةِ بالاقتداءِ، لا بالأسوة؛ لأنَّ الاقتداءَ فيهِ متابعةٌ للأصل، فهو أقوى، أمَّا الأسوةُ فتقالُ لترقِّي الشَّخصِ بسلوكِهِ ليتساوى مع آخرينَ أعلى منه في صفةٍ ما؛ فالأسوةُ تُقالُ لِمَن ظهرَ منه ضعفٌ وتقصيرٌ في سلوكٍ ما، والقدوةُ لا تقتضي الضَّعفَ، وتعبِّرُ عنِ الاتِّصالِ والارتباطِ والامتدادِ لأناسٍ سابقينَ يعدُّون أصلًا للمتكلِّم، فالاقتداءُ يأتي منَ المماثلةِ باتِّباعِ أصلٍ، وذلك بسلوكِ طريقِ السَّابقينَ لكونهم أصلًا يُتَّبعُ، فكأنَّه عندما توجدُ مسالكُ كثيرةٌ، وطرقٌ مختلفةٌ منهجيَّةٌ، يكونُ الاقتداءُ بمتابعةِ أصلٍ واحدٍ من تلك الأصولِ، فالاقتداءُ يكونُ

القدوةُ: مماثلةٌ بسلوكِ طريقِ السَّابقينَ، والأسوةُ: ترقٍّ بالسُّلوكِ نحو النَّموذجِ الأعلى

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (قدو).
(2) الواحديّ، البسيط: 8/268.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (أسو).

بالأصولِ والمنهجِ، والأسوةُ تكونُ بالسُّلوكِ والمماثلةِ من حالةِ ضعفٍ، وانظرْ إلى دقَّةِ التَّعبيرِ القرآنيِّ؛ إذ قالَ تعالى: ﴿فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ﴾، فالقدوةُ: اتِّباعُ أصلٍ ليُهتدَى به، وفي قوله: ﴿إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقۡتَدُونَ ٢٣﴾ [الزخرف: 23] فذكر: الأُمَّةَ والقدوةَ: فالأُمَّةُ هنا تمثِّلُ الأصلَ والمرجعَ الَّذي يتابعونه، ويتَّصلون به.

(الأجر) و(الجزاء):

الأجـرُ: يختصُّ بـالـنَّـافـعِ، والجزاءُ: يشملُ النَّافعَ والضَّارَّ

الفرقُ بين الأجرِ والجزاءِ: أنَّ "الأجرَ والأجرةُ، يُقالُ فيما كانَ عن عقدٍ، وما يجري مجرى العقدِ، ولا يقالُ إلَّا في النَّفعِ دونَ الضُّرِّ، نحو قولِه تعالى: ﴿لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡۗ﴾ [آل عمران: 199]"[1]، وأمَّا الجزاءُ فيقالُ "فيما كانَ عن عقدٍ وغيرِ عقدٍ، ويقالُ في النَّافعِ والضَّارِّ، نحو قولِه تعالى: ﴿وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُواْ جَنَّةٗ وَحَرِيرٗا ١٢﴾ [الإنسان: 12]، وقولِه تعالى: ﴿فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ﴾ [النّساء: 93]"[2]. في الآيةِ استعملَ الأجرَ؛ لأنَّه جاءَ في سياقِ المسألةِ، فالإنسانُ لا يسألُ إلَّا ما به نفعُهُ، والمختصُّ بالنَّفعِ هو الأجرُ، فعبَّرَ عن نفي طلبِهِ الانتفاعَ بنفي الأجرِ.

(الأجر) و(الثَّواب):

يـجـوز أن يقع الأجـــرُ قـبـلَ الفعلِ وبعده، وأمّـا الـثَّـوابُ فبعدَه، واشتُهِرَ في الـجـزاءِ على الحسناتِ

"الأجرُ يكونُ قبلَ الفعلِ المأجورِ عليه، والشَّاهدُ أنَّكَ تقولُ: ما أعملُ حتَّى آخذَ أجري، ولا تقولُ: لا أعملُ حتَّى آخذَ ثوابي؛ لأنَّ الثَّوابَ لا يكون إلَّا بعدَ العملِ، وأيضًا فإنَّ الثَّوابَ قد شُهِرَ في الجزاءِ على الحسناتِ، والأجرُ يُقالُ في هذا المعنى، ويُقالُ على معنى الأجرةِ الَّتي هي من طريق المثامنةِ بأدنى الأثمانِ، وفيها معنى المعاوضةِ بالانتفاع"[3].

(1) الرّاغب، المفردات: (أجر).
(2) الرّاغب، المفردات: (أجر).
(3) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 17.

وفي الآيةِ يناسبهُ الأجرُ؛ لأنَّه نفى الانتفاعَ بالدَّعوةِ، ولم يردْ أن ينفيَ الثَّوابَ عنها، وكذلك فإنَّ الثَّوابَ ليس بمقدورِهم، حتَّى ينفيَهُ عنهم، بل نفى عنهم الأجرَ، وهو الثَّمنُ الَّذي يُعطَى عوضًا عنِ العملِ، فكان الأنسبُ لذلك هو الأجرَ، لا الثَّوابَ.

﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًاۖ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓاْ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْۖ قُلِ ٱللَّهُۖ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾﴾ [الأنعام: 91]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

المناسبةُ بينَ هدايةِ النُّبوَّاتِ المُقتدى بها، وبينَ إنكارِ اليهودِ لنزولِ الوحي

مناسبةُ هذه الآيةِ لما قبلَها: أنَّها جاءتْ "كالنَّتيجةِ لما قبلَها من ذكْرِ الأنبياءِ وما جاؤوا بهِ من الهُدى والشَّرائع والكتب، فلا جَرَمَ أنَّ الذين قالوا: ﴿مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍۗ﴾، قد جاؤوا إفكًا وزورًا، وأنكروا ما هو معلومٌ في أجيالِ البشرِ بالتَّواتر"[1]، يقولُ لهم: "مَن أَنزل الكتابَ الَّذي جاءَ به موسى، نورًا يضيءُ، وهدًى يُرشدُ؟! إنَّكم - أيُّها اليهودُ - تجعلون كتابه في أجزاءٍ متفرِّقةٍ، تُظهِرون منها ما يتَّفقُ وأهواءَكم، وتخفون كثيرًا مما يُلجِئُكم إلى الإيمان والتَّصديق بالقرآن، وعلمتُم منه ما لم تكونوا تعلمونهُ أنتم ولا آباؤكم"[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿قَدَرُواْ﴾ ﴿قَدْرِهِۦٓ﴾: (قدر) أصلٌ يدلُّ على مبلغ الشَّيء وكُنْهِه ونهايتِه، وقوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾، أي: ما عرفوا كُنْهَهُ، وما عظَّموا الله حقَّ عظمتِه، وهذا صحيح، وتلخيصه أنَّهم لم يصفوه بصفتِهِ الَّتي تنبغي له تعالى[3]، والمعنى: "ما عرفوهُ حقَّ معرفتِهِ في الرَّحمة على عبادِهِ، واللُّطفِ بِهِم، حين أنكروا بِعْثَةَ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/361 - 362.
(2) لجنة من علماء الأزهر، المنتخب في تفسير القرآن الكريم، ص: 187.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (قدر).

الرُّسل والوحي إليهم، وذلك مِن أَعْظَمِ رَحْمتهِ، وأجلِّ نعمته"[1]، وخلاصةُ تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾: ما قاله الحسنُ والفرَّاء والزَّجَّاج: أي: وما عظَّموه حقَّ تعظيمه، وقال الخليلُ: أي: وما وصفوه حَقَّ صفته، وقال أبو عبيدةَ: أي: ما عرفوه حقَّ معرفته"[2].

2) ﴿بَشَرٍ﴾ (بشر): أصلٌ يدلُّ على ظهور الشَّيء مع حسنٍ وجمالٍ، البَشَرَةُ والبَشَرُ: ظاهرُ جلدِ الإنسان، وبَشَرَةُ الأرضِ: ما ظهر من نباتها، وقد أَبْشَرَتِ الأرضُ، وما أحسن بَشَرَتَها! والبَشَرُ: الخلقُ، يقعُ على الأنثى والذَّكر والواحد والاثنين والجمع، وسمِّي البشر: بشرًا لظهورهم[3]. ويجوز أن يقالَ: إنَّ قولنا: بشرٌ، يقتضي الظُّهور، وسُمُّوا بشرًا؛ لظهور شأنهم، ومنه قيل لظاهر الجلد: بشرة، والبشر واحد وجمع، وفي القرآن: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ [المؤمنون: 24]، وتقول محمَّد خيرُ البشر، يعنون النَّاس كلَّهم، ويثنَّى البشر، فيقال: بشران، وفي القرآن: ﴿أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا﴾ [المؤمنون: 47]، ولم يسمع أنَّه يجمع[4].

3) ﴿قَرَاطِيسَ﴾: جمع القِرْطَاسُ: ما يُكتبُ فيه كالرِّقِّ والكاغَد ونحوِها، لا كالخَشبةِ والحَجَر، وإن كان يُكتَب فيه، وهو: الصَّحيفة الثَّابتةُ الَّتي يُكتَب فيها، وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِي قِرْطَاسٍ﴾، أي: في صحيفة، وكذلك قوله تعالى: ﴿تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ﴾، أي: صُحُفًا[5]، و(القِرطاس): معروف، ولا يسمَّى إلا بما فيه، فإن لم يكنْ فيه كتابٌ؛ فهو طِرْسٌ، قال:

بِهَا أَخَادِيدُ مِنْ آثَارِ سَاكِنِهَا *** كَمَا تَرَدَّدَ فِي قِرْطَاسِهِ القَلَمُ[6]

1) ﴿ذَرْهُمْ﴾: (وذر) أصلُه مِنَ الوَذَرَة: قطعةٌ من اللَّحم، وتسميتُها بذلك لقلَّة الاعتدادِ بها، فلانٌ يَذَرُ الشَّيءَ، أي: يَقذِفُهُ لقلَّة اعتداده به[7]، قال تعالى: ﴿ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/44، وينظر: الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 13/58، والقنّوجيّ، فتح البيان: 4/190.
(2) نشوان بن سعيد، شمس العلوم: 8/5404.
(3) الجوهري، الصحاح، وابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (بشر).
(4) أبو هلال العسكريّ، معجم الفروق اللُّغويَّةِ، ص: 101، والفيّومي، المصباح المنير: (بشر).
(5) الرّاغب، المفردات، ابن منظور، لسان العرب، والسّمين، عمدة الحفّاظ: (قرطس).
(6) الرّاغب، المفردات، ابن منظور، لسان العرب، والسّمين، عمدة الحفّاظ: (قرطس). البيت لزهير بن أبي سلمى، ينظر: السمين الحلبي، الدر المصون: 4/543.
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات: (وذر).

يَلْعَبُونَ﴾، والعَرَبُ قد أماتَتِ المصدرَ من (يذر) والفعلَ الماضي، واستعملتْهُ في (الحاضر) والأمر، فإذا أرادوا المصدرَ؛ قالوا: ذَرْه تَرْكًا، أي: اترُكْهُ[1].

2) ﴿خَوْضِهِمْ﴾: (خوض): أَصْلٌ يَدُلُّ عَلَى تَوَسُّطِ شَيْءٍ وَدُخُولٍ، يُقَالُ: خُضْتُ الْمَاءَ وَغَيْرَهُ، وخاضَ القومُ في الحديث، وتَخاوَضوا، أي: تَفاوَضوا فيه، والخَوْض: هو الشُّروعُ في الماءِ والمرورُ فيه، ويُسْتعارُ في الأُمورِ[2]. وأكثر ما ورد في القرآن ورد فيما يُذَمُّ الشُّروعُ فيه[3]. ﴿ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾، أي: "في باطلهم الَّذي يخوضون فيه"[4]، والخوض في الباطلِ ممَّا نهت عنه الشَّريعة، وندَّدتْ به الدِّيانات، ومنَ التَّوجيهات القُرآنيَّة أن يُجانِفَ النبيّ ﷺ والمؤمنون مجالسَ الخوضِ في الباطل؛ لأنَّهَا مجالسُ إثْمٍ وإفسادٍ، قال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِۦۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنعام: 68].

3) ﴿يَلْعَبُونَ﴾: أصلُ البابِ: هو الذَّهابُ على غير استقامة، وأصل الكلمة: اللُّعَابُ، وهو البُزاقُ السَّائلُ، لَعِبَ فلانٌ؛ إذا كان فِعْلُه غيرَ قاصدٍ به مقصِدًا صحيحًا، يَلْعَبُ لَعِبًا، قال تعالى: ﴿وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا﴾ [الأنعام: 70][5]، وقد جعلَ العربُ إهلاكَ الدَّهرِ وإفسادَهُ لَعِبًا، قال الشَّاعر:

ثُمَّ أَضْحَوْا لَعِبَ الدَّهْرُ بِهِمْ *** وَكَذَاكَ الدَّهْرُ يُودِي بِالرِّجَالِ[6]

واللَّعب ضدُّ الجِدِّ، ويقال: لعِبَ لعبًا، وتلاعبَ وتلعَّبَ، قال امرؤُ القيس:

تَلَعَّبَ بَاعِثٌ بِذِمَّةِ خَالِدٍ *** وَأَوْدَى عِصَامٌ فِي الْخُطُوبِ الأَوَائِلِ[7]

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

يخبرُ اللّهُ تعالى عن الكافرين أنَّهم ما عظَّموا اللّهَ حقَّ تعظيمِهِ حين قالوا لنبيِّه ﷺ:

(1) الخليل بن أحمد، كتاب العين: (وذر).
(2) الرّاغب، المفردات: (خوض).
(3) الجوهريّ، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (خوض).
(4) الزّمخشريّ، الكشاف: 2/44، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/582.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (لعب).
(6) أبو بكر الأنباريّ، الزاهر في معاني كلمات النّاس: 2/286.
(7) ابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم: (لعب).

ما أنزل اللّهُ على بَشَرٍ شيئًا منَ الوحي، ثمَّ يأمره، بأن يقولَ لهم موبِّخًا: مَنِ الَّذي أنزل التَّوراة على موسى نورًا وهدايةً وإرشادًا لقومه؟ يجعلُها اليهود في دفاترَ يُظهِرون منها مايوافقُ أهواءهم، ويكتمونَ مايخالفها؛ كصفةِ محمَّدٍ ﷺ، وقد عَلِمتم من القرآن ما لم تعلموا أنتم ولا أسلافكم من قبل، ويبادرهم بالجوابِ بأنَّ اللّه تعالى هو الَّذي أنزله، ثمَّ يأمره بأن يتركَهم في جهلهم وضلالهم، حتَّى يأتيَهم اليقين[1].

تأكيدُ أنَّ مُنزِّلَ التَّوراةِ على موسى، هوَ منزِّلُ القرآنِ، فَلِمَ الجحودُ والنُّكرانُ ؟

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ العطفِ بين الجملتينِ في قولِهِ: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦٓ﴾:

عطفَ قولَهُ تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦٓ﴾ على الجملة السَّابقة؛ لأنَّهما في غرضٍ واحدٍ، فوجودُ "واوِ العطف في صدر هذه الجملة، يدلُّ على أنَّها نزلت متناسقةً مع الجُمَل الَّتي قبلها، وأنَّها وإيَّاها واردتان في غرضٍ واحدٍ، هو إبطالُ مزاعمِ المشركين، فهذا عطفٌ على جملة: ﴿فَإِن يَكۡفُرۡ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ﴾ [الأنعام: 89]، وأنَّها ليست ابتدائيَّةً في غرضٍ آخر"[2].

الدَّلالةُ على أنَّ الجملتينِ في غرضٍ واحدٍ إبطالٌ لمزاعمِ المشركين

سرُّ التَّعبيرِ بجملة: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦٓ﴾ هنا وفي سورة الزُّمَرِ خاصَّةً:

جاءَ قولُهُ: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦٓ﴾ مرَّتين: مرَّةً في إنكار الوحي في هذا الموضع، ومرَّةً في الشِّرك بعبادة اللّهِ تعالى في سورة الزُّمرِ،

تكذيبُ الوحي غايةٌ في الجهلِ بعظمةِ اللهِ تعالى وقدرتِهِ

(1) جماعة من العلماء، المختصر في تفسير القرآن الكريم: 1/139.
وسبب نزول الآية الكريمة ما أخرجه الطبري بسنده عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس روي "عن عبد الله بن عبّاس ﷺ، قال: قوله: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦٓ إِذۡ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٖ مِّن شَيۡءٖۗ﴾، يعني: من بني إسرائيل، قالت اليهود: يا محمّد! أنزل الله عليك كتابًا؟ قال: نعم، قالوا: والله ما أنزل الله من السّماء كتابًا؟ قال: فأنزل الله: قل يا محمّد: ﴿قُلۡ مَنۡ أَنزَلَ ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِي جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورٗا وَهُدٗى لِّلنَّاسِ تَجۡعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبۡدُونَهَا وَتُخۡفُونَ كَثِيرٗاۖ وَعُلِّمۡتُم مَّا لَمۡ تَعۡلَمُوٓاْ أَنتُمۡ وَلَآ ءَابَآؤُكُمۡۖ قُلِ ٱللَّهُۖ ثُمَّ ذَرۡهُمۡ فِي خَوۡضِهِمۡ يَلۡعَبُونَ﴾، قال: (الله أنزله). يُنظر: حسن سليم الهلالي، الاستيعاب في بيان الأسباب: 2/145.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/361.

يقول تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ٦٧﴾ [الزّمر: 67]، فيلاحظ أنَّها جاءت بغرض التَّعظيم؛ إذ تُبَيِّنُ عظمةَ مُلْكِ اللّه تعالى الدُّنيويِّ والأُخرويِّ، وعظمةَ قدرتهِ ﷻ، وفي ذلك مبالغةٌ في ذمِّ الشِّرك، وذمِّ الكافرين بتكذيب الوحي، وذلك لبيان عظيم منزلة الوحي؛ إذ إنَّ الوحي الإلهيَّ لعباده، ينفي العبثيَّةَ عن الخلق، فهو منَ الأهمِّيَّةِ بمكانٍ؛ لذلك جاء في سياق غاية في التَّعظيم.

إيثارُ الفعلِ ﴿قَدَرُواْ﴾ والعدولُ عن مرادفاتهِ، نحو: (مَا عظَّموا، ومَا وقَّروا):

في قولهِ تَعالى: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ آثرَ القرآنُ التَّعبيرَ بنَفْيِ معرفتِهم قدْرَ اللّه تعالى دون نفي تعظيمِه؛ إذ لو قال: (ما عظَّموا اللّه، أو: ما وقَّروا اللّه) لأثبتَ لهم تعظيمًا وتوقيرًا، والحال ليس كذلك؛ فعبَّر بنفي معرفتهم قدْرَ اللّه تعالى؛ لأنَّهم جاهلون بِهِ؛ إذ هم وإن عرفوا اللّه؛ فإنَّ معرفتهم ليست كاملةً؛ لذلك يصحُّ إثبات معرفة قليلة لهم، والتَّعبيرُ ﴿حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ يدلُّ على نقصانِ معرفتهم؛ لذلك كان الأنسبُ هو التَّعبير بنفي معرفتهم قدْرَ اللّه تعالى لا نفي تعظيمهم له؛ ولأنَّ تلك المقولةَ قيلت ليس بسبب أنَّهم لا يعظِّمون اللّه، بل لأنَّهم يجهلون قدْرَه وعظمتَه.

التَّعبيرُ بنفي معرفَتِهم قدْرَ الله، يُثْبِتُ أنَّهم مَا قَدَرُوه حقَّ قدْرِهِ

دلالةُ الكنايةِ بنفي معرفَتِهم قَدْرَ الله تعالى:

في قوله: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ يُفْصِحُ التَّعبيرُ بِنَفي مَعْرِفَتِهم قَدْرَ اللّهِ جلَّ شأْنُهُ عن جهلِهم بقدرتِهِ تعالى، و"نفيُ معرفتِهم لقدْرِهِ سبحانه كنايةٌ عن حطِّهم لِقَدْرِه الجليلِ، ووصفِهم لهُ تعالى بنقيضِ نعتهِ الجميلِ، كما أنَّ نفي المحَبَّةِ في مثلِ: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ٣٢﴾ [آل عمران: 32]، كنايةٌ عنِ البُغض والسُّخط"[1].

قرائِنُ جَهْلِهِم بِقُدرتِهِ تعالى، ورحمتِهِ لخَلْقِهِ بِإرسالِ الرُّسلِ إليهم

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/161.

والغرضُ من ذلك بيانُ جهلِهم؛ ليبنيَ عليهِ بطلانَ قولِهم، بنفي إنزالِهِ الوحي على عبادِهِ؛ إذ يتضمَّن هذا القولُ نفيَ الفعل عن اللّه تعالى في خلْقِهِ، وأنَّه تركَهم بلا رسالة وتعاليمَ، انطلاقًا من العبثيَّة الَّتي يؤمنون بها؛ إذ "اعتقدوا أنَّ اللّه لَا يبعث بشرًا رسولًا؛ لأنَّه ما خلقَ هذا الوجود الإنسانيَّ عبثًا، بل بعثه ليتحمَّلَ الأمانةَ الَّتي حُمِّلَها بمقتضى فطرتِه"[1].

بلاغةُ المجازِ في الفعلِ ﴿قَدَرُواْ﴾:

في قَولِهِ تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦٓ﴾، أصل القَدْرِ والتَّقْدِيرُ: تبيينُ كمِّيَّة الشَّيء، قَدرْتُ الشَّيء: عرفتُ مقدارَهُ، وهو مقياس الشَّيء وضابطُهُ، يقال: قَدَرَ القومُ أمرَهُم يقدُرونَهُ: ضبطوه ودبَّروه، أي: علموه علمًا عن تحقُّقٍ، ويُسْتَعْمَلُ مجازًا في علم الأمر وكُنْهِه[2]، فنفيُ الفعل في قوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّـهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦٓ﴾، يدلُّ على أنَّهم لم يعلموه علمًا عن تحقُّقٍ، فهم لا يعرفونَ حقيقتَهُ ولا كُنْهَهُ على وجهٍ ما، بل كانت معرفةً قاصرةً ناقصةً، "أي: لم يعرفوه حقَّ معرفته، حيث أنكروا إرسالهُ للرُّسل، وإنزاله للكتب"[3].

مَن أنكرَ الإنْزالَ والإرسالَ؛ فما عرفَ قدْرَ اللهِ ذي الجَلالِ

إيثارُ التَّعبيرِ بلفظِ الجلالةِ في قوله: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ﴾:

آثرَ ذكرَ لفظِ الجلالةِ (اللّه)، وهو لفظ العلم المستجمِعِ لصفاتِ الكمال[4] دون لفظ الرُّبوبيَّةِ؛ تعظيمًا لفظاعة فعلهم، وإظهارًا لقباحتهِ الشَّديدة؛ إذ إنَّهم جَهِلوا قدْرَ الإله الجليلِ العظيم الَّذي لا ينبغي أن يُجهلَ شأنُه ﷻ.

مَن جَهِلَ قَدْرَ الإلهِ الجَليلِ؛ فَظُعَ فِعْلُهُ، وضلَّ اعتقادُهُ

سرُّ إضافَةِ الحقِّ إلى القَدْرِ في قوله: ﴿حَقَّ قَدۡرِهِۦٓ﴾:

قولُهُ جلَّ شأنُه: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦٓ﴾، أضاف الحقَّ إلى

بيانُ نفي معرفَتِهم قدْرَ اللهِ تعالى من الأصلِ

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2585.
(2) الرّاغب، المفردات: (قدر)، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/362.
(3) الشّوكاني، فتح القدير: 2/158.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/184.

القَدْرِ، وانتصب على أنَّه مفعولٌ مطلق[1]، "وهو في الأصلِ صفةٌ للمصدر، أي: قدْرَهُ الحقَّ، فلمَّا أُضيفَ إلى موصوفه؛ انتصبَ على ما كان ينتصبُ عليه موصوفُه، أي: ما عرفوهُ تعالى حقَّ معرفته في اللُّطف بعباده والرَّحمة عليهم، ولم يراعوا حقوقَه تعالى في ذلك، بل أخلُّوا بها إخلالًا"[2]. فالإضافةُ جاءت تأكيدًا لبيان قدْره الرَّفيع ﷻ، وتفظيعًا لجهلِهم بذلكَ، فلو قالَ: (ما قدروا اللّهَ قدْرَهُ الحقَّ)؛ لكان المفهوم أنَّه عرفوا قدرًا آخر، ولكنَّه نفى معرفتَهم حقيقةَ قدرهِ على وجه التَّأكيد والقَطْع، بأنَّهم لا يعرفون قدْرَ اللّه تعالى من الأصل.

بلاغةُ جناسِ الاشتقاقِ في قولهِ تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾:

جاءَ في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾، لفظان: ﴿قَدَرُواْ﴾، و﴿قَدْرِهِۦٓ﴾ من جذر واحد، وهو (قدر)، وهذا جناس اشتقاقيٌّ، وفائدته: أنَّه يخلعُ على العبارة جمالًا لفظيًّا، مع فائدة معنويَّة غايةً في الأهمِّيَّةِ؛ إذ إنَّهُ ينبِّهُ السَّامعَ على أهمِّيَّةِ هذا اللَّفظِ في سياقِ الآية، فالتَّكرارُ على مستوى الجذْرِ، يدلُّ على مزيد الاهتمام باللَّفظ للتَّأكيدِ عليه.

تنبيهُ السَّامعِ بتكرارِ اللَّفظِ، أو أحدِ مشتقَّاته

دلالةُ ظرفِ الزَّمانِ في قولِهِ: ﴿إِذْ قَالُواْ﴾:

قولهُ جلَّ شأنُه: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾، إخبارٌ بأنَّ جهلَهُم بقدْرِ اللّه تعالى كانَ في وقتِ قولِهم ذلك؛ للدَّلالة على أنَّ أحدًا لا يقولُ ذلك إلَّا إذا كان في غاية الجهل، فقوله تعالى: ﴿إِذْ قَالُواْ﴾ "ظرفٌ، أي: ما قَدَروهُ حين قالوا: ما أنزل اللّه؛ لأنَّهم لمّا نفوا شأنًا عظيمًا من شؤون اللّه، وهو شأنُ هديِهِ النَّاسَ، وإبلاغِهم مرادَه بواسطة الرُّسل؛ قد جَهِلوا ما يُفضي إلى الجهل بصفةٍ من صفاتِ اللّه تعالى الَّتي هي صفة الكلام، وجَهِلوا رحمتَه للنَّاس ولطفَه بهم"[3].

بلوغُ المنكِرينَ أعلى مقاماتِ الجهلِ، عند إنكارِهم الإنزالَ على بَشَرٍ

(1) ابن عطيّة، المحرر الوجيز: 2/320، والنّسفي، مدارك التّنزيل: 1/521.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/161، وينظر: أبو حيّان، البحر المحيط: 4/580.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/362 - 363.

بلاغةُ ذِكرِ فعلِ القولِ دونَ الزَّعمِ أو التَّكذيبِ:

الإيماءُ إلى شِدَّةِ رُسوخِ المذكورينَ في الكُفْرِ

في قولِهِ تعالى: ﴿إِذْ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍۗ﴾، عبَّرَ بفعلِ القَولِ دونَ (زعم) وغيره؛ ليُبَيِّنَ أنَّهم قالوا ذلك على وجه اليَقينِ الَّذي هم عليه، وفي ذلك دلالةٌ على قوَّة اعتقادِهم بذلك، وفيه إشارةٌ إلى رسوخهم في الكفرِ، وشرُّ النَّاس هم الَّذين ضلَّ سعيُهم في الحياةِ الدُّنيا، وهم يحسبون أنَّهم يحسنون صنعًا، وضلال الوجهة مع التَّصلُّب في التَّشبُّث بها، من أكبر الآفاتِ الَّتي تصيب الأفرادَ، وتُهلكُ المجتمعاتِ.

وَجْهُ إسنادِ القولِ إلى الجميعِ، وإنَّمَا قالَهُ بعضُهم:

السُّكوتُ على الأباطيلِ ضُلوعٌ في الفسادِ والتَّضليلِ

أسندَ القولَ إلى جميعهم، فقالَ جلَّ شأنُهُ: ﴿إِذْ قَالُواْ﴾ وإنَّما قاله بعضُهم، لم يَقُل: (إذ قالَ فريقٌ منهم، أو: إذ قالت طائفةٌ، أو: كثيرٌ منهم)؛ "لأنَّهم لم يردُّوا على قائله، ولم يُعاجِلوه بالأخذ، تفظيعًا للشَّأن وتهويلًا للأمر، وبيانًا؛ لأنَّه يجب على كلِّ من سمع بآية من آيات اللّه: أن يسعى إليها، ويتعرَّفَ أمرها، فإذا تحقَّقه، فمن طَعن فيها؛ أُخِذ على يده، بما تصل إليه قدرته"[1].

دلالةُ عودِ الضَّميرِ في قولِهِ: ﴿قَدَرُواْ﴾ و﴿قَالُواْ﴾ إلى الكافرينَ أو اليهودِ:

أثرُ الضَّميرِ الرَّابطِ في مَتانَةِ نظْمِ الآيةِ وقوَّةِ سَبْكِها

اختلفَ أئمَّةُ التَّفسيرِ في مرجعِ الضَّميرِ في قولِهِ تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُواْ﴾، فَمِنْهُم من جعلَهُ للمُشركينَ، ومنهم من جعلَهُ عائدًا لليهودِ حكايةً لقول بعضهم؛ فَصَحَّ مرجعُ الضَّمير لليهود ولمشركي العربِ؛ لأنَّ "نظم الآية صالح للرَّدِّ على كلا الفريقين"[2]، لتحقُّق المناسبة مع الآيات السَّابقة، فأمَّا مرجعُهُ للمشركين، فلمناسبةِ قوله تعالى: ﴿فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ﴾، واسم الإشارة لكفَّار قريشٍ، وأمَّا مرجعُهُ لليهود، فلمناسبةِ قوله تعالى:

(1) البقاعيّ، نظم الدرر: 7/185، وينظر القونويّ، حاشية على البيضاويّ: 8/189.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 7/367.

﴿أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَـٰهُمُ ٱلۡكِتَـٰبَ﴾ [الأنعام: 89]، فلذلك جازَ في الضَّمير في الفعل، ﴿قَدَرُواْ﴾ أن يعودَ لأكثر من مرجع[1]، فنصُّ الآية منسبكٌ في سياقه، والإحالة في كلِّ حالٍ تحَقِّقُ التَّناسبَ ومتانةَ النَّظم.

دلالةُ إسنادِ الإنزالِ إلى الله تعالى في قوله: ﴿إِذۡ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾:

نفيُ الإنزالِ للوحي كَشْفٌ للقصدِ من إنكارهم نزولَ القرآنِ

أخبرَ تعالى عن نَفْيِهِمُ الوحيَ بقوله: ﴿مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾، فأسندَ الإنزالَ لعَلَم الجلالة؛ للدَّلالة على أنَّهم كانوا "ناسين ما له من صفات الكمال"[2]، وهذا متناسبٌ مع جهلِهم العظيم الَّذي بيَّنته الآية؛ لأنَّ "من نسب مَلكًا تامَّ الملك، إلى أنَّه لم يُثبِتْ أوامرَه في رعيَّته، بما يرضيه ليفعلوه، وما يسخطه ليجتنبوه؛ فقد نسبَه إلى نقصٍ عظيم"[3]، وأنكروا ذلك مبالغةً وتأكيدًا لنفيِ نزولِ القرآن، ونبوَّة محمَّد [4] ﷺ، و"إنكارًا منهم لرحمته؛ لأنَّ بعثةَ الرُّسل من جلائل نعمته، وعظائم رأفتهِ"[5].

سرُّ التَّعبيرِ بقوله: ﴿بَشَرٍ﴾، والعدولِ عن (أحدٍ) أو (رسولٍ) أو (إنسانٍ):

لفظُ البَشَرِ يعبِّرُ عنِ الإنسانِ باعتبارِ الجِسْمِ مجرَّدًا عنِ المعاني الفاضِلَةِ

عبَّرَ بلفظِ البشرِ دونَ (إنسان) وغيره؛ لأنَّهم استعملوا هذا اللَّفظَ تقليلًا من شأنِ الأنبياء؛ إذ يلاحَظ في لفظ البشرِ جثَّتُه دون إنسانيَّتِه الدَّالَّة على التَّحضُّر، فقصدوا من ذلك تجريدَ الأنبياء من فضائِلهم وامتيازهم، و"من عرف اللّٰهَ حقيقةً، وأدركَ ما يجب في حقِّهِ، وما يستحيل، وما يجوز، لا يسعُهُ إلَّا أن يعترفَ بالرِّسالة والسِّفارة بين الخلق والخالق - ﷻ - فاللّٰه لا يحدُّه مكانٌ، وليس له زمانٌ، وهو مخالفٌ للحوادث، يستحيل عليه أن يخاطبَ البشرَ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 7/361 - 362.
(2) البقاعيّ، نظم الدرر: 7/184.
(3) البقاعيّ، نظم الدرر: 7/185.
(4) الزّمخشريّ، الكشاف: 2/44، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/580، وابن جزي، التّسهيل: 1/268، والنّيسابوري، غرائب القرآن: 3/118، والشّهاب، عناية القاضي: 4/93.
(5) الطِّيبيّ، فتوح الغيب: 6/157، وينظر: الشّهاب، عناية القاضي: 4/92.

مباشرة: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحۡيًا أَوۡ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ﴾ [الشّورى: 51]، ثمّ يُفضي الرَّسولُ إلى الخلق بالتَّعليمات الإلهيَّةِ، فمن أنكر الرِّسالة؛ ما قدَرَ اللّه حقَّ قدره، ولا عظَّمه حقَّ تعظيمه، بل ما عرفه أصلًا"[1].

دخولُ ﴿مِن﴾ على النَّكرةِ في سياقِ النَّفي في قوله: ﴿عَلَىٰ بَشَرٍ﴾:

فائدةُ المبالغةِ في النَّفي واستغراقِهِ لكلِّ ما أنزلَ

من أصولِ التَّعبير في العربيَّة أنَّ "النَّكرةَ في موضع النَّفي تفيد العمومَ"[2]، فعبَّر بذلك عن نفيهم الوحيَ من الأصلِ، فنفوا رسالاتِ الأنبياء جميعًا، فقولهُم هذا "يعمُّ جميعَ البشر؛ لوقوع النَّكرة في سياق النَّفي لنفي الجنس، ويعمُّ جميعَ ما أُنزل باقترانه بـ ﴿مِن﴾ في حيِّز النَّفي، للدَّلالة على استغراق الجنسِ أيضًا، ويعمُّ إنزال اللّه تعالى الوحيَ على البشر، بنفي المتعلَّق بهذين العمومين"[3]، وهذا يتناسب مع نفي معرفتهم قدْرَ اللّهِ تعالى؛ إذ هم لم يكفروا بنبوَّة النَّبيِّ ﷺ وحسب، بل بجميع الأنبياء، فهو كفرٌ عظيمٌ، وجهل شنيع؛ إذ يثبتون اللَّعِبَ والعبثَ في الخَلْق، ويسلبونهُ القصدَ الشَّريفَ، والحكمة الرَّفيعة.

فائدةُ تنكيرِ ﴿شَيۡءٍۗ﴾ للعمومِ مع أنَّه في السِّياق دالٌّ على الخصوص:

دلالةُ نفيهم إنزالَ أيِّ لونٍ من الوحي، مهما كان نوعُهُ أو حجمُهُ

قوله جلَّ شأنُهُ: ﴿مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيۡءٍۗ﴾، عبَّرَ بصيغة التَّنكيرِ في ﴿شَيۡءٍۗ﴾، الدَّالِّ على العموم، مع أنَّ المراد به "هنا شيءٌ من الوحي"[4]؛ للدَّلالةِ على تعميمِ النَّفي في المُنزَلِ، والمَنزِّلُ هو الوحيُ، فَدَلَّ على نفيهم الوحيَ، وأنَّه لم ينزل منه ولو كلمة واحدة.

سرُّ العدولِ عن لفظِ (كتاب)، أو (رسالة) إلى قولِه: ﴿شَيۡءٍۗ﴾:

في قولهِ تعالى: ﴿قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيۡءٍۗ﴾، حكى

(1) الحجازيّ، التّفسير الواضح، ص: 639.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 13/62.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/363.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/363.

قولَهم بنفي أن يكونَ اللّٰهُ تعالى قد أنزل شيئًا، فعَدَلوا عن نفيِ نزولِ كتابٍ أو رسالةٍ إلى نفي نزولِ شيءٍ؛ لأنَّهم أرادوا نفيَ عموم الإنزال، فاللّٰه تعالى بزعمهم لم يُنزل شيئًا، مهما قلَّ وقَصُر.

العدولُ إلى (شيء) حكايةٌ عن زعمِهم أنَّه لم ينزلْ قليلٌ ولا كثيرٌ

بلاغةُ فصلِ: ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ عمَّا قبلَها:

جاء قولُه تعالى: ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ﴾ مفصولًا عن قوله: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ﴾، لكمال الانقطاعِ بينهما؛ إذ هما مختلفتان اختلافًا تامًّا، فالجملة الثَّانيةُ إنشاءٌ، والأولى خبرٌ، والفصلُ بينهما مقتضى الاختلافِ بين الأسلوب، والمعنى قل لهؤلاء الكفرةِ الجاحدين.

بينَ الجملتَينِ كَمالُ انقطاعٍ بليغٍ، فالأولى خَبَرٌ والثَّانيةُ إنشاءٌ

دلالةُ التَّعبيرِ بالقولِ دونَ إلقاءِ السُّؤالِ مباشرةً:

في قولهِ جلَّ شأنُه: ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ﴾ أمر تعالى نبيَّه ﷺ "أن يستفهمَ على جهة التَّقرير على موضع الحجَّة"[1]، دون أن يأتي الكلام بطريق الاستفهام المباشرِ، كأن يقولَ: (قالوا: ما أنزلَ اللّٰهُ على بشرٍ من شيءٍ، فمَن أنزلَ؟)، تأكيدًا للمضمون المُفحِم لهم؛ فلذا "افتتحَ بالأمرِ بالقول، للاهتمام بهذا الإفحامِ، وإلَّا فإنَّ القرآنَ كلَّهُ مأمورٌ النَّبيُّ ﷺ بأن يقولَهُ"[2].

أهمِّيَّةُ مضمونِ هذا القولِ، مع كونِ القرآنِ كلِّهِ مناطًا بقولِ النَّبيِّ لقومِهِ

دلالةُ الاستفهامِ وغرضُهُ في قوله: ﴿مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ﴾:

أمر اللّٰه تعالى النَّبيَّ ﷺ أن يسألَهم عن الَّذي يعرفونه، وهو كتاب موسى عليه السلام، والمرادُ أنَّه يلزمهم "بما لا سبيل لهم في إنكاره أصلًا، حيثُ قيل: ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ﴾؟ أي: قلْ لهم ذلك على طريقة التَّبكيتِ وإلقامِ الحَجَرِ"[3]، فالاستفهامُ ليس حقيقيًّا؛ إذ هو سؤالٌ عن معلومٍ، فهو استفهامٌ تقريريٌّ، جاء

دلَّ الاستفهامُ على التَّقريرِ؛ إلزامًا لهم بما لا يسعهُم إنكارُه

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/320، وينظر: النّيسابوريّ، غرائب القرآن: 3/118.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتنّوير: 7/363، وينظر: أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2585.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/161.

"بطريقة الإلزام؛ لأنَّهم أظهروا أنَّ رسالة محمَّد ﷺ كالشَّيء المحال، فقيل لهم على سبيل التَّقرير: ﴿مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ﴾! ولا يَسَعُهم إلَّا أن يقولوا: اللّه، فإذا اعترفوا بذلك، فالذي أَنزل على موسى كتابًا، لِمَ لا يُنزِل على محمَّدٍ مثلَه"[1]، وهو الَّذي لا يعجزه شيءٌ في الأرض ولا في السَّماءِ.

سرُّ العدولِ عن لفظ (التَّوراة) إلى قوله: ﴿ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ﴾:

في قوله جلَّ شأنُه: ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ﴾، عدلَ عن التَّصريح بالتَّوراة، وهو الكتاب الَّذي جاءَ به موسى إلى لفظ (الكتاب)؛ لإيقاع الاحتجاجِ عليهم عند إقرارِهم بنزوله؛ لأنَّ القرآنَ كتابٌ أيضًا، فإذا أقرُّوا بنزول الكتاب الَّذي هو التَّوراة، لزمهم الإقرار بنزول كتابٍ آخر، وهو القرآن الكريم.

الإقرارُ بنزولِ كتابِ التَّوراةِ السَّابقِ حجَّةٌ لنزولِ كتابِ القرآنِ اللَّاحقِ

وجهُ الاستدلالِ بإنزالِ التَّوراةِ على صدق نبوَّةِ محمَّدٍ ورسالته:

احتجَّ السِّياقُ عليهم بكتاب موسى عليه السلام؛ "لأنَّهم كانوا يسمعون من اليهود بالمدينة ذكرَ موسى والتَّوراة، وكانوا يقولون: ﴿لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ﴾" [الأنعام: 157][2]، فكانتِ التَّوراةُ معروفةً عندهم، حتَّى تمنَّوا أن يكون لهم كتابهم الخاصُّ بهم، لمفاخرة اليهودِ "وإلزامهم إنزالِ التَّوراة، لما أنَّه كان عندهم من المشاهير الذَّائعة"[3]، فلمَّا كان ذلك كذلك؛ فإنَّ "الاحتجاج عليهم واضحٌ؛ لأنَّهم ملتزمون بنزول الكتاب على موسى"[4].

لمَّا كانوا يتمنَّون كتابًا أهدى من التَّوراةِ؛ ألزمَهم بالإقرارِ بِهِ

إيثارُ التَّعبيرِ بجملة: ﴿جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ﴾ في السِّياقِ:

آثرَ النَّظمُ القُرآنيُّ التَّعبيرَ عن الوحي المُنزل إلى موسى بقولِهِ

في إيثارِ المجيءِ على النُّزولِ تطريةٌ للأُذُنِ، لورودِ النُّزولِ في صدرِ الآيةِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/367.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/44.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/161.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/580.

تعالى: ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ﴾ بالمجيءِ؛ لأنَّ لفظ النُّزول قد ذُكِرَ في صدْرِ العبارة، فاكتفى بهِ، ثمَّ آثرَ لفظَ المجيء؛ لأنَّ موسى عليه السلام نزلتْ عليه الألواحُ في مكانٍ غير مكان قومهِ، فجاءهم بالكتابِ تامًّا.

دلالةُ تخصيصِ التَّوارةِ بالذِّكر في قوله: ﴿ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ﴾:

ذِكرُ التَّوراةِ لمعرفةِ أهلِ مكَّة بها، وشهرتِها عندَهم

جاءَ التَّقريرُ في الآية والاحتجاج بذكر نزولِ التَّوراةِ على موسى عليه السلام، دون غيرهِ لتواترِ ذِكْرِ موسى في بلاد العربِ وشهرتهِ؛ لأنَّ "اليهود يتردَّدون عَلى مَكَّةَ في التِّجارَةِ وغيرِها، وأهل مكة يتردَّدون على يثرب وما حولها، وفيها اليهودُ وأحبارُهم، وبهذا لم يُذكِّرْهمُ اللّه برسالة إبراهيم عليه السلام؛ لأنَّهم كانوا يجهلون أنَّ اللّه أنزل عليه صُحفًا، فربَّما يتطرَّقه اختلافٌ في كيفيَّة رسالته ونبوءَتِه"[1]، فكان ذكرُ موسى أقوى في الاحتجاجِ عليهم لاتِّضاحِ ذلك عندهم وشهرته.

بلاغةُ استعارةِ النُّور للوضوحِ والبيانِ في الكتبِ المنزَّلةِ:

التَّعبيرُ عنِ الوحي المنزَّلِ بأنَّه نورٌ لوضوحِهِ وهدايتِهِ إلى الصِّراطِ المستقيمِ

في قولهِ جلَّ شأنُه: ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا﴾، عبَّرَ عن الحالِ الَّتي نزلت بها التَّوراةُ، بأنَّها نورٌ؛ إذِ "النُّور استعارةٌ للوضوحِ والحقِّ، فإنَّ الحقَّ يُشبَّه بالنُّور، كما يُشبَّهُ الباطلُ بالظُّلمة"[2]، وهذا شاملٌ لكلِّ ما أوحى اللّه تعالى به؛ إذ الرّسالاتُ الموحى بها إنَّما جاءتْ للهداية والبيان، وهذا هو عينُ فائدةِ النُّور.

دلالةُ بيانِ حالِ الكتابِ بأنَّهُ ﴿جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ﴾:

وضوحُ الوحي وإعجازُهُ يَشهدُ أنَّ الكتابَ من اللهِ تعالى

بيَّنَ اللّهُ تعالى أنَّ الكتابَ الَّذي أُنزِل على موسى، إنَّما نزلَ في حالة البيان والتَّبيين، فإنَّ "كونه بيِّنًا بنفسه ومبيِّنًا لغيره، ممَّا يؤكِّد الإلزام أيَّ تأكيد، وانتصابهما على الحاليَّة"[3]، فدلَّ الحال ذلك

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/363.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/363.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/161.

على أنَّهم لا يقدرونَ على الإنكار؛ "لأنَّ الكتاب الموصوف بالنُّور والهُدى الآتي به مَن أُيِّدَ بالمعجزات؛ بلغت دلالتُه من الوضوح إلى حيث يجب أن يُعترف بأنَّ مُنزلَه هو الله، سواء أقرَّ الخصمُ بها أم لم يُقِرَّ"[1]، فلمَّا ألزمهم بتقريرهم بإنزال الكتاب الَّذي جاء به موسى عليه السلام أَقْرَنَه بدليلِ كونِه من الله تعالى تأكيدًا للإلزام.

دلالةُ الجمعِ بينَ النُّورِ والهدى في قوله: ﴿نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ﴾:

لا يخفى أنَّ صفةَ النُّور تدلُّ على الهداية، وظاهرُ هذا يدلُّ على أنَّه قد جَمع بين وصفَيْنِ لمعنى واحد، وهذا لا يليقُ بالكلام البليغ، وفي ذلك يقول الفخر الرَّازي: "واعلم أنَّه تعالى سمَّاه نورًا تشبيهًا له بالنُّور الَّذي به يبيِّن الطَّريق، فإن قالوا: فعلى هذا التَّفسير لا يبقى بين كونه نورًا، وبين كونه هدًى للنَّاس فَرْقٌ، وعطفُ أحدِهما على الآخر، يوجبُ التَّغايرَ؛ قُلنا: النُّور له صفتان: إحداهُما: كونُهُ في نفسِه ظاهرًا جليًّا، والثَّانية: كونُه بحيث يكون سببًا لظهور غيره، فالمراد من كونه نورًا وهدًى هذان الأمران"[2]، فجَمَعَ بين الوصفينِ للدَّلالة على كونِه "بيِّنًا واضحًا كالنُّور في تكليفاته ومعانيه، ليكون مصدرَ الهدى للنَّاس، يعلمون التَّكليفات والعقائد السَّليمة منه"[3].

النُّور يزيدُ على الهُدى، كونه ظاهرًا في نفسِهِ، وهاديًا للحقِّ

دلالةُ لامِ التَّعريفِ في لفظِ (النَّاس) في قوله: ﴿نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ﴾:

تدلُّ كلمةُ (النَّاس) على جميعِ أفرادِ الإنسانِ، وقد يتقيَّد بفئةٍ واحدةٍ منهم بحسب السِّياقِ، وفي هذه الآيةِ ليس هو على الإطلاقِ، بل "المرادُ بالنَّاسِ اليهودُ، أي: ليهديهم، فالتَّعريف فيه للاستغراقِ، إلَّا أنَّه استغراقٌ عرفيٌّ، أي: النَّاسُ الَّذين هم قومهُ بنو إسرائيل"[4]، أي: هو هدًى للنَّاسِ المخاطبينَ بهِ، وهم بنو إسرائيلَ.

النَّاسُ في السِّياقِ مَن أُرسلَ إليهم موسى فقط

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/582، وينظر: الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 13/64.
(2) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 13/62 - 63.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2585، وينظر: القنّوجيّ، فتح البيان: 4/191.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 7/364.

بلاغةُ الاستئنافِ في قولِهِ: ﴿تَجۡعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبۡدُونَهَا وَتُخۡفُونَ كَثِيرٗاۖ﴾:

بيانُ ضلالِ اليهودِ في عدمِ الانتفاعِ بنورِ الكتابِ وهدايتِهِ

الجملةُ في قوله تعالى: ﴿تَجۡعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبۡدُونَهَا وَتُخۡفُونَ كَثِيرٗاۖ﴾ استئنافيَّةٌ سيقتْ لبيان ضلالهم في سلوكهم معَ الكتابِ الَّذي جاءهم بالنُّورِ والهُدى؛ "لأنَّ كونَه نورًا وهَديًا موجبٌ لأنْ يجعل ذريعةً إلى التَّخلُّص من ظلماتِ الجهالات، ووسيلةً إلى النَّجاة من ورطات الكفر والضَّلالات، فعكسوا، وحقَّروه، حيث جعلوه ذا قراطيسَ مقطَّعةٍ، وورقاتٍ مفرَّقةً، وبعَّضوه، فأخفَوا ما أرادوا، وأبدوا ما اشتهوهُ، ليَضِلُّوا ويُضِلُّوا"[1].

بلاغةُ الإدماجِ في قوله: ﴿تَجۡعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبۡدُونَهَا وَتُخۡفُونَ كَثِيرٗاۖ﴾:

الخروجُ من خطابِ المشركينَ إلى خطابِ اليهودِ تعريضٌ بهم

بدأَ الخِطابُ في صَدْرِ الآيةِ معَ المُشركينَ الَّذين نفوا إنزالَ الوحي من حيثُ الأصلُ، ثمَّ انتقل الخطابُ إلى اليهود، فالخطابُ في قوله تعالى: ﴿تَجۡعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ﴾ "لغيرِ المشركين إذِ الظَّاهر أن ليس لهم عملٌ في الكتاب الَّذي أُنزِلَ على موسى، ولا باشروا إبداءَ بعضِه وإخفاءَ بعضِه؛ فتعيَّن أن يكون خطابًا لليهود على طريقة الإدماج[2]، أي: الخروجُ من خطابٍ إلى غيره؛ تعريضًا باليهودِ، وإسماعًا لهم، وإن لم يكونوا حاضرينَ من بابِ: إيَّاك أعني، واسمعي يا جارة"[3].

وجهُ ذمِّ جعلِهم الكتابَ قراطيسَ في قوله: ﴿تَجۡعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ﴾:

تجزئةُ الكتابِ كانتْ بقصدِ كتمانِ بعضِهِ، فذُمُّوا لذلكَ

ذمَّهم اللهُ تعالى بجعلهم الكتابَ قراطيسَ، ولا وجه للذَّمِّ بذلك، فما مقصدُ القرآن الكريم بذمِّهم بهذا الفعلِ؟ وفي بيان ذلكَ قال الفخرُ الرَّازيُّ: "فإن قيل: إنَّ كلَّ كتابٍ فلا بدَّ وأن يودعَ

(1) الطِّيبي فتوح الغيب: 6/159 - 160.

(2) الإدماج هو "أن يجعل المتكلّم الكلام الّذي سيق لمعنى متضمّنًا لمعنى آخر، فالمعنى الآخر ملفوف في الكلام". يُنظر: الدّسوقيّ، حاشيّة على مختصر المعاني: 4/136، أو هو "إدْخال فِكْرةٍ في فكرة، أو غرضٍ بلاغيّ في غرضٍ آخر، أو وَجْهٍ من وُجُوه الْبَدِيع في وجه منه آخر، بأسلوب من الكلام لا يظهرُ منه إلَّا إحْدَى الفكرتين، أو أَحَدُ الغرضين، أو أَحَدُ الوَجْهَين، فإذا تأمّل المتفكِّرُ ظَهَرَ لَهُ المُدْمَجُ وسَرَّهُ هذا الإدماج"، يُنظر: الأبياري، الموسوعة القرآنية: 2/261.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/364، وينظر: الطّيبيّ، فتوح الغيب: 6/159.

في القراطيسِ، فإذا كان الأمرُ كذلك في كلِّ الكتب، فما السَّبب في أن حكى اللّهُ تعالى هذا المعنى في معرض الذَّمِّ لهم؟ قلنا: الذَّمُّ لم يقع على هذا المعنى فقط، بل المراد أنَّهم لمّا جعلوه قراطيس، وفرَّقوه وبعَّضوه، لا جرم قدَّروا على إبداء البعضِ، وإخفاء البعض، وهو الَّذي فيه صفةُ محمَّدٍ ﷺ"[1]، فالمذمومُ ليس جعله قراطيسَ، ولكن ما كانوا يقصدون من ذلك؛ فإنَّهم جعلوه كذلك "ليتمَّ لهم ما يريدونه من التَّحريف والتَّبديل والإبداء والإخفاء وكتمِ صفةِ النَّبيِّ ﷺ المذكورة فيه، وهذا ذمٌّ لهم"[2]، ووجه الذَّمِّ أنَّه وبَّخهم على جهلهم بالتَّوراة، وما قاموا به من تجزئتها لإبداءِ بعض انتخبوه، وإخفاءِ ما لا يشتهونهُ[3].

فائدةُ وصفِ القراطيسِ بجملتي: ﴿تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا﴾:

قوله جلَّ شأنُهُ: ﴿قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا﴾، فيهِ وصفُ القراطيسِ بالجملتَين: ﴿تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا﴾، وفُهِمَ من هذهِ الصِّفةِ علَّةُ جعلِهم الكتاب قراطيسَ، أي: "تجعلونَهُ قراطيسَ، لغرض إبداءِ بعضٍ، وإخفاءِ بعضٍ"[4]، وفي هذا الوصف ذمٌّ لهم، وتوبيخٌ على إخفائهم نَعْتَ النَّبيِّ[5] ﷺ، ففائدةُ هذا الوصفِ أنَّه أَظهر قَصْدَهم، مِن جَعْلِهمُ التَّوْراةَ قَراطيسَ، وهي الإبداءُ والإخفاءُ تبعًا للأهواء، وذكرَ الإبداءَ في سياق الذَّمِّ - والإبداءُ لا ذمَّ عليه - إعلامًا بأنَّهم كانوا مقتدرين على الإبداء، ولكنَّهم انتَقَوا ما يُبدون، وهذا يبيِّن قصدَهم إخفاء ما أخفوا، فظهر أنَّ ذِكْرَ الإبداءِ فيه تأكيدٌ على قصدهم إخفاءَ ما أَخْفَوا.

عِلَّةُ جعلِهم الكتابَ قراطيسَ، غايتُهُ الإعلامُ بقصدِ تضليلِ النَّاسِ

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 13/63، وينظر: ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/365.
(2) القنّوجيّ، فتح البيان: 4/191، وينظر: الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/44، والنسفيّ، مدارك التّنزيل: 1/521.
(3) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 2/172.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/365.
(5) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/321، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 7/38.

نكتةُ إطلاقِ الإبداءِ، وتقييدُ الإخفاءِ بالكثرةِ:

ما أخفوه هو المقصودُ بالذَّمِّ، وتقييده بالكثرةِ ينصُّ على أنَّه كثيرٌ

في قولِه تعالى: ﴿قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا﴾ جاء وصفُ الكثرة قيدًا مع الإخفاء دون الإبداء؛ للنَّصِّ على أنَّ ما أخفوه كان كثيرًا، ولأنَّ السِّياق في ذمِّهم، فهو يتَّجهُ للذَّمِّ على الإخفاء والتَّلاعب بالنَّصِّ المقدَّس، فكان هو الأحرى بوصف الكثرةِ؛ للنَّصِّ على أنَّ ما أخفوه كثيرٌ، وما أبدوه هو كثيرٌ بالضَّرورةِ، ولكنَّه لا يقتضي مدحًا ولا ذمًّا؛ إذِ هو الواجبُ المنوطُ بهم، فهو لا يتأثَّر بالكثرةِ والقلَّة، فأطلقَهُ.

علَّةُ تقديمِ عبارةِ ﴿تُبْدُونَهَا﴾ على عبارةِ ﴿وَتُخْفُونَ كَثِيرًا﴾:

تَقديمُ الإبداءِ على الذَّمِّ، يَسْتَجْلِبُ تَرَقُّبَ الصِّفَةِ المقصودَةِ في السِّياق

قدَّم الإبداءَ على الإخفاء في قوله جلَّ شأنُه: ﴿تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا﴾؛ لأنَّه لمَّا ذمَّهم بجعل الكتاب قراطيسَ - وهذا الجعلُ ليس ذمًّا بحدِّ ذاته - فكان السَّامع ينتظر صفة الذَّمِّ، ثمَّ ذكرَ الإبداءَ، وهو ليس ذمًّا، فيتطلَّع السَّامع بترقُّبٍ إلى معرفة تلك الصِّفة الَّتي جاء السِّياق لبيانها، ثمَّ يذكرها آخرًا، لتقعَ أبلغَ موقعٍ في أذن السَّامع، تهويلًا لشأن ذلك الإخفاءِ، وقدَّم الإبداء اعتبارًا بالأصل؛ إذ نشرُ تعاليم الكتاب هو الأصل، ولأنَّ ما يراد إخفاؤه يُجعل آخرًا؛ إذ التَّأخير أنسب بالإخفاء، والتَّقديم أنسب بالإظهار والإعلان، والغرض تهويل المؤخَّر.

بلاغةُ الطِّباقِ بينَ لفظي: ﴿تُبْدُونَهَا﴾ و﴿وَتُخْفُونَ﴾:

طباقُ الإيجابِ يؤكِّدُ على ذِكْرِ الفِعْلِ القَبيحِ بَعْدَ الفعلِ الحَسَنِ

قولُه جلَّ شأنُه: ﴿تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا﴾ طباقُ إيجابٍ؛ حيث جمع بين فعلين متضادَّينِ مثبتَيْن، وفائدةُ الطِّباق تكمن في إثارة انتباه السَّامع للخطاب، وفيه زيادة في بيان المعنى؛ إذ بضدِّها تتميَّز الأشياء، وذلك أظهرُ للمعنى الَّذي يقصده النَّصُّ؛ فإذا أدرك السَّامع فضيلةَ إعلانِ الكتاب وإبْدائِه، فإنَّه سيقع ضدُّه في ذهنه، بأشدِّ ما يكون التَّمكُّن، وفي ذلك إعلامٌ بقباحة ما قاموا به منَ الإخفاءِ.

توجيهُ القراءةِ بصيغةِ الغَيبةِ في الألفاظِ: (يجعلونه، يبدونها، يخفون):

الالتفاتُ بإنزالِ المخاطَبِ منزلةَ الغائبِ تبعيدًا له لقبحِ أفعالِهم

قرأَ ابنُ كثيرٍ وأبو عمرٍو (يجعلونَهُ) (يبدونها ويخفون) بالياءِ على الغَيبة[1]، والقراءةُ بصيغةِ الغيبةِ إذا كان المرادُ بهم بني إسرائيل، فهو لمناسبة الفعلينِ السَّابقين: (قالوا، قدروا)[2]، وفيه "التفاتٌ تبعيدًا لهم - بسببِ ارتكابِهمُ القبيحَ - عن ساحةِ الخِطابِ؛ ولذا خاطَبهم حيثُ نسبَ إليهم الحسنَ في قوله: ﴿وَعُلِّمۡتُم﴾، وهذا من عيونِ اللَّطائف في الالتفاتِ"[3].

بلاغةُ العطفِ بينَ: ﴿أَنزَلَ ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِي جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ﴾، ﴿وَعُلِّمۡتُم مَّا لَمۡ تَعۡلَمُوٓاْ﴾:

الدَّلالةُ على سَعةِ امتنانِهِ على بني إسرائيلَ، وكثيرِ نعمائِهِ عليهم

قولهُ جلَّ شأنُه: ﴿وَعُلِّمۡتُم مَّا لَمۡ تَعۡلَمُوٓاْ﴾ معطوفٌ عَلى الجملةِ في قوله: ﴿أَنزَلَ ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِي جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ﴾؛ لأنَّه "خطابٌ لبني إسرائيلَ مقصودٌ به الامتنانُ عليهم وعلى آبائهم، بِأَنْ عُلِّموا من دينِ اللّٰه وهداياتِه ما لم يكونوا عالِمينَ به"[4].

دلالةُ بناءِ الفعلِ للمجهولِ في قولِهِ: ﴿وَعُلِّمۡتُم مَّا لَمۡ تَعۡلَمُوٓاْ﴾:

أهمِّيَّةُ البناءِ للمَفعولِ للعلْمِ بالفاعِلِ بغايةِ الإيجازِ

عبَّرَ بالفعلِ المجهولِ إيجازًا في التَّعبير، فَوَجْهُ "بناءِ فعلِ ﴿وَعُلِّمۡتُم﴾ للمجهول ظهورُ الفاعل، ولأنَّه سَيَقولُ: ﴿قُلِ ٱللَّهُۖ﴾"[5]، فالفاعلُ سيظهرُ في الجوابِ المذكورِ لاحقًا، فَحَذَفَهُ أوَّلًا للإيجاز. وعند ابن عطيَّة الغَرْناطيِّ: "قوله: وَعُلِّمْتُمْ ما لَمْ تَعْلَمُوا، يَصلح على هذا المعنى لمخاطبةِ من انتفع بالتَّعليم، ومَن لم ينتفعْ بهِ، ويصحُّ الامتنانُ بتعليم الصِّنْفَيْنِ، وليس من شرط من عُلِّم أن يَعْلَمَ ولا بدَّ، أما إنَّ التَّعليم الكاملَ هو الَّذي يقع معه التَّعلُّمُ. وقالَتْ فِرْقَةٌ:

(1) ابن مجاهد، السّبعة، ص: 262، وابن الجزريّ، النّشر: 2/260.
(2) الشّهاب، عناية القاضي: 4/93.
(3) الشّهاب، عناية القاضي: 4/93.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/581.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/367.

بَلْ هي مُخاطَبَةٌ لِبَنِي إسْرائِيلَ، والمَعْنى - عَلى هَذا - يَتَرَتَّبُ عَلى وجْهَيْنِ: أحَدُهُما أنْ يُقْصَدَ بِهِ الِامْتِنانُ عَلَيْهِمْ وعَلى آبائِهِمْ؛ بِأنْ عُلِّمُوا مِن دِينِ اللّهِ تَعالى وهِداياتِهِ ما لَمْ يَكُونُوا عالِمِينَ بِهِ؛ لِأنَّ آباءَ المُخاطَبِينَ مِن بَنِي إسْرائِيلَ كانُوا عُلِّمُوا - أيْضًا - وعَلِمَ بَعْضُهُمْ؛ ولَيْسَ ذَلِكَ في آباءِ العَرَبِ. والوَجْهُ الآخَرُ أنْ يَكُونَ المَقْصُودُ ذَمَّهُمْ؛ أيْ: "وَعُلِّمْتُمْ أنْتُمْ وآباؤُكم ما لَمْ تَعْلَمُوهُ بَعْدَ التَعْلِيمِ؛ ولا انْتَفَعْتُمْ بِهِ؛ لِإعْراضِكُمْ وضَلالِكُمْ"[1].

بلاغةُ الالتفاتِ في قوله: ﴿وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓاْ﴾:

قرأَ ابنُ كثيرٍ وأبو عَمرو الأفعالَ الثَّلاثةَ بياء الغَيْبَةِ: (يجعلونه، يبدونها، يخفون)، وضميرُ الجمع لليهودِ أيضًا، فخاطَبهم بالغَيبة تبعيدًا لهم - بسبب ارتكابهم القبيحَ - عن ساحة الخطاب، ولمّا أراد أن ينسب إليهم الحُسن في قولِهِ سبحانه: ﴿وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓاْ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْۖ﴾ التَفَتَ عن الغَيبة إلى الخطابِ[2]، ففي الالتفاتِ بيانٌ للفرقِ بين المنزلتينِ، فالتَّعبيرُ بالغَيبةِ في الأفعال: (يجعلونه، يبدونها، يخفون)، إشارةٌ لتبعيدِهم لقباحةِ تلك الأفعالِ، والتَّعبير بالخطاب يَدخل في سياق تعليمهم لحسن هذه المنزلةِ.

الخطابُ بالغَيبةِ تبعيدٌ لهم، وفي الالتفاتِ تبريزٌ لمنزلةِ التَّعليمِ

إيثارُ التَّعبيرِ بـ﴿مَّا﴾ في قوله: ﴿وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓاْ﴾:

في قولِهِ سبحانه: ﴿وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓاْ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْۖ﴾، عبَّر عمَّا عُلِّموه بالاسم الموصول ﴿مَّا﴾ الدَّالِّ على العموم والإبهامِ، تعميمًا لكلِّ شيءٍ عُلِّموه؛ تعبيرًا عن كثرةِ التَّعليم، وتفخيمًا له، وفي ذلك زيادةٌ في الامتنان، والمعنى: (وَعُلِّمْتُمْ على لسان محمَّدٍ ﷺ، مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلا آباؤُكُمْ)، زيادة على ما في التَّوراة، وبيانًا لما التبس عليكم وعلى آبائكم الَّذين كانوا أعلمَ منكم،

الـدَّلالـةُ على كثرةِ ما عُلِّموه، وإظـهـارُ مزيـدِ الامتنانِ لما أوتوه

(1) ابن عطيّة الغرناطيّ، المحرر الوجيز: 2/321.

(2) الآلوسّي، روح المعاني: 4/208.

ونظيره ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۝٧٦﴾ [النمل: 76]"[1].

بلاغةُ الجِناسِ النَّاقصِ بينَ عبارَتَي: ﴿وَعُلِّمْتُم﴾ و﴿تَعْلَمُوٓاْ﴾:

في قوله تعالى: ﴿وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓاْ﴾ جناسٌ ناقصٌ بين اللَّفظين: ﴿وَعُلِّمْتُم﴾، و﴿تَعْلَمُوٓاْ﴾، وفائدة ذلك: أنَّه يكسو العبارة جمالًا لفظيًّا، مع فائدة أخرى وهي تنبيه السَّامع على أهمِّيَّة اللَّفظ المكرَّر؛ تصريحًا بمكانة العلم، وكونه ممَّا يُمَنُّ الإنعامُ به، والمَعْنَى "عَلَى تَقْدِيرِ جَعْلِ الخِطَابِ لِليَهودِ: (وعَلِمْتُم بِما أَنْزَلَ عَلَى خاتَمِ النَّبيِّينَ، ما لَمْ تَعْلَموا أَنْتُمْ ولا آباؤُكُمُ الَّذينَ كانوا أَعْلَمَ وأَهْدى مِنْكُم)، فَمِنْ ذَلِكَ مَا أَفَادَهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۝٧٦﴾ [النَّمل: 76]"[2].

المحسِّنُ البديعيُّ جَمالٌ في العِبارةِ وتنبيهٌ لعظمةِ العِلمِ وآثارِهِ

فائدةُ الضَّميرِ المنفصلِ ﴿أَنتُمْ﴾ ودلالَةُ عطفِ قولِهِ: ﴿وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ﴾:

في قولِهِ سبحانه: ﴿وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓاْ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ﴾، دلَّ إظهارُ الضَّميرِ على تأكيد وقوع التَّعليم للمخاطَبينَ، وفيه دلالةٌ على استقلالهم بذلك التَّعليم، فهو تعليمٌ غيرُ تعليمِ آبائهم، ثمَّ أظهر مزيدَ الامتنان عليهم بعطفِ تعليم الآباء على تعليمهم، والمعنى: "هو خطابٌ لهؤلاءِ المشركين من العربِ، فقد جاءهم الرَّسول الكريم بعلمٍ جديدٍ، أذاعه فيهم، ونَشَره عليهم، فيما يتَّصل بالألوهيَّة، وما ينبغي لها من جلال وتفرُّدٍ بالوجود ... وقد عرفَ المشركون هذا، وكانوا يسمعونه، ويردِّدونه، وإن كانوا لا يؤمنون به"[3].

أكَّد تعليمَهم على وجهِ الاستقلال، وزاد الامتنانَ بعطفِ الآباءِ عليهم

دلالةُ التَّعبيرِ بالقولِ في قولِهِ: ﴿قُلِ ٱللَّهُ﴾:

قولُهُ جلَّ شأنُه: ﴿قُلِ ٱللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ أمرَ اللهُ

(1) البيضاويّ، أنوار التّنزيل وأسرار التّأويل: 2/172.
(2) محمّد رشيد رضا، تفسير المنار: 7/515.
(3) عبد الكريم الخطيب، التّفسير القرآنّي للقرآن: 4/237.

الأمرُ بمبادَرَةِ المُخاطَبينَ بِالجوابِ، دَليلٌ على امتناعِهم، لانتفاءِ قُدرَتِهم

تعالى رسوله ﷺ بأن يجيبهم؛ "إشعارًا بتعيُّن الجواب، بحيث لا محيدَ عنه، وإيذانًا بأنَّهم أُفحموا، ولم يقدروا على التَّكلُّم أصلًا"[1]، فالأمر بالمبادرة بالجواب في هذا السِّياق، يدلُّ على امتناعهم، لانتفاء قدرتهم، كما يرى أبو حيَّان: "أمرهُ بالمبادرة إلى الجواب، أي: قُلِ اللّه أنزله، فإنَّهم لا يَقْدِرون أن يُناكِروك"[2]، أو امتناعهم للعِنادِ والمكابرة، كما يقول البقاعيُّ: "ولمّا كانوا قد وصلوا في هذه المقالةِ إلى حدٍّ مِنَ الجهل عظيم، قال مشيرًا إلى عِنادِهم: ﴿قُلِ﴾ أي أنت في الجوابِ عن هذا السُّؤال، غيرَ منتظرٍ لجوابهم، فإنَّهم أَجْلَفُ النَّاس وأَعْتاهم"[3]، فلم يَنتظرْ جوابَهم، بل بادرَ بالجواب إظهارًا لِعنادِهم، فلمَّا علموا أنَّهم أُفْحِموا؛ امتنعوا عنِ الرَّد. وفيه تعيينٌ للجوابِ بلفظه، فهو "جوابٌ مُتَعَيِّنٌ لا يمكن غيرُه، وتنبيهٌ على أنَّهم مَبْهوتون، لا يَقْدِرون على الجواب، ولهذا عقَّبه بقوله: ﴿ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾"[4]. وذهب (الشِّهابُ) إلى أنَّ اللّه تعالى لم يذكر جوابَهم بيانًا لاستكبارِهم عنِ الحقِّ، فإنَّ "عَدَمَ نقلِ جوابِهم إشارةٌ إلى أنَّهم يُنكرون الحقَّ مكابرةً منهم"[5].

بلاغةُ المبادرةِ بالجوابِ عنِ الاستفهامِ التَّقريري:

الإجابَةُ الواحِدَةُ المتعيِّنَةُ مِنَ العِلْمِ المتَّفَقِ عليهِ

قولهُ جلَّ شأنه: ﴿قُلِ ٱللَّهُ﴾، جوابُ الاستفهامِ التَّقريريِّ السَّابق، "وقد تولَّى السَّائلُ الجوابَ لنفسه بنفسه؛ لأنَّ المسؤولَ لايَسَعُه إلَّا أن يجيب بذلك؛ لأنَّه لا يَقْدِرُ أن يُكابِر"[6]، فلا جوابَ غيرُه، لأنَّه من العلم المتَّفَقِ عليه، ولذا جاء السِّياقُ بقوله: "فإذا سألتَهم عمَّن أنزلَ هذا الكتابَ الموصوفَ بتلكَ الصِّفاتِ، فأَجِبْ عن هذا السّؤالِ و﴿قُلِ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/162.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/582، والنّسفيّ، مدارك التّنزيل: 1/521، والقنّوجيّ، فتح البيان: 4/192.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/187.
(4) الطِّيبيّ، فتوح الغيب: 6/162، وينظر: البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 2/172.
(5) الشّهاب، عناية القاضي: 4/94.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/368.

﴿ٱللَّهُۖ﴾ الَّذي أنزله، فحينئذٍ يتَّضِحُ الحقُّ، وينجلي مثلَ الشَّمسِ، وتقوم عليهمُ الحُجَّةُ"[1].

نكتةُ الإيجازِ في الجوابِ في قوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُۖ﴾:

اقتضابُ الجوابِ تعجيلٌ بالفائدة، وحثٌّ على التَّفكُّر

أوجَز ﷻ ذِكْرَ الجوابِ بكلمةٍ واحدةٍ، هي: "قل لهم: (اللهُ) بإيجازٍ، ولا تزدهم، ليتفكَّروا أو يتدبَّروا بما فيه أمرُهم، إن كان فيهم عقلٌ غيرُ عابث"[2]، وإنَّ إلقاء الجوابِ باقتضابٍ أدلُّ على الحَسْم، وفيه تعجيلٌ بالفائدة في سياق الاحتجاج والجدال، إذ إنَّ المجادلة تستوجب الدِّقَّة والإيجاز في الحديث.

دلالةُ العطفِ بـ ﴿ثُمَّ﴾ في قوله: ﴿ثُمَّ ذَرۡهُمۡ فِي خَوۡضِهِمۡ يَلۡعَبُونَ﴾:

الترتيبُ الرُّتْبيُّ، ودورهُ في إلزامهم بالحُججِ الدَّامِغَةِ

عَطْفُ الأمر في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ذَرۡهُمۡ فِي خَوۡضِهِمۡ يَلۡعَبُونَ﴾، بـ ﴿ثُمَّ﴾ ليس للتَّراخي المُشْعِرِ بطولِ الفاصلِ الزَّمنيِّ بينَ الأمرين، بل "للدَّلالةِ على التَّرتيبِ الرُّتْبِيِّ، أي: إنَّهم لاتَنْجعُ فيهمُ الحُجَجُ والأدلَّة، فتركُهُمْ وخَوْضَهُم بعد التَّبليغِ هوَ الأَوْلى، ولكنَّ الاحتجاجَ عليهم لِتَبْكيتِهم، وقطْعِ معاذيرِهم"[3]، والمعنى: "اتركْهُم يخوضوا في الباطلِ، ويلعَبُوا بما لافائدةَ فيهِ، حتَّى يلاقوا يومَهمُ الَّذي يوعَدون"[4]. وترتيبُ خطواتِ المحاوَرَةِ والمواجَهَةِ لأقاويلِهم ودعاويهم، تأتي بالتَّدريج؛ رجاءَ إلزامهم بالحُجَجِ الدَّامغةِ الَّتي لايَحيرون معها جوابًا، ولا يستطيعون من منطقها وإقناعها فِكاكًا، وتركهم بعد ذلك يخوضونَ، ويلعبونَ، لا مندوحةَ منهُ، لأنَّه قد أعذرَ من أنذرَ، ومن بلَّغ للمخطئ الصَّواب؛ تجَنَّبَ بعد ذلك العتابَ.

(1) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 264.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2587.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/368.
(4) عبد الرّحمن السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن في تفسير كلام المنّان، ص: 264.

إيثارُ التَّعبيرِ بالفعلِ ﴿ذَرْهُمْ﴾ في قوله: ﴿ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾:

دلالةُ الفعلِ (ذرهم) على ما لا يعتدُّ به ولا يُؤْبَهُ له تحقيرًا لهم

في قولِهِ جلَّ شأنُه: ﴿ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾، عبَّر عن تركهم بالفعل المشتقِّ من (وذر) الدَّالِّ على ما لا يُؤْبَهُ بهِ إعلامًا بقلَّةِ شأنِهم، وتأكيدًا لِنَسبهم إلى ما لايعتدُّ بهِ، تحقيرًا وتوبيخًا لهم، ونصُّ خاتمةِ هذه الآيةِ، "هو دعوةٌ للنَّبيِّ أن يُحدِّثَ هؤلاءِ المشركينَ عن اللّه، وأن يَكشف لهم الطَّريق إليه، أي: قُلْ: هذا هو اللّهُ الَّذي أدعوكم إليه، فإنْ آمنوا؛ فَقَدِ اهتَدَوا، وإن تولَّوا فإنَّما هم في ضلالٍ، يَخوضون فيه خَوْضًا .. فَذَرْهُم في خَوْضِهم يلعبونَ"[1].

بلاغةُ المجازِ في الأمرِ بِتركِهم في قوله: ﴿ثُمَّ ذَرْهُمْ﴾:

الأمرُ بِتَرْكِهم بعدَ البلاغِ تحقيرٌ لهم، وقِلَّةُ اكتراثٍ بِشأْنِهم

أمرَ اللّهُ تعالى نبيَّه ﷺ بِتَرْكِهم؛ مشيرًا لهُ بما ينبغي عليه فعلُه، فقالَ له: "فلا عليكَ بعد التَّبليغِ وإلزامِ الحُجَّةِ"[2]، فإذْ لم ينتفعوا بالاحتجاجِ، جاء الأمرُ بإهمالهم، إعلامًا بعدم انتفاعهم منَ الدَّعوةِ، وليس أمرًا بِتَرْكِ الدَّعوةِ، لا سيَّما وأنَّه عبَّر بالفعلِ (وَذَرَ) الدَّالِّ على ما لا يُؤْبَهُ لهُ ولا يُكْتَرَثُ بهِ؛ إذ مَعْنى الفِعْلِ (ذَرْ): "اترك، أي: لا تُخالِطْ، وهو هنا مجازٌ في عَدمِ الاهتمامِ بِهم، وقلَّة الاكتراثِ باسْتِهْزائِهم"[3]، والغرضُ مِن ذلكَ تحقيرُهم والاستهزاءُ بِهم.

علَّةُ تَقديمِ الجارِّ والمجرورِ في قوله: ﴿ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾:

مفادُ تخصيصِ اللَّعِبِ بِالخَوضِ في آياتِ اللهِ تعالى

قدَّم الجارَّ والمجرورَ على الفعلِ، "لرعاية الفواصل، أو للتَّخصيص، وإنَّما أخَّره إذ التَّهديد بالأمر بتركِهم في باطِلِهم آكدُ وأبلَغُ"[4]، فَتَقَديمُ الجارِّ والمجرورِ أفادَ تخصيصَ اللَّعبِ بالخوضِ، وهذا يدلُّ على أنَّ لَعِبَهم لا يُوقِعونَهُ إلَّا على آياتِ اللّه تعالى. ويجوز أن يتعلَّق الجارُّ والمجرور بمحذوفٍ، حالًا من الضَّمير المنصوب في

(1) عبد الكريم الخطيب، التّفسير القرآنّي للقرآن: 4/238.
(2) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 2/172.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/295.
(4) القونويّ، حاشيّة على البيضاويّ: 8/191.

قوله: ﴿ذَرْهُمْ﴾، ويكون قولُه: ﴿يَلْعَبُونَ﴾ حالًا أخرى مفسِّرةً له، أو خبرًا لمبتدأٍ محذوفٍ؛ تعليلًا لفعل الأمر ﴿ذَرْهُمْ﴾ أي: فهم يلعبونَ[1].

دلالةُ إضافةِ المصدر إلى فاعلهِ في قوله: ﴿فِي خَوْضِهِمْ﴾:

بيانُ مظهرِ الشَّقاوةِ في الخَوضِ المذمومِ واللَّعبِ المأفونِ

أضافَ الخَوْضَ إليهم، ولم يَقُلْ: (ثمّ ذرهم في الخوض يلعبون)؛ إيماءً إلى أنَّهُ خوضٌ خاصٌّ بهم، قد شُهروا به، حتَّى صاروا يُعْرَفونَ به، ويُعرَف بهم، وهذا دليل شقاوتهم؛ فإنَّ الجرأة على الخوض في آياتِ اللّه تعالى ودينه، لا يتورَّطُ فيها غيرُ الَّذين مَرَدوا على اجْترِاحِ السِّيئاتِ، وآنسوها في الخَلَواتِ والجَلَواتِ.

دلالةُ الجارِّ والمجرورِ في قوله: ﴿فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾، وبيان متعلَّقه:

تَركُهُم مُهْمَلينَ في خوضِهم، هوانٌ وتحقيرٌ لشأنِهم

أجاز بعضُ أئمَّة التَّفسير - منهم الزَّمخشريُّ[2] - في الجارِّ والمجرور في قوله تعالى: ﴿ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾: أن يكونَ مُتَعَلِّقًا بـ ﴿يَلْعَبُونَ﴾ الآتي، ومَنَعَهُ آخَرون - مِنهمُ الآلوسيُّ[3] -، لأنَّهُ يؤدِّي إلى فسادِ المعنى، والرَّاجح أن يتعلَّقَ بـ ﴿ذَرْهُمْ﴾[4]، كما يجوزُ أن يتعلَّق بمحذوفٍ تقديرهُ: عابثينَ، حالًا منَ الضَّمير المنصوبِ، أي: ذرْهُم عابثينَ في خوضِهم، وحينئذٍ تصبحُ جملة: ﴿يَلْعَبُونَ﴾ حالًا مُؤَكِّدَةً لمضمونِ ما قبلها. وأيًّا كان تعلُّق الجارِّ والمجرور، فإنَّ وجودَهُ مقدَّمًا على الفعل، يجلِّي صورة هؤلاء الخائضين اللَّاعبين الَّذين ما فَتِئوا يعانِدون الحُجَجَ الظَّاهرةَ، والبيِّناتِ السَّافرةَ، ولم تَنفعْ معهم محاورةٌ ولا مذاكرةٌ، فأمرَ اللّهُ بتركهم وشأنَهم؛ لأنَّهم أحقرُ وأصغرُ من أن يهتمَّ بهم، أو ينظُرَ إلى عنادِهم، أو يلتفتَ إلى غَيِّهم.

(1) السمين الحلبي، الدرّ المصون: 5/36 - 37.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/44.
(3) الآلوسّي، روح المعاني: 4/209.
(4) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 2/172.

بلاغةُ الاستعارةِ في قولِهِ تعالى: ﴿فِي خَوْضِهِمْ﴾:

النَّهيُ عن الخَوضِ مختصٌّ في القرآنِ بما يُذَمُّ الشُّروعُ فيه

قولُه تعالى: ﴿ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ﴾ عبَّر عن الباطلِ الَّذي هم فيه بالخوضِ، والمعنى: "في باطلهم الَّذي يخوضون فيه"[1]، وحقيقةُ الخوضِ الدَّخول في الماء، ثمَّ استُعيرَ للتَّصرُّف الَّذي فيه كُلفةٌ أو عَنَتٌ، فاستُعيرَ في الآيةِ للكلامِ الَّذي فيه تكلُّفُ الكذبِ والباطلِ؛ لأنَّه يتكلَّف له قائلُه، والخوض مختصٌّ في التَّعبيرِ القرآنيِّ فيما يُذَمُّ الشُّروعُ فيه، قال تعالى: ﴿ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾، أي: يتكلَّمونَ بالباطلِ والاستهزاءِ[2].

دلالةُ التَّعبيرِ عن عنادِهم باللَّعبِ في قوله: ﴿فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾:

اللَّعبُ جهدٌ بلا نفعٍ، ومزاولتُهُ ضياعٌ وخسرانٌ

أطلقَ على حُجَجِهم وكيفيَّة تلقِّيهمُ الوحيَ لفظَ اللَّعِبِ، فيجوز اعتبارُ اللَّعب هنا حقيقةً، ومجازًا، بأن يكون استعارةً تصريحيَّةً، كما ألمحَ بعضُهم، منهم الزَّمخشريُّ: "يقال لمن كان في عملٍ لا يُجدي عليه إنَّما أنت لاعِبٌ"[3]، فقولهُم وفِعْلُهم، إنَّما هو "فِعلُ اللَّاعب، وهو ما لايَجرُّ لهم نفعًا، ولايدفع عنهم ضرًّا، مع تضييعِ الزَّمان"[4]، فإذ صرفوا أنفسَهم عن معالي الأمور بالإيمان باللّه تعالى، واتِّباع شريعته، فإنَّهم يخوضون في اللَّعب، وينصرفون عن الجدِّ، وفيه "وعيدٌ وتهديدٌ بالمشركين"[5]؛ إذ شبَّههم باللَّاعب الَّذي يضيع زمانه، فيما لا نفع فيه، ويَهْدُرُ جهدَه فيما لا جدوى منه، ولا فائدةَ فيه.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(قَدَّرَ) و(عَظَّمَ) و(وَقَّرَ):

(عظَّم) أصلُهُ يدلُّ على كِبَرٍ وقوَّةٍ، والتَّعْظيمُ: التَّبجيلُ[6]، أمَّا

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/162، والآلوسّي، روح المعاني: 4/209.
(2) الرّاغب، المفردات: (خوض)، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/289.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/44، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/582.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/187.
(5) القنّوجيّ، فتح البيان: 4/192.
(6) الجوهريّ، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (عظم).

(وقَّر)، فإنَّ أصله يدُلُّ على ثِقَلٍ في الشَّيْءِ، والتَّوقير: التَّعظيم، تقول: وقَّرتُه؛ إذا عَظَّمْتَهُ[1]، والوَقار: السُّكون والحِلْم، يقال: هو وَقورٌ ووَقارٌ ومُتَوَقِّرٌ، قال تعالى: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾﴾ [نوح: 13]، وفلانٌ ذو قِرَة[2]. أمَّا (قدَّر) فأَصْلُه يدلُّ على مبلغ الشَّيءِ وكُنْهِهِ ونهايتِهِ، والقَدْرُ والتَّقْدِيرُ: تبيينُ كمِّيَّةِ الشَّيء، وتقويمُ الأمرِ على مقدارٍ يقع معه الصَّلاح[3]. فَيُلاحَظ أنَّ التَّعظيم والتَّوقير يدلَّان على تعظيم الشَّيء، أمَّا التَّقدير؛ فهو يدلُّ على معرفة مكانةِ الشَّيء بمعرفة كُنْهِهِ وحقيقتِه ومنتهاهُ. وفي الآية الكريمةِ لم يكن يريد أن يبيِّنَ أنَّهم لم يعظِّموه، بل إنّهم جَهِلوا كُنْهَهُ، وأساؤوا وَصْفَه بجهلهم ذلك، فالسِّياقُ جاء في نفيِ معرفةِ المكانة، وهذا هو مدلولُ القَدْرِ، فقوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾، أي: ما عرفوا كُنْهَهُ وما عظَّموا اللّه حقَّ عظمتِه، وهذا صحيحٌ، وتلخيصُه أنَّهم لم يَصِفوه بِصِفَتِه الَّتي تنبغي له تعالى[4]، والمعنى: "ما عَرَفوه حَقَّ معرفتِه"[5].

التَّعظيمُ والتَّوقيرُ يدلَّان على تبجيلِ الشَّيءِ، والعملِ على معرفَةِ كُنْهِهِ

(البَشَر) و(الإنسان):

لفظُ البشرِ، يعني: بني آدمَ من جِنسِ الإنسانِ، ولا تقالُ كلمةُ بشرٍ إلَّا للإنسِ، وهم المكرَّمون من الخلائقِ، المكلَّفون بعمارة الكونِ الَّذين أرسلَ اللّهُ لهم الرُّسل، وأناط بهم التَّكليف، وكرَّمهم بالعقل الشَّفيفِ والعلم المنيف، وقد أحسنَ الرَّاغبُ في إيضاح تخصيصِ القرآنِ لفظَ البشرِ، فاختصَّ بالسِّياقِ الَّذي يرادُ منهُ الحديثُ عنِ الإنسانِ، باعتبارِ الجثَّة، فقال ما خُلاصتُه: خصَّ القرآن كلَّ موضع اعتبر من الإنسان جثَّتَه وظاهرهُ بلفظ البشرِ، نحو: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ

اختصَّ لفظُ البَشَرِ بالكلامِ عنِ الجَسَدِ، والإنسانِ بالجسدِ والرُّوحِ معًا

(1) الجوهريّ، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (عظم)، العسكريّ، الفروق، ص: 147.
(2) الراغب، المفردات، الفيروزآبادي، القاموس المحيط، (وقر)، إبراهيم الأبياريّ، الموسوعة القرآنيّة، ص: 147. والقِرَةُ: الثِّقل.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات: (قدر)، العسكريّ، الفروق، ص: 121.
(4) الرّاغب، المفردات: (قدر).
(5) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/44.

مِنَ ٱلۡمَآءِ بَشَرٗا﴾ [الفرقان: 54]، ولمّا أراد الكفّار الغضّ من الأنبياء؛ اعتبروا ذلك فقالوا: ﴿إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا قَوۡلُ ٱلۡبَشَرِ ٢٥﴾ [المدثر: 25]، ﴿مَآ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا﴾ [يس: 15]، ﴿فَقَالُوٓاْ أَبَشَرٞ يَهۡدُونَنَا﴾ [التغابن: 6]، وعلى هذا قال: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ﴾ [الكهف: 110]، تنبيهًا أنَّ النَّاس يتساوون في البشريَّة، وإنَّما يتفاضلون بما يختصُّون بهِ من المعارفِ الجليلة، والأعمال الجميلةِ؛ ولذلك قال بعده: ﴿يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ [الكهف: 110]، تنبيهًا أنِّي بذلك تميَّزت عنكم، وقال تعالى: ﴿وَلَمۡ يَمۡسَسۡنِي بَشَرٞ﴾ [مريم: 20] فخصَّ لفظَ البشر، وقوله: ﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرٗا سَوِيّٗا ١٧﴾ [مريم: 17] فعبارةٌ عن الملائكة، ونبَّه أنَّه تشبَّح لها، وتراءى لها بصورةِ بشرٍ، وقولُه تعالى: ﴿مَا هَٰذَا بَشَرًا﴾ [يوسف: 31] إعظامٌ له وإجلالٌ، وأنَّه أشرفُ وأكرم من أن يكونَ جوهرهُ جوهرَ البشر[1]، وفي الآية الكريمة أرادوا في زعمِهم أنَّ البشرَ باعتبارِ خِلْقَتِهِ لا يَتأتَّى له - مع وصفه بذلك - أن يكون جديرًا بإنزالِ الوحي عليه.

(القراطيس) و(الصُّحف):

القِرْطاسُ: أَديمٌ يُنْصَبُ للنِّضال، ويسمَّى الغَرَضُ: قِرْطاسًا، وَكُلُّ أَديم يُنْصَبُ للنِّضال، فاسمُه قِرطاسٌ، فإذا أَصابَهُ الرَّامي قِيلَ: قَرْطَس، أَي: أَصابَ الْقِرْطَاسَ، والرَّمْيَةُ الَّتِي تُصيبُ: مُقَرْطِس، والقِرْطاس: الصَّحِيفَةُ الثَّابِتَةُ الَّتِي يُكْتَبُ فِيهَا"[2]، وهو رَقٌّ ينبسطُ ممتدًّا يُخْرقُ بسهمٍ، أو يُؤَثَّر فيه بما يشبه ذلك، وهو الكتابةُ بقلمٍ له سنٌّ دقيق يرسم فيه[3].

القِرْطاسُ: الصَّحِيفَةُ الثَّابِتَةُ، وهي المبسوطُ من الشَّيءِ، وكلاهما يُكتبُ فيهِ

وأمَّا (الصُّحف): فأصلٌ يدلُّ على انبساط في شيءٍ وسَعة، والصَّحِيفَةُ: المبسوطُ من الشَّيء، كصحيفةِ الوجه، والصَّحِيفَةُ:

(1) الرّاغب، المفردات: (بشر).
(2) ابن منظور، اللّسان: (قرطس).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (قرطس).

الَّتي يكتبُ فيها، والكتابُ، والجمع صُحُفٌ وصَحائِفُ، وَفي قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِي ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ۝١٨ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ۝١٩﴾ [الأعلى: 18 - 19]، يَعْنِي: الْكُتُبَ الْمُنَزَّلَةَ عليهما[1]، وقوله: ﴿وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ ۝١٠﴾ [التكوير: 10]: قال ابن جرير: أي: "صحفُ أعمالِ العبادِ، نُشِرَتْ لهم، بعد أن كانت مطويَّة على ما فيها مكتوبٌ من الحسنات والسَّيِّئات"[2]. وعليه؛ فالقراطيسُ الأصلُ فيها: ما كان يوضع هدفًا يرمى عليه، فكأنَّ المراد بيان أنَّهم يهدفونَ إلى بعضها، بالإخفاءِ والإهمال، وهذا ما لا تدلُّ عليه لفظُ الصُّحفِ.

(الإبداء) و(الإظهار):

الإبداءُ: يدلُّ على ظهورٍ بلا قصدٍ، والظُّهورُ: انكشافٌ بقصدٍ

"الظُّهورُ يكون بقصدٍ وبغير قصدٍ، تقول: استترَ فلانٌ ثمَّ ظهر، ويدلُّ هذا على قصده للظُّهور، ويقال: ظهر أمرُ فلانٍ، وإن لم يقصدْ لذلك، والبُدوُّ ما يكون بغير قصدٍ تقول: بدا البرقُ، وبدا الصُّبحُ، وبدتِ الشَّمس، وبدا لي في الشَّيءِ؛ لأنَّك لم تقصدْ للبدو"[3]. وعبَّر في الآية بالإبداءِ في ما يتعلَّق بالتَّوراةِ؛ لأنَّ إبداء التَّوراة لا يتعلَّق بقصدٍ منهم؛ إذ هو كتابٌ متلوٌّ معروفٌ، ولو قال: (تظهرونها)؛ لاقتضى أنَّها كانت في الأصل خافيةً، وليست كذلكَ.

(الكتمان) و(الإخفاء):

الكَتْمُ: خاصٌّ بالمعاني، والإخفاء: عامٌّ في الأشياءِ والمعاني

الكتمانُ: هو السُّكوتُ عنِ المعنى، والمكتومُ يختصُّ بالمعاني كالأسرارِ والأخبارِ؛ لأنَّ الكتمانَ لا يستعملُ إلَّا فيهما، وأمَّا الإخفاءُ؛ فيكونُ في ذلك وفي غيره، والشَّاهد أنَّك تقول: أخفيتُ الدِّرْهمَ في الثَّوبِ، ولا تقولُ: كتمتُ ذلكَ، وتقولُ: كتمتُ المعنى، وأخفيتهُ،

(1) الجوهريّ، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (قرطس).
(2) القاسميّ، محاسن التّأويل: 9/418.
(3) العسكريّ، الفروق، ص: 343 - 344.

فالإخفاءُ أعمُّ منَ الكتمانِ[1]. وعبَّر في الآية الكريمة: ﴿تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا﴾ بالإخفاءِ دونَ الكتمانِ؛ لتعلُّقه بآياتٍ متلوَّةٍ في التَّوراة، فهي ليستْ معانيَ ولا أسرارًا.

(ذرهم) و(اتركهم):

(ذَرْهُـم) أخصُّ من التَّركِ؛ لأنَّهُ تَرْكٌ مع إعراضٍ وقلَّةِ اعتدادٍ

(ترك) أصلٌ يدلُّ على التَّخلية عن الشَّيء، التَّرْكُ: وَدْعُك الشَّيْءَ[2]، فهو تركٌ ومفارقةٌ، ومنه ما يُعبَّر بهِ عمَّا يخلِّفه الميِّتُ بعد هلاكه، فيقالُ في المواريثِ: هلك هالكٌ وترك كذا وكذا، قال تعالى: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ﴾ [النّساء: 7]. ويعبَّرُ بالتَّركِ عمَّا يخلِّفه الميِّت من ذريَّة، قال تعالى: ﴿وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُواْ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُواْ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ۝٩﴾ [النّساء: 9]، وكلُّ ما خلَّفهُ الإنسانُ أو تخلَّى عنه رغبةً أو رهبةً، فهو متروكٌ، ويدخلُ في مجال اللَّفظ (ترك). وأمَّا (وَذَرَ) فأصلهُ منَ الوَذَرَةِ: قطعةٌ من اللَّحم، وتسميتُها بذلك لقلَّةِ الاعتداد بها، فلانٌ يَذَرُ الشَّيءَ، أي: يقذِفه لقلَّة اعتداده به[3]، قال تعالى: ﴿وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا﴾ [الأنعام: 70]، أي: "أَعْرِضْ عنهم، ولاتُبالِ بتكذيبهم واستهزائهم"[4]. وفي الآية عبَّرَ بالفعل (ذَرْهُم) للدَّلالة على أنَّ اللّه تعالى طلب منَ النَّبيِّ ﷺ، أن يُهملَهم ولا يباليَ بهم؛ لأنَّهم لا يُعتدُّ بهم تحقيرًا لهم، والتَّركُ يدلُّ على المفارقة من غير ذمٍّ للمتروك.

(الخوض) و(الشُّروع):

الخوضُ أخصُّ منَ الشُّروع؛ لأنَّه شروعٌ فيما يُذمُّ

(خوض): أصلٌ يدلُّ على توسُّط شيءٍ ودخولٍ، يقالُ: خضتُ الماءَ وغيرَه، وتخاوضوا في الحديث والأمر، أي: تفاوضوا، وتداخلَ

(1) العسكريّ، الفروق، ص: 447 - 448.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، اللّسان العرب: (ترك).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (وذر).
(4) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/36.

كلامُهم، والخَوْضُ: الشُّروعُ في الماءِ والمرورُ فيه، ويستعارُ في الأمور، وأكثر ما وردَ في القرآن ورد فيما يُذَمُّ الشُّروعُ فيه، نحو قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾.[1] وكذ (شرع) أَصْلُهُ: شَيْءٌ يُفْتَحُ فِي امْتِدَادٍ يَكُونُ فِيهِ، مِنْ ذَلِكَ الشَّرِيعَةُ، وَهِيَ مَوْرِدُ الشَّارِبَةِ المَاءَ، شرع: شَرَعَ الواردُ الماءَ شَرْعًا فهو شارع، وإبلٌ شُروع: قد شَرِعَتِ الماءَ تشربُ، والشَّارع من الطَّريق: الَّذي يَشرعُ فيه الناسُ عامَّةً[2].

فيُلاحَظ تقاربُ المعنيين؛ فكلاهما يدلُّ على الدُّخولِ، ولكنْ في الخوض دلالةٌ خاصَّة، فهو يُستعمل في المذموم، وليس مطلقَ الدُّخول والشُّروع، وفي الآية الكريمة لمّا كان حديثُهم فيما يُذمُّ عبَّر عنهُ بالخوضِ.

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (خوض).

(2) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (شرع).

﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ مُبَارَكٞ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلۡقُرَىٰ وَمَنۡ حَوۡلَهَاۚ وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۖ وَهُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ يُحَافِظُونَ ٩٢﴾ [الأنعام: 92]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

المناسبةُ بينَ إنكارِ نزولِ الوحي، وكونِ القرآنِ منزَّلًا يؤمنُ بهِ المؤمنونَ بالآخرةِ

لمّا ذكر ﷻ وقرَّرَ أنَّ إنكارَ مَن أنكر أن يكون اللّهُ أنزلَ على بشرٍ شيئًا، وحاجَّهم بما لا يَقدِرون على إنكارِهِ؛ أخبرَ أنَّ هذا الكتابَ الذي أُنزِلَ على الرَّسولِ مباركٌ كثير النَّفع والفائدة"[1]، فلمَّا أبطلَ اللّهُ تعالى قولهم: ﴿مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٖ مِّن شَيۡءٖۗ﴾، "ذكر بعده أنَّ القرآن كتاب اللّهِ، أنزلَهُ اللّه تعالى على محمَّد ﷺ"[2]، "فمن كان يؤمن بالقيامةِ، فإنَّه يؤمن بهذا الكتاب، والمؤمنون بهِ يحافظون على صلاتِهم، فيؤدُّونها في أوقاتها كاملة مستوفاةً، وقد خُصَّتِ الصَّلاةُ بالذِّكر ههنا؛ لأنَّها عماد الدِّين"[3].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مُبَارَكٞ﴾: (برك) أصلٌ يدلُّ على ثباتِ الشَّيءِ، قال الخليلُ: البركةُ من الزِّيادة والنَّماءِ، وهي ثبوتُ الخيرِ الإلهيِّ في الشَّيء، قال تعالى: ﴿لَفَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَرَكَٰتٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [الأعراف: 96]، وسمِّي بذلك لثبوتِ الخير فيه ثبوتَ الماءِ في البركة. والمُبَارَك: ما فيه ذلك الخيرُ، على ذلك: ﴿وَهَٰذَا ذِكۡرٞ مُّبَارَكٌ أَنزَلۡنَٰهُۚ﴾ [الأنبياء: 50]؛ تنبيهًا على ما يفيضُ عليهِ من الخيراتِ الإلهيَّة[4]، أي: هو كثيرُ الفوائدِ وجمُّ

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/582، والهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 8/450.
(2) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 13/64.
(3) إبراهيم القطّان، تيسير التّفسير، ص: 485.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (قدر).

المنافع[1]، وذلك راجعٌ لكونِهِ "بَارَكَهُ اللّهُ أَوْ بَارَكَ فِيهِ، بِمَا فَضَلَ بِهِ مَا قَبْلَهُ مِنَ الكُتُبِ فِي النَّظْمِ والمَعْنَى، وبِمَا يَكُونُ مِنْ ثَبَاتِهِ وبَقَائِهِ إلى آخِرِ عُمُرِ البَشَرِ في الدُّنْيَا، هُوَ مِنَ (البَرَكَةِ) وهِيَ - بالتَّحْرِيكِ - النَّماءُ وَالزِّيادَةُ وَالسَّعَةُ النّافِعَةُ كبِرَكَةِ المَاءِ[2].

2) ﴿مُّصَدِّقُ﴾: (صدق) أصلٌ يدلُّ على قوَّةٍ في الشَّيء من قولٍ وغيره، الصِّدقُ: خلافُ الكذبِ، سمِّي لقوَّتِهِ في نفسِهِ، ولأنَّ الكذبَ لا قوَّة له، والمصدِّقُ: الَّذي يصدِّقُك في حديثك، قوله تعالى: ﴿مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾، أي: مصدِّقٌ ما تقدَّم[3]، قال الشَّاعر:

وَأَكْثَرُ هَذَا النَّاسِ إِمَّا مُكَذِّبٌ *** يَقُولُ بِمَا يَهْوَى وَإِمَّا مُصَدِّقُ[4]

3) ﴿أُمَّ ٱلْقُرَىٰ﴾: أمُّ القرى: مكَّةُ، وسُمِّيت بذلكَ؛ "لأنَّها منشأُ الدِّين، ولِدَحْوِ الأرضِ منها، ولأنَّها وَسَطُ الأرض، ولكونها قبلةً، وموضعَ الحجِّ، ومكان أوَّلِ بيت وُضعَ للنَّاس"[5]، وقد قيل: إنَّ مكَّة سمِّيت (أمَّ القُرى)، لتقدُّمها أمامَ جميعِها، وجَمْعِها ما سواها[6]، قال الشَّافِعِيُّ رحمه اللّه في قوله تعالى: ﴿وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾: أمُّ القرى: مكَّة، وهي بلده وبلدُ قومِه، فجعلَهم في كتابِهِ خاصَّةً، وأدخَلَهم مع المُنْذَرينَ عامَّةً"[7].

4) ﴿يُحَافِظُونَ﴾: (حفظ) أصلٌ يدلُّ على مراعاة الشَّيء، المُحافَظَةُ: المراقبةُ، والحِفْظ يقالُ تارةً لهيئة النَّفس الَّتي بها يثبتُ ما يؤدِّي إليه الفهم، وتارةً لضبط الشَّيء في النَّفس، ويضادُّه النِّسيان، وتارة لاستعمال تلك القوَّة، فيقال: حَفِظْتُ كذا حِفْظًا، ثمَّ يستعمل في كلِّ تفقُّدٍ وتعهُّد ورعاية، قال اللّه تعالى: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ﴾ [البقرة: 238][8].

❁ المَعْنى الإِجْماليُّ:

يخبرُ اللّهُ تعالى ردًّا على نفيِ المنكرينَ نزولَ الوحي، بأنَّ "هذا القرآنَ كتابٌ أنزلناه عليك - أيُّها النَّبيُّ - وهو كتابٌ مبارَكٌ مصدِّقٌ لما سبقَهُ منَ الكُتُبِ السَّماويَّةِ، لتنذرَ به أهلَ

(1) الزمخشريّ، الكشّاف: 2/45، وينظر: البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 2/172، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/162.
(2) محمّد رشيد رضا، تفسير المنار: 7/516.
(3) الجوهريّ، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (صدق).
(4) محمود الغزنويّ، باهر البرهان في معاني مشكلات القرآن، ص: 488.
(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/583.
(6) ابن جرير، جامع البيان في تأويل القرآن: 1/108.
(7) الشّافعيّ، تفسير الإمام الشّافعيّ: 3/1241.
(8) الجوهريّ، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (حفظ).

مكَّة وسائرَ النَّاسِ في مشارقِ الأرضِ ومغاربِها، حتَّى يهتدوا، والَّذين يؤمنون بالحياة الآخرة، ويؤمنون بهذا القرآنِ، ويعملون بما فيه، ويحافظون على صلاتِهم، بإقامةِ أركانِها وفروضِها ومستحبَّاتها في أوقاتِها المحدَّدة لها شرعًا"[1].

بيانُ أنَّ القرآنَ منزَّلٌ لتصديقِ ما قبلَهُ، وهدايةٌ للنَّاسِ بالإيمانِ والعبادةِ

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ العطفِ بينَ الجملتينِ في قوله: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ﴾، وقوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُۖ﴾:

عطفَ قولَه تعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ مُبَارَكٌ﴾ على قولِهِ جلَّ شأنُه: ﴿قُلِ ٱللَّهُۖ﴾، "أي: وقل لهم: اللّهُ أنزلَ الكتابَ على موسى، وهذا كتابٌ أنزلناه"[2]، تشريكًا بالأمرِ بالقول وإعلان ذلك، فلمَّا "أثبت سبحانه أنَّه الَّذي أنزلَ التَّوراةَ والإنجيلَ، تكميلًا لإثبات الرِّسالةِ بدليلِ علم اليهودِ دون مَن لا كتابَ لهم، عَطَفَ على ذلك قولَهُ تأكيدًا لإثباتِها وتقريرًا"[3]. وذهبَ بعضُ العلماءِ إلى أنَّها جملةٌ مستأنَفةٌ، "سيقت لتحقيقِ إنزاله تعالى الكتابَ الحميدَ، بعد تحقيق إنزالِ ما نطقَ بهِ، وهو التَّوراةُ، وإظهارًا لكذبهم في مقالتِهم الشَّنيعة"[4].

الدَّلالةُ على أنَّ الآيةَ من ضمنِ ما أُمِرَ الرَّسولُ المُبَلِّغُ بقولِهِ

سرُّ إيثارِ اسمِ الإشارةِ ﴿وَهَٰذَا﴾:

في قولِهِ تعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ﴾، آثرَ التَّعبيرَ باسم الإشارة الدَّالِّ على القريبِ؛ "لأنَّ المحاولة في شأنه من ادِّعائِهمْ نفيَ نزوله من عند اللّهِ، ومن تبكيتِهم بإنزال التَّوراة، يجعلُ القرآنَ كالحاضر المشاهَدِ، فأتى باسم الإشارة لزيادة تمييزِهِ تقويَةً لحضورِهِ في الأذهان"[5]. والملمح الرُّوحيُّ للقرآن يجعل التَّواصلَ به روحيًّا، ويجعلُ التَّمثُّلَ لعظمة الله صاحبِ هذا الكلام المعجز، من دلائل عظمته

افتتاحُ الكلامِ باسمِ الإشارةِ إلى القرآنِ، فيهِ تفخيمٌ لشأنِ المشارِ إليه

(1) جماعة من العلماء، المختصر في تفسير القرآن الكريم: 1/139.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/369.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/187.
(4) القونويّ، حاشيّة على البيضاويّ: 8/192.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/369.

ووثاقته وجلالهِ، ممَّا سوف يكون دليلًا على سريانِ روح القرآنِ في القلوبِ، وتمكُّنها من المشاعر، بحيثُ يخاطِب المؤمنُ القرآنَ باسم الإشارة القريب، لقربهِ المعنويِّ، وتدفُّقهِ الرُّوحيِّ الآخذِ بالألبابِ، وقد قالَ تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢﴾ [الأنفال: 2]. وافتتاحُ الكلامِ باسم الإشارةِ، وكونهِ إشارةً إلى القرآن، فيه تفخيمٌ لشأن المشارِ إليه.

الغرضُ من وصفِ الكتابِ بالمُنْزَلِ:

الإخبارُ بإنزالِ الكتابِ للنَّصِّ على أنَّه من عندِ اللهِ، لا مِن سواهُ

في قوله: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ﴾ أخبر تعالى أنَّهُ أنزلَ الكتابَ، للدَّلالةِ على أنَّه جاء من جهة الوحيِ، فالمقصودُ "أن يُعلم أنَّه من عند اللّه تعالى، لا من عند الرَّسولِ؛ لأنَّه لايَبْعُدُ أن يَخُصَّ اللّه محمَّدًا ﷺ، بعلومٍ كثيرةٍ، يتمكَّن بسببِها من تركيبِ ألفاظِ القرآنِ، على هذه الصِّفة من الفصاحةِ، فبيَّن تعالى أنَّه ليس الأمر على هذه الصِّفة، وأنَّه تعالى هو الَّذي تولَّى إنزاله بالوحي على لسان جبريلَ عليه السلام"[1]، وإنَّما ناسبَ ذِكْرُ الإنزالِ هنا، لأنَّ السِّياقَ في الحديثِ عن نَفْيِهم إنزالَ الوحي من اللّه تعالى، فكانَ في هذا التَّصريحِ بالإنزال ردٌّ عليهم.

الغرضُ من وصْفِ الكتابِ بأنَّهُ مباركٌ:

نصَّ على صفةِ البركةِ تأكيدًا للبرَكَةِ المفهومَةِ من تنزيلِ اللهِ تعالى

إنَّ الكتابَ المنزَّلَ منَ اللّهِ تعالى مبارَكٌ بنزولهِ منه، فصفةُ البركة لازمةٌ لما أنزله ﷻ؛ قال تعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ﴾ "لأنَّ ما أَنْزَلَهُ اللّهُ تعالى فهو مُبارَكٌ قَطْعًا، فَصارَتِ الصِّفةُ بِكَونِهِ مبارَكًا كأنَّها صفةٌ مُؤَكِّدَةٌ؛ إذ تَضَمَّنها ما قبلها"[2]، فالتَّصريح بِصفةِ البركة مؤكِّدٌ لبركةِ الكتابِ الكريمِ، قال الزَّجّاجُ:

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 13/64.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/582.

والمبارَكُ: الَّذي يأتي من قِبَله الخيرُ الكثيرُ، والمعنى: أنزلناهُ للبركةِ والإنذارِ[1]، والسِّياق "يصف القرآنَ بالبركة؛ وأصلُ البركة الثُّبوت، ومنه بروكُ البعيرِ؛ إذا ثَبَتَ واستقرَّ، ومنهُ قوله: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾ [الملك: 1]، أي: ثبتَ لهُ ما يستحقُّه من التَّعظيم والجلالِ، فيما لم يزلْ ولا يزالُ"[2].

علَّةُ تقديمِ صفةِ الإنزالِ على البركةِ:

المناسبُ للسِّياقِ تقديمُ الصِّفةِ الَّتي سيقَ الحديثُ لإثباتِها

قدَّمَ ذِكْرَ الإنزالِ على البركةِ في قوله: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ﴾ جَرْيًا على اقتضاءِ السِّياقِ، فلمَّا "كان الإنكارُ إنَّما وَقَعَ على الإنزالِ فقالوا: ﴿مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾، وقيلَ: ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ﴾؛ كان تقديمُ وَصْفِهِ بالإنزالِ آكَدَ من وصفِهِ بكونِهِ مباركًا"[3]، فتقديمُ اللَّفظِ الَّذي هو محلُّ النِّزاع أَبْلَغُ من تأخيرِهِ، وهذا يريكَ علوَّ بلاغةِ هذا الكتابِ؛ إذ بنى تقديمَ الألفاظ على أهمِّيَّتها في السِّياق، وقدَّم وَصْفَهُ بالإنزالِ، على وَصْفِه بالبرَكَةِ، بخلاف قولِهِ تعالى: ﴿وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ﴾ [الأنبياء: 50]، قالوا: (لأنَّ الأهمَّ) هنا وَصْفُهُ بالإنزال؛ إذ جاء عقيبَ إنكارِهم أن يُنْزِلَ اللهُ على بَشَرٍ شيئًا، بخلاف هناك. ووقعتِ الصِّفةُ الأولى جُمْلَةً فعليَّة؛ لأنَّ الإنزال يَتَجَدَّدُ وقْتًا فَوَقْتًا، والثَّانية اسمًا صريحًا؛ لأنَّ الاسم يَدُلُّ على الثُّبوت والاسْتِقْرارِ، وهو مقصودٌ هنا، أي: بركتُهُ ثابتةٌ مُستقرَّةٌ[4].

العدولُ عن جعلِ الكتابِ مفعولًا بهِ:

تَكَرُّرُ ذِكْرِ (الكتاب) بلفظِهِ وبضميرِهِ تنويهٌ بعلوِّ شأنِهِ

في قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ﴾: تكرَّرَ ذِكْرُ الكتاب مرَّتين، صريحًا باسمه ومضمَرًا، وكان يمكنُ التَّعبيرُ بأسلوبٍ آخرَ، كأن يقولَ: (وأنزلنا الكتاب)، ولكنَّه "جعل ﴿كِتَٰبٌ﴾ الَّذي حقُّه أن

(1) ابن الجوزيّ، زاد المسير في علم التّفسير: 2/54.
(2) السّمعانّي، تفسير القرآن: 2/125.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/582.
(4) ابن عادل الدّمشقيّ، اللّباب في علوم الكتاب: 8/283.

يكونَ مفعولَ (أنزلنا) مسنَدًا إليهِ، ونصبَ فعلَ (أنزلنا) لضميرِه؛ لإفادةِ تحقيقِ إنزاله بالتَّعبيرِ عنهُ مرَّتين، وذلك كلُّه للتَّنويهِ بشأن هذا الكتاب"[1]، ويضاف إلى ذلك أنَّه عَدَلَ من الجملة الفعليَّة إلى الجملة الاسميَّة، تأكيدًا للمعنى، ودلالةً على ثباتِ تلكَ الصِّفاتِ فيهِ.

علَّةُ التَّعبيرِ عنِ الإنزالِ بالفعلِ وعن البركةِ بالاسمِ في الآية:

في قولهِ جلَّ شأنه: ﴿أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ﴾ فَرَّقَ تعالى في التَّعبيرِ عن صفتينِ في سياقٍ واحدٍ وجملة واحدة، ولموصوفٍ واحدٍ، فجاءتِ الأولى بصيغةِ الفعل، والثَّانية بصيغةِ الاسم، وذلك بالنَّظرِ إلى واقع الصِّفة، فلمَّا "كان الإنزالُ يتجدَّد عُبِّرَ بالوصفِ الَّذي هو فعلٌ، ولمَّا كانَ وصفُهُ بالبركةِ وصفًا لا يُفارِق؛ عُبِّرَ بالاسمِ الدَّالِّ على الثُّبوتِ"[2].

الإنزالُ حادثٌ متجدِّدٌ، والبركةُ وصفٌ ثابتٌ قارٌّ

علَّةُ العدولِ عن الظَّاهرِ إلى ضميرِ العظمةِ في قوله: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ﴾:

عَدَلَ تعالى ذِكْرُهُ عن إظهارِ اسم الجلالة في قوله: ﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾، معبِّرًا عن ذاتِه "بنون العظمة؛ لأنَّها أدلُّ على تَعْظيمِه، فقال: ﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾، أي: وليس من عند محمَّد ﷺ"[3]، أمَّا التَّعبيرُ باسم الجلالة، فهو أدلُّ على المهابةِ والجلالِ، والسِّياق في التَّعظيم، والمناسب له نون العظمة، فَعَدَلَ إليهِ تعظيمًا لشأنِ الكتابِ المنزَلِ منَ اللّٰه تعالى.

أسندَ الإنزالَ إلى ضميرِ العظمَةِ، لمناسبةِ التَّعظيمِ والتَّفخيمِ لِقَدْرِ الكتابِ

إيثارُ التَّعبيرِ بقوله: ﴿مُبَارَكٌ﴾، دون تعلُّقِهِ بحرف جرٍّ:

أُوثِرَ وصفُ الكتابِ بالبركةِ على وجهِ الإطلاقِ بلا تقييدٍ بحرفِ جرٍّ، فلم يقلْ: (مبارك فيه، أو به، أو عليه)؛ لأنَّ "قولهم (بارك فيه)، إنَّما يتعلَّق ما كانتِ البركةُ حاصلةً للغير في زمنه أو مكانه، وأمَّا (باركه) فيتعلَّقُ بهِ ما كانت البركةُ صفةً له، و(بارك عليه)

القرآنُ مباركٌ لدلالتِهِ على الخيرِ العظيمِ، وهدايتِهِ للطَّريقِ المستقيمِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/369.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/582.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/187.

جعل البركةَ متمكِّنةً منه، (وبارك له) جعل أشياءَ مباركةً لأجله، أي: باركَ فيما له. والقرآنُ مباركٌ؛ لأنَّه يدلُّ على الخير العظيم، فالبركةُ كائنةٌ به، فكأنَّ البركةَ جُعِلَتْ في ألفاظه، ولأنَّ اللّه تعالى قد أودعَ فيه بركة، لقارئهِ المشتغلِ به، بركةً في الدُّنيا وفي الآخرة، ولأنَّه مشتمِلٌ على ما في العمل بهِ كمالُ النَّفس وطهارتُها بالمعارف النَّظريَّة ثمَّ العمليَّة، فكانت البركةُ ملازمةً لقراءته وفُهومِهِ"[1]، فجاء وصفُهُ بالبركةِ مطلَقًا للدَّلالة على أنَّ البركةَ صفةٌ ثابتةٌ دائمةٌ حالَّةٌ فيهِ.

وجهُ الإخبارِ عن لفظِ ﴿كِتَٰبٌ﴾ بقولهِ: ﴿مُّصَدِّقُ﴾ دون عاطفٍ:

تَرْكُ العطفِ في تعدُّد الأخبارِ أبلغُ منَ العطفِ

في قولهِ جلَّ شأنُه: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أخبارٌ متعدِّدةٌ عن مسنَدٍ واحدٍ، فقوله تعالى: ﴿مُّصَدِّقُ﴾ "خبرٌ عن كتابٍ بدونِ عطفٍ"[2]، فتعدَّد الخبرُ بلا عطفٍ، فلمْ يَقُلْ: (وهذا كتابٌ أنزلناهُ مُباركٌ ومُصدِّقٌ)؛ لأنَّ ترْكَ العطفِ في تعدُّدِ الأخبارِ أبلغُ وآثرُ من العطف؛ لأنَّ الخبرَ أحدُ ركنَي الجملة الأساسيَّين، والإخبارُ بأنَّ الكتاب منزَّلٌ لايقلُّ أهمِّيَّةً عن كونِهِ مباركًا، والإخبارُ بكونهِ صادقًا ليس بأقلَّ أهمِّيَّةً من ذلك، فالأخبارُ تلك على مستوًى واحدٍ من الأهمِّيَّة، والعطف يُذهِبُ تلكَ الأهمِّيَّةَ؛ لأنَّ العطفَ فضلةٌ تابعٌ يمكنُ الاستغناءُ عنهُ، ولم يكن قوله تعالى: ﴿مُّصَدِّقُ﴾ صفةً؛ لأنَّ غاية الصِّفة التَّفريقُ بين اسمين متَّفقين في الاسميَّة، ولكنَّهما اختلفا بالصِّفة، فلو كان ﴿مُّصَدِّقُ﴾ صفةً لكان المرادُ وصفَ الكتاب المنزَلِ من اللّه تعالى، ليباين كتابًا آخر، وهذا ليس المعنى المرادُ في الآية، فهي مساقةٌ للإخبار عن الكتابِ ببركتهِ وكونِه منزَّلًا من اللّهِ تعالى، وكونِهِ مُصَدِّقًا لما جاء قبله من الكُتبِ. وفي الخبرِ - أيضًا- فائدةٌ

(1) ابن عاشور، التّحريروالتّنوير: 7/369 - 370.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/370.

للسَّامعِ بشيءٍ كان يجهلُه، فنبَّههم بذلكَ على أنَّ الكتابَ متضمِّنٌ تعاليمَ الرِّسالاتِ السَّابقة؛ لِيَؤولَ الكلامُ أخيرًا إلى نفيِ كونهِ بِدْعًا من الرُّسلِ؛ ردًّا على تكذيبهم إنزالَ اللّهِ تعالى للوحي، قائلينَ فيما ذكره القرآن: ﴿مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيۡءٖۗ﴾.

وجهُ تصديقِ القرآنِ للكتبِ السَّابقةِ بقوله: ﴿مُّصَدِّقُ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ﴾:

أخبرَ تعالى في قوله: ﴿مُّصَدِّقُ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ﴾، عن تصديقِ القرآنِ لما قبلَه منَ الكتبِ المنزَّلةِ، يعني: أنَّه موافقٌ لما فيها[1]؛ وذلك من وجهيَن: "**أحدُهما**: أنَّ في هذه الكتب الوعدَ بمجيء الرَّسول المقفَّى على نبوءةِ أصحاب تلك الكتبِ، فمجيءُ القرآن قد أظهر صدقَ ما وعدتْ به تلك الكتبُ، ودلَّ على أنَّها من عندِ اللّه. **وثانيهما**: أنَّ القرآنَ مُصَدِّقُ أَنبيائِها، وصَدَّقَها وذَكَر نورَها وهُداها، وجاء بما جاءت بهِ من أصولِ الدِّين والشَّريعةِ"[2].

الـقـرآنُ أظـهـرَ صِـدْقَ الـكـتـبِ الـسَّـمـاويَّـةِ، وأنَّـهـا مـن عندِ الله يقينًا

التَّعبيرُ بالموصولِ المفردِ في قوله: ﴿ٱلَّذِي﴾ عن الكتب:

يدلُّ الاسمُ الموصولُ ﴿ٱلَّذِي﴾ على المفرد، ولكنَّه في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ﴾، يرادُ بهِ معنى الجمعِ، ولكنَّهُ لم يقل: (الَّذِينَ)؛ لأنَّه لا يستعمل إلَّا مع العاقل أو شبهه، نحو: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمۡثَالُكُمۡۖ﴾؛ لتنزيل الأصنام منزلةَ العاقل، أمَّا جمع غير العاقل؛ فلا يستعمل إلَّا الَّذي للمفرد[3]، فجاء استعمال الَّذي للدَّلالةِ على الجمع؛ لأنَّهُ غير عاقل.

الـكـتـبُ المـنـزَّلـةُ جَـمْـعٌ لـغـيرِ العاقلِ

إيثارُ التَّعبيرُ بـ ﴿ٱلَّذِي﴾ دون (ما):

في قوله جلَّ شأنُه: ﴿مُّصَدِّقُ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ﴾، عبَّرَ بالموصول ﴿ٱلَّذِي﴾ دون الموصولِ (ما)، فلم يقل: (ما بين يديه)؛ لأنَّها كتبٌ

الكتب المُنَزَّلَةُ بين يـدي الـقـرآن، كلٌّ منها معهودٌ معروفٌ محدَّدٌ

(1) الخازن، لباب التَّأويل: 2/135.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/370 - 371.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/370.

معهودةٌ معروفةٌ معيَّنة، ولا يراد العموم المدلولُ عليه بالموصولِ (ما)، إذ لا اقتضاءَ له.

التَّعبيرُ عنِ الكتبِ السَّابقةِ بقولهِ تعالى: ﴿بَيْنَ يَدَيْهِ﴾:

التَّوراةُ والإنجيلُ آخرُ ما تداولَهُ النَّاسُ بينَ يدي الإسلامِ

المرادُ بقولهِ تعالى: ﴿مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ الدَّلالةُ على ما تقدَّم وسبقَ، وكلُّ ما كان بين اليدين، فهو ما تقدَّمَ[1]، ويعني هنا: "ما تقدَّمه من كتب الأنبياء، وأخصُّها التَّوراةُ والإنجيلُ والزَّبورُ، لأنَّهَا آخرُ ما تداوله النَّاس منَ الكتبِ المنزَّلةِ على الأنبياء، وهو مصدِّقُ الكتبِ النَّازلة قبلَ هذه الثَّلاثةِ، وهي صحفُ إبراهيمَ وموسى"[2]، فعبَّر بقوله: ﴿بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ للدَّلالة على أقربِ ما سبقَه بالأخصِّ، ولو قال: (ما قبله)؛ لكان عامًّا، ولَفاتَ ذلك التَّخصيصُ.

بلاغةُ العطْفِ بين الجملتَينِ في قوله تعالى: ﴿أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ﴾ ﴿وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ﴾:

تكثيرُ الصِّفاتِ إيماءٌ إلى علوِّ الشَّأنِ ورفعةِ القَدْرِ

عطفَ الإنذارَ المفهومَ من قوله جلَّ شأنه: ﴿وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ﴾ على التَّبريكِ والتَّصديقِ المفهومَيْنِ من قوله تعالى: ﴿مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ﴾، فكأنَّهُ قال: أنزلناهُ للبركاتِ، ولتصديق ما تقدَّمه من الكتب وللإنذار[3]، وفي العطفِ دلالةٌ على أنَّه مشارٌ إليه بهذه الصِّفات الثَّلاثِ، وفي تكثيرِ الصِّفاتِ إيماءٌ إلى علوِّ الشَّأن.

بلاغةُ استعارةِ لفظِ ﴿أُمَّ ٱلْقُرَىٰ﴾:

مكَّةُ أصلُ القُرى؛ لأنَّ لفظ الأُمِّ يُستعارُ للأصلِ والمرجعِ

سُمِّيتْ مكَّةُ بأمِّ القرى في قوله: ﴿وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ﴾؛ "لأنَّهَا مكانُ أوَّلِ بيتٍ وُضِعَ للنَّاس، ولأنَّها قبلةُ أهل القُرى كلِّها ومحجُّهم، ولأنَّها أعظم القرى شأنًا"[4]، وليس للقرى أمٌّ ولا بنتٌ، وإنَّما ذلك على سبيلِ الاستعارة؛ والتَّعبيرُ بـ (أُمِّ) للأشياءِ "استعارةٌ شائعة في

(1) الشّهاب، عناية القاضي: 4/95.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/370.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/45، وينظر: أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/162.
(4) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/45، وينظر: أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2589.

الأمر الَّذي يُرجعُ إليه، ويلتفُّ حوله، وحقيقةُ الأمِّ الأنثى الَّتي تلد الطِّفل، فيرجعُ الولد إليها، ويلازمُها، وشاعتِ استعارة الأمُّ للأصلِ والمرجع، حتَّى صارت حقيقةً، ومنه سمِّيتِ الرَّايةُ: أمًّا، وسمِّي أعلى الرَّأس: أمَّ الرَّأس، والفاتحة: أمَّ القرآن"[1].

مجازُ الحذفِ بذِكْرِ ﴿أُمَّ ٱلْقُرَىٰ﴾ وإرادةِ أهلِها:

في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ﴾، وقع الإنذارُ على مكَّة، والمرادُ إنذار أهلها[2]؛ لأنَّ القرى لا تُنذَر، وإنَّما يُنذر أهلُها، ولكنَّهُ "حذف (أهل) لدلالة المعنى عليهِ؛ لأنَّ الأبنيةَ لا تُنْذَر كقولهِ: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾؛ لأنَّ القريةَ لا تسألُ"[3]، وهذا الحذف يفيدُ الإيجازَ، وهو مجازٌ، فذكر المكان، وأرادَ الحالَّ فيه، "وإطلاقُ المكان وإرادةُ أهله، هذا كثيرٌ في القرآن، ومن ذلك قولهُ تعالى: ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ۝١٧﴾ [اقرأ: 17]، وما كانتِ البقعُ والمباني لتنذرَ إنَّما ينذرُ أهلها"[4].

ذكرَ أمَّ القرى، وأرادَ أهلها بحذفِ المضافِ إليه، وإقامةِ المضافِ مقامهُ إيجازًا

إيثارُ التَّعبيرِ بـ ﴿أُمَّ ٱلْقُرَىٰ﴾ دون (مكَّة):

آثر النظم القُرآنيُّ التَّعبيرَ بـ ﴿أُمَّ ٱلْقُرَىٰ﴾؛ لأنَّه الاسمُ الَّذي يُنْبِئُ "عن كونها أعظمَ القرى شأنًا وقِبْلَةً لأهلها قاطبةً، إيذانًا بأنَّ إنذارَ أهلِها أصلٌ مستتبِعٌ، لإنذار أهلِ الأرض كافَّةً"[5]، فآثَرَهُ لما فيه من دلالة على التَّعظيم، وهو أنسبُ بالسِّياق؛ إذ هي مذكورةٌ تبعًا للإنذار بالكتاب المنزَّل المباركِ، "وأُمَّ القُرى مكَّة، سُمِّيتْ بذلك لوجوهٍ منها: أنَّها منشأُ الدِّين والشَّرع، ومنها ما رُوي أنَّ الأرض منها دُحِيَتْ، ومنها أنَّها وَسَطُ الأرض، وكالنُّقطة للقُرى، ومنها ما لَحِق عن الشَّرع من أنَّها قبلةُ كلِّ قريةٍ، فهي لهذا كلِّه أمٌّ، وسائرُ

مكَّةُ أعظمُ القُرى، ولها أثرٌ عميقٌ فيما حولها

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/372، وينظر: الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 8/488.
(2) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 13/65، وينظر: القنّوجيّ، فتح البيان: 4/193.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/583.
(4) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2589.
(5) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/162، وينظر: البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/188، والقنّوجيّ، فتح البيان: 4/193.

القرى بناتٌ، وتقدير الآية: لِتُنذرَ أهلَ أمِّ القرى، وَمَنْ حَوْلَها يريد أهل سائر الأرض"[1].

الدَّلالةُ على عمومِ الرِّسالة وخصوصِها في قوله: ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾:

قوله تعالى: ﴿وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾، ذَكرَ فيه قيدَيْن للإنذار، كونُه لأمِّ القرى، وللَّذين حولها، ولم يقل في هذا السِّياق: (لتنذر العالَمين)، بل خَصَّ بالذِّكر مكَّةَ، لأنَّ الجدال وقع مع أهلها، وقد زعم اليهودُ اختصاصَ الإنذار ببلاد العرب، بناءً على قوله تعالى: ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾، وقد أجاب المفسِّرون عن ذلك، بأنَّ "تخصيص هذه المواضع بالذِّكر لا يدلُّ على انتفاء الحكم فيما سواها إلَّا بدلالة المفهوم، وهي ضعيفةٌ، لا سيَّما وقد ثبت بالتَّواتُرِ الظَّاهرِ المقطوعِ به من دين محمَّدٍ ﷺ أنَّه كان يدَّعي كونه رسولًا إلى كلِّ العالمين، وأيضًا قوله: ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾، يتناول جميعَ البلاد والقرى المحيطةِ بها، وبهذا التَّقدير: فيدخل فيه جميعُ بلاد العالم"[2].

القيدُ بالمكان لا يقتضي اقتصارَ دعوتِهِ على أهلِهِ؛ بل يعمُّ الأرضَ كلَّها

توجيهُ القراءةِ بصيغةِ الغائبِ في قوله: ﴿وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ﴾:

جاءتِ الرِّوايةُ عن عاصمٍ عن طريق شعبةَ بالقراءة بصيغة الغائب (لِيُنْذِرَ)، فقد "جعل الكتاب هو المنذِر؛ لأنَّ فيه إنذارًا، ألا ترى أنَّه قال: ﴿وَلِيُنذَرُواْ بِهِۦ﴾ أي: بالكتاب، وقال: ﴿وَأَنذِرْ بِهِ﴾ وقال: ﴿إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْيِ﴾ فلا يمتنعُ إسنادُ الإنذار إليه على سبيل الاتِّساع. وأمَّا الباقون؛ فإنَّهم قرؤُوا: ﴿وَلِتُنذِرَ﴾ بالتَّاء خطابًا للنَّبيِّ ﷺ؛ لأنَّ المأمور والموصوفَ بالإنذارِ هو، قال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ﴾ [الرعد: 7]"[3]، فالإنذارُ غايةٌ لإنزال الكتاب المبارَك، وإسنادُه إلى القرآن في رواية شعبة، فيه تفخيمٌ لشأن القرآن؛ إذ حوَّله من كونه

إسنادُ الإنذارِ إلى القرآنِ تفخيمٌ لشأنِ القرآنِ

(1) ابن عطيّة الأندلسّي، المحرّر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: 2/322.

(2) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 13/65، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/583، والقنّوجيّ، فتح البيان: 4/193.

(3) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 13/66، وينظر: ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/322.

كتابًا محصورًا بين دفَّتين، إلى مَن يزاول الإنذار بنفسه، وهذا ليس بمخالفٍ للواقع، إذ إنَّ القرآن يحمل رسالته لكلِّ من يتلوه ويتدبَّره، فأسندَ "الإنذارَ إلى الكتاب مجازًا؛ لأنَّه سببُ الإنذار"[1].

سرُّ الاقتصارِ على الإنذارِ في قوله: ﴿وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾:

ترهيبُ المنكرينَ بالإنذارِ الشَّامل لكلِّ البقاع

قد جَرَتْ عادةُ القرآن، أن يقرنَ بينَ الإنذار والتَّبشير، ولكنَّه في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾، اقتصر على الإنذار وحده؛ "لأنَّ المقصودَ تخويفُ المشركين إذ قالوا: ﴿مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ﴾"[2].

دلالةُ إيجازِ القَصْرِ في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾:

دلَّ إيجازُ الإنذارِ على شمولِه لكلِّ المنكِرين الكفَّار

في قولهِ تعالى: ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾، عبَّر بألفاظٍ قليلةٍ عن جميع "القبائل القاطِنَةِ حول مكَّةَ مثلِ خُزاعة، وسعد بن بكر، وهوازن، وثَقيفٍ، وكِنانة"[3]، ثم لا تقفُ دلالةُ التَّعبير على هذه القبائل وحسب، بل تشملُ "أهلَ سائر الأرض"[4]، وهذا من إيجازِ القَصْرِ؛ حيثُ يدلُّ قليل اللَّفظ على كثير المعنى.

بلاغةُ الاحتراسِ في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾:

أهلُ الإيمانِ بالقرآنِ قومٌ لهم البشارةُ دونَ الإنذارِ

أخبرَ تعالى في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ عن إيمانِ المؤمنين بعد ذكرِ الإنذار، إذ في ذلك "احتراسٌ من شمول الإنذارِ للمؤمنين الَّذين هم يومئذٍ بمكَّة وحولها، المعروفون بهذه الصِّلة دون غيرهم، من أهل مكَّةَ ... وأخبر عن المؤمنين بأنَّهم يؤمنونَ بالقرآن، تعريضًا بأنَّهم غيرُ مقصودين بالإنذار، فيُعلم أنَّهم أحقَّاء بضدِّه، وهو البشارةُ"[5].

(1) النيسابوريّ، غرائب القرآن: 3/120.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/372.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/372.
(4) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/322.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/372 - 373.

دلالةُ الواوِ في جملةِ: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ﴾:

بيانُ حالِ المؤمنينَ، والثَّناءُ عليهم، ونفيُ شمولهم بالإنذارِ

دلَّتِ (الواو) في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۖ﴾، على الاستئنافِ لبيان حال المؤمنين من الإنذارِ، حيث "ابتدأ ﷻ، بمدحِ وصفهم، وأخبرَ عنهم: أنَّهم يؤمنون بالآخرة والبعثِ والنُّشور"[1]، والغرضُ من ذلك التَّعريضُ بأنَّهم غير مقصودينَ بالإنذار؛ فيُدرَك أنَّهم أحقَّاء بالبشارة، جزاء إيمانِهم بما نزل من عند الله، والله لا يظلم النَّاسَ شيئًا، ولكنَّ النَّاس أنفسهم يظلمون[2].

دلالةُ التَّعبيرِ بالموصولِ في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ﴾:

الإخبارُ عنِ المؤمنينَ بالموصولِ تمييزٌ لهم عن أهلِ الشِّرك

قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۖ﴾، عبَّر عن المؤمنين بالموصول والصِّلة دون الوصفِ؛ فلم يقل: (والمؤمنون يؤمنون به)؛ لأنَّ هذا الموصولَ مع صلته "كاللَّقَب لهم، وهو مميِّزُهم عن أهل الشِّرك؛ لأنَّ أهلَ الشِّرك أنكروا الآخرة"[3].

إيثارُ صيغةِ المضارعِ في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ﴾:

المؤمنون لا ينقطعُ إيمانُهم، لثباتِهم على الهُدى

في قولهِ جلَّ شأنه: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۖ﴾، عبَّر عن إيمان المؤمنين بالفعلِ المضارع الدَّالِّ على التَّجدُّدِ؛ للدَّلالةِ على أنَّهم مستمرُّون بالإيمان ثابتون عليه؛ لأنَّه في معرض الثَّناء عليهم، فبيَّن بالمضارع إصرارَهم وقوَّةَ ثباتهم على إيمانهم، فبذلكَ استحقُّوا الاستثناءَ من الإنذار.

تلازمُ الإيمانِ بالآخرةِ وبالقرآنِ في قولِهِ: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۖ﴾:

ما في القرآنِ من مشاهدِ الآخرةِ يصوِّرها وكأنَّها بارزةٌ حاضرةٌ

أخبرَ تعالى عن التَّلازم بين الإيمانِ بالآخرةِ، والإيمانِ بالقرآنِ الكريم، فمَن آمَن بالآخرة؛ فإنَّه يؤمن بهذا الكتاب؛ لأنَّ "القرآنَ

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/322.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/373 (بتصرّف).
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/373.

يؤمن به مَن يدرك حقيقة الدَّين، وحقيقةُ الدِّين أن يعلم الإنسان أنَّه لم يُخلَق عبثًا، وأنَّ الحياةَ الآخرة، هي الحياةُ الباقية، وأنَّ الدُّنيا سبيل لها، وأنَّ نعيمها هو الباقي"[1].

وقد ذكر الفخرُ الرَّازيُّ أنَّ الإيمان بالآخرة جارٍ مجرى السَّببِ للإيمان بالرَّسول ﷺ ثمَّ ذكر ما يقرِّر هذه السَّببيَّةَ: "والعلماءُ ذكروا في تقريرِ هذه السَّببيَّة، وجوهًا: **الأوَّل**: أنَّ الَّذي يؤمن بالآخرة، هو الَّذي يؤمن بالوعدِ والوعيد، والثَّواب والعقابِ، ومن كان كذلك، فإنَّه يعظِّم رغبته في تحصيلِ الثَّواب، ورهبته عن حلول العقاب، ويبالغ في النَّظر والتَّأمُّل في دلائل التَّوحيد والنُّبوَّة، فيصِلُ إلى العلم والإيمان، **والثَّاني**: أنَّ دين محَمَّدٍ ﷺ مبنيٌّ على الإيمان بالبعث والقيامة، وليس لأحدٍ من الأنبياءِ مبالغةٌ في تقرير هذه القاعدة مثل ما في شريعة محمَّد ﷺ فلهذا السَّببِ كان الإيمانُ بنبوَّة محمَّد ﷺ، وبصحَّة الآخرةِ أمرينِ متلازِمَيْنِ"[2].

ذكْرُ الإيمانِ بالبعثِ:

الإيمانُ بالآخرة، إنَّما هو ركنٌ واحدٌ من أركانِ الإيمان، فاكتفى في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦ﴾ بذكرِه من سائرِ تلك الأركانِ؛ "لأنَّ الإيمانَ بِهِ يستلزِم الإيمانَ بباقيها، ولإسماعِ كفَّارِ العربِ وغيرهم، ممَّن لا يؤمن بالبعث، أنَّ مَن آمَنَ بالبعث آمن بهذا الكتابِ، وأصل الدِّين خوفُ العاقبة، فمن خافها لم يَزَلْ به الخوفُ حتَّى يؤمنَ"[3].

الإيمانُ بالبعثِ والآخـــــرةِ، يستلزمُ الإيمانَ بأركـانِ الإيمـانِ الأخرى

دلالةُ الجملةِ الاسميَّةِ في قوله: ﴿وَهُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ يُحَافِظُونَ﴾:

عبَّرَ تعالى في قوله: ﴿وَهُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ يُحَافِظُونَ﴾ عن صفةِ

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2590، وينظر: الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/45.
(2) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 13/66، وينظر: البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 2/172، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/583.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/583.

المؤمنين بالجملة الاسميَّةِ؛ لتأكيد اتِّصافهم بما تضمَّنَتْه، فهم ثابتونَ على ذلك الوصفِ؛ إذِ الإخبارُ بالجملة الاسميَّةِ يؤكِّدُ مضمونَهَا لدلالتها على الثُّبوت، والمعنى المُعَبَّرُ عنه بالجملةِ الاسميَّةِ، أبلغُ وأثبتُ ممَّا لو عُبِّرَ عنه بالجملة الفعليَّة، ومعلوم أنَّ الصَّلاةَ هي مشروع العمرِ، وأنَّها تستغرق الزَّمن كلَّهُ، باللَّيل والنَّهارِ، والعشيِّ والإبكار، وهي الضَّمانُ للنَّجاةِ يوم القيامة، وذلك أنَّ أوَّلَ ما يُسألُ عنه المرءُ في يوم الحسابِ صلاتُه، فإن صَلَحتْ؛ صلحَ سائرُ عمله، وإن فَسَدتْ؛ فَسَدَ سائرُ عمله؛ لذلك كان التَّعبير بقوله تعالى: ﴿وَهُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ يُحَافِظُونَ﴾، مؤدِّيًا للغاية، مفيدًا للمقصد الَّذي به يُفهم المعنى، وتُدركُ الدَّلالة.

المؤمنونَ ثابتونَ على صلاتِهم بالمحافظةِ الدَّؤوبة عليها

وجهُ تخصيصِ الصَّلاةِ بالذِّكر في قوله: ﴿وَهُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ يُحَافِظُونَ﴾:

الإيمانُ بالآخرةِ يدلُّ على كلِّ الطَّاعات، وإنَّما خصَّ الصَّلاة بالذِّكر من سائرِ الطَّاعات قصدًا للتَّنبيهِ، "على أنَّ الصَّلاةَ أشرفُ العبادات بعد الإيمان بالله، وأعظمُها خطرًا، ألا ترى أنَّه لم يقع اسمُ الإيمانِ على شيءٍ من العباداتِ الظَّاهرة إلَّا على الصَّلاة، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمۡۚ﴾ [البقرة: 143]، أي: صلاتَكم، فلمَّا اختصَّتِ الصَّلاة بهذا النَّوع من التَّشريف لاجَرَمَ خصَّها الله بالذِّكر في هذا المقام"[1]، وفي ذلك ثناءٌ على المؤمنين، فالتَّصريح بكونهم يحافظون على صلاتهم يُؤْذِنُ "بكمال إيمانهم وصِدْقِه؛ إذ كانتِ الصَّلاةُ هي العمل المختصُّ بالمسلمين، فإنَّ الحجَّ كان يفعله المسلمون والمشركون"[2].

الصَّلاةُ سبيلُ كمالِ الإيمانِ، ووسيلةُ الفوزِ بالجنانِ

إيثارُ لفظِ ﴿يُحَافِظُونَ﴾ دونَ غيرِه:

أُوثِرَ التَّعبيرُ في قولِه: ﴿وَهُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ يُحَافِظُونَ﴾ بالمحافظةِ دون القيامِ أو الأداءِ؛ لأنَّ المحافظةَ على الصَّلاة عهدٌ بين العبد

المحافظةُ على الصَّلاةِ عَهْدٌ معَ اللهِ والتزامٌ مع النَّفْسِ

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 13/66، وينظر: الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/45، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/584، وأبو السعّود، إرشاد العقل السّليم: 3/163، والقنّوجيّ، فتح البيان: 4/193.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/373.

وربِّه، فمن حافظ عليها، كان لما سواها أحفظَ، ومن ضيَّعها، كان لما سواها أَضْيَعَ، روى أبو داوودَ عن أَبي قَتادَةَ بنِ رِبْعِيٍّ قال: قال رسولُ اللّه ﷺ: «قال اللّه تعالى: إنِّي فرضتُ على أُمَّتِك خمس صلواتٍ، وعهِدْتُ عندي عهدًا: أنَّه مَنْ جاء يُحافِظُ عليهنَّ لوقتهنَّ؛ أَدخلْتُه الجنَّةَ، ومَنْ لم يُحافِظْ عليهنَّ؛ فلا عهدَ له عندي»[1].

وقد دأبَ القرآنُ الكريمُ على ذكْرِ تكاسُلِ المنافقين عن الصَّلاة، وفي مقابل ذلك "جعل المحافظةَ عليها عَلَمًا على الإيمان فقال: ﴿وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾، أي: يحفظونها غايةَ الحفظ"[2]، فالمحافظةُ على الصَّلاة هي الفاصلُ بين صلاةِ المؤمنين، وصلاةِ المنافقين.

عِلَّةُ تقديمِ الجارِّ والمجرور:

في قوله: ﴿وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ قدَّم الجارَّ والمجرورَ على الفعل للدَّلالةِ على التَّخصيص؛ وذلك "لبيان أنَّ اختصاص الصَّلاة بالمحافظة، يؤدِّي إلى كلِّ الخير"[3]، فقدَّم الجارَّ والمجرور المتضمِّنَ لفظَ الصَّلاة؛ للدَّلالة على أنَّ من يَخصُّون الصَّلاة بالمحافظة، إنَّما هم أهل الإيمان والصَّلاح.

تخصيصُ الصَّلاة بالمحافظةِ، من أهمِّ صفاتِ أهلِ الإيمانِ

بلاغةُ الاحتباكِ في الآية الكريمة:

في قولهِ تعالى: ﴿وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ أسلوبٌ نفيسٌ من أساليب الحذف في العربيَّة، وهو ما يسمَّى بالاحْتِباك[4]، فذكرُ "الإنذار والأمِّ أوَّلًا، دالًّا على حذفهما ثانيًا، وإثبات الإيمان والصَّلاة

بلاغةُ الحذفِ جمالٌ في الشَّكلِ، وانسجامٌ في المضمونِ

(1) أبو داود، سنن أبي داود، الحديث رقم: (415)، ويُنظر: عبد الرّؤوف المناويّ، فيض القدير: 4/637.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/188.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2590.
(4) الاحتباك: "القول المركَّب من أجزاء فيه متناسبة، نسبة الأوّل منها إلى الثّالث، كنسبة الثّاني إلى الرّابع، أوْ ما كانت النسبة فيه كنحو ذلك، فاجتزئ من كلّ متناسبين بأحدهما، ولقطع الدّلالة ممّا ذكر على ما ترك". يُنظر: أبو القاسم السجلماسي، المنزع البديع في تجنيس أساليب البديع، تحقيق: علال الغازي، ص: 195.

ثانيًا دليلٌ على نفيهما أوّلًا"[1]، فالمذكور أوَّلًا قوله جلَّ شأنه: ﴿وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾، والمذكور ثانيًا قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾، فيكون المحذوف من المذكور أوَّلًا: (الّذين يكفرون بالآخرة لا يؤمنون به، وهم في صلاتهم مفرِّطون)؛ لدلالة الثَّاني عليه، والمحذوف من المذكور ثانيًا: (فيهم قابليَّة الإيمان من أهل أمِّ القرى ومن حولها)؛ لدلالة الأوَّل عليه، وتقدير الكلام: (لتنذرَ أمَّ القرى ومن حولها ممَّن لا يؤمنُ بالآخرة، فهم لا يؤمنون بالقرآن، وهم لصلاتهم مفرِّطون، والَّذين يؤمنون بالآخرة من أهل أمِّ القرى ومن حولها، يؤمنونَ به، وهم على صلاتهم يحافظون).

التَّقديمُ والتَّأخير وأثرهُ في التَّشابه اللَّفظيّ في آيَتَي الأنعام والأنبياء:

مواءمةُ السِّياق المبرَزِ في كلِّ آيةٍ، لتقديم صِفَتَي البركةِ والإنـزالِ أو تأخيرِهما

قوله تعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ﴾، قدَّم فيه الإنزالَ على البركةِ، أمَّا في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ﴾ [الأنبياء: 50]، فقد قدَّم البركةَ على الإنزالِ، فما وَجْهُ ذلك؟ والجواب: في سورة الأنعامِ وقع الإنكارُ على الإنزال، فقالوا: ﴿مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾، ثمَّ كان الرَّدُّ عليهم بالسُّؤال عن الإنزال: ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ﴾؛ فلذا كان تقديمُ وصفهِ بالإنزال، آكَدَ من وصفِهِ بكونِه مباركًا؛ ولأنَّ ما أَنزل الله تعالى، فهو مباركٌ قطعًا، فصارتِ الصِّفةُ بكونِه مباركًا، كأنَّها صفةٌ مؤكِّدةٌ؛ إذ تِضَمَّنها ما قبلها. أمَّا قوله جلَّ شأنه: ﴿وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ﴾ [الأنبياء: 50]؛ فليس هو في سياق الإنكار، بل جاء عَقِبَ قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾﴾ [الأنبياء: 48]؛ فذكر أنَّ الَّذي آتاه الرَّسولَ هو ذكرٌ مباركٌ[2]، فقدَّم صفةَ الإنزالِ في السِّياق الَّذي كان في شأن إنكارهِ من الكافرينَ، فقدَّمه لأنَّه أهمُّ للسِّياق.

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 7/188.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/582.

وهذا الإيرادُ للأسلوب المتشابه لفظيًّا، يؤكِّد تصرُّفَ البيان القرآنيِّ في تقديمِ وتأخير مكوِّنات الجملة، وذلكَ حتَّى تتناسبَ مع جوِّ الفقرة الَّذي تنتمي إليها الجملةُ قيد التَّشابه. ولقد دلَّنا هذا التَّشابُه اللَّفظيُّ على خفايا في الدِّلالة، ومعانٍ عميقةٍ في اختيار هذا المعنى أو ذاك؛ لتأكيد انطواءِ القرآنِ على إعجازٍ بديعٍ، لا تحتفي به إلَّا العقولُ المبدِعة، والقرائحُ المسعِفة، لتثويرِ القرآن الكريم، واستخراجِ دُررِهِ الكامنة، في أحشاءِ بحره الطَّامي، وعُبابهِ المترامي، وتذوُّق ذلك وفقًا لقواعد اللِّسان، وعِبَرِ الزَّمان، وحكمةِ اللّه في بدائع الصُّنع في الأكوانِ، وهو ما يقتضيه النَّظرُ إلى المتشابهِ اللَّفظيِّ في كلِّ القرآنِ.

الوصلُ والفصلُ في المتشابهِ اللَّفظيِّ في آيتَي الأنعام والشُّورى:

في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾، فيه تشابهٌ مع قوله تعالى: ﴿لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [الشّورى: 7]، لمَ خَصَّ النَّظمُ الشَّريفُ كلَّ آيةٍ بما فيها من الوصل أو الفصل؟ ولمَ خصَّ آيةَ الشُّورى بقوله: ﴿وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ دون آيةِ الأنعام؟ والجواب: أمَّا الفصلُ والوصل؛ فإنَّ آية الأنعام بدأت بقوله: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾؛ فلمَّا أريدَ الجمعُ بين ما سبق والإنذارِ ناسبه الوصلُ بالواو، ولمَّا لم يتقدَّمْ ذكْرُ ليوم القيامة؛ ناسبهُ الاكتفاءُ بقوله: ﴿وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾. أمَّا آيةُ الشُّورى؛ فقد بدأت بقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾، فلمَّا كانت الصِّلةُ شديدةً بين السَّبب والمسبِّب وهو التَّنزيلُ والإنذارُ؛ ناسَبَه الفصلُ فقال تعالى: ﴿لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾.

يُؤثِّرُ الوصلُ عند إرادة الرَّبطِ بين لاحقِ المعنى وسابقِه، والفصلُ بالعكسِ

والسُّؤالُ: لمَ خُصَّت آيةُ الشُّورى بقولهِ: ﴿وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [الشّورى: 7]؟ والجوابُ: أنَّهُ قد سبق قوله جلَّ شأنه: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ

تخصيص السِّياق بآيةٍ تربطُ الإنذارَ بواقعِ التَّصرُّفاتِ المحصاةِ عليهم

مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيۡهِمۡ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِوَكِيلٖ ﴿٦﴾ [الشورى: 6] وذلك يدلُّ على أنَّ اللّه تعالى "يحصي عليهم أفعالَهم، ويحفظُ أعمالَهم؛ ليجازيَهم بها يوم القيامة جزاءهم"[1]، فذلك يناسب التَّعبيرَ بقوله تعالى: ﴿وَتُنذِرَ يَوۡمَ ٱلۡجَمۡعِ لَا رَيۡبَ فِيهِۚ﴾ [الشّورى: 7].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(الإنذار) و(الإعلام):

الإنذار: "إعلامٌ معه تخويفٌ، فكلُّ مُنْذِرٍ مُعْلِمٌ، وليس بالعكس"[2].

الإنذارُ إعلامٌ معهُ تخويفٌ، فهو إعلامٌ خاصٌّ

فالإنذار إعلام خاصٌّ، والإعلام عامٌّ، وفي قوله تعالى: ﴿وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلۡقُرَىٰ وَمَنۡ حَوۡلَهَاۚ﴾، عَبَّرَ بالإنْذارِ دونَ غيرِه؛ لأنَّه أرادَ أن يُعْلِمَ النَّاسَ بالتَّرهيبِ مِن أهوالِ يومِ القيامةِ، والعذابِ الَّذي يجازَى به العُصاةُ.

(الإنذار) و(التّخويف):

الإنذارُ تخويفٌ خاصٌّ ومعلنٌ والتَّخويفُ فعلٌ عامٌّ

"الإنذارُ تخويفٌ مع إعلامِ موضعِ المخافةِ ومصدرِها مِن قولِك: نَذِرْتُ بالشَّيء؛ إذا علمْتَهُ، فاستعددْتَ لهُ، فإذا خوَّف الانسانُ غيرَه، وأعلمه حال ما يخوِّفه به؛ فقد أَنذَرهُ، وإنْ لم يُعْلِمْهُ ذلك لم يقلْ: أنذرهُ"[3]. فالفرق بين الإنذارِ والتَّخويف: هو الإعلامُ، فالإنذار: إعلامٌ يصحبه تخويفٌ، والتَّخويفُ: أعمُّ من أن يكونَ بالإعلام، فقد يكون بالفعل، وفي الآية عبَّرَ بالإنذارِ؛ لأنَّه أنسبُ لمقام الدَّعوةِ بالقرآن، فهو إنذارٌ بالتَّرهيب.

ومن ذلك الإنْذارِ بالتَّخْويفِ: ما ألمح السِّياقُ القرآنيُّ إليه في قوله تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلۡوَحۡيِۚ وَلَا يَسۡمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [الأنبياء: 45]، ووظيفةُ الرَّسولِ الأكرمِ هي الإنذارُ والتَّخويفُ، وأنَّه بُعث للإنذارِ مع البشارَةِ، وقد قال تعالى: ﴿لِتُنذِرَ قَوۡمٗا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن

(1) ابن جرير، جامع البيان: 21/502.
(2) العسكريّ، الفروق، ص: 78.
(3) العسكريّ، الفروق، ص: 78.

نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴿٤٦﴾﴾ [القصص: 46]، وقال: ﴿لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴿٢﴾﴾ [الأعراف: 2]، وقوله: ﴿لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [الشّورى: 7]، واستهزاؤهم بِنِذارَتِهِ لا يمنعُه من البلاغ كما أمره اللّه؛ إذ عليه أن يسعى ويعالجَ، وليسَ عليه إدراكُ النَّتائجِ، ومعلومٌ أنَّ الإنذارَ بالوعيد، والتَّخويفَ من عذابِ اللّه الشَّديد، لا ينتفع به غيرُ أصحابِ الإيمان، من ذوي القلوبِ المُخْبِتَةِ المُنيبةِ إلى اللّه.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓاْ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُ ۖ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾﴾ [الأنعام: 93]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الرَّبطُ بينَ صِدْقِ الكتابِ المنزَلِ، وبينَ وعيدِ منِ ادَّعى زورًا أنَّه مرسَلٌ إليهِ

مناسبةُ هذه الآية لما قبلَها: أنَّ اللّه ﷻ "لمّا ذَكرَ القرآنَ وأنَّه كتابٌ مُنَزَّلٌ من عندِه مبارَكٌ، أَعْقَبَه بوعيدِ منِ ادَّعى النَّبوَّة والرِّسالةَ على سبيلِ الافتراء"[1]، ومن المناسبة ما ذكره البِقاعيُّ بقوله: "لمّا كان في قولهم: ﴿مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ﴾ صريحُ الكذبِ، وتضمَّن تكذيبَه وحاشاه ﷺ، أمَّا من اليهودِ فبالفعل، وأمَّا من قريشٍ فبالرِّضا، وكان بعض الكفرة قد ادَّعى الإيحاءَ إلى نفسه إرادةً للطَّعْن في القرآن؛ قال تعالى مُهَوِّلًا لأمرِ الكذب، لا سيَّما عليه"[2]: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ﴾ الآية.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱفْتَرَىٰ﴾: (فرا) (فَرَى) أصلٌ يدلُّ على قَطْعِ الشَّيْءِ، يُقَالُ: فَرى فلانٌ كذبًا؛ إذا خَلَقَهُ، وافْتَراهُ: اختَلَقَهُ، والاسم الفِريَةُ. الفَرْيُ: قطعُ الجلدِ للخَرْزِ والإصلاحِ، والإِفْرَاءُ للإفسادِ، والافْتِرَاءُ فيهما وفي الإفساد أكثرُ، وكذلك استُعْمِلَ في القرآن في الكذب والشِّرك

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/585، والهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 8/450 - 451، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/373.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/189، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 13/66.

والظُّلم، فمن الكذب قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۖ﴾ [المائدة: 103][1]، فالافتراءُ: بمعنى الاختلاقِ[2].

2) ﴿أُوحِيَ﴾: (وحى) أصلٌ يدلُّ على إلقاء علمٍ في إخفاءٍ أو غيره إلى غيرك، والوَحْيُ: الإشارة، والكتابة، والرِّسالة، والإلهام، والكلام الخفيُّ، وكلُّ ما ألقيتَه إلى غيرك، يقالُ: وَحَيْتُ إليه الكلامَ وأوْحَيْتُ، وهو أن تكلِّمَه بكلامٍ تُخفيه، ويقال للكلمة الإلهيَّة الَّتي تلقى إلى أنبيائه وأوليائه: وَحْيٌ[3]، وفي قوله تعالى: ﴿وَلَا تَعۡجَلۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ مِن قَبۡلِ أَن يُقۡضَىٰٓ إِلَيۡكَ وَحۡيُهُۥ﴾ [طه: 114]: أنَّ الوحي من القرآن بيانه، وقد يكون فَرَائِضَهُ، وَحُدُودَهُ، وَأَحْكَامَهُ، وَحَلالَهُ، وَحَرَامَهُ.[4].

3) ﴿غَمَرَٰتِ﴾ (غمر): أصلٌ يدلُّ على تغطيةٍ وسَترٍ في بعض الشِّدَّة، من ذلك الغَمْرُ: الماءُ الكثير، وسمِّي بذلك لأنَّه يغمُر ما تحته، وغَمَرَه الماء يَغْمُرُهُ، أي: علاه، والغَمْرةُ: الشِّدَّةُ، وغَمْرةُ كُلِّ شَيْءٍ: مُنْهَمَكه وشدَّتُه كغَمْرةِ الهَمِّ وَالمَوْتِ وَنَحْوِهما، وغَمَراتُ الحَرْب وَالمَوْتِ وغِمارُها: شَدَائِدُهَا[5]. وقوله تعالى: ﴿غَمَرَٰتِ ٱلۡمَوۡتِ﴾، غمراتُ الموت: جمع غَمْرَةٍ، وهي شدائدُهُ وسَكَراتُه[6]، قال الشَّاعر:

وَمَا يَكْشِفُ الغَمَّاءَ إلَّا ابنُ حُرَّةٍ *** يَرَى غَمَرَاتِ المَوْتِ ثُمَّ يَزُورُهَا[7]

يقال: خاضَ غمراتِ القتال: اقتحم أهوالَه، وغِمار الحياة: تقلُّباتها، وغَمَرات الموت: شدائدُه، ومكارهه، وسكراته[8].

4) ﴿بَاسِطُوٓاْ﴾: (بسط) أصلٌ يدلُّ على امتدادِ الشَّيء، بسط الشَّيء: نشرهُ، وبَسْطُ اليد: مدُّها، قال ﷻ: ﴿وَكَلۡبُهُم بَٰسِطٞ ذِرَاعَيۡهِ بِٱلۡوَصِيدِۚ﴾ [الكهف: 18]، وبَسْطُ الكفِّ يستعمل للأخذ، نحو: ﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓاْ أَيۡدِيهِمۡ﴾[9].

---

(1) الجوهريّ، الصّحاح: (فرا)، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (فرى).
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/374.
(3) الجوهريّ، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (وحى).
(4) يحيى بن سلام، تفسير يحيى بن سلام، تح: هند شلبي: 1/282.
(5) الجوهري، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، اللّسان: (غمر).
(6) الزمخشري، الكشاف: 2/46، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 13/67.
(7) السّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 9/89، والبيت ذكره المَرْزُوقِيُّ فِي (شَرْحِ الْحَمَاسَةِ)، وهو من قَوْلِ جَعْفَرِ بْنِ عُلْبَةَ الْحَارِثِيِّ، ينظر: ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/383.
(8) أحمد مختار عمر، معجم اللّغة العربيّة المعاصرة: 2/1641.
(9) الجوهري، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (بسط).

5) ﴿ٱلْهُونِ﴾: (هون) أصلٌ يدلُّ على سكينةٍ أو ذُلٍّ، الهُونُ: الخِزْيُ، وَفِي التَّنْزِيلِ الْعَزِيزِ: ﴿فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ﴾ [فصلت: 17]، أَي: ذِي الخِزْيِ، والهُونُ: الهَوَانُ، وهو نَقِيضُ العِزِّ، وأهانه: استخفَّ به، يقال: رجلٌ فيه مَهانَةٌ، أي: ذُلٌّ وضَعفٌ[1]، وقوله تعالى: ﴿عَذَابَ ٱلْهُونِ﴾ [فصلت: 17] أي: الهوان الشَّديد[2]، والعرب إذا أرادت بالهُون معنى: الهوانِ؛ ضمَّت الهاءَ، وإذا أرادت به الرِّفق والدَّعَة وخفَّة المؤونة؛ فتحتِ الهاءَ، فقالوا: هو (قليل هَوْن المؤونة)، ومنه قول اللّه: ﴿ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [سورة الفرقان: 63]، يعني: بالرِّفق والسَّكينة والوقارِ"[3].

6) ﴿تَسْتَكْبِرُونَ﴾: (كبر) أصلٌ يدلُّ على خلاف الصِّغَر، والاسْتِكْبارُ يقال على وجهين: **أحدهما**: أن يتحرَّى الإنسان ويطلبَ أن يصير كبيرًا، وذلك متى كان على ما يجبُ، وفي المكان الَّذي يجب، وفي الوقت الَّذي يجب، فمحمودٌ. **والثَّاني**: أن يتشبَّع، فيُظهِرَ من نفسه ما ليس له، وهذا هو المذمومُ، وعلى هذا ما ورد في القرآن، كقوله تعالى: ﴿أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ﴾، وتدلُّ صيغةُ الاستفعالِ فيه على معنى الأَنَفةِ والاسْتِنْكافِ من شيءٍ ما، كأنَّ من أُسنِدتْ إليه هذه الصِّيغة أكبرُ من هذا الشّيء، كقولهِ تعالى: ﴿قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِى فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٥٩﴾ [الزمر: 59][4].

❁ المَعْنى الإجْمالِيُّ:

يخبرُ اللّهُ تعالى على وجه الإنكارِ بالاستفهام، أنْ "لا أحدَ أعظمُ ظُلمًا، ممَّن اخْتَلَقَ على اللّه كَذِبًا، بأن قال: ما أنزل اللّه على بشرٍ من شيء، أو قال كذبًا: إنَّ اللّه أوحى إليه، واللّه لم يوحِ إليه

لا أعظمُ ذنبًا، ولا أقبحُ جرمًا، ممَّن أنكرَ الوحيَ، أوِ ادَّعى أنَّه يُوحى إليه

(1) الجوهري، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، اللّسان: (هون).
(2) الزمخشري، الكشاف: 2/47.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 9/412.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (كبر).

شيئًا، أو قال: سأُنْزِل مثلَ ما أنزل الله من القرآن. ولو ترى - أيُّها الرَّسول ﷺ - حين تُصيب هؤلاء الظَّالمين سكراتُ الموت، والملائكة باسطو أيديهم إليهم بالتَّعذيب والضَّرب، يقولون لهم على سبيل التَّعنيف: أَخرجوا أنفسَكم، فنحن نقبضها، في هذا اليوم تُجزون عذابًا يُهينكم، ويُذِلُّكم، بسبب ما كنتم تقولون على الله من الكذبِ، بادِّعاء النُّبوَّة والوحي، وإنزال مثل ما أنزل الله، وبسبب تكبُّركم عن الإيمان بآياته - لو ترى ذلك لرأيتَ أمرًا فظيعًا"[1].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالةُ الواوِ الاستئنافيَّةِ في قوله: ﴿وَمَنْ﴾:

بيانُ عِظَمِ الكذبِ على اللهِ العظيمِ ومَغَبَّةِ التَّطاولِ على وحيهِ الكريمِ

بعد أن ذكرَ إنزالِ الكتابِ المبارك، استأنفَ النَّظم في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ لبيانِ مَن يفترون الكذب في ادِّعاء الوحي، فالواوُ (استئنافيَّةٌ)، والكلامُ مُستأنَفٌ مَسوقٌ لذِكْرِ بعضِ المتنبِّئينَ ضلالةً[2]، "إذ إنَّ الافتراءَ على الله، والتَّلبيسَ على النَّاس باسمهِ، وادِّعاءَ النُّبوَّة، واختلاقَ ما يكون بين يديها من كلماتِ اللهِ وآياتِه، كلُّ هذا عدوانٌ على الله، وتطاولٌ على ما تفرَّد به سبحانه من قدرةٍ وعظمةٍ، وفي هذا مَهْلِكةٌ وضياعٌ لكلِّ من يتلبَّس بمنكَر من هذه المنكرات"[3].

بلاغةُ الاستفهامِ في قوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾:

التَّعريضُ بالمفتَرينَ لإبطالِ تكذيبِهم نزولَ الوحي، وانتحالِ الرِّسالة

خرج الاستفهامُ إلى غرضٍ مجازيٍّ، فإنَّ اللهَ تعالى لا يَسأل؛ إذ لا يخفى على واسعِ علمه شيءٌ، فالاستفهام "إنكاريٌّ، فهو في معنى النَّفي، أي: لاأَحَدَ أَظْلَمُ من هؤلاء أصحابِ هذه الصِّلاتِ،

(1) جماعة من العلماء، المختصر في تفسير القرآن الكريم: 1/139.
(2) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 3/170.
(3) عبد الكريم الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 4/239.

ومَساقُهُ هنا مساقُ التَّعريض بأنَّهم الكاذبون، إبطالًا لتكذيبهم إنزالَ الكتاب"[1]، والمراد من الإنكارِ، وبيانِ انتفاء وجود من يفوقهم ظلمًا، "التَّنديدُ بالَّذين يفعلون ذلك أشدَّ التَّنديدِ"[2].

مفادُ النَّفي المدلولِ عليه بالاستفهامِ في قوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ﴾:

التَّعبيرُ عن النَّفي بالاستفهام في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ أبلغُ من النَّفي المباشرِ والصَّريح كأن يقولَ: (لا أظلمَ ممَّن افترى الكذب)؛ إذ هو نفيٌ بالاستفهام متضمِّنٌ الدَّعوةَ إلى البحث والتَّقصِّي، فيكونُ تقريرُ النَّفي ليس إخبارًا بحتًا، بل هو حقيقة توصَّل إليها بعد البحث والتَّحرِّي؛ فلذا كان النَّفي بالاستفهامِ أبلغَ من النَّفي الصَّريحِ.

النَّفيُ بالاستفهامِ أبلغُ منَ النَّفي الصَّريحِ

وآثرُ التَّعبير بالنَّفي بهذه الطَّريقة؛ لأنَّ السِّياق جاء لبيان أشدِّ الظُّلم، وهو الكذبُ على الله تعالى، فلَزِمَ التَّعبيرُ عن نفي الصِّفة عن سواه نَفْيًا بليغًا، فكان النَّفيُ بالاستفهام الأنسبَ لذلك.

نكتةُ التَّعبيرِ بـ(أفعل التَّفضيل) في قولِهِ: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾:

وصفَ الَّذين يفترون الكذبَ على الله تعالى بأنَّهم الأظلمُ من كلِّ أحدٍ، ولا يقتضي أن يكون التّفضيلُ بين متساويين في الظُّلم، وليس فيه "تَعرُّضٌ لِنَفْيِ المساوي وإنكارِه، فإنَّ الاستعمالَ الفاشيَ في قولك: مَنْ أفضلُ من زيدٍ؟ أو لا أكرمَ منه؛ على أنَّه أفضلُ من كلِّ فاضلٍ، وأكرمُ من كلِّ كريم"[3]، فَدَلَّ على غاية الظُّلم، حيث لا ظلمَ أعلى منه، ولا ظلمَ بعده، وفي ذلك مبالغةٌ في وصفهم بالظُّلم.

المفتري على اللهِ، أظلمُ من كلِّ ظالمٍ

سرُّ إيثارِ الظُّلم ليكونَ محورَ الاستفهامِ في الآية:

آثر النَّظْمُ الكريمُ الظُّلم؛ لأنَّه تعدٍّ على حقِّ الله تعالى في الوحي،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/374، وينظر: أبو حيّان، البحر المحيط: 4/585، والشّهاب، عناية القاضي: 4/95.

(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2591.

(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/163.

وادِّعاءُ ما ليس بحقٍّ، فالنُّبوَّةُ محدودة بإرادة الله تعالى ومشيئته، ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥۗ﴾، فمن ادَّعى الوحيَ والنُّبوَّةَ، أو قال: سأُنْزِلُ مثلَ وحيِ الله تعالى، فقد نَسَبَ الشَّيءَ إلى غيرِ صاحبه، وهذا ظلمٌ؛ إذ قد جاوز الحدَّ فصارَ ظالمًا، وعَدَلَ عن أن يقول: (ومَنْ أَجْرَمُ)، أو: (ومَنْ أَكْذَبُ)؛ لأنَّه لا يريد أن يبيِّنَ درجاتِ الكذب، فالسِّياقُ ليس في الكذبِ على وَجْهِ العموم، بل في الكذب في شأنِ الوحي، كادِّعاء الوحي، أو كذبَ على الله تعالى، وهذا معلومٌ أنَّه أكذبُ الكذب، فالسِّياق في بيان أنَّ الكذبَ على الله تعالى ظلمٌ، بل لا ظلمَ بعده.

ادِّعاءُ الوحيِ دونَ وحيٍ هو أشدُّ الظُّلمِ والغُرورِ

دلالةُ الموصولِ (مَن) في قوله: ﴿مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾:

عبَّرَ بالموصول (مَن) في قوله تعالى: ﴿مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ﴾، وهذا الموصولُ دالٌّ على العموم، وجاء به هنا للدَّلالة على أنَّ الحكمَ المذكورَ في الآية عامٌّ، يشمل كلَّ منِ افترى أو قال تلك المقولاتِ، وليس "المرادُ فردًا معيَّنًا، فالَّذين افتروا على الله كذبًا، هم المشركون؛ لأنَّهم حلَّلوا وحرَّموا بهواهم، وزعموا أنَّ الله أمرهم بذلك، وأثبتوا لله شُفعاءَ عنده كذبًا"[1]، فلذا لم يقل: (ومن أظلم من الَّذي افترى)؛ لأنَّهُ ليس مقصورًا على قومٍ معهودينَ.

الدَّلالةُ على أنَّ الحكمَ عامٌّ، وليس مقصورًا على قومٍ معهودينَ

العدولُ عن لفظِ الكذبِ إلى لفظِ الافتراءِ:

الكذب إخبارٌ بخلاف الحقيقةِ، وليس مطابقًا للواقع، أمَّا الافتراءُ فهو اختلاقُ حدثٍ ليس موجودًا، فهو أشدُّ من الكذب، فالكذب يدلُّ على التَّغيير، أي: تغييرُ الحقائقِ والإخبارُ عنها بخلافِ ما هي عليه، ولكن هي موجودةٌ، وإن كانت بصورةٍ مخالفةٍ للإخبارِ، أمَّا الافتراءُ فليس له واقعٌ ولا حقيقة، إذ هو ليس تغييرًا، بل اختلاقٌ وإيجادُ واقعٍ مزيَّف، فكان أَخَصَّ من الكذب وأشدَّ منه، وهو الأنسب

الافتراءُ أشدُّ من الكذبِ؛ لأنَّهُ اختلاقٌ لواقعٍ ليس موجودًا

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/374 - 375.

للتَّعبير عن ادِّعاء الوحي، إذ هو اختلاقُ واقعٍ ليس موجودًا، وليس هو تغييرٌ لواقعٍ موجودٍ.

نُكتةُ التَّصريحِ باسمِ الجلالةِ في قوله: ﴿ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾:

في قوله تعالى: ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾، صرَّح بلفظ الجلالة في سياق الحديث عن الكذبِ عليه ﷺ؛ تنبيهًا على عِظَم هذا الجُرْم، وإعلامًا بشدَّة قباحته، فإنَّه كذبٌ على الجليلِ العظيم، فَصَرَّحَ بِعَلَمِ الجَلالةِ إظهارًا لعظمةِ جِنايتِهم.

الافتراءُ على اللهِ من أعظمِ الجُرْمِ، وأقبحِ الإثمِ

فائدةُ تنكيرِ لفظِ ﴿كَذِبًا﴾ من قوله تعالى: ﴿ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾:

آثَرَ النَّظمُ القرآنيُّ التَّعبيرَ بصيغةِ التَّنكيرِ في قوله تعالى: ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾، للدَّلالة على عِظَمِ الكذبِ على اللّٰه تعالى، فإنَّ أيَّ شيءٍ يَصْدُقُ عليه أنَّه كذبٌ على اللّٰهِ تعالى؛ فإنَّهُ محكومٌ عليه بالظُّلْمِ، وعاقبتُهُ تؤولُ إلى الخَسارِ.

قليلُ الكذبِ على اللهِ تعالى كالكثيرِ، فلا تَساهُلَ فيهِ البتَّةَ

نكتةُ التَّصريحِ بالكذبِ والافْتِراءِ دالٌّ عليه في قولهِ: ﴿ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾:

الافتراءُ يدلُّ على الكذب ضِمنًا؛ لأنَّ معناه اختلاقُ الكذب، "لكن صَرَّح بالكذبِ، لبيانِ شدَّةِ افترائِهم واختلاقِهم وكلامِهم الباطل الَّذي ليس له أصلٌ من الحقِّ أو الحقيقة"[1]، فالتَّعبير بلفظَيْنِ دالَّيْنِ على الكذب فيه تأكيدٌ وبيانٌ لشدَّة كذبهم.

ذكرُ لفظَيِ الكذبِ والافتراءِ، يؤكِّدُ بشاعَةَ زورِهِمْ وشَناعَتَهُ

بلاغةُ عطفِ جملةِ: ﴿أَوۡ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ﴾ على جملةِ: ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ﴾:

قوله جلَّ شأنه: ﴿أَوۡ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ﴾ معطوفٌ على قولهِ تعالى: ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾؛ للدَّلالةِ على استقصاءِ مَن يكذبون على اللّٰهِ تعالى، "أي: كلُّ من ادَّعى النُّبوَّةَ كَذِبًا"[2]، فكلُّ أولئك مشترِكون في صفة الظُّلم.

ادِّعاءُ الوحي والافتراءُ على الله تعالى منَ الجرائم البَشِعَةِ

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2592.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/375.

سرُّ التَّعبير بفعل القولِ في قوله تعالى: ﴿أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ﴾:

نقْلُ مقولتِهم بنصِّها أمانةٌ مَرْعِيَّةٌ

في قوله تعالى: ﴿أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ﴾، عبَّرَ بفعلِ القول للدَّلالة على أنَّه حكى مقولَتَهم بلفظِها ونصِّها، والنَّصُّ هنا ممَّا يُطلب نقله بلفظه؛ لأنَّه موضعُ بيان الكذب على اللّه تعالى.

دلالةُ بناءِ الفعلين للمفعولِ في قوله: ﴿قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ﴾:

اختصاصُ الوحي باللّه تعالى، يُراعى فيه الإيجازُ بحذفِ الفاعلِ

في قوله تعالى: ﴿أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ﴾ بنى الفعلَ للمجهولِ تعويلًا على شهرةِ الفاعل؛ إذ الوحيُ مختصٌّ باللّه تعالى، فَحَذَفَهُ إيجازًا في اللَّفظ؛ ولأنَّ المرادَ الاهتمامُ بالإيحاءِ نفسه، لا بكونه من معيَّن. وفي قوله تعالى: ﴿وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ﴾، جاء الفعلُ مبنيًّا للمفعول، ولم يصرَّح بالفاعل، فلم يقل: (ولمْ يُوحِ اللّهُ إليه)؛ إجراءً له على صيغةِ الفعلِ المذكورِ قبلَهُ في قوله: ﴿أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ﴾، وتعويلًا على معرفة الفاعلِ وشهرتِهِ، وذلك في منتهى الدِّقَّة البيانيَّة، إذْ إنَّ السِّياق يتمدَّد حينًا بذكر بعض عناصرِ بناءِ الجملة مُظْهَرَةً غيرَ مُضْمَرَةٍ، ويتقلَّص حينًا آخر بالحذفِ أو الإضمار، ولا يُذكر فيه إلَّا ما لابدَّ من ذِكْرِهِ، ممَّا يقتضيه البناءُ الجُمْلِيُّ، وعلى ذلك يعمل الذِّهن على تقدير المحذوفاتِ، وتصوُّر الألفاظِ الممكنِ تصوُّرُها من المضمَرات أو المحذوفاتِ، ممَّا يحتملُه السِّياق، وتدلُّ عليه القرائنُ، وتسمحُ بهِ قواعد النَّحو وقوانينُ اللَّغة.

علَّةُ تقييدِ الجملةِ بالحالِ في قوله: ﴿قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ﴾:

من صدقَ في دعواهُ نُزولَ الوحيِ عليهِ، استُثْنِيَ منَ الحُكْمِ الآنفِ

عبَّر بالجملة الحاليَّة؛ للدَّلالة على حال القائل في قوله تعالى: ﴿قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ﴾، أي: ادَّعى ذلك في حالة خلوِّه منه، أي: "غيرَ موحًى إليهِ؛ لأنَّ من قال: أوحيَ إليَّ، وهو موحًى إليه

هو صادقٌ"[1]، فهو حالٌ لازمٌ وليس مفارقًا وجبَ ذكرُه؛ لأنَّ المعنى سيكون مناقضًا لصدق الأنبياء، وهم يجبُ في حقِّهم الصِّدق، وينتفي الكذبُ، لا في بلاغهم فحسب، ولكن حتَّى في حياتهم العاديَّة حتّى لا يكونَ كذبُهم في الحياة ذريعةً للطَّعنِ في أمانتِهم وصدقِهم في البلاغِ، وهذا في غايةِ الوضوحِ والإفصاحِ.

التَّعريضُ بالمكذِّبين بقوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾:

سياقُ القرآنِ مقنعٌ في إبطالِ دعوى تكذيبِهم إنزالَ الكتابِ

عرَّض النَّظمُ بالَّذين كذَّبوا إنزالَ اللّٰه تعالى الوحيَ بقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ إشارةً إلى "إبطالِ ما اختَلَقَهُ المشركون من الشَّرائع الضَّالَّةِ، في أحوالهم التي شَرَعَها لهم عَمرو بن لُحَيٍّ من عبادة الأصنامِ، وزعمهم أنَّهم شفعاءُ لهم عند اللّٰه، وما يستتبعُ ذلك من البَحيرَةِ والسَّائبةِ، وما لم يُذكرِ اسمُ اللّٰه عليه من الذَّبائح وغير ذلك. فهم ينفون الرِّسالةَ تارةً، في حين أنَّهم يزعمون أنَّ اللّٰه أمرهم بأشياء، فكيف بَلَغَهم ما أمرَهم اللّٰه به في زعمِهم؟ وهم قد قالوا: ﴿مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍۗ﴾، فَلَزِمَهم أنَّهم قد كذبُوا على اللّٰه فيما زعموا أنَّ اللّٰهَ أمرهم بهِ؛ لأنَّهم عطَّلوا طريق وصولِ مرادِ اللّٰه إلى خلقهِ، وهو طريق الرِّسالة، فجاؤوا بأعجبِ مقالةٍ"[2].

دلالةُ عطفِ جملةِ: ﴿وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ﴾ على ما قبلَها:

ادِّعاءُ الوحيِ والزَّعمُ بالقدرةِ على إنزالِ الوحيِ، كلاهما أشدُّ الظُّلم

قولُه جلَّ شأنُه: ﴿وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُۗ﴾ معطوفٌ على الموصولِ المجرورِ ﴿مِمَّنِ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ فـ ﴿وَمَن قَالَ﴾: "مجرورُ المحلِّ؛ لأنَّه نَسَقٌ على (مَنْ) المجرور بـ (مِنْ)، أي: وممَّن قال"[3]، فالعطفُ لتشريكِ هذا الفعلِ

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/585.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/373.
(3) السّمين، الدّرّ المصون: 5/40.

بوصفه بأنَّه نهايةُ الظُّلم، فلا ظلمَ بعده، "أي: ولا أحدَ أظلمُ أيضًا مِمَّن قال: بأنِّي قادرٌ على أن أُنْزِلَ قرآنًا، مثل الَّذي أنزله اللّه"[1].

دلالةُ الموصولِ في قوله: ﴿وَمَن﴾:

الدَّلالةُ على عمومِ الحكمِ وشمولِهِ لكلِّ زمنٍ

عبَّر بالموصول ﴿وَمَن﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ﴾، الدَّالِّ على "العموم، ليشملَ كلَّ من صدرَ منه هذا القولُ، ومَن يتابعهم عليه في المستقبلِ"[2]؛ فلذا لم يقلْ: (والَّذي قال)؛ لأنَّ القول المذموم ليس مختصًّا بقومٍ بأعيانهم.

عِلَّةُ تَكرارِ الموصولِ (مَن) في الآيةِ الكريمةِ:

دلالةُ استحقاقِ الظُّلمِ بارتكابِ واحدةٍ من المذكوراتِ في السِّياق

كرَّر الموصولَ ﴿وَمَن﴾ في قولهِ تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾، دلالةً على اختلافهم؛ لأنَّ "إعادةَ (مَن) تدلُّ على تغايُرِ مدلولِه لمدلولِ (مَن) المتقدِّمة، فالَّذي قال: ﴿سَأُنزِلُ﴾ غيرُ مَنِ افترى أو قال: ﴿أُوحِيَ إِلَيَّ﴾"[3]، وذلك يدلُّ على أنَّ الحكمَ بكونهِ أظلمَ النَّاس، لا يقتضي أن يأتي بالصِّفات المذكورة كلِّها، بل يكفي أن يأتيَ بواحدةٍ منها، ليكونَ جديرًا بذلك الجُرمِ.

سرُّ تَكرارِ فعلِ القولِ في الجملتينِ الكريمتَينِ:

الدَّلالةُ على استقلالِ كلِّ مقولةٍ بالذَّمِّ

في قوله جلَّ شأنُه: ﴿أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾، تكرَّر لفظُ القولِ للدَّلالةِ على استقلالِ المقولتين بالذَّمِّ، فهما ليستا مقولةً واحدةً، فاستحقَّ كلُّ قول منهما أن يجريَ عليه الذَّمُّ على وجهِ الانفرادِ.

فائدةُ السِّين في قوله: ﴿سَأُنزِلُ﴾، وإيثارُ التَّعبيرِ بفعلِ الإنزالِ:

إجراءُ الوعدِ بإنزالِ الكتابِ مجرى الواعدِ النَّاجزِ المؤكَّد

دلَّتِ السِّين في قوله جلَّ شأنه: ﴿سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾، على

(1) سيّد طنطاوي، التّفسير الوسيط: 5/130.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/376.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/585.

تأكيدِ الوعد، "أي: بوعدٍ لا خُلْفَ فيه"[1]، والتَّعبير بفعل الإنزال طلبًا منهم لمحاكاة إنزالِ الوحي منَ الله تعالى وتشبُّهًا بذلك.

معنى ﴿مَآ﴾ في قوله: ﴿مِثۡلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُۗ﴾ وفائدتُها:

"وقولُه: ﴿مِثۡلَ﴾ يجوز فيه وجهان، **أحدهما**: أنَّه منصوبٌ على المفعولِ به، أي: سأنزلُ قرآنًا مثلَ ما أنزل الله، و﴿مَآ﴾ على هذا موصولةٌ اسميَّة، أو نكرة موصوفة، أي: مثل الَّذي أنزلَهُ أو مثل شيءٍ أنزلَهُ. **والثَّاني**: أن يكونَ نعتًا لمصدرٍ محذوفٍ، تقديره: سأنزلُ إنزالًا مثلَ ما أنزل الله، و﴿مَآ﴾ على هذا مصدريَّة، أي: مثل إنزالِ الله"[2].

والرَّاجحُ أنَّها موصولةٌ؛ لأنَّ القولَ بمصدريَّتها، يدلُّ على أنَّ المماثلة المزعومةَ تكونُ في الإنزال، وإنزالُ الله تعالى الوحي، ليس في وسع أحدٍ، حتَّى يدَّعي مماثلَتَه؛ إذ رأوا علاماتِه على النَّبيِّ ﷺ، من تصبُّبِ العرقِ والثِّقل وغيره. وأيضًا القولُ بكونها مصدريَّةً يُحْوِجُ إلى تَقديرِ محذوفٍ، وعدمُ التَّقديرِ أولى، وعليه فهي موصولةٌ، والمراد أنَّ قائل ذلك وَعَدَ مدَّعيًا قدرتَهُ على المجيء بكتابٍ مثلِ القرآن.

من ادَّعى الإتيانَ بمثلِ القرآنِ؛ كذَّبَتْهُ شواهدُ الامتحانِ

السِّرُّ في ترتيبِ المذكوراتِ في الآية الكريمة:

ذكر اللهُ تعالى ثلاثة أعمالٍ في قوله تعالى: ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوۡ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمۡ يُوحَ إِلَيۡهِ شَيۡءٞ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثۡلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُۗ﴾، فجاءتْ بترتيبٍ متدرِّج، وقد بيَّن (في البحر المحيط) ذلك بما مفادُهُ: أنَّه قد بدأ أوَّلًا بالعامِّ، وهو افتراءُ الكذب على الله، وهو أعمُّ من أن يكونَ ذلك الافتراءُ بادِّعاء وحيٍ أو غيره، ثمَّ ثانيًا بالخاصِّ، وهو افتراءٌ منسوب إلى وحيٍ من الله تعالى، ثمَّ ثالثًا بأخصَّ ممَّا قبله؛ لأنَّ الوحيَ قد يكون بإنزال قرآنٍ وبغيره[3].

ترتيبُ المذكوراتِ من الأعمِّ إلى الأخصِّ من بلاغةِ السِّياق

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/190.
(2) السّمين، الدّرّ المصون: 5/41.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/585.

وجهُ التَّعبيرِ بقولِهِ: ﴿سَأُنزِلُ مِثۡلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُۗ﴾:

تصريحُ هذا الكاذبِ بأنَّه سَيُنْزِلُ: ﴿مِثۡلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُۗ﴾، يقتضي أنَّه يؤمن بأنَّ اللّٰه تعالى أنزل شيئًا، وهذا مناقضٌ لما زعموه كما جاء في صَدْرِ الآيةِ؛ إذ إنَّهم نَفَوا أن يكون اللّٰهُ تعالى قد أنزل شيئًا، والجوابُ عنه أنَّ قوله "﴿مِثۡلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُۗ﴾ ليس معتقدَه أنَّ اللّٰه أنزل شيئًا، وإنَّما المعنى مثل ما أنزل اللّٰه على زعمكم"[1]، فقولهم ذلك ليس إيمانًا، بل قالوه على سبيل الاحتجاج.

دعوى الإنزالِ، كانت لمحاججةِ المؤمنين، وليس إيمانًا بنزول الوحي

بلاغةُ العطفِ في قولِهِ تعالى: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي غَمَرَٰتِ ٱلۡمَوۡتِ﴾:

قولُه جلَّ شأنُه: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾، معطوفٌ على الجملةِ في صدر الآية: ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ الَّتي تفيدُ "التَّخويفَ العظيم، على سبيل الإجمال، وقوله بعد ذلك: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي غَمَرَٰتِ ٱلۡمَوۡتِ﴾، كالتَّفصيلِ لذلك المجمَل"[2]، فالجملةُ الثَّانية تضمَّنتْ تفصيلَ الجزاء الذي استحقُّوه؛ لأنَّها "وعيدٌ بعقابٍ لأولئك الظَّالمين المفترين على اللّٰه والقائلينَ: (أوحي إلينا)، والقائلين: ﴿سَأُنزِلُ مِثۡلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُۗ﴾؛ فالظَّالمون في قوله: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي غَمَرَٰتِ ٱلۡمَوۡتِ﴾، يشمل أولئك، ويشملُ جميعَ الظَّالمين المشركين"[3].

وصفُ المفترينَ على اللهِ الكذبَ، والتَّفصيلُ في جزائِهم بعد الإجمالِ

دلالةُ ﴿وَلَوۡ﴾ الشَّرطيَّة في قوله: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي غَمَرَٰتِ ٱلۡمَوۡتِ﴾:

في قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي غَمَرَٰتِ ٱلۡمَوۡتِ﴾، عبَّر بـ ﴿وَلَوۡ﴾ الشَّرطيَّة "والمقصود من هذا الشَّرط تهويلُ هذا الحال"[4]، وهو ما يلاقونه أثناءَ الوفاةِ، فلو عبَّر بأسلوب الإخبار عن شدَّة الهولِ، لما كان له هذا الوقعُ من التَّهويل، لا سيَّما وأنَّ جواب الشَّرط محذوفٌ كما سيأتي بيانه.

ما يلاقيه الظَّالمون أثناءَ الوفاةِ من أعظمِ الامتحانات

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/585.
(2) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 13/67، وينظر: البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/190.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/376.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/377.

سرُّ الخطابِ بالمفردِ في قوله: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي غَمَرَٰتِ ٱلۡمَوۡتِ﴾:

الخطابُ بالمفردِ للدَّلالةِ على كلِّ من يرى زيادةً في تهويلِ ما يلاقونه

"الخطابُ في لفظ ﴿تَرَىٰٓ﴾ للرَّسول ﷺ، أو كلِّ من تتأتَّى منه الرُّؤية، فلا يختصُّ بهِ مخاطَبٌ"[1]، والعموم هو الأرجح؛ لأنَّ رؤيتَهم في تلك الحالِ ليس ممَّا يختصُّ به ﷺ.

دلالةُ الرُّؤيةِ في قوله: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي غَمَرَٰتِ ٱلۡمَوۡتِ﴾:

يدلُّ الفعلُ على الرُّؤيةِ العِلميَّةِ، وهو يتعلَّقُ بحالةِ الوفاةِ والنَّزعِ

فهل الرُّؤية في قوله جلَّ ذكره: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ هي من الرُّؤيةِ العلميَّةِ "بمعنى: رأيتَ؛ لعمله في الظَّرف الماضي"؟[2]، فلمَّا حكتِ الحالُ الماضيةُ بتسليط الرُّؤية على ﴿إِذِ﴾ الدَّالِّ على الماضي، دلَّ على أنَّها رؤيةٌ علميَّةٌ تتعلَّق بنزعِ أرواحهم حالَ الوفاةِ.

دلالةُ اللَّامِ في لفظِ: ﴿ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ من قوله: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾:

الاستغراقُ باللّام تعميمٌ للجزاءِ المرصودِ لكلِّ ظالمٍ كنودٍ

قوله جلَّ شأنُه: ﴿ٱلظَّٰلِمُونَ﴾، يحتمل أن تكون اللَّام للعهدِ وللجنس، فإذا أريد "الَّذين ذكرَهم منِ اليهودِ والمتَنَبِّئة، فتكون اللَّام للعهد، ويجوز أن تكونَ للجنسِ، فيدخل فيه هؤلاءِ لاشتماله"[3]، أي: إذا كانتِ للجنس، فهي تشملُ هؤلاء المذكورين وكُلَّ ظالمٍ في كلِّ زمانٍ، "واللَّام للجنس الدَّاخل فيه هؤلاءِ دخولًا أوليًّا"[4].

بلاغةُ وضعِ الظَّاهرِ موضعَ المضمَرِ في قوله: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾:

الجزاءُ عامٌّ لكلِّ ظالمٍ، وليسَ خاصًّا بالمذكورينَ

في قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾، وَضَعَ الظّاهِرَ مَوْضِعَ المُضْمَرِ، فلم يقل: (ولو ترى إذ هم في غمرات الموت)؛ تصريحًا بالصِّفةِ الَّتي نالوا بها ذلك الجزاء، "أي: لأجلِ مُطْلَقِ الظُّلم"[5]، فقد نالوه بسببِ ظلمِهم، كما أنَّ فيه تعميمًا لكلِّ ظالمٍ؛ إذ لو عبَّر بالضَّميرِ؛ لكانَ مضمونُ الآية خاصًّا بهم.

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/376.

(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/586.

(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/46، والنّسفيّ، مدارك التّنزيل: 1/522، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/585.

(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/190.

(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/190.

بلاغةُ الإيجازِ بحذفِ المفعولِ به في قوله: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾:

حذفَ المفعولَ به الَّذي يقتضيهِ الفعلُ ﴿تَرَىٰٓ﴾؛ اعتمادًا على "دِلالةِ الظَّرفِ عليه، أي: ولو ترى الظَّالمين؛ إذ هم ﴿فِي غَمَرَٰتِ ٱلۡمَوۡتِ﴾"[1]، طلبًا للإيجاز، وفي القرآن نظائرُ لذلك، "والرُّؤية بصريَّة، ومفعولها محذوف، أي: ولو تَرى الظَّالمين؛ إذ هم في غمراتِ الموتِ، وإذ: ظرفٌ لما مضى من الزَّمنِ متعلِّقٌ بـ ﴿تَرَىٰٓ﴾، والظَّالمون مبتدأٌ، وفي غمراتِ الموت: جارٌّ ومجرور، متعلِّقان بمحذوف خبر ﴿ٱلظَّٰلِمُونَ﴾، والجملةُ الاسميَّةُ في محلِّ جرٍّ بالإضافة"[2]، وتطلُّبُ الإيجازِ بالحذفِ من مقاصدِ البناءِ الأسلوبيِّ في القرآن الكريمِ وفي أساليبِ العربِ، وهو يُضفي على السِّياق جماليَّةً، ويقدح الذِّهن لفهمِ الدَّلالة وتذوُّق البيان.

دلالةُ الظَّرفِ على المحذوفِ، وتقديرهُ لجلاءِ المعْنى

فائدةُ تقييدِ الرُّؤيةِ بالوفاةِ:

في قوله: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي غَمَرَٰتِ ٱلۡمَوۡتِ﴾: قيَّدَ تعالى رؤيتَهم المذكورةَ في وقتِ وفاتِهم؛ "وتقييدُ الرُّؤية بهذا الوقت ليفيدَ أنَّه ليس المراد مجرَّد رؤيتهم، بل رؤيتُهم على حالٍ فظيعةٍ عند كلِّ ناظرٍ"[3]، فإنَّ المرادَ ليس مطلقَ الرُّؤيةِ.

الدَّلالةُ على أنَّ المرادَ ليس مطلَقَ رؤيتِهم، بل في حالِ الوفاةِ فقط

بلاغةُ التَّعبيرِ بـ (في) الظَّرفيَّةِ في قوله: ﴿فِي غَمَرَٰتِ ٱلۡمَوۡتِ﴾:

عبَّر بـ ﴿فِي﴾ الدَّالَّةِ على الظَّرفيَّة على شدَّة تمكُّن سكرات الموتِ منهم؛ فـ ﴿فِي﴾ هنا "للظَّرفيَّة المجازيَّة، للدَّلالة على شدَّة ملابسةِ الغَمَراتِ لهم، حتَّى كأنَّها ظرفٌ يحويهم، ويُحيطُ بهم"[4]، وفي ذلكَ دلالةٌ على تصويرِ حالةِ الوفاةِ، فكأنَّ الموتَ وغمراتِه كيانٌ محيطٌ بهم، ملابسٌ لهم أشدَّ الملابسةِ والتَّمكُّن، وكلُّ ذلك تهويلٌ لحالةِ وفاتهم، وخروجهم من الدُّنيا.

تهويلًا لشأنِ وفاتِهم عبَّرَ بـ (في) الظَّرفيَّةِ المجازيَّةِ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/163، وينظر: البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 2/173.
(2) محيي الدّين درويش، إعراب القرآن وبيانه: 3/171.
(3) الشهاب، عناية القاضي: 4/96.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 7/377.

بلاغةُ الاستعارةِ في قوله: ﴿فِي غَمَرَٰتِ ٱلۡمَوۡتِ﴾:

استعارَ الغَمْرةَ الدَّالَّةَ عَلى كُرباتِ الموتِ وشدَّتِه على النَّفسِ

وفي قوله جلَّ شأنه: ﴿فِي غَمَرَٰتِ ٱلۡمَوۡتِ﴾، استعارَ الغمرةَ للشِّدَّة؛ "تشبيهًا بالشِّدَّةِ الحاصلةِ للغريق حين يَغمرُهُ الوادي أو السَّيل"[1]، فالغمراتُ هي شدائدُ الموتِ الَّتي تغشاهُ، كما يغشى الماءُ الغريقَ؛ لأنَّ "أصلَ الغمرةِ: ما يَغمر من الماء، فاستُعيرتْ للشِّدَّةِ الغالبة"[2]، حيثُ شبَّهَ ما يلاقونه من شدائدِ سكراتِ الموتِ، بما يلاقيهِ الغريقُ في لحظات غرقه من أهوالٍ وشدائدَ، فغمراتُ الموتِ "شدائدُهُ الَّتي قد غمرَتْهم، كما يغمرُ البحر الخِضَمُّ مَن يغرق فيه، فهو يرفعُه ويخفضُه، ويبتلعُه ويلفظُه"[3].

علَّةُ التَّعبيرِ بصيغةِ الجمعِ في قوله: ﴿فِي غَمَرَٰتِ ٱلۡمَوۡتِ﴾:

سكراتُ الموتِ جمعٌ، فجمعَ الغمراتِ لتتناسبَ الصِّيغتانِ

عبَّرَ عنِ الغَمَراتِ بصيغةِ الجمع لتعدُّدِها، وللمبالغة فيها، وفي بيان علَّة ذلك جاءَ في التَّحرير والتَّنوير: "وجَمْعُ الغمراتِ يجوزُ أن يكونَ لتعدُّدِ الغمرات بعدد الظَّالمين، فتكون صيغة الجمعِ مستعملةً في حقيقتها، ويجوزُ أن يكون لقصد المبالغة في تهويل ما يُصيبهم، بأنَّهُ أصنافٌ من الشَّدائد، وهي لتعدُّد أشكالِها وأحوالها لا يعبَّر عنها باسم مفردٍ، فيجوز أن يكونَ هذا وعيدًا، بعذابٍ يلقونه في الدُّنيا في وقت النَّزع، ولمّا كان للموت سكراتٌ، جُعلت غمرةُ الموت غَمَراتٍ"[4].

إيثارُ التَّعبيرِ بـ ﴿غَمَرَٰتِ ٱلۡمَوۡتِ﴾، دونَ (سكرات الموت):

الظَّالمون جزاؤهم أن تكونَ سكراتُهم عندَ موتِهم أشدَّ

في قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي غَمَرَٰتِ ٱلۡمَوۡتِ﴾، آثرَ التَّعبيرَ عن سكرات الموت بالغمراتِ؛ لأنَّ الغمراتِ "أشدُّ من سكرات الموت"[5]؛ وإنَّما آثر التَّعبيرَ بما يعبِّر عن شدَّة السَّكرات في

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/377.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/46.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/190، وينظر: الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 8/488.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/377.
(5) الآلوسّي، روح المعاني: 4/212.

هذا الموضعِ؛ لأنَّه في سياق الظَّالمين، فغلَّظ عليهم الغمراتِ جزاءً وفاقًا لهم.

بلاغةُ حذفِ جوابِ الشَّرطِ في قوله: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾:

الشَّرطُ في مقام التَّهويلِ، يناسبهُ حَذْفُ الجوابِ إيغالًا في التَّهويلِ

(لو) الشَّرطيَّة تقتضي جوابًا، وقد جاءت في الآية محذوفةَ الجوابِ، والتَّقديرُ: "لرأيتَ أمرًا عظيمًا، ولرأيتَ عجبًا، وحذفهُ أبلغُ من ذكرهِ"[1]، وإنَّما كان حَذْفُه أبلَغَ من ذكرهِ "لأنَّ السَّامع إذا لم يُنَصَّ لهُ الجوابُ يُتْرَكُ مع غاية تخيُّله"[2]، فَعَدَمُ الإجابةِ عن شرط (لو) يحثُّ السَّامعَ على التَّوقُّعِ ووضْعِ جوابٍ من نفسه لهذا الشَّرطِ، والمدى متَّسعٌ لكلِّ ما يكون جزاءً، وهذا غايةُ التَّهويلِ.

أثرُ جملةِ الحالِ في المعنى في قوله: ﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓاْ أَيۡدِيهِمۡ﴾:

تصويرُ الملائكةِ حالَ مدِّ أيديهم لقبضِ أرواحِ الظَّالمين

قوله: ﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓاْ أَيۡدِيهِمۡ﴾، "جملةٌ في محلِّ نصبٍ على الحال"[3]، أي: والملائكةُ مادُّون أيديَهم إلى المشركين، لِيَقْبِضوا عليهم، ويَدفعوهُم إلى الحسابِ، إذا كان المرادُ بذلك يومَ القيامة، أو ليقبضوا أرواحَهم إذا كان المرادُ ساعةَ الوفاة، فيكونُ بسطُ الأيدي حقيقةً، بأن تتشكَّلَ الملائكةُ لهم في أشكالٍ في صورةِ الآدميِّين[4].

بلاغةُ التَّعبيرِ عن شدَّةِ الموتِ ببسطِ الأيدي في الآيةِ:

تصويرُ شدَّةِ الموتِ وانتزاعِ الأرواحِ ببسطِ اليدين

عبَّر عن شدَّةِ قبضِ أرواحِهم وعُنْفِهم حالَ النَّزعِ ببسْطِ اليدين كنايةً عن العنف، "لا أنَّ ثمَّة تُبسطُ الأيدي"[5]، فبسْطُ اليدِ في هذا السِّياق كنايةٌ عن مدِّها بالمكروهِ، وهو أوائلُ عذابٍ وأَماراتهُ، وليس هو البسطُ لمجرَّدِ قبضِ النَّفسِ؛ فإنَّهُ يشترك فيه المؤمنُ والكافرُ[6].

---

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/586، وينظر: الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/46، والشّهاب، عناية القاضي: 4/96، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2594.

(2) ابن عطيّة، المحرر الوجيز: 2/323.

(3) السّمين، الدّر المصون: 5/42.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/378 - 379.

(5) الطّيبي، فتوح الغيب: 6/165.

(6) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/323.

أو هو مجازٌ للتَّمثيل عن شدَّة السَّكرات، فالملائكة يقبضون "أرواحَهم كالمتقاضي الملظِّ المُلِحِّ يبسُط يدَه إلى مَن عليه الحقُّ، ويعنِّفُ عليه في المطالبة من غير إمهالٍ وتنفيسٍ"[1].

دلالةُ الأمرِ على أغراضٍ مجازيَّةٍ في قوله: ﴿أَخۡرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُۖ﴾:

شدَّةُ العذابِ بالتَّشديدِ في إزهاقِ الرُّوحِ من غيرِ تنفيسٍ ولا إمهالٍ

دلَّ الأمرُ بالإخراجِ على أغراضٍ مجازيَّةٍ، فهو ليس أَمْرًا للوجوب الحقيقيِّ؛ إذ ليس في مقدورهم أن يفعلوا ذلك، فعُلِم أنَّ الأمرَ بذلك "عبارةٌ عن العنف في السِّياق، والإلحاحِ والتَّشديدِ في الإرهاق من غير تنفيسٍ وإمهالٍ، وأنَّهم يفعلون بهم فِعْلَ الغريمِ المُسَلَّط يبسط يدَهُ إلى مَن عليه الحقُّ، ويُعنِّفُ عليه في المطالبة، ولا يُمهِلُهُ، ويقول له: أَخْرِجْ إليَّ ما لي عليك السَّاعة"[2].

وقد جمعَ الفخرُ الرَّازيُّ وجوهَ دلالةِ الأمر بإخراج أنفسهم، فقالَ ما موجزه: في الآية سؤالٌ: وهو أنَّه لا قدرةَ لهم على إخراجِ أرواحِهم من أجسادهم، فما الفائدةُ في هذا الكلام؟ فنقول: في تفسيرِ هذه الكلمة وجوهٌ: إنَّها عبارةٌ عن العنفِ والتَّشديد في إزهاق الرُّوح، من غير تنفيسٍ وإمهالٍ، وأنَّهم يفعلون بهم فعلَ الغريمِ الملازم الملحِّ، يبسط يدُه إلى مَن عليهِ الحقُّ، ويُعَنِّفُ عليه في المطالبة، ولا يُمهِلُهُ، ويقول له: أَخْرِجْ إليَّ ما لي عليك السَّاعة، ولا أبرحُ من مكاني حتَّى أَنْزِعَهُ من أَحْداقِك. أو هي كناية عن شدَّة حالهم، وأنَّهم بلغوا في البلاء والشِّدَّة، إلى حيثُ تولَّى بنفسِه إزهاقَ روحه. أو وَعيدٌ وتَقْريعٌ، كقول القائلِ: امضِ الآنَ لترى ما يحلُّ بكَ[3].

دلالةُ الإخراجِ بين الحقيقةِ والمجازِ في قولهِ: ﴿أَخۡرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُۖ﴾:

يصلحُ الأمرُ بإخراجِ أنفُسِهم على الحقيقةِ، أو المجازِ بمعنى الإنقاذِ

في قوله تعالى: ﴿أَخۡرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُۖ﴾، يجوزُ في الإخراجِ أن يُرادَ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/163، والشّهاب، عناية القاضي: 4/96.

(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/46.

(3) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 13/68، وينظر: ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/323، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/586، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 7/191 13/68، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2593.

به المجازُ، أي: أَنْقِذوا أنفسَكم، فهو "مجازٌ في الإنقاذِ والإنجاء؛ لأنَّ هذا الحالَ قبلَ دخولِهم النَّارَ، ويجوزُ إبقاءُ الإخراجِ على حقيقتِهِ، إن كان هذا الحالُ واقعًا في حين دخولِهم النَّارَ"[1].

بلاغةُ الإيجازِ بحذفِ القولِ في قوله: ﴿أَخْرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُۖ﴾:

قولُه تعالى: ﴿أَخْرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُۖ﴾ فيه إيجازٌ بالحذفِ؛ إذِ الجملةُ "مقولٌ لقولٍ محذوف، وحذف القول في مثله شائعٌ"[2]، والتَّقدير: نقول لهم: أَخْرِجوا أنفسَكم، إذا كان القائلُ هو اللّٰهَ تعالى، وإذا كان القائلُ هم الملائكةَ، فالتَّقديرُ: يقولون أخرجوا أنفسَكم، "بالقول أو بلسانِ الحال"[3].

حذفُ القولِ تَعْجيلٌ لسوقِ المقولِ وزيادةٌ في التَّغليظِ

بلاغةُ الاستئنافِ في قولِهِ: ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ﴾:

قوله جلَّ شأنُه: ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ﴾، استئنافٌ لذِكْرِ مزيدٍ من الوعيد، فآثَرَ الفصلَ على العطف اهتمامًا بِسَوْقِ العذابِ المهينِ على وجه الاستقلالِ[4]، والمرادُ منهُ التَّأكيدُ على سوء مُنْقَلَبِهم؛ إذ جمعَ "بين الإيلامِ وبينَ الإهانةِ، فإنَّ الثَّوابَ، شرطُهُ أن يكونَ منفعةً مقرونةً بالتَّعظيمِ، فكذلك العقابُ شرطُه أن يكون مضرَّةً مقرونةً بالإهانةِ"[5].

إخراجُ أنفسِهم جمْعٌ بينَ الإيلامِ والإهانَةِ

براعةُ التَّعبيرِ باليومِ دونَ السَّاعةِ في قولِهِ: ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ﴾:

يدلُّ الأمرُ - وإن كان مجازيًّا - على الإخراجِ في الحال، فكان يناسبُهُ أن يقولَ: (الآن تجزون عذاب الهون)؛ وإنَّما عدلَ إلى ذكرِ اليوم دون السَّاعة "كأنَّهم عبَّروا به لتصوير طولِ العذاب"[6]، والمعنى: "﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ﴾، أي: وقتَ الإماتةِ، وما يعذَّبون به من شدَّةِ

التَّعبيرُ عن زمانِ جزاءِ العذابِ إشعارٌ بطولِ العذابِ وشناعتِهِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/379.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/379.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2593.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/379.
(5) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 13/68 - 69.
(6) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/191.

الفزعِ، وقيل: الوقتُ الممتدُّ المتطاول الَّذي يلحقهم فيه العذابُ، في البرزخِ والقيامةِ"[1].

دلالةُ التَّعريفِ (ال) في قوله: ﴿ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَوۡنَ﴾:

فائدةُ التَّعريفِ في قوله تعالى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَوۡنَ﴾ الدِّلالةُ على العهدِ، "وهو يومُ القيامةِ الَّذي فيه هذا القول، وإطلاقُ اليوم عليه مشهورٌ، فإنَّ حُمل الغمراتُ على النَّزع عند الموت؛ فاليوم مستعمل في الوقت، أي: وقتَ قبضِ أرواحهم"[2]، فالمرادُ من اليوم وقتٌ معروفٌ معهودٌ.

دلالةُ الظَّرفِ في قوله تعالى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَوۡنَ﴾:

نُصِبَ اليومُ على أنَّه ظرفٌ، لكنَّ المرادَ به "مطلقُ الزَّمان لا المتعارف، وهو إمَّا حين الإماتةِ أو ما يشمله وما بعدَهُ"[3]، فهو يَحْتَمِلُ أن يكونَ ظرفًا للعذابِ يوم القيامة، أو حال القبضِ في الدُّنيا، فقوله تعالى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَوۡنَ﴾، "يجوزُ أن يريدوا وقتَ الإماتةِ، وما يعذَّبون بهِ من شدَّة النَّزعِ، وأن يريدوا الوقت الممتدَّ المتطاوِلَ الَّذي يلحقُهم فيه العذابُ في البرزخِ والقيامة"[4].

نُكتةُ التَّعبيرِ بالجزاءِ في قوله: ﴿ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَوۡنَ عَذَابَ ٱلۡهُونِ﴾:

في قولهِ جلَّ شأنُه: ﴿ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَوۡنَ عَذَابَ ٱلۡهُونِ﴾ يدلُّ الجزاءُ على قيامِ الشَّيء مقامَ غيره، ومكافأتِه إيَّاه[5]، والتَّعبيرُ بالجزاءِ، لما فيهِ من دلالةٍ على المكافأةِ؛ إذ الجزاءُ ما فيهِ الكفايةُ من المقابلة، إن خيرًا فخيرٌ، وإن شرًّا فَشَرٌّ[6]، والمعنى: يعطون جزاءَ عملهم، وهو عِوضُ العمل، وما يقابلُ به من أجرٍ أو عقوبةٍ، قال تعالى: ﴿جَزَآءً وِفَاقًا ٢٦﴾ [النَّبأ: 26][7].

دلالةُ اليومِ على وقتِ القَبضِ، أو عَلى يومِ القيامَةِ

العذابُ واقعٌ حالَ الوفاةِ، أو يومَ القيامةِ بدلالةِ الظَّرفِ

عذابُ الهونِ هو الجزاءُ المكافئُ لعملِهم في الدُّنيا

(1) إبراهيم الأبياري، الموسوعة القرآنيّة: 9/448.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/379.
(3) الشّهاب، عناية القاضي: 4/97.
(4) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/46 - 47، وينظر: النّسفيّ، مدارك التّنزيل: 1/522.
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (جزي).
(6) الرّاغب، المفردات: (جزا).
(7) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/379.

سرُّ بناءِ ﴿تُجۡزَوۡنَ﴾ للمفعولِ في قوله: ﴿ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَوۡنَ عَذَابَ ٱلۡهُونِ﴾:

حذفُ الفاعلِ فيهِ إيجازٌ وتعجيلٌ بذكرِ سوءِ المصيرِ

في قولهِ تعالى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَوۡنَ عَذَابَ ٱلۡهُونِ﴾ بَنى فعلَ الجزاءِ للمفعولِ، ولم يَقُلْ: (يجزيكم اللّه)؛ اهتمامًا بالجزاءِ ذاتهِ، لا بالنَّظرِ لكونهِ من معيَّنٍ، وفي إيجازِ العبارةِ بحذفِ الفاعلِ تعجيلٌ بإبلاغهم بسوءِ مآلهم؛ فلا يفصل بينَ لفظِ الجزاءِ ولفظِ عذابِ الهونِ فاصلٌ.

نكتةُ إضافةِ العذابِ إلى الهوانِ في قوله: ﴿ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَوۡنَ عَذَابَ ٱلۡهُونِ﴾:

الإضافةُ تخصيصٌ لعذابهم بالهوانِ، وتأكيدٌ أنَّه ملازمٌ له

أضافَ العذابَ إلى الهوانِ الشَّديدِ؛ تأكيدًا للهوان "والهونُ: الهوانُ الشَّديد، وإضافةُ العذابِ إليه كقولك: (رجلُ سوءٍ)، يريد العراقةَ في الهوانِ والتَّمكُّنَ فيه"[1]، وبهذه الإضافةِ تحقَّق معنيان: "أي: العذابُ الجامعُ بينَ الإيلامِ العظيمِ، والهوانِ الشَّديدِ، والخزي المديدِ"[2]، كما دلَّت الإضافةُ على "أنَّ الهوانَ ملازمٌ للعذابِ، فقدِ استَكبَروا على الحقِّ، وقالوا غيرَ الحقِّ، فكانت العقوبةُ من جنس الجريمة"[3].

إيثارُ إضافةِ العذابِ إلى الهوانِ عَلى الوصفِ به:

المعنى المتحصِّلُ بالإضافةِ ألصقُ من المعنى المتحصِّلُ بالصِّفَةِ

آثر التَّعبيرُ إضافةَ العذابِ إلى الهونِ، دونَ أن يصفهُ بهِ؛ "لأنَّ نسبة الإضافة ألصقُ من نسبة الصِّفة بالموصوف"[4]، فقولنا: فلان رجلُ سُوءٍ، أدلُّ على اتِّصافه بالسُّوء من قولنا: فلانٌ رجلٌ سيِّئٌ؛ لأنَّ الإضافةَ تدلُّ على أنَّ الاسم صار مع المضافِ شيئًا واحدًا، فعذابُ الهونِ، ليس عذابًا متَّصفًا بأنَّه مهينٌ، بل هو الهونُ ذاتُه.

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/47، وينظر: أبو حيّان، البحر المحيط: 4/586، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/163، والشّهاب، عناية القاضي: 4/97.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/191.

(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2594.

(4) الطّيبي، فتوح الغيب: 6/167، وينظر: الشّهاب، عناية القاضي: 4/97.

إيثارُ التَّعبيرِ بـ ﴿ٱلْهُونِ﴾ دون الهوانِ في قوله: ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ﴾:

الهُونُ يدلُّ على شدَّة الهوانِ، فهو أخصُّ منه

عبَّر النظم الكريم والتّنزيل الحكيم بلفظ ﴿ٱلْهُونِ﴾ دون الهوانِ؛ لأنَّ الهُون هُو شدَّةُ الهوانِ[1]، فهو أخصُّ من الهوان، وذلك للدَّلالة على العذابِ الشَّديد[2]؛ والتَّعبيرُ بذلك أنسبُ في مقام التَّغليظ عليهم.

دلالةُ الباءِ في قوله: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ﴾:

بيانُ أنَّ العذابَ مسبَّبٌ عنِ المذكوراتِ بعدَ الباء

بعد أن ذكرَ تعالى أنَّ جزاءَهم، هو عذابُ الهونِ، أعقبَهُ بذكر السَّبب في ذلك، بالباء السَّببيَّةِ، فقال جلَّ شأنه: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ﴾. "أي: السَّببُ في العقابِ أمران جمع الله فيهما الظُّلمَ كلَّه"[3].

دلالةُ (ما) في قوله: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ﴾:

تهويلُ قولِهم وبَشاعَتُهُ، يدلُّ عليهِ السِّياقُ بجلاءٍ

(ما) في قوله تعالى: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ﴾ مصدريَّةٌ[4] للدَّلالةِ على تهويلِ قولِهم وبشاعَتِهِ؛ وذلك لما في (ما) من الإبهامِ، ويتضمَّنُ معنى التَّهويل والتَّفخيم، كما يشيرُ إلى تمكُّن القولِ منهم، فالقولُ مُتَعَلِّقٌ بكيانهم، والمعنى: أنَّهم بسببِ كيانهم على صفةِ القولِ الباطلِ استحقُّوا عذابَ الهُون، ولو كانت (ما) موصولةً؛ لكان المعنى: أنَّ ذاتَ القولِ هو سببُ ذلك الجزاء، وهذا لا يتضمَّنُ المبالغةَ، ولا شدَّةَ تمكُّن القول منهم.

دلالةُ التَّعبيرِ بـ (كان) والفعلِ المضارعِ في قوله: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ﴾:

بيانُ تعمُّدِهم قولَ الباطلِ وتجدُّدِ إصرارِهم عَليه

عبَّر بـ (كان) في قوله جلَّ شأنُه: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ﴾؛ للدَّلالة على تعمُّدهم قولَ الباطلِ، وإصرارِهم عليه سابقًا، وتجدُّدِهِ واستمرارِهم عليه، "أي: تجدِّدون القول دائمًا"[5]؛ لأنَّ التَّعبير بـ ﴿كُنتُمْ﴾، يدلُّ

(1) الزّمخشريّ، الكّشاف: 2/47.
(2) معاني القرآن وإعرابه للزّجاج: 2/272.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2594.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/586.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/191.

"على الاستمرار، والمضارع يدلُّ على تجدُّد القول آنًا بعد آنٍ"[1]، وفي ذلك بيانٌ لإصرارِهم على ذلك القول وعَراقَتِهم في الكفر.

نُكتةُ تضمينِ ﴿تَقُولُونَ﴾ معنى (تكْذبون) في الآيةِ الكريمةِ:

ضمَّنَ ﴿تَقُولُونَ﴾ معنى (تكذبون)، فعلَّق به قولَه: على اللّه، فَعُلِمَ أنَّ هذا القول كذبٌ على اللّهِ، كقولهِ تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ۝٤٤ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ۝٤٥ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ۝٤٦﴾ [الحاقّة: 44 - 46]، وبذلكَ يصحُّ تنزيلُ فعل (تقولون) منزلةَ اللّازمِ، فلا يقدَّر له مفعولٌ؛ لأنَّ المراد به أنَّهم يكذبون[2].

الـكـذبُ على البشرِ مذمومٌ، والـكـذبُ على الـلـهِ جُـزمُـه معلومٌ

سرُّ تعديةِ القولِ بحرفِ الجرِّ ﴿عَلَى﴾ في قوله: ﴿تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ﴾:

جاء فعلُ القولِ متعدِّيًا "بـ ﴿عَلَى﴾ لتضمُّنِه الافتراءَ"[3]، ولم يقل: (بِمَا كُنْتُمْ تَفْتَرُونَ عَلَى اللّهِ)، وليشملَ كلَّ قولٍ باطلٍ قالوه، (افتراءُ الكذبِ، وادِّعاء الوحي)، كما أنَّ فيه نصًّا على إعلان افترائِهم، ونشرِه بالقول.

عبَّرَ بالقولِ عنِ الافتراءِ ليشملَ كـلَّ أقاويلِهم الباطلةِ على اللهِ

السِّرُّ في إظهارِ لفظِ الجلالةِ دونَ الإضمارِ في قوله: ﴿تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ﴾:

إذا كان القولُ في قولهِ تعالى: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ﴾ صَادِرًا مِنْ جَانِبِ اللّهِ تَعَالَى، فَذِكْرُ اسْمِ الْجَلَالَةِ غرضه "الإظهارُ في مقام الإضمارِ، لقصد التَّهويل، والأصل: بما كنتُم تقولون عليَّ"[4]، فأظهر لفظَ الجلالةِ الدَّالَّ على العظمةِ والجلال، المتَّصفَ بالعظمة كلِّها[5] تهويلًا لقباحةِ ما قالوا.

تهويلُ قباحةِ ما قالوه إشارةٌ إلى الافتراءِ والكذبِ في صدرِ الآيةِ

إيثارُ التَّعبيرِ بـ ﴿غَيْرَ ٱلْحَقِّ﴾ دونَ (الباطل) في قولهِ: ﴿تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ﴾:

قوله جلَّ شأنُه: ﴿غَيْرَ ٱلْحَقِّ﴾، تعبيرٌ يشملُ كلَّ نوعٍ من الكفر[6]،

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2594.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/380.
(3) الشّهاب، عناية القاضي: 4/97.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/380.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/191.
(6) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/586.

التَّصريحُ بلفظِ غيرِ الحقِّ، يدلُّ على انتفاءِ الحقِّ عنهم

وهو أبلغُ من التَّعبير بالباطل صراحةً؛ لأنَّ ﴿غَيْرَ ٱلْحَقِّ﴾، يعني: "غيرَ القول المتمكِّن غايةَ التَّمكُّن في درجات الثَّباتِ، ولو قال بدله: باطلًا، لم يؤدِّ هذا المعنى، ولو قالَ: الباطلُ، لقصرَ عنِ المعنى أكثرَ"[1]، ويضافُ إلى ذلك أنَّ التَّصريحَ بلفظ الحقِّ مع نفيه عنهم يفيد النَّصَّ على انتفاء الحقِّ عنهم، ولو عبَّر بالباطلِ؛ لفاتَ التَّصريحَ بانتفاءِ الحقِّ عنهم المفيد تمكُّن الباطلِ منهم.

بلاغةُ العطفِ في قوله: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ﴾ ﴿وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ﴾:

عطفُ الاستكبارِ على قولِهم غيرِ الحقِّ سببٌ في عذابِ الهونِ

قولُه جلَّ شأنه: ﴿وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ﴾، معطوفٌ على قولِه تعالى: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ﴾، والتَّقدير: "وبما كنتم ﴿عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ﴾"[2]، فهو في تأويلِ مصدرٍ "أي: وباستكبارِكم عن آياته"[3]، وهذا للدَّلالةِ على اشتراكِهما في سببيَّةِ الجزاءِ، أي: "العذابُ الشَّديدُ إنَّما حَصَل بسببِ مجموعِ الأمرين: الافتراءِ على الله، والتَّكبُّرِ على آياتِ الله"[4].

فائدةُ تقديمِ جملةِ ﴿تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ﴾ على ما بعدَها:

من قالَ على اللهِ غيرَ الحقِّ؛ فقد أغضبَ اللهَ، وأظهرَ السَّفاهَ

قولُه جلَّ شأنُه: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ﴾، ذكرَ اللهُ تعالى سببينِ لعذابهم، فقدَّمَ قولهم غيرَ الحقِّ على الله تعالى، على استكبارِهم عن آياته؛ لأنَّه أعظمُ جُرْمًا، ولأنَّ سياقَ الآية وموضوعَها، هو الحديثُ عن الَّذين يفترون على الله الكذبَ، ويدَّعون الوحيَ، وذلك كلُّه مندرجٌ تحت قوله تعالى: ﴿تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ﴾، فكان تقديمُهُ أولى، لكونهِ هو موضوعُ الآية.

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/191.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/191.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/380.
(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 13/69.

سرُّ تكرارِ ﴿كُنتُمْ﴾ في قوله: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ﴾ ﴿وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ﴾:

في قوله تعالى: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ كرَّرَ قوله: ﴿كُنتُمْ﴾ للدَّلالةِ على أنَّ كلَّ جملةٍ مُسْتَقِلَّةٌ بكونِها سببًا في عذاب الهونِ، فكلُّ سببٍ منهما يقتضي ذلك العذابَ، ولو لم يكرِّرْ ﴿كُنتُمْ﴾؛ لاحْتَمَلَ أن يكون السَّبَبُ واحدًا، ولكنَّهُ سببٌ مركَّبٌ، أي: ذلكَ العذابُ بسببِ أنَّكم افتريتُم، واستكبرتُم، وأمَّا معنى الآية المتحصِّلُ بالتَّكرار: ذلك العذابُ يكون بسبب افترائِكم، ويكون بسببِ استكبارِكم.

تَكْرارُ الفعلِ (كان) يدلُّ على استقلالِ كلِّ سببٍ لاستحقاقِ عذابِ الهونِ

سرُّ التَّعبيرِ بالحرفِ ﴿عَنْ﴾ الدَّالِّ على المجاوزةِ في قوله: ﴿عَنْ ءَايَٰتِهِۦ﴾:

جاء الاستكبارُ في الآيةِ "متضمِّنًا الإعراضَ عن الآياتِ؛ ولذا عُدِّيَ بـ ﴿عَنْ﴾ الَّتي تدلُّ على التَّجاوزِ والإعراض؛ إذ قال تعالى: ﴿وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ﴾، أي: كنتُم تستكبرون معرِضينَ عن آياتِنا الدَّالة؛ ولأنَّها قاطعةٌ على الحقِّ، وفيها الهداية، ولكن لا تهتدون استكبارًا وإعراضًا، فنالوا جزاءهم"[1]. وهذا يدلُّ على أنَّهم لم يكونوا يريدون أن يسمعوا آياتِ القرآن وحُجَجَهُ، فهم مستكبِرونَ مع إعراضٍ، للدَّلالة على أنَّ كفرَهم كانَ بسببِهم، وليس بقلَّةِ البيانِ في آيِ القرآن.

الاستكبارُ يتضمَّنُ معنى الإعراضِ إعلامًا بشدَّةِ العزوفِ عن الحقِّ

التَّعبيرُ عنِ الآياتِ بالجمعِ دونَ المفردِ بقوله: ﴿وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ﴾:

عبَّرَ عن الآياتِ الَّتي استكبروا عنها بصيغةِ الجمعِ دون الإفرادِ؛ لأنَّ "من استكبرَ عن آيةٍ واحدةٍ كان مستكبرًا عن الكُلِّ"[2]، وفي الجمع دلالةٌ على شدَّة استكبارِهم، فهم لم يستكبروا عن آية واحدةٍ، بل جميع آياته، وهذا يدلُّ على شدَّةِ كفرِهم ومتانةِ إصرارهم.

مَنِ استكبرَ عن آيةٍ واحدةٍ؛ كانَ مستكبِرًا عن كلِّ الآياتِ

(1) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 5/2594.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/192.

علَّةُ تقديمِ الجارِّ والمجرورِ ﴿عَنْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ على ﴿تَسْتَكْبِرُونَ﴾:

الاستكبارُ مذمومٌ، وهو أشدُّ ذمًّا؛ إذا تعلَّقَ بآياتِ اللهِ تعالى

في قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ﴾، قدَّم النَّظمُ شبْهَ الجملةِ ﴿عَنْ ءَايَٰتِهِۦ﴾، وهي متعلِّقَةٌ بخبر كان ﴿تَسْتَكْبِرُونَ﴾ "لأجل الفواصل"[1]، وتقديمُ شبْهِ الجملة هنا لا يفيد الاختصاصَ؛ إذ إنَّ استكبارَهم لا يختصُّ بالاستكبارِ عنِ الآيات؛ إذ هم قدِ استكبروا عن عبادةِ اللّٰه تعالى، وعنِ الإيمان به، فَدَلَّ ذلك أنَّ تقديمَ شبهِ الجملة، كان الغرضُ منه تأخيرَ ﴿تَسْتَكْبِرُونَ﴾ تحقيقًا للبنيةِ الصَّوتيَّةِ المتناسقةِ الَّتي تثيرُ انتباهَ السَّامع، مع ما فيها من جماليَّةٍ بتحقيقِ الفاصلةِ الواحدة المختومة بنسقٍ صوتيٍّ واحدٍ. ويضاف إلى ذلك أنَّ التَّقديم دليل الاهتمام، تنويهًا على أنَّ الاستكبار مع أنَّه مذمومٌ، إلَّا أنَّه أشدُّ ذمًّا إذا كان استكبارًا وإعراضًا عن آياتِ اللّٰه تعالى، وبراهين رُبوبيَّتِه ووَحْدانيَّتِه، فقدَّم الآياتِ تفظيعًا للاستكبارِ عنها.

دلالةُ التَّعبيرِ بالفعلِ المضارعِ في قوله: ﴿عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ﴾:

الفعلُ المضارعُ فيهِ دلالةٌ على التَّصويرِ، واستِجْلابٌ للصُّورةِ

عبَّرَ بالفعلِ المضارع للدَّلالةِ على أنَّ استكبارَهم كانَ مستمرًّا متجدِّدًا، والاستمرارُ والتَّجدُّد في فعلٍ ما يشيرُ إلى شدَّةِ الإصرارِ ودوامِ الانهماكِ في الفعل، وهذا يتناسبُ مع الاستمرارِ المعبَّر عنه بالفعلِ ﴿وَكُنتُمْ﴾. وذهبَ البِقاعيُّ إلى أنَّه "عبَّر بالمضارع تصويرًا لحالِهم"[2]، ويقال لهم حينئذٍ: الآن تبدأ مجازاتُكم بالعذاب المذلِّ المهين جزاءَ ما كنتم تقولون على اللّٰهِ غيرَ الحقِّ، وجزاءَ استكبارِكم عن النَّظرِ والتَّدبُّر في آيات اللّٰهِ الكونيَّة والقرآنيَّة"[3]. وهذا مشهدٌ تصويريٌّ من مشاهدِ القيامةِ، تنخلعُ له القلوبُ، وتقشعرُّ له الأبدانُ، وتناطُ به المصائرُ، وتتجلي على هوله البصائرُ، لِتَعملَ على الوقايةِ

(1) السّمين، الدّر المصون: 5/44.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/192.
(3) لجنة من علماء الأزهر، المنتخب في تفسير القرآن الكريم، ص: 188.

من ذلِّ ذلك الموقفِ، والاتِّقاءِ من العذاب الهون الَّذي يُسَلَّطُ على كلِّ مُبْطِلٍ ذَميمٍ، ويقع وِزْرُهُ على كلِّ مستكبرٍ أثيمٍ.

إيثارُ التَّعبيرِ بصيغةِ الاستكبارِ دونَ التَّكبُّرِ في قوله: ﴿عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ﴾:

الاستفعالُ للدَّلالةِ على التَّكبُّرِ، كانت بقصدٍ وتقصُّدٍ

جاءَ وصفُ تَكَبُّرِهم عن آياتِ اللهِ تعالى بصيغةِ الاستفعالِ للدَّلالةِ على الطَّلب، "أي: تطلبون الكِبْرَ للمجاوزة عنها"[1]، وبهذه الصِّيغةِ فإنَّ اللهَ تعالى كَشَفَ عن خُبْثِ سَريرتهِم، إذ إنَّهم لم يتكبَّروا وحسب، بل كان التَّكبُّر مطلبًا لهم، ويدلُّ على ذلك صيغةُ الاستفعالِ الدَّالَّةُ على الطَّلب هنا، وإظهارًا لقصدهِم ذلك الفعل، وأنَّهم لم يفعلوه في حالةِ خلوٍّ في الذِّهن، بل كانوا يتقصَّدون ذلك.

لطيفةُ اللَّفِّ والنَّشرِ في الآية الكريمة:

ردُّ الأعجازِ على الصُّدورِ ردٌّ لكلِّ سببٍ للعذابِ على ما يناسبُه

قدَّم النَّظمُ في صَدْرِ الآية الأعمالَ الَّتي وصفها بأنَّها نهايةُ الظُّلم، ثمَّ ذكر في شطرِ الآية الثَّاني سببَ الجزاء الَّذي نالوه لكلٍّ منها على التَّرتيب، حيثُ ذَكرَ الافتراءَ على اللهِ الكذبَ، وادِّعاءَ الوحيِ، وادِّعاءَ المفتري أنَّه سيُنْزِلُ مِثلَ ما أنزلَ اللهُ، ثمَّ بيَّنَ جزاء كلٍّ حسبَ عملِه في ختام الآية، مع جواز ردِّ كلِّ واحدٍ من أسباب العذابِ إلى أصحابها، فقوله: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ﴾ يشملُ منِ افترى على اللهِ كذبًا، ومن قال: أوحي إليَّ، وقوله: ﴿وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ﴾، يتعلَّق بمن قال: سأنزلُ مثلَ ما أنزلَ اللهُ.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(الافتراء) و(الكذب):

الافتراءُ: متعلِّقٌ بالآخَرِ، والكذبُ: متعلِّقٌ بالذَّاتِ وبالآخَرِ

الكذبُ: هو عدمُ مطابقةِ الخبرِ للواقعِ، أو لاعتقاد المخبرِ لهما على خلافٍ في ذلك، كَمَا أَنَّ الكَذِب ضِدُّ الصِّدقِ، وإنِ افْتَرقا مِنْ حَيْثُ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/192.

النِّيَّةُ والقَصْدُ؛ لِأَنَّ الكاذِبَ يَعْلم أَنَّ مَا يَقُولُهُ كَذِبٌ، والمُخْطِىء لا يَعلَم ... وَقَدِ اسْتَعملتِ العرَبُ الكَذب في مَوْضع الْخَطَأ، قَالَ الأَخْطَلُ:

كَذَبَتْك عَيْنُك أَمْ رَأيتَ بِوَاسِطٍ *** غَلَسَ الظَّلام مِنَ الرَّبابِ خَيَالا[1]

والافتراءُ: أخصُّ منه؛ لأنَّهُ كَذِبُ المرءِ في حقِّ غيره بما لايرتضيه، بخلاف الكذب؛ فإنَّهُ قد يكون في حقِّ المتكلِّم نفسه، ولذا يقال لمن قال: (فعلتُ كذا ولم أفعلْ كذا) غيرَ صادقٍ: هو كاذبٌ، ولا يقال: هو مُفْتَرٍ. وكذا مَن مَدحَ أحدًا بما ليس فيه، يقال: إنَّه كاذبٌ في وصفه، ولا يقالُ: هو مفترٍ؛ لأنَّ في ذلك ممَّا يرتضيهِ المقولُ فيهِ غالبًا، وقال سبحانه حكايةً عنِ الكفَّار: ﴿ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ [الأنعام: 21] لزعمِهم أنَّه أتاهم بما لايرتضيه اللّٰه سبحانه مع نسبتهِ إليهِ. وأيضًا قد يَحْسُن الكذبُ على بعضِ الوجوهِ، كالكذبِ في الحربِ، وإصلاح ذات البين، وعدَةِ الزَّوجة، كما وردت به الرِّواية، بخلاف الافتراءِ[2].

الكذبُ: إخبارٌ بخلافِ الحقيقة، وليس مطابقًا للواقعِ، أمَّا الافتراءُ فهو اختلاقُ حدثٍ ليس موجودًا، فهو أشدُّ من الكذب. فالكذبُ يدلُّ على التَّغييرِ، أي: تغيير الحقائقِ والإخبارُ عنها بخلاف ما هي عليه، ولكن هي موجودةٌ، وإن كانت بصورةٍ مخالفةٍ للإخبار، أمَّا الافتراءُ فليس له واقعٌ ولا حقيقة، إذ هو ليس تغييرًا، بل اختلاقٌ وإيجادُ واقعٍ مزيَّفٍ، فكان أَخَصَّ من الكذبِ وأشدَّ منه، وهو الأنسب للتَّعبير عن ادِّعاء الوحي، إذ هو اختلاقُ واقع ليس موجودًا، وليس هو تغييرًا لواقعٍ موجودٍ.

(الغمرات) و(السّكرات):

غـمـرةُ المـوتِ: الـشِّـدَّةُ الشَّديدةُ، وهي أشدُّ من سَكْرَةِ الموتِ

سكرةُ الموتِ: (سكر) أَصْلٌ يَدُلُّ عَلَى حَيْرَةٍ، السَّكْرانُ: خلافُ الصَّاحي، وسَكْرَةُ الموت: شِدَّتُهُ. وقولهُ تعالى: ﴿وَجَآءَتۡ سَكۡرَةُ ٱلۡمَوۡتِ

(1) ابن الأثير، النّهاية: 4/159.

(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 449 - 450.

﴿بِٱلۡحَقِّۖ﴾؛ سَكْرَةُ الْمَيِّتِ غَشْيَتُه الَّتِي تَدُلُّ الإنسانَ عَلَى أَنَّه مَيِّتٌ[1]. أمَّا غَمَراتُ الموتِ: فمشتقَّةٌ من (غَمَرَ)، وهو أَصْلٌ يَدُلُّ عَلَى تَغْطِيَةٍ وَسَتْرٍ في بَعْضِ الشِّدَّةِ، وقيل للشَّدائِد: غَمَرَاتٌ، قال تعالى: ﴿فِي غَمَرَٰتِ ٱلۡمَوۡتِ﴾[2]، فالغمرةُ مستعملةٌ في الشِّدَّة؛ إذ قد "شاعتِ استعارتُها للشِّدَّة، تشبيهًا بالشِّدَّة الحاصلةِ للغريق، حين يغمرهُ الوادي أو السَّيلُ، حتَّى صارتِ الغمرةُ حقيقةً عرفيَّةً في الشِّدَّة الشَّديدة"[3]. وعليه فإنَّ غمراتِ الموتِ "أشدُّ من سكرات الموت في الحقيقة"[4]، وسياقُ الآية في سورة الأنعامِ في الغِلْظةِ على الظَّالمين؛ فكان وصفُهم عند الاحتضارِ بما ينالهم من الشَّدائد، أدعى للتَّعبيرِ بالغمرات، تنويهًا بشدَّةِ ما يلاقونه.

(البسط) و(المدّ):

المدُّ: اتِّصالٌ باستطالةٍ، والبَسْطُ: نشرٌ وتوسيعٌ، وكلاهما عربيٌّ فصيحٌ

المدُّ مشتقٌّ من: (مَدَّ)، وهو أَصْلٌ يَدُلُّ عَلَى جَرِّ شَيْءٍ في طُولٍ، وَاتِّصَالِ شَيْءٍ بِشَيْءٍ في اسْتِطَالَةٍ، مددتُ الشَّيءَ فامتدَّ، والمادَّةُ: الزِّيادة المتَّصلة، ومَدَّ اللّه في عمره، وفي غيِّه، أي: أمهلَهُ وطوَّل له[5]. والبَسْط مشتقٌّ من: (بَسَطَ) وهو أَصْلٌ يدلُّ على امْتِدَادِ الشَّيْءِ، في عِرَضٍ أَوْ غَيْرِ عِرَضٍ، وَالْبَسْطَةُ في كُلِّ شَيْءٍ: السَّعَةُ، وبَسْطُ الشَّيء: نشره وتوسيعه، وبَسْطُ الكفِّ يستعمل تارةً للطَّلب، وتارة للأخذ، نحو: ﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓاْ أَيۡدِيهِمۡ﴾. فالمدُّ يدلُّ على الاتِّصال باستطالةٍ، أمَّا البسط فيدلُّ على النَّشر والتَّوسيع والمدِّ، ومنه بسط اليد للأخذ، وهو المناسب للآية؛ إذ هي في سياق قبْضِ الأرواحِ، وهو مدُّ اليدِ للأخذ، وهذا مدلولُ البسطِ.

(1) الجوهريّ، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (سكر).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات: (غمر).
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/377.
(4) الآلوسّي، روح المعاني: 4/212.
(5) الجوهريّ، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (مدّ، مدد).

(الاستكبار) و(التَّكبُّر):

التَّكبُّر والاستكبارُ: كلاهما مذمومٌ، لما فيهما من التَّطاولِ والتَّعالي

الاستكبارُ: طلبُ الكِبْر من غيرِ استحقاقٍ، والتَّكبُّر: قد يكون باستحقاقٍ؛ ولذلك جازَ في صفة الله تعالى: المتكبِّر، ولا يجوز: المستكبر[1]، والاستكبارُ قسمان: **أحدُهما**: أن يتحرَّى المرءُ أن يكون كبيرًا، وذلك متى كان على ما يجبُ، وفي المحلِّ والوقت الَّذي يجبُ، فهو غيرُ مذموم. **والثَّاني**: أن يتشبَّعَ، فيُظهِرَ من نفسه ما ليس له، وهو مذمومٌ، ومنه ما وردَ في القرآن نحو: ﴿أَبَىٰ وَٱسۡتَكۡبَرَ﴾[2]. وفي الآية عبَّرَ بالاستكبارِ عنهم؛ لأنَّهم طلبوا الكِبْرَ من غير أن يستحقُّوهُ، فكان أنسبَ من التَّعبير بـ (يتكبَّرون).

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 49.

(2) زين الدّين المناويّ، التّوقيف على مهمّات التّعاريف، ص: 49.

﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ ۖ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ ۚ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾﴾ [الأنعام: 94]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

المناسبةُ بينَ مصيرِ المُفْتَرينَ ورجوعِهم إلى اللهِ بلا سندٍ ولا نصيرٍ

لمّا قال في الآية السَّابقة ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ﴾، "وَقَفَهم على أنَّهم يَقْدَمون يوم القيامةِ منفردين، لاناصِرَ لهم، محتاجين إليه بعد أن كانوا ذَوِي خَوَلٍ وشُفعاءَ في الدُّنيا"[1]، يقالُ لهم في ذلك اليومِ العظيمِ: لقد جئتمُونا فُرادى كما خلقْناكم أوَّلَ مرَّةٍ، وكنْتُم تنكرون ذلك، ولا ترونَهُ يقينًا واقعًا لا ريبَ فيه، فهذا هو يومُ البعثِ الَّذي طالما كنتم به تكذِّبون، وقد تركتم في الدُّنيا، ما حُزْتُم من النِّعَمِ الأثيرةِ، وما جمعتُم من الأموالِ الغزيرة، وما بقي معكم أحدٌ من الشُّفعاء والأنداد الَّذين همْتُم بهم في كلِّ وادٍ، لقد تقطَّعت بينكم وبينهم الأسبابُ والصِّلاتُ، وتلاشتِ المزاعم وتبدَّدت العلاقات[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فُرَادَىٰ﴾: (فرد) أصلٌ يدلُّ على وحدة، والفَرْدُ: الذي لا يختلِط به غيره، فهو أعمُّ من الوِتْر وأخصُّ من الواحد، وجمعه: فُرَادَى، وفَرِيدٌ: واحدٌ، وجمعهُ فُرَادَى، نحو: أَسيرٍ وأُسارى، والفَرْدُ ما كانَ وحدَه، وجاء القومُ فُرادَى، أي: واحدًا واحدًا، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ﴾[3]، أي: "منفردين بلا مالٍ ولا معينٍ"[4].

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/586، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 7/192.
(2) أسعد حومد، أيسر التّفاسير، ص: 884.
(3) الخليل، العين، والجوهريّ، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (فرد).
(4) النّسفيّ، مدارك التّنزيل: 1/522.

وقَالَ الفرَّاءُ: فُرادى جمعٌ، قَالَ: وَالعرب تَقول: قومٌ فُرادَى، وفَرادُ ياهَذَا فَلَا يُجْرونَها، شُبِّهتْ بثلاثَ وَرُباع، قَالَ: وفُرَادَى: وَاحِدهَا فَرَدٌ وفَريد وفَرِدٌ وفَرْدانٌ، وَلَا يجوز فَرْد فِي هَذَا الْمَعْنى[1].

2) ﴿خَوَّلْنَٰكُمْ﴾: (خول) أَصْلٌ يدُلُّ عَلَى تَعَهُّدِ الشَّيْءِ، وإعطاء ما يحتاج أن يتعهَّده، الخائل: الحافظ للشَّيء، يقال: فلانٌ يخولُ على أهله، أي: يرعى عليهم، وخوَّله اللّه الشَّيءَ: ملَّكه إيَّاه، والتَخَوُّلُ: التَّعهُّدُ. قوله تعالى: ﴿وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ﴾، أي: ما أعطيناكم[2]، "أي: ما تفضَّلنا بهِ عليكم في الدُّنيا"[3]. وفي تاج العروس: "وخَوَّلَهُ اللّه تَعَالَى المالَ: أَعْطاه إيَّاه مُتَفَضِّلًا، وَمِنْه قولُه تَعَالَى: ﴿وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ﴾ [الأنعام: 94]، أَي: أعطَيناكم، ومَلَّكْناكم، وَكَذَلِكَ قولُه تَعَالَى: ﴿ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ﴾ [الزّمر: 8]، وَقَالَ أَبُو النَّجْم:

الحمدُ للّهِ الوَهُوبِ المُجْزِلِ
أَعْطَى فَلم يَبخَلْ وَلم يُبَخَّلِ
كُومَ الذُّرَى مِن خَوَلِ المُخَولِ"[4].

3) ﴿زَعَمْتُمْ﴾: (زعم) أصلٌ يدلُّ على القَوْلِ مِنْ غَيْرِ صِحَّةٍ وَلَا يَقِينٍ، الزَّعْمُ: حكاية قول يكون مَظِنَّة للكذبِ، ولهذا جاء في القرآن في كلِّ مَوْضِعٍ ذَمَّ القائلين به، كقوله تعالى: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبْعَثُواْۚ﴾ [التّغابن: 7]، أي: بقولهم الكذب، والزَّعم: الظَّنُّ، والكذب، ويقال للأمر الَّذي لا يُوثَق به: مَزْعَمٌ، أي: يَزْعُمُ هذا أنَّه كذا، ويَزْعُمُ هذا أنَّه كذا[5].

4) ﴿تَّقَطَّعَ﴾: (قطع) أصلٌ يدلُّ على صَرْمٍ وإبانةِ شيءٍ من شيءٍ، ومُنْقَطَعُ الرّملِ: يَنْقَطِعُ ولا رملَ خلفه، فعبَّروا به عن الانتهاء، فإذا انتهى الشَّيء؛ فكأنَّهُ قُطع. وقَطْعُ الوَصْل: هو الهِجْران، وقَطْعُ الرَّحِم يكون بالهِجْران، ومنع البِرِّ، قال تعالى: ﴿وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾﴾ [محمّد: 22]، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَقَطَّعْنَٰهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ أُمَمًاۖ﴾ [الأعراف: 168]، أَي:

(1) الأزهريّ: تهذيب اللّغة: (فرد).
(2) الجوهريّ، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (خول).
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/587.
(4) الزَّبيديّ، تاج العروس: (خول).
(5) الجوهري، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، اللّسان: (زعم).

فرَّقناهم فِرَقًا، وَقَالَ: ﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ١٦٦﴾ [البقرة: 166]، أَي: انْقَطَعَتْ أَسْبابُهم ووُصُلُهُم[1].

5) ﴿بَيْنَكُمْ﴾: (بين): أصلٌ يدلُّ على بُعْدِ الشَّيء وانكشافِه، فالبَيْنُ: الفِراقُ، والوَصْلُ، وهو من الأضدادِ، و(بَيْن) موضوعٌ للخِلالةِ بينَ الشَّيئين، يقالُ: بَانَ كذا، أي: انفصلَ، وظهرَ ما كان مستَتِرًا منه، ولمّا اعْتُبِرَ فيهِ معنى الانفصالِ والظُّهورِ؛ استُعْمِلَ في كلِّ واحدٍ منفردًا، وقوله تعالى: ﴿لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ﴾، أي: وَصْلُكم، وتحقيقُه: أنَّه ضاعَ عنكم الأموالُ والعشيرةُ والأعمالُ الَّتي كنتم تعتمدونها[2].

المَعْنى الإِجْماليُّ:

تذكيرُ المُخاطَبينَ بالرَّجعة إلى اللهِ فُرادى، بلا مالٍ ولا عُزوةٍ

يخبرُ اللّهُ تعالى أنَّه سيقولُ لهم يوم البعث "ولقد أتيتُمونا في هذا اليوم أفرادًا، لا مالَ معكم ولا رئاسة، كما أنشأناكم أوَّلَ مرَّةٍ حُفاةً عراةً غُرْلًا، وتركتم ما أعطيناكم من ذلك خلفَكم في الدُّنيا رغمًا عنكم، وما نرى اليومَ معكم آلهتكم الَّذين زعمْتُم أنَّهم وسطاءُ لكم، وزعمْتُم أنَّهم شركاء للّه في استحقاق العبادة، لقد تقطَّع الوِصَال بينكم، وذهب عنكم ما كنتم تزعمون من شفاعتهم، وأنَّهم شركاءُ للّهِ"[3].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ العطفِ في قولِهِ تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ﴾:

الانتقالُ من خطابِ الاعتبارِ بالظَّالمين إلى خطابِ الظَّالمين أنفسِهم

قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ﴾ معطوفٌ على قولِه تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ﴾، بمعنى: أنَّه "انتقل الكلامُ من خطاب المعتبِرينَ بحال الظَّالمين إلى خطابِ الظَّالمين أنفسهم، بوعيدهم بما سيقولُ لهم يومئذٍ"[4].

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، اللّسان: (قطع).
(2) الجوهري، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات: (بين).
(3) جماعة من العلماء، المختصر في تفسير القرآن الكريم: 1/139.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/381.

معنى اللَّامِ و(قد) وفائدتهُما في السِّياق في قوله: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ﴾:

ورود (قَدْ) مرشَّحَةٌ للاستعارةِ؛ لأنَّها مناسبةٌ للفعلِ الماضي

في قولِهِ تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ﴾، أكَّد المجيءَ باللَّام و(قد)، ودلالةُ ذلك تختلفُ باعتبار جهة صدورِ الكلامِ، وفي ذلك قالَ العلَّامة ابن عاشور ما خلاصتُه: إنْ كان القولُ المقدَّر في جملة ﴿أَخْرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُۖ﴾، قولًا من قِبل الله تعالى؛ كان قوله: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ﴾ حقيقةً في الماضي؛ لأنَّهم حينما يُقالُ لهم هذا القول قد حصلَ منهم المجيءُ بينَ يدي اللهِ تعالى، وتكون (قد) مفيدةً للتَّحقيقِ. وإن كان القول المقدَّر في جملة ﴿أَخْرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُۖ﴾ قولَ الملائكة حال الوفاة؛ كانَ قولُه: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ﴾، من الماضي المعبَّر به عن المستقبلِ؛ تنبيهًا على تحقيق وقوعه[1]، وتكونُ (قد) ترشيحًا للاستعارةِ[2]. قال السَّيِّد الجرجانيُّ: "واعلم أنَّ التَّعبير عن الماضي بالمضارعِ وعكسه، يعدُّ من الاستعارة، بأن يشبِّهَ غيرَ الحاصل بالحاصل، في تحقُّق الوقوع"[3]، فتكون (قد) مرشَّحةً للاستعارةِ؛ لأنَّها مناسبةٌ للفعل الماضي.

السِّرُّ في التَّعبيرِ عنِ المستقبلِ بالفعلِ الماضي المؤكَّدِ:

التَّعبيرُ عن أحداثِ يومَ القيامةِ بالفعلِ الماضي دلالةً على يقينِ الوقوعِ

المجيءُ المخبَرُ عنهُ في الآية بالفعلِ الماضي، سيقعُ في المستقبلِ، فقولُه تعالى: ﴿جِئْتُمُونَا﴾ "من الماضي الَّذي أُريدَ بهِ المُسْتَقْبَلُ"[4]، وإنَّما يُعبَّر بالماضي عن المستقبلِ "تنبيهًا على تحقيقِ وقوعِهِ"[5]، فَيُخبرُ عنهُ بأنَّهُ قد حدثَ ووقعَ، وصارَ ماضيًا محَقَّقًا، وفي ذلك تأكيدٌ على الوقوع، إضافةً للتَّأكيد المدلول عليه بـ (اللَّام، وقد).

(1) القزوينيّ، الإيضاح، ص: 96.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 7/381، وينظر: السّمين، الدّر المصون: 5/44.
(3) الجرجانّي، حاشية على المطوّل، ص: 370.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/587.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/381.

دلالةُ إيثارِ التَّعبيرِ بضميرِ الجمعِ في قوله: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ﴾:

التَّعبيرُ بضميرِ التَّعظيمِ تهويلٌ لشأنِ المجيءِ إليهِ تعالى

قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ﴾ عبَّر عن ذاتِه ﷻ بالضَّمير الدَّالِّ على التَّعظيم تفخيمًا للمجيءِ، أي: جئتُم إلينا "لما لنا من العظمة"[1]، "ولقد جئتمُونا وُحْدانًا منفرِدين عن الأنداد والأوثان، والأهلِ والإخوانِ، مجَرَّدين من الخدمِ والأملاكِ والأموالِ، كما خلقْناكم أوَّلَ مرَّةٍ من بطونِ أمَّهاتكم حُفاةً عُراةً غُلْفًا، ولا منافاةَ بين هذه الآيةِ، وبينَ قوله: ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ [البقرة: 174] لأنَّ المراد لا يكلِّمهم تكليمَ تكريمٍ ورضا"[2].

سرُّ تعدِّي (جئتم) إلى المفعولِ بهِ بنفسِه، والعدولِ عن (جئتُم إلينا):

الملمحُ المرادُ في السِّياقِ: المباشَرَةُ في الخطابِ بلا فاصلٍ

الفعلُ (جاء) فعلٌ لازمٌ، وقد جاء متعدِّيًا في آياتٍ من الذِّكر الحكيم، كقوله تعالى: ﴿بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَـٰتِى﴾، وقوله: ﴿جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ﴾ وغيرها، ويلاحظُ في تلك السِّياقات أنَّ المرتادَ هو سرعةُ المجيءِ، وانتفاء الفاصل، فلم يتعدَّ الفعلُ بالحرفِ (إلى) الدَّالِّ على انتهاءِ الغاية؛ لأنَّ ذلك يُشعِر بطولِ الفاصل، وأنَّه بحيثُ ينتقل من بدايةٍ إلى نهايةٍ، وحذفُ هذا الحرفِ يسلبُ العبارَةَ ذلك الفاصلَ، فيدلُّ على المباشرة، وسرعةِ النَّفاذِ بلا فاصلٍ.

العدولُ عن لفظِ (وحدَكم)، إلى ﴿فُرَادَىٰ﴾:

التَّعبيرُ عن مجيئِهم منفردين بلا شفيعٍ، تقريعٌ لهم وتوبيخٌ

يومُ القيامة هو يومُ الجَمْع، يُجمع فيه النَّاسُ لربِّ العالمين، والإخبارُ عن مجيئهم منفردين في الآية، لا يناقضُ ذلك؛ فإنَّما جمع للدَّلالة على أنَّهم جاؤوا متفرِّقين منفردين، فقولُه تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ﴾ أي: منفردين "عن أموالكم وأولادكم وما حرصتم عليه، وآثرتُمُوه من دنياكم، وعن أوثانكم الَّتي زعمتم أنَّها

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/192.

(2) أحمد مصطفى المراغيّ، تفسير المراغيّ: 7/194.

شفعاؤكم"[1]، ليس أحد مع أحدٍ، فكلُّ واحدٍ منهم يجيء منفردًا عمَّا كان له في الدُّنيا[2].

وفائدةُ الإخبار عن مجيئهم منفردين "التَّقريعُ والتَّوبيخ؛ وذلك لأنَّهم صرفوا جِدَّهُم وجهدَهم في الدُّنيا إلى تحصيل أمرين: **أحدُهما**: تحصيلُ المالِ والجاهِ، **والثَّاني**: أنَّهم عبدوا الأصنامَ، لاعتقادهم أنَّها تكون شفعاءَ لهم عندَ اللّه، ثمَّ إنَّهم لمّا وردوا مَحْفِلَ القيامةِ، لم يبقَ معهم شيءٌ من تلكَ الأموالِ، ولم يجدوا من تلكَ الأصنامِ شفاعةً لهم عند اللّهِ تعالى، فبقوا فرادى عن كلِّ ما حصَّلوه في الدُّنيا وعَوَّلوا عليهِ"[3].

نُكتةُ التَّعبيرِ بضميرِ الجمعِ معَ إفرادِ لفظةِ ﴿فُرَدَىٰ﴾:

تصويرُ حالةِ التَّبايُنِ بينَ من يُقْبَلُ إليهِ للقضاءِ، ومن يُقْبِلُ على الحسابِ

ذكر تعالى نفسَهُ في قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ﴾ بطريقةِ التَّعظيم، فمجيءُ العباد للحساب، سيكون مجيئًا للإلهِ بما له من صفاتِ التَّعظيم، وعبَّرَ عن مجيئِهم بأنَّهم سيأتونُ فرادى، لما فيه من دلالةٍ على ضعفهم، وقلَّةِ حيلتهم، وكلُّ ذلك دالٌّ على عظمةِ الموقف، تصويرًا لحالة التَّباين بين شدَّة العظمةِ للحاكم الَّذي يُقْبَل إليه للقضاء، وشدَّةِ الضَّعف في المُقْبِل على الحسابِ، وفي ذلك إشعارٌ وإعلامٌ بهولِ الموقف.

الغرضُ من إخبارِهم بالمجيءِ يومَ القيامةِ في قولِهِ: ﴿جِئْتُمُونَا﴾:

إظهارُ تخطئَتِهم لتكذيبهم الأنبياءَ في إخبارِهم عنِ البعثِ

أخبرَ اللّهُ تعالى عن مجيئِهم، والمرادُ من ذلك بيانُ "تخطِئَتِهم وتوقيفهم على صدقِ ما كانوا يُنذَرون به، على لسانِ الرَّسولِ، فينكرونهُ وهو الرُّجوعُ إلى الحياةِ بعد الموت للحساب بين يدي اللّهِ. وقد يُقصدُ مع هذا المعنى، معنى الحصولِ في المَكِنَةِ والمصيرِ إلى ما كانوا يحسبونَ أنَّهم لا يصيرونَ إليه"[4].

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/47، وينظر: أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2595.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/192.
(3) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 13/69.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/382.

بلاغةُ التَّشبيهِ في قولِهِ: ﴿جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾:

المشابهةُ بينَ مجيئِهم فرادى، وولادتِهم فرادى

قولُه جلَّ شأنُه: ﴿كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾، شبَّه مجيئَهم يومَ القيامةِ منفردينَ بانفرادِ مجيئِهم إلى الدُّنيا، أي: تَجيؤونَ إلينا "على الهيئةِ الَّتي وُلِدْتُم عليها في الانفرادِ"[1]، لا تملكون منها شيئًا، أي: "كمجيئِكم يومَ خلقناكم، وهو شبيهٌ بالانفرادِ الأوَّل وقتَ الخِلْقَةِ، فهو تقييدٌ لحالةِ الانفرادِ، وتشبيهٌ بحالة الخَلْقِ؛ لأنَّ الإنسانَ يُخلَقُ أَقْشَرَ لا مالَ له ولا ولدَ ولا حَشَمَ"[2].

سرُّ العدولِ عن المصدرِ الصَّريحِ إلى المؤوَّلِ في قوله: ﴿كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾:

التَّعبيرُ بلفظِ (ما) المصدريَّة للدَّلالةِ على كيفيَّة المجيء

لمّا شبَّه تعالى مجيئَهم يومَ القيامةِ بأوَّلِ مجيئِهم إلى الدُّنيا أدخلَ كافَ التَّشبيه على المصدر المؤوَّلِ من (ما) المصدريَّة والفعل، "فهو في موضع المفعول المطلَقِ، و(ما) المجرورةُ بالكاف: مصدريَّةٌ، فالتَّقدير: كخَلْقِنا إيَّاكم، أي: جئتمُونا مُعادين مخلوقين كما خلقناكم أوَّل مرَّةٍ"[3]، فجاء بـ (ما) المصدريَّة لبيان نوعِ المجيءِ؛ إذ إنَّها في تقدير المفعولِ المطلَق المبيِّن للنَّوع المناسب للتَّشبيه.

بلاغةُ العطفِ في قوله تعالى: ﴿وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ﴾:

ورودُ الجملتينِ متَّصلتين بالعطفِ لبيانِ معنى الانفرادِ في المجيء وكيفيَّتِه

قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ﴾ معطوفٌ على قوله: ﴿جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾؛ لبيان "معنى فرادى، إلَّا أنَّ في الجملة الثَّانية زيادةَ بيانٍ لمعنى الانفراد بذكر كيفيَّة هذا الانفراد"[4]، فلمَّا أخبر تعالى أنَّهم سيأتون منفردين؛ بَيَّنَ أنَّ الانفرادَ سيكون بتركِ ما كان لكم في الدُّنيا، أي: يأتون خِلْوًا من كلِّ شيءٍ.

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/47، وينظر: الطّيبيّ، فتوح الغيب: 6/168.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/587، وينظر: أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/164.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/382.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/383.

نكتةُ التَّعبيرِ عن فقدانِ الأملاكِ بالموتِ بقوله: ﴿وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ﴾:

توريثُ المحيَّزاتِ والأموالِ دليلٌ على أنَّ لله تعالى المآلَ

قولُه جلَّ شأنه: ﴿وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ﴾، الموت لا يدلُّ على التَّرك طوعًا، ولكنَّه يُظهِرُ عجزَ الإنسانِ، فيتركُ كلَّ ما له مُرغَمًا، وتسليمًا بواقع الحال، فأخبرَ عن انتفاءِ حيلتِهم في الدُّنيا إعلامًا بانتفائها عنهم في الآخرة، والمعنى: أنَّكم ستأتون فُرادى لا تملكونَ شيئًا، ولا حيلةَ لكم، إظهارًا لشدَّةِ ضعفهم وتفجيعًا لهم.

إيثارُ التَّعبيرِ بالتَّرْكِ دونَ النَّبْذِ والهجرِ والتَّخَلِّي في قوله: ﴿وَتَرَكْتُم﴾:

من حازَ النِّعَمَ ولم يَشكرْ؛ فارقَها بالموتِ ولم يشعرْ

عبَّر بالتَّركِ دونَ النَّبْذِ والتَّخَلِّي؛ لأنَّ الإنسان لا ينبذُ مالَه وتَركَتَه، ولا يتخلَّى عنها؛ إذ هم قد ذهبت "عنهم كلُّ قوَّاتهم الذَّاتيَّةِ الَّتي غرَّتهم، واستكبروا بها عن آيات الله تعالى"[1]، فلا قوَّةَ لهم على النَّبذِ ولا غيره، بل هم مجبورونَ على التَّرْك، و"التَّخْوِيلُ إِعْطَاءُ الْخَوَلِ كَالْعَبِيدِ وَالنَّعَمِ، وَيُعَبَّرُ بِالتَّرْكِ وَرَاءَ الظَّهْرِ، عَمَّا فَاتَ الْإِنْسَانَ التَّصَرُّفُ فِيهِ وَالِانْتِفَاعُ بِهِ، لِفَقْدِهِ إِيَّاهُ أَوْ بُعْدِهِ عَنْهُ"[2].

سرُّ إسنادِ التَّرْكِ إليهم، والعدولِ عن نزعِ ما خَوَّلهم عنهُم:

تنتهي حيازةُ الممتلكاتِ بالرَّدى، ولا يأخذُ الهالِكُ شيئًا ممَّا خفي أو بدا

في قوله تعالى: ﴿وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ﴾، عبَّر عن مفارقتِهم ما كانوا قد خُوِّلوا به بالتَّرْكِ، والتَّرْكُ: هو مفارقة الشَّيء ما كان يعلقُ به، والأصلُ: أنَّ الميتَ لا قدرةَ له على أن يفارقَ بنفسِه، وإنَّما هو مفارَق ومتروك، فيفارِقُه مالُه، وما ملَّكه اللهُ إيَّاه، فأَسْنَدَ التَّركَ لهم؛ للدَّلالة على تجرُّدِهم من كلِّ شيءٍ، وتركهم كلَّ شيءٍ، وإن كان في مُكْنَتِهم أن يأخذوه، فكيف إذا لم يكن لهم ذلك؟

بلاغةُ الكِنايةِ في قوله: ﴿وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ﴾:

في قوله تعالى: ﴿وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ﴾ كنايةٌ، فكنَّى عن فقدانهم ما قدَّموه لأنفسهم بالتَّرك؛ "لأنَّ التَّرك وراء

(1) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 5/2596.

(2) محمّد رشيد رضا، تفسير المنار: 7/523.

الظَّهر كنايةٌ عن عدمِ الانتفاعِ بالشَّيء"[1]، أي: إنَّ ما أنعمنا عليكم به في الدُّنيا "لم ينفعكم، ولم تحتمِلوا منه نَقيرًا، ولا قدَّمتمُوه لأنفسِكم"[2]، وفي ذلك بيانٌ لشدَّة الانقطاعِ والانفصال؛ فإنَّ ما وراءَ الظَّهر قد مضى بحيثُ لا يُرى. ويدلُّ كذلك على انتفاءِ القدرةِ على الانتفاع به؛ إذ لا يمكنُ لما يُترك وراء الظَّهرِ، أن تنالَه اليدانِ للتَّصرُّف والانتفاع به.

تركُ الشَّيءِ وراءَ الظَّهرِ؛ كِنايةٌ عن عدمِ الانتفاعِ به

بلاغةُ العطفِ في قوله تعالى: ﴿وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ﴾:

الجملةُ في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ﴾ معطوفةٌ على قوله تعالى: ﴿جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ﴾، وإنَّما عطفَ ولم يَفْصِلْ بينهما؛ لأنَّهما خبران لغرضٍ واحدٍ، وهو بيانُ تخطئةِ المشركين وتلهيفًا لهم وتنديمًا، فالمشركون زعموا أنَّ آلهتَهم تشفعُ لهم عندَ اللّٰه تعالى. كما أنَّ فيه بيانًا وتقريرًا لمعنى (فرادى) في قوله: ﴿جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ﴾[3].

ربطُ الجملتَينِ المتعاطفتَينِ إيذانٌ بمزيدِ تخطئتِهم واستدعاءٌ لندمِهم

بلاغةُ نفيِ رؤيةِ شركائِهم في قوله: ﴿وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ﴾:

نفى رؤيةَ شفعائِهم يوم الحساب، حيثُ كانوا يظنُّون لقاءَهم "تهكُّمًا بهم واستهزاءً بشأنهم"[4]، إذ إنَّ فقدانَ ما كنتَ تَذْخَرُهُ لساعةِ الحاجةِ فلا تَجِدُه حين أوانِ الحاجةِ له؛ لَهُوَ أشدُّ فقدانٍ وأكبرُ خُسرانٍ، وهذا النَّفي كأنَّه يتضمَّن سؤالًا، فكأنَّ المعنى: ما نَرى معكم شفعاءَكم، أين هم؟ أخبِرونا! تهكُّمًا بهم، وإجْبارَهُم على استشعارِ فداحةِ خُسرانِهم، ولا يتركُهم يتغافلون عن ذلك.

السِّياقُ مُمعِنٌ في التَّهكُّم بهم، والاستِهزاءِ منهم في هذه الآيةِ

إيثارُ التَّعبيرِ بالفعلِ المضارعِ في قوله: ﴿وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ﴾:

عبَّر عن الرُّؤية بالفعل المضارع "ليشيرَ إلى أنَّ انتفاءَ رؤيةِ الشُّفعاء حاصلٌ إلى الآن، ففيه إيهامُ أنَّ رؤيتَهم مُحْتَمِلَةُ الحصول

دلالةُ الفعلِ المضارعِ على استمرارِ التَّهكُّم وتَجَدُّدِهِ

(1) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 8/488.
(2) الزّمخشري، الكشاف: 2/47.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/383.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/193، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/587.

بعدُ في المستقبل، وذلك زِيادَةً في التَّهكُّم"[1]، أي: ما نرى حتَّى الآن أولئك الشُّفعاءَ المزعومين، وما زلنا لا نرى، ولو عبَّرَ بالفعلِ الماضي، كأن يقولَ: (وما رأينا معكم شفعاءكم)، لدلَّ على التَّهكُّم مرَّةً واحدةً، ولكن التَّعبيرَ بالمضارع دلَّ على استمرارِ التَّهكُّم وتجدُّدِه.

بلاغةُ التَّعبيرِ بالمعيَّةِ في قوله: ﴿مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ﴾:

الاحتراسُ في كونِ المنفيِّ هو رؤيةُ مصاحبةِ الشُّفعاء لهم، لا مطلقَ الرُّؤيةِ

جاءَ التَّعبيرُ بـ ﴿مَعَكُمْ﴾ احتراسًا من توهُّم نفيِ الرُّؤية عنه تعالى؛ إذ لو قال: (ما نرى شفعاءَكم)، لدلَّ على انتفاء رؤيتِه لهم على الإطلاقِ، وهذا لا يصحُّ؛ لأنَّه ﷻ يراهم، ويعلمُ ما تُكِنُّ صدورُهم، فأَخْبَرَ بالمعيَّة نفيًا لمصاحبةِ الشُّفعاء لهم.

سرُّ تقديمِ الظَّرف على المفعولِ بهِ:

التَّهكُّمُ واقعٌ بانتفاءِ المصاحبةِ، وهذا أبلغُ في التَّهكُّم بهم

في قوله: ﴿وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ﴾ قدَّم الظَّرف على المفعولِ بهِ؛ لأنَّ المرادَ هو التَّهكُّمُ بانتفاء المصاحبةِ، وهو انتفاءُ وجود الشُّفعاء معهم، وليس المرادُ نفيَ رؤية الشُّفعاء، وهذا أدلُّ على شدَّةِ التَّهكُّم، وسوف "يقال لهم بعد قبضِ أرواحِهم يومَ القيامة: ولقد أتيتمُونا منفردينَ عن الأندادِ والشُّركاءِ والشُّفعاءِ وانعدام النُّصراء، كالانفراد الأوَّلِ في وقت الخِلْقةِ عند ولادتكم من بطونِ أمَّهاتِكم"[2].

نُكتةُ إضافةِ الشُّفعاءِ إلى ضميرِ المخاطَبينَ في قوله: ﴿شُفَعَآءَكُمُ﴾:

الدَّلالةُ على شُفعاءَ معيَّنينَ، وهم آلهتُهم المعهودةُ

أضافَ الشُّفعاءَ إلى ضميرِ المشركين المخاطبين، "لأنَّه أُريدَ شُفعاءُ معهودون، وهم الآلهةُ الَّتي عبدوها، وقالوا: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾"[3]، وفيه بيانٌ على أنَّ كونهم شفعاءَ ليس حقيقةً، ولكنَّه بظنِّهم وزعمِهم هم وحسب؛ لذلك اختصُّوا بهم بالإضافة.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/384.
(2) وهبة الزّحيلّي، التّفسير المنير: 1/583.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 7/384.

سرُّ العدولِ عن لفظِ (آلهتكم) إلى: ﴿شُفَعَآءَكُمُ﴾:

يومُ القيامةِ لا يغني الشُّفعاء، ولا ينفعُ الوسطاء

في قوله تعالى: ﴿وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمۡ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُمۡ أَنَّهُمۡ فِيكُمۡ شُرَكَٰٓؤُاْۚ﴾، عدلَ عن الآلهةِ إلى الشُّفعاء، لإظهار الصِّفة الَّتي من أجلها عبدوهم، فهم إنَّما عبدوهم لِما ظنُّوا أنَّهم سيشفعونَ لهم، والظَّاهرُ أنَّهم طَمِعوا في آلهتِهم المعبودةِ، لتقومَ بالشَّفاعةِ لهم في يومٍ يكونون فيه أحوجَ مايكونون للشَّفاعة، فإذا بهم يفاجَؤون بأنَّ شُفعاءَهم غائبون في ذلك المشهدِ المزلزلِ، وحينها يقالُ لهم على سبيلِ التَّهكُّم والتَّنبيهِ إلى فسادِ اعتقادِهم في شُفعاءَ لا يملكون لأنفسِهم نفعًا ولا ضرًّا: ﴿وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمۡ شُفَعَآءَكُمُ﴾!

نُكتةُ وصفِ الآلهةِ باسمِ الموصولِ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ المخصَّصِ للعقلاءِ:

يومُ الحسابِ لا يأذنُ اللهُ بالشَّفاعة إلَّا لمن ارتضاهُ

اسمُ الموصولِ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ "وصْفٌ للشُّفعاءِ، وهم حجارةٌ، وكان الموصول بعبارة ﴿ٱلَّذِينَ﴾ الَّتي تكون للعقلاء إجراءً على لفظ الشُّفعاء لَا على حقيقتهم"[1]، تنزيلًا لهم منزلةَ الشُّفعاءِ العقلاءِ لظنِّ المشركين بهم ذلك، و"هو تنبيهٌ لهؤلاءِ الغافلين، وإلفاتٌ لهم أن يخرجوا من هذا الوُجومِ الَّذي هم فيه، ومن تلك السَّكْرةِ المستوليةِ عليهم، حتَّى يديروا أنظارَهم إلى ما حولهم، ليبحثوا عن معبوداتِهم الَّتي كانوا على ولاءٍ لها، واطمئنانٍ بها .. يفزعون إليها في كلِّ شدَّة، ويُهْرَعون إليها عند كلِّ مُلِمَّةٍ، وهذهِ هي مُلِمَّةُ الملمَّاتِ، وشدَّة الشَّدائد .. فأين هؤلاءِ الشُّفعاءُ؟ وأين ما كان يُرجى منهم عند كلِّ بلاءٍ؟ .. فليدعوهم .. فَلْيَجيؤوا لهم.. إن كانوا صَادقين! إنَّه لا شيءَ هنا، إلَّا الوحشةُ المطبِقةُ، والحسرةُ القاتلةُ، والخسرانُ المبيُن..!"[2].

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2596.

(2) عبد الكريم الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 4/242.

إيثارُ التَّعبيرِ بالزَّعمِ دون القولِ في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُمۡ أَنَّهُمۡ فِيكُمۡ شُرَكَآؤُۚ﴾:

عبَّر بالزَّعم دونَ (القول) وغيرِه للدَّلالةِ على سوءِ اعتقادِهم؛ إذ "الزَّعم: القولُ الباطلُ، سواءٌ كان عن تعمُّدٍ للباطل، كما في قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزۡعُمُونَ أَنَّهُمۡ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ﴾ [النِّساء: 60]، أم كان عن سوءِ اعتقادٍ، كما هنا"[1]، "فإنَّ المشركينَ يُشرِكونَ باللّهِ، ويعبدونَ معه الملائكةَ، والأنبياءَ والصَّالحينَ وغيرهم، وهم كلُّهم للّه، ولكنَّهم يجعلون لهذه المخلوقاتِ نَصيبًا من أنفسهم، وشِرْكَةً في عبادتهم، وهذا زعمٌ منهم وظلمٌ، فإنَّ الجميعَ عبيدُ للّه، واللّه مالكهم، والمستحقُّ لعبادتهم، فَشِرْكُهم في العبادةِ، وصرفُها لبعض العبيد، تنزيلٌ لهم منزلةَ الخالق المالك، فيُوبَّخون يومَ القيامة، ويُقال لهم هذه المقالةُ"[2].

أيُّ اعتقادٍ لا يُبنى على يقينٍ؛ فهوَ زعمٌ باطلٌ بلا ريبَ

الغرضُ من جملةِ الصِّلةِ: ﴿ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُمۡ أَنَّهُمۡ فِيكُمۡ شُرَكَآؤُۚ﴾:

وصفَ الشُّركاءَ بالموصولِ في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُمۡ أَنَّهُمۡ فِيكُمۡ شُرَكَآؤُۚ﴾، لبيان بطلانِ كونِهم شركاءَ؛ إذ لو قال: ﴿وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمۡ شُفَعَآءَكُمُ﴾، بلا الاسمِ بالموصولِ المضمَّنِ الصِّلةَ الدَّالَّةَ على اعتقادهم الباطلِ؛ لاحتملَ ذلك أن يكونَ إقرارًا بكونهم شركاءَ، فكان التَّصريحُ بأنَّ ذلك مجرَّدُ زعمٍ، تبيينًا لبطلانه.

كلُّ زعمٍ يُدَّعَى فيه ما ليس بحقٍّ، فهو باطلٌ لا محالة

عِلَّةُ تقديمِ الجارِّ والمجرورِ في قوله: ﴿زَعَمۡتُمۡ أَنَّهُمۡ فِيكُمۡ شُرَكَآؤُۚ﴾:

في قولِه جلَّ شأنُه: ﴿ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُمۡ أَنَّهُمۡ فِيكُمۡ شُرَكَآؤُۚ﴾ قدَّمَ الجارَّ والمجرورَ ﴿فِيكُمۡ﴾ على متعلَّقِه ﴿شُرَكَآؤُۚ﴾ "للاهتمامِ الَّذي وَجْهُه التَّعجيب من هذا المزعوم؛ إذ جعلوا الأصنامَ شركاءَ للّه في

شدَّةُ إيمانِهم بأوثانِهم تُفضي إلى الإيغالِ في شدَّةِ عُبوديَّتِهم لها

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 7/384.

(2) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 264.

أنفسهم"[1]، وفي ذلك مبالغةٌ في شدَّةِ شِركهم، إذ يرونَ أنَّ للأوثان نصيبًا في ذواتهم، إيغالًا في شدَّة عبوديَّتِهم، ويدلُّ على أنَّهم كانوا يؤمنون بأوثانهِم غايةَ الإيمانِ؛ إذ بالغوا في عبادتهِم والاعتقاد بهم حتَّى جعلوهم شركاءَ في أنفسِهم.

الغرضُ منَ الاستئنافِ في قوله: ﴿لَقَد تَّقَطَّعَ بَيۡنَكُمۡ﴾:

قولُهُ جلَّ شأنُه: ﴿لَقَد تَّقَطَّعَ بَيۡنَكُمۡ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمۡ تَزۡعُمُونَ﴾، استئنافٌ بيانيٌّ للجملةِ في قوله تعالى: ﴿وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمۡ شُفَعَآءَكُمُ﴾؛ "لأنَّ المشركين حين يسمعونَ قولَه: ما نرى معكم شفعاءَكم، يعتادُهم الطَّمعُ في لقاءِ شفعائهم، فيتشوَّفون لأن يعلموا سبيلَهم، فقيلَ لهم: لقد تَقَطَّع بينَكم؛ تأييسًا لهم بعدَ الإطماعِ التَّهكُّميِّ"[2].

استأنفَ تأييسًا لهم، بعد أن أرخى لهم الطَّمعَ بلقاءِ شُركائِهم

دلالةُ تأكيدِ الخبرِ في قوله: ﴿لَقَد تَّقَطَّعَ بَيۡنَكُمۡ﴾:

عبَّرَ بصيغةِ التَّفعيلِ للدَّلالةِ على التَّكثيرِ، فقولُه تعالى: ﴿لَقَد تَّقَطَّعَ﴾، "أي: تقطُّعًا كثيرًا"[3]، والمرادُ من ذلك المبالغةُ في شدَّة الانقطاع، وفيه مزيدٌ من التَّهكُّم.

التَّعبيرُ بالتَّكثيرِ والمبالغةِ، قد يكونُ دلالةً على الاستهزاءِ

بلاغةُ استعارةِ لفظِ التَّقطيعِ للبُعدِ في قوله: ﴿لَقَد تَّقَطَّعَ بَيۡنَكُمۡ﴾:

قوله جلَّ شأنُه: ﴿لَقَد تَّقَطَّعَ بَيۡنَكُمۡ﴾، استعار التَّقطيعَ الدَّالَّ على الانفصالِ، للدَّلالةِ على البعد بين المشركينِ وآلهتهم؛ إذ قد "شاع في كلامِ العرب ذكرُ التَّقطُّع مستعارًا للبُعد وبطلانِ الاتِّصال، تبعًا لاستعارةِ الحبلِ للاتِّصالِ"[4]، فكما دلَّ الحبلُ على الوصلِ، استعاروا من قَطْعِ الحبلِ دلالةً على انقطاع الوصلِ، ويكونُ المعنى لقد تقطَّعتِ المسافةُ بينهم مع بُعدِها وطولِها[5]، وفي ذلك ترويعٌ لهم بانقطاعِ ما كانوا يتأمَّلون.

في الآخرةِ يحصلُ البُعدُ والانقطاعُ عنِ الآلهةِ المزعومةِ الباطلةِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/384.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/385.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/193.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/385.
(5) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/324 - 325.

بلاغةُ الإيجازِ بحذفِ الفاعلِ في قوله: ﴿لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ﴾:

الحذفُ للإبهامِ والتَّهويلِ، يشملُ كلَّ متقطِّعٍ بينَهم كالوصلِ والشَّفاعةِ

لم يذكرِ الفاعلَ وتركه مبهمًا، لما في الإبهام من التَّهويل، واهتمامًا بالتَّقطيع وتوسيعًا له ليشملَ كلَّ ما يمكن أن يتقطَّع بينهم، كالوصلِ والشَّفاعة وغيره، ممَّا ينفعهم، فالمقصودُ "حصولُ التَّقطُّع، ففاعله اسمٌ مبهمٌ، ممَّا يصلحُ للتَّقطُّع، وهو الاتِّصالُ، فيقدَّر: (لقد تقطَّع الحبلُ أو نحوه)"[1].

توجيهُ قراءةِ الرَّفع في (بينُكم) في قوله: ﴿لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ﴾:

القراءةُ القرآنيَّةُ ملمحٌ لتنوُّعِ الأعاريبِ، وتلوُّنِ الأساليبِ

قُرِئَ قولُه تعالى: ﴿بَيْنَكُمْ﴾ بالرَّفع والنَّصب[2]، فقرأ "جمهور السَّبعة (بينُكم) بالرَّفعِ على أنَّه اتَّسع في الظَّرف، وأسند الفعلَ إليه فصارَ اسمًا"[3]، وفي توجيهِ القراءتَينِ قال الفخرُ الرَّازيُّ: "هذا اللَّفظ إنَّما يستعمل في الشَّيئين اللَّذين بينهما مشاركةٌ ومواصلةٌ من بعض الوجوهِ، كقولهم: بيني وبينه شَركةٌ، وبيني وبينه رحمٌ، فلهذا السَّببِ حَسُنَ استعمالُ هذا اللَّفظ في معنى الوُصْلَةِ، فقوله: ﴿لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنُكُمْ﴾ بالرفع، معناهُ لقد تقطَّع وصلكم، أمَّا مَن قرأ: ﴿لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ﴾ بالنَّصب، فَوَجْهُهُ أنَّه أضمرَ الفاعلَ، والتَّقدير: لقد تقطَّع وصلُكم بينكم"[4]، فقراءةُ النَّصب تدلُّ على مكان الاتِّصال، والمعنى في قراءةِ الرَّفع تدلُّ على انفصالِ المكان الَّذي كان محلَّ الاتِّصال، فيكون كنايةً عن انفصال أصحابِ المكانِ الَّذي كان محلَّ اجتماع[5].

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/385.

(2) قرأ نافع وحفص عن عاصم والكسّائي وأبو جعفر ويعقوب ﴿بَيْنَكُمْ﴾ بالنّصب، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر وحمزة وعاصم في رواية أبي بكر (بينُكم) بالرّفع، ينظر: ابن مجاهد، السّبعة: 263، وابن الجزريّ، النّشر: 2/260.

(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/588.

(4) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 13/70.

(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/385 - 386.

بلاغةُ العطفِ في قوله تعالى: ﴿وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾:

ارتباطُ الجملتين بالعطفِ زيادةٌ في التَّهكُّم والتَّيئيس

قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ معطوفٌ على قوله تعالى: ﴿لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ﴾؛ لأنَّه "من تمام التَّهكُّم والتَّأييس"[1]؛ تأكيدًا لانقطاع الصِّلة بينهم[2].

فائدةُ التَّعبيرِ بالضَّلالِ في قوله: ﴿وَضَلَّ عَنكُم﴾:

ضلالهُم عنهم يؤكِّد انقطاعَ الصِّلة بينهم وبين آلهتِهم في الآخرةِ

عبَّر بفعلِ الضَّلال في قوله تعالى: ﴿لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾؛ تأكيدًا لتقطُّع السُّبلِ بهم، وانقطاع الصِّلة بينَهم، "ومعنى ضلَّ: ضدُّ اهتدى، أي: جَهِلَ شفعاؤُكم مكانَكم لمّا تقطَّع بينَكم، فلم يهتدوا إليكم، ليشفعوا لكم"[3].

بلاغةُ الإيجازِ بالحذْفِ في قوله: ﴿مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾:

الاكتفاءُ بالمذكورِ سابقًا بغايةِ تطلُّبِ الإيجازِ

جاء الفعلُ (زَعَمَ) بلا مفعولَيْهِ، فَحَذفَهُما، والتَّقدير: تزعمونهم شفعاءَ[4]، وذلك "لدلالةِ نظيرِهِ عليهما في قوله: ﴿زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ﴾"[5].

بلاغةُ التَّعبيرِ بـ﴿مَّا﴾ الدَّالِّ على غيرِ العاقلِ في قوله: ﴿مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾:

الإعلامُ بانتفاءِ فائدةِ المعبوداتِ منَ الأصنامِ

بعد أن عبَّر عنِ الأصنام باسم الموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ﴾، عبَّرَ عنهم هنا باسمِ الموصول (ما)، الدَّالِّ على غيرِ العاقلِ، فقالَ جلَّ شأنه: ﴿وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾؛ "لظهورِ عدمِ جدواه"[6]، ولم يقلْ: (الّذين كنتم تزعمون)؛ لأنَّ المشركين تيقَّنوا عند ذلك أنَّ الأصنام ليست إلَّا حجارةً، لا تضرُّ ولا تنفعُ، فعبَّر عنها بما يليقُ بها، وهو (ما) وليس (الَّذين).

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/386.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2597.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/386.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/589.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/386.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/386.

دلالةُ التَّعبيرِ بـ (كان) والفعلِ المضارعِ في قوله: ﴿مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾:

التَّعبيرُ بفعلِ الكينونَةِ وخبرِهِ المضارعِ للدَّلالَةِ على التَّجدُّدِ والاستمرارِ

عبَّرَ بـ (كان) في قولهِ جلَّ شأنُه: ﴿مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾، للدَّلالة على التَّجدُّدِ والاستمرارِ؛ لأنَّ التَّعبيرَ بـ (كان) يدلُّ على الاستمرارِ، والمضارعُ يدلُّ على التَّجدُّد، والمعنى: "الَّذي كنتم مستمرِّين عليه مجدِّدين له آنًا بعد آنٍ"[1]، وفيه دلالةٌ على إصرارِهم على ذلك الزَّعمِ.

بلاغةُ الجِناسِ غيرِ التَّام بينَ ﴿زَعَمْتُمْ﴾ و﴿تَزْعُمُونَ﴾:

الجناسُ جمالٌ في التَّعبيرِ، وتأكيدٌ على سوءِ معتقدِ المذكورينَ

بين اللَّفظين: ﴿زَعَمْتُمْ﴾، و﴿تَزْعُمُونَ﴾ في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ جِناسٌ ناقصٌ، وهو تجميلٌ لِلَّفظِ، وتأكيدٌ للمعنى؛ إذ فيه تنبيهُ السَّامعِ على سوءِ معتقدِهم، بتَكرارِ اللَّفظ الدَّالِّ على البُطلانِ.

بلاغةُ التَّصديرِ في الفاصلةِ القرآنيَّةِ ﴿تَزْعُمُونَ﴾:

بناءُ البداياتِ على النِّهاياتِ مبيِّنٌ للمعنى، ومجمِّلٌ للمبنى

في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ تصدير[2]؛ حيث جعلَ اللَّفظَيْن المكرَّرَيْن في طرفَي العبارةِ، وبلاغةُ هذا التَّصدير أنَّ ما ورد في صدر العبارة هو تمهيدٌ لما سيأتي في الفاصلةِ، فيتعلَّق معناها بمعنى الكلامِ السَّابق كلِّه، على وجهِ التَّمامِ.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الحسبان والزّعم:

الحسبانُ للباطلِ فحسبُ، والزَّعمُ للباطلِ والحقِّ معًا

"الحسبانُ لا يكونُ إلَّا باطلًا قال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾﴾ [المؤمنون: 115]، والزَّعمُ قد يكون حقًّا، وقد يكون باطلًا"[3]، وفي الآية أسندَ إلى الزَّعم المشركين

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2597.

(2) التّصدير: هو ردّ العجز على الصّدر، وهو عبارة عن جعلك أحدَ اللّفظين المتكرّرين في أوّل الفقرة والآخر في آخرها. يُنظر: السّبكيّ، عروس الأفراح: 2/293.

(3) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 185.

بشأن آلهتِهم، وهي باطلةٌ، ولكنَّه عبَّر بالزَّعم؛ لأنَّهم ظنُّوا أنَّهم على حقٍّ، فعبَّر بذلك على حسب ظنِّهم، ومجاراة لهم.

الفرد والواحد:

الفردُ مشتقٌّ من (فرد): وهو توحُّدُ الشَّيءِ بذاتِه، منقطِعًا ومنعزِلًا عمَّا يُشاكِلُه، ولا يختلطُ به غيرُه، فهو أعمُّ من الوِتْرِ وأخصُّ من الواحد، وجمعه: فُرَادَى، وظبيةٌ فاردٌ: انقطعت عن القطيع، أي: لا يتَّصل به شيءٌ من شكله[1]. أمَّا الواحد: فهو أوَّلُ عدد الحساب بُني على انقطاعِ النَّظيرِ وعَوَزِ المِثْلِ؛ هُوَ واحدُ قبيلته: إذا لم يكن فيهم مِثْلُه[2].

الفردُ يفيدُ الانفرادَ عن قرينِهِ، والواحدُ يفيدُ الانفرادَ في الذَّاتِ أو الصِّفةِ

وقال أبو هلالٍ في الفُروق: "الفردُ: يُفيد الانفرادَ من القِرْنِ، والواحدُ: يفيد الانفرادَ في الذَّات أو الصِّفة، ألا ترى أنَّك تقول: فلانٌ فردٌ في دارِه، ولا تقول: واحدٌ في داره، وتقول: هو واحدُ أهلِ عصرِه، تريد أنَّه قد انفردَ بصفةٍ ليس لهم مثلها، وتقول: اللّه واحد، تريد أنَّ ذاته منفردةٌ، عن المثل والشَّبهِ"[3]. وفي الآية عبَّر بالفردِ؛ لأنَّه أخصُّ من الواحد، لدلالتهِ على ما لايختلِط بغيره، وهو المرادُ في الآيةِ الكريمةِ، فالحسابُ للنَّاس يومَ القيامة يكون فردًا فردًا.

التَّخويل والتَّمليك:

أصلُ التَّخويلِ الإرعاءُ، يقالُ: أَخْوَلَهُ إبِلَهُ؛ إذا استرعاهُ إيَّاها، فَكَثُر حتَّى جعل كلَّ هبةٍ وعطيَّةٍ تخويلًا، كأنَّه جعل له من ذلك ما يرعاه[4]، والمُلك مشتقٌّ من (ملَك) وهو أصلٌ يدلُّ على قوَّةٍ في الشَّيءِ وصحَّةٍ، يقال: أَمْلَكَ عَجِينَهُ: قَوَّى عَجْنَهُ وَشَدَّهُ، وَمَلَّكْتُ الشَّيْءَ: قَوَّيْتُهُ، ثمَّ قيل: مَلَكَ الإنسانُ الشَّيءَ، يملكُه ملكًا؛ لأنَّ يده فيه قويَّة صحيحة،

التَّمليكُ شدَّةُ الملكِ والتَّصرُّف، والتَّخويلُ إنابةٌ في التَّصرُّف

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (فرد).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (وحد).
(3) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 400.
(4) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 120 - 121.

قال تعالى: ﴿أَوۡ مَا مَلَكۡتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ﴾ [النّور: 61]، أي: ممَّا اختزنْتُم، وصار في قبضَتِكُم[1]. وعليه فإنَّ التَّمليك يدلُّ على شدَّة الملك والتَّصرُّف، أمَّا التَّخويلُ فهو إنابةٌ في التَّصرُّف، فهو أقلُّ من التَّمليك.

والمراد في الآية: الإنابةُ، وهو أنسبُ للسِّياقِ؛ إذ قد ذكر في سياقِ الموتِ ومفارقةِ ما كان يملك، فلا يناسبه أن يُوصفَ بشدَّة الملك والتَّصرُّف.

التَّقطُّع والتَّمزُّق والتَّفرُّق:

المـرادُ في الآيـةِ التَّقطيعُ بينهم وبـين آلهتِهم، وليس تمزيقَهم ولا تفريقَهم

التَّفريقُ: جعل الشَّيءَ مفارقًا لغيره[2]، وهو فصلُ بعض الشَّيءِ أو الأشياء من بعضها الآخرِ فصلًا واصلًا إلى العمق[3].

والتَّمزيقُ: مشتقٌّ من (مزق) وهو أصلٌ يدلُّ على تخرُّقٍ في شيء، مَزَقْتُ الثَّوبَ أمزُقُهُ مَزْقًا: خرقْته[4]. التَّمزيقُ: شقُّ الشَّيء شَقًّا واصلًا إلى عمقِه، كالثَّوبِ وقِطَعِ السِّحاب[5].

والتَّقطيعُ: إبانةُ بَعْضِ أَجزاء الجِرْمِ مِنْ بعضٍ فَصْلًا[6]، أو فَصْلُ بعضِ الجِرْمِ الممتدِّ الملتحم الرَّقيقِ عَنْ بعضِه[7].

فالتَّفريق: يدلُّ على مفارقةِ شيءٍ لغيره، والتَّمزيقُ: شقُّ الشَّيء، والتَّقطيع: الفصلُ بين أجزاءِ الجِرْمِ الواحد، وهو المرادُ في الآية، وهو قَطْعُ الصِّلةِ الَّتي بينهم وبين آلهتهم، وليس تمزيقَهم ولا تفريقَهم، بل انتفاءَ الصِّلة بينهم، وهذا ما يعبِّرُ عنه التَّقطيعُ.

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (ملك).
(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 403.
(3) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (فرق).
(4) الجوهريّ، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (مزق).
(5) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (مزق).
(6) ابن منظور، اللّسان: (قطع).
(7) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (قطع).

﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلۡحَبِّ وَٱلنَّوَىٰۖ يُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَمُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتِ مِنَ ٱلۡحَيِّۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُۖ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ ٩٥﴾ [الأنعام: 95]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

العلاقةُ بين يَقينِ المصيرِ، والتّذكيرِ بآياتِ الخلْقِ وكمالِ التَّدبيرِ

لمّا ذكرَ الحقُّ ﷻ في الآيةِ السَّابقةِ مَشهَدًا من مَشاهدِ البعثِ والخَلقِ بقولِه: ﴿وَلَقَدۡ جِئۡتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَتَرَكۡتُم مَّا خَوَّلۡنَٰكُمۡ وَرَآءَ ظُهُورِكُمۡۖ﴾ [الأنعام: 96]، ذَكّرَ هنا - من آياتِه الباهراتِ - بما فيه تنبيهٌ على النَّظرِ والاعتبارِ، وأنَّه تعالى له جميعُ صِفاتِ الكمالِ، وهو قادرٌ على كلِّ شَيءٍ[1] منْ فَلْقِ الحَبَّةِ الرَّطْبةِ والنّواةِ الصُّلبةِ، وإخراجِ النَّباتِ الأخضرِ النَّامي؛ فهذه من آياتِ اقتِدارِه، وكمالِ عِلمِه وتَدبيرِه، فساقَ الحقُّ ﷻ من دلائلِ القُدرةِ على خَلقِ النَّباتِ، وهو لأجلِ الحَيَوانِ، ولمَّا عُلِمَ أنَّ الغايةَ من تَخْليقِ الحيواناتِ جميعًا هي لأجلِ الإنسانِ، عُلِمَ أنَّ العِنايةَ على تَخليقِ الإنسانِ هي أسمَى وأكملُ[2]، ومَنْ كانَت هذه قُدْرَتَه فهو الخليقُ بالعبادةِ، لا تلك الأصنامُ الّتي كانوا يَعبدونَها[3].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَالِقُ﴾: اسمُ فاعلٍ جذرُهُ اللّغويُّ (فلق)، والأصلُ في معناه: دلالَتُهُ على فَرْجِ الشَّيءِ وبَيْنُونَتِه[4]، وفَلَقَ الشَّيءَ بمعنى: شَقَّهُ شقًّا عَميقًا، وأبانَ بَعضَهُ عن بعضٍ[5] ووضَّحَهُ. ومعنى قوله: ﴿فَالِقُ ٱلۡحَبِّ﴾؛ أي: أنّه تعالى يشقُّ الحَبَّ اليابسَ ليُخرِجَ منه الوَرَقَ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/194.
(2) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 13/96 - 97.
(3) الخازن، لباب التّأويل: 2/162، والآلوسّي، روح المعاني: 4/214.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (فلق).
(5) الرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (فلق).

الأخضَرَ[1]، ويَفْلِقُ النَّواةَ على الرُّغمِ من شِدَّتِها وصَلابَتِها؛ فيُخرِج منها نقيضَ ذلك، نَباتًا أخضرَ لَيِّنًا[2].

2) ﴿ٱلْحَبِّ﴾: اسمُ جنسٍ يدلُّ على القليلِ والكثيرِ، وجذرُهُ اللّغويُّ (حبب)، ومفردُهُ حَبَّةٌ، واحدة الحُبُوبِ، والحَبَّةُ: القِطعَةُ منَ الشَّيءِ[3]، وأصلُهُ تَجمُّعُ ما كان دَقيقًا، أو لطيفًا حتّى يكون صُلبًا مُكتَنِزًا كحبوبِ الزُّروعِ والثِّمارِ، والحَبُّ يُطلَقُ على الحِنطَةِ والشَّعيرِ ونحوِهما، وكذلك يشمَلُ بذورَ الرَّياحين[4]، وهو في الآيةِ اسمٌ دالٌّ على الجَمعِ، مُفردُهُ حَبَّةٌ، يُثمِرُهُ النَّباتُ[5].

3) ﴿وَٱلنَّوَىٰ﴾: جمعُ تكسيرٍ مفردُهُ نَوَاةٌ، وهو ما في التَّمرِ[6] من خشبٍ أو كالخشبِ في داخلِهِ، وجذرُهُ اللّغويُّ (نوي)[7]، ومعنى النَّوى المحوريُّ: أنْ تجدَ جوفَ شيءٍ قد احتَوَى في داخلِهِ على جِرْمٍ كثيفٍ مُتجمِّعٍ مُمتَدٍّ فيه، مثلما تكونُ النَّواةُ في التَّمرةِ[8]، ومثلُهُ ما لم يكنْ حبًّا كَنَوَى المِشمِشِ والخَوخِ وأضرابِهِ، ومعنى ﴿وَٱلنَّوَىٰ﴾ في سياقِ الآيةِ: كلُّ ما يَنبُتُ منَ الزُّروعِ والثِّمارِ ممّا له نواةٌ فيخرجُ منه الشَّجرُ[9].

4) ﴿يُخْرِجُ﴾: جذرُه اللّغويُّ (خرج)، وهو هنا فعلٌ مَزيدٌ بهمزةِ التَّعديةِ؛ فثمّةَ مَن قامَ بالإخراجِ، وهو الحقُّ ﷻ ومنه الخُروجُ، وهو نقيضُ الدُّخولِ[10]، ولهذا الجذر أصلٌ يدلُّ على النّفاذِ عنِ الشَّيءِ[11]، والإخراجُ يكونُ كثيرًا شائعًا في الأعيان[12]، ومعنى ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ﴾: إخراجُهُ تعالى النَّباتَ الحيَّ النَّاميَ منَ الحَبِّ والنَّوى الميّتِ اليابسِ؛ لكونِهِ جمادًا[13].

---

(1) السّمين، عمدة الحفّاظ: (فلق).
(2) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنّة: 4/180، والزّمخشريّ، الكشّاف: 2/374.
(3) الجوهريّ، الصّحاح: (حبب).
(4) الرّاغب، المفردات: (حب)، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (حبب - حبحب).
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/388.
(6) الجوهريّ، الصّحاح: (نوي).
(7) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نوي).
(8) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (نوى).
(9) ابن جرير، جامع البيان: 11/550.
(10) الخليل، العين: (خرج).
(11) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (خرج).
(12) الرّاغب، المفردات، والسّمين، عمدة الحفّاظ: (خرج).
(13) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 3/304، وابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 8/306.

5) ﴿ٱلۡحَيَّ﴾: اسمٌ مُجرَّدٌ يدُلُّ على ما تكونُ فيه الرّوحُ، فكلُّ ذي رُوحٍ[1] يَنطَبقُ عليه اللّفظُ، وجذرُهُ اللّغويُّ (حيو)، والأصلُ في معناه أنّه ضدُّ الموتِ في أحدِ مَعْنَييه[2]، وهو أيضًا: "قوّةٌ ساريةٌ تتمثّلُ في الحِسِّ والنُّموِّ، وهو حركةٌ واتّصالٌ وامتدادٌ مع الطّراءَةِ، وجسمُ الميّتِ يَتَصَلَّبُ"[3]، ويَرِدُ هذا اللّفظُ للقوّةِ النّاميةِ المُتوافرَةِ في النَّباتِ والحَيوانِ؛ فيُوصفُ النَّباتُ بالحَيِّ[4]، ومعنى ﴿ٱلۡحَيَّ﴾: هنا يشمَلُ الإنسانَ والحيوانَ بإخراجِهما منَ النُّطفةِ، ويشمَلُ الطَّيرَ منَ البيضةِ، وكذا السُّنبلةَ والثِّمارَ منَ الحبِّ والنَّوَى[5].

6) ﴿ٱلۡمَيِّتِ﴾: اسمٌ مُجرَّدٌ يدُلُّ على ما ليسَ فيه الرُّوحُ، جذرُهُ اللّغويُّ (موت)، ولهذا الجذر أصلٌ في كلام العربِ يدُلُّ على انقضاءِ القُوّةِ منَ الشَّيءِ أو الجِسمِ، والموتُ خلافُ الحياةِ، وهي القوّةُ النّاميةُ الموجودةُ في الإنسانِ والحيوانِ والنَّباتِ[6]، كقولِهِ تعالى: ﴿فَيُحۡيِۦ بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَآۚ﴾.

7) ﴿تُؤۡفَكُونَ﴾: فعلٌ جذرُهُ اللّغويُّ (أفك)، ومعنَى الإفكِ: الكَذِبُ، ويُؤْفَكون؛ أي: يُصْرَفونَ عنه بالكذِبِ والباطِلِ[7]، والأصلُ في معنى الهمزةِ والفاءِ والكافِ: هو أنْ تَقْلِبَ الشَّيءَ، وتَصرِفَهُ إلى غير جِهَتِهِ[8]، وأكثرُ ما يُستعمَلُ في الكذبِ؛ "لأنّ الكذبَ صَرْفُ الكلامِ عمّا ينبغي أن يكونَ عليه"[9]، وكلُّ ما وَرَدَ في القرآنِ الكريمِ منِ اشتقاقاتِ هذه المادّةِ اللُّغويّةِ فهو بمعنى التّغيير، والصَّرفِ عنِ الوجهِ الصَّحيحِ الَّذي يَجِبُ أن يكونَ ماديًّا أو معنويًّا[10]، ومنه اللّفظةُ مَوضِعُ الشّاهدِ ﴿تُؤۡفَكُونَ﴾؛ أي: أنّكم تُصرَفُونَ عن عبادَتِهِ وتوحيدِهِ إلى غيرِهِ منَ الشِّركِ والكفرِ والضَّلالِ[11].

(1) الخليل، العين: (حيو).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حيّ).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (حيي).
(4) الرّاغب، المفردات: (حيي).
(5) ابن عبّاس، تنوير المقباس، ص: 115، والنّيسابوريّ، غرائب القرآن: 3/125.
(6) الرّاغب، المفردات، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (موت).
(7) الخليل، العين، وابن دريد، جمهرة اللّغة: (أفك).
(8) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (أفك).
(9) السّمين، عمدة الحفّاظ: (أفك).
(10) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (أفك).
(11) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2600، والشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 6/3807.

❁ المَعْنى الإجْمالِيُّ:

تَجلّياتُ قُدرةِ الله في الإنباتِ، والتّصرّفِ في الحياةِ والمماتِ

يُخبرُ الحقُّ ﷻ عن نفسِهِ بأنّه مُوجِدُ ما في العالَمِ منَ الأعيانِ؛ فهو الّذي يشُقُّ الحبّةَ الصُّلْبةَ، والنّواةَ القاسيةَ؛ فيُخرج منها الزَّرعَ الأخْضرَ، وفي ذلك علامةٌ على قدرتِهِ تعالى بإخراجِ الحيِّ منَ الميّتِ، والميّتِ منَ الحيِّ؛ فذلك الشَّقُّ والفَلْقُ آيةٌ من آياتِهِ الدّالّةِ على كمالِ سُلطانِهِ، وتمامِ تدبيرِهِ؛ فلا لحُكْمِه رَدٌّ، ولا لحقِّهِ جَحْدٌ، فذلكم اللّهُ فاعلُ هذهِ الأشياءِ، وهو المُحيي والمُميتُ، فأنّى تُصرَفونَ منَ الحقِّ إلى غيرِهِ منَ الباطِلِ[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ الاستئنافِ، وأثرُها في دلالةِ السّياقِ:

الاعتبارُ بخلْقِ اللهِ القديرِ، مُنبئٌ عن إعجازِهِ الجديرِ

قولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلۡحَبِّ وَٱلنَّوَىٰۖ﴾ استئنافٌ ابتدائيٌّ فيه تَحَوُّلٌ منَ الحديثِ عنِ التّوحيدِ والبعثِ مع بسطِ البراهينِ إلى الاتّعاظِ والاعتبارِ بخلقِ اللّهِ، وعجائبِ صُنعِهِ[2]، وكمالِ قُدرتِهِ وتدبيرِهِ المُفضِي إلى الإقرارِ بوحدانيّتِهِ، وانفرادِهِ بالإلهيّةِ المُطلَقةِ؛ ولذلك اقتضَى الاستئنافَ.

سِرُّ التّأكيدِ بالحرف ﴿إِنَّ﴾، وأثرِه في تَرسيّةِ المعنى:

قُدرةُ الله على الصُّنعِ الحكيمِ، كقُدرتِه على إحياءِ العظامِ وهي رميمٌ

قولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلۡحَبِّ وَٱلنَّوَىٰۖ﴾ استهلَّ الآيةَ بحرفِ التَّوكيدِ ﴿إِنَّ﴾؛ لتأكيدِ قدرتِهِ تعالى على الخلقِ والإيجادِ[3]، وهو مَوضوعٌ جديرٌ بتوكيدِهِ وتقريرِهِ في النّفوسِ.

دلالةُ التّعبيرِ بالجُملةِ الاسميّةِ، في مطلعِ هذه الآيةِ القرآنيّةِ:

في قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلۡحَبِّ وَٱلنَّوَىٰۖ﴾، جاءَ المُسندُ إليهِ ﴿ٱللَّهَ﴾، والمُسنَدُ ﴿فَالِقُ﴾ جملةً اسميّةً؛ ليدُلَّ على ثبوتِ هذا الوصفِ

(1) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 2/174، وابن كثير: تفسير القرآن العظيم: 3/304.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/387.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/387.

وأبديّتِه؛ فهو منَ النُّعوتِ الذّاتيّةِ له ﷻ فعلًا وقُدرةً[1]. وجاءَتِ الجملةُ اسميّةً بالاسمِ الجليلِ مُسنَدًا إليه، واسمِ الفاعلِ المُعرَّفِ بالإضافةِ إلى مفعولِهِ، وما يترتَّبُ على ذلك من كَونِ الفاعلِ في اسمِ الفاعلِ ضميرًا يعودُ على الاسمِ الجليلِ، كأنَّ إسنادَ الفَلْقِ إلى اللّهِ على هذا الوجهِ الثّابتِ الدّائمِ وقعَ مرَّتين: الأولى بإسنادِ خبرِ ﴿إِنَّ﴾ إلى اسمِها، والثّاني بإسنادِ اسمِ الفاعلِ إلى ضميرٍ يعودُ على الاسمِ الجليلِ، وهو المُلائمُ للأدلّةِ الواردَةِ في مُواجَهةِ الشَّاكّينَ المُنكِرينَ قُدرَتَهُ على البعثِ.

اللهُ تعالى فالقُ الحَبِّ والنَّوَى، ومُوجِدُ الكونِ وما حوَى

نُكتةُ التّعبيرِ باسمِ الفاعِلِ ﴿فَالِقُ﴾، على قُدرةِ اللهِ الخالقِ.

التَّعبيرُ باسمِ الفاعلِ ﴿فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰۖ﴾ فيه دلالةُ الدَّيمومةِ والاستمرارِ؛ كما يُوصَفُ الحقُّ ﷻ بأنّه قادرٌ؛ فلا يُقصَدُ بأنّه قادرٌ في زمانٍ دونَ زمانٍ[2]، ومثله ﴿فَالِقُ﴾، فلا يُتوهَّمُ أنْ يكونَ فالقًا في زمانٍ دونَ زمانٍ، وهذا ما يُشيرُ إليه اسمُ الفاعلِ من معنى دونَ غيرِهِ منَ الأبنيةِ، وقد أطلقَ (الفالِقَ) على (المُوجِدِ) باعتبارِ أنَّ العقلَ يَتَصَوَّرُ منَ العدمِ ظُلمَةً مُتّصِلَةً لا انفراجَ فيها، ولا انفِلاقَ، فمتى أوجدَ الشّيءَ تخيَّلَ الذِّهنُ أنَّه شَقَّ ذلك العَدَمَ وفَلَقَهُ، وأخرجَ ذلك المُبْدَعَ منهُ، أو هو بمعنى: (المُخرِج)، وفيهما دلالةٌ على كمالِ القدرةِ لمَا فيه منَ العجائبِ الّتي تَصدحُ أطيارُها على أفنانِ الحِكَمِ، وتطفحُ أنهارُها في رياضِ الكَرمِ[3]. فلو عبّرَ بالمُوجِدِ لمَا أدّى ذلك المرادَ لمَا في مادّةِ (فلق) من معنى الشّقِّ بإبانةٍ.

رفعُ توهُّمِ أنْ يُحصرَ فلقُه للإنباتِ، في زمانٍ مضَى وفاتَ

دلالةُ فلقِ الحَبِّ والنَّوَى، على قُدرةِ مَن على العرشِ استوَى.

وإنّما خَصَّ صِنفي ﴿ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰۖ﴾ بالذّكرِ في قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّ

الحَبُّ والنَّوَى عامَّةُ الأبدالِ، منَ المُستنبتاتِ في كلِّ الأحوالِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/387.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/377.
(3) الآلوسّي، روح المعاني: 4/214.

﴿ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلۡحَبِّ وَٱلنَّوَىٰۖ﴾، دونَ غيرِهما؛ لأنّ عمومَ الأعواضِ في الدُّنيا منهما[1].

نُكتةُ تقديمِ (الحَبِّ) على (النَّوَى):

غالبُ قُوتِ الإنسانِ منَ الحَبِّ، ثمّ من جنَى الثَّمرِ الّذي يُحبُّ

قدّمَ الحَبَّ على النَّوَى في قولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلۡحَبِّ وَٱلنَّوَىٰۖ﴾؛ لأنَّ سوادَ قوتِ الإنسانِ وطعامِه منَ الحَبِّ كالحِنطةِ والشَّعيرِ ممّا يتشكَّلُ في السَّنابلِ والأكمامِ[2]، ثمّ يقتاتُ بعدَهُ على الثَّمرِ المُشتمِلِ على النَّوَى الّذي يشقُّ فيُخرِجُ منه الأشجارَ[3]، كالمِشمِشِ والخَوخِ والتَّمرِ ونَحوِ ذلك.

دلالةُ (الفلْقِ) المنصوصِ، على تقديمِ العُمومِ على الخُصوصِ:

تَجلّياتُ القُدرةِ على الإنباتِ، في تنوّعِ الثّمرِ وأشكالِ النّباتِ

قدّمَ الحَبَّ على النَّوَى في قولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلۡحَبِّ وَٱلنَّوَىٰۖ﴾؛ لأنَّهُ سبحانَه يُخرِجُ النَّباتَ منَ الحَبِّ، ويُخرِجُ الشَّجَرَ منَ النَّوَى[4]، وهو من بابِ تقديمِ العمومِ على الخصوصِ؛ فإنّ النّباتَ عامٌّ، والشّجرَ داخلٌ تحتَهُ، لكنّه مَخصوصٌ بشكلِه وحَجمِه وثَمَرِه.

سِرُّ إردافِ لفظِ الفلْقِ، إلى (إخراجِ الحيِّ منَ الميّتِ) في الخلْقِ:

أكثرُ الخَلقِ والإحياءِ، يكونُ بالفلْقِ للحَبّ والنّوَى

في قولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلۡحَبِّ وَٱلنَّوَىٰۖ﴾، عبّرَ بـ ﴿فَالِقُ﴾، ثمّ عقّبَهُ بقولِه تعالى: ﴿يُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ﴾ ليُومِئَ إلى أنّ بينهما تناسبًا وتعلُّقًا بينَ الفَلْقِ والحياةِ؛ لأنّك إذا تأمَّلْتَ خلقَ المخلوقاتِ وإحياءَها ألفيتَ غالبَه يحدُثُ عنِ انْفلاقٍ[5]، كالحبَّةِ والنَّواةِ وغيرِهما، وقد بيّنَ ابنُ عاشور أنَّ هذه الجملةَ تنزلُ مَنزلةَ المقصودِ ممَّا قبلَها، فهي جملةٌ مُبيِّنَةٌ للغرضِ منَ الفَلْقِ، فالفعلُ ﴿يُخۡرِجُ﴾ جاءَ كالتّفسيرِ والتَّبيينِ للاسمِ ﴿فَالِقُ﴾؛ فإنّ فَلْقَ الحَبِّ

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/591.
(2) رضا، تفسير المنار: 7/525.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/591.
(4) الشّوكانّي، فتح القدير: 2/162.
(5) الزّجّاج، معاني القرآن: 5/379.

والنَّوَى بالشَّجَرِ النَّامي والنَّباتِ الأخضَرِ من جنسِ إخراجِ الحَيِّ منَ المَيِّتِ[1]، فمَنْ سألَ عن ذلك الفعلِ وغايتِهِ أُجيبَ بأنّهُ من بابِ إخراجِ الحيِّ منَ الميِّتِ.

إيثارُ صِيغةِ المضارعِ ﴿يُخْرِجُ﴾:

الإخراجُ يَحصُلُ حالًا فحالًا، ويُبرزُ المعجزةَ بدءًا ومآلًا

آثَرَ التَّعبيرَ بالفعلِ المضارعِ في قولِهِ تعالى: ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ﴾، مع أنّ السّياقَ جارٍ على اسمِ الفاعلِ، وسِرُّ ذلك للإيذانِ بتجدُّدِ الإخراجِ والخَلْقِ والإحياءِ، ووقوعِهِ ساعةً فساعةً، وحالًا فحالًا[2]، وقد مثّلَ له عبدُ القاهرِ بقولِهِ تعالى: ﴿هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [فاطر: 3]، فرزقُهُ تعالى مُتجدِّدٌ حالًا فحالًا، ولو جاءَ بالاسميّةِ لَمَا كانَ المعنَى كما يَتَغَيَّا[3]؛ فقد عدلَ إلى صيغةِ المضارعِ في ﴿يُخْرِجُ﴾ ليدُلَّ على تصويرِ ذلك وتمثيلِهِ واستحضارِهِ، وكأنَّه حَدَثٌ حاضِرٌ مُشاهَدٌ الآن[4]؛ لأنَّهُ أعجبُ صُنعًا وأغربُ من عكسِهِ[5]، ولكونِ هذا التّصويرِ والاستحضارِ إنَّما يتمكَّنُ في أدائِهما الفعلُ المضارعُ دونَ اسمِ الفاعلِ والماضِي[6]، وفي ذلكُم عِبرَةٌ بالمثَلِ وعِظَةٌ.

دلالةُ التَّنويعِ بينَ الفعليّةِ والاسميّةِ في ﴿يُخْرِجُ﴾ و﴿وَمُخْرِجُ﴾:

التّجدُّدُ والثّبوتُ غرَضانِ، لا إيثارَ لأحَدِهما على الآخَرِ

عبّرَ في الجملةِ الأولى من قولِهِ تعالى: ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَيِّ﴾ بالفعل ﴿يُخْرِجُ﴾، وهو دالٌّ على التّجدُّدِ والحُدوثِ، وخالفَ في الجملةِ الثّانيةِ بالاسمِ ﴿وَمُخْرِجُ﴾، وهو دالٌّ على الثّبوتِ والدَّوامِ؛ فإنّه بذلكَ رامَ استحصالَ مجموعِ ذلك، وهو

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 13/98، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/388.
(2) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 13/98.
(3) الجرجانّي، دلائل الإعجاز: 1/177.
(4) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/375، والطّيبيّ، فتوح الغيب: 6/171.
(5) القونويّ، حاشية القونويّ: 8/202.
(6) الآلوسّي، روح المعاني: 4/214، والقاسميّ، محاسن التّأويل: 4/439.

التّجدُّدُ والثُّبوتُ معًا، وأنْ لا تفضيلَ لإخراجٍ على قَرينِه[1]، كما "أن التّعبيرَ باسمِ الفاعلِ يدُلُّ على تصويرِ الفعلِ، وهو الحياةُ، وتجدّدُها آنًا بعد آنٍ، فيَبتَدِئُ بنبتٍ، ثمّ يخضَرُّ، ثمّ يكونُ له سُوقٌ، فهو يُصَوِّرُ تدرّجَ الحياةِ فيه بحكمةِ اللّهِ تعالى، وكذلك في النَّواةِ؛ فالحياةُ فيها تبتدِئُ ممّا يشبهُ النَّبتَ، ثمّ تكونُ عُودًا فشجرَةً، أمَّا الحبَّةُ أو النّواةُ الّتي تجيءُ منَ الزَّرعِ أو الشَّجرةِ فإنَّها تكونُ نهايةَ التَّجديدِ، وتظهرُ دُفعةً واحدةً؛ ولذا كانَ التّعبير باسمِ الفاعلِ"[2].

بلاغةُ شِبْهِ الاحتِباكِ في اجتماعِ الصِّيغتَيْن ﴿يُخْرِجُ﴾ و﴿وَمُخْرِجُ﴾:

دلالةُ المعنى المقدّرِ في السّياقِ، تقدحُ الذّهنَ، وتُجلِّي المرادَ

وحصولُ التّجدُّدِ والثَّباتِ بمجموعِ المَعنَيين؛ يعني: أنَّ كِلَا الفعلين كثيرٌ وذاتيٌّ؛ وذلك أنَّ أحدَ الإخراجَينِ ليسَ أولى بالحُكمِ من قَرينِهِ فكانَ في الأسلوبِ شِبهُ الاحتِباكِ[3].

توجيهُ المُتشابِهِ اللَّفظيِّ في الآيةِ الكريمة:

وجهُ العُدولِ في الصِّيغةِ التّناسُبُ اللَّفظيُّ

قولُهُ تعالى: ﴿وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَيِّ﴾، أوردَ أصحابُ المُتشابِهاتِ اللَّفظيّةِ سؤالًا عنِ التَّعبيرِ بـ﴿وَمُخْرِجُ﴾، وعطفِهِ على الفعلِ ﴿يُخْرِجُ﴾، فللسّائلِ أنْ يسألَ عنِ العدولِ عنِ الفعلِ ﴿يُخْرِجُ﴾، والتّعبير بـ﴿وَمُخْرِجُ﴾؟ والجوابُ عن ذلك أنّهُ لمّا عبّرَ أوّلَ الآيةِ عن قدرتِهِ تعالى بالاسمِ ﴿فَالِقُ﴾؛ فالآيةُ مَبناها على اسمِ الفاعلِ؛ ناسبَ أن يعبِّرَ بالاسمِ أيضًا ﴿وَمُخْرِجُ﴾[4] لمَا فيه من حُسْنِ المُجاورةِ اللَّفظيّةِ.

بلاغةُ اقترانِ الفعلِ ﴿يُخْرِجُ﴾ بالحَيِّ، والاسمِ ﴿مُخْرِجُ﴾ بالمَيِّتِ:

أبرزُ صفاتِ الأحياءِ الحَرَكَةُ والحُدوثُ والفعلُ، والاسمُ خلافُهُ

قولُهُ تعالى: ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَيِّ﴾، هنا اقترنَ الفعلُ ﴿يُخْرِجُ﴾ بلفظةِ ﴿ٱلْحَيَّ﴾، فيما اقترنَ الاسمُ ﴿وَمُخْرِجُ﴾ بلفظِ ﴿ٱلْمَيِّتِ﴾، وسرُّ ذلك لمَا للفعلِ من سِمَةِ الحدوثِ والتّجدُّدِ،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/389.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2599.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/389.
(4) الإسكافيّ، درّة التّنزيل: 2/527، وابن الزّبير، ملاك التّأويل: 1/80.

خلاف الاسم الدَّالِّ على الثّبوت[1]، فالفعلُ ﴿يُخْرِجُ﴾ أليقُ بلفظِ ﴿ٱلْحَيَّ﴾؛ لأنّ من أبرزِ صفاتِ الحيِّ الحركةَ والحُدوثَ[2]، ويكونُ الاسمُ ﴿وَمُخْرِجُ﴾ مُناسِبًا للفظِ ﴿ٱلْمَيِّتِ﴾؛ فإنّ من أبرزِ صفاتِ الميِّتِ الثّبوتَ والسّكونَ.

بلاغةُ التّقديمِ، وسِرُّ اختلافِ الصِّيغةِ في الآيةِ الكريمة:

العنايةُ بإيجادِ الحَيِّ، أكثرُ منَ العنايةِ بإيجادِ المَيِّتِ

قولُهُ: ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَيِّ﴾: "وقعَ التّعبيرُ عنِ القسمِ الأوّلِ بصيغةِ الفعلِ، وعن الثّاني بصيغةِ الاسمِ، تَنبيهًا على أنّ الاعتناءَ بإيجادِ الحَيِّ منَ المَيّتِ أكثرُ وأكملُ منَ الاعتناءِ بإيجادِ المَيّتِ منَ الحَيِّ[3]، وهما جملتان: قدّمَ الأولى الدّالّةَ على إخراجِ الحَيِّ منَ المَيّتِ على الثّانيةِ الدّالّةِ على إخراجِ المَيّتِ منَ الحَيِّ، وفائدةُ هذا التّقديم أنّ الاعتناءَ في الأولى مع الحيِّ أكثرُ؛ لأنّه أشرفُ وأكملُ منَ العنايةِ في الثّانية[4]؛ فالثّانيةُ مُشاهدَةٌ مَحسوسةٌ، والأولى لا تتوافرُ إلّا بالقدرةِ الإلهيّةِ والتَّدبيرِ الرّبّانيِّ، والإحياءَ أوّلُ الحالين، والنَّظرُ أوّلُ ما يُبدَأُ فيه، ثمّ القسمُ الآخرُ، وهو إخراجُ الميّتِ منَ الحيِّ بانَ عنهُ، فكان الأوّلُ جديرًا بالتّصديقِ والتّأكيدِ في النّفسِ؛ ولذلك هو مُقدَّمٌ أبدًا على القسمِ الآخرِ في الذّكرِ حسبَ ترتيبِهما في الواقعِ[5].

بديعُ طباقِ الإيجابِ بينَ لفظَي ﴿ٱلْحَيَّ﴾ و﴿ٱلْمَيِّتِ﴾:

إيضاحُ المعنَى ومُزيدُ بيانِهِ، إذْ بضِدِّها تتميّزُ الأشياءُ

جاءَ بالمُتنافِراتِ ﴿ٱلْحَيَّ﴾ و﴿ٱلْمَيِّتِ﴾ بطباقِ الإيجابِ في قولِهِ تعالى: ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَيِّ﴾، وفي هذا النّمطِ دلالةٌ مُؤثِّرةٌ في جلاءِ المدلولِ ومزيدِ بيانِهِ؛ بما يجعلُ النَّفسَ

(1) الرّضي، شرح الرّضي على الكافية: 1/316، والزّركشّي، البرهان: 4/72.
(2) السّامرائّي، معاني النّحو: 3/267.
(3) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 13/74، والطّيبيّ، فتوح الغيب: 6/171.
(4) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 13/98، ورضا، تفسير المنار: 7/526 - 527.
(5) القاسميّ، محاسن التّأويل: 4/439.

مَشدودةً إليه، مُنجذبةً نحو تعرّفِ معناه، واستكناهِ سرِّه، والعربُ تقولُ: بالضِّدِّ تُعرَفُ الأشياءُ، فذِكرُ المَيّتِ بعدَ الحَيِّ يخلعُ على الجملةِ بهاءً وبيانًا، وذكرُ الحَيِّ بعدَ المَيّتِ يزيدُها نصاعةً وبيانًا، وفي ذلك زيادةٌ في تَعالُقِ الجُملِ المُشتمِلةِ على الألفاظِ المُتضادَّةِ.

بيانُ المجازِ في لفظَي ﴿ٱلْحَىَّ﴾ و﴿ٱلْمَيِّتِ﴾:

الحيُّ كلُّ ما ينمُو قابلًا للزّيادةِ، والميّتُ خِلافُهُ

وجهُ المرادِ بالحَيِّ: كلُّ ما ينمُو كانَ ذا رُوحٍ أم لا، كالحيوانِ والنَّباتِ، وبالميِّتِ: ما لا ينمُو أكان أصلُهُ ذا روحٍ أم لا، كالنُّطفةِ والحبّةِ، وتسميةُ النَّباتِ حيًّا مَجازٌ بجامعِ قبولِ الزّيادةِ في كلٍّ[1]، وكذلك إطلاقُ الميّتِ على الحَبِّ والنَّوَى هو من مَجازِ التَّشبيهِ، كأنّه لمّا لم تظهرْ فيه آياتُ حياتِهِ الكامنةِ منَ النَّماءِ وغيرِهِ سُمِّيَ مَيّتًا، أو فارقَتهُ تلك الصِّفةُ[2].

سرُّ العطفِ بالواوِ بين جُملتَيْ إخراجِ الحيِّ والميِّتِ:

المُغايرَةُ والاشتراكُ في صُنعَيْنِ عَجيبَيْنِ، دلالَةٌ على كمالِ القُدرةِ

في قولِهِ تعالى: ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ﴾ جملتان مُتغايرتان من جهةٍ، ومُتلائمتان من جهةٍ أخرى؛ لأنّهما مُشيرتان إلى قُدرتِهِ تعالى على الخلقِ والإيجادِ؛ فيجوزُ فيهما الانقطاع، ويجوزُ الاتّصالُ؛ فجِيءَ بالواوِ "للتّوسُّطِ بين حالتي كمالِ الانقطاعِ، وكمالِ الاتّصالِ"[3]، وسَهّلَ عطفَ الاسمِ على الفعلِ وحسَّنَه؛ أنَّ اسمَ الفاعلِ في معنى الفعلِ المُضارعِ، فكلٌّ واحدٍ منهما يُقدَّرُ بالآخَرِ، فلا جُناحَ في عَطفِهِ عليهِ[4]، وقد عطفَ على ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ﴾ قولَه: ﴿وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ﴾؛ لأنَّه إخبارٌ بضِدِّ مَضمُونِ ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ﴾، وصنعٌ آخرَ عجيبٍ دالٍّ على كمالِ القُدرةِ ونافٍ تَصَرُّفَ الطَّبيعةِ بالخَلْقِ؛ لأنَّ الفعلَ الصّادرَ منَ العالِمِ

(1) الصّاوي، حاشية على تفسير الجلالين، ص: 556.
(2) الآلوسّي، روح المعاني: 4/215، ورضا، تفسير المنار: 7/526.
(3) الصّعيديّ، بغية الإيضاح: 2/299.
(4) القاسميّ، محاسن التّأويل: 4/439.

المُختارِ يكونُ على أحوالٍ مُتضَادَّةٍ بخلافِ الفعلِ المُتَوَلِّدِ عن سببٍ طَبْعِيٍّ، وفي هذا الخبرِ تَكمِلَةُ بيانٍ لَمَا أجملَهُ قولُهُ: ﴿فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ﴾؛ لأنَّ فَلْقَ الحَبِّ عنِ النّباتِ، والنَّوى عنِ الشَّجرِ، يَشمَلُ أحوالًا مُجمَلَةً، منها: حالُ إثمارِ النّباتِ والشّجرِ: حبًّا يَيبَسُ، وهو في قَصَبِ نباتِهِ، فلا تكونُ فيه حياةٌ، ونَوًى في باطنِ الثِّمارِ يَبَسًا لا حياةَ فيه كنَوَى الزَّيتونِ والتَّمرِ، ويزيدُ على ذلك البيانِ بإخراجِ البَيضِ واللَّبَنِ والمِسكِ واللُّؤلؤِ وحَجرِ (البازهرِ) من بواطنِ الحيوانِ الحَيِّ، فظهرَ صُدورُ الضِّدَّينِ عنِ القُدرةِ الإلَهيّةِ تمامَ الظُّهُورِ[1].

بلاغةُ التّعبيرِ باسمِ الإشارةِ، بِمجيئِهِ جَمْعًا ﴿ذَٰلِكُمُ﴾:

فائدةُ اسمِ الإشارةِ في قولِهِ تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ﴾ زيادةُ التّمييزِ، والبيانُ والتّعريضُ بغباوةِ هؤلاءِ المُخاطَبينَ؛ فإنّهم مع هذه البراهينِ غَفَلوا عنِ التَّصديقِ بألوهيّتِهِ، فما لكم تغفَلونَ عن ذَلِكُم الفاعلِ كلَّ تلك الأفاعيلِ العَجيبةِ والصّنائعِ البَديعةِ من فَلْقٍ وإخراجٍ وإحياءٍ، ثمّ تعدلونَ به غيرَه[2]. وقد عبّرَ بـ ﴿ذَٰلِكُمُ﴾، وهو اسمُ إشارةٍ مُتضمِّنٌ اللّامَ الدّالّةَ على البعدِ، ووجهُ ذلك الإشارةُ إلى عليائِهِ ﷻ، وأنّه ذُو الشّأنِ العظيمِ[3] المُستحِقُّ للعبادةِ، آمنَ به هؤلاءِ أم لم يُؤمنوا، "وخاطَبَ بالإشارةِ جمعًا بقولِهِ تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ﴾؛ للتّنبيهِ، وتوجيهِ أنظارِ الجميعِ إلى ما في هذا الخلقِ أو التّكوينِ من عِبَرٍ وعظاتٍ، وأمثالٍ تعالى اللّهُ العليُّ القديرُ[4].

في اسمِ الإشارةِ تمييزٌ زائدٌ، وتعريضٌ بالغٌ بغباوتِهم

فائدةُ الجُملةِ الاعتراضيّةِ، في قولِهِ: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾:

يجوزُ أنْ يكونَ قولُهُ تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ جملةً اعتراضيّةً[5]، وآيةُ ذلك أنَّ الوقفَ عليها غيرُ تامٍّ[6]؛ لأنّ وَصفَي فالق

إذا تعالقَ الوصفانِ، يكونُ الكلامُ المُدرَجُ بينَهما مُوضّحًا ومُسدّدًا

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/388.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/389، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/592.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/254، والآلوسّي، روح المعاني: 4/215.
(4) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2609.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/390.
(6) الأنباريّ، إيضاح الوقف والابتداء: 2/641.

الحبِّ والنّوى، وفالق الإصباحِ مُتَعالِقان، وفائدتُها تدعيمُ الكلامِ الّذي اعترضَتْ بينَ أجزائِهِ وتوكيدُهُ[1]، فإنّها اعترضَتْ هنا بين مَجموعتين من نعوتِهِ تعالى: الأولى: أرضيّةٌ بفَلْقِ الحبِّ والنَّوى، وإخراجِ الحَيِّ منَ الميّتِ وعكسِهِ، والثّانية: سماويَّةٌ بفَلْقِ الإصباحِ، وجعلِ اللَّيلِ سكنًا، والشَّمسِ والقمرِ حُسبانًا؛ فقوَّت وسدَّدَتْ بينَ المجموعتَين المُشتمِلَتين بعضَ صفاتِهِ تعالى.

جزالةُ التَّعبيرِ بـ ﴿فَأَنَّىٰ﴾:

التَّعجيبُ ممّن رأى الآياتِ ثمّ انصرفَ عنها

﴿فَأَنَّىٰ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ أداةُ استفهامٍ، جاءَ بها في هذا المَوضِعِ تعجيبًا من حالِهِم؛ وإنكارًا على تكذيبِهِم بالحشرِ والنَّشرِ؛ لانصرافِهِم عنِ الحقِّ إلى غيرِهِ على ما رَأَوا منَ الآياتِ والأدلّةِ والبراهينِ المُوجِبةِ للإيمانِ به تعالى، ومُنكِرًا الانصرافَ عن توحيدِهِ من غيرِ داعٍ[2].

دلالةُ الفاءِ على الإفصاحِ في الآيةِ الكريمةِ:

الشّرطِ المُقدَّرِ المطويِّ يُحرِّكُ الذّهنَ، ويُجلّي المعنى.

الفاءُ في قولِهِ تعالى: ﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ للإفصاحِ عن شَرطٍ مُقدَّرٍ مَطويٍّ في: إذا كانَتِ الذّاتُ العليّةُ هي الّتي خَلقَتْ، وتُحيي وتُميتُ، فكيف تُؤفكونَ؟ أي: تُصرَفونَ عن عبادتِهِ وحدَهُ ﷻ إلى الشِّركِ[3].

سِرُّ التّعبيرِ بالفعلِ ﴿تُؤْفَكُونَ﴾ مَبنيًّا للمجهولِ:

الصّارفُ لهم عن عبادتِهِ وتَوحيدِهِ مُتعدِّدٌ غيرُ مُتعيِّنٍ

بُنِيَ الفعلُ ﴿تُؤْفَكُونَ﴾ هُنا للمجهولِ أو للمفعولِ بحذفِ الفاعلِ، وفيه علامةٌ بليغةٌ، وهي أنّ الصّارفَ لهم عن عبادتِهِ تعالى وتوحيدِهِ ليسَ مُتعيّنًا، ولا أمرًا واحدًا، بل هو جملةُ أمورٍ، كوَسوَسَةِ الشّيطانِ، واتّباعِ قادتِهِم وكبرائِهِم في طريقِ الضَّلالِ، وهوى النَّفسِ الأعمَى وغيرِهِ[4].

---

(1) ابن عقيل، المساعد على تسهيل الفوائد: 2/50.

(2) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 13/74، والشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 6/3807، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/389.

(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2600.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/390.

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(الفَصْلُ)، و(الفَرْقُ)، و(الفَلْقُ)، و(الفَتْقُ):

الفَصلُ: إبانةُ أحدِ الشّيئينِ منَ الآخرِ حَتَّى يكونَ بينهُما فُرجَةٌ[1]، من غيرِ انفصالٍ أو بَونٍ. أمَّا الفَرْقُ فالقِطعَةُ المُنفَصِلَةُ، ومنه: الفِرقَةُ والفَرِيقُ: للجماعةِ المُتفرِّدةِ منَ النّاسِ، المُتفرّقةِ عن آخَرين، ومنه قوله تعالى: ﴿فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرۡقٖ كَٱلطَّوۡدِ ٱلۡعَظِيمِ ٦٣﴾ [الشّعراء: 63][2]. والفَلْقُ: شقُّ الشَّيءِ وإبانةُ بعضِه عن بعضٍ[3]، فالفَرْقُ يُقالُ اعتبارًا بالانفصالِ. والفَلْقُ: يُقالُ اعتبارًا بالانشقاقِ، وهو أنسبُ لانفلاقِ النَّبتةِ وخروجِ الحَبِّ منها من غيرِ أنْ ينفصِلَا عن بعضٍ. والفَتْقُ: "أصلٌ صحيحٌ يدلُّ على فَتْحٍ في شيءٍ"[4]، فهو فصلٌ بين المُتّصِلَين غيرُ ظاهرٍ، ففَتَقَهُ: شَقَّهُ، وأصلُهُ الشّقُّ والفَتْحُ[5]. ومن هنا فالفَلْقُ والفَرْقُ والفَتْقُ جنسٌ واحدٌ للشَّقِّ[6]، إلَّا أنّ في الفَلْقِ دلالةَ الإيجادِ من أصلٍ، والإخراجِ منه والانبثاقِ، وهو أنسبُ لطبيعةِ الإنباتِ في الزُّروعِ؛ ولذلك ناسَبَ اختيارُه سياقَ الآيةِ.

الفَلْقُ انشقاقٌ يُستبانُ فيه شيءٌ عن شيءٍ، ولكلِّ لفظٍ سواه ما يُميّزُه

(الكَذِبُ)، و(الإفكُ)، و(الافتراءُ):

الكَذِب: اسمٌ مَوضُوعٌ للخَبَرِ الَّذي لَا مُخبِرَ لَهُ على مَا هُوَ بِهِ، وَأَصلُهُ في العَرَبيَّةِ التَّقصِيرُ، سَوَاء كَانَ فَاحشَ القبْحِ أم غيرَ فَاحشِ القبحِ. أمَّا الإفكُ فهُوَ الكَذِبُ الفَاحِشُ القبحِ، مثل: الكَذِب على اللّهِ وَرَسُولِه، أَو على القُرآنِ، ومثل: قذفِ المُحصَنَةِ وَغيرِ ذَلِك مِمَّا يفحشُ قُبْحُهُ[7]، وأَصلُهُ في العَرَبيَّةِ الصّرفُ، وفي القُرآنِ ﴿أَنَّىٰ

الإفكُ مُستقبَحٌ مُستنكَرٌ، وبه يكونُ التّنكُّبُ عنِ الحقِّ

(1) الرّاغب، المفردات: (فصل).
(2) الرّاغب، المفردات: (فرق).
(3) الرّاغب، المفردات: (فلق).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (فتق).
(5) الرّاغب، المفردات، والفيروز آباديّ، القاموس المحيط، والزّبيديّ، تاج العروس: (فتق).
(6) رضا، تفسير المنار: 7/525.
(7) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 45.

يُؤْفَكُونَ﴾ [المائدة: 75]؛ أَي: يُصرَفُونَ عَنِ الحقِّ[1]. وأمّا الافتراءُ فاخْتلاقُ قدرٍ منْ كذبٍ والإخبارُ بِهِ؛ واختلاقُ ما لا حقيقةَ له[2]، وافتعالُ مَالا يَصحُّ أَن يكونَ، ويُسمَّى الافتراءُ تقوُّلًا؛ لِأَنَّهُ قَولٌ مُتكلَّفٌ[3].

ومن هنا فإنّ لفظَ الإفْكِ يُوحي بشدّةِ قبحِ الكذِبِ، وعظيمِ نُكرانِهِ، فضلًا عن معناهُ الأصلِيِّ، وهو الصّرفُ عن حقيقةِ الشّيءِ[4]، وهو هنا أشدُّ منَ الكذبِ؛ فكيفَ تَنصرِفُونَ عن عبادتِهِ، وتُشركونَ به مع كلِّ البراهينِ والدّلائلِ الّتي ساقَها على عظمتِهِ وقدرتِهِ، وعلى هذا فقد جاءَ اللَّفظُ هنا في مكانِهِ المُتوائمِ مع المعنى.

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 46.
(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 47.
(3) الكفويّ، الكلّيّات، ص: 154 - 710.
(4) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 451.

﴿فَالِقُ ٱلۡإِصۡبَاحِۚ وَجَعَلَ ٱلَّيۡلَ سَكَنٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ حُسۡبَانٗاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ٩٦﴾ [الأنعام: 96]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الـرّبـطُ بين بديعِ الخلْقِ، ومَظاهرِ قُدرةِ اللهِ وتصرُّفِهِ في الكَونِ

وَصَفَ الحقُّ ﷻ نفسَهُ في الآيةِ السّابقةِ بأنّه فالقُ الحبِّ والنَّوَى، ومُخرجُ الحيِّ منَ الميّتِ، ومُخرجُ الميّتِ منَ الحيِّ، وهذا من أظهرِ أدلّةِ قدرتِهِ على البعثِ والإحياءِ[1]، وهي آياتٌ أرضيّةٌ، ثمّ أتبعَهُ ههنا بما هو مثلُهُ ونظيرُهُ في الدِّلالةِ على الإحياءِ من جانبٍ ثانٍ، وهي آياتٌ سماويّةٌ، و"النّوعُ المُتَقَدِّمُ كانَ مَأخُوذًا من دلالةِ أحوالِ النَّباتِ والحَيَوانِ، والنّوعُ المَذكورُ في هذه الآيةِ مَأخوذٌ مِنَ الأحوالِ الفَلَكِيّةِ؛ وذلك أنَّ فَلْقَ ظُلمةِ اللّيلِ بنورِ الصُّبحِ أعظمُ في كمالِ القُدرَةِ من فَلْقِ الحبِّ والنَّوى بالنَّباتِ والشَّجرِ؛ ولأنَّ مِنَ المَعلُومِ بالضّرُورةِ أنَّ الأحوالَ الفَلَكِيَّةَ أعظَمُ في القلوبِ وأكثَرُ وَقعًا منَ الأحوالِ الأرضِيَّةِ"[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَالِقُ﴾: "مُبديه ومُوضّحُهُ، وذلك أنّ الفلقَ معناه في اللّغةِ: الشّقُّ، وذلك راجعٌ إلى الإبداءِ والإيضاحِ"[3].

2) ﴿ٱلۡإِصۡبَاحِ﴾: مصدرٌ للفعلِ النّاقصِ (أصبحَ يُصبحُ إصباحًا)، والجذرُ اللُّغويُّ (صبح)، ومنه الصّبحُ والصّباحُ، وهما أوّلُ النّهارِ ومبدؤُهُ[4]، ومعناهُ المحوريُّ هو الضّياءُ والبياضُ المُنتَشِرُ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/199.
(2) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 13/75.
(3) الواحديّ، الوسيط: 2/302.
(4) الخليل، العين: (صبح)، والسّمين، عمدة الحفّاظ: 2/314.

بقوّةٍ؛ فيغلبُ ما كانَ من ظلامٍ وسوادٍ، ويكون ﴿ٱلْإِصْبَاحِ﴾ تغيُّرًا عن ظلامِ اللّيلِ إلى ضوءِ النَّهارِ[1]، و﴿ٱلْإِصْبَاحِ﴾ لفظةٌ فريدةٌ في القرآنِ الكريمِ لم تَرِدْ إلّا في هذا المَوضِعِ، ووردَتْ في الآيةِ بمعنى الصّباحِ، وهو مبتدأُ النَّهارِ وضوءُ الفجرِ[2].

3) ﴿ٱلَّيْلَ﴾: وهو: "عبارةٌ عن زمنِ مَغيبِ الشَّمسِ إلى طلوعِ الفجرِ أو طلوعِ الشَّمسِ؛ لأنّه مُقابلُ النّهارِ"[3]، واللَّيلُ في الآيةِ بمعنى الظَّلامِ السَّاجيِّ المُناسِبِ لراحةِ الإنسانِ بعدَ تعبِ النَّهارِ ونَصَبِهِ ولُغُوبِهِ[4].

4) ﴿سَكَنًا﴾: اسمٌ ثلاثيٌّ مُجرَّدٌ، جذرُهُ اللّغويُّ من (سكن)، ومنه: السّكونُ، وهو الثّبوتُ وذهابُ الحركةِ[5]، كما أنّه بمعنى الأهلِ الّذين يقطُنُون في الدّارِ[6]، والسّكنُ يكونُ مُقترنًا بالرّاحةِ منَ التّعَبِ والنَّصَبِ ... لذلك جعلَهُ قرينَ اللَّيلِ[7]، وسائرُ ما وردَ في القرآنِ الكريمِ بمعنى الاستقرارِ[8]، ومعنى السّكنِ الواردِ في الآية: شيءٌ يسكنُ إليه النّاسُ بعدَ كدحِهم في أوقاتِ النّهارِ؛ فيكونُ الظَّلامُ مُناسِبًا لِمَا يَطلبونَ منَ الهدوءِ والاستقرارِ؛ ولأنّ نفوسَهُم ترتاحُ إليه، وكلُّ شيءٍ ترتاحُ له النّفسُ، وتأوي إليه يُسمّى سَكَنًا[9]، قال تعالى: ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ [الأعراف: 189] فسُمِّيَتِ الزّوجةُ سَكَنًا؛ لأنّه يُؤْوَى إليها.

5) ﴿حُسْبَانًا﴾: مصدرٌ للفعلِ (حَسَبَ)، وجذرُهُ اللّغويُّ (حسب)، ومعناه الإحصاءُ[10]، وأصلُ الحسبانِ في أحدِ معانيه دلالتُهُ على العَدِّ[11].

والحسابُ استعمالُ الإنسانِ التَّقديرَ، ومنه الواردُ في الآيةِ (حُسْبان) المُقترنُ

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (صبح).
(2) مجاهد، تفسير مجاهد، ص: 326، والماورديّ، النّكت والعيون: 2/147.
(3) السّمين، عمدة الحفّاظ: (ليل).
(4) الشّنقيطيّ، أضواء البيان: 1/488، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2601.
(5) الخليل، العين: (سكن)، وابن دريد، جمهرة اللّغة: (سكن).
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سكن).
(7) السّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (سكن).
(8) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (سكن).
(9) الشّنقيطيّ، العذب النّمير: 1/541 - 542.
(10) الخليل، العين: (حسب)، والأزهريّ، تهذيب اللّغة: (حسب).
(11) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (حسب).

بالشّمسِ والقمرِ؛ "أي: يجريان بحسابٍ وتقديرٍ"[1]، وحركةُ الشّمسِ والقمرِ من أعظمِ المِنَنِ على الخلائقِ في أنّهم يَحسُبُونَ بحركتِهما أوقاتَ اللّيلِ والنَّهارِ، والشُّهورِ، والأعوامِ وغيرِها[2].

6) ﴿تَقۡدِيرُ﴾: مصدرٌ للفعلِ (قدّر)، جذرُهُ اللّغويُّ (قدر)، و"القَدَرُ القَضاءُ المُوافقُ، يُقال: قَدّرَهُ اللّهُ تقديرًا، وإذا وافقَ الشَّيءُ شيئًا قِيل: جاءَ على قَدَرِه"[3]، والتّقديرُ بيانُ كمّيةِ الشّيءِ، وتقديرُ اللّهِ الأشياءَ: "بأن يجعلَها على مِقدارٍ مَخصوصٍ، ووجهٍ مَخصوصٍ حسبما اقتضَتِ الحِكمةُ"[4]، ومعنى ﴿تَقۡدِيرُ﴾ في الآية: أنّه تعالى يُقدِّرُ أجرَامَ الأفلاكِ بصفاتِهَا وحركاتِهَا من جهةِ السّرعةِ والبُطءِ، وهذا لا يمكنُ إلّا بقُدرَةٍ كاملةٍ، وعلمٍ بجميعِ المعلوماتِ، وكلُّ ذلك مُختَصٌّ بالفاعلِ[5] ﷻ.

7) ﴿ٱلۡعَزِيزِ﴾: صيغةُ مبالغةٍ على وزن (فَعِيل)، منَ الفعلِ (عزّ يعزّ)، الجذرُ اللّغويُّ له (عزز)، وقولهم: عَزَّ الشّيءَ هو أن يكونَ جامعًا لكلِّ شيءٍ، ويقلّ حتّى يكَادُ يكونُ مَفقودًا، ولا يوجدُ بسببِ قلّتِهِ ونُدرتِهِ[6]. والأصلُ في معناه دلالتُهُ على القوّةِ والشّدّةِ وأضرابِهما منَ القهرِ والغَلبةِ[7]، والعِزَّةُ حالةٌ منَ الأحوالِ المَانِعَةِ للغَلبةِ؛ لِصلابتِهَا ... والعِزُّ نقيضُ الذُّلِّ وخلافُهُ، والعزيزُ الّذي لا يُغلَبُ لقوّتِهِ وشدّتِهِ[8]، ومعنى ﴿ٱلۡعَزِيزِ﴾ في الآية: قاهرُ الشَّمسِ والقمرِ، ومُسيّرُهُما على الوَجهِ المَخصُوصِ الّذي يُريدُه[9].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

يخبرُ الحقُّ ﷻ عن نفسِهِ بمزيدٍ من صِفاتِهِ العليّةِ المُشتمِلَةِ على إحسانِهِ وإنعامِهِ على خلقِهِ، بأنّه فالقُ الإصباحِ لهم بعدَ ظلمةِ اللّيلِ البَهيمِ؛ فيستنيروا لكسبِ معاشِهم بكدِّهم وتعبِهم، ثمّ أنعمَ عليهم بأنْ جعلَ اللّيلَ لهم ظرفًا مُطمئنًا تسكُنُ فيه النّفوسُ ممّا أصابَها

(1) السّمين، عمدة الحفّاظ: (حسب).
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/392.
(3) الخليل، العين: (قدر).
(4) الرّاغب، المفردات: (قدر).
(5) ابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 8/312.
(6) الخليل، العين: (عز).
(7) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عز).
(8) الرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (عزز).
(9) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 2/174.

تتابُعُ ذكْرِ صفاتِ الإيجادِ والإمدادِ، تذكيرٌ بالمِنَنِ والإنْعامِ

من تَعبٍ ورَهَقٍ في نهارِهِم، ثمّ ذكرَ الشّمسَ والقمرَ؛ لأنّ الشّمسَ سببُ اللّيلِ والقمر ضياؤُه، وهما سببٌ لحسابِ الوقتِ عندَ كثيرٍ منَ النّاسِ، وكلُّ ذلك بتقديرِ العزيزِ الغالبِ الّذي لا يُقهَرُ، العليمِ بما ينفعُ النّاسَ في معاشِهِم ومعادِهِم[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالةُ حذْفِ المبتدأ ﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ﴾:

الآياتُ مَسُوقَةٌ لبيانِ أوصافِهِ وقُدرتِهِ تعالى لا لإثباتِ أُلوهيّتِهِ

يجوزُ أن يكونَ قولُهُ تعالى: ﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ﴾ خبرًا لمبتدأ محذوفٍ تقديرُهُ هو[2]، وبلاغةُ الحذفِ إلماعٌ إلى أنَّ الخبرَ مُتَعَيِّنٌ في واحدٍ فقط وهو اللّه، فاكتُفِيَ بالتّعيينِ الثّابتِ في أذهانِ المُخاطَبينَ عنِ الذّكرِ، ولم يَدَّعِ أيُّ كذّابٍ أنّه فالقُ الإصباحِ، فتمحّضَ الخبرُ فيه سبحانه وحدَهُ.

دلالةُ اسْمِ الفاعلِ ﴿فَالِقُ﴾:

الإصباحُ يَفلقُ الظُّلمةَ بالنّورِ، ويُلائمُ معناه لفظَه المذكورَ

معنى ﴿فَالِقُ﴾ شاقِقٌ، وهو اسمُ فاعلٍ، مثلما نقولُ: (قاتلُ الضّربةِ)؛ أي: أنّ الضّربةَ من يدِهِ قاتلةٌ، و﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ﴾ معناها: أنّ الصّباحَ ينفَلِقُ عنِ الظّلمةِ؛ لأنّ الظّلمةَ مُتراكِمةٌ، وحين يأتي الإصباحُ فكأنّهُ فَلَقَ الظُّلمةَ، وشقَّها؛ ليخرجَ النّورُ، وتعني أيضًا أنّ الفَلْقَ واقعٌ على الإصباحِ، فيأتي من بعدِهِ الظّلامُ، فالإصباحُ فالقٌ مرّةً؛ لأنّه شقَّ الظّلمةَ وفلقَها، ومَفلوقٌ مرّةً أخرى؛ لأنَّ الظُّلمةَ جاءَت بعدَهُ؛ إذن فاسمُ الفاعلِ قد أدّى مُهمّتين، وهذا من دقّةِ الأداءِ البيانيِّ في القرآن[3].

سرُّ إيثارِ لفظِ ﴿ٱلْإِصْبَاحِ﴾ على لفظِ (الصُّبح):

الإصباحُ: مصدرُ (أصبحَ)، إذا دخلَ في الصّبحِ ... وعن ابن

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/254.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/253.
(3) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 6/3810 - 3811.

عبّاس ﵄ أنّ الإصباحَ ضوءُ الشّمسِ بالنّهارِ، وضوءُ القمرِ باللّيل[1]، فـ"الظّاهرُ أنّ الإصباحَ في الأصلِ مصدرٌ سُمِّي به الصُّبحُ، وكذا الإمساءُ"[2]، وذلك أنّ معناه: الضّياءُ والبياضُ المُنتشِرُ بقوّةٍ؛ فيغلبُ ما كان من ظلامٍ وسوادٍ، وفي ذلك اتّساعٌ في المعنى يتعدّى دلالةَ لفظِ الصُّبحِ الدّالِّ على الظّرفِ المعروفِ مُقابلَ اللّيلِ.

الإصباحُ الضّياءُ والبياضُ المنتشِرُ، وذلك أوسعُ وأعمُّ في الدّلالةِ عنه

بلاغةُ الاستعارةِ في ﴿فَالِقُ ٱلۡإِصۡبَاحِ﴾:

قولُهُ تعالى: ﴿فَالِقُ ٱلۡإِصۡبَاحِ﴾ من بابِ الاستعارةِ[3]؛ "لظُهورِ الضّياءِ في ظُلمةِ اللّيلِ، فَشَبَّهَ ذلك بفَلْقِ الظُّلمةِ عنِ الضّياءِ"[4]؛ فقد شبّهَ انشقاقَ الفجرِ بفَلْقِ الإصباحِ، ونظيرُه في الاستعارةِ قولُهُ تعالى: ﴿وَءَايَةٞ لَّهُمُ ٱلَّيۡلُ نَسۡلَخُ مِنۡهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظۡلِمُونَ ٣٧﴾ [يس: 37]؛ فجعلَ ظهورَ النّهارِ كسلخِ الشّاةِ في صورةٍ تمثيليّةٍ بديعةٍ، كما ألاحَ إلى أنّ اللّيلَ أصلٌ، والنّهارَ فرعٌ عنه.

فلْقُ الإصباحِ تصويرٌ بفَلْقِ الظُّلمةِ عنِ اللّيلِ

فائدةُ الإضافةِ في ﴿فَالِقُ ٱلۡإِصۡبَاحِ﴾:

الإضافةُ يجوزُ أن تكونَ لفظيّةً[5] كقولِهم: (قاتلُ الضّربةِ)؛ أي: أنّه إنْ ضَرَبَ بيدِهِ فضربتُهُ تكون قَاتلةً[6] دلالةً على التّمكُّنِ، وكذلك في ﴿فَالِقُ ٱلۡإِصۡبَاحِ﴾، سِيقَ الوصفُ هنا لبيانِ قُدرتِهِ تعالى وكمالِهِ وإنعامِهِ وإحسانِهِ، والمرادُ: فالقُ ظلمةِ الإصباحِ، وهي الغَبَشُ

دلالةُ السّياقِ على التّمكُّنِ والقوّةِ، أو وُقوعُ الفَلْقِ على الحَقيقةِ

(1) الكرمانيّ، غرائب التّفسير: 1/375.

(2) السّمين، الدّرّ المصون: 5/58.

(3) الاستعارة: "أن يكونَ للفظ أصلٌ في الوضعِ اللّغويِّ معروفٌ تدلُّ الشّواهدُ على أنّه اختصَّ به حيْن وُضِعَ، ثمّ يستعملُهُ الشّاعرُ أو غيرُ الشّاعرِ في غيرِ ذلك الأصل". يُنظر: الجرجانيّ، أسرار البلاغة، ص: 30، كقولنا: (رأيتُ أسدًا في المدرسةِ)، فالأصل (رأيتُ رجلاً شجاعاً كالأسدِ في المدرسةِ)، ثمّ صارَتِ الجملةُ إلى ما ترى.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/390.

(5) الإضافةُ اللّفظيّةُ: "هي الّتي يكونُ اللّفظُ على الإضافة، والمعنى على الانفصال، نحو: مررتُ برجلٍ ضاربِ زيدٍ، والمعنى: ضاربٌ زيدًا". يُنظر: الرّمّانيّ، رسالة الحدود، ص: 83.

(6) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 6/3810.

الّذي يلي آخرَ اللّيلِ[1]. ويجوزُ أن تكونَ الإضافةُ مَعنويّةً[2] دالّةً على الحقيقةِ؛ أي: "أنّ الفَلْقَ واقعٌ على الإصباحِ، فيأتي من بعدِهِ الظّلامُ، وهذه من دقّةِ الأداءِ البيانيِّ في القرآنِ"[3].

فائدةُ التّعبيرِ باسمِ الفاعلِ: ﴿فَالِقُ﴾ مُقابلَ الفعلِ ﴿جَعَلَ﴾:

قولُهُ تعالى: ﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ﴾ عبّرَ عن معنى فالقِ الإصباحِ باسمِ الفاعلِ، غير أنّه عبّرَ عن جعلِ اللّيلِ سَكنًا بالفعلِ، وفائدتُهُ أنّ ﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ﴾ وصفٌ ثابتٌ دائمٌ له تعالى ليس مُقيَّدًا بمُنتفعٍ؛ فصفتُهُ هذه دائمةٌ سواءٌ انتفعَ بها أحدٌ أم لم ينتفعْ، أمّا ﴿وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا﴾ فهو مُقيَّدٌ بمَن يَنتفِعُ منه بأنْ يستريحَ منْ وعثاءِ النّهارِ وكدِّ التّصرُّفِ عن أسبابِ المَعاشِ، وكذا الشّمسُ والقمرُ لَمن ينتفعُ بحُسبانِهما، فاللّيلُ قد لا يكونُ سَكنًا، والشّمسُ والقمرُ قد لا يكونان حُسبانًا[4].

الفَلْقُ أدومُ لعدمِ تقييدِهِ، والسَّكَنُ مُقيَّدٌ بمَن ينتفعُ بِهِ فقط

فنُّ المَجازِ في ﴿وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا﴾:

قولُهُ تعالى: ﴿وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا﴾ تعبيرٌ يتوافرُ على المَجازِ؛ فإنّه وَصَفَ اللّيلَ هنا بالسّكنِ، واللّيلُ ظرفٌ يُسْكَنُ فيه، والسّكنُ صفةُ مَن يتّخذُهُ للرّاحةِ والسّكنِ[5]، فهو ليسَ على الحقيقةِ، بلْ هو من بابِ المَجازِ المُرسَلِ[6]؛ لكونِ قولِهِ: (أو يسكنُ فيه) منَ السّكونِ بمعنى: اللّبْث أُسندَ إلَى اللّيلِ مَجازًا لمحلّيتِهِ، والمُرَادُ سكونُ الخلقِ فيهِ[7]،

اللّيلُ لا يكونُ سَكنًا، وإنّما يُسكَنُ فيهِ، فالمعنَى على المجازِ لا على الحقيقةِ

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/376.

(2) وتسمّى الحقيقيّة والإضافة الحقيقيّة: و"هي الّتي يكون اللّفظُ على الإضافة والمعنى عليها، نحو: غلامُ زيدٍ وصاحبُ الدّارِ". يُنظر: الرّمّانيّ، رسالة الحدود، ص: 83.

(3) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 6/3810.

(4) التّوجيه للدّكتور فاضل السّامرائّي ذكره في برنامج لمسات بيانيّة: https://tadars.com/tdbr/eloquence/4949.

(5) ابن جرير، جامع البيان: 15/294.

(6) المجازُ المُرسَل: "ما كانَتِ العلاقةُ بيْن ما استُعمِلَ فيه وما وُضِعَ له مُلابسةً ومُناسبةً غير المُشابهةِ كاليد إذا استُعمِلَت في النّعمةِ، لمَا جرَت به العادةُ من صدورِهَا عنِ الجارحةِ، وبواسطتِها تصلُ إلى المقصودِ بها". يُنظر: الصّعيديّ، بغية الإيضاح: 3/462 - 463.

(7) القونويّ وابن التّمجيد، حاشيتان على البيضاويّ: 8/204.

فذكرَ الظّرفَ، وأرادَ ما اشتملَ عليه، وغرضُهُ المبالغةُ كأنّه جعلَ اللّيلَ برمّتِهِ سكنًا، مع أنّه قد يكونُ سكنًا في مكانٍ، صاخبًا في مكانٍ ثانٍ، أو أنّه أرادَ الإشارةَ إلى أنّ الأصلَ في اللّيلِ أن يكونَ سَكنًا مثلما يكون النّهارُ مَعَاشًا[1].

تنوّعُ القراءةِ بالفعلِ والاسمِ في ﴿وَجَعَلَ﴾ ودلالتُهُ:

قُرِئَ قولُهُ: ﴿وَجَعَلَ ٱلَّيۡلَ سَكَنٗا﴾[2] بالفعلِ الماضي ونصبِ اللّيلِ؛ أي: صيّرَهُ سَكنًا، وقرأَ ابنُ كثيرٍ ونافعٌ وأبو عمرو بن العلاء وابنُ عامر: ﴿وَجَٰعِلُ ٱلَّيۡلِ سَكَنٗا﴾ بالألفِ[3] على جعلِهِ اسمَ فاعلٍ، وخفضَ اللّيلَ للإضافةِ، وهو اسمٌ، ودلالةُ الاسمِ على الدّوامِ والثّبوتِ أمرٌ مُقرَّرٌ في كلامِ العربِ لخلوِّهِ منَ الزّمنِ، فيكونُ جعلُهُ اللّيلَ سَكنًا على الدّوامِ، ولا يكونُ في زمانٍ دونَ زمانٍ، بل على جعلِهِ مُستمرًّا في جميعِ الأزمنةِ[4]؛ أي: "أنَّ المرادَ به الجعلُ المُستمرُّ في الأزمنةِ المُتجدِّدةِ حسَبَ تجدُّدِها لا الجعلُ الماضي فقط"[5]، كما أنّ القراءةَ باسمِ الفاعلِ ليكونَ ﴿جَاعِلُ﴾ مُوافقًا لفظًا لـ ﴿فَالِقُ ٱلۡحَبِّ﴾ أوّلِ الآيةِ الأولى، ومُوافقًا لـ ﴿فَالِقُ ٱلۡإِصۡبَاحِ﴾ أوّلِ الآيةِ الثّانيةِ؛ ليحصلَ التّناسبُ في أنّ الجميعَ أسماءُ فاعلين[6].

التّعبيرُ الاسميُّ يدُلُّ على الدَّوامِ، باستمرارِ الجعْلِ في كلِّ الأزمنةِ

بلاغةُ التّعبيرِ بالمَجازِ، في لفظِ (الحُسبَان):

الإخبارُ عنِ الشّمسِ والقمرِ بالمصدرِ ﴿حُسۡبَانٗاۚ﴾ إسنادٌ مَجازيٌّ؛ لأنّه في معنى اسمِ الفاعلِ؛ أي: حاسِبَين. والحاسِبُ هُمُ النّاسُ بِسَببِ الشّمسِ والقَمَرِ[7]، أو المُرَادُ بـ (الحُسبان) ذو حُسبان؛ لكونه سببَ

الحاسِبُ هُمُ النّاسُ، وليس الجِرْمَيْنِ، وهو من بليغِ البيانِ

(1) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنّة: 4/182.
(2) الشّنقيطيّ، العذب النّمير: 1/537.
(3) ابن مجاهد، السّبعة في القراءات، ص: 263، وابن الجزريّ، النّشر: 2/260.
(4) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/377.
(5) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/164.
(6) الفارسّي، الحجّة للقرّاء السّبعة: 3/361، وابن الجوزيّ، زاد المسير: 2/58.
(7) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/392.

الحُسبانِ، وللتّنبيهِ عَلَى كمالِ سَببيّتِهِ حُمِلَ عليهما؛ لأنّ العباداتِ والمعاملاتِ إنّما تُعرفُ أوقاتُها بحسبِ دورِهما وسَيرِهما[1]، وفي التّعبيرِ المَجازيِّ قوّةٌ للمعنى، وإيجازٌ في التّعبيرِ، وبيانٌ لأهمّيّتِهما في الحسابِ.

علّةُ إيثارِ لفظِ (الحُسبانِ) على لفظِ (الحِسابِ):

تقديرُ الحِسابِ بعدَ الوقوعِ، أمّا الحُسبانُ فقبلَ الوقوعِ

الفرقُ بينَ الحسابِ والحُسبانِ؛ أنّ الحسابَ مُقدَّرٌ بعدَ وقوعِ ما يُحسَبُ، وما يعدُّ، أمّا الحُسبانُ فإنّه يُحسَبُ ويُقدَّرُ قبلَ الوقوعِ[2]، وهو الملائمُ للمُرادِ هنا، وهو بيانُ القُدرةِ والإنعامِ، وكأنَّ المعنى لولاهما ما قدَرَ أحدٌ على الحسابِ. و(حُسْبان) على وزنِ فُعْلان، الدّالِّ عادّةً على المبالغةِ ككُفرانِ النّعمةِ، وغفرانِ اللّه. وجاءَ القرآنُ باللّفظةِ في مَوضِعَين اثنين فيما يتّصلُ بالشّمسِ والقمرِ، هنا، وفي سورةِ الرّحمن قوله: ﴿ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ بِحُسۡبَانٖ ۝٥﴾ [الرّحمن: 5]؛ ولذلك لم يقُلِ الحقُّ حِساباً، وجاءَ بحُسبان في المَوضِعَين؛ لأنّ الأمرَ يقتضي مُبالغةً في الدّقّةِ. فهذا ليسَ مُجرَّدَ حسابٍ، لكنّه حُسبانٌ، فنحنُ نحسبُ بالشّمسِ اليومَ، ونحسبُ بها العامَ، ولكنّا نحسبُ الشّهرَ بالقمرِ، وأنت لا تقدرُ أن تعكسَ، فالشّمسُ والقمرُ مَخلوقان ليحسبَ بهما شيءٌ آخرُ؛ لأنّهما خُلِقَتا بحُسبانٍ؛ أي: أنّهما قد أُريدَ بهما الحسابُ الدّقيقُ؛ لأنّ الشّمسَ مَخلوقةٌ بحسابٍ، وكذلك القمر[3]. وقد اقترنَ الحسابُ في الآيةِ بالشّمسِ والقمرِ؛ لأنّهُ بطُلُوعِ الشّمسِ ومَغيبِها يُعرَفُ عددُ الأيّامِ الّتي تَتَركّبُ منها الشُّهورُ والسُّنُونُ، فَمِن هُنا دَخَلَت عليهما[4].

(1) القونويّ وابن التّمجيد، حاشيتان على البيضاويّ: 8/205 - 206.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2601.
(3) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 6/3811 - 3813.
(4) القاسميّ، محاسن التّأويل: 4/440.

سرُّ اقترانِ توالُدِ النّباتِ بالشّمسِ والقمرِ:

اقترنَ ذكرُ التّوالُدِ في النّباتِ والإحياءِ والإماتةِ ههنا مع ذكرِ الشّمسِ والقمرِ، لأثرِهما في إنباتِ النّباتِ ووجودِ الأشجارِ، وحياةِ الأحياءِ، فالشّمسُ تُوجِدُ الحرارةَ الّتي تمدُّ الأحياءَ بالنّماءِ والدِّفءِ، ومنَ الحرارةِ إيجابًا وسلبًا يكونُ المطرُ[1].

الشّمسِ والقمرِ مصدران لعيشِ النّباتِ ودَيمومتِهِ

بلاغةُ تقديمِ (الشَّمسِ) على (القمرِ) في السّياق:

قدّمَ الشَّمسَ على القمرِ في قولِهِ تعالى: ﴿وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ﴾، وهذا دأبُهُ في جميعِ القرآنِ، وغايتُهُ تقديمُ الأصلِ على الفرعِ؛ فإنّ الشَّمسَ هي الأصلُ بضيائِها ومنافعِها للنّاسِ، وهي الأكبرُ في حجمِها، والأكبرُ في حسابِ الأوقاتِ؛ فإنّ دورةَ الشَّمسِ سنويّةٌ، ودورةَ القمرِ شهريّةٌ، وبها تُعرَفُ الفصولُ وطولُ النّهارِ واللّيلِ وقصرُهُ وغيرُ ذلك الكثيرِ[2]، أمّا القمرُ فأقلُّ من ذلك كلِّهِ.

تقديمُ الأصلِ على الفرعِ، ترتيبٌ مَنطقيٌّ للألفاظِ ومعانِيها

براعةُ التّعبيرِ باسمِ الإشارةِ الدّالِّ على البُعدِ ﴿ذَٰلِكَ﴾:

قولُهُ تعالى ﴿ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ﴾، ذلك: اسمُ إشارةٍ مُتضمِّنٌ اللّامَ الدّالّةَ على البعدِ، وفائدةُ هذه اللّامِ الإيذانُ بعلوِّ المُشارِ إليه وسُموِّهِ وبعدِ مَنزلتِهِ[3]، وهو الحقُّ ﷻ.

اللّامُ المتّصلةُ باسمِ الإشارةِ، مُؤذِنةٌ بعُلوِّ المُشارِ إليه وسُموِّهِ

نُكتةُ التّذييلِ بصفتَي ﴿ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ﴾ في ختامِ الآيةِ:

قولُهُ تعالى ﴿ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ﴾، وردَت هذه الآيةُ مُذيّلةً بصفتي ﴿ٱلۡعَزِيزِ﴾ و﴿ٱلۡعَلِيمِ﴾، وهذا التّذييلُ كثيرًا ما يقترنُ بألفاظِ الشّمسِ والقمرِ[4]، وسرُّ ذلك أنّ العزّةَ معناها القهرُ؛ فهو الّذي قهرَ الشّمسَ والقمرَ والنّجومَ، وسخّرَها وفق إرادتِهِ، وهو العليمُ المحيطُ

في العزّةِ معنَى القَهرِ بجعلِهما مُسخَّرَيْن، وفي العلمِ الإحاطةُ بكلِّ شيءٍ

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2601 - 2602.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2601.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/254.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/191، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 3/305، والشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 6/3813.

بما في السّماواتِ والأرضِ، لا يَعزُبُ عن علمِهِ شيءٌ من أحوالِهما ولا من غيرِها[1]. و"العزيزُ إشارةٌ إلى كَمالِ قُدرتِهِ، والعليمُ إشَارةٌ إلى كَمالِ عِلمِهِ، ومَعناهُ: أنّ تقديرَ أجرامِ الأفلاكِ بِصِفاتِها المَخصُوصَةِ وهَيئاتِها المَحدُودةِ، وحركاتِها المُقدَّرةِ بالمَقاديرِ المَخصُوصةِ في البُطءِ والسُّرعةِ لا يُمكنُ تحصيلُهُ إلّا بِقُدرةٍ كامِلَةٍ مُتعلِّقَةٍ بجميعِ المُمكِناتِ، وعِلمٍ نافذٍ في جميعِ المعلُوماتِ مِنَ الكُلِّيّاتِ والجُزئيّاتِ، وَذَلكَ تَصريحٌ بأنَّ حُصُولَ هذه الأحوالِ والصِّفاتِ ليس بِالطّبعِ والخاصَّةِ، وإنّما هو بِتخصيصِ الفاعِلِ المُختارِ"[2].

بلاغةُ تقديمِ ﴿ٱلْعَزِيزِ﴾ على ﴿ٱلْعَلِيمِ﴾:

قولُهُ تعالى ﴿ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ ذَكَرَ الحقُّ ﷻ صِفتين من صفاتِه العليّةِ، وهما العزّةُ والعلمُ، فقدّمَ ﴿ٱلْعَزِيزِ﴾ على ﴿ٱلْعَلِيمِ﴾؛ وسرُّ ذلك أنّه لمّا كانَ سياقُ الآيةِ في الشّمسِ والقمرِ وجريانِهما، وهما منَ الأجرامِ العظيمةِ؛ فإنّ تقديمَ ﴿ٱلْعَزِيزِ﴾ مُناسِبٌ لهذا السّياقِ الّذي يقتضي قوّةً وقهرًا؛ فإنّ "الجميعَ جارٍ بتقديرِ ﴿ٱلْعَزِيزِ﴾ الّذي لا يُمانَعُ ولا يُخالَفُ، ﴿ٱلْعَلِيمِ﴾ بكلِّ شيءٍ"[3]، ولو أرادَ أحدٌ أن يفعلَ ذلك، أو أن يُحدِثَ تغييرًا لأعياهُ ذلك.

السّياقُ في الشّمسِ والقمرِ يقتضِي عِزّتَه العليّةَ قبلَ كلِّ شيءٍ

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(فالِقُ) و(خالِقُ):

جاءَ بالوصفِ ﴿فَالِقُ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ﴾، ولم يأتِ بالوصفِ (خالق) ونحوه، لنُكتةٍ لطيفةٍ؛ فإنّ معنى الفَلْقِ: جعلُ الشّيءِ شقّين اثنين، وهو مَطلوبٌ، والفَلْقُ هنا يتخرَّجُ منه النّهارُ واللّيلُ؛ فهما "نِعمتان مُتقابلتان لا تكفي واحدةٌ عنِ الأخرى؛ إذ لا

وجهُ الفَلْقِ هنا تخريجُ النّهارِ واللّيلِ منه، وذلك إعجازٌ خارقٌ بديعٌ

(1) القاسميّ، محاسن التّأويل: 6/2430.
(2) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 13/79.
(3) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 3/305.

بدَّ أن يُوجدَ إصباحٌ، ويوجدَ اللّيلُ"[1]، فالفَلْقُ يحقّقُ غرضَ التّثنيةِ (اللّيل والنّهار)؛ فإنّ مِن نِعَمِه تعالى أنْ جعلَ لهم النّهارَ للكسبِ، واللّيلَ للرّاحةِ، وهو ما لا يُحَقِّقُهُ فعلُ الخَلْقِ.

(فَعَلَ)، و(عَمِلَ)، و(صَنَعَ)، و(جَعَلَ) و(خَلَقَ):

المرادُ في الآيةِ التّحويلُ والتّصييرُ، وليس الإنشاءَ

والعملُ: كلُّ فعلٍ يكونُ بقصدٍ، فهو أخصُّ منَ الفعلِ؛ فالعملُ إيجادُ الأثرِ في الشّيءِ. والفعلُ: التّأثيرُ من جهةِ مُؤثِّرٍ، وهو عامٌّ لِمَا كانَ بإجادةٍ أو غيرِ إجادةٍ، ولِمَا كان بعلمٍ أو غيرِ علمٍ، وقصدٍ أو غيرِ قصدٍ، ولِمَا كانَ منَ الإنسانِ والحيوانِ والجماداتِ. والصُّنعُ أخصُّ منهما؛ لكونِه إجادةَ الفعلِ، فكلُّ صُنعٍ فعلٌ، وليسَ كلُّ فعلٍ صُنعًا، ولا يُنسبُ إلى الحيواناتِ والجماداتِ كما يُنسَبُ إليها الفعلُ[2]. والجعلُ الصُّنعُ، إلاّ أنّ (جَعَلَ) أعمُّ، فهو لفظٌ عامٌّ في الأفعالِ كلِّها، وهو أعمُّ من فعلٍ وصُنعٍ فَعَلَ وصَنَعَ وسائر أخواتها، والمرادُ في الآيةِ التّصييرُ، فمعنى جَعَلَ: وما تصرّفَ منها في القرآن يكونُ للتّحويلِ والتّهيئةِ على وضعٍ، أو للخَلقِ، وهو تحويلٌ للهيئة بإنشاءِ هيئةٍ جديدةٍ"[3].

ومن هنا فَسِرُّ إيرادِ الفعلِ ﴿وَجَعَلَ﴾ في قولِه تعالى: ﴿وَجَعَلَ ٱلَّيۡلَ سَكَنٗا﴾، دونَ الفعلِ (خلقَ) مع أنّه مُرادِفٌ له في عمومِ معناه؛ أنّ الحقَّ ﷻ لم يُرِدْ خلقَ اللّيلِ منَ العدمِ، كما هو حالُ معنى الخَلْقِ؛ لأنّه مَخلوقٌ أصلاً، إنّما القَصْدُ جعلَهُ ﴿سَكَنٗا﴾؛ فإنّ هذا الجعلَ يفيدُ التَّحويلَ والتَّصييرَ؛ أي: أنّ اللّيلَ مَوجودٌ على كلِّ حالٍ، إنّما أرادَ هنا أن يجعلَهُ "ساجيًا مُظلمًا مُناسبًا للسُّكنى ... مُلائمًا للهدوءِ، وعدمِ الحركةِ"[4] فثمّةَ فرقٌ بينَ الخَلْقِ من عَدَمٍ، والتّحويلِ من شيءٍ إلى شيءٍ آخرَ، وكلاهما في قدرتِه تعالى.

(1) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 6/3808.
(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 134، والرّاغب، المفردات: (عمل)، (فعل)، (صنع).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (جعل).
(4) الشّنقيطيّ، العذب النّمير: 1/542.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهۡتَدُواْ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۗ قَدۡ فَصَّلۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ٩٧﴾ [الأنعام: 97]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

ربطُ كمالِ القُدرةِ بخلْقِ الشّمسِ والقمرِ، بتسخيرِ النُّجومِ لاهتداءِ البشرِ

لمّا امتنَّ الحقُّ ﷻ على خلقِهِ بمخلوقاتِهِ الّتي بها يُقيمُ معيشتَهُم من فلْقِ الإصباحِ، وجعلِ اللّيلِ لهم سَكنًا، والنّهارِ مَعاشًا، والشَّمسِ والقمرِ حُسبانًا لأوقاتِهِم، "أتبعَهُ مَنفعَةً أخرى تَعُمُّهُما مَعَ غيرِهِما مُبيِّنًا ما أذِنَ فيه من علمِ النُّجُومِ ومَنافعِهَا"[1]؛ بأن سخّرَ لهم النُّجومَ؛ ليهتدُوا بها في غياهِبِ اليمِّ وظلماتِ الفلواتِ، وفي ذلك إعلامٌ بكمالِ قدرتِهِ وحِكمتِهِ ورحمتِهِ[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلنُّجُومَ﴾: جمعٌ مُكسَّرٌ، مفردُهُ (نَجْمَة)، الجذرُ اللّغويُّ (نجم)، ومعنى النّجمِ مُتعدِّدٌ؛ فيقعُ على الثّريَّا، وعلى منازلِ القمرِ، وعلى كلِّ الكواكبِ أيضًا فهي تُسمّى نجمًا[3]، والأصلُ في معنى النَّجمِ هو الطّلوعُ والظّهورُ، فنجمَ الشّيءُ بمعنى: طَلَعَ[4]، ومعنى النُّجومِ في الآية: الكواكبُ الّتي تَظهَرُ ليلاً ليهتدُوا بها[5].

2) ﴿فَصَّلۡنَا﴾: فعلٌ مَزيدٌ بالتّضعيفِ، جذرُهُ اللّغويُّ (فصل)، ومعنى الفَصْلِ أنْ تُفرِّقَ بين شيئين حتّى يَتباينا[6]، والأصلُ في معنى الفَصلِ أن تُميِّزَ شيئًا من شيءٍ؛ فيتبيّنُ أحدُهما من الآخر[7]،

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/202.
(2) القاسميّ، محاسن التّأويل: 4/441.
(3) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة: (نجم).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (نجم).
(5) السّمرقنديّ، بحر العلوم: 1/470، والسّمعانّي، تفسير القرآن: 2/129.
(6) ابن دريد، جمهرة اللّغة، والأزهريّ، تهذيب اللّغة: (فصل).
(7) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (فصل).

فالتّفصيلُ: التّبيينُ والتّوضيحُ، وتفصيلُ الآياتِ تبيينُها وتمييزُها الواحدة منَ الأخرى[1]، ومعنى ﴿فَصَّلْنَا﴾ في الآية؛ أي: بيّنا وقسّمنا وميّزنا الآياتِ الدّالّةَ على توحيدِنا وقدرتِنا[2].

المَعْنى الإجْماليُّ:

في تسخيرِ النُّجومِ انتفاعٌ بتيسيرِ المَسيرِ بَرًّا وبحرًا

من مزيدِ إنعامِه وإفضالِه تعالى أنْ جعلَ لكُم النُّجومَ؛ لتهتَدُوا بها إذا سلكتُم القفارَ، وركبتُم البحارَ، ولتعرفوا قصدَكُم فتسلكونَ السّبيلَ الصّحيحَ، وتَنْجونَ منَ الخطأ والضّلالِ، قد بيّنا بيانًا شافيًا ما أنزلْنا منَ الأدلّةِ الواضحةِ لقومٍ يعلَمُونَ؛ فيستدلُّونَ بعلمِهم ويتفكَّرُونَ.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

سرُّ الوصْلِ بالمُضمَرِ ﴿وَهُوَ﴾:

مُناسبةُ المُفْتَتَحِ للسّابقِ، ولِمَا بينَ الجُملتَيْن مِن تَعالُقٍ

افتتحَ اللّه - ﷻ - الآيةَ بالضّميرِ عطفًا على ما سَبَقَ، ويجوزُ لغةً التّعبيرُ بلفظِ الجلالةِ، لكنّه أرادَ أن تتناسَبَ هذه الآيةُ مع السّابقِ؛ لِمَا بينهما من تَعالُقٍ؛ فإنّ هذه الجملةَ فيها تتميمٌ لِمَا أوردَهُ سبحانه منَ النّعمِ والآياتِ في فَلْقِ الإصباحِ، وجعلِ اللّيلِ، وجريانِ الشّمسِ والقمرِ؛ فجاءَت هذه الجملةُ دالّةً على الإنعامِ بتسخيرِ النُّجومِ للاهتداءِ بها؛ فالضّميرُ يدعمُ العلاقةَ بينَ الجملتين؛ لأنّ هذه الجملةَ مَعطوفةٌ على سابقتِها عطفَ إنعامٍ على إنعامٍ.

فائدةُ تعريفِ المُسنَدِ بالاسمِ الموصولِ:

مَعرفةِ جملةِ الصّلةِ، دافعٌ لتشويقِ النّفسِ لمضمونِ الجُملةِ

بعدَ أنِ استهلَّ اللّه سبحانه قولَهُ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى﴾ بالضّمير، أردفَهُ بالمُسنَدِ، فجاءَ به اسمًا مَوصولاً، وفائدةُ ذكرِه على هذا النّمطِ أنّ فيه تشويقًا، وإثارةً للنّفسِ في معرفةِ جملةِ الصّلةِ؛ فإنّ الاسمَ

(1) السّمين، عمدة الحفّاظ، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (فصل).
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/326، والخازن، لباب التّأويل: 2/139.

الموصولَ لا يُدرَكُ معناه إلّا بجملةِ الصّلةِ، فجاءَ بعدَهُ بقولِه: ﴿جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ﴾.

بلاغةُ القصْرِ بتعريفِ الطّرفَيْن:

يختصُّ سبحانَه وحدَهُ بجَعلِ النُّجومِ هاديةً، في البحرِ والباديةِ

المقصودُ الأوّلُ منَ الإخبارِ في الآيةِ الكريمةِ الاستدلالُ على وحدانيّةِ اللّهِ تعالى بالإلهيّةِ؛ فلذلكَ صِيغَ بصيغةِ القصرِ بطريقِ تعريفِ الطّرفين؛ لقصرِ هذه المنّةِ عليه وحدَهُ، فالتَّفرُّدُ بالإنعامِ يقتضي إفرادَهُ بالعبادةِ[1].

دلالةُ اللّام في ﴿لَكُمُ﴾، و﴿لِتَهۡتَدُواْ﴾:

تخصيصُ النّفعِ امتنانٌ وتفضُّلٌ

دلّتِ اللّامُ في ﴿لَكُمُ﴾ على قصدِ الامتنانِ، فلذلك دخلَتْ على ما يدُلُّ على الضّميرِ الدّالِّ على الذّواتِ، كقولِه: ﴿أَلَمۡ نَشۡرَحۡ لَكَ صَدۡرَكَ ۝١﴾ [الشّرح: 1]، وما دامَت ﴿لِتَهۡتَدُواْ بِهَا﴾ علّةً ثانيةً لـ ﴿جَعَلَ﴾؛ فاللّامُ للعلّةِ أيضًا، وتضمّنَت حكمةَ الجعلِ وسببَ الامتنانِ، وهو ذلك النّفعُ العظيمُ[2]، فقولُهُ ﴿لَكُمُ﴾ إجمالٌ؛ لأنّه يدُلُّ على انتفاعِهم بها مُطلَقًا[3].

دلالةُ تقديمِ المُتعلَّقِ: ﴿لَكُمُ﴾ على المفعولِ به:

الإمتنان بإظهارِ نِعمِهِ عليهم، كأنّه جعلَها لهُم دونَ غيرِهِم

قدّمَ ﴿لَكُمُ﴾ على المفعولِ به ﴿ٱلنُّجُومَ﴾؛ للعنايةِ والاهتمامِ بأمرِ المُخاطَبين، والعنايةِ بإظهارِ نِعَمِهِ تعالى عليهم، وهذا التّقديمُ يُومِئُ إلى دلالةٍ قريبةٍ منَ التّخصيصِ، فكأنّه تعالى جعلَ النُّجُومَ لكم؛ أي: لأجلِكُم[4] دونَ غيرِكُم، وفي ذلك منَ الاعتناءِ والاهتمامِ ما لا يخفَى، كما أنّ تأخيرَ المفعولِ الصّريحِ عنِ الجارِّ والمجرورِ هو للتّشويقِ إلى المُؤخَّرِ؛ أي: أنشأَها وأبدَعَها لأجلِكُم[5].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/393.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/393.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/393.
(4) القونويّ وابن التّمجيد، حاشيتان على البيضاويّ: 8/206، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/393.
(5) الخفاجيّ، عناية القاضي: 4/101.

دلالةُ التّعبيرِ بجمعِ الكَثرةِ (فُعُول) في لفظِ ﴿ٱلنُّجُومَ﴾:

صِيغةُ الكَثرةِ مُناسِبةٌ لسِياقِ النّعمِ الكثيرةِ، في الآيةِ وما سَبَقَها

لفظُ ﴿ٱلنُّجُومَ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ﴾ صيغةُ (فُعُوْل)، وهي من صيغِ جمعِ التّكسيرِ الدّالِّ على الكَثرةِ[1]، واستعمالُ صيغةِ الكثرةِ هنا مُناسِبٌ سياقَ ذكرِ النِّعمِ الكثيرةِ الّتي أنعمَها الحقُّ ﷻ على خلقِهِ، من لدنْ فَلْقِ الحبِّ والنَّوى، حتّى جَعلِ النُّجُومِ هاديةً لهم في ظلماتِ البرِّ والبحرِ، كما أنّ صيغةَ الكثرةِ في النُّجُومِ آيةٌ من آياتِهِ تعالى، فكما يُستدَلُّ بها في الاهتداءِ في الظّلماتِ، يُستَدَلُّ بها على عظمةِ الصَّانعِ الخبيرِ، وكمالِ قدرتِهِ وجبروتِهِ[2].

بلاغةُ التّعبيرِ بالفعلِ المضارعِ ﴿لِتَهۡتَدُواْ﴾:

الاهتداءُ بالنّجومِ مُتجدِّدٌ بهِ الانتفاعُ في كلِّ زمانٍ

قولُهُ تعالى: ﴿لِتَهۡتَدُواْ بِهَا﴾؛ لإفادةِ التّجدُّدِ والحُدوثِ؛ لأنّ الاهتداءَ بالنّجومِ يكونُ جاريًا في كلِّ زمانٍ.

بلاغةُ الإضافةِ في قولِهِ: ﴿ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۗ﴾:

الأصلُ ظلماتُ اللّيلِ، وإضافتُها للبَرِّ والبحرِ للمُلابسةِ:

قولُهُ تعالى: ﴿ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۗ﴾ الأصلُ في الإضافةِ أنْ تكونَ على تقديرِ (في)؛ لأنّ البرَّ والبحرَ ظرفٌ للظّلماتِ[3]؛ وإنّما أضافَها للبرِّ والبحرِ للمُلابَسَةِ[4]، والإضافةُ تكونُ لأدنى مُلابسةٍ واتّصالٍ؛ فإنّه لمّا كانَ اللّيلُ يُلابِسُ البرَّ والبحرَ، ويختلطُ بهما أُضيفَ إليهما.

بلاغةُ الاستعارةِ في لفظِ (الظّلماتِ):

مَن اشتبهَ عليه المَسلكُ، فَقدَ الأمنَ والظّفرَ بالمُبتغَى

قولُهُ تعالى: ﴿فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۗ﴾؛ أي: في ظلماتِ اللّيلِ في البرِّ والبحرِ وإضافَتُها إليهما للمُلابَسَةِ؛ فإنّ الحاجةَ إلى الاهتداءِ بها إنّما يَتحقَّقُ عندَ ذلك، أو في مُشتَبِهاتِ الطُّرقِ، عبّرَ عنها

(1) سيبويه، الكتاب: 3/567.
(2) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 13/107.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/394.
(4) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 2/174.

بالظّلماتِ على طريقِ الاستعارةِ[1]، مُشَبِّهًا مُشتبِهاتِ طرقِ البرِّ والبحرِ بظُلمةِ اللّيلِ في انتفاءِ الأمنِ لمَن سلكَ لهما، أو في إصابةِ المَكروهِ، وعدمِ الظّفرِ إلى البُغيةِ للسّالكين لهما[2].

وجهُ الإطنابِ في جملةِ ﴿فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۗ﴾:

من وجوهِ التّأثيرِ التّفصيلُ بعدَ الإجمالِ

بعدَ ما أجملَ المنّةَ بقولِهِ: ﴿لَكُمُ﴾ فصّلَ في ماهيّتِها، ومدى استعمالِها بجملةِ: ﴿فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۗ﴾؛ إذ التَّفصيلُ بعدَ الإجمالِ أوقعُ في النّفسِ[3]، وأدعى لوجوهِ التّفكُّرِ والتّأمُّلِ، وأبينُ لتمامِ النّعمِ ومدى تأثيرِها، ومن هنا اخْتيرَ الإطنابُ.

سِرُّ تقديمِ البَرِّ على البَحرِ:

الأصلُ يُقدَّمُ على الفَرْعِ

قدّمَ البرَّ على البحرِ في قولِهِ تعالى: ﴿ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۗ﴾؛ جريًا على عادةِ القرآنِ الكريمِ؛ فإنّه قدّمَهُ في جميعِ الآياتِ الواردةِ، وهو من بابِ تقديمِ الأصلِ على الفرعِ؛ لأنّ الأصلَ في مُستقَرِّ الإنسانِ وسفرِهِ هو البرُّ، وهو الأكثر في معيشتِهِ ورحلتِهِ، ولا يسلكُ المرءُ البحرَ إلّا لعارضٍ.

بلاغةُ التّعريضِ، في قولِهِ: ﴿فَصَّلۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ﴾:

قطعُ العُذرِ على مَنْ لم ينتفعُوا مِن تفصيلِ الآياتِ

استئنافُ جملةِ ﴿قَدۡ فَصَّلۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾؛ للتّسجيلِ والتّبليغِ وقطعِ مَعذرةِ مَن لم يُؤمنوا، وتذييلُ الآيةِ بفعلِ التّفصيلِ منهُ تعالى لقومٍ يعلمونَ، فيه تعريضٌ بمَنْ لم ينتفعْ من ذلك التَّفصيلِ، وتلك الآياتِ بأنّهم قومٌ لا يَعلَمون[4]، مع ما فصّلَهُ وبيّنَهُ اللّهُ تعالى منَ الآياتِ البيّناتِ، لكنّها تمرُّ عليهم، وهُم عنها مُعرِضون[5].

(1) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 2/174، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/165.
(2) القونويّ وابن التّمجيد، حاشيتان على البيضاويّ: 8/207.
(3) القونويّ وابن التّمجيد، حاشيتان على البيضاويّ: 8/207.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/394.
(5) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/326.

بلاغةُ الالتفاتِ منَ الغَيبةِ إلى التّكلُّمِ في السّياقِ:

لفتُ الانتباهِ يَعني أهمّيَّةَ الموضوعِ في الخطابِ الدّعويِّ

تظهر بلاغة الالتفات، من الغيبةِ إلى التَّكَلُّم، في قولِه تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ﴾ وقوله: ﴿قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾؛ إظهارًا لكمالِ العنايةِ بشأنِ ما أُنزِلَ الماءُ لأجلِه، وإظهارًا أيضًا لعظمِ آثارِ قُدرتِه بعظمةِ مُوجِدِه.

دلالةُ التَّعريفِ في لفظِ ﴿ٱلْآيَٰتِ﴾:

آياتُ اللهِ الشّاهدةُ على قُدرتِه، لا تُحصَى ولا تُعدُّ

التّعريفُ في الآياتِ للاستغراقِ، فَيَشمَلُ آيةَ خلقِ النُّجومِ وغيرَها منَ الآياتِ الّتي لا تُعدُّ، والشّواهدِ الّتي لا عدَّ لها ولا حصرَ، عزَّ في عُلاهُ[1].

تَوجيهُ المُتشابِهِ اللّفظِيِّ في ﴿يَعْلَمُونَ﴾، و﴿يَفْقَهُونَ﴾، و﴿يُؤْمِنُونَ﴾:

تقريرُ مَضمونِ ما قبلَه منَ التّنبيهِ على مَعرفةِ اللهِ تعالى

في قوله تعالى: ﴿قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ جملةُ ﴿يَعْلَمُونَ﴾ ذيّلَ بها هذه الآيةَ، فيما وردَتْ آيتان بعدَها خُتِمَت إحداها بـ ﴿يَفْقَهُونَ﴾، والأخرى بـ ﴿يُؤْمِنُونَ﴾، فيُسألُ عن ذلك؟ والجوابُ عن ذلك يكونُ من وجهين:

الأوّل: إنّ هذا الفعلَ ﴿يَعْلَمُونَ﴾ جاءَ لتقريرِ مَضمونِ ما قبلَهُ منَ الآياتِ الّتي نبّهتْ على معرفةِ الحقِّ ﷻ من لَدُنْ قولِه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ﴾ إلى قولِه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا﴾، وذلك كلُّهُ دالٌّ على العلمِ به تعالى[2].

الآخر: لمّا كانَ العلمُ باللهِ تعالى هو أشرفَ المَعلومِ؛ فإنّه ليسَت هناك لفظةٌ من نحو ﴿يَفْقَهُونَ﴾ و﴿يُؤْمِنُونَ﴾ إلّا ولفظةُ ﴿يَعْلَمُونَ﴾ أعلى وأسمى مَقامًا، ولا يصحُّ التّعبيرُ إلّا بـ ﴿يَعْلَمُونَ﴾[3].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/395.
(2) الإسكافيّ، درّة التّنزيل: 2/530 - 531، ، وابن الزّبير، ملاك التّأويل: 1/164.
(3) الإسكافيّ، درّة التّنزيل: 2/530، وابن الزّبير، ملاك التّأويل: 1/165.

بلاغةُ التَّذْييلِ في قولِه تعالى: ﴿قَدۡ فَصَّلۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾:

سَبَبُ تذييلِ الجملةِ بـ ﴿يَعۡلَمُونَ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿قَدۡ فَصَّلۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾؛ أنّ حسابَ النُّجومِ، وما يتعلَّقُ بعلمِ الأفلاكِ، والاهتداءَ بها أمرٌ يختصُّ بالعلماءِ[1]؛ وهو نظامٌ أرشدَ العلماءَ في تدوينِ ما يسمَّى عِلمَ الهَيئةِ[2]؛ فناسبَ أنْ ختمَ الآيةَ بـ ﴿يَعۡلَمُونَ﴾ الدّالّة على ذلك.

حِسابُ النُّجومِ والاهتداءُ بها، لا يُحسنُهُ إلاّ العالِمُ النِّحريرُ

سِرّ التَّعبير بقوله تعالى: ﴿يَعۡلَمُونَ﴾ عوضا عن (يفقهون):

العلمُ راجعٌ للتّصوُّرِ، والفقهُ راجعٌ للتَّصديقِ، فتناسبَ أنْ يعقِّبَ الأوّلَ بـ (يَعْلَمُونَ)؛ لأنّه بُدِئَ به، فعقّبَهُ بما هو سابقٌ على التَّصديقِ.

وعكس آخرون، فقالوا: العلمُ راجعٌ لعلم الكلامِ وغيرِهِ منَ العلوم، وعلمُ الكلامِ إنّما يُتكلَّمُ فيه باليقينِ المُحقَّقِ، وليسَ بالظَّنِّ، والفقهُ أحكامُهُ كلُّها ظنّيّةٌ، فـ ﴿يَعۡلَمُونَ﴾ أبلغُ من (يفقهون)[3].

العِلمُ تصوُّرٌ مُحقَّقٌ دونَ الظَّنِّ، فهو هنا أبلغُ في الاستعمالِ

(1) السّيوطيّ، معترك الأقران: 1/34.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/393.
(3) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/176.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾﴾ [الأنعام: 98]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

رَبْطُ إتمامِ دلائلِ وُجودِهِ، باستحضارِ أحوالِ خلْقِ الإنسانِ ونشْأتِهِ

لمّا ذكرَ الحقُّ ﷻ بعضًا من آياتِهِ الدّالّةِ على عظمتِهِ في المَلَكُوت الأرضيِّ والسّماويِّ، أتبعَه بالخلْقِ الجامعِ لذلك المَلَكُوت[1]، وهو خلقُ الإنسانِ من نفسٍ واحدةٍ، وهو رابعُ دلائلِ وجودِهِ - ﷻ - مع كمالِ علمِهِ، وعظيمِ قُدرتِهِ، وهو الاستدلالُ بالإنسانِ، وأحوالِ خلقِهِ ونشأتِهِ[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَنشَأَكُم﴾: الجذرُ اللّغويُّ (نشأ)، والإنشاءُ: البدءُ، ومنه "أنشأَ فلانٌ حديثًا؛ أي: ابتدأَ حديثًا ورفَعَه، "والأصلُ في معناه الارتفاعُ، ومنه أنشأَهُ اللّهُ بمعنى: رفَعَهُ، وهو أيضًا إحداثُ الشّيءِ وتربيتُهُ وإيجادُهُ"[3]. و"الإنشاءُ: ابتداءُ الخلْقِ، وكلُّ مَنْ ابتدأَ خلقَ شيءٍ واخترعَه فقد أنشأَهُ"، "والنّشوءُ يشمَلُ الإيجادَ والدّخولَ في مرحلةِ النّموِّ والتّكاملِ حتّى الاستواء"[4]، ومعنى ﴿أَنشَأَكُم﴾ في الآية؛ أي: الّذي ابتدأَ خلقَكُم من عدمٍ، وأوجدَكُم من غير أن تكونُوا شيئًا[5].

2) ﴿نَّفْسٍ﴾: اسمٌ ثلاثيٌّ مُجرَّدٌ، جذرُهُ اللّغويُّ (نفس)، ومعنى النّفسِ: الرّوحُ الّتي يَحيَا بها الجَسَدُ[6]، والنّفسُ في أثناءِ بدنِ الحيِّ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/206، ورضا، تفسير المنار: 7/532.
(2) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 13/107.
(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (نشأ).
(4) السّمين، عمدة الحفّاظ، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (نشأ).
(5) ابن جرير، جامع البيان: 11/562.
(6) الخليل، العين، والجوهريّ، الصّحاح: (نفس).

علامةُ حياتِهِ"[1]، ومعنى ذلك أنّ النّفسَ يُعبَّرُ بها عنِ الإنسانِ، وهو تعبيرٌ مَجازيٌّ وفقًا لمَا سبقَ، ومعنى النَّفسِ في الآيةِ نفسُ آدَمَ عليه السلام.[2]

3) ﴿وَٰحِدَةٍ﴾: اسمُ فاعلٍ دالٌّ على العددِ، ويكونُ صفةً لمَا قبلَهُ، وجذرُهُ اللّغويُّ (وحد) و(أحد)، ومعنى الواحدِ: المُنفَرِد من كلِّ شيءٍ، وهو أصلُهُ[3]، والواحدُ "في الحقيقةِ هو الشّيءُ الّذي لا جزءَ له البتَّةَ، ثمّ يُطلَقُ على كلِّ مَوجودٍ حتّى إنّه ما مِنْ عددٍ إلّا ويصحُّ أن يُوصَفَ بهِ"[4]، وهذه النّفسُ الواحدةُ هي آدمُ[5] عليه السلام؛ إذ لم يكنْ معه أحدٌ يومَ خلقِهِ.

4) ﴿فَمُسْتَقَرٌّ﴾: اسمُ مَفعولٍ منَ الفعلِ (استقرَّ)، وجذرُهُ اللّغويُّ (قرر)، ومنه القرارُ وهو المُستقَرُّ منَ الأرضِ، والقارُّ بمعنى السّاكنِ المُتمكِّنِ المُستقرِّ[6]، والأصلُ في معنى هذه اللّفظةِ يدُلُّ على التَّمَكُّنِ[7]، والاستقرارُ نقيضُ التَّحوُّلِ[8]، ولفظةُ ﴿فَمُسْتَقَرٌّ﴾ في الآية تدُلُّ على الثّباتِ والاستقرارِ، وهو القرارُ، "فالسّينُ والتّاءُ فيه للتّأكيدِ مِثلُ استجابَ، يُقال: استقرَّ في المكانِ؛ بمعنى: قَرَّ"[9].

5) ﴿وَمُسْتَوْدَعٌ﴾: اسمُ مَفعولٍ منَ الفعلِ (وَدَعَ)، وجذرُهُ اللّغويُّ (ودع)، ومنه التّوديعُ، وهو إيداعُكَ ثوبًا في صِوَانٍ، ويكون مَحميًّا من ريحٍ ونحوه، والوديعةُ: الشّيءُ المُستودَعُ المَحفوظُ كالمالِ ونحوِه[10]، ومن معانيه التّركُ؛ لقولِهِ تعالى: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣﴾ [الضّحى: 3]، والأصلُ في معناه التّركُ والتّخليةُ[11]، والمعنى المحوريُّ له: "بقاءُ الشّيءِ ساكنًا قارًّا في مَقرٍّ، أو مَقامٍ بلا حركةٍ ولا استعمالٍ"[12]، أمّا معنى ﴿وَمُسْتَوْدَعٌ﴾ فهو التّركُ مُدّةً،

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (نفس).
(2) ابن عبّاس، تنوير المقباس، ص: 116، والشّنقيطيّ، العذب النّمير: 2/5.
(3) الخليل، العين، والجوهريّ، الصّحاح: (وحد)، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (وحد).
(4) الرّاغب، المفردات: (وحد).
(5) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/326.
(6) الخليل، العين: (وحد)، والفيوميّ، المصباح المنير: (قرر).
(7) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (قر)، والسّمين، عمدة الحفّاظ: (قرر).
(8) الرّاغب، المفردات: (قر).
(9) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/396.
(10) الخليل، العين، والجوهريّ، الصّحاح: (ودع).
(11) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (ودع).
(12) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (ودع).

ثمّ يُسترجَعُ المتروكُ كالمالِ إذا تُرِكَ، ويُسمّى الوديعةَ، فهو مُوقَّتٌ بوقتٍ، خلاف الاستقرارِ المُؤذِنِ بطولِ الوقتِ، واستطالةِ المدّةِ[1].

6) ﴿يَفْقَهُونَ﴾: الفِقهُ: العلمُ في الدّينِ والفهمُ والبيانُ[2]، ومن معانيه أيضًا الفِطنةُ[3]، والأصلُ في دلالتِهِ إدراكُ الشَّيءِ، والعلمُ به؛ فكلُّ علمٍ هو فِقهٌ، وهو أيضًا التّبيينُ[4]، و"هو التَّوَصُّلُ إلى عِلمٍ غائبٍ بعِلمٍ شَاهِدٍ، فهو أخَصُّ منَ العلمِ"[5]؛ لذلك جُعِلَ المعنى المحوريُّ له الوصولُ إلى باطنِ الشّيءِ[6]، ومعنى ﴿يَفْقَهُونَ﴾ في الآية: هو أنّهم يَعُونَ كلامَ الحقِّ ﷻ ويفهَمُونَه، ويُدركونَ معنَاه[7].

❁ المَعْنى الإِجْماليُّ:

بعد أنْ ذكرَ الحقُّ ﷻ جملةً من نِعَمِهِ على بني البشرِ، من لَدُنْ فَلْقِ الحبِّ والنَّوَى، حتّى هدايتِهم في ظلماتِ البرِّ والبَحرِ بأن جعلَ النُّجومَ لهم آيةً، مرورًا بفَلْقِ الإصباحِ، وجعلِ اللّيلِ لهم سَكنًا وأوبَةً لهم مِن لأوائِهم ونَصَبِهم، ذكَّرَهُم هنا بمزيدِ نعمٍ دالّةٍ على عظيمِ قُدرتِهِ ولطيفِ صَنعتِهِ، وهي إنشاؤُهُم من نفسٍ واحدةٍ على كثرتِهِم، ولهم مُستقَرٌّ في الأصلابِ، أو فوقَ الأرضِ، أو في الأرحامِ، أو تحتَ الأرضِ[8]، فهذه آياتٌ بيّناتٌ مُفصَّلاتٌ لمَن يفقهُ دقائقَ الأمورِ، ولطائفَ صُنعِ العَزيزِ الغَفُورِ.

إغْداقُ الإنعامِ بالإنشاءِ من نفسٍ واحدةٍ، والرّعايةِ في المُستقرِّ والمُستودَعِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/396.
(2) الخليل، العين: (فقه).
(3) ابن سيده، المحكم، والزّبيديّ، تاج العروس: (فقه).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن الأثير، النّهاية: (فقه).
(5) الرّاغب، المفردات، والسّمين، عمدة الحفّاظ: (فقه).
(6) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (فقه).
(7) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 3/306.
(8) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/255.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

براعَةُ الوصْلِ بواو العطْفِ، والضّميرِ المعطوفِ في ﴿وَهُوَ﴾:

الوصْلُ بالواو مَزيدُ تأكيدٍ بأنّه الصّانعُ الخَبيرُ

قولُهُ تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم﴾ استهلَّتِ الآيةُ بالضَّميرِ المعطوفِ على ما قبلَهُ ﴿وَهُوَ﴾؛ "أي: اللّهُ الّذي أدعوكُم إلى توحيدِهِ وطاعتِهِ"[1] توكيدًا بأنّ هذه الأفعالَ لا يقومُ بها إلاّ الصّانعُ الخبيرُ؛ فهو مَن يقومُ بها لا غيرُه[2].

بلاغةُ القَصْرِ بتعريفِ رُكنَيِ الإسنادِ:

التّعريضُ بالمُشركين لونٌ مِنَ التّقريعِ المُهينِ

قولُهُ تعالى ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم﴾: افتتحَ الحقُّ - ﷻ - الآيةَ بركني جملةِ الإسنادِ، وهما مَعرِفتان، والجملةُ تفيدُ القَصْرَ بركنَيها مع ما تعلَّقَ بهما؛ تعريضًا بمَن أشركَ مع اللّهِ خَالقًا غيره[3]، تعالى اللّهُ عمّا يُشركونَ علوًّا كبيرًا.

دلالةُ إنشاءِ البَشرِ من نفسٍ واحدةٍ:

الإيماءُ إلى لُحمةِ البشرِ، الباعثةِ لأصُولِ التّراحُمِ بينَهُم

قولُهُ تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ في إنشاءِ جميعِ الخلائقِ والبشرِ من نفسٍ واحدةٍ دلالةٌ بالغةٌ على عظيمِ قدرتِهِ، وغامرِ جَبَروتِهِ، ودقيقِ حِكمتِهِ[4]. وفي هذا الإنشاءِ من أصلٍ واحدٍ إيماءٌ إلى الالتحامِ البالغِ الّذي يجبُ أن يكونَ بينَ البشرِ، وأن يُثيرَ بينهُم التّراحمَ والتّآلفَ والودَّ والتّعاطفَ، ونبذَ الفرقةِ والتّناحرِ[5]؛ فالجميعُ من أصلٍ واحدٍ هو آدمُ عليه السلام.

بديعُ حذْفِ المتُعلِّقِ (لكم) في قولِهِ تعالى: ﴿فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ﴾:

قولُهُ تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ

---

(1) الشّنقيطيّ، العذب النّمير: 2/5.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/206.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/395. والتّعريضُ أسلوبٌ بلاغيٌّ يأتي خلافًا للتّصريحِ، وهو: "اللّفظُ الدّالُّ على الشّيءِ من طريقِ المفهومِ، لا بالوضعِ الحقيقيِّ، ولا المجازيّ". يُنظر: العلويّ، الطّراز: 1/193.

(4) المّراغيّ، تفسير المراغيّ: 7/201، والآلوسّي، روح المعاني: 7/235.

(5) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 6/3817، والمراغيّ، تفسير المراغيّ: 7/201.

وَمُسْتَوْدَعٌ﴾، قوله ﴿فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ﴾ على إضمارِ مُتعلِّقٍ يقعُ خبرًا له[1]، تقديرُ الكلامِ (فلكم مُستقَرٌّ ومُستودَعٌ)، وفي هذا الإضمارِ قوّةٌ في اتّصالِ الكلامِ، وتعالُقِ الجُملِ؛ لأنّ الفاءَ حرفٌ رابطٌ يغلبُ على ما بعدَها الاتّصال بما قبلَها؛ فحَسُنَ الإضمارُ هنا، كقول العربِ: إنْ قصدتني فبارٌّ؛ أي: فأنتَ بارٌّ[2].

في الإضمارِ إحرازُ حُسنِ الاتّصالِ، في الحاضرِ والمآلِ

دلالاتُ لفظَيِ (المُستقَرّ) و(المُستودَع):

دلالةُ ﴿فَمُسْتَقَرٌّ﴾ في الآيةِ دلالةٌ ثابتةٌ مُتأتّيةٌ من معنى القرارِ، وتكونُ غِبَّ الموتِ؛ فثمَّ القرارُ إمّا شقاوةً وإمّا سعادةً، أمّا ﴿وَمُسْتَوْدَعٌ﴾ فحالةُ المرءِ في حياتِه، فهو في تقلُّبٍ بين هذا وذاك؛ لقولِه ﷺ: «يُصبحُ الرّجلُ مُؤمنًا ويُمسي كافرًا، أو يُمسي مُؤمنًا ويُصبحُ كافرًا»[3]، والوديعةُ مُستردَّةٌ؛ فهي على نيّةِ الزَّوالِ[4].

المُستقَرُّ بعدَ الموتِ، والمُستودَعُ قبلَهُ؛ والوديعةُ على نيّةِ الزَّوالِ

سِرّ لفظَيْ (المستقَرّ) و(المستودَع) باعتبارِ الحياتَيْن: العاجلةِ والآجلةِ:

من دلالاتِ ﴿فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ﴾ أنّ ابنَ آدمَ مُستودَعٌ في حياتِه من لَدُنْ وجودِه في ظهرِ أبيه، ثمّ رَحِمِ أمِّه، ثمّ رحيلِه عن دُنياهُ إلى قبرِه، ثمّ حشرِه حتّى جنّتِه أو نارِه، وهناك مُستقرُّهُ الّذي لا يتحوَّلُ منهُ[5]. ويجوزُ أن تكونَ دلالةُ ﴿فَمُسْتَقَرٌّ﴾ قرارَ الدّنيا، وأن تكونَ دلالةُ ﴿وَمُسْتَوْدَعٌ﴾ حياةَ البرزخِ منَ القبرِ حتّى مَبعَثِ النّاسِ[6] عَلَى أنّهم كالمُستودَعين في القبورِ؛ لأنَّ مَصيرَهم البعثُ والنّشورُ[7]. ومعنى ﴿فَمُسْتَقَرٌّ﴾ كونُكُم فوقَ الأرضِ، ومن دلالاتِ ﴿وَمُسْتَوْدَعٌ﴾ تحوّلُكُم تحتَ الأرضِ؛ أي: فلكم استِقرارٌ في الأصلابِ أو فوقَ

مُستودَعُ المرءِ حياتُهُ، ومُستقرُّهُ مآلُهُ بعدَ حِسابِهِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/396.
(2) الواحديّ، البسيط: 8/312.
(3) مسلم، صحيح مسلم، تح: فؤاد، الحديث رقم: (118).
(4) النّيسابوريّ، غرائب القرآن: 3/127.
(5) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/327.
(6) النّيسابوريّ، غرائب القرآن: 3/127.
(7) القونويّ وابن التّمجيد، حاشيتان على البيضاويّ: 8/208.

الأرضِ، واستِيداعٌ في الأرحامِ أو تحتَ الأرضِ[1]. وعلى هذا الوجهِ يكونُ الكلامُ تنبيهًا لهُم بأنّ حياةَ النّاسِ في الدّنيا يَعقُبُهَا الوَضعُ في القبورِ، وأنَّ ذلك الوَضعَ استيداعٌ مُؤقَّتٌ إلى البعثِ الّذي هو الحياةُ الأولى رَدًّا على الّذين أنكرُوا البعثَ[2]، فهلّا اتّعظتم، وعَلِمتُم أنّكم مُتحوّلونَ منَ الحياةِ الفانيةِ إلى الآخرةِ الباقيةِ.

سِرّ لفْظَيْ (المستقَرُّ و(المستودَعُ) بالتّعبيرِ عنِ التّأنيثِ والتّذكيرِ:

توجيهُ المعنَى للدّلالةِ على ما يُعبِّرُ عنه اللّفظُ في الأساسِ

من دلالاتِ ﴿فَمُسْتَقَرٌّ﴾ أنّه ما كانَ ذَكَرًا؛ فإنّ النّطفةَ إنّما تَتولَّدُ في صُلبِهِ، فإذا وُلِدَ ذَكَرًا فهو مُستقَرٌّ، وعبّرَ عنِ الأنثى بالمُستودَعِ؛ لأنّ الرّحمَ كالمُستودَعِ لتلك النّطفَةِ[3]، فهما كنايةٌ[4]، والتّعبيرُ عن كونِهِم في الأصلابِ أو فوقَ الأرضِ بالاستقرارِ؛ لأنّهما مَقَرُّهُمُ الطّبيعيُّ، كما أنَّ التّعبيرَ عن كونِهِم في الأرحامِ أو تحتَ الأرضِ بالاستيداعِ؛ لِما أنَّ كُلاً منهُمَا ليسَ بمَقرِّهِمُ الطّبيعيِّ[5]؛ لأنَّ زمنَ بقاءِ النُّطفةِ في الرّحِمِ أكثرُ من زمنِ بقائِها في الصُّلبِ[6].

دلالةُ صِيغةِ الاستفعالِ، والمصدرِ الميميّ:

توكيدُ الصِّيغتَيْنِ ودلالتُهُما على المُنتهَى أَنسبُ للمَقصَدِ

في قوله تعالى: ﴿فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ﴾: الاستقرارُ هو القرارُ، فالسّينُ والتّاءُ فيه للتّأكيدِ مِثلُ: (استجابَ). يُقالُ: استقرَّ في المكانِ بمعنى قَرَّ[7]، وكذا الأمرُ مع الاستيداعِ.

وفي التّعبير عنه بالمصدرِ الميميِّ دلالةُ الالتباسِ بذاتٍ، فضلًا عن دلالتِهِ على نهايةِ الأمرِ وغايتِهِ.

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/165.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/396.
(3) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 13/109.
(4) الخفاجيّ، عناية القاضي: 4/101.
(5) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/165.
(6) الصّاويّ، حاشية على تفسير الجلالين، ص: 558.
(7) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/396.

بلاغةُ تقديمِ (المُستقَرّ) على (المُستودَع):

اعتبارُ التّقدُّمِ الزَّمنيِّ؛ من صُلبِ الأبِ كمُودِعٍ، إلى رحِمِ الأمِّ كمُستودَعٍ

قولُهُ تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ﴾ تقديمُ ﴿فَمُسْتَقَرٌّ﴾ على ﴿وَمُسْتَوْدَعٌ﴾ من بابِ القِدَمِ والأوليّةِ؛ فالنُّطفةُ تكونُ في مُستقرِّها صُلبِ الأبِ، ثمّ في رَحِمِ الأمِّ على سبيلِ الوديعةِ؛ فهو ترتيبٌ زمنيٌّ، قُدِّمَ حصولُ النُّطفةِ في الأصلابِ عَلَى حصولِها في الأرحامِ[1]. ولمّا كانَ حصولُ النُّطفةِ في الأبِ بذاته، لا من قبيلِ شخصٍ آخرَ، وفي الأمِّ من قبلِ الأبِ، وإن كان نُطفتها بالذّاتِ، اختارَ ما ذكرَهُ؛ إذ هي كانَت مُشابِهةً في الوديعةِ في الرَّحِمِ، وباعْتِبَارِ عمدةِ الجزأين، وهي ماءُ الأبِ[2].

معنى الواوِ في ﴿فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ﴾ للجمْعِ لا للتّقسِيمِ:

حالُ الإنسانِ استقرارٌ في الأرضِ، واستِيداعٌ إلى خالقِهِ

الواو في ﴿فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ﴾ للجمعِ وليسَتْ للتّقسيمِ؛ فشأنُ الإنسانِ استقرارٌ على هذه الأرضِ في حياتِهِ، ثمّ يعودُ إلى خالقِهِ كما تستردُّ الوديعةُ من صاحِبِها[3]، كقول لبيد[4]:

وما المالُ والأهلونُ إلّا وَديعَةٌ *** ولا بُدَّ يومًا أنْ تُرَدَّ الوَدائِعُ.

تنوّعُ القراءةِ القرآنيّة، باسْمِ الفاعلِ واسْمِ المفعولِ، في: ﴿فَمُسْتَقَرٌّ﴾:

الاستقرارُ صادرٌ منَ الرَّجُلِ كسْبًا

قرأَ ابنُ كثير وأبو عمرو ويعقوب ﴿فَمُسْتَقِرٌّ﴾ بكسرِ القافِ، على أنّه اسمُ فاعلٍ، والمُستودَع اسم مفعولٍ؛ أي: فمنكم قارٌّ، ومنكم مُستودَعٌ؛ لأنّ الاستقرارَ منّا؛ أي: قائمٌ منّا صادرٌ منّا كسبًا بخلافِ الاستيداعِ؛ إذ لا مَدخَلَ لغيرِهِ ولو كسبًا. هذا بيانُ وجهِ كونِ الأوّلِ اسمَ فاعلٍ والثّاني اسم مَفعُول[5].

(1) النّيسابوريّ: غرائب القرآن: 3/127، والقونويّ وابن التّمجيد، حاشيتان على البيضاويّ: 8/207.
(2) القونويّ وابن التّمجيد، حاشيتان على البيضاويّ: 8/207.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/397.
(4) النّويريّ، نهاية الأرب: 3/70.
(5) القونويّ وابن التّمجيد، حاشيتان على البيضاويّ: 8/208.

إيثارُ صِيغةِ المضارعِ في الفعلِ ﴿يَفۡقَهُونَ﴾:

المضارعُ يدُلُّ على التّجدُّدِ والحدوثِ، بِجَريان الحُكمِ في كلِّ زمانٍ

ختمَ قولَهُ تعالى: ﴿قَدۡ فَصَّلۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَفۡقَهُونَ﴾ بفعلِ التّفقّهِ ﴿يَفۡقَهُونَ﴾؛ لأنّ ما قبلَهُ يقتضي مَزيدًا منَ التّحقّقِ وتدقيقِ النَّظرِ، وإمعانِ الفكرِ، واختارَ له صيغةَ المضارعِ؛ لِمَا تبثُّه هذه الصّيغةُ من تجدّدٍ وحدوثٍ، وهو مُناسِبٌ للمعنى، فإنّ آياتِ اللّهِ تَستلزمُ تجدُّدًا منَ التّفقُّهِ والنّظرِ فيها على وجهِ الاستمرارِ والدّوامِ.

براعةُ التّعبيرِ بلفظِ (الإنشاءِ) هنا، وبلفظِ (الخلْقِ) في غيرِهِ:

موافقةُ السّياقِ اللّفظيِّ القبْليِّ والبَعْديِّ

قولُهُ تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ﴾ جاءَ بفعلِ الإنشاءِ في هذه الآيةِ، فيما وردَ بلفظِ (الخَلْقِ) في غيرِهِ منَ المَواضِعِ؛ لأنّ الفعلَ ﴿أَنشَأَكُم﴾ هنا مُوافِقٌ للسّياقِ اللّفظيِّ قبلَهُ بقولِهِ تعالى: ﴿وَأَنشَأۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِمۡ قَرۡنًا ءَاخَرِينَ ٦﴾ [الأنعام: 6]، وللسّياقِ اللّفظيِّ بعدَهُ[1] بقولِهِ تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٖ مَّعۡرُوشَٰتٖ﴾ [الأنعام: 141]، وما قبلَهُ أيضًا ﴿كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوۡمٍ ءَاخَرِينَ ١٣٣﴾ [الأنعام: 133]؛ فتوافقَ الفعلُ مع ما تقدَّمَ وما تأخَّرَ.

نُكتةُ التّعبيرِ بالفعلِ ﴿يَفۡقَهُونَ﴾:

التّنوُّعُ في الفاصلةِ تفنّنٌ في البلاغةِ، وإظهارٌ لخصوصِ دلالةِ كلِّ لفظٍ

ختمَ الآيةَ بقولِهِ: ﴿يَفۡقَهُونَ﴾، فيما ختمَ غيرَها بـ ﴿يَعۡلَمُونَ﴾ ﴿يُؤۡمِنُونَ﴾، فيُسألُ عن ذلك؟ والجوابُ أنّ سياقَ الآيةِ من أوّلِهِ إلى آخرِهِ فيه آياتٌ بيّناتٌ تقتضي التّفقُّهَ بحديثِهِ عن إنشاءِ الإنسانِ من نفسٍ واحدةٍ هي آدمُ عليه السلام، وتنقلِّهِ من حالٍ إلى حالٍ بينَ الأصلابِ والبطونِ والأرضِ، موتٌ وحياةٌ وقبرٌ ومَحشَرٌ وثوابٌ أو عقابٌ[2]، فهذه أحوالٌ ناطقةٌ تقتضي فهمًا عميقًا، وفطنةً بالغةً، وإدراكًا راشدًا، فأبلغُ تعبيرٍ عنه هو فعلُ التّفقُّهِ؛ فبه يحصلُ الفهمُ العميقُ ببواطنِ الأمورِ، وبه حاجةٌ لمزيدِ فطنةٍ وذَكاءٍ.

---

(1) الأنصاريّ، فتح الرّحمن: 1/172.

(2) الإسكافيّ، درّة التّنزيل: 2/531، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/397 - 398.

وقد نقلَ السّيوطيُّ عنِ التّفتازانيِّ أنّ الفقهَ هو الفهمُ والحذاقةُ وتدقيقُ النَّظرِ، فكان أليقَ بالاستدلالِ بالأنفسِ وأطوارِ الإنسانِ وما احتوى عليه؛ لِمَا فيهِ منَ الدّقّةِ والخفاءِ المُحيِّرِ للألبابِ، بخلافِ الاستدلالِ بالآفاقِ وأجرامِها ونجومِها، ففيها الظّهورُ والجلاءُ لكون أمرِها ظاهِرًا مُشاهَدًا[1]. وفي التّفقُّهِ غوامضُ الدّقائقِ باستعمالِ الفِطنَةِ وإنعامِ النَّظرِ في لطائفِ صنعِ اللّهِ - ﷻ - في أطوارِ تَخليقِ بني آدَمَ ممّا تَحارُ في فهمِهِ الألبابُ، وهو السِّرُّ في إيثارِ ﴿يَفْقَهُونَ﴾ على ﴿يَعْلَمُونَ﴾ كما وردَ في شأنِ النُّجومِ[2].

وعنِ ابنِ المُنَيّرِ أنّ الفرقَ لا يتحقّقُ، وإنّما أُريدَ أنْ يكونَ لكلِّ آيةٍ فاصلةٌ مُستقلَّةٌ بالمقصودِ بعدًا عنِ التَّكرارِ وتفنُّنًا بالبلاغةِ[3]. ومع أنّ التّفنّنَ في البلاغةِ من مقاصدِ القرآنِ، وعاداتِ البيانِ فيه، وصورتُه هنا التَّفنّنُ بالتّنوّعِ في الفاصلةِ حذرًا من صورةِ التَّكرارِ، بناءً على أنّ الفِقْهَ قد يُرادُ به العِلْمُ من حيثُ إنّ العُرْفَ جعلَهُ خاصًّا بعلمِ الشّريعةِ، إلّا أنّ هذا لا ينفي قَصْديَّةَ الاصطفاءِ هنا، وفاقَ خصوصِ دلالةِ كلِّ لَفْظٍ وانفرادِهِ بمعنًى لا يؤدّيه شبيهُه؛ والفِقْهُ -كما تقرّرَ- أخصُّ منَ العلمِ؛ لأنّ شدّةَ الفهمِ وتدقيقِ النّظرِ مُعتبَرٌ فيه، والعلمُ أعمُّ منه. هذا هو الأصلُ فيه ولا يضرُّهُ استعمَالُ الفِقهِ في العلمِ الجليِّ بمَعونَةِ القرينةِ، كقَولِهِ تَعَالَى: ﴿فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٨﴾﴾ [النّساء: 78]. فملاكُ الأمرِ هنا أنّ قَولَه تَعَالَى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ﴾ إشَارَةٌ إلَى آياتِ الآفاقِ، وقولُهُ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ إشَارَةٌ إلَى آياتِ الأنفسِ، ولا شكّ أنّ الآياتِ الآفاقيّةَ بوصفِها سَبَبَ الاهتداءِ أظهرُ وأجلى، وإن كان بعضُ أمورِها دقيقًا غامضًا، وآياتُ الأنفسِ أدقُّ وأخفى، فكان ذِكْرُ الفِقهِ لها أنسبَ وأولى؛ من حيث إطلاقُهُ على ما يُتوصَّلُ إلَيه بدقيقِ نَظَرٍ[4].

لفظُ (الفقهِ) أبْينُ في الدّلالةِ من لفظِ (العلمِ):

خصَّصَ هذه الآيةَ بالفِقهِ، والّتي قبلَها بالعلمِ؛ لأنّه لمّا كانَ المقصودُ التّعريضَ بمَن

(1) السّيوطيّ، نواهد الأبكار: 3/374، والصّاويّ، حاشية على تفسير الجلالين، ص: 558.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/166.

(3) السّيوطيّ، نواهد الأبكار: 3/374.

(4) القونويّ، وابن التّمجيد، حاشيتان على البيضاويّ: 8/209.

التّعبيرُ بالفقهِ دونَ العلمِ، تعريضٌ بمَنْ لا يَتدبّرُ آياتِ اللهِ

لا يتدبَّرُ آياتِ اللّه، ولا يعتبرُ بمخلوقاتِهِ، فنُفِيَ العلمُ عن أحدِ الفريقين، ونُفِيَ الفقهُ عنِ الآخر، يعني: بطريق التّعريضِ تخصيصُ العلمِ بالآياتِ المُفصَّلَةِ، والتّفقُّهُ فيها بقومٍ، فأشعرَ أنّ قومًا غيرَهُم لا علمَ عندَهُم ولا فِقْهَ[1].

بلاغةُ الالتفاتِ في قولِهِ تعالى: ﴿قَدْ فَصَّلْنَا﴾:

إظهارُ مِنَنِ الخالقِ دليلُ عَظمتِهِ

التفتَ منَ الغيبةِ إلى التَّكلُّمِ في قولِهِ: ﴿قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾؛ إظهارًا لكمالِ العنايةِ بشأنِ ما أُنزِلَ الماءُ لأجلِه، وإظهارًا أَيضًا لعظمِ آثارِ قُدرتِهِ بعظمةِ مُوجِدِهِ وقادرِهِ[2].

وجهُ التّقريرِ في جُملةِ الفاصلةِ:

في التّقريرِ تذكيرٌ وإعذارٌ

وقولُهُ: ﴿قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾ تقريرٌ لنظيرِهِ المُتَقَدِّمِ، مقصودٌ به التَّذكيرُ والإعذارُ[3].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(أَنْشَأَ) و(خَلَقَ):

الإنشاءُ يقتضي التّدرّجَ والتّكوُّنَ، حالاً بعدَ حالٍ، والخَلقُ إيجادٌ وتقديرٌ

الخَلْقُ فعلٌ يُستعمَلُ في إبداعِ المخلوقاتِ من غيرِ أصلٍ ولا مثالٍ سَابقٍ، وهو من صفاتِ الحقِّ ﷻ، وفيه معنى التّقدير[4]، أمّا الإنشاءُ فهو "الإحداثُ حالاً بعدَ حالٍ من غيرِ احتذاءٍ على مثالٍ، ومنه يُقالُ: نَشَأَ الغلامُ، وهو ناشِئٌ إذا نَمَا، وزادَ شيئًا فشيئًا"[5]، وقد عبّر هنا بفعلِ الإنشاءِ ﴿أَنشَأَكُم﴾؛ لأنّ هذا الفعلَ يفيدُ الخَلقَ لا على ابتداءٍ، ولكنْ على جهةِ النّماءِ والنُّشوءِ والتّكوُّنِ، فهو خَلقٌ مع زيادةٍ في النُّموِّ والنُّشوءِ شيئًا فشيئًا، وإيجادُه وإحداثُه بالتّدريج[6]، فالآيةُ تجري في

(1) القاسميّ، محاسن التّأويل: 4/443 - 444.
(2) القونويّ وابن التّمجيد، حاشيتان على البيضاويّ: 8/210.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/397.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (خلق).
(5) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 80.
(6) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 13/108، ورضا، تفسير المنار: 7/532.

تصويرِ خلقِ الإنسانِ منذ كينونتِهِ نطفةً، ثمّ تنقّله حالاً بعد حالٍ، من عدمٍ إلى وجودٍ، ومن مكانٍ إلى مكانٍ، من صُلبٍ إلى رَحِمٍ، ومن حياةٍ إلى موتٍ، ثمّ مَحشَرٍ[1] حتَّى يومِ الحسابِ، ومصيرُهُ إلى الجنّةِ أو النّارِ؛ فاللّائقُ لهذه الأطوارِ الجمّةِ أنْ يُعبّرَ بفعلِ الإنشاءِ لا فعلِ الخَلْقِ؛ ليحصلَ التّلاؤمُ والتّناسبُ بينَ اللّفظِ والمعنى.

(1) الإسكافيّ، درّة التّنزيل: 2/531.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىۡءٖ فَأَخۡرَجۡنَا مِنۡهُ خَضِرٗا نُّخۡرِجُ مِنۡهُ حَبّٗا مُّتَرَاكِبٗا وَمِنَ ٱلنَّخۡلِ مِن طَلۡعِهَا قِنۡوَانٞ دَانِيَةٞ وَجَنَّٰتٖ مِّنۡ أَعۡنَابٖ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشۡتَبِهٗا وَغَيۡرَ مُتَشَٰبِهٍۗ ٱنظُرُوٓاْ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثۡمَرَ وَيَنۡعِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمۡ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ٩٩﴾ [الأنعام: 99]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

العلاقةُ بين خلقِ البشرِ، وإنزالِ الماءِ لإنباتِ ألوانِ الشّجرِ والثّمرِ

لمّا ذكرَ الحقُّ ﷻ في الآيةِ السّابقةِ إنعامَه تعالى بخلقِ الإنسانِ من نفسٍ واحدةٍ، ثمّ بثّ فيهما رجالاً كثيرًا ونساءً، ذكرَ هُنا إنعامَهُ على بني البَشَرِ بما يَقومُ به أوَدُهُم ومصالِحُهم[1]، فذكرَ من جملةِ الدّلائلِ على كمالِ قُدرتِهِ، وعظيمِ إحسانِهِ إنزالَ الماءِ، وإخراجَ النّباتِ والزّرعِ على اختلافِ طُعومِهِ وألوانِهِ، فجاءَ منه الحبُّ المُتراكِبُ، والثّمارُ المُتشابِهةُ والمُختلِفةُ، فهذه علاماتُ وحدانيّتِهِ وربوبيّتِهِ لقومٍ يُؤمنون.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿نَبَاتَ﴾: الجذرُ اللّغويُّ له (نبت)، وهو ما تُخرجُهُ الأرضُ، وهو بمعنى الغرسِ والزّرعِ[2]، والأصلُ في معناه دلالتُهُ على "نماءٍ في مَزروعٍ، ثمّ يُستعارُ، فالنَّبتُ مَعروفٌ، يُقال: نَبَتَ، وأنبتتِ الأرضُ، ونَبَّتُّ الشَّجرَ: غَرسَتُهُ"[3]، وهو كلُّ ما يخرُجُ منَ الأرضِ ممّا ينمُو كالشَّجرِ ذي السّاقِ، والنّجمِ ممّا ليسَ له ساقٌ ممّا يأكُلُهُ الحيوانُ[4]، ومعنى ﴿نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ﴾: "نبتُ كلِّ صنفٍ من أصنافِ

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/596.
(2) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (نبت).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (نبت).
(4) الرّاغب، المفردات، والسّمين، عمدة الحفّاظ: (نبت).

النّامي؛ يعني: أنّ السّببَ واحدٌ وهو الماءُ، والمُسبِّباتُ صنوفٌ مُفتنَةٌ"[1]؛ أي: مُتنوِّعةٌ منَ الفنِّ، والمرادُ به النّوعُ.

2) ﴿خَضِرًا﴾: الجذرُ اللّغويُّ (خضر)، ومعناهُ في القرآن الكريم الزّرعُ الأخضرُ، وكلُّ نباتٍ بهذا اللّونِ، وهو المَوضِعُ الّذي تكثرُ فيه الأشجارُ[2] لخُضرتِهَا، والأصلُ في معناه لا يخرجُ عنِ اللّونِ المعروفِ[3]، والخَضِرُ: هو الورقُ الأخضرُ، وكلُّ شيءٍ مُتَّصفٍ بالنّعومةِ والطّراوةِ فهو خَضِرٌ[4]، ومعنى ﴿خَضِرًا﴾ في الآية: شيءٌ غضٌّ ذو لونٍ أخضرَ، وخضرتُهُ خَلْقِيَّةٌ، وهو المُتشعِّبُ من أصولِ النّباتِ[5].

3) ﴿مُّتَرَاكِبًا﴾: اسمُ فاعلٍ منَ الفعل (تَفاعَلَ)، جذرُهُ اللّغويُّ (ركب)، وهو منَ الرّكوبِ، وهو أن يعلُو الشَّيءُ الشَّيءَ، ومنه تركيبُ الفُصوصِ[6]، والأصلُ في معنى الجذرِ أنّ يعلُوَ شيءٌ شيئًا[7]، والأصلُ في الرُّكوبِ أن يَعلُوَ الإنسانُ الحيوانَ ويركبَهُ، وقد يكونُ على السّفينةِ[8]، ومعنى ﴿مُّتَرَاكِبًا﴾ في الآيةِ هو الحَبُّ الّذي يكونُ بعضه فوقَ بعضٍ كسنابلِ الحِنطةِ ونحوِها[9].

4) ﴿طَلْعِهَا﴾: اسمٌ ثلاثيٌّ مُجرَّدٌ، الجذرُ اللّغويُّ منه (طلع)، والطَّلعُ هو طلعُ النّخلِ، واحدتُها طَلعَة، وتكونُ الكافُورةُ في جوفِها، فإذا بدَتْ سُمِّيَتِ الطَّلعة[10]، وثمّةَ علاقةٌ بينَ طَلعِ النَّخيلِ والبُروزِ والظُّهورِ؛ لأنّه يخرُجُ ويبرزُ بعدَ اكتمالِهِ، وهو كذلك فالأصْلُ في معنى الطّلعِ دلالتُهُ على الظّهورِ والبُروزِ[11]، والطّلعُ بعدَ تكوّنِهِ وطلوعِهِ يصيرُ ثمرًا إنْ كانَتِ النّخلةُ أنثى، وإن كانَت ذكرًا أُكِل طريًّا أو تُرك حتّى يكونَ كالدّقيقِ الأبيضِ تلقّح به النّخلةُ الأنثى[12]،

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/379.
(2) الخليل، العين، وابن دريد، جمهرة اللّغة: (خضر).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (خضر).
(4) السّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (خضر).
(5) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/255 - 256، والقاسميّ، محاسن التّأويل: 6/2437.
(6) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة: (ركب).
(7) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن سيده، المحكم: (ركب).
(8) الرّاغب، المفردات، والسّمين، عمدة الحفّاظ: (ركب).
(9) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 8/471، وزاده، حاشية الشّيخ زاده: 4/105.
(10) الخليل، العين، والصّاحب، المحيط في اللّغة: (طلع).
(11) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (طلع).
(12) ابن منظور، لسان العرب: (طلع).

ومعنى الطّلع في الآية: "وعاءُ عُرجُونِ التّمرِ الّذي يَبدو في أوّلِ خُروجِهِ، يكونُ كَشَكلِ الأُترُجَّةِ العظيمةِ مُغلَقًا على العُرجُونِ، ثمّ يَنفَتِحُ كصُورةِ نَعلَينِ فَيَخرُجُ منهُ العُنقُودُ مُجتَمِعًا"[1].

5) ﴿قِنْوَانٌ﴾: اسمٌ مجموعٌ، مفرده (قِنو)، وجذرُهُ اللّغويُّ (قنو)، وهو عِذقُ النّخلِ بما عليه منَ الثّمرِ[2]، والأصلُ في معناه دلالتُهُ على المُلازمةِ والمُخالَطةِ، والقِنوانُ وهي الأعذاقُ ملازمةٌ لشجرتِها النّخلة[3]، والقِنوُ عذقُ النّخلِ ومعه الشّماريخُ[4] الّتي تحملُ الثّمرَ، وعذقُ النّخلِ يمتدُّ للأسفلِ حاملاً معه التّمرَ حائزًا له[5]، واشتقاقُهُ منَ الاقتناءِ قرينةُ الحيازةِ، ومعنى ﴿قِنْوَانٌ﴾ في الآيةِ الأعذاقُ: مفردُهُ عِذقٌ، وهنّ حاملاتُ التّمرِ بمَنزِلَةِ العنقودِ في العِنبِ[6].

6) ﴿دَانِيَةٌ﴾: اسمُ فاعلٍ مُؤنَّثٌ، الجذرُ اللّغويُّ (دنو - دنا - دنى)، الفعلُ منهُ (دَنَا يَدْنو)، ومعناه القربُ، ويُقالُ دانَيتُ بينَ الأمرين، إذا كانَت منك مُقارَبةٌ بينَهُما[7]، والأصلُ في معناه كذلك، وهو القربُ[8]، والقربُ قد يكونُ بالزّمانِ والمكانِ، وقد يكونُ مَعنويًّا أو بالحُكمِ[9]، ومعنى ﴿دَانِيَةٌ﴾ في الآية: قريبةٌ منَ الأرضِ مُلتصِقَةٌ بها، سهلةُ التّناولِ باليدِ، مُتدلِيةٌ لثقلِ حملِها[10].

7) ﴿مُشْتَبِهًا﴾: اسمُ فاعلٍ، جذرُهُ اللّغويُّ (شبه)، ومنهُ الشّبهُ والشّبيهُ بمعنى المَثيلِ، وأشبهَ الشّيءُ الشّيءَ: ماثلَهُ، ونحو ذلك[11]، وله معنًى آخرُ، فإنّ المُشتبِهَ هو المُشكِلُ المُلتبِسُ؛ فإذا اشتبهَ الأمران فقد أشكَلَا[12]، ومعناه المحوريُّ المقاربةُ الشّديدةُ بينَ شيئين شكلاً ومَلمَحًا ظاهريًّا[13]، والتّشابهُ وعدمُ التّشابهِ في الآية تماثلٌ بينَ ورقِ الزّيتونِ والرُّمّانِ في المَنظَرِ، وعدمُ تماثلٍ في اللّونِ والطّعمِ[14].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/400.
(2) الخليل، العين، والرّاغب، المفردات: (قنو).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (قنا).
(4) السّمين، عمدة الحفّاظ: (قنو).
(5) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (قنو - قنى).
(6) الهمذانّي، الفريد في إعراب القرآن: 2/653، وزاده، حاشية الشّيخ زاده: 4/106.
(7) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، والجوهريّ، الصّحاح: (دنا).
(8) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (دنى)، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (دنو).
(9) الرّاغب، المفردات: (دنا).
(10) مقاتل، تفسير مقاتل بن سليمان: 1/581، والسّمين، عمدة الحفّاظ: (دني).
(11) ابن سيده، المحكم: (شبه).
(12) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (شبه).
(13) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (شبه).
(14) السّمرقنديّ، بحر العلوم: 1/471.

8) ﴿ثَمَرِهِۦٓ﴾: جمعُ ثمرة أو ثمار، جذرُهُ اللّغويُّ (ثمر)، ومعنى الثّمر ما يحملُهُ الشَّجَرُ[1]؛ ليأكلَه الإنسانُ والحيوانُ، والأصلُ في الثّاءِ والميمِ والرّاءِ "شيءٌ يَتَوَلَّدُ عن شيءٍ مُتَجَمِّعًا، ثمّ يُحمَلُ عَليهِ غَيرُهُ استعارةً. فالثّمرُ مَعروفٌ"[2]، وهو اسمٌ لكلِّ مَا يطعمُ مِن أحمالِ الشّجرِ[3]، وهو ما يكونُ مَعقودًا على أطرافِ الأشجارِ، وأكثرُ الواردِ في القرآنِ ما يُجنَى منَ الفاكهةِ ونحوها[4]، والثّمرُ في الآية جنيُ الأشجارِ من فاكهةٍ ونحوِها[5].

9) ﴿وَيَنْعِهِۦٓ﴾: الينعُ اسمٌ مُجرَّدٌ أو مصدرُ الفعلِ (يَنَعَ يَينَعُ يَنعًا)، جذرُهُ اللّغويُّ (ينع)، ومعناه النّضجُ والصّلاحُ[6]، ومنه اليانعُ المُدرِكُ البالِغُ[7]، فينعُ الثّمرةِ بلوغُها حتّى تكونَ صالحةً للأكلِ، ومعناها المحوريُّ أن يكونَ الثّمرُ صالحًا لأنْ يُؤكَلَ مع شيءٍ مِنَ اللّيونةِ والرّخاوةِ مع غلبةِ لونِ الحُمرَةِ عليه؛ فإنّ غالبَ الثّمارِ تشوبُها الحُمرَةُ عندَ نُضجِها[8]، ﴿وَيَنْعِهِۦٓ﴾ في الآية بلوغُهُ ونضجُهُ حين يصلُ إلى هذه المرحلةِ[9].

المَعْنى الإجْمالِيُّ:

يمتنُّ اللّهُ سبحانه على عبادِه بإنزالِ الماءِ منَ السّماءِ، ثم يبيّنُ أثرَ الماءِ في ابتناءِ النّعمِ عليه من إخراجِ النّباتِ والثّمارِ بأنواعِها منَ النّخلِ والعنبِ والزّيتونِ والرّمّانِ، بأصنافٍ تشتبهُ أشكالُها وصُورُها، وتختلفُ مذاقاتها وطُعومُها، وأنّ كثرةَ النِّعمِ يدعو تأمّلُها إلى الإيمانِ

إنزالُ الماءِ منَ السّماءِ نعمةٌ، تبعثُ الحياةَ، وتَبسطُ على الأرضِ النّباتَ

(1) الخليل، العين، والصّاحب، المحيط في اللّغة: (ثمر).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ثمر).
(3) الرّاغب، المفردات، والسّمين، عمدة الحفّاظ: (ثمر).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (ثمر).
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/403.
(6) الجوهريّ، الصّحاح: (ينع).
(7) الرّاغب، المفردات، والسّمين، عمدة الحفّاظ: (ينع).
(8) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (ينع).
(9) ابن جرير، جامع البيان: 11/579، والنّيسابوريّ، إيجاز البيان: 1/305.

والاعتبارِ باللّهِ الواحدِ، ففي تلك الدّلالاتِ آياتٌ بيّناتٌ لمَن آمنَ؛ وداعٍ إلى شكرِهِ - جلّ وعزّ - على تلك النّعمِ.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ التّعبيرِ بأسلُوبِ القَصْرِ، بتعريفِ طرفَيِ الجُملةِ الاسميّةِ:

إنزالُ الماءِ من ربّ السّماء، والتّعريضُ بالمشركينَ على الإنكارِ والجَفاءِ

وقولُهُ تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ ابتدأَ الحقُّ ﷻ الآيةَ بالجملةِ الاسميّةِ، وأوردَ طرفيها المبتدأ والخبر مَعرِفتين، والجملةُ بطرفيها تفيدُ القَصْرَ؛ "فهو وحدَهُ الّذي أنزلَ منَ السّماءِ الماءَ، فلم ينزلْ إلّا بقدرتِهِ"[1]، ففيه تخصيصُ إنزالِ الماءِ منَ السّماءِ باللّهِ وحدَهُ، وفيه أيضًا تعريضٌ بالمشركينَ وتوبيخٌ لهم، فإنّهم مع كلِّ هذه الآياتِ الدّالّةِ على وحدانيّتِهِ وعظمتِهِ أشركُوا معه؛ فاستحقّوا ذلك.

دلالةُ ﴿مِنَ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾:

إظهارُ بالغِ نِعمتِهِ على خلقِهِ، وبيانُ أنّ الحياةَ منه وحدَه

﴿مِنَ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ حرفٌ يفيدُ الابتداءَ، والمعنى أنّ ماءَ المطرِ مبتدؤُهُ منَ السّماءِ، وفي ذلك إظهارٌ لنعمةِ اللّهِ على خلقِهِ، فهو وإن كان مُتحوِّلاً من ماءِ الأرضِ، صاعدًا إلى طبقاتِ الجوّ، إلاّ أنّ تكوّنَهُ يتمُّ في تلك الطّبقاتِ المُرتفعةِ منَ الجوّ[2]؛ فكأنّ مبتدأَهُ منها، فلولا قُدرتُهُ تعالى في تكوينِها لَمَا أفدتُم منها شيئًا، كما أنَّ في استخدام حرفِ الابتداءِ بيانًا لعجزِ كلِّ الخَلقِ عن نيلِهِ إلّا بفضلٍ من ربِّهِ، وعجزِهِم عن منعِهِ أو دفعِهِ لبيانِ أنَّ مصائرَ الحياةِ بيدِ اللّهِ، ومبادي الأرزاقِ منه وحدَهُ.

بلاغةُ تقديمِ المُتعلّقِ ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ على المفعول ﴿مَآءً﴾:

العنايةُ بالمُتقدِّمِ والتّشويقُ للمُتأخِّرِ، من بيانِ السّياقِ

تقديمُ الجار والمجرور ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ على المفعولِ الصّريحِ ﴿مَآءً﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ فيه مزيدُ اهتمامٍ بالمُتقدِّمِ، وتشويقٌ إلى المُتأخِّرِ؛ لأنّ اللّفظَ إذا أخّرَ فإنّ النّفسَ

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2605.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/398.

تبقى مُتشوِّقةً مُترقِّبةً له، فإنْ وردَ عندَها تكونُ النّفسُ مُتمكِّنةً منه أفضلَ تمكُّنٍ[1].

بلاغةُ الالتفاتِ منَ الغَيبةِ إلى التّكلُّمِ في الآيةِ الكريمةِ:

تـدبُّـرُ الـدّلـيـلِ يـقـتـضِي لـفـتَ الانتباهِ وتَنشيطَ الحِسِّ

قولِه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا﴾: في التّعبيرِ بالفعل ﴿فَأَخْرَجْنَا﴾ في قولِه تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ﴾ انتقالٌ منَ الغَيبةِ إلى الخطابِ على طريقةِ الالتفاتِ[2]، فقبله ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ﴾ تعبيرٌ بصيغةِ الغائبِ؛ فانتقلَ منَ الغائبِ إلى المُتكلِّم، وفائدةُ هذا الانتقالِ تنشيطُ الذّهنِ ولفتُ الانتباهِ، كما أنّ فيه ردًّا "على الطّبائعيين؛ إذ لو كانَت هذه الأشياءُ بالطّبيعةِ لكانَ الشَّجرُ المَسقيُّ بالماءِ الحلو حلوًا أكلُهُ، والمَسقيُّ بالماءِ المالحِ مَالحًا أكلُهُ"[3]، فهؤلاء يدّعون أنّه من صنيع الطّبيعةِ؛ فجاءَ الفعلُ مُسنَدًا إليه تعالى لا الطّبيعة كما يدّعون، وفي الالتفاتِ أيضًا بيانٌ لكمالِ العنايةِ وإظهارِها بشأنِ المُنزِلِ والمُنزَلِ لأجلِه الماء وتفخيمهما، أي: فأخرجْنا بِعَظَمَتِنا النّباتَ والزّروعَ والثّمارَ لكم[4]، وفي الالتفاتِ نمطٌ من أنماطِ تلوينِ الخطابِ[5]؛ بالانتقالِ منَ الغَيبةِ إلى الإخبارِ عن نفسِه تعالى فلا يبقى الكلامُ على نَسقٍ واحدٍ غَيبةً أو خطابًا، وعبّر به إشارةً إلى نكتتِه العامّةِ والخاصّةِ؛ إنّه لمّا ذَكَرَ فيحًا مضى ما يُنبّهُكَ على أنّه الخالقُ، اقتضى ذلك التّوجّهَ إليه حتّى يُخاطَب[6]. وحكمةُ الالتفاتِ أن تلتفِتَ الأذهانُ إلى ما يعقبُ ذلك منَ البيانِ، فتتنبّهُ إلى أنّ هذا

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/471.

(2) الالتفاتُ من أساليبِ الفصاحةِ، وهو: "انصرافُ المتكلّمِ عنِ المخاطبةِ إلى الإخبارِ، وعنِ الإخبارِ إلى المخاطَبةِ وما يشبهُ ذلك، ومنَ الالتفاتِ الانصرافُ عن معنًى يكون فيه إلى معنًى آخر". يُنظر: ابن المعتز، البديع، ص: 152.

(3) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/176، والزّمخشريّ، الكشّاف: 2/379.

(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 1/168، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/166، والقاسميّ، محاسن التّأويل: 6/2436.

(5) زاده، حاشية الشّيخ زاده: 4/105.

(6) الخفاجيّ، عناية القاضي: 4/102.

الإخراجَ البديعَ، والصُّنعَ السّنيعَ، من فعلِ الحكيمِ الخلّاقِ، لا من فلتاتِ المُصادفةِ والاتّفاقِ[1].

دلالةُ تقديمِ الجارِّ والمجرورِ ﴿بِهِۦ﴾:

اختصاصُ إخراجِ النّباتِ بالماءِ

في تقدُّمِ الجارِّ والمجرورِ على المفعولِ الصّريحِ في قولِه تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ دلالةُ التّخصيصِ؛ فإنّ هذا المُتعلّقَ ﴿بِهِۦ﴾ يعودُ على الماءِ المُتقدِّمِ في الجملةِ السّابقةِ[2]، وغرضُهُ التّخصيصُ، "ليُعلمَ أنّ كلَّ ما يخرجُ في الأرضِ أصلُهُ منَ الماءِ، به ينبتُ ممّا يكونُ غذاءَ البشرِ، وغذاءَ الحيوانِ كلِّهم والطّيورِ"[3]؛ ولقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ [الأنبياء: 30].

علّةُ إسنادِ فعْلِ الإخراجِ، إلى ضميرِ التّعظيمِ ﴿فَأَخْرَجْنَا﴾:

عَظَمَ الباري قُدرةً وحِكمةً وآلاءً، بما أزجى منَ النِّعمِ والعطاءِ.

أسندَ الفعلَ ﴿فَأَخْرَجْنَا﴾ إلى الذّاتِ العليّةِ؛ لبيانِ قُدرتِه العظيمةِ، وإرادتِه الحكيمةِ، وآلائِه على العربِ وغيرِهم[4]، فـ" اللّهُ واحدٌ فَردٌ لا شريكَ له، إلّا أنّ المَلِكَ العظيمَ إذا كَنَّى عن نفسِه، فإنّما يُكَنِّي بصيغةِ الجمعِ"[5]؛ فالمقصدُ منه إظهارُ تعظيمِه تعالى وشدّةِ احتياجِ الخلقِ إليه في هذا المَوضِعِ؛ فالماءُ وَاحدٌ، والنّباتُ مُتعدِّدٌ في شكلِه ولونِه وطعمِه.

دلالةُ تقديمِ المُتعلّقِ ﴿مِنْهُ﴾ على المفعولِ الصّريحِ ﴿خَضِرًا﴾:

الخُضرةُ قرينُ النّباتِ، ووجودُها عنوانُ وجودِ الحياةِ

الجارُّ والمجرورُ ﴿مِنْهُ﴾ في قولِه تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا﴾ يرجعُ على النّباتِ الواردِ آنفًا[6]، وقد قدّمَهُ هنا على المفعولِ الصّريحِ ﴿خَضِرًا﴾؛ للدّلالةِ على أنّ الخُضرةَ قرينُ النّباتِ؛ ومنَ النّباتِ وحدَهُ تتحصّلُ الخُضرةُ.

---

(1) رضا، تفسير المنار: 7/536.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/398.
(3) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنّة: 4/186، والواحديّ، الوسيط: 2/304.
(4) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2607.
(5) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 13/113، وزاده، حاشية الشّيخ زاده: 4/105.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/399.

سَببُ العُدولِ من أخضرَ إلى ﴿خَضِرًا﴾:

قولُهُ تعالى ﴿فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا﴾: جاءَ بالاسم ﴿خَضِرًا﴾، ولم يعبّرْ بالاسم (أخضر) مثلما هو مُنتظَرٌ، وسببُ ذلك أنّ ﴿خَضِرًا﴾ "إنّما يأتي أبدًا لمعنَى النّضَارةِ، وليس للونٍ فيه مَدخَلٌ، و(أخضرُ) إنّما تَمَكُّنُهُ في اللّونِ، وهو في النّضارةِ تَجَوُّزٌ"[1] واستعمالُ (أفعل) للألوان ذائعٌ في الصِّيغِ الصّرفيةِ[2]. والمرادُ بالخَضِر: الشُّعَبُ والأغصانُ، ولذا عبّرَ عنه بالأخضرِ، وأمّا النّباتُ فعامٌّ للأخضرِ وغيرِهِ[3].

لفظُ (خضرًا) يدلُّ على النّضارةِ أكثرَ من دلالتِهِ على اللّونِ

بلاغةُ أُسلوبِ اللَّفِّ والنّشْرِ في المعنَى:

في قولِهِ تعالى ﴿نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا﴾: أعادَ فعلَ الإخراجِ، وفائدتُه أنّ الكلامَ جارٍ على أسلوب اللّفِّ والنّشرِ[4] أو قريبًا منه؛ لأنّه حصرَ النّباتَ في قسمين؛ هما الواردان في قولِهِ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ﴾؛ فمِنَ الحَبِّ يخرجُ الزَّرعُ، ومِنَ النَّوَى يخرجُ الشَّجرُ، فلمّا فصّلَ هنا اعتبرَ القسمةَ الأولى؛ فبدأَ بالزَّرعِ وهو القمحُ والشّعيرُ والذُّرَةُ ونحوها، فالحَبُّ يكونُ مُتراكِبًا، كما في السّنابلِ الّتي يكونُ عودُها خضرًا[5]، ثمّ ذَكَرَ ما يخرجُ منَ النَّوَى؛ وهو النَّخلُ ونحوه؛ ليستوفي النّشرَ.

لمّا أجملَ في الحَبِّ والنَّوَى، فصّلَ في الحَبِّ المُتراكِبِ والنَّخلِ والأعنابِ

بلاغةُ تقديمِ (الزَّرعِ) على (النَّخلِ):

في قولِهِ تعالى: ﴿نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا﴾ قدّمَ الحَبَّ المُتراكِبَ، وهوَ من جنسِ الزّروعِ على النّخلِ والرُّمّانِ ونحوهما، وهو تقديمٌ من بابِ الفضلِ؛ فالقوتُ مُقدَّمٌ على الفاكهةِ[6]؛ فإنّ الحَبَّ أنفعُ

الزَّرعُ والحَبُّ، أفضلُ للإنسانِ منَ النَّخلِ والثِّمارِ

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/327.
(2) سيبويه، الكتاب: 4/25.
(3) القونويّ وابن التّمجيد، حاشيتان على البيضاويّ: 8/210.
(4) أسلوبٌ بلاغيٌّ يعتمدُ على "ذكرِ الشّيئين على جهةِ الاجتماعِ، مُطلَقين عنِ التّقييد، ثمّ يُوفّى بما يليقُ بكلِّ واحدٍ منهما اتّكالًا على أنّ السّامعَ لوضوحِ الحالِ يردُّ إلى كلِّ واحدٍ منهما ما يليقُ به، وهو في الحقيقةِ جمعٌ ثمّ تفريقٌ". يُنظر: العلويّ، الطّراز: 2/404.
(5) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 13/113، وزاده، حاشية الشّيخ زاده: 4/105.
(6) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/601، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 13/114.

للإنسانِ منَ النَّخلِ ونحوِهِ؛ فبه تقومُ حياتُه، قال تعالى: ﴿فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا حَبّٗا ٢٧ وَعِنَبٗا وَقَضۡبٗا ٢٨﴾ [عبس: 27 - 28]، فقدَّمَ الحَبَّ على الجميعِ لخيرِهِ، فمنفعته للبشرِ أزيد مِن سواهُ بوصفِهِ الغذاءَ الأعظمَ الأعمَّ لأكثرِ النّاسِ، وأكثرِ أنواعِ الحيوانِ الأهليّةِ الّتي تقومُ أكثرُ مرافقِهِم ومنافعِهِم بها[1].

نُكتةُ العُدولِ منَ الماضي ﴿فَأَخۡرَجۡنَا﴾ إلى المضارعِ ﴿نُّخۡرِجُ﴾:

استحضارُ صُورةِ الحدثِ، من تراكُبِ الحَبِّ واتّساقِه، وكأنّه الآنَ

في قولِهِ تعالى: ﴿فَأَخۡرَجۡنَا مِنۡهُ خَضِرٗا نُّخۡرِجُ مِنۡهُ حَبّٗا مُّتَرَاكِبٗا﴾ وردَ فعلُ الإخراجِ أوّلاً بصيغةِ الماضي ﴿فَأَخۡرَجۡنَا﴾، ثمّ عدلَ عن هذه الصّيغةِ إلى صيغةِ المضارعِ ﴿نُّخۡرِجُ﴾، ونكتةُ ذلك أنّ فيه استحضارًا للحدثِ من تراكبِ الحَبِّ في السّنابلِ بتلك الصّورةِ العجيبةِ في حُسنِهَا وانتظامِهَا، وتَنَضُّدِ سنابلِها واتّساقِها، وهو داعٍ إلى التّأمُّلِ في آلاءِ اللّهِ[2]، والتّفكُّرِ في حالِ تشكُّلِ الحَبِّ مَرصُوصًا مُتساندًا، وكأنّ الحدثَ حاصلٌ الآن لَمَا يمنحُهُ الفعلُ المضارعُ منَ الحدوثِ والتّجدُّدِ.

سِرُّ العُدولِ منَ الإضافةِ إلى التّفصيلِ:

ذكرَ النّخلَ مُنفردًا لمنافعِهِ الكثيرةِ، وذكرَ الطّلعَ مُنفردًا لمنفعتِهِ الأثيرةِ

عدلَ في قولِهِ تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّخۡلِ مِن طَلۡعِهَا قِنۡوَانٞ دَانِيَةٞ﴾ من إضافةِ النّخلِ إلى طلعِها بقولِهِ مثلاً: (ومِن طلعِ النّخلِ) مع أنّه يؤدّي المعنى المرادَ، وعبّرَ عنِ النّخلِ بإيرادِهِ مُعرَّفًا بالألفِ واللّامِ، وسرُّ ذلك أمران مُتعالِقان: **الأوّلُ**: الإشارةُ إلى اعتبارِ النّخلِ ومنافعِهِ على وجهِ الشّمولِ، **والثّاني**: الإشارةُ إلى مَنافعِ الطّلعِ القاصرةِ على ما سِيقَت له في الجملةِ، فلو أضافَ (مِن طلعِ النّخلِ) لأفادَ المعنى الإشارةَ إلى مَنافعِ الطَّلعِ فقط.

(1) رضا، تفسير المنار: 7/537.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/166، ورضا، تفسير المنار: 7/537، وطنطاويّ، الوسيط: 5/141.

التّعريفُ بـ (الْ) في ﴿ٱلنَّخۡلِ﴾ للعَهدِ الجِنسيِّ:

وعدلَ عنِ الإضافةِ إلى التّعريفِ بـ (الـ) لفائدةٍ أخرى هي تحقيقُ العهدِ الجِنسيِّ؛ إشارةً إلى أنّ ما يتحدّثُ عنه هو النّخلُ المألوفُ عندَ العربِ؛ "فإنّ النّخلَ شجرُهم، وثمرَهُ قُوتُهم، وحَوائِطَهُ مُنبَسَطُ نُفُوسِهم"[1]، فلا يُتخيَّلُ شجرٌ غيره عندَهم، يؤيّدُهُ ذكرُهُ كثيرًا في الحديثِ النّبويِّ كقولِهِ ﷺ: «إنّ منَ الشّجرِ شجرةً لا يسقطُ ورقُها، وإنّها مثلُ المُسلم، حدّثوني ما هيَ؟ قالَ: فوقعَ النّاسُ في شجرِ البوادِي، قالَ عبدُ اللّهِ: فوقعَ في نفسِي أنّها النّخلةُ، ثمّ قالُوا: حدّثْنا ما هيَ يا رسولَ اللّهِ؟ قالَ: هي النّخلةُ»[2].

النّخلُ شجرٌ مُباركٌ، عرفتْه العربُ، وأشادَ القرآنُ بمآثرِه الجَمّةِ

بلاغةُ جُملةِ الاعتراضِ في السّياقِ:

قولُهُ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّخۡلِ﴾ اعتراضٌ بينَ المعطوفِ والمعطوفِ عليه، وعلّتُهُ الاعتناءُ بشأنِ النّخلِ لعِظَمِ مِنَّتِه؛ لكونِ النّخلِ جامعًا بين التَّفكُّهِ والقُوتِ، وهو من أعزِّ أموالِ العربِ[3]؛ ولذلك قدّمَهُ على سائرِ الفَواكِهِ، فضلًا عن أنّ التَّمرَ يجري مَجرَى الغذاءِ لدى العربِ، ولأنّ الحُكماءَ بيّنوا أنّ بينَهُ وبينَ الحيوانِ مُشابَهةً في خواصَّ كثيرةٍ؛ بحيث لا تُوجَدُ تلك المُشابَهةُ في سائرِ أنواعِ النّباتِ[4].

ثَمرُ النّخلِ مِن أعزِّ قُوتِ العربِ وأموالِهم عبْرَ العُصورِ

بلاغةُ أسلوبِ الاحتراسِ، بإيرادِ الطّلعِ بعدَ النَّخلِ:

في قولِهِ تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّخۡلِ مِن طَلۡعِهَا قِنۡوَانٞ دَانِيَةٞ﴾، في الآية تقديمُ الخبرِ ﴿وَمِنَ ٱلنَّخۡلِ﴾ على المبتدأ ﴿قِنۡوَانٞ دَانِيَةٞ﴾[5]، وزادَ على ذلك بذكرِ الجارِّ والمجرورِ ﴿مِن طَلۡعِهَا﴾، وإيرادُه بعدَ

مَنافِعُ النَّخلِ شاملةٌ، فلا يُتوهّمُ بالتّقديمِ اقتِصارُها على الطَّلْعِ والقِنْوانِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/400.

(2) رواه البخاريّ، الجامع الصحيح، الحديث رقم: (62)، وعبد الله المذكور في الحديث، هو: عبد الله ابن عمر رضي الله عنهما.

(3) القونويّ وابن التّمجيد، حاشيتان على البيضاويّ: 8/212، والصّاويّ، حاشية على تفسير الجلالين، ص: 559.

(4) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 13/86.

(5) العكبريّ، التّبيان: 1/524، والسّمين، الدّرّ المصون: 5/69.

الخبرِ احتراسٌ لرفعِ توهُّمِ أنّ مَنافعَ النّخلِ قاصرةٌ على الأكلِ، بدلالةِ تقديمِ الخبرِ على المبتدأ جوازًا؛ لأنّ عامّةَ التّقديمِ يفيدُ التّخصيصَ، فلو قِيلَ: (ومنَ النّخلِ قِنوانٌ دانيةٌ) لفُهِمَ أنّ مَنافِعَ النّخلِ قاصرةٌ على الأكلِ من أعذاقِها، وهو غيرُ سَديدٍ؛ فإنّ مَنافِعَ النّخلِ شاملةٌ في الأكلِ وغيرِهِ.

إيثارُ ذكْرِ القِنوانِ القريبةِ على البعيدةِ:

ذكْرُ القِنوانِ الدّانيةِ من بابِ الاجتزاءِ، بدلالةِ إحداهما على الأُخرى

القِنوانُ في قولِهِ تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّخۡلِ مِن طَلۡعِهَا قِنۡوَانٞ دَانِيَةٞ﴾ جَمعُ (قِنوٌ)، ومعناها الأعذاقُ الّتي تحملُ التَّمرَ[1]، وآثرَ هنا ذكرَ القِنوانِ القريبةِ، ولم يذكرِ البعيدةَ اجتزاءً بها عن مقابلتِهَا؛ "لأنّ ذكرَ أحدِ المُتقابلَين يدُلُّ على الآخر"[2]، كقولِهِ تعالى: ﴿سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلۡحَرَّ﴾ [النّحل: 81]؛ فإن كانَت تقيكُمُ منَ الحرِّ؛ فهي تقيكُمُ منَ البردِ أيضًا؛ فاكتفى بذكرِ أحدِهما لدلالتِهِ على الآخر.

سِرُّ حَذْفِ القِنوانِ البعيدةِ، اختصارًا لسَبْقِها إلى الأفهامِ:

تمامُ النِّعمةِ في القِنوانِ القريبةِ، أوضحُ وأصرحُ

قولُهُ تعالى: ﴿قِنۡوَانٞ دَانِيَةٞ﴾ على نيّةِ الحذفِ، التّقدير: قِنوانٌ دانيةٌ وسحيقةٌ أو بعيدةٌ، وهو حذفٌ من بابِ الاختصارِ؛ لأنّها حاضرةٌ في الفَهمِ، سابقةٌ إليه عندَ ذكرِ الأخرى[3]. ثمّ إنّ قولَهُ تعالى: ﴿دَانِيَةٞ﴾؛ أي: قريبةٌ وهو من بابِ إنعامِهِ تعالى على عبادِهِ؛ فذكرَ الدّانيةَ القريبةَ، ولم يذكُرِ البعيدةَ، وهو من بابِ تمامِ نعمتِهِ تعالى على عبادِهِ؛ بأن جعلَهُم يحصلونَ على ثمرِهَا من غيرِ تعبٍ ولا مَشقَّةٍ، بخلافِ السّحيقةِ، ففيها كُلفةُ الصّعودِ؛ فالنّعمةُ إذن أظهرُ وأدلُّ في القريبةِ[4].

(1) الزّجّاج، معاني القرآن: 2/275، والشّنقيطيّ، العذب النّمير: 2/25.
(2) زاده: حاشية الشّيخ زاده: 4/106، والثّعلبيّ، الكشف والبيان: 12/163.
(3) السّمعانّي، تفسير القرآن: 2/130، والبغويّ، معالم التّنزيل: 3/172.
(4) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/379، والشّنقيطيّ، العذب النّمير: 2/26.

علّةُ التّقييدِ بلفظِ ﴿قِنۡوَانٞ﴾:

كمالُ التّفاوُتِ دليلُ كمالِ القُدرةِ

نقلَ السّيوطيّ عنِ التّفتازانيِّ؛ أنّه علّلَ إثمارَ الضّئيلِ الّذي لا يكادُ يُنتفَعُ بهِ من خلالِ التّقييدِ بقولِهِ: ﴿قِنۡوَانٞ﴾؛ للإشعارِ بأنّه حينئذٍ ضعيفٌ لا نفعَ له، فيقابلُ حالَ الينعِ، ويدُلُّ كمالُ التّفاوتِ على كمالِ القُدرةِ[1]، فالمقصودُ بالإخبارِ هنا التّعجيبُ من خُرُوجِ القِنوانِ مِنَ الطّلعِ وما فيهِ من بَهجةٍ، وبهذا يَظهَرُ وجهُ تَغييرِ أسلوبِ هذه الجملةِ عن أساليبِ مَا قبلَها وما بعدَها؛ إذ لَم تُعطَفْ أجزاؤُهَا عَطفَ المُفرداتِ، على أنّ مَوقِعَ الجُملةِ بينَ أخواتِها يُفيدُ مَا أفادَتهُ أخَواتُها مِنَ العِبرَةِ والمِنَّةِ[2].

دلالةُ لفظِ (الدّانيةِ):

لا حاجَةَ لذكرِ القِنوانِ البعيدةِ التّناوُلِ؛ لحُصولِ الذّكرَى بالدّانِيَةِ

وخُصَّتِ القِنوانُ بالذّكرِ هنا إدماجًا للمِنَّةِ في خلالِ التّذكيرِ بإتقانِ الصَّنعَةِ؛ فإنّ المِنَّةَ بالقِنوانِ الدّانِيَةِ أتَمُّ، والدّانِيَةُ هي الّتي تكونُ نَخلتُها قَصيرةً لم تَتَجاوزْ طُولَ قامةِ المُتَناوِلِ، ولا حاجَةَ لذكرِ البعيدةِ التّناوُلِ؛ لأنَّ الذّكرى قد حصلَت بالدّانِيَةِ، وزادَت بالمِنَّةِ التّامَّةِ[3].

فائدةُ تقديمِ الأعنابِ على ما بعدَه:

العِنبُ أشرفُ الفواكِهِ، وفائدتُهُ مُمتدَّةٌ في أحوالِهِ كلِّها

بدأَ بالأعنابِ في قولِهِ تعالى: ﴿وَجَنَّٰتٖ مِّنۡ أَعۡنَابٖ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلرُّمَّانَ﴾، ثمّ ذكرَ الصِّنفين الآخرين مِنَ الزّيتونِ والرُّمّانِ، ومزيّةُ هذا التّرتيبِ أنّ الأعنابَ أشرفُ أنواعِ الفَواكِهِ وأميزُها؛ فمنفعتُهُ مُمتدَّةٌ مِن أوّلِ ظهورِهِ حتّى آخرِ حالِهِ، مِن لدُن تشكُّلِهِ في خيوطٍ خضراءَ، ثمّ كونه حِصرمًا مُفيدًا، ثمّ عِنبًا لذيذًا، فزبيبًا نافعًا[4]، وغيرها مِنَ الفوائدِ المُمتدَّةِ في هيئاتِهِ كلِّها.

---

(1) السّيوطيّ، نواهد الأبكار: 3/375.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/400.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/400.

(4) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 13/115.

نُكتةُ التّعبيرِ عنِ الأعنابِ بالجنّاتِ:

عرائشُ الأعنابِ كالجنّاتِ السّاترةِ، ذاتِ المناظرِ الآسرةِ

قولُهُ تعالى: ﴿وَجَنَّٰتٖ مِّنۡ أَعۡنَابٖ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلرُّمَّانَ﴾ ذكرَ هنا الجنّاتِ وميّزَها بالأعنابِ؛ لِمَا بينهما من آصِرةٍ قويّةٍ؛ فالجنّاتُ هي الأرضُ ذاتُ الأشجارِ المُلتفَّةِ الكثيفةِ الّتي لا تُرى أرضُها لتكاثفِ أشجارِها، وهذا شأنُ العرائشِ من أشجارِ العِنبِ تكونُ جنّةً ساترةً لأرضِها[1]؛ فحَسُنَ اقترانُ الأعنابِ بالجنّاتِ.

توجيهُ عطْفِ جُملةِ ﴿وَجَنَّٰتٖ مِّنۡ أَعۡنَابٖ﴾:

تَنوّعُ دلالاتِ العطْفِ تَوَسُّعٌ في المعنَى

اختُلِفَ في عطفِ هذه الجملةِ ﴿وَجَنَّٰتٖ مِّنۡ أَعۡنَابٖ﴾؛ فعنِ الطِّيبيِّ أنّ الأظهرَ أن يكونَ عطفاً على ﴿حَبّٗا﴾؛ لأنّ قولَهُ: ﴿نَبَاتَ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ مُفصَّلٌ يشتملُ على كلِّ صنفٍ من أصنافِ النّامي، والنّامي: الحبُّ والنَّوَى وشبهِهما. وعنِ التّفتازانيّ أنّ الأقربَ لفظاً ومعنًى أن يُجعَلَ عطفاً على ﴿خَضِرٗا﴾، و﴿وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلرُّمَّانَ﴾ على ﴿حَبّٗا﴾. وجوّزَ هو نفسُه عطفَها على ﴿قِنۡوَانٞ﴾ مع أنّ العِنبَ لا يخرجُ منَ النّخلِ؛ وذلك لأنّها لمّا كانَت مَعروشةً تحتَ أشجارِ النّخلِ جازَ وصفُها بكونِها مُخرَجةً منَ النّخيلِ مَجازاً؛ لكونها مُدرَكةً من خلالِها كما يُدرَكُ القِنوان[2].

سِرُّ عطْفِ الخاصِّ على العامِّ في الآيةِ الكريمةِ:

الجنّاتُ عطاءُ اللهِ

قولُهُ: ﴿وَجَنَّٰتٖ﴾ معطوفٌ على نباتٍ، من عطفِ الخاصِّ على العامِّ، والنُّكتةُ مزيدُ الشّرفِ لكونِها من أعظمِ النِّعَمِ[3].

دلالاتُ الاشتباهِ والتّشابُهِ، في قولِه تعالى: ﴿مُشۡتَبِهٗا وَغَيۡرَ مُتَشَٰبِهٖۗ﴾،

المَشتبِهُ هو المُلتبِسُ، والمُتشابِهُ هو المُتماثِلُ

الاشتباهُ والتّشابهُ في قولِهِ تعالى: ﴿وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشۡتَبِهٗا وَغَيۡرَ مُتَشَٰبِهٖۗ﴾، مَوضِعُهما النّصبُ على الحاليّةِ منَ الزَّيتونِ والرُّمّانِ، ومعناهما مُترادِفٌ مثل التّساوي والاستواء؛ لاشتقاقِهما

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2607.
(2) السّيوطيّ، نواهد الأبكار: 3/374 - 375.
(3) الصّاويّ، حاشية على تفسير الجلالين، ص: 559.

من الشّبهِ، أمّا الجمعُ بينَ اللّفظين فهو من بابِ التّفنُّنِ في القول؛ دفعًا للتَّكرارِ بإعادةِ اللّفظِ نفسِهِ[1]، واسمُ الفاعلِ المَنفيُّ ﴿وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍۗ﴾ أبهجُ صوتًا بمدِّ الألفِ منَ المُشتَبَهِ المُثبَتِ. ومن دلالاتِ الاشتباهِ وعدمِ الاشتباهِ أنّك إذا نظرتَ إلى أشجارِ الزَّيتونِ والرُّمّانِ مُجتمعين ألفيتَ تشاكُلاً واضحًا حتّى تخالهما شجرةً واحدةً، فإذا نظرتَ في ثمرتيهما وطعومِهما وجدتَ اختلافًا واضحًا بينَ الشّكلِ والطّعمِ؛ فهو مُشتبِهٌ في الورقِ والشّكلِ مُختلِفٌ في الطّعمِ والمَذاقِ[2]. ومن دلالاتِ الاشتباه في الرُّمّان أنّ شكلَهُ مُتشابِهٌ في المَنظرِ، إلّا أنّه مُختلِفٌ في طعومِه؛ فبعضٌ منه حلوٌ، وبعضٌ حامضٌ[3]، ومن دلالاتِ الاشتباهِ في الزَّيتونِ أنّ أشجارَهُ مُتشابِهةٌ في الشَّكلِ إلّا أنّ ثمارَهُ مُتباينةٌ في اللّونِ، فبعضُهُ بلونٍ أخضرَ وبعضُهُ بلونٍ أسودَ. وللوصفين في الآيةِ دلالةٌ أخرى يلخصُّه قولُ الجوهريّ: "والمُشَتبِهاتُ منَ الأمورِ المُشكِلاتُ، والمُتشَابِهاتُ المُتماثِلاتُ"[4]، وبناءً على ذلك فبينَ التّشابُهِ والاشتباهِ وشائجُ مَتينةٌ؛ لأنّ شدّةَ التّشابهِ في الثّمارِ مُفضِيةٌ إلى الاشتباهِ والالتباسِ حتّى على البستانيِّ الحاذقِ[5]، في عدمِ تمييزِهِ مثلاً بينَ طُعومِ الرُّمّانِ حلوه وحامضه.

دلالةُ توجيهِ القراءةِ القرآنيّةِ ﴿ثَمَرِهِۦٓ﴾:

في قولِهِ تعالى: ﴿ٱنظُرُوٓاْ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ﴾، قرأ حمزةُ والكسائيُّ (ثُمُرِه) بضمّتَين، والجمهورُ على الفتحِ[6]، وقراءةُ الجمهورِ على أنّ (ثَمَر) اسمُ جنسٍ جمعيٌّ[7] مثل: (خشبة - خَشَبٌ) و(تمرة - تَمْرٌ)، وهو

معنَى قراءةِ الضَّمِّ، تفيدُ التّكثيرَ الدّالَّ على إنعامِ النَّظرِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/402، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2607.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 11/578، والثّعلبيّ، الكشف والبيان: 12/163.
(3) السّمرقنديّ، بحر العلوم: 1/471، ومكّيّ القيسّي، الهداية إلى بلوغ النّهاية: 3/2119.
(4) الجوهريّ، الصّحاح: (شبه).
(5) رضا، تفسير المنار: 7/535.
(6) ابن مجاهد، السّبعة في القراءات، ص: 264، وابن مهران، المبسوط في القراءات العشر، ص: 199.
(7) اسمُ الجنسِ الجمعيّ: اسمٌ دالٌّ على الجمعِ، يميّزُ واحده بالتّاء مثل: تمر وتمرة، ولبن ولبنة. يُنظر: ابن يعيش، شرح المفصل: 3/322 - 323.

يقعُ على القليلِ والكثيرِ، أمّا على قراءةِ حمزةَ والكسائيِّ فهو جمعُ (ثَمَرَة)، أو جمعُ (ثِمار) مثل: (كِتاب - كُتُبٌ)[1]، وهذ الجمعُ دالٌّ على الكثرةِ، وجعلَهُ آخرون على أنّه من بابِ جمعِ الجمعِ (ثَمَرَة - ثِمار - ثُمُر)[2]، وفي الكلِّ هو دالٌّ على الكثرةِ، ولمّا كانَت هذه الآيةُ قد سِيقَت لإنعامِ النَّظرِ والتّفكُّرِ؛ ففي ذلك إيماءٌ إلى أن يكونَ نظرًا سَابغًا وتفكُّرًا ضافيًا بما أنعمَ اللّهُ تعالى على عبادِهِ من مَوفورِ النِّعمِ، وزاخرِ المِنَحِ؛ ليتناسبَ اللّفظُ مع المعنى؛ لذلك جعلَ الطّبريُّ قراءةَ الضّمّ هي الأَولى عندَهُ[3].

تَوالِي الدّلالاتِ في الفعلِ ﴿ٱنظُرُوٓاْ﴾:

دلالةٌ عينيّةٌ تتبعُها دلالةٌ فِكريّةٌ مُستبصِرَةٌ

الفعل ﴿ٱنظُرُوٓاْ﴾ في الجملة له دلالتان تتبعُ إحداهما الأخرى؛ فالدّلالةُ الأولى نظرُ العينِ الباصرة؛ بدلالةِ تعديةِ الفعلِ بـ ﴿إِلَىٰ﴾[4]؛ فقد دعاهم إلى أنْ ينظُرُوا إلى الثّمرِ في أحوالِهِ المُتغيّرةِ، ثمّ إلى حالِهِ المُستقرَّةِ عندَ نضجِهِ وبلاغِهِ، ولكنَّ هذه الدّلالةَ العينيّةَ يجبُ أن تتبعَها دلالةٌ فكريّةٌ مُستبصرَةٌ تدُلُّ على قُدرةٍ باهرةٍ مُسنَدَةٍ إلى القادرِ المُدبِّرِ المُتّصِفِ بالحِكمةِ والعلمِ، الّذي أنشأها منَ العدمِ إلى الوجودِ على وفقِ الحِكمةِ والمَصلحةِ[5].

سِرُّ التّغايُرِ بينَ الفعلِ والاسمِ، في قولِهِ تعالى: ﴿إِذَآ أَثۡمَرَ وَيَنۡعِهِۦٓۚ﴾:

الفِعلُ مُتجدِّدٌ كالثّمرِ، والاسمُ ثابتٌ كالثّمرِ بعدَ نُضجِهِ

في قولِهِ تعالى: ﴿إِذَآ أَثۡمَرَ وَيَنۡعِهِۦٓۚ﴾ أوردَ تعبيرين في هذه الجملةِ: الأوّل بالفعليّةِ بقولِهِ: ﴿إِذَآ أَثۡمَرَ﴾، والثّاني في قولِهِ: ﴿وَيَنۡعِهِۦٓۚ﴾ فهو تعبيرٌ اسميٌّ، وينعُ الثّمرِ نضجُهُ وصلاحُهُ[6]؛ وهو محلُّ سؤالٍ عن سرِّ التّغايرِ بينَ التّعبيرين؟ ولِمَ لَمْ يسوِ بينَهما؟

(1) ابن الجزريّ، النّشر، ص: 226.
(2) ابن زنجلة، حجّة القراءات: 264، والواحديّ، البسيط: 8/323.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 11/579.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/600.
(5) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 3/306، وزاده، حاشية الشّيخ زاده: 4/107.
(6) السّمين، عمدة الحفّاظ: (ينع)، وزاده، حاشية الشّيخ زاده: 4/107.

والجوابُ عن ذلك أنّ الحقَّ ﷻ أمرَ عبادَه أن ينظُرُوا "إلى ثمرِهِ إذا أثمرَ، إذا أخرجَ ثمرَهُ كيف يُخرجُهُ ضَئيلاً ضعيفًا لا يَكادُ يُنتفَعُ بهِ"[1]، فالشّجرُ يُخرِجُ ثمرَهُ شيئًا فشيئًا على أحوالٍ مُختلفةٍ مُتباينةٍ مُتغيّرةٍ مُتجدِّدةٍ؛ لذلك عبَّرَ بإذا مع الفعلِ، وهي الدَّالّةُ على ظرفِ حدوثِ الفعلِ[2]، وهو يناسبُ الصّيغةَ الفعليّةَ أشدَّ التّناسبِ، حتّى إذا استوى على سُوقِهِ ونَضِجَ وصَلَحَ للأكلِ عندَها ثَبَتَ واستقرَّ، فانظُروا - يا هؤلاء - إليه، وهو على حالتِهِ الأخيرةِ على وجهِ التّمامِ والكمالِ اللّائقِ[3] نظرةَ مُستبصِرٍ مُعتبِرٍ، وهذا ممّا يُلائمُهُ التّعبيرُ بالاسمِ أشدَّ المُلاءمةِ.

بلاغةُ عطْفِ الخاصِّ على العامِّ:

عطْفُ اليَنْعِ، إخراجٌ له منَ تسميّته ثمراً، تَشريفًا وفضْلًا

وقع (اليَنْعُ) مَعطوفاً على (الثّمر)، على سَنَنِ الاختصاصِ على نحوِ قولِهِ: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبۡرِيلَ وَمِيكَىٰلَ﴾ [البقرة: 98]؛ للدّلالةِ على أنّ اليَنْعَ أولى مِنَ الغَضِّ. والتّحقيقُ فيه أنّ قولَهُ تعالى: ﴿ٱنظُرُوٓاْ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثۡمَرَ﴾ عامٌّ في جميعِ أحوالِ الثّمرِ، فيدخل النّظرُ في حالِ بدئِهِ ونضجِهِ وغيرِهما، فعطفَ ﴿وَيَنۡعِهِۦٓ﴾ على ﴿ثَمَرِهِۦٓ﴾؛ ليؤذِنَ بعمومِ أحوالِ الثّمرِ، وأنّ حالةَ النُّضجِ مُخرِجةٌ للثّمرِ اليانعِ عن أن يُسمَّى ثمراً، ونوعاً داخلاً في ذلك الجنسِ لشرفِهِ وفضلِهِ[4].

فائدةُ تضمينِ ﴿ذَٰلِكُمۡ﴾ باللّام الدّالّةِ على البُعدِ:

البُعدُ قرينُ العُلوِّ، فهي مُؤذِنةٌ بعُلوِّ المُشارِ إليه

قولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكُمۡ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾، اسمُ الإشارةِ ﴿ذَٰلِكُمۡ﴾ الدّالُّ على نِعمِهِ تعالى كلِّها من لدنْ إنزالِ الماءِ مِنَ السّماءِ حتّى إثمارِ الشّجرِ وينعِهِ، وهي نِعمٌ عظيمةٌ؛ فحَسُنَ الإشارةُ

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/380، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 8/475.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/403.
(3) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 13/117، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/257.
(4) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 6/186.

إليها مع لامِ البعدِ الّتي تُؤذِنُ بالرّتبةِ السّاميةِ العاليةِ للمُشارِ إليه ومكانتِهِ وبُعدِ مَنزلتِهِ[1]؛ فهي نِعَمٌ دالّةٌ على الصّانعِ العليمِ الحكيمِ.

إيثارُ التّعبيرِ بصِيغةِ المضارعِ ﴿يُؤْمِنُونَ﴾:

المؤمنُ يُجدِّدُ إيمانَه، بالنَّظرِ إلى الآياتِ الكونيّةِ

ختمَ الحقُّ ﷻ هذه الآيةَ ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ بصيغةِ الفعلِ المضارعِ قصدًا إلى التّجدُّدِ الّذي يدُلُّ عليه؛ فإنّ على المُؤمنِ أن يُجدِّدَ إيمانَهُ؛ لقولِهِ ﷺ: «إنّ الإيمانَ لَيَخلَقُ في جوفِ أحدِكُم كمَا يَخلَقُ الثّوبُ الخَلَقُ؛ فسَلوا اللّهَ أنْ يُجدِّدَ الإيمانَ في قلوبِكُم»[2]، والنّظرُ في الآياتِ البيّناتِ من فَلَقِ الحبِّ والنَّوَى، وجعلِ اللّيلِ سَكنًا، وإنزالِ الماءِ منَ السّماءِ، وإخراجِ الحَبِّ والنَّخلِ والجنّاتِ كلِّها ممّا تُجدِّدُ إيمانَ المسلمِ؛ "استدلالًا بما يشاهدُونَهُ من عجائبِ مخلوقاتِهِ الّتي قصَّها عليهم"[3]؛ فجاءَ بالفعلِ المضارعِ قصدًا إلى تجدُّدِ الإيمانِ في كلِّ زمانٍ.

توجيهُ المُتشابِهِ اللّفظِيِّ بينَ فواصلِ الآي:

الإيمانُ مُناسِبٌ لسِياقِ الآيةِ، الدّالِّ على البَعثِ الأُخرويِّ

في قولِهِ تعالى: ﴿لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ ختمَ الآيةَ بقولِهِ: ﴿يُؤْمِنُونَ﴾، فيما ختمَ ما سبقَها بـ ﴿يَعْلَمُونَ﴾ و﴿يَفْقَهُونَ﴾؛ وذلك أنّ ما خُتِمَت به هذه الآيةُ مُناسِبٌ لسياقِها الّذي اختصَّ بذكرِ النِّعمِ الّتي تقيمُ أوَدَ الإنسانِ من إنزالِ الماءِ وإنباتِ الزّروعِ والثّمارِ للنّاسِ والأنعامِ ونحوِها، وهذا ممّا يُذكِّرُ بالبعثِ الأخرويِّ[4]، والإيمانُ والتّصديقُ به ممّا يُوائمُ هذا السّياقَ. وأن يختمَ قوله تعالى: ﴿لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ بالفعل ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ مُسوِّغٌ مُهِمٌّ؛ فإنّ إيرادَ هذه النّعمِ الكثيرةِ من إنزالِ الماءِ، وإخراجِ النّباتِ والثّمارِ لممّا يقتضي شكرًا وافرًا مِنَ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/257.
(2) رواه الطّبرانيّ، المعجم الكبير، الحديث رقم: (41668).
(3) القنّوجيّ، فتح البيان: 4/209.
(4) ابن الزّبير، ملاك التّأويل: 1/165.

المُنعَم عليه، فناسبَ أنْ تُختَمَ بالإيمانِ[1]، وهو داعٍ له؛ فلا يكونُ شاكرًا مَن لم يكنْ مُؤمِنًا به تعالى.

سِرُّ العُدولِ منَ الفعل (يشكرون) إلى ﴿يُؤۡمِنُونَ﴾:

الإيمانُ أصلٌ، والشُّكرُ فَرعٌ، فأُوثِرَ الأصلُ على الفرعِ لِتضمُّنِهِ إيّاه

لمّا كان سياقُ الآيةِ طافحًا بالنِّعمِ الّتي أنعمَها الحقُّ ﷻ على عبادِهِ من إنزالِ الماءِ منَ السّماءِ، وجريانِهِ في الأرضِ عُيونًا، وإنباتِ الزّروعِ والأشجارِ والثّمارِ؛ فيأكلُ النّاسُ والأنعامُ، ولمّا كان كذلك فإنّه يقتضي منَ الإنسانِ شُكرًا سَابغًا لخالقِهِ؛ فكان على مُقتَضى الظّاهرِ أن تكونَ الفاصلةُ (يشكرون)[2]، لكنّه عدلَ عن فعلِ الشّكرِ، وختمَ بفعلِ الإيمانِ، وسرُّ ذلك أنّ الإيمانَ أصلٌ والشّكرَ فرعٌ عنه؛ فأُوثِرَ الأصلُ على الفرعِ لتضمّنِهِ إيَّاهُ.

وجهُ التّناسُبِ بينَ الفعلَيْن ﴿ٱنظُرُوٓاْ﴾، و﴿كُلُواْ﴾:

فعلُ النّظرِ مُناسِبٌ لسِياقِ الاعتبارِ، وفعلُ الأكلِ مُناسِبٌ لسِياقِ المَطعومِ

في قولِهِ تعالى: ﴿ٱنظُرُوٓاْ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ﴾ أوردَ الفعلَ ﴿ٱنظُرُوٓاْ﴾، فيما قالَ في آيةٍ بعدَها في السّورةِ نفسِها: ﴿كُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثۡمَرَ﴾ [الأنعام: 141]؛ لأنّ سياقَ الآيةِ الأولى سياقُ نظرٍ واعتبارٍ، وتبصُّرٍ وتنبيهٍ على ما نصبَ الحقُّ ﷻ منَ الآياتِ والدّلائلِ على وحدانيّتِهِ[3]، أمّا سياقُ الآيةِ الثّانيةِ فمَبنيٌّ على أحكامِ المَأكولاتِ، فقد تقدّمَها قولُهُ تعالى: ﴿أَنۡعَٰمٞ وَحَرۡثٌ حِجۡرٞ لَّا يَطۡعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ﴾ [الأنعام: 138]، وجاءَ بعدَها قولُهُ تعالى: ﴿كُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾ [الأنعام: 142] فهي مُكتَنِفَةٌ بين هذين، وهما مَبنيان على سياقِ الأكلِ؛ فكانَ مُناسِبًا أن يعبّرَ بفعلِ الأكلِ، فجاءَ كلُّ فعلٍ على ما يناسبُهُ ويوائمُهُ.

(1) البيلي، من بلاغة القرآن، ص: 70.
(2) المطعنيّ، خصائص التّعبير القرآنّي: 1/228.
(3) ابن الزّبير، ملاك التّأويل: 1/166.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(دانِية) و(قَريبة):

التّداني في القِنوانِ على جهةِ الحقيقةِ في القُرْبِ

في قولِهِ تعالى: ﴿قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ﴾ اسمُ فاعلٍ للفعلِ (دنا يدنو)، وهو القربُ، وقد بانَ من تفسيرِ (الدّانية) أنّها قريبةٌ، يسهلُ تناولُها، فقد عبّرَ عن هذا المعنى بالدّنوّ، إلّا أنّ ثمّةَ معنًى مُرادفًا لدانية، وهو (قريبةٌ)؛ فكِلا اللّفظين يُؤدّي المعنى المرادَ، إلاّ أنّ دانيةً أدقُّ في التّعبيرِ؛ فثمّة فرقٌ دقيقٌ بينَ الدّنوِّ والقربِ، وهو أنّ الأوّلَ مُتعلِّقٌ بالمسافةِ بينَ شيئين، كقولِهم: (دارُه دانيةٌ)، فهو قربٌ على وجهِ الحقيقةِ، وهو المُرادُ في الآية؛ فإنّ التّداني في القِنوانِ على جهةِ الحقيقةِ في القُربِ، أمّا القربُ فهو معنًى عامٌّ قد يكونُ مُستعمَلاً على غيرِ الحقيقةِ، كقولِهم: (القلوبُ تتقاربُ)، ولا يُقالُ: (القلوبُ تتدانى)؛ لأنّه لا يحصلُ حقيقةً[1].

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 236.

﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُواْ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتِۭ بِغَيْرِ عِلْمٍۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ١٠٠﴾ [الأنعام: 100]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

العلاقةُ بين نِعمِ الله منَ الشّجرِ والثّمرِ، والتّنكّرِ لـها، بجعْلِ شركاءَ لـه من خلْقِه

لمّا ذكرَ الحقُّ ﷻ في ما سلفَ من الآيات، البراهينَ الخمسةَ الدَّالَّةَ على ثبوتِ أُلوهيّتِه، وأنّها تقتضي الإيمانَ به[1] من فَلْقِ الحَبِّ والنَّوَى حتّى إنزالِه الماءَ منَ السّماءِ، وإخراجِ الحَبِّ المُتراكِمِ والنّخلِ الباسقِ والجنّاتِ الوارفاتِ، وكلُّها مِننٌ أسبغَها عليهم، ناسبَ أنْ يذكُرَ هنا فِرَقًا وطوائفَ منَ النّاسِ خالفوا ما يقتضيه العقلُ السّليمُ؛ فأثبتوا للّه شركاءَ ممّا هو مُستترٌ عنِ الأنظارِ كالشّياطينِ والملائكةِ ونحوِهم؛ لأنّ حدوثَ الأجناسِ المُختلِفةِ والأنواعِ المُفنَّنةِ من أصلٍ واحدٍ، ونقلها من حالٍ إلى حالٍ، لا يكونُ إلّا بإحداثِ قادرٍ عليمٍ بتفاصيلِها، ولا يعوقُهُ عن فعلِهِ نِدٌّ يُعارضُهُ أو ضِدٌّ يُعاندُهُ، ولذلك أعقبَه بتوبيخِ مَن أشركَ به والرّدِّ عليه[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿شُرَكَآءَ﴾: جمعٌ مُكسَّرٌ، مفردُهُ شريك، جذرُهُ اللّغويُّ (شرك)، والشِّركُ الظّلمُ العظيمُ ومخالطةُ الشّريكين[3]، والشِّركُ: "أنْ تجعلَ للّهِ شَريكًا في رُبوبيَّتِهِ"[4]، والأصلُ في معنى الشّينِ والرّاءِ والكافِ المقارنةُ وخلافُ الانفرادِ، وهو أن يكونَ بينَ اثنين لا يَنفَرِدُ به أحدُهُما، فإذا شاركتَ فلانًا فقد صِرتَ شريكَهُ[5]، والإشراكُ باللّه

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 13/118.
(2) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 2/175.
(3) الخليل، العين: (شرك).
(4) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (شرك).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (شرك).

ﷻ أنْ يُدْعَى للّه شريكٌ [1] ﷻ، والشِّركُ في الدّين **نوعان**: الشِّركُ العظيمُ بأن تجعلَ للّهِ شريكًا، وهو أعظمُ الكفرِ، **والثّاني**: الشِّركُ الصّغيرُ كالرّياءِ ونحوِهِ، وهو لفظٌ مُشتركٌ، وأكثرُ العلماءِ يحملونهُ على الكفّارِ جميعِهِم، فيما يرى غيرُهُم أنّهم عدا أهلِ الكتابِ[2]، وجلّ ما وردَ في القرآنِ الكريمِ من مفرداتِ التّراكيبِ؛ بمعنى: اتّخاذِ الشّريكِ معهُ تعالى عمّا يقولون، ومنه هذه المفردة ﴿شُرَكَآءَ﴾ في الآيةِ فقد جعلوا الجنَّ شركاءَ للّهِ في الخَلقِ وفي عبادتِهِ[3].

2) ﴿وَخَرَقُواْ﴾: فعلٌ ماضٍ مُسنَدٌ للجماعةِ، وهم المُشركون المُخاطَبون في الآية، جذرُهُ اللّغويُّ (خرق)، ومعنى ﴿وَخَرَقُواْ﴾: أنّهم خلَقُوا، ومنه خَرَقَ الكلمةَ: اختلَقَها وابتدَعَها كَذِبًا[4]، والأصلُ في الخاءِ والرّاءِ والقافِ هو تمزيقُ الشّيءِ وجَوْبُهُ، ومنه: التَّخرُّقُ، وهو اختلاقُ الكذبِ[5]. ومن معاني الخرقِ أنْ تقطعَ الشّيءَ على سبيلِ الفسادِ، وهو خلافُ الخَلْقِ الّذي يكونُ بتدبيرٍ وتقديرٍ[6]، والخرقُ في الآيةِ: "الاختلاقُ، والتّخريقُ: التّكثيرُ منه؛ يعني: واختلقُوا له بَنِينَ وبَنَاتٍ، وَذلِكَ مثل قَولِ اليهودِ: عُزيرٌ ابن اللّهِ، ومثل قول النَّصارى: المسيحُ ابنُ اللّه"[7].

3) ﴿سُبْحَٰنَهُۥ﴾: مصدرٌ (سَبّح يسبّح) مُضافٌ إلى الضّميرِ العائدِ عليهِ تعالى، وجذرُهُ اللّغويُّ من (سبح)، والتّسبيحُ بمعنى التّنزيهِ عن كلِّ ما لا يليقُ أنْ يُوصَفَ به، ومنَ السّينِ والباءِ والحاءِ يكونُ التّسبيحُ، "وهو تَنزيهُ اللّهِ جَلَّ ثناؤُهُ من كلِّ سُوءٍ، والتَّنزيهُ: التّبعِيدُ، والعَرَبُ تقولُ: سُبحَانَ مِن كَذا؛ أي: ما أبعَدَهُ"[8]، ومن معانيه أيضًا تعظيمُ اللّهِ وتمجيدُه بالصّلاةِ والذّكرِ[9]، وقد جُعِلَ التَّسبيحُ أمرًا عامًّا شاملاً في جميعِ العباداتِ من بابِ القولِ

(1) ابن دريد، جمهرة اللّغة: (رشك).
(2) الرّاغب، المفردات: (شرك).
(3) النّسفيّ، التّيسير في التّفسير: 6/169، والقاسميّ، محاسن التّأويل: 6/2441.
(4) ابن دريد، جمهرة اللّغة، والأزهريّ، تهذيب اللّغة: (خرق).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والسّمين، عمدة الحفّاظ: (خرق).
(6) الرّاغب، المفردات: (خرق).
(7) السّمعانّي، تفسير القرآن: 2/131، والنّسفيّ، مدارك التّنزيل: 1/526.
(8) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (سبح).
(9) ابن دريد، جمهرة اللّغة، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (سبح).

أو الفعلِ أو النّيّةِ[1]، و﴿سُبۡحَٰنَهُۥ﴾ في الآية؛ أي: نُنزّهُهُ عن ذلك الإشراكِ، فهو نقصٌ فيه منافاةُ انفرادِهِ تعالى بالخَلْقِ والتّدبيرِ[2].

4) ﴿وَتَعَٰلَىٰ﴾: فعلٌ مَاضٍ، جذرُهُ اللّغويُّ (علي) مِنَ الفعلِ (علا يَعْلو)، ومعنى العلوِّ ضدُّ السّفلِ، وهو العظمةُ والتّجبُّرُ، وهو للّهِ ﷻ رفعةً وتشريفًا[3]، والأصلُ في العينِ واللّامِ والحرفِ المُعتَلِّ دلالتُه على السُّمُوِّ والارتفاعِ والشَّرفِ[4]، ومن هذا الفعلِ صفةُ (المُتَعال) وهي "صفةٌ للّهِ تعالى بمعنى علوِّ أمرِهِ وصفاتِهِ، لا باعتبار مكانٍ تَعالى عن ذلك ... وتخصيصُ لفظِ (المُتَعال) لمبالغةِ ذلك منهُ لا على سبيلِ التَّكلُّفِ"[5]، ﴿وَتَعَٰلَىٰ﴾ في الآية: مِنَ التّعالي وهو الارتفاعُ، وفيه مبالغةٌ في العلوِّ، وفيه تنزيهٌ أيضًا؛ فالشّيءُ المُرتَفِعُ لا تَلتَصِقُ به الأوساخُ، فالنّقصُ سَفَالةٌ، والعلوُّ كَمالٌ[6].

5) ﴿يَصِفُونَ﴾: فعلٌ دالٌّ على الحالِ والاستقبالِ، جذرُهُ اللّغويُّ (وصف)، والوصفُ بمعنى النَّعتِ[7]، والأصلُ في الواو والصّادِ والفاءِ دلالتُهُ على التّحلِيَةِ، والصِّفةُ لزومُ الأمَارَةِ للشَّيءِ[8]، وهو أيضًا الحالةُ الّتي عليها الشّيءُ من حليتِهِ، ثمّ إنّ هذا الوصفَ قد يكونُ حقًّا وقد يكونُ باطلاً[9]، والأصلُ في الوصفِ هو الحِليةُ في جانبها الحَسَنِ، فتبيّن هيأته وتُصوِّره، ثمّ عُممّت فأصبحَت في مُطلَقِ الوصفِ[10]، والفعلُ ﴿يَصِفُونَ﴾ في الآيةِ معناه: تباعدَ الحقُّ ﷻ عمّا يَنسبون إليه من الشّريكِ والولدِ[11].

المعنى الإجماليّ:

وقسمٌ من المشركين سُدّت بصائرُهم، وعَمِيَتْ قلوبُهم؛ فأشركوا الجنَّ معه تعالى

(1) الرّاغب، المفردات، والسّمين، عمدة الحفّاظ: (سبح).
(2) رضا، تفسير المنار: 7/539.
(3) الخليل، العين، وابن دريد، جمهرة اللّغة: (علو).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (علو).
(5) السّمين، عمدة الحفّاظ: (علو).
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/409.
(7) الخليل، العين، والصّاحب، المحيط في اللّغة: (وصف).
(8) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (وصف).
(9) الرّاغب، المفردات، والسّمين، عمدة الحفّاظ: (وصف).
(10) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (وصف).
(11) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/259.

مِن تمامِ عَمَى البصائرِ، إشراكُ الجِنِّ مع الله، وقولُهم بأنّ له الولدَ

قصدًا إلى عبادتِهم، واختلَقُوا له البنينَ والبناتِ كجعلِهم المَسيحَ وعُزيرًا أبناءَه، والملائكةَ بَناتِه[1] فحذَوا حذوَ اليهودِ والنّصارى وغيرِهم، تنزَّهَ اللّهُ - ﷻ - عن إفكِ المُفترين، وتعالى علوًّا كبيرًا عمّا يقولون.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالةُ (الْ) في لفظِ ﴿ٱلْجِنَّ﴾ منَ الآيةِ الكريمةِ.

كلُّ ما اتُّخِذَ شريكًا مع الله فهو باطلٌ، مهما كان جنْسُه

وردَت لفظةُ ﴿ٱلْجِنَّ﴾ مَعرِفةً بـ (ألـ) في قولِه تعالى: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ﴾، وهي (الـ) الّتي تفيدُ الجنسَ، وكونها جنسيّةً لدلالتها على العمومِ والتّكثيرِ؛ لأنّها في معنى النّكرةِ[2]، ومعنى الجنِّ في الآيةِ كلُّ ما استترَ عنِ النَّظرِ، فمنهم مَن أثبتَ الشَّرِكَةَ لإبليسَ[3]، وطوائفُ منَ العربِ كانَت تعبدُ جنَّ الأوديةِ وتستعينُ بها[4]، وقسمٌ عبدَ الملائكةَ لقولِه تعالى: ﴿ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ ۝٤٠﴾ [سبأ: 40]، فهذه فيها دلالاتٌ على أنّ الجنَّ ليسَ خَلقًا مَقصودًا بذاتِه، إنّما هو دالٌّ على العمومِ، يدخلُ تحتَهُ الشّياطينُ وإبليسُ والملائكةُ، وسِواهم ممّن ينطبقُ عليهم التّعريفُ اللّغويُّ، وهو الاستتارُ[5].

سِرُّ كَوْنِ ﴿ٱلْجِنَّ﴾ مفعولًا أوّلًا، وأثرُ ذلك في المعنَى.

الجنُّ مَقصودٌ منَ السِّياقِ، وهو مَجعولٌ شريكًا باتّفاقٍ

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ﴾ الجنُّ منصوبٌ على أنّه مفعولٌ أوّلُ مُتأخِّرٌ[6]، وهناك مُسوِّغان في جعلِ ﴿ٱلْجِنَّ﴾ مفعولًا أوّلًا مع أنّه مُتأخِّرٌ؛ **الأوّلُ**: تعريفُه فهو في رتبةِ المبتدأ مع فعلِ الجعلِ

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/380.
(2) السّيوطيّ، همع الهوامع: 2/269.
(3) البغويّ، معالم التّنزيل: 3/173.
(4) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/329.
(5) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 13/119.
(6) السّمين، الدّرّ المصون: 5/83.

المُشيرِ إلى التّصييرِ، والمبتدأُ شرطُهُ التّعريفُ[1]، **والثّاني**: أنّ السّياقَ آخِذٌ بمَجامِعِ هذه اللّفظةِ وقاصدها؛ لأنّ المفعولَ الثّاني (الشّركاء) مُتقرَّرٌ من قبل[2]، ثمّ حصلَ فيه تقديمٌ مقصدُهُ التّخصيصُ.

بلاغةُ التّقديمِ والتّأخيرِ، في قولِهِ تعالى: ﴿شُرَكَآءَ ٱلۡجِنَّ﴾:

التّهويلُ والتّعجيبُ، مِن أن يُتّخذَ للهِ شريكٌ منَ الجنِّ أو من غيرِهِم

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلۡجِنَّ﴾: إذا كانَ فعلُ الجعلِ للتّصييرِ، فيكون له مفعولان: الأوّل: ﴿ٱلۡجِنَّ﴾، والثّاني ﴿شُرَكَآءَ﴾[3]، فحصلَ فيه تقديمٌ وتأخيرٌ، قدّمَ المفعولَ الثّاني ﴿شُرَكَآءَ﴾، وفي تقديمِه فائدةٌ؛ وهي "أنّه ما كانَ ينبغي أن يكونَ للّه شريكٌ، لا منَ الجنِّ ولا غير الجنِّ، وإذا أخّرَ فقيلَ: (جعلُوا الجنَّ شركاءَ اللّه)، لم يفدْ ذلك"[4]، فالمعنى المُستنبَطُ من ﴿شُرَكَآءَ﴾ هو معنًى مُخصَّصٌ؛ أي: نفيُ أن يكونَ له شركاءُ منَ ﴿ٱلۡجِنَّ﴾ ومن غيرِهِم، بخلافِ قولِهِ: (الجنُّ شركاءُ)، فالمعنى أنّ ﴿ٱلۡجِنَّ﴾ هُمُ الشّركاءُ حسبُ لا غيرهم، فالتّقديمُ لدفعِ إرادةِ هذا المعنى.

ومفاد هذا التّقديمِ استعظامُ أن يُتّخذَ للّهِ شريكٌ مَلَكًا كان أو جنّيًا أو غيرَهُما من غيرِ نظرٍ إلى جوازِ إيجادِهِ أو حظرِهِ[5]، ففي التّقديمِ حصلَتْ به زيادةٌ في المعنى وقعَت مَوقِعًا حَسَنًا منَ النّفسِ في تنزيهِهِ تعالى عنِ اتّخاذِ الشّريكِ، فلو لم يقدّمْ لم تُفِدْ منَ اللّفظِ إلّا نفي الجنِّ من أن يكونَ شريكًا.

ولتقديمِ المفعولِ الثّاني ﴿شُرَكَآءَ﴾ على المفعولِ الأوّلِ ﴿ٱلۡجِنَّ﴾، في قولِهِ تعالى: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلۡجِنَّ﴾ ﴿شُرَكَآءَ ٱلۡجِنَّ﴾، فائدةٌ

(1) السّمين، الدّرّ المصون: 5/84.
(2) ابن عاشور: التّحرير والتّنوير: 7/406.
(3) العكبريّ، التّبيان: 1/526.
(4) الجرجانّي، دلائل الإعجاز: 1/285 - 286.
(5) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/380، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/196، والطّيبيّ، فتوح الغيب: 6/188، والصّعيديّ، بغية الإيضاح: 1/161.

أخرى؛ وهي إظهارُ العَجبِ وإنكارُ ما فعلوه[1] من اتّخاذِ الجنِّ شركاءَ مع اللّهِ تعالى.

سِرُّ تقديم المجرورِ ﴿لِلَّهِ﴾ على المَفعولِ:

في التّقديمِ عنايةٌ وتعجيبٌ من خَطلِ عقولِهم، وسَفهِ أحلامِهم

في قولِهِ تعالى: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ﴾ قدّم المجرورَ ﴿لِلَّهِ﴾ على المفعولِ وحقّه التّأخيرُ؛ لأنّه مُتعلِّقٌ، وسرُّ تقديمِهِ رعايةً له وإظهارًا للعَجبِ من فعلِهم، وإنكارًا لمُرتكبِهم[2] أنْ جعلوا للّه وليس لغيرِهِ شريكًا من مخلوقاتِهِ؛ فالتّقديمُ على نيّةِ التّخصيصِ.

دلالةُ تأخيرِ ﴿ٱلْجِنَّ﴾، بعدَ قولِهِ تعالى: ﴿لِلَّهِ شُرَكَآءَ﴾:

السّياقُ تحقيرٌ للجنِّ، وتوهينٌ لهم، حتّى يَرتدِعَ عابِدُوهم

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ﴾ يجوزُ في إعرابِ هذه الآيةِ أن يكونَ ﴿لِلَّهِ﴾ مُتعلِّقًا بمحذوفٍ على أنّه المفعولُ الثّاني، وقد تقدّمَ على المفعولِ الأوّلِ ﴿شُرَكَآءَ﴾[3]؛ للإيذانِ بأنّه لا ينبغي اتّخاذُ الشّركاءِ مُطلَقًا، ثمّ ذكرَ بعدَها مُؤخِّرًا لفظةَ ﴿ٱلْجِنَّ﴾ تحقيرًا؛ لأنّه إن لم يتّخذْ شريكًا من غيرِ الجنِّ فقَمِنٌ بالجنِّ ألّا يُتّخَذوا، وألّا يكونوا كذلك؛ لأنّهم محزُّ الإنكارِ[4].

نُكتةُ حذْفِ الفعلِ مع ﴿ٱلْجِنَّ﴾:

التّعجيبُ والإنكارُ مِن جعْلِهم الجنّ شريكًا لله

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ﴾ يجوزُ في إعرابِ هذه الآيةِ أن يكونَ ﴿لِلَّهِ شُرَكَآءَ﴾ مَفعولين على التّقديمِ والتّأخيرِ، ويكونُ ﴿ٱلْجِنَّ﴾ مَفعولًا لفعلٍ مَحذوفٍ على تقديرِ سُؤالٍ كأن يُقال: مَنْ جعلوا شركاءَ للّهِ؟ فيُجابُ: ﴿ٱلْجِنَّ﴾[5]، وهو سؤالٌ إنكاريٌّ تعجُّبًا من اتّخاذِهِم ﴿ٱلْجِنَّ﴾ شريكًا، تعالى اللّهُ عمّا يَصِفُون.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/406.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/406.
(3) السّمين، الدّرّ المصون: 5/83.
(4) الخفاجيّ، عناية القاضي: 5/277.
(5) الجرجانّي، دلائل الإعجاز: 1/287، والجناجيّ، النّظم البلاغيّ، ص: 374.

فائدةُ إيرادِ الفعْلِ ﴿وَخَلَقَهُمۡۖ﴾:

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلۡجِنَّ وَخَلَقَهُمۡۖ﴾، في الآيةِ أوردَ الفعلَ ﴿وَخَلَقَهُمۡۖ﴾ العائدَ على الجنِّ أو على الجاعِلين، والجدْوى مِن إيرادِهِ تذكيرُهم بأنّهم مَخلوقون، فكيف يكونُ الإلهُ مَخلوقًا؛ ففي ذلك تأنيبٌ لهم، وإنكارٌ لعملِهم، وتعجيبٌ من مُرتكبِهم[1] في أنّهم أشركُوا المخلوقَ مع الخالقِ، وهو جَهلٌ منهم، وسوءُ نظرٍ.

تَوبيخُ المشركين وإنكارُ صنيعِهم في إشراكِهم الجنَّ مع الله

توجيهُ التّقريعِ في لفظِ الخَرْقِ ﴿وَخَرَقُواْ﴾:

ذهبَ الطّيبيّ إلى أنّ "مِن حقِّ التَّقريعِ أن يجعلَ ﴿وَخَرَقُواْ﴾ من خرقِ الثّوبِ، لينبّهَ على التّباينِ الشّديدِ بينَ طرفي الإفراطِ والتّفريطِ"[2]، وفيه تشبيهٌ بليغٌ شبَّهَ فيه صنيعَ مَن أشركَ مع اللّهِ بَنينَ وبناتٍ بمَن خرقَ ثوبًا فأتلفَهُ؛ دلالةً على انخرامِ إيمانِ الفردِ، وضياعِ نفسِهِ، وخسرانِ حالِهِ، أعاذَنا اللّهُ وسلّمَنا.

الإشراكُ إفراطٌ مُخرِّقٌ للنّفسِ، مُشابِهٌ لخرْقِ الثّوبِ وإتلافِهِ

بلاغةُ المجازِ في لفظِ ﴿وَخَرَقُواْ﴾:

استُعملَ الخَرْقُ مجازًا في الكذبِ، كما استُعمِلَ فيه افترى واختَلَقَ مِنَ الفَري والخَلْقِ. وفي الكشّافِ: سُئِلَ الحَسَنُ عن قولِهِ تعالى: ﴿وَخَرَقُواْ﴾، فَقالَ: كَلِمةٌ عَربيّةٌ كانَتِ العَربُ تقولُها، كانَ الرّجُلُ إذا كَذَبَ كِذبَةً في نادِي القَومِ يَقولُ بعضُهم: (قَد خَرَقَها واللّهِ)[3].

اختلقُوا الشَّراكةَ مع اللهِ كذِبًا وافتراءً

دلالةُ قراءةِ التَّضْعيفِ في الفعلِ ﴿وَخَرَقُواْ﴾:

قوله تعالى: ﴿وَخَرَقُواْ﴾ قرأَ المَدنيّان نافع وأبو جعفر بتضعيفِ الرّاءِ ﴿وَخَرَّقُواْ﴾[4]، والتّضعيفُ مُؤذِنٌ بالتّكثيرِ[5]، فالّذين خرّقُوا له وادّعَوا وأشركُوا به نفرٌ كثيرٌ، كالمُشركين في نسبتِهم أنّ الملائكةَ بناتُ

الفعلُ المُضعَّفُ يدُلُّ على المُبالغةِ والتّكثيرِ

(1) زاده، حاشية الشّيخ زاده: 4/109، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/407.
(2) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 6/192.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/53، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/407.
(4) ابن الجزريّ، النّشر: 2/261.
(5) سيبويه، الكتاب: 4/64، والرّضي، شرح الشّافية: 1/92.

اللّهِ، واليهودِ في ادّعائِها أنّ عزيرًا ابنُ اللّه، والنّصارى في قولِها أنّ المسيحَ ابنُ اللّهِ وغيرِهم[1]، ومُؤذِنٌ أيضًا بالمبالغةِ في الفعلِ؛ لأنّ التَّفعُّلَ يدُلُّ على قوّةِ حصولِ الفعلِ، فمعنى ﴿وَخَرَّقُواْ﴾: كذبُوا على اللّهِ على سَبيلِ الخرْقِ؛ أي: نسبُوا إليه بنينَ وبناتٍ كَذِبًا[2]، فكلُّ هذا تخريقٌ مُتكاثِرٌ ومُبالَغٌ فيه يلائِمُهُ الفعلُ المُضعَّفُ الدّالُّ على التّكثيرِ.

بلاغةُ تقديمِ (البنينِ) على (البناتِ):

التقديمُ للأصلِ على الفرعِ، والسّابقِ على اللّاحقِ

قدّم البنينَ على البناتِ في قولِهِ تعالى: ﴿وَخَرَقُواْ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتِۭ﴾ من بابِ تقديمِ الأصلِ على الفرعِ، والسّابقِ على اللّاحقِ؛ فإنّ الذّكرَ أصلٌ للأنثى، وهو مُقدَّمٌ عليها؛ فقد خُلِقَ آدمُ، وكان أصلاً، ثمّ خُلِقَت حواءُ، وكانَت فرعًا عنه وتاليةً له؛ لقولِهِ تعالى: ﴿ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ [النّساء: 1].

التّقديمُ للأكثرِ على الأقلِّ في ادّعاءِ اليهودِ والنّصارَى

وتقديمُ البنينِ على البناتِ في قولِهِ تعالى: ﴿وَخَرَقُواْ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتِۭ﴾ في الآيةِ من بابِ الأكثرِ إلى الأقلِّ؛ فأهمُّ فِرقتين ادّعَت بأنّ للّهِ أبناءً هما: اليهودُ بقولِهم: إنّ عُزيرًا ابنُ اللّهِ، والنّصارى بقولِهم: إنّ عيسى ابنُ اللّهِ[3]، فضلاً عن طائفةٍ منَ المُشركينَ الّذين تلَقَوا شيئًا منَ المَجُوسيَّةِ بجعلِهم الشّيطانَ مُتَوَلِّدًا عنِ اللّهِ تعالى، أمّا البناتُ فكانَت من ادّعاءِ بعضِ مُشركي العربِ[4]، واليهود والنّصارى وطائفة منَ المُشركين في ادّعائِهم أكثر من مُشركي العربِ، فإنّهم وَثنيّون مُوغِلون في عبادةِ الأصنامِ.

سِرُّ تنكيرِ لفظِ (عِلْم) من قولِهِ تعالى: ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍۚ﴾:

الاستدلالُ على جَهلِهِم وعِظَمِ ادّعائِهم، مِن كونِهم قالوا بغيرِ علْمٍ

في قولِهِ تعالى: ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍۚ﴾ نفى عنهم العلمَ، وجاء به مُنكَّرًا، في حيّزِ النّفيِ ﴿بِغَيْرِ﴾ المُوغلةِ في الإبهامِ للدّلالةِ على انسلاخِ هؤلاءِ

(1) محيسن، الهادي شرح طيبة النّشر: 2/205، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/602.
(2) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 13/92، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/407.
(3) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنّة: 4/191، والنّسفيّ، مدارك التّنزيل: 1/526.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/408، والسّيوطيّ، الدّرّ المنثور: 3/334.

المُشركين في خَرْقِهم هذا عن كلِّ ما يُسمّى عِلمًا، والاستدلالِ على جهلِهم وعَماهم، فيكون قولُهُ تعالى: ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍۚ﴾ بيانًا وتوكيدًا لمعنى ﴿وَخَرَقُواْ﴾[1]، فمَن يملكُ أدنى علمٍ ورويّةٍ لا يساوي بينَ الخالقِ والمخلوقِ في ذلكم الادّعاءِ، وهو في الوقتِ نفسِه يستعظمُ ادّعاءَهم في جعلِ الشّريك له تعالى.

وجهُ الاستئنافِ في لفظِ ﴿سُبۡحَٰنَهُۥ﴾:

﴿سُبۡحَٰنَهُۥ﴾: استئنافٌ مَسُوقٌ لتنزيهِهِ ﷻ عمَّا نسَبوهُ إليه، وسُبحانَه: عَلَمٌ للتَّسبيحِ الّذي هو التّبعيدُ عنِ السُّوءِ اعتقاداً وقولاً، تنزيهًا وتبرئةً عن كلِّ عيبٍ وصفةٍ، وتعاليًا عن جميعِ ما قالُوا فيه. وانتصابُه على المَصدريَّةِ، ولا يَكادُ يُذكَرُ ناصبُهُ؛ أي: أُسَبِّحُ سُبحانَه؛ أي: أُنَزِّهُهُ عَمَّا لا يليقُ به عَقْداً وعملاً، تنزيهًا خاصًّا به حقيقًا بشأنِه[2].

ربُّنا تعالى مُنزَّهٌ عن كلِّ ما نُسِبَ إليه من عَيْبٍ

دلالةُ المبالغةِ والمصدريّةِ في صِيغةِ التّسبيحِ ﴿سُبۡحَٰنَهُۥ﴾:

في لفظ ﴿سُبۡحَٰنَهُۥ﴾: مبالغةٌ من جهةِ الاشتقاقِ منَ السَّبْحِ، ومن جهةِ النَّقلِ إلى التَّفعيلِ، ومن جهةِ العُدُولِ عنِ المصدرِ الدَّالِّ على الجنسِ إلى الاسمِ المَوضوعِ له خاصَّةً، ولا سِيَّما العِلمُ المُشيرُ إلى الحقيقةِ الحاضرةِ في الذِّهنِ، ومن جهةِ إقامتِه مُقامَ المصدرِ مع الفعلِ، أو هو مصدرٌ كغُفْرانٍ؛ لأنّهُ سُمِعَ له فِعْلٌ منَ الثّلاثيِّ كما ذُكِرَ في القامُوسِ، أُريدَ به: التَّنزُّهُ التّامُّ والتّباعُدُ الكُلِّيُّ، ففيه مُبالَغةٌ من حيث إسنادُ التّنزُّهِ إلى ذاتِه المُقدَّسةِ؛ أي: تَنَزَّهَ بذاتِه تَنَزُّهًا لائقاً به، وهو الأنسبُ بقولِه سبحانَه[3].

تنزَّهَ ربُّنا بذاتِهِ تنزُّهًا تامًّا لائقًا به ﷻ.

دلالةُ المجازِ في الفعْلِ ﴿تَعَٰلَىٰ﴾:

في قولِه تعالى: ﴿سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ﴾ الفعلُ ﴿وَتَعَٰلَىٰ﴾ يدُلُّ على العلوِّ

التّعالي والتّسامي عن كلِّ اعتقادٍ باطلٍ

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/381، ورضا، تفسير المنار: 7/539.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/168.
(3) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنّة: 4/194، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/168.

والسُّمُوّ، إلاّ أنّ هذا العلوَّ لا يُرادُ منه العلوُّ المكانيُّ، إنّما المقصودُ تنزيهُ الحقِّ ﷻ عن كلِّ قولٍ فاسدٍ، واعتقادٍ باطلٍ[1].

دلالةُ تشبيهِ التَّحاشِي عنِ النّقائصِ بالارتفاعِ في قوله تعالى: ﴿وَتَعَٰلَىٰ﴾:

التّشبيهُ يُبرِّزُ الصّورةَ، ويُوضّحُ معالِمَ المعنَى

التّفاعلُ في قولِهِ: ﴿وَتَعَٰلَىٰ﴾ للمبالغةِ في الاتّصافِ بالعُلوِّ، والعُلُوُّ هنا مَجازٌ؛ أي: كَونُهُ لا ينقُصُهُ ما وصَفُوه به؛ أي: لا يُوصَفُ بذلك؛ لأنَّ الاتّصافَ بمثلِ ذلك نَقصٌ، وهو لا يَلحَقُهُ النّقصُ فشُبِّهَ التَّحَاشِي عَنِ النّقائصِ بالارتِفاعِ؛ لأنَّ الشَّيءَ المُرتَفِعَ لا تَلتَصِقُ بهِ الأوساخُ الّتي شأنُها أنْ تكونَ مَطروحةً على الأرضِ، فكَما شَبَّهَ النّقصَ بالسَّفالَةِ شَبَّهَ الكَمالَ بالعُلوِّ، فمَعنى (تَعالى عن ذلك): أنّه لا يَتَطَرَّقُ إليهِ ذلكَ[2].

الفرقُ بينَ التَّسبيحِ والتّعالِي في قولِهِ تعالى: ﴿سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ﴾:

التَّسبيحُ صِفةٌ غيريّةٌ، والتّعالِي صِفةٌ ذاتيّةٌ

في قولِهِ تعالى: ﴿سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ﴾ نزّهَ الحقُّ ﷻ نفسَه عن ادّعاءاتِ الجاعلينَ له شركاءَ بالتّسبيحِ والتّعالي، وظاهرُهما التّساوي تحتَ جنسِ التّنزيهِ، إلاّ أنّ الحقيقةَ خلافُ ذلك؛ فإنّ التّسبيحَ فعلٌ بشريٌّ؛ فهو صفةٌ مُكتسَبَةٌ، أمّا التّعالي فهو صفةٌ ذاتيّةٌ، والمرادُ كونُه مُتعالِيًا مُتَقَدِّسًا في ذاتِهِ، سبّحَهُ المُسبِّحُونَ أم لم يفعلُوا[3].

علّةُ الختامِ بالفعْلِ ﴿يَصِفُونَ﴾:

بيانُ الفاصلةِ نفيٌ لِمَا وصَفُوه بِهِ منَ الشّركاءِ والأبناءِ

الوصفُ: الخَبَرُ عن أحوالِ الشَّيءِ وأوصافِه وما يتميَّزُ به، فهو إخبارٌ مُبيِّنٌ مُفصِّلٌ للأحوالِ، حتّى كأنّ المُخبِرَ يصفُ الشَّيءَ وينعتُهُ بما فيه من صفاتٍ وخصالٍ. واختيرَ في الآيةِ فِعلُ ﴿يَصِفُونَ﴾؛ لأنَّ ما نَسَبُوهُ إلى اللّهِ يَرجِعُ إلى توصيفِهِ بالشُّركاءِ والأبناءِ؛ أي: تَبَاعدَ عنِ الاتّصافِ بهِ. وأمّا كَونُهم وصَفُوه بهِ فَذلِكَ أمرٌ واقِعٌ[4].

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 13/123.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/409.
(3) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 13/123.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/409.

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(خَرَقَ) و(خَلَقَ):

الخرْقُ قطعٌ على سبيلِ الفسادِ، وكـذِبٌ لا تقديرَ فيه ولا انتظامَ

ذهبَ ابنُ مسعودٍ إلى أنَّ قولَه ﴿وَخَرَقُواْ لَهُۥ﴾؛ بمعنى: افتعَلُوا وافترَوْا له، يُقال خلقَ الإفكَ واختلقَهُ وخَرَقَهُ واخترقَهُ بمعنى[1]. بخلاف الرّاغبِ الّذي ذهبَ إلى أنّ منْ معاني الخرْقِ أنْ تقطعَ الشَّيءَ على سبيلِ الفسادِ من غيرِ تَدَبُّرٍ ولا تَفكُّرٍ، وبغيرِ نظامٍ ولا هندسةٍ، قال تعالى: ﴿أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا﴾ [الكهف: 71]، وهو خلافُ الخلْقِ الّذي يكونُ بتدبيرٍ وتقديرٍ ورفْقٍ[2].

والخلْقُ أيضًا الكذِبُ المُقدَّرُ المُنظَّمُ، والخرْقُ الكذبُ الّذي لا تقديرَ فيه ولا نظامَ، ولا رويّةَ ولا إنعامَ، فههنا يظهرُ التّقييدُ بنفي التّدبّرِ والنّظرِ، ويؤيّدُه قوله تعالى: ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍۚ﴾[3].

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/168.
(2) الرّاغب، المفردات: (خرق).
(3) رضا، تفسير المنار: 7/539.

﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ١٠١﴾ [الأنعام: 101]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

أتْبَعَ التّنزيهَ عنِ الشّريكِ بالتّنزيهِ عنِ الصّاحبةِ المنجبةِ للولدِ

ختمَ الحقُّ ﷻ الآيةَ السّابقةَ بأن نزّهَ نفسَه عنِ الشّريكِ والولدِ، ثمّ استدلَّ في هذه الآيةِ على ذلك التّنزيهِ بأنّه الإلهُ الّذي خلقَ السّماواتِ والأرضَ على غيرِ مثالٍ بقدرتِه، فنُزِّلَت هذه الآيةُ مَنزّلةَ التّعليل للتّنزيهِ الواردِ في الآيةِ السّابقةِ بقولِه: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ﴾، ومَن كانَتْ هذه صفاتُه فما حاجتُهُ للصّاحبةِ والولدِ، فهو خالقُ كلِّ شيءٍ، وهو على كلِّ شيءٍ قديرٌ، فشمولُ العلمِ من لوازمِ القُدرةِ[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿بَدِيعُ﴾: صفةٌ مُشبّهةٌ بمعنى مُبدِع، الجذرُ اللّغويُّ (بدع) ومعناه: إيجادُ شيءٍ لم يكنْ موجودًا من قبلُ، فاللّهُ أبدعَ السّماواتِ والأرضَ ولم يكونا شيئًا، ولم يخطرا على بالِ أحدٍ، واللّهُ البديعُ الأوّلُ في الخلْقِ، وفي كلِّ شيءٍ[2]، والباءُ والدّالُ والعينُ أصلٌ يدُلُّ على بدءِ الشَّيءِ وصُنعِه، لا عنْ سابقِ مثالٍ أو نموذجٍ[3]، وهو إنشاءُ عيّنة من غير تقليدٍ أو مُحاكاةٍ، وإبداعُهُ تعالى هو الإنشاءُ من غيرِ مَعونةِ آلةٍ أو زمانٍ أو مكانٍ[4]، و﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ﴾ في الآيةِ؛ أي: مُبدعُهما ومُكوّنُهما من غيرِ سابقِ مثالٍ، فالإبداعُ عن تكوينِ الشَّيءِ من غيرِ سبقٍ[5].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/2017 - 2018.
(2) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة: (بدع).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (بدع).
(4) الرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (بدع).
(5) زاده، حاشية الشّيخ زاده: 4/110.

2) ﴿صَٰحِبَةٞۖ﴾: اسمُ فاعلٍ مُؤنَّثٌ، الجذرُ اللّغويُّ (صحب)، وكلُّ شيءٍ ناسبَ شيئًا ولازمَهُ فقد صاحَبَه، ومعنى الصّاحب: الإنسانُ المُلازمُ، وقد تكونُ مصاحبَتُهُ بالبَدَنِ أو بالعنايَةِ والهِمَّةِ[1]، والصّادُ والحاءُ والباءُ أصلٌ يدلُّ على مقارنةِ شيءٍ ومقاربتِه ... وكلُّ شيءٍ لاءَمَ شيئًا فقد استصْحَبَهُ[2]، ومعنى الصّاحبة في الآية: الزّوجةُ؛ فهي تصاحبُ الزَّوجَ في غالبِ أحوالِه، وانتفاءُ الصّاحبةِ الزّوجةِ من لوازمِ انتفاءِ الولدِ[3].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

مُنشِئُ الكونِ، لا يلدُ ولا يُولدُ، وذلك مُستحيلٌ في حقِّ اللهِ تعالى

استفتاحٌ منه تعالى بالثّناءِ على نفسِه، والإخبارِ عن قُدرتِه العظيمةِ؛ فهو بديعٌ لا نظيرَ له، مُنشِئُ السّماواتِ والأرضِ لا على سابقِ مثالٍ، والولدُ والصّاحبةُ محالٌ في حقِّه؛ فهو مُوجِدُ الأكوانِ، وعلمُهُ جامعٌ مُحيطٌ بالزّمانِ والمكانِ.

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

فائدةُ تركِ الوصْلِ إلى الفصْلِ:

نُزِّلَتِ الآيةُ مَنزِلةَ التّعليلِ، للتّنزيهِ الواردِ في الآيةِ السّابقةِ

في قولِه تعالى: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾ حَسُن الفصْلُ هنا، ولم يعطِفْ وصلاً؛ لأنّ هذه الآية نُزِّلَت مَنزِلَةَ التّعليلِ للآيةِ السّابقةِ الّتي خُتِمَت بتنزيهِه تعالى بقولِه: ﴿سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ﴾، فترجّحَ الفصْلُ على العطفِ[4].

نُكتةُ حذْفِ المبتدأِ في قوله تعالى: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾:

الإشارةُ إلى صِفةِ اللهِ، أبلغُ منَ التّعبيرِ باسمِهِ

في قولِه تعالى: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾ خبرٌ لمبتدأ مَحذوفٍ[5]، تقديرُه: اللّه أو هُو بديعُ السّماواتِ والأرضِ، فهنا حُذِفَ المبتدأُ قبلَ

(1) الرّاغب، المفردات: (صحب).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والجوهريّ، الصّحاح: (صحب).
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/411.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/410.
(5) النّحّاس، إعراب القرآن: 1/75، والسّمين، الدّرّ المصون: 5/88.

ذكرِ الخبرِ (بديعُ السّماواتِ والأرضِ)، وهو حذفٌ فيه نكتةٌ بليغةٌ قائمةٌ على استعظامِ أفعالِهم في الآيةِ السّابقةِ مِن جعلِهم الشّركاءَ معهُ تعالى، وخرقِهم البنينَ والبناتِ، فاقتصرَ ردُّهُ عليهم بصفتِهِ العليّةِ بإنشائِهِ السّماواتِ والأرضَ بالقُدرةِ لا على جهةِ الاقتداءِ وعلى غيرِ مِثالٍ[1]، فلا يحسنُ الرَّدُّ عليهم باسمِهِ تعالى؛ لأنّهم لا يؤمنونَ به أصلاً، وآيةُ ذلك ما ادّعوا ممّا لا يليقُ به سُبحانَه. والحذفُ في مثلِ هذه المَواضِعِ مُلتَزَمٌ كثيرًا، "وهو مِن حذفِ المُسنَدِ إليه الجاري على مُتابعةِ الاستِعمالِ عندَما يَتَقدَّمُ الحَديثُ عن شيءٍ، ثمّ يُعَقَّبُ بِخَبَرٍ عنه مُفرَدٍ"[2]؛ فالحديثُ عنه تعالى مذكورٌ كثيرًا في الآيةِ السّابقةِ، فقد ذُكِرَ في نحو ستِ مرّاتٍ مُضمَرًا وظاهرًا.

بلاغةُ إظهارِ الخبرِ وتوسيطِ الظّرفِ:

مِن أَمَاراتِ العنايةِ بالخَبَرِ إظهارُه

وارتفاعُ ﴿بَدِيعُ﴾ على أنّهُ خَبَرُ مُبتدأٍ مَحذوفٍ، أو فاعلُ ﴿وَتَعَٰلَىٰ﴾، وإظهارُهُ في مَوضِعِ الإضمارِ لتعليلِ الحُكمِ، وتوسيطُ الظّرفِ بينَهُ وبينَ الفعلِ - للاهتمامِ ببيانِهِ والعنايةِ بهِ[3].

فائدةُ التّعبيرِ بلفظِ ﴿بَدِيعُ﴾ في الآيةِ:

مُوجِدُ السّماواتِ والأرضِ، لا يُعجِزُهُ إيجادُ ما دونَهما

وفائدةُ التّعبيرِ بالصِّفةِ: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾ أنّها مِنَ الحُججِ البالغةِ على استحالةِ نسبةِ الولدِ إليه مثلما ادّعَى هؤلاء وأولئك؛ فإنّ مَن أوجدَ السّماواتِ والأرضَ على عظمِهما، فهو قادرٌ على اختراعِ ما هو دونهما، وكيفَ يجعلونَ المخلوقَ شريكًا ونظيرًا للّهِ تعالى؟![4].

سِرُّ العُدولِ مِن مُبدِعٍ إلى ﴿بَدِيعُ﴾:

المبالغة للإبانةِ

البديعُ بمعنى المُبدِعِ، كالأليمِ بمعنى المُؤلِمِ، لكنّه عدلَ من مُبدِعٍ

(1) العلويّ، الطّراز: 3/115.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/410.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/169.
(4) ابن القيّم، بدائع الفوائد: 4/153.

إلى بديعٍ؛ لِمَا في صفةِ البديعِ منَ المبالغةِ، واستحقاقِها في غيرِ حالِ الفعلِ[1].

نُكتةُ إضافةِ الصِّفةِ المُشبَّهةِ إلى فاعلِها:

قولُهُ ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ من إضافةِ الصّفةِ المُشبّهةِ إلى فاعلِها، كقولك: فلانٌ بديعُ الشِّعرِ، أي: بديعٌ شعرُه، أو هو بديعٌ في السّماواتِ والأرضِ، كقولِكَ: فلانٌ ثبتُ الغدرِ؛ أي: ثابتٌ فيه، والمعنى: أنّه عديمُ النّظيرِ والمِثْلِ فيها، فريدٌ ليسَ كمثلِهِ شيءٌ[2].

اللهُ سُبحانَه مُنعدِمُ النَّظيرِ، وليس له في الكونِ مَثيلٌ

سِرُّ تقديمِ السّماواتِ على الأرضِ:

قُدِّمَ ذكرُ السَّماواتِ على الأرضِ في قولِهِ تعالى: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾؛ لمجموعةٍ منَ الأسبابِ ذُكِرَت سابقًا، ونوجزُها هنا في الآتي وهي:

مكانةُ السَّماواتِ، وكونُها مَصدرَ تنزُّلِ القرآنِ

أوّلًا: جريًا على عادةِ القرآنِ الكريمِ؛ فإنّ القرآنَ قدَّمَ ذكرَ السَّماواتِ على الأرضِ بما يزيدُ عن مئةِ آيةٍ، ولم يتأخَّرْ ذكرُها إلّا في آيتينِ لمُوجِبٍ دلاليٍّ.

ثانيًا: تقديمُ السَّماواتِ على الأرضِ هنا من بابِ التّقدُّمِ الزّمنيِّ في الخَلْقِ؛ فقدّمَ الأسبقَ خَلقاً، وهي السَّماواتُ[3]؛ ولا سيّما أنّهما واردان في سياقِ الخَلْقِ؛ بدلالةِ الفعلِ (خلق)؛ لأنّه مِنَ المُهمِّ مراعاةُ السّياقِ الّذي تجري فيه الآيةُ؛ فإنّه مُهِمٌّ في تحديدِ المُتقدِّمِ منَ المُتأخِّرِ، فأنت ترى هنا أنّ السّياقَ الّذي يسيرُ هو سياقُ الخَلْقِ.

ثالثًا: تقديمُ الأعظمِ والأعلَى والأشرفِ، فالشّأنُ أنْ يتقدَّمَ ذكرُ الأعظمِ والأعلَى مَكانًا على غيرِه، إلّا إنْ كانَ هناكَ ما يُوجِبُ خلافَهُ؛ فقدّمَ ذكرَ السَّماواتِ على الأرضِ؛ باعتبارِها الأشرفَ والأكبرَ

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 4/27.
(2) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 6/193.
(3) البغويّ، معالم التّنزيل: 3/126.

والأعظم[1]؛ لِمَا تحويه منَ المخلوقاتِ العظيمةِ كالعرشِ، فالأرضُ بالنّسبة للسَّماواتِ كالخَرزةِ في قصر من اللآلئ، وهو ما جرى في غالبِ آياتِ القرآنِ الكريمِ.

رابعًا: التقديمُ للأهمّيّةِ والقداسةِ، فالسّماواتُ فيها العرشُ والكرسيُّ، والأرواحُ تصعَدُ إليها، وفيها الجنّةُ والنّارُ، وسوى ذلكَ منَ الغيبياتِ.

دلالةُ الاستفهامِ في ﴿أَنَّىٰ﴾:

بيانُ إنكارِهم واستبعادِهم، لِوصْفِهم اللهَ بما لا يَليقُ بجلالِه

في قولِه تعالى: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ﴾، (أنّى) استفهاميّةٌ معناها كيفَ؟، أو مِن أينَ؟[2]، والاستفهامُ هنا لإنكارِ نعتِهم واستبعادِهِ من لدن الباري بما لا يليقُ به سُبحانَه، فمَن كانَ هذا وَصْفَهُ مِن خلْقِ السّماواتِ والأرضِ وما فيهما، كيف يكونُ لهُ ولدٌ؟ وهو من جُملةِ ما خلَقَ[3]. فالجملةُ مُستقِلَّةٌ، مَسُوقَةٌ كما قبلَها لبيانِ استحالةِ ما نَسَبُوه إليه تعالى، وتقريرِ تَنَزُّهِهِ عنهُ[4]. ومبدعُ الأجسامِ لا ينبغي أن يتّصفَ بصفةِ الولادةِ؛ لأنّه إنِ اتّصفَ بها يكونُ جسمًا مثلها؛ لأنّ الولادةَ من صفاتِ الأجسامِ، واللهُ تعالى مُنزَّهٌ عن أن يكونَ جسمًا؛ لأنّ الأجسامَ مُمكنَةٌ، مُحتاجَةٌ في إنشائِها إلى مُخترِعٍ مُنشِئٍ[5].

فائدةُ جُملةِ ﴿وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ﴾:

توكيدُ مضمُونِ ما قبلَها، فالصّاحبةُ سببٌ للولدِ

فائدةُ قولِه تعالى: ﴿وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ﴾ أنّها جملةٌ حاليّةٌ تؤكِّدُ مَضمونَ الاستحالةِ المذكورةِ قبلَها؛ فالصّاحبةُ بمعنى الزَّوجةِ، وهي سببٌ للولدِ، فنفيُ الصّاحبةِ نفيٌ للولدِ، وكلاهُما محالٌ في حقِّهِ تعالى[6]، وإنّما صدورُ الخلْقِ وسواهم عنه صدورُ إيجادٍ وإبداعٍ.

(1) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 2/153.
(2) السّمين، الدّرّ المصون: 5/89.
(3) الشّوكانّي، فتح القدير: 2/168.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/169.
(5) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 6/194.
(6) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/169، والآلوسّي، روح المعاني: 7/242، ورضا، تفسير المنار: 7/542.

جُملةُ ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ بينَ الاستئنافِ والحاليّةِ:

نَفْيُ الوَلَدِ والصّاحِبةِ مناطُ التَّحقيقِ والتَّوكيدِ

قولُهُ تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ إمّا جملةٌ مُستأنَفَةٌ أخرى سِيقتْ لتحقيقِ ما ذُكِرَ منَ الاستحالةِ، أو حالٌ أخرى مُقرِّرةٌ لها؛ أي: أنَّى يَكُونُ لَهُ ولدٌ، والحالُ أنّه خلقَ كلَّ شيءٍ انتظمَهُ التّكوينُ والإيجادُ مِنَ الموجوداتِ الّتي مِن جملتِها ما سمَّوْه ولداً له تعالى، فكيفَ يتُصوَّرُ أن يكونَ المخلوقُ ولداً لخالقِهِ[1].

بلاغةُ العُدولِ منَ الإضْمارِ إلى الإظْهارِ:

التّذْييلُ كالمثَلِ في استقلالِ الدّلالةِ

في قولِهِ تعالى: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ الجملةُ تذييلٌ لبيانِ كمالِ صفاتِهِ تعالى، وتعليمِها للمُخاطَبين؛ ولأنّ هذه الجملةَ تذييليّةٌ عدلَ فيها عنِ الإضْمارِ إلى الإظْهارِ، فالقياسُ أن يقولَ: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ (وهو به عليمٌ) فالتّذييلاتُ تُشبِهُ المَثَلَ الحاملَ للمعاني الجمّةِ في استقلالِ الدّلالةِ؛ لذلك عدلَ منَ المضمَرِ إلى الظّاهرِ[2].

نبّهَ بالإظْهارِ على أنّ عُمومَ العِلْمِ لا تخصيصَ فيه

علْمُ اللّه محيطٌ بكلِّ شيءٍ، ولا تخفَى عنه خافيةٌ.

ولمّا كانَتِ القُدرَةُ لا تَتِمُّ إلّا بشمولِ العِلْمِ قال: ﴿وَهُوَ﴾، ولم يُضمِرْ تنبيهًا على أنّ عمومَ العِلْمِ لا تَخصيصَ فيه كالخَلْقِ[3]، وأنّه عليمٌ بِكُلِّ شيءٍ مِنْ شأنِه أن يُعلَمَ كائنًا ما كانَ، مَخلُوقًا أو غيرَ مَخلُوقٍ، كَما يُنبِئُ عنه تَركُ الإضْمارِ إلى الإظْهارِ[4].

بَديعُ الختامِ بالفاصلةِ:

مُنتَفٍ عن غيرِ اللهِ الإحاطةُ بالعلْمِ والقُدرةِ

معنى ﴿بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾؛ أي: قديرٌ؛ لأنَّ شمولَ العلمِ يَلزمُهُ تَمامُ القُدرَةِ، ومَن كانَ له وَلدٌ لم يكُنْ مُحيطًا بالعِلْمِ ولا بالقُدرَةِ، بل يكونُ مُحتاجًا إلى التّوليدِ[5].

---

(1) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 6/194.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/412.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/218.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/169.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/218.

الصّفةُ المُشبّهةُ ﴿عَلِيمٌ﴾، تدلُّ على رُسوخِ الصّفةِ في الموصوفِ:

اعتبارُ صِيغةِ المبالغةِ مُؤكِّدةً للدّلالةِ في هذه الآيةِ

التّعبيرُ بـ ﴿عَلِيمٌ﴾ على هيئةِ الصّفةِ المُشبّهةِ، وصيغةِ المبالغةِ الدّالَّين على رسوخِ الصّفةِ في الموصوفِ وثبوتِها فيه. فالعليمُ هنا مُبالِغٌ في العلمِ أزلًا وأبدًا، ورسّخَ هذا الثّبوتَ التّعبيرُ بالجملةِ الاسميّةِ، فلا يَخفى عليه خافِيَةٌ ممَّا كانَ وما سَيكُونُ مِنَ الذّواتِ والصّفاتِ والأحوالِ، الّتي من جُملتِها ما يَجُوزُ عليهِ تعالى، وما لا يَجُوزُ مِنَ المُحالاتِ الّتي ما زَعَمُوهُ فَردٌ مِن أفرادِهَا[1].

بلاغةُ الاستئنافِ في الفاصلةِ:

في الاستئنافِ تقريرٌ لِمَا ثبتَ مِنْ دلائلَ

جملةُ ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ استِئنافٌ مُقَرِّرٌ لمضمُونِ ما قبلَها مِنَ الدّلائلِ القاطعةِ بِبطلانِ مَقالَتِهِمُ الشَّنعاءِ الّتي اجترَؤُوا عليها بغيرِ عِلْمٍ[2].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(بديعُ)، و(مُبدِعُ)، و(خالِقُ):

البديعُ مُنشِئُ الأشياءِ على غيرِ مثالٍ سابقٍ

البديعُ: وهي صيغةُ مُبالغةٍ على وزنِ (فعيل)، والمُبدِعُ اسمُ فاعلٍ منَ الفعلِ المَزيدِ (أبدع)، وهو شائعٌ في كلامِ العربِ مثل: (حَكيم ومُحكِم)، إلّا أنّه ليسَ في (مُبدِع) مِنَ المُبالغةِ ما في ﴿بَدِيعُ﴾، وهذا هو الفرقُ بينهما، والسِّرُّ في استعمالِ البديعِ؛ أنّه مُنشِئُ الأشياءِ على غيرِ مثالٍ سابقٍ[3]، وليس ذلك كائنًا مع المُبدِعِ. الإبداعُ: إيجادُ الشَّيءِ اختراعًا لا على مثالٍ، وهو لا يقتضي سبقَ المادّةِ، فهو أبدعَهُما

(بديع) و(خالق):

اصطفاءُ لفْظِ (بديع) في مَوضِعِ التّنزيهِ أنسبُ للدّلالةِ.

من غيرِ مِثالٍ، أمّا الخَلْقُ فمعناه التّقديرُ، وهو يقتضي وجودَ شيءٍ سابقٍ موجودٍ، يقعُ فيه التّقديرُ[4]، فثمّةَ فرقٌ بينهما، ولمّا

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/169.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/169.
(3) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 94.
(4) رضا، تفسير المنار: 1/360.

نزّهَ الحقُّ نفسَه، ووصَفَها بأتمّ الأوصافِ وأكملِها، عبّرَ بالبديعِ، ولم يعبّرْ بالخالقِ، ولا سيَّما في مَوضِعِ تنزيهِ نفسِهِ عنِ اتّخاذِ الصّاحبةِ والولدِ.

(الولدُ) و(الابنُ):

الابـنُ يقعُ على الذّكَرِ، أمّا الولدُ فيقعُ على الذّكَرِ والأنثى

نزّهَ الحقُّ ﷻ نفسَه بقولِهِ: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ﴾ فجاء التّعبير بلفظِ الولدِ دون لفظِ (الابن) مع أنّه مُرادِفٌ له في المعنى العامِّ، إلّا أنّ بينهما فَرقًا، وهو أنّ (الابن) يقعُ على الذَّكَرِ، أمّا الولدُ فيقعُ على الذَّكَرِ والأنثى[1]، ونفيُ الولدِ عنه ﷻ يشمَلُ الذَّكَرَ والأنثى؛ فقد ادّعَتِ اليهودُ والنّصارى باتّخاذِهِ الولدَ كعُزيرٍ وعيسى، وادّعَت طوائفُ من مُشركي العربِ باتّخاذِهِ الملائكةَ على أنّهنّ بناتُ اللّهِ[2]، فالتّعبيرُ بالولدِ يشمَلُ جميعَ مَنِ ادّعى اتّخاذَهُ الولدَ، تعالى اللّه عمّا يقولون عُلوًّا كبيرًا.

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 13.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/408، والسّيوطيّ، الدّرّ المنثور: 3/334.

﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ فَٱعۡبُدُوهُۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ ١٠٢﴾ [الأنعام: 102]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

ذكرُ الأدلَّة الكونيَّة لتجليَّات الرُّبوبيَّة توطئةٌ للأمرِ بالامتِثال لمقتضى الألوهيَّة

بعدَ أن ذَكَرَ في الآيات السَّابقةِ جُملَةً منَ الأوصاف الإلهيَّةِ كَقَولِه: ﴿فَالِقُ ٱلۡحَبِّ وَٱلنَّوَىٰۖ﴾ [الأنعام: 95]، وقوله: ﴿فَالِقُ ٱلۡإِصۡبَاحِ﴾ [الأنعام: 96]، وقوله: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٞ وَلَمۡ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٞۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَيۡءٖۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ١٠١﴾ [الأنعام: 101]؛ فقد نَبَّهَ هُنا مخاطبًا النَّاسَ إلى أنَّ مَن كانت هذه أوصَافُهُ؛ فهو إلهُكُم، وهُوَ وَحدَه مَن يَستَحِقُّ أن يُعبَدَ دونَ غَيره، فقال: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ فَٱعۡبُدُوهُۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ﴾، فوقعتِ الآيةُ موقعَ التَّعريفِ والبيانِ لِمَا يستحقُّه اللهُ ربُّ العالمين، فكانتِ الأوصافُ السَّابقةُ أدلَّةً شاهدةً على الاستحقاقِ الرَّبَّانيِّ؛ ليكونَ الأمرُ بالعبادةِ مبنيًّا عليها، فالتَّناسبُ بينها وبين الآياتِ السَّابقةِ تناسبٌ عقليٌّ إقناعيٌّ.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿خَٰلِقُ﴾: جَذْرُ الكَلِمَة هو (خَلَقَ)؛ والخَليقةُ: الطَّبيعَةُ والخَلْق، والجَميعُ: الخَلائِقُ[1]، وأصلُ الخَلقِ: التَّقديرُ، وخَلقَ الخَيَّاطُ الثَّوبَ: قدَّرهُ قبل القَطْعِ، ومنَ المجاز: خلقَ اللهُ الخلقَ: أوجده على تقديرٍ أوجبتْهُ الحكمةُ، وهو ربُّ الخليقةِ والخلائق[2]، قال الأزهريُّ: ولا تَجوزُ هذه الصِّفَةُ بالألِفِ واللَّام لغيرِ الله تعالى[3].

(1) الفراهيديّ، العين: (خلق).
(2) الزّمخشريّ، أساس البلاغة: (خلق).
(3) الفيُّومي، المصباح المُنير: (خلق).

2) ﴿وَكِيلٌ﴾: جذرُ الكلمة هو (وكل)، والوكيلُ: فَعيلٌ بمعنى المفعول، قال تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ۝٨١﴾ [النّساء: 81 - 132 - 171]، أي: اكتَفِ به أن يتولَّى أمرَك، ويتوكَّل لك، وعلى هذا قوله: ﴿حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ ۝١٧٣﴾ [آل عمران: 173]، والتَّوكُّلُ يُقال على وجهين: يُقال: توكَّلتُ لفلانٍ، بمعنى: تولَّيتُ له، ويُقال: وكَّلتُهُ وتوكَّل لي، وتوكَّلتُ عليه بمعنى: اعتمدْتُهُ، قال ﷻ: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝١٢٢﴾ [آل عمران: 122 - 160] و[المائدة: 11][1]، وهذا هو المرادُ في الآية.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

تناولتِ الآيةُ الدَّعوةَ إلى التَّوحيدِ وعبادةِ اللّه وحدَه؛ لأنَّه سبحانه خالقُ كلِّ شيءٍ، ولا يماثله شيءٌ، فقال: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡۖ﴾؛ أي: الَّذي خلقَ هذه المخلوقات، وقدَّرَ أرزاقَها، ونسَّقَ أشكالَها، وجعلَها مُنسجمةً فيما بينها، الَّذي فعل هذا كُلَّه هو ربُّكم ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ﴾، يعني: لا معبودَ بحقٍّ سواهُ، فهو: ﴿خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ فَٱعۡبُدُوهُۚ﴾، فمَن خلقَ كلَّ شيءٍ هو وحدَه مَن يستحقُّ العبادةَ، لا أحدَ غيرُهُ، فجاء الأمرُ بعبادتهِ سبحانه.

وقوله: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٌ﴾؛ فهو الوكيلُ بعبادِه رزقًا ورعايةً وحفظًا وتربيةً؛ إذ تقومُ الخلائقُ بإرادته سبحانه.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

فائدةُ استعمالِ اسمِ الإشارةِ في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡۖ﴾:

استُعمِلَ اسمُ الإشارةِ: ﴿ذَٰلِكُمُ﴾ إشارةً إلى المنعوتِ بما ذُكر من جلائل النُّعوتِ، وما فيه من معنى البُعدِ؛ للإيذانِ بعلوِّ شأنِ المُشَارِ إليهِ، وبُعدِ منزلتِهِ في العِظَم[2]، وللتَّنبيهِ على ربطِ السَّابقِ باللَّاحقِ،

تقريرُ وجوبِ عبادةِ الله تعالى بما استحقَّهُ من صفات الكمالِ، وسمات الجمالِ

(1) الرّاغب الأصفهانّي، المفردات: (وكل).
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/169.

وبيانِ ترتُّبِ اللَّاحقِ على السَّابق؛ فدلَّ ما تقدَّمَ من ذِكرِ الأخبَارِ والصِّفاتِ الخاصَّة باللهِ تعالى على أنَّ المُشارَ إليه هو الأهلُ لهذه الصِّفات، والمعنى: ذلِكُمُ الموصُوفُ بتلكَ الأوصاف السَّابقةِ من كونِهِ بَديعًا، مُتَفَرِّدًا بالألوهيَّة، خالِقَ الموجوداتِ، عالمًا بكلِّ شَيءٍ، ناظرًا في مصالحكم[1]، فلا إلهَ للمخلوقين غيرُه سبحانه فعلى المُخاطَبين - أصحابِ العقولِ - أن يُدركوا أنَّهم واقعون في دائرة قدرتِهِ المطلقةِ، ومساحةِ خلقِهِ الشَّاملة للمخلوقات كلِّها.

بلاغةُ الالتفاتِ في قولِه تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ﴾:

مباغتةُ المخاطَبِ المأفونِ مؤثِّرٌ في النَّفسِ محرِّكٌ للعقلِ

قولُه تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ﴾ التفاتٌ منَ الغيبةِ في قولِه: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ﴾ [الأنعام: 100] إلى الخطابِ، والمخاطَبون هم المشركون، وقصدُ الالتفاتِ مباغتتُهم؛ فإنَّ تعدادَ صفاتِ اللهِ - ﷻ - مع ذكرِ فعلِ المشركين باتِّخاذهم شركاء ممَّا خلق اللهُ مع تقريرِ تلك الصِّفاتِ العظيمةِ، يجعلُهم في حيِّز المرذول، فحسُنَت حينئذٍ المباغتةُ في الخطابِ، لِمَا لها من وقعٍ في نفوسِهم، وبيانِ حالِهم المأفون.

براعةُ الإيجازِ بالاكتفاءِ بذكرِ رُكنيِ الإسنادِ في قولِه: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ﴾:

في ذكرِ لفظِ الجلالةِ كفايةٌ عن كلِّ وصفٍ، وإيجازٌ عن كلِّ رصفٍ

ممَّا يقتضيه ظاهرُ التَّعريف ذكرَ صفاتِ المعرَّفِ بهِ قبلَ ذكره، وقد عدل النَّظمُ عن ذلك فقال تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ﴾، ولم يقُل: ذلكم الفاطرُ الخالقُ والعليمُ هو اللهُ، فلفظُ الجلالةِ المُشارُ إليه هُو الموصُوفُ بالصِّفَاتِ المُضمَّنَةِ بالأخبار المُتَقدِّمَةِ، ولذلك استُغنِيَ عنِ اتِّباعِ اسمِ الإشارة ببيانٍ أو بَدَلٍ، والمعنى: ذَلِكُمُ المُبدِعُ للسَّمواتِ والأَرضِ، والخالِقُ كُلَّ شَيءٍ، والعَلِيمُ بكُلِّ شَيءٍ هو اللهُ[2]، فكان قولُه: ﴿ٱللَّهُ﴾ استحضارًا لكلِّ الصِّفاتِ السَّابقةِ.

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/605.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/412.

فائدةُ الإخبارِ بقولِه: ﴿رَبُّكُمۡ﴾ بعد الإخبارِ باسمِ اللهِ الأحسنِ:

إبطالُ اعتقادِ المخاطَبين أن يكونَ لهم ربٌّ سوى اللهِ تعالى

على إعرابِ قولِه: ﴿رَبُّكُمۡ﴾ خبرًا بعد خبرٍ، نوعُ قصرٍ، وفائدتُه: اختصاصُ الرُّبوبيَّة به سبحانه وغرضُه إبطالُ اعتقادِ أن يتَّصفَ أحدٌ بمقتضياتِ الرُّبوبيَّة سواه سبحانه فإثباتُ الرُّبوبيَّةِ هو إثباتٌ لمقتضياتِها، وعلى رأسِها الألوهيَّةُ والطَّاعةُ والخضوعُ والتَّوحيدُ، فموقعُ هذه الجملةِ: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ﴾ هو موقعُ القاعدةِ لمَا سيأتي بعدَها منَ الأمرِ بالعبادَةِ، فإنَّ التَّخليةَ قبلَ التَّحلية.

دلالةُ إضافةِ (ربّ) إلى ضميرِ المخاطَبين:

الخطابُ القرآنيُّ مبنيٌّ على القيَمِ الهدائيَّة والإشاراتِ التَّبشيريَّة

في إضافةِ (ربّ) لضمير المخاطَبين في قولِه تعالى: ﴿ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ﴾ دليلٌ من أدلَّة الرُّبوبيَّةِ الحقَّة؛ فإنَّ اللهَ الَّذي خلقَ الخلقَ يخاطِبُهم بقولِه: ﴿رَبُّكُمۡ﴾؛ ليدلَّ على قُربِه منهم، ورعايتِه لهم، وفي ذلك استمالةٌ للقلوبِ، وتقريبٌ للنُّفوسِ، وهو من أعظمِ الأدلَّةِ على أنَّ الخطابَ القرآنيَّ هو خطابٌ تقريبيٌّ تبشيريٌّ مبنيٌّ على القِيَمِ الهدائيَّةِ.

غرضُ الحَصرِ في قولِه: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾:

مَن اتَّصفَ بصفَاتِ التَّفرُّدِ والكمالِ فهُوَ الإلهُ المُستحقُّ للامتثالِ

غرضُ القصرِ في قولِه تعالى: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ إفرادُ اللهِ تعالى بالألوهيَّة، فقد بيَّن تعالى في هذه السُّورةِ بالدَّلائلِ الكثيرةِ افتقارَ الخلقِ إلى خالقٍ ومُوجدٍ ومُحدِثٍ ومبدعٍ ومُدبِّرٍ[1]. وحَصَرَ الألُوهيَّةَ فيه، فقال: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾، فهو وَحدَه سبحانه إلهُ الكائنَاتِ والموجوداتِ، لا شَيءَ قبلَهُ ولا شيءَ بَعدَه، وهو الَّذي يستحقُّ العبادةَ الحقَّة.

غرضُ التَّكرَارِ والتَّمدُّحِ في وصفِهِ بـ ﴿خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾:

جاءَ قولُه: ﴿خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ في سياقِ المدحِ والثَّناءِ على نفسِه سبحانه فكرَّرَ قولَه: ﴿خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ بعدَ قولِه في الآيةِ السَّابقةِ:

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 13/98.

تنبيهُ العبادِ إلى المستحقِّ حقًّا وصدقًا للعبادةِ

﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيۡءٖۖ﴾ لِمَا فيه من بيانِ قُدرَتِهِ سبحانه على الخلقِ والإيجادِ لكلِّ شَيءٍ، مِن لا شَيءٍ؛ إذ أوجَدَ الكونَ كلَّه بعظيم قدرتِه سبحانه فكانَ غرضُ التَّكرارِ تنبيهًا على القدرةِ، وتعظيمًا للأمرِ، ثمَّ ما أحدثه مِن شدِّ الأذهانِ، والنَّظرِ إلى جميل الصُّنْعِ وبديع الخلقِ، فهو سبحانه خالقُ كلِّ ما سواه[1].

بلاغةُ الاختلافِ في إضافةِ (ربّ) و(خالق) في قولِه: ﴿رَبُّكُمۡۖ﴾ و﴿خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾:

إضافةُ الرُّبوبيَّةِ لاستمالةِ القلوبِ، وإضافةُ الخالِقيَّةِ لإقناعِ العقولِ

اختلف التَّعبيرُ في قولِه: ﴿خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ عن قولِه: ﴿رَبُّكُمۡۖ﴾، فلم يقُل: (خالقُكُم)، وذلك أنَّه إذا كان الغالبُ في إضافةِ (ربِّ) إلى ضميرِ المُخاطَبين هو استمالةُ القُلُوبِ - كما سَبَق - فإنَّ الغالِبَ في إضافةِ (خالق) إلى ﴿كُلِّ شَيۡءٖ﴾ هو إقناعُ العقولِ، فهو سبحانه ليس خالقًا لهم فحسبُ، بل هو خالقٌ لكلِّ شَيءٍ ينتفعونَ به في حياتِهم، ممَّا تتصوَّرُه عقولُهم، وما لا تبلُغُه قوى الإدراكِ عندَهم، وهذا أقوى في الإقناعِ، وأرسخُ في العقلِ.

براعةُ التَّرتيب في قولِه: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾:

إقناعُ العقولِ ركيزةٌ قرآنيَّةٌ وقاعدةٌ رحمانيَّةٌ موصلةٌ للحقِّ والهدى

جاءتِ الآيةُ بترتيبٍ بديعٍ، فابتدأَتْ بقولِه: ﴿ٱللَّهُ﴾ باعتبارِه العَلَمَ الأعرفَ، وما بعدَه مبنيٌّ عليه، ثمَّ بقولِه: ﴿رَبُّكُمۡۖ﴾، فإنَّ الرُّبوبيَّةَ مقدِّمةُ الألوهيَّة، فمَن عَلِمَ ربَّه عبَدَه، ثمَّ بقولِه: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ﴾؛ لأنَّه غايةُ الإخبارِ، ثمَّ بقولِه: ﴿خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾؛ لأنَّه دليلُ التَّوحيدِ الخاصِّ، فإنَّ مَن خَلَقَ؛ استَحقَّ أن يُعبَدَ دون سِواه، فتوسَّطَتِ الألوهيَّةُ بين الرُّبوبيَّة والخالقيَّة؛ لتأكيدِ المستحقِّ للعبادةِ، فذكرتِ الآيةُ: الاسمَ الأحسنَ، فالرُّبوبيَّةَ، فالألوهيَّةَ، فالخالقيَّةَ، بترتيبٍ بديعٍ مُقنِعٍ للعقولِ، وعلى هذا التَّوجيه للمعاني، فأنسبُ إعرابٍ هو أن

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 13/98.

تكونَ هذه الرُّباعيَّةُ أخبارًا لاسمِ الإشارَةِ، أي: ذلك الموصوفُ بتلك الصِّفاتِ العظيمةِ، هو اللّهُ المستحِقُّ للعبادة خاصَّةً، مالكُ أمرِكم، لا شريكَ له أصلًا، خالقُ كلِّ شيءٍ ممَّا كانَ، وممَّا سيكون[1].

قوَّةُ تعلُّقِ المذكوراتِ بعضها ببعضٍ يجعلُها كالاسم الواحد

وفي قولِه تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ ترتيبٌ بديعٌ آخر، وهو ذكرُ اسم اللّه الأحسنِ، ﴿ٱللَّهُ﴾ الَّذي هو عنوانُ توحيدِ الألوهيَّةِ، ثمَّ ﴿رَبُّكُمۡۖ﴾ الَّذي هو عنوانُ توحيدِ الرُّبوبيَّةِ، ثمَّ كلمة التَّوحيدِ الَّتي هي أخصُّ صفاتِ اللّهِ تعالى ثمَّ ﴿خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ الَّتي هي أخصُّ صفاتِ الرُّبوبيَّة، فالآيةُ جاءَت وفقَ ترتيبٍ أنيقٍ، كأنَّها تخاطِبُ النَّاسَ: اللّهُ ربُّكُم واحدٌ خالقٌ، فاعبدُوه، وفي هذا التَّرتيبِ سرٌّ جماليٌّ آخرُ، وهو أنَّه يصحُّ أن يكونَ - من حيثُ المعنى لا من حيثُ الإعرابُ - كلٌّ منَ الألفاظِ الثَّلاثةِ خبرًا لاسم اللّه الأحسنِ، كما كان لفظُ الجلالةِ خبرًا لاسمِ الإشارةِ، فاللّهُ ربُّكم، واللّهُ واحدٌ، واللّهُ خالقُ كلِّ شيءٍ، ولذلك قال تعالى: ﴿فَٱعۡبُدُوهُۚ﴾، فالضَّميرُ يعود على لفظِ الجلالةِ المتَّصفِ بالمذكوراتِ - من حيثُ المعنى - أي: فاعبُدُوا اللّهَ الَّذي هو ربُّكُم الواحِدُ الخالِقُ، وهذا ما جَعَلَ بعضَ المُعربين يذهبونَ إلى أنَّها تقومُ مقامَ الاسمِ الواحدِ؛ لشديد تعلُّقِ بعضِها ببعضٍ، فهي كالخبرِ الواحدِ لاسمِ الإشارةِ[2].

دلالةُ الفاءِ في قولِه: ﴿فَٱعۡبُدُوهُۚ﴾:

الأمرُ بالعبادةِ مُترتِّبٌ على إثباتِ الاستحقاقِ الحقِّ

الفاءُ مترتِّبةٌ على مضمون الجملةِ، فإنَّ مَن جمع هذه الصِّفاتِ؛ كان هو المستحقُّ للعبادةِ خاصَّةً[3]، فهوَ المَالِكُ لِكُلِّ شيءٍ، منَ الأرزاقِ والآجالِ، قيُّومٌ على خلقِه، وأنَّه رقيبٌ على الأعمالِ، مُجزٍ عنها، كلٌّ بحسب ما يستحقُّ[4].

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/196.
(2) السّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 5/91.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/196.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/605.

وذهب ابنُ عاشور إلى أنَّ جملةَ: ﴿فَٱعۡبُدُوهُۚ﴾ مفرَّعَةٌ على قوله: ﴿رَبُّكُمۡۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ﴾؛ فالأمرُ بعبادتِه مفرَّعٌ على وصفِه بالرُّبوبيَّة والوحدانيَّة؛ لأنَّ الرُّبوبيَّةَ تقتضي استحقاقَ العبادة، والانفرادُ بالرُّبوبيَّةِ يقتضي تخصيصَه بالعبادةِ، وفُهِمَ هذا التَّخصيصُ منَ التَّفريعِ[1]، أي: فاعبدُوه دون غيرِه ممَّا تُشركون، فاقتضى التَّفريعُ تفعيلَ الجانبِ العمليِّ من تلكَ المعرفةِ بربوبيَّتِه وألوهيَّتِه سبحانه فتأتي العبادةُ لإكمالِ مشهدِ الرُّضوخِ الكاملِ له سبحانه.

توجيهُ المتشابهِ اللَّفظيِّ في تقديم كلمةِ التَّوحيدِ في الأنعامِ، وتأخيرِها في غافر:

تقدَّمَ في هذه الآية قولُه تعالى: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ﴾ على قوله: ﴿خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾، وفي سورة غافر: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ ٦٢﴾ [62]، على عكسِ وُرودِها هنا، ولمعرفةِ جوابِ ذلك لا بدَّ منَ النَّظرِ في سياقِ الآيتَين، أمَّا هنا؛ فجاءَ في السِّياقِ قولُه: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلۡجِنَّ وَخَلَقَهُمۡۖ وَخَرَقُواْ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتِۭ بِغَيۡرِ عِلۡمٖۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ١٠٠﴾ [الأنعام: 100]؛ فورَدَ فيها قبله ذكرُ الشُّركاء، والبنين، والبنات، فدفع قولَ قائلِه بقوله: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ﴾[2]؛ إذ نَاسَبَ تقديمُ كلمةِ التَّوحيد النَّافيةِ للشِّرك ردًّا على المُشركين، ثمَّ ذكرَ الخلقَ؛ لأنَّه دليلُ التَّوحيدِ، فهي توطئةٌ للأمرِ بالعبادةِ، بَينَما في سورةِ غافرِ لمّا تقدَّم كونه سبحانه خالقًا: ﴿لَخَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَكۡبَرُ مِنۡ خَلۡقِ ٱلنَّاسِ﴾ [غافر: 57]، وما بعدَها منَ الآياتِ؛ فناسبَ تقديمُ ذكرِ الخلقِ على كلمةِ التَّوحيد[3]، ثمَّ إنَّ ذكرَ الخلقِ جاءَ بعد ذكرِ الرُّبوبيَّةِ: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ﴾، فهي من بابِ ذكرِ الخاصِّ بعد العامِّ، ولأنَّها توطئةٌ

السِّياقُ أصلٌ في توجيهِ ظاهرةِ التَّقديمِ والتَّأخيرِ في القرآنِ الكريمِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/413.
(2) الفيروزآباديّ، القاموس المحيط: 1/197.
(3) الكنانّي، كشف المعاني في المُتشابه منَ المثاني، ص: 164 - 165.

لذكرِ التَّوحيدِ، وذمِّ مَن يُنكِر ذلك؛ لذلك فرَّع عليها قولَه: ﴿فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ ٦٢ كَذَٰلِكَ يُؤۡفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ ٦٣﴾ [غافر: 62 - 63] دون الأمرِ بالعبادةِ.

توجيهُ أغراضِ الأمرِ في قوله: ﴿فَٱعۡبُدُوهُۚ﴾:

وَجهُ الأمرِ في قولِه: ﴿فَٱعۡبُدُوهُۚ﴾ أنَّ المشركين كانوا مُعرِضِين عن عبادة اللهِ تعالى إذ لا يتوجَّهُون بأعمال البرِّ في اعتقادهم إلَّا إلى الأصنام، فلذلك أُمِرُوا بالعبادةِ صراحةً، وأُمِرُوا بالاقتصار عليها إيماءً بالتَّفريعِ، فهم يَزُورُون أصنامَهم، ويُقرِّبُون إليها القَرابينَ، ويَنْذِرُونَ لها النُّذُورَ، ويستعينُون بها، ويستنجِدُون بِنُصرَتِها، وما كانوا يذكرون اللهَ إلَّا في موسم الحجِّ، مع إشراكهم الأصنامَ بتلك العبادةِ[1]، فجاء الأمرُ بعبادة اللهِ وحدَه تعريضًا بالنَّهي عن أفعالِ المُشركين بعبادة أصنامهم، فقال: ﴿فَٱعۡبُدُوهُۚ﴾؛ لأنَّه استحقَّ العبادةَ منهم، فهو الخالقُ، وخالقُ الموجوداتِ كلِّها.

إفرادُ الله وحدَه بالعبادَة عن سائرِ خلقِه

معنى العطفِ في قولِه: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ﴾:

الواوُ في قوله: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ﴾ حرفُ عطفٍ، وله توجيهان: **الأوَّل**: أن تكونَ الجملةُ معطوفةً على الصِّفات المتقدِّمة، أي: وهو مع تلك الصِّفات متولِّي أمورَكم، فَكِلُوهَا إليه، وتوسَّلُوا بعبادتِه إلى إنجاحِ مآرِبِكم، فهو الرَّقيبُ على أعمالِكم، فيجازيكم عليها[2]، وعليه فتكونُ جملةُ ﴿فَٱعۡبُدُوهُۚ﴾ مُعترِضةً، **الآخر**: أن تكون جملةُ: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ﴾ معطوفةً على جملة: ﴿فَٱعۡبُدُوهُۚ﴾ من باب عطف الخبرِ على الإنشاءِ، فتكون العبارةُ تكميلًا تعليليًّا لعظيم قدرةِ اللهِ المستحقِّ للعبادة[3].

العطفُ إمَّا من عطفِ الصِّفة على الصِّفة، أو من عطفِ الخبرِ على الإنشاءِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/413.
(2) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 2/176.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/413.

غرضُ تقديمِ الجارِّ والمجرور في قوله: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ﴾:

تشويقُ المخاطَبِ لسماعِ الخبرِ أدعى لثباتِه في ذهنِه

جاءَ نظمُ الآيةِ ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ﴾، وأصلُ الكَلامِ في الظَّاهرِ: (وهو وكيلٌ على كلِّ شيءٍ)، فعدَلَ عن ذلك، فأخَّرَ ذكرَ صفةِ اللّٰهِ (الوكيل)، وقدَّم ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ﴾، تشويقًا للسَّامعِ، فإنَّ السَّامعَ بعد ذكرِ تلك الصِّفات العظيمةِ يتشوَّفُ لسماعِ الصِّفةِ الَّتي ستُذكَرُ بعدها، ولاسيَّما بعد ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ﴾؛ فإذا كانَ خالقًا سبحانه لكلِّ شيءٍ، فما هي الصِّفةُ الَّتي ستُذكَرُ بعد ذلك؟ هل هي صفةُ القدرةِ؟ وهذا أدعى لثباتِ هذه الصِّفةِ في ذهنِ المخاطَب، وأبينُ لمقامِها.

دلالةُ استعمالِ ﴿كُلِّ شَيۡءٖ﴾ بدلًا منَ الاقتصارِ على العبادِ:

رعايةُ اللّٰه وحفظُه لعبادِهِ تشملُ كلَّ مخلوقاتِه

جيءَ بلفظِ ﴿كُلِّ شَيۡءٖ﴾ ولم يقُل: (وهو عليكُم وكيلٌ)؛ لبيانِ أنَّ حفظَه سبحانه ورعايتَه لعبادِه لا تقتصِرُ على ذواتِهم، بل إنَّها تشمَلُ كلَّ شَيءٍ مُتَّصلٍ بهم، فهو وكيلٌ عليهم، وعلى جميعِ المخلوقاتِ، وهذا أبينُ في شمولِ رعايتِه لهم، وأقوى في الامتنانِ على عبادِه.

سرُّ اختيارِ اسمِ الله الوكيلِ في قولِه: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ﴾:

تعليلُ استحقاقِ اللّٰه للعبادةِ دون سِواه

اسمُ اللّٰهِ الوكيلُ جامعٌ لمعنى الحفظِ والرَّقابةِ[1]، فكان ذكرُ الوكيلِ مُورِّثًا للطُّمأنينةِ في نفوسِ المخاطَبين، فاللّٰهُ خلقَهم من عدمٍ، وربَّاهم، ورعاهم، وهو وكيلٌ على كلِّ شيءٍ، فلا يترُكُهم بدون حفظٍ ورقابةٍ، فذِكْرُ هذه الصِّفةِ بعد الأمرِ بالعبادةِ تعليلٌ لاستحقاقِهِ العبادةَ دون سواهُ، أي: إنَّ حفظَ اللّٰهِ للعبادِ ورقابتَهُ مستمرَّانِ.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/413.

﴿لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَهُوَ يُدۡرِكُ ٱلۡأَبۡصَٰرَۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ ١٠٣﴾

[الأنعام: 103]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

استكمالُ أدلَّة الكمالِ لصاحب الجلالِ في استحقاقِه العبادة الحقَّة والخضوع التَّام

بعد أن ذكرَ في الآياتِ السَّابقةِ أوصافَه سبحانه في الأمورِ كلِّها، منَ الخلقِ والتَّقدير، وبعد أن نبَّهَ في الآية السَّابقةِ على استحقاقِه سبحانه للرُّبوبيَّة، وأمر عبادَه بعبادتهِ وحدَه؛ نفى في هذه الآيةِ إدراكَ الأبصارِ له سبحانه لبيانِ أنَّ سائرَ المعبوداتِ الَّتي يتوجَّهُ لها المشركون لا تصلُحُ لأن تُعبدَ؛ فإنَّها ممَّا تدركُه أبصارُهم، وما تدركه الأبصارُ لا يستحقُّ أن يكونَ معبودًا، فضلًا أن يكونَ خالقًا، فتكون الآيةُ من قبيل استكمالِ ذكرِ صفاتِ اللّهِ تعالى الَّتي لا تكونُ لسواه، وهي الصِّفةُ الَّتي لا يُماري فيها أحدٌ منَ العالمين.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تُدۡرِكُهُ﴾: جذرُ الكلمةِ (درك)، والدَّرَكُ: إدراكُ الحاجَة والطُّلبة، واللَّحق منَ التَّبِعة، والدِّراك: إتباعُ الشَّيءِ بعضَه على بعضٍ في كلِّ شيءٍ، يطعنُه طعنًا دِراكًا مُتَدَارَكًا، أي: تِباعًا، واحدًا إثرَ واحدٍ، والدَّرَكُ: اسمٌ مِنَ الإدراكِ، يُقالُ: مشيتُ حتَّى أدركتُهُ، وعشْتُ حتَّى أدركْتُ زمانَه، ورجلٌ درَّاكٌ: كثيرُ الإدراكِ[1]، ومعنى: ﴿لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَهُوَ يُدۡرِكُ ٱلۡأَبۡصَٰرَۖ﴾، أي: لا تُحيطُ به أبصارُ المخلُوقِينَ[2].

2) ﴿ٱللَّطِيفُ﴾: جذرُ الكلمة (لطف): أصلُ اللُّطفِ في الكَلام: خَفَاءُ المسلكِ ودقَّةُ المَذهَبِ، ومعناهُ في حقِّ اللّهِ: المحسن إلَى عبادِه

(1) الفراهيديّ، العين، وابن سيده، المحكم، والزّبيديّ، تاج العروس: (درك).
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/413.

في خَفَاءٍ وَسترٍ من حَيثُ لا يعلمُونَ[1]، وسُمِّيَ باللَّطيفِ؛ لمعرفتهِ بدقائقِ الأمورِ، وأن يكونَ لرفقِهِ بالعبادِ في هدايتهم[2].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

علمُ الله محيطٌ بخلقِه، وقدرتُه بالغةٌ كلَّ شيءٍ

لا تُحيطُ باللهِ الأبصارُ، وإن كانَت تراهُ، وتفرحُ بالنَّظر إلى وجههِ الكريم، فنفيُ الإدراكِ لا ينفي الرُّؤيةَ، بل يثبتُها بالمفهوم، فإنَّه إذا نفى الإدراكَ، الَّذي هو أخصُّ أوصافِ الرُّؤيةِ؛ دلَّ على أنَّ الرُّؤيةَ ثابتةٌ، وهو الَّذي أحاطَ علمُهُ، بالظَّواهر والبواطنِ، وسمعُه بجميعِ الأصواتِ الظَّاهرةِ والخفيَّةِ، وبصرُه بجميعِ المبصَرَاتِ، صغارِها، وكبارِها، ولهذا قال: ﴿وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ الَّذي لطُفَ علمُه وخبرتُه، ودقَّ حتَّى أدركَ السَّرائرَ والخفايا والخبايا والبواطنَ[3].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ الجملةِ الابتدائيَّةِ في قولِه تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾:

بيانُ عظيمِ شَأنِ اللهِ، والتَّعريضُ بالمعبوداتِ المُبْصَرةِ

قولُه تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ جملةٌ ابتدائيَّةٌ أفادَتْ بيانَ عظمتِه تعالى وسعةَ علمِه، فلعظمتِه جلَّ عن أن يُحيطَ به شيءٌ من أبصارِ المخلوقين، وذلك تعريضٌ بانتفاءِ الإلهيَّة عنِ الأصنام الَّتي هِيَ أجسامٌ مَحدُودَةٌ مَحصورَةٌ مُتَحَيِّزَةٌ، أو أيِّ معبودٍ آخرَ، وأمَّا الجنُّ؛ فإنَّ العربَ تزعمُ رؤيتَها في الفيافي، كما قال تعالى قبلَها: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُواْ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام: 100][4].

بلاغةُ النَّفي بـ ﴿لَّا﴾ دُونَ أدواتِ النَّفي الأخرى:

النَّفيُ شاملٌ لأزمانِ كلِّها بالمفهومِ المطلَقِ

في قولِه تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ جاءَ النَّفيُ بحرف ﴿لَّا﴾ الَّذي يُفيدُ نفيَ الإدراكِ في الماضي والحالِ والمستقبلِ، دون (لن) الَّتي

(1) الزّجّاج، شرح أسماء الله الحسنى، ص: 44.
(2) الرّاغب، المفردات: (لطف).
(3) السَّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 268.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/413.

تنفي الإدراكَ في المستقبلِ، أو (لم) الَّتي تنفي الإدراكَ في الماضي، فالنَّفيُ شاملٌ لجميعِ الأزمانِ، بمفهومِها المُطلقِ، لا بالمفهومِ النِّسبيِّ المتعلِّقِ بالمخاطَبين فحسب، كما سيأتي في دلالة جمع الأبصارِ.

سِرُّ استِعمالِ مُفرَدَةِ ﴿تُدۡرِكُهُ﴾:

الإدراكُ يكونُ لما يكونُ لحاقًا، ويُطلَقُ على ما يأتي في اللَّحظاتِ الأخيرةِ

آثرَ النَّظمُ استعمالَ مفردةِ الإدراك، دون الإحاطةِ الَّتي فُسِّرَ بها الإدراكُ، وذلك أنَّ الإدراكَ في اللُّغةِ يدلُّ على اللُّحوقِ الواصلِ للأمرِ المُدرَكِ، فإدراكُ الشَّيءِ عبارةٌ عنِ الوصولِ إلى غايتِه والإحاطةِ بِهِ[1]، فيُوحي اللَّفظُ بالوصولِ بعد مظنَّة الفواتِ؛ ولذلك قال تعالى: ﴿بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلۡمُهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ﴾ [النمل: 66]، أي: أدركَهم في الآخرةِ، لكنَّه إدراكٌ غيرُ مفيدٍ، وهنا تكمُنُ الحسرةُ.

فنفيُ الإدراكِ في الآيةِ يدلُّ على أنَّه لا يكونُ هناك إدراكٌ للأبصارِ لا ابتداءً، ولا لحاقًا، لا دنيا ولا أُخرى، إلَّا ما جاءَت فيه الكرامةُ للمؤمنين في الجنَّةِ.

نكتةُ التَّعبيرِ بالضَّميرِ في قولِه تعالى: ﴿لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ﴾:

النَّظمُ القرآنيُّ يُعلِّمُ العبادَ الأدبَ مع الله تعالى

جاءَ التَّعبيرُ في قولِه تعالى: ﴿لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ﴾ بالضَّميرِ لا بالاسمِ الظَّاهرِ، فلم يقُل: (لا تُدركُ اللهَ الأبصارُ)، ومقتضى الظَّاهرِ والحالِ ما جاءَ عليه النَّظمُ الكريمُ، فيُسألُ عن نكتةِ ذلك؟ والجواب: أنَّ ما يقتضيه تعليمُ الأدبِ هو ما جاءَ عليه النَّظمُ، ومَن تأمَّلَ الأمرَ؛ علِمَ حقيقتَه، فإنَّ اللهَ لا يُدرَكُ حقيقةً ولا لفظًا.

دلالةُ استعمالِ مفردةِ ﴿تُدۡرِكُهُ﴾ مع ﴿ٱلۡأَبۡصَٰرُ﴾:

الأبصارُ يدخلُ في معناها المُبصراتُ والعلومُ

المرادُ بالأبصارِ هنا أوسعُ من مفهومِ البصرِ الَّذي يُطلَقُ على الجارحةِ الباصِرَةِ، وذلك أنَّ البصرَ هو طريقُ العلمِ والإحاطةِ بالمعلومِ بعدَ رُؤيتِه، فالمرادُ بالأبصارِ ما يُرَى بوساطةِ العينِ، وما

(1) الآلوسّي، روح المعاني: 4/230.

بعدَ ذلك، وهذا يُفهَمُ منَ التَّركيبِ ﴿لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ﴾، فلو قال: (لا تراه الأبصارُ)؛ لفُهِمَ أنَّ المقصُودَ نفيُ الرُّؤيةِ فحسبُ، لكن لمَّا أدخلَ الإدراكَ؛ فُهِم أنَّ المرادَ بالأبصارِ الجارحةُ، وما يلزمُ عنها منَ العلوم المتحصِّلةِ بوساطة البصرِ، وعليه يُحملُ كلامُ الحبرِ حين قال: لا يحيطُ بصرُ أحدٍ بالملِك[1].

دلالةُ الجمعِ ودخولُ (ال) في قولِه تعالى: ﴿ٱلۡأَبۡصَٰرُ﴾:

لفظُ الأبصارِ شاملٌ لكلِّ ما يصدُقُ عليه أنَّه مُبصِرٌ

أفادَت صيغةُ الجمعِ في لفظِ ﴿ٱلۡأَبۡصَٰرُ﴾ ودخولِ (الـ) - فلم يقُل: (لا تُدركه أبصارُ النَّاسِ) - الشُّمولَ والعُمومَ، وذلك يتناولُ جميعَ الأبصارِ بواسطة اللَّام الجنسيَّة في مقامِ المبالَغَةِ في جميعِ الأوقَات[2]، فهي عديدةٌ مختلفةٌ، فمنها: أبصارُ النَّاس، وأبصارُ الجانِّ، وأبصارُ الملائكةِ، وكلُّ ما يصدُقُ أن يُوصفَ بأنَّه منَ الأبصارِ، مع اختلاف خَلقِها قوَّةً وضعفًا، قُربًا وبُعدًا، ويدخلُ في ذلك ﴿ٱلۡأَبۡصَٰرُ﴾ التِّقنيَّةُ المعاصِرةُ، فلفظُ الأبصارِ مُستغرِقٌ لجميعِ أزمنةِ الدُّنيا والآخرةِ[3] إلَّا ما جاءَ فيه النَّصُّ بالاستثناءِ، وهذا من بديعِ النَّفي في القرآنِ الكريمِ.

الاستعارةُ المكنيَّةُ في قولِه: ﴿لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ﴾:

تصويرُ الأبصارِ في سعيِها لإدراكِ شيءٍ لا تتمكَّن منه

يُطلَقُ الإدراكُ مجازًا على شعور الحاسَّة بالمحسوس، أو العقلِ بالمعقول، يُقال: أدرك بصري، وأدرك عقلي، تشبيهًا لآلةِ العلمِ بشخصٍ وصل إلى مطلوبه، وهو تشبيهُ المعقولِ بالمحسوس، ويُقال: أدركَ فلانٌ ببصرِه، وأدركَ بعقلِه، واصطلحَ المتأخِّرون على تسمية الشُّعور العقليِّ إدراكًا، ووصفوا صاحبَ الفهمِ المستقيمِ بـ (الدَّرَّاكة)[4]، فيكونُ استعمالُ الأبصارِ استعارةً

(1) ابن جرير، جامع البيان: 12/13.
(2) الآلوسّي، روح المعاني: 4/231.
(3) الزّركشّي، البرهان: 2/421.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/414.

مكنيَّةً تخييليَّةً، إذِ الأبصارُ لا تُدرِكُ، وإنَّما هو تشبيهٌ لها بشخصٍ يُدرِكُ المقصودَ، فحُذِف المشبَّهُ به، وذُكِر المشبَّهُ، وذُكِرَت لازمةٌ من لوازِمِه، وهي الإدراكُ.

توجيهُ المخصُوصِ بالذِّكرِ في قولِه: ﴿ٱلْأَبْصَٰرُ﴾:

لسائلٍ أن يسألَ عن سرِّ ذِكْرِ الأبصارِ دونَ غيرِها منَ الحواسِّ؟ والجواب: لبيانِ عظيم هذه الحاسَّةِ في الإدراكِ الشَّاملِ، فإنَّ سائرَ الحواسِّ إدراكُها لا يبلُغُ ما تبلُغُه هذه الحاسَّةُ منَ الإحاطةِ والشُّمول، وهي أبعدُ الحواسِّ بلُوغًا، وهي أكثرُ الحواسِّ تخيُّلًا وتوقُّعًا.

الأبصارُ أكثرُ الحواسِّ شمولًا وإحاطةً وخيالًا

بلاغةُ المقابلةِ بَينَ: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ وبين: ﴿وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ﴾:

أفادَتِ المقابلةُ بين قولِه: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾، وبين: ﴿وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ﴾، قصْرَ إدراكِ الأبصارِ عليه سبحانه فلمَّا كان إدراكُ الأبصارِ لذاتٍ أمارةَ نقصٍ وحدوثٍ؛ كان إدراكُ هذه الذَّات للأبصارِ أمارةَ كمالٍ وقِدَمٍ، ففُهِم منَ المقابلةِ قصرُ إدراكِ الأبصارِ عليه سبحانه دون سِواه، وهذا من بديع دلالاتِ المقابلةِ في القرآنِ الكريمِ.

إدراكُ الأبصارِ مقصورٌ على الله تعالى دونَ أحدٍ منَ العالمين

فائدةُ المُشاكلةِ في قولِه: ﴿وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ﴾:

معنى قولِه: ﴿وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ﴾، أي: يحيطُ بها علمُه؛ إذ لا تَخفى عليهِ خافيةٌ، ويكون إسنادُ الإدراكِ إلى اسمِ اللهِ مُشاكلةً لقولِه: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾، وفائدتُهُ تقريبُ الصُّورةِ إلى أذهانِ المُخاطَبين للتَّمكين من إجراءِ المقابلةِ بينَ الضِّدَّين، فمهما تعاضدتِ الأبصارُ مع بعضِها، فإنَّها لن تحقِّقَ إدراكَه سبحانه وهو وحدَه يُدرِكُ الأبصارَ كلَّها؛ لأنَّه خالقُها ومبدعُها على غيرِ مثالٍ سابقٍ، والإدراكُ هنا يختلفُ عنِ الإدراكِ في الجملةِ السَّابقةِ، فالإدراكُ هنا يُرادُ به الإحاطةُ الحقيقيَّةُ الَّتي تأتي قبلَ وقوعِ الأبصارِ.

تقريبُ الصُّورةِ لأذهانِ المُخاطَبين في تقابلِ الأضدادِ

بلاغةُ المجازِ بالحذفِ في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ يُدۡرِكُ ٱلۡأَبۡصَٰرَۖ﴾:

المحيطُ بالأبصارِ سبحانه محيطٌ بأهلِها

في قوله: ﴿وَهُوَ يُدۡرِكُ ٱلۡأَبۡصَٰرَۖ﴾ مجازٌ بالحذفِ، أي: يُدرِكُ أهلَ الأبصارِ، وسمَّاه أبو حيَّان كنايةً، أي: كنَّى بالأبصارِ عنِ المُبصِرين[1]، أو مجازٌ مُرسَلٌ بإطلاقِ الجزءِ: وهو الأبصارُ، وإرادة الكلِّ: وهم أهلُ الأبصارِ، فالعلاقةُ جزئيَّةٌ.

النِّكات البيانيَّة في قولِهِ تعالى: ﴿وَهُوَ يُدۡرِكُ ٱلۡأَبۡصَٰرَۖ﴾:

اللهُ تعالى محيطٌ بالأبصارِ علمًا وقدرةً وهو قيُّومٌ على أصحابِها

قولُه تعالى: ﴿وَهُوَ يُدۡرِكُ ٱلۡأَبۡصَٰرَۖ﴾ معطوفٌ على جُملَة: ﴿لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ﴾، فإسنادُ الإدراكِ إلى ضَميرِ اسمِه تعالى إمَّا لأنَّ فعلَ يُدرِكُ استُعيرَ لِمعنَى يَنال، أي: لا تخرجُ عن تَصَرُّفِه، فالمعنى: يَقدِرُ على الأبصارِ، أي: على المُبصِرين، وإمَّا لاستِعَارَةِ فِعلِ (يُدرِكُ) لمعنى (يَعلَم)؛ لِمُشاكَلَةِ قولِه: ﴿لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ﴾، أي: لا تَعلَمُه الأبصَار، وذلك كِنَاية عنِ العلم بالخَفِيَّات؛ لأنَّ الأبصارَ هي العدساتُ الدَّقيقَةُ الَّتي هي واسِطَةُ إحساسِ الرُّؤيَةِ، أو هِي نَفسُ الإحسَاسِ وهُو أخفَى، وجَمَعَهُ باعتبارِ المُدركِين[2].

نكتةُ إظهارِ ما حقُّه الإضمارُ في قولِهِ تعالى: ﴿وَهُوَ يُدۡرِكُ ٱلۡأَبۡصَٰرَۖ﴾:

الأبصارُ الأولى مُقتصرةٌ على عالمِ الشَّهادةِ، أمَّا الثَّانيةُ؛ فتشملُ الغيبَ والشَّهادةَ

قال تعالى: ﴿وَهُوَ يُدۡرِكُ ٱلۡأَبۡصَٰرَۖ﴾ دونَ أن يقولَ: (وهو يُدرِكُها)؛ لنكتةٍ بلاغيَّةٍ، وهي: بيانُ الاختلافِ بين الأبصارِ في الجملة الأولى والثَّانية، ففي الأُولى أرادَ بالأبصارِ ما يقعُ في تصوُّراتِ البشرِ، فكلُّ ما يخطرُ في أذهانِ البشر داخلٌ فيها؛ لأنَّ النَّفيَ يقتضي تصوُّرًا للمنفيِّ، أمَّا في الجملةِ الثَّانية؛ فأرادَ بالأبصارِ ما يقعُ في تصوُّراتِ البشرِ، وما لا يقعُ، فالأبصارُ الثَّانيةُ أشملُ وأوسعُ دلالةً، فيدخل فيها الأبصارُ في عالمِ الغيبِ والشَّهادةِ، أمَّا الأولى؛ فلا يدخُل فيها إلَّا الأبصارُ في عالم الشَّهادةِ.

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/605.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/416.

أثرُ اشتقاقِ اسمِ الله ﴿ٱللَّطِيفُ﴾ بين اسمِ الفاعلِ والصِّفةِ المُشبَّهةِ في التَّنوُّعِ البلاغيِّ:

اسمُ اللَّطيفِ إمَّا أن يكونَ صِفَةً مُشَبَّهَةً أَوِ اسمَ فاعِلٍ، وبناءً على ذلك يتعيَّنُ توجيهُ موقعِ هذا الاسمِ في الآيةِ من حيثُ المعنى البلاغيُّ المرتبطُ بالسِّياقِ؛ فإنَّ توجيهَ الألفاظِ مبنيٌّ على اختلافِ دقائقِ معاني ذواتِها، والاعتباران في هذا الاسمِ هما:

على الصفةِ المشبَّهةِ؛ فصفةُ تنزيهٍ، وعلى اسمِ فاعلٍ؛ فصفةُ فعلٍ

الأوَّل: إن اعتُبِرَ اللَّطيفُ وَصفًا جَاريًا على (لَطُفَ)؛ فهي صِفَةٌ مُشَبَّهَةٌ تَدُلُّ على صِفَةِ تَنزِيهِهِ تعالى عَن إحاطَةِ العُقولِ بماهِيَّتِهِ، فَيَكونُ اختيارُها هو مُنتَهَى الصَّراحَةِ والرَّشاقَةِ في الكلِمَةِ؛ لأَنَّها أَقرَبُ مادَّةٍ في اللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ؛ تُقَرِّبُ مَعنَى وَصفِهِ تعالى بِحَسَبِ ما وُضِعَت لَهُ اللُّغَةُ من مُتَعارَفِ النَّاسِ، وعليهِ فَتَكونُ أَعَمَّ من مَدلُولِ جُملَةِ: ﴿لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ﴾، فَتَتَنَزَّلُ مِنَ الجُملَةِ الَّتي قَبلَها مَنزِلَةَ التَّذييلِ، وهو الَّذي يَنبَغِي التَّفسيرُ بِهِ في كُلِّ مَوضِعٍ اقتَرَنَ فيهِ وَصفُ اللَّطيفِ بِوَصفِ الخَبيرِ، كالَّذي هُنا والَّذي في سُورَةِ المُلكِ.

على اعتبارِ أنَّ اللَّطيفَ صفةٌ مشبَّهةٌ؛ فإنَّه يقعُ موقعَ التَّذييلِ ممَّا قبلَها

الآخر: إن اعتُبِرَ اللَّطيفُ اسمَ فاعِلٍ من لَطَفَ؛ فهو من أَمثِلَةِ المُبالَغَةِ يَدُلُّ على وَصفِهِ تعالى بالرِّفقِ، والإحسانِ إلى مَخلوقاتِهِ، وإتقانِ صُنعِهِ في ذَلِكَ، وكَثرَةِ فِعلِهِ ذَلِكَ، فَيَدُلُّ على صِفَةٍ من صِفاتِ الأَفعالِ، وعلى هذا المَعنَى حَمَلَهُ سائِرُ المُفَسِّرينَ والمُبَيِّنينَ لِمَعنَى اسمِهِ اللَّطيفِ في عِدادِ الأسماءِ الحُسنَى، وهذا المَعنَى هو المُناسِبُ في كُلِّ مَوضِعٍ جاءَ فيهِ وَصفُهُ تعالى بِهِ مُفرَدًا مُعَدًّى بِاللَّامِ أو بالباءِ، نحو: ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٞ لِّمَا يَشَآءُۚ﴾ [يوسف: 100]، وقوله: ﴿ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ﴾ [الشورى: 19]. فَإِذَا حُمِلَ على هذا المَحمَلِ هُنا كانَ وَصفًا مُستَقِلًّا عَمَّا قَبلَهُ؛ لِزِيادَةِ تَقريرِ استِحقاقِهِ تعالى للإفرادِ بالعِبادَةِ دُونَ غَيرِهِ[1].

على اعتبارِ أنَّ اللَّطيفَ اسمُ فاعلٍ، فإنَّه يقعُ موقعَ الاستقلالِ ممَّا قبلَهُ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/417.

نكتةُ اللَّفِّ والنَّشرِ في قولِه تعالى: ﴿وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ﴾:

اللّطفُ خفاءٌ فلا تدركه الأبصارُ، والخبيرُ هو من يدرِك الأبصارَ

ذهَبَ ابنُ عاشور إلى توجيه معنى الخبيرِ على مَحمَلَي الصِّفةِ المُشبَّهةِ واسمِ الفاعِلِ لاسمِ اللّه اللَّطيفِ، فَوُقوعُ الخَبيرِ بَعدَ اللَّطيفِ على مَحمَلِ الصِّفةِ المشبَّهةِ، هو وُقوعُ صِفَةٍ أُخرى أَعَمَّ مِن مَضمونِ: ﴿وَهُوَ يُدۡرِكُ ٱلۡأَبۡصَٰرَۖ﴾، فَيَكمُلُ التَّذييلُ بذلك، ويكونُ التَّذييلُ مُشتَمِلًا على مُحَسِّنِ النَّشرِ بَعدَ اللَّفِّ[1]؛ فإنَّ اللَّطيفَ يُناسِبُ كونَه تعالى غيرَ مُدرَكٍ: ﴿لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ﴾، والخبير يناسِبُ كونَه تعالى مُدرِكًا: ﴿وَهُوَ يُدۡرِكُ ٱلۡأَبۡصَٰرَۖ﴾[2].

بلاغةُ الاحتِراسِ بينَ الصِّفاتِ:

لطفُ الله تعالى بعبادِه إحسانٌ خفيٌّ ورفقٌ سخيٌّ

وعلى مَحمَلِ اسمِ الفاعِلِ فإنَّ مَوقِعَهُ مَوقِعُ الاحتِراسِ لِمَعنَى اللَّطِيفِ، أَي: هُو الرَّفِيقُ المُحسِنُ الخَبِيرُ بِموَاقِعِ الرِّفقِ والإِحسَانِ وبمستحقِّيه[3]، فهو يُحسِنُ إلى عبادِهِ سبحانه ويعلمُ مواطِنَ الإحسانِ.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/418.
(2) الآلوسّي، روح المعاني: 4/233.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/418.

﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْۖ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦۖ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَاۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ١٠٤﴾ [الأنعام: 104]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

التَّخييرُ بين الحقِّ والباطلِ بعد بيان الحجَّةِ وتقرير المحجةِ

لَمَّا بيَّن تعالى منَ الآياتِ البيِّناتِ، والأدلّةِ الواضحاتِ، الدَّالّةِ على الحقِّ في جميعِ المطالبِ والمقاصدِ؛ نبَّه العبادَ عليها، وأخبرَ أنَّ هدايتَهم وضدَّها لأنفسِهم[1]، وأنَّ على الإنسانِ أن يختارَ طريقَه، فلم يبقَ لصاحبِ بصيرةٍ انطماسٌ، كما أنَّه لم يبقَ لصاحبِ غوايةٍ عذرٌ، فموقعُ الآيةِ مِن سابقاتِها هو موقعُ الاختيارِ بعد التَّقريرِ والبيانِ.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿بَصَآئِرُ﴾: جذر الكلمةِ هو (بصر): والبصرُ يُجمعُ على أبصارٍ، والبصيرةُ على بصائرَ، وأبصَرْتُ الشَّيءَ، وتَبَصَّرْتُ به، واستَبصرَ في أمرِه ودِينه، إذا كانَ ذا بصيرةٍ، والبصيرةُ اسمٌ لِما اعتُقِدَ في القلب منَ الدِّين وحَقيق الأمر[2]، والبصائرُ هنا هي: حججٌ بيِّنةٌ واضحةٌ ظاهرةٌ[3].

2) ﴿عَمِيَ﴾: العَمَى: ذَهابُ البَصرِ، ورَجُلٌ أعمَى وامرأة عَمياءُ، وعَمِيَت عَيناهُ. والعَمايَةُ: الغَوايةُ، وهي اللَّجاجة، والعَمايَةُ والعَماء: السَّحابُ الكثيفُ المُطبِقُ[4]، ويُستعارُ العَمى للقَلب كِنايةً عنِ الضَّلالة، والعِلاقَةُ عدمُ الاهتداء، فهو عمٍ وأعمَى القلب، وعَمِيَ الخبرُ: خفيَ[5]، وهذا هو المعنى المُرادُ في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَاۚ﴾.

(1) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 268.
(2) الفراهيديّ، العين، والرّاغب، المفردات: (بصر).
(3) معمّر بن المثنى، مجاز القرآن، ص: 203.
(4) الفراهيديّ، العين: (عمي).
(5) الزّمخشريّ، أساس البلاغة: (عمي).

3) ﴿بِحَفِيظٍ﴾: جذرُ الكلمةِ هو (حفظ): الحِفظ: نقيضُ النِّسيان، وهو التَّعاهدُ وقلَّة الغَفلة، والحَفيظُ: المُوَكَّلُ بالشَّيءِ يحْفَظُهُ[1]. كالحافظ، يُقال: فلانٌ حفيظٌ عليكم، أي: حافظٌ. والحفيظ: المحافِظُ، ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِحَفِيظٍ﴾. والحفيظُ من أسماءِ اللّهِ الحسنى[2].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

الحقُّ ظاهرٌ زاهرٌ، لا يُجبرُ عليه أحدٌ ولا يمنع عنه مانع

تقرِّرُ الآيةُ أنَّ الآياتِ الَّتي جاءَتِ النَّاسَ هي آياتٌ تبيِّنُ الحقَّ، وتجعلُه للقلبِ بمنزلةِ الشَّمسِ للأبصارِ؛ لأنَّها صادرةٌ منَ الرَّبِّ الَّذي ربَّى خلقَه، بصنوفِ نِعَمِه الظَّاهرةِ والباطنةِ الَّتي من أفضلِها وأجلِّها تبيينُ الآياتِ، وتوضيحُ المُشكِلات.

فَمَنْ أَبصَرَ بها مواقعَ العِبرةِ، وعملَ بمقتضاها فَلِنَفسِهِ، وَمَن عَمِيَ بأن بُصِّرَ بها، فلم يتبصَّر، وزُجِر، فلم ينزجر، فإنَّما عمَاه مضرَّتُه عليه، وليس على الرَّسولِ إلَّا البلاغُ المبينُ، فهو ليس حفيظًا على أعمالِهم وأقوالِهم[3].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ موقعِ الآيةِ في السِّياقِ السَّابقِ:

الآيةُ انتقالٌ من مُحاجَّةِ المُشركين، وإثبات الوحدانيَّةِ للّهِ بالرُّبوبيَّة من قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلۡحَبِّ وَٱلنَّوَىٰۖ﴾ إلى قوله: ﴿وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ ١٠٣﴾ [الأنعام: 103]؛ وهذا الكلامُ المُستأنفُ كالتَّوقيفِ والشَّرحِ والفذلكةِ للكلامِ السَّابقِ والتَّفصيلِ والبيانِ بعدَ الإجمالِ؛ ليُعرفَ الغرضُ الَّذي سِيقت من أجلِه الأدلَّةُ على وحدانيَّةِ اللّهِ وقدرتِه[4].

الآيـة فـذلكـةٌ لما سبـق، غايتُـها معرفةُ الغرضِ الَّذي سِيقت له الأدلَّةُ

(1) الفراهيديّ، العين: (حفظ).
(2) الزّبيديّ، تاج العروس: (حفظ).
(3) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 268.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/418.

غرضُ الحذفِ في قولِه تعالى: ﴿قَدۡ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمۡۖ﴾:

الجمعُ بينَ غرضِ الاتِّصالِ، والتَّنبيهِ على علاقةِ الرَّسولِ بالمدعوِّين

قولُه تعالى: ﴿قَدۡ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمۡۖ﴾ مقولٌ لفعلِ أمرٍ محذوفٍ، فيقدَّر: قل - يا محمَّد ﷺ - قد جاءَكم بصَائِرُ، وقرينة ذلك قوله: ﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِحَفِيظٍ﴾[1].

فالآيةُ جاءَت استئنافًا للكلامِ بتوجيهِ خطابٍ للنَّبيِّ ﷺ وفيه بيانُ علاقةِ الرَّسولِ بالمدعوِّين، وأنَّ عليه إقامةَ الحُجَّةِ عليهم، وغرضُ الحذفِ بقاءُ الكلامِ متَّصلًا بالسَّابقِ، مع التَّنبيهِ اللَّطيفِ على أنَّ هذا الكلامَ يجبُ أن يصدُرَ عن رسولِ اللهِ ﷺ كما جاء في فاصلتِها.

بلاغةُ الاستعارةِ المكنيَّةِ في قولِه تعالى: ﴿قَدۡ جَآءَكُم بَصَآئِرُ﴾:

إسنادُ المجيءِ إلى البصائرِ تفخيمٌ لشأنِها وتعظيمٌ لحالِها

أُسنِدَ المجيءُ في قولِه تعالى: ﴿قَدۡ جَآءَكُم بَصَآئِرُ﴾ إلى البصائرِ، أي: ما تُبصرون به الهدى منَ الضَّلال[2]، من بابِ الاستعارةِ، شُبِّه بمجيءِ شيءٍ كانَ غائبًا، تنويهًا بشأنِ ما حَصَلَ عندهم بأنَّه كالشَّيءِ الغائبِ المتوقَّع مجيئُه[3]، فهي تفخيمٌ لشأنِ البصائرِ[4]، وعليه فالاستعارةُ مكنيَّةٌ تخييليَّةٌ؛ إذ صوَّر حضورَ البصائرِ مثل إنسانٍ يُقدِّمُ الأدلَّةَ للمُستبصرين.

نكتةُ تذكيرِ الفعلِ في قولِه تعالى: ﴿قَدۡ جَآءَكُم﴾:

تنزيلُ البصيرةِ منزلةَ البرهانِ

فعلُ المجيءِ في قولِه تعالى: ﴿قَدۡ جَآءَكُم بَصَآئِرُ﴾ جاءَ مذكَّرًا، والفاعلُ جمعُ مؤنَّثٌ، وذلك من حيثُ الجوازُ اللُّغويُّ فجائزٌ؛ لأنَّ الفعلَ المسندَ إلى جمعِ تكسيرٍ مُطلقًا، أو جمع مؤنَّثٍ، يجوز اقترانه بتاء التَّأنيث، وخلوُّه عنها[5]، لكنَّه هنا آثرَ التَّذكيرَ على التَّأنيثِ؛ لدلالةِ القوَّة في المجيءِ، ولتنزيلِ البصيرةِ منزلةَ البرهانِ، كما قال

(1) السّيوطيّ، الإتقان: 1/129.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 9/469.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/418.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/607.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/418.

تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُم بُرۡهَٰنٞ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ [النّساء: 174]، فتكون البصائرُ شاملةً لمعنى البيِّناتِ والبرهانِ.

دلالةُ دخولِ ﴿قَدۡ﴾، وتعديةِ فعلِ (جَاءَ) في الآيةِ:

تحقُّقُ مجيءِ البصائرِ في سياقِ إقامةِ الحجَّةِ

جاءَ الفعلُ ﴿جَآءَكُم﴾ متعدِّيًا لا لازمًا، ومفعولُه ضميرُ المخاطَبين، فلم يقُل: (قد جاءَ بصائرُ من ربِّكم)؛ اكتفاءً في إضافةِ (ربِّ) إلى ضميرِ المخاطَبين، وذلك لتأكيدِ المجيءِ وتثبيتِ البرهانِ، أي: قد تحقَّقَ المجيءُ ولا حجَّةَ لكم بعد الآن، ويُرشِّحُ هذا المعنى دخولُ ﴿قَدۡ﴾، فإنَّها تُفيدُ التَّأكيدَ، وهو المناسبُ لسياقِ الآيةِ في إقامةِ الحُجَّةِ.

غرضُ الجِناسِ بينَ البصائرِ والأبصَارِ:

التَّنبيهُ على أنَّ وسيلةَ معرفةِ البصائرِ هي الأبصارُ

البصائرُ جمعُ بصيرةٍ، وهي للنَّفس كالبصرِ للبدن، سُمِّيَت بها الدِّلالة؛ لأنَّها تجلي لها الحقَّ وتبصِّرُها به[1]، والبصيرةُ: العقل الَّذي تظهرُ به المعاني والحقائقُ، كما أنَّ البصرَ إدراكُ العينِ الَّذي تتجلَّى به الأجسامُ، وبينَ ﴿ٱلۡأَبۡصَٰرُ﴾ و﴿بَصَآئِرُ﴾ جناسٌ ناقصٌ لتبايُنِ ترتيبِ حروفهما، وفائدتُه: التَّنبيهُ على العلاقةِ بين البصائرِ والأبصارِ، فالآياتُ الَّتي جاءَتهم هي منافذُ النُّورِ الإلهيِّ لهدايتهم، فمَن اتَّخذها وسائلَ إبصارٍ؛ فقد أبصَرَ لنفسِه، ومَن أنكرَها؛ فقد عَمِيَ عن الهدايةِ، وأنَّه تعالى جعلَ الإبصارَ وسيلةً من وسائلِ معرفةِ البصائرِ.

الاستعارةُ المكنيَّةُ في قولِه تعالى: ﴿بَصَآئِرُ﴾:

خُصَّ نورُ القلبِ بالبصيرةِ تمييزًا له عن بصرِ العينِ

البصيرةُ هي ما ينقِّب عن تحصيلِ العقلِ للأشياء المنظورِ فيها بالاعتبارِ، فكأنَّه قال: قد جاءَكم في القرآنِ والآياتِ طرائقُ إبصارِ الحقِّ والمعينة عليه[2]، فالبصيرةُ نورُ القلبِ الَّذي يستبصرُ به، كما أنَّ البصرَ نورُ العين الَّذي به تُبصِر، والأصلُ في البصرِ للحاسَّة، فشُبِّه نورُ القلبِ بنور العينِ الَّذي هو البصرُ، وخَصُّوا نورَ القلبِ

(1) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 2/176.
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/330.

باسمِ البصيرةِ تمييزًا لها عنِ البصر، وتشبيهًا لها به، ثمَّ أصبح هذا الاستعمالُ المجازيُّ يجري مَجرَى الحقيقةِ العرفيَّة، وهو في الأصلِ استعارةٌ مكنيَّةٌ، بذكرِ المُشبَّهِ وحذفِ المُشبَّه به.

البصائرُ أمكنُ في المدحِ منَ المُبصِّراتِ

والبصائرُ جمعُ بصيرةٍ، والمُرادُ بها اسمُ الفاعلِ، فهي براهينُ تُبصِّرُ النَّاسَ بالحقِّ، وأُوثِرَ ذكرُ البصائرِ دون المبصِّراتِ؛ لأنَّها أبلغُ في المدحِ، فهي بصائرُ في ذاتِها، وأن تكونَ بصائرَ في ذاتِها أمكنُ في المدح من وصفِها بأنَّها مُبصِّراتٌ لغيرِها؛ للمبالغةِ في تسميةِ البرهانِ والحجَّة بالبصيرة.

نكتةُ جمعِ البصائرِ في قولِه تعالى: ﴿قَدۡ جَآءَكُم بَصَآئِرُ﴾:

البصائر جمعًا هي البيِّناتُ التي تأتي الآخرين، والبصيرةُ إفرادًا هي العلمُ اليقينيُّ

وردَتِ البصيرةُ في القرآنِ جمعًا - كما في هذه الآيةِ - وإفرادًا كما في قولِه تعالى: ﴿قُلۡ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ﴾ [يوسف: 108]، وقولِه: ﴿بَلِ ٱلۡإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦ بَصِيرَةٞ ١٤﴾ [القيامة: 14]، وباختلافِ الجمعِ والإفرادِ يختلفُ المعنى، فمعناها في الإفرادِ العلمُ اليقينيُّ الَّذي يتمكَّنُ منه الإنسانُ، وأمَّا في الجمع فيُرادُ منها البيِّناتُ والبراهينُ الَّتي تأتي الآخرين؛ لإثباتِ الحقِّ - كما في هذه الآيةِ - وقولِه تعالى: ﴿هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمۡ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ٢٠٣﴾ [الأعراف: 203]، وقولِه: ﴿قَالَ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰفِرۡعَوۡنُ مَثۡبُورٗا ١٠٢﴾ [الإسراء: 102]، وقولِه: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ مِنۢ بَعۡدِ مَآ أَهۡلَكۡنَا ٱلۡقُرُونَ ٱلۡأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لَّعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ ٤٣﴾ [القصص: 43]، وقولِه: ﴿هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ ٢٠﴾ [الجاثية: 20]، وهذا من بديعِ الاستعمالِ القرآنيِّ، أن يجعلَ للإفرادِ دَلالةً، وللجَمْعِ دَلالةً مُغايِرَةً.

معنى الابتداءِ المجازيِّ في قوله: ﴿مِن رَّبِّكُمۡ﴾:

(مِن) في قولِه تعالى: ﴿مِن رَّبِّكُمۡ﴾ ابتدائيَّةٌ تتعلَّقُ بـ (جاء)[1]،

(1) الآلوسّي، روح المعاني: 4/234.

البصائرُ الآتيةُ من الله تعالى كفيلةٌ بتبصيرِ الأعمى، وإسماعِ الأصمِّ، وإنطاقِ الأبكم

أي: جاءتِ البصائِرُ ابتداءً من ربِّكم، أو هي صفةٌ لـ ﴿بَصَآئِرُ﴾، أي: بصائرُ آتيةٌ من ربِّكم، وقد جعل خطابُ اللّه بها بمنزلة ابتداءِ السَّيرِ من جانبه تعالى وهو منزَّهٌ عنِ المكان والزَّمان، فالابتداءُ مجازٌ لغويٌّ، أو هو مجازٌ بالحذف بتقدير: من إرادةِ ربِّكم، والمقصودُ التَّنويهُ بهذه التَّعاليم والشَّرائع الَّتي بها البَصائرُ، والحثُّ على العمل بها؛ لأنَّها مُسداةٌ إليهم منَ اللّه[1] ﷻ.

نُكتةُ اختيارِ لفظِ (الرَّبّ) وإضافته إلى ضميرِ المُخاطَبين:

الرَّبُّ الَّذي خلقَ النَّاس لم يتركْهُم بدونِ تربيةٍ ورعايةٍ

في قولِه تعالى: ﴿رَّبِّكُمْ﴾: لسائلٍ أن يسألَ عن سرِّ اختيارِ لفظِ الرَّبِّ، وإضافته إلى ضميرِ المخاطَبين، والجواب: لِمَا في ذلك من تربيةِ المهابةِ، وتنشيطِ الأنفسِ، لتقويةِ داعي العمل بهذه البصائر[2]، وإظهارِ كمالِ اللُّطفِ بهم، أي: قد جاءَكم من جهةِ مالكِكم ومبلِّغكم إلى كمالِكم اللَّائقِ بكم منَ الوحي النَّاطقِ بالحقِّ والصَّواب ما هو كالبصائر للقلوب[3]، فهو امتنانٌ عليهم، وبيانٌ لرعايته لهم، فإنَّ من معاني الرُّبوبيّةِ التَّربيةَ والرِّعايةَ، فمجيءُ البصائرِ منَ اللّه تعالى للبشرِ يدخلُ في الرِّعايةِ الرَّبَّانيَّةِ، والتَّربيةِ الإلهيَّةِ للإنسانيَّة، فهي إخبارٌ بالمجيءِ منَ اللّه تعالى وتعليمٌ أنَّ ذلك مِن مقتضى الرُّبوبيَّة، وأنَّ الَّذي خلَقَهم لم يتركْهُم سدًى.

معنى الفاءِ في قوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ﴾:

البصائرُ هداياتُ اللّه لعبادِه، ومكاسبُ النُّفوسِ الصفيَّة

بعد أن ذكرَ البصائرَ فرَّعَ بقوله: ﴿فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ﴾؛ وفي التَّفريعِ دعوةٌ لإعمالِ العقلِ والنَّفسِ للإبصارِ في البحثِ عنِ الحقِّ، فمَنِ انتفعَ بما جاءهُ من ربِّه منَ الخيرِ والآياتِ والتَّشريعات، فأخذها جملةً واحدةً، فأبصر طريقَ الإيمانِ، فيكون ذلك عائدًا على نفسِه، لتحقيقِ المصلحةِ لها.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/418 - 419.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/418 - 419.
(3) الآلوسّي، روح المعاني: 4/234.

الاستعارةُ في قولِه تعالى: ﴿فَمَنْ أَبْصَرَ﴾:

استُعير الإبصارُ في قولِه: ﴿أَبْصَرَ﴾ للعلم بالحقِّ والعمل به؛ لأنَّ المُهتديَ بهذا الهدي الواردِ منَ اللّه بمنزلة الَّذي نُوِّرَ له الطَّريقُ بالضِّياء، فأبصرَه، وسارَ فيه[1]، ونوعُ الاستعارةِ تصريحيَّةٌ؛ فقد حذَفَ المُشبَّهَ، وذكرَ المُشبَّهَ بِه، فمَن عَلِمَ الحقَّ، وعَمِلَ مُهتديًا بِه؛ فهو مُبصِرٌ عاملٌ لمصلحةِ نفسِه، ودليلُ الاستعارةِ أنَّ فاقدَ البَصَرِ إنِ اهتدى؛ فقد أبصر لنفسِهِ، والاستعارةُ أبلغُ منَ الحقيقةِ؛ لأنَّ فيها تجسيدًا للمعاني المعنويَّةِ.

الاستعارةُ أبلغُ منَ الحقيقةِ لأنَّها تجسيدٌ للمعاني وتشخيصٌ للحقائقِ

معنى الفاءِ في قولِهِ تعالى: ﴿فَلِنَفْسِهِۦ﴾:

الفاءُ في قولِهِ تعالى: ﴿فَلِنَفْسِهِۦ﴾ تربطُ بين الشَّرطِ وجوابِه، أي: إن حصلَ إبصارٌ من أحدٍ، فنفعُه يعودُ عليه، فهي رابطةٌ بين مضمونِ فعلِ الإبصار وما يحصِّلُه المبصِرُ من المصالح العظيمةِ، والهدايات الجليلةِ، والمنافع العميمة، بعد إبصارِه بحقيقةِ المطلوبِ، وتحقيقِه لعظيمِ المقصودِ.

الهداياتُ الجليلةُ والمنافعُ العظيمةُ ثمرةُ الإبصارِ وحقيقةُ الاستقرار

نُكتةُ حذفِ المسندِ إليه في قولِه تعالى: ﴿فَلِنَفْسِهِۦ﴾:

في قولِه تعالى: ﴿فَلِنَفْسِهِۦ﴾ حذفٌ للمسندِ إليهِ، تقديرُه: (فإبصارُه كائنٌ لنفسِه)، دلَّ عليه: ﴿أَبْصَرَ﴾، ونكتةُ الحذفِ مراعاةُ حالِ المخاطَبين في العِنايةِ بالنَّفسِ، فحذفُ (إبصاره) يُوجِّه المخاطَبين لما يحرِصونَ عليه منَ النَّفعِ الذَّاتيِّ، ففيه رعايةٌ لقيمةٍ تأثيريَّةٍ نفسيَّةٍ بليغةٍ.

النَّظمُ يدعو المخاطَبين للحرصِ على أنفسِهم

الاستعارةُ التَّبعيَّةُ في حرفِ اللَّامِ في قوله تعالى: ﴿فَلِنَفْسِهِۦ﴾:

استُعملتِ اللَّامُ في قولِه: ﴿فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ﴾ استعارةً للنَّفعِ؛ لدلالتها على الملك، وإنَّما يملكُ الشَّيءَ النَّافعَ المدَّخرَ للنَّوائب[2]،

المُبصِرُ لنفسِه متمكِّنٌ في جلبِ الخيراتِ لها ودفعِ الموبِقات عنها

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/419.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/419.

فاستُعيرتِ اللَّامُ الدَّالَّةُ على الملك استعارةً تبعيَّةً في الحرفِ، بتشبيه مُتعلَّقِ اللَّام، وهو الملكُ بالنَّفعِ، وذلك لبيانِ تمكُّنِ المبصِرِ منَ الانتفاعِ بالقرآنِ الكريمِ.

دلالةُ استعمالِ مفردةِ النَّفسِ في: ﴿فَلِنَفۡسِهِۦۖ﴾:

العاقلُ يعلمُ أنَّ النَّفعَ والضُّرَّ راجعٌ إلى نفسِه لا لِسِواها

هذه الآيةُ في قولِه تعالى: ﴿فَمَنۡ أَبۡصَرَ فَلِنَفۡسِهِۦۖ﴾ تُعالج مشكلةً في النَّفس عند المُعاندين المُعارضين في كلِّ زمانٍ، فإنَّهم يحسبون أنَّهم يغيظون المؤمنين؛ إذا عَمُوا عنِ البصائرِ والآياتِ الَّتي جاءَتهم من عندِ اللّهِ، فيُجاهِرون بالمعاصي، ويُصرُّون عليها، وقد نبَّهتِ الآياتُ باستعمالِ كلمةِ النَّفس إلى هذا الملحظ، وأنَّ النَّفعَ لها لا لغيرِها، كما أنَّ الضُّرَّ عليها لا على غيرِها.

التَّمثيلُ في قولِه تعالى: ﴿أَبۡصَرَ﴾:

الإبصارُ هو المنفذُ إلى الوجودِ والوقائعِ واستدراكِ الحقائقِ

في قولِه تعالى: ﴿فَمَنۡ أَبۡصَرَ فَلِنَفۡسِهِۦۖ﴾ يجوزُ أن يكونَ ﴿أَبۡصَرَ﴾ تمثيلًا مُوجزًا ضُمِّنَ فيه تشبيهُ هيئةِ المُرشِدِ إلى الحقِّ؛ إذا عمل بها، بهيئة المُبصِرِ؛ إذا انتفَعَ ببصَرِهِ[1]، فأوجز في تقريب الصُّورة إلى الأذهان بهذا التَّمثيل، أي: فمثالُ مَنِ استرشدَ في طلبِ الخيرِ، كمَن أبصَرَ في اكتسابِ ما ينفعُهُ، فكشفَ التَّمثيلُ عن دور النَّفسِ في قبولِ الإرشادِ، فجعل لها دورًا محوريًّا، واقتضى أن يجعلَ مردودَ الخير إليها، والعكس إن أعرضَت عن قبولِه، وعميَت عن تلك البصائرِ.

بلاغةُ الاستعارةِ التَّصريحيَّةِ في: ﴿عَمِيَ﴾:

الضَّالُّ عنِ الحقِّ كالأعمى الَّذي يسيرُ بدونِ مُرشِدٍ

في قوله تعالى: ﴿وَمَنۡ عَمِيَ فَعَلَيۡهَاۚ﴾: استُعير العَمَى في قوله: ﴿عَمِيَ﴾ للمُكابرةِ والاستمرارِ على الضَّلال بعد حصول ما شأنه أن يُقلِعَهُ عنه؛ لأنَّ المُكابِرَ بعد ذلك كالأعمى، لا ينتفعُ بإنارةِ طريقٍ ولا بهدي هادٍ[2]، فشُبِّهَ مَن كابَرَ، واستمرَّ في ضلالِه بمَن عَمِيَ عنِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/419.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/419.

الرُّؤيةِ، فالاستعارةُ تصريحيَّةٌ؛ إذ حُذِفَ المشبَّهُ، وذُكِرَ المُشبَّهُ به، والاستعارةُ أبلغُ منَ الحقيقةِ، إذ فيها ذمٌّ لمَن أصرَّ على الباطلِ، وتركَ الحقَّ، بتشبيهه بالأعمى الَّذي يسيرُ في الأرضِ دون مُرشدٍ، ولمَا في لفظِ العمى منَ النُّفورِ عنِ الأسوياءِ.

تمثيلٌ ثانٍ في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا﴾:

غرضُ تقبيحِ صورةِ الضَّالِّ النُّفورُ منه

ويجوز اعتبارُ التَّمثيليَّةِ في قوله: ﴿وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا﴾، أيضًا كاعتبارِها في ضدِّه السَّابق[1]، فيجوزُ أن يكون ﴿عَمِيَ﴾ تمثيلًا ضُمِّنَ فيه تشبيهُ هيئةِ الضَّالِّ الدَّالِّ على الهوى؛ بهيئة الأعمى الَّذي لا يُبصرُ، فيقعُ في مهاوي الرَّدى.

بلاغةُ استعمالِ حرفِ الاستعلاءِ (على):

تصويرُ مشهدِ وقوعِ الضُّرِّ على مَن يسعى لذلك

استُعملَ حرفُ (على) في قولِه: ﴿وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا﴾؛ لتصويرِ المشهدِ البليغِ، فكأنَّ ضرًّا يقعُ على صاحبِه[2]، إذِ الأعمى إذا أرادَ أن يتصرَّف معتمِدًا على نفسِه دون التجاءٍ إلى المُبصرين، فإنَّه يُوقِعُ على نفسِه ضُرًّا بليغًا، فالشَّيءُ الضَّارُّ ثقيلٌ على صاحبِه يكلِّفُه تعبًا، وهو كالحِملِ الموضوعِ على ظهرِ صاحبِه[3]، يُكلِّفُه الطَّاقةَ ويُجهدُه، ويشقُّ عليه، كما قال تعالى: ﴿مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ [الإسراء: 15].

بلاغةُ الكنايةِ:

الإبصارُ كنايةٌ عنِ الهدى والعمى كنايةٌ عن الضَّلال

في قوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ﴾ أي: فالإبصارُ لنفسِه، بمعنى: نفعِه وثمرتِه، ﴿وَمَنْ عَمِيَ﴾، أي: ومَن لم يبصرِ الحقَّ بعد ما ظهرَ له بتلكَ البصائرِ ظهورًا بيِّنًا، وضلَّ عنه، وإنَّما عبَّر عنه بالعمى، تقبيحًا له وتنفيرًا عنه[4]، والإبصارُ والعمى، كنايتان

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/419.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/607.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/418.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/170.

عنِ الهُدى والضَّلال، والمعنى: أنَّ ثمرةَ الهُدى والضَّلال إنَّما هي للمهتدي والضَّالِّ؛ لأنَّه تعالى غنيٌّ عن خلقهِ، وهي منَ الكناياتِ الحسنةِ لمَّا ذكر البصائرَ أعقبها تعالى بالإبصار والعمى[1].

جناسُ الاشتقاقِ بَينَ ﴿بَصَآئِرُ﴾ و﴿أَبۡصَرَ﴾:

آياتُ الوحيِ بصائرُ لأصحابِ البصيرةِ المهتدين

في الآيةِ محسِّنُ جناسِ الاشتقاقِ بَينَ ﴿بَصَآئِرُ﴾ وفعلِ ﴿أَبۡصَرَ﴾[2]، وفائدتُه: بيانُ أنَّ البصائرَ أوِ الأدلَّةَ الَّتي تراها العيونُ، وعَرَفَتهَا العقولُ، ممَّا ذَكَرَ اللهُ تعالى في الخلق والتَّقدير، والأدلَّة من آيات القرآنِ الكريم، هي نوافذُ الإبصارِ لمعرفة الحقيقةِ المُغيَّبةِ عنِ النَّاس؛ إلَّا أن تكونَ من خلال هذه البصائرِ والآيات.

بلاغةُ التَّقديمِ والتَّأخيرِ:

إطماعُ العبادِ بالهدايةِ من أولويَّاتِ الخطابِ القرآنيِّ في نظمهِ وألفاظهِ

في قولِه تعالى: ﴿فَمَنۡ أَبۡصَرَ فَلِنَفۡسِهِۦۖ وَمَنۡ عَمِيَ فَعَلَيۡهَاۚ﴾ قُدِّمت جملةُ ﴿فَمَنۡ أَبۡصَرَ فَلِنَفۡسِهِۦۖ﴾ على جملةِ: ﴿وَمَنۡ عَمِيَ فَعَلَيۡهَاۚ﴾؛ لسببين اثنين: أحدهما دلاليٌّ، والآخر لفظيٌّ، أمَّا الدِّلاليُّ؛ فهو من باب إطماعِ العبادِ في طلبِ البصائرِ، ودفعِ المضارِّ، والتَّبشيرِ في الهدايةِ، فإنَّ البشارةَ في مثل هذه المقاماتِ مقدَّمةٌ على النِّذارةِ، وأمَّا الجانبُ اللَّفظيُّ؛ فإنَّ الإبصارَ أوفقُ بالبصائرِ منَ العمى، فقُدِّمَ لتتوافقَ الألفاظُ، وتتدانى المشتقَّاتُ من أصلٍ واحدٍ.

بلاغةُ المقابلةِ:

تتكاثرُ أعراقُ النَّاسِ لكنَّهم على فريقين متناقضين بين الهداية والضَّلال

في قوله: ﴿فَمَنۡ أَبۡصَرَ فَلِنَفۡسِهِۦۖ وَمَنۡ عَمِيَ فَعَلَيۡهَاۚ﴾ قابلَ النَّظمُ بين قولِه: ﴿فَمَنۡ أَبۡصَرَ فَلِنَفۡسِهِۦۖ﴾ وقولِه: ﴿وَمَنۡ عَمِيَ فَعَلَيۡهَاۚ﴾؛ وفائدةُ هذه المقابلة: الإيجازُ والشُّمولُ والحصرُ، في بيان الحالين المتقابلين من أصحابِ الهدى والضَّلالِ، فالنَّاس جميعًا ما بَين مُهتدٍ وضالٍّ، والهدى أوِ الضَّلالُ يعودُ للنَّفسِ أو عليها، وهذا

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/607.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/420.

تصريحٌ بكونِ العبدِ مُستقلًّا بالفعل والتَّرك، وأنَّه لا مانع له البتَّةَ منَ الفعل والتَّركِ[1].

جَرَيانُ قولِه: ﴿فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا﴾ مثلًا سائِرًا:

قولُه: ﴿فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا﴾، هذه الدُّرَّةُ البليغةُ أصبحت مثلًا سائِرًا، يُقال في كلِّ مَوضِعٍ يحسب فيه المُعارضون أنَّهم يغيظون المؤمنين في إنكارِهم للبصائرِ والآياتِ، فيُقالُ لهم: ﴿فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا﴾، فتكون موعظةً لمَن كان في قلبه إيمانٌ.

النَّظمُ البليغُ الجامعُ يجري على اللِّسانِ بأفصح بيان

غرضُ فنِّ التَّتميمِ:

جملة: ﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾ تتميمٌ لقوله: ﴿فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا﴾، وغرضُه: صيانةُ احتمالِ أن يظُنَّ ظانٌّ أنَّ رسولَ اللّٰه ﷺ حفيظٌ عليهم، ورقيبٌ على أعمالِهم، فإنَّ ذلك ليس له، ففيهِ تكليفُ كلِّ نفسٍ بخاصَّةِ نفسِه، فكما أنَّه لن ينفعَ أحدًا أحدٌ، فكذلك لن يضرَّ أحدًا أحدٌ، وفيه إشعارٌ بالتَّرغيبِ والتَّرهيبِ، إذِ الرَّقابةُ والحفظُ للّٰه ربِّ العالمين.

إشعارُ العبادِ بالمسؤوليَّةِ، وبناءُ التَّرغيبِ والتَّرهيبِ في النُّفوس

دقَّةُ استعمالِ الصِّفةِ المُشبَّهةِ في الجملةِ الاسميَّةِ:

قولُه تعالى: ﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾ جملةٌ اسميَّةٌ، والإتيانُ بالجُملةِ الاسميَّةِ هُنا دَقيقٌ؛ لأنَّ الحَفيظَ وَصفٌ لا يُفيدُ غيرُهُ مُفادَهُ، فلا يَقومُ مَقامَهُ فِعلُ حَفِظَ، فالحفيظُ صِفَةٌ مُشَبَّهَةٌ يُقَدَّرُ لها فِعلٌ مَنقولٌ إلى (فَعُلَ) - بِضَمِّ العَينِ - لَم يُنطَقْ بِهِ مِثلُ: الرَّحِيم[2]، وقد تنوَّعَت معاني الحفيظِ في الآيةِ، فقيل فيها: برقيبٍ أحصرُ أعمالَكم، أو بوكيلٍ آخذُكُم بالإيمانِ، أو بحافظِكُم من عذابِ اللّٰه، أو بربٍّ أُجازيكُم، أو بشَاهِدٍ[3].

وظيفةُ الرِّسالةِ النَّبويَّةِ مقصورةٌ على البلاغِ الدَّائمِ إلى يوم الدِّين

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 13/95.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/421.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/607.

وجهُ الاختصاصِ بتقديم المسنَدِ إليه:

السِّياقُ يُخصِّصُ المعاني ويُحدِّدُ المقصودَ

في قولِه تعالى: ﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِحَفِيظٍ﴾ أفادَ تقديمُ المسندِ إليه المنفيِّ، وإتيانُ المسندِ صفةً مشبَّهة: الاختصاصَ، وهذا هو المشهورُ من مذهب الزَّمخشريِّ، وعمومِ البلاغيِّين، خلافًا لما صرَّح به الشَّيخ عبدُ القاهر الجرجانيُّ في اشتراطِ أن يكونَ المسندُ فعلًا مضارِعًا، قال الزَّمخشريُّ: "﴿بِحَفِيظٍ﴾ أحفظُ أعمالَكم وأجازيكم عليها، إنَّما أنا منذرٌ، واللّٰهُ هو الحفيظُ عليكم"[1]، والصَّحيحُ أنَّ السِّياقَ في مثل هذه الآياتِ، هو المعينُ على تعيينِ الاختصاصِ، أمَّا النَّظمُ؛ ففيه سَعةٌ.

نكتةُ تقديمِ الجارِّ والمجرورِ في قولِه: ﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِحَفِيظٍ﴾:

طمعُ النَّاسِ برحمتِه ﷺ دليلُ الرِّفعةِ والمجدِ

قُدِّم الجارُّ والمجرورُ في قولِه تعالى: ﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِحَفِيظٍ﴾ على الصِّفةِ المُشبَّهةِ، لأمرين اثنين: **الأوَّل**: زيادةُ الاهتمامِ بنفي كونه حفيظًا على المخاطَبين، كأنَّه قال: وما أنا عليكُم أنتم على وجهِ الخُصوصِ بحفيظٍ، وهذا لبيانِ شدَّةِ النَّفي وتمكُّنِه، لا لبيانِ أنَّه حفيظٌ على غيرِهم، إذْ غَرَضُ التَّقديمِ العنايةُ بتثبيتِ المعنى في ذِهنِ المخاطَبِ بالدَّرجةِ الأولى، وهذا يدلُّ على طمعِ النَّاس كافرِهم ومؤمنِهم برحمتِه ﷺ، **والآخر**: التَّلاؤمُ في الفواصلِ، وهو تابعٌ للسَّابقِ لا أصلٌ مُستقلٌّ عنه، فإنَّ التَّلاؤمَ بينَ الفواصلِ مطلبٌ لفظيٌّ بديعٌ.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الحفيظُ والوكيلُ:

الحفيظُ أعمُّ من الوكيلِ لاختصاصِ الوكيلِ بالدِّفاعِ عن موكِّليه

(الحفيظُ) بمنزلةِ (الوكيل) إلَّا أنَّ (الحفيظَ) أعمُّ؛ لأنَّه يكون من جانبِه ومن جانب مواليهِ، وهذا قريبٌ من معنى قوله تعالى:

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/55.

﴿وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوۡمُكَ وَهُوَ ٱلۡحَقُّۚ قُل لَّسۡتُ عَلَيۡكُم بِوَكِيلٖ ٦٦﴾ [الأنعام: 66][1]، فيدلُّ الحفيظُ على حفظهم منَ الوقوعِ في الأخطاءِ والآثام، أمَّا الوكيلُ؛ فهو المُدافعُ عن موكِّليه منافحًا عن حقوقِهم، ضامنًا لإيمانِهم.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/421.

﴿وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ وَلِيَقُولُواْ دَرَسۡتَ وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ١٠٥﴾ [الأنعام: 105]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

إصرارُ الكافرِ على ضَلالِه مُقدَّمٌ عنده مع وضوحِ الحَقِّ في بُرهَانِه

بَعدَ أن بيَّنَ سبحانه في القِطعَةِ القُرآنيَّةِ السَّابقَةِ الآياتِ الكَونيَّةَ، ثُمَّ أتبَعَهَا بإيرَاد آياتِ القُرآنِ الكَريم الَّتي تَنُمُّ على قُدرَةٍ سَاميَةٍ فائِقَةٍ علمًا وإدراكًا وحفظًا، لا تَصدُرُ عن مَخلُوقٍ قَطعًا؛ فَقَد بيَّن هُنا وَجهَ اعتراضِهم، وتَزيينَ الشَّيطَانِ لَهُم في الأقوالِ والأفعالِ؛ إذ يتَّهِمُونَ الرَّسُولَ بالدِّراسَة المُسبَقَةِ، وأنَّهُ قَد تَلَقَّى العِلمَ عَلى يَدِ عُلَماءِ اليَهودِ والنَّصارَى مِن قَبلِه، فَدَارَسَ عِندَهُم عُلُومَهُم، ثُمّ أتَى بِهذِهِ الآيات، فقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ وَلِيَقُولُواْ دَرَسۡتَ وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿نُصَرِّفُ﴾: جَذرُ الكَلِمَةِ هُو (صَرَفَ)؛ الصَّرْفُ؛ رَدُّ الشَّيءِ من حَالةٍ إلى حَالةٍ، أو إبدَالُهُ بغيرِه، يُقال: صَرفتُهُ، فانصَرَفَ، قَالَ تَعَالى: ﴿ثُمَّ صَرَفَكُمۡ عَنۡهُمۡ لِيَبۡتَلِيَكُمۡۖ﴾ [آل عمران: 152]، وقَولُه: ﴿ثُمَّ ٱنصَرَفُواْۚ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم﴾ [التّوبة: 127]، وقَولُه: ﴿فَمَا تَسۡتَطِيعُونَ صَرۡفٗا وَلَا نَصۡرٗاۚ﴾ [الفرقان: 19]، أي: لا يَقدِرُونَ أن يَصرِفُوا عَن أنفُسِهم العَذابَ، أو أن يَصرِفُوا أنفُسَهُم عنِ النَّار[1]، والمَعنَى المُرادُ في الآيَةِ: أنَّهُ سبحانه يُصَرِّفُ الآيَاتِ، فَيُبَيِّنَهَا لَهُم مِن حالَةٍ إلى حالَةٍ، ومِن وَجهٍ إلى آخَرَ، فتَظهَرَ، وتَبِينَ.

2) ﴿دَرَسۡتَ﴾: جَذرُ الكَلِمَةِ هُوَ: (دَرَسَ)، والدَّرسُ: دَرْسُ الكتابِ

(1) الرّاغب الأصفهانّي، المُفردات: (صرف).

للحِفظ، ودَرَسَ دِراسةً، ودارَستُ فُلانًا كِتابًا لِكَي أحفَظَ[1]، وَرَجُلٌ مُدرَّسٌ: مُجَرَّبٌ، ودَرَسَ الكِتابَ للحِفظِ: كَرَّرَ قِرَاءتَهُ درسًا ودِراسَةً، واجتَمَعَتِ اليَهودُ في مَدَراسِهِم، وهو بَيتٌ تُدرَّسُ فيه التَّوراةُ[2]. وقَوله: حتَّى أتَى المِدرَاس، هو البَيتُ الَّذي يَقرَأُ فِيهِ أهلُ الكِتابِ كُتُبَهُم، ودَرَستُ الكِتابَ قَرَأتُهُ[3]، والمقصودُ بالآيةِ: اتِّهامُ النَّبيِّ ﷺ بأنَّه درَسَ العِلمَ على أيدي أهلِ الكتابِ، تعريضًا بأنَّ القرآنَ مِن زَعمِهِ.

المَعْنى الإجْمالِيُّ:

قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْآيَٰتِ﴾، أي: مِثْلَ هذا التَّنويعِ في البَيانِ، وتوضيحِ الحُجَّةِ والبُرهانِ نُبيِّنُ الآياتِ الدَّالَّةَ على صِدقِ الرِّسَالَةِ، فما يزيدُهُم إلَّا عِنادًا وإنكارًا، وقولُهُ: ﴿وَلِيَقُولُواْ دَرَسْتَ﴾، إنكارٌ مِنهُم لأمِّيَّةِ الرَّسُولِ الَّتي هِيَ مُقتَضَى المُعجِزَةِ؛ إذ كَيفَ يَكونُ لأُمِّيٍّ أن يَأتِيَ مِن عِندِهِ بِكِتابٍ مِثْلِ القُرآنِ الكريمِ، فَيَقُول المُعانِدُونَ: دَرَستَ هذا على غَيرِكَ مِن عُلَماءِ أهلِ الكِتَابِ، وليسَ هذا بِوَحيٍ، وقولُهُ: ﴿وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾؛ إذ هُم الَّذينَ يَتأمَّلُونَ، ويَتَبَيَّنُونَ حَقِيقَةَ ما فيهِ مِن أنواعِ البَيانِ المُؤيَّدِ بالحُجَّةِ والبُرهانِ[4]، ومُجمَلُ معنى الآيَةِ: ومِثْلَ هذا التَّنْويعِ البَديعِ في عَرضِ الدَّلَائِلِ الكَونِيَّةِ، نعرِضُ آياتِنا في القُرآنِ مُنوَّعَةً مُفَصَّلَةً؛ لنُقيمَ الحُجَّةَ بها على الجاحِدين.

تصريفُ الآياتِ يكشفُ عن معادنِ النَّاسِ إيمانًا وتصديقًا أو كفرًا وعنادًا

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

مَعنَى الوَاوِ فِي قَولِهِ تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْآيَٰتِ﴾:

نوَّهَ الخطابُ بِشَأنِ ما ذَكَرَ مِنَ الآيَاتِ، وَوَبَّخَ الَّذِينَ لا يُؤمِنُونَ

إمَّا أن تكونَ اعتراضيَّةً للتَّذييلِ، أو استئنافيَّةً للانتقالِ مِنَ الآياتِ الكونيَّةِ إلى القرآنيَّةِ

(1) الفراهيديّ، العين: (درس).
(2) الزّمخشريّ، أساس البلاغة: (درس).
(3) القاضي عيّاض، مشارق الأنوار: (درس).
(4) الموصلّي، أولى ما قيل: 3/352.

بالآياتِ العَظيمَةِ الَّتي لَيسَ بَعدَها إلَّا الضَّلالُ في قَولِه: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ﴾، والواوُ إمَّا أن تكون اعتراضيَّةً، أو استئنافيَّةً.

فعلى مَعنى أن تَكونَ اعتراضِيَّةً تَكونُ الآيَةُ تَذييلًا لِما قَبلَها، فَهِيَ مُتَّصِلَةٌ بِجُملَةِ: ﴿قَدۡ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمۡۖ﴾ [الأنعام: 104]، الَّتي هِيَ مِن خِطابِ اللّهِ تعالى لرَسُولِه ﷺ بِتَقديرِ: (قُلۡ)، وأشَارَ بِقَولِه: ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ إلى التَّصريفِ والتَّبيينِ في قَولِه: ﴿نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ﴾، أي: وَمِثۡلَ ذلِكَ التَّصريف والتَّبيين نُصَرِّفُ الآياتِ، ونُبيِّنُها لكُم.

أمَّا إنْ كانَتِ الواوُ استئنافِيَّةً؛ فالمَعنَى المُستَفادُ مِنها إلفَاتُ النَّظَرِ إلى تَصريفِ الآياتِ، وأنَّها كافِيَةٌ لِذَوِي العُقولِ النَّيِّرَةِ أن يُؤمِنوا دُونَ ما يُذكَرُ مِنَ الأدِلَّةِ المَادِّيَّةِ الَّتي سَبَقَ تَصريفُهَا في القُرآنِ الكريمِ، ثُمَّ إنَّ (واوَ الاستِئنَافِ) هُنا فَصَلَت بَينَ نَوعَينِ مِن أدِلَّةِ الهِدايَةِ: الأُولَى هِيَ الأدِلَّةُ العِلميَّةُ والكَونِيَّةُ في الخَلقِ والتَّقديرِ، والثَّانِيَةُ هِيَ أَدِلَّةُ الإعجازِ في آياتِ اللّهِ في القُرآنِ الكريمِ الَّتي تَقتَضِي العِلمَ والدِّرَاسَةَ بِقَرِينَةِ قَولِه: ﴿وَلِيَقُولُواْ دَرَسۡتَ﴾، فَجَمَعَت بَينَ آياتِ الكِتابِ المَنظورِ، وآياتِ الكِتابِ المَسطورِ، فَيَكتَمِلُ البُرهانُ، وتَستَقِرُّ الحُجَّةُ على الَّذينَ لا يُؤمِنُون.

بلاغَةُ دُخولِ كافِ التَّشبِيهِ على اسمِ الإشارَةِ:

تشبيهُ تصريفِ الآياتِ القرآنيَّةِ بالبصائرِ لاستحضارِ الصُّورةِ وتقويةِ الطَّرفين

قَولُهُ: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ﴾، وَرَدَ مِثلُ هذا كثيرًا في القُرآنِ، كأسلُوبِ رَبطٍ بالتَّشبِيهِ والإشارَةِ، والتَّصريفُ إجرَاءُ المَعنَى الدَّائِرِ في المَعاني المُتَعاقِبَةِ، ونَقلُ الشَّيءِ مِن حالٍ إلى حالٍ[1]، أي: وَمِثلَ ذَلِكَ التَّصريفِ والتَّفَنُّنِ العَلِيِّ الشَّأنِ البَعيدِ الشَّأوِ في فُنونِ المَعاني وأفنانِ البَيانِ، الَّذي تَرَاهُ في هذِهِ السُّورَةِ أو هذا السِّيَاقِ نُصَرِّفُ الآياتِ في سائِرِ القُرآنِ؛ لإثباتِ أُصولِ الأديانِ، والهِدايَةِ لأحاسِنِ

(1) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 2/176.

الآدابِ والأَعمالِ، فَنُحَوِّلُهَا مِن نَوعٍ إلى نَوعٍ، ومِن حَالٍ إلى حَالٍ، مُراعاةً للعُقولِ والأَفهامِ، ولاختِلافِ استِعدَادِ الأَفرَادِ والأَقوَامِ[1].

فَائِدَةُ استِعمَالِ اسمِ الإشارةِ الذِي لِلبَعِيدِ في: ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾:

المشارُ إليه بعيدٌ في منزلتِهِ عالٍ في مكانتِهِ

في قَولِهِ تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْآيَٰتِ﴾ جاء استِعمَالُ اسمِ الإشارَةِ للبَعِيدِ (ذَلِكَ)؛ لِبَيَانِ تَصرِيفِ الآيَاتِ بتنزيلِ المشارِ إليه في مكانٍ بعيدٍ ومكانةٍ عاليةٍ، ومنزلةٍ سامقةٍ، وذلك لجمعِهِ بين البُعدِ في المنزلةِ، والعلوِّ في المكانة، الَّتي لا تخفى على ذي بصرٍ وبصيرةٍ.

سِرُّ استِعمَالِ مُفرَدَةِ ﴿نُصَرِّفُ﴾ بَدَلًا مِن (نُفَصِّلُ) أو (نبيِّن):

تَنويعُ الآيَاتِ وتَبيينُهَا مِنهاجٌ قُرآنِيٌّ مَكِينٌ في مُحاجَجَةِ المُنكِرِينَ والمُعَانِدِينَ

التَّصريفُ مَعنَاهُ: التَّنويعُ، والمُرَادُ: أنَّ اللهَ تعالى يُنَوِّعُ الآياتِ الدَّالَّةَ على المَعاني الرَّائِعَةِ الكاشِفَةِ عنِ الحَقائِقِ الفائقَةِ، ويُصَرِّفُها تَصرِيفًا بَلَغَ في الرَّوعَةِ مَبلَغًا ارتَقَى عَن إدرَاكِ المَخلُوقِين[2]، قَالَ تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْآيَٰتِ﴾ [الأنعام: 105] على خلافِ قَولِهِ في السُّورَةِ نَفسِها: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ﴾ [الأنعام: 55]. والفَصلُ إبانَةُ أَحَدِ الشَّيئَينِ مِنَ الآخَرِ حتَّى يَكونَ بَينَهُما فُرجَةٌ، وَمِنهُ قِيلَ: المَفَاصِلُ[3]، أمَّا الصَّرفُ؛ فهو رَدُّ الشَّيءِ مِن حالَةٍ إلى حالَةٍ، أو مِن أمرٍ إلى أمرٍ، قال تعالى: ﴿وَصَرَّفْنَا ٱلْآيَٰتِ﴾ [الأحقاف: 27]، وقالَ: ﴿وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ﴾ [طه: 113]، وَمنهُ: تَصرِيفُ الكَلامِ[4]، أي: تَنويعُهُ وتبيينُهُ، فَقَولُهُ: ﴿نُصَرِّفُ﴾ هنا لِلدِّلالة على التَّنَوُّعِ في الآياتِ وإبانَتِها.

وقد وَرَدَ التَّصريفُ في القُرآنِ الكريمِ في مَواضِعَ عَديدَةٍ منها ما وَرَدَ في السُّورَةِ نَفسِها: كقولِهِ تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْآيَٰتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴿٤٦﴾﴾ [الأنعام: 46]، وقوله:

(1) رشيد رضا، تفسير المنار: 7/548.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/170.
(3) الرّاغب الأصفهانّي، المُفرَدَات: (فصل).
(4) الرّاغب الأصفهانّي، المُفرَدَات: (صرف).

﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [الأنعام: 65]، فلهذا اللَّفظ سمةٌ تعبيريَّةٌ خاصَّةٌ في هذه السُّورةِ.

تَفصِيلُ الآيَاتِ بيانُها وإيضاحُها كالقطعةِ الواحدةِ

أمَّا التَّفصيلُ؛ فَقَد وَرَدَ في مَوضِعٍ وَاحِدٍ مِنَ السُّورَةِ نَفسِهَا هو قَولُهُ تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٥٥﴾﴾ [الأنعام: 55]، وقَولُه في سُوَرٍ أخرَى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [الأعراف: 32]، وقولهُ: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧٤﴾﴾ [الأعراف: 174]، وقولهُ: ﴿فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ ۗ وَنُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾﴾ [التوبة: 11]، فتفصيلُ الآياتِ يَكُونُ مُنسَجِمًا مع حَياةِ النَّاسِ، وَمُتَجَدِّدًا مع حاجاتِهم، فالقُرآنُ الكَريمُ رَاعى تِلكَ الحَاجَةَ بذلِكَ التَّفصيلِ والتَّنويعِ.

دِلالَةُ استِعمَالِ الفِعلِ المُضارِعِ ﴿نُصَرِّفُ﴾:

التَّجَدُّدُ في المَعاني هُو مِحوَرُ إعجازِ القُرآنِ الكَريمِ

في قولِهِ تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ﴾: يفيد الفِعلُ المُضارِعِ ﴿نُصَرِّفُ﴾ التَّجَدُّدَ مع الزَّمَن ليدلّ على الإعجَازِ في آياتِ اللّهِ، وما فِيها منَ القُدرَةِ على تَوليدِ المَعاني، فَلم يَقُل: صرَّفنَا الآيَاتِ؛ باعتِبَارِ أنَّهَا قد أتَتْ بمعَانٍ، واستَكمَلَ النَّاس ما أخَذَت منها منَ المَعَاني والآيات، وانتَهَى الأمر، لكنَّه قال: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ﴾؛ ليدُلَّ على تجَدُّدِهَا مع الزَّمَن وعطائِهَا المُتنوِّعِ، وقُدرتِهَا على أن تُقدِّمَ الأدِلَّةَ على الهِدَايَة والإيمانِ باللّه سُبحَانَه.

نُكتَةُ التَّعبيرِ بـ (الآيات) دُونَ (القُرآنِ):

في قولِهِ تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ﴾ عبَّر بـ (الآيات) دُونَ (القُرآن)؛ لأنَّ الآيةَ هيَ موردُ إعجازِ القُرآنِ الكريمِ؛ ولبيانِ

إعجازِ آياتِ اللّه المَسطُورةِ، بعدَ أن ذكَرَ إعجازَ آياتِ اللّهِ المنظُورَةِ مِنَ الخَلقِ؛ قال تعالى في سُورَةِ الأنعَامِ: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ فَٱعۡبُدُوهُۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ ١٠٢ لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَهُوَ يُدۡرِكُ ٱلۡأَبۡصَٰرَۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ ١٠٣﴾ [الأنعام: 102 - 103]، فَناسَب ذِكرُ آياتِ القُرآنِ الكَريمِ، فَتَوافَقَت، وتَنَاسَبَت آياتُ الخَلقِ مع آياتِ القُرآنِ في إعجازِ المُخَاطَبينَ.

تَتَكَاملُ الآياتُ الكَونِيَّةُ والآيَاتُ القُرآنِيَّةُ كشواهِدَ حَيَّةٍ على الإيمانِ باللهِ

معنى الواوِ في قولِه تعالى: ﴿وَلِيَقُولُواْ دَرَسۡتَ﴾:

الواوُ في قولِه: ﴿وَلِيَقُولُواْ﴾ اعتراضيَّةٌ على اعتبارِ أنَّ قَولَه: ﴿وَلِيَقُولُواْ دَرَسۡتَ﴾ جملةٌ اعتراضيَّةٌ، أو هي عاطفةٌ[1]، عطفَت خبرًا على خبرٍ، وذلك من قبيلِ الإخبارِ بالغيبِ؛ إذ تكشِفُ الآيةُ عمَّا في دواخل أنفسِهم منَ العِنَادِ وتقليبِ الرَّأيِ بُغيَةَ الإنكارِ على القرآن الكريمِ وعلى رسولِ اللّه ﷺ وتكذيبِه، فكشَفَ قولُهُ: ﴿وَلِيَقُولُواْ دَرَسۡتَ﴾ عن واحدةٍ منَ الآياتِ وتصريفِهَا، وهي آياتُ الأنفُسِ وما تُكِنُّهُ من مسائلَ مُغيَّبةٍ كامنةٍ فيها.

الإخبارُ عن غيبِ الأنفُسِ؛ من أوجُهِ الإعجازِ وفرائدِ الإيجاز

معنى اللَّامِ في قوله تعالى: ﴿وَلِيَقُولُواْ دَرَسۡتَ﴾:

قوله: ﴿وَلِيَقُولُواْ دَرَسۡتَ﴾ معطوفٌ على ﴿وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ﴾، وإنَّ قولَ المشركين للرَّسولِ ﷺ: (دَرَسْتَ)؛ لا يناسبُ أن يكونَ علَّةً لتَصريفِ الآيات، فتعيَّنَ أن تكونَ اللَّامُ مستعارةً لمعنى العاقبة والصَّيرورة، أي: لتصير عاقبةُ أمرِهم إلى أن يقولوا: درسْتَ[2]، كالَّتي في قولِه تعالى: ﴿فَٱلۡتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرۡعَوۡنَ لِيَكُونَ لَهُمۡ عَدُوّٗا وَحَزَنًاۗ﴾ [القصص: 8]، والمعنى: فكان لهم عدوًّا، وهذا كقوله: ﴿وَلَقَدۡ نَعۡلَمُ أَنَّهُمۡ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٞۗ﴾ [النَّحل: 103]، وهم قد قالوا ذلك مِن قبلُ، ويقولونه، ويزيدون بمقدارِ زيادةِ تصريفِ الآياتِ، فشبَّه ترتُّبَ قولهم

اللَّامُ للعاقبةِ، أي: تصريفُ الآياتِ صيَّرَ المشركين للاتِّهام

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/170.
(2) العكبريّ، التّبيان في إعراب القرآن: 1/528.

على التَّصريف بتَرتُّبِ العلَّةِ الغائيَّةِ، واستُعيرَ لهذا المَعنى الحَرفُ المَوضوعُ للعِلَّةِ على وجهِ الاستِعارَةِ التَّبعيَّة، والمعنى يقولون: تَعَلَّمتَ؛ طعنًا في أمِّيَّة الرَّسولِ ﷺ لئلَّا يلزمهم أنَّ ما جاءَ به منَ العلم وحيٌ منَ اللهِ تعالى[1]، ولا زالَت هذه الشُّبَهُ الَّتي لا يَنطَلِي فَسَادُها على ذِي لُبٍّ يتذرَّعُ بها المُنكِرُون إلى يومِنا هذا، كحجَّةٍ لإنكارِ الرِّسالَةِ المُحَمَّدِيَّةِ، وادِّعائهم أنَّ ما جاء به ﷺ هو مُقتبَسٌ مِن عند مَن سبقَهُ منَ الرِّسالاتِ النَّصرانيَّةِ واليهوديَّةِ.

أو تكون الواو عاطفةً جملة: ﴿وَلِيَقُولُواْ دَرَسۡتَ﴾ على علَّةٍ محذوفةٍ، أي: مثلَ ذلك التَّصريفِ نصرِّفُ الآياتِ لنُلزِمَهم الحجَّةَ، وليقولوا: درسْتَ[2].

سرُّ التَّعبيرِ بصيغة المضارع في قولِهِ تعالى: ﴿وَلِيَقُولُواْ دَرَسۡتَ﴾:

لم يقُل: (وقالوا: درستَ)، وهم قد قالوا، فآثرَ المضارعُ في الإخبار عن شيءٍ قد قيل؛ لأنَّ هذا الَّذي قالوه سوف يتكرَّرُ من أمثالهم على مدى الأزمنةِ القادمةِ، وسيقولون بأنَّ محمَّدًا قد دَرَسَ، وتعلَّمَ، ولم يكن أمِّيًّا، فيكون في التَّعبيرِ بصيغَةِ المُضَارع إعجازٌ غيبيٌّ، ومستقبليٌّ، مستمرٌّ إلى يوم القيامةِ، وهو يكشفُ كذلك عن سُنَّةٍ كونيَّةٍ في الخلق وطبائع الأنفسِ البشريَّةِ المُنكِرَةِ للإيمان.

كَشَفَ القرآنُ عن طبائعِ الأنفُسِ البشريَّةِ المُنكِرَةِ للإيمَانِ

فائدةُ إبهَامِ الفَاعِلينَ في قولِهِ تَعالى: ﴿وَلِيَقُولُواْ دَرَسۡتَ﴾:

إبهامُ الفَاعِلِينَ في قولِهِ تعالى: ﴿وَلِيَقُولُواْ دَرَسۡتَ﴾؛ لتحقيقِ فائدةِ أن يدخُلَ في ذلك جميعُ مَن صدرَ عنه هذا القولُ أو مضمونُه، منَ المشركين وغيرهم إلى قيام السَّاعَةِ، وهذا ترشيحٌ للإعجاز الغيبيِّ في النَّصِّ القُرآنيِّ، وكشفٌ عن خفَايا النَّفسِ البشريَّة، وما تُحدثُه تربيةُ الكافرين لأبنائهم أو مجتمعاتهم، قال

يتجدَّدُ المُعارِضونَ للإيمانِ في الزَّمانِ كُلِّهِ بصُوَرٍ مختلفةٍ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/422.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/170.

تعالى على لسان نوحٍ عليه السلام: ﴿إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾﴾ [نوح: 27].

بلاغةُ التَّعبير بمفردةِ (دَرَسَ) في قولِهِ تعالى: ﴿وَلِيَقُولُوا۟ دَرَسْتَ﴾:

بينَ الدِّراسةِ والتَّعلُّم فرقٌ كبيرٌ، فالتَّعلُّمُ هو مجرَّدُ اكتساب العلم، أمَّا الدِّراسةُ؛ فهي اكتسابُ العلم عن جهدٍ زائدٍ، واستمرارٍ إلى مرحلةِ الإتقان، ولا تكون إلَّا عن مُعلِّمٍ خبيرٍ يجمعُ بين العلم والتَّربيةِ والخبرةِ، فاستُعمل هذا اللَّفظ لِمَا فيه من هذه الخصوصيَّة، ولأمر آخرَ: وهو أنَّ قولَه: ﴿دَرَسْتَ﴾ جاءَت فيه قراءاتٌ قرآنيَّةٌ متنوِّعةٌ، حقَّقَتْ مجموعةً منَ المعاني والدِّلالات.

الدِّراسَةُ بذلُ جُهدٍ زائدٍ يحقِّقُ غايةً مقصودةً

تَوجِيهُ القِرَاءَاتِ القُرآنِيَّةِ في قَولِهِ تعالى: ﴿دَرَسْتَ﴾:

قال الزَّجَّاج[1]: فيها قراءاتٌ: ﴿دَرَسَتْ﴾ مجزوم التَّاءِ، وهي قراءَةُ ابنِ عامرٍ، والمعنى: تقادَمَت[2]، أي: هَذا الَّذي تَتلُوهُ علينا قد تَطاوَلَ، ومَرَّ بِنا، وامتُحِيَ أثَرُهُ من قُلوبِنا، كما تَدرُسُ الآثارُ[3]. و﴿دَرَسْتَ﴾ بنصب التَّاء: قرأتَ وذاكرتَ، يعني: تعلَّمتَ من جَبْر ويَسَار، ويُقالُ من سلمانَ الفَارسيِّ رضي الله عنه، مثل قولِه: ﴿يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ﴾ [النّحل: 103]، يعني: سلمانَ[4]. أرَادُوا: أنَّكَ قرأتَ كُتُبَ أهلِ الكِتَابِ.

مدارُ المَعاني المتنوِّعةِ على اتِّهامِ المشركين النَّبيَّ بالافتراءِ

وقرأ ابنُ كثيرٍ وأبو عمرو: ﴿دَارَسْتَ﴾[5]، وقال أبو منصور: "مَن قرأ ﴿دَارَسْتَ﴾ بألفٍ؛ فتأويلُهُ: جادَلتَ اليهودَ وجَادلوك، كذلك قالَ ابن عبَّاس، وبه قرأ مجاهدٌ، وفَسَّرَهُ: قرأتَ على اليهودِ، وقرَؤُوا عليكَ، وكُلُّه جائزٌ"[6].

(1) الزّجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 2/279 - 280.
(2) الأزهريّ، معاني القراءات: 1/376.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/608.
(4) الكَرْمانّي، مفاتيح الأغاني في القراءات والمعاني، ص: 168.
(5) ابن الجَزَريّ، النّشر في القراءات العشر: 2/261.
(6) الأزهريّ، معاني القراءات: 1/377، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/608.

موقعُ جُملةِ ﴿وَلِيَقُولُواْ دَرَسۡتَ﴾ بينَ السَّابقةِ واللَّاحقةِ:

لا يملكُ المنكرونَ بين تصريفِ الآياتِ وبيانِها لقومٍ يعلمون إلَّا الاتِّهامَ الأجوفَ

جملة: ﴿وَلِيَقُولُواْ دَرَسۡتَ﴾، اعتراضيَّةٌ، والقَائلُونَ هم أهل مكَّةَ حينَ يُقرأ عليهمُ القُرآنُ، والدَّرسُ: القِراءَةُ والتَّعليمُ[1]، والمعنى: أنَّا نُصَرِّفُ الآياتِ، ونبيِّنُها تَبْيينًا من شَأنِهِ أنْ يصدرَ منَ العَالِمِ الَّذي دَرسَ العِلمَ، فيقول المشركون: دَرَسْتَ هذا، وتلقَّيتَهُ منَ العُلماء والكُتب؛ لإعراضِهم عنِ النَّظرِ الصَّحيحِ الموصلِ إلى أنَّ صدُورَ مثل هذا التَّبيينِ من رجلٍ يعلمونَهُ أُمِّيًّا، لا يكون إلَّا من قِبَلِ وحيٍ منَ اللهِ إليهِ[2].

فتدلُّ الجملةُ ﴿وَلِيَقُولُواْ دَرَسۡتَ﴾ على أنَّ المُجادلين لرسولِ اللهِ ﷺ علموا أنَّ ما يَنطقُ بهِ هو أمرٌ عظيمٌ، فلا مناصَّ عندهُم منَ الإنكَارِ والتَّعريضِ والتَّجهيلِ، فاضطرُّوا إلى تقديمِ حجَّةٍ، مفادُها أنَّه قد تناولَ هذا العِلمَ الجَليلَ الَّذي يأتي بهِ، وهو القرآنُ والآياتُ العظيمةُ الَّتي فيه، بوسَائطَ بشريَّةٍ لَها الأسبقيَّةُ عليه في العِلمِ والدِّرَايَةِ، فهو يَتَدَارَسُ معهُم تلكَ المَعَاني الجليلةِ، فَكَشَفَتِ الجُملةُ الأولى - وهي قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ﴾ - عن جليلِ قدرِ الآياتِ، وعظيمِ شأنِ اللهِ سبحانَهُ أنَّه قَلَّبَ الآياتِ، وصَرَّفَهَا، وبيَّنَ وجُوهَهَا، ومَنَحَهَا القُدرَةَ على إعجاز المُخاطَبين، وكشفَتِ الجُملةُ الأخيرةُ - وهي قوله تعالى: ﴿وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾ - عن أنَّ العالِمينَ هُم مَن يَعرفُ قَدْرَ آياتِ القرآنِ الكريمِ، وقُدرتَهُ تعالى في تصريفِ آياتِ القرآنِ الكريمِ، وما فيها منَ الإعجازِ العظيمِ.

مَعنَى اللَّامِ، والتفريق بينهما في الموضعين:

صُرِّفَتِ الآياتُ لتحقيقِ اليقينِ في الصُّدورِ وتبيينِ الحقِّ في العقولِ

وذلك في قَولِه تعالى: ﴿وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾، وفي قوله تعالى: ﴿وَلِيَقُولُواْ دَرَسۡتَ﴾ ففَرقٌ بين اللَّامين في ﴿وَلِيَقُولُواْ﴾ و﴿وَلِنُبَيِّنَهُۥ﴾ حيث إنَّ الأولى مجازٌ، والثَّانيَةَ حَقيقَةٌ، وذلك أنَّ الآياتِ صُرِّفَتْ

(1) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 2/176.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/422.

للتَّبيين، ولم تُصَرَّفْ ليقولوا: دَرَسْتَ، ولكنْ حَصَلَ هذا القول بتصريفِ الآياتِ، كما حَصَلَ التَّبيين، شُبِّهَ بِه، فَسيقَ مَسَاقَهُ[1]، أو أنَّ لامَ ﴿وَلِيَقُولُواْ﴾ كما في لام ﴿وَلِنُبَيِّنَهُۥ﴾، هي لامُ كي، فاللَّام في ﴿وَلِيَقُولُواْ﴾ بمعنَى: لِئَلَّا يقولُوا، أي: صُرِّفَتِ الآياتُ، وأُحكِمَتْ لئلَّا يقولُوا: هذِهِ أساطيرُ الأوَّلين قد تُلِيَتْ، وتكرَّرت على الأسماعِ.

نكتةُ التَّعبيرِ بالمُضارعِ في قولِه تعالى: ﴿وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾:

لم يقُل: (وبيَّنَّاه)، وقد تحقَّقَ البَيَان، وقال بالمُضارع: ﴿وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾: وفائدةُ ذلك إثباتُ تجدُّدِ البَيَان مع الأجيال القَادِمَةِ إلى يوم القِيَامَةِ، هذا فضلًا عن تجدُّدِ المعاني فيه، فهو الكِتَابُ المُعجزُ الَّذي يتجدَّدُ بيانُه مع الزَّمَن.

يتجدَّدُ بَيانُ القُرآنِ مع تَجدُّدِ الأجيَالِ والأفهام

سرُّ التَّعبيرِ بالضَّميرِ المذَّكَّرِ المُفرَدِ في: ﴿وَلِنُبَيِّنَهُۥ﴾:

في قولِه تعالى: ﴿وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾، لم يقُل: (ولِنُبَيِّنَهَا)، مع أنَّ المذكورَ سابقًا هو الآياتُ، وهي مؤنَّثٌ، فعدل عن ذلك، وعبَّر بضميرِ المذكَّر، فأرادَ به القرآنَ الكريمَ؛ لأنَّ كلَّ آيةٍ فيه هي امتدادٌ لجميع آيِ القُرآنِ منَ المعاني والتَّصريف والإعجاز، وهو الآياتُ بمجموعِها، ليُعلمَ أنَّ القرآنَ الكريمَ مُعجزٌ بكلِّيَّتِه، ومَن يؤمنْ ببعضٍ مِن آياتِه؛ فلا يُسمَّى مُؤمنًا إلَّا إنْ آمنَ بِه كلِّه، وكذلك فإنَّهُ مَن أنكرَ آيةً واحدةً منهُ؛ فقد أنكرَ القرآنَ الكَريمَ كُلَّهُ.

القرآنُ الكريمُ هو المقصودُ ببيانِ الآياتِ والبَصَائرِ

بلاغةُ التَّحوُّلِ منَ الجمع في ﴿ٱلْأَيَٰتِ﴾ إلى المفردِ في قولِه تعالى: ﴿وَلِنُبَيِّنَهُۥ﴾:

وقولهُ: ﴿وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾، أي: ﴿ٱلْأَيَٰتِ﴾، وأعاد الضَّميرَ مفردًا، وهو الْتِفاتٌ ضَمَائريٌّ من الجَمعِ ﴿ٱلْأَيَٰتِ﴾ إلى المفرد، دلَّ عليه الضَّميرُ المتَّصِلُ في ﴿وَلِنُبَيِّنَهُۥ﴾؛ لأنَّها القُرآنُ، كأنَّه قال: وكذلك نُصرِّفُ القرآنَ، أو على القرآنِ، ودلَّ عليه ﴿ٱلْأَيَٰتِ﴾، أو

القرآنُ الكريمُ وحدةٌ كُلِّيَّةٌ لا تنفكُّ أجزاؤها عن وصفِ الإعجازِ

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/55.

﴿دَرَسْتَ﴾[1]، وفوائدُ الالتِفَاتِ هنا عَديدَةٌ، منها: أنَّ القرآنَ هو جامعُ الآياتِ الكونيَّةِ والمسطورةِ، وأنَّ مَن آمنَ بآيةٍ منها، فيستلْزِم ذلك أن يؤمنَ بآياتِهَا كلِّها، وأنَّ القرآنَ الكريمَ هو مصدرُ البصائرِ كلِّهَا.

دلالةُ التَّعبيرِ بـ (قومٍ):

المقصودُ بالعلمِ وجودُه في حياةِ العبادِ لا ترداده على ألسن الوُعّاظ

في قولِهِ تعالى: ﴿وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ لم يقُل: لأناسٍ أو لأمَّةٍ أو لِطائِفَةٍ، بل خصَّ القَومَ بالعلمِ، وهوَ لفظٌ كثيرُ الورودِ في القرآنِ الكريمِ، ممَّا يعودُ أصلُه إلى الجذرِ اللُّغويِّ (قوم)، وهذا الجذرُ يدلُّ على جماعةٍ منَ النَّاس، وربَّما استُعير في غيرِهم، قالوا: (القوم) وهو جمعُ امرئٍ من غير لفظِه، ولا يكون ذلك إلَّا للرِّجالِ، والقومُ يُجمَعُ على أقوامٍ، والقومُ جماعةُ الرِّجَالِ في الأصل دون النِّسَاء، ولذلك قال: ﴿لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ﴾ [الحُجُرات: 11]. وفي عامَّةِ القرآنِ أُريدَ به الرِّجالُ والنِّسَاءُ جَميعًا[2]، والسِّيَاقُ هو الحَاكِمُ، لكنَّهُ عمومًا وَرَدَ ليدُلَّ على القُوَّةِ والعَزيمَةِ والقُدرَةِ على تمييزِ الحَقِّ منَ الباطِلِ، فمنها: القيامُ مثل قولِهِ تعالى: ﴿فَءَاخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا﴾ [المائدة: 107]، والقيُّومُ كقولِهِ تعالى: ﴿ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ [البقرة: 255]، والتَّقويمُ مثل قولِهِ تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٤﴾ [التِّين: 4]، والقيَمُ قال تعالى: ﴿دِينًا قِيَمًا﴾ [الأنعام: 161]. فتدلُّ جميعُها على القُدرةِ والاستطاعَةِ، هذا فضلًا عن دلالةِ القَومِ على جماعَةِ الرِّجَالِ لدلالةِ القوَّةِ والتَّمكُّنِ فيهم، فقد أوثِرَ القَومُ على النَّاس أو الجَماعة؛ لأنَّ النَّاسَ فيهم القَويُّ، وفيهم الضَّعيفُ والبَالِغُ والطِّفلُ الصَّغيرُ، على خلافِ القومِ الَّذينَ أُريدَ بِهِم جماعةٌ قادرةٌ على التَّمييز والفَهمِ والتَّقدير السَّليم، ثمَّ وصفَهم بأنَّهم يعلمون لبيانِ رشدِهم وعلمِهم.

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/610.
(2) الرّاغب الأصفِهَانّي، المفردات: (قوم).

سرُّ التَّعبيرِ بالعِلمِ:

في قولِهِ تَعالى: ﴿وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾ لَم يَقُل: لِقوم يَفقَهُونَ، أو يُؤمِنُونَ، أو يُوقِنُونَ لِسَبَبَينِ، **الأوّلُ**: أنَّ التَّناسُبَ واضحٌ بين البيانِ والعلمِ، فإنَّ طريقَ العلمِ بيانُهُ، **والآخر**: أنَّ العلمَ هو أصلُ الفقهِ والفهمِ واليقينِ والإيمانِ، فهو الجوهرةُ الَّتي تُبنَى عليها بقيَّةُ الرَّكائز.

العلمُ أصلُ الفضائلِ وركنُ العظائمِ وطريقُ النَّجاةِ

دلالةُ التَّعبيرِ بالمُضارِعِ:

في قولِه تعالى: ﴿وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾، قال: ﴿يَعۡلَمُونَ﴾، ولم يقُل: عَالِمُون؛ لأنَّ صفةَ العِلمِ الزِّيادةُ مع الزَّمَنِ، فكلَّمَا تقدَّمَ العَالِمونَ في دراسَاتِهم، وبَذَلُوا جُهدَهُم، ازدادُوا عِلمًا، هذا جانِبٌ؛ ثمَّ إنَّ مِن إعجاز القُرآنِ الكريم أنَّه يُعطي لكلِّ جِيلٍ أو قومٍ على قدرِ طَاقَتِهم، ويَتَجَدَّدُ هذا العطاءُ مع الزَّمَنِ، فهو يعطي للأجيَالِ والأقوامِ القَادِمَةِ شيئًا جَديدًا لم يُعطِهِ للأجيَالِ السَّابقةِ، فقال: ﴿يَعۡلَمُونَ﴾ لِدلالةِ التَّجَدُّدِ في العِلمِ عندَهُم.

العلمُ يَتَجَدَّدُ عَطاؤه بتجدُّدِ طلبِ الأجيالِ له والحرصِ عليه

بلاغةُ التَّعريضِ:

في قولِهِ تعالى: ﴿وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾ جاء التَّعريضُ مِن جَانِبَينِ، **الأوَّلُ**: بَيانُ الحَقِّ لِلعالِمينَ طَريقٌ إلى إيمانِهِمْ بِهِ، فالجملةُ تَضمَّنَت إنكارًا على الَّذين لا يُؤمنون منهم، **والآخر**: التَّعريضُ بأولئك الَّذين يُجانِبُونَ سَبيل العلم؛ إذ لا تُعلم مكانَةُ الرِّسالةِ إلَّا بالعِلمِ، ولا يُدرَكُ إعجَازُ القُرآنِ الكريمِ إلَّا بالعِلمِ، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْۗ﴾ [فاطر: 28].

مَن لا يعلمُ يبقى في غياهبِ الجهلِ والضَّلال

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

التَّصريفُ والتَّفصِيلُ:

التَّفصيلُ والتَّصريفُ يشتركان في الإيضاحِ والتَّفسيرِ والشَّرحِ، ويفترقان في كون التَّفصيل هو جعْلُ المعنى الواحدِ مُفصَّلًا قائمًا

التَّفصيلُ جعلُ المعنى قائمًا بذاتِهِ، والتَّصريفُ تنوُّعُ عرضِهِ

بذاتهِ، مع ارتباطهِ ببقيَّة المعاني برابطةٍ وثيقةٍ، أمَّا التَّصريفُ؛ فهو عرضُ المعنى الواحد بصورٍ مُتنوِّعةٍ.

فالتَّصريفُ هُو التَّغييرُ، قال تعالى: ﴿وَتَصۡرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ﴾ [البقرة: 164]، تغييرُها من جهَةٍ لأخرَى، والتَّصريفُ في المَسألَة: أن يَذكُرَها بِصُوَرٍ شَتَّى، يُغيِّرُ فيها حتَّى يستَكمِلَ القَولَ فيها، أمَّا التَّفصيلُ؛ فهو التَّبيين، وهو أحدُ أمرين: تبيينٌ بمعنى التَّوسُّع في الشَّرحِ والتَّوضيح، أو أن يأتِيَ بأمورٍ متعَدِّدَةٍ مختلفةٍ، هذهِ وهذهِ وهذهِ، يصيرُ فصلًا، وهذا موجودٌ في القُرآن، فيذكرُ موضوعاتٍ متعدِّدَةً تأتي متتاليةً، كقوله تعالى في سورة الشَّمس: ﴿وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا ۝١ وَٱلۡقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ۝٢ وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ۝٣ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰهَا ۝٤ وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ۝٥ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا طَحَىٰهَا ۝٦ وَنَفۡسٖ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلۡهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقۡوَىٰهَا ۝٨﴾ [الشمس: 1- 8]. فتناولت هذه الآياتُ جملةً منَ الموضوعاتِ المختلفةِ في سياقٍ واحدٍ.

العلمُ والفقهُ:

الفقهُ أخصُّ منَ العِلمِ، فهو دقيقُ الفهمِ وبديعُ الإدراكِ

العلمُ مُتحقِّقٌ في الَّذين يعلمونَ، والَّذين يفقهونَ، لكنَّ الَّذين يفقهون أولئك الَّذين يُدركون عظيمَ مكانةِ هذا العلم، ويدركون بعلمهم إعجازَ القرآنِ الكريم، فالفرقُ بين (يفقهون) و(يعلمون) هو أنَّ الفقهَ في اللُّغةِ معناهُ الفَهمُ الدَّقيق، فلا يُطلَقُ الفقهُ إلَّا على أمرٍ ذي معنى دقيق، وفي قولهِ تعالى: ﴿ٱنظُرۡ كَيۡفَ نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَفۡقَهُونَ ۝٦٥﴾ [الأنعام: 65] تنبيهٌ على اختلافِ الآياتِ والحججِ، وضروبِ الأمثالِ؛ وفي ذلك ما يقتضي الفهمَ لا محالةَ، وهو من خصائص الفقه، ثمّ فإنّ اللّهُ تعالى يصرِّفُ الآياتِ لقومٍ يعلمون، ولعلَّ هؤلاء يفقهون دقيقَ ما في تلك الآيات، فيكون التَّصريفُ للَّذين يعلمون، ولعلَّهم يفقهونَ، قال الرَّاغب: "الفقهُ هو التَّوصُّلُ

إلى علمٍ غائبٍ بعلمٍ شاهدٍ، فهو أخصُّ منَ العلم"[1]، وأمَّا العلمُ فهو إدراكُ الشَّيءِ على ما هو عليهِ، فإذا كان الشَّيءُ دقيقًا سُمِّيَ فقهًا، إذًا فالفقهُ علمٌ وزيادةٌ، فيختم الكلامَ بـ (يفقهون)؛ إذا تضمَّنَ معنًى دقيقًا يحتاج إلى فهمٍ، ويختمُ بـ (يعلمون)؛ إذا كان يحتاجُ إلى إدراكٍ فقط.

(1) الرّاغب الأصفِهَانّي، المفردات: (فقه).

﴿ٱتَّبِعۡ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ١٠٦﴾ [الأنعام: 106]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

مَوقِفُ المُعانِدين يَستدعِي الثَّباتَ على أَركانِ الدِّين

بعد أن بيَّنَ في الآيةِ السَّابقةِ حالَ المعارضين، وأنَّهم مهما أتتهم الآياتُ وتكاثرَت، فإنَّهم يخترعون لأنفسِهم حُججًا، وشُبَهًا كثيرةً، يتشبَّثُونَ بها، فبيَّن هنا ما أوجبهُ اللّهُ على رسولِهِ حِيَالَ ذلك، وهو اتّبَاعُ الحَقِّ ممَّا أنزل اللّهُ، فقال تعالى هنا آمرًا رَسُولَهُ باتّبَاعِ ما أوحي إليه منَ الآيات، وبالإعراض عن المُشركِين؛ إذ قدَّمَ منهَاجًا قويمًا في التَّعامل مع هؤلاء المنكِرينَ للآيات البيِّنات، فقال تعالى: ﴿ٱتَّبِعۡ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾، فأمَرَهُ بالاتِّباع والإعراض في آيةٍ واحدةٍ: اتِّباعُ ما أنزل، والإعراضُ عنِ المشركين؛ لأنَّهم أعرضوا عمَّا أُنزِلَ إليك، وأداةُ النَّجاةِ في ذلك كلِّه هو التَّوحيد.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱتَّبِعۡ﴾: جذرُ الكلمةِ هو (تبع)، والتَّابعُ: التَّالي، ومنه: التَّتبُّعُ والمتابعةُ، والاتِّباع، ويتبَعُه: يتلوهُ، والتَّتَبُّعُ: فعلُك شيئًا بعد شيءٍ، تقول: تتبَّعتُ علمَهُ، أي: اتَّبعتَ آثارَهُ، والمُتابعةُ أن تُتبِعَهُ هواكَ وقلبكَ[1]. ومعنى أتبَعَ: لَحقَ، وقيل: معنى أتبَعَهُ: سَار خَلفهُ، واتَّبَعَهُ، مُشدّدًا: حَذا حَذوَهُ[2]، ومعنى الاتِّباع في الآية: الإيمانُ والعملُ بمقتضى ما أوحى اللّهُ تعالى إلى رسولِهِ منَ الآياتِ البيِّنات.

2) ﴿وَأَعۡرِضۡ﴾: جذرُ الكلمةِ هو (عرض)، عَرُضَ الشَّيءُ يعرُضُ

(1) الفراهيديّ، العين: (تبع).
(2) السّبتيّ، مشارق الأنوار: (تبع).

عرضًا، فهو عريضٌ، واعترضتُ عُرْضَ فلانٍ، أي: نحوتُ نحوَه[1]، وأعرض عنِّي: ولَّى مُبدِيًا عرضَهُ[2]، وهذا هو المعنى المُرادُ في الآيةِ الكريمةِ، وهو الإعراضُ عنِ الجاهلين، ونظيرهُ قولهُ تعالى: ﴿ثُمَّ أَعۡرَضَ عَنۡهَاۚ﴾ [السّجدة: 22].

❁ المَعْنى الإِجْماليُّ:

شرطُ اتِّباعِ الوحي التَّوحيدُ والإعراضُ عنِ المشركين

التَفتَ الخِطَابُ في هذهِ الآيةِ إلى رسولِ اللّهِ ﷺ بما يَتَضَمَّنُ تثبيتَهُ وتَسليَتَهُ، فقال: ﴿ٱتَّبِعۡ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾، فقوله: ﴿ٱتَّبِعۡ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ﴾ أمرٌ للرَّسولِ باتِّباعِ الوحيِ والسَّيرِ على نهجِ القرآنِ الكريمِ، ولا يصُدَّنَّه عنه إعراضُ المُعرضين والمُعاندين، واتِّباعُ الوحي يقتضي الاستمرارَ في دعوة النَّاسِ إلى الإيمان حتَّى إنْ أعرضوا عنِ الوحي وعنِ الرِّسالةِ، فَخاطَبَهُ بِخطابِ الرُّبوبيَّةِ قائلًا: ﴿مِن رَّبِّكَۖ﴾، ثمَّ أتبَعَه بخطابِ الألوهيَّة، فقال: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ﴾، فلا شريكَ له في العبادةِ والاتِّباع سبحانه وقوله: ﴿وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ بالصَّبرِ والحلم، فأعرِضْ عنهم وعن تعنُّتهم، فيكونُ الإعراضُ عنِ المُشركينَ ضَرورَةً لِتحقيقِ الاتِّبَاعِ الصَّحيحِ للّهِ سبحانه فيمَا أوحَى إلى رسولِهِ.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

معنى الاستئنافِ في قولِهِ تعالى: ﴿ٱتَّبِعۡ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ﴾:

الأمرُ باتِّباعِ الوَحيِ أمرٌ سابقٌ للإعراضِ عنِ المُشركينَ

في قولِهِ تعالى: ﴿ٱتَّبِعۡ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ﴾: بعد أن بيَّنتِ الآيةُ إعراضَ المُعرضين واتِّهامَ سيِّد المرسلين، فاستأنَفَتِ الآيةُ اللَّاحقةُ مخَاطِبةً رسولَ اللّهِ ﷺ بأمرِهِ باتِّباع ما يُوحَى إليه والإعراضِ عنِ ادِّعاءاتِ المُدَّعين، وما قولُهُم: (دَرَسْتَ) إلَّا دليلٌ على عظيمِ ما

(1) الفراهيديّ، العين: (عرض).
(2) الرّاغب الأصفهانّي، المُفردات: (عرض).

جاءَتك منَ الآياتِ الكريمةِ، فاتَّبعْ ما أوحى اللّهُ إليك منَ الآياتِ والتَّشريعِ والعلمِ.

سرُّ التَّعبيرِ بالاتِّباعِ في قولهِ تعالى: ﴿ٱتَّبِعۡ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ﴾:

الاتِّباعُ هو التزامُ المتبوعِ جملةً وتفصيلًا في الوسائلِ والغاياتِ

جاء في قوله تعالى: ﴿ٱتَّبِعۡ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ﴾ أمْرُ الرَّسولِ ﷺ بالاتِّباع وهو أمرٌ له ولأمَّتِه، ممَّن اتَّبَعَهُ بإحسانٍ إلى يوم الدِّين، ولا مناصَ لرسُولِ اللّهِ ﷺ من اتِّباعِ الوحيِ؛ لكنَّه أرادَ بذلك الأمر الأمّةَ كلَّها؛ إذ تتكرَّرُ مواقِفُ إعراض المُعارضين عن دين اللّهِ في كلِّ عصرٍ ومِصرٍ، وتَتَنَوَّعُ افتراءاتُ المشركين والملحدين على آياتِ اللّهِ وكتابِه، فلا يكون أمامَ المخاطَبين منَ المؤمنين غير الاتِّباعِ فهو سبيلُهم إلى النَّجاة، وصيانةِ دينِهم، وضمانِ نجاتِهم، وعبَّر بالاتِّباع؛ لأنَّه التزامُ المتبوعِ جملةً وتفصيلًا دون قصورٍ أو تقصيرٍ في الوسائلِ والغاياتِ، فالاتِّباعُ هو سرُّ القبول، وسلَّمُ الوصول.

غرضُ الأمرِ بالاتِّباعِ:

الإلهابُ والتَّهييجُ بقصدِ الثَّباتِ والدَّوامِ

في قولهِ تعالى: ﴿ٱتَّبِعۡ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ﴾ جاء الأمرُ بالاتِّباع محمولًا على الوجوبِ؛ إذ لا منجى غيرُ الاتِّباع، ووجوبِ التزامِ أوامرِ الوحي ونواهيهِ وتوجيهاتِه، وما أتى به الوحيُ هو الرِّسالةُ وهو المُعجزةُ، وهذا ما امتازَ بهِ رسولُ اللّه ﷺ عن سائر الرُّسُلِ، فكانت رسالتُهُ هي معجزتَهُ، وغرضُ الأمر هو الإلهابُ والتَّهييجُ، إذ ﷺ مُتَّبِعٌ للوحي، فأمرُ الممتثلِ يقتضي تثبيتَهُ.

فائدةُ التَّعبيرِ بـ ﴿مَآ﴾:

اتِّباعُ الوحي واجبٌ في عمومِ تفاصيلِهِ وجزئيَّاتِهِ بلا استثناءٍ

﴿مَآ﴾ في قولهِ تعالى: ﴿ٱتَّبِعۡ مَآ أُوحِيَ﴾ اسمٌ موصولٌ بمعنى (الَّذي)، وجملةُ صِلَةِ المَوصُولِ جُملةٌ فعليَّةٌ لم يُسَمَّ فاعلُها، وهو ﴿أُوحِيَ﴾، و(ما) تقع على ذوات ما لا يَعقِلُ، وعلى صفاتِ مَن يَعقِلُ، وبذلك فإنَّ (ما) أكثرُ إبهامًا مِن (مَنْ)، وتقع على كلِّ شيءٍ[1]، وقد

(1) سيبويه، الكتاب: 2/309.

أُتبِعَ الأمرُ بالاتِّبَاع بـ ﴿مَآ﴾ دون (الَّذي)، وفائدةُ ذلك أنَّ عليكَ الاتِّباع التَّامَّ لكلِّ ما جاء في الوحي دون إدراجِ ما أُوحِي إليك في مَسلكِ القبولِ أو الرَّدِّ من جهة العقلِ؛ لأنَّ ما أُوحِي إليك إنَّمَا هو الحَقُّ المُطلقُ الَّذي يستحيلُ على العَقلِ البشريِّ المقدِرَةُ على تحكيمهِ قبولًا أو إنكارًا.

بلاغةُ بناءِ الفِعلِ للمَفعُولِ في قوله تعالى: ﴿أُوحِيَ﴾:

توجيهُ الاتِّباع للوحي ثمَّ بيانُ المصدرِ دليلُ صدقٍ وأمارةُ حقٍّ

في قوله تعالى: ﴿ٱتَّبِعۡ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ﴾: لم يقُل: (اتَّبع ما أوحى اللّهُ إليك)، فجاء بهِ مبنيًّا للمفعول، ثمَّ بيَّن الفاعِلَ بقولِه: ﴿مِن رَّبِّكَۖ﴾، ومنَ المعلومِ أنَّ سِياقَاتِ الكَلَام تختَلِفُ باختلافِ المَقَام، والفعل الَّذي لم يسمَّ فاعلُه قد جاء في مَواضعَ كثيرةٍ منَ القرآنِ الكريم؛ ليدلَّ في كلِّ سِياقٍ حَسبَ اقتضاءِ المعنى، وقد أبرزَ في هذا السِّياق، وأفادَ تعميمَ قضيَّةِ الوحيِ والإيحاءِ، وتنوُّعَ طرقِه الَّتي عايَشَهَا رسولُ اللّهِ ﷺ ويكونُ هذا الوَحيُ بِتَمَثُّلِ جِبْريلَ عليه السلام لَهُ أو بصوتٍ يسمعُه منهُ أو يَعيهِ بغيرِ صوتٍ، قال تعالى: ﴿۞وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحۡيًا أَوۡ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوۡ يُرۡسِلَ رَسُولٗا فَيُوحِيَ بِإِذۡنِهِۦ مَا يَشَآءُۚ﴾ [الشورى: 51]، فمهما تنوَّعَت تلك الوسائلُ والآياتُ، لكنَّها جميعًا من عند اللّهِ تعالى ولا تمييزَ ولا فرقَ في الآياتِ الَّتي أُوحِيَت إليكَ، فكُلُّها من عند ربِّكَ، وقد أدَّى أسلوبُ البناءِ للمفعُولِ تصويرًا دقيقًا في النَّصِّ لأحداث المَشهَدِ الغَيبيِّ الَّذي غابَت دقائقُهُ عنِ المُتَلَقِّي أو خَفَتَ عن ذِهنِهِ وخَيَالِه.

إخفَاءُ واسِطَةِ الإيحاءِ تكشفُ عن عظيمِ الصِّلَةِ بين اللهِ ورسُولِه

ومعروفٌ أنَّ الوحيَ إلى رسولِ اللّهِ بواسطة جبريلَ عليه السلام فهذه هي حقيقةُ الإيحاءِ، ثمَّ بيَّنَ الفَاعِلَ بقولِه: ﴿مِن رَّبِّكَۖ﴾؛ فاختَفَت الوَاسِطَةُ، وجعَلَ الإيحاءَ بينَ اللّهِ وبينَ رسولِهِ إيحاءً مباشرًا؛ لبيانِ عظيمِ الصِّلَةِ بين اللّهِ ورسولِهِ، ولِبَيانِ عظيمِ شأنِ تلك الآياتِ الَّتي أوحاها اللّهُ تعالى إلى رَسُولِهِ.

فنُّ الطِّباقِ بين الأمرِ والنَّهي اكتمالٌ في رسوخ الدِّين وتمامٌ في تثبيت دعوةِ المرسلين

نكتةُ اقترانِ فِعلَي الأمرِ ﴿ٱتَّبِعۡ﴾ و﴿وَأَعۡرِضۡ﴾:

قوله: ﴿ٱتَّبِعۡ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ﴾، وقوله: ﴿وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ استئنافٌ في خطابِ النَّبيِّ ﷺ بأمرِه بالاتِّباعِ والإعراض عن بهتان المشركين، وألَّا يَكترِثَ بأقوالهم، وبينهما طباقٌ، فابتِدَاؤُهُ بالأمر باتِّبَاع ما أُوحِي إليه يتنزَّل منزلةَ المقدِّمَةِ للأمر بالإعراض عنِ المشركين، وليس هو المقصدَ الأصليَّ منَ الغَرَضِ المَسوقِ له الكلام؛ لأنَّ اتِّبَاعَ الرَّسول ﷺ ما أُوحِي إليهِ أمرٌ واقعٌ بجميع معانيهِ، فالمقصودُ منَ الأمرِ الدَّوامُ على اتِّباعِهِ، والمعنى: أعرضْ عنِ المشركين اتِّبَاعًا لِمَا أُنزِلَ إليكَ من رَبِّكَ[1].

اتِّباعُ أوامِرِ اللهِ التزامٌ للمُقتضى وامتثالٌ للمُرتضَى

المجازُ المُرسَلُ في لفظ الاتِّباعِ:

الاتِّبَاعُ في الأصل اقتفاءُ أثرِ المَاشي، ثمَّ استُعمِلَ في العمل، كما في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحۡسَٰنٖ﴾ [التَّوبة: 100]، ثمَّ استُعمِلَ في امتثال الأمرِ والعملِ بما يأمرُ به المتبوع فهو الائتمارُ، ويتعدَّى فعلُه إلى ذاتِ المتَّبِع، فيُقال: اتَّبعتُ فلانًا بهذه[2]، و﴿ٱتَّبِعۡ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ﴾ بالتَّدَيُّنِ به، وقوله: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ﴾ اعتراضٌ أُكِّدَ به إيجابُ الاتِّبَاع[3]، وإطلاقُ الاتِّباعِ بمعنَى الائتمارِ شائعٌ في القرآن؛ لأنَّهُ جاءَ بالأمر والنَّهي، وأمَرَ النَّاسَ باتِّبَاعِهِ، واستُعمِلَ أيضًا في معنى الملازمةِ على سبيل المَجَازِ المُرسَلِ؛ لأنَّ مَن يتبعُ أحدًا يلازمُهُ، فيجوز أن يكونَ الاتِّباعُ في الآية مرادًا به دوامَ الامتثالِ لِمَا أمرَ به القُرآنُ، منَ الإعراضِ عن أذى المُشركينَ وعِنادِهِم، فالاتِّباعُ المأمورُ به اتِّباعٌ في شيءٍ مخصوصٍ، وهذا مأمورٌ بهِ غير مرَّةٍ، فالأمرُ بالفعلِ مستمرٌّ في الأمر بالدَّوام عليه[4].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/423.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/423.
(3) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 2/177.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/424.

نكتةُ إيثارِ لفظِ الإيحاءِ على الإنزالِ:

الوحيُ أشملُ مِن دلالةِ الإنزال وأعمُّ من لفظِ القرآنِ

في قولِه تعالى: ﴿ٱتَّبِعۡ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ﴾ ذَكَرَ الوحيَ دونَ الإنزالِ أو القرآنِ؛ فلم يقل: (ما أنزل إليك) أو (اتبع القرآن)؛ لتضمينِه معنى الإنزال، ودلالته على لفظِ القرآن، فإنَّ لفظَ الإيحاءِ اشتملَ الوحيَ بمفهومِه العامِّ، والإنزالَ بمفهومِه الخاصِّ، وهذا أوجزُ لفظًا، وأشملُ معنًى، ويدخلُ في ذلك وحيُ الكتابِ والسُّنَّةِ، واللَّفظ والمعنى، ولتنبيه المُخاطبِ إلى أنَّ الوحيَ أشملُ ممَّا يراه النَّاسُ في النَّازلِ، وأنَّ النَّبيَّ ﷺ مأمورٌ باتِّباع ما يعرفه النَّاسُ، وما لا يعرفونهُ من خصوصِ الوحي وعمومِه لا من عموم الإنزالِ.

سرُّ ذكرِ قيد ﴿إِلَيۡكَ﴾، وعدمُ الاكتفاء بقولِه تعالى: ﴿مِن رَّبِّكَۖ﴾:

خصوصيَّةُ الإيحاءِ بالنَّبيِّ ﷺ مبعثُ تكريمٍ

سياقُ الآيةِ الكريمةِ في قوله تعالى: ﴿ٱتَّبِعۡ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ﴾ هو في ردِّ اتِّهامِ المشركين، فكان قولُه: ﴿إِلَيۡكَ﴾ مبيِّنًا أنَّ الإيحاءَ كان مُنتهاه إليْه، وأنَّ مَن يُوحَى إليه، فلا مجالَ لوقوعِ الشَّكِّ في قلبه، ولا مناصَ لَهُ إلَّا بالاتِّباع، فجاءَت ﴿إِلَيۡكَ﴾ توكيدًا لعظيم شأنِ المُخاطب، وهو رسولُ اللهِ ﷺ أوَّلًا، ولعظيم شأنِ الرِّسالةِ ثانيًا، ويدلُّ القيدُ على الخصوصيَّة، فهو إيحاءٌ خاصٌّ به ﷺ وهذه الخصوصيَّةُ مَبعثُ تكريمٍ، ومنشأُ تعليمٍ.

دلالةُ استعمالِ حرف ﴿مِن﴾ في قوله تعالى: ﴿مِن رَّبِّكَۖ﴾:

مبدأُ الإيحاءِ مِن عندِ اللهِ سبحانه ففيه تبجيلٌ وتفخيمٌ

معنى ﴿مِن﴾ في قوله تعالى: ﴿ٱتَّبِعۡ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ﴾ للابتداء، أي: لابتداء وقوعِ الحَدَثِ، فمعنى الآيةِ أنَّ حدثَ الإيحاءِ وقعَ ابتداءً من عندِ اللهِ سبحانه فإن كانَ جبريل عليه السلام هو المَلَكَ الَّذي جاءَكَ بالآياتِ؛ فإنَّ ذلك الحدثَ قد بدأَ مِن عندِ ربِّكَ، ففيه تكريمٌ وتبجيلٌ وتفخيمٌ.

نكتةُ ذكرِ ﴿رَّبِّكَۖ﴾ وإضافَتِهَا إلى ضَميرِ المُخَاطَبِ:

أتى بلفظ الرُّبوبيَّةِ، ولم يقُل: (منَ اللّه)؛ لأنَّ الرُّبوبيَّةَ هي

الَّتي تُشعِر بالرِّعاية والتَّربية، فرسولُ اللّهِ ﷺ يحتاجُ إلى رعايةٍ خاصَّةٍ في تصديقِه في أمرِ الرِّسالةِ، وهذا من تكريم رسول اللّهِ ﷺ لبيانِ عظيم الارتباطِ بين اللّهِ تعالى وبين رسولِه، ومِنْ إظْهارِ مكانةِ الرِّسالة.

ذِكرُ الرُّبوبيَّةِ تكريمٌ للرَّسُولِ وتصديقٌ للرِّسالَةِ

غرضُ إيرادِ قولِه تعالى: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ﴾ بينَ الأمرين:

قوله: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ﴾ اعتراضٌ بين الأمرين المتعاطفَين، مؤكِّدٌ لإيجاب اتِّباعِ الوحي، ولاسيَّما في أمرِ التَّوحيدِ، وقد جُوِّزَ أن يكونَ حالًا من ربِّك؛ أي: مُنفرِدًا في الألوهيَّة[1]. والمقصودُ من قوله: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ﴾ إدماجُ التَّذكيرِ بالوحدانيَّةِ؛ لزيادة تقرُّرِها وإغاظة المشركين، وجملة: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ﴾ إيغالٌ في عظيمِ شأنِ اللّه، وعظيمِ شأنِ الوحي، فقال: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ﴾، فطَلَبَ التَّوحيدَ الخالصَ مع الاتِّباع، فيكون التَّوحيدُ هو الثَّمَرَةَ الأَعْظَمَ للاتِّباع.

إدماجُ التَّوحيدِ بين الأمرِ بالاتِّباعِ والإعراضِ عنِ المشركين

الحصرُ في قوله تعالى: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ﴾:

حصرَ الألوهيَّةَ بذاتِ اللّهِ تعالى فمَن خلقَ الكَونَ مِن لا شَيء، وأبدَعَهُ على غير مثالٍ سابقٍ، هو وحدَه الإلهُ الحَقُّ، المُهيمِنُ على خَلقِه، مُرسِلُ الرُّسُلِ، ومُنزِّلُ الرِّسالاتِ، والقيُّومُ على جميع ما خلقَ، فذكرَ توحيدَ الألوهيَّةِ في قوله: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ﴾ ترسيخًا لعظيمِ شأنِ الوحي الَّذي أوحاهُ سبحانه إلى رسولِه، وقيُّوميِّته على ذلك، وعلى آياتِه في خلقِه وآياتِه في كتابِه سبحانَه.

حصرُ الألوهيَّةِ على اللّهِ واستحقاقُ العبادةِ هو محورُ الخطابِ القرآنيِّ عامَّةً

بلاغةُ الوَصلِ في قولِه تعالى: ﴿وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾:

عطفَ جملةَ الأمرِ بالإعراض عنِ المشركين على جملةِ الأمرِ باتِّباعِ ما أُوحِي إليه من ربِّه، فوصل بين جملتين إنشائيَّتين، فالإعراضُ عنِ المشركين هو امتدادٌ لاتِّباع ما أُوحِي إليه من ربِّه،

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/171.

فلا يكون اتِّباعًا كاملًا إن لم يُتمَّم بالإعراض عنِ المشركين، فأدَّى الوَصلُ بالوَاوِ بين الجُملتين وظيفةَ الرَّبطِ لمنظومَةِ الإيمانِ والعملِ على ضَمَانِهَا وصيانَتِهَا من شُبُهَات البَاطِلِ، فيكون الاتِّباعُ للوحي مَتبوعًا بالإعراض عمَّا يبتدعُه المشركون منَ الشُّبهات والإيهام.

الإعراضُ عنِ المشركين هو امتدادٌ لاتِّباع ما أَوحى اللهُ إلى رسوله

غرضُ الأمرِ في: ﴿وَأَعۡرِضۡ﴾:

الأمرُ بالإعراض عنِ المشركين في قوله تعالى: ﴿وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ غرضُه الإلزامُ والوجوبُ، إذ يُعدُّ الإعراضُ عنِ المشركين جانبًا رئيسًا من جوانب اتِّباعِ وحيِ اللّه، وهو الوجهُ الآخرُ لاتِّباعِ ذلك الوحي، فهو الجانبُ العمليُّ لاتِّباعِ الوحي، وهو الخلاصُ من رَكَاكَةِ طروحاتِهم، وسخافاتِ أفكارِهم حيالَ ما أَوحى اللّهُ سبحانه من عظيم شأن الرِّسالةِ والرَّسولِ والتَّوحيدِ والهدايةِ.

اتِّباعُ الوحي هو الامتثالُ، ولا يتمُّ إلا بالإعراضِ عنِ المشركين

بلاغةُ إيثارِ الأمرِ بالإعراضِ، دون النَّهي عن طاعةِ المشركين:

جاءَ الأمرُ بالإعراض عنِ المُشركين، في قوله تعالى: ﴿وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾، ولم يقُل: (ولا تطعِ المشركين)؛ لأنَّ الإعراضَ عنهم أبلغُ من عدمِ طاعتِهم، فإنَّ مُقتضى الإعراضِ عدمُ الطَّاعة، وليس مِن مُقتضى عدمِ الطَّاعةِ الإعراضُ، والمرادُ بالإعراض عنِ المشركين الإعراضُ عن مكابرتِهم وأذاهم، لا الإعراضُ عن دعوتهم، فهو الجانبُ العمليُّ الاجتماعيُّ لاتِّباع الوحي، فإنَّ اللّهَ لم يأمرْ رسولَهُ ﷺ بقطع الدَّعوة لأيِّ صنفٍ منَ النَّاس كان، وكلُّ آيةٍ فيها الأمرُ بالإعراض عنِ المشركين؛ فإنَّما هو إعراضٌ عن أقوالِهم وأذاهم، لا عن دعوتهم إلى الدِّين والإيمان[1]؛ إذ لا يقتضي الإعراضُ عدمَ طاعتهم بما فيه مصلحة الدُّنيا، مع عَدَمِ التَّعارض مع أمور الدِّين.

الإعراضُ يتضمَّنُ عدمَ الطَّاعةِ بخلاف العكس

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/425.

نكتةُ إيثارِ لفظِ المشرِكِين دون الكَافِرينَ:

الشِّركُ هو العِلَّةُ الحَقيقيَّةُ التي تقابلُ التَّوحيدَ المـذكـورَ في السِّياق

السِّيَاقُ يعالجُ موضوعَ الشِّركِ بالدَّرَجَة الأولى، فهو العِلَّةُ الحَقيقيَّةُ في عدم الاستجابةِ والخضوعِ، وقد أوردَ لفظ ﴿ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ دون (الكافرين) تناسُبًا مع ذكر التَّوحيدِ الخَالِصِ، فمَنِ اتَّبعَ ما أُوحِي إلى الرَّسُول من عندِ اللّهِ الَّذي لا إلهَ إلَّا هو لا بدَّ من أن يكونَ مُعرِضًا عمَّا يأتي به المُشركون من عبادةِ غيرِ اللّهِ تعالى فذكرَ المشركين؛ لأَنَّ وَصْفَ (الكُفْر) قَدْ يَنْصَرِفُ إلى معانٍ لا تَنْدَرِج بالضَّرورَةِ ضِمْنَ صَرْفِ العِبادةِ لِغَيرِ اللّه، بخلاف (الشِّرْك).

المُقابلةُ في الآيةِ الكريمة:

المُقابلةُ البديعيَّةُ تختصرُ المشهدَ في قضيَّتين لا ثالثَ لهما

بين قولهِ: ﴿ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾، وقولهِ: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ مقابلةٌ بين جانبين هما ميدانُ القضيَّةِ في الآيةِ القرآنيَّةِ بين الاتِّباع لما أوحي منَ الرِّسالةِ مِن عندِ اللّهِ تعالى من جانبٍ، والإعراضِ عمَّا يقترحُه المُشركون ممَّا يصبُّ في هوى النَّفسِ والإعراضِ وتزيينِ الشَّيطانِ، وفائدةُ هذه المقابلةِ فرضُ المُفاصَلَةِ بين الحقِّ والباطلِ، وإيضاحُ الصُّورةِ الكُلِّيَّةِ، فلا يبقَى عذرٌ لمُعتَذِرٍ، ولا تُقبَلُ شفاعةٌ بعد ذلك لشفيعٍ، والخِطابُ للرَّسُولِ ﷺ وهو عامٌّ للأمَّةِ كُلِّهَا.

﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشۡرَكُواْۗ وَمَا جَعَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظٗاۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِوَكِيلٖ ١٠٧﴾ [الأنعام: 107]

مُنَاسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبلَهَا:

مِن لُطفِ الامتثالِ إحاطتُهُ بمشيئةِ اللهِ الغالبةِ

بعد أن خاطبَ اللّهُ تعالى رسولَهُ في الآية السَّابقة، وأمَرَهُ باتِّباع ما أُوحِيَ إليهِ والإعراضِ عنِ المُشرِكينَ؛ بيَّن له هُنا تلطُّفًا بهِ، وإزالَةً لِمَا يَلقَاهُ مِنَ الكَدَرِ مِن استمرَارِهِم على الشِّركِ وَقِلَّةِ إغنَاءِ آياتِ القُرآنِ ونُذُرِهِ في قُلُوبِهِم، فَذَكَّرَ اللّهُ رَسولَهُ بأنَّ ذَلك بمَشِيئَةِ اللّهِ، ولو شاءَ اللّهُ ما أشرَكُوا، ولكنَّ اللّهَ يعلَمُ القُلوبَ، وما تُخفِي، وما أنتَ عَليهِم بوكِيلٍ أو حَفيظٍ، فاللّهُ سبحانه يهدِي مَن يستَحِقُّ الهِدَايَةَ من عِبَادِهِ، فقال: ﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشۡرَكُواْۗ وَمَا جَعَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظٗاۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِوَكِيلٖ﴾.

شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

1) ﴿شَآءَ﴾: جذرُ الكلمةِ هو (شَيَأ)، المشيئةُ كالإرادةِ، والمشيئةُ إيجادُ الشَّيءِ وإصابتُهُ، فالمشيئةُ منَ اللّه تعالى هي الإيجادُ، ومنَ النَّاس هي الإصابة، والمشيئَةُ منَ اللّهِ تقتضي وجودَ المُرادِ لا محالَةَ، رُوِيَ أنَّه لمّا نزل قولُ اللّهِ تعالى: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ ٢٨﴾ [التكوير: 28]؛ قال الكُفَّارُ: الأمرُ إلينا، إن شِئنا؛ استقمْنا، وإن شئْنا؛ لم نستقمْ، فأنزلَ اللّهُ تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢٩﴾ [التكوير: 29][1].

2) ﴿أَشۡرَكُواْۗ﴾: جذرُ الكلمةِ هو (شرك)، الشِّرْك: ظلمٌ عظيمٌ، والاسم: الشِّركُ، وفي التَّنزيل: ﴿إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ ١٣﴾ [لقمان: 13].

(1) الرّاغب الأصفهانّي، المُفردات: (شيأ).

وأشركَ باللّٰهِ: جعلَ له شريكًا في ملكه[1]، وقولهُ: (فيهِ شِركٌ) بِكَسرِ الشِّين منَ الاشتِراكِ، والشِّركُ والشَّرِكَةُ والاشتراكُ وَاحِدٌ، والشِّركُ أَيضًا النَّصِيبُ[2].

3) ﴿جَعَلْنَٰكَ﴾: جذر الكلمةِ هو (جعل)، وهو لفظٌ عامٌّ في الأفعال كُلِّها، يجري مجرى أوجد، قال تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾ [النّحل: 78]، ويُسْتَعْمَلُ في إيجاد شيءٍ من شيءٍ وتكْوينِهِ منهُ، نحو: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا﴾ [النّحل: 81]، وفي تصييرِ الشَّيءِ على حالةٍ دونَ حالةٍ، نحو: ﴿وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا﴾ [نوح: 16]، والحُكم بالشَّيءِ على الشَّيءِ، حقًّا كان أو باطلًا[3]، وفي الآيةِ الكريمة قوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾، هو من قبيل الحكمِ بالشَّيءِ على الشَّيءِ، ونَفيه عن رسولِ اللّٰهِ حِفظَ قومِهِ.

4) ﴿حَفِيظًا﴾: جذرُ الكلمةِ هو (حفظ)، والحفظُ يضادُّه النِّسيانُ، ويُستعمَلُ كذلك في كُلِّ تفقُّدٍ وتعهُّدٍ ورعايةٍ، قال تعالى: ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿١٢﴾﴾ [يوسف: 12] و[الحِجر: 9]، وقوله: ﴿فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ [الشّورى: 48]، أي: حافظًا، والمعنى نفسُه في الآية: ﴿وَمَا جَعَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

الرَّسولُ مُبلِّغٌ لا مُسيطِرٌ، وهادٍ لا جبَّارٌ

قولهُ تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا۟﴾، بأنْ يخلُقَ البَشَرَ مُؤمنين طائعين بالفطرةِ كالملائكة، ولكن مضَت سُنَّتُه وحكمتُه بأن يكونوا عاملين مُختارين، وهداهم بالطَّبيعةِ والشَّريعة، وبهذا الاختيارِ في التَّصرُّف صاروا مُستعدِّين للإيمان أو الكُفرِ، والتَّوحيدِ أو الشِّرك، والطَّاعة أو الفسق، ثمَّ قال: ﴿وَمَا جَعَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا وَمَآ أَنتَ

(1) ابن سيده، المُحكم، والزّمخشريّ، أساس البلاغة: (شرك).
(2) السّبتيّ، مشارق الأنوار: (شرك).
(3) الرّاغب الأصفهانّي، المُفردات: (جعل).

عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ فتَحْفَظ عليهم أعمالَهم، فتحاسبهم عليها، ولستَ وكيلًا عليهم، تتولَّى أمورَهم، وتسألُ عنها؛ لأنَّ الوكالةَ تستلزمُ السَّيطرةَ والمسؤوليَّةَ، وإنَّما أنت بشيرٌ ونذيرٌ، واللّٰهُ هو الوكيلُ الحفيظُ، وفي هذا بيانٌ لمهمَّةِ الرَّسولِ، وأنَّه مُبلِّغٌ لا مسيطرٌ، وهادٍ لا جبَّارٌ، فاللّٰهُ يتولَّى أمرَهم، ويُجازيهم جزاءً وفاقًا[1].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

مقصدُ عَطفِ قولِه تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُواْ﴾ على الأمرِ بالإعراضِ:

وقوله: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُواْ﴾، خبرٌ معطوفٌ على الجملة الإنشائيَّةِ: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾، وهذا تلطُّفٌ مع الرَّسولِ ﷺ وإزالةٌ لِمَا يلقاه منَ الكَدَرِ من استمرارهم على الشِّرك، وقلَّةِ إغناء آياتِ القُرآنِ ونُذُره في قلوبهم، فَذَكَّرَهُ اللّٰهُ بأنَّه سبحانه قادرٌ على أن يُحوِّلَ قلوبَهم، فتقبل الإسلامَ بتكوينٍ آخر، ولكنَّ اللّٰه أرادَ أن يحصلَ الإيمان ممَّن يؤمنُ بالأسباب المعتادةِ في الإرشادِ والاهتداءِ؛ ليميِّزَ اللّٰهُ الخبيثَ منَ الطَّيِّبِ، ولم يجعلِ اللّٰهُ إيمانَ النَّاسِ حاصلًا بخوارق العاداتِ[2].

حفاوةُ اللهِ برسولِهِ، وحفظُهُ له، هو التَّأييدُ العظيمُ لديمومةِ الرِّسالةِ، وبلوغِ مقصدِها

فائدةُ ذِكْرِ لفظِ الجَلالةِ دونَ لفظِ الرُّبوبيَّة:

في قولِه تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُواْ﴾: التفتَ من ذكرِ لفظِ الرُّبوبيَّةِ عند مخاطبةِ الرَّسولِ إلى لفظِ الجلالةِ (اللّٰه) عندَ الحديثِ عنِ المشركين، باعتبار أنَّ لفظَ الجلالةِ (اللّٰه) قد ذُكِرَ لإفادةِ توحيدِ الألوهيَّةِ، وهو ما يُنكرُه المشركون، في حين أنَّهم قد لا يُنكرون ربوبيَّتَهُ سبحانه في خلقه، قال تعالى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾﴾ [يونس: 31].

ذكرُ لفظِ الجلالةِ (اللّٰه) هو الأنسبُ بتوحيدِ الألوهيَّةِ الَّذي يُنكرُه المُشركون

(1) الموصلّي، أولى ما قيل: 3/352 - 353.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/425 - 426.

نكتةُ حذفِ مَفعولِ المشيئةِ:

لا يقعُ إشراكُ المشركين بمشيئتهم؛ وفيهِ تَهويِنٌ لِشَأنِهم واختِيَارِهِم

قوله: ﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشۡرَكُواْۗ﴾، أي: عدمَ إشراكِهم، بحسب القاعدةِ المستمرَّةِ في حذفِ مفعولِ المشيئةِ من وقوعِها شرطًا، فمفعولُ المشيئةِ محذوفٌ دلَّ عليه جوابُ (لو)، والتَّقديرُ: (ولو شاء اللّٰهُ ألَّا يُشركوا ما أشركوا)، وكونُ مفعولِها مضمونَ الجزاء: ﴿مَآ أَشۡرَكُواْۗ﴾[1]، أي: إنَّ إشراكَهم ليس في الحقيقةِ بمشيئتِهم؛ وإنَّما هو بمشيئةِ اللّٰه تعالى[2].

وجاء حذفُ مفعولِ المشيئةِ تهوينًا لشأنِهم في اختيارِهم سبيلَ الشِّركِ؛ إذ لا قيمةَ تُذكرُ لشركِهم ولشُركائِهم، ولبيان أنَّ عدمَ إشراكِهم لا يُغني اللّٰهَ شيئًا، فهو الغنيُّ الحميدُ سبحانه فحذفَ مفعولَ المشيئةِ (عدم إشراكهم)، وأبرزَ شنيعَ الشِّركِ باللّٰهِ سبحانه ويمكن أن يكونَ الحذفُ إيجازًا، فحذفَ (عدمَ إشراكِهمُ الأصنامَ في عبادتِهم)؛ لأنَّ الإشراكَ لا يكونُ إلَّا باللّٰهِ سبحانه إذ لا يُسمَّى عابدُ الصَّنمِ مُوحِّدًا لصنمِه، وإنَّما التَّوحيدُ لا يكونُ إلَّا بعبادةِ اللّٰهِ وحدَه.

فائدةُ عطفِ قولِه تعالى: ﴿وَمَا جَعَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظٗاۖ﴾ على الجملةِ السَّابقة:

التَّدلِّي في ذكرِ الأخبارِ من مشيئةِ اللهِ إلى عدم حفظِ الرَّسولِ لهم

عَطَفَ خبرًا على خبرٍ، وفائدتُه التَّدلِّي في بيانِ الخبر، فبعد أن بيَّنَ أنَّ اللّٰهَ ﷻ لَوْ شاءَ لَمَنَعَ إِشْراكَهُمْ، فصاروا موحِّدين غير مشركين، فبيَّن عظيمَ قدرةِ اللّٰهِ في الاختيار والتَّقدير، وأنَّهم مهما خرجوا عن أوامرِه سبحانه إلَّا أنَّهم منَ الضَّعف بمكانٍ، فلو شاء اللّٰهُ ما أشركوا، ثُمَّ تدلَّى بمعنى قريب من ذلك، أنَّه سبحانه لو شاء؛ لجعلَ رسولَ اللّٰهِ عليهم حفيظًا، فيمنعُهُم منَ الإشراكِ باللّٰهِ، لكنَّه لم يشأْ ذلك سبحانه وخَاطبَ رسولَهُ أنَّه ليس حفيظًا عليهم.

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/170.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/610.

نكتةُ تقديم الجارِّ والمجرور على: ﴿حَفِيظًا﴾ وعلى: ﴿بِوَكِيلٍ﴾:

جملة: ﴿وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ مستأنفةٌ، وجملة: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ معطوفةٌ على جملة: ﴿جَعَلْنَاكَ﴾[1].

الله هو الحفيظُ الوكيلُ على عبادِه على الحقيقةِ

فقوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾، أي: رقيبًا مهيمنًا مِنْ قِبلنا، تحفظُ عليهم أعمالَهم، وكذا قولُهُ تعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ من جهتِهم تقومُ بأمورِهم، وتُدَبِّرُ مصالِحَهم، و(عليهم) في الموضعين مُتعلِّقٌ بما بعدَهُ، قُدِّمَ عليه للاهتمام بهِ في الموضعين، ولرعاية الفواصلِ في الثَّاني[2]، ويتحقَّقُ منه تمامُ فائدةِ التَّدلِّي؛ إذِ الحفظُ أعظمُ شأنًا منَ الوكالة.

نكتةُ النَّفي بـ ﴿وَمَا﴾:

من مواضعِ توكيدِ النَّفي المُحاجَّةُ في القول

في قولِه تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ جعلَ سيبويهِ في النَّفي بـ (ما) معنى التَّوكيد؛ لأنَّه جعلها في النَّفي جوابًا لـ (قد) في الإثبات، كما أنَّ (قد) فيها معنى التَّوكيد، فكذلك (ما) جعل جوابًا لها، ذَكَرَه ابنُ الحاجب في شرح المُفَصَّلِ[3]، والنَّفيُ بـ (ما) في الغالب يُقالُ للرَّدِّ على قولٍ، مثل قوله تعالى: ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُواْ وَلَقَدْ قَالُواْ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ﴾ [التّوبة: 74]، فتأتي (ما) في مَعرِضِ المحاجَّةِ بنفي القولِ وإثباتِه.

فائدةُ استعمالِ حرفِ الاستعلاءِ (على):

التَّعريضُ بمَن يزعُمُ أنَّه حفيظٌ على قومِه وأتباعِه

في قولِه تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ استُعمِلَ حرفُ الاستعلاءِ لإفادةِ نفي تمكينِ النَّبيِّ ﷺ أن يكونَ حفيظًا على أحدٍ، فإنَّ وظيفةَ الحفظِ تأتي من جهةٍ عُليا، ففيه تعريضٌ بمَن يزعُمُ أنَّه حفيظٌ على قومِه، وفيه إرخاءُ العنانِ لهم؛ ليختاروا ما يريدون في

(1) الخرّاط، المُجتبَى: 1/288.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/171.
(3) الزّركشّي، البرهان في علوم القرآن: 2/417.

أمر عبادتِهم ودينِهم، فالآيةُ فيها دعوةٌ ضمنيَّةٌ كي يختارَ النَّاسُ دينَهم دون تأثيرِ أحدٍ على أحد.

فائدةُ العطفِ على الجملة السَّابقة:

تتميمُ نفي ما لا يكونُ إلَّا للهِ وبأمرِ اللهِ وحدَه

أمَّا فائدةُ عطفِ قولِه تعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِوَكِيلٖ﴾ على قوله: ﴿وَمَا جَعَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظٗاۖ﴾، فإنْ أُرِيْدَ (ما أنت بوكيلٍ منَّا عليهم)؛ كان تَتميمًا لقوله: ﴿وَمَا جَعَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظٗاۖ﴾، وإنْ أُريدَ: (ما أنت بوكيلٍ منهم على تحصيلِ نفعِهم) كان استيعابًا لنفي أسبابِ التَّبعةِ عنه في عدم إيمانهم، يقول: ما أنت بوكيلٍ عليهم، وكَّلُوك لتحصيل منافعهم، كإيفاء الوكيلِ بما وكَّله عليه مُوكِّله، أي: فلا تبعةَ عليك منهم؛ إذ ليس مقامُك مقامَ حفيظٍ ولا وكيلٍ[1]، إنَّما أنت مُبلِّغٌ لرسالتنا إليهم، قال تعالى: ﴿فَإِنۡ أَعۡرَضُواْ فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظًاۖ إِنۡ عَلَيۡكَ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُۗ﴾ [الشّورى: 48].

نكتةُ الالتفاتِ من ذكرِ لفظِ الجلالةِ إلى ضميرِ الجمعِ للمتكلِّم:

بيانُ رعايةِ الله لنبيِّه في بيانِ وظيفته دون تكليفٍ زائدٍ

التفتَ من ذكر لفظِ الجلالةِ (اللّه) في قوله: ﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشۡرَكُواْۗ﴾ غيبةً إلى ضمير جمعِ المتكلِّم، فقال: ﴿وَمَا جَعَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظٗاۖ﴾، ونكتةُ هذا الالتفات بيانُ عنايةِ اللّهِ برسوله، وأنَّه قادرٌ على أن يوكِّلَهُ أمرَ النَّاسِ جميعًا، لكن شاءَت إرادةُ اللّهِ ذلك، فما جعل اللّهُ نبيَّه حفيظًا على هؤلاء، وما ذاك إلَّا تخفيفٌ عن رسول اللّهِ ﷺ وتكليفٌ بالدَّعوة فحسب، ليكونَ أنموذجًا لمَن يأتي بعدَه منَ الصَّحابة والتَّابعين إلى يوم الدِّين، فيُؤدُّون حقَّ الدَّعوةِ ويقتدون برسولِ اللّهِ ﷺ فيها، فلا يدَّعي أحدٌ الحفظَ على أحدٍ كمَن يدَّعي ذلك منَ المبتدعة والفَسَقة.

فائدةُ تقديمِ النَّفي على المسندِ إليه، ومجيءُ المسندِ اسمَ فاعلٍ:

في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِوَكِيلٖ﴾ أفادَ تقديمُ حرفِ النَّفي

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/427.

على المسندِ إليه، ومجيءُ المسندِ اسمَ فاعلٍ: الاختصاصَ؛ لبيانِ أهمِّيَّةِ أنَّ المُخاطبَ - وهو رسولُ اللهِ ﷺ - هو مَن يُوحَى إليه من عندِ اللهِ، ولعظيمِ مكانةِ الرَّسولِ عندَ اللهِ، وفيها أيضًا من بيان إشفاقِ الرَّسولِ ﷺ على قومه ممَّا هم فيه منَ الشِّركِ والإعراضِ؛ إذ إنَّ الرَّسولَ يرجو إيمانَ قومِه كلِّهم، فلا يتخلَّفُ منهم أحدٌ عنِ الإيمان، وكأنَّ اللهَ قد جعله حفيظًا أو وكيلًا.

اللهُ هو وحدَه وكيلُ العبادِ فليس لأحدٍ أن يبالغَ في وظيفتِه

دلالةُ دخولِ الباء على ﴿بِوَكِيلٍ﴾:

في قولِه تعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِوَكِيلٍ﴾ دخلتِ الباءُ على خبر (ما) لتأكيد النَّفي، وتُذكَرُ الباءُ كثيرًا في الخبر بعد (ما) نحو قوله تعالى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعۡمَلُونَ ١٣٢﴾ [الأنعام: 132]، و﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلۡعَبِيدِ ٤٦﴾ [فُصِّلت: 46] ، فقال: ﴿بِوَكِيلٍ﴾، ولم يقُل: (وكيلًا)؛ إذ إنَّ ورودَ حرفِ الباءِ هنا لتوكيدِ مكانةِ الوكالةِ، وأنَّه سبحانه لو جعل رسولَهُ ﷺ وكيلًا؛ لجعله كذلك بأعظم جدارةٍ، فيحقِّقُ لهم عظيمَ النَّفعِ، فلمَّا نفى اللهُ تعالى وكالتَه عنهم، فلا تبعةَ ولا تقصيرَ منه ﷺ.

نفيُ وكالةِ النَّبيِّ عن قومِه من مُستحقَّاتِ كمالِه ﷺ

نكتةُ تكرارِ ﴿وَمَا﴾ و﴿عَلَيۡهِم﴾ للتَّوكيدِ:

فبعد أن ذكرَ (ما) في قوله: ﴿وَمَا جَعَلۡنَٰكَ﴾؛ كرَّرها في قوله: ﴿وَمَآ أَنتَ﴾؛ توكيدًا لنفي أن يكون الرَّسولُ وكيلًا على أحدٍ، وكذلك القول في تكرار ﴿عَلَيۡهِم﴾؛ للتَّوكيدِ أيضًا. فكان التَّكرارُ في مَوضِعِ الإضمارِ، فلم يقُل: وما أرسلناك عليهم حفيظًا أو وكيلًا، وذلك لأنَّ النَّاسَ قد تتوهَّمُ حفظَهُ ﷺ على أحدٍ، أو مَن يتبعه من رؤساء المذاهب والفرق، فإذا نُفي عنه ذلك؛ كان نفيُه عمَّن دونه أدلَّ وآكدَ.

أوهامُ الأفهامِ تُدفَعُ بتوكيدِ الألفاظِ ومرامي العباراتِ

بلاغةُ التَّغايرِ بين الفعليَّة والاسميَّة:

في قولِه تعالى: ﴿وَمَا جَعَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظٗاۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِوَكِيلٍ﴾ يظهر: التَّغايرُ بين الجملتين الفعليَّة والاسميَّة؛ لبيان أنَّ

التَّنوُّعُ في الأسلوبِ يدلُّ على الإحاطةِ والشُّمول

الجملةَ الَّتي مُسنَدُها (فعلٌ) مثل قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ تدلُّ على (الحدوث)، فتدلُّ على أنَّ الحفظَ يحتاجُ إلى متابعةٍ وقيُّوميَّةٍ على القوم، أمَّا الجملةُ الَّتي مسندُها اسمٌ، فإنَّها تدلُّ على الثُّبوتِ[1].

وبحسب ذلك فإنَّ الجملةَ الاسميَّةَ تدلُّ على معنى أوفى ممَّا تدلُّ عليه الجملةُ الفعليَّةُ، وأنَّ الجملةَ الاسميَّةَ تفيدُ تأكيدَ المعنى[2]، فقال: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾، فالوكالةُ لا تحتاج إلى متابعةٍ مع الزَّمن، وإنَّما تتطلَّبُ الثَّباتَ، ويدلُّ هذا التَّنوُّعُ في الأسلوبِ على الإحاطةِ والشُّمولِ.

سرُّ الجمعِ بين نفي كونهِ ﷺ حفيظًا ووكيلًا:

معنى الحفظِ في قوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾، أي: رقيبًا تحفظُهم مِنَ الإشراكِ، وقوله: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾، أي: بمُسلَّطٍ عليهم، والجملتان مُتقاربتان في المعنى، إلَّا أنَّ الأولى: فيها نفيُ جَعلِ الحِفْظِ منهُ تعالى له عليهم. والثَّانية: فيها نفيُ الوَكالَةِ عليهم، والمعنى: أنَّا لم نسلِّطْكَ، ولا أنت في ذاتك بمُسَلَّطٍ، فناسب أن تعرضَ عنهم؛ إذ لستَ مأمورًا منَّا بأن تكون حفيظًا عليهم، ولا أنتَ وكيلٌ عليهم من تلقائك[3].

الدَّعوةُ إلى اللهِ مهمَّةُ المرسلين، لا وكـالـةً عن أقـوامِـهـم أو حفظ شأنِهم

(1) فضل حسن عبّاس، البلاغة فنونها وأفنانها: 1/92.
(2) يحيى بن حمزة العلويّ، الطِّراز: 2/25.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/610.

﴿وَلَا تَسُبُّواْ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّواْ ٱللَّهَ عَدۡوَۢا بِغَيۡرِ عِلۡمٖۗ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمۡ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرۡجِعُهُمۡ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٠٨﴾ [الأنعام: 108]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

مِن مستلزماتِ نفي الحفظِ على الآخرين النَّهيُ عن سبِّ مقدَّساتِهم

بعد أن بيَّنَ سبحانه لرسولِهِ أنَّ الهدايةَ بيده، يهدي مَن يشاءُ، ويُضلُّ مَن يشاءُ؛ أتبعَها بنهي المؤمنين عن سبِّ أولئك الَّذين هم في ضلالٍ، هم وما يعبدون من دونِ اللّهِ؛ إذ لا جدوى من سبِّ المشركين، أو سبِّ آلهتهم ممَّا يدعون من دونِ اللّهِ؛ لأنَّ ذلك سيكون ذريعةً للإصرار على الكفرِ والتزامِ عبادتِهم وشركِهم، والتَّجرُّؤِ على سبِّ اللّهِ تعالى عَدْوًا بغيرِ علمٍ، وما ذاك إلَّا من قبيل تزيينِ الأعمالِ السَّيِّئةِ بأنَّها مُقتضَى الواقع، فنظَّم في هذه الآية جانبًا من أسلوبِ التَّعاملِ مع المشركين.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تَسُبُّواْ﴾: جذر الكلمةِ هو (سبَّ)، و(السَّبُّ): الشَّتمُ والقَطعُ والطَّعنُ، و(التَّسَابُّ) التَّشَاتُمُ والتَّقَاطُعُ[1]. سبَّهُ سبًّا فهو سَبَّابٌ، ومنه قيل للأصبع الَّتي تلي الإبهامَ: سبَّابةٌ؛ لأنَّه يُشارُ بها عند السَّبِّ، والسُّبَّةُ العَارُ[2]، سبَّه: قطعه، أو شتمَه، وأصله من ذلك[3]، وهذا المعنى هو المُراد في الآيةِ الكريمةِ؛ إذ أُرِيدَ به الشَّتمُ والطَّعنُ، وفي الحديث: «المُستبَّانِ شيطانانِ يتهاتَرانِ ويتكاذَبانِ»[4].

(1) الرّازيّ، مختار الصّحاح: (سبب).
(2) أبو العبّاس، المصباح المُنير: (سبب).
(3) ابن سيده، المُحكم: (سبب).
(4) ابن حِبّان، صحيح ابن حبّان، ص: 5726.

2) ﴿عَدْوًا﴾: (العَدْوُ) من الجذر الثُّلاثي (عَدَوَ)، يُقَالُ: عَدا فُلَانٌ عَدْوًا وعُدُوًّا، أَي: ظَلَمَ ظُلْمًا جَاوَزَ فِيهِ القَدْرَ[1]، والعَدْوُ: مَصْدَرٌ بمعنى: التَّعَدِّي والظُّلم والعُدوانِ ومُجاوزةِ الحَدِّ فيما لا ينبغي[2]، وهذا هو المعنى المُراد في الآية.

3) ﴿فَيُنَبِّئُهُم﴾: جذر الكلمةِ هو (نبأ)؛ والنَّبأ: الخبرُ، والجمع أنباءٌ[3]، يُقَالُ: نَبَأَ ونَبَّأَ وأَنْبَأَ، أَي: أَخبَرَ، ومنه (النَّبِيُّ)؛ لأنَّهُ أَنْبَأَ عَنِ اللّهِ[4]، وقوله تعالى: ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ۝١ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ ۝٢﴾ [النَّبأ: 1-2]، قيل عنِ القرآن، وقيل عنِ البعث[5]. وأتاني نبأٌ منَ الأنباء، وأُنبِئتُ بكذا وكذا، ونُبِّئتُ، واستنبأتُه: استخبرتُهُ[6]، وهذا هو المعنى المُراد في الآية.

4) ﴿زَيَّنَّا﴾: جذرُ الكلمةِ هو (زين)، الزَّينُ: نقيضُ الشَّينِ، زانه الحُسنُ يزينه زَيْنًا. وازدانتِ الأرضُ بعُشبِها، وازَّيَّنَتْ وتَزَيَّنَتْ، والزِّينةُ جامعٌ لكُلِّ ما يُتزيَّنُ به[7]، والزَّون: مَوضِعٌ تُنصَبُ فيه الأصنامُ وتُزيَّنُ، والزَّون: كلُّ شيءٍ يتَّخذُ ربًّا، ويُعبَدُ؛ لأنَّه يُزيَّنُ[8]. وهذا المعنى مهمٌّ في الآيةِ في قوله: ﴿كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ﴾، فيكون معنى التَّزيينِ للأعمال قبولَهمُ الأصنامَ آلهةً من دونِ اللّهِ.

❁ المَعْنى الإِجْمالِيُّ:

سدُّ الذَّريعةِ المُفضيةِ إلى المفسدةِ مُقدَّمٌ على جلبِ المصلحةِ

قال ابنُ عبَّاسٍ: سببُ نزولِ الآيةِ أنَّ كفَّارَ قريشٍ قالوا لأبي طالب: إمَّا أن ينتهي محمَّدٌ ﷺ وأصحابُه عن سبِّ آلهتِنَا والغَضِّ

(1) الأزهري، جمهرة اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (عدو).
(2) الفراهيديّ، العين: (عدو).
(3) ابن سيده، المُحكم، والرّازيّ، مختار الصّحاح: (نبأ).
(4) الرّازيّ، مختار الصّحاح: (نبأ).
(5) ابن سيده، المُحكم: (نبأ).
(6) الزّمخشريّ، أساس البلاغة: (نبأ).
(7) الفراهيديّ، العين: (زين).
(8) ابن سيده، المُحكم: (زين).

منها، وإمَّا أن نَسُبَّ إلهَهُ ونهجوه، فنزلَت، وقيل: كان المسلمون يسبُّون آلهتَهم، فنُهُوا؛ لئلَّا يكونَ سبُّهم سببًا لسبِّ اللهِ تعالى[1].

وقولهُ تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّواْ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ نهيٌ عن سبِّ المشركين وآلهتِهم، كي لا يقابلوا ذلك بالمثل، فقال: ﴿فَيَسُبُّواْ ٱللَّهَ عَدۡوَۢا بِغَيۡرِ عِلۡمٖۗ﴾، أي: باعتقاد السَّابِّ أنَّ خصمَه لا يعبدُ اللهَ حقيقةً، فإذا سبَّ معبودَهُ يعتقدُ أنَّه لم يسبَّ اللهَ تعالى وقد يكون المرادُ من نفي العلم نفيَ الشُّعورِ؛ لصدور السَّبِّ منهم في حالة الغضبِ والمُلاحاةِ، في المراءِ والجدالِ، ثمَّ بيَّنَ منشأَ ذلك فيهم، فجعلها كسُنَّةٍ كونيَّةٍ في أخلاقِ الأممِ وطبائعِها، فقال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمۡ﴾، أي: مضَت سُنَّةُ اللهِ في أخلاق البشرِ وشؤونِهم أن يستحسنوا ما يجرون عليه، ويتعوَّدونه، ممَّا كان عليه آباؤهم أو ممَّا استحدثوهُ لأنفسهم، ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرۡجِعُهُمۡ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾؛ ثمَّ إذا جاؤونا يومَ القيامة، فسيُنَبِّئُهُمُ اللهُ بما كانوا يعملون، وسينجلي لهم سوءُ أعمالهم[2]، وحكمُ هذه الآيةِ باقٍ في هذه الأمَّةِ، فإذا كان الكافرُ في منعةٍ وخيفٍ أن يسُبَّ الإسلامَ أو الرَّسولَ أو اللهَ؛ فلا يحلُّ لمسلم ذمٍّ دينِ الكافرِ، ولا صنمِهِ، ولا صليبِه، ولا يتعرَّضُ إلى ما يؤدِّي إلى ذلك[3]. والآيةُ أَصلٌ في قاعدةِ سَدِّ الذَّرَائع، وقد يستدلُّ بها على سقوطِ وجوبِ الأمرِ بالمعروف والنَّهي عن المُنكَرِ إذا خِيفَ من ذلك مفسدةٌ، وكذا كلُّ فعلٍ مطلوبٍ ترتَّبَ على فعلهِ مَفْسَدَةٌ أَقْوى منْ مَفْسَدَةِ تَرْكِهِ[4].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

معنى العطفِ في قولِهِ تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّواْ﴾:

قولُه: ﴿وَلَا تَسُبُّواْ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾، أي: ولا تذكروا آلهتَهم الَّتي يعبدونها بما فيها منَ القبائح[5]، والجملةُ عطفٌ على قوله: ﴿وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ١٠٦﴾ [الأنعام: 106]، والعطفُ يؤكِّدُ منَ الأمرِ بالإعراض عنهم، ويحقِّقُ أنَّ ليس المقصودُ منَ الإعراض

(1) الواحديّ، أسباب النّزول، ص: 221.
(2) الموصلّي، أولى ما قيل: 3/355.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/610.
(4) الإكليل، السّيوطيّ، ص: 120.
(5) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 2/177.

مِن لوازِمِ الإعراضِ عن المخالفين تركُ أذيَّتِهم والنَّأيُ عن حميَّتهم

تركَ الدَّعوةِ، بل المقصودُ الإغضاءُ عن سِبَابِهم وبَذِيءِ أقوالِهم، مع الدَّوام على متابعة الدَّعوة بالقرآن، فإنَّ النَّهيَ عن سبِّ أصنامِهم يؤذنُ بالاسترسالِ على دعوتِهم، وإبطالِ معتقداتهم، مع تجنُّبِ المسلمين سبَّ ما يدعونهم من دونِ اللّهِ[1].

أغراضُ النَّهي في قولِه تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّواْ﴾:

الإرشادُ المُلزمُ ضمن ملابساتٍ تشريعيَّةٍ ومواصفاتٍ اعتباريَّةٍ

السَّبُّ: كلامٌ يدلُّ على تحقيرِ المسبوبِ، أو نسبتِه إلى نقيصَةٍ، أو معرَّةٍ، بالبَاطل أو بالحقِّ، كأن يقول لهم: تبًّا لكم ولِمَا تعبدون من دونِ اللّهِ[2]، وقد خرجَ النَّهيُ هنا إلى معنى التَّوجيهِ المُلزِم، وليس منَ السَّبِّ النِّسبةُ إلى خطأٍ في الرَّأي أو العمل، ولا النِّسبةُ إلى ضلالٍ في الدِّين إن كان صَدَرَ مِن مخالفٍ في الدِّين، وما وردَ في القرآن الكريم على لسان نبيِّ اللّهِ إبراهيمَ قوله تعالى: ﴿أُفٍّ لَّكُمۡ وَلِمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ٦٧﴾ [الأنبياء: 67]، ليس منَ السَّبِّ المشمولِ في الآيةِ؛ لأنَّ الآيةَ تنهى عن سبٍّ ضمن ملابساتٍ تشريعيَّة، وضمن مواصفاتٍ اعتباريَّةٍ، يحدِّدُها أهلُ العلم، العاملون في الدَّعوةِ إلى دين اللّهِ عن فقهٍ وخبرةٍ لا عن حميَّةٍ وعاطفةٍ.

المواقفُ التَّربويَّةُ تقتضي التَّوجيهَ بأسلوبِ النَّهي

ليس المرادُ بالسَّبِّ المنهيِّ عنهُ في قوله: ﴿وَلَا تَسُبُّواْ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾، ما جاء في القرآن منَ الحجاجِ وبيانِ نقائصِ آلهتِهم، ممَّا يدلُّ على انتفاء إلهيَّتِها، كقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّۚ﴾ [الأعراف: 179]، أو قوله تعالى: ﴿أَلَهُمۡ أَرۡجُلٞ يَمۡشُونَ بِهَآۖ﴾ [الأعراف: 195]، فليس منَ الشَّتمِ ولا منَ السَّبِّ في شَيْءٍ؛ لأنَّ ذلك من طريق الاحتجاجِ والتَّبيينِ، وليس تصدِّيًا للشَّتم، فالمُرادُ في الآية ما يصدُر من بعض المُسلمين من كلماتِ الذَّمِّ والتَّعييرِ لآلهةِ المشركين، فخرجَ النَّهيُ هنا إلى أمرٍ تربويٍّ، لا نهيٍ عنِ الحجاج والدَّعوة والبيان.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/427.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/171.

النَّهيُ عن سبِّ الآخرين قضيَّةٌ تربويَّةٌ اجتماعيَّةٌ

وجهُ النَّهي عن سبِّ أصنامِهم هو أنَّ السَّبَّ لا تترتَّبُ عليه مصلحةٌ دينيَّةٌ، فمقصودُ الدَّعوة هو الاستدلالُ على إبطالِ الشِّركِ، وإظهارُ استحالةِ أن تكونَ الأصنامُ شركاءَ للّه تعالى فذلك هو الَّذي يتميَّزُ به الحقُّ عنِ الباطل، وينهضُ به المُحقُّ، ولا يستطيعه المُبطلُ، فأمَّا السَّبُّ؛ فإنَّه مقدورٌ للمحقِّ وللمبطل، فيظهر بمظهر التَّساوي بينهما.

ليس منَ الخُلقِ الحَسَنِ السَّبُّ مهما كانتِ المواقفُ، والسَّبُّ لا يأتي بخير قطعًا

ربَّما استطاع المبطلُ بوقاحتهِ وفحشهِ ما لا يستطيعهُ المحقُّ، فيلوح للنَّاس أنَّه تغلَّبَ على المحقِّ، على أنَّ سبَّ آلهتِهم لمّا كان يحمي غيظَهم، ويزيد تصلُّبَهم، قد عاد منافيًا لمرادِ اللّهِ منَ الدَّعوة، فقد قال لرسولهِ ﷺ: ﴿وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾ [النّحل: 125]، وقال لموسى وهارون عليهما السلام: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا﴾ [طه: 44]، فصار السَّبُّ عائقًا من المقصود منَ البعثة، فتمحَّضَ هذا السَّبُّ للمفسدةِ، ولم يكن مشوبًا بمصلحةٍ، وحكمُ هذه الآيةِ مُحكَمٌ، غيرُ منسوخٍ، قال العلماء: حكمُها باقٍ في هذه الأمَّةِ على كلِّ حالٍ[1].

سرُّ العدولِ عن خطابِ النَّبيِّ ﷺ إلى خطابِ المؤْمِنينَ:

دفعُ مَظِنَّةِ أن يكونَ النَّهيُ خاصًّا به ﷺ

دلَّ قولُه: ﴿وَلَا تَسُبُّواْ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ على الكفِّ عن سبِّ السُّفَهاء الَّذين يتسرَّعون إلى السَّبِّ على وجه المقابلةِ؛ لأنَّه بمنزلةِ البعثِ على المعصيةِ[2].

والمخاطَبُ بهذا النَّهي المسلمون لا الرَّسُول ﷺ لأنَّ خُلُقَهُ العظيمَ ﷺ حائِلٌ بينَهُ وبينَ ذلك، ولأنَّهُ يدعوهُم بما ينزلُ عليه منَ القرآن، وإنَّما كان المُسلمون لغيرتِهم على الإسلام رُبَّما تجاوزوا الحَدَّ، فَفَرَطَتْ منهُم فَرَطَاتٌ سبُّوا فيها أصنَام المُشركِينَ[3]، فقال: ﴿وَلَا

(1) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 7/61.
(2) الكيا الهراسّي، أحكام القرآن: 3/124.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/427.

﴿تَسُبُّواْ﴾، ولم يقُل: (ولا تَسُبَّ): فلمَّا أمرَ تعالى باتِّباع ما أُوحِي إليه وبموادعة المشركين عَدَلَ عن خطابِهِ إلى خطابِ المؤمنين، فنُهُوا عن سَبِّ أصنامِ المشركين، وذكرَ أبو حيَّان الأندلسيُّ قوله: إنَّهُ لم يُواجَه ﷺ بالخطاب، وإن كان هو الَّذي سُبَّتِ الأصنامُ على لسانه، وأصحابُه تابعون له في ذلك، لما في مواجهتِهِ وحدَه بالنَّهي من خلافِ ما كان عليه ﷺ منَ الأخلاقِ الكريمةِ؛ إذ لم يكنْ ﷺ فحَّاشًا، ولا صَخَّابًا، ولا سَبَّابًا، فلذلك جاءَ الخطابُ للمؤمنين، فقال: ﴿وَلَا تَسُبُّواْ﴾ مخاطبًا الجمع، ولم يكن التَّركيبُ (ولا تَسُبَّ) للمفرد، كما جاء ﴿وَأَعۡرِضۡ﴾، وإذا كانتِ الطَّاعةُ تؤدِّي إلى مفسدةٍ؛ خرجَت عن أن تكون طاعةً، فيجبُ النَّهي عنها كما يُنهَى عنِ المعصية[1].

ولأمرٍ آخر، وهو دفعُ مَظِنَّةِ أنَّ النَّهيَ خاصٌّ به ﷺ وأنَّ ما دونه منَ المؤمنين غيرُ مُلامين كلَوْمِه.

نكتةُ اختيارِ مفردةِ (السَّبِّ):

كلمةُ (السَّبِّ) شاملةٌ لجميع أوجه الشَّتائم

في قولِه تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّواْ﴾ لم يقُل: تشتموا، أو تلعنوا، أو غيرها منَ الألفاظ؛ إذ إنَّ كلمةَ السَّبِّ شاملةٌ لجميع أوجهِ السِّباب، منها: الشَّتائمُ والتَّلاعُن وغيرها، فاختارها لتشملَ كلَّ تلك الأنواع، فيكون التَّوجيهُ في النَّهي عنها كلِّها، وكلُّ كلامٍ ساقطٍ وفاحشٍ وبذيءٍ موجَّهٌ للآخرين بغايةِ الإهانة يُعدُّ سبًّا، فلو قال: ولا تشتموا، فإنَّه لا يشتملُ على التَّلاعن، واللَّعنُ: هو الطَّردُ والإبعادُ على سبيل السَّخَطِ[2]. والشَّتمُ قبيحُ الكلامِ، وليس فيه قذفٌ[3]، والشَّتمُ الوصفُ بصفاتٍ مُهينةٍ وتلفيقُهُ عيوبًا قد لا تكون في المشتوم، والغايةُ منها الطَّعنُ فيه.

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/611.
(2) الرّاغب الأصفهانّي، المفردات: (لعن).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (شتم).

نكتةُ استعمالِ ﴿ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ﴾ دون لفظِ (المشركين):

يُلحظُ أنَّ الواردَ في السِّيَاق هو ذكرُ (المُشركين)، فلماذا أتى هنا بوصفٍ آخر، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾؟ فيحتمل أن يُرادَ بـ ﴿ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ﴾ المشركون أنفسُهم، وليس الأصنامَ الَّتي عبدوها، وظاهرُ قوله: ﴿فَيَسُبُّواْ ٱللَّهَ﴾ أنَّهُم يُقدِمون على سَبِّ اللّهِ؛ إذا سُبَّتْ آلهتُهم، وإن كانوا مُعترفين باللّهِ تعالى لكن يحملهم على ذلك انتصارُهم لآلهتهم وشدَّةُ غيظِهم لأجلها، فيخرجون عنِ الاعتدال إلى ما ينافي العقل.

نُهِيَ عن سبِّ الكُفَّارِ ومعبوداتِهم لأنَّه يؤدِّي إلى سبِّ المسلمين ودينهم

فنُّ الاحتباكِ:

في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ احتباكٌ تقديرهُ: ولا تسبُّوا آلهةَ المشركين، وتسبُّوا الَّذين يدعون من دونِ اللّهِ، فيسبُّوا اللّهَ عدوًا بغير علم، ويسبُّونكم، وذلك على معنى أنَّ المقصودَ بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ﴾ المشركون، وبلاغةُ الاحتباكِ تظهرُ في إظهار المشركين، إذِ الحميَّةُ في الحقيقةِ لأنفسِهم، وفي المقابل فإنَّ الآيةَ أظهرَت اسمَ اللّهِ تعالى إذِ الانتصارُ له سبحانه على الحقيقةِ.

انتصارُ المشركين على الحقيقةِ لأنفسِهم بخلاف المؤمنين

فائدةُ استعمالِ الاسمِ الموصولِ:

في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أفاد استعمالُ الاسمِ الموصولِ العمومَ، وقد أتى هنا في سياقِ الذَّمِّ، ففي السِّياقِ تشنيعٌ بحالِ أولئك الَّذين يدعُون من دونِ اللّه؛ إذ يؤدِّي بهم الحالُ إلى سَبِّ اللّهِ، فأفَادَ العُمُومَ ليَشمَلَ كُلَّ الَّذين يدعُون من دونِ اللّهِ على مرِّ الأزمنة، وتَنَوُّع الأقوام والأمَم، ولذلك فَقَد ذَيَّلَ الآيةَ بقولِه: ﴿كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمۡ﴾، فَذَكَرَ كُلَّ أمَّةٍ؛ ليُناسبَ ذلك التَّعميمَ الَّذي ابتدأَ بهِ السِّياقُ.

شملَ السِّياقُ كُلَّ الَّذين يدعون من دون اللّهِ على مرِّ الأزمنةِ وتَنَوُّع الأمَمِ

فائدةُ استعمال ﴿يَدۡعُونَ﴾ دون (يعبدون):

المرادُ بقولِه: ﴿يَدۡعُونَ﴾ يعبدونَ، ويسألونَ، فهم يعبدونَ الأصنامَ،

ويسألونَها جلبَ المنافع ودفعَ المضارِّ، ويعبدونها أيضًا بالرُّكوع والسُّجود والنُّذور وغير ذلك. ومثال ذلك قولهُ تعالى: ﴿وَأَعۡتَزِلُكُمۡ وَمَا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدۡعُواْ رَبِّي عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيّٗا ٤٨ فَلَمَّا ٱعۡتَزَلَهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۖ وَكُلّٗا جَعَلۡنَا نَبِيّٗا ٤٩﴾ [مريم: 48 - 49].

مَن دعا غيرَ اللهِ، فقد عبدَهُ، ومن عَبَدَ غير الله فقد عادى الله

وآثرَ النَّظمُ ذِكرَ الدَّعوةِ دونَ العبادةِ؛ لبيانِ أنَّ الدُّعاءَ مذمومٌ، فكيفَ بالعبادةِ الَّتي هو جزءٌ منها؟ فمَن طلبَ منَ الأصنامِ تحقيقَ مسألةٍ، فهو يعبدُها، فالدُّعاء إنَّما يكون للهِ وحدَهُ، فمَن دعا غيرَ اللهِ، فقد عبدَهُ.

نكتةُ استعمالِ الفعلِ المضارعِ في: ﴿يَدۡعُونَ﴾:

الفعلُ المضارعُ ﴿يَدۡعُونَ﴾، يدلُّ على التَّجدُّدِ والاستمرارِ مع الزَّمن، وفائدتهُ: أنَّ هؤلاء يبتكرون مع مرورِ الأزمان وتغيُّرِ الأجيال طرقًا جديدةً في دعوتهم لغير اللهِ منَ الأصنام والآلهة، يتقرَّبون إليهم بأساليبَ شتَّى، مُتجدِّدةٍ مع الزَّمن، فشملت كلمةُ ﴿يَدۡعُونَ﴾ تلك الأساليبَ والطُّرقَ، وناسب الفعلُ المضارعُ لفظَ ﴿يَدۡعُونَ﴾ لما فيهما من قبولِ التَّنوُّعِ في المعنى واحتمالِ التَّجدُّدِ.

يبتكرُ المشركونَ مع مرورِ الأزمانِ وتغيُّرِ الأجيالِ طرقًا جديدةً في دعوتِهم لغيرِ الله

دلالةُ حذف مفعول ﴿يَدۡعُونَ﴾:

يمكنُ اعتبارُ المفعولِ محذوفًا على تقديرِ أنَّ الاسمَ الموصولَ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ يدلُّ على الأصنام في ذاتها، ويمكن أن يُرادَ بـ ﴿ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ المشركون أنفسُهم؛ إذ يدعُون من دون اللهِ، فلا يكون المفعولُ محذوفًا، والمرادُ بالموصول في قولهِ تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ جميعُ منِ اتَّخذ غيرَ اللهِ تعالى مُتَّكَلًا ومُعتَمَدًا، سواءٌ أكانوا آلهةً يعبدونهم، ويدعونهم، أو غير ذلك من بني البشرِ؛ ولهذا عُدِل عن ذكرِهم، فلم يقُل: آلهةً أو أولياءَ أو أندادًا، مثل قوله تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡلِيَآءَ﴾ [العنكبوت: 41]، وقوله

عدمُ تعيينِ المدعوّ من دونِ الله إشارة إلى كثرتهم

تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا﴾ [البقرة: 165]، فأضمرَ مفعولَ ﴿يَدْعُونَ﴾؛ لزيادة الفائدةِ والتَّوسُّعِ في معنى: مَن يدعُون من دونِ الله، ففيه إيماءٌ إلى أنَّ المدعوّين من دون الله تعالى كثرة، كما أنَّ فيه إشارةً إلى أنَّ الأيَّام القادمة ستأتي بأشكال وصور وألوانٍ مستمرة ومتجدِّدة للمدعوِّين من دون الله تعالى، فلكلِّ زمانٍ آلهةٌ خاصَّةٌ به، ولكل وقتٍ دعاةٌ على أبوابِ جهنَّم.

براعةُ استعمالِ ﴿مِن دُونِ﴾ دون (غير):

في اسْتِعْمالِ قوله: ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ دون (غير الله) لفتٌ للأنظار إلى دونيَّةِ الآلهةِ الَّتي يدعونها من دون الله - ﷻ - فاللهُ وحدَه الخالقُ المُقدِّرُ الَّذي يستحقُّ العبادةَ منهم، وأمَّا ما يعبدون غيرَهُ، فهم لا يرتقون إلى مكانةِ الإلهِ القادرِ الخالقِ المُقدِّرِ، فدلَّ التَّعبيرُ على دونيَّةِ آلهتِهم وما يدعون ويعبدون.

جميعُ الأغيارِ سوى اللهِ تعالى هي دُونٌ وسُفلٌ

دلالةُ الفاءِ في قولِه تعالى: ﴿فَيَسُبُّواْ﴾:

الفاءُ في قوله: ﴿فَيَسُبُّواْ ٱللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ فاءُ السَّبَبِيَّة؛ لأنَّها جاءت بعد طلبٍ، والكلامُ الَّذي قبلها سببٌ للكلام الَّذي بعدها، فدلَّت على أنَّ الكلامَ مُوجَّهٌ للمخاطَبين ألَّا يجعلوا أنفسَهم سببًا لمحذورٍ شرعيٍّ، وهو جرأةُ الكُفَّارِ على سبِّ اللهِ تعالى بغيرِ علمٍ، ومن ذلك قولهُ تعالى: ﴿كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَلَا تَطْغَوْاْ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِى﴾ [طه: 81].

اقتضتِ الحكمةُ ألَّا يتسبَّبَ المؤمنُ في إيقاعِ الباطل

فائدةُ استعمالِ لفظ الجلالةِ في: ﴿فَيَسُبُّواْ ٱللَّهَ﴾:

ذكرتِ الآيةُ في قوله تعالى: ﴿فَيَسُبُّواْ ٱللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ لفظَ الجلالةِ، ولم يقُل: (فيسبّونكم)، وهو الأليقُ بالظَّاهر، لكنَّ النَّظمَ جاء وفقَ الحالِ، بتنفيرِ المؤمنين مِن أشنعِ نتيجةٍ لسبِّهم غيرَهم بأن يسبُّوا اللهَ - ﷻ - وكان المُسلِمون يسبُّون الأصنامَ، والمُشركون

إقناعُ المخاطَبين ببيانِ فُحشِ ما يؤولُ إليه سَبُّ الآخرين

كانوا يسبُّون الرَّسولَ، فأُجرِيَ سبُّ الرَّسول مجرى سبِّ اللّهِ تعالى[1] كما قال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾ [الفتح: 10]، وكما قال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ [الأحزاب: 57]، أو كان بعضُهم يعتقدُ أنَّ شيطانًا يحملُ الرَّسولَ على ادِّعاء النُّبوَّةِ والرِّسالة، فكانوا يسبُّون إلهَ محمَّدٍ، يريدون بذلك الشَّيطانَ. وقال الأصفهانيُّ: إنَّ سَبَّهُم للّهِ ليس على أنَّهم يَسُبُّونَهُ صريحًا، ولكن يخوضُون في ذكرِهِ، فيذكرُونَهُ بما لا يَليقُ به، ويَتَمَادَون في ذلك بالمُجادلةِ، فيزدَادُون في ذكرِهِ بما تنزَّه تعالى عنهُ[2].

توجيهُ القراءاتِ القرآنيَّةِ في: ﴿عُدُوًّا﴾:

من معاني (العَدْوِ) الاعتداءُ والظُّلمُ

قولهُ تعالى: ﴿فَيَسُبُّواْ ٱللَّهَ عَدۡوَۢا﴾، أي: ظلمًا، وقرأ يعقوبُ مشدِّدًا: ﴿عُدُوًّا﴾، وهو نصبٌ على المصدر، وقرأ الباقون: ﴿عَدۡوَۢا﴾[3]، وهو مُخفَّفٌ، أي: أعداءً، وهو نصبٌ على الحالِ، يقال: عدا فلانٌ عَدْوًا وعُدُوًّا وعُدْوانًا وعِداءً، أي: ظَلَمَ ظُلْمًا[4].

فنُّ التَّعريضِ في قولهِ: ﴿عَدۡوَۢا﴾:

سبُّ المُشركين وآلهتهم ليس اعتداءً عليهم على التَّحقيقِ

﴿عَدۡوَۢا﴾: تجاوزًا عنِ الحقِّ إلى الباطل[5]، وهو مصدرٌ بمعنى العُدوان والظُّلم، وهو منصوبٌ على المفعوليَّةِ المُطلَقةِ لـ (يَسُبُّوا)؛ لأنَّ العَدوَ هنا صفةٌ للسَّبِّ، فصحَّ أن يحلَّ محلَّه في المفعوليَّةِ المُطلقة بيانًا لنوعهِ، ووَصفُ سَبِّهِم بأنَّه عَدوٌ تعريضٌ بأنَّ سبَّ المسلمين أصنامَ المشركين ليس منَ الاعتداءِ، وجَعلَ ذلك السَّبَّ - أي: سبُّ المشركين وتجاوزهم - عدوًا[6].

---

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/611.
(2) الرّاغب الأصفهانّي، المفردات: (سبب).
(3) ابن الجزريّ، النّشر: 2/261.
(4) ابن منظور، لسان العرب: (عدو).
(5) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 2/177.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/432.

سرُّ التَّعبيرِ عنِ الجهل بقولِه: ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍۗ﴾:

تبقى المنظومةُ الفكريَّةُ لدى غيرِ المؤمنين قاصرةً عن إدراك العلمِ عنِ اللهِ تعالى

قولُه: ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍۗ﴾ حالٌ من ضميرِ ﴿فَيَسُبُّواْ ٱللَّهَ﴾، أي: عن جهالةٍ باللهِ - ﷻ - وبما يجب أن يُذكَرَ بهِ[1]، ويسبُّونه غيرَ عالمين بأنَّهم يسبُّون اللهَ؛ لأنَّهُم يسبُّونَ مَن أمَرَ محمَّدًا ﷺ بما جاء بهِ، فيصادف سبُّهم سبَّ اللهِ تعالى لأنَّه الَّذي أمرهُ بما جاءَ بهِ، فلو كانوا يعلمونَ عظيمَ شأنِ اللهِ؛ ما تجرَّؤوا على هذا الفعلِ، فذكرَ ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍۗ﴾ احتراسًا بأنَّهم لو علموا عظيمَ ما يفعلون، أو يقولون من سبِّ اللهِ؛ لامتنعوا عن ذلك.

ويجوز أن يكونَ ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍۗ﴾ صفةً لـ ﴿عَدْوًا﴾ كاشفةً؛ لأنَّ ذلك العدوَ لا يكون إلَّا عن غيرِ علمٍ بعظم الجُرمِ الَّذي اقترفوهُ، أو عن علم بذلك، لكنَّ حالةَ إقدامِهم عليه تشبهُ حالةَ عدمِ العلمِ بوخامةِ عاقبتِه[2].

ومعنى: ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍۗ﴾، أي: على جهالةٍ بما يجبُ للهِ تعالى أن يُذكرَ بهِ، وهو بيانٌ لمعنى الاعتداءِ[3].

بلاغةُ تشبيهِ المشارِ إليه بالمذكورِ في ﴿كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا﴾:

الاغترارُ بالأعمالِ واتِّخاذُها زينةً ديدنُ الأممِ المكذِّبةِ والأقوامِ المنكرةِ

وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ﴾ منَ الخير والشَّرِّ بإحداث ما يُمَكِّنُهُمْ منه، ويحملُهم عليه توفيقًا وتخذيلًا[4]، فكما زيَّنَّا لهؤلاء سوءَ عملِهم زيَّنَّا لكلِّ أمّةٍ عَمَلَهُم، فشبَّه المُشَارَ إليه بالمذكور، والمشارُ إليه هو ما حكاه اللهُ عنهم بقوله: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ﴾ [الأنعام: 100] إلى قولِه: ﴿فَيَسُبُّواْ ٱللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍۗ﴾ [الأنعام: 108]، فإنَّ اجتراءَهُم على هذه الجَرائم، وعَمَاهُم عنِ النَّظَرِ في سُوءِ عَوَاقِبِها، نَشَأ عن تزيينِهَا في نُفوسِهم، وحسبانِهم أنَّها طرائقُ نَفعٍ لهم، ونجاةٌ

(1) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 2/177.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/432.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/612.
(4) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 2/177.

وفوزٌ في الدُّنيا بعنايةِ أصنامِهم، فعلَى هذهِ السُّنَّة، وبِمُمَاثِلِ هذا التَّزيينِ زيَّن اللّهُ أعمالَ الأممِ الخاليةِ مع الرُّسلِ الَّذين بُعِثُوا فيهم، فيُشَاكِسُونَهُم، ويعصون نصحَهم، فلمَّا شبَّه بالمشارِ إليه تزيينًا عَلِمَ السَّامعُ أنَّ ما وقعت إليه الإشارة، هو من قبيل التَّزيين[1]. وفي هذا الكلام تعريضٌ بالتَّوَعُّد بأن سَيَحُلَّ بمشركِي العرب منَ العذاب مثل ما حَلَّ بأولئك في الدُّنيا، ويجوز تخصيصُ العمل بالشَّرِّ وكُلِّ أمَّةٍ بالكفرة؛ لأنَّ الكَلام فيهِم، والمُشَبَّهَ به تزيينُ سَبِّ اللّهِ لهم[2].

دلالةُ إسنادِ فعلِ التَّزيينِ إلى الضَّميرِ العائدِ على اللهِ تعالى:

تزيينُ اللهِ تعالى أعمالَ المشركين استحقاقٌ، بعد أن اختاروا عبادةَ غيرِ اللهِ

أُسندَ فعلُ التَّزيين إلى الضَّميرِ العائدِ على اللّهِ تعالى في قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا﴾، وفي آية النَّمل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَهُمۡ يَعۡمَهُونَ ۝٤﴾ [النمل: 4]، وأمّا فيما سواهما فقد جاء فعلُ التَّزيين مبنيًّا للمفعول في القرآنِ كلِّه، كقوله تعالى: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنٗاۖ﴾ [فاطر: 8]، أو أنَّه أُسنِدَ فعلُ التَّزيينِ للشَّيطان، كما في آية الأنفالِ قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلۡيَوۡمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّي جَارٞ لَّكُمۡۖ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلۡفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّنكُمۡ إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوۡنَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ۝٤٨﴾ [الأنفال: 48].

والفائدةُ من إسنادِ فعلِ التَّزيينِ إلى الضَّميرِ العائدِ على اللّهِ تعالى في هذين الموضِعين منَ القرآن: أنَّ تزيينَ اللّهِ أعمالَهُم سبقَهُ ذكرُ عدمِ إيمانِهم باللّهِ تعالى وإنْكارِهمْ ألوهيَّتَهُ سبحانه وربوبيَّتَهُ عليهم، فأتبعها بقولِه: ﴿كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمۡ﴾، فالأعمالُ المقصودةُ الَّتي ذُكِرَت هُنا في مَعرِض التَّزيينِ قائمةٌ على عدم الإيمانِ باللّهِ فحسبُ، فاستحقُّوا بعد أن اختاروا الشِّركَ والعبادةَ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/432.

(2) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 2/177، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/171.

من دونِ اللّهِ أن يُزيِّنَ لهم اللّهُ أعمالَهم، فيعمهون عنِ الحقِّ، فيتلبَّسهم الإشراكُ بفعل هذا التَّزيين.

نكتةُ تقديم الجارِّ والمجرورِ على المفعولِ:

في قولِه: ﴿كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ﴾ جاء تقديمُ الجارِّ والمجرورِ على المفعولِ، ليَدلَّ على أنَّ تزيينَ الأعمالِ شاملٌ لكلِّ أمَّةٍ، على حين لو وردتِ الآيةُ من غير تقديمٍ، وقيل: (كذلك زيَّنَّا للأمم أعمالَهم)؛ لاحتمل إيقاعُ تزيينِ الأعمالِ على بعض الأمَم دونَ غيرِها، وجاء في (الإتقان): "كاد أهلُ البيان يطبقون على أنَّ تقديمَ المعمولِ يفيدُ الحصرَ"[1]، ولا تخلو كلُّ أمَّةٍ من أن يكونَ فيها مشركون يعبدون من دونِ اللّهِ، أو ملحدون رفضوا الإيمانَ جملةً وتفصيلًا، فزُيِّنَ لهذه الأمَّةِ عملُهُم منَ الشِّرك، فأفرد العملَ لإرادةِ الشِّرك.

التَّزيينُ سنَّةٌ اجتماعيَّةٌ شاملٌ كلَّ أمَّةٍ دون استثناءٍ

إيثارُ استعمالِ ﴿عَمَلَهُمْ﴾ بالإفراد لا الجمع:

أفرَدَ العَمَلَ العائدَ على الأمم، فقالَ: ﴿عَمَلَهُمْ﴾ لإرَادَةِ الشِّركِ دُونَ غَيرِهِ مِنَ الأعمَالِ، ولم يقل: (زيَّنا لهم أعمالَهم)، مع أنّ مُقتَضَى الظَّاهِرِ شامِلٌ لِجميعِ الأعمالِ، والكَلامُ يَعودُ إلى الَّذينَ يدعُونَ مِن دُونِ اللّهِ جَميعِهم، وذلك لِبَيانِ سُنَّةٍ ماضِيَةٍ في الأمَمِ والأقوَامِ، أنَّهُم يُكذِّبون الرُّسُلَ، ولا يؤمِنُونَ بالآخِرَةِ، ويَصُدُّونَ عن سَبيلِ اللّهِ، وَجعَلَ ذلِكَ كلَّهُ من قَبيلِ العَمَلِ الواحِدِ، فهو في خانَةِ الإشراكِ والعِبادَةِ من دُونِ اللّهِ، فاقتَضَى ذلِكَ تزيينَ أعمالِهم لهُم، فيرونَ مَا يَفعَلون منَ الإشراك حَسَنًا، قال تعالى: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا﴾ [فاطر: 8].

أعمالُ المشركين كالعملِ الواحدِ إذ تقع جميعُها تحتَ اسمِ الشِّرك

مفهومُ الأممِ بين خصوصِ الكافرين والعمومِ:

ظاهر قوله: ﴿كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ﴾ شاملٌ لعموم الأممِ،

(1) السّيوطيّ، الإتقان: 2/51.

فيدخل فيه المؤمنون والكافرون، وتزيينُهُ هو ما يخلقُه، ويخترعُه في النُّفوس منَ المحبَّةِ للخيرِ أو الشَّرِّ والاتِّباع لطرقهِ، وتزيينُ الشَّيطان هو ما يقذفُه في النُّفوس منَ الوسوسةِ وخطراتِ السُّوء[1]، وخصَّ الزَّمخشريُّ قولَهُ: ﴿عَمَلَهُمْ﴾ في أمم الكفَّارِ بسُوءِ عملِهم، أي: "خلَّينَاهُم وشأنهم، ولم نكفهم، حتَّى حَسُنَ عندَهم سوءُ عملهم، أو أمهلنَا الشَّيطانَ حتَّى زيَّن لهم، أو زيَّنَّاهُ في زعمهم، وقولهم: إنَّ اللهَ أمرنا بهذا، وزيَّنه لنا"[2]، وهو ما يُرشِّحُه السِّياقُ؛ ولا تعارضَ بينهما، فإنَّ الظَّاهرَ يقتضي دخولَ جميعِ الأممِ، والسِّياقَ يقتضي دخولَ الكافرةِ، فيكون معنى التَّزيين للكافرةِ هو تزيينُ الشَّيطانِ، ومعناهُ لغير الكافرةِ، هو ما فيها من ميلٍ لقناعاتِها وأفكارِها وسلوكيَّاتِها.

التَّزيينُ في معنى الخصوصِ هو تزيينُ الشَّيطانِ لِلنَّفْسِ، والعمومِ هو ميلُها لسلوكيَّاتها

دلالةُ العدولِ عنِ التَّعبيرِ بالضَّميرِ المفردِ إلى الجمع:

قال سبحانهُ: ﴿عَمَلَهُمْ﴾، ولم يقُل: (عملها)، وهو مقتضى الظَّاهر؛ لأنَّه يعودُ على لفظِ ﴿أُمَّةٍ﴾، ونكتة ذلك أنَّ أعمالَ النَّاس في الأمَّة الواحدة تختلفُ إيمانًا وكفرًا على درجاتٍ لا يعلمُها إلَّا اللهُ، وكذلك فإنَّ درجاتِ التَّزيينِ تتفاوتُ من إنسانٍ إلى آخرَ، فيكون التَّزيينُ على مستويين: أمميٍّ يشتركُ فيه القومُ جميعًا ممَّا تتناقلُه الأمَّةُ منَ العادات المخالفةِ لشرعِ اللهِ، وفرديٍّ ممَّا يتميَّزُ فيه كلُّ فردٍ عن غيره من أفرادِ مجتمعِه.

أعمالُ النَّاس في الأمَّةِ الواحدةِ تتفاوتُ إيمانًا وكفرًا

نكتةُ إفرادِ ﴿عَمَلَهُمْ﴾، والأممُ لها أعمالٌ متعدِّدةٌ:

من بلاغةِ صيغِ الإفرادِ في القرآنِ الكريم الدِّلالةُ على الجنس، فلم يقُل: (الأعمال)، ولو أنَّه ذكر الجمعَ لقصدَ شمولَ أعمالِهم عملًا عملًا، ولكنَّه جعلها بصيغةِ المفردِ بقصد الدِّلالةِ على بعض جنسِ الأعمالِ، وإنَّما ذكرَ (العمل)؛ ليدلَّ على إشراكِهم؛ لأنَّه عمودُ

الاعتقادُ قِوامُ الأعمالِ كلِّها، وهو أصلُ بنائِها، ومردُّها إليهِ

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/612.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/53.

ما يقدِّمُ المرءُ منَ الأعمال، فإنْ أشركَ؛ فقد حبطَ عملُه كلُّه، وكذلك حال الأمم، فمهما بلغَت مِنَ الرُّقيِّ والحضارة، ثمَّ إنَّها أشركَت باللّه، فقد حبطَ عملُها عند اللّه، وبالتَّوحيد قوامُ الأعمال كلِّها، وهو أصلُ بِنائِها، ووحَّدَه؛ لأنَّ الواحدَ هو الدَّالُّ على معنى الجنسيَّةِ، وقصدُهُ إلى أنَّ هذا الجنسَ الَّذي هو العمودُ والقِوامُ وأشدُّ ما تركَّبَ من أعمال الأمم، قد أصابه التَّزيينُ، ولو جُمِعَ؛ لكان قصدًا إلى معنًى آخر، وهو أنَّه لم تُزيَّن بعضُ أعمالِه، ولكن تزيَّنت كُلُّها، ويقول الطيبيُّ في هذا المقام: "إنَّ الكلامَ إذا كان مُنصبًّا إلى غرضٍ منَ الأغراض؛ جعل سِيَاقهُ له، وتوجُّهه إليه، كأنَّ ما سواه مرفوضٌ مطَّرحٌ"[1].

بلاغةُ العطفِ بين الجمل بحرف ﴿ثُمَّ﴾:

الانتقالُ منَ التَّعريضِ بالوعيدِ إلى التَّصريحِ به

لِأَجْلِ ما في قوله: ﴿كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ﴾ منَ التَّعريض بالوعيدِ بعذاب الأمم عقَّبَ الكلامَ بـ ﴿ثُمَّ﴾ المفيدةِ للتَّرتيبِ الرُّتبيِّ في قوله: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾؛ لأنَّ ما تضمَّنَتْهُ الجملةُ المعطوفةُ بـ ﴿ثُمَّ﴾ الَّتي احتوَت على وعيدِ الآخرةِ، ولقاءِ اللّهِ، أعظمُ ممَّا تضمَّنَتْهُ الجملةُ المعطوفُ عليها، وهو التَّزيينُ في الدُّنيا للأعمال، وما هم فيه منَ الضَّلالِ؛ لأنَّ الوعيدَ الَّذي عُطِفَت جملتُهُ بـ ﴿ثُمَّ﴾ أشدُّ وأنكى، ثُمَّ إنَّ الجُملتين يربطُهما رابطُ الرُّتبةِ، فالأُولى: الوعيدُ بتزيينِ الأعمالِ، وما يستحقُّ الضَّلال منَ العقوبة، والثَّانية: الرُّجوعُ إلى اللّهِ تعالى والحسابُ، وأخذُ ما يستحقُّون على أعمالِهم.

نوعُ التَّراخي المُستفاد في: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ﴾:

التَّراخي الرُّتبيُّ لبيانِ أنَّ مَرجعَهم أعظمُ وعيدًا

تأتي (ثمَّ) للتَّراخي الزَّمانيِّ، وتأتي كذلك للتَّراخي الرُّتبيِّ؛ تشبيهًا لتباعُدِ الرُّتبةِ بتباعدِ الزَّمان، فتأتي لتُباعِدَ ما بين المعطوفَين في الشِّدَّةِ والفظاعةِ، أو في علوِّ الأجرِ والفضلِ، أو لعظيمِ العذابِ،

(1) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 9/564.

ومعناها في قوله ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ﴾: وأعظمُ من ذلك أنَّهم إلى ربِّهم مرجِعُهُم، ومثال ذلك قوله تعالى: ﴿وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ۝١١ ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ ۝١٢ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ۝١٣﴾ [الأعلى: 11 - 13]. فقوله: ﴿ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾، أي: "وأعظم من ذلك" خلودُهُ في النَّارِ، فهو أفظعُ من دخولِهِ النَّارَ وصَلْيِهِ.

دلالةُ حرفِ الانتهاءِ (إلى) في دخولِه على ﴿رَبِّهِم﴾:

انقضاءُ الفترةِ الزَّمانيَّةِ الَّتي هي ميدانُ الأعمالِ هو بدايةُ المحاسبةِ عليها

يصلُ أثرُ الفعلِ إلى المفعول بحرف الجَرِّ لتعذُّرِ وصولِ الفعلِ مباشرةً للمفعول به، فيفيد حرفُ الجرِّ هنا انتهاءَ الغايةِ الزَّمانيَّةِ بقوله: ﴿إِلَىٰ رَبِّهِم﴾ كنايةً عن نهاية الحياةِ الدُّنيا، وانقضاءِ الفترةِ الزَّمانيَّةِ الَّتي هي ميدانُ الأعمال، فلا يكون لديهم ثمَّةَ فرصةٌ للتَّغيير والتَّوبة، فأوحى هذا الحرفُ بالانتقالِ من حياةٍ إلى حياةٍ أخرى لا سبيلَ معها للعودةِ إلى الحياةِ الأُولى، فهي ترجمةٌ لليأسِ منَ التَّكاليف، وابتداءِ الحسابِ السَّرمديِّ.

نكتةُ تقديمِ الجارِّ والمجرورِ على المسندِ إليه:

اللهُ تعالى هو القَيُّومُ على خَلقِهِ، الحَافظُ لأعمَالِهِم دونَ غيرِه

في قولِه تعالى: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ﴾ أفادَ تقديمُ الجارِّ والمجرور: ﴿إِلَىٰ رَبِّهِم﴾ الاختصاصَ، فالرُّجوعُ إلى اللهِ وحدَه؛ ليجزيهم بما كانوا يعملون، فمَن أشرَكَ فقد حبط عملُه، والعِبرةُ تكون بختام الأعمالِ والآجالِ.

وتقديمُ ﴿إِلَىٰ رَبِّهِم﴾ جاءَ في مقابل ما ذكرَ في الآيةِ السَّابقةِ من نفي حفظِه ووكالتِه ﷺ عليهم، فذكرَ هنا المختصَّ على الحقيقةِ بحفظِ الأعمالِ والمجازاةِ عليها.

نكتةُ العُدُول عن لفظِ الجَلَالَة (الله):

عقابُ المحسنِ بعدَ الإساءةِ إليه ليس كعقابِ غيرِه

العدولُ عن اسمِ الجلالةِ إلى لفظ ﴿رَبِّهِم﴾ في قوله: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ﴾؛ لقصدِ تهويلِ الوعيدِ، وتعليلِ استحقاقِه بأنَّهم يرجعون

إلى خالقِهم[1]؛ إذ كفروا به، وأشركوا في اعتقادهِم وعبادتِهم، وهم حينها واقعون في يدهِ، فلمَّا كفروا بمَن خلقَهم استحقُّوا عذابَهُ؛ فكأنَّه يقول لهم: ثمّ سترجعون إلى من خلقكم ورزقكم وربَّاكم ورعاكم، ثمّ كفرتم به، ففيه وعيدٌ شديدٌ، وتهديدٌ فظيعٌ لما فيه من تذكير بمعاني الإحسان، وإنَّ عقابَ المحسنِ بعد الإساءةِ إليه ليس كعقابِ المجرَّد عن الإحسانِ إلى أحدٍ.

دلالةُ إضافةِ لفظِ الرُّبوبيَّةِ إلى الضَّمير في: ﴿رَبِّهِم﴾:

وعيدُ المشركين على تفريطِهم بحقِّ الرُّبوبيَّةِ داعٍ إلى المسارعةِ للتَّوبة

في إضافةِ لفظِ الرُّبوبيَّةِ إلى الضَّمير في قولِه تعالى: ﴿رَبِّهِم﴾ معنى التَّهديد والتَّرهيب، فهو خالقُهم، وله أمرُ الحسابِ والجزاءِ، فسيكون مرجعُهم إليه سبحانه وهو أعلمُ بهم، وبأعمالهم، وما زيَّن لهم الشَّيطانُ فيها، فسيحاسبُهم على كلِّ ما فرَّطوا فيه منَ التَّوحيد والعبادةِ.

سرُّ التَّعبيرِ بالاسم لا بالفعلِ في قولِه: ﴿مَّرْجِعُهُمْ﴾:

مرجعُ المشركين يومَ القيامةِ لا مَهرَبَ منه ولا مفلتَ

جاءَ التَّعبيرُ في آياتٍ عديدةٍ بالفعل (يرجعون)؛ ليدلَّ على التَّجدُّدِ في الزَّمان، بينما عبَّر بالاسم في هذا السِّياق، فقال: ﴿مَّرْجِعُهُمْ﴾، ودلالةُ الاسمِ على الثَّبات؛ إذ يُعدُّ رجوعُهُم إلى ربِّهم أمرًا مسلَّمًا به ثابتًا، فمرجعُهم جميعًا إلى ربِّهم يكون يومَ القيامة، ففيه أنَّ المرجعَ ثابتٌ لهم لا مَهربَ منه ولا مَفلتَ.

معنى الفاءِ في قولِه تعالى: ﴿فَيُنَبِّئُهُم﴾:

بمجرَّدِ الرُّجوعِ يتحقَّقُ الإنباءُ

الفَاءُ للتَّرتيب والتَّعقيب؛ إذ لا تأخيرَ ولا تراخيَ في الحساب، فبمجرَّد رجوعهم إلى ربِّهم يُنبِّئهم سبحانه بأعمالِهم، فيرى الرَّاجعُ عملَهُ حال وقوفِهِ بين يدي ربِّه، فلا تأخيرَ في ذلك.

وهي للتَّفريع عنِ المرجعِ، فتُؤذِنُ بأنَّ الإنباءَ فرعٌ عنِ المرجعِ،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/434.

وبِسُرْعَةِ العقابِ إثر رجوعهم إليه، والإحْصاءِ بعدم تفويتِ شيءٍ من أعمالهم، فهو سبحانه أسرعُ الحاسبين، فيحاسبهُم على أعمالِهم كُلِّها.

دلالةُ استعمالِ مفردةِ (الإنباء) دون مرادفاتِها:

إنباءُ النَّاسِ عندَ مرجعِهم سيكونُ سريعًا غيرَ مُتوقَّعٍ

في قولِه تعالى: ﴿فَيُنَبِّئُهُم﴾ استُعملَ النَّبأ لدلالتهِ على الخبرِ العظيمِ الَّذي لم تسبق معرفتُه للسَّامعِ، والنَّبأ: خبرٌ ذو فائدةٍ عظيمةٍ يحصلُ به علمٌ أو غلبةُ ظَنٍّ، ولا يُقالُ للخبرِ في الأصلِ نبأٌ حتَّى يَتَضَمَّنَ ذلكَ، وحقُّ الخَبَرِ الَّذِي يُقَالُ فِيهِ نَبَأٌ أن يتعرَّى عَنِ الكَذِبِ، كالتَّواتُرِ وخبرِ اللّٰه تعالى وخبرِ نَبِيِّهِ ﷺ قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ نَبَؤٌاْ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾﴾ [ص: 67 - 68][1].

فهم بمجرَّد رجوعِهم سيأتيهم نبأٌ عظيمٌ لم يتوقَّعوه، ولم يحسبوا دقَّتَهُ، وقال: ﴿فَيُنَبِّئُهُم﴾، ولم يقُل: (فيبيِّن لهم)، مع أنَّ الحسابَ بيانٌ؛ لأنَّ الإنباءَ قَدِ استُعمِلَ هنا في لازِمِ مَعنَاه، وهو التَّوبيخُ والعقابُ؛ لأنَّ العقابَ هو العاقبةُ المقصودةُ من إعلامِ المُجرِمِ بِجُرمِهِ.

فقوله: ﴿فَيُنَبِّئُهُم﴾ فيه إعلامٌ منَ المُفاجَأة لهم، أنَّه سبحانه قد أحصى عليهم كلَّ صغيرةٍ وكبيرةٍ، كانت في عدادِ المَنْسِيَّات لديهم، لكنَّه سبحانه أحصى كلَّ شيءٍ علمًا وعددًا.

نكتةُ التَّعبيرِ بالمضارعِ في: ﴿فَيُنَبِّئُهُم﴾:

تصويرُ مشهدِ الإنباءِ ترهيبٌ تُحيطُ به هيبةُ الموقف

التَّعبيرُ بالفعلِ المُضارعِ يَدلُّ على تصويرِ الحدثِ، فقوله: ﴿فَيُنَبِّئُهُم﴾ يدُلُّ على تصويرِ إنبَاءِ اللّٰهِ لَهُم في ذلك اليومِ، والمقصودُ بالتَّصويرِ هو تصويرُ ذلك المشهدِ لِمَا فيه من معاني الهيبةِ والرَّهبةِ، بحيثُ يُحدِثُ لسامعِهِ رهبةً وخشيةً في الدُّنيا، عند استحضارِ حدوثِ الإنباءِ، وفيه نكتةٌ سِرِّيَّةٌ مبنيَّةٌ على حِكمةٍ أبيَّةٍ،

(1) الرّاغب الأصفهانّي، المفردات: (نبأ).

وهي أنَّ كلَّ ما يظهرُ في هذه النَّشأةِ منَ الأعيان والأعراضِ، فإنَّما يظهرُ بصورةٍ مُستعارةٍ مخالفةٍ لصورته الحقيقيَّة، الَّتي بها يظهرُ في النَّشأةِ الآخرةِ[1].

معنى الباءِ في: ﴿بِمَا﴾:

الأعمالُ سببُ الجزاءِ وعيدًا ووعدًا

الباءُ في قَولِهِ: ﴿بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ للسَّببيَّة، فما كانوا يعملونَه في الدُّنيا هو سببُ إنبائِهم ما سيكونون عليهِ في الآخرةِ، فأعمالُهم سببُ جزائِهم، ففيهِ وعيدٌ لَمن أخلَّ بأعمالِه، ووعدٌ لَمن أحسن.

نكتةُ التَّعبيرِ بقولِهِ: ﴿بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ دون (بأعمالهم):

يأتي الإنباءُ يومَ القيامةِ عن تفصيلاتِ ما عملَ النَّاسُ بحذافيرِها

قال: ﴿بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ ولم يقُل: (بأعمالهم)؛ ليدُلَّ على دقيقِ معرفةِ اللهِ تعالى بأعمالِهم تفصيلًا لها، فيكشفُ لهم في ذلك الإنباءِ عن تفصيلاتِ ما عملوا بحذافيرِها، فيأخذُهم إلى المشاهدِ والأجواء نفسِها تلك الَّتي كانوا فيها يعملونَ أعمالَهم.

والتَّعبيرُ بقوله: ﴿كَانُواْ﴾ يدلُّ على أنَّ أعمالَهم الَّتي سيُحاسبون عليها هي أعمالُهم الدَّائمةُ المستمرَّةُ الَّتي يُصرُّون عليها، قال تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا نَسۡتَنسِخُ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٢٩﴾ [الجاثية: 29]، فيرون المشاهدَ التَّفصيليَّةَ كلَّها ممَّا عاشوه وعملوه في حياتهم، وذلك معنى الإنباء، لِمَا فيها من عنصر المفاجأةِ، وما يصيبُهم منَ الإحباط، فلا مفرَّ ممَّا كانوا يعملون.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

السَّبُّ والشَّتمُ:

يَغلِبُ على الشَّتمِ التَّقبيحُ، وعلى السَّبِّ الاستمرارُ فيه

الشَّتمُ تقبيحُ أَمرِ المشتوم بالقَول، وأَصله منَ الشَّتامةِ، وهو قبحُ الوَجه، ورجلٌ شتيمٌ قَبيحُ الوَجه، وسمِّي الأسدُ شتمًا؛ لقبح منظرِه، والسَّبُّ: هو الإطنابُ في الشَّتم، والإطالةُ فِيهِ، واشتقاقُه منَ السَّبِّ،

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/172.

وَهِي الشِّقَّةُ الطَّوِيلَةُ، ويُقال لَها: سبيبٌ - أَيضًا- وسبيبُ الفرسِ: شعرُ شنبهِ، سُمِّي بذلك لطولهِ خلافَ العُرفِ، والسَّبُّ: العِمَامَةُ الطَّوِيلَةُ، فهذا هو الأَصلُ فإِنِ استُعمِلَ في غير ذلك؛ فهو توسُّعٌ[1].

المَرجِعُ والمَعَادُ:

اعتَادَ وتَعَوَّدَ، أي: صارَ عادَةً له، وعَوَّدَ كَلبَهُ الصَّيدَ، فَتَعَوَّدَهُ، واستَعادَهُ الشَّيءَ (فأَعادَهُ) سَأَلَهُ أَن يَفعَلَهُ ثانِيًا، وفُلانٌ (مُعِيدٌ) لهذا الأَمرِ، أَي: مُطِيقٌ لَهُ، و(المُعاوَدَةُ) الرُّجُوعُ إلى الأَمرِ الأَوَّلِ، فالمَعَادُ فيها مَعنَى التَّعَوُّدِ، ومَعنَى الإرادَة في العَودِ، على خِلافِ المَرجِعِ الَّتِي لَيسَ فيها التَّعَوُّدُ على ذلك الرُّجُوع أَوَّلًا، وليسَ فيها مَعنَى العَودِ بِرَغبَةِ العَائِدِ.

(المَعَادُ) تستدعي التَّعَوُّدَ والإِرادَةَ فِي العَودِ، وهي على خِلافِ (المَرجِعِ)

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 52.

﴿وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَاۚ قُلْ إِنَّمَا ٱلْأٓيَٰتُ عِندَ ٱللَّهِۖ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ١٠٩﴾ [الأنعام: 109]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

المشركون؛ مرّةً يسبُّون الله ﷻ ومرّةً يُقسمونَ بهِ

بعد أن بيَّنتِ الآيةُ السَّابقةُ حال الَّذين أشركوا، ونهي المؤمنين عن سبِّ آلهتهم؛ لعلمِهِ سبحانه بالاستعدادِ النَّفسيِّ للمشركين في الإقدامِ على سبِّ اللّهِ تعالى إنِ اقتضى الأمرُ ذلك، دفاعًا عن معبوداتِهم؛ بيَّن هنا ضحالةَ تفكيرِهم، وشدّة اضطرابهم، وقسمَهم باللّهِ جهدَ أيمانِهم، وما هم فيه من تناقضٍ داخليٍّ، ما بين الاستعدادِ على الإقدامِ على سبِّ اللّهِ، والقسمِ به جهدَ أيمانِهم، فكان ذلك دليلًا على أنَّهم مهما جاءَتهمُ الآياتُ؛ فإنَّهم لا يؤمنون، فقال تعالى: ﴿وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَاۚ قُلْ إِنَّمَا ٱلْأٓيَٰتُ عِندَ ٱللَّهِۖ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿جَهْدَ﴾: جذرُ الكلمةِ هو (جهد)، الجَهْدُ: ما جَهَدَ الإنسانَ من مَرَضٍ، أو أمرٍ شاقٍّ فهو مَجهودٌ، والجَهْدُ: بلوغُكَ غايةَ الأمرِ الَّذي لا تألو عن الجهدِ فيهِ، تقول: اجتهدتُ رأيي ونفسي، وجَهَدْتُ فلانًا: بلغتَ مشقَّتَهُ، وأجهَدَ القومُ علينا في العداوةِ، وجاهدتُ العدوَّ مُجاهدةً، وهو قتالُك إيَّاهُ[1]، ولعلَّ هذا المعنى أقربُ ما يكون إلى معنى (جهد) في قولهِ تعالى: ﴿وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ﴾، وكأنَّهم يقاتلون أنفسَهم وهم يُقسمونَ باللّهِ، والجهد: المشقَّةُ، والجهد: الطَّاقةُ[2].

(1) الفراهيديّ، العين: (جهد).
(2) ابن سيده، المُحكم: (جهد).

2) ﴿يُشْعِرُكُمْ﴾: جذرُ الكلمةِ هو (شعر)، ومعنى (ما شعرتُ به): ما فطنتُ لهُ وما علمتُهُ. وما يشعرُكم: وما يدريكم، وهو ذكيُّ المشاعرِ، وهي الحواسُّ، ولِبَني فلانٍ شعارٌ: نداء يُعرَفون بهِ، وعَظَّمَ شعائرَ اللّهِ تعالى وهي أعلامُ الحجِّ من أعمالهِ، ووقفَ بالمَشعَر الحرامِ، ولبِس شعارَ الهمِّ[1]، وأشعرهُ الأمرَ، وأشعرهُ بهِ: أعلمَهُ إيَّاه، والمقصودُ في الآية: ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ﴾ الإعلامُ بالأمرِ.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

إذا تملَّكَ القلبَ عنادُ الكفرِ؛ ورَّثَهُ عنادَ الإنكارِ

ذكرَ في هذه الآيةِ حالةً أُخرى من تعنُّتِ المعاندين، وردَّها عليهم، فقال: ﴿وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَاۚ﴾؛ ومعنى: ﴿لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ﴾، أرادوا آيةً محسوسةً غيرَ القرآنِ كقولهم: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌۖ﴾ [الأنعام: 8]، أو قولهم: ﴿أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥۗ﴾ [الإسراء: 93]، وغيرها منَ الآياتِ المادِّيَّةِ، فردَّ عليهم سبحانه بقوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِۖ﴾، فهو وحدَه القادرُ عليها، وبأَنَّ المعجزاتِ المادِّيَّةَ الَّتي جرَت على أيدي الرُّسل من قَبلِهِ ﷺ، إنَّما هي أفعالٌ للّه تعَالى، ثمَّ خاطَبَ المؤمنينَ الَّذين يتمنَّون مجيءَ الآيةِ؛ لتكونَ سَبَبًا في إيمانِ المُعاندين والمُنكرين، فنبَّهَهُم إلى سُنَنِ اللّه الكونيَّةِ في أخلاقِ البَشَرِ، فقال: ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾؛ لانطباعِهم على الكُفر والعنادِ[2].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

معنى حرف الواوِ في قولِه: ﴿وَأَقْسَمُواْ﴾:

عَطفتِ الواوُ جملةَ: ﴿وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ﴾ على جملة: ﴿ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ

(1) الزّمخشريّ، أساس البلاغة: (شعر).
(2) الموصلّي، أولى ما قيل: 3/355.

إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ﴾ [الأنعام: 106][1] الآية؛ لبيانِ عظيم شأنِ ذلك الاتِّباع، فمَن لا يتَّبِع ما أَوحَى اللّهُ إلى رسولِه يكون ممَّن زُيِّنَ له عملُه، ويقولُ بما قال هؤلاء وبما يدَّعونه ممَّا ذكرَتْه جملةُ القسم.

العطفُ يُبيِّنُ البونَ الكبيرَ بين الاتِّباعِ والإقسامِ بقصدِ الباطل

ومعنى: ﴿لَئِن جَآءَتۡهُمۡ ءَايَةٞ﴾، بمعنى: جاءَتهم آيةٌ غيرُ القرآن، ممَّا اقترحوه، وهذا إشارةٌ إلى شيءٍ من تعلُّلاتهم وحُججهم للتَّمادي بالكفر بعد أن جاءَتهم البصائرُ والحُججُ العظيمةُ، وبيانُ انحرافِهم التَّامِّ عنِ اتِّباعِ ما أُوحِي إلى الرَّسول، ومقدارِ التَّقاطعِ والتَّنافرِ بينَ الوحي والرِّسالة من جانب، وبين ما يقترحون من تزيينِ الشَّياطين وإصغاءِ أنفسِهم إليها.

أو أنَّها عطفَت جملة ﴿وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ﴾ على جملة: ﴿كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمۡ﴾، ففسَّرت طبيعةَ ذلك التَّزيين: أنَّهم اقترحوا آياتٍ، وأقسموا جهدَ أيمانِهم أنَّهم سيؤمنون بها إن وقعَت، وهذا هو تزيينُ الأعمالِ، قال تعالى: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنٗاۖ﴾ [فاطر: 8]، فتدرَّجَ الكلامُ منَ السَّببِ إلى المُسَبَّبِ.

سرُّ استعمالِ مفردة: ﴿وَأَقۡسَمُواْ﴾ بدلًا مِن (حلفوا):

في لفظِ القسمِ إشارة إلى انقسامِ النَّاسِ إلى فريقين

أشعرَهم ذلك القسمُ أنَّهم أحرزوا تصديقَ النَّاسِ لهم، وأنَّهم أهلُ حجَّةٍ دامغةٍ على أهل الإيمانِ، على خلاف الحلفِ فإنَّهُ يشعرُهم بتصديق أنفسِهم فحسب، ويبقى الإشكالُ قائمًا أنَّ عليهم أن يقدِّموا الأدلَّةَ على صدقِ دعواهم وحلفهم، وسمِّي الحلفُ قسمًا؛ لأنَّه يكون عند انقسامِ النَّاسِ إلى التَّصديق والتَّكذيب، فكأنَّه يقوِّي القسمَ الَّذي يختارهُ.

نكتةُ إضمارِ المُقسمين باللهِ دونَ الإظهارِ:

قال تعالى: ﴿وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ﴾ ولم يقُل: (وأقسم الذين أشركوا)،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/434.

فقد أضمر ذكرَ المقسمين؛ إيجازًا ولذكرهم فيما سبق في قولِه: ﴿وَلَا تَسُبُّواْ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾، ثمَّ إنَّ الإضمارَ هنا يفيدُ التَّعميمَ أيضًا فقد يشملُ (الَّذين) أقسموا أنواعَ المنكرين منَ المشركين، والَّذين كفروا، أو الَّذين لا يعترفون بدينٍ أصلًا منَ المُلحِدينَ وغيرهم؛ لبيانِ أنَّ التَّذرُّعَ بطلبِ المعجزاتِ الحسِّيَّةِ هو دَيْدَنُ المنكرين، وسيبقى إلى يوم القيامةِ فيهم.

الإضمارُ يشملُ كلَّ مُقسمٍ على مدارِ الزَّمانِ والمكانِ

فائدةُ ذكرِ لفظِ الجلالةِ (الله):

في قولِه تعالى: ﴿وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ﴾ ذكرَ لفظَ الجلالة، ولم يقُل: (وأقسموا جهدَ أيمانهم)؛ إذ ما يقتضيه الظَّاهرُ ألَّا يُقسِمَ هؤلاء باللّٰهِ لكونِهم لا يؤمنون بهِ سبحانه مع ما وُصِفُوا به باستعدادِهم لسبِّ اللّٰهِ سبحانه فكيف يُقسمون باللّٰهِ، وهم على هذه الشَّاكلةِ من فساد العقيدةِ؟ فكان ذكرُ لفظِ الجلالةِ هنا، وبيانُ قسمِهم بهِ، كاشفًا عن مدى تناقضِهم بينهم وبين أنفسِهم: أنَّهم يُقسِمون الآنَ بما كان عرضةً لسِبَابِهم بالأمسِ، فلا يقرُّ لهم رأيٌ، ولا تهدأُ لهم حالةٌ، وهذا من قبيل تزيينِ اللّٰهِ لهم أعمالَهم.

تعيينُ المقسَمِ بهِ دفعًا لتوَهُّمِ أن يكونَ المقسمُ بهِ غيره

ولتعيينِ المقسَم به، كي لا ينصرفَ الذِّهنُ إلى أنَّهم أقسموا بآلهتهم، فهم يُقسمون باللّٰه تعالى الَّذي سيُنزِل الآياتِ على رسولِه ﷺ.

فنُّ الإطنابِ في قولِهِ تعالى: ﴿جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ﴾:

قوله: ﴿جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ﴾ مصدرٌ في موقعِ الحالِ، أي: أقسمُوا به تعالى جاهدين في أيمانهم ﴿لَئِن جَآءَتۡهُمۡ ءَايَةٞ﴾ من مقترحاتِهم، أو من جنسِ الآياتِ، وهو الأنسبُ بحالِهم في المكابرةِ والعنادِ وترامي أمرِهم في العُتُوِّ والفساد؛ إذ كانوا لا يعدُّون ما يشاهدونه منَ المعجزات الباهرةِ من جنس الآياتِ[1]، وفيه إطنابٌ وإيغالٌ؛ لإظهارِ

إظهارُ شدَّةِ الحرصِ على الصِّدقِ عند التَّمسُّكِ بالباطلِ دليلٌ على عكسِهِ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/172.

حرصِهم على معرفةِ الحقِّ، والأمرُ على خلافه، وهو من قبيل قوله: ﴿وَكَانُواْ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ ۝٤٦﴾ [الواقعة: 46]، وهو المشارُ: ﴿وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُۚ﴾ [النحل: 38].

معنى اللَّام في قولِه تعالى: ﴿لَئِن﴾:

التَّوكيداتُ المُتواليةُ تُشيرُ إلى زَعزَعةِ المُقسمين في دواخلِهم

جملة: ﴿لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَاۚ﴾ مبيِّنةٌ لجملة: ﴿وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ﴾، واللَّامُ فيها مُوطِّئةٌ للقَسَم؛ لأنَّها تدلُّ على أنَّ الشَّرطَ قد جُعِلَ شرطًا في القَسَم، فدلَّتْ على قسم محذوفٍ، وقد جاءَت هنا مع فعل القسم؛ لأنَّها صارَت ملازمةً للشَّرط الواقع جوابًا للقَسَم، فلم تنفَكَّ عنه مع وُجُودِ فِعلِ القَسَم، فالدَّاعي لهم إلى هذا القسم، طلبُ الآيات، والاستهانةُ بما رأوا منها[1].

نكتةُ التَّعبيرِ بـ (إنْ) دون (إذا):

الكافرُ المعاندُ يقسِم مع علمِه بالجوابِ

التَّعبيرُ بـ (إنْ) دون (إذا) في قولِه: ﴿لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ﴾؛ لبيانِ أنَّ مجيءَ الآيةِ على طرفِ الاحتمالِ بالنِّسبةِ للمُقسمين، فهم يعلمون أنَّ مجيءَ الآيةِ واقعٌ موقعَ الاحتمال، لا واقعٌ موقعَ التَّحقيقِ، ففيه بيانُ أنَّ القومَ يعلمون أنَّ مثلَ ذلك لا يقع؛ لإخبارِ القرآنِ بانتفاء وقوعِه، ومع ذلك يُصرُّون على طلبِ مجيءِ الآية.

سرُّ التَّعبيرِ بالغَيبةِ لا التَّكلُّمِ:

الكلامُ على الغيبةِ ناسبَ حالَهم؛ تكذيبًا لأيمانِهم

جاء التعبيرُ بالغيبة في قولِه تعالى: ﴿جَآءَتْهُمْ﴾ وقولِه: ﴿لَّيُؤْمِنُنَّ﴾ ولم يقُل: (جاءَتنا) و(لنُؤمننَّ)، فأجرَى الكَلامَ على الغَيبَةِ إخبارًا عن حكايةِ قيلِهم لا على التَّكلُّم حكايةً لقيلِهم، ولو كانَت على التَّكلُّم لكان الْتِفاتًا منَ الغيبةِ في قولِه: ﴿وَأَقْسَمُواْ﴾ إلى التَّكلُّم في (جاءتنا)، فتكون فائدةُ الالتفاتِ إلى حضورِهم تصديقًا لكلامهم، لكنَّه لم يلتفت إلى الخطابِ، وإنَّما بقي الكلامُ على الغيبةِ تناسبًا مع

(1) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 2/177.

حالهم، وتكذيبًا لأيمانهم وابتغائهم الإيمانَ بالآيات الَّتي اقترحوها إن جاءتهم.

غرضُ التَّنكيرِ في قولِه تعالى: ﴿ءَايَةٌ﴾:

عمومُ الآيةِ في مقصودِ المُنكِرين لِتشملَ أيَّ آيةٍ

المراد بـ ﴿ءَايَةٌ﴾ ما اقترحوهُ على رسولِ اللّٰهِ ﷺ منَ المعجزاتِ المحسوسةِ، ونُكِّرَت ﴿ءَايَةٌ﴾ للعمومِ المُبْهم، أي: أيَّ آيةٍ كانت من جنس ما تنحصرُ فيه الآياتُ في زعمِهم؛ لتقريب حالةِ استجابتِهم وطلبِهم للحَقِّ، وهذا ما أنكرهُ عليهم في قوله: ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

بلاغةُ الاستعارةِ في التَّعبير بلفظِ: ﴿جَآءَتْهُمْ﴾ ولفظ ﴿ءَايَةٌ﴾:

تشخيصُ الغيبيَّاتِ يُقرِّبُ البيانَ للأفهامِ

التَّعبيرُ بالمجيء مُستعارٌ لظهورِ الآية؛ لأنَّ الشَّيءَ الظَّاهرَ يشبهُ مجيءَ الغائب، فلذلك يُستعارُ له المجيءُ[1]، وهي استعارةٌ تصريحيَّةٌ تبعيَّةٌ؛ لحصول الاستعارةِ في فعلِ (المجيء).

هذه الاستعارةُ الأولى والاستعارةُ الثَّانيةُ في لفظِ آيةٍ، حيث شبَّه الآيةَ بغائبٍ فصرَّح بالمشبَّهِ بهِ، وحذفَ المشبَّهَ؛ تجسيدًا للآيةِ، وبيانًا لها في ذهن السَّامع.

معنى اللَّام وغرضُها في قولِه تعالى: ﴿لَّيُؤْمِنُنَّ﴾:

لا يترك المعاندون طريقًا للهُزْءِ والتَّعريضِ بآياتِ القرآنِ الكريمِ

اللَّام في ﴿لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا﴾ هي لامُ القَسَمِ، أي: لامُ جَوَابِ القسم، جاءَت تأكيدًا لِمَا أرادُوا إثباتَهُ في بيان صدقِ إيمانِهم؛ إن جاءَتِ الآيةُ الَّتي اقترحوها على الرَّسول، فالدَّاعي لهم إلى القسم في فعل الشَّرط، والتَّأكيد في جوابِهِ، التَّحكُّمُ على الرَّسول ﷺ في طلب الآياتِ، والاستهانةِ بما رأوا منها[2] من آياتِ القرآنِ وآياتِ اللّٰهِ في خلقِهِ.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/435.
(2) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 2/177.

بلاغةُ تقييدِ الإيمانِ بالآية:

الإيمانُ بالآيةِ الحسِّيَّةِ المقترحةِ لا يعني الإيمانَ باللهِ وبدينِهِ

قوله: ﴿لَّيُؤۡمِنُنَّ بِهَآۚ﴾ أظهرَ أنّ المشركين أخبروا عن إيمانِهم بالآيةِ لا بالإسلام، والأصلُ أن تكونَ الآيةُ دالَّةً على الحقِّ، فمقتضى الظَّاهرِ أن يُقالَ: ﴿لَّيُؤۡمِنُنَّ﴾؛ دون (بها) إخبارًا عن إيمانِهم باللّه واقتناعهم بالإسلام، فعدل عن ذلك لبيان أنَّ إيمانَهم مشكوكٌ فيه، وأنَّه مُتوقِّفٌ على الآيةِ الحسِّيَّةِ فحسبُ، وإيمانُهُم بها لا يعني الإيمانَ باللّهِ والاقتناعَ بدينِ الإسلام.

غرضُ القصرِ في قولِهِ: ﴿إِنَّمَا ٱلۡأٓيَٰتُ﴾:

الخالقُ لنواميسِ الكونِ هو وحدَهُ القادرُ على تغييرِها وتبديلِها

قوله: ﴿قُلۡ إِنَّمَا ٱلۡأٓيَٰتُ عِندَ ٱللَّهِۖ﴾؛ أي: كلُّها، فيدخُل فيها ما اقترحوه دخولًا أوَّليًّا. و﴿عِندَ ٱللَّهِۖ﴾، أي: أمرُها في حُكمِه وقضائِه خاصَّةً، يتصرَّفُ فيها حسبَ مشيئتِهِ المبنيَّةِ على الحِكَمِ البالغةِ، لا تتعلَّقُ بها ولا بشأنٍ من شُؤونها قُدرةُ أحدٍ، ولا مشيئتُه لا استقلالًا ولا اشتراكًا بوجهٍ منَ الوجوهِ، حتّى يُمكِنَني أن أتصدَّى لاستنزالها بالاستدعاءِ، وهذا سدٌّ لباب الاقتراحِ على أبلغِ وجهٍ وأحسنِه، ببيان علوِّ شأنِ الآياتِ، وصعوبةِ منالِها، وتعاليها، من أن تكونَ عُرضةً للسُّؤال والاقتراحِ[1]. والحَصرُ بـ ﴿إِنَّمَا﴾ ردٌّ على المُشركين في ظنِّهم بأنَّ الآياتِ في مقدور النَّبيِّ ﷺ إن كان نبيًّا، فجعلوا عدمَ إجابةِ النَّبيِّ ﷺ اقتراحَهُم آيةً أمارةً على انتفاء نبوَّتِه، فأمرهُ اللّهُ أن يجيبَ بأنَّ الآياتِ عندَ اللّهِ لا عند الرَّسُولِ ﷺ فالمُعجزاتُ هي أفعالُ اللّهِ تعالى تظهر على يدَي النَّبيِّ ﷺ، واللّه أعلمُ بما يظهرُه منَ الآياتِ، فحصر شأنَ الآياتِ ومجيئَها باللّه وحدَه، وهو القادرُ عليها يُنزِّلُها على وجهِ المصلحةِ كيف شاءَ لحكمتِه، وليسَت عندي، فَتُقتَرَحُ عَلَيَّ[2].

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/172.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/613.

بلاغةُ المجازِ المُرسَلِ في قوله: ﴿ٱلْأَيَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ﴾:

المُعجزاتُ في علم اللهِ تعالى وليس لأحدٍ أن يطلبَها إلَّا من بعد إذنهِ سبحانَه

معنى كون الآياتِ عند اللهِ: أنَّ الآياتِ من آثار قدرةِ اللهِ وإرادتِه، فأسبابُ إيجادِ الآياتِ من صفاته، فهو قادرٌ عليها، فلأجل ذلك شُبِّهت بالأمور المدَّخرةِ عنده أو المعلومةِ لديه، وليس لأحدٍ أن يُطالبَ بها إلَّا من بعد إرادتهِ بإبرازها، فإنْ أرادَ ذلك؛ أبرزها للنَّاس، فكلمةُ (عند) هنا مجازٌ، استُعمِلَ اسمُ المكانِ شديد القُربِ في معنى الاستئثار مجازًا مُرسَلًا؛ لأنَّ الاستئثارَ من لوازم حالةِ المكانِ شديدِ القُربِ عُرفًا، كقوله تعالى: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ﴾ [الأنعام: 59]، وقوله: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ﴾ [الحجر: 21][1].

بلاغةُ الاستئنافِ في قولِه: ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ﴾:

التَّنبيه على الحِكَمِ طريقُ القرآنِ في توجيه الأنظار وتسديد النَّظَّار

قوله: ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾؛ كلامٌ مُستأنفٌ غيرُ داخلٍ تحت الأمرِ، مَسوقٌ من جهتِه تعالَى لبيان الحكمةِ الدَّاعيةِ إلى ما أشعَرَ به الجوابُ السَّابقُ من عدم مجيءِ الآياتِ، خُوطِبَ به المُسلِمُون إمَّا خاصَّةً بطريق التَّلوينِ لمّا كانوا راغبين في نزولها طمعًا في إسلامهم، وإمَّا معه ﷺ بطريق التَّعميم[2].

خروجُ الاستفهامِ إلى معنى التَّشكيك والإيقاظ في قولِه: ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ﴾:

لا يعلمُ ما في الأنفُسِ إلَّا اللهُ، والقرآنُ مزَّقَ حُجُبَ النَّفس وفضحَ أسرارها

في قوله: ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ جاءت ﴿وَمَا﴾ استفهاميَّة مُستعملة في التَّشكيكِ والإيقاظِ؛ لئلَّا يَغُرَّهُمْ قَسمُ المشركين، وعليه؛ فإن كان الخطابُ للمُسلمينَ، فليس في الاستفهام شيءٌ منَ الإنكارِ ولا التَّوبيخِ ولا التَّغليظِ، وسِيقَ الخبرُ بصيغة الاستفهامِ؛ لأنَّ الاستفهامَ من شأنه أن يُهيِّئَ نفسَ السَّامعِ لطلب جوابِ ذلك الاستفهام، فيتأهَّبَ لوعي ما يَرِدُ بعدَهُ[3].

---

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 13/112.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/173.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/437.

ففي قولِه: ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ﴾ إشعارٌ للمؤمنين ببُعدِ ما يتوقَّعونَهُ على وجهِ اليقين، فيكشِفُ القُرآنُ هُنا عن خبَايَا تلك النُّفوس، وما ستؤولُ الأحداثُ مَعَهَا، وهذا من قبيل الإعجازِ النَّفسيِّ في القرآن الكريم، إذ لا يعلمُ ما في الأنفسِ إلَّا اللهُ، والقرآنُ مزَّقَ حجبَ النَّفسِ، وفضحَ أسرارَها وخفاياها.

إذا كان الخطابُ للمشركين فالاستفهامُ للإنكارِ والتَّوبيخِ

وكذلك فإنّ (ما) في قوله: ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾: استفهاميَّةٌ، ويعودُ عليها ضميرُ الفاعلِ في ﴿يُشْعِرُكُمْ﴾، فإذا جعل الخطابَ في قولِه: ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ﴾ خطابًا للمشركين؛ كان الاستفهامُ للإنكارِ والتَّوبيخِ، وقد حُذِفَ مُتعلَّقُ فعل ﴿يُشْعِرُكُمْ﴾، ودَلَّ عليه قوله: ﴿لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ﴾، والتَّقديرُ: (وما يشعركم أنَّنَا نأتيكم بآيةٍ كما تريدون)[1].

سرُّ التَّعبيرِ بالشُّعورِ في قولِه تعالى: ﴿يُشْعِرُكُمْ﴾:

المعرفةُ المرتبطةُ بالشُّعورِ معرفةٌ خفيَّةٌ فيجب أن تبقى مستورةً

وفي معنى ﴿يُشْعِرُكُمْ﴾: الإعلامُ بمعلومٍ من شأنهِ أن يخفى ويدقَّ، يقال: (شعر فلانٌ بكذا)، أي: علِمَه، وتفطَّنَ له، فالفعل يقتضي مُتعلَّقًا به بعد مفعولِه، ويتعيَّن أنَّ قولَه: ﴿أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ هو المتعلَّقُ به، فهو على تقدير باء الجرِّ، والتَّقديرُ: بأنَّها إذا جاءَت لا يؤمنون، فحذفُ الجارِّ مع (أن) المفتوحة حذفٌ مُطَّرِدٌ، فقال: ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ﴾ لما في القضيَّة منَ الخفاءِ.

أثرُ الفعلِ المضارعِ في تصويرِ حالِ المؤمنين:

بيانُ الحالةِ الفكريَّةِ الممزوجةِ بالشُّعورِ والتَّرقُّبِ

أفادَ الفعلُ المُضارعُ ﴿يُشْعِرُكُمْ﴾ تصويرَ حالِ المؤمنين تجاه المشركين، وما يكون في دواخلهم من تجدُّدِ الشُّعورِ الدَّائمِ تجاههم، وهذا يدلُّ على الحالةِ الفكريَّةِ الممزوجةِ بالشُّعور، وبيانِ مقدارِ التَّحسُّسِ المقصودِ والاستشعارِ والتَّرقُّبِ لدى المؤمنين حيالَ هؤلاءِ

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/613.

انتظارًا لإيمانهم، وترقُّبًا لنزول آيةٍ تجعلُهم مؤمنين، لكن: ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ قطعت ذلك التَّرقُّبَ، وأيقظتهم من ذلك الشُّعورِ تجاهَ المشركين.

توجيهُ القراءاتِ القرآنيَّةِ في كسرِ (إنَّ) وفتحِها:

علمُ إيمانِ المؤمنين لله وحدَه وليس لأحدٍ أن يُثبته أو ينفيَه:

في قوله تعالى: ﴿أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ قرأ ابنُ كثير وأبو عمرو ويعقوب وخلف العاشِرُ بكسر الهمزة: ﴿إِنَّهَا﴾[1]، فيكون قولُه: ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ﴾ وقفًا، ثمَّ ابتدَأَ الخَبَرُ عَنهُم: ﴿إِنَّهَا إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾، وكسروا الألفَ على الاستِئناف، وقرأَ الباقون[2] بالفتح على معنى: لَعَلَّها إذا جاءَت؛ لا يُؤمنونَ، قالَ الخَليلُ: "وهذا كَقَولِهِم: إيتِ السُّوقَ أَنَّك تشتري لنا شَيئًا، أي: لَعَلَّك"[3]، وقيل: المعنى: أمشعرٌ يشعرُكُم أنَّها إذا جاءَت؛ لا يؤمنون، أي: بعدم إيمانهم[4].

نكتةُ استعمالِ ﴿إِذَا﴾ دون (إنْ):

الأدقُّ في نظمِ الآيةِ والألصقُ بمعناها هو استعمالُ (إذا)

في الإخبار عن قيلهم ﴿لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا﴾ ذكرَ (إنْ)، وهنا في قولِه تعالى: ﴿إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ استعملَ ﴿إِذَا﴾، فكلٌّ منهما للشَّرط، ولما يُستقبل منَ الزَّمان، لكنَّ بينهما فرقًا دقيقًا في المعنى، فإنَّ (إذا) ليست منَ الجوازم، بخلاف (إنْ) الّتي هي من جوازم الفعل المضارع، ولكِنَّها من حيثُ المعنى لا تفيدُ تحقُّقَ الوقوعَ، بل تفيدُ احتمالَ الوقوعِ، و(إذا) تفيد تحقُّقَ الوقوعِ، ولهذا أثَرٌ في تفسير الآية، فقوله: ﴿إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾، أي: إنْ تحقَّقَ مجيءُ الآياتِ؛ فإنَّهم لا يؤمنون، وأمَّا لو كان الكلامُ: (إن جاءَت لا يؤمنون)، فلا يُفهمُ منها تحقُّقُ الوقوعِ، وبالتَّالي فلا يكون الحجاجُ مقبولًا، ويكون منَ اللَّغو، ولا معنى للكلام.

(1) ابن الجزريّ، النّشر: 2/261.
(2) ابن الجزريّ، النّشر: 2/261.
(3) ابن زنجلة، حجّة القراءات، ص: 265.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/437.

علَّةُ نفي الإيمانِ دون مرادفاتِهِ:

قال سبحانه: ﴿إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾، ولم يقُل: (إذا جاءت يكفرون)؛ وذلك لأنَّهم كافرون، فلا يُتصوَّر حصولُ الكفرِ، وهو واقعٌ بهم، وكذلك فإنَّهم أقسموا باللّه جهدَ أيمانِهم أنَّهم سيؤمنون؛ إن جاءَت تلك الآياتُ، وكان حريًّا بهم أن يقولوا: إنَّهم سيؤمنونَ باللّهِ، فقد احتملَ كلامُهم أنَّهم حتَّى وإن أتتِ الآيةُ؛ فإنَّهم لا يؤمنون باللّه، فقال: ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾، والتَّعبيرُ فيه كشفٌ عن خفاءِ ما في النَّفس، لا يعلمُه أحدٌ إلَّا اللّهُ، فهو أعلمُ بخبايا تلك النُّفوس الَّتي تدَّعي الإيمانَ ظاهرًا، وهي في حقيقة أمرها غيرُ مؤمنةٍ.

اللهُ أعلمُ بخفايا النُّفوسِ الَّتي تدَّعي الإيمانَ، وهي غيرُ مؤمنةٍ

توجيهُ القراءاتِ القرآنيَّةِ في الخطابِ والغيبةِ:

قرأ الجمهورُ: ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ في قولِه تعالى: ﴿أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ بياء الغيبةِ، إخبارًا عنِ المشركين، كما قال في الآية اللَّاحقة: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾.

اختلافُ توجيه الخطابِ تنويعٌ في المعاني وتعدُّدٌ في الدّلالات

وقرأ ابنُ عامر، وحمزةُ بتاء الخطاب[1]، وعليه فالخطاب للمشركين في قَوله تعالى: ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ﴾ الَّذين أَقسمُوا، فقالَ جلَّ وَعزَّ: وَما يدريكم أَنَّكُم تؤمنون؟[2]

بلاغةُ الحذفِ في قوله: ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ﴾:

تمَّ الكلامُ عند قوله: ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ﴾، ومُتعلَّقُ ﴿يُشْعِرُكُمْ﴾ محذوفٌ، أي: وما يشعركم ما يكون، فإن كان الخطابُ للكفَّار؛ كان التَّقديرُ: وما يشعركم ما يكون منكم، إنْ جاءَتكم الآيةُ. فأخبر بأنَّهم لا يؤمنون، وإن كان الخطابُ للمؤمنين كان التَّقديرُ: وما يشعرُكم -

حذفُ المتعلَّقِ هو الأنسبُ بنفي شُعُور ما سيكون

(1) ابن الجزريّ، النّشر: 2/261.

(2) ابن زنجلة، حجّة القراءات، ص: 265.

أيُّها المؤمنون - ما يكون منَ المنكِرين إن جاءَتهم الآيةُ، ثمَّ أخبر المؤمنين بعلمه فيهم لا يؤمنون في جميع أحوالهم.

نكتةُ حذفِ متعلَّقِ ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾:

الإيمانُ بالآيات بصيرةٌ وهدايةٌ منَ الله تعالى

قوله: ﴿إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾، أي: لا تدرون أنَّهُم لا يؤمنون، أنكر السَّبَبَ مبالغةً في نفي المُسَبِّبِ، وفيه تنبيهٌ على أنَّه - ﷺ - إنَّما لم يُنزِلها لعلمه بأنَّها إذا جاءَت؛ لا يؤمنون بها، ومُتعلَّقُ ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ محذوفٌ، وحَسُنَ حذفُه كون ما يتعلَّقُ به وقعَ فاصلةً، وتقديرهُ: لا يؤمنون بها[1].

فائدةُ التَّعبيرِ بقوله: ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ﴾ دون: (وما يدريكم):

مجيءُ الآياتِ (المُقترحة) أو عدمُ مجيئها سواءٌ عند المُعاندين

لا يُقاس قولُه: ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ﴾ على قول العربِ: (ما يدريك)؛ فقد شاع تركيبُ (ما يدريك)؟ في الكلام، حتَّى جرى مَجرَى المثل باستعمالٍ خاصٍّ، هو أن يكونَ اسمُ (ما) فيه استفهامًا إنكاريًّا، وأن يكونَ مُتعلَّقُ (يدريك) هو الأمرُ الَّذي ينكرُه المتكلِّمُ على المخاطَب.

وهذا على خلاف ما ورد في قوله تعالى: ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾، فلو قِيسَ استعمالُ ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ﴾ على استعمال (ما يدريكم)؛ لكان وجودُ حرفِ النَّفي مُغايرًا للمقصود؛ إذ لا وجودَ للاستفهام الإنكاريِّ في الآية، وإنَّما جاء الخطابُ حكيمًا يخبرُ المؤمنين أنَّ مجيءَ الآياتِ الَّتي اقترحوها أو عدمَ مجيئِها سواءٌ عند أهلِ الكفر.

نكتةُ التَّعبيرِ بالنَّفي في ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾:

نفيُ الإيمانِ إيماءٌ إلى علم اللهِ تعالى لمَا يدورُ في نفوسِهم

معتادُ الكلامِ في نظيرِ هذا التَّركيب الّذي في قوله تعالى: ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾، أن يجعلَ مُتعلَّقَ فعلِ الدِّرايةِ المتضمّن في معنى ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ﴾ هو الشَّيءَ الَّذي شأنُه أن يظنَّ

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/616.

المخاطَبُ وقوعَه، والشَّيءُ الَّذي يظنُّ وقوعَه في مثل هذا المقام هو أنَّهم يؤمنون وليس ﴿لَا يُؤۡمِنُونَ﴾؛ لأنَّهُ الَّذي يقتضيه قسمُهم ﴿لَئِن جَآءَتۡهُمۡ ءَايَةٞ لَّيُؤۡمِنُنَّ بِهَاۚ﴾، فلمَّا جعلَ مُتعلَّقَ فعلِ الشُّعورِ نفيَ إيمانِهم كان مُتعلَّقًا غريبًا بحسب العُرفِ في استعمالِ نظيرِ هذا التَّركيب[1]، فكان الأصلُ أن يكونَ الكلامُ: (وما يشعركم أنَّها إذا جاءَت يؤمنون)، ولكن ﴿لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ هو المُتعيَّنُ، وقد أومأ الزَّمخشريُّ إلى ذلك فبيّن أنّ اللّه أخبرَ المؤمنين بعلمهِ فيهم، فقال: "إنَّها إذا جاءَت؛ لا يؤمنون البتَّة، وما يشعرُهم أن تكونَ قلوبُهم حينئذٍ، كما كانَت عند نزولِ القرآنِ وغيره منَ الآيات، مطبوعًا عليها، فلا يؤمنوا بها"[2].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

اليَمِينُ والقَسَمُ:

القسم: النَّصيب، والمُراد أنَّ الَّذي أقسمَ عليه منَ المالِ وغيرهِ قد أحرزه، ودفعَ عنهُ الخصمَ باللّهِ، واليَمينُ اسمٌ للقسَم مُستعارٌ، وذلك أنَّهم كانوا إذا تقاسموا على شيءٍ؛ تصافحوا بأيمانهم، ثمَّ كَثُر ذلك حتَّى سُمِّيَ القسمُ يمينًا.

القسَمُ اسمٌ للقسمِ حقيقةً واليمينُ فيه مجازًا

فالقسمُ على الحقيقة، واليمينُ هو القَسَمُ على المجازِ في استعمالِ اليَدِ للمصافحةِ بتوثيق القسمِ بينهم.

القَسَم والحلف:

الفرقُ بين القسَمِ والحَلْفِ أنَّ القسمَ أبلغُ منَ الحلْفِ؛ لأنَّ معنى قولِنَا: أقسمُ باللّه: أنَّه صارَ ذا قسم باللّه، والقسمُ: النَّصيبُ، والمرادُ أنَّ الَّذي أقسمَ عليه منَ المال وغيره قد أحرزَهُ، ودفعَ عنه الخصمَ باللّهِ، والحلْفُ من قولكَ: سيفٌ حليفٌ، قاطعٌ ماضٍ، فالحلْفُ باللّهِ، هو قطعٌ للمخاصمةِ باللّهِ، فيكون القسمُ أبلغَ منَ الحلفِ؛ إذ يتضمَّنُ

(الحَلْفُ) قَطعٌ للمُخاصَمَةِ، و(القَسَمُ) قطعٌ لها ودَفعٌ للخَصمِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/438.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/56 - 57.

معنى قطعِ المخاصمةِ مع دفعِ الخصمِ، ففيه معنيان، أمَّا الحلفُ؛ فيفيدُ معنًى واحدًا، وهو قطعُ المخاصمةِ، فحسبُ[1]. قال التَّبريزيُّ: الإقسامُ إفعالٌ منَ القسم الَّذي هو بمعنى النَّصيب والقسمة، وكان إقسامُهم باللّٰهِ غايةً في الحلف، وكانوا يقسمون بآبائهم وآلهتهم، فإذا كان الأمرُ عظيمًا؛ أقسموا باللّٰهِ تعالى[2].

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 42.

(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/613.

﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ١١٠﴾ [الأنعام: 110]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

تقليبُ الأفئدةِ والأبصارِ منَ اللهِ في آخرِ الأمرِ مناسبٌ لانقلابِها في أوّله

بعد أن بيَّن سبحانه تقلُّبَ أقوالِهم بين الاستعداد لسبِّ اللهِ مرَّةً اعتداءً وظلمًا، والقسمِ باللهِ جهدَ أيمانهم مرَّةً أخرى؛ بيَّن هنا أنَّ ذلك ناتجٌ عنِ الأهواء، وتقلُّبِ الأفئدةِ والأبصارِ، وما ذاك إلَّا دليلٌ على عدم الإيمانِ، وعدم القناعةِ، وعدم الرُّكونِ إلى الحقِّ، فهذا حالُهم في كلِّ مرَّةٍ تُعرَضُ عليهم الآياتُ، ويُعرَضُ عليهم الإيمانُ، فيكفرون، فأنَّى لهم أن يؤمنوا إن جاءَتهم الآياتُ الَّتي اقترحوها.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَنُقَلِّبُ﴾: جذرُ الكلمةِ هو (قلب)، قَلَبَ الشَّيْءَ قلبًا: حوَّلَهُ عن وجهِهِ[1]، وكلامٌ مقلوبٌ، وقَلَبَ رداءَهُ، وقَلَّبَهُ لوجهه: كَبَّهُ، وقَلَبَهُ ظهرًا لبطنٍ[2]، وقَلَبتُ الشَّيءَ: تصفَّحْتُهُ، فرأيْتُ داخلَهُ وباطنَهُ، وقَلَبْتُ الأمرَ ظهرًا لبطنٍ: اختبرتُه، وقلبتُ الأرضَ للزِّراعَةِ، وقلَّبْتُ بالتَّشديد في الكُلِّ مبالغةً وتكثيرًا، وفي التَّنزيل، ﴿وَقَلَّبُواْ لَكَ ٱلْأُمُورَ﴾ [التّوبة: 48][3]. وفي الآية قوله: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ﴾ يدلُّ على التَّقلُّب في الأمر، وعدمِ المقدرةِ على اتِّخاذ القرار، ثم فسَّر ذلك التَّقليبَ بالعمهِ.

2) ﴿أَفْـِٔدَتَهُمْ﴾: جذر الكلمةِ هو (فأَدَ)، والفؤادُ كالقلب، لكن يُقال له: فؤادٌ؛ إذا اعتُبِرَ فيه معنى التَّفَؤُّدِ، أي: التَّوَقُّدِ، يُقال: فَأَدْتُ

(1) الزّمخشريّ، أساس البلاغة، والمُطرّزيّ، المُغرِب في ترتيب المُعرِب: (قلب).
(2) الزّمخشريّ، أساس البلاغة: (قلب).
(3) أبو العبّاس، المصباح المنير: (قلب).

اللَّحمَ: شَوَيتُهُ، ولحمٌ فَئِيدٌ: مشويٌّ، قال تعالى: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ۝١١﴾ [النَّجم: 11]، ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ﴾ [الإسراء: 36]، وجمعُ الفؤادِ: أَفئِدَةٌ، وتخصيصُ الأفئدةِ تنبيهٌ على فرط تأثيرٍ له[1]، والآيةُ فيها معنى الطَّاقةِ الَّتي في الفؤاد، وهي التَّقلُّبُ والتَّبدُّلُ، قال البقاعيُّ: وخُصَّ بالذِّكرِ؛ لأنَّه ألطفُ ما في البدن، وأشدُّه تألُّمًا بأدنى شيءٍ منَ الأذى، ولأنَّه منشأُ العقائدِ الفاسدةِ، ومعدنُ حبِّ المالِ الَّذي هو منشأُ الفسادِ والضَّلالِ، وعنه تصدرُ الأفعالُ القبيحةُ[2].

3) ﴿مَرَّةٍ﴾: جذر الكلمةِ هو (مرر)؛ وقولهم: مَرَّةً ومرَّتين، كفَعْلَة وفَعْلَتين، وذلك لجزءٍ منَ الزَّمان[3]، قال: ﴿يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِى كُلِّ مَرَّةٍ﴾ [الأنفال: 56]، ﴿وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [التّوبة: 13]، ومثلهُ في قوله: ﴿كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾.

4) ﴿طُغْيَٰنِهِمْ﴾: جذرُ الكلمةِ هو (طغو وطغي)؛ الطُّغْيان: الواوُ لغةٌ فيه، وقد طَغَوْتُ وطَغَيْتُ، والاسم الطَّغْوَى، وكلُّ شيءٍ يجاوزُ القدرَ، فقد طَغَى مثلَ ما طَغَى الماءُ على قَوم نُوح، وطغى الماءُ: ارتفع وعلا، وكَمَا طغتِ الصَّيحةُ على ثَمُودَ، والطَّاغِيةُ: الجبَّارُ العنيدُ[4]، والطُّغيانُ كل ما جاوز القدْرَ، وارتَفَعَ، وغَلَا في الكفرِ[5].

5) ﴿يَعْمَهُونَ﴾: جذرُ الكلمةِ هو (عمه)؛ عَمِهَ يَعْمَهُ عَمَهًا، فهو عَمِهٌ، وهم عَمِهُونَ؛ إذا تَرَدَّوا في الضَّلالةِ[6]، العمَهُ: التَّردُّدُ في الضَّلالة، والتَّحيُّرُ في منازعة أو طريق. وقال ثعلب: هو ألَّا يعرفَ الحجَّة، وقال اللِّحْيانيُّ: وهو تردُّدهُ، لا يدري أين يتوجَّهُ. ورجلٌ عمهٌ وعامهٌ، والجمع عمهون[7]، وفلانٌ في عمهٍ من أمرِه، وهو التَّردُّدُ والتَّحيُّرُ، والأرض العَمْهاءُ لا أماراتِ لها[8]. و"المعنى: يتردَّدونَ ويَتَحَيَّرونَ، أو يَعْمَوْنَ عَن رُشْدهم، أو يَرْكبون رؤوسَهم ولا يُبْصرون"[9].

(1) الرّاغب الأصفهانّي، المُفردات: (فأد).
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 22/248.
(3) الأصفهانّي، المُفردات: (مرر).
(4) الفراهيديّ، العين، وابن سيده، المُحكم: (طغي).
(5) ابن سيده، المُحكم: (طغي).
(6) الفراهيديّ، العين: (عمه).
(7) ابن سيده، المُحكم: (عمه).
(8) الزّمخشريّ، أساس البلاغة: (عمه).
(9) أبو حيان، البحر المحيط: 1/116.

المَعْنى الإجْماليُّ:

يُقلِّبُ اللهُ أفئدةَ المنكرين وأبصارَهم عنِ الإيمان بإزعاجِ نفوسِهم همًّا وغمًّا

قولهُ تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ﴾ أخبرَ تعالى أنَّه يقلِّبُ أفئدةَ المشركين وأبصارَهم، وهي إشارةٌ إلى الحيرةِ والتَّردُّد، وصرفِ الشَّيءِ عن وجهه، والمعنى: أنَّه تعالى يحوِّلُهم عنِ الهدى، ويتركُهم في الضَّلَال والكُفر ﴿كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ وقت أن جاءَهم هدى الله، كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾﴾ [التّوبة: 125]، ويؤكِّدُ هذا المعنى آخِرُ الآيةِ: ﴿وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾، أي: ونتركهم في تغمُّطهم في الشَّرِّ والإفراط فيه يتحيَّرون، وهذا كلُّه إخبارٌ منَ اللّه تعالى بفعلهِ بهم في الدُّنيا[1]، فيُقلِّبُ اللّهُ أفئدةَ هؤلاء وأبصارَهم عنِ الإيمان وعنِ الآيات، كما لم يؤمنوا بما رأوا منَ الآيات، فيكون تَقليبُها بإزعاجِ نفوسِهم همًّا وغمًّا[2].

وهناك قولٌ آخرُ، وهو أنَّ التَّقليبَ على اعتبار أن لو رُدُّوا منَ الآخرة إلى الدُّنيا، فلا يؤمنون، كما فُعِلَ بهم ذلك، فلم يؤمنوا في الدُّنيا، ونظيرُ ذلك قوله: ﴿وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ﴾ [الأنعام: 28][3]، والصَّحيحُ أنَّ القولَ الأوَّلَ هو الأرجحُ للحاق الآية، وأمَّا القولُ الآخرُ؛ فهو من حيثُ الجملةُ صَحيحٌ، لكن لا دليلَ عليه إلَّا بتقديرٍ مُعتسِفٍ.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ استعمالِ الواوِ في قولِه: ﴿وَنُقَلِّبُ﴾:

بيانُ تفصيلِ الآياتِ تعريضٌ بالَّذين لا يؤمنون

يجوز أن تكونَ جملةُ ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ﴾ مستأنفةً، والواوُ للاستئنافِ أو أن تكون معطوفةً على جملة: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾[4]،

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/617.
(2) مقاتل، تفسير مقاتل بن سليمان: 1/365.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 12/44.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/441.

داخلٌ في حكم ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ﴾، مقيَّدٌ بما قُيِّدَ بهِ، أي: ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ﴾ أنَّا نقلِّب أفئدتَهم عن إدراك الحقِّ، فلا يفقهونَهُ، وأبصارَهم عن اجتلائهِ، فلا يُبصرونَهُ[1].

نكتةُ استعمالِ مفردةِ التَّقليبِ بصيغةِ المضارعِ:

المضارعُ في قوله: ﴿وَنُقَلِّبُ﴾ يفيدُ التَّجدُّدَ مع الزَّمن، فيكون تقليبُ أفئدتهم مُتجدِّدًا مُتنوِّعًا، فلا يستقرُّ قلبُهم على إيمانٍ، مهما جاءَتهم الآياتُ، ومهما أقنعتهم الحججُ، فهم في تردُّدٍ دائم، ويفسِّرُ ذلك التَّقليبُ قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾﴾ [مريم: 83] فلا يهدأُ لهم بالٌ، ولا يشعرون براحةٍ أو طمأنينةٍ قطعًا، ولا يُعبِّرُ عن هذا المعنى مثلُ مفردةِ التَّقليبِ.

تقليبُ الأفئدةِ إرباكٌ للنَّفس، فلا طمأنينةَ لها ولا قرارَ

بلاغةُ المجازِ في قولِه تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ﴾:

معنى تقليب القلبِ والبصرِ، ما ينشأُ عنِ القلبِ والبصرِ منَ الدَّواعي إلى الحيرةِ والضَّلالِ؛ لأنَّ القلبَ والبصرَ يتقلَّبان بأنفسهما، فنسبةُ التَّقليب إليهما مجازٌ، بإطلاقِ البعض وإرادةِ الكلِّ؛ لأنَّ التَّقليبَ يبلغُ الأبدانَ كلَّها؛ لهذا جاءَتِ الآيةُ: ﴿وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾، أي: يتقلَّبون في النَّظر والرَّأي، فلا يستقرُّون على رأيٍ ثابتٍ، قال النِّيسابوريُّ: معنى تقليب الأفئدةِ والأبصارِ هو أنَّهم إذا جاءَتهم الآياتُ القاهرةُ الَّتي اقترحوها؛ عرفوا كيفيَّةَ دلالتِها على صدقِ الرَّسولِ إلَّا أنَّه تعالى إذا قلَّبَ قلوبَهم وأبصارَهم عن ذلك الوجهِ الصَّحيحِ بقوا على الكفر، ولم ينتفعوا بتلكَ الآياتِ[2].

إطلاقُ الأفئدةِ والأبصارِ وإرادةُ الأبدانِ كلِّها باعتبارِ أوضح ما في الأبدان تقليبًا

نكتةُ تقديمِ الأفئدةِ على الأبصارِ:

قُدِّمتِ الأفئدةُ على الأبصارِ في قولِه تعالى: ﴿أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ﴾؛ لأنَّ الأفئدةَ: هي المقصودُ الفكريُّ الحقيقيُّ للتَّقلُّب، والأبصارَ: هي

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/173.
(2) النّيسابوريّ، غرائب القرآن: 3/144.

الحاسَّةُ الَّتي يظهرُ تقلُّبُها للنَّاظر، فإنَّ الأبصارَ والأفئدةَ تتقلَّبُ معًا، إحداها باطنٌ لا يُرى، وإنَّما تُرى آثارُه، والأخرى تُرَى، وتُرَى آثارُها، وهذا كقوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ﴾ [الأحزاب: 19]، فقدَّم المقصودَ بالهدايةِ، وهي الأفئدةُ، على المعين على الهدايةِ، وهي الأبصارُ، من باب تقديمِ الغاياتِ على الوسائلِ، فقُدِّمَت الأفئدةُ؛ لأنَّ موضعَ الدَّواعي والصَّوارف هو القلبُ، فإذا حصلتِ الدَّاعيةُ في القلب انصرفَ البصرُ إليه شاء أم أبى، وإذا حصلتِ الصَّوارفُ في القلب؛ انصرفَ البصرُ عنه، وإن كان تَحَدُّقُ النَّظَرِ إليه ظاهرًا[1].

تقديمُ الغاياتِ (الأفئدة) على وسائلِها (الأبصار)

توجيهُ تخصيص الفؤاد والبصر بالذِّكر:

خُصَّ مِن أجسادهم أفئدتُهم وأبصارُهم، في قولِه تعالى: ﴿أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ﴾؛ لأنَّها معدِنُ إعراضِهم عنِ العِبرةِ بالآيات، كقوله تعالى: ﴿سَحَرُوٓاْ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ﴾ [الأعراف: 116]، أي: سحروا النَّاس بما تُخيِّله لهم أعينُهم[2].

الأفئدةُ والأبصارُ هي آلةُ الإعراضِ

معنى الكاف في قوله تعالى: ﴿كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ﴾:

الكافُ في قوله: ﴿كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ تحتمل معنيين:

الأول: للتَّعليلِ، أي: كما لم يؤمنوا بهِ أوَّلَ مرَّةٍ نجازيهم بأن نُقلِّبَ أفئدتَهم عنِ الهدى، ونطبعَ على قلوبِهم، فكأنَّه قال: ونحنُ نُقلِّبُ أفئدتَهم وأبصارَهم جزاءً لما لم يؤمنوا به أوَّلَ مرَّةٍ بما دعوا إليه منَ الشَّرعِ، وهو معنى التَّعليل[3]، أي: لأنَّهم لم يؤمنوا بهِ أوَّلَ مرَّةٍ فنقلِّبُ أفئدتَهم وأبصارَهم، فتكونُ الكافُ للتَّعليل.

علّة التَّقليبِ لعدم الإيمان ابتداءً وتشبيه عدمِ إيمانهم ثاني مرَّةٍ بعدمِ إيمانِهم أوَّل مرَّةٍ

الثاني: للتَّشبيهِ، ففي الكلام حذفٌ تقديرهُ: فلا يؤمنون به

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/617.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/441.
(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/332.

ثاني مرَّةٍ، كما لم يؤمنوا به أوَّلَ مرَّةٍ[1]، والمعنى: ونقلِّبُ أفئدتَهم وأبصارَهم، فلا يؤمنون بالآيةِ الَّتي تجيئهم، مثلما لم يؤمنوا بالقرآنِ من قبلُ، فتقليبُ أفئدتِهم وأبصارِهم على هذا المعنى يحصلُ في الدُّنيا، وهو الخذلانُ، وعلى هذا الوجهِ يكون قولُه: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ﴾ مُعتَرِضًا بالعطف بين الحالِ وصاحبِها، ويجوزُ أن يجعلَ التَّشبيهَ للتَّقليب فيكون حالًا منَ الضَّمير في (نقلِّب)، أي: نقلِّبُ أفئدتَهم وأبصارَهم عن فطرة الأفئدةِ والأبصارِ، كما قلَّبناها، فلم يؤمنوا به أوَّلَ مرَّةٍ، إذ جمحُوا عنِ الإيمان أوَّلَ ما دعاهم الرَّسولُ ﷺ ويصيرُ هذا التَّشبيهُ في قوَّةِ البيانِ للتَّقليب المجعولِ حالًا من انتفاء إيمانِهم بأنَّ سببَ صدورِهم عنِ الإيمانِ لا يزالُ قائمًا؛ لأنَّ اللّٰهَ حرمَهم إصلاحَ قلوبِهم[2].

نكتةُ إيثارِ النَّفي على الإثباتِ:

طباقُ السَّلبِ في إثباتِ الإيمانِ زَعمًا، وفي نَفْيِهِ تحقيقًا

جاء قولُه: ﴿كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِۦٓ﴾ نفيًا لا إثباتًا، فلم يقُل: (كما كفروا به)، لما في التَّعبير من ذكرِ الإيمانِ ونفيه مُناسَبَة لقولهم: (إنَّهم سيؤمنون بالآية المقترحةِ من عندهم؛ إنْ جاءَت)، فحقَّقَ هذا الأسلوبُ طباقَ السَّلبِ بين قولهم: ﴿لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا﴾ وقوله: ﴿كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ﴾، وفائدةُ هذا الطِّباقِ بيانُ عظيمِ شأنِ ذلك التَّقلُّبِ في أفئدتِهم، وأنَّهم إنْ آمنوا لحظةَ مجيءِ الآيةِ؛ فسوف يرتدُّون عن إيمانهم، ويرجعون إلى كفرِهم بعد ذلك.

بلاغةُ إضمارِ التَّصريحِ بالمؤمَنِ بهِ:

القرآنُ ذو منزلةٍ سامقةٍ يُعرفُ بها بلمحِ الإشارةِ

في قولِه تعالى: ﴿كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِۦٓ﴾ أضمرَ التَّصريحَ بالقرآنِ، وهو المؤمَنُ بهِ؛ لأنَّه معلومٌ غايةَ العلم، فلا يخفى على أحدٍ، ولأنَّهم التفتوا عنِ الإيمانِ به إلى الإيمانِ بالآيةِ المقترَحةِ من عندهم، فأُنكِرَ

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/618، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/441.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/442.

عليهم ذلك بعدم ذكرِ ما كان ينبغي أن يؤمنوا به أوَّلَ مرَّةٍ، لِمَا في القرآن من دواعي الإيمان به أوَّلَ سماعِه، فهو الحقُّ بعينه.

براعةُ ذكرِ قيد ﴿أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾:

ذُكِر قيدُ ﴿أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾، ولو حُذِف، فقال: (كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ وَنَذَرُهُمْ)؛ لصحَّ المعنى، وفائدةُ ذكرِ ﴿أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ الدَّلالةُ على توجُّههم قبلَ سماعِ القرآنِ إلى الإنكارِ والإعراضِ، ففيها إشارةٌ إلى أنَّهم قد بيَّتوا الإنكارَ، فلمَّا سمعوا القرآنَ أوَّلَ مرَّةٍ؛ أنكروه لا لعدم تصديقهم، بل لكفرِهم وإنْكارِهِمْ، وأتى بأوَّلِ مرَّةٍ للتَّذكيرِ بأوَّلِ مرَّةٍ يكفرون فيها؛ استحضارًا للحال وتشنيعًا عليهم، وفي ذكر أوَّلِ مرَّةٍ إيماءٌ إلى الثَّانية، وهي مجيءُ الآياتِ على اقتراحهم، كما أنَّ في قوله: ﴿أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ كنايةً عنِ العودة بالإيمان إلى البداية، وهذا هو التَّقلُّبُ الَّذي يصيبُ أفئدةَ هؤلاء المُنكِرين.

مَن أظلمَت بدايتُه؛ أظلمَت نهايتُه

لطيفُ استعمالِ مفردةِ ﴿مَرَّةٍ﴾:

يُلحَظُ في المرَّةِ معنى المرارةِ والسُّرعةِ، ففيها إشارةٌ إلى مرارةِ كفرِهم، وسرعةِ مرورِ الزَّمانِ عليهم، وما ذاك إلَّا لِتَبْييتِهم قضيَّةَ الكفرِ والإنكارِ قبلَ سماعِ القرآنِ، ورؤيةِ الآياتِ، ودلالتِها على التَّعدُّد بعد ذلك، فأوَّلُ مرَّةٍ يعني: أنَّ هناك مرَّاتٍ سيعودون بها إلى كفرهم أو عدم إيمانهم، وهذا هو التَّردُّدُ بعينه، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱرۡتَابَتۡ قُلُوبُهُمۡ فَهُمۡ فِي رَيۡبِهِمۡ يَتَرَدَّدُونَ ٤٥﴾ [التَّوبة: 45].

تجمَعُ لفظةُ (مرّة) بين مرارةِ الكفر وسرعتِه

بلاغةُ عطفِ جملةِ ﴿وَنَذَرُهُمْ﴾ على السَّابقة:

عطفَ قولَه: ﴿وَنَذَرُهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ﴾ على قوله: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفۡـِٔدَتَهُمۡ وَأَبۡصَٰرَهُمۡ﴾ من باب تكميلِ المعنى وتتميمِه، فذكر في الأولى حالَهم، وذكرَ في الثَّانية مآلَهم، فهم في كُلٍّ من حالِهم ومآلِهم في تقلُّبٍ وعدم استقرارٍ، وارتيابٍ، وما ذاك إلَّا لأنَّهم اختاروا عدمَ الإيمانِ، فتركهم اللهُ تعالى لاختيارهم.

بين التَّقليبِ والتَّركِ يكون حالُ المنكِرين ومآلُهم

إيثارُ استعمالِ مفردةِ ﴿وَنَذَرُهُمْ﴾ بصيغة المضارع:

مَن تركَ الله قاصدًا؛ تركَه الله في طغيَانِه عامهًا

في الآية تناسُبٌ وانسجامٌ بين قولِه: ﴿وَنَذَرُهُمْ﴾ والمعطُوفِ عليه: ﴿وَنُقَلِّبُ﴾، فمعنى ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ﴾، أي: نترُكُهَا على انقلابِهَا الَّذي خُلِقَتْ عليهِ، فكانَت مَملُوءَةً طُغيَانًا ومُكابَرَةً للحَقِّ، وكَانت تَصْرِفُ أَبْصارَهُمْ عَنِ النَّظَرِ والاستِدلالِ، ولذَلكَ أضافَ الطُّغيانَ إلى ضَميرِهِم؛ للدَّلالَةِ على تأصُّلِهِ فيهِم، ونَشأتِهِم عليه، وأنَّهُم حُرِمُوا لِينَ الأفئِدَةِ الَّذي تنشأُ عنه الخَشيةُ والذِّكرَى، ومَجِيءُ ﴿وَنَذَرُهُمْ﴾ بِصيغَةِ المُضَارِعِ فيه مِن تجدُّدِ ذلِكَ الأمر عَليهِم، فإنَّهُ سبحانه في جَميعِ أحوالِهِم قَد تَرَكَهُم على نَهجِهِم في التَّقَلُّبِ والطُّغيَانِ[1].

نكتةُ اقترانِ لفظِ الأفئدةِ بلفظِ الأبصار:

الأفئدةُ والأبصارُ منظومةٌ معلوماتيَّةٌ مهمَّةٌ لدى الإنسان، وهي محورُها

اقترن لفظُ البصرِ بلفظِ القلبِ أو الفؤادِ كثيرًا في القرآن الكريم كما في قوله هنا: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ﴾، والظَّاهرُ أنَّ وجهَ الجمعِ بين الأفئدة والأبصار وعدم الاستغناء بالأفئدةِ عنِ الأبصار؛ أنَّ الأفئدةَ تختصُّ بإدراك الآياتِ العقليَّةِ المحضةِ، مثل: آيةِ الأُمِّيَّةِ وآيةِ الإعجازِ، ولمّا لم تكفهمُ الآياتُ العقليَّةُ، ولم ينتفعوا بأفئدتهم؛ لأنَّها مقلَّبةٌ عنِ الفطرة، وسألوا آياتٍ مرئيَّةً مُبصِرَةً، كأن يرقى في السَّماء، ويُنزِل عليهم كتابًا في قرطاس، أخبر اللهُ رسولَهُ ﷺ والمسلمين بأنَّهم لو جاءَتهم آيةٌ مُبصِرَةٌ؛ لما آمنوا، لأنَّ أبصارَهم مُقلَّبَةٌ أيضًا مثل تقليب عقولهم[2].

بلاغةُ المجازِ في استعمال حرف ﴿فِي﴾:

الظَّرفيَّةُ في قوله: ﴿وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ﴾ مجازيَّةٌ للدَّلالة على إحاطةِ الطُّغيانِ بهم، أي: بقلوبِهم. وجملة: ﴿وَنَذَرُهُمْ﴾ معطوفة على ﴿وَنُقَلِّبُ﴾،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/444.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/443.

وجملة: ﴿يَعْمَهُونَ﴾ حالٌ منَ الضَّمير المنصوب في قوله: ﴿وَنَذَرُهُمْ﴾. وعطفُ ﴿وَنَذَرُهُمْ﴾ على ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ داخلٌ في حكم الاستفهام الإنكاريِّ، مقيدٌ بما قُيِّد به، مبيِّنٌ لما هو المرادُ بتقليب الأفئدةِ[1]، فيكون تَقليبُ الأبصارِ، والعَمَهُ في الطُّغيان معنيين متناسبين متكاملين.

التَّقليبُ والعَمَهُ متناسبان لدلالتهما على التَّردُّدِ في الضَّلالة، والتَّحيُّر في المنازعة

دلالةُ المُضارع على التَّجدُّد في الأفعال: (نُقلِّبُ) و(نَذَرُ) و(يَعمَهُونَ):

وردتِ الأفعالُ في هذه الآية جميعُها مضارعةً؛ لتدلَّ على التَّجدُّد، وسرعة التَّبدُّلِ والتَّقلُّبِ في الأبصارِ والأفئدةِ، ثمَّ ما يتبعها من تجدُّدِ العمهِ في القرار والاختيار، وما ذاك إلَّا لأنَّ إرادةَ اللّه تشاءُ تقليبَ تلك الأبصار والأفئدةِ، وقدَّرَت عليهم الطُّغيانَ والعَمَهَ، وما ذاك إلَّا لاستحقاقِهم؛ لما اقترفت نفوسُهُم وقلوبُهُم وعقولُهُم.

تقليبُ الأبصارِ والأفئدةِ مُتكرِّرٌ عند المُعارضين، وهو امتدادٌ طبيعيٌّ لعمهِ عقولِهم

دلالةُ إضافةِ الطُّغيانِ إلى ضمير المشركين في قولِه تعالى: ﴿طُغْيَٰنِهِمْ﴾:

إضافةُ الطُّغيانِ إلى ضميرِ المشركين (هم) يدلُّ على أنَّهم قد اختاروا الطُّغيانَ، وركنوا إليه، وأنَّه قد بات جزءًا من تفكيرهم، وأسلوبًا في حياتِهم، فاستحقُّوا بذلك قولَ اللّه فيهم: ﴿وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾؛ فيكون ذلك الطَّغيانُ هو الرَّائدُ لأعمالهم، المُوَجِّهُ لها، فهم فيه يعمهونَ، فلا يبصرونَ الحقَّ، ولا يتَّبعونه.

اختار المُشركون الطُّغيانَ، وركنوا إليه، فباتَ جزءًا من كيانِهم

العلاقةُ بين الطُّغيان والعمهِ، وأثرها في تصوير تمكُّن ضلالِ المشركين:

العَمَهُ: التَّرَدُّدُ في الضَّلَالَة، والتَّحَيُّرُ في مُنَازَعَةٍ أو طَريقٍ، وقالَ ثَعلَبٌ: هو ألَّا يَعرِفَ الحُجَّةَ، وقالَ اللِّحيَانيُّ: هو تَرَدُّدُهُ، لا يدري أينَ يَتَوَجَّهُ؟[2] وفي الآية: ﴿وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾.

والطُّغيانُ سَبَبُ العَمَهِ، لِمَا يُحدِثُهُ الطُّغيَانُ من إطبَاقِ العَقلِ، والإصرارِ على الباطِلِ، وعَدَمِ التَّعَقُّلِ، فإذا اجتمع طغيانُ النَّفسِ،

الطُّغيَانُ أثرُ كبرِ النَّفسِ، والعمهُ أثرُ ضياعِ العَقلِ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/173.
(2) ابن سيده، المُحكم: (عمه).

وعمهُ الفكرِ؛ أصبحَ الإنسانُ في ضلالٍ مُبينٍ، لا ينكشفُ عنه إلَّا باللُّجوء إلى ذي العزَّةِ والملكوتِ.

تَقديمُ الجارِّ والمجرور في قوله تعالى: ﴿وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ﴾:

(الطُّغيان) سببٌ أصيلٌ في الضَّلالِ والعمهِ

أصلُ الكلام: (يعمهون في طغيانهم)، لكنَّه قدَّمَ الطُّغيانَ على العَمَهِ؛ لبيان التَّسلسُلِ في النَّشأة والسَّببيَّة، فالطُّغيانُ سببٌ في عموم الأخطاءِ، والقراراتِ الظَّالمةِ، الَّتي يمكن أن يقعَ فيها الإنسانُ نتيجةَ طُغيانِه، وتجاوزِه الحدَّ، وقال السُّيوطيُّ: يتحيَّرون في ضلالهم[1]، فالطُّغيانُ هو سببٌ أصيلٌ في التَّمادي في الباطل، فقُدِّمَ الجارُّ والمجرورُ لبيان خطورةِ الطُّغيانِ، وأنَّ على الإنسان أن يعالجَ نفسَه أوَّلًا من طغيانِها.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الفؤادُ والقلبُ:

القلبُ هو الاسمُ العلمُ الجامعُ لمعانيهِ

يعبَّرُ بالقلبِ عنِ المعاني الَّتي تختصُّ به منَ الرُّوحِ والعلمِ والشَّجاعةِ وغير ذلك، وقوله: ﴿وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ﴾ [الأحزاب: 10]، أي: الأرواح، وقال: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾ [ق: 37]، أي: علم وفهم، وقوله: ﴿وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ﴾ [الأنفال: 10]، أي: تَثْبُتَ به شجاعتُكم، ويَزولَ خوفُكم، وقوله: ﴿ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾ [الأحزاب: 53]، أي: أجلبُ للعفَّةِ، وقوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الفتح: 4][2]، فورد القلبُ عمومًا للمؤمنين لإرادة الأمورِ العاليةِ كالعلمِ والرُّوحِ والشَّجاعةِ والتَّثبيتِ على الحقِّ.

الفُؤادُ حالةُ التَّوقُّدِ من أحوالِ القلبِ

والفؤادُ كالقلبِ، لكن يُقال لهُ: فؤادٌ إذا اعتُبر فيه معنى التَّفَؤُّدِ، أي: التَّوقُّدِ، يُقال: فَأَدْتُ اللَّحمَ: شَوَيْتُهُ، ولحم فَئِيدٌ: مشويٌّ. ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾، وتخصيصُ الأفئدةِ تنبيهٌ على

(1) السّيوطيّ، معترك الأقران: 2/587.
(2) الرّاغب الأصفهانّي، المفردات: (فأد).

فرط تأثيرٍ له[1]، والآيةُ فيها معنى الطَّاقةِ الَّتي في الفؤاد، وهي التَّقلُّبُ والتَّبدُّلُ.

قال البقاعيُّ: وخُصَّ بالذِّكر لأنَّهُ منشأُ العقائدِ الفاسدةِ، ومعدنُ حبِّ المالِ الَّذي هو منشأُ الفسادِ والضَّلالِ، وعنه تصدرُ الأفعالُ القبيحةُ[2]، ومن هنا فقد ذُكِرَ الفؤادُ في الآية دون القلبِ؛ لأنَّ السِّياقَ في مَعرِضِ الحديثِ عن أفئدةِ المشركين.

العمهُ والحيرةُ:

العمهُ في البصيرةِ، كالعمى في البصر، ورجل عمَهٌ عامِهٌ، أي: يتردَّدُ مُتحيِّرًا لا يهتدي لطريقِه ومَذهَبِه، والجمع عَمِهون وعُمَّهٌ، وقد عَمِه؛ إذا حادَ عنِ الحقِّ، والعمَهُ في الرَّأي، والعمى في البصَرِ، قال أبو منصور: ويكون العمى عمى القلبِ، يُقال: رجلٌ عَم؛ إذا كان لا يُبصِرُ بقلبه، وأرض عَمهاءُ: لا أعلامَ بها، وذهبت إبلُهُ العُمَّهَى؛ إذا لم يَدْرِ أين ذهبت؟ والعُمَّيْهَى مثلُهُ[3].

العمهُ في الرَّأي، والعمى في البصر

يَذَرُ ويَترُكُ:

يُقال: فلانٌ يَذَرُ الشَّيءَ، أي: يقذفُهُ لقلَّةِ اعتدادِه به، ولم يُستعمَلْ ماضيه، قال تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِنَعۡبُدَ ٱللَّهَ وَحۡدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾ [الأعراف: 70]، ﴿وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَۚ﴾ [الأعراف: 127]، ﴿فَذَرۡهُمۡ وَمَا يَفۡتَرُونَ ١١٢﴾ [الأنعام: 112]، ﴿وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ﴾ [البقرة: 278] إلى أمثالِه، وتخصيصه في قوله: ﴿وَيَذَرُونَ أَزۡوَٰجٗا﴾ [البقرة: 234]، ولم يقُل: يتركون، ويخلِّفون، والوَذَرَةُ: قِطْعةٌ منَ اللَّحم، وتسميتها بذلك لقلَّةِ الاعتدادِ بها نحو قولهم فيما لا يعتدُّ بهِ: هو لحمٌ على وضم[4].

يذرُ الشَّيءَ: يقذفُه لقلَّةِ اعتدادِه بِهِ

وتركَ الشَّيءَ: رفَضَه قصدًا واختيارًا، أو قهرًا واضطرارًا، فمِنَ

(1) الرّاغب الأصفهانّي، المفردات: (قلب).
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 22/248.
(3) ابن منظور، لسان العرب: (عمه).
(4) الرّاغب الأصفهانّي، المفردات: (وذر).

يـكـون الـتَّرك لـلشَّيءِ رفْضَـهُ قصدًا أو قهرًا

الأوَّل: ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ﴾ [الكهف: 99]، وقوله: ﴿وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا﴾ [الدّخان: 24]، ومِنَ الثَّاني: ﴿كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ﴾ [الدّخان: 25]، ومنه: تَرِكَةُ فلانٍ، لما يخلِّفُهُ بعد موتهِ، وقد يُقال في كُلِّ فعلٍ ينتهي به إلى حالةٍ مَا: تَرَكْتُهُ كذا، أو يَجري مَجرَى جعلْتُهُ كذا، نحو: تَرَكْتُ فلانًا وحيدًا، والتَّرِيكَةُ أصلُهُ: البيضُ المتروكُ في مفازَتِهِ[1].

(1) الرّاغب الأصفهانّي، المفردات: (ترك).

الجُزْءُ الثَّامِنُ

﴿ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿١١١﴾ ﴾ [الأنعام: 111]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

تفصيلُ الإجمالِ بيانٌ للمعاني وتمثيلٌ للواقعِ

تضمّنَتْ هذه الآيةُ تفصيلًا لمَا ورد إجمالًا قبْلها، في قوله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا ۚ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾ ﴾ [الأنعام: 109]، فلنْ يُؤمنُوا حتّى وإنْ تحقّقَ مطلُوبُهمُ السّابقُ، بما ذكرَته هذه الآيةُ مُفصّلًا، من إنزال الملائكةِ، وإحياء الموتى ليُكلّمُوهم، ولو حُشِرَ عليهم كلُّ شيءٍ عِيانًا، وشهدَ هؤلاء جميعًا للرّسول بالصّدقِ، فما كانوا ليُؤمنوا لتأصُّلِهم في المكابرةِ والعِنادِ والكفرِ، فمقامُ هذه الآيةِ منَ السَّابقِ مقامُ التَّفصيلِ منَ الإجمالِ، والتَّمثيلِ بما يعلمُه المخاطَبون منَ البيانِ.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَكَلَّمَهُمُ﴾: جذرُ الكلمةِ هو (كَلِمَ)؛ الكَلامُ يقعُ على الألفاظِ المنظومةِ، وعلى المعاني الّتي تحتَها مجموعةً، وعند المُتكلِّمين لا يقعُ إلّا على الجُملةِ المركّبةِ المفيدةِ، وهو أخصُّ منَ القول، فإنَّ القولَ يقعُ عندهم على المفرداتِ[1]، والفرقُ بين الكلام والتّكليم؛ أنّ الكلامَ قد يُسمَعُ بغير مُتكلِّم به، والتّكليمُ لا يُسمَعُ إلّا من مُتكلِّم به[2]، ومعنى قولِه: ﴿وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾؛ أي: أسمعَ الموتى المشركينَ كلامًا مفهومًا، كأن يقُولوا لهم: إنّ وعدَ اللّه حقٌّ، وإنَّ محمّدًا هو رسولُ اللّه ﷺ.

(1) الرّاغب، المفردات: (كلم).
(2) النّحّاس، إعراب القرآن: 4/132.

2) ﴿وَحَشَرْنَا﴾: جِذرُ الكلمةِ هو (حَشَر)؛ والحَشرُ هو الجَمعُ والسَّوقُ، يُقَال: حَشَرَ يَحشُر بالضَّمّ، ويَحشِر بالكَسر حَشرًا، إذا جَمَعَ وساقَ، ومِنهُ يَومُ المَحشَرِ[1]، ويأتي معنى الحشرِ مَجازًا في إجحَاف السَّنَةِ الشَّدِيدَةِ بالمَال[2]، والحَشرُ الجَمعُ مع السَّوقِ، وكلُّ جمعٍ حشرٌ، والحشرُ: السّوقُ والبعثُ والانبعاثُ[3]، وكذلكَ إذا حُشِرَ القومُ إلى بَلَدٍ أَو مُعَسكَرٍ أَو نَحوِهِ[4]، ومعنى الحشرِ في الآية: جمعُ كلِّ شيءٍ إليهم حتّى يكلِّمَهم قُبُلًا ومشاهدةً، ومباشرةً، بصدْقِ ما جاء به الرّسولُ، يعني: لو جُمِعَ لهم كلُّ ذلك ما حصلَ منهم الإيمان[5].

3) ﴿قُبُلًا﴾: جِذرُ الكلمةِ هو (قبل)؛ وقُبُلًا بمعنى: قَبِيلًا قَبِيلًا: جماعةً[6]. ويُقال: قِبَلًا؛ أي: عِيانًا، وقال: ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا ۝٥٥﴾ [الكهف: 55] بقراءة كسر القاف وفتح الباء[7]: أي: عِيانًا[8]. وقُبُلٌ: ما أقبَلَ منَ الإنسان، وهو جمعُ قبيل، والقَبيلُ: ما أقبَلت به المرأةُ من غزلِها حين تفتِلُهُ[9]، وقال الفرّاء والزّجّاج في معنى ﴿قُبُلًا﴾: "جمعُ قبيلٍ بمعنى كفيلٍ؛ أي: كفيلًا بصدْقِ محمّد ﷺ، والقبيلُ: والكفيلُ والزّعيمُ والأدينُ، والحميلُ والضّمينُ، بمعنى واحد"[10].

4) ﴿يَجْهَلُونَ﴾: جِذرُ الكلمةِ هو (جَهِل)؛ والجهلُ على ثلاثةِ أضرُبٍ؛ **الأوّل**: وهو خلوُّ النَّفس منَ العلم، هذا هو الأصلُ، **والثّاني**: اعتقادُ الشّيءِ بخلافِ ما هو عليه. **والثّالث**: فعلُ الشّيءِ بخلاف ما حقُّه أن يُفعلَ، سواءً اعتقد فيه اعتقادًا صحيحًا أو فاسدًا، وعلى ذلك قولُه تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًاۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ۝٦٧﴾ [البقرة: 67]، فجعلَ فعْلَ الهُزُو جهلًا، وقال ﷻ: ﴿فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ﴾ [الحجرات: 6][11]، وجميعُ

(1) الزّحيلّي، التّفسير المُنير: 8/07.
(2) الزَّبيديّ، تاجُ العرُوس: (حشر).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حشر).
(4) ابن منظور، لسانُ العرب: (حشر).
(5) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 269.
(6) الأخفش، معاني القرآن: 1/310.
(7) ابن الجزري، النشر: 2/311، وهي قراءة نافع وابن كثير وأبي عمرو وابن عامر، ويعقوب.
(8) الأخفش، معاني القرآن: 1/310.
(9) ابن فارس، مجمل اللّغة: (قبل).
(10) الهرريّ، تفسير حدائق الرّوح والرّيحان: 9/12.
(11) الرّاغب، المفردات: (جهل).

هذه الحالاتِ يمكنُ أن يكونَ أصحابُها مُنكِرين للإيمان، لكنّها في هذه الآية تدلُّ على معنى الإنكار بجحودٍ، وهو فعلُ الشّيءِ بخلافِ ما حقُّه أن يُفعَلَ، مع اعتقادِهم فيه اعتقادًا جازمًا؛ لأنّ مَن يرى تلك الآياتِ المقترحةَ فلا بدّ له من أن يؤمنَ إيمانًا قاطعًا، ولا مجالَ للإنكارِ بعدَها.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

عـنـادُ الـكـافـرِ بـؤسٌ وفـجـورٌ وبهتانٌ لا قناعةٌ وفكرٌ وبرهانٌ

تُبيِّن الآيةُ حالَ أولئك المشركين باختيارِهم طريقَ الكفرِ والإنكارِ، العادِلين بربّهم الأوثانَ والأصنامَ[1]، فلو أَتيناهم بالآيات الّتي اقترحُوها من إنزالِ الملائكةِ في قولهم: ﴿لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ مَلَكٞۖ﴾، وتكليمِ الموتى إيّاهم في قولِهم: ﴿فَأۡتُواْ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٣٦﴾ [الدّخان: 36]، وزدناهُم فوقَ ذلك أنْ جَمَعنا لهم كُلَّ شيءٍ طلبوه منَ السّباعِ والدّوابِّ والطُّيورِ والجماداتِ كُفلاءَ بصحّةِ ما بشّرْنا به وأنذرْنا، أو جماعاتٍ، أو مُقابلةً ومُعاينةً، حتّى يشهدُوا بأنّك رسولُ اللّه ما كانُوا ليُؤمنوا؛ لأنّهُم قد اختارُوا طريقَ الكُفرِ والجُحُود سابقًا، ولكنّ اللّهَ سبحانه استثنَى برحمتِه، فجعلَ فُسحةً منَ الأمل في إيمانِهم، وذلك لبيان أنّ قضيّةَ الإيمان والكفر بيدِ اللّه سبحانَه وحدَه، ثمّ أكَّد هذا المعنى بأنَّ أكثرَ هؤلاء الكفّارِ يجهلُ قدرةَ اللّه وعظيمَ شأنِه ومشيئتِه سبحانَه في تحويل مَن أرادَ هدايتَه منَ الكفرِ إلى الإيمانِ.

وترشدُ الآيةُ الكريمةُ إلى جناية المشركين على أنفسهم؛ إذ فُتِحَ لهم البابُ فلم يدخلوا، وبُيِّن لهم الطريقُ فلم يَسلكُوا، فبعد ذلك إذا حُرِموا التّوفيقَ كان مُناسبًا لأحوالهم[2].

(1) ابن جرير، جامع البيان: 12/46.
(2) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 269.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

معنى الواوِ في قولِه تعالى: ﴿وَلَوْ﴾:

دورانُ الواوِ على معنى العطفِ والاستئنافِ

تحتملُ الواوُ في قولِه تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ﴾ أن تكونَ لعطفِ هذه الآيةِ على جملةِ: ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ١٠٩﴾ [الأنعام: 109] باعتبارِ كونِ جملةِ: ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ﴾، عطفًا على جملةِ: ﴿قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ [الأنعام: 109]، فتكون الجُمَلُ الثّلاثةُ مُجتمعةً ردًّا على مضمُون قولِه: ﴿وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا﴾ [الأنعام: 109]، وبيانًا لقولِه: ﴿قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ١٠٩﴾ [الأنعام: 109][1]، وفي ذلك ما فيه من بديع نسجِ النّظمِ ودقّتِه وجمالِه.

ويمكنُ أن تكونَ الواوُ استئنافيةً غيرَ عاطفةٍ؛ فبعد أن ذكرَ احتمالَ عدمِ إيمانهم بقولِه: ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ١٠٩﴾ [الأنعام: 109] بعد أن أقسموا أنَّهم سيؤمنُون إن جاءتهم تلك الآيةُ الّتي اقترحُوها، استأنف هنا ليؤكِّدَ استحالةَ إيمانِهم.

معنى ﴿وَلَوْ﴾ الصُّهَيبيّةِ:

استواءُ إنزالِ الآياتِ وعدَمِها عندَ المشركين المعانِدين

(لوْ) هي المعروفةُ بـ (لو الصُّهيبيّة)، بسبب وقوعِ التّمثيلِ بها في القول المشهور: (نِعمَ العَبدُ صُهَيبٌ، لَو لَم يَخَفِ اللّهَ لَم يَعصِهِ)[2]، والمقصودُ انتفاءُ عصيانِ صُهيبٍ، في جميع الأحوال والأزمنةِ، ولو فُرِضَ عدمُ خوفِه لَمَا عصَى، وكذا قولُه تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُواْ لِيُؤْمِنُوٓاْ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ﴾، فالمعنى أنّ إيمانَهم

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/5.

(2) اشتهر هذا النّص عند الأصوليّين وعلماء اللّغة، وذكره ابن مالك في شرح الكافية، وقال البهاء السُّبكيّ: إنّه لم يعثر عليه في كتب الحديث، وذكره أبو نعيم في الحلية: 1/177، وضعّفه، وذكره الدّيلميّ، ولكنّه من قول عمر بن الخطاب ﷺ في ابنه سالم، لا كما اشتُهر أنّ المقولة في صُهيب. يُنظر: السّمهوديّ، الغُمّاز على اللُّمّاز: 327، والعجلُونيّ، كشف الخفاء ومُزيل الإلباس عمّا ورد منَ الأحاديث على ألسنة النّاس: 2/391.

مُنْتفٍ في جميع الأحوال، حتّى في هذه الحالة الّتي شأنُها أنْ لا ينْتَفِي عندها الإيمانُ[1]، وفي هذا الاستعمال يضعُفُ معنى الامتناع الموْضوعِ له (لَو)، وتصيرُ لمجرّدِ الاستلزامِ.

تعيينُ محذوفٍ يُقدَّرُ في السياق:

الإعجازُ الغَيبيُّ حجّةٌ على المُعانِدين وتأييدٌ لسيِّدِ المرسلين

يُقدَّرُ فعلٌ محذوفٌ بعد (لو) في قولِه تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ﴾، ويكونُ (أنَّ) وما في حيِّزِهَا في موضع فاعلٍ، وتقديرُه: لو ثبت إنزالُنا. وهذا من قَبيل الإعجازِ الغيبيِّ في القرآن الكريم، وهو حُجّةٌ على المُعاندين، وإن لم يقعْ، ولكنّه حقيقةٌ عند اللّه في علْمِه المُغيَّبِ عنِ النّاس، وفي هذا النّظم انسجامٌ مع المعنى، فإخفاءُ الفعل متوافقٌ مع خفاءِ حقيقةِ ما يمكنُ أن يقعَ منَ المُعاندين إن نزلتْ تلك الآياتُ، وهذه الآيةُ من آياتِ صدْقِ النّبيِّ فيما أخبرَ عن ربِّه؛ إذ إنَّهم يَقدرون على ادِّعاءِ الإيمان، لكنَّهم لم يصنعُوا لشديد عنادِهم وكبيرِ كِبْرِهم؛ فعلمَ اللّهُ ذلك فأخبرَ عنه، فوقعَ كما أخبرَ.

توجِيهُ المُتشابِه اللَّفظيِّ:

يمكنُ الوقوفُ على توجِيهِ المُتشابِه اللَّفظيِّ في قولِه تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ﴾ مع قولِه تعالى: ﴿وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا﴾: وذلك في الأمورِ الآتيةِ:

فائدةُ ذكْرِ ﴿أَنَّنَا﴾ دون أن يقولَ: (ولو نزّلنا):

الزّيادةُ في المبنَى دليلُ الزّيادةِ في المعنى وتأكيدٌ له

افتُتحَتِ الآيةُ بقولِه تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا﴾؛ فالضّمير (نَا) دالٌّ على العظمة البالغةِ، بما أشار إليه جمعُ النُّوناتِ[2]؛ لبيان عظيم القُدرةِ على إيقاع هذا الفعلِ في جعل الملائكةِ تتنزّلُ عليهم، وذلك على خلافِ الآيةِ السّابقةِ ﴿وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا﴾؛ إذ تتنزّلُ عليهم الملائكةُ تتابعًا، وفي أزمنةٍ مختلفةٍ وأماكنَ عدّةٍ، وذلك أعظمُ من نزول

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/310، ودرويش، إعراب القرآن وبيانه: 7/559.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 2/695.

ملَكٍ واحدٍ لمرّةٍ واحدةٍ على رجلٍ واحدٍ وهو النّبيُّ ﷺ، فكان التَّأكيدُ والتَّعظيمُ مناسِبَين في هذه الآيةِ.

سرُّ التَّعبيرِ بصيغةِ التَّنزيلِ لا الإنزالِ:

قال الجُرجانيُّ: "الإنزالُ يُستعمَلُ في الدُّفعةِ، والتّنزيلُ يُستعمَلُ في التّدريجِ"[1]، ومن هنا فبين اللّفظتين فرقٌ، والتّعبيرُ القرآنيُّ يأتي بلفظِ (أنزل) - غالبًا - عمّا نزلَ دُفعةً واحدةً، وما نزلَ مُفرّقًا مُنجَّمًا يأتي بلفظِ (نزّل)، فاختلافُ التّعبيرِ دالٌّ على اختلافِ صِفةِ التَّنزيلِ. ففي قولِه تعالى: ﴿وَلَوۡ أَنَّنَا نَزَّلۡنَآ إِلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ﴾ دلَّ على أنّ الملائكةَ تتنزّلُ عليهم في أوقاتٍ مختلفةٍ متواليةٍ، وفي قولِه تعالى: ﴿وَلَوۡ أَنزَلۡنَا مَلَكٗا﴾: دلَّت على نزولِ ملَكٍ واحدٍ، فإنّه اقترحَ إنزالَه لمرّةٍ واحدةٍ.

نزولُ الملائكةِ يكون على دفعاتٍ في الزمان والمكان

فائدةُ ذكرِ ﴿إِلَيۡهِمُ﴾ دون أن يَكتفِيَ بالقولِ: (ولو أنّنا نزلنا الملائكةَ):

تفيدُ (إلى) انتهاءَ الغايةِ، جاء في المُقتضبِ: "وأمّا إلى فإنّها هي للمُنتهَى"[2]، ومعنى انتهاءِ الغايةِ في قولِه تعالى: ﴿وَلَوۡ أَنَّنَا نَزَّلۡنَآ إِلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ﴾؛ أي: أنّ الملائكةَ يَلقَونَ النّاسَ، فكان غايةُ ما وصلَ إليه الملائكةُ، وغايةُ تنزّلهم هو لُقيَا هؤلاء النّاسِ، كما أنّ فيها معنى اللّقاءِ، دون الإيحاءِ، ودون التّكليمِ بشيءٍ منَ العلمِ والغيْبِ على خلافِ ما هو الحالُ مع الرُّسُلِ.

غايةُ تنزُّلِ الملائكةِ هو لقاءُ النّاسِ والكشفُ عن حقيقةٍ مُغيَّبةٍ

دلالةُ جمعِ الملائكةِ دونَ الإفرادِ:

جمعَ الملائكةَ في قولِه تعالى: ﴿وَلَوۡ أَنَّنَا نَزَّلۡنَآ إِلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ﴾؛ لإرادةِ التَّفريقِ، فيكونُ التّنزيلُ مكرّرًا، فجاء الجمعُ لإفادةِ ذلك، فهم يتنزّلون عليهم بين حينٍ وآخرَ، كأحدِ أهمِّ آياتِ الإيمانِ بأنّهم مبعوثون من عند اللّه تعالى إليهم. أمّا إفرادُ الملَكِ في قولِه تعالى:

أغراضُ نزولِ الملائكةِ متعددةٌ فيتعدّدُ نزولُها، عكسَ الوحْيِ فيكفِي فيه نزولُ ملَكٍ واحدٍ

(1) الجرجانيّ، التّعريفات، ص: 73.

(2) المبّرد، المقتضب: 4/139، وأبو حيّان، البحر المحيط: 2/378، والسّمين، الدّرّ المصون: 3/21.

﴿لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ مَلَكٞۖ﴾ فهو إشارةٌ إلى الوحْيِ، أو أنّه يَكفيهم أن يرَوْا ملَكًا واحدًا، ينزلُ على رسولِ اللّه مُؤيِّدًا له.

والآيةُ الكريمةُ تعرضُ صورةً عن خبرِ التّيئيسِ من إيمانِ فئةٍ منَ النّاس، يحملُون في أذهانهم انحرافًا فكريًّا، لذلك جعلُوا شرطَ إيمانِهم حدوثَ خوارقَ مُعجزةٍ، تُخالفُ نواميسَ الكونِ والحياةِ، لِيُصدّقُوا بالرّسالةِ المحمّديّةِ، ويُؤمنُوا بها، فاشترطُوا على رسولِ اللّه ﷺ إنزالَ الملائكةِ، وتكليمَهم الموتَى وغيرَ ذلك.

علَّةُ عطْفِ جملةِ: ﴿وَكَلَّمَهُمُ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾:

الاشتراكُ في الخبريَّة في استحالةِ الوقوعِ عادةً

جملةُ: ﴿وَكَلَّمَهُمُ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾ معطوفةٌ على جملةِ ﴿نَزَّلۡنَآ إِلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ﴾، وذلك ما اقترحُوه عندما قالوا: ﴿لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾ [الفرقان: 21][1]، وعلَّةُ العطفِ هو الاشتراكُ في الخبريَّة، والجامعُ بين الخبرين هو استحالةُ وقوعِهما عادةً.

سرُّ إسنادِ التَّكليمِ إلى الموتى لا إلى الله:

تكليمُ الموتى شهيَّةٌ ضامرةٌ في النَّفسِ البشريّةِ حرَّكَها القرآنُ في نفوسِ المشركين

أُسنِدَ التّنزيلُ في الجملةِ السّابقةِ في قولِه تعالى: ﴿نَزَّلۡنَآ إِلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ﴾ إلى اللّه تعالى، وفي الجملةِ اللّاحقةِ أُسنِدَ الحشرُ إلى اللّه تعالى، وفي هذه الجملة في قولِه تعالى: ﴿وَكَلَّمَهُمُ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾ أُسنِدَ التّكليمُ إلى الموتى؛ إذ لم يقُلْ هنا: (وجعلنا الموتى تُكلّمُهم)، أو نحوَه كما في السّابقةِ واللّاحقةِ، وفي ذلك توافقٌ وانسجامٌ مع ما طلبوه هم من تكليمِ مَن يعرفون منَ الأموات؛ فقالوا: ﴿فَأۡتُواْ بِـَٔابَآئِنَآ﴾ [الدّخان: 36]، فجعلَ الخطابَ مباشرًا بينهم وبين أمواتهم؛ لمَا بينهم منَ القرابة والصّلةِ؛ إذ لا يحتاجُ الأمرُ إلى وسائطَ يظهرُ أثرُها في السّياقِ، فقال: ﴿وَكَلَّمَهُمُ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾؛ إذ سيكونُ التّواصلُ بينهم مباشرًا حالَ خروجِهم من قبورِهم وتكليمِهم، وفي ذلك إشارةٌ إلى

(1) درويش، إعراب القرآن: 4/209.

البعثِ، وتحريكٌ لبواعثِ الفكرِ، وفتحٌ لشهيَّة تكليمِ الآباءِ منَ الموتى، فنكتةُ إسنادِ التَّكليمِ للموتى إطلاقُ الفكْرِ في وقوعِ مثلِ هذا الأمرِ، وتصويرِه للمخاطَبِ كيف يكونُ لو وقعَ.

معنى التَّعريفِ في: ﴿ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾:

عنادُ المشركين بلغَ بهم أن عصَوا آباءهم الّذين يزعمُون اتِّباعَهم

في قولِه تعالى: ﴿وَكَلَّمَهُمُ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾ يُحمل التَّعريفُ في لفظِ ﴿ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾ على العهْدِ؛ أي: الموتى الّذين يعرفونَهم، كأنَّه قال: موتاكُم، إذ أخذُوا شركَهم وتقاليدَهم وعباداتِهم عن موتاهم، ويُقوِّيه أنَّهم طلبُوا إحياءَ آبائِهم ليكلّمُوهم عن شأن محمّدٍ ﷺ؛ وعمّا واجهوا بعد الموت، كما قالوا: ﴿فَأۡتُواْ بِـَٔابَآئِنَآ﴾ [الدّخان: 36]، أو يُحمَل على الجنسِ؛ أي: جنسِ الموتى، بقطعِ النَّظر عن أيِّ اعتبارٍ آخرَ.

علَّةُ عطْفِ جملةِ: ﴿وَحَشَرۡنَا﴾:

يدلُّ العطفُ على إمكان قدومِ هذه الآياتِ مجتمعةً أو متفرّقةً

سببُ العطفِ هو اشتراكُ الجُملِ في الخبريَّة، فهي منَ التَّوسّطِ بين الكمالَيْن، وقوله تعالى ﴿وَحَشَرۡنَا عَلَيۡهِمۡ كُلَّ شَيۡءٖ قُبُلٗا﴾ في مَعرِضِ تَعدادِ الآياتِ المقترَحةِ الّتي إن حدثَت أمامَ النّاس فإنّهم لا محالةَ يؤمنون، ولكنّ هؤلاء لن يؤمنُوا حتّى وإن جاءَت هذه الآياتُ مجتمعةً أو متواليةً، وأداةُ العطفِ (الواو) للجمع؛ إذ يدلُّ العطفُ على إمكان قدومِ هذه الآيات مجتمعةً أو متفرّقةً، لكنّها جميعَها تُؤدّي الغرضَ نفسَه؛ وهو إعجازُ هؤلاء المُعاندين، وإظهارُ ضعفِهم أمام عظيمِ شأنِ اللّه وقُدرتِه، وأنّ الهدايةَ بيد اللّه سبحانَه.

براعَةُ المُقابلةِ بينَ: ﴿نَزَّلۡنَآ إِلَيۡهِمُ﴾ وبينَ: ﴿وَحَشَرۡنَا عَلَيۡهِمۡ﴾:

التّنزيلُ مَشوبٌ بالرَّحمةِ والهدايةِ، والحشرُ مَليءٌ بالأدلّةِ والبراهين

مُقتضى ظاهرِ النَّظمِ أن يكونَ: (نزلّنا عليهم، وحشرنا إليهم)، لكنَّ النَّظمَ عدلَ عن ذلك إلى ما جاء عليه، وسرُّه أنَّ استعمالَ حرفِ (إلى) في قولِه تعالى: ﴿وَلَوۡ أَنَّنَا نَزَّلۡنَآ إِلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ﴾ لبيانِ أنَّ التَّنزيلَ كان مقصودُه الهدايةَ والرَّأفةَ بهم، ويُناسبُ هذا المقصدَ حرفُ (إلى) أكثرَ من (على)، وفي استعمال حرف (على)

في قولِه تعالى: ﴿وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا﴾؛ لبيانِ أنَّ الجمعَ كان مقصودُه إظهارَ البُرهان سواءً في المقابلة والمعايَنةِ، أو الكفالةِ، والأنسبُ لهذا المقصدِ حرفُ الاستعلاءِ.

سرُّ التَّعبيرِ بالحشْرِ لا بالجمْعِ:

دعوى حشْرِ كلِّ شَيءٍ لا تصدُرُ إلَّا عنِ العظيمِ سُبحانَه

في قولِه تعالى: ﴿وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا﴾ اختصَّت مُفردةُ الحشْرِ في معنيين:

المعنى الأوّل: الدّلالةُ على الجمْعِ منَ النّواحي البعيدةِ إلى جهةِ المركزِ، وهي جهةُ المحشرِ؛ فيتضمّنُ معنى ﴿وَحَشَرْنَا﴾ الجمعَ مع السَّوْقِ إلى جهةٍ مُعيّنةٍ؛ تُجمعُ فيها الخلائقُ كلُّها، وهُو مشهدٌ في غاية الشّدّةِ والرّهبةِ.

المعنى الثّاني: وهُو مشهدٌ مُتمِّمٌ، يُصوّرُ البعثَ للمخلوقاتِ، من أوّلِ يومٍ قُدِّر لها الحياةُ إلى لحظة ذلك الحشْرِ، وموضعُ الإعجازِ هنا، هو حشرُها بعد موتِها، ثُمّ إنّها على اختلافِ طبائعِها تكونُ مُجتمعةً في موقفٍ واحدٍ[1].

فائِدةُ إسنادِ الحشْرِ إلى ضَميرِ العَظَمةِ في: ﴿وَحَشَرْنَا﴾:

حشرُ المخلوقاتِ لا يكون إلّا لله سبحانه

قال تعالى: ﴿وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا﴾، ولم يقُلْ: (وحُشِرَ عليهم كلُّ شيءٍ قبلًا)؛ لبيانِ عظيمِ شأنِ اللّه وقُدرتِه في جمع المخلوقاتِ وحشْرِها، وأنّه سبحانَه هو مَن يحشرُ تلك الخلائقَ، ففيها إيماءٌ إلى عظيم ذلك الصَّنيعِ، وعجيبِ أمرِه.

غرضُ تقديمِ الجارِّ والمجرورِ:

اختصاصُ الحشْرِ بالمنكِرين المعانِدين إقامةً للحُجَّةِ وتثبيتًا للبرهان

في قَولِه تعالى: ﴿وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا﴾ تقديمُ الجارّ والمجرور ﴿عَلَيْهِمْ﴾ للاختصاصِ والمبالغةِ والاهتمامِ؛ إذ أفادَ التّقديمُ تصويرَ مشهدِ الاستعلاءِ وهيْمنةِ ذلك الحشْرِ على أولئك

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 13/150.

المعاندين على وجه الخُصوص، وبيانَ قُدرةِ الله سبحانه في عظيم ذلك المشهد، كما أفادَ هذا التّقديمُ الاهتمامَ بذلك الحشْرِ العظيم؛ الّذي تضمّنَ كلَّ شيءٍ ممّا خلق اللّهُ تعالى؛ ليشهدُوا عجائبَ خلْقِ اللّه وعَظَمَتَهُ وقُدْرَتَهُ سبحانَه.

دلالةُ تعْدِيةِ فِعلِ الحَشرِ بحرفِ (على):

في قَولِه تعالى: ﴿وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا﴾ عُدِّي فِعلُ الحَشرِ بـ (على) لا باللّام كما في قولِه تعالى: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ﴾، أو بحرفِ (إلى) كقولِه تعالى: ﴿وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿١٢﴾﴾ [آل عمران: 12]، وذلك أنَّ التّعبيرَ بالحشْرِ للمُبالغة، ولذلك كانت تَعْدِيَتُهُ بالحرفِ (عَلَى)[1]، الّذي يفيدُ معنى الاستعلاءِ الحقيقيِّ أو المجازيِّ، ولفظُها يدلُّ على ذلك فهي منَ العُلوِّ، وفي الآية: ﴿وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا﴾ من قَبيل الاستعلاءِ المجازيِّ، وهي مثلُ قولِهم: (عليه دَينٌ)، كأنّه يحملُ ثِقَلَ الدَّين على ظهره[2]، ولو عُدِّيَ باللّام أو بـ (إلى) لضعُفَ غَرَضُ المبالغةِ في الآيةِ.

إبـــرازُ غـــرَضِ المبالغةِ في بيانِ حشْرِ كلِّ شيءٍ لهم، وتضمينُ فـعْـلِ الـحـشْـرِ معنى الـبـعْـثِ والإرسالِ

وتتضمّنُ التّعديةُ بحرف الجرّ (عَلَى) تمثيلًا رهيبًا؛ فكأنّ الكائناتِ المحشُورةَ تنحدرُ عليهم من كُلّ مكانٍ مُرتفعٍ، وهُم في سهلٍ مُنخفضٍ، وقد استقطبتْها بُؤرةٌ واحدةٌ، هي موضعُ المُعارضين للإيمان، وقد ضُمِّن الحشْرُ معنى البعثِ والإرسالِ؛ لذلك عُدِّي بحرفِ (على)[3]، فأفاد الفعلُ معنيين، فيهما تصويرٌ حيٌّ، وحركةٌ دؤُوبٌ، وهما الجمعُ والإرسالُ، وذلك على قاعدة التّضمينِ الذّي يُحقّقُ معنى الفعْلَين[4].

(1) القُونويّ، حاشية على البيضاويّ: 8/238.
(2) ابن يعيش، شرح ابن يعيش: 8/37.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/6.
(4) أحمد الخرّاط، الإعجاز البيانّي في ضوء القراءات القرآنيّة المتواترة: 253.

بيانُ براعةِ ذكرِ الخَاصِّ بعدَ العامِّ في قوله تعالى: ﴿كُلَّ شَيۡءٖ قُبُلٗا﴾:

في قوله: ﴿وَحَشَرۡنَا عَلَيۡهِمۡ كُلَّ شَيۡءٖ قُبُلٗا﴾ يمكنُ أن يُرادَ معنى العُموم بقوله: ﴿كُلَّ شَيۡءٖ﴾؛ ليشملَ جميعَ ما خلق اللّهُ تعالى، ويمكنُ أن يُرادَ به العامُّ المرادُ به الخصوصُ؛ لأنَّ المَقامَ يُخَصِّصُهُ بكُلِّ شَيءٍ ممَّا سألُوهُ، أو مِن جِنسِ خَوارِقِ العاداتِ والآياتِ، مِثلِ قَولِهِ تعالى في رِيحِ عادٍ: ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيۡءِۭ بِأَمۡرِ رَبِّهَا﴾ [الأحقاف: 25]، والقَرِينَةُ هيَ ما ذَكَرَ قَبلَهُ مِن قَولِهِ: ﴿وَلَوۡ أَنَّنَا نَزَّلۡنَآ إِلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾[1].

بلاغةُ ترتيبِ الجُمَلِ الثّلاث في الآية:

بـديـعُ أسـلـوبِ التّرقّي في إظهارِ عـظـيـمِ قُـدرةِ اللـه في إحـداثِ الخوارقِ

في قوله تعالى: ﴿نَزَّلۡنَآ إِلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَحَشَرۡنَا عَلَيۡهِمۡ كُلَّ شَيۡءٖ قُبُلٗا﴾ تَرقٍّ؛ والتّرقِّي: منَ الفعل (رَقَى)؛ أي: عَرَجَ، والتّرَقّي: هو التّدرُّج في الرُّقِي، وفي الاصطلاح: هُو أن يُعرَجَ بالكلام من معنى إلى معنى أعلى[2]، وفي الآية ابتدأ بما طلبُوه، فذكرَ إنزالَ الملائكة، ثُمّ تكليمَ الموتى، ثم أن يَحشُرَ اللّهُ تعالى كُلَّ المخلوقاتِ، فتشهدَ برسالةِ محمّدٍ ﷺ، فتَرَقّى التّعدادُ من مطلَبَيهِم أوّلًا وثانيًا، إلى ما زاد اللّه عليهم في المُعطى الثّالث، فقال: ﴿وَحَشَرۡنَا عَلَيۡهِمۡ كُلَّ شَيۡءٖ قُبُلٗا﴾ - على القول ببقاءِ العامِّ على عمومِه - ممّا يُشيرُ إلى مجموع ما سألُوه وغيرِه، فهُم لم يطلبُوا أن يُحشَرَ عليهم كلُّ شيءٍ قُبُلًا، ولكنّها زيادةٌ في إقامةِ الحجَّة، لتصلَ بالمُتلقّي إلى أعلى ما يمكنُ أن يُتصوّرَ منَ الاقتراحاتِ التّعجيزيّةِ لرسول اللّه ﷺ؛ لأنّ اللّهَ تعالى قادرٌ سبحانه أن يحشُرَ كُلَّ شيءٍ قُبُلًا، كما وردَ في الآية الكريمةِ، و"الأشياءُ المَحشُورَة منها ما يَنطِقُ ومِنها ما لا يَنطِقُ، فإذَا

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/6.

(2) التّرقّي وعكسُهُ التّدليّ، وهما منَ البديع في البلاغة، وذلك بذكر المُتعدّدات من جنسٍ أو نوعٍ، أو صنفٍ واحدٍ، إذا كان بينها تفاضلٌ في الدَّرَجات أو المراتب، أن تُذكر إمَّا منَ الأدنى إلى الأعلى ترقّيًا، أو منَ الأعلى إلى الأدنى تدلّيًا، ما لمْ يدْعُ داعٍ بلاغيّ آخر، يحرصُ المتكلّمُ أن يشيرَ إليه بمخالفة هذا النّظام، كمراعاة رُؤوس الآي، وكالتّنويع في نصوص مُتعدّدة.

أَنطَقَ اللّٰهُ الكُلَّ وأَطبَقُوا على قَبُولِ هَذِهِ الكَفَالَةِ، كانَ ذَلِكَ مِن أَعظَمِ المُعجِزاتِ"[1].

مشاهدُ تخيليّةٌ افتراضيّةٌ اقترحها المُنكِرون تَحَدِّيًا وتعجيزًا للرّسول ﷺ

ومن جمال فنّ (التّرقّي) أنّه بدأ بالمطلب الأيسرِ عليهم، فذكر إنزالَ الملائكةِ إليهم؛ لتأتيَهم بالبُشرى وتشهدَ لهُم بنُبوّة مُحمّدٍ ﷺ، وهذا ما يُمكنُ أن تتقبّلَه نفوسُ كثيرٍ منَ النّاس، ثُمّ ارتقى المشهدُ إلى ما هو أصعبُ وأجلُّ على النّفس الإنسانيّةِ، وهو تكليمُ الموتى، وهذا مشهدٌ يُمكنُ أن تتقبّلَه الأقليّةُ منَ النّاس، ويخشاهُ أغلبُهم، ثمّ ارتقى بهم المشهدُ، إلى أقصى ما يُمكنُ أن يُتخيّلَ ويُتصوّرَ، وهو أن تُجمَعَ مخلوقاتُ الدُّنيا وحُوشُها وطيورُها وزواحفُها، وجِنُّها وإنسُها، وأحياؤُها وأمواتُها، وهذا ما لا يطلبُه عاقلٌ حتمًا، وهذا المطلبُ لم يخطرْ ببالهم أصلًا، لكنّ التّعبيرَ القرآنيَّ ارتقى بالخطاب إلى اقتراحٍ مُفترَضٍ؛ ليقطعَ عليهم كُلَّ مطلبٍ، أو زيادةٍ أخرى فوق ما طلبُوا من آياتٍ.

وبعد أن رسَمَ التّرقّي مُنحنى المطالبِ تصاعُدًا، أظهر السّياقُ جمالًا فريدًا لهذا الفنِّ البلاغيِّ الأصيلِ؛ فبانت بلاغتُه في إكمال المشهدِ، بدرجاتِه وإحداثيّاتِه، تلك الّتي رسمتْ مُنحنى المُحاجَجَةِ، صُعُودًا نحوَ أعلى درجات الحُجّة والبُرهانِ، ثُمّ جعلتْها جميعًا تسقُطُ في مُستوى واحدٍ، وعلى خطٍّ صِفريٍّ مُفترَضٍ، تتلاشى عنده كلُّ الإرادات أمامَ إرادةِ اللّٰه تعالى، في هدايةِ أولئك القومِ أو عدمِها، فقال سبحانه: ﴿مَّا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُوٓاْ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾، فتهاوَتْ تلك المُقترحاتُ الصّاعدةُ على سلّم التّرقّي، كاسِرَةً معها جبروتَ المعاندِين، أمامَ مشيئةِ اللّٰه ربّ العالمين؛ لأنّه هو خالقُ تلك الأنفسِ، العالمُ بدواخلِها وأسرارِها، أكثر ممّا يعلمُ أصحابُها أنفُسُهم عنها، ولهذا أتبعَها بقولِه: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ يَجۡهَلُونَ﴾؛ بمعنى: أنّهُم يجهلون الحقيقةَ الكبرى، ولا يُدركون المشيئةَ العُظمى.

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 13/117.

توجيهُ القِراءاتِ القُرآنيَّةِ في قَولِه تعالى: ﴿قُبُلًا﴾:

معنيَا الكفالةِ والمعايَنةِ حاضران في سياقِ الآيةِ

اختلفَ القرّاءُ في قراءة ﴿قُبُلًا﴾[1]، فقرأ الجمهورُ بضمّ القاف والباء ﴿قُبُلًا﴾، ولها في المعنى ثلاثةُ أوجهٍ:

أحدُها: أن يكون (القُبل) جمع (قَبيل)، كالرُّغُف الّتي هي جمع (رَغيف)، و(القُضُب) الّتي هي جمع (قَضيب)، ويكون (القُبُلُ): الضُّمناءَ والكفلاءَ، وإذا كان ذلك معناه، كان تأويلُ الكلام: (ولو حشرْنا عليهم كلَّ شيءٍ كُفَلاءَ، يكفُلون لهم الّذي نعدُهم على إيمانهم باللّه، أو الّذي نُوعِدُهم على كفرِهم باللّه، لَما آمنوا إلّا أن يشاءَ اللّه).

والوجه الآخر: أن يكون (القبلُ) بمعنى المقابلةِ والمواجهةِ، من قول القائل: (أتيتُك قُبُلًا لا دُبُرًا)، إذا أتاه من قِبَل وجهِه.

والوجه الثّالث: أن يكونَ معناه: (وحشَرْنا عليهم كلَّ شيءٍ قبيلةً قبيلةً، صنفًا صنفًا، وجماعةً جماعةً)، فيكونَ (القبلُ) حينئذٍ جمْعَ (قَبيل)، الّذي هو جمعُ (قبيلة)، فيكونَ (القُبُلُ) جمعَ الجمْعِ[2].

وقرأ نافعٌ وأبو جعفر وابنُ عامر بكسر القاف ونصبِ الباء (قِبَلاً)، ومعناه: (وحشَرْنا عليهم كُلَّ شيء معاينةً فَعايَنُوهُ[3]، وشاهدُوه)[4]، والمعاني كلُّها مُرادةٌ مُجتمعةً؛ وكلٌّ منها يكمّلُ الآخر.

بلاغةُ اختيارِ مفردةِ: ﴿قُبُلًا﴾ في الدّلالةِ على المَقصودِ:

معاينةُ المعجزةِ أصدقُ دليلٍ على صحّةِ الرّسالةِ

اختلفَ المفسّرون في معنى ﴿قُبُلًا﴾ هل هي بمعنى الكفالةِ أو المعاينةِ، أو قبيلةً قبيلةً، وصنفًا صنفًا، وجماعة جماعةً؛ أي: كفالةُ صحّةِ الرّسالة، أو معاينةُ الخوارقِ بما فيها القبائلُ والأصنافُ

(1) ابن الجزريّ، النّشر: 2/262.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 9/493، والقاسميّ، محاسن التّأويل: 4/469.
(3) السّمرقنديّ، بحر العلوم: 1/475.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/208.

والجماعاتُ، والصّحيحُ أنّ الاختيارَ السّياقيَّ لهذه المفردةِ يدلُّ على المعنيَيْن، فإنّ ما يراه هؤلاء عَيانًا هو كفالةٌ في صحّةِ دعوَى الرّسالةِ، وهل من كفالةٍ أصدقُ منَ المعايَنةِ.

نُكتةُ إيثارِ النَّفيِ على الإثباتِ:

المطلوبُ تحقيقُ الإيمان، فالكفرُ تحصيلُ حاصلٍ

لم يقُل: (لكفرُوا)، بدلَ قولِه: ﴿مَّا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُوٓاْ﴾، ونكتتُه أنّهم كفرةٌ أصالةً، وغايةُ إحضارِ تلك الآيات إنّما هو تحقيقُ إيمانِ النّاس، وتركِ كفرهم، فالمطلوبُ من إنزالِ تلك المعجزاتِ هو إحداثُ الإيمانِ في قلوب المعاندِين، فنُفيَ المطلوبُ لا الموجودُ؛ لأنَّه تحصيلُ حاصلٍ.

فائدةُ التَّعبيرِ بقولِه تعالى: ﴿مَّا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُوٓاْ﴾:

نفيُ كينونةِ الإيمان في صدورِ المعاندين في عُمومِ أحوالِهم

جاءتِ اللَّامُ في قولِه تعالى: ﴿مَّا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُوٓاْ﴾، الّتي هي لامُ الجُحودِ، والفعلُ المضارعُ منصوبٌ بـ (أنْ) مُضْمَرَةٍ بعدها، أبلغَ في الدّلالة منَ القول بـ (ما آمنُوا) أو (لم يؤمنوا) أو (لا يؤمنون)، والمعنى: ما كانُوا مُريدِين لأن يُؤمنوا إلّا أن يشاءَ اللّهُ[1].

وذهب أبو حيّانَ إلى أنّ الأصلَ في المنفيّ، أن لا تدخلَ عليه اللّامُ، لكنّ قولَه تعالى: ﴿مَّا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُوٓاْ﴾ أبلغُ في النّفيِ من قولِه: (لم يُؤمنوا)؛ لأنّ فيه ما عبّرَ عنه بنفْيِ التّأهُّلِ والصّلاحيّةِ للإيمان، وهو السّرُّ في ورود لامِ الجُحود في الخبرِ[2].

والمعنى في قولِه تعالى: ﴿مَّا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُوٓاْ﴾ أشدُّ قُوّةً ممّا لو قيل: (لَا يُؤمِنُونَ) أو (ما آمنوا)؛ تقويةً لنفْيِ إيمانهم؛ لأنّ فيه نفيَ التّأهُّل والصّلاحيّةِ للإيمان بنفْيِ الكينونةِ، فهم مُعاندون مُكابِرون لا يبغُون الحقَّ، فلو طَلَبوا الحقَّ بإنصافٍ لكفَتهم مُعجزةُ القرآن؛ لأنّ فيه منَ المُعجزات والطّاقاتِ المُستوعبةِ لنفوسِ أولئك الّذين يطلبُون الحقَّ، ويبحثُون عنِ الصّراط المستقيم، ما فيه الغَناءُ والكفايةُ، قال تعالى:

(1) الشنقيطي، العذب النّمير: 2/566.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/622.

﴿لَوۡ أَنزَلۡنَا هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ عَلَىٰ جَبَلٖ لَّرَأَيۡتَهُۥ خَٰشِعٗا مُّتَصَدِّعٗا مِّنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِۚ﴾ [الحشر: 21]، ولكنّهم تطاولُوا وأنكرُوا تلك المعجزةَ الّتي أعجزَتْ كُلَّ مَن مدّ عنقَه ليأتيَ بمثلِها، فكان إيمانهُم مُستحيلًا.

معنى الاستثناءِ في قَولِه تعالى: ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ﴾:

الاستثناءُ في قولِه تعالى: ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ استثناءٌ متّصلٌ من محذُوفٍ هو سببُ التّقديرِ وعلّتُه، وتقديرُه: (مَا كَانُوا لِيُؤمِنُوا لِشَيءٍ مِنَ الأَشيَاءِ إِلَّا لِمَشِيئَةِ اللّهِ)، أو: (مَا كَانُوا لِيُؤمِنُوا في كُلِّ حَالٍ إِلَّا في حالِ مَشِيئَةِ اللّهِ)، وجعلَه بعضُهم استثناءً مُنقطعًا، والتّحقيقُ أنّ الاستثناءَ مُتّصلٌ، خلافًا لمَن زعم أنّه منفصلٌ، والمعنى: ما كانوا ليُؤمنوا في حالةٍ منَ الأحوال إلّا أن يشاءَ اللّهُ ذلك؛ لأنّهم مُتعنِّتُون[1].

التَّحقيقُ أنَّ الاستثناءَ متَّصلٌ في بيانِ المشيئةِ

قال أبو حيّانَ: "وذلك قولُ أهلِ السُّنّة، أنّ إيمانَ العبد واقعٌ بالمشيئةِ، وحملَه المعتزلةُ على الإلجاءِ والقهرِ، وسمّاها الزّمخشريُّ مشيئةَ إكراهٍ واضطرارٍ، وقولُ أهلِ السّنّةِ هو الأظهرُ"[2].

فهو استثناءٌ من عُموم الأحوالِ الّتي تضمّنَها عمومُ نفْيِ إيمانِهم، فالتّقديرُ: إلَّا بمشيئةِ اللّه، ففي قولِه تعالى: ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ تعريضٌ بوعْدِ المُسلمين بذلك[3]، ولعلَّ في هذا الاستثناءِ المعبِّرِ عنِ المشيئةِ الإلهيّةِ، بصيصَ أملٍ لأولئك المعاندِين في كلّ زمانٍ ومكانٍ، أن تُصيبَهم مشيئةُ اللّه وهدايتُه لهم فيؤمنُون.

الأملُ في رحمتِه سُبحانه أن تُصيبَهم مشيئةُ الله فيؤمنُون

واليومَ نجدُ كثيرًا من هؤلاء يعترفون بالإيمان، في أواخرِ لحظاتِ حياتِهم، فيُعبّرون بصدْقٍ عن مُوافقاتٍ حدثَتْ في حياتِهم، جعلتْهم يُؤمنون بوُجودِ خالقٍ لهذا الكونِ، ومنها قولُه تعالى - على القول بأنَّ الضَّميرَ الأوَّل ﴿بِهِۦ﴾ للّهِ، أو يعودُ على النّبيّ محمَّدٍ ﷺ -: ﴿وَإِن مِّنۡ

(1) الشنقيطي، العذب النّمير: 2/566.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/622 - 623.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/6 - 7.

أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿١٥٩﴾ [النّساء: 159]، فلعلّ المقصودَ من قولِه تعالى: ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ اعترافُهم بالإيمان في حياتِهم.

بلاغةُ الالتفاتِ في قولِه تعالى: ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾:

الانتقالُ من الحديثِ عن الخوارقِ إلى الثّوابتِ انتقالٌ في النَّظمِ والأسلوبِ

التفتَ الخطابُ منَ التَّكلُّمِ في قولِه تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ﴾؛ وقولِه: ﴿وَحَشَرْنَا﴾ إلى الغيبةِ في اسمِ الجلالةِ الصّريحِ (اللّه) في قولِه: ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾، ولم يقُلْ: (إلَّا أَنْ نَشَاءَ)، وفيه إيماءٌ إلى نُكتةٍ بلاغيّةٍ عميقةٍ، أفادَها الالتفاتُ؛ وهي أنَّ المشيئةَ ثابتةٌ في كلِّ الأحوالِ، فلم تأتِ جملةُ ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ على السَّننِ المذكورِ في النَّظمِ؛ لأنَّ تنزُّلَ الملائكةِ وتكليمَ الموتى وحشْرَ كلِّ شيءٍ عليهم قُبُلًا منَ الخوارقِ، فلمَّا اختلفَ تعلُّقُ الجملِ اختلفَ الالتفاتُ.

سرُّ إظهارِ الاسمِ الأحسنِ دون إضمارِه في قَولِه تعالى: ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾:

تظهرُ تجلّياتُ الاسمِ الأحسنِ في سياقِ الهدايةِ

التّعبيرُ بالاسْمِ الأحسَنِ (اللّه) يُوحِي إلى عظيمِ تلك المشيئةِ وتقديرِها، حيث إنَّ اللّهَ تعالى هو صاحبُ المشيئةِ المطلقةِ، وسياقُ الآياتِ مُتعلِّقٌ بهدايةِ النَّاسِ، فناسبَ ذكرُ الاسْمِ الأحسَنِ دون أن يُقالَ: إلّا أن نشاءَ، كما قال تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ﴾ [الإسراء: 18].

فوقعَ إظهارُ اسمِ الجلالةِ في مقامِ الإضمارِ؛ لأنّ اسمَ الجلالةِ يُومئُ إلى مقامِ الإطلاقِ، وهو مقامُ مَن ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ﴾ [الأنبياء: 23]، ويُومئُ إلى أنّ ذلك جرَى على حسبِ الحكمةِ؛ لأنّ اسمَ الجلالةِ يتضمّنُ جميعَ صفاتِ الكمالِ[1].

معنى الواوِ في قولِه تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ﴾:

حرفُ الواو إمَّا بمعنى الاستئنافِ؛ والمعنى: فأكثرُ هؤلاء

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/7.

الجهلُ بالحقِّ والإصرارُ على المناكدةِ علّةُ عدمِ الإيمانِ

المعاندِين يجهلون عظيمَ شأنِ اللّه تعالى وقُدرتِه وجلالةِ قَدرِه، قال تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ٦٧﴾ [الزّمر: 67]، فاستأنفَ لبيانِ شأنِ النّاس بقُدرتِه سبحانه وبالحقيقةِ المُغيّبةِ عن حواسِّهم ومشاهداتِهم وأسماعِهم؛ ظانّين أنّ الواقعَ الّذي يَعيشون ويَتحسّسُون هو نهايةُ مطافِ الأقدارِ والوجودِ، وهذا هو شأنُ المنكرين والمُلحدين في كلّ زمانٍ ومكانٍ، إذْ أدّى بهم جهلُهم إلى هذه العُزلةِ العلميّةِ، وإلى هذا الجهلِ المُطبَقِ.

وإمَّا بمعنى الحالِ؛ والمعنى: أنَّ هؤلاء المعاندين لا يؤمنون بعدَ مجيءِ تلك الخوارقِ؛ لأنَّ أكثرَهم يجهلون الحقَّ، ولا يريدون الانصياعَ له، ففيها معنى التَّعليلِ، كأنَّه قال: لأنَّ حالَهمُ الجهلُ.

دلالةُ الاستدراكِ في قولِه تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ﴾:

عدمُ الإيمانِ بسببِ الجهلِ نظرًا، يَزيدُهم جَهلًا عندَ الإصرارِ فعلًا

الاستدراكُ في قولِه تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ﴾ شديدُ التَّعلُّقِ بقولِه: ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾، المُقتضِي أنَّهم يُؤمنُون إذا شاء اللّهُ إيمانَهم: ذلك أنَّهم ما سألُوا الآياتِ إلّا للتّعجيزِ ولتوجيهِ بقائِهم على دينِهم، فإنَّهُم كانُوا مُصمِّمين على نبْذِ دعوةِ الإيمان، وإنَّما يتعلَّلون بالعللِ وبطلبِ الآياتِ استهزاءً، فكان إيمانُهم في نظرِهم من قَبيل المُحال، فبيّن اللّهُ لهم، أنَّه إذا شاء إيمانَهم آمنُوا، لكنَّهم لا يؤمنون بسببِ الجهلِ الّذي يُوجِّهُهم في اتِّخاذ قرارِ عدمِ الإيمانِ.

ويجوزُ أن يكون الاستدراكُ راجعًا إلى انتفاءِ إيمانِهم، مع إظهار الآياتِ لهم؛ أي: لا يُؤمنون، ويَزيدُهم ذلك جهلًا على جهلِهم؛ لأنَّهم مُستهزئُون[1].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/7.

وهذان المعْنَيان لا يتعارضَان؛ فإنَّ عدمَ إيمانِهم بسببِ الجهلِ نظرًا، يزيدُهم جهلًا عندَ الإصرارِ على عدمِ الإيمانِ فعلًا.

نُكتةُ التَّعبيرِ بالأكثريَّةِ في: ﴿أَكْثَرَهُمْ﴾:

إسنادُ الجهلِ إلى أكثرِهم في قولِه تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ﴾، فلم يقُلْ: (ولكنَّهم يجهلون)، يدُلُّ على أنّ منهُم عُقلاءَ، ونُكتةُ التَّعبيرِ بالأكثريّةِ فيه بيانُ علْمِ اللّه تعالى بالغيب العظيم الّذي تضمّنَ إحصاءَ ما في نفوسِهم منَ الجهلِ العلميِّ، أو الإنكارِ لمَا عرفُوا منَ الحقّ، والتّعبيرُ بصيغةِ المبالغةِ (أفعل) تدلُّ على أنّ نسبةً عاليةً منهم يتّصفُون بصِفةِ الجهلِ، فتكونُ تلك الأكثريّةُ غالبةً على رأي مُجتمعِهم، فلا يظهرُ لِلأَقَلِّيَّةِ المؤمنةِ أو المنصفةِ رأيٌ أو أهمّيّةٌ أو أثرٌ، وهذا دليلُ العلمِ والعدلِ، فعلمَ سبحانَه واقعَ النُّفوسِ، وحَكمَ عليها حُكمًا عادلًا، فلم يشملِ التَّعبيرُ الجميعَ بلِ الأكثرَ.

النَّظمُ يتوخَّى العِلمَ والعدلَ في الحُكمِ على النَّاس

نكتةُ الإضمار ومرجعُ الضَّميرِ في قولِه: ﴿أَكْثَرَهُمْ﴾:

الضّميرُ في ﴿أَكْثَرَهُمْ﴾ عائدٌ على ما عادت عليه الضّمائرُ قبل منَ الكفّار؛ أي: يجهلون الحقَّ، أو يجهلون أنّه لا يجوز اقتراحُ الآيات بعد أن رأوا آيةً واحدةً، أو يجهلون أنّ كلًّا منَ الإيمان والكفر، هو بمشيئة اللّه وقدره.

وجاء السِّياقُ الكريمُ بالإضمار دون الإظهار، فلم يقُل: (ولكنّ أكثر النّاس)؛ لأنَّ المشركين هم جزءٌ منَ النّاس، وليسوا كلَّ النّاس، فهناك منَ النّاس من آمن باللّه ورسوله وآياته، ولم يطلب شروطًا مستحيلةً للإيمان كما عاند هؤلاء المشركون، فالإضمارُ فيه تحقيرٌ وعدمُ التفاتٍ لهم، ويدلُّ على أنّ المشركين هم مجموعةٌ واحدةٌ، لهم صفاتٌ مشتركةٌ؛ وهي الجهلُ والعنادُ والإصرارُ على الكفر، ويدلُّ على أنّ المشركين هم محدودو العددِ والزّمانِ، فإنَّ كلامَ اللّه تعالى خالدٌ لا يتبدَّل، ولا يختصُّ بزمانٍ دون زمانٍ، فإذا قيل: (أكثر

الإضمارُ أنسبُ للسِّياقِ، وفيه تحقيرٌ وعدمُ التفاتٍ للمشركين

النّاس) لزم أن يشملَ ذلك كلَّ الأزمان والأمكنة، وهذا لا يصحُّ في معنى الآية الْبَتّة.

غرضُ التَّعبيرِ بمفردةِ ﴿يَجْهَلُونَ﴾:

اشتمالُ معنى الجهلِ ما يُقابلُ العلمَ والحلمَ معًا

جاءَ التَّعبيرُ بإثباتِ الجهلِ لا نفْيِ العلْم، فلم يقُل: (لا يعلمون)، كما في قولِه تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝٣٧﴾ [الأنعام: 37]، علمًا بأنّ صيغةَ التَّعبيرِ بـ ﴿يَجْهَلُونَ﴾ بالياء لم تردْ في القرآن إلّا في هذا الموضع، بينما في بقيَّة آيِ القرآن جاء التَّعبيرُ بقوله: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾؛ الّذي اقتربَ من تسعةِ مواضعَ، وذلك للإيماءِ إلى ما يجولُ في دواخلِهم منَ الإصرارِ؛ فهم علمُوا الحقَّ ممّا يمكنُ أن يروْه منَ الآيات حولَهم، ولكنَّهُم جهلُوا إنكارًا للحقيقة، وترويجًا للباطل.

والمُرادُ بالجَهل هنا المقابلُ للعلْمِ والحلْمِ، فكلا الأمرين حاصلٌ عندَهم، فالجهلُ بالعلم حاصلٌ في هذا العصر عندَ كبارِ علماءِ الطّبيعيّات؛ إذ يجهلون علمَ الغيب؛ وهو الحقيقةُ الكُبرى، فيظنّون أنَّ العلمَ هو ما يعايشُونه منَ الواقع والأحداثِ حولَهم، ويكتشفونَه بالبحثِ والملاحظةِ والتّجربةِ، فتراهُم يُنكرون عالَمَ الغيب الّذي هو لُبُّ الإيمانِ، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [البقرة: 3]، ومنهم من أصابَه جهلُ الحِلْم لا جهلُ العلْم، وهو الأنسبُ للعامّةِ منَ النّاس لاستعمال الأكثريّةِ، وهو أرسخُ في تثبيتِ قيمةِ الهدايةِ، وهو ما يُوجّهُ استعمالَه في هذا الموضع الفريدِ في القرآن، ومن ذلك قولُ عمرِو بن كلثوم التَّغلبيِّ:

أَلَا لا يَجْهَلَنْ أَحَدٌ علينَا *** فَنَجهَلَ فَوقَ جَهلِ الجَاهِلِينَا[1]

والمعنى: مَن يجهلْ علينا فسوف نهلكُه ونعاقبُه بما هو أعظمُ من جهْلِه.

(1) القرشّي، جمهرة أشعار العرب، ص: 300.

نُكتةُ استعمالِ صيغةِ المُضارِعِ في: ﴿يَجْهَلُونَ﴾:

جاهليّةُ المعاندِين تزدادُ عُمْقًا بإصرارِهم على الكفرِ

مع مرور الزّمن يزدادُ الإنسانُ علْمًا وخبرةً؛ ولكنّ هؤلاء يزدادون جهلًا وسَفهًا بتجدّدِ عنادِهم وإصرارِهم على الكُفر، وهذا هو عينُ الجهل، الّذي يتجدّدُ بتجدُّد الحِيَلِ والمَكر والحُججِ الّتي يخترعونها هروبًا منَ الإيمان وأدلّته وآياتِه البيّنة؛ فقال تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ﴾، فيُرجّحُ استعمالَ المُضارع هُنا أنّ هؤلاء همُ المُعاندون المُنكرون المُصرّون على كُفرِهم وعنادِهم.

نُكتةُ حذفِ المفعولِ في قَولِه تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ﴾:

إيجازُ حذفِ المفعولِ يُتيحُ للذّهن سَعةَ الفهمِ وتنوُّعَ المعنى

النّكتةُ في حذفِ المفعولِ في قولِه تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ﴾ العمومُ وتنوّعُ المعنى وتعدّدُه، فيدخلُ فيه الحقُّ الّذي جاءَت به الرّسالةُ السّماويّةُ منَ الإيمان بالخالقِ الواحدِ، وعظيم شأنِ اللّه، وقُدرتِه في أن يأتيَ بالآيات الّتي اقترحوها كلَّها مجتمعةً، وأنَّ الهدايةَ بيدِ اللّه سُبحانَه؛ فيدلُّ حذفُ المفعولِ على مشيئتِه سُبحانَه وقُدرتِه في تسييرِ أمورِهم واختيارِهم وإيمانِهم، فهو المُهيمنُ سبحانَه، وما كان ينبغِي أن يكونَ لأحدٍ اختيارٌ فوقَ اختيارِ اللّه تعالى.

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّٗا شَيَٰطِينَ ٱلۡإِنسِ وَٱلۡجِنِّ يُوحِي بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ زُخۡرُفَ ٱلۡقَوۡلِ غُرُورٗاۚ وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُۖ فَذَرۡهُمۡ وَمَا يَفۡتَرُونَ ١١٢﴾ [الأنعام: 112]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

بيانُ أسبابِ الإصرارِ على الكُفرِ مُعينٌ على فهمِ السُّننِ الهدائيَّةِ

لمّا ذكرَ في الآيةِ السَّابقةِ إصرارَ المعانِدين منَ المشركين على الكفرِ، ورفضِ الإيمانِ بعد مَجيءِ الخوارقِ الّتي طلبُوها، حسُنَ التَّنبيهُ في هذه الآيةِ إلى سببِ ذلك الإصرارِ والعنادِ، فذكر أصالةَ العداوةِ بين أولياءِ الرَّحمنِ وأتباعِ الشَّيطانِ، وبيَّن العلاقةَ بين شياطينِ الإنسِ والجنِّ، وما يوحيه بعضُهم إلى بعضِهم الآخرِ منَ الإغراءِ بالشَّهواتِ، واتِّباعِ الأهواء.

فَبَينَ الآيتين تناسُبٌ في كوْنِ المُنكِرين هُم شياطينُ الإنس والجنّ الّذين نصَّت عليهم هذه الآيةُ، وهُو زُخرُفٌ منَ القول، وصفَه بأنّه محضُ غُرورٍ، وتأثيرُه مُتعلِّقٌ بمشيئة اللّه وُقوعًا وعدَمًا، وهو ما أكّدتْه الآيةُ السَّابقةُ.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿عَدُوّٗا﴾: العدُوُّ ضِدُّ الوَليِّ، والجَمعُ أَعداءٌ، وأَصْلُهُ التّجاوزُ ومنافاةُ الالتئام، فتارةً يُعتبرُ بالقلبِ، فيُقال له: العَداوَةُ والمُعادَاةُ، وتارةً بالمشي، فيُقال له: العَدْوُ، وتارةً في الإخلال بالعدالة في المعاملة، فيُقال له: العُدوَانُ والعَدوُ. والعَدُوُّ: يندرجُ تحت اسمِ الجَمع، وهو ما يستوي في دلالته على المعنى المفرد والجمع، دون تغييرٍ في صورته الّتي وُجِدَ عليها في اللّغة، كما قال تعالى: ﴿هُمُ ٱلۡعَدُوُّ فَٱحۡذَرۡهُمۡۚ﴾ [المُنافقون: 4][1].

(1) الرّاغب، المفردات، والرّازيّ، مختار الصّحاح: (عدو)، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/9.

2) ﴿شَيَٰطِينَ﴾: الشَّيطانُ النّونُ فيه أصليّةٌ، وهو من: شَطَنَ؛ أي: تباعدَ، ومنه: بئرٌ شَطُونٌ، وشَطَنَتِ الدّار، وغربةٌ شَطُونٌ، وقيل: بلِ النّونُ فيه زائدةٌ، من: شَاطَ يَشِيطُ: احترقَ غضبًا، فَالشَّيطانُ مخلوقٌ منَ النّار، كما دلّ عليه قولُه تعالى: ﴿وَخَلَقَ ٱلۡجَآنَّ مِن مَّارِجٖ مِّن نَّارٖ ١٥﴾ [الرّحمن: 15]، ولكونِه من ذلك اختُصَّ بفرطِ القوّةِ الغضَبيّةِ والحميّةِ الذّميمةِ، وامتنعَ منَ السّجودِ لآدمَ، قال أبو عبيدةَ: "الشّيطانُ اسمٌ لكلِّ عارمٍ منَ الجنّ والإنس والحيواناتِ"[1]، ومفردُ الشَّياطين: شيطانٌ، وأصلُه نوعٌ منَ الموجوداتِ المُجرّدةِ الخفيّةِ، وهو من جنس الجنِّ، ويُطلَقُ الشّيطانُ على المُضلّلِ الّذي يفعلُ الخبائثَ منَ النّاس، على وجهِ المجازِ، وشاعَ ذلك في كلام العربِ[2].

3) ﴿يُوحِي﴾: جذرُ الكلمة هو (وحى) منَ الوحْيِ، وأصلُه الكِتابَةُ في الحِجارَة، والوَحيُ أيضًا: الإشارةُ، والرّسالةُ، والإلهامُ، والكلامُ الخفيُّ، وكلُّ ما ألقيتَه إلى غيرك، يُقال: وَحَيتُ إليه الكلامَ وأوحَيتُ، وهو أن تُكلِّمَه بكلامٍ تُخفيه، وكلُّ ما ألقيتَه إلى غيرك حتّى علمَه، فهُو وحيٌ كيف كان، والوحيُ: السّريعُ، والوحيُ: الصّوتُ، ويجمعُ معنى الوحْيِ: أنّه إعلامٌ في خفاءٍ[3].

4) ﴿زُخۡرُفَ﴾: جذرُ الفعل الرّباعي هو (زخرف)؛ الزُّخرُفُ: الزّينةُ، زخرفتُ البيتَ إذا نَجَّدْتَهُ، وزخرفتُ الكلامَ إذا أَلَّفْتَهُ، وزُخرُفُ القَول؛ أي: حُسنُ القول بترقيشِ الكذبِ.

وإضافةُ الزُّخرفِ إلى القول من إضافةِ الصّفةِ إلى الموصوف؛ أي: القولُ الزُّخرُفُ؛ أي: المُزَخرَفُ؛ المحتاجُ إلى التّحسين والزّخرفَةِ، وإنَّما يحتاجُ القولُ إلى ذلك إذا كان غيرَ مُشتمِلٍ على ما يُكسبُهُ القبولَ في حدّ ذاتِه، وذلك أنّه كان يُفضي إلى ضُرٍّ يحتاجُ قائلُهُ إلى تزيينِه وتحسينِه لإخفاءِ ذلك، خشيةَ أنْ يَنفِرَ عنهُ منْ يُسوِّلُهُ لهُم، فذلك التّزيينُ ترويجٌ يستهوُونَ به النّفُوسَ، كما تُموِّهُ للصِّبيان اللُّعبَ بالألوان والتّذهيبِ[4].

5) ﴿غُرُورٗاۚ﴾: جذرُ الكلمة هو (غرر)؛ الغُرُورُ بالضّمّ: ما اغتُرَّ به من متاع الدُّنيا،

(1) أبو عبيدة، مجاز القرآن: 1/32.
(2) الرّاغب، المفردات: (شطن)، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/9.
(3) ابن دريد، جمهرة اللّغة، والجوهريّ، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (وحى).
(4) الخليل، العين، وابن دريد، جمهرة اللّغة، والأزهريّ، تهذيب اللّغة: (زخرف)، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/10.

والغُرُور: الأَباطِيلُ[1]، والغُرورُ: الخِداعُ والإطماعُ بالنّفع لقصْدِ الإضرار، ومعنى قولِه تعالى: ﴿زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾؛ أي: يُوحُون زُخرفَ القولِ ليَغُرّوهم.

6) ﴿فَذَرْهُمْ﴾: جذرُ الكلمة هو (وَذَرَ): فعلٌ ماضٍ، لا يُستعمَلُ منهُ سوى المُضارع والأمر، يَذَرُ، ذَرْ، وَذْرًا، وَيُقال: وَذَرَ عَمَلَهُ: تركَه، قال تعالى: ﴿لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ ۝٢٨﴾ [المدّثر: 28]، وقال: ﴿ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ۝٩١﴾ [الأنعام: 91]؛ بمعنى أمهلْهُم[2].

المَعْنى الإجْماليُّ:

يقول تعالى مسلِّيًا نبيَّه محمّدًا ﷺ عمّا يلقاه من كفَرةِ قَوْمِه، ممّن تبجّحَ باقتراح الآياتِ التّعجيزيّةِ؛ رجاء الصّبرِ على ما ناله: كما ابتليناك، بأن جعلْنا لك من مُشركِي قومِك أعداءً، يُشبهون الشّياطينَ الّذين يُوحِي بعضُهم إلى بعض القولَ الّذي زيَّنوه بالباطل؛ ليغترَّ به سامعُه؛ ليصُدُّوهم بمجادلتِهم إيّاك عنِ اتّباعك والإيمانِ بك، والإقرارِ بما جئتَهُم به من عند ربِّك، على نحوِ ما ابتليْنا به مَن قبْلَك منَ الأنبياء والرّسل، بأنْ جعلْنا لهُم أعداءً من قومهم، يُؤذُونهم بالجدالِ والخُصوماتِ[3]؛ لتنالَ بالصّبر عظيمَ الثّوابِ، وجزيلَ الأجرِ، لتتأسَّى بمَن سبقَكَ منَ الأنبياء[4]، وقد بيّنتِ الآيةُ التّدافعَ الحاصلَ بين الإنس والجنِّ، ودورَ الشّياطين في الإغراء والتّزيينِ، فبيّن سُبحانَه لنبيّه ﷺ؛ أنّه لا مندُوحةَ منَ الأعداء، ولا مفرَّ منَ الصّراع بين الحقّ والباطلِ، ولكنَّ مشيئةَ اللّه سُبحانَه غالبةٌ، فلا خوفَ من تلك الافتراءاتِ المُزجاة، والأباطيلِ

ابتلاءُ الأنبياءِ بأقوامِهم سنّةٌ كونيّةٌ وقدوةٌ نبويّةٌ يتأسّى بها الدّعاةُ والمصلحون

(1) الجوهريّ، الصّحاح، والزّبيديّ، تاج العروس: (غرر).
(2) أحمد مختار عمر، معجم اللّغة العربيّة المعاصرة: (وذر)، والشّنقيطيّ، العذب النّمير: 2/583.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 12/50.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/209، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/334.

المُفتراة، ولكنّه الابتلاءُ منَ اللّه، فاطمئِنْ، ودَعْهم وما يختلقون مِن كذبٍ وزورٍ.

وتُرشدُ الآيةُ إلى تسليةِ وإيناسِ أمّته ﷺ من بعده، فقد يُصيبُهم بعضُ ما أصابه منَ التّكذيب والإيذاء، ممّا يتكرّرُ على مدَى الدّهرِ.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

معنى الواو فِي قَولِه تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾:

تسليةُ الرّسولِ ﷺ وأتْباعِه، إثباتٌ للعقولِ وتثبيتٌ للأعمال

فِي قَولِه تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا﴾ الواو اعتراضيّةٌ، والجملةُ اعتراضٌ؛ وهو من أنواع الإطنابِ، وهي بمنزلة الفَذْلَكة - المبيِّنةِ لمجملِ ما فُصِّل وخلاصتِه -، قُصدَ منها تسليةُ الرّسولِ ﷺ؛ بعد ذكرِ ما يُحزنُه من أحوال كفّار قومِه، وإصرارِهم على نبْذِ دعوتِه، فأنبأه اللّه: بأنّ هؤلاءِ هم أعداؤُه، وأنَّ عداوةَ أمثالِهم سُنّةٌ من سُنَنِ اللّهِ تعالى في ابتلاء كلِّ نبيٍّ، فما منهم أحدٌ إلّا كان له أعداءٌ، ومعنى الكلام: ألستَ نبيًّا؟ وقد جعلنا لكلِّ نبيٍّ عدُوًّا[1].

معنى الكافِ الدَّاخِلةِ على اسمِ الإشارَةِ فِي: ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾:

تشابهُ الأسبابِ يورِّثُ تشابهَ النَّتائجِ

قولُه تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ مُركّبٌ من كاف التّشبيه واسمِ الاشارة، والمشبَّهُ به ظاهرٌ مُشارٌ إليه، أو هُو كالظّاهر مفهُومًا منَ السّياق[2]؛ فقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا﴾ أي: كما فعلنا ذلك كذلك، جعلنا لكُلِّ نبيٍّ عدُوًّا[3]، ويمكن أن يكونَ للتّشبيه معنيَان؛ **الأوَّلُ**: أنَّهُ مَنسُوقٌ على قَولِه: ﴿كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ﴾ [الأنعام: 108]؛ أي: كما فعلنا ذلك ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا﴾، **والثَّاني**: مَعناهُ جَعَلنَا لَكَ عدُوًّا، كما جَعَلنَا لِمَن قَبلَكَ مِنَ الأنبيَاءِ[4].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/8.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/16.
(3) السّمين، الدّرُّ المصون: 5/115.
(4) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 13/119.

بلاغةُ التَّذييلِ المُؤكِّد لمعنى الآية الّتي قبلَها

وقد وقعَ قولُه تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّٗا﴾ تذييلًا لقولِه في الآية قبلَها: ﴿مَّا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُوٓاْ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ يَجۡهَلُونَ﴾، والتّذييلُ للتّوكيد، وهُو غيرُ جارٍ مجرَى المَثَل[1].

نُكتةُ تقديمِ ﴿لِكُلِّ نَبِيٍّ﴾ على ﴿عَدُوّٗا﴾:

الحصرُ الدّالُّ على الاستيعابِ والاهتمامِ بمضمونِ الخطابِ

تقديمُ ﴿لِكُلِّ نَبِيٍّ﴾ على ﴿عَدُوّٗا﴾ أفاد القصرَ المفيدَ للمبالغة[2]، فقصرَ هذا الحُكمَ على الأنبياء، وهو أنَّ لكلّ نبيٍّ - دون استثناء - عدوًّا؛ أي: أعداءً من شياطين الجنّ والإنس، ولِيعلمَ رسولُ الله ﷺ أنّ ما كان من أعدائِه هو أمرٌ مُقدَّرٌ مسبقًا، وقضاءٌ منَ الله تعالى، وسُنّةٌ من سُنن الله مع أنبيائِه.

وأفاد الاهتمامَ به؛ لأنّ في تقديمه تنبيهًا على أنّه خبرٌ، وأنّه ليس مُتعلِّقًا بقوله: (عدوًّا) كيلَا يخالَ السّامعُ أنّ قولَه: ﴿شَيَٰطِينَ ٱلۡإِنسِ﴾ مفعولٌ؛ لأنّه يحوِّلُ الكلامَ إلى قصدِ الإخبارِ عن أحوال الشَّياطين، أو عن تعيينِ العدوِّ للأنبياء مَن هو؟ وذلك ينافي بلاغةَ الكلام[3]؛ ولأنّ فحوَى السّياقِ ومقصدَه الإعلامُ عن هذه السّنّةِ في الأنبياء كلِّهم، فيحصل بذلك التَّأسِّي والقدوةُ والتّسليةُ.

دلالةُ استِعمالِ اللّامِ الدَّاخلةِ على أداةِ العُمومِ في قولِه: ﴿لِكُلِّ نَبِيٍّ﴾:

لكلِّ مرحلةٍ دعَويّةٍ فقهُها الخاصُّ بها، ولكلِّ نبيٍّ عدوُّه الخاصُّ

اللّامُ في قوله تعالى: ﴿لِكُلِّ نَبِيٍّ﴾ للاختصاص[4]، وهذا أصلُ معانيها؛ فكأنّه قيلَ: اختصَّ كلَّ نبيٍّ بعدوٍّ؛ فقد جعل اللّهُ لكلّ نبيٍّ عدوًّا مخصوصًا به، وتلك هي سنّةُ الله في أنبيائه مع مَن يُبعثون إليهم مُبلِّغين ناصحين، ففيه أنَّ كلَّ مرحلةٍ لها خصوصيّتُها الدَّعويَّةُ، ولها فقهُها الّذي يخصُّها.

(1) الطّيّبيّ، فُتوح الغيب: 6/216.
(2) الآلوسّي، روح المعاني: 8/4.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/8.
(4) سيبويه، الكتاب: 4/381.

سرُّ إيثارِ وصْفِ النُّبوَّةِ دونَ الرِّسالةِ:

الشّمولُ الكُلِّيُّ لمَن دعا إلى التَّوحيدِ فهو مُستحقٌّ لعداوةِ شياطينِ الإنسِ والجنِّ

آثرَ النَّظمُ في قولِه تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّٗا﴾ اختيارَ صِفةِ النُّبوّةِ دون الرِّسالةِ، وذلك أنَّ النَّبيَّ أعمُّ منَ الرَّسول؛ بكونِه أُوحيَ إليه منَ اللّه تعالى بشرعٍ أو بخبرٍ، وأُمرَ بتبليغه للنّاسِ، وبكونِ عددِ الأنبياء - وهو مئةٌ وأربعةٌ وعشرون ألف نبيٍّ - أكثرَ من عدد الرّسلِ الّذي هو ثلاثمئة وثلاثةَ عشرَ رسولًا، وبكونِ دينِ الأنبياء واحِدًا، وهو دينُ الإسلام، فكلُّهم دعَوا إلى عبادة اللّه وحدَه وعدمِ الإشراكِ به شَيْئًا، والتّصديقِ بأنبيائه، أمَّا شرائعُ الرّسلِ فمختلفةٌ، فكلُّ رسولٍ جاء بشرعٍ جديدٍ يختصُّ به وبأُمَّته. فالآيةُ تشملُ الرُّسلَ التزامًا، فاختيارُ النُّبوّةِ ليس المرادُ به الخصوصَ، بل العمومَ والشُّمولَ، وهذا من محاسنِ اختيارِ هذه اللَّفظةِ في هذا السِّياق، ويدخلُ في دلالةِ لفظِ ﴿نَبِيّ﴾ الدُّعاةُ والعلماءُ باعتبارِهم ورثةَ النَّبيِّين في علْمِهم ومنهجِهم، فدلَّ اللَّفظُ على الشُّمولِ الكلّيِّ لكلِّ مَن يكون داعيًا إلى دين التَّوحيد، ويستحقُّ بذلك أن يكون له أعداءٌ من شياطين الإنسِ والجنِّ.

بلاغةُ استِعمالِ مفردةِ ﴿عَدُوّٗا﴾ دون ما يقاربُها في اللّفظ:

العداوةُ تشملُ جميعَ المقارباتِ، ويدخلُ فيها الظَّاهرُ والباطنُ

استعملَ النَّظمُ مفردةَ ﴿عَدُوّٗا﴾ دون مقارباتِها اللَّفظيّةِ مثل: مُكذِّبًا أو مُبغِضًا أو كاشحًا أو مُخاصِمًا؛ للعموم والقصد الباطنِ والظَّاهر، فإنَّ لفظَ العداوةِ يشملُ البغضَ والكراهيةَ والاعتداءَ والحسدَ والخصومةَ، وكذلك يَدُلُّ على الأعمال القلبيَّةِ الباطنيّةِ والأعمال السُّلوكيّةِ الظَّاهرةِ، فكان إيثارُها دليلًا على تعدُّد مظاهرِها ومسالكِها وأساليبها مع أولياء اللّه تعالى.

بلاغةُ استِعمالِ مُفردةِ ﴿عَدُوّٗا﴾ دونَ أعداء:

قال الزّجّاج وابنُ الأنباريّ: قولُه: ﴿عَدُوّٗا﴾ بمعنى أعداء، ومنها قولُه: ﴿ضَيۡفِ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ٢٤﴾ [الذّاريات: 24]؛ جعلَ المُكرَمين، وهو

وحدةُ أعداءِ اللهِ تعالى، فالكفرُ ملّةٌ واحدةٌ صادرةٌ عن قلبٍ واحدٍ

جمعٌ، نعتًا للضَّيف، وهو واحدٌ، وثانيها قولُه: ﴿وَٱلنَّخۡلَ بَاسِقَٰتٖ لَّهَا طَلۡعٞ نَّضِيدٞ ١٠﴾ [ق: 10]، وثالثُها قولُه: ﴿أَوِ ٱلطِّفۡلِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يَظۡهَرُواْ عَلَىٰ عَوۡرَٰتِ ٱلنِّسَآءِۖ﴾ [النّور: 31]، أكّدَ المفردَ بما يُؤكَّدُ الجمعُ به[1]، وسرُّ الاستعمالِ بلاغةُ التَّعبيرِ عنِ الجمعِ بالمفرد؛ فكأنَّ العداواتِ اجتمعنَ في عدوٍّ واحدٍ، وذلك لبيانِ وحدةِ أعداء اللّٰه تعالى، فالكفرُ ملَّةٌ واحدةٌ.

سرُّ إفرادِ لفظِ ﴿عَدُوّٗا﴾ دونَ جمعِه، ومجيءِ ﴿شَيَٰطِينَ﴾ جمعًا:

غايةُ الإفرادِ بيانُ المصدرِ، والجمعُ لبيانِ تنوّعِ الأعداء

استُعملَت صيغةُ الإفراد ﴿عَدُوّٗا﴾ في قوله تعالى: ﴿جَعَلۡنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّٗا شَيَٰطِينَ ٱلۡإِنسِ وَٱلۡجِنِّ﴾؛ مع أنّه قصدَ جَمعَ الأعداءِ، وقالَ: ﴿شَيَٰطِينَ﴾ بصيغةِ الجمعِ، ونوّعَهُم فقال: ﴿ٱلۡإِنسِ وَٱلۡجِنِّ﴾، وذلك أنَّ جمعَ الشّياطين مع بيانِ نوعِهم المقصودُ به بيانُ العدوّ، فكأنَّه قال: العدوُّ يدخلُ فيه الشَّياطينُ منَ الإنس والجنِّ، فدلَّ الإفرادُ على وحدةِ الغايةِ، ودلَّ الجمعُ على تنوّعِ الأعداءِ.

معنى إضافةِ ﴿شَيَٰطِينَ﴾ إلى ﴿ٱلۡإِنسِ وَٱلۡجِنِّ﴾:

شياطينُ الإنسِ كشياطينِ الجنِّ في الأثرِ

إضافةُ لفظِ ﴿شَيَٰطِينَ﴾ إلى الإنس إضافةٌ مجازيّةٌ، على تقدير (مِنْ) التّبعيضيّةِ مجازًا، وعبارةُ ﴿شَيَٰطِينَ ٱلۡإِنسِ﴾ استعارةٌ للنّاس الّذين يفعلُون فعلَ الشّياطين: من مكرٍ وخديعةٍ؛ أي: أنّ بعضَ الشّياطين هم منَ الإنس، والاستعارةُ المكنيّةُ تقتضِي كونَ هؤُلاء الإنس كشياطين الجنّ، فهي بهذا الاعتبارِ، من إضافة الأخصِّ إلى الأعمِّ؛ لأنّ شياطينَ الإنس مجازٌ، وشياطينَ الجنّ حقيقةٌ[2].

دلالةُ التَّعريفِ في قولِه تعالى: ﴿ٱلۡإِنسِ وَٱلۡجِنِّ﴾:

التَّعريفُ في قولِه تعالى: ﴿ٱلۡإِنسِ وَٱلۡجِنِّ﴾ هو للجنس؛ والتّعريفُ بـ (أل) الجنسيّةِ يفيدُ استحضارَ الجنسِ وهيئتِه المعلومةِ في الذّهن؛

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 13/119.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/9.

فيُعرفُ أنّه من صفات الأعداءِ أنّهم من نوعِ الإنسِ، وصفاتُهم معروفةٌ، وأنّهم من نوعِ الجنّ، وصفاتُهُم معروفةٌ كذلك؛ لكنّه هُنا أفاد استغراقَ جميعِ خصائصِ الأفرادِ المذمومةِ تجوّزًا؛ مبالغةً في الذّمِّ، والمعنى: الّذين اجتمعَت فيهم صفاتُ الشّيطنةِ منَ الإنس والجنّ ممّا تفرّقَ في غيرِهم.

شياطينُ الإنس والجنّ هم مَنِ اجتمعَتْ فيهم صفاتُ الشَّيطنةِ

نُكتةُ تقديمِ ﴿ٱلْإِنسِ﴾ على ﴿وَٱلْجِنِّ﴾:

الجنُّ أسبقُ في الخلقِ، وهم أكثرُ في الوسوسةِ، ﴿ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾ [النّاس: 5 - 6]، ونُكتةُ التّقديمِ هنا ما لشياطين الإنسِ منَ الأثرِ المُباشرِ والأكبرِ في هذه العداوة، إذ إنّ شياطينَ الجنِّ لا تظهرُ عداوتُهم بشكلٍ مادّيٍّ، على خلاف شياطينِ الإنسِ الّذين يتبنّون تلك العداوةَ صراحةً، ثمّ إنّ عداوةَ شياطين الجنِّ لا تأتي إلّا من خلالِ ما يؤدّونَه منَ الأزِّ على قلوبِ شياطينِ الإنسِ وعقولِهم، فتأتي عداوةُ الجنِّ من خلال العدوِّ منَ الإنس.

شياطينُ الإنسِ هم من يُؤدِّي الدَّورَ المحوريَّ في الإيحاءِ والإصغاءِ والإيذاءِ

ثمّ إنّ تقديمَ (الإنس) على (الجنّ) في موضوع الشّيطنةِ، تستحقُّ الوقوفَ والتّدبُّرَ؛ لأنّ مادّةَ شياطين الجنّ، وأدواتِهم الّتي يُمارسون من خلالها أعمالَهم، هم الإنسُ أنفسُهم، لذا فقد خصّصَهم التّعبيرُ القرآنيُّ وقدّمَهُم، باعتبارِ أنّهم هُم المُنكرُون المُعارضُون الّذين تتعاملُ معهُم الحواسُّ على خلاف شياطينِ الجنِّ، كما أنّ لشياطين الجنِّ مهمّةً واحدةً، هي الإيحاءُ وزخرفةُ القول غُرورًا، أمّا شياطينُ الإنس فلهم فوق ذلك أعمالٌ، هي أكثرُ وَقعًا وأثرًا في الحياة، فهُمُ المُبادرون المُقترفُون للتّكذيبِ والإنكارِ والإيذاءِ القوليِّ والفعليِّ، وغيرِ ذلك.

البديعُ في إيرادِ التّفصيلِ بعدَ الإجمالِ:

في قولِه تعالى: ﴿شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ﴾ تفصيلٌ بعد إجمالٍ؛ فبعدَ إجمالِ العداوةِ وتركيزِها في صِيغةِ الإفرادِ ﴿عَدُوًّا﴾؛ فَصّلَ في بيان جِهتِها، فقال: ﴿شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ﴾، ثُمّ زادَ التّفصيلَ

عداوةُ شياطينِ الإنس والجنِّ تهدفُ إلى الإضرارِ بقضيّةِ الإيمانِ عمومًا

تفصيلًا، مُبيِّنًا طبيعةَ تلك العداوةِ، فقال: ﴿يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾، ولفظُ ﴿شَيَٰطِينَ﴾ انتصبَ على البدلِ مِن ﴿عَدُوًّا﴾، أو على أنّهما مفعُولان، كقولِه تعالى: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ﴾ [الأنعام: 100]، وقولِه: ﴿يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾؛ أي: أنّ شياطينَ الجنِّ يُوسوِسُون لشياطين الإنس، وكذلك بعضُ الجنّ إلى بعضٍ، وبعضُ الإنس إلى بعضٍ[1].

بلاغةُ الطّباقِ في قولِه تعالى: ﴿شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ﴾:

الطّباقُ من أجمل أساليبِ البلاغةِ في القرآن الكريم، فهو يجذبُ انتباهَ السّامع، ويثيرُ فكرَه وإعجابَه، ففي قولِه تعالى: ﴿شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ﴾ طباقٌ؛ إذ استخدم كلمتَيْن متقابلتَيْن في المعنى والحروف، فالإنسُ والجنُّ خَلْقانِ مختلفان في الطّبيعةِ والصِّفاتِ، ولكنّ اللّهَ جمعَ بينهما في هذه الآية ليبيِّنَ أنّ لكلِّ نبيٍّ عدوًّا من كلا الخَلقين، يحاربونَه ويضلّون عن سبيله، والطّباقُ بين الكلمتين في الحروف أيضًا، فلفظُ الإنس والجنِّ متقاربان في الصّوت، وهذا الطّباقُ له دلالةُ الشُّمول؛ فقد شملَ الشّياطينَ كلَّهم، الّذين من صفاتهم أنّهم يوسوسُ بعضُهم لبعضٍ فيزيِّنون الباطل.

الدّلالةُ على الشّمولِ، وأنّ العداوةَ الواقعةَ من كلا الخَلقَين المختلفين طبيعةٌ وصفةٌ

بلاغةُ اختيارِ مُفردَةِ ﴿يُوحِي﴾:

اختارتِ الآيةُ لفظَ الوحْيِ في قولِه تعالى: ﴿يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾، ولم يقُل: يوسوسُ؛ إذ نلمحُ في سياقِها أنّ أصلَ الوحي: الإعلامُ والدّلالةُ بِسَترٍ وخفاءٍ وسرعةٍ، وفي المُراد به هاهنا **ثلاثةُ أقوال**: أحدُها: أنّ معناه: يأمرُ، والثّاني: يُوسوسُ، والثّالث: يُشيرُ[2]، فهي جميعُها كائنةٌ في معنى الإيحاء، وهي جميعُها ضروريّةٌ لزخرفةِ القولِ وتزيينِه.

الوحيُ هو الإعلامُ والدّلالةُ بِسَترٍ وخفاءٍ وسُرعةٍ

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/56.
(2) ابن الجوزيّ، زاد المسير: 2/68.

نُكتةُ التَّعبيرِ بالفعلِ المُضارِعِ في قولِه تعالى: ﴿يُوحِي﴾:

المُعانِدون يخترعون الأساليبَ والطّرقَ في غَوايةِ النَّاسِ

الفعلُ المضارع في ﴿يُوحِي﴾ يدلُّ على التّجدّدِ والاستمرارِ واختراعِ الأساليبِ والطّرقِ الكثيرةِ في إحداث التّزيين منَ الشَّياطينِ لأتباعِهم بالعداوة للأنبياء. وهذه الأفعالُ جميعُها تأتي تِباعًا لـ ﴿زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ﴾ الّذي هو المادّةُ الرّئيسةُ لتعاملات شياطينِ الإنس والجنّ، فالتَّعبيرُ بالمضارعِ يدلُّ على تجدُّدِ الأفعالِ التَّابعِ لتجدُّدِ الأساليب، فإن لم يُفلح أسلوبٌ في الغَوايةِ أفلحَ آخرُ.

دلالةُ التَّعريفِ والتَّنكيرِ للَّفظِ الواحدِ في قولِه تعالى: ﴿بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾:

ناسبَ التَّعريفُ المؤثِّرين والتَّنكيرُ المتأثِّرين

نلحظُ في قولِه تعالى: ﴿بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾ التّنويعَ بالتَّعريفِ بالإضافةِ والتَّنكيرِ للَّفظِ الواحدِ، فلم يقُل على وجه التّنكير: (يوحي بعضٌ إلى بعض)، ولا على وجه التّعريف: (يوحي بعضُهم إلى بعضهم الآخر)، ونُكتةُ ذلك: أنَّ فيه إيماءً إلى أنَّ المقصودين بقولِه: ﴿بَعْضُهُمْ﴾ هم المؤثِّرون بالإيحاء بالكذب المحسَّن والمزيَّن، وأنَّ المرادين بقولِه: ﴿بَعْضٍ﴾ هم المتأثِّرون، فحسُنَ التَّعبير بالتَّعريف للمؤثِّر، وبالتَّنكير للمتأثِّر.

بلاغةُ التَّعبيرِ المجازيِّ في قولِه تعالى: ﴿زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ﴾:

الزّخرفُ هو تزيينُ باطنِ المعنى الخبيثِ بظاهرِ اللَّفظِ الجميل

وأمّا قولُه تعالى: ﴿زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ﴾ فهو ما تُزيّنه الشَّياطينُ منَ القول والوسوسة، والإغراء بالمعاصي، وتُزيّفه وتُموّهه، فيمكن أن يكونَ الإيحاءُ مقتصرًا على الزّخرف، فيكون من باب إضافة الصّفة إلى الموصوف، أو استعارةً مكنيّةً تخييليّةً على تشبيه القول بالذَّهَب، أو بالبناء الّذي يُزَيَّن؛ لأنّ الزُّخرفَ في لغة العرب الزّينةُ، ومن ذلك قولهم: دارٌ مُزخرفةٌ؛ أي: مُزيَّنةٌ، فكأنّه تعالى قال: يُزيّنون لهُم القول ليغترُّوا به، وينخدعُوا بظاهره، كما يُستغرُّ بظاهرٍ جميلٍ، على باطنٍ مدخُولٍ[1].

(1) الرّضّي، تلخيص البيان: 2/138.

البلاغةُ اللّسانيّةُ قد تقودُ إلى الهلاكِ إن لم يَحكمْها النَّقلُ والعقلُ

بلاغةُ النّظمِ في قولِه تعالى: ﴿زُخۡرُفَ ٱلۡقَوۡلِ غُرُورٗاۚ﴾:

وقولُه تعالى: ﴿زُخۡرُفَ ٱلۡقَوۡلِ غُرُورٗاۚ﴾ وصفٌ للقول الّذي هُو مادّةُ التّواصل، بين عالَمين مُنعزلَيْن تمامًا، هُما عالمَا الإنس والجنّ، والجامعُ بينهما الشّيطنةُ والتّمرُّدُ والعداوةُ للحقِّ، فالآيةُ الكريمةُ تُبيّنُ أنّ سببًا للتّواصلِ بين العالمين، يكونُ من خلال ﴿ٱلۡقَوۡلِ﴾؛ لكنّه قولٌ خاصٌّ، موصوفٌ في العبارة القرآنيّة بدقّةٍ وإعجازٍ، فمن بلاغة النّظم القرآنيِّ نلحظُ أنّ كلمةَ ﴿ٱلۡقَوۡلِ﴾ تقعُ بين ﴿زُخۡرُفَ﴾ و﴿غُرُورٗاۚ﴾، وفي ذلك ما فيه منَ الإيحاء والنّظم الدّقيقِ لتلك المنظومةِ القوليّةِ، الّتي تدُور بين قُطبَي الزّخرفةِ والغُرورِ، فهي في دَوران مُستمرٍّ، تعديلًا وتحديثًا من شيطانٍ إلى آخرَ، فالأقوالُ والإيحاءاتُ يجري عليها التَطويرُ والتَّحديثُ، والتّزيينُ مُستمرٌّ من واحدٍ إلى آخرَ، فكلُّ إيحاءاتِهم تنطلقُ من مبدأ (الغُرُورِ) بالأباطيلِ والخداعِ الّتي هي دومًا بحاجة إلى إضافاتٍ جديدةٍ منَ الزُّخرفِ والتّزيين، وهكذا كُلّما ضعُفت الحُجّةُ وظهرَ الخداعُ زادتِ الشّياطينُ في تزيينِها وتعديلِها، واتّخذتْ أساليبَ أُخرى للإيحاءِ والمُراوغةِ والإقناعِ، ثمّ إنّ أساليبَ هؤُلاء الشّياطين، هي كزخارفِ الماءِ أو طرائقِه، والزَّخارفُ ما يُزَخرَفُ منَ السُّفنِ، والزَّخارفُ دُوَيّباتٌ تطيرُ على الماءِ ذواتُ أربعٍ مثلُ الذُّبابِ[1]، فهي استعارةٌ للطّرائق، والسُّبلِ المُلتويةِ المُتعرّجةِ الّتي تتّخذُها مَسلكًا إلى عُقول النّاس، وقد جاءَت كلمةُ ﴿يُوحِي﴾ بصيغة المُضارع الّذي يُفيدُ التّجدُّدَ مع الزّمن، فالإيحاءُ مُستمرٌّ مُتجدِّدٌ، والزُّخرفُ مُستمرٌّ في شقّ سبُلِه المُلْتَوِيَةِ المُتعرّجةِ إلى قيام السّاعةِ.

بلاغةُ الاستعارةِ في قوله تعالى: ﴿زُخۡرُفَ ٱلۡقَوۡلِ﴾:

إنّ زُخرفَ القول مُحتاجٌ إلى التّحسيناتِ والزّخارفِ، فلا يحسُنُ

(1) الخليل، العين: (زخرف).

إلّا بها، والعادةُ أن تكونَ غيرَ ظاهرةٍ للنّاظر؛ إلّا بالإمعان والتّدقيق، والمُحسّناتُ الزُّخرفيّةُ المعنويّةُ للقول ليست أصيلةً، ولكنّها دخيلةٌ ومُزيّفةٌ، فيُؤتَى بها (حتَّى يُرَى حَسَنًا ما لَيسَ بالحَسَنِ)، وإنّما يحتاجُ القولُ إلى الزّخرفِ، إذا كان غيرَ مُشتملٍ على ما يُكسبُه القبُولَ بذاته، ومعلُومٌ أنّ زخارفَ الماء طرائقُه .. وبذلك فإنّ زُخرفَ القول استعارةٌ للطّرائق الّتي يُمكنُ أن يدخُلَ منها المُتكلّمُ بفصاحةٍ ودهاءٍ، إلى عقل المُخاطَب، فيُلامسُ شَغافَ قلبه، ويُحرّكُ مواجيدَ عاطفتِه؛ بُغيةَ الوُصول إلى الغاية منَ الاستحواذ على الاهتمام، وإقناعِ الغير بما لم يكن مُقتنعًا به، ولو كان باطلًا صُراحًا، أو كُفرًا بَواحًا، بما يُشبهُ حركةَ الماء في التّغلغلِ والانسيابِ والاستطراقِ.

الالتجاءُ إلى زخارفِ القولِ عند خُلوِّ المقُولِ منَ المضامِين

إعرابُ قولِه تعالى: ﴿غُرُورًاۚ﴾ وأثرُهُ في بيانِ المعنى:

الغُرورُ: ظنُّ النّفس وقوعَ أمرٍ نافعٍ لها بمخائلَ تتوهّمُها، وهو بخلافِ ذلك أو هو غيرُ واقعٍ، ومعنى ﴿غُرُورًاۚ﴾: خِداعًا وأخذًا على غِرّةٍ، و﴿غُرُورًاۚ﴾ بمعنى: يغُرُّ بعضُهم بعضًا، بترويج الأَباطِيلِ، قصدَ الإضرارِ والإفسادِ والإضلالِ.

نوعُ الإيحاء الّذي تستعملُه الشّياطينُ غرورٌ، فهم غارُّون

وانتصبَ ﴿غُرُورًاۚ﴾ على المفعول لأجله لفعل ﴿يُوحِي﴾؛ أي: يُوحون زخرفَ القولِ ليغرُّوهم[1]. وإذا جعلنا ﴿غُرُورًاۚ﴾ مفعولًا مطلقًا من ﴿يُوحِي﴾ فهو مضمّنٌ معنى يغرّونهم غُرورًا، وهو من قَبيل المفعولِ المطلقِ المبيِّن للنّوع؛ فهو مبيّنٌ لنوع عاملِه؛ فيبيّنُ أنّ نوعَ الإيحاء غرورٌ، بخلاف ما إذا أُعربتْ حالًا فيكون المعنى منصرِفًا إلى مَن يُوحي؛ أي: غارِّين.

معنى الواوِ في قولِه تعالى: ﴿وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُۖ﴾:

الواوُ في قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُۖ﴾ استئنافيّةٌ؛

الاستئنافُ لتقريرِ معنىً مستقلٍّ ومرتبطٍ في آنٍ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/8.

والجملةُ بعدها مستأنفةٌ لا محلَّ لها من الإعراب، ومعنى الكلام: ما فعلُوا ذلك؛ أي: ما عَادَوْكَ، أو ما أوحَى بعضُهُم إلى بعض زخرفَ القول بأن يكفَّهم ولا يُخَلِّيهم وشَأنَهُم[1].

نُكتةُ المجيءِ بعنوانِ الرُّبوبيَّة دون الألوهيَّةِ:

الله هو ربُّ النبيِّ ﷺ وكافلُه وناصرُه وحامِيه

في الآية السَّابقةِ أتى بلفظ الجلالة ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾، ثمّ إنّه قال هنا: ﴿وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُۖ﴾، وفيما بعدَه ﴿أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَبۡتَغِي حَكَمٗا﴾، فغايرَ بين الاسمين، ونُكتة ذلك: أنّه ذكرَ قدرةَ الله في الأولى في إنزال الملائكةِ، وإحياء الموتى، وحشْرِ كلِّ شيءٍ قُبُلًا، فناسب أن يذكرَ اسمَ الله تعالى (الله)، وفي الآية اللّاحقة ذكرَ عداوتَهم للرَّسول كسائر الأنبياء عليهم السلام الّتي لو شاء منعهم عنها، فلا يصلون إلى المضرّة، يقتضي ذكرُه بهذا العنوان إشارةً إلى أنَّه مربيكَ في كنفِ حمايتِه، وإنّما لم يفعلْ ذلك لأمرٍ اقتضَته حكمتُه، وأمّا في الآية الأخرى فذكرَ قبلَه إشراكَهم، فناسب ذكرُه بعنوان الألوهيّة الّتي تقتضي نبذَ الإشراك[2]، ثمّ تستمرُّ الآياتُ بالتّناوب في ذكر لفظ الجلالة (الله) مرّةً و(ربّك) مرّةً؛ تناسبًا مع سياق الآيات.

غرضُ الالتفاتِ منَ التَّكلُّمِ إلى الخطَابِ:

بيانُ خصوصيَّة العنايةِ الإلهيّةِ بعدَ بيانِ عُمومِها مع جميعِ الأنبياءِ

انتقلَ النَّظمُ منَ التَّكلُّم في قولِه تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّٗا﴾، إلى الخطاب في قولِه: ﴿وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُۖ﴾، وفيه منَ البلاغة ما أحدثه ذلك الالتفاتُ، من نقْلةٍ وجوديّةٍ كُبرى، جعلَت رسولَ الله ﷺ بمُقتضى العناية الإلهيّة، مُحصَّنًا من أعدائه من شياطين الإنس والجنّ، ناهيك عن رِفعةِ مكانتِه بين أنبياء الله عليهم السلام.

وسَوقُهُ لذلك الالتفات لضمير الجلالة بين قولِه تعالى: ﴿جَعَلۡنَا﴾ وقولِه: ﴿رَبُّكَ﴾، حيثُ التفتَ من صيغة الجمعِ بضمير العظمةِ

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/56.
(2) الخفاجيّ، حاشيةُ الشِّهابِ على تفسيرِ البَيضاوِيّ: 4/114.

المتكلّم، إلى الاسم المفردِ ﴿رَبُّكَ﴾، والتفتَ مرّةً أخرى من ضمير المتكلّم (نَا)، إلى ضمير الغائبِ المُتّصلِ في لفظ ﴿رَبُّكَ﴾، وفي ذلك التفاتٌ ثُنائيٌّ، وفيه منَ البلاغة ما فيه من أسرارها وجمالِها، ففي ضمير الجمعِ والعظمةِ (نَا) في التّركيب ﴿جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ﴾ إشارةٌ إلى الانسجامِ مع الأنبياءِ كلِّهم، بالمُوازاة مع النّظرِ في أحوالِهم واحدًا واحدًا، فقال: ﴿لِكُلِّ نَبِيٍّ﴾، ثُمّ انتقلَ مُلتفتًا بالمُفرد لخطابِه للنّبيّ ﷺ، فكان ضميرُ المُفرد مُنسجمًا مع إفراد النّبيِّ ﷺ بالخطاب، فقال: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ﴾، وهو انسجامٌ في السِّمة التَّعبيريّة تُوحي بالتّآلفِ اللَّفظيِّ والتَّعانُقِ السِّياقيِّ.

غرضُ إضافةِ الرَّبِّ إلى ضميرِ المخاطَب:

تشريفُ المخاطبِ ووعدُه بالحفظِ والعنايةِ

قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُۖ﴾ ليُؤكّدَ في سياقِ الخطابِ، أنّ مَن كانَت قدرتُه سابقةً ومُهيمنةً على أحوال كُلِّ نبيٍّ ممّن سبقَ، قادرٌ من بابٍ أَولى أنْ يقيَك الأذى، ويحميَك ممّا أصابك من كيد شياطينِ الإنس والجنّ، وفيها منَ التَّشريفِ والتَّكريمِ والعنايةِ ما لا يخفَى على ذي لُبٍّ.

اللهُ يمتحنُ عبادَه بما يعلمُ أنّهُ أبلغُ في الحكمةِ

وفي قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُۖ﴾، يعني: لو شاء ربُّك لمنعَهم من أفعالِهم وأقوالِهم، ولكنّ اللّهَ يمتحنُ عبادَه بما يعلمُ أنّهُ أبلغُ في الحكمة، وأجزلُ في الثّوابِ: ﴿فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾؛ بمعنى: خلِّ عنهُم، وما يجترحُون منَ القول الكاذبِ، وما يُظهرون منَ الغُرُور الخُلَّب[1]، والقولُ في معنى المشيئة من قولِه تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُۖ﴾ كالقولِ في ﴿مَّا كَانُواْ لِيُؤْمِنُوٓاْ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾، وقولِه: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُواْۗ﴾ [الأنعام: 107].

(1) السّمرقنديّ، بحر العلوم: 1/476.

تقديرُ حذْفِ مفعولِ المشيئةِ:

كلُّ أفعال الشياطين تحت مشيئةِ الله وقُدرتِه وإرادتِه

في قولِه تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُۖ﴾ حذفُ مفعول المشيئة؛ والتّقديرُ: (ولو شاء ربُّك إيمانَهم)، أو تقديرُه: (ولو شاء ربُّك أن لا يفعلوا معاداةَ الأنبياء ﷺ وإيحاءَ الزّخارف)، على أنَّ الضّميرَ لمّا ذُكرَ بناءً على المشهور؛ ومن تقديرِ مفعول المشيئةِ ما دلّ عليه جوابُ (لو) بعدَه؛ ولذا قيل في تفسيره: ولو شاء ربُّك عدمَ الأمورِ المذكورةِ لا إيمانَهم كما قيل؛ فإنّ القاعدةَ المستمِرَّةَ أنّ مفعولَ المشيئةِ إنَّما يُحذفُ عند وقوعِها شرطًا. وكونِ مفعولِها مضمونَ الجزاء، وهو قولُه تعالى: ﴿مَا فَعَلُوهُۖ﴾؛ أي: ما فعلوا ما ذُكِرَ من عداوتِكَ، وإيحاءِ بعضِهم إلى بعضٍ مُزخرَفاتِ الأقاويلِ الباطلةِ، المتعلِّقةِ بأمرِكَ خاصّةً، لا بما يعُمُّهُ وأمورَ الأنبياءِ ﷺ أيضًا[1]، أو لو شاءَ اللّهُ لمنع الشّياطينَ منَ الوسوسةِ للإنس والجنِّ، ولكنّ اللّهَ يمتحنُ ما يعلمُ أنّهُ الأبلغُ في الحكمة، والأجزلُ في الثّواب، والأصلحُ للعبادِ[2].

بلاغةُ اختيارِ مُفردةِ ﴿فَعَلُوهُۖ﴾ المنفيَّةِ بحرفِ ﴿مَا﴾:

مشيئةُ الله في اختبار المؤمنين أطلقَتِ احتمالاتِ ما اعتادتْه الشّياطينُ منَ الأقوال والأفعال

الهاءُ في قوله ﴿مَا فَعَلُوهُۖ﴾ ضميرٌ عائدٌ على جميع ما فعلُوه ممّا ذكرَته الآيتان السّابقتان، وهي: (العداوةُ، أو الوحيُ، أو الزّخرفُ، أو القولُ، أو الغُرورُ)[3]، وقد تعرّض نصُّ هذه الآية، لوصف الرُّبوبيّة فضلًا عنِ الضّمير العائد إلى رسول اللّه ﷺ في قوله: (رَبُّكَ)؛ لتشريف مقامِه، وللمُبالغة في اللُّطف والتّسليةِ[4]، واختيارُ الفعلِ المنفيِّ؛ لبيانِ قدرةِ اللّه على نفي كلِّ ما يُتصّورُ من أفعالهم ممَّا يقعُ تحت مشيئةِ اللّه تعالى، وهي الإرادةُ الكونيّةُ الشّاملةُ لكلِّ ما يحدثُ في الوجود، فاختيارُ مفردة (فَعَلَ) للإتيانِ على ما اعتادُوه من أفعالِ الباطلِ.

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/176.
(2) الزّجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 2/284.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/625.
(4) سلامة، الإعجاز البلاغيّ في القرآن الكريم، ص: 97 - 98.

توجيهُ المتشابهِ اللّفظيّ بين: ﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ﴾ و﴿وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ﴾:

السّياقاتُ القرآنيّةُ منحَتِ المتشابهاتِ اللّفظيّةَ دلالاتٍ مُعجزةً

وقد وردَت آيتان في سُورة الأنعام منَ المُتشابه اللّفظيّ، هما قولُه تعالى: ﴿وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُۖ فَذَرۡهُمۡ وَمَا يَفۡتَرُونَ﴾، وقولُه تعالى: ﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُۖ فَذَرۡهُمۡ وَمَا يَفۡتَرُونَ ١٣٧﴾ [الأنعام: 137]، والسّرُّ في اختلافهما؛ أنّه في الأُولى ذكّرهم بما سبق لهُم في الأزل، حتّى لا يُجديَ عليهم شيءٌ، ولا ينفعَهم تَذكارٌ؛ لقوله قبْلَها: ﴿وَلَوۡ أَنَّنَا نَزَّلۡنَآ إِلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَحَشَرۡنَا عَلَيۡهِمۡ كُلَّ شَيۡءٖ قُبُلٗا مَّا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُوٓاْ﴾، وذلك أنّهُ تلطّفٌ بنبيّه بذكر ربُوبيّته، فقال: ﴿وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ﴾؛ تأنيسًا له، وتأنيسًا لأُمّته بأُنْسِه، وأوردَ الاسمَ الأعظمَ في الثّانية، فقال: ﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ﴾؛ لعدم وجودِ الحيثياتِ الّتي في الآية الأولى[1]؛ إذ تضمّنَ السّياقُ ذكرَ تجاوزاتِهم على الذّات الإلهيّةِ عُدوانًا وشركًا صريحًا: ﴿فَقَالُواْ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعۡمِهِمۡ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَاۖ﴾ [الأنعام: 136]، فاقتضى ذلك ذكرَ اسمِ اللّه في قولِه: ﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُۖ﴾ [الأنعام: 137].

معنى الفاءِ في قولِه تعالى: ﴿فَذَرۡهُمۡ﴾:

الإعراضُ عنِ المشركين هو إعراضٌ عن غرورهم لا عن موعظتِهم ودعوتِهم

الفاءُ في قولِه تعالى: ﴿فَذَرۡهُمۡ وَمَا يَفۡتَرُونَ﴾ فصيحةٌ، تدُلُّ على مَحذوفٍ، فتُفصِحُ عنه، والتّقديرُ: فإذا كانوا مُصرِّين على ما هم عليه منَ الضَّلالةِ؛ فذرْهُم وما يفترون، أو هي فاءُ التّفريع.

ومُفادُ التّفريع أمرُ الرّسول بتركِهم، وهو لونٌ منَ التّذييل[2]، ومعلومٌ أنّ التّركَ إعراضٌ عنِ الاهتمام بغرُورهم، وليس إعراضًا عن وعظِهم ودعوتِهم، كما تقدَّم في قوله: ﴿فَذَرۡهُمۡ وَمَا يَفۡتَرُونَ﴾؛ أي: أعرض عن تكذيبِهم، وما يختلقون مِن كذبٍ وزورٍ، ولكنْ تابِعْ دعوتَهم إلى دين اللّه.

(1) الغرناطيّ، ملاك التّأويل، ص: 469 - 490.
(2) الموصلّي، أولى ما قيل: 3/358.

غرضُ الأمرِ في قولِه تعالى: ﴿فَذَرْهُمْ﴾:

الوعيدُ والتّهديدُ والتّحذيرُ للمشركين الّذين يتّبعون شياطينَ الإنس والجنّ

الأمرُ في قولِه تعالى: ﴿فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ يتضمّنُ الوعيدَ والتّهديدَ، ومُفادُه: اترُكْهُم وما يفترُون من تكذيبك، والغرضُ منه كذلك التّحذيرُ للمشركين الّذين يتّبعون شياطينَ الإنس والجنّ في قولِهمُ الباطلَ والزّورَ على اللّه تعالى.

فاللّهُ يأمرُ نبيَّه محمّدًا ﷺ أن يتركَهم في ضلالهم وشِركهم، وأن لا يبالِيَ بهم؛ فإنَّ اللّهَ سيحاسبُهم على ما فعلوا وقالوا، وسيَجزيهم العذابَ الشّديدَ.

وقد قال بعضُ المُفسّرين: إنَّ هذا الأمرَ فيه مَعْنى التّرك؛ أي: استغنِ عنهم بتركِهم، ولا تحزنْ عليهم، فإنَّ اللّهَ هو المستغنِي عن خلقه، ولا يضرُّه شيءٌ من كُفرِهم أو شِركهم[1].

بلاغةُ اختيارِ لفظِ: ﴿فَذَرْهُمْ﴾:

الأمرُ فيه بمعنى التّركِ والاستغناءِ عنهم

من بلاغة اختيارِ مُفردةِ ﴿فَذَرْهُمْ﴾ أنّ معناها يُستعمَلُ في ترك الشّيء غيرَ آبهٍ به؛ يُقال: فلان يَذَرُ الشّيءَ؛ أي: يقذفُه لقلّةِ اعتدادِه به.

نوعُ الواو ومعناها في قولِه تعالى: ﴿وَمَا يَفْتَرُونَ﴾:

إمّا أن تكونَ بمعنى (مع)، وإمّا أن تكونَ عاطفةً

الواو في قولِه تعالى: ﴿وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ إمَّا أن تكونَ بمعنى (مع)، وهي تفيدُ المصاحبةَ والاقترانَ، فتفيدُ اقترانَ هؤلاء المعاندين بالافتراء، فهم مصاحِبون للافتراء أينما مضَوا أو حلُّوا، فجاء الأمرُ بتركِهم وعدمِ المُبالاة بهم[2].

وإمَّا أن تكونَ عاطفةً، وهي حرفُ عطفٍ للجمعِ، فلا يكونُ تركُهم حصَلَ قبل ترْكِ ما يفترون، فجاء الأمرُ بتركِهم جميعًا، جاء في شرح الرّضيِّ على الكافية: عن قولِه: (فالواو للجمع مُطلَقًا): معنى

(1) ابن جرير، جامع البيان: 9/503، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 7/68، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/210.

(2) الخفاجيّ، حاشيةُ الشِّهابِ على تفسيرِ البيضاويّ: 4/114.

المُطلقِ: أنّه يحتملُ من كليهما في زمانٍ واحدٍ، أو أن يكونَ حصلَ بأحدِهما قبل الآخرِ[1].

نوعُ ﴿وَمَا﴾ ومعناهَا في قولِه تعالى: ﴿وَمَا يَفْتَرُونَ﴾:

معنى الموصوليّةِ والمصدريّةِ مرادان على الخصوصِ والعُمومِ

﴿وَمَا﴾ في قولِه تعالى: ﴿وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ إمَّا أن تكونَ اسمًا موصولًا فيكون المعنى: فذرْهُم والّذي يفترون باعتبارِه معلومًا للمخاطَب، وإمَّا أن تكونَ حرفًا مصدريًّا فيكون المعنى: فذرْهم وافتراءَهم، وذلك بحملِه على العمومِ، ويحتملُ الكلامُ المعنيين؛ أي: ذرْهم والّذي يفترونه منَ الشِّرك، وعمومَ افترائهم.

وتقعُ (ما) على ذواتِ ما لا يعقلُ، وعلى صفاتِ مَن يعقلُ؛ وهي في الآية ممّا وقعَ على صفات مَن يعقلُ. وفائدةُ الموصول أنّه وصفهم بصفاتٍ معلومةٍ فيهم؛ استهجانًا بما يفعلونَه، ويقولونَه، ويتّصفون به.

و﴿وَمَا﴾ تفيدُ الحالَ؛ أي: أنّ حالَ الافتراء مُتمثِّلٌ بحالِهم.

نُكتةُ التَّعبيرِ بالفعل المُضارِعِ في قولِه تعالى: ﴿يَفْتَرُونَ﴾:

الافتراءاتُ متجدِّدةٌ في زمنِ الأنبياء وفي زمانِ غيرِهم منَ العلماء

فائدةُ التّعبيرِ بالمضارع تجدُّدُ الفعلِ مع الزّمن؛ والاستمرارُ عليه؛ بمعنى تجدُّدِ أساليبِ الافتراءِ، وتطويرِ القدرةِ على الابتكار فيها، وتعزيزِ أصولِها ودعم فاعليها، وما إلى ذلك ممَّا يضمنُ ديمومةَ ذلك الافتراءِ وتجدُّدَه. ويمكن أن يكونَ المضارعُ أفاد الدّلالةَ على الحقيقة من حيث هي غيرُ مقيَّدةٍ بزمنٍ، فالحقيقةُ أنّهم يفترون على اللّه الكذبَ، ويكونُ موجَّهًا إلى الأنبياءِ في زمانِهم، وإلى أتباعِهم في كلِّ زمانٍ، وعليه فتنطبق الآيةُ على التَّحقيقِ على جميعِ مَن يُفترَى عليه منَ الدُّعاةِ والأولياءِ والعلماءِ إلى قيامِ السَّاعةِ.

نُكتةُ حذفِ مفعول ﴿يَفْتَرُونَ﴾:

حذفَ مفعولَ ﴿يَفْتَرُونَ﴾ إيجازًا؛ فالحذفُ من أهمّ دواعِي

(1) الرّضي، شرح الرّضي على الكافية: 2/403.

الحذفُ من أهمِّ دواعي الإيجازِ في العبارةِ والتّوسّعِ في المعنى

الإيجازِ في العبارة والتّوسّعِ والشّمولِ في المعاني؛ إذ أفادَ هذا الإيجازُ شمولَ عمومِ ما يَطرأُ مِن افتراءاتِ هؤلاء المُعاندين، ومَن سيأتي بعدَهم، ممّن يفترون على اللّه وعلى أنبيائِه ورسالاتِه، فجاء الأمرُ توجيهًا للرَّسول أن يذرَ هؤلاء وافتراءاتِهم وأباطيلَهم.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الوذر والتّرك:

الوذرُ الاستغناءُ عنِ الشّيء الّذي لا يُعتدُّ به، والتّركُ أعمُّ منه وأشملُ

وذرَ: يُقال: فلانٌ يَذَرُ الشّيءَ؛ أي: يقذفُه لقلّة اعتدادِه به، ولم يُستعملْ ماضِيه، ووردَ منه المضارع قال تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِنَعۡبُدَ ٱللَّهَ وَحۡدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾ [الأعراف: 70]، والأمرُ كقوله: ﴿وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ﴾ [البقرة: 278] إلى أمثالِه. وتخصيصُه في قوله: ﴿وَيَذَرُونَ أَزۡوَٰجٗا﴾ [البقرة: 234]، ولم يقل: يتركون ويخلّفون، فإنّه يذكرُ فيما بعد هذا الكتابِ إن شاء اللّه. والوَذَرَةُ: قطعةٌ منَ اللّحم، وتسميتُها بذلك لقلّةِ الاعتدادِ بها[1].

تَركُ الشّيء: رفضُه قصدًا واختيارًا، أو قهرًا واضطرارًا، فمنَ الأوّل: ﴿۞وَتَرَكۡنَا بَعۡضَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ يَمُوجُ فِي بَعۡضٖۖ﴾ [الكهف: 99]، ومنَ الثّاني: ﴿كَمۡ تَرَكُواْ مِن جَنَّٰتٖ﴾ [الدّخان: 25]، ومنه: تَركَةُ فلان لمَا يخلِّفه بعد موته، وقد يُقال في كلِّ فعلٍ ينتهي به إلى حالةٍ ما تركتُهُ كذا، أو يجري مجرى جعلته كذا، نحو: تركت فلانًا وحيدًا. فيكون الوذرُ في الأمر الّذي لا يستحقُّ الاعتدادَ بِهِ؛ على خلاف التّرك الّذي يمكن أن يكونَ في الأمور العظيمة، أو الّتي تستحقُّ الاعتدادَ بها.

ومن هنا ناسبَ لفظُ الآية السّياقَ الكريمَ بترك المشركين وعدم الالتفاتِ إليهم؛ لكونِهم لا يستحقّون الاهتمامَ منَ النّبيِّ ﷺ، لمَا اتّصفوا به منَ العَمَهِ والمكابرةِ والإصرارِ على كُفرهم.

(1) الرّاغب، المفردات: (وذر).

﴿وَلِتَصۡغَىٰٓ إِلَيۡهِ أَفۡـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ وَلِيَرۡضَوۡهُ وَلِيَقۡتَرِفُواْ مَا هُم مُّقۡتَرِفُونَ ١١٣﴾ [الأنعام: 113]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

بعد أن فضحَتِ الآيةُ السّابقةُ، ما يكون بين شياطين الإنسِ والجنِّ، منَ الإيحاء المُتبادلِ المُتجدّدِ، من زُخرف القولِ وغُروره، جاءَت هذه الآيةُ مُتمّمةً للمعنى، وكاشفةً عمّا ستؤُولُ إليه أحوالُ الّذين يُعادون الأنبياء في الدّنيا، فقال: ﴿وَلِتَصۡغَىٰٓ إِلَيۡهِ أَفۡـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ﴾؛ فللآية تناسبٌ مع ما قبْلَها في كونِ القرآنِ تقنعُ به العقولُ، وتأنسُ لهُ القُلوبُ، ولكنّها تصغى إلى زُخرُف القولِ، فتجعلُ هؤلاء الكفرةَ، يتأبَّونَ على الإيمان، ويقترفُونَ الآثام.

اتِّباعُ وحْيِ الشَّيطانِ صادٌّ عن وحْيِ الرَّحمن، ومُوقِعٌ في العداوةِ، ومُغرِقٌ في الغَوايةِ

فتتناسبُ هذه الآيةِ مع ما قبْلَها، إذ إنّ إصغاءَ قلُوبِهم لزخارفِ الأقاويلِ، وضلالاتِ الأباطيلِ، إنّما هُو نتاجُ العداوةِ الظّاهرةِ والباطنةِ مع كُلِّ نبيٍّ أرسلَه اللّهُ إليهم، ممّا يتبادلونَه وحيًا خفيًّا، ووسوسةً غاويةً، ولكنّها لا تخرجُ عنِ المشيئةِ الإلهيّةِ العُليا، الّتي لا يُعجزُها شيءٌ، ولذلك قال: ﴿وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُۖ فَذَرۡهُمۡ وَمَا يَفۡتَرُونَ﴾.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَلِتَصۡغَىٰٓ﴾: منَ الصَّغَا، والألفُ منقلبةٌ عن واو؛ لأنّ المُضارعَ منها يَصغُو، فلمّا جاءَت مُتحرّكةً بعد فتح، قُلِبَت ألفًا في المُجرّد والمزيد؛ أي: في صَغَى وأَصغَى[1]، والفعل (صَغَى) و(أَصغَى) لازمٌ، لكنّه قد يأتي مُتعدّيًا بهمزة النّقل، وشاهدُ لازمِها:

(1) الصّافي، الجدول في إعراب القرآن: 4/258.

تَرَى السَّفِيهَ بِهِ عَن كُلِّ مُحكمَةٍ *** زَيغٌ وفِيهِ إِلى التَّشبِيهِ إِصغاءُ[1]

وشاهدُ مُتعدّيها قولُ الشّاعر:

أَصاخَ مِن نَبأةٍ أَصغَى لَها أُذُنًا *** صِماخُهَا بِدَخِيسِ الذَّوقِ مَستُورُ[2]

والإصغاءُ: الإمالةُ، ويَصغُو فؤادُه إلى كذا؛ أي: يميلُ، وصَغوُكَ إليه؛ أي: ميلُك، وصَغَتِ النُّجومُ: مالَت للغروبِ، والشَّمسُ صَغواءُ، إذا مَالَت في الغرب، وكلُّ شَيءٍ أملتَه فقد أصغيتَه، وصغيتُ إلى الشّيء أصغَى صغيًا إذا مِلتُ، وصغوتُ أصغُو صغوًا، وأَصغَيتُ إليه: استمعتُ، وصَاغِيَةُ الرَّجُلِ: الَّذِينَ يميلونَ إليهِ ويأتُونه ويَطلُبُون ما عِندَهُ ويَغشَونَه.

ومن معاني (تَصْغَى) الميلُ إلى جهةٍ تكونُ هي محورُ الاهتمام، أو الاستماعُ بعنايةٍ لجهة الصّوت، أو الاشتغالُ بمن يهمُّنا أمرُهم، كما تعني الهوى مع الغيرِ[3].

2) ﴿أَفْـِٔدَةُ﴾: جذرُ الكلمةِ هو (فأد)؛ والفؤادُ كالقلب، ولكن يُقال له فؤادٌ إذا اعتُبر فيه معنى التّفؤّدِ؛ أي: التّوقّد؛ والخشبةُ الّتي يُحرَّكُ بها التّنّورُ مِفأدٌ، قال تعالى: ﴿نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ۝٦ ٱلَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ﴾ [الهُمَزَة: 6-7]. وتخصيصُ الأفئدة تنبيهٌ على فرطِ تأثيرٍ له[4].

وورودُ لفظِ الأفئدةِ في الآية ارتباطٌ مهمٌّ بالتَّفؤد؛ أي: التّوقّد، والطّاقةِ الكبيرةِ في الرّغبة للإصغاء، والميل إلى ذلك الإيحاءِ من شياطين الإنس والجنّ.

3) ﴿وَلِيَقْتَرِفُواْ﴾: جذرُ الكلمة هو (قرف)؛ الفعلُ اقترَفَ؛ أَي: اكتَسب، واقتَرَفَ ذَنبًا؛ أَي: أَتاه وفَعَلَه، وقَرَفَه بِكذا؛ أي: أضافه إليهِ واتَّهَمه بِهِ، وقَرَفَ الشّيءَ: خَلَطَهُ، والمُقَارَفَةُ والقِرَافُ: المخالَطة، والاسمُ القَرَفُ. وقَارَفَ فلانٌ الخَطِيئَةَ؛ أَي: خَالَطَهَا، و(قَارَفَ) الشَّيءَ قاربَه وخالطَه، وأكثرُ ما يكون (قَرَفَ) في الشّرِّ والذُّنُوبِ، ولا تَكونُ المُقَارَفَةُ إِلَّا في الأشياء الدَّنِيَّة[5].

---

(1) الشّاهد غيْر منسوبٍ في كتب التّفسير، ذكره الطبري، جامع البيان: 5/488 - 489، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 7/46، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/620، والسّمين، الدّرّ المصون: 5/120، والشّهريّ، الشّاهد الشّعريّ في تفسير القرآن الكريم، ص: 125، والهرريّ، تفسير حدائق الرّوح والرّيحان: 9/38.

(2) البيت للنّابغة، ديوان النّابغة الذّبيانّي، ص: 157، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/620، والهرريّ، تفسير حدائق الرّوح والرّيحان: 9/38.

(3) الخليل، العين، وابن دريد، جمهرة اللّغة، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن منظور، لسانُ العرب: (صغا).

(4) الجوهريّ، الصّحاح، والرّاغب، المفردات: (فأد).

(5) ابن منظور، لسان العرب، ومجموعة من المؤلفين، المعجم الوسيط: (قرف)، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/207.

ونستخلصُ من معاني لفظِ (يَقتَرِفُ) الاكتسابَ والاقتناءَ، وإتيانَ الشّيء المكروهِ وفعلَهُ، والدّنوَّ منَ الآثام، والتّلبُّسَ بها وارتكابَها، ومن معانيه: التُّهمةُ والبَغيُ، ومن معانيه: اكتسابُ المرض نتيجةَ عدوى؛ لأنّ مَن يميلُ إلى مريض، قد يكتسبُ عدوى منه.

المَعْنى الإِجْماليُّ:

مَن يُهملْ منهجَ الحقِّ يقعْ في مستنقعِ القناعةِ بالباطلِ والتَّجديفِ بالتَّمويهاتِ

يُخبرُ تعالى أنَّ قلوبَ الَّذِينَ لا يُؤمِنونَ بالآخِرَةِ تميلُ إلى ذلك الزُّخرفِ المُغْري، والغُرورِ السّاحرِ الأخّاذ، منَ الأقاويل والأباطيل، وتتقبّلُه وترضى به؛ لتقترفَ الذُّنوبَ المُهلكةَ، والآثامَ المُفسدةَ، غيرَ مُكترثةٍ بعقابٍ يترقّبُها، ولا حسابٍ ينتظرُها، وقد نُسبَ الإصغاءُ إلى الأفئدة؛ لأنّها جوهرُ الإنسانِ، وعمادُ حياتِه، ومصدرُ الإحساسِ والتّفاعُلِ والتّأثُّرِ، فهي تستمعُ إلى ذلك، وتميلُ إلى زينته وغرُوره[1]، فيُوحي بعضُهم إلى بعضٍ زُخرفَ القول؛ تغريرًا بهم، وتوخّيًا لِمَيَلان هذه الأَفئِدَة، من طرف الَّذِينَ لا يُؤمِنونَ بالآخِرةِ؛ لمُؤازرته لهم على أهوائهم، ولِيَرضَوهُ لأنفسهم، بعد ما مالت إليه قلوبُهم، وليكتسبُوا بمُوجب ارتضائِهم له، ما هُم مُقتَرِفونَ منَ الآثام[2]، فيكونُ ذلك منهجًا لحياتهم، فيتلقّونَه ويرضونَه، ويقترفُون ما تأمرُهُم به أهواؤُهُم وشياطينُهُم.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

معنى الواوِ في قولِه تعالى: ﴿وَلِتَصۡغَىٰٓ﴾:

أوّلُ خطواتِ الميلِ إلى الباطلِ الاستماعُ له

أفادتِ الواوُ معنى العطف، فقولُه تعالى: ﴿وَلِتَصۡغَىٰٓ﴾ معطوفٌ على ﴿غُرُورٗاۚ﴾؛ لأنّ ﴿غُرُورٗاۚ﴾ في معنى ليغرُّوهم، فكأنَّه قال: ليغرُّوهم ولتصغى، فعطفَ الميلَ إلى الغُرور على الغُرورِ.

(1) السّمرقنديّ، بحر العلوم: 1/476.
(2) القاسميّ، محاسن التّأويل: 4/471.

نوعُ اللّامِ ومعناها في قولِه تعالى: ﴿وَلِتَصۡغَىٰٓ﴾:

جمعتِ اللّامُ معنى التَّعليلِ والتَّوكيدِ وبيانِ المآلِ

اللّام في قولِه تعالى: ﴿وَلِتَصۡغَىٰٓ﴾ لامُ (كَي)، فيها ثلاثةُ أوجه: الأوّل: لامُ (كَي)، وهي تُفيدُ التّعليلَ والتّوكيدَ، والثّاني: لامُ الصّيرورةِ، وهي لامُ العاقبة كما عند الزّمخشريّ، والثّالث: لامُ القسَم، وقد عقّب السّمينُ الحلبيُّ على قائلِ هذا القول، فقال: "وما قاله غيرُ معروف؛ بل المعروف أنّها لامُ (كَي)، وهي جوابُ قسمٍ محذوفٍ، تقديرُه: (وَاللّهِ لَتَصْغَى)، فوضعَ ﴿وَلِتَصۡغَىٰٓ﴾ مَوْضِعَ (ولتصغينَّ)، فصار جوابُ القسم من قَبيلِ المفردِ، كقولك: (واللّهِ لَيَقُومُ زَيدٌ)[1]، والتّقديرُ: (أُقسِمُ بِاللّهِ لَقيامُ زَيدٍ)، كقولِ الشّاعر:

إِذَا قُلتُ قدني قَالَ بِاللّهِ حَلفَةً *** لِتُغنيَ عَنِّي ذَا إِنَائِكَ أَجمَعَا[2].

وقد وردَت لامُ التّعليلِ في ثلاثةِ مواضعَ من هذه الآية هي: ﴿وَلِتَصۡغَىٰٓ﴾ ﴿وَلِيَرۡضَوۡهُ﴾ ﴿وَلِيَقۡتَرِفُواْ﴾، وهي في الأصل منَ اللّامات الجارّةِ عملًا، فما بعدها يُؤوّلُ بمصدرٍ مجرورٍ باللّام، وهي من جهة المعنى، تفيدُ إلى جانب التّعليل الصّيرورةَ والعاقبةَ، كما ذهب إلى ذلك الزّمخشريُّ"[3].

سرُّ التَّعبيرِ بمُفردةِ ﴿وَلِتَصۡغَىٰٓ﴾:

الإصغاءُ ناتجٌ عن ميلٍ داخليٍّ إلى تلك الإيحاءاتِ الشّيطانيّةِ

عبَّر النَّظمُ بلفظِ ﴿وَلِتَصۡغَىٰٓ﴾ دون أن يقولَ: (ولتميلَ)؛ وذلك لمَا في الإصغاء من معنى الميلِ، ومعنى الاهتمامِ والعنايةِ بالشَّيءِ المُمالِ إليه، بحيثُ يُصبحُ المُصْغي مُعطيًا كاملَ اهتمامِه للمُصغَى إليه، فالميلُ إلى الشّيء واستحبابُه، هو أوّلُ معاني الإصغاءِ، فلولا الميلُ

(1) السّمين الدّرّ المصون: 5/118.

(2) البيت لحريث بن عتّاب الطّائي، وجاء عند ابن هشام، مغني اللّبيب، ص: 278 قولُه: "والجماعة يأبون هذا، ولأنّ القسمَ إنّما يُجاب بالجملة، ويروون لتغنيّ بفتح اللّام ونون التّوكيد، وذلك على لغة فَزارة في حذف آخر الفعل لأجل النّون، إن كان ياء تلي كسرة ... وقدّروا الجوابَ محذوفًا، واللّام متعلّقة به، أي: ليكونن كذا ليرضوكم ولتشربنّ لتغني عنّي "، يُنظر: الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/616، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/626، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/12.

(3) الصّافي، الجدول في إعراب القرآن: 2/389.

والاستحبابُ القلبيُّ، ما نتج الإصغاءُ الحسّيُّ، فإذا مال الفؤادُ إلى ما تُزيّنُه شياطينُ الإنسِ والجنِّ لأوليائِها وقع الإصغاءُ والاستماعُ إليه بعنايةٍ واهتمامٍ ورضى، كقول الشَّاعر[1]:

تَرَى السَّفِيهَ بِهِ عَن كُلِّ مُحكَمَةٍ *** زَيغٌ وفِيهِ إلى التَّشبِيهِ إصغاءُ[2]

فالإصغاءُ له حضورٌ نفسيٌّ داخليٌّ، ومظهرٌ خارجيٌّ تذلُّليٌّ.

نُكتةُ التَّعبيرِ بالمضارِعِ في قولِه تعالى: ﴿وَلِتَصۡغَىٰٓ﴾:

المُتدبّرُ لقولِه: ﴿يَفۡتَرُونَ﴾ وقولِه: ﴿وَلِتَصۡغَىٰٓ﴾ يجدُ مساحاتٍ من معاني الامتزاج المُركّبة بين الّذين يفترُون والّذين يَصْغونَ، لا يفصلُ بينهم إلّا لحظاتُ أنفاسِ وقفةِ التّلاوة، وجاء التَّعبيرُ بالإصغاءِ لبيانِ أنَّ تلك الإيحاءاتِ الشّيطانيةَ تمدُّ المفتريَ في كلِّ وقتٍ وحين، وهو على جميعِ أحوالِه تصغَى جوارحُه وقلبُه وعقلُه ومشاعرُه وأحاسيسُه إلى تلك الإيحاءات الّتي توجِّهُ حياتَه وسلوكيّاتِه.

الإصغاءُ مستمرٌّ بتجدُّدِ الإيحاءِ الشَّيطانيِّ

دلالةُ ترتيبِ الأفعالِ: ﴿وَلِتَصۡغَىٰٓ﴾ ﴿وَلِيَرۡضَوۡهُ﴾ ﴿وَلِيَقۡتَرِفُواْ﴾:

ابتدأتِ الآيةُ بالإصغاء، وتضمّنَت مجموعةً منَ المعاني على الحقيقة والمجاز، وهي تصُبُّ في الانسلاك في سُلّم الصُّعودِ، باقتراف جُملةٍ منَ الأعمال المُتواليةِ المُتصاعدةِ في مقياس الإثمِ والظُّلمِ والعُدوانِ؛ فكانتِ البدايةُ في الإصغاء، ثمّ عطفَ على الإصغاءِ (وليرضوه)؛ ليكونَ الرّضا هو الدّرجةُ الثّانيةُ على سلّم التَّرقّي، ثم النَّتيجةَ الفعليَّةَ الضَّروريّةَ وهي الاقترافُ.

فـنُّ الـتّرقّـي في الـبـاطـلِ يـبـدأُ بالميـلِ فـالـرِّضا فالاقترافِ

(1) لم يُعرفْ قائله، ونُسبَ للإمام الشّافعيّ، والبيت ينتقدُ الجهلاءَ الّذين يحرّفون معاني القرآن والسّنّة بالتّأويلاتِ الباطلةِ، والشّبهاتِ المضلّةِ. يُنظر: ابن جرير، جامع البيان: 504/9.

(2) الشّاهد غيْر منسوبٍ في كتب التّفسير، ذكره الطبري، جامع البيان: 5/488 - 489، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 7/46، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/620، والسّمين، الدّرّ المصون: 5/120، والشّهريّ، الشّاهد الشّعريّ في تفسير القرآن الكريم، ص: 125، والهرريّ، تفسير حدائق الرّوح والرّيحان: 9/38.

نُكتةُ تقديمِ الجارِّ والمجرورِ:

الاهتمامُ والعنايةُ بما تُلقيه الشَّياطينُ منَ الافتراءات

في قولِه تعالى: ﴿وَلِتَصۡغَىٰٓ إِلَيۡهِ أَفۡـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ يظهر تقديمُ شبْهِ الجملة ﴿إِلَيۡهِ﴾ على الفاعل ﴿أَفۡـِٔدَةُ﴾، وغايتُه بيانُ الاهتمام بذلك القول، وإبرازُ مدَى ميلِهم تجاهَه، وكأنّ فيه طاقةً جاذبةً نحوَه، تجعلُ الأفئدةَ تميلُ إليه، والعبارةُ تصوّرُ مشهدَ الاهتمامِ والإنصاتِ والإصغاءِ إلى ما تُوحِيه شياطينُهم منَ الإنس والجنّ، ونستجلِي من معنى الإصغاء، ميلَ تلك الأفئدةِ إلى صُنُوفٍ منَ القول الكاذبِ، والافتراء الأثيم؛ لكونِها بيئةً خصبةً لتمكين تلك الإيحاءاتِ في نفوسهم، والتَّقديمُ يُشيرُ إلى اختصاصِ مَيلِهم عندَ الإصغاءِ بما توحيه تلك الشَّياطينُ من أقوالٍ وافتراءاتٍ.

تعيينُ مَرجِعِ ضميرِ ﴿إِلَيۡهِ﴾:

الإصغاءُ يكون إلى إيحاءِ زخرفِ القولِ أَمَلًا في تحقُّقِه

يرجعُ الضّميرُ في قولِه تعالى: ﴿إِلَيۡهِ﴾ إلى إيحاء شياطينِ الإنسِ والجنِّ من زُخرفِ القولِ، فإيحاءُ الشَّياطين هو إيحاءُ تغريرٍ وإغواءٍ وتلبيسٍ، فإذا التقى معه إصغاءٌ قلبيٌّ اكتملَتِ الدّائرةُ، وتحقَّقتِ الطَّامّةُ.

نُكتةُ الإضمارِ في قولِه تعالى: ﴿وَلِتَصۡغَىٰٓ إِلَيۡهِ﴾:

التّبخيسُ والتّحقيرُ للقول المزخرَفِ فلا قيمةَ لذكره

وردَ سياقُ الآيةِ الكريمةِ بأسلوب الإضمارِ، فلم يقُل: (ولتصغى إلى ما يوسوسُ به بعضهم لبعض)، والوجهُ في هذا التّعبير أنّه وردَ على سبيل التّبخيس والتّحقير للقول المزخرفِ، فلا يستحقُّ إبرازَه وذكرَه في الآية، أو أنَّ الإضمارَ هو للتّوكيدِ والإشارةِ إلى أنَّ القولَ المزخرفَ هو ما يُوحيه الشّياطينُ إلى أعوانهم منَ الإنسِ والجنِّ، فلا يحتاجُ إلى تكرارِه في الآية لوضوحه من سياق الآياتِ.

سرُّ إسنادِ الإصغاءِ إلى ﴿أَفۡـِٔدَةُ﴾ لا إلى ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾:

الأفئدةُ موضعُ جَذوةِ الضّميرِ في الإنسان

إسنادُ الإصغاءِ إلى الأفئدة استعارةٌ؛ إذ شبّه الأفئدةَ بفريقٍ منَ النّاس جمعُوا سمعَهم للإصغاء، فهمًا ووعيًا لما يُوحَى إليهم، وهي

استعارةٌ مَكنيّةٌ تشخيصيّةٌ، حيثُ حُذِفَ المشبّهُ به وصُرِّحَ بالمُشبّه، وهُو لفظُ الأفئدة؛ لبيان قُربِها وامتزاجِها بالوحْيِ المُوحَى إليها، والعبارةُ في عُمومها مجازٌ في الاتّباعِ وقَبُولِ القول[1].

غرضُ التَّعبيرِ بالاسمِ الموصولِ ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ جمعًا:

مُنكرُو الرّسالةِ والرّسول لا يستحقّون الذّكرَ ولا الشُّكرَ

وعبّر بالاسم الموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾ وهي لجماعة الذّكور العقلاء؛ ومفردُه (الّذي) يكون للعاقل وغيرِه[2]، وفائدةُ التّعريفِ بالاسم الموصول إبهامُ ذواتِ المنكِرين على الرّسالةِ والرّسولِ، فوصفُهم بعدم الإيمانِ بالآخرة، ممَّا يدلُّ على خِسّتِهم ودناءتِهم وتعلُّقِهم بالحياة الدّنيا وزينتِها.

فائدةُ التَّعبيرِ بنفْيِ الإيمانِ لا إثباتِ الكُفرِ:

عدمُ الإيمان بالآخرة هو الجامعُ لشياطين الإنس والجنّ إصغاءً ورضًا واقترافًا

قال سُبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ﴾ ولم يقُلْ: (الّذِينَ كَفَرُوا) أو (الّذِين نَافَقُوا)، أو غيرَ ذلك منَ الأوصاف، فجعل عدمَ الإيمانِ هو عنوانُهم، ذلك أنَّه مطلوبٌ منهم أن يؤمنوا، فلمَّا زاغَت قلوبُهم، وصغَت لإيحاءِ الشَّياطين، ذُكِروا بالإيمان المنفيّ لا بالكفرِ، والنَّفيُ يُشيرُ إلى أنَّهم لا يُؤمنون في قابلِ الأيَّام.

فائدةُ ذكرِ قيْدِ ﴿بِٱلۡأٓخِرَةِ﴾ والاقتصارِ عليه:

الآخرةُ هي محطُّ الأعمالِ، ومقرُّ الحسابِ، وأصلُ المعايير

لم يقُل: لا يؤمنون باللّه واليومِ الآخرِ، وإنّما جمعهُم في صفة عدمِ الإيمانِ بالآخرة، وفائدةُ ذلك أنّ كثيرًا منَ النّاس يدُلّون بأفعالهم على عدم الإيمانِ بالآخرة أو الاكتراثِ إلى ما جاءَت به الرّسلُ منَ التّحذير منه لمَا فيه منَ الحسابِ بما كان يفعلُ الإنسانُ، والجزاءِ على ما يفعلُ، والمعنى مُمتدٌّ إلى أن يرثَ اللّهُ الأرضَ ومن عليها، وجعل الإصغاءَ إلى وحْيِ شياطينِ الإنس والجنّ علامةً فارقةً لعدم الإيمانِ بالآخرة، كما جعل عدمَ الإيمان بالآخرة المحورَ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/12.
(2) الأشمونّي، شرح الأشمونّي على ألفيّة ابن مالك: 1/150.

الجامعَ للمُصغين لتلك الإيحاءات، وما أكثرَ أمثلةَ هذا الإصغاءِ في مجتمعاتنا اليوم! فقد تُؤدّي وسائلُ الإعلام مثلًا دورَ الإيحاءِ والعداوةِ لدين الله، وإضلالِ النّاس والكُفر بالله، وغيرِ ذلك من تزيينِ القولِ وزخرفتِه، ويُؤدّي عمومُ النّاس دورَ الإصغاء، فمَن كان مُؤمنًا بالآخرة فلن يرضَى ما فيه من عداوةِ الدّينِ، وفُحْشِ القولِ، وضلالِ الفكرِ، وأمّا الّذين لا يُؤمنون بالآخرة فسوف يرضونَه، ويقترفُون ما هُم مُقترفون.

وعلى العموم فإنّ الاستعمالَ القرآنيَّ للفظ (الآخرة) لم يأتِ مقترنًا مع لفظ الجلالة (الله)، بينما نجدُ اليومَ الآخرَ في غالبه جاء مقترنًا به.

فائدةُ استعمالِ الواوِ بدلَ الفاءِ وفائدة تَكرارِ اللّامِ:

قيامُ المعطوفاتِ مقامَ العللِ المستقلّةِ الدّافعةِ للعملِ القلبيِّ والبدنيِّ

عطفَ النَّظمُ ﴿وَلِيَرْضَوْهُ﴾ على ﴿وَلِتَصْغَىٰٓ﴾، ولمَّا كان الصّغيُ يقتضي الرّضا، فكان مُقتضى الظّاهرِ أن يعطفَ بالفاء، وأن لا تُكرّرَ لامُ التّعليل، فخُولفَ مُقتضَى الظّاهرِ؛ للدّلالة على استقلاله بالتّعليل، فعُطفَ بالواو، وأُعيدَتِ اللاّمُ لتأكيدِ الاستقلال، فيدلُّ على أنَّ صَغيَ أفئدتِهم إليه، ما كان يكفِي لعملِهم به إلّا لأنَّهم رَضُوه[1]، وقيل: إنّ لامَ ﴿وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُواْ﴾ هي لامُ الأمر، وهُو حرفٌ يتضمّنُ التّهديدَ والوعيدَ، كقوله: ﴿ٱعْمَلُواْ مَا شِئْتُمْ﴾.

ثُمّ عطفَ ﴿وَلِيَقْتَرِفُواْ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ﴾ على ﴿وَلِيَرْضَوْهُ﴾ كعطف ﴿وَلِيَرْضَوْهُ﴾ على ﴿وَلِتَصْغَىٰٓ﴾[2]، فيكون الاقترافُ هو الدّرجةَ الأعلى الّتي تحقَّقَت بها أهدافُ الشّياطين كاملةً، في إيقاع النّاس في الضّلال والباطل، وجعلِهم يستمرِئُون المُنكرَ، ويميلُون إليه كُلَّ الميل، حتّى يصيرَ أهلُه مثلَ أهلِهم، ويستمدُّون منهُ المتاعَ، ويرتحلُون معه

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/12.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/12.

أينما رحلَ، ويحلُّون به أينما حلّ، وهكذا فإنّ ترتيبَ المفاعيل في الآية الكريمة في غاية الفصاحةِ؛ لأنّه يكونُ ما يقعُ من (الخِدَاعِ) أوّلًا، فيكون (المَيْلُ)، فيكونُ (الرِّضَا)، فيكونُ (الفِعلُ)، فكأنّ كُلَّ واحدٍ مُسبَّبٌ عمّا قبلَهُ[1]، ولعلّه كلَّه ناشئٌ عن منظومة الإصغاءِ، أو هُو مُنسجمٌ معها على أقلّ تقديرٍ.

نوعُ ﴿مَا﴾ ودلالةُ استعمالِها:

في قولِه تعالى: ﴿مَا هُم مُّقۡتَرِفُونَ﴾ (ما) موصولةٌ، والمعنى: الّذي هم مقترفون منَ الآثام والعداوة؛ لتدلَّ على صفاتِهم الّتي يتّصفون بها، والأفعالِ الّتي يُصرّون عليها، وهي تفيدُ التّبشيعَ والتّشنيعَ لمَا يعملُون، كقولِه تعالى: ﴿فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلۡيَمِّ مَا غَشِيَهُمۡ ٧٨﴾ [طه: 78][2]، والأسلوبُ مُبهَمٌ؛ لإفادة التّشنيعِ لمَا يعملون[3].

تبشيعُ اقترافِ الأباطيلِ والضّلالاتِ والانحرافاتِ حاضرٌ في النَّظمِ الكريمِ

نُكتةُ التَّعبيرِ بالجُملةِ الاسميَّةِ: ﴿هُم مُّقۡتَرِفُونَ﴾:

فائدةُ التّعبيرِ بالجملة الاسميّة الّتي تدلُّ على الثّبات، فقدِ اتّصفَ هؤلاء الّذين لا يؤمنون بالآخرة باقترافهم للآثام، فلم يقُل: "وليقترفوا الآثام"؛ بل قال: ﴿مَا هُم مُّقۡتَرِفُونَ﴾؛ لبيان أنّهم لن يقترفوا شيئًا خارجَ طبائعِهم الّتي أنكرتِ الإيمانَ، فهم سيقترفون الآثامَ لا محالةَ؛ إذ أصبحَت جزءًا من حياتهم وطبائعِهم، وللدّلالةِ على تمكّنهم في ذلك الاقترافِ، وثباتِهم فيه[4]، فتكونُ أعمالُهم مُمتزجةً بالمُنكراتِ والضّلالاتِ والانحرافاتِ.

اقترافُ السيّئاتِ وكسبُ الإثمِ أصيلٌ في القلوبِ المائلةِ للباطلِ

سرُّ استعمالِ مُفردةِ ﴿مُّقۡتَرِفُونَ﴾ دُونَ مُرادِفاتِها:

ورد لفظُ الاقترافِ في قولِه تعالى في سورة الأنعام أيضًا: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡسِبُونَ ٱلۡإِثۡمَ سَيُجۡزَوۡنَ بِمَا كَانُواْ يَقۡتَرِفُونَ ١٢٠﴾ [الأنعام: 120]،

الاقترافُ يختصُّ بالآثامِ الخفيّةِ كالإصغاءِ والرّضا الدّاخليِّ والنّفسيِّ

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/211.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/211، والسّمرقنديّ، بحر العلوم: 1/476.
(3) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 4/211.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/13.

فذكرَ الكسبَ والاقترافَ معًا، وفائدةُ ذلك أنّ الاقترافَ يكون في الآثام الخفيّةِ، مثل الإصغاءِ والرّضا الدّاخليِّ والنّفسيِّ، أمّا الكسبُ فيكونُ في الشّيء الّذي هو مطلبٌ علَنيٌّ لا خفاءَ فيه، فيتحوّلُ الإثمُ الخفيُّ إلى مطلبٍ علَنيٍّ فيكسبون الإثمَ دون تورّعٍ.

جناسُ الاشتقاقِ بين الكلمتين ﴿وَلِيَقۡتَرِفُواْ﴾ و﴿مُّقۡتَرِفُونَ﴾:

بين الكلمتَيْن ﴿وَلِيَقۡتَرِفُواْ﴾ و﴿مُّقۡتَرِفُونَ﴾ جناسُ اشتقاقٍ، فتجانَسَ اللّفظُ والمعنى اشتقاقًا، فيكونُ اقترافُهم مُشتقًّا من طبيعة ما اقترفتْه شياطينُهم، ويكونُ لكلٍّ منهم حصّةٌ في اقتراف السّيّئاتِ والعداوةِ والآثامِ.

اقترافُ الآثامِ الخفيّةِ مُتبادلٌ بين شياطين الإنس والجنّ ومَن تابعهم

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الإصغاءُ والمَيل:

الصّغوُ في اللّغة معناه: الميلُ، والعربُ تقول: أصغَتِ النّاقة، وذلك إذا أمالَت رأسَها إلى الرّجلِ كأنّها تستمعُ شيئًا، فالإصغاء: هو إطراقُ السّمعِ للمتكلّم مع ميل القلبِ لمَا يقول، وأن تُعطيَ أُذنَك لمَن يهمّك كلامُه، فهذا هو الإصغاءُ، وعليه فالإصغاءُ تسمُّعٌ وليس سَمعًا، فالسّمعُ ليس للإنسان اختيارٌ فيه؛ أمّا التّسمّعُ الّذي هو الإصغاء فيسعى إليه السّامع باختياره ويطلبُه.

الإصغاءُ يكونُ في السَّمعِ خاصّةً، والمَيلُ يكون عامًّا في جميعِ الأشياءِ

وأمّا الميلُ فإنّه عامٌّ في كُلِّ شيءٍ، وهو العُدولُ عنِ الوسط إلى أحدِ الجانبينِ، ويُستعمَلُ في الجورِ وضدّه، ويُقال: مِلتُ إلى فلانٍ إذا عاونتُه، قال تعالى: ﴿فَلَا تَمِيلُواْ كُلَّ ٱلۡمَيۡلِ﴾ [النّساء: 129]، وملتُ عليه؛ أي: تحاملتُ عليه، وقوله: ﴿فَيَمِيلُونَ عَلَيۡكُم مَّيۡلَةٗ وَٰحِدَةٗ﴾ [النّساء: 102].

لذلك ناسبتِ اللّفظةُ موضعَها في سياق الآيةِ الكريمةِ؛ دلالةً على طلب التّسمّعِ منَ القلوب الفارغةِ منَ الإيمان للكلامِ المُزَيَّنِ الباطلِ.

الفؤاد والقلب:

الفُؤادُ للوجدانِ والعواطفِ، والقلبُ للإيمانِ والعقائدِ

وردَ في سورة القَصص ما يدلُّ على التّمييز بين القلب والفؤاد في استعمال القرآنِ الكريم، قال تعالى: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝١٠﴾ [القصص: 10]؛ فالفؤادُ مسؤولٌ عمّا توقّدَ منَ المشاعِرِ والوُجدانِ والعَواطِف، وأمّا القَلبُ فينتظمُ مع العَقلِ في منظومةِ التّفكير قال تعالى: ﴿فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ﴾ [الحجّ: 46].

والفؤادُ مشتقٌّ منَ الفأدِ الّذي يعني الشّواءَ، فيقولون: فأدَ اللّحمَ في النّار؛ أي: شواه، ووردَ الفؤادُ في القرآن الكريم مُسْتَنِدًا إلى السّمع والبصر؛ قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝٧٨﴾ [النّحل: 78]؛ ليعبّرَ عن منظومة التّحليلِ والاعتقادِ، فكلمةُ (الفؤاد) تُطلَقُ على إنضاج الشّيءِ؛ فذكرَ الفؤادَ الّذي يختصُّ بالتّحليل وإنضاج الفكرةِ، ممّا يكسبُ الإنسانُ منَ العلومِ بطريق السّمع والبصر، فإن عرضَت فكرةٌ على الإنسان تلقّاها الفؤادُ، فيتعاملُ معها قبولًا ورضًا، أو ردًّا وإنكارًا، حتّى إذا اقتنعَ الإنسانُ بها دخلَت إلى القلب، واستقرَّت، فصارَت عقيدةً راسخةً، فناسب ورودُ اللّفظةِ في سياق الآيةِ الكريمةِ.

الاقتراف والاكتساب:

الاقترافُ للآثامِ الخفيّةِ، والاكتسابُ للآثامِ الظّاهرةِ والمُعلَنةِ

وردَ الاقترافُ والكسبُ في آيةٍ واحدةٍ منَ السّورة نفسِها؛ وهي قولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْسِبُونَ ٱلْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا۟ يَقْتَرِفُونَ ۝١٢٠﴾ [الأنعام: 120]، وكلمة (يقترفون) في هذه الآية امتدادٌ طبيعيٌّ لها، فإصغاءُ الأفئدةِ إثمٌ داخليٌّ خفيٌّ، والرّضا النّفسيّ إثمٌ داخليٌّ خفيٌّ كذلك، ويأتي الاقترافُ متناسبًا ومُنسجمًا مع هذه

الآثام الخفيّةِ، وبواطنِ الآثام الّتي تؤسّسُ لمرحلة الكسْبِ، فجاءَت في الآية اللّاحقة قولُه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡسِبُونَ ٱلۡإِثۡمَ﴾ مقترنةً بالكسب.

والكَسبُ والاقترافُ مُتناسِبَان؛ فالكَسبُ وليدُ الاقترافِ؛ إذ إنّ كسبَ الإثم هو نتيجةٌ لمَا اقترفه الآثمون منَ الآثام الخفيّة الّتي ارتضتْها نفوسُهم، وصغَت إليها أفئدتُهم.

﴿أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَبۡتَغِي حَكَمٗا وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ مُفَصَّلٗاۚ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٞ مِّن رَّبِّكَ بِٱلۡحَقِّۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ ١١٤﴾ [الأنعام: 114]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

التَّقابلُ الضِّدّيُّ بين أولياءِ الشَّيطانِ وعبادِ الرّحمنِ

بعد أن بيَّن اللّهُ في الآياتِ السَّابقةِ سُنَّتَه في أن جعلَ لكلِّ نبيٍّ شياطينَ منَ الإنس والجنّ؛ للصدِّ عن دينِه، واستمالةِ الّذين لا يؤمنون بالآخرةِ، وأثرَ الوحْيِ الشَّيطانيِّ فيهم، انتقلَ للحديثِ عن أثرِ الوحْيِ القُرآنيِّ في الأنبياءِ وأتباعِهم، على طريق المقابلةِ الضِّدّيّةِ بين أولياءِ الشَّيطان وعبادِ الرّحمن، وما يترتّبُ على ذلك منَ الحُكمِ على أولياءِ الشَّيطانِ بالافتراءِ والاقترافِ.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَبۡتَغِي﴾: لفظٌ مُشتقٌّ من بَغَا الشَّيءَ بَغوًا؛ أي: نَظَرَ إليه كَيفَ هو[1]، والباغِي: الطَّالِبُ، وانبَغَى الشّيءُ: تَيَسَّرَ، وتَسَهَّلَ[2]، والدَّمُ بَغَا: هاج[3]، وبغى الشَّيْءَ ما كان خيرًا أو شرًّا، وانطلقُوا بُغيانًا؛ أي: ناشدين مُطالِبين[4]، وفي التّنزيل: ﴿يَبۡغُونَكُمُ ٱلۡفِتۡنَةَ وَفِيكُمۡ سَمَّٰعُونَ لَهُمۡۗ﴾ [التّوبة: 47]؛ أي: يبغُونَ لكُم. والمعنى في الآية: ﴿أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَبۡتَغِي حَكَمٗا﴾؛ أي: أغيرَ اللّه أطلبُ حَكمًا وأرضاه؟

2) ﴿حَكَمٗا﴾: جذرُ الكلمةِ هو (حَكَم)؛ الحَكَمُ: اللّهُ تعالى، ومن صفات اللّه تعالى: الحَكَمُ والحَكِيمُ والحَاكِمُ[5]، والحُكمُ: العِلمُ

(1) الزّبيديّ، تاج العروس: (بغي).
(2) الفيروزآباديّ، القاموس المحيط: (بغي).
(3) مجموعة من المؤلفين، المعجم الوسيط: (بغي).
(4) ابن منظور، لسان العرب: (بغا).
(5) ابن منظور، لسان العرب: (حكم).

والفقهُ والقضاءُ بالعدلِ، والحاكمُ مُنفِّذُ الحُكم، والجمعُ حُكّام، وهو الحَكَمُ[1]، والحَكَمُ: الحاكمُ المُتخصّصُ بالحُكم الَّذي لا يُنقضُ حُكمُه، فهو أخصُّ منَ الحاكم، ولذلك كان من أسمائه تعالى: الحَكَمُ، ولم يكُنْ منها: الحَاكِمُ[2].

3) ﴿مُفَصَّلًا﴾: جذرُ الكلمةِ هو (فصل)؛ التّفصيلُ لهُ معنيان، الأوّل: تفصيلُ آياته بالفَواصل، والثّاني بمعنى: أنّنا فَصَّلنَاهُ؛ أي: بيّناهُ، وحُمِلَ عليهما قولُه ﷻ: ﴿ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ﴾[3]، وسُمّي المُفصّلُ مُفصّلًا، لقِصَرِ أعدادِ سُوَرِه في الآي. وفَصَّل الثّوبَ: قطّعهُ على قَدِّ صاحبه، بقصدِ خِياطَتِه. وفصَّلَ الكتابَ: جعلهُ فُصُولًا مُتَمايِزَةً[4].

ومعنى التّفصيل: تبيينُ المعاني بما ينفي التّخليطَ المُعَمِّيَ للمعنى، وينفي أيضًا التّداخلَ الّذي يوجبُ نقصانَ البيان عنِ المعنى، وذلك بالآيات الّتي تفصلُ المعاني بعضَها من بعض[5].

ومعنى: ﴿مُفَصَّلًا﴾: مُوَضَّحًا مُزالَ الإشكال، أو مُفَصَّلًا بالوعد والوعيدِ، أو مُفصَّلًا مُفرَّقًا على حسب المصالح؛ أي: لم يُنزِلْهُ جُملةً واحدةً، أو يقصِدُ أنّهُ بيّنَ فيه الفصلَ بين الحقّ والباطلِ[6].

4) ﴿ٱلْمُمْتَرِينَ﴾: جذرُ الكلمةِ هو (مَرَيَ)، وأصلُه من: مَرَيْتُ النّاقةَ: إذا مسحتُ ضَرعَها للحلْبِ، وتمارى، يتمارى، فهو مُتمارٍ. وتمارَى القومُ: تجادلُوا وتناظرُوا. وتمارَى في الشَّيءِ: امترَى فيه، ارتابَ، شكَّ فيه وتردَّدَ، قال تعالى: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ۝٥٥﴾ [النّجم: 55]. والمِرْيَةُ: التّردّدُ في الأمر، وهو أخصُّ منَ الشّكّ. والمِراءُ أيضًا: منَ الافتراءِ والشّكِّ، ﴿فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا﴾ [الكهف: 23]. وأصلُه في اللّغة الجدالُ، وأن يستخرجَ الرّجلُ من مُناظره كلامًا ومعانيَ الخصومةِ وغيرِها، من مريتُ الشّاة، إذا حلبتُها واستخرجتُ لبنَها[7]، وهذا هو المعنى المُرادُ في الآية، إذ نهى اللّهُ تعالى المؤمنين أن يكونوا منَ الشّاكّين المجادِلين بآيات اللّه تعالى.

(1) ابن منظور، لسان العرب: (حكم).
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/14.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/265.
(4) أحمد مختار عمر، معجم اللّغة العربيّة المعاصرة: (فصل).
(5) الواحديّ، التّفسير البسيط: 8/384.
(6) القاسميّ، محاسن التّأويل: 4/471.
(7) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (مري).

المَعْنى الإجْماليُّ:

مَن أنزلَ الوحيَ مُفصَّلًا بالحقِّ هـو صـاحـبُ الحقِّ في الحكمِ بين العباد

نزلَت هذه الآيةُ في مُشرِكِي قُرَيشٍ، لمَّا قالُوا للرّسول ﷺ: اجعلْ بينَنَا وبينَكَ حَكَمًا من أحبَار اليهود، وإنْ شِئتَ من أسَاقِفَةِ النَّصارَى، ليُخبِرَنا عنكَ بمَا في كِتَابِهِم من أمرِك فنزلَتْ[1]، فجاءَ خطابُ اللّه لنبيّه: قُلْ يا محمّدُ: أغيرَ اللّه أبتغي حَكمًا، فلَقَّنَ اللّهُ رسولَه ﷺ أن يُخاطبَهُم خطابًا كالجَوَاب عن أقوالِهم وتَوَرُّكاتِهم، فيفرّعُ عليها أنّه لا يطلبُ حَكمًا بينهُ وبينهُم غيرَ اللّهِ تعالى[2]، الّذي إليه مرجعُهُم، وأنّهُم إنْ طمعُوا في غير ذلك منهُ، فقد جاؤُوا مُنكَرًا منَ القول وزُورًا، وتقديرُ القول مُتَعيّنٌ، لأنَّ الكلامَ لا يُناسبُ إلاّ أن يكُونَ من قولِ النّبيِّ[3] ﷺ.

واللّهُ سبحانَه الّذي أنزلَ إليكم القرآنَ مبيِّنًا فيه الحُكمَ فيما تختصمون فيه أمرَه ونهيَه بلُغة يعرِفُونها من أمري وأمركم، أو مُفرَّقًا سورةً سورةً، وآيةً آيةً[4]، وبنو إسرائيل الّذين آتاهم اللّهُ التّوراةَ والإنجيلَ يعلمون علْمًا يقينًا أنَّ هذا القرآنَ مُنزَّلٌ عليك - أيّها الرّسولُ - من ربّك بالحقِّ، فلا تكوننَّ منَ الشّاكِّين في شيءٍ ممّا أوحينا إليك، وهُو نهيٌ عنِ الشّكِّ العقائديِّ، بالارتياب في أنّ القرآنَ هُو الحقُّ المُنزَلُ منَ اللّه تعالى، فكان خطابُ اللّه لرسوله واضحًا، وعن طريقه خاطبَ غيرَه منَ المُؤمنين، ممّن عاصرُوا التّنزيلَ، وأراد به أمّتَهُ عُمومًا؛ لأنّ الحاجةَ إلى هذا الخطاب مُتجدّدةٌ، مع مُرُور الزّمانِ، واختلاف المكانِ.

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/212.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/13.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/14.
(4) السّمرقنديّ، بحر العلوم: 1/477.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ تقديرِ القولِ المحذوفِ بدلالةِ قولِه: ﴿أَبْتَغِي﴾:

تمكُّنُ اليقينِ في القلوبِ يقودُها إلى سرعةِ الاستجابةِ وكمالِ الطَّاعةِ

قولُه تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِي﴾ فيه إضمارٌ؛ وتقديرُه: قل لهم يا محمّدُ أفغيرَ الله أَبتَغِي حَكَمًا قاضيًا بيني وبينَكم[1]، وسرُّ ذلك: أنَّ هذا القولَ، وإنْ كان من عند الله ﷻ، هو جديرٌ بأن يقُولَهُ كُلُّ إنسانٍ عاقلٍ، فهُو منَ الوُضوح بحيث لا يحتاجُ إلى أمرٍ سَمَاويٍّ به، يَلْفِتُ إليه، ويُنبّهُ له[2]، ويتجلّى في هذا النّصِ الكريمِ توقّدُ الإيمانِ وروعةُ الاعتزازِ بدين الله سبحانَه، أنّه هو مصدرُ العلمِ، واللهُ هو الحَكَمُ، وهو مَن أنزلَ الكتابَ مُفصَّلًا.

وتظهرُ بلاغةُ الحذفِ في أنَّ مقتضَى العزَّةِ كمالُ الطَّاعة لله تعالى، فإنَّ حذفَ (قل) دالٌّ على سرعةِ استجابةِ المخاطَبِ بذكرِها وعدمِه.

غرَضُ الاستفهامِ في: ﴿أَفَغَيْرَ﴾:

إنكارُ التَّحاكمِ إلى غيرِ اللهِ نفيًا وتوبيخًا وتسفيهًا

وذلك في قولِه تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا﴾، فبعدما فضحَ القرآنُ أمرَ الّذين لا يؤمنون بالآخرة، وكشفَ دواخلَهُم، وما يجولُ في أعماق نفُوسِهم، فذكرَ إصغاءَهم لِمَا يُوحِيه أعداءُ النّبيِّ، وكأنّه قد صار هو الرّاجحُ عندهم، وهُو البديلُ للحقّ في الرّسالات الّتي جاءَ بها الأنبياءُ، جاء الاستفهامُ إنكاريًّا في مطلع الآية: ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا﴾، والإنكارُ هُنا يُفيدُ النّفيَ[3]، ناهيك عمّا يتضمَّنُهُ منَ التّوبيخِ والتّسفيهِ[4].

نُكتةُ تقديمِ ﴿أَفَغَيْرَ﴾ على الفعلِ ﴿أَبْتَغِي﴾:

رأسُ التّوحيدِ وأساسُه ولُحمَتُه إخلاصُ الولايةِ للهِ وحدَه

"أصلُ جملةِ الاستفهامِ: (أَأَبتَغِي غَيرَ اللهِ حَكَمًا)، فقُدِّمَ المفعولُ (غيرَ)؛ لأنّ الإنكارَ مخصُوصٌ بابتغاء (غَيرِ اللهِ)، وليس على عُمُوم

(1) الثّعلبيّ، الكشف والبيان: 4/183.
(2) عبد الكريم الخطيب، التّفسير القرآنّي للقرآن: 4/299.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/211.
(4) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 2/35، والطّيبيّ، فتوح الغيب: 6/219.

الابتغاءِ؛ فقدَّمَهُ لِيَلِي حرفَ الإنكار وهو الهمزةُ"[1]، ونكتتُه بيانُ خلوصِ الولاية للّه الحقِّ في الأمورِ كلِّها، وهذا رأسُ التَّوحيد، ومن مُوجِبَاتِ التّقديم؛ أنّ المُقدّمَ يتضمّنُ جوابًا لردّ طلبٍ طلبَهُ المُخاطَبُ، والفاءُ لتفريع الجوابِ[2].

فائدةُ إضافةِ ﴿أَفَغَيْرَ﴾ إلى لفظِ الجلالةِ:

﴿أَفَغَيْرَ﴾ مضافٌ، ولفظُ الجلالة مضافٌ إليه، و(غير) اسمٌ مُوغِلٌ في التّنكير والإبهام لا يتعرّفُ بالإضافةِ إلى المعرفة[3]؛ وفائدتُه: دخولُ كلِّ من يُرضَى بحُكمِه من دون اللّه تعالى في حُكمِ الإنكار، ومثلُ ذلك قولُه تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِۚ﴾ [الطّور: 43].

الرّضا بغيرِ حُكمِ اللّه مُنكرٌ وباطلٌ

نُكتةُ التَّعبيرِ بالمضارِعِ ﴿أَبْتَغِي﴾ حصرًا دون غيرِه:

أفادَ التّعبيرُ بالفعل المضارع ﴿أَبْتَغِي﴾ معنى التّجدّدِ لفعل الابتغاءِ مع الزّمان، وهذا يتناسبُ مع الحالة النّفسيّةِ للمُبتغي ورغبتِه في البحث عن دينٍ غيرِ دينِ اللّهِ، وحُكمٍ غيرِ حُكمِ اللّهِ، فهو يعكسُ غايةَ كفّار قريشٍ في الصّدِّ عن دين اللّه والبحثِ المتواصلِ عن أساليبَ تصدُّ النّاسَ عن الإيمان، فأفادَ المضارعُ ذلك التّجدّدَ والاستمرارَ فيه، فجاءَ التّعبيرُ القرآنيُّ باستفهامٍ إنكاريٍّ رافضٍ لمَا يبتغيه المُعاندون الكافرون.

من طلبَ غيرَ اللّه حَكمًا فقدِ ابتغَى مُنكرًا منَ الفعلِ وزُورًا

سرُّ التَّعبيرِ بصيغةِ: ﴿حَكَمًا﴾ لا حاكِمًا:

الحَكَمُ أبلغُ منَ الحاكم، وأدلُّ على الرّسوخ، لأنّه لا يُطلَقُ إلّا على العادل، وعلى مَن تكرّرَ منه الحُكمُ، بخلاف الحاكم[4]، والفرقُ بينهما أنّ الحَكَمَ لا يَحكُمُ إلّا بالحقّ، والحاكمُ يحكمُ بالحقّ وبغير الحقّ، والحَكَمُ صيغةٌ للعدلِ منَ الحُكّام، والحاكمُ جارٍ على الفعل،

حُكمُ اللّه هو الحقُّ والعدلُ وما خلا ذلك فباطلٌ وظلمٌ وهوًى

(1) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 2/35.
(2) البغويّ، تفسير البغويّ: 2/153.
(3) ابن يعيش، شرح ابن يعيش: 2/125، والرّضي، شرح الرّضي على الكافية: 1/300.
(4) القاسميّ، محاسن التّأويل: 4/471.

وقد يُقال للجائر[1]، ففيه بيانٌ واضحٌ أنَّ الحَكَمَ هو اللّهُ تعالى وحدَه، فهو الّذي يحكمُ بالحقِّ دون الباطل، وبالعدل دون الظُّلم، وفيه كذلك الإشارةُ إلى أنَّ حكمَ اللّه هو الحقُّ والعدلُ، وأنّه لا يجوزُ تجاوزُه أو تعدِّيه، وأنّه لا حُكمَ آخرَ غيرَ حكمِه يستحقُّ المطالبةَ به أو التّسليمَ له، وفيه تعريضٌ بمَن يحكمُون بغير ما أنزل اللّهُ بأنَّهم يَحكمُون بالباطلِ والظّلم والهوَى.

بلاغةُ مَوقِعِ جُملةِ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ﴾:

زيـادةُ الإنـكـارِ عـلى المفـتريـن، وبيانُ أنَّ القرآنَ بإعجازه مُغْنٍ عن سائرِ الآياتِ

قولُه تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ مُفَصَّلًاۚ﴾ "جملةٌ حاليّةٌ مُؤكَّدةٌ لإنكارِ ابتغاءِ غيرِه تعالى حكمًا، ونسبةُ الإنزالِ إليهم خاصّةً مع أنّ مقتضى المقامِ إظهارُ تساوي نسبتِه إلى المتحاكِمين لاستمالتِهم نحوَ المُنزَل واستنزالِهم إلى قَبول حكمِه بإبهامِ قوّةِ نسبتِه إليهم"[2]، وفيه تنبيهٌ على أنّ القرآنَ بإعجازه وتقريرِه مغنٍ عن سائر الآياتِ[3].

دلالةُ القَصْرِ في قولِه تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ﴾:

إنـزالُ الـكـتـابِ مـن عـنـد الـلـهِ يقتضِي أن يكونَ مُـعـجِـزًا، ومَـن نَزلَ عليه صادِقًا

وفي عبارةِ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ مُفَصَّلًاۚ﴾ قصرٌ[4]؛ والمعنى: أنّه أنزلَ إليكمُ الكتابَ ولم يُنزِلْهُ غيرُه، ونُكتةُ ذلك أنّ في القرآن دلالةً على أنّه من عند اللّه، بما فيه منَ الإعجاز، وبأُمِّيَّةِ المُنزَّلِ عليه، وأنّ فيه دلالةً على صدق الرّسول ﷺ، تَبَعًا لثُبوت كونِه مُنزَّلًا من عند اللّهِ، فإنَّه قد أخبر أنَّه أرسلَ محمّدًا ﷺ للنّاس كافَّةً، وفي تضاعيف حُججِ القرآنِ وأخبارِه دلالةٌ على صدقِ مَن جاءَ به؛ فحصَلَ بصَوغ جُملةِ الحالِ على صيغةِ القصرِ الدّلالةُ على الأمرين: أنَّهُ مِن عند اللّه، والحُكمِ للرّسُول الأكرم ﷺ بالصّدق[5].

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/212.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/176.
(3) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 2/178.
(4) يقول القَزوينيّ: "القصرُ في اللّغة الحبس، وفي الاصطلاح تخصيصُ شيءٍ، صفة أو موصوف، بشيء موصوف أو صفة، بطريق مخصوص". يُنظر: القزوينيّ، الإيضاح في علوم البلاغة: 3/5.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/15.

فائدةُ التَّعبيرِ باستعمالِ حرفِ (إلى) لا (على):

الرّفقُ والمؤانسةُ مِن استمالةِ المُخاطَبين نحوَ المُنزَّلِ إليهم هو مقصودُ سياقِ الآيةِ

في قولِه تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيۡكُمُ﴾ عُدِّي فعلُ الإنزالِ بحرف (إلى) لإفادةِ الرِّفقِ والمؤانسةِ، ولو جاء بحرف (على) لأفادَ مبالغةً[1]، وهذه المبالغةُ لا تصلحُ مع مَن أَنزلَ عليهمُ الكتابَ منَ الرُّسلِ، ولا يكونُ الخطابُ بها لعموم النّاس، ولذلك كانت تَعْدِيَتُهُ بالحرف (إلى)؛ لأنّها كانَت مطلبًا لهم، فاختار السّياقُ الحرفَ (إِلَى) لمَا فيه منَ الرّفقِ والمُؤانسةِ، أمّا لو جاء التّعبيرُ بـ (عَلَى) لأفاد الهيمنةَ والقُوّةَ والمبالغةَ؛ ولم يُفدِ المعنى المُراد منِ استمالة المُخاطَبين نحوَ المُنزَّلِ إليهم، فجاء الحرفُ مُناسِبًا للسِّياق الواردِ فيه.

نُكتةُ التَّعبيرِ بصيغةِ ﴿أَنزَلَ﴾ لا (نَزَّلَ):

الإشارةُ إلى اكتمالِ القرآنِ الكريمِ، وأنَّ حكمَ اللهِ يُعلَمُ من كلِّه لا من أجزائِه

آثرَ النَّظمُ استعمالَ الإنزالِ لا التَّنزيل فقال: ﴿أَنزَلَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ مُفَصَّلًاۚ﴾؛ لأنَّ المرادَ الإنزالُ دُفعةً واحدةً، فأُريدَ بقولِه: ﴿أَنزَلَ إِلَيۡكُمُ﴾ كتابًا كاملًا، وقال الجُرجانيُّ: "الإنزالُ يُستعملُ في الدُّفعةِ، والتّنزيلُ يُستعملُ في التّدريجِ"[2]. وقال الرّاغبُ الأصفهانيُّ: "التّنزيلُ يختصُّ بالموضعِ الّذي يُشيرُ إليه إنزالُه مُفرَّقًا، ومرّةً بعد أخرى، والإنزالُ عامٌّ"[3]، فواضحٌ بأنّ بين اللّفظتين فرقًا، وأنّ التّعبيرَ القرآنيَّ بلفظ (أنزل) يأتي عمَّا نزلَ منه دُفعةً واحدةً، وما نزلَ مُفرَّقًا مُنجَّمًا يأتي بلفظ (نزّل)، ولمَّا كان سياقُ الآيات مُتحدِّثًا عن حُكم اللّه بالحقِّ والعدلِ، حسُنَ التَّعبيرُ بالإنزال؛ لأنَّ حكمَ اللّه لا يُعرَفُ من آيةٍ وحدَها، بل يُعرفُ منَ الكتابِ كلِّه، وفيه إشارةٌ إلى اكتمالِه وتَمامِه.

(1) القُونويّ، حاشية على البيضاويّ: 8/238.
(2) الجرجانّي، التّعريفات، ص: 73.
(3) الرّاغب، المفردات: (نزل)، والفيروزآباديّ، القاموس المحيط: 5/40.

نُكتةُ تقديمِ الجارِّ والمجرورِ ﴿إِلَيۡكُمۡ﴾ على المفعولِ ﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾:

إشعارُ المؤمنين بعظيمِ ما خصَّهمُ اللهُ به من إنزالِ الكتابِ والحثُّ على الثّباتِ في الدِّين

تقديمُ الجارِّ والمجرور ﴿إِلَيۡكُمۡ﴾ أفادَ الاختصاصَ؛ وفي ذلك إشعارٌ بعظيمِ ما خصّ اللّهُ به المُخاطَبين، وتهييجٌ لمشاعرِهم، وتحريكٌ للإيمان في قلوبهم، وقال الزّمخشريُّ: "هذا من بابِ الإلهابِ والبعثِ للسّامعين على الثّباتِ في الدِّينِ والتّصلُّبِ فيه"[1].

غرضُ تخصيصِ المُخاطَبين بكونِ الكتابِ نازلًا إليهم:

خطابُ المشركين بإنزال الكتابِ إليهم تسجيلٌ عليهم وإشعارٌ لهم بعظيمِ المسؤوليّةِ

في قولِه تعالى: ﴿إِلَيۡكُمۡ﴾ جاء غرضُ تخصيصِ المخاطَبين بنزول الكتابِ إليهم؛ لبيان عظيمِ فضْلِ اللّهِ عليهم، وإشعارِهم بعظيمِ المسؤوليّةِ تجاهَ تلك النّعمةِ، وتجاهَ ذلك الكتابِ المُفصَّلِ فيه كلُّ شيءٍ من أمور دينِهم، وما تضمّنَه منَ الهدايةِ، والضّميرُ في ﴿إِلَيۡكُمۡ﴾ خطابٌ للمشركين، فإنّ القرآنَ أُنزِلَ إلى النّاس كُلِّهم للاهتداء به، وفي قولِه: ﴿إِلَيۡكُمۡ﴾ هُنا تسجيلٌ عليهم، بأنَّه قد بلَغَهم فلا يستطيعون تجاهُلًا لذلك[2]، كأنَّه قال: أنزلَ إليكم الكتابَ لهدايتِكم وإنقاذِكم وتشريفِكم وإكرامِكم فاعتبرُوا بذلك كي تكونُوا منَ المعتَبرين.

معنى التَّعريفِ في قولِه تعالى: ﴿إِلَيۡكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ﴾:

العهديّةُ في تعريف الكتابِ؛ فيها بيانٌ أنّه هو المُفصَّلُ فيه كلُّ شيءٍ

التّعريفُ بـ (أل) في قولِه تعالى: ﴿أَنزَلَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ المرادُ منه (أل) العهديّةُ؛ للدّلالةِ على شيءٍ معروفٍ معهودٍ لدى المخاطَبين، وقصدَ به في الآية القرآنَ الكريمَ لا جنسَ الكتابِ، فالتّعريفُ أفادَ كتابًا واحدًا وهو ما أُنزِلَ على محمّدٍ ﷺ؛ لأنّ السّياقَ يقتضِي ذلك؛ إذ جاءَ الخطابُ ليبيّنَ أنّ ما في أيديهم منَ الكتاب هو المُفصَّلُ فيه كلُّ شيءٍ، وهو حُجّةٌ عليهم.

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/402.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/15.

سرُّ إيثارِ لَفظِ ﴿إِلَيۡكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ على غَيرِه منَ الأوصافِ:

التّعريضُ بتناقُضِ المشركين، والإيماءُ إلى حفْظِ القرآن بوسيلةِ الكتابةِ إعجازٌ غيبيٌّ

آثرَ ذكرَ الكتابِ دون القرآنِ أو الفرقانِ لمعرفة المُخاطَبين السّابقةِ بأنّ ما ينزلُ منَ الرّسالات السّماويّةِ إنّما هو (كتابٌ) من عند اللّه، وللإشعار بأنَّه سيُكتبُ ويُحفظُ وسيكونُ ثابتًا، فإنَّ المكتوبَ أثبتُ منَ المقروء، وتذكيرًا لهم بما صدرَ على لسانِهم، قال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلۡكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيۡنِ مِن قَبۡلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمۡ لَغَٰفِلِينَ ١٥٦﴾ [الأنعام: 156]؛ والكتابُ في آية الأنعام الأخيرةِ التّوراةُ والإنجيلُ، والطّائفتان هما: اليهودُ والنّصارَى، فذكّرهم بما قالوه؛ وتمنِّيهم أن يُنزِّلَ عليهم الكتابَ كما تنزّلَ على طائفتين من قبلِهم، وهمُ اليهودُ والنّصارى، ولئلّا يقولَ كفّارُ العربِ: إنّما أُنزلَ الكتابُ منَ السّماء على اليهودِ والنّصارَى، وقد كنّا عن قراءة كُتبِهم في شُغلٍ، ونحن ليس لنا بها علمٌ ولا معرفةٌ، وفيه إشارةٌ إلى التّعريض بتناقُضِهم في كلا الموقفَيْن.

تعيينُ نوعِ الواوِ لجُملةِ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ﴾:

الواوُ في جملةِ ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ استئنافيّةٌ، والجملةُ لا محلَّ لها منَ الإعراب، وجملةُ ﴿ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ لا محلَّ لها؛ لأنَّها صِلةُ الموصولِ (الّذين)[1].

سرُّ التّعبيرِ بالاسْمِ الموصولِ ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ﴾:

المقصودُ بصِلةِ الموصولِ أحبارُ اليهودِ

عبّر بالاسْمِ الموصولِ في قولِه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ﴾؛ لبيانِ عظيمِ ما آتى اللّهُ تعالى هؤلاء القومَ، فقد آتاهُمُ الكتابَ الشّاملَ على علم الغيبِ؛ فناسبَ أن يقولَ بعدَها: ﴿يَعۡلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٞ مِّن رَّبِّكَ بِٱلۡحَقِّۖ﴾، ولغرض الإبهامِ بالذّواتِ عنِ السّامعين؛ فيُذكرُ بِصِلَةٍ يعرفُها المُخاطَبون؛ إبرازًا لتلك الصِّفَةِ واهتمامًا بها.

(1) الصّافي، الجدول في إعراب القرآن: 8/259.

وقدِ اختلفَ المفسِّرون في تعيين المرادِ في قولِه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ﴾، هل هم أهلُ الكتابِ منَ اليهود والنّصارى؟ أو مَن أسلمَ منهم؟ أو المقرّبون منَ الصّحابة كأبي بكرٍ وعمرَ؟

قال ابنُ عاشور: والمرادُ بالّذين آتاهم اللّهُ الكتابَ: أحبارُ اليهودِ؛ لأنّ الكتابَ هو التّوراةُ المعروفُ عند عامّةِ العربِ، وخاصّةً أهلُ مكّةَ؛ لتردُّدِ اليّهودِ عليها في التّجارة، ولتردُّدِ أهلِ مكّةَ على منازل اليهود بيثربَ وقُراها؛ ولكون المقصودِ بهذا الحكم أحبارَ اليهودِ خاصَّةً؛ قال: ﴿ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ ولم يقُل: أهلَ الكتابِ[1].

غرضُ إسنادِ فعْلِ الإيتاءِ إلى ضميرِ العظَمةِ:

تعظيمُ شأنِ الكتابِ الّذي آتاهم اللهُ

قال: ﴿ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ﴾، ولم يقُل: (أُوتوا الكتاب)؛ عنايةً بما هم فيه منَ الفضل والخيرِ، فأسند الإيتاءَ إلى ضمير العظَمةِ المتكلِّم (نا) عادًّا جهةَ التّكلُّم كالجماعة[2]، ولتعظيم شأنِ ما آتاهم اللّهُ وهو الكتابُ؛ فمصدرُه عظيمٌ كلَّ العظمةِ، عالمٌ بكلّ شيءٍ، فكان الكتابُ مصدرًا للعلم والفهم باعتبارِ مصدرِه الّذي أنزلَه سبحانَه، ولوصْفِهم بأنّهم يعلمون علمًا يقينًا أنَّ هذا القرآنَ مُنزَّلٌ عليك - أيّها الرّسول - من ربّك بالحقّ؛ فلذلك كلُّ مَوضِعٍ ذكرَ في وصف الكتابِ (آتينا) فهو أبلغُ من كلِّ موضعٍ ذكر فيه (أوتوا)؛ لأنّ (أوتوا) قد يُقال إذا أُوتِي مَن لم يكنْ منه قبَولٌ، و﴿ءَاتَيۡنَٰهُمُ﴾ يُقالُ فيمَن كانَ منه قَبولٌ[3].

فنُّ الجناسِ التّامِّ في لفظ ﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾:

الإيماءُ إلى وحدةِ الكُتبِ السّماويّةِ مصدرًا وغايةً

بينَ لفظِ (الْكِتَابَ) الأوّلِ في قولِه تعالى: ﴿أَنزَلَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ﴾، والثّاني في قولِه: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ جِناسٌ تامٌّ؛ لأنّ الأوّلَ بمعنى القرآنِ الكريمِ مُنفردًا، والثّاني بمعنى مجمُوعِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/8أ.
(2) الرّضّي، تلخيص البيان: 2/8.
(3) الرّاغب، المفردات: (أتى).

الكُتبِ السّماويّةِ الّتي سبقَتِ القرآنَ الكريمَ مُجتمعةً على قولٍ، أو التَّوراةِ على قولٍ آخرَ[1]، فجعلهُما في مُسَمًّى واحدٍ؛ ليُخبرَهُم أنّ مَن يُنكرُ القرآنَ، فقد أنكرَ الكُتبَ كلَّها التّوراةَ والإنجيلَ والقرآنَ.

فائدةُ مَجيءِ ﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾ اسمًا للقُرآنِ والتَّوراةِ والإنجيلِ في سياقٍ واحد:

بين القرآنِ والتّوراةِ والإنجيلِ مجانسةٌ تقتضِي الاشتراكَ في الحقيقةِ والنّزولِ

لبيان أنّ المصدرَ لجميعِ الكتبِ واحدٌ؛ وردًّا على ما يتحجَّجُون في قولِهم: ﴿إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلۡكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيۡنِ مِن قَبۡلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمۡ لَغَٰفِلِينَ ١٥٦ أَوۡ تَقُولُواْ لَوۡ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا ٱلۡكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهۡدَىٰ مِنۡهُمۡۚ فَقَدۡ جَآءَكُم بَيِّنَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾؛ فأورد الكتابَ في آيةٍ واحدةٍ بمعنيين، وهذا من قبيل المشتركِ اللّفظيِّ، فقال في الأُولى: ﴿أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَبۡتَغِي حَكَمٗا وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ مُفَصَّلٗاۚ﴾، والكتابُ هنا (القرآنُ)، ثمّ أتبعها بالثّانية فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٞ مِّن رَّبِّكَ بِٱلۡحَقِّۖ﴾، والكتابُ هنا التّوراةُ على القولِ بأنَّ المقصودَ بالاسمِ الموصولِ اليهودُ، أو أنّ "المرادَ بالكتاب التّوراةُ والإنجيلُ، والتّعبيرُ عنهما بذلك للإيماءِ إلى ما بينهما وبين القرآن منَ المُجانسةِ المُقتضيةِ للاشتراكِ في الحَقِيَّة والنُّزُولِ من عنده تعالى مع ما فيه من الإيجاز"[2].

دلالةُ حرْفِ العطفِ:

عطفَ الكلامَ المسندَ إلى الله على الكلامِ المسندِ إلى النّبيّ تعضيدًا له

جُملةُ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٞ مِّن رَّبِّكَ بِٱلۡحَقِّۖ﴾ معطوفةٌ على جُملة ﴿أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَبۡتَغِي حَكَمٗا﴾، أو على جُملة ﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ﴾، فهُو عطفُ تلقينٍ، عُطِفَ به الكلامُ المنسُوبُ إلى اللّه، على الكلام المنسُوبِ إلى النّبيِّ المُرسَلِ ﷺ؛ تعضيدًا لمَا اشتملَ عليه الكلامُ المنسُوبُ إلى النّبيِّ ﷺ، من كوْنِ القرآنِ حقًّا، وأنّه من عند اللّه[3].

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/336.
(2) الآلوسّي، روح المعاني: 4/255.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/16.

بلاغةُ الالتفاتِ الضَّمائِريِّ:

الرّسالةُ المحمّديّةُ كانَت شاخصةً أمامَ أحبارِ اليهودِ في كُتبِهم

وبين قولِه تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ﴾ و﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ التفاتٌ ضمائريٌّ: ففي الأُولى تحدّثَ اللّهُ عن ذاته سُبحانَه بصيغة الغيبةِ بالفعل الماضي، فقال: ﴿ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ﴾، ثُمّ التفتَ في الثّانية إلى صيغة المتكلّم، فقال: ﴿ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ﴾، وفيه من زيادةِ الشّهادةِ وتوكِيدِها على الّذينَ آتاهُم التّوراةَ، من أحبار اليهودِ، وتذكيرِهم بها، وفي التّوراة كثيرٌ من دلائل صدقِ الرّسالةِ المحمّديّةِ، فجاء ضميرُ الحاضرِ ليشهدَ عليهم بذلك، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ﴾، ولم يقُل: (أَهْلَ الْكِتَابِ).

نُكتةُ مَجيءِ المُسنَدِ خبرًا فعليًّا ﴿يَعۡلَمُونَ﴾:

تجدّدُ علومِ القرآنِ مع الزّمن دليلُ إعجازِه

وظيفةُ الجملةِ الفعليّةِ التّعبيرُ عنِ الأحداث المرتبطةِ بالزّمن؛ وفائدتُها تدلُّ على تجدّدِ الحدثِ مع الزّمن؛ وفي الآية قولُه تعالى: ﴿يَعۡلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٞ مِّن رَّبِّكَ بِٱلۡحَقِّۖ﴾؛ أنّ لديهم علمًا بأنّ القرآنَ حقٌّ، وهو مُنزَّلٌ على رسول اللّهِ بالحقّ، لمَا استَحصَلُوه من كتاب اللّهِ تعالى منَ العلم، ولكنّ هذا العلمَ لديهم مُتجدّدٌ، فيزدادُون علمًا ورسوخًا وأدلّةً على صدقِ القرآن، وأنّه من عند اللّه تعالى. وهذا من قَبيل إعجازِ الكتابِ لديهم، والتّوراةُ والإنجيلُ ليست بمعجزةٍ؛ لأنّها تعرّضَتْ للتّحريف والتّبديل فيكونُ الكتابُ هنا هو القُرآنَ الكَريمَ.

ومعنى قولِه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٞ﴾، أنَّهم يجدُونه مُصدِّقًا لما في كتابِهم، ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ﴾، فيهم قولان: **أحدُهما**: أنَّهُم علماءُ أهلِ الكتابَيْن، قاله الجمهورُ، **والثّاني**: رُؤساءُ أصحابِ النّبيِّ محمّد ﷺ، كأبي بكرٍ وعمرَ، وعثمانَ وعليٍّ، وأشباهِهم[1]، وبحسب المعنَى الثّاني، يكون

(1) ابن الجوزيّ، زادُ المسير: 2/69.

الكتابُ هو القرآنُ، ويكونُ تكرارُ الكتاب، حسبَ هذا المعنى توكيدًا لمعاني الإيمان بهذا الكتابِ.

غرَضُ التَّأكيدِ في قولِه تعالى: ﴿أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ﴾:

التّوكيدُ في الأسلوب الخبريِّ في قوله تعالى: ﴿أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلۡحَقِّۖ﴾ لغرض إثباتِ ما أنكره المخاطَبُ أو المحكيُّ عنه الخبرُ، إن كان في نفسه شكٌّ من تصديقه، فأحبارُ اليهود كانوا يعلمون ﴿أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلۡحَقِّۖ﴾، ولكنّهم يُشكّكون فيه، ويُنكرون ذلك، فكشفَ القرآنُ الكريمُ في هذه الآية عن شيءٍ من خبايا نفوسِهم، وعلْمِهم بالحقِّ، وإنكارِهم لذلك الحقِّ، بل إنّهم كانوا يُنكرون القرآنَ صراحةً أنّه كتابُ اللّه المُنزَّلُ على محمّدٍ ﷺ؛ لأنّ ذلك يستدعي إيمانَهم به.

الكشفُ عمّا يجولُ في نفوس أحبارِ اليهودِ من إنكارِ الحقِّ

توجيهُ القِراءاتِ القُرآنيَّةِ في قولِه تعالى: ﴿مُنَزَّلٌ﴾:

قَرَأَ ابنُ عَامر وحَفصٌ ﴿أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ﴾ بالتَّشديدِ من نزَّل ينزِّل جمعًا بَين اللّغتين؛ لأنَّهُ قد تقدَّم قَولُه تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ مُفَصَّلٗاۚ﴾، وَلم يقُل: (وَهُوَ الَّذي نَزَّل)؛ أي: قولُه: ﴿أَنزَلَ﴾ وقولُه: ﴿مُنَزَّلٌ﴾ جمعٌ بين الإنزال والتَّنزيل، وقرأَ الباقون بالتّخفيف[1].

أهلُ الكتابِ يعلمون أنَّ القرآنَ الّذي ينزلُ نجومًا مفرَّقةً، وسيكتملُ إنزالًا منَ الله

والفرقُ بين القراءتين: أنّ قراءةَ ﴿مُنزَلٌ﴾ بالتّخفيف تفيدُ معنى نزول الكتابِ كلِّه دُفعةً واحدةً، وقراءة ﴿مُنَزَّلٌ﴾ بالتّشديد تفيدُ أنّ هذا القرآنَ الّذي يتلوه رسولُ اللّه عليهم وقتَ تنزّله بحسَب الأحوال والمناسبات هو يأتي من عند اللّه، فالمعنى: أنّ آياتِ القرآنِ الّتي تنزلُ منجَّمةً مفرَّقةً هي من عند اللّهِ سبحانَه، وهم يعلمون ذلك تمامَ المعرفة، فقراءةُ التّشديدِ أشارَت إلى نزولِه مُنجَّمًا، وأخرى التّخفيف أفادَت أنّه سينزلُ مُكتمِلًا من عند اللّه تعالى، وفيه إقامةُ الحجَّةِ عليهم.

(1) أبو زرعة، حجّة القراءات، ص: 268، وابن الجزريّ، النّشر: 2/262.

معنى حرفِ ﴿مِّن﴾ في قولِه تعالى: ﴿مِّن رَّبِّكَ﴾:

بيانُ عظيمِ شأنِ مصدرِ القرآنِ الكريم

معنى ﴿مِّن﴾ لابتداء الغايةِ مجازًا، وهي مُتعلِّقةٌ بـ ﴿مُنَزَّلٌ﴾[1]، أفادَت عظيمَ شأنِ المصدرِ الّذي وردَ منه هذا الكتابُ، وضميرُ ﴿أَنَّهُۥ﴾ عائدٌ إلى الكتاب الّذي في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ وهو القرآنُ، فاللّهُ سبحانَه كذلك المصدرُ الّذي أتى منه كتابُهُم، فليس لهم أن ينكروا هذا القرآنَ.

دلالةُ اختيارِ عُنوانِ الرُّبوبيّةِ في قولِه تعالى: ﴿مِّن رَّبِّكَ﴾:

نزولُ القرآنِ هو من آثار الرّبوبيّةِ وعظيمِ الاحتفاءِ بالرّسول، والتّعريض بمشركي أهلِ الكتابِ

التَّعرُّضُ لعنوان الرّبوبيّةِ للإيذان بأنَّ نزولَ القرآن من آثار الرّبوبيّة[2]، هذا وأنّه في مَطلَعِ الآيةِ ذكرَ أنّ المُنزِلَ هو اللّه، قال: ﴿أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَبۡتَغِي حَكَمٗا وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ مُفَصَّلٗاۚ﴾، وهنا جاء بلفظ الرّبوبيّة؛ إكرامًا للمُخاطَب، وهو رسولُ اللّه ﷺ؛ بيانًا لحفاوة مقام الرّبوبيّةِ بالرّسول والرّسالة وبيانًا لعظيمِ شأنيهما.

وفي اختيار صفةِ الرّبوبيّة تعريضٌ بمشركي أهل الكتاب؛ إذ لا يكفي توحيدُ الرّبوبيّةِ الّذي هو جزءٌ منَ التّوحيد الكاملِ، وهو نوعٌ من أنواعه، فمَن أقرَّ بربوبيّة اللّهِ دون أن يقرَّ بألوهيّته فلا يكفيه ذلك للإيمان، بل لا بدَّ أن يُفرَدَ اللّهُ وحدَه بجميع أنواعِ العبادةِ.

غرضُ إضافةِ لفظِ الرُّبوبيّةِ إلى ضميرِ المخاطَبِ في قولِه تعالى: ﴿مِّن رَّبِّكَ﴾:

تشريفُ الرّسول وتصديقُه وإظهارُ عظيمِ رعايتِه

إضافةُ لفظِ الرُّبوبيّةِ إلى ضميرِ المخاطَبِ وإسنادُه إليه، وهو رسولُ اللّه ﷺ؛ تشريفٌ وتصديقٌ له ﷺ، قال تعالى: ﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشۡهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيۡكَۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلۡمِهِۦۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَشۡهَدُونَۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ١٦٦﴾ [النّساء: 166]، وهي إضافةٌ محضةٌ تفيدُ تعريفًا؛ لأنّ المضافَ إليه معرفةٌ وهو محمّدٌ ﷺ؛ فمِن كافِ الخطابِ عُلمَ أنَّ الرّبَّ،

(1) الآلوسّي، روح المعاني: 4/255.
(2) الآلوسّي، روح المعاني: 4/255.

وهو الّذي أنزلَ الكتابَ مُفصَّلًا من عنده؛ هو ربُّ محمّدٍ ﷺ، وأنّ الرّسالاتِ منه سبحانَه.

معنى الباءِ والتّعريفِ في قولِه تعالى: ﴿بِٱلۡحَقِّۖ﴾:

نـزلَ القرآنُ مُلتبِسًا بالحقّ والصّدْقِ

الباءُ في قولِه ﴿بِٱلۡحَقِّۖ﴾ للمُلابسة؛ أي: مُلابسًا للحقّ؛ لأنّ معاني هذا الكتاب وكلَّ ما اشتمل عليه من وعدٍ ووعيدٍ وإخبارٍ من غيب الماضي والمستقبل يؤكّدُ صدقَه وإعجازَه، ثُمّ عضَّدَ الدّلالةَ - على أنّ القرآنَ حقٌّ - بعلمِ أهلِ الكتابِ أنّهُ حقٌّ، لتصديقِه ما عندهُم، ومُوافقتِه لهُ، وقال لهُ: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ﴾، وهذا من قبيل التّهييجِ والإلهابِ، في أنّ أهلَ الكتاب يعلمُون أنّهُ مُنزَلٌ بالحقّ، والنّبيُّ لا يجبُ أن يُريبَه جُحودُ أكثرهم وكُفرُهم به[1].

دلالةُ الالتفاتِ منَ المتكلّمِ إلى المخاطَب:

خطابُ الرّسولِ ﷺ خطابٌ لأمّته

في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ﴾ التفاتٌ منَ المتكلّم في السّياق السّابق، وهو الرّسولُ ﷺ، في قوله: ﴿أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَبۡتَغِي﴾ إلى المُخاطَب في قوله: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ﴾، لينتقلَ الخطابُ من خُصوص الرّسول، إلى عُموم أمّتِه، فخطابُ الرّسولِ خطابٌ لأمّته، أو هو لكُلِّ سامعٍ من بني آدم، فقد قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا﴾ [سبأ: 28].

ويجوزُ أن يكُونَ قولُهُ: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ﴾ خطابًا لكُلِّ أحدٍ، على معنى أنّه إذا تعاضدتِ الأدلّةُ على صحّته وصدقه، فما ينبَغي أن يمتريَ فيه أحدٌ، وقيل: الخطابُ لرسول اللّه ﷺ يُعدُّ خطابًا لأُمّته[2]، قال القُونويّ: "والمرادُ أنّ الخطابَ للأمّة حَقيقَةً، وإنْ كان للرّسول ﷺ صورةً، وقيل: الخطابُ لكُلّ أحدٍ شاملٌ للرّسول وأمّته، لكنّ المرادَ لازمُهُ مجازًا لا كنايةً، وهو كونُ الأمرِ المذكورِ أعني علمَ أهلِ

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/56 - 57.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/56 - 57.

الكتاب ذلك أو أنّه مُنزَلٌ من ربّك، مقطوعٌ مُتحقِّقٌ، بحيث لا يَشُكُّ فيه ناظرٌ، فلا يَضُرُّ إدراجُه ﷺ في الخطاب"[1].

معنى الفاءِ في قولِه تعالى: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾:

ترتيبُ النَّهيِ على الإخبارِ بقصْدِ الإلهابِ والتَّهييجِ

الفاءُ لترتيب النّهي على الإخبار بعلم أهلِ الكتابِ، أو في أنّه مُنزَّلٌ من ربّك بالحقّ، فليس المرادُ حقيقةَ النّهي له ﷺ عنِ الامتراء في ذلك؛ بل تهييجَه[2] ﷺ، على معنى أنّ الخطابَ لرسول الله ﷺ، أو أرادَ بالخطاب عمومَ النّاس من أمّته ﷺ.

غرضُ النَّهْيِ في قولِه تعالى: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾:

أصلُ الخطابِ أن يكونَ مع معيّن، وقد يُترَكُ لغيرِه

المقصودُ بالممترين في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ (الشّاكّين) في أنّه الحقُّ، وأنّه منَ الله تعالى، خاطب اللهُ نبيَّه بذلك، وأراد به غيرَه منَ المؤمنين لكي لا يشكّوا فيه[3]، فإذا كان النّهيُ للنّبيّ ﷺ فإنّما يكون للتّطمين، وإن كان لعموم النّاس فإنّما يكون توجيهًا لبعضِهم، وتعريضًا بآخرين، كلٌّ حسب ما يُكنُّ قلبُه، وما هو مستقرٌّ في نفسه، ويحتملُ أن يكونَ الخطابُ في الحقيقة للأمّة على طريق التّعريضِ، وأن يكونَ لكلِّ أحدٍ ممّن يُتَصوَّرُ منهُ الامتراءُ؛ لأنّ أصلَ الخطابِ أن يكونَ مع مُعَيَّنٍ، وقد يُترَكُ لغيرِه[4].

بلاغةُ التَّعريضِ في قولِه تعالى: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾:

المبالغةُ في ذمِّ مَن كفرَ وأعرضَ عن ذكرِ الله تعالى

في الجملة تعيينُ المقصودِ بالخطابِ بينَ العُمومِ والخُصوصِ؛ عمومِ النّاسِ، أو خصوصِ النّبيِّ ومَن معه منَ المؤمنين، فقوله تعالى: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾؛ وخطابُ الرّسولِ ﷺ لخطاب الأمّةِ؛ فخاطبَ الخاصَّ وأرادَ العامَّ؛ وهو جميعُ أفرادِ أمّته ﷺ. وقيل:

(1) القونويّ، حاشية على البيضاويّ: 8/245.
(2) السّمرقنديّ، بحر العلوم: 1/477.
(3) الآلوسّي، روح المعاني: 4/255.
(4) الآلوسّي، روح المعاني: 4/255.

الخطابُ لكلّ أحدٍ على معنى أنَّ الأَدلّةَ لمّا تعاضدَت على صحّتِه فلا ينبغي لأحدٍ أن يَمتريَ فيه[1].

وفي هذا النّهي تعريضٌ بمَن تركَ الإيمانَ وكفرَ بالحقِّ؛ أي: إذا كان النَّهيُ على هذه الصُّورة موجَّهًا للنَّبيِّ ومَن معه مِنَ المؤمنين، فكيف بمَن كفرَ؟!

سرُّ التَّعبيرِ بقوله تعالى: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ دونَ (فلا تمترِ):

رفعُ شأنِ النّبيِّ ومَن معه منَ المؤمنين أن يكونُوا في زمرةِ الممترين

قال تعالى: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ ولم يقُل: (فلا تمترِ)؛ لإقرارِ أنَّ هناك ممترين، وأنَّ النَّبيَّ ﷺ بمعزلٍ كونيٍّ أن يكونَ معهم، وفيه بديعُ مدحِه ورفعُ شأنه، وشأنِ المؤمنين أن يكونوا في زمرةِ الممترين، أوردَ في الجملة الفعلَ النّاقصَ (تكون) الّذي يدلُّ على الكون، والّذي هو الحصولُ المُطلَقُ، وخبرُه يدلُّ على الكونِ المخصوصِ وهو كونُ الامتراء؛ أي: حصولُه، فجيء أوّلًا بلفظٍ دالٍّ على حصولٍ ما، ثمّ عُيّنَ بالخبرِ ذلك الحاصلُ، فالفائدةُ في إيراد مُطلَقِ الحصول أوّلًا ثمّ تخصيصِه، كالفائدة في ضمير الشّأنِ قبل تعيين الشّأنِ، مع فائدةٍ أخرى؛ هي دلالتُه على تعيين زمانِ ذلك الحصولِ المُقيّدِ[2].

بلاغةُ حذفِ مُتعلّقِ ﴿ٱلْمُمْتَرِينَ﴾، وبلاغةُ التّفريع:

الوجوهُ المحتملةُ في الآية هي من جميل مقاصدِ القرآنِ الكريمِ وتنوّعِ خطابِه للنّاس

الخطابُ في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ يحتملُ أن يكُونَ خطابًا للنّبيِّ ﷺ فيكونَ التّفريعُ على قولِه: ﴿يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ﴾؛ أي: فلا تكُنْ منَ المُمترين في أنَّهُم يعلمُون ذلك، ويُمكنُ أن يكُونَ الخطابُ مُوجَّهًا إلى كُلِّ عاقلٍ، ليعمَّ كلَّ مَن يحتاج إلى مثل هذا الخطاب؛ ألّا يكونَ منَ الشّاكّين في أنَّ هذا القرآنَ حقٌّ، وأنَّه من عند اللّه، فيكونَ التّفريعُ على قولِه: ﴿مُنَزَّلٌ

(1) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 2/179.
(2) الرّضّي، شرح الرّضّي على الكافية: 2/221.

﴿مِّن رَّبِّكَ بِٱلۡحَقِّۖ﴾؛ أي: فهذا أمرٌ قدِ اتّضحَ، فلا تكن منَ الممترين فيه، ويحتملُ أن يكونَ المخاطَبُ الرّسولَ ﷺ، والمقصودُ منَ الكلامِ المشركون الممترون على طريقة التّعريضِ، ويكونَ التّفريعُ على قولِه: ﴿مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلۡحَقِّۖ﴾[1]، وعلى كلّ الوجوه فإنَّ حذفَ مُتعلِّقِ الامتراءِ لظهورِهِ منَ المقام تعويلًا على القَرينةِ، وإذ قد كانَت هذه الوجوهُ الثّلاثةُ غيرَ مُتعارِضة، صحَّ أن يكون جميعُها مقصودًا منَ الآية؛ لتذهبَ أفهامُ السّامعين إلى ما تتوصَّلُ إليه منها[2]. وهذا من مقاصد إيجازِ القرآنِ وخصائصِه وجوامعِ كلمِه وآياتِه، وفيه ما فيه منَ الحذف والإيجاز، مع توسُّعِ المعنى وكمالِه.

دلالةُ التَّوكيدِ في قولِه تعالى: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ﴾:

التّوكيدُ في قولِه تعالى: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ﴾ يدُلُّ على أنّ أهلَ الكتابِ يعلمُون الحقَّ، ولكنّهُم يكفُرُون به ويجحَدُون، والمقصودُ تأكيدُ الخبرِ كقول القائلِ بعدَ الخبرِ: هذا مَا لا شكَّ فيه، فالامتراءُ المنفيُّ هو الامتراءُ في أنّ أهلَ الكتاب يعلمون ذلك؛ إذ منَ المستغرَبِ اجتماعُ علْمِهم وكُفرِهم به[3]؛ بمعنى: هذا أمرٌ قدِ اتّضحَ، والخطابُ المُؤكَّدُ بنُون التّوكيد نبرتُه صاعدةٌ، مع ما يتضمّنُهُ منَ التّحذير والتّخويف؛ لانتفاء الحُجّةِ في الإنكار، وهو خطابٌ للرّسول ﷺ قُصِرَ فيه على مَن عاصره منَ المُشركين، على سبيل التّعريضِ[4].

التّحذيرُ والتّخويفُ منَ التّشكيكِ في قضايا التّشريعِ والرّسالةِ

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الامتراء والشَّكّ والظَّنّ:

الامتراءُ هو استِخراجُ الشُّبَهِ المُشكلةِ، ثمَّ كَثُرَ حتَّى سُمِّي الشَّكُّ

الامتراءُ أدلُّ وأقوى وأخصُّ منَ الشّكّ، والشّكُّ أشدُّ منَ الظّنّ

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 13/123، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/17.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/17.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/17.
(4) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 13/123.

مريةً وامتراءً، وأَصلُه المري؛ وهو استِخراجُ اللَّبن منَ الرّضع، مرى النَّاقةَ يُمريها مريًا، ومنه: ماراه مُماراةً ومِراءً؛ إذا استخرجَ مَا عِنده بالمناظرة، وامترى امتراءً؛ إذا استخرجَ الشُّبَهَ المشكلَةَ من غير حلٍّ لَهَا، المِريَةُ: التّردُّدُ في الأمر، وهو أخصُّ منَ الشَّكِّ[1].

والشَّكُّ: ضدُّ اليَقِين[2]، وقال الرّاغب: الشَّكُّ: اختلافُ النّقيضين عند الإنسان وتساوِيهُما، وذلك قد يكون لوجودِ أمارتَيْن متسَاوِيَتين عندَه في النَّقيضَينِ، أو لعدم الأمارةِ فيهما[3].

والفرقُ بين الشَّكِّ والظَّنِّ: أنَّ الشَّكَّ استواءُ طرفَي التَّجويزِ، والظَّنُّ رجحانُ أحدِ طرفَي التَّجويز، والشَّاكُّ يُجوّزُ كوْنَ ما شكَّ فيه على إحدى الصِّفتين؛ إذ لا دليلَ هناك ولا أمارةَ، ولذلك كان الشَّاكُّ لا يحتاجُ في طلب الشَّكِّ إلى النَّظَرِ، والعلمُ وغالبُ الظَّنِّ يُطلَبان بالنَّظر، وأصلُ الشَّكِّ في العربيّة من قولك شككتُ الشّيءَ؛ إذا جَمَعتَهُ بشيءٍ تُدخِلُهُ فيه، والشّكُّ هو اجتماعُ شيئين في الضّمير، ويجوز أن يُقال: الظَّنُّ قوةُ المعنى في النّفس من غير بلوغ حالِ الثِّقةِ الثَّابتةِ، وليس كذلك الشّكُّ الّذي هو وقوفٌ بين النَّقيضَينِ، من غير تقويةِ أحدِهما على الآخر[4]. فيكون الامتراءُ أقوى منَ الشّكِّ، والشّكُّ أقوَى منَ الظّنّ؛ فناسب إيرادُ لفظِ الامتراءِ في الآية لقوّةِ دلالتِه على المعنى.

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 99، والرّاغب، المفردات: (مرى).

(2) ابن دريد، جمهرة اللّغة: 1/139.

(3) الرّاغب، المفردات: (شكك)، والفيروزآباديّ، القاموس المحيط: 3/332.

(4) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 303.

﴿وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدۡقٗا وَعَدۡلٗاۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ١١٥﴾ [الأنعام: 115]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الصّدقُ والعدلُ والثّباتُ دليلُ تفصيلِ الكتابِ

لمَّا بيَّن في قولِه تعالى: ﴿أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَبۡتَغِي حَكَمٗا وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ مُفَصَّلٗاۚ﴾ إنزالَ الكتابِ مُفصَّلًا، حسُن أن يَذكرَ تمامَ كلمةِ اللّه صدقًا وعدلًا، "فأخبر أنّه لا رادَّ لأمرِه ولا مُعقِّبَ لحُكمِه، تَصريحًا بما أفهَمَ مَطلعُ الآية منَ التَّمَام، وأظهَرَ موضِعَ الإضمارِ تَعميمًا وتبرُّكًا وتلذيذًا، فقال: ﴿لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦۚ﴾؛ أي: من حيثُ إنَّهَا كلماتُهُ مُطلَقًا من غيرِ تخصِيصٍ بنوعٍ ما، بل كُلُّ ما أخبرَتْ به فهُو كائنٌ لا محالةَ، رَضِيَ مَن رضِيَ وسَخِطَ مَن سَخِط"[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَتَمَّتۡ﴾: تمَّ الشّيءُ تمامًا، وقمرٌ تَمامٌ وتِمامٌ، إذا تَمَّ ليلةَ البدر. وليلُ التّمام، هو أطولُ ليلةٍ في السّنة[2]. وتمّم الأمرَ: أتمّهُ وأكملهُ. وتمامُ الشّيء انتهاؤه إلى حدٍّ لا يحتاج إلى شيءٍ خارجٍ عنه، ومنه قولُه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ﴾ [الصّف: 8]، وقولُه: ﴿وَأَتۡمَمۡنَٰهَا بِعَشۡرٖ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرۡبَعِينَ لَيۡلَةٗۚ﴾ [الأعراف: 142][3]، فـ (تَمَّتْ) في هذا الموضع بمعنى كمالِها وانتهائِها إلى حدٍّ لا تحتاجُ إلى شيءٍ خارجٍ عَنْها، واستمرَّت وصحَّت في الأزلِ صدقًا وعدلًا؛ وليس بتمامٍ مِن نقصٍ[4].

2) ﴿كَلِمَةُ رَبِّكَ﴾: قال قَتادةُ: هي القرآنُ، لا مبدِّلَ له، لا يزيدُ فيه المفترون ولا ينقصون. قال الطّبريّ: "سمّاه (كلمة)، كما تقول

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 7/238.
(2) الجوهريّ، الصّحاح: (تمم).
(3) الرّاغب، المفردات: (تمم).
(4) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/337.

العربُ للقصيدة منَ الشّعر يقولُها الشّاعر: (هذه كلمةُ فلان). وقال ابنُ عبّاس: مواعيدُ ربِّكَ، فلا مُغيِّرَ لها. وكلماتُ اللّه: ترجعُ إلى العباراتِ أو إلى المتعلَّقَاتِ منَ الوعدِ والوعيدِ وغيرِهما"[1].

3) ﴿مُبَدِّلَ﴾: جذرُ الكلمة هو (بدل)؛ بدَّلَ يعني نَسَخَ، قال تعالى: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ﴾ [النّحل: 101]؛ أي: نسخْنا، وقولُه تعالى: ﴿أَوْ بَدِّلْهُ ۚ قُلْ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآيِٕ نَفْسِيٓ﴾ [يونس: 15]؛ أي: انسخْه[2]، وهذا هو المعنى المُرادُ في الآية؛ إذ لا أحدَ له أن يُغيّرَ أو ينسخَ أو يمحوَ شيئًا من كلماتِ القرآنِ الكريمِ.

المَعْنى الإجْماليُّ:

تُؤكِّدُ الآيةُ أنّ اللّهَ سبحانَه أعلَمَ رسُولَهُ ﷺ والمُؤمنين؛ بأنَّ هذا الكتابَ تامُّ الدّلالة، تامُّ الحُجّة، على كُلِّ فئةٍ مِنَ المُؤمنين أو الكافرين، صادقُ الوعد والوعيد، عدلٌ في أحكامِه وتشريعاتِه؛ إذ إنّ القرآنَ بلغَ أقصَى ما تبلغُهُ الكُتُب في وُضُوح الدّلالةِ، وبلاغة العبارةِ، وإشاراتِ العلم، ودلالات الغيبِ، وهو الصّادقُ فلا يُعثَرُ في أخباره على ما يُخالفُ الواقعَ، وهو العادلُ فلا يُعثَرُ في أحكامه على ما يُخالفُ الحقَّ؛ فذلك ضربٌ منَ التَّحدّي والاحتجاجِ على أحقّيّة القرآنِ[3]، فلا يستطيعُ أحدٌ أن يبدِّلَ كلماتِه الكاملةَ، حيث حفظَها مُنزِلُها وأحكمَها بأعلى أنواع الصّدقِ، وبغاية الحقِّ، فلا يمكن تغييرُها، ولا يمكن اقْتِراحُ أَحْسَنَ منها[4]، واللّهُ هو السَّمِيعُ بكُلّ ما خفي، ممّا أوحاهُ الشّياطينُ إلى أوليائِهم، العَلِيمُ بهم وبأقوالِهم وأفعالِهم.

القرآنُ الكريمُ تامُّ الدّلالةِ والحُجّةِ، صادقُ الوعدِ والوعيدِ، عدْلُ الحكمِ والتّشريعِ

(1) ابن جرير، جامع البيان: 9/507، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 7/71.
(2) الدّمغانّي، قاموس القرآن، ص: 64.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/20.
(4) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 270.

وتُرشدُ الآيةُ الكريمةُ إلى أنَّ اللّهَ تعالى ناصرٌ رسولَه ﷺ، وأنّ مآلَ عاقبةِ الأمرِ به الصِّدقُ والعَدلُ؛ يعني: أنّها كانَت صِدقًا فيما وعده اللّهُ منَ النّصرِ.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

معنى الواوِ في قولِه تعالى: ﴿وَتَمَّتۡ﴾:

الإخبارُ بتمام الكلمةِ إقامةٌ للحجَّةِ وتثبيتٌ للبرهان

قولُه تعالى: ﴿وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ معطوفٌ على جملة: ﴿أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَبۡتَغِي حَكَمٗا﴾، باعتبار ما في تلك الجُملة من قولِه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ مُفَصَّلٗاۚ﴾، فلمّا وُصِفَ الكتابُ بأنّه مُنزَلٌ منَ اللّه، ثمّ بشهادة عُلماءِ أهلِ الكتاب، بأنَّهُ من عند اللّه، بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٞ مِّن رَّبِّكَ بِٱلۡحَقِّۖ﴾[1]، جاء قولُهُ تعالى: ﴿وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدۡقٗا وَعَدۡلٗاۚ﴾؛ أي: تَمّ كُلُّ ما أخبر به، ﴿صِدۡقٗا وَعَدۡلٗاۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦۚ﴾، على اعتبار أنّهُ لا أحَدَ يُبدِّلُ شيئًا من ذلك، ممّا هُو أصدقُ وأعدلُ[2].

سرُّ استعمالِ ﴿وَتَمَّتۡ﴾ دونَ (كملتْ):

كمالُ كلمةِ الله وصفٌ ذاتيٌّ أزليٌّ، وتمامُها تواصلُ نزولِها دونَ انقطاعٍ

(تَمَّ) الشّيء يتمُّ تمامًا، وتمّمه اللّهُ تَتميمًا وتَتِمَّةً. وتَتِمَّةُ كلِّ شيءٍ ما يكون تمامًا لغايته كقولك: هذه الدّراهِمُ تمامُ هذه المئة، وتَتِمَّةُ هذه المئة[3]. ومعنى تمامِ كلمةِ اللّهِ؛ أي: أنَّها بقيت متّصلةَ النّزولِ حتّى تمّت كمالًا للنَّاس، فهي كاملةٌ أزلًا، فاستمرَّتْ، وصحّتْ في الأزل، صِدقًا وعَدلًا، وليس بتمامٍ من نَقصٍ[4]، فالنَّاسُ لا يعلمون كمالَ كلمةِ اللّه إلَّا بما بلَغَهم منَ الوحي على مدى الزَّمان، فبقيت الكلمةُ تتواصلُ نزولًا، حتّى تمَّت دون أن يكونَ هناك انقطاعٌ حقيقيٌّ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/18.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/57.
(3) الخليل، العين: (تمم).
(4) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/337.

كاملٌ، فالرّسولُ جاءَ مُتمِّمًا للرّسالات السّماويّةِ الّتي قبلَه؛ فلم يجعلْه اللّهُ في عُزلةٍ عنها، فجميعُ الرّسالات مصدرُها واحدٌ هو اللّه تعالى، والإيمانُ بأصول تلك الكُتُب ركنٌ من أركان الدّين؛ ولو قال: (كمالًا) لجعله مُستقلًّا مُنفَصِلًا عمّا جاء في الرّسالاتِ السّابقةِ.

معنى ﴿وَتَمَّتْ﴾ بين الحقيقةِ والمجازِ:

تمامُ الشّيءِ يدلُّ على وفْرةِ أجزائِه أو تحقّقِه

وقد يتردّدُ معنى ﴿وَتَمَّتْ﴾ في أذهاننا بين الحقيقةِ والمجازِ؛ إمَّا بمعنى بُلوغِ الشّيءِ إلى أحسنِ ما يبلُغُه ممّا يُرادُ منهُ، فإنّ التّمامَ حقيقَتُه كونُ الشّيءِ وَافِرًا أَجْزَاءَهُ، والنّقصانُ كونُه فاقدًا بعضَ أجزائِه، فيُستَعارُ لوفرة الصّفاتِ الّتي تُرادُ من نوعِه، وإمّا بمعنى التّحقُّقِ، فقد يُطلَقُ التّمامُ على حصولِ المُنتظَرِ وتحقُّقِه، ويُقال: أتمّ وعدَهُ؛ أي: حقّقَهُ، وقولُه تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ۖ﴾ [الأعراف: 137]؛ أي: ظهرَ وعدُهُ لهُم[1].

نُكتةُ إفراد الكلمة:

كلماتُ الله على كثرتِها لا تناقضَ بينها كالكلمةِ الواحدةِ

قولُه تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًاۚ﴾ جاء إفرادُ لفظِ (كَلِمَة) لتُفضِي إلى معانٍ مُفيدةٍ:

الأوّلُ: أنّها كلماتُ ربِّك؛ فكلُّها تنتظمُ في كلمةٍ واحدةٍ، أو منظومةٍ واحدةٍ، جمالًا وحُسنًا، وبلاغةً وإتقانًا ونظمًا، مهما تشعّبَت موضوعاتُها ومقاصدُها.

الثّاني: تُفيدُ انتفاءَ التّناقُض، فلا يُمكن أن تجدَ تناقُضًا في كتاب اللّه، ولا في كلماتِه، ولا حُكمِه، ومبالغةً في ذلك جعلَها كالكلمةِ الواحدةِ.

الثّالثُ: أنّ الأمرَ للّه، قال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾ [يس: 82]، فيُنتَظَمُ قَضاؤُه وتقديرُه وحُكمُه في كلمةٍ واحدةٍ، وذلك لبيان عظيمِ شأنِه سبحانَه.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/18.

توجيهُ القراءاتِ القرآنيَّةِ في قولِه تعالى: ﴿كَلِمَتُ﴾:

الإيماءُ إلى وحدةِ الرِّسالةِ والمصدرِ والغايةِ

اختلفَ القرَّاءُ في قراءة قولِه تعالى: ﴿كَلِمَتُ﴾ بين الإفرادِ والجمعِ، فقرأ الكوفيّون ويعقوبُ ﴿كَلِمَتُ﴾ على الإفراد، وقرأَ الباقون ﴿كَلِمَٰتُ﴾ على الجمع[1]، وتوجيهُ ذلك، أنَّ العربَ تطلقُ الكلمةَ على الجملةِ والعبارةِ والطّائفةِ منَ الكلام في معنى واحدٍ، وتُسمّي العربُ القصيدةَ كلمةً، وتُسمّي (لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ) كلمةَ التّوحيد، ولذلك قال جمهورُ المُفسّرين: إنَّ المُرادَ بالكلمة هُنا القرآن، ومعناها: وتمَّتْ كلمةُ ربِّك، فيما وعدَك مِن نصرٍ، وما أوعدَ به مِن خِذلانٍ وهلاكٍ لمُعانديك[2]، ونكتةُ الإفراد بيانُ وحدةِ الرِّسالةِ والمصدرِ والغايةِ والمآلِ.

القرآنُ الكريمُ كتابٌ مُكوَّنٌ من كلماتٍ، أعجز الإنسَ والجنَّ أنْ يأتُوا بمثلِه

وتوجيهُ الجمعِ أنّهُ لمّا تقدّمَ من أوّلِ السُّورةِ إلى هذه الآية، من دلائل التّوحيدِ، والنُّبوّةِ، والبعثِ، والطّعنِ على مُخالفي ذلك، وكان من هنا إلى آخر السّورةِ أحكامٌ وقَصَصٌ، ناسبَ ذكرُ هذه الآيةِ هُنا؛ أي: تمَّتْ أقضيتُهُ وأقدارُهُ، قالَهُ ابنُ عبّاس، وقال قَتادَةُ: كلماتُهُ هو القرآنُ[3]، وهُو الأصحُّ بقرينة ذكرِ (الكلمات)، فهو كتابٌ مُكوَّنٌ من (كلمات)، أعجزَ الإنسَ والجنَّ أنْ يأتُوا بمثلِه، وذلك جوهرُ الإعجازِ القرآنيِّ المُتفرّدِ.

وعلى قراءة الإفرادِ يكونُ بين ﴿كَلِمَتُ﴾ الأولى، و﴿لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ الثّانية، الْتفاتٌ عدديٌّ، مُفادُه أنّ ﴿كَلِمَتُ﴾ هي أُنمُوذجٌ مُتفرِّدٌ ﴿لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ ﷻ الّتي لا تنتهي، قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ﴾ [لقمان: 27]، أمّا على قراءة جمع ﴿كَلِمَتُ﴾ فيكونُ فيها تكرارٌ لـ (كَلِمَات)، فتكونُ الثّانيةُ توكيدًا للأولى، إذْ يصحُّ المعنى بعدم ذكرِ ﴿لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ الثّانية، فلم يأْتِ القولُ بهذا السّياق: (وَتَمَّتْ كَلِمَاتُ

(1) ابن الجزريّ، النّشر: 2/130.
(2) رضا، المنار: 8/11.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/213.

رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لَهَا)، ولكنّه ذكرَ الثّانيةَ تأكيدًا لتمامِها وصدْقِها وعدلِها، وليأتي الكلامُ على القراءتين.

نُكتةُ إيثارِ عُنوانِ الرُّبوبيّةِ وإضافتِه إلى ضمير الخطابِ:

تشريفُ النّبيِّ ﷺ وتعظيمُ مقامِه

كاف الضمير في قولِه تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ خطابٌ للنّبيِّ ﷺ وتشريفٌ له؛ لأنّها كلماتُ ربِّه الّتي أوحاها إليه، فتمَّ التّشريفُ من جانبين، **الأوّلُ**: الخطابُ بقوله: ﴿رَبِّكَ﴾، **والثّاني**: أنّه المُختصُّ بكلماته، وحيًا تلقّاهُ عن جبريلَ عليه السلام.

توجيهُ المخصوصِ بالذِّكرِ في قولِه تعالى: ﴿صِدْقًا وَعَدْلًا﴾:

اجتماعُ الصِّدقِ والعدلِ يشتملُ على بقيّةِ الصِّفاتِ التزامًا

قولُهُ تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾؛ أي: تَمّ كُلُّ ما أخبرَ به، أو جاءَ في كلمات اللّه تعالى، فهي جميعُها تمَّت ﴿صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ صِدْقاً في مصدرها وأخبارها، وعَدْلاً في تشريعها وحُكمِها، ﴿لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾، على اعتبار أنّهُ لا أحَدَ يُبدّلُ شيئًا من ذلك، ممّا هُو الأصدقُ والأعدلُ، وخصَّ بالذِّكرِ الصِّدقَ والعدلَ دون بقيَّة الصِّفاتِ لاشتمالِها بالاجتماعِ على بقيَّة الصِّفاتِ، فإنَّ الشَّيءَ إذا وُصِفَ بالصِّدقِ والعدلِ فهو حقٌّ، ومستقيمٌ، ومُنجٍ، ولمَا فيها في الصِّدقِ من مُطابَقةِ الأخبارِ للواقعِ، والعدلِ للأحكامِ في الواقعِ.

مراعاةُ النّظيرِ بين لفظَيْ ﴿صِدْقًا وَعَدْلًا﴾:

تناسبَتْ لفظتَا الصّدقِ والعدلِ؛ صدقًا فيما وعدَ، وعدلًا فيما حكمَ

يُطلَقُ الصّدقُ مجازًا على أنّ الشّيءَ يكونُ كاملًا في خصائص نوعِه[1]، وذِكرُ العَدلِ بعدَ الصّدقِ، من قَبيل ما يُعرَفُ بـ (التّناسب أو مُراعاة النّظير)[2]؛ وهُما لفظان منصُوبان على الحال، إمّا من لفظ ﴿رَبِّكَ﴾، أو من لفظ ﴿كَلِمَتُ﴾ على الإسنادِ المجازيِّ، صدقًا

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/20.

(2) قال الحمويّ: "مُراعاة النّظير، يُسمّى التّناسب، والائتلاف، والتّوفيق، والمُؤاخاة، وهو في الاصطلاح أن يجمعَ النّاظمُ أو النّاثرُ أمرًا وما يُناسبُه، مع إلغاء ذكر التّضادّ، ولتخرج المطابقة، وسواء كانتِ المناسبةُ لفظًا لمعنى أو لفظًا للفظ أو معنى لمعنى، إذ القصدُ جمعُ شيءٍ إلى ما يناسبُه من نوعٍ أو ما يلائمُه من أحد الوجوه ". ينظر: ابنُ حَجَّة الحمويّ، خزانة الأدب: 1/293.

في الوعد، وعدلًا في الوعيد، وقال قَتادةُ ومُقاتلٌ: صدْقًا فيما وعدَ، وعدْلًا فيما حكمَ[1].

نُكتةُ تقديمِ الصِّدقِ على العَدلِ:

الإقناعُ مقدَّمٌ على العملِ، فمَنْ ثبتَ صدقُه قُبلَت عدالتُه

في قولِه تعالى: ﴿صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ فُسِّرَ الصِّدقُ والعدلُ على أقوالٍ كثيرةٍ، مِن أوضحِها دلالةً؛ أنّهما فيما تضمّنَ القرآنُ من خبرٍ وحُكْمٍ[2]، وتقديمُ الصِّدقِ على العدلِ باعتبارِ الإقناع قبل العملِ، والإثباتِ قبل المطالبةِ، والبرهانِ قبل الحُكمِ؛ فإنَّ إثباتَ صدقِ القرآنِ مُقدَّمٌ على مطالبة النَّاسِ بتطبيق أحكامِه، فلمَّا أقامَ عليهم الحجَّةَ في صدقِه، وأنَّه من عند اللّٰه، أثبتَ عدالتَه في أحكامه العقديّةِ والتّشريعيّةِ والسُّلوكيّةِ.

وبحسبِ هذه المعاني، تكونُ لفظتا ﴿صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ قد تضمّنَتَا طِباقًا ضِمنيًّا، يُحقّقُ دلالةَ الشُّمولِ، فتكونُ العبارةُ منَ الإيجاز بمكانٍ، ويكونُ المعنى شاملًا لكلّ ما يُمكنُ أن يخطُرَ ببالِ النّاس، من قَبيل ما يَرِدُ في مثل هذه الثُّنائيات المعنويّةِ، فضلًا عن شُمُوله القرآنَ كُلَّه، فيكونُ في معنى ذلك تمامُ كلماتِ ربِّك.

لفٌّ تقديريٌّ، اضطلعَ بنشرِه الزّمخشريُّ

قولُه تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ هُو لفٌّ تقديريٌّ، اضطلعَ بنشره الزّمخشريُّ بقوله: "تَمَّ كُلُّ مَا أخبرَ به، وأَمَرَ ونَهَى، ووَعَد وأَوعَد"، قال الطّيبيّ: "فإنَّ الصّدقَ مُناسِبٌ للخبرِ والوعدِ والوعيدِ، وإنّ العدلَ مُوافِقٌ للأمر والنَّهي؛ لأنّهُ تعالى يأمُرُ وينهَى بمُقتضى حِكمتِه، ويضعُ كُلًّا في مَوضعه، ويتصرّفُ في مُلكه بالأمر والنّهي على ما أراد"[3].

(1) الواحديّ، الوسيط: 2/314.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/628.
(3) الطّيبيّ، فُتُوح الغيب: 2/314.

المجازُ في معنى التّبديلِ:

التّبديلُ جعلُ شيءٍ مكانَ شيءٍ

والتّبديلُ على الحقيقة جعلُ شيءٍ مكانَ شيءٍ آخرَ، كما قال تعالى: ﴿وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ۝١٦﴾ [سبأ: 16]. ويُستعمَلُ مجازًا في إبطالِ الشّيءِ ونقْضِه، قال تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُواْ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [الفتح: 15]؛ أي: يُخالفُوه وينقضُوا ما اقتضاهُ، وذلك أنّ النّقضَ يستلزمُ الإتيانَ بشيءٍ ضدَّ الشّيءِ المنقُوضِ، فكان ذلك اللُّزومُ هُو عَلاقَةَ المجازِ، وقد استُعمِلَ في قولِه تعالى: ﴿لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ مجازًا في معنى المُعارضة أو النّقضِ، على الاحتمالَيْن في معنى التّمامِ من قولِه تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾، ومعلومٌ أنَّ نفيَ المُبَدِّلِ كنايةٌ عن نفْيِ التَّبديل[1].

اجتماعُ الحقيقةِ والمجازِ والكنايةِ في قولِه تعالى: ﴿لَّا مُبَدِّلَ﴾:

النّهيُ عنِ التّبديلِ هو كالنّهيِ عن مُخالفتِه وتكذيبِه

معنى قولِه تعالى: ﴿لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ انتفاءُ الإتيان بما ينقُضُه أو يُبطلُه أو يُعارضُه، بأن يُثبتَ نقصًا أو خطأً ما فيه، فإن جاء أحدٌ بما ينقضُه كذبًا وزورًا، فليس ذلك بنقضٍ، فيكونُ التّبديلُ في هذا المعنى كنايةً عنِ النّهي عن مُخالفته؛ ومحاولةُ مُخالفتِه هي كذبٌ وزُورٌ، وليس ذلك بنقضٍ، وإنّما هُو مُكابرةٌ على إعجازه في نظمه ومعانيه، بمُحاولة إبطالِ معانيه وحقائقِه، وانتفاءِ تغييرِ ما شرّع اللّهُ وحَكَمَ به، وهُو انتفاءٌ عن أن يُخالفَه المُسلمُون، وبذلك يكونُ التّبديلُ مُستعمَلًا في حقيقتِه ومجازِه وكنايتِه[2].

علَّةُ فصلِ جُملةِ: ﴿لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾:

الجملةُ توكيدٌ للسَّابقة وبيانٌ لها

فَصَلَ قولَه: ﴿لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ عن جملةِ ﴿وَتَمَّتْ﴾؛ لأنَّها توكيدٌ للمعنى السَّابقِ ومبيِّنٌ له، فسببُ عدمِ التَّبديلِ هو صدقُ كلمةِ اللّه وعدالتُها، فإذا اجتمعَ في الشَّيءِ الواحدِ الصِّدقُ والعدلُ فأنَّى

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/21.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/21.

له أن يُبدَّلَ؟ والتّمامُ يعني عدَمَ التّبديلِ، وفي ذلك ما فيه من تناسُبِ المعنى، في صحّتِه واستمرارِه وتوكيدِه، فتكونُ جملةُ ﴿لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦۚ﴾ إطنابًا توسَّعَ فيها المعنى لفائدةِ أن لا يأتي بعد التّمامِ تبديلٌ، فهو من قبيل كمالِ الاتّصالِ.

توجيهُ الإعجازِ الغيبيِّ في قولِه تعالى: ﴿لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦۚ﴾:

قولُه تعالى: ﴿لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦۚ﴾ هو من قَبيل إعجاز غيْبِ المستقبلِ؛ فآياتُ اللّه محفوظةٌ بضمانِ اللّه وحفْظِه؛ قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾ [الحجر: 9]، فقد ضمِنَ اللّهُ تعالى الحفظَ لهذا الكتاب؛ وفي ذلك تحدٍّ عظيم لأولئك المعارِضين الّذين تظهرُ أشرارُهم من هنا وهناك يريدون إحداثَ التّبديلِ في كتاب اللّه تعالى، ثمّ ينتكسون وتذهبُ أفعالُهم هباءً، فلم يستطعْ أحدٌ منذ نزولِ القرآنِ أن يُبدّلَ القرآنَ ويُغيّرَه؛ إذ إنّ هذا القرآنَ لكتابٌ عزيزٌ بإعزازِ اللّه إيّاه وحفظِه له من كلِّ تغييرٍ أو تبديلٍ، لا يأتيه الباطلُ من أيّ ناحيةٍ من نواحِيه، ولا يبطلُه شيءٌ، فهو محفوظٌ من أن يُنقصَ منه، أو يُزادَ فيه.

ضمِنَ اللّهُ تعالى الحفظَ لكتابِه من كلِّ تغييرٍ أو تبديلٍ أو نقصٍ أو زيادةٍ

المجازُ العقليُّ في ﴿كَلِمَتُ﴾ و﴿لِكَلِمَٰتِهِۦۚ﴾:

على معنى أنّ الكلمةَ والكلماتِ هي القرآنُ الكريمُ، وهو قولُ جُمهورِ المُفسّرين، وذلك مِصداقًا لقولِه تعالى: ﴿لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦۚ﴾؛ أي: لا مُبدِّلَ لكلمات القرآن، فلا يلحقُها تغييرٌ، لا في المعنى ولا في المبنى[1]، وفي كلتا الحالتين، إنْ كان المرادُ بـ ﴿كَلِمَتُ﴾ و﴿لِكَلِمَٰتِهِۦۚ﴾ القرآنَ الكريمَ، فهُو مجازٌ عقليٌّ علاقتُهُ الجزئيّةُ، إذْ أطلقَ الجُزءَ وأرادَ الكُلَّ، فذكرَ الكلمةَ أو الكلماتِ وأرادَ الكتابَ[2].

اتّفاقُ جمهورِ المفسّرين أنّ معنى (كلمة) أو (كلمات) إنّما هو القرآنُ الكريمُ

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/213.

(2) سلامة، الإعجاز البلاغيّ في القرآن الكريم، ص: 94.

دلالةُ إضافةِ (كلمات) إلى الضَّميرِ:

تكريمُ الكلماتِ باعتبارِ مصدرِها وتوكيدِها للمعاني السَّابقةِ

دلالةُ إضافةِ الكلماتِ إلى الضَّميرِ المتّصلِ العائدِ إلى ﴿رَبِّكَ﴾ في قولِه تعالى: ﴿لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ أفادَ التّعريفَ بالكلمات؛ أي: أنّها كلماتُ اللّه تعالى؛ فاستحقَّتْ أن تتّصفَ بالتّمام صدْقًا وعدْلًا، فلا مُبدِّلَ لها، وفيها تكريمُ هذه الكلمات الّتي مصدرُها من عند اللّه تعالى، وفي الإضافة معنى الصّدقِ والعدلِ؛ فكلماتُ اللّه صادقةٌ في ذاتِها، عادلةٌ في أحكامِها، ومن هنا دلَّتِ الإضافةُ على معنى التَّوكيدِ لقولِه تعالى: ﴿صِدْقًا وَعَدْلًا﴾.

المجازُ المُرسَلُ في قولِه تعالى: ﴿لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾:

من معاني (الكلمات) أقدارُ اللّه؛ فهي بمثابة السُّننِ الكونيّةِ في الخلق وفي الحياة

يجوزُ أن تكونَ جُملةُ: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ﴾ عطفًا على جُملةِ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا﴾ [الأنعام: 112]، وما بينهُما يكُون اعتراضًا، فالكلماتُ مُرادٌ بها ما سنّهُ اللّه وقدَّرَهُ: مِنْ جَعلِ أعداءٍ لكُلِّ نبيٍّ، يُزخرفُون القولَ في التّضليل؛ لتصغَى إليهم قلوبُ الّذين لا يُؤمنُون بالآخرة، ويتبعُوهم، ويقترفُوا السّيّئات، ولكُلٍّ منَ العطفِ والاعتراضِ أثرٌ في البيان، وأنّ المُرادَ بالتّمام التّحقُّقُ، ويكونُ قولُه تعالى: ﴿لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ نفيَ أنْ يقدرَ أحَدٌ أنْ يُغيّرَ سُنّةَ اللّه، وما قضاهُ وقدّرَهُ، ففي ذلك كلِّه تأنيسٌ مكينٌ للرّسول الكريم ﷺ، وتطمينٌ له وللمُؤمنين، بحُلول النّصرِ الموعُودِ به في إبَّانِه[1]، وفي هذا التّركيب مجازٌ مُرسَلٌ، وعلاقتُه الجُزئيّةُ[2].

الاختصاصُ والمُبالغةُ في قولِه تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾:

لا أحدَ سوى اللّه بالغٌ السّمعَ وبالغٌ العلمَ بجميعِ ما خلَقَ

قولُه تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ اختصاصٌ بالضّمير (هُوَ)، بأنّه سبحانَهُ السّميعُ البصيرُ، ولا أحدَ غيرُه، و﴿ٱلسَّمِيعُ﴾ تُفيدُ أنّهُ لا أحدَ سِوَاهُ بالغُ السّمعَ لجميعِ ما خلقَ منَ الأصواتِ، و﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ تُفيد

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/22.
(2) مخيمر، معجم الأساليب البلاغيّة، ص: 272.

أن لا أحدَ سِوَاهُ بالغُ العلمَ بجميع ما خلق سبحانَه، فهو كاملُ القدرة، نافذُ الأمر، فلا أحدَ يَملكُ تغييرًا أو تبديلًا إلّا هُو سُبحانه[1]، ولفظَا ﴿ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ صيغتَا مُبالغةٍ، إذْ سَمعُه فوقَ المخلُوقات، وعلمُه لا يُقارَنُ بغيره، فهو المحيطُ بكُلّ شيءٍ علمًا[2].

بلاغةُ جُملةِ التَّذييلِ: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾:

جُملةُ ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ تذييلٌ لجُملة: ﴿وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدۡقٗا وَعَدۡلٗاۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦۚ﴾؛ أي: وهُو المُطّلِعُ على الأقوال، العليمُ بما في الضّمائر، وهذا تعريضٌ بالوَعيدِ لمَنْ يسعى لتبديل كلماتِه، فالسّميعُ لأصوات المخلوقات، الّتي منها ما تُوحي به شياطينُ الإنسِ والجنِّ بعضُهم إلى بعض، لا يفُوته منها شيءٌ؛ وهُو العالمُ سبحانَه بمَن يُريدون أن يبدّلُوا كلماتِ اللّه، على المعاني المُتقدِّمَةِ، فلا يخفى عليه ما يخُوضُون فيه من تبْييتِ الكيدِ والإبطالِ له[3]، وهذه الجملةُ: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ تذييلٌ للسّياق كلِّه، لا لهذه الآيةِ وحدَها، وهو سياقُ مُحاجَّةِ المشركينَ المُعَانِدين، وفيهِ ذكرُ اقتراحِهم الآياتِ، وأيمانِهم الكاذبةِ، وما يدخلُ في هذا البابِ[4].

اللّه تعالى مُطّلِعٌ على الأقوال، عليمٌ بالضّمائر، وهذا تعريضٌ بالوَعيدِ وإلماحٌ للوعدِ

وهُو أيضًا ﴿ٱلۡعَلِيمُ﴾ الّذي أحاطَ علمُه بالظّواهر والبواطن، والماضي والمستقبل، العليمُ بما أودعَ من أسرار خلقِه، وقوانينِ حركتِهَا في الكَونِ والحياة، مُمتدّةً من دقائقِها وذَرّاتِها، إلى أجرَامِها ومجَرّاتِها، وأنّ سمعَه وعلمَه سُبحانَه، قد أحاطَ بها كُلِّها، فيظهرُ معها هَوانُ البشرِ، وضعفُ قُدُراتِهم، وما يظنُّون أنّهُم سيُخفُونه، ممّا تُوحيه الشّياطينُ من زُخرفِ القولِ بعضُهم إلى بعض، منَ التّشكيك والتّكذيبِ لرسالات الأنبياءِ، ثمّ ما يقترفُونه

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 2/700.
(2) مخيمر، معجم الأساليب البلاغيّة، ص: 130.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/22.
(4) رضا، المنار: 8/13.

منَ العداوة لأولياء اللّه، فذكرُ هاتين الصّفتين هُنا، بمثابة وعيدٍ لمَن شملته آياتُ الذَّمِّ السّابقةُ، ووعدٌ لمَن أُمرَ بالإعراض عنهم، وعنِ افترائِهم، فيكونُ بينهُما طباقٌ ضمنيٌّ، ينشأُ عنهُ شُمُولُ الخطابِ للنّاس جميعًا، كلٌّ يأخذُ قسمتَه منَ الوعد والوعيدِ بحسبِ أعمالِه.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(الكمال) و(التَّمام):

الكمالُ: حصولُ ما به الغرضُ، والتَّمامُ: انتهاؤُه إلى حدٍّ لا يحتاجُ إلى خارجٍ عنه

كمالُ الشَّيء حصولُ ما فيه الغرضُ منه، فإذا قيل: كَمُلَ، ذلك معناه: حصلَ ما هو الغرضُ منه، وقولُه: ﴿۞وَٱلۡوَٰلِدَٰتُ يُرۡضِعۡنَ أَوۡلَٰدَهُنَّ حَوۡلَيۡنِ كَامِلَيۡنِۖ﴾ [البقرة: 233]؛ ليعلِّمَنا أنّ مرورَ الحولين الكاملين يعني انتهاءَ مدّةِ الرّضاعِ، فقال: ﴿لِمَنۡ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَۚ﴾ [البقرة: 233]؛ تنبيهًا على أنَّ ذلك غايةُ ما يتعلَّقُ به صلاحُ الولدِ، وقولُه: ﴿تِلۡكَ عَشَرَةٞ كَامِلَةٞۗ﴾ [البقرة: 196]، فإنَّما ذكر العشرةَ، ووصفَها بالكاملة، لا ليُعلّمنا أنَّ السَّبعةَ والثَّلاثةَ عشرةَ، بل ليُبيِّنَ أنَّ بحصول صيامِ العشرةِ يحصل كمالُ الصَّوم القائمِ مقامَ الهديِ[1]، أمَّا تَمَامُ الشَّيء فهو انتهاؤُه إلى حدٍّ لا يحتاجُ إلى شيءٍ خارجٍ عنه، والنَّاقصُ: ما يحتاجُ إلى شيءٍ خارجٍ عنه، قال: ﴿وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾[2]، فيعلمُ ممَّا سبقَ أنَّ كمالَ الشَّيءِ حصولُ ما فيه الغرضُ الآنيُّ المحدَّدُ بمسألةٍ، أمَّا التَّمامُ فهو الحدُّ المُنتهَى منَ الكمال، فهو ما يحصلُ فيه الغرضُ في كلِّ وقتٍ وحالٍ، فكان تمامُ الشَّيءِ أبلغَ وأعمَّ من كماله، وناسبَ ورودُ اللّفظةِ في الآية بـ ﴿وَتَمَّتۡ﴾؛ لبيان هذا المعنى وتجليتِه، ويؤيِّدُ ذلك ما جاء من قولِه: ﴿تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِيٓ أَحۡسَنَ﴾ [الأنعام: 154]؛ ليدلَّ على تمام الكمالِ في كلِّ حالٍ.

(1) الراغب، المفردات: (كمل).
(2) الراغب، المفردات: (تمم).

التّبديل والإبدال والتّغيير والتّحويل:

التّبديلُ تغييرٌ من حالٍ إلى حالٍ آخرَ

الفرقُ بَين التّبديلِ والإبدالِ؛ قَالَ الفراءُ: التّبديلُ تَغييرُ الشَّيءِ عَن حَاله، والإبدالُ جعلُ الشَّيء مَكَانَ الشَّيء. وقيل: هما بمعنى التّبديل: تغييرُ حالٍ إلى حالٍ آخرَ؛ يُقال: بدَّلَ صورتَه. والإبدالُ: رفعُ الشَّيءِ بأن يجعلَ غيرَه مكانَه[1]، قال تعالى: ﴿ٱئۡتِ بِقُرۡءَانٍ غَيۡرِ هَٰذَآ أَوۡ بَدِّلۡهُۚ قُلۡ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلۡقَآيِٕ نَفۡسِيٓۖ﴾ [يونس: 15].

التّحويلُ: هو أن يجعلَ مكانَ الشّيءِ شيئًا آخرَ

والتّحويلُ: هو أن يجعلَ مكانَ الشّيءِ شيئًا آخرَ، أو تُحوّلَ صفتُه إلى صفةٍ أخرى، ومن هنا يتبيّنُ أنّ هذه الألفاظَ متقاربةٌ في المعنى، إلّا أنَّ التَّحويلَ لا يُستعمَلُ في تبديل ذاتٍ بذاتٍ أخرى[2]، قال تعالى: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمۡلِكُونَ كَشۡفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمۡ وَلَا تَحۡوِيلًا ٥٦﴾ [الإسراء: 56].

التّغييرُ يحتملُ معنى التّبديلِ والتّحويلِ

والتّغييرُ على وجهين: **أحدُهما**: لتغيير صورةِ الشّيءِ دونَ ذاتِه. يُقال: غَيَّرتُ داري: إذا بنيتُها بناءً غيرَ الّذي كان. **والثّاني**: لتبديله بغيره، نحو: غَيَّرتُ غلامي ودابّتي: إذا أبدلتُهما بغيرِهما. نحو: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ﴾ [الرّعد: 11]، فالتّغييرُ بذلك يحتملُ معنى التّبديل والتّحويلِ بحسب ما يقتضيه السّياقُ.

والفرقُ بين غيرَيْن ومختلفَيْن أنّ الغيرَيْن أعمُّ؛ فإنّ الغيرَيْن قد يكونان متّفقَيْن في الجواهرِ بخلاف المختلفَيْن، فالجوهران المتحيِّزان هما غيرانِ وليسا مختلفَيْن، فكلُّ خلافَيْن غيران، وليس كلُّ غيرَيْن خلافَيْن[3].

فكان استعمالُ لفظِ التّبديلِ في الآية الكريمةِ في غاية الفصاحةِ والبيانِ؛ لكونِه يتضمَّنُ نفيَ حصولِه في ذات الكلماتِ، وفي صفاتِها، وفي انتفاءِ الإتيانِ بما ينقضُها أو يُبطلُها أو يُعارضُها سواءً في لفظِها وسبْكِها، أو في حقيقتِها ومعانيها.

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 313.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والزّمخشريّ: أساس البلاغة: (حول)، وابن قدامة، المغني: 5/606.
(3) الراغب المفردات: (غير).

﴿وَإِن تُطِعۡ أَكۡثَرَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنۡ هُمۡ إِلَّا يَخۡرُصُونَ ١١٦﴾ [الأنعام: 116]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

كلُّ كلمةٍ سوى كلمةِ الله هي كذبٌ وظلمٌ

لَمَّا بيَّن سبحانَه في الآيةِ السَّابقةِ تمامَ كلمةِ الله صدقًا وعدلًا، عطفَ عليها بيانَ حالِ كلمةِ النَّاس؛ توكيدًا لاختصاصِ كلمةِ اللهِ بالصّدق والعدلِ، وتحذيرًا من كلمة أكثرِ النَّاس الّذين يُضلّون عنِ الحقِّ وسبيلِه، فقد تمَّت كلماتُه تعالى بصدقٍ وعدلٍ، فأرسى قوانينَ الهدايةِ، ومعالمَ الغَوايةِ، مُذكِّرًا بأنّ أكثرَ النّاس يُضلّون عن سبيل الله؛ باتّباعِ الهوى، وبتقديرهم الكاذبِ فيما يخرصون، فهم "يَجزمُون بالأمور بحسب ما يُقَدِّرُون، فيُكشَفُ الأمرُ عن أنّها كذبٌ، فيُعرَفُ الفرقُ بينَك وبينَهُم في تمام الكلامِ ونفُوذِه نفُوذَ السّهام، أو تخلُّفِه عنِ التّمام، ونُكُوصِه كالسّيف الكَهَامِ، فلا يَبقى شُبهةٌ في أمر المُحِقّ والمُبْطِل"[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تُطِعۡ﴾: جذرُ الكلمةِ هو (طَوَع)، الطَّوعُ: نقيضُ الكَره، ومنه قولُه تعالى: ﴿قُلۡ أَنفِقُواْ طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمۡ﴾ [التّوبة: 53]، تقولُ: لَتَفعَلَنَّهُ طوعًا أو كَرهًا؛ أي: طائعًا أو كارِهًا، وطاعَ لهُ إذا انقادَ له، ويُقال: إذا مضَى في أمرك فقد أطاعَك، وإذا وافقَك فقد طاوعَك، وقولُهُم طاع يَطُوع طوعًا، مثل: أطَاع يُطيع إطاعةً سَوَاءٌ، إلَّا أنّهُم يَقُولُونَ طاعَ لَهُ وأطاعه، ولا يَقُولُونَ طاعَه، كما يَقولونَ أطاعَهُ، وأنشدَ:

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 7/239 - 240.

وَقُلتُ لِلقَلبِ دَعِ اتِّبَاعَهَا *** فَطاعَ لِي وطالَ ما أَطاعَها

وفُلَانٌ طَوعُ يدِك؛ أي: منقادٌ لَك، والطّوعُ: يُقال: طاعَ له كذا؛ أي: أتاه طَوعًا، ولساني لا يطُوعُ بكذا؛ أي: لا ينقادُ. ومعنى قولِه تعالى: ﴿وَإِن تُطِعۡ﴾؛ أي: إنَّ اتّباعَ أكثرِ أهلِ الأرضِ يُضلُّ عن سبيل اللّه؛ لأنّ أكثرَهم قد أضلَّتهم غَواياتُ الشّياطين[1].

2) ﴿يَخۡرُصُونَ﴾: جذرُ الكلمةِ هو (خرص)؛ وهو أصولٌ متباينةٌ جدًّا، فالأوّلُ منها الخَرْصُ، وهو حَزْرُ الشّيءِ، يُقال خَرَصتُ النّخلَ، إذا حَزَرْتَ ثمرَه. والخرّاصُ: الكذّابُ، وهو من مادّة الكذبِ؛ لأنّه يقولُ ما لا يعلمُ ولا يحقُّ. واخترصَ فلَانٌ كلَامًا إذا اختلقهُ، وكذلِكَ خرصهُ وتخرّصهُ، قال الزّجّاج: يُقال: تخرّصَ فلانٌ عليَّ الباطلَ واخترصه؛ أي: اختلقَه وافتعله، ومنه الخرّاصُون في قولِه ﷻ: ﴿قُتِلَ ٱلۡخَرَّٰصُونَ ١٠﴾ [الذّاريات: 10]؛ أيّ الكذّابون. ومعنى يَخْرُصُون: يكذبون، ويجوزُ أن يكونَ الخرّاصُون الّذين يتظنُّون الشّيءَ لا يُحقّقُونهُ، فيَعمَلُون بما لا يعلَمُون. وحقيقةُ ذلك: أنَّ كلَّ قولٍ مقولٍ عن ظنٍّ وتخمينٍ، يُقال له: خَرْصٌ، سواءً كان مطابقًا للشّيء أو مخالفًا له، من حيث إنَّ صاحبَه لم يقلْه عن علمٍ ولا غلبةِ ظنٍّ ولا سماعٍ، بل اعتمدَ فيه على الظّنِّ والتَّخمينِ، كفعلِ الخارصِ في خَرْصه، وكلُّ مَن قالَ قولًا على هذا النَّحو قد يسمَّى كاذبًا، وإن كان قولُه مُطابقًا للمقُولِ المخبَرِ عنه[2].

❁ المَعْنى الإجْمالِيُّ:

التّحذيرُ من طاعةِ المشركين بالله المنحرفين عن الحقِّ

يبيِّنُ اللّهُ لنبيّه محمّد ﷺ، محذّرًا له عن طاعة أكثرِ النّاسِ، فيقولُ تعالى مخاطبًا له: لا تُطع هؤلاء العادِلين باللّه الأندادَ،

(1) الخليل، العين، وابن دريد، جمهرة اللّغة: (طوع).

(2) الخليل، العين، وابن دريد، جمهرة اللّغة، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب المفردات: (خرص).

فيمَا دَعَوْك إليه من أكلِ ما ذبحُوا لآلهتهم، وأهلُّوا به لغير ربّهم، وأمثالَهم من أهل الزّيغِ والضّلالِ، فإنّك إنْ تُطعْ أكثرَ من في الأرض يُضلّوك عن دين اللّه[1]، وما اختارَ للمُؤمنين ممّا لا تُدرَكُ حكمَتُه، ويكفيكُم أنّه طاعةٌ للّه، واستجابةٌ لشرعه، فهؤُلاء يتّبعون أهواءَهُم وظنونَهُم، وهُو ظنُّهُم أنّ آباءَهُم كانُوا على الحقّ، فهُم يقلّدُونهُم، وهُم يحسبُون أنّهُم على شيءٍ[2]، وخطابُ الرّسولِ ﷺ خطابٌ لأمّته؛ فإنَّ أمَّتَه أسوةٌ له في سائرِ الأحكامِ، الّتي ليسَت من خصائصِه[3].

وذُكرَ أنَّ سببَ نزولِ الآيةِ أنّ المشركين جادلُوا رسولَ اللّه ﷺ، في أمر الذّبائحِ، وقالوا: تأكلُ ما تقتلُ، وتتركُ ما قتلَ اللّه؟ يقصدُون بذلك الميتةَ، فنزلَتِ الآيةُ، ووصفَهم ﷻ، بأنّهم يُحكِّمُون ظُنُونَهم، ويتّبعُون تخرُّصَهُم[4].

ومنَ المُفسّرين مَن خصَّ هذه الطّاعةَ، واتّباعَهُمُ الظّنَّ، وتخرُّصَهم بأمر الذّبائحِ[5].

وتُرشدُ الآيةُ الكريمةُ إلى أنَّ اتّباعَ أكثرِ النّاس يؤدِّي إلى الضّلال؛ فلذا لا يُتَّبعُ إلّا أهلُ العلمِ الرّاسخون فيه، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ ٨٩﴾ [يونس: 89].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

معنى الواو في قولِه تعالى: ﴿وَإِن تُطِعۡ أَكۡثَرَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾:

الواوُ عاطفةٌ وصلَت ما بعدَها بما قبلَها؛ فجملةُ: ﴿وَإِن تُطِعۡ﴾ متّصلةٌ بجملةِ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّٗا شَيَٰطِينَ ٱلۡإِنسِ وَٱلۡجِنِّ﴾، وبجملةِ: ﴿أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَبۡتَغِي حَكَمٗا﴾ وما بعدها إلى قولِه:

طاعةُ كلماتِ اللّه نجاةٌ، وطاعةُ كلامِ أكثرِ النّاس ضلالٌ

(1) ابن جرير جامع البيان: 12/64.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/57.
(3) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 142.
(4) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/337.
(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/213.

﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾[1]، فأفادَت بهذا الوصلِ بيانَ أنَّ أكثرَ مَن في الأرض ضالّون عن سواء السَّبيل، وهم مُضلّون لغيرهم بما يوحي بعضُهم إلى بعض من زخارف القولِ، ظَانّين أنّه الحقُّ، وهو ليس بحقٍّ في شيء، فبين الجملتين التَّوسطُ بين الكمالَيْن، إذ أفادتِ الآيةُ السَّابقةُ أنَّ كلماتِ اللّه صدقٌ وعدلٌ، وأفادَت هذه الآيةُ أنَّ كلامَ أكثرِ النَّاسِ كذبٌ وظلمٌ، ففُهِمَ من ذلك أنَّ طاعةَ الصّدقِ والعدلِ نجاةٌ، وطاعةَ الكذبِ والظّلمِ ضلالٌ.

نُكتةُ استعمالِ (إنْ) دُونَ (إذَا):

في قولِه تعالى: ﴿وَإِن تُطِعۡ أَكۡثَرَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾: (إنْ) تتضمّنُ معنى الشَّرط كـ (إذا)، ويفترقان في أنَّ (إذا) تُستعمَلُ في الأمورِ ممكنةِ التّحقُّقِ، على خلافِ (إنْ) الّتي تُستعمَلُ في المُحتَمَلِ المَشكُوكِ فِيه، والمَوهُومَةِ والنَّادرةِ، والمُستَحِيلَةِ[2]، وسائرِ الافتراضَاتِ الأخرى، فهي لتعليقِ أمرٍ بغيرِه عمومًا.

رسولُ الله ﷺ القدوةُ في طاعةِ الله ونبْذِ طاعةِ أكثرِ النّاسِ

فمِنَ المَعَاني المستحيلةِ أن يعصي النّبيُّ ربَّه فقال تعالى: ﴿قُلۡ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ١٥﴾ [الأنعام: 15]، فاستعملَ أداةَ الشَّرطِ (إنْ) في قولِه: ﴿إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي﴾؛ فجعل ذلك منَ الأمور مُستَحِيلَةِ الوُقُوع؛ إذ لا يمكن أن يعصي الأنبياءُ ربَّهُم سبحانَه، وكذلك هنا قال: ﴿وَإِن تُطِعۡ أَكۡثَرَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾؛ فيستحيلُ أن يطيعَ الرّسولُ أهلَ الأرض؛ لأنّ اللّهَ تعالى قد اختاره ليُطاعَ من قِبلِ النّاسِ، فهو صاحبُ الرّسالةِ، فجاءَت (إنْ) لبيان هذا الشّرط، ولو قال (إذا) لاختلّ المعنى، ولأفاد إمكانَ أن يطيعَ النّبيُّ النّاسَ، تاركًا أوامرَ اللّه ورسالتَه.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/22.
(2) الزّركشّي، البرهان: 2/360.

تعيينُ المقصودِ بالخِطابِ في قولِه تعالى: ﴿وَإِن تُطِعۡ أَكۡثَرَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾:

خطابُ النّبيِّ خطابٌ لأمّته في سائر الأحكام، الّتي ليسَت من خصائصِه

الخطابُ في هذه الآية للنّبيِّ ﷺ فهو منَ العامِّ المخصوصِ، والمقصودُ به خطابُ أمّتِه، والآيةُ موجزَةٌ لقضيةٍ كُبرى، يُمارسُها عمُومُ البشرِ في كُلّ يوم، إنّهم يُحكّمُون أفكارَهُمُ المُضطربَةَ، والنّاشئةَ عمّا تهواهُ الأنفسُ، وعمّا يُهيمِنُ على العقل والقلبِ، في جميع قضايا حياتِهم، فيختارُون ما يظُنّون أنّ فيه الرّاحةَ النّفسيّةَ، ويُؤثرُون ما يُحقّقُ لهُمُ الاستقرارَ والرّفاهيّةَ والمُتعةَ، ويضمنُ لهم رغدَ الحياة، بحسب ما تتطلّعُ إليه النّفسُ، انطلاقًا من حيِّزها المحدودِ، وتماشيًا مع ما يروقُ لها من مُتعةٍ وبذخٍ، فتأتي حساباتُ كُلِّ المسائلِ الحياتيّةِ، مَنُوطةً بهذا الحيِّزِ المَرسُومِ.

معنى الطّاعةِ المجازيُّ في قولِه تعالى: ﴿وَإِن تُطِعۡ أَكۡثَرَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾:

إعجازُ النّظمِ في انسجامِ لفظتَيْ (تُطع) و(لتصغى) كمنظومتَيْن معنويّتَيْن

الطّاعةُ مُستعمَلةٌ في قولِه تعالى: ﴿وَإِن تُطِعۡ أَكۡثَرَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ في هذا المعنى المجازيِّ، وهو قبولُ القول[1]، ومجانفةُ الكُرْه، والطّائعُ يعرُوه الميلُ إلى جهةٍ مقصُودةٍ، يكونُ راضيًا عنها، وفيها معنَى المُوالاةِ، وتنفيذِ مُراد المُطاعِ من قولٍ أو عملٍ، وهذه منظومةٌ معنويّةٌ لمفهوم قولِه: ﴿تُطِعۡ﴾ الّتي يُمكن اختصارُها في العناصر التّالية: (المَيلُ - الرِّضَا - التَّنفيذُ)، وهي مُنسجمةٌ تمامًا مع المنظُومةِ المعنويّةِ لكلمة ﴿وَلِتَصۡغَىٰٓ﴾ الواردةِ في الآيات السّابقةِ، وفي ذلك ما فيه من دقيقِ النّسجِ وبديع النّظمِ، وروعةِ التّوافقِ والانسجامِ بين المعاني الواردةِ في القطعةِ القرآنيّةِ كلِّها لفظًا ودلالةً.

دلالةُ ذِكرِ الأكثريّةِ في قولِه تعالى: ﴿وَإِن تُطِعۡ أَكۡثَرَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾:

الاحترازُ عن أهل الحقِّ والإيمان ممَّن طاعتُهم واجبةٌ

لم يقُل: (وإنْ تطعْ مَن في الأرض) فلا يصحُّ ذلك؛ لأنّ بعضًا من أهل الأرضِ - ومنهم الأنبياءُ وأتباعُهم منَ المؤمنين وصحابتُهم -

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/24.

يدعون إلى اللّه ولا يُضِلّون عن سبيله، فاتّباعُهم يُؤدّي إلى الهُدى، فقال: ﴿وَإِن تُطِعۡ أَكۡثَرَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾؛ يعني أهلَ أرضِ مكّةَ فيما يدعونَه إلى ملّة آبائِه، أو الكفّارِ عمومًا؛ لأنّ أكثرَ مَن في الأرض كانوا كفّارًا[1]، وفي الآية إيماءٌ إلى ما يكتنفُ النّفسَ الإنسانيّةَ عمومًا منَ الميل إلى الأهواء، والصّدِّ عن سبيل اللّه، فمَن أطاعَهم فإنّما تؤدّي طاعتُه إلى الضّلال عن سبيل اللّه.

اقترنَ ذكرُ لفظةِ الأكثرِ في كتاب اللّه بذمِّ مَن أُضيفَتْ إليه

وفي قوله تعالى: ﴿وَإِن تُطِعۡ أَكۡثَرَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ يُضِلُّوكَ﴾ ذمُّ (الأكْثَرِ)، وهو التّعبيرُ الغالبُ في الاستعمالِ القرآنيِّ، ومنه قولُه تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ ٢٤٣﴾ [البقرة: 243]، وقولُه: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ١٨٧﴾ [الأعراف: 187]، وقولُه: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ ١٧﴾ [هود: 17]، وقولُه: ﴿فَأَبَىٰٓ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورٗا ٨٩﴾ [الإسراء: 89]، وهكذا دواليكَ، والأغلبُ أنّه لا يُقال: (الأكثر) إلّا في حقِّ الّذين يتّبعُون أهواءَهم، وهذه خصلةٌ غالبةٌ في النّاس؛ مِن هُنا فقد جاءَتِ الرّسالاتُ السّماويّةُ لتُقَوِّمَ نفُوسَ النّاسِ وعقُولَهم، وتُزيحَ عنها هذه الخصالَ، وتُسدِّدَها بالعلم والحقِّ.

بلاغةُ الكنايةِ عنِ الإنس في قولِه تعالى: ﴿أَكۡثَرَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾:

إذا غابَت قيمُ الوحيِ عنِ العقولِ ضلَّتِ القلوبُ وأضلَّت

قولُه تعالى: ﴿أَكۡثَرَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ كنايةٌ عنِ الإنس، فهم يتَّبعُون الظّنَّ، وهم يخرصُون ويتحزَّرُون، وهذا من قَبيل تحكيم الرّأي بلا علم، أوِ اتّباع الهوى الّذي لا يركنُ إلى الحقِّ، وهذا يعكسُ أيضًا خبايا النّفسِ الإنسانيّةِ.

وسببُ هذه الأكثريّة: أنّ الحقَّ والهُدى يحتاجُ إلى عقولٍ سليمةٍ، ونفوسٍ فاضلةٍ، وتأمُّلٍ في الصّالحِ والضّارِّ، وتقديمِ الحقِّ على الهوى، والرُّشدِ على الشّهوة، ومحبّةِ الخيرِ للنّاس على الأنانيّةِ؛

(1) السّمرقنديّ، بحر العلوم: 1/496.

وهذه صفاتٌ إذا اختلَّ واحدٌ منها تطرَّقَ الضّلالُ إلى النّفسِ بمقدار ما انثلَمَ من هذه الصِّفاتِ[1].

معنى ﴿مَن﴾ ودلالةُ استعمَالِها:

أكثرُ النّاسِ يُلوِّحون بالعقلِ والعلمِ في حين أنّهم ضالّون مضلّون

تختصُّ (مَنْ) بالعقلاءِ، وهي هنا موصولةٌ، وجاءَت ﴿مَن﴾ في قولِه تعالى: ﴿أَكۡثَرَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾؛ لبيان أنَّ مَن تستمعُ إليهم يبدو عليهم العلمُ والمعرفةُ والحقُّ، لكنّهم في حقيقة أمرِهم يَهدون إلى الباطل، ويُضلّونك عن سواءِ الصّراط؛ وفي النّصّ الشّريفِ موضعُ الآية فإنّ أكثرَ مَن في الأرض ممّن يُعدُّون منَ العُقلاء أو أُولي العلم قد اختلطَت عليهم السُّبُلُ فقد ضلّوا وأضلّوا، فاستعملَ النَّظمَ ﴿مَن﴾ لبيانِ ظاهرِهم، وقد حكمَ على باطنهم في قولِه تعالى: ﴿إِنۡ هُمۡ إِلَّا كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّ سَبِيلًا ٤٤﴾ [الفرقان: 44].

دلالةُ حرفِ الظَّرفيَّةِ في قولِه تعالى: ﴿أَكۡثَرَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾:

زخرفُ الأرضِ ومحبّةُ شهواتِها رأسُ الضَّلالِ والانحرافِ

دلالةُ حرف ﴿فِي﴾ على الظّرفيّةِ المكانيّةِ؛ لدلالة هذا المكانِ على حياة العقلاءِ من بني آدم، قال تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ خَلِيفَةٗۖ﴾ [البقرة: 30]، فدلَّ الظَّرفُ على الّذين يسكنون الأرضَ، وعمّ الإنسَ، فبعد أن ذكرَ شياطينَ الإنس والجنّ؛ خصَّ هُنا ذكرَ الّذين يعيشون في الأرض وهمُ الإنس؛ لأنّهُم هم ميدانُ التّداخلِ الاجتماعيِّ والتّأثيرِ في النّاس، ودلَّ حرفُ الظَّرفيّةِ على شمولِ جميعِ مَن يسكنُ الأرضَ، إن أُريد مفهومُها العامّ، وبيان استقرارِهم فيها وتشبّثِهم بها، فالأرضُ وما فيها من زخرف الحياةِ هو سببُ ضلالِهم.

معنى التَّعريفِ في قولِه تعالى: ﴿ٱلۡأَرۡضِ﴾:

المرادُ بالأرضِ عمومُها، وتدخلُ مَكّةُ دخولًا أوّليًّا

إن قُصدَ بالأرضِ مكّةُ فالتَّعريف للعهدِ العُرفيِّ، والمقصودُ من قولِه تعالى: ﴿أَكۡثَرَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾، رُؤساءُ مكّةَ الّذين يُريدون طمسَ الدّعوة

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/25.

خاصّةً في مهدها الأوَّل[1]، وإن قُصد عمومُ الأرضِ فالتَّعريفُ للعهد، ودلالةُ العمومِ هي الأَوْلى، وتدخلُ مَكَّةُ دخولًا أوّليًا في المعنى المراد.

دلالةُ استعمالِ ﴿يُضِلُّوكَ﴾:

الطّاعةُ والتزامُ الأوامر والاقتداءُ بالآخرين يقتضي في علاقة مباشرةٍ الهدَى أو الضّلالَ، وقد بيّنتِ الآيةُ الكريمةُ في تحذيرٍ ضِمنيٍّ خطورةَ طاعةِ أكثرَ مَن في الأرض؛ لأنّ طاعتَهم والتزامَ أوامرهم يؤدّي إلى الضّلال حتمًا؛ إذ لا سبيلَ للهداية إلّا سبيلٌ واحدٌ وهو سبيلُ اللّه تعالى؛ فمَن سلكَ سبيلَ اللّه فهو على الهُدى، ومَن سلكَ كلَّ سبيلٍ آخرَ فهو سائرٌ في الضّلال.

مَن سلكَ سبيلَ اللّه فهو على الهُدى، وما سوى ذلك ضَلالٌ مُبينٌ

بلاغةُ التّعبيرِ بالفعل ﴿يُضِلُّوكَ﴾، دون (يفتنوك) أو غيرِه:

سببُ استخدامِ الفعلِ ﴿يُضِلُّوكَ﴾ بدلًا من (يفتنوك) أو نحوِه منَ الألفاظ المقاربة في المعنى في قولِه تعالى: ﴿يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾، هو أنَّ الفعلَ ﴿يُضِلُّوكَ﴾ أقوى في الدَّلالة على المعنى منَ الفعل (يفتنوك) أو غيرِه منَ المرادفات، فالفتنةُ تعني اختبارَ الإيمانِ بالشُّبهات والشَّهوات، وقد يصبرُ المؤمنُ على الفتنة، ويثبتُ على دينه، وقد يُزَلزَلُ إيمانُه ويستكينُ للفتنة، أمَّا الضّلالُ فهو انحرافٌ عنِ الحقِّ والصّراطِ المستقيم، وهو أخطرُ على المؤمن منَ الفتنة؛ فإذا ضلَّ المؤمنُ عن سبيل اللّه فقد خسرَ دنياه وآخرتَه، كما أنَّ الفعلَ ﴿يُضِلُّوكَ﴾ مُطابقٌ لسياق الآيةِ الكريمةِ، فالآيةُ تتحدَّثُ عن حالِ أكثرِ أهلِ الأرضِ من بني آدم، وهم كفّارٌ ضُلَّالٌ، يتّبعون أهواءَهم وظنونَهم، ولا يقبلون بالحُجج والبراهين الّتي جاء بها رسولُ اللّه ﷺ، فإذا أطاعَهم المؤمنُ في شيءٍ من أمور دينِه، فإنّهم يسعَون جاهدين إلى إخراجه من نورِ التّوحيدِ إلى ظلماتِ الشّركِ[2].

الفتنةُ تعني اختبارَ الإيمان، والضّلالُ هو انحرافٌ عن الحقِّ والصّراطِ المستقيمِ

(1) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 9/40.

(2) ابن جرير، جامع البيان: 9/509، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 3/322.

غرضُ ذكْرِ قيدِ ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾ لفعلِ ﴿يُضِلُّوكَ﴾:

كلُّ ضالٍّ يُقدِّمُ سبيلَه على سبيلِ اللهِ ليُضلَّ عبادَ الله

لم يقُل: (عنِ الحقّ، أو القرآنِ، أو الهدى)، وعلاقةُ ذلك ببيان معنى أنَّ الإسلامَ سبيلٌ يُسلكُ لا كلامٌ يُقالُ، وسبيلُ اللّه واحدٌ وهو الصّراطُ المستقيمُ؛ وذكرَه هنا لبيان تشعّبِ السُّبُلِ الّتي يسلكُها أكثرُ النّاس، كما قرَّر ذلك في آخر هذه السّورة بقوله: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ﴾ [الأنعام: 153]، فقد يكونُ لكلِّ جمعٍ منَ النّاس سبيلٌ خاصٌّ بهم ومنهجٌ في الفهم، وقد يكونُ لكلِّ إنسانٍ سبيلٌ يقترحُه لنفسه ويراه هو الأنسبُ والأجدرُ بالسّلوك، ففي قولِه تعالى: ﴿وَإِن تُطِعۡ أَكۡثَرَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾ دليلٌ على أنّ الإنسانَ بطبيعته تكوينٌ نفسيٌّ وعقليٌّ، يتّجهُ في تشعّباتٍ واختياراتٍ مُختلفةٍ، أغلبُها طرائقُ ضلالٍ، ابتكرتها منظومةُ (العقل والنّفس) بمقاييسَ ظَنِّيَّةٍ، لا تنطلقُ من منطلقٍ علميٍّ دقيقٍ، وطريقُ الحقّ واحدٌ؛ وهو طريقُ العلم والصّدقِ والإيمانِ، وهذا القولُ يصدقُ في أمُور الحياةِ كُلِّها، بَيدَ أنّهُ في أمُور الدّينِ، تكونُ البليّةُ مُضاعفةً؛ لِمَا لهُ من علاقةٍ بمسائل الاعتقادِ والعباداتِ والمعاملاتِ والأخلاقِ والآداب، ومعنى خطابِ النّبيِّ ﷺ والأمّةِ في الآية الكريمة: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾؛ أي: ليسُوا راجعين في عقائدهم إلى علمٍ صائبٍ، ولا في أحكامهم إلى شريعةٍ صحيحةٍ.

بلاغةُ التَّمثيلِ في قولِه تعالى: ﴿يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾:

تمثيلُ حالِ الدّاعي إلى الكفر بمَن يدعو إلى خلافِه بقصْدِ التَّمويه

ذهب صاحبُ (إرشاد الحيران إلى توجيهات القرآن) إلى أنَّ قولَه تعالى: ﴿يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾، هو "تمثيلٌ لحال الدّاعي إلى الكفرِ والضّلالِ والفسادِ، ومَن يقبلُ حالَه، بحالِ مَن يُضلُّ مُستهدِيَه إلى الطّريق، فينعتُ له طريقًا غيرَ الطّريقِ المُوصلةِ، وهُو تمثيلٌ قابلٌ لتوزيع التّشبيه، بأن يُشبّهَ كلُّ جُزءٍ من أجزاء الهيئةِ المُشبّهةِ، بجُزءٍ

من أجزاء الهيئةِ المُشبّهِ بها، وإضافةُ السّبيلِ إلى اسم اللّه قرينةٌ على الاستعارة"[1].

غرضُ الإضافةِ في قولِه تعالى: ﴿سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾:

الإضافةُ هنا أفادَتِ التّعريفَ بأنّ هذا السّبيلَ المشارَ إليه في الآية؛ إنّما هو سبيلٌ وحيدٌ، وهو سبيلٌ منسوبٌ إلى اللّه تعالى، خالقِ البشر، العالمِ بما ينفعُهم، وأفادَتْ تشريفَ السَّبيل ورفعَ مكانته في نفوسِ المخاطَبين، وإكسابَه جلالًا ومهابةً، وإعطاءَه المشروعيّة في السُّلوكِ، فإنَّ كلَّ سبيلٍ سوى هذا السَّبيل سلوكُه باطلٌ؛ لأنَّه سيُضاف إلى غير اللّه تعالى، والأغيار طريقُهم باطلٌ.

كلُّ من سلَكَ غيرَ سبيل الله فهو في ضلالٍ مبينٍ

وهو ما حثَّ اللّهُ عليه في آخر الوصايا العشر من ختام سورة الأنعام، وهو التّوجُّهُ نحو الطّريقِ المستقيمِ الّذي وصّانا اللّهُ به؛ لنتقيَ عذابَه بفعل أوامرِه، واجتنابِ نواهيه: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ١٥٣﴾ [الأنعام: 153].

بلاغةُ الاستئنافِ البيانيّ:

جملةُ ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ استئنافٌ بيانيٌّ، ناشئٌ من قولِه: ﴿يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾[2]، والضّلالُ ناتجٌ منَ اتّباع الشُّبهةِ من غير تبصُّرٍ بالعواقب، فكأنَّ سائلًا قد سأل: لماذا يُضلُّ هؤلاء عن سبيل اللّه؟ فكان الجوابُ: لأنَّهم يتَّبعون الظَّنَّ، فضُمِّنَ الاستئنافُ البيانيُّ معنى التَّعليل.

علّةُ الضّلال اتّباعُ الظَّنِّ والأوهامِ

معنى ﴿إِن﴾ في قولِه تعالى: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾:

حرفُ ﴿إِن﴾ في قولِه تعالى: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ نفيٌ بمعنى (ما يتّبعون)؛ كقوله: ﴿إِنۡ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: 23]؛ أي: ما أنت إلّا

أكثرُ النّاس لا يتّبعون إلا الظّنَّ، والظّنُّ لا يُغني منَ الحقّ شيئًا

(1) أبو مريزيق، إرشاد الحيران: 4/178.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/27.

نذيرٌ؛ وهو قصرٌ بأسلوب النَّفي والاستثناء؛ أي: ما يتّبعون يقينًا، وإنّما يتّبعون ظنَّهُم الباطلَ، أو ظنَّهم أنَّهم شركاءُ بتقدير معمولِ الظّنِّ، أو تنزيلِهِ منزلةَ اللّازم[1].

غرضُ القصْرِ في قولِه تعالى: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾:

ذمٌّ عقولِ متَّبعي الظَّنِّ وتقبيحُ تصوّراتِهم

الاستثناءُ المفرّغُ بأسلوب النّفي والاستثناءِ يفيدُ القصرَ، وفي الحقيقة أنَّ (إلّا) تفيدُ الاختصاصَ سواءٌ كان في التّفريغ أم في غيره، غيرَ أنّ القصرَ في التّفريغ أعمُّ وأشملُ، كما في قولِه تعالى: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ فقد نفى عنهم أيَّ اتّباعٍ إلّا ما هو من قبيل الظّنِّ، فأدّى بهم هذا الظّنُّ إلى الخَرصِ، فقال: ﴿وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾، وغرضُ القصر بهذا الأسلوبِ نفيُ كلِّ اتِّباعٍ مُتصوَّرٍ، وإثباتُ اتِّباعٍ واحدٍ وهو الظَّنُّ، وهذا في غايةِ الذَّمِّ والتَّقبيحِ لعقولِهم.

بلاغةُ اختيارِ مُفردةِ الاتِّباعِ في قولِه تعالى: ﴿يَتَّبِعُونَ﴾:

الاتِّباعُ يُعيِّنُ أنَّ المقصودَ بالظَّنِّ ما ظنَّه الأسلافُ

وجملةُ: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ استئنافٌ بيانيٌّ، نشأَ عن قولِه: ﴿يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾ فبيَّنَ سببَ ضلالِهم: أنّهم اتّبعوا الشُّبهةَ، من غير تأمُّلٍ في مفاسدِها، فالمرادُ بالظَّنِّ ظنُّ أسلافِهم، كما أشعرَ به ظاهرُ قولِه: ﴿يَتَّبِعُونَ﴾[2].

معنى التَّعريفِ في قولِه تعالى: ﴿ٱلظَّنَّ﴾:

تقاليدُ الآباءِ الباطلةُ وأوهامُ العقلِ القاحلةُ هي معالمُ الظَّنِّ

جاءَ الظّنُّ في قوله تعالى: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ مُعرَّفًا لبيانِ أنَّ الظَّنَّ الّذي يتّبعونه هو ظنٌّ معروفٌ، ذو معالمَ وصفاتٍ لا تخفى على المؤمنين، وهي صفاتٌ مجتمعةٌ في الاتِّكاء على تقاليد الآباءِ وتُراث الأجدادِ ممّن تقطّعَت بهمُ السُّبُلُ عن سبيل الله، فالظَّنُّ باطلٌ في أصلِه وانطلاقتِه وفي أبعادِه، فحريٌّ بمن عرَفَه أن ينأى بنفسِه عن طريقِه.

(1) الآلوسّي، روح المعاني: 6/145.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/27.

بلاغةُ الاستعارةِ في قولِه تعالى: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾:

صُوِّرَ الظنُّ لهؤلاء كالمُرشِدِ المتَّبَعِ

في قولِه تعالى: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ تشبيهٌ للظنِّ برجلٍ يُتَّبَعُ، فصوَّرَهم وهم يتّبعون (الظّنّ)؛ وكأنّهم يتّبعون مُرشدًا لهم لا يخالفون أوامرَه ونواهيَه ونهجَه وخُطاه؛ فجعل الظّنَّ كرجلٍ مُتَّبَعٍ، فحذفَ المشبَّهَ به وأثبتَ المُشبَّه؛ فهي استعارةٌ مكنيّةٌ تخييليّةٌ.

فائدةُ حرفِ الواو في قولِه تعالى: ﴿وَإِنۡ هُمۡ إِلَّا يَخۡرُصُونَ﴾:

اعتقادُ الضَّالّين بين أوهامِ السَّابقين، وابتداعِ المعاصرين

جملةُ: ﴿وَإِنۡ هُمۡ إِلَّا يَخۡرُصُونَ﴾ عطفٌ على جملةِ: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾، ووجودُ حرفِ العطفِ يمنعُ أن تكونَ هذه الجملةُ تأكيدًا للجملة الّتي قبلَها، أو تفسيرًا لها، فتعيّنَ أنّ المرادَ بهذه الجملة غيرُ المراد بجملةِ: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾[1].

وقد أفادَ عطفُ جملةِ ﴿وَإِنۡ هُمۡ إِلَّا يَخۡرُصُونَ﴾ على جملةِ: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ بيانَ أنَّ لهؤلاء المشركين حالتَين؛ الأُولى: يتّبعون فيها آباءهم، والأخرى: يخرصون من تلقاءِ أنفسِهم، ففيه أنَّ اعتقادَهم يدورُ بين هاتين الحالتين؛ أوهامِ السَّابقين، وابتداعِ المعاصرين، فالنَّتيجةُ ضلالٌ حتميٌّ مبينٌ.

غرضُ القصْرِ في قولِه تعالى: ﴿وَإِنۡ هُمۡ إِلَّا يَخۡرُصُونَ﴾:

اعتقاداتُ الضَّالين ما بين خَرْصٍ وتخمينٍ

القصرُ في النّفي والاستثناء يكونُ في الأمور الّتي يجهلُها المُخاطَب، أو ينكرُها، أو يشكُّ فيها، وهذا الاستثناءُ كسابقه؛ استثناءٌ مفرّغٌ يُفيدُ الشُّمولَ، فقولُه تعالى: ﴿وَإِنۡ هُمۡ إِلَّا يَخۡرُصُونَ﴾؛ نفى عنهم أيَّ حالٍ إلّا حالَ الخَرْصِ والتّحزّرِ، فلا يرتكزون على حقيقةٍ، وتبقى آراؤُهم وأقوالُهم كلُّها من قبيل ما تملي عليهم أهواؤهم وما يتمنَّون.

سرُّ التَّعبيرِ بمُفردةِ الخرصِ وبالفعل المُضارِعِ:

في قولِه تعالى: ﴿يَخۡرُصُونَ﴾: الخَرْص: ظنٌّ ناشئٌ عن وجدانٍ في

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/27.

النّفس، مُستند إلى تقريبٍ، ولا يستندُ إلى دليلٍ يشتركُ العقلاءُ فيه، وهو يُرادفُ الحزْرَ، والتّخمينَ[1]، وهُو معنى مهمٌّ ومُرادٌ؛ لأنّه يعتمدُ على قُدرة الخارصِ في تقييم الحالةِ، بحسب ما أُوتي من خبرةٍ، يعتمدُ فيها على أغلبِ الظّنّ، فتبقى المُشكلةُ قائمةً في كون النّتيجةِ مُجانبةً للصّواب، قال تعالى: ﴿مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ۝٢٠﴾ [الزّخرف: 20]، وعبَّر بلفظ ﴿يَخْرُصُونَ﴾ عن مزاعمهم الباطلةِ، وظُنونهم الفاسدةِ، في غاية الرّشاقةِ؛ لأنّها ظُنونٌ ما أنزل اللّهُ بها من سُلطان، ولا دليلَ عليها من عقلٍ ولا نقلٍ ولا برهانٍ، ولكنّ ظانّيها استحسنُونها، فتوهّمُوا ما يعتقدُونَهُ فيها، وهُو بَاطِلٌ وزَيفٌ[2].

خارصُ الأوهامِ يضعُها اليوم ويرجعُ عنها غدًا فهو دائمُ التّعبِ والنَّصبِ

وعبَّر بصيغة الفعل المضارعِ لبيانِ ديمومتِهم في الخرصِ والتَّخمين، فما أن ينتهوا من خرصٍ إلَّا وينتقلون إلى خرصٍ آخر، مع هدم الأوَّل، وهذا واضحٌ أشدَّ الوضوحِ في القوانين الوضعيّةِ الّتي تُضاهِي الشَّريعةَ، فإنَّ أصحابَها يضعون القانونَ اليوم، ويهدمونَه غدًا، وهكذا يبقون في دوَّامة الباطلِ لا يصلون إلى نتيجة واضحةٍ، فهم في تعبٍ يتلوه نَصَب.

حَبْكُ تمثيل قولِه تعالى: ﴿يَخْرُصُونَ﴾ بخريص الماء:

هؤُلاء في حقيقة أمرهم مَثَلُهم كمثل الخريص، وهُو شِبهُ حوضٍ واسعٍ، ينبَثِقُ فيه الماءُ من نهرٍ، ثُمّ يعودُ إلى النّهر، والخريصُ مُمتلئٌ[3]، وهذا لعلّه أجودُ تمثيلٍ لحال أولئك الّذين يتّبعُون الظّنَّ ويخرُصون، فإنّ ما يقدّمُه أمثالُ هؤُلاء لأنفُسِهم أو للآخرين، لا يخرجُ عن أفكارٍ وتحليلاتٍ، تجولُ باضطرابٍ في عقل الخارصِ ونفسِه، مثل جُزيئات الماءِ الّتي تدورُ باضطرابٍ في هذا الحوض

الّذين يتّبعون الظّنَّ يعيشون حياةً مضطربةً لا راحةَ فيها

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/28.
(2) أبو مريزيق، إرشاد الحيران: 4/178.
(3) ابن سيده، المحكم، وابن منظور، لسان العرب: (خرص).

الصّغيرِ الّذي يستقبلُ ماءً طارئًا يُصُبُّ فيه من نهرٍ ما، ومثلُ هذا الحوضِ عادةً ما يدُورُ فيه الماءُ بدوّامات، ثُمّ ما يلبثُ أن يخرجَ إلى النّهر نفسِه، وفي ذلك تمثيلٌ مُناسبٌ ورشيقٌ، لحال أُولئك الّذين وصفَهم القرآنُ في قولِه تعالى: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾؛ إذْ تدخُلُ المعلُوماتُ في عُقُولهم، وتدُورُ في أذهانهم، وتتماوجُ في نفُوسهم، لكنّها تخرجُ كما دخلَت، فلا الماءُ تغيّرَ وصفُه، ولا النّهرُ قلَّ ماؤُه، ولا الحوضُ فادَ أو أفادَ، وهكذا الّذين يخرُصُون.

بلاغةُ الاستعارةِ في قولِه تعالى: ﴿وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾:

خارصُ الأوهامِ يستهينُ بدينِه وعقيدتِه وفكرِه

معنى ﴿يَخْرُصُونَ﴾: يتّبعُون الظّنَّ الّذي تُرجِّحُهُ لَهُم أهواؤُهم، كما يخرصُ أهلُ الحرث ثمراتِ النّخيلِ والأعنابِ وغيرها، ويقدّرُون ما تأتي به منَ التّمر والزّبيب، فلا شيءَ منها مبنيٌّ على علمٍ صحيحٍ ثابتٍ، ولا هُو مَنوطٌ بدلائلَ تنتهي إلى اليقين[1]، فشبّههُم في خرصهم لعقائدهم وآدابهم، بمَن يخرصُ التّمورَ والزّبيبَ والثّمارَ؛ فأظهر فظاعةَ أمرِهم، واستهانَتَهُم بعقائدهم؛ فحقَّت عليهم كلمةُ الضّلال، وفي ذلك المعنى استعارةٌ مكنيّةٌ تشخيصيّةٌ.

صيغةُ تقابلِ المضارعِ في قولِه تعالى: ﴿تُطِعْ﴾ و﴿يُضِلُّوكَ﴾:

خطابٌ شاملُ التّقعيدِ والدّلالةِ للأجيالِ القادمةِ إلى يوم القيامة

جاء فعلُ الشّرط وجوابُه بصيغة المضارع ﴿تُطِعْ﴾ و﴿يُضِلُّوكَ﴾، وفيهما دلالةُ التّجدُّدِ واستجلاءُ المستقبل، والخطابُ شاملٌ لأمّة محمّد ﷺ، حتّى يرثَ اللّهُ الأرضَ ومَنْ عليها.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الخرْص والكذب:

الخرصُ هو الحزرُ، وليس منَ الكذب في شيء، والخرصُ ما يحزرُ منَ الشّيء؛ يُقال: كم خَرْص نَخْلِكَ؟ أي: كم يجيءُ من ثمرته،

(1) رضا، المنار: 8/15.

الخـرْصُ يجري على غير تحقيقٍ، فشُبّهَ بالكذبِ، واستُـعـمـلَ في موضعِه

وإنّما استعملَ الخرصُ في موضع الكذبِ؛ لأنّ الخرصَ يجري على غير تحقيقٍ، فشُبّهَ بالكذب، واستُعملَ في موضعه، وحقيقةُ ذلك: أنَّ كلَّ قولٍ مقولٍ عن ظنٍّ وتخمين، يُقال له: خَرْصٌ، سواء كان مطابقًا للشّيء أو مخالفًا له، من حيث إنَّ صاحبَه لم يقلْه عن علمٍ ولا غلبةِ ظنٍّ ولا سماعٍ، بل اعتمدَ فيه على الظّنِّ والتَّخمين، كفعلِ الخارصِ في خَرْصه، وكلُّ مَن قال قولًا على هذا النَّحو قد يُسمَّى كاذبًا، وإن كان قولُه مطابقًا للمقُولِ المخبَرِ عنه[1]، وأمّا التّكذيبُ فالتّصميمُ على أنَّ الخبرَ كذبٌ بالقطع عليه، ونقيضُه التّصديقُ، ولا تُطلَقُ صفةُ المُكذِّب إلّا لمَن كذّبَ بالحقّ؛ لأنّها صفةُ ذمٍّ، ولكنْ إذا قُيّدَت؛ فَقِيلَ: مُكَذِّبٌ بالباطِلِ كان ذلك مستقيمًا، وإنّما صَار المُكذِّبُ صفةَ ذمٍّ، وإن قِيل كذّبَ بالباطل؛ لأنّه من أصلٍ فاسدٍ، وهو الكَذِبُ فَصَار الذّمُّ أغلبَ عليه، كما أنّ الكَافرَ صفةُ ذمٍّ، وإن قيل كفرَ بالطّاغوتِ؛ لأنّه من أصلٍ فاسدٍ وهو الكُفر[2].

ولذلك ناسبَ سياقُ الآية استعمالَ فعلِ الخَرْصِ الّذي اتّبعَ فيه المشركون آباءَهم وموروثَهم وأهواءَهم من غير علمٍ ولا غلبةِ ظنٍّ ولا سماعٍ صحيحٍ، بل اعتمدوا فيه على الظّنِّ والتَّخمين.

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب المفردات: (خرص).

(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 214.

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦۖ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ١١٧﴾ [الأنعام: 117]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

سببُ الحكمِ على الضّالّين علمُ الله بهم

هناك تناسبٌ بين هذه الآية وسابقتِها، إذْ عِلمُ اللّه يطالُ الضّالّين والمراوغين والمُضلِّين، وكُلَّ مُتستّرٍ بظاهرٍ مُزخرفٍ، فاللّهُ عليمٌ بالخفايا والخبيئات، قال ابنُ عاشور: "و﴿أَعۡلَمُ﴾ اسمُ تفضيلٍ للدّلالة على أنّ اللّهَ لا يعزُبُ عن علمه أحدٌ منَ الضّالين، ولا أحدٌ من المُهتدين، وأنّ غيرَ اللّه قد يعلمُ بعضَ المهتدين وبعضَ المُضلين، ويفُوتُه علمُ كثيرٌ منَ الفريقين، وتخفى عليه دخيلةُ بعضِ الفريقين"[1]، والمُضلّون هم أكثرُ أهلِ الأرضِ، واللّه يريدُنا أن نكونَ منَ الفريق المُهتدي، فنتّبعَ ما أمرَنا به، قال البقاعيُّ: "فكأنّهُ قيل: اتّبعوا مَن يعرفُ الحقَّ لأهله، فإنّه مُهتدٍ، غيرَ معرّجين على غيره، فإنَّهُ ضَالٌّ، واللّه أعلمُ بالفريقين، فكُونوا من المهتدين"[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَضِلُّ﴾: جذرُ الكلمة هو (ضلّ)؛ ضلّ عنِ الطّريق، تاهَ وابتعدَ، وعكسه يَهتدي. وتقول: ضَلَلتُ بَعيري، إذا كان معقُولًا فلمْ تَهْتَدِ لمكانِه. وأضلَلتُه إذا كان مُطلَقًا فمرَّ، ولمْ تَدْرِ أينَ أخذ. ومنَ المجاز: ضلَّ في الدّين، وقدْ ضَلَّلْتُهُ: نسبتَه إلى الضَّلال، وواقعٌ في أضاليلَ وأباطيلَ، وقد تمادى في أضاليلِ الهوى، وفَعَل ذلك ضِلَّةً[3]، ومعنى قولِه تعالى: ﴿يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦۖ﴾؛ أي: يتركُ سبيلَ الهدى – وهو واحدٌ –، ويجنحُ إلى سُبُل الضَّلال – وهي كثيرة –.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/29.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 7/242.
(3) الرّاغب، المفردات، والزّمخشريّ، أساس البلاغة: (ضلل).

المَعْنى الإجْماليُّ:

تُبيِّنُ الآيةُ أنَّ اللّهَ سُبحانَه هُو وحدَهُ أعلمُ بالمُهتدين، مِمّن آمَنُوا بالرّسالة، وهُم قلّةٌ على مَدَى الدَّهر؛ لأنّ النَّاسَ أكثرُهُم يتّبعُون الهَوَى والظّنَّ في أمورهم كُلِّها.

عِلْمُ اللّه بالضّالّين تهديدٌ لهم وعزّةٌ للمهتدين

وأمُورُ الدّينِ والعقائدِ أخطرُ ما تتناولُه الآياتُ الكريمةُ، في موضوع الظّنِّ والخَرْصِ.

وتُرشدُ الآيةُ الكريمةُ إلى أنّه لا يُستدلُّ على الحقِّ، بكثرة أهلِه، ولا يَدلُّ قلّةُ السّالكين لأمرٍ منَ الأمور أن يكون غيرَ حقٍّ، بلِ الواقعُ بخلافِ ذلك؛ فإنَّ أهلَ الحقِّ هم الأقلّون عددًا، الأعظمون - عند اللّه - قدْرًا وأجرًا، بلِ الواجبُ أن يُستدلَّ على الحقّ، بالطّرقِ الموصِلةِ إليه[1].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ الفصلِ:

قولُه تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ استئنافٌ بيانيٌّ، فكأنَّ سائلًا قد سأل: لماذا هؤلاء ضالُّون في اتِّباعهم الظَّنَّ، مضلُّون غيرَهم في الخرصِ؟ فقيل: لأنَّ ربَّك هو مَن يعلمُ أحوالَ النَّاس، وهو الّذي يحكمُ بالصّدقِ والعدل، ولذلك فُصِلَت هذه الآية عن سابقتِها، بالإضافةِ لما فيها من معنى التَّعليل، وهي تصلحُ أن تكونَ تذييلًا لما سبقَها، فهي بمثابةِ خُلاصةٍ لها، مع إفادة علمِ اللّه تعالى بخلْقِه جميعًا؛ الضّالِّ منهم والمُهتدِي.

علمُ الله تعالى هو الأصلُ في بيانِ هدايةِ الخلقِ وضلالِهم

بلاغةُ التّوكيدِ بـ ﴿إِنَّ﴾:

ابتدأ قولُه تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ بحرف التّوكيد ﴿إِنَّ﴾ الّذي يُفيدُ تأكيدَ الخبر، ووصلَهُ بالّذي

دفعُ كلِّ ظنٍّ بأنَّ أحدًا سوى اللّه يعلمُ سبيلَ الهداية والضّلالة

(1) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 142.

قبلهُ، فأكّدَت ما اشتملَت عليه الآياتُ المتقدِّمةُ، وجعلتها خُلاصةً في صورتين: الأولى في بيان ضلال الضَّالّين، والثّانية في هُدى المُهتدين، وأفادَ التَّوكيدُ أنَّ علمَ اللّه بالضَّالين والمهتدين خاصٌّ به، وفيه دفعُ ما يزعمُه الجهلةُ في كلِّ وقتٍ وحين؛ أنَّهم يعلمون سبيلَ الهدايةِ والضَّلالِ، وردٌّ لزعمِهم المأفونِ.

وجهُ إيثارِ التّعبير بالرّبوبيّة في قوله تعالى: ﴿رَبَّكَ﴾:

العنايةُ الربّانيةُ بالنّبيّ ﷺ

إنَّ كلمةَ ﴿رَبَّكَ﴾ تدلُّ على ربوبيّةِ اللّه وقدرتِه على خلْقِ الأمورِ وتدبيرِها، وأنّه أعلمُ بحالِ عبادِه من غيره. وكلمةُ ﴿رَبَّكَ﴾ تفيد معنى التّوحيدِ والعُبوديّةِ، وأنَّ اللّهَ هو الرّبُّ الّذي يستحقُّ العبادةَ والطّاعةَ من جميع المخلوقاتِ، وكلمةُ ﴿رَبَّكَ﴾ تشيرُ إلى رحمةِ اللّه وعطفِه على نبيّه محمّد ﷺ، وأنّه ينصرُهُ على أعدائه، وكلمةُ ﴿رَبَّكَ﴾ تحملُ معنى التّشريفِ والتّكريمِ للنّبيّ ﷺ، وأنّه يخاطبُه بِصِفَةٍ خاصّةٍ تدلُّ على قربه منَ اللّه واصطفائِه عنده[1].

نُكتةُ استعمالِ ضميرِ الفصْلِ ﴿هُوَ﴾:

لا يُحكَمُ على أحدٍ بالضّلالِ أوِ الهدَى إلّا بدليلٍ

الضّميرُ في قولِه تعالى: ﴿هُوَ أَعْلَمُ﴾ ضميرُ الفصل؛ لإفادة قصْرِ المسندِ على المسنَدِ إليه، فالعلمُ بحال الضَّالّين والمُهتدين صفةٌ مقصُورةٌ على اللّه تعالى، لا يُشاركُهُ فيها أحدٌ[2]، ويُعضّدُ المعنى أنّ قولَه تعالى: ﴿هُوَ أَعْلَمُ﴾ اسمُ تفضيلٍ للدّلالة على أنّ اللّهَ لا يعزُبُ عن علمِه أحدٌ منَ الضّالّين، ولا أحدٌ منَ المُهتدين، وأنّ علمَهُ وسعَ الكونَ ومَن فيه وما فيه.

بلاغةُ الإيجازِ بالحذفِ في قولِه تعالى: ﴿أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ﴾:

مـن بـلاغـة القـولِ الإيجـازُ في الألـفـاظِ مع غزارةِ المعنَى

وقولُهُ تعالى: ﴿مَن يَضِلُّ﴾ فيها إيجازُ حذفٍ على تقدير المحذوف؛ إمّا حرفُ الباء ويكونُ التّقديرُ: أعلمُ بمَن يضلُّ؛ أي: هو العالمُ بمَن

(1) ابن جرير جامع البيان: 23/155.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/29.

يضلُّ، وإمّا تقديرُ فعل: يعلمُ الّذي يضلُّ، فلم يقُل: (بِمَنْ يَضِلّ)، وأثبتَها في مقام المُهتدين إبرازًا للاهتمام.

وقد جاءَت على خلاف المعهودِ الشّائعِ، من اقترانِ معمُولِ اسمِ التّفضيل بالباء[1]، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ١٢٥﴾ [النّحل: 125].

بلاغةُ تقديمِ علْمِه بـ﴿مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ على علمِه ﴿بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾:

التَّخليةُ قَبْلَ التَّحلية

قُدِّمَ ذكرُ الضّالين على المُهتدين؛ لأنّ سياقَ الآيةِ يُعالجُ قضيةَ الضّلالِ باعتبارها المحورَ في هذا السِّياق خصوصًا، وسياقِ السُّورة عمومًا، وقد انصَبّت على علاجها جُهودُ الأنبياءِ والرّسلِ، ومن جاء بعدهُم منَ العُلماء والدُّعاةِ، ثُمّ إنّ أكثرَ النّاس يعيشُون في الضّلال، مع أنّ قضيّةَ علم اللّه الّذي لا يعزُبُ عن علمِه مثقالُ ذرّةٍ في الأرض ولا في السّماء، تُؤكّدُ معرفةَ اللّه بطرائق الضّلالِ وأساليبِه، وهو القادرُ على أن يُهلكَ أهلَهُ، ويُبيدَهُم فلا تبقى لهُم باقيةٌ.

بلاغةُ الاستعارَةِ في قولِه تعالى: ﴿مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦ﴾:

تَشبيهُ الإسلامِ بالطّريقِ المحسوسِ، يَسلكُه المُهتدون، ويُعرِضُ عنه الضّالّون

في قولِه تعالى: ﴿مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ تشبيهُ الإسلامِ بالطّريق المحسوسِ، الّذي يسلكُه النّاسُ المهتدون إلى دين اللّه، العاملون بشرعِه، وهناك مَن يضلُّ عنه، فيسلكون سُبُلاً أخرى، وفي ذلك استعارةٌ تصريحيّةٌ؛ إذ صرّحَ بالمشبَّه به وهو السّبيلُ، وحذفَ المُشبّهَ وهو الإسلامُ.

بلاغةُ الكنايةِ في قوله تعالى: ﴿مَن يَضِلُّ﴾:

الوعيدُ بالكنايةِ أشدُّ منَ التَّصريحِ به

الجملةُ خبريّةٌ، تتضمّنُ الوعدَ والوعيدَ؛ فعلمُ اللّه تعالى بالضّالّ والمُهتدي مع التّكرار، كنايةٌ عن جزائِهِمَا كُلًّا بما يستحِقُّ[2]، فأهلُ الضّلال يُجَازَون على ضَلالِهِم، وأهلُ الهِدَايَةِ يُجَازَونَ على

(1) رضا، المنار: 8/15.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/213.

صَلاحِهم، وفيها كنايةٌ عنِ الإحاطة بالأمور، والمعرفةِ بخبايا المخلوقاتِ ومصائرِ العبادِ، والتّركيبُ هُنا جُملةٌ خبريّةٌ، غرضُها الوعدُ والوعيدُ[1].

نُكتةُ تكرارِ قولِه تعالى: ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ﴾:

علمُ الله شاملٌ حالَي الضَّالين والمهتدين على حدٍّ سواء

عبارةُ: ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ﴾ تكرّرَت مرّتين، وفي ذلك من توكيد علمِه ﷻ بخلْقِه، الضّالين منهم والمُهتدين على حدٍّ سواء، وفائدةُ ذلك الاحترازُ من وهمٍ أنَّ علمَ اللّه أشملُ بالضَّالين منه بالمهتدين، فكان تَكرارُ هذه الجملة لبيان تساوي العلْمِ بالحالين.

بلاغةُ اختلافِ المقابلةِ بين جملتَيْ: ﴿أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ﴾ و﴿أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾:

اللهُ أعلمُ بما يستحقُّه أهلُ الضّلالِ وأهلُ الهدايةِ

جمعَتِ الآيةُ بين حالَيْن مختلفين؛ وهما الضّالّون والمهتدون؛ وكشفَت عن شُمول علمِ اللّهِ بالنّاس جميعًا؛ إذ هم فريقان لا ثالثَ لهما؛ الضّالّون والمهتدون، وعبّرَ عنِ الضّلال بالإفراد فقال: ﴿يَضِلُّ﴾، وعنِ الهداية بالجمع فقال: ﴿بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾، وجعلَ الضّلالَ فعلًا مضارعًا ﴿يَضِلُّ﴾ فأفاد التّجددَ، وجعلَ الهدايةَ اسمًا ﴿بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ لدلالة الثّباتِ والاستقرارِ، فتنوّعَت أساليبُ المقابلةِ في الآية.

فما بين ﴿مَن يَضِلُّ﴾ و﴿بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾، ما يُحقّقُ دلالةَ الشُّمول لكلّ أصنافِ الضّلالِ وطرائقِه، ويستوعِبُ مداخِلَهَا وأساليبَهَا، وكذلك طرائقَ الهدايةِ إلى سبيله سبحانَه، وأثبتَ في الأولى شبهَ الجملة: ﴿عَن سَبِيلِهِۦ﴾، وحذفَها في الثّانية؛ وذلك لأنّ سُبلَ الضّلالِ كثيرةٌ، وسبيلَ الهدايةِ واحدٌ، وهُو سبيلُ اللّه سُبحانَه، فاقتضى السّياقُ ذكرَه؛ للتّنبيه على أنّ مسلكَ الهدايةِ إلى سبيلِ اللّه واحدٌ، لا يَقبلُ الظّنَّ ولا التّخريصَ، أمّا في الثّانيةِ فاكتفَى بذكر المُهتدين للسّببِ نفسِه، فمَنِ اهتدى فقد سارَ على الطّريقِ الصّحيحِ، وقد ذكرَ

(1) مخيمر، معجم الأساليب البلاغيّة، ص: 116.

الضّلالَ بصيغة الفعل ﴿يَضِلُّ﴾، وهُو ما يعني التّجدُّدَ والاستمراريّةَ مع الزّمن، وهذا مُنسجِمٌ معَ تَعَدُّدِ سُبلِ الضّلالِ وتنوُّعِها؛ فالّذين يَضلّونَ عن سبيل اللّه، يَتقلّبُونَ في سُبُلِ الضّلال، ثُمّ ينالُهُم ما يُرافق ذلك من اضطرابات النّفسِ والخِذلانِ، بينما ذُكرتِ الهدايةُ بصيغة الاسم؛ لتدُلَّ على الاستقرارِ والثّباتِ، فأمثالُ هَؤلاء قد سَاروا في سبيل اللّه، وهُو سبيلٌ واحدٌ، لا يتغيّرُ ولا يتبدّلُ، ثُمّ ما يُصاحبُ ذلك منَ الهُدوءِ والطُّمأنينةِ والاستقرارِ.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

السَّبيل والطَّريق:

السَّبيلُ مشتقٌّ منَ الجذر (سبَلَ) الدّالِّ على امتداد الشّيء؛ وسُمِّي السّبيلُ بذلك لامتدادِه متميّزًا بين ما حولَه من أرضٍ، مُوصلًا إلى مكانٍ آخرَ، فهو جادَّةٌ مسلوكةٌ ممتدّةٌ طولًا لاحبةٌ بما فيها، ويُطلَقُ على الطّريق الّذي فيه سهولةٌ، ويُستعمَلُ السَّبيلُ لكلّ ما يتوصّلُ به إلى شيءٍ خيرًا كان أم شرًّا، قال تعالى: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ﴾ [النّحل: 125]، وقال: ﴿وَلِتَسۡتَبِينَ سَبِيلُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ۝٥٥﴾ [الأنعام: 55]، وهو أغلبُ وقوعًا في الخيرِ، ولا يكادُ اسمُ الطّريق يرادُ به الخيرُ إلّا مُقترنًا بوصفٍ، أو إضافةٍ تخلّصُه لذلك، كقولِه تعالى: ﴿يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾[1].

السَّبيلُ أغلبُ وُقوعًا في الخيْرِ منَ الطَّريقِ

ولذلك ناسبَ ورودُ لفظِ (السّبيل) في النّظم الكريم؛ لما يحويه منَ المعاني الواسعة الممتدّة طولاً، ولوصْفِه بالسّهولة والخيرِ، وهي معالمُ تتواءمُ مع هذا الدّين القويمِ ومقاصدِه وتشريعاتِه.

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب: (سبل)، والعسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 313.

﴿فَكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ ٱسۡمُ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ إِن كُنتُم بِـَٔايَٰتِهِۦ مُؤۡمِنِينَ ١١٨﴾

[الأنعام: 118]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

مفاصلةُ أهلِ الجاهليّةِ في تحريمِ كثيرٍ منَ الحلالِ، ومخالفتُهم في عاداتِهم القبيحةِ

بين هذه الآية والآيتين السّابقة واللّاحقة تناسبٌ واضحٌ، فقد أنهى السّياقُ محاجّةَ المشركين، وأوضحَ مسالكَهم في الضّلال، وكانتِ الآيةُ السّابقةُ مذكِّرةً بعلم اللّهِ بالضّالّ والمهتدي، ثُمّ خلُصَ إلى ترسيةِ شرائعِ المهتدين، وإبطالِ شرائع المضلِّين، حتّى لا يختلطَ هذا بذاك[1]، ولذلك أمرَ المؤمنين أن يأكلوا ممّا ذُكِرَ اسمُ اللّهِ عليه، وكانتِ الآيةُ اللّاحقةُ لها، تعلِّلُ الأكلَ ممّا ذُكِرَ اسمُ اللّه عليه على أنّه جزءٌ من تفصيلِ الشّريعةِ الّتي أبانَ اللّهُ تفصيلَها في قرآنه المنزَلِ على نبيّه ﷺ.

المَعْنى الإِجْمالِيُّ:

إبطالُ العاداتِ الشِّركيّةِ منَ الذّبحِ على النُّصُب، وأكْلِ الميْتة ومثيلاتها

يأمرُ تعالى عبادَه المؤمنين بالأكل ممّا ذكّيتُم من ذبائحِكُم الّتي ذكرتُم اسمَ اللّه عليها، ممَّا ذبحَه المؤمنون بي من أهل دينِكم دينِ الحقِّ، أو ذبحَه مَنْ دان بتوحيدي من أهل الكتابِ، دون ما ذبحَه أهلُ الأوثان، ومَنْ لا كتابَ له، ذلك إنْ كُنتُم بآيات اللّه مُؤمِنين؛ أي: إنْ كُنتُم بأحكامه وأوامره آخذين، فإنّ الإيمانَ بها، يتضمّنُ الأخذَ بها، ويقتضي الانقيادَ لها، أو كنتُم ببراهين اللّهِ تعالى الواضحةِ مصدّقين[2].

وصحَّ في سبب نزولِ الآيةِ الكريمةِ عنِ ابنِ عبَّاس رضي الله عنهما، قال: أتى ناسٌ النّبيَّ ﷺ، فقالوا: يا رسولَ اللّهِ، أنأكُلُ ما نَقتُلُ، ولا نأكُلُ ما

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 8/30.

(2) ابن جرير جامع البيان: 9/511.

يَقتُلُ اللّهُ؟ فأنزَلَ اللّهُ: ﴿فَكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِـَٔايَٰتِهِۦ مُؤْمِنِينَ﴾ إلى قولِه: ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾[1].

وترشدُ الآيةُ إلى النّهي عمّا ذُبِحَ على النُّصُبِ وغيرها، وعنِ الميّتةِ وأنواعِها، فجاءَتِ العِبَارةُ أمرًا بما يُضادُّ ما قُصِدَ النّهيُ عنهُ[2].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

معنى الفاءِ في قولِه تعالى: ﴿فَكُلُواْ﴾:

الفاءُ في قولِه تعالى: ﴿فَكُلُواْ﴾ تحتملُ أن تكونَ فصيحةً، والتّقديرُ على كونها فصيحةً: إن كنتُم مؤمنين فكلوا، بدليل فاصلةِ الآية. وتحتملُ التّفريعَ؛ فقولُهُ: (فَكُلُوا) مُسَبَّبٌ عَن إنكارِ اتِّبَاعِ المُضِلِّينَ الَّذِينَ يُحَلِّلُونَ الحَرامَ، ويُحَرِّمُونَ الحَلالَ[3]، فتكونُ في مقامِ التّفريعِ عن جملةِ: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾؛ ممّا تضمّنَ إبطالَ ما ألقاهُ المشركون، من شُبهةِ الحلالِ والحرامِ منَ الذّبحِ والميتةِ على رسولِ اللّهِ ﷺ، إذ قالوا: (تَزعُمُ أَنَّ مَا قَتَلتَ أَنتَ وأَصحَابُكَ، وَمَا قَتَلَ الكَلبُ والصَّقرُ حَلالٌ أَكلُهُ، وأَنَّ ما قَتَلَ اللّهُ حَرَامٌ؟!) وهذا هو الخَرصُ الّذي قُصِدَ في الآية، النّاتجُ عن تحكيمِ الظّنِّ واتّباعِه، فجاء التّفريعُ بيانًا يردُّ على تخرُّصاتهم بالعلمِ اليقين.

الفاءُ إمّا أن تكونَ فصيحةً أو تفريعيّةً

بلاغةُ الانتقالِ من خطابِ المفرَدِ إلى خطابِ المجموعِ في قولِه تعالى: ﴿فَكُلُواْ﴾:

مضمونُ الآية اعتمدَ التّخلُّصَ من مُحاجّةِ الّذين لا يُؤمنُون بالآخرة، وبيانِ ضلالِهم، إلى تبْيين شرائعَ هي هُدًى للمُهتدين، وإبطالِ شرائعَ شَرَعها المُضلُّون، تبيينًا يُزيلُ الاشتباهَ والظُّنونَ، والتفتَ الخطابُ منَ الواحد في قولِه تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ

شريعةُ الأمّةِ تُبنَى على عقائدِ أفرادِها

(1) الترمذي، الجامع الصحيح (برقم: 3069).
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/338.
(3) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 13/128.

﴿مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦۖ﴾ وهو خطابٌ للمفردِ، والمقصودُ به النّبيُّ ﷺ صراحةً، والأمَّةُ ضِمنًا، إلى خطاب المجموع: ﴿فَكُلُواْ﴾، والمقصودُ به الأمَّةُ كلُّها، وبلاغةُ ذلك تكمنُ في أنَّ خطابَ المفردِ كان في أمر العقيدةِ، وخطابَ المجموعِ كان في أمر الشَّريعة، وشريعةُ الأمَّةِ مبنيَّةٌ على عقيدةِ أفرادِها، فإذا صلح الفردُ في اعتقادِه صلحتِ الأمّةُ في سلوكِها.

غرضُ الأمرِ في قولِه تعالى: ﴿فَكُلُواْ﴾:

الأمـرُ للإباحة في السُّلوك وللفرضِ في الكيفيَّة

في قولِه تعالى: ﴿فَكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾ خرج الأمرُ للإباحة، ولمّا قال: ﴿إِن كُنتُم بِـَٔايَٰتِهِۦ مُؤْمِنِينَ﴾، أفادَ تحريمَ أكلِ ما لمْ يُذكرِ اسمُ اللّه عليه[1]، فأمرَ بأكل ما ذُكِرَ اسمُ اللّه عليه؛ أي: ما ذُبِحَ وذُكِرَ اسمُ اللّه عليه، ونهى عن أكلِ ما لم يُذكرِ اسمُ اللّه عليه، ومنهُ: الميتةُ، وربطَ ذلك بالعقيدة والإيمان، فقال: ﴿إِن كُنتُم بِـَٔايَٰتِهِۦ مُؤْمِنِينَ﴾، ولذلك أُعقِبَت هذه الآيةُ بقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ١٢١﴾ [الأنعام: 121]، فصار مضمونُ قولِه تعالى: ﴿فَكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾ عنوانًا لجانبٍ عمليٍّ، مُشترَكٍ بين العبادةِ والإيمانِ والمُمارساتِ، وقيل: تَرجعُ حكمةُ الاهتمام بهذه المسألةِ في هذا السّياق، وقرنُها بمسائلِ العقائدِ، إلى أمرٍ آخر، وهو أنّ مُشركي العربِ وغيرَهم من أهل الملل، جعلُوا الذّبائحَ من أُمُور العباداتِ، بل نظمُوها في سلك أمورِ الدّينِ والاعتقاداتِ، فصارُوا يتعبّدُون بذبح الذّبائح قرابينَ لآلهتهم، ويُزجُونها إلى مَن يُقدّسون من رجال دينِهم، ويُهلُّون لهُم بها عند ذبحِها، فيذكُرُون أسماءَ المُتقرَّبِ بها إليهم، وهذا هو الوجهُ لذكرها في هذه السّورة، بين مسائل الكفر والإيمان[2].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/31 - 32.
(2) الموصلّي، أولى ما قيل: 3/362.

بلاغةُ التّعبيرِ بـ (مِن) في قولِه تعالى: ﴿مِمَّا ذُكِرَ ٱسۡمُ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ﴾:

الإشارةُ إلى الاختيار والتّفريق، وإلى التّقديرِ والتّخفيفِ في المأكولاتِ

لم يقُل: (فكلوا ما ذُكِرَ اسم عليه) دون (مِنْ) الجارَّة؛ وذلك أنَّ كلمةَ ﴿مِمَّا﴾ تدلُّ على الاختيار والتّفريق، فالمرادُ أن تأكلوا مما ذُكِرَ اسمُ اللّه عليه من بين ما لم يُذكرِ اسمُ اللّهِ عليه، كالميتةِ والدّم والخنزيرِ وما ذُبِحَ لغير اللّه، وهذا الاختيارُ في المطعوم يوافقُ النَّهيَ من قولِه تعالى في سورة المائدة: ﴿وَلَا تَأۡكُلُواْ مِمَّا لَمۡ يُذۡكَرِ ٱسۡمُ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسۡقٌۗ﴾ [المائدة: 3]، وأنَّ كلمةَ ﴿مِمَّا﴾ تدلُّ كذلك على التّقدير والتّخفيفِ، فالمرادُ أن تأكلوا مِن ما ذُكِرَ اسمُ اللّهِ عليه قَدْرَ حاجتِكم ولا تبالغوا في الأكل؛ فإنّ ذلك من شُكرِ نعمةِ اللّهِ وحفظِ حقوقِ البدنِ، وهذا الانتقاءُ والتّبعيضُ في المأكول يوافقُ الأمرَ من قولِه تعالى في سورة الأعراف: ﴿وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ٣١﴾ [الأعراف: 31].

نُكتةُ استعمالِ الموصولِ في قولِه تعالى: ﴿مِمَّا ذُكِرَ ٱسۡمُ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ﴾:

التَّعريضُ بما يأكلُه الجاهليُّون، وتعظيمُ الذّبائحِ الّتي ذُكِرَ اسمُ الله عليها

استعملَ الموصولَ (ما) في قولِه تعالى: ﴿مِمَّا ذُكِرَ ٱسۡمُ ٱللَّهِ﴾، الّتي تقعُ على ذواتِ ما لا يَعْقِلُ، وغرضُ التّعريفِ بالاسم الموصول هنا هو تعظيمُ شأنِ تلك الذّبائح الّتي ذُكِرَ اسمُ اللّه عليها، وتمييزُها عن غيرها؛ فهي ليسَت كالميتةِ، كما ادّعى المُخرِّصون من مشركي مكّةَ، ففيها تعريضٌ بما يأكله الجاهليُّون. ولم يقُل: (فكلوا منَ الذّبائح)، كما أنّ التّعريفَ بالموصول أفادَ الإيجازَ أيْضًا؛ فقولُه: ﴿مِمَّا ذُكِرَ ٱسۡمُ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ﴾ اختصرَ القولَ: (منَ الذّبائح الّتي أحلَّها اللّهُ لكم بذكر اسمِه عليها).

دلالةُ بناءِ فعل ﴿ذُكِرَ﴾ للمفعولِ:

مقصودُ السِّياق هو المقدَّمُ في النَّظم

بناءُ فعلِ ﴿ذُكِرَ﴾ للمفعول؛ لعدم ضرورةِ ذكرِ الفاعل؛ فحُذِفَ؛ لأنّه لا يتعلَّقُ غرضٌ بذكره، وأُتِي بنائب الفاعل؛ لأهمّيّة ذكرِه، ومحوريِّته، هذا فضلًا عن تحقُّقِ فائدةِ الإيجازِ. فحذفَ هنا الفاعلَ وهو مَن قامَ بالتَّذكِيَة، وخصَّ بالذِّكر (اسم اللّه) ممّا ذُكِرَ على

الأنعام حالَ تذكيتها؛ لعدم الحاجةِ لذكر الفاعلِ وهو المُذكّي، وسلّطَ الضّوءَ على (ذكر اسم اللّه)، فهو مقصودُ الآيةِ والسِّياقِ.

دلالةُ استعمالِ حرفِ الاستعلاءِ ﴿عَلَيۡهِ﴾:

في قولِه تعالى: ﴿مِمَّا ذُكِرَ ٱسۡمُ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ﴾: حرفُ الاستعلاء ﴿عَلَيۡهِ﴾ يُفيدُ الاستعلاءَ المجازيَّ، وهي تدُلُّ على اتّصال فعل الذِّكرِ بذات الذّبيحة، فيُذكَرُ اسمُ اللّه عليها، عند مُباشرةِ الذّبحِ.

ذِكرُ اللهِ على الذّبائح يكون عند مُباشرةِ التّذكيةِ

غرضُ الكِنَايةِ في قولِه تعالى: ﴿مِمَّا ذُكِرَ ٱسۡمُ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ﴾:

ما ﴿ذُكِرَ ٱسۡمُ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ﴾ كنايةٌ عنِ المذبُوح؛ لأنّ التّسميةَ إنّما تكُونُ عندَ الذّبح[1]، لا على غيره من قطوف الثّمارِ ونحوِها؛ ولأنّ المذبوحَ له روحٌ سوف تُزهَقُ بأمر اللّه، وبحِلِّه سبحانَه، فهو الّذي أحلّ هذا الفعلَ من أجل الإنسانِ؛ لينعمَ بأكلها؛ أمّا قطفُ الثّمار أو حصادُها فلا يكون فيها إزهاقٌ لروحٍ؛ فإن ذُكِرَ اسمُ اللّهِ عليها فهذا بابٌ للتقرّبِ إلى اللّه بالذّكر، وإنّما تجبُ التّسميةُ عندَ أكلِها.

الأمرُ بأكلِ ما ذُكِرَ اسمُ الله عليه منَ الأنعام بالتّذكية

دلالةُ استِعمالِ حرفِ ﴿إِن﴾:

قولُه تعالى: ﴿إِن كُنتُم بِـَٔايَٰتِهِۦ مُؤۡمِنِينَ﴾ تقييدٌ لاقتصار المفهوم من فعل الإباحةِ، وهو تحريضٌ على التزام ذلك، وعدم التّساهُلِ فيه، حتّى جُعِلَ من علاماتِ كونِ فاعلِهِ مُؤمنًا، وذلك حيثُ كان شعارُ أهلِ الشّرك ذِكرَ اسمِ غيرِ اللّهِ على مُعظم الذّبائح[2]، واستعملَ هنا حرفُ (إنْ) دون (إذا)، وهما يتضمّنان معنى الشّرطِ، علمًا أنّ حرفَ (إذا) هو الأوجهُ في الاستعمال؛ (إذا) تُستعمَلُ في الأمور ممكنةِ التّحقُّقِ على خلاف (إنْ) الّتي تُستعمَلُ في المُحتَمَل المَشكُوكِ فيه، وفائدةُ هذا الاستعمالِ ما يُحدثُه المعنى من تهييجٍ للمؤمنين ودعوةٍ لهم لالتزام شرعِ اللّهِ تعالى والتّمسّكِ به.

التّهييجُ للمؤمنين ودعوتُهم لالتزام شرعِ الله تعالى والتّمسّكِ به

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/31 - 32.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/32.

نُكتةُ ذكرِ قَيدِ ﴿بِـَٔايَٰتِهِۦ﴾:

ورودُ الآياتِ في هذا النّصّ كونُه دليلَ صدقِ الرّسالةِ والرّسولِ وكذبِ المعاندين

ذكرَ قيد ﴿بِـَٔايَٰتِهِۦ مُؤۡمِنِينَ﴾، ولم يقُل: (به مؤمنين)؛ لأنّه في معرضِ الحديثِ عن آيات اللّهِ ومعجزاتِ نبيِّه ﷺ، وما ذُكِرَ آنفًا منَ الآيات المقترحةِ في قولِه تعالى: ﴿وَلَوۡ أَنَّنَا نَزَّلۡنَآ إِلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَحَشَرۡنَا عَلَيۡهِمۡ كُلَّ شَيۡءٖ قُبُلٗا﴾؛ وناسبَ كذلك ذكرَ الكتابِ في قولِه: ﴿أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَبۡتَغِي حَكَمٗا وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ مُفَصَّلٗاۚ﴾.

بلاغةُ حذفِ جوابِ قولِه: ﴿إِن كُنتُم بِـَٔايَٰتِهِۦ مُؤۡمِنِينَ﴾:

الأكلُ تابعٌ للإيمانِ فإن تحقّقَ فأمرُ الأكلِ يسيرٌ

حذفَ جوابَ قولِه تعالى: ﴿إِن كُنتُم بِـَٔايَٰتِهِۦ مُؤۡمِنِينَ﴾؛ والتّقدير: إن كنتم بآياته مؤمنين فكلوا، وحُذِفَ الجوابُ (فكلوا) إيجازًا؛ لمّا صُرّح بمعناه في مَطلعِ الآيةِ في قولِه تعالى: ﴿فَكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ ٱسۡمُ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ﴾. وإيجازُ الحذفِ في الآية منحَها تنوّعَ المعاني وتبادلَ أدوارِ أدواتِ اللّغةِ دون الخروجِ عنِ السّياق العامِّ للآية، والغرضِ الشّرعيِّ للنّصّ الكريمِ، وهو أنَّ الأكلَ تابعٌ للإيمان، فإن آمنتُم فأمرُ الأكل هيِّنٌ يسيرٌ.

براعةُ شَبيه فنِّ الاحتباكِ بينَ مطلعِ الآيةِ وفاصلتِها:

مدارُ الآيةِ على جعلِ السُّلوكِ مبنيًّا على الإيمان

في مطلع الآيةِ حُذِفَ الشّرطُ، على تقدير أن تكونَ الفاءُ فصيحةً، وفي فاصلتها حُذِفَ جوابُ الشّرط: فكلوا، والتّقديرُ: (إن كنتم مؤمنين فكلوا ممّا ذُكِرَ اسمُ اللّه عليه إن كنتم بآياته مؤمنين فكلوا)، وهذا ليس احتباكًا؛ بل هو شبيهٌ له؛ لأنَّ الاحتباكَ يكون التّقديرُ منَ المقابل اللّفظيِّ لا من تقديرِ جملةٍ للفاء الفصيحة، أو جوابِ شرطٍ محذوفٍ، وهو منَ الإيجازِ والبراعةِ بمكان.

﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١١٩﴾﴾

[الأنعام: 119]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

تفصيلٌ بعد إجمالٍ لبيان علامة أهل الإيمان في مخالفة أهل الجاهليَّةِ في عاداتِهم الذّميمةِ

بعدَ أن أمر اللّه المؤمنين أنْ يأكلوا ممَّا ذُكر اسمُ اللّه عليه دون سواه من أطعمةِ الجاهليَّة، وجعلَه من مستلزَمات الإيمان تمييزًا للمؤمنين في مطعوماتِهم ومشروباتهم عنِ المشركين، ناسبَ أنْ يعطفَ مُستفهمًا على وجهِ التّقريرِ والإنكارِ منْ ألَّا يفعلوا ذلكَ[1]، وقدْ بيّنَ لَهُمُ المحرّماتِ على وجهِ التّفصيلِ، وأُزيلَ عنهمْ ما قدْ يحصلُ منْ لَبسٍ وتوهّمٍ إلّا ما كانَ اضطرارًا عِوَزًا يُخشى منهُ التّلفُ فهمْ ليسوا مؤاخَذينَ عليهِ، فمنزلةُ هذه الآيةِ منَ السَّابقة منزلةُ التَّفصيل بعد الإجمالِ، بقصدِ الإلهابِ والتَّهييج، وربطِ السُّلوك بالإيمانِ.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَصَّلَ﴾: فعلٌ مزيدٌ بتضعيفِ عينِه، والجذرُ اللّغويُّ منه (فصل)، ومعنى الفصلِ أنْ تفرّقَ بينَ شيئينِ حتّى يتباينا، والأصلُ في معنى الفصلِ أن تميّزَ شيئًا من شيءٍ؛ فيتبيّنَ أحدُهما منَ الآخرِ، فالتفصيلُ: التّبيينُ والتوضيحُ[2]، ومعنى ﴿فَصَّلَ﴾ في الآيةِ أي: بيّن لكم المحرماتِ كالميتةِ والدّم ولحمِ الخنزيرِ[3].

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/630.

(2) ابن دريد، جمهرة اللغة، والأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، والسمين، عمدة الحفاظ، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (فصل).

(3) مقاتل بين سليمان، تفسير مقاتل بن سليمان: 1/586.

2) ﴿ٱضۡطُرِرۡتُمۡ﴾: فعلٌ ماضٍ مسندٌ لضميرِ الجماعةِ، الجذرُ اللّغويُّ منهُ (ضرر) جُعلَ على صيغةِ افتعلَ (اضترّ)، فحصلَ فيهِ قلبٌ للتّيسيرِ، فصارَ (اضطرَ)، "والضَّرَرُ النُّقصانُ يدخُلُ في الشّيءِ، تقولُ دَخَلَ عليه ضَرَرٌ في مالِه" وفيه معانٍ أخرى، منه كونُه ضدَّ النّفعِ، وكلُّها تعودُ إلى المعنى الأوّلِ "والضرورةُ والضارورةُ وَاحدٌ وهو الاضطِرَارُ إلى الشَّيْءِ"، فالاضطرارُ بمعنى الإلجاءِ اضطررتُه إلى كذا، أيْ: ألجأتهُ، والاضطرارُ أصلهُ من الضّررِ وهوَ مطابقٌ لمعنى الضِّيقِ[1]، فهوَ قدْ أُلجئَ وأُكرهَ بحُكمِ الضّررِ، ومعنى ﴿ٱضۡطُرِرۡتُمۡ﴾ في الآيةِ: ما ألجأتْكُمْ شدّةُ الضّرورةِ والمجاعةِ إلى تناولِه وأكلِه[2].

3) ﴿بِأَهۡوَآئِهِم﴾: جمعٌ مكسرٌ مفردهُ (هوى)، جذرهُ اللّغويُّ (هوي)، والهوى هوى النّفسِ وما يُخالجُها منْ حُبٍّ ورغبةٍ وميلٍ إلى الشّيءِ ونحوِه، والأصلُ في الهاءِ والواوِ والياءِ دلالتُهَ على الخلوِّ والسّقوطِ، وعلاقتهُ بهوى النفسِ؛ لخلوّهِ منْ كلّ خيرٍ وأنّهُ يسقطُ بصاحبهِ إلى الهاويةِ، وما لا ينبغي أنْ يكونَ عليهِ في الدّنيا والآخرةِ[3]، والتّعبيرُ بأنّهُ من أهلِ الأهواءِ يقصدُ: لمنْ يزيغُ وينحرفُ عنِ الطريقةِ المُثلَى التي يجبُ أنْ تكونَ[4]، ومعنى ﴿بِأَهۡوَآئِهِم﴾ في سياق الآية أي: باتّباعِ أهوائِهم وشهواتِهم ورغباتِهم الخارجةِ عن حيِّزِ الدّينِ والشّريعةِ[5]؛ ممَّا تُمليه النُّفوسُ الباطنيّةُ، أو الأفكارُ الشِّركيَّةُ.

❁ المَعْنى الإِجْماليُّ:

إنكارٌ مشوبٌ بالتعجّبِ أنْ يكونَ ثمّةَ شيءٌ أوْ غرضٌ يدعوكم - أيها المسلمون - إلى تركِ الأكلِ ممّا ذُكرَ اسمُ اللّهِ عليه منَ الذّبائحِ، ولاسيّما وقدْ بيّنَ لكم حلالَه منْ حرامِه على وجهِ التّفصيلِ، أمّا ما اضطُررتمْ إليهِ فليسَ عليكمْ مؤاخذةٌ فيهِ؛ فالضّروراتُ تبيحُ المحظوراتِ، وإنّ كثيرًا منَ المشركينَ يحرّمونَ ويحلّلونَ كما تشتهي أنفسُهمْ وتبعًا لأهوائِهم وجهلًا بحكمِ اللّهِ، فهو العالمُ بالنّافعِ والضّارِّ لخلقِه؛ فمخالفتهُ اعتداءٌ

(1) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة: (ضرّ)، وابن دريد، جمهرة اللغة، وابن سيده، المخصص: 3/403، وابن منظور، لسان العرب: (ضرر).

(2) الزجاج، معاني القرآن وإعرابه: 2/287.

(3) ابن دريد، جمهرة اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، والسّمين، عمدة الحفّاظ: (هوي).

(4) المطرزي، المغرب في ترتيب المعرب: 509.

(5) المنتجب الهمذاني، الفريد في إعراب القرآن المجيد: 2/683.

ومجاوزةٌ للحدِّ، واللّهُ أعلمُ بالمتجاوزينَ في تناولِ المحّرماتِ بما يزيدُ عنِ الضّروراتِ[1].

إنكارُ تركِ أكلِ المشروعِ جملةً، وتفصيلُ المحرَّماتِ، وتحذيرٌ منَ الأهواء

وترشدُ الآية الكريمةُ إلى أنَّ الأصلَ في الأشياء والأطعمة الإباحةُ، وأنّه إذا لم يَرِد الشّرعُ بتحريم شيءٍ منها فإنّه باقٍ على الإباحة، فما سكت اللّهُ عنه فهو حلالٌ؛ لأنَّ الحرامَ قد فَصَّلَه اللّه، فما لم يفصِّلْه اللّه فليس بحرام[2].

وإلى أنَّه ليس لأحدٍ أن يتَّبع ما يحبُّه فيأمرَ به ويتّخذَه دينًا، وينهى عما يبغضُه ويذمُّه، ويتّخذَ ذلك دِينًا، إلا بهدى منَ اللّه؛ وهو شريعةُ اللّه التي جعل عليها رسولَه، ومنِ اتبع ما يهواه حُبًّا وبغضًا بغير الشّريعة؛ فقدِ اتّبع هواه بغير هدى منَ اللّه[3].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

معنى الواوِ في قولِه تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُواْ﴾:

تحتملُ الواو أن تكون للعطفِ أو الاستئنافِ

الوجه الأولُ: أنْ تكونَ للعطفِ على ما سبقَ، ويكونَ الخطابُ عامًّا للمسلمينَ[4]، وفي تأويلِ العطفِ مذهبانِ: الأول: أنَّ المسلمينَ كانوا يتحرّجونَ منْ أكلِ اللّحم تقشُّفًا وتزهُّدًا[5]، وهو رأيٌ مردودٌ كما قال الطبري: "ولا نعلمُ أحدًا منْ سلفِ هذهِ الأمةِ كفَّ عنْ أكلِ ما أحلَّ اللّهُ منَ الذبائحِ رجاءَ ثوابِ اللّهِ على تركهِ ذلكَ"[6]، والذكرُ على المأكولِ المسمَّى مرغوبٌ تذكيرًا للعبدِ بعظمتهِ تعالى وإشارةً إلى نعمهِ المتظاهرةِ.

المذهبُ الآخر في تأويل العطف:

إذا كانتِ الواوُ عاطفةً قولَه: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُواْ﴾ على قولِه:

(1) عبد القادر ملا حويش، بيان المعاني: 3/398.
(2) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 143.
(3) ابن تيمية، مجموع الفتاوى: 3/96.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 8/33.
(5) الخفاجي، حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي: 4/118.
(6) ابن جرير، جامع البيان: 12/69.

﴿فَكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ ٱسۡمُ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ﴾ من بابِ الاستطرادِ فهذا "يَقْتَضِي أَنَّ الِاسْتِفْهَامَ مُسْتَعْمَلٌ فِي اللَّوْمِ"[1] والتّقريعِ، فالحقّ ﷻ أباحَ لَهُمُ الأكلَ ممّا ذُكرَ اسمهُ عليهِ، لكنّهُم كفُّوا عن أكلِ ما شرعه اللّهُ لهم لأسبابٍ ابتدعُوها لأنفسِهِمْ ما أنزلَ اللّهُ بها منْ سلطانٍ؛ فاستحقُّوا اللّومَ والتّقريعَ.

العطفُ استطرادًا يقتضي كونَ الاستفهامِ لوْمًا وتقريعًا

الوجّه الثاني في معنى الواو من قولِه: ﴿وَمَا لَكُمۡ أَلَّا تَأۡكُلُواْ﴾:

الوجهُ الآخر: يجوزُ أنْ تكونَ جملةُ ﴿وَمَا لَكُمۡ أَلَّا تَأۡكُلُواْ﴾ مستأنفةً فيها رَدٌّ على مقالةِ المشركينَ لمّا حرّمَ الحقُّ ﷻ أكلَ المَيْتَةِ، فقالُوا لهم: "إنّكمْ تزعمونَ أنّكمْ تعبدونَ اللّهَ، فما قتلَ اللّهُ أحقُّ أنْ تأكلوا ممّا قتلتُمْ أنتمْ"[2] فجالَ في أنفسِ بعضِ المسلمينَ وتردّدوا في أكلِه فوردتِ الآيةُ ردًّا على ذلكَ.

مقصودُ الاستئنافِ الرَّدُّ على قياسِ المشركينَ بأكلِ ما قتلهُ اللهُ يَعنُونَ الميتةَ

نوعُ ﴿وَمَا﴾ وغرضُها في قولِه تعالى: ﴿وَمَا لَكُمۡ أَلَّا تَأۡكُلُواْ﴾:

(ما) في جملةِ ﴿وَمَا لَكُمۡ أَلَّا تَأۡكُلُواْ﴾ اسْتِفْهامِيَّةٌ، وهي مبتدأ على تقديرِ: وأيُّ شيءٍ يمنعكُمْ منَ الأكلِ ممّا ذُكرَ اسمُ اللّهِ عليهِ[3]، والاستفهامُ يتضمّنُ الإنكارَ على منِ امتنعَ وإفحامَه، وهو يُؤذِنُ بأنَّ أعذارَهمْ بعدمِ الأكلِ ليسَ لها ما يُسوّغُها وأنّها منقطعةٌ، وآيةُ ذلكَ أنّهُ عبّرَ عنها بـ (ما) الدّالّةِ على العُمومِ المفسّرةِ بأيِّ شيءٍ، فلا شيءَ مهما صغُرَ أوْ كبرَ يمنعُكمْ منَ الأكلِ ممّا ذُكرَ اسمُ اللّهِ عليهِ[4].

استفهاميَّةٌ مُؤذنةٌ بأنّ أعذارَ عدمِ الأكلِ قدِ انقطعتْ بالكُلِّيَّةِ

وغرضُ (ما) النَّفيُ، والمعنى: لا يثبتُ لكمُ الانتهاءُ عنِ الأكلِ ممّا ذُكّيَ بالتّسميةِ، أيْ: كلُوا ممّا ذُكرَ اسمُ اللّهِ عليهِ[5]، وفي الاستفهامِ تصويرٌ لحالِهم بانصرافِهم عمّا أباحهُ اللّهُ لهم منَ الحلالِ.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 8/33.
(2) الزمخشري، الكشاف: 2/61.
(3) مكي القيسّي، مشكل إعراب القرآن: 1/267.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/630.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 8أ/33.

معنى اللّامِ وبيانُ متعلّق الجارِّ والمجرورِ في الجملة:

اللّامُ في قولِه: ﴿لَكُمْ﴾ للاختصاص، والمتعلّقُ بمعنى الاستقرارِ، أيْ: ما استقرَّ لكمْ[1]، أيْ: أنَّ الأكلَ ممّا ذُكرَ اسمُ اللّهِ عليهِ مختصٌّ بكمْ لا بغيركمْ، فالتّسميةُ منْ خصائصِ أهلِ الملّةِ، والمشركونَ لا يفعلونَ ذلكَ.

اللّامُ للاختصاصِ وهي مُتَعَلِّقَةٌ بما في الخبرِ منَ الاستقرارِ

بلاغةُ التركيبِ في قوله: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُواْ﴾ وغرضُه البيانيُّ:

ميَّزتِ الآيةُ في قولِه تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُواْ﴾ بينَ الميتةِ والمذكَّى، وجعلت ضابطَ المذكَّى: ما ذُكرَ اسمُ اللّهِ عليهِ، وغيرُه محرَّماتٌ لا يجوز أكلُها؛ لأنَّها لم يُذكرِ اسمُ اللّه عليها، ففيه ردٌّ على المشركينَ بطريقِ التَّعريضِ[2]، فقد أعرَضَ عن حِجاجِ المُشركينَ صراحةً، وعرَّض بهم إلماحًا؛ فالخطابُ موجّهٌ إلى المسلمينَ لتقرير المأكولاتِ المشروعةِ، وإبطالِ مُحاججةِ المُشركينَ، وهذا في أعلى درجات المُحاججة الخطابيَّةِ وأرقاها التي تأتي على تقرير الأغراض، دونَ الخوضِ في التَّفاصيل.

الإعراض عن محاجةِ المشركين صراحةً والتَّعريضُ بهم إلماحًا

بلاغةُ المجازِ بالحذفِ في قولِه: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُواْ﴾:

في قولِه تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُواْ﴾ مجازٌ بالحذفِ، فالعربُ تقولُ: ما لكَ ألّا تَفْعَلَ كذا، فهو كلامٌ موجزٌ بالحذفِ والتقدير: "وَأَيُّ شَيْءٍ ثَبَتَ لَكُمْ مِنَ الفَائِدَةِ فِي تَرْكِ الأَكْلِ مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللّهِ عَلَيْهِ؟"[3]، أو على تقديرِ: وأيُّ مانعٍ يمنعُكم من أن تأكلوا ما ذكرَ اسمُ اللّهِ عليهِ، ففيه معنى اللَّوم والعتابِ الضِّمنيِّ.

اللَّومُ والعتابُ الضِّمنيُّ في خطابِ المؤمنين

وجهُ التّعبيرِ في قوله: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُواْ﴾ بأن لا، ولم يقل: لا تأكلون؟

ورد التّعبيرُ في السِّياق الكريم بكلمتَيْ: (أن لا) المدغمتين، وهما (أن) المصدريةُ، و(لا) النّافيةُ؛ لتقديم جوابِ سؤالٍ مقصودٍ، وهو:

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 8/33أ.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 8/34أ.
(3) رضا، تفسير المنار: 16/8.

ما المانعُ لكم من أن تأكلوا ممَّا ذُكر اسمُ اللّه عليه؟ فالجواب هو: لا شيءَ يمنعُكم من ذلك، بل هو واجبٌ عليكم؛ فإنَّ اللّه تعالى قد بيَّن لكم ما حرَّم عليكم منَ الأطعمة، وأباح لكم ما ذُكر اسمُه عليه منَ الذّبائح وغيرِها، إلَّا في حالة الضّرورة، ولو قيل: (وَمَا لَكُم لا تَأْكُلُون مِمَّا ذُكِرَ اسمُ اللّهِ عَلَيهِ) لكانتِ الجملةُ ناقصةً وغيرَ مفهومةٍ، فلا يظهرُ فيها الاستفهامُ منَ السّؤال، ولا يتّضحُ فيها المقصودُ منَ التّساؤل التّقريريِّ؛ لذلك فإنَّ استعمالَ (أن لا) - وهما (أن) المصدرية، و(لا) النافية - استعمالٌ دقيقٌ ومناسبٌ، يوافق معنى الآية وهدفَها، ويبيِّنُ للقارئ وللمستمع ما المطلوبُ منه تُجاه الذَّبائح المذكّاةِ وَفْق الشّرع الحنيف، وهذا أسلوبٌ قرآنيٌّ رقيقٌ يخاطب اللّه فيه العقولَ والقلوبَ بأحسنِ الألفاظ وأبلغِ المعاني[1].

ظهورُ الاستفهام منَ السّؤال، واتّضاحُ المقصود منَ التّساؤلِ التّقريريِّ

معنى ﴿مِمَّا﴾ في قولِه: ﴿مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾:

حرفُ (مِنْ) في قولِه: ﴿مِمَّا﴾ مدغمٌ معَ (مَا)، أيْ: منَ الذي ذُكرَ اسمُ اللّهِ عليهِ، فـ (مِنْ) تَبْعيضِيَّةٌ؛ لإخراجِ غيرِ المأكولِ ممّا لا يؤكلُ كالرَّوثِ والدّم، وهوَ خارجٌ بالحصرِ السّابقِ[2].

(مِنْ) للتّبعيضِ لإخراجِ غيرِ المأكولِ كالرَّوثِ والدّم

بلاغةُ اختيارِ لفظِ الذِّكرِ دونَ النُّطقِ في الآيةِ:

استُعمِلَ لفظُ الذِّكرِ في قولِه: ﴿مِمَّا ذُكِرَ﴾ مُؤثَرًا على لفظِ النّطقِ ونحوِه؛ فلم يقل: (ممَّا نُطقَ) ونحوه، وذلك لأنّهُ أبلغُ في الوصولِ إلى ما يُبتغى منَ المعنى، فالذكرُ "خُطورُ الأمرِ على البالِ قدْ يصحبهُ أنْ يخطرَ الأمرُ على اللّسانِ معَ الخطورِ على البالِ، وقدْ يظلُّ خُطورًا على البالِ فقطْ"[3]، وآيةُ ذلكَ قولُه ﷺ: «يَقُولُ اللّهُ تَعَالَى: أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، وَأَنَا مَعَهُ إِذَا ذَكَرَنِي، فَإِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ

ذكرُ اللّه عندَ التَّذْكِيَةِ حضورُ النُّطقِ باللِّسانِ والتَّذكُّرِ بالقلبِ

(1) طنطاوي، الوسيط: 5/165.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 4/259.
(3) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 7/3901.

في نَفْسِي، وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَلَإٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلَإٍ خير منهم»[1]؛ فذكرُ اللّه يكونُ في قلبِ المؤمنِ إذا نطقَ به أو لم ينطقْ، وفيه تنبيهٌ على ذكرِ اللّهِ في الأحوالِ كلِّها، وليسَ ذلكَ متعيِّنًا في لفظِ النّطقِ وما اشتُقّ منه.

غرضُ الالتفاتِ في قولِه: ﴿مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾:

التفت الخطابُ في قوله: ﴿ذُكِرَ﴾ على طريقِ الغائب، وقبلهُ خطابٌ: ﴿وَمَا لَكُمْ﴾، وسرُّ ذلكَ: تحقيقُ بلاغةِ الالتفاتِ[2] منَ الخطابِ (لكمْ) إلى الغيبةِ (ذُكرَ)، وعدلَ هنا عنْ كلامِ المخاطَبينَ إلى كلامِ الغائبينَ، وهوَ أسلوبٌ ذو خاصيَّةٍ عاليةٍ في التَّعبيرِ، ذاتِ طاقةٍ إيحائيَّةٍ، مبنيٌّ على الانزياحِ اللّغويِّ عنِ السّياقِ المعهودِ.

تنويعُ الكلامِ، وإنباهُ المقابلِ، وتطريةُ نشاطِ السّامعِ

وغرضهُ: تنويعُ الكلامِ، وإنباهُ المقابلِ، وتطريةُ نشاطِ السّامعِ وتشويقُه، فبعدَ أنْ خاطبهمْ خطابًا مباشرًا، بقرينةِ كافِ الخطابِ المارِّ ذكرُها، عدلَ عنْ ذلكَ الخطابِ، إلى التّعبيرِ بالفعلِ المبني للمفعولِ الدّالِّ على الغيبةِ، أو ما في حُكمها؛ لأسبابٍ منْها إقناعُ المُخاطَبِ، وكأنّ الخطابَ كان خاصًّا، ثُمّ انتقل إلى الأُمّة، ليكونَ حُكمًا عامًّا.

سرُّ بناءِ الفعلِ للمفعولِ في قولِه: ﴿مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾:

جاءَ بالفعلِ ﴿ذُكِرَ﴾ مبنيًّا للمفعولِ دون أن يُبنى للفاعلِ كأن يقولُ: (ممّا ذَكَرْتُمُ اسمَ اللّهِ عليهِ)، أو: (ممَّا ذَكَر المُذكِّي اسمَ اللّه عليه)، معَ أنَّ الخطابَ للمؤمنينَ، وفي التّعبيرِ بالمبني للمفعولِ والانتقالِ منَ الخطابِ المباشرِ إلى الغائبِ حثٌّ للمؤمنين على الأكلِ ممّا ذُكرَ اسمُ اللّهِ عليهِ، وهو جانبٌ من مقاصد الخطاب القُرْآنيِّ

حثُّ المؤمنين وحثُّهم على الأكلِ لعُمومِ المذكورِ اسمُ الله عليه

(1) رواه البخاري، الجامع الصحيح، كتاب التوحيد، الحديث رقم: (7405)، ومسلم، الجامع الصحيح، كتاب الذكر والدعاء الحديث رقم: (2675).

(2) هو "انصرافُ المتكلّم عنِ المخاطبة إلى الإخبار، وعنِ الإخبار إلى المخاطَبة، وما يشبه ذلك، ومنَ الالتفات الانصرافُ عن معنى يكون فيه، إلى معنى آخر"، يُنظر: ابن المعتز، البديع في البديع، ص: 152.

بالاهتمام بالهدف الأصليِّ منَ المأمورات، وهو تعظيمُ اللّه وذكرُ اسمه تعالى عند تذكية الذَّبائح؛ مفاصَلةً لما كان يقوم به أهلُ الجاهلية منَ الذَّبح لغير اللّه منَ الأنصاب والأوثان ونحوِها، دون الالتفات إلى عين المذكِّي منَ المؤمنين، ويحتملُ هذا التّعبيرُ أنه قدْ جعلَ المخاطَبينَ كأنَّهم فريقان؛ فريقٌ يأكلُ، وفريقٌ يذبحُ ويذكرُ اسمَ اللّهِ على ذبحهمْ.

بلاغةُ تكْرَارِ ﴿مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾:

في إظهارِ ما حقُّه الإضمارُ تحذيرٌ من تركِ الأكلِ وزيادةٌ في التّقريرِ

قولُه: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾ بعد قولِه: ﴿فَكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾ فيهِ تكرارٌ وإظهارُ ما حقُّهُ الإضمارُ؛ لأنّهُ مذكورٌ سابقًا فإنّهُ لوْ قالَ: (وما لكمْ ألّا تأكلوا منهُ)، لاستقامَ المعنى، إلّا أنّهُ أرادَ تكرارَ الظاهرِ تنبيهًا وتحذيرًا، فالمقامُ يستدعي التّحذيرَ من تركِ الأكلِ، وفيه زيادةٌ في التّقريرِ ولاسيّما بوجودِ اسمهِ تعالى في الجملةِ.

نوعُ الواوِ وفائدةُ دخولِ حَرفِ ﴿وَقَدْ﴾:

الواوُ للحالِ وأفادَ دخولُ (قد) التَّحقيقَ والتَّوكيدَ

جملةُ ﴿وَقَدْ فَصَّلَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ﴾ في موضعِ الحالِ[1] منْ ضميرِ المخاطَبينَ في ﴿لَكُم﴾ على تقديرِ غيرِ آكلينَ، أيْ: والحالُ: أيُّ شيءٍ يمنعُكمْ منَ الأكلِ؟ وقدْ أبانَ الحقُّ ﷻ لكم ذلكَ بيانًا مفصّلًا شافيًا يدفعُ الشكَّ ويزيلُ الشُّبهةَ[2]، واقترانُ (قد) معَ الجملةِ الحاليَّةِ ﴿فَصَّلَ﴾ سوّغهُ مجيئُها فعلًا ماضيًا؛ فإنّ الجملةَ الماضَويَّةَ إذا وقعتْ حالًا اقترنت بقدْ لتقرّبها منَ الحالِ[3].

والجملةُ الحاليَّةُ في قولِه تعالى: ﴿وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/631.
(2) القنوجي، فتح البيان: 4/228.
(3) الفرّاء، معاني القرآن: 1/24، وابن مالك، شرح التسهيل: 2/370.

عَلَيۡكُمۡ﴾ واقعةٌ بينَ أمرين، أي: أنّه محرّمٌ عليكم "في حَالِ الاخْتِيَار، وذلك حلالٌ حالَ الاضْطِرارِ"[1] في إشارةٍ إلى قولِه بعدَه: ﴿إِلَّا مَا ٱضۡطُرِرۡتُمۡ إِلَيۡهِۗ﴾.

توجيهُ القِراءاتِ القرآنيَّةِ في قولِه: ﴿وَقَدۡ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيۡكُمۡ﴾:

إسنادُ الفعلِ للفاعلِ بقصْدِ الامتنانِ، وللمفعولِ لحصولِ العلم به

اختلفَ القُرَّاءُ في قراءةِ: ﴿وَقَدۡ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيۡكُمۡ﴾ في الفعلين ﴿فَصَّلَ﴾ و﴿حَرَّمَ﴾ بينَ البناءِ للفاعلِ والبناءِ للمفعولِ، ففي قولِه: ﴿فَصَّلَ لَكُم﴾ قَرَأَ المَدَنِيَّانِ، وَالكُوفِيُّونَ وَيَعْقُوبُ بِفَتْحِ الفَاءِ وَالصَّادِ، وَقَرَأَ البَاقُونَ بِضَمِّ الفَاءِ وَكَسْرِ الصَّادِ، وفي قولِه: ﴿حَرَّمَ عَلَيۡكُمۡ﴾ قَرَأَ المَدَنِيَّانِ وَيَعْقُوبُ وَحَفْصٌ بِفَتْحِ الحَاءِ وَالرَّاءِ، وَقَرَأَ البَاقُونَ بِضَمِّ الحَاءِ وَكَسْرِ الرَّاءِ[2]، فتُقرأ الآيةُ على ثلاثةِ أوجُهٍ:

الأوّل: ﴿وَقَدۡ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيۡكُمۡ﴾، وهي قراءةُ المدَنِيَّيْن، ويعقوبَ، وحفصٍ.

الثَّاني: ﴿وَقَدۡ فَصَّلَ لَكُم مَّا حُرِّمَ عَلَيۡكُمۡ﴾، وهي قراءةُ الكوفيين سوى حفص.

الثَّالث: ﴿وَقَدۡ فُصِّلَ لَكُمۡ مَا حُرِّمَ عَلَيۡكُمۡ﴾، وهي قراءةُ ابن كثيرٍ، وأبي عمرو، وابن عامر.

وفي هذا التَّنوّع في القراءات بيانٌ بشأنِ التَّفصيلِ والتَّحريم، الذي يدور حول معنى إظهارِ فاعلِه، بغرضِ الامتنان، وإسنادِه للمفعول لحصولِ العلمِ به، وكلاهما غرضان مقصودان في هذا السِّياق.

فائدةُ تقديمِ الجارِّ والمجرُورِ وغرضُ اللَّام في قولِه: ﴿لَكُم﴾:

خصَّ اللهُ المؤمنين بنعمةِ تفصيلِ المحرَّمات بغرضِ الامتنان

قُدِّم الجارُّ والمجرورُ ﴿لَكُمۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَقَدۡ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيۡكُمۡ﴾ على معمولِ الفعلِ ﴿فَصَّلَ﴾ ﴿مَّا﴾، فقُدِّمَ ما حقُّهُ

(1) ابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 8/402.
(2) ابن الجزري، النشر: 2/262.

التأخيرُ، وفائدةُ تقديمِه: الاختصاصُ؛ وأفادت اللّامُ الامتنانَ؛ فإنَّ تفصيلَ المباحاتِ منَ المحرماتِ منَ الحقِّ ﷻ مختصّةٌ بالمسلمينَ وهو ممّا امتنّ اللّهُ به عليهم.

ولتقديمِ ﴿لَكُمْ﴾ فائدةٌ لَفْظِيَّةٌ وهيَ التّخفيفُ ومنعُ توالي الأمثالِ منَ المجروراتِ جريًا على عادةِ العربِ في منعِ توالي الأمثالِ، فلو لمْ يقدّمْهُ لأضحى التركيبُ: (وقدْ فصّلَ ما حرّمَ عليكمْ لكمْ) وفي ذلكَ منَ الثِّقلِ ما لا يخفى.

نوعُ ﴿مَّا﴾ وغرضُها في قولِه: ﴿مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ﴾:

موصولةٌ جيءَ بها لإفادةِ العمومِ

﴿مَّا﴾ في قولِه تعالى: ﴿وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ﴾ مفعولٌ للفعلِ ﴿فَصَّلَ﴾ وهي موصولةٌ[1] تفيدُ العمومَ، وآيةُ ذلكَ اقترانُها بفعلِ التّفصيلِ الدّالِّ على الشّمولِ، والمعنى: ما حرّمهُ اللّهُ تعالى عليكمْ منَ الأعيانِ والمعاني؛ فإنّها شاملةٌ لدلالتِها على العمومِ خلافَ (الذي) و(التي) منَ الأسماءِ الموصولةِ وأمثالِها الدّالّةِ على التّعيينِ.

بلاغةُ اجتماعِ حرفِ اللّامِ والاستعلاءِ في قولِه: ﴿وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ﴾:

اقترانٌ لتحقيقِ الإقناعِ العقليِّ في الإلزامِ التّكليفيِّ

اجتمعَ حرفان من حروفِ المعاني في قولِه تعالى: ﴿وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ﴾ وهما حرفُ اللّامِ الدّالِّ على التّخصيصِ، والذي يفيدُ الامتنانَ على الخلقِ، وحرف (على) المشيرُ إلى الاستعلاءِ الدّالِّ على الإلزامِ بما شرّعَ اللّهُ، وهو اقترانٌ بديعٌ مُؤْذِنٌ بالرّعايةِ والعنايةِ؛ ففيهِ تحريمٌ لأجلِنا، وإلزامٌ بما فيهِ مصلحتُنا؛ ليكونَ فعلُ التّفصيلِ إقناعًا عَقْليًّا لما فيهِ إلزامٌ تكليفيٌّ.

دلالةُ ﴿إِلَّا﴾ الاسْتِثْنائِيَّةِ في قولِه: ﴿إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ﴾:

﴿إِلَّا﴾ في قولِه تعالى: ﴿إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ﴾ اسْتِثْنائِيَّةٌ،

(1) الشنقيطي، العذب النمير: 2/218.

المحرّماتُ أنواعٌ استُثنيَ منها الضَّروراتُ

والاستثناءُ يعودُ على الضّميرِ المنصوبِ المحذوفِ منَ الفعلِ (حَرّمَ)، على تقديرِ: (ما حرّمهُ عليكم)؛ "فَإِنَّ الْمُحَرَّمَاتِ أَنْوَاعٌ اسْتُثْنِيَ مِنْهَا مَا يُضْطَرُّ إِلَيْهِ مِنْ أَفْرَادِهَا فَيَصِيرُ حَلَالًا، فَهُوَ اسْتِثْنَاءٌ مُتَّصِلٌ"[1]، وهي تدلُّ على جوازِ الأكلِ ممَّا كانَ حرامًا من بابِ الضّرورةِ التي تُقدّرُ بقدرها كوقوعِ المجاعةِ ونحوِهِ؛ بسببِ شدّةِ الجوعِ، ففي هذه الحالة يباحُ لكم أن تأكلُوا من هذه المحرَّماتِ ما يحفظُ عليكم حياتَكم.

إباحةُ المحرّماتِ للضَّرورةِ فيه بيانٌ لرحمةِ الله ورأفتِه

فإن قيلَ: ما فائدةُ التّعبيرِ بالاستثناءِ في قولِه: ﴿إِلَّا مَا ٱضۡطُرِرۡتُمۡ إِلَيۡهِۗ﴾ بعدَ التّفصيلِ فيما حرّمه عليهم بقولِه تعالى: ﴿وَقَدۡ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيۡكُمۡ﴾ وهو يُغني؛ لأنَّ التّفصيلَ شاملٌ للاستثناءِ؟ والجوابُ عنْ ذلكَ: أنَّ فائدتَهُ المبالغةُ في النّهيِ عنِ الامتناعِ عنِ الأكلِ[2] فالحرامُ يباحُ وقتَ الاضطرارِ، بخلافِ الحلالِ فإنّه لا يحرمُ قطّ، وفي ذلك بيانٌ لسَبْقِ رحمةِ اللّه غضبَه، وإباحتِه لتحريمه، ورأفتِه لعقوبته.

نوعُ ﴿مَا﴾ وغرضُ استعمالِها في قولِه: ﴿إِلَّا مَا ٱضۡطُرِرۡتُمۡ إِلَيۡهِۗ﴾:

إمَّا أن تكونَ موصولةً لتشملَ الاضطرارَ الطبيعيَّ والقهريَّ

﴿مَا﴾ في قولِه تعالى: ﴿إِلَّا مَا ٱضۡطُرِرۡتُمۡ إِلَيۡهِۗ﴾ موصولةٌ، وغرضُ استعمالِها تحقيقُ العمومِ[3]؛ ليدخلَ تحتَهُ الاضطرارُ بأنواعِه طبيعيًّا كانَ منْ خوفِ الهلاكِ والمرضِ ونحوِهِ، أم اضطرارًا قسريًّا منْ خوفِ الإهلاكِ، وفي موصوليتِها يتعيَّنُ أنْ يكونَ الاستثناءُ منقطعًا فإنَّ ما اضطرَّ إليهِ يكونُ حلالاً، وهو بذلكَ ليسَ داخلاً أصالةً تحتَ ما حرّمَ عليهمْ[4].

وإمَّا أن تكونَ مصدريَّةً دالَّةً على توقيتِ الإباحةِ بحالِ الاضطرارِ

وتحتملُ (ما) في جملةِ: ﴿إِلَّا مَا ٱضۡطُرِرۡتُمۡ إِلَيۡهِۗ﴾ أنْ تكونَ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 8/أ35.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 4/259.
(3) الموصولُ الاسميّ نوعانِ منهُ ما يدلُّ على النصِّ والتعيينِ وهوَ الذي والتي ونحوهما، ومنهُ ما يدلُّ على العمومِ والاشتراكِ وهوَ ما ومنْ ونحوهما، و(ما) في الآيةِ مِنَ الضربِ الثاني، يُنظر: ابن هشام، أوضح المسالك: 1/144.
(4) إسماعيل حقّي، روح البيان: 3/93.

مصدريةً دالّةً على التّوقيتِ[1]، والمغزى أنَّ الحقَّ ﷻ قدْ بيّنَ لكمْ ما حرّمَ عليكمْ بيانًا شافيًا في الأوقاتِ كلِّها ما خلا وقتَ الضرورةِ[2] فأباحَ لكم ذلكَ ما دامتِ الضّرورةُ قائمةً.

فائدةُ بناءِ الفعلِ للمفعولِ في قولِه: ﴿إِلَّا مَا ٱضۡطُرِرۡتُمۡ إِلَيۡهِۗ﴾:

الإغناءُ عنِ التّفصيلِ فإنَّ أسبابَ الضّرورةِ كثيرةٌ غيرُ متعيّنةٍ

بُنِيَ الفعلُ للمفعولِ في جملةِ: ﴿إِلَّا مَا ٱضۡطُرِرۡتُمۡ إِلَيۡهِۗ﴾ لبيانِ أنّهُ لوْ عُيّنَ الفاعلُ لتحدّدَ ونُصّ عليهِ، واقتضى ذلك الحصرَ، وهو غيرُ مراد، فالباعثُ على الضّرورةِ كثيرٌ غيرُ متعيّنٍ؛ فقدْ يكونُ اضطرارُهمْ إلى أكلِ المحرّمِ الجوعَ، أوِ العَدُوَّ أوِ المرضَ، أو الإكراهَ، ونَحْوَهَا منَ الأسبابِ والدّوافعِ ممّا لا يحدّهُ حصرٌ في كلِّ زمانٍ ومكانٍ؛ فورودُه بالبناءِ للمفعولِ يُغني عنْ تَعدادِهِ؛ ومنْ هنا يُفهمُ التّناسقُ اللّفظيّ في التّعبيرِ بـ (ما) الدّالّةِ على الشّمولِ والعمومِ لا النّصّ والتّعيينِ.

نكتةُ استعمالِ (إلى) دونَ اللّامِ في قولِه: ﴿إِلَّا مَا ٱضۡطُرِرۡتُمۡ إِلَيۡهِۗ﴾:

الاضطرارُ إلى الشّيءِ يأتي بعدَ جُهدٍ ومشقّةٍ بخلافِ الاضطرارِ للشّيءِ

استُعمِلَ الفعلُ ﴿ٱضۡطُرِرۡتُمۡ﴾ في قولِه تعالى: ﴿إِلَّا مَا ٱضۡطُرِرۡتُمۡ إِلَيۡهِۗ﴾ متعدّيًا بحرفِ الجرِّ (إلى) ولمْ يستعملْهُ معَ اللامِ، معَ جوازِهِ عند اللُّغويينَ بحسبِ الأحوالِ الدّاعيةِ إِلَيْهِ[3]، وليسَ على سبيلِ الإطلاقِ، واللّامُ تتعاورُ كثيرًا معَ (إلى)، لكنّهُ استعملَ حرفَ الجرِّ (إلى) الدّالَّ على الوصولِ إلى الغايةِ، والغايةُ لا بدَّ لها منْ طريقٍ مُوصلٍ، والطريقُ يقتضي جُهدًا ومشقّةً وهو المعبّرُ عنهُ بالاضطرارِ كاجتهادِهم إلى أكلِ الميتةِ عندَ المجاعةِ[4]؛ فالاضطرارُ قرينُ المشقّةِ، وذلك خلافُ التّعبيرِ باللامِ فهوَ حرفٌ يدلُّ على الوصولِ مباشرةً، وهذا غيرُ مرادٍ معَ الاضطرارِ؛ فإنَّ على المسلمِ أنْ يَتَحَرَّى

(1) الشيخ زاده، حاشية الشيخ زاده: 4/131.
(2) المظهري، التفسير المظهري: 3/281.
(3) ابن جني، الخصائص: 2/310.
(4) السمرقندي، بحر العلوم: 1/478.

الحلالَ ما وسعهُ جهدُهُ، فإنْ عجزَ بعدَ لَأْيٍ وتعبٍ جازَ لهُ الأكلُ ممّا حرّمَ اللّهُ اضطرارًا.

مَعنى الواوِ في قولِه: ﴿وَإِنَّ﴾:

تحتملُ الواوُ أن تكونَ للاستئنافِ أو العطفِ أو الحالِ

صُدِّرَتِ الجملةُ بالواوِ الدّالّةِ على الاستئنافِ في قولِه تعالى: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍۚ﴾؛ فهوَ شروعٌ في كلامٍ آخرَ منقطعٍ عمّا قبلَه؛ فقدْ ذُكرَ أنَّ عَمْرَو بنَ لُحَيٍّ هو أوّلُ منْ غيّرَ دينَ إسماعيلَ عليه السلام باتّخاذِهِ البحائرَ والسّوائبَ عنْ جهالةٍ صرفةٍ وضلالةٍ محضةٍ[1]، ففيها ذمٌّ لمن سارَ على نهجه متابعةً أو ابتداعًا.

وتحتملُ الواوُ في الجملةِ أنْ تكونَ عاطفةً، والعطفُ يؤذِنُ حينئذٍ باتّصالِ هذهِ الجملةِ بما قبْلَها اتّصالًا وثيقًا، فالذينَ يمتنعون عن أكلِ ما ذُكرَ اسمُ اللّهِ عليه، ويُحلّونَ الميتةَ بغيرِ علمٍ ولا بصيرةٍ فقدْ ضلّوا باتِّباعِ الهوى[2] لا بالنّظرِ والتّأمّلِ.

وتحتملُ الواوُ في الجملةِ أنْ تكونَ حاليةً، فيكونَ الكلامُ على نيّةِ التّعريضِ بمنْ مرّ وصفُهمْ، يُحذّرهُمْ منْ أنْ يكونوا منْ أهلِ الأهواءِ الضّالّينَ الذينَ حرّموا ما أحلّهُ اللّهُ بغيرِ علمٍ ولا هُدًى ولا بصيرةٍ[3].

غرضُ التَّوكيدِ في قولِه: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ﴾:

التَّحذيرُ من مزالقِ النَّفس، والتَّنبيهُ من أوهامِ الجهلِ

جاء قولُه تعالى: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍۚ﴾ مؤكَّدًا بأكثرَ من أداةِ تأكيدٍ، وغرضُ ذلك التَّحذيرُ منَ الوقوعِ في مستنقعِ الأهواءِ؛ فإنَّ النَّفسَ قد تُنكر وقوعَ الضَّلالِ بسببِ الهوى، ظنًّا أنَّهم يعلمون بمجرَّدِ النَّظرِ، فكان غرضُ التَّوكيد تحذيرًا من مزالقِ النَّفس، وتنبيهًا من أوهامِ الجهل.

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 13/129، والخازن، لباب التأويل: 2/151.
(2) الواحدي، الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ص: 372.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 8/أ35.

نكتةُ استعمالِ ﴿كَثِيرًا﴾ وتنكيرِها دونَ (أكثرَهم):

تحقيرُ الكثيرِ، وتشنيعُ أفعالِهم وتَقْبِيحُهَا

آثرَ النَّظمُ استعمالَ النّكرةِ ﴿كَثِيرًا﴾ على المعرفةِ من مثلِ (أكثرهم) ونحوِه في قولِه تعالى: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾؛ لأنّ المُضِلين كانوا كثيرين لا الأكثرَ، فهم الأئمةُ والرؤساءُ؛ لأنّ الأتباعَ منهم كانوا لا يُضِلون الناسَ، بل تبعٌ لساستهم؛ إنّما الذي يُضلُّ الكبراءُ منهم والعظماءُ[1]، كما قال اللّه عنهم: ﴿وَبَرَزُواْ لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ قَالُواْ لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴿٢١﴾﴾ [إبراهيم: 21]، وقال: ﴿وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِى ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴿٤٧﴾﴾ [غافر: 47]؛ فالتّنكيرُ يدلُّ على تحقيرِ أولئك الكثيرِ، وتشنيعِ أعمالِهم، وتقبيحِ أفعالهم، وفيه تحذيرٌ من اتِّباعهم.

نكتةُ حذفِ متعلِّقِ ﴿كَثِيرًا﴾:

التّوسّعُ في تقديرِ المحذوفِ تكثيرًا للمعاني

حُذِفَ متعلّقُ ﴿كَثِيرًا﴾ في قولِه تعالى: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ﴾ فلمْ يقلْ: (كثيرًا منَ الناسِ) أوْ نحوَهُ؛ قصدًا للتّوسّعِ في تقديرِ المحذوفِ، وتكثيرًا للمعاني، ولأنَّ حذفَ المتعلّقِ يفيدُ تعميمَ المَعْنَى المناسبِ لهُ، فقدْ يكونُ منَ الرؤساءِ، أو من أدْعياءِ العلم، أو منَ المنافقين، أوْ منْ غيرِهمْ ممَّن يحتملُهم النَّصُّ، وفيه تعريضٌ بهم بعدمِ النَّصِّ عليهم في زمن النُّزولِ.

توجيهُ القِراءاتِ القرآنيَّةِ في قولِه: ﴿لَّيُضِلُّونَ﴾:

الضَّالُّ خادمٌ للمُضلِّ، والمضلُّ خادعٌ للضَّالِّ

في قولِه تعالى: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ قرأَ الكوفيونَ الفعلَ ﴿لَّيُضِلُّونَ﴾ بضمّ اليَاءِ، وقرأَ الباقونَ بالفتحِ

(1) الماتريدي، تأويلات أهل السنّة: 4/243.

﴿لَّيَضِلُّونَ﴾[1] فقراءةُ الضمِّ على معنى أنّهمْ يُضلونَ غيرَهم، وقراءةُ الفتحِ على معنى أنّهمْ ضالونَ في أنفسِهمْ، وفي القراءتينِ تكاملٌ في المعنى والدلالةِ؛ فالمُضلُّ ضالّ في نفسِه، مُضلٌّ لغيرِه، والضالّ ضالٌّ في نفسِه، وقد يكون أحيانًا مُضلًّا لغيرِه، وكلا الحالين مذمومٌ؛ لأنَّ الضَّالَّ خادمٌ للمُضلِّ، والمُضلُّ خادعٌ للضَّالِّ، ويتبرَّمُ كلٌّ من الآخر، ويتبرأ الرؤساءُ المتبوعون ممَّن اتبعهم على الشرك، وتنقطعُ بينهم كلُّ الصِّلات التي ارتبطوا بها في الدنيا: من القرابة، والاتِّباع، والدِّين، وغير ذلك، كما قال الحقُّ سبحانه: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾﴾ [البقرة: 166].

معنى الباءِ في: ﴿بِأَهْوَآئِهِم﴾ وفي: ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾:

وردَ حرفُ الباءِ مرَّتين في قولِه تعالى: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ فتارةً اقترنَ ﴿بِأَهْوَآئِهِم﴾ المفيدِ لمعنى السببية، فضلالهُم وإضلالهُم حاصلٌ بسببِ أهوائِهم، وتارةً اقترنَ ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ والباءُ هنا للملابسةِ؛ فإنّهم يُضلّونَ منقادينَ للهوى ملابسينَ لِعَدَمِ العلمِ وانتفائِه عنهُم[2].

ضلالُهم حاصلٌ بمدعاةِ انقيادِهم لأهوائِهم وبمُلَابَسَتِهِمُ الجهلَ

دلالةُ جمعِ الهوى في قولِه تعالى: ﴿بِأَهْوَآئِهِم﴾:

وردَ جمعُ الهوى على (أَهْواءٍ) في قولِه تعالى: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ ولمْ يقلْ: "بهواهُم" مثلاً، معَ أنّهُ شاملٌ مَعْنَى الجمعِ؛ وذلك أنَّ جمْعَهُ هذا الجمعَ فيهِ إشارةٌ إلى تعدّدِ الهوى؛ فلكلّ واحدٍ منهمْ هَوًى غيرُ هَوَى الآخرِ، بخلافِ ما لو أفرد الهوى، ففيهِ إيماءٌ إلى أنَّ أهواءَهمْ كالهَوَى الواحدِ، فدلَّ جمعُ أهوائهم على أنَّها متساويةٌ أو كالمتساويةِ، بملاحظة رُتبة ضلالة كلٍّ

تعدُّدُ الأهواءِ دليلٌ كثرةِ أسبابها القلبيَّةِ والفكريَّةِ

(1) ابن الجزري، النشر: 2/262.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 8/36.

منهم، ثمَّ إنَّ هوى كلِّ واحدٍ منهمْ غيرُ متناهٍ، واتّباعُهمْ على ذلكَ مُنْتَهَى الحيرةِ والضّلالِ[1].

سرُّ التَّعبيرِ بقولِه: ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ نفيًا دونَ إثباتِ الجهلِ:

تلطُّفُ الخطابِ مع إقرارِ الحقِّ في شأنِ الجهلةِ الضَّالِّين

آثر النَّظمُ الكريمُ استعمالَ: ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ في قولِه تعالى: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ دون أن يقول: (بجهلٍ) أوْ (عنْ جهلٍ)، وسرُّ ذلكَ أنّهُ أرادَ منَ التَّعبير: ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ تَلْطيفَ الخطابِ في حقِّ المضلِّين والضَّالين، ثمَّ إنَّهم يدَّعون العلمَ، فأراد نفيَ ذلك عنهم "فِي أَمْرِ الذَّبْحِ، إِذِ الحِكْمَةُ فِيهِ إِخْرَاجُ مَا حَرَّمَهُ اللّهُ عَلَيْنَا مِنَ الدَّمِ بِخِلَافِ مَا مَاتَ حَتْفَ أَنْفِهِ"[2]، وهذه هي الحكمةُ من تشريعِ الذكاةِ أن تكونَ في محلٍّ مخصوصٍ، أيْ أنّ تكونَ عالمًا بالقضيةِ فيعدلُ بك هواك عنِ الحقيقةِ ظلمًا وعدوانًا.

دلالةُ التَّنكيرِ في قولِه: ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾:

الإعراضُ عنِ العلمِ سبيلُ الوقوعِ في الزّلل والضّلال

في تنكيرِ كلمةِ ﴿عِلْمٍ﴾ في قولِه تعالى: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ دلالةٌ على التَّقليل، أي بغير أدنى حظٍّ منَ العلم؛ للإشارةِ إلى أنّ افتقادَهم العلمَ واعتمادَهم على أهوائِهم زللٌ كبيرٌ.

دلالةُ تذييلِ الآيةِ بقولِه: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُعْتَدِينَ﴾:

علمُه تعالى بالمعتدينَ كنايةٌ عنِ التّهديدِ والوعيدِ

قولُه تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُعْتَدِينَ﴾ تذييلٌ للآيةِ بالإخبارِ عن علمِه تعالى بالمعتدين وما في قلوبِهم وسرائِرهم منَ التّعدّي ونُصرةِ الباطلِ، فإذا كانَ عالمًا سبحانه بأحوالِهم فهو قادرٌ على مجازاتِهم، فهي كلمةٌ يُقصدُ منها التّهديدُ والوعيدُ[3]، وهذا التَّذييلُ أشبهُ بالكناية عنِ الوعيد.

(1) الراغب، المفردات: (هوى)، وعضيمة، دراسات لأسلوب القرآن الكريم: 7/339.
(2) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 7/73.
(3) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 13/130، وابن عطية، المحرر الوجيز: 2/339.

غرضُ التَّوكيدِ في قولِه: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ﴾:

زعزعةُ الإنكارِ للوعيدِ الشَّديدِ اللَّاحقِ بالمُعْتَدينَ

في قولِه تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُعْتَدِينَ﴾ أكّدَ الجملةَ بغيرِ مؤكِّدٍ واحدٍ؛ فقدْ أكّدَ الحقُّ ﷻ علمَهُ باعتدائِهمْ فذكرَ "أنّهُ ربُّ كلِّ شيءٍ، والربُّ يعلمُ بمنْ خلقَ وربّى، وأكّدهُ بضميرِ الفصلِ ﴿هُوَ﴾، وهذا يدلُّ على أنّهُ وحدَهُ العليمُ بالمعتدينَ، وأكّدهُ بـ ﴿إِنَّ﴾، وهذا فيهِ إنذارٌ شديدٌ للمعتدينَ"[1]، وغرضُ التَّوكيد زعزعةُ الشَّكِّ والإنكارِ للوعيدِ الشَّديدِ اللَّاحقِ بالمعتدين.

فائِدةُ إيثارِ عنوانِ الرُّبوبيّة وإضافتِه لضميرِ المخاطَبِ التفاتًا في قولِه: ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾:

في الالتفاتِ إشعارٌ بأنّ ضلالهَمْ يقتضي أنْ يضربَ الخطابَ عنهمْ صفحًا

جاءَ التَّعبيرُ بقولِه: ﴿رَبَّكَ﴾ بإضافتِه إلى ضميرِ المخاطبِ العائدِ عليهِ ﷺ؛ فذيّلَ الآيةَ التفاتًا من خطابِ المؤمنينَ إلى خطابِ الرسولِ ﷺ خاصّةً؛ كأنَّه قال: إنَّ ربّكَ الذي فصّلَ لكَ الحرامَ منَ الحلالِ، وجعلَ الهدايةَ لهمْ عنْ طريقِكَ لَهو أعلمُ منكَ ومنهمْ بمنِ اعتدى وتجاوزَ ما أحلّهُ اللّهُ إلى ما حرّمهُ عليهمْ حالَ الاختيارِ وحالَ الاضطرارِ[2].

بلاغةُ المجازِ بالحذفِ في قولِه: ﴿بِٱلْمُعْتَدِينَ﴾:

صفةُ الاعتداءِ هي المقصودةُ بالذَّمِّ بقطعِ النَّظرِ عن مرتكبِيها

آثرتِ الآيةُ التّعبيرَ بوصفِ المعتدينَ في قولِه تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُعْتَدِينَ﴾ دونَ ذكرِ الموصوفِ، فلم يقلْ: (بالقومِ المعتدين)، وهو مجازٌ بحذفِ الموصوفِ وإقامةِ الصّفة مقامَه، وسببُ ذلكَ تسليطُ الضّوءِ على شناعةِ الصفةِ وبشاعةِ المرتكبِ بقطعِ النّظرِ عن أصحابِها، فقد غدا الاعتداءُ وصفًا ملابسًا لهم إشراكًا منهم وتحريمًا للطّيباتِ التي أحلّها اللّهُ[3].

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 5/2648.
(2) رضا، تفسير المنار: 8/18.
(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 5/2648.

دلالةُ استِعمالِ وصفِ ﴿بِٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾ دونَ غيرِه:

عِظَمُ اعتداءِ من نازع الله في التّشريع

اختيارُ وصفِ ﴿بِٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾ من بينِ أوصافٍ كثيرةٍ كالظالمينَ أو المجرمينَ أو المفسدينَ أو نحو ذلكَ؛ فلأنَّ دلالةَ "المعتدينَ" أليقُ بالسِّياقِ وأنسبُ لهُ؛ فإنّ الاعتداءَ الواقعَ هنا اعتداءٌ على حقِّ اللّهِ تعالى في التّشريعِ فيما أحلَّه وما حرَّمهُ وهو نصّ فيه؛ فالتّعبيرُ بهذا الوصفِ (المعتدين) جاءَ لتقريرِ أنَّ التَّشريعَ حقٌّ للّه وحدَه، وأنَّ من أقدمَ عليه فإنَّما أقدمَ على بُهتانٍ عظيمٍ، واعتداءٍ أثيم.

وسببُ تسميةِ الحقِّ ﷻ لهم ﴿بِٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾ أنّهم تقلّدوا الضّلالَ من غيرِ حُجّةٍ ولا برهانٍ، وكانَ اعتداؤهم على أنفسِهم أوّلًا وعلى من وافقَ دعوتَهم ممّا هو على شاكلتِهم[1].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

التّفصيل والتّبيين:

التفصيلُ مزيدُ بيانٍ وتوضيحٍ والتّبيينُ يكونُ بعد لَبسٍ ووهمٍ

التّفصيلُ مصدرُ الفعلِ (فصّلَ) كقولِه تعالى: ﴿وَقَدۡ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيۡكُمۡ﴾ و"في التّفصيلِ معنى البيانِ عن كلّ قسمٍ بما يزيدُ على ذكرِه فقط"[2]، ففيه مزيدُ بيانٍ وتوضيحٍ، أمّا التّبيينُ فهو العلمُ الذي يقعُ بعدَ اللَّبسِ والإيهامِ[3]، وعلى ذلكَ فالتّفصيلُ أليقُ وأنسبُ في الآيةِ لمزيدِ الإيضاحِ فيما حرّمه عليهم؛ وبخاصة أنَّ سياقَ الآيات في هذه السورة جاء بوصف القرآن بأنه مفصَّل، كما قال تعالى: ﴿أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَبۡتَغِي حَكَمٗا وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ مُفَصَّلٗاۚ﴾ [الأنعام: 114]، ولأنّ هذا الكتابَ جاءَ في عموم وصفه مفصّلًا، قالَ تعالى: ﴿كِتَٰبٞ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ﴾ [فصلت: 3]، ثمّ إنّ اللَّبسَ والإيهامَ المقترنَين بالتّبيينِ غيرُ واردَين في حقّه تعالى.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 8أ/36.
(2) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 134.
(3) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 371.

الأهواء والشّهوات:

الأهواءُ مختصّةٌ بالاعتقاداتِ، والشّهواتُ متعلقةٌ بنيلِ المستلذّاتِ

الفرقُ بينَ الأهواءِ والشّهواتِ أنَّ الهوى مختصٌّ بالاعتقادِ وما تميلُ إليهِ النّفسُ منْ غيرِ أنْ يُسنَدَ ذلكَ إلى دليلٍ شَرْعِيٍّ، أمّا الشهواتُ فهيَ مختصّةٌ بنيلِ الملذاتِ[1] ولا سيّما الملذاتِ الحسّية؛ لقولِه تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلۡبَنِينَ﴾ [آل عمران: 14]، والشّهوةُ تَوقانُ القلبِ وهيَ متعلقةٌ بما يلذُّ منَ المدرَكاتِ الحسّيةِ، والواردُ في قولِه تعالى: ﴿وَإِنَّ كَثِيرٗا لَّيُضِلُّونَ بِأَهۡوَآئِهِم بِغَيۡرِ عِلۡمٍۚ﴾ متعلّقٌ بالاعتقاداتِ فقدْ أنكرَ عليهمْ إضلالَ الناسِ بغيرِ أدنى عِلمٍ، والعلمُ أمرٌ معنويٌّ اعتقاديٌّ، فالتّعبيرُ بالأهواءِ جاءَ متناسبًا معَ أفعالِهمُ المنطلقةِ ممَّا قرَّ في نفوسهم أشدَّ المناسبةِ.

الاعتداء والظّلم:

إضلالُ النّاسِ باتّباعِ الهوى اعتداءٌ ومجاوزةٌ للحدّ

الاعتداءُ افتعالٌ منَ العدوانِ وهو الظّلمُ الصُّراحُ وتجاوزُ الحدّ[2]، وقدْ وصفَ اللّهُ الذينَ يُضلّونَ النّاسَ باتّباعِهمْ أهواءَهمْ بـ(المعتدينَ)، وهو وصفٌ دقيقٌ مناسبٌ لسياقِه؛ فإنَّ إضلالَ الناسِ فيهِ تجاوزٌ لحدِّ حقِّ اللّهِ تعالى في التّشريعِ فيما أحلَّه وما حرَّمهُ، أمّا الظّلمُ فهوَ وضعُ الشّيءِ في غيرِ الموضعِ الذي يختصُّ بهِ بنقصٍ أوْ زيادةٍ أوْ بأنْ يعدلَ عنْ وقتِه أوْ زمانِه[3]، فالظّلمُ ضررٌ لا يستحقُّ عِوَضًا منَ السّلطانِ أوِ الحاكمِ، فلا يحسنُ وصفُ أولئكَ المضلّينَ بالظالمينَ؛ فإنَّ جُرمَهمْ أكبرُ منْ وضعِ الشّيءِ في غيرِ موضعِه.

(1) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 562.
(2) ابن منظور، لسان العرب: (عدا).
(3) الراغب، المفردات: (ظلم).

﴿وَذَرُواْ ظَٰهِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَبَاطِنَهُۥٓۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡسِبُونَ ٱلۡإِثۡمَ سَيُجۡزَوۡنَ بِمَا كَانُواْ يَقۡتَرِفُونَ ١٢٠﴾ [الأنعام: 120]

مُنَاسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

بيانُ الأحكامِ التي يلحقُها الاستثناءُ منَ الأحكامِ التي لا استثناءَ فيها

لمّا بيّنَ الحقّ ﷻ في الآيةِ السابقةِ أنّهُ فصّلَ المُحَرَّماتِ إلّا ما اضطُرّوا إليهِ، أتبعهُ بما يجبُ تركهُ بالكلّيةِ وهي الذّنوبُ الظّاهرةُ وهو ما يقترفهُ الإنسانُ بجوارحِه، والباطنةُ وهو ما يَنْويهِ ويقصدهُ بقلبِه[1]، فالمناسبةُ بين الآيتين بيانُ الأحكام التي يلحقُها الاستثناءُ منَ الأحكامِ التي لا استثناءَ فيها، بغرضِ بناءِ الشَّخصيَّة المنضبطةِ بشرعِ اللّه تعالى، وعدمِ تجاوُزِ حدوده.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَذَرُواْ﴾: فعلُ أمرٍ مسنَدٌ إلى وَاوِ الجماعةِ، الجذرُ اللّغويّ منهُ (وذر)، والفعلُ الماضي منهُ متروكٌ، أماتتهُ العربُ وأبقتِ الحاضرَ والأمرَ، وهوَ بمعنى التّركِ؛ ولذلكَ استغنَوْا بالفعلِ (تركَ) عنِ الفعلِ (وذرَ)، وسُمعَ المصدرُ (وذرٌ)، و"يقالُ: فلانٌ يذرُ الشّيءَ، أيْ: يقذفهُ لقلّةِ اعتدادِه بهِ"، فقدْ فُسِّرَ قولهُ: ﴿ثُمَّ ذَرۡهُمۡ فِي خَوۡضِهِمۡ يَلۡعَبُونَ ٩١﴾ [الأنعام: 91] بمعنى القذفِ والإلقاءِ والتّركِ فلا يعتدُّ بهم ولا يبالَى لهم[2]، ومعنى ذروا ظاهرَ الإثمِ وباطنَه: اتركوا هذينِ الأمرينِ[3] فهو على معناهُ في لسانِ العربِ.

2) ﴿ظَٰهِرَ﴾: اسمُ فاعلٍ، جذرهُ اللغويّ (ظهر)، والمصدرُ منهُ الظّهورُ وهو البدوُّ وخلافُ البطنِ، وهوَ ضدّ الاستتارِ، والظّاءُ والهاءُ

(1) ابن عادل، اللباب في علوم الكتاب: 8/403.
(2) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، والراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، والسمين، عمدة الحفاظ: (وذر).
(3) الشنقيطي، العذب النمير: 2/225.

والرّاءُ أصلٌ يدلُّ على "قُوَّةٍ وَبُرُوزٍ، مِنْ ذَلِكَ: ظَهَرَ الشَّيْءُ يَظْهَرُ ظُهُورًا فهو ظَاهِرٌ، إِذَا انْكَشَفَ وَبَرَزَ"، والظّهورُ هو عدمُ الخفاءِ فيمكنُ الوقوفُ عليهِ ومعرفتُه لبروزِه، وسمّيت الظهيرةُ كذلكَ لوضوحِها، ويستعملُ الظّهورُ في الأمورِ المادّيةِ والمعنويةِ كقولهمْ: ظهرَ أمرُ اللّهِ "أيْ: بدا ما وعدَ اللّهُ بهِ رسولَهُ والمؤمنينَ منَ النّصرِ، وفشا دينُ الإسلامِ". وظاهرُ الإثمِ ما يعمُّ منَ المعاصي والمحرّماتِ، كالشّركِ ونكاحِ المحرّماتِ والطّوافِ عرايًا[1]، وظواهرُ الإثمِ هي المعاصي التي تكونُ بالجوارحِ[2].

3) ﴿وَبَاطِنَهُۥٓ﴾: اسمُ فاعلٍ، جذرهُ اللّغويُّ (بطن)، والبطنُ خلافُ الظّهرِ وهو ما غَمَضَ منَ الأرضِ، "وَبَاطِنُ الأَمْرِ دَخْلَتُهُ، خِلَافُ ظَاهِرِهِ، وَاللّهُ تَعَالَى هو البَاطِنُ؛ لِأَنَّهُ بَطَنَ الأَشْيَاءَ خُبْرًا"، وما لا تدركهُ الحاسّةُ ويخفى عليها يُسمّى بطنًا، ويكونُ البطنُ في المعاني ما يحتاجُ إلى تفسيرٍ وتبيينٍ، وسائرُ ما وردَ في القرآنِ الكريمِ هو على مَعْنَى الخفاءِ[3]، والمعنيُّ بباطنِ الإثمِ معصيةُ اللّهِ في سرّهِ، وفُسِّرَ بأنّهُ الزّنا[4].

4) ﴿يَقْتَرِفُونَ﴾: فعلٌ للحالِ أَوِ الاستقبالِ مسندٌ إِلَى وَاوِ الجماعةِ، جذرهُ اللّغويّ (قرف)، وقَرَفُ الشّيءِ: القشرُ أَوِ الغلافُ الملاصقُ لهُ، ومنهُ أُخِذَ مَعْنَى الملابسةِ والملاصقةِ، والقرَفُ في الشّيءِ: الوقوعُ فيهِ ومنهُ اقترافُ الذّنبِ، أيْ: فعلهُ وإتيانهُ، والقافُ والرّاءُ والفاءُ أصلٌ يدلُّ على المخالطةِ والالتباسِ بالشّيءِ فيكونُ بمعنى الاكتسابِ؛ لأنَّ فيهِ ملابسةً وادّراعًا، "والاقترافُ في الإساءةِ أكثرُ استعمالًا؛ ولهذا يقالُ: الاعترافُ يزيلُ الاقترافَ، وقرفتُ فلانًا بكذا: إذا عبتهُ بهِ أَوِ اتّهمتهُ "وهوَ أيضًا المقاربةُ والملاصقةُ. ومعنى: يقترفونَ: يعملونَ ويتعاطَوْنَ الذّنوبَ[5]، واقترافُهم اكتسابُهم لها في الدنيا[6].

(1) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، والسمين، عمدة الحفاظ، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (ظهر).

(2) سهل التستري، تفسير التستري، ص: 62.

(3) ابن دريد، جمهرة اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، والزبيدي، تاج العروس، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (بطن).

(4) ابن جرير، جامع البيان: 12/72.

(5) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، والسمين، عمدة الحفاظ، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (قرف).

(6) البغوي، معالم التنزيل: 3/183.

المَعْنى الإجْماليُّ:

يأمرُ الحقُّ ﷻ عبادَهُ المؤمنينَ أنْ يجتنبُوا المعاصيَ جميعًا، وأنْ يجانبوا اقترافَها في العلنِ وفي السّرِّ، ثمَّ أخبرَ أنَّ منْ خالفَ أمرَ اللّه واكتسبَ الإثمَ فسوفَ يَجزيهِ الجزاءَ الأوفى؛ طباقَ ما اقترفَ منَ المعاصي والذنوبِ.

المؤمنُ الحقُّ منْ هجرَ ظاهرَ الذّنوبِ وباطنَها؛ فإنَّ اكتسابَ الإثمِ مصيرهُ الجزاءُ الوخيمُ

وترشدُ الآية الكريمةُ إلى أنه لا يتمُّ للعبد تركُ المعاصي الظّاهرةِ والباطنة إلا بعد معرفتها والبحثِ عنها، فيكونُ البحثُ عنها ومعرفةُ معاصي القلب والبدن والعلمُ بذلك واجباً متعيِّناً على المكلَّف[1].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

معنى الواو في قولِه تعالى: ﴿وَذَرُواْ ظَٰهِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَبَاطِنَهُۥٓۚ﴾:

الواوُ في قوله تعالى: ﴿وَذَرُواْ ظَٰهِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَبَاطِنَهُۥٓۚ﴾ إمَّا أن تكون اعتراضيَّةً، والمعنى أنَّ تركَ الإثم هو مناطُ الزّهدِ والتّقرّبِ إليهِ تعالى لا تركَ المباحِ[2]، وهو نظيرُ قولِه تعالى: ﴿۞لَّيۡسَ ٱلۡبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ قِبَلَ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ﴾ [البقرة: 177].

الواوُ إمَّا اعتراضيَّةٌ للبيانِ والاحتراز، وإمَّا عاطفةٌ للإنشاءِ على مثيلِه

وإمَّا أن تكون عاطفةً أمرَ تركِ ظاهرِ الإثم وباطنه، على قوله: ﴿فَكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ ٱسۡمُ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ﴾، من قَبيل عطفِ الإنشاءِ الطّلبيِّ على مثله، فأمرهم أوَّلًا بالأكلِ منَ المشروعِ، ثم أمرهم بترك المحرّمات جملةً.

غرضُ الأمرِ في قولِه تعالى: ﴿وَذَرُواْ ظَٰهِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَبَاطِنَهُۥٓۚ﴾:

تصدّرَ فعلُ الأمرِ (ذروا) قولَه تعالى: ﴿وَذَرُواْ ظَٰهِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَبَاطِنَهُۥٓۚ﴾، ومعنى الفعلِ (ذروا) هنا اتركوا ولا تخالطوا، ومرادُ الفعلِ هنا النّهيُ عنْ أنْ يُقدمَ الإنسانُ على ارتكابِ الإثمِ، وليظهرَ أنَّ المسوّغَ في ذلكَ التّركِ هوَ خشيةُ اللّهِ تعالى لا خوفُ الناسِ[3].

تركُ الإثمِ غايتهُ الخوفُ منَ اللهِ لا منَ الناسِ

(1) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 143.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 8/أ37.
(3) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 13/130.

بلاغةُ التّعبير بقوله تعالى: ﴿وَذَرُواْ ظَٰهِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَبَاطِنَهُۥٓۚ﴾، وتخصيصِ الفعل: (ذروا):

المطلوبُ هو التّخلصُ من ذات الإثم بالمبادرة والإسراع

يثيرُ التّأمّلُ في الإعجاز البلاغي للقرآن الكريم، وجوهَ الدِّقة والجمال في اختيار الألفاظ والتّراكيب، فقد استُخدم هنا فعلُ الأمر: ﴿وَذَرُواْ﴾، الدالُّ على ترك كلّ ما هو حرام أو مكروه، سواء كان معلومًا أو خفيًّا، وسواء كان في القول أو في الفعل أو في النية، دون التعبير بالفعل: (اتركُوا)، أو (دعُوا)، ونحوهما منَ الألفاظ المقاربة له في المعنى؛ وذلك أنَّ لفظ (ذروا) يدلُّ على المبادرة والإسراع في التّخلّص منَ الإثم، فلا يتأخَّر المؤمن عن تركه ولا يتردَّد فيه، بل يبادر إلى ذلك بقوة وحَمَاسَةٍ، وهذا يختلف عن لفظ (اتركوا) أو (دعوا)، فإنّهما يدلّان على المزايلة والبُعد، ولكن لا يشترط فيهما السّرعةُ والحزم. ويومئُ فعلُ ﴿وَذَرُواْ﴾ إلى الحذر والتّوقّي من الإثم، فلا يقتربُ المؤمنُ منه، ولا يجعلُ له موطئَ قدمٍ له في قلبه أو جوارحه، بل يُزيلُه بعيدًا عن نفسه ويستعيذُ باللّه منه؛ لذلك اختير هذا الفعلُ بحكمة ودقّة وعنايةٍ، فإنّه يحملُ معانيَ لا يحملُها غيرُه منَ الأفعال، فقد سُبِك في النَّظم ليوافقَ مقصودَ الآية منَ التّحذير منَ الإثم والحثِّ على التّقوى، وهو ما لا يحملُه - مثلًا - قولُ: "اتركوا ظاهر الإثم وباطنه"؛ لأنَّ التّرك قد يكون بسبب ضعفٍ أو خوفٍ أو حيلةٍ، فأخبر سبحانه أنَّ المطلوبَ هو التّخلّصُ من ذات الإثم كيفما كان، وبأيِّ صفة تلبَّس.

حكمةُ تقديم لفظِ ﴿ظَٰهِرَ﴾ على ﴿بَاطِنَهُۥٓۚ﴾:

وجوبُ التّخلّص من ظواهر المحرّم، وُصولًا إلى بواطنِه

إنَّ تقديمَ لفظِ ﴿ظَٰهِرَ﴾ على ﴿بَاطِنَهُۥٓۚ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَذَرُواْ ظَٰهِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَبَاطِنَهُۥٓۚ﴾ ترتيبٌ مقصودٌ؛ وذلك أنَّ لفظ ﴿ظَٰهِرَ﴾ يدلُّ على أوّليات التَّرك في التّخلّص منَ الإثم، فإنَّ المؤمن يجبُ أن يبدأ بترك ما هو ظاهرٌ منَ الإثم، فإنّه أشدّ ضررًا على نفسه وعلى

المجتمع، وأكثرُ انتشارًا وتأثيرًا، فإذا ترك المؤمن ظاهرَ الإثم، فقد قطع سبيلَه إلى باطنه، وسهَّل على نفسه وروَّضها على التّخلّص منه؛ فالتّقديم لظاهر الإثم دليلٌ على أوّلية التّخلّص من ظواهر المحارم، وأنَّ لفظَ ﴿ظَٰهِرَ﴾ يدلُّ على التّدرّج والتّسلسلِ في التّخلّص منَ الإثم، فإنَّ المؤمن يسيرُ في طريق التّقوى بخطوات متواليةٍ ومتّزنةٍ، فلا يقفز من حال إلى حال، ولا يتخطَّى من درجة إلى درجة، بل يبدأ بأسهلِ ما عليه منَ التّخلّص منه منَ الآثام، وهو ظاهرُها، ثم ينتقلُ إلى أصعبِ ما عليه منَ التّخلّص منها، وهو باطنُها؛ فالتّقديم لظاهر الإثم دليلٌ على أنَّ على المؤمن أن يبدأ بترك ما هو أسهلُ عليه منَ التّخلّص من الإثم، ثم يتقدَّم إلى ما هو أشقُّ عليه.

سرُّ إيثارِ استعمالِ لفظِ ﴿ٱلۡإِثۡمِ﴾ دونَ مُرادِفاتِه:

الإثمُ هوَ البُطءُ عنْ فعلِ الخيرِ، فهو يطلقُ على كلّ شرّ وعلى كلّ مخالفةٍ لأمرِ الحقّ ﷻ، وهو عامٌّ في الفاحشةِ وفي غيرِها، فهو يشملُ كلَّ ما يضرُّ منَ الصّغائرِ والكبائرِ[1]، فهوَ لفظٌ جامعٌ لأنواعِ الشّرورِ والموبقاتِ والذّنوبِ، ويطلقُ على كلِّ ما خالفَ أمرَ الحقِّ ﷻ؛ فحسُنَ أنْ يكونَ في هذا الموضعِ، فهوَ جامعٌ للمعاني الجمّةِ.

الإثمُ لفظٌ جامعٌ لكلِّ أنواعِ الشّرّ وما نَهَى اللهُ عنه

معنى التَّعريفِ في لفظِ ﴿ٱلۡإِثۡمِ﴾:

الإثمُ لفظٌ معرَّفٌ في قولِه تعالى: ﴿وَذَرُواْ ظَٰهِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَبَاطِنَهُۥٓۚ﴾ للاستغراقِ، يشملُ الظّاهرَ والباطنَ وهما وصفانِ يُقصدُ منهما تعميمُ أفرادِ الإثمِ، فهم منحصرون في هذينِ الوصفينِ[2]، مثلمَا يقالُ: المشرقُ والمغربُ في قولِه تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡمَشۡرِقُ وَٱلۡمَغۡرِبُۚ﴾ [البقرة: 115]؛ فإنَّ القصدَ هنا استغراقُ الجهاتِ كلّها لا الاقتصارُ على هاتينِ الجهتينِ فجميعُ الجهاتِ لهُ تعالى.

الألفُ واللامُ للاستغراقِ ويشملُ الظّاهرَ والباطنَ لقصدِ تعميمِ أفرادِ الإثمِ

(1) رضا، تفسير المنار: 8/165، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 5/2648.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 8/37.

بلاغةُ المجازِ بالحذفِ في التّعبيرِ بـ ﴿ٱلۡإِثۡمِ﴾:

المطلوبُ تركُ الإثم ما وقع وما سيقعُ مستقبلا

التّعبيرُ بالإثمِ في قولِه تعالى: ﴿وَذَرُواْ ظَٰهِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَبَاطِنَهُۥٓۚ﴾ مجازٌ بالحذفِ؛ لأنّ الإثمَ هو الذّنْبُ، وهو ليسَ مقصودًا لذاتِه، فالأمرُ يتَّجه إلى تركِ ما يُوجبُ الإثمَ[1] وما يلزمُ منَ الوقوعِ فيه، ونكتةُ ذلك تبشيعُ مقتضياتِ الإثمِ ودواعِيه وأسبابِه؛ بذكرِ مآلها وهو تحقيقُ الإثمِ واقعًا في المستقبلِ؛ فإنَّ ذلك أدعى لتركِه، وهو أمرٌ كذلك لتركِ الإثمِ المتحقِّقِ واقعًا في الماضي والحاضر، وهذا أبلغُ في النَّهي، وأدقُّ في استجماع المعاني.

بلاغةُ الاسْتِعَارَةِ في مُقَابَلةِ ظاهرِ الإثمِ لباطنِه:

الواجبُ تركُ الذّنوب والمعاصي جملةً

التّعبيرُ بالظّاهرِ والباطنِ في قولِه تعالى: ﴿وَذَرُواْ ظَٰهِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَبَاطِنَهُۥٓۚ﴾ منْ بابِ الاستعارةِ، ومقتضى هذهِ المقابلةِ تشبيهُ الإثمِ بإنسانٍ لهُ ظاهرٌ وباطنٌ، أيْ: ظهرٌ وبطنٌ، ولاسيّما باطنُ الآثمِ الذي لا يطّلعُ عليهِ الناسُ؛ لأنّهُ واقعٌ في السرِّ، فتركُ الظاهرِ والباطنِ يستوفيانِ المعاصي جميعًا ومن جميعِ الجهاتِ[2]، والمغزى منهُ أنْ يتركَ الإنسانُ الذنوبَ والمعاصيَ على وجهِ الجملةِ.

استيفاءُ المعاني، والأزمان وظواهر الأبدان، وبواطن الإنسان من بديعِ إعجاز القرآن

ويتحقَّقُ بهذه النُّكتةِ مع النِّكات الثلاثِ التي قبلها استيفاءُ جَميعِ أنواعِ الإثمِ، في الماضي والحاضرِ والمستقبلِ، الظَّاهر والباطن، وهذا من بديعِ شأنِ القرآنِ أن يستحضر المعانيَ، والأزمانَ، وظواهرَ الأبدان، وبواطنَ الإنسان، فيأتي بنظمٍ شاملٍ ليدفعَ أيَّ فهمٍ غيرِ مُراد.

دلالةُ ﴿إِنَّ﴾ في قولِه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡسِبُونَ ٱلۡإِثۡمَ﴾:

التّوكيدُ تعقيبٌ دالّ على التّعليلِ وإنذارٌ وإعذارٌ للمأمورين

دخولُ ﴿إِنَّ﴾ في قولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡسِبُونَ ٱلۡإِثۡمَ﴾ يقومُ مقامَ العلّةِ والسّببِ في تعقيبِ أمرِه تعالى للمأمورينَ بتركِ ظاهرِ الإثمِ وباطنِه، وفيها إنذارٌ وإعذارٌ لمنْ صدرَ بحقّهمْ تركُ الإثمِ

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 13/130، والشيخ زاده، حاشية الشيخ زاده: 4/131.
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/339، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 13/130.

ظاهرًا وباطنًا، وهيَ تُغني عنِ الفاءِ الدّالّةِ على السببيةِ[1]، ومثالُها المشهورُ قولُ بشار بنِ بُرْد[2]:

بَكِّرا صاحبيَّ قبلَ الهَجِيرِ *** إنّ ذاك النجاحَ في التَّبْكيرِ

نكتةُ اسْتِعمالِ الاسمِ الموصولِ في: ﴿ٱلَّذِينَ﴾:

تعيينُ علّةِ الجزاءِ

أوردَ المسندَ إليه اسمًا موصولًا ﴿ٱلَّذِينَ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡسِبُونَ ٱلۡإِثۡمَ﴾، ونكتةُ ذلكَ الإشارةُ إلى أنّ صلةَ الاسمِ الموصولِ ﴿يَكۡسِبُونَ﴾ هي علّةُ الجزاءِ الذي يعمُّ كلَّ مَن يرتكبُه[3]، أي: يكسبون الإثمَ معَ القصدِ والإصرارِ عليه.

نكتةُ التَّعبيرِ بالفعلِ المُضارِعِ في قولِه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡسِبُونَ ٱلۡإِثۡمَ﴾:

تبشيعُ صورةِ الآثمِ، وبيانُ أنَّ الإثمَ يأتي تدريجيًّا

عبّرَ بالفعلِ المضارعِ ﴿يَكۡسِبُونَ﴾ في قولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡسِبُونَ ٱلۡإِثۡمَ﴾ لإفادةِ التّجدّدِ والاستمرارِ في اكتسابِ الإثْمِ، وأنّهم سيلْقَون جزاءَ إثمِهم بقدرِ استمرارِهم فيه[4]، وفيه تبشيعُ صورةِ الآثمِ، وبيانُ أنَّ الإثمَ يُكتسبُ تدريجيًّا، ولا يأتي دُفعةً واحدة، وعليه فالتَّعبير بالمضارعِ يُفيد توجيهًا تربويًّا، بعدم الاستسلام لخطوات الشَّيطانِ، ونبذِها بدفع وساوسه.

بلاغةُ إظهارِ ﴿ٱلۡإِثۡمِ﴾:

احتراسٌ ونصٌّ على أنَّ الإثمَ يعمُّ الظَّاهرَ والباطنَ

مجيء قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡسِبُونَ ٱلۡإِثۡمَ﴾ بعدَ قولِه: ﴿وَذَرُواْ ظَٰهِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَبَاطِنَهُۥٓۚ﴾ فيهِ إظهارُ ما حقُّهُ الإضمارُ، فإنّهُ لمّا أظهرَ لفظةَ الإثمِ في الجملةِ الأولى أعادَها ظاهرةً في الجملةِ الثانيةِ وحقُّها الإضمارُ؛ لتحقيق مجموعةٍ منَ الفوائد:

الأولى: دفعُ الإيهام، فهو منْ بابِ الاحتراسِ[5] فإنّهُ لوْ أضمرها

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 8/أ38.
(2) بشار بن برد، ديوانه: 3/203.
(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 5/2649.
(4) رضا، تفسير المنار: 8/19.
(5) الاحتراس أن يأتي المتكلّم بمعنًى فيه دَخَلٌ وطعن فيفطن له، فيأتي بما يزيل ذلك الوهم ويخلّصه منه. يُنظر: القَزْويني، الإيضاح، ص: 192.

بقولِه: (يكسبونه)؛ لتوهّمَ المخاطَبُ أنَّ الضّميرَ عائدٌ على (ظاهرِه) أوْ على (باطنِه).

الثَّانية: النَّصُّ على أنّ المقصودَ بالظّاهرِ والباطنِ الإثمُ كلُّه.

الثّالثةُ: الزّيادةُ في التّنديدِ بالإثمِ، ولتستقرّ أكملَ استقرارٍ في ذهنِ السّامعِ[1] فيحذرَ منها ويجتنبَها.

الرّابعةُ: قطعُ الجملةِ عن سابقتِها؛ فتكونُ جملةً مستقلةً فتصيرُ كالأمثالِ والحكمِ[2] في دورانِها على الألسنةِ ويُستشهدُ بها في الأحوالِ المماثِلة.

فائِدةُ بناءِ الفعلِ للمفعولِ في قولِه: ﴿سَيُجۡزَوۡنَ بِمَا كَانُواْ يَقۡتَرِفُونَ﴾:

قولُه: ﴿سَيُجۡزَوۡنَ﴾ مبنيّ للمفعولِ، أيْ: سيجزيهم اللّهُ تعالى، وفائدةُ بناءِ فعلِ الجزاءِ للمفعولِ الإيماءُ إلى أنَّ العاقلَ منْ خلقِه مَنْ خافَ مِنْ مطلقِ الجزاءِ سواء ذُكرَ المجازي أمْ لمْ يذكرْ؛ فإنَّ الوعدَ واقعٌ لا محالةَ[3].

الـــذي يـمـلـكُ المجازاةَ على وجه التّحقيق هو الله جلّ وعلا

معنى الباءِ في قولِه: ﴿سَيُجۡزَوۡنَ بِمَا كَانُواْ يَقۡتَرِفُونَ﴾ ونكتتُها:

الباءُ في قولِه تعالى: ﴿بِمَا كَانُواْ يَقۡتَرِفُونَ﴾ للسببيةِ[4]؛ فإنّهم قد استحقّوا الجزاءَ الأخرويَّ بسببِ أفعالِهم وما اكتسبوا منَ الآثامِ والمعاصي، ونكتةُ استعمالِها: الإيماءُ إلى ندمهم على أفعالِهم السَّيِّئة يومَ القيامة؛ فإنَّ ذكرَ أسبابِ العذابِ يُورِثُ شديدَ النَّدم، ﴿يَوۡمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمۡ فِي ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيۡتَنَآ أَطَعۡنَا ٱللَّهَ وَأَطَعۡنَا ٱلرَّسُولَا۠ ٦٦ وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعۡنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ٦٧﴾ [الأحزاب: 66 - 67]، فتركُ طاعة اللّه والرَّسولِ وطاعةُ الأغيارِ يُوقع في النَّار.

يومُ القيامة يومُ الـجـزاءِ والـنّدم على ما فات

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 8/أ38.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 8/أ38.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 7/245.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 7/245.

بلاغةُ ذكرِ ﴿كَانُواْ﴾ في قولِه: ﴿بِمَا كَانُواْ يَقۡتَرِفُونَ﴾:

التّعبيرُ بالفعلِ النّاقصِ ﴿كَانُواْ﴾ في قولِه تعالى: ﴿بِمَا كَانُواْ يَقۡتَرِفُونَ﴾ دون أن يقول: (بما اقترفوا)، يتوفّرُ على نُكتةٍ بلاغيةٍ؛ فإنّهم كانوا "يُبالغونَ في إفسادِ فطرتهمْ، وتدسيَةِ أنفسِهمْ بالإصرارِ عليهِ ومعاودَتِهِ المَرَّةَ بعدَ المَرَّةِ، كما يدلُّ عليهِ فِعلُ الكونِ"[1].

في الإثمِ إفسادٌ للفطرةِ وتدسيةٌ للنفسِ بالإصرارِ عليه ومعاودتِه مرةً إثرَ أخرى

سرُّ استعمالِ ﴿يَقۡتَرِفُونَ﴾ بدلًا من (يكسبون):

استُعمِلَ الفعلُ ﴿يَقۡتَرِفُونَ﴾ في قوله تعالى: ﴿سَيُجۡزَوۡنَ بِمَا كَانُواْ يَقۡتَرِفُونَ﴾ عوضًا عن الفعلِ (يكسبون)؛ لأنَّ الكسبَ عامّ في الخيرِ والشرِّ، والاقترافُ صيغةُ (افتعال)، ويرادُ به إذا أطلقَ كسبُ السيئاتِ، وصيغةُ الافتعالِ تكون فيه لِلمبالغةِ وهي مُؤذنة بأمرٍ ذميم، وهذه الصّيغةُ دالّةٌ على أنّ أفعالَ الشرّ لا تحصلُ إلّا بالمعالجةِ منَ النفسِ للفطرةِ السّليمةِ[2]، وآيةُ ذلكَ أنّهُ ذكرَ جزاءَهمُ الذي سيُجزَونهُ نظيرَ اكْتِسَابِهِمُ السّيئاتِ.

الاقترافُ صيغةُ مفاعلةٍ تدلّ على المبالغةِ وتُؤْذنُ بأمرٍ ذميمٍ

دلالةُ حذفِ مفعولِ ﴿يَقۡتَرِفُونَ﴾:

في قولِه تعالى: ﴿سَيُجۡزَوۡنَ بِمَا كَانُواْ يَقۡتَرِفُونَ﴾ مجازٌ بالحذفِ، فَقَدْ حذفَ مفعولَ ﴿يَقۡتَرِفُونَ﴾؛ لأنَّ الاكتسابَ لا يكونُ إلا في الشّرِّ، والمعنى: يقترفونَ إثمًا أوْ شرًّا، وقد يكونُ قيدًا مثل: يقترفون في الدُّنيا، وإطلاقُ الفعلِ دون تقييده بمفعولٍ أو قيدٍ يُعطيه عمومًا دلاليًّا بديعًا، كما أنَّه يُعطي الفعلَ رسوخًا في شخصيَّاتهم، فهم يقترفون لأنَّهم مُقترفون، كما نقول فلانٌ يتَّقي اللّه لأنَّه تقيٌّ، أي: أنَّهم يتّصفون بصفة الاقترافِ، فهي صفةٌ راسخةٌ فيهم، وهذا يدلُّ على ثبات الإثم والشَّرِّ فيهم.

الاقترافُ مخصوصٌ باكتسابِ الشّرّ

(1) رضا، تفسير المنار: 8/19.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 7/245، وابن عاشور: التحرير والتنوير: 8/أ38.

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الباطن والخفي:

الخفيُّ منَ الخفاءِ وهو منَ الكتمانِ، وأصلُهُ منَ السَّترِ أيضًا وهو مقاربٌ له[1]، أمّا الباطنُ فهو خلافُ الظّاهرِ في كلّ شيءٍ[2]، والتّعبيرُ عنِ الإثمِ بالباطنِ أنسبُ معَ مخالفِه وهو الظّاهرُ؛ فإنَّ الظّاهرَ يعبّرُ عنِ المحسوساتِ والباطنَ عنِ المعقولاتِ أوْ الجهرِ والسرِّ، فالأولُ ما يطّلعُ عليهِ الخلقُ والثاني ما يُردُّ إلى الحقّ[3]، وبينهما وشائجُ وعلائقُ، فكثيرًا ما يرتبطُ أحدُهما بالآخرِ عندَ ذكرِهما كقولِه تعالى: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ [لقمان: 20]، فالتّعبيرُ عنِ الإثمِ بالباطنِ دون الخفيِّ أحسنُ وأقومُ وأهدى دلالةً لمقصودِ الآيةِ الكريمةِ.

الباطنُ خلافُ الظّاهرِ في كلِّ شيءٍ والخفيُّ منَ الكتمانِ والسّرِّ

الإثم والذّنْب والمَعْصِيَةُ:

المعنى اللّغويّ للإثمِ هو التّقصيرُ، من أثمَ يأثمُ إذا قصَّرَ، ثمّ إنّ الإثمَ لا يكونُ إلّا تعمّدًا، أمّا الذّنْبُ فهو قرينُ الذمّ أو ما يُتتبّعُ عليه العبدُ منَ الأفعالِ القبيحةِ، والذّنْبُ من رذْلِ الفعلِ كالذّنَبِ الّذي هو أرذلُ شيءٍ وآخرُه، أمّا المعصيةُ فهي الشّيءُ المنهيُّ عنه، وينبئُ عنِ الكراهةِ في فعلِها[4]، ومّما تقدّمَ فإنّ الإثمَ هو أكبرُ المعاصي، وآيةُ ذلكَ أنّه جعلَ له ظاهرًا وباطنًا وهو يحصلُ عن تعمّدٍ خلافَ الذّنْبِ والمعصيةِ؛ فلذلكَ وردَ في الآيةِ تنبيهٌ لذوي الألبابِ الذين وصلَ لهم القولُ عنه ظاهرًا كالغيبةِ والنّميمةِ وأكلِ الحرامِ وسواها، وباطنًا ممّا لا يعرفهُ الخلقُ منَ الحسدِ وسوءِ الظنّ والبدعةِ وإضمارِ الشّرّ للناسِ وغيرِ ذلك من ذميم أعمالِ القلوبِ.

الإثمُ ما كانَ متعمَّدًا وله ظاهرٌ وباطنٌ، والذّنْبُ قرينُ الذّمّ، والمعصيةُ ما تُنبئ عن كراهةِ فعلِها

(1) الجوهري، الصحاح: (خفى)، وابن فارس، مقاييس اللغة: (خفي).
(2) ابن دريد، جمهرة اللغة: (بطن)، والراغب، المفردات: (بطن).
(3) السمين، عمدة الحفاظ: (بطن).
(4) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 15، 122، 244، 503.

﴿وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ ۗ وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ ۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾﴾ [الأنعام: 121]

مُنَاسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

تأكيدُ الأمرِ بأكلِ ما ذُكرَ اسمُ الله عليه بالنَّهي عن ضدِّه

لَمَّا أمرَ الحقُّ ﷻ أنْ يأكلوا ممّا سُمّيَ عليهِ، ومفهومُهُ أن لا تأكلوا ممّا لمْ يذكرِ اسمُ اللّهِ عليهِ؛ أردفهُ بِنَهْيِهِمْ نهيًا جازمًا عنْ أكلِ ما يضرُّهمْ في أبدانِهمْ وأخلاقِهمْ لكونِه فسقًا؛ فإنّهُ يُضادُّ الأوّلَ في أنّهُ خالٍ عنِ الاسمِ الشّريفِ الموصوفِ بالجلالِ والكمالِ[1]، فالمناسبةُ من بابِ تأكيدِ الأمرِ بأكلِ ما ذُكِرَ اسمُ اللّه عليه بالنَّهي عن ضدِّه.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿لَفِسْقٌ﴾: اسمٌ ثُلَاثِيٌّ جذرُه اللّغويُّ (فسق)، ومعنى الفسقِ: أنْ يَتركَ المرءُ أمرَ الحقِّ ﷻ، ويميلَ إلى معصيتِه، والفِسقُ مأخوذٌ منْ خروجِ الرّطبةِ عنْ قشرِها، فشبّهَ الخروجَ عنِ الطّاعةِ بذلكَ، وإذا خرجَ الإنسانُ عنْ حيّزِ الشَّرعِ سُمّيَ فاسقًا، وهو أعمُّ منَ الكفرِ وعدمِ الإيمانِ، "وأكثرُ ما يقالُ الفاسقُ لمنِ التزمَ حكمَ الشّرعِ وأقرَّ بهِ، ثمَّ أخلَّ بجميعِ أحكامِهِ أوْ ببعضِهِ"، والفسوقُ الشرعيُّ خروجُ المسلمِ عنِ الطّاعةِ المتمثّلةِ بامتثالِ الأوامرِ واجتنابِ المَنهياتِ، وكلُّ ما كانَ خروجًا عنْ غلافِهِ وحدِّهِ أوْ حيّزِهِ الذي يلمُّ شتاتَهُ بسببِ حِدةٍ أوْ فسادٍ يُسمّى فسقًا[2]، ومعنى الفسقِ في الآيةِ: هو المطعومُ الذي لمْ يذكرِ اسمُ اللّهِ عليهِ، وأنّهُ قدْ أُهلَّ بهِ لغيرِ اللّهِ[3] ﷻ.

(1) البقاعي، نظم الدرر: 7/245.

(2) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، والسمين، عمدة الحفاظ، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (فسق).

(3) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 3/325.

2) ﴿ٱلشَّيَٰطِينَ﴾: جمعُ شيطان وهو معروفٌ، وزنهُ (فَيْعال)، والجذرُ اللّغويُّ منهُ (شطن)، وقسمٌ منَ اللّغويين جعلَه منْ (شيط)، والفعلُ منَ الأوّلِ شَطنَ، وهو بمعنى البُعدِ والنأيِ "وشطنتِ الدّارُ شطونًا: إذا بعُدتْ"، والأصلُ في الشّينِ والطّاءِ والنّونِ دلالتُها على البُعدِ كقولهمْ: بئرٌ شَطونٌ، أيْ: بعيدةُ القعرِ، ولفظةُ الشّيطانِ جاءتْ على هذا الأصلِ، سُمّي كذلكَ بسببِ ابتعادهِ عنِ الحقِّ؛ فكلُّ منْ كانَ هذا وصفَهُ منَ الجنِّ والإنسِ وغيرهِ فهو شيطانٌ، فهو اسمٌ يشملُ كلَّ عارمٍ عاتٍ متمرّدٍ منْ هذهِ المخلوقاتِ[1]، ومعنى الشّياطينِ في الآيةِ على ثلاثةِ أقوالٍ: الأوّلُ أنّهم قومٌ منْ أهلِ فَارِسَ، والثّاني الشّياطينُ منْ قريشٍ، والثّالثُ مِنَ اليهودِ[2].

3) ﴿لَيُوحُونَ﴾: فعلٌ دالٌّ على الحالِ والاستقبالِ مسندٌ إلى الجَمَاعَةِ، الجذرُ اللّغويُّ منهُ (وحي)، والوحيُ الرّسالةُ والكلامُ الخفيّ، وما تُلقيه إلى غيركَ يُسمّى وحيًا، والأصلُ في الواوِ والحاءِ والياءِ أن "يدلّ على إلقاءِ علمٍ في إخفاءٍ أوْ غيرهِ إلى غيركَ"، ومنْ معانيهِ: الإشارةُ السريعةُ، ويكونُ بالكلامِ رمزًا وتعريضًا، وقدْ يكونُ بمعنى إيصالِ المعنى بطريقِ الوسوسةِ[3]، وهو المعنى الواردُ في الآيةِ؛ فإنّهمْ يُوسوسونَ لبني آدمَ لإلقاءِ الجدالِ بالباطلِ في قلوبِهمْ[4].

4) ﴿أَوْلِيَآئِهِمْ﴾: جمعٌ مكسرٌ مفردُه (وليٌّ)، وهو صيغةُ مبالغةٍ، جذرُهُ اللّغويُّ منْ (ولي)، وهو بياءَينِ (وَلِيي) الأولى ياءُ الوزنِ، والثّانيةُ ياءُ الأصلِ، ثمَّ أُدغمتا فصارَ (وليٌّ)، ومصدرهُ الولاءُ منْ "واليتُ بينَ الشيئينِ موالاةً وولاءً ... والوِلايةُ الإمارةُ والوليُّ خلافُ العدوِّ"، والأصلُ في معناهُ دلالتُهُ على القُربِ وعلى اللّزومِ معَ شيءٍ منَ الاشتمالِ وعدمِ الانفكاكِ، وكذا الوليُّ لا ينفكُّ عنْ مولاهُ، والوَلايةُ بمعنى النُّصرةِ، وجعلَ الحقُّ ﷻ الموالاةَ بينَ الكافرينَ والشّياطينِ في الدنيا، ونفاها عنهمْ في الآخرةِ[5]، أيْ: ينصرُ بعضُهمْ بعضًا في الدّنيا، ويتركُ بعضُهمْ بعضًا في الآخرةِ، ومعنى الأولياءِ في الآيةِ،

(1) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (شطن).
(2) الماوردي، النكت والعيون: 2/162.
(3) الجوهري، الصحاح، وابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، والسمين، عمدة الحفاظ: (وحي).
(4) الهروي، الغريبَين: 6/1979.
(5) ابن دريد، جمهرة اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (ولي).

أي: أولياءُ الشّياطينِ منَ الإنسِ منْ أهلِ مكّةَ الذينَ كانوا يُجادلونَ الرسولَ ﷺ في أكلِ المَيتةِ[1].

المَعْنى الإجْماليُّ:

نهيٌ منَ الحقِّ ﷻ موجَّهٌ إلى المؤمنينَ ألّا يلتفتُوا إلى مسالكِ أهلِ الضّلالِ والأهواءِ الباطلةِ في أكلِ ما لمْ يكنْ مُقترنًا باسمهِ الشّريفِ؛ لأنّهُ فسقٌ محضٌ فإنَّ الشّياطينَ يُوسوسونَ إلى أوليائِهمْ منَ المشركينَ بالشُّبهاتِ؛ ليجادلوا المؤمنينَ بالباطلِ، فإنْ أطعتموهمْ - أيُّها المؤمنون - فيما حرّمَ اللّهُ عليكمْ واستحللتُمْ ذلكَ، فإنّكمْ إذنْ مثلُهمْ في الإشراكِ.

من أطاع المشركين في معصيةِ الله وقعَ في دائرتِهم وانتحلَ ملّتَهم

وترشدُ الآيةُ الكريمة إلى أنَّ ما يقعُ في قلوب بعضِ الناس منَ الإلهامات والكُشوفِ، التي يكثرُ وقوعُها عند الصّوفيّةِ ونحوِهم، لا تدلُّ - بمجردها - على أنّها حقٌّ، ولا تُصدَّقُ حتى تُعرضَ على كتابِ اللّه وسنّةِ رسوله ﷺ[2].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

معنى الواو في قولِه تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُواْ﴾:

الواوُ في قولِه تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُواْ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾ عاطفةٌ[3]، عطفتْ هذه الجملةَ على قولِه تعالى قبلَها بآيتين: ﴿فَكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾؛ فقد أمرهُم أن يأكلوا ممّا ذُكرَ اسمُ اللّهِ عليه، وهنا أكّدَ ذلك الأمرَ بأن نهاهُم عن نقيضِه ببيانِ علّتِه بكونِه فسقًا محْضًا.

عطفُ النّهيِ في مجانبةِ أكلِ غيرِ المُسمّى على الأمرِ فيه يقومُ مقامَ التّوكيدِ

فائِدةُ عطفِ ﴿وَلَا تَأْكُلُواْ﴾ على قولِه: ﴿فَكُلُواْ﴾:

قد يسألُ سائلٌ فيقولُ: لمّا كانَ قولُه تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُواْ مِمَّا لَمْ

(1) الحدّاد، التفسير الكبير: 3/81.
(2) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 271.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 8/أ38.

الأمرُ بالأكلِ شرطُه الإيمانُ، والنَّهيُ عنه علَّتُه تركُ خُطواتِ المشركين

يُذۡكَرِ ٱسۡمُ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ﴾ معطوفًا على قولِه تعالى: ﴿فَكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ ٱسۡمُ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ﴾ فأيُّ فائدةٍ تُتحصّلُ منْ هذا العطفِ، والأوّلُ يفيدُ هذا المعنى ويُحقّقُهُ؟

والجوابُ عنْ ذلكَ: أنَّ هذه الآيةَ تفيدُ النّهيَ المقرونَ بالتّحذيرِ منْ أكلِ ما ذُكِرَ اسمُ غيرِ اللّهِ عليهِ؛ فيكونُ ذبحًا لغيرِ اللّهِ[1]، فإنّهمْ كانوا يفعلونَ ذلكَ بأنْ يذكروا اسمَ المقصودِ بالذبيحةِ ويَجهرونَ باسمهِ.

ثمَّ إنَّ الآيةَ الآمرةَ بالأكل ممَّا ذُكر اسمُ اللّه عليه، ذكرت شرطَ ذلك وهو الإيمانُ بآيات اللّه، والآيةُ النَّاهية عن أكلِ ما لم يُذكر اسمُ اللّه ذكرت حُكمَ ذلك وهو الفِسقُ، وما يتبعُ ذلك من إيحاء الشَّياطين إلى أوليائِهم لمجادلة المؤمنين، فالآيةُ الأولى قامت مقامَ التَّأسيس، والثَّانيةُ قامت مقامَ التَّأكيد والتَّوضيحِ والتَّبيينِ لخطورة هذا الأمرِ، فهو ليس مجرَّدَ أكلٍ، بل هو أخطرُ من ذلك ممَّا يَستتبعه من متابعةِ المشركين في عقائدهم، فإنَّ الأكلَ عنوانٌ للأمَّة في ذاته وطريقتِه ومقاصدِه.

سِرُّ النَّفي بقولِه: ﴿لَمۡ يُذۡكَرِ﴾ دونَ غيرِه منَ التّعبيراتِ:

ليسَ المقصودُ الذكرَ أو عدمَهُ بلْ أن يكونَ الذّبحُ مُقترنًا باسمِهِ تعالى لا سواهُ

التّعبيرُ بالنّفي في قولِه: ﴿لَمۡ يُذۡكَرِ ٱسۡمُ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ﴾ منْ دونِ أنْ يقولَ مثلًا: (غيرُ اسمِ اللّهِ عليهِ) معَ أنّهُ المقصودُ عينًا منَ النهي، فليسَ المقصودُ الذكرَ أو عدمَهُ بلْ أن يكونَ الذبحُ مُقترنًا باسمِ اللّهِ تعالى لا سواهُ، ثمَّ إنَّ قولَهمْ: (غيرُ اسمِ اللّهِ عليهِ) يحتملُ إباحةَ أكلِ ما لمْ يذكرْ عليهِ اسمٌ أصلاً؛ لأنّه لمْ يذكرْ اسمُ غيرِ اللّهِ عليهِ فلْيُتأمّلْ.

ومعنى قولِه: ﴿لَمۡ يُذۡكَرِ﴾ منْ دونِ أنْ يقولَ: (غيرُ اسمِ اللّهِ عليهِ) أنّ تركَ ذكرِ الاسمِ الشريفِ عليهِ هو أمرٌ مقصودٌ؛ لتجنّبِ الذّكرِ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 8/39.

مبدأً، وفي ذلكَ تحايلٌ منَ المشركينَ "بِأَنْ يَسْأَلُوهُمْ تَرْكَ التَّسْمِيَةِ، بِحَيْثُ لَا يُسَمُّونَ اللَّهَ وَلَا يُسَمُّونَ لِلْأَصْنَامِ"[1]، وهو مخادعةٌ، القصدُ منها التّمويهُ على المسلمينَ، وغايتُها أنْ لا يكونَ الذّبحُ للهِ بترك التّسميةِ أصلًا.

تركُ ذكرِ اللهِ وذكرُ غيرِه تحايلٌ وتمويهٌ قصدُه ألّا يكونَ ذبحًا للهِ

نوعُ الواوِ في قولِه تعالَى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِسۡقٌۗ﴾:

الواوُ في قولِه تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِسۡقٌۗ﴾ إمَّا أن تكون للعطفِ من بابِ عطفِ الخبر على الإنشاءِ، فتكونَ عاطفةً قولَه تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِسۡقٌۗ﴾ على قولِه تعالى: ﴿وَلَا تَأۡكُلُواْ مِمَّا لَمۡ يُذۡكَرِ ٱسۡمُ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسۡقٌۗ﴾، وفي جوازِ ذلك خلافٌ معهودٌ بين البلاغيِّين[2].

الواوُ تحتملُ العطفَ والحالَ والاستئنافَ والتَّعليلَ

وإمَّا أن تكون للحالِ[3]، أي: لا تأكلوا منه حالَ كونِه فسقًا، ولمّا كانَ الفسقُ مجملًا وجبَ تبيينُه فبُيّنَ بقولِه تعالى: ﴿أَوۡ فِسۡقًا أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦۚ﴾ [الأنعام: 145] فصارَ المعنى نهيَهُم عن أكلِه في الحالِ التي يكونُ قد أُهلّ لغيرِ اللهِ به[4].

وإمَّا أن تكونَ استئنافيةً؛ "فإنّ الفسقَ ما أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللهِ، والضّميرُ لـ (مَا)، ويجوزُ أن يكونَ للأكلِ المدلولِ عليه بـ ﴿وَلَا تَأۡكُلُواْ﴾"[5]؛ لأنّ الواقعَ في الأمرِ والنَّهي أن يكونَ على التّقديرِ والتّقريبِ، أي: نهاهُم عن أكلِه إن كانَ فسقًا؛ فلا يحسنُ التّعبيرُ: ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِسۡقٌۗ﴾ فَالجُمْلَةُ مستأنفةٌ[6].

وإمَّا أن تكونَ تعليليةً، فالقاعدةُ أن تكونَ هذهِ الجملةُ مفصولةً عن سابقتِها بانتفاءِ حرفِ العطفِ إلا أنَّ الحرفَ جاءَ للعلّةِ؛ لأنّ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 8/أ39.
(2) السبكي، عروس الأفراح: 1/496.
(3) النسفي، مدارك التنزيل: 1/534، والطيبي، فتوح الغيب: 6/230.
(4) الخازن، لباب التأويل: 2/152، والقاسمي، محاسن التأويل: 4/478.
(5) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/180.
(6) الآلوسي، روح المعاني: 4/261.

ذكرَ الوصفِ بعدَ الحُكمِ يُومئُ بأنّه علّةٌ للحُكمِ؛ فجاءَ بحرفِ العطفِ لإفادةِ تعليلِ الحُكمِ[1].

بلاغةُ التّوكيدِ في قولِه تعالَى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِسۡقٞۗ﴾:

قولُه تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِسۡقٞۗ﴾ جملةٌ اسميةٌ مؤكَّدةٌ بغيرِ مؤكِّدٍ واحدٍ كإنَّ واللّام، وبلاغةُ التّوكيدِ هنا تَنبني على أنَّه لَمّا كانَ المرادُ بالفسقِ هنا أنْ يُهَلَّ لغيرِ اللّهِ بهِ؛ فإنَّ التّأكيدَ يكونُ مناسبًا ومتوفّرًا على بلاغةٍ لا تخفى، والمقصدُ أنّهُ نهاهمْ عنِ الأكلِ منْ هذا النّوعِ مِنَ الفِسقِ المتحقِّقِ الوقوعِ معَ إنكارِ المشركينَ له[2].

تبيينُ الفِسقِ بالإهلالِ لغيرِ اللّهِ تعالى يلائمُه التّوكيدُ

تعيينُ مرجعِ الضّميرِ في قولِه تعالَى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِسۡقٞۗ﴾:

تحتملُ مرجعيةُ الضّميرِ (الهاء) في قولِه تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِسۡقٞۗ﴾ أنْ تكونَ راجعةً إلى المصدرِ الذي تضمّنه الفعلُ الدّاخلُ عليه النّهيُ ﴿وَلَا تَأۡكُلُواْ﴾ على تقديرِ: "أكلُكمْ ما لمْ يذكرِ اسمُ اللّهِ عليهِ فسقٌ؛ أيْ: كُفر، وكنّى عنِ الأكلِ"[3] يعني: وإنّ الأكلَ منهُ لفِسقٌ.

ويحتملُ الضّميرُ (الهاء) أنْ يكونَ عائدًا على الموصولِ (ما) في قولِه: ﴿وَلَا تَأۡكُلُواْ مِمَّا﴾ فيكونَ على تقديرِ محذوفٍ، والمعنى: وإنّ أكلَه لفِسقٌ[4].

يحتملُ عَودُ الضّميرِ على الأكلِ أو الموصولِ أو على ترك الذّكرِ

ويحتملُ الضّميرُ (الهاء) أنْ يكونَ عائدًا على تركِ الذّكرِ المضمَّنِ في قولِه: ﴿لَمۡ يُذۡكَرِ﴾[5] وجعلُهُ قسمًا أقوى؛ لكونِه أقربَ المذكوراتِ منَ الضّميرِ[6] كما تقتضيه الصّناعةُ النّحويّةُ.

سرُّ التّعبيرِ بمفردةِ ﴿لَفِسۡقٞۗ﴾ ومجيئِها مصدرًا:

عبَّر بالمصدرِ (فِسق) دون (إثم) في قولِه: ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِسۡقٞۗ﴾ على "جعلِ

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/187، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/633.
(2) السيوطي، نواهد الأبكار: 3/382، والآلوسي، روح المعاني: 4/561.
(3) الفراء، معاني القرآن: 1/352، وابن عطية، المحرر الوجيز: 2/340.
(4) الزمخشري، الكشاف: 2/61.
(5) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/340.
(6) الخفاجي، حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي: 4/119.

ما لم يذكرِ اسمُ اللّهِ عليه في نفسهِ فسقاً"[1]، فهو من بابِ المبالغةِ في وصفِ الفعلِ، حتّى تجاوزَ الفِسقُ الفعلَ إلى أن تحوّلَ إلى صفةِ المفعولِ؛ فهو مصدرٌ يرادُ به المفعولُ كإرادتِهم المخلوقَ بقولِهم الخلقَ[2]؛ فصارَ في معنى قولِه تعالى: ﴿أَوۡ فِسۡقًا أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦۚ﴾ [الأنعام: 145].

التّعبيرُ بالمصدرِ وإرادةُ المفعولِ مبالغةٌ في وصْفِ الفعلِ

معنى الواوِ في قولِه تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ﴾:

الواوُ في قولِه تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِهِمۡ لِيُجَٰدِلُوكُمۡۖ﴾ عطفتِ الجملةَ على قوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِسۡقٌۗ﴾، والمعنى: عطفَ التَّحذيرَ من إيحاء الشَّياطين إلى أوليائهم للمجادلة، على حُكم الأكل ممَّا لم يُذكر اسمُ اللّه عليه، فهو من باب عطفِ الإخبار بالوسيلة المُوصلةِ إلى الفِسق، وهي مجادلةُ أولياء الشّياطين للمشركين[3].

الواوُ تُفيدُ العطفَ على معنى الحذرِ منْ جدلِ أولياءِ الشّياطينِ المذكورينَ في آيةٍ سابقةٍ

غرضُ التَّوكيدِ في قولِه تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِهِمۡ﴾:

تضمّنَ قولُه تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِهِمۡ﴾ غيرَ مؤكّدٍ واحدٍ، وهو (إنَّ) الدّاخلةُ على المسنَدِ إليه، واللّامُ الدّاخلةُ على المسنَدِ؛ وذلكَ للدّلالةِ على أنَّ فعلَ الإيحاءِ مُتَلَبِّسٌ بهمْ، وأنّهمْ ثابتونَ مُستقرّونَ عليهِ.

الدّلالةُ على تلبّسِهم بالإيحاءِ لأوليائِهم وثباتِهم عليه

معنى التَّعريفِ في لفظة ﴿ٱلشَّيَٰطِينَ﴾:

الألفُ واللّامُ في لفظةِ: ﴿ٱلشَّيَٰطِينَ﴾ قد تكونُ جنسيةً لتشملَ جميعَ الشّياطينِ منَ الإنسِ والجنِّ في تحذيرٍ لبني آدمَ من وسوستِهم، وقد تكونُ عهديةً وهي "هاهنَا إبليسُ وَجنودُهُ وَسْوَسُوا إلى أَوليائِهِمْ منَ المشركينَ ليُجادِلوا محمّدًا صلّى اللّهُ عليهِ وآلِه وسلّم وأصحابَهُ في أَكلِ المَيتَةِ"[4].

الألفُ واللّامُ بينَ الجنسِ والعهدِ

(1) الطيبي، فتوح الغيب: 6/228، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 13/131.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 8/أ41.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 8/أ42.
(4) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 13/132.

دلالةُ جمعِ ﴿ٱلشَّيَٰطِينَ﴾:

هم مردةُ المجوسِ أو شياطينُ قريشٍ أو قومٌ منَ اليهودِ

دلَّ جمعُ ﴿ٱلشَّيَٰطِينَ﴾ في قولِه تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِهِمۡ﴾ على تنوُّعِ أساليبِ الشَّياطين ووسائلِهم في الإغواءِ، وأنَّه إن لم يؤثِّرْ أسلوبٌ سلكوا آخر، وقد ذكر جمعٌ منَ المفسِّرين أنَّ المراد بهم مردةُ المجوسِ، أو شياطينُ قريشٍ، أو هم قومٌ منَ اليهودِ[1]، فناسبَ ذلك كلَّه التّعبيرُ بالجمعِ.

سرُّ استعمالِ (الإيحاءِ) دونَ مُرادِفاتِه:

الإيحاءُ يدلُّ على سُرعةِ الإلقاءِ في القلبِ وخفائِه

الإيحاءُ في قولِه: ﴿لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِهِمۡ﴾ هو القذفُ في القلبِ لسُرعةِ قذفِه ووقوعِه فيه، وكذا تسميتُه الإلهامَ وحيًا فهو سريعُ الوقوعِ في القلبِ[2]، ويشتمل الإيحاءُ على معنى الخفاء، فالإيحاءُ فيه خفاءٌ وسرعةٌ، وهذا يدلُّ على تمكُّنٍ منَ التَّأثير، ففيه مزيدُ تحذيرٍ من مجادلتِهم، فإنَّ المؤمن يَتَحَرَّى الصِّدقَ والحقَّ فلا يعجلُ بالقولِ، بل يكونُ على مَهلٍ وبوضوحٍ، وقد يكونُ الأمرُ السَّريعُ الخفيُّ أشدَّ تأثيرًا في النَّاس منَ البطيءِ الواضح؛ فلذلك وجبَ اتِّخاذُ مزيدِ حذرٍ ويقظةٍ.

نكتةُ التَّعبيرِ بالفعلِ المضارعِ في: ﴿لَيُوحُونَ﴾:

الشَّياطينُ لا يَمَلُّون منَ الإيحاءِ المستمرِّ إلى قيامِ السَّاعة

عبّرَ بالفعلِ المضارعِ الدّالِّ على الحالِ والاستقبالِ ﴿لَيُوحُونَ﴾ في قولِه تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِهِمۡ﴾ في إشارةٍ إلى أنّ إيحاءَهم دائمٌ ووسوستَهم مستمرّةٌ، وأنّ وقوعَه متجدّدٌ ساعةً فساعةً وحالًا فحالًا، وأنّ هذا الحكمَ جارٍ في كلّ زمانٍ، وهو دأبُ إبليسَ إلى قيامِ الساعةِ؛ لقولِه تعالى: ﴿قَالَ فَبِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي لَأَقۡعُدَنَّ لَهُمۡ صِرَٰطَكَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ١٦ ثُمَّ لَأٓتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ وَعَن شَمَآئِلِهِمۡۖ وَلَا تَجِدُ أَكۡثَرَهُمۡ شَٰكِرِينَ ١٧﴾ [الأعراف: 16 - 17].

(1) الماوردي، النكت والعيون: 2/162.
(2) الماتريدي، تأويلات أهل السنّة: 5/163.

سرُّ إيثارِ لفظِ (الأولياءِ) على الأتباعِ:

الأولياءُ أخطرُ منَ الأتباعِ؛ لأنَّهم دعاةُ الضَّلالِ ظاهرًا وباطنًا

استعملتِ الآيةُ لفظَ الأولياءِ في قولِه تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِهِمۡ﴾، وهمْ بمعنى المناصرينَ والمظاهرينَ في هذا الموضعِ[1]، وهو أنسبُ من لفظِ الأتباعِ الذين نصرتُهم غيرُ متحقّقةٍ، فدلَّ لفظُ الأولياءِ على المتابعةِ والمناصرةِ والمحبَّةِ، فالأولياءُ أخطرُ منَ الأتباعِ؛ لأنَّهم دعاةُ الضَّلالِ، فوجب الحذرُ منهم، والحيطةُ منَ الاستماعِ إليهم.

نوعُ اللّامِ في قولِه تعالَى: ﴿لِيُجَٰدِلُوكُمۡۖ﴾:

اللّامُ تعليليَّةٌ؛ أيْ: لأجلِ أنْ يجادلوكمْ

اللّامُ في قولِه تعالى: ﴿لِيُجَٰدِلُوكُمۡۖ﴾ دالّةٌ على التّعليلِ، أيْ: لأجلِ أَنْ يجادلوكمْ بإيحاءٍ منَ الشّيطانِ في أنَّ ذبحَكمْ حلالٌ وذبحَ اللّهِ حرامٌ؛ إقناعًا منهمْ بأنّكمْ أحسنُ منَ اللّهِ[2] تعالى اللّهُ عمّا يقولون علوًّا كبيرًا.

نُكتةُ استعمَالِ (المجادَلةِ) في قولِه تعالَى: ﴿لِيُجَٰدِلُوكُمۡۖ﴾:

منازعةٌ بالقولِ غايتُها الإقناعُ بالرّأيِ إبطالًا لأحكامِ الإسلامِ

نُكتةُ استعمالِ المجادلةِ منَ الفعلِ: ﴿لِيُجَٰدِلُوكُمۡۖ﴾ الدّلالةُ على معنى المنازعةِ بالقولِ وغايتُها محاولةُ الإقناعِ بالرّأيِ المبطلِ لأحكامِ الإسلامِ والتّرغيبِ في شعائرِ الكفرِ وطقوسِ الضلالِ[3].

دلالةُ الواوِ في قولِه تعالى: ﴿وَإِنۡ أَطَعۡتُمُوهُمۡ إِنَّكُمۡ لَمُشۡرِكُونَ﴾:

في طاعتِهم تركُ الهدى واتّباعُ الهوى وهما مُوصِلانِ إلى الشّركِ

الواوُ في قولِه تعالى: ﴿وَإِنۡ أَطَعۡتُمُوهُمۡ إِنَّكُمۡ لَمُشۡرِكُونَ﴾ عاطفةٌ، فإنّهُ لَمّا كانَ منْ نتيجةِ طاعتِهمْ في تركِ الأكلِ ممّا ذُكرَ اسمُ اللّهِ عليهِ تركُ الهدى واتّباعُ الهوى وهما مُفضيانِ إلى الشركِ، وأنّ الإيمانَ اسمٌ لجميعِ الطّاعاتِ لذا عطفَ عليهِ هذه الجملةَ[4].

---

(1) ابن جرير، جامع البيان: 12/86.

(2) ابن عادل، اللباب في علوم الكتاب: 8/407، والشنقيطي، العذب النمير: 5/442.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 8/أ42.

(4) البقاعي، نظم الدرر: 7/248.

نُكتةُ استعمالِ ﴿وَإِنْ﴾:

الانتقالُ منَ الإيمانِ إلى الإشراكِ مُتوقّفٌ على طاعةِ أولياءِ الشَّيطان

استعمالُ (إنْ) الشّرطيّةِ في قولِه تعالى: ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ دالٌّ على التّعليقِ؛ تعليقِ طاعتِهمْ في تشريعِ الشّيطانِ واتّباعِه بشُبَهٍ سَقيمةٍ وآرَاءٍ عَقيمةٍ في تحليلِ الميتةِ بالتّحوّلِ إلى الإشراكِ باللّهِ تعالى، فالتّحليلُ والتحريمُ لا يكونُ إلا للحقِّ ﷻ، فهو المتفرّدُ في عبادتِه وفي حُكمِه[1]، وجيءَ بها دون (إذا) لبيانِ أنَّ صدورَ ذلك عنِ المؤمنين غيرُ متحقّقِ الوقوعِ.

دلالةُ استعمَالِ ﴿أَطَعْتُمُوهُمْ﴾ دونَ (استجبتم لهم):

الإيمانُ اسمٌ لِجميعِ الطَّاعاتِ فمن تركَها فقد أطاعَ أولياءَ الشَّيطان

استعملَ النَّظمُ الفعلَ ﴿أَطَعْتُمُوهُمْ﴾ في قولِه تعالى: ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ دونَ الفعلِ (استجبتم لهم)؛ لأنّه مشتقٌّ منَ الطاعةِ، والإيمانُ اسمٌ متعلّقٌ بالطّاعاتِ جميعًا، فيما جعلَ الشّركَ اسمًا لكلّ ما كان مخالفا لأوامرِه تعالى، وهنا "سمَّى طاعةَ المُؤمنِينَ للمشرِكينَ في إباحةِ المَيتَةِ شِرْكًا"[2] في قولِه: ﴿إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾، فاستعمالُ ﴿أَطَعْتُمُوهُمْ﴾ أليقُ وأنسبُ؛ لأنّه في سياقِ الإيمانِ والشّركِ، ولا يناسبهُ فعلُ الاستجابةِ.

غرضُ حذْفِ مُتعلّقِ فعلِ الشَّرطِ: ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ﴾ الدَّالّ عليه لفظُ الشِّركِ:

غرضُ جدالِهم الطّعنُ في الإسلامِ وهوَ مُفضٍ إلى الشِّركِ

حُذِفَ متعلّقُ فعلِ الشّرطِ في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ الدَّالِّ عليه جوابُه من معنى الشّركِ؛ لدلالةِ المقامِ عليه، والمعنى: "إِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ فِيمَا يُجَادِلُونَكُمْ فِيهِ، وهو الطَّعْنُ فِي الإِسْلَامِ، وَالشَّكُّ فِي صِحَّةِ أَحْكَامِهِ"[3]، فالأكلُ ممّا لمْ يذكرِ اسمُهُ عليهِ شركٌ بدلالةِ الجوابِ؛ حيث عدَلوا عن أمرِ اللّهِ لكم وشرعِه إلى قولِ غيرِه فقدَّموا في هذه الحالة عليه غيرَه،

(1) الشنقيطي، العذب النمير: 3/28.
(2) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 13/132.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 8/أ42.

فهذا هو الشّرك، كقوله تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: 31].

بلاغةُ التَّوكيدِ في جملةِ ﴿إِنَّكُمۡ لَمُشۡرِكُونَ﴾:

جوابُ الشّرطِ في قولِه تعالى: ﴿وَإِنۡ أَطَعۡتُمُوهُمۡ إِنَّكُمۡ لَمُشۡرِكُونَ﴾ مشتملٌ على التّوكيدِ، وفيهِ تحقيقُ لُحوقِهمْ بالمشركينَ حالَ طَاعَتِهِمُ الشّياطينَ؛ فإنَّ رميَ أحكامِ الإسلامِ بالخطأِ تعادلُ الشّركَ وإنْ لمْ يُشركوا في عبادتهِ فلذلكَ احتيجَ إلى التَّوْكِيدِ[1].

تخطئةُ أحكامِ الإسلامِ مساويةٌ للشّركِ وخروجٌ عنِ الإيمانِ

دلالةُ اسمِ الفاعلِ على الاستقبالِ في جملةِ ﴿إِنَّكُمۡ لَمُشۡرِكُونَ﴾:

اسمُ الفاعلِ (مشركون) في الجملة دالّ على الاستقبالِ، أيْ: إنّكمْ صائرونَ إلى الشركِ، والمعنى أنَّ الشياطينَ تستدرجكُمْ عنْ طريقِ المجادلةِ حتّى تتّبعوهمْ حذوَ القُذّةِ بالقُذّةِ، فيبلغوا بكمْ إلى الشّركِ[2].

استدراجُ الشّياطينِ بالمجادلةِ مآلهُ صيرورتُكم إلى الشّركِ

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الجِدال والمِراء:

وصِفَ المراءُ بأنّهُ مذمومٌ لأنّهُ مخاصمةٌ في الحقِّ بعدَ بيانهِ وظهورهِ، أمّا الجدالُ، فهو إرجاع الخصم عن رأيه أو مذهبه، ويرجعُ أصلُهُ إلى الجَدْلِ، وهو شدّةُ الفتلِ، ومنهُ الطائرُ الأجدلُ لشدّةِ قوتهِ منْ بينِ الجوارحِ[3]، فالمجادلةُ في الآيةِ منَ المشركينَ للمؤمنينَ بغيرِ حجّةٍ ولا برهانٍ، وهي ليستْ مخاصمةً في الحقِّ بعدَ ظهورهِ، بلْ هي في محاولةِ التّخليطِ والتّمويهِ على المسلمينَ في أمرٍ مقرّرٍ، ومحاولةِ العودةِ عن المذهبِ والشرعِ وهو التّفريقُ بينَ الميتةِ والمذكّاةِ؛ فالجدالُ المُؤذِنُ بالقوّةِ والشدّةِ أليقُ بهذا المقامِ ولاسيّما أنَّ صُدورَهُ كائنٌ منَ الشّياطينِ.

الجدالُ هو العودةُ عنِ المذهبِ والشّرعِ، والمِراءُ مخاصمةٌ في الحقِّ بعدَ ظهورهِ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 8أ/42.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 8أ/42.
(3) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 158.

﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ [الأنعام: 122]

مُنَاسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

ضربُ الأمثالِ بعدَ بيانِ الحقائقِ يَزِيدُهَا جَلَاءً

لَمّا بيَّن سبحانَه في الآيات السَّابقةِ حالَ أَكثرِ أَهلِ الأَرضِ، بأنَّهم مُنغمسونَ في الضّلالِ، مُتَّبعونَ للظَّنِّ، يُضلّونَ غيرَهم بأهوائِهم على غيرِ هُدًى وتثبّتٍ، وأنّ بعضًا منهم لَيجادلونَ المؤمنينَ بوحيٍ منَ الشَّياطينِ لإضلالِهم وحملِهم على اقترافِ الآثامِ؛ ضَربَ هنا مَثلًا في بيانِ الفَرقِ بينَ المهتدِينَ اقتداءً بهم، والكافرِينَ الضَّالّينَ؛ تنفيرًا وتحذيرًا منْ غَوايتِهِمْ، فإنّهم لَمْ يُمَيِّزُوا بَينَ النُّورِ والظُّلماتِ[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مَيْتًا﴾: اسمٌ مجردٌ يدلُّ على ما ليسَ فيهِ الرّوحُ، وجذرُهُ اللّغويُّ (موت)، ومعنى الموتِ ما كانَ ضدَّ الحياةِ، ولهذا الجذرِ أصلٌ في لسانِ العربِ يدلُّ على انقضاءِ القوّةِ منَ الشّيءِ أوِ الجسمِ، وهيَ القوّةُ النّاميةُ الموجودةُ في الإنسانِ والحيوانِ والنّباتِ[2]، والمَيْتُ في الآيةِ مجازٌ عنِ الحياةِ، أيْ: منْ كانَ ميتًا بالكفرِ والضّلالِ فأحييناهُ بالهدى والإيمانِ[3].

2) ﴿فَأَحْيَيْنَٰهُ﴾: فعلٌ ماضٍ يدلُّ على جعلِ الرّوحِ في الإنسانِ، فكلُّ ذي رُوحٍ ينطبقُ عليهِ اللّفظُ، وجذرُهُ اللّغويُّ (حيو) و(حيي)، والأصلُ في معناهُ أنّهُ ضدُّ الموتِ في أحدِ معنيَيْهِ، وهو أيضًا "قوةٌ

(1) رضا، تفسير المنار: 8/25.
(2) الجوهري، الصحاح، وابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (موت).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (موت).

ساريةٌ تتمثّلُ في الحسِّ والنُّمُوِّ، وهو حركةٌ واتّصالٌ وامتدادٌ معَ الطراءةِ"، ويُطلقُ هذا اللفظُ على القوّةِ النّاميةِ المتوافرةِ في النّباتِ والحيوانِ؛ فيوصفُ كذلك النّباتُ بالحيِّ[1]، ومعنى ﴿فَأَحْيَيْنَٰهُ﴾: هديناهُ هدايةَ التّوفيقِ، بأنَ قذفْنا نورًا يحيى بهِ القلبُ، فبعدَ أنْ كانَ ضالًّا هديناه[2].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

الكافرُ يرى عملَه زينةً وزُخرفًا لا ظُلمًا وضَلالًا

بيَّنتِ الآيةُ أنَّه لا يستوي منْ كانَ كافرًا مشركًا هالكًا محتارًا في ضلالتهِ، فأرشدَهُ اللّهُ، وأحيا قلبَهُ فغدا عامرًا بالإيمانِ، وصيّرَ لهُ نورًا يهتدي بهِ؛ مع منْ هوَ في ظلماتِ الكفرِ والجحودِ ليسَ بخارجٍ منها، وكما أنَّه قد زُيّنَ لهؤلاءِ سوءُ أعمالهمْ زُينَ للكافرين سوءُ أعمالهمْ وفسادُ اعتقادِهمْ.

والمثلُ المذكورُ في الآية عامٌّ لكلِّ مؤمن ولكلِّ كافر، وهو رأيُ جمهور المفسّرين، وليس المرادُ بمن أحياه اللّه وهداه شخصًا معيّنًا كعمرَ بنِ الخطّاب، وليس المرادُ بمن بقي في الظّلمات ليس بخارج منها شخصًا معيّنًا كعمرو بن هشام[3].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

غرضُ الاستفهامِ في قولِه تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ﴾:

نـفـيُ مُشابهـة الكافرِ المُؤْمِنَ، وإنكارُ أن يُظنَّ ذلك

ابتدأَ قولُه تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ﴾ بهمزةِ الاستفهام، وغرضُها الإنكارُ[4] والنَّفيُ، أي: أفمنْ كانَ ميتًا بالكفرِ والضّلالةِ فأحييناهُ بالإيمانِ وجعلنا لهُ نورًا يمشي بهِ، كمن هو في الظلماتِ يتخبّطُ فيها، فنفى أنْ يكونَ هذا مثلَ ذاكَ، وأنكرَ أن يُظنَّ أنَّ هذا مثلُ هذا.

(1) الخليل، العين: (حيو)، وابن فارس، مقاييس اللغة: (حيّ)، والراغب، المفردات: (حيي)، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (حيي).
(2) الهرري، حدائق الروح والريحان: 21/277.
(3) طنطاوي، الوسيط: 5/167.
(4) رضا، تفسير المنار: 8/26.

تعيينُ المعطُوفِ عليه بالواوِ في قولِه تعالى: ﴿أَوَمَن﴾:

الواوُ في قولِه تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ﴾ إمَّا للعطفِ، وهذا العطفُ إمَّا أن يكون على جملةٍ سابقةٍ مذكورةٍ قبل الهمزة كما هو مذهبُ سِيبَويه، وإمَّا أن يكونَ على جملةٍ مقدَّرةٍ بعد الهمزة كما هو المشهورُ من مذهبِ الزَّمخشريّ.

الواو إمَّا للعطفِ على مذكورٍ سابقٍ للهمزةِ، وإمَّا على مقدَّرٍ بعدها

فعلى المذهب الأول فالجملةُ معطوفةٌ على قولِه: ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾؛ فإنّ هذهِ الجملةَ متضمِّنةٌ المجادلةَ في تقبيحِ أحكامِ الإسلامِ، فجاءَ بهذينِ التّمثيلينِ للحيّ والميتِ لتفظيعِ حالِ المشركينَ ووصْفِ حُسنِ حالِ المؤمنينَ حينما فارقوا الشّركَ[1].

وعلى المذهب الثَّاني فإنّ همزَةَ الاستفهامِ داخلةٌ على جُملةٍ مَحذوفةٍ للعلم بها منَ السِّياقِ وهو منْ لطائفِ الإيجازِ، وتقديرُ هذهِ الجملة: أَأَنْتُمْ أَيُّهَا المُؤْمِنُونَ كَأُولَئِكَ الشَّيَاطِينِ أَوْ كَأَوْلِيَائِهِمُ الَّذِينَ يُجادِلونَكُمْ بِمَا أَوْحَوْهُ إِلَيْهِمْ مِنْ زُخْرُفِ القَوْلِ الَّذِي غَرُّوهُمْ بِهِ، وَمَنْ كانَ مَيْتًا بِالكُفْرِ وَالجَهْلِ فَأَحْيَيْنَاهُ بِالإيمانِ وَجَعَلْنا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ - وهو نُورُ القُرْآنِ وَمَا فِيهِ مِنَ العِلْمِ الإِلَهِيِّ وَالهِدَايَةِ بِالآيَاتِ - إِلَى العِلْمِ النَّظَرِيِّ، كَمَنْ صِفَتُهُ وَنَعْتُهُ الَّذِي يُمَثِّلُ حَالَهُ هو أَنَّهُ خَابِطٌ فِي ظُلُمَاتِ الجَهْلِ وَالتَّقْلِيدِ الأَعْمَى وَفَسَادِ الفِطْرَةِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا[2].

براعةُ الاستعارةِ في استعمالِ لفظِ الموتِ والإحياءِ في قولِه: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ﴾:

في قوله تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ﴾ استعارةٌ لطيفةٌ، فقد شبّهَ مَن كانَ ضالًّا فهداهُ اللّهُ بمن كانَ ميتًا فأحياهُ اللّهُ، أي: فهديناهُ، فقد استعارَ الإحياءَ من معناهُ الموضوعِ في لسانِ العربِ

استعارَ الإحياءَ للهدايةِ في دلالتِها على الطريقِ المُوصلِ إلى المَطْلُوبِ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 8/أ43.

(2) رضا، تفسير المنار: 8/26، وطنطاوي، الوسيط: 5/169.

وهو جعلُهُ حيًّا بعد موتٍ، لِلْهِدَايَةِ وهي الدّلالةُ على الطَّريقِ المُوصلِ إليه سبحانهُ[1]، وقد وصف الله في كتابه الكفّارَ بأنّهم أمواتٌ في العديد منَ الآيات كقوله: ﴿أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ ۖ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ [النحل: 21]، وقوله: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [النمل: 80]، وفي قوله: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ ۚ﴾ [فاطر: 22]، فلما جعل الكفرَ موتًا والكافرَ ميتًا جعل الهدى حياةً والمهتديَ حيًّا؛ وإنّما جُعل الكفرُ موتًا لأنّه جهل، والجهلُ يوجبُ الحيرةَ والوقفةَ، فهو كالموت الذي يوجبُ السّكونَ، وأيضًا الميتُ لا يهتدي إلى شيءٍ، والجاهلُ كذلك، والهُدى علمٌ وبصرٌ، والعلمُ والبصرُ سببٌ لحصول الرُّشدِ والفوزِ بالنّجاة[2]، فالاستعارةُ في الآية تصريحيَّةٌ، وفي هذه الاستعارةِ تقبيحٌ لحال الضَّلال، وتبشيعٌ وتشنيعٌ على مقترفِيها، كما أنَّ فيه مدحًا للمؤمنين، ورفعًا لشأنِهم، والموتُ دليلُ فناءِ صاحبِه في الدُّنيا، بخلافِ الحياة فهي دليلُ بقاءِ صاحبها، والميتُ متوقِّفٌ، والحيُّ على طريقِ الوصولِ إلى الغايةِ العُظمى.

نكتةُ إسنادِ الإحياءِ إلى ضميرِ العظمةِ في قوله تعالى: ﴿فَأَحْيَيْنَٰهُ﴾:

تشريفُ مَن أحياه الله وتكريمُه بعد ضَياعِه وضَلاله

لَمَّا كان الإحياءُ من صفات الإحسان إلى العبدِ المؤمنِ نسبَ ذلكَ إليهِ فأسندَ الإحياءَ إلى نفسه تعالى فقالَ: ﴿فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا﴾، وفي صفةِ الكافرِ لَمْ ينسبهَا إلى نفسِهِ[3]، وفي هذا الإسناد تشريفٌ وتكريمٌ لمن أحياه الله تعالى بعد موتِه وضَياعه؛ فإنَّ إحياءَ الله تعالى إحياءٌ حقيقيٌّ دائمٌ.

بلاغةُ الإطْنابِ في جملةِ: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ﴾:

يشتملَ قولُه تعالى: ﴿فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا﴾ على نوعِ إطنابٍ،

(1) الدسوقي، حاشية الدسوقي على مختصر المعاني: 3/310 - 311.
(2) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 13/132.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/635.

فقدْ عبّرَ عنِ الهدايةِ بأنْ جعلَ لصاحبِها نورًا يمشي به، ولمْ يقلْ: نَوَّرْناهُ؛ لأنَّ هذا التّعبيرَ يوحِي بأنَّ النورَ سيكونُ مختصًّا بهِ في النَّاسِ، "إشارةً إلى تنويرِهِ على نفسهِ وعلى غيرهِ منَ النَّاسِ فذكرَ أنَّ منفعةَ المؤمنِ ليستْ مقتصرةً على نفسهِ"[1]، وهو يريدُه على سبيلِ المشيِ بهِ بينَ النّاسِ ليميّز بينهمْ من كانَ مهتديًا ممّنْ كانَ في عَمًى، كما أنَّ فعلَ الجعْلِ المسنَدَ إلى ضمير العظَمة فيه تثبيتٌ وتوكيدٌ وتحقيقٌ، فهو ليس جعلًا اعتياديًّا، بل هو جعلٌ ثابتٌ راسخٌ.

نورُ المؤمنِ يميّزُ مـنْ كـانَ على هُدًى ممّنْ كانَ في عَمًى

نُكتةُ تقديمِ الجارِّ والمجرورِ على المفعولِ في قولِه تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا﴾:

قُدِّم الجارُّ والمجرور ﴿لَهُۥ﴾ على المفعول ﴿نُورًا﴾ في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا﴾؛ لنُكتتين: الأولى: إرادَةُ الاختصاصِ والقَصْر، وهو قصرٌ ادّعَائيٌّ للمبالغةِ؛ فكأنَّه تعالى جعل النّورَ له وحده، والأخرى: التَّشويقُ؛ فإنَّ السَّامعَ ينتظرُ أن يعلمَ ما جعله اللّه تعالى لمن أحياه اللّه بهدايته.

اجتماعُ نُكتَتَيْن: القَصْرِ الادِّعَائِيِّ لـلـمـبـالـغـةِ والتَّشْوِيقِ إلى المَعرِفَةِ

بلاغةُ الاستعارةِ في استعمالِ ﴿يَمْشِى﴾:

التّعبيرُ بالفِعْلِ ﴿يَمْشِى﴾ في قولِه تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ﴾ من بابِ الاستعارةِ؛ فإنَّ غايةَ النّورِ الإضاءةُ لا المشيُ، لكنّهُ عبّرَ عنه بمن جعلَ له نورًا أنّهُ يمشي بهِ في الناسِ كيفَ سلكَ؛ تشبيهًا لهُ بالعصا التي يتوكَّأُ عليها في سيرهِ بينَ الناسِ، ويتأمّلُ بهِ في الأشياء، ويهتدي بهِ في الفلَواتِ فيميّزُ بينَ الحقّ والباطلِ[2].

نُورُ المؤمن دليلُه وهادِيه في حياتِه الدّنيا

معنى حرفِ الباءِ الدَّاخلِ على الضَّميرِ: ﴿بِهِۦ﴾:

الباءُ في قولِه تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ﴾ سببيّةٌ[3]، فالنّورُ الذي جعلهُ اللّهُ له كانَ سببًا في هدايتِه المعبَّر عنها بالمشي بين الناسِ مستضيئًا به.

نـورُ الـلـهِ سببُ هدايةِ الضّالِّ

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/635.
(2) البيضاوي، أنوار التنزيل: 2/180.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 8/أ45.

دلالةُ استعمالِ حرفِ الظَّرفيَّةِ ﴿فِي ٱلنَّاسِ﴾:

من استنارَ قلبُه وصلَ كلامُه إلى قلوب النّاس

استعمالُ حرفِ الظّرفيةِ في قولِه: ﴿فِي ٱلنَّاسِ﴾ لهُ دلالةُ التّمييزِ بينَ الناسِ بعضِهمْ منْ بعضٍ، فيفصلُ بينَ منِ اهتدى ومنْ بقيَ على ضلالتِه مُرتكسًا في الظّلماتِ غيرَ منفكٍّ عنها[1]، وأفاد هذا الحرفُ تأثيرَ صاحبه في النَّاس، فلو قال: (يمشي به بين النَّاس)؛ لفُهم أنَّه يمشي بينهم فحسب، وهذا معنًى ماديٌّ، لكنَّه لما أتى بحرفِ الظَّرفيَّة أفاد أنَّه يمشي بتأثيرٍ فيهم.

براعةُ التَّمثيلِ في قولِه تعالى: ﴿كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ﴾:

الآيةُ مُترددّةٌ بينَ التّشبيهِ التّمثيليّ والاستعارةِ التّمثيليةِ

معنى قولِه تعالى: ﴿كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ﴾: كَمَنْ مثلهُ مثلُ ميتٍ ومعنى مثَلِه أي: حاله، وطريقةُ التّمثيلِ هنا كحالِ منْ أسلمَ واهتدى قُبالةَ منْ كانَ ميتًا فأحياهُ اللّهُ، وتمثيلُ منْ هو باقٍ على إشراكِه بحالِ ميتٍ باقٍ في قبرِه، والاستفهامُ الإنكاريُّ يَنفي المشابهةَ، ووجودُ كافِ التّشبيهِ معَ خُلوِّ التَركيبَينِ منَ المشبّهِ أوردَ خلافًا في كونِ التّشبيهَيْنِ منْ قَبيلِ التّشبيهِ التّمثيليِّ، وهوَ رأيُ القُطبِ الرازي، أو منْ بابِ الاستعارةِ التّمثيليةِ، وهوَ رأيُ التّفتازانيِّ، وهذا الثّاني ما رجّحهُ ابنُ عاشورٍ[2].

بلاغةُ المجازِ بالحذفِ في قولِه تعالى: ﴿كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ﴾:

المحذوفُ هنا المشبّهُ وهو مساوٍ للمشبّه بهِ في كونِهما مُشركَيْنِ

في قوله تعالى ﴿كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ مجازٌ بالحذفِ على تقديرِ: كمَن مثلُه مثلُ ميّتٍ، أي: "أَنَّ جُزءَ الهَيئةِ المشبَّهةِ هو الميّتُ؛ لأنَّ المشبَّهَ والمشبَّهَ بهِ سواءٌ في الحالةِ الأصليَّةِ وهي حالةُ كوْنِ الفريقينِ مشركَيْنِ"[3]، أي: كمن لو شبّهَ بشيءٍ كانَ شبيهُهُ من كانَ في الظّلماتِ، فالمشبّهُ والمشبّهُ به متساويان في وصفِهما بالمشركَيْن.

(1) الزمخشري، الكشاف: 2/62.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 2/263، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 8/أ45.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 8/أ43.

بلاغةُ الاسْتِعَارةِ في قولِه تعالى: ﴿كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ﴾:

تَشْبِيهُ الظّلماتِ بالمياهِ بجامعِ الهلاكِ فيهما، فهلاكُ الظّلماتِ مَعْنَوِيٌّ وهلاكُ المياهِ حِسّيٌّ

قولُه تعالى: ﴿كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ يتوفّرُ على الاستعارةِ، فقد شبّهَ الظّلماتِ بالمياهِ بجامعِ الهلاكِ لكلٍّ منْ يكونُ فيهما، فلا يستطيعُ الخُرُوجَ منهما بلْ يتردّى فيهما، فهلاكُ الظّلماتِ معنويٌّ، وهلاكُ المياهِ حسّيٌّ، واستعملَ الحرفَ (في) لبيانِ حالِ المستغرقِ فيها في كونِها ظرفًا لهُ، ويرشحُ هذهِ الاستعارةَ قولُه: ﴿لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾.

نكتةُ إفرادِ ﴿نُورًا﴾ وجمعِ: ﴿ٱلظُّلُمَٰتِ﴾:

طريقُ الحقّ واحدٌ وطرقُ الضّلالِ متعددةٌ

أفردَ النورَ في قولِه تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا﴾ وجمعَ الظّلماتِ في قولِه تعالى: ﴿كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ ونكتةُ ذلكَ أنّ طريقَ النّورِ واحدٌ، وهو طريقُ الحقّ ﷻ، أمّا مجيءُ الظُّلماتِ جمعًا؛ فهو لتَناسُبِ تعدُّدِ أنواعِ الكُفرِ والضّلالِ المتكاثفةِ، وتبتدئُ بالأهواءِ، وهي ظلمةٌ، ثمّ الأوهامِ وهي ظلمةٌ، ثمّ الشّركِ وهو ظلماتٌ[1].

غرضُ إسنادِ جعلِ النُّورِ لله في حقِّ المُهتدِي، والاستغراقِ في الظُّلُمَاتِ للضَّالِّ:

إسنادُ جعلِ النورِ إلى اللهِ امتنانٌ على عبادِه، والاستغراقُ في الظّلماتِ تبشيعٌ وتحذيرٌ

أُسنِدَ جعلُ النورِ في حقّ المهتدي إلَيْهِ ﷻ في قولِه تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا﴾، فيما جُعلَ الضّالُّ مُستغرقًا في الظّلماتِ في قولِه تعالى: ﴿كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ﴾؛ لأنهُ أرادَ في الأولى إظهارَ الامتنانِ على عبادِهِ الضّالّينَ بعدَ أنْ أحياهمْ وأنقذهمْ وأخرجَهمْ منَ الموتِ إلى حياةِ القلوبِ، بَيْدَ أنَّهُ أرادَ في الثّانيةِ اسْتِبْشَاعَ صُورَةِ المنغمسِ في الظّلماتِ تنفيرًا منهُ وتحذيرًا.

فائدةُ مقابلةِ ﴿فَأَحْيَيْنَٰهُ﴾ لقولِه: ﴿لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾:

شتّانَ بينَ منْ أنقذه اللهُ منَ الضَّلالةِ ومن هو غارقٌ في الظلماتِ

في قولِه تعالى: ﴿فَأَحْيَيْنَٰهُ﴾ مقابلةٌ لقولِه: ﴿لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾؛ مقابلةٌ منْ هُدي بحياةِ الإيمانِ، ومنْ بقيَ غارقًا في ظلماتِ الشّركِ مُتحيّرًا لا يستطيعُ الخروجَ منها، وفائدةُ هذهِ المقابلةِ بيانُ أنَّ

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 5/3625، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/635.

الحالتَين كانتا في موتٍ، أمّا الأولى فأحياهَا اللّهُ بالإيمانِ، وأمّا الثانيةُ فبقيتْ في كفرِها.

بلاغةُ الاستئنافِ البيانيّ:

شفاءُ غليلِ السَّائل عن علَّةِ ضلالِ المشركين

فُصِلَ قولُه تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلۡكَٰفِرِينَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾؛ لأنَّه استئنافٌ بَيَانيٌّ ناشئٌ عنْ سؤالٍ مؤسَّسٍ على التّمثيلِ السّابقِ: أن كيفَ ارتضَوْا أنْ يَبْقَوْا في تلكَ الضّلالاتِ، وكيفَ لمْ يَرَوُا الفرقَ بينَ حالِهمْ منَ الضّلالِ وحالِ الذينَ أسلموا واهتدَوا، وإذا كانوا قبلَ الإسلامِ في انحطاطٍ وغفلةٍ، فما بَالُهُمُ استمرُّوا في ضلالِهمْ بعدَ ما جاءَهمُ الهدى والحقُّ بالأدلّةِ والبراهينِ؟[1]، فكانَ قولُه تعالى هذا بيانًا شافيًا لسببِ مُكْثِهم على ما هم عليه، وهو تزيينُ الشّيطانِ لهم.

بلاغةُ التَّشبيهِ وتعيينُ المُشَارِ إليه باسمِ الإشَارَةِ في قولِه: ﴿كَذَٰلِكَ﴾:

التّزيينُ الواقعُ في قلوبِ الكافرين والمؤمنين سنَّةٌ اجتماعيّةٌ

قولُه تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ مُركّبٌ من كاف التّشبيه واسمِ الإشارة، والمشبّهُ به ظاهرٌ مُشارٌ إليه، أو هو كالظّاهر المفْهُومِ منَ السّياق[2]؛ أي: كما زُيِّن ذلك التَّزيينُ المعهودُ لدى المخاطَبين عمومًا، زُيِّن للكافرين، أو إشارةٌ إلى إيحاء الشّياطين إلى أوليائهم، أو إلى تزيين الإيمان للمؤمنين زُيِّنَ من جهته تعالى خلقًا، أو من جهة الشّياطين وسوسةً لِلْكافِرينَ كأبي جهل وأضرابِه[3]، فالتَّشبيهُ هو لبيانِ أنَّ التَّزيينَ الواقعَ للكافرين، وقع مثلُه لغيرهم منَ الكافرين السَّابقين، أو للمؤمنين، بقطعِ النَّظر عمَّن أوقعَه في قلوبهم؛ فإنَّ الشَّياطين زيَّنتِ الأعمالَ للكافرين، واللّه زيَّن الإيمانَ في قلوبِ المؤمنين، فاغترارُ الكافرين بكفرِهم لا يغرُّ المؤمنَ الصَّادقَ.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 8أ/46.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/2.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 4/263.

نكتةُ إسنادِ فعلِ ﴿زُيِّنَ﴾ للمفعُولِ:

القصدُ الإخبارُ عن وقوعِ التّزيينِ لا مَن أوقعَهُ

أُسْنِدَ الفعلُ إلى المَفْعُولِ وحُذفَ الفاعلُ في قولِه تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ﴾؛ لأنّه أرادَ منَ الجملةِ وقوعَ التّزيينِ لا فاعلَهُ، وهمُ الشياطينُ، فشياطينُ الإنسِ هم المزّينونَ وشياطينُ الجِنِّ همُ المُسوِّلون[1].

سِرُّ إيثارِ وَصْفِ الكُفْرِ على الشِّركِ في: ﴿لِلْكَٰفِرِينَ﴾:

الكفرُ أعمُّ من الشّركِ فهو يقعُ على ضروبٍ عديدةٍ منَ الذنوبِ القلبيَّة وغيرها

آثرَ النَّظمُ وصفَ الكافرينَ على المشركينَ في قولِه تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ﴾؛ لأنَّ الشركَ ممّا يدخلُ تحتَ مضمونِ الكفرِ؛ فالكفرُ هو إنكارُ حقٍّ من حقوق اللّه تعالى، أو شكٌّ فيه، أو تركُ طاعته، أو خروجٌ عنها على وجه العمْد والإصرار، والشّرك هو جعلُ نظيرٍ للّه تعالى في رُبُوبِيَّتِهِ أو ألوهيّتِه أو أسمائه وصفاته، فالكفرُ اسمٌ يقعُ على ضروبٍ كثيرةٍ منَ الذنوبِ، فضلًا عنِ الشرك، منها: جحدُ النبوّةِ، واستحلالُ ما حرّمَ اللّهُ، وغيرُ ذلكَ[2]، فالكفر أعمُّ من الشِّركِ، ولأنَّ الشّركَ خصلةٌ متعلقةٌ بمنافاةِ الإيمانِ ونقيضُه الإخلاصُ، فلمّا كانَ هؤلاءِ ممّن ارتكبَ الذّنوبَ الكثيرةَ فقد استحقّوا وصفَ الكافرينَ.

دلالةُ تقديمِ الجارِّ والمجرورِ:

التّقديمُ مؤذنٌ بتقريعِ الكافرينَ ولبيانِ تخصيصِ التّزيينِ بهم

قُدِّم الجارُّ والمجرورُ ﴿لِلْكَٰفِرِينَ﴾ على نائبِ الفاعلِ ﴿مَا﴾ في قولِه تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾؛ لزيادةِ التّشنيعِ والتّقريعِ عليهم، بتقديم اسمهم الدَّالِّ على علَّة الخطيئةِ، ولبيان تخصيصِ التّزيين بهم، كما قال تعالى: ﴿تَٱللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ [النحل: 63]، فاللّه لا يزيِّن للكافرين إلا ما كانوا يعملونَه من شرٍّ وظُلمٍ، بخلافِ المؤمنين، فإنَّ اللّه تعالى يُزيلُ عن

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 46/أ8، ورضا، تفسير المنار: 8/27.
(2) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 454.

قلوبهم زينةَ المعصية، ويزيِّنُ لهم طاعتَه وإحسانَه، كما بيّن سبحانه: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ٧﴾ [الحجرات: 7].

بلاغةُ التَّعبيرِ عن نائبِ الفاعلِ بالاسمِ الموصولِ في قولِه: ﴿مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾:

قولُه تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلۡكَٰفِرِينَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾: (ما) نائبُ فاعلٍ للفعلِ ﴿زُيِّنَ﴾، وهي اسمٌ موصولٌ دالٌّ على الإبهام والعموم[1] خلافَ (الذي) ونحوِها الدالِّ على التّنصيصِ، واستعمالُها في هذا الموضعِ للإشارةِ إلى تعدّدِ ما يعملونهُ وكثرتِه، "كعداوةِ النّبيِّ ﷺ وذبحِ القرابينِ لغيرِ اللّهِ تعالى، وتحليلِ الحرامِ، وتحريمِ الحلالِ، وغيرِ ذلكَ منَ المنكراتِ"[2]؛ فاستحقّوا على ذلك كلِّه وصفَهم بالكفرِ.

(ما) الموصوليةُ تفيدُ العمومَ إشارةً إلى كثرةِ أفعالِهم السّيّئةِ

نكتةُ إيثارِ العملِ على الصُّنعِ والفعلِ في: ﴿يَعۡمَلُونَ﴾:

جاء التَّعبيرُ بقوله: ﴿يَعۡمَلُونَ﴾ في قولِه تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلۡكَٰفِرِينَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ دونَ (يصنعونَ)، أوْ (يفعلونَ)، ونكتةُ ذلك: أنَّ العملَ هو وصفٌ لما يقومُ به الإنسانُ عن علمٍ واستحضارٍ لذلك، فهو يعملُ ويعلمُ حقيقةَ عمله، فإيثارُ العمل لبيانِ أنَّهم مُحاسَبون على أعمالهم الصَّادرةِ عن إرادةٍ حرّةٍ باختيارهم ورضاهم، وهذا هو مقتضى العدلِ الإلهيِّ، أمّا الفعلُ فهوَ لفظٌ عَامٌّ، ويقعُ منَ الإنسانِ والحيوانِ والجمادِ، أمّا الصنعُ فهوَ يقتضي الإجادةَ[3]؛ فثبتَ أنَّ التّعبيرَ بـ ﴿يَعۡمَلُونَ﴾ مُطابِقٌ تمامًا لحال الكافرين من إيغالهم في ارتكابِ المعاصي والموبقاتِ.

اللهُ يُحاسبُ النَّاسَ على أعمالِهم الصَّادرة عن علمٍ وإدراك

نكتةُ التَّعبير بالفعلِ المضارعِ في قولِه: ﴿يَعۡمَلُونَ﴾:

وردَ الفعلُ ﴿يَعۡمَلُونَ﴾ بالصّيغةِ المضارعيةِ للدّلالةِ على الاستمرارِ

(1) خالد الأزهري، شرح التصريح: 1/317.
(2) طنطاوي، الوسيط: 5/169.
(3) الراغب، المفردات: (صنع).

الكافر عنيدٌ في كفرِه مستمرٌّ فيه

والتّجدّدِ، فهم مستمرّون في عملهِمْ منْ أنواعِ الكفرِ والمعاصي وما حُكيَ عنهمْ منَ القبائحِ[1]، وهذا يدلُّ على شديد إصرارِهم، وكبيرِ عنادِهم.

نكتةُ حذفِ المفعولِ في قولِه: ﴿يَعۡمَلُونَ﴾:

كلُّ عملٍ قام به الكافرُ باعتبارِ كفره داخلٌ في الوعيد

حُذِفَ مفعولُ الفعل ﴿يَعۡمَلُونَ﴾ كيْ تذهبَ نفسُ السّامعِ كلَّ مذهبٍ ممكنٍ في تقديرِه، وقد عيّنهُ بعضُهُم أنّه عداوةُ النّبيّ ﷺ والذّبحُ لغيرِ اللّهِ تعالى وتحريمُ ما أحلّ اللّهُ[2] ويجوزُ غيرُه، والصَّحيحُ أنَّ حذف المفعول يُراد به السَّعةُ والشّمولُ لكلِّ عملٍ قام به الكافرُ باعتبارِه كافرًا، دون تخصيصه بعملٍ دون آخر، وهذا أشدُّ في المحاسبة والوعيد.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

النّور والضّياء:

الضياءُ ما كانَ ذَاتِيًّا، والنّورُ ما كانَ مُكتسَبًا من غيرِه

في قولِه تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا لَهُۥ نُورٗا﴾ استعملَ كلمةَ النّورِ ولمْ يستعملْ مرادفَهُ (الضّياء)، وهو ما "يتخلّلُ الهواءَ منْ أجزاءِ النّورِ فيبيضُّ بذلكَ ... فالنّورُ الجملةُ التي يتشعّبُ منها"[3]، ثمَّ فرّقَ بينهما على وجهِ الدّقّةِ وهو أنَّ الضّياءَ ما كانَ صدورُهُ ذَاتيًّا، أمّا النّورُ فما كانَ مكتسَبًا منْ غيرِه، وعليهِ معنى قولِه تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلشَّمۡسَ ضِيَآءٗ وَٱلۡقَمَرَ نُورٗا﴾ [يونس: 5]؛ فإنّ نورَ القمرِ مستفادٌ من ضياءِ الشّمسِ[4]، وهذا المعنى طباقُ الجملةِ محلَّ الشاهدِ؛ فإنَّ نورَ منْ آمنَ واهتدى مكتسَبٌ منْ نورِه تعالى لا منْ ذاتِه.

(1) الآلوسي، روح المعاني: 4/263، والقاسمي، محاسن التأويل: 4/484.
(2) رضا، تفسير المنار: 8/27.
(3) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 332.
(4) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 332.

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَا فِي كُلِّ قَرۡيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجۡرِمِيهَا لِيَمۡكُرُواْ فِيهَاۖ وَمَا يَمۡكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمۡ وَمَا يَشۡعُرُونَ ١٢٣﴾ [الأنعام: 123]

مُنَاسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَهَا:

الانتقالُ من الكُفر الفرديِّ إلى الإجرامِ العامّ؛ لبيانِ أثرِ الكفرِ في المجتمعاتِ

لمَّا ذكر ﷻ في الآية السَّابقة قولَه تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلۡكَٰفِرِينَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾، وكان هذا التَّزيينُ خاصًّا بكلِّ كافرٍ، ناسبَ أن ينتقلَ إلى بيانِ ما يتعلّقُ بعمومِ المجرمين، فهو انتقالٌ من كفر الأفرادِ، إلى إجرامِ القائمين على المجتمعات، فقال سبحانه: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَا فِي كُلِّ قَرۡيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجۡرِمِيهَا﴾؛ وذلك لبيانِ أنَّ خطرَ الكُفر يتعدَّى صاحبَه ليصبحَ إجرامًا عامًّا، فالكفرُ يبدأ بضلالِ صاحبِه، وفسادِ اعتقاده وسلوكِه، ثم يبلغُ به إلى أن يصلَ إلى الإجرامِ العامِّ في المجتمعات؛ لإفسادِها وإخراجِها عن فطرة اللّهِ التي فُطِرَ النَّاسُ عليها.

شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

1) ﴿أَكَٰبِرَ﴾: جمعٌ مكسّرٌ تحتَ بابِ منتهى الجموعِ، مفردهُ أكبرُ أو كبيرٌ، والجذرُ اللّغويُّ منهُ (كبر) ومعناهُ دالٌّ على العظمةِ، ومنهُ الكِبرياءُ للتّكبّرِ والعظمةِ، ومنهُ أيضًا التّقدّمُ في السنِّ، والكافُ والباءُ والراءُ أصلٌ صحيحٌ يدلُّ على خلافِ الصِّغرِ، وقدْ يكونُ الكبَرُ بحسبِ المنزلةِ أو الرّياسةِ على سبيلِ الاستدراجِ كالواردِ في الآيةِ، وقدْ لا يكونُ كذلكَ إنّما يردُ من بابِ الاعتقادِ والظنِّ[1]، ومعنى الأَكَابِرِ في الآيةِ الرّؤساءُ والعظماءُ[2] من دُعاةِ الكفرِ.

2) ﴿لِيَمۡكُرُواْ﴾: فعلٌ مضارعٌ دالٌّ على الحالِ والاستقبالِ مسندٌ

(1) الخليل، العين، والجوهري، الصحاح، وابن فارس، ومقاييس اللغة، والراغب، المفردات، والسمين، عمدة الحفاظ: (كبر).

(2) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 159.

إلى الجَمَاعَةِ، والجذرُ اللّغويُّ منهُ (مكر)، ومعناهُ دالٌّ على الاحتيالِ بخفّةٍ ومن غيرِ إضمارٍ، والميمُ والكافُ والرّاءُ دالّةٌ على الخداعِ والاحتيالِ، ومن معانيهِ الأخرى "صرفُ الغيرِ عمّا يقصدهُ بِحِيلَةٍ"، وجُعلَ هذا الصّرفُ على ضربينِ: محمودٍ وهوَ تحرّي الفعلِ الجميلِ، ومَذْمومٍ خِلَافَ ذلكَ ونَقِيضَهُ[1]، وعلى الجملةِ فالمشتركُ بينَ هذهِ التّعريفاتِ هو العملُ معَ الخفاءِ. ومعنى ﴿لِيَمْكُرُواْ﴾ في الآيةِ ليفعلوا "بغرورٍ منَ القولِ أوْ بباطلٍ منَ الفعلِ، بدينِ اللّهِ وأنبيائهِ"[2].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

ما يصنعُه المجرمون منَ المكرِ بغيرهم يَرْتَدُّ عليهم

أي وكذلك صَيَّرْنا في كلِّ قريةٍ أشخاصًا من عُظمائها ورُؤسائها مِنَ المجرمينَ؛ ليمْكُرُوا فيها، بأن يدعُوا النَّاسَ إلى الكُفْرِ والجحود والضَّلالةِ، وأن يصدّوا النّاسَ عن سبيلِه تعالى، وما علمُوا أنّ مكرَهم عائدٌ عليهم جَزاءً وِفاقًا.

وترشدُ الآيةُ الكريمةُ إلى أنّه لا ينبغي للعاقل الفَطِنِ، أَن يتبعَ زُعماءَ الشَّرِّ في غَوايتِهم، بل يتدبَّرُ فيما يعودُ بالخير على نفسِه أَو على النّاس فيتبعُه، وفيما يعودُ بالشّرّ - عليه أَو عليهم - فيتنكّبُ طريقَه؛ فقد بيَّن اللّه نَدَامَةَ الذين يتبعون الكبراءَ يومَ القيامة، فقال سبحانه: ﴿وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾﴾ [الأحزاب: 67][3].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

معنى الواوِ في قولِه تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا﴾:

الواوُ للعطفِ لبيانِ سببٍ آخرَ من أسبابِ ضلالِ المشركين

الواوُ في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا﴾ عاطفةٌ الجملةَ عَلَى جُمْلَةِ: ﴿كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾؛

(1) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، والسمين، عمدة الحفاظ: (مكر).
(2) ابن جرير، جامع البيان: 12/93.
(3) مجموعة من المؤلفين، التفسير الوسيط: 3/1319.

لِبَيَانِ سَبَبٍ آخَرَ مِنْ أَسْبَابِ اسْتِمْرَارِ الْمُشْرِكِينَ عَلَى ضَلَالِهِمْ، وذَلِكَ هو مَكْرُ أَكَابِرِ قريتِهم بالرّسول ﷺ وَالْمُسْلِمِينَ وَصَرْفُهُمُ الحِيَلَ لِصَدِّ الدَّهْمَاءِ عَنْ مُتَابَعَةِ دَعْوَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ[1].

بلاغةُ التَّشبيهِ وتعيينُ المُشَارِ إليه باسمِ الإشَارَةِ في قولِه: ﴿كَذَٰلِكَ﴾:

شأنُ المجرمين المكرُ بأهلِ الحقّ على مدار التّاريخ

الكافُ الواردُ في قولِه تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا﴾ يفيدُ التّشبيهَ؛ فقد شبّهَ أكابرَ المجرمين من أهلِ مكّةَ بأكابرِ المجرمينَ من أهلِ القُرى في الأممِ الأخرى بجامعِ الشّركِ باللهِ[2] مُنوّهًا إلى أنَّ أمرَ هؤلاءِ ليسَ بِدْعًا ولا مختصًّا بأهلِ مكّةَ، "بلْ ذلِكَ شأنُ الأكابرِ المترفِينَ المتكبِّرِينَ في كلِّ أمَّةٍ"[3]، وهيَ سنةٌ قضاها اللهُ على الأنبياءِ والمرسلينَ.

معنى الجَعْلِ ودلالةُ إسنادِه إلى ضميرِ العظمةِ في قولِه: ﴿جَعَلْنَا﴾:

صراعُ المؤمنين مع أكابرِ المجرمين من سُننِ اللهِ الكونيّةِ

فعلُ الجعلِ في قولِه تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا﴾ يحتملُ أن يكونَ دالًّا على الخلقِ والإيجادِ ووضعِ سُننِه تعالى الكونيَّةِ في أسبابِ الخيرِ وأسبابِ الشرّ في كلّ المجتمعاتِ والأممِ[4]، فجعلنا بمعنى: خلقنا وأوجدنا، ومفعولُه واحدٌ هو ﴿أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا﴾، وإسنادُ الجعلِ إلَى ضَميرِ العظمةِ لتهويلِ الأمرِ وتربيةِ المهابةِ.

ويحتملُ أنْ يكونَ بمعنى التّصييرِ والتّحويلِ[5]، أيْ: تصييرُهم أكابرَ مجرمين، فالفعلُ يتعدّى إلى مفعولين؛ الأولُ مجرميها والثاني أكابرَ، ففيه تقديمٌ وتأخيرٌ، وقدّمَ ما هو أهمُّ؛ باعتبارِه سببَ الإجرامِ؛ فإنَّ الكبرَ يحملُ المجرمَ على بلوغِ أعلى درجاتِ الإجرامِ، ويصحُّ أن

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 47/أ8.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 47/أ8.
(3) رضا، تفسير المنار: 8/28.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 47/أ8.
(5) القصاب، النكت الدالة على البيان: 1/370.

يكون المفعول الأوّلُ ﴿أَكَٰبِرَ﴾، و﴿مُجۡرِمِيهَا﴾ مضافٌ، والمفعول الثاني قوله: ﴿فِي كُلِّ قَرۡيَةٍ﴾[1].

نكتةُ تقديمِ ﴿فِي كُلِّ قَرۡيَةٍ﴾ على ﴿أَكَٰبِرَ مُجۡرِمِيهَا﴾:

لا يخلُو زمانٌ من وجودِ أكابرِ المجرمين، تلك سُنّةُ الله الماضيةُ

قُدِّمَ قولُه تعالى: ﴿فِي كُلِّ قَرۡيَةٍ﴾ على ﴿أَكَٰبِرَ مُجۡرِمِيهَا﴾ في قولِه تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَا فِي كُلِّ قَرۡيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجۡرِمِيهَا﴾؛ لنكتةٍ وهي الإشارةُ إلى القريةِ، وأنَّ الفسادَ سيغلبُ عليها ويتفاقمُ ضررُهُ، وفيهِ إيماءٌ إلى الرَّسُولِ ﷺ بتركِ هذهِ القريةِ، وهو إيذانٌ بزوالِ سيادةِ قريشٍ عليها بعدَ إذْ تولاها الكبراءُ المجرمونَ، فبقاؤهمْ على الشّركِ والضّلالِ صيّرَهمْ مجرمينَ[2]، وفيه إشارةٌ إلى عُموم هذه السُّنَّة في كلّ الأزمانِ، وأنَّ على أتباعِ الأنبياءِ والرُّسل أن يعلموا أنَّه لن يخلوَ زمانٌ من أكابر المجرمين، وأنَّ هؤلاء المجرمين يُتابعون سابقِيهم ممَّن اندثروا عقوبةً وعذابًا.

براعةُ إيثارِ إفرادِ ﴿قَرۡيَةٍ﴾ بعدَ أداةِ العُمومِ بدلًا منَ الجمعِ:

إفرادُ القريةِ يدلُّ على العنايةِ بالتَّفاصيلِ وأنَّه لا توجدُ قريةٌ خرجت عن هذه السُّنَّة

آثرَ التعبيرُ إفرادَ لفظةِ ﴿قَرۡيَةٍ﴾ بعدَ لفظِ ﴿كُلِّ﴾ الدّالِّ على العمومِ في قوله: ﴿فِي كُلِّ قَرۡيَةٍ﴾، فإنّ القولَ يحتملُ (في كلّ القرى)؛ وذلك لِلَفْتِ الأنظارِ إلى أنّ الأمرَ مَبْنِيٌّ على التفصيلِ لا الإجمالِ "لأنَّها القريَةُ الحاضرَةُ الَّتي مُكِرَ فيها، فالمقصودُ الخصوصُ ... وإنَّما عمَّمَ الخبرَ لقصدِ تذكيرِ المشركينَ في مكَّةَ بمَا حلَّ بالقُرَى منْ قبلِها مثلِ قريةِ الحِجْرِ وسبأٍ والرّسّ"[3]، وإنّ ممّا يُرَشِّحُ ذلكَ ويقوّيهِ تأخيرَ المفعولِ في ﴿أَكَٰبِرَ مُجۡرِمِيهَا﴾.

نكتةُ تقديمِ المفعولِ الثّاني ﴿مُجۡرِمِيهَا﴾ على المفعولِ الأوّلِ ﴿أَكَٰبِرَ﴾:

على اعتبارِ جَعْلِ فعلِ الجعلِ بمعنى التّصييرِ وتعديتِه إلى مفعولين

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/341.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 8/أ49.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 8/أ49.

الاهتمامُ المُؤْذِنُ بالغرابةِ والعَجبِ منْ مصيرِ هؤلاءِ الأكابرِ

هما ﴿أَكَٰبِرَ مُجۡرِمِيهَا﴾ فإنّ في ذلك تغييرًا في رتبةِ المفعولين؛ فقد قُدّمَ المفعولُ الثّاني ﴿أَكَٰبِرَ﴾ على المفعولِ الأوّلِ ﴿مُجۡرِمِيهَا﴾، ونكتةُ تقديمه: الاهتمامُ به؛ لغرابةِ شأنِه؛ فإنّ مصيرَ هؤلاءِ منَ الأكابرِ والسّادةِ أمرٌ عجَبٌ، فهم ليسوا بأهلٍ للرّياسةِ والسّيادةِ[1]، كما قالَ الشاعرُ[2]:

لَا يَصْلُحُ النَّاسُ فَوْضَى لَا سَرَاةَ لَهُمْ *** وَلَا سَرَاةَ إِذَا جُهَّالُهُمْ سَادُوا

تُهْدَى الأُمُورُ بِأَهْلِ الرَّأْيِ مَا صَلُحَتْ *** فَإِنْ تَوَلَّتْ فَبِالأَشْرَارِ تَنْقَادُ

دلالةُ التّعبيرِ بصيغةِ الجَمْعِ ﴿أَكَٰبِرَ﴾ دونَ (كبراء)، أو (كبار):

يُرادُ بها مطلقُ الوصفِ وغيرُ دالّةٍ على التّفضيلِ

استُعمِلَت صيغةُ الجمعِ ﴿أَكَٰبِرَ﴾ ولم تُستعملْ (كبراء) أو (كبار)؛ لأنّه ما أرادَ استعمالَ الصّيغةِ الدّالّةِ على التّفضيلِ، فهي صيغةٌ لا تفيدُ الزّيادةَ في السّنّ أو الحجمِ[3]، وهي كلمةٌ لا يُقصدُ بها المفاضلةُ بل أرادَ الوصفَ مطلقَ الوصفِ خلافَ غيرِها[4].

توجيهُ تخصيصِ الأكابرِ بالذّكرِ دونَ الأصاغرِ في قَوْلِه: ﴿أَكَٰبِرَ مُجۡرِمِيهَا﴾:

الأكابرُ هم أصلُ الفسادِ، والأصاغرُ أتباعٌ رِعاعٌ

في قَوْلِه: ﴿أَكَٰبِرَ مُجۡرِمِيهَا﴾ إيجازٌ؛ لأَنَّ المَعْنَى: جَعَلْنَا في كُلِّ قَرْيَةٍ مُجْرِمِينَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَكَابِرَ؛ فَلَمَّا كَانَ وُجُودُ أَكَابِرَ يَقْتَضِي وُجُودَ مَنْ دُونَهُمْ اسْتَغْنَى بِذِكْرِ أَكَابِرِ المُجْرِمِينَ[5]، عَنْ ذِكْرِ أَصَاغِرِهِمْ، وذلك أنَّ أصحابَ القرار هم الأكابرُ لا الأصاغرُ، ولأنّهمْ لأجلِ رياستِهمْ وسَعةِ عيشِهمْ والحفاظِ على سلطانِهمْ فهمْ أقدرُ على المكرِ، وأدعى إلى الغَدرِ؛ ولأنَّ المالَ والجاهَ يحملان الإنسانَ على المبالغةِ في المحافظةِ عليهما؛ ولا يكونُ ذلكَ إلّا بغالبِ الأخلاقِ الذّميمةِ منْ مكرٍ وغدرٍ وكذبٍ وسواها[6].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 8/أ48.

(2) الأفوه الأودي، ديوانه، ص: 66، ونسبه ابن عاشور إلى طُفَيل الغَنَويِّ، وينسب كذلك إلى أبي الأسود الدُّؤلي، وهو مثبت في ديوان الأفوه، وفي الشعر والشعراء لابن قتيبة: 1/217 وغيرها من المصادر.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 8/أ50.

(4) ابن عجيبة، البحر المديد: 2/166.

(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 8/أ50.

(6) الزجاج، معاني القرآن وإعرابه: 2/288، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 13/135.

فائِدةُ إيثارِ لفظِ الإجرامِ دُونَ الإفسادِ في قَوْلِه: ﴿أَكَٰبِرَ مُجۡرِمِيهَا﴾:

الإجرامُ هو العملُ الذي ينتظمُ الفسادَ وسيِّئَ الأعمالِ

ومعَ أنّ الإفسادَ هو الأشيعُ استعمالًا في مثلِ هذه السّياقاتِ من القرآنِ، وهو الواردُ في آياتٍ كثيرةٍ، إلَّا أنَّ في إيثارِ لفظِ الإجرامِ دونَ الإفسادِ في قولِه تعالى: ﴿أَكَٰبِرَ مُجۡرِمِيهَا﴾ فائدةً، فإنّ المجرمينَ هم فاعلو الإجرامِ، وهو العملُ المشتمِلُ على الفسادِ والسّوءِ والضّررِ منَ الأعمالِ[1] وعلى ذلك فإنّ التّعبيرَ بالإجرامِ أشملُ وأعمُّ منَ الإفسادِ، كما أنَّ الإجرامَ هو أداةُ الإفسادِ القَهريِّ، فالمجرم يُمارس إجرامَه إفسادًا وإهلاكًا للنَّاس، فإذا ذُكر الإجرام فالإفسادُ حاضرٌ، بخلافِ العكس.

نكتةُ إضافةِ المجرمين إلى ضمير القريةِ في قَوْلِه: ﴿أَكَٰبِرَ مُجۡرِمِيهَا﴾:

الالتزامُ بمنهجِ القرآنِ هو الطريقُ الأسلمُ في التَّعامل مع المجرمين

في إضافةِ المجرمينَ إلى ضميرِ القريةِ في قولِه: ﴿أَكَٰبِرَ مُجۡرِمِيهَا﴾ دون أن يقول: (أكابر المجرمين)، نكتةٌ بيانيَّةٌ؛ فإنّه لا تخلو قريةٌ منَ المجرمين أكابرَ وأصاغرَ، وإنّما اقتصرَ على الأكابر لما سبقَ من علٍ؛ فلذلكَ أضافَ الضّميرَ العائدَ على القريةِ إلى المجرمينَ، وفي ذلكَ إشارةٌ إلى المؤمنينَ بأن الإجرامَ موجودٌ لا مناصَ منه، وعليهم أن يعُوا ذلك جيدًا، فيعملوا على سنَا المنهجِ القرآنيِّ في التّعاملِ مع المجرمين؛ وَفقًا لما شرّعهُ اللّه لا على ضوءِ اجتهاداتِهم الفرديّةِ المعرَّضةِ للخطأِ والصّوابِ.

نوعُ اللَّامِ في قولِه تعالى: ﴿لِيَمۡكُرُواْ فِيهَاۖ﴾:

اللّامُ لامُ التّعليل وتحتملُ أن تكونَ للعاقبة

اللامُ في قولِه تعالى: ﴿لِيَمۡكُرُواْ فِيهَاۖ﴾ متعلقةٌ بالفعلِ ﴿جَعَلۡنَا﴾، والمعنى: ليحصلَ المكرُ ويتحقّقَ من غيرِ إرادةٍ منهم ولا قصدٍ فهيَ لَامُ التَّعْلِيلِ، فَإِنَّ مِنْ جُمْلَةِ مُرَادِ اللّهِ تَعَالَى مِنْ وَضْعِ نِظَامِ وُجُودِ الصَّالِحِ وَالفَاسِدِ، أَنْ يَعْمَلَ الصَّالِحُ لِلصَّلَاحِ، وَأَنْ يَعْمَلَ الفَاسِدُ لِلْفَسَادِ، وَالمَكْرُ مِنْ جُمْلَةِ الفَسَادِ، وَلَامُ التَّعْلِيلِ لَا تَقْتَضِي الحَصْرَ،

(1) رضا، تفسير المنار: 8/28.

فَلله تَعَالَى في إيجَادِ أَمْثَالِهِمْ حِكَمٌ جَمَّةٌ، مِنْهَا هَذِهِ الحِكْمَةُ، فَيَظْهَرُ بِذَلِكَ شَرَفُ الحَقِّ وَالصَّلَاحِ وَيَسْطَعُ نُورُهُ، وَيَظْهَرُ انْدِحَاضُ البَاطِلِ بَيْنَ يَدَيْهِ بَعْدَ الصِّرَاعِ الطَّوِيلِ.

وَيَجُوزُ أَنْ تَكُونَ اللَّامَ المُسَمَّاةَ لَامَ العَاقِبَةِ، وَهِي فِي التَّحْقِيقِ اسْتِعَارَةُ اللَّامِ لِمَعْنَى فَاءِ التَّفْرِيعِ كَالَّتِي فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ [القَصَص: 8][1].

سرُّ التَّعبيرِ بالمكرِ لا بالإجرامِ في قولِه تعالى: ﴿لِيَمْكُرُواْ فِيهَاۖ﴾:

سرُّ التّعبيرِ بالمكرِ لا الإجرامِ في قولِه تعالى: ﴿لِيَمْكُرُواْ فِيهَاۖ﴾ مع أنَّ مقتضى الظاهرِ استعمالُ: (ليجرموا فيها)، فيُسألُ عنْ سرِّ التّعبيرِ بالمكرِ دونَ الإجرامِ؟ والجوابُ عنْ ذلكَ: أنَّ المكرَ هو طريقُ الإجرامِ الخفيِّ؛ فلا يوجدُ إجرامٌ منْ غيرِ وجودِ مقدّماتِه ومنها المكرُ والخديعةُ، وليسَ ضرورةً أنْ يكونَ الإجرامُ عملًا عنيفًا مثلما ينصرفُ الذّهنُ إليهِ عندَ إطلاقِ لفظِ الجريمةِ ونحوِها، بلْ قدْ يكونُ قولًا خبيثًا وكلمةً منتنةً ودهاءً ماكرًا يصلُ بهِ صاحبُه إلى الإجرامِ نهايةَ المطافِ، فالآيةُ تحذّرُ منَ المكرِ إذْ هو منْ إرهاصاتِ الإجرامِ، فالإجرامُ نوعان: ظاهرٌ وخفيٌّ، فالظّاهرُ هو الإجرامُ المعهودُ، والخفيُّ هو المكرُ.

المكرُ إجرامٌ خفيٌّ وهو طريقُ الإجرامِ الظّاهر

نوعُ الواوِ في قولِه تعالى: ﴿وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ﴾:

الواوُ في قولِه تعالى: ﴿وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ﴾ واوُ الحالِ، أي: أنّهم يضرّونَ أنفسَهم في الحالِ التي يمكرونَ فيها[2].

لا يحيقُ المكرُ السَّيِّئُ إلا بأهلِه

دلالةُ القصرِ وبلاغتُه في قولِه تعالى: ﴿وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ﴾:

قولُه تعالى: ﴿وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ﴾ تعبيرٌ دالٌّ على القصرِ الإضافيِّ، وهو قصرٌ لقلبِ اعتقادِ المخاطبينَ في أنْ يلحقَ النَّبيَّ

لا يضرُّ المكرُ إلّا صاحبَه، ولا يعودُ إلا عليه

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 8/أ48.

(2) الواحدي، التفسير الوسيط: 2/319.

ﷻ ضررٌ منْ مكرِ هؤلاءِ، بلْ إنَّ الضّررَ سيلحقُ الماكرينَ في الدّنيا بالقتلِ والأسرِ، وفي الآخرةِ بعذابِ النارِ، وإنَّ ضررَ المكرِ مقصورٌ عليهمْ إنْ لمْ يؤمنوا[1].

نكتةُ التَّعبيرِ بالمضارعِ في: ﴿يَمْكُرُونَ﴾:

مكرُ المجرمين متجدّدٌ في أساليبه مستمرٌّ في مضمونِه

آثر النَّظمُ استعمالَ الصّيغةِ المضارعيةِ في قولِه تعالى: ﴿وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ﴾ بدلًا منَ الماضي معَ أنّ المقامَ مقامُ تحقيقِ المكرِ فيهم، ونكتةُ ذلكَ: الإيذانُ بأنّ المكرَ أمرٌ متجدِّدٌ على مدى العصورِ وتمادي الأزمانِ والدّهورِ، وأنّ الحكمَ جارٍ في تطوّرِ مكرِهم وتنوّعِ أساليبه في كلّ زمانٍ ومكانٍ.

بلاغةُ المجازِ المُرسَلِ في لفظِ (المكْرِ):

مآلُ المكرِ إضرارُ الماكر بنفسه

التّعبيرُ بالفعلِ ﴿يَمْكُرُونَ﴾ في قولِه تعالى: ﴿وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ﴾ من بابِ المجازِ المرسَلِ، وعلاقتُهُ: اعتبارُ ما سيكونُ في المستقبلِ، فأُطلقَ المكرُ وأُريدَ به الضُّرُّ؛ فإنَّ غايةَ المكرِ ومآلَه على صاحبِه إضرارُ المكورِ بهِ، فلمّا كانَ الإضرارُ يحصلُ للماكرِ دونَ المكورِ به أطلقَ المكرَ على الإضرارِ[2].

دلالةُ استعمالِ النَّفْسِ بِصيغةِ (أنفُس):

الأنفسُ جمعُ قلّةٍ والمجرمون كذلكَ، وفي هذا توهينٌ لهم وتحقيرٌ لشأنِهم

لفظُ (أنفُس) وهي من جموعِ التّكسيرِ على زِنة (أفْعُل) في قولِه تعالى: ﴿وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ﴾ دالٌّ على القلّةِ[3]، فعبّرَ بهذا اللّفظِ للدّلالةِ على أنّهم قلّةٌ، وهم كذلك، فأكابرُ القومِ ورؤساؤهم هم الفئةُ القليلةُ في المجتمعِ، وذكرُهم بهذا اللفظِ توهينٌ لهم وتحقيرٌ لِشَأْنِهِمْ.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 8/51.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 8/51.
(3) الزمخشري، المفصّل، ص: 235.

نوعُ الواوِ في قولِه تعالى: ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾:

حالُ المُجرمِ فقدُ الشُّعور عندَ المكر

الواوُ الدّاخلةُ على الفعلِ: ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ هي واوُ الحالِ، فالجملةُ حالٌ ثانيةٌ، فإنّهمْ في الحالِ التي يمكرونَ فيها بالرسولِ ﷺ، فإنّهمْ لا يمكرونَ إلّا بأنفسِهمْ منْ غيرِ شعورٍ منهمْ بعاقبةِ مكرِهمْ وأنّ ضررَه راجعٌ عليهم[1].

سرُّ إيثارِ استعمالِ الشُّعورِ دونَ العلمِ في قولِه تعالى: ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾:

تشبيهُ المجرمين بالعجماوات عند قيادتِها إلى هلاكِها

آثرَ استعمالَ (يشعرونَ) في قولِه تعالى: ﴿وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ دون أن يستعملَ (يعلمونَ)، وسرُّ ذلكَ أنَّ الشّعورَ هو الإحساسُ بالأمورِ الدّقيقةِ كدقّةِ الشَّعرِ؛ ولهذا يقالُ للشّاعرِ شاعرٌ؛ لأنّهُ يفطنُ لدقّةِ المعاني، وسياقُ الجملةِ يُعينُ على ذلك؛ فإنَّ المكرَ له تعلقٌ مَعْنَوِيٌّ بالشّعورِ لا بالعلمِ؛ لأنَّ المكرَ مقترنٌ بالخفاءِ، والخفاءُ والدقّةُ متشابهانِ، ثمَّ إنَّ التّعبيرَ بالشّعورِ هنا من بابِ المبالغةِ في الذّمِّ؛ فإنَّ وصفَ الإنسانِ بعدمِ الشّعورِ أشدُّ ذمًّا منْ وصفِه بعدمِ العلمِ[2]؛ لأنَّه نزَّلهم منزلةَ العجماوات، بعدم الشُّعور إذا انقادت إلى حتفِها.

بلاغةُ حذفِ المفعولِ والتَّعبيرِ بصيغةِ المُضارِعِ في: ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾:

من لَزِمَ مكرَه في إجرامِه فقد حَكَم على نفسِه بمشابهة العجماوات

حُذِفَ مفعولُ الفعلِ: ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ لدلالتِه على العموم، ولاكتمال ذمِّ الموصوفين، فهم لا يشعرون بأدنى شعورٍ ممَّا يُشعرُ به، لا شعورَ العقلاء، ولا شعورَ البهائم، ودلَّت صيغةُ المضارعِ على التّجدّدِ والاستمرارِ فعدمُ شعورِهم دائمٌ متجدّدٌ ما داموا على الحالةِ التي هم عليها منَ الإجرام والمكر.

(1) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 7/79، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 51/أ8.
(2) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 81.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

القرية والمدينة:

القريةُ هيَ البلدُ الجامعُ للنّاسِ والمدينةُ ما كانَ الحصنُ مُحِيطًا بها

وردَ ذكرُ القريةِ في قولِه تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا﴾، ومعنى القريةِ: "البلدُ الجامعُ للنَّاسِ، ويُستعملُ في التَّنزيلِ بمعنَى العاصمةِ في عُرفِ هذا العصرِ"[1]، أمّا المدينةُ فهي من مَدنَ إذا أقامَ بالمكانِ، والمدينةُ هي الحصنُ الذي يُبنى وسطَ المكانِ من أجلِ الامتناعِ والتّحصّنِ منَ الأعداءِ، ثمّ أُطلقتْ في القرآنِ الكريمِ على العواصمِ والأمصارِ الجامعةِ، ويُلحظ في الفرق بينها وبينَ القريةِ خُلوُّ الثّانيةِ من وصفِ التّحصّنِ[2].

المكر والخديعة:

المكرُ فعلٌ يسبّبُ الضّررَ للآخرينَ، والخديعةُ قدْ تكونُ لاجتلابِ نَفْعٍ أوْ دفعِ ضررٍ

المكرُ شبيهٌ بالكيدِ، ولا يكونُ إلَّا معَ التّخطيطِ والتّدبيرِ، إلا أنَّ الكيدَ أقوى منه[3]، وهو يتسبّبُ في الضَّرَرِ بِالآخَرِينَ، أمّا الخديعةُ فهيَ أنْ تُظهرَ خلافَ ما تنطقُ بهِ لغرضِ اجتلابِ نفعٍ أوْ دفعِ ضررٍ، ولا يقتضي التّدبّرَ والتّفكّرَ فيه[4]؛ فالمكرُ إذنْ أقوى أثرًا منَ الخديعةِ وهو أنسبُ للواردِ في الآيةِ.

الفهم والشُّعور:

الشُّعورُ متعلّقٌ بالحسِّ ويتساوى فيهِ الإنسانُ والحيوانُ، والفهمُ أوّلُ مراحلِ الإدراكِ العقليِّ

الفهمُ هو العلْمُ بالمعاني المستنبطةِ منَ الكلامِ؛ لذلكَ يقالُ: إنَّ فلانًا بطيءُ الفهمِ إذا كانَ يسمعُ لكنّهُ لا يعِي ولا يعلَمُ ما سمعهُ[5]، أمّا الشّعورُ فإنّهُ ابتداءُ مراحلِ العلمِ، ويكونُ بالحسِّ الماديِّ، ومنهُ اشتُقَّ الشُّعورُ منَ الشَّعْرِ، وهو ما يلِي البدنَ[6]، فالفرقُ بينهما كالفرقِ بينَ الإحساسِ والإدراكِ في أنَّ الأوّلَ متعلّقٌ بالحسِّ والاستشعارِ والثّاني

(1) رضا، تفسير المنار: 8/28.
(2) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (مدن).
(3) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 508.
(4) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 213.
(5) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 414.
(6) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 373.

متعلّقٌ بالعقلِ، ووصْفُ الماكرينَ بأنّهمْ لا يشعرونَ فيهِ منتهى الذمِّ لهمْ؛ لأنَّ الشُّعورَ أوّلُ مراحلِ العلم يتساوى فيهِ الإنسانُ والحيوانُ، فما بالك بالإنسانِ وقدْ نُفِيَ عنهُ الشُّعُورُ؟ سيوصفُ بأنَّ البهائمَ أفضلُ منهُ في شعورِها وهذهِ مبالغةٌ في ذمّهِمْ.

المحتويات

الجزء السابع 7

- [الأنعام: 59] 10
- [الأنعام: 60] 20
- [الأنعام: 61] 36
- [الأنعام: 62] 47
- [الأنعام: 63 - 64] 57
- [الأنعام: 65] 69
- [الأنعام: 66] 80
- [الأنعام: 67] 84
- [الأنعام: 68] 87
- [الأنعام: 69] 94
- [الأنعام: 70] 102
- [الأنعام: 71] 129
- [الأنعام: 72] 148
- [الأنعام: 73] 154
- [الأنعام: 74] 169
- [الأنعام: 75] 186
- [الأنعام: 76] 196
- [الأنعام: 77] 208
- [الأنعام: 78] 217
- [الأنعام: 79] 226
- [الأنعام: 80] 234
- [الأنعام: 81] 248
- [الأنعام: 82] 257
- [الأنعام: 83] 268
- [الأنعام: 84] 280
- [الأنعام: 85] 295
- [الأنعام: 86] 298
- [الأنعام: 87] 303
- [الأنعام: 88] 310
- [الأنعام: 89] 322
- [الأنعام: 90] 333
- [الأنعام: 91] 346
- [الأنعام: 92] 376
- [الأنعام: 93] 396
- [الأنعام: 94] 425
- [الأنعام: 95] 443
- [الأنعام: 96] 457
- [الأنعام: 97] 468
- [الأنعام: 98] 475
- [الأنعام: 99] 486
- [الأنعام: 100] 505
- [الأنعام: 101] 516
- [الأنعام: 102] 524
- [الأنعام: 103] 533
- [الأنعام: 104] 541
- [الأنعام: 105] 554
- [الأنعام: 106] 568
- [الأنعام: 107] 577
- [الأنعام: 108] 585
- [الأنعام: 109] 605
- [الأنعام: 110] 619

الجزء الثامن 631

- [الأنعام: 111] 632
- [الأنعام: 112] 652
- [الأنعام: 113] 671
- [الأنعام: 114] 683
- [الأنعام: 115] 702
- [الأنعام: 116] 715
- [الأنعام: 117] 730
- [الأنعام: 118] 736
- [الأنعام: 119] 742
- [الأنعام: 120] 761
- [الأنعام: 121] 771
- [الأنعام: 122] 782
- [الأنعام: 123] 793

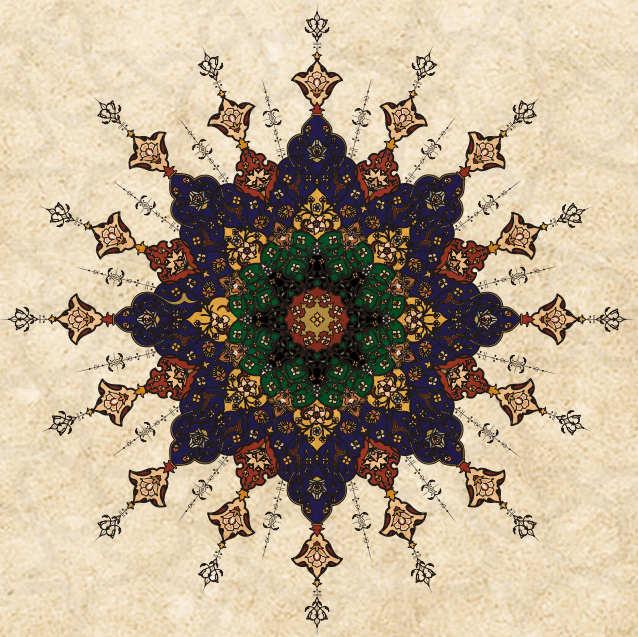

مجمع القرآن الكريم بالشارقة

موسوعة التفسير البلاغي

المُجَلَّدُ الثّاني عَشَرَ

سورة الأنعام من الآية 124 إلى سورة الأعراف الآية 13

موسوعة التفسير البلاغي

Government of Sharjah حكومة الشارقة
مجمع القرآن الكريم بالشارقة
HOLY QURAN ACADEMY IN SHARJAH

موسوعة التفسير البلاغي

المُجَلَّدُ الثّاني عَشَرَ

سورة الأنعام من الآية 124 إلى سورة الأعراف الآية 13

نُخْبَةٌ مِنْ عُلَماء مَجْمَعِ القُرْآنِ الكَرِيمِ بِالشّارِقَةِ

منشورات القاسمي
AL QASIMI PUBLICATIONS
2020
2024

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثاني عشر، سورة الأنعام من الآية 124 إلى سورة الأعراف الآية 13
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: سورة الأنعام من الآية 124 إلى سورة الأعراف الآية 13 [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 12 ، 804 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-798-64-4
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 12 : سورة الأنعام من الآية 124 إلى سورة الأعراف الآية 13.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-798-64-4
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-1637585 بتاريخ 2023/12/19م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الجُزْءُ الثَّامِنُ

سُورَةُ الأَنعَامِ

﴿وَإِذَا جَآءَتۡهُمۡ ءَايَةٞ قَالُواْ لَن نُّؤۡمِنَ حَتَّىٰ نُؤۡتَىٰ مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ رُسُلُ ٱللَّهِۘ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥۗ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٞ شَدِيدُۢ بِمَا كَانُواْ يَمۡكُرُونَ ١٢٤﴾ [الأنعام: 124]

مُنَاسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

بعدَ بيانِ السُّننِ يأتي بيانُ واقعِها في حياةِ النَّاس

بعد أنْ أبانَ اللّهُ تعالى سُنّتَهُ في البشرِ بأنْ يكونَ في كلِّ بلدٍ زعماءُ مجرمونَ يُضادّونَ دعوةَ الرّسلِ والإصلاحِ، أوضحَ أنَّ هذهِ السنّةَ ماثلةٌ في زُعَماءِ مكّةَ الّذينَ دفعَهم المكرُ والحسدُ لمنْ خصّهُ اللّهُ بالنّبوةِ إلى أنّهُ متى وقعت لهمْ معجزةٌ قاهرةٌ وبيّنةٌ ظاهرةٌ تدلُّ على نبوّةِ محمّدٍ ﷺ قالوا: لنْ نؤمنَ حتّى يحصلَ لنا مثلُ هذا المنصبِ من عندِ اللّهِ، وأنْ نكونَ منَ المرسلين[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ءَايَةٞ﴾: اسمٌ مؤنّثٌ، جذرهُ اللّغويُّ (أيي)، والآيةُ هيَ العلامةُ ثمَّ يكونُ لها معانٍ أُخرُ، واشتقاقُها منَ التّأيّي وَهُوَ أنْ تتثبتَ، وتقيمَ على الشّيءِ"، والأصلُ في معناها منَ النظرِ، وكونُها مؤلّفةً منَ الكلماتِ والجُملِ سُمّيتْ آيةُ القرآنِ بهذا الاسمِ؛ وهي الطّائفةُ منَ القرآنِ الكريمِ المتّصلُ بعضُها ببعضٍ طويلةً كانت أوْ قصيرةً، "ولكلِّ جملةٍ من القرآنِ دالّةٍ على حكمٍ آيةٌ ... وعلى هذا اعتبارُ آياتِ السّورِ التي تعدُّ بها السورةُ"[2]، ومعنى ﴿ءَايَةٞ﴾: "معجزةٌ أو آيةٌ منَ القرآنِ تأمرُهم بالإيمانِ"[3]، وآياتُ اللّهِ عجائبُه، أو هي علامةٌ منَ اللّهِ تعالى دالّةٌ على وجودِ الخالقِ.

(1) الزحيلي، التفسير المنير: 8/33.
(2) ابن دريد، جمهرة اللغة: (أيا)، وابن فارس، مقاييس اللغة: (أيي)، والراغب، المفردات: (أي)، والكفوي، الكليات، ص: 41.
(3) النسفي، مدارك التنزيل: 1/535.

2) ﴿سَيُصِيبُ﴾: فعلٌ مضارعٌ دالٌّ على الاستقبالِ، الجذرُ اللّغويُّ منهُ (صيب) أو (صوب)، ومعناهُ القصدُ، ويكونُ بحسبِ القاصدِ، وهو منْ صابَ السّهمُ الرّميةَ إذا قصدَها، والصّاد والواوُ والباءُ أصلٌ يدلُّ على النّزولِ والاستقرارِ، وأصابهُ الشّيءُ إذا أدركهُ، وهوَ الحدثُ الذي يصيبُ الإنسانَ سَوَاءٌ أكانَ خيرًا أمْ شرًّا[1]، ومعنى الكلمةِ في سياقِها من الآيةِ أنّه سيقعُ على المجرمينِ ذلّةٌ وهوانٌ.

3) ﴿صَغَارٌ﴾: مصدرٌ جذرهُ اللّغويُّ (صغر)، ومعناهُ ضدُّ الكبيرِ، ومنهُ الصّاغرُ إذا رضيَ بالضّيمِ وأقرَّ بهِ، والصّغَارُ مصدرُ الصّغيرِ في القدْرِ؛ ولذلكَ فإنَّ الصّادَ والغينَ والراءَ أصلٌ صحيحٌ يدلُّ على الذّلّةِ والهوانِ والحقارةِ، وقدْ يكونُ التّفاوتُ بالحجمِ والجثّةِ فضلاً عنِ القدرِ والمنزلةِ[2]، ومعنى الصّغارِ في الآية: الذّلّةُ والقَماءةُ يومَ القيامةِ بعدَ تكبّرهم[3].

المَعْنى الإجْماليُّ:

تجدُّدُ مكرِ المشركينَ وتكبُّرِهم بعدَ بيانِ الحجّةِ بطلبِ ما ليسَ لهم

ذكرَتِ الآيةُ منْ شأنِ هؤلاءِ المجرمينَ أنّهمْ إذا جاءتهمْ آيةٌ أعرضُوا واشترطُوا الشّروطَ ووضعُوا العراقيلَ، وأرادوا أنْ ينالوا منالَ الأنبياءِ منَ الرّسالةِ والوحيِ والمعجزاتِ، فردَّ اللّهُ عليهمْ أنّهُ أعلمُ بموضعِ رسالتهِ، ومنْ هو الصّالحُ لتحمّلِها والقيامِ بها، ولهُ حكمةٌ في وضعِها موضعَها المناسبَ، ثمّ سينالُ الّذينَ أجرمُوا مُقاساة الهوانِ والارتكاسِ في الذّلّةِ عندهُ تعالى، معَ العذابِ الشّديدِ؛ جزاءً وِفاقًا لمكرِهمْ وكيدِهمْ للإسلامِ وأهلِهِ.

وترشدُ الآيةُ الكريمةُ إلى أنَّ الرّسالةَ هبةٌ منَ اللّه يختصُّ بها

(1) الخليل، العين: (صيب)، وابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (صوب)، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (صوب، صيب).

(2) ابن دريد، جمهرة اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (صغر).

(3) الزمخشري، الكشاف: 2/63.

من يشاء من عباده، ولا ينالها أحدٌ بكسبِه ولا بذكائِه ولا بنسبِه[1]، وإلى إنكارِ حُجَّة المشركين في التّشكيك في رسالة النّبيّ الكريمِ محمّدٍ ﷺ.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

معنى الواو في قولِه تعالى: ﴿وَإِذَا جَآءَتۡهُمۡ ءَايَةٞ﴾:

عطفُ الصّفات على الصِّفات بيانًا وإيضاحًا

الواوُ في قولِه تعالى: ﴿وَإِذَا جَآءَتۡهُمۡ ءَايَةٞ﴾ للعطفِ، فقد عطفتْ هذه الجملةَ على جملةِ ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَا فِي كُلِّ قَرۡيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجۡرِمِيهَا﴾ فهذا حديثٌ عن أحوالِ مجرمِي مكّةَ الواردِ ذكرُهم هناك[2]، وفائدةُ العطفِ بيانُ حال أولئك المجرمين عندما أتاهم الحقُّ، فهو من عطفِ صفاتِ القوم في الآية الثَّانيةِ منَ العنادِ والمكابرة، على صفاتهم في الآية الأولى منَ الإجرام والمكر.

نكتةُ استعمالِ ﴿وَإِذَا﴾ في قولِه تعالى: ﴿وَإِذَا جَآءَتۡهُمۡ ءَايَةٞ﴾:

بيانُ تحقُّق مجيءِ الآيةِ مع تحقُّقِ الرَّدِّ المنكرِ عليها

استعمل النَّظمُ أداةَ ﴿وَإِذَا﴾ بدلًا من (إن) لبيان تحقُّقِ مجيءِ الآيةِ، وتحقُّقِ ردّهم المنكرِ عليها، وفي قوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَآءَتۡهُمۡ ءَايَةٞ﴾ حكايةٌ عنْ خُبثِ هؤلاءِ الكفّارِ وحسدِهمْ وكيدِهمْ؛ فإنّهمْ في الوقت الذي تتّضحُ لهمْ معجزةٌ قاهرةٌ تُثبتُ النبوّةَ وتشيرُ إليها بادروا بعدم الإيمانِ حتّى يَحْصُلَ لَهُمْ مِثْلُ هَذا المَنْصِبِ من عندِ اللّهِ وأنّهمْ لَمْ يطلبوا الحُجّةَ اقتناعًا، بَلْ هُوَ حَسَدٌ منْ أنفسِهمْ[3].

تعيينُ مَرْجِعِ الضَّميرِ في قولِه تعالى: ﴿وَإِذَا جَآءَتۡهُمۡ ءَايَةٞ﴾:

الضّميرُ عائدٌ على الأكابرِ فإنّهم رفضُوا الإيمانَ حتّى يُعطَوْا عطاءَ الأنبياءِ

الضّميرُ في الفعلِ في قولِه تعالى: ﴿وَإِذَا جَآءَتۡهُمۡ ءَايَةٞ﴾ راجعٌ إلى أكابرِ مُجرمي القريةِ الذين جرى ذكرُهم في الآيةِ الآنفةِ الذّكرِ، وهم أكابرُ مجرمِي مكّةَ، فهم المقصودون وإنْ كانَ اللَّفظُ

(1) طنطاوي، الوسيط: 5/172.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 8/51أ.
(3) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 13/135 - 136.

عامًّا؛ فإنّهم تشطّطوا واشترطوا نيلَ ما نالَ الأنبياءُ منَ الآياتِ كي يؤمنُوا[1].

بلاغةُ المجازِ في قولِه تعالى: ﴿وَإِذَا جَآءَتۡهُمۡ ءَايَةٞ﴾:

شخوصُ الآيةِ كنايةٌ عن وضوحِها في إقامةِ الحقِّ

قولُه تعالى: ﴿وَإِذَا جَآءَتۡهُمۡ ءَايَةٞ﴾ مجازٌ عقليٌّ، فقدْ أسندَ المجيءَ إلى غَيْرِ الفاعلِ الحقيقيِّ معَ عدمِ لمحِ علاقةِ المشابهةِ وهي هنا (الآية)؛ لإيصال المعنى في صورةٍ دقيقةٍ مقرّبةٍ إلى العقلِ تظهرُ في مهارةِ إسنادِ الفعلِ (جاءَ) إلى الآيةِ، فاستعملَ المجيءَ وأرادَ منهُ الإعلامَ[2]، وفيه شخوصُ الآيةِ، وتجسيدُ مجيئها إلى أكابر المجرمين، وهو كنايةٌ عن وضوح المجيء وإقامةِ الحقِّ.

تصويرُ مجيءِ الآيةِ استعارةٌ مكنيّةٌ للإعلامِ بمجيءِ الدَّاعِي

في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَآءَتۡهُمۡ ءَايَةٞ﴾ استعارة مكنية، فقد شبَّه الآيةَ برجلٍ يجيءُ، وحذفَ المشبَّه به وذكر لازمًا من لوازمه وهو المجيءُ؛ فإنَّ الآية على الحقيقةِ لا تجيءُ، والاستعارةُ أبلغُ منَ الحقيقة، فقدْ صوّرَ المشهدَ المتحرّكَ منَ المجيءِ تصويرًا رائعًا، ليشعركَ بهِ أتمَّ شعورٍ وأبلغَهُ، "فكأنّ الآيةَ بلغتْ من وضوحِها ومنِ استقلالِها ومن ذاتيّتِها وَخصُوصِيَّتِهَا أنّها تجيءُ"[3]، وهي بمنزلةِ رجلٍ يأتي لتلاوتِها، أي: تُليتْ عليهم آيةٌ تدعوهم إلى الإيمَانِ؛ تشبيهًا لها بمجيءِ الدَّاعِي أو المرسَلِ[4].

نكتةُ تنكيرِ ﴿ءَايَةٞ﴾ في سياقِ الشَّرطِ:

التّنكيرُ يقتضي العمومَ فأيُّ آيةٍ أتَتْ فهي موطنُ ابتلاء

نُكِّرت الآيةُ في قولِه تعالى: ﴿وَإِذَا جَآءَتۡهُمۡ ءَايَةٞ﴾ لغرضِ العموم لاسيما أنَّها جاءت في سياقِ الشَّرط، ومعناهُ: كلُّ آيةٍ تنزلُ عليهمْ، وفيها تفسيراتٌ عديدةٌ[5]، منها: نزولُ آيةٍ منَ القرآنِ، وآيةٌ كونيةٌ

(1) الزجاج، معاني القرآن وإعرابه: 2/288 - 289، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 51/8أ.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 52/8أ.
(3) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 7/3922.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 52/8أ.
(5) الهرري، حدائق الروح والريحان: 8/49.

معجزةٌ باهرةٌ، وآيةٌ تدلُّ على صدقِ رسالتهِ ﷺ، فكلُّ هذهِ الآياتِ داخلةٌ في معنى الآيةِ المذكورةِ في الآية.

براعةُ تسجيلِ كُفرِهم بقولِه: ﴿قَالُواْ لَن نُّؤۡمِنَ﴾:

تسجيلُ كُفرِ الكافرين من قِيلِهم تمامُ العدلِ ومُنتهى الحِكمة

سجّلَ الحقُّ ﷻ كفرَهم بقولِه تعالى: ﴿قَالُواْ لَن نُّؤۡمِنَ﴾ فهو نفيُ الإيمانِ قولاً مسجّلًا بأفواهِهمْ، وما ينبني عليهِ منْ إقامةِ الحُجّةِ عليهمْ، وتفصيلِ مطالبِهم التي لأجلِها استحقّوا الذَّمَّ البالغَ؛ ولهذا كلِّه آثرَ نقلَ قِيلِهم: ﴿قَالُواْ لَن نُّؤۡمِنَ﴾ دون الحُكم عليهم بقولِه: (كفروا)، ولأنّهُ خبرٌ يحتملُ الصّدقَ ويحتملُ الكذبَ منْ جانبِهمْ؛ لأنّهمْ منكِرونَ أصلاً للرّسالةِ، ثمّ إنّهم سجّلوا عدمَ إيمانِهم بـ ﴿لَن﴾ الدّالّةِ على المستقبلِ؛ كنايةً عن إصرارِهم على نفيِ الإيمانِ[1].

معنى حرفِ ﴿حَتَّىٰ﴾:

كفرُ المشركين ضاربٌ في عَراقةِ العِنادِ لا يتركونه إلا بتحقيق غايةِ الإيتاء

حرف (حتّى) في قولِه تعالى: ﴿حَتَّىٰ نُؤۡتَىٰ مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ رُسُلُ ٱللَّهِۘ﴾؛ للغاية، أي: أنَّهم رفضوا الإيمان بالكليَّة إلى أن يتحقَّق الإيتاءُ مثلُ الذي كان لأنبياءِ اللّه تعالى منَ الرِّسالةِ والوحيِ والمُعجزاتِ، فإذا تحقَّقت هذه الغاية، تحقَّق إيمانُهم باللّه، وأفاد استعمالُ هذا الحرفِ تصويرَ حالِ أولئك المعاندين في رفض الإيمان، وأنَّهم في منزلةٍ بليغةٍ منَ العناد لا يُزحزحُهم عنها إلا ذلك الإيتاءُ، وهذا في غايةِ التَّعنُّت والكفر والوقاحة؛ فإنَّ الاشتراطَ على اللّه تعالى عِرْقٌ ضاربٌ في الإلحادِ والإنكار.

نكتةُ إسنادِ الفعلِ إلى المفعولِ في قولِه تعالى: ﴿حَتَّىٰ نُؤۡتَىٰ﴾:

اعتناءُ المُتغطرس مقصورٌ على نفسه، غيرُ آبهٍ بما سوى ذلك

لإسناد الفعلِ إلى المفعولِ في قولِه تعالى: ﴿حَتَّىٰ نُؤۡتَىٰ﴾ نكتةٌ وهي أنّهم لمّا ظنّوا في أنفسِهم منَ العظمةِ والعُلوِّ وأن لا يختصّ أحدٌ من غيرِهم بشيءٍ[2] طلبوا أن يُؤتَوا بما أُوتي الرّسلُ، فكانت العنايةُ بأن

(1) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 7/2923.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 7/256.

يُؤتَوا ما طلبوه بقطْعِ النَّظر عن أيِّ اعتبارٍ آخرَ، وهذا دليلُ اجتماعِ الجهلِ بالكِبر والغطرسة، فإنَّ شأنَ المتكبِّر المعاندِ أن يَعتني بما يخصُّه، دون النَّظر فيما سوى ذلك.

فائِدةُ التَّشبيهِ في قولِه تعالى: ﴿حَتَّىٰ نُؤۡتَىٰ مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ رُسُلُ ٱللَّهِۘ﴾:

عُتوُّ المشركين وَغَطْرَسَتُهُمْ وكمالُ عنادِهم وكفرِهم

لم يقتصر طلبُ أولئك المتغطرسين المعاندِين على إيتاءِ المعجزات، بل أرادوها مماثلةً لمعجزات الرُّسل منَ الوحي والبراهينِ الدَّالّةِ على رسالاتهم سواءً بسواء، وهذا في غاية الوقاحةِ والبذاءةِ، فقابلوا طلبَ الإيتاءِ بالإيتاءِ، ونزَّلوا أنفسَهم منزلةَ الرُّسل في الكرامةِ على اللّه تعالى، ورفعوا من شأنهم إلى أن أوصلوه إلى رُتبة الرُّسل الكرامِ، فكان ذكرُ التَّشبيه بـ ﴿مِثۡلَ﴾ دليلًا على تمام الكِبْر، وكمالِ الغطرسة، وسوءِ الطَّويّة، وفسادِ الفكر.

معنى ﴿مَآ﴾ في قولِه تعالى: ﴿مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ رُسُلُ ٱللَّهِۘ﴾:

موصولةٌ قُصِد بها معجزةٌ ممَّا هو معهودٌ

و﴿مَآ﴾ في قولِه تعالى: ﴿حَتَّىٰ نُؤۡتَىٰ مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ رُسُلُ ٱللَّهِۘ﴾ موصولةٌ[1] ومعناها: مثلُ الذي آتاهُ اللّهُ للرسلِ منَ المعجزاتِ الّتي جاؤوا بها لإثباتِ صدقِ رسالاتِهم لأقوامِهم[2]، كأنَّهم قالوا: نريد معجزةً منَ المعجزات التي آتاها اللّه للرُّسل السَّابقين، ممَّا هو معهودٌ معلومٌ لدى النَّاس.

نكتةُ إسنادِ الفعلِ إلى المفعولِ في قولِه تعالى: ﴿مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ رُسُلُ ٱللَّهِۘ﴾:

قصورُ نظرِ المشركين على الجانب الحِسِّيِّ في الحياة

لَمّا كانَ غايةُ بصرِهم وتطلّعِهم هو الجَانِبَ الحِسِّيَّ من غيرِ نظرٍ إلى الجانبِ الغيبيّ منه تعالى عبّروا بالبناءِ للمفعولِ[3] عن أَرَبِهم في نَيْلِ ما نالَه الرّسلُ بقولِهم: ﴿مَآ أُوتِيَ رُسُلُ ٱللَّهِۘ﴾.

(1) الدرويش، إعراب القرآن وبيانه: 3/218.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 8/52أ.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 7/256.

سرُّ التَّصريح بعنوانِ الرِّسالةِ لا النُّبوّةِ في قولِه تعالى: ﴿رُسُلُ ٱللَّهِ﴾:

أرادوا الرّسالةَ لاشتمالِها على جميعِ مطالبِهم

جاءَ التَّعبيرُ بالرسالةِ دونَ النبوّةِ في قولِه: ﴿حَتَّىٰ نُؤۡتَىٰ مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ رُسُلُ ٱللَّهِۘ﴾؛ لأنّهم أرادوا أن يأتيَهم اللّهُ بمعجزاتٍ مستقلّةٍ كتلك التي آتاها لرُسلِه، ويريدونها مشتملةً على موادِّ الدّعوةِ الدّينيةِ لا مجردَ المعارفِ الدّينيةِ من أصولٍ وفروعٍ وغيرِها، ومرادُهم أنّهم لن يؤمنوا حتّى تكونَ الرّسالةُ فيهم[1]، ويُؤيِّدُ ذلك أنّ الحقّ ﷻ ردّ عليهم بعدَه بقوله: ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥۗ﴾ فهو أقربُ وأنسبُ لما أرادوا[2].

دلالةُ إضافةِ رُسُل إلى لفظِ الجلالةِ في قولِه تعالى: ﴿رُسُلُ ٱللَّهِ﴾:

اعترافٌ ضمنيٌّ منَ المشركين بمكانةِ الرُّسلِ عند الله تعالى

إضافةُ الرّسلِ إلى اسمِه الشّريفِ تعالى بقولِه: ﴿رُسُلُ ٱللَّهِ﴾، أفاد التَّشريفَ، لكنَّهم أرادوا التَّشريفَ لأنفسهم، أي: كما شُرِّف الرُّسلُ بأن أرسلَهم اللّه تعالى، فكذلك يريدونه لأنفسِهم، وفيه اعترافٌ ضمنيٌّ منَ المشركين بمكانةِ الرُّسل صلواتُ اللّه وسلامُه عليهم أجمعين في أنفسِهم، وأنَّهم يُكابرون ويعاندون عند صدِّهم عن سبيل اللّه وعدمِ إيمانِهم بما جاءَ به رسولُ اللّه ﷺ.

نكتةُ جمْعِ الرُّسل دونَ الإفرادِ في قولِه تعالى: ﴿رُسُلُ ٱللَّهِ﴾:

الرّسالةُ ليستْ منصبًا تَشريفيًّا أو مكانةً سياسيَّةً أو رِفعةً قبليَّةً

جمْعُ الرّسل إمَّا أن يُراد به المفردُ، أي: رسولُ اللّه ﷺ تعريضًا به[3]، كما يقالُ إنّ ناسًا أو جماعةً يقولون كذا، فالتّعبيرُ بالجمعِ والمرادُ شخصٌ واحدٌ معيّنٌ، ويحتملُ أن يرادَ من إطلاقِهم (رسل اللّهِ) أن يكونَ من بابِ التهكّم به ﷺ[4]، والصَّحيحُ أنَّهم أرادوا أن يُؤتَوْا مثلَ ما أُوتي رسل اللّه على الحقيقة، وهم يريدون جميعَ

(1) الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن: 8/352.

(2) رضا، تفسير المنار: 8/33.

(3) والتعريض أسلوب بلاغيّ يأتي خلافًا للتصريح وهو: "اللّفظُ الدّالُّ على الشيّء من طريق المفهوم، لا بالوضع الحقيقيّ، ولا المجازيّ". يُنظر: العلويّ، الطراز لأسرار البلاغة: 1/193.

(4) أبو حيان، البحر المحيط: 4/637، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 8أ/53.

الرُّسل، فما كان لأولئك الرّسلِ مجتمعين يريدونه لأنفسهم، وهذا المناسبُ لشخصية أولئك بما تحويه من فخرٍ وكِبْرٍ كما قال سبحانه: ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ عَظِيمٍ ٣١﴾ [الزخرف: 31]، فهم يطلبون المجدَ من طريق زخارف الدُّنيا وبهارجِها وملذّاتِها؛ ظنًّا منهم - وَفق مفاهيمِهم الدُّنيويةِ - أنَّ الرِّسالةَ تشريفٌ نِسبيٌّ، ورِفعةٌ قبليَّةٌ، ومكانةٌ سياسيَّةٌ، وهذا يُنبئُ عن شديد جهلهم، وفيه تحذيرٌ لأتباعِ الرُّسل أن يكونوا على مِنوالِهم، في طلبِ الدُّنيا بطريق الدِّين.

بلاغةُ البَدْءِ بلفظِ الجلالةِ في قولِه تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥۗ﴾:

في قولِه تعالى: ﴿حَتَّىٰ نُؤۡتَىٰ مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ رُسُلُ ٱللَّهِۘ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥۗ﴾ ابتدأَ ذكرَ لفظِ الجلالةِ معَ أنّه مذكورٌ في الجملةِ قبلَها ﴿رُسُلُ ٱللَّهِۘ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ﴾؛ للدّلالةِ على أنّها جملةٌ جديدةٌ مستأنفةٌ "لأنّ العربَ لا تعيدُ لفظَ الظّاهرِ إلّا أن تكونَ الجملةُ الأولى غيرَ الجملةِ الثّانيةِ، وتكونَ الجملةُ الثّانيةُ مستأنفةً"[1]، والغرضُ منَ الاستئنافِ الإنكارُ عليهم، وأنّ اللّهَ لا يصطفي للنّبوةِ والرّسالةِ إلّا من كانَ أهلًا لها، وأنّه أعلمُ بالمكانِ النّازلةِ فيه.

الجملةُ على الاستئنافِ فهي جملةٌ جديدةٌ غرضُها الإنكارُ عليهم

والبدءُ بلفظِ الجلالةِ في قولِه تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥۗ﴾ فيه تبيينٌ لعُلوِّ قدرِ الرّسولِ ﷺ؛ فقدْ وضعَ فيهِ رسالتَهُ وشرّفَه بها، وفيهِ تنبيهٌ على انحطاطِ نفوسِ سادةِ المشركينَ وسَفالتِهم[2] أنْ منعَ اللّهُ عنهمْ هذا التّشريفَ بالرّسالةِ، وما ذاكَ إلا لانعدامِ استعدادِهمْ، فلا تصلحُ الرّسالةُ إلا لنفوسٍ دنتْ منَ الصّفاتِ المَلكيّةِ وسَمتْ عنِ الرذائلِ الحيوانيةِ، بفضائلَ نفسانيّةٍ، ونفسٍ قدسيّةٍ أفاضها اللّه تعالى بمحض الكرم والجود على من كمُل

الجملةُ تعظيمٌ لقدرِه ﷺ وتنبيهٌ لانحطاطِ نفوسِ سادةِ المشركينَ

(1) السيرافي، شرح كتاب سيبويه: 1/335.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 8/54.

استعدادُه، فهو منصبٌ لا يُنال بما يزعمونَه من كثرة المال والولد، وتعاضُدِ الأسباب والعَددِ[1].

في الجُمْلَةِ من أساليبِ العربِ مَا يُسمّى التّرديدَ أو إيهامَ التّوكيدِ

والبدءُ بلفظِ الجلالةِ في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ نُؤۡتَىٰ مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ رُسُلُ ٱللَّهِۘ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥۗ﴾ بعدَ أنْ ختمَ الجملةَ السّابقةَ بلفظِ الجلالةِ، هو أسلوبٌ عربيٌّ يُسمّى التّرديدَ: "وهو أنْ يعلّقَ المتكلّمُ لفظةً منَ الكلامِ بمعنى، ثمَّ يردَّها بعينِها ويعلّقَها بِمَعْنًى آخرَ"[2]، فاللّفظُ الأوّلُ مضافٌ، والثّاني ابتداءٌ، وهذا الأسلوبُ يخلعُ على الجملةِ حُسنَ الرّصفِ والتّأليفِ المعجبِ، ولإفادةِ المعاني المختلفةِ، وقدْ يُسمّى إيهامَ التّوكيدِ وهو ليسَ منَ التّوكيدِ في شيءٍ إنّما يُوهمُ أنّهُ منهُ لِأَوَّلِ وَهْلَةٍ.

توجيهُ استعمالِ ﴿حَيۡثُ﴾ بَيْنَ الحقيقةِ والمجازِ:

حيث اسمُ مكانٍ استُعملَ استعارةً للمكانِ الذي تُوضع فيه الرّسالةُ

﴿حَيۡثُ﴾ الدّالّةُ على الظّرفيةِ في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥۗ﴾، لَيْسَتْ ظَرْفًا بَلْ هي اسْمٌ لِلْمَكَانِ مُجَرَّدٌ عَنِ الظَّرْفِيَّةِ؛ لِأَنَّ حَيْثُ ظَرْفٌ مُتَصَرِّفٌ، عَلَى رَأْيِ الْمُحَقِّقِينَ مِنَ النُّحَاةِ، فَهِيَ هُنَا فِي مَحَلِّ نَصْبٍ بِنَزْعِ الخَافِضِ وهو البَاءُ؛ لِأَنَّ ﴿أَعْلَمُ﴾ اسْمُ تَفْضِيلٍ لَا يَنْصِبُ المَفْعُولَ، وَذَلِكَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦۖ﴾ [الأنعام: 117]، والمقالةُ السّابقةُ بأن يُسْبِغَ اللّهُ عَلَيْهِمْ ما وهبَ الرّسلَ ردٌّ عليهم، بِأَنَّ اللّهَ أعلمُ بالمعجزاتِ اللّائقةِ بالقومِ المرسَلِ إليهمْ، فتكونُ حيثُ مجازًا في المكانِ الاعتباريِّ للمعجزةِ[3]، على جعلِ القومِ كأنّهم مكانٌ لظهورِ للمعجزةِ بعدَ أن ظهرَت على يدِ أحدٍ منهم، وَحَيْثُ مُسْتَعَارَةٌ لِلْمَبْعُوثِ بِالرِّسَالَةِ، بِنَاءً عَلَى تَشْبِيهِ الرِّسَالَةِ بِالوَدِيعَةِ المَوْضُوعَةِ بِمَكَانٍ أَمَانَةٍ، عَلَى طَرِيقَةِ الاسْتِعَارَةِ

(1) الآلوسي، روح المعاني: 8/21.
(2) ابن أبي الإصبع، تحرير التحبير: 253.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 8/53أ.

المَكْنِيَّةِ. وَإِثْبَاتُ المَكَانِ تَخْيِيلٌ، وَهُوَ اسْتِعَارَةٌ أُخْرَى مُصَرِّحَةٌ بِتَشْبِيهِ الرُّسُلِ بِمَكَانِ إِقَامَةِ الرِّسَالَةِ[1].

نكتةُ التَّعبير بالفعلِ المضارعِ في قولِه تعالى: ﴿حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾:

استُعمِلَ الفعلُ المضارعُ في قولِه تعالى: ﴿يَجْعَلُ﴾ للدّلالةِ على الاستمرارِ والتّجدّدِ، وإمكانِ جريانِ الحكمِ في كلِّ زمانٍ؛ لأنَّ الرّسالةَ متجدّدةٌ عبرَ تبليغِها إلى المرسَلِ إليهِ[2] منْ لدُنِ إنزالِها حتّى قيامِ الساعةِ، وأنّ الجعلَ يتخطّى الإنزالَ والاختيارَ إلى الأثرِ وهو الإيمانُ والعملُ الصالحُ[3]، وهما مُتجدّدان مُستمرّان تجدّدَ اللّيلِ والنّهارِ؛ ففيها إيماءٌ إلى أنَّ الرِّسالةَ مستمرَّةٌ إلى يومِ الدِّين، لكنْ لا بمفهومها النُّزوليِّ، بل بمفهومها التَّكليفيِّ التَّبليغيِّ، فإنَّ أتباعَ الرُّسل يقومون بمهامِ التَّبليغ، فيكتسبون الأجرَ والشَّرفَ في جعل تكاليفِ الرِّسالةِ فيهم.

الرّسالةُ متجدّدةٌ بتجدّدِ تبليغِ المرسَلِ إليهِ وتجدّدِ أثرِها إيمانًا وعملًا

توجيهُ القِراءاتِ القرآنيَّةِ في قولِه تعالى: ﴿رِسَالَتَهُۥ﴾:

اختلفَ القُرّاءُ في قولِه: ﴿رِسَالَتَهُۥ﴾ فقرأَ ابنُ كثيرٍ وحفصٌ بإفرادِ الرّسالةِ، وقرأَ الباقونَ بالجمعِ، أي: (رسالاتِه)[4]، فمعنى قراءة الإفراد؛ أنَّ الرِّسالةَ الإلهيَّةَ واحدةٌ في مصدرها وآثارِها، ومعنى قراءة الجمع؛ اعتبارُ كلِّ رسالة قائمةً برسولِها، فمجموعُ الرّسالات غايتُها في رسالةٍ واحدةٍ، وهذا دليلٌ على وحدةِ المصدرِ، ووحدةِ الغاية، فالدِّينُ واحدٌ، وهو ما انتهى إليه الشَّأنُ في رسالةِ نبيِّنا ﷺ.

وحدةُ مصدرِ الرّسالات وغايتِها دليلٌ على وجوبِ اتِّباعِ الرِّسالة الخاتمةِ

بلاغةُ الاستئنافِ البيانيِّ في قولِه تعالى: ﴿سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ﴾:

جملةُ ﴿سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ﴾ استئنافٌ بيانيٌّ ناشئٌ عنْ قولِه: ﴿لِيَمْكُرُواْ فِيهَاۖ﴾ مؤسَّسٌ على سؤالٍ مفترَضٍ، فإنّهمْ

مصيرُ من يجترئُ على اللهِ أن يصيبَه هوانٌ عندَ اللهِ جزاءً وفاقًا

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 53/أ8.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 4/265.
(3) العثيمين، تفسير العثيمين: 1/394.
(4) ابن الجزري، النشر: 2/262.

لمّا اجترؤوا عليهِ سبحانهُ وأصرُّوا على المعاصي، وأقبحُها الكفرُ حسدًا منْ أنفسِهمْ فما مصيرُهمْ، وماذا سيحلُّ بهمْ؟ فجاءَ الجوابُ ﴿سَيُصِيبُ﴾ بهيئةِ وعيدٍ وتهديدٍ على أفعالِهمْ، والمرادُ بالذينَ أجرموا أكابرُ المجرمينَ الواردِ ذكرُهمْ في سياقِ الآيةِ نفسِها[1].

بلاغةُ استعمالِ لفظِ الإصابةِ في قولِه تعالى: ﴿سَيُصِيبُ﴾:

لفظُ الإصابةِ مجازٌ عن حشرِهم يومَ القيامةِ

استعمالُ لفظِ الإصابةِ في جملةِ ﴿سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ﴾ مجازٌ، فالأصلُ في معنى الإصابةِ: النّزولُ والاستقرارُ والانتهاءُ إلى الموضعِ[2]، فمصيرُ هؤلاءِ ومستقرُّهمْ جهنمُ يومَ القيامةِ، فالفعلُ ﴿سَيُصِيبُ﴾ واردٌ على طريقةِ المجازِ؛ كنايةً عنْ حشرِهمْ يومَ الدِّينِ[3].

نكتةُ استعمالِ الاسْمِ المَوْصُولِ في إظهار ما حقُّه الإضمارُ:

الإشعارُ بسببِ وقوعِ الهوانِ عليهم يومَ القيامة

جاءَ التّعبيرُ بالاسمِ الموصولِ في قولِه: ﴿سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ﴾ دونَ الإضمارِ وهو مقتضى الظّاهر، فلم يقل: (سيصيبهم صغارٌ)؛ للإشعارِ بعلّةِ بناءِ الخبرِ على الصّلةِ، والمعنى أنَّ إجرامَهمْ سببٌ لإصابتِهمْ بالصَّغارِ والعذابِ[4].

سرُّ العُدولِ عن ذكر المكرِ إلى الإجرامِ في قولِه: ﴿أَجۡرَمُواْ﴾:

لفظُ الإجرامِ شاملٌ الأكابرَ والأصاغر ممَّن تصدَّى للدَّعوة

عدلَ النَّظمُ عن ذكْرِ المكرِ كما جاء في الآياتِ السَّابقة: ﴿لِيَمۡكُرُواْ﴾ إلى ذكر فعلِ الإجرامِ في قولِه: ﴿سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ﴾؛ وذلك للإيماءِ إلى أنَّ الذينَ يستحقّونَ الصَّغارَ والعذابَ هم الذين أجرموا، وجيءَ بفعل ﴿أَجۡرَمُواْ﴾ ليشملَ الجميعَ منَ الأكابر والأصاغر ممَّن يصدقُ عليهم لفظُ الإجرام، ونظيرُ ذلك قولُه سبحانه: ﴿إِنَّ فِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُواْ خَٰطِـِٔينَ ٨﴾ [القصص:

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 8/55.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (صوب).
(3) إسماعيل حقي البروسوي، روح البيان: 3/99.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 8/56.

8]، ولو قال – في سياق الآية –: (الذين مكروا)؛ لظُنَّ أنَّ الأمر خاصٌّ بالأكابر، ولذا قال: ﴿أَكَٰبِرَ مُجۡرِمِيهَا﴾؛ لاختصاص اللَّفظ بهم، فأتى بِلَفْظِ ﴿أَجۡرَمُواْ﴾؛ وهو مستوعبٌ الأكابرَ والأصاغرَ منَ المجرمين.

سرُّ استعمالِ لفظِ ﴿صَغَارٌ﴾ دونَ مُرادِفاتِه:

مقابلةُ الكبْرِ بالصَّغارِ عدلٌ إلهيٌّ ووِفاقٌ جزائيٌّ

الصَّغارُ في قولِه: ﴿سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ﴾ بمعنى الذّلّ، وهو مشتقّ منَ الصِّغَرِ، أي: أذلّاءُ قِمَاءٌ راضون بالدّنيّةِ[1]، ولمّا كانَ المعاقَبونَ متّصفينَ بالتكبّرِ والإجرامِ والعصيانِ المقترنِ بالإصرارِ عليه وهم المشارُ إليهم بقولِه: ﴿أَكَٰبِرَ مُجۡرِمِيهَا﴾، ناسبَ أنْ يجعلَ مصيرَهمْ ومآلَهمْ ذُلًّا وعذابًا في الدّنيا بزوالِ السّيادةِ والأَسْرِ والقتلِ، فضلًا عنِ العذابِ والهوانِ في الآخرةِ[2]، فأتى بلفظٍ يُوحِي بالمقابلةِ فقابل الكبْرَ بالصَّغارِ جزاءً وِفاقًا.

دلالةُ تنكيرِ لفظِ ﴿صَغَارٌ﴾:

التَّهوينُ والتّحقيرُ لكلّ متكبّرٍ

في تنكيرِ لفظِ ﴿صَغَارٌ﴾ مزيدُ تهوينٍ وتحقيرٍ لأولئك الأكابر، وهو مأخوذٌ منَ السِّياق.

فائدةُ التَّقييدِ بالعنديَّة في قولِه تعالى: ﴿صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ﴾:

العِنديّةُ دالّةٌ على التّعظيمِ والتّهويلِ فالشّيءُ يعظمُ بعظَمةِ محلّه

أفاد التّقييدُ بالعِنديةِ في قولِه: ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ الإشارةَ إلى تعظيمِ عذابِ هؤلاءِ، فإنَّ الشيءَ يعظمُ بعظمةِ محلّه ومكانِه[3]، ولا أعظمَ منهُ تعالى، ولمّا كانَ الأمرُ هنا في العذابِ فيكونُ الغرضُ منه التّعظيمَ والتهويلَ، ولمَّا طلبوا الكرامةَ والشَّرفَ عن غيرِ استحقاقٍ في قولِهم: ﴿حَتَّىٰ نُؤۡتَىٰ مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ رُسُلُ ٱللَّهِۘ﴾ ناسبَ أن يُؤتيَهم العذابَ الماديَّ والمعنويَّ عن استحقاقٍ فقال سبحانه: ﴿سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدُۢ﴾.

---

(1) السمين، عمدة الحفاظ: (صغر).

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 8/56أ، والواحدي، التفسير الوسيط: 2/320.

(3) البقاعي، نظم الدرر: 7/258.

سرُّ تقديمِ الصَّغارِ على العذابِ في قولِه: ﴿صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌۢ﴾:

من طلبَ ما لا يستحِقُّ عوقب بما يستحِقُّ

قُدِّمَ ذكرُ الصَّغار على ذكر العذابِ الشديدِ في قولِه: ﴿سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌۢ﴾، وسرّ ذلكَ أنّهمْ لَمّا تمرّدوا على طاعتهِ ﷺ كانتْ غايتُهمْ طلبَ العزّ والرّياسةِ والكرامةِ، فبيّنَ أنّهُ سيقابلُهمْ بضدِّ مطلوبِهمْ[1]، بَدْءًا بالصَّغارِ والذُّلِّ المعنويِّ، ثمَّ تَثْنِيَةً بالعذابِ الماديِّ الشّديدِ، فالتّقديمُ والتأخيرُ منْ بابِ مناسبةِ الحالِ، فلمَّا كان بالغُ عنايتهم بالكرامةِ والشَّرف بدأ بما يُناسبُ حالهم، ليذوقوه في الدُّنيا خبرًا، وفي الآخرة واقعًا.

نكتةُ وصفِ العذابِ بالشَّديدِ دون غيرِه منَ الأوصاف في قولِه: ﴿وَعَذَابٌ شَدِيدٌۢ﴾:

شدّةُ عذابِهمْ معادلٌ لشدَّةِ كفرِهم وشديدِ بأسِهم

بيّنَ الحقّ ﷻ نهايةَ هؤلاءِ المجرمينَ بعدَ الصَّغارِ بالعذابِ، ثمَّ وصفَهُ بالشّديدِ في قولِه: ﴿وَعَذَابٌ شَدِيدٌۢ﴾، دون أن يقول: (عذاب أليم)، أو (عذاب مهين) ونحوَ ذلك، ونكتةُ هذا الوصفِ أنَّ عذابَهمْ هذا لمْ ينزلْ بهم جُزافًا، ولم يقعْ عليهم جَوْرًا، بلْ هو مطابقٌ مسبّبٌ عنْ سوءِ فعالِهمْ وضررِ مكرِهمْ وكيدِهمْ[2]، فشدَّةُ العذابِ تُعادل شدَّةَ الذَّنْبِ، فلمَّا تشدَّدوا في كفرهم وأصرُّوا على شِركهم، ناسب أن يَذكرَ العذابَ الشَّديد الذي لن يُفْلِتوا منه.

معنى ﴿بِمَا﴾ في قولِه: ﴿بِمَا كَانُواْ يَمۡكُرُونَ﴾:

عذابُ المشركين بسبب مكرهم، الذي مكروه في الدُّنيا

الباءُ في قولِه: ﴿بِمَا كَانُواْ يَمۡكُرُونَ﴾ للسّببيةِ[3]، فالمكرُ سببُ عذابِهمْ، ولَمّا كانتِ الباءُ داخلةً على (ما) وهيَ تحتملُ المصدريةَ؛ فالمعنى بسببِ مكرِهمْ استحقّوا العذابَ، وتحتملُ الموصوليةَ فيكونُ

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 13/137.
(2) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 7/3925.
(3) ذكر لها أربعة عشر معنى، رابعها معنى السببية، ابن هشام، مغني اللبيب: 1/103.

المعنى بسببِ الذي كانوا يقترفونهُ منَ المكرِ[1]، والمعنيان بالمصدريّة والموصوليّة متآيلان، كلٌّ منهما يُفضي إلى الآخر.

بلاغةُ ذكرِ ﴿كَانُواْ﴾ في قوله: ﴿بِمَا كَانُواْ يَمۡكُرُونَ﴾:

المجيءُ بالفعلِ النّاقصِ ﴿كَانُواْ﴾ في قولِه تعالى: ﴿بِمَا كَانُواْ يَمۡكُرُونَ﴾؛ لدلالتِه على الاستمرارِ فإنّهم نالوا عذابَه تعالى بداعِي الاستمرارِ في المكرِ[2]، وهو تذكيرٌ بأنَّهم كانوا على حال المكر على الدَّوام لا يفترون عنها بحالٍ.

فعلُ الكونِ يدلُّ على استمرارِ مكرِهمْ فاستحقّوا عليهِ العذابَ

بلاغةُ التّعبير بالمكرِ في قوله تعالى: ﴿بِمَا كَانُواْ يَمۡكُرُونَ﴾، دون (يجرمون):

دلالةُ اختيارِ الفعل ﴿يَمۡكُرُونَ﴾ على (يجرمون) في هذه الآية، مع أنَّ لفظَ الإجرام سبقَ في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ﴾، هي إظهارُ حقيقةِ حالِ المشركين ومدى شناعةِ أفعالِهم؛ فإنَّ اللّه تعالى وصفَهم في ختام الآيةِ الكريمةِ بالمكر دون الإجرام المنوَّهِ به، وهذا يدلُّ على أنّهم لم يكونوا مجرمين عاديّين، بل كانوا في غاية المكرِ، فإنّهم لم يكتفُوا بارتكابِ المحظوراتِ وانتهاكِ الحقوق، بل اتّخذوا من ذلك وسيلةً للإضرار برَسولِ اللّهِ ﷺ وأتباعِه، واستخدموا لذلك المخادعاتِ والحيلَ، فاللّه تعالى يريدُ أن يُصوِّرَ ما فعلوه من شرّ وما سيلاقون من عقابٍ، ولهذه الدَّلالة التي تحملُها كلمةُ ﴿يَمۡكُرُونَ﴾ في هذه الآية، فقد اختارها اللّه تعالى بحكمتِه وإعجازِ كلامه العزيزِ، فهي توافقُ مقصودَ الآية منَ التّحذير منَ المكر والحثِّ على التّقوى.

إظهارُ حقيقةِ حالِ المشركين ومدى شناعةِ أفعالِهم

دلالةُ إيثارِ لفظِ المكرِ بصيغة المُضارِعِ في قولِه: ﴿بِمَا كَانُواْ يَمۡكُرُونَ﴾:

إيثارُ التّعبيرِ بالفعلِ المضارعِ ﴿يَمۡكُرُونَ﴾ في قولِه تعالى: ﴿بِمَا كَانُواْ يَمۡكُرُونَ﴾ لدلالتِه على التّجدّدِ والحدوثِ فإنّهُ لا يخلُو زمانٌ

تصويرُ مكرِ المجرمين لبيان خطورتِه وشدّةِ بأسِه

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 8/56أ.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/183.

أوْ مكانٌ منْ أُناسٍ مجرمينَ يمكرونَ ويَكيدونَ لهذا الدِّينِ ولأئمةِ الإصلاحِ، وهو أمرٌ جارٍ حُكمُهُ حتّى قيامِ الساعةِ، أو لتصويرِ مكرِهم وبيانِ مدى خطورتِه على دين اللّه تعالى، وعلى الدُّعاة إلى الحقِّ.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الصَّغار والذِّلّة:

معنى الذُّلِّ الانقيادُ كرهًا، ونقيضهُ العزُّ وهو الإباءُ، فالعزيزُ أبيٌّ خلافَ الذَّليلِ المنقادِ[1]، أمّا الصَّغارُ فبينهُ وبينَ الذّلِّ وشائجُ وعلائقُ قويةٌ؛ ذلكَ أنَّ الصَّغارَ اعترافٌ بالذّلِّ وإقرارٌ بهِ وإظهارُ المرءِ صغيرًا ولا عكسَ، فقد لا يكونُ الذّليلُ مقرًّا ولا معترفًا بهِ، ومعنى قولهِ تعالى: ﴿سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ﴾ أنّ العصاةَ والمجرمينَ والمتكبّرينَ في الآخرةِ مقرّونَ معترفونَ بالذّلّ[2]، فهذا فرقٌ بادٍ بينَ الذُّلّ والصَّغارِ فلْيُتأمَّلْ.

الذُّلُّ نقيضُ العزِّ، أمّا الصَّغارُ فهو الاعترافُ والإقرارُ بالذُّلِّ ولا عكسَ

(1) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 220.
(2) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 314.

﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهۡدِيَهُۥ يَشۡرَحۡ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِۖ وَمَن يُرِدۡ أَن يُضِلَّهُۥ يَجۡعَلۡ صَدۡرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِۚ كَذَٰلِكَ يَجۡعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجۡسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ١٢٥﴾ [الأنعام: 125]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

مَكْرُ المُجرِمين لا يمنعُ الإيمانَ عن أحدٍ ولا يُكرِهُ أحدًا على الكُفرِ

الآيةُ مُرتَّبةٌ على ما قبلَها وصلًا بالفاءِ، فإنّ الحقَّ ﷻ لَمّا ضرَبَ مثلًا بقولِه: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيۡتٗا فَأَحۡيَيۡنَٰهُ وَجَعَلۡنَا لَهُۥ نُورٗا يَمۡشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ﴾ [الأنعام: 122] وأنّه يزيِّنُ لِلكافرينَ أعمالَهمْ، وأنَّهُ صيَّر في كلِّ قريةٍ مجرميها مِنْ أكابرِ القوم، ثُمَّ إنّهمْ يَطلُبونَ ما ليسَ لهمْ رتّبَ هُنا على ذلكَ هذهِ الآيةَ تسليةً للرَّسولِ ﷺ، وإرشادًا إلى تفويضِ الأمورِ إلى اللّهِ تعالى، وإعلامًا بأنَّ إرادتَهُ تتعلَّقُ بهدايةِ بعضِ العبادِ المستعدِّينَ لَها وضَلالِ غَيرِهِمْ[1]، فالمناسبة بين الآيةِ والسَّابق لها، هو أنَّ هذه الآية تسليةٌ للنَّبيِّ ﷺ في أنَّ مَكْرَ المُجرمين لا يمنعُ مِنْ إيمانِ المؤمنين، فاللّه تعالى شرحَ الصُّدورَ، وهيَّأَ الأسْبابَ، فمنْ أرادَ الإيمان فلا رَادَّ له، ومن أرادَ الكُفرَ فلا مُكْرِه له.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَشۡرَحۡ﴾: فعلٌ مضارعٌ دالٌّ على الحالِ والاستقبالِ، والجذرُ اللُّغَويُّ مِنهُ (شرح)، والشَّرْحُ معناهُ الاتِّساعُ، وشرَحَهُ وسَّعَهُ فاتَّسَعَ، وأَصلُهُ: الفَتحُ والبيانُ، واشتِقاقُهُ مِنْ تشريحِ اللَّحمِ، وشَرْحُ الصّدرِ أنْ يبسُطَهُ الحقُّ ﷻ بنورِهِ الإلهيِّ وسَكينَتِهِ الرَّبّانيَّةِ، ومَنْ شرَحَ صدرَهُ فقد وسَّعَهُ لقَبولِ الحَقِّ والرِّضا بهِ، وشَرْحُ الأمرِ توضيحُهُ وبيانُ الغامِضِ مِنْهُ، و(شرَحَ صَدْرَهُ) الواردُ في القرآنِ هو مِنَ

(1) الطيبيّ، فتوح الغيب: 6/240.

القَبولِ برضًا وقناعَةٍ وارتياحٍ[1]، وهوَ كَذلِكَ الواردُ في الآيةِ بأنْ يوسّعَ قلبَهُ فيكونَ قابلًا لتلقّي التَّوحيدِ والإيمانِ بِهِ[2].

2) ﴿ضَيِّقًا﴾: اسمٌ على وزنِ (فَيْعِل) يدلُّ على المبالغةِ؛ الجذرُ اللُّغَويُّ مِنهُ (ضيق)، وهوَ خِلافُ السَّعَةِ، ويُستعمَلُ في الفَقْرِ والبُخلِ والغمِّ، وهو نقيضُ شَرْحِ الصَّدرِ؛ وهو التّعمِيةُ والتَّحيُّرُ، وعُمومُ معناهُ المحْوَرِيِّ هوَ النَّقصُ الحاصِلُ في الفَراغِ نتيجةَ تضامٍّ جوانبِهِ، ثمّ استُعمِلَ في الضِّيقِ المعَنويِّ فكأنَّ الصَّدرَ يَضيقُ بِنَقصٍ فيهِ[3]، ومعناهُ في الآيةِ: الصّدرُ الّذي ينبو عَنْ قَبولِ الحَقِّ فلا يكادُ يدخلُهُ الإيمانُ لشِدّةِ ضيقِهِ[4].

3) ﴿حَرَجًا﴾: اسمٌ ثلاثِيٌّ، الجذرُ اللّغويُّ مِنهُ (حرج)، ومعنى الحرجِ الضِّيْقُ، والصَّدرُ الحرَجُ الّذي يَضيقُ ولا يَنشرحُ للخَيرِ، والحَرجُ مكانٌ ضيِّقٌ كثيرُ الشَّجرِ لا تَصِلُ إليهِ الرّاعيةُ، ومنه أصلُ الحاءِ والرّاءِ والجيمِ الدّالةِ على التَّجَمُّعِ والضِّيقِ، وحَرَجُ الصّدرِ أن يكونَ ضيّقًا بالكُفرِ، وكونُهُ بمعنى الضّيقِ المعَنويِّ كأنّما زحمَهُ الهمُّ والغمُّ وتجمَّعا فيهِ فمنعا دُخولَ النّورِ فيهِ[5]، ومعنى الحرَجِ في الآيةِ: صَدرُ الكافرِ الّذي لا تصِلُ إليهِ الحِكمَةُ، كالحرَجِ؛ وهوَ موضعٌ كثيرُ الشّجرِ الملتَفِّ الّذي لا تَصِلُ إليهِ الرّاعيَةُ[6].

4) ﴿يَصَّعَّدُ﴾: فعلٌ مضارعٌ دالٌّ على الحالِ والاستقبالِ، مَزيدٌ بالتَّضعيفِ دالٌّ عَلى المبالَغَةِ؛ الجذرُ اللُّغويُّ مِنهُ (صعد)، والصُّعودُ ارتقاءُ المكانِ المشرِفِ العالي، والصّادُ والعَينُ والدّالُ أَصلٌ صحيحٌ يدُلُّ على الارتفاعِ والمشقَّةِ خلافِ الحدورِ والنُّزولِ، والصُّعودُ يُقالُ للعقَبةِ الكؤودِ، ويُستَعارُ للمَشقَّةِ في الأمورِ، ولَمّا كانَ كَذلكَ استُعمِلَ الصُّعودُ في التَّعبيرِ عنِ العَذابِ والمشقَّةِ[7]، ومَعنى يصَّعَّدُ في الآيةِ: وصْفٌ لرَجلٍ يريدُ اللّهُ أنْ يُضِلَّهُ، فحالُهُ: "كأنّما يحاولُ الصُّعودَ في السَّماءِ، وذلكَ غَيْرُ ممكنٍ، فكذلكَ يصعُبُ عليهِ الإيمانُ"[8].

(1) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، والسّمين، عمدة الحفّاظ، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (شرح).

(2) ابن أبي حاتم، تفسير القرآن العظيم: 4/1385.

(3) الجوهري، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، والسّمين، عمدة الحفّاظ، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (ضيق).

(4) صديق حسن خان، فتح البيان: 4/236.

(5) الخليل، العين، والجوهريّ، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (حرج).

(6) الفرّاء، معاني القرآن: 1/353.

(7) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (صعد).

(8) السّيوطي، معترك الأقران: 3/377.

5) ﴿ٱلرِّجۡسَ﴾: اسمٌ ثلاثيٌّ؛ الجذرُ اللُّغويُّ مِنهُ (رجس)، وكلُّ شَيءٍ يُستقذَرُ فهوَ رِجسٌ، ومعناهُ أيضًا العَذابُ والرِّجزُ، وهوَ أصلٌ يدلُّ على الاختلاطِ، ومِنهُ الشَّيءُ القذِرُ؛ لأنّهُ لطخٌ وخلْطٌ، وقد يُعبَّرُ عنِ القُبحِ المعنويِّ بالرّجسِ؛ كالكُفرِ، فإنّهُ مِنْ حيثُ العقلُ مِنْ أقبحِ الأشياءِ، وهو العمَلُ المؤدّي إلى العَذابِ والعِقابِ[1]، ومعنى الرِّجسِ في الآيةِ: اللَّعنةُ في الدّنيا، والعَذابُ في الآخرةِ[2].

المَعْنى الإجْماليُّ:

الآيةُ الكريمةُ إخبارٌ مِنَ الحقِّ ﷻ بأنَّ آيةَ هدايةِ المؤمنِ أن يشرَحَ صَدرَهُ للإسلامِ، وآيةَ الضّالِّ أنْ يجعلَ صَدرَهُ ضيّقًا حرَجًا لا ينفُذُ إليهِ نورُ الإيمانِ، وهذه حالُهُ في عَدَمِ تقبُّلِ الإيمانِ وصُعُوبَتِه وثِقَلِه عَليهِ؛ مثَلُهُ كَمثَلِ مَنْ حاولَ الصُّعودَ إلى السَّماءِ وهوَ عاجزٌ عَنْ ذلكَ؛ فيظهَرُ فعلُهُ متكلَّفًا ذا عَنَتٍ؛ فليسَ في وُسعِهِ ذلكَ، ولا حيلةَ لهُ فيهِ، ومِثْلَما يكونُ صدرُهُ ضيّقًا حرجًا فإنّهُ يجعلُ لهُ اللَّعنَةَ في دُنياهُ، ويجعَلُ لهُ العذابَ في أُخراهُ[3] على مَنْ أبى الإيمانَ باللّهِ ورسولِهِ.

وتُرشِدُ الآيةُ الكريمةُ إلى أنَّ مَنْ تقرَّبَ إلى اللّهِ سبحانَهُ أعانَه، ومَنْ بَعُدَ عنهُ خَذَلَهُ[4].

هِدايةُ المؤمنِ في انشِراحِ الصَّدرِ، وضَلالُ الكافرِ في انغلاقِه

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ الوصْلِ بالفاءِ في قولِه تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ﴾:

الفاءُ في قولِه تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهۡدِيَهُۥ يَشۡرَحۡ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِۖ﴾ للتَّفريعِ، وهي جملةٌ مَوصولةٌ بما قبلَها مِنْ لَدُنْ قولِه تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيۡتٗا فَأَحۡيَيۡنَٰهُ﴾، ثمّ ما انتظمَ عليهِ مِنْ أعذارٍ كقولِهم:

بُطلانُ أعذارِ الكفّارِ وتَعلُّلاتِهم في إعراضِهم عنِ الإيمانِ

(1) الخليل، العين، وابن دريد، جمهرة اللغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، والسّمين، عمدة الحفّاظ، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (رجس).

(2) النّحّاس، معاني القرآن: 2/488.

(3) ابن جرير، جامع البيان: 9/544، والزّجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 2/290.

(4) مجمع البحوث، التّفسير الوسيط: 3/1323.

﴿لَن نُّؤۡمِنَ حَتَّىٰ نُؤۡتَىٰ مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ رُسُلُ ٱللَّهِۘ﴾ فقدْ أبطلَ علَّتَهُمْ هذهِ الَّتي تعلَّلوا بِها، وأَسقَطَ تَعليقَهُمُ الإيمانَ بحصولِهِمْ عَلى تِلكَ المغانمِ والمِنَحِ، وبيّنَ أنَّ هدايةَ المؤمنِ وضَلالَ الكافرِ هما منهُ تعالى تَخَطِّيًا لِلأسبابِ الظّاهِرَةِ[1].

دَلالةُ جُملةِ الشَّرطِ:

دلالةُ الشّرطِ في قولِهِ تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهۡدِيَهُۥ يَشۡرَحۡ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِۖ﴾، أيْ: أنْ يجعلَ في نفسِهِ استعدادًا، وفي عقلِهِ قبولًا لِلإسلامِ على وجهِ التَّحصيلِ، ثمَّ على وجهِ التَّوطينِ ليسكنَ إليهِ ويكونَ راضيًا بِهِ[2].

ودَلالةُ الشَّرطِ في قولِه تعالى: ﴿وَمَن يُرِدۡ أَن يُضِلَّهُۥ﴾ أيْ: أنْ يدومَ على الكفرِ فهوَ إمّا بمعنى أنْ يدومَ ضلالُهُ الماضي، أوْ أنْ يكونَ ضلالًا عَنِ الاهتِداءِ والقَبولِ للإسلامِ[3].

سِرُّ إظهارِ لفْظِ اسمِ الجلالةِ وإضْمارِه:

أظهرَ اسمَ الجلالةِ في قولِه تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهۡدِيَهُۥ﴾ للتّعبيرِ عن الامتنانِ، فهوَ الهادي جلَّ في عُلاهُ، وأضمَرَهُ معَ فِعلَي الإرادةِ في قولِه: ﴿وَمَن يُرِدۡ أَن يُضِلَّهُۥ﴾ في إشارةٍ إلى الضَّلالِ فإنّه طبعٌ إنسانيّ[4]، ولكونِ مَنْ ضلَّ هو الَّذي سدَّ على نفسِهِ بابَ الرَّحمةِ والإحسانِ، وكذَّبَ بالإيمانِ، وبيَومِ القِيامةِ وما فيه مِنْ حسابٍ وجَزاءٍ، فأعطاهُ اللّهُ الخَصلةَ التي توصلُهُ إلى العُسرِ والمشقَّةِ والشِّدَّةِ، بأنْ جعَلَهُ بسببِ سوءِ اختيارِه، يؤثِرُ الغَيَّ على الرَّشَدِ، والباطِلَ عَلى الحقِّ، ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡعُسۡرَىٰ ١٠﴾ [الليل: 10]؛ إذِ الهِدايةُ مِنهُ تَعالى.

الهِدايةُ والانشراحُ استعدادٌ نفسيٌّ وقبولٌ عقليٌّ للإسلامِ تحصيلًا وتوطينًا ورِضًا

الضّلالُ بمعنى دَوامِ الضَّلالِ أو رفْضِ قَبولِ الإسلامِ

الهِدايةُ منهُ تعالى والضّلالُ قائمٌ على مُقتضَى الطَّبْعِ البَشَرِيِّ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/أ57.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/أ58.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/أ58.
(4) البقاعي، نظم الدّرر: 7/259.

بيانُ التَّعبيرِ بالمصْدَرِ المؤَوَّلِ دونَ الصَّريحِ:

مِنْ إنعامِ اللهِ على خَلْقِهِ أنّ هِدايَتَهُ مستمِرَّةٌ مُتَجدِّدَةٌ

والتّعبيرُ بالمصدرِ المؤَوَّلِ (أنْ والفعلُ المضارِعُ) في قولِهِ تَعالى: ﴿أَن يَهۡدِيَهُۥ﴾ دونَ التّعبيرِ بالمصدَرِ الصَّريحِ هوَ لإفادَتِهِ زَمَنَ الحالِ والاستِقبالِ بِجَانِبِ الحَدَثِ وترسيخِهِ وتأكيدِهِ؛ لأنَّ المصدَرَ الصَّريحَ لا يدُلُّ عَلى الزَّمَنِ فيما لوْ عَبَّرَ بقَولِهِ (هدايتَهُ)، أمّا التَّعبيرُ بالمصدَرِ المؤَوَّلِ؛ فهدايتُهُ تَعالى مُستَمِرَّةٌ مُتَجدِّدَةٌ لخلْقِهِ، وهذا مِنْ إنعامِهِ تَعالى عَلى خَلْقِهِ.

نُكتَةُ تَضْمِينِ الهِدايةِ جُملةَ الشَّرطِ والشَّرحِ جوابَ الشَّرطِ:

انْشِراحُ الصَّدْرِ مُؤذِنٌ بالهدايَةِ لاختِصاصِهِ بالألطافِ الرَّبّانيَّةِ

ضُمِّنتِ الهدايةُ جملةَ الشَّرطِ في قولِهِ تَعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهۡدِيَهُۥ يَشۡرَحۡ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِۖ﴾ وجاء ذكرُ انْشِراحِ الصَّدرِ في جملةِ الجواب؛ لأنَّ انْشِراحَ الصَّدْرِ بالإيمانِ مؤذِنٌ بهدايتِهِ، بمعنى أنْ يخُصَّهُ الحقُّ ﷻ بالألطافِ الإلهيَّةِ التي تدعوهُ إلى أنْ يثبُتَ عَلى إيمانِهِ؛ فانْشِراحُ الصَّدْرِ عِلَّةٌ لِلهِدايةِ؛ فجاء جوابِ الشَّرطِ مُضمَّنًا العلَّةَ.

بَلاغةُ الاسْتِعارةِ التَّمثيليَّةِ في جُملةِ ﴿يَشۡرَحۡ صَدۡرَهُۥ﴾:

تَصويرُ الصَّدْرِ بالجِرمِ الذي يتوسَّعُ لِحُلولِ الإيمانِ فيهِ

في جملةِ: ﴿يَشۡرَحۡ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِۖ﴾ استعارَةٌ تمثيليَّةٌ؛ فالشَّرْحُ بمعنى البَسْطِ في الأَحْجَامِ والأجسامِ، فإذا كانَ الجِرْمُ رَحْبًا مُنبَسِطًا بالشَّرْحِ كانَ مُؤَهَّلًا تَأهيلًا حسَنًا لِحُلولِ الهدايةِ فيهِ، فَالاستعارَةُ فيها تَشبيهُ بتَهيئَةِ القَلْبِ وإنارَتِهِ وإعدادِهِ لِلقَبولِ بالاتِّساعِ، ثمَّ شبَّهَ قَبولَهُ وتَحصيلَهُ لِلإيمانِ والهدايَةِ بالتَّمَكُّنِ والحُلولِ في الجِرْمِ المشروحِ[1].

معنَى الكِنايَةِ في جُملةِ: ﴿يَشۡرَحۡ صَدۡرَهُۥ﴾:

شَرْحُ الصَّدْرِ زرعُ الرَّغبةِ في الدِّينِ

الشَّرْحُ في قولِهِ: ﴿يَشۡرَحۡ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِۖ﴾ بمعنى التَّوسُّعِ، وفيهِ كِنايَةٌ عَنْ أنْ تكونَ النَّفسُ قابِلَةً لِلحَقِّ، وأنْ تتهيَّأَ كَي يَحِلَّ فيها فلا تَتمنَّعَ ولا تُنافيَ دُخولَهُ، وشَرَحَ اللّهُ صَدرَهُ فَانْشَرَحَ، أيْ: لقَبولِ الأثَرِ؛

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/342.

فليسَ المرادُ منهُ توسُّعَ الصَّدرِ حقيقةً، بَلْ هوَ كنايَةٌ عَنْ مَيلِ القَلبِ إلى الدِّينِ، وشدّةِ الرّغبةِ فيهِ[1].

تَوجِيهُ عَوْدِ الضَّميرِ في ﴿يَشْرَحْ﴾:

مَقاليدُ الهِدايةِ وأسبابُها بيدِهِ وحدَهُ سبحانَهُ

الضَّميرُ في الفِعلِ ﴿يَشْرَحْ﴾ في قولِهِ تَعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾ يَحتَمِلُ أنْ يكونَ عائدًا على الهُدى المضَمَّنِ في الفِعلِ ﴿يَهْدِيَهُۥ﴾ - قالَ ابْنُ عَطيَّةَ: "والقَولُ بأنَّ الضَّميرَ عائدٌ عَلى الهُدى قَولٌ يَتَركَّبُ عَليهِ مَذهَبُ القَدَريّةِ في خَلْقِ الأفعالِ، ويَنبغي أنْ يُعتقَدَ ضَعفُهُ، وأنَّ الضَّميرَ إنَّما هوَ عائدٌ عَلى اسْمِ اللّهِ ﷻ؛ فإنَّ هذا يعضُدُهُ اللَّفظُ والمعنى، ورُوِيَ عَنِ النَّبيِّ ﷺ أنَّهُ لَمَّا نزَلَتْ هَذهِ الآيَةُ، قالوا يا رَسولَ اللّهِ: كيفَ يَشْرَحُ الصَّدرَ؟ قالَ: «إذا نزَلَ النّورُ في القَلبِ انْشَرَحَ لهُ الصَّدرُ وانفسَحَ»، قالوا: وهَلْ لِذلكَ عَلامَةٌ يا رَسولَ اللّهِ؟ قالَ: «نَعمْ: الإنابَةُ إلى دارِ الخُلودِ والتَّجافي عَنْ دارِ الغُرورِ، والاسْتِعدادُ لِلمَوتِ قبْلَ الفَوتِ» - ويَحتَمِلُ أنْ يكونَ عَودُهُ على اسمِ الجَلالَةِ وهوَ أظهَرُ[2]؛ إذ بيدِهِ سبحانَهُ مَقاليدُ الهِدايةِ وأسْبابُها.

دَلالةُ اللّامِ في (لِلإسلامِ):

عِلّةُ قَبولِ الإسلامِ انْشِراحُ الصَّدْرِ

اللّامُ الدّاخِلَةُ عَلى لفظَةِ (الإسلام) في قولِهِ تَعالى: ﴿يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾ تُفيدُ العِلَّةَ؛ فإنَّ الحَقَّ ﷻ شرَحَ صَدرَ الإنسانِ لأجْلِ قَبولِ الإسلامِ[3].

---

(1) الطّيبي، فتوح الغيب: 6/239، والقونوي، حاشية على البيضاوي: 8/258.

(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/342. وقالَ الشّوكانّي: "وقد أخرجَ ابنُ المبارك في الزّهدِ، وعبدُ الرّزاق والفريابي،... عن أبي جعفر المدائني رجل من بني هاشم، وليس هو محمّد بن علي قال: سُئلَ النّبيُّ ﷺ عن هذه الآية ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾ قالوا: كيف يشرحُ صدرَهُ يا رسولَ اللهِ؟ ...، الحديث. وهذه الطّرقُ يقوّي بعضُها بعضًا، والمتّصلُ يقوّي المرسَل، فالمصيرُ إلى هذا التّفسير النّبويّ متعيّن". يُنظر: الشوكاني، فتح القدير: 2/184.

(3) السّمين، الدرّ المصون: 5/14، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/380.

بَلاغةُ الاحْتراسِ في ذكْرِ لفْظِ الإسلامِ في الآيةِ:

الإسلامُ يتضمَّنُ الإيمانَ وبه تَنشَرحُ الصُّدورُ وتَنفتِحُ النُّفوسُ

معنى لفْظِ الإسلامِ في قولِه: ﴿يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾ يتضمَّنُ الإيمانَ والإسلامَ؛ لأنَّ الإسلامَ أعمُّ مِنهُ؛ فالإسلامُ في مَعناهُ الشَّرعيِّ أعمُّ مِنَ الإيمانِ وأوسَعُ، فالإسلامُ اسمٌ جامعٌ للإسلامِ والإيمانِ، ومقصدُ الآيةِ بيانُ أنَّ الشَّرحَ سيتعدَّى الأعمالَ القلبيَّةَ إلى السُّلوكيَّةِ؛ فإنَّ من يقرأُ ذكرَ الشَّرْحِ والهُدى في الآيةِ يظنُّ أنَّ المرادَ به الإيمانُ، فيأتي ذكْرُ الإسلامِ ليقومَ مقامَ الاحْتراس من مَظنَّةِ إرادةِ الإيمانِ فقط، ومَن أوَّل الإسلامَ بالإيمانِ فقط فقد خالفَ الظَّاهرَ، ولن يكونَ هناك شرحٌ تامٌّ ما لم يكنْ هناك عملٌ يزيدُ القلبَ انشراحًا والصّدرَ انفتاحًا، ومجيءُ نفيِ الإيمانِ عن أهلِ الضَّلالةِ في فاصلةِ الآية هو لبيانِ أنَّ اللّٰه يشرحُ الصَّدرَ للإسلامِ والإيمانِ، وأنَّ الرِّجسَ إنَّما يكونُ عندَ عدمِ تحقُّقِ الإيمانِ، تنبيهًا على الأعمالِ القلبيَّةِ وحفاظًا من داءِ النِّفاقِ.

معنَى فِعْلِ الجَعْلِ:

يحتملُ فِعْلُ الجَعْلِ أن يكونَ بِمَعنى الحُكمِ أو بمعنى التَّسْميَةِ

استعمَلَ فعلَ الجَعْلِ في قولِه تَعالى: ﴿يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾؛ للدَّلالةِ عَلى مَعنى الحُكمِ كَما يُقالُ: فلانٌ يَجعَلُ البَصْرة مِصْرًا، أيْ: يَحكُمُ لَها بِحُكمِها، وهوَ قَريبٌ مِنْ مَعنى التَّصييرِ، ويَحتمِلُ - فيما حكاهُ ابْنُ عَطيَّةَ عَنْ أبي عَليٍّ الفارِسيِّ - أنْ يكونَ الجَعْلُ بمعنى التَّسميةِ[1] والحُكمِ والقولِ، نظيرَ قولِه تعالى: ﴿وَجَعَلُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا﴾ [الزّخرف: 19]، وهوَ قَولٌ ضَعيفٌ لا يَتناسَبُ معَ مَعنى الآيةِ ومَشيئَةِ اللّٰهِ فيمَنْ تنكَّبَ طَريقَ الرَّشادِ.

تَوجيهُ قِراءَتَي التَّخفيفِ والتَّشديدِ في ﴿ضَيِّقًا﴾:

قرأَ ابْنُ كَثيرٍ ﴿ضَيْقًا﴾ في قولِه تعالى: ﴿يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا﴾

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/342، وقال: "وهذا الوجه يضعف في هذه الآية".

القراءتان بمنزلة اللُّغتَيْن

بالتَّخفيف فيما قَرأَ الباقونَ بالتَّشديدِ ﴿ضَيِّقًا﴾[1]، والقِراءتانِ بمنزلَةِ اللُّغَتَينِ كَـ (الميّت) مُشدَّدَةً و(الميْت) بالتَّخفيفِ، وحُكيَ عَنِ الكسائيِّ أنَّ لفظة (الضَّيْق) بالتَّخفيفِ مُتعلِّقَةٌ بالأجرامِ وأسبابِ العَيشِ، وأنَّ المشدَّدَةَ مُتَعلِّقَةٌ بالمعاني[2].

نُكتَةُ إتْباعِ وَصْفِ الضِّيقِ بالحرَجِ:

الحَرَجُ أضْيَقُ الضِّيْقِ؛ بحيثُ لا يتَّسِعُ لِلزِّيادَةِ

جاءَ وصْفُ الضّيقِ بالحَرَجِ في قولِه تعالى: ﴿ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ معَ أنّهما متقاربانِ معنًى؛ وذلك لأنَّ الحرَجَ فيهِ تأكيدٌ لِمعنى الضِّيقِ؛ فهو بمعناه، وفيه مِنْ مَعنى الشِّدَّةِ ما ليسَ مُتوافرًا في الضِّيقِ؛ فإنّهُ يجعلُ صدرَهُ ونفسَهُ لا يتَّسعانِ لأنْ يقبَلا الإسلامَ دينًا[3]، أو هوَ أضيَقُ الضِّيقِ، أو يكونُ مُشتَقًّا مِنَ الحرَجَةِ الَّتي هيَ الشَّجرُ الكثيرُ الملتَفُّ بعضُهُ ببَعضٍ، بحيثُ لا يتّسعُ للزِّيادةِ[4]، وكذلك جاء الحرجُ بمعنَى الشَّكِّ، فيكونُ معناه: ضيِّقًا شاكًّا[5]، وهذان لوْنانِ مختلفانِ منَ الضِّيقِ.

بَلاغةُ الاستعارةِ في جُملةِ: ﴿يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا﴾:

مَنْ ضاقَ صدرُهُ اضْطربَ عندَ سَماعِ الإيمانِ

في قولِه تعالى: ﴿يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا﴾ استعارةٌ؛ فقد استعارَ الضِّيقَ هُنا مُقابِلًا ضِدِّيًّا لاستعارةِ الشَّرْحِ؛ فمَنْ كانَ هذا حالَهُ فهوَ الَّذي لا يَقبَلُ الإيمانَ ولا تَسكنُ إليهِ نَفسُهُ، فيكونُ مُضطرِبًا قَلِقًا حينَما يُعرضُ عليهِ الإسلامُ[6].

تَوجيهُ قِراءةِ ﴿حَرِجًا﴾:

قلبُ الكافرِ كالموضِعِ الكَثيفِ منَ الشَّجرِ لا تصِلُهُ الرّاعيَةُ

في قولِه تعالى: ﴿يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ قرأَ نافعٌ وأبو جعفر وعاصمٌ في روايةِ أبي بكرٍ ﴿حَرِجًا﴾ بكسرِ الراءِ، وقرأ الباقونَ

(1) ابن مهران، المبسوط في القراءات العشر، ص: 202.
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/343.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/أ59.
(4) محمد رشيد رضا، تفسير المنار: 8/37.
(5) ابن خالويه، الحجّة في القراءات السّبع، ص: 149.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/أ59.

بفتحِها[1]؛ فمن قرأ بفتح الراء فأراد المصدرَ، ومن قرأ بالكسر فأراد الاسْمَ، فالحَرِجُ بالكسر هو الموضعُ المتكاثفُ الأشجارِ الممتنعُ منَ الرّاعيةِ؛ يُشبهُ صدرَ الكافرِ في عدمِ وصولِ الحِكمةِ إليهِ[2].

بَلاغةُ الاستعارةِ في لفظِ ﴿حَرَجًا﴾:

قلبُ الكافرِ كالموضِعِ الكَثيفِ منَ الشّجرِ لا تصِلُهُ الرّاعيَةُ

في الكلامِ تشبيهٌ أو استعارةٌ؛ وهو تشبيهُ قلبِ الكافرِ والمنافقِ في عدمِ الانتفاعِ بهِ ووصولِ الخيرِ إليهِ بالأشجارِ الكثيفةِ الملتفّةِ التي لا تصلُ إليها الرّاعيةُ؛ وحشيةً كانتْ أمْ غيرَها[3].

بَلاغةُ التّشبيهِ في قولِه تعالى: ﴿كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ﴾:

الكافِرُ في ضِيقِه منَ الإيمانِ كالصَّاعدِ في السّماءِ

قولُه تعالى: ﴿كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ تشبيهٌ تمثيليٌّ؛ فقدْ شبّهَ اللّهُ حالَ المشركِ حينَ يُدعى إلى الإيمانِ والإسلامِ بحالِ رجلٍ صاعدٍ في السّماءِ؛ فإنَّ الصّاعدَ تضيقُ نفسُهُ في الارتقاءِ، هذا التَّشبيهُ مُبَالَغَةٌ في ضيقِ صدرِهِ؛ وهو تشبيهٌ بمنْ يحاولُ عملًا وهوَ غيرُ قادرٍ عليهِ؛ فصعودُ السَّماءِ مثالٌ عَلى انتفاءِ القدرةِ والاستطاعةِ؛ فجاءَ الأسلوبُ تنبيهًا على أنَّ الإيمانَ يمتنعُ معَ الكافرِ كما يمتنعُ الصّعودُ معَ الصّاعدِ[4].

ويحتملُ تشبيهُ الصّاعدِ في السَّماءِ أنْ يكونَ تصاعدُهُ نبوًّا وخروجًا عنِ الحقِّ وتباعُدًا وإعراضًا في الهرَبِ والنُّفورِ منهُ[5] فلا يكادُ يكونُ فيهِ لِلخَيرِ منفَذٌ.

فائدةُ التَّضعيفِ في ﴿يَصَّعَّدُ﴾:

تكرارُ الصُّعودِ مَظنَّةُ الثِّقلِ وعَدَمِ الاستطاعةِ

عندَ التأمُّلِ في الفعلِ ﴿يَصَّعَّدُ﴾ تُلمحُ صورةٌ عَنْ محاولةِ تكرارِ الصُّعودِ مَشوبَةٌ بالثِّقلِ وعدَمِ الاستطاعةِ، وهوَ مِنَ الأوزانِ الدَّالَّةِ

(1) ابن مجاهد، السّبعة في القراءات، ص: 268، وابن الجزريّ، النّشر في القراءات العشر: 2/262.
(2) الفرّاء، معاني القرآن: 1/353، والأزهري، معاني القراءات: 1/384.
(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 5/2662.
(4) البيضاوي، أنوار التنزيل: 2/181، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/183.
(5) الآلوسي، روح المعاني: 4/267.

عَلى التَّكرارِ[1]، والصّاعِدُ في قَبولِ الهِدايةِ كَبعضِ الحَشراتِ الَّتي تحمِلُ شيئًا ثقيلًا لِتصعَدَ بهِ عَلى جِدارٍ أملسَ فتفشلُ في محاولاتِها مرَّةً بعدَ مرَّةٍ، وكذا الكافرُ أَوِ المشركُ يَبقى مُرتجِسًا مُضطرِبًا[2].

تَوجِيهُ القِراءاتِ في قولِهِ تعالى: ﴿يَصَّعَّدُ﴾:

الكافرون على أقسامٍ في الضِّيقِ من قَبولِ الإسلامِ

في الفعلِ ﴿يَصَّعَّدُ﴾ ثَلاثُ قِراءاتٍ: فقراءَةُ الجمهورِ بِتَشديدِ الصّادِ وتَشديدِ العَينِ، وقرأَ ابْنُ كَثيرٍ ﴿يَصْعَدُ﴾ بإسكانِ الصّادِ وفتحِ العَينِ مخفَّفَةً، وروى أبو بَكرٍ شعبةُ عَنْ عاصمٍ ﴿يَصَّٰعَدُ﴾ بتَشديدِ الصّادِ وزيادةِ الألفِ بعدَها وفَتحِ العَينِ مخفَّفةً[3]؛ وقراءَةُ الجمهورِ ﴿يَصَّعَّدُ﴾ مبنيَّةٌ عَلى التَّكلُّفِ في الصُّعودِ[4]؛ وفقًا لما يَحتمِلُهُ الوزنُ (يَتَفَعّلُ) مِنْ مَعنى التَّكلُّفِ، ويَحتمِلُ أنْ يكونَ تكلُّفًا معَ التَّكرارِ بأنْ يتدرّجَ شَيئًا فشَيئًا، ومثلُها قراءَةُ شُعبةَ: ﴿يَصَّٰعَدُ﴾ في المعنى، أمّا عَلى قِراءَةِ ابْنِ كَثيرٍ: ﴿يَصْعَدُ﴾ بالتَّخفيفِ فتدُلُّ عَلى فِعلِ الصُّعودِ مجَرَّدًا مِنْ مَعنى المبالَغَةِ[5].

وفي اجتماعِ هذه المعاني الدّلاليَّةِ للقراءاتِ الثَّلاثِ فإنَّ الآيةَ تدلُّ على أنَّ الكافرين على أقسَامٍ في ضِيقِ صُدورِهم، وفي انْكِماشِ أفئِدتِهم عن قَبولِ الإسلامِ.

دَلالةُ لفْظِ السَّماءِ:

السَّماءُ تَحتمِلُ المعنَى المتعارَفَ عليه أو كلَّ ما يَعلُو الأرضَ

ولفظُ ﴿ٱلسَّمَآءِ﴾ في قولِهِ تَعالى: ﴿كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ يَحتمِلُ أن يكونَ بالمعنى المعروفِ لِلسَّماءِ، الَّتي هيَ سَقفٌ لِلأرضِ، كَما قالَ تَعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [الأنبياء: 32]، ويَحتمِلُ أنْ يكونَ الجوَّ الَّذي يَعلو الأرضَ،

(1) الرّضي، شرح الشّافية: 1/105.
(2) البقاعي، نظم الدّرر: 7/263.
(3) ابن الجزري، النشر: 2/262.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/59أ.
(5) أبو علي الفارسي، الحجّة للقرّاء السّبعة: 3/402.

أي أنَّ لفظَ السَّماءِ يُقالُ لِلفَضاءِ الذّاهبِ في ارتفاعٍ، كَما قالَ تَعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْاْ إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [النّحل: 79]، وهوَ قَريبٌ مِنْ قَولِ سيبوَيه بأنَّهُ الفَضاءُ المرتفِعُ عَنِ الأرضِ صُعودًا[1]. وفي اصطفاءِ لفظِ صُعودِ السَّماءِ دَلالةٌ "كمالِ الهرَبِ والفِرارِ مِنَ الحَقِّ"[2].

فائِدةُ تَعدِيةِ فِعْلِ الصُّعودِ بـ (في) دونَ (إلى):

وفي قولِهِ تَعالى: ﴿كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ تَعدَّى الفعلُ ﴿يَصَّعَّدُ﴾ بحرفِ الظَّرفيَّةِ ﴿فِى﴾، وفي مَعنى هذهِ التَّعديةِ قولان:

الأول: يجوزُ أنْ يكونَ بمَعنى (إلى) الدَّالَّةِ عَلى الغايةِ، فالمعنى: كأنَّهُ بلغَ السَّماءَ الَّتي هيَ سَقفٌ لِلأرضِ، ثُمَّ أخَذَ يصَّعَّدُ في منازِلِها، فتكونُ هيئةٌ تخييليَّةٌ لمحاولةِ الصُّعودِ في السَّماءِ، وهيَ أدخلُ في المعنى وأبلَغُ في دلالةِ تَصويرِ تَكلُّفِ الصُّعودِ وانعدامِ القُدرةِ عَليهِ.

هيئةٌ تخييليةٌ أَدخَلُ في المعنى، وتُرشِّحُ تَفسيرَ السَّماءِ بمعنَى الجوِّ

الثاني: يجوزُ أن تكونَ ﴿فِى﴾ بمعنى الظَّرفيَّةِ عَلى تَفسيرِ السَّماءِ بمعنى الجوِّ، كَما قالَ تعالى: ﴿فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ﴾ [النّحل: 79][3].

دِقَّةُ التَّعبيرِ بإفرادِ ﴿ٱلسَّمَآءِ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾:

جاءَ النَّظمُ الكريمُ بالتّعبيرِ بإفرادِ ﴿ٱلسَّمَآءِ﴾، ولمْ يقُلْ: (في السَّماواتِ)؛ وذلكَ أنَّ الآيةَ الكريمةَ تتحدَّثُ عَنِ السَّماءِ الدُّنيا الَّتي يراها النّاسُ، وليسَ عَنِ السَّماواتِ السَّبعِ الَّتي خَلَقَها اللّهُ؛ فالسَّماءُ الدُّنيا هيَ الَّتي تحتوي عَلى الهواءِ والغيومِ والنُّجومِ، وهيَ الَّتي يصعُبُ عَلى الإنسانِ صعودُها دُونَ معدَّاتٍ خاصَّةٍ، والمعنى الواردُ في الآيةِ هوَ عَلى التَّشبيهِ لِمَثَلٍ ضربَهُ اللّهُ لِقَلبِ الكافرِ في شِدَّةِ تَضييقِهِ

المرادُ بالسَّماءِ السَّماءُ الدُّنيا لا جميعُ السَّماواتِ

(1) سيبويه، الكتاب: 4/365، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/343، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 60/أ8، ونقلًا عن أبي علي الفارسي، قال ابن عاشور: "أراد أبو عليّ الاستظهارَ بكلامِ سيبويه على أنّ اسمَ السّماءِ يقالُ للفضاءِ الذّاهبِ في ارتفاع (وليست عبارة سيبويه تفسيرًا للآية)".

(2) القونوي، حاشية على البيضاوي: 8/259.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 60/أ8.

إيّاهُ عَنْ وصولِ الإيمانِ إليهِ؛ فمَثَلُه في امتناعِهِ مِنْ قَبولِ الإيمانِ وضيقِهِ عَنْ وصولِهِ إليهِ، مثلُ امتناعِهِ مِنَ الصُّعودِ إلى السَّماءِ وعجزِهِ عَنهُ؛ لأنَّهُ ليسَ في وسعِهِ وطاقتِهِ؛ فإذا كان الضَّعفُ والعجْزُ والضِّيقُ الشّديدُ الَّذي جعلَهُ اللّهُ تعالى في قَلبِ الكافرِ حاصِلًا في ارتقاءِ سماءِ النّاسِ الظّاهرةِ لَهُمْ، فكيفَ يكونُ قادرًا عَلى الرُّقيِّ إلى الحقائقِ السَّماويَّةِ في السَّماواتِ السَّبعِ الَّتي خَلقَها اللّهُ مجتمِعَةً[1]؟!

نُكتةُ الطِّباقِ بينَ الانْشِراحِ والضِّيقِ:

فرقٌ بين الصَّدْرِ المتّسعِ بالإيمان، والضَّيِّقِ بِما دَنّسَ نفسَهُ وأَفْسدَ فِطرتَهُ

وقولُه: ﴿يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ﴾ مطابقٌ لقولِه: ﴿يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ مِنْ بابِ المطابَقَةِ المعنويَّةِ[2] لاختِلافِ لفظِ الفعلِ: ﴿يَشْرَحْ﴾ مقابلَ الاسمِ ﴿ضَيِّقًا﴾؛ فالمعنى "بقولِه ﴿يَشْرَحْ﴾: يوسّعُهُ بالإيمانِ ويفسِّحُهُ بالنّورِ حتّى يطابقَ قولَهُ ضيّقًا حرَجًا"[3]، وهوَ صَدرُ الكافرِ غَيرِ المستَعِدِّ لِقَبولِ الإيمانِ بما دنَّسَ نَفْسَهُ وأفسَدَ فِطرتَهُ مِنَ الرَّذائلِ الَّتي تَصرِفُهُ عَنِ التَّأمُّلِ والنَّظرِ فيما يُدْعى إليهِ.

فائدةُ المقابلةِ بينَ الانْشِراحِ والضِّيقِ:

تَسْلِيَةُ الرّسُولِ ﷺ قُبالَةَ عِنادِ الكُفّارِ وغُرورِهِمْ

وقولُه: ﴿يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ﴾ مقابِلَ قولِه: ﴿يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ مقابَلَةٌ بينَ الهدايةِ والضّلالِ، وممَّا يُفيدُ ذِكرُهُما معًا تسليةُ الرَّسولِ ﷺ قبالةَ عِنادِ المشركينَ وكفرِهِمْ وغرورِهِمْ، وهذا إخبارٌ مِنَ الحقِّ ﷻ لرسولِهِ ألّا يهتمَّ لِأمرِهِمْ ولا يحزنَ؛ لأنَّ الأمْرَ كلَّهُ للّهِ، يشْرَحُ صَدْرَ مَنْ أرادَ توفيقَهُ فيستنيرُ بنورِ الإيمانِ، ويجعلُ صدرَ غَيرِ المستَعِدِّ لِلإيمانِ ضَيِّقًا حَرَجًا فلا يتّسِعُ لنورِ اللّهِ.

---

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 3/337، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 5/2660.

(2) يسمّى الطّباق أو التّضادّ، وهو أن تجمعَ بين معنيين متضادّين أو متقابلين في الجملة. يُنظر: السّبكي، عروس الأفراح: 2/225. فإن كان اللّفظان متطابقَين تمامًا سمّيَ طِباقًا لفظيًّا، وإن كانا متغايرين كالوارد في الآية سمّي طباقًا معنويًّا.

(3) يحيى العلوي، الطّراز لأسرار البلاغة: 2/200.

نُكتةُ تَضْمينِ جُملةِ الشَّرطِ معنَى الإضْلالِ وجَوابِها ضِيقَ الصَّدرِ:

مَنْ أصرَّ على كُفرِه نادَى على ضِيقِه

ضُمِّنتْ جُملةُ الشَّرطِ معنَى الإضلالِ وجوابِها ضِيقِ الصَّدرِ، فمن أصرَّ على الكفرِ وعاندَ، جعل اللّه تعالى نتيجةً لذلك ضِيقَ الصَّدرِ، فضِيقُ الصَّدرِ هو نتيجةُ ضَلالِ العبْدِ.

بَلاغةُ التَّشبيهِ في قولِه تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ﴾:

الرِّجسُ مُلازمٌ لمن لازمَ الكُفرَ اعتقادًا وسُلوكًا

الكافُ في قولِه تَعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يَجۡعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجۡسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ "نَعْتٌ لِمَصدَرٍ محذوفٍ تَقديرُه جَعْلًا مِثلَ ذَلِكَ يَجعلُ اللّهُ"[1]، فالكافُ عَلى التَّشبيهِ؛ فمِثلَما جَعَلَ الحَقُّ ﷻ الرِّجسَ عَلى مَنْ أرادَ إضلالَهُ مِنْ أهلِ هذا الزَّمانِ، يجعَلُ الرِّجسَ عَلى الَّذينَ لا يؤمِنونَ مِنْ أهْلِ كُلِّ زَمانٍ لِدوامِ ضَلالِهِمْ.

بَلاغةُ الاحْتباكِ في الآيةِ:

الرِّجْسُ قَرينُ الضَّلالِ ولازِمُهُ

الآيةُ مِنْ بَلاغَةِ الاحْتِباكِ[2]؛ حَيثُ "ذكَرَ أوَّلًا الضَّلالَ دَليلًا عَلى حَذفِه ثانيًا، وذكَرَ الرِّجسَ ثانيًا دَليلًا عَلى حَذفِه أوَّلًا"[3]، وهوَ مِنْ بديعِ الكَلامِ، ومُحكَمِ النَّظمِ الموصِلِ إلى المعنى بِأوجَزِ عِبارَةٍ. فالرِّجْسُ دائمٌ عَلى مَنْ ضَلَّ، ويَضِلُّ في كُلِّ زَمانٍ.

دَلالةُ التَّعبيرِ بالمضارِعِ ﴿يَجۡعَلُ﴾:

الضَّلالُ مُتجدِّدٌ وماضٍ عَلى الدَّوامِ في حياةِ أهْلِ الرِّجْسِ

التَّعبيرُ بالفعلِ المضارِعِ: ﴿يَجۡعَلُ﴾ دالٌّ عَلى التَّجَدُّدِ والاسْتِمرارِ؛ فإنَّهُ أرادَ أنْ يَجعَلَ الرِّجسَ والدَّنَسَ عَلى مَنْ لا يؤمِنُ مِنْ أهْلِ كُلِّ عَصرٍ ومِصرٍ؛ لِأنَّهُ سبحانَهُ يريدُ أنْ يَضِلُّوا عَلى الدَّوامِ والاسْتِمرارِ؛ فَجاءَ المضارِعُ لِإفادةِ مَعنى التَّجدُّدِ، وهيَ سُنَّةُ اللّهِ في كُلِّ مَنْ فسَدَتْ فِطرَتُهُ فانصرَفَ عَنِ الإيمانِ[4].

---

(1) مكّي القيسّي، مشكل إعراب القرآن: 1/269، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/أ61.

(2) الاحتباك "وهو نوعٌ عزيزٌ، وهو أن يُحذفَ من الأوّلِ ما أُثبتَ نظيرُه في الثّاني، ومنَ الثّاني ما أُثبتَ نظيرُه في الأوّل" يُنظر: السّيوطي، الإتقان في علوم القرآن: 3/204.

(3) البقاعي، نظم الدّرر: 7/263.

(4) البقاعي، نظم الدّرر: 7/263، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/أ61.

سِرُّ إظهارِ الفاعلِ ﴿ٱللَّهُ﴾:

أظهَرَ الاسْمَ الجَليلَ ﴿ٱللَّهُ﴾ في قولِه تَعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يَجۡعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجۡسَ﴾ وهوَ الفاعِلُ؛ بما لَهُ مِنَ القُدرَةِ المطلَقَةِ والعَظَمَةِ الباهِرَةِ والمهابَةِ السّامِيَةِ[1]، وفي ذلكَ الإظهارِ تَعظيمٌ وتَخويفٌ وتَنبيهٌ عَلى قُدرَتِه وجَبَروتِه سبحانه.

أظهَرَ اسمَهُ الشَّريفَ تَعظيمًا وتَخويفًا وتَنبيهًا

نُكتةُ إيثارِ لفْظِ الرِّجْسِ عَلى العذابِ:

آثرَ التَّعبيرَ بِلَفظِ الرِّجْسِ، وهوَ ما استُقذِرَ مِنَ العَمَلِ خُبثًا وفَسادًا؛ مُبالَغَةً في ذَمِّهِمْ وتَقريعِهِمْ وقَدْحِهِمْ[2]؛ فإنَّ ما هُمْ عَليهِ مِنَ الاعتقاداتِ والأعمالِ داخِلٌ تَحتَ معنى الرِّجْسِ نَظرًا إلى مَآلِهِ وهوَ العَذابُ، كما أنَّ الرّجسَ عِلَّةُ العذابِ، فذكرَ العلَّةَ الملازِمةَ لهم في الدُّنيا؛ لتكونَ تحذيرًا معقولًا لما سينالُونَه من عذابِ الآخرةِ.

الرِّجْسُ عِلَّةُ العَذابِ فهو تحذيرٌ معقولُ المعنَى للعَذابِ

بَلاغةُ المجازِ في حرْفِ الاسْتعلاءِ ﴿عَلَىٰ﴾:

والاسْتِعلاءُ المُسْتَفادُ مِنَ الحَرفِ ﴿عَلَىٰ﴾ تَعبيرٌ مَجازِيٌّ يَدُلُّ عَلى التَّمَكُّنِ؛ تَمَكُّنِ الرِّجْسِ والدَّنَسِ مِنَ الكافرينَ؛ والمرادُ تمكُّنُهُ من قلوبهم وظُهورُ الأثَرِ واضِحًا بَيِّنًا عَلَيهِمْ[3]، وهوَ نَظيرُ قولِه تَعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ﴾ [البقرة: 5] في أنَّ المُهتَدي كَالمُتَمَكِّنِ المُستَعْلِي عَلى مَركوبِهِ يُصرِّفُهُ كَيفَ يَشاءُ.

الرِّجْسُ مُتَمكِّنٌ مِنَ الكافرينَ مُستَعْلٍ عَلى قُلوبِهِمْ ظاهِرُ الأثَرِ

عِلَّةُ التَّعبيرِ بالموصولِ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ وحَقيقَةُ وَضْعِهِ مَوضِعَ المُضمَرِ:

التّعبيرُ بالاسم الموصولِ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ في قولِه تَعالى: ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾؛ "لِلإشْعارِ بأنَّ جعْلَهُ تَعالى مُعلَّلٌ بما في حيِّزِ الصِّلَةِ مِنْ كَمالِ نبُوِّهِمْ عَنِ الإيمانِ وإصرارِهِمْ عَلى الكُفرِ"[4]؛ فيكونُ الاسْمُ الموصولُ عامًّا لِكُلِّ مَنْ يُعرِضُ عَنِ الإيمانِ مِنْ مُشركينَ وغَيرِهِمْ

الموصولُ يَعمُّ كُلَّ مَنْ يُعرِضُ عَنِ الإيمانِ ويُصِرُّ عَلى الكُفرِ

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 7/263.
(2) القاسمي، محاسن التّأويل: 4/487.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/61أ.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السليم: 3/184.

مِمَّنْ يُدْعى إلى الإسلامِ فلا يَستجيبُ لَهُ؛ كاليَهودِ والمنافقينَ؛ فَصارتِ الجُملةُ تَذييلًا؛ فاستعمالُ الموصولِ هُنا جارٍ عَلى مُقتضى الظَّاهِرِ ولَيسَ مِنْ بابِ وضْعِ الظَّاهِرِ مَوضِعَ المُضْمَرِ[1].

تَوجِيهُ التَّعبيرِ بالإسلامِ في مَطْلَعِ الآيةِ والإيمانِ في خِتامِها:

الشَّرحُ يكونُ للإيمانِ والإسلامِ، والرِّجْسُ يَلحَقُ من لا يُؤمنُ

عبّرَ في مَطلَعِ الآيةِ بِلَفظِ الإسلامِ بقولِهِ: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهۡدِيَهُۥ يَشۡرَحۡ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِۖ﴾، فلمّا خَتَمَ الآيةَ عبَّرَ بِلَفظِ الإيمانِ بقولِهِ: ﴿كَذَٰلِكَ يَجۡعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجۡسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾، ودَلالةُ ذلكَ أنَّ الإسلامَ في مَطلَعِ الآيةِ بِمعنى الإيمانِ والإسلامِ، فنبَّه بالظَّاهرِ على الباطنِ، وآيةُ ذلكَ اقترانُهُ بالهِدايةِ؛ لأنَّهُ لو لم يَكُنْ بهذا المعنى لَلَزِمَ حُصولُ الإسلامِ مِنْ دونِ هِدايةٍ؛ وهوَ باطِلٌ، فكلَّما وُجِدَتِ الهدايةُ وُجِدَ الإسلامُ، كَما قالَ تَعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٖ مِّن رَّبِّهِۦۚ﴾ [الزمر: 22]، أمّا التَّعبيرُ بِلَفظِ الإيمانِ في خاتِمَةِ الآيةِ؛ فهو لبيانِ أنَّ اللهَ تعالى إنَّما يجعلُ الرِّجْسَ على الذين لا يؤمنون؛ لأنَّ الإيمانَ مقدِّمةُ الإسلامِ المقبولِ، فمن لم يُؤمنْ لم يُسلِمْ على الحقيقةِ، ففي أوّلِ الآيةِ نبَّهَ على النّتيجةِ المطلوبةِ وهي الإسلامُ، وفي نهايتِها ذكَرَ أنَّ الرِّجْسَ يُحيطُ بالذين لا يُؤمنون.

إيثارُ لَفْظِ ﴿لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ عَلى (يَكفُرون):

رَفْضُ أقلِّ الإيمانِ قَبولٌ بالرِّجْسِ

عبّرَ عَنِ المجعولِ عَلَيهِمُ الرِّجسُ بنَفيِ الإيمانِ عَنهُمْ بقولِهِ: ﴿كَذَٰلِكَ يَجۡعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجۡسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾؛ مُؤثِرًا إيّاهُ عَلى لَفظِ (يَكْفُرونَ)، وسِرُّ ذلكَ أنَّهُ أرادَ أنْ يَصِفَهُمْ بأقلِّ الأوصافِ الدّالَّةِ عَليهِمْ[2]؛ وفيهِ إيماءٌ إلى أنَّ عدَمَ إيمانِهِمْ سَبَبٌ لِجَعْلِ الرِّجْسِ عَليهِم.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/61أ.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2663.

دَلالةُ نَفْيِ المضارِعِ بقولِهِ تعالى: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾:

نَفى عَنْهُمْ صِفةَ الإيمانِ بقولِهِ: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ بصيغَةِ المضارِعِ، وفيهِ دَلالةٌ عَلى الدَّوامِ والتَّجَدُّدِ؛ فإنَّ كُفرَهُمْ وعَدَمَ إيمانِهِمْ مُتَجَدِّدٌ تَجدُّدَ الآياتِ الَّتي لا تزيدُهُمْ إلَّا كُفرًا[1].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(الرِّجْسُ) و(النَّجَسُ):

الرِّجْسُ عِندَ المعجَميّينَ: كُلُّ ما يُستَقذَرُ، ومِنْ مَخضِ ماءِ البئرِ، واسْتخراجِ الحمأةِ، وهيَ قَذِرةٌ كما هوَ واضحٌ، استُعملَ الرِّجْسُ بِمَعنى (القَذَرِ)، ورجَسَ الرَّجُلُ إذا باشرَ عمَلًا قَبيحًا[2]، والرِّجْسُ في سِياقِ قولِهِ: ﴿كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ مَعناهُ العَذابُ، وهوَ مُشتَقٌّ مِنَ الارْتِجاسِ بِمعنى الاضْطِرابِ؛ وهوَ ما لا خَيرَ فيهِ، وذَكَروا أنَّ الرِّجْسَ والنَّجَسَ بمعنًى واحدٍ لا يَختلِفانِ[3]، غيرَ أنَّ الرِّجْسَ هنا أَلْيَقُ وأوءَمُ، كَمِثلِ قَولِهِ تَعالى بجامِعِ خَتمِ الآيتينِ بجعْلِ الرِّجْسِ عَلى الكفَّارِ: ﴿وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ۝١٠٠﴾ [يونس: 100] بِمعنى العذابِ الواقعِ عَلى الَّذينَ لا يَستعملونَ عقولَهُمْ في آياتِ اللّهِ وحُجَجِهِ الكَونيَّةِ والعَقليَّةِ القُرآنيَّةِ، فَهُمْ لِتعطيلِهِمْ مَنافِذَ المعرِفَةِ وحواسَّهُمُ الهاديَةَ إلى الصَّوابِ، ولاتِّباعِ الهَوى، يُؤثرونَ الكُفرَ عَلى الإيمانِ[4]، فالنَّجَسُ بِمَعنى القَذَرِ مِنْ كُلِّ شَيءٍ[5] مادّةً، وربّما استُعملَ مِنْ جهَةِ المعنى مجازًا، دلالةً عَلى النَّجاسةِ المَعْنَويَّةِ، كَقولِهِ تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ [التوبة: 28]؛ لِنجاسَةِ بَواطنِهِمْ بِالشِّركِ وعِبادَةِ

الرِّجْسُ هو العَذابُ والنَّجَسُ هو القَذارةُ حِسًّا

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2663.
(2) الهروي، الغريبين في القرآن والحديث: 3/718، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (رجس).
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/641.
(4) الزّحيلي، التفسير المنير: 11/273.
(5) ابن سيده، المخصّص: 1/413.

الأوثانِ، ولمْ يُسْتَعْمَلْ غَيْرُهُ في جَميعِ القرآنِ، وهوَ قَصِيٌّ عَنْ جَعلِ النَّجَسِ بِمعنى العذابِ.

(الصُّعودُ)، و(الارتِفاعُ)، و(العُلُوُّ):

الصُّعودُ ارتِقاءٌ مَكانيٌّ مَشوبٌ بِالمشقَّةِ، والارتِفاعُ قَدْ يَكونُ مَعنويًّا والعُلوُّ يَحمِلُ مَعنَى الاقتِدارِ

استعمَلَ لفظَ الصُّعودِ في قولِه تَعالى: ﴿كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ ولمْ يَستَعمِلْ لَفظَ الارْتِفاعِ؛ لأنَّ الصُّعودَ مقصورٌ عَلى الارتفاعِ في المكانِ لا غيرَ، أمّا الارتفاعُ فلا يُشترَطُ ذلكَ، فقدْ يكونُ ارتفاعًا معنويًّا كأنْ يُقالَ: ارتفعَ في المجلِسِ[1]، ولمْ يُعبِّرْ بالعُلوِّ؛ لأنَّ مِنْ معاني العُلُوِّ الاقتدارَ[2]، وكِلاهُما لا يتناسَبُ معَ سِياقِ الآيةِ المَبنيِّ عَلى تَشبيهِ الضّالِّ النّابي عَنِ الإسلامِ بمَنْ يباشِرُ صعودًا مكانيًّا مَشوبًا بِالمشقَّةِ والجُهدِ[3] كَأنَّما يَرتقي عَقَبَةً كَؤودًا وليسَ بمستطيعٍ ذلكَ؛ ولِذلكَ عبَّرَ اللهُ عَنِ الكافرِ الَّذي سَيُنيلُهُ عَذابًا شاقًّا صَعبًا لا يُطاقُ بِقولِه: ﴿سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا ١٧﴾ [المدثر: 17]، كمَنْ يتَكلَّفُ صُعودَ أعالي الجِبالِ الشّاهِقَةِ الوَعِرَةِ؛ كِنايةً عمَّا سيَلقاهُ مِنَ الأهوالِ والشَّدائدِ يَومَ القيامَةِ.

(1) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 314.
(2) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 258.
(3) الماتريدي، تأويلات أهل السُّنة: 4/255.

﴿وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ١٢٦﴾ [الأنعام: 126]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الصِّراطُ المستقيمُ أبعدُ ما يكونُ عَنِ الضّالِّ

لَمّا ذكرَ إيقاعَ الرّجسِ عَلى الذينَ لا يؤمنونَ مِنْ أهلِ الضّلالِ، كانَ في غايةِ الحسنِ أن يعقبَهُ هنا بالصّراطِ؛ فهو مَرغوبٌ مَطلوبٌ لاستقامتِهِ وإضافَتِهِ إلى الرَّبِّ سُبْحَانَهُ، فإنَّ مادَّةَ الرِّجْسِ تَدورُ عَلى الاضْطِرابِ؛ ولزومُه العِوَجُ، فالضَّلالُ المانعُ مِنَ الإيمانِ؛ فلمّا كانَ هذا حالَ المُضطَرِبِ الضّالِّ أَتْبَعَهُ وصْفَ طَريقِهِ بالاستقامَةِ؛ فهي أبعدُ ما تكونُ عَنِ الاضْطرابِ المُقترِنِ بِالاعْوِجاجِ[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَصَّلْنَا﴾: فعلٌ مَزيدٌ بِالتَّضعيفِ، جذرُهُ اللُّغويُّ (فصل)، ومعنى الفَصْلِ أنْ تُفرِّقَ بينَ شَيئينِ حتّى يتبايَنا، وأنْ تُميِّزَ شَيئًا مِنْ شَيءٍ؛ فيتبَيَّنَ أحدُهُما مِنَ الآخَرِ، فالتَّفصيلُ: التَّبيينُ والتَّوضيحُ، وتفصيلُ الآياتِ تَبيينُها وتَمييزُها الواحدةَ مِنَ الأُخرى[2]. ومعنى ﴿فَصَّلْنَا﴾ في الآيةِ، أي: بيَّنّا ومَيَّزنا الآياتِ والحُجَجَ عَلى حقيقةِ ذلكَ وصَوابِهِ[3].

2) ﴿يَذَّكَّرُونَ﴾: فعلٌ مضارِعٌ دالٌّ عَلى الحالِ والاستقبالِ مُسنَدٌ إلى الجَماعَةِ، والجذرُ اللُّغَويُّ مِنهُ (ذكر)؛ والذِّكرُ: الحِفظُ لِلشَّيءِ، وجَرْيُ الشَّيءِ عَلى اللِّسانِ، ولِهذا الجذرِ أصلانِ في المعنى؛ أحدُهُما مِنَ التَّذكُّرِ، وهو خِلافُ النِّسيانِ؛ فحمَلوا عَليهِ الذِّكرَ باللِّسانِ،

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 7/264.

(2) ابن دريد، جمهرة اللغة، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، والسّمين، عمدة الحفّاظ، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (فصل).

(3) ابن جرير، جامع البيان: 12/113.

فَالذِّكْرُ إِذَنْ تَمكينُ الإنسانِ اسْتِحضارَ الشَّيءِ مِنَ القَلبِ، وكَثيرٌ مِنْ صيَغِ (التَّذكيرِ) و(التَّذكُّرِ) تكونُ نَقيضَ النِّسيانِ، ولمعنى الوَعْظِ، وهوَ مِنهُ؛ لأنَّهُ إذا تَذكَّرَ قَدْ يَرتدِعُ عَمّا هوَ مُقبِلٌ عَلَيهِ[1]. ومعنى ﴿يَذَّكَّرُونَ﴾ في الآيةِ: لِمَنْ يتذَكَّرُ بِهذهِ الآياتِ ويَتَّعِظُ بِما فيها مِنَ العِبَرِ والعِظاتِ[2].

المَعْنى الإجْماليُّ:

كلُّ دينٍ سِوى الإسلامِ فسِمَتُه الاعْوجاجُ والالْتِواءُ

وهذا الدِّينُ الَّذي شَرعناهُ لكَ - أيُّها الرَّسولُ - صِراطُ ربِّكَ؛ الإسلامُ الَّذي بَعثَكَ بهِ لإقامَةِ العُبوديَّةِ، بِكَونِهِ مُستقيمًا بِنظَرِ العُقولِ الرّاجِحَةِ، والفِطَرِ السَّليمَةِ، والَّذي يَشْرَحُ لهُ صَدْرَ مَنْ يريدُ هِدايتَهُ؛ وهوَ السَّبيلُ السَّويُّ وما عَداهُ مُعوَجٌّ مُلتَوٍ بِما فيهِ مِنْ زَيغٍ وفسادٍ[3]، قَدْ بيَّنا الآياتِ الواضِحَةَ والحُجَجَ المُثْبِتَةَ أُصولَهُ الرَّاسِخَةَ، لِقَومٍ يَتذكَّرونَ كُلَّما عَرَضَتِ الحاجةُ إلَيهِ؛ لِيزدادوا إيمانًا ورُسوخًا وإذْعانًا ومَوعِظَةً.

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

بَلاغةُ الوَصْلِ في الآيةِ:

مُتَّبِعُ القُرآنِ لا يَجِدُ مَشَقَّةً ولا نَصَبًا

قولُهُ تَعالى: ﴿وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا﴾ الآيةُ مَوصولَةٌ بِما قبلَها بِالعَطفِ عَلى قولِهِ: ﴿وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾، فهوَ تَمثيلٌ؛ فإنَّ حالَ المُهْتَدي بِصِراطِ اللّهِ المستَقيمِ أنَّهُ لا يَنْصَبُ ولا يَتْعَبُ في اتِّباعِهِ؛ فهوَ واضِحٌ صافٍ، وهوَ ضِدُّ حالِ الضّالِّ الَّذي وصَفَهُ رَبُّ العِزَّةِ بِأنَّهُ يَصَّعَّدُ في السَّماءِ؛ والعَطْفُ فيهِ إشارَةٌ إلى أنَّها مَقصودَةٌ بِالإخبارِ[4].

(1) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (ذكر).
(2) الخازن، لباب التّأويل: 2/156.
(3) المراغي، تفسير المراغي: 8/26.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/62أ.

نُكتَةُ التَّعبيرِ باسْمِ الإشارَةِ:

الإسلامُ قائمٌ حاضِرٌ يُشارُ إليه

اسْمُ الإشارةِ في قولِهِ تَعالى: ﴿وَهَٰذَا صِرَٰطُ﴾؛ لِلتَّنبيهِ إلى معنًى ماثِلٍ في الذِّهْنِ والعَقلِ؛ وهوَ الدّينُ أو الإسلامُ[1] بِدَلالةِ قَولِهِ قَبلَهُ: ﴿يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾.

ويَجوزُ في اسْمِ الإشارةِ أنْ يَكونَ مَعناهُ البَيانَ الَّذي نزَلَ بِهِ القُرآنُ الكَريمُ، أو فيهِ إشارَةٌ إلى ما سَبَقَ ذِكرُهُ مِنَ التّوفيقِ والخِذْلانِ[2] في هِدايَتِهِ تَعالى بَعضًا مِنْ خَلْقِهِ وإضلالِ بعضِهِمُ الآخَرِ.

التَّعبيرُ بالصِّراطِ المستقيمِ بينَ الاستعارةِ والتَّشبيهِ:

الدِّينُ يُشاكِلُ الصِّراطَ؛ فَكِلاهُما طَريقٌ مُفْضٍ إلى المُرادِ

والصِّراطُ المستقيمُ في قولِهِ تَعالى: ﴿وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا﴾ هوَ الدِّينُ القَويمُ والقُرآنُ العَظيمُ[3]، واسْتِعمالُ ﴿صِرَٰطُ﴾ هوَ تشبيهٌ تمثيليٌّ؛ حَيثُ إنَّ حَقيقةَ الصِّراطِ هيَ الطَّريقُ الواسِعَةُ؛ فاستعارَهُ لِلعمَلِ الموصِلِ إليهِ تَعالى[4]، فالاثنانِ موصِلانِ إلى الغايةِ والهدفِ؛ وهو رِضا اللّهِ تعالى.

سِرُّ تَعريفِ الصِّراطِ بِالإضافةِ:

وِجْهَةُ الصِّراطِ ربُّ العالمينَ ﷻ

تَعريفُ الصِّراطِ بالإضافةِ في قولِهِ تَعالى: ﴿وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ﴾؛ لِلدَّلالةِ عَلى كَونِهِ واضِحًا جَليًّا، ثُمَّ إنَّ إضافتَهُ إلى الرَّبِّ لأنَّهُ مِنْ عِنْدِهِ تَعالى[5]، وفيهِ تَعظيمُ شَأنِ المُضافِ وهوَ الصِّراطُ؛ لِيُعلَمَ أنَّهُ خَيرُ صِراطٍ وأفضَلُ طَريقٍ[6].

مُناسبَةُ الحَديثِ عَنِ الهِدايَةِ معَ لَفظِ الرُّبوبيَّةِ:

مُقْتَضى الرُّبوبيَّةِ الهِدايَةُ

ذكرَ في الآيةِ السّابقَةِ لَفظَ الهِدايةِ بقولِهِ: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾، لكنَّهُ هُنا ذكَرَ لَفْظَ الرُّبوبيَّةِ:

(1) رضا، تفسير المنار: 8/54، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/أ62.
(2) البيضاوي، أنوار التنزيل: 2/182، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/641.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/641.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/أ62.
(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/641.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/أ62.

﴿وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ﴾؛ وذلكَ لِأنَّ مُقْتَضَى الرُّبوبيَّةِ الهِدايةُ[1]، وآيةُ ذلكَ كَثرةُ اقْترانِ الهِدايَةِ بِلَفظِ الرَّبِّ، كَما في أمِّ الكِتابِ بِقَولِهِ تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾ [الفاتحة:2] ثُمَّ قَولِهِ: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦﴾ [الفاتحة:6]، وقَولِهِ: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٥﴾ [البقرة:5].

نُكتَةُ اصْطِفاءِ الرُّبوبيَّةِ دونَ غَيرِها:

الرَّبُّ اسْمٌ جامِعٌ للعَطْفِ والإحْسانِ والرِّفقِ ونَحوِها

ودلالَةُ اصْطفاءِ الرُّبوبيَّةِ في قَولِهِ: ﴿صِرَٰطُ رَبِّكَ﴾ لِما في الاسْمِ – معَ استِجماعِ الكَمالاتِ كُلِّها – مِنْ صِفَةِ الرَّحمةِ، واللُّطْفِ، والإحْسانِ، والرِّفْقِ[2]، وقد جاءَتْ في سورَةِ الشّورى: ﴿صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ﴾ [الشُّورى: 53]، فلمّا كانَ موضِعُ الأنعام تذكيرًا بمعاني الرُّبوبيَّةِ مِنْ خَلْقٍ ورِزقٍ وإنعامٍ وهِدايةٍ ومَلَكوتٍ ناسَبَ المجيءُ بِلَفظِ الرُّبوبيَّةِ؛ فهو الرَّبُّ الهادي المتَصَرِّفُ في قُلوبِ عِبادِهِ، و﴿صِرَٰطِ ٱللَّهِ﴾ [الشّورى: 53] يعني "صِراطِ شَرعِ اللّهِ ورَحمتِهِ وجَنَّتِهِ؛ فبِهذا الوَجهِ ونَحوِهِ مِنَ التَّقديرِ أُضيفَ الصِّراطُ إلى اللّهِ تَعالى"[3]، والغَرَضُ مِنَ الإشارةِ إلى الأُلوهيَّةِ في سياقِ سورةِ الشّورى هوَ إبطالُ قَوْلِ مَنْ يَعْبُدُ غَيرَ اللّهِ[4].

تَوجِيهُ الإضافةِ إلى ضَميرِ المخاطَبِ ﴿رَبِّكَ﴾:

إضافَةُ الكافِ تَشريفٌ وتَرضيةٌ لِلرَّسولِ ﷺ وتَسْليةٌ لَهُ

وإضافةُ الرّبِّ إلى كافِ الخطابِ العائدِ عَلَيهِ ﷺ في قولِهِ تَعالى: ﴿وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ﴾ فيهِ تَشريفٌ لِلمُضافِ إلَيهِ؛ وهوَ الرّسولُ ﷺ، وتَرضيَةٌ وتَسليَةٌ لَهُ، وفيهِ بيانٌ لِسُنَّةِ اللّهِ تَعالى في أنَّ بَعضَ النّاسِ مُعْرِضونَ عَنِ الهِدايةِ، غَيرُ متَّبِعينَ لِهذا الصِّراطِ المستَقيمِ[5]،

(1) فاضل السّامرّائي، لمسات بيانية، ص: 33.
(2) البقاعي، نظم الدّرر: 7/263.
(3) البقاعي، نظم الدّرر: 7/263.
(4) البقاعي، نظم الدّرر: 7/263.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/62أ.

وشَرَفُ انتسابِ النبيِّ ﷺ إلى هذا الصِّراطِ يُبيِّنُ أنَّ الهِدايةَ تحصُلُ بإرشادِهِ ﷺ، وقَدْ بَيَّنَ اللّهُ تَعالى في سورَةِ الشُّورى أنَّ النَّبيَّ ﷺ أوتِيَ مَفاتيحَ الهِدايةِ والإرشادِ إلى هذا الصِّراطِ، فَقالَ تَعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ۝٥٢ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ﴾ [الشُّورى: 52 - 53].

بيانُ التَّعبيرِ بالحالِ المؤكِّدَةِ ﴿مُسۡتَقِيمٗاۖ﴾:

و﴿مُسۡتَقِيمٗاۖ﴾ في قولِهِ تَعالى: ﴿وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسۡتَقِيمٗاۗ﴾ مَنصوبٌ عَلى الحاليَّةِ[1]، وهذهِ الحالُ يُقالُ لَها: الحالُ المؤكِّدَةُ[2] لا المتغيِّرةُ؛ فصِراطُ اللّهِ ليسَ مُتَرَدِّدًا بينَ التَّحوُّلِ والثَّباتِ، فلمْ يأتِ بها لِلتَّفريقِ بينَ الأمرَينِ؛ فصِراطُ اللّهِ مستَقيمٌ أبدًا[3]، وهيَ لَيستْ مُتَحَوِّلَةً مِنْ حالٍ إلى حالٍ، كَقولِنا: جاءَ زيدٌ راكِبًا، فيُحتَمَلُ في حالٍ أُخرى أنْ يأتيَ ماشِيًا، أو مَحمولًا، بلِ الحاليَّةُ في السِّياقِ الكَريمِ مؤكِّدَةٌ لِمَعنى إضافَتِهِ إلى اللّهِ[4].

صِراطُ اللّهِ لا يكونُ إلّا مُستَقيمًا

ولَمّا كانتِ الحالُ مُتَغيِّرَةً بينَ أنْ يكونَ الشَّيءُ وأنْ لا يكونَ، هذا أصلُها، وصِراطُ اللّهِ لا يكونُ إلَّا مستَقيمًا، فهوَ قَصيٌّ عَنِ التَّغيُّرِ؛ فلذلكَ عبَّرَ بهِ هنا عَلى الحاليَّةِ المؤكِّدةِ؛ دَفْعًا لِمَظِنَّةِ ظانٍّ أنْ يكونَ الصِّراطُ غَيرَ مستَقيمٍ؛ فتصِحُّ الحالُ عَلى هذا المعنى.

إيثارُ لفْظِ (المستَقيمِ):

وصْفُ الصِّراطِ بالمستَقيمِ في قَولِهِ تَعالى: ﴿وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسۡتَقِيمٗاۗ﴾ هوَ سُرعَةُ وُصولِ سالكِهِ إلى طَريقِ الحقِّ بأقلِّ وقْتٍ ومَجهودٍ؛ فإنَّ الخطَّ "المستَقيمَ يَصِلُ إلى الحَقِّ بأقلِّ طَريقٍ"[5].

الاستقامةُ اختصارٌ للجُهودِ والأوقاتِ

(1) العكبري، التّبيان: 1/538.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/62أ.
(3) ابن الجوزي، زاد المسير: 2/76، والهرري، حدائق الرّوح والرّيحان: 9/70.
(4) مكي القيسي، مشكل إعراب القرآن: 2/758.
(5) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2664.

وسُمّيَ مُستَقيمًا لِأنَّهُ يَستَقيمُ بِمَنْ يَسيرُ فيهِ ويَسْلُكُهُ، فلا يَنحَرِفُ ولا يَعْوَجُّ حتّى يَصِلَ بِهِ إلى الجنَّةِ[1].

تَوجِيهُ المتَشابِهِ اللَّفظِيِّ بينَ ﴿ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾، و﴿صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسۡتَقِيمًاۗ﴾:

قَولُهُ تَعالى في أمِّ الكِتابِ: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ٦﴾ [الفاتحة: 6] وهُنا ﴿صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسۡتَقِيمًاۗ﴾ فيُسأَلُ عَنِ الفَرْقِ بَينَ التَّعبيرَينِ؟ والجوابُ عَنْ ذلكَ: أنَّ سياقَ الفاتِحَةِ سياقٌ عامٌّ مُوَجَّهٌ إلى الأُمَّةِ ابْتِداءً؛ فالصِّراطُ المستَقيمُ ما شهِدَتْ بِصِحَّتِهِ أماراتُ التَّوحيدِ، وأشارَتْ عَلَيهِ شَواهِدُ التَّحقيقِ[2]، أمّا في سورة الأنْعامِ فالخِطابُ لِلرَّسولِ ﷺ؛ فهذا الَّذي أنتَ عَلَيه هوَ الطَّريقُ المستَقيمُ، وهوَ الإسلامُ[3]، فتَضَمَّنَ الخِطابُ التَّشريفَ والتَّسليَةَ عَنْ ضَلالِ بَعضٍ مِنَ النَّاسِ؛ وذلكَ ممّا كانَ يَحزُنُهُ ﷺ مِنْ قَولِهِمْ وحالِهِمْ.

مـا جـاءَ في الفاتحةِ تَعليمٌ لِلأُمَّةِ وما جاء في الأنعامِ فخاصٌّ بِسيِّدِ الأنامِ

دَلالةُ تَحقيقيَّةِ (قَدْ):

قولُهُ تَعالى: ﴿قَدۡ فَصَّلۡنَا﴾ مُتَضَمِّنٌ الحَرفَ ﴿قَدۡ﴾؛ وهوَ حَرفٌ يُفيدُ التَّحقيقَ والتَّوكيدَ[4]؛ فَحرفُ ﴿قَدۡ﴾ يُفيدُ تَحقيقَ الفِعلِ؛ فَهيَ معَ الفِعلِ بِمنزلَةِ (إنَّ) معَ الأسماءِ، ومعنى ذلكَ أنَّ تَفصيلَ الآياتِ، وبَيانَ الحُجَجِ والدَّلالاتِ - لِمَنْ يذَّكَّرُ - أمرٌ مُؤَكَّدٌ قائِمٌ بِالشَّواهِدِ والدَّلائِلِ لا شَكَّ فيهِ.

تَفصيلُ الآياتِ جاءَ عَلى وَجْهِ التَّحقيقِ والتَّوكيدِ

بَلاغَةُ الالتفاتِ مِنَ الخِطابِ إلى الغيبَةِ، ومِنْ ضَميرِ الإفرادِ إلى ضَميرِ التَّعظيمِ:

في قَولِهِ: ﴿وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسۡتَقِيمًاۗ قَدۡ فَصَّلۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَذَّكَّرُونَ﴾ التِفاتٌ[5] مِنَ الخِطابِ ﴿رَبِّكَ﴾ إلى الغيبَةِ ﴿يَذَّكَّرُونَ﴾؛

تَعظِيمُ مَقامِ الرَّسولِ خِطابًا، والإخبارُ عنِ المذَّكِّرينَ غَيْبَةً

(1) أبو بكر الحدّاد، تفسير الحدّاد: 3/88.
(2) القشيري، لطائف الإشارات: 1/50.
(3) البغوي، معالم التنزيل: 2/159.
(4) الدرويش، إعراب القرآن وبيانه: 3/220.
(5) الالتفات "انصرافُ المتكلّمِ عن المخاطبةِ إلى الإخبار، وعنِ الإخبارِ إلى المخاطَبة، وما يشبهُ ذلك، ومنَ الالتفاتِ الانصرافُ عن معنًى يكونُ فيه، إلى معنًى آخر"، يُنظر: ابن المعتزّ، البديع في البديع، ص: 152.

تَنويعًا في الخِطابِ، وتَنبيهًا وتَطريَةً لِفكرِ السّامِعِ، وصيانَةً لَهُ مِنَ السّآمَةِ والضَّجَرِ[1]، وكَسْرًا لِأُفُقِ التَّوقُّعِ لَديهِ؛ ولأَنَّ المخاطَبينَ بِما فصَّلَ لَهمُ الآياتِ فَإنَّهمْ يَذَّكَّرونَ بِما احتَجَّ عَلَيهِمْ مِنَ الآياتِ والعِبَرِ مِنْ غَيرِ حاجَةٍ إلى تَوجيهِ الخطابِ لَهُم، أمّا انتقالُهُ مِنْ ضَميرِ الإفرادِ ﴿رَبِّكَ﴾ إلى ضَميرِ التَّعظيمِ ﴿فَصَّلْنَا﴾ فَلِقَصْدِ التَّعظيمِ والإجلالِ[2]، وتَعظيمِ الحقِّ ﷻ، وبَيانِ ارتِفاعِ مَنزلَتِهِ، وإدخالِ المَهابَةِ في نُفوسِ المخالِفينَ.

صِيغةُ التَّعبيرِ بالفاصِلَةِ ﴿يَذَّكَّرُونَ﴾ دونَ (يَتذكَّرون)، و(تَذَكَّرون):

للسّياقِ أثرٌ في اختِيارِ الصِّيغَةِ الملائِمةِ للمعنَى

في فاصِلَةِ الآيةِ: ﴿قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾ خَتَمَ بِقولِهِ: ﴿يَذَّكَّرُونَ﴾؛ غَيْرَ أَنَّكَ تَجِدُ آياتٍ أُخرى - مِنَ المادَّةِ نفسِها - ختَمَها بِصيَغٍ فِعْليَّةٍ تَختَلِفُ قَليلًا عَنْ هذهِ الصّيغَةِ، وَهذا الاخْتِلافُ القَليلُ يَحمِلُ خلفَهُ معنًى كبيرًا، ومِنْ ذلكَ قولُهُ عَزَّ شَأْنُهُ: ﴿وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ ۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ ۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا ۗ وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [الأنعام: 80] فجاءَ بِصيغَةِ ﴿تَتَذَكَّرُونَ﴾ بِتاءَينِ، فسياقُ الآيةِ في مُحاجَجَةِ سَيِّدِنا إبراهيمَ عليه السلام قومَهُ، وهمْ أناسٌ عَريقونَ في الشِّرْكِ والوَثنيَّةِ؛ فَهُمْ بِحَاجَةٍ ماسَّةٍ مُؤَكّدَةٍ إلى التَّذَكُّرِ وإدامَةِ الفِكْرِ والتَّأمُّلِ؛ فوجَّهَ إلَيْهِمْ فِعلَ التَّذكُّرِ كاملًا مِنْ غَيرِ حَذْفٍ أوْ تَقصيرٍ[3]، وليسَ الموضِعُ هُنا مقامَ اختِصارٍ واقتِصارٍ في سياقِ مُناظَرةِ الخَليلِ عليه السلام لقَومِهِ، كما هوَ الحالُ في هذا الموضِعِ ذي الصّيغَةِ المختَصَرةِ ﴿يَذَّكَّرُونَ﴾؛ فإنَّ اللّهَ تعالى بيّنَ لهمْ أحكامَهُ وفصَّلَ لَهمْ شرائعَهُ، وميَّزَ لهُمُ الخيرَ منَ الشَّرِّ، وكلُّ ذلكَ لهؤلاءِ الذينَ عَلِموا فانتفَعوا بِعلمِهِمْ[4] مِنْ غَيرِ

(1) الدرّة، تفسير القرآن الكريم: 3/248.
(2) البقاعي، نظم الدّرر: 7/265.
(3) فاضل السّامرائي، بلاغة الكلمة، ص: 17.
(4) السّعدي، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 273.

احتياجٍ إلى طولِ تَأمُّلٍ أو كثيرِ تَفكُّرٍ وتَذكُّرٍ، وكذا الحالُ معَ الفعلِ (يَتذكَّرون) فإنَّ وقتَ التَّذكُّرِ هنا أطولُ زمنًا مِنْ (يذَّكَّرون) بجامعِ الصّيغةِ الأطولِ.

عِلّةُ الإدْغامِ والتَّعبيرِ بالمضارِعيَّةِ:

وقَولُهُ: ﴿يَذَّكَّرُونَ﴾ وصَفَ هؤلاءِ بالتَّذَكُّرِ بصيغةِ الفعلِ المُدغَمَةِ؛ لِأنّهمْ "يُجهدونَ أنفُسَهمْ في التَّخلُّصِ مِنْ شوائبِ العقلِ وعَوائقِه؛ مِنَ الهوى وغَيرِه، ولوْ عَلى أدنى وُجوهِ الاجْتهادِ بما يُشيرُ إليهِ الإدغامُ"[1] الدّالُّ عَلى الاخْتصارِ في صيغَةِ الفعلِ المناسبِ لِحالِهمْ، والتَّعبيرُ بالفعلِ المضارِعِ لحاجَةِ الإنسانِ أنْ يكونَ مُتذَكِّرًا عَلى جهةِ الدَّوامِ والاستمرارِ.

المُذّكِّرُ مَنْ يُجهدُ نفسَهُ في التّخلُّصِ مِنَ الشَّوائبِ والأهواءِ

نُكتَةُ تَخصِيصِ القَومِ بِالذِّكرِ:

وفي قولِهِ تَعالى: ﴿قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾ خصَّصَ هؤلاءِ القَوْمَ بالذِّكرِ بقَولِهِ: ﴿يَذَّكَّرُونَ﴾؛ ونكتتُهُ أنّهمُ المنتَفِعونَ المستَفيدونَ مِنْ ذلكَ التَّفصيلِ، وقَدْ أفادَتْهُمُ الآياتُ فتذكَّروا بها[2] بقولِهِ: ﴿فَصَّلْنَا﴾، فناسَبَ تخصيصُ الذِّكرِ التَّفصيلَ.

وخَصَّ بها الموصوفينَ بالتَّذكُّرِ؛ "لأنَّهمْ همْ أهلُ التَّمييزِ والفَهْمِ وأولُو الْحِجَا والفَضْلِ"[3] في أنَّهمْ يتَّعظونَ بالمواعِظِ، ويقبَلونَ الدَّلائلَ والحُجَجَ، ولا يكابِرونَ؛ ويَدْرؤونَ ما يورَدُ عليهِمْ مِنَ الأوهامِ والشُّبُهاتِ.

المُذّكِّرون هم أهلُ العُقولِ الرّاجِحَةِ والتَّمْييزاتِ الواضِحَةِ

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(الصِّراطُ)، و(الطَّريقُ)، و(السَّبيلُ):

الصِّراطُ هوَ الطَّريقُ السَّهلُ المُيَسَّرُ عَلى سالِكِهِ، وهوَ الطَّريقُ المذَلَّلُ؛ والذُّلُّ نَقيضُ الصَّعبِ، أمّا الطّريقُ فليسَ شرطًا أن يكونَ

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 7/265.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 4/267، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/63أ.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 12/113.

الصِّراطُ ما كانَ سهلًا مُيَسَّرًا مُذَلَّلًا لِسالِكِهِ، ولَيسَ كَذلكَ الطَّريقُ؛ والسَّبيلُ اسْمٌ عامٌّ يَقَعُ عَلى الطَّريقِ وعَلى غَيرِهِ

سهلًا، بلْ قَدْ يكونُ شاقًّا غَيرَ مُعبَّدٍ وغَيرَ مُهيَّأٍ للسَّيرِ فيهِ، أمّا السَّبيلُ فهوَ اسْمٌ عامٌّ يقعُ عَلى الطَّريقِ وعَلى غَيرِ الطَّريقِ، فتقولُ: (سبيلُ اللّهِ وطريقُ اللّهِ)، ويُقالُ: سبيلُكَ أنْ تفعلَ كَذا، ولا تقولُ: طريقُكَ أنْ تفعلَ كَذا، والسَّبيلُ يكونُ كِنايةً عَنِ القصْدِ، وأكثرُهُ يكونُ في الخَيرِ، والطَّريقُ ليسَ كَذلكَ[1]، وقَدِ اختارَ النَّظم الكريمُ التَّعبيرَ بالصِّراطِ مُؤثِرًا إيّاهُ عَلى الطَّريقِ والسَّبيلِ؛ لِما ذُكِرَ مِنْ سهولَتِهِ وتَيسيرِهِ، ولِأنَّهُ "صِراطٌ بَليغٌ في اسْتِقامَتِهِ جامِعٌ لكلِّ ما يجبُ أنْ يكونَ عَلَيهِ، وأصْلٌ لِمَرتَبةٍ يَقْصُرُ عَنها التَّوصيفُ"[2].

(1) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 313.
(2) الخفاجي، عناية القاضي: 7/248.

﴿۞لَهُمۡ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمۡۖ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٢٧﴾

[الأنعام: 127]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

ثمرةُ الإسلامِ تحصيلُ السَّلامةِ والنّجاةِ منَ النَّار

لَمّا كانَ التَّذكُّرُ بما فصَّلَ مِنَ الآياتِ لا يكونُ إلَّا لِمَنْ أفاضَ اللّهُ عَلَيهِ مِنَ العِناياتِ، ورغَّبَهُ في طُرقِ الهِداياتِ، ذكَرَ مُرغِّبًا في التَّذكُّرِ أنَّ لَهُمُ الجَنَّةَ الَّتي أضافَها إلَيهِ سبحانَهُ زِيادةً في التَّرغيبِ[1]؛ فطريقُ الحَقِّ قَدْ بانَ لِكُلِّ ذي بَصيرَةٍ، ومنهَجُ الاستِقامةِ الَّذي يُرضي اللّهَ قَدْ تَجلَّى لِكُلِّ ذِي بَصَرٍ؛ فمَنْ قَبِلَهُ فلَهُ دارُ السَّلامَةِ، ومَنْ أعرَضَ عَنهُ فلَهُ عَذابُ النّارِ، فالمناسبةُ بين الآيتين أنَّ السَّابقةَ تحدَّثتْ عن صراطِ اللّه في الدُّنيا وهو الإسلامُ، وفي هذه الآية تناولتْ ثمرةَ صِراطِ اللّه وهي الجنَّةُ التي عُبِّر عنها بدارِ السَّلامةِ.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿دَارُ﴾ الدّار: اسمٌ مجَّردٌ؛ الجذرُ اللُّغَويُّ مِنهُ (دَوَر)، وهوَ أصْلٌ يدلُّ عَلى إحداقِ الشَّيءِ بِالشَّيءِ مِنْ حوالَيهِ، ومِنهُ الدّارُ؛ وهوَ الموضِعُ الَّذي يَحِلُّ بهِ النّاسُ، وهوَ اسمٌ جامِعٌ لِما اشتمَلَ عَلى البِناءِ ولِما خَلا مِنهُ، وسُمِّيَتْ كذلكَ لِدوَرانِها عَلى أهْلِها وإحاطَتِها بِهِمْ، وتُسمّى الدّنيا دارًا والآخرَةُ دارًا بِاعتبارِ النَّشْأةِ والمُستَقَرِّ، وأكثرُ ما وردَ في القرآنِ مُضافًا فهوَ بِمعنى الدّارِ الآخرةِ[2]، والدّارُ أعظمُ مِنَ البَيتِ؛ إذِ البَيتُ مكانُ البَيتوتَةِ.

2) ﴿ٱلسَّلَٰمِ﴾: اسمٌ مجَّردٌ، الجذرُ اللُّغَويُّ مِنهُ (سلم)، ومِنهُ

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 7/265.

(2) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة: (دور)، والرّاغب، المفردات: (دار)، والسّمين، عمدة الحفّاظ: (دور) وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (دور - دير).

السِّلمُ نَقيضُ الحَربِ، واشتُقَّتْ مِنهُ السَّلامةُ، وأكثرُ ما يَرِدُ مِنَ السّينِ واللّامِ والميمِ فهوَ عَلى معنى الصِّحَّةِ والعافيَةِ؛ والسَّلامُ مِنْ أسمائِهِ تَعالى؛ لِسلامَتِهِ ممّا يَلحَقُ المخلوقينَ مِنَ الآفاتِ والعاهاتِ والعُيوبِ؛ فالسَّلامَةُ "التَّعرِّي مِنَ الآفاتِ الظّاهرةِ والباطنةِ"[1].

و﴿دَارُ ٱلسَّلَٰمِ﴾ اسمٌ مُركَّبٌ تركيبًا إضافيًّا، وفَحواها مُستَقَرُّ الإنسانِ، وأضافَ الدّارَ إلى السَّلامِ، أي: دارِ السَّلامَةِ؛ فمَنْ يَصِرْ إلَيها يَسلَمْ مِنْ آفاتِ الدُّنيا وعَذابِ الآخرةِ[2].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

السّالِكُ صِراطَ اللهِ المستَقيمَ جَزاؤهُ الجنَّةُ، واللهُ مَولاهُ في الدُّنيا والآخرةِ

يُخبِرُ الحَقُّ ﷻ أنَّ الجَنَّةَ هيَ لِهؤلاءِ الَّذينَ سَلَكوا صِراطَ رَبِّهِمُ المستَقيمَ، واقتفَوْا آثارَ الأنبياءِ والمرسَلينَ، وسَلِموا مِنَ الانحِرافِ؛ فكانَ جَزاؤهُمْ دارَ السَّلامِ بِما أسْلَفوا مِنْ أعمالِهِمُ الصّالحاتِ؛ فَيتَوَلّى اللهُ السَّلامُ رِعايَتَهُمْ وعِنايَتَهُمْ، ويوَفِّقُهُمْ في الدُّنيا، ويَتَوَلّاهُمْ في الآخِرَةِ بِأنْ يُنيلَهُمُ الثَّوابَ ويُدْخِلَهُمْ جَنّاتِ النَّعيمِ[3]؛ جَزاءً عَلى صالِحِ أعْمالِهِمْ.

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

تَوجِيهُ الإعرابِ بينَ الاستئنافِ والحاليَّةِ، والوصْفيَّةِ:

دارُ السّلامِ جَزاءُ المؤمنينَ وصْفًا وحالًا واستقرارًا

قولُهُ تَعالى: ﴿لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ﴾ الضَّميرُ في ﴿لَهُمْ﴾ راجِعٌ إلى الموصوفينَ بِأنَّهُمْ ﴿يَذَّكَّرُونَ﴾، والجُملةُ اسْتِئنافٌ بَيانيٌّ ناشِئٌ عَنْ سؤالٍ مُتَصَوَّرٍ عَمَّنْ فُصِّلَتْ لَهُمُ الآياتُ فتَذكَّروا بِها؛ فما أثَرُ ذلكَ عَلَيهِم؟ والجوابُ أنَّ اللهَ تَعالى أعَدَّ لَهُمْ دارَ السَّلامِ جَزاءً لهُمْ[4]، ويجوزُ أنْ تَكونَ الجُملةُ صِفَةً لِلقومِ المارِّ ذِكرُهُمْ في الآيةِ السّابِقَةِ؛

(1) ابن دريد، جمهرة اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (سلم).
(2) المجاشعي، النّكت في القرآن الكريم، ص: 250.
(3) المراغي، تفسير المراغي: 8/26.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 63/أ8، وابن عادل، اللباب: 8/426.

وهُمُ المدوحونَ بالتَّذكُّرِ[1]، وتَحتمِلُ أنْ تكونَ حالًا مِنَ الضَّميرِ في ﴿يَذَّكَّرُونَ﴾[2]، أي: حالهُمْ يومَ القيامَةِ أنَّ لَهُمْ دارَ السَّلامِ.

بَلاغَةُ تَقديمِ شِبْهِ الجُملةِ (لَهُمْ):

خَصَّ الله الجنَّةَ بأهلِها كرامةً وجَزاءً

الجارُّ والمجرورُ في قولِهِ تَعالى: ﴿لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ﴾ خَبَرٌ مُتقدِّمٌ جَوازًا وحَقُّهُ التَّأخيرُ؛ لأنَّ المعنى: دارُ السَّلامِ لهُمْ، لكنَّهُ قدّمَهُ هُنا لإفادةِ معنى الاختِصاصِ، فإنَّ هَذهِ الدّارَ لِلقَومِ المَوصوفينَ بِأنَّهُمْ يذَّكَّرونَ فَهيَ لهُمْ وحدَهُمْ لا لِغَيرِهِم[3]، مِنْ بابِ الحَثِّ لَهُم والتَّهييجِ عَلى الْتِزامِ الصِّراطِ المستَقيمِ.

إضَافَةُ الدّارِ إلى اسْمِ اللهِ السَّلامِ:

شرُفتِ الدّارُ وعَظُمتْ بإضافتِها إلى (السَّلامِ)

لفظُ السَّلامِ في قَولِهِ تَعالى: ﴿لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ﴾ مِنْ أسمائِهِ تَعالى لِقَولِهِ: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ﴾ [الحشر: 23] فالسَّلامُ هوَ اللهُ تَعالى، وقَدْ أُضيفَتِ الدّارُ هُنا إلى اسْمِهِ تَعالى تَشريفًا وتَعظيمًا، كَما يُقالُ لِلكَعبَةِ: بَيتُ اللهِ، ولِلرَّسولِ ﷺ: إنَّهُ عَبدُ اللهِ[4].

عِلَّةُ إيثارِ اسْمِ السَّلامِ عَلى غَيرِهِ:

مَزيَّةُ السَّلامةِ لا تكونُ إلَّا في الجنَّةِ

يَحتمِلُ أنْ يكونَ ﴿ٱلسَّلَٰمِ﴾ اسمَ الجنَّةِ، كَقولِهِ تَعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ﴾ [يونس: 25]، وآثرَ اسْتِعمالَ اسْمِ السَّلامِ عَلى الجنَّةِ في هَذا الموضِعِ: ﴿دَارُ ٱلسَّلَٰمِ﴾؛ لِأنَّها دارُ السَّلامَةِ يَسلَمُ فيها المرءُ مِنْ كُلِّ شَرٍّ وبَليَّةٍ وآفَةٍ ومَكروهٍ؛ مُشتَقَّةٌ مِن اسْمِهِ السَّلامِ الَّذي سلَّمَها وسَلَّمَ أهلَها مِمّا يَخافونَهُ[5]، ولَمّا كانَتْ كَذلكَ فإنَّ ما فيها مِنَ المُتَعِ والإمكاناتِ ما يَكونُ على قدرِ المُضافِ إليهِ وهوَ الحَقُّ ﷻ، وقدْ آثرَ

(1) العكبري، التبيان: 1/538، والمنتجب الهمذاني، الكتاب الفريد في إعراب القرآن المجيد: 2/690.
(2) الشيخ زاده، حاشية الشيخ زاده: 4/140.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/أ63، والشّعراوي، تفسير الشّعراوي: 7/3937.
(4) الخازن، لباب التّأويل: 2/156، والزمخشري، الكشّاف: 2/64.
(5) ابن القيّم، تفسير القرآن الكريم، ص: 513، وابن عادل، اللّباب: 8/427.

لَفْظَ السَّلام عَلى أيِّ لَفظٍ آخَرَ تَقريرًا لَهُمْ أنَّ الخُلودَ فيها مُقتَرِنٌ بِالسَّلامِ والأَمْنِ والطُّمَأنينةِ[1].

ولاستعْمالِ اسْمِ السَّلامِ عَلى الجنَّةِ في هذا الموضعِ عِلَّةٌ أُخرى؛ فَسَلامَتُها دائمَةٌ، وجميعُ أحوالِها مُقترِنَةٌ بِالسَّلامَةِ مِنْ لَدُنْ دُخولِها: ﴿ٱدۡخُلُوهَا بِسَلَٰمٍۖ ءَامِنِينَ ٤٦﴾ [الحجر: 46]، وتحيَّةُ الملائكةِ فيها ﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَدۡخُلُونَ عَلَيۡهِم مِّن كُلِّ بَابٖ ٢٣ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم﴾ [الرعد: 23 - 24]، وتَحيَّتُهُمْ بَينَهُمْ في الجنَّةِ: ﴿وَتَحِيَّتُهُمۡ فِيهَا سَلَٰمٞۚ﴾ [يونس: 10]، وأنَّهُمْ لا يَسمَعونَ فيها إلَّا سَلامًا ﴿لَّا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوًا إِلَّا سَلَٰمٗاۖ﴾ [مريم: 62]؛ فَمعاني السَّلامةِ وأنواعُها تَدورُ حَولَها وحاصِلَةٌ بأسْرِها فيها[2].

وصَفَ الحقُّ ﷻ الجنّةَ بدارِ السَّلامِ؛ لِسلامَةِ المُجازَينَ بها فيما سَلَكوا مِنَ الصِّراطِ المُسْتَقيمِ واقتِفائِهِمْ أثَرَ الأنبياءِ المُفْضي إلَيها؛ فمِثلَما سَلِموا مِنْ آفاتِ الانحِرافِ والاعوِجاجِ فقَدْ أفضَوْا إلى الجنَّةِ دارِ السَّلامِ[3].

بَديعُ التَّعبيرِ بِلَفْظِ العِنْديَّةِ:

العِنْدِيَّةُ مُشْعِرَةٌ بِالقُربِ تَكريمًا وشَرَفًا ورِفعةً

وقَولُهُ: ﴿عِندَ رَبِّهِمۡۖ﴾: وَصَفَ الحقُّ ﷻ جَزاءَ الَّذينَ ﴿يَذَّكَّرُونَ﴾ بِالعِنْديَّةِ، وهيَ مَنزِلَةٌ رَفيعَةٌ، والتَّعبيرُ بها مُشعِرٌ بأنَّ ذلكَ الجزاءَ الَّذي ادُّخِرَ لَهُمْ مَوصوفٌ بِقُربِهِ مِنَ الحقِّ ﷻ، وهوَ قربٌ لا عَلى جِهَةِ المكانِ، إنَّما عَلى جِهَةِ الشَّرَفِ والعُلُوِّ، وفي ذلكَ دَلالةٌ عَلى أنَّ هذا التَّكريمَ والقُربَ قدْ بَلَغَ مِنَ الكمالِ والرِّفعَةِ والمنزِلَةِ ما لا يَعلَمُ كُنهَهُ إلَّا اللهُ تَعالى[4].

كُلَّما ازْدادَ المؤمِنُ نَعيمًا في الجنَّةِ ازْدادَ قُربًا مِنهُ تَعالى، وزالَتِ الحُجُبُ عَنْ قَلبِهِ؛ ولأنَّ الجنَّةَ تَمحَّضَتْ لِلنَّعيمِ وهوَ خِلافُ حالِ

(1) الشّعراوي، تفسير الشّعراوي: 7/3937.
(2) الخازن، لباب التّأويل: 2/156، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 13/198.
(3) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 3/338.
(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 13/146.

الدُّنيا؛ فَإنَّ اشْتِغالَهُ بِزينَتِها يُبعِدُهُ عَنِ اللّهِ، وكُلَّما انْشغَلَ فيها لمْ يَزدَدْ مِنَ اللّهِ إلَّا بُعدًا[1].

مَعنى العِنديَّةِ مُرادٌ بِهِ أنَّ الجزاءَ قَدْ أُعِدَّ لهُمْ عِندَ اللّهِ تَعالى مِثلَما تَكونُ الحُقوقُ مُعَدَّةً حاضِرَةً؛ فالمجازَونَ بِنَعيمِ اللّهِ يَصِلونَ إلَيها، فَهُمْ واثِقونَ، وكَأنَّ دارَ السَّلامِ لَيسَتْ وَعْدًا بأنْ يُنْشِئَها اللّهُ لهُمْ، بَلْ هيَ جاهِزَةٌ حاضِرَةٌ تَنتَظِرُهُمْ[2]، ويجوزُ أنْ تكونَ صِفَةُ العِنْديَّةِ دَلالةً عَلى حُصولِ كَمالِ صِفَةِ العُبوديَّةِ[3].

والتَّعبيرُ بِالعِنديَّةِ مِنْ بابِ الاسْتِعارةِ عَلى مَعنى الحِفْظِ؛ لأنَّ الشَّيءَ النَّفيسَ يكونُ مَحفوظًا عِندَ صاحِبِهِ في مَكانٍ قَريبٍ لِنَفاسَتِهِ؛ فيُرادُ تَحقيقُ ذلكَ لَهُمْ، وأنَّ اللّهَ سبحانَهُ جَعلَ هذه الرُّتبَةَ بِمنزلَةِ الشَّيءِ الموعودِ المدَّخَرِ لَهُمْ[4].

بيانُ إضَافةِ ﴿عِندَ﴾ إلى لَفظِ (الرَّبِّ):

المؤمنون يَنالُون مِن تَشريفِ العَطاءِ وعَظيمِ الجزاءِ

أضافَ لَفظَةَ ﴿عِندَ﴾ إلى كَلِمةِ الرَّبِّ في قَولِهِ: ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾، ولَم يُضِفْهُ إلى ضَميرِ المتَكَلِّمِ - كَأنْ يَقولَ: (عِندَنا) - تَشريفًا لَهُم وتَكريمًا، فإنَّ ما في حَيِّزِ العِنْديَّةِ هوَ عَطاءُ مَولاهُمْ مُناسَبَةً لِفَضْلِهِ وإحسانِهِ ورِضاهُ عَنهُمْ[5] خِلافَ غَضَبِهِ عَلى غَيرِهِم مِمَّنْ تَقدَّمَ آنفًا بِقَولِهِ تَعالى: ﴿سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ﴾ [الأنعام: 124].

بَلاغَةُ الكِنايَةِ في قَولِهِ تعالى: ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾:

وَعْدُ اللهِ تَعالى صادِقٌ لا يُخلِفُهُ

التَّعبيرُ بِقَولِهِ: ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ مِنْ بابِ الكِنايةِ[6]، وهيَ "إمّا

(1) الصّاوي، حاشية الصّاوي على تفسير الجلالين، ص: 578.
(2) الشّعراوي، تفسير الشّعراوي: 7/3938.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 13/146.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/أ64.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/أ64.
(6) الكناية "لفظٌ أريدَ به لازمُ معناه معَ جوازِ إرادتِه معَه، أي: إرادةُ ذلك المعنى معَ لازمِه، وكلفظِ طويلِ النِّجادِ، والمرادُ به طولُ القامةِ معَ جوازِ أن يرادَ حقيقةُ طولِ النِّجاد أيضًا"، يُنظر: التّفتازاني، مختصر المعاني: 1/257.

كِنايَةٌ عَنِ الوَعدِ الصّادقِ، أو عنِ الذَّخيرةِ"[1]، فأمّا كِنايةُ الوَعدِ الصَّادقِ فكَأنَّ قائلًا يَقولُ لكَ: إنْ فَعلْتَ كَذا فَلَكَ عِندي جَزاؤهُ، وأمّا كِنايةُ الذَّخيرَةِ فهوَ الشَّيءُ المحفوظُ المُدَّخَرُ كَقَولِهِ تَعالى: ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ۝١٣٣﴾ [آل عمران: 133].

بَراعَةُ التَّخصِيصِ والحَصْرِ في قَولِهِ تعالى: ﴿وَهُوَ وَلِيُّهُم﴾:

لا يكونُ التّوكُّلُ إلّا عَلى اللهِ انْقِطاعًا عَنْ كُلِّ ما سِواهُ

وجملةُ ﴿وَهُوَ وَلِيُّهُم﴾ دالّةٌ عَلى التَّخصيصِ والحَصْرِ، فلا وَليَّ لَهُمْ إلَّا هوَ سبحانَهُ، والضَّميرُ راجِعٌ عَلى مَنْ ذكَرَهُمْ فيما سَلَفَ مِمَّنْ شَرَحَ صُدورَهُمْ لِلإسلامِ ونوَّرَها بِهِ، فهؤلاءِ الأقوامُ، لَمّا عَلِموا أنَّ المُدَبِّرَ والمقَدِّرَ والنّافِعَ والضّارَّ والمُسعِدَ والمُشْقيَ والمعيدَ والمبدئَ لَيسَ إلَّا الصَّمدُ سبحانَهُ، فلمّا عَلِموا ذلكَ انْقطَعوا عَنْ كلِّ ما سِواهُ، ولمْ يَكُنْ رُجوعُهُمْ إلَّا لَهُ، ولَمْ يَتوَكَّلوا إلَّا عَليهِ؛ فاسْتَحَقّوا ألَّا يكونَ لَهُمْ وَليٌّ إلَّا إيّاهُ[2].

إيثارُ لفْظِ الوِلايَةِ:

الوِلايةُ درجةُ تَقريبٍ ورُتبةُ تَشريفٍ

آثرَ اسْتعمالَ لَفظِ الوِلايةِ ﴿وَهُوَ وَلِيُّهُم﴾؛ لِدَلالَتِها عَلى القُرْبِ مِنهُ سبحانَهُ؛ والقُربُ مِنهُ دَرَجَةٌ لِلعَبدِ لا تُدانيها في العُلوِّ مَنزِلَةٌ ودَرَجَةٌ أُخرى[3].

نُكتَةُ الإخبارِ بِكَونِهِ تَعالى ﴿وَلِيُّهُم﴾:

الوَليُّ هوَ المتَكَفِّلُ بجَميعِ مَصالحِ العِبادِ دِينًا ودُنيا

نُكتَةُ الإخبارِ بجملَةِ ﴿وَهُوَ وَلِيُّهُم﴾ أنَّ الحقَّ ﷻ يَتكفَّلُ بِجَميعِ ما كانَ مِنْ مَصالحِ العِبادِ في الدّينِ والدُّنيا، ويَدخُلُ تَحتَها: الحِمايَةُ، والحِفْظُ، والمعونَةُ، والنَّصْرُ، وإيصالُ الخَيراتِ ودَفْعُ الآفاتِ والمُضِرّاتِ[4].

(1) الطّيبي، فتوح الغيب: 6/243.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 13/147.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 13/147.
(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 13/147.

سِرُّ تَعريفِ المسنَدِ بِالإضافَةِ في قَولِهِ تعالى: ﴿وَلِيُّهُم﴾:

تعريفُ المُسنَدِ ﴿وَلِيُّهُم﴾ بالإضافَةِ يُفيدُ الإخبارَ بِأنَّ الحقَّ ﷻ هوَ وَليُّ القَومِ الموصوفينَ بِالمذَّكِّرينَ؛ فهذهِ نِعمَةٌ عَظيمَةٌ ومِنَّةٌ كَريمَةٌ، عَلَيهِمْ شُكرُها، وأنَّ المشركينَ مَتى عَلمُوا ذلكَ كانَ سَببًا في غَيظِهِمْ[1].

اللهُ تَعالى وَليُّ القَومِ المذَّكِّرينَ، وشُكرُ النِّعمَةِ يَغيظُ المشرِكينَ

دَلالةُ الباءِ الدّاخِلَةِ عَلى (ما):

الباءُ الدّاخلةُ عَلى (ما) في قَولِهِ تَعالى: ﴿بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ دالَّةٌ عَلى السَّبَبيَّةِ، أي: بِسَبَبِ عَمَلِهِمُ الصّالحِ وانْقِيادِهِمْ للهِ تَعالى وطاعَتِهِمْ لَهُ، حَصَلَتْ وِلايَتُهُ ونُصْرَتُهُ تَعالى لَهُمْ[2].

الباءُ للسَّببيَّةِ أوِ المُصاحَبَةِ أي: يَتَوَلّاهُمْ مُصاحِبًا جَزاءَ أعْمالِهِمْ

وتَحتَمِلُ الباءُ الدّاخِلَةُ عَلى (ما) أن تكونَ بِمعنى المُصاحَبَةِ والملابَسَةِ، وهوَ مِنْ أشهَرِ مَعانيها[3]، عَلى أنْ يَكونَ الحقُّ ﷻ مُتَوَلّيَ أُمورِهِمْ؛ فيَصيرُ المعنى أنَّهُ يَتَولّاهُمْ مُصاحِبًا جَزاءَ أعمالِهِم، فيُعِدُّ لهم الثوابَ في الآخرةِ ويوصِلُهُ إليهم[4].

تَوجِيهُ (ما) بينَ الموصوليَّةِ، والمصدَريَّةِ:

تَحتمِلُ (ما) في قَولِهِ تَعالى: ﴿بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ مَعنى المَوصوليَّةِ فتَكونُ بِمعنى الَّذي[5]، وعَبَّرَ عَنِ المعنى بـ (ما)؛ لِأنَّ الكَلامَ عَلى العَمَلِ، وهوَ أمرٌ عامٌّ، و(الَّذي) نَصٌّ في الموصوليَّةِ.

لا يَضيعُ عملٌ للمؤمنين ولا يَخيبُ رَجاءٌ لهم

وتَحتمِلُ أنْ تَكونَ مَصدريَّةً؛ فتَكونَ معَ الفِعلِ مَصدَرًا مُؤَوّلًا عَلى تَقديرِ أنَّهُ مُتَوَلّيهِمْ "بأعمالِهِمْ، أوْ مُتَوَلّيهِمْ بِجَزاءِ ما كانوا يَعملونَ، أوْ هوَ وليُّنا في الدُّنيا بِتَوفيقِ الأعمالِ، وفي العُقبى بِتَحقيقِ الآمالِ"[6].

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/أ65.

(2) السّمين، الدّرّ المصون: 5/147، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/أ64.

(3) ابن هشام، مغني اللّبيب، ص: 140.

(4) الصّافي، الجدول في إعراب القرآن: 4/279.

(5) ابن عادل، اللّباب: 8/427.

(6) النّسفي، مدارك التّنزيل: 1/536، وصدّيق حسن خان، فتح البيان: 4/238.

دَلالةُ فِعْلِ الكَونِ الماضِي:

دَيْـدَنُ المؤمنين عمَلُ الصَّالحاتِ وتَركُ المُوبقاتِ

وفِعلُ الكَونِ في قَولِهِ تَعالى: ﴿بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ يَدُلُّ عَلى جِبلَّتِهِمْ وطِباعِهِمُ الَّتي كانوا عَلَيها[1]؛ وهوَ دالٌّ عَلى الاسْتِمرارِ في عَمَلِهِمُ الصّالحِ الذي كَانَ مَدْعاةً لِنَيْلِهِمْ دَارَ السَّلَامِ في الآخِرَةِ.

نُكتَةُ خِتامِ الآيةِ بِلَفْظِ العَمَلِ وبِصِيغة المضارعِ:

أعـمـالُ الـبِرِّ الدّائمَةُ سِرُّ نجاةِ المؤمنين

ختمَ الحقُّ ﷻ الآيةَ بالفعل ﴿يَعۡمَلُونَ﴾، وفي ذلكَ نُكتَةٌ؛ وهيَ الإشارةُ إلى أنَّ عَلى المرءِ ألَّا يَنقطِعَ عَنِ العَمَلِ البتّةَ، وأنْ يَستمِرَّ فيه، فَمثلَما تَتَأثَّرُ الهَيئاتُ البَدَنيَّةُ بالهَيئاتِ النَّفسيَّةِ فَتُحدِثُ حَركَةً واضطرابًا، فكذلكَ تَتأثَّرُ الهيئاتُ النَّفسيَّةُ بأعمالِ الخيرِ والبرِّ البدنيَّةِ، فَتَظهَرُ عَلَيها الآثارُ المناسِبَةُ في جَوهَرِ النَّفسِ[2]، فَتَترقّى ذاتُهُ وتسمو روحُهُ بسبَبِ تلكَ الأعمالِ، فظَهَرَ أنَّ السّالكَ في هذا الطّريقِ لا بُدَّ لَهُ مِنَ العَمَلِ وأنْ لا سَبيلَ لَهُ في تَركِهِ.

والفِعلُ المضارعُ دالٌّ عَلى التَّجَدُّدِ والاسْتِمرارِ، والمعنى في الآيةِ أنَّ المخاطَبينَ الممدوحينَ قَدِ اسْتَحَقّوا جَنَّتَهُ الَّتي وَصَفَها بِدارِ السَّلامِ، واسْتَحَقّوا وِلايَتَهُ بِعَمَلِهِمُ الدّائِمِ؛ إذ "يَتَجَدَّدُ عَمَلُهُمْ بِتَجَدُّدِ شُعورِهِمْ بِنِعمَةِ اللّهِ تَعالى عَلَيهِمْ"[3]، فالتَّعبيرُ دالٌّ عَلى تَجَدُّدِ العَمَلِ بِتَجَدُّدِ نِعَمِهِ تَعالى ذو الفَضلِ العَظيمِ.

تناسُبُ فاصِلَتَيِ الآيتَيْنِ: ﴿يَعۡمَلُونَ﴾، و﴿يَذَّكَّرُونَ﴾:

التَّذكُّرُ سَبيلٌ إلى العَمَلِ، والعملُ مُرتَهَنٌ بتذكُّرِ فَضْلِ الله تعالى

وهذه الفاصِلَةُ ﴿يَعۡمَلُونَ﴾ مُتناسِبَةٌ معَ الفاصِلَةِ القُرآنيَّةِ في الآيةِ السّابِقَةِ: ﴿يَذَّكَّرُونَ﴾ فإنَّ التَّذكُّرَ سَبيلٌ إلى العَمَلِ، وهوَ مُتَعَلِّقٌ بِهِ أشَدَّ التَّعلُّقِ، ومِنْ جانِبٍ آخرَ فكأنَّهُ خاطبَهُمْ بقَولِهِ: "إيّاكُمْ حينَ توَفَّقونَ في العَمَلِ أنْ تَفتَتِنوا بأعمالِكُمْ، بَلْ عَلَيكُمْ أنْ تَتذكَّروا أنَّ ذلكَ فَضلٌ مِنَ اللّهِ"[4] وهذا تَناسُبٌ ثانٍ بينَ هاتَينِ الفاصِلَتينِ.

---

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 7/226.

(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 13/147.

(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2665.

(4) الشّعراوي، تفسير الشّعراوي: 7/3939.

﴿وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ قَدِ ٱسۡتَكۡثَرۡتُم مِّنَ ٱلۡإِنسِۖ وَقَالَ أَوۡلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلۡإِنسِ رَبَّنَا ٱسۡتَمۡتَعَ بَعۡضُنَا بِبَعۡضٖ وَبَلَغۡنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِيٓ أَجَّلۡتَ لَنَاۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثۡوَىٰكُمۡ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٞ ١٢٨﴾ [الأنعام: 128]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

بَعْدَ بيانِ جَزاءِ المُتَمَسِّكينَ بِالصِّراطِ بيَّنَ جَزاءَ أضْدادِهم

لَمَّا اشْتَمَلَ سياقُ الآياتِ السّالفَةِ عَلى أحوالِ المتمَسِّكينَ بِالصِّراطِ ووعدِهِم بالنَّعيمِ في دارِ السَّلامِ، وبما تفضّلَ عَلَيهم بِولايَتِهِ في الدُّنيا والآخرَةِ، غِبَّ ذلكَ كلِّه "بيَّنَ بعدَهُ حالَ مَنْ يكونُ بِالضِّدِّ مِنْ ذلكَ لِتكونَ قِصَّةُ أهلِ الجنَّةِ مُردفَةً بِقِصَّةِ أهلِ النَّارِ ولِيكونَ الوَعيدُ مَذكورًا بعدَ الوَعدِ"[1]، فَوَصَلَ ذلكَ بِالجزاءِ في آخرَتِهِ عَلى ما كَسَبَهُ المرءُ في دُنياهُ؛ فَقفَّى بِذِكْرِ الحشْرِ، وبَعضِ ما يَكونُ فيهِ مِنْ جِدالٍ بينَ الكافرينَ تابعينَ ومتبوعينَ.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَٰمَعۡشَرَ﴾: اسمٌ على وزنِ (مَفْعَل) جذرهُ اللُّغَويُّ (عشر)، ولهُ أصلان صحيحانِ، أحَدُهُما يَدُلُّ عَلى المخالَطَةِ والمداخَلَةِ، ومِنهُ عَشيرةُ الرَّجُلِ لمعاشَرَةِ بَعضِهِمْ بَعضًا؛ ولأنَّ الرَّجُلَ يَتكَثَّرُ بِهِمْ، أيْ: يَصيرُ بِهِمْ بِمَنزِلَةِ العَدَدِ الكاملِ أخْذًا مِنَ العددِ (عَشَرَة) الدّالِّ عَلى الكَمالِ عِندَ العَرَبِ؛ وكلُّ جَمعٍ كانوا عَلى أمرٍ واحدٍ فهُمْ مَعشَرٌ، وعمومُ المعشَرِ القومُ المتداخِلونَ المترابِطونَ الَّذين يجمَعُهُمْ شَيءٌ مُشترَكٌ[2]، ومِنهُمُ العَشيرةُ والمسلمونَ والمشركونَ والإنسُ والجِنُّ

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 13/147.

(2) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، والسمين، عمدة الحفّاظ، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (عشر).

ونحوُهمْ؛ والمعشَرُ كالقَومِ والرَّهْطِ اسْمُ جَمعٍ لا واحدَ لهُ مِنْ لَفظِه. والمعشَرُ في الآيةِ همُ الجماعةُ، وهُمْ شياطينُ الجنِّ عَلى وجْهِ التَّحديدِ[1].

2) ﴿ٱسْتَكْثَرْتُم﴾: فِعلٌ ماضٍ مُسنَدٌ إلى الجَمَاعَةِ، والجذرُ اللُّغَويُّ فيهِ (كثر)، والفعلُ منهُ كثُرَ يكثُرُ، والأصلُ فيهِ أنَّهُ يَدُلُّ عَلى الكَثْرَةِ والزِّيادةِ في عَددِ أفرادِ ذلكَ الشَّيءِ بالنِّسبَةِ لِلمُعتادِ أو المتَوقَّعِ[2]، وأصلُ مَعنى الكَثرةِ في لُغةِ العرَبِ خِلافُ القِلَّةِ، واستكثَرْتُ مِنَ الشَّيءِ، أيْ: أكثرْتُ مِنهُ، ومَعنى ﴿ٱسْتَكْثَرْتُم﴾ في الآيةِ: الكَثْرةُ المعروفَةُ، إلَّا أنَّها هُنا مُتَعَلِّقَةٌ بِالإضلالِ، أي: أضْلَلْتُم كثيرًا مِنَ الإنسِ[3].

3) ﴿ٱسْتَمْتَعَ﴾: فعلٌ ماضٍ مَزيدٌ، جَذرُهُ اللُّغَويُّ (متع)، ومِنهُ المَتاعُ وهوَ كلُّ شَيءٍ يُنتفَعُ بهِ ويُستزادُ مِنهُ، والأصلُ في مَعناهُ "مَنفعةٌ وامتِدادُ مُدَّةٍ في خَيرٍ، مِنهُ استمتَعْتُ بِالشَّيءِ، والمتعَةُ والمتاعُ: المنفعَةُ"، ويَقترِنُ الانتفاعُ بالوقتِ الممتَدِّ، وفيهِ مَعنى التَّوسُّعِ، وفي ﴿ٱسْتَمْتَعَ﴾ طلَبُ التَّمتُّعِ؛ فَكلٌّ مِنَ الفَريقَينِ كانتْ لهُ رَغبةٌ في الاستمتاعِ، فاستمتَعَ الجنُّ بِالإنسِ واستمتَعَ الإنسُ بِالجنِّ، ومِنْ معاني التَّمتُّعِ الاسْتِلذاذُ بِالشَّيءِ طعامًا أوْ شرابًا في البدَنِ أوْ نَحْوِهِ[4]. ومَعنى ﴿ٱسْتَمْتَعَ﴾ في الآيةِ: المنفعَةُ المتبادَلَةُ بينَ الإنسِ والجنِّ، ولَها وجوهٌ كثيرةٌ ذكرَها المفسِّرونَ، وجُلُّها مذكورَةٌ في فَقرةِ الإيضاحِ البَلاغيِّ.

4) ﴿وَبَلَغْنَآ﴾: فِعلٌ ماضٍ مُسندٌ إلى الجَمَاعَةِ، جَذرُهُ اللُّغَويُّ (بلغ)، وهوَ أصلٌ يَدُلُّ عَلى الوصولِ إلى المرادِ، فإذا وصلْتَ المكانَ المقصودَ فقَدْ بلغْتَهُ، وبلَغَ يَبلُغُ بمعنى: وصَلَ مِنْ "بلغْتُ المكانَ بُلوغًا: وصلْتُ إليهِ، وكذلكَ إذا شارفْتُ عَلَيهِ"، ومِنْ مَعانيهِ الانْتِهاءُ إلى أقْصى المرادِ مِنْ جِهَةِ المكانِ، أوِ الزَّمانِ، أوْ أيِّ أمرٍ مِنَ الأمورِ المُقدَّرَةِ، وقدْ تُسمّى المشارَفَةُ عَلى الوُصولِ بُلوغًا[5]، ومَعنى بَلَغْنا أجَلَنا في الآيةِ، أي: وصَلْنا أجَلَ الموتِ، وأجَلَ البَعثِ[6].

5) ﴿أَجَلَنَا﴾: اسْمٌ ثُلاثيٌّ، الجَذرُ اللُّغَويُّ مِنهُ (أجل)، أصلٌ يَدُلُّ عَلى غايةِ الوقتِ في

(1) الخطيب الشّربيني، السّراج المنير: 1/449.
(2) ابن دريد، جمهرة اللغة، والجوهريّ، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللغة، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (كثر).
(3) السمرقندي، بحر العلوم: 1/482.
(4) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، والسّمين، عمدة الحفاظ، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (متع).
(5) الجوهري، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (بلغ).
(6) ابن القيّم، بدائع التّفسير: 1/371.

الدَّيْنِ، والاسْمُ مِنهُ الآجِلُ نَقيضُ العاجِلِ، ويُقالُ لِلمُدَّةِ المضروبَةِ لِلشَّيءِ كَحياةِ الإنسانِ: أجَلٌ، فدَنا أجَلُهُ: اقْتَرَبَ مَوتُهُ، وحقيقتُهُ اسْتيفاءُ مُدَّةِ حَياتِهِ، وليسَ بعدَ الاسْتيفاءِ إلّا الموتُ، وعُمومُ الأجَلِ دالٌّ عَلى التَّوقيتِ، والأجَلُ آخِرُ الأوانِ وغايةُ الوقتِ إلى الموت[1]. ومَعنى ﴿أَجَلَنَا﴾ في الآيةِ: يَشْمَلُ أجَلَي الموتِ والبَعْثِ، فَهُما الأجَلانِ اللَّذانِ أجَّلَهُما اللّهُ تَعالى لِعبادِهِ[2].

6) ﴿مَثْوَىٰكُمْ﴾: المثوى مَفْعَلٌ مِنْ ثَوى، جَذرُهُ اللُّغَويُّ مِنْ (ثوي)، والأصلُ فيهِ الإقامَةُ، وزادَ بعضُهُمُ الاسْتقرارَ عَلى الإقامَةِ، وهوَ اسْمُ مَكانٍ أو اسْمُ الموضِعِ، والثّاوي مَنْ طالَتْ إقامَتُهُ، ويجوزُ أنْ يكونَ مَصدرًا لا اسمَ مكانٍ[3]. والمعنى في الآيةِ: النّارُ هيَ موضِعُ إقامَتِكمْ، فيكونُ اسْمَ مَكانٍ، أوْ عَلى جَعْلِهِ مَصدرًا بِمعنى الثَّواءِ؛ لِيكونَ عامِلًا في الحالِ عَلى تَقديرِ: تَثوونَ فيها خالِدينَ[4].

المَعْنى الإجْماليُّ:

عَلائقُ أهْلِ اللَّذّاتِ زائلةٌ ضَارّةٌ ومُستقرُّها نارُ الآخِرةِ

واذكرْ - يا أيُّها الرَّسولُ ﷺ أو أيُّها العاقلُ - يومَ نحشرُ الضّالّينَ والمُضِلّينَ جميعًا مِنَ الإنْسِ والجِنِّ، فنقولُ لِلمُضلّينَ مِنَ الجِنِّ: قَدْ أكثرْتُم مِنْ إغوائكُمُ الإنسَ وإضلالِكُمْ إيّاهُم، أو قَدْ أكثرْتُمْ مِنهُم بِأنْ جعلتُموهُمْ أتباعَكُم، وأهلَ طاعتِكُم، ووسْوَسْتُمْ لَهُم بِالمعاصي حتّى أوردْتموهُمْ هَذا المصيرَ الأليمَ. فردَّ أولياءُ الجنِّ مِنَ الإنسِ أنَّ مُتعةَ الطّاعَةِ بينَنا في الضَّلالِ والكُفرِ مُتبادَلَةٌ، وقَدْ بلغْنَا الآن الوقتَ المضروبَ لَنا، والمَعْنى: قالَ اللّه تَعالى لِهَؤلاءِ الظّالمينَ: فالنّارُ مُستقرُّكمْ ومَثواكمْ، فأنتمْ خَالِدُونَ فيها في كُلِّ وقتٍ إلّا في وقتِ

(1) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، والسّمين، عمدة الحفّاظ، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (أجل).
(2) ابن القيّم، بدائع التّفسير: 1/371.
(3) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، والسّمين، عمدة الحفاظ: (ثوي).
(4) المنتجب الهمذاني، الكتاب الفريد: 2/691 - 692.

مَشيئةِ اللّهِ بخلافِ ذلك؛ مُبالغةً في الخُلودِ، وهذا مَصيرُكُم بما اقتضتْهُ حِكمتُهُ وعِلمُهُ تَعالى[1].

وتُرشِدُ الآيةُ إلى أنَّ مَرَدَّ الأمورِ كلِّها إلى مشيئةِ اللّهِ، وأنَّ خلودَ المشركينَ في نارِ جَهنَّمَ إنَّما هوَ بمحضِ مَشيئتِهِ، ولو شاءَ غيرَ ذلكَ ما خُلِّدوا، وفيهِ إلى جانبِ ذلكَ تنكيلٌ آخَرُ بهؤلاءِ الأشقياءِ؛ لِأنَّهمْ قَدْ صاروا في حَيْرةٍ دائمةٍ مِنْ أمرِهِم.

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

بَلاغةُ الوصْلِ في الآيةِ:

ذِكْرُ الضِّدِّ بعدَ ضِدِّه يُنبِّهُ العقلَ السَّليبَ

الآيةُ مَوصولةٌ بِما قبلَها بِالعَطفِ؛ فإنّهُ لَمّا ذكرَ ثوابَ القَومِ المتذكِّرينَ بِالآياتِ؛ وهوَ ثَوابُ أهلِ الجنَّةِ، ناسبَ أنْ يَعطِفَ عَلَيهِ هذهِ الآيةَ الَّتي تُشيرُ إلى جَزاءِ الغافلينَ غَيرِ المذَّكِّرينَ بِتلكَ الآياتِ، وهوَ جزاءُ الآخرةِ[2].

بَيانُ التَّعبيرِ بقولِه تعالى: ﴿يَحْشُرُهُمْ﴾ دونَ مُرادفاتِه:

اجتماعُ النَّاسِ في الدُّنيا بإرادتِهم وحشْرُهم في الآخرةِ بإرادةِ خالِقِهم

والتَّعبيرُ بالحشرِ ﴿يَحْشُرُهُمْ﴾ بيانُهُ أنَّ الحشرَ في لُغةِ العرَبِ مَعناهُ الجَمعُ، فالحقُّ ﷻ يَجمَعُ الأوَّلينَ والآخِرينَ مِنَ الخَلائقِ مِنَ الإنسِ والجنِّ يومَ القيامَةِ في صَعيدٍ واحدٍ، فالدّاعي يُسمِعُهمْ والبَصَرُ نافِذٌ فيهمْ[3].

والتَّعبيرُ بِحَشرِهمْ فيهِ إشارتانِ بَيانيَّتانِ، الأولى: أنَّ الحقَّ ﷻ يَجمَعُهمْ غَيرَ مُختارينَ ولا مُريدينَ، والثّانية: أنَّ الحشرَ يومِئُ إلى كَثرتِهم الكاثرةِ الَّتي لا تمنعُهُ تَعالى مِنْ جَمْعِهمْ وحِسابِهمْ عَلى أعمالِهمْ[4].

---

(1) طنطاوي، التَّفسير الوسيط: 5/177.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/66أ.
(3) الشّنقيطي، العذب النّمير: 2/228.
(4) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2667.

عِلَّةُ التَّعبيرِ عَنْ حَشْرِهِم بِالفِعلِ المضارعِ ﴿يَحْشُرُهُمْ﴾:

تَصويرُ الحشْرِ كأنَّهُ مُشاهَدٌ تَراهُ العُيونُ

وجاءَ بِصيغَةِ المضارعِ ﴿يَحْشُرُهُمْ﴾؛ لِأَنَّهُ أرادَ أنْ يُمثِّلَ خَبرَ الحشرِ بِصورةِ ما يَقعُ في حِسابِهِمْ في ذلكَ اليوم، ثمَّ يُفضي بِهِمْ إلى النَّارِ خالِدينَ فيها[1]، فكأنَّهُ حاصِلٌ مُشاهَدٌ حاضِرٌ الآنَ تراهُ العُيونُ، فهوَ أبلَغُ وَقعًا مِنَ التَّعبيرِ بِهِ في زَمَنٍ آخَرَ.

تَوجِيهُ القراءاتِ القُرآنيَّةِ في قولِه تعالى: ﴿يَحْشُرُهُمْ﴾:

التَّعبيرُ بِنُونِ العَظَمةِ تَهويلٌ لِلأمرِ وبالياءِ إخبارٌ عنِ الفِعْلِ

عبَّرَ بـ ﴿يَحْشُرُهُمْ﴾ بالياءِ في روايةِ حَفصٍ عَنْ عاصِمٍ ورَوْحٍ عَنْ يَعقوبَ، للإخبارِ فيما سيكونُ في ذلك اليوم، فيما قَرأَها الباقونَ ﴿نَحْشُرُهُمْ﴾[2] تَعبيرًا بالنّونِ العائِدَةِ عَلَيهِ سبحانَهُ لِلتَّعظيمِ والتِفاتًا مِنَ الغَيبَةِ إلى الخطابِ تهويلًا لِلأمرِ[3]، وتَحذيرًا مِنْ ذلكَ اليومِ العَظيمِ.

فائِدةُ إسنادِ الحشْرِ إلى ضَميرِ الجلالةِ:

المُنادِي يومَ الحَشْرِ هو الله تعالى

لَمّا كانَ فِعلُ الحشرِ في ﴿يَحْشُرُهُمْ﴾ مُسنَدًا إلى الضَّميرِ العائدِ عَلَيهِ سبحانَهُ، تعيّنَ أنْ يكونَ النِّداءُ مِنهُ تَعالى أو عن أحدٍ من ملائكتِه بأمرِه؛ "فتعيّنَ لِذلكَ إضمارُ قَولٍ صادرٍ مِنَ المُتَكلِّمِ، أيْ: نقولُ: يا معشرَ الجنِّ؛ لأنَّ النِّداءَ لا يكونُ إلَّا قولًا"[4]، وما بعدَهُ ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ﴾ مَقولُ القَولِ.

تَوجِيهُ عَوْدِ الضَّميرِ في قولِه تعالى: ﴿يَحْشُرُهُمْ﴾:

حَشْرُهُ تَعالى يومَ القيامَةِ يَشمَلُ المؤمنينَ والكافرينَ مِنَ الجنِّ والإنسِ

الضَّميرُ في ﴿يَحْشُرُهُمْ﴾ يعودُ عَلى مَنْ وقعَ عَلَيهِمُ الرِّجسُ مِنَ الطّائفَتَينِ مِنَ الإنسِ والجنِّ، وعَلى الَّذينَ اسْتَحَقُّوا الجزاءَ الأَوفى مِنْ جنَّتِهِ تَعالى دارِ السَّلامِ جِنًّا وإنسًا[5].

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/أ66.

(2) ابن مجاهد، السّبعة في القراءات: 269، وابن الجزري، النّشر في القراءات العشر: 2/262.

(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/184.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/أ66، والشّنقيطي، العذب النّمير: 2/227.

(5) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/345، وجعلَهُ ابنُ عاشور راجعًا إلى الشَّياطِين وأوليائِهِم فقط، يُنظر: التّحرير والتّنوير: 8/أ66.

ويُحتمَلُ أنْ يَعودَ الضَّميرُ في ﴿يَحْشُرُهُمْ﴾ عَلى الشَّياطينِ الواردِ ذكرُهُم قَبلَ هذهِ الآيةِ - بِعدَّةِ آياتٍ - وهوَ قَولُهُ تَعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ ﴿١١٢﴾﴾ [الأنعام: 112].

سِرُّ التَّوكيدِ بـ ﴿جَمِيعًا﴾:

تعيينُ دُخولِ الجِنِّ والإنسِ جميعًا في الخطابِ

سِرُّ التَّوكيدِ في قَولِهِ تَعالى: ﴿يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾ بِلَفظِ جَميعًا[1] - وهوَ لَفظٌ دالٌّ عَلى رَفعِ تَوهُّمِ عَدمِ إرادةِ الشُّمولِ -، وسِرُّ اسْتعمالِهِ في الجملةِ هُوَ رَفْعُ تَوهُّمِ عَدمِ إرادةِ شُمولِهِ في الخطابِ الطّائفتَينِ: المؤمِنينَ والكافرينَ؛ جِنِّهِمْ وإنسِهِمْ[2]؛ فإنَّهمْ داخِلونَ في خِطابِ الحشرِ، وجاءَ بـ ﴿جَمِيعًا﴾ لِمَنْ يَتوهَّمُ أنَّ قِسمًا مِنهُمْ غَيرُ داخلٍ في ذلكَ الحُكمِ.

ويَحتمِلُ التَّوكيدُ في قَولِهِ تَعالى: ﴿يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾ أنْ يَدُلَّ عَلى العُمومِ ليشمَلَ المشركينَ كلَّهم وسادتَهُم وشياطينَهُم وما سِوى ذلكَ مِمَّنْ تَعلَّقوا بِهِم[3].

فائِدةُ التَّعبيرِ بِاسْمِ الجَمْعِ (مَعْشَر):

التَّنبيهُ على خَطَرِ المعاشَرَةِ والمُخالَطةِ

قَولُهُ تَعالى: ﴿يَٰمَعْشَرَ﴾ بِمعنى مَنِ اجْتمَعوا عَلى شأنٍ واحدٍ، كأنْ يَجمَعَهُمْ عَمَلٌ أوْ تَجمَعَهُمْ صِفةٌ، وهوَ اسْمُ جَمعٍ[4]، واشْتقاقُهُ مِنَ المعاشَرَةِ والمخالَطةِ، وهوَ يُطلَقُ عَلى الإنسِ والجنِّ، ولا يَعني أنَّ المعشرَ يُرادِفُ لَفظتَي الإنسِ والجنِّ، وإنَّما يُضافُ إليهِ مِنْ بابِ البَيانِ[5].

(1) لفظٌ منْ ألفاظِ التّوكيدِ المَعنويِّ يُقصَدُ مِنهُ رفعُ تَوهُّمِ إرادةِ الخاصِّ، أو عدمِ إرادةِ الشُّمولِ، فإذا قيلَ: وصلَ القومُ جميعًا، أريدَ وصولُهم فردًا فردًا، فلم يندَّ أحدٌ مِنهُم عنِ الوصولِ. يُنظر: ابن مالك، شرح التّسهيل: 3/289.

(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/345.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/66أ.

(4) اسمُ الجمعِ مصطلحٌ صرفيٌّ يُعنى بِهِ ما لا واحدَ لهُ مِنْ لَفظِه، لكنْ مِنْ مَعناه، مثلُ: قومٍ ورهطٍ، وفإنَّ مفردَه امرؤٌ، بخلافِ رَكْبٍ، فإنّ مفردَه راكبٌ. يُنظر: الحملاوي، شذا العرف في فنّ الصّرف، ص: 98.

(5) رضا، تفسير المنار: 8/55.

دَلالةُ نِداءِ المعشَرِ:

النّداءُ مُؤْذِنٌ بِالتَّبكيتِ والتَّوبيخِ

دلَّ النِّداءُ في قَوله تَعالى: ﴿يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ﴾ على مَعنى التَّبكيتِ والتَّوبيخِ حينَ لا يَجِدونَ دَفعًا ولا نَصرًا لأنفُسِهمْ أصلًا[1]. و"خصَّهم بِالنِّداءِ؛ لِأنَّهمُ الأصلُ في المكْرِ"[2].

بَيانُ إضافةِ المعشَرِ إلى الجنِّ:

أُضيفَ الاسْمُ لِبَيانِ الصِّفَةِ الجامِعَةِ وهيَ صِفةُ الجنِّيّةِ

وأضافَ المعشَرَ إلى الجنِّ في قَولِهِ تَعالى: ﴿يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ﴾ وهيَ إضافةٌ شائعةٌ كثيرةٌ بإضافَتِه "إلى اسْم يُبيِّنُ الصّفةَ الَّتي اجتمَعَ مُسمّاهُ فيها، وهيَ هُنا صِفةُ كَونِهمْ جِنًّا"[3]؛ فصِفتُهم الجنِّيّةُ مسوّغٌ لِلتَّعبيرِ باسْمِ الجَمعِ عَلى هذهِ الصِّيغةِ.

بَلاغةُ الإيجازِ بِالحذْفِ في قَولِهِ تعالى: ﴿يَٰمَعۡشَرَ﴾:

تعدُّدُ احتِمالِ القائلِ فيه مَزيدُ تهويلٍ وتفْخيمٍ

وجملةُ: ﴿يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ﴾ فيها إيجازٌ بِالحذفِ عَلى تقديرِ محذوفٍ منَ الكلامِ، أي: نَقولُ لِلجنِّ، فَحذَفَهُ مُستغنيًا بِالمذكورِ ومُكتفِيًا بِما ظهرَ مِنَ الكلامِ السّابقِ عَلَيه[4].

وقدْ يكونُ الحذفُ في هذهِ الجملةِ عَلى تقديرِ فِعلِ القَولِ مَبنيًّا لِلمفعولِ (فيُقالُ لَهمْ)؛ لاسْتِبعادِ أنْ يُكلِّمَهُمُ اللّهُ شِفاهًا[5]؛ تَحقيرًا لَهُم وتَصغيرًا لِشأنِهم، وآيةُ ذلكَ قَولُهُ تَعالى: ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ [البقرة: 174].

وحَذْفُ الفعلِ (نَقولُ)؛ والقائلُ هوَ اللّهُ تعالى في ذلكَ اليومِ بعدَ الحشرِ، غرضُهُ التَّبكيتُ والتَّوبيخُ؛ فإنَّهمْ مَهما عتَوْا وتمرَّدوا في الدُّنيا فسَيَنتهي حالهُمْ في الآخرةِ إلى الانْقيادِ والخُضوعِ والاعْترافِ بِجُرمِهِمُ المرتَكَبِ[6].

---

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 7/267.
(2) القاسمي، محاسن التأويل: 4/488.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/أ67.
(4) ابن جرير، جامع البيان: 12/115، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/345.
(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/643.
(6) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 13/147.

عِلَّةُ التَّعبيرِ عَنِ الشَّياطينِ بالجِنِّ:

وجهُ الشَّبَهِ الاختفاءُ والغَوايةُ بالوَسوَسةِ والتَّخييلِ وغيرِهما

وعبَّرَ عَنِ الشَّياطينِ بالجنِّ في قَولِه: ﴿يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ﴾؛ لِأنَّ أصلَ الجنِّ مِنَ الاجْتِنانِ؛ وهو الخَفاءُ وعَدمُ الظُّهورِ؛ فكلُّ ما يَخفى عَلَيكَ فهوَ مجنونٌ عَنكَ[1]، والشَّياطينُ داخِلونَ في هذا المعنى بجامِعِ الخَفاءِ؛ فالجنُّ خَلْقٌ مِنْ خَلْقِ اللهِ، خُلِقوا مِنْ نارٍ، وهُم يَستَطيعونَ أنْ يَتحوَّلوا إلى أشكالٍ مُختلِفَةٍ، ويعيشونَ في الأرضِ معَ الإنسانِ، ومِنهُم مُؤمنونَ وكافِرونَ، والشَّياطينُ همُ العُصاةُ مِنَ الجنِّ، وهُم أتباعُ إبليسَ في عداوتِهِ لِآدمَ وذُرِّيَّتِه، فَضْلًا عَنْ كَونِهِمْ يُغوونَ النّاسَ بالوَسوَسةِ والتَّخييلِ وغَيرِ ذلكَ؛ فتخيَّلَ النّاسُ أنَّ لَهمُ القُدرَةَ والجبروتَ؛ فَباتوا يَتوسَّلونَ إلَيهِمْ، ويحاولونَ إرضاءَهمْ، وكانوا يَظنّونَ أنَّ الفيافيَ والوِديانَ مَقَرٌّ لِلجنِّ فكانوا يَستجيرونَ بِهِم[2].

دَلالةُ استعمالِ أداةِ ﴿قَدِ﴾:

تأكيدُ إيغالِ الجِنِّ في إضْلالِ كثيرٍ مِنَ الخلْقِ

واسْتعمالُ الحرفِ ﴿قَدِ﴾ في قَولِه: ﴿قَدِ ٱسۡتَكۡثَرۡتُم﴾ لإفادةِ التَّحقيقِ والتَّوكيدِ[3] فقدْ أَوغلَ شياطينُ الجنِّ في إضلالِ الجَمْعِ الكَثيرِ مِنَ الإنسِ حتّى أورَدوهُمُ المهالِكَ الَّتي ساقَتْهُمْ إلى نارِ جهنَّمَ.

تَوجِيهُ التَّعبيرِ بصِيغَةِ الاسْتفعالِ في ﴿ٱسۡتَكۡثَرۡتُم﴾:

كثرةُ الإغواءِ مَهلكةٌ لأصحابِ الأهواءِ

والتَّعبيرُ بِقَولِه: ﴿ٱسۡتَكۡثَرۡتُم﴾ لا يدُلُّ عَلى الطَّلبِ كَما هوَ الشّائعُ في صيغَةِ الاسْتفعالِ[4]، إنَّما دلالتُهُ عَلى أخْذِ الكثيرِ، كما يُقالُ: استكثرَ الأميرُ مِنَ الجنودِ، أيْ: أخذَهُمْ وجعلَهُمْ تحتَ إمرَتِه، وكذلكَ اسْتكثرَ فلانٌ مِنَ المالِ، أي: أكثرَ مِنْ جَمْعِهِ؛ والمرادُ مِنْ هذهِ الصّيغَةِ المبالَغَةُ كالاسْتسلامِ والاسْتكبارِ ونحوِها[5].

(1) الشّنقيطي، العذب النّمير: 2/230.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/68أ.
(3) الدّرويش، إعراب القرآن وبيانه: 3/222.
(4) العكبري، اللّباب في علل البناء والإعراب: 2/277.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/67أ.

دَلالةُ اسْتِعمالِ حرفِ ﴿مِّنَ﴾:

(من) تُفيدُ بَيانَ الشَّيءِ المتَّخَذِ كثيرُهُ؛ وهمُ الإنسُ

﴿مِّنَ﴾ في قَولِهِ: ﴿ٱسۡتَكۡثَرۡتُم مِّنَ ٱلۡإِنسِۖ﴾ بيانيّةٌ؛ لأنَّها تُبيِّنُ الشَّيءَ، أي: جنسَ ما قبلَها أو نوعَهُ[1]، كقَولِهِ تَعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٞ وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الإسراء: 82]، فـ ﴿مِنَ﴾ لِبَيانِ الجِنسِ؛ فإنَّ القرآنَ كُلَّهُ كَذلك: نُنزِّلُ القرآنَ الَّذي فيهِ تَقويمُ دينِهِم واسْتِصلاحُ نفوسِهِم؛ كالدَّواءِ الشَّافي لِلمَرضى؛ وهوَ هُنا - في آية الأنعام - المتَّخَذُ كثيرُهُ، كقولِهِم: اسْتَكثرَ مِنَ المالِ أو اسْتَكثرَ مِنَ النِّعَمِ[2]؛ والمعنى قدْ أضَلّوا كثيرًا مِنَ الإنسِ.

فائِدةُ تَعْدِيةِ الاسْتكثارِ بـ ﴿مِّنَ﴾:

تَعْيينُ معنَى الاسْتِكثارِ بالإضْلالِ

جعلَ الفعلَ ﴿ٱسۡتَكۡثَرۡتُم﴾ مُتعدّيًا بـ ﴿مِّنَ﴾ لا بِنَفسِهِ؛ وسِرُّ ذلكَ لِأجلِ أنْ يُفرَّقَ بينَ هذا الفِعلِ وبينَ (اسْتكثرَ) الدّالِّ عَلى عدِّ الشَّيءِ كثيرًا[3] كقولِهِ تَعالى: ﴿وَلَا تَمۡنُن تَسۡتَكۡثِرُ ۝٦﴾ [المدثر: 6] أي: ترى ما تُعطيهِ كثيرًا.

فائِدةُ المجازِ بحَذْفِ المضافِ في قوله تعالى: ﴿ٱسۡتَكۡثَرۡتُم مِّنَ ٱلۡإِنسِۖ﴾:

تَصويرُ الاسْتِكثارِ كأنَّه واقِعٌ عَلى الإنسِ أنفُسِهِم

وقولُهُ تَعالى: ﴿ٱسۡتَكۡثَرۡتُم مِّنَ ٱلۡإِنسِۖ﴾ لَيسَ مِنْ بابِ الحقيقةِ، بلْ فيهِ حذفٌ، وتقديرُه: (قدِ استكْثَرتُم من إضلالِ الإنسِ)، ولا بُدَّ فيهِ مِنَ التّأويلِ؛ فالجنُّ غَيرُ قادرينَ عَلى أنْ يَسْتكثِروا مِنَ الإنسِ بأعيانِهِم؛ فإنَّ المتصرِّفَ بأعيانِهِم في الدُّنيا والآخرةِ هوَ اللّهُ تَعالى، إنَّما المرادُ أنَّكُمُ اسْتكثَرتمْ مِنْ دُعائِكمْ لَهمْ بالضَّلالِ معَ مُصادَفةِ قبولِهِمْ[4]، وقَدْ نزَّلَهمْ هنا مَنزِلةَ الحقيقةِ؛ فلِشِدَّةِ مُطاوعتِهِمْ إضلالَكُمْ جعلَ الاسْتِكثارَ كأنَّهُ واقِعٌ عَلَيهِمْ أنفُسِهِمْ.

---

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/184.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/أ67.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/أ67.

(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 13/148، وزاده، حاشية على البيضاوي: 4/141.

وقَولُهُ تَعالى: ﴿ٱسۡتَكۡثَرۡتُم مِّنَ ٱلۡإِنسِۖ﴾ فيهِ إيجازٌ بِالحذفِ؛ فإنَّ التَّقديرَ: قَدۡ أضلَلۡتُم خَلقًا كثيرًا مِنَ الإنسِ، أوۡ مِنۡ إغوائِهِمۡ وكثَّرتُم أتباعَكُم مِنهُم حتّى أورَدتموهُمُ المهالِكَ، فحُشِروا معَكُم في العاقِبَةِ؛ وفي الكَلامِ تَوبيخٌ لِلجنِّ وإنكارٌ لِإضلالِهِمُ الإنسَ وإغوائِهِم[1].

بَلاغةُ التَّعريضِ في ﴿ٱسۡتَكۡثَرۡتُم مِّنَ ٱلۡإِنسِۖ﴾:

الإنسُ واقعونَ في مَرمَى التَّوبيخِ عَلى طاعَتِهِم الجنَّ

والحديثُ في ﴿ٱسۡتَكۡثَرۡتُم﴾ وإنۡ كانَ خطابًا لِلجنِّ، إلَّا أنَّهُ مِنۡ بابِ التَّعريضِ بِتَوبيخِ الإنسِ في أنَّهمۡ أطاعوا الجنَّ طاعةً عَمياءَ، وأفرَطوا في مَرضاتِهِمۡ، ولمۡ يَسمَعوا التَّحذيرَ مِنۡ مُتابعتِهِمُ المفضيَةِ بِهِمۡ إلى الضَّلالِ المُوصِلِ إلى الجَحيمِ[2].

تَوجِيهُ الفَرقِ بينَ وِلايَةِ اللهِ تَعالى، ووِلايَةِ الشَّيطانِ:

وِلايةُ اللهِ نَصرٌ وتمكينٌ؛ ومآلُها الجنَّةُ، ووِلايةُ الشَّيطانِ غَوايةٌ ومآلُها جهنَّمُ

ذكرَ في الآيةِ السّابقةِ وِلايتَهُ تَعالى لِلمؤمنينَ، وهيَ أنۡ يكونَ الحقُّ ﷻ ناصِرَهمۡ والمتكفِّلَ بِأُمورِهِمۡ فلا يكِلُهُمۡ إلى أحَدٍ سِواهُ[3]، وذكَرَ هنا ﴿وَقَالَ أَوۡلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلۡإِنسِ﴾ أيۡ: أولياءُ الشَّياطينِ؛ وهُمُ المشركونَ مِنَ الإنسِ الموالونَ لَهمُ المنقَطِعونَ إلَيهِمۡ[4]، وثمّةَ فَرقٌ بينَ الوِلايتَينِ؛ فوِلايَتُهُ تَعالى لِأَوۡلِيائِهِ مُفضِيَةٌ إلى الجنَّةِ دارِ السَّلامِ، ووِلايَتُهمۡ لِلشَّياطينِ مُفضِيَةٌ إلى جهنَّمَ دارِ الجحيمِ.

بَلاغةُ الوَصۡلِ في جُملةِ المقاوَلَةِ:

كلامُ الإنسِ دَخيلٌ في المقاوَلَةِ

عطَفَ جملةَ: ﴿وَقَالَ أَوۡلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلۡإِنسِ﴾ عَلى جملةِ القَولِ المقدَّرِ ولمۡ تُفصَلۡ؛ لأنَّ هؤلاءِ الأولياءَ لمۡ يكونوا مُخاطَبينَ ابۡتداءً، وكلامُهمۡ أتى عرَضًا دخيلًا في المخاطَبةِ[5].

(1) زاده، حاشية على البيضاوي: 4/142.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/68أ.
(3) الخطيب الشّربيني، السّراج المنير: 1/449.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/68أ.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/69أ.

سِرُّ الاقْتِصارِ عَلى حِكايةِ جَوابِ الإنسِ:

أُفحِمَ الجِنُّ فلمْ يَجِدُوا جَوابًا، فتركُوا أولياءَهمْ يُناضِلونَ عَنهُم

وقَولُهُ: ﴿وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ﴾ حِكايةُ جَوابِ الإنسِ بعدَ خِطابِهِمْ، لكنَّهُ أغفلَ حِكايةَ جَوابِ الجنِّ، وسِرُّ الاقتصارِ عَلى جوابِ الإنسِ وإغفالِ جوابِ الجنِّ وإخفائِهِ أنَّ المخاطَبينَ مِنَ الجنِّ قدْ أُفحِموا فلمْ يُحِيرُوا جَوابًا؛ فتَركوا أولياءَهمْ يناضِلونَ عَنهمْ ويدفعونَ عَنْهُمُ التَّوبيخَ[1].

والاقْتصارُ عَلى جَوابِ الإنسِ دونَ جَوابِ الجنِّ مِنْ بابِ أنَّ ماضيَ قولِهِمْ دالٌّ عَلى فِعلِهِمْ، فليسَ لهمْ أنْ يَرُدّوا، ثُمَّ إنَّهُم قَدْ توَعَّدوا المؤمنينَ وجاهَروا بِكُفرِهِمْ فلْيَنتظِروا العذابَ راضينَ أوْ سَاخِطينَ[2].

واقتصارُهُ عَلى حِكايةِ جَوابِ الإنسِ دونَ جَوابِ الجنِّ؛ لأنَّ المشرِكينَ مِنَ الإنسِ همُ المقصودونَ مِنَ الإتيانِ بالموعِظَةِ في هذهِ الآيةِ[3].

ذِكْرُ حِكايةِ قَولِ الضّالّينَ وعَدَمُ ذِكْرِ قَولِ المضلِّينَ فيهِ تَوجيهٌ آخَرُ؛ وهوَ أنَّهُ تَعالى ذكَرَ مِنْ أقوالِهم ومُناظراتِهِمْ ومُجادلاتِهِمْ في مَواضِعَ أُخرى مِنَ القُرآنِ الكريمِ؛ فإنَّ ذِكْرَ أقوالِ الضُّعَفاءِ التَّابِعينَ قُبَالَةَ أقوالِ المَتكبِّرينَ المتبوعِينَ يُرامُ مِنها العِظَةُ والاعْتبارُ؛ فتَفريقُ تِلكَ الأقوالِ عَلى مَواضِعَ في الكتابِ الكريمِ فيهِ مِنَ الحِكمةِ ما لا يَخفى[4] كقولِهِ تَعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾﴾ [البقرة: 166]، وقَولِهِ: ﴿ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ [العنكبوت: 25] وغَيرِهِما.

عِلَّةُ التَّعبيرِ عَنْ حِكايةِ المستقبَلِ بِالفِعْلِ الماضِي:

حِكايةُ قَوْلِهِمْ مُؤكَّدٌ وُقوعُها لا محالَةَ

وقَولُهُ: ﴿وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ﴾ فيهِ تَعبيرٌ عَنِ الأحوالِ المستَقبلِيَّةِ بالفعلِ الماضي: ﴿وَقَالَ﴾، بِقَرينَةِ قَولِهِ: ﴿يَحْشُرُهُمْ﴾، معَ

(1) رضا، تفسير المنار: 8/57، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/69أ.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2666.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/68أ.
(4) رضا، تفسير المنار: 8/58.

أنَّهُ لمْ يَقعْ بَعدُ؛ وعِلَّتُهُ أنَّ فيهِ تَنبيهًا عَلى تَحقيقِ وُقوعِهِ بِدلالةِ الفعلِ الماضي، وَأنَّهُ مؤكَّدُ الوُقوعِ لا مَحالةَ؛ لِأنَّهُ يستحيلُ أنْ يكونَ بَعضُهُ مُحقَّقًا دونَ بعضِهِ الآخَرِ[1].

نُكتَةُ تَكرارِ شِبْهِ الجُملةِ:

في التَّكرارِ دَفعٌ لِتَوهُّمِ عَودَةِ الهاءِ والميمِ عَلى الإنسِ الأُولَى

وقَولُهُ: ﴿وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ﴾ كرّرَ ﴿مِّنَ ٱلْإِنسِ﴾ بعدَ ذكرِهِ في قولِهِ: ﴿ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ﴾؛ دفعًا لِتَوهُّمِ عَودةِ الهاءِ والميمِ عَلى الإنسِ؛ لِأنَّهمْ أقربُ المذكورينَ، والسَّديدُ أنَّ الضَّميرَ المتَّصلَ (هم) راجعٌ عَلى الشَّياطينِ، و﴿مِّنَ ٱلْإِنسِ﴾ المذكورةُ مرةً أخرى في محلِّ نَصبٍ عَلى الحاليَّةِ عَلى تَقديرِ "وقالَ أولياؤهمْ كائنينَ مِنَ الإنسِ الَّذينَ أطاعوهُمْ واسْتمعوا إلى وَسوَسَتِهِمْ"[2].

عِلَّةُ التَّعبيرِ بِلَفْظِ الرُّبوبيَّةِ:

اسْتِحضارُ اللُّطفِ والإحسانِ والتَّوسُّلِ بالرُّبوبيَّةِ

التَّعبيرُ بِلَفظِ ﴿رَبَّنَا﴾ لَهُ عِلَّةٌ، وهيَ شُعورُهمْ بِمعاني الرُّبوبيَّةِ الكامِلَةِ مِنَ اللُّطفِ والتَّدبيرِ والعِنايَةِ وكَمالِ الشَّفَقَةِ مِنَ الرَّبِّ عَلى المربوبِ، وهيَ صِفاتٌ لمْ يَشعروا بِها في الحياةِ الدُّنيا[3]؛ لِما كانوا فيهِ مِنْ ضَلالِهم وعِصيانِهم ومُتابَعةِ أوليائِهِمْ مِنَ الجنِّ.

ولَمّا كانَ الموقفُ عَصيبًا في أنَّ مَصيرَهُم إلى النّارِ؛ فقدْ قَالوا: ﴿رَبَّنَا﴾ الدَّالُّ عَلى العِنايَةِ واللُّطفِ والتَّدبيرِ والإحسانِ، مُعترفينَ مُستَعطفينَ مُتَوسِّلينَ[4]، ولكنْ بعدَ فَواتِ الأوانِ؛ فَحُكْمُ اللهِ ماضٍ.

تَوجيهُ التَّعبيرِ بِصيغَةِ الاسْتِفْعالِ في ﴿ٱسْتَمْتَعَ﴾:

اسْتِمْتاعُ الجنِّ شُعورُهمْ بِالتَّعظيمِ والسِّيادَةِ وتَكثيرِ الأتْباعِ

ومَعنى الاسْتمتاعِ في قَولِهِ: ﴿رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ﴾ أيْ: أنَّها مُتعَةٌ مُتَبادَلةٌ؛ فاسْتِمتاعُ الإنسِ بِالجنِّ؛ أنَّ الإنسَ كانوا يَعوذونَ بِالجنِّ حالَ خَوفِهِمْ في سَفَرِهِمْ بينَ الوِديانِ وشَقِّهِمُ الفَيافيَ والقِفارَ، كما

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/69أ.
(2) المنتجب الهمذاني، الكتاب الفريد: 2/691.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2667.
(4) البقاعي، نظم الدّرر: 7/268.

ذكرَ اللّهُ عَنهُم: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلۡإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلۡجِنِّ فَزَادُوهُمۡ رَهَقٗا ٦﴾ [الجنّ: 6]، وأمّا اسْتِمتاعُ الجنِّ بِالإنسِ فهوَ شُعورُهمْ بِالتَّعظيمِ والسِّيادةِ إذا عاذَ الإنسُ بهم[1].

اسْتِمتاعُ الإنْسِ اسْتِعاذَتُهمْ بِالجنِّ ودَفْعُ أذاهُم

كلٌّ مِنَ الجنِّ والإنسِ أعانَ الآخرَ في تَحقيقِ نَوازِعِهِ النَّفسيَّةِ بِما يُلائمُ طَبعَهُ ويَقضي وَطَرَهُ؛ فاسْتِمتاعُ الإنسِ بالجنِّ كائنٌ في انْتِفاعِهمْ بِشَهَواتِهمْ ولَذّاتِهمْ وأهْوائِهمْ وسَلامَتِهمْ مِنْ أذاهُمْ وبَطشِهِم، أمّا اسْتمتاعُ الجنِّ بِالإنْسِ فهوَ تكثيرُ أتباعِهمْ، وإعانَتُهُمْ عَلى إضلالِ النّاسِ، وقطْعُ سَبيلِ الصّلاحِ والوقوفُ في وَجْهِ المصْلِحينَ[2].

ومعنى اسْتِمتاعِ الإنسِ بالجنِّ: أنَّ الجنَّ قادُوهُم إلى الشَّهَواتِ، وعرَّفوهُمْ طرائقَ التَّوصُّلِ إلَيها وزيَّنوا لَهمُ الأمورَ الَّتي يَهوَونَها حتّى يَسهُلَ عَلَيهِم فِعلُها؛ حيثُ قَبِلوا مِنهُم تحسينَ المعاصي، فَوَقعوا فيها وتلَذَّذوا بِها. واسْتمتاعُ الجنِّ بِالإنسِ: طاعَتُهمْ لَهم فيما يُغْرونَهُم بِهِ مِنَ الضَّلالَةِ والكُفرِ والمعاصي، ومُساعدَتُهم عَلى مُرادِهِم، وشَهوتُهم في إغْوائِهم[3].

قَصْديَّةُ التَّعبيرِ بِلَفْظِ الاسْتِمتاعِ:

الدَّلالةُ عَلى مَنافِعَ مُتَبادَلةٍ بينَ الإنسِ والجِنِّ

وقَصْدُ الاسْتمتاعِ في قَولِهِ: ﴿رَبَّنَا ٱسۡتَمۡتَعَ بَعۡضُنَا بِبَعۡضٖ﴾ تَعدُّدُ وُجوهِها وتَنوُّعُهُ؛ فقَدْ ذكرَ المفَسِّرونَ أَوجُهًا كثيرةً لِهذا الاستِمتاعِ المتَبادَلِ بِحَسَبِ ما سَردْنا مِنْ تَوجيهاتٍ. فكلٌّ مِنَ الفَريقَينِ كانتْ لهُ رَغبةٌ في الاسْتمتاعِ، فاسْتمتَعَ الجنُّ بِالإنسِ واسْتمتعَ الإنسُ بِالجنِّ؛ إشباعًا لِلرَّغَباتِ، والنَّزواتِ، والملذَّاتِ، وإرضاءً لِلذَّاتِ.

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 13/148، وزاده، حاشية على تفسير البيضاوي: 4/142.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/69أ.
(3) الواحدي، التّفسير الوسيط: 2/323، والطّيبي، فتوح الغيب: 6/246، والشّوكاني، فتح القدير: 2/183.

فائِدةُ التَّعبير باستِمْتاعِ بعْضِهم ببعضٍ:

الاعتراف بالتَّعاوُنِ على الباطلِ وإشْباعِ الشَّهواتِ

الاسْتِمتاعُ في قَولِه تَعالى: ﴿رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ﴾ مُتَبادَلٌ بينَ الرَّهْطَيْنِ؛ فالبَعضيَّةُ راجِعَةٌ إلى الفريقَينِ، ولَمّا كانَ الكلامُ الآنفُ المشتَمِلُ عَلى التَّوبيخِ ليسَ عائدًا عَلى الإنسِ حَصرًا، وأنَّ الإنسَ راموا دَفْعَ التُّهمَةِ عَنِ الجنِّ بِأنَّهمُ المنفَرِدونَ بِالاسْتمتاعِ بلْ هوَ قائمٌ مِنَ الطَّرَفَينِ؛ فإنَّهمْ في ذلكَ أرادوا أنْ يُشاطِروا الجنَّ في جِنايَتِهمْ إقرارًا بِالحقِّ وإخلاصًا لِأوليائِهمْ[1].

بَلاغةُ الكِنايَةِ في ﴿وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا﴾:

مآلُ التّفريطِ في الدُّنيا الاسْتِسلامُ والتَّحسُّرُ والنّدامَةُ

وفي قَولِه تَعالى: ﴿وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا﴾ أسلوبُ كِنايةٍ؛ فليسَ القَصدُ مِنْ ذكرِ بُلوغِ الأجَلِ حقيقَتَهُ، فإنَّهُ لا فائدةَ مِنْ ذِكرِهِ ذلكَ اليومَ، وإنّما المرامُ مِنْ ذِكرِهِ لازمُ مَعناهُ؛ فإنَّهُ كِنايةٌ عنْ إظهارِ الحسرةِ والنّدامةِ والأسَفِ عَلى ما فرَّطوا في الدُّنيا، فكانَ أنْ فوَّضوا أمرَهمْ إلَيهِ[2] ﷻ.

نُكتَةُ التَّعبيرِ بِالموصولِ ﴿ٱلَّذِىٓ﴾:

التعبيرُ بالموصُولِ عنِ البَعْثِ دالٌّ عَلى المبالغَةِ وتحقُّقِ الوُقوعِ

استعملَ الاسمَ الموصولَ في قولِه تَعالى: ﴿وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا﴾؛ لأنَّ الأجَلَ الَّذي أجَّلَهُ لَهمُ اللّهُ تَعالى هوَ الوقتُ؛ وهوَ جِنسٌ؛ فحَسُنَ وصفُهُ بالَّذي[3] أي: الوقتُ الَّذي أجَّلْتَ لَنا، وفُسّرِ بأنَّهُ وقتُ البَعثِ والحشرِ.

والتَّعبيرُ بِالاسْمِ الموصولِ يدُلُّ عَلى المبالغَةِ وتحقُّقِ الوقوعِ، والمبالغةُ هُنا تأتي مِنْ كَونِهِ أعرفَ مِنَ المعرَّفِ بِالألفِ واللّامِ، فيما لو قيلَ: (أجَلَنا المؤجَّلَ لَنا)، وهوَ أمرٌ مَعهودٌ عِندَ النَّحْويّينَ في تَرتيبِهمُ المعارفَ، فإنَّهمْ يُقدِّمونَ الاسْمَ الموصولَ عَلى ما يُعرَّفُ بِالألفِ واللّامِ، "لأنَّهُ يُعرَفُ بِالعَينِ وبِالقَلبِ، ثُمَّ ما عُرِّفَ بِالألفِ واللّامِ؛

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/69أ.
(2) رضا، تفسير المنار: 8/57.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/645.

لأنّهُ يُعرَفُ بِالقَلبِ فقطْ"[1] فقولُه: ﴿ٱلَّذِىٓ أَجَّلۡتَ لَنَاۚ﴾، أبلغُ وأكثرُ تحقُّقًا ممّا لو جاءَ بهِ بِالألفِ واللّامِ.

سِرُّ حَذْفِ الهاءِ في ﴿أَجَّلۡتَ﴾:

حَذْفُ العائدِ لِلعِلْمِ بِهِ وشُهرَةِ حَذْفِهِ في كَلامِ العَربِ

وفي قولِه تَعالى: ﴿وَبَلَغۡنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلۡتَ لَنَاۚ﴾ حذَفَ الهاءَ العائِدةَ عَلى الموصولِ المنصوبِ؛ ومَعناهُ الموتُ أو البَعْثُ؛ إذ إنَّ تَقديرَ الكَلامِ (الَّذي أجَّلْتَهُ لَنا)؛ والسِّرُّ في حَذفِهِ العِلْمُ بهِ، فهوَ مَذكورٌ بِدَلالةِ الفِعلَينِ ﴿أَجَلَنَا﴾ و﴿أَجَّلۡتَ﴾، ولِكَونِ حذفِ العائدِ المنصوبِ مِنَ الضَّمائرِ مَشهورًا وكَثيرًا في كلامِ العربِ.

التَّعبيرُ عَنِ القَولِ بِالماضِي، وإسْنادُهُ إلى الغائبِ:

التَّسليمُ للمَصيرِ المَحتومِ مُنتهَى الأمْرِ

عبَّرَ عَنِ القَولِ بِالماضي في قَولِهِ تَعالى: ﴿قَالَ ٱلنَّارُ مَثۡوَىٰكُمۡ﴾؛ لأنَّهُ أوضَحُ في اسْتِحكامِ الثَّباتِ؛ فالماضي يَدُلُّ عَلى تحقُّقِ الأمرِ وثباتِه، وفي إسنادِهِ إلى الغَائِبِ ما يُقَوِّي ذلكَ، فإنَّه لا مَفرَّ مِنَ التَّسليمِ بِما أوقعَهُ اللّهُ عَلَيهِم مِنْ مَصيرِهِم وهوَ النّارُ؛ لأنهَّم عاجِزونَ عَنْ مُجادَلَتِهِ ومُحاجَجَتِهِ لو كانَ خاطبَهُمْ أو كلَّمَهُمْ، فكأنَّ الأمرَ قدْ قُرِّرَ وتمَّ وانقَضى.

بيانُ الفَصْلِ في جُملةِ: ﴿قَالَ ٱلنَّارُ مَثۡوَىٰكُمۡ﴾:

شَأنُ المُحاوَراتِ الفَصْلُ بينَ الجُمَلِ

وقَولُهُ تَعالى: ﴿قَالَ ٱلنَّارُ مَثۡوَىٰكُمۡ﴾ جملةٌ مفصولةٌ عمّا سَبقَها، والفَصلُ جارٍ عَلى طَريقَةِ القَولِ في المحاورةِ[2]، فلمْ يَعطِفْ بِالواوِ أو الفاءِ؛ وعدَمُ الإتيانِ بِالعاطفِ هنا دَفعًا لِتَكرارِ العاطفِ؛ لأنَّ أفعالَ القَولِ مُكرَّرةٌ كما تَقتَضيهِ المحاوَرةُ مِنْ نحْوِ (قالَ، وقلْتُ) وهيَ طريقةٌ عربيَّةٌ فَصيحةٌ مُطَّرِدةٌ في التَّنزيلِ، فكأنَّ فِعلَ القَولِ قدْ عوَّضَ مِنْ ذِكرِ العاطِفِ.

(1) ابن الأنباري، الإنصاف في مسائل الخلاف: 2/581.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/أ70.

وقَولُهُ تَعالى: ﴿قَالَ ٱلنَّارُ مَثۡوَىٰكُمۡ﴾ اسْتِئْنافٌ بَيانيٌّ ناشِئٌ عَنْ حِكايَةِ كَلامِهِم[1] فكأنَّ سائِلًا قالَ: ماذا قالَ اللّهُ تَعالى بعدَ أنْ أطاعوا الشَّياطينَ واتَّبعوا الهَوى وكذَّبوا بِالبَعْثِ؟ فجاءَ الرَّدُّ العادِلُ بِأنَّ جَهنَّمَ هيَ قَرارُهُم.

ذِكرُ الخُلودِ دفعٌ لظَنِّ تَحوُّلِ أَهْلِ النَّارِ عَنها

وَجْهُ ذِكْرِ الخُلودِ مَعَ المثوَى ﴿ٱلنَّارُ﴾، وحذْفِه معَ ﴿دَارُ ٱلسَّلَٰمِ﴾:

تَعقيبُ المثوى بِالخلودِ في قَولِهِ تَعالى: ﴿قَالَ ٱلنَّارُ مَثۡوَىٰكُمۡ خَٰلِدِينَ فِيهَآ﴾؛ لِأنَّ المثوى اسْمُ مَكانٍ لِمَنْ أقامَ بِهِ إقامَةَ سُكنى قَدْ يُظَنُّ أنَّهُ يَتحوَّلُ عَنهُ؛ فَجاءَ بِخالِدينَ لِيَكونَ مِنْ تَمامِ ما يُقالُ لَهمْ في الحَشرِ[2]، فهوَ مُتَعلِّقٌ بِما قَبلَهُ ومِنْ لوازِمِهِ، ولَفظَةُ ﴿خَٰلِدِينَ﴾ تَرسيخٌ لِلمكانِ الَّذي يَستقرّونَ فيهِ، ومَعناهُ البَقاءُ الدّائِمُ بِمشيئَةِ اللّهِ تَعالى الخالِدَةِ، وبِإنذارِهِ بِذلكَ في عِدَّةٍ مِنْ آياتِهِ[3]. أمّا عندَما عبَّر بـ ﴿دَارُ ٱلسَّلَٰمِ﴾ فلَيستْ بِها حاجَةٌ إلى تَقْييدِها بِوَصفِ الخُلودِ والدَّيمومَةِ، فهذِهِ الدّارُ الَّتي هيَ دارُ الرَّحمنِ ودارُ السَّلامةِ مِنْ كُلِّ آفَةٍ مُستقَرٌّ ومَكانٌ لِلخُلودِ، فَضلًا عَنْ تعقيبِها بِقَولِهِ: ﴿عِندَ رَبِّهِمۡۖ﴾.

يَحتمِلُ عَوْدُ الضَّميرِ عَلى الفَريقَينِ

تَوجِيهُ عَوْدِ ضَميرِ الخِطابِ في جُملةِ: ﴿ٱلنَّارُ مَثۡوَىٰكُمۡ﴾:

وضَميرُ الخِطابِ في قَولِهِ تَعالى: ﴿قَالَ ٱلنَّارُ مَثۡوَىٰكُمۡ﴾ راجِعٌ إلى الإنسِ الَّذينَ اتَّخَذوا الشَّياطينَ أولياءَهُمْ فَهُمُ المَقصودونَ بِذلكَ الخِطابِ[4].

ويُحتمَلُ عَودُ الضَّميرِ عَلى المُطاعينَ مِنَ الجنِّ والتّابِعينَ لَهمْ مِنَ الإنسِ؛ فجوابُ اللّهِ تَعالى بِقَولِهِ: ﴿ٱلنَّارُ مَثۡوَىٰكُمۡ﴾؛ مَأواكُم ومَنزِلُكُم أنتم وأولياؤكُم، يَعني أنَّ عُذرَكُم هذا عُذرٌ باردٌ غَيرُ مَقبولٍ، لا حُجَّةَ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/185.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/أ70.
(3) ابو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2667.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/أ70.

لَكُم فيهِ، وأنتم وإيّاهُم في النّار[1].

دَلالَةُ الاسْتِثناءِ، وفائدَتُهُ:

دلَّ الاسْتِثناءُ على تخفيفِ العذابِ ويَحتملُ الاسْتثناءُ تهكُّمًا شَديدًا

دَلالَةُ الاسْتِثناءِ في مَشيئَتِهِ تَعالى في: ﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ بمعنى تَخفيفِ العَذابِ عَلى مَنْ يَشاءُ تَعالى مِنَ الخالِدينَ، أوْ نَجاةِ مَنْ لمْ يكنْ عندَهُ الشِّركُ مُعتقدًا راسخًا[2]. فخالِدينَ فيها إلّا ما شاءَ اللّهُ عَدَمَ خُلودِهِ مِنَ العُصاةِ الَّذينَ أُدخِلوا فيها لِتُمحِّصَهُم وتُطَهِّرَهُم مِنَ الذُّنوبِ، وغايةُ ما في البابِ أنَّهُ أطلَقَ ﴿مَا﴾ وأرادَ (مَنْ)، وإطلاقُ ﴿مَا﴾ مُرادًا بها (مَنْ) كثيرٌ في القُرآنِ، كقَولِه: ﴿فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ [النّساء: 3]، أي: مَنْ طابَ لَكُم[3].

ويُحتمَلُ أنْ يكونَ الاسْتِثناءُ في المشيئةِ في أُناسٍ مُخَلَّدينَ في النّارِ إلّا الأوقاتَ الَّتي يُنقلونَ فيها مِنْ عَذابٍ إلى آخرَ، كَنقلِهِمْ مِنْ عَذابِ النّارِ إلى عَذابِ الزَّمهريرِ الَّذي يُميِّزُ بَعْضَ أَوْصَالِهِمْ مِنْ بَعْضٍ لِشِدَّتِهِ، حتّى إنَّهمْ يطلُبونَ أنْ يُرَدّوا إلى الجَحيمِ[4].

ويُحتمَلُ أنْ يكونَ الاسْتِثناءُ مُتعلِّقًا بِقَولِ المَوتورِ الَّذي ظفرَ بِواتِرِهِ، فطَلَبَ هذا الأخيرُ أنْ يُنفَّسَ عنهُ، فوعَدَهُ بذلكَ تَشفّيًا منهُ بِأشَدِّ ما يكونُ وَأَعْنَفِهِ، لا حقيقَةً في كَشفِ الضُّرِّ عنهُ؛ وإنّما تهكُّمًا بالموعِدِ لِخروجِهِ عَلى طَريقَةِ الاسْتِثناءِ[5].

تَوجِيهُ الاعتِراضِ في جُملةِ الاستثناءِ:

مَشيئةُ الله تعالى مُطلقةٌ لا تَتقيَّدُ ولا تَتحدَّدُ

ويجوزُ أن يكونَ قَولُهُ تَعالى: ﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ مِنْ خِطابِهِ تَعالى لِرَسولِهِ ﷺ، فوقعَتْ هذهِ الجملةُ اعتراضًا بينَ ما قَصَّهُ الحقُّ ﷻ عَليهِ مِنْ أحوالِ المشركينَ وحَشْرِهِمْ معَ أوليائِهِمْ، وبينَ ما ذيَّلَ بِهِ الآيةَ مِنْ

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 3/339، والشنقيطي، العذب النمير: 2/244.
(2) القاسمي، محاسن التّأويل: 4/489.
(3) الشّنقيطي، العذب النّمير: 2/244.
(4) الزّمخشري، الكشّاف: 2/65.
(5) الزّمخشري، الكشّاف: 2/65، والقاسمي، محاسن التّأويل: 4/489.

قَولِه: ﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ لِيكونَ الوقْفُ عَلى خالِدينَ فيها[1].

وَجْهُ الكِنايَةِ التَّعبيرُ عَنْ مَحْضِ إرادتِهِ تَعالى وكَمالِ قُدْرَتِهِ

بَلاغةُ الكِنايَةِ في جُملةِ الاسْتثناءِ:

وإذا لمْ يُمكنِ الوَقْفُ عَلى ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ﴾ بلْ عَلى جَعلِها مِنْ جملةِ المقولِ في الحَشرِ، فإنَّ الاسْتثناءَ هُنا لا يُقصَدُ مِنهُ إخراجُ الوَقتِ والأحوالِ كما هوَ الحالُ في التَّعريفِ الاصطلاحيِّ لِلاسْتثناءِ[2]، وإنَّما التَّعبيرُ بهِ مِنْ بابِ الكِنايَةِ؛ فالَّذي يُقصَدُ مِنْ ذلكَ الخلودِ الإشارةُ إلى قُدرةِ الحقِّ ﷻ عَلى وجهِ الاختيارِ، ولِيُظهِرَ تَمامَ قُدرَتِه ومَحضَ إرادَتِه[3]، فهوَ يفعلُ ما يُريدُ وأنّى يُريدُ وكيفَ يُريدُ؛ فذِكرُ المشيئَةِ هُنا عامَّةٌ تدُلُّ عَلى أنَّهُ يَشاءُ ذلكَ وهوَ خلودُهُم، وأنَّهُ يُمكِنُ أنْ يَشاءَ غَيرَ ذلكَ[4].

المصْدريَّةُ تَحتملُ الظَّرفيَّةَ لتَشمَلَ عُمومَ الأَزْمنةِ

دَلالةُ ﴿مَا﴾ بينَ المصْدريَّةِ والموصُوليَّةِ:

﴿مَا﴾ في قَولِهِ تَعالى: ﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ تَحتمِلُ وُجوهًا عِدَّةً فصَّلَها الطّاهِرُ بنُ عاشورٍ عَلى النَّحوِ الآتي[5]:

في قوله تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ تَحتمِلُ ﴿مَا﴾ أنْ تكونَ ظرفيَّةً مَصدريَّةً، ويكونُ الاسْتثناءُ على بابِهِ، فتكونُ الجملةُ اسْتثناءً إمّا مِنْ عُمومِ الأزمنَةِ، فيكونُ الفعلُ بعدَها عَلى تَأويلِ مَصدَرٍ، فيكون تَقديرُ الكَلامِ: (خالِدينَ فيها إلَّا وقتَ مَشيئَتِهِ تَعالى أنْ يُزيلَ خُلودَكُمْ)، وإمَّا من عُمومِ الخالدينَ الَّذي في ضمير ﴿خَٰلِدِينَ﴾ أي إلَّا فريقًا شاءَ اللّٰهُ أن لا يخلدوا في النَّار[6].

وتَحتمِلُ غَيرَ الظَّرفيَّةِ فتكون تَهديدًا وتَحذيرًا لِلمُشركينَ

وتَحتمِلُ أنْ تكونَ مصدريَّةً غَيرَ ظَرفيَّةٍ، ويكونَ الاسْتثناءُ مُعترِضًا

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/71أ.
(2) الاسْتثناءُ هو "الإخراجُ بإلاَّ أو إحدى أخواتِها لِما كانَ داخِلاً أو مُنزَّلاً مَنزِلَةَ الدّاخل"، يُنظر: الأشموني، شرح على ألفيّة ابن مالك: 1/502.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/72أ.
(4) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2668.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/71أ - 72.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/71أ.

بينَ حِكايَةِ ما يُقالُ لِلمُشركينَ وقْتَ حَشرِهِمْ وبينَ ما خوطبَ بهِ الرّسولُ ﷺ، فيكونُ هذا الاعْتِراضُ تَهديدًا وإعذارًا للمُشركينَ الأحياءِ أنْ يُسلموا، فيكونُ التَّقديرُ: إلَّا أنْ يشاءَ اللّهُ عدَمَ خُلودِهِمْ، أيْ: في تلكَ الحالِ الَّتي يوفِّقُ فيها بعضَ المشركينَ لأنْ يُسلِموا في حَياتِهِمْ.

في الموصوليَّةِ اسْتِثناءٌ لِأقوامٍ سبَقَ في عِلمِهِ أنَّهمْ يُسلِمونَ

وتَحتمِلُ أنْ تكونَ مَوصولةً بمعنى (مَنْ)؛ فإنّها تُستعمَلُ لِلعاقلِ بِكَثرةٍ، فقدْ نُقلَ عنِ ابنِ عَبّاسٍ أنَّ الحقَّ ﷻ اسْتثنى أقوامًا سبَقَ في عِلمِهِ أنَّهمْ يُسلمونَ، وعَلَيهِ يجبُ تأويلُهُ، لِأنَّ أهلَ العلمِ مُجمِعونَ عَلى اسْتحالةِ أنْ يَغفرَ اللّهُ لِلمشركينَ.

نُكتةُ التَّذْييلِ في قَولِهِ تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾:

استحقاقُ الخلودِ في النّارِ مَنوطٌ بالشّركِ، والنَّجاةُ مِنهُ مَنوطةٌ بالإيمانِ

وقَولُه تَعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ تَذييلٌ مُقرِّرٌ لِما قَبْلَهُ، وإقفاءٌ لما ذَكرَ مِنْ مَشيئَتِهِ تعالى وتأكيدٌ لها في أنّهُ جَعلَ العذابَ مَنوطًا بموتِهِمْ وهمْ مُشركونَ، ثمَّ جعلَ النَّجاةَ مِنْ خُلودِهِمْ مَنوطةً بإيمانِهِمْ[1].

ختمَ الحقُّ ﷻ الآيةَ بِصفَةِ الرُّبوبيَّةِ والحِكمَةِ والعِلمِ بعدَ المشيئةِ؛ فإنّها تَسيرُ بِمُقتضى الرُّبوبيَّةِ والعِنايةِ الإلهيَّةِ، وتَسيرُ بِمُقتَضى حِكمتِهِ الَّتي تُقدِّرُ الأمورَ في إيقاعِ العذابِ عَلَيهم وخُلودِهم، وأنَّهُ ما خلقَ شيئًا عَبثًا، وأنَّ ذلكَ التَّدبيرَ وهذا الخَلْقَ كانَ بِمُقتَضى عِلْمِهِ الَّذي أحاطَ بكلِّ شَيءٍ، ووَسِعَ كُلَّ شَيءٍ[2].

تَوجِيهُ الاعْتِراضِ في جُملةِ الفاصلَةِ:

ما رَتَّبهُ اللهُ عَلى الشِّركِ مِنَ الخلودِ كانَ بِحِكْمتِهِ وعِلْمِهِ

قولُه تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ جملةٌ مُعترضةٌ بينَ الجملِ المقولةِ لِأولياءِ الجنِّ في الحَشرِ، وغَرضُها بيانُ أنَّ ما رتَّبهُ الحقُّ ﷻ عَلى الشِّركِ هوَ خُلودُهمْ في النّارِ[3]؛ وما ذاكَ إلَّا بِما اقْتضَتْ حِكمتُه

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/73أ.
(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 5/2669.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/72أ.

تعالى وما أحاطَ بهِ عِلْمُه.

الخُلودُ في النّارِ صَدَرَ عنْ حكيمٍ عَليمٍ بِالأحوالِ كُلِّها

صِيغةُ التَّعبيرِ بـ ﴿حَكِيمٌ﴾ و﴿عَلِيمٌ﴾ في الفاصلةِ:

والتَّعبيرُ بصفتَي الحَكيمِ والعَليمِ فيهِ تَلاؤمٌ دقيقٌ معَ سياقِ الآيةِ؛ فإنَّ خلودَ هؤلاءِ الكفَرةِ في النّارِ ما كانَ عَبثًا، وإنّما هوَ فعلٌ صادرٌ عنْ حِكمةٍ وعِلْمٍ بِمَواقِعِ الأشْياءِ[1]، فالحَكيمُ هوَ مَنْ يضَعُ الأشياءَ مَوضِعَها، ولإظهارِ أنَّ قضاءَ اللّهِ وقَدرَهُ عَلى عِبادِهِ مَبنيٌّ عَلى حِكْمتِهِ البالغةِ وعِلْمِهِ الشّاملِ؛ فاللّهُ تعالى هوَ الحكيمُ الَّذي لا يفعلُ شيئًا إلَّا لِحكمةٍ عَظيمةٍ، ولا يُضيعُ أجرَ المحسنينَ. والعليمُ هوَ المحيطُ بِأحوالِكُمُ المستحِقَّةِ لِلثَّوابِ والعِقابِ، الَّذي لا تَخفى عَلَيه خافيةٌ في السَّمَاواتِ ولا في الأرضِ، ولا يغيبُ عنهُ شَيءٌ مِنْ أفعالِ الخلائقِ وأحوالِهِم؛ فهوَ يَجزي كُلَّ نفْسٍ بِما كسبَتْ، ولا يَظلِمُ سبحانَه أحَدًا.

وَقَعَتْ صِفةُ العِلْمِ مَوقِعَ العِلَّةِ للحِكْمةِ

سِرُّ تقديمِ الحِكْمَةِ عَلى العِلْمِ:

السّياقُ في هذهِ الآيةِ يَقتضي تَقديمَ الحِكمَةِ عَلى العِلْمِ؛ فهوَ حكيمٌ لا يُعذِّبُ المُخلِصَ ويَترُكُ المُشرِكَ، عليمٌ بما يَدِقُّ مِنَ الأمورِ وما يَعظُمُ، فلا يَخفى عَلَيهِ شَيءٌ[2].

وقدّمَ الحكيمَ عَلى العليمِ لأنَّ السّياقَ في الجَزاءِ واسْتِحقاقِ الكافرينَ العذابَ والخلودَ، وهوَ ما يَليقُ بِالحِكمَةِ أكثر مِنَ العِلْمِ؛ فالمقامُ مَقامُ تَشريعِ الأحكامِ[3].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(المثوَى)، و(الدّارُ)، و(المُقامُ)، و(المنزِلُ)، و(المَصيرُ)، و(المَقرُّ):

آثرَ التَّعبيرَ بِالمَثوى في قولِه تعالى: ﴿قَالَ ٱلنَّارُ مَثۡوَىٰكُمۡ﴾ عَلى ألفاظٍ أُخرَ مُتَقارِبَةِ المعنى؛ لِمُطابَقتِها السّياقَ الواردةَ فيهِ أيَّما

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/346.
(2) البقاعي، نظم الدّرر: 7/269 - 270.
(3) الزّركشي، البرهان في علوم القرآن: 3/262.

مُطابقَة، ومعنى: "مَثواكُم يعني مَأواكُم"[1]، والمثوى هوَ المأوى والمَسكَنُ والمَنزِلُ لكنْ على نيّةِ الإطالةِ في الإقامةِ فيه[2]، وهذه عَلامةٌ فارقةٌ، وآيةُ ذلكَ أنَّه أتبعَهُ بقولِه: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ﴾، ففيهِ تَمْتينٌ لِهذا المعنى وتَرصينٌ لاسْتعمالِه لَفظَ المثوى وإيثارِه على غيرِه مِنَ الألفاظِ الأُخرى المتقارِبَةِ الَّتي يشوبُها ضَعفٌ أو اخْتلافٌ أو عَدَمُ مُناسَبَةٍ أو بُعدٌ عنْ سياقِ الآيةِ، كما سَيتبيَّنُ مِنْ مَعرفةِ مَعاني الألفاظِ الَّتي تُقارِبُ المثوى مِنْ جِهَةِ المعنى.

المثوَى هو المأْوَى على نيّةِ الإطالةِ في الإقامَةِ ممّا يَتناسَبُ معَ الخلودِ، وليس كذلكَ معَ الألفاظِ الأُخرى

فالمقامُ: معناهُ مَوضِعُ القيامِ، أمّا المصيرُ: فهوَ تحويلُ الشَّيءِ إلى نقيضِ الحالِ الَّتي هوَ عَلَيها[3]، والمنزلُ: مُشتَقٌّ مِنَ النُّزلِ، وعامةُ مَعناهُ يدُلُّ عَلى اللَّبْثِ مُدّةً قصيرةً كالنَّزيلِ بمعنى الضَّيفِ، والنِّزالُ في الحربِ بمعنى المُبارزَةِ، ومِنْ مَعانيهِ المطرُ القليلُ[4]، والمقرُّ: هوَ "المرجِعُ الَّذي يَرجعُ إليهِ مَنْ فارقَهُ"[5]، والدّارُ: الأصلُ في الدّالِ والواوِ والرّاءِ دَلالتُها عَلى إحداقِ الشَّيءِ بالشَّيءِ وإحاطَتِه بِهِ مِنْ حَوالَيهِ؛ فالأصلُ في معناها الإحاطةُ لا الإقامَةُ والسُّكْنى[6].

الحكيم والعليم:

وردَتِ الصِّفتانِ في قولِه: ﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ فالحكيمُ صيغةُ مُبالغةٍ، ويُطلَقُ الحكيمُ على العَالِمِ صاحبِ الحكمةِ الَّذي يُتقِنُ الأمورَ[7]، أمّا العليمُ فهوَ الَّذي إنْ وُجدَ معلومٌ فلا شكَّ في أنَّه يَعلَمُهُ[8]؛ فالحكيمُ أَدخَلُ مِنَ العليمِ في مَعرفةِ بَواطنِ الأمورِ وما تَقتضيهِ المصلَحَةُ، والمقامُ مَقامُ تَشريعٍ؛ ولِذلكَ قدَّمهُ في الآيةِ.

الحكيمُ صاحِبُ الحِكمةِ المتقِنُ لِلأمورِ، والعَليمُ إنْ وقعَ مَعلومٌ فهو يَعلمُهُ

(1) مقاتل، تفسير مقاتل بن سليمان: 1/371.
(2) ابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم: (ثوي).
(3) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 537، 492.
(4) الصّاحب بن عبّاد، المحيط في اللّغة: (نزل).
(5) الزّبيدي، تاج العروس: (بوأ).
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (دور).
(7) الكفوي، الكليات، ص: 380.
(8) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 347.

﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعۡضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعۡضَۢا بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ١٢٩﴾

[الأنعام: 129]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

وِلايـةُ الظّالمينَ بعضِهم بَعضًا بِالدّوافعِ الَّتي يَلتَئِمونَ حَوْلَها

لَمّا بيّنَ الحقُّ ﷻ في الآيةِ السّابقةِ مِنْ وِلايةِ الإنسِ لِلجنِّ، وأنَّ هؤلاءِ قدْ تَسلَّطوا على الإنسِ واستمتعَ بَعضُهمْ ببَعضٍ؛ أخبرَ هنا أنَّ هذا دأْبُهُ معَ الظّالمينَ؛ فهوَ يُوَلّي بعضَهُم بَعضًا ويُسلِّطُ بَعضَهمْ على بَعضٍ؛ بما اجْتمَعوا عليهِ مِنَ الأسبابِ المؤدّيةِ إلى الظُّلمِ[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَكۡسِبُونَ﴾: فعلٌ دالٌّ على الحالِ والاستقبالِ مُسنَدٌ إلى وَاوِ الجماعةِ؛ الجَذرُ اللُّغَويُّ منهُ (كسب)، والأصلُ فيهِ دَلالتُهُ "على ابتغاءٍ وطلَبٍ وإصابةٍ، فالكسبُ مِنْ ذلكَ"، والكَسْبُ التماسُ الرِّزقِ ونحوِه، ويكونُ للإنسانِ نفسِهِ ولِغَيرِهِ، وعُمومُ معناهُ في جمعِ الشَّيءِ وتَحصيلِهِ شَيئًا فَشيئًا معَ الجُهدِ والمشَقّةِ، ومِنْ معانيهِ أيضًا أنْ يَتحَرّى المرءُ اجْتلابَ النَّفعِ وتحصيلَهُ، وربّما ظنَّ الإنسانُ أنّهُ يجتلبُ مَنفعَةً ثُمَّ اسْتجلبَ لَهُ مَضَرَّةً؛ والكَسبُ يُستعمَلُ في الخيرِ والشّرِّ، والسّياقُ يحدِّدُ ذلكَ إلّا أنَّ الغالبَ عَليه كَونُهُ في الخيرِ، والاكتسابُ في الشَّرِّ[2]. ومعنى ﴿يَكۡسِبُونَ﴾ في الآيةِ: أي: بما يَقترِفونَ ويُحَصِّلونَ مِنَ الظُّلمِ والبَغْيِ والشَّرّ[3].

المَعْنى الإجْماليُّ:

يخبرُ الحقُّ ﷻ المعتبِرينَ مِنْ خَلْقِه أنّهُ كما جَعلْنَا بعضًا مِنَ الجنِّ والإنسِ أولياءَ بعضٍ فاستمتَعوا بينَهمْ، كذلكَ نَكِلُ الظّالمينَ بعضَهُم

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 7/270.

(2) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (كسب).

(3) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 3/305.

إلى بعضٍ، أو نجعلُ بعضَهُم يَتولّى بعضًا غِوايةً ودعوةً إلى الشَّرّ وتَنفيرًا منَ الخيرِ، أو نجعلُهُم أولياءَ بعضٍ وقُرَناءَهُم في العذابِ كما كانوا في الدُّنيا بِما كانُوا يَكْسِبُونَ مِنَ الكُفرِ والمعاصي، وسَيِّئِ الأفعالِ ورَديءِ الخصالِ[1].

سُنَّةُ اللهِ في تَوْلِيةِ كلِّ ظالمٍ بِمِثلِهِ يُرَغِّبُهُ في الشَّرِّ ويَصُدُّهُ عَنِ الخَيرِ

والمقصودُ منَ الآيةِ العِظةُ والاعتبارُ والتَّحذيرُ مِنْ أنْ يَغترَّ النّاسُ بِولايةِ الظّالمينَ، وأنّ مآل هذا الفعلِ وعاقبتَهُ مِنْ سُنَنِهِ تعالى في العالَمين[2]. وفيها تهديدٌ لِلظّالمِ؛ إنْ لم يمتنِعْ مِنْ ظُلمِهِ سلَّطَ اللّهُ عَلَيه ظالمًا آخرَ. ويَدخُلُ في الآيةِ جميعُ مَنْ يَظلِمُ نفْسَهُ[3].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

بيانُ الوَصْلِ في الآيةِ:

لَمّا تبيّنَ من قولِه تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ أنّه تذييلٌ مقرِّرٌ لما سبقَ ذكرُهُ مِنْ شَأنِ المشيئةِ، فإنّ قولَه: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ هوَ مِنْ تمامِ التَّذييلِ، والواوُ حاليَّةٌ[4]، أي: والحالُ أنّنا نُولّي بعضَ الظّالمينَ بعضًا.

الآيةُ تَتْميمٌ لِجُملةِ الاعْتِراضِ وتذييلٌ مُقرِّرٌ لمَضْمُونِها

ولَمّا كانَ قولُه تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ جملةً معترِضةً بينَ الجملِ المقولةِ لأولياءِ الجنِّ في الحشرِ، فإنَّ قولَه: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ تَتميمٌ لذلكَ الاعتراضِ[5] المبنيِّ على أنَّ خلودَهُم في النّارِ تَقتضيهُ حِكمتُهُ وعِلمُهُ تعالى.

دَلالةُ اسمِ الإشارةِ ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾:

اسمُ الإشارةِ في قولِه: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ جاءَ مُذكَّرًا؛ لأنَّ التَّوليَةَ المأخوذَةَ منَ الفعلِ ﴿نُوَلِّي﴾ مُذكَّرٌ، وتأنيثُها غيرُ

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 2/182.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/أ75.
(3) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 7/85.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/أ73.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/أ73.

حَقيقيّ، والمعنى: أنّنا مِثلَما ولَّينا على نحوِ مُوالاةِ شياطينِ الإنسِ لِلجنِّ؛ فالجامعُ بينَهُمُ الخُبثُ والشَّرُّ، كذلكَ نفعلُ بينَ الظّالمينَ؛ بعضِهِمْ معَ بَعضٍ؛ وهؤلاءِ الجامِعُ بينَهُمُ الظُّلمُ والعُدوانُ[1].

جَـزاءُ الظّالمينَ هـو هـو جَـزاءُ مُوالاةِ الشّياطينِ بعضِهم لبعضٍ

بَلاغةُ التَّشْبيهِ في الآيةِ:

التَّشبيهُ بالكافِ يدُلُّ على أنَّ شَيئًا شُبِّهَ بشَيءٍ، أي: مِثلُ ذلكَ التَّولّي، فالتَّشبيهُ المستفادُ منَ الكافِ يفيدُ تشبيهَ الصِّفاتِ بعضِها ببَعضٍ، فإنَّ حالَ النّاسِ في تأثيرِ بعضِهِمْ ببعضٍ بالفسادِ يشبهُ حالَ شياطينِ الجنِّ أو شياطينِ الإنسِ بإغراءِ بَعضِهِم بعضًا بالفسادِ؛ ويَحسَبُ هؤلاءِ وأولئكَ أنّهُم مُستمتعونَ[2].

لمَّـا شـابَـهـتِ الـصِّـفـاتُ الصِّفاتِ أُلحِقَتِ الذّواتُ بالذّواتِ

نُكتةُ تَقديمِ الجارِّ والمجرورِ ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾:

نُكتةُ تقديمِ حَرفِ الجرِّ ومجرورِه ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ على مُتَعَلّقِه وهوَ الفعلُ ﴿نُوَلِّي﴾، هيَ تشويقُ السّامعِ إلى مَا بعدَ التَّشبيهِ، وهوَ مِنْ فُنونِ الخطابِ القرآنيِّ البليغِ؛ فإنَّ (كذلكَ) فيها تمهيدٌ لِما سَيُقالُ؛ وهوَ المشبَّهُ مِن حالِ الظّالمينَ الَّذينَ ولّى الحقُّ ﷻ بعضَهمْ بعضًا، كما فعلَ معَ الشَّياطينِ وأوليائِهِم منَ الإنسِ؛ وهُمُ المشبَّهُ بِه.

تَشويقُ السَّامعِ والـتّـمـهـيـدُ لِمـا سيُلقَى إليهِ مِنْ كَلامٍ

تَوجيهُ تَعْديةِ فعْلِ التَّولِيةِ:

الفعلُ ﴿نُوَلِّي﴾ في قَولِه: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ يأتي مِنَ الولاءِ ومِنَ الوِلايةِ، فكِلاهُما يكونُ فعلُهُ المُتَعدّي (ولّى) أي: جعلَ وليًّا وهوَ مِن بابِ (أعْطى وكَسا)[3] الَّذي يَتعدّى إلى مفعولَين، فمعنى "نُولِّي بعضَ الظّالمينَ بعضًا: نجعلُ بعضَهُم أولياءَ بعضٍ"[4] أي: نُصيِّرُ بعضَهم أولياءَ بعضٍ.

أي: نجعـــلُ بعضَهم أولياءَ بعضٍ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 73/أ8، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 13/150.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2669 - 2670.
(3) نوعٌ منَ الأفعالِ يتعدّى إلى مفعولين ليسَ أصلُهما مبتدأً وخبَرًا، ولكَ أنْ تقتصرَ على أحدِهِما. يُنظر: ابن السّرّاج، الأصول في النحو: 2/282.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 73/أ8.

عِلّةُ جَعْلِ الفريقَين ظَالِمِينَ:

مَنْ تولَّى قومًا صَارَ مِنهُم، والظُّلمُ المتكرِّرُ يُؤدِّي إلى ظُلْمٍ عامٍّ

في قَولِهِ: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعۡضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعۡضَۢا﴾ يقرِّرُ الحقُّ ﷻ أنّ مآلَ مُوالاةِ الظّالمينَ الظُّلمُ، فجعلَ الفريقَينِ ظَالِمِينَ؛ لأنَّ مَنْ يتولّى قومًا فإنّهُ يكونُ مِنهمْ[1]؛ لقولِهِ تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٥١﴾ [المَائِدَة: 51]. ومِنْ ذلكَ أنَّ العبادَ إذا كَثُرَ ظُلمُهُم وفَسادُهُم، ومنْعُهُمُ الحقوقَ الواجِبةَ، ولَّى اللّهُ عَلَيهِم ظَلَمَةً يَسومونَهُم سوءَ العذابِ، ويأخذونَ مِنهُم بِالظُّلمِ والجَوْرِ أضعافَ ما مَنَعوا مِنْ حُقوقِ اللّهِ، وحقوقِ عِبادِهِ، على وجهٍ غَيرِ مأجورينَ فيهِ ولا مُحتسِبينَ. كما أنَّ العبادَ إذا صَلَحوا واسْتقاموا، أصلحَ اللّهُ رُعاتَهم، وجعلَهُم أئمَّةَ عَدْلٍ وإنصافٍ، لا وُلاةَ ظُلمٍ واعتِسافٍ[2].

معنَى الباءِ في قوله تعالى: ﴿بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾:

مَصيرُهُمْ مآلُ أعمالِهِم

الباءُ في قولِهِ: ﴿بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ دالَّةٌ على السَّببيَّةِ[3]؛ فهذا مَصيرُهُمْ وجزاؤهُمْ بسببِ ما اقْترَفوا منَ الأعمالِ الخبيثةِ والكُفرِ والعِصيانِ[4].

نُكتَةُ التَّعبيرِ بـ (ما) في قوله تعالى: ﴿بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾:

عِلَّةُ التَّوليةِ ما كانوا يَكْسِبونَهُ في حياتِهِمُ الدُّنيا

تَحتمِلُ (ما) في قولِه تعالى: ﴿بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ أنْ تكونَ موصولةً بمعنى الَّذي، وعَبَّرَ بـ (ما) تحديدًا لأنَّها تدُلُّ عَلى العُموم وهوَ مناسِبٌ لِلكَسْبِ، فيما تدُلُّ (الَّذي) على التَّنصيصِ، فأرادَ كلَّ ما يَكسِبونَهُ، وتَحتملُ أنْ تكونَ مصدريَّةً؛ فتُؤَوَّلُ معَ فعلِ الكَسْبِ على المصدريَّةِ، عَلى تَقديرِ كسبِهِمْ في حياتِهِمُ الدُّنيا[5].

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/73أ - 74.
(2) السّعدي، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 144.
(3) عضيمة، دراسات لأسلوب القرآن الكريم: 2/8.
(4) الزّمخشري، الكشّاف: 2/66.
(5) مجموعة مؤلّفين، إعراب القرآن الكريم: 1/648.

دَلالةُ فعْلِ الكوْنِ الماضِي:

استمرارُ العَمَلِ يُورِّث الثَّباتَ عليه

عبَّرَ في قولِه تعالى: ﴿بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ بفعل الكون الماضي؛ للدَّلالةِ على أنَّ أعمالَهم الكسبيَّة كانت دَيْدَنهم، وكانوا مستمرِّين فيها، لا ينقطعُون عنها؛ فجازاهُمُ اللهُ تعالى بأنْ ولَّى بعضَهم بعضًا بما كَسَبوا منَ الأعمالِ السَّيئةِ والخِلالِ الرَّديئةِ.

بَلاغةُ التَّعبيرِ عنِ الكَسْبِ بالمضارِعِ:

كانَ كسْبُهم منَ الكفرِ والمعاصِي مُتَجدِّدًا مُستمِرًّا

التّعبيرُ عن الكَسبِ بالفعلِ المضارعِ في قولِه: ﴿بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ دالٌّ عَلى أنَّهم كانوا "مُستمرّينَ عَلى كَسبِهِ منَ الكُفرِ والمعاصي"[1]، فالفعلُ المضارعُ فيهِ إيماءٌ إلى أنَّ كَسْبَهم كانَ مُتَجدِّدًا مُستمِرًّا فجُوزُوا بهذا الجزاءِ.

إيثارُ لفْظِ الكَسْبِ عَلى غَيرِه:

الكَسْبُ هو ما يُبَثُّ وِلايةَ بَعضِ النّاسِ بعضًا

آثرَ لفظَ الكسبِ في الآيةِ كيْ يُحقِّقَ المشاكَلَةَ والتّناسُبَ الحقيقيَّ لا الصّوريَّ بينَ الظّالمينَ، الَّتي يُقرِّرها الكَسْبُ والعملُ في تضامٍّ بعضِهمْ إلى بعضٍ "فالمدارُ في الولايةِ بينَ النَّاسِ عَلى المشاكَلةِ النَّفسيَّةِ الّتي قرَّرهَا الكسبُ والعملُ، لا الصُّوريّةِ أو اللَّفظيَّةِ الّتي لَم يُقرّرِ الكَسْبُ معناهَا؛ ولذلكَ قالَ: ﴿بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾، ولمْ يقلْ: بما كانُوا يُلقَّبونَ"[2] أي: يُلقَّبونَ بما ليسَ فيهِم، فكلُّ جامعةٍ بينَ النّاسِ لا يؤيِّدُها الكسبُ والعملُ تضعُفُ حتّى تكونَ صوريَّةً لفظيَّةً.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(الكَسْبُ)، و(النَّيْلُ)، و(الرِّبحُ)، و(الجَنْيُ):

وردَ فعلُ الكسبِ في قولِه: ﴿بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ وعامَّةُ معناهُ في الطَّلَبِ والالتماسِ والاجتلابِ والتَّحصيلِ، وقد مرَّ في شرحِ المفرداتِ؛ والكسبُ يكونُ لِلنَّفسِ ولغيرِها، خلافَ الاكْتِسابِ؛ إذ يكونُ مُختصًّا

(1) القاسمي، محاسن التّأويل: 4/492.
(2) رضا، تفسير المنار: 8/91.

بالنّفسِ لا يَتعدّاها إلى غَيرِها؛ وفيهِ نَظرٌ، أمّا النّيْلُ فالأصلُ فيه الوصولُ إلى الشَّيءِ وبلوغُهُ، وإذا أُطلِقَ كانَ بمعنى النَّفعِ، ويقعُ عَلى الشَّرِّ بالتّقييدِ[1]، ويَبعدُ أن يكونَ مناسِبًا في مَوضِعِ ﴿يَكْسِبُونَ﴾ بُعدًا كبيرًا لِتبايُنِ المعنَيينِ ارتفاقًا معَ سياقِ الآيةِ؛ فالموضِعُ موضِعُ جزاءٍ وعِقابٍ وليس مَوضِعَ نَفعٍ ومَصلحةٍ ولا سيّما معَ إطلاقِهِ، أمّا الرِّبحُ فهو ما كانَ مُختصًّا بالتّجارةِ والبَيعِ والشِّراءِ[2]، ونقيضُهُ الخسارةُ، والجَنيُ مُختَصٌّ بِقَطفِ الثِّمارِ، وذُكرَ أيضًا جنى النَّخلِ، ومنهُ قولُهُم: جنى ثمرَ النَّخلِ حتّى قيلَ: إنَّه مُختصٌّ بالنّخلِ وليسَ كذلكَ؛ لاسْتعمالِهِ مجازًا في قَولِهِم: فُلانٌ يَجتني ثمرَ الفؤادِ[3]، والأعمُّ الأغلبُ فيهِ مُتعلِّقٌ بجنيِ الثَّمرِ حقيقةً كانَ أمْ مَجازًا.

الكَسْبُ طَلَبٌ وتَحصيلٌ، والنَّيْلُ بلوغٌ ووصولٌ، والرِّبحُ مُختصٌّ بالبيوعِ، والجَنْيُ للثَّمرِ عندَ اليُنوعِ

(1) الكفوي، الكليات، ص: 910.
(2) الزمخشري، أساس البلاغة: (ربح).
(3) البندنيجي، التّقفية في اللّغة، ص: 127.

﴿يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ قَالُواْ شَهِدۡنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَاۖ وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰفِرِينَ ١٣٠﴾ [الأنعام: 130]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

أتبعَ محاورةَ الولاءِ بينَ الإنسِ والجنِّ بمحاوَرةٍ حاصِلُها مُعاداةُ مَنْ ضرَّتْ مُعاداتُه

لَمّا نقلَ لَنا الحقُّ ﷻ في الآيةِ السّابقةِ محاورةَ الجنِّ والإنسِ وما نتجَ عَنها منَ الضَّرَرِ والخُسرانِ "وكانَ حاصِلُها أنّها موالاةُ مَنْ ضرّتْ مُوالاتُهُ، أتبعَها سبحانَهُ بمحاورةٍ أخرى حاصِلُها معاداةُ منْ ضرّتْ معاداتُهُ"[1]، فجاءَ بهذهِ الآيةِ وصدَّرَها بِنداءِ الجنِّ والإنسِ؛ إتمامًا لما كانَ منَ الآياتِ السّابقةِ منَ التَّوبيخِ والتَّقبيحِ.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَقُصُّونَ﴾: فعلٌ دالٌّ عَلى الحالِ والاسْتِقبالِ، مُسنَدٌ إلى الجَمَاعَةِ؛ الجَذرُ اللُّغَويُّ منهُ (قصص)، وهوَ أصلٌ يَدُلُّ عَلى تتبُّعِ الأثرِ حتّى يعلمَ صاحِبُهُ أينَ يكونُ، والقَصَصُ: الأخبارُ الَّتي يَتبَعُ بعضُها بعضًا، كقولِه تعالى: ﴿نَحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ﴾ [يوسف: 3] أي: نُبيِّنُ لكَ منَ البَيانِ أحسنَهُ، مِنْ قَولهم قَصَّ الخبرَ، أي: جاءَ بالقصّةِ[2]، والقَصُّ اقْتفاءُ الأثَرِ، ومنهُ القِصَّةُ وهي مَعروفَةٌ، وهيَ الأمرُ والحديثُ. ومعنى ﴿يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ﴾، أي: يُخبرونَكُم بأدلةِ تَوحيدِي وصِدقِ أنبيائي، والعملِ بما أمرتُهم والانتهاءِ عمّا نَهيتُهم[3].

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 7/271.
(2) ابن دريد، جمهرة اللّغة، والجوهريّ، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، والسّمين، عمدة الحفاظ: (قصص).
(3) ابن جرير، جامع البيان: 12/120.

2) ﴿وَغَرَّتْهُمُ﴾: فعلٌ ماضٍ؛ الجَذرُ اللُّغويُّ مِنهُ (غرر)، أصلٌ يدُلُّ على الغَفلةِ ونُقصانِ الفِطنةِ، والغَرُّ منَ الخداعِ، يُقالُ في المؤمنِ إنَّه غِرٌّ كريمٌ، وهو الَّذي يلبّيكَ مُسرِعًا مُنخدِعًا لِلينِه وانْقيادِه، والغرورُ ما يغرُّ الإنسانَ كالجاهِ والمالِ والشّهوةِ، وقد فُسِّرَ بالشَّيطانِ أيضًا، وبالدُّنيا الَّتي تَضرُّ وتَغرُّ، ويُقالُ: غرَّتهُ الدُّنيا، أي: خدَعَتهُ بزُخرُفِها وزينَتِها[1]. والمعنى في الآيةِ: لأجلِ استيلاءِ حُبِّ الدُّنيا عَلى قلوبِهِم أعرَضوا عَنْ حقيقةِ الدّينِ واقْتصَروا عَلى تَزيينِ الظَّواهرِ لِيتوسَّلوا بِها إلى حُطامِ الدُّنيا[2].

المَعْنى الإجْماليُّ:

تَقريعُ الكافرينَ عَلى عَدَمِ إيمانِهِم، وإعراضِهِم عنِ الهُدَى المرسَلِ إلَيهِم

في يومِ الحشرِ ينادي الحقُّ ﷻ معشرَ الجنِّ والإنسِ كلَيهما مُقرِّرًا لَهما: ألمْ يأتِكُمْ رُسُلٌ مِنْ جِنسِكُم - فهُمْ منَ الإنسِ - يَتلونَ عَلَيكُم ما أنزلَ اللّهُ عَلَيهم وما أجْرى عَلى أيديهِم مِنْ نِذاراتٍ، وبِشاراتٍ؟ وليسَ لَهم إلا أنْ يُقرّوا بالشهادةِ على أنفسِهِم بالتَّبليغِ والإنذارِ، فكذَّبوا وجَحَدوا، وخَدعَتهُمُ الدُّنيا بزينَتِها، وأقَرّوا عَلى أنفسِهِم أنَّهم كانوا في الدُّنيا كافرينَ باللّهِ وبرُسُلِهِ، ولنْ ينفعَهُم هذا الإقرارُ ولا الإيمانُ، لِفواتِ وقتِهِ[3].

وفي الآيةِ ذمٌّ لَهم على سوءِ نَظَرِهِم وخَطَأِ رأيِهِم، فإنَّهمُ اغْترّوا بالحياةِ الدُّنيويَّةِ ومَلذّاتِها، وأعرَضوا عنِ الآخرةِ بالكليَّةِ، وفيها تَحذيرٌ للسّامعينَ مِنْ مِثلِ حالِهِم[4].

(1) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، والسّمين، عمدة الحفّاظ: (غرّ).
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 13/24.
(3) جماعة من العلماء، المختصر في تفسير القرآن الكريم، ص: 144.
(4) البيضاوي، أنوار التّنزيل: 2/183.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بَلاغةُ الفَصْلِ في الآيةِ:

تَعْدَادُ جَرائمِ الكافرين مُفضٍ إلى خلودِهِمْ، وإبطالِ مَعذرتِهِمْ، واستحقاقِهِمُ العقابَ

قولُه تعالى: ﴿يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ﴾ جملةٌ مفصولةٌ عمّا سبقَتها؛ لأنّها واقِعَةٌ في مَقامِ إحصاءِ جرائمِهِمْ وذُنوبِهِمُ الَّتي كانتْ سببًا في اسْتحقاقِهِمُ الخلودَ في النّارِ، فأبطلَ مَعذِرتَهمْ؛ وفيها إعلانٌ وتقريرٌ على أنَّهُم مَحقوقونَ بِما جُزُوا به[1] مِنْ غَيرِ ظُلمٍ ولا طُغيانٍ، فكانَ ذلكَ أحرى أَنْ يُؤْخَذُوا بالعَذابِ والعِقابِ.

تَوجِيهُ الاسْتئنافِ البَيانيِّ في الآيةِ:

حالُ الظّالمينَ عندَ القُدُومِ على اللهِ يومَ القيامةِ صَعبٌ عسيرٌ

وقولُهُ تَعالى: ﴿يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ﴾ استئنافٌ بيانيٌّ ناشئٌ عنْ سؤالٍ يخطرُ على بالِ مَنْ يقرأُ الآياتِ الَّتي قبلَها أوْ يسمعُها؛ ومفادُ هذا السُّؤالِ: ما حالُ هؤلاءِ الجائرينَ ممّنْ تولّى بعضُهمْ بعضًا في الدّنيا بما كانوا يقترفونَ منَ الأوزارِ والخطايا إذا قدِموا على اللّهِ يومَ القيامةِ[2]؟ فيكونُ الجوابُ أنَّ هؤلاءِ ينادَوْنَ ويسألُهمُ الحقُّ ﷻ عنْ دعوةِ الرُّسُلِ لإقامةِ الحُجَّةِ عليهمْ وما يترتَّبُ عَليهمْ منَ الجزاءِ جرَّاءَ مُخالَفَتِها.

دَلالةُ التَّعبيرِ بالنِّداءِ في المَطلَعِ:

رُبَّ نداءٍ أشدُّ منَ التَّوبيخِ

والتَّعبيرُ بالنّداءِ في قولِه تعالى: ﴿يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ﴾ دَلالةٌ على التَّوبيخِ والتَّقريعِ؛ لِيزدادَ المُنَدَّدُ عَليه رَوعًا وهلَعًا[3].

سِرُّ نِداءِ الجنِّ والإنسِ بإضافةِ مَعْشرٍ نداءً واحدًا:

عندَ وُقوعِ الموالاةِ تذهبُ الفروقُ وتلتحمُ المُلِمَّات

وسِرُّ نِدائِهم جميعًا بصيغَةٍ واحدةٍ: ﴿يَٰمَعۡشَرَ﴾ ولم يفصلْ بينَ الجنِّ والإنسِ، أنّهُ عاملَهم كالجنسِ الواحدِ؛ لموالاةِ بعضِهم بعضًا ولاتّباعِ بعضِهم بعضًا، ولإظهارِ أنَّهما خَلقانِ مُختلِفانِ في الصُّورةِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 75/أ8.
(2) رضا، تفسير المنار: 8/92.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 75/أ8.

والطَّبيعةِ والقُدُراتِ، ولكنَّهُما مُتشابِهانِ في الغايةِ والمصيرِ، فقدْ خُلِقا لِعبادةِ اللّهِ تعالى وطاعتِهِ، وهُما محاسَبانِ على أفعالِهما يومَ القيامةِ، وهُما مَجزِيَّانِ بالجنَّةِ أو النّارِ بحسَبِ أعمالِهما؛ فاللّهُ تعالى يُناديهِما بنداءٍ واحدٍ لِيُذَكِّرَهُما بنعمتِهِ عَلَيهِما بإرسالِ الْمُرسَلينَ لَهُما، ولِيوَبِّخَهُما عَلى تَكذيبِهِما رُسُلَهُ وتَجاوزِهِما حُقوقَه.

تَوجِيهُ نِداءِ الجِنِّ والإنسِ:

الـنّـداءُ مُـؤذِنٌ بِتَبكيتِ المُشْرِكِينَ وَتَقْرِيعِهِمْ

وجهُ نداءِ الجنِّ والإنسِ في قَولِه تَعالى: ﴿يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ﴾ في ذلكَ اليومِ الْمُريعِ تَبكيتُ المشركينَ، وتحسيرُهُم على ما فرَّطوا في حيَاتِهِمُ الدُّنيا منْ عبادتِهِمُ الجنَّ، أوِ الالتِجاءِ إلَيهِمْ والاسْتعانَةِ بِهِم[1].

تقديمُ الجنِّ عَلى الإنْسِ:

الـجـنُّ أَصْـلُ الشَّرِّ والغَوايةِ والأسـبـقُ في الخلْقِ والوُجودِ

وقدّمَ الجنَّ على الإنسِ في قولِهِ تَعالى: ﴿يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ﴾؛ لأنّ الآيةَ مَسوقةٌ لِبيانِ غَلبَتِهِم[2]، ولأنَّ الإنسَ كانوا أولياءَ للجنِّ مُنقادينَ لَهم، خاضِعينَ لِسُلطتِهِم.

وقدّمَ الجنَّ على الإنسِ لأنَّ الاستغواءَ كانَ مِنهُمْ؛ فهُمْ أكثرُ غَوايةً[3]، ثمَّ استجابَ الإنسُ لِغَوايتِهِمْ؛ فالجنُّ أساسُ الشَّرِّ في ذلكَ؛ فَهُمُ الموَسوسونَ بِالشَّرِّ وهمْ مَنْ دعا إليهِ؛ ولذلكَ قُدِّموا في سياقِ اللَّوْمِ أنْ أهملوا دعوةَ الرُّسلِ[4].

عِلَّةُ الحذْفِ في جُملةِ النّداءِ:

قد يُغنِي المذكورُ عنِ المحذوفِ

وجملَةُ: ﴿يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ﴾ مقولُ قولٍ محذوفٍ تقديرُهُ: يومَ يَحشرُهُمْ فيُقالُ: يا مَعْشَرَ الجنِّ والإنسِ[5]، فحذفَهُ اسْتِغناءً بالواردِ، وهوَ النداءُ.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/77.
(2) البقاعي، نظم الدّرر: 7/271.
(3) المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 1/343.
(4) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2672.
(5) الهرري، حدائق الرّوح والرّيحان: 9/73.

بَلاغةُ الاستفهامِ في الآيةِ:

استفهامٌ تقريريٌّ داخلٌ على نَفْيِ الأمْرِ المُقَرَّرِ عَلَيهِم

وقولُهُ تَعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى﴾ جاءَ بالاستفهامِ إثرَ النِّداءِ مُباشَرةً، والهمزةُ فيهِ للاستفهامِ التَّقريريِّ؛ وهوَ سؤالٌ عنْ نفيِ مجيءِ الرُّسُلِ إليهمْ، فقد أرسلَ اللّهُ تعالى إليهمُ الرُّسُلَ مُبَشِّرينَ ومُنذِرينَ، غيرَ أنَّ المظنونَ في جوابِهِمْ سيكونُ بالنَّفيِ، فجاءَ بأسلوبِ التَّقريرِ، فإذا أقَرّوا بالإثباتِ كانَ ذلكَ أقطعَ لِأعذارِهِم في أنْ يؤاخذَهُمُ اللّهُ بذنوبِهم هذهِ، فإذا كانتْ لهُم شُبْهَةٌ في المُقرَّرِ عَلَيهِم ارتَبكُوا وتَلعثَموا وتَبيَّنتْ أفعالُهُمْ فأُخِذُوا بِها[1].

والاستفهامُ في الآيةِ يَحملُ معنى التّوبيخِ والتّقريعِ؛ فإنَّ الحقَّ ﷻ أرسلَ إليكمُ الرُّسُلَ لِينبِّهوكُمْ عَلى مُرتكَباتِكُمْ، ويُقيموا لكمُ الحُجَجَ البالغةَ، لكنَّكمْ لمْ تَقبلوا ولمْ تتَّعِظوا ولمْ تَعتَبِروا[2].

فائِدَةُ تَنْكِيرِ الرُّسُلِ:

تَفخيمُ الرُّسُلِ وتَكثيرُهُمْ أَدْعَى إلى أَخْذِ المُعْرِضينَ بِالعَذابِ

جاءَ بلفظةِ الرُّسُلِ نَكِرةً في قولِهِ تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ﴾ وفائدةُ التَّنكيرِ لِلتَّعظيمِ، والتَّفخيمِ، والتَّكثيرِ[3]، وذلكَ أَدْعَى إلى أَخْذِهِمْ بالعذابِ وإقامةِ الحُجّةِ عَلَيهِمْ؛ فقدْ أرسلْنا لَكُمُ الرُّسُلَ الكثيرةَ لكنَّكمْ لمْ تُؤمِنوا وتَمادَيتُمْ، فما جَزاؤكمْ إلّا العذابُ المُهينُ.

بَديعُ وصْفِ الرُّسُلِ بـ ﴿مِّنكُمْ﴾:

مَقامُ الرّسالةِ لا يكونُ إلّا في أشرافِ الإنسِ؛ فَفي الوصْفِ زيادةُ إقامةِ الحُجّةِ عَلَيهِم

أردَفَ كلمةَ ﴿رُسُلٌ﴾ بقولِه ﴿مِّنكُمْ﴾، فهيَ لَيستْ لِلتَّبعيضِ منَ الفريقَينِ؛ إذْ يَمتنِعُ أنْ تكونَ الرُّسُلُ منَ الجنِّ؛ لأنَّ ظاهرَ النُّصوصِ الشَّرعيّةِ يدُلُّ عَلى أنَّ الرُّسُلَ منَ الإنسِ فقطْ، فَمَقامُ الرِّسالةِ لا يكونُ إلّا في أشرافِ الإنسِ والملائكةِ، ولا يكونُ منَ الجنِّ؛ لِانحطاطِ رُتبتِهِمْ عَنْ رُتبَةِ الإنسِ، وإنّما ساقَ الوصْفَ لزيادةِ إقامةِ الحُجّةِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/75أ.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 12/120 - 121، وابن وهب الكاتب، البرهان في وجوه البيان، ص: 94.
(3) المطعني، التّفسير البلاغي للاستفهام: 1/343.

عَليهمْ، أيْ أنَّهمْ رُسُلٌ تَعرفونَ صِفَاتِهمْ وتَسمعونَ كلامَهمْ[1]، مِثلَما تَقولُ لِلمخاطَبِ: لَستُ منكَ ولَستَ منِّي، فلا تَبعيضَ هنا البتَّة.

دَلالةُ (مِن) في قولِهِ تعالى: ﴿مِّنكُمْ﴾:

التّبعيضُ مِنْ مجموعِ الجِنْسَينِ، فيَصدُقُ عَلى أحدِهِما؛ وهو الإنسُ تَغليبًا

وتَحتمِلُ (مِنْ) في قَولِهِ: ﴿مِّنكُمْ﴾ أن تكونَ دالَّةً عَلى التَّبعيضِ مِنَ الإنسِ تَغليبًا، فالمرادُ مِنْ مجموعِ الجنسَينِ، فَيصدُقُ عَلى أحَدِهما وهوَ الإنسُ؛ إذ لَيسَ في الجنِّ أَنْبِيَاءُ ورُسُلٌ، وإنَّما قدْ يكونُ مِنهُم نُذُرٌ، وهذا قولُ جمهورِ أهلِ العِلمِ، قالَ تَعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِم مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰٓۗ﴾ [يوسف: 109]، وقالَ: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمۡ لَيَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشُونَ فِي ٱلۡأَسۡوَاقِۗ﴾ [الفرقان: 20]، وقالَ تَعالى عَنْ إبراهيمَ الخليلِ عليه السلام: ﴿وَجَعَلۡنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلۡكِتَٰبَ﴾ [العنكبوت: 27]، ولأنه يَبعُدُ أنْ يُرسِلَ الحقُّ سبحانه وتعالى رُسُلًا مِنَ الجنِّ عَلى وجهِ التَّحقيقِ، أو مِنْ جِنْسِهم حقيقةً[2]

وإن وردَ سؤالٌ كيفَ قالَ ﴿مِّنكُمْ﴾، والرّسلُ من الإنسِ خاصَّةً لا منَ الجنِّ؟ فالجوابُ عنْ ذلكَ أنَّ التَّبعيضَ هنا عَلى طَريقةِ قَولِهِ تَعالى: ﴿يَخۡرُجُ مِنۡهُمَا ٱللُّؤۡلُؤُ وَٱلۡمَرۡجَانُ ٢٢﴾ [الرّحمن: 22] وإنّما اللّؤلؤُ والمرجانُ يخرجان مِنَ البحرِ المِلْحِ دونَ العذبِ فكأنَّكَ قُلتَ: خروجُهُ منْ بَعضِهما[3].

عِلَّةُ جمْعِ الرُّسُلِ بقولِهِ تعالى: ﴿يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي﴾:

دعوةُ الأنبياءِ واحدةٌ وآياتُهم ذاتُ غايةٍ واحدةٍ

وقولُهُ تَعالى: ﴿يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي﴾ جاءَ بوَصْفِ الرُّسُلِ مَجموعًا؛ لأنَّ الأنبياءَ "قَصّوا آياتِ الأنبياءِ في مَجموعِهمْ، لا في آحادِهمْ، وبذلكَ كانتِ الآياتُ بينَ يدي الجنِّ والإنسِ معلومَةً ظاهرةً بيِّنةً تدعوهُمْ إلى الإيمانِ باللّهِ واليومِ الآخِرِ"[4].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8أ/76.

(2) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 17/163، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 7/302، والزّحيلي، التّفسير المنير: 8/45.

(3) الفرّاء، معاني القرآن: 1/354، وابن جرير، جامع البيان: 12/121.

(4) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2674.

تَوجِيهُ المتشابِهِ اللَّفظِيِّ:

اختيارُ مُفرَدةِ القَصِّ والتِّلاوةِ بحسَبِ السِّياقِ

قالَ تَعالى هنا: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِي﴾، وقالَ تعالى في الزّمر: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ﴾ [الزّمر: 71].

فذكرَ في آيةِ (الأنعام) أنّهُ أتبعَ بعضَ الظّالمينَ بعضًا في النّارِ، ثمَّ أتبَعَ بعضَ الآياتِ بعضًا فيما دارَ مِنْ حِوارٍ مع الإنسِ والجنِّ؛ فالسّياقُ في الإتباعِ؛ فناسبَهُ أنْ يعبِّرَ بقولِه: ﴿يَقُصُّونَ﴾؛ لأنَّ القصَّ في اللُّغةِ بمعنى الإتباعِ[1]، ولمّا كانَ المتكلِّمُ هوَ الحقَّ ﷻ ناسبَهُ إضافةُ الآياتِ إلى الضَّميرِ العائدِ عَليه ﴿ءَايَٰتِي﴾.

أمّا آيةُ الزُّمَرِ فقد سبقَهَا قَولُهُ: ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ۝٧٠﴾ [الزمر: 70] وهوَ كلامٌ يُتلى وليسَ منْ بابِ القَصَصِ والإتباعِ، بلْ هوَ تَذكيرٌ مِنْ خزَنَةِ جهنَّمَ لِمَنْ كفرَ باللهِ وبربوبيَّتِهِ تَعالى، فأَقَرّوا وسَلَّموا وكانتْ إجابَتُهُم (بَلَى).

بَلاغةُ الكِنايةِ في ﴿يَقُصُّونَ﴾:

أُريدَ بالقَصِّ الإخبارُ عنِ وَحدانيَّتِهِ تعالى ووَعْدِهِ ووَعيدِهِ

والتَّعبيرُ بقولِه: ﴿يَقُصُّونَ﴾ مِنَ القَصَصِ وهوَ الإخبارُ، والمغزى يُخبرونَكُمُ الأخبارَ الَّتي تدُلُّ على وحدانيَّتِهِ تَعالى، ويبلِّغونَكُمْ بما جاءَ بهِ الرُّسُلُ منَ الأمرِ والنَّهيِ والوَعدِ والوَعيدِ، وتَسميَتُهُ قَصًّا؛ لأنَّ الأكثرَ فيهِ الإخبارُ عنْ صِفاتِهِ تَعالى وعَنْ رُسُلِهِ وأُمَمِهِمْ، وما حلَّ بهِمْ نَعيمًا أوْ عذابًا[2].

وَجْهُ إيثارِ ﴿عَلَيْكُمْ﴾ على (لَكُمْ):

يُومِئُ التَّعبيرُ إلى عُلُوِّ المكانةِ وسُموِّ الرُّتبةِ والمقَامِ

في قَوْلِهِ تَعالى: ﴿يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِي﴾ آثرَ التَّعبيرَ بالمتعلِّقِ ﴿عَلَيْكُمْ﴾ عَلى (لَكُم)؛ لأنَّهُ قصُّ الكتبِ "المنزَلَةِ عَليكم المبيِّنَةِ

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (قصص).
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/78أ.

لأصولِ الإيمانِ وصالحِ الأعمالِ وفاسدِها"[1]، والتَّعبيرُ بـ (عَلى) يشي بِعُلُوِّ المنزلَةِ وسُموِّ المقامِ، فضلًا عمّا يُلمَحُ فيهِ منَ الإلزامِ، والإيجابِ[2].

دَلالةُ إضَافةِ الآياتِ إلَيهِ تَعالى:

اشتمالُ الآياتِ الشَّرعيَّةِ والكونيَّةِ الدّالَّةِ عَلى الخَلْقِ والأمْرِ

قَولُهُ: ﴿ءَايَٰتِي﴾ نَسَبَ الآياتِ إلَيْهِ ﷻ؛ لأنَّ المتكلِّمَ هُنا هوَ الحقُّ ﷻ، وهذهِ الآياتُ هيَ آياتُ اللّهِ الشَّرعيَّةُ الواضِحةُ المشتمِلةُ عَلى الأمرِ والنَّهيِ وبيانِ الخيرِ والشَّرِّ، وآياتُهُ في الكونِ مِنْ خَلقِ السَّمَاوَاتِ والأرضِ، وتَسخيرِ ما في الأرضِ وإرسالِ الرُّسُلِ بالبيِّناتِ؛ لِتَعريفِ الإنسانِ بربِّهِ وعبادتِهِ، والبَعْثِ والجزاءِ والعقابِ وغَيرِها[3]، فناسبَ ذلكَ إضافتُها إلَيهِ تَعالى؛ لتعمَّ في دلالتِها الشَّرعيَّةِ والكونيَّةِ.

عِلَّةُ اصْطِفاءِ لَفْظِ الإنْذارِ:

تَمَحُّضُ المخاطَبينَ لِلشَّرِّ ناسبَهُ الإنْذَارُ

أورَدَ لفظَ الإنذارِ في قَولِهِ تَعالى: ﴿وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ﴾ وهوَ خبرٌ بما يُخيفُ أو يُكرَهُ وهوَ نقيضُ البشارةِ، وعلّةُ اصطفاءِ هذا اللَّفظِ أنّ اللِّقاءَ يومَ الحشرِ يتضمَّنُ لأهلِ الشَّرِّ شرًّا، ولَمّا كانَ هؤلاءِ المخاطَبونَ قدْ تمحَّضوا لِلشَّرِّ ناسَبَهُ أنْ يجعلَ إخبارَ الرُّسُلِ إيّاهُمْ بِلقاءِ ذلكَ اليومِ إنذارًا[4].

نُكتَةُ التَّعبيرِ عنِ القَصِّ والإنْذارِ بِالمضارعِ:

أثرُ القَصِّ والإنْذارِ مُتجدِّدٌ في خِطابِ المدْعُوِّين

ووردَ الفِعلانِ في قَولِهِ: ﴿يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ﴾، و﴿وَيُنذِرُونَكُمْ﴾ بِصيغَةِ المضارَعةِ؛ لِإفادَةِ التَّجدُّدِ والاسْتمرارِ في فعلَي القَصِّ، والإنذارِ؛ وهُما فعلانِ يَحصلانِ في حياتِهِمُ الدُّنيا، وَلا سِيَّمَا إذا لوحِظَ صِدقُ النَّبيِّ وأمانتُهُ في التَّبليغِ، وحِرصُهُ عَلى إيصالِ رسالةِ اللّهِ إلى قومِهِ، وَاسْتِنفَاذِ الوسائلِ والأساليبِ الممكِنَةِ لِهداياتِهِمْ، إذ يقومُ بِدعوةِ قومِهِ بِالحِكمَةِ والموعظَةِ الحسنَةِ، وبيانِ أنَّهُ رَسولٌ منَ

(1) عبد الحميد الخطيب، تفسير الخطيب المكّيّ، ص: 14.
(2) المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 1/343.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 12/121، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (قصص).
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/78.

اللّهِ يدعوهُمْ إلى عِبادَتِهِ وحدَهُ لا شريكَ لَهُ، وتحذيرِهِمْ مِنْ عذابِ اللّهِ إنْ كفَروا بِهِ، ثمَّ ما يتبعُ ذلكَ مِنْ دعوةِ قومِهِ بالجدالِ والحُجَّةِ، وردِّ شبُهاتِهِم وأعذارِهِم، وإثباتِ باطِلِهِم وضلالِهِم، وتقديمِ البراهينِ والآياتِ عَلى صِدقِهِ وصلاحِ دعوتِهِ، وهذا كلُّهُ يحتاجُ إلى صَولاتٍ وجَولاتٍ وتَكرارٍ وتجدُّدٍ واستِمرارٍ في إخبارِهِمْ بآياتِ اللّهِ الواضحةِ المشتمِلَةِ عَلى الأمرِ والنَّهيِ، وبيانِ الخيرِ والشَّرِّ، ويُنذرُهُمْ لقاءَ عذابِ اللّهِ يومَ القيامةِ.

وَجْهُ التّعبيرِ بقولِهِ تعالى: ﴿وَيُنذِرُونَكُمْ﴾، دونَ (يخوِّفونَكُمْ):

الإنـذارُ تحذيرٌ يَشوبُه مَكروهٌ سَيقَعُ

آثرَ الحقُّ سبحانَهُ التَّعبيرَ في الآيةِ الكريمةِ بالفعلِ: ﴿وَيُنذِرُونَكُمْ﴾، ولمْ يقُلْ: (يُخَوِّفُونَكُمْ)؛ لِبَيانِ وتصويرِ أنَّ الرُّسُلَ عليهم السلام لا يريدونَ إلَّا بلاغَ الرِّسالةِ وتبيينَ الحقِّ مِنَ الباطلِ، وأنَّهم لا يتحكَّمونَ في قلوبِ النّاسِ ولا يُجبِرونَهم عَلى الإيمانِ أو الكفرِ، بلْ يتركونَ لَهمُ الخِيارَ والحريةَ في اتِّباعِ دَعْوَتِهِمْ أَوْ رَفْضِهَا، وهذا حالُ رُسُلِ اللّهِ كافّةً: ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ﴾ [النّساء: 165]، فالإنذارُ بمعنى التَّحذيرِ مِنْ مَكروهٍ سَيقعُ، وبمعناهُ جاءَ سائرُ ما وقعَ مِنْ التَّركيبِ في القرآنِ الكريمِ بصِيَغٍ كثيرةٍ: كالفعلِ (أنذرَ) ومضارعِهِ وأمرِهِ[1]، وهو أسلوبُ خطابٍ أدَبيٍّ فيهِ مراعاةُ نَفسيَّةِ المتَلقِّي؛ وهوَ أرقى في الخطابِ مِنَ التَّخويفِ والتَّرهيبِ؛ فالتَّخويفُ هوَ إثارةُ الخوفِ والفَزَعِ في نفسِ المخاطَبِ بطريقةٍ قدْ تكونُ مُبالَغةً، وهوَ يؤدِّي إلى الكراهيَةِ أوِ العِنادِ أوِ التَّمرُّدِ.

فاللّهُ تعالى بِهذا البَيانِ عنِ الرُّسُلِ يُثني عَليهم بِأنَّهم يُنذِرونَ النّاسَ مِنْ لِقاءِ يومِ القيامةِ وما يحصُلُ فيهِ، الَّذي هوَ حقٌّ ولا مفرَّ مِنهُ، وأنَّهم يُبشِّرونَ المؤمنينَ بالجنَّةِ ويُحذِّرونَ الكافرينَ مِنَ النّارِ، بغَيرِ غِلظَةٍ أو قَسوةٍ؛ كما وصفَ خاتَمَهُم ﷺ بِقَولِهِ: ﴿فَبِمَا

(1) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (نذر).

رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَۖ﴾ [آل عمران: 159]

تَوْجِيهُ الكِنايَةِ في قَولِهِ تعالى: ﴿لِقَآءَ يَوْمِكُمْ﴾:

سُمّيَ الحَشْرُ باللِّقاءِ لملاقاةِ الأهوالَ والأوجالَ

وقولُهُ تَعالى: ﴿لِقَآءَ يَوْمِكُمْ﴾ كِنايةٌ عَنْ يومِ القيامةِ، وأنّ ذلكَ اليومَ يَطلبُكُم طَلبًا حثيثًا سريعًا؛ فتصيرونَ إليهِ في مواخرِ الأيامِ ومعابرِ الآثامِ مِنْ غيرِ شعورٍ مِنكُم لِسُرعةِ سيرِكُم فيهِ[1].

والتّعبيرُ عن اليومِ باللّقاءِ لما يلاقونهُ مِنَ الأهوالِ والمحنِ والأوجالِ، وعادةُ العربِ أنْ تذكرَ اليومَ؛ ومرادُها ما يحصلُ فيهِ؛ لأنَّ الزمنَ بنفسهِ كباقي الأزمانِ، ومنهُ قولُ نبيِّ اللّهِ لوط عليه السلام: ﴿هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ٧٧﴾ [هود: 77][2].

وَجْهُ إيثارِ اسْمِ الإشارةِ ﴿هَٰذَآ﴾:

عَدَلَ عنِ الوصفِ إلى الإشارةِ تَهويلًا لأمرِ اليَومِ

آثرَ ذِكرَ اسمِ الإشارةِ في قولِهِ تَعالى: ﴿يَوْمِكُمْ هَٰذَآ﴾؛ تهويلًا لأمرِ ذلكَ اليومِ ومُشاهداتِهِ الجسيمةِ، فلا تحيطُ العِبارةُ بوصفِهِ لِشدَّتِهِ وهَولِهِ وفَظاعَتِهِ؛ فعدلَ عنِ الوصفِ إلى الإشارةِ[3] كقولِهِ تَعالى: ﴿هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ١٤﴾ [الطّور: 14].

وإيثارُ اسمِ الإشارةِ الدّالِّ عَلى القريبِ ﴿هَٰذَآ﴾؛ لِلدَّلالةِ على إحاطةِ ذلكَ اليومِ بِهِم، وتلبُّسِهِم بِهِ[4]، وقُربِهِ مِنهُم وتحقُّقِ وُقوعِهِ.

وَجْهُ الاستئنافِ في ﴿قَالُواْ﴾:

في القَولِ جوابٌ عَنْ سؤالٍ يَعرِضُ ردَّهُمْ بعدَ إقرارِهِمْ بمجيءِ الرُّسُلِ

وقولُهُ تَعالى: ﴿قَالُواْ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَاۖ﴾ جملةٌ مستأنَفةٌ ناشِئةٌ عَنْ سؤالٍ مقدَّرٍ، فماذا كانَ ردُّهُمْ بعدَ إقرارِهِمْ بمجيءِ الرُّسُلِ وإنذارِهِم لقاءَ هذا اليومِ، وتوبيخِهِم وتقريعِهِم؟[5]، فكانتْ إجابتُهم

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 7/272.
(2) الشّنقيطي، العذب النمير: 2/273.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/أ78.
(4) المطعني، التّفسير البلاغي للاستفهام: 1/343.
(5) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/186.

بفعلِ القَولِ ﴿قَالُواْ﴾، بعدَ أنْ تبيَّنتْ لَهمُ الحقيقةُ؛ حقيقةُ عِصيانِهِمُ الرُّسُلَ وإعراضِهِم عنْ لِقاءِ هذا اليومِ.

بَراعةُ التَّعبيرِ بالماضِي ﴿شَهِدْنَا﴾:

شَهادةُ الكفّارِ بقبائِحِهم بعد إنزالِ محاسِنِ الله بهم إقرارٌ لا فِرارٌ

التَّعبيرُ بصيغةِ الماضي في قولِهِ تَعالى: ﴿شَهِدْنَا﴾؛ لِلدَّلالةِ على أنَّ إقرارَهم هذا عَلى أنَّه تَعالى قدْ فعلَ بِهم منَ المحاسنِ في الزّمنِ الماضي، وأنَّهمُ ارْتَكَبوا في حقِّ أنفُسِهم منَ القبائحِ والموبقاتِ[1] في الزّمنِ الماضي، وهوَ زمنٌ دالٌّ عَلى التَّحقُّقِ والثُّبوتِ وأنَّهُ حصلَ وانْصرَمَ ولا مجالَ للتَّنصُّلِ منهُ، ولهذا جاءَتْ شهادتُهم لِلدَّلالَةِ عَلى جَزْمِهِمْ بأنَّهم كانوا ضالّينَ؛ لِما عاينوا مِنْ قوارعِ الحقِّ بقلوبِهم، وأبصارِهِم[2].

دَلالةُ استِعمالِ الشّهادةِ بمعنَى الإقرارِ:

شَهادتُهم إقرارٌ بإتيانِ الرُّسُلِ إليهِم

استعملَ لفظَ الشَّهادَةِ في قولِهِ تَعالى: ﴿شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَاۖ﴾ بمعنى الإقرارِ؛ لأنَّ الأصلَ في الشَّهادةِ إخبارٌ عنْ أمرٍ تحقّقَ مِنهُ المخبرُ وأظهرَهُ، ومنهُ قولُهُ تَعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلۡعِلۡمِ قَآئِمَۢا بِٱلۡقِسۡطِۚ﴾ [آل عمران: 18]، ويُقالُ شهدَ عليهِ بمعنى أخبرَ عنهُ على جهةِ الثّبوتِ والتّحقُّقِ؛ فالشّهادةُ هنا بمعنى الإقرارِ بإتيانِ الرُّسُلِ إليهِم، وهوَ لا ينافي إنكارَهُمُ الشِّركَ في قولِه: ﴿إِلَّآ أَن قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشۡرِكِينَ ٢٣﴾ [الأنعام: 23]؛ لاختلافِ المخبَرِ عنهُ في الآيتَينِ[3].

تَوجِيهُ جُملةِ الاعتراضِ:

الاغْترارُ بالحياةِ الدُّنيا عِلَّةُ عِصيانِ الرُّسُلِ والإعْراضِ عنِ اليومِ الآخِرِ

قولُهُ تَعالى: ﴿وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا﴾ جملةٌ معترضةٌ بينَ ﴿قَالُواْ﴾ و﴿وَشَهِدُواْ﴾[4]؛ فإنَّهم لَمّا عصَوا الرُّسُلَ وأَعرَضوا عنْ لقاءِ اليومِ

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 7/272.
(2) المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 1/343.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/أ79.
(4) الهرري، تفسير حدائق الرّوح والرّيحان: 9/73.

الآخِرِ، فعَلِموا وعلمَ السّامِعُ والمخاطَبُ "أنَّهمْ ما وقَعوا في هذهِ الرِّبقَةِ إلَّا لأنَّهمْ غرَّتهمُ الحياةُ الدُّنيا، ولولا ذلكَ الغُرور لَما كانَ عملُهمْ ممَّا يرضاهُ العاقِلُ لِنفْسِه"[1].

وفي الجملةِ المعترِضةِ تَجلِيةٌ لارتكابِهِمُ القبائحَ في الدُّنيا، وإلجائِهِمْ في الآخرَةِ إلى الاعترافِ بِكُفرِهِمْ، ووجوبِ العذابِ المقرَّرِ عليهِمْ؛ وهوَ قدحٌ فيهِم، والمعنى أنَّهُمُ اغترّوا بالدَّنيءِ مِنْ دُنياهُمْ وباللّذّاتِ الفانيةِ، وأعرَضوا عنِ النَّعيمِ المُقيمِ، وارتكَبوا الموبِقاتِ؛ فجرَّهُمْ إلى العذابِ الأبَديِّ الَّذي أُنذِروا بهِ[2].

بَلاغةُ المجازِ العقليّ في إسْنادِ ﴿وَغَرَّتْهُمُ﴾ إلى ﴿ٱلْحَيَوٰةُ﴾:

التَّعبيرُ بقولِهِ تَعالى: ﴿وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ لا يرادُ منهُ الحياةُ الدُّنيا نفسُها، إنَّما زينتُها وطلَبُ رياسَتِها والمنافسةُ عَلَيها[3]، والمرادُ بالحياةِ الأحوالُ الَّتي تنتظِمُها كَاللَّهْوِ والفَخرِ والتَّكبُّرِ والعِنادِ والاسْتخفافِ، وأنْ يَغترّوا بما لا نفعَ منهُ؛ وفي ذلكَ كشفُ أحوالِهِمْ وتحذيرُ المخاطَبينَ منَ التَّورُّطِ فيما وَقَعوا فيهِ[4].

بيانُ الاغْترارِ بزينةِ الحياةِ، وتَحذيرُ المخاطَبينَ منَ التَّورُّطِ فيها

دَلالةُ تَركيبِ ﴿ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾:

التَّعبيرُ بتركيبِ: ﴿ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ باللَّفظَينِ معًا لَهُ دَلالةٌ خاصّةٌ، فيرِدُ هذا التَّركيبُ على إرادةِ تصويرِ الإنسانِ وهوَ مستغرِقٌ في هذهِ الحياةِ، غيرُ حريصٍ على ما بعدَها، مُغترٌّ بأهوائِها وشهَواتِها وكأنَّها الحياةُ السَّرمديَّةُ، والحقُّ أنَّها ليستْ إلّا الحياةَ الفانيةَ، لا الحياةَ السّاميةَ؛ فقدَ قرنَها الحقُّ سبحانهُ في غيرِ مَوضِعٍ بالغُرورِ والاغترارِ؛ فهيَ تَغرُّ بصاحبِها فتوردُهُ مواضِعَ الهلاكِ[5].

تَصويرُ الإنسانِ المسْتَغرِقِ في الحياةِ المغترِّ بأهوائِها وشَهَواتِها

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/79أ.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/186.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 12/123.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/79أ.
(5) عودة خليل، التّطور الدّلالي بين لغة الشّعر الجاهلّي ولغة القرآن الكريم، ص: 349 - 350.

تَوجِيهُ الاكْتِفاءِ بذِكرِ ﴿ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا﴾:

لا يُذكرُ المعلومُ سِياقًا إلّا لِنُكتةٍ

اكتفى بذكرِ ﴿ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا﴾ منْ ذكرِ المعاني المتعدِّدَةِ، والأسبابِ المتنوِّعَةِ الَّتي غرَّتهُم وخدَعَتهُم فيها؛ إذ كانَ في ذِكرِها مُكْتَفًى عنْ ذِكرِ غيرِها، لِدَلالةِ الكلامِ على ما تُرِكَ ذِكرُهُ[1].

تَوجِيهُ الاستئنافِ في قولِه تعالى: ﴿وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ﴾:

تَقبيحُ صَنيعِ الظَّالمين بشَهادَتِهم على أنفُسِهم

الواوُ في قولِهِ تَعالى: ﴿وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ﴾ استئنافيّةٌ تصدَّرَتْ تَذييلَ الآيةِ، وفيها نَعيٌ عَلَيهم بما ساءَ مِنْ صَنيعِهم بعدَ الفراغِ مِنْ أخبارِ يومِ القيامةِ ومَشاهدِها، وفيها تقبيحٌ وشَنارٌ عَلَيهم، ثُمَّ تحذيرٌ لِلسّامِعينَ مِنْ مِثْلِ أحوالِهم[2].

سِرُّ تَكرارِ ذِكرِ شَهادَتِهم عَلى أنفُسِهم:

شَهادتُهمُ الثّانيةُ ذمٌّ لَهُم، وبيانٌ لِعَمَى بَصيرَتِهم

وفي قولِهِ تَعالى: ﴿وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ﴾ بعدَ قولِهِ: ﴿شَهِدۡنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَاۖ﴾ تَكرارٌ لِلشّهادةِ، فيُسألُ عنْ سرِّ هذا التَّكرارِ؟ والجوابُ عنْ ذلكَ أنّهُ ليسَ بِتَكرارٍ؛ لاختلافِ المقصَدِ والفَحوى؛ فإنَّ الشّهادةَ الأولى حِكايةٌ لِقولِهِمْ وبيانٌ لاعترافِهِمْ، أمّا الثّانيةُ فذمٌّ لهمْ وتقريعٌ، وتخطِئةٌ لِرأيِهِمْ، وتَصويرٌ لِعجزِ بصيرَتِهمْ؛ فهُمْ قومٌ أغوَتْهُمُ الحياةُ الدُّنيا ولذّاتُها فكانتْ عاقبتُهمْ شهادتَهمْ عَلى أنفُسِهمْ، فكانتْ مَدعاةً لاستيجابِ العذابِ[3].

دَلالةُ الإخبارِ في جُملةِ الشّهادةِ:

في الخبرِ تَعجيبٌ مِنْ حالِهِمْ، وذمٌّ لإعْراضِهِم عنْ تَدَبُّرِ العَواقِبِ

معنى الخبرِ في قولِهِ تَعالى: ﴿وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰفِرِينَ﴾ "مُستعمَلٌ في التَّعجيبِ مِنْ حالِهِمْ، وتَخطئَةِ رأيِهِمْ في الدُّنيا، وسوءِ نظَرِهِمْ في الآياتِ، وإعراضِهِمْ عَنِ التَّدبُّرِ في العَواقبِ"[4]، والخبرُ مُرتَّبٌ على ما سبقَهُ من اغترارِهِمْ؛ فإنَّهُ السَّببُ في مَصيرِهِمْ وشهادتِهِمْ عَلى أنفُسِهِمْ.

---

(1) ابن جرير، جامع البيان: 12/123.
(2) الطّيبي، فتوح الغيب: 6/249.
(3) القاسمي، محاسن التّأويل: 4/495.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/79أ.

بَلاغةُ التَّوكيدِ بأنَّ والجُملةِ الاسميَّةِ:

ذُيِّلَتِ الآيةُ الكريمةُ بقولِهِ تَعالى: ﴿أَنَّهُمْ كَانُواْ كَٰفِرِينَ﴾، وصُدِّرَتْ بـ (أنَّ) المؤكِّدةِ الدّاخلةِ عَلى الجملةِ الاسميَّةِ، وجاءَ المسنَدُ إلَيهِ مُعرَّفًا وهوَ الضَّمير؛ لبيانِ تمامِ الاعتناءِ بمضمونِها؛ ولأنّهمْ كانوا مُضطربينَ في مَوقفِهمْ، فمرّةً ينفونَ عنْ أنفُسِهمْ الكُفرَ ومَرّةً يُثبتونَهُ[1]، فلمّا كانَ هذا حالَهُم مِنَ التَّردُّدِ أكَّدَ الآيةَ دفعًا لتوهُّمِ مَنْ يَظنُّ أنّهمْ عَلى خِلافِ حالِهمْ منَ الكفرِ والعِصيانِ، وزادَ على ذلكَ أنْ عبَّر بالفعلِ ﴿كَانُواْ﴾ الدّالِّ عَلى جِبِلَّتِهمُ الكُفريَّةِ وطَبيعَتِهمُ الشِّركيَّةِ.

مِنْ أحوالِهم الاضطرابُ في الموقِفِ نَفيًا لِلكُفرِ، وإثْباتًا

ويَحتمِلُ حَشْدُ التَّوكيداتِ الإيحاءَ بتيقُّنِهم مِنْ كفرِهم، والتَّسجيلَ عَلَيهم بهذهِ المقابِحِ الَّتي حذَّرَتهُمُ الرُّسُلُ منها، وكانوا في فُسْحَةٍ منَ الأجَلِ، فلمْ يُقيموا لِتوجيهاتِ الرُّسُلِ وَزْنًا، ولا لنُذُرِهمْ قيمةً حتّى ماتوا وهُمْ كافرونَ[2].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(الشّهادةُ) و(الإقرارُ) و(الاعترافُ):

الشّهادةُ هيَ العلمُ بوجودِ الأشياءِ؛ ولهذا فإنَّ ما يُدرَكُ بالحواسِّ ويُعلَمُ ضرورةً يسمّى شاهِدًا، أمّا الإقرارُ فهوَ التَّكلُّمُ بالحقِّ اللّازمِ عَلى النَّفسِ شرطَ أنَ يوطِّنَها عَلى الرُّضوخِ والاستسلامِ والانقيادِ، والاعترافُ إقرارٌ وإنْ كانَ خاليًا منَ التَّوطينِ، وقدْ يكونُ باللِّسَانِ وبغيرِهِ[3]، وعلى ذلكَ فالاعترافُ أقلُّ منَ الإقرارِ، وفي كلٍّ فإنَّ الشَّهادةَ أبلغُ في إيصالِ المقصودِ، فشهادتُهمْ على أنفسِهمْ منْ بابِ العلمِ اليقينيِّ كأنّ الأمرَ مُشاهَدٌ محسوسٌ؛ لأنَّ أصلَ الشّهادةِ هيَ

الشّهادةُ إدراكٌ بالحواسِّ وهيَ أبلغُ في القَصْدِ، والإقرارُ تكلُّمٌ بالحقِّ معَ الانقيادِ، والاعترافُ بلا انقيادٍ

(1) الشّعراوي، تفسير الشّعراوي: 7/3949.
(2) المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 1/344.
(3) العسكري، الفروق اللغوية: 305، 65.

الرؤيةُ بأنَّهمْ عصَوا الرُّسُلَ وتنكَّبوا طريقَ الهدى والإيمانِ، فكانَ التَّعبيرُ بالشَّهادةِ مرَّتينِ: ﴿شَهِدۡنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَاۖ وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰفِرِينَ﴾ أليقَ بِالمَقَامِ والسِّياقِ، وأنسبَ لِتَصْوِيرِ حالِهِم.

﴿ذَٰلِكَ أَن لَّمۡ يَكُن رَّبُّكَ مُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ بِظُلۡمٖ وَأَهۡلُهَا غَٰفِلُونَ ١٣١﴾ [الأنعام: 131]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

رَبْطُ شَهادةِ إقرارِ الجنِّ والإنسِ على كُفْرانِهم، بكَوْنِ اللهِ لا يَظلِمُ أحدًا

بعدَ أنْ شَهِدَتِ الإنسُ والجِنُّ - وهم في أرض المَحشَر - على أنفُسهم أنَّهم كانوا كافرين؛ وأكَّد السِّياق القرآنيُّ تلك الشَّهادة، أتْبَعَ ذلك بقوله: ﴿ذَٰلِكَ أَن لَّمۡ يَكُن رَّبُّكَ مُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ بِظُلۡمٖ﴾، أي: إنَّ ما أصاب أهلَ القُرى من الإهلاك، إنَّما هو جزاءُ ما فعلوه، ولَمْ يَكُنْ عذابُ اللهِ لهم ظلمًا، وهذا هوَ العَدْلُ وَالحقُّ والواجِبُ[1]، وقد اعترفوا على أنفُسِهم بكُفرِهم، وعُدْوانهم، وإنكارهم لرسالات الأنبياءِ، وما جاءَتهُم به رُسُلُهُم مِنَ الحَقِّ.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مُهۡلِكَ﴾: أصلُ الهَلاكِ يَدُلُّ على كَسْرٍ وسُقوطٍ[2]، يُقالُ: هَلَكَ الشَّيْءُ، هَلاكًا وهُلوكًا ومَهْلِكًا، إذا ماتَ؛ فهو هالِكٌ[3]، والإهْلاكُ: إعْدامُ ذاتِ المَوْجودِ وإماتَةُ الحَيِّ[4]، والمَهْلِكُ: مَصْدَرٌ ميميٌّ مِنْ أَهْلَكَ الرُّباعي. والتَّهْلُكَةُ: كلُّ شيءٍ تَصيرُ عاقِبتُهُ إلى الهَلاكِ[5]، وتُطلَق أيضًا على فَقْدِ الشَّيْءِ مع وُجودِهِ مع غَيْرِهِ، ومَصيرِ الشَّيْءِ إلى حيثُ لا يُدْرَى أين هو[6]. والمقصود في الآية: الاستئصالُ والإفناءُ.

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 13/152.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (هلك).
(3) الجوهري، الصحاح: (هلك)، والهروي، الغريبين في القرآن والحديث: 6/1935.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/أ82.
(5) الخليل، العين: (هلك)، والأزهري، تهذيب اللغة: (هلك).
(6) المطرزي، المعرب: (هلك).

❁ المَعْنى الإجْمالِيُّ:

أخبر اللهُ تعالى أنَّ ذلك الإنذارَ والإعذارَ مِن قِبَلِ الرُّسُل في الدُّنيا واقِعٌ؛ من أجل أنَّ ربَّك - يا محمَّد ﷺ - لم يكُنْ ليُهْلِكَ أهلَ القُرى بكُفْرِهم ومعاصيهم، والحالُ أنَّهم غافِلونَ، لم يُنبَّهوا برسولٍ ولا بكتابٍ، بل لابدَّ من إزالةِ الغَفْلَةِ أوَّلًا بإرسالِ الرُّسُلِ، وإنزال الكُتُبِ، ومعلومٌ أنَّ هلاكَ الأُمم يكون بما يغلِب عليها مِن الظُّلم أو الفِسق والفُجور، الَّذي يُفْسِدُ الأخلاقَ، ويقطعُ روابط المجتمع، ويجعلُ بأس الأمَّة بينها شديدًا.

اللهُ تعالَى لا يُعاجِلُ قومًا بالهلاكِ والعُقوبةِ، حتّى يَبعثَ إليهم رَسولًا.

فَذَلِكَ الإعذارُ بإرسال الرُّسُلِ إلى الإنْسِ والجنِّ، لِئَلَّا يُعاقَب أحدٌ على ما جَنَاهُ، وهو لم يُرْسَل إليه رسولٌ، ولم تبلُغْهُ دعوةٌ، فلَم نُعَذِّبْ أُمَّةً من الأمم إلَّا بعد إرسال الرُّسُل إليهم[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ الفَصْلِ في الآيةِ الكريمةِ:

بلاغة الفَصلُ في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ﴾ أنَّ الآيةَ متَّصِلَةٌ معنًى بما قَبلَها؛ فذلك الَّذي قَصَصْنا عليكَ من أمرِ الرُّسل، وأمرِ عذاب مَنْ كذَّب؛ لأنَّه لم يكن ربُّك مُهْلِكَ القرى بظلم، أي: لا يهلكُهم حتى يبعثَ إليهم رسولًا[2]. فَفي الآية بَيانٌ لِوَجهِ الرَّحمَة والعَدلِ في إرسال الرُّسُل، وأنَّه سبحانه كَتَبَ على نَفسِهِ الرَّحمةَ، فهو الرَّحيم بخلقهِ: مؤمِنهم وفاجِرِهم، فلا يُعذِّبُ أمَّةً منهم إلا من بعد إنذارِهم، وإيصالِ الرِّسالاتِ إليهم، ثمَّ سجَّل بعد ذلك على النَّاس بأنَّ له الحقَّ والعُتبَى في إهلاك تلك القرى التي عاندتِ الرُّسلَ، وعارضتِ الرِّسالاتِ بعد التَّبصير، فقال: ﴿ذَٰلِكَ﴾ مُجَرَّدًا عن حرفِ الوَصلِ (الواو)؛ لاتِّصال

إرسَالُ الرُّسُلِ للهدايَةِ، سُنَّةُ اللهِ في خَلْقِهِ؛ ومَنْ أعرضَ عنها هَلَكَ

(1) مجموعة من العلماء، المختصر في تفسير القرآن الكريم، ص: 145.
(2) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير: 2/79.

المعنى بالآية السَّابقة، فذلك الَّذي ذُكِر من إتيان الرُّسُل، يَقُصُّون على الأمم آياتِ اللّه؛ إنَّما هو لغاية ﴿ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ﴾. وهي سُنَّة اللّه في خلقه.

تَوجيهُ الافتِتاحِ باسْمِ الإشارةِ ﴿ذَٰلِكَ﴾:

إرسَالُ الرُّسُلِ بأمرِ اللهِ، أمرٌ عظيمُ الجَدوَى، وما دونَهُ شَقاءٌ

الأصلُ في أسماء الإشارة أن يُشارَ بها إلى الأشياء المحسوسةِ، واستِعمالُها فيما سِوَى ذلك هو من المَجاز، والفائدة هُنا من اسم الإشارة ﴿ذَٰلِكَ﴾ هو تَنزيلُ المَعقولِ مَنزِلَةَ المُشاهَدِ المَحسوس، فقوله: ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارةٌ إلى ما ذُكر في إتيان الرُّسل - عليهم السلام - وهم يقُصُّون على الأمَم من الإنسِ والجنِّ آياتِ اللّهِ مبيَّناتٍ. ولـمَّا ذكر سبحانه إقامةَ الحجَّةِ على الكافِر في المَعاد بالرُّسل - عليهم السلام - علَّلَ إرسالَهُم ترغيبًا وترهيبًا، وحثًّا على اتِّباعهم، وتنبيهًا وإرشادًا فقال: ﴿ذَٰلِكَ﴾، أي: الأمرُ العظيمُ الجدوى هو أنْ أرْسَلْنا الرُّسُل[1]، فيكون اسمُ الإشارة ﴿ذَٰلِكَ﴾ قد أفادَ تعظيمَ شأنِ المَقولِ بعدَهُ، ويكونُ خبرَ مُبتَدَأ محذوفٍ، أي: الأمرُ ذلك، وذكر أبو حيان قوله: "الإشارةُ بـ ﴿ذَٰلِكَ﴾ إلى أقرب مذكورٍ دلَّ عليه الكلامُ، وهو إتيانُ الرُّسل قاصِّينَ الآياتِ ومنذرين بالحشر والحساب والجزاء؛ بسبب انتفاءِ إهلاك القرى بظلم، وأَهْلُها لم ينتهوا ببعثةِ الرُّسل إليهم والإعذار إليهم، والتَّقدُّم بالإخبار بما يحلُّ بهم، إذا لم يتَّبعوا الرُّسلَ"[2].

بَيانُ وُجوهِ الحَذفِ في مَطلَعِ الآيةِ:

إرسَالُ الرُّسُلِ لـلإنـذار، أمـرٌ عظيمُ الآثارِ

اسمُ الإشارةِ فيه ثلاثةُ أوجهٍ: أحدُها: أنَّه مبتدأٌ محذوفُ الخبرِ، أي: ذلك الأمرُ. الثَّاني: عكسهُ، أي: خبرٌ لمبتدأ محذوف، بمعنى: الأمرُ ذلك، كما يدلُّ عليه ضميرُ الشَّأنِ المقدَّرُ بعد (أنْ)، وذلك لأنَّ هذا الخبرَ له شأنٌ، يجدرُ أن يُعرف. الثَّالث: أنَّه منصوبٌ بإضمار

(1) البقاعي، نظم الدرر: 7/273.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/649.

فعلٍ، أي: فَعَلْنا ذلك[1]، وإنَّما يظهر المعنى إذا عُرِفَ المُشَارُ إليه، وهو يحتمل أن يكون: إتيانَ الرُّسل قاصِّين الآياتِ ومنذرين بالحشر والجزاء، وأنْ يكونَ: ذلك الذي قَصَصْنا مِنْ أَمْرِ الرُّسل، وأَمْر مَنْ كَذَّب، ويحتمل أن يكون إشارةً إلى السُّؤال المفهوم.

دَلالةُ ﴿أَن﴾ بين المُخفَّفَةِ والنَّاصبةِ:

استِحالةُ إهلاكِ القُرَى وهُمْ غافِلونَ عنِ الحقِّ

وجملةُ: ﴿أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ﴾ تعليلٌ، أي: الأمرُ ما قصَصْناهُ عليكَ، لانتفاء كون ربِّكَ مُهْلِكَ القُرى بظلم، على أنَّ: ﴿أَن﴾ يجوز أن تكونَ النَّاصبةَ للمُضارع، على معنى: أنَّ المسألةَ: ﴿لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ﴾، أو أَنْ تكونَ المخفَّفَةَ، واسمُها ضميرُ الشَّأنِ محذوفٌ، و﴿لَّمْ يَكُن﴾ في محلِّ رفعٍ: خبرُها[2]. وذلك لأنَّ هذا الخبرَ له شأنٌ يجدر أن يُعْرَفَ، وحُذِفَتْ لامُ التَّعليلِ الدَّاخِلَةُ على ﴿أَن﴾، والتَّقديرُ: ذلك الأمرُ الذي قَصَصْنا، أو الأمرُ ذلك؛ لأنَّه - أي: الشَّأنُ - لم يكن ربُّك مُهْلِكَ القرى، أو الأمرُ ذلك لأجل أنْ لم يكن ربُّك متَّصِفًا بالظُّلْم[3].

وقولهُ: ﴿أَن لَّمْ يَكُن﴾ يجوزُ فيه وجهان، أحدهما: أنَّه على حذف لام العلَّةِ، أي: ذلك الأمر الَّذي قَصَصْنا، أو ذلك الإتيانُ، أو ذلك السُّؤالُ لأجل أن لم يكن، فلمَّا حُذِفَت اللَّامُ؛ احتمل موضعُها الجرَّ والنَّصبَ، كما عُرِفَ غيرَ مرَّةٍ. والثاني: أن يكون بدلًا من ﴿ذَٰلِكَ﴾[4].

نُكتةُ التَّعبيرِ عنِ النَّفْيِ بالتَّركيبِ: ﴿أَن لَّمْ يَكُن﴾:

العَدلُ المُطلقُ للهِ وحدَه سُبحانه دونَ سِواه

فائدةُ هذا التَّركيب ونُكتتُهُ: تأكيدُ النَّفي، والمعنى المُجرَّدُ لهذا التَّركيبِ: ما كان مُريدًا للفعل أو قاصدًا له[5]، ومعناهُ في الآيةِ

(1) السّمين الحلبيّ، الدّر المصون: 5/155، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/81.
(2) السّمين الحلبيّ، الدّر المصون: 5/155.
(3) ابن عجيبة، البحر المديد: 2/172، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/80.
(4) السّمين الحلبي، الدر المصون: 5/155.
(5) السّامرّائي، معاني النّحو: 1/204.

استحالةُ أن يأتي هذا الفعلُ من اللّهِ تعالى لأنَّه سبحانه عدلٌ لا يأتي منه ظلمٌ مطلقًا، فعدلُ اللّهِ مطلقٌ، ولا يكون العدلُ المطلقُ إلَّا مِنَ اللّهِ سبحانه.

التَّعبيرُ عن فِعْلِ الكَونِ بِصِيغَةِ المُضارِعِ ﴿يَكُن﴾:

ومجيء الفعل ﴿يَكُن﴾ في قوله تعالى: ﴿أَن لَّمْ يَكُن﴾ بصيغة المضارع الدَّالِّ على الماضي، لفائدة جعلِ الأمر حاضرًا في أذهان النَّاس؛ أنَّ اللّهَ لا يظلم النَّاس، وأنَّه تعالى لا يُهلك القُرى إلَّا من بعد أن يُرسل إليهم رسولًا، ثم هم يُعرضون عنه، ويُنكرون عليه، ومِثال ذلك أيضًا قوله: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ﴾ [النساء: 168].

ضَرورةُ أن يكونَ عَدلُ اللهِ المُطلقُ، مُتمثِّلًا في أذهانِ النَّاسِ

نُكتَةُ إيثارِ لفْظِ الرُّبوبيَّةِ ﴿رَّبُّكَ﴾:

في قوله: ﴿أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ﴾ آثرَ ذِكْرَ الرَّبوبيَّة في خطاب النَّبيِّ ﷺ، إذ لم يقل: (ذلك أن لم يكنِ اللّه مهلك القرى)؛ لأنَّ المَقامَ مقامُ رحمةٍ، ونفيٍ للإهلاك، فالرُّبوبيَّةُ في اللُّغة مبنيَّةٌ على معنى الرَّبِّ، والرَّبُّ هو السَّيِّد، والمُصلحُ، والمالكُ، والمُرَبِّي، والمدبِّر، وتَوحيد الرُّبوبيَّة هو الإقرارُ بأنَّ اللّهَ سبحانه هو ربُّ كلِّ شَيءٍ ومليكُهُ، فيكون كُلُّ شيءٍ بيدِهِ سبحانه ويَكونُ مصيرُ الخَلقِ بيدِهِ سبحانه فَناسَبَ معنى المُربِّي والمُدبِّرِ هُنا أنَّه سبحانه لا يُهلك القُرى بِظُلم؛ إذ هو شأنٌ عظيمٌ من شؤونِ اللّهِ تعالى وهو شأنُ عدلِهِ ورَحمَتِه، وإظهارُهُ أثرَ ربوبيَّتِه على عبادِهِ بهدايَتِهم إلى سُبُلِ الخَير، وعَدَمِ مباغَتَتِهم بالإهلاك قبل التَّقَدُّمِ إليهم بالإنذارِ والتَّنبيه[1].

إظهارُ أثَرِ رُبوبيَّةِ اللهِ تعالى على عِبادِهِ، بالهِدايَةِ، وأنّه لا يُباغتُ بالإهلاكِ

سِرُّ إضافَةِ لفظِ الرُّبوبيَّةِ إلى ضَميرِ المُخاطَبِ ﴿رَّبُّكَ﴾:

المُخاطَبُ في هذا النَّصِّ هو رسولُ اللّه ﷺ، قال: ﴿أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ﴾، ليُؤكِّد له في سياق الخِطاب، أنَّه سبحانه قد كانت قدرتُه

التَّكريمُ والإيحاءُ بالمعيَّةِ، وأنَّ اللهَ مُربِّيهِ في كنَفِ حِمايتِهِ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/80.

سابقةً ومُهيمنةً، فقد بيَّنتِ الآيةُ وجهَ الرَّحمة، ومقتضى العَدلِ في إرسالِ الرُّسُل، ممتزجٌ خطابُها بموعظةِ عَدَمِ التَّفريط بفرصة الحياة، المُكتَنِفَة بالإيمان بالرُّسل والدَّارِ الآخرة الَّتي هي دارُ السَّلام. والمَلمَحُ الآخرُ، أنَّ كلمة ﴿رَبُّكَ﴾ أدَّت معنًى مهمًّا بالموازنَةِ بينَ رحمةِ اللّه، ورسالةِ رسولِه، فكلاهما رحمةٌ للنَّاس، وكأنَّهما يتعانقان في خطاب الرَّبِّ الأعلى لنبيِّه المعصوم؛ إذ نجد أنَّ كلمةَ ﴿رَبُّكَ﴾ مُكوَّنَةٌ من صفةِ اللّه بالرُّبوبيَّة، مضافةٌ إلى ضميرٍ مُعبِّرٍ عن النَّبيِّ الأكرم بضمير (الكاف) المُتَّصل، وفي هذا مُطلقُ التَّكريم والإيحاءِ بالمعيَّة وخصوصيَّة النَّبي في تَنَزُّلِ رحمةِ اللّهِ تعالى على النَّاس.

وقد تكرَّر هذا الأسلوبُ كثيرًا في سورةِ الأنعام بخطاب النَّبيِّ بصيغة ﴿رَبُّكَ﴾ وما في هذا الأسلوب من التَّطمين، ففي عنوان الرُّبوبيَّة إشارةٌ إلى أنَّ اللّهَ مُرَبِّيكَ في كَنَفِ حمايته.

بَراعَةُ التَّعبيرِ باسْمِ الفاعِلِ ﴿مُهْلِكَ﴾:

التَّعبيرُ بصِيغةِ (فاعل) للمُبالَغَةِ في نفْيِ الإهلاكِ على وجْهِ الدَّوامِ

وقد عبَّر باسم الفاعل ﴿مُهْلِكَ﴾ الَّذي جرى مجرى الفعلِ المضارعِ، متعدِّيًا إلى مفعولٍ؛ لأنَّه حالٌ، وذلك على حدِّ قولِه تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهَ أَعۡبُدُ مُخۡلِصٗا﴾ [الزُّمر: 14]، وهو دالٌّ هنا على نفي حَدَثِ الإهلاك، المفيدِ معنى المبالغةِ، بنفي رسوخِ صفةِ الإهلاكِ فيهِ على وجه الدَّوام، والثُّبوت تنزُّهًا عن الظُّلم.

تَوجيهُ المُتشابِهِ اللَّفظِيِّ: ﴿مُهْلِكَ﴾، و﴿لِيُهْلِكَ﴾:

لن تُهلَكَ قريةٌ أهلُها مُصلِحُون

قال تعالى هنا: ﴿مُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ﴾؛ إذ لا رسالةَ بعد الإسلام، ولا رسولَ بعد النَّبيِّ الخاتم ﷺ، ولا كتابَ بعد القرآنِ الكريم؛ فلا غفلةَ مِن ثَمَّ. فلم يعبِّر بما يدلُّ على الاستمرارِ والتَّجَدُّدِ، فجاءَ بما يدلُّ على نفي الحدث.

وقال في هود: ﴿لِيُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ بِظُلۡمٖ وَأَهۡلُهَا مُصۡلِحُونَ ١١٧﴾ [هود: 117] بصيغة المضارع، المؤكَّدِ بلام الجحود بوصفها أبلغَ في النَّفي؛

لأنَّ فعلَ الإصلاح دائمٌ إلى قيام السَّاعة، لا يقتصر على زمانٍ دون زمانٍ، فعبَّر بما يناسبُهُ من فعلٍ، ويُلمَح فيه الحثُّ على فعل الإصلاح، والسَّعي إلى تمثُّلِه منهجَ حياةٍ، وسبيلَ نجاةٍ.

إهلاكُ القُرَى بين الحَقيقَةِ والمَجاز:

العَذابُ ينزِلُ بأهلِ القُرَى أنفُسِهم، أو بمَساكِنِهم أو منازلِهم

وقوله: ﴿مُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ﴾، بمعنى مُهلكِ أهلِ القُرى، وهو مجازٌ مرسلٌ، وعلاقتهُ الحاليَّةُ. وقيل: إنَّ الإهلاكَ وقعَ على ذات القُرى فلا يكونُ في الآية مجازٌ، والصَّوابُ أنَّ العذابَ ينزلُ بالقرى وبأهلها أنفسِهم؛ لأنَّ غضبَ اللهِ واقعٌ عليهم، لا على ذات القُرى بأبنيتها ومعالمها، قال تعالى: ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيۡءٍۭ بِأَمۡرِ رَبِّهَا فَأَصۡبَحُواْ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمۡۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ٢٥﴾ [الأحقاف: 25]، فقال: ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيۡءٍ﴾، ثمَّ بيَّن أنَّ المساكن قائمةٌ لعدم اعتبارها من قبيل الأشياءِ المقصودةِ في الدَّمار والعقوبة، فالمقصودُ بِأَهْلِ القُرى ابتداءً: أنفسُهم، وحياتُهم، وعلاقاتُهم، وأفعالُهم؛ ولذلك قال تعالى: ﴿فَتِلۡكَ بُيُوتُهُمۡ خَاوِيَةَۢ بِمَا ظَلَمُوٓاْۚ﴾ [النمل: 52]، فهلاكُ القريةِ ودمارُها يكون بدمار أهلِها، وعذابُ اللهِ تعالى ينزلُ بالقرى وبأهل القرى معًا، فلا يُفَرِّقُ بينهما، بل يجعلُهما رمادًا وشيئًا لم يكن، فقد قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبۡعَثَ فِيٓ أُمِّهَا رَسُولٗا يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِنَاۚ وَمَا كُنَّا مُهۡلِكِي ٱلۡقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهۡلُهَا ظَٰلِمُونَ ٥٩﴾ [القصص: 59]، فهذه الآيةُ تدلُّ على أنَّ اللهَ تعالى لا يهلك القرى إلَّا بعدَ إرسالِ الرَّسول إليهم؛ لِيُبَيِّنَ لهم الحقَّ من الباطلِ، ولا يهلكُها إلَّا إذا كان أهلُها ظالمين لأنفسِهم بالكفرِ والمعصيةِ.

مَعنَى (الباء) في قَولِه تعالى: ﴿بِظُلۡمٖ﴾:

الظُّلمُ وصفٌ مُلازِمٌ لأهلِ القُرَى، لا يَنفكُّ عنهم أبدًا

الباءُ في جميع أحوالها تفيدُ الإلصاقَ، قال سيبويه: "وباءُ الجرِّ إنَّما هي للإلزاق والاختلاطِ"[1]، فقولهُ: ﴿بِظُلۡمٖ﴾، أي: إنَّهم

(1) سيبويه، الكتاب: 2/304.

ملتصقونَ بهذا الظُّلم ومقارفونَ لَهُ، ووالِغون فيهِ، على أنَّه لو أهلكهم - وهم غافلون، ولم يُنبَّهوا برسولٍ وكتابٍ - لكان ظلمًا، وهو متعالٍ عن الظُّلم سبحانه، وعن كلِّ قبيحٍ[1]. ويُزادُ معنًى آخرُ، فالباءُ هنا للسببيَّة، والتَّقدير: وما كان ربُّك مُهْلِكَ أهلِ القرى بظلمِ أهلِها، وأهلُها غافلونَ، فذِكْرُ أهلِها مرَّةً واحدةً في موضع بيانِ غفلتِهم عن الإيمانِ، فإن كانوا كذلك، ولم يأتِهم رسولٌ، فإنَّ اللّٰهَ لا يُهلكهم، فإن جاءهم رسولٌ، فعلَّمهم، وذكَّرهم، ونبَّههم، وأنذرهم، فلم يؤمنوا؛ حقَّتْ عليهم كلمةُ اللّٰهِ وعذابُه.

فائِدةُ تنكيرِ ﴿بِظُلْمٍ﴾، في سِياقِ النَّفْيِ:

تَنكيرُ الظُّلمِ يَحتملُ معنَى الصَّغائرِ، أو الشِّركِ

وأفاد تنكيرُ الظُّلم في قوله: ﴿بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ﴾ التَّعظيمَ؛ إذ لم يكنِ اللّٰهُ ليُعذِّبَ القرى على أمورٍ هيِّنةٍ من الصَّغائر، وإنَّما يقع عذابهُ على ما وقعت فيه منَ الشِّركِ وإنكارِ الرِّسالات والإصغاءِ إلى شياطينهم من الجنِّ والإنس.

ويحتملُ معنى قوله تعالى: ﴿بِظُلْمٍ﴾ التَّعظيمَ من أجل أن لم يكنْ ربُّك ليهلكَ القُرى بظلمِ أهلِها بالشِّرك، أي: بشركِ مَنْ أشركَ، وكُفْرِ مَنْ كفرَ من أهلِها، كما قال لقمان: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ١٣﴾ [لقمان: 13] ونحو ما يُشْبِهُهُ من الظُّلم في الأعمالِ والأحكام، وهم غافلون، فلم يكن يعاجلُهم بالعقوبةِ حتَّى يبعثَ إليهم من ينبِّهُهُم على حُجَجِ اللّٰهِ عليهم، وينذرُهم عذابَ اللّٰهِ يوم مَعَادِهم، ولم يكن بالَّذي يأخذُهم غفلةً، فيقولوا: ما جاءنا من بشيرٍ ولا نذيرٍ. **والوجه الثاني:** ذلك أنْ لم يكن ربُّك مُهْلِكَ القرى بظُلم، فلم يكن لِيُهْلِكَهُمْ دونَ التَّنبيهِ والتَّذكيرِ بالرُّسل والآياتِ والعِبَرِ، فيظلمُهم بذلك، أي: يظلمُهم بعدم إرسال الرُّسلِ، فيُهلكون، واللّٰهُ غيرُ ظلَّام للعبيدِ، والوجهُ الأوَّلُ لا شكَّ أنَّه أقوى[2].

(1) الزمخشري، الكشّاف: 2/63.

(2) ابن جرير، جامع البيان: 9/563، ورضا، تفسير المنار: 8/94.

تَوجيهُ إعرابِ لَفظِ ﴿بِظُلْمٍ﴾:

"وأمَّا قولُه: ﴿بِظُلْمٍ﴾ ففيه وجهان، **الأوَّل**: بمعنى: (وما كان ربُّك مُهْلِكَ القرى بسبب ظلمٍ أقدموا عليه)، **والثَّاني**: (وما كان ربُّك مُهْلِكَ القرى ظلمًا عليهم)، وهو كقوله: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾﴾ [هود: 117]، فعلى الوجهِ الأوَّلِ يكون الظُّلمُ فعلًا للكفَّار، وعلى الثاني يكون عائدًا إلى فعلِ اللهِ تعالى والوجهُ الأوَّلُ أليقُ بقولنا؛ لأنَّ القولَ الثّاني يوهمُ أنَّه تعالى لو أهلكَهم قبلَ بعثةِ الرُّسُل لكان ظَالِمًا، وليس الأمرُ عندنا كذلك؛ لأنَّه تعالى يحكم ما يشاء، ويفعل ما يريد، ولا اعتراضَ عليه لأحدٍ في شيء من أفعاله"[1].

مِنْ عَدلِ اللهِ، أن لا يُعَاجِلَ الأقوامَ بالعُقوبةِ، حتَّى يبعثَ رُسلًا

فيكون ﴿بِظُلْمٍ﴾ متعلِّقًا بمحذوفٍ على أنَّه حالٌ من ﴿رَبُّكَ﴾، أو من الضَّمير في ﴿مُهْلِكَ﴾، أي: لم يكن مهلكُ القرى ملتبسًا بظلمٍ، ويجوز أن يكون حالًا من القرى، أي: ملتبسةً بذنوبِهَا[2].

عِلَّةُ التَّصريحِ بالأهلِ، في قولِه تعالى: ﴿وَأَهْلُهَا﴾:

وهُنا صرَّحَ بـ (الأهل) فقال: ﴿وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ﴾، فذكرَهُم في موضع غفلتِهم، والغافلونَ لا يستحقُّون العذابَ، في حين أنَّه سبحانه لم يذكرْهم في موضعِ العذابِ والإهلاكِ، إذ قال: ﴿مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ﴾ فلم يُصرِّح بـ (أهل)، بل اكتفى بذِكْرِ قُرَاهُم وهي مواضعُ حلولهم، فجاءَ التَّعبير على سبيلِ المجاز المرسلِ، وعلاقتُه الحاليَّةُ، فلم يقل: (مُهْلِكَ أهلِ القرى بظلمٍ، وهم غافلون)، إذ جزَّأ التَّركيبَ (أهل القرى)؛ فذكرَ القُرى في مطلع الآيةِ لورود العذابِ، وذكرَ الأهلَ في خاتمتِها لورودِ الغفلةِ؛ وذلك تجنيبٌ لخلقهِ من أن يُذْكَروا في مواضعِ العذاب، وإعانةٌ لهم على أن يَقوا أنفسَهم وأهليهم من عذابِ اللهِ، وهذا عنوانُ رحمتهِ سبحانه لعباده جميعًا.

ذَكَرَ أهلَ القُرَى في مَوضِعِ الغَفْلَةِ، وقُرَاهُم في مَوضِعِ العَذابِ

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 13/161 - 162.

(2) السّمين الحلبيّ، الدّر المصون: 5/155 - 156.

وهنا إشارتانِ بيانيَّتانِ إحداهما: أنَّ اللّهَ تعالى ذكرَ هلاكَ القُرى، والهلاكُ نازلٌ على أهلها، ولكنَّه ذكرَ القرى، وحذفَ الأهلَ للإشارةِ إلى عمومهِ وشدَّتِه، وأنَّه لا قِبَلَ لهم. الثانية: أنَّه نصَّ على المحذوف في قوله: ﴿وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ﴾، فكان المحذوفُ هنالك مذكورًا هنا، ونفى اللّه تعالى الغفلةَ عنهم عند نزولِ الهلاكِ بهم؛ إذ أنذِروا بالرُّسل والآيات[1].

وَجْهُ التَّعبيرِ عنِ الفاصِلَة باسْمِ الفاعِلِ المَجموعِ:

لا يُهلِكُ اللهُ النَّاسَ على ظُلمٍ، حتّى يَبْعَثَ فيهِمْ رَسولًا

وقولهُ: ﴿وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ﴾ لَمْ يَكُنْ ليُهلِكَهُم بظلمهم، وهم غافلونَ؛ لَمَّا يأتهم رسولٌ ولا حُجَّةٌ، وقوله في هود: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾﴾ [هود: 117]؛ فلم يكن ليُهلِكَهُم بظلمِهم، أي: بِشركهم ﴿وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾، يتعاطَون الحقَّ فيما بينهم، أو بمعنى: لم يكن ليهلكَهم بظلمٍ منهُ، وهم مصلحون[2]. وغافلونَ: اسمُ فاعلٍ جرى مجرى الفعلِ الماضي، ودلالتهُ هنا على الاستمرارِ، فما داموا غافلين، والمُرادُ بالغفلةِ هنا: عدمُ إرسالِ الرَّسول إليهم، وانقطاعُهم عن خبر السَّماء، فإنَّهم في مَأْمَنٍ من إهلاكهم بشركِهم، ومُسَوِّغُ ذلك أنَّهم لا يزالون في غفلتِهم عن الإيمانِ حتَّى يأتيَهم النَّذير، فإن أتاهم النَّذير، فلا غفلةَ ولا إعذارَ، والجمعُ دليلُ كثرَتِهم، أي: إنَّ أكثرَ أهلِها غافلون، والكثرةُ موجبةٌ عدمَ استحقاقِ العذاب.

بلاغةُ الإيجازِ في الآيَةِ:

عِلَّةُ إرسالِ الرُّسلِ، هي تَفادِي إهلاكِ القُرَى بغتةً

وفي الآيةِ إيجازٌ؛ إذ عُلِمَ منه أنَّ اللّهَ يُهلك القرى المسترسِلَ أهلُها على الشِّرك، إذا أعرضوا عن دعوة الرُّسل، وأنَّه لا يهلكُهم إلَّا بعد أن يرسل إليهم رُسلًا منذرين، وأنَّه أرادَ حمْلَ تَبِعَةِ هلاكِهم

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 1/2676.
(2) الفراء، معاني القرآن: 1/355.

عليهم؛ كي لا يكونَ للنَّاس على اللّه حجَّةٌ بعد الرُّسل، ولا يبقى في نفوسِهم أن يقولوا: لولا رحِمَنا ربُّنا، فأنبأنا، وأعذر إلينا، كما قال تعالى: ﴿وَلَوۡ أَنَّآ أَهۡلَكۡنَٰهُم بِعَذَابٖ مِّن قَبۡلِهِۦ﴾ [طه: 134]، أي: قَبْلَ محمَّدٍ ﷺ، أو قَبْلَ القرآنِ ﴿لَقَالُواْ رَبَّنَا لَوۡلَآ أَرۡسَلۡتَ إِلَيۡنَا رَسُولٗا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبۡلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخۡزَىٰ ١٣٤﴾ [طه: 134]، فاقتصر من هذا المعنى على معنى: أنَّ علَّةَ الإرسالِ هي عدمُ إهلاكِ القرى على غفلةٍ، فدلَّ على المعنى المحذوف[1].

تَوجيهُ المُتَشابِهِ اللَّفظِيِّ بين آية الأنعام (131)، وهود: (117):

لا يُترَكُ النَّاسُ سُدًى، ولا عُذْرَ لمُعْرِضٍ أو مُتغافِلٍ

هنا قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ أَن لَّمۡ يَكُن رَّبُّكَ مُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ بِظُلۡمٖ وَأَهۡلُهَا غَٰفِلُونَ﴾ وقال في سورة هود: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ بِظُلۡمٖ وَأَهۡلُهَا مُصۡلِحُونَ ١١٧﴾ [هود: 117]؛ فقال في الأولى: ﴿وَأَهۡلُهَا غَٰفِلُونَ﴾، وقال في الثانية: ﴿وَأَهۡلُهَا مُصۡلِحُونَ ١١٧﴾ [هود: 117]؛ والفرقُ بين الموضعَين: الإشارةُ إلى ما تَقَدَّمَ ذكرُه مِنَ العقابِ في قوله: ﴿قَالَ ٱلنَّارُ مَثۡوَىٰكُمۡ خَٰلِدِينَ فِيهَآ﴾ [الأنعام: 128]، وبعدَهُ قوله: ﴿يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ﴾ [الأنعام: 130]، فقدَّم سبحانه ذِكْرَ بعثةِ الرُّسل للجنِّ والإنسِ وإنذارِهم وتذكيرِهم بالآياتِ وتعريفِ الخلقِ بالجزاء الأخرويِّ على مقتضى قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولٗا ١٥﴾ [الإسراء: 15]، فلا عذْرَ لأحدٍ، وقد أشارَ إلى ذلك قوله تعالى: ﴿أَن تَقُولُواْ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٖ وَلَا نَذِيرٖۖ فَقَدۡ جَآءَكُم بَشِيرٞ وَنَذِيرٞۗ﴾ [المائدة: 19] فلا عُذرَ لمعرضٍ أو مُتغافلٍ إن جاء البشيرُ والنَّذير ﴿ذَٰلِكَ أَن لَّمۡ يَكُن رَّبُّكَ مُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ بِظُلۡمٖ وَأَهۡلُهَا غَٰفِلُونَ﴾ فهذا مناسبٌ، وتقدَّمَ آيةَ هودٍ قولُه تعالى: ﴿فَلَوۡلَا كَانَ مِنَ ٱلۡقُرُونِ مِن قَبۡلِكُمۡ أُوْلُواْ بَقِيَّةٖ يَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡفَسَادِ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا قَلِيلٗا

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/82.

مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ﴾ [هود: 116] ولو كانوا ينهونَ عن الفسادِ في الأرضِ؛ لكانوا مصلحين، فقال: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾﴾ [هود: 117] فلم يكونوا؛ ليُؤخذوا بالعقابِ، فقد ناسب كلًّا من الآيتين ما أعقبت به[1].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(الغَفلَةُ) و(السَّهْوُ) و(النِّسيانُ):

الغفلةُ عمَّا يكونُ، والسَّهوُ عمَّا لا يكونُ، والنِّسيانُ أخصُّ منهُما

قوله: ﴿غَٰفِلُونَ﴾، التَّغافُلُ: التَّعَمُّدُ: والتَّغَفُّلُ: خَتْلٌ عن غَفْلةٍ، وأَغفَلْتَ الشَّيءَ: تركْتَهُ غُفْلًا. والغُفْل: المُقَيَّدُ لا يُرجى خَيْرُهُ، ولا يُخشَى شرُّهُ، والجميعُ الأغفالُ[2]. وأغفالُ الأرضِ، أي: المجهولةُ الَّتي ليس فيها أثرٌ يُعرف، وكتاب غُفْلٌ: لم يُسمَّ واضعُه[3]. وبلادٌ أغفالٌ: لا أعلامَ فيها يُهتدى بها[4]. قال تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾﴾ [الكهف: 28]. والمُغَفَّلُ الَّذي لا فطنةَ له. والأغفالُ: الأمواتُ. والغفلةُ تكون عمَّا يكون، والسَّهو يكون عمَّا لا يكونُ، تقول: غَفَلْتُ عن هذا الشَّيء حتَّى كان، ولا تقول: سهوْتُ عنه حتَّى كان، لأنَّك إذا سهوتَ عنه لم يكنْ، ويجوز أن تغفُلَ عنه، ويكون، وفرقٌ آخرُ هو أنَّ الغفلةَ تكونُ عن فعلِ الآخَرِ، تقول: كنتُ غافِلًا عمَّا كان من فلانٍ، ولا يجوزُ أن يُسْهَى عن فعل الآخر[5]. والسَّهوُ عدمُ التَّفَطُّنِ للشَّيء، مع بقاء صورتهِ أو معناه في الخيال أو الذِّكْرِ؛ بسببِ اشتغال النَّفسِ والتفاتها إلى بعض مهمَّاتِها. والغَفلَة: عدمُ حضورِ الشَّيء في البال بالفعلِ، فهي أعمُّ من السَّهوِ[6]. والغفلةُ

(1) الغرناطي، ملاك التأويل؛ ص: 170 - 171.
(2) الخليل، العين: (غفل).
(3) الزّمخشريّ، أساس البلاغة: (غفل).
(4) ابن منظور، لسان العرب: (غفل).
(5) العسكريّ، الفُروق اللّغويّة: (غفل).
(6) العسكريّ، الفُروق اللّغويّة: (غفل).

أعمُّ من النِّسيان؛ فهي عبارةٌ عن عدمِ التَّفَطُّنِ للشَّيءِ وعدم عقليَّتِه بالفِعل، سواءٌ بقيت صورتُها أو معناهُ في الخيال، أو الذِّكر، أو انمَحَتْ عن أحدِهما. وهي أعمُّ من النِّسيان؛ لأنَّه عبارةٌ عن الغفلةِ عن الشَّيءِ مع انمِحاءِ صورتِهِ أو معناهُ عن الخَيال، أو الذِّكر بالكلِّيَّة، ولذلك يحتاج النَّاسي إلى تجشُّم كسبٍ جديدٍ، وكلفةٍ في تحصيلهِ ثانيًا[1]. ولذلك ناسبَ سياقَ الآيةِ لفظُ الغفلةِ دون غيرها.

(1) العسكريّ، الفُروق اللّغويّة: (غفل).

﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعۡمَلُونَ ١٣٢﴾

[الأنعام: 132]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

العلاقةُ بين إغذارِ اللهِ للإنسِ والجنِّ، وأنّ درجاتِ الآخرةِ حصيلةُ أعمالِ الدُّنيا

بعد أن ذكرَ حالَ المؤمنين ومثوبتَهم في الدُّنيا، وفي الآخرة ﴿لَهُمۡ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمۡۖ﴾، ثم ذكرَ المشركين وما سيؤولُ إليه في الآخرةِ حالُهم؛ بيَّن هنا أنَّ كِلا الفريقَين من المؤمنين والكافرين، سَيَكُونُون على درجاتٍ بحسب أعمالِهم، وما يستحقُّون من الثَّواب، أو العقاب، فاللهُ لا يظلمُ أحدًا، بل يعطي سبحانهُ كُلًّا منهم على استحقاقِه، فسيُنْصَبُ يومَ القيامةِ ميزانٌ، وتكون درجاتٌ، ولكلٍّ منهم درجةٌ تناسب أعمالَهُ في الدُّنيا، وهي حصيلةٌ نهائيَّةٌ لها.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿دَرَجَٰتٌ﴾ دَرَجَ: أصلٌ واحدٌ يدلُّ على مُضِيِّ الشَّيء والمُضِيِّ في الشَّيء، من ذلك قولهم: دَرَجَ الشَّيءُ؛ إذا مضى لسبيلِه، والدَّرَجَةُ في الرِّفعة والمنزلة، وتُجمعُ: (الدَّرَجَ)، ودَرَجاتُ الجنان: منازلُ أرفعُ من منازلَ[1]. ورَقِيَ في الدَّرَجَةِ والدَّرَجِ. واستَدْرَجَهُ: رَقَّاهُ من دَرَجَةٍ إلى دَرَجَةٍ[2]، و(المَدْرَجَةُ) بِوَزْنِ المَتْرَبَةِ: المَذْهَبُ والمَسْلَكُ. و(الدَّرَجَةُ) المِرْقاةُ والجَمْعُ (الدَّرَجُ). و(الدَّرَجَةُ) أَيْضًا المَرْتَبَةُ والطَّبَقَةُ والجَمْعُ (الدَّرَجاتُ)[3]. ومن المجاز: لفلانٍ درجةٌ رفيعةٌ. وامشِ في مدارجِ الحقِّ. وعليك بالنَّحو؛ فإنَّه مَدْرَجَةُ البيانِ. وخَلِّهِ دَرْجَ الضَّبِّ، واستمرَّ أدراجَه، وذهبَ دمُهُ أدراجَ الرِّياح، ودَرْجَ الرِّياحِ[4].

(1) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة: (درج).
(2) الزمخشري، أساس البلاغة: (درج).
(3) الرازي، الصحاح: (درج).
(4) الزمخشري، أساس البلاغة: (درج).

ومعنى الدَّرجات في الآيةِ: منازلُ ومراتبُ من خيرٍ أو شرٍّ.

2) ﴿بِغَٰفِلٍ﴾ الغَفْلَةُ: تَرْكُ الشَّيْءِ سَهْوًا، وَرُبَّما كانَ عَنْ عَمْدٍ[1]، وهي أيضًا: غَيْبَةُ الشَّيْءِ عن بالِ الإنسانِ وعَدَمُ تَذَكُّرِهِ لَهُ، يُقال: غَفَلَ عنِ الشَّيْءِ، يَغْفُلُ، غَفْلَةً، وغَفَلًا؛ إذا غابَ عن بالِهِ، ولم يَتَذَكَّرْهُ[2]. وتُطْلَقُ الغَفْلَةُ على مَن تَرَكَ الشَّيْءَ إهْمالًا وإعْراضًا[3]، والتَّغافُلُ: تَعَمُّدُ الغَفْلَةِ[4]. وتأْتي بِمعنى: عَدَمِ الفِطْنَةِ وقِلَّةِ التَّجْرِبَةِ، ورَجُلٌ غُفْلٌ: لم يُجَرِّبِ الأُمورَ[5]. والمقصود بـ (غافل) في الآية: ليس بِخَفيٍّ على اللّٰهِ مقاديرُ أعمالِهم.

المَعْنى الإجْماليُّ:

يخبرُ تعالى أنَّ لكُلِّ النَّاسِ: كافرينَ ومُؤمنينَ، طائعينَ وعاصينَ؛ منازِلَ ومراتِبَ في الآخرةِ، يستحِقُّونها بحسَبِ أعمالِهم؛ يُبَلِّغُهم اللّٰهُ تعالى إيَّاها، ويُثيبُهم بها؛ إنْ خيرًا فخيرٌ، وإن شَرًّا فشَرٌّ، ولا يخفى على اللّٰهِ من أعمالِ البَشَرِ شيءٌ[6].

الدَّرجاتُ مِيزانُ أعمالِ العِبادِ يومَ القيامةِ، ولا يَظلمُ اللهُ النّاسَ شيئًا

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ وَصْلِ الآيةِ بما قَبْلَها:

والجملةُ معطوفةٌ على ما قبلَها، وبين الجملتَين اتِّصالٌ؛ لِكَوْنِهِمَا جملتَينِ خبريَّتينِ، فلمَّا ذَكَرَ تعالى أحوالَ أهلِ الثَّوابِ، وأحوالَ أهْلِ العقابِ؛ ذكرَ كلامًا كلِّيًّا عامًّا في المُطيع والعاصي، فقال: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْۚ﴾؛ فبيْنَ الجملتين اختلافٌ في المعنى، فالأولى

فائدةُ العَطْفِ هو الجَمعُ بين الأعمالِ وجَزائِها

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (غفل).
(2) الفيومي، المصباح المنير: (غفل)، والحموي، غمز عيون البصائر: 4/144.
(3) القنوجي، فتح البيان: 4/443.
(4) ابن سيده، المحكم، وابن منظور، لسان العرب: (غفل).
(5) الجوهري، الصحاح، وابن فارس، مجمل اللغة: (غفل).
(6) ابن جرير، جامع البيان: 9/564، والسعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 274، والشنقيطي، العذب النمير: 2/298.

ذكرتِ الأعمالَ، والثَّانيةُ بيَّنتِ الجزاءَ عليها للفريقين الصَّالح أو الطَّالح في قبيلي الجنِّ وَالإنسِ في الدَّارين، فإمَّا دَرَجاتٌ يُعليهم اللّهُ بها، أو دركاتٌ يُهْويهم فيها كذلكَ[1]. وهي بِمَنزلةِ التَّذييل لما قبلَها.

نُكتةُ تَنوينِ لفظِ ﴿لِكُلٍّ﴾:

مِن عَدْلِ اللهِ أن جعلَ لكلِّ ما يَستحقُّهُ على عَمَلِهِ يومَ الحسابِ

والتَّنوينُ في ﴿وَلِكُلٍّ﴾ تنوينُ عِوَضٍ عن المضاف إليه محذوفٌ، أي: ولكلِّهم، شملَ بذلك كلَّ أهلِ القرى المُهلَكة، فيكونُ المعنى لكلِّ فردٍ منهم درجتُهُ الَّتي يستحقُّها جزاءَ عملِه، وهذا من عجائبِ عظيمِ شأنِ اللّهِ، فهو أسرعُ الحاسبينَ[2] - سبحانَه - والآيةُ على عمومِها تخاطبُ النَّاس جميعًا، فلكلِّ واحدٍ منهم درجةٌ، وكلٌّ بحسبِ عملِه، فتكونُ درجتُه حصيلةَ أعمالِه في حياتِه، وذكر الرَّازيُّ معنى آخر: هو أنَّ لكلِّ عاملٍ عملًا، فلهُ في عملِه درجاتٌ، فتارةً يكون في درجةٍ ناقصةٍ، وتارةً يترقَّى منها إلى درجةٍ كاملة، وأنَّه تعالى عالمٌ بها على التَّفصيل التَّام، فرتَّب على كلِّ درجةٍ من تلك الدَّرَجات ما يليقُ به من الجزاء[3]. فيكون المعنى: ولكلِّ واحدٍ منهم درجاتٌ.

بَلاغَةُ الإيجازِ بِحَذْفِ المُضافِ إليهِ في: ﴿وَلِكُلٍّ﴾:

الجَزاءُ شامِلٌ للمُكلَّفين جميعًا، ولكلٍّ ما يَستحقُّ

وقولهُ: ﴿وَلِكُلٍّ﴾ تفيدُ بيانَ التَّنويع في الدَّرجات، والتَّقسيمُ كلٌّ بحسب ما يستحقُّ على درجة من الدقَّة الَّتي لا تُخطِئ أبدًا، والعدلُ الذي لا يحيدُ؛ إذ يكون لكلٍّ منهم منفردًا عن غيره درجةٌ خاصَّةٌ لا تماثل درجاتِ الآخرين، على حسب أحوال النَّاسِ جميعًا، وقيل: لكلِّ عاملٍ في طاعةِ اللّهِ أو معصيتِه، منازلُ ومراتبُ من عملِه يبلِّغُه اللّهُ إيَّاها، ويثيبهُ بها، إن خيرًا فخيرٌ وإن شرًّا فشرٌّ[4]. فيكون قد أريدَ بها النَّاسُ جميعًا مع ما لأهل القرى ممَّن ذُكِروا في الآية من

(1) السَّمرقنديّ، بحر العلوم: 1/484.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/83.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 13/162.
(4) ابن جرير، جامع البيان: 12/125.

الخصوصيَّة، فَأُريدَ هنا العامُّ، أي: النَّاسُ جميعًا والجنُّ جميعًا، بعد أن ذكر الخاصَّ من أهل القرى.

بلاغَةُ الاختِراسِ في الآيةِ الكريمةِ:

وقولهُ: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْۚ﴾ احتراسٌ على قوله: ﴿ذَٰلِكَ أَن لَّمۡ يَكُن رَّبُّكَ مُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ بِظُلۡمٖ﴾[1]؛ لبيان أنَّ الصَّالحين من أهل تلك القرى - الغالبِ على أهلِها الشِّركُ والظُّلمُ، والتي قد يصيبها الإهلاكُ - لا يُحرمون جزاءَ أعمالهم الصَّالحةِ.

لا يُحرَمُ الصَّالحون من أهلِ القُرَى الظَّالمةِ، جَزاءَ أعمالِهم

عِلَّةُ إيثارِ لفظِ ﴿دَرَجَٰتٌ﴾ دونَ غيرِه:

والدَّرَجاتُ عمومًا، هي المستوياتُ، صعودًا أو هبوطًا، إيجابًا أو سلبًا، واسْتُعيرَتْ هنا للمنازلِ، فهي لمنازلِ الأعمالِ، بقرينةِ قولهِ: ﴿مِّمَّا عَمِلُواْۚ﴾، فشُبِّهت بدرجاتِ السُّلَّم في استعارةٍ تصريحيَّةٍ، أو أنَّها قد سُمِّيَتْ ﴿دَرَجَٰتٌ﴾ لتفاضلِها في الارتفاعِ والانحطاط، كتفاضلِ الدَّرَج[2]. فصوَّرتْ منازلَ النَّاس، وهم يقفونَ على درجاتٍ متواليةٍ عاليةٍ، بعضُهم أرقى من بعضٍ، أو درجات نازلةٍ، بعضُهم أدنى من بعضٍ، كلٌّ بحسب عملهِ.

الدَّرجاتُ استعارةٌ لمنازلِ الآخرةِ، الّتي هي مُتفاضِلةٌ كالدَّرَجِ

والمنازلُ أعمُّ من الدَّرجات؛ لأنَّ لفظَ الكلِّ يفيدُ الشُّمولَ للقبيلين المُؤمنينَ والكفرة، فاقتضى المقامُ أن تُفَسَّرَ الدَّرجاتُ بالمنازل ليعمَّ المطيعَ والعاصي. كان المُرادُ درجاتٍ ودَرَكاتٍ، إلا أنَّهُ غَلَّبَ الدَّرجاتِ[3].

سِرُّ استعمالِ لفظِ ﴿دَرَجَٰتٌ﴾ مقابلَ لفْظِ (دركات):

قد جاء أنَّ للنَّار دركاتٍ، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ فِي ٱلدَّرۡكِ ٱلۡأَسۡفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [النّساء: 145]، ووردت هنا درجاتٌ، لأهل الجنَّةِ وأهل النَّارِ على جهة التَّغليبِ، فدَرَجُ أهل الجَنَّةِ تذهب علوًّا، ودَرَجُ أهلِ

الدَّرجاتُ هي المَراتبُ المُتزايدةُ، وفيها إشعارٌ ببشارةِ المسلمين

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/83.
(2) ابن الجوزي، زاد المسير: 2/79.
(3) ابن التمجيد، حاشية على البيضاوي: 8/268.

النَّار تنزل هبوطًا. ويُحتملُ أنّ المرادُ بالدَّرَجات هي المراتبُ المتزايدة، إلا أنَّ زياداتِ أهل الجَنَّة في الخيرات والطَّاعات، وزياداتِ أهل النَّار في المعاصي والسَّيِّئات[1]. وأتى بلفظ الدَّرَجاتِ؛ إيماءً إلى تغليبِ حالِ المؤمنين، لِتَطمئنَّ نفوسُ المسلمين من أهل مكَّةَ، بأنَّهم لا بأسَ عليهم من عذابِ مشركيها، وقدْ عُلِم من الدَّرَجات أنَّ أسافِلَها دركاتٌ، فغلَّب درجاتٍ لنكتةِ الإشعار ببشارةِ المؤمنين، بعد نِذارةِ المشركين[2]. ولعلَّها من قبيل كونِهَا أعظمَ شأنًا وعَدَدًا ولذلك غُلِّبَت.

دلالةُ (مِنْ) في قولِه تعالى: ﴿مِّمَّا عَمِلُواْۚ﴾:

قولهُ: ﴿مِّمَّا عَمِلُواْۚ﴾ ومِن أعمالهم تنشأُ درجاتُهم في الآخرة. فـ (مِن) في قوله: ﴿مِّمَّا عَمِلُواْۚ﴾ تعليليَّةٌ، أي: بسببِ تفاوتِ أعمالِهم[3]. وهي انعكاسٌ للمصائرِ يومَ القيامةِ، فما هذهِ الدَّرجاتُ إلَّا منازِلُ في الآخرةِ.

الأعمالُ هي مَنشَأُ دَرَجاتِ الآخِرَة، وكلٌّ يُجازَى حسبَ عملِه

بلاغةُ اللَّفِّ والنَّشرِ، في الآيةِ الكريمةِ:

قولهُ تعالى: ﴿وَلِكُلّٖ دَرَجَٰتٞ مِّمَّا عَمِلُواْۚ﴾ فيه من بديع اللَّفِّ والنَّشر ومن غريبهِ؛ إذ ذَكَر في القطعة القرآنيَّة السَّابقة مُتَعَدِّدَين، هما: الجنُّ وَالإنسُ، والمؤمنون والكافرون، ثم ذكرَ في نشْرٍ واحدٍ ما يكون لكلٍّ من أفرادِ المتعدِّدَين، فقال: ﴿وَلِكُلّٖ دَرَجَٰتٞ﴾؛ فيكونُ الإنسُ والجنُّ لفًّا أوَّلَ، ويكون المؤمنون والكافرون لفًّا ثانيًا، ثم قال: ﴿وَلِكُلّٖ دَرَجَٰتٞ مِّمَّا عَمِلُواْۚ﴾ نشرٌ لكلٍّ واحدٍ من اللَّفَّين، فصارتِ الآيةُ كالتَّذييل لسابقها.

الأعمالُ هي العَناصِرُ الَّتي تَتَفاوَتُ بِمُوجِبِها المَنازِلُ، إيجابًا وسلْبًا

ومن فوائدِ اللَّفِّ والنَّشْرِ هنا وبلاغتهِ أنَّه جَمَعَ المخلوقاتِ

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 28/22.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/84.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/84.

المُكلَّفةَ، وجعلَهم كلَّهم تحت مظلَّةِ أعمالهم، وجَعَلَ للأعمال مقياسًا واحدًا، وجَعَلَ أعمالَهم هي العُنْصُرَ الَّذي تتفاوت به المنازلُ يومَ القيامة، فلا تُظلَمُ نفسٌ شيئًا، وهو معنى قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾﴾ [هود: 117]، أو يمكن أن يكونَ معنى: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ﴾ أي: لكلِّ فردٍ من الإنسِ والجنِّ سَيُنصبُ له ميزانٌ، أو يكونُ مقياسٌ لأعمالهم، منسجمًا ومنبعثًا من واقعِ حالهم. وأنَّ أسلوبَ اللَّفِّ والنَّشر هنا تَضَمَّنَ إشارةً علميَّةً خفيَّةً وأفاد تعليمًا خفيًّا بأنَّ الدَّرَجاتِ يمكنُ أن تكونَ على جهةِ الصُّعودِ، وهي درجاتُ الإيجابِ، أو تكونَ على جهة النُّزولِ وهي درجاتُ السَّلْبِ، فالآيةُ إخبارٌ من اللهِ ﷻ بأنَّ المؤمنين في الآخرةِ على درجاتٍ من التَّفاضل بحسب أعمالِهم، وجعلَ المشركين أيضًا على درجاتٍ من العذابِ[1].

دَلالةُ النَّفْيِ بـ ﴿وَمَا﴾:

أفادتْ (ما) قوَّةَ النَّفْيِ في العبارةِ، والتّنزيهَ لجلالِه بجدارةٍ

عمِلت ﴿وَمَا﴾ في قوله: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ عمَلَ (ليس) بدخولها على الجملة الاسميَّة، ويُقوِّي هذه المُشابهةَ بينهما دخولُ الباءِ في خبرِها كما تدخلُ في خبرِ ليس[2]. فقال: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ﴾، و(ما) أقوى في النَّفي من (ليس)[3]، فأفادت قوَّةَ النَّفي في العبارة.

سِرُّ التَّعبيرِ عن نَفْيِ الغَفْلةِ باسْمِ الفاعلِ ﴿بِغَٰفِلٍ﴾:

بيانُ عظيمِ شأنِ اللهِ، وهوانِ مَن سِواه

بينَ ﴿غَٰفِلُونَ﴾ و﴿بِغَٰفِلٍ﴾ تكرارٌ لصيغةِ اسم الفاعل، والتَّعبير عن الأولى بالإثباتِ والثَّانية بالنَّفي، غرضُها بيانُ عظيمِ شأنِ اللهِ، فمهما غفَل البشرُ - وهي صفةٌ من صفاتهم - فإنَّه سبحانه لا تصيبه غفلةٌ، ولا تأخذه سِنَةٌ، ولا يُصيبُه ضَعفٌ - حاشاهُ - بل هو عالمٌ بغفلات المخلوقاتِ من الجنِّ والإنسِ، قدْ عَدَّها عليهم

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/346.
(2) المبرّد، المقتضب: 4/188، وابن يعيش، شرح ابن يعيش: 1/108.
(3) السّامرّائي، معاني النّحو: 1/230.

وأحصاها، حليمٌ عليهم بما يقترفونَ في غفلاتِهم التي تصدر عن جهلٍ أو نسيانٍ، ولبيان أنَّه سبحانه قد وضعَ أعمالَ النَّاسِ في مقاييسَ وموازينَ يعجزُ عن إدراكها البشرُ، ثم تُحَوَّلُ تلك المقاييسُ للأعمال والنِّيَّات إلى منازلَ، بهيئة درجاتٍ ترتفع بأصحابها في الجنانِ، أو تهوي بهم إلى دركاتِ الجحيم والشَّقاء، فيكون بين صيغتي الإثباتِ والنَّفي لاسم الفاعلِ طباقُ سلْبٍ.

تَوجيهُ التَّعبيرِ بتركيبِ ﴿رَبُّكَ﴾:

الخطابُ تشريفٌ للرَّسولِ الأكرمِ ﷺ

كرَّرَ مفردة ﴿رَبُّكَ﴾ لما ذكرناهُ من تشريفِ الرَّسول ﷺ في المواضعِ والموضوعاتِ كلِّها من سورة الأنعام، فجعلَ ذلك مقصدًا للسُّورة، فالخالقُ المربِّي للخلق، والمدبِّر لشؤونِهم هو أعلم في نفوسِهم، وأخبر بأحوالها، وفيه تذكيرٌ للمؤمنين بمكانته ﷺ، وما يُرافق ذلك من تطمينٍ للمؤمنين برسالتهِ ونبوَّتهِ ﷺ.

فائِدةُ (الباءِ) في قولِه تعالى: ﴿بِغَٰفِلٍ﴾:

استحالةُ غَفْلةِ اللهِ تعالى، وهو الّذي لا تأخذُه سِنةٌ ولا نومٌ

(الباء) في قوله: ﴿بِغَٰفِلٍ﴾ زائدةٌ مختصَّةٌ بتوكيدِ النَّفي، قال البصريُّون: هي لرفع توهُّم الإثبات، فإنَّ السَّامع قد لا يسمع أوَّلَ الكلام[1]، فإذا سَمِعَ (الباءَ) عَلِمَ أنَّ ما قبلها نفيٌ؛ لأنَّ (الباء) لا تزاد في الإيجاب، فهي تؤكِّدُ استحالةَ غفلةِ اللهِ سبحانه عن أعمال خلقهِ صغيرِها وحقيرِها: ﴿إِن تَكُ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٖ فَتَكُن فِي صَخۡرَةٍ أَوۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَأۡتِ بِهَا ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٞ ١٦﴾ [لقمان: 16].

بديعُ الجِناسِ النَّاقصِ في: ﴿مِّمَّا﴾ و﴿عَمَّا﴾:

العملُ والجزاءُ عُنصرانِ مُتجانِسانِ، لا يَنفكُّ أحدُهما عنِ الآخَرِ.

وبين جِناسٌ ناقِصٌ، والجِناسُ يوحي بتَجانُسِ الجزاءِ والعمل، فالجزاءُ من جنسِ العملِ، وجامِعُ ذلك ومُشْتَرَكُهُ هي الأعمالُ ومقاييسُها الَّتي وَضَعَها اللهُ سبحانه لقياس الأعمال وترتيبِ المنازل والدَّرَجات، كلٌّ بِحَسَبِ ما قدَّم.

(1) الأزهريّ، شرح التّصريح: 1/201، والصّبّان، حاشية الصّبّان: 1/250.

بديعُ جِناسِ الاشتقاقِ، بينَ ﴿عَمِلُوٓاْ﴾ و﴿يَعۡمَلُونَ﴾:

بين ﴿عَمِلُوٓاْ﴾ و﴿يَعۡمَلُونَ﴾ جناسُ اشتقاقٍ، وفائدتهُ: معرفةُ أنَّ ما يعمله المكلَّفون في الدنيا سيكون حاضرًا أمامَهم يومَ القيامة، قال تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا نَسۡتَنسِخُ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ [الجاثية: 29]، وقال: ﴿وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرٗاۗ وَلَا يَظۡلِمُ رَبُّكَ أَحَدٗا﴾ [الكهف: 49].

أَعمالُ النَّاسِ، تكونُ حاضرةً يومَ القيامةِ؛ لينالُوا جَزاءَهم بإنصافٍ

بلاغةُ الالتفاتِ الفِعْليِّ منَ الماضِي إلى الحاضرِ:

بين ﴿عَمِلُوٓاْ﴾ و﴿يَعۡمَلُونَ﴾ التفاتٌ فِعليٌّ في الخطاب من الماضي إلى الحاضر؛ ليُعلم أنَّ كلَّ فعلٍ سيُشاهد واقعًا يوم القيامة، وفي ضوئهِ يكون استحقاقُ العذاب، لا تَظلِمون، ولا تُظلَمون، وأنَّ مقياس الأعمال تراكميٌّ تجميعيٌّ لا يُفوِّت شيئًا أو يتجاهله، وتُنبئ صيغةُ المضارع بديمومة عدمِ غفلتهِ تعالى عن أعمال عبادهِ على امتدادِ الزَّمن.

أَعمالُ النَّاسِ، تكونُ حاضرةً يومَ القيامةِ، وتُحتَسَبُ بالمِقياسِ التَّراكُميِّ

بلاغةُ التَّعريضِ، في قراءَةِ الجُمهور: ﴿يَعۡمَلُونَ﴾:

قرأَ الجمهورُ سوى ابنِ عامر ﴿يَعۡمَلُونَ﴾ على لفظ ﴿وَلِكُلّٖ﴾ بياء الغَيبة، فيعود الضَّميرُ إلى أهل القرى، والمقصودُ مشركو مكَّةَ، فهو للتَّسليةِ والتَّطمين لرسولِ الله ﷺ وللمؤمنين؛ لئلَّا يستبطِئوا وَعْدَ اللهِ بالنَّصر، وهو تعريضٌ بالمشركين أرادَ تهديدَهم ووعيدَهم، وقرأ ابنُ عامرٍ وحده ﴿تَعۡمَلُونَ﴾ على المخاطبةِ بالتاء[1]، فالخطابُ للرَّسول ﷺ ومن معه من المسلمين، فهو وَعْدٌ بالجزاءِ على صالحِ أعمالِهم.

في الآيةِ تسليةٌ لِرَسولِ اللهِ ﷺ وتعريضٌ بالمُشرِكين

بلاغةُ الالتفاتِ وتَنوُّعُه في الآيةِ الكريمةِ:

في قراءةِ ابن عامرٍ تغليبٌ للخطاب على الغَيبة، ومراعاةٌ لما بعدها: ﴿يُذۡهِبۡكُمۡ﴾، ﴿مِنۢ بَعۡدِكُمۡ﴾، ﴿أَنشَأَكُم﴾، ومع هذا الالتفاتِ إلى المُخاطَبِ انسجامٌ مع قُرْبِ معادِهم إلى الله سبحانه فيجازيهم على أعمالِهم.

الالتِفاتُ منَ الغائبِ إلى المُخاطَبِ، ثمّ منَ المفردِ إلى الجَمْعِ

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/347، وابن الجزري، النشر: 2/263.

وقوله: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعۡمَلُونَ﴾ الخطابُ للرَّسول ﷺ، والمعنى: كلُّ ذلك من عملهم، بعلمٍ من ربِّك، يحصيها ويُثْبِتُهَا لهم عنده، ليجازيَهم عليها عند لقائِهم إيَّاه ومعادهم إليه[1]. فتحقَّقَ من ذلك التفاتٌ من المفردِ إلى الجمع، فالتفتَ الخطابُ من الرَّسول ﷺ، إلى جَمْعِ المؤمنين ورسول الله ﷺ معهم، فهو وَعْدٌ بالجزاء على صالح أعمالهم، ترشيحًا للتَّعبير بالدَّرَجات العُلا من الجَنَّة، ليكونَ حَصانًا ضامِنًا مطمِّنًا لهم من وعيدِ أهلِ القُرى من أصحابِ الظُّلم[2].

بلاغةُ المُقابَلةِ في الآيةِ الكريمةِ:

أهلُ الطَّاعةِ لا يَليقُ بهم إلَّا اللَّفظُ الدَّالُّ على العُلوِّ والرِّقاءِ

المقابلةُ بَيْنَ العبارتين: في الأولى قولهُ تعالى: ﴿وَلِكُلّٖ دَرَجَٰتٞ مِّمَّا عَمِلُواْۚ﴾ مختصٌّ بأهل الطَّاعة؛ لأنَّ لفظَ الدَّرَجَةِ لا يليقُ إلَّا بهم - على اعتبارِ أنَّ الدَّرجاتِ لأهل الجنَّة والدركاتِ لأهل النَّارِ - والثَّانية قوله: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعۡمَلُونَ﴾ مختصٌّ بأهل الكفر والمعصية[3]، وهذا مَدْعَاةُ المُقابلة، وقصيدُها في الآيةِ بينَ العبارتين، فقابل بين الفريقين وعدًا ووعيدًا، واللهُ سبحانه هو الضَّامنُ للعدلِ، وتحصيلِ الحقوقِ.

علَّةُ تقديمِ وصْفِ حالِ الآخرةِ على الدُّنيا:

غايةُ كلِّ عاقلٍ مآلُهُ في الآخرة، حيثُ الحياةُ المُثلَى

وقدَّم ما يصفُ حالَ الآخرة ﴿وَلِكُلّٖ دَرَجَٰتٞ مِّمَّا عَمِلُواْۚ﴾، على ما يصفُ حالَ الدُّنيا ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعۡمَلُونَ﴾؛ لأمرين: **الأوَّل**: أنَّ حالَ الآخرةِ هو المآلُ، وهو الغايةُ لكلِّ عاقلٍ ذي لُبٍّ، **والثاني**: أخَّرَ وصف الدُّنيا؛ لأنَّه الواقعُ المعيش، المُصاحبُ لحالِ الأحياءِ، المُلاصِقُ لهم، و﴿كُلُّ ٱمۡرِيِۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٞ ٢١﴾ [الطور: 21]، وعُرِض

(1) ابن جرير، جامع البيان: 12/125.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/84.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 13/162.

بأسلوبٍ فيه ما فيه من التَّنبيه إلى قدرتهِ تعالى وعِلْمِه، وهو العالمُ بأفعال العباد ونيَّاتهم.

بلاغةُ التَّوكيدِ في جُملة الفاصِلَة:

وردت مُؤكِّداتُ النَّفْيِ، لمن أنكرَ قُدرةَ اللهِ في خلْقِهِ

قولهُ: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعۡمَلُونَ﴾ عَبَّرَ - ﷻ - بنفي الغفلةِ عنهُ نفيًا مؤكَّدًا، بمؤكِّدات ثلاثةٍ، **أوَّلها**: التَّعبيرُ بالجملة الاسميَّة، **وثانيها**: دخول (الباء) الزَّائدةِ للتَّوكيد التي تدلُّ على استغراق النَّفي. **وثالثها**: التَّعبير بـ ﴿رَبُّكَ﴾؛ لأنَّ الرَّبَّ هو الذي ربَّى النُّفوسَ والأخلاق، فهو أعلمُ بها، وأخبر بأحوالها، فجزاؤه جزاءُ من يضعُ العقابَ في موضعه، والثَّوابَ في مكانه[1]. وزيادةُ هذه المؤكِّدات؛ لأنَّ العبارةَ خطابٌ للنَّاس، وفيهم من ينكرُ قدرةَ اللهِ وقيُّوميَّته على خلقه، وأنَّه سبحانه قد أحصى كلَّ شيءٍ عليهم، فجاءتِ المؤكِّداتُ لتوكيد نفي الغفلةِ عن اللهِ سبحانه والبيانِ للنُّفوس الشَّاكَّةِ المنكرة للإيمان وللرِّسالات استحالتَها عليه سبحانه.

تَوجيهُ نظائرِ الآيةِ الكريمةِ:

جعْلُ اختلافِ الأعمالِ، كاختلافِ الذَّواتِ

وَرَدَ من نظائر الآية في الأحقاف بعد أن ذكرَ أحوالَ الجنِّ والإنسِ من المؤمنين وغير المؤمنين، فقال تعالى: ﴿وَلِكُلّٖ دَرَجَٰتٞ مِّمَّا عَمِلُواْۖ وَلِيُوَفِّيَهُمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ١٩﴾ [الأحقاف: 19]؛ فعُلِمَ أنَّ للجنِّ ثوابًا كما أنَّ للإنس ثوابًا[2]. أو قوله تعالى: ﴿هُمۡ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ ١٦٣﴾ [آل عمران: 163] على تقدير الكلام: لهم درجاتٌ عند الله، فحَسُن هذا الحذفُ؛ لأنَّ اختلاف أعمالهم، قد صَيَّرَهم بمنزلة الأشياء المختلفةِ في ذواتها، فكان هذا المجازُ أبلغَ من الحقيقة[3].

---

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 1/2678.

(2) ابن أبي حاتم، تفسير القرآن العظيم: 4/1389.

(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 9/62.

تَوجيهُ المُتشابِهِ اللَّفظِيِّ، بين آيةِ الأنعام (132)، وآيةِ الأحقاف (19):

ميقاتُ تَوفيّةِ أعمالِ العِبادِ، في يومِ المعادِ.

قوله تعالى: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْۖ وَلِيُوَفِّيَهُمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ١٩﴾ [الأحقاف: 19]، ذَكَر الفريقين مِنَ المؤمنين والكافرين، فجاء التَّعقيبُ في الآية مُناسِبًا لذلك، فقال: ﴿وَلِيُوَفِّيَهُمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾، وذكرَ في الأنعام الظَّالمين، فقال معقِّبًا في الآية: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعۡمَلُونَ﴾.

❁ الفُروقُ المُعجَمِيَّةُ:

(الدَّرَجاتُ)، و(المَنازِلُ)، و(المَقاماتُ):

المنازل أعمُّ من الدَّرجات، عند ربّ الأرض والسّماوات

قوله: ﴿دَرَجَٰتٌ﴾، الدَّرَجَةُ في الرِّفعة والمنزلة، ودَرَجاتُ الجنان: منازلُ أرفعُ من منازلَ[1]، و(الدَّرَجَةُ) أَيْضًا المَرْتَبَةُ والطَّبَقَةُ، والجَمْعُ (الدَّرَجاتُ)[2]. أمَّا المنازلُ؛ فالنُّزول في الأصل هو انحطاطٌ من علوٍّ، فلا تصلحُ أن يُذكر في الدَّرجات العالية إلَّا بقرينة، قال تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ أَنزِلۡنِي مُنزَلٗا مُّبَارَكٗا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡمُنزِلِينَ﴾ [المؤمنون: 29]، فجعله مُنزلًا مباركًا، وإنزالُ اللهِ تعالى نعمَه ونِقمَه على الخلق[3]، فالمَنازِلُ أعمُّ من الدَّرَجات.

أمَّا المقاماتُ؛ فأصلُها من القيام، والمقامُ يكون مصدرًا واسمَ مكانِ القيام وزمانه، نحو: ﴿يَٰقَوۡمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيۡكُم مَّقَامِي وَتَذۡكِيرِي بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ [يونس: 71]، وقوله: ﴿وَلِمَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ﴾ [الرحمن: 46]، وقوله: ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبۡرَٰهِـۧمَ مُصَلّٗىۖ﴾ [البقرة: 125] فهي الدَّرجاتُ العاليةُ، والمقامات مرتَّبةٌ إيجابًا في ترتيبٍ تصاعديٍّ، فلا يصلُحُ أن يُقالَ: مقاماتُ الكُفَّار.

لذلك جاء في الحديث عنهُ ﷺ قولُه: «الجنّةُ مئةُ درجةٍ ما

(1) الخليل، العين: (درج).
(2) الرّازيّ اللغوي، الصحاح: (درج).
(3) الراغب الأصفهانّي، المفردات: (نزل).

بين كلِّ دَرَجَتَينِ مئةُ عامٍ»[1] والدَّرَجةُ هي المنزِلةُ والمكانةُ العاليةُ، وليس المرادُ بالعَدَدِ الحَصرَ، وإنَّما للدَّلالةِ على كَثْرتِها، بحيث إنَّ المسافةَ الَّتي تكونُ بينَ الدَّرَجتَينِ، ومِقْدار ارتِفاعِ كلِّ درَجةٍ عَن الأخرى تكونُ مِثلَ مسافَةِ مَن يَسيرُ مِئَةَ عامٍ؛ لذلك ناسبَ السِّياقَ الكريم في الآية أن يورِدَ لفظَ ﴿دَرَجَٰتٌ﴾، ليشمَل الجزاءُ النَّعيمَ والعقابَ المُتَفاوِت في تِلك الدَّرَجاتِ لكلا الفريقين.

(1) أخرجه الترمذي في جامعه، الحديث رقم: (2529)؛ وأحمد في المسند، الحديث رقم: (7910).

﴿وَرَبُّكَ ٱلۡغَنِيُّ ذُو ٱلرَّحۡمَةِۚ إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ وَيَسۡتَخۡلِفۡ مِنۢ بَعۡدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوۡمٍ ءَاخَرِينَ ١٣٣﴾

[الأنعام: 133]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

المناسبةُ بين تبايُنِ دَرجاتِ الجزاءِ، وغِنَى الله عنِ الإذهابِ والاستِخلافِ

لمّا بيَّنَ تعالى ثوابَ أصحابِ الطَّاعات، وعقابَ أصحابِ المعاصي والمحرَّمات، وذكرَ أنَّ لكلِّ قوم درجةً مخصوصةً، ومَرْتَبَة معيَّنة، بيَّن أنَّ تخصيص المطيعين بالثَّواب، والمذنبين بالعذاب، ليس لأجل أنَّه محتاجٌ إلى طاعة المطيعين، أو يَنْتَقِصُ بمعصية المذنبين، فإنَّه تعالى غنيٌّ بذاتِهِ عن جميعِ العالمين[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يُذۡهِبۡكُمۡ﴾: أَصْلُ الذَّهاب: المُضيُّ، والذَّهْبَةُ: المَرَّةُ الواحِدَةُ من الذَّهاب، ويقولون: ذَهَبَ لِذَهَبِهِ، أي: لِمَذْهَبِه الَّذي يَذْهَبُ إليه[2]، والمَذْهَبُ: مَصْدَرٌ، كالذَّهاب، وذَهَبَ بِهِ، وأَذهَبَه غَيْرُهُ: أَزالَه[3]. والمقصودُ في الآية: التَّمَكُّنُ مِنَ التَّصَرُّفِ بالإيجادِ والإعدام.

2) ﴿وَيَسۡتَخۡلِفۡ﴾: أَصلُ الإخلافِ: جَعْلُ الشَّيءِ خَلَفًا عن الشَّيءِ[4]، والخَلَفُ: العِوَضُ والبَدَلُ، يُقالُ: خَلَّفْتُ فلانًا أُخَلِّفُهُ تَخْليفًا واسْتَخْلَفْتُهُ، أيْ: جَعَلْتُهُ خَليفَتي[5]، ويُقالُ: أَخْلَفَ اللهُ عليكَ خَيْرًا، أَي: أَبْدلَكَ بما ذَهَبَ مِنْكَ[6]، والخَلَفُ: مِنَ الصَّالحين، ولا يجوزُ

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 13/163.
(2) الخليل، العين: (ذهب).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (ذهب).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (خلف).
(5) الأزهري، تهذيب اللغة: (خلف).
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (خلف).

أن يُقال: مِنَ الأشرار خَلَفٌ[1]، ولا من الأخيار خَلْفٌ، والمقصود من ﴿وَيَسْتَخْلِفْ﴾ في الآية: ويأتِ بخلقٍ غيركم وأممٍ سواكم.

3) ﴿أَنشَأَكُم﴾: "النُّونُ والشِّينُ والهَمْزَةُ أَصْلٌ صَحيحٌ يَدُلُّ عَلَى ارْتِفاعٍ في شَيْءٍ وَسُموٍّ، وَنَشَأَ السَّحابُ: ارْتَفَعَ، وأَنْشَأَهُ اللّهُ: رَفَعَهُ، ومِنْهُ: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ﴾ [المزمل: 6]، يُرادُ بها العبادةُ التي تنشأ في جوفِ اللَّيل، ومن هذا الأصلِ عُبِّر بها عن بَدْءِ الشَّيء لأوَّل أَمره مِن عَدَمٍ، كما قالوا: أنشأ دارًا: بناها، أو مِن أثناءٍ كانت موجودةً، ولكن لم يكن له وجود مُتعَيَّنٌ فيها ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ [هود: 61]، ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ [الأنعام: 98][2]. ومنه ﴿أَنشَأَكُم﴾ في الآية.

4) ﴿ذُرِّيَّةِ﴾: أَصْلُ (ذرّ) يَدُلُّ على لَطافَةٍ وانتِشارٍ[3]، ومَصْدَرُه: ذَرَرْتُ، وهو أَخذُك الشَّيءَ بأَطرافِ أصابعك تَذُرُّهُ ذَرَّ المِلْحِ المَسْحوقِ على الطَّعام[4]. والذُّرِّيَّةُ: الخَلْقُ والنَّسْلُ، مَأْخوذَةٌ مِن الذَّرْءِ، فتقول: ذَرَأَ اللّهُ الخَلقَ، أيْ: خَلَقَهُم، وذُرِّيَّةُ الرَّجُلِ: وَلَدُهُ[5]. وهو يحتمل أنَّه مأخوذٌ مِن الذَّرِّ، وهو: النَّشْرُ، فيُقال: ذَرَّ الشَّيءَ، يَذُرُّهُ، أيْ: نَشَرَهُ. أو مِنْ صِغارِ النَّمْلِ؛ لأنَّ اللّهَ أَخْرَجَ الخَلْقَ مِن صُلْبِ آدَمَ كالذَّرِّ[6]. والجَمْعُ: الذَّراري والذُّرِّيَّاتُ. والمقصودُ من ﴿ذُرِّيَّةِ﴾ في الآية: نسلُ الإنسانِ من ذُكورٍ وإناثٍ.

المَعْنى الإجْماليُّ:

الآيةُ خِطابٌ موجَّهٌ إلى نَبيِّه محمَّدٍ ﷺ بأنَّ ربَّك - يا مُحمَّدُ ﷺ - هو الغنيُّ عن عباده كلِّهم، فلا يحتاج إليهم، ولا إلى عبادتهم، ولا

قُدرةُ اللهِ تعالى على إذْهابِ الخَلقِ بأَمرِه، والإتيانِ بغيرِهم بمشيئتِه

(1) الخليل، العين: (خلف).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (نشأ).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ذرّ).
(4) الخليل، العين، وابن منظور، لسان العرب: (ذرر).
(5) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (ذرّ).
(6) الخليل، العين، والجوهرّي، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (ذرّ - ذرر).

يضرُّه كفرُهم، ومع غناهُ عنهم، فهو ذو رحمةٍ بهم، إنْ يَشَأْ؛ يُذْهِبْكم - أيُّها النَّاسُ - ويستخلِفْ مِن بَعْدِكم قومًا آخرينَ، يعملونَ بطاعَتِه؛ كما أوجَدَكم مِن نَسْلِ قومٍ آخرينَ كانوا قَبْلَكم، فوعيدُ الآخرة مُرتَّبٌ على أعمال المكلَّفين لا بظلمٍ منه سبحانه ولا لحاجةٍ له تعالى إليه؛ لأنَّه غنيٌّ عن العالَمين، بل لأنَّه مِن مقتضى الحقِّ والعَدْل، المقرونَين بالرَّحمة والفَضل[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ الوصْلِ بحرفِ العطْفِ (الواو):

كمالُ الصُّورةِ في بيانِ عظيمِ شأنِ اللهِ وكَمالِ قُدرتِهِ

قوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَنِيُّ﴾ وصلٌ بحرفِ العطْفِ (الواو)، فعطْفُ جملتين بتحقُّقِ شرطَي الوَصل، وهُما الاتِّصالُ والمُغايرةُ بينهما؛ أمَّا الاتِّصالُ؛ فلأنَّهُما خبريَّتان، فذكرَ تعالى مَن أطاعَ، ومَن عصى، والثَّوابَ والعقابَ، وأنَّه هو الغنيُّ عن كلِّ واحدٍ، لا تنفعُه الطَّاعة، ولا تضرُّه المعصيةُ، ومع كونهِ غنيًّا هو ذو الرَّحمة، فذلك التَّفَضُّلُ التَّامُّ. ذو الرَّحمةِ بجميع خلقهِ، ومن رحمتهِ تأخيرُ الانتقام من العُصاةِ، ويترحَّم عليهم بالتَّكليف ليُعَرِّضهم للمنافع الدَّائمة[2]. وأمَّا المُغايرةُ؛ فإنَّه ذكرَ في الأولى نفيَ الظُّلم عنهُ سبحانه في إهلاكِ القرى، أو أهل القُرى بِظُلم وهم غافلون، وذكر هنا رحمتَهُ سبحانه بالمخلوقاتِ كلِّها، وفائدةُ هذا الوصل تحقيقُ كمالِ الصُّورةِ في بيان عظيمِ شأن اللهِ سبحانه وكامل قدرتهِ، وعظيم عدلهِ ورحمته، وغِنَاهُ عن سائرِ خلقهِ.

تَكرارُ صِيغةِ ﴿وَرَبُّكَ﴾ هنا، وفي الآياتِ السَّابقةِ:

تَكرارُ صيغةِ ﴿وَرَبُّكَ﴾ هنا في قولهِ تعالى: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَنِيُّ ذُو

(1) ابن جرير، جامع البيان: 9/564 - 565، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 3/342، والمراغيّ، تفسير المراغيّ: 8/37.

(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/651.

ٱلرَّحۡمَةِۚ﴾ المعطوفةِ بالواو على جملة: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعۡمَلُونَ﴾ [الأنعام: 132]، لبيانِ المتلازمة بين علمه ورحمتهِ سبحانه، وبحسب تلك المتلازمةِ النَّاشئة عن صفتين كريمتين من صفاتِ اللّهِ تعالى، فقد تَضَمَّنَتِ الجملتان الوعدَ والوعيدَ، وما ذاك إلَّا لصدور رحمتهِ سبحانه بمقتضى علمهِ، والصِّفتان مُطلقتانِ كلتاهما.

وُرودُ مُتلازِمةِ (العِلمِ والرَّحمةِ) بعدَ مُتلازِمةِ (الغِنَى والرَّحمةِ)

بلاغةُ الإظهَارِ في مقامِ الإضمارِ، في قوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ﴾:

وقوله: ﴿وَرَبُّكَ﴾ إظهارٌ في مقام الإضمار، ومقتضاه أن يقال: وهو الغنيُّ ذو الرَّحمة، فخُولِفَ مقتضى الظَّاهر لما في اسم (الرَّبِّ) من تناسبٍ مع مغفرته ورحمته سبحانه، وما في اسم الرَّبِّ من دلالةٍ على العناية بصلاح المربوب، ولتكون الجملةُ مستقلَّةً بنفسِها، فتسري مَسرى الأمثالِ والحِكَم، في استعارةٍ تمثيليَّةٍ، تُذْكَرُ في المواضع المشابهةِ لموضوع ضرْبِ الآيةِ، وللتَّنويه بشأن النَّبيِّ ﷺ [1]. ثمَّ إنَّ اسمَ (الرَّبِّ) أنشأَ طباقَ سلبٍ مع الجملة التي عُطِفَتْ عليها في قوله: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ﴾ فاندرجَ العلمُ المطلق مع الغنى المطلقِ والرَّحمة المطلقةِ في الجملة المثبتةِ قوله: ﴿وَرَبُّكَ ٱلۡغَنِيُّ ذُو ٱلرَّحۡمَةِۚ﴾ في تَعداد عظيمِ صفات اللّه، كمتلازمةٍ لفضلهِ سبحانه على المخاطبين عامَّتهم، مع نفي الغفلةِ عنهُ سبحانه في قوله: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ﴾.

تَكرارُ ذِكرِ (الرَّبِّ) يتناسبُ مع تَعدادِ صِفاتِ (العلمِ) و(الغِنَى) و(الرَّحمةِ)

بلاغةُ الاحتراسِ في قولهِ تعالى: ﴿ذُو ٱلرَّحۡمَةِۚ﴾:

ومع كونِ اللّهِ تعالى غنيًّا عن عبادهِ جميعًا، فهو ذو رحمةٍ بهم؛ إذ لا يكون غناهُ عنهم مانعًا من رحمتهِ لهم، فجاءت الصِّفةُ الثانية ﴿ذُو ٱلرَّحۡمَةِۚ﴾ احتراسًا أن يفهمَ غناهُ عنهم مانعًا لرحمتهِ سبحانه فما أحسنَ هذا الكلامَ الرَّبانيَّ وأبلغَه! وما أقوى الاقترانَ بين الاسمين

غِناهُ تعالى عن عبادِه، ليس مانعًا من رحمتِهِ بهم، وتعطُّفِه عليهم

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 3/365.

الكريمين: الغنيِّ والرَّحمنِ في هذا المقام! فإنَّ صفةَ الرَّحمةِ لهم مع صفةِ الغنى عنهم هي غايةُ التَّفضُّل والتَّطوُّل والمنِّ منه تعالى[1].

دلالةُ أُسلوبِ الحصرِ في ﴿وَرَبُّكَ ٱلۡغَنِيُّ ذُو ٱلرَّحۡمَةِۚ﴾:

حَصَرَ الخبرَ في المبتدأِ بقولِه: ﴿ٱلۡغَنِيُّ﴾، أي: وحدَهُ الغنيُّ المطلقُ عن كلِّ عابدٍ أو عبادتِه[2]، فهو غنًى مُطلقٌ، فلهُ الغِنى التَّام من كلِّ الوجوه، لكمالِه وكمال صفاتِه الَّتي لا يتطرَّق إليها نقصٌ بوجهٍ من الوجوهِ، مقصورٌ على ﴿وَرَبُّكَ﴾، والقصر هنا ادِّعائيٌّ باعتبار أنَّ غنى غيرِ اللهِ تعالى لمّا كان غنًى ناقصًا نَزَلَ مَنْزِلَةَ العَدَم، أي: ربُّك الغنيُّ لا غيرُه، وغناهُ تعالى حقيقيٌّ، وذِكْرُ وصف الغنيِّ هنا تمهيدٌ للحكم الواردِ عَقِبَهُ، وهو: ﴿إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ﴾[3].

قال الرَّازيُّ: "﴿وَرَبُّكَ ٱلۡغَنِيُّ﴾ يفيد الحصرَ، معناهُ: أنَّه لا غنيٌّ إلَّا هو، والأمر كذلك؛ لأنَّ واجبَ الوُجود لذاتِه واحدٌ، وما سواه ممكنٌ لذاتِه، والمُمكنُ لذاتِه محتاجٌ، فثبت أنَّه لا غنيٌّ إلَّا هو"[4].

بلاغةُ الكناية، في جُملةِ ﴿وَرَبُّكَ ٱلۡغَنِيُّ ذُو ٱلرَّحۡمَةِۚ﴾:

و﴿ٱلۡغَنِيُّ﴾: هنا المُطلَق في غِناه، فلا يحتاج إلى غيرِه بحالٍ، فغناهُ يختلفُ عن غنى العباد، وهو محيطٌ بكلِّ الموجودات ممَّا يُنسب إلى الحقيقةِ مُشاهدِها وغائبِها؛ إذ يفتقِر إلى غِناهُ كُلُّ غنيٍّ سواه، وغناه مُتفرِّدٌ واحدٌ لا تكرارَ له قطعًا، فتحتاجُ الموجوداتُ كلُّها إلى غناهُ قطعًا؛ إذ استغنى عن الخَلق، وعن نصرَتِهم، وتأييدِهم لِمُلْكِه، فليست به حاجةٌ إليهم، فهم إليه فقراءُ محتاجون، فالمعنى هنا كنايَةٌ عن عمومِ مِلْكِ اللهِ تعالى.

اللهُ له الغِنَى التّامُّ الكاملُ، بكمالِ صفاتِهِ الَّتي لا يتطرَّقُ إليها نقصٌ

غِنَى اللهِ مُطلقٌ لا مَثيلَ له، ولا حَدَّ لمنتهَاه

(1) الشوكاني، فتح القدير: 2/187.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 2/719.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/85.
(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 13/154.

بلاغةُ الكنايةِ عنِ الغِنَى، والكنايةِ عنِ الرّحمةِ:

وفي الجملةِ كنايتَانِ ناتجتانِ عن تعدادٍ لصفاته سبحانه فالأولى: كنايةٌ عن غناهُ تعالى عن إيمان المشركين وموالاتِهم، كما في قوله: ﴿إِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمۡۖ﴾ [الزّمر: 7]، والثّانية: كنايةٌ عن رحمتهِ؛ إذ أمهلَ المشركين، ولم يعجِّل لهم العذابَ، كما قال: ﴿وَرَبُّكَ ٱلۡغَفُورُ ذُو ٱلرَّحۡمَةِۖ لَوۡ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُواْ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلۡعَذَابَۚ﴾ [الكهف: 58][1]. فهو يؤخِّرهم ليوم القيامةِ، فمن تابَ، وأناب؛ غُفِر له ذنبُه.

اللهُ تعالى غنيٌّ عن إيمانِ النّاسِ، وغنيٌّ عن إهلاكِهم؛ لأنّه رحيمٌ بهم

الفَرْقُ بين رحمتِهِ تعالى، ورحمَةِ غيرِهِ:

و﴿ذُو ٱلرَّحۡمَةِۚ﴾؛ لمّا كان اختصاصُه بالغنى والرَّحمةِ، فلا رحمةً إلا رحمتُهُ ولا غنًى إلا غناهُ، وأنَّه ما رتَّب الثَّوابَ والعقابَ إلَّا رحمةً منه وجودًا[2]، أمَّا رحمةُ الوالدين على الولد وسائرُ أنواع الرَّحمةِ بين الخلائقِ، فكلُّها عند التَّحقيق من اللهِ، فلا رحمةَ إلَّا مِنَ اللهِ، فالَّذي قدَّر الرَّحمةَ بين خلقِهِ، وقسَّمها كتقسيم الأرزاقِ هو اللهُ تعالى والَّذي أعطى صحَّةَ المزاجِ والقُدرةَ والمُكْنَةَ هو الرَّحيم في الحقيقة، هذا فضلًا عن أنَّ كلَّ من أعطى غيرَهُ شيئًا؛ فهو إنَّما يعطي لطلب عِوَضٍ، وهو إمَّا الثَّناء في الدُّنيا، أو الثَّواب في الآخرة، وهو تعالى يعطي لا لغرض أصلًا[3].

سائرُ رحماتِ الدُّنيا منه سُبحانه، قسَّمها بين خلْقِه كتقسِيمِ الأرزاقِ

براعةُ التَّعبيرِ بـ ﴿ذُو ٱلرَّحۡمَةِۚ﴾ دونَ (الرّحيمِ)، و(الرّحمنِ):

و﴿ذُو ٱلرَّحۡمَةِۚ﴾ خبرٌ ثانٍ، وعدلَ عن أن يوصفَ بوصف الرَّحيم إلى وصفهِ بأنَّه: ﴿ذُو ٱلرَّحۡمَةِۚ﴾، وذلك على خلافِ الغنيِّ؛ إذ لم يُوصف بذي الغِنى: ومعناها صاحبٌ، وهي تُشْعِرُ بقوَّةٍ أو وَفْرَةٍ ما تضافُ إليه، والمقصودُ من الوصفِ بذي الرَّحمةِ تمهيدٌ لمعنى الإمهال الذي

رحمةُ اللهِ شاملةٌ للمخلوقاتِ كلِّها، وللكونِ برُمّتِه

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/85.
(2) البقاعي، نظم الدّرر: 2/719.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 13/153.

في قوله: ﴿إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ﴾، أي: إنَّه لرحمته أمهلهم إعذارًا لهم[1]. و﴿ذُو ٱلرَّحۡمَةِۚ﴾ أبلغُ في هذا الباب من (الرَّحيم)؛ لأنَّها تلازمت بهذه الصِّيغةِ مع الغنيِّ، فصارت رحمتُه وصفًا ملازمًا لغناهُ، أدَّى ذلك إلى أن يتفعَّل لدى المُتلقِّين مفهومٌ فريدٌ وحيدٌ للغنى، فتأتي هذه الصِّفة ﴿ذُو ٱلرَّحۡمَةِۚ﴾ وما فيها من سَعة رحمتهِ لخلائقهِ جميعًا، ثمَّ ما فيها من معاني الإمهالِ للخلق مهما بلغوا في الكفرِ والإصرارِ والعناد، فإنْ تابوا؛ قُبِلت منهم توبتُهم، وإلَّا فإنَّ حسابَهم آتٍ يومَ القيامةِ، ثمَّ إنَّ الرَّحيم، أي: بالمؤمنين، والرَّحمنُ عامٌّ بالمؤمنين وغيرهم من خلقهِ، أمَّا ذو الرَّحمة؛ فهي رحمةٌ شاملةٌ لجميع خلائقهِ من الإنسِ والجنِّ والحيوان، وما لا نُدركه أو نعلمه.

سِرُّ تقديمِ (الغِنَى) على (الرَّحمةِ):

الرَّحمةُ أخصُّ منَ الغِنَى في القُربِ منَ العبادِ، والتَّفضُّلِ عليهم

فالغَنيُّ صفةُ ذَاتٍ للهِ تعالى لأنَّه ﷻ لا يفتقر إلى شيءٍ من الجهاتِ، ثمَّ تُليت هذه الصِّفةُ بقوله: ﴿ذُو ٱلرَّحۡمَةِۚ﴾، فأردفَ الاستغناءَ بالتَّفضُّل، وهذا أجملُ تناسقٍ، ثمَّ عقَّبَ بجملة في قوله: ﴿إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ وَيَسۡتَخۡلِفۡ مِنۢ بَعۡدِكُم مَّا يَشَآءُ﴾ المضمَّنةِ للوعيد المحذِّرةِ من بطشِ اللّه - ﷻ - في التَّعجيل بذلك[2]. فقدَّم الغنى على الرَّحمةِ؛ لأنَّ الرَّحمةَ أخصُّ في القرب من العبادِ من غناهُ عنهم سبحانه فهو سبحانه غنيٌّ عن عذابِ الخَلق، وهذا الغِنَى أُرْدِفَ بالرَّحمة، فاجتمع الفضلُ من اللّهِ على عبادهِ، ولو قالَ: (وربُّك ذو الرَّحمة الغنيُّ)؛ لما أفادَ المعنى المرجوَّ.

نُكتةُ اختيارِ صِفتَي (الغِنى) و(الرَّحمة)، واقترانِهما في هذا المَوضعِ:

بعد أن نَشَرَ بقوله: ﴿وَلِكُلّٖ دَرَجَٰتٞ﴾ أردفَ بقوله: ﴿وَرَبُّكَ ٱلۡغَنِيُّ ذُو ٱلرَّحۡمَةِۚ﴾، أي: بكلِّ المخلوقات إنسِهم وجنِّهم، مؤمِنهم وكافرِهم،

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/85.
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/347.

فالكُلِّيَّة أصبحت مدارَ الآياتِ الكريمة حالَ أنْ كان الحديثُ عن كُلِّيَّة الغِنَى والرَّحمة المُطْلَقَتين كصفتَينِ مُتَلازِمَتين في مقامِ الآيةِ الكريمةِ، وأنَّه تعالى إنَّما ذكر ﴿ٱلرَّحۡمَةِۚ﴾، وقرنَ بها ﴿ٱلۡغَنِيُّ﴾ في قوله: ﴿وَرَبُّكَ ٱلۡغَنِيُّ ذُو ٱلرَّحۡمَةِۚ﴾ لأمرين، **أحدهما**: يشيرُ إلى أنَّ ذلك الإرسالَ المذكورَ، لم يكن إلَّا لمحضِ رحمةِ العباد؛ لأنَّه غنيٌّ مطلقًا.

الغِنَى والرَّحمةُ صِفتانِ كلِّيتانِ مُتلازِمتانِ دومًا.

وثانيهما: أنْ يكون تخلُّصًا إلى خطابِ العُصاة من أمَّة محمَّد ﷺ بقوله: ﴿إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ﴾ لأجلِ ذلك الاقترانِ، يعني: أنَّه تعالى مع كونِه ذا الرَّحمةِ، بإرسال الرُّسلِ، كذلك غنيٌّ عن العالمين، وعنكم خاصَّةً - أيُّها العصاةُ - إن يشأْ يذهبْكم، ويأتِ بآخرين، ولذلك عَقَّبَهُ بقوله: ﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَأٓتٖۖ﴾[1]. ومع كونه غنيًّا فإنَّ رحمتَهُ عامَّةٌ كاملة ولا سبيل إلى إيصالِ النَّاس درجاتِ السُّعداء الأبرارِ إلَّا بترتيبِ التَّرغيب في الطَّاعات، والتَّرهيب عن المحظوراتِ، فقال: ﴿وَرَبُّكَ ٱلۡغَنِيُّ ذُو ٱلرَّحۡمَةِۚ﴾ ومن رحمتِه على الخلقِ ترتيبُ الثَّواب والعقاب على الطَّاعةِ والمعصية[2]. فجاءتِ الصِّفتانِ الكريمتانِ شاملتين لأصحاب الدَّرَجات كلِّهم.

تَوجيهُ المُتشابهِ اللَّفظِيِّ في الأنعام (133)، وفي الكهف: (58):

قال تعالى هنا ﴿وَرَبُّكَ ٱلۡغَنِيُّ ذُو ٱلرَّحۡمَةِۚ﴾، وقال في موضع آخر: ﴿وَرَبُّكَ ٱلۡغَفُورُ ذُو ٱلرَّحۡمَةِۖ لَوۡ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُواْ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلۡعَذَابَۚ بَل لَّهُم مَّوۡعِدٞ لَّن يَجِدُواْ مِن دُونِهِۦ مَوۡئِلٗا﴾ [الكهف: 58]، وسبقَ آيةَ الكهفِ قوله: ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعۡرَضَ عَنۡهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتۡ يَدَاهُۚ إِنَّا جَعَلۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ أَكِنَّةً أَن يَفۡقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٗاۖ وَإِن تَدۡعُهُمۡ إِلَى ٱلۡهُدَىٰ فَلَن يَهۡتَدُوٓاْ إِذًا أَبَدٗا﴾ [الكهف: 57] الَّتي ذكرَ فيها الظُّلمَ، فجاء بعدها ذِكْرُ المغفرةِ، فقال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ ٱلۡغَفُورُ ذُو ٱلرَّحۡمَةِۖ﴾ [الكهف:

الانسجامُ التَّامُّ لأسماءِ الله وصِفاتِهِ مع السِّياقِ القرآنيِّ

(1) الطِّيبي، فتوح الغيب: 6/251.
(2) الطِّيبي، فتوح الغيب: 13/163.

58]، أمَّا في هذه؛ فقال: ﴿وَرَبُّكَ ٱلۡغَنِيُّ ذُو ٱلرَّحۡمَةِۚ﴾؛ لحديثِه قبلَها عن الدَّرجات من الجنَّةِ أو من النَّارِ، فقال: ﴿وَلِكُلّٖ دَرَجَٰتٞ مِّمَّا عَمِلُواْۚ﴾، فعبَّرَ هنا عن غناه عن كلا الفريقين، فلا الصَّالحون سيزيدونَ في مُلكهِ شيئًا، ولا الكافرون سيُنقصون من مُلكهِ شيئًا، فقال: ﴿وَرَبُّكَ ٱلۡغَنِيُّ ذُو ٱلرَّحۡمَةِۚ﴾.

دَلالةُ جملةِ الشَّرطِ، في ﴿إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ﴾:

الـشَّـرطُ أفـادَ إظهارَ قُدرةِ الله التَّامَّةِ، وعظَمتِه المُطلقةِ

معنى الشَّرط أنْ يقع الشَّيءُ لوقوع غيره[1]. و﴿إِن﴾: حرف شرطٍ جازم، و﴿يَشَأۡ﴾: فعلُ الشَّرطِ مضارعٌ مجزومٌ، و﴿يُذۡهِبۡكُمۡ﴾: جوابُ الشَّرطِ مضارعٌ مجزومٌ، فقوله: ﴿إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ﴾ شرطٌ أفاد إظهارَ القُدرة التَّامَّة، والعظمةِ المطلقةِ، والخطابُ عامٌّ للخلق كلِّهم، فَيُلْحَظُ في الآية اختصارُ الأزمنةِ في مشيئته سبحانه وهذا من عظيم قدرتهِ، كما قال في موضع آخر: ﴿إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأۡتِ بِـَٔاخَرِينَۚ﴾ [النّساء: 133]، فالمعنى: إن يشأ إفناءَ هذا العالم واستخلافَ ما يشاء من الخَلقِ يفعلُه، ولا يُعجِزُه شيءٌ، والخطابُ لأهل مكَّةَ خاصَّةً وللنَّاس كافَّةً، فلا يقع في ظنِّ أحدٍ منكم أنَّ الإهلاكَ متوقِّفٌ على شيءٍ غيرِ مشيئتِه، ولكنَّه قضى بإمهالِكم إلى آجالِكم رحمةً لكم وإكرامًا لنبيِّكم[2] ﷺ.

إيثارُ فعْلِ المَشيئةِ على الإرادةِ:

إظهارُ أنَّ مشيئةَ اللهِ تعالى، هي الفاعلةُ والقادرةُ على كلِّ شيءٍ

مشيئةُ اللهِ تعالى هي إرادتهُ الكونيَّةُ، وهي أنَّ ما شاء اللهُ كان، وما لم يشأْ لم يكنْ، وهي من صفاتِ اللهِ تعالى الفِعْليَّةِ، فلم يقل في نظم الآيةِ: (إن يُرِدْ؛ يذهبْكم)؛ لإظهار أنَّ مشيئةَ الله تعالى هي الفاعلةُ والقادرةُ على كلِّ شيءٍ، وأنَّ إرادتَهُ تعالى هي السَّابقةُ والغالبةُ على كلِّ إرادةٍ، وأنَّ ما يشاء اللهُ تعالى يكون، وما لا يشاءُ

(1) المبّرد، المقتضب: 2/46.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 2/719.

لا يكون، وقد نوَّعَ اللّهُ تعالى استخدامَ فعلِ (المشيئةِ) ماضيًا ومضارعًا وأمرًا - في القرآن الكريم - أكثرَ من ثلاثمئةِ مرَّةٍ، في مواضعَ مختلفةٍ وموضوعاتٍ متباينةٍ؛ لبيانِ قدرتهِ الباهرةِ، وحكمتِهِ الظَّاهرةِ، وعدلهِ التَّامِّ في تدبير الأمورِ.

وأمَّا قوله: ﴿مَّا يَشَآءُ﴾؛ فالمرادُ منهُ خَلْقٌ ثالثٌ ورابعٌ، وهذا منسجِمٌ مع الأفعال المُضارعةِ ﴿يَشَأْ﴾ و﴿يُذْهِبْكُمْ﴾ و﴿وَيَسْتَخْلِفْ﴾ الَّتي تدلُّ على التَّجدُّد والاستمرار، أو هو خَلقٌ آخرُ من أمثالِ الجِنِّ والإنس، بل المرادُ أنَّه قادرٌ على أن يخلقَ خلقًا ثالثًا مخالفًا للجِنِّ الإنس، وهذا الوجهُ أقربُ[1]. وقولهُ: ﴿كَمَآ أَنشَأَكُم﴾ في موضع مصدرٍ على غيرِ الصَّدر لقوله: ﴿وَيَسْتَخْلِفْ﴾؛ لأنَّ معناه: (وينشئ)؛ والمعنى: إن يشأِ الإذهابَ والاستخلافَ؛ يذهبْكم، ويستخلف، فكلٌّ من الإذهابِ والاستخلافِ معذوقٌ بمشيئتهِ و﴿مِنْ﴾ لابتداءِ الغاية[2]. ولا يخفى التَّجانُسُ اللفظيُّ بين ﴿يَشَأْ﴾ و﴿أَنشَأَكُم﴾ لاشتراكِهما في أغلب حروفِ الكلمةِ.

بلاغةُ المَجازِ في لفظِ الإذهابِ في: ﴿يُذْهِبْكُمْ﴾:

الإذهابُ والاستبدالُ، سُنَّةُ الله الكونيَّةُ في الخَلْقِ

الإذهابُ هنا الإهلاكُ، إهلاكُ الاستئصالِ لا الإماتةِ، ناسًا بعد ناسٍ، وجيلًا بعد جيلٍ حتَّى يذهبَ استحقاقُهم في الاستخلاف، فيُجتثَّ شأنُهم، وتذهبَ ريحُهم، فهو مجازٌ في الإعدامِ والإفناءِ، وبلاغةُ الإذهابِ أنَّه شبَّه حالَهم بحالِ الماشي المتباعدِ عن المكانِ حتَّى يتلاشى عن النَّظر، فيكون إذهابُهم بمعنى تلاشي شأنِهم شيئًا فشيئًا، وذلك بحسب السُّنَنِ الكونيَّةِ الَّتي وضعَها اللّهُ للنَّاس جيلًا بعد جيل، وأقوامًا بعد أقوامٍ.

(1) الرّازيّ، مفاتح الغيب: 13/165.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 4/651.

مُناسبةُ الرَّحمةِ للإذهابِ:

لولا رحمتُهُ لاستأصلَ شأفَتَهم، بإرادةِ (كُنْ فَيكونُ)

وقولهُ: ﴿إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ وَيَسۡتَخۡلِفۡ مِنۢ بَعۡدِكُم مَّا يَشَآءُ﴾ جاء بعد قوله: ﴿وَرَبُّكَ ٱلۡغَنِيُّ ذُو ٱلرَّحۡمَةِۚ﴾ والمعنى فيه إشارةٌ جميلةٌ إلى أنَّه تعالى لما وصف نفسَهُ بأنَّه ذو الرَّحمةِ، فقد كان يجوز أن يظنَّ ظانٌّ أنَّه، وإن كان ذا الرَّحمةِ إلا أن لرحمتهِ معدنًا مخصوصًا وموضعًا معيَّنًا، فبيَّن تعالى أنَّه قادرٌ على وضْعِ الرَّحمة في هذا الخلقِ، وقادرٌ على أن يخلقَ قومًا آخرين، ويضعَ رحمتَه فيهم، وعلى هذا الوجهِ يكونُ الاستغناءُ عن العالمين أكملَ وأتمَّ، والمقصودُ التَّنبيهُ على أنَّ تخصيصَ الرَّحمة بهؤلاءِ ليس لأجل أنَّه لا يمكنه إظهارُ رحمتِهِ إلَّا بخلقِ هؤلاءِ[1]. ومن رحمتهِ سبحانه وبالغِ حلمهِ أنَّه يتجاوزُ عن كثيرٍ من أفعالِ العبادِ مما يستحقُّون عليها الإذهابَ والاستئصالَ، كما قال: ﴿وَلَوۡ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهۡرِهَا مِن دَآبَّةٖ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗىۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرَۢا ٤٥﴾ [فاطر: 45]، فاللهُ تعالى لولا فضلُهُ ورحمتهُ؛ لأهلَك النَّاس بسببِ ذنوبِهم ومعاصيهم، ولكنَّه يُمهِلُهم، ولا يُهمِلُهم، ويدعوهم إلى التَّوبة والإصلاح، ويحاسبُهم في الآخرة على ما فعلوا، وهو إن يشأْ؛ يُذهبْهم بـ"كن فيكون"، لكنَّه جعلَها سُنَّةً كونيَّةً تأخذ وقتها تفاعلًا وانسجامًا على حسب أفعالِكم في الحياة.

سِرُّ التَّعبيرِ بصِيغةِ أفعالِ المضارعِ في الآيةِ الكريمةِ:

يكونُ الإذهابُ والاستخلافُ، جيلًا من بعْدِ جيلٍ

أمَّا قولهُ: ﴿إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ﴾ فالمرادُ به الإهلاكُ، ويحتملُ الإماتةَ أيضًا، ويحتملُ ألَّا يبلِّغَهم مبلغَ التكليف[2]، وأمَّا قولهُ: ﴿وَيَسۡتَخۡلِفۡ مِنۢ بَعۡدِكُم﴾، يعني: من بعدِ إذهابِكم؛ لأنَّ الاستخلافَ لا يكون إلَّا على طريقِ البدل من فائتٍ، وكلا الفعلين مضارعٌ يدلُّ

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 13/156.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 13/156.

على التَّجدُّد مع الزَّمن، فيكون هذا الوعيدُ مُمكِنَ الوقوعِ والتَّحقُّق في كلِّ وقتٍ، ثمَّ إنَّ معنى هذا الفعلِ هو الإذهابُ شيئًا فشيئًا، وجيلًا بعد جيل، وكذلك الاستخلافُ بحسب السُّنن الكونيَّةِ فيهما.

علَّةُ التَّعبيرِ بلفظِ ﴿يُذۡهِبۡكُمۡ﴾ دونَ غيرِه:

ثمَّ إنَّ دلالةَ الإذهابِ أقوى إشارةً إلى جعل الشَّيء كماضٍ لا يُذكَرُ، ولا يُؤْبَهُ لأهله بشيءٍ، وأنَّ هذا المعنى منسجمٌ تمامًا مع توالي الأفعال التي تدُلُّ على التَّجدُّد المستمرِّ، وهذا المعنى بمجملهِ تحقيقٌ لغناه سبحانه فقال: ﴿يُذۡهِبۡكُمۡ﴾، وهو المعنى المجازي، ومن المُحتَمل أن يُرادَ المعنى على الحقيقة، أي: الإذهابُ بمعنى الإهلاكِ بكُنْ فيكون.

قد يكونُ الإذهابُ بـ (كنْ فيكونُ)، وكما شاءَ تعالى يكونُ

دَلالةُ (الواو) في قولِه تعالى: ﴿وَيَسۡتَخۡلِفۡ﴾:

وقولهُ: ﴿وَيَسۡتَخۡلِفۡ مِنۢ بَعۡدِكُم مَّا يَشَآءُ﴾، الواو: حرفُ عطْفٍ للجمع، أي: يكونُ الإذهابُ والاستخلافُ في وقتٍ واحدٍ، فيكونان متداخِلَيْن زمانًا، وفيهِ إشارةٌ إلى احتمال أنَّ الحضاراتِ هنا هي المقصودةُ بالإذهابِ والاستخلافِ على سبيل المجازِ، أي: يُذهِبُ شأنَكم، وتمكُّنكُم وحضارتَكم، ويستخلفُ أناسًا آخرين، لا يفعلون أفعالَكم، فيستحقُّون الاستخلافَ، وهذا هو قانونُ الحضاراتِ والاستخلافِ في الأرضِ وسُنَّةِ اللهِ فيها، فالأمَّةُ الَّتي تَعي سير عجلةِ التَّاريخ، وتستوعب مسارَ حركتها؛ سيكون لها اليدُ الطُّولى في الاستخلافِ والتَّمكين، وهكذا تذهبُ أمَمٌ، ليُسْتَخْلَفَ مكانَها أمَمٌ أخرى، ويكون ذلك في تزامُنٍ، وهذا ما يدلُّ عليه حرفُ الواو من الجمعِ بين الإذهابِ والاستخلافِ.

التَّزامنُ في الإذهابِ والاستِخلافِ، إشارةٌ إلى تصرُّفِه كما يريدُ

دلالةُ لفظِ (الاستِخلافِ)، تعريضٌ باستِئْصالٍ مُفْنٍ للبُغاةِ:

وتحتمِل ألفاظُ الآيةِ أن تكونَ وعيدًا لجميع بني آدمَ، ويكون الآخرونَ من غيرِ نوعِهم، ممَّا يشاءُ اللهُ أن يخلقَ سبحانه وقدرةُ اللهِ تعالى على ما ذَكرَ تقضي بها العقولُ ببُدائها[1].

الاستخلافُ قُدرَةٌ على السَّعْيِ، تَنسجمُ مع سُنَنِ الكَونِ

(1) ابن عطية، المحرّر الوجيز: 2/121.

وتأتي الكُلِّيَّة أيضًا انسجامًا مع السِّياق، في استخلافِ من يَسْتَحِقُّ أن يُستخلَفَ من الأقوامِ الَّذين يسعَوْنَ منسجمين، مع ما وضع اللّهُ تعالى في هذا الكونِ وهذهِ الحياةِ من سُننٍ وقوانينَ، تستدعي من البشر تفسيرَها، والعيشَ بمقتضى ذلك التَّفسيرِ، وقد قدَّمتِ الرِّسالاتُ السَّماويَّةُ للبشرِ تفسيراتِ الحياة، ودَعَتْهُ إلى استخلاف الأرضِ بمقتضى تلك التَّفسيرات وضوابطها وقواعدها، فمن خرجَ عن تلك القواعدِ والضَّوابطِ من تلك الأقوامِ أوشكت أن تُستبدَلَ بأقوامٍ آخرين، يُجيدون الفَهْمَ بمقتضاها، فلا يكونون كسابقيهم، قال تعالى: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمْثَٰلَكُم ۝٣٨﴾ [محمد: 38]. عن أبي هريرةَ رضي الله عنه: لمّا نَزَلتْ: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ [محمّد: 38]، قالوا: مَن هُم يا رسولَ اللّهِ؟ قال - وسَلْمانُ إلى جَنبِه -: «همُ الفُرسُ، هذا وقَومُه»[1]، ولتكونَ هذهِ المسألةُ واحدةً من مقاصدِ القطعةِ القرآنيَّةِ، أي: ما يشاءُ من مؤمنين أو كافرين على ما تقتضيهِ حكمتُهُ، وهذا تعريضٌ بالاستئصالِ؛ لأنَّ ظاهرَ الضَّميرِ يفيدُ العمومَ.

وجهُ التَّعبيرِ بصِيغةِ الاستفعالِ ﴿وَيَسْتَخْلِفْ﴾:

إنشاءُ الحياةِ واستخلافُ الأقوامِ، سُنَّةٌ كونيَّةٌ عظيمةٌ

وقال: ﴿وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ﴾؛ فصيغةُ (ويستفعل) السِّين والتَّاءُ فيها للتَّوكيد، وشدَّةِ الإتيانِ بالفعل، الاستخلافُ: جَعْلُ الخَلَفِ عن الشَّيءِ، والخَلَفُ: العِوَضُ عن شيءٍ فائتٍ. وفائدةُ هذه الصِّيغةِ بيانُ انسجامِ نشأةِ الأقوامِ المُستخلَفَةِ، مع السُّنن الكونيَّةِ. فالاستخلافُ هو إعطاءُ القوَّةِ وقدرةِ السَّعي وتناسقِ الأسباب مع النُّموِّ والنَّشأة والرُّقيِّ، منسجمًا مع سُنن الكونِ والحياةِ، فالزِّيادة في هذا الفعل تدلُّ على المبالغةِ، وأنَّ هذه المبالغةَ قد تكونُ في

(1) الطحاوي، مشكل الآثار: الحديث رقم: (2135)، وقال الشيخ شعيب الأرنؤوط، تخريج مشكل الآثار: "إسناده صحيح على شرط مسلم".

كثرةِ الإتيان بالفعلِ، أو الطَّاقة الكُبرى الَّتي تكون في هذا الفعلِ، والَّتي لا تنبغي إلَّا لقدرة اللهِ سبحانه وعظمتهِ وقيوميَّتِه على هذا الكون وعلى هذه الحياةِ والمخلوقات.

وأصلُ (استفعل يستفعل) في معنى الطَّلب والاستدعاءِ، هو الأكثرُ[1]. وزيادةُ المبنى تدلُّ على زيادةٍ في المعنى[2]، وأنَّ الزِّيادةَ في مثل هذه المواضعِ تدلُّ على المبالغة، و(استفعل) بمعنى (فَعَلَ) نحو: (قرَّ) و(استقرَّ)، إذ لا بدَّ في (استقرَّ) من مبالغةٍ[3]، ومثلُ ذلك قولهُ: ﴿يَسْتَسْخِرُونَ ۝١٤﴾ [الصافات: 14]، أي: يبالغون في السُّخرية[4]، ومثل ذلك قوله: ﴿وَيَسْتَخْلِفْ﴾.

تَوجيهُ (الاستئنافِ) في جُملةِ الإذهابِ والاستِخلاف:

الاستِخلافُ انسِجامٌ مع سُنَنِ الكَونِ المتأتِّيةِ

قولهُ: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾؛ فـ ﴿إِن يَشَأْ﴾ وما بعدَهُ خبرُ الأوَّلِ، والجملةُ الشرطيَّةُ خبرٌ ثانٍ أو مستأنَفٌ[5]. وفائدةُ الاستئناف: الانسجامُ مع بداية جديدةٍ، واستئنافُ قومٍ آخرين فيها بعد أن أذهبَكم واستأصلَكم.

جُملةُ الإذهابِ والاستخلافِ، بينَ التَّعريضِ والتَّهديدِ:

مِنْ ألطافِ الله، عَرْضُ خطابِ التّهديدِ، بالمزْجِ بين الوعْدِ والوعيدِ

والخطابُ يجوز أن يكونَ للنَّبيِّ ﷺ وللمؤمنين معه، والمقصودُ منه التَّعريضُ بمن يغفُلُ عن ذلك من المشركين، ويجوزُ أن يكونَ إقبالًا على خطابِ المشركين، فيكونَ تهديدًا صريحًا، وذلك ما يؤذِنُ به قولُه عَقِبَه: ﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ ۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾. وقوله: ﴿وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ﴾ نبَّهَ على أنَّ قدرتَهُ ليست مقصورةً على جنسٍ دونَ جنسٍ من الخَلْقِ الَّذين يصلحونَ لرحمتهِ العظيمة، فَبَيَّنَ أنَّه تعالى لرحمته أبقى هؤلاءِ القومَ الحاضرين وأمهلهم،

(1) ابن سيده، المخصّص: 14/180.
(2) الزّركشّي، البرهان: 2/477.
(3) الرضّي، شرح الرضي على الشافية: 1/111.
(4) الشّوكانّي، فتح القدير: 4/389.
(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/651.

ولو شاءَ؛ لأماتَهم وأفناهم بكُنْ فَيَكون، وأبدلَ بهِم سواهُم، ثمَّ بيَّن تعالى عِلَّةَ قدرتهِ على ذلك، فقال: ﴿كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوۡمٍ ءَاخَرِينَ﴾[1]. فجعلَها سُنَّةً كونيَّةً في الخَلْقِ والإنشاء.

دَلالةُ ﴿مِنۢ﴾ في قولهِ تعالى: ﴿مِنۢ بَعۡدِكُم﴾:

دورةُ الاستبدالِ والاستخلافِ، مُستمرَّةٌ إلى قيامِ السَّاعةِ

ولمَّا كانت مشيئةُ اللهِ ألَّا يجعلَ لأحدٍ الخُلْدَ؛ أدخلَ الجارَّ؛ فقال: ﴿مِنۢ بَعۡدِكُم﴾، أي: بعد هلاككم، فـ﴿مِنۢ﴾ زائدةٌ للتَّوكيد، فتكونُ بُؤْرةُ الحديثِ هي إذهابُكم، ويكونُ من بعدِكم ما يشاء من الاستخلافِ والتَّبديل إلى يوم القيامةِ.

إيثارُ الموصولِ (ما) المُستعمَلِ لغيرِ العاقلِ:

قُدرةُ اللهِ على إنشاءِ الحيِّ من غيرِ الحيِّ، والعاقلِ من غيرِ العاقلِ

وقولهُ: ﴿مَّا يَشَآءُ﴾ يجوزُ أن تكونَ ﴿مَّا﴾ واقعةً على ما هو من جنس الآدميِّين، وإنَّما أتى بـ ﴿مَّا﴾ وهي لغير العاقل للإبهام الحاصلِ، ويجوز أن تكونَ واقعةً على غير العاقل، وأنَّه يأتي بجنسٍ آخرَ، ويجوزُ أن تكونَ واقعةً على النَّوع من العقلاءِ[2]، وقولهُ: ﴿مَّا يَشَآءُ﴾، أي: يبدع غيرَكم من الخلقِ من جنسكم، أو غيرِ جنسِكم، كما أبدعَ أباكم آدمَ منَ التُّرابِ، والتُّرابَ من العَدَمِ، وفرَّعكم منهُ، ﴿كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ﴾، أي: نسلِ ﴿قَوۡمٍ ءَاخَرِينَ﴾[3].

والموصولُ ﴿مَّا﴾ وهو لغيرِ العاقل دونَ أن يقولَ: (من يشاء) الَّتي هي للعاقلِ؛ لبيان عظيمِ قدرتهِ في إنشاء العاقل من غيرِ العاقلِ، وإنشاءِ الحيِّ من غيرِ الحيِّ، فخلقَ آدمَ - وهو حيٌّ عاقلٌ - من ترابٍ، وهو غير حيٍّ وغيرُ عاقلٍ، و﴿مَّا﴾ في قوله: ﴿مَّا يَشَآءُ﴾ قيل: بمعنى (مَنْ)، والأَولى: أنَّه إن كان استخلافُه من غيرِ العاقل؛ فهي واقعةٌ موقعَها، وإن كان عاقلًا؛ فيكونُ قد أُريدَ بها النَّوعُ[4].

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 13/165.
(2) السّمين الحلبيّ، الدّر المصون: 5/156.
(3) البقاعيّ، نظم الدرر: 2/719.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/651 - 652.

بلاغةُ الاحتباكِ في الآيةِ الكريمةِ:

والمعنى العامُّ للآية يُنبئ أنَّ فيها احتباكًا، فيكون المعنى بحسَبِهِ: (إن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ، ويُنشِئْ آخرين، ويستخلفْهم من بعدِكم ما يَشاء، كَما أَنشَأَكُم مِن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرينَ، واستخلفكم). ولعلَّ من بلاغة هذا الاحتباكِ بيانَ التَّداخلِ بين عمليَّتَي الإذهاب والنَّشأة، وكأنَّهما تَحْدُثَانِ في وقتٍ واحدٍ؛ ففي الوقتِ الَّذي يذهبُ فيه قومٌ يَنشأُ قومٌ آخرون، وفي الوقت الَّذي تذهب فيه حضارةٌ وتتلاشى، تنمو حضارةٌ أخرى، وتزدهر بحسب قانونِ التَّدافع، وسُنَّةِ اللّٰه في الإذهاب والاستخلافِ.

التَّتابُعُ والتَّزامنُ، بينَ الإذهابِ والاستِخلافِ

بلاغةُ التَّشبيهِ في الإنشاءِ، في قوله تعالى: ﴿كَمَآ أَنشَأَكُم﴾:

قولُه: ﴿كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ﴾؛ تشبيهٌ تمثيليٌّ في إنشاءِ موجوداتٍ بعد موجوداتٍ أخرى، لا في كون المُنشَآتِ مُخرَجةً من بقايا المعدومات، ويجوز أن يكونَ التَّشبيهُ في إنشاء موجوداتٍ من بقايا معدوماتٍ[1]. وهذا يعني: أنَّ هناك تخليقًا جديدًا للحياة من كائناتٍ غيرِ حيَّةٍ، وهذه المسألةُ أصبحت اليوم من التحدِّياتِ الكبرى لعلماءِ الحياةِ؛ إذ كيف يأتي الحيُّ من غيرِ الحيِّ؟ ويمكن أن يكونَ التَّشبيهُ التمثيليُّ هنا بمعنى: أنَّ إنشاءَ الحضارات وإبادتها هو كإنشاء الحياةِ وإبادتها تمامًا بتمام، وهذا من فوائدِ الاحتباك أيضًا ومن جماليَّاته.

إنشاءُ الحضاراتِ كإنشاءِ الحياةِ، لها أسبابٌ ومُسبِّباتٌ

وَجْهُ التَّعريضِ في جُملةِ التَّشبيهِ ﴿كَمَآ أَنشَأَكُم﴾:

وفي جملة التَّشبيهِ تعريضٌ بأولئك المنكرين للإيمان، وبقدرتهِ سبحانه على إحياء الموتى، والخَلقِ من العدَمِ، وهذا من الفوائد الَّتي حقَّقها فنُّ الاحتباكِ أيضًا. وقوله: ﴿كَمَآ﴾، فـ (ما) مصدريَّةٌ، ومحلُّ الكافِ النَّصبُ على أنَّه مصدرٌ تشبيهيٌّ، فـ (يستخلف)

التَّعريضُ بالمخاطَبين على أنّه قادرٌ على أن يُنشئَ كائناتٍ كإنشائِهم

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/87.

في معنى يُنشِئ، كأنَّه قيل: وينشئُ إنشاءً كائنًا كإنشائِكم، أو نعتٌ لمصدرِ الفعل المذكورِ، أي: يستخلفُ استخلافًا كائنًا كإنشائكم[1].

وُجوهُ الحرف ﴿مِّن﴾ في قوله تعالى: ﴿مِّن ذُرِّيَّةِ﴾:

وقوله: ﴿مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ﴾ إمَّا أن تكونَ ﴿مِّن﴾ للتَّبعيض، أو أن تكونَ لابتداءِ الغاية، أو هي بمعنى العِوَض، وقال الطَّبريّ، وَتَبِعَهُ مَكِّيٌّ: هي بمعنى أخذتُ من ثوبي دينارًا، بمعنى: عنه وعوضِه، يعني: أنَّها بدليَّةٌ تفيد التَّعقيبَ؛ إذ لم يردْ بإخبارهم هذا الخبرَ، أنَّهم أُنشِئوا من أصلابِ قومٍ آخرين، ولكن معنى ذلك: أنَّهم أُنشِئوا مكانَ خَلْقٍ خَلَفَ قومٍ آخرين قد هلكوا قبلَهم[2].

ويحتمِلُ المعنى: من أولاد قومٍ متقدِّمين؛ أصلُهم آدمُ عليه السلام أو من أولاد قومٍ آخرين، لم يكونوا على مثلِ صفتِكم؛ وهم أهلُ سفينةِ نوحٍ عليه السلام ويعني: أنَّكم من ذريَّة قومٍ صالحين، فلو شاءَ أذهبَكم - أيُّها العصاةُ - ويستخلفُ بعدَكم طائعين، كما أنَّكم عصاةٌ أنشأكم من قومٍ طائعين[3].

سِرُّ تَنكيرِ لفظِ ﴿قَوْمٍ﴾:

تنكيرُ لفظِ قومٍ في قوله تعالى: ﴿مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ﴾ أفادَ التَّهوينَ والتَّحقيرَ؛ إذ مَن يعرفُ تلك الأقوامَ الّتي أنشأكم اللّهُ منها؟ لا أحدَ يعلمُهم سوى اللّهِ تعالى، فكما أنَّكم قد وُجدتُم من ذريَّةِ قومٍ لا تعلمونهم، كذلك فإنَّ اللّهَ تعالى قادرٌ على أن يهلكَكم، ويُنشِئَ أقوامًا من ذريَّةٍ آخرين، غيرِ معلومين لديكم ولا لديهم.

دَلالةُ المُغايَرةِ في وصْفِ (القومِ) بـ ﴿ءَاخَرِينَ﴾:

ووصْفُ قومٍ بـ ﴿ءَاخَرِينَ﴾ للدلالة على المغايرة، وذلك تنبيهٌ

تنوُّعُ حالاتِ الإنشاءِ منَ الذُّرِّيَّة، دليلُ عظمةِ القُدرةِ الإلهيّة

أخبارُ الأقوامِ منَ الأجدادِ الغابرين، منها معروفٌ ومجهولٌ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/187.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 12/127.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/651 - 652.

على عظيم قدرةِ اللهِ تعالى أن ينشِئَ أقوامًا من أقوامٍ يخالفونهم في اللُّغة والعوائدِ والمواطن[1]. وهو دليلٌ على تباعُدٍ في الزَّمان بينكم وبين الأقوام الَّتي أنشأكم اللهُ منها، فأنتم اليومَ لا تعلمون عن مواطنِهم ولغاتِهم وأساليبِهم في الحياةِ شيئًا يُذكر، فقال: بآخرين؛ تعبيرًا عن ذلك الجهلِ بآبائكم الأوَّلين، وهذا من عظيمِ شأنِ اللهِ وعلمِهِ وقدرتِهِ في الخلقِ والإنشاءِ والتَّقديرِ.

الله أعلمُ بما خلَقَ منَ السُّلالاتِ والأقوامِ، المُوغِلةِ في القِدَمِ

بلاغةُ الكنايةِ في جُملةِ الفاصلةِ:

وقولهُ: ﴿قَوۡمٍ ءَاخَرِينَ﴾ كنايةٌ عن تباعُدِ العصور، وتسلسل المنشآتِ؛ لأنَّ الاختلافَ بين الأصول والفروع، لا يحدث إلَّا في أزمنةٍ بعيدةٍ، فشتَّانَ بين أحوالِ قومِ نوحٍ وبين أحوال العرب المخاطَبين، وبين ذلك قرونٌ مختلفةٌ متباعدةٌ[2].

يَظهرُ الاختلافُ بين الأصولِ والفروعِ على أزمنةٍ مُتباعِدةٍ

جَماليَّاتُ السِّياقِ بينَ التَّشبيهِ التَّمثيليِّ والاحتباكِ:

من نوادرِ القولِ أنْ يأتي رُكنَا الاحتباكِ ركنين للتَّشبيه، فهذا من عجائبِ أسلوب القرآن الكريم وجماله وإعجازه، والرُّكنان المشتركان للتَّشبيه والاحتباك هما: المشبَّه: ﴿وَيَسۡتَخۡلِفۡ مِنۢ بَعۡدِكُم مَّا يَشَآءُ﴾، والمشبَّهُ به: ﴿أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوۡمٍ ءَاخَرِينَ﴾؛ وهما صورتان؛ إذ أسَّسَ ركنا التَّشبيهِ (المشبَّه والمشبَّه به)، لاحتباك نادرٍ، ركناهُ المحذوفان هما: (ينشِئَ آخرين) و(استخلفكم) ومع ركني الاحتباك يكتملُ معنى التَّشبيه التَّمثيلي؛ إذ كيف يُشبِّه الاستخلافَ بالإنشاء من الذُّريَّةِ، مع أنَّ الذُّرِّيَّةَ بواقع حالها أضعفُ شأنًا من الأقوياء القادرين المؤهَّلين للاستخلافِ؟ فمِنَ المعلوم أنَّ المشبَّه به يكون هو الأقوى في وجه الشَّبهِ، فجاء الاحتباكُ؛ ليكشفَ عن ركنين محذوفين في المقابلةِ، بين المُهلَكين والمنشئِينَ،

قُدرةُ اللهِ ومشيئتُهُ، هي الحُكمُ في الإنشاءِ والاستِخلافِ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/87.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/87.

فبيَّن أنَّ وجهَ الشَّبهِ متعدِّدٌ من جانبين هما: الإنشاءُ والاستخلاف، فشبَّهَ الإنشاءَ الثَّاني بالإنشاءِ الأوَّلِ، وشبَّهَ الاستخلافَ الثَّاني بالاستخلافِ الأوَّلِ، وجعل قدرةَ اللهِ ومشيئتَه سبحانه هي الحاكم والمُقَدِّرَ والمُدبِّر، فمعنى الاحتباكِ هو: (إن يشأْ يُذهبْكم، ويُنشِئْ آخرين، ويستخلفْهم من بعدِكم، ما يشاءُ، كما أنشأكم من ذريَّةِ قومٍ آخرين، واستخلفكم). ويكون معنى التَّشبيه بحسب الاحتباكِ هو: (ويستخلف من بعدكم كما استخلفكم)، و(ينشئ آخرين كما أنشأكم)، فَوَجْهُ الشَّبَهِ المَشيئَةُ والقُدْرَةُ على الاستخلاف والإنشاءِ.

نُكتةُ تَكرارِ فعْلِ المشيئةِ ﴿إِن يَشَأْ﴾ ﴿مَّا يَشَآءُ﴾:

حدوثُ الإنشاءِ والإذهابِ في زمانٍ واحدٍ، دلالةٌ على قُدرةِ الله الواسعةِ

وتمحورتِ المشيئةُ ومعاني القدرةِ والهيمنة وتموضعتْ بين ركني التَّشبيه والاحتباك، فقوله: (ما يشاء) دلَّ على تَكْرار الإنشاء والاستخلاف، وكأنَّ عجلةَ التَّاريخِ تدور، فيتجدَّد معها الزَّمان، والمكان، والإذهاب، والاستخلاف، وما في ذلك من الدَّلالة على سَعة المُدَدِ الزمنيَّة بين نشءٍ وآخر، فاختصرَ الأزمنةَ كلَّها، وكأنَّها تندرج جميعها، في مشهد واحدٍ، وزمن واحدٍ، ومكان واحدٍ.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(المشيئةُ)، و(الإرادةُ) و(الاختيارُ):

الإرادةُ أعمُّ مِنَ المشيئةِ، والاِختيارُ خِلافُ الاِضْطِرارِ

ورد في سورة الحجِّ قولهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يُرِيدُ ١٤﴾ [الحج: 14]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ ١٨﴾ [الحج: 18]، ذكرَ ابنُ عَاشُور قولَهُ: الإرادَةُ والمَشيئَةُ بِمَعْنًى واحِدٍ، والرِّضا والمَحَبَّة والاختيار بِمَعنًى واحِدٍ[1]. وجاء في معجم الفُروق اللُّغَويَّةِ للعسكريِّ قوله: "الفرقُ بين الإرادة والمشيئة: أنَّ الإرادَةَ تكون لما يتراخَى وقتُهُ، ولِما لا يتراخَى، والمَشيئَة لِما لَم يتراخَ وقتُه"[2]. قال الشَّنقيطيّ:

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 23/339.
(2) العسكريّ، الفُروق اللّغويّة، ص: 124.

"واعلم أنَّ الإرادةَ الكونيَّةَ أعمُّ من الرِّضا؛ لأنَّ اللّهَ - جلَّ وعلا - يريدُ بإرادتِه الكونيَّةِ ما هو مرضيٌّ عندَهُ كإيمانِ المؤمنين، ويريدُ بها ما ليس مرضيًّا عندَهُ ككفر الكافرين. وأمَّا الإرادةُ الشرعيَّةُ، فهي ملازمةٌ للرِّضا، فكلُّ ما أرادَه اللّه شرعًا؛ فهو مرضيٌّ عنده، وكلُّ ما هو مرضيٌّ عندهُ، فهو مرادٌ له شرعًا. وهذا التَّحقيقُ تدلُّ عليهِ آياتُ القرآنِ؛ لأنَّ قولَهُ: ﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشۡرَكُواْۗ﴾ [الأنعام: 107] نصٌّ في أنَّ شركهم إنَّما وقعَ بمشيئةِ اللّه، وهي إرادتُه الكونيَّةُ، وقولهُ تعالى: ﴿وَلَا يَرۡضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلۡكُفۡرَۖ﴾ [الزمر: 7] دليلٌ على أنَّ الكفرَ ليس بمرضيٍّ عنده، وأنه غيرُ مرادٍ له شرعًا"[1]. فتكون الإرادةُ بقسميها الكونيَّة والشرعيَّةِ أعمَّ من المشيئة. أمَّا الاختيارُ؛ قال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخۡتَارُۗ﴾ [القصص: 68]، فالاِخْتيارُ: إرادَةُ الشَّيْءِ بَدَلًا من غَيرِه، وأصلُ الاِخْتيارِ الخَيْرُ، فالمختار هوَ المريدُ لخير الشَّيْئَيْنِ في الحَقيقَة، أَو خيرِ الشَّيْئَيْنِ عِنْد نَفسه من غير إلجاءٍ واضطرار، وَلَو اضْطرَّ الإنْسانُ إِلَى إرادَة شَيْءٍ لم يُسَمَّ مُخْتارًا لَهُ؛ لِأَنَّ الاِخْتيارَ خلافُ الاِضْطِرار[2].

(الإذهابُ)، و(الأخذُ):

الإذهَابُ يدلُّ على التَّراخِي، والأَخذُ يدلُّ على السُّرعةِ والقُوَّةِ

(الإذهاب): ذهبَ من دارِه إلى المسجد ذهابًا ومذهبًا، وذهب به: مرَّ بهِ مع نفسه[3]. والذَّهابُ: المضيُّ، يقال: ذَهَبَ بالشَّيءِ وأَذْهَبَهُ، ويُستعمل ذلك في الأعيان والمعاني، قال تعالى: ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي﴾ [الصّافات: 99]، وقال: ﴿إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ وَيَأۡتِ بِخَلۡقٖ جَدِيدٖ ١٩﴾ [إبراهيم: 19]، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَعۡضُلُوهُنَّ لِتَذۡهَبُواْ بِبَعۡضِ مَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ﴾ [النساء: 19]، أي: لتفوزوا بشيءٍ من المَهْرِ، أو غير ذلك

(1) الشنقيطي، رحلة الحج إلى بيت الله الحرام، ص: 120.
(2) العسكريّ، الفُروق اللّغويّة، ص: 124.
(3) الزّمخشريّ، أساس البلاغة: (ذهب).

ممَّا أعطيتموهنَّ، وقوله: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ﴾ [الأنفال: 46]، وقال: ﴿ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمۡ﴾ [البقرة: 17]، ﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمۡعِهِمۡ﴾ [البقرة: 20][1]. و(الأَخْذُ): حَوزُ الشَّيءِ وتَحصيلُهُ، وذلك تارةً بالتَّناوُل نحو: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأۡخُذَ إِلَّا مَن وَجَدۡنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ﴾ [يوسف: 79]، وتارةً بالقهر نحو قوله تعالى: ﴿لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ﴾ [البقرة: 255]، وقال تعالى: ﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ﴾ [هود: 67]، ﴿فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلۡأٓخِرَةِ وَٱلۡأُولَىٰٓ ٢٥﴾ [النازعات: 25]، وقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخۡذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلۡقُرَىٰ﴾ [هود: 102][2]. فالإذهاب يدلُّ على معنى التَّراخي في الأخذ، وهو المناسبُ لمعنى الآية هنا، والأخذُ يدلُّ على السُّرعة والقوَّة.

(الاستِخلافُ)، و(الاستِبدالُ):

الاستِبدالُ أعمُّ منَ الاستِخلاف، وكلاهما لفظٌ قُرآنيٌّ فصيحٌ

قولهُ: ﴿وَيَسۡتَخۡلِفُ﴾ الخَلْفُ: ضدُّ قُدَّام، قال تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [مريم: 59]. وخَلْفُ صدقٍ وخَلْف سوءٍ، وخلْفٌ: للسُّوء لا غير. ويقال للصِّدق أيضًا: خَلْفُ صدْقٍ، وعن الفرَّاء قال في قوله جلَّ وعزَّ: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٞ وَرِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ [الأعراف: 169]، قال: الخلْفُ يُذهبُ به إلى الذَّمِّ، والخَلَفُ: خَلَفٌ صالحٌ، وقيل: بجواز (خلْف) في الصالح، فيقال: هذا خلْفُ صِدْقٍ، وهذا خلْفُ سوءٍ، وهؤلاءِ خَلْفُ سوءٍ، وهذا خَلْفُ سوءٍ[3]. وقَوْلُه تعالَى: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٞ﴾ [الأعراف: 169]، أَي: بَقيَّةٌ، والخَلْفُ: الرَّديءُ مِنَ القَوْلِ، مِنَ المَجازِ: الخَلْفُ مِن النَّاس: مَنْ لا خَيْرَ فيه، يُقال: جاءَ خَلْفٌ مِن النَّاس، ومَضَى خَلْفٌ مِنَ النَّاس، وجاءَ خَلْفٌ لا خَيْرَ فيه[4].

والاستبدالُ: جعْلُ شيءٍ مكانَ آخرَ، وهو أعمُّ من العِوَض، ومن الاستخلاف، فالعِوَض هو أن يصيرَ لك الثَّاني بإعطاء الأوَّل،

(1) الرّاغب الأصفهانّي، المفردات: (ذهب).
(2) الراغب الأصفهانّي، المفردات: (أخذ).
(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (خلف).
(4) الأزهري، تهذيب اللغة: (خلف).

والتَّبديل قد يقال للتَّغييرِ مطلقًا، وإن لم يأتِ ببدَلِه، قال تعالى: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ [محمد: 38]، وقال: ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ﴾ [البقرة: 59]، وقوله: ﴿وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾ [النور: 55]، وقال تعالى: ﴿فَأُوْلَـٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَـٰتٍ﴾ [الفرقان: 70] قيل: أن يعملوا أعمالًا صالحةً تبطلُ ما قدَّموهُ من الإساءةِ، وقيل: هو أن يعفوَ تعالى عن سَيِّئاتهم، ويحتسبُ بحسناتهم[1].

(الذُّرِّيَّةُ)، و(النَّسْلُ):

الذُّرِّيَّةُ: (ذَرَأَ) بمعنى: خَلَقَ، وَمِنْهُ (الذُّرِّيَّةُ)، وَهيَ نَسْلُ الثَّقَلَيْنِ - تَرَكوا- والجَمْعُ (الذَّراريُّ) بِتَشْديدِ الياءِ، وَفي الحَديثِ: (ذَرْءَ النَّارِ، أَيْ: إنَّهم خُلِقوا لَها[2]. قال تعالى: ﴿ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ﴾ [آل عمران: 34] وسوف تَرِدُ اللَّفظةُ (ذرأ) في الآية [136]، وهُما من أصلٍ واحدٍ، وهذا من تَناسُبِ ألفاظِ القِطعَةِ القُرآنيَّةِ، ودلالَةُ الذُّرِّيَّة تكون على الاتِّصال بين الآباءِ والأبناءِ، والاجتماع بينهما، على خِلافِ مَعنَى النَّسل، فالنَّسلُ: الانفِصالُ عن الشَّيءِ، يُقال: نَسَلَ الوَبَرُ عن البَعيرِ، والنَّسلُ الوَلَدُ؛ لكونِهِ ناسِلًا عن أبيهِ، وتناسَلوا بمعنى توالَدوا، قال: ﴿وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ﴾ [البقرة: 205][3].

الـذُّرِّيَّـةُ تـدلُّ على الاجتماعِ، والـنَّـسـلُ يـدلُّ على الانفصالِ

(1) الرّاغب الأصفهانّي، المفردات: (بدل).

(2) الرّازيّ اللغوي، الصحاح: (ذرأ). في حديث كتابة عمر بن الخطاب إلى خالد بن الوليد ﷺ: «وإني أظنكم آل المغيرة ذرء النار». رواه أبو عبيد في غريب الحديث: (4/227).

(3) الراغب الأصفهانّي، المفردات: (نسل).

﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ ۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ ١٣٤﴾ [الأنعام: 134]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الرَّبْطُ بينَ الوعيدِ بالإذهابِ والاستخلافِ، وكونِه تعالى لا يُعجِزُه أن يُنجِزَ ذلك.

أجملَ اللّهُ كلَّ ما ذُكِرَ ممَّا تضمَّنتْهُ الآياتُ السَّابقة من الوعد والوعيد، للكافرين والمؤمنين، فاللّهُ تعالى بعدَ أنْ أنذَرَهم عذابَ الدُّنيا وهلاكَهم فيها؛ أنذَرَهم عذابَ الآخرةِ على سُنَّةِ القرآنِ في الجمْعِ بينهما[1]، فما وُعِدَ به أصلُ الصَّلاح من دار الآخرةِ آتٍ لا محالةَ، وممَّا تَوَعَّد اللّهُ به الكافرين من ثواء النَّار آتٍ كذلك لا محالةَ، فلن تكونَ لأحدٍ من الكافرين فرصةٌ لتزوير موقفهِ أو تبديل حالهِ.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿بِمُعۡجِزِينَ﴾: أصلُ العَجْز: الضَّعْفُ، يُقال: عَجَزَ يَعْجَزُ، عَجْزًا ومَعْجَزَةً، أي: ضَعُفَ، ولم يَقْدِرْ، فهو عاجِزٌ، والقولُ: إنَّ العَجْزَ نَقيضُ الحَزْمِ فَمِنْ هَذا؛ لِأَنَّهُ يَضْعُفُ رَأْيُهُ[2]. وهو أيضًا: التَّأَخُّرُ عن الشَّيْءِ، وحصوله عند عَجُزِ الأمرِ، أي: مُؤَخَّره، كما ذكر في الدُّبُرِ، وصارَ في التَّعارف اسمًا للقصور عن فِعل الشَّيء، وضِدُّهُ: القُدْرَةُ[3]، ومِن معاني العَجْزِ: الكَسَلُ والتَّهاوُنُ، وضِدُّه: الحَزْمُ[4]. والمرادُ من ﴿بِمُعۡجِزِينَ﴾ في الآية: هو الَّذي يَجعلُ طالبَ شَيءٍ عاجِزًا عن نَوالهِ، أي: غيرُ قادرينَ.

المَعْنى الإجْماليُّ:

إنذارُ اللهِ تعالى المُشركين، بعذابِ الآخرةِ المُهِينِ

بَيَّنَ اللّهُ تعالى أنَّ ما يتوعَّدُ به ﷺ المشركينَ مِن العذابِ والتَّنكيلِ على كُفْرِكم، واقعٌ بهم لا مَحالةَ. ولن يُعْجِزُوا اللّهَ تعالى هربًا منه

(1) رضا، تفسير المنار: 8/102.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عجز).
(3) الراغب الأصفهانّي، المفردات، والزبيدي، تاج العروس: (عجز).
(4) ابن منظور، لسان العرب: (عجز).

في الأرضِ، فيفوتوهُ، بل هم في قَبْضَتِه، وتحت قَهْرِه وسُلطانِه، وهو قادرٌ على أن يُنْفِذَ فيهم ما يشاءُ مِن وَعيدِه[1].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

تَوجيهُ إعرابِ الآية، بين البَدَليَّةِ والاستئنافِ:

الإذهابُ إنهاءٌ لفُرصةِ التَّوبةِ المفتوحةِ للعُصاةِ

وهذهِ الجملةُ قوله: ﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ﴾؛ بدلُ اشتمالٍ من جملة: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾، والوعيدُ بالإهلاكِ أو الإذهاب متعلِّقٌ بالمشيئةِ، والمشيئةُ تشتمِل على حالين: حالِ ترْكِ إهلاكِهم، وحالِ إيقاعِه، فأفادت أنَّ مشيئةَ اللهِ تعلَّقت بإيقاعِ ما أوعدَهم بهِ من الإذهابِ[2]. أو يكونُ ﴿مَا تُوعَدُونَ﴾ هو يومُ القيامةِ، فتكونُ الجملةُ مُستأنفةً؛ إذ إنَّ من مات؛ فقد قامت قيامتُه، فيكون الإهلاكُ أو الإذهابُ دليلَ القيامة، وخلاصةُ الأمرين واحدٌ هو إذهابٌ لفرصةِ التَّوبة والإنابة وانتهاؤها، وهو الأمرُ الَّذي دارت حولَهُ متلازمتا الغنى والرَّحمةِ في قولِه: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَنِيُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ﴾.

علَّةُ إيثارِ ﴿مَا﴾ الموصولة:

مَضمونُ الوعْدِ منوطٌ بحسبِ المُقدَّمِ منَ العملِ

في قوله تعالى: ﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ﴾: لمّا تقرَّرَ أنَّ له الوصفين الملزومين للقدرةِ، ﴿ٱلْغَنِيُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ﴾؛ وألزم السُّنَّةَ الكونيَّةَ في الخلقِ والتَّقدير المُتلازمةِ؛ لينسجمَ الكونُ في إرادته سبحانه مستظلًّا تحت الغِنى المطلق، والرَّحمةُ المُطلقةُ للهِ تعالى إذ أمهلَ غيرَ المؤمنين، حتى يأتيَ يومُ الحساب، قوله: ﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ﴾، أي: من البعثِ والحساب، أو قبل ذلك من إقرارِ العقوبة على القرى الَّتي جاءتها النُّذُرُ ثمَّ لم تؤمن، فاستحقَّتِ العقوبةَ والعذابَ، فآثرَ استعمالَ ﴿مَا﴾ الموصولةِ على (الّذي) لفائدةِ عمومِها، فـ ﴿مَا﴾

(1) ابن جرير، جامع البيان: 9/566، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 3/343، والسّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 274، والشّنقيطي، العذب النّمير: 2/309.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/88.

موصولٌ للمفرد والمثنَّى والجمع، على خلاف (الّذي) فهو للمفردِ المذكَّر، فلو قال: (إنَّ الذي توعدون لآتٍ)؛ لأفادَ معنى أنَّه وعدٌ واحدٌ لجميع المُخاطَبين، ولكنَّ كلَّ واحدٍ من المخاطَبين له وعدٌ بحسب ما قدَّم من الأعمال، وهذه الوعودُ كالدَّرجات الَّتي سبق ذكرُها، فكلٌّ يأخذ مضمونَ وعدِهِ.

بَلاغةُ التَّوكيدِ بـ (إنَّ)، و(اللَّامِ)، و(الجملةِ الاسميَّةِ):

كَثرةُ التَّوكيدات مُناسِبةٌ لأحوالِ المُنْكِرين

وقولهُ: ﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ﴾ والتَّأكيد بـ (إنَّ) مناسبٌ لمقام المتردِّد، وزيادةُ التَّأكيد بلام الابتداء؛ لأنَّهم متوغِّلون في إنكار تحقُّق الوعيدِ واستسخارِهم به[1]. والجملةُ الاسميَّة تفيد التَّوكيدَ والثَّبات، وهي جملةٌ مُكتنزةٌ بالمؤكِّدات؛ لأنَّها تُخاطِب المُنكرين وتُعالج خبايا نفوسِهم وإنكارَهم وإعراضَهم.

بديعُ الإفصَاحِ في بناءِ الفعْلِ ﴿تُوعَدُونَ﴾ للمَفعول:

دَلالةُ شُمولِ المُخاطَبين بالوعدِ أوِ الوعيدِ

وبناءُ ﴿تُوعَدُونَ﴾ للمفعول يصحُّ أن يكون الفعلُ هو مُضَارِعَ وَعَدَ يَعِدُ، أو مُضَارِعَ أوْعَدَ، يوْعِدُ والمتبادرُ هو الأوَّلُ[2]. ومن بديعِ الفصاحةِ اختيارُ بنائهِ للمفعول، فهو يفيدُ الكُلِّيَّةَ، فينسجمُ مع مقصدِ القطعةِ القرآنيَّةِ الَّتي تناولت مفاهيمَ جمعيَّةٍ، كقولهِ تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾ [الأنعام: 128]، أو قوله تعالى: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْۚ﴾، فالبناءُ للمفعول هنا يصلحُ لفظُه لحال المؤمنين والمشركين معًا، ولو بُنيَ للمعلوم؛ لتعيَّن فيه أحدُ الأمرين: بأن يُقال: إنَّ ما نَعِدكم، أو إنَّ ما نوعِدكم، وهذا من بديع التَّوجيه، المقصودُ منه؛ أنْ يأخذَ منه كلُّ فريقٍ من السَّامعين ما يليقُ بحالهِ. وكان الكلامُ بالبناء للمفعول، لمزيد التَّهديد بإبهام الوعيد، وعدم ذكرِهِ، ليذهبَ فيه العقلُ كلَّ مذهبٍ، وبعدمِ ذكرِ من أوعدَ - وهو معلومٌ -

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/88.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/88.

ليزدادوا خوفًا، فيضعُفوا عن المقاومة، فيؤمنُ من هداه اللّهُ، وكَتَبَ لهُ الإيمانَ، ويستمرُّ في غيِّهِ من كتبَ اللّهُ له العقاب[1].

إيثارُ لفْظِ الإتيانِ ﴿لَآتٍ﴾، دونَ المجيءِ:

(الإتيانُ) نقيضُ (الإذهابِ)، واللّفظانِ مُتناسِبانِ

آثرَ بلفظِ ﴿لَآتٍ﴾ على غيرِه، وهو لفظٌ تكرَّر استعمالُه في القرآنِ للدَّلالة على يوم القيامة، فقالَ في موضع آخر: ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ﴾ [النّحل: 1]، والإتيانُ عكسُ الإذهاب ونقيضُه، فلمَّا ذكر قوله: ﴿إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ﴾ أتى بما هو عكسُه؛ ليدلَّ على يوم القيامة، فقال: ﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ﴾، وهذا من قبيل التَّناسُبِ بين اللَّفظين. ووجهُ مناسبةِ التَّعبير بالإتيان دونَ المجيء؛ لغرض الآية: دلالةُ اللَّفظة على إرادة القصد، والسُّهولة: فالإتيانُ مجيءٌ بسهولة، وقد يُقال باعتبار القصدِ، وإن لم يكن منه الحصولُ، والمجيء يقال اعتبارًا بالحصول. والحديثُ في الآية عن وعدٍ سيأتي، ولم يحصلْ بعدُ.

بَلاغةُ الاستعارةِ في قولِه تعالى: ﴿لَآتٍ﴾:

انتظارُ وعْدٍ لابدَّ من مجيئهِ ووقوعِهِ يقينًا

والإتيانُ مستعارٌ للحُصول، تشبيهًا للشَّيء المَوعودِ به، المُنتَظَرِ وقوعِه، بالشَّخصِ الغائب، المنتظرِ إتيانهُ، كما تقدَّم في قوله تعالى: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتَكُمۡ إِنۡ أَتَىٰكُمۡ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغۡتَةً أَوۡ جَهۡرَةً﴾ [الأنعام: 47]. وقوله: ﴿لَآتٍ﴾، أي: لا بدَّ من وقوعِهِ؛ لأنَّ المُتوعِّد لا يُبدِّلُ القولُ لديه، ولا كُفْءَ له يعارضُه فيه[2].

بَلاغةُ إخفاءِ الوعيدِ، في: ﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ﴾:

الآيةُ تتضمّنُ الوعدَ والوعيدَ، ويدلُّ المذكورُ على المستورِ.

ومعلومٌ أنَّ وعيدَ المشركين يستلزم وعدًا للمؤمنين، والمقصودُ الأهمُّ هو وعيد المشركين، فلذلك عقَّب الكلامَ بقوله: ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ﴾ فذلك كالتَّرشيح لأحد المحتملين من الكلام الموجَّهِ[3].

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 1/2680.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 2/719.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/88.

وفيه احتمالُ أنَّ الوعدَ مخصوصٌ بالثَّواب، وأمَّا الوعيدُ؛ فمخصوصٌ بالعقاب فقوله: ﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ﴾، يعني: كلُّ ما تعلَّقَ بالوعد بالثَّواب؛ فهو آتٍ لا محالةَ، فتخصيصُ الوعدِ بهذا الجزْم، يدلُّ على أنَّ جانبَ الوعيدِ ليس كذلك[1]. ويقوِّي هذا الوجهَ آخرُ الآية، وهو أنَّه قال: ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ﴾، أي: لن تُعجِزونا في تحقيق وعيدنا، فتخرجوا من قدرتنا وحُكمنا.

سِرُّ إضْمارِ المَوعودِين، في ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ﴾:

جانبُ الرَّحمةِ والإحسانِ، غالبٌ في الآيةِ الكريمةِ

لمّا ذكرَ تعالى الوعدَ؛ جزمَ بكونه آتيًا، ولمّا ذكر الوعيدَ؛ ما زاد على قوله: ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ﴾؛ وذلك يدلُّ على أنَّ جانبَ الرَّحمة والإحسان هو الغالبُ في خطاب اللّه[2]. فيكون المعنى: ﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ﴾ من الخير ﴿لَآتٍ﴾ وما تُتَوَعَّدونه من العذاب مصيبُكم ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ﴾، على طريقةِ الاحتباك، والجملةُ على هذا المعنى مُقابلةٌ.

تَوجيهُ المُتشابِهِ اللَّفظِيِّ، بين آياتِ الأنعامِ (134)، والذّارياتِ: (5)، والمرسلاتِ: (7):

يومُ القيامةِ آتٍ يقينًا، وهو صادقُ التَّحقُّقِ لا محالةَ

الحديثُ في سورةِ المرسلات في معرض تَعداد علامات يوم القيامةِ الَّتي قد يستبعدُها السَّامعُ مثلَ قوله: ﴿فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتۡ ۝٨ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتۡ ۝٩ وَإِذَا ٱلۡجِبَالُ نُسِفَتۡ ۝١٠ وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتۡ ۝١١﴾ [المرسلات: 8 - 11] فقال مناسبَةً لهذا الخطاب: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٞ ۝٧﴾ [المرسلات: 7]؛ ليُثْبِت للعقل البشريِّ أنَّه عاجزٌ عن تصوُّرِ ذلك، ولكنَّ الأمر واقعٌ لا محالةَ، أمَّا في سورة الذَّاريات فقوله: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٞ ۝٥﴾ [الذاريات: 5]؛ لأنَّ الحديث كان عن اختلاف القولِ بين مصدِّقٍ لوقوع يوم القيامةِ وبين مُكذِّبٍ، إذ قال: ﴿إِنَّكُمۡ لَفِي قَوۡلٖ

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 13/166.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 13/166.

﴿مُّخْتَلِفٍ ۝٨﴾ [الذّاريات: 8]، وذكر الخرَّاصين، فقال: ﴿قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ ۝١٠﴾ [الذّاريات: 10]، أي: المُكذِّبون بيوم الدين، فناسب إيرادَ صِدْقِ وَعْدِ يومِ القيامةِ. وأمَّا في سورة الأنعام؛ فقال: ﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَءَاتٍ﴾؛ لما ورد في سياق الآيات من الوعيد بإهلاك الأقوام، وأنَّه تعالى لا يظلمُ القرى بإهلاكهم، وإنَّما باستحقاقهم، فناسب أن يذكر أنَّ يومَ القيامة آتٍ، وسيجزون على أعمالهِم بما يستحقُّون.

التّعبيرُ بالضَّميرِ ﴿أَنتُم﴾:

في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ الضَّميرُ ﴿أَنتُم﴾ يدلُّ على جماعة المُخاطَبين، وفائدةُ تعميم الخطاب إلى جميع العقلاءِ: أنَّهم لن يكونوا معجزين للّهِ تعالى.

خطابُ القرآنِ عامٌّ لجميعِ المُكلَّفين

معنَى حرفِ (الباء)، في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾:

المعنى الرَّئيس لـ (باء) هو الإلصاقُ، قال سيبويه: "وباءُ الجرِّ إنَّما هي للإلزاق والاختلاط، ... فما اتَّسع من هذا في الكلام فهذا أصلُه"[1]. وقوله: ﴿بِمُعْجِزِينَ﴾ فإنَّه قد ألصقَ الإعجازَ بهم ثمَّ نفاهُ، لبيانِ إصرارِ نيَّاتِهم ودواخلِهم على الإنكارِ، ونفي قدرةِ اللّهِ في النَّشأة والإعادةِ، فالباءُ في قوله: ﴿بِمُعْجِزِينَ﴾ زائدةٌ لتوكيد النَّفي.

القرآنُ فَضحَ نيَّاتِ المُنكرين، ودَواخِلَهم المخبوءةَ

بَلاغةُ أُسلوبِ النَّفْيِ المؤكَّدِ بأكثرَ من مؤكِّدٍ:

النَّفي في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ بأكثرَ من مؤكِّدٍ جاء مؤكَّدًا بأكثرَ من مؤكِّدٍ، بالخطاب المُباشر للنَّاس، وبالضَّمير ﴿أَنتُم﴾، وبزيادةِ حرفِ الجرِّ (الباء)[2]، والغرضُ من اجتماع هذه المؤكِّدات هو إزالةُ ما علِقَ في قلوب المخاطَبين وعقولهم من شكوكِ النَّشأة الأولى والقدرةِ على إعادتها، قال تعالى: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [يس: 79]. أو ما أنتم بمانعينا أو مُعجزينا من

التَّوكيدُ لإزالةِ ما عَلِقَ منَ شكوكٍ، في نفوسِ المُخاطَبين

(1) سيبويه، الكتاب: 2/304.

(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 1/2680.

إرجاعِكم وجمعِكم يومَ القيامة، أو: وما حالُكم إذ اختلطت أجسادُكم بالتُّراب وبالأرض، فلن تُعجِزَنا عن إعادة خلقِكم ونشأتِكم من جديدٍ للحساب يوم القيامةِ، فإنَّ ﴿مَا تُوعَدُونَ لَآتٍۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ﴾.

دَلالةُ اسْمِ الفاعلِ (مُعجزين):

ليس للنَّاسِ أن يمنعُوا مَجيءَ يومِ الحِسابِ

جاء ﴿بِمُعۡجِزِينَ﴾ بصيغةِ اسم الفاعل، ولم يأتِ بصيغةِ الفعلِ للدَّلالة على نفي الثَّباتِ والدَّوام فضلًا عن الحدثِ، فلا يتغيَّر حالُكم معنا، ولن تُعجزونا، وأنَّى لكم ذلك؟ وما أنتم بقادرين على أن تُعيدوا أنفسَكم من ترابِ الأرض، فأنَّى لكم أن تُعجزوا أحدًا من الخلق؟ فأنَّى لكم أن تمنعوا مجيءَ ذلك الوعيد؟

بَلاغةُ المَجازِ في لفظِ (مُعجزين):

استحالةُ إفلاتِ الظَّالمين من عذابِ اللهِ المكينِ

وحقيقةُ المُعجِز هو الَّذي يجعلُ طالبَ شيء عاجزًا عن نوالِه، أي: غيرُ قادرين، واستُعمل هنا مجازًا في الإفلات من العذابِ، فالمعنى: وما أنتم بمعجزيَّ، أي: بمفلتينَ من وعيدي، أو بخارجين عن قدرتي.

فائِدةُ إضمارِ ما يُعجِزونَهُ، في: ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ﴾:

هوانُ شأنِ المُخاطَبين أمامَ قُدرةِ اللهِ في الإعجازِ والتَّحدِّي

وأضمرَ ما يعجزونَهُ، فلم يقل: (وما أنتم بمعجزينا)؛ لإفادةِ هوانِ شأنِ هؤلاءِ المخاطبين، والمعنى: أنَّهم لن يتمكَّنوا بعدما سيصيبُهم من الموت واختلاط أجسادهم ورُفاتهم بتراب الأرض، عن أن يُعجزوا أحدًا، فكيف لهم أن يعجزوا اللّه تعالى؟ فوردت العبارةُ بمؤكِّداتٍ عديدةٍ لتُثبت هذا المعنى.

بَلاغةُ التَّعبيرِ عنِ الفاصلةِ بالجُملةِ الاسميَّةِ:

وعْدُ الله بمَجيءِ يومِ الحِسابِ لا يَتبدَّلُ ولا يضتغيَّرُ

أفادتِ الجملةُ الاسميَّةُ الثَّباتَ والدَّوامَ، ومعنى قوله: ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ﴾، أي: بثابتٍ لكم الإتيانَ بشيءٍ يعجز عنه الخصم، فتمهَّد الأمرُ من جهته ومن جهتكم، لوجودِ المقتضي، وانتفاء المانعِ، وفي ذلك تقريرٌ لأمرِ رحمتِه؛ لأنَّ القادرَ إذا أراد النِّقمة أخَذَ على غِرَّةٍ

ولم يهدِّد، وإذا أراد الرَّحمةَ؛ تقدَّم بالوعيد، ليَحْذَرَ الفائزون، ويستسلمَ الخاسرون[1].

وبحسبِ هذا المعنى يكون قوله: ﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ﴾ هو مجيءُ السَّاعة؛ لأنَّهُم كانوا يُنكرون القيامة[2].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 2/719.

(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 13/166.

﴿قُلۡ يَٰقَوۡمِ ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ إِنِّي عَامِلٞۖ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِۚ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ١٣٥﴾ [الأنعام: 135]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

المناسبةُ بينَ تأكيدِ وقوعِ الوعيدِ، والتّهديدِ بسُوءِ عاقبةِ الكافرينَ

بعد أن خاطب المشركين وما توعَّدهم به من العذابِ بقوله: ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ﴾ انتقل هُنا إلى أسلوب أمرٍ خرج إلى معنى التَّهديد والوعيدِ في قوله: ﴿قُلۡ يَٰقَوۡمِ ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ إِنِّي عَامِلٞۖ﴾ وفيه غايةُ الزَّجرِ. كما أنَّها تصوِّرُ غايةَ العجزِ الَّتي تستمدُّ معناها من قوله في الآية السَّابقة: ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ﴾، فصارتِ الآيةُ كلُّها، تحدِّيًا واضحًا، وإعجازًا تامًّا للمخاطبين.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مَكَانَتِكُمۡ﴾: أصلُ المَكان: الموضِعُ الحاوي للشَّيء[1]. والمكانَةُ: المَنزِلَةُ، فُلانٌ مَكينٌ عند فُلانٍ: بَيِّنُ المَكانةِ والمنزلة، والجَمْعُ مُكناءُ[2]، ومَكَّنتُهُ ومَكَّنتُ له، فتَمكَّن، قال: ﴿أَوَلَمۡ نُمَكِّن لَّهُمۡ﴾ [القصص: 57]. ويُقال: مكانٌ ومكانةٌ، وقوله: ﴿ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي ٱلۡعَرۡشِ مَكِينٖ﴾ [التكوير: 20] أي: مُتمَكِّنٌ ذي قَدْرٍ ومَنزلَة، ومَكناتُ الطَّير ومَكُناتها: مَقارُّه[3]. قوله: ﴿ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ﴾ كنايةٌ عَنِ الحالةِ؛ لأَنَّ أحوالَ المَرءِ تَظْهَرُ في مكانهِ ومَقَرِّهِ، والمقصودُ بـ ﴿مَكَانَتِكُمۡ﴾ في الآية: الزَموا حالَكُمْ.

2) ﴿عَٰقِبَةُ﴾: أصلُ مُفردة (عقب) يَدُلُّ على تَأْخيرِ شَيءٍ وإتيانه بعدَ غيرِه، وكُلُّ شَيْءٍ يَعْقُبُ شَيئًا، فهو عَقيبُهُ[4]، والعَقِبُ: مُؤَخَّرُ

(1) الراغب الأصفهاني، المفردات: (مكن).
(2) الأزهري، تهذيب اللغة: (مكن)، وابن سيده، المخصّص: 3/397.
(3) الراغب الأصفهاني، المفردات: (مكن).
(4) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة: (عقب).

الرِّجْل[1]. والعاقِبَةُ: آخِرُ الأَمرِ، وأَثَرُ عَمَلِ العامِلِ، فعاقِبةُ كُلِّ شَيءٍ هي ما يَنجلي عنه الشَّيءُ، ويظهَرُ في آخِرِهِ مِنْ أثرٍ ونَتيجة[2]. قال الرَّاغِبُ: العاقِبَةُ والعُقْبَى يَخْتَصَّانِ بالثَّوابِ، نَحْوُ: ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: 128]، وبالإضافةِ قَدْ يُستَعمَلُ في العُقوبَةِ، نحو: ﴿ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ ٱلسُّوٓأَىٰٓ﴾ [الرّوم: 10][3]. وسُمِّيَت بذلك؛ لأنَّها تَتْلو الذَّنْبَ، مِن تَعَقَّبَهُ؛ إذا تَبِعَهُ، وتَعَقَّبْتُ الرَّجلَ، أي: أخذتُهُ بذَنْبٍ كان مِنْهُ، والجمع: عُقُوبَاتٌ[4]. والمقصود من ﴿عَٰقِبَةُ﴾ في الآية: هي الجنَّة، أي: عاقِبَةُ الدُّنيا بالجنَّة.

المَعْنى الإجْمالِيُّ:

تَقريرُ سُنَّةٍ مِن سُننِ اللهِ تعالى، في إمْهالِ الظَّالِمِ دونَ إهْمالِهِ

أمَرَ اللهُ تعالى نبيَّه محمَّدًا ﷺ أنْ يُخبِرَ قَومَه مِن مُشْركي قريشٍ؛ إذا دعاهم إلى اللهِ، فلم يَنْقادوا لدَعْوَتِه: أنْ يَعْمَلوا ما هم عامِلونَ على حالَتِهم التي هُم عليها، وارتَضَوْها لأنفُسِهم، وأنَّه عامِلٌ بما أمَرَه ربُّهُ، وأنَّهم سَوْفَ يعلمونَ عند نزولِ نِقْمةِ اللهِ بهم، أيُّهم أصابَ طريقَ الهُدى، فتكون له العاقبةُ الحسَنَةُ في الدُّنيا والآخرة، أهمُ المؤمنونَ، أم المشركونَ، فإنَّه لا يفوزُ برضوانِ اللهِ تعالى والجنَّة مَن تجاوز حدَّهُ وظلم، فأشرك مع اللهِ غيرَهُ، وفي الآية إيماءٌ إلى أنَّ أحوال الأُمم مُرتَّبةٌ بحسب أعمالها، وأنَّ أعمالها مُنبعِثةٌ من عقائدها وصفاتِها النَّفسيَّة، وأنَّ عاقبةَ كلِّ عملٍ نتيجةٌ حتميَّةٌ له، إنْ خيرًا فخيرٌ، وإن شرًّا فشَرٌّ، وفيها أنَّ الحِجاجَ المذكورَ من الإنصاف بموضع عظيم، حيث بيَّن الأعمالَ وعامليها، وجعلَ الجزاءَ مقرونًا بنظر البصيرِ، ضاربًا فيه صفحًا عن التَّصريح الذي يغني عنه التَّلويحُ[5].

(1) الراغب، المفردات: (عقب).
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/أ92.
(3) الرّاغب، المفردات: (عقب).
(4) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (عقب).
(5) ابن جرير، جامع البيان: 9/568، وابن عطية، المحرّر الوجيز: 2/348، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 3/343، والسّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 274، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/أ91 - 93، والمراغيّ، تفسير المراغيّ: 8/39.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دَلالةُ الأمرِ في المَطْلعِ، بقوله تعالى: ﴿قُلۡ يَٰقَوۡمِ ٱعۡمَلُواْ﴾:

التَّهديدُ دَالٌّ على ما هُم عليه منَ الإصـــرارِ على الضَّلالِ

بعد أن بيَّن حال الَّذين لا يؤمنون ومآلهم، أمرَ رسولَهُ أن يخاطبَهم بهذا الوعيد المسبوكِ، على الدَّعوة إلى الإرشادِ، فقال: ﴿قُلۡ يَٰقَوۡمِ ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ﴾، أي: اعملوا منتهى استطاعتِكم، وقدرتِكم، في معارضة الدَّعوةِ ومقامها، وصَدِّ أهلها، وهو أمرٌ خرج إلى معنى التَّهديد والوعيد؛ لأنَّهم لم يستجيبوا إلى دعوة النَّبيِّ وإلى رسالته، أو المعنى: اعملوا على شاكلتكم إنِّي عاملٌ على شاكلتي ودعوتي ورسالتي التي هداني ربِّي إليها، ودلالةُ الأمر هنا التَّهديدُ على ما هم عليه من العناد والإصرار على الضَّلالِ. والأمر في الآية مثل الأمرِ في قوله تعالى: ﴿ٱعۡمَلُواْ مَا شِئۡتُمۡ إِنَّهُۥ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ٤٠﴾ [فصّلت: 40]، بجامع التَّهديد بينهما.

سِرُّ نِداءِ القومِ بواسطةِ (يا) النِّداءِ:

لَنْ يَنفعَ الرَّسولُ قومَه في شيءٍ، ما لم يُؤمنُواْ

وأمرَ أن يَبتدِئَ مخاطبَتَهم بالنِّداء للاهتمام بما سيقال لهم؛ لأنَّ النِّداءَ يسترعي إسماع المنادين، وكأنَّ المنادي عنوانُ القوم لما يشعر به من أنَّه قد رقَّ لحالهم حين توعَّدهم بقوله: ﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَأٓتٖۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ﴾؛ لأنَّ الشَّأن أنَّه يُحبُّ لقومه ما يُحبُّ لنفسه[1]. كما يوحي من جهتِهم وهو يناديهم بـ ﴿يَٰقَوۡمِ﴾ أنَّه لن ينفعَهم شيئًا، ولن يكون لهم عليه شفاعةٌ؛ إذ دعاهم إلى الإيمان، فرفضوا، وأنكروا، فالمنادي هنا يُخلِّص نفسَه ممَّا تعارف عليه القومُ من الأعراف القبليَّة، كقولهم: انصر قريبَكَ حتى وإنْ كان ظالمًا. وهذه المسألةُ هي فحوى أمرِ اللّٰه لنبيِّه أنْ يناديَهم ويخاطبَهم بقوله: ﴿يَٰقَوۡمِ ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ﴾.

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/90.

الأمرُ بالنِّداء ﴿قُلۡ يَٰقَوۡمِ﴾:

ثمَّ إنَّ النِّداءَ للقوم المعاندين، بقرينة المقام الدَّالِّ على أنَّ الأمرَ للتَّهديد، وأنَّ عملَهم مخالفٌ لعملِه، لقولِه: ﴿ٱعۡمَلُواْ﴾، مع قوله: ﴿إِنِّي عَامِلٞۖ﴾. فبعد أن توعَّد القومَ الّذين لا يؤمنون بقوله: ﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَأٓتٖۖ﴾، استأنفَ بقوله: ﴿قُلۡ يَٰقَوۡمِ ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ﴾، فأعقبَ الوعيدَ بما تمحَّض عنه، بأمرٍ مستعمَلٍ في الإنذار والتَّهديد، وغاية الزَّجرِ؛ ليُملي لهم في ضلالهم إملاءً يُشعر بمزيدِ استحقاقِهم للعقوبة، واقترابِها منهم، فأمرَ اللّهُ رسوله ﷺ بمناداتِهم وتهديدِهم.

غايةُ الزَّجرِ؛ إشعارُهم في ضلالِهم باستِحقاقِهم للعُقوبةِ.

بَلاغةُ التَّهديدِ بصِيغةِ الأمرِ:

وصيغةُ (افْعَلْ) في قوله: ﴿ٱعۡمَلُواْ﴾ ها هنا بمعنى الوعيد، فخرجَ الأمرُ إلى غرض التَّهديدِ، فقوله تعالى: ﴿قُلۡ يَٰقَوۡمِ ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ﴾، أمرٌ من اللّهِ تعالى لنبيِّهِ بوعيدهم وتهديدِهم[1]. والتَّهديدُ بصيغة الأمر مبالغةٌ في الوعيد كأنَّ المهدِّدَ يريد تعذيبَهُ مجمِعًا عليه، فيحملُه بالأمر على ما يُفضي به إليه، وتسجيلٌ بأن المُهَدَّدَ لا يتأتَّى منه إلَّا الشَّرُّ كالمأمورِ به الَّذي لا يقدر أن ينقضيَ عنه[2]. ويدلُّ الأمرُ هنا كذلك على ثقةِ القائل ﷺ ممَّا هم عليه من الضَّلال، وهو واثِقٌ من مصيرهم الذي هم إليه منتهون: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾[3]؛ إذ إنَّ الآمرَ غير راضٍ عن الفعلِ، وفي الامتثال لأمرٍ ما يعود بالضَّرر على المُخاطب[4]، فالتَّهديد من الرَّسول ﷺ بأنَّه نافضٌ يديه من أمرهم، واثقٌ مِمَّا هو عليه من الحقِّ، واثقٌ من منهجِهِ وطريقِهِ[5].

وُثوقُ الآمرِ بالحقِّ، وما عليه قومُهُ من الضَّلالِ

(1) ابن جرير، جامع البيان: 12/129.
(2) البيضاويّ، أنوار التنزيل: 2/183.
(3) الشّحود، القرآن الكريم وقضايا العقيدة، ص: 95.
(4) طبل، علم المعاني، ص: 69.
(5) الشّحود، القرآن الكريم وقضايا العقيدة، ص: 95.

بَلاغةُ الاستعارةِ في لفظِ الأمرِ ﴿ٱعۡمَلُواْ﴾:

التَّهكُّمُ على أمرِهم، بجعْلِ المَنهيِّ عنه، وكأنّه صارَ واجبًا

والأمر للتَّهديد من قبيل الاستعارةِ تشبيهًا لذلك المعنى بالمعنى المأمورِ بهِ الواجب الَّذي لابدَّ أن يكون[1]. وقوله: ﴿ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ﴾، كقوله: ﴿ٱعۡمَلُواْ مَا شِئۡتُمۡ﴾ [فصلت: 40] وهذا الاستعمالُ استعارةٌ؛ إذ يشبِّهُ المغضوبَ عليه الميؤوسَ من ارعوائهِ بالمأمورِ بأن يفعلَ ما كان ينهى عنه، فكأنَّ ذلك المنهيَّ صار واجبًا، وهذا أسلوبُ تهكُّمٍ[2].

فائِدةُ حذْفِ مفعولِ ﴿ٱعۡمَلُواْ﴾:

تجاهُلُ عَملِ المُنكِرين استهانةٌ بحالِهم

ومفعولُ ﴿ٱعۡمَلُواْ﴾ محذوفٌ؛ لأنَّ الفعلَ نُزِّل منزلةَ اللَّازم، أي: اعملوا عملَكم المألوفَ الذي هو دأبُكم، وهو الإعراضُ والتَّكذيبُ بالحقِّ، وما فيه من استهانةٍ وتحقيرٍ بحالهم وأفعالهم، ثُمَّ ما في ذلك الحذفِ والإيجاز من فظيعِ التهديد والوعيد، وكأنَّه قد خبَّأ لهم من العذاب ما يَفْجَؤُهم، فيبقَوْن في تحسُّبٍ وقلقٍ في الدُّنيا، ما داموا على إعراضِهم، وعلى مكانتِهم، فيكون المعنى: اعملوا على ما أنتم عليه[3].

بَلاغةُ الاستعارةِ بالحرفِ ﴿عَلَىٰ﴾:

لا مَطمعَ في هِدايةِ المُنكِرين المُعانِدين

في قولِه تعالى: ﴿عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ﴾: ﴿عَلَىٰ﴾ مستعمَلةٌ في التَّمَكُّن على وجه الاستعارةِ التَّبعيَّة، وهي تصريحيَّةٌ مناسبة لاستعارة المكانةِ للحالةِ؛ لأنَّ ورودَ حرف الجرِّ ﴿عَلَىٰ﴾ مناسبٌ للمشبَّه به، وهو المكان، فيكون ترشيحًا للاستعارة، مستعارٌ من ملائم المشبَّه بهِ لملائم المشبَّه. والمعنى: الزموا حالَكم، فلا مطمعَ لي في اتِّباعكم، أو لا مطمعَ لي في هدايتكم، فتكون المكانةُ مستعارةً

(1) السّيوطيّ، نواهد الأبكار: 3/386.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/90.
(3) الزّجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 2/293.

للأحوال الشخصيَّةِ والعقائد الدينيَّة والسُّلوك، والمعنى: اعملوا على شاكلتكم الَّتي أنتم عليها[1].

بَلاغةُ الكنايةِ، في قولِه تعالى: ﴿ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ﴾:

المكانةُ هي الثّباتُ على الحالِ الّذي عليه المخاطَبُ

قولهُ: ﴿ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ﴾ ومكانكم ومكاناتكُمْ، بمعنى: على موضعِكم[2]. وهذا على سبيل الكنايةِ؛ لأنَّ المكانةَ بمعنى المكان، وقوله: ﴿إِنِّي عَامِلٞۖ﴾، أي: (إنِّي عاملٌ على مكانتي)، فمتفرِّعٌ على الوجهين في ﴿مَكَانَتِكُمۡ﴾[3]. وإطلاقُ الدَّارِ في آيةٍ سابقةٍ، من قوله: ﴿۞لَهُمۡ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ﴾ [الأنعام: 127]، مناسبٌ للمكانةِ الَّتي ذُكرت للمتذكِّرين عند ربِّهم - جلَّ وعلا - يومَ القيامة، وهي دار السَّلامةِ والأمان من كلِّ مكروهٍ، وهي الجنَّةُ، وهذا يفيد أنْ تكون المكانةُ كنايةً عن الحالة؛ لأنَّ أحوالَ المرء تظهرُ في دارِه ومقرِّه، فلذلك يقال: (يا فلانُ على مكانتِكَ)، أي: اثبُتْ على ما أنت عليه، لا تنحرفْ عنهُ.

بَلاغةُ الاستعارةِ في لفظِ ﴿مَكَانَتِكُمۡ﴾:

المكانةُ بمعنَى القُدرةِ والاستطاعةِ في السِّياقِ

ومع احتمال أن تكونَ المكانةُ في قوله: ﴿عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ﴾ مستعارةً للأحوال الشخصيَّةِ والعقائدِ الدينيَّةِ والسُّلوك، فهي أيضًا مستعارةٌ للمقدرة، والمعنى: اعملوا منتهى مقدرتِكم واستطاعتِكم، أو على غاية تمكُّنِكم واستطاعتكم، والمكانةُ تكون مصدرًا، يقال: مَكَّنَ مَكانَةً؛ إذا تَمَكَّنَ أبلَغَ التَّمَكُّنِ، أو على ناحيَتِكُم ووِجْهَتِكُم الَّتي أنتم عليها، من قولهم: مكانٌ ومكانةٌ، كمَقام ومَقامة، وقال البيضاويُّ: "﴿عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ﴾ أي: على حالِكم" فشُبِّهتِ الحالُ بالمكان القارِّ فيه، ووجهُ الشَّبهِ ثباتُهم في تلك الحالِ ثباتَ المتمكِّن في مكانه،

(1) الموصلّي، أولى ما قيل: 3/374.
(2) ابن الجوزي، زاد المسير: 2/80.
(3) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 6/253.

وأمَّا تشبيهُ المكان بالزَّمان؛ ففي الشُّمول والإحاطة[1]، والمعنى: اثْبُتوا على كفرِكم وعداوتِكم[2].

نُكتةُ التَّعبيرِ عنِ المَكانةِ بالمصدرِ ﴿مَكَانَتِكُمْ﴾:

المبالغةُ وبقاءُ حالةِ الكُفَّارِ على إصرارِهم على كُفرِهم

عبَّر عن المكانةِ بالمصدر الصَّريح في قوله: ﴿مَكَانَتِكُمْ﴾، فالمكانةُ مصدرُ مَكَنَ، فالميمُ أصليَّةٌ، وبمعنى المكانِ. والمصدرُ الصَّريحُ مجرَّدٌ عنِ الزَّمن وغير مرتبطٍ به، ولا يفيد الدَّلالةَ عليه، فليس في صيغتهِ ما يدلُّ على تحديد الزَّمن[3]. وفائدةُ التَّعبيرِ بالمصدرِ للمبالغة، بمعنى: اعملوا على تمكُّنكم من أمركم وأقصى استطاعتكم وإمكانكم، وما يتَضَمَّنُهُ هذا التَّعبير (المكانة والعمل عليها) من الدَّلالة على الحالة المستقرَّةِ الَّتي هم عليها، إصرارًا منهم على الكفرِ؛ إذِ المعنى المحوريُّ لهذا الفعلِ هو رسوخُ الشَّيء متجمِّعًا (من دقاق) في باطنٍ يلتئِم عليه[4].

تَوجيهُ قراءةِ جمْعِ المكانةِ ﴿مَكَانَتِكُمْ﴾:

تَعميمُ الخطابِ على كلِّ حالةٍ مُشابِهةٍ، وتعدُّدُ المخاطَبين

وقرأَ الجمهورُ: على ﴿مَكَانَتِكُمْ﴾ بالإفراد، وقرأَ شعبةُ عن عاصمٍ بالألف على الجمع: ﴿مَكَانَتِكُمْ﴾ جمع مَكانة[5]. والجمعُ باعتبارِ جمعِ المضاف إليه، بأنَّ كلَّ واحدٍ له مكانةٌ يعملُ عليها، فجُمِعَتِ المكاناتُ اعتبارًا بتعدُّد المخاطبين، ولعلَّ القراءةَ على الجمع تناسِبُ (الكُلِّيَّة) الَّتي تفيد تعدُّدَ المجاميعِ المُخاطَبةِ. ولعلَّها أيضًا تُفيد إعمامَ الخطاب للحالات المشابِهةِ في الأزمنة المختلفةِ، فيكونُ المأمورُ بـ ﴿قُلْ﴾ كلَّ مسلمٍ يدعو قومَهُ إلى الإيمانِ. ويكونُ الخطابُ لكلِّ إنسانٍ مُكلَّفٍ، فيكون معنى: مكاناتكم

(1) الخفاجي، عناية القاضي: 7/340.
(2) الزمخشري، الكشاف: 2/67.
(3) المُبَرد، المقتضب: 3/214، وابن القيِّم، بدائع الفوائد: 1/29.
(4) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (مكن).
(5) ابن الجزريّ، النّشر: 2/263.

الَّتي هي ديارُكم، والَّتي هي قُراكم أيضًا، وقد أهلك اللهُ القُرى القريبةَ من قريشٍ - كقرى قوم هودٍ وصالحٍ ولوطٍ وشعيبٍ - حين ظلمَ أهلُها بالكفر، فقال: ﴿وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟﴾ [الكهف: 59]، وتكون ﴿مَكَانَتِكُمْ﴾ كنايةً، ويرشِّحُ هذا المعنى قولُه لاحقًا: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ﴾.

بَلاغةُ اللَّفِّ والنَّشرِ في الآيةِ الكريمةِ:

وفي الآية لفٌّ ونشرٌ[1]: فاللَّفُّ قوله: ﴿ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَامِلٌ﴾، ثم نَشْرٌ بقوله: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ﴾ وهو نشْرٌ مجملٌ؛ إذ المعنى: فسوف تعلمون من تكونُ له العاقِبَةُ الحَسَنَةُ أنتم أم أنا؟ وقد أفادَ هذا الفنُّ البليغُ مسائلَ مهمَّةً، منها: أنَّ كثيرًا من المُعارضين للرِّسالات مهما أتَتْهم الآياتُ، فإنَّهم يصرُّون على كفرِهم، فلا ينفعُ مَعهم إلَّا خطابُ الوعيد، وفي النَّشر المُجْمَلِ دلالةُ التَّرقُّبِ عند المعارضين المُنكرين، وهم يعيشونَ حياةَ الشُّكوك والظُّنونِ التي لا قرارَ لهم فيها ولا راحة، في حين أنَّ الرَّسولَ وأتباعَه المؤمنين يعيشون حالةَ يقينٍ مطلقٍ بأنَّ العاقبةَ ستكون لهم؛ لأنَّهم يؤمنون بالله وما نُزِّل على الرَّسول، ويؤمنون بالغيبِ وهم بالآخرةِ يوقنون.

المعارِضُون المُنكِرون يَعيشونَ حياةَ الشُّكوكِ، لا قرارَ لهم فيهَا

تَوكيدُ العملِ بـ (إنَّ) في قوله تعالى: ﴿إِنِّى عَامِلٌ﴾:

التَّوكيدُ بـ (إنَّ) وهو الأصلُ فيها، ويدورُ معها، حيثُ وردت، فجاءَ بالجملة الأولى غير مؤكَّدةٍ في قوله: ﴿ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾، في حين أكَّد الجملةَ الثَّانيةَ بـ (إنَّ) فقال: ﴿إِنِّى عَامِلٌ﴾ وسرُّ ذلك: أنَّ خطابَهُ لهم لا يريد منهم حقيقةَ عملَهم على مكانتِهم، وإنَّما يريد التَّخويفَ لهم من جرَّاءِ هذا العمل، وتهديدَهم بخطر الاستمرارِ على مكانتِهم ممَّا هم عليه، ولكنَّه

الخِطابُ بتخويفِ المُنكرين، وتهديدِهم بخطَرِ الاستمرارِ عليهِ

(1) الطيبي، فتوح الغيب: 6/253.

لمّا تكلَّم على عملِه، فإنَّه يريد أرادَ حقيقةَ العملِ والإصرارِ عليه، فأكَّد بـ (إنَّ) فقال: ﴿إِنِّي عَامِلٌ﴾.

تَوجيهُ صِيغةِ التَّعبيرِ عنِ العملِ باسْمِ الفاعلِ ﴿عَامِلٌ﴾:

وقولُه: ﴿إِنِّي عَامِلٌ﴾، أي: عاملٌ ما أمرني به ربِّي[1]، وهو سبيلُ اللهِ وصراطُهُ المستقيمُ، وعبَّرَ باسم الفاعلِ للدَّلالةِ على ثبوتِ صفةِ العمل فيه، ودوامها، وأنّ شأنَ العمل بمنزلةِ الحاصل الثَّابت المستقرِّ وصفًا له ﷺ.

العملُ على صِراطِ اللهِ، وصفٌ ثابتٌ في النَّبيِّ ﷺ

نُكتةُ مُخاطَبةِ الكُفرِ بالجمعِ، وذِكْرِ الإيمانِ بالإفرادِ:

والجملةُ تعليلٌ لمفادِ التَّسوية من الأمر في قوله: ﴿ٱعْمَلُوا۟﴾، فلن يمنعَني إعراضُكم عن الهدايةِ وتصميمُكم على ما أنتم عليه، فإنِّي عاملٌ على الهداية مستجيبٌ لأوامرِ اللّه، حتَّى وإن كنتم أنتم جميعًا، وكنتُ فردًا، وهذا من جميلِ مغزى أن يُخاطَبَ الكُفْرُ والإعراضُ عن دينِ اللّه بالجمع، فيقول: ﴿ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ أو ﴿مَكَانَتِكُمْ﴾، ويذكرُ الإيمانَ مقابل ذلك بالإفرادِ، فيقول: ﴿إِنِّي عَامِلٌ﴾؛ وما في ذلك من الإيماءِ إلى تعدُّد سبُلِ الضَّلال، وواحديَّةِ سبيل الهدايةِ، وهو طريقُ النَّبيِّ ﷺ وسنَّتُه، والاهتداءُ بما قاله أو فعَلَهُ رسول اللّه ﷺ، أو أقرَّه من القولِ أو الفعل كذلك، فضلًا عن بيان أنَّ عملَه ﷺ منبعثٌ عن الوحي.

سُبلُ الضَّلالِ مُتعدِّدةٌ، وسبيلُ الهدايةِ واحدةٌ

نُكتةُ حذْفِ رُتْبةِ العملِ وماهِيتِه، في ﴿إِنِّي عَامِلٌ﴾:

ثم حُذِفَ متعلَّقُ: ﴿إِنِّي عَامِلٌ﴾ للتَّعميم والإيجاز، فاكتفى بقوله: ﴿إِنِّي عَامِلٌ﴾ دون ذِكرِ طبيعةِ ذلك العمل وماهيَّتِه؛ لأنَّه معلومٌ بالضَّرورةِ، متضمِّنٌ في آيات اللّهِ تعالى وأوامرِهِ سبحانه. فقولُه: ﴿إِنِّي عَامِلٌ﴾ تعليلٌ له، فكأنَّه قيل: فإنِّي فاعلٌ على حالتي أيضًا،

التَّعميمُ والإيجازُ، مَناطُ إخلاصِ المؤمنِ عندَ الإنجازِ

(1) ابن الجوزيّ، زاد المسير: 2/80.

وهذا وعيدٌ، وحذْفُ مُتَعَلَّقِهِ فيه مبالغةٌ لاحتمال تقديرِهِ بشيءٍ آخرَ، والإيهامِ بأنَّهُ لم يذكرْ ما يعمله؛ لأنَّه أمرٌ عظيمٌ، وهذا لا ينافي تقديرَهُ: (على مكانتي)، إذ المرادُ منه مطلقُ حالِه، لا حالُهُ التي هي موجودةٌ، والحذفُ يناسب العمومَ، ويحتمل أن يكونَ جوابًا واحدًا، والغرضُ من الحذف الاختصارُ مع عدم الاقتصارِ، بمعنى: إنِّي عاملٌ ما استطعتُ لا أقفُ على حالي ومكاني[1]. وهذا ينطبق على كلِّ مؤمنٍ، إذ إنَّ رسولَ اللّه ﷺ قدوةٌ للمؤمنين الذين يبذلون قُصارى جهدِهم في العمل إيمانًا منهم وتصديقًا وثباتًا على حالتهم ومكانتهم في الدَّعوة والإخلاص.

سِرُّ عَدَمِ التَّصْريحِ بالعَذابِ:

مِن بديعِ نَظْمِ القرآنِ، حُسْنُ أَدبِ الحِوارِ

قولهُ: ﴿ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ إِنِّي عَامِلٞۖ﴾ غايةٌ في حسنِ الأدب في الخطابِ؛ إذ لم يخاشِن في الكلامِ، ولم يُصَرِّحْ بالعذابِ، ومع هذا ﴿فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِۚ﴾، وعاقبةُ الدار: الجَنَّةُ، ويدلُّ على أنَّ المُنْذِرَ واثقٌ بأنَّ العاقبةَ الحسنةَ له لا لهم، يعني: إنِّي عالمٌ بذلك اليوم، وأنتم غدًا ستعلمونه[2]. وهذه من جماليَّاتِ الأدبِ القرآنيِّ في الخطابِ والحوار مع المعاندين، وذلك لمقامِ الرَّسولِ ﷺ.

دَلالةُ إثباتِ (الفاءِ) في قولِه تعالى: ﴿فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ﴾:

الوَعيدُ مُتفرِّعٌ عنِ التَّهديد؛ لِعدمِ تَذكُّرِهم وغُرورِهم

وقولهُ: ﴿فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ﴾ رتَّب على عملِهم وعملِه الإنذارَ بالوعيد، فقال: ﴿فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ﴾ بفاء التَّفريع؛ للدَّلالة على أنَّ هذا الوعيدَ متفرِّعٌ على ذلك التَّهديد[3]. ولمّا كان وقوعُ المتوعَّدِ به سببًا للعلم بالعاقبة، وكان السِّياقُ لعدم تذكُّرِهم وغرورِهم وقلَّةِ فطنتِهم؛ حَسُنَ إثباتُ الفاءِ[4].

(1) الخفاجي، عناية القاضي: 7/340.
(2) السّيوطيّ، نواهد الأبكار: 3/386.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/91.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 2/720.

فائِدةُ (سوف)، في قوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾:

ترقُّبُ التَّهديد، وانْشغالُ البالِ، بما يُوحِيهِ منَ الوعيدِ

(سوف) كالسِّين، وهو حرفُ تسويفٍ وتنفيسٍ أو استقبالٍ، وهي أوسعُ زمانًا من السِّين عند البَصْرِيِّيْنَ؛ لأنَّ كثرةَ الحروف تدلُّ على كثرة المعنى، وهي مرادِفةٌ لها عند غيرِهم، ومرادٌ منه تأكيدُ الوقوع؛ لأنَّ حرفَي التَّنفيس يؤكِّدان المستقبلَ[1]، وهو يتضمَّن ترقُّبَ ذلك التَّهديدِ، وانشغالِ البالِ بما يوحيه ذلك من الوعيدِ. فكلَّما طالت مدَّةُ انتظارِهم الوعيدَ؛ زادَ عذابُهم واضطرابُهم وخوفُهم من وقوعِه، وهو أبلغُ في إيلامِهم وتوجُّعِهم، وهو المعنى الَّذي أفادَهُ استعمالُ ﴿فَسَوْفَ﴾ هنا.

دَلالةُ صِيغةِ المُضارعِ في ﴿تَعْلَمُونَ﴾:

العبارةُ بالتَّنفيسِ والمضارعِ، تأكيدٌ لِما سيحْصلُ لهم يومَ القيامَةِ

وصيغةُ المضارعِ تدلُّ على الاستقبالِ، فقوله: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ صريحٌ في التَّهديدِ؛ لأنَّ إخبارَهم بأنَّهم سيعلمون يفيدُ أنَّه يعلمُ وقوعَ ذلك مستقبلًا لا محالةَ، وتصميمَهُ على أنَّه عاملٌ على مكانتِه، ومخالفٌ لعملِهم، ويدلُّ كذلك على أنَّه موقِنٌ بحُسْنِ عقباه، وسوءِ عُقباهم، ولولا ذلك لعَمِلَ عملَهم؛ لأنَّ العاقلَ لا يرضى الضُّرَّ لنفسِه[2]. فالعبارةُ من حرفِ التَّسويف والمضارع تأكيدٌ للعلم الَّذي سيحصلُ لهم يوم القيامةِ.

بَلاغةُ الكنايةِ في ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾:

وُثوقُ المُتكلِّم بالمستقبلِ، مِنْ صِدقِ عِلْمِهِ به

دلَّ قولُه: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ على أنَّ عِلمَهم يقع في المستقبل. وأمَّا هو ﷺ فعالمٌ مِن الآنَ، ففيه كنايةٌ عن وثوقِه بأنَّه مُحِقٌّ، وأنَّهم مبطلونَ[3]. وسياقُ الكلام يُرشِّح تلك الكنايةَ، ويؤكِّدُ العلمَ المستقبليَّ والوثوقَ منه، فيُبيِّنُ أنَّ عِلمَ عاقبةِ أمرهم عنده، وأنَّه سيُريهم ذلك في يومِ القيامة.

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/91.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/92.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/92.

بَلاغةُ التَّرديدِ:

وجملةُ: ﴿فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِۚ﴾ ترديدٌ بيْنَهُ ﷻ وبينَهُم، ومعلومٌ أنَّ هذا التَّهديدَ والوعيدَ مختصٌّ بهم، وأنَّ عاقبةَ الدَّارِ الحُسنى هي له ﷻ، وقد عُلِمَ ما هو شرٌّ، وما هو خيرٌ، ولكنَّه أبرَزَ في صورة التَّرديدِ، إظهارًا لصورة الإنصافِ[1]. وأنَّ اللهَ لا يظلم النَّاس شيئًا، وأنَّه سبحانه لا يُعذِّب أمَّةً حتى يبعث فيهم رسولًا يبيِّن لهم سبيلَ هدايتهم.

إبرازُ صورةِ الإنصافِ، بعدَ بذْلِ الوُسْعِ في هِدايتهم

معنَى ﴿مَن﴾ بينَ الموصوليَّةِ والاستفهامِ:

وقوله: ﴿مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِۚ﴾؛ و﴿مَن﴾ يمكن أن تكون اسمًا موصولًا بمعنى الَّذي، أو أنْ تكونَ استفهامًا[2]، فإنْ جُعِلَت ﴿مَن﴾ استفهاميَّةً بمعنى: أيُّنا تَكونُ لَهُ عاقبةُ الدَّار الحسنى؟ أو تعلمون أحدَنا تكون له عاقبةُ الدَّار؟ وموضع: ﴿مَن﴾ الرَّفعُ على الابتداء، وجملة: ﴿تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِۚ﴾ خبرُه[3]. وإنْ جُعِلَتْ خبريَّةً تكون بمعنى الَّذي، ويكون محلُّها النَّصبَ بـ ﴿تَعۡلَمُونَ﴾، أي: فسوف تعرفون الَّذي تَكونُ لَهُ عاقبةُ الدَّارِ[4].

لا يَعلمُ مَصائرَ العِبادِ إلَّا العليمُ بالسّرِّ وأخفَى

تَوجيهُ قراءةِ الياءِ ﴿يَكُونُ لَهُۥ﴾:

قرأ حمزةُ والكسائيُّ وخلفٌ ﴿مَن يَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِۚ﴾ بالياءِ، وكذلك في القصصِ ﴿وَمَن يَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِۚ﴾ [القصص: 37] بالياء أيضًا. وقرأ الباقون ﴿تَكُونُ لَهُۥ﴾ بالتَّاء في السُّورتين[5]. وروى المفضَّل عن عاصمٍ هاهنا وفي القصص مثلَها، وكذلك روى خَلَّادٌ عن حسين عن أبي بكرٍ. وقرأ الباقون بالتَّاءِ في السُّورتين[6]، ويجوزُ في قراءةِ التَّذكير وجهان:

عاقبةُ الدَّارِ، أي: خَيرُها وفَلاحُها

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/653.
(2) ابن عطية، المحرّر الوجيز: 2/348.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/92.
(4) البيضاوي، أنوار التّنزيل: 2/183.
(5) النّيسابوريّ، المبسوط في القراءات العشر: 203.
(6) الدّانّي، جامع البيان في القراءات السّبع: 3/1065.

أحدهما: أنَّ العاقبةَ تأنيثُها مجازيٌّ، والتَّأنيثُ المجازيُّ إذا كانت (الفاعلة) تأنيثُها مجازيًّا في الفعل التَّذكير والتَّأنيث.

الثاني: أنَّه فَصَلَ بين الفعل وفاعله فَصْلٌ، وهو قوله: ﴿يَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ﴾، والفَصْلُ بين الفعل وفاعله يسوِّغ تذكيرَ الفعل، ولو كان فاعلُه مؤنَّثًا حقيقيًّا، كما هو معروفٌ في علم النَّحو[1]. وتدلُّ قراءةُ ﴿يَكُونُ لَهُۥ﴾ على معنى: (من يكونُ له خيرُ العاقبةِ)، وتدلُّ قراءةُ ﴿تَكُونُ﴾ على معنى العاقبةِ الدَّار.

فائِدةُ شِبْهِ الجُملةِ في قوله تعالى: ﴿لَهُۥ﴾:

كلُّ إنسانٍ تَكونُ له عاقبةُ الدَّارِ الآخرةِ، أو تكونُ عليه

و﴿لَهُۥ﴾ تعطي دلالةً على أنَّ الإيمانَ ستكون عاقبةُ الدَّار لصالحِه؛ لأنَّ الآخرين لن تكونَ لهم؛ بل عليهم، فجملةُ ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِۚ﴾ توهِمُ أنَّ الكافرَ ليست له عاقبةُ الدَّارِ، وذلك مُشكِلٌ، وقيل: العاقبةُ تكونُ على الكافر، ولا تكونُ له، كما يُقال: له الكثرةُ ولهم الظَّفَرُ، وفي ضدِّهِ يقال: عليكم الكثرةُ والظَّفرُ[2]. فكأنَّ الظَّالمين إن تَنَلْهُمْ عاقبةٌ؛ فهي ليست لهم، وإنَّما عاقبتُهُم عليهم، ولن يُفلِحَ الظَّالِمون، ويقول سبحانه من بعد ذلك: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ﴾[3]. ويفهمُ من سياقِ الآية أنَّ المعنى: (من تكون له عاقبة الدَّار ومن تكونُ عليه).

بَلاغةُ الكِنايةِ في ﴿عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِۚ﴾:

عاقبةُ الدَّارِ هي مآلُ الآخرةِ وهي الجنَّةُ

وعبارةُ ﴿ٱلدَّارِۚ﴾ كنايةٌ عن خاتمة الخيرِ، فكأنَّه قيل: من يكونُ له عاقبةُ الخير، سواء كان الظَّفَر في الدُّنيا[4]. و﴿عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِۚ﴾، أي: مآلُ الآخرةِ، ويحتمل أن يُرادَ مآلُ الدُّنيا بالنَّصر والظُّهورِ، ففي

(1) الشنقيطي، العذب النمير: 2/311.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 13/157.
(3) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 7/3659.
(4) الطّيبي، فتوح الغيب: 6/254، والسّيوطيّ، نواهد الأبكار: 3/386.

الآية إعلامٌ بغيبٍ[1]. و﴿عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ﴾: العاقبةُ الحسنى الَّتي خلقَ اللّٰهُ تعالى هذه الدَّارَ لها[2].

إيثارُ لفْظِ العاقبةِ، في قوله تعالى: ﴿عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ﴾:

تُستعملُ العاقبةُ فيمَا يَختصُّ بالثَّوابِ والجَزاءِ الحسَنِ

والعاقبةُ في اللُّغةِ: آخِرُ الأمرِ، وأَثَرُ عملِ العامل، فعاقبةُ كلِّ شيءٍ هو ما ينجلي عنه الشَّيءُ، ويظهر في آخره من أثرٍ ونتيجةٍ، وتأنيثُه على تأويل الحالةِ، فلا يقال: عاقِبُ الأمرِ، ولكن عاقبةٌ وعُقبى، وقد خُصِّصَ استعمالُ لفظِ العاقبةِ بالحسنةِ، قال الرَّاغب: العاقبةُ والعُقبى يختصَّان بالثَّواب، نحو قوله: ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص: 83][3]، وهذا سببُ إيثارِ استعمالِ لفظِ العاقبة في بيان حالِ المُتَّقين، وما ستؤولُ إليه أمورُهم، وبالإضافةِ قد يُستَعملُ في العقوبةِ نحوِ قوله: ﴿ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ ٱلسُّوٓأَىٰٓ﴾ [الرّوم: 10].

وَجْهُ تعريفِ الدَّارِ، في قوله تعالى: ﴿عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ﴾:

الدَّارُ علامةٌ على الاستقرارِ والاطْمئنانِ

والدَّارُ: الموضِعُ الذي يحلُّ به النَّاسُ، من أرضٍ أو بناءٍ، وهو علامةُ الاستقرارِ، فمن لا دار له لا قرارَ له، وتقدَّم عند قوله: ﴿لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ﴾، وتعريفُ الدَّارِ هنا تعريفُ الجنس. فيجوزُ أنْ يكونَ لفظُ الدَّارِ مطلقًا، على المعنى الحقيقيِّ، فإضافةُ عاقبةٍ إلى الدَّارِ إضافةٌ حقيقيَّةٌ، وهي الفوزُ بالدَّارِ، والظَّفَرُ والنِّزاعُ والتَّنافُسُ عليها[4].

بَلاغةُ الاستعارةِ في قوله تعالى: ﴿عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ﴾:

حالةُ المؤمنِين الفائزين كَحالةِ الغالِبِ على امْتلاكِ دارِ عدُوِّه

وقولهُ: ﴿مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ﴾ استعارةٌ تمثيليَّةٌ مكنيَّةٌ؛ لتكون كالمثل السَّائرِ يُضرَبُ في المواقف المُشابهة لموقفِ رسول اللّٰه ﷺ مع قومِه، فشبَّهت حالةَ المؤمنين الفائزين في عملِهم، بحالةِ الغالب على امتلاك دارِ عدوِّه، وهم المشركون، وحُذِف ما

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/348.
(2) الزمخشري، الكشاف: 2/68.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/92.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/92.

يدلُّ على الهيئةِ المشبَّهِ بها، ورُمِزَ إليه بذكرِ ما هو من روادِفِه، وهو ﴿عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِۚ﴾. ويمكنُ أن تكونَ الدَّارُ مستعارَةً للحالةِ الَّتي استقرَّ فيها أحدٌ، تشبيهًا بالمكان في الاحتواء، فتكون إضافةُ عاقبةٍ إلى الدَّار إضافةً بيانيَّةً، أي: العاقبةُ الحُسنى الَّتي هي حالُه، فيكونُ الكلامُ استعارةً مصرَّحةً[1]. "ومن محاسنِها هنا: أنَّها بنت على استعارةِ المكانةِ للحالةِ في قوله: ﴿ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ﴾، فصار المعنى: اعملوا في دارِكم ما أنتم عاملونَ، فسوف تعلمونَ مَن تكونُ له عاقبةُ الدَّار، وفي الكلام مع ذلك إيماءٌ إلى أنَّ عاقبةَ تلك الدَّار، أي: بلدُ مكَّةَ، أن تكونَ للمسلمين، كقوله تعالى: ﴿أَنَّ ٱلۡأَرۡضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ ١٠٥﴾ [الأنبياء: 105]"[2].

بَلاغةُ التَّعريضِ في ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾:

قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾، أي: لا يفوزُ بحاجتِه عندَ اللّهِ مَنْ عمِلَ بخلاف ما أمرَ اللّهُ به، والتَّعريضُ في الآية بالَّذين يخاطبُهم الرَّسولَ أنَّهم من الظَّالمين الَّذين لا يفلحون في الآخرةِ، ثمَّ إنَّ التَّعريفَ عامٌّ يشمل كلَّ من أنكر الرِّسالةَ، وعمِلَ بغير مقتضاها.

الظَّالم كلُّ مَن أنكرَ الرِّسالةَ وعمِلَ بغيرِ مُقتضَاها

بَلاغةُ فِعْلِيَّةِ جُملةِ الفاصلةِ:

قال: ﴿لَا يُفۡلِحُ﴾، والفعلُ مضارعٌ يفيد التَّجدُّدَ، ودلالتُهُ عدمُ فلاح الظَّالمين مع المستقبل، فيتجدَّدُ عَدَمُ فلاحِهم، ويستمرُّ بتجدُّد ظلمِهم واستمرارِهم عليه، فهم لا يُفلحون في الدُّنيا، ولا يُفلحون في الآخرةِ؛ إذ إنَّ معنى الفلاحِ في الدُّنيا طمأنينةُ النَّفس بما أودعهُ اللّهُ فيها من فطرةِ حبِّ رضاءِ اللّهِ سبحانه.

الفلاحُ طُمأنينةُ النَّفسِ بما أودَعهُ الله فيها منَ الفِطرةِ

التَّعبيرُ باسْمِ الفاعلِ مجموعًا ﴿ٱلظَّٰلِمُونَ﴾:

مِن سُنَّةِ اللّهِ تعالى في خلقِه، أنَّه لا يفلِحُ الظَّالِمون، أي: لا يفوز

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/92.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/92.

الظَّالمون، والتَّعبيرُ بالوصفِ يشير إلى أنَّ الظُّلمَ هو سببُ الخسرانِ، وإنَّه وإن بدا الظُّلم قويًّا غالبًا فائزًا، فيكون ذلك إلى حينٍ، والعاقبةُ للمنصفين المقيمين للحقِّ، وأفادَ الجمعُ أنَّ للظُّلمِ صورًا شتَّى: ظلمٌ في العقيدة، وظلمٌ في العمل، وظلمٌ في الحكم، وظلمٌ في المعاملة بين النَّاس، فإنَّ الظَّالمَ لا يفوز في نهايته، وإنْ فاز في بعض الأمور العَرَضِيَّةِ، واللهُ هو الحكَمُ العدْلُ[1]. وقد أفادَ التَّعبيرُ باسم الفاعل شمولَ أنواع الظُّلم كلِّها، لكنَّ السِّياقَ يخصِّص ظلمَ العقيدةِ، وهو الإشراكُ باللهِ، ثمَّ يكون إلى سائرِ أنواع الظُّلم الأخرى، كلٌّ بحسبِ أثرِه في الحياة.

شُمولُ أنواعِ الظُّلمِ كلِّها، وأعظمُ الظّلمِ، ما تعلّقَ بالشِّركِ

بَلاغةُ الاحْتباكِ في الآيةِ الكريمةِ:

وقولهُ: ﴿مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِۚ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ فالآيةُ من الاحتباك؛ إذ إنَّ ذِكْرَ العاقبةِ أوَّلًا دليلٌ على حذْفِها ثانيًا، وذكرَ الظُّلمِ ثانيًا دليلٌ على حذْفِ العدل أوَّلًا[2]. والتَّقديرُ: (من تكون له عاقبة الدَّارِ ومن تكونُ عليه، إنَّه يفلح المؤمنون، ولا يفلح الظَّالمون).

المفلحونَ تكونُ لهم عاقبةُ الدَّارِ، وعَكْسُهم الظَّالمون

دَلالةُ ضَميرِ الشَّأنِ، في ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾:

والضَّميرُ المجعولُ اسمُ (إنَّ) ضميرُ الشَّأنِ؛ تنبيهًا على الاهتمام بهذا الخبرِ، وأنَّه أمرٌ عظيمٌ[3]؛ إذ إنَّ لهذا الأمر شأنًا عظيمًا عند اللهِ سبحانه فالظَّالمون لا يُفلحون عند اللهِ، وهل أعظمُ ظلمًا من التَّشكيكِ بالرِّسالةِ، وتكذيبِ النَّبيِّ وردِّ دعوتهِ للإيمان؟

أعظمُ الظُّلمِ هو إنكارُ الرِّسالةِ والإيمانِ

إيثارُ لفْظِ ﴿ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ على (الكافرون):

ثمَّ جزمَ الحكمَ بـ ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾؛ فلا ينجحُ سعيُهم[4]؛

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 1/2684.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 2/720.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/93.
(4) ابن عطية، المحرّر الوجيز: 2/348.

فوضعَ الظَّالمين موضعَ الكافرين؛ لأنَّه أعمُّ وأكثرُ فائدةً[1]، فقولُه: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ أصلُه: لا يفلح الكافرون؛ لأنَّه تذييلٌ وتأكيدٌ لما سبق، وليس فيه إلَّا حديثُ الكذبِ والتَّكذيب، فعُلِمَ منه أنَّ دأْبَهم الكِذْبُ، وأنَّهم ليسوا من الصِّدق في شيءٍ[2]. وأنَّ ظلمَهم هو كِذْبُهم على اللهِ وتكذيبُهم للرِّسالة والرَّسول.

التَّعبيرُ بـ (الظالمون) أعمُّ، وهمُ الَّذين ظلمُوا أنفسَهم بالكُفرِ

وَجهُ التَّعريفِ في لفْظةِ ﴿ٱلظَّٰلِمُونَ﴾:

تعريفُ لفظةِ ﴿ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ للاستغراقِ، فيشملُ هؤلاءِ الظالمين ابتداءً[3]، ويُعمَّم بعد ذلك على جنس الظُّلم بأنواعه.

صِفةُ الظُّلْمِ مُرتبطةٌ بالخُسرانِ

نُكتةُ العُدولِ عنِ المُضمَرِ إلى المُظهَرِ، في جُملة الفاصلةِ:

وهذا الأسلوبُ من الإنذار فيه من البَراعةِ والبَلاغةِ ما ليس في غيرِه، فتعقيبُ قولِه: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾، للعُدولِ من المُضمرِ إلى المُظهر؛ إذ لم يصرِّح بنفي الفَلاح عنهم، وقوله: ﴿مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِۚ﴾ مع الإعمامِ فيه المبنيِّ على الأمرِ في قولِه: ﴿ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ﴾ وهذا طريقٌ من الكلام المنصفِ وإرخاءِ العنان، حيث ضَمِنَ ذلك شِدَّةَ الوعيد، والوُثُوقَ بأنَّ المُنذِرَ مُحِقٌّ، والمُنذَرَ مُبطِلٌ[4].

براعةُ الخطابِ في أدبٍ حَسَنٍ، مُتضمِّنٌ شدَّةَ الوعيدِ

بَلاغةُ توكيدِ نفْيِ جُملةِ الفاصلةِ بـ (إنَّ):

الغرضُ من قوله: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ بيانُ أنَّ قولَه: ﴿ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ﴾ تهديدٌ وتخويفٌ لا أنَّه أمرٌ وطلبٌ، ومعناه: أنَّ الكفَّارَ من أمثال هؤلاءِ المُعاندين المُنكرين، لا يفلحون، ولا يفوزون بمطالبِهم البتَّة[5]. ولن تقبلَ معذرتُهم مهما قدَّموا من الحججِ والمسوِّغات، وذلكم مظنَّةُ التَّوكيدِ.

المُعانِدون المُنكِرون لا يُفلحُون، ولن تُقبلَ مَعذِرتُهم

(1) البيضاويّ، أنوار التنزيل: 2/183.
(2) الطِّيبي، فتوح الغيب: 6/49.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/93.
(4) الطِّيبي، فتوح الغيب: 6/254 - 255.
(5) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 13/157.

دَلالةُ التَّعليلِ في جُملةِ التَّذييلِ:

والجملةُ تذييلٌ للوعيد، يتنزَّلُ منزلةَ التَّعليل، أي: لأنَّه لا يفلحُ الظَّالمون، ستكون عقبى الدَّارِ للمسلمين، ويكونُ الفلاحُ والفوزُ للمؤمنين بالرِّسالة والرَّسول.

الفلاحُ والفوزُ للمؤمنين بالرِّسالةِ والرَّسولِ

تَوجيهُ المُتَشابهِ اللَّفْظيِّ، في آياتِ الأنعام: (135)، والزُّمرِ: (39)، وهُودٍ: (93):

ومن نظائر هذه الآية الكريمة قولهُ تعالى: ﴿قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَٰمِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣٩ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ۝٤٠﴾ [الزّمر: 39 - 40]. وكذلك قوله تعالى: ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَٰمِلٌ ۖ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَٰذِبٌ ۖ وَٱرْتَقِبُوٓاْ إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ ۝٩٣﴾ [هود: 93]؛ إذ أفردَت آيةُ هودٍ بمجيء حرف التَّسويف دون اقترانِ فاءِ التَّعقيب به، مع اتِّفاق الآيات الثَّلاث في التَّهديد وحرف التَّسويف، وفي هودٍ لم تُسبَق العبارةُ بـ ﴿قُلْ﴾ وفي الأنعام والزُّمر بدأت بـ ﴿قُلْ﴾، فهذه الآياتُ تتَّفق على وعيد من كَفَرَ وكذَّب الرُّسلَ والرِّسالات، وآيةُ الأنعام وآيةُ الزُّمر؛ أُريدَ بهما كفَّارُ العرب من هذه الأمَّة، وقد افتُتِحَتا بأمرهِ سبحانه نبيَّه ﷺ بوعيدِهم في قولهِ تعالى: ﴿قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾، فَقَوِيَ في هاتين الآيتين تقديرُ معنى الشَّرطِ المُنْجَرِّ تقديرهُ في الأوامر، لافتتاحِها لأمرهِ تعالى نبيَّهُ ﷺ، ثم أمْرِهِ ﷺ في قوله: ﴿ٱعْمَلُواْ﴾؛ فاعتضدتْ ما يستدعي الجوابيَّةَ بالفاء، فوردتْ في الجواب المبنيِّ على الشَّرطِ المُقدَّر، بعد هذا الأمر، ولمّا كانت آيةُ هودٍ إخبارًا لنبيِّنا ﷺ، فَضَعُفَ فيها تقديرُ الشَّرطِ، فلم تدخُلِ الفاءُ، وجاء كلٌّ على ما يجبُ[1].

الآيةُ هنا وفي الزُّمرِ؛ عن كفَّارِ العربِ، والتَّهديدُ منَ اللهِ أشدُّ من تهديدِ النّبيِّ

كما أنَّ للقائل في كلتا الحالتين أهميَّةً في تفسيرِ المسألةِ، ففي آيةِ سورةِ الأنعام: اللّهُ تعالى هو الذي أمرَ رسولَهُ بالتَّبليغ، أمرهُ أن

(1) الغرناطيّ، ملاك التأويل: 1/171 - 172.

يبلِّغَ النَّاسَ كلامَ ربِّه، وهذا تهديدٌ لهم، فأصلُ التَّأديب من اللّهِ تعالى أمَّا آيةُ سورة هودٍ؛ فجاءت في شعيبٍ عليه السلام وليس فيها أمرُ تبليغٍ من اللّهِ تعالى فالتَّهديد إذًا، أقلُّ في آيةِ سورةِ هودٍ، ولهذا فقد جاء بالفاءِ في ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾، في الآية الَّتي فيها التَّهديدُ من اللّه للتّوكيد، ولمَّا كان التَّهديدُ من شعيبٍ عليه السلام حُذِفَ الفاء ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾؛ لأنَّ التَّهديدَ أقلُّ[1].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(العاقِبةُ)، و(الخاتِمةُ)، و(النِّهايةُ):

قوله: ﴿عَقِبَةُ﴾ عَقِبَ: والعَقِبُ: مُؤخَّرُ القَدَم. وعَقِبُ الرَّجُلِ: وَلَدُه وولَدُ ولَدِهِ الباقونَ من بَعْدِه، وأتى فلانٌ خيرًا، فعقَّبَ بخيرٍ منه، وأردفَ بخيرٍ منه، واستعقبَ من أمرِه النَّدامةَ وتعقَّبَها، وتعقَّبتُ ما صنعَ فلانٌ: تَتبَّعْتُه[2]. فالعاقِبةُ هي ما تُؤَدِّي إليه التَّأديَةُ[3]. والعاقبةُ أصلُها كلُّ ما يأتي في عَقِبِ الشَّيء، أي: آخِرِه، أي: هي ما يؤولُ إليه أمرُه، ثمَّ هي تكونُ حسبَ حالِ الشَّيءِ من خيرٍ أو شرٍّ، وقد جاءت (العاقبة) في القرآنِ الكريم نحوًا من إحدى وثلاثين مرَّةً، فوردت موكولةً إلى اللّهِ تعالى من حيثُ القضاءُ بها في سورتي الحج: 41، ولقمان: 22، كما جاءت لبيان أنَّها تكون حسَبَ الأعمالِ تنبيهًا على الالتزام بالعمل الصَّالح في سورتي الأنعام: 135، والقصص: 37، وللتَّنويه بمآل المتقين في سُوَرِ الأعراف: 128، وهود: 49، وطه: 132، والقصص: 82، وفي سائر المواضعِ للتَّنبيه على سوء مآل المتمرِّدين على اللّه[4].

العاقبةُ ما يأتي في آخِرِ الشَّيءِ، وتدلُّ على المُتابعةِ والإصرارِ للوصولِ

فدلالةُ العاقبةِ على المُتابعةِ والإصرارِ واضحٌ، فيُفهمُ من قوله:

(1) السّامرائيّ، لمسات بيانيّة: 1/706.
(2) الزّمخشريّ، أساس البلاغة: (عقب).
(3) العسكريّ، الفُروق اللّغويّة، ص: 551 - 552.
(4) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (عقب).

﴿وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ ١٢٨﴾ [الأعراف: 128]، أو قوله: ﴿عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ﴾ لما كان لديهم من متابعة إيمانهم، وإصرارِهم على سلوكِ السَّبيل الَّتي توصلُهم إلى الآخرةِ، فكانت عاقبتُهم الفوزَ بالجنانِ.

ولذلك آثرَ النَّظمُ استعمالَ لفظِ ﴿عَٰقِبَةُ﴾ في هذا السِّياق، دون ما يقاربُهُ من الألفاظ.

وخاتمُ كلِّ شيءٍ: آخرهُ، و(الخاتِمة)، الخَتْمُ والطَّبعُ: وهو تأثيرُ الشَّيء كنقشِ الخاتم، ويتجوَّز بذلك تارةً في الاستيثاقِ من الشَّيء، ونحو ذلك: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ﴾ [البقرة: 7]، وتارةً يُعتبرُ منه بلوغَ الآخر، ومنه قيل: ختمتُ القرآنَ، أي: انتهيتُ إلى آخرِه، وقولُه تعالى: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِنۡ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمۡعَكُمۡ وَأَبۡصَٰرَكُمۡ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم﴾ [الأنعام: 46]، إشارةٌ إلى ما أجرى اللّه به العادةَ أنَّ الإنسانَ إذا تناهى في اعتقادٍ باطل، أو ارتكابِ محظورٍ ولا يكون منه تَلَفُّتٌ بوجهٍ إلى الحقِّ يورثُهُ ذلك هيئةَ تمرُّنِه على استحسان المعاصي، وكأنَّما يختم بذلك على قلبهِ، وقوله: ﴿وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [الأحزاب: 40]؛ لأنّه خَتَمَ النُّبوَّةَ، أي: تمَّمها بمجيئهِ[1].

وخاتِمةُ السُّورةِ: آخرُها. وخاتمُ العملِ وكلِّ شيءٍ: آخرهُ[2].

و(النِّهايةُ): الغايةُ، حيث ينتهي إليه الشَّيءُ، والإنهاءُ: إبلاغُك الشَّيءَ، وأنهيتُ إليه السَّهمَ، أي: أوصلته إليه[3]. والنِّهاية، والنِّهاء: غايةُ كلِّ شيءٍ وآخرهُ، وذلك لأنَّ آخرَهُ ينهاهُ عن التَّمادي، فيرتدعُ، وانتهى الشَّيءُ، وتناهى، ونهى: بلغَ نهايتَه[4]. و(الإنْهاءُ) الإبْلاغُ، و(أَنْهَى) إلَيْهِ الخَبَرَ (فانْتَهَى) و(تَناهَى)، أَيْ: بَلَغَ. وَيُقالُ: بَلَغَ نِهايَتَهُ[5]، ففي معنى النِّهاية: تَحَقُّقُ غايةٍ، أو تحقُّقُ مطلبٍ إلى مُنتهاه.

(1) الراغب الأصفهانّي، المفردات: (ختم).
(2) الخليل، العين: (ختم).
(3) الخليل، العين: (نهي).
(4) ابن سيده، المحكم: (نهي).
(5) الرّازيّ، مختار الصّحاح: (نهي).

﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلۡحَرۡثِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ نَصِيبٗا فَقَالُواْ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعۡمِهِمۡ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَاۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمۡ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمۡۗ سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ ١٣٦﴾ [الأنعام: 136]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

العلاقةُ بينَ تهديدِ الكَفَرةِ بسُوءِ العاقبةِ، وجَعْلِ الشّركاءَ نُظراءَ للخالقِ المنزَّهِ

بعدَما أوردَ منَ التّهديدِ والوعيدِ في قولِه: ﴿قُلۡ يَٰقَوۡمِ ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ﴾ بيّنَ هنا مَوضِعَ ظلمِهم ومكانتِهم الّتي يُنافِحونَ عنها؛ وانحطاطَ شأنِهم، ودنوَّ عقولِهم وقراراتِهم؛ ووضَّحَ أنَّ من أمثلةِ أسبابِ التّهديدِ السّابقِ بالإهلاكِ ما يفعَلونَهُ منَ الإشراكِ باللّه أوَّلًا، فجعَلوا من صدقاتِهم ونُذورِهم للشّركاءِ؛ بل إنّهم تَجاوزوا ذلك، فأوغَلُوا في حُبِّ الشّركاءِ، فجعَلُوا لهم خصوصيّةً وشأنًا هي أكملُ عندَهُم مِن شأنِهِ سبحانَه.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ذَرَأَ﴾: أصلُ الذَّرْءِ: إظهارُ اللّهِ تعالى ما أبدَاهُ[1]؛ يُقالُ: ذَرَأَ اللّهُ الخَلْقَ يذْرَؤُهُم ذَرْءًا وذَرْوًا: إذا خَلَقَهُمْ، والذَّرْءُ من قولِكَ: ذَرَأْنا الأرضَ؛ أي: بَذَرْناها[2]. ومِن صِفاتِ اللّهِ تعالى: الذَّارِئُ[3] الَّذي ذَرَأَ الخَلْقَ؛ أَي: أَنْشأَهُم وكثَّرَهُم، فدلالةُ الذَّرءِ الإنماءُ؛ لِأَنَّ إنشاءَ شيءٍ تكثيرٌ وإنماءٌ[4]، وهو المقصودُ منَ الآيةِ.

2) ﴿ٱلۡحَرۡثِ﴾: أصلُ الحَرثِ هو الكَسْبُ وَالجَمْعُ؛ وَبِهِ سُمِّي الرَّجُلُ حارِثًا[5]. والحَرْثُ والحِراثَةُ: العَملُ في الأَرضِ زَرعًا كانَ أَو غَرسًا،

(1) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (ذرأ).
(2) الخليل، العين: (ذرأ).
(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (ذرأ).
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/95.
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حرث).

وقد يكون الحَرثُ نفسَ الزَّرعِ[1]، والاحتراثُ منَ الزَّرعِ، ومِن كَسْبِ المالِ[2]، والمَرأَةُ حَرْثُ الزَّوجِ، فهذا تَشبيهٌ؛ وذلك أنَّها مُزْدَرَعُ وَلَدِهِ، قالَ اللّهُ تعالى: ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة: 223]، والحَرثُ مُرَادٌ به في الآيةِ: الزّروعُ والثّمارُ.

3) ﴿وَٱلْأَنْعَٰمِ﴾: مُفرَدةُ (نِعَم)؛ أَصلٌ واحِدٌ يَدُلُّ على تَرَفُّهٍ وَطيبِ عَيْشٍ وصَلاحٍ، مِنهُ النِّعمَةُ: ما يُنعِمُ اللّهُ تعالى على عَبدِهِ به مِن مَالٍ وعَيشٍ[3]، وبِناؤُها بِناءُ المَرَّة من الفِعْلِ كالضَّربَةِ والشَّتْمَةِ، والنِّعْمَةُ للجِنْسِ تُقال للقَليلِ والكثيرِ[4]. والأَنْعامُ: جَمْعُ نَعَم، لا واحدَ له مِن لفظِهِ، وهي: البَهائِم، وسُمِّيَت أَنْعامًا؛ لِكَثرَةِ نِعَمِ اللّهِ فيها على خَلقِهِ مِنَ النُّموِّ وعُمومِ الانتِفاعِ، وأَكثَرُ ما يُطلَقُ هذا الاسمُ على الإبلِ، وَالنَّعَمُ مُختَصٌّ بالإبلِ، وتسميتُهُ بذلك لكونِ الإبلِ عندَهُم أَعظَمَ نِعْمةٍ، لكِنِ الأَنعامُ تُقال للإبلِ والبقرِ والغنمِ، ولا يُقال لها أَنْعامٌ حتّى يكونَ في جُملتِها الإبلُ[5].

4) ﴿بِزَعْمِهِمْ﴾: أصلُ الزَّعمِ: القَولُ مِن غيرِ صِحَّةٍ وَلا يَقينٍ[6]، والزَّعْمُ، والزُّعْمُ، والزِّعْمُ، ثَلاثُ لُغاتٍ: القَوْلُ. وقيلَ: الزَّعْمُ الظَّنُّ[7]. قالَ شُرَيح: لكلِّ شَيْءٍ كُنيةٌ، وكُنيةُ الكَذِبِ: زَعَمَ، والزَّعْمُ: ادِّعاءُ العِلمِ بالشَّيءِ؛ ولِهذا يتَعَدَّى إلى مفعولين، كقوله تعالى: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبْعَثُواْۚ﴾ [التّغابن: 7][8]، والمرادُ بالزَّعمِ في الآيةِ: الاعتقادُ الفاسِدُ.

المَعْنى الإجْماليُّ:

يخبِرُ تعالى أنَّ المُشركينَ جَعَلوا للّهِ مِمّا خَلَقَ مِنَ الزُّروعِ والثِّمارِ والأنعامِ قِسْمًا وجُزءًا له تعالى، وجَعَلوا لشُرَكائِهم مع اللّهِ تعالى نصيبًا مِن ذلك، والحالُ أنَّ اللّهَ تعالى هو الَّذي ذَرَأَه للعبادِ، وأوجَدَه رِزقًا، وهؤلاءِ الشُّركاءُ لم يرزُقوهم، ولم يُوجِدوا لهم شيئًا مِن ذلك، فَإِنْ وَصَلَ شيءٌ مِمّا جَعَلوه لآلِهَتِهم إلى ما جَعَلوه للّهِ سبحانَه؛ رَدُّوه إلى مَحَلِّه مع

(1) ابن منظور، لسان العرب: (حرث).
(2) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة: (حرث).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نعم).
(4) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (نعم).
(5) الثّعلبيّ، الكشف والبيان: 3/28.
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (زعم).
(7) ابن منظور، لسان العرب: (زعم).
(8) الكفويّ، الكلّيّات، ص: 488.

نصيبِ أَوْثانِهم، فحَفِظوهُ واعتَنَوا به، وإنِ اختَلَطَ شيءٌ مِمّا جَعَلوهُ للّهِ تعالى بما جَعَلوهُ لآلِهَتِهم؛ تَرَكوه فيه ولم يَرُدُّوه إلى مَحَلِّه، ولم يُبالوا ويهتَمُّوا بذلك، ساءَ الحكمُ حكمُهم حيث صرفُوا ما جعَلُوه للّهِ إلى الأوثانِ[1].

نَقْضُ أوهامِ المُشركينَ، فيما جعلُوه مع اللهِ مُناصَفةً مِن زُروعِهم وأنعامِهم

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

بَلاغةُ الوصْلِ في الآيةِ الكريمةِ:

لمّا بيّنَ اللّهُ تعالى قُبحَ المُنكِرين في إنكارِهم وطريقةِ إعراضِهم عنِ الرّسولِ والرّسالةِ، ذكرَ عَقِيبَهُ أنواعًا مِن جَهالاتِهم ورَكاكةِ أقوالِهم؛ تنبيهًا على ضعفِ عقولِهم، وقلّةِ محصولِهم، وتَنفيرًا للعُقَلاءِ عنِ الالتفاتِ والإصغاءِ إلى كلماتِهم وأقوالِهم[2]، فوَصَلَ بينَ الخبرَين بقولِه: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلۡحَرۡثِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ نَصِيبٗا﴾؛ وذلك لبيانِ شَناعةِ ما يفعلونَ منَ الاستهانةِ برسالةِ الحقِّ والإيمانِ، فالوَصلُ بينَ خبرَين؛ الأوّل: بيَّنَ فيه قُدرتَهُ سبحانَه ومشيئتَهُ في إنشاءِ الأقوامِ واستخلافِهم، وما تضمَّنَ ذلك من تهديدٍ بالإهلاكِ والاستبدالِ للقومِ المُشرِكين، والثّاني: بيَّن فيه سببَ استحقاقِهم للإهلاكِ والاستبدالِ.

جمعٌ بينَ قُدرةِ اللهِ في الإهلاكِ، واستِحقاقِ الأقوامِ لذلك

معنَى الجعْلِ في المَطْلَعِ في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ﴾:

وقولُهُ: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ﴾، حقيقةُ معنى الجعلِ هو التَّصييرُ، والجعلُ هنا معناه الصَّرفُ والتَّقسيمُ، فقولُهُ: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ﴾؛ أي: صَرَفُوا ووضَعوا للّهِ، وعيَّنُوا له نَصِيبًا؛ لأنّ في التّعيينِ تَصييرًا تَقديريًّا ونَقلًا[3]، ودلَّ الجعلُ كذلك على أنّهم مُتجَاوزون في تشريعِ ما لا يحقُّ لهم تشريعُهُ.

دلَّ الجَعلُ على تجاوُزِهم، في ابتداعِهم شَرعًا جديدًا

(1) ابن جرير، جامع البيان: 9/573، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 3/344، والسّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 275، والشّنقيطيّ، أضواء البيان: 2/387.

(2) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 13/157.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/94.

دَلالةُ الحرفِ (مِن)، في قوله تعالى: ﴿مِمَّا ذَرَأَ﴾:

وقوله: ﴿مِمَّا ذَرَأَ﴾، فـ (من) التَّبعيضيَّة دليلٌ على قسمٍ ثالثٍ، وهو ما بَقِيَ لهم مِن غيرِ النَّصيبَينِ[1]: مِنَ الحَرثِ والأنعامِ، وهو نصيبُهُم (هم)؛ وذلك تنبيهٌ على فرطِ جَهالَتِهم، فإنّهم أشرَكُوا الخالِقَ في خلقِهِ جَمادًا، لا يَقدِرُ على شيءٍ، ثمّ رجَّحُوا المخلوقاتِ أو الشُّركاءَ عليه، بأنْ جَعَلُوا الزّاكِيَ لهم[2]. وجميعُ ما خَلَقَ اللّهُ في هذا الكونِ هو مُلكٌ للّهِ، فكانَ ما ادَّعَوْه منَ التّقسيمِ وتجزئةِ صدقاتِهِم؛ إذ جعَلُوا بعضًا منها لشُركائِهِم هي مِن دونِ اللّهِ من أكبرِ الكبائرِ.

يَفترُونَ على اللهِ بزعْمِهِم إعطاءَه بعضًا ممّا خلقَ وأبدعَ

إيثارُ لفْظِ ﴿ذَرَأَ﴾، منَ الآيةِ الكريمةِ:

و﴿مِمَّا ذَرَأَ﴾ مُتعلِّقٌ بـ ﴿وَجَعَلُواْ﴾، و(مِن) تَبعيضيَّةٌ، فهو في معنى المَفعولِ[3]. و(مِن) مُتعلِّقَةٌ بجعل، و(ما) مَوصُولةٌ، وجملةُ ﴿ذَرَأَ﴾ صلتُهُ، والعائدُ محذوفٌ[4]، وقولُهُ سبحانَه: ﴿مِنَ ٱلۡحَرۡثِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ﴾ مُتعلِّقٌ بـ ﴿ذَرَأَ﴾، والمعنى: وجعَلُوا من بعضِ الّذي ذرأَ منَ الحرثِ والأنعامِ نصيبًا له سبحانَهُ، وهذا من عظيمِ ظلمِهِم وشركِهِم، وقال: ﴿ذَرَأَ﴾ لِمَا في هذه المُفردةِ من تميُّزٍ، فـ ﴿ذَرَأَ﴾ بمعنى: أنشأَ شيئًا وكثّرَهُ، فأُطْلِقَ على الإنماءِ؛ لأنّ إنشاءَ شيءٍ تكثيرٌ وإنماءٌ. قالَ الرّاغبُ: الذّرءُ، إظهارُ اللّهِ تعالى ما أبدعَهُ؛ يُقالُ: ذرأَ اللّهُ تعالى الخَلقَ؛ أي: أوجَدَ أشخاصَهم[5]، والذَّرءُ الخَلقُ على وجهِ الاختراعِ، وأصلُهُ الظُّهورُ، ومنه مِلْحٌ ذَرانيٌّ لِظُهورِ بَياضِهِ[6]. فهو المَخلوقُ مُتولِّدًا منَ الحَبِّ، وانفلاقِ النَّوَى[7].

الذَّرءُ الخَلقُ على وجهِ الاختراعِ، فهو إيجادٌ وإبداعٌ

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/654.
(2) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 2/184.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/95.
(4) الآلوسّي، روح المعاني: 4/275.
(5) الرّاغب، المفردات: (ذرأ).
(6) الآلوسّي، روح المعاني: 4/275.
(7) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2686.

سِرُّ الإتيانِ بالموصولِ (ما):

ما ذرأَهُ اللهُ هو مُلكُهُ، بلا جعْلٍ مِنْ أحدٍ

وقولُهُ: ﴿مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلۡحَرۡثِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ﴾؛ بيانُ المقصودِ بـ (ما) الموصُولةِ، والإتيانُ بالموصُولِ الدّالِّ على غيرِ العاقلِ (الحَرث والأنعام)؛ لأجلِ دلالةِ صلتِهِ على تَسفيهِ آرائِهِم؛ إذ مَلَّكُوا اللّهَ بَعضَ مِلكِهِ؛ لأنَّ ما ذرَأَهُ هو مِلكُهُ، وهو حَقيقٌ به بلا جَعْلٍ مِنهُم[1].

بَلاغةُ الإطنابِ في عِبارةِ ﴿مِمَّا ذَرَأَ﴾:

بيانُ شرائعِهِم الفاسدةِ، في نَتاجِ أموالِهِم

ولو استغنى النَّصُّ عن عبارةِ: ﴿مِمَّا ذَرَأَ﴾؛ فكانَ القولُ: (وجعلوا للّه منَ الحرثِ والأنعامِ نصيبًا)، لَتَمَّ المعنى في نظرِ المُتلَقّي؛ ولكنّه أطنبَ هنا بإيرادِ العبارةِ: ﴿مِمَّا ذَرَأَ﴾ إيغالًا لتحقيقِ فوائدَ عدّةٍ منها؛ **الأوّل**: بيانُ فظاعةِ طريقتِهِم في التّديُّنِ، فهم يُؤمِنونَ بوجودِ اللّهِ، لكنّهم يُشرِكونَ معه شُركاءَ. **والثّاني**: بيانُ عظيمِ ما ذرأَ اللّهُ منَ الحَرثِ والأنعامِ، وأنّ ما في أيدي النّاسِ هو بعضُ ما ذرأَ سبحانَهُ. **والثّالثُ**: تفظيعُ حالِهِم ومآلِهِم؛ إذ يَتجاهَلونَ أو يُنكِرونَ فضلَ اللّهِ عَليهم في الرّزقِ ممّا ذرأَ لهُم من تلك الأنعامِ والزّروعِ. **والرّابع**: أنّ اللّهَ تعالى هو مَن لديه القُدرةُ على أن يَخلُقَ الأَحياءَ منَ العَدَمِ، أو أنْ يَخلُقَ الحَيَّ من غيرِ الحيِّ، فهوَ الغنيُّ عن كلِّ المَوجُوداتِ بالضّرورةِ، فجاءَت كلمةُ: ﴿ذَرَأَ﴾ في مُناسبةٍ دقيقةٍ للسّياقِ، فاختيارُ فعلِ: (ذرأ) لدلالتِهِ على المَعنى المُرادِ؛ إذِ المقصودُ بيانُ شرائعِهِم الفاسدةِ في نتائجِ أموالِهِم، ثمَّ بيانُ شرائعِهِم في أصولِ أموالِهِم في قولِهِ: ﴿وَقَالُواْ هَٰذِهِۦٓ أَنۡعَٰمٞ وَحَرۡثٌ حِجۡرٞ﴾ [الأنعام: 138].

دَلالةُ الإطنابِ بالإيضاحِ بعدَ الإبهامِ، في الآيةِ الكريمةِ.

أوْضحَ على سبيلِ التَّفصيلِ ما قَصدَ بعدَ الإبهامِ، بذكْرِ ما قَسَموهُ للهِ افتراءً

وفي العبارةِ وجهُ إطنابٍ بالإيضاحِ بعدَ الإبهامِ، فبعدَ أن قالَ: ﴿مِمَّا ذَرَأَ﴾ من مخلوقاتِهِ فصَّلَ القولَ وأوضحَ ذلك بقولِهِ: ﴿مِنَ ٱلۡحَرۡثِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ﴾، فهذا هو ما كانَت عادة القومِ؛ أنْ يَجعلُوا مِن

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/95.

غَلّاتِهم وزُروعِهم وأثمارِهم وأنعامِهم جزءًا تُسَمِّيه للّهِ، وجُزءًا تُسَمِّيه لأصنامِهم.

وقَصَدَ هذا الوَجهَ مِنَ الإطنابِ؛ ليتمَكَّنَ في النّفسِ فَضْلَ تَمكُّنٍ، فإنَّ المعنى إذا أُلْقِيَ على سبيلِ الإجمالِ والإبهامِ تشوّقَت نفسُ السّامعِ إلى مَعرفتِهِ على سبيلِ التّفصيلِ والإيضاحِ.

بَلاغَةُ المَجازِ في لفظِ ﴿ٱلْحَرْثِ﴾:

الحرثُ ما يُحصَدُ من ثِمارِ الأرضِ، مِن إطلاقِ السَّببِ وإرادةِ المُسَبَّبِ

و﴿ٱلْحَرْثِ﴾ مُرادٌ بهِ الزَّرعُ والثّمارُ، وهو منَ المَجازِ، فالحَرثُ إلقاءُ البُذورِ في الأرضِ، وتَهَيُّؤُها للزَّرعِ، ويُسمَّى المَحروثُ حَرْثًا[1]، فهو في الأصلِ مِن إطلاقِ المَصدرِ على اسمِ المفعُولِ، ثُمَّ شَاعَ ذَلِكَ الإطلاقُ، حتّى صارَ الحَرثُ حَقيقةً عُرفِيَّةً في الجِنَانِ والمَزارعِ[2]، قال تعالى: ﴿أَنِ ٱغْدُواْ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ﴾ [القلم: 22]، فالمُرادُ بالحَرثِ ما حصدَهُ المُزارِعُ من أرضِهِ، قالَ تعالى: ﴿وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ﴾ [الأنعام: 141]، والأنعامُ منَ الإبلِ والبقرِ والغنمِ يتقرَّبون بذبحِهَا. و"اللّهُ ﷻ هو الّذي ذرأَ النّباتَ، وذرأَ الثّمارَ، وعبّرَ عنهُ تعالى بـ ﴿ٱلْحَرْثِ﴾، وهو نَبتُ الأرضِ لإنتاجِ الزّرعِ، وهو سَببٌ عاديٌّ لإخراجِ الزّرعِ منَ الأرضِ، فأُطْلِقَ السَّبَبُ وأُريدَ المُسَبَّبُ، فأُطْلِقَ ﴿ٱلْحَرْثِ﴾ على كُلِّ ما أخرجَتِ الأرضُ من زروعٍ وثمارٍ"[3].

إيثارُ لفْظِ ﴿نَصِيبًا﴾ في الآيةِ الكريمةِ:

(النَّصيبُ يَنسَجِمُ مع الشِّركِ والذّبحِ لغيرِ اللهِ، غيرَ مُحَدَّدٍ لِيخضعَ لأهوائِهم

قولُهُ: ﴿نَصِيبًا﴾؛ والنَّصيبُ: الحَظُّ والقِسْمُ[4]. ونَصبُ الشَّيءِ: وَضعُهُ وَضعًا نَاتئًا كنصبِ الرُّمحِ، والبِنَاءِ والحَجَرِ، والنَّصيبُ: الحجارةُ تُنصَبُ على الشَّيءِ، وكان للعَرَبِ حِجارةٌ تعبدُهَا وتَذبَحُ

(1) الرّاغب، المفردات: (حرث).
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/95.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2686.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/654.

عَليها، قال تعالى: ﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ﴾ [المائدة: 3][1]، فاختارَ النَّصيبَ بيانًا لِما هُم فيهِ منَ الضَّلالِ والشِّركِ، والتَّقديرُ: وجعلُوا للّهِ نصيبًا ولِغيرِهِ نصيبًا آخَرَ، وفُهِمَ منَ السّياقِ أنَّ النَّصيبَ الآخرَ لآلهتِهِم، وقَد أفصحَ عنهُ في التَّفريعِ بقولِهِ: ﴿فَقَالُواْ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعۡمِهِمۡ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَاۖ﴾[2]. والتّعبيرُ بقولِهِم: ﴿نَصِيبًا﴾، وهوَ قَدْرٌ يُعَيِّنُونَهُ بأنفسِهِم، وعلى حَسبِ ما تَهوى أنفسُهُم، ولم يعرِّفُوهُ ليتصرّفوا فيهِ بمَا يشاؤون؛ فذَكروه مَجْهُولًا، واللّهُ تعالى هو المَالِكُ لكلِّ شيءٍ، فالأصلُ أن يكونَ هذا النّصيبُ المُخَصَّصُ للّهِ - بزعمِهِم - كُلُّه للّهِ تعالى، ويُعطَى بحكمِ اللّهِ لا بحُكمِ الهوى، كلُّ ذي حقٍّ حقَّهُ، فهو مُقَسِّمُ الأرزاقِ، وهوَ الخالقُ لكلِّ شيءٍ[3].

دَلالةُ التّقديمِ والتّأخيرِ في الآيةِ الكريمةِ:

تَفْظيعُ أفعالِ المُشرِكينَ والإنكارُ عليهم

وقولُهُ: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلۡحَرۡثِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ نَصِيبًا﴾ فيه تقديمٌ وتأخيرٌ؛ إذ قدَّمَ قولَهُ: ﴿مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلۡحَرۡثِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ﴾، وأخّرَ ﴿نَصِيبًا﴾ اهتمامًا بعظيمِ خلقِهِ سُبحانَهُ، وتفظيعًا لأفعالِهِم، وإنكارًا؛ فكيفَ يَفعلونَ ذلك الفِعلَ؟!

بَلاغةُ الحذفِ بأمَارةِ التّقسيم، في الآيةِ:

يَقْسِمون لله ممّا خَلقَ حظًّا ونصيبًا، جُرأةً وتطاوُلًا عليه

وقولُهُ: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلۡحَرۡثِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ نَصِيبًا﴾ فيه حذفٌ، دلَّ عليه التَّقسيمُ؛ والمعنى: جعَلُوا للّهِ نصيبًا، وجعَلُوا لشركائِهِم نصيبًا، يدُلُّ على هذا المعنى قولُهُ تعالى: ﴿فَقَالُواْ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعۡمِهِمۡ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَاۖ﴾[4]، فدلَّ بالإشارةِ إلى النَّصيبينِ على نصيبِ الشُّركاءِ المَحذوفِ، إذ ذَكَرَه إيجازًا في الجُملةِ الأولى، وهذا مُقتَضَى اللّفِّ والنّشرِ الّذي سيأتي بيانه.

(1) الرّاغب، المفردات: (نصب).
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/95.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2686.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/654.

تَوجيهُ توكيدِ الجَعْلِ، في قولِهِ تعالى: ﴿فَقَالُواْ﴾:

لفظ ﴿فَقَالُواْ﴾ في قولِه: ﴿فَقَالُواْ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعۡمِهِمۡ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَاۖ﴾ تأكيدٌ للفعلِ الّذي هو الجعلُ بالقولِ؛ ليَتطابقَ الفعلُ ويَتظافرَ بالقولِ، ثمّ إنَّهُم أخلَفُوا ذَلِكَ[1]، فحكايةُ قولِهم: ﴿هَٰذَا لِلَّهِ﴾ الّذي جعلُوهُ تَفصيلًا لجعلِهِم المَزعوم، يَتعارَضُ مع ما ينبغي أن يكونَ خَالِصًا للّه؛ فهُم مُتناقِضون بهذا القُربانِ للّهِ؛ إذ يتقرَّبونَ بهِ إليهِ سُبحانَه، وهُم يُشرِكونَ معهُ آلهةً أخرى.

التّناقضُ في التّقرُّبِ بنصيبٍ منَ القُربانِ إلى اللهِ، وإشراكِ آلهةٍ أُخرى معه

عِلَّةُ التّعبيرِ باسْمَي الإشارةِ في الآيةِ الكريمةِ:

والإشارتان إلى النَّصيبِ المُعَيَّنِ للّهِ، والنَّصيبِ المُعَيَّنِ للشّركاءِ، واسما الإشارةِ مُشَارٌ بِكُلِّ واحدٍ منهما إلى أحدِ النَّصيبَينِ على الإجمالِ؛ إذ لا غرضَ في المَقامِ في تَعيينِ ما جعلُوه للّهِ وما جعلُوهُ لشركائِهِم[2]، فليسَ المقصودُ منَ الآيةِ إطلاقَ مُعاتبةِ المُشركينَ على سوءِ التَّقسيمِ، أو بيانَ أنَّه تعالى كان أولى أنْ يُجعَلَ لَه الأحْسَن والأجود؛ بل المقصودُ هو التَّعجيبُ من حالِ هؤلاء، وممّا يفعلونَهُ ومن أساليبِهِم في التَّفكيرِ والاعتقادِ والتَّصرُّفِ؛ لأنَّهم على سبيلِ الافتراضِ لو عكسُوا الأمرَ، فأصبحَ القولُ: فما كانَ للّهِ لا يصلُ إلى شركائِهِم، وما كانَ لشركائِهِم فإنَّه يصلُ إلى اللّهِ، لَمَا نفعَهُم ذلك؛ لأنّ ما يفعلونَهُ شركٌ مَحضٌ.

التّعجيبُ مِن حالِ هؤلاء وأساليبِهِم في الاعتقادِ والتَّصرُّفِ

نُكتةُ إظهارِ لفظِ الجلالةِ ﴿هَٰذَا لِلَّهِ﴾:

قالوا: ﴿هَٰذَا لِلَّهِ﴾ بدلَ قولِهِم: (هذا له)؛ فإظهارُ لفظِ الجلالةِ إصرارٌ منهم على أنّه دينٌ يُمارِسونَ شعائرَهُ، وأنّهم يُؤمنونَ بما يَفعلون؛ إذ إنَّ ذكرَ اللّهِ تعالى وتَكرارَهُ وإظهارَهُ في مَوضِعِ إضمارٍ لا يكونُ إلّا اعتناءً منهم بعظيمِ شأنِهِ سبحانَهُ، لكنّهم أوردُوا ذكرَ اللّهِ

يُؤمِنونَ باللهِ ربًّا، ثمّ يَجعَلُونَ له شُركاءَ

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 4/655.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/95.

تعالى في مَوضِعِ إشراكٍ؛ ليكونَ ما يَفعلونَ دِينًا منهم، وتصديقًا بما تُلبِسُ عليهم شياطينُهُم.

معنَى الباءِ في قولِهِ تعالى: ﴿بِزَعْمِهِمْ﴾:

مَحلُّ زعْمِهِم الباطلِ، ما اقتضَتهُ القِسمَةُ بينَ اللهِ وبينَ الآلهةِ

الباءُ الدّاخِلةُ على ﴿بِزَعْمِهِمْ﴾ إمّا بمعنى: مِنْ؛ أي: قالُوا ذلكَ بألسنتِهِم، وأعلَنُوا بهِ قولًا ناشِئًا عنِ الزَّعْمِ؛ أي: الاعتقادِ البَاطلِ، وهو ممّا زيّنَت لهم شياطينُهُم منَ الوَسوسةِ والإيحاءِ زُخرُفًا مِنَ القولِ غُرورًا، وإمّا تكونُ سببيَّةً؛ أي: قالُوا ذلك بسببِ أنَّهم زعمُوا. ومَحَلُّ الزَّعمِ هو ما اقتضَتهُ القِسمَةُ بينَ اللهِ وبينَ الآلهةِ، وإلّا فإنَّ القَولَ بأنّه مِلْكٌ للهِ قَولٌ حَقٌّ، لكنَّهم لمّا قالُوهُ على مَعنى تَعيينِ حَقِّ اللهِ في ذلكَ النَّصيبِ دُونَ نَصيبٍ آخَرَ، كانَ قَولُهم زَعمًا باطِلًا[1].

دَلالةُ الزَّعمِ، وعلّةُ إيثارِهِ، في قوله تعالى: ﴿بِزَعْمِهِمْ﴾:

التَّعجيبُ من حُكمِهِم الباطلِ، وتقسِيمِهم الفاسدِ المزعومِ

والزّعمُ: الاعتقادُ الفاسدُ، فجاءَ اللَّفظُ مُواليًا لبعضِ مَقُولِ القَولِ؛ ليكونَ مُتَّصِلًا بما جعلُوه للهِ، فَيُرَتَّبُ التّعجيبُ مِن حكمِهِم؛ بأنّ ما كانَ للهِ يصلُ إلى شركائِهِم؛ أي: ما اكتَفَوا بزعمِهِم الباطلِ حتّى نكَلوا عنه، وأشركوا شُركاءَهُم فِيما جَعلُوهُ للهِ بزعمِهِم[2]. ويدُلُّ لفظُ الزّعمِ - بما يحملُهُ من معنى الكذبِ أو الظّنِّ الّذي لا دليلَ عليه - أنّ ذلك التّقسيمَ فاسدٌ في ذاتِهِ؛ لأنّهم لا يملكونَ تقسيمَ الأرزاقِ، بل الّذي يملِكُها هو اللهُ تعالى؛ لأنّه هو بارئُها[3].

دَلالة لفْظِ ﴿بِزَعْمِهِمْ﴾ على جُملة منَ المَعاني المُعجميّةِ المُهمّةِ:

حقَّقَ لفظُ (بزعمهم) انسجامًا في التّركيبِ، وائتِلافًا مع النّظمِ والسّياقِ

وَرَد في المَعاجم أنّ لكلمةِ ﴿بِزَعْمِهِمْ﴾ مَنظومَةً منَ المَعاني المُعجميّةِ، منها: الكَذِبُ، الشَّكُّ، الطَمَعُ، وزَعامَةُ المالِ، والزَّعومُ منَ الجَزورِ. ومعنى ﴿بِزَعْمِهِمْ﴾؛ أي: بكذبِهِم، واضحٌ في الآيةِ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/96.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/96.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2686.

الكريمةِ، وتتابعُ المعاني الغزيرةِ لهذه الكلمةِ، كمعنى: بشكٍّ منهم؛ فهم شاكُّونَ بما كانَ للّه؛ هل هو كما قالُوا؟ أم أنّه سينقصُ ويُحوَّلُ جزءٌ منه إلى شركائِهم كلّما اقترحَت عليهم شياطينُهُم وأهواؤُهُم؟! وكمعنى: بطمعِهِم؛ فهُم يقولونَ هذا للّه بزعمِهِم؛ أي: أنّهم طامعونَ فيه، يُريدُونَ إنقاصَهُ لصالحِ ما لأنفُسِهِم أو لشركائِهِم. وكذلكَ المعاني الأخرى أوحَت تلك المناسبةَ للفظِ (الزّعم) دونَ (الكذب)، وانسجامها مع عباراتِ النَّصِّ ومعانيه، فارتبطَت بكذبِهِم، وارتيابِهِم، وبالأنعام، والأموالِ، الّتي هي بمجموعِها مدارُ القضيَّةِ الّتي تناولَتها الآيةُ، ولا تُحقِّقُ كلمةٌ مثلَ ما حقَّقَتْ كلمَةُ ﴿بِزَعْمِهِمْ﴾ من ارتباطاتِ انسجامِ المعاني وبناءِ النَّظمِ، وهذا منَ الإعجازِ القرآنيِّ في اختيارِ الألفاظِ وائتلافِها مع سياقِها ونَظمِها.

سِرُّ التّعبيرِ عنِ الزّعمِ بالمصدرِ، وإضافتِهِ:

يُؤتَى بالمصدرِ الصَّريحِ لإفادةِ القَطْعِ بحصولِ الفعلِ، وإرادةِ الحَدَثِ وحدَهُ، دونَ إرادةِ صاحبِهِ، أو إرادةِ زمنِهِ، فلا يَنشغلُ السَّامعُ بغيرِهِ، ولفظُ الزَّعْمِ في قوله: ﴿بِزَعْمِهِمْ﴾ يَحملُ دلالاتٍ يجمَعُها (الاعتقادُ الفاسدُ)؛ فحَرِيٌّ بأن يُعتنَى به، ويُركّزَ عليه دونَ مُتعلِّقِهِ من تَفَاصِيلَ. وإضافتُهُ إلى ضميرِهِم يُنبِئُ بتحقيرِ هذا الفعلِ منهم، وتقليلِ أثرِهِ، وتهوينِ شأنِهِ حكمًا مُخترَعًا يدُلُّ على سَفاهةِ عقولِهِم، وبُطلانِ مُعتَقدِهِم.

فسادُ اعتقادِهِم، دليلُ سَفاهةِ عُقولِهِم، وحَقارةِ هذا الفعْلِ منهُم

نُكتةُ مَجيءِ لفظِ الزَّعْمِ إثرَ قولِهِم: ﴿هَٰذَا لِلَّهِ﴾، دونَ قولِهِم: ﴿وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا﴾:

فقال تعالى: ﴿فَقَالُواْ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا﴾ فقولُه: ﴿بِزَعْمِهِمْ﴾ إطنابٌ؛ ولو حُذِفَتْ لَفُهِمَ المعنى دونَ إشكالٍ، لكنّه ذكرَ ﴿بِزَعْمِهِمْ﴾ إيغالًا لفائدةِ التَّنبيهِ على أنَّ ذلك ممّا اخترعُوه وتخرَّصُوه، وما أوحَتهُ إليهم شياطينُهُم أن يفعَلُوهُ، ولم يأمرْهُم اللّهُ

التَّنبيهُ على أنَّ زَعْمَ التّقسيمِ، مُخترَعٌ مُتخرَّصٌ، من غيرِ مُستنَدٍ

بهِ، فما ذرأَ اللّهُ منَ الحَرثِ والأنعامِ كلُّه للّهِ سُبحانَهُ، ولا يخرُجُ عن مُلْكِهِ شيءٌ، ولذا أسقطَ الزَّعْمَ من قولِه: ﴿وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا﴾؛ أي: وليسَ لهم سَنَدٌ في هذهِ القِسمَةِ إلّا أهواؤُهُم، وادّعاؤُهُم الباطلُ، وسفهُ عقولِهم[1].

إيثارُ لفْظِ (الشُّركاءِ)، لشُيوعِه كالعلْمِ بالغلَبَةِ:

وقولُهُ: ﴿وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا﴾؛ والشُّركاءُ هنا جَمعُ شَريكٍ؛ أي: شركاءُ للّهِ سُبحانَه في الإلهيّةِ، أو في القِسمَةِ الّتي زعمُوها افتراءً، ولمّا شاعَ ذلك عندَهُم صارَ كَالعَلَم بالغَلَبةِ، فلذلكَ استَغنى عنِ الإضافةِ إلى ما فِيهِ المعنى المُشْتَقُّ منهُ، وهو الشَّرِكَةُ، ثمّ لأجلِ غَلَبَتِه في هَذا المعنى صارَ بمَنزِلةِ اللَّقبِ، فأضافوا الشُّركاءَ إلى أنفسِهم، فقالُوا: ﴿لِشُرَكَآئِنَا﴾؛ أي: للشُّركاءِ الّذين يُعرَفُونَ بنا[2]. وحيث أنّهُم لا يَقبلونَ أن يقولوا (لأوثانِنا أو أصنامِنا)، واللّهُ تعالى لا يقبلُ أن يُقالَ عنهم (آلهةٌ)، فعبَّرَ عنهم بقولِه: ﴿وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا﴾؛ أي: للشّركاءِ الّذين قلْنا: إنّهم شركاءُ للّهِ تعالى[3].

جَعْلُهم شُركاءَ في أموالِهم وحَرْثِهم وأنعامِهم، انحرافٌ عنِ الصِّراطِ

دَلالةُ الإضَافةِ في قوله تعالى: ﴿لِشُرَكَآئِنَا﴾:

وشركاؤُهُم هُم آلهتُهُم، والإضافةُ فيها للتّخصيصِ؛ أي: الشُّركاءُ الّذين أشرَكوا بينَهم وبينَ اللّهِ في القُرْبَةِ، وسُمُّوا شركاءَ لأنّهم أنزَلُوهُم مَنازِلَ الشُّركاءِ في أموالِهم؛ فتكُونُ الإضَافَةُ إمّا إلى الفاعلِ؛ فالتّقديرُ: وهذا لأصنامِنا الّتي تُشرِكُنا في أموالِنا، وإمّا إلى المفعولِ؛ فالتَّقديرُ: لأصنامِنا الّتي شَرَكناها في أموالِنا، أو سَمَّوهُم شُركاءَ على مُعتَقَدِهم فِيهِم أنّهم يُساهِمونَهم في الخَيرِ والشّرِّ[4]. وضميرُ المُتكلّمِ (نا) فيه إشارةٌ لكثرةِ الشّركاءِ، وتقسيمِهم عليهم،

التَّخصيصُ لمُساهمتِهم في الخَيرِ والشّرِّ، وتعيينِ شركاءَ يُقسَمُ لهم

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/279.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/96.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2687.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/655.

وقربِهم منهم، فكلُّ واحدٍ منهم له شركاءُ منَ الأصنامِ أو مِن سَدَنَتِهَا، ولكلٍّ منهم شركاءُ يُقْسَمُ لهم.

بيانُ الحذْفِ في ﴿فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ﴾:

ثمّ أجملَ بقولِه: ﴿فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ﴾؛ إذِ المعنى: فما كانوا قد قسَّمُوهُ لشركائِهم منَ الزّروعِ والثِّمارِ والأنعامِ، ومن صورِ ذلك التَّحَيّزِ إلى شركائِهم: كانوا إذا جمعُوا الزَّرعَ فهبَّتِ الرّيحُ فحملَت ممّا قَسمُوهُ للّه إلى الّذي قَسمُوه لشركائِهم أقرّوه، وقالوا: إنّ اللّهَ غنيٌّ عنه، وإذا حملَت ممّا قَسمُوه لشركائِهم إلى الّذي قَسمُوه للّهِ ردُّوه، وإذا هَلكَ ما لأصنامِهم بقَحْطٍ أخذُوا بدلَهُ ممّا للّه، ولا يفعلونَ ذلك فيما للّه، فكانُوا مع ما اقترحُوه منَ القِسمةِ المَزعومةِ غيرَ صادقينَ في التّقسيمِ، فجمَعُوا بينَ الشّركِ والكذبِ.

إضافةً إلى زعمِهم، فقد جمعُوا في قسمتِهم بينَ الشّركِ والكذبِ

وَجْهُ تَعديةِ ﴿يَصِلُ﴾ إلى اسْمِ الجَلالةِ، وإلى اسْمِ شُركائِهم:

وقولُهُ: ﴿فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْۗ﴾؛ عُدِّيَ ﴿يَصِلُ﴾ إلى اسمِ الجلالةِ، وإلى اسمِ شركائِهم، والمُرادُ لا يَصِلُ إلى النَّصيبِ المَجعُولِ للّه، أو إلى شركائِهم؛ لأنّهم لمّا جعلُوا نصيبًا للّه ونصيبًا لشركائِهم، فقدِ استشعَرُوا ذلك النّصيبَ مَحُوزًا لِمَن جُعِلَ إليه، وفي حِرزِه فكأنَّه وصلَ إلى ذاتِه، وقولُهُ: ﴿فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِۖ﴾؛ مبالغةٌ في صَرفِهِ مِن أنْ يُعطَى للّه؛ لأنّه إذا كانَ لا يَصِلُ فهو لا يُترَكُ إذا وصَلَ بالأولى[1]؛ أي: لا يقعُ مَوقِعَ ما يُصرَفُ في وُجوهِ البرِّ مِنَ الصَّدَقَةِ على المَساكينِ وزُوّارِ بيتِ اللّهِ ونَحوِها، ولَو فعلُوا ذلكَ لم ينفعْ؛ لأنّهُم أشرَكُوا، أو لا يَصِلُ البَتَّةَ إلى تلك الوُجوهِ المَقصودِ بها التَّقَرُّبُ إلى اللّه[2]، وكانوا يَصرِفُونَ ما جعلُوا للّهِ إلى الضّيفانِ والمساكينِ، فذلك معنى قوله: ﴿فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِۖ﴾.

لمّا جعلُوا الأنصبةَ، فقدِ استشعروها مَحوزةً، لمَن جُعِلَتْ إليه

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/97.

(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/655.

بَلاغةُ اللّفِّ والنّشْرِ في الآيةِ الكريمةِ:

مُوافقةُ السّياقِ لمساحةِ التّناقُضِ بينَ أقوالِ المُشركينَ وأفعالِهم

تَضَمَّنَتِ الآيةُ الكريمةُ لفّين ونشرين مُتداخِلين؛ فجاءَ اللَّفُّ الأوّلُ من قولِه تعالى: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلۡحَرۡثِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ نَصِيبٗا﴾، وفي الآية حذفَ جملةَ: (وجعلوا لشركائهم نصيبًا)، وهذا تمامُ اللّفِّ الأوّلِ، أمّا نشرُهُ فقولُهُ تعالى: ﴿فَقَالُواْ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعۡمِهِمۡ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَاۖ﴾، فذكرَ ما للّهِ تعالى، ثمّ ذكرَ ما لشركائِهم على ترتيبِ اللّفِّ.

وجاءَ اللّفُّ الثّاني في قولِه: ﴿فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمۡ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِۖ﴾، والنّشرُ في قولِه: ﴿وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمۡۗ﴾، فجاءَ النّشرُ على عكسِ اللّفِّ، وأوردَ النّشرين بطريقتين مُخْتَلِفَتَيْنِ مُتعاكِستين، فالأوّلُ مُوافِقٌ لترتيبِ اللّفِّ، والثّاني مُعاكِسٌ له؛ فأفادَ ذلك مُوافقةَ السّياقِ وبيانَ مساحةِ التّناقضِ والانعكاسِ بينَ أقوالِهم وأفعالِهم.

بَلاغةُ الالتفاتِ بينَ عُنْصرَيِ اللّفِّ والنّشْرِ في الآيةِ الكريمةِ:

اختلافُ الأفعالِ في قِسمتِهم، فشرَعُوا لأنفسِهم، وأباحُوا ما لا يجوزُ

وما بينَ ﴿لِشُرَكَآئِنَاۖ﴾ في النّشرِ الأوّلِ و﴿لِشُرَكَآئِهِمۡ﴾ في اللّفِّ الثّاني التفاتٌ؛ إذِ التفتَ منَ المُتَكَلِّمِ إلى الغائبِ، فقد كانَ حضورُهُم مَوضِعَ قولِهم، ولكنّهم غابُوا مَوضِعَ الفعلِ والعملِ، وجاءَ الضَّميرُ ضميرَ غيبةٍ، وهذا مُنسَجِمٌ تمامًا في أنّهم أهلُ أقوالٍ لا أفعالٍ. ونلحظُ كذلكَ اختفاءَ الضَّميرِ؛ لا حاضرًا ولا غائبًا، في قولِه: ﴿يَصِلُ﴾، فقال: ﴿فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمۡ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمۡۗ﴾؛ وفي ذلك مَلْمَحٌ إلى اختلافِ تلك الأفعالِ بينَهُم، فكأنّها قد صارَت مُباحاتٍ لهم جميعًا، فيَحمِلُ مَن يشاءُ ما كانَ للّه فيضعه مع ما كانَ للشّركاءِ، ويَمنعُ ما كانَ للشّركاءِ من أن يَصِلَ إلى اللّهِ.

بَلاغةُ الاستئنافِ في جُملةِ الفاصلةِ:

التّعميمُ في ذمِّ مُجتمعاتِ الكُفرِ وشَرائعِها وأحكامِها

وجملةُ: ﴿سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ﴾ استئنافٌ لإنشاءِ ذَمِّ شرائعِهم؛ لفائدةِ التّعميمِ؛ فجَعَلَ العبارةَ كالمَثَلِ السّائرِ على ألسنةِ المُؤمنينَ، وفائدةُ هذا الاستئنافِ هو ذمُّ شرائعِ كلِّ مُجتمَعٍ من مُجتمَعاتِ

الكفرِ، عندما تُسَوِّلُ لهم أنفسُهُم تشريعَ غيرِ ما أنزلَ اللّهُ، وأن يَحكمُوا بها.

عِلّةُ إيثارِ ﴿سَآءَ﴾ على (بئسَ):

الإساءةُ لأنفسِهم بما اقترفُوهُ، وتَركُ التّشفِّي بهم للإشفاقِ عليهم

و﴿سَآءَ﴾ هنا بمعنى: بئسَ، و﴿مَا﴾ هي فاعلُ ﴿سَآءَ﴾، وهي مَوصُولةٌ، وصلتُهَا ﴿يَحۡكُمُونَ﴾، وناسبَ ذكرُ ﴿سَآءَ﴾ هنا؛ لأنَّ فيها معنى الإساءةِ إلى أنفسِهم بما اقترفوه وشرّعوا لأنفسِهم منَ الدّين؛ قال الرّاغبُ: يُقالُ سَاءَني كذا وسُؤتَني بكذا، قالَ تعالى: ﴿سِيٓـَٔتۡ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ [الملك: 27]، وقالَ تعالى: ﴿لِيَسُـٔۥُواْ وُجُوهَكُمۡ﴾ [الإسراء: 7]، بينما (بئسَ) فيها معنى التّشفّي، كما في قولِهِ تعالى: ﴿جَهَنَّمَ يَصۡلَوۡنَهَا فَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ۝٥٦﴾ [سورة ص: 56]، ولو قالَ: (بئسَ ما يحكمون) لأصابَهُم ذلك، فلم يأتِ بـ (بئس)؛ لأنّ مَقامَ القطعةِ القرآنيّةِ مَقامُ رحمةٍ وإشفاقٍ عليهم، وتركٍ للخَشنِ مِنَ القَولِ، وحُسن خُلقٍ وتأدُّبٍ.

وَجْهُ حذْفِ المَخصوصِ بالذّمِّ:

مناسبةُ السّياقِ للمَحذوفِ مِن حُكمِهم وجَعْلِهم

وحُذِفَ العائدُ المَنصوبُ، وحُذِفَ المخصوصُ بالذّمِّ لدلالةِ: ﴿وَجَعَلُواْ﴾[1] عليه؛ أي: (ساءَ ما يحكمونَ جَعلُهم)، فحَذَفَ (جعلهم) إيجازًا، فناسبَ سياقَ الآيةِ حذفُ الإساءةِ وإخفاؤُها من حكمِهم وجعلِهم.

دَلالةُ (ما) الموصولةِ في جُملةِ الفاصلةِ:

الإشارةُ إلى إبهامِ رأيِهم وحُكمِهم؛ استهانةً وتحقيرًا لهم

عبّرَ بالاسمِ الموصولِ الدّالِّ على غيرِ العاقلِ؛ لبيانِ إبهامِ رأيِهم، وبُطلانِ حُكمِهم؛ استهانةً بهم، واستصغارًا لهم، وتحقيرًا لشأنِهم.

نُكتةُ إطْلاقِ الحُكمِ على فعْلِهم:

في قوله تعالى: ﴿سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ﴾ سمّاه حُكمًا تَهَكُّمًا؛ لأنّهم نَصَبوا أنفُسَهُم لِتَعيينِ الحقوقِ، فَفَصَلُوا بحُكمِهم حقَّ اللّهِ مِن حقِّ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/97.

الأصنام، ثمّ أباحُوا أن تَأخُذَ الأصنامُ حَقَّ اللّهِ، ولا يَأخُذَ اللّهُ حقَّ الأصنامِ، فكانَ حُكمًا بَاطلًا، كقوله: ﴿أَفَحُكۡمَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ يَبۡغُونَۚ﴾ [المائدة: 50].

نَصّبُوا أنفسَهم لإيفاءِ الحُقوقِ، ولـيـسُـوا أهـلًا للحُكمِ

بَلاغةُ التَّذْييلِ في قوله تعالى: ﴿سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ﴾

وجملةُ: ﴿سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ﴾ تذييلٌ؛ فقد لخّصَت ما ذكرَتهُ الآيةُ ممّا استحقُّوهُ مِنَ التّهكُّمِ والتّفظيعِ، ولإساءةِ هؤلاء المُشركين وجوهٌ، منها: أنّهم رجّحُوا جانبَ الأصنامِ في الرّعايةِ والحِفظِ على جانبِ اللّهِ تعالى، وهذا سَفَهٌ، وأنّهم جَعَلُوا بعضَ النّصيبِ للّهِ، وجَعَلُوا بعضَهُ لغيرِهِ معَ أنّهُ تَعالى الخالقُ للجميعِ، وهَذا أيضًا سَفَهٌ ثانٍ، وأنّ ذلك الحُكمَ حُكمٌ أحدَثُوهُ من قِبَلِ أنفسِهم، ولم يَشهَدْ بصِحّتِهِ عَقلٌ ولا شَرعٌ، فَكانَ أيضًا سَفَهًا ثالثًا، وأنّه لو حَسُنَ إفرازُ نَصيبِ الأصنامِ لَحَسُنَ إفرازُ النَّصيبِ لِكُلِّ حَجَرٍ ومَدَرٍ، وأنّه لا تأثيرَ للأصنامِ في حصولِ الحَرثِ والأنعامِ، ولا قُدرةَ لها أيضًا على الانتفاعِ بذلكَ النَّصيبِ، فَكانَ إفرازُ النَّصيبِ لها عَبَثًا، فَثَبَتَ بهذهِ الإساءاتِ المُتعدِّدةِ أنّهم ﴿سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ﴾، والمقصودُ من حكايةِ أمثالِ هذهِ المَذاهبِ الفاسدةِ؛ أن يَعرِفَ النّاسُ قِلَّةَ عُقُولِ القائلينَ بهذهِ المَذاهبِ، وأن يَصيرَ ذلكَ سَببًا لتحقيرِهِم في أعينِ العُقلاءِ، وأن لا يَلتَفِتَ إلى كلامهم أحدٌ البَتّةَ[1].

الإسَـــــاءاتُ الـمُـتـعـدِّدَةُ، سَببُ تحقيرِهِم، وتجاهُلِ كلامِهِم

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(ذرَأَ)، (بَرأَ)، (خَلَقَ)، و(أنشأَ)، و(بثَّ)، و(أنْمى):

الذَّرءُ: أصلُهُ الإظهارُ؛ وَمعنى ذرأَ اللّهُ الخلقَ: أظهرَهُم بالإيجادِ بعدَ العَدَمِ، وَمِنه قِيل للبياض الذّارّة؛ لظُهورِهِ وشهرتِهِ، وملحٌ ذَرّاني لبياضِهِ، والذَّرْو - بلا همزٍ - التَّفرِقَةُ بَين الشَّيئَينِ[2].

الذَّرْءُ هو الإظهارُ بـعـدَ الـعَـدَمِ، ولـكـلِّ مُـفـردةٍ مـعـهـا مـعـنـى يُميّزُها

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 13/158.
(2) العسكريّ، الفُروق اللّغويّة، ص: 138.

والبَرْءُ: هوَ تمييزُ صورِ الخَلقِ، وَقولُهم: برأَ اللّهُ الخَلقَ؛ أَي: ميّزَ صورَهُم، وَأَصلُهُ القَطْعُ، وَمِنْهُ البَراءَةُ، وَهي قَطعُ العَلَقَةِ، وبَرِئْتَ منَ المَرَضِ كَأَنَّهُ انقَطَعَت أَسبابُهُ عَنكَ، وبَرِئْتَ مِنَ الدَّينِ، وبَرَأَ اللَّحمَ من العظمِ قَطَعَهُ، وتَبَرَّأَ منَ الرّجلِ إذا انْقَطَعَت عصمتُهُ مِنْهُ[1]. والخَلقُ في اللّغةِ: التّقديرُ وإيجادُ الشَّيءِ مِنَ الشَّيءِ، وخَلقَ الثّوبُ وأَخْلَقَ لم يبقَ منهُ إلّا تقديره، واخلولقَ السّحَابُ استوى، وإنّه لخليقٌ بِكَذا؛ أي: شبيهٌ به، كأنّ ذلك مُقدَّرٌ فيه[2]. ويُستعمَلُ في إبداعِ الشّيءِ من غيرِ أصلٍ ولا احتذاءٍ، قال: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [السّجدة: 4]، ويُستعمَلُ في إيجادِ الشّيءِ مِنَ الشّيءِ، نحو: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ [النّساء: 1]، ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ﴾ [النّحل: 4]، ﴿خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ﴾ [المؤمنون: 12]، ﴿وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ﴾ [الرّحمن: 15]، وليسَ الخَلْقُ الّذي هو الإبداعُ إلّا للّهِ تعالى، ولهذا قالَ في الفصلِ بينَهُ تعالى وبينَ غيرِهِ: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [النّحل: 17][3].

والإنشاءُ: النَّشْءُ والنَّشْأَةُ: إحداثُ الشَّيءِ وتربيتُهُ، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾ [الواقعة: 62]. يُقالُ: نَشَأَ فلانٌ، والنّاشِئُ يُرادُ به الشّابُّ، ونَشَأَ السَّحابُ لحدوثِهِ في الهواءِ، وتربيتِهِ شيئًا فشيئًا. قال تعالى: ﴿وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ﴾ [الرّعد: 12]، والإنْشاءُ: إيجادُ الشَّيءِ وتربيتُهُ، وأكثرُ ما يُقالُ ذلك في الحَيَوانِ. قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ﴾ [الملك: 23]، وقال: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ [النّجم: 32]، وقال: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ﴾ [المؤمنون: 31]، وقوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ۝٧١ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ﴾ [الواقعة: 71 - 72]؛ فَلِتشبيهِ إيجادِ النّارِ المُستخرَجةِ بإيجادِ الإنسانِ[4] شبّه إنشاءَ حياةِ الشّجرِ بإنشاءِ حياةِ الإنسانِ.

والبَثُّ؛هو إيجادُ ما لم يكنْ مَوجودًا وتنويعُهُ وتوزيعُهُ، وأصلُ البَثِّ: التّفريقُ وإثارةُ الشّيءِ كبثِّ الرّيحِ التّرابَ، وبثُّ النّفسِ ما انطوَت عليهِ منَ الغمِّ والسّرِّ، يُقالُ: بَثَثْتُهُ فانْبَثَّ، ومنه قولُهُ ﷻ: ﴿فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا﴾ [الواقعة: 6]، وقولُهُ ﷻ: ﴿وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ﴾ [البقرة: 164] إشارةٌ إلى إيجادِهِ تعالى ما لم يكنْ مَوجودًا وإظهارِهِ إيّاه. وقولُهُ ﷻ: ﴿كَٱلْفَرَاشِ

(1) العسكريّ، الفُروق اللّغويّة، ص: 138.
(2) العسكريّ، الفُروق اللّغويّة، ص: 224.
(3) الرّاغب، المفردات: (خلق).
(4) الرّاغب، المفردات: (نشأ).

ٱلۡمَبۡثُوثِ﴾ [القارعة: 4]؛ أي: المُهَيَّج بعدَ ركونِهِ وخفائِهِ[1]، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ﴾ [النّساء: 1].

واختِيرَ لفظُ ﴿ذَرَأَ﴾ في الآيةِ الكريمةِ؛ لأنّه يَحمِلُ دلالةَ إنشاءِ الشّيءِ وتكثيرِهِ، ولذلكَ أُطلِقَ على الإنماءِ؛ لأنَّ إنشاءَ شيءٍ تكثيرٌ وإنماءٌ، وإظهارُ ما أبدعَهُ اللّهُ تعالى؛ وأوجدَهُ[2]، وإظهارُ الشّيءِ الّذي أنشأَهُ اللّهُ تعالى وكثّرَهُ في مَعرِضِ النّعمِ الّتي جُحِدَتْ أشدُّ تعريضًا بمَن أساءَ الحُكمَ؛ سفاهةً، وافتقادَ حِلْمٍ.

(1) الرّاغب، المفردات: (بثّ).
(2) الرّاغب، المفردات: (ذرأ).

﴿وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُواْ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ ۖ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٧﴾﴾ [الأنعام: 137]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الرَّبْطُ بين قِسْمةِ المحيزِ والمحصولِ بين الله وآلهتهم، وتقديمِ أولادِهم قرابينَ للآلهةِ

الآيةُ في مَعرِضِ تعدادِ أعمالِ المُشرِكينَ مِنَ القُبحِ والجَهالةِ، فبعد أن ذكرَ ظلمَهُم منَ الشِّركِ الظّاهرِ؛ إذ جعَلُوا للّه شُركاءَ في أقسامِهِم أموالهم مِنَ الزّروعِ والأنعامِ، فقد شبّهَ حالَهم هذا بتزيينِ أولئك الشّركاءِ منَ الشّياطينِ ونحوِهم قتلَ أولادِهِم؛ حيث زيّنُوا لهم أن يجعلُوا أولادَهُم قرابينَ للآلهةِ. فهي حِكايةُ نوعٍ من أنواعِ تشريعاتِهِم الباطلةِ، وهي راجِعةٌ إلى تَصَرُّفِهِم في ذُرِّيَّاتِهِم بعدَ أن ذَكَرَ تَصَرُّفَاتِهِم في نتائجِ أموالِهِم[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿لِيُرْدُوهُمْ﴾: أصلُ الرَّدَى: الهلاكُ والموتُ؛ يُقالُ: رَدِيَ يَرْدَى، إذا هَلَكَ. وأَرداهُ اللّهُ: أَهْلَكَهُ. والتَّرَدِّي: التَّهَوُّرُ في المَهْوَى. يُقالُ رَدِيَ في البِئْرِ كما يُقالُ تَرَدَّى[2]. ورَدُؤَ الشَّيءُ يَرْدُؤ رَداءَةً، وإذا أصابَ الإنسانُ شَيئًا رَديئًا فَهوَ مُرْدِئٌ، وكذلكَ إذا فَعَلَ شَيئًا رَديئًا[3]. ويُستعمَل الإرْداءُ في الضُّرِّ الشَّديدِ (مَجازًا أَوِ استِعارةً)، وذلكَ المُرادُ هُنا.

2) ﴿وَلِيَلْبِسُواْ﴾: أَصلُ الكَلِمَةِ مِنَ اللَّبْسِ، وهو: الخَلْطُ، يُقال:

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/أ98.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ردى).
(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (ردأ).

لَبَسْتُ الأَمرَ، أَلْبِسُهُ: خَلَطْتُ بَعضَهُ بِبَعضٍ[1]، ومِنهُ سُمِّيَ الثَّوبُ لِباسًا؛ لأنَّهُ يُخالِطُ البَدَنَ ويَستُرُهُ. واللَّبْسُ أيضًا: خَلطٌ بَينَ مُتَشابِهاتٍ في الصِّفاتِ يَعسُرُ مَعَهُ التَّمييزُ أو يَتَعَذَّرُ. والمقصودُ في الآيةِ: الخَلْطُ؛ أي: أَنْ يَخلِطوا عليهم دينَهُم فَيوهِموهُمُ الضَّلالَ رُشدًا.

3) ﴿فَذَرْهُمْ﴾: أصلُ الفِعلِ (وذر) التَّركُ، يُقال: فلانٌ يَذَرُ الشَّيءَ؛ أي: يتركُهُ لقلَّةِ اعتدادِهِ بِهِ. والعَرَبُ قد أماتَتِ المصدرَ مِن يَذَر والفِعلِ الماضي، واستعملَتهُ في الحاضرِ والأمرِ، فإذا أرادوا المصدرَ قالوا: ذَرْه تَرْكًا؛ أي: اترُكْهُ[2]. وقيل: أصلُ ذلك مِنَ القَذْفِ، قال تعالى: ﴿ثُمَّ ذَرْهُمْ﴾ [الأنعام: 91]؛ أي: اقذفْهُم وألقِهِم واتركْهُم، فلا اعتِدادَ بهم وعدم مُبالاةٍ[3]. ومِن ذلكَ الوَذَرَةُ: وهي قطعةُ لحمٍ صغيرةٍ؛ سُمِّيَت بذلك لِقلَّةِ الاعتدادِ بها، والجَمعُ وَذَرٌ[4]. ومعْنَى: ﴿فَذَرْهُمْ﴾ في الآيةِ: اتْرُكْهم؛ أَيْ: لا تُخالِطْهم، والمرادُ: عَدَمُ الاهتِمامِ بهم وقِلَّةِ الاكتِراثِ بأقوالِهِم.

المَعْنى الإجْمالِيُّ:

وكما حسَّنَتِ الشَّياطينُ لهؤلاءِ المُشركينَ أن يَجْعَلوا للهِ ممّا خَلَقَ مِنَ الزّروعِ والثِّمارِ والأنعامِ نصيبًا، كذلكَ حَسَّنوا لهم قَتْلَ أولادِهم خَشيَةَ الفقرِ، ووَأْدَ البناتِ خَشيةَ العارِ، وكلُّ هذا مِن خُدَعِ الشَّياطينِ، الَّذين يريدونَ أن يُهلِكُوهم، وأن يَخْلِطوا عليهم دينَهم فيلتَبِس، فيَضِلّوا ويَهْلِكوا بأفعالٍ في غايَةِ القُبحِ؛ تُزيِّنُ لهم، فتكونُ لديهم مِنَ الأمورِ الحَسَنةِ الجميلةِ، والخِصالِ الحميدَةِ. ولو شاءَ اللهُ ﷻ لَمَنَعَ هؤلاءِ المشركينَ، وحالَ بينَهم وبينَ قَتلِ أولادِهم، ولكنَّ اللهَ تعالى، بحَسَبِ ما اقتضَتهُ حِكمَتُهُ، خلَّى بينَهم وبينَ أفعالِهم، وخَذَلَهم عنِ

تَزْيينُ الشَّيطانِ عُزْفَ قَتْلِ الأولادِ، قُربانًا لِلآلِهةِ، أو خَشْيةً مِنَ الفقرِ أوِ العارِ

(1) الخليل، العين، والجوهريّ، الصّحاح: (لبس).
(2) الخليل، العين، والزّبيديّ، تاج العروس: (وذر).
(3) السّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ، والفيروزآباديّ، القاموس المحيط: (وذر).
(4) الرّاغب، المفردات: (وذر).

الهُدى والحَقِّ، فأطاعوا الشَّياطينَ الّتي أغوَتْهُم، وقَتَلوا أولادَهُم، وكلُّ هذا وَاقِعٌ بمشيئَتِه تعالى، وله الحِكمةُ التّامَّةُ في ذلكَ، فدَعْهُم - أيُّها الرَّسولُ - وما يَختلِقونَ ويَتقوَّلونَ على اللّهِ تعالى مِنَ الكذبِ، ولا تحزَنْ عليهم؛ فإنَّهم لن يضُرُّوا اللّهَ تعالى شيئًا؛ فسَيَحْكُمُ اللّهُ بينَكَ وبينَهُم؛ فهو لهم بالمِرْصادِ؛ يستدْرِجُهُم، ويُمْهِلُهُم[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

تَوجِيهُ وصْلِ الآيةِ بما قبْلَها، في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾:

قولُه: ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ عَطفٌ على قولِه: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلۡحَرۡثِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ نَصِيبٗا﴾؛ أي: كما فعلُوا ذلك، فكذلك زَيَّنَ لكثيرٍ منهم شُركاؤُهم قَتلَ الأولادِ، والمعنى: أنَّ جَعلَهُم للّهِ نصيبًا وللشّركاءِ نصيبًا هو نهايةٌ في الجَهلِ بمعرفَةِ الخالِقِ المُنعِمِ، وإقدامَهُم على قتلِ أولادِهم نهايةٌ في الجهالةِ والضّلالةِ. وَوَصلُ الجُملَتَين الخَبَريتين أفادَ تَعدادَ ما هُم عَليهِ مِنَ الضّلالِ، وما استحقُّوا عليه أن يُسَمُّوا بالمُشرِكين، ويُوصَفوا بالظّالِمين.

وَصْلُ الجُملَتَين الخَبَريتَيْن، أفادَ تَعدادَ ضَلالاتِهم الّتي لا تُحصَرُ

بَلاغةُ التّنبيهِ باسْمِ الإشارةِ في: ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾:

يُفيدُ ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ التَّنبيهَ على أنَّ أحكامَ هَؤلاءِ وأحوالَهم يُشاكِلُ بَعضُها بَعضًا في القُبحِ والخَساسَةِ[2]، أو التّقديرُ: ﴿وَجَعَلُواْ﴾ وزيَّنَ لهم شُركاؤُهُم قَتلَ أولادِهم، فَقَتَلوا أولادَهُم، فَهذِهِ حِكايةُ واحدٍ من أنواعِ تشريعاتِهم الباطلةِ، فذَكَرَ جهالتَهُم لتصرُّفِهم في ذُرِّيّاتِهم، وقتلِهم إيّاهُم بغيرِ حقٍّ، بعد أن ذكرَ تصرُّفاتِهم في نتائجِ أموالِهم[3].

مُشاكَلةُ أحكامِ المُشركينَ بعضِهم بعضًا، وتَعدادُ تَشريعاتِهم الباطلةِ

وَجْهُ التّعبيرِ عنِ التَّزيين بالماضِي ﴿زَيَّنَ﴾:

والتّعبيرُ عنِ الماضي فيه دلالةٌ على ما آلَت إليه البشريّةُ قبلَ

(1) ابن جرير، جامع البيان: 9/574، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 3/344 - 345، والسّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 275.

(2) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 13/158.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/98.

دينِ الإسلامِ؛ منَ الضّلالِ في التّديّنِ الّذي هو في حقيقتِهِ لا يخرُجُ عن كونِهِ تزيينًا لهم، ولَبْسًا عليهم، فالتّعبيرُ بالماضي يدُلُّ على التّعجيبِ من حالِ النّاسِ، فقد بدأَ الظّلمُ في عقيدتِهِم، ووقعَ منذُ نشأةِ الخَلقِ.

ظُلمُ النّاسِ في عقائدِهِم، قديمٌ قِدَمَ الخَليقَةِ

بَلاغةُ التّعبيرِ بالفعلِ ﴿زَيَّنَ﴾ بَدلًا مِن (حسَّن):

قوله: ﴿زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾، عبَّرَ فيه بقولِهِ: ﴿زَيَّنَ﴾، لإظهارِ أنَّ هذا الفعلَ ليسَ حَسَنًا في حقيقتِهِ، بل هو قبيحٌ وشَنيعٌ، وأنَّ الشّيطانَ هو الّذي زيَّنَهُ لهم بالغرورِ والخِداعِ؛ إذِ المعنى المحوريُّ لهذا الفِعْلِ يدُلُّ على زيادةٍ مُحبَّبةٍ في التّعلُّقِ بظاهرِ الشّيءِ، ناشئةٍ عمّا يَزْخَرُ به باطنُهُ[1]، فجَعَلَ الشّيطانُ المُشرِكينَ يَظنّونَ أنّهم يَفعلونَ خيرًا، وأنّهم يَقتصُّونَ من أعدائِهِم، وأنّهم يُحافِظونَ على دينِهِم، وأنّهُم يَستجيبونَ لأوليائِهِم بهذا الفعلِ القبيحِ الّذي كأنَّ في ارتكابِهِ قتلَ النّاسِ جميعًا؛ بما أوحَتهُ لهم شياطينُهُم مِنَ الخِداعِ وقلبِ الحقائقِ، ولِذلكَ استخدمَ اللّهُ تعالى كلمةَ ﴿زَيَّنَ﴾ في القرآنِ الكريمِ في مَواضِعَ كثيرةٍ؛ لبيانِ كيفَ يُزيِّنُ الشّيطانُ للإنسانِ ما هو شرٌّ له، وكيف يزيِّنُ الإنسانُ لنفسِهِ ما هو ضرٌّ له، وكيف يزيِّنُ المرءُ لغيرِهِ ما هو باطلٌ عندَهُ، كقولِهِ تعالى: ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ [الأنفال: 48]، وقولِهِ تعالى: ﴿لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الحجر: 39]، ولم يذكُرِ المفعولَ؛ لأنّ المعنى مَفهومٌ. وممّا لم يُسمَّ فاعلُهُ قولُه ﷻ: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ﴾ [آل عمران: 14]، ﴿زُيِّنَ لَهُمْ سُوٓءُ أَعْمَٰلِهِمْ﴾ [التّوبة: 37]، وقال: ﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ [البقرة: 212].

تَصويرُ ما أوصلَهُم إليه شُركاؤُهُم، مِنَ الخِداعِ وقلْبِ الحقائقِ

بَلاغةُ تقديمِ: ﴿قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ﴾:

وذلك في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ﴾؛ فلمّا كانَ المُزيِّنُ، وهم شَياطينُ الإنسِ والجنِّ،

امتثالُ تَزْيينِ الشّياطينِ من غَرائبِ الأمورِ

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (زين).

أجدرَ بِأَنْ لا يُقبَلَ تَزْيِينُهُمْ، ولا يُلتَفَتَ إليهم، فكان امتثالُ قولِهم غَريبًا، وكانَ الإقدامُ على فعلِ الأمرِ المُزَيَّنِ أشدَّ غَرابةً، قدَّمَهُ تنبيهًا على ذلك فقال: ﴿قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ﴾؛ أي: بالوَأْدِ خشيةَ الفقرِ أو العارِ، والنَّحرِ لآلهتِهم، وشَتّانَ بينَ مَن يُوجِدُ لَهُم الوَلَدَ ويَرزُقهُ الرِّزقَ ويَخلُقُهُ، وبينَ مَن لا يكونُ إلّا سَبَبًا في إعدامِهِ[1]. فهو وحدَهُ مَن يستحِقُّ العبادةَ والتّأليهَ سبحانَه.

بَلاغةُ التَّشبيهِ في قولِهِ تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ﴾:

فَظاعةُ التَّزْيينِ وشناعتُهُ، تُؤكّدُ الانحرافَ البَشِعَ للمُشركينَ

ولقد أعظمَ اللّهُ هذا التّزيينَ العَجيبَ في الفَسادِ الّذي حسَّنَ أقبحَ الأشياءِ، وهو قتلُهُم أحبَّ النّاسِ إليهم وهم أبناؤُهُم، فشُبِّهَ بنفسِ التّزيينِ للدّلالةِ على أنّه لو شاءَ أحدٌ أن يُمثِّلَهُ بشيءٍ في الفَظاعةِ والشَّناعَةِ لم يَسَعْهُ إلّا أن يُشَبِّهَهُ بنَفسِهِ؛ لأنّه لا يَبلُغُ شيءٌ مَبلَغَ أنْ يكونَ أظهرَ منه في بابِهِ، فيَلجأ إلى تشبيهِهِ بنفسِهِ؛ والتّقديرُ: وزَيَّنَ شُرَكاءُ المُشركين لكثيرٍ فيهم تَزيينًا مثلَ ذلكَ التَّزيينِ الّذي زيَّنُوهُ لَهم[2].

نُكتةُ إظهَارِ فاعلِ التَّزْيينِ ﴿شُرَكَآؤُهُمْ﴾:

أظهرَ فاعلَ التّزْيينِ تَعجيبًا مِن أفعَالِ المُشركينَ

ومعنى تَزيينِ ذَلكَ هنا؛ أنّ الشُّركاءَ خَيَّلُوا لهؤلاءِ النّاسِ أساليبَ بشعةً في التّقربِ إلى آلهتِهم بقتلِ أولادِهم؛ إذ أوهَمُوهُم أنّ في ذلك قُرْبَةً إليهم، أو أنّ إبقاءَهم سيجلبُ العارَ، وأنّ قتلَهُم سيحقِّقُ مَنافِعَ، فأتوهم من حيث يَسْهُلُ إقناعُهم وهي سُبُل (التَّزيين) الّتي تَمْتَهِنُها الشَّياطينُ كتخويفِهِم من مَضرَّةِ الحاجةِ والعارِ في النّساءِ، وأنّ النّساءَ لا يُرْجَى مِنْهُنَّ نَفْعٌ للقبيلةِ، وأنّهنّ يُجَبِّنَّ الآباءَ عندَ لقاءِ العدوِّ، ويُؤثِرنَ أزواجهُنَّ على آبائهِنَّ، فقتلُهُنَّ أصلحُ وأنفعُ من استبقائِهِنَّ على قيدِ الحياةِ، ونحو هذا مِنَ الشُّبَهِ والتَّمويهاتِ[3].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 2/722.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/98.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/99.

ولمّا كانَ في هذا غايةُ الغَرابةِ تَشَوَّفَتِ النَّفسُ إلى فاعلِ التّزيينِ، فقال: ﴿شُرَكَآؤُهُمۡ﴾[1]. ونكتةُ إظهارِ فاعلِ التّزيينِ، وهم (الشّركاء) انسِجامًا مع تشبيهِ التّزيينِ في قتلِ الأولادِ؛ بما فعلُوهُ في تقسيمِ الحَرثِ والأنعامِ بينَ اللّهِ وشركائِهم؛ فهؤلاء الشُّركاءُ هُم سببُ ما أُلبِسَ على المُشركين في الدِّينِ مِن قتلِ الأولادِ. فإظهارُ فاعلِ التّزيينِ مَدعاةٌ للتَّعجيبِ من أفعالِ المُشركين.

تَوجِيهُ التّعبيرِ بالكَثرةِ:

بيانُ بَشاعةِ تتابُعِ الأفعالِ الذّميمةِ، في المجتمَعاتِ القديمةِ

وقولُهُ: ﴿لِكَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ لدلالةِ ما هُم عليهِ من قبولِ الحالةِ، كمُجتمَعٍ مُشرِكٍ التبسَ عليه الدِّينُ، حتّى إنّه يُضحِّي بأعزِّ ما لديه ليجعلَهُ قُربانًا للشّركاءِ. والكثرةُ هنا بيانُ بشاعةِ ما آلَت إليه تلك المُجتمَعاتُ الرّافضةُ للرِّسالةِ السَّماويَّةِ، ودعوةِ الرَّحمةِ بالخَلقِ وبالنَّفسِ.

وذكرَ ابنُ عَاشُورَ قولَهُ: "وإنّما قالَ: ﴿لِكَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾؛ لأنَّ قتلَ الأولادِ لم يكن يأتيهِ جميعُ القَبائِلِ"[2]، فلم يَنسبِ القتلَ إلى كلِّهم، بل نسبَهُ سُبحانَهُ إلى كثيرٍ منهم، وذلك إنصافُ القرآنِ الكريمِ في حكايةِ أفعالِ العبادِ، وأنَّ قتلَ الأولادِ كانَ عندَ كثيرينَ منهُم[3].

إضافةُ القَتلِ إلى الشُّركاءِ في قوله تعالى: ﴿قَتۡلَ أَوۡلَٰدِهِمۡ شُرَكَآؤُهُمۡ﴾:

بيانُ دَوْرِ الشُّركاءِ في إفسادِ مُجتمَعاتِ الشِّركِ

وقولُهُ: ﴿قَتۡلَ أَوۡلَٰدِهِمۡ﴾؛ أي: بالوَأدِ، وهوَ المقصودُ بقتلِ الأولادِ في هذه الآيةِ ونحوِها؛ إذ كانوا يَفعلونَ ذلك خَشيَةَ الفقرِ، كما قالَ تعالى: ﴿وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَوۡلَٰدَكُمۡ خَشۡيَةَ إِمۡلَٰقٖۖ﴾ [الإسراء: 31]، وخَشيَةَ أنْ تُفتَضَحَ الأُنثَى بالحاجَةِ إذا هَلَكَ أبُوها، أو مَخافَةَ الوقوعِ في العارِ، أو السِّباءِ. والوَأدُ ضَلالةٌ ابتدعَها مُجتمَعُ الشّركِ تخلُّصًا مِن

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 2/722.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/99.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2689.

مَعَرَّةِ الفَاقَةِ والعَارِ والسِّباءِ، وربَّما كانَ سَدَنَةُ الأصنامِ يُحَرِّضونَهم على إنجازِ أمرِ المَوءُودةِ إذا رَأوا مِن بعضِهم تَثاقُلًا، والمعنى: أنَّ شُركاءَهُم مِنَ الشَّياطينِ، أو مِن سَدَنَةِ الأصنامِ، زيَّنُوا لهم قَتلَ أولادِهم بالوَأدِ، أو بالنَّحرِ؛ وذلك قَصْدَ التَّقرُّبِ إلى أصنامِهم؛ فيُقرِّبونَ أولادَهُم إلى الأصنامِ طلَبَ رضائِهم، فتكونُ إضافةُ القَتلِ إلى الشُّركاءِ مُستعمَلَةً في حَقيقَتِها ومَجازِها[1].

نُكتَةُ تقديمِ المَفعولِ ﴿قَتْلَ﴾، على الفاعِلِ ﴿شُرَكَآؤُهُمْ﴾:

وفي الآيةِ تقديمُ المَفعولِ ﴿قَتْلَ﴾ على الفاعلِ ﴿شُرَكَآؤُهُمْ﴾، ونَظيرُه في القرآنِ قولُهُ: ﴿لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا﴾ [الأنعام: 158]، وقولُهُ: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ﴾ [البقرة: 124]، والسَّبَبُ في تقديمِ المَفعولِ؛ أنّ العَربَ يُقدِّمونَ الأهَمَّ في الكلامِ، الّذي هو مَحطُّ العنايةِ، فمَوضِعُ التَّعجُّبِ ها هُنا إقدامُهُم على قَتلِ أولادِهم، فلِهذا السَّبَبِ حَصَلَ هذا التَّقديرُ[2].

العَرَبُ تُقدِّمُ الأهَمَّ في الكلامِ الّذي هو مَحطُّ العِنايةِ

نُكتَةُ إسنادِ التَّزْيينِ إلى الشُّركاءِ:

وأسندَ التّزيينَ إلى الشّركاءِ؛ إمّا لإرادةِ الشّياطينِ الشُّركاءِ، فالتّزيينُ تزيينُ الشّياطينِ بالوَسوَسَةِ، فيكونُ الإسنادُ على الحَقيقَةِ، وإمّا لأنّ التّزيينَ نشأَ لهم عَن إشَاعةِ كُبرائِهم فيهم، أو بِشَرعٍ وَضَعَهُ لَهم مَن وَضَعَ عِبادَةَ الأصنامِ، وفَرَضَ لَها حُقوقًا في أموالِهم، فَيكُونُ إسنادُ التَّزيينِ إلى الشُّركاءِ على سبيلِ المَجازِ؛ لأنَّ الأصنامَ سَبَبُ ذلك بِواسِطةٍ، أو بِواسِطَتَينِ[3]. وفي جميعِ الأحوالِ فإنّ الشّياطينَ هُم سببُ الإشراكِ والفسادِ والطُّغيانِ.

الشّياطينُ هُم سَببُ الإشراكِ والفَسادِ والطُّغيانِ

تَوجِيهُ القراءاتِ في الآيةِ الكريمةِ:

وقرأَ الجمهورُ: ﴿زَيَّنَ﴾، ونصبَ: ﴿قَتْلَ﴾ على المفعوليّةِ لـ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/101.
(2) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 13/159.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/99.

الشُّركاءُ هُمُ القاتِلون حَقيقَةً أو مَجازًا

﴿زَيَّنَ﴾، ورفعَ ﴿شُرَكَآؤُهُمۡ﴾ على أنّه فاعلُ: ﴿زَيَّنَ﴾، وجرَّ ﴿أَوۡلَٰدِهِمۡ﴾ بإضافةِ ﴿قَتۡلَ﴾ إليه من إضافةِ المصدرِ إلى مفعولِه. وقرأَ ابنُ عامرٍ: ﴿زُيِّنَ لِكَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ قَتۡلُ أَوۡلَٰدَهُمۡ شُرَكَآئِهِمۡ﴾ ببناءِ فعلِ ﴿زُيِّنَ﴾ للمفعولِ، ورَفعِ ﴿قَتۡلُ﴾ على أنَّه نائبُ الفاعلِ، ونَصبِ ﴿أَوۡلَٰدَهُمۡ﴾ على أنَّه مَفعولُ ﴿قَتۡلُ﴾، وخَفضِ هَمزَةِ ﴿شُرَكَآئِهِمۡ﴾ بإضافةِ ﴿قَتۡلُ﴾ إليهِ، وهو فاعِلٌ في المعنى[1]، فَفَصَلَ بينَ المُضافِ، وهو ﴿قَتۡلُ﴾ وبينَ ﴿شُرَكَآئِهِمۡ﴾، وهو المُضافُ إليهِ بالمفعُولِ، وهو ﴿أَوۡلَٰدَهُمۡ﴾، وجرّ ﴿شُرَكَآئِهِمۡ﴾ على إضافةِ ﴿قَتۡلُ﴾ إليه، من إضافةِ المَصدرِ إلى فاعلِه.

والمَعنَى على هذه القِراءةِ: أنَّ مُزَيِّنًا زَيَّنَ لكَثيرٍ منَ المُشركينَ أنْ يقتُلَ شُركاؤُهُم أولادَهُم، فإسنادُ القتلِ إلى الشُّركاءِ؛ إمّا لأنَّ الشُّركاءَ سَبَبُ القَتلِ إذا كان القَتلُ قُربَانًا للأصنامِ، وإمّا لأنَّ الّذين شَرَّعُوا لَهُمُ القَتلَ هُمُ القَائِمونَ بِدِيانَةِ الشِّركِ، وإذا كانَ المُرادُ بالقَتلِ الوَأدَ، فالشُّركاءُ سَبَبٌ، وإن كانَ الوَأدُ قُربَانًا للأصنامِ، وإنْ لم يكُنْ قُربانًا لَهُم؛ فالشُّركاءُ سببُ السَّبَبِ، لأنَّهُ من شرائعِ الشِّركِ[2]. والشُّركاءُ على هذه القِراءَةِ هُمُ الّذين يتناولونَ وأدَ بناتِ غَيرِهِم فهُم القاتِلون، وهذا على المجازِ العقليِّ؛ لأنّه قد أسندَ القتلَ إلى الشُّركاءِ.

دَلالةُ اللّامِ في ﴿لِيُرۡدُوهُمۡ﴾، و﴿وَلِيَلۡبِسُواْ﴾:

اللّامُ لِلعاقبةِ أو لِلتّعليلِ، لبيانِ أثَرِ الشُّركاءِ في خَلْطِ الدِّينِ

وقولُهُ: ﴿لِيُرۡدُوهُمۡ وَلِيَلۡبِسُواْ عَلَيۡهِمۡ دِينَهُمۡۖ﴾ الإرداءُ في اللّغةِ: الإهلاكُ، ومنهُ قولُهُ تعالى: ﴿إِن كِدتَّ لَتُرۡدِينِ ٥٦﴾ [الصّافّات: 56]، واللّامُ هاهُنا مَحمولَةٌ على لامِ العاقبةِ، كما في قولِه: ﴿فَٱلۡتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرۡعَوۡنَ لِيَكُونَ لَهُمۡ عَدُوّٗا وَحَزَنًاۗ﴾ [القصص: 8]، وقولِه: ﴿وَلِيَلۡبِسُواْ عَلَيۡهِمۡ دِينَهُمۡۖ﴾؛ أي: لِيَخلِطُوا؛ لأنَّ العَرَبَ كانوا على بقايا من دِينِ

(1) ابن الجزريّ، النّشر: 2/263.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/102.

إسماعيلَ، فَهَذا الّذي أتاهُم بِهَذِهِ الأوضاعِ الفاسدةِ، أرادَ أن يُزيلَهُم عَن ذلكَ الدّينِ الحَقِّ[1].

قالَ الزّمخشريُّ: "إنْ كان التَّزيينُ منَ الشّياطينِ فهي على حقيقةِ التّعليلِ، وإن كانَ مِنَ السَّدَنَةِ فعلى معنى الصَّيرورةِ"[2]، فـ" السَّدَنةُ لم يزيِّنوا لهم ذلك، وغرضُهم إهلاكُهُم، ولكن لمّا كانَ مآل حالِهم إلى الإرداءِ أتى باللّامِ الدّالَّةِ على العاقبةِ والمآلِ"[3]. فَاللَّامُ لِلعاقِبَة إنْ كانَ المُرادُ بالشُّركاءِ السّدنةَ[4]؛ أي: زيّنوا لهم ذلك قَصدًا لنَفعِهم، فانكشَفَ عن أضرارٍ جَهِلُوها. فإنْ كانَ المُرادُ بالشُّركاءِ الجِنَّ؛ أي: الشّياطينَ؛ فاللّامُ للتَّعليل[5]؛ لأنّ الإيقاعَ في الشّرِّ من طبيعةِ الوَسواسِ؛ لأنّهُ يَسْتَحْسِنُ الشّرَّ ويَنساقُ إليهِ من غيرِ قصدٍ إلى كونِ ما يَدْعُونَهُم إليه مُرديًا ومُلبِسًا، فإنّهم أولياؤُهم لا يَقصِدُونَ إضرارَهُم، ولكنَّهُم لمّا دَعَوهُم إلى أشياءَ هي في نَفسِ الأمرِ مَضارُّ كانَ تَزيينُهم مُعَلَّلًا بالإرداءِ والإلباسِ، وإنْ لم يَفقَهُوهُ، بِخِلافِ مَن دعا إلى سَبَبٍ فَتَبيَّنَ خِلافُهُ، والضَّميرُ للشُّركاءِ والتَّعليلُ لِلتَّزيينِ[6].

سِرُّ تقديمِ (الإرداءِ) على (الإلباسِ):

الـهـلاكُ نَتيجةٌ حَتميّةٌ للإلباسِ في الدِّينِ

في قولِهِ تعالى: ﴿لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُواْ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْۖ﴾ قدّمَ الإرداءَ على الإلباسِ؛ والرَّدى: الموتُ، والهلاكُ، والضُّرُّ الشّديدُ، فناسبَ أن يُردفَهُ شنيع فعلِهم بقتلِ أولادِهم، وعظيم مَفْسَدَتِهِمْ بإزهاقِ النّفسِ البريئةِ الّتي حرّمَ اللّهُ قتلَها إلّا بالحقِّ؛ فقوله: ﴿لِيُرْدُوهُمْ﴾؛ أي: يُهلِكُوهم بالإغواءِ وهو إفسادُ الفطرةِ، الّذي يُذهِبُ بما أودعَ في قلوبِ الوالدين من عواطفِ الرّأفةِ والرّحمةِ، بل يقلبُها إلى مُنتَهى

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 13/159.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/70.
(3) السّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 5/179.
(4) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 2/184.
(5) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 2/184.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/104.

الوَحشيّةِ والقسوةِ، حتّى ينحرَ الوالدُ ريحانةَ قلبِهِ بمُدْيتِه، ويدفنَ ابنتَهُ الضّعيفةَ؛ وهي حيّةٌ بيدِهِ. فهذا إرداءٌ نفسيٌّ معنويٌّ فوقَ الإرداءِ الحسّيِّ؛ وهو القتلُ وتقليلُ النّسلِ"[1].

تَوجِيهُ لفْظَيِ: (الإرداءِ)، و(الإلباسِ) بينَ التَّوريةِ، والاستعارةِ، والمَجازِ:

المعنَى المَجازيُّ لـــــلإرداءِ والإلبـاسِ، هو الأظهرُ دلالةً في الأساسِ

ومن معاني التّردّي أيضًا لبسُ الرّداءِ؛ ثمّ أُتبعَت بقولِه: ﴿وَلِيَلْبِسُواْ﴾؛ إذِ التّناسبُ في معنى اللّبسِ بينَ الكلمتين بيّنٌ؛ فيكون معنى ﴿وَلِيَلْبِسُواْ﴾ توريةً؛ لأنّ اللّفظَ يَحتمِلُ مَعنيين: الأوّلُ قريبٌ، وهو المُتبادَرُ إلى الذّهنِ؛ وهو الإرداءُ؛ مِن ارتداءِ الثّوبِ؛ لتناسبِهِ مَعَ الإلباسِ في قولِه: ﴿وَلِيَلْبِسُواْ﴾، الّذي يدُلُّ كذلك على معنى اللّباسِ؛ مِن لبسِ الثّوبِ. ولكنّه لمّا قالَ: ﴿عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ﴾ خرجَ المعنى الحقيقيُّ لقولِه: ﴿وَلِيَلْبِسُواْ﴾ إلى معنىً مَجازيٍّ على سبيلِ الاستعارةِ التَّصريحيَّةِ، فكما أنّ اللِّباسَ يُغطّي الجَسَدَ؛ فَكَذلكَ هُنا شابَهَت تَزيينَ الشّياطينِ لأوليائِهم تغطيةَ الحقيقةِ، فصارَت كتغطيةِ الأجسادِ باللِّباسِ. وبحسبِ ذلك فقد انعكسَ معنى ﴿لِيُرْدُوهُمْ﴾ إلى معنًى آخرَ غيرِ ارتداءِ المَلابسِ. فمن معاني الإرداءِ: الإيقاعُ في الرَّدَى، والرَّدَى: المَوتُ، ويُستعمَلُ في الضُّرِّ الشّديدِ مَجازًا، وذلكَ المُرادُ هنا، وكما قالَ تعالى عن أهلِ النّارِ: ﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [فصّلت: 23]؛ أي: وذلكم ظنُّكُم السّيِّئُ الّذي ظننتُمُوه بربِّكُم أهلكَكُم، فأوردَكُم النّارَ. ولَبَّسَ عَليه أوقَعَهُ في اللَّبسِ، وهو الخَلطُ والاشتِباهُ؛ أي: أنْ يَخلِطُوا عَلَيهم دِينَهُم، فَيُوهِمُوهُمُ الضّلالَ رُشدًا، وأنّهُ مُرادُ اللّهِ مِنهم، ويخلِطونَ عليهم بينَ ما يَرضاهُ اللّهُ، وما لا يَرضاهُ، ويُخيِّلُونَ إليهم أنّ وأدَ البَناتِ مَصلَحةٌ.

فمعنى: ﴿وَلِيَلْبِسُواْ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ﴾؛ أنّهم يُحْدِثُونَ لهم دِينًا

(1) رضا، تفسير المنار: 8/110.

مُختَلِطًا مِن أصنافِ الباطِلِ، وقيل: المُرادُ لِيُدخِلُوا عَلَيهِمُ اللَّبسَ في الدّينِ الّذي كانُوا عَليه، وهوَ دِينُ الحَنِيفِيَّةِ، فَيَجعَلُوا فيه أشياءَ مِنَ الباطِلِ تَختلِطُ مَعَ الحَقِّ[1].

بَلاغةُ الاحْتباكِ، في الآيةِ الكريمةِ:

حَذْفُ أشْنعِ الأقوالِ والأفعالِ مِنَ الكلامِ

وفي عمومِ معنى الآيةِ احتباكٌ؛ والمعنى بحسْبِهِ: وكذلك زَيّنَ لكثيرٍ مِنَ المُشركينَ شركاؤُهم؛ فشرّعوا لهم، أو فأوحَوا إليهم قتلَ أولادِهم؛ فقتلوهم؛ ليُردوهُم، وليلبِسُوا عليهم دينَهُم. فحَذَفَ مِنَ الكَلامِ أشنَعَ ما فيه مِنَ القَولِ والعَمَلِ؛ إذ حَذَفَ أوّلًا ما شَرَعَ، وما أوحَى الشَّياطينُ أو الشّركاءُ، ثمَّ حَذَف ثَانِيًا ما فَعَلَه المُشرِكونَ؛ وهوَ المُباشَرَةُ بقتْلِ أولادِهِم.

تَقديمُ الجارِّ والمجرورِ ﴿عَلَيْهِمْ﴾:

بيانُ قصْدِ الشّياطينِ، في إغواءِ النّاسِ المغرورِينَ

وقدّمَ الجارَّ والمجرورَ ﴿عَلَيْهِمْ﴾ للاهتمامِ بالمُشركينَ، ولبيانِ أنّهم هُمُ المقصودون في هذا العملِ الشَّنيعِ، وأنّهم فريسةٌ سائغةٌ لشَياطينِ الإنسِ والجنِّ، بسبَبِ ما حقَّقوهُ مِنَ الإلباسِ عليهِم في الدِّينِ ورفضِ الشَّرعِ الحَنيفِ.

التّعبيرُ عنِ الإرداءِ والإلباسِ، بصِيغةِ المضارعِ:

تجدُّدُ أفعالِ الشّياطينِ بالإيحاءِ والتّزيينِ للمُشركينَ

عبّرَ عنِ الإرداءِ والإلباسِ بالمُضارعِ لدلالةِ التّجدُّدِ مع الزّمنِ، فحالُ مَن أشركَ باللهِ يتَكَرَّرُ في كلِّ وقتٍ، مع الأجيالِ المُختَلِفَةِ والمُتواليَةِ، فتَتَكَرَّرُ صورةُ الإرداءِ، ويَتكَرَّرُ ما يفعلُهُ الشَّياطينُ مِنَ اللَّبسِ على أتباعِهِم في دينِهِم.

نِسْبةُ (الدِّينِ) إلى ضَميرٍ عائدٍ على المشركينَ:

وقال: ﴿وَلِيَلْبِسُواْ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْۖ﴾، فنَسَبَ الدِّينَ إلى ضميرِهِم، ولو قالَ: (وليَلبِسوا عليهم الدّينَ) لأشكلَ في الفهمِ بأنّه الدّينُ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/104.

المُفاصَلةُ بينَ عبادةِ اللهِ وعبادةِ غيرِهِ، ممّا أوحى به الشّياطينُ.

الحَقُّ؛ وهو دينُ الإسلامِ، لكنّه لمّا قالَ: ﴿وَلِيَلۡبِسُواْ عَلَيۡهِمۡ دِينَهُمۡۖ﴾ زالَ الإشكالُ، وعُلِمَ أنّ لهم دِينًا خاصًّا بهم، وأنّ شياطينَهُم يَلبِسُونَ عليهم الأمورَ، فيُخيّل إليهم أنَّه الدّينُ الحَقُّ، فيَعبدونَ غيرَ اللّهِ، ويَعمَلونَ بغيرِ ما شرعَ، فأردوهم بذلك الاعتقادِ والفعلِ؛ ولذلكَ قالَ تعالى: ﴿لَكُمۡ دِينُكُمۡ وَلِيَ دِينِ ٦﴾ [الكافرون: 6]، مُبيِّنًا المُفاصَلَةَ بينَ عبادةِ اللّهِ وعبادةِ غيرِهِ، وأنّهما لا يَجتمِعان، وأنَّ دينَ الإسلامِ لا يُخالِطُ شيئًا من دينِ الشِّركِ، وتَأْييسًا لِلمُشركينَ مِن أن يوافقَهُم الرّسولُ ﷺ في شيءٍ ممّا هُم عَليهِ مِنَ الكفرِ.

تَعليقُ المَشيئةِ باسْمِ اللهِ ﷻ.

بيانُ قُدرتِهِ على منْعِ تلك الأعمالِ، ورَدِّ كلِّ ما يقعُ إلى اللهِ سبحانَهُ

وقولُهُ: ﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُۖ﴾ يدُلُّ على أنَّ كلَّ ما فعلَهُ المُشركونَ هو بمشيئةِ اللّهِ تعالى، والآيةُ لبيانِ قدرتِهِ سبحانَهُ على منعِ تلك الأعمالِ، كما كانَ في الآيةِ السّابقةِ من بيانِ قدرتِهِ على الخَلقِ مِنَ العَدَمِ، أو أنّه أنشَأَ المُخاطَبينَ من ذرّيّةِ قومٍ آخرين. و﴿فَعَلُوهُۖ﴾ يعودُ إلى المُشركينَ؛ أي: لو شاءَ اللّهُ لَعَصَمَهُم مِن تَزيينِ شُركائِهِم، أو يَعُودُ إلى الشّركاءِ؛ أي: لو شاءَ اللّهُ لصدَّهُم عن إغواءِ أتباعِهِم، وضميرُ النَّصبِ يعودُ إلى القَتْلِ أو إلى التَّزيينِ على التّوزيعِ، على الوَجهَينِ في ضميرِ الرّفعِ[1]. ولمّا كان أوَّلُ الآيةِ مُعْلِمًا أنّ هذا كانَ بمشيئةِ اللّهِ وجَعلِهِ، أيّدَ ذلك، ومكَّنَهُ في آخرِها؛ بأنَّه لو شاءَ ما كانَ، وذلك تَنزيهٌ لصفَةِ الرُّبوبيّةِ مِنَ العَجزِ[2].

دَلالةُ الفاءِ في جُملةِ الفاصلةِ:

السّياقُ يُفيدُ الإعراضَ عن أفعالِ المُشركينَ الذّميمةِ

والفاءُ في قولِهِ تعالى: ﴿فَذَرۡهُمۡ وَمَا يَفۡتَرُونَ﴾ الفصيحةُ، تدُلُّ على مَحذوفٍ، فتُفصِحُ عنه، والتَّقديرُ: فإذا كانوا مُصِرِّينَ على ما هُم عَليه مِنَ الضَّلالةِ؛ فذرْهُم وما يفترونَ، أو هي فاءُ التّفريعِ؛

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/105.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 2/696.

ومُفادُ التَّفْريعِ أمرُ الرّسولِ بتَركِهِم، وهو لَونٌ مِنَ التّذييلِ[1]، ومعلومٌ أنّ التّركَ إعراضٌ عنِ الاهتمامِ بما يَفعلون، وليسَ إعْراضًا عَن دعوَتِهِم للدّينِ الحَقِّ، وهو دينُ الإسلامِ؛ أي: أعْرِضْ عَن أفعالِهِم مِمّا اقتَرَفوهُ ظَنًّا منهم أنّهُ دينٌ، وتابِعْ دعوتَهم إلى دينِ اللّهِ تعالى.

اصطفاء كلمة: ﴿فَذَرْهُمْ﴾، ودلالته في الجملة الإنشائية:

وفي قولِهِ: ﴿فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾، اُصطُفِيَ لفظُ (ذَرْهُمْ) على غيرِهِ مِنَ الألفاظِ المُؤَدِّيَةِ إلى المَعْنَى مثل: اتركْهُم أو دَعْهُم؛ فمِن بلاغةِ اختيارِ مفردةِ ﴿فَذَرْهُمْ﴾ أنّ معناها يُستعمَلُ في تركِ الشّيءِ غير آبهٍ بهِ؛ يُقالُ: فلانٌ يَذَرُ الشّيءَ؛ أي: يقذفُهُ لقلّةِ اعتدادِهِ بهِ. والعبارةُ تتضمّنُ الوعيدَ والتّهديدَ، ومُفَادُهَا: اترُكْهُم وما يفترونَ مِنَ التّكذيبِ[2].

الإعراضُ عنهم إعراضٌ عن الاهتمام بغرورهم، لا إعراض عن وعظهم وتذكيرهم

وقولُهُ: ﴿فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾، وهذا على طريقةِ قولِهِ: ﴿ٱعْمَلُواْ مَا شِئْتُمْ﴾ [فصّلت: 40]، وقال ابن عاشور: "وفرّع عليه أمر الرسول ﷺ بتركهم وافتراءهم، وهو ترك إعراضٍ عن الاهتمام بغرورهم، والنَّكَد منه، لا إعراضٍ عن وَعْظهم ودعوتهم"[3].

والغرضُ مِنَ السّياقِ الإعلامُ بأنّ هذه سُنّةُ اللّهِ في خلقِهِ؛ فكثيرٌ منهُم لا يؤمنونَ ويتّخذونَ لهم أربابًا يُشرّعونَ لهم دِينًا غيرَ دينِ اللّهِ، فيردُّوهم ويُلْبِسُوا عليهم الأمورَ. وأمثالُ هؤلاء يقتضي تركُهُم وعدمُ إضاعَةِ الوَقتِ مَعَهم، والرّدُّ على تخرُّصاتِهِم؛ لأنَّهم قد طُبِعَ على قُلُوبِهِمْ، ولو شاءَ اللّهُ لَهَداهُم.

التَّعبيرُ عنِ المُفترَى بالموصولِ ﴿وَمَا﴾:

في قولِهِ: ﴿فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ عبّرَ عنِ المُفترَى بالموصولِ

بيانُ شَنيعِ أقوالِهِم وأفعالِهِم

(1) الموصلّي، أولى ما قيل: 3/358.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/210.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 8/أ11.

﴿وَمَا﴾، وفائدةُ ذلك التّعريضُ بذكرِ الصّلةِ بشناعةِ الّذي يفترونَه، فجِيءَ بـ ﴿وَمَا﴾ مَوصُولًا بقولِهِ: ﴿يَفْتَرُونَ﴾؛ لبيانِ أنّ ما يقولونَهُ هو افتراءٌ مُنْكَرٌ لا أصلَ لهُ، فقد سوَّلَت لهم أنفسُهُم، وأوحَت إليهم شياطينُهم قولَهُ أو فعلَهُ.

إيثارُ لفْظِ (الافتراءِ) على (الكذبِ):

الافتراءُ كذِبٌ في حقِّ الآخَرِ، وهو أخصُّ مِنَ الكذبِ

الكذبُ: هو عدمُ مُطابَقةِ الخبرِ للواقعِ، أو لاعتقادِ المُخْبَرِ لهما على خلافٍ في ذلك. والافتراءُ: أخصُّ منه؛ لأنّ الافتراءَ الكذبُ في حقِّ الغَيرِ بما لا يَرتَضيه، بخِلافِ الكَذِبِ، فإنَّهُ قد يَكونُ في حقِّ المُتكلِّم نفسِه، ولذا يُقالُ لمَن قالَ: (فعلتُ كذا، ولم أفعَلْ كذا) مع عدمِ صدقِهِ في ذلك: هو كاذبٌ، ولا يُقالُ: هو مُفتَرٍ، وكذا مَن مَدَحَ أحدًا بما ليسَ فيه، يُقالُ: إنَّه كاذِبٌ في وَصفِه، ولا يُقالُ: هو مُفتَرٍ، لأنَّ في ذلك مِمّا يرتَضيهِ المَقولُ فيه غالبًا. وقال سُبحانَهُ حكايةً عنِ الكُفّارِ: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ [الأنعام: 21]؛ لِزَعْمِهِم أنَّهُ أتاهُم بما لا يَرتَضيهِ اللّهُ سبحانَه مع نسبَتِهِ إليهِ. ونَسَبَ الكفّارُ النّبيَّ ﷺ بأبشعِ الكذبِ في قولِهِم: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾﴾ [النّحل: 101]؛ أي: بأنَّه كاذبٌ مُختَلِقٌ على اللّهِ ما لم يَقُلْهُ، وهو ﷺ ليسَ كما يَزعمونَ. وأيضًا قد يَحْسُنُ الكذبُ على بعضِ الأحوالِ، كالكذبِ في الحربِ، وإصلاحِ ذاتِ البَينِ، وهذا بخلافِ الافتراءِ[1].

وقولُهُ: ﴿وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ يدُلُّ على أنّهم كانوا يقولون: (إنّ اللّهَ أمرَهُم بقتلِ أولادِهِم)، فكانوا يَفترونَ على اللّهِ كذبًا وزُورًا[2]؛ فما يفترونَهُ على اللّهِ فيدّعون أنّه أمرَهُم بما اقترفُوه، ومَعلومٌ أنّ افتراءَهُم هذا ناتجٌ عن كبيرةٍ أخرى؛ هي اتّباعُ لافتراءِ شركائِهِم،

(1) العسكريّ، الفُروق اللّغويّة، ص: 449.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/105.

فسَمّاهُ افتراءً؛ لأنَّهُم تَقلَّدُوه عن غيرِ نَظَرٍ ولا استدلالٍ، فجَعَلَهم مُشارِكين لشياطينِهم مِنَ الجِنّ والإنسِ فيما يَفتَرونَ، وقد كانوا يُموِّهُونَ على النّاسِ أنَّ هذا مِمَّا أمرَ اللّهُ بهِ، كما دَلَّ عليه في الآيةِ التّاليةِ قولُهُ: ﴿ٱفۡتِرَآءً عَلَيۡهِۚ﴾ [الأنعام: 138].

صِيغةُ التّعبيرِ عن فعْلِ الافتراءِ بالمضارعِ المَجموعِ:

آثرَ التّعبيرَ عنِ افترائِهم بالمضارعِ للدّلالةِ على ديمومةِ فعلِهم هذا، وتجدُّدِهِ فيهم خصلةَ سوءٍ، ورديَّ طبْعٍ؛ وهذا يناسبُ الأمرَ بتركِهم، فحَرِيٌّ أَنْ يُهْجَرَ مَنْ يُكَرِّرُ الافْتِرَاءَ، ويُصرُّ عليه. وعبّرَ بصيغةِ الجمعِ للدّلالةِ على كثرةِ صدورِ هذا الفعلِ منهم، واجتماعِهم، وتمالُئِهم عليه.

افتراؤُهم يقعُ من غيرِ نَظَرٍ ولا استدلالٍ، بتجدُّدٍ وتَمالُؤٍ

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(ذَرْهم) و(دَعْهم) و(اترُكْهم):

قوله: ﴿فَذَرۡهُمۡ﴾: وردَت في القرآنِ الكريمِ أكثرَ من عشرِ مرّاتٍ، منها في هذه السّورةِ الغرّاءِ: ﴿ثُمَّ ذَرۡهُمۡ فِي خَوۡضِهِمۡ يَلۡعَبُونَ ٩١﴾ [الأنعام: 91]، و﴿فَذَرۡهُمۡ وَمَا يَفۡتَرُونَ﴾ [الأنعام: 112 - 137]، ومن ذلك صيغة: يَذَرُ، ذَرْ، وَذْرًا، ووَذَرَ عمَلَهُ: تركَه[1]، وَذَرَ (الوَذْرَةَ) وَذْرًا: بَضَعَها بَضْعًا وَقَطَعها[2]. والاختلافُ بينَ (دَعْ) و(ذَرْ) أنّ: (دَعْ) و(يَدَع) يُستَعمَلان فيما لا يُذَمُّ مُرْتَكِبُه، لأنّهُ مِنَ الدَّعَةِ وهيَ الرّاحَةُ، وَلذا قيلَ لمُفارَقَةِ النّاسِ بَعضِهم بَعضًا موادَعَةٌ وعَدَمُ اعتِدادٍ. فَلِذا قالَ تَعالَى: ﴿أَتَدۡعُونَ بَعۡلٗا وَتَذَرُونَ أَحۡسَنَ ٱلۡخَٰلِقِينَ ١٢٥﴾ [الصّافات: 125]، دونَ أن يقولَ: (وتَدَعونَ)، مع ما فيهِ مِنَ الجِناسِ[3]. وأمّا التَّرْكُ؛ فهو تَرْكُ الشَّيءِ: فرفضُهُ قصدًا واختيارًا، أو قهرًا واضطرارًا، فمِنَ

الـوَذرُ تركُ ما لا قيمةَ لـهُ، على خلافِ الدَّعةِ

(1) أحمد مختار، معجم اللّغة العربيّة المعاصرة: 3/2420.
(2) الزّبيديّ، تاج العروس: 14/355.
(3) الزّبيديّ، تاج العروس: 22/303.

الأوّلِ: ﴿۞وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ﴾ [الكهف: 99]، وقوله: ﴿وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا﴾ [الدّخان: 24]، ومِنَ الثّاني: ﴿كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ﴾ [الدّخان: 25][1].

(يَفترونَ) و(يَكذِبونَ) و(يَبهتونَ):

الافتراءُ أخصُّ مِنَ الكذبِ، والبُهتانُ هو افتراءٌ ومُكابرةٌ

يَفترونَ: الفَرْيُ: قطعُ الجلدِ للإصلاحِ، والإفراءُ للإفسادِ، والافتِراءُ فيهما، وفي الإفسادِ أكثرُ، وكذلك استُعمِلَ في القرآنِ في الكذبِ والشّركِ والظّلمِ، نحو: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾﴾ [النّساء: 48]، وكثيرًا ما أتى الافتراءُ مَقرُونًا بالكذبِ؛ مثل قولِهِ: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾ [النّساء: 50]، ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾ [المائدة: 103]، ﴿وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾ [يونس: 60]، ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [هود: 50]، وقوله: ﴿لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾﴾ [مريم: 27]، قيل: معناه عظيمًا، وقيل: عجيبًا، وقيل: مَصنوعًا، وكلُّ ذلك إشارةٌ إلى معنًى واحدٍ[2]. والافتراءُ: أَخَصُّ مِنَ الكذبِ؛ لأنّ الافتراءَ الكذبُ في حقِّ الغَيرِ بما لا يَرتَضيهِ[3].

وأمّا يُكذِّبون فيُقالُ الكذبُ في المَقالِ والفِعالِ، قالَ تعالى: ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [النّحل: 105]، يُقالُ: رجلٌ كَذّابٌ وكَذُوبٌ؛ وذلك للمبالغةِ، قالَ تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ [التّوبة: 90]، يُقالُ: أَكْذَبْتُهُ: وجدتُهُ كاذبًا، وكَذّبْتُهُ: نسبتُهُ إلى الكذبِ صادقًا كان أو كاذبًا، وما جاءَ في القرآنِ ففي تَكْذيبِ الصّادقِ، نحو: ﴿كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ [آل عمران: 11]، ﴿رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٢٦﴾﴾ [المؤمنون: 26]، ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ﴾ [ق: 5]. وأمّا البُهتانُ فهو الكَذبُ الّذي يواجَهُ به

(1) الرّاغب، المفردات: (ترك).
(2) الرّاغب، المفردات: (فرى).
(3) العسكريّ، الفُروق اللّغويّة، ص: 449.

صاحبُهُ على وجهِ المُكابرةِ له، قال تعالى: ﴿وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾﴾ [النّساء: 156]؛ فإنّ اليهودَ كانوا يُواجِهونَ مريمَ عليها السلام بالقذفِ، وينسبونَها إلى ما لا ينبغي مِنَ القولِ بالمُشافهةِ[1].

ولذلك آثرَ النّظمُ استخدامَ فعلِ الافتراءِ لمعناه الدّقيقِ ودلالتِهِ في سياقِ الآيةِ الكريمةِ على صنيعِ المُشركينَ مِنَ الكذبِ في حقِّ اللّهِ وشرعِهِ بما لا يَرتَضيهِ، وأنَّ افتراءَهم حصلَ منهم من غيرِ نَظَرٍ ولا استدلالٍ، وهو مُتجدِّدٌ فيهم، مع اجتماعِهم وتمالُئِهم عليه.

(1) العسكريّ، الفُروق اللّغويّة، ص: 449.

﴿وَقَالُواْ هَٰذِهِۦٓ أَنۡعَٰمٞ وَحَرۡثٌ حِجۡرٞ لَّا يَطۡعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعۡمِهِمۡ وَأَنۡعَٰمٌ حُرِّمَتۡ ظُهُورُهَا وَأَنۡعَٰمٞ لَّا يَذۡكُرُونَ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَيۡهَا ٱفۡتِرَآءً عَلَيۡهِۚ سَيَجۡزِيهِم بِمَا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ١٣٨﴾ [الأنعام: 138]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

مُواصلةُ ذِكرِ أنواعٍ مِن أحكامِ المشركين الجائرةِ، في التَّحليلِ والتَّحريم

لـمَّا ذكرَ اللّهُ بعضَ جهالاتِ المشركينَ في تحريمِ أشياءَ وتحليلِها بباعثِ الأهواءِ والخرافاتِ الوثنيَّةِ، ثمَّ ذكرَ إقدامَهم على قتلِ الأولادِ - وهو أمرٌ مُستقبَحٌ شرعًا وعقلًا - ذكرَ هنا أنواعًا من أحكامِهم الفاسدةِ، ممَّا حرَّمُوه من غيرِ إذنٍ منَ اللّهِ، ممَّا يتعلَّقُ بالأنعامِ، وهي البحيرةُ والسَّائبةُ والوصيلةُ والحامي[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿حِجۡرٞ﴾: الحَاءُ والجِيمُ والرَّاءُ أَصلٌ واحِدٌ مُطَّرِدٌ، وهو المَنعُ والإِحاطَةُ على الشَّيءِ، فالحَجْرُ حَجْرُ الإِنسَانِ، وقَد تُكسَرُ حاؤُهُ، ويُقالُ: حَجَرَ الحَاكِمُ على السَّفيهِ حَجرًا، وذَلِكَ مَنعُهُ إِيَّاهُ مِنَ التَّصَرُّفِ في مَالِهِ، والعَقلُ يُسَمَّى: حِجرًا؛ لأَنَّهُ يَمنَعُ مِن إِتيَانِ مَا لا يَنبَغِي، كما سُمِّيَ عَقلًا تَشبِيهًا بِالعِقَالِ، قالَ اللّهُ تعالى: ﴿هَلۡ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٞ لِّذِي حِجۡرٍ ٥﴾ [الفجر: 5]، والحِجْر: الحرام بلغةِ قريش[2].

2) ﴿بِزَعۡمِهِمۡ﴾: الزَّعمُ والزُّعمُ والزِّعمُ، ثَلاثُ لُغاتٍ: القَولُ، زَعَمَ زَعمًا وزُعمًا وزِعمًا؛ أَي: قَالَ، وَقِيلَ: هُوَ القَولُ يَكونُ حَقًّا ويَكونُ باطِلًا، وأَنشدَ ابنُ الأَعرابي لأُمَيَّةَ في الزَّعمِ الَّذي هُوَ حَقٌّ:

---

(1) سبق ذكر معانيها في تفسيرِ قولِهِ تعالى: ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٖ وَلَا سَآئِبَةٖ وَلَا وَصِيلَةٖ وَلَا حَامٖ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۖ وَأَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ١٠٣﴾ [المائدة: 103].

(2) أبو عبيد القاسم بن سلاّم، لغات القبائل الواردة في القرآن، بهامش تفسير الجلالين: 2/69، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (حجر).

وإنِّي أَذينٌ لَكُمْ أَنَّه *** سَيُنجِزُكم ربُّكم مَا زَعَم[1]

وقالَ اللَّيثُ: سَمِعتُ أَهل العَرَبيَّة يَقولونَ: إذا قِيلَ: ذَكَرَ فُلانٌ كذا وكذا؛ فإنَّمَا يُقَالُ ذَلِكَ لأَمرٍ يُستَيقَنُ أَنَّه حَقٌّ، وإذا شُكَّ فيه؛ فَلَم يُدْرَ لَعَلَّهُ كَذِبٌ أَو بَاطِلٌ، قِيلَ: زَعَمَ فُلَانٌ، قَالَ: وكذلِكَ تُفَسَّرُ هَذِهِ الآيَةُ: ﴿فَقَالُواْ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعۡمِهِمۡ﴾؛ أَي: بِقَولِهِمُ الكَذِبَ، وَقِيلَ: الزَّعمُ الظَّنُّ، وقِيلَ: الكَذِبُ، زَعَمَهُ يَزعُمُهُ، والزُّعمُ تميميَّةٌ، والزَّعمُ حِجَازِيَّةٌ[2]، والزَّعمُ بمعنى: الكذب والباطل بلغةِ حمير[3].

3) ﴿سَيَجۡزِيهِم﴾: الجَزاءُ: المُكافأَةُ على الشَّيءِ، جَزاهُ بِهِ وعليهِ جَزَاءً، وجازَاه مُجازَاةً وجِزاءً، ويُقال: جَزَيْتُهُ على عَمَلِه، أيْ: كافَأْتُهُ. وهو ما فيه الكفاية من المقابلة، إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشرّ[4]، ويصدقُ في الثَّوابِ والعقابِ؛ لأنَّ ما يُستخرَجُ منَ الشَّيءِ جزءٌ منه، وهو من جنسِهِ حلوًا أو مرًّا ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ﴾ [الشّورى: 40][5].

المَعْنى الإجْماليُّ:

تُلقي الآيةُ الضَّوءَ على محاججةِ القرآنِ الكريمِ المشركينَ في أمورٍ عقديَّةٍ، تتعلَّقُ ببعضِ تشريعاتِهم الجائرةِ، وبمواقفِهم المتعدِّدةِ من بهيمةِ الأنعامِ؛ بالإباحةِ والحظرِ والتَّحليلِ والتَّحريمِ.

حِجاجُ المشركينَ حولَ بهيمةِ الأنعامِ، وأحكامِهم الجاهليّةِ فيها؛ إباحةً وحَظْرًا

قالَ المشركون: هذه الأنعام والزروع حِكْرٌ على الأصنام، وكانوا إذا عيَّنوا أشياءَ مِن حرثِهم وأنعامِهم لآلهتِهم قالوا: لا يَطعَمُها إلّا مَن نشاءُ، بِقولِهم بالظّنِّ المَشوبِ بالكذبِ، ثمّ لا يطعمونها إلّا خدمَ الأوثانِ، والرِّجالَ دونَ النِّساء، ﴿وَأَنۡعَٰمٌ حُرِّمَتۡ ظُهُورُهَا﴾: هي البحائرُ، والسَّوائبُ، والحوامي، ﴿وَأَنۡعَٰمٞ لَّا يَذۡكُرُونَ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَيۡهَا﴾

(1) البيت منَ المتقارب، لأميَّة بن أبي الصَّلت، وهو في ديوانه، ص: 113.
(2) ابن منظور، لسان العرب: (زعم).
(3) ابن سلاّم، لغات القبائل: 2/251، وابن حسنون السّامريّ، اللّغات في القرآن، ص: 50.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، والزّبيديّ، تاج العروس: (جزا).
(5) ابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (جزى).

حالة الذَّبحِ، وفي حالاتٍ أخرى، وإنّما يذكرون - إن ذكروا - أسماءَ الأصنامِ ﴿ٱفۡتِرَآءً عَلَيۡهِۚ﴾؛ أي: قسَّموا أنعامَهم: فقسمٌ حِجْر، وقسمٌ لا يرْكبُ، وقسمٌ لا يُذكَرُ اسمُ اللّهِ عليها، ونسبُوا ذلك إلى اللّه افتراءً عليهِ، فتوعَّدَهُم اللّهُ بمحاسبتِهم على هذا الافتراءِ، واللّه منه بريءٌ، وما كانَ لأحدٍ أن يُحرِّم أو يُحَلِّل إلَّا بإذنِ اللّهِ، كما قالَ تعالى: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزۡقٖ فَجَعَلۡتُم مِّنۡهُ حَرَامٗا وَحَلَٰلٗا قُلۡ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمۡۖ أَمۡ عَلَى ٱللَّهِ تَفۡتَرُونَ﴾ [يونس: 59][1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

عِلَّةُ وصْلِ جُملة: ﴿وَقَالُواْ﴾ بالسَّابقةِ بحرفِ الواوِ:

اشتراكُ الجُملتَين، في بيانِ ما عليه المُشركون منَ الافتراءِ والبُطلانِ

قولُه: ﴿وَقَالُواْ هَٰذِهِۦٓ أَنۡعَٰمٞ وَحَرۡثٞ﴾ عطفٌ على الآيةِ السَّابقةِ: ﴿وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ قَتۡلَ أَوۡلَٰدِهِمۡ شُرَكَآؤُهُمۡ﴾، "وفي هذا العطفِ إيماءٌ إلى أنَّ ما قالُوه هو من تلقينِ شركائِهم وسدنةِ أصنامِهم"[2].

وفي إيرادِ هذا القولِ تَعدادٌ لنوعٍ آخرَ من افتراءاتِهم، وفيه استهجانُ صدورِ هذه القالةِ عنهم وتقبيحُها، ومزيدُ التَّشنيعِ عليهم بها، وإقامةُ السَّامعِ مقامَ الحَكَمِ على تبعيدِ هذا القولِ من دائرةِ العقلِ والحكمةِ، ثُمَّ لإبرازِ حيثيَّاتِ الحُكمِ عليهم، باستحقاقِهم المخَبَّأَ المُجْمَلَ المتوَعَّدَ به في خاتمةِ الآيةِ، فهو يقودُ إلى أنَّ أوَّلَ الآيةِ مُمَهِّدٌ ومُفْضٍ إلى آخرِها في استدعاءٍ طَبْعيٍّ عجيبٍ، ودلالةُ ذلك على أنَّ القرآنَ يستقصي تتبُّعَ الأباطيلِ المُضلِّةِ والعقائدِ الفاسدةِ بردِّها ودحضِها مِن تَوَلِّي اللّهِ كفايةَ عبادِهِ ورحمتَه بهم وغَيْرتَهُ عليهم.

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/271، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/659، والمراغيّ، تفسير المراغيّ: 8/45 - 46.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/105.

نُكْتَةُ إيثارِ الفعْلِ من مادّةِ (قول):

آثرَ التَّعبيرَ بالقولِ ﴿وَقَالُواْ﴾؛ لأنَّ القولَ أعمُّ من غيرِه، وللحضِّ على الإنصافِ في الحكمِ على قولِهم، وإن كان ظاهرَ البطلانِ، دونَ الادِّعاء، أو الحكمِ كما قالَ لهم: ﴿إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ﴾ [القلم: 39]، أو الزَّعْمِ كما في: ﴿وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ﴾ [الأنعام: 94]؛ فهذه الأفعالُ تشيرُ إلى كذبِهم منَ البدايةِ، فليسَ ثمَّةَ مجالٌ لسماعِهم، فضلًا عن مناقشتِهم.

مِـنَ الإنـصـافِ عَـرْضُ الأقـوالِ، وعـدمُ التّسرُّعِ في تكذِيبِهَا دونَ دليلٍ

فائِدةُ التَّعبيرِ بصِيغةِ المضيّ ﴿وَقَالُواْ﴾:

حكايةُ نوعٍ من أنواعِ كفرِهم الماضيةِ لتسجيلِ ذلك عليهم؛ وليعتبرَ به غيرُهم، والقرآنُ يدعو أتباعَه إلى قولِ الحقِّ، والَّتي هي أحسنُ - هذا المضيُّ دلالةٌ على تقضِّيه، لكنَّ الشّرَّ مهما يكن قليلًا، فإنَّه لا يُرخَّصُ في شيءٍ منه؛ حتَّى إذا ما قالَ قائلٌ بحقٍّ: إنَّه قولٌ تافهٌ حريٌّ ألَّا يؤبه له، وأنَّه أُغفِلَ، أو أُهمِلَ لم يكن بذلك على المسلمين بأسٌ، ولا سيّما أنّ مُضيَّهُ دليلُ اضمحلالِه ونذيرُ تلاشيهِ وفنائِه - وأيضًا فقولُهُ: ﴿وَقَالُواْ﴾ دعوةٌ للبصرِ بما فيهِ من جهالةٍ؛ لأنَّ القرآنَ كتابُ العقلِ والعلمِ.

ضَـرورةُ الاعتبارِ والاسْـتـبـصـارِ، وبيانِ اضْمحلالِ الباطلِ وتَلاشِيه

سِرُّ العُدولِ إلى الماضِي:

أُوثِرَ التَّعبيرُ بالفعلِ الماضي في: ﴿وَقَالُواْ﴾، وعُدِلَ عنِ المضارعِ: (ويقولون) أو المصدرِ: (وقولهم)؛ للإلماحِ المُلِحِّ المضيءِ أنَّ انقضاءَ الجاهليَّةِ وانمحاءَ لَوْثَاتِها[1] وشيكٌ وقادمٌ، بارتباطِ الفعلِ الماضي بزمنٍ مُنقَضٍ فائتٍ.

قُـــرْبُ زوالِ أحـكـامِـهـم الفاسدةِ وتحقُّقِ تَلاشِيها

دَلالةُ إسنادِ القولِ إلى واوِ الجمْعِ: ﴿وَقَالُواْ﴾:

لا شكَّ أنَّ جماعةً منَ المشركينَ هُمُ الّذين قالُوا ذلك، غير أنَّ

(1) اللَّوثُ: الشَّرُّ، واللَّوثُ: الجِراحاتُ، واللَّوثُ: المُطالباتُ بالأَحقاد.

القرآنَ الكريمَ، يشيرُ إليهم بواو الجماعةِ، وإنْ لم يقولوا جميعًا، وفيه إشارةٌ إلى إطباقِ الجاهليِّين قبلَ الإسلامِ على المعتقداتِ والأعرافِ الجاهليَّةِ، ومع ذلك فلم يأتِ لهم باسمٍ ظاهرٍ، وأقامَ المضمرَ مقامَهُ؛ لأنَّ السَّاكتَ عنِ الحقِّ شيطانٌ أخرس، والنَّاطقَ بالباطلِ شيطانٌ ناطقٌ[1]، والمقرَّ للمُنكَرِ كفاعلِهِ، والرّاضي به كفاعلِهِ؛ لقولِ النَّبيِّ ﷺ: «إذا عُمِلَتِ الخطيئةُ في الأرضِ؛ كان مَن شهِدَها فكرِهَها كمَن غابَ عنها، ومَن غابَ عنها فرضيَها كانَ كمَن شهِدَها»[2].

إشْـــــراكُ الـسّـاكـتِـينَ في جريمةِ الافْتراءِ

وفيه دخولُ مَن لم ينحطَّ إلى هذهِ الرُّتبةِ بالإيغالِ في الضَّلالِ والوثنيَّةِ المتصدِّرةِ للإغواءِ والإلهاءِ فيمَن تدنَّسَ بأوحالِها، وتولَّى كِبرَها؛ إذْ رضيَ وتابعَ؛ فتلك واوُ الجميع.

وقد نسبَ اللّهُ عَقْرَ النَّاقةِ لقوم ثمود جميعًا، مع أنَّ عاقرَها واحدٌ في قولِهِ: ﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٖۖ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٖ﴾ [هود: 65]، وذلك لموافقتِهم عليه، فاشتركوا في الإثم.

مغزَى استعمالِ اسْمِ الإشارةِ: ﴿هَٰذِهِۦ﴾:

في ذكرِ اسم الإشارةِ ﴿هَٰذِهِۦ﴾ إشارةٌ إلى ما جعلُوهُ لآلهتِهم[3]، وفيه إجمالٌ لمناسبةِ الغرضِ المَسوقِ له الخبرُ، وهو بيانُ فسادِ معتقداتِهم وشرعِهم[4]، كما أنَّ الإجمالَ هنا يتناسبُ ومكيَّةَ سورةِ الأنعامِ، والتَّفصيل يتناسبُ ومدنيَّةَ سورةِ المائدةِ.

الإجـمـالُ لبيانِ فـسَـادِ شـرْعِ الـجـاهـلِـيّـين الفاسدِ

النُّكْتَةُ في حرفِ التَّنبيهِ والتَّأنيثِ فيه:

أُوثِرَ اسمُ الإشارةِ ﴿هَٰذِهِۦ﴾ الّذي للقريبِ، ودخلَت عليه (ها)

(1) هذه مقولةٌ، نُسِبَت إلى أحدِ السّلفِ، وهو أبو عليّ الدّقّاق، كما ذكر القشيريّ رحمه الله، الرّسالة القشيّريّة، ص: 62، وليس حديثًا.

(2) أبو داود، السنن، الحديث رقم: (4345)، وإسنادُه حَسنٌ، من أجل أبي بكر - وهو ابن عيّاش -، وشيخه مغيرة بن زياد الموصليّ، وأخرجه ابن قانع في معجم الصّحابة: 2/309، والطّبرانيّ، المعجم الكبير: 17/345، وأبو نعيم، أخبار أصبهان: 1/333، من طريق أبي بكر بن عيّاش، بهذا الإسناد.

(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/190.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/105.

التَّنبيه؛ لبيانِ حضورِ المشارِ إليه في أذهانِهم وقتَ التَّكلُّم، وشعورِهم بامتلاكِ الأنعامِ والحرثِ، وأنَّ لهم حقَّ التّصرُّفِ فيها كيفَما شاؤوا، وحيثُما أرادوا.

بيانُ حضورِ المُشارِ إليه في أذهانِهم وقتَ التَّكلُّمِ

وجاءَ اسمُ الإشارةِ مؤنَّثًا من أجلِ الخبرِ[1] ﴿أَنْعَٰمٌ﴾؛ ولأنَّ الإجمالَ كائنٌ فيها، وعطفَ (حرث) على الخبرِ.

فائدةُ تقديمِ الأنعامِ على الحرْثِ:

نلحظُ اختلافَ التَّرتيبِ في ذكرِ (الأنعام) قبلَ الحرثِ هنا؛ لأنَّ الآيةَ مَسوقةٌ لبيانِ فسادِ شرعِهم في أصولِ أموالِهم، وتقديمِ الحرثِ على الأنعامِ في قولِه: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا﴾ [الأنعام: 136]؛ لأنَّها في بيانِ فسادِ شرعِهم في نتائجِ أموالِهم، كما أنَّ ذكرَ (الأنعام والحرث) مُجتَمِعَين فيما جرى على ألسنتِهم من مَقولٍ مَحكيٍّ يشيرُ إلى بعضِ خصائصِ البيئةِ القبليَّةِ بمكَّةَ، وسماتِها في عصرِ المَبعَثِ ووقتِ التَّنزيلِ، ويعينُ على فهمِ طبائعِ القومِ، ومعرفةِ نفائسِ أموالِهم.

الأنعامُ من أصولِ الأموالِ ذاتِ القيمةِ عندَ العربِ

سِرُّ الجمْعِ في الأنعامِ ﴿أَنْعَٰمٌ﴾:

الأنعامُ جمع (نَعَم)، وأُوثِرَ الجمعُ؛ لأنَّ الأنعامَ تشملُ الإبلَ والبقرَ والغنمَ، حتَّى إنَّ بَعضَهم أَدخلَ فِيهَا الظّباءَ وحُمرَ الوَحشِ؛ تعلُّقًا بقولِه تعالى: ﴿أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ [المائدة: 1]، والنَّعمُ تُطلَقُ على الإبلِ خاصَّةً، أو الماشيةِ الّتي فيها الإبل، وسُمِّيَت بذلكَ؛ لأنَّها مِن أعظمِ النِّعمِ عندَهم[2]، فكان ذكرُ (الأنعام) بصيغةِ الجمعِ أنسبَ للسِّياقِ؛ حيث إنَّها مدارُ زعمِهم، وعليها تُعقدُ أحكامُهُم المتعدِّدةُ المفتراةُ.

الأنعامُ تَشملُ الإبلَ والبقرَ والغنمَ برُمّتِها

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/190.

(2) الرّاغب، المفردات: (نعم)، والحريريّ، درّة الغوّاص، ص: 240.

مَجيءُ (الحرْث) بصِيغةِ المصدَرِ: ﴿وَحَرْثٌ﴾:

الحرثُ مصدرُ حرثَ الأرضَ؛ إذا شقَّها بآلةٍ تشقُّ التُّرابَ؛ لتُزْرَعَ في شقوقِهِ زريعةٌ، أو تُغرسَ أشجارٌ، وهو هنا مُطلَقٌ على معنى اسمِ المفعولِ، والحرثُ: الزّرعُ، وسُمِّي بذلك؛ لأنَّه يخرجُ منَ الأرضِ بذلك ﴿كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُۚ﴾ [آل عمران: 117]، فهو مالٌ ناتجٌ عنِ الحَرْثِ، فعبَّرَ بالمصدرِ؛ لأنَّه أصلُ نتاجِهِم منَ الزَّرعِ على اختلافِ أنواعِهِ، إيماءً منهم بأنَّ ما حرَّموه هو من عملِهِم وكسبِهِم، فكأنَّهم زعمُوا أنَّ مَن حرَثَ له حقُّ التَّحريمِ.

الحرث أصلُ نتاج الزَّرع على اختلاف أنواعه

بَلاغةُ المجازِ المُرسَلِ في تسميَةِ الزَّرعِ حَرثًا:

وإطلاقُ الحرثِ على المحروث وأنواعِه إطلاقَ مُتعدِّدٍ، فيُطلَقُ على الأرضِ المجعولةِ للزَّرعِ أو الغرسِ[1].

الحَرثُ أوسعُ في الدِّلالةِ منَ المَحروثِ، ويقعُ على كلِّ ما يُزرَعُ

وأُوثِرَ التّعبيرُ بالحَرْثِ بدلًا منَ الزَّرعِ؛ لأنَّه أوسعُ في الدّلالةِ؛ فهو منَ المُشترَكِ اللَّفظيِّ؛ إذ إنَّه يُطلَقُ على الزّرعِ، وعلى إصلاحِ الأرضِ للزّرعِ، ويقعُ على كلِّ ما يُغرَسُ، ويُزرَعُ من أصنافِ النَّباتِ، كما يُطلَقُ على محلِّ نماءِ الزّروعِ والثّمارِ، ويكونُ الحرثُ مع كلِّ عملٍ.

وممَّا ينبغي التَّنبيهُ إليه أنَّ عملَ العبدِ في الأرضِ يُسمَّى حرْثًا، ولا يُسمَّى زرْعًا؛ لأنَّ الزَّارعَ في الحقيقةِ هو اللهُ تعالى، وقد جاءَ النَّهيُ في الحديث عَن أبِي هُرَيرَةَ قالَ: قالَ رَسولُ اللهِ ﷺ: «لا يَقُولَنَّ أحَدُكم: زَرَعتُ، ولكِن لِيَقُلْ: حَرَثتُ»، قالَ أبو هريرةَ: ألَم تَسمَعْ إلى قَولِ اللهِ ﷻ: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ۝٦٣ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ۝٦٤﴾ [الواقعة: 63 - 64]."[2]، وهو نهيُ إرشادٍ وتأديبٍ، لا نهيُ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/371.

(2) إسناده جيّد، وهو في معجم شيوخ أبي يعلى، الحديث رقم: (292)، وفي صحيح ابن حبّان: 7/490 - 491، والحديث رقم: (5693)، وأخرجه الطّبرانيّ في الأوسط: 2/149، والبيهقيّ في السنن الكبرى: 6/138، والحديث رقم: (11752)، وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد، الحديث رقم: (6593).

حظرٍ وتحريمٍ؛ لأنَّ نِسْبَةَ الزّرعِ إلى الآدميّ من قبيلِ المجازِ العقليِّ[1] كما في الحديث: «مَا مِن مُسلم يغرسُ غرسًا، أو يزرعُ زرعًا فيأكلُ منه طيرٌ أو إنسانٌ أو بهيمةٌ إلَّا كان له به صدقة»[2].

وفي مجيءِ ﴿وَحَرْثٌ﴾ في هذا المَوضعِ حِكَمٌ ساميةٌ، ومعانٍ هاديةٌ، وإيحاءاتٌ إلى توجيهاتٍ رفيعةٍ وحججٍ ظاهرةٍ، منها: ردُّهم إلى إحساسِهم بحاجتِهم وافتقارِهم إلى اللّهِ الخالقِ الزَّارعِ، وأنَّه سبحانَه واحدٌ لا شريكَ له، وأن لا إله إلّا هو، فليعبدوه وحدَه مُخلِصينَ له الدّينَ.

دَلالةُ تنكيرِ ﴿أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ﴾:

إفادةُ تخصيصِ أنواعٍ مُعيَّنةٍ من الصِّنفَيْن

نلحظُ مجيءَ كلمتي ﴿أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ﴾ نكرتين، والغرضُ هو التَّخصيصُ؛ لأنَّهم أرادوا تخصيصَ أنواعٍ مُعيَّنةٍ منهما، وقد وردا مَعْرِفَتَيْنِ في سياقِ تفضيلِ معالي الأمورِ على الشَّهواتِ مُطلَقًا، وذلك في قولِه تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾﴾ [آل عمران: 14].

سِرُّ اختيارِ كلمةِ ﴿حِجْرٌ﴾:

اللّفظُ يُفيدُ المنعَ والحُرمَةَ مع صَلابةِ الرَّأيِ

(حِجْرٌ): على وزن (فِعْل) بمعنى مفعولٍ، كالذِّبحِ والطِّحنِ، ويستوي في الوصفِ به المذكَّرُ والمؤنَّثُ، والواحدُ والجمعُ؛ لأنَّ حكمَهُ حكمُ الأسماءِ غيرِ الصِّفاتِ[3].

ويُقصَدُ بـ﴿حِجْرٌ﴾ المنعُ والحُرْمةُ لغرضِ الحفظِ؛ أي: إنَّ بعضَ الأنعامِ والحرثِ مَحجورٌ؛ أي: ممنوعٌ منَ التَّصرُّفِ فيه.

(1) هو إسنادُ الفعلِ أو ما في معناه إلى غيرِ ما هو له لعلاقةٍ، مع وجودِ قرينةٍ تمنعُ إرادةَ الإسنادِ الحقيقيّ.

(2) أخرجه البخاريّ، الحديث رقم: (2320)، ومسلم، الحديث رقم: (1552).

(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/71.

ولم يقُل: (وحَرْثٌ حِرْمٌ) مع اتِّفاقِهما وزنًا، وتناسبِهما جَرْسًا، غير أنَّ (حِرْم) بمعنى: حَرام أو ممنوع، ليس مقطوعًا به؛ فقد اختُلِفَ في معناها، فمنهم مَن أبقاها على معنى المنعِ، ومنهم مَن فسَّرَها بالضِّدِّ؛ أي: هي واجب، وقد قُرِئَ به[1] في لفظِ (حَرَام) في قولِهِ تعالى: ﴿وَحَرَامٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٩٥﴾﴾ [الأنبياء: 95]، قال الخليلُ: أي: واجبٌ عليهم حَتمٌ لا يرجعون إلى الدُّنيا بعد ما هَلَكُوا[2].

فاختيارُ كلمةِ ﴿حِجْرٌ﴾ للتَّعبيرِ عن هذا المعنى يناسبُ السِّياقَ؛ إذ إنَّ هذا المنعَ من قِبَلِ أنفسِهم، وليس من تشريعِ اللّهِ تعالى، فالحرامُ مُراعًى فيه مصالحُ العبادِ، فلا هوًى للمُشَرِّعِ فيه، ولا حرجَ على النَّاسِ، ولكنَّ الحِجْرَ فيه صلابةُ الحَجَرِ وقساوتُه؛ أي: عدم المرونةِ، وعدم مبالاةِ الرّامي على أيٍّ منَ النّاسِ وقعَ.

دَلالةُ افتتاحِ اللَّفظَيْنِ: ﴿وَحَرْثٌ حِجْرٌ﴾ كلَيْهما بالحاءِ:

تَلاحُمُ التَّناسُبِ والانسِجامِ بينَ الكلمتَيْنِ، دَلالةً ونُطقًا

بينَ اللَّفظين تناسقٌ عجيبٌ، وانسجامٌ صوتيٌّ، فكلاهما ثلاثيٌّ، يبدآنِ بصوتِ الحاءِ الموحي بجفافِ الباطنِ، وقد اشتركا في هذا المعنى، فأصلُ الحرْثِ: شقُّ السَّطحِ الملتئمِ وإثارتُه، وأصلُ الحِجْرِ: الحفظُ ومنعُ الاختراقِ لصلابةٍ مُسترسَلةٍ[3]؛ وسكونُ العينِ فيهما يشبهُ الصَّلابةَ الموجودةَ في هذا المانعِ المُختلَقِ، غير المُخترَقِ، وذاك الحرْث الموقوف.

نُكتَةُ إيرادِ التَّفصِيلِ بعدَ الإجمالِ في الآيةِ:

تَفصيلٌ من قَبيلِ التَّفسيرِ، وبيانِ المُـرادِ، لِتَجليَةِ المعنَى المستفادِ

فيه مُفاداتٌ جمَّةٌ كثيرةٌ لا يحاطُ بها، كعادةِ جُمَلِ القرآنِ وكلماتِه، ومن هذه المفاداتِ: إن كان هذا التَّفصيلُ قولَ جَنَانٍ لم يتحرَّكْ به

(1) حيث قرأ حمزة والكسائيّ وعاصم في رواية أبي بكر: (وحِرْمٌ)، بكسرِ الحاءِ وسكونِ الرّاء. يُنظر: ابن مجاهد، السّبعة، ص: 431، وابن الجزريّ، النّشر: 2/324.

(2) الخليل، العين: (حرم).

(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤَصَّل: (حجر، حرث).

لسانٌ، ولم تنبسْ به شَفَةٌ، فهو من إخراجِ خبيئتِهم وتجليةِ مكنونِهم. والإخبارُ عنهم بما كَتَمُوهُ مِن قصدِهم ومُرادِهم، وعِلمِهم بمطابقتِه لواقِعِهم، وكشفِه لدخيلتِهم، واطِّلاعِه على سريرتِهم، دليلُ صدقِه أنَّه من عندِ اللّٰه؛ فهو من إقامةِ الحجَّةِ القاطعةِ، بما لا مزيدَ عليه ولا فضلَ جلاءٍ أو ظهورٍ وراءَه.

وإن كان قولَ لسانٍ مجاهرةً للمُكابرةِ والمُفاخرةِ فأوردَه القرآنُ؛ فذلك مَوردٌ للتَّشنيعِ والتَّبشيعِ، تقبيحًا لما حسَّنوهُ، وتحسينًا لما قبَّحوه، ومعاملةً بالضِّدِّ؛ لتقومَ مقامَ الصَّدِّ والرَّدِّ، وهذا أيضًا دليلُ حقِّه، وأمارةُ صدقِه، ومظهرُ جزالتِه، وعنوانُ قوَّتِه.

وفي كلٍّ مِنَ الحالين فهو اعتناءُ القرآنِ بإنصافِ الخصمِ الألدِّ؛ إيرادًا لشبهتِه، وتعليلًا لسيرتِه، وذكرِ قصدِه مِن فعلتِه؛ لبيانِ ما تنطلي عليه من زيفٍ وفسادٍ، قضاءً عليه فيما جهرَ بما أسرَّ، وفيما أسرَّ بما جهرَ.

بَلاغةُ الإطنابِ، في جُملةِ: ﴿لَّا يَطۡعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ﴾:

الاستطالةُ على حُقوقِ اللهِ في التَّحريمِ والتَّحليلِ ضَلالٌ

إظهارُ عيوبِ المجتمعاتِ غيرِ المسلمةِ - والمجتمعُ الجاهليُّ بمكَّةَ أنموذجًا - فالمساواةُ بين النَّاسِ - حتّى الأحرار منهم - غيرُ حقيقيَّةٍ ولا قائمة؛ فالأطعمةُ من حقوقِ الفطرةِ ليسَت تُباحُ للنّاسِ سواء، كما يُباحُ الكلأُ لجميعِ بهيمةِ الأنعام، وعندَهُم للسَّادةِ والكبراءِ تحكُّماتٌ مُفترَاةٌ، وزيوفٌ مدَّعاةٌ لا يملكُ الدَّهماءُ إزاءَها غيرَ التَّسليم، كقولِ عبد اللّٰه بن عَنمَة (بالعين المُهملَةِ)، يرثي بسطامَ بن قيس، فيذكرُ أنَّه سيِّدٌ من الكُبَّرِ له ما لهم:

لكَ المِرْباعُ منها والصَّفايَا *** وحُكمُكَ والنَّشيطةُ والفُضولُ[1]

وفي الآيةِ بيانُ لونٍ مِنَ السَّرف، وضَرْبٍ مِنَ السَّفَه في تلكم

(1) البيتُ منَ الوافر، هو لعبد الله بن عَنمَة الضَّبيّ. يُنظر: أبو تمّام، ديوان الحماسة: 1/421.

المجتمعاتِ، فبينما هي لا تتورَّعُ عن مُحَرَّمٍ ولا تنتهي عن مُؤَثَّمٍ؛ إذا بها لا يكفيها هذا حتَّى تستطيلَ على حقوقِ اللّهِ في التَّحليلِ والتَّحريمِ: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ۝٥٩﴾ [يونس: 59].

والتَّحليلُ تَعَدٍّ على الفطرةِ باستطابةِ الخبائثِ والمضارِّ، والتَّحريمُ تَعدٍّ على النَّفسِ بحرمانِها حظوظًا من طيِّباتٍ أُحِلَّتْ لها، مُبالغةً لها في الإيذاءِ والإذلالِ، وهو ظلمٌ تنزَّهَ الإسلامُ عنه، وحذَّرَ منه، ووبَّخَ عليه كما هنا.

سِرُّ القصْرِ بالنَّفْيِ والاستثناءِ في السِّياقِ:

المبالغةُ في بيانِ غُرورِ المشركين، وتنصيبِ أنفُسِهم مُشَرِّعينَ

قولُه: ﴿لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ﴾ هذا قصرُ صفةٍ على مَوصوفٍ، وطريقُه: النَّفي والاستثناء، وهذه الجملةُ في محلِّ رفعٍ نعتٍ لـ ﴿أَنْعَمٌ﴾، وَصَفوه بوصفين؛ أحدهما: أنَّه حِجرٌ، والثّاني: أنَّه لا يأكلُه إلَّا مَن شاؤوا، و﴿مَن نَّشَآءُ﴾ فاعل بـ﴿يَطْعَمُهَآ﴾، وهو استثناءٌ مُفرَّغٌ، ﴿لَّا يَطْعَمُهَآ﴾: لا يأكلُها إلَّا مَن نشاءُ، وهُمُ الرِّجالُ دونَ النِّساءِ، أو سَدَنَةُ الأصنامِ[1].

والسِّرُّ في استعمالِ هذا الأسلوبِ هو إفادةُ نفي إطعامِ الأنعامِ والحرثِ عن أحدٍ، ثمّ إثباتُه لَمن يشاؤون، ولو قِيلَ: (إنَّما يطعمُها مَن نشاءُ) لكانَ قد أثبتَ الإطعامَ لَمن يشاؤون، ونفاه عمَّن عداهم دفعةً واحدةً.

دلالةُ الجُملةِ الواحدةِ على أسلُوبَيْنِ بليغَيْنِ:

جملة ﴿لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ﴾ بين الخبريّة والإنشاء

كاحتمالِ جملةِ القصرِ هنا: ﴿لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ﴾ أن يكونَ لها محلٌّ إعرابيٌّ، أو لا يكونَ؛ فعلى الأوَّلِ: تكونُ نعتًا للخبر مُقيَّدًا له بالقيدِ الزّائدِ، أو تكونُ خبرًا بعدَ خبرٍ، فتكونُ جملتُها خبريَّةً، ويكونُ

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/659.

الخبرُ حقيقةً على بابِهِ مُرادًا به العُجبُ والبَطَرُ والكِبْرُ إن كانَ حديثًا مع النَّفسِ، ويُرادُ به التَّفخُّرُ والتَّسلُّطُ والتّحكُّمُ إن كان مِن هذا المَنحَى إلى الآخرين، وعلى الثَّاني: فهي مُستأنَفةٌ لا محلَّ لها منَ الإعرابِ، وتكونُ إنشائيَّةً تتوجَّهُ بالنَّهي إلى الجماعةِ إفضاءً وإفشاءً أن يقرَبَها أحدٌ، فلا ينالُ منها إلَّا مَن أذنوا له لهوًى أو مأربٍ فيه.

وهذا كثيرٌ في القرآنِ كقولِهِ سبحانَه: ﴿لَا تَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ [البقرة: 83]، فالجملةُ هنا خبريَّةٌ، بدليلِ ثبوتِ نونِ الفعلِ، ولو كان نهيًا لحُذِفَتِ النُّونُ، لكنَّ المعنى على النَّهي؛ أي: لا تعبدوا.

وقد ذكرنا بواعثَ سوقِهِم الجملة المُتقدِّمة مساقَ الخبرِ منَ الاعتدادِ المُتغطرِسِ المُتجبِّرِ بالقولِ، والإصرارِ والتَّصميمِ على المضيِّ فيه، إيغالًا دونَ تراجعٍ، والمباهاةِ بذلك؛ وبواعِثُهُم سوقُها مَساقَ الإنشاءِ مِن امتلاءِ أنفسِ القائلينَ بالاعتزازِ بالإملاءِ، والإنهاءِ بالقهرِ والقسرِ والاستضعافِ، وكلُّ ذلك ممَّا تعجُّ به، وتثجُّ تلك البيئةُ الجاهليَّةُ بأظلافِها وأوساخِها ومساوئِها وأوضارِها وأوشابِها وخبائثِها وأضغانِها الدَّفينةِ.

بَلاغةُ اختيارِ الفعْلِ قَصْرًا على مادَّةِ (طَعِمَ):

إشارةٌ إلى سَوْغِ ما يُؤكَلُ، وفائِدةِ ما يُذاقُ

في قولِهِ تعالى: ﴿لَّا يَطۡعَمُهُۥٓ إِلَّا مَن نَّشَآءُ﴾ أُوثِرَ التَّعبيرُ بالفعل (يَطْعَم) دونَ مرادفاتِهِ مِن (يأكل) أو (يذُوق)، مع ورودِ كلٍّ منَ المادّتين الأخيرتين تعبيرًا قرآنيًّا بليغًا بمعناه الحقيقيِّ والمجازيِّ في مَواضِعَ عديدةٍ من القرآن، وبعض ذلك في آيات السُّورةِ.

ذلك لأنَّ مادّةَ (طعم) تدورُ حولَ "ما يدخلُ منَ الفمِ إلى الجوفِ غِذاءً للبدنِ، فيُشبِعه": كالطَّعام[1]، والشّيءُ قد يُذاقُ ولا يُؤكلُ، وقد يُؤكلُ ولا يُستَسَاغُ، فلا يُسمَّى - حينئذٍ - طعامًا.

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصَّل: (طعم).

فقولُهم: ﴿لَّا يَطۡعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ﴾ إشارةٌ إلى إدراكِهم فوائدَها، وقيمتَها الغذائيَّةَ.

فائِدةُ المضارعيّة في جملة ﴿لا يَطۡعَمُهَآ﴾:

استمرارُ معنَى نَفْيِ الإطعامِ، في السِّياقِ

التَّعبيرُ بالفعلِ المضارع المنفيّ ﴿لَّا يَطۡعَمُهَآ﴾ يفيدُ استمرارَ النَّفي، ويَلزمُ منه الدَّلالةُ على إطالةِ مَشهَدِ الحدثِ، وفيه زيادةُ كبرياءٍ وزَهْوٍ وغرورٍ، ونوعٌ منَ التَّخويفِ والتَّهديدِ.

دَلالةُ التَّعبيرِ بالموصولِ: ﴿مَن﴾ دونَ (الَّذي):

الاختصارُ ووجازةُ العبارةِ ووَفاؤُها، من فصَاحةِ السِّياقِ ورؤعتِه

أُوثِرَ التَّعبيرُ بـ ﴿مَن﴾ في قولِه: ﴿لَّا يَطۡعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ﴾؛ لأنَّه أخصرُ وأوجزُ عبارةً، وأوفى معنًى؛ فهو هنا أدلُّ على كلِّ ما يدُلُّ عليه غيرُه منَ الأسماءِ الموصولةِ مُجتمِعَةً في آنٍ، ولأنَّه أيضًا غنيٌّ عن اعتبارِ التَّذكيرِ والتَّأنيثِ فيه، فلا يختصُّ بأحدِ الجنسين دونَ الآخر، وأيضًا لعدم إرجاعِ شيءٍ من تمكينِه منَ الطُّعمةِ إلى هيئةٍ تلتمسُ له، كأن يكونَ مُطاعًا مُسوَّدًا في قومِه، فإنَّ المُعوَّلَ عليه مَشيئتُهم له دونَ اعتبارٍ آخرَ.

فالإبهامُ الكائنُ في ﴿مَن﴾ مُنسَجِمٌ مَعَ السِّياقِ، من توسيعِ دائرةِ غرورِهم وغطرستِهم، وإطلاقِ مساحةِ مَشيئتِهم، فلا التفاتٌ ولا اعتبارٌ للهيئاتِ في سائرِ الحالاتِ.

كما أنَّ إدغامَ النّونين: نون ﴿مَن﴾ ونون ﴿نَّشَآءُ﴾ يوحي بغيظِهم، وغِلَظِ قلوبِهم وفظاظتِهم وغطرستِهم، ولا يسدُّ مَسدَّ ﴿مَن﴾ اسمُ موصولٍ آخر.

دَلالةُ اصْطِفاءِ فعلِ المشيئةِ وإيحاءاتُه المعنويَّةُ:

يُلمَحُ في فعلِ المشيئةِ معنَى القُوَّةِ والقهْرِ

هناك أفعالٌ كثيرةٌ تدُلُّ على معانٍ مُتقاربةٍ من معنى (المشيئة) كالإرادةِ، والابتغاءِ، وكلُّها منَ الفصيحِ الواردِ في القرآنِ الكريمِ؛ كلٌّ فصيحٌ في مَوضِعِه، ولا يسدُّ مَسدَّهُ غيرُه.

ولكن أُوثِرَ التَّعبيرُ بفعلِ المَشيئةِ هنا؛ لأنَّه يدُلُّ على العموم؛ إذ إنَّه مُشتَقٌّ منَ (الشّيء) وهو "الكائنُ" أو "الجسمُ"، أو "الموجودُ" بعبارةِ الرّاغب[1].

وبذا فهي صالحةٌ أن يعبَّرَ بها عن أيِّ كائنٍ، وبعبارة سيبويه: لفظٌ "يقعُ على كلِّ ما أُخبِرَ عنه"[2]، ولأنَّ فعلَ المَشيئةِ يُلمَحُ فيه معنى القوَّةِ والقهرِ، كما في قولِ عمرو بن كلثوم:

بأيِّ مَشيئَةٍ عَمْرَو بنَ هندٍ *** تُطيعُ بنا الوُشَاةَ وتَزدَرينَا[3]

فكأنَّه يريدُ أن يقولَ: بأيِّ قوّةٍ أو قهرٍ، وكأنَّه ينفي سلطتَهُ عليهم، فكلمةُ ﴿نَّشَآءُ﴾ تدُلُّ بجرمِها على جُرْمِهم وكبريائِهم، كما تشيرُ بجَرْسِها من تفشٍّ على انتشارِ سلطتِهم، وما في الكلمةِ من مدٍّ يوحي باستطالتِهم وعدوانِهم.

نُكتةُ اختيارِ الفعْلِ ﴿نَّشَآءُ﴾ مضارِعًا لا ماضيًا:

التَّجدُّدُ يُشيرُ إلى احتكامِهم في الإطعامِ إلى الهوَى، لا إلى الحَقِّ

أُوثِرَ التَّعبيرُ بالفعلِ المضارعِ ﴿نَّشَآءُ﴾؛ لإفادةِ التّجدُّدِ والحدوثِ، فالأمرُ في الإطعامِ يرجعُ إلى مَشيئتِهم المُتجدِّدةِ - في زعمِهم - فليس ثمَّةَ حقٌّ لأحدٍ في ذلك، حتّى لو طَعِمَ بمشيئتِهم مرّةً، فإنَّها لا تُغني عنه شيئًا، بل يُنظَرُ في أمرِهِ في كلِّ مرّةٍ.

بل إنَّ موافقةَ صيغةِ ﴿نَّشَآءُ﴾ المضارع في ﴿لَّا يَطْعَمُهَآ﴾ يدُلُّ على احتكامِهم في الإطعامِ إلى الهوى، لا إلى عدلٍ أو ميزانٍ؛ وفي ذلك مِن إذلالِهم للطّاعمينَ ما فيه.

ولو قالَ: (شئنا) بالماضي لظُنَّ أنَّهم يحتكمونَ إلى قاعدةٍ موضوعةٍ أو معيارٍ ثابتٍ، فتجلَّى بذلك أنَّ ما بالآيةِ الكريمةِ أوفقُ وأليقُ وأدلُّ على المعنى الحكيمِ المرادِ.

(1) الرّاغب، المفردات: (شيأ).
(2) سيبويه، الكتاب: 1/22.
(3) البيتُ من بحرِ الوافرِ، وهو في ديوانه، ص: 79.

المعنَى الكامنُ في نونِ ﴿نَّشَآءُ﴾:

التَّكبُّرُ والفَخرُ في أحكامِهم ومُعاملاتِهم، من خصائصِ أحوالِهم

في قولِهِ: ﴿نَّشَآءُ﴾ لطيفةٌ تُضافُ إلى النُّكتةِ السَّابقةِ، ؛ وهي دلالةُ النُّونِ على القائلينَ المُتعظِّمينَ المُتفخِّرينَ؛ من كلّ عُتُلٍّ جُوَّاظٍ غليظٍ مُتكبِّرٍ مُتشدِّقٍ مُتَنَفِّجٍ، والفاعلُ المُضمَرُ بعدَه يؤكِّدُ ذلك، ويفيضُ فيه.

عِلَّةُ الإيجازِ بحذْفِ المُتعلَّقِ بالفعلِ ﴿نَّشَآءُ﴾:

إفادةُ العُمومِ، ولفتُ الانتباهِ إلى الحدَثِ والقائمِينَ بهِ

في قولِهِ: ﴿لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ﴾ حُذِفَ المفعولُ به في ﴿نَّشَآءُ﴾؛ لدلالةِ ما قبلَهُ عليه؛ أي: مَن نشاءُ إطعامَه، وقد يفيدُ هذا الحذفُ العمومَ، ولكنّه يُلمح إلى غَرَضٍ آخَرَ، يُفهمُ منَ السِّياقِ؛ وهو لَفْتُ الانتباهِ إلى الحدثِ ذاتِهِ، وهو فعلُ المَشيئةِ، وقد ذكرَ الزّمخشريُّ: "أنَّ الفعلَ إذا نُسيَ مفعولُه، وقُصِدَ الحدثُ نفسُهُ، جرى مَجرَى الفعلِ غيرِ المُتعدِّي"[1].

وكأنَّ المُشركينَ القائلينَ بهذا يمتنُّونَ على مَن وقعَ عليهم الاختيارُ، وصادفَتهم المَشيئةُ قبلَ أن يَطعَموا؛ ولسانُ حالِهم يقولُ: حسبُكم شرفًا أن وقعَ عليكم اختيارُنا؛ لننظرَ في أمرِكُم: (أتَطعَمُونَ أم لا؟).

دَلالةُ الفعْلِ ﴿نَّشَآءُ﴾، على ما لا يُحاطُ به مِن معانٍ:

اتِّساعُ معاني اللّفظِ، يُفيضُ بسِحرِ بيانِهِ على المُتلقِّي

وهذا الفعلُ يُعدُّ مثالًا على الإعجازِ في سعةِ مَضامين الكلمةِ القرآنيّةِ بعامَّةٍ، واتِّساعِ دوائرِ تأثيرِ إيحاءاتِها الأثيريَّة، بما لا ينقطعُ مددُهُ، ولا ينضبطُ عددُهُ، ومن دلالة الفعلِ ﴿نَّشَآءُ﴾ على ما لا يُحاطُ به من معانٍ قائمةٍ بأنفسِ القائلين لا انقضاءَ لها ذِكرًا وحَصْرًا، ما يأتي:

أوَّلًا: امتلاؤُه ببثِّ شعورِ المنِّ بالقائلينَ على الطَّاعمينَ، والتَّحكُّم المُذِلِّ في أعناقِ أتباعِهم منَ الأرقَّاءِ والمُستضعَفينَ، لما يُفيضُهُ

(1) الزّمخشريّ، أساس البلاغة: (كسر).

الفعلُ في العبارةِ، ويشيعُهُ من أجواءِ تسلُّطِ الهوى الكافرِ، والطَّيشِ الغشوم، والجهلِ الأحمقِ، والحكمِ الجهولِ، مُمْليًا إرادتَه الصَّادرةَ من عقولٍ تحكَّمَت فيها الأوهامُ، ونعبَت فيها الأباطيلُ، وعشَّشَتْ فيها الخرافاتُ؛ وتلك مَنقصةٌ قادحةٌ، ومَذمَّةٌ طافحةٌ، وفسادٌ عريضٌ ضاربٌ في جذورِ ذلك المجتمع، وتاريخِه، وصراعاتِه، وخطواتِ خطاياه، المغرقة في الأهواءِ الفاجرةِ المُطاعةِ.

ثانيًا: في الفعلِ المذكورِ على النَّحو المسوقِ به إفصاحٌ صارخٌ عندَ كلِّ مَثالبِ الجاهليَّةِ وقبائحِها في العقائدِ، والدّياناتِ، والعباداتِ، والعاداتِ، والمعاملاتِ الاقتصاديَّةِ والاجتماعيَّةِ، والسّياساتِ في الحربِ والسّلم، وفي الأخلاقِ، ممّا لا يُجمعُ شَتاتُه، أو يُلَمُّ شعثُه، ويُدرِجُه تحتَ أصلٍ جامعٍ يصلُحُ عنوانًا له غير الضِّيزى والطُّغوى والعُتُوِّ الكبيرِ، والبغي والعدوانِ.

ثالثًا: من إيحاءاتِ الفعلِ ومُتعلِّقِه المحذوفِ هنا، وهو من عجيب بلاغةِ الكلمةِ القرآنيَّةِ أنَّها تنطوي بظلالِها، وتحتوي بكمالِها وجلالِها وجمالِها على الضِّدَّين معًا، لا من خلال مادَّتِها اللُّغويَّةِ، وإنَّما من خلال مُتعلِّقِها المحذوفِ، فتدُلُّ على انطباعَينِ دلالةً صحيحةً في آنٍ واحدٍ، ومن ذلك ما نحن فيه وبصدده؛ إذْ كانَت دلالتُها فيما مرَّ أن أعطَتِ انطباعًا يسوءُ؛ لأنَّه كانَ بالضُّرِّ والشّرِّ، فإنَّ لها دلالةً خفيّةً، إذا استُنطقَت توسُّعًا في لوازمِها أن تعطيَ انطباعًا يسرُّ؛ لأنَّه بالخير؛ إذ كانت لهم عوائدُ تواضعوا بأسرِهم عليها، تجلبُ لهم الثّناءَ؛ كإكرامِ الضّيفِ وإطعامِ الطّعامِ وإجارةِ المُستجير؛ فلا يُجارُ عليه، ولا تُحْفَرُ ذمَّةُ مُجيرِه، وكلُّ ذلك راجعٌ إلى حميَّةٍ وعنجهيَّةٍ، وشى بها وأفصحَ عنها اللَّفظُ القرآنيُّ ﴿نَّشَآءُ﴾ في جملتِهِ الفذَّةِ هنا: ﴿لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ﴾.

فقد شاؤوا كثيرًا منَ الشَّرِّ فاشيًا ذائعًا، شاؤوا معه بعضًا منَ الخيرِ مَقيلًا ضائعًا[1]، فقُوبلَت من دلالةِ الكلمةِ المَذَمَّةُ المقيتةُ بمَحمَدةٍ مُعْجبةٍ، والمَنقصةُ المُستهجَنةُ، بمَفخرةٍ تزكِّي المروءةَ، وترفعُ الهامَةَ، وتُعلي القامةَ، وتُذكَرُ لصاحبِها بالعزَّةِ، وقد أفادَ منها المسلمون، وزكَتْ أريجًا بذكرِها في تاريخِ الإسلامِ، وقد دخلَ أبو بكر الصِّديق يومًا

(1) ضائعًا: توريةٌ منَ الضَّوعِ، بمعنى: الفوح والانتشار، والضّياع: الفقدان والحرمان، والمعنيان مرادان وضعًا وصحيحان شرعًا.

في جوارِ ابن الدُّغُنَّة، وقدِمَ رسولُ اللّهِ صلّى اللّه عليه وآله وسلّم مكَّةَ من رحلتِهِ إلى الطَّائفِ في جوارِ المُطْعِم بنِ عديٍّ، وقد ماتَ المُطعِمُ مُشركًا بمكَّةَ قبلَ غزوةِ بدرٍ، وعرفَ له النَّبيُّ هذه اليدَ عندَه، فقال يومَ بدرٍ: «لو كان المُطعِمُ بنُ عديٍّ حيًّا، وكَلَّمني في هؤلاء النَّتْنَى؛ لَتَرَكْتُهُمْ له»[1]. لهذا نقول بما خلصنا إليه: بأنْ قد دَلَّ الفعلُ ﴿نَّشَآءُ﴾ هنا في الآية على الضِّدَّين معًا، دلالةً صارخةً على تلك النّقيصةِ، وفتورِ ثغرٍ على استحياءٍ عن هذه المَحمَدةِ، فكانَ الوحيُ به تطبيقًا عمليًّا لمنهجِ اللّهِ وشرعتِهِ وحكمِهِ العدل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖۖ﴾ [النّساء: 40] وهذا عامٌّ في الدُّنيا والآخرة. وللّه في خلقه شؤونٌ، وسبحانَ من هذا كلامُه، سبحانَه وبحمدِهِ جلَّ وعزَّ!

تَوجيهُ التَّعقيبِ على مَقُولِهِم المَحكيِّ عنهم بلفظ ﴿بِزَعۡمِهِمۡ﴾:

قولُهمُ المذكورُ، ادِّعاءٌ مُخترَعٌ، لا دينٌ مُشترَعٌ

قوله: ﴿بِزَعۡمِهِمۡ﴾: هذا تعقيبٌ على قولِهم السَّابقِ، بأنَّه من ادِّعائهم المُخترَعِ، لا من دينٍ مُشترعٍ؛ فهو كذبٌ وافتراءٌ، والزَّعمُ في أكثرِ كلامِ العربِ أقربُ إلى غيرِ اليقينِ، والحقُّ نبَّهَ على أنَّهم فعلوا ذلك من غيرِ أن يأمرَهُم اللّهُ بذلك، ولا أن يشرعَهُ لهم؛ وذلك جريٌ على عادتِهِم في شرعِ أحكامٍ لم يأذنْ فيها، ولم يشرعْها[2].

أثرُ كلمة ﴿بِزَعۡمِهِمۡ﴾ في تَفنيدِ أقوالِ الجُناةِ والمُتَّهِمِينَ:

عـدمُ صَلاحيَّةِ الافـتراءِ دليـلًا يُعْتمدُ عليه

لـمَّا عرضَ عليهم لم يكن لهم مُتَّمَسَّكٌ؛ إذْ لا يصلحُ الافتراءُ مُتمسَّكًا، وبالتَّالي فالزَّعمُ المُنبنيُ عليه أولى ألَّا يصلحَ، ولْنَلْحَظ هنا أنَّ جانبًا إجرائيًّا قضائيًّا خافيًا قد وفَّرته، وتكفَّلت لنا به جملةٌ في كلمةٍ هي ﴿بِزَعۡمِهِمۡ﴾، وذلكم حين يكونُ المُحَاكَمُ لم يُقِمْ عنه مُحَاميًا يدافعُ عنه أو يلقي مَعاذيرَه، كما هو مستفاد من التَّعبير القرآنيِّ في موضعٍ آخر، فتقيم له المحكمةُ دفاعًا مُنْتَدَبًا يَمثُلُ عَنهُ،

(1) البخاريّ، الجامع الصّحيح، الحديث رقم: (3139).
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/655.

في موقفِ الخصومةِ ليدرأَ عنِ الجاني التُّهمةَ بما له وجهُ قَبولٍ ومناسبةٍ منَ الحججِ.

مَثَّلَ لنا هذا الرُّكنَ الرُّكينَ من مقوِّمات المُحاكَمةِ العادلةِ قَولُهُ جَلَّ وعَزَّ ﷻ وَبحمدِهِ: ﴿بِزَعْمِهِمْ﴾؛ إذ هذا دفاعٌ يصرِّحُ بدورِ المتَّهم الجاني تصريحًا لا يكذبُ ؛ إذِ الكذبُ في عُرفِنا تأخُذُ بِهِ المحاكمُ الأرضيَّةُ، واللّه لا تخفى عليه خافيةٌ، ولا أحدَ أحبُّ إليه العُذْرُ مِنَ اللّه تعالى؛ من أجل ذلك أنزلَ الكتابَ وأرسلَ الرُّسُلَ[1].

تَوجِيهُ اللُّغاتِ المقروءِ بها، في كلمة ﴿بِزَعْمِهِمْ﴾:

قرأَ الكسائيُّ: (بزُعْمهم) فيهما بضمِّ الزّاي؛ وهي لغةُ بني أسد، والفتحُ لغةُ الحجازِ، وبه قرأَ باقي السَّبعة[2]، وهما مصدران، وقيل: الفتحُ في المصدرِ، والضّمُّ في الاسمِ.

وقرأَ ابنُ أبي عبلة: بفتحِ الزّاي والعينِ فيهما[3]، وفتحُ الحروفِ الحلقيَّةِ يُعدُّ تخفيفًا على اللّسانِ، وهو لغةٌ كالشَّعْر والشَّعَر، والكسرُ لغةٌ لبعض قيسٍ وتميمٍ، ولم يُقرأ به[4].

وتنوُّعُ القراءاتِ الواردةِ في قولِهِ: ﴿بِزَعْمِهِمْ﴾ من قبيلِ اللُّغاتِ، ومراعاةُ اختلافِ اللّسانِ العربيِّ غايةٌ من غاياتِ تنزُّلِ القرآنِ على سبعةِ أحرفٍ.

تنوُّعُ اللُّغاتِ، وسَعةُ اللَّهجاتِ العربيَّةِ، ثَراءٌ للّغةِ ومُعجمِها الفَصيحِ

دَلالاتٌ منَ اللُّغاتِ الواردةِ في القراءاتِ:

ولنتأمَّلْ كيفَ أدَّت هذه الكلمةُ دورَ الدِّفاعِ عنِ الخصمِ: إنَّها تقولُ ابتداءً انزلقَ القائلون إلى مُستنقَعِ الكذبِ الَّذي هو أحدُ معاني الزَّعمِ عندَ حِمْيَرَ، واستمرؤوه، فَجَرَّهُم إلى الباطل.

الزَّعمُ بالفتحِ أخفُّ، وبالضّمِّ أثقلُ، وفيه معنى الاستِحواذِ، وتَعمُّدِ الكَذِب

(1) البخاريّ، الجامع الصّحيح، الحديث رقم: (4634)، ومسلم، الصّحيح، الحديث رقم: (2760).
(2) ابن مجاهد، السّبعة: ص 270، وابن الجزريّ، النّشر: 2/263.
(3) الفرّاء، معاني القرآن: 1/356، والعكبريّ، إعراب القراءات الشّواذّ: 1/515.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/655.

معناها الثَّاني عندَهُم - ودرجوا على ذلك، فبدأَ بِكِذبَةٍ، وانتهى باطلًا.

فهي على فتحِ الزَّاي الَّتي يَقْرَأُ بها الكافَّةُ إلَّا الكسائيَّ، مفادُها: الظّنُّ الَّذي يأتي لأوَّلِ توهُّمٍ أو أعجلِ هاجسٍ؛ وهذا أوغلُ في الضَّلالِ لَمن يبتدرُه، فيقفو أثرَهُ، ويسيرُ وراءَه.

وعلى لغةِ أسدٍ، وقراءةِ الكسائيِّ، فالضّمُّ بما فيه من معنى الاستحواذِ أثقلُ، وذلك فيه مزيدُ التَّكلُّفِ والتَّجشُّمِ والالتواءِ، فهو أشبهُ بتعمُّدِ الكذبِ؛ وهذا الثَّاني أدخلُ في الإضلالِ لَمن يسايرُه، ويسابقُه، ويَجِدُّ حذاءَه.

ولـمَّا كانَ الاعترافُ ربَّما هدمَ الاقترافَ، فقد دفعَتهم الكلمةُ الدفاعيَّةُ عنهم بتكييفِ واقعِهم دونَ تزييفٍ، وذِكْرُ جُرمِه دونَ تلطيفٍ، وكِبْرِهِ دونَ تخفيفٍ، مَدعاةٌ إلى ولوجِهم دونَ عائقٍ إلى باب التَّوبةِ والإنابةِ، إذِ الظّنُّ لا يغني منَ الحقِّ، ولا يكفي منَ العلمِ، ولا يصلُحُ عذْرًا، أو يشفي صدْرًا أو يقي حرًّا، ولو أُلجِئَ المعاندون المكابرون جهلةُ العربِ المعنيُّون بهذه الآيةِ ليعتذروا، لم يجدوا أبلغَ منَ اللِّياذِ بالظَّنِّ وادِّعاءِ التَّوهُّمِ؛ وفي التَّنزيلِ العزيزِ: ﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴿٣٢﴾﴾ [الجاثية: 32].

وإذًا فقد وفَّرَ اللّٰهُ لهم حقَّ الدِّفاعِ، فدفعَ عنهم من واقعِهم، ولا يُقالُ بين يدي اللّٰهِ العليمِ الحكيمِ إلَّا الحقُّ، فإنَّه لا يخفى عليه شيءٌ في الأرضِ ولا في السَّماءِ ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴿٣﴾﴾ [الأنعام: 3].

﴿يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤﴾﴾ [التّغابن: 4]. واللّٰهُ تعالى - هو المُتكلِّمُ بالقرآنِ - نفسُه.

هذا مثالٌ لما أخذَت به أرقى نُظُمِ العدالةِ من إجراءاتٍ لضَمانِ محاكمةٍ عادلةٍ، واهتبلَته[1] دساتيرُ الأممِ الآبيةِ أن تُنْمَى لغير الحضاراتِ العريقةِ أو المدنيّةِ الفارهةِ التَّحضُّرِ والتَّبختر، قد سبقَ القرآنُ إليه، ودلَّ عليه، وضربَ المثالَ ليؤتسى به في إيجازٍ فريدٍ وسبقٍ بعيدٍ، ولا نرى أمَّةً عملَت به إلَّا هي ناقلتُه عنِ الإسلام.

(1) أي: اغتنمَته، واكتسبَته.

دَلالةُ إضافةِ الزَّعْمِ إلى ضَميرِ الجمْعِ في: ﴿بِزَعْمِهِمْ﴾:

اخـتـصـاصُ القائِلينَ باخْتلاقِ الزَّعْمِ

أُضيفَ الزَّعْمُ إلى ضميرِ القائلينَ في قولِهِ: ﴿بِزَعْمِهِمْ﴾؛ لإفادةِ اختصاصِهِم بهذا الزَّعمِ، فلم يَنقلوه عن أحدٍ، بل اخترعوه من عندِ أنفسِهِم.

وَجهُ مَجيءِ (الباءِ) في ﴿بِزَعْمِهِمْ﴾، وبيانُ مُتعلَّقِها:

صُدورُ الافتراءِ مِن اعتقادِهِم الباطِلِ، أو بسَببِه

الباءُ في قولِهِ: ﴿بِزَعْمِهِمْ﴾ بمعنى: (مِن)؛ أي: قالوا ذلك الافتراءَ بألسنتِهِم، نابعًا مِن اعتقادِهِم الباطلِ، أو سببيَّة؛ أي: قالوا ذلك بسببِ الزَّعْمِ، والجارُّ والمجرورُ مُتعلَّقٌ بمحذوفٍ هو حالٌ من فاعلِ (قالوا)؛ أي: قالُوهُ مُلتَبِسينَ بزعمِهِمُ الباطلِ من غيرِ حُجَّةٍ[1].

سِرُّ الاعْتِراضِ بقولِهِ تعالى: ﴿بِزَعْمِهِمْ﴾:

بيانُ أنَّ هذا التَّحريمَ من عندِهِم لا مِنْ عندِ اللهِ

وقولُهُ: ﴿بِزَعْمِهِمْ﴾ مُعترِضٌ بينَ ﴿لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ﴾ وبينَ: ﴿وَأَنْعَٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا﴾[2]؛ لبيانِ أنَّهم قصدُوا بقولِهِم: ﴿لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ﴾ التّحريمَ من عندِ أنفسِهِم، وليس مجرَّدَ المنعِ؛ وهذه فِريَةٌ كبرى سارعَ السِّياقُ بدحضِها قبلَ ذكرِ النَّوعِ الآخرِ منَ الأنعامِ المُحرَّمةِ؛ لأنَّ قولَهُم: ﴿حُرِّمَتْ﴾ قرينةٌ تمنعُ من نسبةِ التّحريمِ إليهم، بل إنَّهم يفترون على اللّهِ كَذبًا.

ويُمكنُ أن يكونَ قولُهُ: ﴿بِزَعْمِهِمْ﴾ احتراسًا[3] من توهُّمِ عطفِ ﴿وَأَنْعَٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا﴾ على ﴿مَن نَّشَآءُ﴾ فاعل ﴿يَطْعَمُهَآ﴾، فكأنَّهم يَمْنَعونَ منَ الحرثِ إلَّا مَن يشاؤون منَ النّاسِ، ومنَ الأنعامِ المُحَرَّمةِ ظهورُها، وهذا معنًى فاسدٌ، فجِيءَ بقولِهِ: ﴿بِزَعْمِهِمْ﴾ لدفعِ ذلك التّوهُّمِ.

---

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/190، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/96.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/107.

(3) ويُقالُ له: التّكميل، وهو أن يُؤتَى في كلامٍ يُوهمُ خلافَ المقصودِ، بما يدفعُ ذلك الوهمَ.

فائِدةُ ذكْرِ الزَّعْمِ بالمصْدرِ دونَ الفعلِ:

إثباتُ افتراء المشركين، وتأكيدُ أنَّ الزَّعمَ مُتأصِّلٌ فيهم

ولمَّا كانَ الغرضُ من قولِهِ: ﴿بِزَعْمِهِمْ﴾ هو إثباتَ كذبِهِم، وافترائِهِم جيءَ به بصيغةِ المصدرِ؛ ليدُلَّ على الحدثِ مُجرَدًّا عنِ الزَّمانِ، وليؤكِّدَ أنَّ الزَّعمَ مُتأصِّلٌ فيهم، فكأنَّه جِبِلَّةٌ في أخلاقِهِم.

الغَرَضُ من تَكرارِ لفْظِ (أَنْعَامٌ)، في سِياقِ النّكرةِ:

إرادةُ التّقسِيمِ وبيانُ اختِلافِ أصنَافِ الأنعامِ

وكُرِّر لفظُ (أَنعَام) في قولِهِ: ﴿وَأَنْعَٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا﴾؛ لأنَّ الغرضَ منَ التَّصريحِ به إرادةُ التّقسيمِ والتّصنيفِ؛ فكلُّ صنفٍ مُختلِفٌ عنِ الآخرِ، فلزمَ التّصريحُ بلفظِ (أَنعام) مع كلِّ صنفٍ.

وجيءَ به مُنكَّرًا؛ ليؤكِّدَ التّنوُّعَ المقصودَ من ذكرِ لفظِ (أنعام)، جريًا على قاعدةِ: "أنَّ المعرفةَ إذا أُعيدَت فهي عينُها، والنَّكرةَ إذا أُعيدَت فهي غيرُها"[1].

المناسَبةُ في ذكْرِ جُملةِ ﴿وَأَنْعَٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا﴾ رِدْفَ الأُولَى:

عطْفُ نوعٍ منَ الأنعامِ أُورِدَ بعدَ استِيفاءِ الأوصَافِ

قولُهُ: ﴿وَأَنْعَٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا﴾ معطوفٌ على: ﴿أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ﴾ فهو كخبرٍ عنِ اسمِ الإشارةِ، وعُلِمَ أنَّه عطفُ صنفٍ؛ لورودِهِ بعدَ استيفاءِ الأوصافِ الَّتي أُجرِيَت على خبرِ اسمِ الإشارةِ والمعطُوفِ عليه عَقِبَهُ، والتّقديرُ: وقالوا: هذه أنعامٌ وحَرثٌ حِجرٌ، وهذه أنعامٌ حُرِّمَت ظُهُورُها[2].

سِرُّ ذكْرِ التَّحريمِ بالفعْلِ دونَ الاسْمِ خِلافًا للجُملةِ الأولى:

المنعُ الأوَّلُ ثابتٌ، والثَّاني مُتَجدِّدٌ في السَّوائِبِ ونَحوِها

ذكرَ التَّحريمَ في الجملةِ الثَّانيةِ بصيغةِ الفعلِ، في حين ذكرَ التَّحريمَ في الجملةِ الأولى بلفظِ الاسمِ ﴿حِجْرٌ﴾، وجملةِ ﴿لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ﴾؛ وذلك لأنَّ المنعَ الأوَّلَ ثابتٌ، والثَّاني مُتجدِّدٌ، فقد يُباحُ

(1) قاعدةٌ مشهورةٌ، غير أنّ بعضَ اللّغويّين قد انتقدَها، وذكرَ أنَّها ليسَت مُطّردةً ولا مطلقةً، بل خطَّأَ عددٌ منَ المحقّقين القولَ بإطلاقِ هذه القاعدةِ، ومنهم أبو عليّ الجرجانيّ في كتابِه نظم القرآن - وليس هو عبد القاهر -، وابن هشام في مغني اللّبيب.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/107.

في أمورٍ؛ لأنَّ المرادَ به السَّوائبُ ونحوُها، وهي بزعمِهم تُعتَقُ وتُعفَى لأجلِ الآلهةِ، ﴿حُرِّمَتْ﴾؛ أي: مُنعَت ﴿ظُهُورُهَا﴾ فلا تُركَبُ، ولا يُحمَلُ عليها[1]؛ أي: حُرِّم رُكُوبُها، منها الحامِي: لا يَركَبُهُ أحدٌ، ولهُ ضابطٌ مُتَّبعٌ كما تَقَدَّمَ في سورةِ المائدةِ، ومنها أنعامٌ يُحَرِّمونَ ظُهُورَها بالنَّذرِ، يقولُ أحدُهُم: إذا فعلَتِ النَّاقةُ كَذا من نَسلٍ أو مُواصَلَةٍ بين عِدَّةٍ مِن إناثٍ، وإذا فعلَ الفحلُ كذا وكذا حَرُمَ ظهرُه، وهذا أشارَ إليه أبو نُوَاس في قولِهِ مَادحًا الأمينَ[2]:

وإذا المَطِيُّ بنا بَلَغْنَ مُحمَّدًا *** فظُهُورُهُنَّ على الرّجالِ حَرامُ[3]

نُكتةُ بناء فعْلِ التَّحريمِ لِما لمْ يُسَمَّ فَاعِلُهُ ﴿حُرِّمَتْ﴾:

قولُهُ: ﴿حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا﴾ يدخلُ في مَقولِ القولِ، فهو من زعمِهم، وبناءُ الفعلِ للمفعولِ لظهورِ الفاعلِ؛ أي: حرَّمَ اللّهُ ظُهُورَها بقرينةِ قولِهِ: ﴿ٱفۡتِرَآءً عَلَيۡهِۚ﴾[4]، ولكونِ ذمِّهم على مجرَّدِ التَّحريمِ، لا على كونِهِ من مُعَيَّنٍ[5]، ولتنوُّعِ سببِ التَّحريمِ في زعمِهم، فيُحرِّمون ركوبَها، كالحامي[6]، وقد يُحرِّمون ركوبَها لنذْرٍ، أو لسببٍ آخرَ.

تنوُّعُ سببِ التَّحريمِ في زعمِ المشركين، والتَّلبيسُ على المُخاطَبين

وقد يكونُ بناءُ الفعلِ للمفعولِ من قبيلِ التّمويهِ أو التَّلبيسِ على المُخاطَبينَ، حتّى يظنُّوا أنَّ ذلك مُحَرَّمٌ من قبلِ اللّهِ، وهو افتراءٌ على اللّهِ تعالى بصورةٍ أخرى غيرِ الصُّورةِ الأولى؛ ولذلك أُوثِرَ فعلُ التَّحريمِ دونَ غيرِهِ، ممَّا يُقارِبُ معناه.

بَلاغةُ الإيجازِ، بحذفِ المُضافِ بينَ الفعلِ ونائبِ الفاعلِ:

في قولِهِ: ﴿وَأَنۡعَٰمٌ حُرِّمَتۡ ظُهُورُهَا﴾؛ أي: منافعُ ظهورِها، وتقديرُ

المبالغةُ في التَّحريمِ، والاتِّساعُ في المعنَى، من مقاصدِ هذا السِّياقِ

(1) الآلوسّي، روح المعاني: 4/278.
(2) البيتُ من بحرِ الكاملِ لأبي نُوَاس، وهو في ديوانِهِ، ص: 834.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/107أ.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/108أ.
(5) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 7/284.
(6) فحلُ الإبلِ، إذا نتجَت من صلبِهِ عشرةُ أبطنٍ، فيُمنعُ من أن يُركبَ، أو يُحمَلَ عليه، ويقولون: إنَّه حمى ظهرَه، يُنظر: السّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (حمي).

المنافعِ أولى من تقديرِ الرّكوبِ؛ لأنَّهم حرَّموا ركوبَها وتحميلَها، فحذفَ المضافَ، وأُنيبَ المضافُ إليه منابَه، والغرضُ من حذفِهِ: المبالغةُ في التَّحريم، والاتِّساعُ في المعنى؛ ليشملَ الرّكوبَ، والحملَ عليه؛ لذلك أَسندَ التَّحريمَ إلى ظُهورِها؛ لأنَّ الحُكمَ الشَّرعيَّ إنَّما يتعلَّقُ بالأفعالِ دونَ الأجرامِ.

فائِدةُ تأنيثِ الفعْلِ بالتَّاءِ: ﴿حُرِّمَتْ﴾:

تأنيثُ الفعلِ هنا جائزٌ لغةً؛ لأنَّ فاعلَهُ جمعُ تكسيرٍ على تأويلِ الجماعةِ، والغرضُ منَ التَّأنيثِ زيادةُ المبالغةِ في التَّحريمِ؛ إذْ إنَّه ترشيحٌ لإسنادِ التَّحريمِ إلى الظّهورِ لا إلى الرُّكوبِ فحسب.

المبالغةُ في تحريمِ انتفاعِ الجاهليّين، بالرُّكوبِ والحَمْلِ على ظُهورِ الأنعامِ

وفائدتُه أمران: الأوَّلُ: تحريمُ الرَّكوبِ وغيرِهِ منَ الحملِ على الظُّهورِ. والآخرُ: عدمُ استثناءِ شيءٍ من هذا النَّوعِ المُحرَّمِ، فالتَّحريمُ واقعٌ على ظهورِ هذا النَّوعِ منَ الأنعامِ.

عِلَّةُ الاقتِصارِ على ذكْرِ (الظّهورِ) دونَ سائرِهَا:

اقتُصِرَ على ذكرِ الظُّهورِ دونَ غيرِها؛ لأنَّه يُكنَّى به عنِ الأنعامِ الّتي تُرْكَبُ، ويُحمَلُ عليها، قالَ رسولُ اللّه ﷺ: «مَن كانَ معه فضلُ ظهرٍ؛ فليَعُدْ به على مَن لا ظهرَ له»[1].

التَّعبيرُ عنِ الأنعامِ بالظّهورِ دليلٌ على المتْحِ منَ البيئةِ المكتنِفةِ

سِرُّ اقتضابِ[2] جُملةِ: ﴿وَأَنْعَٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا﴾ في ثلاثِ كلماتٍ:

تبدو سرعةُ تلاحقِ الكلماتِ الثَّلاثِ لأداءِ المعنى، فكلمةُ (أنعام) مُشَارٌ إليها باسمِ إشارةٍ محذوفٍ مَفهومٍ منِ اسمِ الإشارةِ المذكورِ في صدرِ الآيةِ الكريمةِ؛ أي: وهذه أنعامٌ، والفعلُ ﴿حُرِّمَتْ﴾ ماضٍ مبنيٌّ للمفعولِ، وأُسنِدَ التَّحريمُ إلى الظُّهُورِ، كلُّ ذلك اختصارٌ يُراعي السِّياقَ، ويشيرُ إلى فراغِهِم من هذا الحُكمِ، وليس ثمَّةَ

الدَّلالةُ على إنجازِ حُكْمِهِم في التَّحريمِ ومَنْعِ التَّعقيبِ عليه

(1) رواه مُسلم، من حديث أبي سعيد الخدريّ، برقم: (1728).

(2) يُقصَدُ بالاقتضابِ هنا ما ذكرَهُ العسكريُّ بقولِهِ: "الاقتضابُ أخذُ القليلِ منَ الكثيرِ، وأصلُهُ من قولِهِم: (اقتضبتَ الغصنَ) إذا قطعتَه من شجرتِهِ"، وفيه معنى السّرعةِ أيضًا، يُنظر: العسكري، كتاب الصّناعتين، ص: 29.

مجالٌ للتَّعقيبِ، وهذه حقيقةُ البلاغةِ، كما ذكرَ الجاحظُ: قِيلَ للرُّوميّ: ما البلاغةُ؟ قال: حُسنُ الاقتضابِ عندَ البَداهةِ، والغزارةُ يومَ الإطالةِ[1].

فائِدةُ وصْلِ الجُملةِ الثَّالثةِ عطْفًا بالواوِ:

عطْفُ صِنْفٍ على صِنْفٍ منَ الأنعامِ وَفْقَ أهوائِهِم، ممّا لم يأذَنْ به الله

قولُهُ تعالى: ﴿وَأَنْعَٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا﴾ عطفٌ على قولِهِ: ﴿وَأَنْعَٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا﴾؛ إذ إنَّه عطفُ صنفٍ على صنفٍ، فأفادَ الوصلُ إشراكَهُ في الصِّنفين المَذكُورين.

والمعنى: أنَّهم قسَّموا أنعامَهُم فقالوا: هذه أنعامٌ حِجرٌ، وأنعامٌ مُحرَّمةُ الظُّهورِ، وهذه أنعامٌ لا يُذكَرُ عليها اسمُ اللّه، فجعلوها أجناسًا بهواهم[2].

عِلَّةُ إيثارِ النَّفْيِ بـ﴿لَا﴾ في جملة ﴿لَّا يَذْكُرُونَ﴾:

نَفْيُ ذكْرِ اسْمِ اللهِ على الأنعامِ في المُستقبَلِ

أُوثِرَ النَّفيُ بـ(لا) في قولِهِ: ﴿وَأَنْعَٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا﴾؛ لإفادةِ نفي الفعلِ في المستقبلِ، في زمنِ القولِ؛ أي: إنَّ هذا الحكمَ صادرٌ منَ المشركين وقتَها، ولو جِيءَ بـ(ما)، فقِيلَ: (ما يذكرون)، لأفادَ نفي الفعلِ في الحالِ لا في المستقبلِ.

والمعنى: وحرَّمُوا من أنعامِهم أنعامًا أُخَرَ؛ فلا يحجُّونَ عليها، ولا يذكرونَ اسمَ اللّهِ عليها إن ركبُوها بحالٍ، ولا إن حلَبُوها، ولا إن حمَلُوا عليها[3].

تَوجيهُ اختصاصِ الفعْلِ ﴿يَذْكُرُونَ﴾ بالنَّفْيِ:

الذِّكرُ دالٌّ على ما رَسَخَ في القلْبِ، فهو أخصُّ منَ النُّطْقِ والقَولِ

وأُوثِرَ الفعلُ ﴿يَذْكُرُونَ﴾ دونَ غيرِهِ ممَّا يرادفُهُ مثل (ينطقون) أو (يقولون)؛ لأنَّ الذِّكرَ أخصُّ منَ النُّطقِ والقولِ؛ فهو يدُلُّ على ما رسخَ في قلبِ الذَّاكرِ، وجرى على لسانِهِ؛ وتعلُّقُ الذِّكرِ باسم اللّه قَيْدٌ

(1) الجاحظ، البيان والتّبيين: 1/88.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/71.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 12/144.

يجعلُه في محيطِ العبادةِ، "وواضحٌ أنَّ أصلَ هذا هو الذِّكْرُ باللِّسان؛ أي: جريانه بالاسمِ؛ وذكرُ الشَّيءِ بالصَّوتِ وجودٌ قويٌّ له، يتبعُهُ وجودُهُ في الأسماعِ والقلوبِ"[1].

تَوجيهُ مَجيءِ الفعْلِ مُضارِعًا:

استمرارُ نَفْيِ ذكْرِ اللهِ عليها كلَّ وقتٍ

تدلُّ صيغةُ المضارعِ المنفيِّ هنا على استمرارِ النَّفي؛ أي: إنَّهم لا يذكرونَ اسمَ اللّهِ عليها في كلِّ وقتٍ دونَ استثناءٍ.

عِلَّةُ إسنادِ ﴿يَذْكُرُونَ﴾ إلى واوِ الجماعةِ:

شُمولُ هذا الحُكمِ جميعَ المُشركينَ

في قولِهِ تعالى: ﴿وَأَنْعَٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا﴾ أسندَ الفعلَ إلى واو الجماعةِ؛ ليدُلَّ على شمولِ هذا الحكمِ جميعَ النَّاسِ، حتَّى مَنْ أصدرَهُ منهم، وافترى على اللّهِ كذِبًا.

سِرُّ اختيارِ الفعْلِ دالًّا على الغائبِينَ دونَ المُخاطَبينَ:

المُشركونَ - بعدَ صنيعِهِم - ليسُوا أهلًا للخِطابِ

عَدَلَ عن خطابِهِم إلى ضميرِ الغائبِينَ في قولِهِ: ﴿وَأَنْعَٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا﴾؛ لأنَّهم ليسوا أهلًا للخطابِ، ولأنَّ خطابَهُم يوحي بعتابِهِم على عدمِ ذكرِهِم اسمَ اللّهِ، وإقرارِهِم على غيرِ ذلك، وهذا غيرُ مُرادٍ.

مَغزَى ذكْرِ المفعولِ ﴿ٱسْمَ ٱللَّهِ﴾ المُضافِ إلى لفْظِ الجلالةِ:

إخبارٌ بواقعِ حالِهِم؛ بكونِهِم لا يذكرونَ اللهَ عندَ المِلمَّاتِ، بل يذكرون أسماءَ معبُوداتِهِم

وأُوثِرَ الإخبارُ عنهم بأنَّهم ﴿لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ﴾، ولم يقُل: (لا يذكرون اللّه)؛ لأنَّه إخبارٌ بالواقعِ؛ لأنَّهم لم يكونوا يذكرونَ اللّه وحدَهُ، إلّا استغاثةً به في الشَّدائدِ والكروبِ، وفي غيرِهَا يدعون اللَّاتَ والعزَّى شركًا به، وإلحادًا في أسمائِهِ.

وظاهرهُ مُوافِقٌ لمَن فسَّرَهُ بأنَّهم لا يَذكرونَ اسمَ اللّه عليها عندَ الذَّبحِ، بل يذكرونَ عليها أسماءَ الأصنامِ[2].

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصَّل: (ذكر).
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/71.

وقد وردَ (ذكرُ اسم اللّهِ) كثيرًا في القرآنِ الكريم في مواطنِ أكلِ الحلالِ الطَّيّبِ مِنَ الأنعامِ، والنَّهي عن أكلِ ما لم يُذكَرِ اسمُ اللّهِ عليه[1].

وإذا كانَ القرآنُ قد أنكرَ عليهم عدمَ ذكرِهم الاسمَ، فإنكارُهُ عليهم عدمَ ذكرِهم له ﷻ من بابٍ أولى.

سِرُّ إيثارِ ذكْرِ اسْمِ (الله) دونَ سائرِ الأسماءِ الحُسنَى:

عَلَمٌ على الذَّاتِ العَلِيَّةِ، وما عداه صِفاتٌ

أُوثِرَ ذكرُ اسم الجلالةِ (اللّه) دونَ غيرِهِ منَ الأسماءِ الحسنى؛ لأنَّه عَلَمٌ على الرّبِّ ﷻ - وما عداه صفاتٌ - دالٌّ على الذّاتِ الجامعةِ لصفات الإلهيَّةِ كلِّها، في حين أنّ سائر الأسماءِ لا يدلُّ آحادُها إلَّا على آحادِ المعاني؛ من عِلمٍ، وقدرةٍ، أو فعلٍ أو غيرِهِ؛ فهو أنسبُ للسِّياقِ؛ حيث الحديثُ عن هؤلاءِ المُشركين، وزعمِهم وافترائِهم على اللّهِ تعالى، في التَّحريم والتَّحليلِ، ولا ريبَ أنَّ هذا خوضٌ منهم في صفةِ الألوهيَّةِ، الّتي اختُصَّ اللّهُ بها وحدَهُ؛ فاسمُ الجلالةِ (اللّه) هو الأساسُ في كلمةِ التّوحيدِ (لا إلهَ إلّا اللّه)، ولا يحلُّ محلَّهُ اسمٌ آخر.

دَلالةُ حرْفِ الجرِّ (على)، وسِرُّ اختصاصِهِ دونَ غيرِهِ:

إرادةُ الاستعلاءِ على حقيقتِهِ، أو عندَ ذبْحِ الأنعامِ

(على) في قولِهِ: ﴿لَّا يَذۡكُرُونَ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَيۡهَا﴾ يشمل الأنعامَ الَّتي يريدونَ ذبحَها أو نحرَها، والأنعامَ الَّتي يحجُّونَ عليها؛ ومعنى الاستعلاء هنا يمكنُ أن يكونَ حقيقةً، كما في حالِ الرّكوبِ عليها، أو مجازًا بمعنى (عند)، إذا أُريدَ الذَّبحُ أو النَّحرُ.

بَلاغةُ التَّعريضِ بالكِنايةِ:

إدانـةُ المشركين بذكْرِهِم أسماءَ أصنامِهِم عليها

في قوله تعالى ﴿لَّا يَذۡكُرُونَ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَيۡهَا﴾ كلامٌ مُضمَرٌ يدلُّ عليه السياق، والتّقدير: لا يذكرون اسمَ اللّه عليها، بل يذكرونَ عليها أسماءَ غيرِهِ منَ الأوثانِ والأصنام؛ كهُبلَ واللّاتِ والعُزَّى ومناةَ وغيرِ ذلكَ ممَّا كانوا يعبدونَهُ ويقدِّسونَهُ من أجرامٍ سماويَّةٍ ونجومٍ

(1) ومنه قولُهُ تعالى: ﴿فَكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ ٱسۡمُ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ إِن كُنتُم بِـَٔايَٰتِهِۦ مُؤۡمِنِينَ ١١٨﴾ [الأنعام: 118].

وكواكبَ، وفي التَّنزيلِ العزيزِ: ﴿لَا تَسْجُدُواْ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُواْ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [فُصِّلت: 37]، وفيه: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾ [النَّحل: 115].

بَلاغةُ الإيجازِ بالحذْفِ في الاقتِصارِ على ما لا بُدَّ منه:

بيانُ إعْراضِهِم عن ذكْرِ اسْمِ اللهِ عليها، اتّباعًا لسُنَنِهم في ذلك

قوله: ﴿لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا﴾: اكتفتِ الآيةُ الكريمةُ بالإخبارِ عن عدمِ ذكرِهم اسمَ اللهِ على تلك الأنعام، ولم تنصَّ على ذكرِهم أسماءَ آلهتِهم؛ لأنَّ ذكرَ اسمِ اللهِ تعالى يتضمَّنُ نفيَ ما عداه.

وُجوهُ البلاغةِ في إعرابِ لفظ ﴿ٱفْتِرَآءً﴾:

الاكتفاءُ في التَّوكيدِ والتَّعليلِ وبيانِ الهيئةِ المجتمعيَّةِ بلفظٍ واحدٍ

يُعرَبُ لفظ ﴿ٱفْتِرَآءً﴾ نائبًا عنِ المصدرِ سدَّ مَسدَّهُ، مُبيِّنًا للنَّوعِ، ومُؤكِّدًا للفعلِ؛ لقيامِ التَّنوينِ مَقامَ النَّعتِ أو الصِّفةِ، كما يُعرَبُ ثانيًا مفعولًا لأجله، كقولِهِ سبحانَه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، كما يُعرَبُ حالًا منَ الفاعلِ عندَ اتِّصافِهِ بالفعلِ المذكورِ أو لازمِهِ المُقدَّرِ؛ والإعراباتُ الثَّلاثةُ واردةٌ على محلٍّ واحدٍ.

بَلاغةُ التَّنكيرِ في لفظ ﴿ٱفْتِرَآءً﴾:

دَلالةُ اللَّفظِ على سَعةِ المعنَى وإطلاقِه

دلَّ تنكيرُ لفظِ ﴿ٱفْتِرَآءً﴾ على توسيعِ المعنى وإطلاقِهِ؛ فهو افتراءٌ عظيمٌ، لا يحدُّه حدٌّ، ولا يربطُهُ قيدٌ.

عِلَّةُ الاقْتصَارِ على ذكْرِ الافتراءِ دونَ ما يُقارِبُهُ في المعنى:

بيانُ اختلاقِهِم المُفتعَلِ في التَّشريعِ، ممَّا لا حقيقةَ له

أُوثِرَ لفظُ (الافتراء) دونَ ما يرادفُهُ، كالكذبِ والإفكِ والخرصِ ونحوِ ذلكَ؛ لدلالتِهِ على الاختلاقِ المُفتعَلِ الّذي لا حقيقةَ له، مع تهيئتِهِ ومحاولةِ تسويتِهِ، وقد يكونُ هذا في إثباتِ ما لا وجودَ له، أو نفيِ ما هو ثابتٌ عمدًا. يُقال: "فَرَى الكذبَ وافْتراه: اخْتلَقه - استخرجَهُ أو ابْتكَرهُ من عندِ نفسِه وهيَّأه -: ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ [النّحل: 105]"(1).

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصَّل: (فري).

أمَّا اختصاصُ الافتراءِ بالذِّكرِ فلنفي أن يكونَ لهذا المَسلكِ فائدةٌ شخصيَّةٌ أو مجتمعيَّةٌ؛ إذ لا فائدةَ له على الإطلاقِ، ولا مصلحةَ وراءَهُ؛ وفي ذكرِ المُتعلَّقِ الجارِّ والمجرورِ عقبَ بيانِ المفعولاتِ والظّروفِ والحالِ ﴿ٱفۡتِرَآءً عَلَيۡهِۚ﴾ زيادةُ تقبيحٍ، وأنَّه افتراءٌ مَفضوحٌ.

فكان قولُهُ: ﴿ٱفۡتِرَآءً﴾ أنسبَ للسِّياقِ؛ حيث إنَّه وردَ في صفةٍ مَنفيَّةٍ زعمًا منهم أنَّ ذلك حكمُ اللّه.

مغزَى قولِهِ سبحانَه في الآيةِ: ﴿ٱفۡتِرَآءً عَلَيۡهِۚ﴾:

التَّقوُّلُ على اللهِ، وجُحودُ الحقِّ ونُكرانُه، انحرافٌ وتَزييفٌ للحقّ

أن يكونَ ثمرةُ مناقشتِهم ومفاتشتِهم فيما ارتَضوا نتيجتَه حاكمةً عليهم؛ أنَّ محصولَها خلاصةُ دفاعِهِمْ، ورحيقُ ما أُشْرِبُوهُ وخالصُ ما صدروا عنه، أمَّا مناقشتُهم ففي السُّورةِ طرفٌ تمحيصيٌّ كاشفٌ، وفي (يُونُسَ) منها ما ليس عنه صارفٌ، وذلك قولُهُ: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزۡقٖ فَجَعَلۡتُم مِّنۡهُ حَرَامٗا وَحَلَٰلٗا قُلۡ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمۡۖ أَمۡ عَلَى ٱللَّهِ تَفۡتَرُونَ ٥٩﴾ [يُونُس: 59].

وأمّا موضوعُ الإذنِ الإلهيِّ فإنَّ ادِّعاءَهُ - ولو كذبًا - ليسَ باليسيرِ، والبرهانُ الشَّاهدُ عليه - بغير حقٍّ - عسير، وهذا الَّذي جاءَ ذِكرُهُ طَرَفًا مُمحِّصًا مُخلِّصًا عنه في السُّورةِ: ﴿قُلۡ هَلۡ عِندَكُم مِّنۡ عِلۡمٖ فَتُخۡرِجُوهُ لَنَآۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَخۡرُصُونَ ١٤٨﴾ [الأنعام: 148]، وهذا دفعٌ يبديهِ مَن يبديهِ، وهو فيما يبدو لا يجديه؛ لأنَّ الجرمَ قائمٌ مُشاهَدٌ: بَحَائرُ وسوائبُ ووصائلُ وحَوَام، تُرَى في الأثناء في كلِّ الأنحاءِ؛ فالجرمُ مُطَّرِدٌ مُستمرٌّ غيرُ مُنقطعٍ ولا مُتوقِّفٍ؛ هذا على صعيدِ جنايتِهم بالفعل، وأمَّا على جانبِ الجنايةِ الثَّالثةِ فهو لياذُهم بالصَّمتِ المُضلِّ عن ذكرِ اسمِ اللّهِ على أنعامِهم عندَ الذَّبحِ؛ وهو واجبٌ، وعند الحَلْبِ؛ وهو مُستَحَبٌّ، وكلاهما مأمورٌ به، فهو جحودُ الحقِّ الأصيلِ للخالقِ الرَّازقِ المُنعِمِ، وهو اللّهُ تعالى، وربَّما جرى على ألسنتِهم ما هو

أبلغُ في الكفرِ، وأدفَعُ لهم بالعُهرِ: أنْ يذكروا عليها مُضادَّةً ومُنَادَّةً ومُحَادَّةً اسمَ غيرِهِ منَ الأوثانِ والأصنامِ.

فائِدةُ تأخيرِ ذكْرِهِ ﴿ٱفۡتِرَآءً﴾ إلى عَقِيبِ الجُملةِ الثَّالثةِ:

انتظامُ التَّعقيبِ على الجُملِ الثّلاثِ

لتحتملَ التَّعقيبَ على الجملتين الأخيرتين، بلْ وتَعَدِّيهمَا حتّى تنتظمَ التَّعقيبَ على الجملِ الثّلاثِ، وهل تكونُ الإعراباتُ موَزَّعةً أو تكونُ لكلِّ جملةٍ إعراباتُها الثَّلاثةُ.

مغزَى ذكْرِ المُتعلَّقِ (الجارّ والمجرور) ﴿عَلَيۡهِۚ﴾:

الدَّلالةُ على بَشاعةِ كذِبِ المشركين، وسُوءِ مقاصِدِهم

وفائدةُ ذكرِ الجارِّ والمجرورِ ﴿عَلَيۡهِۚ﴾ عقيبَ قولِهِ: ﴿ٱفۡتِرَآءً﴾؛ ليدُلَّ على بشاعةِ كذبِهِم؛ إذ إنَّهم يفترون على اللّهِ الكذبَ، ﴿وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ٧٥﴾ [آل عمران: 75].

فائِدةُ الوقْفِ علي لفظ ﴿عَلَيۡهِۚ﴾ أداءً ومضمونا:

ذَهابُ العقْلِ في جَزاءِ اللهِ لهم كلَّ مَذهَبٍ، مَقصودٌ في الدّلالةِ

الوقفُ على قولِهِ: ﴿ٱفۡتِرَآءً عَلَيۡهِۚ﴾ وقفٌ كافٍ[1]؛ ليقفَ القارئُ والمُستمِعُ على جريمة المشركين النَّكراءِ، وليذهبَ عقلُهُ في الجزاءِ كلَّ مَذهَبٍ؛ ليرى حكمةَ اللّهِ الخالقِ، وحُكْمَ اللّهِ العادلِ في هؤلاء المفترينَ وأمثالِهم.

نُكتةُ التَّنويع بين الضّمير والجلالة:

عَدمُ ذكرِهم اسمَ اللهِ على ذبائِحِهم يتناسبُ مع عدَمِ ذكْرِه في الموضعِ الأوّلِ

أُوثِرَ التَّعبيرُ بالضَّميرِ هنا في قولِهِ: ﴿ٱفۡتِرَآءً عَلَيۡهِۚ﴾، وصُرِّحَ باسمِ الجلالةِ في قولِهِ: ﴿وَحَرَّمُواْ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفۡتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِۚ﴾ مع قربِ ذكرِهِ منه بعدَ آيتين؛ لمناسبة السِّياقِ في كلٍّ، ففي الآيةِ الَّتي معنا لم يُذكرِ اسمُ الجلالةِ في قولِهِ: ﴿ٱفۡتِرَآءً عَلَيۡهِۚ﴾؛ لمناسبةِ عدمِ ذكرِهِم اسمَ اللّهِ، فأضمرَ، في حين صُرِّحَ به في المَوضعِ اللّاحقِ؛ لزيادةِ المَهابةِ في القلوبِ؛ لأنَّ جريمةَ قتلِ الأولادِ أشدُّ وأعظمُ، وزيدَ عليها تحريمُ ما رزقَهُم اللّهُ، فناسبَ التَّصريحَ باسمِ الجلالةِ.

(1) أبو عمرو الدّانّي، المكتفى في الوقف والابتدا: 260 - 261.

بَلاغةُ الفصْلِ بين ﴿ٱفۡتِرَآءً عَلَيۡهِۚ﴾، وبينَ ما بعدَه:

الاستِئنافُ البَيانيُّ؛ باعتبارِ الافتراءِ على الخالِقِ أمرًا شَنيعًا عندَ جميعِ الخلْقِ

فصلَ قوله: ﴿سَيَجۡزِيهِم بِمَا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ﴾ عمَّا قبلَه؛ لأنَّه استئنافٌ بيانيٌّ؛ لأنَّ الافتراءَ على الخالقِ أمرٌ شنيعٌ عندَ جميعِ الخلقِ، فالإخبارُ به يثيرُ سُؤالَ مَن يَسألُ عمَّا سَيَلقَونَهُ من جزاءِ افترائِهم، فأُجيبَ بأنَّ اللهَ سَيَجزِيهِم بما كانُوا يَفتَرُون، وقَد أُبهِمَ الجَزاءُ للتَّهويلِ لتذهبَ النُّفوسُ كلَّ مَذهَبٍ مُمْكِنٍ في أنواعِ الجزاءِ على الإثمِ[1].

مَغزَى تَذْييلِ الآيةِ بجُملةِ الجَزاءِ، ودَلالةُ ذلك:

الوعيدُ والتَّهديدُ لهؤلاء المفترينَ، هو الأنسبُ لحالِهم وقَوْلِهم

جاءَ قولُهُ: ﴿سَيَجۡزِيهِم بِمَا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ﴾ تذييلًا لمَا جاءَ في الآيةِ الكريمةِ من قولِ المُشركينَ، وما يحملُه قولُهُم من ادِّعاءاتٍ وافتراءاتٍ على اللهِ تعالى، ولأنَّ اللهَ عَزيزٌ ذُو انتِقَامٍ، فَكانَ الأخذُ بالشِّدَّةِ هُو المتوقَّعُ، والحُكمُ النَّاجزُ غيرُ المُمهِلِ هُوَ الأسرعُ.

لقد قضى بإمهالهم وقتًا قريبًا حتَّى لا يُؤاخذَ غيرُ مُقيمٍ على جُرمِهِ، وأنَّ مَن تَابَ وأنابَ، آبَ بلا عقابٍ، وأنَّ مَنْ غاضَبَ وواثبَ، وغامرَ وكابرَ، وتَوَلَّى وكَفرَ، ﴿فَلَا يُجۡزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٨٤﴾ [القَصص: 84]، ﴿جَزَآءً وِفَاقًا ٢٦﴾ [النَّبأ: 26]، ﴿وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ ٨﴾ [الشّورى: 8]، كلُّ ذلك أُجمِلَ في هذا المنطوقِ البديعِ: ﴿سَيَجۡزِيهِم بِمَا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ﴾.

سِرُّ إيثارِ جُملةِ الجزاءِ أن تكونَ فعليَّةَ البَدْءِ والختامِ:

تجدُّدُ جَزاءِ اللهِ لهم واستِمرارُهُ، جَزاءً وفاقًا

وأُوثِرَ أن تبدأَ جملةُ الجزاءِ بفعلٍ ﴿سَيَجۡزِيهِم﴾، وتنتهي بفعلٍ كذلك ﴿يَفۡتَرُونَ﴾؛ دلالةً على تجدُّدِ الجزاءِ واستمرارِهِ؛ ليوافقَ استمرارَ افترائِهِم المُعبَّرِ عنه بالفعلِ المضارعِ، فالجزاءُ من جنسِ العملِ؛ "أي: سيجزون الجزاءَ الشَّديدَ الأليمَ بسببِ هذا الافتراءِ القبيحِ"[2].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/109.
(2) رضا، تفسير المنار: 8/112.

نُكتةُ اختيارِ الفعْلِ (يجزي) دونَ مُرادِفاتِهِ:

الإشارةُ إلى أنَّ جَزاءَ اللهِ يَفيضُ بالعَدلِ المُطْلَقِ

وأُوثِرَ الفعلُ (يجزي) دونَ (يعاقبُ) أو (يحاسبُ) أو (يحكمُ) أو (يقضي)، وما أشبه، أو(يلعنُ) و(يعذّبُ) و(يمقتُ) وبابه؛ لأنَّ الجزاءَ تحصيلُ شيءٍ (خيرٍ أو شرٍّ) نتيجة عملٍ ما أو معالجةٍ؛ فالتَّعبيرُ بالفعلِ (يجزي) يوحي بالعدلِ المُطلَقِ، حيث إنَّ القضاءَ فيهم نتيجةُ أعمالِهم.

سِرُّ تصْديرِ الفعل ﴿سَيَجْزِيهِم﴾ بالسِّين وتخليصِهِ للاستقبالِ:

إشعارُ الخَصْمِ بالعَدْلِ في الإمهالِ والعُقوبةِ

فالسِّينُ للمُهلةِ؛ لأنَّه لا تجريمَ إلَّا بنصٍّ، ولا عقوبةَ إلَّا بعدَ نهيٍ؛ فقد أشارَ المنطوقُ إلى ذلك، كأنَّ هذه الآيةَ معهدٌ وقانونٌ وحكمةٌ يعلِّمُ الحُكمَ بالعدلِ والقضاءَ بالرَّحمة، ويعيِّنُ الاختيارَ الصَّالحَ لا مثيلَ له ولا بديلَ. وذِكْرُ الجزاءِ فعلًا مُعاقَبًا به يقتضي دقَّةَ التَّقديرِ وصحَّةَ التَّكييفِ وعدالةَ التَّصويرِ، وجمعُهم في ضميرِ الجمعِ دليلُ المساواةِ لذوي الجرْمِ الواحدِ في العقوبةِ، فَكُلُّهم مُدَانُون، وهم جميعًا سواءٌ.

دَلالةُ إيثارِ تصْديرِ الفعل (بالسِّين) على(سوف):

تهديدُ المُخطِئِ بقُربِ الجَزاءِ، وعَدمِ تأخيرِهِ حتَّى لا يتمادَى في الاجْتِراءِ

أُوثِرَ الحرفُ الدّالُّ على الاستقبالِ القريبِ للإشارةِ إلى المُهلةِ الَّتي قلنا من جرَّاءِ سينِ الاستقبالِ: تصلحُ أن تكونَ مؤشِّرَ تَدَرُّجٍ في العقوبةِ، يبدأُ بلفتِ النَّظرِ، ومثلُ ذلك يُصلِحُ مَن زَلَّ مِنَ الكرامِ، وإن لم يُفْلِحْ مع اللِّئامِ، ولا تصلحُ (سوف) هنا؛ لأنَّ تأخيرَ الجزاءِ مع ذلك الافتراءِ سبيلٌ لزيادةِ الاجتراءِ.

النُّكتةُ في إضْمارِ الفاعلِ بعَدمِ النَّصِّ عليه ذِكرًا:

تهويلُ الجَزاءِ لهم، وزيادةُ التَّرهيبِ ممَّن يُجازِيهِم

نلحظُ إضمارَ الفاعلِ هنا في قولِهِ: ﴿سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾؛ لتهويلِ الجزاءِ، وزيادةِ التَّرهيبِ ممَّن يُجازيهم؛ حيث افتروا عليه، فحَرَّمُوا ذكرَ اسمِهِ على أنعامِهم، فَحُرِمُوا مِن ذكرِ اسمِهِ عندَ الجزاءِ، فضلًا عن حرمانِ اللِّقاءِ.

الغَرَضُ من اتِّصالِ الفعْلِ بضَميرِ المفعولِ الأوَّلِ: ﴿سَيَجۡزِيهِم﴾:

تهديدُهم بسُرعةِ الجَزاءِ، دليلٌ على فَداحةِ الذَّنْبِ المُقْتَرَفِ

وفي اتِّصالِ الفعلِ (سيجزي) بضميرِ المفعولِ إشارةٌ إلى زيادةِ تهديدِهم بسرعةِ الجزاءِ، فالفعلُ مَحفوفٌ بالوعيدِ مِن بين يديه ومِن خلفِهِ، بحرفِ الاستقبالِ القريبِ، وباتِّصال ضميرِ المفعولِ.

دَلالةُ حذْفِ المفعولِ الثّاني، والنُّكتةُ في ذلك:

ذَهابُ النُّفوسِ كلَّ مَذهَبٍ مُمكِنٍ في أنواعِ الجَزاءِ

حذفُ المفعولِ الثّاني، وهو كنهُ الجزاءِ أو نوعُهُ؛ إذ قال: سيجزيهم، ولم يذكرْ جزاءً، وأُبهِمَ الجزاءُ للتَّهويلِ؛ لتذهبَ النُّفوسُ كلَّ مَذهَبٍ مُمكِنٍ في أنواعِ الجزاءِ على الإثمِ[1]، وهذا من بلاغةِ الإيجازِ في كونِ هذا الحذفِ أبلغَ منَ الذِّكرِ تهديدًا، وأحكمَ منه وعيدًا.

رَوعةُ الإجمالِ في ذكْرِ المتوَعَّدِ عليه، في الآيةِ الكريمةِ:

افتراؤُهم لا حدَّ له، فكانَ جَزاؤُهم لا حدَّ له

في قولِهِ: ﴿بِمَا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ﴾، نلمح فيها أنَّهُم لَمْ يتوقّفوا عنِ الإجرامِ، فيُحَدُّ لهم عذابٌ على قَدرِ ما اقتَرَفُوهُ أوَّلًا، وأنَّهم لمّا عطَّلوا عقولَهم عن مُوافقةِ الفِطرَةِ، لتكونَ مُؤثِّرةً بِرَدِّهم عن هذا التَّقحُّمِ في التَّحليلِ والتَّحريمِ، جوّزوا باستبعادِ عقولِهم عن أن يكونَ متناوَلًا لها حدودُ ما تُوعِّدوا به منَ العقوبةِ والجزاءِ وصنوفِهِ وأنواعِهِ إلى غيرِ ذلك.

سِرُّ إيثارِ المجيءِ بالباءِ الجارَّةِ:

غزارةُ المعاني المُستنبَطةِ منَ الباءِ، مع احتمالِ السّببيَّةِ

تأتي الباءُ بمعنى (عن) أو لِلبَدَلِيَّةِ والعِوَضِ[2]، أو أنَّ الباءَ للتَّسبيبِ، و(ما) لِرَدِّ المُتندِّمِ إلى أوَّلِ مرَّةٍ خالفَ، فَتُرِكَ، فَأَمِنَ، وأساءَ الأدَبَ، فاستُدرِجَ، وأُملِيَ لَهُ، فَهَوِيَ، وغَوِيَ حتَّى أوصلَه الإلفُ والاعتيادُ، واستمراءُ الارتيادِ إلى مالا سبيلَ إلى دفعِه إن وقع، و(كان) تردُّ إلى الحدثِ الأوَّلِ، وتدلُّ على الاستمرارِ، ومَن أقامَ على الشَّرِّ عُوقِبَ بالمُقَامَةِ في دارِ جزاتِهِ؛ وذلك لإدامتِهِ الافتراءَ، فإنَّ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/109أ.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/109أ.

جهنَّمَ لا تكونُ إلّا لمَن لو عاينَهَا، وَرُدَّ إلى الدُّنيا ليُصلحَ ما كانَ أفسدَ، لعادَ إلى عصيانِهِ الَّذي كانَ قبلَ عيانِهِ، فهل رُئِيَ أو سُمِعَ قبلَ هذَا أو بعدَهُ أعدَلُ منهُ أو أكملُ، أو أمثلُ منهُ أو أجملُ؟

سِرُّ إيثارِ المصْدرِ المؤوَّلِ على المصْدرِ الصَّريحِ:

إبهام جرائمِ المشركين وتهويلُ افتراءاتِهم، تعبيرٌ عن فظاعةِ حالِهم

قوله: ﴿بِمَا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ﴾، أُوثِرَ فيه استعمالُ المصدرِ المؤوَّلِ من (ما) المصدريَّة وما بعدَها على استعمالِ المصدرِ الصَّريحِ (كون)؛ وذلك لمَا تحتملُهُ (ما) من أكثرِ من معنًى، والتَّفنُّن في الإيرادِ باحتمالِها هنا للمصدريَّةِ والموصوليَّةِ والتَّوكيديَّةِ، وأن تكونَ نكرةً تامَّةً بمعنى شيءٍ، وكلُّ تلك المعاني تؤكِّدُ إبهامَ جرائمِهم، وعظيمَ افتراءاتِهم، وما في الفعلِ الماضي من إثباتٍ وتأكيدٍ، وغير ذلك من معاني التَّهويلِ والتَّفخيمِ لافترائِهِمُ الشَّنيعِ.

فائِدةُ إيرادِ فعْلِ الكوْنِ بعدَ (مَا):

لُحوقُ الجزاءِ بهم من جِهاتٍ شتَّى

وردَ فعلُ الكونِ تابعًا لـ(ما)، دونَ أن تُولَّى كلمةَ الفاصلةِ ﴿يَفۡتَرُونَ﴾ أو رأس الآيةِ أو الماضي منها أو المصدر، فلم يقُل: (بما يفترونَ) ولا (بما افتروا) أو (بافترائِهم) أو (بشيءٍ افتروه)؛ لإفادةِ كلمةِ ﴿كَانُواْ﴾ دوامَ افترائِهم وتجدُّدَه؛ أي: بسبب افترائِهم، أو بمقابلةِ افترائِهم المُتجدِّدِ المُستمرِّ الَّذي هو قولُهُم السَّابقُ، ودخولُ (ما) على ﴿كَانُواْ﴾ يشيرُ إلى أنَّ لحوقَ الجزاءِ بهم من جهاتٍ شتَّى[1].

تَوجِيهُ مَجيءِ فعْلِ الكوْنِ مَاضيًا ﴿كَانُواْ﴾:

تحقُّقُ افترائِهم عمْدًا، فكان تَقْريعُهم شَديدًا

والتَّعبيرُ بصيغةِ الماضي ﴿كَانُواْ﴾ يدُلُّ على تحقُّقِ افترائِهم عمْدًا، فهم قد دبَّروا ذلك سلَفًا، واجتمعُوا عليه، وإسنادُ الفعلِ إلى ضميرِ الجماعةِ يشيرُ إلى ذلك.

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 1/42.

النُّكتةُ البيانيَّةُ في مَجيءِ خبرِ (كانَ) جُملةً فعليَّةً:

عادةُ القرآنِ في هذا الأسلوبِ (بما كانوا يفعلون) أن يأتيَ خبرُ (كان) جملةً فعليَّةً فعلُها مضارعٌ، وذلك نحو قولِه تعالى: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡذِبُونَ ١٠﴾ [البقرة: 10]؛ وذلك لتدلَّ جملةُ الخبرِ على التّجدُّدِ والاستمرارِ.

الدّلالةُ على التَّجدُّدِ والاستمرارِ، تُفيدُ عدمَ خُلوِّ الحياةِ منَ الافتراءِ

بديعُ الجِناسِ غيرِ التَّامِّ في اختيارِ الفعْلِ ﴿يَفۡتَرُونَ﴾:

قوله: ﴿بِمَا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ﴾، أُوثِرَ اختيارُ لفظِ ﴿يَفۡتَرُونَ﴾ دونَ غيرِهِ من مرادفاتِهِ؛ لِمَا في لفظِ الافتراءِ من معنى الاختلاقِ المتعمَّدِ، ولتصديرِ الفاصلةِ[1] بلفظٍ يوافقُ ما وردَ قبلَها من قولِه: ﴿ٱفۡتِرَآءً عَلَيۡهِۚ﴾، وهو منَ الجناسِ غيرِ التَّامِّ؛ ليشيرَ إلى طولِ عهدِ افترائِهم وتجدُّدِه. ودلَّت واو الجماعةِ على تحزُّبِهم، واجتماعِهم على هذا الافتراءِ، ودخولِ السَّاكتينَ معهم في جريمتِهم النَّكراءِ.

الإشارةُ إلى الاختلاقِ المُتعمَّدِ، وتصديرُ الفاصلةِ بموافقةِ ما قبلَها

إجراء الفعل ﴿يَفۡتَرُونَ﴾ مجرَى الفعلِ اللّازمِ:

ولم يُذكَرْ مفعولٌ للفعلِ ﴿يَفۡتَرُونَ﴾؛ إجراءً له مَجرَى الفعلِ اللَّازمِ، واكتفاءً بما تقدَّمَ، وفُهِمَ منَ السِّياقِ، ومراعاةً للفاصلةِ؛ فإنَّها متساويةٌ مع ما قبلَها، ﴿فَذَرۡهُمۡ وَمَا يَفۡتَرُونَ ١٣٧﴾ [الأنعام: 137].

حذفُ المفعولِ لدلالةِ السِّياقِ عليه، ومُراعاةً للفاصلةِ

رَوْعةُ القطْعِ ﴿يَفۡتَرُونَ﴾ في نهايةِ الآيةِ:

إعجازُهُ في استقلالِهِ بالبلاغِ والبيانِ الشَّافي، رُغْمَ أنَّه في الآيةِ الكريمةِ مثيرٌ مُحفِّزٌ للفكرِ؛ لأنَّ قطْعَهُ على ﴿يَفۡتَرُونَ﴾ مُشبهٌ في النَّسيجِ الأدبيِّ لعقدةِ القصَّةِ الَّتي تغري بالتَّتبُّعِ والاستقصاءِ حتّى يقفَ المتلقِّي على كافَّةِ تفاصيلِهَا؛ فهي فاصلةٌ مُشوِّقةٌ والاسترسالُ في تأمُّلِها يفضي إلى معرفةِ التَّنزيلِ كلِّهِ وتاريخِ التَّشريعِ خلالَه وأثناءه.

الفاصلةُ مُثيرةٌ للتَّشويقِ والتَّأمُّلِ

(1) السّيوطيّ، الإتقان: 2/277.

إعْجَازُ الإيجازِ بالقصْرِ، في الآيةِ الكريمةِ:

اختواءُ الآية على معانٍ غزيرةٍ في جُملٍ قصِيرةٍ

فانظر كيف جاءَ في أثناء كلماتِ الآيةِ، الَّتي هي أربعُ جملٍ قصيرةٍ من قضايا العدلِ والأخلاقِ: التَّنبيهُ إلى الرِّفق بالحيوان، والانتفاعُ الصَّالحُ ببهيمة الأنعام، والزُّروعُ المشتملةُ على الأقواتِ والخيراتِ، والمساواةُ بين النَّاسِ في الحقوقِ والواجباتِ، ومنعَتِ التَّحكُّمَ المُذِلَّ المتعسِّفَ بالحرمانِ منَ الحقوقِ الأساسيَّةِ جرَّاءَ تسلُّطِ بعضهم على بعضٍ، وإضاعةَ الاستفادةِ منَ المقدَّراتِ الاقتصاديَّةِ منَ الثَّروةِ، وتفويتَ منفعتِها، ونفَّرَت منَ الكذبِ والباطلِ والبناءِ على الظَّنِّ والتَّخمينِ بلا علمٍ ويقينٍ، وجحدِ الحقِّ الأعلى، بالدَّينونةِ له، وذِكرِ اسمِهِ على الذَّبائحِ والمَطعوماتِ إحلالًا وتبرُّكًا، ومنَ الافتراءِ ابتداءً واستمراءً.

وذَكَرَتْ ثلاثَ قضايا خاصمَ فيها مرتكبوها الحقَّ والعقلَ والفطرةَ والأخلاقَ؛ وكلُّ ذلك وجملُها الأربع لا تزيدُ على ثلاثين كلمةً؛ ثم إذا هي تعرضُ الوقائعَ والادِّعاءَ العامَّ وأدلَّةَ التَّجريمِ والتَّحريمِ، ودفوعَ المَتّهمين ومناقشةَ الدُّفوعِ والحكمَ الفصلَ النّهائيَّ، فهل رُئِيَ أعجبُ ولا أغربُ من هذا؟ ثمّ يكونُ الحكمُ مُنطويًا على استصلاحِ المَتّهمينَ برفعِ الخسيسةِ وحجبِ النَّقيصةِ والأخذِ باليدِ للتَّوبةِ، فمَنِ انتهى؛ فلهُ ما سلَفَ وأمرُهُ إلى اللهِ، ومَن عادَ فَكَالمُلْقِي بيدِهِ إلى التَّهلكةِ، فلا تذهبْ نفسُك عليهم حسراتٍ.

﴿وَقَالُواْ مَا فِي بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلۡأَنۡعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِنَاۖ وَإِن يَكُن مَّيۡتَةٗ فَهُمۡ فِيهِ شُرَكَآءُۚ سَيَجۡزِيهِمۡ وَصۡفَهُمۡۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٞ﴾ [الأنعام: 139]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

مُتابعةُ حكايةِ افتراءاتِ المُشركينَ، إرفاقًا للّاحقِ منها بالسّابقِ

لـمَّا ذكر - في الآيةِ السّابقةِ - من سَفَهِهم ما فيه إقدامٌ محضٌ، وما فيه إحجامٌ خالصٌ محتٌ[1]؛ أتبعَهُ ما هو مُختلَطٌ منهما فقالَ: ﴿وَقَالُواْ مَا فِي بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلۡأَنۡعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا﴾[2]، فهذا نوعٌ رابعٌ من قضاياهم الباطلةِ.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿بُطُونِ﴾: البَاءُ والطَّاءُ والنُّونُ أَصلٌ واحِدٌ، لا يَكادُ يُخْلِفُ، وهو إِنسِيُّ الشَّيءِ والمُقبِلُ منهُ؛ فَالبَطنُ خِلافُ الظَّهرِ، وأصلُ البَطنِ الجارحة، وجمعُه بُطُون، قال تعالى: ﴿وَإِذۡ أَنتُمۡ أَجِنَّةٞ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡۖ﴾ [النّجم: 32]. والمعنى المحوريُّ هو: التَّعبيرُ عنِ الجَوفِ الدَّاخليِّ للشَّيءِ، حيث يَخْفَى فيه ما يَدخلُ إليه: ﴿إِنِّي نَذَرۡتُ لَكَ مَا فِي بَطۡنِي مُحَرَّرٗا﴾ [آل عمران: 35]، ﴿يَخۡرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٞ مُّخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهُۥ﴾ [النّحل: 69][3].

2) ﴿خَالِصَةٌ﴾: الخَاءُ واللَّامُ والصَّادُ أَصلٌ واحِدٌ مُطَّرِدٌ، وهو تَنقِيَةُ الشَّيءِ وتَهذِيبُهُ، يَقولونَ: خَلَّصتُهُ مِن كَذَا، وخَلَصَ هُوَ، والخالصُ كالصَّافي، إلَّا أنَّ الخَالِصَ هو ما زالَ عنه شَوبُهُ بعدَ أن

(1) يُقال: عربيٌّ بَحتٌ مَحتٌ، أي: خَالصٌ، والمَحتُ: الشّديدُ من كلِّ شيءٍ، والمعنى هنا: إحجامٌ شديدٌ، ليس فيه تردُّدٌ. يُنظر: ابن منظور، لسان العرب: (محت).

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/285.

(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصَّل: (بطن).

كانَ فيه، والصَّافي قد يُقال لمَا لا شوبَ فيه[1]. والمعنى المحوريُّ: نفاذُ الشَّيءِ نقيًّا من أثناء ما كانَ يُخالطُه أو يَشوبُه[2].

3) ﴿أَزْوَٰجًا﴾: الزَّاءُ والوَاوُ والجِيمُ أَصلٌ، يَدُلُّ على مُقَارَنَةِ شَيءٍ لِشَيءٍ، مِن ذَلِكَ الزَّوجُ زَوجُ المرأَةِ، والمَرأَةُ زَوجُ بَعلِهَا، وَهُوَ الفَصِيحُ، يُقالُ لكلِّ واحدٍ منَ القرينين منَ الذَّكرِ والأنثى في الحيواناتِ المُتَزَاوِجَةِ زَوجٌ، ولكلِّ قرينين فيها وفي غيرها زوجٌ، والمعنى المحوريُّ: تداخُلٌ بين شيءٍ وآخرَ، حتّى يشتبكا، ويختلطا ويرتبطا معًا - كالذَّكرِ بالأنثى، ولا يُقال للشّيء: زَوْجٌ، إلَّا وهو مُرتبِطٌ بآخر ارتباطًا مادِّيًّا أو معنويًّا، فهي تُطلَقُ على الفردِ بهذا القيدِ[3].

4) ﴿وَصْفَهُمْ﴾: الوَاوُ والصَّادُ والفَاءُ أَصلٌ واحِدٌ، هُوَ تَحلِيَةُ الشَّيءِ، وَوَصَفتُهُ أَصِفُهُ وَصفًا، وَالصِّفَةُ: الأَمَارَةُ اللَّازِمَةُ لِلشَّيءِ، والوَصفُ: ذكرُ الشَّيءِ بحِليتِهِ ونَعتِهِ، والصِّفةُ: الحالةُ الّتي عليها الشَّيء من حِليتِهِ ونعتِهِ، ﴿سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ﴾ [الأنعام: 139]؛ أي: كذِبَهم وافتراءَهم[4]. والصّفةُ حِلْيَةُ الشّيءِ من هذا؛ لأنَّها تُبيِّنُ هيئَتَه وتُصوِّرُه، وكأنَّ الأصلَ أنَّ الصِّفةَ حليةُ الشّيءِ الجيِّدِ الصِّفة المهيَّأ المسوِّي، ثم عمَّمَها الاستعمالُ في مُطلَقِ الوصفِ[5].

5) ﴿حَكِيمٌ﴾: الحَاءُ والكافُ والمِيمُ أَصلٌ واحِدٌ، وهو المَنعُ، وأَوَّلُ ذَلِكَ الحُكمُ، وهو المَنعُ مِنَ الظُّلمِ؛ وسُمِّيَتْ حَكَمَةُ الدَّابَّةِ لِأَنَّهَا تَمنَعُهَا، يُقَالُ: حَكَمْتُ الدَّابَّةَ وَأَحكَمتُهَا، ويُقَالُ: حَكَمْتُ السَّفِيهَ وَأَحكَمتُهُ؛ إِذَا أخذتُ على يَدَيهِ، والحِكمةُ: إصابةُ الحقِّ بالعلمِ والعقلِ، فالحِكمةُ منَ اللهِ تعالى: معرفةُ الأشياءِ وإيجادُها على غايةِ الإحكامِ، ومنَ الإنسانِ: معرفةُ الموجوداتِ وفعلُ الخيراتِ. ووُصِفَ اللهُ ﷻ بالحكيم؛ بمعنى (المُحْكِم) في ما يقضي به، ويُجريه سبحانَه[6].

6) ﴿عَلِيمٌ﴾: العَينُ واللَّامُ والمِيمُ أَصلٌ صَحِيحٌ وَاحِدٌ، يدُلُّ على أَثَرٍ بالشَّيءِ، يَتَمَيَّزُ بِهِ

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (خلص).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصَّل: (خلص).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصَّل: (زوج).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (وصف).
(5) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصَّل: (وصف).
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصَّل: (حكم).

عَن غَيرِهِ؛ مِن ذَلِكَ العَلَامَةُ، وهِيَ مَعرُوفَةٌ[1]. والعلمُ: إدراكُ الشَّيء بحقيقتِهِ[2]، "والمعرفةُ: العِلْمُ المُتعلِّقُ بالمفرداتِ، ويسبقُه الجهلُ، بخلافِ أصلِ العلم؛ فإنَّه يتعلَّقُ بالنِّسَبِ، وقد لا يسبقُه الجهلُ، ولذلك لم يوصفِ اللّهُ تعالى بالمعرفة، ووُصِفَ بالعلم"[3].

المَعْنى الإِجْماليُّ:

وَخَصَّصَ هؤلاء المشركون نِتَاجَ البَحَائِرِ وَالسَّوَائِبِ لِذُكُورِهِم، وَحَرَّمُوهُ على إِنَاثِهِم، فلا تَشرَبُ الإِنَاثُ مِن لَبَنِ هَذِهِ الأَنعَامِ، وإِذَا وَلَدَتْ ذَكَرًا كانَ لَحمُهُ مُخَصَّصًا لِلذُّكُورِ دُونَ الإِنَاثِ، أَمَّا إِذَا وَلَدَت أُنثَى فَتُترَكُ لِلنِّتَاجِ، وإذا وَلَدَت مَولُودًا مَيِّتًا اشتَرَكَ في أَكلِهِ الذُّكُورُ والإِناثُ، سَيَجزِيهِمُ اللّهُ تعالى على قَولِهِمُ الكَذِبَ في ذَلِكَ؛ إِنَّهُ تعالى حَكِيمٌ في أَفعَالِهِ وشَرعِهِ، وتدبيرِ أمورِ خلقِهِ، عَلِيمٌ بأَعمالِ العِبَادِ.

صُورةٌ رابعةٌ لجَراءةِ المشركينَ على التَّحريمِ والتِّحليلِ، من غيرِ سنَدٍ ولا دليلٍ

الإِيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

دَلالةُ الواوِ في قولِهِ تعالى: ﴿وَقَالُواْ﴾:

الواو عاطفةٌ لجملةِ ﴿وَقَالُواْ مَا فِي بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا﴾ على جملةِ ﴿وَقَالُواْ هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ﴾؛ لربطِ كلامِهِم اللّاحقِ بالسَّابقِ؛ لِمَا في القولين من بشاعةٍ، وزيادةٍ في الإجرامِ والافتراءِ؛ فالكلامُ مَوصولٌ في بيانِ ما حرّمُوه على أنفسِهِم أو بعضِهِم منَ الأنعامِ، وما في بطونِ هذه الأنعامِ هي منَ الإناثِ؛ لأنَّ الذّكورَ لا يكونُ في بطونِها شيءٌ ينالُه الرّجالُ دونَ النِّساءِ؛ وما في بطونِها الّذي يُحرَّمُ على النِّساءِ، ويباحُ للرِّجالِ خالصةً؛ قيل: هو اللَّبنُ، وقيل: هو الحملُ، وأرى أنَّه يشملُ الأمرين[4].

بيانُ ما في قَولِهِم من بشاعةٍ وزيادةٍ في الإجرامِ والافتراءِ

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (علم).
(2) الرّاغب، المفردات: (علم).
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 1/466.
(4) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2693.

الغَرَضُ من ذكْرِ ﴿وَقَالُواْ﴾ ثانيةً، دونَ ما يدُلُّ عليه ممَّا تقدَّمَ وممَّا لَحِقَ:

كشفُ زعْمِهِم على الملأِ، وفضحُ افْتراءاتِهِم أمامَ النَّاسِ

وأُعيدَ فعلُ: (قالوا) لاختلافِ غرضِ المَقولِ[1] ممَّا تقدَّمَ كـ (زعموا) أو (افتروا)، أو ممَّا سيأتي كـ (وصفوا)، وكلا القولين باطلٌ، ويقودُهم الباطلُ إلى باطلٍ آخرَ، فادّعوا أنَّ ما في بطونِ هذه الأنعامِ من اللَّبنِ ومنَ الأجنَّةِ إذا نزلَت حيَّةً فهي للذّكورِ منهم فقط، ولا تأكلُ النِّساءُ من ذلك شيئًا، وإن ماتَ منها شيءٌ أكلَه الرّجالُ والنِّساءُ، وهذا يدُلُّ على التَّشقيقِ في القسمةِ[2]. كما أنَّ في تَكرارِ الفعلِ (قالوا) إعلانًا لزعمِهِم على الملأِ؛ ليفضحَهم، وليكشفَ افتراءاتِهِم أمامَ النَّاسِ جميعًا.

عِلَّةُ اختيارِ المُضيّ في الفعل ﴿وَقَالُواْ﴾:

بيانُ تحقُّقِ قولِهِم، والإشارةُ إلى انتهائِهِ

وردَ الفعلُ في الآيةِ مَاضيًا لا مُضارعًا مثل: (ويقولون)، ولا مصدرًا مثل: (وقولهم)؛ لتحقيقِ قولِهِم وإثباتِهِ وتأكيدِهِ وإقامةِ الحجَّةِ عليهم؛ فلا مناصَ لهم للتَّبرُّؤِ منه، ولا يستطيعونَ عنه فكاكًا، وفي المُضِيّ إشارةٌ إلى انتهاءِ قولِهِم، والقضاءِ عليهم بعدمِ الرّجوعِ، تلميحًا بنهايتِهِم.

نُكتةُ ذكْرِ ضَميرِ الفاعلِينَ الذُّكورِ في الفعل ﴿وَقَالُواْ﴾:

الإنصافُ في حكايةِ قوْلِهِم، وإشراكُ المقرِّين بِهِ في الحُكْمِ

أُسنِدَ القولُ إلى ضميرِ الفاعلينَ، دونَ ذكرِ الاسمِ الصَّريحِ كالمُفترينَ أو المُشركينَ؛ إنصافًا لهم؛ ليكونَ مَقولُ القولِ حاكمًا لهم أو عليهم، وليعتبرَ غيرُهم بهذا؛ فيكون عرضُ القولِ وجزاؤُه مثالًا حيًّا، يصلحُ أن يُخاطَبَ به كلُّ مُفْتَرٍ وكاذبٍ. كما أنَّ إسنادَ فعلِ القولِ إلى ضميرِ الجمعِ إشارةٌ إلى إشراكِ المُقرِّين معَ القائلينَ في الحكمِ، وتصويرٌ لمَا في ضمائرِهِم منَ الموافقةِ والإقرارِ.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/109أ.

(2) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 7/3963.

معنَى ﴿مَا﴾، وسَببُ اختيارِها دونَ (الَّذي):

كانوا يقولونَ في أجنَّةِ البحائرِ والسَّوائبِ: ما وُلِدَ منها حيًّا فهو خالصٌ للذُّكور، لا تأكلُ منه الإناثُ، وما وُلِدَ منها ميْتًا اشتركَ فيه الذُّكورُ والإناثُ[1]، فالمقصودُ بـ﴿مَا﴾ أجنَّةُ البحائرِ والسَّوائبِ[2].

مُراعاةُ إبهامِ (ما) خفاءَ الأجنَّةِ في بُطونِ الأنعامِ

وأُوثِرَ استعمالُ ﴿مَا﴾ موصولةً؛ ليوافقَ إبهامُها إبهامَ الأجنَّةِ، وهذا من دقائقِ اصطفاءِ الألفاظِ القرآنيَّةِ، ففي اختيارِ ﴿مَا﴾ مراعاةٌ لخفاءِ الأجنَّة في بطونِ الأنعام، من حيثُ كونُها حيَّةً أو ميْتةً، ذكرًا أو أنثى، واحدًا أو أكثر. ولا يؤدِّي استعمالُ (الّذي) إلى هذه المعاني؛ إذ إنَّها تخصُّ المفردَ المذكَّرَ، معلومَ الكُنْهِ في الغالبِ.

سِرُّ التَّعبيرِ باللّفظِ ﴿مَا﴾ مُفتَتحَ مَقولِ القولِ:

بيانُ المحكومِ عليه قبلَ الحُكمِ؛ ليَظهرَ بُطلانُ اختلاقِهم ما ليس بحقٍّ

وافتتحَ بـ﴿مَا﴾ بعدَ الفعلِ ﴿وَقَالُواْ﴾ مع ما فيها من خفَّةٍ في اللَّفظِ، وسهولةٍ في النُّطقِ؛ لبيانِ المحكومِ عليه قبلَ الحُكم؛ ليتجلَّى بُطلانُ قولِهم من أوَّلِ الأمرِ، وليظهرَ اختلاقُهم واجتراؤُهم على اللّه في الحُكمِ على ما لم يوجد بعدُ ﴿مَا فِي بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾، كما حكمُوا في الآيةِ السَّابقةِ على الأنعامِ الموجودةِ؛ وفي ذلك زيادةُ تبشيعٍ لقولِهم، وتعجيبٌ من جريانِ ذلك القولِ على ألسنتِهم.

معنَى ﴿فِي﴾ الجارَّةِ، في قوله: ﴿فِي بُطُونِ﴾:

الإشارةُ إلى إطلاقِهم هذا الحكمَ فورَ معرفتِهم حَمْلَ هذه الأنعامِ

تفيدُ ﴿فِي﴾ الظّرفيَّة؛ أي: ما استقرَّ في بطونِها، وهي إشارةٌ إلى إطلاقِهم هذا الحكمَ فورَ معرفتِهم حَمْلَ هذه الأنعامِ، واختُصَّت ﴿فِي﴾؛ لأنَّ الظّرفيَّةَ المَستفادةَ مِن ﴿فِي﴾ مُطلَقةٌ، أو لا إشعارَ لها يكونُ في أوّلِ الظّرفِ أو وسطِهِ أو آخرِهِ[3].

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/71.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/190.
(3) ابن المبّرد الحنبلّي، زينة العرائس، ص: 24.

مغْزَى ذكْرِ (البُطونِ) دونَ (الأرحامِ):

لفظُ (البُطونِ) أنسبُ بالأنعامِ؛ لأنَّـه أعـمُّ مِـنَ الأرحامِ

لم تُسندِ الأرحامُ إلى الأنعام، بل أُسنِدَ إليها البطونُ؛ وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٦٦﴾﴾ [النّحل: 66]، وقولُهُ: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢١﴾﴾ [المؤمنون: 21]، قالَ أبو جعفر: "وأَوْلى الأقوالِ في تأويلِ ذلك بالصَّوابِ أن يُقال: إنَّ اللّه - تعالى ذكرُهُ - أخبرَ عن هؤلاء الكفرةِ أنَّهم قالوا في أنعام بأعيانِها: ما في بطونِ هذه الأنعام خالصةٌ لذكورِنا دونَ إناثِنا، واللَّبَنُ ما في بطونِها، وكذلك أجنَّتُها"[1] وعليه فإنَّ لفظَ البطونِ أنسبُ بالأنعامِ؛ لأنَّه أعمُّ؛ ففي بطونِ الأنعامِ أرحامُها وألبانُها، وليلفتَ النَّظرَ إلى البطونِ جملةً؛ لِمَا في بطونِ الأنعامِ من خصائصَ لا توجدُ في غيرِها من بهيمةِ الأنعام[2]، ولو قالَ: (ما في أرحامِ هذه الأنعام) لخصَّ الأجنَّةَ وحدَها. وذُكِرتِ الأرحامُ مع أنثى الإبلِ في قولِهِ: ﴿وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ ۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۖ﴾ [الأنعام: 144]؛ لمناسبةِ ذكرِ الأزواجِ الثّمانيةِ منَ الضَّأنِ والمعزِ والبقرِ والإبلِ، ولمناسبة دلالةِ الرَّحمِ لمعنى الإبلِ؛ إذ إنَّ في الرّحمِ معنى الاتِّساعِ في باطنِ الشَّيءِ المتضامِّ مع رقّةٍ وبلالٍ، فالرَّحِمُ (كيس الجنين) وهو رِخْوٌ رطبٌ، ويتَّسعُ للجنين، كما أنَّ لفظَ (الإبل) يدلُّ على احتوائِها على شيءٍ غضٍّ كثيرٍ[3]، فهي هنا أخصُّ منَ الأنعامِ في أصلِ معناها، وإن جازَ إطلاقُ هذه على تلك لغةً.

---

(1) ابن جرير، جامع البيان: 12/146.

(2) عبدالكريم بن حسن العثمان، الإعجاز العلميّ في القرآن الكريم في عالم الأنعام: من أبحاث المؤتمر العالَمِيّ السّابع للإعجاز العلميّ في القرآن والسّنّة بدولة الإمارات - دبي 1425هـ - 2004م، وحامد عطيّة، إشارات إعجازيّة في تكوين لبن (حليب) الأنعام، منتدى الإعجاز العلميّ في القرآن والسّنّة.

(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصَّل: (إبل، رحم).

عِلَّةُ إيثارِ الجمْعِ دونَ المفردِ المُغْنِي عنِ الجمْعِ:

الدَّلالةُ على تعدُّدِها باعتبارِ ما تحتويهِ منَ الأجنَّةِ أو غيرِها

وأُوثِرَ الجمعُ ﴿بُطُونِ﴾ للدّلالةِ على تعدُّدِها باعتبارِ ما تحتويه منَ الأجنَّةِ أو غيرِهَا، وجاءَ على (فُعول) للكثرةِ، ولا يسدُّ مَسدَّه أفعُل؛ لدلالتِهِ على القلَّةِ، مع ثقلِ لفظِ (أبْطُن)؛ لمَا فيه منَ الهمزِ والسُّكونِ ومجاورةِ ضمِّ الطَّاءِ المُستعليةِ لكسرِ النُّونِ المُستفلةِ، فهذا ثقيلٌ بالنِّسبةِ إلى ضمِّ الباءِ والطَّاءِ المُتَبَعَةِ بالواو في ﴿بُطُونِ﴾.

عِلَّةُ ذكْرِ اسْمِ الإشارةِ ﴿هَٰذِهِ﴾:

الدَّلالةُ على أنَّهم كانوا عامِدِينَ، غيرَ هازئِينَ ولا مازِحِينَ

وإن تعجَبْ فعجَبٌ ماثلٌ ودَهَشٌ حَاصِلٌ لمكان اسمِ الإشارةِ المبدل منه هنا ﴿هَٰذِهِ﴾ وبَدَلِه: ﴿ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ في هذه الجملةِ المعجزةِ الشَّريفةِ اللَّطيفةِ الآسِرةِ: ﴿وَقَالُواْ مَا فِي بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾؛ إذْ لو تُرِكَ اسمُ الإشارةِ المبْدل منه، لم يَكْفِ في تحديدِ مدلولِ ﴿ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ هنا أنَّ حملَ لامِ العُرْفِ فيها على العهدِ كافٍ في ردِّ اتِّساعِ مدلولِهِ لشمولِ الجنسِ؛ إذِ العهدُ هنا لمعهودٍ كثيرٍ؛ منه (المرئيُّ)، ومنه (المملوكُ)، ومنه (القريبُ)، ومنه (البعيدُ)، ومنه المرادُ (البَحِيرَةُ والسَّائبَةُ والوَصِيلَةُ والحَامي)، المفصَّلُ بآيةِ المائدةِ، ومنه غيرُ المرادِ ممّا وراءَ هذه المُسَمَّيَاتِ، فجاءَ اسمُ الإشارةِ مُقيِّدًا حاصرًا، ومُخصِّصًا ذاكرًا مُحدِّدًا المعْنى المرادَ بالافتراءِ في الادِّعاءِ، في هذا الجبروتِ الظَّالمِ والظُّلمِ المتجبِّرِ، ولو لم يُذكَرِ اسمُ الإشارةِ في المقامِ لتاهَ المعنى، وضلَّ المتلمِّسون له في بَيْداءَ وتيه عَمَاء، ولو أُريدَ الدَّلالةُ عليه بإيرادِ غيرِ اسمِ الإشارةِ لاحتاجَ إلى كلامٍ كثيرٍ. ومع ذلك لم يُغْنِ غنَاءَهُ، ولا أدَّى مؤدَّاه، لمَا في اسمِ الإشارةِ منَ (التَّنبيه) القاضي عليهم بإرادةِ عمومِ التَّنبيهِ، وقصدِ التَّنبيهِ العامِّ الَّذي لا يُعْذَرُ معه مُخالفٌ، ولا يُقْبَلُ في خلافِهِ أوطارٌ، و(التَّأنيثُ) القاضي بتمكُّنِهِم منَ الدَّوابِّ والبهائمِ المسمَّاةِ، وأنَّها مجعولةٌ خَلْقًا ورزْقًا تحتَ أيديهم نِعَمًا ونَعَمًا، مُخَوَّلةً لهم مُذلَّلةً لمآكلِهِم ومشاربِهِم، والأوَّلُ "المآكل"

مقصودٌ أصليٌّ لقولِه: ﴿وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَآءُ﴾؛ إذْ لا شكَّ في تمحُّضِه للدَّلالةِ على المآكلِ، والثَّاني "المشارب" مقصودٌ تبعيٌّ أُريدَ به الألبانُ على حدِّ قولِ الحبر ترجمان القرآن، وهو الصَّوابُ والسَّدادُ؛ لأنَّه ﴿فِي بُطُونِهِۦ﴾، وقد قالوا: ﴿مَا فِي بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾، وبضميمِه الآية: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٦٦﴾﴾ [النّحل: 66]، وقد جمعَ بينَ الأكلِ منها والشُّربِ قولُه تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢١﴾﴾ [المؤمنون: 21].

وقد اقتضى حسنُ النَّظرِ إغفالَ مقصدِهِمُ الأصليِّ عندَ ابنِ عبّاس اعتدادًا بكونِه عارضًا طارئًا بفعلِ الشِّركِ والوثنيَّةِ واتِّباعِ الشَّيطانِ وجنودِهِ والطَّاغوتِ وصُوَرِهِ وأهوائِه، فذكرَ الألبانَ، كما أنَّ لاسمِ الإشارةِ دلالةً على أنَّهم كانوا عامدينَ قاصدينَ غيرَ هازئينَ ولا مازحينَ، فهم بجدٍّ وصرامةٍ أقدمُوا وقالُوا، وهكذا نجدُ لاسمِ الإشارةِ منَ القيمِ العلميَّةِ والإعجازِ البيانيِّ ما إن استُفيض فيه لم تتَّسعْ لدلالتِه بحسب الإمكانِ البشريِّ والجهدِ التَّفكُّريِّ التَّدبرُّيِّ التَّبصُّريِّ تضاعيفُ هذه الألواح والأوراق. فسبحانَ مَن هذا كلامه، سبحانَه وبحمدِه: ﴿وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ﴾ [يوسف: 108، النّمل: 8].

إيثارُ لفْظِ ﴿ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ دونَ غيرِها:

مناسبةُ السِّياقِ؛ حيثُ إنَّ النِّعمةَ تقتضِي شُكرَ المُنعِمِ

سُمِّيتِ الأنعامُ بهذا دونَ (الإبل) أو (البُدن)؛ لعيشِ صاحبِها بها، وحِلِّ لحومِها وألبانِها، ومنافعِ أصوافِها وأوبارِها وجلودِها[1]؛ وذِكْرُها هنا مُناسبٌ تمامًا للسِّياق؛ حيث إنَّ النِّعمةَ تقتضي شكرَ المُنعِمِ، وهؤلاء بدَّلُوا نعمةَ اللّهِ كفرًا؛ فحرَّمُوا ما أحلَّهُ اللّه.

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصَّل: (نعم).

وأمَّا لفظُ (الإبل) فنلحظُ فيه معنًى لطيفًا، لا يُوجدُ بوضوحٍ في لفظَي (الأنعام والبُدن)، وهو احتواءُ الشَّيءِ الطَّويلِ أو المنبسطِ على شيءٍ غضٍّ لطيفٍ بكثرةٍ[1]، كالماءِ في جوفِ إبلِ السَّحابِ والجِمالِ؛ إذ الجِمالُ أطولُ الأنعامِ والدّوابِّ ريًّا؛ لأنَّها تصبرُ عنِ الماءِ ثمانيةَ عشرَ يومًا، كما هو معروفٌ، لذا فُضِّلَت في التّنقُّلِ في الصّحراءِ، وكانوا إذا أعوزَهم الماءُ في السّفرِ يبقرون بطونَها؛ ليأخذوا الماءَ مِن أجوافِها، فإذا توقَّعُوا ذلك قبلَ السَّفرِ سَقَوْها ماءً كثيرًا على سبيلِ الاختزانِ[2]، ﴿وَمِنَ ٱلۡإِبِلِ ٱثۡنَيۡنِ وَمِنَ ٱلۡبَقَرِ ٱثۡنَيۡنِۗ﴾ [الأنعام: 144]، ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلۡإِبِلِ كَيۡفَ خُلِقَتۡ ١٧﴾ [الغاشية: 17].

وأمَّا البُدْنُ فلفظُها مُشتقٌّ من (بدن)، و"بَدَنُ الإنسانِ جَسَدُه... ما سِوَى الرّأسِ والشَّوَى، ورجَلٌ بادِنٌ ومُبَدَّنٌ - كمُعَظَّم: سَمِينٌ جَسِيمٌ، والبُدْنُ: هي ما اكتملَ سِنُّها منَ الأنعامِ، وكانت سمينةً[3]، وسُمِّيت البَدنةُ بدنةً لأنَّها تَبْدُن؛ أي: تَسْمَن، وهل تختصُّ بالإبلِ؟ الجمهور على ذلك، قال الزّمخشريُّ: والبُدنُ جمعُ بدنة؛ سُمِّيت لعظمِ بدنِها، وهي الإبلُ خاصَّةً؛ لأنَّ رسولَ اللّه ﷺ ألحقَ البقرَ بالإبلِ، فعن جابر بن عبد اللّه رضي الله عنه قال: «نَحرْنا معَ رسول اللّه ﷺ عامَ الحديبيةِ البَدَنةَ عن سبعة، والبقرةَ عن سبعة»[4]، فجعلَ البقرَ في حكمِ الإبلِ، فصارَتِ البَدنةُ متناولةً في الشَّريعةِ للجنسين عندَ أبي حنيفةَ وأصحابِه، وإلّا فالبُدنُ هي الإبلُ، وعليه تدلُّ الآيةُ.

وقيل: لا تختصُّ بالإبلِ، فقال اللَّيثُ: البدنةُ بالهاءِ تقعُ على النَّاقةِ والبقرةِ والبعيرِ، وما يجوزُ في الهدي والأضاحي، ولا تقعُ على الشّاةِ، وقال عطاء وغيره: ما أشعرَ من ناقةٍ أو بقرةٍ؛ لقول النَّبيِّ ﷺ حين سُئِلَ عنِ البقرِ، فقال: «ما هِيَ إلَّا مِنَ البُدْن»[5]، "وقيل: البُدنُ يُرادُ به العظيمُ السِّنِّ منَ الإبلِ والبقرِ، ونقلَ النّوويُّ في تحريرِ ألفاظِ التَّنبيهِ عنِ الأزهريّ أنَّه قالَ: البدنةُ تكونُ منَ الإبلِ والبقرِ والغنمِ[6]، ويُقال للسَّمين منَ الرِّجالِ، وهو اسمُ جنسٍ مفرد"[7].

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصَّل: (بدن).
(2) ابن جرير، تاريخ ابن جرير: 3/409 - 415 - 416.
(3) ابن منظور، لسان العرب: (بدن).
(4) مسلم، الصحيح، الحديث رقم: (1318).
(5) مسلم، صحيح مسلم: 2/955، والحديث رقم: (1318)، عن جابر بن عبد الله، قال: اشتركنا مع النبي ﷺ في الحج والعمرة كل سبعة في بدنة، فقال رجل لجابر: أيشترك في البدنة ما يشترك في الجزور؟ قال: «ما هي إلا من البدن».
(6) النَّوويّ، تحرير ألفاظ التّنبيه، ص: 144.
(7) ابن عادل، تفسير اللُّباب: 14/91.

وعليه فلا يُطلَقُ على الأنعامِ كلمةُ البُدْن إلَّا أن تكونَ كاملةَ السِّنِّ واللَّحمِ، ولا عيبَ فيها، أو حبسَها أهلُها للتَّسْمين، مجازًا مُرسَلًا؛ لعلاقة اعتبارِ ما سيكون، ولأنَّ اللّه تعالى طيِّبٌ لا يقبلُ إلَّا طيِّبًا وَرَدَ نهيُ النَّبيِّ ﷺ عن ذبحِ ما يُخِلُّ بكونِها مُكتملةَ الأوصافِ (بَدَنَةً).

سِرُّ التَّصريحِ بذكْرِ ﴿ٱلْأَنْعَٰمِ﴾، والغَرَضُ منه:

رفْعُ الاشتباهِ مع الأنعامِ الأخرَى السَّابقِ ذكرُها

وصُرِّحَ بذكرِ ﴿ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ دونَ ضميرِها (بطونِها) مثلًا؛ لأنَّها أنعامٌ أخرى غيرُ المذكورةِ في الآيةِ السَّابقةِ، فلو قِيلَ: (ما في بطونِها) بالضَّمير لالتبسَ حكمُها بحكمِ الأنعامِ الأخرى السَّابقِ ذكرُها.

وَجْهُ التَّعبيرِ بـ ﴿خَالِصَةٌ﴾ على (حلالٍ) و(خاصٍّ):

الدّلالةُ على تعظيمِهم الذُّكورَ، وكأنَّ الإناثَ شَوْبٌ

الخالصُ هو ما زالَ عنه شَوبُهُ بعد أن كانَ فيه، وهو مُناسِبٌ لقصدِهم من قولِهم: ﴿خَالِصَةٌ﴾؛ إذ إنَّه يدُلُّ على تعظيمِهم للذُّكورِ، وكأنَّ الإناثَ شَوبٌ، وقد خَلُصَ الذُّكورُ من مشاركتِهم؛ أي: ما وُلِدَ منها حيًّا، فهو خالصٌ للذُّكورِ، لا تأكلُ منه الإناثُ، وما وُلِدَ منها ميْتًا؛ اشتركَ فيه الذُّكورُ والإناثُ[1].

أو أنَّ معنى الخُلوص: هو خُلوصُها منَ البطونِ، والخروجُ منها عندَ ولادتِها[2]، فلا يحلُّ محلَّهُ لفظٌ آخر، نحو (حلالٍ)، أو (خاصٍّ)؛ لأنَّ كلًّا منهما لا يفيدُ معنى الخلوص.

عِلَّةُ تأنيثِ ﴿خَالِصَةٌ﴾، وتذْكيرِ ﴿وَمُحَرَّمٌ﴾:

التَّأنيثُ للحملِ على معنَى الأجنَّةِ، والتّذكيرُ للحملِ على لفظِ (ما)

وأنَّث خالِصةً للحَملِ على المعنى؛ لأنَّ (ما) في معنى الأجنَّةِ، وذكَّرَ ﴿وَمُحَرَّمٌ﴾ للحَملِ على اللَّفظِ، ونظيره ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُواْ مِنْ عِندِكَ﴾ [محمد: 16]، ويجوزُ أن تكونَ التَّاءُ للمبالغةِ مثلها في رواية الشّعرِ، وأن تكونَ مصدرًا وقعَ مَوقعَ الخالصِ،

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/71.
(2) الخفاجيّ، عناية القاضي: 4/128.

كالعاقبة؛ أي: ذو خالصةٍ[1]، "وكان قد سبقَ لنا أنَّ شيخَنا علم الدّين العراقيّ - رحمه الله - ذكرَ أنَّه لم يوجدْ في القرآن حَملٌ على المعنى أوَّلًا، ثمَّ حَملٌ على اللَّفظِ بعدَه إلَّا في هذه الآية"[2].

وحيث قُلنَا: إنَّ ﴿خَالِصَةٌ﴾ مَصدرٌ أو هي للمُبَالغَةِ، فليس في الكلام حَمْلٌ على مَعْنًى ثمَّ على لَفظٍ، وإن قلنا: إنَّ التَّأنيثَ فيها لأجلِ تأنيثِ ما في البُطُونِ، كان في الكلام الحَملُ على المَعنَى أوَّلًا، ثمّ على اللَّفظِ في قولِه: ﴿وَمُحَرَّمٌ﴾ ثانيًا، وليسَ لِذَلك في القُرآنِ نَظِيرٌ؛ أعني: الحَمْلَ على المَعنَى أوَّلًا، ثمَّ على اللَّفظِ ثانيًا[3].

الغَرَضُ من اختيار (اللَّام) في قوله: ﴿خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا﴾:

اللَّامُ في قولِه: ﴿خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا﴾ للاستحقاقِ؛ إذْ إنَّها - على التَّحقيقِ - وقعَت بينَ معنى الخلوصِ وذاتِ الذُّكورِ، ولكنَّها على الظَّاهرِ تفيدُ الملكَ والاختصاصَ؛ لأنَّها بين ذاتين؛ الأجنَّةِ والذُّكورِ.

إفادةُ معنَى الاستحقاقِ المتناسِبِ مع غطرسَتِهم وزعْمِهم

ومعنى الاستحقاق يتناسبُ وغطرستَهم وزعمَهم؛ حيث افتئاتُ الأحكامِ الجائرةِ، واختلاقُ الكذبِ في وضعِ الأشياءِ في غيرِ مَواضِعِها، وإعطاءِ هذا، ومنعِ ذاك.

فلذلك عُدِلَ عنِ الباءِ الدَّالَّةِ على الإلصاقِ، فلم يقُل: (خالصة بذكورنا)؛ لأنَّ معنى الإلصاقِ لا يتَّفقُ وما يعتريهم من كِبرٍ وهوًى، فليس ثمَّةَ حكمٌ ثابتٌ، بل هو متغيِّرٌ بتقلُّبِ أمزجتِهم، واختلافِ أهوائِهم، كما عُدِلَ عن (إلى) الدّالَّةِ على انتهاءِ الغايةِ؛ وليس الغرضُ إيصالَ ما في بطونِ الأنعامِ إلى الذُّكور، وإنَّما الاقتصارُ عليهم.

سِرُّ التَّعبيرِ بالذُّكورِ دونَ غيرِهِ في قوله: ﴿لِّذُكُورِنَا﴾:

وأُوثِرَ التَّعبيرُ بالذُّكورِ دونَ الرِّجالِ أو القومِ؛ لأنَّه يعمُّ الصَّغيرَ والكبيرَ.

عُمومُ اللَّفظِ للصَّغيرِ والكبيرِ

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/71.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/660.
(3) السّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 5/184.

نُكتةُ الإضافةِ إلى ضَميرِ المُتكلِّمينَ ﴿لِّذُكُورِنَا﴾:

إفادةُ التَّخصيصِ بالذُّكورِ، والإشارةُ إلى ما عندَهُم من غُرورِ

أُضيفَتِ الذُّكورُ إلى ضميرِ المُتكلِّمينَ لإفادةِ التَّخصيصِ، وللإشارةِ إلى ما عندَهُم من غرورِ العظمةِ والامتلاكِ، أو خروجِ الكلامِ عن قصدِ المتكلِّمينَ إفرادَ أنفُسِهم بالمزيَّةِ إلى إفادةِ إدخالِ غيرِهم معهم تبَعًا، كما هو حِسُّ الأتباعِ الدَّائمِ ووجيبهم؛ يُصَرِّحونَ به في الآخرة مرَّتين: ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾ [إبراهيم: 21]، ﴿وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِي ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴿٤٧﴾﴾ [غافر: 47].

مُتعلَّقُ الجارِّ ﴿عَلَىٰٓ﴾، وأثَرُه في إقامةِ الحُجَّةِ على المُشركينَ:

الإشارةُ إلى معنَى الاستعلاءِ المُضاهي لمنازَعتِهم مَن بيدِهِ التَّحليلُ والتَّحريمُ

يشيرُ حرفُ الجرِّ هنا ﴿عَلَىٰٓ﴾ إلى معنى الاستعلاءِ، الّذي يُناطُ به التَّحريمُ، فيكون شاهدًا عليهم من أنفسِهم بمنازعتِهم اللّه تعالى العليَّ الأعلى في التَّحليلِ والتّحريمِ.

المعنَى المتعيَّنُ للفظِ ﴿أَزْوَٰجِنَا﴾ في الآيةِ الكريمةِ:

المقابلةُ الشَّاملةُ لِيعُمَّ الأزواجَ وغيرَهنَّ من النّساءِ

سرُّ اختيارِ لفظِ (أزواج) دونَ مقابلةِ لفظِ (ذكور) بلفظِ (إناث) مع دخولِ (نا) في الكلمتين دخولًا يقودُ باليدِ إلى معنى المقابلةِ، ومع أنَّ المعنى حقيقةً هو لـ (إناث)؛ ليشملَ الأمَّهاتِ والبناتِ والأخواتِ، ولا يقتصرُ على الأزواجِ فقط بل يتعداهنَّ إلى النِّساء كافَّةً.

عِلَّةُ الوصْلِ بالواوِ في الجُملةِ ﴿وَإِن يَكُن مَّيْتَةً﴾:

الاستئنافُ لزيادةِ التَّبْشيعِ والتَّشْنيعِ والتَّقْريعِ

على القولِ بأنَّ الواو في: ﴿وَإِن يَكُن مَّيْتَةً﴾ للاستئنافِ، تكونُ علَّةُ الاستئنافِ زيادةَ التَّبشيعِ والتَّشنيعِ والتَّقريعِ، وإقامةَ الحُجَّةِ بالتَّناقضِ القاضي بعدمِ الأهليَّةِ للسَّدادِ والصَّوابِ المقتضي لعدمِ الانصياعِ، وانخذالِ الأتباعِ، ليُلْقُوا بأيديهم استسلامًا لهداياتِهِ وتشريعاتِهِ

ونلحظُ دلالةَ (إنْ) على الشَّكِّ والتَّقليلِ، وما في ذلك منَ النَّعي

على المُشركينَ بطَيشِ العقولِ وسفهِ الأحلامِ، واختلالِ موازينِ الفكرِ، وسقوطِهِم في مستنقعِ التَّناقضِ.

دَلالةُ القراءاتِ الواردةِ[1] في قولِهِ تعالى: ﴿وَإِن يَكُن مَّيْتَةً﴾:

القراءاتُ القرآنيَّةُ الحكيمةُ في ﴿يَكُن﴾ بين التَّذكيرِ والتَّأنيثِ، وفي ﴿مَّيْتَةً﴾ بين التَّخفيفِ والتَّثقيلِ لغةً، والرَّفعِ والنَّصبِ إعرابًا، وتحقيقُ المعنى على كلٍّ بما يُجلِّي سعةَ مضامينِ القرآنِ، وسعةَ آفاقِ دلالاتِهِ، وحُسنَ مَراميهِ في مبانيهِ.

سَعةُ مَضامينِ القرآنِ ودَلالاتِهِ، وحُسنُ مَرامِيهِ في مَبانِيهِ

نُكتةُ اختيارِ المضارعِ المجزومِ مُذَّكرًا أو مُؤنَّثًا (يكن، تكن):

هنا نرى القرآنَ قد أحسنَ إحسانًا يفوتُ العقلَ إدراكُهُ ومراعاتُهُ عندَ نظمِ الكلامِ؛ إذِ اختارَ ﴿يَكُن﴾ أو ﴿تَكُن﴾ فعلًا يبدأُ مُتحرِّكًا بأوسعِ الحركاتِ وأيسرِها من فوق (كتثنيةِ نقطِ التَّاءِ هو من فوقِ) أو من تحتِ (كتثنيةِ نقطِ الياءِ)، دونَ ماضيهِ (كان) أو فعلًا آخر، وقد أحاطَها بالفوقيَّةِ والتَّحتيَّةِ إغناءً عن سائرِ ما بينهما من جهاتِ الجسدِ.

التَّناسُقُ في النُّطقِ وخِفَّةِ الحركاتِ، ذو أثَرٍ في تلاؤُمِ السِّياقِ مع المعنَى

وحرفا المُضارعةِ مفتوحان، والفتحةُ أخفُّ الحركاتِ وأيسرُها؛ لأنَّها تخرجُ بمجرَّدِ انفتاحِ الفمِ دونَ عملٍ زائدٍ، وهو أنسبُ لصفةِ الكائنِ الحيِّ نماءً وأداءً في مراحلِ تكوينِهِ أو باعتبارِ أوَّليَّةِ حركتِهِ بعدَ ولادتِهِ وفي سائرِ حركاتِهِ، بَعْدُ، يلي ذلك ما يكون مُتقصِّدًا أو أكثرَ كلفةً منَ الحركاتِ، فجاءَ ضمُّ الكافِ بعدَ فتحِ الياءِ أو التَّاءِ دالًّا عليه، مُعبِّرًا عنه، مُستقصِيًا له، وبعدَ اشتدادِ الحركةِ نفقَ هذا الكائنُ الَّذي هو بهيمةُ الأنعامِ، فأعقبَ حركتَهُ بنوعيها سكونٌ مُديم لا يَريم، ولا كذلكَ (كان) الَّذي يتوسَّطُه السَّاكنُ بين فتحتين، ولا

(1) تفصيل هذه القراءاتِ المتواترة: قرأَ نافع وأبو عمرو وحفص وحمزة والكسائيّ ويعقوب وخلف: بتذكير (يكُنْ) ونصب (ميْتَةً) مُخفَّفَة، وقرأَ ابن كثير: بتذكير (يكُنْ) ورفع (ميْتَةٌ) مُخفَّفَة "على أنَّ (كانَ) تامّةٌ"، وقرأَ شعبة عن عاصم: بتأنيث (تكُنْ) ونصب (ميْتَةً) مُخَفَّفَة، وقرأَ ابن عامر الدّمشقيّ: بتأنيث (تكُنْ) ورفع (ميْتَةٌ) مُخَفَّفَة، وقرأَ أبو جعفرٍ يزيد بن القعقاع: بتأنيث (يكُنْ) ورفع (ميِّتَةٌ) مُثَقَّلَة. يُنظر: ابن مجاهد، السّبعة، ص: 270، وابن الجزريّ، النّشر: 2/265.

(يوجدُ) الَّذي يبدأُ بالضّمِّ يليه السُّكون، وبعدَ السُّكونِ يجيءُ الفتحُ قبلَ سكونِ الجزمِ الأخيرِ.

على أنَّ لـ ﴿يَكُن﴾ مزيَّةً أخرى على ما لم يكنْ كذلكَ؛ لأنَّه يُؤَدَّى بإدغامِ نُونِ ﴿يَكُن﴾ في ميم ﴿مَّيْتَةً﴾، ويا للأثر النَّفسيِّ التِّلقائيِّ الشُّعوريِّ الوجدانيِّ الَّذي لا يفيه التَّعبيرُ من دخولِ السَّاكنِ بسكونِهِ في ﴿مَّيْتَةً﴾ بأوَّلِ حروفِها حتّى يصيرَ النُّطقُ بالحرفين كالثَّاني مُشدِّدًا، وإذا الكلمتان تنطقان معًا، وقد جمعَ الإدغامُ بينهما أشبهَ شيءٍ بالتَّركيبِ المزْجيِّ، فيا للّه! ومَن غيرُ اللّهِ يقدرُ على هذه المقاييسِ والموازينِ؟ حتّى يكونَ التَّعبيرُ عنِ المعنى المرادِ يُؤَدَّى بالذِّكرِ وبالفكرِ وبالصِّيغةِ وبالصَّوتِ كلِّه معًا في آن.

نُكتةُ تذْكيرِ فعلِ الكوْنِ، مع أنَّ ﴿مَّيْتَةً﴾ مُؤنَّثٌ[1]:

أوّلًا: باعتبارِ أنَّ في الأنعامِ ما هو مُذكَّرٌ ومُؤنَّثٌ يكون من بابِ التَّغليبِ.

ثانيًا: بالحملِ على معنى أنَّه حَمْلٌ أو نتاجٌ.

ثالثًا: أو للتَّأسيسِ على قولِهِ: ﴿خَالِصَةٌ﴾؛ إذ تاؤُهُ للمبالغةِ لا للتَّأنيثِ بدلالةِ قولِهِ: ﴿وَمُحَرَّمٌ﴾.

رَوعـةُ الأسلوبِ القرآنيِّ في وضْعِ اللّفظِ المناسِبِ في المكانِ المناسِبِ

وانظرْ كيف جاءَ باللَّفظِ المناسبِ في المكان المناسبِ، فلم يقُل: (وُجِدَ) ولا مضارعه (يوجد) مع أنَّ المضارعَ جاءَ تامًّا برفعِ ﴿مَّيْتَةٌ﴾، ومعناه: (يوجد)، لكنَّ القرآنَ لم يقُل: (يوجد)، واعجب عجبًا يأخذُكَ إلى غايتِهِ حيثُ لا يَذَرُك، وأنت ترى القرآنَ الكريمَ يتحدَّثُ هنا عن ﴿مَّيْتَةٌ﴾ قد تحقَّقَ موتُها، فثبتَ بهذا التَّحقيقِ الحكمُ المغايرُ لَمَا تواضعوا عليه، ودرجوا: ﴿فَهُمْ فِيهِ شُرَكَآءُ﴾، وبماذا يتحقَّقُ الموتُ علمًا وعقلًا وعرفًا وعادةً إلَّا بانتهاءِ الحركةِ وانقطاعِ مواردِها من نبضِ قلبٍ، وتنفُّسِ رئةٍ، وسكونِ حركةٍ سكونًا لا يقطعُه ضدٌّ، وكانَت

(1) في قراءةِ نافع وابن كثير وأبي عمرو وحفص وحمزة والكسائّي ويعقوب وخلف.

قبلَ تحقُّقِ موتِها تعيشُ حياةَ الأضدادِ؛ إمَّا ناميةً في الرَّحمِ يتكاملُ خلقُها، وهي تتحرَّكُ بحركتِهِ حيثُ هي في مشيمتِها وإمّا في الخارجِ تركضُ، وتأكلُ وتُسَامُ فتُسِيم، وهذه الحركةُ في المَوضِعَين انتهَتْ بالموتِ، فجاءَ بحصولِهِ الحكمُ الجديدُ.

وَجْهُ إطباقِ القُرّاءِ - إلّا أبا جعفرٍ - على قراءةِ ﴿مَّيْتَةً﴾ بالتّخفيفِ:

إشارةٌ إلى تحقُّقِ موتِهِ وقتَ إلقاءِ بهيمةِ الأنعامِ له من بحائرَ وسوائبَ ووصائلَ وحوامَّ، وقولُه: ﴿فَهُمْ فِيهِ شُرَكَآءُ﴾ دليلٌ على إطباقِ المجتمعِ الجاهليِّ على تعاطي النَّتنِ والقذرِ والخبثِ دونَ وازعٍ ولا رادعٍ ولا عقلٍ ولا ضميرٍ.

الإشارةُ إلى تحقُّقِ موتِ الميتةِ، وقتَ إلقاءِ بَهيمةِ الأنعامِ له

وهذا مثالٌ ممّا يشيعُ في الأممِ شرقًا وغربًا وشمالًا وجنوبًا من غيرِ المسلمينَ في أكلِ صورٍ منَ المنخنقةِ والموقوذةِ، وما ماتَ حتفَ أنفِهِ صعقًا، ومِن أَكَلةِ الدِّيدانِ والحيواناتِ النَّجسةِ والمُستقذرةِ ممّا يدُلُّ على شدَّةِ الحاجةِ البشريَّةِ في كلِّ جيلٍ وزمانٍ إلى هداياتِ الإسلامِ وجماليَّاتِ فطرتِهِ وتهذيبِهِ وحكيمِ تشريعِهِ، وهي حاجةٌ ماسَّةٌ إلى القرآنِ الكريمِ الَّذي هو الهدى والنُّور، يُحِلُّ الطَّيِّباتِ، ويُحرِّمُ الخبائثَ، ويزكِّي الطِّباعَ.

نُكتةٌ في قراءةِ أبي جعفرٍ بالتَّثقيلِ في ﴿مَّيْتَةً﴾:

قراءةُ أبي جعفر بتأنيثِ (تكن) ورفعِ (ميّتةٌ) مُثقَّلةً، فيها معنى: أنّها يُتَرَقَّبُ لها الموتُ الّذي ترتجيه لها النِّساء؛ لينلْنَ حظوظَهنَّ من طعمتِها، كما ينالُ الرِّجالُ، على حين أنَّها لا تزالُ حيَّةً لم تمتْ بعدُ، ففيه نكتةُ التَّنبيهِ على مفارقةِ النِّساءِ الرِّجالَ، أزواجًا كُنَّ أو غير أزواجٍ، في الأهواءِ والآمالِ والتَّطلُّعاتِ ممَّا يشي بتفسُّخِ المجتمعِ عاطفيًّا، وتفكُّكِ قوامِهِ، وانفكاكِ جهتيه، فالرِّجالُ في جانبٍ، والنِّساءُ في جانبٍ، فهنَّ وإنْ أظهرنَ المُواءمةَ والمُسالمةَ، إلّا أنَّهنَّ مَقهوراتٌ مغيظاتٌ محنقاتٌ، كما تدُلُّ لذلك القراءةُ.

بيانُ معنَى أنَّها يُتَرَقَّبُ لها الموتُ الّذي تَرتجيه لها النِّساءُ

السِّرُّ في تلوينِ الخِطابِ بالالتفاتِ مِنَ التَّكلُّمِ إلى الغيبةِ:

إفادةُ إضمارِ دعوتِهمُ الأزواجَ إلى التَّناوُلِ منه معهم، أوِ التَّغافُلِ والسُّكوتِ

حيثُ إنَّ في الكلامِ عدولًا عنِ التَّكلُّمِ إلى الغيبةِ في الإخبارِ؛ فأجرى: ﴿وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَآءُ﴾ على غيرِ نسقٍ: ﴿خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا﴾؛ ليفيدَ للأخيرِ معاني أنَّه مُضمَرٌ منويٌّ؛ إمَّا بدعوتِهم الأزواجَ إلى التَّناولِ منه معهم قارِّينَ آمنين، وإمّا بتغافلِهم وسكوتِهم عنِ استراقِهم إليه وانتهابِهم منه على غيرِ عادتِهم في التَّوجُّسِ والإقتارِ والمنعِ والإحصارِ، وكأنَّ ذلك جاءَ رغمًا عنهم مُراغمةً أذهبَت قُوى الملاحاةِ وخواطرَ المُواثبةِ والغيْلِ والاستئثارِ ﴿فَهُمْ فِيهِ شُرَكَآءُ﴾.

نُكتةُ كوْنِ جوابِ الشَّرطِ، جُملةً اسميةً مُقترنةً بالفاءِ:

الثُّبوتُ والدَّوامُ على حُكْمِ الشَّراكةِ في أكلِ الميتةِ، من دلالاتِ المعنَى هنا

في قولِه تعالى: ﴿فَهُمْ فِيهِ شُرَكَآءُ﴾ جوابُ الشَّرطِ جملةٌ اسميَّةٌ؛ ليدُلَّ على الثُّبوتِ والدَّوامِ على هذا الحُكمِ، وربطَتِ الفاءُ الجوابَ بالشَّرطِ؛ للدَّلالةِ على صدورِ الحُكمِ مُباشرةً بعدَ معرفةِ مَوتِ ما في بطونِ هذه الأنعامِ.

سِرُّ تقديمِ المتُعلِّقِ على الخبرِ ﴿فِيهِ﴾ قبلَ ﴿شُرَكَآءُ﴾:

تخصيصُ المُشركينَ شِركتَهم فيما في بطونِ الأنعامِ، حالَ كونِها ميتةً، هو مَناطُ الاهتمامِ

أصلُ التَّركيبِ في غيرِ النَّصِّ المُعجزِ (فهم شركاء فيه)، فالجارُّ والمجرورُ مُتعلَّقٌ بمحذوفٍ نعتٍ للنَّكرةِ قبلَهُ، ويكونُ الاهتمامُ حينئذٍ بشركتِهم المعهودةِ فيه وفي غيرِه، ولكن عدلَ السِّياقُ عن هذا إلى تقديمِ ﴿فِيهِ﴾ على ﴿شُرَكَآءُ﴾؛ لإفادةِ أنَّ اهتمامَهُم الأعظمَ هو تخصيصُ شركتِهم في ما في بطونِ الأنعامِ حالَ كونِها ميتةً، ويكون موقعُ الجارِّ والمجرورِ حينئذٍ مُتعلَّقًا بمحذوفٍ حالٍ من ﴿شُرَكَآءُ﴾؛ إذ إنَّه في الأصلِ صفتُهُ، فلمَّا تقدَّمَ على النِّكرةِ صارَ حالًا.

وفي ذلك إشارةٌ إلى افتئاتِهم المُبالغِ فيه، وافترائِهم القبيحِ على اللّه، وتلفيقِهم الأحكامَ الدَّقيقةَ؛ لإيهامِ المُخاطَبين بكونِها من عندِ اللّهِ.

عِلَّةُ إيرادِ الخبرِ كلمةَ ﴿شُرَكَآءُ﴾ دونَ (سواء):

إيضاحُ أنَّ الشِّركةَ في الشَّيءِ أعمُّ من التَّسويةِ فيه

عدلَ عن كلمةِ سواءٍ إلى ﴿شُرَكَآءُ﴾؛ لأنَّ الشِّركةَ في الشَّيء أعمُّ من تسويةِ الشَّيءِ؛ إذِ التّسويةُ تعني: المناصفةَ، في حين تكونُ الشِّركةُ بينَ الشُّركاءِ في الشَّيءِ مُناصَفَةً وغير ذلك من سعةِ التَّقسيم.

كما أنَّ لفظَ ﴿شُرَكَآءُ﴾ بمفهومِ المُخالفةِ يوحي بتفرقةِ المجتمعِ الجاهليِّ بينَ الجنسين في الأحكامِ، وانتقاصِهم من حقِّ المرأةِ، فليسَت والرَّجلَ سواءً.

بَلاغةُ الآيةِ في التَّعريضِ بذمِّ القائلينَ، ومَن لفَّ لفَّهُم:

المبالغةُ في ذمِّهم بالتَّخبُّطِ والتَّناقُضِ، وفَقْدِ الحِسِّ الآدَمِيِّ

في الآيةِ الكريمةِ تعريضٌ[1] وتلويحٌ وإيماءٌ بذمِّ هؤلاء القائلينَ ومَن معَهم، وقد أوردَ القرآنُ قولَهم خبرًا، وكأنَّه عرْضٌ لفطرتِهم المنكوسةِ، وقولِهم العجيبِ، دونَ استغرابٍ أو تصريحٍ بشدَّةِ جُرمِهم، وعظيمِ تخبُّطِهم، وفي ذلك تهوينٌ بمآلِهم السّيِّئ، وبيانٌ بعلمِ اللّهِ الواسعِ المحيطِ.

دَلالةُ قولِهِ تعالى: ﴿سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ﴾:

الإشارةُ إلى عَدالةِ العِقابِ الإلهيِّ، المُقتضِي أنْ لا عقوبةَ إلَّا بسبَبٍ

يشيرُ إلى عدالةِ العقابِ الإلهيِّ المقتضي أنْ لا تجريمَ إلَّا بمُخالفةٍ، وأن لا مُخالفةَ بغيرِ نصٍّ، وأنَّ اللّه تعالى حكمٌ عدْلٌ بينَ العبادِ، وأنَّ العبادَ عندَهُ سواءٌ، وأنَّ التَّحليلَ والتَّحريمَ لغيرِ المُشرِّعِ جريمةٌ، وأنَّ اللّه يُحرِّجُ على عبادِهِ التَّشبُّهَ بالمشركين فيما ذُمُّوا عليه، وتُوعِّدوا عليه، وأنَّ إناطةَ الجزاءِ بـ﴿وَصْفَهُمْ﴾ دليلٌ على بلوغِهِ في الشَّناعةِ والسُّوءِ الحدَّ الَّذي ليسَ فوقَهُ.

﴿سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ﴾ وهو بيانٌ كالحكم، عَقِيبَ تَكْييفِ الجنايةِ، وفيه: ملازمةُ العدلِ رغمَ ارتكابِ ما يشتدُّ منه الغيظُ، وبه الحنقُ،

(1) هو نوعٌ لطيفٌ منَ الكنايةِ يُطلَقُ فيه الكلامُ مُشارًا به إلى معنًى آخر يُفهمُ منَ السّياقِ أو المقامِ الّذي يتحدثُ فيه.

وعليه الغضبُ، ولازمَهُ العقابُ، وبيان أنَّ المرادَ المحذوفَ، وهو (جزاء وصفهم) لم يزد في الإيلام عن كونِهِ ﴿وَصۡفَهُمۡۚ﴾ السُّوءَ الّذي وصفوه، المذمومَ في قولِهِ تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلۡسِنَتُكُمُ ٱلۡكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٞ وَهَٰذَا حَرَامٞ لِّتَفۡتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ لَا يُفۡلِحُونَ ١١٦﴾ [النّحل: 116]، وأنَّهم في اجتراحِهم لم يبالوا، فاقْتَرَفُوا مالا يطيقون قَصْمَهُ ولا وَصْمَهُ، وفيها كذلك فضلُ اللّهِ بالعلم وكرمُه بالحلْم؛ إذ ذكرَ السِّينَ لتكونَ إملاءً في مُدَدِ الإمهالِ ﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ١٣﴾ [غافر: 13].

وفي قولِهِ: ﴿سَيَجۡزِيهِمۡ وَصۡفَهُمۡۚ﴾ تقريرٌ للعدلِ الَّذي لا تتجاوزهُ إلى أفضل منه كافَّة الشَّرائعِ إلَّا شريعةُ الإسلامِ الَّتي أتبعَتهُ الإحسانَ، فقالَ اللّهُ ﷻ: ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ﴾ [النّحل: 90].

ومقامُهُ هنا في الآيةِ مُندرجٌ تحتَ الختامِ المَهيبِ: ﴿إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٞ﴾؛ إذْ لا يخفى أنَّ مِن حكمِهِ: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغۡفَرۡ لَهُم مَّا قَدۡ سَلَفَ وَإِن يَعُودُواْ فَقَدۡ مَضَتۡ سُنَّتُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٣٨﴾ [الأنفال: 38]، فهل سُمِعَ في الشَّرائعِ غيرُ الإسلامِ بمثلِ هذا عَفوًا وترفُّعًا وسَتْرًا وإغضَاءً وَإحسَاناً ؟ أليسَ هذا التّميُّزُ المُطلَقُ من أماراتِ خلودِ هذا الدِّينِ، وأنَّه سيعمُّ الأرضَ كلَّها ويسودُ؟ ﴿وَقَدۡ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ فَلِلَّهِ ٱلۡمَكۡرُ جَمِيعٗاۖ يَعۡلَمُ مَا تَكۡسِبُ كُلُّ نَفۡسٖۗ وَسَيَعۡلَمُ ٱلۡكُفَّٰرُ لِمَنۡ عُقۡبَى ٱلدَّارِ ٤٢﴾ [الرّعد: 42].

مَغزَى اختيارِ الفعلِ ﴿سَيَجۡزِيهِمۡ﴾، دونَ غيرِهِ ممَّا يُؤدِّي معناه:

الدّلالةُ على كمالِ العدلِ الإلهيِّ المطلَقِ

أُوثِرَ الفعلُ (يجزي) دونَ (يُوفّي) أو (يُعذّبُ) أو (يُعاقبُ)؛ لدلالتِهِ على كمالِ العدلِ الإلهيِّ، وأنَّهم سببُ هلاكِ أنفسِهم، وذلك ما أوضحناه في معنى هذه اللَّفظةِ من دلالتِها على " تحصيلِ شيءٍ مَقصودٍ من تناولِ شيءٍ أو معالجتِهِ"[1]، فما فعلوه من أمرٍ جُوزوا

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصَّل: (جزى).

به، فلا اعتدادَ بشيءٍ في المجازاةِ إلَّا بعملِهم، دونَ هوًى أو إفراطٍ في العقوبةِ أو تفريطٍ.

نُكتةُ عدَمِ ذكْرِ الفاعلِ صريحًا في الجُملةِ:

العلمُ به، والتَّنبيهُ على الحُكمِ المُبْرَمِ على هؤلاء المُفْتَرين

إضمارُ الفاعلِ في قولِه: ﴿سَيَجْزِيهِمْ﴾؛ للعلمِ به، وللتَّنبيهِ على الحُكمِ المُبْرَمِ على هؤلاء المُفْتَرين، فليسَ في نجاتهم أملٌ، ولا في عودتهم رجاءٌ، ولم يظهرِ الفاعلُ في نحوِ هذا الفعلِ (يجزي) المسبوقِ بحرفِ الاستقبالِ القريبِ (السّين) إلَّا في مَوطِنِ الأملِ في العودةِ والرّجوعِ، كقولِه: ﴿وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ١٤٤﴾ [آل عمران: 144]، وفيه إشارةٌ لطيفةٌ إلى نسبةِ الخيرِ (أو ما يحتملُ الخيرَ) إلى اللّه، وإسنادِ الشّرِّ (أو ما يحتملُه) إليهم.

نُكتةُ مَجيءِ المفعولِ الأوَّلِ ضَميرًا هو (هم)، والمعنى وراءَهُ:

زيادةٌ في التَّهديدِ والوعيدِ، ودلالةٌ على هَوانِهم على الله

وفي إيثارِ الضَّميرِ في قولِه: ﴿سَيَجْزِيهِمْ﴾ إيصالُ الفعلِ إليهم اتِّصالًا مُباشرًا سريعًا؛ زيادةً في التّهديدِ والوعيدِ، ودلالةً على هوانِهم على اللّهِ، وعدمِ الاكتراثِ بهم، وعدمِ المبالاة في أيِّ أوديةِ النَّارِ أَلْقَوا.

السِّرُّ في مَجيءِ المفعولِ الثّاني ﴿وَصْفَهُمْ﴾، دونَ غيرِه منَ الألفاظِ:

تَبشيعُ ما قامُوا به من وصْفِ الأجنَّةِ، حِلًّا وحُرمةً، وَفْقَ أهوائِهم

والوصفُ: ذكرُ حالاتِ الشَّيءِ الموصُوفِ، وما يَتَميَّزُ به لمَن يريدُ تمييزَهُ في غَرَضٍ ما، والوصفُ هنا: هو ما وصفُوا به الأجنَّةَ من حَلٍّ وحُرمةٍ لفريقٍ دونَ فريقٍ، فذلك وصفٌ في بيانِ الحَرامِ والحَلالِ منه، كقولِه تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾ [النّحل: 116][1].

نُكتةُ الإيجازِ بالحذْفِ، في جعْلِ الجزاءِ مُتعدِّيًا للوصْفِ بنفسِهِ:

قولُهُ: ﴿سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ﴾ على تقديرِ مُضافٍ؛ أي: سَيَجزِيهم

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/112أ.

جزاءَ وصفِهم؛ ضَمَّنَ ﴿سَيَجۡزِيهِمۡ﴾ معنى يُعطيهِم؛ أي: جَزاءً وِفَاقًا له[1]. وبعيدًا عنِ التَّضمينِ يُفْهَمُ معنًى لطيفٌ في حذفِ المضافِ (جزاء)، وهو استحضارُ قولِهم ذاتِه، وتشخيصُ وصفِهم نفسِه عندَ الجزاءِ، فلا يستطيعونَ ردًّا، ولا يجدونَ لأنفسِهم فكاكًا.

فيه استحضارُ قولِهم ذاتِه، وتشخيصُ وصفِهم نفسِه عندَ الجزاءِ

عِلَّةُ الابتداءِ بـ(إنَّ) مكسورةَ الهمزةِ بعدَ الجُملةِ السَّابقةِ:

احترازًا مِن توهُّمِ أنَّ الجملةَ هي وضعُهم المُتوعَّدُ عليه، وليسَ بذاك، فكان كسرُ الهمزةِ لأسبابٍ، منها: الاحترازُ، ومنها: التَّعليلُ: ﴿إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾؛ إذ هي تعليليَّةٌ استئنافيَّةٌ، سدَّت فيها (إنَّ) مَسدَّ الفاءِ في الرَّبطِ المُستغْنِي عنِ الفاءِ الصَّريحةِ فيه، لكونِ الجملةِ الأولى: ﴿سَيَجۡزِيهِمۡ وَصۡفَهُمۡۚ﴾ مُقتضَى الثَّانيةِ ﴿إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ ومُتسبِّبةً عنها.

الاستئنافُ التَّعليليُّ، والاحترازُ من توهُّمِ أنَّ الجُملةَ هي وضْعُهم المتوعَّدُ عليه

السِّرُّ في الضّميرِ العائدِ على اسْمِ الجلالةِ:

في قوله تعالى ﴿إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾، اسمُ (إنَّ) هو الضَّميرُ المُتَّصلُ بها، وإيثارُه مُضْمَرًا على الظّاهرِ وعودُهُ على فاعل (يجزي) المُستترِ المنوَّهِ عنه قبلُ في محلِّه، وما فيه منَ التّدرُّجِ في الإخبارِ عنِ الملكِ الحقِّ سبحانَه ممّا فيه التَّدرُّجُ في التّعليمِ والتَّلطُّفُ في التَّفهيمِ، واستحالةُ السَّامعِ لحصولِ البلاغِ، ولئلَّا ينخلعَ قلبُهُ إن رقَّ وبُوغِتَ، فجاءَ على هذا النَّحوِ: الضّميرُ المُستترُ فاعل ﴿سَيَجۡزِيهِمۡ﴾، فالضَّميرُ الظَّاهرُ في ﴿إِنَّهُۥ﴾، فالاسمان الظَّاهران منَ الأسماءِ الحسنى والصّفاتِ العُلا المُقتضِي كلٌّ منهما مَفعولًا، تُرِكَ ذكرُهُ؛ للتّعميمِ والإطلاقِ.

التّدرُّجُ في التَّعليمِ، والتَّلطُّفُ في التّفهيمِ، مَنهجٌ سامٍ كريمٌ

علاقةُ الاسمينِ الكريمَيْنِ ﴿حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾، بمعنى الآيةِ الكريمةِ:

وصفُ اللّهِ تعالى باسمِهِ الحكيمِ مُرادٌ منه الوصفُ بالحُكمِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/112أ.

والحِكمةِ ولوازمِهما؛ من كمالِ القدرةِ والاقتدارِ والإرادةِ إعمالًا وإبطالًا وإحياءً وإفناءً، وأنّ مَشيئَتَهُ نافذةٌ في خلقِهِ، وعلى العدلِ الموفِّي كلًّا ما عملَ، وعلى العفوِ والمَغفرةِ لمَن يشاءُ ممَّا لا ينافي مَشيئَتَهُ أنَّه لا يغفرُ للمُشرِكِ بهِ، وعلى أنَّ عقابَهُ مُلِئَ بالحكمِ والمَصالحِ للخَلقِ، وكلُّ ذلك على أنَّ ﴿حَكِيمٌ﴾ خبرُ إنَّ التَّعليليَّةَ المفيدة ربطَ الكلامِ.

إبرازُ كمالِ قُدرةِ اللهِ، ودليلُ دِقَّةِ الإجْزاءِ، وإصابتِهِ أهلَهُ دونَ جَوْرٍ

ووصفُه تعالى بالعليمِ دليلٌ على دقَّةِ الإجزاءِ وإصابتِهِ أهلَهُ دون تجوُّزٍ، أو تجاوزٍ، وأنَّه سبحانَه وسعَ الجناةَ بحلمِهِ، فلم يعاجلْهُم بعقابِهِ مع كمالِ علمِهِ بذاتِ صدورِهِم وخلجاتِ نفوسِهِم وجميعِ جرائرِهِم وجناياتِهِم، وإمهالِهِ إيّاهُم؛ ليرعووا، وينيبوا، فأوسَعَهم كرمًا ورزقًا وعطاءً وإمهالًا، وأنذرَهُم بإنزالِ الكتابِ المجيدِ الَّذي لا يأتيه الباطلُ مِن بين يديه، ولا مِن خلفِهِ، تنزيلٌ من حكيمٍ حميدٍ على خاتمِ أنبيائِهِ وصفوةِ رسلِهِ وخلاصةِ أتقيائِهِ، وأثرُ كونِهِ عليمًا صفةٌ لحكيمٍ من جهة، وخبرٌ بعدَ خبرٍ من جهةٍ أخرى، ودلالةُ اسميه العظيمينِ الأحسنينِ على جميعِ كمالاتِهِ تعالى وصفاتِهِ الحُسنى ﷻ.

من صورِ الإبهارِ في إعجازِ الآيةِ هذه الإشراقاتُ الفريدةُ:

يدورُ موضوعُ الآيةِ الكريمةِ حولَ الإنهاءِ في الإنباءِ

لذا بُدِئت بفعلِ القولِ يتلوه مقولُه ﴿وَقَالُواْ هَٰذِهِۦٓ أَنۡعَٰمٞ وَحَرۡثٞ﴾، وذلكم يقتضي الإطنابَ، وإذ الموضوعُ إحكامُ الإدانةِ وتقريرُ ثبوتِ الاتِّهامِ، فقَد قَوِيَ داعي الإحصاءِ بالاستقصاءِ فيما يُثَرَّبُ عليه، ويُعَيَّبُ، وكلُّ ذلكم داعيةٌ إلى بلوغِ الإطنابِ مداه إلى حدٍّ يخرجُ عنه شيءٌ ما إلى الإسهابِ الَّذي قد يُحمدُ إن كان لمزيدِ الإفهامِ والإفصاحِ عنِ الخصامِ، بيد أنَّ الأدبَ الرّبّانيَّ في الأسلوبِ القرآنيِّ يؤدِّبُنا ويُعلِّمُنا فيه الإعراضَ عن ذكرِ القبيحِ تنزُّهًا وتألُّهًا، وتطبُّعًا وترفُّعًا؛ وذلكم يقتضي الإيجازَ الَّذي سَدَاهُ ولُحمَتُهُ الاختصارُ والاعتصارُ؛ والأوَّلُ أبينُ للحُجَّةِ، وأنكى في المجرمِ المتَقَحِّمِ، وأعمُّ في البلاغِ؛ لأنَّه

يبلغُ منَ الدَّهماءِ والعامَّةِ مبلغَ الإسماعِ والإقناعِ، وذلك ما لا يبلغُهُ الإيجازُ الَّذي يُخاطبُ المُحصَّلينَ والمُتعلِّمينَ المتبصِّرينَ، ولا نزاعَ أنَّ تعميمَ البلاغِ مَقصودٌ وتوسيعَ دائرتِهِ مَرفودٌ، والثَّاني الَّذي هو الإيجازُ أدخلُ في الإعجازِ؛ إذا لم يقصَّرْ عمَّا يبلِّغُه الإطنابُ من مضامينَ، ويلمُّ به من عناصرِ الإيفاءِ الثَّمينِ، ولا ريبَ أنَّ تقبيحَ القبيحِ وتمليحَ المليحِ من مُقوِّماتِ الإقناعِ ومن دواعي الإتباعِ.

وَجْهُ مُعالجةِ الآيةِ هذا النِّزاعَ بحُسنِ الانتزاعِ:

اتّخاذُ الإيجازِ المُعرِضِ عن ذكرِ القبيحِ، والإيغالِ في تفصيلِهِ مَثابةً للنَّاس

لقد أخذتِ الآيةُ بالأسلوبين وسلكَت المنْحَيَيْن معًا دون أن تُهملَ منَ الأوَّلِ أو تغفلَ منَ الثَّاني، في عَجَبٍ عُجَابٍ ولَذٍّ مُستطابٍ! وذلك أنَّها اتّخذتِ الإيجازَ المُعْرِضَ عن ذكرِ القبيحِ والإيغالَ في تفصيلِهِ مثابةً للنَّاسِ وأمنًا، فَجَرَتْ في أسلوبِها عليه تأنُّقًا وتعفُّفًا، وترؤُّفًا وتلطُّفًا، وجَعَلتِ الإيجازَ يتضمَّنُ الإطنابَ في لمحٍ خاطفٍ مُحيطٍ، حيث جمعَت بينَ النَّصِّ ومُتعلَّقاتِهِ الكثيرةِ، واحتمالِ النَّصِّ لأكثرَ من مُحَالٍ إليه مأذونٍ به، لا ينازِعُ في جوازِهِ مُتَنَصِّتٌ ولا مُتَعَنِّتٌ، ونزوعُ الآيةِ إلى الاكتفاءِ بأسلوبِها، والاقتضابِ المُثْنَى به عليها.

بَلاغةُ الإنذارِ في تقريرِ قاعدةِ (الجزاءُ من جنْسِ العملِ):

القُرآنُ بلاغٌ عامٌّ، ونذيرٌ بليغٌ

الآيةُ الكريمةُ الَّتي معنا تقرِّرُ عدالةَ الحكمِ الإلهيِّ؛ إذْ إنَّها حملَت نذيرًا - يسمِّيه قانونُ الإجراءاتِ إنذارًا على يدِ مُحْضِرٍ - والمُحْضِرُ يحضِرُ المعْنِيّين ليبلغَهم، وليأخذَ تواقيعَهم أن بُلِّغُوا وعَلِمُوا؛ والقرآنُ بلاغٌ عامٌّ، ونذيرٌ بليغٌ، وقد مضى قبلُ في آياتِ السُّورةِ: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ [الأنعام: 19].

نتدبَّرها بحسب وسعِنا على هدْيٍ من أمرِ اللّٰهِ؛ لنرى الإنذارَ فيها واضحًا لائحًا، يتضمَّنُ تفنيدَ بواعثَ، أدَّت بأربابِها إلى ارتكابِ جنايةٍ ماثلةٍ، وجريمةٍ حاصلةٍ، ومن شأنِ الدِّينِ القيِّمِ أن يندِّدَ بها، وأن يُعاقِبَ عليها.

وهكذا جاءَتِ الآيةُ الكريمةُ: ﴿وَقَالُواْ مَا فِي بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلۡأَنۡعَٰمِ خَالِصَةٞ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِنَاۖ وَإِن يَكُن مَّيۡتَةٗ فَهُمۡ فِيهِ شُرَكَآءُۚ سَيَجۡزِيهِمۡ وَصۡفَهُمۡۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٞ﴾.

وفحوى الإنذارِ فيها مُتضمِّنٌ التَّأثيمَ على القولِ المُحرِّضِ على الفعلِ المؤثِّمِ - بالفاعلِ والمفعولِ معًا - وهو نصٌّ بأنَّ الفعلَ المُجرَّمَ المُحرَّمَ قد ارتُكِبَ مرارًا فيما سلفَ، وقد سنَّهُ القائلونَ قانونًا يمتدُّ عدوانُه مُتوارِثًا إلى الخَلَفِ، حميَّة الجاهلية الأولى؛ فالاتِّهامُ مُحقَّقٌ، والجريمةُ مُتيَقَّنةُ الوقوعِ، ولا سبيلَ إلى الإفلاتِ من آثارِ هذا الإنذارِ بغيرِ إنابٍ يحقِّقُ المتابَ، ويردُّ إلى الصّوابِ.

والتّفلُّتُ انحيازًا إلى السُّدورِ عسيرٌ غيرُ يسيرٍ، وكيف لا، والمُنذِرُ علَّامُ الغُيوبِ، وخبايا القلوبِ، وخفايا الذّنوبِ، ومَن هو بكلِّ شيءٍ محيط؟

وأخيرًا فإنَّ الإنذارَ يتضمَّنُ الجزاءَ من جنسِ العملِ بل بالعملِ نفسِه، وكأنَّه يحاكمُهم إلى فطرتِهم المُقبَّحةِ، وفي قولِه جلَّ وعزَّ: ﴿سَيَجۡزِيهِمۡ وَصۡفَهُمۡۚ﴾ ما لا يُحاطُ بفوائدِ مُفاداتِه، ونضيدِ دُرَرِه، ولا شكَّ أنَّ قولَهُ تعالى: ﴿سَيَجۡزِيهِمۡ وَصۡفَهُمۡۚ﴾ هنا، وما هو في التَّنزيلِ العزيزِ مِن مثلِه، وهو أصرحُ منه، كقولِه تباركَ اسمُهُ: ﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيۡرٞ مِّنۡهَاۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجۡزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٨٤﴾ [القصص: 84] وقوله: ﴿هَلۡ يُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٣٣﴾ [سبأ: 33] - هو أولى بأن يكونَ أصلَ ما تُعورِفَ عليه منَ الحكمةِ السَّاريةِ، والقاعدةِ القانونيَّةِ المذكورةِ في "علم الإجرامِ والعقابِ"، وهو من موادِّ الدِّراساتِ الحقوقيَّةِ والقانونيَّةِ في الجامعاتِ؛ أنَّ: (الجزاءَ من جنسِ العمل)!.

﴿قَدۡ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓاْ أَوۡلَٰدَهُمۡ سَفَهَۢا بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَحَرَّمُواْ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفۡتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِۚ قَدۡ ضَلُّواْ وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ ١٤٠﴾

[الأنعام: 140]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

إكمالُ بيانِ تفاصيلِ أنواعِ سَفاهاتِ المُشركينَ في الجاهليّةِ

لمّا ذكرَ تعالى تفاصيلَ سفههم، وأشارَ إلى معانيها، جمعَها، وصرَّحَ بما أثمرَتْهُ منَ الخَيبةِ في سبعِ خِلالٍ؛ كلُّ واحدةٍ منها سببٌ تامٌّ في حصولِ النَّدَمِ، فقال: ﴿قَدۡ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓاْ أَوۡلَٰدَهُمۡ﴾ الآية[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿خَسِرَ﴾: الأصلُ في الخسرانِ: النَّقصُ، ويُستعمَلُ الخسرانُ في المُقتنياتِ الخارجةِ؛ كالمالِ والجاهِ في الدُّنيا وهو الأكثر، وفي المُقتنياتِ النَّفسيَّةِ؛ كالصِّحَّةِ والسَّلامةِ، والعقلِ والإيمانِ، والثَّوابِ[2]، وقد وردَ في القرآنِ على خمسةِ معانٍ هي: النَّقصُ، والغبنُ، والعجزُ، والضَّلالُ، والعقوبةُ[3]، وفي لغاتِ بعضِ القبائلِ العربيَّةِ يأتي بمعنى التَّضييعِ، وذكرَ ابنُ دريد أنَّ الأصلَ في الخسرِ والخسارِ والخسرانِ وَاحِدٌ: وهو الضَّلالُ[4]، وأمارةُ أنَّه المعنى المرادُ في الآيةِ قولُهُ في ختامِها: ﴿قَدۡ ضَلُّواْ﴾.

2) ﴿سَفَهَۢا﴾: السَّفَهُ: ضدُّ الحِلمِ، وَأَصلُه: الخِفَّةُ، والسَّخافةُ، والنَّزَقُ، والحركةُ، وسَفِهَ الرّجلُ؛ أَي: جَهِلَ، وهو خفَّةٌ في البدنِ، ومنه قيل: زمامٌ سَفِيهٌ: كثيرُ الاضطراب، وثوبٌ سَفِيهٌ: رديءُ النَّسجِ،

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/286.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (خسر).
(3) ابن الجوزيّ، نزهة الأعين النّواظر، ص: 278.
(4) ابن دريد، جمهرة اللّغة: (خسر).

واستُعملَ في خفَّةِ النَّفسِ لنقصانِ العقلِ، في الأمورِ الدُّنيويَّةِ، والأخرويَّةِ[1]، وبها فُسِّرت اللَّفظةُ في الآيةِ.

المَعْنى الإجْماليُّ:

الخُسرانُ الحقيقيُّ للمُعتدِينَ على حقِّ اللهِ في التَّشريعِ، والمُفترين عليه

قد خسرَ، وهلكَ الَّذين قتلوا أولادَهم لضعفِ عقولِهم وجهلِهم، وحرَّموا ما رزقَهُم اللهُ كذبًا على اللهِ، قد بَعُدوا عنِ الحقِّ، وما كانُوا من أهلِ الهُدى والرّشادِ؛ فالتَّحليلُ والتَّحريمُ من خصائصِ الألوهيَّةِ في التَّشريعِ، والحلالُ ما أحلَّه اللهُ، والحرامُ ما حرَّمَه اللهُ، وليس لأحدٍ مِن خَلْقِهِ فردًا كان أو جماعةً أن يشرِّعَ لعبادِهِ ما لم يأذنْ به اللهُ[2].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بَلاغةُ الفَذْلَكةِ في الآيةِ الكريمةِ:

تَقييدُ إطلاقِ الحلالِ بضَلالِ قتْلِ الأولادِ

في الآيةِ تذييلٌ جُعِلَ فَذلَكَةً للكلامِ السَّابقِ المُشتَمِلِ على بيانِ ضلالِهم في قتلِ أولادِهم، وتَحجيرِ بعضِ الحلالِ ومنعه على بعضِ مَن أُحِلَّ لهُ[3].

عِلَّةُ الافتِتاحِ بـ﴿قَدْ﴾ في الآيةِ الكريمةِ:

خُسرانُهم لا حِقَّ بهم لا محالَةَ، وغفلتهم عنه أعجب

لم يكتفِ بالفعلِ ﴿خَسِرَ﴾ دونَ ﴿قَدْ﴾، كما اكتُفِي بالفعلِ: ﴿تَبَّتْ﴾ في قوله تعالى ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ﴾ [المسد: 1] وبيانُ ذلك أنَّ مغزى ﴿قَدْ﴾ هنا، تتعدَّدُ وظائفُه منَ التَّنبيهِ على أنَّ خُسرانَهم أمرٌ ثابتٌ، ومنَ التَّعجيبِ منهم كيف عَمُوا عمَّا هُم فيه من خُسرانِهم[4]، بلْهَ أنَّها للحُكمِ الفاصلِ في قضيَّةِ الخسرانِ، ولتحقيقِ أنَّ ذلك ممَّا لا يُتَدارَكُ ولا يُستَعَاضُ عنه بغيرِهِ، فَخُسرُهم لاحقٌ بهم لا محالةَ؛ فالخُسرُ هنا

(1) ابن دريد، جمهرة اللّغة، والجوهريّ، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (سفه).

(2) نخبة منَ العلماء أساتذة التّفسير، التّفسير الميسَّر، ص: 146.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/113أ.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/113أ.

فواتُ ما لا يُستَلحَقُ، ولا سبيلَ إلى إحرازِهِ بَعدَمَا فاتَ، ونظيرُ هذا الَّذي سدَّ مَسَدَّهُ في آيةِ سورةِ المَسَدِ تكرارُ الفعلِ ثانيةً: ﴿وَتَبَّ﴾ في الآية: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١﴾ [المسد: 1].

بَلاغةُ الاستِعارةِ في لفْظِ ﴿خَسِرَ﴾:

الخُسرانُ ضَياعٌ للنَّفسِ، ولِمصدرِ الانتفاعِ

الخسرانُ إضاعةُ النَّفسِ، كما يضيِّعُ التَّاجرُ رأسَ مالِهِ، فحقيقةُ الخسرانِ نقصانُ مالِ التَّاجرِ، والتَّاجرُ قاصدُ الرِّبحِ، وهو الزِّيادةُ، فإذا خَسِرَ فقد باءَ بعكسِ ما عَمِلَ لأجلِهِ، ولذلك كَثُرَ في القرآنِ استعارةُ الخُسرانِ لعملِ الَّذين يَعملُونَ طلبًا لمرضاةِ اللهِ وثوابِهِ، فيقعُونَ في غضبِهِ وعِقابِهِ؛ لأنَّهم أتعَبُوا أنفسَهُم، فحصَّلُوا عَكسَ ما تَعِبُوا لأجلِهِ - والخسرانُ مُستعارٌ هنا لإضاعةِ ما شأنُهُ أن يكونَ سببَ نفعٍ - وعَدِمُوا فائدةَ الانتفاعِ بما ينتفعُ به النَّاسُ من أنفسِهِم، وهو العقلُ والتّفكيرُ، فإنَّه حركةُ النَّفسِ في المعقولاتِ لمعرفةِ حقائقِ الأمورِ، وذلك أنَّهم لمّا أعرضُوا عنِ التَّدبُّرِ في حقائقِ الأمورِ، ونفعِها لهم، ومآلاتِها كان ذلك سببَ أن يضلُّوا، فيأتوا بشنيعِ الفعلِ (قتل أولادهم)؛ وبقتلِهِم أولادَهم طلبُوا نفعَ أنفسِهِم بالتّخلُّصِ من أضرارٍ في الدُّنيا مُحتملٍ لَحاقُها بهم من جرّاءِ بَناتِهِم، فَوَقَعُوا في أضرارٍ مُحَقَّقةٍ في الدُّنيا وفي الآخرةِ، فإنَّ النَّسلَ نِعمةٌ منَ اللهِ على الوالِدَين يَأنَسُونَ به، ويَجِدُونَهُ لِكفايةِ مُهِمَّاتِهِم، ونِعمَةٌ على القَبيلةِ تَكثُرُ وتَعتَزُّ، وعلى العالَمِ كُلِّه بِكثرةِ مَن يُعمِّرُهُ، وبما يَنتفِعُ به النَّاسُ من مواهبِ النَّسلِ وصنائعِهِ، ونِعمةٌ على النَّسلِ نفسِهِ بما ينالُهُ من نعيمِ الحياةِ وملذَّاتِها[1].

شَهْوَتَا البطْنِ والفرْجِ، مُبتدأُ الاعتداءِ، ومُنتهَى الغايةِ فيه

تَوجِيهُ أسلوبِ الإنشاءِ المحتَمِلِ، في جُملةِ الخُسرانِ:

الحكمُ بالخسران الَّذي يُلْقَى على السَّامعِ؛ ليزلزلَ البنيانَ،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/154، 8/أ113.

ويهدِّمَ الأركانَ، ويُرْعِدَ الفرائص، ويقذفَ الرُّعبَ في القلوبِ، يحتملُ معنى الإنشاءِ على الدُّعاءِ عليهم بالخسرانِ الواقعِ المَسبَّبِ تأسيسًا على أصولِ القبائحِ والرَّذائلِ الَّتي ولغُوا فيها، وسقطُوا في مهاويها؛ وأعظمُها الشِّركُ باللّه، واستيلاءُ القوَّتين الغضبيَّةِ والشَّهوانيَّةِ عليهم، ومن آثارِهما معًا قُرْبُ الزِّنى ومعافَسَةُ النِّساءِ غيرِ المحارم، فتكونُ الثَّمرةُ الخبيثةُ المحرَّمةُ الولدَ المولودَ، يُستَخَفُّ بحقِّه، استغراقًا بالنَّظرِ في أصلِه ومنبتِه، ويُودَى بحياتِه انتهاكًا لحرمتِه، فلذا ذكرَ اللّهُ النَّهيَ عن قربِ الزِّنَى مُتوسِّطًا بينَ النَّهي عن قتلِ الأولادِ خشيةَ إملاقٍ وبين النَّهي عن قتلِ النَّفسِ الَّتي حرَّمَ اللّهُ إلَّا بالحقِّ، فقالَ سبحانَه وبحمدِه: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴿٣١﴾ وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا تَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّۗ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّي ٱلْقَتْلِۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴿٣٣﴾﴾ [الإسراء: 31 - 33]، واعتمالُ شهوةِ الفرجِ بالغلمةِ والهياجِ المشوِّشِ المفسِدِ على الذِّهنِ صفاءَه، ما لم يستفرغْ وعاءَه، هو أثرٌ ظاهرٌ لمتابعةِ شهوةِ البطنِ ومسايرتِها، وشهوةُ البطنِ هذه هي الَّتي أدَّت إلى الاعتداءِ في الأنعامِ بالتَّحليلِ والتَّحريمِ بالتَّحكُّمِ الآثمِ الظَّالمِ العاري عنِ الحكمةِ، المسلوبِ الدَّواعي، الخالي منَ المقتضيَاتِ، فضْلًا عمَّا فيه منَ التَّطاولِ إلى مقامِ الألوهيَّةِ والاستكبارِ الفظِّ الجافي النَّافرِ عن نزلةِ العبوديّةِ، ومن ثَمَّ اقترنَت شهوتا البطنِ والفرجِ في إيقاظِ القوّةِ الغضبيَّةِ؛ فمنهما مبتدأُ الاعتداءِ ومجاوزةِ الحدِّ وإليهما مُنتهى الغايةِ فيه، وإنَّما ساغَ الحملُ على الدُّعائيَّةِ مجازًا في الجوازِ برغمِ تصدُّرِها بـ(قَدْ) الَّتي تفيدُ في المقامِ التَّحقيقَ؛ لأنَّ الدَّاعيَ عليهم هو المَدعوُّ إليهم ليقضي فيهم قضاءَه، وهو اللّهُ تعالى، فلذا كان تردُّدُ معناها مُمْلِحًا مُطْرِفًا بالغًا أوجَ الحُسْنِ.

وممَّا يسترعي النَّظرَ المعجَبَ المشدوهَ إعجابًا: العدولُ عن ذمِّ الفعلين القبيحين؛ ذمِّ سبابٍ وقدْحٍ، إلى ما ينطوي عليه بأبلغَ مِنْ ذكره وأشملَ، وهو بيانُ سوءِ عاقبتِهما على أصحابِهما القَتَلةِ الفَعَلةِ، المُهَدِّمة ما حَرَّم اللّهُ؛ إذِ الإنسانُ بنيانُه، وملعونٌ مَن هدمَ بغيرِ حقٍّ مُوجِبٍ بُنْيَانَه.

تَعميمُ الحُكْمِ وتَعليقُهِ بوصْفِ القتْلِ

نُكتةُ مَجيءِ الفاعلِ المتَّصِفِ بالفعلِ اسْمًا موصولًا:

جاءَ الفاعلُ اسمًا موصولًا؛ فأَظهرَ في مَوضِعِ الإضمارِ تَعميمًا وتَعليقًا للحُكمِ بالوَصفِ، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓاْ﴾[1].

سَببُ خُسران الوائدِين، قتْلُ أولادِهم بجنايةِ عُقولِهم المتحَجِّرةِ

بَلاغةُ التَّعريفِ بالموصُولِ ﴿ٱلَّذِينَ﴾:

تعريفُ المسندِ إليه بالموصوليَّةِ للإيماءِ إلى أنَّ الصِّلَةَ عِلَّةٌ في الخبرِ؛ فإنَّ خسرانَهم مُسبَّبٌ عن قتلِ أولادِهم[2].

جمْعُ الفعْلِ دليلُ كَثرتِهِ، وصِيغتُهُ الماضيةُ دليلُ وُقوعِهِ

دَلالةُ كوْنِ جُملةِ الصِّلةِ فعلًا ماضيًا ﴿قَتَلُوٓاْ﴾:

قوله: ﴿قَتَلُوٓاْ أَوۡلَٰدَهُمۡ﴾، يدلُّ الماضي على وقوعِ الفعلِ، وتحقُّقِه؛ وذلك أنسبُ لوصفِ فاعلِهِ بالسَّفهِ، وغيرِ العلمِ؛ فتحقُّقُ الوصفِ ورسوخُهُ في الموصوفِ مناطُ تحقُّقِ الفعلِ، وإسنادُه إلى واو الجماعةِ بوصفِهِ فاعلًا دليلُ التَّكثيرِ المناسِبِ لتثقيلِ فعلِ القتلِ وِفاقَ قراءةِ ابن كثير، وابن عامر.

اختِصاصُ مواضعَ قُرآنيَّةٍ مَقصودةٍ بجملة: ﴿قَدۡ خَسِرَ ٱلَّذِينَ﴾:

مَن يُقْدِمُ على فعلٍ شنيعٍ، مُتجرِّدٌ من الإيمانِ، والرَّحمةِ

اختصاصُ هذا المَوضِعِ بهذا الأسلوبِ ﴿قَدۡ خَسِرَ ٱلَّذِينَ﴾، ووقوعُه في التَّنزيلِ العزيزِ بهذا التَّمامِ ثلاثَ مرارٍ، هنّ وسُطَاها، واكتنفَها موضعان تقدَّماها وأعقَباها؛ كلاهما نصُّه: ﴿قَدۡ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِۖ﴾ [الأنعام: 31]، [يونُس: 45]، ثمّ يفترقان في نهايتيهما، ودلالةُ ذلك على أنَّ الإقدامَ على هذا الإجرامِ، دليلٌ على تجرُّدِ صاحبِهِ منَ الإيمانِ باللّهِ وبالبعثِ، ودلالةُ ذلك على الجرأةِ على الجريمةِ وبلوغِ غايةِ التَّوحُّشِ، وفقدِ الآدميَّةِ حيالَها.

تَوجِيهُ قراءةِ تثْقيلِ القتْلِ ﴿قَتَّلُوٓاْ﴾:

قرأَ الإمامانِ ابنُ كثيرٍ وابنُ عامرٍ ﴿قَتَّلُوٓاْ﴾، وحُمِلَ التَّثقيلُ على التَّعديدِ والتَّكثيرِ، ويمكن أن يُقالَ في توجيهِ اختلافِ القراءتين: إنَّ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/286.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/114أ.

كُلًّا منهما لاحظَتْ معنًى، ورصدَتْ حالًا من أحوالِهم في هذا القتلِ؛ إذ لا يخلو الأمرُ من وجودِ مَن كَثُرَ ذلك منه في أولادِهِ، فقتلَ منهم مَن قتلَ ذكرانًا خوفَ الفقرِ، وإناثًا خوفَ العارِ أو تشاؤمًا، ويمكن أن يُقالَ: جُمِعَ إلى القتلِ بالمباشرةِ القتلُ بالنِّيَّةِ والعزمِ المُصَمَّمِ؛ إذ كانَتِ الصّدورُ حصَّلَتْ ذلك، وانطوَت عليه، وَتَوَطَّنَها مُقيمًا فيها لا يبرحُ، وفي التَّشديدِ إظهارٌ لفظاعةِ القتلِ وشدَّتِهِ بتسليطِ فعلِ القتلِ على الأولادِ[1].

تَسليطُ فعْلِ القتلِ على الأولاد، فيه إظهارٌ لِفَظاعَةِ القتْلِ وبَشاعَتِه

دَلالةُ مُقابلةِ الجمْعِ في الفاعلِ والمفعولِ:

في مقابلةِ جمعِ الفاعلِ في ﴿قَتَلُوٓاْ﴾ بالجمعِ في المفعول به ﴿أَوۡلَٰدَهُمۡ﴾؛ تأكيدٌ لوجهِ تكثيرِ هذا الفعلِ، وبيانٌ لأثرِ الطَّبعِ الجاهليِّ ذي القلبِ المُتحجِّرِ والخلقِ المُتوحِّشِ وانعكاسِ النَّظرِ، وأنَّه ليسَ فيهم من رشيدٍ يُنَهْنِهُ عن هذا، ويمنعُ منه، وفيه بيانُ عظمِ الحاجةِ بالإنسانيّةِ إلى الإسلامِ للتَّهذيبِ والإصلاحِ.

حاجةُ الجاهليَّةِ إلى الإسلامِ، لتهذيبِ الطِّباعِ، وإصْلاحِ الآفاتِ

عِلَّةُ إيثارِ لفْظِ (الأولادِ) دونَ غيرِهِ:

الأولادُ لفظٌ عامٌّ يشملُ الذُّكورَ والإناثَ، والأبناءُ مُخصَّصٌ بالذُّكور، والبناتُ بالإناثِ؛ والتَّعبيرُ باللَّفظِ العامِّ مُوحٍ بتساوي البناتِ بالأولادِ، فضلًا عن معنى الحميميَّةِ المُتحصِّلةِ من معنى الولادةِ من أصلابِهم؛ لتبلغَ الآيةُ الأوجَ في النَّهي عن قساوةِ القلبِ وجفاوةِ الطَّبعِ وغِلَظِ الأكبادِ، وهي تُذكِّرُ المجنيَّ عليهم: ﴿أَوۡلَٰدَهُمۡ﴾، وبيان ما ينطوي عليه ذكرُ لفظِ (الأولاد) دونَ (البنات) أو (الأبناء) من تعبيرٍ مُوحٍ بمعانٍ تضرمُ الصُّدورَ انفعالًا بالجريمةِ، واستبشاعًا لها، وتكريسًا لمعنى توحُّشِهم وتَغَوُّلِهم تُجَاه أولادِهم عدوانًا عليهم، وظلمًا لهم، وافتئاتًا على حقوقِهم الفطريَّةِ في الحياةِ.

تَذكيرُ الجُناةِ ببُنوّةِ المَقتولينَ، تَشنيعٌ لفعْلِهم، وتَبشيعٌ لجُرمِهم

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/115.

دَلالةُ الضَّميرِ (هم)، في قوله: ﴿أَوۡلَٰدَهُمۡ﴾:

الأولادُ امتدادٌ للنّسلِ، وعونٌ لهم، وامتدادٌ باقٍ ذكرُهُ في عَقِبِهم

إضافةُ الضَّميرِ إليهم مُنبئٌ عن أنَّهم امتدادٌ لهم وإضافةٌ إليهم، إمدادًا وإنجادًا وإرفادًا وإسعادًا وعونًا مُعينًا، فيالحماقةِ أولئك الجاهليِّين وطيشِهم وضلالِ فهومِهم!

عِلَّةُ إيثارِ لفْظِ السَّفهِ، في قوله: ﴿سَفَهَۢا﴾:

تَبديدُ المَصالحِ العظيمةِ، لأجلِ مَنفعةٍ يَسيرةٍ، هو مُنتهَى السَّفَهِ

اقتضَت حكمةُ اللهِ إيجادَ نظامِ التَّناسلِ؛ حفظًا للنَّوعِ، وتعميرًا للعالَمِ، وإظهارًا لمَا في الإنسانِ من مواهبَ تنفعُهُ، وتنفعُ قومَهُ، على ما في عَمَلِهم من اعتداءٍ على حقِّ البِنتِ الّذي جعلهُ اللهُ لها، وهو حقُّ الحياةِ إلى انقضاءِ الأجلِ المُقدَّرِ لها، وهو حقٌّ فطريٌّ لا يملكُهُ الأبُ؛ فهو ظُلمٌ بيِّنٌ لِرَجاءِ صَلاحٍ لغيرِ المَظلومِ، ولا يُضَرُّ بأحدٍ لينتفعَ غيرُهُ؛ فلمَّا قتلَ بعضُ العَرَبِ بناتِهم بالوَأدِ كانُوا قد عطَّلُوا مصالحَ عظيمةً مُحقَّقةً، وارتكبوا به أضرارًا حاصِلَةً، من حيثُ أرادوا التَّخلُّصَ من أضرارٍ طفيفةٍ غيرِ مُحقَّقةِ الوُقُوعِ، ولأجلِ ذلك سمَّى اللهُ فعلَهم سفهًا؛ لأنَّ السَّفَهَ هو خِفَّةُ العقلِ واضطرابُهُ، وفعلُهم ذلك سَفَهٌ مَحضٌ، وأيُّ سفهٍ أعظمُ من إضاعةِ مصالحَ جمَّةٍ وارتكابِ أضرارٍ عظيمةٍ وجِنايةٍ شنيعةٍ، لأجلِ التّخلُّصِ من أضرارٍ طَفيفةٍ قد تَحصُلُ، وقد لا تُحصُلُ[1]؟ ومن هنا خُصَّ السَّفَهُ بالذِّكرِ لمَا فيه من استدعاءٍ للآفةِ المُفسدةِ للقولِ والفعلِ والعقلِ.

التَّوْجِيهُ النَّحْويُّ لإعرابِ لفظِ ﴿سَفَهَۢا﴾:

سَفْكُ دمِ الولدِ، خِفَّةُ عقلٍ، وقصُورُ تفكيرٍ

بلغَ القرآنُ الغايةَ، وهو يذكرُ حامِلَهُم على القتلِ، وأنَّهُ السَّفَهُ لا العقلُ، وتردَّدَ المُعربونَ بينَ كون ﴿سَفَهَۢا﴾ مفعولًا مُطلقًا مُبيِّنًا - لنوعِ القتلِ؛ أي: أنَّه قتلُ سَفَهٍ لا رأيَ لصاحبِهِ، بخلافِ قتلِ العدوِّ وقتلِ القاتِلِ - أو لأجلِهِ، أو حالًا من فاعل ﴿قَتَلُوٓاْ﴾ على الوصفِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/114.

بالمصدرِ، والمعنى: أنَّهم سفهاءُ بالغونَ أقصى السَّفَهِ. وفي بيانِ النَّوعِ، أو وصفِهِم بالسَّفهِ تشنيعٌ عليهم، وتقبيحٌ لفعلِهِم، وفي الحاليَّة ترسيخٌ لصفةِ السَّفهِ في الضَّالِّين؛ وهو أبلغُ في مقامِ الذَّمِّ، وأنسَبُ لعظيمِ الذَّنبِ[1].

دَلالةُ الباءِ في قوله تعالى: ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾:

الباءُ في قولِهِ: ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ للملابسةِ، وهي في مَوضِعِ الحالِ؛ إمَّا من ﴿سَفَهًا﴾ فتكونُ حالًا مُؤكِّدةً؛ إذِ السَّفَهُ لا يكونُ إلَّا بغيرِ علمٍ، وإمَّا من فاعلِ ﴿قَتَلُوٓاْ﴾ فإنَّهم لمَّا فعلُوا القتلَ كانُوا جاهلِينَ بِسَفاهتِهِم، وبِشَناعةِ فعلِهِم، وبِعاقبةِ ما قَدَّرُوا حُصُولَهُ لهم منَ الضُّرِّ؛ إذ قد يَحصُلُ خِلافَ ما قَدَّرُوهُ، ولو كانوا يَزِنُون المصالحَ والمفاسدَ لَما أقدَمُوا على فعلتِهِمُ الفَظيعةِ[2].

السَّفهُ مَظِنَّةُ عدَمِ العلْمِ، وعدَمِ رَجاحةِ العقلِ

بيانُ النَّفْيِ بـ (غير) دونَ غيرِها:

في قوله تعالى: ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾: (غير) كلمةٌ مُوغلَةٌ في الإبهامِ تفيدُ المغايرةَ، وأصلُها أن تفيدَ مغايرةَ مجرورِها لموصوفِها، وهي بهذا أوسعُ استعمالًا في نفي الأسماءِ من (لا) أو (ما) أو غيرِهما؛ إذ لا يُشترطُ في نفيهما المغايرةُ، والنَّفيُ بـ (غير) يفيدُ الإثباتَ لغيرِ المذكورِ، ويفيدُ النَّفيَ عنِ المذكورِ بلفظِ المغايرةِ، فقولك: (ما زيدًا أكرمتُ) يفيدُ نفيَ الإكرامِ عن زيدٍ خصوصًا، وإثباتَ الإكرامِ لغيرِهِ استنتاجًا، وقولك: (غيرَ زيدٍ أكرمتُ) يفيدُ إثباتَ الإكرامِ لغيرِ زيدٍ، وينفي عن زيدٍ بلفظِ المغايرةِ، والمعنى في التّعبيرين: نفيُ الإكرامِ عن زيدٍ، ولكن بطريقتين مختلفتين[3]، فأدَّتْ ﴿بِغَيْرِ﴾ معنى إثباتِ السَّفهِ، وخفَّةِ الرَّأيِ لهم، وتحقُّقِهِ فيهم؛ بنفي العلمِ عنهم،

نَفيُ العلْمِ عنهم بـ (غير)، وإثباتُه لغيرِهِم منَ الفائزينَ بطاعةِ اللهِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/114أ.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/114أ.
(3) السّامرائّي، معاني النّحو: 4/212 - 213.

وإثباتِهِ لغيرِهِم من أضدادِهِم المُلتزِمينَ بشرعِ اللّهِ، الوقَّافِين عندَ حدودِهِ ونواهيهِ.

دَلالة الجمْعِ بينَ الحالَيْن ﴿سَفَهًا﴾ و﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾:

الإبغالُ في التَّنفيرِ وقطْعِ المعذِرةِ

والمقصودُ منَ الإخبارِ عن كونِهِ بغيرِ علم - بعدَ الإخبارِ عنه بأنَّه سَفَهٌ - التّنبيهُ على أنَّهم فعلوا ذلك ظنًّا منهم أنَّهم أصابُوا فيما فعلُوا، وأنَّهم علمُوا كيف يرأبون ما في العالَمِ منَ المفاسدِ، وينظِّمون حياتَهم أحسنَ نظامٍ، وهم في ذلك مغرورون بأنفسِهِم، وجاهلون بأنَّهم يجهلون ﴿ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾﴾ [الكهف: 104][1].

ويُؤخَذُ في الاعتبارِ هنا: العلمُ الَّذي له أن يأذنَ في ذلك أو يأمرَ به، وليس ذلك إلَّا للشَّرعِ، كما قال: ﴿ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ﴾ [الأحقاف: 4]، ولم يكونوا أهلَ علمٍ: ﴿وَمَآ ءَاتَيْنَٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا ۖ وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ ﴿٤٤﴾﴾ [سبأ: 44]، والمَغزَى منه أنَّ الشَّريعةَ ضرورةٌ بشريَّةٌ وضرورةٌ إنسانيَّةٌ؛ إذ لولاها لانحطَّ الإنسانُ إلى دركٍ أسفلَ منَ الوحوشِ، فلا يُقالُ فيه بالعلمِ المضادِّ للجهلِ مُطلَقًا، كما ذهبَ إليه مَن ذهبَ، وفي ذكرِ الافتراءِ ردٌّ على ما قد يُورَدُ أنَّهم أُخذوا من غيرِ شريعةٍ ولا رسالةٍ؛ إذ قُلِّدوا ما تقلَّدوه، وأُلزِمُوا بما افتروه ناسبيهِ إلى اللّه كذبًا.

تَعدُّدُ دَلالاتِ إضافةِ ﴿عِلْمٍ﴾ إلى ﴿بِغَيْرِ﴾:

المبالغةُ في ذمِّهم وتقريعِهم بتنوُّعِ معاني نفيِ العلمِ عنهم

يؤدِّي (العلم) المنفيُّ بإضافتِهِ إلى (غير) دلالاتٍ مُتعدِّدةً بما يؤولُ إليه (غير العلم) من نَحْوِ: جهلٍ وضلالٍ وحمقٍ وإجرامٍ واعتداءٍ وظلمٍ، وسائر ما لا يؤدِّيه العلمُ، وهو نهايةُ التَّقريعِ والوصمِ بالعارِ؛ فإن كان ثَمّ علمٌ يصلحُ أن يكون مُتمسَّكًا لقتلِ الأولادِ فهو مُتعلِّقٌ بالأديانِ، فإن زعموا تشريعًا في ذلك فهو إيغال في الجهل.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/أ114.

الوصْلُ بالواوِ بينَ الجُملتَينِ المتُعاطِفَتَينِ:

وصلَ بالواو بينَ الجملتين المُتعاطِفَتين ﴿قَتَلُوٓاْ﴾ و﴿وَحَرَّمُواْ﴾ للجمعِ بينَ الفعلين المُسبِّبين للخسران: قتلِ الأبناءِ، وتحريمِ ما رزقَهم اللّٰهُ من نعمةِ الإنجابِ.

والجمعُ بينَ الفعلين أدلُّ على شناعةِ صنيعِهم، وقبيحِ فعالِهم، المُستوجبينَ للخسارةِ؛ وهذا المعنى لم يكنْ ليؤدِّيه الفصلُ، أو العطفُ بغيرِ الواو.

الجمعُ بين فعلَي القتلِ والتَّحريمِ، أدلُّ على سُوءِ صَنيعِهِم

تَخصيصُ المفعولِ بالاسْمِ الموصولِ ﴿مَا﴾، دونَ الاسْمِ الظَّاهرِ:

الاسمُ الموصولُ ﴿مَا﴾ أشدُّ إبهامًا وأوسعُ استعمالًا، ويقعُ على كلِّ شيءٍ؛ وفي استعمالِهِ ههنا توسُّعٌ في المعنى من حيثُ إعمامُ الرِّزقِ، وبيانُ سعتِهِ، فـ"ما رزقَهم اللّٰهُ يعمُّ السَّوائبَ والبحائرَ والزُّروعَ"[1]، وفي التَّعبيرِ عنه بالاسمِ الظَّاهرِ تقييدٌ له.

رِزقُ الله أَوسعُ من أنْ يُقيِّدَه مُحدِّدٌ، أو يَمنعَه مانعٌ

إيرادُ جُملةِ صِلةِ ﴿مَا﴾ فعلًا ماضيًا: ﴿رَزَقَهُمُ﴾:

فضلُ إيرادِ جملةِ صلةِ ﴿مَا﴾ فعلًا ماضيًا من مادَّةِ الرِّزقِ دليلُ تحقُّقِهِ، وتأكيدُ وقوعِهِ (لهم) فضلًا منَ اللّٰهِ يستدعي الإحسانَ لا الكفرانَ، والإيفاءَ لا الافتراءَ.

نِعَمُ اللهِ تَشملُ المُقرَّ والمُفتريَ كِلَيهما

إيثارُ الاسْمِ الأعظمِ ﴿ٱللَّهُ﴾ في قوله تعالى: ﴿رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ﴾:

إيثارُ ذكرِ الاسمِ العظيمِ الأعظمِ مِنَ الأسماءِ الحُسنى في مقامِ الرِّزقِ العظيمِ - المُتمثِّلِ بالذُّرِّيَّةِ الّتي وُصِفَت بأنَّها زينةُ الحياةِ الدُّنيا - وما فيه من فضلٍ في المعنى بالفضلِ في الاختيارِ، وهو فضلٌ فوقَ فضلِ ذكرِ الفاعلِ اسمًا منَ الأسماءِ الحسنى غيرَ لفظِ الجلالةِ، وهذا لو أنْ تَنَزَّلَ به الوحيُ لكانَ لهُ فضلٌ فوق فضلِ أن يُبنى الفعلُ لمَا لم يُسَمَّ فاعلُه، كأن يُقال: (وحرَّموا ما رُزِقوا) فهذه

من عادةِ القُرآنِ الكريمِ، ذكْرُ اسمِه تعالى العظيمِ، في مَقاماتِ الرِّزقِ والخيرِ العَميمِ

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/235.

أجوازٌ سماويَّةٌ من علياءِ البلاغةِ لا يقومُ لها ما يؤدِّي مؤدَّاها، أو يغني غناءَها في معناها.

نُكتةُ تقديمِ (القتْلِ) على (التَّحريمِ):

من بديعِ النَّظْمِ مُناسبةُ الآياتِ السَّابقةِ

لَمَّا تقدَّمَ تزيينُ قتلِ الأولادِ في قولِه: ﴿وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ قَتۡلَ أَوۡلَٰدِهِمۡ شُرَكَآؤُهُمۡ﴾ على تحريمِ ما حرَّمُوه في قولِهم: ﴿هَٰذِهِۦٓ أَنۡعَٰمٞ وَحَرۡثٌ حِجۡرٞ﴾، ناسبَ هنا ما سبقَ بتقديمِ قتلِ الأولادِ على التَّحريمِ[1].

جَوازُ تعْدِيةِ معنَى المفعولِ ﴿ٱفۡتِرَآءً﴾، لِينْتظِمَ مع الفِعلَين: ﴿قَتَلُوٓاْ﴾، وَ﴿وَحَرَّمُواْ﴾:

قتْلُ الأولادِ، وتحريمُ ما رزقَ اللهُ تجوُّزٌ واعتِداءٌ على سُنَنِهِ وشَرْعِهِ

لأنَّ ذلك من بدائعِ الطَّبائعِ كما هو من بدائعِ الشَّرائعِ؛ فالافتراءُ اختلاقُ ما لم يُشرِّعِ اللهُ، وقتلُ الأولادِ وتحريمُ الرِّزقِ عينُ الافتراءِ، وجوازُ قصرِ معناه على الفعلِ الأقربِ؛ لاختصاصِ الأوَّلِ في نظمِ الجملةِ نسقًا بالسَّفَهِ، ولأنَّ الرَّميَ بالسَّفهِ مُغنٍ عنِ النَّصِّ على الافتراءِ؛ لأنَّ السَّفهَ لا يكونُ إلَّا افتراءً على اللهِ.

السَّفَهُ باعثٌ على التَّحريمِ وعلى القتلِ:

تحريمُهم ما رزقَهم اللهُ، سابقٌ على الولادةِ ثمَّ القتلِ

برغمِ تقدُّمِه عليه لعلَّةِ عطفِ الفعلِ الثَّاني ﴿وَحَرَّمُواْ﴾ على الفعلِ الأوَّلِ ﴿قَتَلُوٓاْ﴾ ممَّا يشركُ الثَّاني في حكمِ الأوَّلِ، ولاسيَّما أنَّ العطفَ بالواوِ الدَّالَّةِ على مُطلَقِ الجمعِ مع المشاركةِ في الحكمِ، ومَعقوليَّةِ أن يكونَ الفعلُ المُتأخِّرُ لفظًا مُتقدِّمًا رتبةً؛ فإنَّ تحريمَهُم ما رزقَهُم اللهُ سابقٌ على دخولِ أيٍّ منهم في الزَّوجيَّةِ؛ إذِ المُحرَّمُ من جملةِ الذُّكورِ الَّذين كانَ طُعْمَةُ ما حَرَّمُوهُ خالصةً لهم ومُحرَّمًا على أزواجِهم، ومن الزَّوجيَّةِ جاءَ الأولادُ الَّذين اعتُدِي عليهم بالقتلِ.

سِرُّ وضْعِ الاسْمِ الظَّاهرِ ﴿ٱللَّهُ﴾، مَوضِعَ الضَّميرِ:

أطنبَ بذكرِهِ سبحانَه في قولِه: ﴿ٱفۡتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِۚ﴾؛ للدَّلالةِ

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/235.

على حِلمِهِ مع علمِهِ، وقِحَتِهِمْ، وسوءِ أخلاقِهِم، وعظمِ اجترائِهِم وتقحُّمِهم مهالكَ الوثنيَّةِ استخفافًا بدركاتِها الوبيئةِ الدَّنيئةِ، الوبيلةِ الرَّذيلةِ، فلم يقُل: (افتراءً عليه)، كما في آيةٍ سابقةٍ، وإنَّما قال: ﴿ٱفۡتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِۚ﴾ سبحانَه وبحمدِهِ، قال العماديّ: "وإظهارُ الاسمِ الجليلِ في مَوقعِ الإضمارِ لإظهارِ كَمالِ عُتُوِّهِم وطُغيانِهِم"[1].

إظهارُ لفظِ الجلالةِ إبرازٌ لعِظَمِ اجترائِهِم عليه سبحانَه

سِرُّ فصْلِ الجُملةِ المُنقضِيةِ عمَّا بعدَها:

الضَّلال: خطأُ الطَّريقِ المُوصِّلِ إلى المقصُودِ، فهُم رامُوا البُلُوغَ إلى مَصالحَ دُنيويَّةٍ، والتَّقرُّبَ إلى اللّه وإلى شُركائِهِم، فَوقَعُوا في المَفاسدِ العظيمةِ، وأبعدَهُمُ اللّهُ بذُنُوبِهِم، فَلذلك كانُوا كمَن رامَ الوصُولَ فسلكَ طريقًا آخرَ، وجملةُ ﴿قَدۡ ضَلُّواْ﴾ استئنافٌ ابتدائيٌّ لزيادةِ التّقريرِ في تحقُّقِ ضلالِهِم[2]، وفصلَها ولم يوصِلِ اكتفاءً بالخبرِ المُجمَلِ: ﴿قَدۡ خَسِرَ﴾؛ لتذهبَ النَّفسُ في تقديرِهِ كلَّ مَذهَبٍ يروعُ، ولتتوقَّعَ من جرَّائه كلَّ عقابٍ يفزعُ، ويقضُّ المَضجعَ.

تَعميمُ مُروَّعاتِ تقديرِ المُتأمِّلِ، وتَوقُّعُ مُفزعَاتِ العذابِ

تَكرارُ مَجيءِ ﴿قَدۡ﴾ في الآيةِ الكريمةِ:

﴿قَدۡ﴾ في قولِهِ: ﴿قَدۡ ضَلُّواْ﴾ مُستأنَفَةٌ بها الجملةُ استئنافًا بيانيًّا مُنفصِلةً عمَّا سبقَها، دالَّةٌ على تحقُّقِ الفعلِ الماضي بعدَها توبيخًا لهم، وتنديمًا للخيبةِ البالغةِ، والمُبتغَى الضَّائعِ، والفواتِ المُنادِي على أهلِهِ بالفشلِ الذَّريعِ، والخُسرِ الفظيعِ، المدلولِ عليه بالضَّلالِ الضَّاربِ أطنابَه في قفارِ البوارِ وتيهِ العثارِ.

تحقيقُ وُقوعِ الضَّلالِ ذمٌّ وتَوبيخٌ للمُشرِكين

بَلاغةُ مَجيءِ مَدخولِ ﴿قَدۡ﴾، فعلًا ماضيًا مُسنَدًا إلى الجمْعِ:

حقَّقَ وقوعُ الضَّلالِ منهم، وكثَّرَه فيهم بإسنادِهِ إلى واو الجماعةِ مصدَاقًا لقولِهِ في الآيةِ ﴿وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ قَتۡلَ أَوۡلَٰدِهِمۡ شُرَكَآؤُهُمۡ﴾ [الأنعام: 137]، وإيراده قصدٌ الى معنًى كلِّيٍّ مُرادٍ من

تقريرُ أنَّ ضَلالَهم عِلَّةُ خُسرانِهم وضَياعِهم

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/191.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/115.

سوْقِ الجملة من حيث: دلالتُه على "ضياعِ الشَّيءِ وذهابِهِ في غيرِ وجهِهِ"[1]؛ لمناسبتِهِ فعلَ الخسرانِ في مَطلَعِ الآيةِ بما تتضمَّنُه من معاني الضَّلالِ والضَّياعِ، وِفاقَ لغةِ بعضِ القبائلِ.

دَلالةُ الضَّلالِ على الجوْرِ عنِ القَصدِ:

الضَّلالُ: تُعْسٌ وهلاكٌ، وضَياعٌ للحُجَّةِ والبُغيةِ

ولمّا كان "كلُّ جائرٍ عنِ القصدِ ضالًّا"[2] ؛ فاستصحابُ هذا المعنى يجعلُ إيرادَ الضَّلالِ هنا مرادًا منه التَّكنيةُ به عمَّا وردَ مَذكورًا معه قرينةُ المُتلبِّسِ به لا يفارقُه، وذلك المذكورُ في قولِهِ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ۝٨﴾ [مُحَمّد: 8]. قالَ ابنُ منظور في معناه: "ومعنى التَّعْسِ في كلامِهِمْ: الشَّرُّ، وقيل: البُعْدُ، وللرُّسْتُمِيِّ: التَّعْسُ: أنْ يَخِرَّ على وجهِهِ، والنَّكْسُ أن يَخِرَّ على رأسِهِ، وقال أبو عَمرو بنُ العلاءِ: التَّعْسُ: الهلاكُ، ولابن الأثير في الدُّعاء: تَعْسًا له؛ أي: ألزمَهُ اللّهُ هلاكًا، وقال بعضُ الكِلَابيِّين: تَعِسَ يَتْعَسُ تَعْسًا، وهو أن يُخطِئَ حَجَّتَهُ إن خاصمَ، وبُغيتَهُ إن طَلَبَ"[3]. فانظرْ كيف اصطحبا معًا، وتعانقا فما تفارقا: (التَّعْس والضَّلال)، فالاقتصارُ على ذكرِ الضَّلالِ هنا إيجازٌ، والتَّفسيرُ يقتضيه استدعاءُ مُلَابِسِهِ ومُلَازِمِهِ وقرينِهِ، وما سيقَ من معنى التَّعسِ على ألسنتِهِم ما يتضمَّنُ القصدَ إلى معناه عندَ الملابسةِ للضَّلالِ فيكون بُعْدًا، والضَّلال به بعيدًا، ويكون شرًّا، ويصوِّرُ الوقعةَ به خرورًا على الوجهِ، وعاقِبَتُهُ القريبةُ الهلاكُ الَّذي لا فكاكَ منه ولا محيصَ عنه؛ لأنَّه مُلَازِمٌ له بإلزامِ اللّهِ، وإذا حُوسِبَ وخُوصِمَ أخطأَ حُجَّتَهُ، وإذا طلبَ مُعْتَذَرًا أخطأَ بُغيتَهُ، وهي لغةُ الكِلَابيِّينَ وهؤلاء مردُّهم إلى قيس عَيْلان، فتعانقا ثانيًا: التَّعسُ والضَّلالُ،

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ضل).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ضل).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (تعس)، بتصرّف.

فما سُمِعَ بيانٌ أوجزُ إيجازًا، ولا أبعدُ إعجازًا، ولا أجمعُ دلائلَ حقيقةً ومَجازًا، من هذا البيانِ البرهانِ أو هذا البرهانِ البيانِ. دلالتُه على "كلِّ شيءٍ مُقيم، لا يُهْتَدَى لَه"[1]، والمأخذُ الإعجازيُّ منه للتَّفسيرِ أنَّ حُجَجَ اللهِ الباهرةَ، وأدلَّتَهُ الظَّاهرةَ، وبراهينَ توحيدِهِ، ومُوجباتِ تفريدِهِ، شاهدةٌ قائمةٌ بين ظهرانيهم؛ وخَلْقُهُم ونماؤُهم وتقلُّبُهم في معاشِهم واختلافُ أحوالِهم يقظةً ومَنامًا وصحّةً وسقمًا هو مِن هذه الشَّواهدِ والأماراتِ، فأَنْ يضلُّوا عن دلائلِ الوحدانيَّةِ وشواهدِ الصَّمدانيّةِ، وهي مُقيمَةٌ لا تبرحُ، حاضرةٌ لا تغيبُ، لهو الأمرُ المُريبُ، والشَّيءُ العجيبُ، أَفَكَرِهَ اللهُ انبعاثَهم، فَثَبَّطَهُمْ ؟ أم أنَّهم بقتلِهم أولادَهم خرجوا عن حقيقةِ الإنسانِ إلى أضلَّ من رتبةِ الحيوانِ ؟ ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَـٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَـٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾﴾ [الأعراف: 179].

الوَصْلُ بين الجُملتَين الأخيرتَينِ بالواو العاطفةِ:

وصلَ بينَ الجملتين الأخيرتين بالواوِ دونَ الفاءِ، أو ثمَّ في قولِه: ﴿قَدْ ضَلُّوا۟ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ﴾، وعلَّةُ اختيارِ الواو عاطفةً بينهما للدَّلالةِ على مُطلَقِ الجمعِ مع المشاركةِ في الحكمِ من غيرِ اقتضاءِ ترتيبٍ، ممَّا يسوِّغُ أن يكونَ المُتأخِّرُ ذكرًا مُتقدِّمًا معنًى، والعكسُ بالعكسِ كذلك.

في الجُملتَين المعطوفتَين بالواو، لا يُشترطُ التّرتيبُ، والرُّتبةُ هي المحدِّدةُ للمعنَى

وقصْدُ عطفِ ﴿وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ﴾ على ﴿قَدْ ضَلُّوا۟﴾ تأكيدُ مضمونِ جملةِ ﴿ضَلُّوا۟﴾؛ لأنَّ مَضمونَ هذه الجملةِ ينفي ضِدَّ الجملةِ الأولى، فتؤولُ إلى تقريرِ معناها.

والعربُ إذا أكَّدُوا بمثلِ هذا قد يَأْتُونَ به غيرَ مَعطُوفٍ نظرًا لمآلِ مُفادِ الجملتين، وأنَّهما باعتِبارِهِ بمعنًى واحدٍ، وذلك حقُّ التَّأكيدِ،

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ضل).

كما في قولِه تعالى: ﴿أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ﴾ [النّحل: 21]، وقولِه: ﴿فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ۝٩ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ۝١٠﴾ [المدّثر: 9 - 10]. وقد يَأتُون به بالعطفِ، وهو عطفٌ صُوريٌّ؛ لأنَّه اعتدادٌ بأنَّ مفهومَ الجملتين مُختلِفٌ، ولا اعتدادَ بمَآلِهما كما في قولِه تعالى: ﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ ۝٧٩﴾ [طه: 79]، وقولِه: ﴿قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ۝٥٦﴾ [الأنعام: 56][1].

دَلالةُ النَّفْيِ بـ(ما) دُونَ (لَمْ)، قبلَ (كان) الماضيةِ:

إيضاحُ أنَّ عدَمَ الهدايةِ شأنُهم، وصِفتُهم الثَّابتةُ

تفيدُ (كان) في قوله: ﴿قَدْ ضَلُّواْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ﴾، اتِّصافَهُم بالضَّلالِ وعدمِ الهدايةِ على وجهِ الثُّبوتِ، وكأنَّ ذلك شأنٌ لهم، واستمرارُ مضمونِ الخبرِ في جميعِ الزّمنِ الماضي، وهذا يُفسِّرُ مجيئَهُ على صيغةِ الماضي، ويرى ابنُ عاشور أنَّ "(كان) هنا في حُكمِ الزَّائدةِ؛ لأنَّها زائدةٌ مَعنًى، وإن كانَت عاملةً، والمُرادُ: وما هم بمُهتَدين، فزيادةُ (كان) هنا لِتحقيقِ النَّفيِ مثلُ مَوقعِها مَعَ لامِ الجحودِ، وليسَ المرادُ أنَّهم ما كانُوا مُهتدينَ قبلَ أن يَقتلُوا أولادَهم، ويُحرِّمُوا ما رزقَهُمُ اللهُ؛ لِأنَّ هذا لا يَتعلَّقُ به غرضٌ بَليغٌ"[2].

وتجدرُ الإشارةُ إلى أنَّ الَّذي نفاه ابنُ عاشور تقتضيه الصَّنعةُ اللُّغويَّةُ من غيرِ تكلُّفٍ؛ ذلك أنَّ الجملتين بمقتضى علمي البلاغةِ والنَّحوِ دَالَّتان على ما نفاه: أمَّا البلاغةُ فلأنَّ بناءَ الغرضِ البلاغيِّ ينبغي أن يكونَ الأسلوبُ المُؤدَّى به قائمًا على تأثيرِ المعاني صعودًا بها على سُننِ التَّرقِّي ممّا يقتضي تقديمَ المُتأخِّرِ ذِكْرًا على سابقِه رُتْبَةً، وتأخيرَ رُتبةِ المُتقدِّمِ ذِكْرًا، لِمَا قدَّمنا أنَّ المُتأخِّرَ ذِكْرًا يمثِّلُ أوَّليَّةَ معنى ما تقدَّمَهُ في الذِّكْرِ بما يقتضي إيرادَهُ قبلَه في الواقعِ المقصوصِ خبرُهُ، المقتفَى أثرُه، وهذا من جهةِ المعقولِ، ولأنَّ المذكورَ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/116.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/116.

آخِرًا جاءَ بأسلوبِ النَّفي، وذلك لا يستلزمُ إثباتَ ضدِّ المنْفِيِّ، فبقيتِ الحاجةُ إلى إيرادِ الإثباتِ قائمَةً لَمْ تُشْبَعْ، وهذا من جهةِ المنقولِ، وأمَّا النَّحو فلأنَّ الجملتَين مُتعاطِفتان، والعاطفُ بينهما الواوُ الدَّالَّةُ على مُطلَقِ الجمعِ معَ المشاركةِ في الحكم من غيرِ اقتضاءِ ترتيبٍ، ممَّا يُسوِّغُ أن يكونَ المُتأخِّرُ ذكرًا مُتقدِّمًا معنًى، والعكسُ بالعكسِ كذلك.

النَّفيُ بـ(ما) آكدُ من (لـم)، وهو يناسبُ سوءَ فِعالِهِم

في قوله: ﴿وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ﴾ قُصِد إلى اختيارِ (ما) في النّفي دونَ (لم)؛ لأنَّ فيها معنى التَّأكيدِ بجعلِها في النَّفي جوابًا لـ(قد)، فكما أنَّ (قد) فيها معنى التَّأكيد، فكذلك (ما) جُعِلَت جوابًا لها؛ والتَّوكيدُ هنا مُناسِبٌ لترسيخِ الضَّلالِ فيهم جزاءً لشنيعِ فعلِهم، من خلالِ نفي الاهتداءِ بعدَ إثباتِ تحقُّقِ ضلالِهم، ثمّ إنَّ هناك فرقًا بينَ دخولِ (ما) على الماضي، ودخولِ (لم) على المضارعِ من ناحيةٍ أخرى، وهي أنَّ الماضي يدُلُّ على أنَّ الأمرَ قد انقضى، وأمَّا المضارعُ فإنَّه قد يدُلُّ على التَّكرارِ والتَّجدُّدِ والتّطاولِ، والحديثُ إنَّما هو عن حدثٍ ماضٍ كانَ قبلَ الإسلامِ؛ فالتّعبيرُ عنه بالماضي المنفيِّ بـ (ما) أنسبُ للسِّياقِ، مع دلالةِ الجملةِ المنفيَّةِ على مآلِهم المُستقبليِّ.

مَغزَى بِناءِ خبرِ (كان) على اسمِ الفاعلِ:

إبرازُ أنَّ صِفةَ عدَمِ الهدايةِ راسخةٌ فيهم

التَّعبيرُ باسمِ الفاعلِ ﴿مُهْتَدِينَ﴾ دليلُ رسوخِ صفةِ عدمِ الهدايةِ فيهم، وثُبوتِ ذلكَ، ودَوامِهِ فيهم، وأنَّ شأنَ الضَّلالِ وعدمَ الهدايةِ بمنزلةِ الحاصلِ الثَّابتِ المُستقرِّ حالًا ومآلًا.

سِرُّ كوْنِ الخبرِ جمْعَ سَلامةٍ لمذكَّرٍ:

تصويرُ معنَى الضَّلالِ وعدَمِ الهدايةِ، أوقعُ أثرًا في نفسِ السَّامعِ

في مجيءِ خبرِ (كان) جمعَ سلامةٍ تعيينٌ للجناةِ بوصفِهم القتلةَ للأولادِ، والمُحرِّمين ما حرَّمُوا من بهيمةِ الأنعامِ الَّتي رزقَهُم اللّهُ مُشاعًا بينهم دونَ تخصيصٍ لنوعِ الذُّكورِ دونَ الإناثِ، فضلًا عن أنَّ جمعَ السَّلامةِ أقربُ لِلَمحِ الفعلِ، وحكايةِ معناه، وتصويرِهِ في نفسِ

السَّامعِ، فقولُهُ: ﴿وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ﴾ يبعثُ في النَّفسِ إشعارًا بشهودِ فعلِ الضَّلالِ وعدمِ الهِدايةِ منهم، ومُلازمتِهم له، ومُداومتِهم عليه.

عِلَّةُ مَجيء الاهتداء على صِيغة (الافتعالِ):

بيانُ أنّهم لم يَتكلَّفُوا السُّؤالَ عنِ الاهتداءِ، ولم يتجشَّمُوا فيه عناءً

إنَّ بناءَ ﴿مُهۡتَدِينَ﴾ قبلَ حذفِ إحدى ياءَيها - وهي الأُولى - على وزن (مُفتَعِلِينَ) ينبيكَ أنَّ المعنى دائرٌ على تصوُّرٍ يؤدِّيه تفسيرُهُ بالبحثِ عنِ الاهتداءِ وتكلُّفِ السُّؤالِ عنه، كما فعلَ الحنفاءُ في الجاهليَّةِ قبلَ البعثةِ، فَعَصَمَتهُم حَنِيفِيَّتُهُم؛ فمنهم مَنْ دَخَلَ في صحيح دينٍ كتابيٍّ كورقةَ بنِ نوفل[1]، ومنهم مَنْ لم يدخُلْ، فبقيَ حنيفيًّا يوحِّدُ اللهَ، ولا يشركُ به، ولا يأكلُ من ذبائحِ المُشركين، وهو زيدُ بن عمرو بن نُفَيْل[2]، فلو كانَ أُولَئِكُمُ المَذمُومُونَ المَنعِيُّ عَلَيهِم غَيُّهُم، واستِمتاعُهُم بِخلَاقِهم، وقَتلُهُم أولادَهُم، وافتراؤُهُم بالتَّحريمِ، والتواؤُهُم فيه ببدعةِ التَّقسيمِ، ابتغوا إلى الاهتداءِ سبيلًا يُتَكَلَّفُ، أو طلبوا عليه دليلًا يُتَعَرَّفُ، فوجدوا أم لم يجدوا، لكانَ لَهُم العذرُ إنْ فاتَهُم الأجرُ، لكنَّهم لمّا لم يُولُوهُ عنايةً مُستَحَقَّةً واهتمامًا واجبًا، وشُغْلًا ناصبًا، وبحثًا دائبًا، وكان عدمُ تجشُّمِهم فيه، وتكلُّفِهم له سببًا في استهوائِهم من الشَّياطين حيارى ضُلَّالًا مُتكفِّئين خاسئين ﴿إِنَّهُمۡ أَلۡفَوۡاْ ءَابَآءَهُمۡ ضَآلِّينَ ٦٩ فَهُمۡ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ يُهۡرَعُونَ ٧٠﴾ [الصَّافّات: 69 - 70].

بَلاغةُ الكِنايةِ في جُملةِ الفاصلةِ:

مِن سفَهِهم أنَّ مآلَ سَعْيِهِم الخُسرانُ

معنى نفي الاهتداءِ كنايةٌ عن إضاعةِ القصدِ؛ أي: إنَّهم أضاعوا ما سعوا له، ولم يعرفوا ما يُوصِلُ لخيرِ الآخرِ، وهذا نداءٌ عليهم

(1) وفيه ما أخرجَهُ الحاكمُ أبو عبد الله في المُستدرك عن عائشة ﵂، قالَت: إنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «لَا تَسُبُّوا وَرَقَةَ، فَإِنِي رَأَيْتُ لَهُ الْجَنَّةَ أَوْ جَنَّتَيْنِ»، وقال: صحيح على شرط الشّيخين، ووافقَهُ الذّهبيّ، والألبانيّ، السّلسلة الصَّحيحة، ص: 405.

(2) وهو ابن عمّ عمر بن الخطاب ﵁، وفيه أحاديثُ شريفةٌ صحيحةٌ ثابتةٌ، منها: «يُبْعَثُ أُمَّةً وَحْدَهُ»، أخرجه أحمد، المسند، رقم: (1648)، وغيره.

بسفهِ الرَّأي والخرقِ؛ فشبَّهَ سوءَ تصرُّفِهم بسوءِ تصرُّفِ مَن يريدُ الرِّبحَ، فيقعُ في الخسرانِ، فقولُهُ: ﴿وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ﴾ كنايةٌ عن الخسرانِ وإضاعةِ كلِّ شيءٍ؛ لأنَّ مَن لم يكنْ مُهتديًا أضاعَ الرِّبحَ، والنَّجاةَ، والفوزَ؛ بسوءِ سلوكِهِ[1].

عِلَّةُ تغايُرِ زمنِ جُملتَي الفاصلةِ:

حُكْمُهم أنَّهم ضَالُّون في الحالِ، وغيرُ قابلِينَ للاهتداءِ في المآلِ

تغايرُ زمنِ الجملتين: الماضي المُتحقِّقِ المضيِّ في ﴿قَدۡ ضَلُّواْ﴾ والاستقبالِ المُتمحِّضِ لاسمِ الفاعلِ بأصلِ الوضعِ في ﴿وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ﴾ على معنى: (ولم يكونوا ليهتدوا) إن أُمهلوا دونَ مُعاجلةِ عقوبةٍ، وأُنعِمَ لهم في إقامةِ الحُجَّةِ، وأُمعِنَ معهم في قطعِ المَعذرةِ، فهو بنظيرِ ما في الآيةِ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمۡ وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ ١٦﴾ [البقرة: 16]، وأظهرُ مثالٍ في معناه قوله تعالى: ﴿فَمَا ٱسۡتَطَٰعُواْ مِن قِيَامٖ وَمَا كَانُواْ مُنتَصِرِينَ ٤٥﴾ [الذّاريات: 45]، وقوله جلَّ وعزَّ: ﴿فَأَنجَيۡنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَقَطَعۡنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۖ وَمَا كَانُواْ مُؤۡمِنِينَ ٧٢﴾ [الأعراف: 72]، فإنَّ المعنى كالَّذي دَلَّ عليه في الجملةِ قولُهُ ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتۡ عَلَيۡهِمۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ ٩٦ وَلَوۡ جَآءَتۡهُمۡ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ ٩٧﴾ [يونس: 96 - 97]. وفيه معنى: أنَّه يقبضُ الإنسانَ على ما لو عاشَ لداومَ عليه منَ العملِ ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ١٦٥﴾ [النّساء: 165]، فهُم ضالُّون في الحال، وغيرُ قابلينَ للاهتداء مَآلًا، وهو أبلغُ دلالةً من توجيه ابنِ عاشور العطف بين الجملتين لقصدِ التَّأكيدِ لمضمونِ جملةِ ﴿ضَلُّواْ﴾، والتَّفاسيرُ ملأى مُترَعةٌ من صالحِ ما يُحمَلُ عليه المعنى منَ التَّأسيس غير التَّأكيدِ[2].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/301.

(2) الآلوسّي، روح المعاني: 7/362، 15/135، 8/549.

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(الضَّلالُ) و(الغَيُّ):

فرَّقَ الرَّازيّ بينَ الضَّلالِ والغيِّ: أنَّ الضَّلالَ في مقابلةِ الهدى، والغيَّ في مقابلةِ الرُّشدِ، وذكرَ أنَّ "تحقيقَ القولِ فيه: إنَّ الضّلالَ أعمُّ استعمالًا في الوضعِ، تقولُ: ضلَّ بعيري ورحلي، ولا تقولُ: غوى، فالمرادُ منَ الضَّلالِ ألَّا يجدَ السَّالكُ إلى مَقصدِه طريقًا أصلًا، والغوايةُ ألَّا يكونَ له طريقٌ إلى المقصدِ مُستقيمٌ يدلُّكَ على هذا أنَّك تقولُ للمُؤمنِ الَّذي ليسَ على طريقِ السَّدادِ: إنَّه سفيهٌ غيرُ رشيدٍ، ولا تقولُ: إنَّه كالكافرِ، والغاوي كالفاسقِ"[1]. ولهذا لا يُقالُ للمُؤمنِ: إنَّه ضالٌّ، أو غيرُ مُهتدٍ، ويُقال له: إنَّه غويٌّ غيرُ رشيدٍ[2]. وهم قاتلو أبنائِهم، ومُحرِّمو رزقِ اللّه؛ قطعُوا طريقَ الهدايةِ عن أنفسِهم أصلًا بافترائِهم على اللّه، ومن هنا ناسبَت لفظةُ (الضّلال) هذا المعنى، فاختيرَتْ في النَّظم.

مَن يَفترِي على اللـه، ضالٌّ غيرُ سالكٍ إلى الهِدايةِ سبيلًا

(غير العلم) و(الجهالة):

اختلفَ في المُرادِ بالجهالةِ على ثلاثةِ أقاويلَ: أحدُها: أصابَه الذَّنبُ، وعملَه عَمدًا؛ بمعنى: أنَّ الجهالةَ العمدُ[3]. و(غير العلم) في الغالب ينافي العمديَّةَ، فهو أميلُ إلى الجهلِ المُسبَّبِ عنِ السَّفهِ، وهو أبلغُ في ذمِّهم والتَّعريضِ بحالِهم بأنَّهم يفترونَ على اللّه قتلًا وتحريمًا مع عدمِ علمِهم.

مِن شَنيعِ الفِعالِ الافتراءُ على اللهِ تعالى، والأمرُ بما لم يَشْرَعِ

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 28/234.
(2) النّيسابوريّ، غرائب القرآن: 6/199.
(3) الماورديّ، النّكت والعيون: 1/464.

﴿۞وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعۡرُوشَٰتٍ وَغَيۡرَ مَعۡرُوشَٰتٍ وَٱلنَّخۡلَ وَٱلزَّرۡعَ مُخۡتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا وَغَيۡرَ مُتَشَٰبِهٍۚ كُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثۡمَرَ وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوۡمَ حَصَادِهِۦۖ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ١٤١﴾ [الأنعام: 141]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

تُعَدُّ هذه الآيةُ واسطةَ العِقْد العَقَديِّ بينَ الرَّدِّ على افتراءاتِ الكافرينَ فيما سبقَ، والتَّمهيدِ لمَا يأتي من تفصيلِ أحوالِ الأنعامِ؛ فوجهُ اتِّصالِ هذا بما قبلَهُ أنَّ الكفَّارَ لمَّا افتروا على اللّه الكذبَ، وأشركوا معه وحلَّلوا، وحرَّموا، دلَّهُم على وحدانيَّتِهِ بأنَّه خالقُ الأشياءِ، وأنَّه جعلَ هذه الأشياءَ أرزاقًا لهم[1].

حالُ المنكِرين والجاحِدين، ونماذِجُ النِّعمِ الّتي تكونُ بها المُتْعةُ دونَ إسرافٍ

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿جَنَّٰتٍ﴾: أصلُ الجِنِّ: سترُ الشَّيءِ عنِ الحاسَّةِ، والجَنَّةُ: كلُّ بستانٍ أو حديقةٍ ذي شجرٍ تستر بأشجارِها الأرض، وكثافةُ فروعِ شجرها المرفوعة تَجُنُّ؛ أي: تُظِلُّ، وتسترُ مَن يسير[2]، والمقصودُ بها جنَّاتُ الأرضِ بأمارةِ قولِهِ: ﴿كُلُواْ﴾، ﴿وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوۡمَ حَصَادِهِۦۖ﴾.

2) ﴿مَّعۡرُوشَٰتٍ﴾: العَرشُ في الأصل: شيءٌ مُسقَّفٌ، يُستظلُّ به، وجمعُهُ عُرُوشٌ، وهو تفرُّعٌ وانفراشٌ يُمْتَسَكُ مُشتبِكًا في أعلَى، وقيل: عَرَشْتُ الكرمَ، وعَرَّشْتُهُ؛ إذا جعلتُ له كهيئةِ سقفٍ، وقد يُقالُ لذلك: المُعَرَّشُ، قال تعالى: ﴿مَّعۡرُوشَٰتٍ وَغَيۡرَ مَعۡرُوشَٰتٍ﴾[3].

3) ﴿أُكُلُهُۥ﴾: والأُكُلُ: ثمرُ النَّخلِ والشَّجرِ، وكلُّ ما يُؤكَلُ، فهو

(1) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 7/99.
(2) الرّاغب، المفردات: (جن)، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (جنن).
(3) ابن سيده، المحكم، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (عرش).

أُكلٌ، فالأَكلُ بالفتح: المصدرُ، وبالضّمِّ: الشَّيءُ المأكولُ، قالَ تعالى: ﴿أُكُلُهَا دَآئِمٌ﴾ [الرّعد: 35]؛ أي: مأكولُها؛ أي: ليسَتْ كثمارِ الدُّنيا وفواكِهِها الَّتي تجيءُ وقتًا دونَ وقتٍ، وقولُه: ﴿ءَاتَتْ أُكُلَهَا﴾ [الكهف: 33]؛ أي: ما تُثمرهُ، فيؤكَلُ[1].

4) ﴿مُتَشَٰبِهًا﴾: "الشِّينُ والباءُ والهاءُ أصلٌ واحدٌ يدلُّ على تَشَابُهِ الشَّيءِ وَتَشَاكُلِهِ لونًا وَوَصفًا"[2]. والشَّبهُ: المثلُ، والمماثلةُ من جهة الكيفيَّةِ؛ كاللَّونِ والطَّعمِ، وكالعدالةِ والظُّلمِ. وتشابهَ الشّيئان، واشتبها: أشبهَ كلُّ وَاحِدٍ مِنهُمَا صَاحبَهُ، وفِي التَّنزِيل: ﴿مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ﴾[3].

5) ﴿حَقَّهُۥ﴾: الحقُّ نقيضُ الباطلِ، وحقَّ الشَّيءُ؛ أي: وَجَبَ، وهو: الصَّوَابُ وَالصَّحِيحُ، والحقيقة: مَا يصيرُ إِلَيهِ حقُّ الأَمرِ[4]، وأُريدَ بالحقِّ ما كانَ يُتصدَّقُ به على المساكينَ يومَ الحصادِ[5].

6) ﴿وَلَا تُسْرِفُوٓاْ﴾: السِّينُ والرَّاءُ والفاءُ أصلٌ واحدٌ يدُلُّ على تَعَدِّي الحَدِّ، ومُجاوزةِ القَدْرِ؛ فالإسرافُ نقيضُ الاقتصادِ، والسَّرَفُ: تجاوزُ الحدِّ في كلِّ فعلٍ يفعلُهُ الإنسانُ، والمُسرفونَ: المُتجاوزونَ الحدَّ في أمورِهِم، أو الحقَّ في الأخذِ منَ الشَّيءِ إلى الإهدارِ والإفسادِ[6].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

اللّهُ سبحانَه هو الَّذي خلقَ بساتين مبسوطةً على وجهِ الأرضِ دونَ ساقٍ، ومرفوعةً عليها ذاتَ ساقٍ، وهو الّذي خلقَ النَّخلَ، وخلقَ

مُخاطبةُ عُقولِ المُشرِكين، للإقرارِ بأنَّ الرَّازقَ المفضالَ، هو الله المتَّعالِ

(1) الجوهريّ، الصّحاح، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (أكل).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (شبه).
(3) الجوهريّ، الصّحاح، وابن سيده، المحكم، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (شبه).
(4) الخليل، العين: (حق)، وابن الجوزيّ، نزهة الأعين النّواظر، ص: 265 (باب الحقّ).
(5) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/72 - 73.
(6) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (سرف).

الزَّرعَ مُختلِفًا ثمرُهُ في الشَّكلِ والطَّعمِ، وهو الّذي خلقَ الزَّيتونَ والرُّمانَ، ورقُهما مُتشابِهٌ، وطعمُهما غيرُ مُتشابِهٍ؛ كلوا - أيُّها النّاس - من ثمرِهِ إذا أثمرَ، وأدُّوا زكاتَهُ يومَ حصادِهِ، ولا تتجاوزوا الحدودَ الشَّرعيَّةَ في الأكلِ والإنفاقِ، فاللّهُ لا يحبُّ المُتجاوزينَ لحدودِهِ فيهما، ولا في غيرِهما، بل يبغضُهُ، إنَّ الّذي خلقَ ذلك كلَّه هو الّذي أباحَه لعبادِهِ، فليسَ للمشركينَ تحريمُهُ[1].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

فائِدةُ سَوْقِ (الواوِ) بينَ الاستئنافِ والعطْفِ:

في العطْفِ تذكيرٌ بـمِـنَنِ الـلـه، وتجليةٌ لنِعَمِهِ المتُوالِيةِ

يحتملُ الاستئنافُ أنْ يكونَ بيانيًّا، فينظرُ فيه إلى آيةِ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ [الأنعام: 99]، أو سرديًّا فيكون تعدادًا ضمنيًّا، أو ابتدائيًّا فيكون النَّظرُ إلى الضَّمير المبتدأ في تحقيقِ مقصودِ الكلامِ وغرضِهِ، وعلى أنَّها عاطفةٌ؛ فهي تجليةُ إنعامٍ بعدَ إنعامٍ، ومُوجبٌ للتَّوحيد وإخلاصِ العبادةِ للّه والقيامِ بحقِّ تسبيحِهِ وحمدِهِ بعدَ مُوجِبٍ، ومُقتضاه منَ العبدِ تجديدُ استجابتِهِ للّه وتعديدِها كما في جملةِ الحاجِّ المُهِلِّ: لبَّيك، إذِ التَّثنيةُ مُرادَةٌ في غيرِ نظرٍ إلى أدنى ما تتحقَّقُ به، بل هي تكرُّرُ الاستجابةِ ما بقيَت فيه عينٌ تَطرِفُ، وإن لم تَطْرِفْ.

فالعطفُ تذكيرٌ بمنَّةِ اللّهِ تعالى على النّاسِ بما أنشَأَ لهم في الأرضِ ممَّا ينفَعُهُم، فبعدَ أن بيَّنَ سوءَ تصرُّفِ المُشركينَ فيما مَنَّ به على النَّاسِ كُلِّهم، مع تسفيهِ آرائِهم في تحريمِ بعضِها على أنفسِهِم، عَطَفَ عليه المِنَّةَ بذلك استنزالًا بِهِم إلى إدراكِ الحَقِّ والرّجوعِ عنِ الغَيِّ[2].

(1) جماعة من علماء التّفسير، المختصر في تفسير القرآن الكريم، ص: 146.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/أ11.

سِرُّ العُدولِ عنِ الاسمِ الصَّريحِ إلى الضَّميرِ:

إنشاءُ الجنَّاتِ مَقصورٌ عليه سُبحانَه، دونَ سِواه

الضّميرُ (هو) أداةُ ربطٍ لأجزاءِ النَّصِّ، قامَ مقامَ اللَّفظِ الظَّاهرِ، وأغنى عن تَكرارِه، ووصلَ منَّةَ الأنعامِ بمنَّةِ الجنّاتِ، فربطَ آخرَ الكلامِ بأوَّلِه بلفظٍ مُوجَزٍ بَليغٍ في هذا المَقامِ، مُفصِحٍ عمَّا وراءَهُ من أسرارٍ، جامعٍ للفوائدِ المُمثّلَةِ بقَصرِ النِّعمِ عليه سبحانَه، وحصرِ المنِ به جلَّ شأنُه.

وتعريفُ الجزأين بالجمعِ بين الضَّميرِ والاسمِ الموصولِ واتِّحادِهما أفادَ تحقيقَ معنى القصرِ وتأكيدَهُ؛ للعنايةِ بهِ بوصفِهِ خبرًا محصورًا سيقَ للمُخاطَبين منَ المُشركين الّذين افتروا على اللّه سفهًا بغيرِ علمٍ؛ لأنَّهم في جحدِهِم نعمَهُ، وتعاليهم، وكفرِهم كحالِ مَن يجهلُ قدرةَ اللّهِ تعالى على خلقِ جميعِ الموجوداتِ، والتَّصرُّفِ بها، وتسييرِها أنَّى شاء.

سِرّ مَجيءِ المُسْندِ اسْمًا مَوصولًا ﴿ٱلَّذِىٓ﴾:

التَّعريفُ بالموصوليَّةِ المذكورةِ، يُفيدُ اختصاصَهُ تعالى بإنْشاءِ النِّعمِ الأثيرةِ

وإيثارُ إيرادِ ﴿ٱلَّذِىٓ﴾ دونَ (مَنْ) مَهيعٌ من مَهايعِ العظمةِ والجلالِ، وتعريفُ المُسندِ يفيدُ الاختصاصَ، وتعريفُ الطّرفين يفيدُ القصرَ؛ وكلاهما يُؤثِرُ الحصرَ، والحصرُ يقودُ إلى العبوديَّةِ الحقَّةِ، والعبادةِ الخالصةِ، كما في آية ﴿فَٱبۡتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزۡقَ وَٱعۡبُدُوهُ وَٱشۡكُرُواْ لَهُۥٓۖ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ١٧﴾ [العنكبوت: 17]، والاختصاصُ يقودُ إلى خوفِ المقامِ، وإلى عدمِ أمنِ التَّغييرِ، وفيه التَّنبيهُ إلى أنَّ التَّوحيدَ وإخلاصَ العبادةِ فيها حظوظٌ تسويةٍ للعبدِ، كما هي حظوظٌ تربيةٍ بما فيها من تخليةٍ وتحليةٍ؛ فأمَّا هذه الأخيرةُ فمعروفةٌ، وأمَّا حظوظُ التَّسويةِ فلِمَا فيها من بلوغِ الأشدَّ في الإدراكِ ورهافةِ الحسِّ وصحَّةِ الحكمِ على الأشياءِ، ووضعِ كلِّ شيءٍ مَوضعَهُ، وإعطاءِ كلِّ ذي حقٍّ حقَّه...إلخ، وجُمَّاعُهُ إيثارُ اللّهِ وتفضيلُه على كلِّ ما عداه.

التَّخصِيصُ والقصْرُ:

إفرادُ من يُطْعِمُ ولا يُطْعَمُ بالوَحدانيّةِ، من أماراتِ الاعترافِ بالفضْلِ

يقودُ التَّخصيصُ والقصرُ بطرفٍ خفيٍّ إلى التَّذكيرِ بوحدانيَّةِ اللّه وصمدانيَّتِه؛ إذ البشرُ المربوبونَ وأحياءُ الخلائقِ الحيوانيَّةِ والإنسيَّةِ والجنِّ، كلٌّ أولئك يأكلُ ليغتذي، وينمو؛ واللّه وحدَهُ هو الّذي يُطْعِمُ، ولا يُطْعَمُ، فلزمَ إفرادُهُ بالعبادةِ وإخلاصِ التَّوحيدِ له سبحانَه: وقد مرَّ بأوَّلِ السُّورةِ: ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ۗ قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٤﴾ قُلْ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾﴾ [الأنعام: 14 - 16]، وسيأتي في آخرِها: ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ ۚ﴾ والسُّورةُ من ركائزِ العقيدةِ.

إيثارُ الجُملةِ الاسْميَّةِ هنا على الفعليَّةِ:

نِعمةُ الجنَّاتِ المَعروشاتِ مُحقَّقةٌ دائمةٌ فضْلًا منه تعالى

أفادتِ الجملةُ الاسميَّةُ ﴿۞وَهُوَ ٱلَّذِىٓ﴾ ثباتَ نعمةِ إنشاءِ الجنَّاتِ المَعروشاتِ ودوامَها، ورسوخَ مَدلولِها، وزادَ من حتميَّةِ تحقُّقِها صوغُ فعلِ الإنشاءِ على هيئةِ الماضي الدَّالِّ على تحقُّقِ الوقوعِ بما لا يحتملُ الشَّكَّ، ولا يقبلُ النِّزاعَ، وذلكم من سعةِ رحمةِ اللّهِ تعالى بعبادِهِ، ومديدِ تفضُّلِهِ؛ بتعاهدِهِ خلقَهُ كلَّ حينٍ.

عِلَّةُ إيثارِ فعْلِ الإنشاءِ دونَ غيرِهِ:

الإنشاءُ تذكيرٌ بنِعَمِ البارِي على خلْقِهِ

في إيثارِ فعلِ الإنشاءِ في مُفتتَحِ الآيةِ دونَ الأفعالِ: (خلق)، (جعل)، (أنبت) حكمةٌ كبيرةٌ من جهةِ أنَّه عَوْدٌ به على الإنسانِ المُتلقِّي السَّامعِ المُمتنِّ عليه بما سبقَ أنْ ذكرَهُ اللّهُ لهُ فيه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ [الأنعام: 98]؛ ليردَّهُ إلى أن يعتبرَ بإنشاءِ النَّباتِ إلى إنشائِهِ هو نفسُهُ من قبلُ، وإنشاءِ أصولِهِ كلِّها امتدادًا إلى أصلِهِ الأوَّلِ، وإنشاءِ فروعٍ منه، هو لا يملكُ إنشاءَها، وأنَّ ما يرَاهُ من مَراحلِ إنشاءِ النَّباتِ وتكاملِهِ وتناميهِ، حتّى بلوغِهِ مدى

التَّفريخِ، وحدَّ العطاءِ والإثمارِ، وأن يُؤخذَ منه نقيلةٌ وفسيلةٌ وطُعْمٌ للتَّكاثرِ، قد مرَّ هو بِهِ مِن قبلُ في نفسِهِ ومرَّت به زوجُه وآباؤُه وأصولُه، وتمرُّ به فروعُه، والخالقُ العظيمُ الفردُ واحدٌ سبحانه، وهو يفعلُ كلَّ ذلك لخلقِهِ من رحمتِهِ وكرمِهِ، يريهمُ الغايةَ من خلقِهِم؛ لينعموا بتوحيدِهِ وتمجيدِهِ، ومشاهدةِ جمالِهِ وجلالِهِ وكمالِهِ، وآثارِ أسمائِهِ الحسنى الجليلةِ، وصفاتِهِ العُلا الجميلةِ، ويديه المَبسوطتين بالرَّحمةِ والعطاءِ والإنعامِ والإكرامِ، وليدركوا غناه المُطلَقَ، وكمالَ قيُّوميَّتِهِ ووحدانيَّتِهِ، وتفرُّدَهُ في ملكِهِ وملكوتِهِ، وأنَّه ربُّ الرَّحموتِ والجبروتِ، وذو القوَّةِ والقهرِ، وليتحقَّقَ عبادُه بلباسِ الافتقارِ الدَّائمِ إليه، فيلازموا الضَّراعةَ له والذُّلَّ الخاشعَ المُستكينَ بين يديهِ، ويالها من حلاوةٍ ولَذَّةٍ ونعيمٍ مُقيمٍ لا تزاحمُهُ، ولا تسامتُهُ ملاذُّ الدُّنيا كلُّها!.

دَلالةُ إيثارِ فعْلِ الإنشاءِ دونَ ما يُقارِبُهُ في المعنى:

السِّياقُ فيه إشارةٌ إلى مُلاحظةِ تكوينِ المكوَّناتِ، في نشأةِ الكائناتِ

وإيثارُهُ دونَ الأفعالِ: (خلق)، (جعل)، (أنبت)، وكلُّها قرآنيَّةٌ فيه أسرارٌ ودُررٌ ومعانٍ كملاحظةِ إنشائِهِ منَ العدم[1]، وتكوينِهِ بمراحلِهِ وأطوارِهِ من مبْتداه إلى امتلائِهِ بالزَّهرِ والنَّوْرِ والثَّمرِ، وطروءِ التَّخليقِ عليه والإكمالِ، كلَّ لحظةٍ بما يدُلُّ على تعاهدِ اللهِ خلقَه دومًا، وهكذا البشرُ الغافلون مَربوبون، ويتقلَّبونَ في عطاءِ الرُّبوبيَّةِ وفيوضاتِ إنعامِها، وكملاحقةِ امتدادِها وانتشارِها، وكَثْرةِ صنوفٍ، واتِّساعِ أشباهٍ على مساحاتٍ فسيحةٍ، وأبعادٍ شاسعةٍ واسعةٍ لا يبلغُ مداها البصرُ، وما أودعَ فيه من قوَّةِ جذوعٍ وبداعةِ فروعٍ وهائلِ امتدادٍ؛ فكلُّ ذلك للإنشاءِ إيحاءاتُه فيه، وإلَّا فكيف ذكرَ: ﴿ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَـٰمِ ﴿٢٤﴾﴾ [الرحمن: 24] - ملاحَظًا جريانُها - على قراءة ﴿ٱلْمُنشِـَٔاتُ﴾ باسمِ الفاعلِ، كما هو لحمزةَ وأحد

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/289.

الوجهَين عن شُعبةَ، وباسم المفعولِ مُلاحَظًا ضخامتُها وارتفاعُها بقرينةِ التَّشبيهِ بالجبالِ الشُّمِّ الرّواسِي.

الدَّلالةُ الصَّوتيَّةُ للفعْلِ (أنشأ)، وأَثرُها في التّركيبِ:

دِقَّةُ الإنشاءِ وامتدادُهُ، ووضوحُ أَثرِهِ في الخَلْقِ

ومَن يتأمَّلْ جرسَ الفعلِ (أنشأ)، المبتدأ والمنتهي بحرفٍ اختُصَّ بأعمقِ المخارجِ، وهو مجهورٌ، شديدٌ، تعجَّبَ لاجتماعِهما فيه، وهو غيرُ مُقلقَلٍ، حاصرين بينهما حرفَ التَّفشي - الوحيد في الأكيدِ من ذلك - ودلالةُ هذا الفعلِ بتركيبِهِ البنائِيِّ هذا على المفعولاتِ له المذكوراتِ بعدَهُ بما يوحي بدقَّةِ التَّكوينِ وامتدادِهِ وانتشارِهِ وظهورِ تأثيرِهِ على البشرِ، في إعجازٍ يذهلُ تسريحُ الفكْرِ فيهِ إذهالًا مُسْتَغرِقًا يُطَوِّفُ بصاحبِهِ في زواهيهِ وروابيهِ وثَمرِهِ وقائمِ زرعِهِ، وهائمِ ينعِهِ، ولذيذِ طعمتِهِ، وحفيِّ جَناه، وبركةِ حصادِهِ، وما يُناطُ بالمُكلَّفِ المُنعَمِ عليه من حقوقٍ وآدابٍ في ممارساتِهِ المُتعلِّقةِ بعوائدِهِ وتعاملاتِهِ.

سِرُّ إيرادِ اللّفْظِ ﴿جَنَّٰتٍ﴾ دونَ لفْظِ ﴿حَدَآئِقَ﴾:

اشتمالُ الجنَّاتِ على النَّخلِ والعِنَبِ خِلافَ الحدائقِ

الجَنَّة: كلُّ بستانٍ ذي شجرٍ يسترُ بأشجارِهِ الأرضَ[1]، ومن هنا لا تكون الجنَّةُ في كلامِ العربِ إلَّا وفيها نخلٌ وعنبٌ، فإن لم يكنْ فيها ذلك، وكانت ذاتَ شجرٍ؛ فهي حديقةٌ، وليسَت بجنَّةٍ[2]، قال تعالى: ﴿حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهۡجَةٖ مَّا كَانَ لَكُمۡ أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآۗ﴾ [النَّمل: 60]، وقالَ: ﴿حَدَآئِقَ وَأَعۡنَٰبٗا ٣٢﴾ [النَّبأ: 32]، ﴿وَحَدَآئِقَ غُلۡبٗا ٣٠﴾ [عَبَسَ: 30].

وبينَ الجَنَّاتِ والأعنابِ آصرةٌ قويَّةٌ؛ فالجنَّاتُ هي الأرضُ ذاتُ الأشجارِ المُلتفَّةِ الكثيفةِ الَّتي لا تُرى أرضُها لتكاثفِ أشجارِها، وهذا شأنُ العرائشِ من أشجارِ العنبِ تكونُ جنَّةً ساترةً لأرضِها[3]؛ فحسُنَ اقترانُ الأعنابِ بالجنَّاتِ.

(1) الرّاغب، المفردات: (جن).
(2) الزّبيديّ، تاج العروس: (جنن).
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2607.

ومن هنا ففي كلمة ﴿جَنَّٰتٍ﴾ المعطوفةِ المُقدَّرةِ وكلمة ﴿جَنَّٰتٍ﴾ المعطوفِ عليها المذكورةِ، إيحاءاتٌ بلاغيَّةٌ ثرَّةٌ ومعانٍ ثريَّةٌ غنيَّةٌ دسمةٌ فائقةُ الحسنِ فيما تَجِنُّ، وفيما تُجَنُّ به، من ورقٍ مُندَّى وزهرٍ ونَوْرٍ وأكمامٍ وثمارٍ وفروعٍ وأغصانٍ وألوانٍ وروائحَ وطعوم، وبُسطٍ تحتَها من حشائشَ كالسُّندس، ومُلْكٍ كبيرٍ جَلَّ مُبْدِعُهُ ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾﴾ [الحشر: 24].

بَلاغةُ المجازِ المُرسَلِ في وصْفِ الجنَّاتِ:

الجنَّاتُ ظرفٌ للشَّجرِ الحالِّ بها، وكثافةُ الشَّجرِ وتَشابُكُه هو الجنَّةُ

وفي القدرِ المذكورِ مَجازٌ مُرسَلٌ في وصفِ الجنَّاتِ بمعروشاتٍ وغيرِ مَعروشاتٍ علاقتُه المحليَّة؛ إذ المعروشُ الشَّجرُ الحالُّ في الجَنَّاتِ، والجنَّاتُ ظرفُهُ ومحلُّهُ.

بَلاغةُ إطلاقِ لفْظِ (الجنَّاتِ) على التَّنعُّمِ بها وبزينَتِها:

جنَّاتُ الدُّنيا أُنموذجٌ دُنيويٌّ لنَعيمِ الآخرةِ

ومن لطيفِ أسلوبِ القرآنِ ثَمَّ، التّنبيهُ بتسميةِ الجنَّاتِ على التّنعُّمِ بزينتِها، والطَّيِّباتِ منَ الرِّزقِ في الحياةِ الدُّنيا، وطلبِ مَرضاةِ اللّهِ بطاعتِهِ وشكرِهِ، وتعلُّقِ القلبِ بالتَّطلُّعِ إلى جنَّاتِ الآخرةِ، حيثُ الخلودُ بلا فَناءٍ والنّعيمُ بلا انتهاءٍ، فسَمَّاها ﴿جَنَّٰتٍ﴾؛ لاستدعاءِ ذلك كما في ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ﴾ [البقرة: 25].

سِرُّ إعْجازِ القُرآنِ في إطلاقِهِ اسْمَ (الجنَّاتِ) عليها:

في ذكْرِ الجنَّاتِ ترغيبٌ وترهيبٌ

الجمعُ بين جناحي الدَّعوةِ إلى اللّهِ بالتَّرغيبِ والتَّرهيبِ، فالتَّرغيبُ باستدعاءٍ نحوَ قولِهِ تعالى: ﴿كُلُوا۟ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ ۚ﴾ [سبأ: 15]، ونحو قولِهِ تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [الأعراف: 32].

والتّرهيبُ باستذكارِ ما آلَ إليه أمرُ الجاحدينَ من ذوي الجنَّاتِ

المُعاقبين، كما في آيةِ: ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ﴾ [البقرة: 266]، وآيةِ: ﴿۞وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ﴾ [الكهف: 32 - 44]، وآيةِ: ﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ﴾ [القلم: 17 - 33]، وبآيةِ: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِى مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ ۖ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ ۖ﴾ [سبأ: 15 - 19].

فلمَّا ذكرَها مُسمَّاةً ﴿جَنَّٰتٍ﴾ رغَّبَ، ورهَّبَ في آنٍ واحدٍ، وشوَّقَ بذكرِ ما يَفنى، وينفَدُ إلى ما عندَهُ سبحانَهُ وبحمدِهِ ممَّا لا يَفنى ولا يَنفَدُ.

مَغزَى الوصْفِ بلفْظَيْ ﴿مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ﴾:

أوردَ الرَّازيُّ في قولِهِ: ﴿مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ﴾ أقوالًا: الأوَّل: أنَّ المَعروشاتِ وغيرَ المَعروشاتِ كلاهما الكَرْمُ، فإنَّ بعضَ الأعنابِ يُعَرَّشُ، وبعضَها لا يُعرَّشُ، بل يبقى على وجهِ الأرضِ مُنبسِطًا؛ أي: لا تصلحُ إلَّا مَطروحةً على الأرض، مُثقلَةً بما يحكمُ وصولَها إليها، ومتى ارتفعَت تلفَت، والثّاني: المَعروشاتُ العنبُ الّذي يُجعَلُ لها عُرُوشٌ، وغيرُ المَعروشاتِ: كُلُّ ما يَنبُتُ مُنبسِطًا على وجهِ الأرضِ مثلُ القرعِ والبطّيخِ. والثَّالث: المَعروشاتُ ما يَحتاجُ إلى أن يُتَّخذَ له عَريشٌ يُحمَلُ عليه فَيُمسِكُهُ، وهو الكَرْمُ، وما يجري مَجراهُ. وغيرُ المعروشِ: هو القائِمُ منَ الشَّجرِ المُستَغنِي باستوائِهِ وذهابِهِ عُلُوًّا لقُوَّةِ ساقِهِ عنِ التّعريشِ. والرَّابع: المَعروشاتُ ما يَحصُلُ في البساتينِ والعُمراناتِ ممّا يغرسُهُ النَّاسُ، واهتمُّوا به فَعَرَّشُوهُ، ﴿وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ﴾ ممّا أنبتَهُ اللّهُ تعالى وحشيًّا في البَراري والجبالِ، فهو غَيرُ مَعرُوشٍ"[1]. وفي الأخير إيذانٌ بالفرقِ بين المأهولِ والوحشيِّ، وفيه تنبيهٌ على أنَّ من لم يكنْ تحتَ سياسةِ سائسٍ، وتأديبِ مُؤدِّبٍ، ولا ضبط ضابط، ينشأُ كما ينشأُ الوحشيُّ، غيرَ مَؤدَّبٍ، كأربابِ البوادي والجبالِ[2]،

مِن مَظاهِرِ إحسانِ البارِي في إنشاءِ هذهِ الجنانِ، تَضَمُّنُها الشَّيءَ وضدَّهُ

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 13/162 - 163.

(2) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 6/268، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 7/289.

ومن هنا يتبيَّنُ قصدُ التّعبيرِ بـ﴿جَنَّٰتٍ مَّعۡرُوشَٰتٍ﴾ وكذلك نفيها؛ للامتنانِ بها ولمَا للعنبِ من فوائدَ غذائيَّةٍ ودوائيَّةٍ وعلاجيّةٍ، ومنَ الرّفاهيّةِ الَّتي في أكلِهِ والاستمتاع.

سِرُّ إيرادِ الوصْفِ على مَفعولاتٍ دونَ مفعولةٍ:

دَلالةُ وصْفِ الجنَّاتِ على كَمَالِ الامتنانِ، وحُسْنِها المتَكامِلِ

الجمعُ دقيقٌ في دلالتِهِ على المُمتَنِّ به، ومطابقةِ جمعِ التَّأنيثِ بمماثلِهِ، وصفًا له، وللدَّلالةِ على اكتمالِ حسنِ الجَنَّاتِ، وتكاملِ منافعِها بتمامِ المناسبةِ لمَا عبَّرَ به عنها.

بَلاغةُ حذْفِ المعْطوفِ في الطِّباقِ:

أغنَى ظهورُ الجنَّاتِ باسقةً عن ذكْرِها ثانيةً؛ لِيُورثَها هيْبَةً

حذفَ المعطوفَ ﴿جَنَّٰتٍ﴾ المُتسامِي والمُتنامِي ليصيرَ مُقابلةً، وما فيه منَ المزجِ بينَ الفكرةِ والمُفكِّرِ، إذ لمَّا كانتِ الجنَّاتُ معروشةً كالعنبِ، وكانَت كرومُها تتدلَّى منها تحتَ ما عُرِشَتْ به، فالعارشُ حاجبٌ، ذكرَها بالاسم، أمَّا غيرُ المَعروشةِ فهي مُنطلقةٌ في السَّماءِ غيرُ مُحتَجَبَةٍ بشيءٍ، فأغنى ظهورُهُا باسقةً بأصلِها الثَّابتِ وفروعِها الَّتي في السَّماءِ عن ذكرِهَا كما ذُكِرَت الأولى، واكتُفي منها بالوصفِ ﴿وَغَيۡرَ مَعۡرُوشَٰتٍ﴾؛ ليورثَنا هيبةً من هذا التَّنزيلِ العزيزِ المهابِ الَّذي يضعُ كلَّ شَيءٍ مَوضِعَهُ دونَ زيادةٍ ولا نقصٍ.

فضْلُ النَّفْيِ بـ ﴿وَغَيۡرَ﴾ على النَّفْيِ بـ (لَيْسَتْ):

في معنَى المغايَرةِ مَزيدُ فضْلٍ

آثرَ النَّفيَ بـ﴿وَغَيۡرَ﴾ في هذا الأسلوبِ الأخَّاذِ الآسرِ؛ لأنَّه لو قال: (وليسَت مَعروشاتٍ) لم يكنْ فيها معنى الغيريَّةِ أو المغايرةِ، ولَتُوُهِّمَ من السِّياقِ أنَّ المَعروشاتِ والَّتي ليسَت مَعروشاتٍ من نوعٍ واحدٍ هو العنب، فكانَ التَّعبيرُ القرآنيُّ بـ ﴿وَغَيۡرَ﴾ مُصوِّرًا ومُؤثِّرًا ومُؤطِّرًا.

عِلَّةُ جمْعِ ﴿مَّعۡرُوشَٰتٍ﴾ الثَّانيةِ، المُضافةِ إليها ﴿وَغَيۡرَ﴾:

الجنَّاتُ غيرُ المَعروشاتِ، لا قصْرَ فيها عن سابِقتِها

وذلك إذ لم يقُل: (معروشة) بمكانِها، فإنَّه لو فعلَ - وحاشاه - لكانَ قدْ قصَّرَ بها عن أن تبلغَ مدًى بلغته المَعروشاتُ الأولى مِنَ المدى أنواعًا، واتِّساعًا، وطعومًا وألوانًا وآثارًا بالرَّوْحِ والعبقِ، وإبهاجًا

ومسرَّةً، مع أنَّ صفوفَ غيرِ المَعروشاتِ أكثرُ، وأعمارَها أطولُ وأكبرُ، واغتذاءَهَا منَ الشَّمس والرِّيح وطلاقةِ الجوِّ وماءِ السَّمَاء أوفرُ، وتندِّيها بها أغزر، فيا لإعجازِ القرآنِ!

سِرُّ العطْفِ بالواوِ في هذه الجُملِ، على المعطوفِ ﴿وَٱلنَّخۡلَ﴾:

حَشْدُ الأصْنافِ المُنعَمِ بها، في مَصافِّ الامتنانِ، في نَسَقٍ واحدٍ

ينطوي العطفُ بالواو في هذه الجملِ على بَصَرٍ بديعٍ والتفاتٍ رائعٍ إلى حشدِ هذه الأصنافِ المُنعَمِ بها في مصافِّ الامتنانِ في نسقٍ واحدٍ، فكلُّ صنفٍ منها مَليءٌ بالأسرارِ المُحتشِدَةِ فيه وعجائبِ التّفاصيلِ المُكوِّنة له، والمؤدِّيةِ به إلى أن يفيَ بالغايةِ مِن إنشائِه، ويؤدِّيَ لبني آدمَ مُقتضَى تسخيرِه - بمَنِّ خالقه وموجده - وتسييره، فذُكِرت جميعُها مُتعاطفةً بالواو؛ لأنَّ كلًّا منها يدُلُّ على عظمةِ الصَّانعِ المبدعِ، وعلى وحدانيَّتِه وحكمتِه ورحمتِه وحسنِ تدبيرِه وكمالِ قيُّوميَّتِه وكريمِ تقديرِه، دلالةً واحدةً صريحةً لا مُتأخِّرَ فيها عن مُتقدِّمٍ، فهي مُستَعلِنَةٌ صارخةٌ في البريَّةِ، مُقيمةُ الشَّهادةِ بذلك لِلّه حُجَّةً على الخلق أن لا إله إلّا اللّه وحدَهُ لا شريكَ له يرزقُكُم بما خَلَقَ وَذَرَأَ وأَنزَلَ؛ فله أسلِموا، وبهِ آمِنوا، وعليه، فتوكَّلوا. وفي هذا أيضًا سرٌّ يدُلُّ المربوبَ المخلوقَ على علمِ اللّه به، واطِّلاعِه على مكنونِه، فمِنَ النَّاسِ يقعُ اختلافُ التَّفضيلِ للطُّعومِ من حلوٍ ومُرٍّ وحامضٍ ومالحٍ، وللمذاقِ دورٌ في الإقبالِ على المَوائدِ والإجفالِ عنها، وفي المآكلِ صِبغٌ للآكلين، فلم يكنِ اللّهُ ليفرضَ على النَّاسِ كلِّهم مُفَضَّلَ طائفةٍ منهم، فكلُّها نِعَمُهُ وخلْقُهُ، وقبولُهُا مِنْ شكرِها كالثَّناء على واهبِها بها سبحانه، وفي بعض طُرُق الحديث: «واجعلْنا شَاكرِينَ لِنِعَمِكَ مُثنِينَ بِها عَلَيكَ قابليها، وأتمَّها علينا»[1] وغيره، ولهذا تراها احتشدَت جميعُها آخذةً أماكنَها في نسقٍ واحدٍ، وهي في أصولِهَا باديةٌ: العنبُ والنَّخلُ والزّرعُ مُكتنِفٌ، والزّيتونُ والرُّمانُ

(1) أبو داود، السّنن، برقم: (969).

على سبيلِ التّمثيلِ لا الحصرِ، وسائرُ ما ذُكِرَ للاغتذاءِ والنَّماءِ والاستقواءِ والشِّفاءِ، وبعضُه جامعٌ إلى ذلك التَّسريةَ والتَّمْرِيةَ والتَّسليةَ والإلهاءَ، فهل بقي عندَ أحدٍ ريبٌ أنَّ في الآيةِ الواحدةِ منَ التَّعليمِ والتَّفهمِ والتَّقويمِ ما لا يقادرُ قدرُهُ، ولا يُسبَرُ غورُهُ، وأنَّ ما نحن فيه من انبهارٍ، وسَلْكِ النَّفسِ والعقلِ طواعيةً في إسارٍ، هو بعَضُ ما دلَّت عليه جملةٌ، بها بضعُ كلماتٍ من بعضِ آيةٍ؛ والقرآنُ كلُّهُ كذلك.

بَلاغةُ تَرتيبِ المُتعاطِفاتِ:

في ترتيبِ الأصنافِ مُراعاةٌ للفائدةِ، والحاجةِ، والرَّغبةِ فيها

وإذا كانَ العطفُ بالواوِ لا يقتضي ترتيبًا إلَّا أنَّ ورودَهُ مُقدَّمًا في الذِّكر له حِكَمٌ جليلةٌ تُلتمسُ، ورتبٌ نبيلةٌ لا تُمسُّ، منها: عمومُ النَّفعِ، ونفعُ العمومِ، والجمعُ بينَ الاغتذاءِ، والالتذاذِ والإتحافِ بالاشتهاءِ، وما هو أدخلُ في طعمِ الحلواءِ، وكلُّ ذلك يستدعي تقديمَ الذِّكرِ، وهو نوعان: مَعروشٌ كالعنب، وغيرُ مَعروشٍ كالنَّخلِ، ويطرفُ به، ويتحفُ، والأوَّلُ العنبُ، والثَّاني النَّخلُ، ولا يُعَمَّرُ طويلًا بحالتِه، ومُتحوِّلًا عنها، ويعمَّرُ، والأوَّل العنب، والثَّاني ثمار النَّخلِ، ويكونُ طازجًا ومُدَّخرًا، وهما الزَّبيبُ والتّمرُ بأصليهما وبما آلا إليه، وذلك يوجِّهُ النَّظرَ إلى مَلمَحٍ آخرَ من ملامحِ الإعجازِ البيانيِّ في القرآن العظيم يستهويك حتّى تَطرَبَ وتَعجَبَ، ثمّ تأخُذَ نفسَكَ بمسايرتِه، فلا تزالُ بصُحبتِهِ حتّى يأخذَكَ من كلِّ شيءٍ، فلا يأخذكَ شيءٌ عنه، ولا تسلم نفسك للذَّةِ غيرِه.

عِلَّةُ ذكْرِ (النَّخلِ) في الآيةِ الكريمةِ:

النَّخلُ رَمزٌ للنَّفعِ، ومَوْئلٌ عندَ المَسْغَبةِ، وثروةٌ تُنمِّي قُدراتِ الأمّةِ

النَّخلُ ضربٌ منَ الشَّجرِ مُستغنٍ بنفسِهِ عنِ التَّعهُّدِ وتعمُّدِ الإرواءِ وتكبُّدِ الإسقاءِ؛ لأنَّه ينمو في كلِّ أرضٍ، ونفعُهُ عامٌّ تعرفُهُ كلُّ بيئةٍ، ويُغتذَى به على وجهِ الاكتفاءِ والإجزاءِ، فيُقتصَرُ عليه هو والماء، وقد كان النَّبيُّ صلّى الله عليه وآله وسلّم مع أزواجِهِ أمَّهات المؤمنين،

يقضونَ الشُّهورَ ذوات العددِ، يسردونها سردًا، تمرُّ عليهم، وَلا يوقدُ في بيوتِ النَّبيِّ نارٌ، وما لهم يومذاك طعامٌ إلّا الأسودان: «التَّمرُ والماءُ»[1]، فكان حَريًّا أن يُصدَّرَ في تعظيمِ الإنعامِ فيه والامتنانِ به على بناتِ جنسِهِ غيرِ المعروشاتِ.

نُكتةُ تقديمِ لفْظِ (النَّخلِ) على المعطوفاتِ الواردةِ بعدَها:

المؤمنُ كالنَّخلةِ مُرتفِعٌ، ومُترفِّعٌ، ودائمٌ نَفْعُه، ومُؤثِّرٌ وَقْعُه

ثمّ نلمحُ مَلمَحًا إعجازيًّا آخرَ في تقديمِ النَّخلِ قد جاءَ التَّنويهُ به في صحيحِ السُّنَّةِ أنَّ شجرَهُ لا يسقطُ ورقُه، فاستحقَّ أن يُشَبَّهَ به المؤمنُ المُسْلِمُ لدائمِ نفعِهِ وحسنِ وقعِهِ، فعن عبدِ اللّٰه بن عمر ﵄ أنَّ رسولَ اللّٰه صلّى اللّٰه عليه وآله وسلّم قال: «إنَّ منَ الشَّجرِ شَجَرةً لا يسقطُ ورقُها، وهي مثلُ المسلم، حدِّثوني ما هي؟» فوقعَ النَّاسُ في شجرِ الباديةِ، ووقعَ في نفسي أنَّها النَّخلةُ، قالَ عبدُ اللّٰه: فاستحيَيتُ، فقالوا: يا رسولَ اللّٰهِ، أخبرْنا بها؟ فقالَ رسولُ اللّٰه صلّى اللّٰه عليه وآله وسلّم: «هي النَّخلةُ»، قالَ عبدُ اللّٰه: فحدّثتُ أبي بما وقعَ في نفسِي، فقال: "لأن تكونَ قلتَها أحبُّ إليَّ من أن يكونَ لي كذا كذا"[2]. ومن ثمَّ فالنَّخلُ أكملُ مَظهَرًا دونَ غيرِهِ منَ الشَّجرِ طول العامِ على اختلافِ الفصولِ، فاستحقَّ التّقديمَ.

عِلَّةُ تقديمِ (الزُّروعِ)، وتأخيرِ (الزَّيتونِ) و(الرُّمانِ):

انْتِصابُ الشَّجرِ، شاهِدٌ على قُدرةِ اللّٰه ووَحدانيَّتِهِ

ونلمحُ مَلمَحًا إعجازيًّا آخرَ، قَلَّ مَن يفطنُ إليه، ولم نرَ مَن تعرَّضَ له، وذلك في قطعِ النَّظيرِ عن نظيرِهِ منَ الشَّجرِ بتقديمِ ذكرِ الزَّرعِ مَعطوفًا على النَّخلِ، وتأخيرِ ذكرِ الزَّيتونِ عنه لوجوهٍ إعجازيَّةٍ مُبهرةٍ كثيرةٍ، منها: الاعتدادُ بالزَّرعِ في المنَّةِ به، ودلالتُهُ على الرَّبوبيَّةِ، وأنَّه ظاهرٌ في جميعِ ذلك كالشَّجرِ سواءً، وأنَّ الإعجازَ في الصَّغيرِ كالإعجازِ في الكبيرِ كما في آية: ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ

(1) البخاري، الجامع الصحيح، برقم: (6459)، ومسلم، الصحيح، برقم: (2972).
(2) البخاريّ، الجامع الصّحيح، برقم: (131)، ومسلم، الصّحيح، برقم: (2811).

﴿لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَاۚ﴾ [البقرة: 26] فهذه فوقيَّةٌ وضآلَةٌ وصغرٌ ونزارةٌ وحقارةٌ؛ فلهذا استُدعيَ الزَّرعُ وقُدِّمَ ذكرُهُ مُزاحمًا الشَّجرَ، وحَبُّه مُنافِسًا للثَّمرِ، وكلُّ ما في الثَّمرِ منَ المَصالحِ المنوطةِ به والمناطةِ مَوجودٌ مثله في الحبوبِ، وأيضًا فإن انتصابَ الزَّرعِ شاهد على وحدانيَّةِ اللّهِ، وأنَّه سبحانَه الخالقُ كما في الآية: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [الواقعة: 63 - 64]. فكلُّ ذلك ينبتهُ اللّهُ، ويخرجُه، ويبلِّغُه أوجَهَ إيراقًا وإثمارًا، ويكون منه الحَبُّ المُكتمِلُ العناصرِ غذاءً وكفايةً. ثمّ إنّ الزَّيتونَ المُؤخَّرَ ذِكرُهُ غذاءٌ إضافيٌّ لا يستقلُّ بالتَّغذيةِ كما يستقلُّ بالاستصباحِ؛ إذ هو ممَّا يُؤتدمُ به، وليؤتدمَ به لا بدَّ له منَ الخبزِ، والخبزُ منَ الحَبِّ بصنوفِهِ من بُرٍّ وشعيرٍ ودُخْنٍ وحِنْطَةٍ وشوفانٍ وغيرِهِ، فقدَّم عليه ما يلزمُ له ليؤتدمَ به، فهل بعد ذلك إعجازٌ حكيمٌ يراعي كلَّ خصيصةٍ، ويقدِّمُ كلَّ ذي أولويَّةٍ في مَوضعِهِ اللَّائقِ له لافتًا النَّظرَ إلى فضيلتِهِ الَّتي أحكمَها الخالقُ الرَّازقُ فيه، المقدِّرُ في الأرض أقواتَها، ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾﴾ [الحِجْر: 19 - 21].

دَلالةُ لفْظِ (الزُّروعِ) على فوائدِ غيرِ الإطعام، ومَنافِعِ غيرِ التَّغذيةِ:

الـزّرعُ بألوانِه وأشكالِه، صُنعُ اللهِ الّذي أتقَنَ كلَّ شيءٍ

إنَّ بعضَ الزَّرعِ ينجمُ منَ الأرض، لا ساقَ له، وليس له حبٌّ يُؤكَلُ منه، ولكنَّه مُنطوٍ على فَوائدَ طبيَّةٍ ومنافعَ حياتيَّةٍ، بعضُها للاسترواحِ، وبعضُها لصدِّ الحشراتِ وطردِ الآفاتِ، وبعضُها المجَرَّدُ عن كلِّ هذا ممَّا تغتذيه الحيواناتُ، وغذاءُ الحيوانِ لا يقلُّ أهمِّيَّةً عمَّا يغتذيهِ الإنسانُ عندَ الإنسانِ؛ لأنَّ اغتذاءَ بهيمةِ الأنعام يعودُ بالفائدةِ والعائدةِ على الإنسانِ فيما تُخرجُ منَ اللَّبنِ يكونُ منه

السَّمنُ، ويكونُ منه صنوفٌ منَ الأجبانِ والمأكولاتِ الرّاجعةِ إليه، فكلُّ ذلك مُستحِقٌّ تقديمَ الزَّرعِ ومُوجِبٌ له؛ لأنَّ اللّه خالقُ كلِّ شيءٍ، وهو على كلِّ شيءٍ وكيلٌ، ولذكور بهيمةِ الأنعام دورٌ لا يخفى في تلك المُخرَجات من بطونِ بهيمةِ الأنعام، واغتذاؤها أيضًا مدعاةٌ لسمنِها وكثرةِ الشَّحمِ وامتلاءِ اللَّحمِ بها أو امتلائِها بهما جميعًا، فيُلتذَّ بالاغتذاءِ بها، وتعظُمَ طُعمةً للنَّاسِ، ولذلك جعلَ الشَّارعُ الحكيمُ ذكرَ اسمِ اللّهِ عليها وذكاتَها سببًا لحِلِّها وإباحةِ الأكلِ منها ناضجةً غيرَ نيئةٍ.

بَلاغةُ التَّعقيبِ بالحالِ على أصْنافِ المأكولاتِ:

الأُكُلُ يَعُمُّ الأصْنافَ جميعًا

التَّعقيبُ على المذكوراتِ بذكرِ الحالِ المرادِ استحضارُها عندَ التَّفكُّرِ فيها جميعًا، وهو وإن كانَ الزَّرعُ الأقربَ ذِكْرًا إليه إلَّا أنَّه يعمُّها جميعًا بقرينةِ ذكرِ فاعلِه عقبَهُ ﴿مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ﴾؛ إذ فاعلُ اسمِ الفاعلِ قَدرٌ مُشترَكٌ في المذكوراتِ المُتقدِّمةِ جميعًا، والأُكُلُ بضمِّ الكافِ - كما هي قراءةُ الجمهورِ أو بسكونِها للحرميَّين نافع المدنيِّ وابن كثير المكّيِّ - اسمُ المأكولِ بمعنى: المفعول؛ أي: (المَأكُول). "قالَ ابنُ مسعود: وقُرِئَ: ﴿أُكْلُهُۥ﴾ بسكونِ الكافِ؛ أي: ثَمَرُهُ الّذي يُؤكَلُ في الهيئةِ والكَيفيّةِ"[1].

تَوجيهُ اختلافِ الإعرابِ، للفْظِ ﴿مُخْتَلِفًا﴾:

الامْتنانُ بما يَختصُّ ثمرُه وجَناهُ ببنِي الإنسانِ، وما ينتفعُ به غيرُ الإنسانِ

ذهبَ الإمامُ مكّيُّ بن أبي طالب القَيْسيّ إلى أنَّ: ﴿مُخْتَلِفًا﴾ هنا في الآية حالٌ منَ النَّخلِ، وخالفَه ابنُ عاشور، فذهبَ إلى حاليَّتِها للزَّرعِ مُحتجًّا له بأنَّه أقربُ المذكوراتِ[2]، والأنسبُ توجيهُ دلالةِ الحالِ لدخولِ كلِّ ما يُؤكَلُ ممَّا تقدَّمَ للإنسانِ خاصَّةً؛ لأنَّ الامتنانَ عليه وتقديرَ اختلافِ الأكلِ المقصودِ هو ما يكونُ سبيلَ تحصيلِه

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/191.

(2) مكّيّ القيسّي، مُشكل إعراب القرآن، ص: 146، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/أ118.

وتمييزِهِ وإدراكِ فروقِهِ من جهتِهِ، فيخرجُ من ذلك مأكولُ الحيوانِ؛ إذ هو غيرُ داخلٍ بداهةً في ذلك، ونعني به: مأكولَ بهيمةِ الأنعامِ منَ الزَّرعِ.

مع أنَّ فيما ذكرَهُ الإمامُ مكّيٌّ وجهًا؛ بأنَّ النَّخلَ أحقُّ بانصرافِ الحالِ إليه منَ الزَّرعِ؛ إذِ الأوَّلُ يكونُ مأكولًا على طبيعتِهِ المُجتَناةِ من أكمامِهِ أو بغيرِ زيادةٍ تُصنَعُ، فلا يُتَكَلَّفُ طبخُهُ ولا إعدادُهُ، وغالبًا لا يكونُ الزَّرعُ كذلكَ بالنِّسبةِ للإنسانِ، فيستقلُّ النَّخلُ بالحكمِ دونَ الزَّرعِ.

هذا أوَّلًا، وثانيًا فلأنَّ النَّخلَ تختصُّ تمورُهُ الَّتي هي ثمارُهُ وجناهُ ببني الإنسانِ، أمَّا الزَّرعُ فمنه ما يكونُ للبشرِ، ومنه ما يكونُ للدَّوابِّ منَ البهائمِ، فلم يخلصِ الزَّرعُ كلُّه لبني الإنسانِ لينصرفَ الحالُ إليه، أمَّا أن يُقَال: إنَّ المرادَ منه ما يختصُّ ببني الإنسانِ على أنَّ لامَ العُرفِ عهديَّةٌ لا جنسيَّةٌ، ويزكِّي هذا الفهمَ الأمرُ بعدُ بالأكلِ، وهو مُتوجِّهٌ للإنسانِ، فهو وإن بدا وجيهًا لكنّنا لا نراه؛ لأنَّ الآيةَ عامَّةٌ فيما أنشأَ اللّٰهُ من أشجارٍ وزروعٍ، فكلُّ ما أنشأَ اللّٰهُ من ذلك مُستَدْعًى، ثمّ يكونُ التَّفصيل، وأمَّا الأمرُ في الآيةِ فقد قالَ اللّٰهُ تعالى: ﴿كُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثۡمَرَ﴾، فعلمَ أنَّه أرادَ الإنسانَ، ولو أرادَ إشراكَ غيرِ الإنسانِ لجاءَ نسقُ الآيةِ، كما نُسِقَت آياتٌ مماثلةٌ في سورة عبسَ، قالَ اللّٰهُ منها: ﴿فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ٢٤ أَنَّا صَبَبۡنَا ٱلۡمَآءَ صَبّٗا ٢٥ ثُمَّ شَقَقۡنَا ٱلۡأَرۡضَ شَقّٗا ٢٦ فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا حَبّٗا ٢٧ وَعِنَبٗا وَقَضۡبٗا ٢٨ وَزَيۡتُونٗا وَنَخۡلٗا ٢٩ وَحَدَآئِقَ غُلۡبٗا ٣٠ وَفَٰكِهَةٗ وَأَبّٗا ٣١ مَّتَٰعٗا لَّكُمۡ وَلِأَنۡعَٰمِكُمۡ ٣٢﴾ [عبس: 24 - 32]. والاقتصارُ على ذكرِ اختلافِ الأكلِ اقتصارٌ على التَّنبيهِ بالبعضِ على الكلِّ، إذِ التّفكُّرُ ينفسحُ بحسب الوُسْعِ والتَّحصيلِ والمَلَكَةِ والطَّاقةِ، وليس شيءٌ منه مُنضبِطًا بضوابطِ المصلحةِ والعلمِ مَنهيًّا عنه، بل كلُّه مَأمورٌ به، مُستحسَنٌ من فاعلِهِ، مُثابٌ عليهِ، فخُصَّ النّصُّ بالتّنبيهِ لِمَا يجتمعونَ عليه من ذلك بحظوظٍ مُتقاربةٍ، وتُرِكَ ذكرُ ما يتفاوتونَ فيه، أو يكونُ لبعضِهِم حظٌّ فيه، ولبعضٍ آخر حرمانٌ منه، وليسَ ما يجتمعونَ عليهِ منهُ إلَّا الأكلَ.

نُكتةُ التَّعبيرِ عنِ الأكلِ بالمصْدرِ:

واقتضبَ ذكرُهُ بالمصدرِ دونَ إطالةٍ بإيرادِهِ على زنةِ المفعولِ مراعاةً لمقتضى الحالِ؛ إذ إنَّ الاختلافَ بينها ليسَ من كلِّ وجهٍ، وإنَّما نبَّهَ على اختلافِ الأكلِ المُتضمِّنِ اختلافَ

الذَّائقَةِ دونَ اللَّونِ والرَّائحةِ لجملةِ معانٍ منها: أنَّ اللَّونَ والرَّائحةَ منَ المُشهِّيات الدَّاعيةِ إلى الأكلِ، فتَدخلُ تَبَعًا، ومنها: أنَّ في الأكل شغلًا ومَلهَاةً لقوَّةِ داعيةِ الجوعِ، واكتظاظِ البطنةِ، فنبَّهَ على ملاحظةِ الاختلافِ والتّنوُّعِ في المَطعومِ الَّذي جعلَ التَّقوى داعيتَه إلى تناولِ الطَّعامِ، لئلَّا ينصرفَ لبُّهُ بالكلِّيَّةِ عنِ الخالقِ، ومنها أنَّ البركةَ في طعامِهِ وتمامِ انتفاعِهِ به إنَّما يكونُ بذكرِ اسمِ اللّٰهِ عليه عندَ تناولِهِ كذكرِ اسمِ اللّٰهِ على بهيمةِ الأنعامِ عندَ ذكاتِها، وكلٌّ لازمٌ مُتعيِّنٌ على المُكلَّفِ لا يُغني بعضُهُ عن بعضٍ، ولأنَّ الأكلَ مَظِنَّةُ الإلهاءِ، ذكَّرَ بالاعتبارِ لمنْعِ الغفلةِ في أثنائه.

الاختلافُ بينَ الأكلِ ليسَ في كلِّ وجْهٍ

إيثارُ ذكْرِ الزَّيتونِ في الآيةِ الكريمةِ:

ومن لطائفِ كلماتِ الآيةِ كلمةُ الزَّيتونِ الَّذي يُؤكَلُ ثمرًا وزيتًا، فدلَّتِ الكلمةُ بأوَّلِها على زيتِهِ؛ إذ له الصَّدارةُ في الانتفاعِ والفوائدِ، وبجميعِها على ثمرِهِ وشجرِهِ كليهما في آنٍ واحدٍ.

الزَّيتونُ ثمرٌ ذو نَفْعٍ في كلِّ ما يَخرجُ عنه

سِرُّ الإعْمامِ دونَ التَّفصيلِ:

عُنِيَتِ الآيةُ بذكرِ الأسماءِ، كأمثلةٍ لغيرِ المعروشِ تاركةً تفصيلَ الأنواعِ في الجميعِ، فالنَّخلُ تتجاوزُ أنواعُهُ الآلافَ المؤلَّفةَ دونَ شكٍّ، ولكلِّ نوعٍ طعمٌ مميَّزٌ ولونٌ خاصٌّ وجِرمٌ وحجمٌ وسماتٌ بها يُرْغَبُ، ويُطْلَبُ، وفي كلِّ البقاعِ والأصقاعِ أصنافٌ خاصَّةٌ ببقعتِها ومنطقتِها ليسَت في بقعةٍ غيرِها، فكان إيجازَ اقتصارٍ واختصارٍ واكتفاءٍ وإشارةٍ؛ كلُّ ذلك معًا في نفسِ الأمرِ، وكلُّ ما ذُكِرَ اسمُه فهذا شأنُه سواء، فهو لونٌ من سماويَّةِ الوحيِ بل إلهيَّتِهِ، وأنَّه فوقَ طوقِ البشرِ.

الإعمامُ تنوُّعٌ فيه الرَّحمةُ، والتَّفضُّلُ، والقُدرةُ

إيثارُ ذكْرِ الرُّمَّانِ في هذه الآيةِ الكريمةِ:

الرُّمَّانُ من أعجبِ ما خلقَ اللّٰهُ، ومن أطيبِهِ وأعظمِهِ عائدةً، وأحسنِهِ فائدةً، وأجلِّهِ نعمةً، وأعملِهِ في البدنِ تصحيحًا له، وإقامةً وإبلالًا منَ الأمراضِ والأسقامِ والالتهاباتِ والإنتاناتِ، وللرُّمَّانِ

الابتداءُ بالمُستَحْسَنِ، والختمُ بالمُستَطابِ

ذِكرٌ مُعتَبرٌ في تجاربِ الحكماءِ العلاجيَّةِ قديمًا وحديثًا، وإفاداتٌ مَرمُوقةٌ في فوائدِ الأغذيةِ والنَّباتاتِ، وله منافعُ مَشهودةٌ في الطِّبِّ والحكمَةِ، كما أنَّه منَ الفواكهِ المقوِّيةِ لكلِّ قوى البدنِ والأعصابِ، وهو مُسامتٌ للنَّخلِ، وفي الآية حكمةٌ بالغةٌ لاحظَتْ مسامتَتَهُ النَّخلَ الواردة في سورة الرَّحمن، فإن يكن ثمرُ النَّخيلِ مُستحسَنًا أن يُبْدأَ به؛ فإنَّ الرُّمَّانَ مُستطَابٌ الختمُ به، وقد قالَ تعالى: ﴿فِيهِمَا فَٰكِهَةٞ وَنَخۡلٞ وَرُمَّانٞ ٦٨﴾ [الرّحمن: 68]، كما قالَ هنا: ﴿وَٱلنَّخۡلَ وَٱلزَّرۡعَ مُخۡتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهٗا وَغَيۡرَ مُتَشَٰبِهٖۚ﴾.

من دلالات التّشابُه وعدم الاشتباه:

التَّشابُهُ يكونُ في الوَرَقِ، والاختلافُ يكونُ في الثَّمَرِ

ومن دلالاتِ التَّشابهِ في قوله سبحانه ﴿مُتَشَٰبِهٗا﴾، وعدمِ الاشتباهِ في قوله سبحانه ﴿وَغَيۡرَ مُتَشَٰبِهٖۚ﴾ أنَّك إذا نظرْتَ إلى أشجارِ الزَّيتونِ والرُّمَّانِ مُجتمِعَين ألفيتَ تشاكُلًا واضحًا حتَّى تخالَهُما شجرةً واحدةً، فإذا نظرتَ في ثمرتيهما وطعومِهما؛ وجدتَ اختلافًا واضحًا بينَ الشَّكلِ والطَّعمِ؛ فهو مُتشابِهٌ في الورقِ والشَّكلِ، مُختلِفٌ في الطَّعمِ والمَذاقِ[1].

ومن دلالاتِ التَّشابُهِ في الرُّمَّانِ أنَّ شكلَهُ مُتشابِهٌ في المَنظرِ إلَّا أنَّه مُختلِفٌ في طعومِهِ، فبعضٌ منه حلوٌ، وبعضٌ حامضٌ[2]، ومن دلالاتِ التَّشابُهِ في الزَّيتونِ أنَّ أشجارَهُ مُتشابِهَةٌ في الشَّكلِ إلَّا أنَّ ثمارَهُ مُتباينَةٌ في اللَّونِ، فبعضُه بلونٍ أخضرَ، وبعضُه بلونٍ أسودَ.

فنفيُ التَّشابُهِ في الجميعِ يكونُ في اللَّونِ والطَّعمِ والفَسادِ وعَدَمِهِ والتَّفَكُّهِ والاقتياتِ والدُّهنِ والماءِ إلى غيرِ ذلك مِن أحوالٍ وكَيفيَّاتٍ لا يُحيطُ بها حَقَّ الإحاطةِ إلَّا بارئُها سبحانَه وعزَّ شأنُه[3].

(1) ابن جرير، جامع البيان: 11/578، والثّعلبيّ، الكشف والبيان: 12/163.
(2) السّمرقنديّ، بحر العلوم: 1/471، ومكّيّ القيسّي، الهداية إلى بلوغ النّهاية: 3/2119.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/290.

تَوجِيهُ صِيغةِ اسْمِ فاعلٍ في ﴿مُتَشَٰبِهًا﴾:

كلُّ شيءٍ خلقَهُ اللهُ تعالى بحِكْمةٍ مُدبَّرةٍ، وصَنْعةٍ مُقدَّرةٍ

الفاعليَّةُ (التَّشابهُ) وهو تفاعلٌ منَ الجانبين، والتَّثنيةُ غيرُ مرادةِ العددِ، فمهما قلَّبتَ النَّظرَ مُعدِّدًا وجوهَ المقارنةِ بينَ الشَّيءِ وبعضِه المماثلِ تبيَّنَتِ الاختلافاتُ المُنبِئةُ عن أنَّه مَخلوقٌ هكذا بحكمةٍ مُدبَّرةٍ، وعن إرادتِه التَّامَّةِ لكلِّ ما هو عليه وجميع ما جاءَ فيه، فإنَّه إبداعُ الخلَّاقِ العليم: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ١٨٩﴾ [آل عمران: 189]، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ مُّقۡتَدِرًا ٤٥﴾ [الكهف: 45] برغم أنَّ التَّشابهَ قائمٌ ومُلْبِسٌ، في خارجِ الثّمرةِ وداخلِها: ﴿صُنۡعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ أَتۡقَنَ كُلَّ شَيۡءٍۚ﴾ [النَّمل: 88]. ودلالتُهُ على التَّشابهِ قائمةٌ إلّا أنَّها ليسَت من كلِّ وجهٍ، بدليلِ قولِه تعالى بعدَ عاطفٍ بالواو ﴿وَغَيۡرَ مُتَشَٰبِهٍۚ﴾.

فائدةُ الواوِ العاطفةِ لفظَ الغيريَّةِ: ﴿وَغَيۡرَ مُتَشَٰبِهٍۚ﴾:

جَمَعَتِ الواوُ وجْهَيِ التَّبايُنِ والتَّغايُرِ

أفادتِ الواو العاطفةُ لفظَ الغيريَّةِ هنا التَّقسيم؛ إذ غيرُ المُتَشابِهِ ليسَ هو عَينَ المُتشابِهِ، وإنَّما هو وجهٌ آخرُ مُغايرٌ، فاجتمعَ الوجهانِ على الشَّيءِ الواحدِ، وافترقَا، فاختصَّ كلٌّ بجزءٍ من أجزائِه، وذلك كما هنا.

عِلَّةُ جمْعِ النَّخلِ والزَّرعِ والزَّيتونِ والرُّمانِ:

جمْعُ الألَحِّ حاجةً عندَ النَّاسِ طَعامًا وقُوتًا

جمعَ النَّخلَ والزَّرعَ؛ لأنَّ كلًّا منهما يُدَّخَرُ للاقتياتِ، ولا يُسرعُ فسادُهُ مع المُفارَقةِ في الشَّكلِ، والاختلافِ في النَّوعِ بالشَّجرِ والحجمِ، والتَّفاوتِ العظيمِ في المقدارِ.

وجمعَ الزَّيتونَ والرُّمانَ؛ لأنَّ الأوَّلَ لا يَفسُدُ بِوَجهٍ، والثّاني يُسْرِع فسادُهُ، ويُدَّخَرُ كلٌّ مِنهُما على غَيرِ الهَيئةِ الَّتي يُدَّخَرُ عليها الآخَرُ معَ كونِهما منَ الأشجارِ، وتَقارُبِهما في المِقدَارِ، وتَفاوُتِ ثمرتِهما في الشَّكلِ والقَدرِ وغيرِ ذلك[1].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/290 - 291.

تَوجِيهُ مُتشابِهِ آيتَيْ سورةِ الأنعام (141)، (99):

تقديمُ ما هو في الإطعامِ أدْخلُ، وتأخيرُ ما هو في الحَلْواءِ أمْثلُ

اقترنَ ذكرُ الزَّيتونِ والرُّمانِ في الآيتين: الأولى المُتقدِّمَة برقم[99] في السُّورة، والثَّانية الَّتي معنا هنا، وفي الآيتين جميعًا: ﴿وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلرُّمَّانَ﴾ بتقديمِ الزَّيتونِ على الرُّمانِ؛ لأنَّ الأوَّلَ كفاءٌ والثّاني هناءٌ، وللأوّلِ الإشباعُ، وللثّاني الإمتاعُ، فتقديمُ ما هو في الإطعامِ أدخلُ، وتأخيرُ ما هو في الحلواءِ أمثلُ.

ذِكْـــرُ لـفـظِ التَّشابُهِ في آيةِ الأكـلِ مَـظِـنَّـةُ وُقوعِ التَّخالُفِ

جاءَ التَّعقيبُ على الآيةِ الأولى بقولِه: ﴿مُشۡتَبِهٗا وَغَيۡرَ مُتَشَٰبِهٍۗ ٱنظُرُوٓاْ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثۡمَرَ وَيَنۡعِهِۦٓۚ﴾ [الأنعام: 99]، فذكرَ ﴿مُشۡتَبِهٗا﴾ عندَ الأمرِ بالنَّظرِ، وعدلَ عنه في الآيةِ الثَّانيةِ إلى ما يؤدِّي مثلَ مُؤدَّاهُ من لفظٍ آخرَ غيره، فقالَ: ﴿مُتَشَٰبِهٗا وَغَيۡرَ مُتَشَٰبِهٍۚ كُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثۡمَرَ وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوۡمَ حَصَادِهِۦۖ﴾؛ لئلَّا يذكرَ الأكلَ منَ المُشتَبهِ الَّذي جاءَ في الحديثِ الشَّريفِ أنَّ الورعَ تَوقيةٌ، وهو حديث: «الحَلالُ بَيِّنٌ والحَرَامُ بَيِّنٌ، وَبَينَهُمَا أُمُورٌ مُشتَبِهَاتٌ، لَا يَعلَمُهُنَّ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ، فمَنِ اتّقَى الشُّبُهاتِ فَقَدِ استَبرَأَ لِدِينِهِ وعِرضِهِ، ومَن وَقَعَ في الشُّبُهاتِ وَقَعَ في الحَرامِ، كالرَّاعِي يَرعَى حَولَ الحِمَى يُوشِكُ أَن يَقَعَ فِيهِ، أَلَا وإِنَّ لِكُلِّ مَلِكٍ حِمًى، أَلَا وإِنَّ حِمَى اللّهِ مَحَارِمُهُ»[1]، فَيُظَنُّ - أن لو ذَكَرَ ﴿مُشۡتَبِهٗا﴾ في آيةِ الأكلِ - وقوعُ التَّخالفِ بين الوحيينِ كلامِ اللّهِ، وكلامِ رسولِهِ، وذلك ما لا سبيلَ إليه أبدًا.

نقول هذا مع أنَّ التَّشابهَ المذكورَ في الآيتين، والاشتباهَ الَّذي في إحداهما، ويمكنُ أن يسري - تسامحًا واعتبارًا بمآلِ اللَّفظتين، وأنَّ جذرَهُما واحدٌ، ومادَّتَهما واحدةٌ - إلى الثَّانيةِ هو في الشَّكلِ والطَّعمِ وأشباهٍ راجعةٍ إلى أصلِ الخَلقِ، لا في الحِلِّ والحُرمةِ، ولكنَّه تنزيهٌ حذَّرَ فيه - احتراسًا - من إيجادِ أصلِ ما يُتَّخذُ شُبهَةً، ولو من غيرِ داعٍ ولا مُقتَضٍ، إلَّا أنَّ اللّهَ تعالى لكمالِ رحمانيَّتِهِ وحنانِهِ

(1) البخاريّ، الجامع الصحيح: 52 - 2051، ومسلم، الصّحيح: 1599. (متّفق عليه).

ورأفتِهِ وتقديرِهِ الضَّعفَ الَّذي خلقَ النَّوعَ الإنسانيَّ عليه، لم يَجعلْ وقوعَ أحدٍ مِن عبادِهِ فيما يُلبِسُ عليه دينَهُ بسبيلٍ منه تعالى؛ إذِ القرآنُ كلُّه كتابُ هدًى للنَّاسِ، وبيِّناتٍ منَ الهدى والفرقانِ، كما جاءَ في آيةِ الصّيامِ نصًّا: ﴿شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡفُرۡقَانِۚ﴾ [البقرة: 185].

وهذا عكسُ التَّرتيبِ في قولِهِ تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَيۡءٖ فَأَخۡرَجۡنَا مِنۡهُ خَضِرٗا نُّخۡرِجُ مِنۡهُ حَبّٗا مُّتَرَاكِبٗا وَمِنَ ٱلنَّخۡلِ مِن طَلۡعِهَا قِنۡوَانٞ دَانِيَةٞ وَجَنَّٰتٖ مِّنۡ أَعۡنَابٖ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشۡتَبِهٗا وَغَيۡرَ مُتَشَٰبِهٍۗ﴾ [الأنعام: 99]، فترتيبُ الأقواتِ في هذه الآيةِ على طريقِ التَّدلِّي منَ الأعلى في الاقتياتِ إلى الأدنى فالأدنى، والفرقُ بينهما أنّ الآية: (99) جاءَت في مقامِ سردِ الآياتِ الكونيَّةِ على وحدانيَّةِ اللّهِ وقدرتِهِ وحكمتِهِ ورحمتِهِ بعبادِهِ، وقبلَها آياتٌ في آياتِهِ في العالَمِ العلويِّ، وفي خلقِ الإنسانِ وهو دونَهُ، وعالَمُ النَّباتِ أدنى منهما، فرُوعِيَ التَّدلّي في أنواعِهِ، كما رُوعِيَ فيما بينَهُ وبينَ ما قبلَهُ، والمقامُ في هذه الآيةِ مقامُ ذكرِ الأقواتِ؛ لبيانِ شرعِ مُنشئِهَا في إباحتِهَا، في مقابلةِ ضلالِ المُشركينَ فيما ذكرَ قبلَها منَ التَّحليلِ والتَّحريمِ بأهواءِ الشِّركِ، وهو قولُهُ: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلۡحَرۡثِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ نَصِيبٗا﴾ الآية، فقدَّمَ هنالك الحرثَ على الأنعامِ؛ لأنَّ ضلالَهُم فيه أقلُّ من ضلالِهِم فيها، وجرى هنا على هذا التّرتيبِ، فذكرَ الحرثَ أوّلًا لِمَا ذُكِرَ، وتَرَقَّى إلى ذكرِ الأنعامِ لكثرةِ ضلالِهِم فيها، وما يحتاجُ إليه من تفصيلِ القولِ الحقِّ في ذلك، وهو انتقالٌ منَ المُهمِّ إلى الأهمِّ في المعنى المرادِ، وتأخيرٌ لِمَا اقتضَتِ الحالُ إطالةَ القولِ فيه على الأصلِ، فحَسُنَ التَّرقِّي في ذكرِ أنواعِ الأقواتِ النَّباتيَّةِ تفصيلًا، كما حَسُنَ فيما بينَها بجملتِها وبينَ الأقواتِ الحيوانيَّةِ، ولِمَا ذكَرنا مِن اختلافِ المقامِ في الآيتينِ؛ قالَ في آية: ﴿ٱنظُرُوٓاْ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ﴾ [الأنعام: 99] وقالَ هنا: ﴿كُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦٓ﴾[1].

وَجْهُ مَجيءِ فعْلِ الأمْرِ ﴿كُلُواْ﴾، على الفصْلِ من غيرِ رابطٍ بالفاء:

من وجوهٍ: أوَّلُها: كونُ الأكلِ أمرًا فطريًّا تدعو إليه الحاجةُ والمَسغَبَةُ والذَّائقةُ، وثانيها: كونُهم كانوا يتحكَّمونَ بالتَّحريمِ والتَّحليلِ بالأهواءِ اعتمالًا بأزِّ الشَّياطينِ وزمزماتِ أهلِ الكهنوتِ والعرَّافينَ وسدنةِ الأوثانِ والأصنامِ والمُستقسِمينَ بالأزلامِ على نحو ما أفصحتِ

(1) رضا، تفسير المنار: 8/117.

الأكلُ أمرٌ فِطْريٌّ تُوجبُهُ الحاجةُ والمَسْغَبَةُ والذَّائِقةُ

الآياتُ، ومنها: قولُه تعالى: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُواْ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا﴾ [الأنعام: 136] وقولُه سبحانَه: ﴿وَقَالُواْ هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ﴾ الآية، فجاءَ الأمرُ الإلهيُّ العامُّ المرفوعُ يتجاوزُ التَّحريمَ المرقوعَ الَّذي اخترعَهُ الطَّواغيتُ لهم لئلَّا يدخلَ الأكلُ في شيءٍ ممَّا مضَوا عليه في سننِهم الجائرةِ ومَسلكِهم الضَّال.

وثالثها: ليرشدَهُم إلى أوانٍ يطيبُ الأكلُ منه بقرينةِ الظَّرفِ المذكورِ شرطًا لوقتِ ابتداءِ إباحةِ التَّناولِ، فإنَّ الأكلَ قبلَ بُدُوِّ صلاحِ الثَّمرةِ لا يُساغُ، فيلفظُ، فيكونُ تفويتًا على النَّفسِ والآخرين، ويكونُ أشبهَ بإتلافِ المالِ في غيرِ وجهِ مَصلَحةٍ ومَنفعَةٍ، فلذا قالَ: كلُوا من ثمرِهِ إذا أثمرَ بهذه الظَّرفيَّةِ لحدوثِ الفعلِ المعلومِ ببدائِهِ العقول، وإنَّما احتاجُوا إلى أن ينصَّ لهم عليه لمّا أنَّهم حادوا عنِ الفطرةِ، وتنكَّبوا موجباتِها، وما تدلُّ عليه، فانتكسَت فطرتُهم، وارتكسَت إنسانيَّتُهم، وتوحَّشَت آدميَّتُهم حتّى قتلوا أولادَهم سفهًا، وحرَّمُوا طِعمَتَهُم على أزواجِهم عمهًا، فأرادَ اللّهُ أن يردَّهُم إلى ما أودعَ فيهم، فنبَّهَ بمثلِ هذا البيانِ الرَّحيمِ الكريمِ الشّريفِ اللّطيفِ.

ورابعها: لـمَّا كانَ المَوضِعُ "في مَعرِضِ الامتنانِ وإظهارِ الإحسانِ بما خلقَ لنا قالَ: ﴿كُلُواْ﴾، ودلَّ على أنَّ الرّزقَ أكثرُ من خلقِهِ"[1].

تَوجِيهُ القراءاتِ في قوله: ﴿ثَمَرِهِۦٓ﴾:

معنى قراءةِ الضَّمِّ يُفيدُ التَّكثيرَ الدَّالَّ على إنعامِ النَّظَرِ

في قولِهِ تعالى: ﴿ثَمَرِهِۦٓ﴾ قرأَ حمزةُ والكسائيُّ وخلف (ثُمُرِهِ) بضمَّتين، والجمهورُ على الفتحِ[2]، وقراءةُ الجمهورِ على أنَّ (ثَمَر) اسمُ جنسٍ جَمعِيٌّ يقعُ على القليلِ والكثيرِ، أمَّا على قراءةِ حمزةَ

(1) البقاعيّ، نظم الدَّرر: 7/291.
(2) ابن الجزريّ، النّشر: 2/260.

والكسائيِّ فهو جمعُ (ثَمَرَة) أو جمعُ (ثِمار)[1]، وهذ الجمعُ دالٌّ على الكثرةِ، وجعلَهُ آخرون على أنَّه من بابِ جمعِ الجمعِ (ثَمَرَة - ثِمار - ثُمُر)[2]، وفي الكلِّ هو دالٌّ على الكثرةِ ليناسبَ سعةَ العطاءِ الممثَّلِ بلفظِ الجنَّاتِ، والمعروشاتِ، وغيرِ المعروشاتِ، وتعدُّدِ صنوفِ الأقواتِ، ووصفِها بالمُختلِفةِ، والأمرِ بالأكل.

بَلاغةُ الجِناسِ في لفظَيْ (الثّمر):

دفعُ تَوَهُّمِ إرادةِ معنًى مُغايِرٍ، والتَّنبيهُ على عظيمِ القُدرةِ

جاءَ بجناسِ الاشتقاقِ في قولِهِ: ﴿مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثۡمَرَ﴾؛ لأنَّ شيئًا غيره لا يقومُ مقامَهُ، ولا يؤدِّي مؤدَّاه فيما لو قالَ: (من نتاجِهِ) مثلًا، فقد يُظنُّ أنَّه الثَّمنُ المُتحصَّلُ مِن بيعِهِ، وليس ذلك بالمقصودِ، وفي قولِهِ: ﴿مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثۡمَرَ﴾ التَّنبيهُ على عظيمِ القدرةِ، والاتِّصافِ بالوحدانيَّةِ، والصّمدانيَّةِ، وإظهارُ أنَّه مَحضُ رزقٍ منَ اللّه، لا يَدَ لهم فيه، فلا حقَّ لهم في تحريمِهِ بالأهواءِ، ولإظهارِ رحمتِهِ ونعمتِهِ وحسنِ تدبيرِهِ، وكمالِ تقديرِهِ، وللحُكمِ له بالاستطابةِ، فإنَّه لا يُحِلُّ إلَّا الطَّيِّبَ، ولا يأمرُ بالفحشاءِ.

دَلالةُ الأمرِ في قولِهِ: ﴿كُلُواْ﴾:

الأمـرُ للنَّدبِ، والاستِحبابِ، أوِ الإلزامِ والإيجابِ

وأعاضَهم عن تحريمِ ما كانوا يُحرِّمُون بأمرِهِم أمرَ نَدْبٍ واستحبابٍ أو إلزامٍ وإيجابٍ إلى التَّصدُّقِ منهُ بعدَ ما أَذِنَ لهم أن يأكلوا من غيرِ تحريجٍ عليهم فيهِ؛ ما لم ينووا بالأكلِ الاقتطاعَ والمضارَّةَ بالمُتَصَدَّقِ عليهم، ولم يُحدِّدْ لهم مقاديرَ، ولا كلَّفَهُم بحسبانٍ، ولكن عزمَ عليهم فيه لذوي القُربى والجيرانِ وأبناءِ السَّبيلِ والسَّائلينَ، كلِّ مَن يبدو لهم عوزُه، أو يكون ناميًا إليهم علمهم بحالِهِ واستحقاقِهِ؛ فسمَّاه حقًّا، وعيَّنَ وقتَهُ بقولِهِ: ﴿يَوۡمَ حَصَادِهِۦ﴾.

(1) ابن الجزريّ، النّشر: 2/226.

(2) ابن زنجلة، حجّة القراءات، ص: 264، والواحديّ، البسيط: 8/323.

بيانُ التَّشابُهِ بينَ الفعلَيْن: ﴿كُلُواْ﴾، و﴿ٱنظُرُوٓاْ﴾:

فعلُ النَّظَرِ يُناسبُ سياقَ الاعتبارِ، وفعلُ الأكلِ يُناسبُ سِياقَ الطُّعْمَةِ

في قولِهِ تعالى: ﴿ٱنظُرُوٓاْ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ﴾ [الأنعام: 99] أوردَ الفعلَ ﴿ٱنظُرُوٓاْ﴾، فيما قالَ هنا: ﴿كُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثۡمَرَ﴾ [الأنعام: 141]؛ لأنَّ سياقَ الآيةِ الأولى سياقُ نظرٍ واعتبارٍ وتبصُّرٍ وتنبيهٍ على ما نصبَ الحقُّ ﷻ منَ الآياتِ والدّلائلِ على وحدانيّتِهِ[1]، أمَّا سياقُ هذه الآيةِ فمبنيٌّ على تعدادِ النِّعم بذكرِ أحكامِ المأكولاتِ، فقد تقدَّمَها قولُهُ تعالى: ﴿أَنۡعَٰمٌ وَحَرۡثٌ حِجۡرٞ لَّا يَطۡعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ﴾ [الأنعام: 138]، وجاءَ بعدَها قولُهُ تعالى: ﴿كُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾ [الأنعام: 142]، وهما مَبنيَّان على سياقِ الأكلِ، فكانَ مُناسبًا أن يُعبِّرَ بفعلِ الأكلِ، فجاءَ كلُّ فعلٍ على ما يناسبُهُ ويوائمُهُ.

تَوجيهُ القراءةِ في ﴿يَوۡمَ حَصَادِهِۦ﴾ ومَجيءِ اللّفظِ مُضافًا:

في أمرِ زكاةِ الزُّروعِ سَعةٌ، لِحينِ تُستخرَجُ الحبوبُ صَالحةً للتَّداوُلِ

وقد قُرِئَ بلُغَتَيهِ كلتيهما، الأولى: المنبِّئةِ عنِ ابتدائِهِ، وهي بفتحِ الحاءِ: لأبي عمرو ويعقوبَ وابنِ عامر وعاصم، والثّانية: المنبِّئةُ عنِ انتهائِهِ وخُلوصِهِ وإمكانِ الأكلِ منه، وهي بكسرِ الحاءِ لسائرِهِم بعدُ: لنافعٍ وأبي جعفر وابنِ كثيرٍ وحمزةَ والكسائيِّ وخلف[2]، والقراءتان تدلَّان بنفسيهما أوَّلًا، وبالإضافةِ ثانيًا أنَّ مضافَهما - وهو يومُهما المضافتان إليه - يعني: منِ ابتداءِ العملِ إلى انتهائِهِ مهما استغرقَ مِن أيَّامٍ شمسيَّةٍ ومُدَدٍ زمنيَّةٍ، وأنَّه غيرُ معدودٍ بساعاتِ النَّهارِ الَّتي تكونُ بمجموعِها يومًا زمنيًّا بنهارِهِ وليلِهِ، بل الأمرُ على الاتِّساعِ لحينِ تُستخرَجُ الحبوبُ صالحةً للتّداولِ، مُعدَّةً ليُسلكَ بها سبيلُ التَّناولِ.

وقد أجادَ ابنُ عاشورٍ رحمَهُ اللّهُ في بيانِ أنَّ الأمرَ على الوجوبِ، وأنَّ تشريعَ الزَّكاةِ ابتدأَ بمكَّةَ لكفالةِ الضَّعفةِ وحدثاءِ العهدِ بالإسلامِ منَ المُستضعَفينَ والفقراءِ، وأنَّ المقاديرَ لم تُبَيَّنْ بعدُ إلَّا في المدينةِ،

(1) ابن الزّبير، ملاك التّأويل: 1/166.

(2) ابن الجزريّ، النّشر: 2/266.

وذلك كلامٌ حَسَنٌ لو عَضَّدَتهُ آثارُ غيرِ مَحَلِّ النِّزاعِ، فإنَّ القائلينَ بفرضيةِ الزَّكاةِ بالمدينةِ هم الفقهاءُ كافَّةً.

ولذلك يبقى الأمرُ مُتَّسِعًا، وتُحمَلُ الآيةُ على النَّدبِ بعدَ فرضيَّةِ الزَّكاةِ، وإن كانَت منذ نزلَت قبلَ فرضيَّتِها عزمةً، فالمفسِّرُ اليومَ في حلٍّ مِن تفسيرِها بما كانَت عليه يومَ كانت عزمةً وإيجابًا ليفسِّرَها على ما بقي الحكمُ عليه، واستقرَّ وبمفادِ الآيةِ بعدَ فرضيةِ الزَّكاةِ وإلى آخرِ الزَّمانِ.

دَلالةُ النَّهْيِ عنِ الإسرافِ:

الاعتدالُ والتَّوسُّطُ مَقصدُ الشَّارعِ، ومَطلبُه المُستدْعِي المحامِدَ

نهى اللهُ عبادَهُ عنِ السَّرفِ نهيًا مُباشرًا صريحًا يُشعرُ بأنَّ له الملكَ والملكوتَ والعزَّةَ والجبروتَ والكبرياءَ والعظمةَ، وبأنَّ له الألوهيَّةَ والرُّبوبيَّةَ، وكمالَ الأسماءِ والصِّفاتِ، وحُسناها وعُلَاها، ﴿وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ٢٦﴾ [الرُّوم: 26]، فهذا الأمرُ الكريمُ بضدِّ ما دلَّ النَّهيُ عليه، أَمْرٌ بالاعتدالِ والتَّوسُّطِ والقصدِ، ولا يُفهَمُ منه عكسُ مرادِ الشَّارعِ أنَّ النَّهيَ عن أحدِ الطَّرفين مُقتَضٍ الانحيازَ للآخرِ، والطَّرفان هما الإسرافُ والإقتارُ، والوسطُ بينهما هو السَّخاءُ المحمودُ والجودُ، ولاسيَّما أنَّ للشَّارعِ توضيحًا في مَظانِّه لهذا المَسلَكِ الأخلاقيِّ يُنبِئُ عن اختيارِ الشَّارعِ فيه، وذلك قولُهُ جلَّ وعزَّ سبحانَه وبحمدِهِ: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمۡ يُسۡرِفُواْ وَلَمۡ يَقۡتُرُواْ وَكَانَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ قَوَامٗا ٦٧﴾ [الفرقان: 67]، وقولُهُ ﷻ وتقدَّسَت أسماؤُه: ﴿وَلَا تَجۡعَلۡ يَدَكَ مَغۡلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبۡسُطۡهَا كُلَّ ٱلۡبَسۡطِ فَتَقۡعُدَ مَلُومٗا مَّحۡسُورًا ٢٩﴾ [الإسراء: 29].

وقد عجَّلَ الإخبارَ بقطعِ المعذرةِ لتجنُّبِ العملِ بالهوى، وإذًا فالنَّهيُ عنِ الإسرافِ هنا مُلتَفَتٌ فيه إلى تنبيههم بقطعِ ذرائعِهم، كيلا يُقالَ: قصدتُ الخيرَ بمزيدِ العطاءِ حتَّى أجحف بالمال، أو يُقال: لم أقصدْ فوقعَ دونَ قصدٍ، فتضمَّنَ نهيُهم عنه تعجيلَ الإخبارِ بقطعِ

المعذرةِ ليكونوا على بصيرةٍ، فإنَّ عملَ المرءِ بما يعلمُ أنَّه خطأٌ هوًى، والهوى آفةُ العفافِ، وإنّ تركَهُ العملَ بما يعلمُ أنَّه صوابٌ تهاونٌ، والتَّهاونُ آفةُ الدِّين، وإنّ إقدامَهُ على ما لا يدري: أصوابٌ هو أم خطأٌ جماحٌ؟ والجماحُ آفةُ العقلِ، وكلُّ ذلك مُعرَّفٌ مُقترنٌ بالخيبةِ، حيث لا ينفعُ النَّدمُ، ولاتَ ساعةَ مَندَمٍ.

بَلاغةُ التَّوكيدِ في جُملةِ الفاصلةِ:

في التَّوكيدِ حافزٌ عنِ الانتهاءِ عمَّا نهَى اللهُ تعالى عنه

ذكرتِ الآيةُ الحافزَ الأكبرَ على الارعواءِ عنِ المنهيِّ عنه، وامتثالِ النَّهي، فجاءَت بـ (إنَّ) التَّوكيديَّةِ للزومِها تتميمًا للمقام هنا؛ لأنَّها سدَّت مَسَدَّ التَّعليلِ؛ أمَّا التَّعليلُ فلأنَّ اللهَ أباحَ لهم الأكلَ قبلُ من ثمرِهِ إذا أثمرَ، وبإيتاءِ حقِّهِ يومَ حصادِهِ إذْ ظفرَ به، ونهاهُم عن مجاوزةِ الحدِّ، والتَّعدِّي فيه بالإسرافِ؛ إذ لا يُعْذَرُ؛ فإنِ امتثلَ ذلكم المُنعَم عليه بالجنَّاتِ المعروشاتِ فيما أنارتِ الآيةُ بصيرتَه ليجعلَ لها أعمدةً وسقفًا يتدلَّى فيه عناقيدها تجويدًا لنتاجِها وبهجةً لناظرِها، وبغيرِ المعروشاتِ، فَإِلَامَ يتطلَّعُ مثله، وقد جاءَتهُ الدُّنيا طائعةً، فامتثلَ أمرَ اللهِ فيها، وأنفقَ منها، وهل ثمَّ مُحفِّزٌ أعلى من أن يكونَ محبوبًا للّه تعالى؟ اللَّهمَّ لا.

دَلالةُ الضَّميرِ في ﴿إِنَّهُۥ﴾ منَ الآيةِ الكريمةِ:

مَرجِعُ الأَعمالِ إلى اللهِ باعثٌ على الإخلاص

فمن ثَمَّ جاءَ التَّعليلُ: ﴿إِنَّهُۥ﴾ هكذا بالضَّميرِ الرَّاجعِ إلى اللّه تعالى، حيثُ كانَ العملُ لأجلِهِ سبحانَهُ خالصًا، وكان ذلك مَطويَّ فؤادِهِ، وخبيئةَ صدرِهِ، فكُوفِئَ بالظَّفرِ ببغيتِهِ من محبَّةِ اللهِ له.

بَلاغةُ العُدولِ عنِ الاسمِ الظَّاهرِ إلى الضَّميرِ:

عدلَ إلى المُضمَرِ في ﴿إِنَّهُۥ﴾؛ لئلَّا يَستغرقَ العاملُ المُخاطَبُ النَّظرَ إلى الجلالِ في الاسمِ، فإنَّه الغالبُ على النَّاظرِ والمُتأمِّلِ، والعاملُ استغراقًا يُفوِّتُ عليه حظوظَ طمأنينتِهِ، وراحةَ ضميرِهِ بالنَّظرِ إلى ما فيه منَ الجمالِ، وأنَّ رحمتَهُ تَغلِبُ غضبَهُ، وأنَّه لا أحدَ أحبُّ إليه

العذرُ منه جلَّ شأنُه، فمن ذلك أرسلَ الرُّسلَ، وأنزلَ الكُتبَ، أو يتجاوزُ به ما ينبغي مِن ملاحظةِ الكمالِ في الاسمِ الأعظمِ، الَّذي يقتضي متابعةَ التَّرقِّي فوقَ ما كان قَسَمَ له بالنَّظرِ إلى الجلالِ من خوفِ مقامِ ربِّهِ ومقاومةِ التَّدنّي.

رحمةُ اللهِ سبقَتْ غضبَهُ، ولا أحدَ أحبُّ إليه العُذرُ منه جلَّ شأنُه

دَلالةُ جُملةِ الفاصلةِ المنفيَّةِ:

ولأنَّ المقصودَ الأعظمَ التَّركيزُ على سرِّ النَّهي عنِ الإسرافِ، وإن كان في تحقيقِ أعلى ما تبلغُهُ الهمَّةُ منَ الامتثالِ لإيتاءِ الحقِّ، وتداعي المُستحقِّينَ وتناديهم ممَّا قد يفوِّتُ على المتصدِّقِ النَّظرَ إلى حقِّ نفسِهِ ومَن يعولُ، وهو الأمرُ الَّذي يلقيه في مهاوي الحاجةِ تلك الَّتي أضلَّتْهُم ظلماتُها، وأطبقَت عليهم غواشيها حتَّى قتلوا أولادَهُم، وظلموا أنفسَهُم، وانتهى بهم الأمرُ إلى الخسرانِ العظيمِ.

في التَّعبيرِ بالنَّفْيِ تحقيقٌ لأعلَى ما تَبلغُهُ الهمَّةُ مِنَ الامْتِثالِ

وسرُّ النَّهي عنِ الإسرافِ هو في خبر (إنَّ) الآتي بعدَ جملةٍ فعليَّةٍ مَنفيَّةٍ بِـ (لا) في قولِ المولى سبحانَه: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ﴾.

سِرُّ إيثارِ النَّفْيِ على الإثباتِ في جُملةِ الخبرِ:

آثرَ النَّفيَ على الإثباتِ، ولم يقُل: (إنَّه يحبُّ المُقتصِدينَ) أو (المُعتدِلين) أو (المُستجيبين) إلى غيرِ ذلك مِن مثلِه، لمَا تقدَّمَ، إذِ المُتقدِّمُ نهيٌ، والمخالفةُ في النَّهي تتحقَّقُ بتجاوزِهِ دونَ امتثالٍ، فكانَ الإخبارُ بأنَّ جزاءَهُ الحَجبُ والحرمانُ، أوقعَ وأسمعَ، وأوفقَ وأليقَ، فلذا قالَ: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ﴾، وكان ذلك أبلغَ في الإيلامِ والتَّنديمِ؛ لمَا يفيدُهُ أنَّ حبَّ اللهِ ديمومٌ مُتجدِّدٌ يحدثُ كلَّ آنٍ لمَنِ استحقَّ محَبَّةَ اللهِ، وأتى بما جَعَلَهُ اللهُ سببًا لنوالِهَا، فكانَ قولُهُ تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ﴾ لاشكَّ أبلغَ.

مُنتهَى الخُسرانِ حِرمانُ حُبِّ اللهِ سُبحانَهُ

عِلَّةُ جمْعِ ﴿ٱلۡمُسۡرِفِينَ﴾ في الآيةِ الكريمةِ:

وفي جمعِ المُسرفينَ جمعُ السَّلامةِ لمذكَّرٍ قدحٌ زائدٌ فيهم، ونيْلٌ بليغٌ منهم، وكأنَّ الآيةَ تقولُ لهم: ما أغنى عنكم جمعُكُم، فأين كانَت

الجمْعُ الَّذي لا نفعَ فيه مَذمومٌ

قلوبُكُم أو ذهبَت عقولُكُم ؟ وقد اشتدَّت بكم غفلتُكُم، وتناهى بكُم تعدِّيكُم ومجاوزتُكُمُ الحدَّ، حتّى فوَّتَت عليكُم أعظمَ مَأمولٍ وأكرمَ مَسؤولٍ هي محبَّة اللّه تعالى، وياله مِن فواتٍ!

وَجْهُ التَّعبيرِ باسْمِ الفاعلِ ﴿ٱلْمُسْرِفِينَ﴾:

مِن رحمةِ اللهِ بعبادِهِ تخصيصُ الحُكْمِ، بمَن داوَمَ على اقْترافِ الذَّنْبِ

إنَّ ذكرَ اسمَ الفاعلِ ﴿ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ هنا فيه إلماحٌ إلى العدلِ الإلهيِّ والرَّحمةِ التّامَّةِ منَ اللّهِ لعبادِهِ، ذلك أنَّ تعليقَ الحُكمِ على مُشتقٍّ، كما يُشعِرُ أنَّ العلَّةَ تكمنُ فيما منه الاشتقاقُ، وذلكم الإسرافُ، فإنَّ الصّيغةَ الدَّالَّةَ عليه المعبِّرةَ عنه فيها اختصاصُ الحُكمِ بمَن داومَ على اقترافِ ذنبِهِ حتّى ملاقاةِ ربِّهِ، وتلكم المداومةُ الَّتي لا توبةَ معها من حوبةٍ، ولا أوبَ بعدَها من عيبٍ، هي المُدخِلةُ صاحبَها في أهلِ النُّذُرِ، فضلًا عن دلالةِ الاستقبالِ الَّتي يتمحَّضُ لها اسمُ الفاعلِ.

دَلالةُ لامِ التَّعريفِ في لفْظةِ ﴿ٱلْمُسْرِفِينَ﴾:

من كَمُلَ إسرافُهُ أهلٌ للبُغْضِ والبُعْدِ منَ اللهِ جلَّ في عُلاه

إنَّ دلالةَ لامِ التَّعريفِ الجنسيَّةِ في كلمةِ ﴿ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ تلقي بظلالِهَا على معنى الكمالِ والاستغراقِ في الوصفِ، فمَن كَمُلَ إسرافُهُ، فأحاطَ به من كلِّ وجهٍ، فليسَ هو في شيءٍ إلَّا المُسرِفُ، وماتَ على ذلك لم يُراجعْ، ولم يَرجعْ؛ فذلكم المُشرِكُ الَّذي لا حظَّ له في محبَّةِ اللّهِ، وهو أهلُ عداوتِهِ وبغضائِهِ، وكلَّما انحسرَ هذا الإسرافُ كان حظُّهُ بحسب ما تحَقَّقَ له، أو انحسرَ عنه.

بَلاغةُ الجِناسِ الاشتقاقِيِّ، في الآيةِ الكريمةِ:

الاقتِصارُ على المادَّةِ نفْسِها أوسعُ في دائرةِ البلاغِ

في قولِهِ: ﴿وَلَا تُسْرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ جناسٌ اشتقاقيٌّ، ومن حسنِهِ وعلوِّ قدرِهِ وارتفاعِ قيمتِهِ في الإقناعِ أن عيَّنَ المنهيَّ عنه بكلمةٍ، ثمَّ لم يجاوزْهُ إلى غيرِهِ في بيانِها؛ لئلَّا يدخلَ العقلُ واسطةً في ربطِ الكلامِ، وذلك مُستملَحٌ فيما وردَ فيه لنُكتةٍ تُفصَّلُ في محلِّها، وما لم يَردْ فيه، فيُوقَفُ عندَهُ؛ لأنَّ الاقتصارَ على المادَّةِ نفسِها أوسعُ في دائرةِ البلاغِ؛ لأنَّه للعامَّةِ كما هو للخاصَّةِ، وأبعدُ عن

التَّأويلِ الَّذي قد يُختلَفُ عليه، وأَوقَفُ بالمُخاطَبِ عندَ النَّصِّ، فلا يتجاوزُهُ إلى لوازمِهِ.

بَلاغةُ رَدِّ العَجُزِ على الصَّدْرِ، في الآيةِ الكريمةِ:

إتمامُ الحُجَّةِ بالاستيعابِ، وقطعُ العُذْرِ بالإحاطةِ، مُنتهَى البيَانِ

في الفاصلةِ ردُّ العَجُزِ على آخرِ ما انتهى إليه الكلامُ في الصَّدرِ، فردَّ قولَه: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ على قولِهِ سبحانَه: ﴿وَلَا تُسْرِفُوٓاْ﴾؛ ليكونَ أتمَّ للحجَّةِ، وأقطعَ للمعذرةِ، وأسرعَ في الإنهاءِ بالحكمِ المُنتهَى إليه دونَ تطلُّعٍ إلى مزيدِ بيانٍ، ولاسيَّما مع غايةِ الفصاحةِ وقوَّةِ الدّلالةِ وعظمِ الاستيعابِ وإحاطةِ الخطابِ بموضوعِهِ دونَ أن ينشبَ عليه خصامٌ، وهل وراءَ ذلك من إحكامٍ أو مُلْتَمَسٍ من مَرَامٍ؟

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

﴿وَلَا تُسْرِفُوٓاْ﴾ و﴿وَلَا تُبَذِّرْ﴾:

التَّبذيرُ مُختَصٌّ بالمالِ، والإسرافُ عامٌّ في كلِّ ما يَتصرّفُ فيه الإنسانُ

سرُّ العدولِ عندَ جعلِ النَّهْيِ مُتَوَجِّهًا إلى التَّبذيرِ عوضًا عنِ الإسرافِ الَّذي جاءَ النَّهْيُ عنه مع حقيقةِ أنَّ كلًّا منهما مَذمومٌ طبْعًا وشرْعًا. وتكونُ مفارقةُ الإسرافِ للتَّبذيرِ في أمرين: أوَّلهما: أنَّ التَّبذيرَ له اختصاصٌ بالمالِ، أمَّا الإسرافُ فلا اختصاصَ له به، بل يكون في كلِّ شيءٍ، ومن ذلك القتلُ، وقضاءُ الشَّهوةِ، والكفرُ باللهِ، والإخلالُ بأيِّ حقٍّ في مُعتقَدٍ، أو عبارةٍ أو سلوكٍ أو خُلقٍ؛ إذ كلُّ مجاوزةٍ حدَّ الاعتدالِ مُدخِلَةٌ صاحبَها في حدِّ الإسرافِ.

والثَّاني: منها: أنَّ التَّبذيرَ لا يلزمُ أن يكونَ مُتعلِّقًا بآخرينَ، في حين أنَّ الإسرافَ لا بدَّ له من مُتعلَّقٍ، ولذا كانَ التَّبذيرُ نَثْرَ الشَّيءِ وتفريقَهُ، على حين كانَ الإسرافُ تعدِّيَ الحدِّ، والإغفالَ أيضًا للشَّيءِ.

﴿وَمِنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ حَمُولَةٗ وَفَرۡشٗاۚ كُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ١٤٢﴾ [سورة الأنعام: 142]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الشُّروعُ في ذكْرِ نَوْعَي الأنعامِ، بعد ذكْرِ أنواعِ الجنّاتِ

لـمَّا كانَ السِّياقُ لِلمَآكِلِ منَ الحَرثِ والأنعامِ من حَلالٍ وحَرام، وفَرَغَ من تقريرِ أمرِ الحَرثِ الَّذي قُدِّمَ في الجملةِ الأولى؛ لأنَّه مادَّةُ الحَيَوانِ، قالَ: ﴿وَمِنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ حَمُولَةٗ وَفَرۡشٗاۚ﴾ الآية[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿حَمُولَةٗ﴾: الحَمُولَةُ مَا أَطاقَ العَمَلَ والحَمْلَ؛ أي: ما استحقَّ أنْ تُحمَلَ عليه الأحمالُ، والأثقالُ من صغارِ الإبلِ، وغيرها، فالحَمُولَةُ عليه كالرَّكُوبةِ لِمَا يُركَبُ عليه، وتُطلَقُ الحَمُولَةُ على الإبلِ بأَثقَالِهَا[2]، هي ما حُمِلَ منَ الأنعامِ؛ لأنَّ ذلك من صفتِها إذا حمَلَت، لا أنَّه اسمٌ لها، كالإبلِ والخيلِ والبغالِ[3].

2) ﴿وَفَرۡشٗاۚ﴾: الفَرْشُ الصِّغارُ منَ الإبلِ[4]، أو هو منَ النَّعَمِ ما لا يَصلُحُ إلَّا للذَّبحِ[5]، أو هو: ما يُفْرَشُ منَ الأنعامِ؛ أي: يُركَبُ[6]، والفرشُ في الآيةِ صغارُ الإبلِ، أو الغنمِ، أو ما تأكلونَ، وتحلبونَ شاةً لا تَحملُ، تأكلونَ لحمَها، وتتَّخذون من أصوافِها لحافًا وفَرشًا[7]، والمعنى الأخير رجَّحَه ابنُ كثير[8].

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 7/293.
(2) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (حمل).
(3) ابن جرير، جامع البيان: 12/181.
(4) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (فرش).
(5) ابن منظور، لسان العرب: (فرش).
(6) الرّاغب، المفردات: (فرش).
(7) ابن جرير، جامع البيان: 12/179.
(8) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 3/350.

3) ﴿خُطُوَٰتِ﴾: الخطوةُ هِيَ المسَافَة بَين القَدَمَين في المَشي[1]، وهي - بالضّمِّ: ما بينَ القدمَين، وبالفَتح: الفِعْل، والمَرَّة: خَطَا خَطْوًا - بالفتح - واختَطَى: مَشى[2]، وخطواتُ الشَّيطانِ سبيلُهُ، ومسلكُهُ، وأثرُهُ، والائتمامُ به، وطاعتُهُ فيما يزيِّنُ من تحريمِ حلالٍ واستحلالِ حرامٍ في الشَّرع[3].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

أَي: وأَنشأَ مِنَ الأَنعَامِ كُلَّ مَا يُحمَلُ علَيهَا منَ الإبل، والصِّغارِ مِنَ الإبِلِ، أو ما تأكلونَ، وتحلبونَ شاةً لا تحملُ، تأكلونَ لحمَها، وتتَّخذون من أصوافِها لحافًا وفَرشًا، فكلُوا ممَّا أحلَّ اللّٰهُ لكُم منها، ولا تحرِّمُوها كما في الجاهليَّة؛ فلَا تَسلُكُوا طَرِيقَ الشّيطان وآثَارَهُ في تَحرِيمِ الحَرثِ والأَنعَامِ؛ إِنَّهُ لَكُم عَدُوٌّ مُبِينٌ[4].

إباحةُ ما أحلَّهُ اللهُ من الأنعامِ؛ لتأكلُوا من رزقِ الله، وتحذرُوا خُطواتِ الشّيطانِ

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دَلالةُ (الواوِ) العاطفةِ في مَطلَعِ الآيةِ:

قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ حَمُولَةٗ وَفَرۡشٗاۚ﴾، استوفى العطفُ مقاصدَ القرآنِ مِنَ البلاغِ؛ فلا يُهلكُ إلَّا مَن تجذَّرَ الفسقُ فيه، واستَقَى من تربتِه، واغتذَت عروقُهُ مُتشعِّبةً مُعشِبةً منه: ﴿بَلَٰغٞۚ فَهَلۡ يُهۡلَكُ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ٣٥﴾ [الأحقاف: 35]، ومن الإنذارِ المزلْزِلِ الَّذي يدكُّ معاقلَ الشِّركِ والوثنيَّةِ دكًّا دكًّا، بعدَ جثومِها، وفيما تقدَّمَ في السُّورةِ: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَۚ﴾ [الأنعام: 19].

في العطفِ استيفاءُ مقاصدِ القرآنِ، بلاغًا وهُدًى ورَحمةً وحِكمةً

ومن البيانِ الَّذي يردُّ الفطرةَ إلى نقائِها بإخلاصِ التَّوحيدِ

(1) ابن دريد، جمهرة اللّغة: (خطو)، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/354.
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (خطو).
(3) الواحديّ، التّفسير الوسيط: 1/253.
(4) ابن جرير، جامع البيان: 12/179، والبغويّ، معالم التّنزيل: 2/165، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 3/350، والنّسفيّ، مدارك التّنزيل: 2/35.

والعبادةِ والتَّوجهِ، ويقيمُ الوجهَ للدِّينِ حنيفًا واصبًا، وفي التَّنزيلِ: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾﴾ [النّساء: 26]. والفصلِ: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ﴿١٣﴾ وَمَا هُوَ بِٱلْهَزْلِ ﴿١٤﴾﴾ [الطّارق: 13 - 14]، ومن فصلِهِ مفاصلتُهم ومنازلةُ الّذين يُزَيِّنُونَ لهم، وَيَستَزِلُّونهم: ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾﴾ [النّساء: 27]. وَالحُكْم: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ﴾ [النّساء: 105]، ﴿ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ ۖ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾﴾ [المُمتَحَنَة: 10]. والهُدَى: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾﴾ [المائدة: 15 - 16]، والرَّحمةِ: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾﴾ [القَصص: 46]، والحكمةِ: ﴿ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ ۗ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴿٣٩﴾﴾ [الإسراء: 39]، والنِّعمةِ: ﴿كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾﴾ [النّحل: 81].

بَلاغةُ الوصْلِ في الآيةِ الكريمةِ:

في طيِّ وصلِ الآيةِ بما قبلَها مقاصدُ لا يبلغُها العدُّ من إقامةِ الحجَّةِ وقطعِ المعْذرةِ وتأنيسِ السُّراةِ السَّائرين في الظُّلمةِ يتلمَّسونَ الحقَّ، إلى ما لا يُحصَى، والَّتي منها معنا هنا إظهارُ الامتنانِ ببهيمةِ الأنعامِ الَّتي جعلَها اللّهُ من وسائلِ التَّخفيفِ عنِ الإنسانِ في التَّنقُّلِ بحملِ أثقالِهِ وحملِهِ، ثمّ تزكّى، فتكونُ طُعمَتُهُ وغذاءَهُ، وليزيحَ عنها بإحلالها وَصمَةَ التَّقسيمِ والحرمانِ بما حكاهُ وألغاهُ: ﴿فَقَالُوا۟ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا ۖ﴾، وكان هذا من خزعبلاتِ طواغيتِهم في الحرثِ والأنعامِ: ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا

مِـنَ المقـاصـدِ إقامةُ الحُجَّةِ، وقطْعُ المعذِرةِ، وتأنيسُ السُّراةِ، وإظهارُ الامْتِنانِ

﴿فَقَالُواْ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعۡمِهِمۡ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَاۖ﴾، وقد مرَّ بنا كيف أنَّ اللّهَ أبانَ أحسنَ البيانِ في الحرثِ، وجاءَ أوانُ البيانِ في الأنعامِ بهذه الآيةِ الجامعةِ الفذَّةِ.

محلُّ المعطُوفِ عليه في نسَقِ الجُملةِ، وسِرُّ إضْمارِهِ:

اكْتفَى بالمذكورِ إيجازًا واكتفاءً

المعطوفُ عليه هو الفعلُ الماضي ﴿أَنشَأَ﴾، ومحلُّه في نسقِ الجملةِ قبلَ مفعولِهِ: ﴿حَمُولَةً﴾، وإنَّما لم يُذكَرْ اكتفاءً بما قبلَهُ، وإيجازًا في الكلام[1]، ليتعيَّنَ استصحابُه، فإنَّ السِّياقَ الَّذي ذُكِرَ فيه كالمُقدِّمِ المُمهِّدِ لمَا بعدُ، وهو ما نحنُ فيه هنا، والجملتان مُتآخيتان مُتلازمتان، والمجرور ﴿ٱلۡأَنۡعَٰمِ﴾؛ وهي المفصَّلةُ بعدَ ثمانيةِ أزواجٍ على ما سيأتي في آيتِها.

فائِدةُ العطْفِ تَحصُّلُ معنَى القصْرِ في جُملةِ المعطوفِ عليهِ:

الله هو الخالقُ للحَمُولةِ والفَرْش، والقاهرُ الّذي استوَى على العرشِ

حملَ الجملةَ الثَّانيةَ ﴿وَمِنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ حَمُولَةً وَفَرۡشًاۚ﴾ على معنى القصرِ الَّذي في المعطوف عليه، بتعريفِ الطَّرفين: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَ﴾ كما بَيَّنَّا قَبلُ، فيكون المعنى: أنَّه ﷻ وحدَه الَّذي أنشأَ منَ الأنعامِ حَمولةً وفَرشًا، لا آلهةَ المُشرِكين، فالمُشركونَ ظالمونَ في جعلِهِم للأصنامِ حظًّا في الأنعام[2].

دلالةُ (مِنْ)، في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ﴾:

الأنعامُ مُبتدأُ التَّعويلِ في الغِذاءِ، وبها قِوامُ حياةِ النّاسِ

أثرُ (من) الابتدائيَّة في المعنى: أنَّ مبدأَ استيفائِهم طُعمَتَهُم هو منَ الأنعامِ، فـ"أوَّلُ ما يتبادرُ للنَّاسِ حين ذكرِ الأنعامِ أن يتذكَّروا أنَّهم يأكلونَ منها"[3].

والأنعامُ من مبتدأِ النَّظرِ إليها مُسخَّرةٌ مُيسَّرةٌ مُسيَّرةٌ، لا غنى لهم عن ألبانِهَا، ولا بهم عن لحومِهَا، ولا يقيمُ أَوَدَهُم، ويُذْهِبُ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/126أ.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/124أ.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/126أ.

رَهَقَهُم، وَوَهنَهم، وانحطاطَ قِواهُم البدنيَّةِ والنَّفسانيَّةِ غيره، ولا يعوِّلونَ على شيءٍ منَ الطَّعامِ والشَّرابِ تعويلَهم عليهِ، وانظر كيف كانوا ينحرونَ يومًا تسعًا ويومًا عشرًا في خروجِهم لغزوةِ بدرٍ، وبذلك حسبَ النَّبيُّ ﷺ عددَهُم تقديرًا؛ إذْ كَانَ نحرُ البعيرِ الواحدِ مُعتادًا لإطعامِ مئةٍ بكفاية.

مَاهِيَّةُ الأنعامِ، وعِلَّةُ تعريفِها:

الأنعامُ المقصودةُ معروفةٌ مَشهورةُ المنافعِ

والأنعامُ ما يُحمَلُونَ عليه، فيبلِّغهم ما لم يكونوا لِيبلُغُوه إلَّا به، وما يأكلونَ منها، ويتنعَّمونَ بمنافعِهَا: ﴿وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ۖ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝٥ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ۝٦ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝٧﴾ [النَّحل: 5 - 7]، وهي أنعامٌ مَعهودةٌ مَعروفةٌ مَخصوصةٌ بالجِمالِ، والخيلِ، والبِغالِ والحَميرِ، وما يُؤكَلُ لحمُهَا، وتُتحصَّلُ منافعُهَا.

بَلاغةُ تقديمِ الجارِّ والمجرورِ ﴿وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾:

تَعْجيلُ الإخبارِ بالمنَّةِ بالأنعامِ، وتَضليلُ مَن يُحَرِّمُ بعْضَها سَفهًا

قدَّمَ الجارَّ والمجرورَ ﴿وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ على المفعولِ المُتعلَّقِ بفعلِه المُقدَّرِ (أنشأ) ﴿حَمُولَةً وَفَرْشًا ۚ﴾؛ لإظهارِ عنايتِه بما يشغلُهم، ولتعجيلِ الخبرِ بالمَنّةِ عليهم، ولإنهاءِ الحُكمِ إليهم ليشتغلوا بهِ، ويكلّفوا ترديدَه قبل أن تأخذَ بهمُ الأهواءُ إلى مجاريها كلَّ مأخذٍ، وليفضيَ إليهم أنَّ الحُكمَ في كلِّ شيءٍ - ومنه الأنعامُ - إليه، كما أنَّ الإنعامَ بذلك - أصلًا - منه، وليردَعَهُم عنِ الافتئاتِ عليه بالتَّقسيمِ الَّذي زعمُوا في التَّحليلِ، والتَّحريمِ الَّذي وهموا، وأخيرًا للاهتمامِ الَّذي يُدخِلُ الهَمَّ في كلِّ شيءٍ عَنَى وأهَمَّ، ولينصفَ أزواجَهُم منهم بالإشراكِ في الحلِّ لما ذُكِّي صادًّا الجميعَ عنِ الحرامِ فيما حرَّمَ، ضاربًا المثلَ في الاكتفاءِ بالدَّلالةِ على ذلك كلّه بجَرِّهِمْ إلى التَّفكُّرِ في عظمةِ الإنعامِ بما خلقَ اللّٰهُ لهم من الأنعامِ - عليه - قسمين: حَمولةً وفَرشًا

على ما سنُفصِّل. ومن فائدةِ تقديم الجارِّ والمجرورِ قصدُ الاهتمام بأمرِ الأنعام بجعلِها المقصودَ الأصليَّ من سياقِ الكلام، إرادةُ إبطالِ تحريمِ بعضِها، وإبطالِ جَعْلِ نصيبٍ منها للأصنام كذلك، وما إبطالُ حلِّ الميتةِ من مقاصدِ القرآنِ ببعيدٍ، فذلك جميعُه وراءَ تقديم الجارِّ والمجرورِ على المفعولِ الَّذي هو أوْلى بالتَّقديم في تَرتيبِ المُتَعَلِّقات، وذلكم الغَرَضُ الَّذي تليه سائرُ الأغراضِ؛ كالامتنانِ عليهم بتسميةِ الحَمولةِ والفَرشِ خاصّةً، اللَّذَيْنِ ذُكِرَا إدماجًا في المقصودِ، وتَوفيرًا للأغراض، وإيجَازًا عن الإطنابِ بمثلِ قولِ: (وأنشأَ لكُمُ الأنعامَ، وأنشَأَ منها حَمُولةً وفَرشًا)، فأدمجَ الأغراضَ بعضَها في بعضٍ ما بينَ فكِّ الارتهانِ بعقدِ الشَّيطانِ، وما بينَ الامتنانِ بنعمِ الحنَّانِ المنَّانِ، وإيقاظِ فطرتِهم وضمائرِهم أنَّهم مَدينونَ للدَّيَّانِ[1].

تَوجِيهُ التَّعبيرِ بـ ﴿حَمُولَةً﴾ في الآيةِ الكريمةِ:

مِن مِنَنِ الأنعامِ فَـرْطُ تحمُّلِها للأثقالِ

الحَمولةُ ما تحملُ الأثقالَ، والمقصود الأنعام الكبار الَّتي تصلحُ للحَملِ، ومن ثَمَّ قرأَ الإمامُ أبو جعفر يزيدُ بنُ القَعْقاعِ المدنيُّ: ﴿بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِۚ﴾ بفتحِ الشِّين، فزادَ في إبرازِ ما تُكابدُهُ تلك الأنعامُ من مَشقَّةٍ مُلحِقَةٍ أبلغَ الضُّرِّ والعياءِ والانقطاعِ بِمَن امتُنَّ عليهم بما يناسبُ تسميتَها ﴿حَمُولَةً﴾، وبين صيغة (فَعُول) كشَمُوسٍ وجَمُوحٍ، وبينَ تاءِ المبالغةِ في آخرِ الصِّيغةِ؛ ليدُلَّ على فرطِ ما تَحملُ من أثقالٍ؛ تنوءُ بها العُصْبَةُ أولو القُوَّة وتَعْيَا وتَكِلُّ، لتظهرَ المنَّةُ عليهم أجلى ما تكونُ.

معنَى التَّاءِ في قولِهِ تعالى: ﴿حَمُولَةً﴾:

تأكيدُ المبالغةِ، والـدّلالـةُ على شُهْرةِ الأمرِ

قد تأتي للمبالغةِ في الوصفِ كرجلٍ راويةٍ؛ لكثيرِ الرِّوايةِ، أو أنَّ روايتَهُ أصبحَت أمرًا عامًّا مَشهورًا، أو على درجةٍ بَليغةٍ منَ الاتِّصافِ بالأمرِ، وقد تأتي لتأكيدِ المبالغةِ، نحو: رجلٌ (نَسَّابَةٌ)

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/125.

لكثيرِ العلمِ بالأنسابِ؛ ذلك أنَّ كلمةَ (نسَّاب) صيغةُ مبالغةٍ بنفسِهَا، فإذا زِيدَت عليها التَّاءُ أفادَت توكيدَ المُبالغةِ[1]، فـ"الهاء في ﴿حَمُولَةً﴾ للمبالغة"[2]، ولتأكيدِ المبالغةِ، لكثرتِها حتى أصبحت أمرًا عامًّا مشهورًا في الأنعام.

عِلَّةُ التَّعبيرِ بالفَرْشِ منَ الإبلِ، في الآيةِ الكريمةِ:

الدّلالةُ على المبالغةِ في صِيغة التّسْمِيةِ بالحَمولةِ والفَرْشِ

من بلاغةِ القرآنِ العظيمِ وأدبيَّاتِه المُعجِزةِ أنَّه واءَمَ بينَ الاسمينِ المُقترنَينِ في الامتنانِ، في دلالةِ كلٍّ منهما على المبالغةِ البالغةِ أقصى حدودِ التَّصوُّرِ؛ فكما أنَّ الكلمةَ الأولى ﴿حَمُولَةً﴾ على وزنِ المبالغةِ (فَعُول) وبآخرِهَا تاءُ المُبالغةِ، وهي الكبيرةُ كما فسَّرْنا، فكذلك الكلمةُ الثَّانيةُ دالَّةٌ على المبالغةِ من بابِ الوصفِ بالمصْدرِ (فَرْش)، والمرادُ منها: الصَّغيرةُ الَّتي يُؤكَلُ لحمُها فَيُلْتَذُّ به، ويُجْتَمَعُ عليه، والحَمولةُ والفَرشُ جميعًا منَ الإبلِ. ويُمكنُ الاستئناسُ في إجازةِ دخولِ التَّاءِ في ﴿حَمُولَةً﴾، بأنَّ صيغَ المبالغةِ كاسمِ الفاعلِ، يمكنُ أن تتحوَّلَ إلى صفاتٍ مُشبَّهةٍ، وعلى ذلك في حالةِ دلالتِهَا على الصِّفةِ المشبَّهةِ، يمكنُ أن نلمحَ المعنى الأصليَّ لها؛ وهو المبالغةُ، فتدخلُ عليها التَّاءُ؛ جريًا على قاعدةِ دخولِ التَّاءِ في اسمِ الفاعلِ، وفي صيغِ المبالغةِ للتَّأنيثِ؛ بجامعِ الاشتراكِ في أنَّه يُؤكَلُ غالبًا وكثيرًا على حين تُستبقَى الحَمولةُ للحَملِ.

سَعةُ الأقوالِ في معاني الفَرْشِ عندَ الطّاهرِ بنِ عاشور:

لفظُ (فَرْشًا) لا يقومُ مقامَه غيرُهُ، في تأديةِ معانٍ، تدخلُ في لُبِّ فصاحةِ القُرآنِ

وقد ذكرَ ابنُ عاشورٍ رحمَه اللّه في الفَرشِ ستةَ أقوالٍ: أوَّلُها: أنَّه مالا يُطيقُ الحَملَ منَ الإبلِ، فَهو يُركَبُ كما يُفرَشُ الفَرشُ، والثَّاني: الصِّغارُ منَ الإبلِ القريبة منَ الأرضِ أو منَ الأنعامِ كلِّها فهي كالفَرشِ، والثَّالث: ما يُذبَحُ كالبقرِ والضَّأنِ والمَعزِ؛ لأنَّه يُفرَشُ

(1) عبّاس حسن، النّحو الوافي: 4/592، والسّامرائيّ، معاني الأبنية، ص: 123.
(2) ابن عطيّة، المحرَّر الوجيز: 2/354.

حينَ الذَّبحِ أو بَعدَهُ، والرَّابع: ما نقلَهُ في اللِّسان عن أبي إسحاقَ: أنَّه هو صِغارُ الإبلِ بإجماعِ أهلِ اللُّغةِ، والخامس: مازادَه الكشَّافُ: أنَّه ما يُنسَجُ مِن وبَرِهِ وصُوفِهِ وشَعرِهِ، كالَّذي في [النّحل: 80]، وينبغي قيدُهُ بغيرِ الحَمولةِ للتَّقسيم في الآيةِ، والسَّادس: ما كانوا يَفترشُونَ جلودَهُ للجلوسِ عليها، ثُمَّ عقَّبَ قائلًا: ولَفظُ ﴿وَفَرۡشٗاۚ﴾ صالحٌ لهذه المعاني كُلِّها، ومَحامِلُهُ كُلُّها مُناسِبَةٌ للمَقام، فيَنبغِي أن تكونَ مَقصُودَةً منَ الآيةِ، وكأنَّ لفظَ (فرش) لا يُوازِنُهُ غيرُهُ في جمعِ هذه المعاني، وهَذا من إعجازِ القرآنِ من جانبِ فَصاحتِهِ[1].

سِرُّ اختِصاصِ التَّسمِيةِ بالحَمولةِ، والفَرْشِ:

التَّنبيهُ على أنَّ مِنَ الأنعامِ ما يَصلُحُ للوصْفَينِ

اختُصَّ الصِّنفان بهذين الاسمين؛ ليردَّهم اللّهُ عن مُسمَّياتٍ ممنوعةٍ ما جعلَها اللّهُ إلى بديلٍ مشروعٍ منَ المُسَمَّيات: ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٖ وَلَا سَآئِبَةٖ وَلَا وَصِيلَةٖ وَلَا حَامٖ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۖ وَأَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ١٠٣﴾ [المائدة: 103]، وليلفتَهم بقوَّةٍ إلى ما تصلحُ الأنعامُ له، فهي بين (حَمُولَةٍ) و(فَرْشٍ)، وإذا كانَت كلُّها مأكولةً؛ فلا حرجَ أن يُؤخذَ منها اللَّبنُ، ويُغتذى ويُشرَبَ، ويمكن أن تَؤُولَ الحَمُولَةُ إلى أن تُنْحَرَ وتُؤكَلَ، وتُترك الفَرشُ حتّى تكبُرَ، وتَحمِلَ. فهذا منحًى تربويٌّ يعلِّمنا اللّهُ إيَّاه أنَّ النَّفسَ إن لم تشغلْها بالحقِّ، شغلتك بالباطلِ، فمن ثمَّ جاء الاسمان الجديدان، وحَسُنَ مجيئهما.

تَوجِيهُ إعرابِ جُملةِ: ﴿حَمُولَةَ وَفَرۡشٗاۚ﴾:

مَنْ رَكِبَ الهوَى، فغيَّرَ شرْعَ المولَى، مَنْبوذٌ منَ الصَّفوةِ

الوجهُ الأمثلُ في إعرابِ الجملةِ: ﴿وَمِنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ حَمُولَةٗ وَفَرۡشٗاۚ﴾ أن يكونَ الجارُّ والمجرورُ مُتعلِّقَينِ بالفعلِ (أَنْشَأَ) المُقدَّرِ، وأن يكونَ ﴿حَمُولَةٗ﴾ وما عطفَ عليه ﴿وَفَرۡشٗاۚ﴾ مفعولًا به لهذا الفعلِ المُقدَّرِ، والفعلُ المُقدَّرُ مَعطوفٌ على مثيلِهِ المذكورِ المُصدَّرةِ به الآيةُ قَبلُ.

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/أ125 - 126.

وكأنَّ الحِجاجَ المُعبَّرَ عنه بأوجزِ وجهٍ انتقلَ إلى بيانِ أنَّ الأنعامَ لم تُخلَقْ لغيرِ هذا، فإذا تلعَّبتِ الأهواءُ بقومٍ، فذهبُوا مَذاهبَ ممنوعةً غيرَ مشروعةٍ ابتغوا بها وراءَ ذلك؛ فأولئك المتَّبِعُونَ خُطُواتِ الشَّيطانِ، فما أحرى أن يَنْبِذَهُمْ كُلُّ ذي لُبٍّ، وأن يُعْرِض عنهم صُدُودًا من كان له قَلْبٌ!.

سِرُّ تقديمِ الحَمولةِ على الفَرْشِ، في الآيةِ الكريمةِ:

الحَمولةُ أكثرُ نفعًا مِنَ الفَرْشِ، وكِلاهما مِنَ الإبلِ المستعمَلَةِ عندَ العربِ

قدَّمَ الحَمولةَ على الفَرشِ؛ لأنَّها أعظمُ في الانتفاعِ[1]؛ إذ ينتفعُ بها في الحَملِ والأكلِ، والعربُ تقدِّمُ النَّاقةَ في ذلك على البعيرِ، وقد أفاضَت قصيدةُ كعب بنِ زهير اللَّاميَّة في وصفِ ناقته بما جازَ وجازَ، وأغربَ، وأطربَ، وأتى في وصفِ عَدوِها وسرعتِها بما أجلبَ وأعجبَ.

في مُناسبةِ الأمْرِ بالأكلِ ﴿كُلُواْ﴾ تعميمٌ لها لا تخصيصٌ لبعْضِها:

فعلُ الأمرِ، إبطالٌ لتَحريمِ ما حرَّمَه المُشركونَ على أنفسِهم

مناسبةُ الأمرِ بالأكلِ بعدَ ذكرِ الأنعامِ: أنّه لـمَّا كانَ قولُهُ: ﴿وَفَرْشًاۚ﴾ شيئًا مُلَائمًا للذَّبحِ، كما تَقدَّمَ؛ عَقَّبَ بالإذنِ بأكلِ مَا يَصلُحُ للأكلِ منها، واقتَصَرَ على الأمرِ بالأكلِ؛ لأنَّه المَقصودُ منَ السِّياقِ إبطَالًا لتَحريمِ ما حَرَّمُوهُ على أنفسِهم، وتَمهيدًا لقولِه: ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ﴾، فالأمرُ بالأكلِ هُنا مُستعمَلٌ في النَّهي عَن ضِدِّه، وهو عَدَمُ الأكلِ مِن بعضِها؛ أي: لا تُحرِّمُوا ما أُحِلَّ لكم منها اتِّباعًا لِتَغريرِ الشَّيطانِ بالوَسوَسَةِ لِزُعماءِ المُشركِينَ الَّذين سَنُّوا لهم تِلكَ السُّنَنَ الباطلَةَ، وليسَ المرادُ بالأمرِ الإباحةَ فَقَط[2].

سِرُّ مُخاطبتِهم جميعًا بواوِ الجمْعِ:

الجامعُ بينَ المأمورينَ عُبوديَّتُهم للخالقِ سُبحانَهُ

في فاعليَّةِ الواوِ توحيدُ الآمرِ لهم جميعًا؛ إذ هو وحدَهُ الإلهُ الحقُّ الخالقُ الرَّازقُ الَّذي له الحكمُ وحدَهُ سبحانَهُ، وتوحيدُ المَأمورينَ المُخاطَبينَ بجامعِ اشتراكِهم في العبوديَّةِ للّهِ تعالى جميعًا.

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/671.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/أ126.

وَجْهُ العُدولِ عنِ الضَّميرِ، إلى الإتيانِ بالموصولِ:

الإشارةُ إلى إباحةِ ما حرَّمَهُ المُشركونَ من بعضِ الأنعامِ

وعدلَ عنِ الضَّميرِ بأن يقولَ: (كُلُوا منها) إلى الإتيانِ بالموصولِ ﴿مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾؛ ليبيحَ ما حرَّمُوهُ، ولإزالةِ ما سنَّهُ الكفَّارُ منَ البحيرةِ والسَّائبةِ وغيرِ ذلك[1]، ولمَا في صلةِ الموصولِ منَ الإيماءِ إلى تضليلِ الّذين حرَّمُوا على أنفسِهم، أو على بعضِهِمُ الأكلَ مِن بعضِهَا، فعطَّلُوا على أنفسِهم بَعضًا ممَّا رَزَقَهُمُ اللّٰه[2]. فالإسلامُ يحوِّل العاداتِ إلى عباداتٍ؛ إذا فعلَها المُكلَّفُ احتسابًا ونوى بها الامتثالَ؛ كالأكلِ الَّذي شرعَ لهم هنا إبطالًا لأمورِ الجاهليَّةِ وتزوُّدًا.

سِرُّ التَّصريحِ بمفعولِ (رزق):

أحاطَهُم اللهُ برحمتِهِ، وشملَهم بعَطائِهِ

نصَّ على مفعولِ (رزق)، وكانَ يمكنُ أن يقولَ: (كُلُوا ممّا رزقَ اللّٰه)، فوجَّهَ الخطابَ لهم تكريمًا بشمولِهِم في رحمتِهِ، وإحاطتِهِم بمننِهِ، فقال لهم: ﴿كُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾.

بَلاغةُ التَّصريحِ بلفظِ الجلالةِ ﴿ٱللَّهُ﴾:

الرِّزقُ مِنَ اللهِ وحدَه يَهبُهُ مَن يشاءُ، ويمنعُهُ مَن يشاءُ

ذكرَ الاسمَ الأعظمَ الفاعلَ بلفظِ الجلالةِ ﴿ٱللَّهُ﴾، ولم يقُل: رزقْناكُم مثلًا، أو (رُزِقْتُمْ) بالبناءِ للمفعولِ، ودلالةُ الإدغامِ الكبيرِ فيه تشريفٌ وتخصيصٌ للرّزقِ به تعالى بالاسمِ الدَّالِّ على الكمالِ كلِّه، وذِكْرُه في مَواطِنِ الخيراتِ والنِّعَمِ والمِنحِ من عاداتِ القرآنِ.

سِرُّ مجيءِ فعْلِ النَّهْيِ منَ الافتعالِ: ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ﴾:

الإيحاءُ بأنَّ المنهيَّ عنه يُخالِفُ الفطرةَ

توحي صيغةُ الافتعالِ بمعاكسةِ المنهيِّ عنه للفطرةِ، بوصفِهِ ثقيلًا بغيضًا على النَّفسِ، وأنَّ الهمَّةَ لا تنبعثُ إليه؛ لأنَّ وازعَ اللّٰهِ في النَّفسِ البشريَّةِ يأباه، ولأنّ الضَّمير الحيّ يكفُّ صاحبَه عنه، ويعوقُهُ، ويقاومُهُ.

---

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/354.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8أ/126 - 127.

المَغزَى وراءَ النَّهْيِ عنِ اتّباعِ خُطواتِ الشّيطانِ:

النَّهيُ عن شُؤونِ الشِّركِ، واعتِقادِه وممارَسَتِه

قال ابنُ عاشور: "فإنَّ أوَّلَ خُطُواتِ الشَّيطانِ في هذا الغَرَضِ تَسويلُهُ لَهم تَحريمَ بَعضِ مَا رزقَهُمُ اللّهُ على أنفسِهم"[1] واستنادًا إلى الأمرِ في الآيةِ: ﴿كُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾، ينبغي أن يُضافَ إليه التَّنبيهُ على استحلالِهم ما حرَّمَ اللّهُ عليهم، كأكلِ الميتةِ استنادًا إلى النَّهي في الآيةِ: ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ﴾.

بَلاغةُ الاستعارةِ التَّمثيليَّةِ، في ﴿خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ﴾:

التَّشنيعُ عَلى المُخالِفِ، رَدْعٌ له عن غَيِّه وضَلالِه

في قولِه: ﴿خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ﴾ استعارةٌ تمثيليَّةٌ، لها أثرها في تقبيحِ صنيعِ المُخالفِ، وتكريهِ فعلِه، وبيانِ أنَّه يكون مَمقوتًا سائرًا في طريقٍ تُصَبُّ عليه لعناتُه، وتلحقُه مَعَرَّتُهُ، وأصلُها أنَّ السَّائرَ إذا رأى آثارَ خُطُواتِ السَّائرين تبعَ ذلك المَسلكَ؛ عِلْمًا منه بأنَّه ما سارَ فيه السَّائرُ قبلَهُ إلَّا لأنَّه مُوصِلٌ إلى المطلوبِ، فشبَّهَ المُقتدِي الّذي لا دليلَ له سوى المُقتدَى به، وهو يظنُّ مَسلكَهُ مُوصِلًا بالَّذي يتبعُ خُطُواتِ السَّائرينَ، وشاعَت هاتهِ الاستعارةُ التّمثيليَّةُ، حتّى صارُوا يقولون: هو يتَّبعُ خُطا فلانٍ؛ بمعنى: يقتدي به، ويمتثلُ له[2].

مجيءُ (إنَّ) التَّعليليَّةِ، في الآيةِ الكريمةِ:

عِلَّةُ نَهْيِ اتِّباعِ الشَّيطانِ، هي العَداوةُ والافْتِتانُ

علَّلَ ﷻ النَّهيَ عنِ اتِّباعِ خُطُواتِ الشَّيطانِ بأنَّه: عدوٌّ بَيِّنُ العداوةِ، وبيانُها ببيانِ آثارِهَا ونتائجِهَا[3].

نُكتةُ عَوْدِ الضَّميرِ في ﴿إِنَّهُۥ﴾:

الإضمارُ في مَواطِنِ المَهانةِ ذُلٌّ وإهانةٌ

(إنَّ) اسمُها ضميرُ الشَّأنِ عائدٌ على الشَّيطانِ دونَ العودةِ إلى ذكرِ اسمِهِ الصَّريحِ الموسومِ إذلالًا، وتحقيرًا، وإهانةً، فالإضمارُ في مَواطِنِ المهانةِ ذلٌّ.

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/127أ.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/103.

(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2704.

نُكتةُ تقديمِ الجارِّ والمجرورِ:

الاعتناءُ بتقديمِ الجارِّ والمجرورِ ﴿لَكُمْ﴾ على المُتعلِّق؛ دليلٌ على التَّنفيرِ والتَّحذيرِ والتَّقذيرِ منَ الشَّيطانِ، بوصفِهِ عدوًّا صريحًا للمُؤمنين، مَعنيًّا بغوايتِهم، وإضلالِهم.

التَّحذيرُ مِنَ الشَّيطانِ وعداوَتِهِ للمؤمنينَ، في كلِّ حالٍ وحِينٍ

عِلَّةُ التَّصريحِ بالعَداوةِ باسْمِ الشَّيطانِ ﴿عَدُوٌّ﴾:

وفيه تخذيلٌ عنه وبلوغُ غايةِ النُّصحِ للمُؤمنينَ بأوجزِ لفظٍ لا تتَّسعُ الكراريسُ لإيعابِهِ، ومِن أجمعِ ما قِيلَ في بيانِ هذه العداوةِ: إنَّه " ظَاهرُ العَداوَةِ، يَمنَعُكُم ممَّا يَحفَظُ رُوحَكُم، ويَزِيدُ قُوَّتَكُم، ويَدعُوكُم إلى الافتراءِ على اللهِ إنْ نَسَبتُمُوهُ إلى أمرِهِ، وإلى دَعوى الإلَهيّةِ لكم إنِ استَقلَلتُم بِهِ"[1].

في اللَّفظِ تحذيرٌ، وتخذيلٌ، ونُصْحٌ للتّوقِّي

نُكتةُ وصْفِ عَداوةِ الشَّيطانِ بأنّه ﴿مُّبِينٌ﴾:

وَصَفَه بِـ ﴿مُّبِينٌ﴾ لِما فيه مِن تبجُّحِ الشَّيطانِ، ووقاحتِهِ، وعدمِ مبالاتِهِ بمَن يَهلِكُ بسببِهِ، وقطعِ المعذرةِ عمَّن يتابعُه، ويَنخدعُ بوساوسِهِ، أو يَنهزِمُ لِأَزِّه، "وليس معنى ﴿مُّبِينٌ﴾ أنَّه بَيِّنٌ واضحٌ عندَ السَّيرِ وراءَهُ، إنَّما هو بَيِّنٌ في نتائجِهِ وغوايتِهِ"[2].

اتِّباعُ خُطُواتِ الشَّيطانِ بَيِّنُ النَّتائجِ، واضِحُ العاقِبةِ

(1) القاسميّ، محاسن التّأويل: 4/509.

(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2704.

﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزۡوَٰجٖۖ مِّنَ ٱلضَّأۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَمِنَ ٱلۡمَعۡزِ ٱثۡنَيۡنِۗ قُلۡ ءَآلذَّكَرَيۡنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلۡأُنثَيَيۡنِ أَمَّا ٱشۡتَمَلَتۡ عَلَيۡهِ أَرۡحَامُ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۖ نَبِّـُٔونِي بِعِلۡمٍ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ١٤٣﴾ [الأنعام: 143]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

المناسبةُ بين خلق النّبات والثّمرات، وخلق حلال الأنعام والحيوانات

ناسَبَ الكلامُ عن خَلْقِ الجنّاتِ المعروشاتِ وغيرِ المعروشاتِ، بما فيها من خيراتٍ وثمراتٍ، من بديعِ صُنْعِ خالقِ الأرضِ والسَّماواتِ، بيانَ إنعامِهِ بِخَلْقِ الأنعامِ ومختلِفِ الحيواناتِ، الّتي ليس لهم تحريمُها بأهوائِهم، بل ذلك من حكمةِ الخالقِ الّذي بيدِه مقاليدُ الأمورِ والأحكامِ، ومن ثَمَّ فإنّه لَمَّا ردَّ اللّهُ تعالى دِينَ المشركين، وأثبَتَ دينَه، وكانوا قد فَصَّلوا الحُرْمَةَ بالنِّسبة إلى ذكورِ الآدميِّ وإناثِه، أَلْزَمَهُم تفصيلَها بالنِّسبةِ إلى ذُكورِ الأنعامِ وإناثِها، ففصَّل أمرَها في أسلوبٍ أبانَ فيه أنَّ فِعلَهم رَثُّ القُوَى، مُهَلْهَلُ النَّسيجِ، بعيدٌ مِن قانون الحِكمة؛ فهو موضعٌ للاستهزاء، وأهلٌ للتَّهكُّم، فقال بيانًا لذلك وإيضاحًا: ﴿حَمُولَةٗ وَفَرۡشٗاۚ﴾ ﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزۡوَٰجٖۖ مِّنَ ٱلضَّأۡنِ﴾ [الأنعام: 142 - 143][1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَزۡوَٰجٖۖ﴾: الأصلُ في مادَّة (زَوْج) أن يدلَّ على مُقارَنة شيءٍ لشيءٍ، وكُلُّ ما كان له قرينٌ من جِنْسِه يُقال له: زَوْجٌ، فـ(الزَّوجُ) اسمٌ يقع على كُلِّ واحدٍ مِنَ المقترِنَيْنِ، يُقال: للرَّجل زَوْجٌ، وللمَرأة زَوْجٌ، وهو الفَصِيح، و(الزَّوجان) في كلام العرب: الاثنان، يُقال: عليه زَوْجا نِعالٍ، إذا كانت عليه نَعلان، ولا يُقال: عليه زوجُ نِعالٍ، ويُقال لكلِّ ما يَقترن بآخرَ مماثلًا له، أو مضادًّا: زَوْجٌ. وزوجةٌ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/294.

لُغةٌ رَدِيئةٌ، وجمعُها زَوجاتٌ، وجمع الزَّوج أَزوَاجٌ[1]. وزَوجُ المرأة: بَعْلُها، وزَوجُ الرّجل: امرأتُه؛ قال الله تعالى: ﴿ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ﴾ [البقرة: 35]، ويُقال أيضًا: هي زوجتُه. قال الفرزدقُ:

وإنَّ الّذي يَسعَى ليُفسِدَ زَوْجَتي *** كَساعٍ إلى أُسْدِ الشَّرى يَسْتَبيلُها[2]

قال يونس: "تقول العرب: زوَّجتُه امرأةً، وتزوَّجتُ امرأةً، وليس من كلام العرب تزوَّجتُ بامرأة، قال: وقوله تعالى: ﴿وَزَوَّجۡنَٰهُم بِحُورٍ عِينٖ ۝٥٤﴾ [الدّخان: 54]؛ أي: قرنّاهم بهنَّ"[3].

2) ﴿ٱلضَّأۡنِ﴾: الضّائنُ مِنَ الغَنَم: ذُو الصّوفِ، ويُوصَفُ به فيُقالُ: كَبْشٌ ضائنٌ، والأُنثى ضَائِنَةٌ، والضّائنُ: خلافُ المَاعِزِ، والجَمعُ الضَّأْنُ والضَّأَنُ، مِثلُ المَعْزِ والمَعَزِ، والضّانُ أَصله ضَأْن، فَخُفِّفَ، والضّأْنُ: جَمعُ الضَّائِنِ، ويُجمَع الضَّئِينَ، والأُنثى ضائِنَةٌ، والجَمعُ ضَوائنُ[4]. وإذا أكلَ القومُ لحمَ ضَأْنٍ، فثَقُل عليهم، فَهُم نَعِجونَ، ورجلٌ نَعِجٌ، قال:

كَأَنَّ القَومَ عُشُّوا لَحمَ ضَأْنٍ *** فَهُم نَعِجُونَ قَد مَالَتْ طُلَاهُمْ[5]

3) ﴿ٱلۡمَعۡزِ﴾: ذُو الشَّعرِ مِنَ الغَنَم، وهو خِلافُ الضَّأْنِ ذَواتِ الصُّوفِ، والأُنثى: ماعِزَةٌ ومِعْزاةٌ. وأَصلُ الكلمة مِنَ المَعَزِ، وهو الشِّدَّةُ والصَّلابَةُ، يُقال: مَكانٌ أَمْعَزُ، وأَرضٌ مَعْزاءُ؛ أي: صُلبَةٌ غَليظَةٌ ذاتُ حِجارَةٍ. وتَمَعَّزَ البَعِيرُ؛ أي: اشتَدَّ عَدْوُهُ، ومنه سُمِّيَ ذو الشَّعرِ مِنَ الغَنَم ماعِزًا؛ لِما فيه مِن شدَّةٍ وصلابةٍ، كتَسَلُّقِ الجبلِ وأكلِ الشَّوكِ[6]، قال الضّرير: المَعيز والمَعْز والماعِزُ واحد، والمعنى جماعة، ويُقال: مَعِيزٌ مثلُ الضَّئِينِ في جماعة الضَّأْن، والواحد: الماعز، والأنثى ماعِزَة. قال:

وَيَمنَحُها بَنو أَشجَى بنِ جِرْمٍ *** مَعِيزَهُمُ حَنانَكَ ذا الحَنانِ[7]

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، والزّبيديّ، تاج العروس: (زوج).

(2) البيت من شعر الفرزدق، ورد في ديوانه: 2/61، والفارابيّ، معجم ديوان الأدب: 3/308.

(3) الجوهريّ، الصّحاح: (زوج).

(4) الجوهريّ، الصّحاح، وابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس: (ضأن).

(5) لم ينسبِ البيت في التّهذيب لقائل: 1/381، وكذلك في المخصّص: 4/80، وفي المحكم: 1/202، وفي لسان العرب: 2/381، ومنسوب إلى الشّاعر ذي الرّمة، ولا يوجد في ديوانه. يُنظر: كتاب العين: 1/233 (الهامش).

(6) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن سيده، المحكم، وابن منظور، لسان العرب: (معز).

(7) الخليل، العين: (معز)، والشعر لامْرِئِ القَيْسِ، وهو في ديوانه، ص: 143، وإليه عزاه القرطبي في تفسيره: 7/ص101، وعنده: ويمنحها بنو شَمَجَى.

قال سيبَوَيْهِ: (معْزًى) مُنَوَّنٌ مصروفٌ؛ لأنّ الألِفَ للإلحاقِ لا للتّأنيثَ، وقال الفَرَّاء: المِعزَى مؤنَّثة وبعضُهم ذكَّرها، وقال أبو عُبيدٍ: كلُّ العرب يُنوِّن المِعزَى في النَّكرة[1].

4) ﴿حَرَّمَ﴾: المَمنوعُ، يُقالُ: حَرُمَ عليه الشَّيءُ حُرْمَةً وحَرامًا؛ أي: امتَنَعَ. وشَيءٌ مُحَرَّمٌ؛ أي: مَمنوعٌ. وأَصلُ التَّحريمِ: المَنعُ، يُقالُ: مَكانٌ حَرامٌ؛ أي: يُمنَعُ دُخولُهُ، ومنه سُمِّيَ الشَّهرُ الحَرامُ بذلك؛ لأنّ العربَ تَمتَنِعُ فيه عنِ القتالِ. وضِدُّ الحَرام: الحَلالُ والمُباحُ والجائِزُ[2]، و"التّحريمُ أصلُه من قولِكَ: حَرَمْتُ فُلانًا عطاءَه؛ أي: مَنَعْتُهُ إيّاه، وكلّ ما مُنِع فهو حرام"[3]. وقال اللَّيثُ: "والحرامُ: ما حَرَّمهُ اللّه، والحُرْمَةُ ما لا يَحِلُّ لك انتهاكُه، وتقول: فُلانٌ لهُ حُرْمَةٌ؛ أَي: تَحَرَّمَ بِنا بِصُحْبَةٍ، أو بِحَقٍّ وذِمَّةٍ. وحُرَمُ الرّجُلِ: نساؤُهُ وما يَحْمي، والمحارِمُ ما لا يَحِلّ استِحْلالُه"[4].

5) ﴿ٱشْتَمَلَتْ﴾: الاشتمالُ الإحاطَةُ، تَقُولُ: اشتَمَلَ عليه الأَمرُ؛ أي: أحاطَ به، وأَصلُ الشُّمُولِ: دَوَرانُ الشَّيءِ بالشَّيءِ، وأَخذِهِ إيَّاهُ مِن جَوانبِهِ، مِن ذلك قَولُهم: اشتملَ فُلانٌ بالثَّوب؛ أي: أدارَهُ على جَسَدِهِ كُلِّه حتَّى لا تَخرُجَ منه يَدُهُ. ويأتي الاشتمالُ بمعنَى: التَّعميم. والشُّمُولُ: العُمومُ، يُقالُ: شَمِلَهُمُ الأَمرُ إذا عَمَّهم، وهذا أَمرٌ شاملٌ؛ أي: عامٌّ. ومِن معاني الاشتِمَالِ أيضًا: الإدخالُ والتَّغطِيَةُ والاجتِمَاعُ[5]، وقد تَلَفَّعَ بالثّوب، إذا اشْتَمَلَ به، بمعنى تغطّى به، وقد قيل:

أَوردَهَا سَعدٌ وَسَعدٌ مُشتَمِل*** يَا سَعدُ لَا تُرْوَى بِهَذاكَ الإِبِل[6]

"واشتمل على الشّيء: إذا أحاط به، قال اللّه تعالى: ﴿أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾. واشتمل بثوبه؛ أي: التفَّ، واشتمالُ الصَّمَّاء: أن يغطّي الرّجلُ جسدَه بثوبه حتّى لا يبدو منه شيء"[7].

---

(1) زين الدّين الرّازيّ، مختار الصّحاح: (معز).

(2) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن سيده، المحكم، والجوهريّ، الصّحاح: (حرم).

(3) الأزهري، الزّاهر في غريب ألفاظ الشّافعي، ص: 60.

(4) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، ص: 60.

(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والجوهريّ، الصّحاح، وابن منظور، لسان العرب: (شمِلَ).

(6) وقد رُوِي هذا البيت في الرّجل الَّذِي سَافر مَع أَصحاب له، فَلم يرجع حِين رجعُوا، فاتَّهَمَ أَهلُه أَصحابَه، فرفعوهم إِلَى شُرَيْح، فَسَأَلَهُمُ البَيِّنَة على قَتله، فَارتَفعوا إِلى عليّ، فأخبروه بقول شُرَيح، فقالَ عليّ:

أوردَها سعدٌ وسعدٌ مشتمِل *** يَا سعدُ لَا تُروى بهذاك الإبِل

هذا مَثَل يُقَال: إِنّ أَصله كانَ رجلًا أورد إِبِله مَاء، لا تصل إِلى شربه إِلَّا بالاستقاء، ثمَّ اشتَمَل ونام وتركهَا، لم يستقِ لها، يَقول: فهَذا الفِعل لا تُروَى بِهِ الإِبِل حتَّى يُستقَى لها. يُنظر: القاسم بن سلّام، غريب الحديث: 3/477.

(7) القاسم بن سلاّم، غريب الحديث: 3/477.

6) ﴿أَرۡحَامُ﴾: الرَّحِمُ: مَكانُ تكَوُّنِ الجَنينِ في بَطنِ الأُمِّ، ويأتي بِمعنى القَرابَةِ والصِّلَةِ، يُقَال: بَينَهُما رَحِمٌ؛ أي: قَرابَةٌ وصِلَةٌ، وذَوُو الرَّحِمِ هُم الأقارِبُ، وسُمِّيَت القَرابَةُ رَحِمًا؛ لأنّ الأَقارِبَ خارِجينَ مِن رَحِمٍ واحِدَةٍ. وسُمِّيَ رَحِمُ الأُنثَى رَحِمًا؛ لأنّ فيه ما يُرۡحَمُ به الوَلَدُ. وجَمعُ الرَّحِمِ: أَرحامٌ[1]، وفي الحديث: «الرَّحِمُ شِجۡنَةٌ مُعَلَّقَة بالعَرش، تقول: اللّهمَّ صِلۡ مَن وَصَلَنِي، واقۡطَعۡ مَن قَطَعَني»[2]، وأصلُ الشُّجۡنَةِ شُعبَةٌ مِنَ الغُصُون يَعۡلَق بعضُها بِبَعض[3].

7) ﴿ٱلۡأُنثَيَيۡنِ﴾: الأُنثى خِلافُ الذَّكر مِن كُلِّ شَيءٍ، وامرَأَةٌ أُنثَى كامِلَةُ الأُنوثَةِ، والجَمعُ: إِناثٌ، وأصلُ الأُنُوثَةِ مِنَ التَّأنيث، وهو التَّليينُ والتَّسهيلُ، يُقالُ: أَنَّثَ في الأمرِ يُؤَنِّثُ تَأنيثًا؛ أي: لَانَ وتَساهَلَ[4]. وفي القرآن جعل اللّه نصيبَ الأنثى ثلثًا، ونصيب الذّكر ثلثين مِنَ التّركة: ﴿لِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۚ﴾ [النّساء: 11].

قال القاضي عبد النّبيّ بن عبد الرّسول الأحمد نكري: "ولي ها هنا نُكتة لطيفة غريبة وهي أنّ أعدادَ آدم بحساب الجُمَّلِ خمسةٌ وأربعون، وأعداد حواء بذلك الحساب خمسةَ عشَرَ، ولا شكّ أن خمسةَ عشَرَ ثلثُ خمسةٍ وأربعين، فجعل اللّه تعالى حصّةَ الأنثى ثلثَ المال، وحصّةَ الذّكر ثلثيه"[5].

8) ﴿نَبِّـُٔونِي﴾: النَّبَأُ: الخَبَرُ، يُقال: أَنبَأۡتُ فُلانًا نُبُوءَةً، ونَبَّأۡتُهُ وأَنۡبَأۡتُهُ؛ أي: أَخبَرۡتُهُ خَبَرًا، والإِنباءُ: الإِخبارُ والإِعلامُ عنِ الشَّيءِ قَبلَ وَقتِ ظُهُورِهِ. وأَصلُ النُّبوَّة مِنَ النَّبۡوَةِ والنُّبُوءِ، وهو: العُلُوُّ والارتِفاعُ، ومنه اشتِقاقُ النَّبِيِّ؛ لارتِفاعِ قَدۡرِهِ في الدُّنيا والآخِرَة؛ ولأنَّهُ كالعَلَمِ يُهتَدى به[6]. و"النّبأ: الإتيانُ من مكان إلى مكان؛ يُقال للّذي يَنۡبَأُ من أرض إلى

(1) ابن سيده، المحكم، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس: (رحم).

(2) أخرجه بنحوه من رواية أبي هريرة: البخاري، الصحيح الجامع، برقم: (5988)، وأحمد في مسنده، برقم: (8975)، ورواه غيرُ واحد من الصحابة.

(3) الحديث وارد برواية أخرى، عنِ البزّار بإسناد حسن، عن أنس أنّ النّبيّ ﷺ قال: «الرَّحِمُ حَجَنَةٌ مُتمسّكة بالعَرش، تتكلّم بلسان ذُلَقٍ، تَقول: اللهمَّ صِلۡ مَن وَصَلَنِي، واقطَع مَن قَطَعني، فيقول الله ﷻ: أنا الرّحمن الرّحيم، وإنّي شققتُ للرّحم مِن اسمي، فمَن وصلها وصلتُه، ومَن بتكَها بتكْتُه». عبد العظيم المنذريّ، كتاب التّرغيب والتّرهيب: 3/340.

(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والجوهريّ، الصّحاح، والزّبيديّ، تاج العروس: (أنث).

(5) الأحمد نكري، دستور العلماء (جامع العلوم في اصطلاحات الفنون): (الثّلث).

(6) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن سيده، المحكم، وابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس: (نبأ - نبا).

أرض: نابِئٌ. وسَيلٌ نابئ: أتى من بلد إلى بلد، ورجلٌ نابئ مثله، ومِن هذا القياس النّبأ: الخبر، لأنّه يأتي من مكان إلى مكان"[1].

9) ﴿بِعِلۡمٍ﴾: العِلمُ: المَعرِفَةُ، يُقال: عَلِمْتُ الشَّيءَ أَعْلَمُهُ عِلْمًا؛ أي: عَرَفتُه، وضِدُّه: الجَهلُ. ويأتي العِلمُ بمعنى: الإتقانِ والإحكام، يُقال: عَلِمَ الأَمرَ وتَعَلَّمَه؛ أي: أَتقَنَهُ. ومِن مَعانِيه: الإدراكُ والاعتِقادُ والتَّصدِيقُ والظَّنُّ[2]، وعلِمَ بالأمر، وهو عَالِم به: أحاط عِلْمًا به، أو أَلَمَّ به إلمامًا شاملًا، والعلم في الاصطلاح: "مجموعة مسائل في موضوع معيَّن، اكتسبها الإنسانُ مِن اكتشاف وترجمة النّواميس الموضوعيَّة الّتي تحكم الأحداث والظّاهرات"[3].

10) ﴿صَٰدِقِينَ﴾: الصِّدقُ ضدُّ الكَذِب، وصَدَّقه: قَبِل قولَه، وصدَقَه الحَديثَ: أَنبأَهُ بالصِّدق. ويُقال: صَدَقْتُ القوم؛ أي: قلت لهم صِدْقًا، والصِّدقُ مُطابَقَةُ القَول الضَّمير والمخبَر عنه معًا، ومتى انخرمَ شَرط مِن ذَلك لم يكن صِدقًا تامًّا[4]، وحيث إنّهم كذبوا في ادّعاء تحريم ما ادّعوا أنّ اللّه حرّم عليهم، فقد أخبرهم اللّه أنّه تعالى جعله كلّه حلالًا، فقال له: قل لهم يا محمّد: "أخبروني بمستنَدٍ صحيحٍ يُعتمد عليه، إنْ كنتم صادقين فيما تزعمون منَ التّحليل والتّحريم"[5].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

بيان نعمة الله بالأنعام، وأنّ تحريم الجاهليّة كان بالأهواء لا بالتّشريع

هذه الأنعام الّتي رزقها اللّه عِبادَه منَ الإبل والبَقر والغنَم

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نبأ).
(2) الخليل، العين، وابن دريد، جمهرة اللّغة، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب، والزَّبيديّ، تاج العروس: (علم).
(3) الخليل، العين، وابن دريد، جمهرة اللّغة، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب، والزَّبيديّ، تاج العروس: (علم).
(4) ابن دريد، جمهرة اللّغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (صدق).
(5) أسعد حومد، أيسر التّفاسير، ص: 933، ومجموعة من المؤلفين، المنتخب في تفسير القرآن الكريم، ص: 198.

ثمانية أصناف: أربعةٌ منها مِنَ الغَنم؛ وهي الضَّأن ذُكورًا وإناثًا، والمَعز ذكورًا وإناثًا. قُل - يا محمَّد - لأُولئك المشركين: هل حَرَّم اللّه الذَّكرين منَ الغنَم؟ فإن قالوا: نعم، فقد كذبوا في ذلك؛ لأنَّهم لا يحرِّمون كُلَّ ذَكر مِنَ الضَّأن والمَعز. وقُل لهم: هل حَرَّم اللّه الأُنثَيين منَ الغنَم؟ فإن قالوا: نعم، فقد كذبوا أيضًا؛ لأنَّهم لا يحِّرمون كلَّ أنثى مِن ولد الضَّأن والمَعز. وقُل لهم: هل حَرَّم اللّه ما اشتملت عليه أرحام الأُنثَيين منَ الضَّأن والمَعز منَ الحَمْل؟ فإن قالوا: نعم، فقد كذبوا أيضًا؛ لأنَّهم لا يحرِّمون كلَّ حَمْلٍ مِن ذلك، خبِّروني بعِلمٍ يدلُّ على صِحَّة ما ذهبتم إليه، إنْ كنتم صادقين فيما تنسبونه إلى ربِّكم[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالةُ الإطنابِ بالتّفصيل بعد الإجمال:

التَّبيين قبل الاستدلال، وسيلة لإقامة الحُجَّة

في قوله تعالى ﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزۡوَٰجٖۖ﴾ تفصيلُ ما ذُكِرَ منَ الذُّكورِ والإناثِ، وما في بُطونِها؛ للمبالغةِ في الرَّدِّ عليهم بإيراد الإنكار على كلِّ مادَّةٍ من موادِّ افترائِهم، فيَظهَر للمُتفكِّرِ فيه منهم؛ أنَّه لا وَجهَ يُعقَلُ لقَولِهم. إضافة إلى ذلك أنَّهم لَمَّا كانوا قد حَرَّموا في الجاهليَّةِ بَعضَ الغَنَم، ومنها ما يُسمَّى بالوَصيلة، وبعضَ الإبلِ كالبَحِيرة والوَصيلة أيضًا، ولم يُحرِّموا بعضَ المَعْزِ ولا شيئًا منَ البَقَر، ناسَبَ أنْ يُؤتَى بهذا التَّقسيمِ قبل الاستدلالِ؛ تمهيدًا لتحَكُّمِهم، إذ حَرَّموا بعضَ أفرادٍ من أنواعٍ، ولم يُحَرِّموا بعضًا مِن أنواعٍ أخرى، وأسبابُ التَّحريمِ المزعومةُ تتأتَّى في كلِّ نوعٍ؛ فهذا إبطالٌ إجماليٌّ لِمَا شَرَعوه، وأنَّه ليس مِن دينِ اللّه، ﴿وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا ٨٢﴾ [النّساء: 82][2]، يُضاف إلى ما ذُكر تعليلٌ آخر؛ وهو أنَّ الحقَّ

(1) نخبة من أساتذة التّفسير، التّفسير الميسّر، ص: 147.

(2) محمّد رضا، تفسير المنار: 124 - 125/8، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/129.

تعالى أراد أنْ يُقرِّر ذلك على مزاعمهم شيئًا فشيئًا؛ وذلك أشدُّ في التَّوبيخ والتَّقريع، مِن أن يُذكر دفعةً واحدةً.

دلالة التّأويل الإعرابيّ للفظ ﴿ثَمَٰنِيَةَ﴾:

أحكام الله تطال الأنواع الثّمانية منَ الأنعام، ولا تتركها لأهواء الأنام

﴿ثَمَٰنِيَةَ﴾: قال الأخفش: منصوبٌ، على أنَّه بدلٌ مِن ﴿حَمُولَةَ وَفَرْشًا﴾، أو منصوب على الحال، أو بإضمارِ فِعلٍ؛ تقديرُه ﴿أَنشَأَ﴾. وقال عليّ بن سليمان: هو منصوب بـ﴿كُلُواْ﴾، أي: كلوا لحم ثمانية أزواج، وقيل: هو منصوب على البدل من (ما)، على المَوضِع، وقوله: ﴿ٱثْنَيْنِ﴾ بدل من ﴿ثَمَٰنِيَةَ﴾[1].

وأيًّا كان تأويلُ لفظ ثمانية، فإنّه يستوعب الأنواع الثّمانية المعهودة فيما يملكه النّاس من أنعام، تتقابل فيها الذّكورة والأنوثة منَ الأصناف الأربعة المعهودة؛ لتعطيَ الرّقم ثمانية. وكانوا يقولون: قد حرّمها اللّه، فأنكر ذلك عليهم، وهم في تحريمهم بعضها دون بعض يتدخّلون في تقرير الأحكام تحريمًا وتحليلًا، وهو أمرٌ لا ينبغي لبشرٍ أن يتطاول إليه؛ لأنّه من خصائص الذّات الإلهيّة المهيمنة على الكون ومن فيه.

بلاغة الاستعارة في لفظ ﴿أَزْوَٰجٍ﴾:

إطلاق كلمة الأزواج على غير الإنسان؛ لشبهها بالزّوجين منه

يُطلق الزَّوج غالبًا على الذَّكر والأُنثى من بني آدم، قال تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ۝٤٥﴾ [النّجم: 45]، ويخصّ اللّفظ (زوجان) في الاصطلاح، بأنْ يُطلَق على الطّرفين المتلازمين بعقدة نكاح، وتُوُسّع في هذا الإطلاق، فأُطلِقَ بالاستعارة على الذَّكر والأُنثى منَ الحيوان الَّذي يتقارن ذَكَره وأُنثاه، مثل: حمار الوحش وأتانه، وذَكر الحمام وأُنثاه؛ لشبهها بالزَّوجين منَ الإنسان. والأزواج هنا أزواج الأصناف، وليس المراد زوجًا بعينه، إذ لا تُعرف

(1) مكّيّ القيسّي، الهداية إلى بلوغ النّهاية: 3/2220.

بأعيانها، فثمانية أزواج هي أربعة ذكور من أربعة أصناف، وأربع إناث كذلك[1]، وقد كانتِ الاستعارة المُلمحةُ هنا في غاية الجمال، من حيث دلالتُها على أداء المطلوب، في إطار تصحيح الانحراف العقائديّ والتّشريعيّ الّذي انصبّ حوله المُؤدَّى السّياقيّ في هذه الآية والّتي بعدها.

فائدة التَّفصيل في قوله: ﴿مِّنَ ٱلضَّأۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَمِنَ ٱلۡمَعۡزِ ٱثۡنَيۡنِۗ﴾:

مِن أغراض التّفصيل التّوطئة للاستدلال

قوله: ﴿ٱثۡنَيۡنِ﴾ بدل تفصيل، والمراد: ﴿ٱثۡنَيۡنِ﴾ منها؛ أي: منَ الأزواج؛ أي: ذَكَر وأُنثى، كلّ واحد منهما زوجٌ للآخر، وقوله: ﴿مِّنَ ٱلضَّأۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَمِنَ ٱلۡمَعۡزِ ٱثۡنَيۡنِۗ﴾، تفصيلٌ لمضمون لفظ ﴿ثَمَٰنِيَةَ﴾. "وُيقال: كُلوا ممّا رزقكم الله ثمانية أزواج، نزلتِ الآية في مالك بن عوف وأصحابه، حيث قالوا: ما في بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ومحرّم على أزواجنا"، والظّاهر أنّ الإشارة هنا إلى أنّ قولهم هذا كان مقرونًا بنيَّتِهم في تفصيل ما بيّنوا منَ الأصناف، تحريمًا وتحليلًا[2]. وفائدة هذا التَّفصيل: التَّوصُّلُ لذِكْرِ أقسام الذُّكور والإناث، توطئةً للاستدلال الآتي في قوله: ﴿قُلۡ ءَآلذَّكَرَيۡنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلۡأُنثَيَيۡنِ﴾ الآية، وقُدِّم الضَّأن على المَعز لغلاء ثمنه، وطيب لحمه، وعِظَم الانتفاع بصوفه[3].

معنى ﴿مِّنَ﴾ في قوله ﴿مِّنَ ٱلضَّأۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَمِنَ ٱلۡمَعۡزِ ٱثۡنَيۡنِۗ﴾:

(مِن) لبيان الجنس، في موقعَيها منَ الآية الكريمة

جاءَت ﴿مِّنَ﴾ هنا لبيان الجنس؛ أي: (من فئة الضّأن اثنين)، و(من فئة المَعز اثنين)؛ أي: من جنسهما، ﴿مِّنَ ٱلضَّأۡنِ ٱثۡنَيۡنِ﴾ فالذّكر زوج، والأنثى زوج، والضّأن والنِّعاج جمعه، واحده: ضائن، والأنثى: ضائنة، والجمع: ضوائنُ، و﴿وَمِنَ ٱلۡمَعۡزِ ٱثۡنَيۡنِۗ﴾، والمَعْزُ: المِعْزى، لا

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/أ128.
(2) السّمرقنديّ، بحر العلوم: 1/490.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/672، والهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 9/102.

واحد له من لفظه، وأمّا الماعِزُ فجَمْعُه مَعيزٌ، وجمعُ الماعِزَةِ مَواعِزُ، وقرأ أهل المدينة والكوفة: مِنَ المَعْزِ ساكنة العين، والباقون بالفتح[1]، وواضح أنّ ﴿مِّنَ﴾ تبيِّنُ جنسَ ما قصدوه منَ الأصناف المفصَّلة بأسمائها في هذه الآية، وهو نقل من واقع ماكانوا يعتقدونه دينًا، ويمارسونه تشريعًا.

دلالة فعل الأمر (قُلْ):

أهمّيّة استعمال أسلوب الأمر للحوار مع الكفّار

قوله تعالى ﴿قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ أمرٌ مِنَ اللّه تعالى للنَّبيِّ ﷺ، أنْ يقولَ لهم ذلك تَبْكيتًا، وإظهارًا لانقطاعِهم عنِ الجوابِ: ﴿ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾[2]، "حكى أبو صالح عنِ ابن عبّاس، أنّ هذه الآية نزلت على رسول اللّه ﷺ، حين أتاه عوف بن مالك، فقال له: أحللتَ ما حرّمه آباؤنا، يعني: منَ البَحِيرة، والسّائبة، والوَصيلة، والحامِ، فأنزل اللّه تعالى هذه الآية، وقال: ﴿ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾، فَسَكتَ عوفٌ لِظهورِ الحُجَّة عليه"[3].

دلالة الوضع البيانيّ لقوله: ﴿قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ﴾:

السّياق القرآنيّ يعمد إلى الحوار المقنِع، لِدَحْضِ الادّعاءات الزّائفة

هذا الكلام ردٌّ على المشركين؛ لإبطالِ ما شَرَعوه، بقرينة قوله: ﴿نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾، وقوله: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ﴾ الآية، وقوله: ﴿قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ – إلى آخرها في المَوضِعَيْن – اعتراضٌ بعد قوله: ﴿وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ﴾، وقوله: ﴿وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ﴾[4]، والمعنى: "ما الّذي حُرِّمَ عليكم فيما زَعمتُم: هل حُرِّمَ عليكم الضّأن والمَعزُ معًا، أم أنثى الضّأن والمعز فقط ؟ فإنْ كان التّحريم من جهة الذّكر، فيجب أن تحرّموا على أنفسكم كلّ ذكَرٍ، وأنتم تستمتعون ببعض الذّكور وتأكلونه، وإنْ كان

(1) أبو إسحاق الثّعلبيّ، الكشف والبيان عن تفسير القرآن: 4/199.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/193.
(3) الماورديّ، النّكت والعيون: 2/181.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/أ129 - 130.

من جهة الأنثى فحرِّموا كلّ أنثى! أم حُرِّمَ عليكم ما اشتملَتْ عليه أرحامُ الأُنثيين؟ فيلزمكم أن تحرِّموا كلَّ ما اشتَملَتْ عليه الأرحام، فتُحرِّموا الذّكرَ والأنثى"[1]، وهذه دلالةٌ على عقلانيةِ الحوارِ، وبلاغة الإقناع الّتي ينتهجها السّياق القرآنيّ، فلا يجدون معها منها فرارًا، ولا بعدها جوابًا.

بلاغة الاستفهام في قوله: ﴿ءَآلذَّكَرَيۡنِ حَرَّمَ﴾:

الاستفهام إنكاريّ توبيخيّ، مُنبِّهٌ على سوء الفهم، وانحراف الاعتقاد

الهمزةُ في قَولِه: ﴿ءَآلذَّكَرَيۡنِ﴾ للاستفهام الإنكاريِّ، وللتَّوبيخ والتَّقريع، والمقصودُ إنكارُ التّحريم، لكنّه أورَدَهُ في صورة إنكارِ المفعول؛ ليُطابِقَ ما كانوا يَدَّعونَهُ منَ التَّفصيل في المفعول، فإذا أَنكر المفعولَ كان إنكارًا للفِعل بطريقٍ برهانيٍّ من جهة أنَّه لا بدَّ للفعل من مُتعلِّق، فإذا نفى جميع مُتعلِّقاته على التَّفصيل لَزِمَ نَفْيُهُ[2]. وهذا مسلكٌ برهانيٌّ مفيدٌ يعتمد على طَرحِ الاستفهام، لا تطلُّبًا للجواب، فهو أدرى به، وأَعْرَفُ بقوادمه وخوافيه، ولكنّ غايتَه الإنكارُ للظّاهرة، والتّوبيخُ على فعلها، وعَرْضُ مساوئها، بصورة مباشرة أو غير مباشرة.

نُكتةُ حذفِ فاعل الفعل ﴿حَرَّمَ﴾:

مسلك الحذف، تفاديًا لزيادة المبنى على المعنى

في قوله تعالى ﴿قُلۡ ءَآلذَّكَرَيۡنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلۡأُنثَيَيۡنِ﴾، حُذِف فاعلُ الفعل ﴿حَرَّمَ﴾؛ لأنّه معلوم دلَّ عليه سياق الآيات؛ فالضَّمير (الفاعل) عائد إلى اسم الله تعالى في قوله: ﴿كُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾ [الأنعام: 142]، أو في قوله: ﴿وَحَرَّمُواْ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ﴾ [الأنعام: 140] الآية[3]، قال القُرطُبيّ: "ووردَت المدَّةُ مع (أل) الوصل؛ في قوله: "﴿ءَآلذَّكَرَيۡنِ﴾؛ لتفرِّق بين الاستِفهَام والخبر، ويجوز حَذف الهَمزة؛ لأنّ ﴿أَم﴾ تدُلُّ على الاستِفهَام؛ كقوله:

(1) مكّيّ القيسّي، الهداية إلى بلوغ النّهاية: 3/2221.

(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/74، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/671، والسّيوطيّ، نواهد الأبكار: 3/393، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8أ/130 - 132.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8أ/130.

تَرُوحُ مِنَ الحَيِّ أَمْ تَبْتَكِرْ *** وماذَا يَضيرُكَ لَو تَنتَظِرْ؟[1]

دلالة (أم) في جملة ﴿أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾:

إبطالُ تحريمِ ما حَـرَّم المشركون أكلَه؛ لمخالفتِه حكم الله

وردتِ الآية في سياق إنكار أن يكون الله تعالى قد حرَّم أيًّا منَ الأنعام سواءً أكان الذَّكر أم الأنثى، أم ما في بطون الإناث؛ لذا استعمل الهمزة الَّتي دلالتها هنا الإنكار، والمقصودُ منه إبطالُ تحريم ما حرَّم المشركون أكلَه، ونفيُ نسبة التَّحريم إلى الله تعالى.

إذًا فإنَّ الله لم يحرِّم أيًّا من هذه الثَّلاثة؛ ولذا فـ(أم) هنا خرجت عمَّا رسمه النُّحاة لها من قولهم: إنَّها إذا سُبِقت بهمزة ليست للتَّسوية؛ فتُفيد مع الهمزة التَّعيين، وتكون بمعنى: أي[2] وهذه الهمزة ليست للتَّسوية، ولا هي للتَّعيين؛ لأنَّ علامتها أن تتوسَّط بين شيئين يُنسب لواحدٍ غيرِ معيَّنٍ منهما أمرٌ يعلمه المتكلِّم[3]. وبالنَّظر إلى السِّياق الَّذي وردت فيه (أم) يتبيَّن أنَّ معناها الإضرابُ الانتقاليُّ؛ أي: الانتقال من غرض إلى غرض؛ ويُقدّر بعدها محذوف هو (حرَّم) فيكون ما بعدها مفعولًا لهذا الفِعل المُقدَّر؛ وعلى هذا تكون (أم) قد ربطت بين جملتين في البنية الأساسيّة للنَّصّ[4].

دلالة (ما) في قوله: ﴿أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾:

أسلوب العموم يستوعب كلّ ما احتمله السّياق منَ الأنعام

لفظ (ما) في قوله: ﴿أَمَّا﴾ اسم موصول استوعب جميع ما يُفترض من سائر الأقسام[5]، فَدَلَّ على العموم، و(أمَّ) هذه حرف عطف، تعطف (مَا) الموصُولة على ما قَبلَها، فمحلُّها نصبٌ، تقديرُه: (أم الَّذِي اشتَمَلت عليه أرحَامُ الأُنثَيَين)، فلمّا التقتِ الميم ساكِنَةً مع ما بَعدَها وجبَ الإدغَامُ[6].

(1) ابن عادل الدّمشقيّ، اللّباب في علوم الكتاب: 8/479.
(2) ابن السّراج، الأصول في النّحو: 2/57.
(3) عبّاس حسن، النّحو الوافي: 3/589.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 133/أ8، وعبّاس حسن، النّحو الوافي: 3/589.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/295.
(6) السّمين الحلبيّ، الدّرُّ المصُون: 5/195.

نكتة إيراد الفعل ﴿ٱشۡتَمَلَتۡ﴾ دون غيره:

أهمّيّة استعمال المفردة القرآنيّة بما يناسب المعنى ويجلّيه

الاشتمالُ الإحَاطَةُ، تَقولُ: اشتَمَلَ عليه الأَمرُ؛ أي: أحاطَ به، وأصلُ الشُّمولِ: دَوَرانُ الشَّيءِ بالشَّيءِ، وأَخذهِ إيَّاهُ مِن جَوانبهِ، مِن ذلك قَولُهم: اشتملَ فُلانٌ بالثَّوب؛ أي: أدارَهُ على جَسَدِهِ كُلِّهِ حتَّى لا تَخرُجَ منه يَدُهُ[1].

يتَّضح ممَّا سبق أنَّ فِعل (اشتمل) أفاد الإحاطةَ والتَّعميمَ، والإدخالَ، والتَّغطِيَةَ، والاجتِمَاعَ؛ ولهذا ناسب مجيئه في الآية الكريمة دون مرادفاته.

فائدة تقديم شبه الجملة على الفاعل، في ﴿عَلَيۡهِ أَرۡحَامُ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۖ﴾:

التّقديم بقصد الاهتمام بالمقدِّم، من ملامح البلاغة الرّائقة

قال سيبَوَيْهِ رحمه الله: (كأنَّهم يُقدِّمون الَّذي هو أهمّ لهم، وهم ببيانه أعنى)[2].

والكلام في الآية الكريمة، يدور على ما حَملت هذه الأرحام، وليس الأرحام ذاتها؛ لذا قدّم عليها ما هو أهمّ، وهو ما اشتملتْ عليه هذه الأرحامُ منَ الأجِنَّة، وقد أفاد هذا التَّقديمُ الحَصْرَ، والمعنى: "قل لهم: إنْ كان حرَّمَ الذّكورَ فَكلُّ ذَكَرٍ حرامٌ، وإنْ كان حرَّمَ الإناث فكلُّ أنثى حرامٌ، وإنْ كان حرَّمَ ما اشتَمَلَتْ عليه أرحام الأنثيين، يعني: منَ الضّأن والمَعز، فكلّ مولود حرامٌ، ذكرًا كان أو أنثى، وكلّها مولود، فيستلزم أنّ كلّها حرامٌ"[3]. فالغاية هنا منَ البيان في الاستدلال بالسّؤال، ما اشتملت عليه الأرحام، لا الأرحام في حدّ ذاتها، ولذلك كان تقديم شبه الجملة دالًّا على ذلك، بوضوحٍ ودقّةٍ وفعاليّة.

دلالة التَّعبير بقوله تعالى: ﴿ءَآلذَّكَرَيۡنِ﴾ و﴿ٱلۡأُنثَيَيۡنِۚ﴾:

تثنية الذَّكرَيْن والأُنثيَيْن: باعتبار ذكور وإناث النَّوعين، والتَّعريف

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والجوهريّ، الصّحاح، وابن منظور، لسان العرب: (شمِلَ).
(2) أبو سعيد السّيرافيّ، شرح كتاب سيبويه: 1/263.
(3) الشّوكانّي، فتح القدير: 2/195.

فيهما تعريف الجنس، وتعدية الفعل ﴿حَرَّمَ﴾ إلى ﴿ءَآلذَّكَرَيْنِ﴾، و﴿ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾، و﴿أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾، على تقدير مضاف معلوم منَ السِّياق؛ أي: حَرَّمَ أكلَ الذَّكَرَيْن أم الأُنثيَيْن، إلى آخره[1]، وغايةُ التّعبير بالاستفهام عنِ الذّكرين والأنثيين، شمولُهما الأصنافَ المسؤولَ عنها؛ للوصول إلى الإقناع العامّ والعميق، ببطلانِ دعواهم بتحريم ما لم يحرّمه اللّه. قال المراغيُّ: "وقصارى ذلك، إنّه تعالى ما حَرَّمَ عليهم شيئًا من هذه الأنواع، وأنّهم كاذبون في دعوى التّحريم، وقد فصّل ذلك أتمّ التّفصيل، مبالغةً في الرّدّ عليهم"[2].

فائدة الباء في لفظ ﴿بِعِلْمٍ﴾:

في قوله تعالى ﴿نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾، الباء تحتمل معانيَ متعدّدةً ومقبولةً، في لفظ ﴿بِعِلْمٍ﴾ حيث يَحْتَمِلُ أن تكون لتعديةِ فعلِ الإنباء، فالعلم بمعنى المعلوم. ويَحتمِل أن تكون للملابَسَة؛ أي: نبِّئوني إنباءً مُلابِسًا للعلم، فالعلم ما قابل الجهل؛ أي: إنباءَ عالمٍ[3]. ويمكن أن تكون الباء للسَّببيَّة؛ أي: نبّئوني بسبب علمٍ وقعتُم عليه، والمعنى: "﴿نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ﴾: أخبروني بأمرٍ معلومٍ من جهة اللّه تعالى، يدلّ على تحريم ما حَرَّمتُم، إنْ كُنتُم صادِقِينَ في أنّ اللّه حرّمه"[4].

ما لادليلَ عليه من عِلْمٍ أثيرٍ، فليس له في الأحكام من تأثيرٍ

نُكتةُ تنكيرِ لفظ (عِلْم):

لَمَّا كانوا عاجزينَ عنِ الإنباءِ دَلَّ ذلك على أنَّهم حَرَّموا ما حرَّموه بجهالةٍ وسُوءِ عَقلٍ، لا بِعِلمٍ، وشأنُ مَن يتصَدَّى للتَّحريمِ والتَّحليلِ أن يكون ذا علمٍ[5]. وعبَّر بلفظة (عِلْم) منكَّرة؛ للدّلالة على جهلهم،

مِن أغراض التَّنكير التّقليلُ، وهو مَلْمَحٌ منَ التّحدّي جليل

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/133أ.
(2) أحمد مصطفى المراغيّ، تفسير المراغيّ: 8/54.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/133أ، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2707.
(4) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/74.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/133أ.

وضَعْفِ مذهبِهم، أمام الحُجَّة البالغة لله تعالى، ولو بأقلّ مبلغٍ منَ العلم. وهذا شبيه بما تحدّى الله به العربَ في الإتيان بمثل القرآن، ثمّ بعشر سور مثله مفترَيات، فكان العجز عن ذلك بالكلّيّة، فجاءهم التّحدّي بالإتيان بأقلّ مايُطلب، وهو سورة واحدة، قال تعالى: ﴿فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ﴾ [البقرة: 23]، ولذلك جاء لفظ (سورة) منكَّرًا للتّقليل. وعلى نفس الشّاكلة جاء ما ذكر منَ العلم منكّرًا، فقال: ﴿بِعِلْمٍ﴾؛ وذلك أنّه مطلوبٌ على وجه التّقليل، إذْ إنَّ الله يعلم أنّهم لا يملكون منَ العلم قليلًا ولا كثيرًا.

سرّ فصل الجملتين المتعاطفتين، بالجملة المُعترِضة في السّياق:

الفصل على سبيل التّقريع والتّوبيخ، مهمٌّ في الإفصاح والبيان

لقد فَصَلَ بالجُملة المعتَرِضةِ بين المتعاطفَين، وهي: ﴿نَبِّـُٔونِي بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾، على سَبيل التَّقريع لهم والتَّوبيخ؛ حيثُ لم يَستَنِدوا في تَحريمِهم إلَّا إلى الكَذِب البَحْتِ والافتراءِ، وموقع هذه الجملة بمنزلة المنع، وهذا تهكُّمٌ؛ لأنَّه لا يَطلب تلقي عِلْم منهم، وهذا التَّهكّم تابعٌ لصورة الاستفهام وفرعٌ عنها، وهو هنا تجريدٌ للمجاز أو للمعنى الملزوم المنتقل منه في الكناية[1]، بعد البيان الصّادق الّذي ذُكِر أوّلًا، يكون قوله تعالى: ﴿نَبِّـُٔونِي بِعِلْمٍ﴾ من قَبيل التّهكُّم بهم؛ إذ لا دليل عندهم؛ وطلبُه بعد بطلان وجوده تهكُّمٌ به أو تعجيزٌ لهم، والعجز عن إقامة الدّليل في وقت الاحتجاج، تسليم بالمُدَّعَى بحكم المنطق المستقيم، والتّفكير القويم[2].

دلالةُ التَّعبيرِ بالجملتين الفعليَّة والشَّرطيَّة:

إقامة الدّليل على الافتراء، مسلكٌ في التَّبكيتِ والإلزامِ بالحُجَّة

في قوله تعالى ﴿نَبِّـُٔونِي بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾، جاءتِ الفاصلة مكوَّنةً من جُملتين؛ فعليَّةٍ وشرطيَّةٍ، أمَّا الجملة الأولى فالفعليَّة، وهي بصيغة الأمر: ﴿نَبِّـُٔونِي﴾، والغرض البلاغيّ من فعل الأمر هو

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/672، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/133أ.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2707.

التَّعجيز والتَّبكيت لهم، والجملة الثَّانية الشَّرطيَّة جوابها محذوف، تقديره: فافعلوا، والجملة الأُولى هي بدل اشتمال مِن: ﴿ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾. فالجملة جاءَت تُلزِمُهم بالدَّليل على صِحَّة افتراءاتهم، وعليه فالفاصلة بجملتيها، هي من قبيل التَّهكُّم؛ لأنَّه لا يطلب منهم الدَّليل[1]. واستُعمل الفعل: ﴿نَبِّـُٔونِى﴾؛ لأنَّ النَّبأ: الخبر العظيم، وهذا عظيمٌ في زعمهم.

عِلَّة التَّعليق بـ ﴿إِن﴾ في قوله تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾:

تأتي (إنْ) للأمرِ المشكوكِ فيه، أو النّادرِ الوقوع

التَّعليق بـ﴿إِن﴾ فيه إشارة إلى أنَّهم لا صِدْقَ عندهم، وأنَّهم يفترون على الله تعالى فيما يدَّعون[2]، "والمعنى: إنكار أن يحرِّم الله تعالى من جنس الغنم ضَأْنَها ومَعْزَها شيئًا من نوعي ذكورها وإناثها.﴿نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ﴾: أخبروني بأمرٍ معلومٍ من جهة الله تعالى يدلّ على تحريم ما حرَّمْتُم، إنْ كُنتُم صادِقِينَ في أنّ الله حرّمه"[3]. وهو هنا يورِد ﴿إِن﴾ الّتي تحتمِل الأمرين؛ وقوعًا وعدمًا، باعتبار مُقتضَى حال المُخاطَبين، وهم في هذا السّياق غيرُ صادقين، ففُهِمَ من ذلك التّعريضُ بإفْكِهم، وبباطلِ أحكامِهم.

فائدةُ حذفِ جوابِ ﴿إِن﴾ في قوله تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾:

العجزُ عن بيانِ ما نَسبوا تحريمَهُ إلى الله تعالى

حُذِفَ جواب ﴿إِن﴾ للعِلم به مِن فَحْوى الكلام، ولأنَّ فيما تقدّم دليلًا عليه؛ أي: ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾، في قولكم: إنَّ الله حَرَّم ما ذكرتم أنَّه محرَّمٌ؛ لأنَّهم لو كانوا صادقين في تحريم ذلك، لاستطاعوا بيانَ ما حرَّمه الله، ولأَبْدَوا حكمةَ تحريمِ ما حرَّموه، ونَسبوا تحريمَه إلى الله تعالى[4].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/أ133.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2707.
(3) إبراهيم الأبياريّ، الموسوعة القرآنيّة: 9/470.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/672، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/أ133.

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(اشتملت) و(احتوت):

الاشتمالُ يعني الإحاطةَ بالشّيء، والاحتواءُ التّضمُّنَ، وكلاهما فصيح

الاشتمالُ الإحاطَةُ، وأصلُ الشُّمولِ: دَورانُ الشَّيءِ بالشَّيءِ، وأَخذهِ إيَّاهُ مِن جَوانبه، ويأتي الاشتمالُ بمعنى: التَّعميم. والشُّمولُ: العُمومُ، يُقالُ: شَمِلَهُمُ الأَمرُ إذا عَمَّهُم. وهذا أمرٌ شاملٌ؛ أي: عامٌّ[1]. والشِّمالُ: الطَّبعُ، والجمع شَمَائِلُ، وقد قيل: (ليس من شِمالي أن أعملَ بشِمالي)[2]، وقول عَبدِ يَغوثَ:

أَلَم تَعلَمَا أنَّ المَلامَةَ نَفعُهَا *** قَليلٌ وما لَومِي أخي من شِماليَا[3]

"واشتَملْتُ بالثَّوبِ: إذا أدَرْتَه على جَسَدك كُلّه حتَّى لا تُخرِج منه يَدَك، والشِّمْلَةُ: الصَّمَّاءُ الَّتي ليس تحتها قَميص ولا سَراويلُ، وكُرِهَتِ الصَّلاةُ فيها"[4]. أمَّا الحِواءُ: فَاسْمُ المكانِ الّذي يحوي الشَّيءَ؛ أي: يجمعُه ويَضمُّه، وفي الحديث: "أنَّ امرأة قالَتْ: إنَّ ابنِي هذا كانَ بَطنِي له حِوَاء"[5].

واحْتَوى على الشَّيءِ: ضمَّه، واشتمل عليه: أَحْرَزَه ومَلَكه[6]، ويشتملُ الرّحمُ الجنينَ، بمعنى: يضمُّه، وينطوي عليه. ولفظ يحتوي الشّيء: يكون محتوًى فيه، إلّا أنّ الاشتمالَ أوسعُ دلالةً، وأبلَغُ تأديةً للمعنى المراد في السِّياق، ولذلك استعمله القرآن.

(النَّبأ) و(الخَبَر):

النَّبأ والخبر كلاهما نقلٌ لمعلومةٍ، والنّبأ لا عِلْمَ للمخبَر به غالبًا

الإخبار: يكون بِحَمْلِ الخَبر إلى جهة أخرى.

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والجوهريّ، الصّحاح، وابن منظور، لسان العرب: (شمِلَ).

(2) الزّمخشريّ، أساس البلاغة: (شمِلَ).

(3) ابن سيده، المحكم: (شمِلَ).

(4) ابن سيده، المخصّص: (شمِلَ).

(5) ابن منظور، لسان العرب، وابن الأثير، النهاية: (حوا). روى الحديثَ عبدُ اللهِ بنُ عَمْرٍو ﷺ: "أنَّ امْرَأَةً أَتَتِ النَّبِيَّ ﷺ، فَقالَتْ: يارسولَ اللهِ، إنَّ ابْني هذا كانَ بَطْني له وِعاءً، وحِجْري لَهُ حِوَاءً، وثَدْيي لهُ سِقاءً، وزَعَم أَبوهُ أَنَّهُ يَنْزِعُهُ مِنِّي؟!قال: «أَنْتِ أَحَقُّ بِهِ، ما لَمْ تَنْكِحي»". أخرجه أحمد في المسند، برقم: (6707)، واللفظ له، وأبو داود في السنن، برقم: (2276)، وغيرهما، قال شعيب الأرنؤوط: حديث حسن.

(6) أحمد مختار عمر، معجم اللّغة العربيّة المعاصرة: (حوي).

النَّبأ: لا يكون إلَّا للإخبار بما لايَعلمُه المُخبَر، ويجوز أن يكون الخَبر بما يعلمه المُخبَر، وبما لا يعلمه. وقال عليّ بن عيسى: في النَّبأ معنًى عظيم الشَّأن؛ ولذلك أُخذ منه صِفة النَّبيّ ﷺ. قال أبو هلال: ولهذا يُقال: سيكون لفلانٍ نَبأٌ، ولا يُقال: خبرٌ بهذا المعنى. والإنباء عنِ الشَّيء أيضًا قد يكون بغير حَمل النَّبأ عنه، تقول: هذا الأمر يُنبئ بكذا، ولا تقول: يخبرُ بكذا؛ لأنَّ الإخبارَ لا يكون إلَّا بحَمْل الخَبر[1].

(العِلم) و(المعرفة):

العِلمُ يتعلَّق بالشَّيء مُجمَلًا، والمعرفةُ تتعلّق بالشَّيء مُفصَّلًا

المعرفةُ تتعلَّق بذات الشَّيء؛ أي: مُسمَّاه، والعِلم يتعلَّق بأحواله وصفاته، فتقول: عرفتُ أباكَ، وعلمتُه صالحًا عالمًا؛ ولذلك جاء الأمر في القرآن بالعِلم دون المعرفة؛ كقوله تعالى: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [محمّد: 19]، فالمعرفة: حضورُ صورة الشَّيء، ومثاله العِلميّ في النَّفس، والعِلمُ: حضورُ أحوالهِ وصفاته، ونسبتها إليه؛ فالمعرفةُ تُشبه التَّصوُّرَ، والعِلمُ يُشبه التَّصديقَ، كما أنّ المعرفةَ في الغالب تكونُ لمَا غابَ عنِ القَلب بعد إدراكه، أو تكونُ لمَا وُصِف له بصفات قامَت في نفسه، فإذا رآه وعلِم أنَّه الموصوفُ بها، قيل: عرفه، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمۡۖ﴾ [الأنعام: 20]، ولمّا كانَت صفاتُه معلومةً عندهم، لمّا رأوه عرفوه بتلك الصِّفات، فالمعرفةُ تشبه التَّذكُّرَ للشَّيء؛ وهو حضورُ ما كان غائبًا عنِ الذُّكْرِ؛ ولهذا كان ضِدُّ المعرفة الإنكارَ، وضِدُّ العِلم الجهلَ.

وأكثرُ استعمالاتِ المعرفة في القرآن الكريم كان في مقام الذَّمِّ، كالجحود والإنكار والنِّفاق، وهذه المواقف لم تكن لما وُصِف أنَّه عِلْم، بل لم يأمر اللّه تعالى نبيَّه بالدُّعاء بالزِّيادة في شيءٍ إلَّا في العِلم؛ ﴿وَقُل رَّبِّ زِدۡنِي عِلۡمٗا ١١٤﴾ [طه: 114][2].

(1) العسكريّ، معجم الفروق اللّغويّة، ص: 528، والسّامرائّي، لمسات بيانيّة، ص: 916.
(2) بليل عبد الكريم، مقارنة بين المعرفة والعلم، موقع الألوكة، تاريخ: 12/11/2009م.

﴿وَمِنَ ٱلۡإِبِلِ ٱثۡنَيۡنِ وَمِنَ ٱلۡبَقَرِ ٱثۡنَيۡنِۗ قُلۡ ءَآلذَّكَرَيۡنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلۡأُنثَيَيۡنِ أَمَّا ٱشۡتَمَلَتۡ عَلَيۡهِ أَرۡحَامُ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۖ أَمۡ كُنتُمۡ شُهَدَآءَ إِذۡ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَاۚ فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيۡرِ عِلۡمٍۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٤٤﴾ [الأنعام: 144]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

المناسبة بين تقريعهم بالجهل، وعدمِ شهادتهم لوصيّة الله بها

انتقَل من توبيخِهم بعدم عِلْمِهم بذلك، إلى توبيخِهم في نفيِ شهادتهم ذلك وقتَ توصيةِ الله إيَّاهم بذلك؛ لأنَّ مَدرَكَ الأشياءِ المعقولُ والمحسوسُ، فإذا انْتَفَيَا، فكيف يُحكَمُ بتحليلٍ أو بتحريمٍ؟ وكيّفيَّةُ انتفاءِ الشَّهادة مِنهم واضحةٌ، وكيّفيَّةُ انتفاءِ العِلْمِ بالعَقلِ أنَّ ذلك مُسْتَنِدٌ إلى الوَحي، وكانوا لا يُصَدِّقون بالرُّسلِ، ومع انتفاءِ هذين كانوا يقولون: إنَّ اللّه حرَّم كذا؛ افتراءً عليه[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿كُنتُمۡ شُهَدَآءَ﴾: الشَّهادَةُ: الحُضورُ والمُعاينةُ، يُقالُ: شَهِدَ الشَّيءَ: إذا حَضَرَهُ وعايَنَهُ، وتُطلَقُ بمعنى الإخبارِ والإعلامِ، يُقالُ: شَهِدَ بالأمرِ: إذا أَخبَرَ به وأعلَمَ غيرَهُ به. والأشهاد: جمع شَهْد، مثل: صحب وأصحاب. والرّجل شاهد وشهيد، وقد جمعوا شهيدًا على شهداء. ويُقال: فلانة شاهدي[2]، والجمع أشهادٌ وشُهودٌ، وشَهيدٌ، والجمع شُهداءُ. والشَّهدُ: اسمٌ للجمع عند سِيبَوَيه، قال الأخفَش: هو جمع، وأشهَدتهُم عليه، واستَشهَده: سَأَلَهُ الشَّهادة، وفي التَّنزيل: ﴿وَٱسۡتَشۡهِدُواْ شَهِيدَيۡنِ﴾ [البقرة: 282][3]. وعليه فالشَّهادَةُ

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/672.
(2) ابن دريد، جمهرة اللغة: (الشاهد).
(3) ابن سيده، المحكم: 4/672.

إخبارٌ عن عِلم يَحصُلُ عن طَريقِ الحُضورِ أو الرُّؤيَةِ ونحوِ ذلك. ومِن مَعانِيها: العِلمُ، والرُّؤيَةُ، والإدراكُ[1].

2) ﴿وَصَّىٰكُم﴾: الوَصِيَّةُ: ما أَوصَيْتَ به، يُقال: أَوصَى يُوصِي إيصاءً، ووَصَّى يُوصي تَوصِيَةً: إذا عَهِدَ إليه. وأَوصَيْتُ إليه بمالٍ: جَعَلْتُهُ له، والوِصايةُ: فِعْلُ الوَصِيِّ. وأصلُ الكلمة يدلُّ على وَصلِ شَيءٍ بشيءٍ، ومنه سُمِّيَتْ وَصِيَّةً؛ لأنَّها وَصلٌ لِما كان في الحَياةِ بعد الموتِ. والجَمعُ: وَصايا[2].

3) ﴿أَظْلَمُ﴾: الظُّلمُ: الجَوْرُ ومُجاوَزَةُ الحَدِّ، يُقال: ظَلَمَهُ، يَظْلِمُهُ، ظُلْمًا ومَظْلِمَةً؛ أي: جارَ عليه. وضِدُّه: العَدلُ. وأَصلُه: وَضعُ الشَّيءِ في غَيرِ مَوضِعِهِ، كقولهم: ظَلَمَ الأَرضَ: إذا حَفَرَها في غَيرِ مَوضِعِ حَفرِها. ومِن مَعانيه أيضًا: التَّعَدِّي والحَيفُ[3]، "وكلّ مَن وضع شَيئًا في غير مَوضِعه فقد ظَلَمَ، فكأنّ الظَّالِم هو الَّذي يزيلُ الحقّ عَن جِهَته، وَيَأخُذُ ما ليس له، هذا وما أشبهه"[4].

4) ﴿ٱفْتَرَىٰ﴾: الافتراءُ: الكَذِبُ، والجَمعُ: فِرًى. يُقالُ: افتَرَى يَفتَرِي افتِراءً؛ أي: كَذَبَ. وقِيلَ الافتراءُ: الكَذِبُ العَظِيمُ، وقِيلَ: الكذبُ المُتَعَلِّقُ بالأعراض. ويأتي الافتِراءُ بمعنى: البُهتانِ والظُّلم، وأصلُهُ مِنَ الفَرْيِ؛ وهو: القَطْعُ والشَّقُّ، ومِنه الفِراءُ وهو الجِلْدُ؛ لأنَّه يُقطَعُ، وسُمِّيَ الكَذِبُ فِرْيَةً وافتِراءً؛ لأنَّ المُفتَرِي يَقتَطِعُ الكلامَ اقتِطاعًا مِن تِلقَاءِ نَفسِهِ، ويَقطَعُ وَيُفسِدُ في عِرضِ غَيرِهِ[5].

5) ﴿كَذِبًا﴾: الكَذِبُ: الإخبَارُ بخلاف الواقِعِ، وضِدُّ الكَذِبِ: الصِّدقُ. وَيُطلَقُ الكَذِبُ صفةً للخَبَرِ الّذي بخلاف الواقِعِ، وضِدُّهُ الحقيقةُ. ومِن معاني الكَذِبِ أَيضًا: الجُحودُ والافتِراءُ والزَّيْفُ والخِداعُ والخَطَأُ[6]، وقد قال النّبيّ ﷺ: «لَا كَذِبَ إلّا في ثلاثةٍ، وذَكَرَ الحربَ، والإصلاحَ بَيْنَ النَّاسِ، وإِرْضاءَ الرَّجُلِ أَهْلَهُ»[7].

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن الأثير، النّهاية، والزَّبيديّ، تاج العروس: (شهد).

(2) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والزَّبيديّ، تاج العروس: (وصى).

(3) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن سيده، المحكم، وابن منظور، لسان العرب، والزَّبيديّ، تاج العروس: (ظلم).

(4) ابن قتيبة الدّينوريّ، غريب الحديث: 1/247.

(5) ابن سيده، المحكم، وابن منظور، لسان العرب: (فرى).

(6) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والزّبيديّ، تاج العروس: (كذب).

(7) ابن قتيبة الدّينوريّ، غريب الحديث: 2/246. والحديث: أخرجه أبو داود، السنن، الحديث رقم: (4921)، وأحمد في مسنده، الحديث رقم: (27272)، وغيرهما. وأخرجه مسلم بإثر الحديث رقم: (2605) مُدْرَجًا من قول الزهري، وعليه جمهور النقاد من المحدِّثين، وانظر كلام الحافظ، فتح الباري: 5/300، وشرح الحديث: (2692).

6) ﴿لِّيُضِلَّ﴾: الضَّلالُ: الانحِرافُ والمَيلُ عَنِ الطَّريق، يُقالُ: ضَلَّ فُلانٌ يَضِلُّ ضَلالًا: إذا انحَرَفَ وضَاعَ ولم يَهتَدِ إلى الطَّرِيقِ. وأصلُهُ: ضياعُ الشَّيءِ وذَهابُهُ في غير حَقِّه. وقيل: الغَيبوبَة، والخَفاء، والسَّتْر[1]، وتقول: ضللتُ مكاني إذا لم تهتدِ له، وضلّ إذا جار عنِ القصد. وأضلَّ بعيره إذا أفلتَ فذهب[2].

7) ﴿لَا يَهْدِى﴾: الهُدى: الرَّشادُ والبَيانُ، والدَّلالةُ بلُطفٍ إلى ما يُوصِلُ إلى المَطلوبِ، يُؤَنَّثُ ويُذَكَّرُ، وهو لازمٌ ومُتَعَدٍّ. يُقال: هَداه هُدًى وهَدْيًا، وهِدايَةً، وهِدْيَةً. وهَداهُ للدِّين وإلى الدِّين؛ أي: أرشَدَهُ إليه وبَيَّنَهُ له، وعَرَّفَهُ به، وضِدُّه: الضَّلالُ. ومِن معانيه أيضًا: الطّاعَةُ، والوَرَعُ، وطَرِيقُ الحَقِّ، وإخراجُ شيءٍ إلى شيءٍ، والنَّهارُ[3].

❁ المَعْنى الإجْمالِيُّ:

ذِكْـرُ جِنْـسَيِ الإبِلِ والبَقَرِ مِنَ الأنعام، وما في تحريمها مِنَ الباطل والآثام

ذَكَرَ اللّهُ ﷻ بقيَّةَ الأزواجِ الثَّمانيَةِ بعد أنْ ذَكرَ أربعةً منها؛ فذَكرَ هنا ﴿وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ﴾: الذَّكَرَ والأُنثى، ﴿وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ﴾، كذلك: الذَّكَرَ والأنثى، ثمّ أمَرَ اللّهُ نبيَّه محمَّدًا ﷺ أن يُعيدَ عليهم الحُجَّة نفسَها: قل أيَّها الرَّسول للمُشركين: آللّه حَرَّمَ ما حَرَّمَ منها لذُكُورتِه أم لأُنوثَتِه، أم لاشتمالِ الرَّحِمِ عليه؟ أم كنتم أيَّها المشركون حاضرين - بزعمكم - حين وصَّاكم اللّه بتحريم ما حرَّمتم من هذه الأنعام؟!. ثمَّ أخبرَ تعالى أنَّه لا أحَدَ أشدُّ ظُلمًا مِمَّن كَذَبَ على اللّهِ تعالى؛ ليُضِلَّ النَّاسَ بغيرِ عِلمٍ، واللّهُ تعالى لا يُوَفِّقُ للحَقِّ القومَ الظَّالِمينَ[4].

(1) ابن دريد، جمهرة اللّغة، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن الأثير، النّهاية، وابن منظور، لسان العرب: (ضلل).
(2) الخليل، العين: (ضلّ).
(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن سيده، المحكم، وابن منظور، لسان العرب: (هدي).
(4) جماعة من علماء التّفسير، المختصر في تفسير القرآن الكريم، ص: 147.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالةُ العطفِ في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلۡإِبِلِ ٱثۡنَيۡنِ﴾:

دلالة السّياق على جواز المناظرة العلميّة، والقول بالنّظر والقياس

قوله: ﴿وَمِنَ ٱلۡإِبِلِ ٱثۡنَيۡنِ﴾ إلى قوله ﴿أَرۡحَامُ ٱلۡأُنثَيَيۡنِ﴾، عطف على ﴿وَمِنَ ٱلۡمَعۡزِ ٱثۡنَيۡنِ﴾؛ لأنَّه من تمامِ تفصيلِ عددِ ثمانيةِ أزواجٍ، والقول فيه كالقول في سابقه، والمقصود: إبطالُ تحريمِ البَحيرة والسَّائبة والحامي، وما في بُطونِ البَحائرِ والسَّوائبِ[1]. قال العلماء: "الآية احتجاج على المشركين في أمر البَحيرة وما ذُكر معها، وقولهم: ﴿مَا فِي بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلۡأَنۡعَٰمِ خَالِصَةٞ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِنَاۖ﴾ [الأنعام: 139]، فَدَلَّتْ على إثبات المناظرة في العلم؛ لأنّ اللّه تعالى أَمر نبيَّه ﷺ بأن يُناظِرَهم، ويبيِّنَ لهم فسادَ قولهم. وفيها إثباتُ القول بالنّظر والقياس، وفيها دليلٌ بأنّ القياس إذا ورد عليه النّصُّ بَطَل القول به"[2].

معنى (مِن) في جملة ﴿وَمِنَ ٱلۡإِبِلِ ٱثۡنَيۡنِ﴾:

الإبل أغلى ما تملكه العرب، وتُفاخِرُ به غيرها

معنى (مِن) في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلۡإِبِلِ ٱثۡنَيۡنِ﴾ لبيانِ جنسِ الإبل؛ أي: يشمل الجنسين معًا، الذَّكر والأُنثى، والإبل جنس يحوي ذكرًا وأنثى؛ هما النّاقة والبعير، والإبل أغلى ما تملكه العرب، وقد ولعوا بها، وقالوا فيها الأشعار، وتغنَّوا بِحُدائها وسيْرِها عَنَقًا فسيحًا، ووصفوا جمالَ مشيتها، وتمايل الرّاكب عليها، من ذلك قول القُطامِيِّ في وصف الإبل:

يَمشِينَ رَهْواً فَلا الأعجَازُ خاذِلَةٌ *** ولا الصُّدورُ على الأَعجازِ تَتَّكِلُ[3]

نوع (أل) في ﴿ٱلۡإِبِلِ﴾ و﴿ٱلۡبَقَرِ﴾ و﴿ءَآلذَّكَرَيۡنِ﴾ و﴿ٱلۡأُنثَيَيۡنِ﴾:

التَّعريف فيها تعريفُ الجنس وبيانُ نوعها، وهي منَ الأنعام الّتي أنعمَ بها اللّهُ على النّاس، قال الحريريّ في "درّة الغوّاص" في معرض

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/134أ.
(2) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 7/114.
(3) ابن قتيبة الدّينوريّ، المعاني الكبير في أبيات المعاني: 1/133.

كلامه عنِ الأنعام والنَّعَم: "وقد فرَّقَتْ بَينهمَا العَرَبُ، فَجعلتِ النَّعَمَ اسْمًا للإبلِ خاصَّة، وللماشية الَّتي فيها الإبل، وقد تذكّر وتؤنّث، وجعلتِ الأَنعَام اسمًا لأنواع المَواشي منَ الإبِل والبَقر والغنم، حتَّى أنّ بَعضهم أَدخَلَ فيها الظّباءَ وحُمُرَ الوَحْشِ تعلّقًا بقوله تَعَالَى: ﴿أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ [المائدة: 1][1]، ومن كلٍّ منها ذكر وأنثى. وذِكرُ الذّكورة والأنوثة بعد ذِكْر طرفَي الجنس، مِن شأنه أن يحدِّد أهميَّةَ ذلك في سياق التّناول للحقيقة، محلّ التّنديد والمعالجة.

الإبل والبقر كلاهما جنسٌ أليفٌ، ومنافعُهما لا تحتاج إلى تعريف

الوضع البيانيّ لقوله: ﴿قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ﴾:

قوله: ﴿قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾، إلى آخرها في المَوضِعين، اعتراضٌ بعد قوله: ﴿وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ﴾، وقوله: ﴿وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ﴾، وإبطالُ تحريمِ ما حَرَّم المشركون أكلَه، ونفيُ نسبة ذلك التّحريم إلى الله تعالى[2]، قوله تعالى: ﴿قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ إبطالٌ لمَا حرَّمَتْه الجاهليّة منها في البَحيرة، والسّائبة، والوَصيلة، والحامِ[3].

إبطالُ تحريمِ الجاهليّة، ونفيُ نسبتِه إلى الله تعالى

نُكتة حذفِ فاعل ﴿حَرَّمَ﴾:

حُذف فاعل الفعل ﴿حَرَّمَ﴾ في قوله سبحانه ﴿قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾؛ لأنّه معلوم دلَّ عليه سياق الآيات؛ فالضَّمير (الفاعل) عائد إلى اسم الله تعالى في قوله: ﴿كُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾ [الأنعام: 142]، أو في قوله: ﴿وَحَرَّمُواْ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ﴾ [الأنعام: 140] الآية[4].

حذف المسنَد إليه الفاعل؛ للإيجاز وللعلم به

نُكتة مجيءِ فعل ﴿ٱشْتَمَلَتْ﴾ دون غيره:

الاشتمالُ: الإحاطَةُ، تَقولُ: اشتَمَلَ عليه الأمرُ؛ أي: أحاطَ به. وأصلُ الشُّمولِ: دَورانُ الشَّيءِ بالشَّيءِ، وأخذُه إيَّاهُ مِن جَوانبِه، مِن

استعمال أدقّ الألفاظ لمَا يقتضيه السِّياق

(1) القاسم الحريريّ، درّة الغوّاص في أوهام الخواص، ص: 240.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/أ130.
(3) الماورديّ، النّكت والعيون: 2/181.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/أ130.

ذلك قَولُهم: اشتملَ فُلانٌ بالثَّوبِ؛ أي: أدارَهُ على جَسَدِهِ كُلِّهِ، حتَّى لا تَخرُجَ منه يَدُهُ[1].

ويتَّضح ممَّا سبق؛ أنَّ فِعل (اشتمل) أفاد الإحاطةَ والتَّعميمَ، والإدخالَ، والتَّغطيَةَ، والاجتِماعَ؛ ولهذا ناسب مجيئه في الآية الكريمة دون مرادفاته.

معنى ﴿أَمَّا﴾:

(أم) للإضراب الانتقاليّ، و(ما) موصولة أفادت العموم

لفظ ﴿أَمَّا﴾ في قوله: ﴿أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ استوعب جميع ما يُفترض من سائر الأقسام[2]، فلفظ (أم) عاطفة، عطفت (ما) الموصوليّة بعدها على الأُنثَيَين، فهي في محلّ نصب، فلمّا التقت ميم ساكنة مع ما بعدها وجب الإدغام[3]، وذلك أنّه "يجب إدغام المثلين المتجاورين، أوّلهما إذا كانا في كلمتين، كما كانا في كلمة واحدة، مثل: سكتَّ وسكنّا وعنّي وعليّ، واكتب بالقلم، واستغفر ربّك، وكالآية الّتي نحن بصددها: ﴿أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ﴾[4].

دلالة الاستفهام في قوله: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ﴾:

العِلم بالحلال والحرام مصدره منَ الله تعالى، دون سواه

ازداد التَّهكّم بهم في الآية الكريمة أكثر، عندما قُطِعَ الاستفهام اللَّاحق، عنِ الاستفهام السَّابق بـ﴿أَمْ﴾ في قوله: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَا﴾ [الأنعام: 144]، و﴿أَمْ﴾ هنا منقطعة؛ لأنَّ الهمزة للتَّصديق لا للتَّصور، والمعنى: بل أكنتم حضورًا عند ربِّكم حين أمركم بهذا التَّحريم[5]؟!. ووجه التَّهكُّم أنَّ العِلم بالحلال والحرام، لا يكون إلَّا عن طريقِ الرُّسلِ والكتبِ المنزَّلة، أو بسماعٍ مِنَ الله تعالى، وهم لا يؤمنون بالرُّسل، بدليل قوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ

(1) الجوهري، الصَّحاح، وابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (شمِلَ).
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/295.
(3) محيي الدّين درويش، إعراب القرآن وبيانه: 3/254.
(4) محيي الدّين درويش، إعراب القرآن وبيانه: 3/256.
(5) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/74، والنّسفيّ، مدارك التّنزيل: 1/544.

حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍۗ﴾ [الأنعام: 91]، فلم يبقَ إلَّا أنَّهم رأوا اللّه ﷻ، فوصَّاهم بهذا الَّذي يفترون...!(1)، وعليه فإنّ ﴿أَمْ﴾ المنقطعة للإضراب الانتقاليّ في الآية، تُؤْذِنُ باستفهام مُقدَّر بعدها؛ وهو استفهام إنكاريّ تقريريّ بقرينة السِّياق(2).

دلالة التَّخصيص في قوله: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ﴾:

استعمال الإنكار للتَّهكُّم بادّعائهم الأباطيل

لقد خَصَّ بالإنكارِ حالةَ المشاهَدَة تهكُّمًا بهم؛ لأنَّهم كانوا يُكَذِّبونَ الرَّسولَ ﷺ، فَحالُهم حالُ مَن يضع نفسه مَوضِع مَن يحضر حضرة اللّه تعالى؛ لسماع أوامره، أو لأنَّ ذلك لمّا لم يكن مِن شرع إبراهيم ولا إسماعيل عليهما السلام، ولم يأتِ به رسولٌ منَ اللّه، ولم يدّعوه، فلم يبقَ إلَّا أن يدّعوا أنّ اللّه خاطبهم به مباشرة(3)!

معنى ﴿إِذْ﴾، في جملة ﴿إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَاۚ﴾:

مَنِ اعتدى فَحَرَّم مالم يأْذَنْ به الله، فقد خالَفَ مأمورَ الله وهُداه

﴿إِذْ﴾ ظرفٌ لمَا مضى منَ الزَّمان، العامل فيه قوله: ﴿شُهَدَآءَ﴾ السَّابقة، كأنَّه قيل: شهداء وقت وصيّتكم بهذا، وهو مَلْمَحٌ افتراضيٌّ يكتمل به السّؤال التَّهَكُّميُّ في قوله: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَاۚ﴾، وقد احتوى السّياق (الهمزةَ)؛ للإنكار والتّوبيخ، و﴿أَمْ﴾ المنقطعة، و(بل) للإضراب. ومعنى: ﴿إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَاۚ﴾: "حين وصَّاكم بهذا التّرحيم، إذ أنتم لا تؤمنون بنبيٍّ، فلا طريقَ لكم حسبما يقود إليه مذهبُكم، إلى معرفة أمثالِ ذلك، إلّا المشاهدةُ والسّماعُ؛ وفيه من تركيك عقولِهم والتّهكُّمِ بهم ما لا يَخفى"(4).

نكتة التّعبير بالمضيّ في ﴿وَصَّىٰكُمُ﴾:

أُطلِقَ الإيصاءُ على ما أَمَرَ اللّهُ به بصيغة الماضي؛ لأنَّ النَّاسَ

(1) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 9/104.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/أ134.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/74، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/أ134.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/193.

لم يُشاهِدوا اللّهَ حين فِعْلِهم ما يأمُرُهم به، فكان أمرُ اللّهِ مُؤكَّدًا، فعَبَّرَ عنه بالإيصاءِ؛ تنبيهًا لهم على الاحترازِ مِنَ التَّفويت في أوامِر اللّه[1]، فاللّه تعالى لم يحرّم من كلّ ذلك شيئًا، وإنّما جعله كلّه حلالًا للنّاس؛ لينتفعوا به. ويسألُهم اللّه تعالى إن كانوا حاضرين ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ﴾ حين أوصاهم اللّه بما ابتدعوه من تحريم وتحليل؟ وهو تهكُّمٌ عليهم[2]. وورود الفعل الماضي منسجمٌ مع افتراض وقوع الأمر الّذي يشنِّعه عليهم، حين وقع التّحريم والتّحليل بلا رجوع إلى أوامر اللّه، ولكنّ ذلك لم يقع لأنّه مجرّد تصوُّرٍ افتراضيّ، يقتضيه منطق الحوار، ومنهج المناظرة، بقصد التّبكيت والمجادلة والإقناع.

من مقاصد القرآن التّنبيه على ضرورة الالتزام بأوامر الله تعالى

فائدة الإظهار بعد الإضمار، في قوله تعالى: ﴿إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَاۚ﴾:

كان الأصل أن يكون النَّصّ ﴿إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَاۚ﴾؛ بحيث يكون الفاعل ضميرًا مقدَّرًا، لكنّه عَدَلَ عن ذلك إلى هذه الصّيغة الموجودة في الآية، ولهذا العدول مزيّة ودلالة؛ هي التَّفخيمُ والتَّعظيمُ لذِكْرِ لفظ الجلالة ظاهرًا، فقد أبرز اسم الجلالة بلفظ ﴿ٱللَّهُ﴾؛ لإظهار هذا الاسم منَ الفخامة، ما لا يكون في الضَّمير.

إظهار لفظ الجلالة بعد إضماره، يُضْفي هالة منَ الجلال على السّياق

معنى الباء في شبه الجملة ﴿بِهَٰذَاۚ﴾:

الباء في ﴿بِهَٰذَا﴾ للتَّعدية، وتُسمَّى باء النَّقل أيضًا، وهي عند جمهور النَّحْويّين تُرادفُ الهمزة، فإذا قلت: خرجتُ بزيدٍ؛ فمعناه: أَخْرَجْتَ زيدًا، وعلى هذا المعنى قوله تعالى: ﴿إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَاۚ﴾، تكون الباء للتَّعدية. وقد ألمح ابن عاشور هنا إلى أمرٍ ذي بالٍ، فقال: "إنَّ باء التَّعديةِ جاءَت من باء المصاحَبة على ما بيَّنه

الباء للتّعدية، وتجيء من باء المصاحبة، مع تناسي المصاحبة

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/193، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/أ134.
(2) أسعد حومد، أيسر التّفاسير: 8/أ134.

المحقِّقون منَ النُّحاة، فإنّ أصل قولك: ذهبتُ بزيدٍ، أنَّك ذهبتَ مصاحبًا له، فأنت أَذهبْتَه معك، ثمّ تُنوسِيَ معنى المصاحبة[1].

دلالة اسم الإشارة وعلاقته بالسِّياق:

استعمال اسم الإشارة؛ للإجمال والتّفخيم

الإشارة ﴿بِهَٰذَا﴾ إلى التَّحريم المأخوذ من قوله: ﴿حَرَّمَ﴾؛ وذلك لأنَّ في إنكار مجموع التَّحريم تضمّنًا لإبطال تحريمٍ معيَّنٍ ادَّعوه، وهم يعرفونه؛ فلذلك صحَّتِ الإشارة إلى التَّحريم على الإجمال[2].

معنى الفاء في قوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ﴾:

لا ظلمَ أشدُّ ممَّن يفتري على الله كَذِبًا؛ ليضلّ النَّاس

في قوله تعالى ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾، الفاءُ لترتيب ما بَعدَها على ما سَبَقَ من تَبكيتِهم، وإظهارِ كَذِبِهم وافترائِهم. والمعنى: إذا كانوا قد كذبُوا على الله تعالى، وادَّعوا أنَّ الله حرَّمها، فهم ظالمون مفترون، ومَن أشدّ ظلمًا ممَّن يفتري على الله كذبًا؛ ليضلّ النَّاس[3].

دلالة الاستفهام في ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ﴾:

النَّفيُ بصيغة الاستفهام أبلغُ مِنَ التَّصريح به

خرج الاستفهامُ في هذه الجملة الكريمة عن مُقتضَى الظَّاهر - كما هو الحال في الاستفهامات الّتي تَرِدُ في كلام الله ﷻ - فالاستفهام هنا بمعنى النَّفي؛ أي: لا أحدَ أظلمُ منه، فاكتفى منَ الجواب بما يدلُّ عليه[4].بهذه الصِّيغة البليغة نفى ﷻ أن يكون أحدٌ أشدَّ ظلمًا لنفسه مِن هذا الَّذي يتقوَّل على الله الكذب؛ ليصدَّ النَّاس عن دين الله بجهله وسفهه[5]، ولا شكَّ أنَّ النَّفيَ بهذه الصِّيغة أبلغُ مِنَ التَّصريح به.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/9.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 134/أ8.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 134/أ8، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2708.
(4) الواحديّ، التّفسير البسيط: 8/52.
(5) ابن جرير، جامع البيان: 12/189.

دلالة المجيء بلفظ ﴿أَظْلَمُ﴾ مادّة وصيغة:

صيغة المبالغة (أظلم) مُخَصَّصةٌ من مُطلَق المفترين

صيغة المبالغة (أَفْعَل) تفيد أنَّ الشَّخص الموصوف بها، لا أحد غيره يفوقه في تلك الصِّفة؛ فأنت إذا قلت: (لا أحدَ أجودُ من حاتمٍ)، فهذا يعني أنّ حاتمًا أجودُ النَّاس، ولا يفوقه أحَدٌ آخر بهذا الجود؛ وعلى هذا الأسلوب تجري صيغة المبالغة في الأوصاف والأفعال، وأنَّ صيغة المبالغة ﴿أَظْلَمُ﴾، الواردة في هذه الآية وأمثالها مخصّصة من عموم السِّياق الَّذي وردت فيه؛ فقوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾، معناه: أنَّ أظلمَ المفترين والكاذبين، مَن يفتري على اللّه كذبًا، وكأنَّه قيل: لا أحدَ مِنَ المفترين (عموم المفترين)، أظلمُ ممَّن افترى على اللّه كذبًا.

فصيغة المبالغة ﴿أَظْلَمُ﴾ في الآية مخصَّصة من مُطلَق المفترين، وهذا الأمر على شاكلة قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ﴾ [البقرة: 114]، مخصَّص من عموم المانعين، فيكون أظلمُ المانعين مَن مَنعَ ذِكر اللّه، وعلى هذا المَنحَى؛ وهو (التَّخصيص) منَ العموم، تُفهم سائر الآيات الّتي جاءَت على هذه الشَّاكلة؛ وبالتَّالي لا يكون ثمَّة تعارض مع غيرها منَ الآيات[1].

معنى (مَن) في ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ﴾:

مَنِ افترى على الله كذبًا، أخذه أخذ عزيز مقتدر

في قوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾: (مَنْ): اسم استفهام إنكاريّ، معناه: النّفي؛ أي: لا أحدَ أظلمُ ممَّن افترى على اللّه كذبًا[2]، وافتراءُ الكذب على اللّه يتعلّق بالفرائض والأحكام والحقوق والواجبات، فالضّرر فيه كبير، والانحراف بضلاله خطير، "قال المحقّقون: إذا ثبت أنّ مَنِ افترى على اللّه الكذب، في تحريم مباح، استحقّ هذا الوعيد الشّديد، فمَنِ افترى على اللّه الكذب

(1) الزركشي، البرهان في علوم القرآن: 4/74.
(2) محمد الهلال، تفسير القرآن الثريّ الجامع، سورة يونس: آية: 17.

في مسائل التّوحيد، ومعرفة الذّات والصّفات والنّبوّات والملائكة ومباحث المعاد - كان وعيدُه أشدَّ وأشقَّ. ﴿لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ﴾ عن دين الله ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍۗ﴾ جاهلًا بصدور التّحريم عنه تعالى؛ أي: فمَن افترى عليه تعالى جاهلًا بصدور التّحريم عنه تعالى مع احتمال الصّدور عنه، كان أظلمَ ظالم، فما ظنّك بمَنِ افترى عليه تعالى، وهو يعلم أنّه لم يصدر عنه"[1].

معنى ﴿مِمَّنِ﴾ في قوله تعالى: ﴿مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ﴾:

مَنِ افترى على الله كذبًا خرج إلى دائرة سخط الله

و﴿مِمَّنِ﴾: أصلها: (مِنْ) و(مَنْ): أُدغمتِ الأُولى في الثّانية؛ فأصبحت (ممَّن)، (مِن) الأُولى: ابتدائيّة، و(مَن) الثّانية: اسم موصول بمعنى الَّذي، وتشمل المفرد والمثنى والجمع، والذَّكر والأُنثى، ومَنْ: للعاقل، وتشمل المفرد، والمثنى، والجمع؛ وهو اسم موصول، والمراد به الجنس؛ أي: كلّ مَنِ افترى على الله كذبًا، وليس المراد فردًا معيَّنًا. فالفعل قبيحٌ ومُستبشَع، وكلّ مَن فعله مهما كان وصفُه، ونوعُه، وعددُ أفراده، فإنّه يُعتبر افتراءً على الله، يُخرِج المؤمنين به إلى دائرة سخط الله، ولا أحد يمنعهم من عذاب الله، وسوء المصير لديه، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَفۡتَرِي ٱلۡكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰذِبُونَ ١٠٥﴾ [النّحل: 105].

دلالةُ القَصْرِ بتقديمِ شبهِ الجملةِ:

مَن غيّر دين الله، أهلكه الله وأخزاه

في قوله تعالى ﴿ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾، أفاد تقديمُ شبه الجملة بقوله: ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾ التَّخصيصَ والقَصْرَ، فقد قصرَ المُتأخِّرَ على المتقدِّم؛ لبيانِ عِظَمِ هذا النّوع منَ الافتراء والكذب، وهو بلا شكّ من أعظم صُوَرِ الظُّلم وأخطرِها، "قال ابن كثير: أوّل مَن دخل في هذه الآية، عَمْرو بنُ لُحَيِّ بن قمعة؛ لأنّه أوّلُ مَن غَيَّرَ دينَ الأنبياء، وأوّلُ مَن سَيَّبَ السّوائبَ، ووَصَلَ الوَصيلَةَ، وحَمى الحامي، كما ثبت ذلك في الصّحيح"[2].

(1) محمّد بن عمر نوويّ الجاويّ، مراح لبيد لكشف معنى القرآن المجيد: 1/351.
(2) جمال الدّين القاسميّ، محاسن التّأويل: 4/510.

معنى اللّام في ﴿لِّيُضِلَّ﴾:

المُفترِي على الله كـذِبًـا، بـلـغ في الظّلم والجهل المنتهَى

اللّام لام التَّعليل؛ أي الغرض منَ الافتراء والكذب: الإضلال وصرف النَّاس عن سبيل اللّه؛ أي: دين اللّه تعالى، وإنْ لم يعترف بذلك، "﴿لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ﴾، مُتعلّق بالافتراء بِغَيرِ علمٍ، مُتعلّق بمحذوف وقع حالًا من ضمير (افترَى)؛ أي: افترى عليه سبحانه، جاهلًا بصدور التّحريم عنه جلّ شأنه، وإنّما وصف بعدم العلم، مع أنّ المفتريَ عالمٌ بعدم الصّدور، إيذانًا بخروجه في الظّلم عنِ الحدود والنّهايات"[1].

دلالة (أل) في لفظ ﴿ٱلنَّاسَ﴾:

مَـن أضـلّ نفسه أثـم، ومَـن أضلّ الـنّـاس فـقـد أجرم

التَّعريف في لفظ ﴿ٱلنَّاسَ﴾ من قوله تعالى ﴿لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ﴾ تعريفُ الجنس، وقد أفاد شمولَ أفراد الجنس كلّهم؛ أي: ليضلَّ كلَّ النَّاس؛ وضلالةُ النّاس أمرٌ يستغرق عمومَ المعنيين، "قال ابن عبّاس: يريد عَمْرو بنَ لُحَيّ، لأنّه هو الّذي غيَّرَ شريعة إسماعيل، والأقربُ أن يكون هذا محمولًا على كلّ مَن فعل ذلك، لأنّ اللّفظ عامّ، والعلّة الموجِبة لهذا الحكم عامّة، فالتَّخصيصُ تحكُّمٌ محضٌ"[2]، ولفظ النّاس يعني: مجموع المناوئين والمُضلِّين، كما يقع المدلول على مجموع الّذين وقع عليهم الضّلال منَ المُضلّلين، بما يُنشَر مِن أباطيلَ، وما يُغيِّر مِن أحكام. وقد استوعب لفظُ النّاس المعنى في قول اللّه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾﴾ [آل عمران: 173]، في ذكر النّاس عامّةً، بعد ذكر الخاصّة، وهم الّذين استهموا في غزوة أحد، من إطلاق العامّ وإرادة الخاصّ.

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 13/167، وطنطاوي، التفسير الوسيط: 5/199.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 13/167، وطنطاوي، التّفسير الوسيط: 5/199.

معنى الباء في ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍۗ﴾:

مَن تصدّى للبلاغ والدّعوة بغير علم، ضلّ وأضلّ

الباء الدّاخلة على لفظ (غير) في قوله تعالى ﴿لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍۗ﴾ هي للمُلابسة؛ أي: يُضِلُّون مُنقادين للهوى، مُلابسين لعدم العِلم[1]، "فإن قيل: ما حكمةُ نفيِ كلّ نوع من أنواع العلم، في أمر التّشريع الدّينيّ الّذي ليس له مصدر غير وحي اللّه ورسله؟ قلنا: هي تسجيلُ الجهل العامّ المُطلَقِ عليهم عامّةً، وسوء النّيّة على مفتري ذلك لهم خاصّة، بأنّه ليس له أثارةٌ من عِلم، ولا قصد إلى شيء منَ الهدى إلى حقّ أو خير، وتسجيلُ الغباوة وعمى البصيرة على متّبعيه، بمحض التّقليد من غير عقل ولا هدى"[2].

نُكتة تنكير لفظ ﴿عِلْمٍۗ﴾:

يفيد التّنكير أنّ الإضلال كان بغير علم، فكان التّخبّط والتّيه

المراد بالعِلم في قوله تعالى ﴿لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍۗ﴾، الجزم المُطابِق للواقع عن دليل، وقد أفاد التّنكير التّنبيه على أنّهم فعلوا ذلك ظنًّا منهم أنّهم أصابوا فيما فعلوا بجهالةٍ وسوء عقلٍ، لا بعِلم[3]؛ وآفةُ المُتصدِّي للبلاغ أن يكون لا يدري، ولا يدري أنّه لا يدري، وقد ينطبق عليهم قول اللّه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾﴾ [الكهف: 104].

دلالة تنكير لفظ ﴿كَذِبًا﴾:

الكذبُ أنواعٌ وألوان، وجميعها مَفسدَة وهوان

جيء بلفظ ﴿كَذِبًا﴾ نكرة في قوله تعالى ﴿مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾؛ لتشمل كلّ أنواع الكذب، أي: إنّها دالّةٌ على الشّيوع، ولتدلّ أيضا على أيِّ نوعٍ مهما كان صغيرًا أو كبيرًا، ولو قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾ [الصّف: 7]؛ فالكذب في هذه الآية معرفة؛ أي: محدّدٌ بنوعٍ واحدٍ منَ الكذب[4].

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/أ36.

(2) محمّد رضا، تفسير القرآن الحكيم: 8/أ126.

(3) محمّد رضا، تفسير القرآن الحكيم: 8/36 - 114 - 127.

(4) محمّد هلال، تفسير القرآن الثّرّيّ الجامع، سورة يونس: آية: 17.

عِلّةُ مجيءِ القيد ﴿بِغَيۡرِ عِلۡمٖۗ﴾:

في قوله تعالى ﴿لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيۡرِ عِلۡمٍۗ﴾، وصَفَ اللّه سبحانه المُفتري بعدم العِلم، مع أنَّه عالمٌ بعدم الصُّدور؛ إيذانًا بخروجه في الظُّلم عنِ الحدود والنِّهايات؛ لأنَّه إذا كان المُفتري بغير عِلم يُعدُّ ظالِمًا فكيف بمَن يفتري الكذب وهو عالم بذلك! وقد يسأل سائل: هو أَضَلَّ النّاسَ بغير عِلم، ولم تكن نيّة إضلال النَّاس بعِلم؟ قيل له: إذا هو أضلَّ النَّاسَ بغيرِ عِلم؛ أي: هو أضلّ النَّاس بأهوائه، فهذا يُعدُّ افتراءً على اللّه [1] ﷻ.

المُفتري ظالمٌ كنودٌ، والافتراءُ جهلٌ وفسادٌ في الوجود

الدّلالة البيانيّة في جملة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾:

يجوز أن يكون تعليلًا لكونهم مِن أظلم النّاس؛ لأنَّ معنى الزِّيادة في الظُّلم لا يتحقَّق إلَّا إذا كان ظلمهم لا إقلاع عنه؛ لأنَّ الضَّلال يزداد رسوخًا في النَّفس، بتكرّر أحواله ومظاهره، ويجوز أن تكون الجملة تهديدًا ووعيدًا لهم، إن لم يُقلعوا عمَّا هم فيه، بأنَّ اللّه يحرمهم التَّوفيق، ويذرهم في غيّهم وعمَههم [2].

الضَّلال يزداد رسوخًا في النَّفس، بتكرّر أحواله ومظاهره

مناسبة الفاصلة لما قبلها:

لمَّا كان افتراء الكذب على اللّه لإضلال النَّاس (ظلمًا)، ناسب هذا أن تُختم الآية بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾؛ أي: لا يُوفَّق للرُّشد مَن كان ظالمًا، جاحدًا لنبوَّة نبيِّه محمّد ﷺ.

الكذبُ ظلمٌ مآله الضَّلال، وآفةٌ تدفع المجتمعَ للانحلال

فائدةُ تتابعِ المؤكِّداتِ في التّذييل:

في جملة التذييل ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، جيء بـ﴿إِنَّ﴾ المشدّدة، والجملة الاسميّة، وتَكرار ذكر لفظ الجلالة، بوقوعه مبتدأً للجملة الاسميّة، وتقديره فاعلًا مُضمَرًا للفعل ﴿يَهۡدِي﴾؛

تأكيد الخبر بعدم هداية الظّالمين، ردعٌ للمضلّين الفاسدين

(1) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 5/199، ومحمّد هلال، تفسير القرآن الثّرّيّ الجامع، سورة يونس: آية: 17.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/أ135، و136.

لتأكيد ذلك الخبر، ولتفيد معنى التَّعليل، ومجموعُ المؤَكِّدات يزيد المعنى قوّة إلى قوّته، ويقرِّر وقوعَ الموعود به في السّياق، بما لايدع مجالًا للشّكّ، ولا مَلْمَحًا للرَّيب، فهو تعالى يقينًا لا يهدي الظَّلَمةَ منَ النّاس، مهما تغيّر الحال، أو تبدّل المآل.

بلاغة الإظهار في مَوضِع الإضمار:

في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِى ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، لفظ الجلالة أعيد ذكره على خلاف مُقتضَى الظَّاهر، حيث وُضِع الاسمُ الظَّاهرُ مَوضِع الضَّمير؛ ونكتة ذلك تربية المهابة بشكل عامّ، وإيقاع الرّهبة في نفوس الظّالمين على وجه الخصوص.

تربيةُ المهابةِ والتّشديد على عدم هداية الظّالمين، مقصدٌ مهمٌّ مكين

عِلَّةُ نفيِ الهداية في ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِى ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾:

جيء بنفي الهداية منَ اللّه تعالى عنِ القوم الظَّالمين؛ لأنَّهم بسيرهم في طريق الظُّلم قد سدُّوا باب الهداية عن أنفسهم، وذَكَر سبحانه نفيَ الهداية عنِ القوم الظَّالمين دون أن ينفيه هنا عنِ الواحد منَ الظَّالمين؛ لأنَّ الظَّالمين يُعاون بعضهم بعضًا على الظُّلم، فيتكَّون منهم رأيٌ عامٌّ ظالمٌ يبرِّر الظُّلم ويرتضيه، ويشجِّع عليه، ويتعاونون فيه على الإثم والعدوان، بدل البرّ والتَّقوى وهذا عمومٌ في الظَّاهر، وقد تبيَّن تخصيصُه ممّا يقتضيه الشَّرع[1].

نفيُ الهداية عنِ الظَّالمين، قدرٌ يُجريه ربّ العالمين

بلاغة ردّ العَجُزِ على الصَّدْر:

في قوله تعالى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِى ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، المتأمِّل في بناء نسجها اللغوي يجد لفظ ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، وهو آخر لفظ في الكلام، قد وافق كلمة ﴿أَظۡلَمُ﴾ في صدر الجملة، وذلك ما يسمّيه أهل البلاغة ردّ العجز على الصّدر، وفيه بيانٌ لبشاعة الظُّلم وأهله، ويُضاف إلى ذلك ما بين اللفظين من جناس اشتقاق قوَّى ذلك المعنى وحسّنه في الأسماء.

بيان بشاعة الظُّلم والظَّالمين، في بلاغة التّصدير المبين

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 13/167، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/673، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2709.

نكتة التّعبير بالمضارعيّة في ﴿لَا يَهۡدِى﴾:

التّجدّد الاستمراريّ، وانتفاء الهداية عنِ الظّالمين

في قوله تعالى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِى ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، جيء بالفعل المَنفيّ في قوله ﴿لَا يَهۡدِى﴾، بصيغة المضارع الدَّالّ على الحال دون الماضي؛ لِتُفيد التّجدُّدَ الاستمراريَّ، ليشير إلى أنَّ انتفاءَ الهدايةِ عنِ القوم الظّالمين حاصلٌ إلى الآن ومستمرّ، وكذلك لاستحضار تلك الحالة الفظيعة منَ الظُّلم والكذب، إيغالًا في التَّعجيب من شناعة فاعليها.

نوع (أل) في لفظ ﴿ٱلۡقَوۡمَ﴾:

لا هدايةَ للظّالمين المفسِدين، ولا أملَ لهم في نجاة

التَّعريف في ﴿ٱلۡقَوۡمَ﴾ تعريف الجنس، وقد أفاد شمول أفراد الجنس؛ أي: لا يهدي أحدًا منَ القوم الظَّالمين، "كائنًا مَن كان، إلى ما فيه صلاحُ حالهم، عاجلًا أو آجلًا، وإذا كان هذا حالُ المتَّصِفينَ بالظُّلم في الجملة، فما ظنُّك بمَن هو في أقصى غاياتِه"[1].

فائدة الخبر في جملة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِى ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾:

هداية الله منفيّةٌ عنِ الظّلمةِ الغاوين، والمُفترين الضّالّين

الغرضُ منَ الخبر في الجملة الكريمة التَّعليلُ والتَّقريرُ، وقد أفاد العُموم في كلِّ ظالم؛ لأنّهم بسلوكهم المشين، في طريق الظّلم المهين، قد أغلقوا باب الهداية عن أنفسهم، وكسروا جسور العودة إلى الطّريق القويم، وقد نفى الهداية عنِ القوم الظّالمين في عمومهم، ولم ينفها هنا عنِ الواحد منهم؛ "لأنّ الظّالمين يعاون بعضهم على الظّلم، فيتكوّن منهم رأيٌ عامٌّ ظالمٌ، يبرّر الظّلم ويرتضيه، ويشجّع عليه، ويتعاونون فيه على الإثم والعدوان، بدل البرّ والتّقوى، والله يهدي مَن يشاء إلى صراط مستقيم"[2].

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/194.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2709.

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(وَصَّاكُم) و(شرَّع لكم) و(أنذركم):

يوصي الله بعظائم الأمور، ويشرّع الأحكام، وينذر ممّا يُهلك

التّعبير بالوصيّة لا يكون إلَّا للأمور المهمَّة الّتي لا تستقيم إلَّا بالقيام بها، وإنَّها في أمَّهات المسائل في التَّشريع الَّتي لا يصحّ أن نغفلها. أمَّا (شرَّع) فتشمل التَّشريعات كلّها، وما فيها من تفاصيلَ صغيرةٍ. والإنذارُ لا يكونُ إلَّا مِنك لغيركَ، وتكون الوصيَّةُ منك لنفسك ولغيرك، والإنذارُ لا يكون إلَّا بالزَّجر عنِ القَبيح، وما يعتقدُ المُنذِرُ قُبْحَهُ، والوصيَّة تكون بالحَسَن، ولا يجوز أن ينذره إلَّا فيما هو قبيح، والنِّذراة نقيضة البِشارة، وليستِ الوصيَّة نقيضة البشارة[1].

(الكَذِب) و(الافتراء):

الكذبُ قد يقَعُ على سَبيل الإفساد، وقد يكون على سَبيل الإصلاح، كالكذِب للإصلاح بين المتخاصِمَيْن، أمَّا الافتراء فإنَّ استعماله لا يكون إلَّا في الإفساد[2]، من ذلك إنكار اللّه ما ابتدعوه منَ الكذب والافتراء في عبادة الأصنام، وتسميتها آلهة فقال: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾ [يوسف: 40]، وقد جمع اللّه اللّفظين في سياق واحد، على لسان موسى عليه السلام، وهو يحذّر قومه عاقبة الكذب والافتراء على اللّه، لعلّهم يَرْعَوون عن غيّهم، ويَثوبون إلى رُشْدهم، حيث قال السّياق القرآنيّ المحكم: ﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ ﴿٦١﴾﴾ [طه: 61].

الكذبُ يُرخَّص فيه للإصلاح دون الافتراء، فهو مفسدةٌ محضة

(الضَّلال) و(الغَواية):

الضّلالُ ضياعُ المَسلك إلى الهدى، والغَوايةُ انحرافٌ عن سواء السّبيل

"الظَّاهر أنَّ الضَّلالَ أعمُّ منَ الغَواية، وهو أن لا يجدَ السَّالكُ إلى مقصده طريقًا أصلًا، والغَواية أن لا يكونَ له إلى المقصد طريق

(1) العسكريّ، معجم الفروق اللّغويّة، ص: 79، والشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 7/3988.
(2) الرّاغب، المفردات: (فرى).

مستقيم؛ ولهذا لا يُقال للمُؤمن إنَّه ضالٌّ أو غير مُهتدٍ، ويُقال له: إنَّه غَوِيٌّ غيرُ رشيد"[1].

والضّلال والغَواية كلاهما ناتج عن عَصْف الأهواء بالأنفس، ومَن تاه في دروب الضّلال فَقَدَ البوصلة الهادية إلى الصّراط السّويّ، الّذي لا يتيه في الدّروب المظلمة، ولا يضيع في شِعاب الفتن، ولا تعصِف به الرّياح الهوج، فلا يجدُ مسلكًا للهدى، ولا منفذًا للالتزام، قال تعالى: ﴿قُلْ لَّآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ۝٥٦﴾ [الأنعام: 56].

(1) الخازن، لباب التّأويل: 4/203، والنّيسابوريّ، غرائب القرآن: 6/199.

﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٥﴾﴾ [الأنعام: 145]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

المناسبة بين ذمّ تحريم الحلال، واستثناء ما حرّم من كثيرٍ ما أحلّ

لـمَّا ذَكَر تعالى ذَمَّ المشركين على ما حرَّموا منَ الحلالِ - ونَسَبوه إلى اللّه، وأبطل قولَهم - أمرَ تعالى رسولَه أن يُبيِّن للنَّاس ما حرَّمه اللّهُ عليهم؛ ليعلموا أنَّ ما عدا ذلك حلالٌ؛ مَنْ نسَب تحريمَه إلى اللّه فهو كاذبٌ مُبطِل؛ لأنَّ التَّحريمَ لا يكون إلَّا مِن عند اللّه على لسانِ رسوله[1] ﷺ.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿لَّآ أَجِدُ﴾: الإيجادُ: التَّكوين والإنشاء. يُقال: أوجَدَ اللّهُ الشَّيءَ؛ أي: كَوَّنه وأنشَأه. وأَصلُه: إخراجُ الشَّيء مِنَ العَدَم. يُقال: أَوجدَ الشَّيءَ يُوجِده إيجادًا: إذا أخرجه منَ العَدَم. والوجُودُ خِلافُ العَدَم. ويأتي بمعنى: نَيْل الشَّيء والظَّفر به، يُقالُ: وَجَدَ الشَّيءَ: إذا ظَفِر به. ويُستعمل أيضًا بمعنى الإغناء، والخَلْق، والإحداث[2].

2) ﴿أُوحِيَ﴾: الوَحيُ: الإشارةُ السَّريعة، والكِتَابُ، والرِّسالة. وكلُّ ما ألقيتَه إلى غيرك حتَّى عَلِمَهُ، فهو وَحيٌ كيف كانَ، ومن معانيه: السَّريع، والصَّوت[3]. و"جميع هذا الدّين وحيٌ منَ اللّه، مُنزَّل على نبيّه صلَّى اللّه عليه وآله وسلَّم ؛ وهذا لأنّ مَرجَع الإسلام في أصوله

(1) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 277.

(2) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب، والفيروزابادي، القاموس المحيط: (وجد).

(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (وحى).

وفروعه إلى القرآن، وهو وحيٌ منَ اللّه، وإلى السُّنّة النّبويّة، وهي وحيٌ أيضًا، لقوله تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾ [النّجم: 3 - 4]"[1].

3) ﴿طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ﴾: الإطعامُ يقعُ في كُلِّ ما يُطعَم، حتَّى الماء، قال اللّه تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّىٓ﴾ [البقرة: 249]، ويُقالُ رَجُلٌ طاعِمٌ: حَسَنُ الحال في المطعَم. والطَّعامُ: هو البُرُّ خاصَّةً، ثمَّ يُسَمَّى كُلُّ ما يَسُدُّ الجوعَ طَعامًا[2]، والطَّعْمُ: تناولُ الغذاءِ، ويُسمّى ما يُتَناوَلُ منهُ: طُعْمٌ وطَعامٌ، قال تعالى: ﴿وَطَعَامُهُۥ مَتَٰعًا لَّكُمْ﴾ [المائدة: 96]، قال: وقد اخْتُصَّ بالبُرِّ فيما روى أبو سعيد: «أنّ النّبيّ ﷺ أَمَرَ بِصَدَقَةِ الفِطْرِ صاعًا من طَعامٍ أو صاعًا من شَعيرٍ»[3]، وقال الشّاعر:

وَإذا هُمُ طَعِمُوا فَألأَمُ طَاعِمٍ *** وإذا هُمُ جَاعُوا فَشَرُّ جِيَاعِ[4]

4) ﴿مَيْتَةً﴾: بتَخفيفِ الياء وتَشديدِها، هو الَّذي فارَقَ الحياةَ، ويَستَوِي فيه الذَّكَرُ والأُنثَى، والكلمة تدُلُّ أيضًا على ذَهابِ القُوَّةِ مِنَ الشَّيءِ، يُقال: ماتَ يَمُوتُ مَوْتًا فهو مَيِّتٌ، وجَمعُه: أمواتٌ، ومَيِّتون، ومَيْتون. ويُطلَق أيضًا على مَن في حُكْمِ الميِّتِ، وليس بِه، ويُجمَعُ على مَوتَى وأَمواتٌ[5].

5) ﴿مَّسْفُوحًا﴾: سَفَحَ الدَّمَ: أَراقَه وصَبَّه، وسَفَحْتُ دَمَه: سَفَكْتَه، وسَفَحْت الماءَ: أَهرَقْتَه، وَيُقَال: بَينهم سِفاحٌ؛ أي: سَفْكٌ للدِّماءِ، ومن هذا: السِّفاح والمسافحة: الزِّنا والفُجور؛ لأنَّ كلَّ واحدٍ منهما سَفَحَ مَنْيَتَه؛ أي: دَفَقَها بلا حُرْمةٍ أباحتْ دَفْقَها: ﴿غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ﴾ [النّساء: 24]، وأمَّا سَفْحُ الجبَلِ فهو مِن باب الإبدال، والأصلُ فيه صَفْحٌ[6].

6) ﴿رِجْسٌ﴾: الرِّجسُ: كلُّ شيءٍ يُستقذَر فهو رِجْسٌ، وكلُّ قَذَرٍ رِجسٌ. ورجسُ الشَّيطان: وسوستُه وهَمْزُه. والرِّجسُ: الصَّوت الشَّديد للرَّعد، وقد يُعَبَّرُ به عَنِ الحرامِ، والفِعلِ

(1) عبد الحميد بن باديس، في مجالس التّذكير من كلام الحكيم الخبير، ص: 294.

(2) الخليل، العين، والصّاحب، المحيط في اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (طعم).

(3) الرّاغب، المفردات، وإبراهيم الأبياريّ، الموسوعة القرآنيّة: (طعم). والحديث عن أبي سعيد الخُدْرِيِّ، أخرجه البخاري، الجامع الصحيح، برقم: (1508)، ومسلم، الصحيح، برقم: (985).

(4) محمود الغزنويّ، باهر البرهان في معاني مشكلات القرآن: 1/72.

(5) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن سيده، المحكم، وابن الأثير، النّهاية: (موت).

(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب، والزَّبيديّ، تاج العروس، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (سفح).

القَبيحِ، والعذابِ، واللَّعنَةِ، والكُفرِ. والمُرَادُ في هذه الآية الأوَّل[1]، وكلّ ما وصفَهُ القرآن بالرِّجْسِ، كلحم الخِنزيرِ مثلًا، "قد صدقَ فيه الوصفُ؛ فهو ضارٌّ ضررًا بليغًا، ومُستقذَرٌ استقذارًا شديدًا، مهما يَقُلْ فيه الّذين فَسَدَتْ أذواقُهم"[2].

7) ﴿فِسْقًا﴾: الفِسْقُ: العِصيانُ والخُروجُ عنِ الطَّاعَةِ. يُقال: فَسَقَ الرَّجُلُ، يَفسُقُ، فِسْقًا؛ أيْ: عَصَى وأَذنَبَ. وأصلُ الفِسْقِ: خُروجِ الشَّيءِ مِنَ الشَّيءِ على وَجهِ الفَسادِ، ومنه قولهم: فَسَقَ الرُّطَبُ؛ أي: خَرَجَ عن قِشْرِهِ. والفَواسِقُ: الحيواناتُ الّتي مِن طَبعِها الإفسادُ[3]، والفِسقُ: التّركُ لأمر اللّه، وفَسَقَ يفسُقُ فِسْقًا وفُسُوقًا، وكذلك المَيل إلى المعصية، كما فَسَقَ إبليسُ عن أمر ربّه. ورجلٌ فُسَقٌ وفِسِّيقٌ[4].

8) ﴿أُهِلَّ﴾: الإهلالُ: التَّلبِيَةُ، وأصلُه: رَفعُ الصَّوتِ عند رُؤيَةِ الهلال، ومنه سُمِّيَ الهِلالُ هِلالًا؛ لأنَّ النّاسَ يَرفَعون أَصواتَهُم بالإخبار عنه، ثمَّ كَثُرَ استِعمالُهُ حتَّى قيل لِكُلِّ رافِعٍ صَوتَهُ: مُهِلٌّ ومُستهِلٌّ، فيُقال: أهَلَّ بِالحَجِّ: إذا رَفَعَ صَوتَه بالتَّلبية، وقوله: ﴿وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيۡرِ ٱللَّهِۖ﴾ [البقرة: 173]؛ أي: ما ذُكِرَ عليه غَيرُ اسم اللّه، وهو ما كانَ يُذبح لأجل الأصنام[5].

9) ﴿ٱضۡطُرَّ﴾: الاضطِرارُ: الاحتِياجُ الشَّديدُ. والضَّرورَةُ: الحاجَةُ الشَّدِيدَةُ، والجَمعُ: ضَروراتٌ، وأصلُ كلمة الاضطِرارِ مِنَ الضَّرَرِ، وهو الضِّيقُ والحَرَجُ، وضِدُّ الضَّرَرِ: النَّفعُ والسَّعَةُ، وسُمِّيَتِ الحاجةُ الشَّديدةُ ضرورَةً؛ لأنَّها تُلْحِقُ بصاحبِها ضَرَرًا[6]، ومنه "الاضطرار: اضطرَّه إلى كذا: منَ الضّرورة، يُقال: (الاضطرارُ يُذهِب الاختيارَ)، قال اللّه تعالى: ﴿فَمَنِ ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۚ﴾ [البقرة: 173]، قال أبو حنيفة: المراد به ألّا يكون باغيًا للتَّلذُّذ، ومجاوزة القَدْرِ، وعنده: يجوز للمضطرِّ أكل الميتة مع المعصية"[7].

10) ﴿بَاغٖ﴾: البَغيُ: الظُّلمُ والاعتِداءُ، يُقال: بَغَى، يَبغِي، بَغْيًا، فهو باغٍ؛ أي: ظالمٌ معتَدٍ. وأصلُ البَغيِ: الفسادُ، كقولهم: بَغَى الجُرحُ؛ أي: فَسَدَ. والبُغاةُ: الّذين يُفسِدُونَ في

(1) الخليل، العين، والصّاحب، المحيط في اللّغة، وابن منظور، لسان العرب، والزَّبيديّ، تاج العروس: (رجس).
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 4/2029.
(3) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، والجوهريّ، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (فسق).
(4) الخليل، العين: (فسق).
(5) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، والجوهريّ، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (فسق).
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس: (ضرر).
(7) نشوان بن سعيد، شمس العلوم: (الاضطرار).

الأرضِ. ومِن مَعاني البَغي أيضًا: الزِّيادَةُ، والاستِطالَةُ، والتَّجاوُزُ[1]، وبغى الرّجل علينا بَغْيًا: عَدَل عَنِ الحقّ واستطال، وبَغى عليه يَبغِي بغيًا: عَلا عليه وظَلَمَه، وفي التَّنزيل: ﴿بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [ص: 22]، وفيه: ﴿وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ [الأعراف: 33]. وَحكى اللِّحيانيّ عَنِ الكِسائيّ: (مَالي وللبغْ بَعْضكُم على بعض)، أَرَادَ: وللبغي، وَلم يعلِّله. وعِندي: أنّه استَثْقَلَ كسرةَ الإعرابِ على الياء فحَذَفَها، وألقى حركتَها على السَّاكِن قبلهَا، وَقوم بُغاء: بَغى بَعضُهم على بعضٍ، عَن ثَعلَب"[2].

11) ﴿عَادٍ﴾: الظُّلمُ والبَغيُ، يُقال: تَعَدَّى فُلانٌ إذا ظَلَمَ وَبَغَى. وَالمُعتَدِي: الظَّالِمُ، وأصلُ التَّعَدِّي: مُجاوَزَةُ الحَدِّ بالاستطالةِ والزِّيادَةِ، يُقالُ: تَعَدَّى النَّهرَ يَتَعَدَّاهُ، تَعَدِّيًا، وعُدوَانًا، واعتِداءً؛ أي: تَجاوَزَهُ، وضِدُّ التَّعَدِّي: العَدلُ والاستِقامَةُ. والعَدُوُّ: خلافُ الصَّديقِ. والعَداوَةُ: إرادَةُ السُّوءِ لِمَن تُبغِضُهُ وتَكرَهُهُ. ومِن مَعاني الاعتِداءِ أيضًا: الفَسادُ والإضرارُ[3]، ويُقال: عادى فلانٌ فلانًا مُعاداة، وعِداءً. ويُقال: هو الأسد عاديًا على فريسته، قال الشّاعر:

وقَد زَعَمَتْ عِرسِي مُلَيكَةُ أنَّني *** أنا اللَّيثُ مَعْدُوًّا عَلَيَّ وعادِيا[4]

12) ﴿غَفُورٌ﴾: الغُفرانُ: المُسامَحَةُ والعَفوُ، يُقال: غَفَرَ له إذا سامَحَهُ وعَفا عنه، والاستِغفارُ: طَلَبُ المَغفِرَةِ، ويأتي الغُفرانُ بمعنى التَّجاوُزِ عنِ الذَّنبِ وعَدَمِ المُؤاخَذَةِ به، وأصلُ الغُفرانِ مِنَ الغَفرِ، وهو: التَّغطِيَةُ والسَّتْرُ والإدخالُ. ومنه سُمِّيَ العَفوُ غُفرانًا؛ لأنَّه سَتْرٌ لِلذَّنْب، وإدخالٌ للعَبدِ في العَفوِ[5].

13) ﴿رَّحِيمٌ﴾: الرَّحمة: الرِّقَّةُ والتَّعَطُّفُ، والمَرحَمَةُ مِثلُهُ، وهي رِقَّةٌ تقتضي الإحسانَ إلى المَرحوم، وقد تُستعمل تارةً في الرِّقَّة المجرَّدة، وتارةً في الإحسان المجرَّد عَنِ الرِّقَّة، نحو: رَحِمَ اللّه فُلانًا، وإذا وُصِفَ به الباري، فليس يُراد به إلَّا الإحسان المجرَّد، دُون الرِّقَّة، وعلى هذا رُوي أنَّ الرَّحمَةَ مِنَ اللّه إنعامٌ وإفضالٌ، ومِنَ الآدميِّين رِقَّةٌ وتعطُّفٌ[6].

(1) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، والجوهريّ، الصّحاح، وابن سيده، المحكم، وابن منظور، لسان العرب: (بغي).
(2) ابن سيده، المحكم: (بغي).
(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب، والزَّبيديّ، تاج العروس: (عدي).
(4) أبو بكر الأنباريّ، الزّاهر في معاني كلمات النّاس: 1/218.
(5) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن سيده، المحكم، وابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس: (غفر).
(6) الرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (رحم).

المَعْنى الإجْماليُّ:

ما حرّم الله إلّا الخبائث المأثورة؛ ومَن اضطرّ فعُذْرُه الضَّرورة

يأمُرُ اللّهُ نبيَّه محمَّدًا ﷺ، أن يقولَ لهؤلاءِ المُشركينَ الَّذين حَرَّموا ما رَزَقَهم اللّهُ تعالى؛ افتراءً عليه: إنَّه لا يجِدُ فيما أَوحاه اللّهُ تعالى إليه شيئًا مُحَرَّمًا أَكْلُه - مِمَّا زَعَمُوا أنَّ اللّه حَرَّمَه - إلَّا أنْ يكونَ مَيْتةً أو دمًا مَسْفوحًا، أو لَحمَ خِنزيرٍ؛ فإنَّ هذه الأشياءَ الثَّلاثةَ، خَبَثٌ ونَجَسٌ مُستَقذَرٌ، وإلَّا أن يَكونَ مِمَّا ذُبِحَ لغَيرِ اللّه؛ فإنَّه خُروجٌ عن طاعة اللّه إلى مَعصِيَتِهِ والكُفرِ به، فمَنْ أَلجَأَتْهُ الضَّرورةُ لأكلِ إحدى هذه المُحَرَّماتِ، وهو غيرُ مريدٍ لأكلِها تلذُّذًا مِن غَيرِ اضطرارٍ، ولا متجاوِزٍ ما أباحَه اللّهُ منها، فهذا لا حَرَجَ عليه في الأكل منها؛ فإنَّ اللّه غفورٌ رحيمٌ[1].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

الاستئناف البيانيّ يربط الآية بالسّياق السّابق لها:

بيانُ المحرَّمات الثَّابتة يُبطِل المحرَّماتِ الباطلةَ

الآية الكريمة استئنافٌ بيانيٌّ نشَأَ عن إبطال تحريم ما حَرَّمَه المشركونَ؛ إذ يتوجَّهُ سؤالُ سائلٍ مِنَ المسلمينَ عنِ المحَرَّماتِ الثَّابتةِ؛ إذ أُبطِلَتِ المُحَرَّماتُ الباطِلَةُ. وفيه: مبالغةٌ في بيانِ انحصارِها في ذلك المذكورِ[2]، والرّسول يؤكّد لهم بما عبّر عنه السّياق بقوله: "إنّني لا أجد، فيما أوحاه اللّه إليّ، طعامًا مُحرَّمًا على آكلٍ يريد أن يأكلَه، إلّا ما حرّم اللّه: "الميتة، ولحم الخنزير، والدّم المسفوح - أي: المهراق - وما ذُبِح للأصنام والأوثان، وما أُهِلّ لغير اللّه به"[3].

نُكتة بَدْءِ الآية بفعل الأمر ﴿قُلْ﴾ وتَكراره:

ابتداء الآية الكريمة بفعل الأمر ﴿قُلْ﴾، هو أمرٌ قاضٍ به، بخلاف

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 3/318، والقاسميّ، محاسن التّأويل: 4/512، والزّحيلّي، التّفسير المنير: 8/81.

(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 13/168، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 2/186، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/194، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8أ/136.

(3) أسعد حومد، أيسر التّفاسير: 8أ/136.

الغرضُ منَ الأمر الإلـزامُ والحثُّ عـلى الائـتـمـار والازدجار

سائر الأمور، مثل: ﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١﴾ [النّاس: 1]، ﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ [الإخلاص: 1]، فإنَّه أمرٌ لرسول الله ﷺ، ولسائر أُمَّته بالتَّبعيّة له، وهو مأمور بتتابع الآية بكمالها، أو مأمور بقوله: ﴿لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا﴾ إلى آخر الآية[1].

كما أنّه أسلوبٌ إنشائيٌّ، الغرضُ منه الأمر للرّسول ﷺ؛ للإلزامِ والحثِّ، واسترعاءٍ للأسماع، وفيه تعظيم لقدره ﷺ.

وممَّا تميَّزت به سورة الأنعام كثرَة بدء الآيات فيها بخطاب الرَّسول ﷺ، بكلمة ﴿قُلۡ﴾؛ بإيقاعها القَويّ المُوحِي في كلِّ آية؛ ولعلّ إيثارها في تلك المقامات لأنَّها هي الأنسبُ لتبليغ الدَّعوة[2]، فقد جاءَت تصاريفُ الجذر (قول) في السّورة سبعًا وسبعين مرّة، منها: أربع وأربعون مرّة بلفظ (قل)، وهذا أكبر عدد في سور القرآن الكريم، يليها سورة يونس ورد فيها (قل) أربعًا وعشرين مرّة. وهذا يتناسب مع مقصد السّورة، وهو تلقين الاحتجاج لأصول الدِّين، وتقريرِ عقائدِ الإسلامِ، فهي سورةُ البلاغِ والإعلانِ، والمبادئِ العليا لدعوة الإيمان؛ لتعطيَ المسلمينَ الزّاد، وتمدَّهُم بالحجج الدَّامغة الَّتي تكشفُ زيفَ الشِّرك، وتُزهِقُ باطلَه.

دلالة ﴿لَّآ﴾ النَّافية في قوله ﴿لَّآ أَجِدُ﴾:

لا تحـريـم إلّا بعلّةٍ واضحةٍ، أو ضـررٍ ظاهرٍ أكيد

في قوله تعالى ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا﴾، الأداة ﴿لَّآ﴾ لنفي المستقبل بالذّات، وقد ينفي الحال، وهي هنا لنفي الحال؛ لأنَّ الوحي إليه ماضٍ، ولا يصحُّ أن يريد ما أُوحي إليه به في المستقبل؛ لأنَّه قد أُوحي إليه بعدُ بتحريم أمر آخر ليس في هذه الآية[3]، والمعنى في السّياق: "إنّي لا أجدُ فيما أوحى الله إليَّ شيئًا مُحرّمًا على مَن

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/195، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/أ137.
(2) محمّد رضا، تفسير المنار: 8/210.
(3) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/195.

يأكله، ممّا تذكرون أنّه حُرِّم منَ الأنعام، إلّا أن يكون قد مات بغير تذكيةٍ، أو يكون دمًا مُراقًا، أو يكون لحمَ خِنزير، فإنّه نجسٌ، أو الّذي كانت ذكاتُه خروجًا عن طاعة اللّه تعالى، كما إذا كان المذبوحُ قد ذُكِر عليه اسمُ غير اللّه عند الذّبح"[1].

نُكتة المجاز في الفعل ﴿لَّآ أَجِدُ﴾:

تشبيه التَّحصيل للشَّيء بالظَّفر، من أجمل الصُّوَر

أَجِدُ بمعنى: أظفر، وهو الَّذي مصدره الوجد والوجدان، وهو هنا مجازٌ في حصول الشَّيء وبلوغه، يُقال: وجدتُ فلانًا ناصرًا؛ أي: حصلت عليه، فشبَّه التَّحصيلَ للشَّيء بالظَّفَر وإلفاءِ المطلوب، على سبيل الاستعارة التّصريحيّة، والفعلُ هنا مُتعدٍّ إلى مفعول واحد. وقوله: ﴿لَّآ أَجِدُ﴾ ليس فيه دلالة على تحليل غير هذه الأشياء المذكورة في هذه الآية، بل على أنَّه تعالى ما بيَّن له إلَّا تحريم هذه الأشياء، وهذا لا ينافي أن يبيِّن له بعد ذلك تحريمَ شيءٍ آخر، فلعلَّ قوله: ﴿حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةُ﴾ [المائدة: 3]، نزلت بعد ذلك، فكان ذلك بيانًا لتحريم الدَّم مسفوحًا، أو غير مسفوح[2].

بلاغة إدماج في سياق ذِكر ماحرّم على المسلمين:

الرَّدّ على طريقة كناية الإيماء

في قوله: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا﴾ افتتح الكلامَ المأمورَ بأن يقوله؛ بقوله: ﴿لَّآ أَجِدُ﴾؛ إدماجًا للرِّدّ على المشركين في خلال بيان ما حَرَّم على المسلمين، وهذا الرَّدّ جارٍ على طريقة كناية الإيماء بأن لم ينفِ تحريمَ ما ادَّعوا تحريمَه صريحًا، ولكنَّه يقول: لا أجدُه فيما أُوحي إليَّ، ويُستفاد من ذلك أنَّه ليس تحريمه منَ اللّه في شرعه؛ لأنَّه لا طريق إلى تحريم شيءٍ ممَّا يتناوله النَّاس إلَّا بإعلامٍ مِنَ اللّه تعالى؛ لأنّ اللّه هو الَّذي يُحِلّ ما شاء، ويحرِّم ما شاء على وَفْق عِلمه وحكمته، وذلك الإعلام لا يكون إلَّا

(1) نخبة من أساتذة التّفسير، التّفسير الميسَّر: ص 147.

(2) ابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 3/176، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/أ137.

بطريق الوحي أو ما يُستنبط منه، فإذا كان حكمٌ غيرَ موجود في الوحي ولا في فروعه، فهو حكمٌ غير حقٍّ، فاستُفيد بطلانُ تحريم ما زعموه بطريقة الإيماء، وهي طريقةٌ استدلاليَّةٌ؛ لأنَّ فيها نَفْيَ الشَّيء بنفيِ ملزومِه[1].

معنى ﴿مَآ﴾ في ﴿مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ﴾، ودلالة الاسم الموصول:

لا يحقُّ للبشر تحريمُ ما لم ينصَّ الوحيُ على تحريمه

﴿مَآ﴾ اسمٌ موصولٌ مفيدٌ للعموم؛ أي: (كلّ ما أوحي إليّ)، ومفهوم الموصول أنَّ ما أوحي إليّ كلّه حلال، إلَّا أن يكونَ مَيْتَةً، أو دمًا مسفوحًا... فهو حرام، ومُؤدّى الاسم الموصول في سياقه ما ذكره القرآن على لسان النّبيّ الأكرم، ممّا يُفهم من الآية: "قل أيُّها النبيُّ لهؤلاء المفترين على الله الكذبَ، ولغيرِهم من النّاس: لا أجدُ فيما أوحاه الله إليَّ طعامًا محرَّمًا على آكلٍ؛ إلّا أن يكون ميتةً لم تُذبح ذبحًا شرعيًّا، أو دمًا مسفوحًا سائلًا... وأن لا يكون هذا الشّيءُ المحرَّمُ فيه خروج عن العقيدة الصّحيحة، كأَنْ ذُكر عند ذبحه اسمُ غيرِ الله، كصنم أو معبودٍ آخرَ"[2]، وفي التّفسير الوسيط: "والجملة الكريمة، تفيد أنَّ طريق التّحريم والتّحليل إنّما هو الوَحْيُ، وليس مجرَّدَ الهوى والتّشهّي، وأنّ الأصل في الأشياء الحِلُّ إلّا أن يرِدَ نصٌّ بالتّحريم"[3].

علّة بناء الفعل: ﴿أُوحِيَ﴾، لما لم يُسَمَّ فاعلُه:

التَّحريم إنَّما يثبت بوحي الله تعالى وشرعه، في كتبه المقدّسة

جاء التَّعبير القرآنيُّ بالفعل ﴿أُوحِيَ﴾ مبنيًّا للمفعول؛ لبيانِ نفيِ وجودِ الوحي نفيًا مُطلَقًا، بغير ما هو مذكور، فالبناء للمفعول هنا لعموم نفيِ عدم الوجود، وفيه إشارةٌ إلى أنَّ ما حرَّموه غيرُ معقول، إن سُمِّي به وحيٌ مُطلقًا. وهذا تنبيهٌ على أنّ التَّحريم إنَّما يثبتُ بوحي الله تعالى وشرعه، لا بهوى الأنفس. قال الشِّهاب: كُنِّي

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/137.
(2) إبراهيم القطّان، تيسير التّفسير: 18/2.
(3) محمّد سيّد طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 200/5.

بعدم الوُجْدان عن عدم الوجود، ومَبنَى هذه الكناية على أنَّ طريقَ التَّحريمِ التَّنصيصُ منه تعالى، وتفسيره بمُطلَق الوحي استظهروه؛ ولذا قال: ﴿أُوحِيَ﴾، ولم يقُل: أُنزل[1].

القَصْرُ بتقديم شبه الجملة ﴿إِلَيَّ﴾:

قدَّم شبهَ الجملة ﴿إِلَيَّ﴾، على الصِّفة ﴿مُحَرَّمًا﴾؛ في قوله: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا﴾ للدَّلالة على القَصْرِ والاختصاصِ؛ أي: لا أجد في ما أوحي إليَّ على وجه الخصوص مُحرَّمًا، لا إلى أحدٍ منَ الرُّسل سواي، والتّشريع أيضًا لرسول الله ﷺ، بتفويضٍ منَ الله في قوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ﴾ [الحشر: 7]، ولذلك ورد على لسان الرّسول الأكرم: «أُحِلَّتْ لنا مَيْتَتانِ ودَمانِ؛ فأمّا الميتتان: فالحوتُ والجَرادُ، وأمّا الدّمانِ: فَالكَبِدُ والطِّحالُ»[2]، وهو داخل في قوله: ﴿فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ﴾.

خصوصيّة الوَحْيَيْن: الكتاب والسّنّة، مِن رحمة الله على الأمّة

دلالة لفظ ﴿مُحَرَّمًا﴾:

وذلك في قوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا﴾ حيث إنّ لفظة التَّحريم إذا وردت على لسان رسول الله ﷺ، فإنَّها صالحةٌ أن تنتهيَ بالشَّيء المذكور، إلى غاية المنْعِ والحَظْرِ، وصالحةٌ بحسب اللُّغة أن تقفَ دون الغاية في حيِّز الكراهية ونحوها[3].

ما نَقَلَه البلاغُ النّبويّ للأمّة هو مَحْضُ حكمةٍ ورحمةٍ

سرُّ التّعبيرِ بـ: ﴿عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ﴾، بَدَلَ (آكِلٍ يَأْكُلُهُ):

جاء التَّعبير بقوله: ﴿عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ﴾؛ ذلك لأنَّ الطَّعمَ تذوّقٌ واستطابة، والأكلُ قد يكون أكلًا غير مرغوب فيه، أو ما ليس له ذوقٌ يُستطاب؛ ففي هذا إشارة إلى أنَّهم يحرِّمون طيّب اللُّحوم والمطعومات[4].

حَصْرُ مفهومِ الطّعام في الأكل، مجانفةٌ للأمر بالتّمتّع بالطّيّبات

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/74، والقاسميّ، محاسن التّأويل: 4/515، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2710.

(2) ابن ماجه، السنن، برقم: (3314) عن عبد الله بن عُمر، وأحمد في المسند، برقم: (5723)، وغيرهما.

(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/356، والثّعالبيّ، الجواهر الحسان: 2/525.

(4) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2710.

دلالة التّأكيد على التّعميم والإحاطة:

التّحريم يَطالُ المجتمعَ بِرُمّتِه، ولا يُفرّق فيه بين ذكر وأنثى

في قوله سبحانه ﴿عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ﴾، الفعلُ ﴿يَطْعَمُهُۥٓ﴾ صفةٌ مُؤَكِّدةٌ لـ ﴿طَاعِمٍ﴾ على نحو: ﴿وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾ [الأنعام: 38]، فيُفيدُ مزيدَ التَّعميم والإحاطة لأيِّ طاعمٍ كان من ذَكرٍ أو أنثى؛ ردًّا على قولهم: ﴿وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا﴾ [الأنعام: 139]، وقوله: ﴿يَطْعَمُهُۥٓ﴾؛ لزيادة التَّقرير. وذهب ابن المُنَيِّر إلى أنَّه أتى بـ﴿يَطْعَمُهُۥٓ﴾؛ ليُدخِل فيه المأكولَ والمشروبَ، قال تعالى: ﴿فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّيٓ﴾ [البقرة: 249]، وردَّه ابن عَرَفة: بأنَّ ذلك مُستفاد من لفظ طاعم[1]، وعند النّظر إلى التَّأكيد في قوله: ﴿يَطْعَمُهُۥٓ﴾ – ﴿مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ﴾ – مع أنَّه لو لم يذكر ﴿طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ﴾، لكان واضحًا أنّ التَّحريمَ راجعٌ على الطَّعام، ولاسيّما في سياق الآيات الكريمة السَّابقة.

نُكتة تنكير لفظ ﴿طَاعِمٍ﴾:

الدّلالة على أنّ التّحريمَ يخصّ ما يُؤكل دون سواه

في قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ﴾: جيء بلفظ ﴿طَاعِمٍ﴾ نكرةً في سياق النّفي، والَّتي تعمّ كلَّ طاعمٍ من أهل شرعنا وغيرهم، فنفى تحريمَ أيِّ طعامٍ على أيِّ طاعمٍ، واستثنى فيها من هذا العامّ ما حرَّمه تحريمًا عامًّا مُؤبَّدًا على غير المضطر[2]، ولفظُ ﴿طَاعِمٍ﴾ يدلُّ على أنّ التّحريم يخصّ الأكل دون سواه. عَنِ ابن عَبَّاس: أنّه قرأ هذه الآية: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً﴾، وقال: إنَّما حرّم منَ الميتَة ما يُؤكَل منها، وهو اللَّحم، فأمّا الجلدُ، والقَدُّ، والسّنُّ، والعظمُ، والشّعرُ، والصُّوفُ، فهو حلال[3]، فظهر أنّ الحرمةَ تتعلّقُ بالمطعوم فقط دون سواه.

(1) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 6/275، وابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/196، وإسماعيل حقّي، روح البيان: 3/113، والقاسميّ، محاسن التّأويل: 4/511.

(2) محمّد رضا، تفسير المنار: 8/197.

(3) جلال الدّين السّيوطيّ، الدّرّ المنثور: 3/373.

الاستثناء بـ ﴿إِلَّآ﴾ بين الاتّصال والانقطاع:

الأصل في الأشياء الإباحة، ولا تحريمَ إلَّا بنصٍّ قطعيٍّ صريحٍ

في جملة ﴿إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيۡتَةً﴾، الاستثناء مِن مَوصوف ﴿مُحَرَّمًا﴾ المحذوف، والتّقدير: لا أجد حيوانًا مُحرّمًا أو طعامًا مُحرّمًا إلّا حيوانًا مُتّصفًا بالموت... إلخ، أو إلَّا مطعومًا مُتّصفًا بالموت... إلخ، وعلى هذا فالاستثناءُ مُتَّصلٌ، وقيل: ليس في الكلام حذف، كما أنّ الاستثناءَ منقطعٌ؛ لأنَّه كون، وما قبله عين. وقد قُرئ بنصب (مَيتة) وبرفعها؛ فعلى النّصب هي خبر يكون، وما بعدها عطف عليها، وعلى الرّفع هي فاعل (تكون) التّامّة، وما بعدها عطف على محلّ (أن تكون) الواقعة مُستثناة، والتّقدير: إلّا أن تكون مَيتة، وإلّا وما... إلخ[1]. والأصل في الأشياء الإباحة، ولا يُقطَع بتحريم شيءٍ إلَّا ما ورد في تحريمه نصٌّ؛ ولذلك جاء الرَّسم بالقطع مُوافقًا لما عليه الحكم بالإباحة إلَّا ما استُثني بالتَّحريم. والنّظم والتّركيب يساعد الانقطاع، ويأبى الاتّصال، فإذا استثنى المذكورات، آذَنَ بِقَصْرِ المُحرَّمات على المذكوراتِ، وليس بذلك؛ فوجب الانقطاع والتَّخصيص[2].

الاستثناء من عموم ﴿أَن يَكُونَ﴾:

مبدأ التّشريع حِلُّ الطّيّبات، واستثناءُ ما عُلِم منَ المحرّمات

التَّعبير بالمصدر ﴿إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيۡتَةً﴾، جعل الاستثناء من عموم الأكوان الَّتي دلَّ عليها وقوع النَّكرة في سياق النَّفي؛ أي: لا أجد كائنًا مُحرَّمًا إلَّا كونه ميتةً إلخ؛ أي: إلَّا الكائن ميتةً...إلخ، فالاستثناء متَّصل[3].

الحَصْرُ المستفادِ منَ النَّفي والاستثناء:

القصرُ حقيقيٌّ، وبه يتجلّى أسلوب الاستثناء المفرَّغ

الحصر المستفاد منَ النَّفي والاستثناء حقيقيّ، بحسب وقت نزول هذه الآية، فلم يكن يومئذٍ من مُحرَّمات الأكل غير هذه

(1) السّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 5/196.
(2) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 6/275.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/138.

المذكورات؛ لأنَّ الآية مكيَّة، ثمَّ نزلت سورة المائدة بالمدينة، فزيد في المُحرّمات. وظاهِرُ الآية - مع عَطفِ ما حَرَّمَ على بني إسرائيلَ عليها - أنَّ حَصْرَ مُحَرَّماتِ الأطعِمَةِ في الأنواعِ الأربعةِ أصلٌ من أصولِ شَرائِعِ جميعِ رُسُلِ اللهِ تعالى[1].

ويتّفق هذا النّصّ في حَصْر المحرَّمات في أربع، بينما في نصّ سورة المائدة، يتّسع العدّ إلى أكثر من ذلك، فكيف يتّفق هذا النّصّ مع ذاك؟! قال الشّعراويّ: "مَن يقول ذلك نقول له: أنت لا تفرّق بين إيجاز وإطناب، ولا تفرّق بين إجمال وتفصيل؛ فالّذي تُرِك في هذه الآية داخلٌ في الميتة؛ لأنّ المنخنقَةَ والمتردِّيَةَ والنَّطيحةَ وما أَكل السَّبُعُ، والّذي ذُبح على النُّصُبِ، وما أُهِلَّ به لغير اللّه، موجودٌ وداخلٌ في كلمة (الميتة)"[2].

بلاغة القراءات وتوجيهها في قوله تعالى: ﴿أَن يَكُونَ مَيْتَةً﴾:

قرأ ابن كثير وحمزة ﴿تَكُونَ مَيْتَةً﴾ بالتّاء لتأنيث ﴿مَيْتَةً﴾، وابن عامر بالتّاء مع رفع ﴿مَيْتَةٌ﴾، على معنى (إلّا أن توجد مَيْتَةٌ)، والباقون بالياء مع نصب ﴿مَيْتَةً﴾، وهذه وجوهٌ في العربيّة كلُّها جائزة فصيحة، ويُشكل على هذه القراءة أنّ المعطوفَ على ﴿مَيْتَةً﴾ منصوبات، وهي: ﴿أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾، وقد خُرِّجَت هذه القراءة على أن يكون: ﴿أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا﴾ عطفًا على ﴿أَن﴾ وصِلَتِها؛ لأنَّه محلّ نصب بالاستثناء، فالتَّقدير: (إلّا وجود مَيْتة)، فلمَّا عبَّر عنِ الوجود بفعل ﴿يَكُونَ﴾ التَّامّ، ارتفع ما كان مضافًا إليه[3].

تنوّع التّوجيه في القراءة القرآنيّة يفسح المجال للمعاني المتاحة

دلالة ذِكر الخاصّ بعد العامّ في الآية الكريمة:

جيء بذِكر الخاصّ بعد العامّ في قوله تعالى: ﴿مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا

(1) محمّد رضا، تفسير المنار: 8/131، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/أ138.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 8/أ138، ومحمّد متوليّ الشّعراويّ، تفسير الشعراوي 7/3973.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/أ138، ومحمّد رضا، تفسير المنار: 8/130.

الفرق بين المحرَّم لعارض، والمحرَّم لذاته

﴿أَوۡ لَحۡمَ خِنزِيرٖ فَإِنَّهُۥ رِجۡسٌ أَوۡ فِسۡقًا أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦۚ﴾؛ لأنَّ المَيتةَ عامَّةً تشمل كلَّ ما ليس له ذكاة شرعيَّة، وخصَّ لحم الخِنزير بالذِّكر؛ للتَّنبيه على شدَّة التَّحريم فيه، وتقديم قوله تعالى: ﴿مَيۡتَةً أَوۡ دَمٗا مَّسۡفُوحًا أَوۡ لَحۡمَ خِنزِيرٖ﴾، على المحرَّم لعارض، وهو قوله: ﴿فِسۡقًا أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦۚ﴾؛ لأنَّ التَّحريم فيه عارِضٌ، بينما التَّحريم فيما تقدّم ذاتيّ[1].

علّة تقييد الدَّم بـ(المَسفُوح):

الكبد والطّحال، والقطرات في اللّحم، معفوٌّ عنها بلا إثم

الدَّم المسفوح: الجاري الَّذي يسيل، وجعل الله هذا فرقًا بين القليل والكثير، والمُنْسَفِح: السَّائل مِنَ الدَّم ونحوه، وجيء بهذا التَّقييد؛ للتَّنبيه على العَفوِ عنِ الدَّمِ الّذي يَنِزُّ مِن عُروقِ اللَّحمِ عند طبخِه؛ فإنَّه لا يُمكِنُ الاحترازُ عنه، وكذلك يفيد إباحة غيره؛ كالكبد والطّحال، وما يتعلّق باللّحم والمخّ[2].

دلالة التّعبير بـ: ﴿أَوۡ لَحۡمَ خِنزِيرٖ﴾، دون (أو خِنْزِيرًا):

لحم الخنزير وما يتّصل به من لواحق، حرام باتّفاق العلماء

عبَّر بالجملة الكريمة: ﴿أَوۡ لَحۡمَ خِنزِيرٖ فَإِنَّهُۥ رِجۡسٌ﴾؛ لِيُفيدَ تحريمَ لَحمِه على كلِّ حالٍ، سواءٌ ذُبِحَ أم لا، ولو قيل: (أو خِنزيرًا) لاحتمَلَ أن يُرادَ تحريمُ ما أُخِذَ منه حيًّا فقط[3]، وذُكِر اللَّحم تنبيهًا على أنَّه أعظم ما يُنتفع به مِنَ الخِنزير، وإن كان سائره مُشارِكًا له في التَّحريم: بالتَّنصيص على العِلَّة من كونه رِجسًا، أو لإطلاق الأكثر على كلِّه، أو الأصل على التَّابع؛ لأنَّ الشَّحمَ وغيرَه تابعٌ لِلَّحم[4]، وتخصيصُ لحم الخنزير لايقتضي تحليلَ شحمِه وسائرِ ما فيه؛ لأنَّ ذلك نصّ على أفضل ما فيه، ليدلّ على ما دونه؛ ولأنّه المقصودُ لذاته بالأكل[5].

(1) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 6/275.
(2) الجرجانّي، درج الدّرر: 2/737، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/356، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/أ138، والخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 4/330.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/299.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/674.
(5) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 4/262، وابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 3/172.

دلالة الفاء في قوله تعالى: ﴿ فَإِنَّهُۥ رِجۡسٌ﴾:

لحم الخنزير قذارة ومفسدة، ولذلك حُرِّم بصرامة

الفاء في قوله: ﴿فَإِنَّهُۥ﴾ للتَّعليل؛ أي: في تعليل الميتة والدّم ولحم الخنزير، أو الأخيرِ منها فقط[1]؛ ولحمُ الخنزير حرام في شريعة موسى، وفي المسيحيّة الّتي جاء بها عيسى، لا الّتي حرّفها بولس، وفي شريعة محمّد ﷺ، وقد أثبتَ الطّبّ الحديث، والبحوث الّتي أُجريت على هذه المحرّمات؛ أنّ ضررَها على الإنسان كبيرٌ، وأنّ اللّه حرّمها لوجود المفاسد والأسقام فيها، بصورة أكيدة يقينيّة، ولهذا فإنّ تعليلَ التّحريم بواسطة الفاء مفيدٌ في الدّلالة على ذلك.

سرُّ تتابع المؤكِّدات في جملة: ﴿فَإِنَّهُۥ رِجۡسٌ﴾:

التّأكيد على الحرمة يفيد التّنبيه على خطر المحرَّمات على البشر

جيء بالتّوكيد بـ(إنّ) والجملة الاسميّة؛ ليبيّن أنَّ المحرّمات: المَيتة، والدّم المسفوح، ولحم الخنزير؛ لحمها قذر، وقبيح، ومحرَّم؛ أي: أكلُها عمل قذرٌ قبيح مُحرَّم.

عود الضّمير على أقرب مذكور:

ذمُّ الخِنْزير وتحريمُه غايتُه التّحذير منَ الغفلة عن مضارِّه

إذا كان الضَّمير في قوله: ﴿فَإِنَّهُۥ رِجۡسٌ﴾، عائدًا إلى لحم الخنزير خاصّة؛ فوصفه بـ﴿رِجۡسٌ﴾ تنبيه على ذمِّه؛ وهو ذمٌّ زائدٌ على التَّحريم، فوصفَهُ به تحذيرًا مِن تناوله، وتأنيسًا للمسلمين بتحريمه؛ لأنَّ معظم العرَب كانوا يأكلون لحمَ الخنزير، بخلاف المَيتة والدّم، فما يأكلونها إلَّا في الخَصاصَة. وإن كان الضَّمير عائدًا إلى الثَّلاثة كان قوله: ﴿فَإِنَّهُۥ رِجۡسٌ﴾؛ تنبيهًا على عِلَّة التَّحريم، وأنَّها لدفع مفسدةٍ تحصل مِن أكل هذه الأشياء.

وزعم أبو محمَّدِ بنُ حزم أنَّه عائد على ﴿خِنزِيرٍ﴾؛ فإنَّه أقرب مذكور، وإذا احتَمَلَ الضَّميرُ العَوْدَ على شيئينِ كان عودُه على الأقرب أرجَحَ. وعُورِض بأنَّ المُحدَّث عنه إنَّما هو اللَّحم، وجاء ذِكْرُ الخنزيرِ

(1) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 277.

على سبيل الإضافة إليه، لا أنَّه هو المُحدَّثُ عنه المعطوفُ، وإنّ إفرادَ الضّمير على تأويله بالمذكور؛ أي: فإنّ المذكورَ رجسٌ، كما يفرد اسم الإشارة، مثل قوله: ﴿وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ يَلۡقَ أَثَامٗا ٦٨﴾ [الفرقان: 68][1].

نكتة ذكر لفظ ﴿رِجۡسٌ﴾:

الفِسْقُ: الخروج عن شيء، وهو حقيقة شرعيَّة في الخروج عنِ الإيمان، أو عنِ الطَّاعة الشَّرعيَّة؛ فلذلك يُوصف به الفعلُ الحرامُ، باعتبار كونه سببًا لفسقِ صاحبه عنِ الطَّاعة، وقد سَمّى القرآنُ ما أُهِلَّ به لغير اللّه فِسقًا في الآية السَّالفة، وفي هذه الآية، فصار وصفًا مشهورًا لما أُهِلَّ به لغير اللّه، ولذلك أتبعه بقوله: أهلّ لغير اللّه به. إضافة إلى ذلك فقد أفادت لفظة: ﴿رِجۡسٌ﴾ في الآية، بيانَ العِلَّة في حُرمة لحم الخنزير؛ أي: فإنَّ لحم الخنزير رجسٌ؛ أي: قَذِر أصلًا، بخلاف المُحرَّمات السَّابقة، فإنَّها حلالٌ أصلًا، ولكن دخل عليها ما أفسدها، وجعلها فسقًا خارجًا عن دائرة الحلال[2].

لحم الخنزير قَذِرٌ أصلًا، ووصفه بذلك على الحقيقة لا على المجاز

فائدة تنكير لفظ ﴿رِجۡسٌ﴾ من قوله: ﴿أَوۡ لَحۡمَ خِنزِيرٖ فَإِنَّهُۥ رِجۡسٌ﴾:

تنكير ﴿رِجۡسٌ﴾ يدُلُّ على مُطلَق المعنى - ماهيّة الرِّجس الّتي أُنيطَ بها حكم التَّحريم - وفيه من دلالة التَّعظيم ما يستلزم التَّحريم، والتّعظيمُ هنا يراد به المعنى السّلبيُّ لهذا اللّفظ، وهو معنى التّهويل والتّبشيع، الّذي يجعل هذا المعنى منَ المفسدة يصبح رجسًا يَحسُنُ توقّيه، وتركُ أكلِه أو استعمالِه في أيّ غرض من أنواع الانتفاع به، حتّى لا تقع الإصابة بمهالكه، الّتي من أجلها كان التّحريم.

ما حرّمه الله لامندوحةَ مِن توقّيه، حذرًا من مغبّاته ومساويه

نكتة إعراب ﴿فِسۡقًا﴾، في قوله: ﴿أَوۡ فِسۡقًا أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦۚ﴾:

قوله تعالى: ﴿أَوۡ فِسۡقًا﴾ فيه ثلاثة أوجه، أحدها: أنَّه عطفٌ على خبر يكون؛ أي: إلَّا أن يكون فِسقًا، و﴿أُهِلَّ﴾ في محلِّ نصب؛ لأنَّه

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/674، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/أ138.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/أ139، والخطيب، التّفسير القرآنّي للقرآن: 4/331.

صفة له، كأنَّه قيل: أو فِسقًا مُهَلًّا به لغير اللّه، جعل العينَ المحرَّمة نفسَ الفسقِ مُبالغة، أو على حذف مضاف ويُفَسِّره ما تقدَّم من قوله: ﴿وَلَا تَأْكُلُواْ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ﴾ [الأنعام: 121]. الثَّاني: أنَّه منصوب عطفًا على محلِّ المُستثنى؛ أي: إلَّا أن يكون مَيتة أو إلَّا فِسقًا، وقوله: ﴿فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ﴾ اعتراض بين المتعاطفين. والثَّالث: أن يكون مفعولًا من أجله، والعامل فيه قوله ﴿أُهِلَّ﴾ مُقدَّم عليه، ويكون قد فصل بين حرف العطف وهو ﴿أَوْ﴾، وبين المعطوف وهو الجملة من قوله: ﴿أُهِلَّ﴾، بهذا المفعول من أجله[1]. وأفاد تنكيرُه في كلّ ذلك التّعظيمَ.

يتنوّع الإعراب، بحسب تعدّد المعاني في السّياق

سرُّ التَّعبير بلفظ (الفِسق):

لَمَّا ذَكَرَ المحَرَّم لِعَينِه ذَكَرَ المحَرَّم لعارِضٍ، فقال مُبالِغًا في النَّفي عنه: ﴿أَوْ فِسْقًا﴾، وهو ما ذُبِحَ لغَير اللّهِ، وسمَّاه اللّهُ ﴿فِسْقًا﴾، فجعله كأنَّه بِعَينِه هو عينُ الفسقِ الَّذي وَقَعَ النَّهيُ لأجلِه؛ وذلك لتَوَغُّلِه في الفِسقِ، فتكون جملة: ﴿أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾ صفةً أو بيانًا لـ ﴿فِسْقًا﴾[2].

جعلُ المُحرَّمِ هو عين الفسق، مِنَ البلاغة المُبينَة

علّة تقديم (الرِّجس) على (الفِسق):

في قوله تعالى ﴿فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا﴾، إذا كان الخنزير فيه رِجْسٌ حسّيٌّ، ومن أجله حُرِّم أكلُه، فإنَّ اللّه تعالى قد حَرَّم ما فيه رجسٌ معنويٌّ، وقرَنَه به، وهو ما أُهِلَّ لغير اللّه به؛ ولذا جاء بكلمة ﴿فِسْقًا﴾ مقارنة لكلمة ﴿رِجْسٌ﴾، لأنَّهما يلتقيان في المعنى؛ لأنَّ هذا الخنزيرَ رجسٌ حسّيٌّ، وهذا الفسق رِجس معنويّ، فَهُما من باب واحد[3].

تقديم الرّجس الحسّيّ على المعنويّ، غاية في الإبانة

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/676، والسّمين الحلبيّ، الدّر المصون: 5/198 - 199.
(2) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 2/178، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 7/299، والشّنقيطيّ، العذب النّمير: 2/379، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/أ139.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2711.

بلاغة التَّرقّي[1] في الآية الكريمة:

قال أبو حيّان: "﴿فِسْقًا﴾ الظَّاهر أنَّه معطوف على المنصوب قبله، سُمِّي ما أُهِلَّ لغير الله به فِسقًا؛ لِتَوَغُّله في باب الفِسق، ومنه: ﴿وَلَا تَأْكُلُواْ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ﴾ [الأنعام: 21]، و﴿أُهِلَّ﴾ صِفةٌ له منصوبةُ المحلّ، وأجاز الزَّمخشريّ أن ينتصب ﴿فِسْقًا﴾ على أنَّه مفعولٌ من أَجله، مُقدَّمٌ على العامل فيه وهو ﴿أُهِلَّ﴾"[2].

ما أُهِلَّ لغير الله، أقذر وأخبث من لحم الخنزير

قال الطِّيبيّ رحمه الله: "الأوَّل أَولى؛ - أي: كونه معطوفًا على (مَيتة) -؛ ليحصل في الكلام التَّرقّي، ولِيُؤْذِنَ بأنَّ ما أُهِلَّ لغير الله أقذرُ وأخبثُ من لحم الخنزير؛ ولذلك عَلَّل لحمَ الخنزير بالرِّجْسِ، ثمَّ أَتبَعَه ذلك، وسمَّاه أوَّلًا بنفس الفِسق، ثمَّ وصَفه بما يكشف عن حقيقته، كأنَّ الفِسقَ تفسيرُه، وبيانه: أنَّه أُهِلَّ لغير الله؛ فعلى هذا: ففي تأخير الدَّم عنِ الميتة الإشعارُ بأنَّه أخبثُ منه، فيجبُ أن يُحترزَ منه ما أمكن؛ كما ذهب إليه الشَّافعيّ"[3].

دلالة التّعبير بلفظ ﴿أُهِلَّ﴾:

في قوله تعالى ﴿وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾، الإهلال: هو رفعُ الصَّوت، وأصلُه رفع الصَّوت عند رؤية الهلال، ثمَّ أُطلِق على رفع الصَّوت لأمرٍ يدعو إلى رفعه، ومنه أَهَلَّ فلانٌ بالحجِّ، إذا رفع صوته بالتَّلبية والدُّعاء، في كلِّ مكان يناسب ذلك، وعند البيت الحرام. والإهلالُ لغير الله عند الذَّبح، أن يذبحوا باسم صنمٍ منَ الأصنام، وإنَّ ذلك فيه عبادة لغير الله تعالى، فنَهى عن أكل ما يُذبح لذلك منعًا لهذا العمل الَّذي هو شرك بالله تعالى، وكان النَّهي عنِ الأكل لأنَّه ذريعة إلى المنع المُطلَق[4].

التّنديد بعبادة غير الله، وتقديم القربان لغيره ﷻ

(1) معنى التَّرَّقّي: أن يُذكرَ معنًى، ثمَّ يُردَف بما هو أبلغ منه، يُنظر: السُّبكّي، عروس الأفراح: 2/319.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/676.
(3) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 6/278.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/139أ، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 4/2029.

دلالة الصّفة أو عطف البيان:

تحريم ما أُهِلَّ لغير الله به، مسألة عقائديّة وليست ماديّة

جملة: ﴿أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾ صفة أو عطف بيان للفظ ﴿فِسۡقًا﴾، وفي هذا تنبيه على أنَّ تحريم ما أُهلّ لغير الله به، ليس لأنَّ لحمَه مُضِرٌّ، بل لأنَّ ذلك كفر بالله[1]، "وإنّما سُمِّي ذلك فِسْقًا؛ لِتَوَغُّلِه في الفسق، ويجوز أن يكون ﴿فِسۡقًا﴾ مفعولًا له لـ﴿أُهِلَّ﴾، وهو عطف على ﴿يَكُونَ﴾، والمستكِنُّ راجعٌ إلى ما رجع إليه المستكنُّ في ﴿يَكُونَ﴾"[2].

علّة بناء ﴿أُهِلَّ﴾ لما لم يُسمّ فاعلُه:

التّنديد بالفعل هو المهمّ، بغضّ النّظر عن الفاعل

الفعل ﴿أُهِلَّ﴾ في الآيةِ مَبنِيّ لما لم يُسَمَّ فاعلُه؛ أي: ما أهَلَّ عليهِ المُهِلُّ غيرَ اسم الله، وضُمِّنَ ﴿أُهِلَّ﴾ معنى (تُقُرِّبَ) فَعُدِّيَ لِمُتَعَلِّقِه بالباء وباللَّام، مِثلُ: تُقُرِّبَ، فالضَّمير المجرورُ بالباء، عائدٌ إلى ما أُهِلَّ، وفائدة هذا التَّضمينِ تَحريمُ ما تُقُرِّبَ به لغير الله تعالى، سواءٌ نُودِيَ عليه باسم المُتَقَرَّبِ إليه أم لا، والمرادُ بغير الله الأصنامُ ونَحوُها[3].

دلالة التّقديم في تخصيص ﴿لِغَيۡرِ ٱللَّهِ﴾:

تقديم إبطال كلّ عبوديّات تُشرِّع من غير الله، وذلك مدار الاهتمام

قدَّم ﴿لِغَيۡرِ ٱللَّهِ﴾ على ﴿بِهِۦ﴾؛ وذلك أنَّ المقام في آية الأنعام كان في الكلام على المفترين على الله، ممَّن كانوا يُشرِّعون للنَّاس باسم الدِّين، وهم يفترون عليه، فقال: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلۡحَرۡثِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُواْ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعۡمِهِمۡ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَاۖ﴾ [الأنعام: 136 - 138]، إلى غير ذلك منَ الآيات الَّتي تُبيِّن أنّ ثمَّةَ ذواتٍ غيرِ اللهِ، تُحلِّل وتُحرِّم، مفتريةً على الله، وذواتٍ يزعمون أنَّها شركاءُ لله، تُعبد معه، ونصيبُها في العبادة عندهم أكبر؛ ولذا قدَّم إبطال هذه المعبودات من غير الله على ﴿بِهِۦ﴾؛ فقال: ﴿أَوۡ فِسۡقًا أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾؛ لأنَّه هو مدار الاهتمام والكلام[4].

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/أ139.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/194.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/120.
(4) السّامرائي، معاني النّحو: 111 - 112/3.

معنى الفاء في عبارة ﴿فَمَنِ ٱضۡطُرَّ﴾:

الضّرورات تبيح المحظورات، والاضطرار يرفع الإثم والإصرار

معنى الفاء في: ﴿فَمَنِ ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ﴾، الفاء في الجملة لتفريع الإخبار لا لتفريع المعنى، فإنَّ معنى رفع الحرج عنِ المضطرّ، لا ينشأ عنِ التَّحريم، والمضطرّ هو الَّذي ألجأَتْهُ الضَّرورةُ؛ أي: الحاجةُ؛ أي: اضطرّ إلى أكل شيء من هذه المحرّمات، فلا إثمَ عليه[1].

دلالة أسلوب الشَّرط في قوله: ﴿فَمَنِ ٱضۡطُرَّ﴾:

المضطرُّ يركب الصّعب، فلا يؤاخذ باضطراره

الجملة في الآية الكريمة جملة الشّرط، والثّانية جملة جواب الشَّرط، باعتبار لازم المعنى، وهو عدم المؤاخذة، وقيل: جواب الشَّرط محذوف؛ أي: فمنِ اضطرّ، فلا مُؤاخذة عليه، وهذه الجملة تعليل له[2]، والمعنى: شرطٌ منِ اضطرّ إليها؛ أي: حَمَلَتْه الحاجةُ والضّرورةُ إلى أكل شيء منها؛ بأن لم يكن عنده شيءٌ، وخاف على نفسه التَّلَفَ، ﴿غَيۡرَ بَاغٖ﴾ أي مريدٍ لأَكْلِها من غير اضطرارٍ وَلا متعدّ؛ أي: متجاوزٍ للحدِّ؛ بأن يأكلَ زيادةً عن حاجتِه، فاللّه قد سامَحَ مَن كان بهذه الحال، وجواب الشّرط: ﴿فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾[3].

عِلّةُ بناءِ الفعل ﴿ٱضۡطُرَّ﴾ للمفعول:

التّعبير عنِ الانشغال عن غيره بفعل الاضطرار

بُنِيَ الفعل ﴿ٱضۡطُرَّ﴾ للمَفعولِ؛ لأنَّ المعْتَبَر حصولُ الاضطرارِ، لا كَونُه مِن مُعَيَّنٍ[4]، والمعنى بهذا التّأويل: "فمَن دَعَتْهُ الضّرورةُ إلى أكل شيءٍ من هذه المحرَّمات، غَيرَ باغٍ على مضطرٍّ مثلِه، تاركٍ لمواساته، ولا عادٍ متجاوز قدر حاجته مِن تناوله: ﴿فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ لا يؤاخذه"[5].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/120.
(2) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 5/202.
(3) السّعدي، تيسير الكريم الرّحمن: 2/243,
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/299.
(5) إبراهيم الأبياريّ، الموسوعة القرآنيّة: 9/471.

فائدة التّعبير بالفعل ﴿ٱضۡطُرَّ﴾:

لا يؤاخذ الله النّاس على الإكراه رحمةً بهم، ولا على الاضطرار شفقةً عليهم

أُخِذَ مِنَ التَّعبيرِ بالاضطرارِ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿فَمَنِ ٱضۡطُرَّ﴾، حُرْمَةُ ما زادَ على سَدِّ الرَّمَقِ؛ لأنَّه حينئذٍ لا يكون مُضطَرًّا[1]، و"معنى اضطرّ أصابتْهُ الضّرورة الدّاعية إلى تناول شيء ممّا ذُكِر، و﴿غَيۡرَ بَاغٖ﴾: حالٌ؛ أي: غير ظالمٍ، ﴿وَلَا عَادٖ﴾: عطفٌ على: ﴿غَيۡرَ بَاغٖ﴾؛ أي: غير معتدٍ"[2].

فائدة تنكير ﴿بَاغٖ﴾ و﴿عَادٖ﴾:

التّرخيص في أكل المَيتة للمضطرّ؛ مراعاةً لمقتضى الحال

في قوله تعالى ﴿غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ﴾، الباغي: الطَّالبُ لهذا المحرَّم المُشتَهي له، كأن يكون مُضطرًّا فلا يجد إلَّا خِنزيرًا، يشتهيه ويأكله باغيًا له، طالبًا، والعادي هو المتجاوز لحدّ الضَّرورة، وجاء التّعبير بأسلوب التّنكير ليفيد التّقليلَ منَ البغي والعدوان، والتَّجاوز لما أباحه اللّه تعالى منَ المحرَّمات في حالة الاضطرار. فالآية إيماءٌ إلى حدّ الضّرورة، وهي الحاجة الّتي يَشعر عندها مَن لم يكن دَأْبُهُ البغيَ والعدوان[3]، بالأخذِ بالتّعاليم السّماويّة العليا، والاكتفاءِ بسدّ حاجة الاضطرار، دونَ بغيٍ ولا نفارٍ، ولا اعتداءٍ على حدود العليّ الجبّار، قال الشّعراويّ: "والحقّ الّذي شرّع يقدّرُ الظّروف المواتية للمكلَّفين، وقد تمرّ بهم ظروفٌ وحالاتٌ، لا يجدون فيها إلّا المَيتة، وهنا يأكلون أكلَ ضرورةٍ، على قَدْرِ دفعِ الضّرّ والجوع"[4].

الموقع النّحويّ لـ ﴿غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ﴾، وأثره في الدّلالة:

الجملة الحاليّة تسعف على بيان الحالة المتوخّاة

قوله تعالى: ﴿غَيۡرَ بَاغٖ﴾ نُصِبَ على الحالِ، واختُلِفَ في صاحبها، فالظّاهر أنّه هو الضّميرُ المستتر في ﴿ٱضۡطُرَّ﴾، وجَعَلَه القاضي وأبو بكر الرَّازيّ من فاعل فعلٍ محذوفٍ، بعد قولِه: ﴿ٱضۡطُرَّ﴾، قالا:

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/299.
(2) محيي الدّين درويش، إعراب القرآن وبيانه: 3/260.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/120، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2714.
(4) محمّد متوليّ الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ (الخواطر): 7/3974.

تقديرُه: فمَنِ اضطُرَّ فأكلَ غيرَ باغٍ، كأنَّهما قصدا بذلك أن يَجعلاه قيدًا في الأكلِ، لا في الاضطرارِ.

وقال أبو حيّان: ولا يتعيَّن ما قالاه، إذ يَحْتَمِلُ أَن يكونَ هذا المُقدَّرُ، بعد قوله: ﴿غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ﴾، بل هو الظّاهرُ والأَولى؛ لأنَّ في تقديره قبل قوله: ﴿غَيْرَ بَاغٍ﴾، فصلًا بين ما ظاهرُه الاتّصالُ بما بعده، وليس ذلك في تقديره بعد قوله: ﴿غَيْرَ بَاغٍ﴾. و﴿عَادٍ﴾: اسمُ فاعلٍ من عدا يَعْدُو إذا تجاوزَ حَدَّه، ولو جاء في غيرِ القرآن منصوبًا، عطفًا على مَوضِع ﴿غَيْرَ﴾ جاز، يعني: فكان يُقال: ولا عاديًا[1]، فكأنَّه قال: (فمن اضطُرَّ لا باغيًا ولا عاديًا) فهو حلال، فـ﴿غَيْرَ﴾ وقعت هنا منصوبة على الحال لقوله: ﴿فَمَنِ﴾.

دلالة تقديم البغي على العدوان، في قوله: ﴿غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ﴾:

تقدّم البغيُ على العدوان، في الجملة الكريمة، لأنّه أعمُّ منَ البغي؛ فانتفاءُ البغيِ انتفاءُ العدوانِ، والتَّقديم هنا من تقديم العامّ على الخاصّ، ويفيد دائمًا الاهتمامَ بالمتقدِّم، وتوكيدَه وتخصيصَه، والمعنى: "فمَن أصابته ضرورةٌ قاهرةٌ ألجأتْهُ إلى الأكل من هذه الأشياء المحرّمة، حالة كونه غير باغٍ في أكله؛ أي: غيرَ طالبٍ للمحرَّم، وهو يجد غيره، أو غير طالبٍ له للذّته، أو على جهة الاستئثار به على مضطرّ آخر، بأن ينفردَ بتناوله فيها عنِ الآخر، أو حالة كونه - أيضًا - غير عادٍ فيما يأكل؛ أي: غير متجاوزٍ سدَّ الجوعة، فلا إثمَ عليه في هذه الأحوال"[2].

البغيُ أعمّ منَ العدوان، على قاعدة تقديم العامّ على الخاصّ

معنى الفاء في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾:

الجملة في محلّ جزم جواب الشّرط، في قوله: ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ﴾، قيل: إنّ الفاء في قوله: ﴿فَإِنَّ﴾ تعليليّة لجواب

الآية تدلّ على جواب القسم، وتربط ما بعده به

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/118، والسّمين الحلبيّ، الدّرُّ المصُون: 2/240.
(2) محمّد سيّد طنطاويّ، التّفسير الوسيط للقرآن الكريم: 5/202.

الشّرط المقدَّر (فلا إثم عليه)، والمعنى واحد، وهو: رَفْعُ الإثم عنِ المضطرّ، غيرِ الباغي ولا العادي، ولكنّ الخِلافَ في كيّفيّة تأدية الكلام لهذا المعنى[1].

سرُّ التَّعبير بلفظ (الرَّبّ) مضافًا إلى الضّمير:

جاء الأسلوب بالغفران والرّحمة، للتّسرية والتّسلية

جاء التَّعبير القرآني بلفظ ﴿رَبَّكَ﴾ دون لفظ الجلالة (اللّه)؛ لأنَّ لفظ (الرَّبّ) يدلُّ على الرَّأفة واللُّطف بالمربوب، وعلى الولاية؛ لذا فإنَّ إضافة الكاف إلى (الرَّبّ) تُشعِر بالاختصاص والتّشريف؛ أي أنَّ هذه الرُّخصة للمسلمين الَّذين عبدوه، لا للمشركين الَّذين أعرضوا عنه؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوۡلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَأَنَّ ٱلۡكَٰفِرِينَ لَا مَوۡلَىٰ لَهُمۡ ١١﴾ [محمّد: 11][2].

دلالة الخطاب في افتتاح الآية وختامها:

البيان القرآنيّ يدقّق في المسائل، ويرسّي الأحكام؛ لفائدة الأنام

لـمَّا كان صدرُ الآية مفتَتَحًا بخطابه تعالى بقوله: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا﴾، اختتم الآية بالخطاب، فقال: ﴿فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾، ودلَّ على اعتنائه به تعالى بتشريف خطابه افتتاحًا واختتامًا[3].

دلالة التَّعبير بقوله تعالى: ﴿غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾:

الآية تستحضر الغفران والرّحمة، بسبب تقصير النّاس في التّكاليف الشّرعيّة

الإخبار بأنَّ اللّه تعالى ﴿غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ كناية عنِ الرُّخصة في تناول هذه المحرَّمات المذكورة عند الاضطرار، ورفع حرج التَّحريم عنها حينئذٍ، فهو في معنى قوله: ﴿فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ١٨٢﴾ [البقرة: 182][4].

دلالة التّذييل، وأثر التّنكير للاسْمَيْنِ الجليلين:

في قوله سبحانه ﴿فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾، قُوَّةُ تذييلٍ قُصِد

(1) القدّوميّ، التّفسير البيانّي لمَا في سورة النّحل من دقائق المعاني: 231.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/أ141.
(3) أبو حيَّان، البحر المحيط: 4/676.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/أ141.

به الامتنانُ والتّعظيم؛ لأنَّ اللّهَ موصوفٌ بصفَتَي المغفرة والرّحمة مُطلَقًا، وهذه عِلَّة تنكيرهما، فلا جَرَمَ أن يَغفِرَ للمضطرّ أكلَ الميتة؛ لأنَّه رحيمٌ بالنَّاس، إذ لا يَخلو زمان ولا مكانٌ من مُضطرّ.

غفران الله ورحمته، يَطالُ الإنسانَ في كلّ ظرف وآن

علّة تقديم صفة ﴿غَفُورٌ﴾ على ﴿رَّحِيمٌ﴾:

جاء التَّعبير القرآنيّ في الآية الكريمة بتقديم المغفرة على الرَّحمة؛ لأنَّ المغفرةَ سلامةٌ، والرَّحمةَ غنيمةٌ؛ والسَّلامةُ مطلوبةٌ قبل الغنيمة، إضافة إلى ذلك أنّ الصِّيغتين: ﴿غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ للمُبالغة؛ أي: مُبالغ في المغفرة والرَّحمة.

المغفرة تغطيةٌ وسَتْرٌ، والرّحمة تفضُّلٌ ومِنَّةٌ

دلالة جواب الشَّرط في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾:

الجملة الكريمة جوابُ شرطٍ، باعتبار لازم المعنى؛ وهو عدم المؤاخذة، وقيل: جواب الشَّرط محذوف؛ أي: فمَنِ اضطرّ، فلا مؤاخذةَ عليه، وهذه الجملة تعليل له[1]. وقولُه تعالى: ﴿فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ "أثرٌ لجواب الشّرط المحذوف، أو سببٌ له، فإنّ المُقدَّرَ هكذا: (فمن اضطرّ غير باغٍ ولا عادٍ، فلا إثم عليه)، كما ذُكر في آياتٍ أُخر، أمّا هنا فلم يُذكر، ولكن ذُكِرَ سببهُ، وهو فإنّ ربَّك غفورٌ رحيمٌ، فالسّبب أنّ الشّارعَ الحكيمَ هو ربّكم الّذي خلقكم ورعاكم، وقام على أمر حياتكم، وأنّه غفورٌ يغفرُ الإثمَ ويستُرُه، وأنّه رحيمٌ لا يُرهِقُكُم، وإنّ هذا يدلّ على رفْعِ الإثم سببًا بسببه"[2].

غفرانُ الله للعباد، تجاوزٌ عنِ الخطايا والمآثم

بلاغة المتشابه اللّفظيّ:

وردتِ المحرّمات في عدّة آيات مشابهة، فقد جاء قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٧٣﴾﴾ [البقرة: 173].

الخطاب يختلف بين مكّة والمدينة، تصحيحًا للأحكام، ودعوة للإسلام

(1) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 5/202.
(2) محمّد أبو زهرة، زهرة التفاسير: 5/202.

وقوله: ﴿حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحۡمُ ٱلۡخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلۡمُنۡخَنِقَةُ وَٱلۡمَوۡقُوذَةُ وَٱلۡمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيۡتُمۡ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن تَسۡتَقۡسِمُواْ بِٱلۡأَزۡلَٰمِۚ ذَٰلِكُمۡ فِسۡقٌۗ ٱلۡيَوۡمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمۡ فَلَا تَخۡشَوۡهُمۡ وَٱخۡشَوۡنِۚ ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ فَمَنِ ٱضۡطُرَّ فِي مَخۡمَصَةٍ غَيۡرَ مُتَجَانِفٖ لِّإِثۡمٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٣﴾ [المائدة: 3].

وقوله: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٖ يَطۡعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيۡتَةً أَوۡ دَمٗا مَّسۡفُوحًا أَوۡ لَحۡمَ خِنزِيرٖ فَإِنَّهُۥ رِجۡسٌ أَوۡ فِسۡقًا أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦۚ فَمَنِ ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ١٤٥﴾ [الأنعام: 145].

وقوله: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحۡمَ ٱلۡخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦۖ فَمَنِ ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ١١٥﴾ [النّحل: 115].

قدَّم ﴿بِهِۦ﴾ في سورَة البقرة، وأخَّرها في [المَائِدَة 3، والأنعام 145، والنَّحل 115]؛ لأنّ تَقديمَ البَاءِ الأَصلُ: فإنَّها تجري مَجرَى الهمزَة والتَّشديد في التَّعدِّي، فكانَت كحرفٍ منَ الفِعل، فكانَ المَوضِعُ الأوَّلُ أَوْلَى بما هو الأصل؛ ليُعلَم ما يَقتَضِيهِ اللَّفظُ، ثمَّ قدَّم فيما سواهَا ما هو المُستنكَر، وهو الذَّبح لغير الله، وتَقديم ما هو الغَرَض أَولى؛ ولهذا جازَ تَقديم المَفعُول على الفاعِل، والحَال على ذِي الحال، والظَّرف على العامِل فيه، إذا كانَ ذلك أكثر للغرض في الإخبَار[1].

وجاءَ التَّرتيبُ في آية الأنعام كالتَّرتيب الَّذي في (البقرة) و(المائدة)، وجاءَت المحرّمات هنا (الأنعام) مُنكّرةً، والدّمُ موصوفًا بقوله: ﴿مَّسۡفُوحًا﴾، والفِسقُ موصوفًا بقوله: ﴿أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦۚ﴾، وفي تَيْنِكَ السُّورتين مُعرَّفًا؛ لأنَّ هذه السُّورة مكيَّة، فَعُلِّقَ بالتَّنكير، وتانِكَ السُّورتان مدنيّتان، فجاءتْ تلك الأسماءُ معارفَ بالعَهْدِ، حُوالةً على ما سبق تنزيلُه في هذه السُّورة[2].

وذهب المُطعنيّ مذهبًا تحليليًّا للأسلوب في الآيات، بأنَّ ما قُدِّم فيه ﴿لِغَيۡرِ ٱللَّهِ﴾ على ﴿بِهِۦ﴾ خطاب لأهل مكّة؛ مسارعةً إلى نفي الشِّرك، وإبطالًا لاتّخاذ الأصنام آلهةً تُعبَد، ويُذبَحُ ويُنْحَرُ باسْمِها؛ بدليل أنَّ السُّورتين - الأنعام والنَّحل - مكّيّتان، والمائدة - وإن كانت

(1) الكرمانيّ، البرهان في توجيه متشابه القرآن، ص: 81، والسّامرائيّ، معاني النّحو: 3/112.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/673.

مدنيّة - فإنَّ الآيةَ الواردةَ فيها هذه العبارة نزلتْ في حجَّة الوداع، وكأنَّ القرآن يقول لأهل مكّة: لا تَظنُّوا أنَّ الإسلام قد سَكَتَ عمَّا أنكر عليكم، وقد رحل رسولُه ورجاله عن دياركم، وغابوا عنكم طيلةَ عشر سنين، فإنَّ الإسلام باقٍ على دعوته: الحلالُ حلالٌ، والحرامُ حرام؛ لأنَّه مبادئ وأُسُسٌ ثابتة، لا تقبل الإبطالَ أو التَّبديلَ. أمَّا ما قُدِّم فيه: ﴿بِهِۦ﴾ على قوله: ﴿لِغَيۡرِ ٱللَّهِ﴾ فهو خطابٌ لأهل المدينة، وهم ليسوا عُبَّادَ أصنامٍ ولا كافرين حتّى يُسارع معهم إلى نفي الشِّرك، وإبطال الأصنام، والدَّليل على تأييد هذه الملاحظة، أنَّ الخطاب بُدِئ بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ [المائدة: 1]، فالخِطابُ إذن مع مؤمنين؛ مع أهل مكَّة يهدف القرآن إلى نفيِ الشِّرك أوَّلًا، ثمَّ تحريم ما حرّم ثانيًا، ومع أهل المدينة يهدف إلى تحريم ما يُحرِّم أوَّلًا، ثمّ الثَّبات على ما هم عليه منَ الإيمان ثانيًا[1].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(الإلهام) و(الوحي):

الإلهَامُ: إلقاء الشَّيء في الرُّوع، ويختصّ ذلك بما كان من جهة اللّه تعالى، وجهة الملإِ الأعلى، قال تعالى: ﴿فَأَلۡهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقۡوَىٰهَا ۝٨﴾ [الشَّمس: 8]. وأمَّا الوحي: فهو الإشارة السَّريعة، وذلك يكون بالكلام على سبيل الرَّمز والتَّعريض، وقد يكون بصوتٍ مُجرَّد عنِ التَّركيب، وبإشارةٍ ببعض الجوارح. والوَحيُ من خَواصِّ النُّبُوَّة، والإلهامُ أَعمّ؛ والوَحيُ مَشروطٌ بالتَّبليغ دون الإلهام[2].

الإلـهَـامُ: ما يُلقَى في الرُّوعِ، والـوحـي تـنـزُّلٌ منَ الله، وبلاغٌ عنه

(مَيْت) بالتَّخفيف، و(مَيِّت) بالتَّشديد:

الأوَّل لِمَن ماتَ حقيقةً، والثَّاني لـمَن سيَموت، قال الخليل بن أحمد[3]:

المَيْتُ مَنْ حُمل إلى القبر، والمَيِّتُ المـوصُـوفُ بأنّه سوف يمُوتُ

(1) المطعنيّ، خصائص التّعبير القرآنّي وسماته البلاغيّة: 2/163.
(2) الرّاغب، المفردات: (لهم)، والكفويّ، الكلّيّات، ص: 173.
(3) الغزنويّ، باهر البرهان: 2/1260، والنّسفيّ، مدارك التّنزيل: 3/179.

أَيَا سَائِلِي تَفسِيرَ مَيْتٍ وَمَيِّتٍ *** فَدُونَكَ قَد فَسَّرتُ ما عَنهُ تَسأَلُ
فَما كَانَ ذَا رُوحٍ فَذَلِكَ مَيِّتٌ *** وما المَيْتُ إِلَّا مَنْ إِلى القَبرِ يُحمَلُ

وقال بعضهم: الميِّت يُقال لما لَمْ يَمُتْ، والميْتُ لمَا قَد ماتَ، وهذا خطأ، إنّما ميِّت يصلح لمَا قد مات، ولمَا سَيَمُوت[1]، والتّخفيف في مَيْتٍ، ومَيِّتٍ لغتان. وقال أبو حاتم وغيره: ما قد مات فيقالان فيه، وما لم يَمُتْ بعدُ فلا يُقال فيه (ميْتٌ) بالتّخفيف، دليله قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ۝٣٠﴾ [الزّمر: 30]، وقال الشّاعر:

لَيسَ مَنْ مَاتَ فَاستَرَاحَ بِمَيْتٍ *** إِنَّمَا المَيْتُ مَيِّتُ الأَحياءِ[2]

(الرّجس) و(النّجس):

الـرِّجـسُ الـمُـسـتَـقـذَر طَبعًا، والنَّجس المُستبشَع عَقلًا وشَرعًا

قال الكفويُّ: الرِّجْسُ أكثرُ ما يُقال في المُستَقْذَر طَبْعًا، والنَّجَس أكثر ما يُقال في المُستقذَر عَقْلًا وشَرعًا، وسُمِّيت هذه المعاصي رِجْسًا؛ لوجُوب اجتنابها، كما يجب اجتناب الشَّيء المُستقذَر[3]. و"كان بعض أهل المعرفة بلغات العرب، منَ الكوفيّين، يقول: (الرِّجْس)، (والنِّجْس) لغتان، ويُحكى عنِ العرب أنّها تقول: (ما كان رِجْسًا)، و(لقد رَجُس رَجَاسة) و(نَجُس نَجَاسة)"[4]. و"الرّجز: الرّجس والنّجس يتقاربان معانيها، بتقارب ألفاظها، نحو: السّراط والزّراط، والبُزاق والبساق، وأصل ذلك لما يُعافُ ذوقًا، أو شمًّا، أو عقلًا، أو شرعًا؛ فالكريهُ بالعقل والشّرع، يعبّر عنه بالخبيث والقذر، ونحو ذلك، كما يعبّر عن ضدّه بالطَّيّب والنّظيف"[5].

(الفسق) و(الفسوق):

الفسوقُ: عامٌّ، وهو الخروج عن طاعة اللّه أو الدِّين، أمَّا الفِسق

(1) أبو إسحاق الزّجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 2/144.
(2) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 2/216.
(3) الكفويّ، الكلّيّات، ص: 479، والبروسويّ، روح البيان: 2/435.
(4) ابن جرير، جامع البيان: 12/111.
(5) الرّاغب الأصفهانّي، تفسير الرّاغب الأصفهانّي: 1/204.

فهو أمرٌ خاصٌّ بالأطعمة والذَّبائح[1]، قال الرّازيّ: "فاعلَمْ أنّ الفسقَ والفسوقَ واحدٌ، وهما مصدران لفَسَقَ يفسُقُ، وقد ذكرنا فيما قبل: أنّ الفسوق هو الخروج عنِ الطّاعة، واختلف المفسّرون؛ فكثير من المحقّقين حملوه على كلّ المعاصي، قالوا: لأنّ اللّفظَ صالحٌ للكلّ، ومتناوِل له؛ والنّهيُ عنِ الشّيء يُوجب الانتهاء عن جميع أنواعه؛ فحملُ اللّفظ على بعض أنواع الفسوق تحكّمٌ من غير دليل، وهذا متأكّد بقوله تعالى: ﴿فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓۗ﴾ [الكهف: 50]، وبقوله: ﴿وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ﴾ [الحُجرات: 7]"[2].

الفسوق مروقٌ من الدّين، والفسقُ خاصٌّ بالأطعمة والذّبائح وخطايا المذنبين

(البغي) و(العدوان):

البغي: غالبُ استعماله في حقوق العِباد والاستطالة، وعلى هذا فإذا قُرِنَ البغي بالعدوان كان البغيُ ظُلمَهم بمُحرَّم الجنسِ: كالسَّرقة والكذب والبهت والابتداء بالأذى.

والعدوانُ: تعدِّي الحقّ في استيفائه إلى أكبر منه، فيكون البغيُ والعدوانُ في حقِّهم كالإثم والعدوان في حدود اللّه[3]، وقوله تعالى في الطّائفتين المتقاتلتين منَ المؤمنين: ﴿فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ﴾ [الحُجرات: 9]؛ "أي: اعتدت وجارت. والبغي: الظّلم، والباغية الّتي تعدل عنِ الحقّ، وما عليه أئمة المسلمين وجماعتهم. ويُقال: بغى الجرح، إذا ترامى إلى فساد. وبغتِ المرأة، إذا فَجرت، والبَغِيّ: الفاجرة، حتّى تفيء إلى أمر اللّه؛ أي: ترجع إلى أمر اللّه"[4].

يتعلّق البغي بحقوق النّاس، والعدوان بالسّطو عليهم وإيذائهم

(1) محمّد هلال، تفسير القرآن الثّرّيّ الجامع، المائدة، آية: 3.
(2) محمّد هلال، تفسير القرآن الثّرّيّ الجامع، المائدة، آية: 3.
(3) عويضة، فصل الخطاب في الزّهد والرّقائق والآداب: 4/130.
(4) الأزهريُّ، الزّاهر في غريب ألفاظ الشّافعيّ: ص 246.

﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمۡنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٖۖ وَمِنَ ٱلۡبَقَرِ وَٱلۡغَنَمِ حَرَّمۡنَا عَلَيۡهِمۡ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتۡ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلۡحَوَايَآ أَوۡ مَا ٱخۡتَلَطَ بِعَظۡمٖۚ ذَٰلِكَ جَزَيۡنَٰهُم بِبَغۡيِهِمۡۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ١٤٦﴾ [الأنعام: 146]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

التّأكيدُ على أنْ لا تحريم إلّا بالوحي، وربطه بما حرّم الله على اليهود

لـمَّا بيَّن أنَّ التَّحريم إنَّما يَستنِدُ للوحي الإلهيِّ، أخبر أنَّه حرَّم على بعض الأُمم السَّابقة أشياء، كما حرَّم على أهل هذه الملَّة أشياء ممَّا ذكرها في الآية قبل؛ فالتَّحريمُ إنَّما هو راجعٌ إلى الله تعالى في الأُمم جميعها[1]، "وهذا التّحريم عقابٌ لهم على ظُلمهم، وفَطْمٌ لنفوسهم مِن اندفاعها في الشّهوات، وإنّا لصادقون في جميع أخبارنا الّتي منها هذا الخبر"[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلَّذِينَ هَادُواْ﴾: اليهود: كلمةٌ مُشتَقَّةٌ مِنَ الهَوْدِ بمعنى التَّوبَةِ والرُّجُوعِ، يُقالُ: هَادَ، يَهُودُ، هودًا، وتَهَوَّدَ؛ أي: تابَ ورَجع إلى الحقِّ. وقيل: إنَّها غير عَرَبيَّة نسبةً إلى يَهوذا أحد أسباط بني إسرائيل[3]، وحوّلت الذّال إلى الدّال، حين عُرّبت، والتّهويد: شبه الدّبيب في المشي، والسّكون في الكلام. والهوادة: البقيّة منَ القوم يُرجَى بها صلاحهم، وقد قيل[4]:

فَمَنْ كانَ يَرجُو في تَميمٍ هَوادَةً *** فَلَيسَ لِحَرْمٍ في تَميمٍ أواصِرُ

2) ﴿حَرَّمۡنَا﴾: التَّحريم: الحَظرُ، وشَيءٌ مُحَرَّمٌ؛ أي: مَحظورٌ،

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/676، والهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 9/121.
(2) لجنة من علماء الأزهر، المنتخب في تفسير القرآن الكريم، ص: 199.
(3) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (هود).
(4) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (هود).

وضِدُّهُ الإبَاحَةُ، والإذنُ، والجَوازُ. وأصلُ التَّحريمِ: المَنعُ، يُقالُ: حَرَّمَ الشّيءَ؛ أي: مَنَعَ منه، ولم يُجِزْهُ[1].

3) ﴿شُحُومَهُمَآ﴾: الأبيَضُ الدُّهنِيُّ المُسَمِّنُ الّذي يُستَخرَجُ مِنَ الحَيَوانِ وغيرِه. والعَرَبُ تُسَمِّي سَنامَ البَعيرِ شَحمًا، وبَياضَ البَطنِ شَحْمًا، والجَمعُ: شُحومٌ، والقِطعَةُ منه شَحمَةٌ. وشَحُمَ الرَّجل شَحَامةً؛ أي: كَثُر شَحمُ جَسَدِهِ، فهو شَحِيمٌ وشَحِمٌ. وشَحِمَتِ النَّاقَةُ، وشَحُمَتْ شُحُومًا: إذا سَمِنَت بعد هُزالٍ[2].

4) ﴿ظُهُورُهُمَآ﴾: الظَّهرُ الجارحةُ، وجمعه ظُهُورٌ، ومعنى قوله: ﴿مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ﴾، أي: ما عَلِقَ بالظَّهر والجنْب، أراد مِن داخل بطونهما، أو ما اختلط باللَّحم منَ البياض، وقيل: الأَلْيَةُ[3]، و"الظّهر: خلاف البطن، وقولهم: لا تجعل حاجتي بظَهرٍ؛ أي: لا تَنسَها. والظّهر: الرِّكاب، وبنو فلان مُظهِرون، إذا كان لهم ظَهرٌ ينقلون عليه، كما يُقال: مُنجِبون، إذا كانوا أصحابَ نجائب"[4].

5) ﴿ٱلْحَوَايَآ﴾: جمع حَوِيَّة، وهي الأمعاءُ، وأصله من: حَوَيْتُ كذا حَيًّا وحَوَايَةً، وأصلُ (حوي): جَمَعَ، وهي ما احتَوَتْ عليه البطن منَ الأمعاءِ، وما جرى مجراها منَ الدُّوَّارَة والمَبَاعِر، ونحو ذلك[5].

6) ﴿أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ﴾: هو الشَّحْمُ الَّذي يَكونُ مُلتفًّا على عظم الحيوان مِنَ السِّمَنِ؛ فهو مَعفُوٌّ عنه؛ لِعُسْرِ تجريدِه عن عَظْمِه[6].

7) ﴿جَزَيْنَـٰهُم﴾: الجَزَاء: الغَناء والكفاية، وهو ما فيه الكفاية منَ المقابلة، إنْ خيرًا فخُير، وإن شرًّا فشَرّ. وإذا أُطلق في مَعرض العُقُوبَات يُرَاد بِهِ مَا يجب حَقًّا للّه تعالى بمُقابلَة فعل العَبد؛ لأنَّه المجَازِي على الإطلاق، ولِهذا سُمِّيت دارُ الآخِرَة دارَ الجزَاء[7].

---

(1) ابن دريد، جمهرة اللّغة، وابن سيده، المحكم، وابن منظور، لسان العرب: (حرَمَ).

(2) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن سيده، المحكم: (شحم).

(3) الرّاغب، المفردات: (ظهر)، والثّعلبيّ، الكشف والبيان: 12/248.

(4) الجوهريّ، الصّحاح: 2/730. (ظهر).

(5) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 163، والسّجستانّي، غريب القرآن، ص: 189، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (حوى).

(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/142، والشّنقيطيّ، العذب النَّمير: 2/391.

(7) ابن سيده، المحكم، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (جزا)، والكفويّ، الكلّيّات، ص: 356.

8) ﴿بِبَغۡيِهِمۡۖ﴾: بتَجاوُزِهم الحقَّ إلى الباطِل، والبَغيُ: الظُّلمُ والاعتِداءُ، وأصلُه: الفَسادُ، كقولِهم: بَغَى الجُرحُ؛ أي: فَسَدَ[1].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

بيان ما حرّم الله على اليهود، من ذوات المِخْلَب والنّاب، بما بَغَوا وعانَدوا

وحرَّمنا على اليهود ما لم تتفرَّق أصابعه كالإبل والنّعام، وشُحوم البقر والغنَم، إلَّا ما عَلِق مِنَ الشَّحم بظهُورها أو أمعائها، أو اختلط بعظم الأَلْيَة والجَنْب ونحو ذلك. ذلك التَّحريم المذكور على اليهود عُقوبة مِنَّا لهم بسبب أعمالهم السَّيِّئة، وإنَّا لصادقون فيما أخبرنا به عنهم[2].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغة عطف الجملة الخبريّة على الجملة الإنشائيّة:

عطف الخبر على الإنشاء، باعتباره أمرًا من حيث المعنى

جملة: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ﴾ عطف على جملة: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ﴾ [الأنعام: 145] من عطفِ خبرٍ على إنشاءٍ؛ لأنّ الجملة الخبريّة المعطوفة حملت معاني الإنشاء، وإنْ جاءَت بصورة الخبر؛ على أنّها ساقتِ الأمر على أنّه حَدَثَ وانقضَى؛ فبَيِّنْ لهم ماحُرِّمَ في الإسلام، واذكرْ لهم ما حرَّمنا على الَّذين هادوا قبل الإسلام. والمقصود: أن يُظْهِرَ للمشركين أنَّ ما حرَّموه ليس من تشريع اللّه في الحال، ولا فيما مضى، فهو ضلالٌ بَحْتٌ[3].

غرضُ التّعبير بالاسم الموصول وصلته:

للإشارة إلى زمن وقوع الفعل وارتباطه بحدث تاريخيّ

ذهب علماء البلاغة والنّحو إلى أنَّ الاسمَ الموصولَ منَ الأسماء المبهمة؛ ولذلك يحتاج إلى صلة، فالصّلة هي الّتي تُزيل الإبهام، ويخرج إلى معانٍ عدّة، منها: الّتي تدلّ على الإنكار، والتّقليل الممزوج بالتَّعصب، وهذا هو الغرض منَ التَّعبير به في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ هَادُواْ﴾،

(1) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن سيده، المحكم، وابن منظور، لسان العرب: (بغى).
(2) نخبة من أساتذة التّفسير، التّفسير الميسر، ص: 147.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/أ141 - 142.

إذ حصل تخصيصُهم دون غيرهم مِن أتباع الرُّسل؛ إنكارًا لهم، وتقليلًا من شأنهم[1].

نكتة تقديم شبه الجملة على مُتَعَلَّقِها:

جيءَ بتقديم شبهِ الجملةِ ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ﴾على مُتَعَلَّقِهِ الفعل ﴿حَرَّمْنَا﴾، في قوله: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا﴾؛ لإفادة الاختصاص؛ أي: عليهم لا على غيرهم مِنَ الأُمم[2].

التّخصيص ملمحٌ بلاغيٌّ أصيل، يحدّد الدّلالة، ويوضّح المطلوب

معنى ﴿وَمِنَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ﴾:

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْبَقَرِ﴾ فيه وجهان؛ أحدهما: أنَّه معطوفٌ على ﴿كُلَّ ذِى﴾، فتتعلّق ﴿وَمِنَ﴾ بـ﴿حَرَّمْنَا﴾ الأُولى لا الثَّانية، وإنَّما جيءَ بالجملة الثَّانية مُفسِّرةً لما أُبهم في ﴿وَمِنَ﴾ التَّبعيضيّة مِنَ المحرَّم فقال: ﴿حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ﴾، والثَّاني: أن يتعلَّق بـ﴿حَرَّمْنَا﴾ المتأخّرة، والتَّقدير: وحرَّمنا على الَّذين هادوا منَ البقر والغنم شحومهما[3].

إفادة معاني التّبعيض وغيره، تؤكّد اتّساع الدّلالة في معاني الحروف

أو يريد تعالى بقوله: ﴿وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ﴾؛ أي: والبقر والغنم حرَّمنا عليهم، ولكنَّه أدخل فيها ﴿وَمِنَ﴾، والعرب تقول: (قد كان مِن حديث) يريدون: (قد كان حديث)، وإنْ شئتَ قلتَ: (ومِنَ الغنم حرَّمنا الشُّحوم)، كما تقول: (مِنَ الدّار أخذ النِّصف والثُّلث)، فأضفتَ على هذا المعنى كما تقول: (منَ الدّار أخذ نصفها)، و(مِن عبد اللّه ضرب وجهه)[4].

نكتة تقديم شبه الجملة: ﴿عَلَيْهِمْ﴾:

قدَّم شبه الجملة منَ الجارّ والمجرور: ﴿عَلَيْهِمْ﴾ في قوله: ﴿حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ﴾؛ ليدلّ على الحَصْر؛ أي: حرَّمنا عليهم دون غيرهم، كما أفادتِ الاستعلاء المجازيّ؛ أي: على اليهود.

أهمّيّة الاستعلاء المجازيّ في حصر المعنى في اليهود

(1) محمّد رضا، تفسير المنار: 8/150.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/أ141 - 142.
(3) السّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 5/201.
(4) جعفر شرف الدّين، الموسوعة القرآنيّة، خصائص السّور: 3/67.

معنى (أل) في لفظي ﴿ٱلۡبَقَرِ﴾ و﴿وَٱلۡغَنَمِ﴾:

استعمال القرآن للألفاظ المرتبطة بالبيئة العربيّة، دليل على واقعيّته

التَّعريف هنا لاستغراق الجنس أو للعهد، إذ سبق ذِكْرُ هذه الأنعام في مَواضِع أخرى منَ القرآن الكريم، والتَّعريف - كما هو معلوم - يفيد التّخصيص، ونذكر أنّ القرآن قد استعمل الألفاظ الّتي تعرفُها العرب في بيئتها، استمدادًا من واقع الحياة، وربطًا للمُخاطَبين بما يألفون، فيكون ذلك أدعى لتقبّلهم الدّعوةَ، والإيمان بما جاء به القرآن، وما صدح به الرّسول ﷺ، وما تضمّنته منظومة الأحكام الشّرعيّة العتيدة.

دلالة الاستثناء في قوله: ﴿إِلَّا مَا حَمَلَتۡ ظُهُورُهُمَآ﴾:

الاستثناء المتّصل ذو أهمّيّة بالغة في توضيح المعنى وتفصيله

في قوله: ﴿إِلَّا مَا حَمَلَتۡ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلۡحَوَايَآ أَوۡ مَا ٱخۡتَلَطَ بِعَظۡمٖۚ﴾ الاستثناء في الآية الكريمة مُتَّصل، وفيها قولان: الأوَّل: وإنَّه تعالى استثنى عن هذا التَّحريم ثلاثة أنواع: أوَّلها: قوله: ﴿إِلَّا مَا حَمَلَتۡ ظُهُورُهُمَآ﴾، قال ابنُ عبَّاس: إلَّا ما عَلِق بالظَّهر منَ الشَّحم فإنّي لم أُحرِّمه. والاستثناء الثَّاني: قوله تعالى: ﴿أَوِ ٱلۡحَوَايَآ﴾، قال الواحديّ: وهي المباعر والمصارين. والاستثناء الثَّالث: قوله: ﴿مَا ٱخۡتَلَطَ بِعَظۡمٖۚ﴾، قالوا: إنَّه شحم الأَلْيَة، في قول جميع المفسّرين. أمَّا القول الثَّاني فإنَّ قولَه: ﴿أَوِ ٱلۡحَوَايَآ﴾ غيرُ معطوفٍ على المُستثنى، بل على المُستثنى منه، والتَّقدير: حُرِّمت عليهم شحومُهما أو الحوايا أو ما اختلط بعظم إلَّا ما حملت ظهورُهما فإنَّه غيرُ محرَّم[1].

سرُّ التَّعبير بصيغة الجمع بقوله: ﴿إِلَّا مَا حَمَلَتۡ ظُهُورُهُمَآ﴾:

ما حملتِ الظّهور مِنَ شحم البَقَرِ والغَنَمِ، معفوٌّ عنه، رأفةً منَ الله بخلقه

جمَعَ الظَّهر لأنَّه فردٌ مِن اثنين أُضيف إليهما، كما في قوله: ﴿فَقَدۡ صَغَتۡ قُلُوبُكُمَاۖ﴾ [التّحريم: 4][2]، وهذا المعنى استثناءٌ منَ الشّحوم،

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 170 - 171/13، والسّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 5/204.
(2) النّسفيّ، التّيسير في التّفسير: 6/246.

ومخرجٌ لمَا عَلِقَ منَ الشّحم بظهورهما عن حكم التّحريم، وهذا مَلْمَحٌ مكينٌ منَ البيان القرآنيّ الرّاقيّ[1].

إفادة ﴿أَوْ﴾ معنى العطف أو الإباحة في قوله: ﴿أَوِ ٱلْحَوَايَآ﴾:

تفصيل المعنى بالحرف بعد إجماله، دليل على بلاغة السّياق وروعته

كلمة (أَو) إذا دخلت على النَّفي صارَت في معنى الواو، كقوله: ﴿وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴿٢٤﴾﴾ [الإنسان: 24]، يُراد بها: نَفيُ ما يَدخُلُ عليه بطريق الانفِرَاد؛ كما تقول: (هؤلاءِ أهلٌ أن يُعْصَوا فاعْصِ هذا أو هذا)؛ فالمعنى: حَرَّمَ عليهم هذا وهذا. أو أنَّ (أو) في هذا المثال للإباحَةِ، والأحسَن في الآية إذا قُلْنَا: إنَّ ﴿ٱلْحَوَايَآ﴾ معطوفٌ على ﴿شُحُومَهُمَآ﴾، وأنْ تكون ﴿أَوْ﴾ فيه للتَّفصيلِ؛ فَصَّلَ بها ما حَرَّم عليهم منَ البقر والغنم[2].

تقديم شبه الجملة على العامل، في: ﴿وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ﴾:

تقديم المجرور بمنزلة الافتتاح بـ(أمَّا)، وهو لبيان الحَصْرِ

تقديم المجرور على عامله في قوله: ﴿وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ﴾؛ للاهتمام ببيان ذلك؛ لأنَّه ممَّا يلتفت الذّهن إليه عند سماع تحريم كلّ ذي ظُفر، فيترقّبُ الحكمَ بالنّسبة إليهما؛ فتقديمُ المجرور بمنزلة الافتتاح بـ(أمَّا)، ولبيان الحَصرِ، فالمعنى: ومِنَ البَقَر والغَنَم - دون غَيرِهما - حَرَّمْنا عليهم ما ذُكِرَ[3].

معنى (أل) في لفظ ﴿ٱلْحَوَايَآ﴾:

ما أحلّ الله للبشر، إنّما كان لحكمةٍ أكيدة، ومصلحة ظاهرة

(أل) في لفظ ﴿ٱلْحَوَايَآ﴾، جاءَت للدّلالة على استغراق الجنس، وهذا التّعريف أفاد تخصيصًا آخَر ممّا أحلّ اللّه تعالى من طعام لبني إسرائيل، يوضّحه العطف على المباح لا على المحرَّم؛ أي: أو ما حملتِ الحوايا[4]، "والحوايا هنا هي الأمعاء الغليظة، وطولها كذا

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/195.

(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/679، والسّمين الحلبيّ، الدّرُّ المصون: 5/491، والآلوسّي، روح المعاني: 4/290.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/أ141 - 142، ومحمّد رضا، تفسير المنار: 8/152.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/أ141.

متر، ومن حكمة تكوينها الرّبّانيّة، نجدها تلتفّ على بعضها، ولذلك اسمها (الحوايا)"[1].

معنى الباء في قوله تعالى: ﴿أَوۡ مَا ٱخۡتَلَطَ بِعَظۡمٖۚ﴾:

بيانُ الشرعِ أدقَّ الأحكام، دليلٌ على استيعابه لأدقّ مناحي الأشياء

الاختلاط لا يكون إلَّا بين شيئين، ومعنى الأشياء قوله: ﴿مَا ٱخۡتَلَطَ بِعَظۡمٖۚ﴾؛ أي: التفَّ الشَّحم على العظم، والتصق به؛ وعليه فالباءُ أفادت معنى الإلصاق[2].

نكتة تنكير (عظم):

في تعميم الحكم على كلّ عظم، تخفيفٌ ومصلحة

في قوله تعالى ﴿أَوۡ مَا ٱخۡتَلَطَ بِعَظۡمٖۚ﴾، جاءَت لفظةُ (عظم) في هذه الآية الكريمة نكرَة، والغرضُ من هذا التّنكير إفادةُ النّوعية والتّكثير والتّعميم، وهذه الإفادة إفادة أصليّة للنَّكرة، فيكون المعنى: أيُّ عظمٍ اختلطَ بشحمٍ، فهو حلالٌ عليهم.

الموقع البيانيّ لقوله: ﴿ذَٰلِكَ جَزَيۡنَٰهُم بِبَغۡيِهِمۡۖ﴾:

استئناف بيانيّ لكونها جملةً تعليليّة

تذييلٌ يُبيِّنُ عِلَّة تحريم ما حرّم عليهم، ويقتضي أنّ هذا التّحريم، إنّما كان عقوبة لهم على ذنوبهم وبغيهم، واستعصائهم على الأنبياء[3].

سرّ التّعبير باسم الإشارة للبعيد مع قربه:

قوَّةُ اللَّفظ مُشعِرةٌ بقوَّة المعنى، في سياق الآية

تُلحَق باسم الإشارة (ذلك) اللَّام؛ لتعطيها إيحاءً أكثر بالبعد؛ لأنَّ مِن دلالات هذا الحرف الدّلالة على هذا المعنى، كذا ذكر ابن هشام. وقال ابن يعيش: "فإن زاد بعدُ المشار إليه، أتوا باللَّام مع الكاف، فقالوا: ذلك، واستُفيد باجتماعهما زيادة في التَّباعد؛ لأنَّ قوَّةَ اللَّفظ مُشعِرةٌ بقوَّة المعنى"[4].

(1) محمّد متوليّ الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ (الخواطر): 7/3976.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/أ142، وعضيمة، دراسات لأسلوب القرآن الكريم: 4/547.
(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/358، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/أ142.
(4) ابن يعيش، شرح المفصّل: 2/365.

وقد يوحي هذا البعد الّذي تدلّ عليه اللّام والكاف في هذا الاسم بتعظيم المشار إليه، وهو إحدى دلالات ذلك المعنى، ومِن ذلك ما نراه في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم﴾، والمقصود به: التَّحريم المأخوذ من قوله: ﴿حَرَّمْنَا﴾[1].

معنى الباء في عبارة ﴿بِبَغْيِهِمْ﴾:

حرف الباء في: ﴿بِبَغْيِهِمْ﴾ من قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ﴾؛ للإبدال، أو السَّببيّة؛ بسبب بغيهم؛ أي: ظلمهم، وقتلهم الأنبياء بغير حقٍّ، واتِّخاذهم العجل، وأكلهم الرِّبا؛ وقد نُهُوا عنه، وأكلهم أموال النَّاس بالباطل، والاصطياد يوم السَّبت[2].

بغيُ العباد هلاكٌ في الدّنيا، وعذابٌ في المعاد

غرضُ إضافة البغي إليهم، في قوله ﴿بِبَغْيِهِمْ﴾:

أفادَت الإضافة في لفظ ﴿بِبَغْيِهِمْ﴾ الدّلالة على التَّخصيص والرَّبط، كما دلَّت على أنَّ اللّه تعالى مجزٍ الظَّالمين البُغاة بسوء أعمالهم، يُضاف إلى ذلك أنَّها وسمَتِ اليهود بالبغي، فهي من صفاتهم الثَّابتة.

إضافة المجازاة إليهم بما بغوا، غايته النّعي عليهم وتقريعهم

الموقعُ النَّحويُّ للفظ ﴿ذَٰلِكَ﴾، وغرضُ تقديمه:

﴿ذَٰلِكَ﴾ في مَوضِع رَفْعٍ على إضمار مبتدأ، تقديرُه: الأمرُ ذلكَ، ويجوز أن يكون نُصِبَ بـ﴿جَزَيْنَٰهُم﴾؛ لأنَّه يتعدَّى إلى مفعولين، والتَّقدير: جَزَيناهم ذلكَ. وقال الزَّمخشريّ: ذلك الجزاء جزيناهم، وهو تحريم الطَّيّبات[3].

مَن انتهك المُحرّمات عُوقِب بالمنع من الطّيّبات

معنى الواو ودلالتها، في قوله: ﴿وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾:

الواو استئنافيّة أو حاليّة، يقولُ: وإنّا لصَادقون، في خَبرِنا هذا عن هؤلاءِ اليهودِ، عمَّا حَرَّمنا عليهم منَ الشُّحوم، ولحوم الأنعام، والطَّيرِ الّتي ذكَرْنا أنَّا حَرَّمْنا عليهم، وفي غيرِ ذلك من أخبارِنا[4].

كلُّ ما أخبر به الله، فهو صِدقٌ لا ريب فيه

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/143 - 144.
(2) محمّد الهلال، تفسير القرآن الثّرّيّ الجامع، تفسير آية الأنعام: 146.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/75، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/680.
(4) ابن جرير، جامع البيان: 9/647.

بلاغة تتابع المؤكّدات للمبالغة، في قوله: ﴿وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾:

لا أصدقَ منَ الله قيلًا، ولا أحسنَ منه حديثًا

اشتمل قوله تعالى: ﴿وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ على مؤكِّدات ثلاثة؛ أوَّلها: الجملة الاسميَّة، وثانيها: (إنَّ) المؤكّدة، وثالثها: اللَّام المزحلَقة المقترنة بالخبر، فالجملة تأكيدٌ على أنَّ اللّه تعالى هو الَّذي حرَّم عليهم ذلك، وردٌّ على اليهود في ادِّعائهم أنَّهم هم الَّذين حرَّموه على أنفسهم اقتداءً بالنَّبيِّ يعقوب عليه السلام، على حسب زعمهم[1]، ويبقى أنّ كلامَ اللّه صدقٌ لا يشوبه ريبٌ، وحقٌّ لا تُخالطه ضلالة.

علّة التّعبير بهذا الخبر: ﴿وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾:

للتّعريض باليهود والنّعي عليهم؛ لكذبهم

لمّا كان هذا الخبر عن شريعة اليهود منَ الأنباء الّتي لم يكنِ النَّبيّ ﷺ ولا قومه، يعلمون منها شيئًا لأمِّيَّتِهم، وكان مَظِنَّةَ تكذيبِ المشركين لعدم إيمانهم بالوحي، وجزمهم بأنَّ النَّبيّ ﷺ ليس بأعلم منهم بشرع اليهود، ومَظِنَّة تكذيب اليهود أنّ تحريمَ اللّه تعالى ذلك عليهم عقوبةٌ لهم ببغيهم وظلمهم المبين، في آيات أخرى، قال تعالى بعده: ﴿وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾، فأكَّد حقيقةَ الخبر وصِدْقَ المُخبِر بـ(إنّ) والجملة الاسميّة المعرَّفة الطَّرفين، ولام القسم؛ أي: صادقون في هذه الأخبار عنِ التَّحريم وعلَّتِه؛ لأنَّ أخبارَنا صادرةٌ عنِ العِلم المحيط بكلِّ شيءٍ، والكذبُ محالٌ علينا؛ لاستحالة كلّ نقص على الخالق[2].

المتشابه بين آيتي الأنعام والنّحل:

كلتا الآيتين فيما حرّم على اليهود، وتتمّة كلّ منهما بما يناسبُ سياقَها

قال تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمۡنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٖۖ﴾، وقال ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمۡنَا مَا قَصَصۡنَا عَلَيۡكَ مِن قَبۡلُۖ﴾ [النّحل: 118].

لِمَ خُصَّتْ كلّ آية بما فيها منَ المحرَّم؟

آية الأنعام يسبقها بيان اللّه تعالى ما أحلَّه منَ الأنعام خاصَّة،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/أ144، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2717.

(2) محمّد رضا، تفسير المنار: 8/153.

وما حرَّمه من غيرها عامَّة، ردًّا على ما حرَّمه المشركون مِنَ الأنعام حين قالوا: ﴿هَٰذِهِۦٓ أَنۡعَٰمٞ وَحَرۡثٌ حِجۡرٞ لَّا يَطۡعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعۡمِهِمۡ﴾ [الأنعام: 138] الآيات؛ فناسَبَه بيانُ ما حَرَّمه على بني إسرائيل خاصَّة الَّذين هادوا منَ الأنعام، ردًّا على مَن زعموا أنَّ اللّٰه تعالى لم يحرِّمها عليهم، إنَّما حرَّمها إسرائيلُ عليه السلام على نفسه، فاقتدوا به بقوله: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمۡنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٖۖ وَمِنَ ٱلۡبَقَرِ وَٱلۡغَنَمِ حَرَّمۡنَا عَلَيۡهِمۡ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتۡ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلۡحَوَايَآ أَوۡ مَا ٱخۡتَلَطَ بِعَظۡمٖۚ﴾.

أمّا آية النَّحْلِ فيسبقها قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ لَا يُفۡلِحُونَ ١١٦﴾ [النّحل: 116]، فلمَّا كان السِّياق أكثرَ تعلُّقًا بقوم الرَّسول ﷺ، وكانت سورة النَّحل بعد سورة الأنعام، ترتيبَ نزول وترتيبَ مصحف، وقد فَصَّل اللّٰه فيها ما حرَّمه على الَّذين هادوا، وكان ذلك مشهورًا؛ ناسَبَهُ الإشارة بقوله: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمۡنَا مَا قَصَصۡنَا عَلَيۡكَ مِن قَبۡلُۖ﴾.

المتشابه بين آيتي الأنعام وسبأ:

وقوله ﴿ذَٰلِكَ جَزَيۡنَٰهُم بِبَغۡيِهِمۡۖ﴾ [الأنعام: 146]مع قوله: ﴿ذَٰلِكَ جَزَيۡنَٰهُم بِمَا كَفَرُواْۖ﴾ [سبأ: 17]، لِمَ خُصَّتْ كلّ آية بما فيها منَ السَّبب؟

دلالة مضامين سياق الآيتين؛ لتقرير الجزاء على الكفر أو على البغي

والجواب: أنّ آية الأنعام بُدِئت بقوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمۡنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٖۖ وَمِنَ ٱلۡبَقَرِ وَٱلۡغَنَمِ حَرَّمۡنَا عَلَيۡهِمۡ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتۡ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلۡحَوَايَآ أَوۡ مَا ٱخۡتَلَطَ بِعَظۡمٖۚ﴾؛ فلمّا كان ذلك ردًّا على مَن زعموا أنّ اللّٰه تعالى لم يُحرِّم عليهم هذه الأشياء، إنَّما حرَّمها إسرائيل عليه السلام على نفسه، فتبعوه، وكان هؤلاء قد لجؤوا إلى الكذب باغين؛ ناسَبَه قولُه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ جَزَيۡنَٰهُم بِبَغۡيِهِمۡۖ﴾.

أمَّا آية سبأ فيسبقها قوله تعالى: ﴿كُلُواْ مِن رِّزۡقِ رَبِّكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لَهُۥۚ بَلۡدَةٞ طَيِّبَةٞ وَرَبٌّ غَفُورٞ ١٥ فَأَعۡرَضُواْ﴾ [سبأ: 15 - 16]؛ فلمّا كان الإعراض عنِ الشّكر كُفرًا؛ ناسَبَه قولُه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ جَزَيۡنَٰهُم بِمَا كَفَرُواْۖ﴾.

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(الخَلْط) و(اللّبس) و(المزج):

اللَّبس يُستعمل في الأعراض، والخَلْط في الأجسام، والمَزْجُ في السّوائل

اللَّبس: يُستعمل في الأعراض مثل: الحقّ والباطل وما يجري مجراهما، وتقول: في الكلام لَبْسٌ. والخَلْط: يُستعمل في العرض والجسم. وأمَّا المزج فخاصٌّ بالسَّوائل[1].

(الأَجر) و(الجَزاء) و(الثَّواب):

الأجر: جزاء على عمل، والجَزاء: فيما كان عَن عقد وغيره، والثّواب: الجزاء

الأَجرُ: الجَزاء على العَمَل؛ كالإجارَةِ، والذِّكر الحَسَن، وأجارَهُ اللّه منَ العَذاب: أنقذه، والأَجرُ والأُجْرَة يُقَال فيما كانَ عَقْدًا، وما يجرِي مَجرَى العَقد، ولا يُقال إلَّا في النَّفع.

والجَزاء: يُقال فيما كان عَن عَقْدٍ، وعَن غير عَقْدٍ، ويُقال في النَّافع والضَّارّ.

وأمَّا الثّواب: فقد يكون بالخير، كقوله تعالى: ﴿فَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَأُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأُوذُواْ فِي سَبِيلِي وَقَٰتَلُواْ وَقُتِلُواْ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ ١٩٥﴾ [آل عمران: 195]، وهذا هو الغالب، لكن قد يكون بالشَّرّ، كما في قوله تعالى: ﴿فَأَثَٰبَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ﴾ [آل عمران: 153]؛ وذلك لأنَّ الثَّواب مشتقٌّ منَ الرُّجُوع، والجزاء رجوعٌ على المرء بما فعَل؛ إنْ خيرًا فخيرٌ، وإنْ شرًّا فشرٌّ، وأمَّا الأجر فهو تعويضٌ يُعطَى مقابل جُهدٍ أو بذلٍ؛ ولذلك لا يكون شرًّا قطُّ[2].

(البغي)، و(الطُّغيان)، و(الظُّلم)، و(العُتُوّ)، و(العُدوان):

البغيُ يتضمَّنُ أنواعَ الظُّلم والتَّعدي، والطُّغيان: تجاوز الحدِّ والغُلوّ في ذلك

البغيُ: الفَسادُ والشِّدَّة، ثمَّ أُطلق البغيُ على التَّعدّي، ومجاوزة الحدِّ بغير حقٍّ، وقصد الفساد. والطُّغيان: مجاوزة الحدِّ في

(1) العسكريّ، معجم الفروق اللّغويّة، ص: 462، والرّاغب، المفردات: (مزج).
(2) الكفويّ، الكلّيّات، ص: 48، والزَّبيديّ، تاج العروس: (أجر)، وداود، محمد محمد، معجم الفروق الدّلاليّة في القرآن الكريم، ص: 47.

كُلِّ شيءٍ. والظُّلم: وَضْعُ الشَّيء في غير موضعه. والعُتُوُّ: التَّكبُّر والتَّجبُّر والعِصيان. والعُدوان: تجاوز ما ينبغي أن يُقتصرَ عليه، وهو الظُّلم الصّراح[1].

فالبغيُ يتضمَّن كلّ أنواع الظُّلم والتَّعدِّي والكِبر معًا. والطُّغيان: تجاوز الحدِّ والغُلوّ في ذلك، ويشمل الإفراطَ في المعصية والكِبْرَ والكُفر، وهو بذلك أشدُّ منَ البغي. والظُّلم: هو الميل عنِ القَصد، والتَّعديّ سواء أكان صغيرًا أم كبيرًا، حيث يتراوح الظُّلم ما بين أكبر الكبائر؛ وهو الشِّرك بالله تعالى، وبين ارتكاب صغائر الذُّنوب. والعُتُوُّ: المبالغة في الكِبْرِ أو الفسادِ أو الكُفر[2]، ولكنَّه لا يبلغ مبلغ البغي والطُّغيان. وقد فُسِّر العُدوان بالتَّعديّ في حدود الله، وبالظُّلم الصُّراح.

وخلاصة ما سَبق أنَّ الألفاظ المذكورة مُتقاربة دلاليًّا؛ حيث تشترك جميعها في معنًى عامٍّ هو: مجاوزة الحدِّ، ولكنَّها على درجات: فأشدُّها الطُّغيان؛ لاشتماله على مجاوزة الحدِّ والمبالغة في الكِبْر والمعصية والشَّرّ والكُفر، ويليه البغي؛ لاشتماله على التَّعديّ والفساد والظُّلم، ثمّ العُتُوُّ؛ لأنَّه مُبالغةٌ في الكِبر أو الفساد أو الكُفر، ويتبعُ ذلك العدوان؛ لأنَّه تعدٍّ لحدود الله، وظلمٌ صُراح. ويأتي أخيرًا في الشِّدّة الظُّلم، وتتفاوت درجاته من صغائر الذُّنوب إلى كبائرها إلى الشِّرك بالله تعالى[3].

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (بغى)، و(طغى)، و(ظلم)، و(عتو)، و(عدو).
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/6، وأبو حيّان، البحر المحيط: 7/243.
(3) داود، معجم الفروق الدّلاليّة، ص: 143 - 148.

﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ١٤٧﴾ [الأنعام: 147]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

دعوةُ النَّبيِّ وحثُّه على الاستمرارِ بالدَّعوةِ

تفريعٌ على الكلام السَّابقِ الَّذي أبطلَ تحريمَ ما حرَّموه، ابتداءً من قوله: ﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾ [الأنعام: 143] الآيات، كما أنَّ الآيةَ الكريمةَ قد جاءت لتزجُرَهُم عنِ البغي والكُفران؛ حتَّى يعودوا إلى طريقِ الحقِّ، إن كانوا ممَّن ينتفعُ بالذِّكرى، ويَعتبرُ بالموعظة[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿كَذَّبُوكَ﴾: الكَذِبُ: الإِخْبَارُ بخِلافِ الوَاقِعِ؛ وَضِدُّ الكَذِبِ: الصِّدْقُ، وَيُطلقُ الكَذِبُ صفةً للخَبَرِ الذي بخلَافِ الوَاقِعِ، وَضِدُّهُ الحَقِيقَةُ، وَمِنْ مَعَانِي الكَذِبِ أَيْضًا: الجُحُودُ والافْتِرَاءُ والزَّيْفُ والخِدَاعُ والخَطَأُ[2]، والمعنى هنا: لم يُصدِّقوا بك، واتَّهموك.

2) ﴿بَأْسُهُۥ﴾: البَأْسُ: هو الشِّدَّة والعَذاب، والمراد هنا النِّكاية، أي: سطوَتهُ وعذابُه، نحو قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا ٨٤﴾ [النِّساء: 84]، ﴿فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾ [الأنعام: 42][3].

المَعْنى الإِجْماليُّ:

عذابُ اللهِ لا يُرَدُّ عن مرتكبي المعاصي والآثام

خاطَبَ اللهُ تعالى نَبِيَّهُ ﷺ قائلًا له: إن كَذَّبُوك؛ فَقُل لهم: إنَّ رَبَّهُم ذو رحمةٍ واسِعَةٍ لِمَن أطاعَه، فَلْيُسارِعوا إلى رَحْمَتِه بفِعْلِ أَسْبابِها، كما أنَّ مِن رَحْمَتِه بهم إمهالَه لهم، وعدَمَ إعجالِهم بالعِقابِ، وأَمَرَه

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 8/144، وطنطاوي، التفسير الوسيط: 5/200.

(2) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة، والجوهري، الصحاح، والزَّبيدي، تاج العروس: (كذب).

(3) الرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (بأس، بؤس)، والمناوي، التوقيف على مهمات التعاريف، ص: 69، والكفوي، الكليات: 249.

أن يقولَ لهم أيضًا: إنَّ سَطْوَتَه تعالى ونَكالَه وعَذابَه لا يَرُدُّه شيءٌ عَنِ القَومِ المجْرمينَ[1].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالةُ العطفِ بالفاءِ في قوله: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ﴾:

تفريعٌ على ما سبق للردِّ عليهم، وتسريةٌ عنِ النَّبيِّ ﷺ

الفاء تَفْرِيعٌ عَلَى الْكَلَامِ السَّابِقِ الَّذِي أَبْطَلَ تَحْرِيمَ مَا حَرَّمُوهُ، ابْتِدَاءً مِنْ قَوْلِهِ: ﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾ [الأنعام: 143] الْآيَات، أَيْ: فَإِنْ لَمْ يَرْعَوُوا بَعْدَ هَذَا البيانِ، وَكَذَّبُوكَ فِي نَفْيِ تَحْرِيمِ اللهِ مَا زَعَمُوا أَنَّهُ حَرَّمَهُ، فَذَكِّرْهُمْ بِبَأْسِ اللهِ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ عَمَّا زَعَمُوهُ[2].

أو هي الفاءُ الفصيحة؛ لأنَّها أفصحَتْ عن جوابِ شرطٍ مُقدَّرٍ تقديره: إذا أخبرتَهم تحريمَ ما ذُكِر، وأردتَ بيانَ حكمٍ ما إذا كذَّبوك.. فأقولُ لكَ: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ﴾[3]؛ ففيها إشارةٌ إلى تسريةِ قلبِ النَّبيِّ ﷺ، وتسليتِه، وتثبيته، وتقويته، وتلقينِه الحُجَّةَ؛ حتى يُبلِّغَ رسالاتِ ربِّه دونَ خشيةٍ مِن أحدٍ إلَّا مِنَ اللهِ.

سرُّ التَّعبيرِ بـ (إن) الشَّرطيَّة في قوله: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ﴾:

الإشارةُ إلى استبعادِ حصولِ هذا التَّكذيبِ لخروجِه عنِ المعقولِ

(إن): شرطيَّةٌ تفيدُ الاحتمالَ والنُّدرةَ وقِلَّة الحدُوث؛ ولمَّا كان هذا التَّكذيبُ خارجًا عن دائرة المنطق والمعقول؛ والمكذَّبُ رسولٌ؛ استعمَل الخطابُ (إنْ) دون غيرها؛ لأنَّها تردُ في سياق الشَّكِّ دون اليقين، فكأنَّ البيانَ يشيرُ إلى أنَّ هذا التَّكذيبَ حقُّه ألَّا يكون، وهو مشكوكٌ في حصولِه وخارجٌ عنِ المعقول؛ فإنْ حصَلَ، وكان فلْيَكُنْ منك الجوابُ على النَّحوِ المذكورِ: ﴿فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ﴾، وفي هذا الخطابِ اكتفاءٌ بالتَّلميحِ عنِ التَّصريحِ، وهو أسلوبٌ دعويٌّ بديعٌ في التَّخاطبِ مع المدعوِّ.

(1) ابن جرير، جامع البيان: 9/648، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 3/357، والشنقيطي، العذب النمير: 2/403 - 407.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 8/144، 145.

(3) الهرري، حدائق الروح والريحان: 9/146.

إيثارُ المضي في ﴿كَذَّبُوكَ﴾، والعدولُ عنِ المضارعِ:

ثبوتُ التَّكذيبِ منهم وحصولُهُ في الماضي، وتوقُّعُهُ منهم مستقبلًا

أُوثِرَ التَّعبيرُ بصيغةِ الماضي؛ لأنَّ التَّكذيبَ في الآيةِ لأمرٍ ثابتٍ محدَّدٍ؛ وهو مسألة التَّحريم، وعُدِلَ عنِ الفعل المضارع: (يكذِّبوك)؛ لأنَّهُ يدلُّ على الاستمرار، والتَّجدُّد، أو تعدُّد حالات التَّكذيب؛ وهو خلافُ ما عليه سياق الآية.

وذهب ابنُ عاشورٍ إلى أنَّ قوله تعالى: ﴿فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ﴾ فيه تنبيهٌ لهم بأنَّ تأخيرَ العذابِ عنهم هو إمهالٌ داخِلٌ في رَحمةِ اللّهِ رحمةً مُؤَقَّتةً؛ لعلَّهم يُسلِمونَ، وعليه يكون معنى فِعْلِ: ﴿كَذَّبُوكَ﴾ الاستمرارَ، أي: إنِ اسْتَمَرُّوا على التَّكذيبِ بعد هذه الحُجَجِ[1].

السِّرُّ في وضعِ الضَّميرِ موضعَ الظَّاهرِ في ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ﴾:

التَّنبيهُ إلى الفعلِ، وهو التَّكذيبُ؛ لا إلى الفاعلِ

أتى قولُهُ تعالى: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ﴾ هكذا، واكتفى دونَ تفصيل ذِكرٍ لهُم، أو ذِكرٍ لمتعلِّق الكذبِ منهم، ودونَ الوقوفِ كثيرًا عند التَّكذيب؛ وهو درسٌ بيانيٌّ دعَويٌّ في عدم الوقوف عند ذِكر الخصوم وشبهاتِهم، ومقولاتهم، وأكاذيبهم، والتَّفصيل فيها بِقَدْرِ ما تكونُ الإشارة بإيجازٍ واختصارٍ.

نُكْتَةُ مجيءِ الجوابِ ﴿فَقُل﴾، وفائدةُ تصديرِهِ بفعلِ القولِ:

تلقينُ النَّبيِّ الرَّدَّ عليهم مِنَ الله، وتعليمٌ للدُّعاة كيفيَّةَ الرَّدِّ الجميل

﴿فَقُل﴾ تلقينٌ لرسول الله ﷺ بالرَّدِّ والقول، وهنا مَكْمَنُ الإعجاز؛ لأنَّ مَن يزعمون أنَّ هذا القرآنَ مِن كلامهِ البشريِّ، كيف يتَّفقُ مِنه الخطابُ والتَّلقِّي في وقتٍ معًا؟!، فدلَّ هذا على أنَّه مُتلَقٍّ لهذا التَّوجيهِ والبيان من جهةٍ عُلْيا؛ وفي هذا بيانٌ أن ينطلقَ الدُّعاة في تعاملهِم مع خصومهِم مِن تعاليمِ الوحي لا مِن أخلاق البشرِ في ردَّة الفعل والانفعال.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 8/145.

تلوين أسلوبِ الكلام مِنَ التَّكلُّم إلى الخطاب إلى الغيبة:

شمولُ خطابِ اليهودِ المعاصرينَ المذكورينَ في الآيةِ السَّابقةِ والمشركينَ

ورد في الآيةِ السَّابقةِ: ﴿حَرَّمْنَا﴾ و﴿جَزَيْنَٰهُم﴾ و﴿وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ [الأنعام: 146] كلُّها بصيغة التَّكلُّم، وفي هذه الآية: ﴿فَقُل﴾ و﴿رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ﴾، والانتقالُ مِنَ التَّكلُّم بصيغة العَظَمَة إلى الخطابِ؛ ليشملَ الخطابُ اليهودَ المعاصرين المذكورينَ في الآيةِ السَّابقةِ، والمشركين؛ فالحديثُ عنِ اليهود إخبارٌ عن جرائمهم وافتراءاتهم في التَّحريم والتَّحليلِ يناسبُهُ التَّكلُّم، والخطابُ للتَّهديدِ والوعيد لهؤلاء المكذِّبين، سواءٌ مِنَ اليهودِ أم مِنَ المشركين.

فالمعنى على الأوَّلِ - وهو خطابُ اليهود - إن كذَّبَتْكَ اليهودُ في الحُكمِ المذكور، وأصرُّوا على ما كانوا عليه مِن ادِّعاء قِدَمِ التَّحريم، ﴿فَقُل﴾ لهم: ﴿رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ﴾، لا يؤاخذكم على كلِّ ما تأتونَهُ مِنَ المعاصي، ويمهلُكم على بعضِها، ﴿وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ﴾ بالكلِّية ﴿عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾، فلا تُنكروا ما وقعَ منهُ تعالى مِن تحريم بعضِ الطَّيبات عليكم عقوبةً وتشديدًا.

وعلى الثَّاني - وهو خطابُ المشركين - فإنْ كذَّبكَ المشركون بما فُصِّل مِن أحكامِ التَّحليل والتَّحريم، ﴿فَقُل﴾ لهم: ﴿رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ﴾، لا يُعاجلكم بالعقوبةِ على تكذيبكم، فلا تغترُّوا بذلكَ، فإنَّهُ إمهالٌ لا إهمال[1].

إيثارُ ذكرِ الرَّبِّ دونَ اسمِ الجلالةِ:

إثارةُ فِطرتِهم الإيمانيَّةِ تُجاه خالقِهم ومُربِّيهم لعلَّهم يرجعون

في ذكرِ الرُّبوبيَّةِ هنا إشعارٌ إلى معنًى دقيقٍ مِن معانيها، يتناسبُ مع سياقِ الدَّعوة هنا، وهو معنى التَّربيةِ والعنايةِ والاهتمام؛ فهو خالقُهم ومُربِّيهم، وهذا المعنى ينبغي للدَّاعي استحضارُهُ معَ المدعوِّ، وإظهارُ فضلِ ربوبيَّة اللهِ عليه، وهو أمرٌ محسوسٌ ملموس، وذلك يقود عند التَّأملِ والفهمِ إلى الإقرار بالألوهيَّةِ.

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/195.

وإضافتهُ إلى المخاطبين ﴿رَّبُّكُمْ﴾ دون إضافتهِ إلى ضميرِ المتكلِّم (ربِّي أو ربُّنا) أو الغائب (ربّهم)؛ تهييجٌ لفِطرتهِم الإيمانيَّةِ، لعلَّهم يرجعونَ عن تكذيبهِم، وتوبيخٌ لهم على جُحودهِم ونُكرانهم الرَّبَّ ﷻ، مع عظيمِ فضلهِ وإنعامهِ عليهِم وربوبيَّته لهم، كقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ ۝٦﴾ [الانفطار: 6]، أي: إنَّهُ ﴿رَّبُّكُمْ﴾ على ما أنتم عليه مِنَ الكفرِ والتَّكذيبِ والجحودِ والنُّكرانِ، فهل يَليقُ ذلك منكم؟

فائدةُ الإخبارِ عنِ الرَّبِّ بقوله ﴿ذُو رَحۡمَةٖ وَٰسِعَةٖ﴾:

في قوله تعالى: ﴿ذُو رَحۡمَةٖ وَٰسِعَةٖ﴾ مظهرٌ مِن مظاهر الرُّبوبيَّة وهي الرَّحمة، وكان المتوقَّع في هذا السِّياق أن يكون: (فإنْ كذَّبوكَ فقل ربُّكم ذو عقوبةٍ شديدة)، لكنَّه ذَكَر الرَّحمةَ هنا مِن قَبيل التَّرغيبِ قبلَ التَّرهيب، وأنَّ ذلك مِن حِلْمهِ عليهم؛ إذْ لم يُعاجلْهُم بالعُقوبة على التَّكذيب. وفيه تعليمٌ للمؤمنين أن يتحَلَّوا بالحِلْم والرَّحمةِ، والتَّرغيبِ قبلَ التَّرهيبِ.

التَّرغيبُ قبلَ التَّرهيبِ، والإعلامُ بأنَّ رحمتَهُ سبحانَه سبقَتْ غضبَهُ

إذًا، فالخياراتُ الأسلوبيَّةُ للنَّظم القرآنيِّ المذكور: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمۡ ذُو رَحۡمَةٖ وَٰسِعَةٖ﴾ يتَّسع لها النَّظمُ على أشكالٍ عدَّةٍ، منها: (فإنْ كذَّبوكَ؛ فربُّهم ذو رحمةٍ واسعةٍ)، أو: (فربُّكَ ذو رحمةٍ واسعةٍ)، أو: (فقُلْ ربِّي ذو رحمةٍ واسعةٍ)، أو: (فقُلْ ربُّكم ذو عقوبةٍ شديدةٍ)، لكنَّ مجيءَ النَّظمِ القرآنيِّ بهذا التَّعبيرِ دونَ غيرهِ؛ لما فيهِ مِن تسليةٍ وتسريةٍ وتوجيهٍ لسيِّد الدُّعاة رسولِ اللّٰهِ محمَّد ﷺ، وربطِ الجزاءِ بالشَّرط بخصوصيَّةِ الخِطاب، وتعميمِ اللَّفظِ ليشملَ كُلَّ مخاطبٍ بهذا الكتابِ العزيزِ، ولما في ألفاظ جُملتَي الشَّرط والجزاءِ مِن نُكَاتٍ بلاغيَّةٍ ودقائقَ لغويَّةٍ، سبقَ الحديثُ عن بعضِها، ويأتي الكلامُ عن بعضِها الآخر إن شاء اللّٰهُ تعالى.

نكتةُ التَّعبيرِ بـ﴿ذُو﴾ دونَ (صاحب):

(ذو) تناسبُ ملازمةَ الرَّحمةِ للذَّات العليَّة، وعدمَ مفارقتِها البتَّة

أتى بـ﴿ذُو﴾ هنا دون (صاحب)؛ لأنَّ (ذو) التي بمعنى (صاحب) تفيدُ ملازمةَ الصِّفةِ دائمًا في كلِّ الأحوال، وتضاف إلى اسم صريحٍ، فيكونان مقصودَين بالذِّكر لبيان الصِّفات والأحوالِ؛ فالمضافُ والمضافُ إليه كالكلمةِ الواحدةِ، ولا يحلُّ ثمَّةَ الضَّميرُ مَحَلَّ الاسم الظَّاهرِ، فيقالُ: هو ذو علمٍ، وذو خلُقٍ.

وأمَّا (صاحب): فتفيدُ ملازمةَ المضافِ إليه في بعضِ الأحوال، لا في كلِّها، وقد وردَ مُفردًا نكرةً مضافًا إلى الضَّميرِ كثيرًا[1]، ولم يُضَفِ المفردُ إلى الاسمِ الظَّاهر إلَّا في قولهِ تعالى: ﴿وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ﴾ [القلم: 48][2]. أي: في هذه الحالةِ خاصَّةً، فأُوثِرَ التَّعبيرُ في ختامِ سورةِ القلمِ بـ(صاحب) لمناسبةِ النَّهي عن حالةٍ خاصَّة لنبيِّ اللّٰه يونس عليه السلام، وهو استعجالُ النَّصرِ، ولذا جاء قوله: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا﴾ [الأنبياء: 87]؛ لأنَّه في مقامِ التَّذكُّرِ والتَّدبُّرِ والعِبْرة، وقد مضت قِصَّتهُ وانتهت، وصار يُعْرَفُ بأنَّه (ذو النُّون)؛ لاختصاصه بهذه القِصَّةِ العجيبةِ.

ولذا ناسب ﴿ذُو﴾ في حقِّ اللّٰه جل جلاله، ولم يناسبه (صاحب)، فقال: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ﴾، كقوله: ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ﴾ [غافر: 15]، وقوله: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾ [الرحمن: 27]؛ لأنَّها صفةٌ أزليَّةٌ قديمةٌ.

نُكْتَةُ وَصْفِ رحمةِ اللهِ تعالى بالاتِّساعِ:

على قَدْرِ سعةِ رحمتهِ سبحانه يكونُ جُرْمُ مَن لم تَسعْهُ رحمتُهُ

ذُكِرَ في الجوابِ سَعَةُ رَحْمَتِه تعالى، مع أنَّ المَحَلَّ مَحَلُّ عقوبةٍ؛ وذلك لمناسبةٍ حسنةٍ؛ أن يكونَ ذلك نفيًا للاغترارِ بِسَعَةِ رَحْمَتِهِ في

(1) ورد (صاحب) مفردًا نكرةً ومعرفةً ثماني عشرة مرَّة.

(2) هذا بخصوص (صاحب) المفرد، وأمَّا (أصحاب) بالجمع فقد ورد في القرآن ثمانيًا وسبعين مرة، وأضيف إلى الاسم الظاهر كثيرًا.

الاجتراءِ على مَعْصِيَتِه؛ وذلك أبلَغُ في التَّهديدِ، فمعناهُ: لا تغْتَرُّوا بسَعَةِ رَحْمَتِه، فإنَّه مع ذلك لا يُرَدُّ عذابُه عنكم[1].

ورحمةُ اللّٰه من صفاتِهِ ﷻ الموصوفِ بها في الصِّفات والأفعالِ، بل إنَّ إنزالَ العقوبة والعذابِ على المخالفين ضَرْبٌ مِن ضُروب الرَّحمةِ ليَرتدعَ المعتبرُ، فيستقيمَ على الجادَّة في الأحوال.

ووصفَ رحمتَهُ بالاتِّساع بموجبِ ربوبيَّتِهِ لجميعِ الخلق، وفي هذا تشويقٌ للمدعوِّ أن يُسارعَ إلى تلَمُّس هذه الرَّحمات، فإذا كانت رحمتُهُ قد اتَّسعت للمُكذِّبين، فلم يُعاجِلْهم بالعُقوبةِ، فهي أقربُ ما تكون مِنَ المصدِّقين الطَّالبين رضاهُ: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝٥٦﴾ [الأعراف: 56]، وأسلوبُ التَّشويقِ والتَّرغيب مِن أهمِّ أساليب الدَّعوةِ إلى اللّٰه.

سِرُّ التَّعبيرِ بالجملتين الاسميَّةِ والفعليَّة في الآيةِ:

ثبوتُ رحمةِ اللهِ، وتجدُّدُ بأسِهِ واستمرارُهُ للمجرمينَ

أَتَتْ جُملةُ: ﴿رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ﴾ اسميَّةً تنبيهًا على المُبالغةِ في سَعَةِ الرَّحمةِ؛ لأنَّ الجملةَ الاسميَّة أدَلُّ على الثُّبوتِ والتَّوكيدِ مِنَ الفِعْليةِ[2]، وجملة: ﴿وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ فعليَّةٌ، ولم يقل: (وبأسهُ غيرُ مردودٍ)، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ۝٧٦﴾ [هود: 76]؛ للدّلالَةِ على استمرارِ النَّفي وتجدُّدِه؛ فهو سُنَّةٌ إلهيَّةٌ واقعةٌ لا محالةَ، وإن طالَ الزَّمانُ أو قَصُر، فبأسُ اللّٰهِ وانتقامُهُ بكلِّ مجرمٍ واقعٌ حتمًا.

سرُّ عطفِ جملةِ: ﴿وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ﴾ على ما قبلَها:

عدمُ اغترارِ أحدٍ بسعةِ رحمةِ اللهِ

لو توقَّف البيانُ عند ذِكْرِ الرَّحمةِ واتِّساعها؛ لتمادتِ الأنفسُ المريضةُ في الإعراض والتَّكذيب، فكان لا بدَّ مِنَ التَّثنيةِ بالتَّرهيب، ولذا عطفَ بقوله: ﴿وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾.

(1) الأنصاري، فتح الرحمن، ص: 179.

(2) أبو حيان، البحر المحيط: 4/681، وابن عادل، اللباب في علوم الكتاب: 8/496.

مناسبةُ التَّعبير عنِ اتِّساع رحمة الله بالجملة الاسميَّة، وعنِ التَّرهيب بالجملة الفعليَّة:

ثبوتُ رحمةِ اللهِ، وتجدُّدُ وعيدِهِ

اللَّافتُ في دِقَّةِ النَّظم والبيانِ في الآيةِ الكريمةِ، أنَّه عبَّر عنِ اتِّساعِ رحمتِه بالجملةِ الاسميَّةِ في الكلام، ﴿رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ﴾، وثنَّى بالتَّرهيب بجملةِ الأفعالِ، فقالَ: ﴿وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾؛ ذلك أنَّ رحمتَهُ سبقَتْ غضبَهُ، وهي الوصفُ الثَّابتُ في الأفعالِ؛ لما استقرَّ عند علماءِ البيانِ مِن دلالةِ الجملةِ الاسميَّةِ على الثُّبوت والاستمرار، لذا قدَّمها في الذِّكر، وأكَّدها بالصِّيغة في البيانِ، وهذا يتناسبُ مع أصلِ الفطرةِ البشريَّةِ في الدَّعوة برحمةِ الخطاب والإشفاق؛ ومَن انحرفتْ فطرتُهُ ولم يُجْدِ معهُ ذاكَ الخطابُ، كان لا بدَّ معه مِن انتقالِ الخطاب إلى التَّرهيبِ بالعذابِ.

إيثارُ التَّعبيرِ بالفعلِ ﴿يُرَدُّ﴾:

نفيُ ردِّ البأسِ نفيٌ لتخفيفِهِ معَ إظهارِ الكراهةِ لهؤلاءِ

عبَّر بالرَّدِّ بدلًا مِن (يُدْفَع) مثلًا؛ لأنَّ الدَّفع قد يكون إلى جهة القُدَّام والخَلْف جميعًا، والرَّدُّ لا يكون إلَّا إلى جهةِ الخَلْف، ويدلُّ عليه قولُه تعالى: ﴿وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ﴾ [هود: 76]، كما أنَّ الرَّدَّ فيه نوعٌ مِنَ الكراهة؛ ولـمَّا كان الأمر كذلك ناسبه التَّعبير بالرَّدِّ دونَ الدَّفع في قوله تعالى: ﴿وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾.

سِرُّ بناءِ الفعلِ ﴿يُرَدُّ﴾ للمفعولِ:

ليس لمخلوق طاقةٌ في دَفْعِ بأسِ الله تعالى

استعمَلَ التَّعبيرُ القرآنيُّ المعجزُ صيغةَ البناءِ للمجهولِ، فقالَ: ﴿وَلَا يُرَدُّ﴾؛ لأنَّ التَّركيز مُنصَبٌّ على نفي حدوثِ الفعلِ مِن أساسه؛ فما يجدي فاعلٌ في هذا المقام!

وللإشارةِ إلى تنوُّعِ جهاتِ البأس؛ فلا تُعلَم له جهةٌ يُردُّ منها، ولا يُدرَى له دافعٌ حتَّى يُدْفعَ، فكأنَّ البأسَ يأتيهم مِن كلِّ مكانٍ.

نُكْتَةُ التَّعبيرِ بلفظِ (البأس) دونَ العذابِ:

لفظ (البأس) أَشدُّ وقعًا مِن ذِكر العذاب؛ لدلالتهِ على الشِّدَّةِ

والحِدَّةِ والقُوَّةِ بذاتِهِ دونَ صفةٍ، وزادتْهُ الإضافةُ قُوَّةً وبأسًا، مِن قُوَّة الرَّبِّ الَّذي يُربِّي بالرَّحمة، ويأخذُ بالبأس والعذاب!

البأسُ فيه شدَّةٌ وحِدَّةٌ وقُوَّةٌ، والعذابُ قد يُوصَفُ بالشِّدَّةِ وغيرها

بلاغةُ التَّصريحِ بقولِهِ: ﴿ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾:

في قوله تعالى: ﴿وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ صرَّح بذكرِ الاسمِ الصَّريحِ، يَحتمِلُ أن يكُون مِن وَضْعِ الظَّاهِرِ موضعَ المُضْمَر تنبيهًا على التَّسْجِيل عليهم بذلك، والأصل: ولا يُرَد بَأسُه عنكم[1]، ولـمَّا كان البأسُ مقطوعًا بوقوعه ونزوله، صرَّحَ بذِكرِهم ووصفهم بسبب عذابهم، ألَا وهو الإجرامُ، في حين أَضْمَرَ ذِكرَهُم لـمَّا احتُمِلَ التَّكذيبُ منهم ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ﴾.

التَّصريحُ بالإجرامِ لبيانِ سببِ عذابِهم، والإضمارُ لاحتمالِ تكذيبِهم

نكتةُ التَّعبيرِ بالجمعِ في: ﴿كَذَّبُوكَ﴾ و﴿ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾:

لـمَّا كان التَّكذيبُ الجماعيُّ أشدَّ إيلامًا وإيذاءً مِن تكذيب الأفراد، فليس تكذيبُ الإنسان مِن فردٍ أو مِن أفرادٍ مُتفرِّقين، كتكذيبِ جماعةٍ اجتمعوا على ذلك بوسائلهم وخُطَطِهم ومَكْرِهم، ولذلك أُوْثِرَ التَّعبير بإيقاع البأسِ على القومِ المجرمين، فلا يُفْلِتُ منهم أحدٌ؛ ومِن جنس العملِ تكونُ العقوبةُ. ولا يستوي نزولُ بأسِ اللهِ تعالى على الأفرادِ بنزولِهِ على الجماعةِ؛ فنزولُهُ بالجماعةِ أشدُّ بأسًا وأشدُّ تنكيلًا، وأشفى لصدورِ المؤمنينَ.

التَّكذيبُ الجماعيُّ أشدُّ إيذاءً، وإنزالُ العقوبةِ الجماعيَّةِ أعظمُ تنكيلًا

عِلَّةُ وصفِهم بالمجرمينَ دون المكذِّبين:

ووصَفَهُم بالمجرمين، ولم يقل: المكذِّبين؛ موافقةً للسِّياق، ذلك أنَّ التَّكذيب ما هو إلَّا صورةٌ مِن صورِ الإجرامِ الَّذي يتضمَّنُ الكيدَ والمكرَ وكلَّ قبائحِ الأفعالِ.

التَّكذيب صورةٌ مِن صُورِ الإجرامِ

سِرُّ وصفِهم بالاسمِ ﴿ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ دونَ الفعلِ:

قوله تعالى: ﴿ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ وَصَفَهم بالاسمِ دونَ الفعلِ في

تأصُّلُ هذا الوصفِ فيهم

(1) ابن عادل، اللباب في علوم الكتاب: 8/496.

هذا المقام؛ لتأصُّلِ هذا الوصفِ واستمرارِهم فيه، حتَّى صار وصفًا ثابتًا لهم في كلِّ حالٍ.

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(البأس) و(العذاب):

العذابُ: هو العقوبةُ، وقد تكونُ بالقتل أو الجوع أو المصائب، أمَّا البأسُ: فهو الشِّدَّةُ والمكروهُ، ويكون في النِّكاية، نحو: ﴿وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأۡسٗا وَأَشَدُّ تَنكِيلٗا ٨٤﴾ [النساء: 84][1]، فلفظُ (البأس) أشدُّ وقعًا مِن ذِكر العذابِ في الآيةِ الكريمةِ، وزادتْهُ الإضافةُ إلى الرَّبِّ تعالى قُوَّةً وبأسًا؛ فهو الَّذي يُربِّي بالرَّحمة ويأخذُ بالبأسِ والعذاب.

البأس أشدُّ وقعًا مِن العذاب، وإضافته إلى الله زادته قُوَّة وبأسًا

(الكَذِبُ) و(الإفْكُ):

الإفْكُ: اسمٌ يدلُّ على كَذِبٍ لا شُبهةَ فيه؛ فهو بهتانٌ يَفجأُ النَّاسَ، وهو مُشتقٌّ مِنَ الأَفْك (بفتح الهمزة)، وهو قَلْبُ الشَّيء، أمَّا الكَذِبُ: فهو نقيضُ الصِّدقِ، ولكنَّه أقلُّ مِنَ الإفكِ؛ لأنَّ الإفكَ كَذِبٌ وإثمٌ عظيمٌ، وصَرْفٌ للحَقِّ بتحويلِه إلى باطلٍ، أو بتحويلِ الباطلِ إلى حَقٍّ[2].

الكَذِبُ نقيضُ الصِّدق، إلَّا أنَّ الإفك أشدّ منه

(الرَّحْمَةُ) و(الرَّأفَةُ):

الرَّأفة: مُبالغةٌ في رحمةٍ خاصَّةٍ، وهي دَفْعُ المكروهِ وإزالةُ الضُّرِّ، كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَأۡخُذۡكُم بِهِمَا رَأۡفَةٞ فِي دِينِ ٱللَّهِ﴾ [النور: 2]، وأمَّا الرَّحمةُ: فاسمٌ جامعٌ يدخلُ فيه ذلك المعنى، ويدخلُ فيه الإفضالُ والإنعامُ، وقيل: بينهما عُمومٌ وخُصوصٌ، فلا ترى فيه أكملَ مِنَ الرَّحْمَةِ بالكيفيَّةِ؛ والرَّحمةُ اتِّصالُ النِّعمةِ برِقَّةٍ يكون معها إيلامٌ؛ كقَطعِ العُضوِ المتآكلِ، وشُربِ الدَّواءِ[3].

الرَّحمة اسمٌ عامٌّ، والرَّأفة مبالغةٌ في رحمة خاصَّة

(1) الرّاغب، المفردات: (بؤس).

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/169، وداود، معجم الفروق الدلالية، ص: 66.

(3) ابن عادل، اللباب في علوم الكتاب: 3/29، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/25.

(البَسْطَة) و(السَّعَة):

البسطُ ضِدُّ القبض، وهو أعمُّ منَ السَّعة

بَسْطُ الشَّيء: نَشْرُه وتوسيعُهُ، فتارةً يُتصوَّر منه الأمرانَ، وتارةً يُتصوَّر منه أحدُهما، وهذا يَدُلُّ على أنَّ البَسْطَ أَعمُّ مِنَ السَّعةِ، والبَسْطُ ضِدُّ القَبْضِ، والسَّعَةُ ضدُّها الضِّيق[1].

(الرَّدُّ) و(الرَّجْعُ) و(الدَّفْعُ):

الرَّدُّ إلى الخَلْف معَ الكراهة، والرَّجْعُ بلا كراهة، والدَّفع إلى قُدَّام وإلى خلف

فرَّقَ العَسْكريُّ بينَ الرَّجْعِ والرَّدِّ، بأنَّه: يجوزُ أن تُرجِعَهُ مِن غير كراهةٍ لهُ، ولا يجوزُ أن تَردَّهُ إلَّا إذا كرهتَ حالَهُ، كما فرَّق بينَ الرَّدِّ والدَّفع: بأنَّ الرَّدَّ لا يكون إلَّا إلى خَلْفٍ، والدَّفعَ يكون إلى قُدَّامٍ وإلى خَلْفٍ جميعًا[2].

(البأس) و(البأساء):

البأسُ شِدَّة القتالِ والعذابِ والنَّكال، والبأساءُ شِدَّةُ الفقر

ذهبَ الرَّاغبُ الأصفهانيُّ إلى أنَّهما بمعنى واحدٍ، قال: "البُؤس والبَأْس والبأساء: الشِّدَّة والمكروه، إلَّا أنَّ البُؤسَ في الفَقرِ والحرب أكثر، والبَأْسَ والبأساءَ في النِّكاية"[3]. ولكنْ ورودُ اللَّفظين (البأساء والبَأْس) معطوفَين في القرآن الكريم يقتضي تَغايرَهُما، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلۡبَأۡسِۗ﴾ [البقرة: 177].

فالبأساءُ: الفَقرُ، والضَّرَّاءُ: المرَضُ، والبَأْسُ: القتالُ، وهذا من باب التَّرقِّي في الصَّبر مِنَ الشَّديد إلى الأشدِّ، ونلحظُ أنَّ لفظَي (البَأْس والبأساء) مُتقاربان في الدَّلالةِ حيثُ يشتركان في معنى الشِّدَّةِ والمكروهِ، ويتميَّز لفظُ (البأساء) بنوعٍ مِنَ الشِّدَّةِ هي شِدَّةُ الفَقْرِ، بينما يتميَّز (البَأْس) بنوعٍ مِنَ الشِّدَّةِ هي شدَّةُ القِتال والعذابِ والنَّكال[4].

---

(1) الرّاغب، المفردات: (بسط)، وموسوعة الفروق القرآنية: 1/482 - 483.

(2) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 249، و253.

(3) الرّاغب، المفردات: (بؤس).

(4) الآلوسي، روح المعاني: 1/445، وداود، معجم الفروق الدلالية، ص: 427.

﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشۡرَكۡنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمۡنَا مِن شَيۡءٖۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأۡسَنَاۗ قُلۡ هَلۡ عِندَكُم مِّنۡ عِلۡمٖ فَتُخۡرِجُوهُ لَنَآۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَخۡرُصُونَ ١٤٨﴾ [الأنعام: 148]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

اختلاقُ الأعذارِ لكُفرِهم

لَمَّا حكى عن أهلِ الجاهليَّةِ إقدامَهم على الحُكْمِ في دِينِ اللّهِ بغير حُجَّةٍ ولا دليلٍ، حكى عنهم عُذْرَهُم في كلِّ ما يُقدِمون عليه مِنَ الكُفْرِيَّاتِ، فيقولون: لو شاء اللّهُ منَّا ألَّا نَكفُرَ لمنَعَنا عن هذا الكُفرِ، وحيث لم يَمنَعْنا عنه، ثبَتَ أنَّه مُريدٌ لذلك، فإذا أرادَ اللّهُ ذلك مِنَّا، امتنَعَ مِنَّا تركُهُ، فكنَّا معذورين فيهِ[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَشۡرَكُواْ﴾: الشِّرْكُ في اللُّغةِ: النَّصيبُ، ويأْتي بمعنى المُشارَكَةِ، وهي الانْضِمامُ والمُخالَطَةُ بينَ الشَّريكَيْنِ، ويُطْلَقُ على الكُفْرِ، وعلى اقْتِسامِ الشَّيْءِ والاشْتِراكِ فِيهِ؛ وفي الاصطلاح: تَسْوِيَةُ المَخْلوقِ باللّهِ تعالى، فِيما هو مِن خَصائِصِ اللّهِ تعالى[2]، وهو المعنى المرادُ في الآيةِ.

2) ﴿شَآءَ ٱللَّهُ﴾: المَشِيئَةُ: الإرادَةُ والقَصْدُ، والمَشِيءُ: المُرادُ الذي يَتَعَلَّقُ به القَصْدُ، وأَصْلُ المَشِيئَةِ: الإيجادُ، مَأْخوذَةٌ مِنَ الشَّيْءِ؛ وهو: كُلُّ مَوجودٍ إمَّا حِسًّا أو مَعْنًى، وتأْتي بِمعنى الاخْتيارِ، والرَّغْبَةِ، والمَحَبَّةِ؛ وهي إرَادَةُ اللّهِ الكَونِيَّةُ،

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 13/172 - 173.

(2) الجوهري، الصّحاح، وابن سيده، المحكم، وابن منظور، لسان العرب، والزّبيدي، تاج العروس: (شرك).

وهي أنَّ ما شَاءَ اللّهُ كانَ، ومَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ، وهِيَ مِنْ صِفَاتِ اللّه الفِعليَّة[1]، وهو المعنى المرادُ في الآية.

3) ﴿حَرَّمْنَا﴾: التَّحريمُ: الحَظْرُ، وشَيءٌ مُحَرَّمٌ، أَي: مَحْظُورٌ، وَضِدُّهُ الإِبَاحَةُ وَالإِذْنُ وَالجَوازُ، وَأَصْلُ التَّحْرِيم: المَنْعُ، يُقَالُ: حَرَّمَ الشَّيْءَ، أَيْ: مَنَعَ مِنْهُ، وَلَمْ يُجِزْهُ، والتَّحْرِيمُ: طَلَبُ الشَّارِعِ تَرْكَ الفِعْلِ تَرْكًا جَازِمًا[2]، والمعنى في الآية: لم نحلِّل ما حرَّمه اللّه، ونحرِّم ما أحلَّه.

4) ﴿ذَاقُواْ﴾: الذَّوْقُ: اخْتِبارُ الشَّيْءِ مِن جِهَةِ التَّطَعُّم، يُقال: ذُقْتُ المَأْكُولَ، أَذُوقُهُ، ذَوْقًا، وذُقْتُ ما عِنْدَ فُلانٍ: إذا اخْتَبَرْتَهُ، وذَوَّقَهُ الطَّعامَ: جَعَلَهُ يَخْتَبِرُ طَعْمَهُ بِلِسانِهِ، والذَّوْقُ أيضًا: طَعْمُ الشَّيْءِ، وهو قُوَّةٌ إِدْراكِيَّةٌ لها اختِصَاصٌ بِإِدْرَاكِ لَطائِفِ المَحْسُوسَاتِ، وهو معرفةُ طَعْم الشَّيءِ، أي: وقعهُ على الحسِّ بالتَّناولِ منهُ، ومن هذا: الإحساسُ المادِّيُّ المباشر في الرَّحمة، كقوله تعالى: ﴿وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِنَّا رَحۡمَةٗ فَرِحَ بِهَاۖ﴾ [الشورى: 48]، أو في النِّقمَةِ، كما في الآيةِ الكريمة[3].

5) ﴿ٱلظَّنَّ﴾: الشَّكُّ والتَّرَدُّدُ، يُقال: ظَنَنْتُ الشَّيْءَ: إذا شككتُ فِيهِ، ولم أتيقَّنْهُ، ويأْتي بِمعنى الاتِّهام؛ والظِّنَّةُ: التُّهْمَةُ، ويُطْلَقُ الظَّنُّ على اليَقِينِ والعِلْمِ، فيُقال: ظَنَنْتُ ظَنًّا، أيْ: عَلِمْتُ، وأيقَنْتُ، وجَمْعُه: ظُنونٌ[4]، قال الرَّاغب: "الظَّنُّ: اسمٌ لما يحصل من أمارةٍ، ومتى قويَتْ؛ أدَّتْ إلى العلم، ومتى ضَعُفَتْ؛ لم تجاوز حدَّ الوهم"، والمعنى في الآية: إلَّا ظنًّا وحسبانًا منكم أنَّه حقٌّ؛ وهو باطلٌ.

6) ﴿تَخۡرُصُونَ﴾: أَصْلُ الخَرْصِ: حَزْرُ الشَّيْءِ وَتَقْدِيرُهُ، يُقَالُ: خَرَصْتُ النَّخْلَ أَخْرُصُهُ خَرْصًا؛ إِذَا حَزَرْتُ ثَمَرَهُ وَقَدَّرْتُهُ؛ وَبَاعَهُ خَرْصًا، أَي: تَقْدِيرًا مِنْ غَيْرِ وَزْنٍ، والتَّخْرِيصُ: القَوْلُ بِالظَّنِّ، تَقولُ: تَكَلَّمَ بِالخَرْصِ، أَيْ: بِالظَّنِّ، وَالخَرَّاصُ: الكَذَّابُ؛ لِأَنَّهُ يَقُولُ مَا لَا يَعْلَمُ[5].

(1) الأصفهاني، الحجة في بيان المحجّة: 2/24، وابن الأثير، النّهاية في غريب الحديث، وابن منظور، لسان العرب، والزّبيدي، تاج العروس: (شيء).

(2) ابن دريد، جمهرة اللغة، وابن سيده، المحكم، وابن منظور، لسان العرب: (حرُمَ).

(3) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، وابن سيده، المحكم، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (ذوق).

(4) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة، وابن سيده، المحكم، والرّاغب، المفردات: (ظن)، والجرجاني، التعريفات، ص: 187.

(5) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن الأثير، النهاية في غريب الحديث، وابن منظور، لسان العرب: (خرص).

المَعْنى الإجْماليُّ:

احتجاجُ المشركين بالقضاءِ والقدرِ على شِركِهم وتحريمِهم ما أحلَّ اللهُ

يُخبِرُ تعالى أنَّ الَّذين أشْرَكوا سيقولونَ: لو أرادَ اللهُ، ما وَقَعَ منَّا ولا مِن آبائِنا الشِّرْكُ، ولا حَرَّمْنا مِن شيءٍ، فلَمَّا لم يَفْعَلْ؛ دَلَّ ذلك على رِضاهُ بذلك، ثم بَيَّنَ تعالى أنَّ هؤلاءِ المشركينَ كَذَّبوا بالطَّريقةِ نفسِها الَّتي كَذَّب بها الَّذين مِن قَبْلِهم، والَّذين لم يَزَلِ التَّكذيبُ دَأْبَهم، حتى أسخَطُوا اللهَ، فغضبَ عليهم، فأحلَّ بهم نِقمتَه وعقوبته، ثمَّ أمَرَ اللهُ نَبيَّه محمَّدًا ﷺ أن يسألَ هؤلاءِ المُشركينَ: هل عِنْدَهم مِن عِلْمٍ يقينيٍّ بأنَّ اللهَ راضٍ عنهم، فلْيُظْهِروهُ ولْيُبَيِّنوهُ، ولْيَقُلْ لهم: إنَّهم لا يَتَّبِعون إلَّا مُجَرَّدَ أوهامٍ باطلة، وإنْ هم إلَّا يتَقَوَّلونَ على اللهِ الباطِلَ، ويَكْذِبونَ عليه فيما يَدَّعونَه. وترشدُ الآيةُ الكريمةُ إلى أنَّ احتجاجَ المشركينَ بالقضاءِ والقدرِ ليس مقصودًا لذاتِه، وهُم يعلمونَ أنَّه ليس حجَّةً، وإنَّما المقصودُ منه دَفعُ الحقِّ، ويرون أنَّ الحقَّ بمنزلةِ الصَّائلِ، فهُم يدفعونهُ بكلِّ ما يخطرُ ببالِهم مِنَ الكلامِ، وإن كانوا يعتقدونهُ خطأً[1].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالةُ السِّينِ في قولِهِ: ﴿سَيَقُولُ﴾:

الإخبارُ بما تُكِنُّهُ نفوسُهم من تزويرِ الحُجَّةِ، معجزةٌ من معجزاتِ القرآنِ

السِّين: للاستقبالِ القريبِ، وقد أخبرَ اللهُ عنِ المشركينَ أنَّهم سيقولونَ هذه المقالةَ، وقد وقعَ مقتضاهُ كما حكى عنهم في سورةِ النَّحلِ بقولِه تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدۡنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖ﴾. فإن كانَ ضميرُ الرَّفعِ في قوله: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ﴾ [الأنعام: 147] عائدًا إلى المشركينَ؛ كان قولُهُ تعالى هنا: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ﴾ إظهارًا في مقام الإضمارِ؛ لزيادةِ تفظيعِ أقوالِهم، فإخبارُ اللهِ عنهم بأنَّهم سيقولونَ ذلك إن كانَ نزولُ هذه الآية قبل نزول

(1) ابن جرير، جامع البيان: 12/209، والسعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 148.

آيةِ سورةِ النَّحلِ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدۡنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖ نَّحۡنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمۡنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖۚ﴾ [النحل: 35] وهو الأرجحُ؛ فإنَّ سورةَ النَّحلِ معدودةٌ في النُّزولِ بعد سورةِ الأنعام - كان الإخبارُ بأنَّهم سيقولونَهُ اطِّلاعًا على ما تُكنُّهُ نفوسُهم مِن تزويرِ هذه الحجَّةِ؛ فهو معجزةٌ مِن معجزاتِ القرآنِ مِن نوعِ الإخبارِ بالغيبِ، كقولِهِ تعالى: ﴿فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ وَلَن تَفۡعَلُواْ﴾ [البقرة: 24]، وإن كانَ نزولُ هذه الآيةِ بعد نزولِ آيةِ سورة النَّحلِ، فالإخبارُ بأنَّهم سيقولونهُ، معناهُ: أنَّهم سيُعيدون معذرتَهُم المألوفة[1].

إيثارُ اسمِ الموصولِ، والعدولُ عنِ الاسمِ الصَّريحِ:

لأنَّ جملةَ الصِّلةِ دالَّةٌ على محورِ قضيَّتِهم ولُبِّ قولِهم

آثر التَّعبيرُ القرآنيُّ استعمالَ اسم الموصول (الذي) دون الاسم الصريح (المشركون)؛ لأنَّ صِلة الموصول الَّتي بعدَهُ تدلُّ على محورِ قضيَّتِهم، ولُبِّ قولهم؛ وهو تلبُّسهُم بالشِّرك، وانغماسُهُم فيه، واحتجاجُهُم بواقعِهم.

دلالةُ ﴿لَوۡ﴾، وإيثارُ التَّعبيرِ بالمشيئةِ في صيغةِ المُضي:

مطابقةُ الكلامِ لمقتضى الحالِ، وتحقُّقُ وقوعِهِ في المستقبلِ

إيثارُ (لو) الشَّرطيَّة في قوله: ﴿لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ﴾ لمطابقةِ الكلام لمقتضى الحال؛ لأنَّ المشركينَ مُصرُّون على أنَّ مشيئةَ اللهِ بعدمِ الإيمانِ بعقيدةِ التَّوحيدِ معدومةٌ، وهذا يناسبه (لو) مِن بين أدوات الشَّرطِ؛ لاستلزامِها انتفاءَ شرطِها. وعلَّةُ التَّعبيرِ بالفعل الماضي ﴿شَآءَ﴾ دالٌّ على تحقُّقِ وقوعِهِ في المستقبلِ؛ لأنَّ الفعلَ الماضي يعطي مِنَ المعنى أنَّهُ قد كان وُجِد، وإنَّما يفعل ذلك إذا كانَ الفعلُ المستقبل مِنَ الأشياء العظيمةِ الَّتي يُستَعْظَمُ وجودها[2].

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 4/681، والقنوجي، فتح البيان: 4/269، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 8/146.

(2) المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 1/352.

فائدةُ التَّصريحِ بالفاعل ﴿ٱللَّهُ﴾، والتعبير بجملة: ﴿مَآ أَشۡرَكۡنَا﴾:

التَّصريحُ بالفاعل ﴿ٱللَّهُ﴾، تصريحٌ بما أفادَه لفظُ ﴿أَشۡرَكۡنَا﴾، والإرادة والمشيئة لا يستلزمان رضاه سبحانَه؛ فإذا كان قد شاءَ ضلالةَ بعضِ عبادِه، فإنَّه لَا يرضى مِن عبادِه الكفرَ[1].

الإرادة والمشيئة لا يستلزمان رضاه سبحانَه:

بلاغةُ الإيجازِ بالحذفِ:

في قوله تعالى: ﴿لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشۡرَكۡنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمۡنَا مِن شَيۡءٖۚ﴾ إيجازٌ بالحذفِ في مواضعَ عِدَّةٍ، وتقديرُ المعنى: لو شاءَ اللّٰهُ عدمَ إشراكِنا بِهِ شيئًا ما أشركْنا به شيئًا، ولا أشْرَكَ آباؤنا به شيئًا من قبل، ولو شاء اللّٰهُ عدمَ تحريمنا ما حرَّمناه مِن أكلِ لحومِ بعضِ الأنعامِ ما حرَّمنا نحن ولا آباؤنا ما حرَّمناه، وما حرَّموهُ هُم؛ وهذا من عظيمِ الإيجازِ في كتابِ اللّٰهِ المعجزِ.

دلالةُ احتجاجِ المشركينَ بالمشيئةِ:

حَسِبَ المشركون أنَّ مشيئةَ اللّٰهِ تستلزمُ رضاهُ؛ ولذا قالوا: ﴿لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشۡرَكۡنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا﴾، والحقُّ أنَّ المشيئةَ لَا تستلزمُ الرِّضا، إنَّما امتثالُ الأمرِ هو الَّذي يستلزمُ الرِّضا، واقترافُ النَّهي يستلزمُ الغضبَ؛ فالهدايةُ هي الَّتي تستلزم الرِّضا، ولذا قال تعالى: ﴿فَلَوۡ شَآءَ لَهَدَىٰكُمۡ أَجۡمَعِينَ ١٤٩﴾ [الأنعام: 149]، وهذه شبهةُ أهلِ العقولِ الأفِنَةِ الَّذين لا يُفرِّقون بينَ تصرُّفِ اللّٰهِ تعالى بالخلقِ والتَّقديرِ، وحفظِ قوانين الوجود، وهو التَّصرُّفُ الذي نسمِّيه نحن بالمشيئةِ وبالإرادةِ، وبينَ تصرُّفِه بالأمرِ والنَّهي، وهو الَّذي نسمِّيه بالرِّضا وبالمحبَّة؛ فالأوَّلُ تصرُّفُ التَّكوينِ، والثَّاني تصرُّفُ التَّكليفِ[2].

خلطُهم بينَ تصرُّفِ التَّكوينِ وتصرُّفِ التَّكليفِ

بلاغةُ الجناس في ﴿أَشۡرَكُواْ﴾ و﴿أَشۡرَكۡنَا﴾، وسِرُّ التَّعبيرِ بالشِّركِ:

أكسَب الجناسُ غيرُ التَّامِّ في ﴿أَشۡرَكُواْ﴾ و﴿أَشۡرَكۡنَا﴾ الأسلوبَ

(1) الأنصاري، فتح الرحمن: 1/179 - 180، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 5/2723.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 8/أ146، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 5/2722.

التَّناسبُ في البناءِ الصَّوتيِّ، واشتقاق الكلمةِ يحكي بغيَهم على أنفسِهم

جمالًا فنيًّا، بما أضافَهُ إلى النَّسق مِن انسجامٍ وتناسبٍ وتآلفٍ في البناءِ الصَّوتيِّ، يُثري المعنى، ويُغني الصِّياغة؛ وهو أسلوبٌ فَنِّيٌّ في التَّعبيرِ يُضيف إلى الفكرةِ، ويزيدُ في جمالِ الأسلوبِ[1].

خروجُ الكلامِ على خلافِ مقتضى الظَّاهرِ:

تبشيعُ قولِهم، وزيادةُ تبكيتِهم

خرجَ الكلامُ في قولِه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ﴾ على خلافِ مقتضى الظَّاهرِ؛ إذ مقتضى الظَّاهر أن يُؤتى بالضَّميرِ لا بالاسمِ الظَّاهرِ؛ بدليلِ أنَّ ضميرَ الرَّفعِ في قوله تعالى: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ﴾ [الأنعام: 147] يعودُ - في أحدِ قولي التَّفسيرِ - على المشركين، ولعلَّ السِّرَّ في هذهِ المخالفةِ هو التَّنصيصُ على المشركينَ، وذلك لزيادةِ تفظيعِ ما قالوهُ؛ وفي هذا تبكيتٌ لهم[2].

فائدةُ عطفِ قولِه: ﴿وَلَآ ءَابَآؤُنَا﴾، على ما قبلَهُ:

الإشارةُ إلى أنَّهم إنَّما يتَّبعون دينَ آبائِهم المشركينَ

قولهُ تعالى: ﴿وَلَآ ءَابَآؤُنَا﴾ معطوفٌ على الضَّميرِ المرفوعِ، وأغنى الفصلُ بـ(لا) بين حرف العَطف والمعطوف عن الفَصلِ بين المتعاطفين بضمير مُنفصلٍ يلي الضَّمير المتَّصل أو بغيره، وفي عطفِ آبائهم عليهم إشارةٌ إلى أنَّهم إنَّما يتَّبعون دينَ آبائِهم، وأنَّهم إذا كانوا هم وآباؤهم على شركٍ، فذلك ممَّا أرادهُ اللّهُ لهم، ولو شاء اللّهُ لهم ألَّا يُشركوا ما أشركوا؛ هكذا يمكرون بآياتِ اللّهِ، وهكذا يتعلَّلون بمشيئةِ اللّهِ، ويسترونَ شركَهُم بها[3].

دلالةُ (لا) في قولِه تعالى: ﴿وَلَآ ءَابَآؤُنَا﴾:

تأكيدُ نفي شركِ آبائِهم على زعمِهم

لـمَّا دخلتْ كلمةُ (لا) على قوله: ﴿ءَابَآؤُنَا﴾ كان ذلك مُوجبًا إضمارَ فعلٍ هناك؛ لأنَّ صرف النَّفي إلى ذواتِ الآباء محالٌ، بل يجبُ صرفُ هذا النَّفي إلى فِعلٍ يصدر منهم؛ وذلك هو الإشراكُ،

(1) عبد الفتاح عثمان، دراسات في المعاني والبديع، ص: 174.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 7/310، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 8/146أ.
(3) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/359، وأبو حيان، البحر المحيط: 4/681، وعبد الكريم الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 4/334.

فكان التَّقديرُ: ما أشركنا، ولا أشركَ آباؤنا؛ وعلى هذا التقديرِ فالإشكالُ زائلٌ[1].

دلالةُ التَّقديمِ والتَّأخيرِ في الآية:

الشِّركُ أعظمُ الجرائمِ وأهولُها

قدَّمَ سبحانه موضوعَ الشِّركِ على موضوع التَّحريمِ؛ لأنَّ الشِّركَ أهوَلُ شأنًا مِنَ التَّحريم، كما قدَّمَ أنفسَهم على آبائِهم؛ لأنَّ القرآن يخاطِبُهُم هم ويواجهُ مفترياتِهم فكانوا أولى بالتَّقديم.

علَّةُ ذكرِ آبائِهم معهُم:

تذرُّعهم بأنَّ ما هم عليه عريقٌ قِدَمَ آبائِهم

جيء بذكرِ آبائِهم معهم، وكان يمكنُ الاكتفاءُ بذِكر أنفسِهم دونَهم؛ وذلك ليتَّخذوا من ذِكر آبائِهم عذرًا لهم في أنَّ ما هم عليهِ عريقٌ لا وليدَ السَّاعةِ.

سرُّ النَّفي بـ(لا) في قوله: ﴿وَلَا حَرَّمْنَا﴾ دون (ما):

تفيدُ (لا) تحقيقَ المعنى وتأكيدَ النَّفي

(لا) تنفي حدوثَ الفعلِ المضارعِ في الاستقبالِ، و(ما) تنفي حدوثَ الفعلِ في الحالِ[2]، ودخول (لا) هنا على الفعل الماضي لتحقيق المعنى وتأكيد النَّفي؛ لأنَّها جاءت بعد واو العطف، و(لا) النافية إذا دخلت على الماضي؛ وجب تكرارُها إلَّا في الدُّعاء؛ هكذا جاءت في كلام العرب وفي القرآنِ، مثل: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ۝٣١﴾ [القيامة: 31]، ﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ۝١١﴾ [البلد: 11][3]، فدلالتها في الجملةِ الكريمةِ على تَأكيدِ نفي تحريمِهم لما أحلَّه اللّٰه تعالى لهم من الأنعام، أمَّا (ما)؛ فتكونُ لنفي الفعل الماضي نفيًا غير مؤكَّدٍ، إلَّا إذا سُبقت بقسم، كقوله: ﴿مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ ۖ فَقَدْ جَآءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝١٩﴾ [المائدة: 19]، وقوله: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣﴾ [الضُّحى: 3]. وأمَّا (ما) الدَّاخِلَةُ على المضارع؛ فهي تنفي حدوثَ الفعلِ

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 13/175.
(2) سيبويه، الكتاب: 4/221.
(3) عضيمة، دراسات لأسلوب القرآن الكريم: 2/572.

الواقعِ في الحال، كقوله تعالى: ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ﴾ [فصلت: 35]، فهي واصفةٌ لحال من كانَ كذلك. قال تعالى ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِۚ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾﴾ [يونس: 61]، فاقتضى المقامُ النَّفي بلا، فناسبتْ (لا) بصيغتِها ودلالتِها الآيةَ من كلِّ جهةٍ.

دلالةُ العمومِ في قولِهِ: ﴿مِن شَيْءٍۚ﴾:

تنكيرُ اسمِ الجنسِ دالٌّ على التَّحقيرِ

كلمةُ ﴿شَيْءٍۚ﴾ من أسماءِ الأجناسِ العاليةِ العامَّة، فإذا أُضيفَتْ إلى اسمِ جنسٍ، أو بُيِّنت به؛ عُلِمَ أنَّ المتكلِّم ما زادَ كلمة ﴿شَيْءٍۚ﴾ قبل اسمِ ذلك الجنس أو بعده إلَّا لقصدِ التَّقليلِ؛ لأنَّ الاقتصارَ على اسمِ الجنسِ الَّذي ذكره المتكلِّم لو شاءَ؛ لأغنى غناءها، فما ذكر كلمةَ ﴿شَيْءٍۚ﴾ إلَّا والقصدُ أن يدَّل على أنَّ تنكيرَ اسمِ الجنس ليس للتَّعظيمِ ولا للتَّنويعِ، فبقيَ لهُ الدَّلالة على التَّحقير[1].

بلاغةُ التَّشبيهِ في قولِهِ: ﴿كَذَٰلِكَ﴾:

شناعةُ التَّكذيبينِ الحاصلينِ وقبحُهُما

تشبيهُ معقولٍ بمعقول؛ المشبَّه: هو تكذيبُ الَّذين من قبلهم، والمشبَّهُ به: هو تكذيبُ مشركي العربِ في عصرِ نزولِ القرآن، ووجهُ الشَّبهِ: هو الشَّناعةُ والقُبحُ.

إيثارُ استعمالِ اسمِ الإشارةِ (ذلك) دونَ غيرِهِ:

الدَّلالةُ على بُعدِ قولِ المشركينَ عنِ الصَّوابِ

آثرَ النَّظمُ القرآنيُّ استعمالَ اسمِ الإشارةِ (ذلك) الموضوعِ للبعيد؛ للدّلالةِ على بُعد قولهم عن الصَّوابِ، حتَّى كأنَّه لشناعَتِهِ لم يعهدْ لَهُ وجود[2].

نُكْتَةُ التَّعبيرِ بالكذبِ عنِ احتجاجِهِم:

أتى بالتَّعبيرِ بالكذبِ في قوله: ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ﴾؛ ليدلَّ على أنَّ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/55، و7/166.
(2) المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 1/353.

الَّذين أشركوا قصدوا بقولهم: ﴿لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشۡرَكۡنَا﴾ تكذيبَ النَّبيِّ ﷺ إذ دعاهم إلى الإقلاعِ عمَّا يعتقدون، بحجَّةِ أنَّ اللّٰه رضيَهُ لهم، وشاءَهُ منهم مشيئةَ رِضا؛ فكذلك الأُممُ قبلَهم كذَّبوا رُسلَهم مُستندين إلى هذه الشُّبهةِ، فسمَّى اللّٰه استدلالَهُم هذا تكذيبًا؛ لأنَّهم ساقوه مساقَ التَّكذيبِ والإفحامِ، فكلامُهم من باب كلامِ الحقِّ الذي أريدَ به باطلٌ[1].

سمَّى اللّٰهُ استدلالَهُم تكذيبًا؛ لأنَّهم ساقوهُ مساقَ التَّكذيبِ والإفحامِ

وجهُ التَّعبيرِ بالاسمِ الموصول في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾:

أتى بالتَّعبيرِ بالاسمِ الموصولِ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ تحقيرًا لهم على كذبِهم، واستصغارًا لهم على فعلتِهم، كما أفادَ الاسمُ الموصول الاختصارَ؛ إذ لو عدَّد أسماءَ الَّذين أشركوا، وحرَّموا من قَبلُ؛ لطالَ الحديثُ بذلك.

الاختصارُ والتَّحقيرُ لهم

عِلَّةُ جعلِ قوله: ﴿حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأۡسَنَاۗ﴾ غايةً للتَّكذيبِ:

في الجملةِ الكريمةِ إيماءٌ إلى أنَّ لهم عذابًا مُدَّخرًا عند اللّٰه تعالى؛ لأنَّ الذَّوق أوَّل إدراك الشَّيء، ويحتمل أن يكونَ بأسُ اللّٰه بقوَّة المؤمنين في الدُّنيا، وكيفما يكونُ العذابُ فإنَّ إيثارَ التَّعبيرِ بالماضي، وهو واقعٌ في المستقبلِ للدَّلالةِ على تأكُّدِ وقوعِه، كما في قوله تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ﴾ [النحل: 1].

تأكيدُ وقوعِ العذابِ في المستقبلِ

بلاغةُ المجازِ في قولِه: ﴿حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأۡسَنَاۗ﴾:

الذَّوقُ مجازٌ في الإحساسِ والشُّعورِ، فهو مِن استعمالِ المقيَّدِ في المطلقِ، ويصلحُ أن يكونَ استعارةً مكنيَّةً، حيث شبَّه البأسَ بطعامٍ يُذاقُ باللِّسانِ، ثمَّ حذفَ المشبَّهَ بهِ، ورَمَز إليه بشيءٍ من لوازمِه[2].

تشبيهُ وقوعِ العذابِ بمنزلةِ الشَّيءِ المحسوسِ

فائدة تغايرِ الإضافةِ في قوله: ﴿بَأۡسَنَاۗ﴾ و﴿بَأۡسُهُۥ﴾:

في قولِه: ﴿بَأۡسَنَاۗ﴾، أُضِيفَت الكلمةُ إلى الضَّميرِ العائدِ إلى اللّٰه

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 8/148أ.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 8/149أ، والدمياطي، الشامل في بلاغة القرآن: 1/377.

ﷻ؛ وذلك لتعظيمِ شأن هذا البأسِ وتهويلِه، وهذا الجزاءُ العظيمُ من عظم الذَّنبِ الذي اجترحوهُ. أمَّا إضافةُ ضميرِ الغائبِ إلى قولِه: ﴿وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ﴾ فهو وعيدٌ وتَوَقُّعٌ، كما دلَّ على عظيم سطوتِهِ ﷻ على المجرمينَ.

تعظيمُ شأنِ هذا البأسِ وتهويلُهُ في (بأسنا)، وتوقُّعُ الوعيدِ في (بأسه)

سرُّ تقديمِ تكذيبِهم في جملة: ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ﴾ على جوابِهم بـ﴿قُلْ﴾:

حاصلُ ردِّ اللّٰه عليهِم بأنَّ كلامَ المشركينَ يتضمَّنُ تكذيبَ الرُّسلِ، وقد دلَّت المعجزةُ على صدقِهم، ولا يخفى أنَّ المقدِّمة الأولى، وهي أنَّ كلَّ شيءٍ بمشيئةِ اللّٰه، لا تكذيبَ فيها، بل هي متضمِّنةٌ لتصديقِ ما تطابقَ فيه العقلُ والشَّرعُ من كون كلِّ شيءٍ بمشيئةِ اللّٰه، وامتناعُ أن يجريَ في مُلْكِه خِلافُ ما يشاءُ، فمنشأُ التَّكذيبِ هو المقدِّمةُ الثَّانيةُ، وهي: أنَّ كلَّ ما تعلَّقتْ بهِ مشيئةُ اللّٰهِ وإرادتُهُ، فهو مشروعٌ ومرضيٌّ عنهُ؛ لأنَّ الرُّسلَ - عليهم السلام - يدعونهم إلى التَّوحيدِ، ويقولون لهم: إنَّ اللّٰه لا يرضى لعبادِه الكفرَ دينًا، ولا يأمرُ بالفحشاءِ، فيكون قولهم: - إنَّ ما نرتكبهُ مشروعٌ ومرضيٌّ عنده سبحانَه - تكذيبٌ لقولِ الرُّسلِ؛ وحيثُ كان فسادُ هذه الحجَّةِ باعتبار المقدِّمةِ الثانية تعيَّنَ أنَّها ليستْ بصادقةٍ، وحينئذٍ يصدقُ نقيضُها وهي أنَّه ليس كلُّ ما تعلَّقت به المشيئةُ والإرادة بمشروعٍ أو مَرْضِيٍّ عنده سبحانه، بناءً على أنَّ الإرادة لا تساوقُ الأمر، ثمَّ بعد هذا الرَّدِّ المفحمِ للمشركين أمرَ اللّٰهُ تعالى رسولَهُ أن يطالِبَهم بدليلٍ على مزاعمِهم، فقالَ: ﴿قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ﴾[1].

إلجامُهم الحُجَّةَ قبل مطالبتِهم بالرَّدِّ لزيادةِ التَّوبيخِ والتَّبكيتِ

علَّةُ تصديرِ الجملةِ بفعلِ الأمرِ ﴿قُلْ﴾:

في قوله تعالى ﴿قُلْ هَلْ عِندَكُم﴾، تصديرُ الجملةِ بفعلِ الأمرِ ﴿قُلْ﴾ جيءَ به للإيذانِ بما للجملةِ الكريمةِ مِن أهمِّيَّةٍ بالغةٍ، وكونها

تقويةٌ للحُجَّةِ، وزيادةُ توثيقِ النَّصِّ القرآنيِّ

(1) الآلوسي، روح المعاني: 4/294، وطنطاوي، التفسير الوسيط: 5/208.

رسالةً خاصَّةً يجبُ مواجهةُ الخصوم بها، وإثباتُ أنَّ هذا القرآنَ هو من عندِ اللهِ تعالى، وما الرسولُ إلَّا مبلِّغٌ عن ربِّه، وإبلاغُهُ في قمَّةِ سماءِ الأمانةِ.

دلالةُ الاستفهامِ في قولِهِ تعالى: ﴿قُلْ هَلْ عِندَكُم﴾:

الإنكارُ والتَّهكُّمُ واستغراقُ النَّفي

خروجُ الاستفهامِ عن معناه الحقيقيِّ إلى آخرَ فُهِم من السِّياق؛ والخطابُ في الآية للرَّسول ﷺ، واستُفهِم بـ﴿هَلْ﴾؛ لأنَّها تدلُّ على طلبِ تحقيق الإسنادِ المسؤول عنه، ففُهِمَ من ذلك أنَّه سائلٌ عن أمرٍ يريدُ أن يكونَ محقَّقًا، كأنَّه يرغب في حصوله، فيغريهم بإظهارِهِ حتى إذا عَجَزوا كان قطعًا لدعواهم[1]. أمَّا المعنى الَّذي خرجَ إليه الاستفهامُ؛ فهو الإنكارُ والتَّهكمُ، فهُم الَّذين قالوا: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ﴾. فمن أين جاؤوا بهذا القول؟ وذلك يدلُّ على أنَّ القائلين بهذا القولِ ليس لهم بهِ علمٌ ولا حجَّةٌ، وهذا يدلُّ على فسادِ هذا المذهبِ؛ لأنَّ كلَّ ما كان حقًّا كان القولُ به علمًا[2]. يُضافُ إلى ذلك أنَّ الاستفهام أفادَ استغراقَ النَّفي المتضمِّن له الاستفهام بـ﴿مِّنْ﴾ الذي يفيد الاستغراق، أي: هل عندكم من علمٍ، أي: علم تزعمونه، فتخرجوهُ لنا ليكون دليلًا لكم؟[3].

دلالةُ إيثارِ ﴿هَلْ﴾ دونَ الهمزةِ:

الإشارةُ إلى أنَّ المطلوبَ بالاستفهامِ يجبُ تحقيقُهُ

إيثارُ ﴿هَلْ﴾ في الآيةِ الكريمةِ دون الهمزةِ إشارةٌ إلى أنَّ المطلوبَ بالاستفهامِ يجبُ تحقيقُهُ لدى الخصوم، وأنَّ المأمورَ بالقولِ ينبغي أن يشدَّدَ على الخصومِ بالإتيانِ بالمطلوب، وهو دليل زعمِهم، ألَّا يفرِّط فيه بغيةَ إظهارِ عجزِهم وتحسيرِهم[4].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 8/149.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب:/185.
(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 5/2720.
(4) المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 1/353.

نكتةُ جناسِ الاشتقاقِ في: ﴿سَيَقُولُ﴾ و﴿قُلْ﴾:

الدَّلالةُ على عظيمِ مكانةِ الرَّسولِ وعنايةِ رَبِّهِ بهِ

استهلالُ الآية بقولِه: ﴿سَيَقُولُ﴾ ثمَّ تلقينه الرَّدَّ عليهم بقولِه: ﴿قُلْ﴾ يدلُّ على عظيمِ العنايةِ بالرَّسولِ ﷺ، وكريمِ مقامِه ومنزلتِه عند مولاه.

تلوين الخطابِ في الإخبارِ عنِ المشركين بـ﴿سَيَقُولُ﴾:

الإشارةُ إلى تنبيهِ المخاطَبِ إلى السَّبيلِ الأقومِ في الرَّدِّ على الشُّبهاتِ

انتقالُ الخطابِ مِنَ الحديثِ عن المشركين، وعمَّا سيقولونه مِن شبهاتٍ واحتجاجاتٍ إلى أمر النَّبيِّ ﷺ بالفعلِ ﴿قُلْ﴾، إشارةٌ إلى تنبيهِ المخاطَبِ إلى السَّبيلِ الأقومِ في الرَّدِّ على الشُّبهاتِ ودحضِ الافتراءاتِ؛ وهو الالتفاتُ عن هؤلاءِ المدَّعين والاهتمام بالوحي المنزَّل على هذا النَّبيِّ الكريمِ سيدنا محمَّد ﷺ، إذ إنَّه هو المخاطبُ الأوَّل بهذا الكتابِ العزيز، وهو المبلِّغُ عن ربِّهِ ﷻ.

تناغمُ الدَّلالةِ الصَّوتيَّةِ في ﴿قُلْ هَلْ﴾:

سرعةُ الجوابِ، وإلجامُ الخصمِ، وقوَّةُ الحُجَّةِ

نلحظُ التَّناغمَ اللَّفظيَّ في تتابُعِ الكلمتَينِ؛ حيث تركَّبت كلتاهما من حرفينِ، ثانيهما متماثلٌ في الصُّورةِ والصَّوت؛ فكلٌّ مِنَ الحرفين في الكلمتين (لام)، كما أنَّهما متماثلان في البناءِ على السُّكون، على الرَّغْمِ مِن اختلافِ الكلمتَين في النَّوع، فأوَّلهما فِعْلُ أمرٍ، والآخر حرفُ استفهام، ومن دلالةِ صوتَيهما نلحظُ سرعةَ الجوابِ، وذلك لخفَّتهما، وقلَّةِ حروفِهما، كما نلحظُ مِن سكونِ آخرِهما إلجامَ الخصمِ. والعجيبُ أنَّ هاتين الكلمتينِ وردتا في مواضعَ كثيرةٍ[1]، كلُّها في الرَّدِّ على الكافرين أو المشركين أو المنافقين، ممَّا يؤكِّد قُوَّة إتباعِ السُّؤال بـ﴿هَلْ﴾ عقيبَ الأمر بـ﴿قُلْ﴾.

إيثارُ التَّعبيرِ بقولِه: ﴿عِندَكُم﴾، والعدولُ عن (لديكم):

آثرَ التَّعبيرُ القرآنيُّ استعمالَ ﴿عِندَكُم﴾ دون (لديكم)

(1) وردت (قلْ هلْ) عشر مرات، وهي في: المائدة: 60، والأنعام: 50، 148، والتوبة: 52، ويونس: 34، 35، والرعد: 16، والكهف: 103، والزُّمَر: 9، والنازعات: 18.

في الآية؛ لأنَّ كلمةَ (عندي) تستعمل لما في حوزتكَ حاضرًا أو غائبًا، والمطلوبُ مِنَ المشركينَ في الآية عِلْمٌ يتعذَّرُ إثباتهُ حاضرًا أو غائبًا؛ وهذا لن يتحقَّق؛ لأنَّه قائمٌ على الظَّنِّ والكذبِ، أمَّا استعمالُ كلمة (لدي)؛ فتُستعمَل عند إرادتك الكلامَ عن وجودِ الشَّيءِ حاضرًا بحوزتك الآن، وعلى هذا يكون استعمال ﴿عِندَكُم﴾ هو المناسبَ للسِّياق.

تستخدمُ (عند) لما في حوزتكَ حاضرًا أو غائبًا

نُكْتَةُ العمومِ في قوله: ﴿مِّنْ عِلْمٍ﴾:

في دخول ﴿مِّنْ﴾ على ﴿عِلْمٍ﴾ كنايةٌ عن شمولِ عجزِهم في الإتيانِ بأيِّ أثرٍ مِن عِلم، ولو كان تافهًا؛ وعجزُهم عنه يستلزمُ من باب أَولَى عجزَهم عمَّا له اعتبارٌ مِنَ العِلم[1].

شمولُ عجزِهم عنِ الإتيانِ بأيِّ أثرٍ مِن عِلْم

بلاغةُ الاستعارةِ التَّصريحيَّةِ في قوله: ﴿فَتُخْرِجُوهُ﴾:

في قوله: ﴿فَتُخْرِجُوهُ﴾ استعارةٌ تصريحيَّةٌ تبعيَّةٌ؛ شُبِّه فيها الإظهارُ بالإخراجِ، بجامعِ حصول الرُّؤيةِ في كلٍّ منها، وفيها زيادةُ تحسيرٍ فوقَ تحسيرٍ؛ لعدمِ تمكُّنِهم مِن سَوق أَدنَى دليلٍ على صدقِ زعمهم، والفاءُ في ﴿فَتُخْرِجُوهُ﴾ فاءُ السَّببية، و(تخرجوه) مضارعٌ منصوب بـ(أن) المضمرةِ بعد فاءِ السَّببيَّةِ، وعلامةُ نصبهِ حذفُ النُّون.

زيادةُ تحسيرٍ لعجزِهم عن إظهارِ أدنى دليلٍ على زعمهم

دلالةُ نفي العِلم وإثباتِ الظَّنِّ:

في الآيةِ الكريمةِ نُفيَ العِلْمُ وأُثبتَ الظَّنُّ؛ وذلك دلالةٌ على حصولِ المغايرةِ[2].

دلالة اللَّام في إضافتها إلى ضمير المتكلِّم في ﴿لَنَآ﴾:

اللَّام في قوله: ﴿فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ﴾ للأجلِ والاختصاص، فتؤذنُ بحاجةِ مجرورِها لمتعلِّقها، أي: فتخرجوهُ لأجلنا، أي: لنفعنا،

إفادةُ الأجلِ والاختصاصِ، وتصويرُ قوَّةِ المتكلِّمِ ومكانتهِ السَّاميةِ

(1) المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 1/353.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 30/340.

والمعنى: لقد أبدعْتُم في هذا العلمِ الذي أبديتموهُ في استفادتِكم، أنَّ اللّه أمرَكم بالشِّركِ وتحريمِ ما حرَّمتموه بدلالةِ مشيئةٍ على ذلك؛ إذ لو شاء لما فعلتم ذلك، فزيدونا مِن هذا العلمِ[1]، وأتى بالضَّميرِ (نا) ليُصَوِّر قوَّةَ المتكلِّم ومكانتَهُ السَّاميةَ، وهو رسولُ اللّه ﷺ، ففيه تعزيزٌ لمكانته وتقويةٌ له وتعزية.

أسلوبُ القَصْرِ ودلالتهُ:

قصارى ما عندَكُم هو الظَّنُّ الباطلُ والخَرْصُ

في قوله تعالى ﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ أسلوبُ قَصْرٍ، قصرُ موصوف هو (اتِّباعُهم) على صفةٍ هي (الظَّنُّ)، قصرًا حقيقيًّا تحقيقيًّا، ويتولَّد عنه كنايةٌ لطيفةٌ عن ركاكة عقولِهم وسفهِهم.

بلاغةُ الاستعارةِ ودلالتُها في قوله: ﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾:

تمكُّنُ الظَّنِّ منهم حتَّى حجَبَ عنهم نورَ الحقِّ

في ﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ في لفظ الاتِّباع استعارةٌ تصريحيَّة تبعيَّة شبَّه فيها استسلامَهم للظَّنِّ الكاذبِ بالاتِّباع الحسِّيِّ في طريق تشبيهِ محسوسٍ بمعقولٍ، وسرُّها أنَّ استسلامهم للظُّنون وهواجس النَّفس الكاذبة قد سيطرَ على أفكارِهم كاملةً، حتَّى لكأنَّه يُرى بالعينِ الباصرة[2].

سِرُّ العدولِ عن (ما) النَّافيةِ إلى ﴿إِن﴾ الَّتي بمعناها:

شيوعُ النَّفي بـ (إنْ) آكدُ وأقوى من (ما)

يذكرُ النُّحاةُ أنَّ (إنْ) بمنزلة (ما) في نفي الحال، و(إنْ) تكاد تُطابق (ما) في وظيفتها، وأكثر وقوعها قبل (إلَّا) للجناسِ بينهما، نحو: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ [يوسف: 40]، والحقيقةُ أنَّ التَّعبيرَ القرآنيَّ قد فرَّق بينهما في الاستعمالِ من خلالِ ما نلحظهُ مِنَ المخالفة بينهما، والعُدولِ عن حرفٍ إلى آخرَ منهما، فالنَّفيُ بـ(إنْ) آكَدُ مِن (ما)؛ يدلُّ على ذلك اقترانُها الكثير بـ(إلَّا)، وهذا ما يعطيها قوَّةً وتأكيدًا، فإنَّ في القصر قوَّةً، وذلك نحو قوله تعالى: ﴿إِنْ أَنتُمْ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 8/151.
(2) المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 1/353.

﴿إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ [إبراهيم: 10]، وقوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ [الإسراء: 44][1].

نُكْتَةُ التَّعبيرِ بالفعلِ ﴿تَتَّبِعُونَ﴾ ودلالة المضارعيّة:

الاتِّباعُ المقرونُ بالرُّضوخِ الكاملِ صفةٌ لازمةٌ لهم

الاتِّباع هو الإتيانُ بمثلِ فِعل الآخَر، لأجلِ أنَّ ذلك الآخَر فَعَلَه؛ ثقةً بهِ وتأسِّيًا بأقواله وأفعاله، ولأجلِ هذا آثر التعبيرُ القرآنيُّ استعمالَ ﴿تَتَّبِعُونَ﴾ في الجملة الكريمة دونَ غيرِها؛ لما فيها مِن معنى الائتِمارِ والامْتِثال الأعمى للمُتَّبع، وهذا الاتباعُ المقرونُ بالرُّضوخِ الكاملِ لغيرِهم مِنَ المشركين يكون صفةً متلازمةً فيهم أبدًا، ولأجلِ هذا أتى التَّعبيرُ بصيغةِ المضارعِ، الدَّالِّ على الدَّوامِ والاستمرارِ.

سِرُّ العدولِ عن (إنْ أنتم إلَّا تظنُّون):

الإشارةُ إلى فسادِ طريقِهم، والعملُ على استمالةِ نفوسِهم

الجملةُ الكريمةُ: ﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ نافيةٌ أن يكونَ دليلًا مُقنعًا أو مُلزمًا باليقين، ولكنَّهم يتَّبعون ظنًّا ترجِّحه أوهامُهم، وأكَّد أنَّ الظَّنَّ مبنيٌّ على أوهامٍ بقوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾، أي: ما هم إلَّا يخمِّنون تخمينًا قائمًا على الأوهامِ المضلِّلَةِ، وقد ضلُّوا بذلك ضلالًا بعيدًا؛ لذلك آثرَ التَّعبيرَ بهذا الأسلوبِ، وقد حُذِفَ المتعلِّقُ لتذهبَ نفسُ السَّامع إلى كلِّ ظنٍّ مُمكنٍ هو إثم[2].

إيثارُ لفظِ ﴿ٱلظَّنَّ﴾، دونَ (الجهل):

الظَّنُّ أبلغُ عبارةً، وأدقُّ معنًى لمقابلةِ العلم

الجهلُ هو خلوُّ النَّفسِ مِنَ العِلمِ، أو اعتقادُ الشَّيءِ بخلافِ ما هو عليه، وكذلك ضدُّ الحِلم لما في الباطنِ من فراغٍ يتمثَّل في السُّلوك بخفَّةٍ وطيشٍ وسَفَهٍ، أو من جفافٍ يتمثَّل في السُّلوك بجفاءٍ وغلظةٍ، قال تعالى: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ۝٥٥﴾ [النمل: 55]، أمَّا الظَّنُّ: فهو التَّردُّدُ الرَّاجحُ، وهو رُجحانُ طرفِ الإثبات على النَّفي، دون بلوغِ درجةِ العِلْم، أو

(1) السامرائي، معاني النحو: 1/258.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/251، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 5/2721.

الإثباتِ، ويعني: أنَّهم يتَّبعون ظنًّا ترجِّحُه أوهامُهم، وليسَ مبنيًّا على عِلْم.

بلاغةُ الطِّباقِ بينَ العلمِ والظَّنِّ:

الظَّنُّ: نوعُ أمارةٍ لا تُطابق الواقعَ، والعِلمُ: أمارةٌ تطابقُ الواقعَ

استُعمل الظَّنُّ - أحيانًا - في القرآنِ الكريم مُقابلًا للعِلم، وأُخرى مُقابلًا لليقين، نحو قوله تعالى: ﴿وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴿٢٨﴾﴾ [النجم: 28]. وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴿٣٢﴾﴾ [الجاثية: 32]، وقد عرَّف علماءُ اللُّغةِ (الظَّنَّ) مُرادفًا للشَّكِّ[1]، أمَّا الرَّاغبُ الأصفهانيُّ فيُقَدِّمُ تعريفًا آخر للظَّنِّ أكثرَ انسجامًا مع مواردِ استخدامِهِ في القرآن الكريم، إذ يقول: "الظَّنُّ: اسمٌ لما يحصل عن أمَارةٍ، متى قويَت أدَّت إلى العِلْم، ومتى ضَعُفت جدًّا؛ لم يتجاوز حدَّ التَّوَهُّم"، فالظَّنُّ نوعُ أمَارةٍ لا تطابقُ الواقعَ، والعِلمُ أمَارةٌ تطابقُ الواقعَ، وهذا هو الجامعُ بينَ اللَّفظينِ في قولِه تعالى: ﴿قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾[2].

دلالةُ عطفِ جملةِ: ﴿وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ على ما قبلَها:

العطفُ على سابقتِها بمنزلةِ النَّتيجةِ لها

وُصِلتْ هذه الجملةُ بما قبلَها؛ لأنَّ كلًّا منهما خبريَّةٌ في اللَّفظِ والمعنى، فبينَهما علاقةُ التَّوسُّطِ بينَ الكمالين؛ وعَطَفَها على سابقتِها؛ لأنَّها بمنزلةِ النَّتيجةِ لها.

بلاغةُ الالتفاتِ في قولِهِ تعالى: ﴿وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾:

الفَزَعُ إلى الحقِّ والالتزامُ بِهِ

أفادَ الالتفاتُ مِنَ الغَيبةِ إلى الخطابِ في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ كونَ المواجهةِ أرهبَ في نفوسِهم، ولِيَفزعوا إلى الحقِّ، ولِيَلتزموا قولَ الحقِّ، ولكنَّهم لا يعلمون[3].

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (ظن).
(2) الرّاغب، المفردات: (ظن).
(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 5/2721.

فائدةُ أسلوبِ القصرِ في جملةِ: ﴿وَإِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَخۡرُصُونَ﴾:

الجملةُ قصريَّةٌ كسابقتها؛ قُصِرَ فيها موصوفُ ﴿أَنتُمۡ﴾ على صفة ﴿تَخۡرُصُونَ﴾ قصرًا حقيقيًّا تحقيقيًّا، وجيءَ بضميرِ المخاطبِ، ولم يُصَرَّح باسمِهم تحقيرًا لهم، وزيادةً في بيانِ كَذِبهم، ولم يُستعمَل لفظُ الكذبِ، بل بُولِغ في ذلك، وقُصِرَ على الخرصِ، وهو أقبحُ أنواعِ الكذب.

التَّحقيرُ لهم، والتَّوكيدُ على اتِّصافِهِمْ بأقبحِ أنواعِ الكذب

إيثارُ التَّعبيرِ بالفعل: ﴿تَخۡرُصُونَ﴾، ودلالةُ المضارعيّة:

الخَرْص: الأخذُ بالشَّيء من غير عِلم مُحقَّقٍ، يُقال: خَرَص النَّخلة، أي: قدَّر ما عليها من ثمرٍ قبل أن ينضَجَ، وهذا لا يكونُ إلَّا عن حَدْسٍ وتوهُّم، أشبهَ الرَّجمَ بالغَيب، وقد استُعير هنا للمعنويَّات استعارةَ محسوسٍ لمعقولٍ للتَّشنيع عليهم، وفضحِ طرائقِهم في الاستدلالِ والاعتقاد[1]، وجاء التَّعبيرُ بالفعل المضارع للدَّلالةِ على الاستمرار والتَّجدُّدِ في كَذِبهم وافتراءاتهم.

بيانُ توهُّمِهم والتَّشنيعُ عليهم، والدَّلالَةُ على استمرارهم في الكذب والافتراء

نُكْتَةُ تقديمِ اتِّباع الظَّنّ على الخَرص:

قوله تعالى: ﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ جملةٌ مُستأنَفَةٌ؛ لأنَّها ابتداءُ كلامٍ بإضرابٍ عَنِ الكَلامِ الَّذي قَبْلَه، فبَعْدَ أنْ تَهَكَّم بهم؛ جَدَّ في جوابِهم، فقال: ﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾[2]، أمَّا الفاصلةُ: ﴿وَإِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَخۡرُصُونَ﴾؛ فقد جاءت مؤكِّدةً لمفهوم الجملةِ الأولى، فتقصُرُ ما عندَهم على الظَّنِّ الباطلِ والحزر والتَّخمين.

بيانُ مستواهم العقليِّ، وأنَّ ما عندَهم قائمٌ على الظَّنِّ الباطلِ والتَّخمين

توجيهُ المتشابهِ اللَّفظيِّ:

قال تعالى: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشۡرَكۡنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمۡنَا مِن شَيۡءٖۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأۡسَنَاۗ قُلۡ هَلۡ عِندَكُم مِّنۡ عِلۡمٖ فَتُخۡرِجُوهُ لَنَآۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَخۡرُصُونَ ١٤٨﴾ [الأنعام: 148]، وقال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدۡنَا

(1) عبد الكريم الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 4/336.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 8/150.

مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖ نَّحۡنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمۡنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ فَهَلۡ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ٣٥﴾ [النحل: 35]، لِمَ خُصَّتْ كلُّ آيةٍ بما فيها مِنَ البدء، ومِن ﴿أَشۡرَكۡنَا﴾ أو ﴿عَبَدۡنَا﴾، وممَّا فيها بعد ذلك؟

آية الأنعام يسبقها قولُه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ جَزَيۡنَٰهُم بِبَغۡيِهِمۡۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ١٤٦﴾ [الأنعام: 146]؛ فلمَّا كان السِّياق مُتعلِّقًا بما يدلُّ على صِدق الرَّسولِ ﷺ فيما سيحدُثُ مِن أقوالِهم وأفعالِهم قبل أن يقعَ؛ ناسَبهُ ذِكرُ ﴿سَيَقُولُ﴾، ولـمَّا كان مِن أبرز مظاهرِ بغيهم إشراكُهُم باللّه؛ ناسَبهُ ذِكر الشِّرك، ولـمَّا تقدَّم بيانُ كذبهم؛ ناسَبهُ أنَّهم ليسوا بِدعًا في ذلك بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأۡسَنَاۗ﴾.

أمَّا آيةُ النَّحلِ؛ فيسبقها قولُه: ﴿فَأَصَابَهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُواْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ٣٤﴾ [النحل: 34]، فلمَّا كان ذلك جزاءً لما مضى من أعمالهم؛ ناسَبهُ ذِكر ﴿قَالَ﴾، ولـمَّا كان العملُ لما يُعبَد عبادةً تشملُ الشِّركَ وغيرَه؛ ناسَبهُ ذِكرُ ﴿عَبَدۡنَا﴾، ولـمَّا كانت عبادةُ غيرِ اللّهِ، وتحريمُ ما لم يحرِّمْ أفعالًا قد فعلَها مَن قبلَهم؛ ناسَبهُ قولُه: ﴿كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ﴾.

التَّشابُهُ بين آية الأنعام وآية النحل:

ومن التَّشابُهِ والاختلافِ بين آية الأنعام [148] وآية النَّحل: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدۡنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖ نَّحۡنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمۡنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ فَهَلۡ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ٣٥﴾ [النحل: 35]، فقد ذكرَ اللّهُ تعالى: ﴿مِن دُونِهِۦ﴾ مرَّتين، وقال: ﴿نَّحۡنُ﴾ فأكَّدَ الضَّمير؛ لأنَّ لفظَ العبادة يصحُّ أن يُنسبَ إلى إفرادِ اللّه بها؛ وهذا ليس بمستنكرٍ، بل المستنكرُ عبادةُ شيءٍ غير اللّه أو شيءٍ مع اللّه، فناسبَ هنا ذِكرُ ﴿مِن دُونِهِۦ﴾ مع العِبادة، وأمَّا لفظ ﴿مَآ أَشۡرَكۡنَا﴾، فالإشراكُ يدلُّ على إثباتِ شريكٍ؛ فلا يتركَّب مع هذا الفعل لفظ ﴿مِن دُونِهِۦ﴾؛ لو كان التَّركيبُ في غير القرآن (ما أشركنا من دونه) لم يصحَّ معناه، وأمَّا من دونه الثَّانية؛ فالإشراكُ يدلُّ على تحريمِ أشياءَ وتحليل أشياء، فلم يحتجْ إلى لفظ ﴿مِن دُونِهِۦ﴾، وأمَّا لفظُ العبادةِ؛ فلا يدلُّ على تحريم شيءٍ، كما دلَّ عليه لفظ (أشرك)، فقيَّدَ بقوله: ﴿مِن دُونِهِۦ﴾ ولما حذف ﴿مِن دُونِهِۦ﴾ هنا؛ ناسبَ أن يحذف ﴿نَّحۡنُ﴾؛ ليطَّرِدَ التَّركيب في التَّخفيف[1].

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 4/682.

التَّشابُهُ بين آية الأنعام وآية يونس:

قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأۡسَنَاۗ﴾ [الأنعام: 148]، وقال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ٣٩﴾ [يونس: 39]، لِمَ خُصَّتْ كلُّ آيةٍ بما فيها بعد قوله: ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾؟

آيةُ الأنعامِ يسبقُها قوله: ﴿فَقُل رَّبُّكُمۡ ذُو رَحۡمَةٖ وَٰسِعَةٖ وَلَا يُرَدُّ بَأۡسُهُۥ عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ١٤٧﴾ [الأنعام: 147] فلمَّا كان هؤلاءِ قد فعلوا ما يستوجبُ نزولَ البأسِ بهم؛ ناسبهُ قوله: ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأۡسَنَاۗ﴾، أمَّا آيةُ يونسَ؛ فقد بُدئتْ بقوله: ﴿بَلۡ كَذَّبُواْ بِمَا لَمۡ يُحِيطُواْ بِعِلۡمِهِۦ وَلَمَّا يَأۡتِهِمۡ تَأۡوِيلُهُۥۚ﴾ [يونس: 39]؛ فلمَّا كان معنى تأويلِهِ عاقبةَ ما فيه من الوعيدِ لمن كذَّبوا، وكان ذلك إشعارًا بقرب قدومِهِ، كما توحي بذلك ﴿وَلَمَّا﴾؛ ناسبهُ قوله: ﴿فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(الشِّرك) و(الكُفر):

الكفرُ اسمٌ يقع على ضُروبٍ من الذُّنوب، فمنها: الشِّركُ باللّه، والجحدُ للنُّبوَّة، واستحلالُ ما حرَّم اللّه؛ وهو راجعٌ إلى جحدِ النُّبوَّة، وغير ذلك؛ وأصلُهُ التَّغطيةُ، فالكفرُ خصالٌ كثيرةٌ، وكلُّ خصلةٍ منها تضادُّ خصلةً من الإيمان؛ لأنَّ العَبدَ إذا فعلَ خصلةً من الكفر، فقد ضيَّعَ خصلةً من الإيمان، والشِّركُ خصلةٌ واحدة، وهو إيجادُ آلهةٍ مع اللّهِ أو دونَ اللّه، واشتقاقهُ يُنبئُ عن هذا المعنى، ثمَّ كثُر حتَّى قيل لكلِّ كفرٍ: شركٌ، على وجهِ التَّعظيم له والمبالغة في صفتهِ[1].

بينَ الشِّرك والكُفر خصوصٌ وعموم، فكُلُّ شِركٍ كُفرٌ، وليس العكس

(1) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 454، و455.

(عند) و(لدى) و(لدن):

(عند) أوسعُ دلالةً في المعنى، وأكثرُ انتشارًا في الاستعمال، و(لدن) أخصُّ من (عند)؛ لأنَّها تدلُّ على ابتداءِ نهايةٍ[1]، وهي تدلُّ على الالتصاقِ والقُرْبِ الشَّديد، وهي تكاد تكونُ خاصَّة بالعنديَّة لدى الذَّاتِ العليَّة[2]، ولذلك وردتْ كثيرًا في الدُّعاء والمناجاة، وفي ما يؤتيه اللهُ من أجرٍ[3]، و(لدى) أقلُّ التصاقًا من (لدن)، ودونكَ التَّفصيل:

(عـنـد) أوسـعُ في الـدّلالـةِ على الظَّرفِ، و(لدن) تدلُّ على القربِ واللُّطفِ أكثر من (لدى)

ورد الظَّرفُ (عند) في القرآن الكريم سبعًا وتسعين ومئةَ مرَّةٍ (197)[4]، وورد الظَّرفُ (لدن) ثماني عشرةَ مرَّةً (18)، كلُّها خاصَّةٌ بالذَّاتِ العليَّة، ما عدا موضعًا واحدًا، وهو قوله تعالى: ﴿قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي ۖ قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا ﴿٧٦﴾﴾ [الكهف: 76]، وورد (لدى) اثنتين وعشرين مرَّة (22)، في سياقاتٍ متنوِّعَةٍ، كلُّها تدلُّ على القُرْبِ وشِدَّة الإدراك مع شيءٍ مِنَ الامتدادِ، ونلحظُ اتِّفاقَ (لدن ولدى) في الحرفين الأَوَّلَيْن، (لد)، واختلافَهما في الحرفِ الثَّالثِ، ففي "(لدى) تضيفُ الياءُ معنى الامتداد مع اتِّصالٍ، وتعبِّر النُّون في (لدن) عن امتدادٍ جوفيٍّ لطيف، ويُعبِّر التَّركيبُ المختوم بها عن سَرَيان لُطْفٍ ورقَّةٍ في الجوف"[5]، فكلاهما يدلُّ على القُربِ والامتداد المتَّصلِ، ولكنَّ امتداد النُّونِ في (لدن) فيه لُطف.

ذكر الفيُّوميُّ أنَّ (لدى ولدن) لا يُستعملان إلَّا في الحاضر، قال: يقال: لدنه مالٌ؛ إذا كان حاضرًا، ولديه مالٌ كذلك[6]. وبالنَّظرِ في

(1) الرّاغب، المفردات: (لدن).
(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 4842.
(3) ما ذكره كثير من العلماء، كالعسكري في الفروق: 298، وابن الشجري في الأمالي: 1/341، 342، وابن هشام في مغني اللبيب: 1/136، وقد لخص جلَّ ذلك الدكتور امحمد صافي المستغانمي في برنامج (روائع القرآن) المنشور على (اليوتيوب) بتاريخ: 25/6/2020م.
(4) كما في المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، لمحمد فؤاد عبد الباقي: (عند)، وبمصحف (آية) الإلكتروني، مع مراجعة العدد؛ للاستيثاق منه.
(5) جبل، المعجم الاشتقاقي: (لدى).
(6) الفيومي، المصباح المنير: (لدن).

استعمالِ القرآنِ الكريمِ يمكننا أن نتلمَّسَ بعضَ الفروقِ الدَّقيقةِ؛ لإيماننا بإعجازِ القرآنِ وفوقيَّتِه وسُموِّ بلاغتِه؛ فقد وردا مثلًا في قوله تعالى: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾﴾ [الكهف: 65]،

مِن هذه الفروقِ ما يأتي:

أوَّلًا: (عند) مِنَ الظُّروفِ المكانيَّةِ - في الأصل - وقد تأتي لتَدُلَّ على الزَّمان.

ثانيًا: (عند) أوسعُ في الدّلالةِ على الظَّرفِ؛ فهي تدلُّ على الحضورِ الحسِّيِّ والمعنويِّ، قال تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾ [النمل: 40].

ثالثًا: (عند) أكثرُ انتشارًا واستعمالًا في اللُّغةِ والقرآن الكريم.

رابعًا: (لدن) تدلُّ على القربِ واللُّطفِ أكثر من (لدى).

(الكذبُ) و(التَّخرُّصُ):

الخَرْص هو الحَزْر، وليس مِنَ الكذبِ في شيءٍ، والخرصُ ما يُحزرُ مِنَ الشَّيء، يُقال: كم خرص نخلك؟ أي: كم يجيءُ من ثمرتِه، وإنَّما استعمل الخرصُ في موضعِ الكذِب؛ لأنَّ الخرصَ يجري على غيرِ تحقيقٍ، فشُبِّهَ بالكذِبِ، واستُعمل في موضعِه.

الكذبُ ضِدُّ الصِّدق، وشُبِّهَ التَّخرُّصُ به لجريانه على غير تحقيق

﴿قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ ۖ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾﴾ [الأنعام: 149]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

إثباتُ الحُجَّةِ القاطعةِ للهِ الَّتي لا تغلبها حُجَّةٌ

بعد أن نفى عنِ المشركين أدنى ما يُقال له عِلْمٌ، وحصرَ ما هُم عليه مِنَ الدِّين في أدنى مراتب الظَّنِّ، مع أنَّ أعلاها لا يُغْني مِنَ الحقِّ مِن شيءٍ؛ أثبتَ لذاتِهِ العليَّةِ في مقابلةِ ذلك الحجَّةَ العليا التي لا تعلوها حجَّةٌ، فقال: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ ۖ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلْحُجَّةُ﴾: الحُجَّةُ في كلامِ العربِ مشتقَّةٌ من القَصْدِ؛ لأنها تُقصد، أو بها يُقصد الحقُّ المطلوب، يقال: حاججْتُ فلانًا فحججْتُهُ، أي: غَلبته بالحجَّةِ، وذلك الظَّفَر يكون عند الخصومةِ، والحجَّةُ: ما يُقصدُ بهِ إثباتُ ما لدى المخالفِ، بحيثُ لا يجد منه تَفَصِّيًا؛ ولذلك يُقال للَّذي غلبَ مخالفَه بحجَّتِهِ: قد حَجَّهُ، فالحُجَّة لا تُطلق حقيقةً إلَّا على البُرهانِ والدَّليل النَّاهض المُبكت للمُخالف، كما أنَّها الدّلالةُ المبيِّنةُ للمحَجَّة، أي: المقصدُ المستقيمُ الَّذي يقتضي صحَّةَ أحدِ النَّقيضين[2].

2) ﴿ٱلْبَٰلِغَةُ﴾: مؤنَّثُ البالغ: اسم فاعِلٍ من فِعْلِ: بَلَغَ، والتَّاء: للمُبالغةِ، والبُلُوغ والبَلَاغ: الانتهاءُ إلى أقصى المقصدِ والمنتهى، مكانًا كان أو زمانًا، أو أمرًا مِنَ الأمورِ المقدَّرة؛ ومعنى قوله: ﴿ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ﴾ هي الواصلةُ إلى ما قُصِدَتْ لأجلِهِ، وهو غَلْبُ الخصمِ، وإبطالُ حجَّتِهِ[3].

(1) محمد رشيد رضا، تفسير المنار: 8/156.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات: (حج)، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/46.
(3) الرّاغب، المفردات: (بلغ)، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/46.

المَعْنى الإجْماليُّ:

قُلْ يا أيُّها الرَّسول ﷺ لهؤلاءِ المشركين: إنْ لم تكن لكم حُجَّةٌ صحيحةٌ؛ فللّه الحُجَّةُ الواضحةُ الَّتي بلغتِ الغايةَ في الظُّهورِ والإقناعِ، والَّتي تنقطع عندها معاذيرُكم التي تقدِّمونها، وتبطلُ بها شُبَهكم التي تتعلَّقون بها، فلو شاء لهداكم إلى الإيمان أجمعين، ولكنَّه تعالى تركَ للخَلْقِ أمرَ الاختيارِ في الإيمانِ والكُفر ليتمَّ التَّكليف.

حُجَّةُ اللهِ القاطعةُ أقوى مِن هذه الحُججِ الواهيةِ

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ فصلِ جملةِ: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ﴾ عمَّا قبلَها:

افتُتِحَتِ الآيةُ بتكرارِ الأمر بالقول، بِجَرْسِها القويِّ الَّذي يَهُزُّ المتلقِّي، ولعلَّ ذلك لاسترعاء الأسماعِ لما سيردُ بعد الفعلِ: ﴿قُلْ﴾[1].

استرعاءُ الأسماعِ لما سيَرِدُ بعدَ الفعلِ

دلالةُ الفاءِ في قولِهِ: ﴿فَلِلَّهِ﴾، وتقديمُ المسندِ على المسندِ إليه:

الفاءُ فصيحةٌ تُؤْذِنُ بكلام مُقدَّر هو شرط، والتَّقدير: فإنْ كان قولُكم لمجرَّدِ اتِّباع الظَّنِّ والخرص وسُوء التَّأويل، فللّهِ الحُجَّةُ البالغة، وقد أسهمَ تقديمُ الجارِّ والمجرور: ﴿فَلِلَّهِ﴾ على المبتدأ في تأكيدِ المعنى المرادِ؛ إذ أفادَ هذا التَّقديمُ الاختصاصَ، أي: للّهِ الحُجَّةُ البالغة، لا لكم. وحُسْنُ هذا الأسلوبِ يكمنُ في قيامِ جملةٍ واحدةٍ مقامَ جملتين، مع ما فيها من إيجازٍ وتأكيدٍ[2].

الأسلوبُ وحُسنهُ يكمنُ في قيامِ جملةٍ واحدةٍ مقامَ جملتين

إيثارُ التَّعبيرِ بقولِهِ: ﴿ٱلْحُجَّةُ﴾ دونَ مرادفِهِ:

الحُجَّةُ تدلُّ على الرَّأي المستنيرِ، وأقربُ كلمةٍ تعبِّر عنها كلمة (البرهان)، والمعنى المحوريُّ للحُجَّةِ: تَجوُّفٌ كهفيٌّ صُلبٌ أو مَتين (يحمي ضعيفًا في داخله)، والحجَّة تحمي الرَّأي في داخلها. وفرَّقَ بعضُ أهلِ العِلم بين لفظةِ (الحجَّة) ومرادفاتِها، فقالوا: اسمُ (الدَّليل) يقعُ على كلِّ ما يُعرف به المدلولُ، واعتبروا أنَّ (الدَّليل) ما

الحُجَّةُ أشملُ دلالةً من مرادفاتها

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 8/151أ.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 7/313، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 8/151أ.

كان مُركَّبًا مِنَ الظَّنيَّات، و(البُرهان) ما كان مُركَّبًا مِنَ القَطعيَّات، و﴿ٱلۡحُجَّةُ﴾ مُستعملةٌ في جميع ما ذُكر، وكلُّ (سُلطَان) في القرآنِ فهو (حُجَّة)، وممَّا سبق: يتَّضِح أنَّ الحُجَّةَ أشملُ دلالةً مِن مرادفاتِها؛ لذا آثرَ القرآنُ استعمالهَا في الآية[1].

بلاغةُ تعريفِ لفظ ﴿ٱلۡحُجَّةُ﴾، وعلَّة وصفِها بـ ﴿ٱلۡبَٰلِغَةُۖ﴾:

حجَّةُ اللهِ: هي البيِّنةُ الواضحةُ في الدّلالةِ على الحقِّ

قُيِّدَتِ الجملةُ بالصِّفةِ بقوله: ﴿ٱلۡبَٰلِغَةُۖ﴾؛ ولعلَّ هذا للتَّأكيدِ، أي: إنَّ حجَّةَ اللهِ تعالى على خَلقِه، هي البَيِّنةُ الواضحةُ الَّتي بلغت غايةَ المتانةِ والقُوَّةِ في الدَّلالةِ على الحقِّ، والَّتي تقطع عُذرَ كلِّ محجوج، ولا عجبَ في ذلك؛ إذ إنَّها حُجَّة اللهِ العظيم ﷻ المتَّصف بكامل القُدرةِ، وكاملِ العِلم.

وجهُ تفرُّدِ ذكرِ الحُجَّةِ ووصفِها بـ ﴿ٱلۡبَٰلِغَةُۖ﴾ في القرآنِ الكريمِ:

حجَّةُ اللهِ في غايةِ الظُّهورِ والإقناعِ، وينقطعُ عندها المخاصمُ

تَفَرَّدَ ذِكْرُ الحُجَّةِ البالغةِ في القرآن الكريم؛ لأنَّ اللهَ ﷻ صاحبُ الحجَّةِ البالغة؛ والبلاغةُ الَّتي تبلغُ المقصودَ، فتُبكت الجاحدين وتقرعُ المعاندينَ، ويظهرُ من خلالِ سياقِ الآيةِ الكريمة أنَّها أتتْ بعد جملةٍ من الآياتِ الباهرات المتعلِّقة بالخلقِ وبما امتنَّ به اللهُ من النِّعم على النَّاس، وأنَّ المشركين حرَّموا مَا أحلَّ اللهُ، فَطُولِبوا بالاستدلالِ على ذلكَ من جهةِ العِلم، فنكسوا على أعقابهم خائبين؛ لأنَّهم يسترسلون مع ظنونهم، فمِن هنا كانت حجَّةُ اللهِ تعالى بالغةً، ومن ذا الَّذي يمكنه الاعتراضُ عليها، إلَّا من سَفِهَ نفسهُ مِنَ المعاندين والمكابرينَ، فاللهُ ﷻ يُوردُ الحُجَجَ على عباده، ويُصدرُ البراهين والبيِّنات عن ذاتِه العليَّة المقدَّسة، لماذا هذا كلُّهُ؟ ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ﴾ [النساء: 165]، وهذا الأمرُ مرتبطٌ بأسمائهِ الحسنى، وبخاصَّةٍ منها: العليم، الحكيم، والعدل،

(1) الكفوي، الكليات، ص: 440، ومحمد علي آدم، قرة عين المحتاج في شرح مقدمة صحيح مسلم بن الحجاج: 1/410.

فلا جرمَ أنَّ صدورَ الأدلَّةِ عنه سبحانه، وسوقَها على لسانِ رسلِه وأنبيائه، وبَعْثَهُم بها، هو مِن تجلِّيات هذه الأسماء المقدَّسة[1]. أضف إلى ذلك أنَّ (بالغة)، معناها مُبلِّغةٌ صاحبَها أقوى الأدلَّةِ، كقولِ اللّٰه تعالى: ﴿عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝٢١﴾ [الحاقة: 21]، أي: مَرْضِيٍّ بها، أو مرضيَّة، وإنَّ استعمالَ المشتقَّات بعضِها مكانَ بعضٍ، هو مِن أبلغِ البيانِ العربيِّ[2].

دلالةُ الفاءِ في قولِه: ﴿فَلَوْ شَآءَ﴾، وإيثار حرفِ (لو) دونَ غيرِه:

الفاءُ في قوله: ﴿فَلَوْ شَآءَ﴾ فاءُ التَّفريع، الدَّالَّةُ على ظهورِ حُجَّةِ اللّٰه تعالى عليهم: تفرُّعٌ على بُطلانِ استدلالهم أنَّ اللّٰه لو شاءَ لهداهم، وجملةُ الشَّرط قُيِّدت بـ(لو) دون غيرِها، لما تحملُه من دلالةٍ، فـ(لو) إذا دخلتْ على الفعلِ المثبتِ نفتْهُ؛ فاللّٰه ﷻ لـمَّا قال: ﴿فَلَوْ شَآءَ﴾، لم يكن الواقعُ أنَّه تعالى شاءَ هدايتَهم؛ ولو شاءها لوقعت[3].

ظهورُ حجَّةِ اللّٰهِ تعالى عليهم، وبُطلانِ استدلالِهم

سرُّ إيثارِ فعلِ المشيئةِ دونَ الإرادةِ، والتَّعبيرُ بصيغةِ الماضي:

آثرَ التَّعبيرُ القرآنيُّ استعمالَ فعلِ المشيئةِ في قولِه تعالى: ﴿فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾؛ لأنَّ المشيئة: المرحلةُ السَّابقةُ للإرادةِ، أي: لو شاءَ اللّٰهُ تعالى؛ لأكرهَكُم، وأجبرَكُم على الهدايةِ، ولكن لم يشأْ، وتركَ لكم حرِّيَّةَ الاختيارِ بينَ سلوكِ طريقِ الهدايةِ والإيمانِ، أو طريقِ الضَّلالِ، والانحرافِ[4].

المشيئةُ: المرحلةُ السَّابقةُ للإرادةِ

الفرقُ بينَ الجملتين: ﴿فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ﴾، و﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا﴾:

المشيئةُ المقصودة في قوله: ﴿فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ﴾ غيرُ المشيئةِ المقصودةِ فيما حكى اللّٰهُ عنهم من قولِهم: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا﴾، وإلَّا لما أنكرَ عليهم ما قد أثبتَ نظيرَه عقبَ الإنكارِ، فتتناقض

المشيئةُ المقصودةُ في الرَّدِّ عليهم مشيئةُ التَّكوينِ، والمشيئةُ المنكرةُ عليهم الرِّضا والمحبَّة

(1) محمد عوام، مقصد إصلاح التَّفكير الإنساني في القرآن الكريم، مقاصد القرآن الكريم، مجموعة بحوث، لندن: مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، 2016، ص: 525.

(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 5/2722.

(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 13/175، ومحمد رشيد رضا، تفسير المنار: 8/159، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 8/أ152.

(4) محمد الهلال، تفسير القرآن الثري الجامع، الآية: 149، ومن سورة الأنعام.

المحاجَّة؛ لأنَّ الهدايةَ تساوي عدمَ الإشراكِ وعدمَ التَّحريمِ، فلا يصدقُ جَعْلُ كليهما جوابًا لـ(لو) الامتناعيَّة؛ فالمشيئةُ المقصودةُ في الرَّدِّ عليهم، هي المشيئةُ الخفيَّةُ المحجوبة، وهي مشيئةُ التَّكوينِ، والمشيئةُ المنكرةُ عليهم هي ما أرادوه من الاستدلالِ بالواقعِ على الرِّضا والمحبَّةِ[1].

نُكْتَةُ التَّعبيرِ بـ﴿أَجْمَعِينَ﴾، ولم يقل: (جميعًا):

الغرضُ: تأكيدُ هدايتِهم (أجمعين)، وليس الإنكارُ عليهم يأسَهم من هدايةِ اللهِ النَّاسَ جميعًا

جاء هنا تقييدُ الجملةِ بالتَّوكيدِ اللَّفظي ﴿أَجْمَعِينَ﴾ من قولهِ تعالى: ﴿فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾، ولعلَّ الغرضَ منه ترسيخُ المعنى في ذهنِ السَّامع، مع ما في هذه الكلمةِ من شمول؛ فاللّٰه "سبحانه قادرٌ على هدايةِ خلقهِ كلِّهم؛ ولو شاءَ ذلك لفعلَهُ؛ لكمالِ قُدرتهِ ونفوذ مشيئتهِ، ولكنَّ حِكمتَهُ تأبى ذلك[2]، فعدلَ عن قولهِ: (لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا) إلى قوله: ﴿لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾؛ لما في مخاطبتِهم من مناسبة مقامِ الحُجَّةِ، وما في مجيء التَّوكيدِ جمعَ مذكَّرٍ سالمًا مِن دلالةٍ على القِلَّة بالنَّظر إلى (جميع) الدالَّة على الكَثْرة. في حين وردَ في سورة الرعدِ قوله: ﴿أَفَلَمْ يَاْيْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًاۗ﴾ [الرعد: 31]، فأتى بلفظٍ أعمَّ، وهو (النَّاس)، وبالحال (جميعًا) دالًّا على الكَثْرة؛ لمناسبة الاستفهام الإنكاريِّ لِما ينبغي أن يكونَ لدى المؤمنين من زوالِ يأسِهم، وَأَنْ يَعْلَمُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللّٰهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا[3].

بلاغةُ تشابهِ الأطرافِ في الآيةِ:

في الآيةِ الكريمةِ (تشابُهُ الأطرافِ)، فقد بدا في مناسبةِ آخرِ الآيةِ، وهو قولهُ تعالى: ﴿فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ لأوَّلها؛ وبيانُ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 8/152.
(2) الضوء المنير على التفسير من كتب الإمام: ابن قيم الجوزية، جمعه: علي الحمد الصالحي، مؤسسة النور - عنيزة، الطبعة الأولى: 3/107.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/144.

هذا: أنَّ هذه الجملةَ الكريمةَ تضمَّنت أنَّه المتفرِّدُ بالرُّبوبيَّةِ والملك والتَّصرُّفِ في خَلْقِهِ، وأنَّه لا ربَّ غيرهُ ولا إلهَ سواهُ، فكيف يعبدون معه إلهًا غيرَه؟! فإثباتُ القَدَرِ والمشيئة مِن تمام حُجَّتِهِ البالغةِ عليهم، وأنَّ الأمرَ كلَّه للّه تعالى، وأنَّ كلَّ شيءٍ ما خلا اللّه باطلٌ؛ فالقضاءُ والقَدَر والمشيئة النَّافذة من أعظمِ أدلَّةِ التَّوحيدِ، فجعلها الظَّالمون الجاحدون حُجَّةً لهم على الشِّرك، فكانت حُجَّةُ اللّهِ ﷻ هي البالغةَ، وحجَّتُهم هي الدَّاحضة، فآخرُ الآيةِ - كما اتَّضح - انتظمَ ببلاغتهِ لفظًا ومعنًى، فكان امتدادًا مُحكمًا مُتناسبًا مع أوَّلها[1].

انتظامُ بلاغةِ آخر الآية (لفظًا ومعنًى) امتدادٌ مُحكمٌ مع مطلعها

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(الحُجَّة) و(البرهان):

الحُجَّةُ هي الاستقامةُ في النَّظر، والمضيُّ فيه على سَنَنٍ مستقيم، من ردِّ الفَرع إلى الأصل، وهي مأخوذةٌ مِنَ الحُجَّةِ، وهي الطَّريقُ المستقيم؛ وتأثيرُ الحُجَّة في النَّفس كتأثير البرهانِ فيها، وإنَّما تنفصلُ الحُجَّةُ مِنَ البرهان؛ لأنَّ الحُجَّة مُشتقَّةٌ من معنى الاستقامة في القصدِ؛ حَجَّ يَحُجُّ؛ إذا استقامَ في قصدهِ، والبرهانُ - على ما يراه أبو هلال العسكريُّ - لا يُعْرَف له اشتقاقٌ، وينبغي أن يكون لُغةً مفردة[2]، والصَّحيحُ أنَّهُ مِن: "بَرِهَ الرَّجل (كفَرِح): ثابَ جسمُه (امتلأ) بعد تغيُّرٍ مِن عِلَّةٍ، وأبره الرَّجلُ: غلب النَّاسَ، وأتى بالعجائب"، ومن ذلك البرهانُ؛ إذ بهِ قِوامُ الدَّعوى وصُلوحها؛ لأنَّهُ يؤيِّدُها، فتقوَى، وتَغلب، وبدونهِ تكون دعوى فارغةً، كما قال اللّه: ﴿قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ﴾ [البقرة: 111]، فالبرهانُ: الدَّليلُ الذي يوقِعُ اليقينَ[3]، ويقالُ للحُجَّة أيضًا: البُرهَان، وعندَ النُّظَّار: الحُجَّةُ أعمُّ

الحُجَّة: الاستقامة في النَّظر، وهي أعمُّ، والبُرهانُ: الدَّليلُ الذي يوقِعُ اليقينَ

(1) الصالحي، الضوء المنير على التفسير من كتب الإمام: 3/109.
(2) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 233.
(3) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 2/75، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (برهـ).

منه؛ لاختصاصه عندهم بيَقِين المُقدِّمَات؛ وَمَا ثَبت به الدَّعْوَى من حَيْثُ إفادتُه للبيان يُسمَّى بَيِّنَةً، وَمن حَيْثُ الْغَلَبَةُ به على الخصم يُسمَّى حُجَّة، والمجادلةُ البَاطِلَة قد تُسمَّى حجَّة كقوله تعالى: ﴿حُجَّتُهُمۡ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمۡ﴾ [الشورى: 16][1].

(البالغة) و(الدَّامغة):

البالغةُ هي الواصلةُ، أي: الواصلة إلى ما قُصدتْ لأجلهِ، وهو غَلبةُ الخصم، وإبطالُ حجَّتِه، والدّامِغَةُ مِن الشِّجاج: هي التي تُهَشِّمُ الدِّماغَ، وتَكْسِرُ عَظْمَ الجُمْجُمَةِ، ولا حَياةَ مَعَها غالبًا، قال تعالى: ﴿بَلۡ نَقۡذِفُ بِٱلۡحَقِّ عَلَى ٱلۡبَٰطِلِ فَيَدۡمَغُهُۥ﴾ [الأنبياء: 18]، أي: يكسر دِمَاغَهُ، وحجَّةٌ دَامِغَة كذلك، وهو استعارةٌ؛ حيث استُعير الدَّمغُ لمحقِ الباطلِ وإزالتهِ[2]، ولذلكَ ناسبَ وصفُ الحجَّةِ في الآية الكريمة في سورة الأنعام بأنَّها: ﴿ٱلۡبَٰلِغَةُۖ﴾؛ لأنَّ المرادَ بها - في السِّياق - غَلبةُ الخصمِ، وإبطالُ حُجَّتِهِ التي يتَّكِئ عليها، وليس قصمَهُ وإهلاكَهُ.

البالغةُ ما يُتَوصَّل به إلى غَلبةِ الخصمِ وإبطالِ حُجَّتِهِ، والدَّامغةُ استعارةٌ لمحقِ الباطلِ وإزالتهِ

(أجمعين) و(جميعًا):

أنَّ (أجمعين) لا يستعملُ إلَّا تأكيدًا، كقولهِ تعالى: ﴿فَسَجَدَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمۡ أَجۡمَعُونَ﴾ [الحجر: 30]، ولا يصحُّ نصبُه على الحال، وأمَّا (جميعًا)؛ فإنَّه قد يُنْصَب على الحال، ويُؤكَّد به من حيثُ المعنى، نحو قولهِ تعالى: ﴿قُلۡنَا ٱهۡبِطُواْ مِنۡهَا جَمِيعٗاۖ﴾ [البقرة: 38][3].

لفظ (أجمعين) يُستعمل للتَّأكيد فقط، وأمَّا (جميعًا) فحالٌ مُؤكّدة للمعنى

(1) الكفوي، الكليات، ص: 406.
(2) الرّاغب، المفردات: (دمغ)، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 8/151، و17/34.
(3) الرّاغب، المفردات: (جمع).

﴿قُلْ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَا ۖ فَإِن شَهِدُواْ فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ ۚ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٠﴾﴾ [الأنعام: 150]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

استدراجُ الكفَّارِ إلى إسقاطِ أدلَّتهم

لمَّا أبطلَ اللّٰهُ تعالى على الكفَّارِ جميعَ أنواعِ حُججِهم بيَّن أنَّه ليس لهم على قولِهم شهودُ البتَّةُ؛ تقصِّيًا لإبطال قولهم من سائرِ جهاتِه[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿هَلُمَّ﴾: هَلُمَّ، أَي: أقبِلْ، وهَلُمَّ دعاءٌ إلى الشَّيءِ، وهي اسمُ فعل أمر للحضورِ أو الإحضارِ، فتكونُ قاصرةً، كقولِه تعالى: ﴿هَلُمَّ إِلَيْنَا﴾ [الأحزاب: 18]، وتكون متعدِّيةً كما هنا، وهو في لغةِ أهلِ الحجاز يلزمُ حالةً واحدة، فلا تلحقهُ علاماتٌ مناسبة للمخاطب، فتقول: هلمَّ يا زيدُ، وهلمَّ يا هند، وهكذا، وفي لغة بني تميم تلحقُهُ علاماتٌ مناسبة، يقولون: هلمِّي يا هند، وهلمَّا، وهلمُّوا، وهَلْمُمْنَ، وقد جاء في هذهِ الآيةِ على الأفصحِ، فقالَ: ﴿هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ﴾، وقيل: أَصْلُهَا: (هَلْ أَؤُمُّ)، كلامُ مَن يُريدُ إتيانَ الطَّعام، ثم كَثُرَتْ حتى تكلَّم بها الدَّاعي، والمعنى في الآية: أَحْضِرُوهُمْ[2].

2) ﴿وَلَا تَتَّبِعْ﴾: الاتِّباعُ: التُّلُوُّ لِلآخَرِ، يُقال: اتَّبَعْتُ القَوْمَ، وتَبِعْتُهُم، تَبَعًا وتِباعًا، أيْ: تَلَوْتُهُم، ويأْتي بِمعنى الاقْتِداءِ، والاتِّباعُ والـمُتابَعَةُ أيضًا: الإحْكامُ والإتْقانُ، وتابَعَ عَمَلَهُ؛ إذا أَتْقَنَهُ وأَحْكَمَهُ، وأَصْلُ الاتِّباعِ: اقْتِفاءُ أَثَرِ الماشِي، والـمَشْيُ خَلْفَهُ، ثُمَّ اسْتُعْمِلَ في

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 13/176، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 8/153.

(2) السجستاني، غريب القرآن، ص: 491، 494، وابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات: (هلم)، والواحدي، التفسير الوسيط: 2/335، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 8/153.

العَمَلِ بِعَمَل الآخرِ، ويُطْلَقُ الاتِّباعُ والإتْباعُ على اللَّحاقِ بِالشَّيْءِ، فيُقال: اتَّبَعْتُ القَوْمَ؛ إذا كانوا قد سَبَقُوكَ فَلَحِقْتَهُم. ومِن مَعانِيه أيضًا: الائْتِمارُ والامْتِثالُ، والمعنى هنا: عدمُ موافقةِ المشركينَ على ما هم عليهِ مِنَ الباطلِ[1].

3) ﴿أَهْوَآءَ﴾: أَصْلُ الكَلِمَةِ: الخُلُوُّ والسُّقُوطُ، يُقال: هَوَى الشَّيءُ، أيْ: سَقَطَ، ومنه سُمِّيَ هَوَى النَّفسِ بِذلك؛ لأنَّهُ خالٍ مِن كُلِّ خَيْرٍ، ولأنَّهُ يَهْوِي بِصاحِبِهِ في المَهالِكِ، والهَوَى: مَحَبَّةُ الإنْسانِ لِلشَّيْءِ، يُقال: هَوَى الطَّعامَ، يَهْوِيهِ، هَوًى، أي: أَحَبَّهُ، ويأْتي بِمعنى الإرادَةِ والمَيْلِ لِلشَّيْءِ، سواءٌ كان حَقًّا أو باطِلًا، فيُقال: سارَ على هَواهُ، إذا فَعَلَ ما أَرادَ، والهَوَى أيضًا: الباطِلُ والضَّلالُ، ومِنْهُ سُمِّيَ أَهْلُ الباطِلِ بِأَهْلِ الأَهْواءِ[2].

4) ﴿يَعْدِلُونَ﴾: العدلُ: له أصلانِ صحيحانِ، لكنَّهما متقابلانِ كالمتضادَّين: أحدهما يدلُّ على استواءٍ، وهو: مَا قَامَ في النُّفُوسِ أنَّه مُستَقِيمٌ، والآخرُ يدلُّ على اعوجاجٍ، وهو المرادُ هنا في الآية، يقال: عَدَل الكافرُ بربِّهِ عَدْلًا وعُدُولًا: سَوَّى بِهِ غيرَه، فعَبَدَهُ، فأشرَكَ[3].

المَعْنى الإجْمالِيُّ:

إبطالُ حُججِ الكفَّارِ، لتفنيدِ دعاويهم الباطلة

قُلْ أيُّها الرَّسولُ لهؤلاءِ المشركين الَّذين يحرِّمون ما أحلَّ اللّه، ويدَّعون أنَّ اللّه هو الَّذي حرَّمه: أحضِروا شهودكم الَّذين يشهدون أنَّ اللّه حرَّم هذه الأشياءَ الَّتي حرَّمتموها، فإنْ شهدوا بغير عِلمٍ على أنَّ اللّه حرَّمها، فلا تصدِّقهم - أيُّها الرَّسول - في شهادتهم؛ لأنَّها شهادةُ زُورٍ، ولا تتَّبع أهواء الَّذين يُحكِّمون أهواءَهم، فقد

(1) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، وابن سيده، المحكم، وابن منظور، لسان العرب: (تبع).
(2) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (هوي).
(3) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة، وابن سيده، المحكم، وابن منظور، لسان العرب: (عدل).

كذَّبوا بآياتنا حين حَرَّموا ما أحلَّ اللّه لهم، ولا تتَّبع الَّذين لا يُؤمنون بالآخرة، وهم بربِّهم يُشركون، فيساوون به غيرهِ؛ وكيف يُتَّبَع مَن هذا مسلكه مع ربِّه؟!(1).

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالةُ الاستئنافِ في جملةِ: ﴿قُلْ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ﴾:

اسْتِئْنَافٌ ابْتِدَائِيٌّ: لِلانْتِقَالِ مِنْ طَرِيقَةِ الْجَدَلِ وَالْمُنَاظَرَةِ في إِبْطَالِ زَعْمِهِمْ، إِلَى إِبْطَالِهِ بِطَرِيقَةِ التَّبْيِينِ، أَيْ: أَحْضِرُوا مَنْ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللّه حَرَّمَ هَذَا، تَقَصِّيًا لِإِبْطَالِ قَوْلِهِمْ مِنْ سَائِرِ جِهَاتِهِ. وَلِذَلِكَ أُعِيدَ أَمرُ الرَّسول ﷺ بِأَنْ يَقُولَ لَهُمْ مَا يُظْهِرُ كِذْبَ دَعْوَاهُمْ؛ فأمر اللّه -تعالى- رسولهُ ﷺ بأن يطالبَ المشركين بإحضارِ من يشهدُ لهم بأنَّ اللّه قد حرَّمَ عليهم ما زعموا تحريمَهُ من الحرثِ والأنعامِ وغيرها(2).

الترقِّي في إبطالِ زعمِهم من الجدلِ إلى التَّبيينِ

سِرُّ تكرارِ فعلِ الأمرِ ﴿قُلْ﴾، والعدولِ عن مخاطبتِهم:

إعادةُ فعلِ ﴿قُلْ﴾ بدون عطفٍ؛ لاسترعاءِ الأسماعِ، ولوقوعهِ على طريقةِ المحاورةِ، والأمرُ هنا بمعنى التَّكذيب(3)، أمَّا عِلَّةُ العدولِ عن مخاطبتِهم هو فهي انتقالُ التَّعبيرِ من طريقةِ الجدَل والمناظرةِ في إبطالِ زعمِهم إلى إبطالهِ بطريقة التَّبيينِ(4).

انتقالُ التَّعبيرِ من طريقةِ المناظرةِ في إبطالِ زعمِهم إلى طريقةِ التَّبيين

معنى ﴿هَلُمَّ﴾، ودلالةُ التَّعبيرِ بهِ دونَ غيرهِ:

﴿هَلُمَّ﴾: لفظٌ يقصدُ به الدَّعوةُ إلى الشَّيء، وهي اسمُ فعلٍ بمعنى: أقبل؛ إذا كان لازمًا، وبمعنى: أحضِر، وائتِ؛ إذا كان مُتعدِّيًا كما هنا، ويستوي فيه الواحدُ، والمثنَّى، والجَمْع، والمذكَّر، والمؤنَّث في لُغةِ الحجازيِّين.

اسمُ فعلِ أمرٍ بمعنى (أَحْضِروا)؛ فالأمرُ به يحتاجُ إلى استعطافِ المأمورِ واستدعاءِ إقبالهِ

(1) جماعة من علماء التَّفسير، المختصر في تفسير القرآن، ص: 148.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 8/153، وطنطاوي، التفسير الوسيط: 5/206.
(3) السبكي، عروس الأفراح: 1/468.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 8أ/153.

والَّذي عليه النَّحويُّون أنَّ (هَلُمَّ) ليس صوتًا، وإنَّما هو مُركَّب مُختلفٌ في أصل تركيبهِ، فقيل: هو مركَّبٌ من (هَا) الَّتي للتَّنبيه، و(لُمَّ)، وهو مذهب البصريين، وقيل: من هَلْ وأمَّ، أرادوا بهل: أقبل، وأُمّ، أي: اقصد، فأمَّا الهاءُ اللَّاحق لها أوَّلًا، فهي من (ها) الَّتي للتَّنبيهِ لحقَتْ أوَّلًا؛ لأنَّ لفظَ الأمرِ قد يحتاجُ له إلى استعطافِ المأمورِ واستدعاءِ إقبالهِ على الأمر، فهو لذلك يقربُ مِنَ المنادى[1].

فائدةُ إضافةِ ﴿شُهَدَآءَكُمُ﴾ إلى ضميرِ المخاطبين:

التَّلويحُ بميلِ شهدائِهم عنِ الحقِّ

أُتي بكلمة ﴿شُهَدَآءَكُمُ﴾ مُعرَّفةً بإضافتِها إلى ضميرِ المخاطبين، وهم المشركونَ، ولم يكن التَّعبيرُ بالتَّنكيرِ كما في غيرِ القرآنِ: (هلمَّ شهداءَ يشهدون)، ولعلَّ السِّرَّ في هذا، الإشارةُ إلى أنَّ ما لدى الكفَّارِ من شهداءِ، هم شهداءُ تمَّ إعدادُهم مُسبقًا بما تشتهي نفوسُهم، فالكفَّارُ يثقون بِهم، ويعتضدونَ بِشهادَتِهم، فلذا أُضيفت كلمةُ (شهداء) إلى ضميرِ الكفَّارِ. ولو قال: (شُهَداء) من غيرِ إضافةٍ، لأَفْهَمَ أنَّ المَطْلوبَ مَنْ يَشْهَدُ بالحَقِّ، وليس كذلك؛ لأنَّه أُقيمَ الدَّليلُ العَقليُّ على أنَّه لا حُجَّةَ لهم، وأنَّ الحُجَّةَ للّه على خِلافِ ما ادَّعَوْه، فبَطَلَ قَطْعًا أنْ يكونَ أحَدٌ يَشْهَدُ على ذلك بِحَقٍّ[2].

علَّةُ الوصفِ باسمِ الموصولِ في قولهِ: ﴿ٱلَّذِينَ يَشۡهَدُونَ﴾:

زيادةُ تقريرِ معنى إعدادِ أمثالِهم للشَّهادَةِ

وَصَفَ الشُّهَداءَ بالموصولِ في قولهِ: ﴿ٱلَّذِينَ يَشۡهَدُونَ﴾؛ لزيادةِ تقريرِ معنى إعدادِ أمثالِهم للشَّهادةِ، فهم مُؤمنونَ بالشِّهادةِ لهم وبنصرةِ دعاويهم الكاذبةِ.

كما أنَّ مجيءَ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ للدَّلالةِ على أنَّهم شهداءُ معروفون موسومون بالشَّهادَةِ لهم وبنصرة مذهبهم، والدَّليلُ عليهِ قولُهُ تعالى:

(1) الواحدي، التفسير البسيط: 8/518، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 13/176، وأبو حيان، البحر المحيط: 8/463، والآلوسي، روح المعاني: 11/161، وطنطاوي، التفسير الوسيط: 5/210.

(2) أبو حيان، البحر المحيط: 8/463، والبقاعي، نظم الدرر: 7/314، والآلوسي، روح المعاني: 11/161، وطنطاوي، التفسير الوسيط: 5/210.

﴿فَإِن شَهِدُواْ فَلَا تَشۡهَدۡ مَعَهُمۡۚ﴾، ولو قيل: "هلُمَّ شهداء يشهدوا"؛ لكان معناه: هاتوا أناسًا يشهدوا بتحريم ذلك، فكان الظَّاهر طلبَ شهداء بالحقِّ، وذلك ليس بالغرض[1].

نكتةُ الجناسِ غيرِ التَّامِّ في ﴿شُهَدَآءَكُمُ﴾ و﴿يَشۡهَدُونَ﴾:

أفادَ الجناسُ غيرُ التَّامِّ في الآية تخصيصَ نوعٍ من المشركين؛ ليكونوا شهداء زُورٍ دون غيرهم، وهم الَّذين لديهم القابليَّةُ على تزوير الحقائقِ على غيرِ عادةِ العَربِ؛ وذلك لأنَّ أماثل العَرب لَا يشهدون كاذبين، وإن كانوا كافرين؛ ولكنَّ حالَ تكذيبهم للنَّبي ﷺ واتِّباعهم أهواءهم، وسيطرةَ الأوهام عليهم قد تغلبُ عليهم نزعةُ الصِّدقِ؛ ولذا كان أمرُ اللهِ تعالى الَّذي أمره بدعوتهم بأنَّهم إن شهدوا بالباطلِ، وليس بمستحيلٍ على مَن أشركَ؛ فقد تدفعهُ لجاجةُ الكفر إلى أن يطمسَ معالمَ الحقِّ، فيكذب؛ إنْ شهدوا بغير الحقِّ ﴿فَلَا تَشۡهَدۡ مَعَهُمۡۚ﴾ أي فلا تُصدِّقْهُم؛ لأنَّ الهوى قد يَغلبهُم على سَجيَّتهم؛ ومَن يُشرك لا يُؤمَنُ كذِبهُ ولو كان من أهل الصِّدق[2].

مجيءُ الفعلِ من جنسِ الشَّهادةِ فَضْحٌ لنيَّاتِهم وخُطَطِهم في إعدادِهم للشَّهادَةِ

سرُّ التَّعبيرِ بالفعلِ ﴿يَشۡهَدُونَ﴾ دون غيرِهِ وصيغةِ المضارع:

آثرَ التَّعبيرُ القرآنيُّ استعمالَ الفعلِ المضارعِ ﴿يَشۡهَدُونَ﴾؛ إذ المقصودُ منه التَّعجيزُ، فلا يَلقَون شُهداء يشهدون أنَّ اللّه حرَّم ما نسبوا إليه تحريمه من شؤونِ دينهم.

وفي إطلاقِ اسمِ الشَّهادةِ على التَّسليم لهم وموافقتهم وتصديقهم في الشَّهادةِ الباطلةِ، استعارةٌ تصريحيَّة تبعيَّة، ويصحُّ أن يكونَ مجازًا مرسلًا من إطلاقِ اللَّازمِ وإرادةِ الملزومِ؛ لأنَّ الشَّهادةَ مِن لوازمِ التَّسليم[3].

التَّعجيزُ لهُم، فلا يجدونَ مَنْ يُدلي بِأَنَّ اللهَ حَرَّمَ ما نَسبوهُ إليهِ

(1) الزمخشري، الكشاف: 2/72، والطِّيبي، فتوح الغيب: 6/289، وأبو حيان، البحر المحيط: 8/463.
(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 5/2724.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 8/153، ودرويش، إعراب القرآن وبيانه: 3/265.

نكتةُ التَّعبيرِ باسمِ الإشارةِ ﴿هَٰذَآ﴾:

الإشارةُ إلى معلومٍ مِنَ السِّياقِ، وإيجازِ العبارةِ

إشارة ﴿هَٰذَآ﴾ تشير إلى معلومٍ مِنَ السِّياق، وهو ما كان الكلام عليه مِن أوَّلِ الجدالِ من قوله: ﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزۡوَٰجٖۖ﴾ [الأنعام: 143] الآيات، وقد سبقت الإشارةُ إليه أيضًا بقوله: ﴿أَمۡ كُنتُمۡ شُهَدَآءَ إِذۡ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَاۚ﴾ [الأنعام: 144][1]. واستعمالُ اسمِ الإشارةِ ﴿هَٰذَآ﴾ - هنا دون تفصيلٍ أو تعدادٍ - فيه إيجازٌ حسَن.

بلاغةُ الالتفاتِ مِنَ الغَيبةِ إلى التَّكلُّم:

بيانُ شهادتِهم الكاذبةِ، ولإلقاءِ المهابةِ في قلوبِ المخاطبين

في قولِه: ﴿يَشۡهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَاۖ﴾ انتقلَ من الغيبةِ في ذكرِ اسمِ الجلالةِ ﴿ٱللَّهَ﴾ إلى التَّكلُّم في ﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾، ولم يقل: بآياتِ اللّٰه؛ لأنَّ شهادتَهم جرتْ كذبًا على ألسنتِهم، فناسبَ ذكرُ اسم الجلالةِ؛ لإلقاء المهابةِ في قلوبِ المخاطبين، فلمَّا ذكرَ افتراضَ شهادتِهم؛ التفتَ من الغيبةِ إلى التَّكلُّم؛ لانتقالِ قضيَّتِهم من مجرَّدِ مجادلةٍ مع الرَّسولِ إلى جريمةِ الكذبِ وشهادةِ الزُّورِ في حقِّ اللّٰه ﷻ، فحسُنَ الانتقالُ إلى التكلُّم المعظِّم نفسَه، وكأنَّهُ يقولُ لنبيِّهِ ومصطفاه: خلِّ بيني وبين هؤلاء الكاذبينَ، نحو قوله: ﴿قَدۡ نَعۡلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحۡزُنُكَ ٱلَّذِي يَقُولُونَۖ فَإِنَّهُمۡ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ ٣٣﴾ [الأنعام: 33].

دلالةُ الفاءِ في قولِه: ﴿فَإِن شَهِدُواْ﴾:

الإفصاحُ عن جوابِ شرطٍ مقدَّرٍ

الفاءُ فاءُ الفصيحةِ؛ لأنَّها أفصحتْ عن جوابِ شرطٍ مُقدَّرٍ تقديرهُ: إذا عرفتَ ما قلتُ لك، وأردتَ بيانَ حكمٍ ما إذا شهدوا[2].

سرُّ التَّعبيرِ بـ (إن) دون (إذا):

دخولُها على ما كان مشكوكًا في وجودِه، وهي شهادتُهم

عبَّر بـ (إن) لأنَّها تدخلُ على ما كان مشكوكًا في وجودِه، وهي شهادتُهم، أمَّا (إذا)؛ فتُستعمل لِما كان مقطوعًا به، مؤكَّدًا وجودُهُ، وهذا غيرُ مُتَحَقِّقٍ في الآية الكريمة.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 154/أ8.

(2) الهرري، حدائق الروح والريحان: 9/149.

بلاغةُ الجناسِ غيرِ التَّامِّ في فعلِ الشَّرطِ وجوابِهِ:

الإشارةُ إلى تحذيرِ المخاطبِ من هذهِ الشَّهادةِ، ولزيادةِ التَّنفيرِ من شهادتِهم

مجيءُ الجوابِ من جنسِ حروفِ فعلِ الشَّرط من قبيلِ جناسِ الاشتقاقِ، وهو لافتٌ للانتباه، ففيهِ إشارةٌ إلى تحذيرِ المخاطب من هذه الشَّهادةِ قبل نهيهِ عن شهادتِهِ معهم، والعدول عن قولهِ: فإن شهدوا؛ فلا تفعل، للرَّبط بين فعلِ الشَّرط ﴿شَهِدُواْ﴾ والجوابِ ﴿فَلَا تَشۡهَدۡ﴾؛ ولزيادةِ التَّنفيرِ من شهادتِهم.

بلاغةُ المشاكلةِ:

التَّنبيهُ على عِظَمِ ما افتَرَوا بِهِ على اللهِ تعالى

شاهِدِ المشاكلةَ في قوله تعالى: ﴿فَإِن شَهِدُواْ فَلَا تَشۡهَدۡ مَعَهُمۡۚ﴾؛ فقد أُقيم قوله تعالى: ﴿فَلَا تَشۡهَدۡ مَعَهُمۡۚ﴾ مقامَ: فلا تصدِّقهم، أو فلا توافقْهم، أو لا تسلِّمْ لهم[1]؛ لتُشاكِلَ قولِهِ: ﴿فَإِن شَهِدُواْ﴾.

والسِّرُّ في هذِهِ المشاكلةِ - واللهُ أعلمُ - التَّنبيهُ على عِظَمِ ما افتروا بِهِ على اللهِ تعالى، وأنَّ تصديقَهم في ذلك الافتراءِ، أو التَّسليمَ لهم بصحَّته، أو عدمَ تكذيبِهم، يجعلُ صاحبَهُ ينتظم في صفِّهم كأنَّهُ منهم، وكأنَّه شهدَ معهم، والقرينةُ حاليَّةٌ؛ إذ لا يُظَنُّ أنَّه ﷺ سيشهدُ معهم بمثلِ ما قالوا، فمعنى ﴿فَلَا تَشۡهَدۡ﴾، أي: لا تصدِّقْهُم بل كذِّبهم.

إيثارُ التَّعبيرِ بالمصدرِ المؤوَّلِ:

إظهارُ أنَّهُ لا شاهدَ لهم على ما اختلقوهُ من عندِ أنفسِهم

هذا تنبيهٌ مِنَ اللهِ باستدعاءِ الشُّهودِ مِنَ الكافرين على تحريمِ ما حرَّموهُ على أنفسِهم، وقالوا: إنَّ اللهَ أمرنا بِهِ ليظهرَ أنْ لا شاهدَ لهم على ذلك، وإنَّما اختلقوهُ من عندِ أنفسِهم[2].

بلاغةُ المجازِ في قولِهِ: ﴿فَإِن شَهِدُواْ فَلَا تَشۡهَدۡ مَعَهُمۡۚ﴾:

في الجملةِ الكريمة مجازٌ مرسلٌ، حيثُ أطلقَ اللَّازمَ وأرادَ الملزوم؛ لأنَّ الشَّهادةَ من لوازمِ التَّسليمِ، والمعنى: فلا تُصدِّقْهم

(1) الزمخشري، الكشاف: 2/78، وأبو حيان، البحر المحيط: 8/463.
(2) الخازن، لباب التأويل: 2/171.

فإنَّه كذبٌ بحْت، وبيَّنَ لهم فسادَهُ؛ لأنَّ تسليمَهُ منهم موافقةٌ لهم في الشَّهادةِ الباطلةِ؛ والسُّكوتُ قد يُشعر بالرِّضا، وفي الجملةِ الكريمة طِباقُ السَّلبِ بين ﴿شَهِدُواْ﴾ و﴿تَشْهَدْ﴾.

التَّعبيرُ بالنَّهي عَنِ الشَّهادةِ يوحي بمكانةِ المخاطبِ عندَ اللهِ

وجائزٌ القولُ: إنَّ فيه استعارةً تصريحيَّةً تبعيَّةً، حيث استعار اسمَ الشَّهادةِ على التَّسليم لهم وموافقتهم وتصديقِهم في الشَّهادةِ الباطلةِ، ثمَّ اشتقَّ منه الفعلَ ﴿فَلَا تَشْهَدْ﴾، بمعنى: لا تُصدِّقهم.

علَّةُ التَّعبيرِ بقولِهِ تعالى: ﴿فَإِن شَهِدُواْ فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْۚ﴾:

للسَّائل أن يسألَ: لِمَ قال: ﴿فَإِن شَهِدُواْ فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْۚ﴾، فهلَّا قيل: فإن شهدوا فلا تقبلْ شهادتَهم؟

نفيُ الشَّهادةِ معهم لَا يستلزمُ نفيَ قبولِها

والجوابُ عن ذلك: أنَّ نفيَ الشَّهادةِ معهم لَا يستلزم نفيَ قبولِها، والجوابُ في عدم قبولِ الشَّهادةِ لأحدِ أمرين: إمَّا لفسقِ الشَّاهدِ، وإمَّا لِمَظِنَّةٍ أو تهمةٍ؛ كشهادةِ الولدِ لأبيهِ أو لأخيهِ[1].

فائدةُ الظَّرفِ ﴿مَعَهُمْۚ﴾:

رفضُ شهادَتِهم؛ إذ تعديلُ الحاكمِ الشَّاهدَ شهادةٌ معَهُ

أفادَ عدمَ قبولِ الشَّهادةِ؛ لأنَّ تعديلَ الحاكمِ الشَّاهدَ شهادةٌ معهُ، بدليلِ قولِهِ: ﴿مَعَهُمْۚ﴾، ولم يقل: فلا تشهَدْ بالإطلاقِ[2]، قال القاضي أبو بكر ابن العربي المالكي في قوله تعالى: ﴿فَإِن شَهِدُواْ فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْۚ﴾: "فهذا دليلٌ على أنَّ الشاهد إذا قال ما قامَ الدليلُ على بطلانه فلا تُقبل شهادته"[3].

دلالةُ عطفِ جملةِ: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ﴾ على ما قبلَها:

المناسبةُ بينَ المتعاطفينِ في الجملةِ الإنشائيَّةِ

نهى عن تصديقهم، ثم عطفَ على ذلكَ نهيَهُ عن اتِّباعِ أهوائهم بقولِهِ: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾؛ لما بينهما من تناسبٍ؛ إذ كلاهما جملةٌ إنشائيَّةٌ.

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/198 - 199.
(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/199.
(3) ابن العربي، أحكام القرآن، 2/213.

بلاغةُ الاستعارةِ في جملةِ: ﴿وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ﴾:

أقامَ سبحانه أهواءَ القومِ مقامَ الدُّعاةِ إلى الهلاكِ

في الجملةِ الكريمةِ استعارةٌ، والمرادُ: ولا تُطِع أمرَهُم، ولا تُجِب داعيَهم؛ فأقامَ سبحانه أهواءهُم مقامَ الدُّعاةِ إلى الرَّدى، والهداةِ إلى العمى.

إيثارُ التَّعبيرِ بالاسمِ الموصولِ بدلًا من الاسمِ:

الدَّلالةُ على تحقُّقِ الكذبِ فيهم، وبيانُ عِظَمِ جُرْمِهم

قال تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾، فجيءَ بالاسمِ الموصولِ؛ لتكونَ جملةُ الصِّلة تعليلًا لنهي المخاطبِ عن اتِّباعِ أهوائِهم، ولم يقل: (ولا تتبع أهواء المكذّبين) للدَّلالة على تحقُّقِ الكذبِ فيهم، ووقوعهِ منهم عمدًا لا غفلةً، ولبيانِ عظم جُرْمِهم، وتكذيبِهم بآياتِ اللّه.

وضعُ المظهرِ موضعَ المضمرِ:

بيانُ أنَّ مُكَذِّبَ الآياتِ مُتَّبِعٌ هواهُ لا غيرُ

قولهُ: ﴿وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾، وُضِعَ المُظْهَر مَوْضِعَ المُضْمَرِ؛ إذ لم يقُلْ: (ولا تتَّبِعْ أهواءَهم)؛ تعميمًا، وتعليقًا للحكم بالوصفِ، وللدَّلالةِ على أنَّ مُكَذِّبَ الآياتِ مُتَّبِعٌ الهَوى لا غيرُ، وأنَّ مُتَّبِعَ الحُجَّةِ لا يكونُ إلَّا مُصَدِّقًا بها[1].

فائدةُ تقييدِ تكذيبِهم بآياتِ اللهِ:

الإشارةُ إلى عظيمِ جُرْمِهم، وانطماسِ بصائرِهم

للدَّلالةِ على عظيمِ جُرْمِهم، وانطماسِ بصائرِهم؛ إذ إنَّ مَن يكذِّبُ بالآياتِ، وهي بيِّناتٌ واضحاتٌ، فهو لغيرِها أشدُّ تكذيبًا، وأعظمُ جرأةً؛ ومَثَلُه كَمَثَلِ مَنْ أنكرَ طلوعَ الشَّمسِ في رابعةِ النَّهارِ، وللّهِ درُّ القائل[2]:

قَد تنكِرُ العَينُ ضَوءَ الشَّمسِ مِن رَمَدٍ *** وَيُنكِرُ الفَمُ طَعمَ المَاءِ مِن سَقَمِ

(1) الزمخشري، الكشاف: 2/78، وأبو حيان، البحر المحيط: 4/684، والبقاعي، نظم الدرر: 7/315، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/197.

(2) البيت من قصيدة البردة للبوصيري، من بحر البسيط، وهو في ديوانه.

سِرُّ إضافةِ الآياتِ إلى ضميرِ المتكلِّمِ المعظِّم نفسَهُ (نا):

إبرازُ الاعتناءِ بآياتِ اللهِ تعالى

سرُّ إضافةِ (الآيات) إلى ضميرِ المتكلِّم (نا) الدَّالِّ على الجمعِ والعَظَمَةِ في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾؛ لإبرازِ الاعتناءِ بشأنِ آياتِ اللهِ تعالى.

دلالةُ عطفِ جملةِ: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ على ما قبلَها:

قوَّةُ العلاقةِ بين المكذِّبينَ بآياتِ اللهِ والكافرينَ بالآخرةِ

عطفُ قولِه: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ﴾ على قوله: ﴿وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ فالموصولُ في موضعِ جرٍّ مضافٌ إليهِ بإضافةِ ﴿أَهۡوَآءَ﴾ إليها، أي: فلا تتَّبع أهواءَ هؤلاءِ ولا هؤلاء.

وهذا العطفُ يشيرُ إلى قوَّةِ العلاقةِ بين المكذِّبين بآياتِ اللهِ والكافرين بالآخرة، وأنَّ الإيمان بهذا يقتضي الإيمانَ بذاك، وقد يكونُ في جملة ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ﴾ تعريضٌ بهؤلاء المكذِّبين، وإشارةٌ إلى سببِ تكذيبِهم بآياتِ اللهِ، وهو خوفُهم من ضياعِ هيبتِهم وسيادتِهم ودنياهم، فلو أنَّهم آمنوا بالآخرةِ، وأنَّ ما عندَ اللهِ خيرٌ؛ لآمنوا بآياتِ اللهِ.

سرُّ التَّعبيرِ باسم الموصولِ في ختامِ الآيةِ:

زِيادَةُ التَّشْهِيرِ بِهِمْ

لما وصفَهم اللهُ ﷻ بالتَّكذيب، أتبعَهُ الوَصْفَ بعدمِ الإيمانِ، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ﴾، وفي عطفِ الوصفينَ بالواوِ دلالةٌ على عراقةِ الموصوفين - المشركين - في كلٍّ من الوصفين[1].

كَانَ مُقْتَضَى الظَّاهِرِ أن لا يُعَادَ اسْمُ الْمَوْصُولِ؛ لِأَنَّ حَرْفَ الْعَطْفِ مُغْنٍ عَنْهُ، وَلَكِنْ أُجْرِيَ الْكَلَامُ على خلاف مقتضى الظَّاهِرِ لِزِيَادَةِ التَّشْهِيرِ بِهِمْ، كَمَا هُوَ بَعْضُ نُكَتِ الْإِظْهَارِ فِي مَقَامِ الْإِضْمَارِ.

أو أُرِيدُ بِالَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْآيَاتِ: الَّذِينَ كذَّبوا الرَّسول - ﷺ - وَالْقُرْآنَ، وَهُمْ أَهْلُ الْكِتَابَيْنِ، وَبِالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ، وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ: الْمُشْرِكُونَ[2].

(1) البقاعي، نظم الدرر: 7/315.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 8/155.

بلاغةُ تقديمِ المسندِ إليهِ على خبرِهِ الفعليِّ:

تقويةُ الخبرِ، والدَّلالةُ على الثُّبوتِ والدَّوام، والتَّعجيبُ من هؤلاءِ الجاحدين

في قولِه: ﴿وَهُم بِرَبِّهِمۡ يَعۡدِلُونَ﴾ قُدِّمَ المسندُ إليهِ (هُمۡ) على المسندِ، وهو الجملةُ الفعليَّةُ ﴿يَعۡدِلُونَ﴾؛ لتقويةِ الخبرِ، والدَّلالةِ على الثُّبوت والدَّوام، فلا تردُّهم إلى عبادةِ ربِّهم نعمةٌ مهما تكن عظيمةً، ولا تنفعهم آيةٌ مهما تكن مؤثِّرة.

وقد يجدُ المتأمِّلُ في تقديمِ المسندِ إليهِ رائحةَ التَّخصيصِ والقصرِ (قصر موصوف على صفةٍ)، وكأنَّه لم يفعلْ تلكَ الفعْلَةَ أحدٌ غيرهم، للمبالغةِ في عُدولِهم عن الحقِّ إلى الباطلِ، ومساواتِهم ربَّهم - ذا النِّعَمِ والإفضالِ الكبيرَ المتعال - بغيرِهِ من الآلهةِ المزعومةِ، وفي ذلك ما فيه من التَّعجيبِ من هؤلاءِ الجاحدين الَّذين أنعمَ اللّٰهُ عليهم بنعمٍ كثيرةٍ، منها ما قصَّه عليهم في السُّورةِ السَّابقةِ (سورة المائدة) من قولِه: ﴿۞جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلۡكَعۡبَةَ ٱلۡبَيۡتَ ٱلۡحَرَامَ قِيَٰمٗا لِّلنَّاسِ﴾ [المائدة: 97]، فأهلُ مكَّةَ ومَن حولها هُم النَّاس، فكان الأجدرُ بهم أن يؤمنوا بربِّهم، لا أن يعدلوا به غيرَهُ.

وهذا من بديع تناسبِ التَّرتيبِ المصحفي بين المدنيِّ والمكيِّ، حيثُ إنَّ سورة المائدةِ مدنيَّةٌ، وسورة الأنعام مكيَّةٌ.

دلالةُ التَّعبيرِ بالاسمِ الظَّاهرِ في ﴿وَهُم بِرَبِّهِمۡ يَعۡدِلُونَ﴾:

التَّعظيمُ له ﷻ، وزيادةُ تقبيحٍ وتشنيعٍ عليهم

خرجَ الكلامُ في قولِه: ﴿وَهُم بِرَبِّهِمۡ يَعۡدِلُونَ﴾ على خلافِ مقتضى الظَّاهر؛ إذ كان مقتضى الظَّاهرِ أن يُقالَ: يعدلونَ بهِ، ولعلَّ التَّعبيرَ بالاسمِ الظَّاهرِ فيه تعظيمٌ له ﷻ، كما فيه زيادةُ تقبيحٍ وتشنيعٍ عليهم؛ فهم أشركوا ﴿بِرَبِّهِمۡ﴾ أي: المحسنِ إليهم الَّذي لا إحسانَ، ولا فضلَ إلَّا منهُ[1].

سرُّ تقديمِ الجارِّ والمجرورِ ﴿بِرَبِّهِمۡ﴾ على الفعلِ:

دلَّ تقديمُ الجارِّ والمجرور ﴿بِرَبِّهِمۡ﴾ على الفعلِ مزيدَ الاهتمامِ

(1) الهرري، حدائق الروح والريحان: 8/196.

مزيدُ الاهتمامِ بِهِ، والمسارعةُ إلى تحقيقِ مدارِ الاستبعادِ، والمحافظةُ على الفواصلِ

بهِ، وللمسارعةِ إلى تحقيقِ مدارِ الاستبعاد والتَّعجيب، وفيه - أيضًا - المحافظةُ على الفواصلِ؛ وفي اختيارِ اسمِ الرَّبِّ وإضافتِه إلى ضميرِهم، تشنيعٌ عليهم، فهم يشركونَ بمَن لا نعمةَ إلَّا منه، ولا خيرَ إلَّا من فضلِه وإنعامِه وحدَه.

إيثارُ الفعلِ ﴿يَعۡدِلُونَ﴾، ودلالةُ صيغةِ المضارعِ:

الدِّلالةُ على أشنعِ الظُّلمِ وأقبحِهِ، وتجدُّدِ هذا الفِعلِ منهم وحدوثه

معنى ﴿يَعۡدِلُونَ﴾، أي: يُسوُّون، يُقال: عَدَلْتُ هذا بهذا؛ إذا ساويتُهُ به[1]، فاللّٰه ﷻ هو المتفرِّدُ بالخلقِ والإنعامِ وحده لا شريك له، ثم يأتي الَّذين كفروا، فيجعلون له عِدْلًا يحبُّونه، ويعبدونه كما يحبُّون اللّٰه - تعالى - ويعبدونه، فيا لهُ من عِدْلٍ تضمَّن أكبرَ الظُّلم وأقبحَهُ![2]

ولعلَّ دلالةَ التَّعبيرِ عن عدلِهم باللّٰهِ ﷻ بالجملةِ الفعليَّةِ لا تَخْفى؛ إذ أفادت تجدُّدَ هذا الفِعل منهم وحدوثَهُ شيئًا فشيئًا، فمعَ دوامِ إسباغِ النِّعم عليهم ظاهرةً وباطنةً من هذا الرَّبِّ المحسنِ العظيم، هم يكفرون بهِ، ويعبدونَ مَن لم يَخلق، ومَن لم يُنعمْ عليهم بتلك النِّعَمِ العِظام، ويُعظِّمون مَن جعلوه للّٰهِ ندًّا، ويحبُّونه كحبِّ اللّٰه، أو أشدَّ حبًّا، فأيُّ نكرانٍ وكفرٍ أعظمُ من هذا!

نكتةُ إطلاقِ الفعلِ ﴿يَعۡدِلُونَ﴾ بلا قيدِ مفعولِهِ:

تنزيلُهُ منزلةَ الفِعلِ اللَّازمِ إعلامٌ ببشاعَةِ الفعلِ

أطلقَ الفعلَ ﴿يَعۡدِلُونَ﴾، ولم يُقيِّدْهُ بمفعولٍ؛ ولعلَّ ذلك لظهورِهِ[3]، وعِلْمِ كُلِّ فريقٍ مِنَ الذين كفروا ماذا عدلَ باللّٰه[4] ﷻ. أو لعلَّه لتوجيهِ الإنكارِ إلى الفعلِ نفسِهِ بتنزيله منزلةَ الفِعل اللَّازم إيذانًا بأنَّه المدارُ في الاستبعادِ، والتَّعجيبِ، والاستنكارِ لا خصوصيَّةَ المفعولِ[5].

(1) البغوي، معالم التنزيل: 2/108.
(2) القاسمي، محاسن التأويل: 3/156.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/105.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 7/128.
(5) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/105.

المتشابهُ اللَّفظيُّ:

قال تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ﴾ [الأنعام: 150]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [الجاثية: 18].

لِمَ خُصَّتْ كلُّ آيةٍ بما فيها من صلةِ الموصولِ؟

فآيةُ الأنعام بُدِئَتْ بقوله: ﴿قُلۡ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ يَشۡهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَاۖ فَإِن شَهِدُواْ فَلَا تَشۡهَدۡ مَعَهُمۡۚ﴾، فلمَّا كانت شهادةُ هؤلاءِ بتحريم الأنعامِ الَّتي تقدَّمَ ذكرُها في الآيات السابقة تكذيبًا بها؛ ناسبَها قوله: ﴿وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾، ولـمَّا تقدم قوله: ﴿قُلۡ يَٰقَوۡمِ ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ إِنِّي عَامِلٞۖ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِۚ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ١٣٥﴾ [الأنعام: 135]، وكان هؤلاءِ لا يؤمنون بالآخرةِ؛ ناسبَهُ قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ﴾، ولـمَّا كانت شهاداتهُم دالَّةً على إصرارهم على العدول عن عبادةِ غيرِه؛ ناسبه قوله: ﴿وَهُم بِرَبِّهِمۡ يَعۡدِلُونَ﴾.

أمَّا آيةُ الجاثيةِ؛ فسبقَها قولُه: ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُم بَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِۖ فَمَا ٱخۡتَلَفُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۚ﴾؛ فلمَّا كانَ مَن جاءهم العِلمُ، ولم يعملوا بما يوجبه لا عِلْمَ لهم؛ ناسبَه قولُه: ﴿وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ﴾.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(هَلُمَّ) و(تَعَالَ):

هَلُمَّ: اسمُ فعلٍ أمرٍ بمعنى أقبل، أو احضر، أو تعالَ؛ ولذلك - على اللُّغةِ الفصيحةِ - لا تلحقها ضمائرُ الرَّفعِ البارزةُ ولا نون التَّوكيد خفيفةً ولا ثقيلةً، مع أنَّها تدلُّ على الطَّلب، وتكون في جميع الأحوالِ للواحد وللواحدة والاثنين والجماعة بصيغةٍ واحدةٍ؛ لأنَّها اسمُ فعلٍ وليس بفعلٍ.

(هلمَّ): اسمُ فعلِ أمرٍ للطَّلب، و(تعالَ): فعل أمر لاستدعاء المدعوِّ

أمَّا تعالَ؛ فعلى وزن تفاعَل مِنَ العلوِّ، وهو فعلٌ لاتِّصالِ الضَّمائِرِ المرفوعةِ بهِ، ومعناهُ: استدعاءُ المدعوِّ من مكانٍ إلى مكانِ داعيه[1].

(التَّأسِّي) و(الاقتداء) و(الاتِّباع):

التَّأسِّي أشملُ كمًّا وكيفًا من حيثُ عمقُ المشابهةِ وقوَّتُها من الاقتداء، ومن حيثُ عددُ وجوهِ المشابهةِ؛ والتَّأسِّي أشملُ من الاتِّباع؛ فقد لا يستلزمُ الاتِّباع قناعةً تامَّةً بالمتبوع، فالتَّأسِّي اتِّباعٌ شاملٌ كاملٌ مع محبَّةٍ وقناعةٍ ويقينٍ في أحقيَّةِ المتأسَّى بهِ في الاتِّباع.

التأسِّي أشملُ مِنَ الاقتداء والاتِّباع، فهو اتِّباعٌ كامل مع محبَّةٍ وقناعةٍ ويقين

ولـمَّا كان الاتِّباع ركنًا من أركان التَّأسي يقع التَّفريطُ فيه من جماهيرِ المؤمنين بهِ، كان التَّنبيهُ وتأكيدُه والمطالبةُ به على وجهِ الخصوصِ.

والتَّأسِّي قد يُعبَّر به عن الاتِّباع الشَّامل الكامل والاقتداء التَّامِّ في مسألةٍ واحدة: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾؛ فقد بلغوا الكمالَ البشريَّ في الولاء والبراء كمًّا وكيفًا.

والاقتداءُ قد يُعبَّرُ بهِ عن الاتِّباعِ المجملِ مع تأكيدِ أنَّ هناك بعضَ الجوانب لا يُمكن الاتِّباعُ فيها أو المشابهة ﴿فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾، فاتِّباعُ مَن سبقَ مِنَ الرُّسلِ في كلِّ ما جاؤوا به وكانوا عليه ليس على إطلاقه[2].

(العَدل) و(القِسط):

القسطُ هو العدلُ البَيِّنُ الظَّاهر، ومنه سمِّي المكيال قِسْطًا، والميزانُ قِسْطًا؛ لأنَّه يُصوِّر لك العدل في الوزنِ؛ حتى تراهُ ظاهرًا؛ وقد يكونُ من العدلِ ما يخفى، ولهذا قلنا: إنَّ القسطَ هو النَّصيبُ الَّذي بُيِّنتْ وجوهُه[3].

العَدلُ: إعطاءَ كلِّ ذي حقٍّ حقَّهُ، والقسطُ: النَّصيبُ الَّذي بُيِّنتْ وجوهُه

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 3/172، وناظر الجيش، تمهيد القواعد بشرح تسهيل الفوائد: 9/4673.
(2) شريف طه يونس، ملتقى أهل التفسير، التأسيّ والاقتداء والاتّباع، مقال بتاريخ: 25/10/2013م.
(3) العسكري، الفروق اللغويَّة: 428.

(العَدل) و(المساواة):

المساواةُ: مراعاةَ التَّساوي بين طرفين أو أكثر

ومن ملحظِ تحقيق التَّساوي والتَّوازن بين العِدْلين حتَّى يصيرا على مستوًى واحدٍ جاءَ معنى العَدَالة في الحكم مثلًا، أي: تحقيق التَّوازن بين المتخاصمين ﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِٱلْعَدْلِۚ﴾ [النساء: 58]، ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُواْ﴾ [الأنعام: 152]، والمساواةُ تعني: مراعاةَ التَّساوي بين طرفين أو أكثر، أمَّا العَدلُ؛ فيعني إعطاءَ كلِّ ذي حقٍّ حقَّهُ.

﴿۞قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْۖ أَلَّا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـٔٗاۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنٗاۖ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْۖ وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَۖ وَلَا تَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ١٥١﴾ [الأنعام: 151]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

إظهارُ كذبِ المشركين بتفصيلِ ما حرَّمهُ اللهُ

اعلم أنَّ اللّٰه تعالى لـمَّا بيَّن فسادَ ما يقولُ الكفَّارُ: إنَّ اللّٰه حرَّم علينا كذا وكذا؛ أردفَهُ ببيان الأشياءِ الَّتي حرمها عليهم[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تَعَالَوْاْ﴾: أصلهُ أن يُدعى الإنسانُ إلى مكانٍ مرتفعٍ، ثمَّ جُعِل للدُّعاء إلى كلِّ مكان، فأصلهُ من العلوِّ، وهو ارتفاعُ المنزلة، فكأنَّه دعا إلى ما فيهِ رفعةٌ، كقولِك: اِفعَلْ كذا غيرَ صاغرٍ؛ تشريفًا للمقول له، بأن يقوله من كان في علوٍّ لمن كان في سُفل، وهو أمرٌ من التَّعالي، ثم اتَّسع فيه بالتعميم[2].

2) ﴿أَتْلُ﴾: الاتِّباع، يقال: تَلَوتُهُ؛ إذا تَبِعْتُهُ، ومنه: تلاوةُ القرآنِ؛ لأنَّه يُتبع في قراءتهِ آية بعدَ آيةٍ، وقال الرَّاغب: والتِّلاوة تختصُّ باتِّباع كتبِ اللّٰهِ المنزَّلةِ، تارةً بالقرآن، وتارةً بالارتسامِ لما فيها من أمرٍ ونهيٍ وترغيبٍ وترهيبٍ، أو ما يتوهَّمُ فيه ذلك، وهو أخصُّ من القراءةِ، فكلُّ تلاوةٍ قراءةٌ، وليس كلُّ قراءةٍ تلاوةً، ولا يقال: تلوْتُ رُقعَتَكَ، وإنَّما يُقال في القرآن في شيءٍ إذا قرأتَهُ؛ وجبَ عليك اتِّباعه، وأصلُ التِّلاوةِ من تتبُّعِ الكلامِ المكتوب عند القراءةِ، أي:

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 13/177، وابن عادل، اللباب في علوم الكتاب: 8/503.
(2) الرّاغب، المفردات: (علا)، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 2/188.

اتِّباعُهُ كلمةً كلمة، فهذا يعني: القراءةَ من مكتوب، وعليه قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ﴾ [العنكبوت: 48]، فهذا كالصَّريحِ في معنى قراءةِ المكتوب، ثم عُمِّم في القراءةِ عن ظهرِ القلبِ، أي: من غير مكتوبٍ[1].

3) ﴿إِمْلَٰقٍ﴾: أصلُ الإِمْلاقِ: إتلافُ المَالِ حَتَّى يُحْوِجَ، يُقال: أَمْلَقَ الرَّجُلُ، فهو مُملِقٌ؛ إذا افتَقَر، وقيل: اشتقاقُه مِن (المَلَقات)، وهي الحجارةُ العِظامُ الملسُ السُّود، وأملقَ: لم يبقَ تحتَ يدِهِ إلَّا الجبالُ والصُّخورُ العظامُ الَّتي لا يَقدِرُ أن يحصِّلَ منها شيئًا، وأصلُ مادَّة (ملق) يَدُلُّ على تَجَرُّدٍ في الشَّيءِ ولِينٍ، والمعنى هنا: فَقْرٍ وجُوعٍ[2].

4) ﴿نَرْزُقُكُمْ﴾: الرِّزقُ بِكَسْرِ الرَّاءِ: كُلُّ ما يُنتفعُ به مِنْ مالٍ ونَحوِهِ، والجَمْعُ: أَرزاقٌ، والرَّزقُ بِفَتْحِ الرَّاءِ: العَطَاءُ الدَّائِمُ، والرَّازِقُ: المُعْطِي وهو اللهُ، وَكُلُّ ما يَصِلُ إلى الجَوْفِ ويُتَغذَّى بِهِ فَهُوَ رِزْقٌ، ومِن مَعاني الرِّزْقِ أَيْضًا: الكَسْبُ، الهِبَةُ، الصَّدَقَةُ[3].

5) ﴿ٱلْفَوَٰحِشَ﴾: جمعُ فاحِشَةٍ: وهي الفعْلَةُ المتناهِيَةُ في القُبْحِ والشَّناعَةِ، والفَحْشاءُ: ما عظُم قُبْحُه وفَحُشَ مِن الأفعالِ والأقوالِ، وأصلُ الفُحْشِ: كلُّ شيءٍ مُستقْبَحٌ ومُسْتَشْنَعٌ من قولٍ أو فِعْلٍ، ومِن مَعانِيها: الزِّنى[4].

6) ﴿ظَهَرَ﴾: الظَّاهِرُ: الواضِحُ البَيِّنُ، يُقال: ظَهَرَ الشَّيْءُ، يَظْهَرُ، ظُهورًا؛ إذا وَضُحَ وبانَ، ويأْتي بِمعنى البارِزِ والمُنْكَشِفِ، فتَقولُ: ظَهَرَ لي رَأْيٌ، أي: انْكَشَفَ بعد خَفائِهِ، والظُّهورُ: الوُضوحُ والانْكِشافُ[5].

7) ﴿بَطَنَ﴾: البَطْنُ خِلافُ الظَّهْرِ، وبَاطِنُ الأَمرِ دِخْلَتُهُ، خلافُ ظاهِرِهِ، ويُقال لكلِّ غامضٍ: بَطْنٌ، ولكلِّ ظاهرٍ: ظَهرٌ، وقوله: ﴿وَمَا بَطَنَ﴾، أي: ما ارتكبَ سِرًّا، وفي الخَفاء؛ حتَّى لا يَراهُ النَّاس، أو يَسمَعُوا بِهِ[6].

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (تلو).

(2) السجستاني، غريب القرآن: 1/361، وابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات: (ملق)، والكفوي، الكليات، ص: 701.

(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، والأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (رزق).

(4) ابن فارس، مقاييس اللغة، والأزهري، تهذيب اللغة، وابن سيده، والمحكم، وابن الأثير، النِّهاية في غريب الحديث والأثر، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (فحش).

(5) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن الأثير، النِّهاية في غريب الحديث والأثر، وابن منظور، لسان العرب: (ظهر).

(6) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، والزبيدي، تاج العروس: (بطن).

8) ﴿وَصَّىٰكُم﴾: أَصْلُ الكَلِمَةِ يَدُلُّ على وَصْلِ شَيْءٍ بِشَيْءٍ، ومنه سُمِّيَت وَصِيَّةً؛ لأنَّها وَصْلٌ لِما كان في الحَياةِ بعد المَوْتِ، يُقال: أَوْصَى، يُوصِي، إيصاءً، ووَصَّى، يُوصِي، تَوْصِيَةً: إذا عَهِدَ إلَيْه، وأَوْصَيْتُ إليه بِمالٍ: جَعَلْتُهُ لَهُ، والوِصايةُ: فِعلُ الوَصِيِّ، والجَمْعُ: وَصايا[1].

المَعْنى الإِجْمالِيُّ:

بيانُ المحرَّماتِ الشَّاملةِ من الأقوالِ والأفعالِ

هذه الآيةُ الكريمةُ أولى الوصايا العشرِ الَّتي جاء الخبرُ بفضلهنَّ، فقد رُوي عن ابن مسعودٍ رضي الله عنه قال: مَن سرَّهُ أن ينظرَ إلى وصيَّة محمَّدٍ ﷺ الَّتي عليها خاتمه، فليقرأ هؤلاءِ الآياتِ ﴿قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ - إلى قوله - ﴿تَتَّقُونَ﴾[2]، وعن عبادةَ بنِ الصّامتِ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أيُّكم يبايعني على هؤلاءِ الآيَاتِ الثَّلاثِ؟» ثُمَّ تَلَا: ﴿قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ حتى فرغ من ثلاثِ آياتٍ، ثم قال: «ومن وفَّى بهنَّ؛ فَأَجْرُهُ عَلَى اللهِ، وَمَنِ انْتَقَصَ مِنْهُنَّ شَيْئًا، فأدركه اللهُ في الدُّنْيَا كَانَتْ عُقُوبَتَهُ، وَمَنْ أَخَّرَهُ إِلَى الآخِرَةِ، كَانَ أَمْرُهُ إِلَى اللهِ إِنْ شاء آخذه، وإن شاء عفا عنه»[3].

يأْمُرُ اللهُ نَبيَّه محمَّدًا ﷺ - في هذه الآية - أن يَطْلُبَ إلى هؤلاءِ المُشركينَ أن يُقْبِلُوا إليه؛ ليُخْبِرَهم بما حَرَّمَه اللهُ عليهم يقينًا، وليس ظنًّا كقَوْلِهم على اللهِ الكَذِبَ، فأَوْصاهم: ألَّا يُشْرِكوا به شيئًا، وأنْ يُحْسِنُوا إلى الوالِدَينِ، وألَّا يَقْتُلوا أولادَهم بسبَبِ الفَقْرِ، كما كان يفعل أهلُ الجاهليَّة، فإنَّ اللهَ هو من يَرْزُقُهم، ويرزُقُ أَوْلادَهم، ونهاهم عَنْ قِربانِ الفَواحِشِ ما كان منها علانِيَةً أو كان

(1) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، والزبيدي، تاج العروس: (وصى).

(2) الترمذي، السنن: 5/264، والحديث رقم: (3070)، والطبراني، المعجم الكبير: 10/114 - 115، والحديث رقم: (10060).

(3) أخرجه الحاكم، المستدرك: 2/348، والحديث رقم: (3240)، وقال: صحيح الإسناد، وابن جرير في جامع البيان: 9/667، ودون قوله: "ثلاث آيات"، وابن أبي حاتم، تفسير القرآن العظيم: 5/1414.

سِرًّا، وألَّا يَقْتُلوا النَّفْسَ الَّتي حَرَّمَ اللّٰهُ عليهم قَتْلَها إلَّا بالطَّريقِ الحَقِّ الموجِبِ لقَتْلِها شَرْعًا؛ ذلك وصَّاهم به اللّٰهُ تعالى، لعَلَّهُم يَعْقِلونَ أوامره ونواهيه.

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ فصلِ جملةِ: ﴿قُلْ تَعَالَوْاْ﴾:

الانتقالُ من إبطالِ زعمِهم بتحريمِ أمورٍ إلى دعوتِهم لمعرفةِ المُحرَّمات

الجملةُ الكريمةُ استئنافٌ ابتدائيٌّ للانتقالِ من إبطالِ تحريمِ ما ادعوا تحريمَهُ من لحومِ الأنعام، إلى دعوتِهم لمعرفةِ المحرَّماتِ؛ والمناسبةُ لهذا الانتقالِ ظاهرةٌ، فالمقامُ مقامُ تعليمٍ وإرشادٍ، ولذلك ابتُدِئَ بأمرِ الرَّسولِ - ﷺ - بفعل القول؛ استرعاءً للأسماع كما تقدَّم آنفًا[1].

سرُّ تكرارِ ﴿قُلْ﴾ أربعَ مرَّاتٍ بعد قولِهِ: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ﴾:

إعلامُ المخاطَبينَ بأنَّ الرَّسولَ مبلِّغٌ عنِ اللهِ تعالى

الخِطَابُ في ﴿قُلْ﴾ لِلرَّسُولِ وَفِي ﴿تَعَالَوْاْ﴾ لِلمُشْرِكِينَ، أو لِمَنْ بِحَضْرَةِ الرَّسُولِ ﷺ مِنْ مُؤْمِنٍ وكِتَابِيٍّ ومُشْرِكٍ، وسِيَاقُ الآيَاتِ يَدُلُّ على أَنَّهُ لِلْمُشْرِكِينَ، وإِنْ كَانَ حُكْمُ غَيْرِهِمْ فِي ذَلِك حُكْمَهُمْ؛ أَمَرَهُ تَعالَى أَنْ يَدْعُوَ جَمِيعَ الخَلْقِ إِلَى سَمَاعِ مَا حَرَّمَ اللّٰهُ بِشَرْعِ الإِسْلَامِ المَبْعُوثِ بِهِ إِلَى الأَسْوَدِ وَالأَحْمَرِ[2].

﴿قُلْ تَعَالَوْاْ﴾ أمرٌ لهُ ﷺ بعد ما ظهرَ بطلانُ ما ادَّعوا أن يبيِّنَ لهم من المحرَّماتِ ما يقتضي الحالُ بيانَهُ على الأسلوبِ الحكيم إيذانًا بأنَّ حقَّهم الاجتنابُ عن هذه المحرَّماتِ، وأمَّا الأطعمة المحرَّمة فقد بُيِّنَتْ فيما تَقَدَّم[3].

مَن يُدقِّقِ النَّظرَ يجدْ أنَّ هذا الأمرَ فيه من الأسرارِ البلاغيَّةِ والحِكمِ الإلهيَّة ما يُفحم هؤلاء الكافرين، ويدحض افتراءاتِهم

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 8/155أ.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 4/684، 685.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 4/297.

على اللّهِ بتحريم أشياءَ من عندِ أنفسِهم زاعمين أنَّ تحريمَها من عند اللّهِ تعالى، فهو يُشعرهُم بأنَّ هذا الرَّسولَ ﷺ مأمورٌ بالتَّبليغ بـ﴿قُلۡ﴾، وهو نفسُه لا يستطيعُ أن يُقدِم على ما أقدمتُم عليهِ من ادِّعاء هذا التَّحريم؛ لأنَّه يُبلِّغُ عنِ اللّهِ تعالى ما أوحي إليهِ.

فهذا أمرٌ من اللّهِ للرَّسولِ ﷺ بتبليغِ ما حرَّمهُ اللّهُ حقيقةً وما أحلَّهُ، فكيف بكم تحرِّمون، وتحلُّون من عند أنفسِكم؟ ثم تزعمونَ أنَّ هذا التَّشريعَ من عندِ اللّه!!

ولذا فإنَّ خلوَّ الكلامِ عن الأمرِ ﴿قُلۡ﴾ يجعلهُ خاليًا من القوَّةِ الروحيَّة، أو الإلهيَّةِ للتَّبليغِ إلى جانب أنَّ هذا الأمرَ يتضمَّن استهزاءً بهم وسخريةً منهم، بل يَصفُهم ضمنًا بالكذب والافتراءِ؛ إذ إنَّ ادِّعاءَهم المحرَّمات لا يستندُ إلى مثل هذا الأمرِ الإلهيِّ[1].

إيثارُ التَّعبيرِ بقوله: ﴿تَعَالَوۡاْ﴾، والعدولُ عن مرادفاتِهِ:

إفادةُ طلبِ الإقبالِ من الدَّرَكِ إلى الدَّرَجِ، ومن السُّفلِ إلى العُلُوِّ

تَعالَوْا: معناهُ أقبلوا، وأصله من العلوِّ، فكأنَّ الدُّعاءَ لمَّا كان أمرًا من الدَّاعي؛ استعملَ فيه ترفيعُ المدعوِّ، ولعلَّ ذلك لأنَّهم كانوا إذا نادوا إلى أمرٍ مُهمٍّ؛ ارتقى المنادي على ربوةٍ ليُسمع صوتهُ، ثم شاعَ إطلاق (تعالَ) على طلبِ المجيء مجازًا بعلاقةِ الإطلاقِ، فهو مجازٌ شائع صار حقيقة عرفيَّةً؛ فأصلُهُ فعلُ أمرٍ لا محالةَ مِن التَّعالي، وهو تكلُّفُ الاعتلاء، ثم نُقل إلى طلب الإقبالِ مُطلقًا، فَالنِّداءُ بـ﴿تَعَالَوۡاْ﴾ دعوةٌ لإقبالِهم إليهِ بكلِّ مداركِهم، وتفكيرٌ وتنبيهٌ لعظمِ ما سيبيِّنهُ لهم من وصايا وتكليفاتٍ[2]، يضافُ إلى ذلك أنَّ دلالةَ كلمةِ ﴿تَعَالَوۡاْ﴾ في هذا المقام لا تخفى، أي: أقبلوا إليَّ، واصعدوا من حضيضِ الجهل، والتَّقليد، والضَّلال الَّذي تمرَّغتم[3] فيهِ إلى أوجِ العلمِ والهدى.

(1) عبد الحليم محمد إبراهيم، من بلاغة القرآن الكريم في الوصايا العشر، ص: 19.

(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/361، وابن عاشور، التَّحرير والتنوير: 8/أ156، و157، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 5/2728.

(3) العَرَبُ تَقُولُ: تَمَرَّغْنا أَي تَنَزَّهْنا، والمَرْغُ: الرَّوْضةُ الكَثِيرَةُ.

والأداءُ القرآني هنا يأخذ لفظَ (تعال) بفهم أعمقَ من مجرَّدِ الإقبالِ، فكأنَّ الحقَّ يقول: أقبلْ عليَّ إقبالَ مَنْ يريدُ التَّعالي في تلقِّي الأوامرِ.

فأنتَ تُقبِلُ على أوامرِ اللهِ؛ لتعلوَ وترتفعَ عن حضيضِ تشريعِ البشريَّةِ، فلا تأخذ قوانينك من حضيضِ تشريعِ البشرِ؛ لأنَّ الشَّرطَ الواجبَ في المشرِّع ألَّا يكونَ مساويًا لمن شرَّع له، وألَّا يكون منتفعًا ببعض ما شرَّع، وأن يكون مستوعبًا، فلا تغيبُ عنه قضية، ولا يغفلُ عن شيء؛ والمشرِّعُ من الخلقِ لا يشرِّع إلَّا بعد اكتمالِ عقلهِ ونضجِهِ، ولا يقدر أن يمنعَ نفسَهُ من الانتفاعِ بالتَّشريعِ، فالمعنى: اتركوا حضيضَ التَّشريعِ البشريِّ، وارتفعوا إلى السَّماءِ، لتأخذوا تقنينكم منها، فحين ينادي اللهُ ﴿تَعَالَوْاْ﴾، فمعناها: ارتفعوا عن حضيضِ تقنينِ بشريَّتكم إلى الأعلى؛ لتأخذوا منه قوانينَكم الَّتي تحكمُ حركةَ حياتكم، فهو لا ينتفع بما شرع، بل أنتم الذين تنتفعون، ولأنَّه لا يغيب عنه شيء سبحانه، وهو خالق، هو أولى أن يشرعَ لكم[1].

دلالةُ الفعلِ ﴿أَتْلُ﴾ ووجهُ جزمِهِ:

﴿أَتْلُ﴾ مضارعٌ مجزومٌ جوابًا للطَّلب، والتِّلاوةُ هي قراءةُ القرآنِ الكريمِ مُرتَّلًا مُتتابعًا في كلماتهِ وأساليبه، والمرادُ هنا البيانُ؛ لأنَّ البيانَ ثمرةُ تلكِ التِّلاوة المتتابعة الموضَّحة، فهذا تعبيرٌ بالمسبِّب عن السَّبب[2].

التِّلاوةُ هي البيانُ الَّذي هو ثمرةُ تلك التِّلاوةِ المتتابعةِ الموضَّحةِ

معنى ﴿مَا﴾ ودلالةُ صيغةِ الماضي في الفعل ﴿حَرَّمَ﴾:

﴿مَا﴾ تحتمل الخبريَّةَ، اسمٌ موصولٌ بمعنى: الَّذي، أي: أُبيِّن لكم الَّذي حرَّمه الله تعالى عليكم، وتحتملُ المصدريَّة، ويكون المؤدَّى: تعالوا أتلُ تحريمَ ربِّكم تعالى عليكم، ويجوز أن تكونَ استفهاميَّةً

(ما) موصولةٌ أو مصدريَّةٌ، أو استفهاميَّةٌ لبيانِ عمومِ المحرَّماتِ

(1) الشعراوي، خواطر الشعراوي: 3984.
(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 5/2728.

منصوبةً بـ﴿حَرَّمَ﴾، والجملةُ مفعولُ ﴿أَتْلُ﴾؛ لأنَّه بمعنى (أَقُل)، فكأنَّهُ قيل: أتلُ أيَّ شيءٍ حرَّم ربُّكم[1].

نكتةُ إطلاقِ التَّحريمِ على هذه الوصايا، مع أنَّ فيها أوامرَ ونواهيَ:

ما رغَّب بالأمر فضدُّه منهيٌّ عنه، والتَّحريم ردٌّ عليهم فيما حرَّموه من عند أنفسِهم

وردتْ خمسُ وصايا من الوصايا العشرِ في الآياتِ الثَّلاثِ (151 – 152 – 153) بصيغةِ النَّهي، والأخرى بصيغةِ الأمرِ، ولكلٍّ أسرارٌ بلاغيَّةٌ.

وبالجملةِ يمكننا القولُ: إنَّ ما رغَّب فيه بلفظِ الأمرِ، فضدُّه هو المنهيُّ عنه المحرَّم، فيكون الجميعُ محرَّمًا (منطوق النواهي وأضداد الأوامر)، ولكنَّه اكتُفي بلفظِ التَّحريم عن قوله: (وما أحلَّ) إيجازًا، وتنويهًا بافتراءاتِهم السَّالفَةِ؛ إذ حرَّموا أشياء من عند أنفسِهم، فقوله: ﴿أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ أي: إنَّ ما يُتلى عليكم هو المُحرَّم من عند الله، لا ما حرَّمتموه من عند أنفسِكم، وزعمتم كذبًا أنَّ الله حرَّمه من عنده.

وخَصَّ التَّحريمَ بالذِّكر بصيغةِ الماضي مع أنَّ الوصايا الَّتي بُيِّنت بها التِّلاوة أعمُّ؛ ولعلَّ ذلك لمناسبةِ ما سبق، وهو إنكارُ أن يحرِّمَ غيرُ اللهِ[2].

سرُّ إسنادِ التَّحريمِ إلى الرَّبِّ، ودلالة الإضافةِ:

الرَّبُّ أعلمُ بما يَصلحُ لعبادِهِ، فإذا حرَّم شيئًا فالمنعُ منه عينُ العطاءِ

التَّعرُّضُ للرُّبوبيَّة في قوله: ﴿مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ﴾، مع إضافةِ كلمةِ (ربّ) إلى ضمير المخاطبين، يفيد التخصيصَ والاعتزازَ والتَّقديرَ، وتذكيرٌ بكونهِ تعالى ربًّا لهم، ومالكًا لأمرِهم على الإطلاقِ، فهو تعالى الَّذي له القوامةُ، والتَّربية، والتَّوجيه، والحاكميَّة؛ فالَّذي يحرِّم هو (الرَّبُّ)، والله وحدَهُ الَّذي يجب أن يكون ربًّا، وهذا من أقوى الدَّواعي إلى أن ينتهوا عمَّا نهاهُم اللهُ تعالى عنه أشدَّ انتهاءٍ[3].

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 2/188، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 5/2728.
(2) محمد رشيد رضا، تفسير المنار: 8/162، وطنطاوي، التفسير الوسيط: 5/214.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/198.

وقال: ﴿مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ﴾، ولم يقُلْ: (ما حَرَّمَ اللهُ)؛ لأنَّ الرَّبَّ هنا أنسَبُ؛ حيثُ إنَّ الرَّبَّ له مُطْلَقُ التَّصَرُّف في المربوبِ، والحكمُ عليه بما تَقْتضيه حِكْمَتُه[1].

دلالةُ لفظِ ﴿عَلَيْكُمْ﴾، وحكمُ الوقفِ عليهِ والابتداءِ بهِ:

تعلُّق (عَلَيْكُم) بـ(حَرَّمَ) للبيانِ والحجَّةِ، والابتداءُ به للإغراءِ

قُيِّدَتِ الجملةُ بالجارِّ والمجرورِ بقولِه: ﴿مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾؛ ولعلَّ السِّرَّ في هذا لاعتقادِ المخاطبين أنَّهم ليسوا هم المعنيِّين بفعلِ التِّلاوة، ولعلَّ تأخيرَ الجارِّ والمجرور، وتقديم ﴿مَا حَرَّمَ﴾ عليه لأهمِّيَّةِ المحرَّم.

وقالَ ابن عرفةَ: "وإنَّما قال: ﴿عَلَيْكُمْ﴾، ولم يقل: حرَّمَ بالإطلاقِ مع أنَّه محرَّمٌ على الجميع؛ لأنَّ الخطابَ للَّذين كانوا عصوا بذلك، وغيرهم لم يعصِ"[2].

وقوله: ﴿عَلَيْكُمْ﴾ جارٌّ ومجرورٌ متعلِّقٌ بالفعل ﴿حَرَّمَ﴾، وجُوِّز أن يتعلَّق بـ﴿أَتْلُ﴾، ورُجِّح الأوَّل بأنَّه أنسبُ بمقامِ الاعتناءِ بإيجابِ الانتهاءِ عنِ المحرَّماتِ المذكورةِ[3]. وتكونُ فائدتُه البيانَ والحجَّةَ؛ لئلَّا يكون للنَّاسِ على الله حجَّةٌ في تحريمِ شيءٍ؛ وفي تخصيصِ المخاطبينَ بهذا التَّحريمِ تعريضٌ بالَّذين حرَّموا مِن قِبَل أنفسِهم، ويكون الوقفُ حينئذٍ على الجارِّ والمجرور ﴿عَلَيْكُمْ﴾.

وما وردَ من الوقفِ على لفظِ ﴿رَبُّكُمْ﴾، والابتداء بقوله: ﴿عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ في قوله تعالى: ﴿۞قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِۦ شَيْـًٔا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [الأنعام: 151]، قال الأشموني: "﴿مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ﴾ حَسَنٌ، ثمَّ يبتدئُ ﴿عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا﴾ على سبيلِ الإغراءِ، أي: الزموا نفيَ الإشراكِ؛ وإغراءُ المخاطَب فصيحٌ؛ نقلهُ ابن الأنباري، وأمَّا إغراءُ الغائب؛ فضعيفٌ"[4].

(1) ابن عثيمين، القول المفيد على كتاب التوحيد: 1/36.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 7/316، وابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/199.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/198.
(4) الأشموني، منار الهدى، ص: 256.

والظَّاهرُ المتبادرُ من النَّظم القرآنيِّ أنَّ الوقفَ يكونُ على لفظِ ﴿عَلَيۡكُمۡۖ﴾، وتحتملُ جملةُ ﴿أَلَّا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ﴾ على هذا وجهينِ من الإعراب:

الوجه الأولُ: أن تكونَ هذه الجملةُ خبرًا لمبتدأٍ محذوفٍ؛ ويكون تقديرُ الكلام: هو ألَّا تشركوا[1]، أو يكون تقديرُه: ذلك ألَّا تشركوا[2]، وعلى هذا الوجه الإعرابيِّ يصلحُ الابتداءُ بها على سبيلِ الاستئنافِ.

الوجه الآخرُ: أن تكونَ هذه الجملةُ في موقعِ عطفِ البيانِ من جملةِ ﴿مَا حَرَّمَ رَبُّكُمۡ﴾، ويكون التقديرُ: قل: تعالوا أتلُ ما حرَّمَ ربُّكم عليكم، أتلُ ألَّا تشركوا به شيئًا[3].

كيف يكون (عدم الإشراك) داخلًا في ما يُتلى من المحرَّم؟

(أن) تفسيريَّة، و(لا) ناهية، ودخولُهُ في التَّحريمِ للتَّوهيم

الظَّاهر في قوله: ﴿أَلَّا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ﴾، أنَّ (أن) تفسيريَّةٌ، و(لا) ناهية؛ لأنَّ الفعل ﴿أَتۡلُ﴾ فعل بمعنى القول، وما بعد (أن) جملة فاجتمع فيها شرطا التَّفسيريَّة، وهي أن يتقدَّمها معنًى لقول، وأن يكون بعدها جملةٌ[4].

أمَّا كيف يكون عدمُ الإشراك (التوحيد) داخلًا في ما يُتلى من المحرَّم؛ فتوجيهُ ذلك بمبحثٍ معلوم، عنوانُه: فنُّ التَّوهيم[5]، فإنَّ ظاهرَ الكلام في الآية الكريمةِ يدلُّ على تحريمِ نفي الشِّرك؛ ملزومُهُ تحليلُ الشِّرك!! وهذا محالٌ، وخلافُ المعنى المراد؛ والتَّأويل الَّذي يَحلُّ الإشكال: هو أنَّ الوصايا المذكورةَ في سياق الآيةِ: ما حرَّم عليهم، وما هم مأمورونَ به؛ فإنَّ الشِّركَ باللهِ، وقتلَ النَّفسِ المحرَّمة،

(1) ابن جرير، جامع البيان: 12/215.
(2) النحّاس، القطع والائتناف، ص: 326.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 12/216، والنحّاس، القطع والائتناف، ص: 326، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 8/157.
(4) أبو حيان، البحر المحيط: 4/685، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 8/158أ.
(5) هو أن يأتي المتكلِّم بكلمةٍ يوهِمُ ما بعدها من الكلام أنَّ المتكلِّم أراد تصحيفها، وهو يريد غير ذلك.

وأكلَ مالِ اليتيم، ممَّا حرَّم ظاهرًا وباطنًا؛ وأمَّا وفاءُ الكيلِ والميزانِ بالقسطِ، والعدلُ في القولِ، فضلًا عن الفعل، والوفاءُ بالعهدِ، واتِّباعُ الصِّراط المستقيم فهذا من الأفعالِ المأمورِ بها أمرَ وجوبٍ، ولو جاءَ الكلامُ بغيرِ (لا)؛ لانبَترَ، واختلَّ، وفسَدَ معناه، فإنَّه يصيرُ المعنى حرَّم عليكم الشِّركَ، والإحسان إلى الوالدَين، وهذا ضِدُّ المعنى المرادِ، ولهذا جاءتِ الزِّيادةُ الَّتي أوهمَ ظاهرُها فسادَ المعنى، ليُلجأَ إلى التَّأويلِ الَّذي يصحُّ به عطفُ بقيَّةِ الوصايا على ما تقدَّم[1].

فائدةُ الجارِّ والمجرور و﴿بِهِۦ﴾، وتنكيرِ ﴿شَيۡـٔٗاۖ﴾:

إفـادةُ التَّبشيعِ لشركهم باللهِ، والتَّعميم

تعلُّقُ الجارِّ والمجرور بالفعل ﴿تُشۡرِكُواْ﴾ الواقعِ في سياقِ النَّهْي في القرآنِ الكريم؛ لإفادة التَّبشيعِ لجريمتهم الشَّنعاء، وهي الشِّرك باللهِ ﷻ، وللتَّعريضِ بصنيع الكافرين قبل ذلك المشار إليه في مستهلِّ هذه السُّورةِ بقولهِ: ﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡ يَعۡدِلُونَ ۝١﴾ [الأنعام: 1]، والمذكورِ قُبَيْل هذه الآيةِ بقولهِ: ﴿وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمۡ يَعۡدِلُونَ ۝١٥٠﴾ [الأنعام: 150].

و﴿شَيۡـٔٗاۖ﴾ مَنْصُوبٌ عَلَى الْمَفْعُولِيَّةِ لِـ ﴿تُشۡرِكُواْ﴾ أَيْ: لَا تَجْعَلُوا شَرِيكًا شَيْئًا مِمَّا يُعْبَدُ كَقَوْلِهِ: ﴿وَلَن نُّشۡرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدٗا ۝٢﴾ [الْجِنّ: 2] وَيَجُوزُ انْتِصَابُهُ عَلَى الْمَصْدَرِيَّةِ لِلتَّأْكِيدِ، أَيْ: شَيْئًا مِنَ الْإِشْرَاكِ وَلَوْ ضَعِيفًا؛ كَقَوْلِهِ: ﴿فَلَن يَضُرُّوكَ شَيۡـٔٗاۖ﴾ [الْمَائِدَة: 42][2].

ولعلَّ السَّببَ في هذا التَّقييد إرادةُ التَّعميم، أي: لا قليلًا ولا كثيرًا، أو: لا تشركوا به شيئًا من الأشياء وإن كانت عظيمةً في الخَلْق كالشَّمس، والقمر، والكواكب، أو عظيمةً في القدرِ كالملائكةِ والأنبياء والصَّالحين[3].

(1) محمود صافي، الجدول في إعراب القرآن وصرفه وبيانه: 4/328.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 5/49.

(3) محمد رضا، تفسير المنار: 8/162، ودرويش، إعراب القرآن وبيانه: 3/268، ومحمود صافي، الجدول في إعراب القرآن: 6/126.

بلاغةُ البدءِ بالنَّهي عنِ الشِّركِ دونَ ما بعدَهُ:

إصلاحُ الاعتقادِ مفتاحُ الإصلاحِ في العاجلةِ والفلاحِ في الآجلة

كان الشِّركُ باللهِ هو المحرَّمُ أوَّلًا؛ لأنَّه أصلُ كلِّ شرٍّ ومنكرٍ، كما أنَّ التَّوحيدَ هو أصلُ كلِّ خيرٍ ومعروفٍ، وعليه تُبنى الأعمالُ الصَّالحة، فإذا هُدمت تلك القاعدةُ؛ هُدِم البناءُ كلُّهُ، ولا خيرَ في عملٍ بعدها، كما قال تعالى: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾﴾ [الفرقان: 23]، وقال: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُواْ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِى وَرُسُلِى هُزُوًا ﴿١٠٦﴾﴾ [الكهف: 103 - 106].

بلاغةُ النَّهي الصَّريحِ عن الشِّركِ، والعدولِ عنِ الأمرِ بالتَّوحيدِ:

مناسبةُ المقامِ، واقتضاؤه ضدَّه، واستقصاؤه أنواعَ الشرك، والتَّخليةُ مقدَّمةٌ على التَّحليةِ

ورد النَّهيُ عن الشِّركِ صراحةً في قوله: ﴿أَلَّا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾، وعُدِلَ عن النَّهي عنه ضِمنًا، فلم يقل: (اعبدوا اللّه وحده)؛ لمناسبة المقام، إذ إنَّ الكلامَ على المحرَّمات؛ ومجيءُ النَّهي عن الشِّرك صراحةً بمنزلةِ الرُّكنِ الرَّكينِ لجميع المحرَّماتِ؛ فمن اجتنَبَ الشِّركَ؛ سَلمَت أعمالُهُ، وبقي على فطرتهِ الَّتي فطرهُ اللّهُ عليها، كما أنَّ النَّهي عن الشِّركِ يدخلُ فيه الأمرُ بالتَّوحيدِ ضِمنًا، ولكنَّ التَّصريحَ بالتَّوحيدِ لا يسدُّ مسدَّه؛ لأنَّ النهي عن الشِّرك أعمُّ من الأمرِ بالتَّوحيد؛ لأنَّه استقصى كلَّ أنواعهِ، لوقوعِ النَّكرة ﴿شَيْـًٔا﴾ في سياق شبهِ النَّفي، وهو النَّهي.

دلالةُ عطفِ جملةِ: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ على ما قبلها:

بعدَ إصلاحِ قلبِ الإنسانِ بالتَّوحيدِ إصلاحُ قالَبِ المجتمعِ ولَبِنَاتِهِ الأُسْرِيَّة

بدأ سبحانه بالنَّهي عن الشِّركِ؛ لأنَّه أعظمُ المحَرَّمات، وأكبرُ الكبائرِ، وَأتبع ذلك: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ﴾ أي: أحسنوا بهما إحْسانًا كاملًا لا إساءةَ معهُ، وعن ابنِ عبَّاسٍ: يريدُ البرَّ بهما مع اللُّطفِ ولينِ الجانبِ، فلا يُغلظُ لهما في الجواب، ولا يحدُّ النَّظَرَ إليهما، ولا يرفعُ

صوتَهُ عليهما، بل يكونُ بين يديهما مثلَ العبدِ بين يدي سيِّدِه تذلُّلًا لهما، وثنَّى اللّه تعالى بهذا التَّكليفِ؛ لأنَّ نعمةَ الوالدَين أعظمُ النِّعم على العبدِ بعد نعمةِ اللّهِ تعالى؛ لأنَّ المؤثِّر الحقيقيَّ في وجود الإنسانِ هو اللّهُ ﷻ، والمُؤَثِّرَ في الظَّاهر هو الأبوان[1].

فائدةُ تقديمِ الجارِّ والمجرورِ، وبلاغةُ حذفِ العاملِ:

المبالغةُ في تأكيدِ شأنِ العنايةِ والإحسانِ بالوالدينِ

الإحسانُ يتعدَّى بحرفي (الباء) و(إلى)، فقال: أحسِنْ بهِ، وأحسِنْ إليه، وبينهما فرقٌ واضحٌ، فالباء تدلُّ على الإلصاق، و(إلى) تدلُّ على الغاية، والإلصاق يفيد اتِّصال الفِعل بمدخول (الباء) دون انفصالٍ ولا مسافةٍ بينهما، أمَّا الغايةُ؛ فتفيدُ وصولَ الفعل إلى مدخولِ (إلى) ولو كان منه على بُعْد، أو كان بينهما واسطة، ولا شكَّ أنَّ الإلصاقَ في هذا المقام أبلغُ في تأكيد شأنِ العناية والإحسان بالوالدين، ومن هنا لم يُعَدَّ الإحسانُ بالباء في القرآن إلَّا حيث أريد ذلك التَّأكيد، وقد جاءت جميعُ الآياتِ القرآنيَّةِ الَّتي توحي بالإحسان بالوالدين على هذا الأسلوب[2]. و﴿إِحۡسَٰنًاۖ﴾ مفعول مُطلق للتَّأكيدِ على ضرورةِ الالتزام بتلك الوصيَّةِ، وهو نائبٌ عن فعلِ الأمرِ (أحسنوا)، والتَّقديرُ: وأحْسِنُوا بالوالدين إحْسَانًا[3].

بلاغةُ الإيجازِ بالحذفِ في قوله: ﴿وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنًاۖ﴾:

الإشارةُ إلى أنَّ الإحسانَ إلى الوالدين غنيٌّ عنِ التَّصريحِ؛ وفضلُهما ظاهرٌ

في قوله: ﴿وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنًاۖ﴾ إيجازٌ بالحذفِ؛ ففيها حذفُ الفعلِ، وتقديرهُ: أوصى، وجازَ حذفُهُ لدلالة الكلام عليه، فقد خُتمتِ الآيةُ بقولهِ تعالى: ﴿ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ﴾؛ ولمعرفةِ السَّامع بمعناه[4]. والمعنى: أوصاكم ربُّكم أن تُحسنوا بالوالدين إحسانًا كاملًا، لا تدَّخرون فيه وسعًا، ولا تألون فيه جهدًا، وهذا

(1) الآلوسي، روح المعاني: 4/297.
(2) محمد رضا، تفسير المنار: 8/163، وطنطاوي، التفسير الوسيط: 5/216.
(3) محمد بن عرفة، حاشية الدسوقي على مختصر المعاني: 2/534.
(4) ابن جرير، جامع البيان: 12/215.

يستلزمُ تركَ الإساءة وإنْ صغرت، فكيف بالعقوقِ المقابلِ لغاية الإحسان[1]؟

إيثارُ الأمرِ بالإحسانِ إلى الوالدين على النَّهي عن عقوقهما:

الإيذانُ بأنَّ الإساءَةَ إليهما ليس مِن شَأْنِها أن تَقَعَ

قولهُ: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ وَضَعَه موضِعَ النَّهي عن الإساءَةِ إليهما؛ للمبالغَةِ، وللدَّلالَةِ على أنَّ تَرْكَ الإساءَةِ في شَأْنِهما غيرُ كافٍ؛ بخلافِ غَيْرِهما، وللإيذانِ بأنَّ الإساءَةَ إليهما ليس مِن شَأْنِها أن تَقَعَ فيُحْتاجَ إلى التَّصريحِ بالنَّهْيِ عنها؛ لأنَّها خِلافُ ما تَقْتَضي الفِطْرَةُ السَّليمةُ، والآدابُ المَرْعِيَّة عِنْد جَميعِ الأُمَمِ؛ وإنَّما عَدَلَ عن النَّهْيِ عنِ الإساءَةِ إلى الأَمْرِ بالإحسانِ اعتناءً بالوالِدَين؛ لأنَّ اللّٰه أرادَ بِرَّهُما؛ والبِرُّ إحسانٌ، والأَمْرُ به يتضَمَّنُ النَّهْيَ عن الإساءَةِ إليهما بِطَريقِ فَحْوى الخِطابِ، ولم يُؤكِّد الإحسانَ بالوالدين في النَّظم القرآنيِّ ببنائهِ على صيغةِ المصدر، وتعديته بالباء فحسب، إنَّما أكَّد أيضًا بجعلهِ قرينَ الأمرِ بعبادةِ اللّٰه تعالى وحدَهُ، وتثنيةِ الوصايا به[2].

دلالةُ عطفِ جملةِ: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ﴾ على ما قبلَها:

قتلُ الأولادِ أفحشُ أنواعِ القتلِ وبخاصَّةٍ عند خوفِ الفقرِ

بعدَ أن بدأ بالتَّوحيدِ في صريحِ البراءةِ مِن الشِّركِ، وقرَن به البرَّ بالوالدين، أولاهُ القتلَ الذي هو أكبرُ الكبائرِ بعدَ الشِّرك، وبدأهُ بقَتْلِ الوَلَدِ؛ لأنَّه أفحَشُ القَتْلِ، وأفحَشُ مِن مُطْلَقِه فِعْلُه خَوْفَ القِلَّةِ[3].

بلاغةُ الكنايةِ في قولهِ تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ﴾:

تصويرُ جهلِ المشركينَ الذين كانوا يفعلونَ ذلك في الجاهليَّةِ مصحوبًا بالدَّليلِ

في الجملةِ الكريمةِ كنايةٌ عن وأدِ البناتِ، والكنايةُ استعمالُ اللَّفظِ في غير معناهُ الأصليِّ بمقتضى الاستعارة، أو التَّشبيه، أو الحال، أو غير ذلك؛ فالكنايةُ هي في قوله: ﴿مِّنْ إِمْلَٰقٍ﴾؛ فإنَّ

(1) محمد رضا، تفسير المنار: 5/216.

(2) البيضاوي، أنوار التنزيل: 2/188، ومحمد رضا، تفسير المنار: 8/163، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 8/158.

(3) البقاعي، نظم الدرر: 7/316.

الإملاقَ هو الفقرُ والضَّنك، ولكنَّه استُعملَ هنا كنايةً عن الخوفِ من الفقرِ، فالمعنى: ألَّا تقتلوا أولادَكم خشيةَ أن تفتقروا فيما تنفقون عليهم، وهذا من جهلِ المشركين الَّذين كانوا يفعلون ذلك في الجاهليَّةِ، وأنكروا رزقَ اللهِ لخلقه، فأخبرَهم اللهُ تعالى أنَّه هو الذي يرزقهم وإيَّاهم؛ وسِرُّ جمال الكناية: الإتيانُ بالمعنى مصحوبًا بالدَّليل عليه في إيجازٍ وتجسيمٍ.

معنى النَّهي عن قتلِ الأولادِ، وإيثارُ لفظ ﴿أَوْلَٰدَكُم﴾ على (أبناءكم):

قُيِّد القتلُ بالمفعولِ به، وهو قولهُ تعالى: ﴿أَوْلَٰدَكُم﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّ أفحشَ أنواعِ القتلِ قَتْلُ الولدِ، وآثرَ استعمالَ لفظِ: ﴿أَوْلَٰدَكُم﴾ دون (أبناءكم)؛ لأنَّ (الأبناء) تُطلقُ على الذُّكور فحسب، أمَّا (الأَولَاد) فتشملُ الذُّكورَ والإناث، إضافةً إلى ذلك أنَّ الولدَ هو الَّذي ولدَهُ الوالد من صلبهِ على وجه الخصوص، وفي قوله: ﴿أَوْلَٰدَكُم﴾: مجازٌ مرسلٌ عن البناتِ، علاقتُه: الكليَّةُ، وسِرُّ جمال المجازِ الدِّقَّةُ والإيجازُ[1].

الدَّلالةُ على أنَّ قتلَ الأولادِ أفحشُ أنواعِ القتلِ، وشاملٌ الذُّكورَ والإناثَ

سرُّ إضافةِ (أولاد) إلى ضميرِ المخاطبينَ:

إضافةُ (أولاد) إلى ضميرِ الخطابِ (كم)، تفيد التَّخصيصَ والتَّذكيرَ بالرَّابطةِ الإنسانيَّةِ القويَّةِ بين الآباءِ والأبناءِ، وبالتَّالي بيانٌ لاحتياج الأبناءِ للعطفِ والإشفاق لا القسوة والشِّدَّة.

إفادةُ التَّخصيصِ والتَّذكيرِ بالرَّابطةِ الإنسانيَّةِ القويَّةِ بين الآباءِ والأبناءِ

فائدةُ حرفِ ﴿مِّنْ﴾، وإيثارِ لفظِ ﴿إِمْلَٰقٍ﴾:

قولهُ تعالى: ﴿مِّنْ إِمْلَٰقٍ﴾: تعليلٌ لسبب القتلِ، وفيه استعارةٌ مكنيَّةٌ تجسِّدُ الفَقْرَ بشيءٍ مادِّيٍّ نخافه، وتوحي بشدَّة الفزعِ من الفقرِ، وقد أفادَ تقييدُ الجملةِ بالمفعولِ لأجلهِ بيانَ أنَّ أفحشَ أنواعِ قتلِ الولدِ قَتْلُهُ لأجلِ الفقر[2].

الإيحاءُ بشدَّةِ فزعِ أهلِ الجاهليَّةِ من الفقرِ

(1) مريم العبيد، آيات العقيدة في سورة الأنعام دراسة بلاغية تحليلية، ص: 279.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 7/316 - 317.

بلاغةُ فصلِ جملةِ: ﴿نَّحۡنُ نَرۡزُقُكُمۡ وَإِيَّاهُمۡۖ﴾ عمَّا قبلَها:

فُصِلَ قولهُ تعالى: ﴿نَّحۡنُ نَرۡزُقُكُمۡ وَإِيَّاهُمۡۖ﴾ عمَّا قبلَهُ؛ لوقوعه استئنافًا بيانيًّا، فقد حملَ تعليلًا للنَّهي عن قتلِ الأولادِ، وبهِ أُبطِلَ السَّببُ الَّذي يدفعُهم إلى قتلِهم[1].

إبطالُ السَّببِ الدَّافعِ إلى قتلِ الأولادِ

تقديمُ المسندِ إليه ﴿نَّحۡنُ﴾ على المسندِ ﴿نَرۡزُقُكُمۡ﴾:

قدَّم المسندَ إليهِ على المسندِ الفعليِّ في الجملةِ؛ لإفادةِ الاختصاصِ، فكأنَّهُ قيل: نحن نَرزقكُم وإيَّاهم لا أنتم ترزقون أنفسَكم، ولا ترزقون أولادَكم[2]، وفي هذا القصرِ تأكيدٌ للخبرِ مع ما فيه من إيجازٍ.

إفادةُ التَّخصيصِ والتَّأكيدِ والتَّقويةِ

بلاغةُ الإطنابِ في قوله: ﴿نَّحۡنُ نَرۡزُقُكُمۡ وَإِيَّاهُمۡۖ﴾:

الإطنابُ: فنٌّ استعمالِ الكلامِ الزَّائدِ عن الحاجةِ لتحقيقِ مقصودٍ بلاغيٍّ معيَّنٍ، مثل التَّوكيد، أو التَّشويق، أو التَّحذير، أو الإعجاز؛ فالإطنابُ هنا هو في قوله: ﴿وَإِيَّاهُمۡۖ﴾، فإنَّهُ يمكن حذفُ هذه الكلمةِ دون تغييرِ المعنى؛ لأنَّ الأولادَ مشمولونَ بالرِّزق الَّذي يرزقُهُ اللهُ لآبائِهم، ولكنَّ اللهَ تعالى أطنبَ في هذا المقامِ لأسبابٍ بلاغيَّةٍ عديدةٍ، منها:

التَّوكيدُ أنَّ اللهَ هو الرَّازقُ للخلقِ جميعًا

أولًا: توكيدُ أنَّ اللهَ هو الرَّازقُ للخلق جميعًا، وأنَّه لا يُضَرُّ أحدٌ برزق غيره.

ثانيًا: التَّحذيرُ من قتلِ الأولادِ خشيةَ الفقرِ، وأنَّ ذلك من جهلِ المشركينَ وظلمِهم.

ثالثًا: التَّشويقُ لمعرفة حكمة خلقِ الأولادِ وفضلهم وبركتهم، وأنَّهم رزقٌ من رزق اللهِ.

رابعًا: إعجازُ المخاطبين بالتَّحدِّي في إتيانِ مثل هذا الكلامِ المختصر المبين[3].

---

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/198، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 8/159.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 8/159.

(3) راشد بن حمد الكعبي، بلاغة الإطناب في سور المفصَّل، رسالة ماجستير في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية - الرياض.

نكتةُ التَّعبيرِ بضميرِ المتكلِّم المعظِّمِ نفسَه:

الـتـفـاتٌ مِـنَ الـغـيـبـةِ إلى التَّكلُّمِ لتعظيمِهِ والـتَّـحـذيـرِ من مخالفتِهِ

في ﴿نَّحۡنُ نَرۡزُقُكُمۡ وَإِيَّاهُمۡۖ﴾ خرجَ الكلامُ على خلافِ مُقتضى الظَّاهرِ في حقِّ اللهِ ﷻ، فقد عدلَ عن طريقِ الغيبةِ إلى طريق التَّكلُّم، وهذا من الالتفاتِ، ولعلَّ ذلك - كما علَّل ابنُ عاشور - للتَّذكير بالَّذي أمرَ بهذا القول[1].

وواءم هذا الالتفاتُ المقامَ؛ وبيانُ ذلك أنَّ المخاطبين إنَّما قَتَلوا أولادَهم بسببِ الفقرِ، وقِلَّةِ الحيلةِ، فحتى تُبثَّ الطُّمَأنينةُ في نفوسهم المضطربة، ويُمكَّنَ الخبرُ مِنَ التَّغلغل إلى أعماقهم الخائرة... عُدِلَ عن طريقِ الغيبةِ إلى التَّكلُّم، فقيل: ﴿نَّحۡنُ نَرۡزُقُكُمۡ وَإِيَّاهُمۡۖ﴾، وهذا الطَّريق "هو قرينُ الحضورِ والمشاهدةِ"[2]، فيكونُ في هذا الالتفاتِ - إضافة إلى ما ذَكَره ابن عاشور - ما أشيرَ إليه ههنا، والله تعالى أعلمُ.

بلاغةُ فنِّ التَّغاير[3] بين آيتي الأنعام والإسراء:

الإشـارةُ إلى تـغـايـرِ المعنى لمغايرةِ اللَّفظ، فالخطابُ في كلِّ آيةٍ لصِنفٍ

من بلاغةِ التَّغاير في الكلام تغايرُ المعنى لمغايرةِ اللَّفظِ، وهذا الَّذي نحن بصَددِه في هذهِ الآية الكريمة؛ والكلامُ في الآيةِ غيرُ قولهِ في هذا المعنى في بني إسرائيل: ﴿وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَوۡلَٰدَكُمۡ خَشۡيَةَ إِمۡلَٰقٖۖ﴾، فالخطابُ في كلِّ آيةٍ لصِنفٍ، وليس خطابًا واحدًا؛ فالمخاطَبُ بقولهِ سبحانه: ﴿مِّنۡ إِمۡلَٰقٖ﴾ مَن ابتُلي بالفقرِ، وبقوله تعالى: ﴿خَشۡيَةَ إِمۡلَٰقٖۖ﴾ مَن لا فَقر له، ولكن يَخشى وقوعَه في المستقبلِ، ولهذا قدَّم رزقَهم هاهنا في قوله ﷻ: ﴿نَّحۡنُ نَرۡزُقُهُمۡ وَإِيَّاكُمۡۚ﴾[4].

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 8/159أ.

(2) حسن طبل، أسلوب الالتفات في البلاغة القرآنية، ص: 111.

(3) حدُّه: تغاير المذهبين؛ إمَّا في المعنى الواحد بحيث يمدح إنسان شيئًا أو يذمُّه، أو يذمُّ ما مدحهُ غيرُه، وبالعكس، ويفضِّلُ شيئًا على شيءٍ، ثمَّ يعود فيجعل المفضول فاضلًا.

(4) محمود صافي، الجدول في إعراب القرآن: 4/329.

دلالةُ الضَّمائرِ في قولِهِ: ﴿نَّحۡنُ نَرۡزُقُكُمۡ وَإِيَّاهُمۡۖ﴾:

التَّخصيصُ والتَّوكيدُ والتَّعظيمُ

تقديمُ الضَّميرِ ﴿نَحۡنُ﴾ للتَّخصيصِ، وتكرارهُ للتَّوكيدِ، والتَّعبيرُ بضميرِ الجمعِ لتعظيمِ الذَّاتِ الإلهيَّةِ وتشريفِها.

دلالةُ الإخبارِ بالجملةِ الفعليَّةِ في قولِهِ: ﴿نَّحۡنُ نَرۡزُقُكُمۡ﴾:

تجدُّدُ الرِّزقِ وبثُّ الطُّمأنينةِ في نفوسِ المُلقينَ

أخبرَ عن ضميرِ العظمةِ بجملةٍ فعليَّةٍ لنُكتةٍ بلاغيَّةٍ؛ للدَّلالة - واللّه أعلم - على أنَّ هذا الرِّزقَ الدَّائمَ يتجدَّدُ، ويحدثُ شيئًا بعد شيءٍ... ولعلَّ في هذا مزيدَ بثٍّ للطُّمأنينَةِ في نفوسِهم، وسيأتي مزيدُ بيانٍ له في المتشابهِ اللَّفظي.

نكتةُ تقديمِ رزقِ الآباءِ في قولِهِ: ﴿نَّحۡنُ نَرۡزُقُكُمۡ﴾:

سوقُ البشارةِ للآباءِ بزوالِ الإملاقِ، وإحالةِ الرِّزقِ على الخالقِ الرَّزاقِ

تقدَّمَ رِزقُ الآباءِ - وهم المخاطبون - فقالَ: ﴿نَّحۡنُ نَرۡزُقُكُمۡ﴾، ثمَّ عطفَ عليهِ ضميرَ الأبناءِ: ﴿وَإِيَّاهُمۡۖ﴾، ولعله - واللّه أعلمُ - لسوقِ البشارة للآباءِ بزوالِ الإملاق، وإحالةِ الرِّزقِ على الخالق الرَّزاق، فكما أنَّكم لا تقتلون أنفسَكم، فكذلك لا تقتلوا أولادَكم[1].

وسيأتي مزيدُ بيانٍ له في المتشابه اللَّفظي.

سرُّ وقوعِ جملة ﴿وَلَا تَقۡرَبُواْ ٱلۡفَوَٰحِشَ﴾ بين قَتْلين:

الفواحشُ جنايةٌ عظيمةٌ، وأولادُ الزِّنى في حكمِ الأمواتِ

لـمَّا كانَ قتلُ الأولادِ أفحشَ الفواحشِ بعد الشِّركِ باللّهِ، أتبعَهُ النَّهيَ عن مُطلقِ الفواحشِ، فقال: ﴿وَلَا تَقۡرَبُواْ ٱلۡفَوَٰحِشَ﴾، ووجهُ توسيطِ هذا النَّهي بين النَّهي عن قتل الأولادِ، والنَّهي عن القتلِ مُطلقًا عليه - هنا وفي سورة الإسراء - باعتبارِ أنَّ الفواحشَ بهذا المعنى مع كونِها في نفسِها جنايةً عظيمةً في حكم قتلِ الأولادِ؛ فإنَّ أولادَ الزِّنى في حكم الأموات[2].

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 4/687.

(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/362، ونظم الدرر: 7/317، والآلوسي، روح المعاني: 4/298.

بلاغةُ النَّهي عن قربِ الفواحشِ:

سدُّ الذَّرائعِ، واتِّقاءُ جاذبيَّتها الَّتي تَضْعُف معها الإرادةُ

عَظَّمَ أمْرَ الفواحِشِ بالنَّهْيِ عن قُرْبِها، فضلًا عن الغِشْيانِ؛ لأنَّها ذاتُ إغراءٍ وجاذبيَّةٍ، فنهَى عن مجرَّدِ الاقترابِ؛ سدًّا للذَّرائعِ، واتِّقاءً للجاذبيَّة التي تَضْعُف معها الإرادةُ، وهو أبلَغُ في التَّحذيرِ مِنَ النَّهْيِ عن مُلابَسَتِها للمبالَغَةِ في الزَّجْرِ عنها[1].

فانصبابُ النَّهي على الاقترابِ ممَّا يقربُ من الفواحشِ كشفَ للقارئ دِقَّةَ التَّعبيرِ في النَّظمِ القرآنيِّ؛ فإذا كان الاقترابُ من الفواحشِ منهيًّا عنهُ؛ فالوقوعُ فيها أشدُّ نهيًا.

بلاغةُ الكنايةِ في قولِهِ تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلْفَوَٰحِشَ﴾:

شدَّةُ نهي اللهِ عنِ الأفعالِ المنكرةِ، وتحقيرُها والتّحذيرُ منها

أسلوبُ الجملةِ الكريمةِ إنشائيٌّ نَهي، غرضُه: الوجوبُ والإلزامُ والنُّصحُ، وهي كنايةٌ عن تجنُّبِ الآثامِ والابتعادِ عنها، وتَرَكَ التَّصريح بالمعنى المرادِ، وهو الزِّنى ومقدِّماته وغيره من المعاصي، وأشارَ إليه بلفظِ ﴿ٱلْفَوَٰحِشَ﴾ الذي يدلُّ على كلِّ ما هو قبيحٌ ومنكرٌ ومذمومٌ، وهذه الكنايةُ تدلُّ على شدَّةِ نهي اللهِ ﷻ عن هذه الأفعالِ، وتحقيرِها وتنكيرِها، وتحذيرِ عبادِه من الوقوعِ فيها.

وسِرُّ جمال الكنايةِ: الإتيانُ بالمعنى مصحوبًا بالدَّليلِ عليه في إيجازٍ وتجسيمٍ، ويجوز استعارة مكنيَّة فيها تصويرٌ للفواحشِ بأشياءَ ماديَّةٍ ملموسةٍ لا يجب الاقترابُ منها لخطورتِها أو التفكيرُ فيها؛ وسِرُّ جمالِ الصُّورةِ التَّجسيمُ، وهي توحي بضرورةِ التَّعقُّل قبل التَّفكيرِ في ارتكابِ الفاحشةِ.

سرُّ تعدِّي الفعل ﴿تَقْرَبُواْ﴾ بنفسِهِ:

الإشارةُ إلى عمومِ الفواحشِ الظَّاهرةِ والخفيَّةِ

الفعلُ (يقرب) يتعدَّى بنفسِهِ، فيقالُ: لم يقرَب دارَهُ، أي: لَم يأتِها، كما يتعدَّى بـ(مِن)، فيقالُ: لم يقرَب من دارِه، أي: لم يقتربْ من أوَّلِ حدودِها.

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/198، والبقاعي، نظم الدرر: 7/317 - 318، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 8/159.

ونلحظُ أنَّ الفعلَ هنا ﴿وَلَا تَقۡرَبُواْ﴾ تعدَّى بنفسه، فنصبَ ﴿ٱلۡفَوَٰحِشَ﴾، ولم يقلْ: (ولا تقربوا من الفواحش)؛ وذلك لأنَّ قولَهُ: ﴿مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَۖ﴾ بدلٌ من ﴿ٱلۡفَوَٰحِشَ﴾، وهو يدلُّ على العمومِ، فلا يناسبهُ دخولِ (مِنْ).

سرُّ التَّعبيرِ بالفعلِ ﴿تَقۡرَبُواْ﴾ دون (تأتوا):

النَّهْيُ عن القُرْبِ أَبْلَغُ من النَّهْيِ عن الإتيانِ

في قولهِ: ﴿وَلَا تَقۡرَبُواْ ٱلۡفَوَٰحِشَ﴾، لم يَقُلْ: لا تَأْتُوا؛ لأنَّ النَّهْيَ عن القُرْبِ أَبْلَغُ من النَّهْيِ عن الإتيانِ؛ لأنَّ النَّهْيَ عن القُرْبِ نَهْيٌ عنها، وعمَّا يكون ذريعةً إليها؛ ولذلك حَرَّمَ على الرَّجُلِ أن يَنْظُرَ إلى المرأةِ الأجنبيَّةِ، وأنْ يَخْلُوَ بها، وأنْ تُسافِرَ المرأةُ بِلا مَحْرَمٍ؛ لأنَّ ذلك يُقَرِّبُ مِنَ الفَواحِشِ[1].

معنى ﴿ٱلۡفَوَٰحِشَ﴾، وإيثارُ صيغةِ منتهى الجموعِ:

المُبالغةُ والكثرةُ، والتَّنوُّعُ، وفيها التَّحْقيرُ والتَّنْفيرُ مِن أنواعِ الآثامِ

الفواحشُ: جمعُ فاحِشَةٍ: وهي الفِعْلَةُ المتناهِيَةُ في القُبْحِ والشَّناعَةِ، والمقصودُ بها في الآية الكريمةِ الزِّنى، والجمعُ إمَّا للمُبالغةِ والكثرةِ والتَّنوُّعِ؛ وفيها تحقيرٌ وتنفيرٌ، أو باعتبارِ تعدُّدِ مَن يصدرُ عنهُ، أو للقَصدِ إلى النَّهي عنِ الأنواعِ[2].

النّهي عمّا ظهر وما بطن بعد النَّهي العامِّ عنِ الفواحشِ:

تأكيدُ التَّعميمِ، وإفادةُ شمولِ المعاصي

في قولهِ: ﴿مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَۖ﴾ تفصيلٌ للفواحشِ، أي: ما يُفعلُ منها علانيةً في الحوانيتِ، كما هو دأبُ أراذِلهم، وما يُفعل سِرًّا باتِّخاذِ الأخدانِ، كما هو عادةُ أشرافِهم، ولعلَّ السِّرَّ في التَّقييد بهذا القيدِ هو تأكيدُ التَّعميم[3]، واستعمالُ (ما) لإفادةِ العمومِ والشُّمولِ.

(1) ابن عثيمين، القول المفيد على كتاب التوحيد: 1/38.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 4/297.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 7/318، والآلوسي، روح المعاني: 4/297.

بلاغةُ الطِّباقِ بين (ظهر) و(بطن):

﴿ظَهَرَ﴾ و﴿بَطَنَۖ﴾: محسِّنٌ بديعيٌّ: طباقٌ يُبرزُ المعنى، ويوضِّحهُ بالتَّضادِ، وهو أنَّ السِّياقَ الكريم استعملَ كلمتَينِ متقاربتَين في المعنى والصَّوت؛ للدَّلالةِ على الشُّمولِ والتَّوسُّعِ في حرمة الفواحشِ، ويفيدُ هذا المحسِّنُ البديعيُّ العمومَ والشُّمولَ لكلِّ الفواحشِ الَّتي منها المخبوء المستور، ومنها المعلَنُ المنشورُ؛ فظاهرُ الفواحشِ هو ما يظهرُ منها على الجوارحِ والأفعالِ، وباطنُها هو ما يبطنُ في القلوبِ من الأهواءِ والشَّهواتِ؛ والمقصودُ بهما أنَّ اللّٰه تعالى حرَّم كلَّ ما يُقرِّب من الفواحش سواءٌ كان ظاهرًا أو باطنًا[1].

الدَّلالةُ على الشُّمولِ والتَّوسُّعِ في حرمةِ الفواحشِ

إيثارُ صيغةِ الماضي في ﴿ظَهَرَ﴾ و﴿بَطَنَۖ﴾:

وأوثرَ الماضي للدَّلالةِ على حكمة المشرِّعِ في النَّهي عن الأمرِ الواقع المتحقِّقِ، واستُخدم الفعل الماضي في الآية الكريمةِ؛ للدَّلالة على الحالةِ الدَّائمةِ أو العامَّةِ، وليس على الزمن الماضي فحسبُ؛ فالفواحشُ محرَّمة في كلِّ زمانٍ ومكان، سواءٌ ظهرت أو بطنت، وهذا التعبيرُ من بديعِ بلاغةِ القرآنِ الكريم الَّذي يستعملُ الأزمنة بحسب المقصودِ منها، وليس بحسبِ المعتادِ في عموم اللغة.

الدَّلالةُ على الحالةِ الدَّائمةِ أو العامَّة، وليس على الزَّمن الماضي فحسبُ

دلالةُ عطفِ جملةِ: ﴿وَلَا تَقۡتُلُواْ﴾ على ما قبلها:

في عطف جملة ﴿وَلَا تَقۡتُلُواْ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۚ﴾ بالواوِ على ما قبلَها دلالةُ توسُّعٍ وتفصيلٍ وتنويعٍ، لإفادة المشاركة في الحُكم، بما في النَّهي من حكمةٍ عظيمةٍ ورحمةٍ بالغةٍ مِنَ اللّٰهِ تعالى لعبادِه؛ فإنَّهُ بحرمةِ دماءِ المسلمين يَضمَنُ سلامةَ المجتمعِ وانسجامَه، وبإباحةِ قتلِ المستحقِّ لذلك يَضمنُ عدالةَ المجتمعِ وانضباطَه.

إفادةُ توسُّعٍ وتفصيلٍ وتنويعٍ، والمشاركةُ في حكمِ النَّهي

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/362.

تعظيمُ أمرِ قتلِ النَّفسِ وتفخيمُهُ والتَّنفيرُ منهُ

دلالةُ النَّهي في قوله: ﴿وَلَا تَقۡتُلُواْ ٱلنَّفۡسَ﴾:

غرضُ النَّهي في الجملةِ الكريمةِ: التَّحذيرُ والتَّنفير، وخصَّه بالنَّهي؛ لأنَّه فسادٌ عظيم، وهذا النَّهيُ ضمَّه النَّهيُ عن جملةِ الفواحشِ في الجملة السَّابقةِ، إلَّا أنَّه أُفرد بالذِّكرِ، وهذا من الإطنابِ، ولعلَّ ذلك لفائدتين[1]:

الأُولى: أنَّ هذا الإفرادَ دلَّ على تعظيم الأمر المنهي عنه وتفخيمِهِ، وهو قتلُ النَّفسِ التي حرَّم اللّٰه تعالى إلَّا بالحقِّ، وقد قالَ اللّٰه تعالى: ﴿مِنۡ أَجۡلِ ذَٰلِكَ كَتَبۡنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفۡسَۢا بِغَيۡرِ نَفۡسٍ أَوۡ فَسَادٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعٗاۚ﴾ [المائدة: 32].

الثَّانية: أنَّه أريدَ أن يستثنى منه، ولا يتأتَّى هذا الاستثناء من جملةِ الفواحشِ، بل بالإفراد.

إفادةُ العُمومِ والاستغراقِ، وكونُها أساسَ استمرارِ الحياةِ

فائدةُ تعريفِ ﴿ٱلنَّفۡسَ﴾:

جاءتِ النَّفسُ مُعرَّفةً للعُموم والاستغراق، وخصَّها؛ لأنَّها أساسُ استمرارِ الحياة.

فائدةُ وصفِ ﴿ٱلنَّفۡسَ﴾ باسمِ الموصولِ:

التَّجدُّدُ والحدوثُ بالفعلِ الماضي الواقعِ في جملةِ الصِّلةِ

في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقۡتُلُواْ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾ قيِّدت ﴿ٱلنَّفۡسَ﴾ بالصِّفة، فقالَ تعالى: ﴿ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾، ولعلَّ هذا للتَّنبيهِ إلى أنَّه قد سبقَ العهدُ في تحريمه[2]، وليفيدَ التَّجدُّد والحدوث بالفعل الماضي الواقعِ في جملةِ الصِّلةِ، فيعرفوا نعمةً في حفظِ دمائِهم، وليصحَّ الاستثناءُ بقوله: ﴿إِلَّا بِٱلۡحَقِّۚ﴾، ولو قال: (ولا تقتلوا النَّفسَ المحرَّمة) لفسدَ المعنى.

(1) الخازن، لباب التأويل: 2/172.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 4/688.

بلاغةُ الإيجازِ في قولِهِ تعالى: ﴿ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾:

تضمينُ المعاني في ألفاظٍ أقلَّ منها من غيرِ حذفٍ

في قوله: ﴿ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾ إيجازٌ بحذفِ المفعولِ به (قتلَها)؛ لإثارةِ الذِّهنِ والتَّنبيه، وفي هذه البلاغة تضمينُ المعنى الكثير في اللَّفظ القليلِ، فبدلًا من أن يقول تعالى: (الَّتِي حَرَّمَ اللهُ قَتْلَهَا)، أو (الَّتِي حَرَّمَ اللهُ دِمَاءَهَا)، قال: ﴿ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾، فأوجزَ في العبارةِ، وأفصح في المعنى، وأشارَ إلى حرمةِ النَّفسِ بحرمةِ ما فيها من الدَّمِ والرُّوحِ والعقلِ وغيرها من المقدَّرات، وهذا من بديعِ الإيجازِ الذي يكون بتضمينِ المعاني في ألفاظٍ أقلَّ منها من غيرِ حذفٍ.

سرُّ التَّعبيرِ باسمِ الجلالة ﴿ٱللَّهُ﴾:

التَّرهيبُ والرَّدعُ والزَّجرُ لكلِّ من يفكِّرُ في جريمةِ القَتلِ

في قوله: ﴿حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾ إسنادُ التَّحريمِ إلى لفظ الجلالةِ ﴿ٱللَّهُ﴾ فيه ترهيبٌ وردعٌ وزَجرٌ لكلِّ من يفكِّرُ في جريمة القَتل.

معنى قولِهِ: ﴿إِلَّا بِٱلۡحَقِّۗ﴾ ودلالته:

إظهارُ السَّببيَّةِ وكمالِ الحقِّ في القتلِ

قيَّدت الجملةُ بقولِهِ تعالى: ﴿إِلَّا بِٱلۡحَقِّۗ﴾، وهو استثناءٌ مُفرَّغٌ من أعمِّ الأحوالِ، أي: لا تقتلوها في حالٍ من الأحوالِ إلَّا حالَ ملابستكم بالحقِّ[1]، وقد يكونُ من أعمِّ الأسبابِ، أي: لا تقتلوها بسببٍ مِنَ الأسبابِ إلَّا بسببِ الحقِّ[2]، والباءُ هنا سببيَّةٌ.

وتعريفُ (الحقِّ) أفادَ كمالَهُ، أي: إلَّا بالحقِّ الكاملِ، ولا يكون كاملًا إلَّا إذا كان كالشَّمس وضوحًا لا شُبهةَ فيهِ[3]، و(لا تقتلوا إلَّا بالحقِّ): طباقُ سلبٍ، يبرز المعنى ويقوِّيه بالتَّضادِ.

دلالةُ تكرارِ النَّهي عن قتلِ الولدِ:

بيانُ عظمِ الجرمِ المرتكَبِ في حقِّهم

يُلحظُ أنَّه نُهي عن قتلِ الولدِ في الآيةِ ثلاثَ مرَّاتٍ: الأولى: عندما قال تعالى: ﴿وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَوۡلَٰدَكُم مِّنۡ إِمۡلَٰقٖ﴾، والثَّانيةَ: في

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/199.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/199.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 7/318.

قولهِ تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾، والأخيرةَ في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾[1]؛ ولعلَّ ذلك لعظم الجرم المرتكَب في حقِّهم، وفي الحديثِ الصَّحيحِ عن ابنِ مسْعودٍ قالَ: سَأَلْتُ النبيَّ ﷺ: "أَيُّ الذَّنْبِ أَعْظَمُ عِنْدَ اللهِ؟ قَالَ: «أَنْ تَجْعَلَ للهِ نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ»، قُلْتُ: إِنَّ ذَلِكَ لَعَظِيمٌ، قلت: ثمَّ أَيٌّ؟ قال: «وأن تَقْتُلَ وَلَدَكَ تَخَافُ أَنْ يَطْعَمَ مَعَكَ»". الحديث[2].

فائدةُ الإجمال في قولهِ: ﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾:

جيءَ بالجملةِ الكريمةِ لإجمالِ ما مضى من المحرَّمات، والتَّعبير يُوحي بالإلزام، وقد جاءت ﴿وَصَّىٰكُم﴾ لبيان تأصُّلِ هذا الأمر في رِفقٍ وتلطُّفٍ.

بيانُ تأصُّلِ الوصيَّةِ في رِفقٍ وتلطُّفٍ

فائدةُ (لعلّ) في قولهِ: ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾:

استخدامُ ﴿لَعَلَّكُمْ﴾ أفادَ الرَّجاء، والاستفهامَ والتَّحذير؛ فاستعمالُ هذا الحرفِ يُثيرُ انتباهَ المخاطَبين، وتنبيهَهم على ضرورة التَّفكُّر والتدبُّر في آياته وحكمته، وكأنَّه يقول: ألا تعقلون؟ أو ما يمنعكم مِنَ التَّعقُّل؟ وهذا من بديع الإقناعِ والإرشاد الذي يتميَّز بهِ كلام الله ﷻ، وأنَّ بابَ الاهتداءِ مفتوحٌ لمن يستخدم عقلَهُ.

الرَّجاءُ والاستفهامُ والتَّحذيرُ

بلاغةُ الفصلِ في جملةِ: ﴿ذَٰلِكُمْ﴾، وفي قوله: ﴿لَعَلَّكُمْ﴾:

﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ﴾، الجملةُ استئنافٌ جيءَ به تجديدًا للعهدِ، وتأكيدًا لوجوبِ المحافظةِ على ما كلِّفوا بهِ[3]، و﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾: ختامٌ رائعٌ يُؤكِّد أن ارتكاب هذه المحرَّماتِ يُنزل صاحبهُ منزلةَ مَن لا يعقلُ، فرُجِيَ أن يعقلوا.

ارتكابُ هذه المحرَّماتِ تنزِّلُ صاحبَها منزلةَ مَنْ لا يعقلُ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 7/318.
(2) البخاري، الجامع الصحيح، رقم الحديث: (4477).
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/199.

دلالةُ اسمِ الإشارةِ المفردِ البعيدِ، وخطابِ الجمعِ في: ﴿ذَٰلِكُمۡ﴾:

الإشارةُ إلى المفردِ لمراعاةِ لفظِ (المجموع)

(ذا) اسم إشارةٍ للمفردِ المذكَّر، واللَّام لِلبُعْدِ، والكاف للخطابِ والميم للجمْعِ؛ وأشير بالمفرد وإن كان المشارُ إليه متعدِّدًا، لمراعاة لفظ (المجموع)، ولو روعي المعنى؛ لقالَ: (أولئكم)، وإيثارُ مراعاة اللَّفظ المفردِ تتناسبُ مع الوصيَّة الجامعةِ، حتى تُؤخذَ كلُّها وكأنَّها لفظٌ واحدٌ، لا يتجزَّأُ، ولا يتفكَّك؛ ولحاقُ لامِ البعدِ لبُعدِ منزلتها، فـ﴿ذَٰلِكُمۡ﴾ الإشارةُ إلى المذكور من النَّهي عن الشِّرك والأمر بالإحسانِ إلى الوالدين، والنَّهي عن قربِ الفواحشِ، وهو نهيٌ عن المقاربة لَا عن الوقوع؛ لأنَّه نهيٌ عن أن يدنو منها، فمن حامَ حول الحمى أوشكَ أن يقع فيه، والنَّهيُ عن القربِ يدلُّ على النَّهي عن الوقوع، والإشارةُ تشملُ النَّهي عن قتلِ النَّفس؛ فهذا كلُّه من وصايا اللهِ ﷻ، ووصايا اللهِ تعالى جديرةٌ بالاتِّباع؛ وجُعِلَ الخطابُ في الإشارةِ بـ (ميم الجمع) لعمومِ التَّوصيةِ بهذهِ الأمورِ الَّتي أشارَ إليها، وليتَّسقَ القولُ مع ﴿وَصَّىٰكُم بِهِۦ﴾[1].

التَّعبيرُ بالمضيِّ ﴿وَصَّىٰكُم بِهِۦ﴾ وخطابُ الجمع:

بيانُ عظيمِ أهمِّيَّتها، ورحمةُ الموصِي بها

مِن سماتِ التَّعبيرِ القرآنيِّ في الآية الدِّقَّةُ في اختيارِ الكلمة القرآنيَّةِ، يجدها القارئُ في اختيارِ كلمة ﴿وَصَّىٰكُم﴾ بالإضافةِ إلى مناسبتِها للمقام، وذلك أنَّه لما كانت تلك الأشياءُ شديدةً على النَّفس ختمَها بـ﴿وَصَّىٰكُم﴾[2]، ولعلَّ السِّرَّ لما فيها من لطفٍ، ورأفةٍ، ولينٍ يلامسُ شَغافَ القلبِ، فيفتحُ لها بابَ القبول والاستجابةِ، كما أنَّ في جعلِهم أوصياءَ للّه تعالى ما لا يخفى من الإحسان[3].

والتَّعبيرُ بصيغةِ الماضي للإيذانِ بتحقُّقِهِ، وتقرُّره، وللإيماءِ إلى

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 5/2735.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 7/318.
(3) أبو حيان، البحر المحيط: 4/688.

استدعاء كلِّ وصيَّةٍ ممَّا سبقَ لتدبُّرها والعملِ بها؛ لأنَّها إنْ فاتت؛ فليس لها ثمَّةَ عِوضٌ.

نكتةُ تقييدِ الفاصلةِ بـ(لَعَلَّ):

إفادةُ الترجِّي؛ فالسَّلامةُ من الموبقات لا تتمُّ إلَّا بتوفيقٍ من الله تعالى

أتتْ فاصلةُ الآيةِ مقيَّدةً بـ(لعلَّ) ترجِّيًا للتَّعقُّل، فقال تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾، ويعلِّل هذا ابنُ الزبير الغرناطيُّ بما مضمونهُ: أنَّه لما كانت تلك الأشياءُ؛ وهي الشِّركُ باللّه، وعقوقُ الوالدين، وقتلُ الأولاد لأجل الفَقر، وارتكابُ الفواحش، وقتلُ النَّفس الَّتي حرَّم اللّه بغير الحقِّ، لما كانت خمسَتُها ذاتَ قبحٍ ظاهر لا يخفى، قيِّدَت بترجِّي التَّعقُّل؛ لأنَّ السَّلامة منها لا تكون - مع وضوحِ أمرها - إلَّا بتوفيقٍ من اللّه تعالى[1].

وقد تكون (لعلّ) هنا للتوقُّع، وذلك لما فيها من توثيقٍ وتأكيدٍ أنَّ تلك الوصايا من الرَّحمنِ الرَّحيم الَّذي هو أرحمُ بخلقهِ منهم على أنفسهم - فكان من المتوقَّع بعد هذا أن يعقلوها، ويلتزموا بها؛ "إذ إنَّ العقلَ لو خُلِّي ليبحثَ هذه الوصايا الأولى بحثًا مستقلًّا عن منهج السَّماء؛ لوجد أنَّ ضرورةَ العيشِ على الأرضِ تتطلَّبُ وجودَ هذه الأشياءِ"[2].

تحليلُ الفاصلةِ: ﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾:

الإشـــارةُ إلى الأمـورِ المتعدِّدةِ والمهمَّةِ الَّتي يُرادُ توكيدُها

جاءتِ الفاصلةُ هنا جملةً اسميَّةً، واسمُ الإشارة (ذلك) راجعٌ إلى مجموع ما ذُكِر في الآية، وجاء مُفردًا باعتبارِ المذكورِ، أي: ذلك المذكورُ وصَّاكم بهِ، و﴿ذَٰلِكُمْ﴾: بدلًا من ذلك؛ لأنَّ (ذلكم): تُستعملُ للأمورِ المتعدِّدةِ، والمهمَّة التي يُراد التَّوكيدُ عليها، وهي في محلِّ رفعٍ مُبتدأٌ، خبرهُ جملة ﴿وَصَّىٰكُم﴾، وجملة ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ جملةٌ رجائيَّةٌ، أي: أن يعقلوا، فيصيروا ذوي عقولٍ.

(1) ابن الزبير الغرناطي، ملاك التأويل: 1/173.
(2) الشعراوي، خواطر الشعراوي: 5/3991.

بلاغةُ التَّذييلِ هنا، وسرُّ اختلافِهِ عن لواحقِهِ:

التَّطريزُ في نظمٍ دقيقٍ للآياتِ الكريماتِ يحتويها

قولهُ: ﴿ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾ تذييلٌ جُعِلَ نهايةً للآيةِ، فأومَأَ إلى تنهيةِ نوعٍ من المحرَّماتِ؛ وهي المحرَّماتُ الرَّاجعُ تحريمُها إلى إصلاحِ الحالةِ الاجتماعيَّةِ للأمَّةِ، بإصلاحِ الاعتقادِ، وحفظِ نظامِ العائلةِ والانكفافِ عن المفاسدِ، وحفظِ النَّوعِ بتركِ التَّقاتلِ[1].

وفي قولهِ تعالى: ﴿۞قُلۡ تَعَالَوۡاْ﴾ ﴿ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾، وقوله: ﴿وَلَا تَقۡرَبُواْ﴾ ﴿ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ١٥٢﴾ [الأنعام: 152]، وقوله: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا﴾ ﴿ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ١٥٣﴾ [الأنعام: 153]، ما يُشبِهُ فنَّ التَّطريز، فهذه الآيات الكريمات يحتويها نظمٌ دقيقٌ وكأنَّهُ عقدٌ فريد[2].

فائدةُ المضارعِ، وتقديمِ ضميرِ المخاطبينَ على ضميرِ الغائبينَ:

استمراريَّةُ الرِّزقِ والنَّهي عن القتلِ؛ وبدأَ برزقِ المُخاطَبينَ؛ لأنَّه الأهَمُّ هاهنا

فائدةُ صيغةِ المضارعِ في قولهِ تعالى: ﴿وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَوۡلَٰدَكُم مِّنۡ إِمۡلَٰقٖ نَّحۡنُ نَرۡزُقُكُمۡ وَإِيَّاهُمۡۖ﴾ هي أنَّها تدلُّ على استمراريَّةِ الرِّزقِ والنَّهيِ عن القتلِ، وأنَّ اللّٰه تعالى لا يزال يرزق الآباءَ والأبناءَ في كلِّ حينٍ وزمانٍ، ولا يقطعُ رزقَهُم بسببِ كثرتِهم أو قلَّتِهم، ولو كان الفعلُ ماضيًا؛ لدلَّ على حصولِ الرِّزق في زمنٍ ماضٍ فقط، ولم يشملِ الحاضرَ والمستقبلَ.

وجاءَ في سورةِ الإسراءِ تقديمُ ضميرِ الغائبين على ضميرِ المخاطبين في قوله: ﴿وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَوۡلَٰدَكُمۡ خَشۡيَةَ إِمۡلَٰقٖۖ نَّحۡنُ نَرۡزُقُهُمۡ وَإِيَّاكُمۡۚ إِنَّ قَتۡلَهُمۡ كَانَ خِطۡـٔٗا كَبِيرٗا ٣١﴾ [الإسراء: 31].

وفي قوله: ﴿وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَوۡلَٰدَكُم مِّنۡ إِمۡلَٰقٖ نَّحۡنُ نَرۡزُقُكُمۡ وَإِيَّاهُمۡۖ﴾

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 8/162.

(2) التّطريزُ عند البلاغيّين يأتي على عدّة معانٍ، وهو من البديع، ومن معانيه أن يبتدئ المتكلِّمُ أو الشّاعر بذكر جملٍ من الذّات غيرِ مُفَصَّلة، ثم يُخبر عنها بصفة واحدة من الصّفات مُكرَّرة، للاستزادة يُنظر: ابن أبي الإصبع، تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر، ص: 314.

بدأ هنا ﷻ برزْقِ الوالِدَين، وفي سورةِ الإسْراءِ بَدَأَ برزْقِ الأَوْلادِ، والحكمةُ في ذلك أنَّه قال هنا: ﴿مِّنْ إِمْلَٰقٍ﴾، فالإملاقُ حاصِلٌ، فبَدَأَ بِذِكْرِ رِزْقِ الوَالِدَينِ اللَّذَينِ أَمْلَقَا، أي: ولا تَقتُلوهم مِن فَقْرِكم الحاصِلِ، ولهذا قال تعالى بعدَها: ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾، فبَدَأَ برزقِ المُخاطَبينَ؛ لأنَّه الأهَمُّ هاهنا، والتقديم يعبِّرُ عن التَّوكيدِ والتحذير للآباءِ الملقين الذين كانوا يخافون من الفقرِ والضَّنْكِ بسبب كثرةِ الأولاد، فأولى بهم أن يطمئِنُّوا على رِزقِهم من ربهم قبل أن يشفقوا على رزق أولادهم، ولو كان التَّرتيب عكسيًّا لدلَّ على أنَّ الآباء مطمئنُّون برزقهم، ولكنَّهم يخشون على رزقِ أولادهم، وهذا لا يتَّفق مع حالِ المخاطبين في هذه الآية، وهناك قال: ﴿خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ﴾ [الإسراء: 31] أي: خشيةَ حُصُولِ فَقرٍ في الآجِلِ، فهما غَنِيَّانِ، لكن يَخْشَيَانِ الفَقْرَ، فبَدَأَ بِرِزْقِ الأَوْلادِ قبلَ رِزْقِ الوَالِدَين، للاهتمامِ بهم، أي: لا تَخافوا مِن فَقْرِكم بِسَبَبِهم، فرِزْقُهم على اللهِ[1].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(تعالَوا) و(أقبِلوا):

(تعالَوا): بمعنى طلبِ الإقبالِ مطلقًا، و(أقبِلوا): يدلُّ على مواجهة الشَّيء للشَّيء

تعالَ: فعلُ أمرٍ، أصلهُ يُؤمرُ بهِ من يراد صعودهُ إلى مكانٍ مرتفعٍ فوق مكانهِ، ولعلَّ ذلك؛ لأنَّهم كانوا إذا نادَوا إلى أمرٍ مهمٍّ ارتقى المنادي على ربوةٍ ليسمع صوتَهُ، فأصلهُ فعلُ أمرٍ لا محالةَ من التَّعالي، وهو تكلُّفُ الاعتلاء، ثم نُقِلَ إلى طلبِ الإقبالِ مطلقًا[2].

أمَّا الإقبالُ؛ فيدلُّ على مواجهةِ الشَّيءِ للشَّيء[3]، وقد يكون بعد التَّدابرِ، مثل: كنَّا مدبرين، فأقبلنا؛ إذ يُقبِل النَّاس على بعضِهم؛ لأنَّ

(1) ابن كثير، تفسير ابن كثير: 3/362، والشنقيطي، أضواء البيان: 1/544، وأحمد أحمد البدوي، من بلاغة القرآن، ص: 94، وابن عثيمين، القول المفيد على كتاب التوحيد: 1/37.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 8/157.

(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قبل).

لهم شأنًا مشتركًا يريدون مناقشتَهُ، قال تعالى: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ۝٢٧﴾ [الصافات: 27]، وقال تعالى: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَٰوَمُونَ ۝٣٠﴾ [القلم: 30]، حصل شيءٌ خطأً، واجتمعوا لمناقشتهِ وتصحيحه.

(التِّلاوة) و(القراءة):

التِّلاوة أخصُّ مِن القراءةِ، فكلُّ تلاوةٍ قراءةٌ، وليس كلُّ قراءةٍ تلاوةً

في الأصل: (تلا) تُستعمل للقراءة من مكتوبٍ بصوت، ويُتسامح فيها، فتكونُ من غير مكتوبٍ لكن بصوتٍ، و(قرأ) تُستعمل للقراءةِ من مكتوبٍ ومن غير مكتوبٍ، بصوتٍ وبغير صوتٍ؛ فإذا عُدِّيا بـ (على) فهُما بصوتٍ ولا بدَّ.

وقد أشارَ أبو هلالٍ إلى فرقٍ آخرَ، خلاصتُهُ أنَّ التِّلاوة تكون فيما يطولُ، أي: يكثر من الكلام؛ ووجودُ عنصرِ التَّلاحق أخذًا مِنَ الاتِّباع واللّحاق في استعمالاتِ التَّركيبِ يُتيح ذلك[1].

وقال الرَّاغبُ: إنَّ التِّلاوةَ أخصُّ من القراءةِ؛ لأنَّ التِّلاوةَ تختصُّ بما يُتْبع، وقال في هذا السِّياق: "فكلُّ تلاوةٍ قراءةٌ، وليس كلُّ قراءةٍ تلاوةً (فإنَّه) لا يُقال: تلوتُ رقعتَكَ، وإنَّما يقال في القرآنِ في شيءٍ؛ إذا قرأتَهُ وجبَ عليك اتِّباعه". وأنا أكادُ أقطع بأنَّ الأمرَ التبسَ على الإمامِ؛ فإنَّ الذي منع (تلوتُ رقعتك) هو أنَّ التِّلاوةَ لا تكون إلَّا بصوتٍ، والرُّقعة المرسَلةُ من شخصٍ إلى شخصٍ خاصَّةً ليس الشَّأنُ فيها أن تُقرأَ علنًا، فهذا هو الذي منعَ، لا أنَّ الرقعةَ ليست ممَّا يُتبعُ[2].

(الفقر) و(الإملاق):

(الفقرُ): ما مسَّت الحاجةُ إليه، و(الإملاق): أسوأ حالًا منه لما فيه من الخضوع والتَّضرُّع

الفرقُ بينهما أنَّ الثَّانيَ سببٌ في الأوَّلِ ومسبَّبٌ عنه؛ فالفقرُ: لفظٌ عامٌّ يُطلق على ما مسَّت الحاجةُ إليه، بل هو كلُّ ما يحتاجُ إليه الإنسان ليُصلحَ حياتَهُ الدنيويَّةَ؛ وصِفته (الفقير) - بصيغة فعيل -

(1) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 140.
(2) الرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (تلى - تلو).

في معنى الثُّبوتِ والدَّوام؛ فالفقرُ في أصلِ الوضعِ اللُّغويِّ إطلاقٌ عامٌّ على عدم الحاجة الضَّروريَّة.

والإملاقُ: الإنفاقُ وامتلاكُ الحاجة، ويُطلق على حالةٍ من الإنفاق والإسرافِ فيه بحيثُ تؤدِّي الحالةُ إلى فَناءِ المالِ وزواله؛ وذهابُهُ يؤولُ بصاحبهِ إلى العَوَز والحاجة؛ والعَوَزُ والحاجةُ يترتَّبُ عليها حالة الفَقر[1].

(الفواحش) و(الكبائر):

(الفواحش): كلُّ معصية يُتَجرَأ فيها على الله، والكبائرُ أخص منها

الكبائرُ هي التي رتَّبَ اللهُ تعالى عليها عقوبةً دنيويَّةً كالحدود والكفَّارات، أو رتَّبَ عليها لعنًا، أو رتَّبَ عليها عذابًا أُخرَويًّا؛ هذا هو ضابطُ كبائرِ الإثم.

وأمَّا الفواحشُ؛ فهي الَّتي تقتضي من صاحِبها رقَّةَ وازعِهِ، وجراءتَهُ على اللهِ ﷻ؛ فالَّذي يتجرَّأُ على الله ﷻ بصغيرةٍ، فإنَّ ذلك يُصيِّرها فاحشةً؛ لأنَّه إذا لم تسُؤْهُ سيِّئتهُ فهو ناقصُ الإيمانِ؛ وحالُ المُؤمِنِ مع ذُنوبِه كرجلٍ قاعدٍ تحْتَ جبَلٍ يَخافُ أنْ يَقَعَ عليه؛ ومَن وقَعَ عليه الجبلُ فلا يُظَنُّ له نَجاةٌ، فالمُؤمِنُ ينظُرُ إلى عَظَمةِ اللهِ ﷻ، وجَلالِه، وعِزِّ سُلطانِه، وغِناهُ عن خَلْقِه، وفَقْرِ خَلْقِهِ إليه، وأنَّ يَسيرَ المعصيةِ له ﷻ ليس بيسيرٍ عند المُؤمِنِ؛ فلذلك يرى كأنَّه قاعدٌ تحت جَبَلٍ مِن خَوفِ ما أتى.

وأمَّا الفاجرُ - وهو الفاسِقُ المُستهتِرُ - فينظُرُ إلى ذنوبِهِ باستخفافٍ، حتى إنَّه يرى الفواحشَ والذُّنوبَ سَهلةً يسيرةً، فكأنَّها ذُبابٌ مرَّ على أنْفِه، فأشار بيَدِه، فذَهَب الذُّبابُ ولم يُؤثِّرْ فيه، لا لخِفَّةِ ذُنوبِه، ولكِنْ لخِفَّةِ إيمانِه باللهِ سُبحانَه، كما قال ابن مسعود رضي الله عنه: «إنَّ المُؤْمِنَ يَرى ذُنُوبَهُ كَأَنَّهُ قاعِدٌ تَحْتَ جَبَلٍ يَخافُ

(1) ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث والأثر: (ملق)، ونهاد العاني، النّص اللّغوي بين السبب والمسبّب، ص: 104، و105.

أنْ يَقَعَ عليه، وإنَّ الفاجِرَ يَرى ذُنُوبَهُ كَذُبابٍ مَرَّ على أنْفِهِ، فقالَ به هَكَذا»[1].

(الوصيَّة) و(النَّصيحة) و(الإنذار):

قال الطِّيبِيُّ رحمه الله: النصيحةُ والوصيَّةُ متقاربان، والأقربُ أنَّ بينهما فرقًا؛ فإنَّ النَّصيحةَ هي إرادةُ الخيرِ للمنصوح له، فيُرادُ بها حقوقُ العبادِ؛ وبالوصيةِ متابعةُ الأمر والنَّهي من حقوقِ الله تعالى[2]، أمَّا الإنذارُ؛ فكلمةٌ تدلُّ على تخويفٍ أو تخوُّفٍ، ومعناه: الإبلاغُ، ولا يكاد يكونُ إلَّا في التَّخويفِ[3]، وهو فرعٌ عن النَّصيحةِ مُستَقِلًّا.

(الوصية): متابعةُ الأمر والنَّهي، و(النَّصيحةُ): إرادةُ الخيرِ للمنصوح، ومنها الإنذارُ مع التَّخويف

(1) البخاري، الجامع الصحيح، الحديث رقم: (6308).
(2) الطّيبي، فتوح الغيب: 11/67.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نذر).

﴿وَلَا تَقۡرَبُواْ مَالَ ٱلۡيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ حَتَّىٰ يَبۡلُغَ أَشُدَّهُۥۚ وَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ وَٱلۡمِيزَانَ بِٱلۡقِسۡطِۖ لَا نُكَلِّفُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۖ وَإِذَا قُلۡتُمۡ فَٱعۡدِلُواْ وَلَوۡ كَانَ ذَا قُرۡبَىٰۖ وَبِعَهۡدِ ٱللَّهِ أَوۡفُواْۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ١٥٢﴾ [الأنعام: 152]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الرَّبطُ بين وصايا لإصلاحِ الفردِ، ووصايا لإصلاحِ المجتمعِ

بعد أن ذكرَ اللّهُ تعالى في الآية السَّابقة جملةً من الوصايا المتعلِّقة بالتَّوحيد، وعدم الإشراك باللّه، وأمر ببرِّ الوالدين، ونهى عن قتل الأولاد، فلا تُقتلُ النَّفس إلَّا بحقِّها ممَّا هو من الوصايا الخاصَّة بالفرد، وبأقرب الأقربين إليه، وبخاصَّة أهل بيته، فقد أكمل الوصايا في هذه الآية بالتَّعاملات مع عموم النَّاس بدءًا باليتيم، فنهى عن أكل مال اليتيم، وبإيفاء الكيل والميزان، باعتبار حفظ حقوق النَّاس وغيرها، وهو ربط عقلانيٌّ وضروريٌّ، ممَّا ينصلحُ به الحال، وينتظمُ به المآل، وتسعد به الأسرة، ويهنأ به المجتمع.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿لَا تَقۡرَبُواْ﴾ و﴿ذَا قُرۡبَىٰۖ﴾: جذر الكلمة هو (قرب)، القُرْبُ والبُعد يتقابلان، يقال: قَرُبْتُ منه أَقْرُبُ[1]، والقُرابُ: مُقاربةُ الشَّيء، تقول: معه ألف درهمٍ أو قُرابُ ذلك، ومعه ملْءُ قدحٍ ماءً أو قُرابُهُ[2]، وبينهم قُربةٌ وقُربى وقَرابة، وهو قريبي وقرابتي، وبيننا نسبٌ قريبٌ[3]، والقريبُ يستوي فيه الذَّكر والأنثى، والفرد

(1) الخليل، العين، والرّاغب، المفردات: (قرب).
(2) الخليل، العين: (قرب).
(3) الزّمخشريّ، أساس البلاغة: (قرب).

والجميع[1]، ويستعمل القرب في المكان: كقولهِ تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾ [البقرة: 35]، والزَّمانِ: كقولهِ تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ﴾ [القمر: 1]، والنِّسبةِ: كقولهِ تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ [المائدة: 106]، والحُظْوةِ: كقولهِ تعالى: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ ۝٢٨﴾ [المطفِّفين: 28]، والرِّعايةِ: كقولهِ تعالى: ﴿فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾ [البقرة: 186]، والقدرةِ: كقولهِ: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ۝١٦﴾ [ق: 16][2].

2) ﴿ٱلْيَتِيمِ﴾: جذرُ الكلمةِ هو (يَتَمَ)، اليُتْمُ: انقطاع الصَّبيِّ عن أبيه قبل بلوغه[3]، واليَتيمُ جمعهُ أيتامٌ، واليُتم في النَّاس من قِبَل الأب[4]، وفي البهائم من قبل الأمِّ، ويقال: أيتمت المرأة، أي: صار أولادها أيتامًا[5]، وكلُّ منفردٍ يتيمٌ، يُقال: دُرَّةٌ يتيمة، تنبيهًا على أنَّه انقطعت مادَّتُها التَّي خرجت منها، وقيل: بيت يتيمٌ، تشبيهًا بالدُّرَّة اليتيمة[6]، وما في سيره يُتْمٌ: ضَعْف وفتور، وهو مستعار من حال اليتيم[7]، واليُتْم: الانفراد، وأنشدنا:

أَفَاطِمَ إنِّي ذَاهِبٌ فَتبيَّنِي *** وَلَا تَجْزَعِي كُلُّ النِّسَاءِ يَتِيمُ[8]

3) ﴿أَشُدَّهُۥ﴾: من الأُشُدِّ: وهو اسمٌ يدلُّ على قوَّة الإنسان، وهو مشتقٌّ من الشَّدِّ، وهو التَّوثُّق، والشَّدُّ: العقد القويُّ، يقال: شددتُ الشَّيءَ: قوَّيتُ عقده، قال: ﴿وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ﴾ [الانسان: 28]، وقوله: ﴿فَشُدُّواْ ٱلْوَثَاقَ﴾ [محمَّد: 4]، والشِّدَّةُ تُستعمل في العقد وفي البَدَن، وفي قوى النَّفس، وفي العذاب، قال: ﴿وَكَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ [فاطر: 44][9]، ورجل شديدٌ، وشديد القوى، وقوم شِداد وأشدَّاء[10]، والأشدُّ: مبلغ الرَّجل الحنكة والمعرفة، وقال اللّه ﷻ: ﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ﴾ [الإسراء: 34][11].

4) ﴿ٱلْكَيْلَ﴾: مصدر كِلْتُ الطَّعامَ كيلًا ومكالًا ومكيلًا أيضًا، وهو شاذٌّ؛ لأنَّ المصدر

(1) الخليل، العين: (قرب).
(2) الفيروزابادي، بصائر ذوي التّمييز: 4/253.
(3) الرّاغب، المفردات: (يتم).
(4) الخليل، العين، وابن سيده المرسي، المحكم والمحيط الأعظم، الجوهريّ، الصّحاح: (يتم).
(5) الجوهريّ، الصّحاح: (يتم).
(6) الرّاغب، المفردات: (يتم).
(7) الزّمخشريّ، أساس البلاغة: (يتم).
(8) البيت لعبد قيس بن خفاف البرجميّ في النّوادر في اللّغة: 126، وينظر: الأنباريّ، الزّاهر: 1/129.
(9) الرّاغب، المفردات: (شدد).
(10) الزّمخشريّ، أساس البلاغة: (شدد).
(11) ابن منظور، لسان العرب: (شدد).

من فعَل يفعِل مفعل، يقال: ما في برك مكال، وقد قيل: مكيلٌ، عن الأخفش[1]، والكَيلُ كَيل الطَّعام، يقال: كِلْتُ له الطَّعام: وكِلْتُهُ الطَّعامَ؛ إذا أعطيته كَيْلًا، واكْتَلْتُ عليه: أخذت منه كيلًا[2]، قال الله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝٣﴾ [المطفِّفين: 1 - 3]، وقوله: ﴿فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ﴾ [يوسف: 88]، وقوله: ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا نَكْتَلْ﴾ [يوسف: 63]، وقوله: ﴿كَيْلَ بَعِيرٍ﴾ [يوسف: 65]، مقدارُ حِملِ بَعيرٍ[3]، وكايلتُ بين أمرين، أي: نظرتُ بينهما أيُّهما الأفضلُ[4].

5) ﴿وَٱلْمِيزَانَ﴾: آلةُ الوزن، وأصلهُ: مِوْزَان، وهذا يزن درهمًا، ودرهم وازنٌ، أي: تامٌّ[5]، الوزن: معرفة قدر الشَّيء، يُقال: وزنته وزنًا وزِنَةً، والمُتعارف في الوزن عند العامَّةِ ما يُقدَّر بالقسطِ والقَبَّان، وقوله: ﴿وَزِنُواْ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ﴾ [الإسراء: 35، الشُّعراء: 182]، وقوله: ﴿وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝٣﴾ [المطفِّفين: 3][6]، قال الشَّاعر يصف الميزان:

وَلَقَدْ قَعدْتُ إِلَى حُكُومَةِ حَاكِمٍ *** بِلِسَانِهِ يَقْضِي وَلَا يَتَكَلَّمُ[7]

6) ﴿بِٱلْقِسْطِ﴾: من الإقساطِ: وهو العدلُ في القِسمة والحُكْم، وتقول: أَقسَطْتُ بينهم، وأَقسَطْتُ إليهم، والقِسْطُ: الحصَّة التي تنوبه، وتقسطوا بينهم الشَّيء، أي: اقتسموه بالتَّسوية، فكلُّ مقدار قسط في كلِّ شيء، والقِسطاسُ والقُسطاسُ: أقوم الموازين[8]، والقِسط بكسر القاف: العَدْلُ[9]، قَالَ تعَالَى: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِٱلْقِسْطِ﴾ [الأعراف: 29]، ويَسْتَوِي فيهِ الواحدُ والجَمِيعُ، وقولُه تعَالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ﴾، أَي: ذواتِ القِسْطِ، أَي: العَدْلِ، وقولُه تعَالى: ﴿ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: 282]، أَي: أَقْوَمُ وأَعْدَلُ، كالإِقسَاطِ، يُقال: قَسَطَ في حُكْمِهِ، وأَقْسَطَ، أَي: عَدَلَ، فَهُوَ مُقْسِطٌ، وَفِي أَسْمَائِه تَعَالَى الحُسْنَى: المُقْسِطُ: هو العادِلُ[10].

(1) الجوهريّ، الصّحاح تاج اللّغة وصحاح العربيّة: (كيل).
(2) الخليل، العين، وابن سيدة، المُحكم والمحيط الأعظم، والرّاغب، المفردات: (كيل).
(3) الرّاغب، المفردات: (كيل).
(4) الخليل، العين: (كيل).
(5) الجوهريّ، الصِّحاح: (وزن).
(6) الرّاغب، المفردات: (وزن).
(7) أبو عمرو الشّيبانّي، كتاب الجيم: 3/17.
(8) الخليل، العين: (قسط).
(9) الأزهريّ، تهذيب اللغة: (قسط).
(10) الزّبيديّ، تاج العروس: (قسط).

7) ﴿نُكَلِّفُ﴾: جذر الكلمة هو (كلف)؛ والكَلَفُ الإيدَاعُ بالشَّيءِ، وتكلُّفُ الشَّيءِ ما يَفعَلُه الإنسانُ بإظهارِ كَلَفٍ مَعَ مَشَقّةٍ تَنَالُه في تَعاطيهِ، وصارت الكُلْفَةُ في التّعارفِ اسْمًا لِلمَشَقّةِ، والتَّكَلُّفُ: اسْمٌ لما يُفْعَلُ بِمشقّةٍ، وتَكَلّفتُ الشَّيْءَ تَجَشَّمْتُهُ[1]. ومثاله ما ورد في الآية، قَوْلُه: ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: 286][2].

8) ﴿وُسْعَهَا﴾: جَذْرُ الكلمة هو (وسع)؛ وَالوُسْعُ: الجِدَةُ وَالطَّاقَةُ[3]، والسَّعَةُ تُقالُ في الأمكِنَة، وفي الحال، وفي الفعل، كقوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [الذّاريات: 47]؛ أَيْ: أَغْنِياءُ قادرون[4]، وكقوله تعالى: ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ﴾ [الطلاق: 7] وقوله: ﴿وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ﴾ [البقرة: 236]، ومعنى ﴿وُسْعَهَا﴾ في الآية: أي قَدْرُ إمكانها[5].

9) ﴿وَبِعَهْدِ﴾: العَهْدُ: حِفْظُ الشَّيء ومراعاته حالًا بعد حالٍ، وسُمِّي الموثق الَّذي يلزم مراعاته: عَهْدًا، قال: ﴿وَأَوْفُواْ بِٱلْعَهْدِ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴿٣٤﴾﴾ [الإسراء: 34]، أي: أوفوا بحفظ الأيمان، وعَهِدَ فلان إلى فلان يَعْهَدُ، أي: ألقى إليه العهد وأوصاه بحفظه، قال: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ﴾ [طه: 115]، وعَهْدُ اللّهِ تارة يكون بما ركزه في عقولنا، وتارة يكون بما أمرنا به بالكتاب وبالسُّنَّة رسله، وتارة بما نلتزمه وليس بلازم في أصل الشَّرع كالنُّذور، وما يجري مجراها، وعلى هذا قوله: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ﴾ [التَّوبة: 75]، ﴿أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُواْ عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم﴾ [البقرة: 100][6].

10) ﴿أَوْفُواْ﴾: أمر الفعل أوفى، ومنه الوافي الَّذي بلغ التَّمام، يقال: درهم وَافٍ، وكَيْلٌ وَافٍ، وأَوْفَيْتُ الكيلَ والوزنَ، قال تعالى: ﴿وَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ﴾ [الإسراء: 35]، وَفَى بعهده يَفِي وَفَاءً، وأَوْفَى: إذا تمَّم العهد، ولم ينقض حفظه[7]، وقوله: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ﴾ [آل عمران: 76][8]، وقد أمر اللّه بالوفاء، وقال الزَّجّاج في قوله: ﴿أَوْفُواْ بِٱلْعُقُودِ﴾ [المائدة: 1]: خاطب

(1) الجوهريّ، الصِّحاح: (كلف).
(2) الرّاغب، المفردات: (كلف).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (وسع).
(4) الجوهريّ، الصِّحَاح: (وسع).
(5) الزّجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 1/313.
(6) الرّاغب، المفردات: (عهد).
(7) الجوهريّ، الصِّحاح، والرّاغب، المفردات: (عهد).
(8) الرّاغب، المفردات: (عهد).

اللّه – جلَّ وعزَّ- المؤمنين بالوفاء بالعقود الَّتي عقدها عليهم، والعقود الَّتي يعقدها بعضهم على بعض، على ما يوجبه الدِّين[1].

المَعْنى الإجْماليُّ:

وصايا لحفظِ الحقوقِ، والقِسطِ في الموازينِ، والعدلِ في الأقوالِ والأحكامِ

هذه الآية مسوقةٌ لبيان بعض المحرَّمات من الأفعال الَّتي أوصى فيها اللّهُ تعالى باليتيم، وأمر بالوفاء بالكيل والميزان بالقسط، من غير عنتٍ ولا تكلُّفٍ، ثمَّ انتقل إلى الأمر بالعدل في الأقوال، ولو كان مع ذي القُربى، فلا يكون القولُ إلَّا صدقًا فصيحًا، وعدلًا صريحًا، ولا يكون للقرابة تفضيل في الاحتكام، ولا شفاعة في الأحكام، بل ينبغي الإنصاف وقول الحقِّ[2]، ثمَّ ختمها بقوله: ﴿ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾[3].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ العطفِ في قولِهِ: ﴿وَلَا تَقۡرَبُواْ مَالَ ٱلۡيَتِيمِ﴾:

حفظُ قواعدِ التَّعامُلِ الإنسانيِّ، تبني مجتمعًا متماسكَ المباني

عَطَفَ السِّياقُ جملة: ﴿وَلَا تَقۡرَبُواْ﴾ على الجملة الَّتي فَسَّرت فعل: ﴿أَتۡلُ﴾ [الأنعام: 151]، فعطف محرَّماتٍ ترجع إلى النَّهي عن الإشراك باللّه، فتوحيد اللّه أوّلًا، ثُمَّ الأمر بالإحسان للوالدين، واحترام رزق اللّه في الذُّرِّيَّة، والنَّهي عن الفواحش وقتل النَّفس، وهذا كلُّه يُؤسِّس لحفظ قواعد التَّعامل بين النَّاس لإقامة قواعد المجتمع الإنسانيِّ وتحقيق ثقة النَّاس بعضهم ببعض[4]، فكانت هذه النَّواهي خاصَّة بالمخاطَب نفسِه، وما يدور في فلك حياته الدَّاخليَّة، ثمَّ عطف بالنَّهي – في هذه الآية – عن قرب مال اليتيم، وخصَّه بالذِّكر، والأمر بإيفاء الكيل، والقول بالعدل، باعتبارها جملةَ نواهٍ وأوامرَ متعلِّقة بالعلاقات

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (عقد).
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/168.
(3) الموصلّي، أولى ما قيل: 3/392.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/162.

الخارجيَّة مع عموم النَّاس في المجتمع، ويقوم ذلك كلُّه على الإيمان بالله وبالرَّسول، باعتباره ﷺ هو الذي يتلو عليهم آيات الله وحيًا أوحاه الله إليه، ويأمرهم بأوامر الله، وينهاهم عمَّا نُهوا عنه.

التَّرقِّي في عطفِ الأوامرِ والنَّواهي في الآيةِ الكريمةِ:

مكانةُ اليتيمِ المِحْوَريَّةُ منَ المَنظورِ الأُسْريِّ والمُجتمعيِّ

بدأَ بذكْرِ الإيمانِ وخواطر القلب والنَّفس، ثم ذِكْر الوالدين، ثمَّ ذِكْر الأبناء، ثم انتقل إلى ما هو دخيل على الأسرة، وهو اليتيم، ليجعل له مكانة عظيمة عند الأُسَرِ الكافلة، فخصَّ حفظ حقِّ الضَّعيف الَّذي لا يستطيع الدَّفع عن حقِّه في ماله، وهو اليتيم، فقال: ﴿وَلَا تَقْرَبُواْ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾، فأفاد العطف صلة بين الجملتين، وأسَّسَ لرؤية دقيقة في حفظ الحقوق كلِّها صغيرها وكبيرها، ثُمَّ انتقل إلى العلاقات المُجتمعيَّة، فتطرَّق إلى العدل والقسط بالميزان والحُكم بين النَّاس، والعدل في القول، والوفاء بالعهد، فجمع بذلك منظومة متكاملة لأصول التَّعامل بين النَّاس، ممَّا يحقِّق ثبات المجتمع والدِّين معًا.

خروجُ النَّهي إلى معنى التَّحذيرِ في قوله: ﴿وَلَا تَقْرَبُواْ﴾:

سدُّ الذَّرائعِ في إنفاقِ مالِ اليتيمِ، وتحاشي كلِّ تصرُّفٍ أثيمٍ

قولهُ: ﴿وَلَا تَقْرَبُواْ مَالَ ٱلْيَتِيمِ﴾ نهيٌ عن القرب الَّذي يَعُمُّ وجوه التَّصرُّف، وفيه سدُّ الذَّريعة، ثمَّ استثنى ما يحسن، وهو التَّثمير والسَّعي في نمائه[1]، وقد خرج النَّهي في الجملة إلى معنى التَّحذير من أخذ مال اليتيم، ولو بأقلِّ أحوال الأخذ؛ لما في اليتيم من ضعف، وعدم تمكُّن من الدِّفاع عن نفسه وماله، وعدم دراية بالمصلحة المنوطة بصور إنفاق المال؛ إذ مطلق التَّصرُّف المعتاد في المال المستفاد، يقتضي قوَّةً تُسْعِف، ومُكْنَةً تُؤهِّل، وتجربة تعصم من الزَّلل، وتقي من الخلل، وهو ما لا يملكه اليتيم اليافع، المكسور الجناح، فكان حريًا بكافله، أن يحمي ماله في الغدوِّ والرَّواح.

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/362.

دلالةُ مادَّةِ القرب وصيغة المضارعِ في قوله: ﴿وَلَا تَقۡرَبُواْ﴾:

التَّحذيرُ المتُجدِّدُ من قربانِ مالِ اليتيمِ: ضمانٌ ووِقايةٌ وتحصينٌ

إنَّ دلالة فعل المُضارع ﴿تَقۡرَبُواْ﴾ على التَّجدُّد في الحدث مع الزَّمان واضحة عند التَّأمُّل للعيان؛ إذ يفيد التَّحذيرَ المستمرَّ من قربان مال اليتيم، فالتَّجدُّد في القربان والتَّحذير منه متجدِّدٌ في كلِّ وقت، ولعلَّ في ذلك تعريضًا بالنَّفس وميلها إلى مال اليتيم، باعتباره مال الضَّعيف الذي لا يستطيع الدَّفع عن حقِّه، فجاء الفعل بصيغة المضارع ليُعالج تردُّدات النَّفس مع الزَّمن في قرب مال اليتيم، فيحذِّره من قربه.

بلاغةُ الكنايةِ في قولهِ: ﴿وَلَا تَقۡرَبُواْ مَالَ ٱلۡيَتِيمِ﴾:

النَّهيُ عن قربِ مالِ اليتيمِ أبلغُ من النَّهيِ عن تناولِهِ والتَّعاملِ بِهِ

النَّهي عن قرب مال اليتيم أبلغ من النَّهي عن تناوله أو أخذه، وممَّا يشبه ذلك في القرآن الكريم قوله: ﴿وَلَا تَقۡرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾ [البقرة: 35]؛ كناية عن مجرَّد التَّفكير في الدُّنوِّ منها، وقوله: ﴿وَلَا تَقۡرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطۡهُرۡنَ﴾ [البقرة: 222]؛ كناية عن الجماع وما يُوَصِّل إليه، وقال: ﴿وَلَا تَقۡرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓ﴾ [الإسراء: 32][1]. و(القِربان) كناية عن ملابسة مال اليتيم، فكان الأمر بالحذر من التَّصرُّف فيه إلَّا بما ينفع اليتيم، ويصبُّ في مصلحته وفائدته، كما تقدَّم في قوله: ﴿وَلَا تَقۡرَبُواْ ٱلۡفَوَٰحِشَ﴾ [الأنعام: 151]، والنَّهي عن القرب، يعمُّ وجوه التَّصرُّف، وفيه سدُّ الذَّريعة؛ لأنَّه إذا نهى عن قرب الوكيل من المال؛ كان النَّهي عن أكله أولى[2].

نكتةُ البدءِ بالنَّهي عن قربِ مال اليتيمِ:

قضيَّةُ مالِ اليتيمِ أنموذجٌ لتحصينِ كلِّ مالٍ تطمحُ إليهِ النُّفوسُ

بَدَأ في هذه الآية بالنَّهي عن أكل مال اليتيم في قوله ﴿وَلَا تَقۡرَبُواْ مَالَ ٱلۡيَتِيمِ﴾، وصلًا بين مجموعتين من الأوامر والنَّواهي، فجعل المجموعة الأولى فيما يتعلَّق بعقيدة الإنسان ونفسه ووالديه وخاصَّته من أسرته،

(1) الرّاغب، المفردات: 1/665.
(2) الفاسّي، البحر المديد: 2/186.

وجعل المجموعة الثَّانية فيما يهتم بالفرد وعلاقته بمجتمعه ومعاملاته للآخر، فكانت قضيَّةُ اليتيم وفق هذا التَّرتيب محورًا، وهمزة وصلٍ، فقضيَّة اليتيم حالةُ وَصْلٍ بين المجموعتين، باعتباره فردًا من خارج الأسرة، ثمَّ إنَّه داخلٌ فيها بحكم الوصاية عليه.

نُكتَةُ توجيهِ الأمر إلى الجماعة ﴿وَلَا تَقۡرَبُواْ﴾:

رِعايَةُ اليَتيمِ قَضِيَّةٌ جَماعِيّة ومَسْؤولِيّةٌ مُجْتَمَعيّةٌ

جَعَلَ الخطابُ القرآنيُّ قضيّةَ اليَتيمِ قَضيّةَ مجموعِ الأمّةِ، فقال: ﴿وَلَا تَقۡرَبُواْ﴾؛ ولم يَقْتَصِرْ على خِطاب الفَردِ، كَأَنْ يقولَ: (ولا تَقرَبْ)، فجَاءَ النَّهيُ عامًّا لِلمُجْتمعِ كُلِّه، بَيْنَمَا عادةً ما يَكونُ اليَتيمُ في رِعايةِ واحدٍ أو اثْنين مِنَ الأفراد، فبَيّنَ بصيغة الجمع أنّها قضيّةُ الجميع، وأنّ مسؤوليّة المجتمع لا تَسْقطُ عن حِفْظ مال اليتيم حتّى وإنْ كانَ لهُ كفيل يرعى شؤونه، فأفادَ النّهْيُ الجَمْعيُّ حُرمَة أن يكون التَّعَدّي على مال اليتيم ظاهرةً اجتماعيّة، أو أسلوبًا مُنظّمًا تَتَبَنّاه مؤسّساتٌ أو جَمعيّاتٌ لا أخلاقيّة، وهذه مَسْألةٌ توقِظُ في المجتمعِ التَّكافُل، وتوقِدُ جِذْوَةَ المسؤوليّة المجتمعيّة تُجاهَ الضّعفاء مِنْهم.

دلالةُ (ال) في لفظِ ﴿ٱلۡيَتِيمِ﴾:

جميعُ أفرادِ جنسِ اليتيمِ مقصودةٌ في الآيةِ

التَّعريف في لفظ ﴿ٱلۡيَتِيمِ﴾ في قولِه: ﴿وَلَا تَقۡرَبُواْ مَالَ ٱلۡيَتِيمِ﴾ لاستغراق كلِّ أفراد الجنس، وذلك نحو قوله: ﴿وَخُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ ضَعِيفٗا ٢٨﴾ [النّساء: 28]، فلا يشِذُّ واحدٌ من أفراد الجنس عن هذا الضَّعفِ البشريِّ، وكذلك في قوله: ﴿وَلَا تَقۡرَبُواْ مَالَ ٱلۡيَتِيمِ﴾، فالنَّهي جارٍ على أموال كلِّ أفراد جنس اليتيم، والأحكام ساريَةٌ عليهم في كلِّ زمان ومكان، مهما كان مستوى اليتيم الاجتماعيّ والمادّيّ، فضمان حقوقه راجعٌ إلى مراعاة حالته النَّفسيَّة، الّتي لا فرق فيها بين يتيم غنيٍّ، ويتيم فقير، فالكلُّ في ميزان الزَّمان، فاقِدٌ للعطف والحماية والحنان.

دلالةُ ذكرِ ﴿ٱلۡيَتِيمِ﴾ بالإفرادِ دونَ الجمْعِ:

إفرادُ مالِ اليتيمِ تسليطٌ للضَّوءِ عن قُربٍ على قضيَّةٍ عامةٍ في المجتمعِ

خصَّ اليتيم بالذِّكر فيما أمَرَنَا به من ذلك في قوله: ﴿وَلَا تَقۡرَبُواْ مَالَ ٱلۡيَتِيمِ﴾، لعجزه عن الانتصار لنفسه، وتأكُّد الأطماع في ماله، فلا جرم أكَّد النَّهي عن أخذ ماله بتخصيصه بالذّكر[1]، وأموال النَّاس ممنوع من قربانها[2]، كما أنَّ لإفراد اليتيم دورًا في تسليط الضَّوء على الواحد من اليتامى، وذلك لعظيم الاهتمام به، ومعاينة ما فيه من العجز عن قرب، وفي ذلك ترشيحٌ لأن يكون التَّعبير في قوله: ﴿وَلَا تَقۡرَبُواْ مَالَ ٱلۡيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾، كالمثل السّائر، وقال: ﴿مَالَ ٱلۡيَتِيمِ﴾ بالمفرد، ولم يقل: (أموال اليتامى) بالجمع؛ تسليطًا للأضواء على كلِّ مال من أموال اليتامى، واهتمامًا بعظيم هذا التَّحذير، لكنَّه في موضع سابق قال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلۡيَتَٰمَىٰ ظُلۡمًا إِنَّمَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ نَارٗاۖ وَسَيَصۡلَوۡنَ سَعِيرٗا ١٠﴾ [النّساء: 10]، فلمَّا ذكر القُرب؛ أفرد، ولمَّا ذكر الأكل؛ جمع، فمن بلغ درجة أن يأكل من أموال اليتامى؛ فإنَّه سوف تتنوَّع عنده الحجج في الأكل، وتتعدَّد تسويغاته لها، وما ذاك إلَّا من تزيين الشَّيطان له، أمَّا عدم قرب مال اليتيم، فهو شكل واحد لا يتعدَّد.

وجهُ تخصيصِ مالِ اليتيمِ بعدم القرب منه:

مالُ اليتيمِ في كنفٍ ضَعيفٍ؛ تعصفُ بهِ الأطماعُ في كلِّ الظُّروفِ

خصَّصَ اللّه سبحانه حفظَ مال اليتيم بالذِّكر في قوله سبحانه ﴿وَلَا تَقۡرَبُواْ مَالَ ٱلۡيَتِيمِ﴾، دون غيره من الحقوق الكثيرة في الحياة الإنسانيَّة؛ لأنَّ حقَّ اليتيم هو مظنَّة الاعتداء عليه من الأولياء أو الكُفلاء، دون أن يكون له مَنْ يدفع عنه ذلك الظُّلم ويُبعِدَ عنه الحَيْفَ، وقد خاطب تعالى نبيَّه ﷺ، فقال: ﴿أَلَمۡ يَجِدۡكَ يَتِيمٗا فَـَٔاوَىٰ ٦﴾ [الضّحى: 6]؛ لأنَّ اليتيم مظِنَّة الإضاعة، فلم يلتفت القرآن الكريم

(1) إلكيا الهراسّي، أحكام القرآن: 3/128.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/688.

هنا إلى الحقوق الأخرى - وهي كثيرة - بل جعل حقَّ اليتيم محورًا للحقوق كلِّها؛ ليدفع هو عنه الظُّلم.

بلاغةُ الاستثناءِ في قولِهِ تعالى: ﴿إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾:

حفظُ مالِ اليتيمِ وإنماؤهُ أمرٌ محمودٌ عند اللهِ وعند النَّاسِ

لقدِ استُثني من قرب مالِ اليتيم ما يُحقِّق المصلحة لليتيم في حفظ ماله خزنًا أو استثمارًا وتصرُّفًا، فقال: ﴿إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾، أي: إلَّا بالحالة الَّتي هي أحسن، و﴿إِلَّا﴾ أداة استثناء، وهي في هذا السياق تدلُّ على الحصر لسبقها بالنّهي بحرف (لا)، والاستثناء مُفرَّغ بالنَّفي وحذف المستثنى منه، والجارُّ والمجرور متعلِّقان بالفعل ﴿تَقۡرَبُواْ﴾ على معنى: ولا تقربوا مال اليتيم إلَّا بالخصلة التي هي أحسن، فهما صفةٌ لمصدر محذوف تقديره: (الخصلة)[1].

الباءُ للمُلابَسةِ في قولِهِ: ﴿إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾:

ضمانُ النَّفسِ في توكيدِ حسنِ النِّيَّةِ ضرورةٌ عندَ التَّعاملِ معَ مالِ اليتيمِ

الباء في قوله تعالى ﴿إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ للمُلابسة، أي: لا تقربوا مال اليتيم إلَّا ملابسين للخصلة أو الحالة التي هي أحسن حالات القرب، أي: إلَّا بالدُّنُوِّ الأحسن من ماله تصرُّفًا وإنفاقًا ورعايةً، فلا يحلُّ التَّصرُّف في مال اليتيم إلا بحسب رؤية صائبة صادقة في إنماء ماله وتحقيق مصالحه فيه.

نكتةُ التَّعبيرِ بالاسمِ الموصولِ في قولِهِ: ﴿إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾:

التَّصرُّفُ بالَّتي هي أحسنُ غلْقٌ لأبوابِ الطَّمعِ في مالِ اليتيمِ

اسم الموصول صفةٌ لموصوفٍ محذوفٍ، يُقَدَّر مناسبًا للموصول الَّذي هو اسم للمؤنَّث، فيقدَّر بالحالة أو الخَصلة، وقد التزم حذف الموصوف في مثل هذا التَّركيب واعتباره مؤنَّثًا يجري مجرى المثل[2]، فقال: ﴿بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾، ولم يقل: (بما هو أحسن)، أو (بالَّذي هو أحسن)، أي: ادفَعِ السَّيِّئة بالخصلة الحسنة.

(1) حسن طه الحسن، الاستثناء في القرآن الكريم، ص: 53.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/163.

أهمِّيَّةُ جريانِ عبارةِ ﴿بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ مجرى المثلِ:

التَّشجيعُ على جميلِ القولِ وحسنِ العملِ في الأمورِ كلِّها

تكونُ العبارةُ مثلًا سائرًا يُقال في المُناسبات القريبة، ممَّا قيلت فيه الآية، ونزلت من أجله، ومنه قوله تعالى: ﴿ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ ٱلسَّيِّئَةَۚ﴾ [المؤمنون: 96]، وفائدتُهُ: الدَّعوة والتَّشجيع على حُسن القول، والعمل به، وتعريضٌ بمن تراوده نفسه عن غير ذلك، وكلُّ ما يفعل بالَّتي هي أحسن في مجال مال اليتيم، أو دفع العداوة، أو مجادلة أهل الكتاب، يدلُّ على لطف اللّٰه بعباده، ودعوتهم إلى تلطُّف بعضهم ببعض، لتستقيم الحال، وينتظم المآل.

دلالةُ اسميَّة الجملة واختيار اسم التّفضيل في قولِهِ: ﴿هِيَ أَحۡسَنُ﴾:

اختيارُ الحالةِ المُثلى في التَّعاملِ معَ مالِ اليتيمِ

قوله: ﴿إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾، أي: بالخصلة الَّتي هي أحسن في حقِّ اليتيم، ولم يأتِ القول: (إلَّا بالَّتي هيَ حَسَنَةٌ)، بل جاء بأفعل التَّفضيل مراعاةً لمال اليتيم، وأنَّه لا يكفي فيه الحالة الحسنة، بل الخصلة الحسنى، الجملة الاسميَّة ﴿هِيَ أَحۡسَنُ﴾ تدلُّ على الثَّبات، وعدم التَّبدُّل مع الزَّمن، فمهما تغيَّرت الأزمنة والأحوال؛ فإنَّ القرب من مال اليتيم لا يرضاه اللّٰه إلَّا بالَّتي هي أحسن من حفظه وإنمائه.

نكتةُ حذفِ الموصوفِ المؤنَّثِ في قولِهِ: ﴿إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾:

مساحةُ العملِ الإيجابيِّ واسعةٌ في إنماءِ مالِ اليتيمِ

قوله: ﴿إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾، تقتضي وجود صفة وموصوف، ونكتة حذف الموصوف المؤنَّث (الخصلة أو الحالة) - الَّتي تُحقِّق أعلى درجات الحُسن - مؤكَّد ومهمٌّ، فدلالة حذفها، يكون لتوسيع مساحة الاختيار لدى الكفيل، فيوازن الأمور ويختار ما يحقِّق الأحسن، فيحقِّق الخيريَّة في الخصلة أو الحالة أو غيرهما.

هل المفاضلةِ في لفظِ ﴿أَحۡسَنُ﴾ على أصلها؟

لفظ ﴿أَحۡسَنُ﴾ اسم تفضيل مسلوب المفاضلة، أي إلَّا بالخصلة الَّتي هي أحسنُ ما يُفْعَل بمال اليتيم، وهي حفظه وتثميره، والمعنى:

احفظوه عليه حتَّى يبلغ أشدَّه، فادفعوه إليه[1]، وقد ورد في بعض الحواشي الفقهيَّة: «تاجروا بأموال اليتامى، لئلَّا تأكلها الزَّكاة»[2]، وحفظ المال بالنَّماء فعل الرَّاشدين العقلاء؛ لأنَّ استثمار المال بالتّجارة الرَّابحة، والتَّدبير الحكيم، يجعل المال ينمو مع نموِّ اليتيم حتَّى إذا بلغ أشُدَّه في شبابه، واستوى في يفاعته؛ التفت إلى ماله، فوجده ناميًا وفيرًا، واستطاع به أن يتاجر، ويضرب في الأرض، ويبتغي من فضل الله، فكانت خصلة ﴿بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾، خير ضمان لمال اليتيم المستور والمعلن.

الغايةُ من إثمارِ مالِ اليتيمِ هي تسليمُهُ إليهِ إذا بلغَ أشدَّهُ

دلالةُ تركيبِ ﴿حَتَّىٰ يَبۡلُغَ أَشُدَّهُۥ﴾ ونوع المجاز فيه:

المراد ببلوغ الأشُدِّ عند الشَّعبي وجماعة: بلوغ الحلم، وقيل: أن يبلغ ثماني عشرة سنة، وقال السُّدِّيُّ: أن يبلغ ثلاثين، إلَّا أنَّ الآية منسوخة بقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ﴾ [النّساء: 6][3]، والبلوغ: الوصول، وهو هنا مجاز في التَّدرُّج في أطوار القوَّة المخرجة من وهن الصِّبا، و﴿حَتَّىٰ﴾ غاية للمستثنى: وهو القربان بالَّتي هي أحسن، أي: التَّصرُّف فيه إلى أن يبلغ صاحبه أشدَّه، أي: فيُسَلَّمَ إليه، كما قال تعالى في آية أخرى: ﴿فَإِنۡ ءَانَسۡتُم مِّنۡهُمۡ رُشۡدٗا فَٱدۡفَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡۖ﴾ [النّساء: 6][4].

يختلفُ بلوغُ الأشدِّ من إنسانٍ إلى آخرَ

فائدةُ ورودِ ﴿حَتَّىٰٓ﴾ ودلالتِها في قولِهِ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ﴾:

قوله: ﴿حَتَّىٰ يَبۡلُغَ أَشُدَّهُۥ﴾ غايةٌ لما يُفهم من الاستثناء، لا للنَّهي[5]، فهي غاية لقوله: ﴿وَلَا تَقۡرَبُواْ﴾، أو معمولة له حملًا على

غايةُ الوكالةِ على مالِ اليتيمِ: أن يَبلُغَ أشدَّهُ في الشَّرعِ الحكيمِ

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/75.

(2) هذا الحديث ثبت موقوفًا على عمر بن الخطاب ﷺ، يُنظر: مالك، الموطّأ، تح: عبد الباقي: 1/251، وفعن مالك أنه بلغه، أن عمر بن الخطاب قال: «اتّجروا في أموال اليتامى لا تأكلها الزكاة»، في مجمع الزوائد ومنبع الفوائد: 3/207، وعن أنس بن مالك ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «اتجروا في أموال اليتامى لا تأكلها الزكاة»، رواه الطّبراني في الأوسط.

(3) الآلوسّي، روح المعاني: 4/298.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/164.

(5) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/199.

المعنى، والمعنى: احفظوه عليه حتَّى يبلغ أشدَّه، فإذا بلغ أشدَّه؛ فادفعوْهُ إليه[1].

الفرقُ بين أشُدِّ اليتيمِ، وأشُدِّ الرَّجلِ:

لئن كان اللَّفظان واحدًا؛ فإنَّ أَشُدَّ اليتيم غيرُ أَشُدِّ الرَّجل، فأن يبلغ اليتيم أشدَّه؛ أي: يتناهَى في الثَّبَات إلى حدِّ الرِّجال، ويقال: ذلك ثماني عشرة سنة، وأشُدُّ الرَّجل: الاكتهال والحنْكَةُ، وأن يشتدَّ رأيُه وعقله، وذلك ثلاثون سنة، وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرۡبَعِينَ سَنَةً﴾، وأشدُّ الغلام: أن يشتدَّ خَلْقُه، ويتناهى ثَبَاتُه[2].

بلوغُ اليتيم أشدَّهُ: أن يكونَ قادرًا على إدارة ماله

بلاغةُ العطفِ في قولهِ تعالى: ﴿وَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ﴾:

عطف الجملة الإنشائيَّة الَّتي تأمر بالإيفاء بالمكيال والميزان، على الجملة الإنشائيَّة المتضمِّنة للنَّهي عن قرب مال اليتيم، احتراسًا عن الوقوع في الشُّبهة من ماله، وفائدة هذا العطف بيان أنَّ انتهاك أموال النَّاس هي أيضًا من المحظورات، فإذا بلغ اليتيم أشدَّهُ؛ فقد دخل ماله في حرمة مال النَّاس، وليس بُلُوغ الأشُدِّ ممَّا يُبِيحُ به قُرْب ماله بغير الأحْسَن؛ لأنَّ الحُرْمَة في حقِّ البَالِغ ثابِتَةٌ، وخُصَّ اليتيم بالذِّكر؛ أن خَصِيمَهُ اللّه تعالى، والمعنى: لا تَقْرَبُوا مال اليَتيم إلَّا بالَّتِي هي أحْسَن على الأبَدِ حتَّى يَبْلُغ أشُدَّه، وفي الكلام حَذْف تقديره: فإذا بَلَغَ أشُدَّه، وأُنِسَ منه الرُّشْد؛ فادْفَعُوا إليه مَاله[3].

نكتةُ التَّعبيرِ عن اسمِ المفعولِ (المَكِيل) بالكيْل:

قد عبَّر بـ﴿ٱلۡكَيۡلَ﴾ في قوله: ﴿وَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ﴾، فهو مصدر بمعنى: اسم المفعول، وهو (المكيل)، وَالْمِيزانَ كذلك، فالأصل أن يقول: وأوفوا المكيل؛ لأنَّه هو حقُّ الآخر من النَّاس، وفائدة هذا العدول

المخاطَبُ هو من بيدهِ الكيلُ، وهو عليهِ الوفاءُ فيه

(1) المنتجب الهمذانّي، الكتاب الفريد: 2/721.
(2) ابن قتيبة، غريب القرآن: 254.
(3) ابن عادل، اللّباب: 8/512.

في التَّعبير: إبرازٌ لدور الكائل، وهو المُخاطب في الإيفاء بالمكيل، أو التَّطفيف فيه، وجوَّز أن يكون هناك مضاف محذوف، أي: مكيل الكيل وموزون الميزان[1]، وفي قوله: ﴿وَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ وَٱلۡمِيزَانَ﴾، فالكيل والميزان هما الآلة الَّتي يُكال بها، ويُوزَن، وأصْل الكَيْل: المصْدَر، ثمَّ أطْلِق على الآلة، و(الميزان): مِفْعالٌ من الوزن لهذه الآلةِ، كالمِصْبَاح والمقياس لِمَا يُسْتَصْبَحُ به، وما يُقاسُ به، وأصل ميزان: مِوْزانٌ، وذكر ابن عادل: أنَّ الكَيْل يُطْلَق على نَفْس المِكْيَال[2].

العدولُ عن النَّهي إلى الأمرِ في الفعل ﴿وَأَوۡفُواْ﴾:

الأمـرُ بإيفاءِ الكيلِ اهتمامٌ بالأمر وعملٌ بمقتضاه

عدل عن أن يأتي فيه بالنَّهي عن التَّطفيفِ كما في قول شعيب: ﴿وَلَا تَنقُصُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَۖ﴾ [هود: 84]، إشارة إلى أنَّهم مأمورون بالحدِّ الَّذي يتحقَّق فيه العدل وافيًا، وعدمُ النَّقص يساوي الوفاء، ولكنَّ في اختيار الأمر بالإيفاء اهتمامًا به؛ لتكون النُّفوس مُلتَفتَةً إلى جانب الوفاء لا إلى جانب ترك التَّنقيص، وفيه تذكيرٌ لهم بالسَّخاء الَّذي هو من أخلاق العرب، الَّذي يتمادحون فيه، ويتنافسون، فتكون العبارة تنبيهًا لهم على اختلال أخلاقهم وعدم توازنها[3]، وقد جرى هذا على طريقة قوله تعالى في الآية السَّابقة: ﴿وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنًا﴾ [النِّساء: 36]؛ فذكر النَّهي أوَّلًا، ثمَّ عدل إلى الأمر ثانيًا.

معنى الأمرِ في قولهِ تعالى: ﴿وَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ﴾:

وجـوبُ إقامةِ العدلِ والتَّحضيضِ على الإحسانِ في الكيل

والأمر في قوله تعالى: ﴿وَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ وَٱلۡمِيزَانَ﴾ خرج إلى معنى الوجوب لبلوغ الإيفاء، وكلُّ شيءٍ بلغ تمام الكمال؛ فقد وفى وتمَّ، يقال: درهم وافٍ، وكَيْلٌ وافٍ، وأوفيته حقَّه، ووفيته؛ إذا أتممته، وأوفى الكيل؛ إذا أتمَّه، ولم ينقص منه شيئًا، والمعنى: أتمُّوا الْكَيْلَ،

(1) الآلوسّي، روح المعاني: 4/298.
(2) ابن عادل، اللّباب: 8/513.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/165.

واختيار الأمر بالإيفاء تحضيضٌ للأنفس الكريمة: أنْ إذا كلتم، أو وزنتم؛ فتزيَّدوا على العدل بأنْ تُوَفِّروا للمُكتال كرمًا، بدل أن تسرقوه حقَّه، وهذا تنبيه لهم على اختلال أخلاقهم وعدم توازنها[1]، وإيفاء الكيل والميزان هو عين القسط، فكرَّر بذكرهما معًا، وفائدة ذلك أنَّ اللّه تعالى، أمر المُعطي بإيفاء ذي الحقِّ حقَّه من غير نقصان، وأمر صاحب الحقِّ بأخذ حقِّه من غير طلب الزِّيادة[2].

التَّناسبُ بين إيفاءِ الكيلِ والميزانِ بالقسطِ:

ذِكْرُ (الكيل والميزان) معًا يجمعُ أنواعَ القِسطِ بين النَّاسِ

عَطَفَ الأمر بإيفاء الكيل والميزان، وذلك في التَّبايع، وذكر الإيفاء بالمكيال والميزان، فجمعهما تناسبًا بينهما باعتبارهما من جنس التَّقسيم بالقسط، فالمكيال للحجوم والميزان للأوزان، فقد كانوا يبيعون التَّمر والزَّبيب كيلًا، وكانوا يتوازنون الذَّهب والفضَّة، فكانوا يُطَفِّفون حرصًا على الرِّبح، فلذلك أمرهم بالوفاء فيهما.

نكتةُ تقديمِ المَكِيلَاتِ على المَوْزُونَاتِ:

النَّاسُ في تعاملهم أكثرُ استعمالا لما يُكال

ذكر المكيال أوَّلًا لكثرة استعماله في أمور الحياة، وكَيْل الأطعمة من التَّمر والزَّبيب وغيرها، ثمَّ ذكر الميزان لاختصاصه بالذَّهب والفضَّة، فهو أقلُّ استعمالًا من الأوَّل، فقدَّم ما هو معهود عندهم بكثرة على الأقلِّ.

(الباء) للملابسةِ في قولهِ: ﴿بِٱلۡقِسۡطِۖ﴾:

النِّيَّةُ الصَّالحةُ في إيفاءِ الكيل والميزان، عنصرٌ مهمٌّ في تحقيق ذلك

الباء في قوله: ﴿بِٱلۡقِسۡطِۖ﴾ للملابسة، والقسط العدل، و﴿قَآئِمَۢا بِٱلۡقِسۡطِۚ﴾ [آل عمران: 18]، أي: أوفوا مُتلبِّسين بالعدلِ بألَّا تظلموا المُكتال حقَّه[3]، ولعلَّ الإتيان بهذه الحال للتَّأكيد[4]، وشبه الجملة ﴿بِٱلۡقِسۡطِۖ﴾ حال من فَاعِل (أَوْفُوا)، أي: أَوْفُوهُمَا مُقسطين، أي:

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/165.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 13/192.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/165.
(4) الآلوسّي، روح المعاني: 4/298.

مُتَلَبِّسِين بالقِسْط، ويجُوز أن يكون حالًا من المفعُول، أي: أوْفُوا الكَيْل والميزان مُتَلَبِّسِين بالقِسْطِ، أي: تَامَّيْن[1].

دلالةُ التَّتميمِ في قوله تعالى: ﴿وَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ وَٱلۡمِيزَانَ بِٱلۡقِسۡطِۖ﴾:

لفظةُ (بِالقِسْط) تقتضي على المخاطبينَ الإيفاءَ والعدل

القِسْطُ: مختصر من القسطاس، ويطلق القِسط والقِسطاس على الميزان؛ لأنَّه آلة للعدل في التَّقسيم، قال تعالى: ﴿وَزِنُواْ بِٱلۡقِسۡطَاسِ ٱلۡمُسۡتَقِيمِۚ﴾ [الإسراء: 35]، وقال: ﴿وَنَضَعُ ٱلۡمَوَٰزِينَ ٱلۡقِسۡطَ لِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ [الأنبياء: 47]. وقوله: ﴿بِٱلۡقِسۡطِۖ﴾، بمعنى: أنَّه تعالى مُراعٍ للعدالة بكلِّ حال، والتّعبير من باب التّتميم، أي أنَّ ذِكر شبه الجملة ﴿بِٱلۡقِسۡطِۖ﴾ بعد قوله: ﴿وَأَوۡفُواْ﴾ هو لبيان أنَّ العدل هو نهاية القضية كلِّها والغَرَضُ المرجُوُّ تحقيقُه، وهو المقياس والقانون الحاكم في المكيال والميزان بين الناس.

اللَّفُّ والنَّشرُ المُجملُ في قولِهِ: ﴿وَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ وَٱلۡمِيزَانَ بِٱلۡقِسۡطِۖ﴾:

تكتنزُ هذهِ العبارةُ معنى العدلِ في منتهى الإعجازِ والجمالِ

مَنْ كالَ؛ فعليه أن يكيل بالقسط، ومَنْ وزن؛ فعليه أن يزن بالقسط، فيكون اللَّفُّ أو الطَّيُّ قوله: ﴿ٱلۡكَيۡلَ وَٱلۡمِيزَانَ﴾، ويكون ﴿بِٱلۡقِسۡطِۖ﴾ هو النَّشر المجمل لكليهما، فيُضمَّن إيفاء الكيل والميزان بالقسط، ثمّ إنَّ العبارة ﴿وَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ وَٱلۡمِيزَانَ بِٱلۡقِسۡطِۖ﴾ - ألفاظها كلُّها: الإيفاء والكيل، والميزان والقسط - تمثِّل رموزًا للعدل.

اختصاصُ ذكرِ الكيلِ والميزانِ من بين سائرِ المعاملات:

الأمرُ بالعدالةِ مطلبٌ مشتركٌ لاحترام النَّفس والآخر

أمَّا عن سبب اختصاص القرآن من بين المعاملات المادّية إيفاء الكيل والميزان بالذِّكر؛ فإنَّ الوفاء في الكيل والميزان صورة حِسّيّة لعدالة المؤمن في المعاملات، فالأمر بوفاء الكَيْل والميزان أمر بالعدالة النَّفسيّة والأدبيّة في العلاقات الإنسانية كلِّها، وقد اهتمَّ القرآن بذلك أيَّما اهتمام[2].

(1) ابن عادل، اللّباب: 8/513.

(2) محمّد أبو زهرة، المعجزة الكبرى: 350.

الموقعُ البلاغيُّ لجملةِ: ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۖ﴾:

قوله تعالى: ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۖ﴾، جملة معترضة في أثناء الكلام، جاءت بين جملتي أمر في قوله تعالى: ﴿وَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ وَٱلۡمِيزَانَ بِٱلۡقِسۡطِۖ﴾، وقوله: ﴿وَإِذَا قُلۡتُمۡ فَٱعۡدِلُواْ﴾، فقوله: ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۖ﴾ واقعةٌ بين جملتين إنشائيَّتين لتقوية فائدة الأمر في اكتساب ما لا يكتنِهُهُ وصفُ الواصف، وذكر ابن عاشور أنَّ الجملة مستأنفة جيء بها عقيب الأمر بإيفاء الكيل والميزان بالعدل؛ للتَّرخيص فيما خرج عن الطَّاقة، لما أنَّ في مراعاة ذلك - كما هو - حرجًا مع كثرة وقوعه، فكأنَّه قيل: عليكم بما في وسعكم في هذا الأمر، وما وراءه معفوٌّ عنكم، وجوّز أن يكون جيء بها لتهوين أمر ما تقدَّم من التَّكليفات، ليُقبِلوا عليها، كأنَّه قيل: جميع ما كلَّفناكم به ممكن غير شاقٍّ، ونحن لا نُكلِّف ما لا يُطاق[1]، والاستثناءُ مُفرَّغٌ بالنَّفي، وحُذف المُستثنى منه، وعليه ﴿إِلَّا﴾ أداة حصر[2]، ويجوز أن تكون جملة: ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۖ﴾، تذييلًا للجمل الَّتي قبلها، بيانًا للمخاطبين، بأنَّ جميع الأوامر والنَّواهي الَّتي تقدَّمت ودُعُوا إليها، هي في حدود طاقتهم ومُكنتهم، فلا يُكلَّفون فوق ذلك[3]، فينتظم في تطبيق ما تقدَّم من الأوامر والنَّواهي رعاية القدرة البشريَّة الَّتي يعتريها النَّقص والخلل والمحدوديَّة، فلا نُكلِّف نفسًا إلَّا وسعها.

رخَّصَ اللهُ تعالى فيما خَرَجَ عَنِ الطَّاقَةِ البَشَريَّةِ بِلا حَرَجٍ ولا ضَرَرٍ

بلاغةُ الاحتراسِ في قوله: ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۖ﴾:

قال ابن عادل الدّمشقيّ: قوله تعالى: ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفۡسًا﴾ جملة مُعْتَرضة بين هذه الأوَامِر[4] على سبيل الاحتراس، والفاعل (نحن) للتَّعظيم، أي: إلَّا ما يسعها، ولا تعجز عنه، ولمَّا كانت مراعاة الحدِّ من

لا يُحاسَبُ الإنسانُ إلَّا على ما آتاه اللهُ تعالى من الطَّاقة والقدرة

(1) الآلوسّي، روح المعاني: 4/298 - 299.
(2) حسن طه الحسن، الاستثناء في القرآن الكريم، ص: 53.
(3) الآلوسّي، روح المعاني: 4/299.
(4) ابن عادل، اللّباب: 8/513.

القسط الَّذي لا زيادة فيه ولا نقصان، يجري فيها الحرج؛ ذكر بلوغ الوسع، وأنَّ ما وراءه معفوٌّ عنه، فالواجب في إيفاء الكيل والميزان، هو القدر الممكن[1]، وقوله: ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾، أي: إلَّا ما يسعها ولا تعجز عنه[2]، وظاهر تعقيب جملة: ﴿وَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ﴾ إلى آخره... بجملة: ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾؛ أنَّها متعلِّقة بالَّتي وَلِيَتْها، فتكون احتراسًا[3]، فأتبع الأمر بإيفاء الكيل والميزان ذلك؛ لأنَّ مراعاة الحدِّ من القسط الَّذي لا زيادة فيه ولا نقصان، ممَّا يجري فيه الحرج، فأمر ببلوغ الوسع، وأنَّ ما وراءه معفوٌّ عنه[4]، وجاء هذا الاحتراس لبيان أنَّ قدرة الإنسان محدودة، في تحقيق القسط في الكيل والميزان؛ إذ لا يُراد منهم الكيل والميزان بالحبَّة والذَّرَّة؛ وإنَّما المقصود الحرص على إيفاء حقوق النَّاس كاملة بما تستطيعه الطَّبيعة البشريَّة، كي لا يُفْضِيَ ذلك إلى تعطيل منافع جمَّة.

الالتفاتُ من الغيبةِ إلى التَّكلُّمِ في قوله: ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾:

يَمُنُّ الله على عباده وهو يخاطبهم بطريقِ التَّكلُّمِ لا الغائبِ

وقد عدل في هذا الخطاب عن طريق الغيبة الَّذي بُنِيَ عليه المقول، ابتداء في قوله: ﴿أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ [الأنعام: 151]؛ لِما فيه من الامتنان، فتولَّى الله خطاب النَّاس فيه بطريق التَّكلُّم مباشرة، زيادة في المنَّة، وتصديقًا للمُبلِّغ، فالوصاية بإيفاء الكيل والميزان، راجعة إلى حفظ مال المشتري في مظنَّة الإضاعة؛ لأنَّ حالة الكيل والوزن حالة غفلة المشتري؛ إذ البائع هو الَّذي بيده المكيال أو الميزان، ولأنَّ المشتري لرغبته في تحصيل المكيل أو الموزون، قد يتحمَّل التَّطفيف، فأُوصِيَ البائعُ بإيفاء الكيل والميزان، وهذا الأمر يدلُّ بفحوى الخطاب على وجوب حفظ المال، فيما هو

(1) أبو حيّان، البحر المُحيط: 4/689.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/75.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/165.
(4) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/75.

أشدُّ من التَّطفيف، فإنَّ التَّطفيف إن هو إلَّا مخالسة قَدْر يسير من المبيع، وهو الَّذي لا يظهر حين التَّقدير، فأكل ما هو أكثر من ذلك من المال أوْلى بالحفظ وتجنُّب الاعتداء عليه[1].

براعةُ القَصْرِ ودلالتُهُ في قوله: ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾:

من الأمثليَّةِ في التَّشريعِ الإسلاميِّ: أنَّ السَّعةَ هي مقياسُ التَّكليف

القَصْر في قوله تعالى: ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ وقع بالاستثناء بعد النَّفي، ويُؤتى به مع المُنْكِر، أو مَنْ يُنزَّل منزلته، وهو قصر قلب؛ لأنَّه يقلب مفهوم الكلام إلى ضدِّه، ولأنَّ المخاطب يعتقد أنَّه سوف تُكَلَّفُ النَّفس فوق طاقتها؛ فلمَّا قال: لَا نُكَلِّفُ نَفسًا إلَّا وسعها، فخاطبته بغير ما كان، قُلِب المفهوم لديه واتَّضَحَ المرادُ في ذهنه، وعُلم أنَّ السَّعة هي المُحدَّد، وهذه الآية تُقدِّم أنموذجًا مهمًّا لمعنى الأمثليَّة في الإسلام وتشريعاته.

نكتةُ التَّعبيرِ بالمضارعيَّةِ في الفعل: ﴿لَا نُكَلِّفُ﴾:

التَّكليفُ بالشَّرائعِ ماضٍ إلى يوم القيامةِ، وهو معنى خلودِ الشَّريعةِ

دلالة المضارع على استمرار التَّكليف وتجدُّده، وهو على المجاز بمعنى: المُحاسبة، أي: إنَّنا في كلِّ الأحوال والأزمان، فلن نحاسب أحدًا على شيء خارج طاقته الإنسانيّة الَّتي جُبِلَ عليها، وهذا من عظيم العدل الإلهيِّ، حتَّى لا يكون التَّشريعُ تحدِّيًا للنَّفس البشريَّة، بما لا قدرة لها عليه ولا طاقة، وقد استطاعت الأجيال المتلاحقة أن تطبِّق التَّشريع الإسلاميَّ بحذافيره عبر قرون من الوجود الحضاريِّ في العصور الزَّاهيَةِ بالتَّمكين والإشعاع والبناء.

نكتةُ إسناد التَّكليفِ إلى الله تعالى في: ﴿لَا نُكَلِّفُ﴾:

الضَّامنُ في إقامةِ التَّكليفِ أو عدمِهِ، هو اللهُ بقدرتِهِ وقيُّوميَّتِهِ

أسند التَّكليف إلى الله بصيغة المتكلِّم فقال جلّ شأنه: ﴿لَا نُكَلِّفُ﴾ للدَّلالة على قوَّة الضَّمان للمُكلَّفين، فسبحانه هو الضَّامن لذلك؛ إذ لا يُحاسَبُ أحدٌ على ما هو فوق الطَّاقة، وفوق ما تحتمله

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/165 - 166.

نفسه؛ على أنْ تكون ضوابط العدل والإنصاف، هي الضَّامنَ لتصرُّفات تلك النَّفس في رعاية حقِّ اليتيم وماله.

دلالة بناء الفعل (نُكلِّفُ) للفاعلِ:

الجملةُ منظومةٌ على إعطاءِ القوَّةِ والضَّمانِ للمُكلَّفِ

غلب على أسلوب القرآن في هذه الآية مجيء الأفعال على صيغة البناء للمعلوم، فقد وردت في خمسة مواضع من القرآن الكريم مبنيَّةً للمعلوم؛ وفي موضع واحد جاءت على ما لم يُسمَّ فاعله، ووردت في ثلاثة مواضع؛ منها على هذه الصِّيغة: ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾، وقوله: ﴿لَا نُكَلِّفُ﴾ جاء الفعل مضارعًا للمعلوم، ودلالة ذلك إعطاء القوَّة لهذا الحكم من جانبين، الأوَّل: أنَّ المتحدِّث هو اللّه تعالى، والنُّون نون العظمة، والثَّاني: دلالة صيغة المضارعة على التَّجدُّد والاستمرار، والبناء للمعلوم.

نكتةُ التَّعقيبِ بجملة: ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾:

الصَّرامةُ في دقَّة الكيلِ والميزانِ، تعجزُ عنها الطَّاقةُ البشريَّةُ

مجيءُ قوله تعالى: ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ بعد الأمر بإيفاء الكيل والميزان يُشيرُ إلى ضرورة مراعاة الحدِّ من القسط الَّذي لا زيادة فيه ولا نقصان، ممَّا يجري فيه الحرج، فأمر سبحانه ببلوغ الوُسع في ذلك، وأنَّ ما وراءه معفوٌّ عنه[1]، وهو مقياسٌ عامٌّ يجري على المُعاملات الإنسانيَّة كُلِّها؛ فلا تُكلَّفُ نفسٌ إلَّا وُسعها، في أمور الحياة كُلِّها.

المتشابهُ اللَّفظيُّ في قوله تعالى: ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾:

تعدَّدتْ صيغُ ورودِ الجملةِ في الآياتِ بحسب ما يقتضيه المقام

وردتْ نظائرُ هذه الآيةِ في خمسِ آيَاتٍ[2] في البَقرة بصيغة: ﴿لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: 233]، ببناء الفعل لما لم يُسَمَّ فاعلُه، ومُسوِّغ ذلك أنّ الآية جاءت في سياق حقوق الزّوجيّة، وخطاب الأمّ في إرضاع طفلها، فجاءت بعد قوله: ﴿وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/75.

(2) ابن المختار، حجج القرآن، ص: 75.

﴿وَكِسۡوَتُهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ﴾ [البقرة: 233]؛ وذلك أجر الرَّضاعة، والزَّوجةُ في العِصمَةِ ليس لها نفقةٌ وكسوةٌ لأجل الرَّضَاعَة، بل لأجل العصمة[1]. فجاء التّعبيرُ بما لم يُسمّ الفاعل لخصوصيّة العلاقة الزّوجيّة، وما فيها من أسرارٍ تدورُ بين الزّوج وزوجته، ثُمَّ لخصوصية حَنان الأمّ على طفلها، وإرضاعه حتّى وإنِ انْتَفَتِ النَّفَقَة من والِدِه. ولا يفوتُنا ملاحظة التّناسق والانسجام في التّعبير بين الفعلين: ﴿لَا تُكَلَّفُ﴾، و﴿لَا تُضَآرَّ﴾ بالصيغة نفسها.

وفي البقرة قوله: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ﴾ [البقرة: 286]، وقد جاءت في سياق العلاقة بين العبد وربّه، وإنابته إليه سبحانه، فذكر الفاعل بلفظ الجلالة ﴿ٱللَّهُ﴾، إكرامًا لإيمانِ العَبْدِ ورجائهِ، ولِتَكونَ الآية بعد ذلك بهذا النّظم الجليل المُحكم قاعدةً شرعيّة لكلّ الأفراد والأُمم، فلا يصلح فيها إسناد الفعل لما لم يُسَمّ فاعله، وإنّما تقتضي بلاغَةُ القرآن أن تكون الآية بمثابة القاعدة الشّرْعيّة الثّابتة الّتي لا تَقْبَل التَّغْيير أوِ التَّحويلَ أو التأويل؛ فالله بعظمته وجلاله لا يقبل هذا التّكليف بما لا يُطاق.

وجاءَتْ بِصيغَةِ المُتَكلّم في هذه الآية؛ قوله: ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۖ﴾ [الأنعام: 152] لوُرودِها في سياق حُقوق النّاس فيما بينهم وحَقِّ اليَتيم، فأَشْهَدَ اللّهُ نفسَهُ على ذلك لعظيم شَأنِ الحقوق بين النّاس، ولحَثِّهم على أدائها.

وجاءت أيضاً بصيغة المتكلّم في قوله: ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۖ﴾ [الأعراف: 42]، [المؤمنون: 62]، في وصف أفعال أهل الجَنَّةِ وما هم فيه من الكَرم الإلهيِّ، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٤٢﴾ [الأعراف: 42] فجاء السياق بالمتكلّم إكراماً لهم.

وفي سورة الطَّلَاق قوله: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَاۚ﴾ [الطّلاق: 7]. تَمَيَّزَ الأسلوب عن جميع ما سَبقها، وذلك لِوُرودِها في سِياقِ قَوْله: ﴿لِيُنفِقۡ ذُو سَعَةٖ مِّن سَعَتِهِۦۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيۡهِ رِزۡقُهُۥ فَلۡيُنفِقۡ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُۚ﴾ [الطّلاق: 7] ثم أَتْبَعَها بقوله: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَاۚ﴾ [الطّلاق: 7] وفي ذلك ردٌّ لِلْعَجْزِ على الصَّدر، وفيها من جَميل مُراعاة نعمة الله تعالى، فَمَنْ آتاهُ الله من فضله فَلْيُنْفِقْ كما أمره الله. وذُكِرَ لَفْظُ الجلالة هنا لما وَرَد في السّياقِ مِنَ الإنفاق والحاجة؛ ليُذَكِّرَ المخاطَبين أنّ الرّزْقَ بيد الله سبحانه. وجاء لفظ ﴿ءَاتَىٰهَاۚ﴾ متناسِبًا مَعَ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/430.

الجوّ الخاصّ للإنفاق المذكور في سورة الطلاق؛ فالإنفاق كان في مقابل الإيتاء، وفي هذا دعوةٌ لشكر النِّعم؛ فالإيتاء يكون في القضايا العظيمة، ويشمل القضايا المادّيّةَ والمعنويّة، وهذا الإيتاءُ بهذا العطاء العامِّ يستوجِبُ أَنْ لا يكون هناك أكلٌ للحقوق بين الزّوجيْن؛ فاللّه لا يُكلّف نفسًا إلّا بقدر ما آتاها، أمّا لفظ الوُسْعِ فهو عامٌّ جاء استعماله في سِياق العبادات والمعاملات وغيرها.

نكتةُ تنكيرِ ﴿نَفْسًا﴾ في قوله تعالى: ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾:

جاء التَّعبير بالنَّكرة في قوله: ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا﴾، لبيان أنَّ جميع ما خلق اللّه من الأنفس البشريَّة واقع في هذا الحيِّز من السَّعة، فتكون حالة تلك النَّفس وخصوصيَّتها، هي مقياس ذلك التَّكليف، ووسعها هو الحاضن لذلك التَّكليف، ثمَّ إنَّ إفراد النَّفس وتنكيرها، قد رشَّح العبارة إلى أن تكون مثلًا سائرًا، تُضرب في مواطنها.

النَّاسُ جميعًا متساوون أمام ميزانِ العَدل الإلهيِّ الحكيم

نكتةُ الإضافةِ في لفظِ ﴿وُسْعَهَا﴾:

قوله: ﴿إِلَّا وُسْعَهَا﴾، أي: إلَّا ما تقدر عليه، وتتَّسع له[1]، من أربى على نفسه في الكيل والميزان، واللّه يعلم صحَّةَ نيَّته بالوفاء فيهما لم يُؤاخذ، وذلك تأويل وسعها[2]؛ لأنَّ الوسع هو الطَّاقة، وهو بذل الإنسان جهده في عدم قربان شيء من المحرَّمات، ولهذا لم يأمر اللّه بالزِّيادة، لما فيها من الحرج على البائع، ونهى عن النَّقص لما فيه من الظُّلم والحيف الواقع على المشتري والضِّيق لحاجته، فأمر اللّه تعالى ببلوغ الوسع في ذلك، وما وراء الوسع عفوٌ، مع لزوم الضَّمان؛ لأنَّ للجائع الَّذي لا يجد شيئًا - وقد أشرف على الهلاك - أكلَ مال غيره[3].

سَعةُ النَّفس عمومًا تَتحدَّد من طاقة الإنسان وقُدراته

(1) النّحّاس، إعراب القرآن: 2/126.
(2) السّيوطيّ، معترك الأقران: 3/504.
(3) عبد القادر العاني، بيان المعاني: 3/423.

دلالةُ العطفِ في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُلۡتُمۡ فَٱعۡدِلُواْ﴾:

مسلكُ الأقوالِ والأفعالِ واحدٌ في طلب العدلِ والقسطِ مع النَّاس

(الواو) في قوله ﴿وَإِذَا قُلۡتُمۡ فَٱعۡدِلُواْ﴾ عاطفة، وجملة الشّرط معطوفة على جملة ﴿وَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ وَٱلۡمِيزَانَ﴾[1]، وفائدة هذا العطف: أنَّه عَطَفَ الأفعال القوليَّة على الأفعال العمليَّة، إقرارًا وبيانًا بأنَّها تسلك المسلك نفسه في طلب العدل والقسط مع النَّاس، فمن لم يكن عادلًا في كلامه تسبَّبَ في قطيعة أرحامه، ومعاداة إخوانه، ومن الإنصاف أن تُنصف أخاك، وتكفَّ أذاك[2].

نكتةُ التَّعبيرِ بـ﴿وَإِذَا﴾ دون (إنْ) في قوله: ﴿وَإِذَا قُلۡتُمۡ فَٱعۡدِلُواْ﴾:

العدلُ في القولِ مطلوبٌ في جميعِ المواقفِ والأحكامِ مع النَّاس

(إذا) ظرفٌ للزَّمن المستقبل متعلِّق بمضمون الجواب؛ لأنَّ فيه معنى الشَّرط[3]، والأصل في (إذا) أن تكون للمقطوع بحصوله، والكثير وقوعه، فمن المقطوع بحصوله قوله تعالى: ﴿فَكَيۡفَ إِذَا جَمَعۡنَٰهُمۡ لِيَوۡمٖ لَّا رَيۡبَ فِيهِ﴾ [آل عمران: 25]، فكلُّ واحد منهم سيأتي يوم القيامة في هذا الجمع حتمًا، وعلى اعتبار قوله: ﴿وَإِذَا قُلۡتُمۡ فَٱعۡدِلُواْ﴾، يقصد القول في كلِّ حال، فيكون من المقطوع بحصوله، أمَّا من أمثال ما يقع كثيرًا، فقوله تعالى: ﴿إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيۡنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى فَٱكۡتُبُوهُۚ﴾ [البقرة: 282]، والآية: ﴿وَإِذَا قُلۡتُمۡ فَٱعۡدِلُواْ﴾، بمعنى: قولكم في موضع الشَّهادة، على أنَّه من قبيل ما يقع كثيرًا، أمَّا الشَّرط بـ(إنْ)، فإنَّ الأصل فيها أن تستعمل في المشكوك فيه، والمعاني محتملة الوقوع، والموهمة والنَّادرة، والمستحيلة وسائر الافتراضات الأخرى، فهي لتعليق أمر بغيره عمومًا[4]، وبذلك تظهر نكتة التَّعبير بـ(إذا) دون (إنْ) وبلاغة قوَّتها.

---

(1) صافي، الجدول في إعراب القرآن: 8/330.
(2) حسين المهدي، صيد الأفكار: 625.
(3) صافي، الجدول في إعراب القرآن: 8/330.
(4) السّيوطيّ، الإتقان: 1/149.

التَّعبيرُ بالجملةِ الشَّرطيَّةِ:

معنى الشَّرط أن يقع الشَّيء لوقوع غيره[1]، أي: إنَّ الثَّاني يتوقَّف على الأوَّل[2]، قوله: ﴿وَإِذَا قُلۡتُمۡ فَٱعۡدِلُواْ﴾، جملة شرطيَّة فعليَّة، تقترن جملة جواب الشَّرط بجملة الشَّرط مباشرة، إذا بدئت بفعلٍ ماضٍ، أو مضارع، ولمّا كانت جملة جواب الشَّرط فعلها أمر، وفي هذه الحالة تسبق الفاء جملة جواب الشَّرط، فالتَّعليق بأداة الشَّرط في قوله: ﴿وَإِذَا قُلۡتُمۡ﴾ إشارة إلى أنَّ المرء في سعة من السُّكوت؛ إنْ خشي قولَ العدل، وأمَّا أن يقول الجور والظُّلم والباطل؛ فليس له سبيل إلى ذلك، والكذب كلُّه من القول بغير العدل، على أنَّ من السُّكوت ما هو واجب[3].

جعلُ اللهِ المُخاطبين في سَعةٍ من السُّكوت، كي لا يقعَ أحدٌ في ظلمٍ أو باطلٍ

علَّةُ ربطِ العدلِ بالقولِ وترشيح الاحتباكِ:

وقد خُصَّ العدل بالقول في قوله: ﴿وَإِذَا قُلۡتُمۡ فَٱعۡدِلُواْ﴾، مع أنَّ الفعل إلى العدل أحوج، فإنَّ الضَّررَ النَّاشئ من الجور الفعليِّ، أقوى من الضَّرر النَّاشئ من الجور القوليِّ، فإنَّما خصَّه بالقول، ليُعلم وجوبُ العدل في الفعل بطريق الأوْلى، كما في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفّٖ وَلَا تَنۡهَرۡهُمَا﴾ [الإسراء: 23][4]، ويُفهم من ذلك قولُنا: (وإذا قلتم، أو فعلتم؛ فسدّدوا، واعدلوا)، فلعلَّ السَّدادَ أخصُّ بالقول والرَّأي، صوابًا وإصلاحًا، ودلالة العدل أعمُّ، مع غلبة مجيئها في الأحكام[5].

مطلوبٌ من القائلِ والفاعلِ أن يسدِّدَ ويعدلَ

وقوله: ﴿وَإِذَا قُلۡتُمۡ فَٱعۡدِلُواْ﴾، أي: وإذا قلتم قولًا، في حكومة أو شهادة، أو نحوهما، فاعدلوا[6]، بل هو جامع كلِّ المعاملات بين

(1) المُبرِّد، المُقتضب: 2/46.
(2) الزّركشّي، البرهان: 2/354.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/167.
(4) الزّركشّي، البرهان: 1/181، و2/433.
(5) بنت الشّاطئ، الإعجاز البيانّي: 459.
(6) الآلوسّي، روح المعاني: 4/299.

النَّاس، بواسطة الكلام، وهي الشَّهادة، والقضاء، والتَّعديل، والتَّجريح، والمشاورة، والصُّلح بين النَّاس، والأخبار المُعلِمة عن صفات الأشياء في المعاملات: من صفات المبيعات، والمؤاجرات، والعيوب، وفي الوعود، والوصايا، والأيمان؛ وكذلك المدائح والشَّتائم كالقذف، فكلُّ ذلك داخل فيما يصدر عن القول[1].

نكتة دخولِ الفاءِ على جواب الشَّرط في قوله: ﴿فَٱعۡدِلُواْ﴾:

وقد جاءت جملة جواب الشَّرط فعليَّة، فعلها أمر، وفي هذه الحالة، تسبق الفاء جملة فعل الشَّرط، وليس المرادُ به العدلَ بعد القول، لكن قبله ؛ فيعزِم على ألَّا يقول إلَّا عدلًا، فعلى هذا ذكر بلوغ الأجل، والمراد به مقاربته دون وجود نهايته[2].

النِّيَّةُ والعزيمةُ على قولِ العدلِ، هما المُراد بالعدلِ في القولِ

غرضُ الأمرِ في قولِهِ تعالى: ﴿فَٱعۡدِلُواْ﴾:

وقوله: ﴿وَإِذَا قُلۡتُمۡ فَٱعۡدِلُواْ﴾؛ أي: أردتم القول[3]، مع أنَّ الفعل كذلك، وقصد به ليُعلَمَ وجوب العدل في الفعل من باب أولى كقوله: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفّٖ﴾ [الإسراء: 23][4]، فخرج الأمر إلى معنى الوجوب.

العدلُ واجبٌ في القولِ والعملِ؛ لأنَّهُ ميزانُ الحياة

العدولُ من النَّهي عن الظُّلم إلى الأمر بالعدل:

في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُلۡتُمۡ فَٱعۡدِلُواْ﴾: جاء طلبُ الحقِّ في القول بصيغة الأمر بالعدل، دون النَّهي عن الظُّلم أو الباطل: لأنَّه قيَّده بأداة الشَّرط المقتضي لصدور القول: فالقول إذا صدر لا يخلو عن أن يكون حقًّا أو باطلًا، والأمر بأن يكون حقًّا أوفَى بمقصد الشَّارع لوجهين: أحدهما: أنَّ اللّه يحبُّ إظهار الحقِّ بالقول، ففي الأمر بأن يكون عدلًا أمرٌ بإظهاره، ونهيٌ عن السُّكوت بدون موجب، والثَّاني: أنَّ النَّهي عن قول الباطل أو الزُّور، يصدق بالكلام الموجَّه الَّذي

الأمرُ بالعدل أقربُ إلى النَّفس من نهيها عن الظُّلم

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/166.
(2) الكيا الهراسّي، أحكام القرآن: 182.
(3) الزّركشّي، البرهان: 2/295.
(4) الزّركشّي، البرهان: 2/433.

ظاهره ليس بِحقٍّ، وذلك مذموم إلَّا عند الخوف أو الملاينة، أو فيما لا يرجع إلى إظهار حقٍّ[1].

نوعُ الواوِ في قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ كَانَ ذَا قُرۡبَىٰ﴾:

العدلُ مطلوبٌ في كلِّ حالٍ، وضروريٌّ في كلِّ الأحوالِ

قوله: ﴿وَلَوۡ كَانَ﴾ حاليَّة، عطفت على حال محذوفة، أي: اعدلوا في كلِّ حال، ولو في هذه الحال، وهذا لاستقصاء الأحوال، وجواب الشَّرط محذوف دلَّ عليه ما قبله[2]، والعدل في كلِّ حال، من شأنه أن يضمن الحقوق، وينأى بالنَّاس عن العقوق، ممَّا يكون سببًا في اضطراب المجتمع واختلاله.

بلاغةُ الجملةِ الشَّرطيَّة في قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ كَانَ ذَا قُرۡبَىٰ﴾:

القولُ بما هو بعيدُ الوقوع مُعْلِمٌ بضرورة ما هو قريب الوقوع

قوله: ﴿وَلَوۡ كَانَ ذَا قُرۡبَىٰ﴾، الواو حرف وصل يُؤتى به لتقويَةِ المعنى، ووصل بعض الكلام ببعض، نحو قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ ۝٨﴾ [الصّف: 8]، وحرفُ الشّرط (لو) بعيد الوقوع، وهذه فائدته هُنا، حيث أحاطت الآية بما هو بعيد الوقوع، ليُعلم ضرورة ما هو قريب الوقوع، وذكر النَّحَّاس أنَّ المعنى: وإن كان ذا قربى، كما قال سبحانه: ﴿وَلَوِ ٱفۡتَرَىٰ بِهِۦ﴾[3]، والحقُّ أنَّها لا تطابق (إنْ)، فإنَّ شرط (لو) أبعد وقوعًا من (إنْ).

دلالةُ المبالغةِ في قوله تعالى ﴿وَلَوۡ كَانَ ذَا قُرۡبَىٰ﴾:

المبالغةُ في ذكرِ أولي القُربى كي لا يظنَّ المخاطَب عدمَ شمولِهم بالحكم

الواو في قوله: ﴿وَلَوۡ كَانَ﴾ واو الحال، ﴿وَلَوۡ﴾ وصليَّة تفيد المبالغة في الحال الَّتي من شأنها أن يظُنَّ السَّامع عدمَ شمولِ الحكم إيَّاها؛ لاختصاصها من بين بقيَّة الأحوال التي يشملها الحكم، فإنَّ حالة قرابة المقولِ لأجله القولُ قد تحمل القائل على أن يقول غير العدل، لنفع قريبه أو مصانعته، فنُبِّهوا على وجوب التزام العدل في القول

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/168.
(2) الخرّاط، المُجتبى: 1/303.
(3) النّحّاس، معاني القرآن: 378.

في تلك الحالة، فالضَّمير المستتر في ﴿كَانَ﴾ عائد إلى شيء معلوم من الكلام، أي: ولو كان الَّذي تعلَّق به القول ذا قربى[1].

نكتةُ دخولِ ﴿كَانَ﴾ على الجملة الشَّرطيَّة ﴿وَلَوۡ كَانَ ذَا قُرۡبَىٰ﴾:

التَّأكيدُ على ذي القُربى؛ فإن ضُمِنَ الحقُّ معه فقد ضُمن مع غيره

(لو) حرف شرط غير جازم، و﴿كَانَ﴾ فعل ماض ناقص، واسمه ضمير مستتر، تقديره: هو، أي: المقول فيه أو له[2]، ويجوز أن يكون حالًا، و﴿كَانَ﴾ تامَّة[3]، فلو كان ذا قربى، وتحقَّق العدل معه، فمن لم يكن من ذوي القرابة، فتحقَّق العدل معه أولى؛ لغياب هوى النَّفس معه، وهذا أبعد شيء في الأمر.

الضَّمير في ﴿كَانَ﴾ وغرض حذفه:

حذفُ الضّمير أوجزُ في العبارة وأشملُ في الدّلالة

قَوْله: ﴿وَلَوۡ كَانَ ذَا قُرۡبَىٰ﴾؛ اسم ﴿كَانَ﴾ محذوف، وهو الضَّمير (هو)، والعبارة بمعنى: (وَلَو كَانَ الْمَشْهُود لَهُ ذَا قربى من الشَّاهِد)[4]، أو التَّقدير: (وَلَو كَانَ الْمَدْعُو ذَا قربى)[5]، وغرض حذف اسم كان الإيجاز والشَّمول؛ فقد تكون شهادة الشَّاهد على قريبه ضدَّه، وهذا يقع كثيرا في القضايا الاجتماعيَّة والأسريَّة، فأوجز بحذف اسم كان في هذا السّياق لشمول الحالين، وقد قال اللّه تعالى في العدل في الشَّهادة والقضاء: ﴿كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلۡقِسۡطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ أَوِ ٱلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَۚ﴾ [النِّساء: 135].

نكتةُ التّعبير بقوله: ﴿ذَا قُرۡبَىٰ﴾:

تتنوَّعُ حالاتُ القرابةِ، وتتعدَّدُ أشكالها، فمنها الحقيقيُّ، ومنها المجازيُّ

جاء التّعبيرُ بـ﴿ذَا قُرۡبَىٰ﴾ عامّا لتحقيق الشُّمول في أنواع القُربى، فقد يكونُ المقصودُ ذا قربى من قرابة النّسب، أو ذا قربى مُصاهرة، وقد تكون القرابة مجازيَّة أيضًا، فرُبَّ قريب مصاهرةً يكونُ إلى

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/167.
(2) صافي، الجدول في إعراب القرآن: 8/330.
(3) العكبريّ، التّبيان في إعراب القرآن: 2/1074.
(4) مكّيّ القيسّي، مُشكل إعراب القرآن: 1/243. والباقولي، إعراب القرآن، ص: 27.
(5) مكّيّ القيسّي، مُشكل إعراب القرآن: 2/594.

القلب أميل، وأهوى للنَّفس من قريب نسب، أو كالجار الجُنُب، والصَّاحب بالجنب وغيرهم، فأوجز بإضافة اسم (القُربى) إلى (ذي) وهو اسم من الأسماء الخمسة دون ذكر أصناف القرابات ليفيدَ التّعبير العموم.

لا تسامحَ مع أيِّ غبن في مسألةٍ من مسائل الحقوق بين النَّاس

من ناحية أخرى، جاء اختيار صفة القرابة لبيان دقيق ما هو مطلوب من المُخاطبين في إجراء العدل، وإيفاء الحقوق بينهم؛ لأنَّ ذوي القربى تميل القلوب إلى الوقوف إلى جانبهم، وقد يُراود المخاطبين رغبةٌ وحاجةٌ إلى الميل في الشَّهادة، والقول لما يحقِّق مصالحهم بغير حقٍّ أو عدل، فجاء التَّعبير لبيان ألَّا تسامح في أيِّ مسألة من مسائل الحقوق بين النَّاس مهما كانت العلاقات والوشائجُ التي تربط بينهم.

بلاغةُ العطفِ في قوله تعالى: ﴿وَبِعَهۡدِ ٱللَّهِ أَوۡفُواْۚ﴾:

الإيفاءُ مُوازٍ للعدل، ومن أوفى بالعهد؛ فقد عدل

(الواو) في قوله تعالى: ﴿وَبِعَهۡدِ ٱللَّهِ أَوۡفُواْۚ﴾ عاطفة، ﴿وَبِعَهۡدِ﴾ جارٌّ ومجرور متعلِّق بـ﴿أَوۡفُواْۚ﴾ الآتي، والمعنى: وأوفوا بعهد الله، والجملة معطوفة على قوله: ﴿وَإِذَا قُلۡتُمۡ فَٱعۡدِلُواْ﴾، وعهد الله هو جزءٌ من القول، كما أنَّ الإيفاء مُوازٍ للعدل، وهو وجه من وجوه العدل، فأفاد العطفُ بيانَ حالة خاصَّة من القاعدة العامَّة، وهو من قبيل عطف الخاصّ على العامِّ للإشادة بالخاصِّ.

دلالة الباءِ في لفظ ﴿وَبِعَهۡدِ﴾:

الإيفاءُ بالعدلِ غايةٌ عظمى في شرع الله

وفي قوله: ﴿وَبِعَهۡدِ ٱللَّهِ أَوۡفُواْۚ﴾، الباء في ﴿وَبِعَهۡدِ﴾ للإلصاق، والمعنى: كونوا ملتصقين بعهد الله في جميع أحوالكم، حتى يتمَّ الإيفاء، وعطف على الجملة الشَّرطيَّة، فأخذت الجملة الثَّانية معنى الأولى، أي: إذا عاهدتم الله تعالى على شيء، أو حلفتم لإنسان؛ فأوفوا[1].

(1) النّحّاس، إعراب القرآن: 2/39.

ردُّ العجزِ على الصَّدرِ في قوله: ﴿وَبِعَهۡدِ ٱللَّهِ أَوۡفُواْۚ﴾:

عهدُ الله تتنوَّعُ حالاتُهُ ومعانيه، وقد يضمُّ معناه الدِّين بمجمله

ذكر أولًا: ﴿وَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ وَٱلۡمِيزَانَ﴾، ثمَّ ذكر ههنا: ﴿وَبِعَهۡدِ ٱللَّهِ أَوۡفُواْۚ﴾، وهو من قبيل ردِّ العجُز على الصَّدر، فجعل الإيفاء هو ما يحيط بالوصيَّة، باعتباره غاية عظمى فيها، فافتُتحت به، ثمَّ خُتمت به، وتندرج في هذه الخاتمة كلُّ الوصايا المذكورة[1]، أو أن يكون عهد الله مقصودًا به الدِّين بمجمله، فيكون تذييلًا لما قد سبق.

نكتةُ إضافةِ العهدِ إلى اسم الجلالة ﴿ٱللَّهِ﴾:

إضافة العهد إلى الجلالة إيقاظٌ للمراقبة وجَلْبٌ للمهابة

الوفاءُ بعهد الله من خفيات الأمور؛ لأنَّ الرَّجُل قد يحلف مع نفسه، فيكون ذلك الحلِف خفيًّا، ويكون برُّه وحنثه أيضًا خفيًّا[2]، فجاء العهدُ مضافًا إلى الاسم الأحسن (الله) في قوله جلّ شأنه: ﴿وَبِعَهۡدِ ٱللَّهِ أَوۡفُواْۚ﴾ تذكيرًا للمخاطبين بعدم خفاء خافية عنه سبحانه، وإيقاظا لحسّ المراقبة في نفوسهم؛ فالله مُطَّلع على الأمور كلِّها، ظاهرها وخفيِّها، والمؤمن الصّادق يخشى الله تعالى ويراقبه في جميع أحواله.

بلاغةُ التَّقديمِ لشبهِ الجملةِ على الفعلِ والفاعلِ:

الاهتمامُ والاعتناءُ بعهدِ اللهِ باعتبارِهِ جوهرَ الدِّين كلِّه

الجار والمجرور ﴿وَبِعَهۡدِ ٱللَّهِ﴾ مُتَعلِّق بما بعده، وتقديمه للاعتناء بشأنه[3]، لئلَّا ينصرف ذهنُ السَّامع عنه، وأصل ترتيب الكلام تقديم الفعل (أوفوا)، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمۡ وَلَا تَنقُضُواْ ٱلۡأَيۡمَٰنَ بَعۡدَ تَوۡكِيدِهَا﴾ [النَّحل: 91]، ونُكتةُ التّقديم في هذا السّياق هو أن يتقرَّر في ذهن المخاطَب ما يرد بعده من الأمر بالوفاء، أي: إن كنتم تَرَون الوفاء بالعهد مدحًا، فعهد الله أولى بالوفاء، وأنتم قد اخترتُموه، فهذا كقوله

(1) النّيسابوري، غرائب القرآن: 3/189.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 13/180.
(3) الآلوسّي، روح المعاني: 4/299.

تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌۚ﴾ [البقرة: 217][1].

نكتةُ العدولِ في نظْمِ الجُمْلَةِ عن سابِقاتِها:

خَتَمَ هذه المتلوَّاتِ بالأمر بإيفاء العهد بقوله: ﴿وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُواْۚ﴾، ولم يقل: (أوفوا بما عاهدتم الله عليه)، وعهد الله المأمور بالإيفاء به، هو ما اقتضته الإضافة؛ إذ الإضافة هنا يصحُّ أن تكون إضافة المصْدر إلى الفاعل، أي: ما عهد الله به إليكم من الشَّرائع، ويصحُّ أن تكون إضافة المصدر إلى مفعوله، أي: ما عاهدتم الله أن تفعلوه، والتزمتموه، وتقلَّدتموه، ويصحُّ أن تكون الإضافة لأدنى ملابسة، أي: العهد الَّذي أمر الله بحفظه، وحذَّر من خَتْرِه[2]، وهي العهود الَّتي تنعقد بين النَّاس بعضهم مع بعض، ولأجل مراعاة هذه المعاني النَّاشئة عن صلاحيَّة الإضافة لإفادتها، فعُدِل إلى طريق إسناد اسم العهد إلى اسم الجلالة بطريق الإضافة، دون طريق الفعل، بأن يقال: (وبما عاهدتم الله عليه)، أو نحو ذلك ممَّا لا يحتمل إلَّا معنى واحدًا[3].

في إضافة لفظ (العهد) إلى الجلالة توسيع للدّلالة؛ إذ يصدُقُ على كلّ أنواع العهود

علَّةُ إظهارِ اسم الجلالة ﴿وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ﴾:

وفائدة إظهار اسم الجلالة التَّذكير بالله سبحانه وقيوميَّته على أفعال البشر، وشهوده على أقوالهم سبحانه، لتحقيق مزيد عناية بالإيفاء بعهد الله، فمن جعل الله رقيبًا عليه؛ أدَّى ذلك إلى إيفائه بعهد النَّاس وبعهده سبحانه.

الله رقيبٌ قيُّومٌ على عباده، يعلم سرَّهم ونجواهم

نكتةُ استعمالِ اسم الإشارةِ ﴿ذَٰلِكُمْ﴾:

اسمُ الإشارة ﴿ذَٰلِكُمْ﴾: يُشارُ به في هذا السّياق للتَّحريم،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/170.
(2) الخَتْرُ بمعنى الغدر، والختّار: الغادر، يُنظر: الخليل، العين: (ختر).
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/168 - 169.

والإشارة نوعان: قريبة ومتراخية، فـ(ذا) اسم إشارة للقريب، و(اللَّام): للبعيد المتراخي[1]، والميم علامة الجمع، أي: ذلكم التَّحريم وصَّاكم به الله ﷻ، وهو شامل للأوامر والنَّواهي، ممَّا هو متعلِّق بعلاقة الفرد بنفسه، أو بأسرته، أو بأقاربه، أو بمجتمعه، ممَّن يعرفهم أو لا يعرفهم، وفائدة اسم الإشارة البعيد هو الشُّمول لكلِّ أمر ممَّا يُتخيَّل بُعْدُه عن أذهان المُخاطبين، فيشمل ذلك القريب والبعيد.

التَّنبيهُ على البعيدِ من الوصايا، يُحقِّق شمول الأوامر والنَّواهي والقضايا

مزيّةُ تكرير: ﴿ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾:

قوله: ﴿ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾، تكرار لقوله المماثل له قبله، فقال: وصَّاكم به، ليشمل الأوامر والنَّواهي، فكرَّرَ المعنى بالتَّوصية على سبيل التَّوكيد[2]، لبيان عظيم وصيَّة الله لعباده، وأنَّ في ذلك ذكرى لهم، لتترسَّخَ هذه المعاني في أذهانهم، وتتقرَّرَ في نفوسهم.

وصيَّةُ اللهِ لعباده هي جملة الأوامر والنَّواهي الَّتي وردت في الآية

نكتةُ العدولِ من المضارع إلى المُضِيّ في ﴿وَصَّىٰكُم﴾:

لقد عدلَ في التَّعبير بالماضي عن التَّعبير بالمضارع في قوله: ﴿ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ﴾ باعتبار أنَّه أصبح كالشَّيء الثَّابت المُفْرَغ منه الَّذي لا مراجعة فيه ولا ترديد، فلا يُقبَلُ من أحدٍ النِّقاشُ أو المنازعةُ في هذه الوصايا، ثمَّ إنَّها من قبيل ما هو مُتَّفق عليه في التَّشريعات السَّماويَّة؛ إذ وردت الوصايا نفسها في كتب سابقة، مثل: كتاب موسى عليه السلام.

هذهِ الوصايا من المُشترَكاتِ الرَّئيسةِ بين الكتب السَّماويَّة

نكتةُ حذفِ فاعلِ ﴿وَصَّىٰكُم﴾:

لمَّا ذكر قوله: ﴿وَبِعَهۡدِ ٱللَّهِ أَوۡفُواْۚ﴾ حذف الفاعل بعدها في قوله: ﴿ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ﴾، أي: وصَّاكم الله تعالى به، وذلك لقرب

معلومٌ أنَّ كلَّ الوصايا في الكتب السَّماوية مصدرُها اللهُ سبحانه

(1) ابن يعيش، شرح ابن يعيش: 3/135.
(2) أبو حيان، البحر المُحيط: 4/692.

العهد بذكر اسمه تعالى، وهذا الأسلوب من قَبيل الإشعار بسدِّ باب المُراجعة في هذه الوَصايَا.

سرُّ خَتم الآية بقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾:

قال صاحب الإتقان: فإنَّ الأُولَى خُتمت بقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾، والثَّانية بقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾؛ لأنَّ الأولى اشتملت على خمسةِ أشياء عظام، والوصيَّةُ فيها أبلغ منها في غيرها، فختمها بما في الإنسان من أعظم السَّجايا، وهو (العقل) الَّذي امتاز به على سائر الحيوان، والثَّانية: اشتملت على خمسة أشياء يقبُحُ ارتكابُها، والوصيَّةُ فيها تجري مجرى الزَّجر والوعظ، فختمها بقوله: ﴿تَذَكَّرُونَ﴾، أي: تتَّعظون[1]، ثمَّ إنَّ الأولى وردت في قضايا النَّفس والإنسان مع محيط أسرته الدَّاخليَّة، فنبَّه إلى أنَّ من له عقل سليم، سيكون سائرًا على نهج الوصايا فيها دون تردّد، فصاحب العقل السَّليم لا يختار سواها، أمَّا الثَّانية؛ فهي في عموم العلاقة بين الفرد وغيره من الأفراد، فاحتاج ترسيخ تلك الوصايا إلى التَّذكير الدَّائم بمتابعة النَّفس، فختمها جلّ شأنه بقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾.

صوابُ التَّعاملِ معَ المجتمعِ مردُّه التَّذكيرُ بوصاياه سبحانه فيها

دلالة التَّعبيرِ بـ(لعلَّ) في قوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾:

نكتة التَّعبير بـ(لعلَّ) لتوقُّع كونها ترجيحًا أو إطماعًا، أو لتوقُّع مكروه، ويُسمَّى إشفاقًا، وقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾، هو من باب التَّرجِّي[2]، فأفادت (لعلَّ) في هذا السياق دعوة المُخاطبين إلى تذكُّر هذه الوصايا في حياتهم، وممارساتهم العمليَّة.

ترجيحُ حصولِ الذِّكرى من المخاطبين إطماعٌ لهم في الطَّاعة

نُكتة استعمال مادّة التّذكير:

في الآية الأولى كانت أكثر التَّكليفات بصيغة النَّهي، وهو في معنى المنع، والمرء حريصٌ على ما مُنِع من تعاطيه أو فعله، فناسب

(1) السّنيكي، فتح الرّحمن: 182.
(2) ابن عقيل، شرح ابن عقيل: 1/129.

أن يُعَلَّلَ الإيصاءُ بذلك، بما فيه إيماء إلى معنى المنع والحبس، وهذا بخلاف التَّكليفات في الآية الثَّانية، فإنَّ أكثرها قد أُدِّيَ بصيغة الأمر، وليس المنع فيه ظاهرًا كما في النَّهي، فيكون الطَّلب والمبالغة فيه ليستمر عليه، ويتذكَّر؛ إذا نسي[1].

أغلبُ الوصايا في هذه الآية أوامر، فاحتاجت إلى تذكير

من ناحية أخرى، حضَّ على التَّذكير في الوصيَّة لأنَّها خفيَّةٌ تحتاج إلى مزيد تدبُّر، فقال: ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾، أي: لتكونوا بحيث يحصل لكم التَّذكُّر، ولو على وجه خفيٍّ بما أشار إليه الإدغام، فيما جبلت عليه نفوسكم من محبَّة، مثل ذلك لكم، فتحكموا لغيركم، بما تحكمون به لأنفسكم[2].

بلاغةُ القراءاتِ في قوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾:

تنوّعُ القراءةِ القرآنيَّةِ يُشعِّب المعنى ويوسّعُ دلالةَ النَّص الكريم

قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر وشعبة وأبو جعفر ويعقوب: ﴿تَذَّكَّرُونَ﴾ بتشديد الذّال، وقرأ الباقون: ﴿تَذَكَّرُونَ﴾ بتخفيفها. والتَّخفيف مثل التَّشديد في المعنى، إنَّما هو: (تتذكَّرون)، فخفَّف لاجتماع المتقاربة بالحذف، كما خفَّفه غيره بالإدغام، ويمكن أن يقال: إنَّ الحذف أولى؛ لأنَّه أخفُّ في اللَّفظ، والدَّلالة على المعنى قائمة[3]، وعلى قاعدة: أنَّ زيادة المبنى تُنبئُ بزيادة المعنى، فإنَّ ﴿تَذَّكَّرُونَ﴾ تفيد التَّوكيد في الذِّكرى، والتَّحضيض عليها.

التَّذييلُ في قوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾:

الوصيَّةُ بالتَّذَكُّرِ والتَّذكيرِ، هي واحدة من مقاصد الدِّين

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ تذييل خُتِم به صنف من أصناف الأحكام، وجاء مع هذه الوصيَّة بقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾؛ لأنَّ هذه المطالب الأربعة، عُرِف بين العرب أنَّها محامد، فالأمر بها، والتَّحريض عليها تذكير بما عرفوه في

(1) الآلوسّي، روح المعاني: 4/299.
(2) البقاعي، نظم الدّرر: 2/743.
(3) عبد البديع النّيرباني، الجوانب الصّوتية في كتب الاحتجاج للقراءات: 269.

شأنها، ولكنَّهم تناسَوْهُ بغلبة الهوى وغشاوة الشِّرك على قلوبهم[1]، فجاء قوله: ﴿ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ﴾، فصارت جامعة لكلِّ ما قد ورد من الوصايا في الآيتين السَّابقتين، تذييلًا للوصايا جميعها.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(العدل) و(القسط):

العدل ذو معنًى عـامّ، والقسط ذو معنًى خاصٍّ

من المعاني المهمَّة للقسط: العدل في القسمة فقط، والقِسْطُ: الحصَّة الّتي يَنالُها الإنسان، وتَقَسَّطوا بينهم الشَّيء: اقتسموه بالسَّويَّة، فكلُّ مقدار قسط في كلِّ شيءٍ، والقِسطاسُ والقُسطاسُ: أقوم الموازين، فلا يكون القسط إلَّا في القسمة على سبيل الوزن أو الكيل، وقولُه تَعَالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلۡمَوَٰزِينَ ٱلۡقِسۡطَ﴾، أَي: ذواتِ القِسْطِ، ويُقَال: الإِقْسَاطُ: العَدْلُ في القِسْمَة فَقَط، ومن شواهد لفظ القسط قول أبي طالب:

جَزَى اللّٰهُ عَنَّا عَبْدَ شَمْسٍ وَنَوْفَلاً *** عُقُوبَةَ شَرٍّ عَاجِلاً غَيْرَ آجِلِ
بِمِيزَانِ قِسْطٍ لَا يُخِسُّ شَعِيرَةً *** لَهُ شَاهِدٌ مِنْ نَفْسِهِ غَيْرُ عَائِلِ[2]

أمَّا العَدْلُ من النّاس فهو المَرْضيُّ قولُهُ وحُكْمُهُ، وتقول: هو يَعْدِلُ، أي: يحكُمُ بالحقِّ والعدلِ، وهو حَكَمٌ عدلٌ ذو مَعْدَلَةٍ في حُكْمه[3]، وقال اللّٰه جلَّ وعزَّ: ﴿أَوۡ عَدۡلُ ذَٰلِكَ صِيَامٗا﴾ [المائدة: 95]. قال الفرَّاء: العدل: ما عادل الشَّيء من غير جنسه[4]، فالعدل يكون في كلِّ شيء؛ إذ يكون في الأقوال والأفعال، أمَّا القسط؛ فهو عدل في القسمة فحسب، فالعدل معنى عامٌّ، والقسط معنى خاصٌّ.

(العهد) و(الميثاق) و(الوعد):

العهد: حفظ الشَّيء ومراعاته حالًا بعد حالٍ، وسُمِّي الموثق

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/170.
(2) أبو عثمان الجوزجانّي، التّفسير من سنن سعيد بن منصور: 3/1145.
(3) الخليل، العين: (عدل).
(4) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (عدل).

العهدُ والميثاقُ والوعدُ، كلُّها تستدعي وجوب حفْظها، ومراعاة متطلَّباتها

الَّذي يلزم مراعاته عَهْدًا، قال تعالى: ﴿وَأَوْفُواْ بِٱلْعَهْدِۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ۝٣٤﴾ [الإسراء: 34]، أي: أوفوا بحفظ الأيمان[1]، وأمّا المِيثَاقُ فمادّة (وثق) فيها معنى الإحكام والجمع، والشّيءُ الوثيقُ: المُحكَمُ، والمُوَاثَقَةُ المُعاهدة، ومنه قوله تعالى: ﴿وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِى وَاثَقَكُم بِهِۦٓ﴾، وتَوَثَّقَ في أمره مثله، ووَثَّقَ الشَّيء تَوْثِيقًا، فهو مُوَثَّقٌ[2]، والوعد: يكون في الخير والشَّرِّ؛ يُقال: وعدتُه بنفع وضُرٍّ وعدًا وموعدًا وميعادًا، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْۖ﴾ [إبراهيم: 22]، وقوله: ﴿أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَٰقِيهِ﴾ [القصص: 61][3].

ممّا سبق نخلص إلى أنّ العهد: حفظ الشَّيء ومراعاته حالًا بعد حالٍ، والميثاق هو ما يُشدُّ به العهد، ويُحكم من البنود والشُّروط، أو قد يُفهم بأنَّ الميثاق حالة خاصَّة من العهد، فهو عهدٌ مُغلَّظٌ مُوَثَّقٌ، أمَّا الوعد: فهو الإخبار عن فعل المرء أمرًا في المستقبل يتعلَّق بالآخر، قال ابن عرفة: إخبار عن إنشاء المخبر معروفًا في المستقبل[4].

(الإيفاء) و(الإتمام):

الإيفاءُ إتمامُ الكيل أو بلوغ الشَّيء المنتهى، والإتمامُ إكمالُ ما به النَّقص

الوافي الَّذي بلغ التَّمام، يقال: درهم وَافٍ، وكيل وَافٍ، وأَوْفَيْتُ الكيلَ والوزنَ، قال تعالى: ﴿وَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ﴾ [الإسراء: 35]، ووَفَى بعهده يَفِي وَفَاءً، وأَوْفَى؛ إذا تمَّم العهد، ولم ينقض حفظه[5]، قال تعالى: ﴿وَأَوْفُواْ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ [البقرة: 40]، وقوله: ﴿وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ﴾ [النّحل: 91]، ﴿بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ﴾ [آل عمران: 76][6]، أمّا الإتمام فمن قولهم: تمَّ الشَّيء يتِمُّ تَمامًا، وَبدر تَمام[7]، واستتمَّ

(1) الرّاغب، المفردات: (عهد).
(2) الرّازيّ، مختار الصّحاح: (وثق).
(3) الرّاغب، المفردات: (وعد).
(4) أبو عبد الله المالكي، فتح العلّي المالك: 1/254.
(5) الجوهريّ، الصّحاح، والرّاغب، المفردات: (عهد).
(6) الرّاغب، المفردات: (عهد).
(7) ابن دريد، جمهرة اللغة: (تمم).

نعمة اللّه بالشُّكر[1]، وقوله تعالى: ﴿وَأَتِمُّواْ ٱلۡحَجَّ وَٱلۡعُمۡرَةَ لِلَّهِۚ﴾ [البقرة: 196] قيل: إتمامهما أن تكون النَّفقة حلالًا، وأن ينتهي عمَّا نهى اللّه عنه، وقيل: إتمامهما: تأديَة كلِّ ما فيهما من الوقوف والطَّواف، وغير ذلك[2].

(ولا تقربوا مال اليتيم)، (ولا تأكلوا مال اليتيم):

جاء في آية الأنعام (152) قوله: ﴿وَلَا تَقۡرَبُواْ﴾ ولم يقل: (ولا تأكلوا)، كما جاء في قوله جلّ شأنه: ﴿وَلَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ﴾ [البقرة: 188]، أو قوله: ﴿وَلَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَهُمۡ إِلَىٰٓ أَمۡوَٰلِكُمۡۚ﴾ [النّساء: 2]؛ لأنَّ آية ﴿وَلَا تَأۡكُلُوٓاْ﴾ فيها معنى: المُداولة في المال وصولًا إلى تحقيق الفوائد الشَّخصيَّة منه، فقال: ﴿وَلَا تَأۡكُلُوٓاْ﴾، والأكل هنا كناية عن كلِّ طُرُق الانتفاع بالمال، فالنَّهي عن خلط أموال اليتامى مع أموالهم، أمَّا آية الأنعام هنا؛ فهي نهيٌ عن قرب مال اليتيم، وعدم المُداولة بها أصلًا، وأخذ شديد الحذر من ذلك، فقال: ﴿وَلَا تَقۡرَبُواْ﴾ لبيان شديد الخطر من محاولة تحقيق نفعٍ ما لمصلحة الكُفلاء أو المُخاطبين، ثمَّ استثنى بقوله: ﴿إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾، أي: إلَّا أن يكون النَّفع لليتيم نفسه، والنَّماء لماله دون خلطها مع أموال الكفلاء.

النَّهيُ عن القربِ، أبلغُ من النَّهي عن الأكل؛ لأنَّه أتقى وأحوط

الوُسعُ والإيتاء:

قوله: ﴿إِلَّا وُسۡعَهَاۖ﴾ أي: إلَّا طاقتها البشريَّة وإمكانها في تحقيق الوزن والكيل بالقسط، لا زيادة ولا نقصان، فللنَّفس البشريَّة طاقة محدودة في ذلك، أمَّا قوله: ﴿إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَاۚ﴾، يعني: لا يأمر اللّه نفسًا في النَّفقة إلَّا على قدر ما أعطاها من المال[3].

الوُسعُ هو الطّاقة والقدرة، و(ما آتاها): ما أقدرها عليه في باب الإنفاق

(1) الزّمخشريّ، أساس البلاغة: (تمم).
(2) ابن سيدَهْ، المُحكم: (تمم).
(3) ابن الجوزيّ، زاد المسير: 4/302، والسّمرقنديّ، بحر العلوم: 3/463.

﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ١٥٣﴾

[الأنعام: 153]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الوصايا القرآنيَّة من جملة الصِّراط المستقيم اللازم اتّباعه

بعد أن ذكر في الآيتين السَّابقتين جملة من الوصايا البليغة الَّتي تُعَدُّ جوهر الإيمان، ومحور الرِّسالات السَّماويَّة، أتبعها بقوله: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ﴾؛ تصريحًا أنَّ تلك الوصايا هي من صميم صراط الله المستقيم الذي أمر الله تعالى المسلمين بسلوكه والدّوام عليه.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿صِرَٰطِي﴾: جذر الكلمة هو (سرط) و(صرط)، والصِّرَاطُ، السَّبيل الواضح، والطَّرِيق القاصد[1]، ويكتب بالسّين والصّاد، وإنَّما قيل للطَّريق الواضح: سراط؛ لأنَّه يسترط المارَّة لكثرة سلوكهم[2]، قالَ تَعَالَى: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ٦﴾ [الفاتحة: 6][3]، ومعناه: ثبِّتنا على المنهاج الواضح المستقيم الذي لا اعوجاج فيه. قال جرير:

أَمِيرُ المُؤْمِنِينَ عَلَى صِرَاطٍ *** إِذَا اعْوَجَّ المَوَارِدُ مُسْتَقِيمِ[4]

2) ﴿ٱلسُّبُلَ﴾: جمع سبيل، وهو الطَّريق، وما وضح منه، يُذَكَّرُ ويُؤَنَّث، وسبيل الله طريق الهدى الَّذي دعا إليه، وفي التَّنزيل: ﴿وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلرُّشۡدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗاۚ وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلۡغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗاۚ﴾

(1) ابن دريد، جمهرة اللّغة: (سرط).
(2) الأزهريّ، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (سرط).
(3) الزّبيدي، تاج العروس، وابن منظور، لسان العرب: (صرط).
(4) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (سرط).

[الأعراف: 146]، ومن استعمال لفظ (السبيل) مُؤَنَّثًا قوله تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾ [يوسف: 108]. وقوله تعالى: ﴿وَأَنفِقُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: 195]، أي: في الجهاد، وكلّ ما أمر الله به من الخير، فهو من سبيل الله، أي: من الطُّرق الموصّلة إلى الله تعالى، واستعمل السَّبيل في الجهاد أكثر؛ لأنَّه السَّبيل الَّذي يقاتل فيه على عقد الدِّين، وقوله تعالى: ﴿وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [التَّوبة: 60]، ابن السَّبيل: ابن الطَّريق، وتأويله الَّذي قطع عليه الطَّريق[1].

المَعْنى الإجْماليُّ:

الدَّعوةُ إلى صراطِ اللهِ المستقيمِ، وتجنُّب سُبُل الضَّلال المهلكة

بعد تعداد الوصايا العظيمة الَّتي كانت فحوى الرِّسالات السَّماوية كلِّها، بيَّن الله سبحانه في هذه الآية أنَّ التزام هذه الوصايا، هو السَّبيل إلى النَّجاة الَّتي مَنَّ الله بها على البشر، فقال: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ﴾، أي: قل: إنَّ هذا القرآن الَّذي أدعوكم إليه، وأدعوكم به إلى ما يُحييكم، هو صراطي ومنهاجي الَّذي أسلكه، المُوَصّل إلى مرضاة الله ونيل سعادة الدُّنيا والآخرة، وهو الدِّين القويمُ والشَّرع الحنيفُ، وهو الَّذي وصَّاكم الله به على لسان أنبيائه، وفي كتبه السَّابقة أن إذا جاء فاتَّبعوه، ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ﴾ الأخرى الَّتي تخالفه، فقال: ﴿فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾، فأنواع الضَّلال وطرقه كثيرة، أمَّا الهداية؛ فهي نوع واحدٌ وسبيل واحدة[2]، وحثَّ على التَّمسُّك بها، وتَجَنُّبِ سائر السُّبل، فقال: ﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾، فتكون التَّقوى باتِّباع ما جاء في القرآن الكريم.

(1) ابن سيده، المُحكم: (سبل).
(2) الموصلّي، أولى ما قيل: 3/393 - 394.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالة العطفِ في قوله: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى﴾:

تمثيلُ المعطوفاتِ في أغراضِ الخطابِ وترتيبِهِ

في قوله: ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا﴾ الواو عاطفة على جملة: ﴿أَلَّا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ [الأنعام: 151]، لكون المعنى: (تعالَوا أتل عليكم التَّوحيدَ ونفيَ الإشراك، وأتلُ عليكم أنَّ هذا صراطي مستقيمًا)، وهذا الإعراب في حالة جعل (أنْ) ناصبة للفعل في ﴿أَلَّا تُشْرِكُواْ﴾، فيكون العطف دالًّا على أنَّ تلك الأوامر والنَّواهي السَّابقة هي وصايا تُحقِّق العدل المجتمعيَّ والأسريَّ، وذلك لأنَّ صراطي مُسْتَقيمٌ.

والمعنى الثاني أن تكون جملة ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا﴾ علَّة للاتِّباع بمعنى: (ولأنَّ هذا صراطي مستقيمًا فاتَّبعوه)[1]، ووفق هذا المعنى؛ فإنَّ العطف أفاد تفسير استقامة الصِّراط؛ كونه قائمًا على كلِّ شرع مستقيم يحقق مصلحة الأفراد والمُجتمعات، ويضمن الفرد الصَّالح والأسرة المُتماسكة.

التَّوجيهاتُ البلاغيَّةُ للقراءات في قوله: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى﴾:

تتشعَّبُ المعاني مع التَّوجيهاتِ البلاغيَّةِ للقراءات المختلفة

قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا﴾، قرأ حمزة والكسائي (إنَّ) مَكْسُورَة الْألف مُشَدَّدَة النُّون[2]، على معنى الابتداء، أو على أنَّ التِّلاوة في معنى القول أو على الاستئناف، والمعنى: اتَّبعوا صراطي، إنَّه مستقيم، وقَرَأَ ابْن كثير ونافع وعاصِم وأَبو عَمْرو ﴿وَأَنَّ هَٰذَا﴾ مفْتُوحَة الْألف مُشَدَّدَة النُّون بالنصب على معنى البناء[3]، وَقَرَأَ ابْنُ عَامر (وَأَنْ هذا) مَفْتُوحَة الْألف مَوْقُوفَة النُّون[4]، فمن قرأ بالفتح والتَّخفيف؛ فبإعماله في ضمير الشَّأن، والتَّقدير: (تعالوا أتل ما حرم، وأتل أنَّه هذا صراطي)، وكذا فيمن قرأ بالتَّشديد وبالفتح

(1) بهجت صالح، الإعراب المفصّل: 3/360 - 361.
(2) ابن مجاهد، السّبعة في القراءات، ص: 273.
(3) ابن مجاهد، السّبعة في القراءات، ص: 273.
(4) ابن مجاهد، السّبعة في القراءات، ص: 273.

إلَّا أنَّ ضمير الشَّأن لا يُقدَّر، أو أن تكون خفضًا متعلِّقًا بما قبله، أي: ذلكم وصَّاكم به، وبأن هذا، أو بما بعده، والتَّقدير: وبأنَّ هذا صراطي مستقيمًا ﴿فَٱتَّبِعُوهُۖ﴾[1].

سرُّ التَّوكيدِ في: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا﴾:

الإقناعُ بقبولِ الوصايا والعمل بها؛ يحتاج إلى تأكيدات وأدلَّة

قوله: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا﴾، فـ(أنَّ): حرف نصب وتوكيد، والمعنى: وهذا الَّذي وصَّاكم به ربُّكم - أيُّها النَّاس - في هاتين الآيتين، من قوله: ﴿۞قُلۡ تَعَالَوۡاْ أَتۡلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمۡ عَلَيۡكُمۡۖ﴾، وأمركم بالوفاء به، هو صراط اللّٰه المستقيم، أي: طريقه ودينه الَّذي ارتضاه لعباده[2]، و(أنَّ) لا يتم الكلام بها إلَّا مع ضميم معها، فقال: ﴿فَٱتَّبِعُوهُۖ﴾؛ وهي في ذلك بخلاف (إنَّ) المكسورة، وهُما يُفيدان معنى التَّوكيد، وفائدة هذا التَّوكيد: مخاطبة النُّفوس المتردِّدة في قبول هذه الوصايا الَّتي هي جملة من الأوامر والنَّواهي، والتأكيد بأنَّها هي الصِّراط المستقيم لا سواها، فمن سلك غير هذه السَّبيل؛ فقد سلك السَّبيل المنحرف عن الحقِّ وعن الهداية.

دلالةُ استعمالِ اسمِ الإشارة للقريب ﴿هَٰذَا﴾:

صراطُ اللّٰه المستقيم حاضرٌ لا يغيبُ عن الأذهان

في هذه الجملة إخبار عن اسم الإشارة بالاسم ﴿صِرَٰطِي﴾، فهي في تقدير جواب عن سؤال: ما هذا؟ فيكون الجواب: هذا صراطي مستقيمًا، فالإشارة فيه إلى ما ذكر في السُّورة، فإنَّها بأسرها في إثبات التَّوحيد والنُّبوَّة وبيان الشَّريعة[3]، وقال الطَّبريُّ: الإشارة هي إلى هذه الوصايا الَّتي تقدَّمت من قوله: ﴿۞قُلۡ تَعَالَوۡاْ أَتۡلُ﴾ [الأنعام: 151][4]، وأنَّ هذا، أي: هذا الَّذي وصَّيتُكم به في هاتين الآيتين،

(1) النّحّاس، إعراب القرآن: 2/40.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 12/228.
(3) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 2/189.
(4) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/363.

صراطي، طريقي وديني، مستقيمًا، مستويًا قويمًا، فاتَّبعوه[1]، أو أن تكون الإشارة هي إلى الشَّرع الَّذي جاء به محمَّد ﷺ بجملته، فمعنى الإشارة هي الجواب على السؤال: ما هذا الذي ورد من الوصايا؟ فيكون الجواب مجازًا: هذا الإسلام، فذكر الجُزء وأراد الكُلَّ، أي: وأنَّ الإسلام صراطي، فالإشارة بـ﴿هَٰذَا﴾ يُنبئ عن حاضر في أذهان المخاطبين، فما تقدَّم من الأوامر والنَّواهي تتشكَّل منها قواعد وأنظمة حاضرة في الأذهان، يُفهم منها المنهج القويم الذي هو جزءٌ من تعاليم الإسلام وشرعه، فيعرفه النَّاس، ويتبنَّوه، فَنُزِّلَ منزلة المشاهد، فاستعمل فيه اسم الإشارة الموضوع لتعيين ذات بطريق المشاهدة مع الإشارة[2].

بلاغةُ الاستعارةِ في لفظ (الصراط):

الصِّراطُ المستقيمُ هو الإسلامُ بتشريعاته وسامي قيمه

الصِّراطُ: الطَّريق الجادَّة الواسعة، والمراد هنا: جميع تلك التَّشريعات الَّتي هي مضمون الإسلام، أو أريد الإسلام نفسه، كما دلَّ عليه قوله في آخر السُّورة: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسْتَقِيمٖ دِينٗا قِيَمٗا﴾ [الأنعام: 161]؛ لأنَّ المقصود منها تحصيل الصَّلاح في الدُّنيا والآخرة، فشبَّهت بالطَّريق الموصل السَّائر فيه إلى غرضه ومقصده، ولـمَّا شبَّه الإسلام بالصِّراط، على سبيل الاستعارة التَّصريحيَّة، وجُعل كالشَّيء المشاهد، صار كالطَّريق الواضحة البيِّنة، فادُّعي أنَّه مستقيم، أي: لا اعوجاج فيه؛ لأنَّ الطَّريق المستقيم أيسر سلوكًا على السَّائر، وأسرع وصولًا به[3]، ويمكن إجراء الاستعارة بطريق آخر فيقال: قد صوَّر المشهدُ تشخيصًا للصِّراط، وكأنَّه إنسان يرشد إلى الطَّريق، وعلى المُخاطبين أن يتَّبعوه؛ لأنَّه سيضمن لهم السَّير في الطَّريق المستقيم المؤدِّي إلى

(1) البغويّ، معالم التّنزيل: 2/171.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/172.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/172.

رضاء اللّه تعالى، فحذف الإنسان؛ وهو المُشبَّه به، وأثبت المُشبَّه، فهو استعارة مكنيَّة تشخيصيَّة.

نكتةُ إضافةِ الصِّراط إلى الياء:

سلوكُ صراطِ الله تكريمٌ ومنَّةٌ على المؤمن من مولاه

في قوله: ﴿صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا﴾؛ أضيف لفظ (الصِّراط) إلى الرَّب سبحانه من حيث الوضع، وإليه ﷺ من حيث السُّلوك والدَّعوة، أي: هذا الصِّراط - الَّذي أسلكه، وأدعو إليه - مستقيمٌ لا اعوجاج فيه[1]، والياء المضاف إليها (صراط) تعود إلى اللّه، وفي ذلك تكريم للمخاطبين الَّذين سيتَّبعون هذا الصِّراط، كونه صراط اللّه سبحانه الخالق لهذا الكون، المُقدّر لكلِّ شيء، فهو وحده القادر على أن يختار صراطًا مستقيمًا، يصلح لحياة البشر، فيرسل الرُّسل لتبيين هذا الصِّراط، وهذا ما يدلُّ عليه قوله: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٥٢ صِرَٰطِ ٱللَّهِ﴾ [الشُّورى: 52، 53]، على إحدى طريقتين في حكاية القول، إذا كان في المقول ضمير القائل أو ضمير الآمر بالقول، كما تقدَّم عند قوله تعالى: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ﴾ [المائدة: 117][2].

نكتةُ وصفِ الصِّراطِ بالاستقامةِ مع كونه لا يكون إلا كذلك:

استحضارُ استقامةِ الصِّراطِ في الذِّهن، يجعله كالأمر المحسوس

قوله: ﴿مُسْتَقِيمًا﴾، حال من اسم الإشارة، وحسُن وقُوعُه حالًا؛ لأنَّ الإشارة بنيت على ادِّعاء أنَّه مشاهد، فيقتضي أنَّه مستحضر في الذِّهن بمجمل كلِّيَّاته وما جرَّبُوه منه، وعرفوه، وأنَّ ذلك يريهم أنَّه في حال الاستقامة، كأنَّه أمر محسوس[3]، فأفاد معنى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى﴾ - كما تعرفونه، وتُعايشونه - ﴿مُسْتَقِيمًا﴾، فاقتضى أن تتَّبعوه، ومثال ذلك أيضًا قوله: ﴿وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا﴾ [هود: 72]، فقال:

(1) الآلوسّي، روح المعاني: 4/299.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/172.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/173.

﴿فَٱتَّبِعُوهُۖ﴾؛ لأنَّهم عرفوا استقامته، فلا حُجَّة بعد ذلك في ترك اتِّباعه، فجاء الأمر موجبًا عليهم الاتِّباع.

غرضُ الالتفاتِ من الخطاب إلى الغيبة:

صراطُ اللهِ هو الصِّراط الضَّامن للسَّالكين والمضمون باليقين

وقد عدل عن الغيبة الَّتي جرى عليها الكلام السَّابق، فالتفت من قوله: ﴿مَا حَرَّمَ رَبُّكُمۡ عَلَيۡكُمۡۖ﴾ [الأنعام: 151]، إلى التكلُّم في قوله: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ﴾؛ للإشعار منه سبحانه بعصمة هذا الصِّراط من الزَّلل؛ لكونه صراط اللّٰه الضَّامن لمُتَّبعيه وصولًا إلى النَّجاح، وفائدة هذا الالتفات تعظيمٌ لشأن هذا الصِّراط، وتأصيلُ صفة الاستقامة فيه، فاستقامته آتية من انتسابه إلى اللّٰه تعالى، فهو صراط مستقيم مع جميع الشَّرائع الَّتي جاء بها الرُّسل، ورسالة موسى أنموذج عظيم سابق لرسالة محمَّد ﷺ.

معنى التَّفريع في: ﴿فَٱتَّبِعُوهُۖ﴾:

اتِّباعُ صراطِ الله هو الغايةُ في كونه صراطًا لله

في قوله تعالى: ﴿فَٱتَّبِعُوهُۖ﴾، الفاء تفيد التّفريع، والمرادُ إمّا تفريعُ الاتّباع على كون الصّراط مستقيمًا، أي أنّ استقامة الصراط تدعو وتقتضي اتّباعه، وإمّا أن يكون الأمرُ بالاتباع متفرّعًا عن كونه الصراط المضاف إلى النّبيّ ﷺ، ولا خلاف بين هذين المذهبين، فصراط اللّٰه هو في ذاته مستقيم، وهو في الوقت نفسه صراط نبيّنا ﷺ، والمسلم مطلوب منه أن يتّبعه للعلّتين كلتيهما.

دلالةُ الأمرِ في قوله تعالى: ﴿فَٱتَّبِعُوهُۖ﴾:

الأمرُ باتِّباع سبيلِ الله، هو فضلٌ ورحمةٌ منه سبحانه

قوله: ﴿فَٱتَّبِعُوهُۖ﴾ تضمَّن المعنى الحقيقيَّ لصيغة الأمر، للطَّلب من الأعلى إلى الأدنى، وفائدته: توجيه أذهان المُخاطبين إلى رؤية واضحة، حول السَّبيل الصَّحيحة الَّتي يسلكها الإنسان في حياته، وصولًا إلى إرضاء اللّٰه تعالى، في علاقاته ومعاملاته وحياته كلِّها.

بلاغة جملة ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ﴾:

بيانُ استقامةِ الصِّراطِ قبلَ الأمرِ باتِّباعه: منهجٌ علميٌّ رصينٌ

لو قيل: (فَاتّبِعُوا صِرَاطِيَ مستقيمًا)؛ كان الأمر بالاتِّباع ضعيفًا ممّا جاء عليه نظم الآية، فقد يخرج إلى معنى التَّوجيه المباشر؛ لِفَقدِ التَّوكيد والانفصال عمَّا سبقه من الأوامر والنَّواهي المتضمِّنة للمنظومة: الأخلاقيَّة، والإيمانيَّة، والإنسانيَّة العظيمة الَّتي تُمثِّل محور الصِّراط المستقيم، فعدل عن ذلك إلى قوله: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ﴾، كما أنَّ العبارة المُفترضة (اتّبِعُوا صِرَاطِيَ مُسْتقيمًا)، أفقدت الجملة التَّوكيد بـ(أنَّ) واسم الإشارة اللَّذين منحاها القوَّة؛ إذ لا يكون للسِّياق حاجة في ورودهما على خلاف نظم الآية الكريمة.

دلالةُ الجملةِ الفعليَّة في: ﴿فَٱتَّبِعُوهُۖ﴾:

الاتِّباعُ يقتضي الحرصَ والمُتابعةَ وتجديدَ النِّيَّةِ والعهد

أفادتِ الجملةُ الفعليَّة دلالة التجدُّد مع الزَّمن، فالاتِّباع يقتضي تجديد العهد به، وتخيُّر الأساليب المؤدِّية إلى أمثل اتِّباعٍ وأحسنه، وتجدُّدها مع مقتضيات الحياة، وتجدُّد أساليب عيش النَّاس، وهي على خلاف الاسميَّة الَّتي تفيد الاستقرار والثَّبات.

دلالةُ العدولِ منَ الأمرِ في ﴿فَٱتَّبِعُوهُۖ﴾ إلى النَّهي في ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ﴾:

تنويعُ أسلوبِ الخطابِ مُحفِّزٌ لاستجابةِ المُخاطَبين

قولُه: ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ﴾، معناه: لا تسلكوا الطُّرق المختلفة في الدِّين، وما فيها من سائر البدع والضَّلالات، وقد قابل هنا بينها وبين الصِّراط المستقيم[1]، فدلَّ ذلك الأسلوب البلاغيُّ على صفة محذوفة فيها، فهي السُّبل المتفرِّقة المُعوَجّة غير المستقيمة، وهي طرق تتشعَّب من السَّبيل الجادَّة، فلذلك سبَّبَ عن النَّهي، قوله: ﴿فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ﴾؛ إذ عدل من الأمر ﴿فَٱتَّبِعُوهُۖ﴾ إلى النَّهي ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ﴾ ليُبيِّن أنَّ هذه السُّبُل الَّتي هي غير سبيل اللّٰه، تؤدِّي بسالكها إلى التَّفرُّق عن سبيل اللّٰه المستقيم.

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/76.

غرضُ العدولِ منَ الصِّراطِ إلى السُّبُلِ بالجمعِ:

الصِّراطُ المستقيمُ واحدٌ واضحٌ، وما دونه سُبُلٌ ضالَّةٌ غيرُ مُوصّلة

السَّبيل يرادف الصِّراط، فقد ورد السَّبيل - أيضًا- للدَّلالة على سبيل اللّه، وسبيل رسوله، قال تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ﴾ [يوسف: 108]، ولأنَّ المُقابلة والإخبار عنها بالتَّفرق دلَّ على أنَّ المراد سبُلٌ خاصَّةٌ موصوفةٌ بغير الاستقامة[1]؛ فَقَابَلَ بين الصِّراط المستقيم المُتَّصف بالسَّعة والاستقامة والواحديَّة، وبين السُّبل العديدة الضَّيِّقة المُنحرفة عن الاستقامة، فأدَّت هذه المُقابلة تمثيلًا تصويريًّا لها بين حالين: حال من يسلك الصِّراط المستقيم، فَيَصِلُ إلى مراد اللّه ومراد رسوله، قُبالة حال من يسلك واحدًا من السُّبل المُتفرِّقة المُتشعِّبة المُنحرفة عن الصِّراط المستقيم، فلا يصل إلى ما أمره اللّه من الخير، ولا يُحقِّق لنفسه الفوز بالهدف والغاية، فأراد بالسُّبُل الَّتي تعدل عن الصِّراط المستقيم يمينًا وشمالًا، والعرب تقول: الزم الطَّريق، ودَعِ البُنيّات[2]، وجَمَعَ سبيلَ البَاطِلِ، وأفرد سَبيلَ الحقِّ؛ لأنَّ طريق الحقِّ واحدٌ، وأمَّا البَاطِلُ؛ فطُرقُهُ متشَعِّبَة مُتَعَدِّدَة[3].

بلاغة التَّمثيل:

الأمرُ باتِّباعِ سبيلِ اللهِ، والنَّهيُ عن اتِّباع ما سواه: هو مشروعُ الحياة كلِّها

في قوله: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ﴾ مشهدٌ تصويريٌّ لمعنى صراط اللّه المستقيم، وصورة نابضة بالحياة والحركة لطُرق أهل الضلال المُعوَجّة المُلْتوِيَة حيث مثّل سبحانه لهذه المعاني بتقرير أنّ الإسلام صراطٌ واضحٌ جليٌّ، وأنّ ما عليه أهل الضلال من انحراف في العقيدة وفسوق في السُّلوك وارتكاب للآثام والمحرّمات هو بمثابة اتّباعهم لسُبُل مختلفة وطرقٍ مُلتويّة لا تُوصّلُهم إلى الغرض المنشود وهو الدّينونةُ للّه تعالى وتوحيده بالعبادة وإخلاص الطاعة لوجهه الكريم. وفيما جاء عليه النّظم

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/173.
(2) ابن قتيبة، غريب القرآن: 163.
(3) الزّركشّي، البرهان: 4/12.

الجليل تمثيلٌ ومشهدٌ مرئيّ يراه كلُّ ذي عقل رشيد وكلّ من ألقى السّمع وهو شهيد. وهو عينُ التّمثيل الذي ذهب إليه رسول الله صلّي الله عليه وسلّم في الحديث الذي رواه ابن مسعود رضي الله عنه. فعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن النَّبيِّ ﷺ، «أنَّه خطَّ لنا خطًّا، ثمَّ قال: هَذَا سَبِيلُ اللهِ، ثُمَّ خَطَّ خُطُوطًا عَنْ يَمِينِهِ، وَعَنْ شِمَالِهِ، ثُمَّ قَالَ: هَذِهِ سُبُلٌ - قَالَ يَزِيدُ: مُتَفَرِّقَةٌ - عَلَى كُلِّ سَبِيلٍ مِنْهَا شَيْطَانٌ يَدْعُو إِلَيْهِ»، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ﴾[1].

دلالة النَّهي في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ﴾:

الانتهاءُ عن اتِّباع غير سبيل الله؛ هو الضَّامنُ لعدمِ انحراف النُّفوس

تضمَّن النَّهي هنا المعنى الحقيقيَّ، وهو طلب الكفِّ عن فعل شيء على وجه الاستعلاء، وفائدته مُكمِّلة لفائدة الأمر قبله؛ إذ نهانا الله تعالى عن اتِّباع سبلٍ أخرى غير سبيله سبحانه؛ لأنَّها ستؤدِّي بالنَّتيجة إلى إبعادهم عن سبيل الله سبحانه، وأنَّها بالنَّتيجة - أيضًا- ستؤدِّي إلى اضطراب علاقاتهم ومعاملاتهم وحياتهم كلِّها؛ لأنَّ من ترك الحقَّ، فقد لجأ إلى الباطل من الأفعال والأقوال.

بلاغةُ القراءاتِ في الفعل: ﴿فَتَفَرَّقَ﴾:

السُّبُلُ المتفرِّقةُ هي غواياتُ الشَّياطين يُزيِّنونها لمتَّبعيهم

قُرِئَ الفعلُ (تَفَرَّق) بإفراد التَّاء ﴿فَتَفَرَّقَ﴾، وبتكرارها (فَتَتَفَرّق)[2]، وقرأ (البزِّيُّ) وصلًا بخلف عنه بتشديد التَّاء فيما أصله تاءان، وحذفت واحدة من الخطِّ ﴿فَتَّفَرَّقَ﴾[3]، وبحسب قاعدة: زيادة المبنى تُنبئ عن زيادة المعنى؛ فإنَّ قراءة التَّكرار للتَّاء، فيها معنى أقوى، للدَّلالة على دور تلك السُّبل في تفريق سالكيها، وصرفهم بعيدًا عن سبيل الله، وصراطه المستقيم، فيكون المعنى

(1) أحمد، مسند الإمام أحمد، مسند عبد الله بن مسعود: 7/207 - 208، الحديث رقم: (4142).
(2) ابن الجزريّ، النّشر: 2/232.
(3) محيسن، القراءات وأثرها في علوم العربية: 1/127.

المفهوم من ذلك أنَّ لتلك السُّبل الدَّور الأكبر في حصول ذلك التَّفريق، أمَّا على التَّخفيف؛ فإنَّ المعنى يفيد توزيع دور التَّفريق بين السُّبُل وسالكيها، فلولا أنَّ سالكي هذه السُّبل لديهم الاستعداد النَّفسي للولوج فيها؛ لَمَا ولجوها، واتَّبعوها.

نوعُ الباءِ ومعناها في قوله: ﴿بِكُمْ﴾:

من سلكَ سبيلَ الأهواءِ؛ ضاعَ في دروب المعاصي والمنكرات

الباءُ في قوله: ﴿بِكُمْ﴾ للمصاحبة، أي: تتفرَّق السُّبل مصاحبة لكم، أي: تتفرَّقون مع تفرُّقها، وهذه المصاحبة المجازيَّة تجعل الباء بمنزلة همزة التَّعدية، كما ذكر ذلك النُّحاة، في نحو: ذَهَبْتُ بزيد، أنَّه بمعنى: أذهبته، فيكون المعنى: فتُفَرِّقَكُم عن سبيله، أي: لا تلاقون سبيلَه[1]، فالسَّالك لواحدة من هذه السُّبُل، إنَّما سيزداد بُعدًا كُلَّما أوغل في مسلكه وسيره، وطال به الزَّمن، زاد بُعْدُهُ عن سبيل اللّه وطريقه الموَصِّلة إلى الهداية، فالبُعد مصاحب لسالك هذه السُّبُل مع كلِّ خطوة يزداد بُعدًا، وذكر أبو البقاء: أنَّ الباء هنا للتَّعْديَةِ، أي: فيفرِّقكم ذلك الاتِّباعُ[2]، و﴿بِكُمْ﴾: في موضع المفعول، أي: فتفرّقكم، ويجوز أن يكون حالًا، أي: (فتتفرَّق وأنتم معها)[3].

نكتةُ الإضافةِ إلى الضَّميرِ في ﴿سَبِيلِهِۦ﴾:

على قدرِ الأفعالِ والأقوالِ والنِّيَّاتِ، يكون البعدُ بتفرُّق السُّبل

قال: ﴿فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾، ولم يقل: (عنْ سبيل اللّه) أو (عن سبيلي)؛ إشارة إلى البعد الَّذي أصابهم، حال سلوكهم تلك السُّبل، فأبعدتهم عن اللّه، ويُرشِّحُ هذا المعنى، ويُقوِّيه: ضمير الغائب في ﴿سَبِيلِهِۦ﴾، على خلاف ورود ضمير المتكلِّم، بقوله: ﴿صِرَٰطِى﴾ بضمير المُتكلِّم الَّذي يدلُّ على أنَّ سالكي هذا الصِّراط ومُتَّبعيه قريبون من اللّه تعالى.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/173 - 174.
(2) النّيسابوريّ، غرائب القرآن: 3/189.
(3) أبو البقاء العكبري، التّبيان في إعراب القرآن: 1/549.

الالتفاتُ من التّكلّم إلى الغيبة:

الضَّمير المضاف إليه في: ﴿سَبِيلِهِۦ﴾، يعود إلى اللّه تعالى، بقرينة المقام، أي: عن سبيل اللّه، ولمَّا كان ضمير المتكلِّم في قوله: ﴿صِرَٰطِى﴾ عائدًا إلى اللّه أيضًا؛ فإنَّ ضمير ﴿سَبِيلِهِۦ﴾ التفات عن (سبيلي)، وفائدة هذا الالتفات: الانصراف عن أولئك الَّذين انصرفوا عن سبيل اللّه، وتفرّقوا بمسالكهم المُتباعدة عنه سبحانه وعن شرعه.

مَنِ انصرفَ عنِ اللّه، وانحرفَ؛ أعرضَ اللّهُ عنه، وانصرفَ

دلالة استعمال اسمِ الإشارةِ للبعيدِ في: ﴿ذَٰلِكُمْ﴾:

الوصية الأخيرة: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ﴾ هي الجامعة لكلِّ ما جاءت به دعوة الحقِّ، حيث دعت إلى اتِّباع صراط اللّه، والانتهاء عن اتِّباع طرق الشَّيطان، فطريق اللّه سبيل النَّجاح في الدُّنيا والآخرة، وفي قوله: ﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ﴾ استعمل اسم الإشارة للبعيد، لنُكتة استقصاء الوصايا السَّابقة كلِّها، وليعطي ملمحًا للمتلقِّي: أنَّها وصايا قديمة جاءت بها رسالات الأنبياء والرُّسل من قبل، فعدل عن هذا إلى ذلك، ودلالة ضمير الجمع فيه لدلالة شمول الوصايا السَّابقة كلِّها.

وصايا اللّه في الكتاب: هي استقصاءٌ للخير كُلِّه

دلالة التَّعبيرِ بالماضي في ﴿وَصَّىٰكُم﴾:

في قوله: ﴿وَصَّىٰكُم بِهِۦ﴾، جاء التَّعبير بالماضي، لبيان أنَّ هذه الوصايا أصبحت كالثَّوابت الَّتي لا تغيير فيها، ولا نسخ، وهي كالرَّواسخ في الشَّريعة الإسلاميَّة وغيرها من شرائع الرُّسُل، وذلك على خلاف المضارع الَّذي يفيد التَّجدُّد مع الزَّمان، وعن ابن عبَّاس رضي الله عنهما: هذه الآيات محكمات لم ينسخهنَّ شيءٌ من جميع الكتب، وقيل: إنَّهنَّ أمُّ الكتاب، وعن كعب الأحبار: والَّذي نفس كعبٍ بيده، إنَّ هذه الآيات لأوَّل شيء في التَّوراة[1].

الوصايا الَّتي جاءَ بها الكتاب ثوابت راسخةٍ لا تتغيَّر

(1) الطّيبيّ، حاشية الطّيبّي، فتوح الغيب: 6/295.

نكتةُ حذفِ فاعلِ ﴿وَصَّىٰكُم﴾:

حذفُ الفاعل وهو الاسم الجليل لوضوحه في الأذهان

الفاعلُ للفعل: ﴿وَصَّىٰكُم﴾، هو الاسم الجليل، أي: (وصَّاكم اللّه به)، وفائدة حذف الفاعل في مثل هذا المقام هو العلمُ به، وعدمُ انصراف الذّهن إلى غيره، وذلك أيضا ضربٌ من الإيجاز لأنّ البلاغة قائمةٌ على حذف كلّ ما يدلُّ عليه السّياق ولا زيادة في المعنى في التّصريح به.

الطيُّ والنَّشرُ في قوله: ﴿ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾:

تكريرُ الوصايا ترسيخٌ للمضامين في نفوس المخاطَبينَ

قولهُ: ﴿ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ تكرير لِمثْلَيه السَّابقَيْنِ، فالإشارة بـ﴿ذَٰلِكُمۡ﴾ إلى الصِّراط، والوصاية به معناها: الوصاية بما يحتوي عليه[1]، وهذا من قبيل الطَّيِّ والنَّشر المقلوب، وفائدته: ترسيخ مضامين تلك الوصايا، وتوكيد الوصيَّة نفسها.

العدول عن فعل الأمر إلى فعل التّوصية:

وصايا القرآن الكريم: أوامرُ ونواهٍ، وخيرٌ وصلاحٌ

قوله ﴿ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ﴾ من التّذييل المفيد النّافع الذي يُرشِّح فائدةَ العدولِ من الأمر إلى الوصيَّة؛ إذ إنَّه لـمَّا أمر ونهى؛ فقد اقتضى المقامُ مزيدَ توكيدٍ للالتزام بالأوامر السَّابقة، والانتهاء عمَّا نهى عنه، فذكر الوصيَّة ليشمل الأوامر والنَّواهي، وهو الصِّراط المُستقيم، ولذلك ختم بقوله: ﴿بِهِۦ﴾، أي: بالصِّراط.

نكتةُ التَّعبيرِ بـ(لعلَّ) دون غيرِها في قوله: ﴿لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾:

تَلْميحاتُ القرآنِ بحدوث الخيرِ والبُشرى للمؤمنين

أداة (لعلَّ) موضوعة لإنشاء توقُّع أمر، وقوله: ﴿لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ جعل الرَّجاء لتوقُّع حصول التَّقوى؛ لأنَّ هذه السَّبيل تحتوي على ترك المحرَّمات، وتزيد بما تحتوي عليه من فعل الصَّالحات، فإذا اتَّبعها السَّالك؛ فقد صار مرشَّحًا للتَّقوى وأفعال التَّقوى، واستعمال (لعلّ) يُومئُ إلى توقّع تقوى المخاطبين وزحزحتهم عمّا هم فيها، ودَعْوتهم للالتزام بالتّقوى وشروطها وآدابها وكلّ ما يُوَصّلُ إليها.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/174.

نكتةُ المضارعيّة في الفعل ﴿تَتَّقُونَ﴾:

قوله: ﴿تَتَّقُونَ﴾ فعل مضارع يدلُّ على التَّجدُّد مع الزَّمان، وفائدته: بيان تجدُّد التَّقوى واستمرارها، وتأصُّلها في صدور المؤمنين، ما داموا سائرين في هذا الصّراط المستقيم ملتزمين شرع الله تعالى، منتهين عن النَّواهي، مؤتمرين بالأوامر، بعيدين عن سُبُل الضَّلال.

اتِّباعُ صراطِ الله تأكيدٌ للتَّقوى، وتجديدٌ للهمَّة في الاتِّباع

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(الصِّراط) و(السَّبيل):

الصِّرَاط هو الطَّرِيق المُستَسهَل، أصلُه مِنْ: سَرَطْتُ الطَّعَامَ، أي: ابتَلَعتُه، فقيل: (سراطٌ) تصوّرًا أنّه يَبْتَلِعُهُ سالِكُه، أو يبْتلعُ سالِكَهُ[1]، قَالَ الشاعر:

حَشَوْنا أَرْضَهُمْ بِالْخَيْلِ حَتَّى *** تَركْناهُمْ أَذَلَّ مِنَ الصِّرَاطِ

والذّلُّ هنا خلافُ الصعوبة، فالصِّراط هو الطَّريق المَمَهَّدُ المذلَّلُ المسهَّلُ. والصّراط الطَّريق المُستقيم[2]، كما ورد في هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ﴾، والصِّراط طريقٌ عُلِّمَتْ لِلسّالِكِ جَميعُ مَعالمه، فالله تعالى قَدْ بَيّنَ دينه ووضّحه، ولا يخفى شيءٌ على من أراد أن يسلُك صراط الله.

الصِّراطُ والسَّبيلُ كلاهما يعنيانِ النَّهجَ المسلوكَ إلى الله

وجاء (الصّراط) في القرآن الكريم في أغلب المواضع دالًّا على الطّريق الموصل إلى الله، كقوله: ﴿وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا﴾ [الأنعام: 126]؛ إلّا في قوله تعالى: ﴿فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾﴾ [الصافات: 23]. بينما خصّ السَّبيل للدّلالة على طريق أهل الضّلال. إلّا ما ورد في قوله تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (سرط).
(2) الرّاغب، المفردات: (صرط).

﴿وَمَنِ ٱتَّبَعَنِي﴾ [يوسف: 108]، فقد جاءت للدّلالة على طريق الحقّ، ولكنّ الدّعوة لهذه السبيل كانت مُقيّدةً بكونها على بصيرةٍ، ممّا يجعلها دعوةً إلى صراط الله، لكنّ التّعبير بلفظ السبيل في هذا الموضع فيه تعريضٌ بالسُّبُل الّتي سَلَكَها إخْوَةُ يوسفَ معَ أبيهِمْ وأخيهم في هذه السّورة، وفيها تَعْريضٌ كذلك بكلّ السُّبُل الّتي يَضَعُها أهل الباطل في طريق الأنبياء.

وأمّا السّبيل فمنها طريقٌ سالِك ومنها غير ذلك؛ قال تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ﴾ [النّحل: 9]، فاللّه يَقْصِدُ السَّبيلَ للمُسلِمِين وللدَّابَّةِ، والسبيلُ الجائر مقابلُ السّبيلِ السّابل[1]، وهو السّبيلُ المَسْلوك[2]. فالسّبيل منها الطريق الذي لم يطرُقْهُ طارق، أو أنّ المُخاطَب به لم يَسْبق له أن سَلَكَه، فهو مجهولٌ عنده، وقد يكون معلومًا عند غيره.

ونخلُص بأنّ الصّراط يدلّ على الوضوح والاستقامة، والسَّبيل منها ما هو سالِكٌ، ومنها غيْرُ ذلك، ولهذا فَقَدْ خَصّ اللّه تعالى طريقَ الإسلام بالصِّراط، ووَصَفَ طُرُق أهل الضّلال بالسُّبُل.

(1) ابن سيده، المحكم (سبل).
(2) الزّمخشريّ، أساس البلاغة: (سبل).

﴿ثُمَّ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِيٓ أَحۡسَنَ وَتَفۡصِيلٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمۡ يُؤۡمِنُونَ ١٥٤﴾ [الأنعام: 154]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

العلاقةُ بين صراطِ القرآنِ المستقيمِ وهدي موسى المستبين

لمَّا أخبرَ اللّه تعالى عن هدي القرآن الكريم باعتباره صراط اللّه المستقيم، وحبله المتين، ونهجه القويم؛ ذكر هنا كتاب موسى عليه السلام، ومدحه بأحسن عبارة، كونه الكتاب الشَّامل لتلك الوصايا، وهو تمامُ نعمةٍ وكرامةٍ على الَّذين اتَّبعوا موسى، وفيه تفصيل لكلِّ شيء من الشَّرائع الَّتي يحتاج إليها بنو إسرائيل في كلِّ تفاصيل حياتهم ودقائق شؤونهم.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾: المُراد به في الآيةِ: التَّوراة، وقد يُراد به جِنْسُ الكتاب، أيْ: الكُتُبُ السَّماويَّةُ والرِّسالةُ الَّتي جاء بها الأنبياء.

2) ﴿تَمَامًا﴾: جذر الكلمة هو (تمم)، تمَّ الشَّيْء يتمُّ تَمامًا، أي: اكتمل، وَبدر تَمام[1]، واستتمَّ نعمة اللّه بالشُّكر[2]، وقوله تعالى: ﴿وَأَتِمُّواْ ٱلۡحَجَّ وَٱلۡعُمۡرَةَ لِلَّهِۚ﴾ [البقرة: 196]؛ قيل: إتمامهما أن تكون النفقة حلالًا، وأنْ يَنتَهِي عمَّا نَهى اللّه عنه، وقيل: إتمامهما: تأدية كلِّ ما فيهما من الوقوف والطواف وغير ذلك[3].

3) ﴿وَتَفۡصِيلٗا﴾: جذر الكلمةِ هو (فصل)، الفَصلُ: بَوْنٌ ما بين الشَّيئين، والفَصْلُ من الجَسَد: موضِعُ المَفْصِل[4]، وبين كلِّ فَصْلَيْنِ وَصْلٌ، والفَصْلُ: القَضاء بين الحقِّ والباطل، واسمُ ذلكَ القضاء:

(1) ابن دريد، جمهرة اللغة: (تمم).
(2) الزّمخشريّ، أساس البلاغة: (تمم).
(3) ابن سيده، المُحكم: (تمم).
(4) الخليل، العين، وابن سيده، المُحكم، والرّاغب، المفردات: (فصل).

فَيصَلٌ، وقضاءٌ فَيْصَليٌّ وفاصِلٌ، وحُكْمٌ فاصِلٌ[1]. وقوله: ﴿هَٰذَا يَوۡمُ ٱلۡفَصۡلِ﴾ [الصَّافَّات: 21، المُرسلات: 38]، أي: يوم يبين فيه الحق من الباطل، ويُفصَلُ بين النَّاس[2]، وقوله تعالى: ﴿وَكُلَّ شَيۡءٖ فَصَّلۡنَٰهُ تَفۡصِيلٗا ١٢﴾ [الإسراء: 12]، أي: بيَّنَّا فيه كلَّ شيء من الشَّرائع والأحكام، فلا غموض فيه، وهذا هو المعنى المُراد في الآية الكريمة.

❁ المَعْنى الإجْمالِيُّ:

بيانُ نزولِ التَّوراةِ للموعظةِ والهدى، والأمرِ بالأخذِ بأحسنها على المدى

بَعْدَ أنْ بَيَّنَ ما وصّى اللهُ به المؤمنين؛ عَطَف على هذا السّياق سياقًا آخَرَ بـ ﴿ثُمَّ﴾؛ لبيان أنّ محمّداً ﷺ قد أُنزل عليه الكتابُ كما أُنزل على موسى من قبل، فلا وَجْهَ للإنكار عليه. وافْتَتَح هذا السِّياقَ الجديدَ بالمقارنة بَيْنَ التّوراة والقرآن[3]، فقال: ثُمّ أنزلنا على موسى التّوراة وأيّدناه بها إتمامًا لِلنِّعْمَةِ والكرامة من العلم والحكمة، فأعطيناه زيادة على ذلك، وتمامًا لتعاليم الكتب السَّابقة لمن أَحْسَنَ الاتّباعَ والاهتداء؛ وهو موسى عليه السلام ومَنْ أَحْسَنَ في اتّباعِهِ. فجاء هذا الكتاب مُفَصَّلاً؛ فقال: ﴿وَتَفۡصِيلٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ﴾، يعني: بيانًا لكلِّ شيء، ويجوز أن يكون المعنى: وآتينا موسى الكتاب، إتمامًا منَّا للإحسان على مَنْ أحسن، وَهُدًى من الضَّلالة، ورحمةً للنّاس، فيكون سببًا في هدايتهم وإيمانهم بالبعث، فقال: ﴿لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمۡ يُؤۡمِنُونَ﴾؛ وفيها من الرّجاء ما فيها؛ طلباً لإيمانهم بلقاء ربّهم.

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالةُ العطفِ بـ﴿ثُمَّ﴾:

تاريخُ الأنبياءِ والمرسلين عامرٌ بالوصايا السَّامية والقيم الفُضلى

بدأتِ الآية الكريمة في قوله: ﴿ثُمَّ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ﴾ بأداة العطف ﴿ثُمَّ﴾ لتَرْتيب ذِكْر الخبر بعد الخبر، لا للتَّرتيبِ والتّراخي

(1) الخليل، العين: (فصل).
(2) الرّاغب، المفردات: (فصل).
(3) الموصلّي، أولى ما قيل: 3/394.

الزَّمَنِيّ، والمرادُ بهذا العطفِ التَّذكيرُ بأعظمَ مِنْ ذلك، ممَّا تقدَّم من الآيات؛ أنَّا آتينا مُوسَى الكِتَابَ تَمَامًا، وأنزلنا هذا الكتاب المبارك[1]، و(ثمَّ) تَقْتَضي المهلةَ في الزَّمان في أصل وَضْعها، وهي تأتي للمهلة في الإخبار، فقال الزَّجَّاج: هو معطوف على ﴿أَتْلُ﴾ تقديرُه: ﴿أَتْلُ مَا حَرَّمَ﴾؛ ثمّ ﴿أَتْلُ﴾: ﴿ءَاتَيْنَا﴾[2]، أو معطوف على (قل) إضمارًا، أي: ثمَّ قل: ﴿ءَاتَيْنَا﴾[3]، وجاءت ﴿ثُمَّ﴾ هنا لبيان أنَّ ما ذُكر من تلاوة ما حرَّمه اللّه، وما فرضه من اتِّباع الصِّراط المستقيم، في الآية السّابقة، إنَّما ذلك جزءٌ من تعاليم الإسلام وشرائعه، وأنّها منسجمة مع ما أنزل اللّه من التَّوراة.

ولـمَّا ذكر كتابَ موسى؛ فقد ذكر كلَّ التَّشريعات الَّتي وردت فيه فقال: ﴿وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾، على خلاف الأنموذج القرآنيّ إذ ذَكَرَ جُزءًا من شريعة الإسلام، فأدَّت ﴿ثُمَّ﴾ في ذلك التَّراخي الرُّتْبِيِّ المعانيَ الّتي ذكرناها، هذا فضلًا عن أنَّ تراخي رتبةِ إيتاء موسى عليه السلام الكتابَ عن تلاوة ما حَرَّم اللّه في القرآن، وما أمرَ به من ملازمة صراط الإسلام، هو التَّمهيد، لقوله: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ﴾؛ ليرتِّب عليه قوله: ﴿أَن تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا﴾، إلى قوله: ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةٌ﴾ [الأنعام: 156، 157]، فمعنى الكلام: وفوْقَ ذلك، فهذا كتاب أنزلناه مبارك، جمع فيه ما أوتِيَهُ موسى عليه السلام، وهو أعظم ما أوتِيَهُ الأنبياء من قبله، وما في القرآن: الَّذي هو مصدِّق لما بين يديه ومهيمن عليه[4].

الالتفاتُ في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ءَاتَيْنَا﴾:

قوله: ﴿ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ كلام مسوق من جهته تعالى؛

الوصايا الواردةُ في الآيـات الكريمة هي روح التشريع في كتاب موسى عليه السلام

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/76.
(2) أبو حيّان، البحر المُحيط: 4/692.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 4/302.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/175 - 176.

تقريرًا للوصية، وتحقيقًا لها، وتمهيدًا لما تعقبه من ذكر إنزال القرآن المجيد، كما ينبئ عنه تغيير الأسلوب بالالتفات إلى التكلُّم، معطوف على مقدَّر يقتضيه المقام، ويستدعيه النِّظام، كأنَّه قيل بعد قوله سبحانه: ﴿ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ﴾ بطريق الاستئناف؛ تصديقًا له، وتقريرًا لمضمونه فعلنا ذلك، ﴿ثُمَّ ءَاتَيۡنَا﴾[1]. رجوعًا إلى ما ورد في كتاب موسى من وصايانا، فهي روح الشَّريعة عنده في كتابه.

المُناسبةُ في ذكرِ كتاب موسى:

ذِكْرُ الكتابِ الموسويِّ تمهيدٌ وتذكير

انتقل في هذه الآية من ذكر الوصايا، وذكر صراط الله، والدَّعوة إلى اتِّباعه، إلى ذكر موسى عليه السلام وكتابه التَّوراة، ومناسبة ذلك ما ذكر من صراط الله، فإنَّ المشركين لمَّا كذَّبوا دعوة الإسلام؛ ذكَّرهم الله بأنَّه آتى موسى عليه السلام الكتاب كما اشتهر بينهم؛ لينتقل إلى ذكر القرآن والتَّحريض على اتِّباعه، فيكون التَّذكير بكتاب موسى عليه السلام تمهيدًا لذلك الغرض، أو أنَّ ما ذُكر من الوصايا، هي نفسها الوصايا الَّتي آتاها الله لموسى؛ فناسب ذكرها.

نوع (ال) في لفظ ﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾:

التعريف في لفظ ﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾ هو للجنس، والسّياق يدلُّ على أنّ المراد بالكتابِ هو التّوراة الّتي أوحى بها الله تعالى إلى موسى عليه السلام، وجعلها نورًا وهدًى لبني إسرائيل.

و﴿تَمَامًا﴾ حالٌ من الكتاب، والتَّمام: الكمال، أيْ: كان ذلك الكتابُ كمالًا لما في بني إسرائيل مِنَ الصَّلاح الَّذي هو بقيَّةٌ ممَّا تلقَّوه عن أسلافهم: من صلاح إبراهيم، وما كان عليه إسحاق ويعقوبُ والأسباط، فكانت التَّوراة مكمِّلةً لصلاحهم، ومزيلة لما اعتراهم من الفساد، وأنَّ إزالة الفساد تكملة للصَّلاح[2].

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/200، والآلوسّي، روح المعاني: 4/301.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/176.

نكتةُ التَّعبيرِ بـ﴿تَمَامًا﴾:

تمامُ الكتابِ: هو كمالُهُ أو نزولُهُ دفعة واحدة

قوله تعالى: ﴿تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحۡسَنَ﴾، أي: جعلنا التّوراة تمامًا للكرامة والنِّعمة، على من كان محسنًا صالحًا، ووصفُ التَّوراة بالتَّمام مبالغةٌ في معنى الـمُتِمِّ[1]، أي: تَتِمَّةً للكرامة على العبد الَّذي أحسَنَ الطَّاعة في التَّبليغ، وفي كُلِّ ما أمر به، ويجوز أن يكون معنى ﴿تَمَامًا﴾: دفعة واحدة، لم نفرِّق إنزاله، كما فرَّقنا إنزال القرآن[2]، فقوله: ﴿تَمَامًا﴾ مفعول له، أو مصدر، أي: أتمَمْناه إتمامًا، ويجوز أن يكون في موضع الحال منَ الكتاب[3]، وفي التّعبير بـ ﴿تَمَامًا﴾ ما يؤكّد هذه الوَحْدَةَ بين الرسالات والكتب السماويّة الصّحيحة غيرِ المحرّفة، فبعضها يُصدِّق بَعْضًا، ولا تعارُض بينها على الإطلاق.

غرضُ التَّعبيرِ بالاسمِ الموصولِ:

أتـمَّ اللـهُ على بـني إسـرائـيـلَ الـنِّـعـمـةَ؛ بما أتمَّهُ على موسى علمًا وشريعةً

التَّعبيرُ بالموصولِ في قوله: ﴿عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحۡسَنَ﴾؛ يقول النّحاةُ: كلمة (الذي) إنّما وُضِعَتْ توصّلاً إلى وصفِ المعارفِ بالجمل[4]، فالمعنى: (تمامًا على الَّذي أحسنَ موسى من العلم والشَّرائع)؛ أي: زيادة على علمه على وجه التَّتميم، وقد تكون ﴿ٱلَّذِىٓ﴾ للجنس، أي: يريد جنس المحسنين[5]، أو الفريق المحسن، بمعنى: تمامًا لإحسان المحسنين من بنِي إسرائيل؛ الَّذي اتَّصف بالإحسان[6]، فيكون ﴿ٱلَّذِىٓ﴾ في موضع (مَنْ)، كأنَّه قال: (تمامًا على من أحسن)، والمحسنون: هم الأنبياء - صلى الله عليهم أجمعين - والمؤمنون[7]. أو آتينا موسى الكتاب تمامًا، أي: تامًّا كاملًا على أحسن ما تكون

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/176.
(2) أبو حيّان، البحر المُحيط: 4/696.
(3) العكبري، التبيان في إعراب القرآن: 1/550.
(4) ابن جنّي، الخصائص: 1/321.
(5) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/77.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/176.
(7) ابن قتيبة، تأويل مشكل القرآن: 227.

عليه الكتب؛ أي: على الوجه والطَّريق الَّذي هو أحسن، وهو معنى قول الكلبيِّ: أتمَّ له الكتاب على أحسنه[1]، وعلى كلا التّقديرَيْن فإنّ التّعبير بالاسم الموصول أفاد تعظيم المقصود به؛ لما في الاسم الموصول من الإعلام بعد الإبهام.

نكتةُ مجيءِ جملةِ صلةِ الموصولِ ﴿أَحۡسَنَ﴾:

الإحسانُ شاملٌ للنَّبيِّ ولقومِهِ ممَّن حَسُنَ اتِّباعُهم له

قوله: ﴿تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحۡسَنَ﴾، أي: تمامًا على المحسن، فالتّعبير يدلُّ على المفرد، والمرادُ موسى عليه السلام فهو صاحب الرِّسالة والكتاب، وفي الوقت نفسه يجوز حمله على الجمع، ويكون المعنى: وآتينا موسى الكتاب تمامًا على الذين أحسنوا، ويدخل مع موسى قومُهُ الذين أحسنوا اتّباعه وتنفيذ وصاياه.

دلالةُ العطفِ في ﴿وَتَفۡصِيلٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ﴾:

ثنائيَّةُ تمامِ الكتابِ وتفصيلِهِ في مسائلِ الشَّرعِ المنزَّلةِ

قوله: ﴿وَتَفۡصِيلٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ﴾، أي: تبيانًا لكلِّ شيء من أمر شريعتهم، ممَّا يحتاجون إلى علمه، لكي يؤمنوا بالبعث والجزاء[2]، وحرف العطف (الواو)؛ للجمع بين التَّمام والتَّفصيل، فمعنى التَّمام: أنَّه جاء تفصيلًا لكلِّ قضايا الشَّرع، وما يحتاج إليه بنو إسرائيل في حياتهم، من الأحكام والعبادات والمُعاملات.

دلالة اللَّام في قوله: ﴿لِّكُلِّ شَيۡءٖ﴾:

التَّمامُ والتَّفصيلُ دليلُ الشُّمولِ والاستيعابِ لهذا الكتابِ

اللَّام في قوله ﴿لِّكُلِّ شَيۡءٖ﴾ جيء بها للتّوصُّل إلى ما يتعلّقُ التّفصيلُ به، والمعنى: وتفصيلًا لكلّ ما يُحتاجُ إليه في الدّين والشّرع، ومعناها قريبٌ من معنى الإضافة، كأنّه قيل: ثم آتينا موسى الكتاب تمامًا وتفصيلَ كُلِّ شيء يحتاج إليه؛ إذ لم يَدَعْ كتابُ موسى أمرًا مهمّا وشأنًا ضروريّا من شؤون الحياة في عهد بني إسرائيل إلّا تناولها بيانًا وتفصيلًا.

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/77.
(2) ابن الجوزيّ، معاني القرآن: 1/365.

دلالة (كلّ) في قوله: ﴿وَتَفۡصِيلٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ﴾:

لفظ (كلّ) اسمٌ يدلّ على الشّمول والاستغراق، والمرادُ إمّا المعنى الحقيقيّ للكلمة، أي: أنَّ التوراة حوت تشريعاتٍ وأحكامًا لكلّ شأن من شؤون التّشريع التي كان بنو إسرائيل يحتاجون إليها في فترتهم، وإمّا أن يكون المرادُ بها المبالغةَ والتّعظيمَ بمعنى أنّ التّوراة حَوَتْ أهمّ القضايا والشّؤون التي تهمّ بني إسرائيل، وتكون الكليّة نسبيّة. نظير ذلك ما جاء على لسان الهدهد متحدّثا عن ملكة سبأ: ﴿وَأُوتِيَتۡ مِن كُلِّ شَيۡءٖ﴾، ونحن نعلم أنَّه يستحيلُ عقلًا أن يملك أحدٌ من البشر في هذه الدّنيا كلّ شيء أو أن يُؤتى من كلّ شيء.

التَّفصيلُ في أمورِ الشَّرائعِ مَزِيَّةٌ عُظمى وملمحٌ للتَّحدِّي

تقديرُ الحذف في قوله: ﴿وَتَفۡصِيلٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ﴾:

قد يُرادُ بالشَّيء: الشَّيءُ المهمُّ، فيكون من حذف الصِّفة، كقوله: ﴿يَأۡخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصۡبٗا ٧٩﴾ [الكهف: 79]، أي: كلَّ سفينةٍ صالحةٍ، ومثله قوله تعالى: ﴿مَّا فَرَّطۡنَا فِي ٱلۡكِتَٰبِ مِن شَيۡءٖ﴾ [الأنعام: 38][1]، أي: ما فرَّطنا في شيء مُهمٍّ إلَّا وذكرناه في الكتاب، وفصَّلناه على علم، وقد أعجزت الكتب السَّماوية النَّاس بتشريعاتها الَّتي لا يقدر على تمامها وتفصيلها بشر قطعًا.

الإعجازُ التَّشريعيُّ في الكتبِ السَّماويةِ من أهمِّ وجوهِ الإعجاز

التَّعريضُ في قوله: ﴿وَتَفۡصِيلٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ﴾:

وفي قوله تعالى: ﴿وَتَفۡصِيلٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ﴾: تعريض بأهل مكَّة ومن سار سيرهم من العرب حيثُ كان سلفهم على هدى وصلاح، فدخل فيهم من أضلَّهم، ولقَّنهم الشِّرك، وإنكارَ البعث، فأرسل اللّه إليهم محمَّدًا ﷺ ليردَّهم إلى الهدى، ويؤمنوا بلقاء ربِّهم[2]، فقد جاءهم القرآن الكريم، وهو الرِّسالة والمُعجزة البيِّنة لرسول اللّه ﷺ، فما أجدر أن يؤمنوا، كما آمنت بنو إسرائيل، بموسى عليه السلام وبكتابه.

القرآنُ الكريمُ معجزةُ محمَّدٍ ﷺ ورسالتهُ الخالدةُ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/177.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/177.

دلالةُ العطفِ والتَّنكيرِ في قوله: ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً﴾:

الهدايةُ والرَّحمةُ ثنائيَّةُ الاستقامةِ مع كتاب الله

(الواو) عاطفة في الموضعين من قوله: ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً﴾، والاسمان معطوفان على ﴿تَمَامًا﴾ منصوبان مثله[1]، والعطف للجمع؛ إذ تجتمع صفتا الهداية والرَّحمة في هذا الكتاب مع كونه تامّا مفصَّلًا، فيه تفصيلُ كلّ شيء، وعلامة التَّفصيل والتَّمام، أنَّه هُدًى لمن يطلب الهداية، ورحمةٌ لمن يعمل به، وتنكير الهدى والرَّحمة للتَّعظيم.

نكتةُ حذفِ مُتَعَلِّقَي الهدى والرَّحمة دون التَّمام والتَّفصيل:

التَّلازمُ واضحٌ بين ثنائيَّتي (الهدى والرَّحمة)، و(التَّمام والتَّفصيل)

حَذْفُ مُتعلّقي (الهدى) و(الرَّحمة) من الطَّيِّ والنَّشر، وبالنّظر في متعلّقَي (التَّمام) و(التَّفصيل)؛ يستطيع القارئ المتدبّرُ أن يذكر المتعلّقين دون عناء كبير، حيث يعود متعلّق (الهُدى) المحذوف إلى متعلّق (التَّفصيل)؛ فالكتابُ هدى للنَّاس في كلِّ شيءٍ، ممَّا يحتاجونه في أمور حياتهم، ويعود مُتعلّق (الرَّحمة) إلى متعلّق (تمامًا)، فهو رحمة لمن أحسن من بني إسرائيل، فالتّعبيرُ من قبيل الطيّ والنّشر المقلوب.

لطيفةٌ في استعمال أداة الرّجاء (لعل):

العملُ بالكتابِ ومضامينه، هو سبيلُ الاتِّصاف بالإيمان

تأتي (لعل) لإنشاء توقُّع أمْرٍ[2]. فإن أتتْ لتوقّع شيء محبوب سُمّي ذلك ترجّيًا وإطماعًا، وقد أفادتِ الآية هنا ذلك التّرجّي، فقال تعالى: ﴿لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾، وهذا لا يقال للمؤمن[3]، إنّما لرجاء إيمان الكافر بلقاء ربه، وتَصديقِه بالبعث إذا سمع مواعظَ اللّه الّتي وعَظَ بها خلقَه، والمقصود بهذا التّرجّي هم بنو إسرائيل؛ ليكونَ حالُهم بعد إنزال الكتاب حالَ مَنْ يُرجى منه أن يُجدِّدَ الإيمانَ في كلِّ وَقْتٍ بلقاء رَبِّهِ[4]، ويُصَدِّقَ بما جاءه به نبيُّه

(1) صافي، الجدول في إعراب القرآن: 8/334.
(2) الجرجاني، حاشية على الكشّاف: 1/177.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 2/372.
(4) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 2/744.

موسى [1] عليه السلام، وبما وعدهم الله به من ثواب وعقاب[2]. وهذه هي مهمّة الرّسالات جميعها؛ رجاءَ أَنْ يؤمن النّاسُ، وتستقيمَ أمورهم طاعةً لله ولرسوله.

الرّجاء من عند الله محقّق، وبمشيئة الله معلّقٌ

والعلماءُ على أنّ (لعلّ) إذا جاءت مُسنَدَةً إلى الذّات العليّة في القرآن أفادت معنى التّحقّق لا الرّجاء؛ فالرّجاءُ من عند الله تعالى محقّقٌ لا محالة، ولكنّ هذا التّقديرَ لا يتعارض مع كون التّوقّع والرّجاء يبقى موجودًا فيها، حتّى تبقى النّفوسُ مُشرَئِبَّةً إلى رحمة الله تعالى غير جازمة بوقوع ما مُنّيَتْ به حتّى لا تَتَّكِلَ على ذلك دون أدنى عَمَلٍ.

العدول من (لعلّكم) إلى ﴿لَّعَلَّهُم﴾:

كلُّ أمَّةٍ تُدعى إلى كتابها يومَ القيامة، وكتابُ أمَّةِ محمَّدٍ القرآنُ

قوله: ﴿لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾: رجاء أن يؤمنوا بلقاء ربِّهم، والضَّمير عائد إلى معلوم من المقام، وهم (بنو إسرائيل)؛ إذ قد عُلم من إيتاء موسى عليه السلام الكتاب أنَّ المنتفعين به هم قومه بنو إسرائيل[3]، فعدل من الخطاب إلى الغائب، وفي ذلك دلالة البعد لما طرأ على بني إسرائيل قبل نزول التَّوراة من قلَّة الإيمان، حتَّى كان حالهم كحال من لا يؤمن بلقاء الله، هذا فضلًا عن أنَّ الخطاب موجَّه إلى قريش ومَن حولهم في قوله: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُواْ﴾، وذلك عند تنزُّل القرآن، ثمَّ جاء الحديث عن كتاب موسى وبني إسرائيل، فلو كان (لعلَّكم) بالخطاب؛ لالتبس على المُخاطبين: أيتَّبعون كتاب موسى عليه السلام طلبًا للإيمان أم كتاب محمَّد ﷺ؟ فجاء رواية لما مضى من القول، فقال: ﴿لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾.

(1) ابن جرير، جامع البيان: 9/673.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 14/186.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/177.

معنى الباءِ في لفظِ ﴿بِلِقَآءِ﴾:

الباء في عموم أحوالها تكون للإلصاق، وهي في قوله: ﴿بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ﴾ كذلك؛ لأنَّ فيها معنى الإيمان واليقين؛ فلعلَّهم يكونون مؤمنين بلقاء ربِّهم؛ إيمانًا لا يُفارقهم في عموم حياتهم، عملًا بما في كتاب الله من الوصايا، مؤتمرين بما أمر الله به، منتهين عمَّا نهى عنه سبحانه.

التزامُ وصايا الله سبحانه في الكتابِ هو السَّبيلُ للاستقامة والنَّجاة

بلاغةُ تقديمِ شبه الجملة في قوله: ﴿بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾:

في قوله تعالى: ﴿لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾، جاء تقديمُ الجارِّ والمجرور للاهتمام حيثُ لم يقل: (لعلَّهم يؤمنون بلقاء ربِّهم)، وهذا التّقديمُ يشيرُ إلى الاهتمام بلقاء الله تعالى ويُومئُ إلى دوره في دفع أهل الإيمان إلى الانضباط وَفق شرع الله، والحرص على العمل بكلّ شرائع الكتاب الذي أنزله الله تعالى على نبيّهم؛ ليكون لهم هدى ورحمة، وذكر الآلوسيُّ: أنَّ الجارَّ والمجرور متعلِّق بما بعده، وقدّم لرعاية الفواصل[1]، والاهتمام بأمر البعث والجزاء.

محورُ طلبِ الاستقامة والاتِّباع في الدُّنيا: هو الإيمان بلقاء الله

نكتةُ إضافةِ اللِّقاء إلى الرَّبِّ:

إضافة اللِّقاء إلى الرَّبّ في قوله: ﴿لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾ فيه تعظيم لشأن هذا اللِّقاء، حيث لم يقل: (لعلّهم بيوم الحساب يؤمنون)، وهو نفسه اليومُ الَّذي سيحاسبون، ويُجْزَوْنَ فيه على أعمالهم، لكنَّه ذَكَرَ لقاء ربِّهم؛ لأنَّ ربَّهم هو الَّذي سيحاسبهم، فعَدَل عن ذكر يوم الحساب إلى ذكر الرّبِّ، لأنَّ الحسابَ بِيَدِه سبحانه. وفي الإضافة إلى لفظ الرّبوبيّة دعوةٌ للشّاردين الضّالّين عن طريق الحقّ ليتفكّروا فيَرْعَوُوا وينْزَجِروا ويتوبوا عن ضلالهم، ويفيئوا إلى ربّهم المُنعمِ عليهم المُحسنِ إليهم.

الحسابُ بيدِ الله تعالى: إن شاء حاسب، وإن شاء غفر

(1) الآلوسّي، روح المعاني: 4/303.

من ناحية أخرى، فإنّ لفظ (ربٍّ)، وما فيه من دلالة على الرَّحمة والإنعام والإحسان، يناسب ذِكْرَ الإيمان بِيَوم لقائه سبحانه، فيكون بالمؤمنين رحيمًا، والرَّبُّ من التَّربية، وهي إنشاء الشَّيء حالًا فحالًا حتَّى التَّمام[1]، فناسب هذا المعنى ما أنزله اللّه تعالى من تمام الكتاب، والتَّفصيل لكلِّ شيءٍ، فكان الكتاب هدى ورحمة، وكأنَّه يرعاهم، ويُربِّيهم في الدُّنيا، فيلقون ربَّهم، وهو راضٍ عنهم في الآخرة.

رحمةُ ربِّ العالمين ممدودةٌ لعباده الصَّالحين

دلالة المضارعيّة في ﴿يُؤْمِنُونَ﴾:

قوله: ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ عبَّر بالمضارع لفائدة تجدُّد الإيمان؛ وذلك مناسب لِدَوام تربية اللّه لهم، بما أنزل عليهم من الكتاب تمامًا وإحسانًا، فتكون لصيغة المضارع دلالة التَّجدُّد مع الزَّمان، ويمتدُّ ذلك إلى أن يلقوا ربَّهم، وهم مؤمنون بلقائه، فيتجدَّد إيمانهم حينًا بعد حين.

يحتاجُ الإيمانُ إلى العنايةِ والتَّجديد لينموَ ويثمِرَ

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(الكمال) و(التَّمام):

كمال الشَّيء حصول ما فيه الغرض منه، فإذا قيل: كَمُلَ، ذلك معناه: حصل ما هو الغرض منه، وقوله: ﴿۞وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ۚ﴾ [البقرة: 233]؛ تنبيهًا على أنَّ ذلك غاية ما يتعلَّق به صلاح الولد، وقوله: ﴿تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ۗ﴾ [البقرة: 196]، فإنَّما ذَكَرَ العَشَرَةَ ووَصَفَها بالكامِلة ليُبيِّنَ أنَّ بصِيام العَشَرة يحصل كمالُ الصَّوم القائم مقامَ الهَدْي[2]، أمَّا تَمَام الشَّيء: فهو انتهاؤه إلى حدٍّ لا يحتاج إلى شيء خارج عنه، والنَّاقص: ما يحتاج إلى شيء خارج عنه، ويقال ذلك للمعدود والممسوح، تقول: عدد تَامٌّ، وليلٌ تامٌّ، قال: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ﴾ [الأنعام:

الكمالُ: حصولُ ما به الغرضُ، والتَّمامُ: انتهاؤه إلى حدٍّ لا يحتاج إلى خارجٍ عنه

(1) الرّاغب، المفردات: 208.
(2) الرّاغب، المفردات: 726.

115]، قوله: ﴿وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ﴾ [الصف: 8]، ﴿وَأَتۡمَمۡنَٰهَا بِعَشۡرٖ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ﴾ [الأعراف: 142][1]. ممَّا سبق: فإنَّ كمال الشَّيء حصول ما فيه الغرض الآنيُّ المحدَّد بمسألة، أمَّا التَّمام؛ فهو الحدُّ المُنتهى من الكمال، فهو ما يحصل فيه الغرض في كلِّ وقتٍ وحال، فكان تمام الشَّيء أبلغ وأعمَّ من كماله، ومن ذلك جاء قوله: ﴿تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِيٓ أَحۡسَنَ﴾؛ ليدلَّ على تمام الكمال في كلِّ حال.

(1) الرّاغب، المفردات: 168.

﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ مُبَارَكٞ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُواْ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ١٥٥﴾

[الأنعام: 155]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

المناسبةُ بينَ ذكرِ الكتبِ السَّماويَّة، والدَّعوة إلى اتِّباعِ القرآنِ والالتزام به

بعد أن ذكر كرامة كتاب موسى عليه السلام وهو التَّوراة؛ أردف هنا بالكلام عن القرآن، فقال: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ مُبَارَكٞ﴾، وأمر باتِّباعه، ومناسبة ذكر الكتابين بعد ذكر الوصايا: أنَّهما يشتركان فيها وفي مماثلاتها، من الأوامر والنَّواهي والشَّرائع، ثمَّ إنَّ الكتابين مصدرهما واحد فهما منزَّلان من عند الله تعالى.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مُبَارَكٞ﴾: من البَرَكة: وهي الزِّيادة والنَّماء[1]، والتَّبْريك: الدُّعاء بالبَرَكة، وتبارك الله: تمجيد وتجليل[2]، تفَاعل من الْبركَة، وَلَيْسَ من النَّمَاء، وَإِنَّمَا هُوَ رَاجع إِلَى الْجلَال وَالْعَظَمَة، وتبارك لَا يُوصف بِهِ إِلَّا الله تعالى، ومَا أبرك هَذَا الطَّعَام! أَي: مَا أنماه![3] والمعنى المُراد في الآية الكريمة: أنَّ هذا القرآن لا ينسخه كتاب بعده، أو أنَّه يشتمل على خيري الدُّنيا والآخرة.

المَعْنى الإِجْماليُّ:

دعوةٌ إلى اتِّباعِ الكتابِ المنزَّلِ المباركِ توخِّيًا للتَّقوى وطلبًا للرَّحمة

قوله تعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ مُبَارَكٞ﴾، يعني: القرآن الَّذي يُتلى عليكم، فيه بركة لمن آمن به، وهو سببٌ لمغفرة الذُّنوب، وفيه نماءٌ وزيادة على ما جاء في التَّوراة[4]، فاتّبعوه واسلكوا سبيله، واعملوا بما فيه من الأمر والنَّهي، واجتنبوا أن تتَّخذوا إمامًا غير

(1) الخليل، العين، وابن دريد، جمهرة اللغة، وابن سيده، المحكم: (برك).
(2) الخليل، العين: (برك).
(3) ابن دريد، جمهرة اللغة: (برك).
(4) الموصلّي، أولى ما قيل: 3/395.

القرآن، ولا ريبَ أنَّ من اتّبع شرع اللّه المسطور فيه، واهتدى به بهداه، فإنّه يكون من زمرة المرحومين.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

وجهُ عطْفِ جملة ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ﴾ على ما تقدَّمَ:

بركةُ القرآنِ الكريمِ في جعْلِهِ خاتمَ التّنزيل الإلهيِّ العظيم

جملة: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ﴾، أي: الَّذي تُليت عليكم أوامرُه ونواهيه[1]، عطف على جملة: ﴿ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ [الأنعام: 154]، والمعنى: آتينا موسى الكتاب، وأنزلنا هذا الكتاب[2]، وفائدة هذا العطف: الجمع بين الكِتابين التَّوراة والقُرآن، باعتبارهما مُنزَّلين من عند اللّه تعالى، وأنَّهما يتماثلان في الدَّعوة إلى عبادة اللّه وحده، وفي التَّشريعات العظيمة الَّتي هي محور صلاح الأمم والمُجتمعات والأفراد.

نكتةُ الالتفاتِ منَ الغيبةِ إلى الخطاب:

بيانُ عظيمِ حضورِ الرِّسالةِ المحمَّديَّة بين النَّاس أجمعين

التفت التّعبيرُ القرآنيُّ من قوله: ﴿بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾، وهو حديث غيبة، إلى الخطاب في قوله: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ﴾، وفائدة هذا الالتفات: الانتقال من قوم موسى عليه السلام إلى قوم محمَّد ﷺ، ومن كتاب موسى عليه السلام إلى كتاب محمَّد ﷺ؛ لبيان عظيم حضور هذه الرِّسالة وما فيها من الهداية للنَّاس أجمعين.

دلالة اسمِ الإشارةِ للقريبِ في قوله: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ﴾:

الإشارةُ إلى الكتاب بالقُرب تنويهٌ بالقرآنِ ومكانتِهِ

افتتاح الجملة باسم الإشارة، وبناءُ الفعل عليه، وجعل الكتاب الَّذي حقُّه أن يكون مفعولَ ﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾ مبتدأ: كلُّ ذلك للاهتمام بالكتاب والتَّنويه به، وقد تقدَّم نظيره: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ [الأنعام: 92][3]، فاسم الإشارة هنا للقريب،

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/201.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/178.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/178.

لبيان قرب الكتاب، وحضوره في الأذهان وشؤون حياة الناس، وهو القرآن بعد أن ذكر الكتاب السَّابق له، وهو التَّوراة.

العدولُ منَ الفعليَّة إلى الاسميَّة:

القرآنُ الكريمُ هو الكتابُ المحفوظُ في اللَّوحِ المحفوظِ

العدول من الجملة الفعليَّة إلى الجملة الاسميَّة في قوله: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ﴾ لإفادة الثُّبوت والاستقرار والرُّسوخ؛ إذ لا تبديل ولا تغيير لهذا الكتاب، وهو الكتاب المُهيمن على ما سبقه من الكتب السَّماويَّة، وهو الكتاب الَّذي تكفَّل الله بحفظه، فقال ﷻ: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾ [الحجر: 9]. وهو في اللَّوح المحفوظ عند الله تعالى، وجاء الأسلوب على خلاف ما وُصف به كتاب موسى؛ إذ جاء بالجملة الفعليَّة: ﴿ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ﴾.

فائدةُ تنكيرِ لفظِ: ﴿كِتَٰبٌ﴾:

القرآنُ الكريمُ هو الكتابُ الشَّامِلِ لِما سبقه من كتب

تنكير لفظ ﴿كِتَٰبٌ﴾ في قوله: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ﴾ الغرضُ منه التَّفخيم والتَّعظيم؛ ذلك لكونه فريدًا شاملًا لما في الكتب السَّابقة مِن حكمة وتوحيد واستدلال على عظمة الخالق، فهو كتاب عظيمٌ مهيمنٌ على ما سبقه، وهو خاتم الرِّسالات، وهو مُعجزة خاتم الأنبياء، وأصل رسالته وهدايته.

نكتةُ تعدّد الوصف:

الكتابُ المُباركُ هو ميدانُ التَّحدِّي على مدار الدَّهرِ

جملة: ﴿أَنزَلۡنَٰهُ﴾ في محلِّ الصِّفة للموصوف ﴿كِتَٰبٌ﴾، و﴿مُبَارَكٌ﴾ صفة ثانية، وهما المقصد من الإخبار؛ لأنَّ كونه كتابًا لا مِرْيَة فيه، وإنَّما امْترى المشركون وارتابوا في كونه منزَّلًا من عند الله، وفي كونه مباركًا، ووُصِفَ القرآن بأنَّه مبارك، في مواضع كثيرة، والمبارك هو الثَّابت الدَّائم في ازدياد، وذلك مشعر ببقائه ودوامه[1]، وحَسُنَ عطفُ: ﴿مُبَارَكٌ﴾ على: ﴿أَنزَلۡنَٰهُ﴾؛ لأنَّ اسم

(1) أبو حيّان، البحر المُحيط: 4/695.

المفعول لاشتقاقه، هو في قوَّة الفعل، وقوله: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ مُبَارَكٌ﴾؛ كأنَّه قال: وهذا كتاب، وهذا مبارك، وهذا من صفته كذا وكذا، وفيه وجه ثالث من الرَّفع؛ إذ يمكن رفعه على الاستئناف لتمام ما قبله[1].

سببُ تقديمِ صفةِ الإنزال على البركة:

صفةُ المُبارَكِ تدلُّ على أنَّه كثيرُ الخيرِ دينًا ودُنيا

ومن نظائر هذه الآية قوله سبحانه: ﴿وَهَٰذَا ذِكۡرٞ مُّبَارَكٌ أَنزَلۡنَٰهُۚ أَفَأَنتُمۡ لَهُۥ مُنكِرُونَ ۝٥٠﴾ [الأنبياء: 50]. في آية الأنبياء، جاء تقديم الصِّفة ﴿مُبَارَكٌ﴾ على ﴿أَنزَلۡنَٰهُ﴾ على خلاف ما جاء في آية الأنعام؛ لأنَّ الحديث في آية الأنعام جاء ردًّا على زعم اليهود الذين كانوا يُنكرون الرسالة ويقولون: ما أنزل الله على بشر من شيء، فقدَّم الإنزال للاهتمام والرَّدِّ عليهم[2]، ولا ريبَ أنَّ الوصف بالإنزال آكدُ من الوصف بالبركة في ذلك المقام فقُدِّم.

يُضافُ إلى ذلك أنَّ الوصف بالفعل المسند إلى نون العظمة، أَوْلى من الوصف بالاسم، لما يدلُّ الإسناد إلى الله تعالى من التَّعظيم والتَّشريف، وليس ذلك في الاسم لو كان التَّركيب (منزَّل) أو (منزل منَّا).

التَّفريعُ في قوله تعالى: ﴿فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُواْ﴾:

وجوبُ اتِّباعِ الكتابِ جاءَ استحقاقًا لبركتِه؛ فهو مُنَزَّلٌ من عند الله

وتفريع الأمر باتِّباعه على كونه منزَّلًا من الله تعالى، وكونه مباركًا، ظاهر؛ لأنَّ ما كان كذلك لا يتردَّدُ أحدٌ في اتِّباعه[3]، فيكون اتِّباعه مسلكًا صحيحًا لاقتفاء الصِّراط المستقيم الَّذي هو صراط الله تعالى، وسبيل المؤمنين، فجاء الأمر باتِّباعه لاستحقاق الاتِّباع؛ فهو الكتاب المؤهَّل لصياغة حياة عامرة مستقيمة زاخرة بالخير والبركة والنّماء.

(1) الفرّاء، معاني القرآن، ص: 11.
(2) الهلال، تفسير القرآن الثّريّ الجامع: 3/552.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/178.

دلالة المجاز المُرسل في قوله تعالى: ﴿فَٱتَّبِعُوهُ﴾:

الاتِّباع أطلق على العمل بما فيه من أحكام وشرائع، على سبيل المجاز، والاتِّباع في الأصل، اقتفاء أثر الماشي، ثمَّ استعمل في العمل بمثل عمل الآخر، كما في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحۡسَٰنٖ﴾ [التَّوبة: 100]، ثمَّ استعمل في امتثال الأمر، والعمل بما يأمر به المتبوع، فهو الائتمار، ويتعدَّى فعله إلى ذات المتَّبَع، فيقال: اتَّبعت فلانًا بهذه[1]، والخطاب في قوله: ﴿فَٱتَّبِعُوهُ﴾ للمشركين، لقوله: ﴿أَن تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلۡكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيۡنِ مِن قَبۡلِنَا﴾.

الاتِّباع: اقتفاء أثر الماشي، والقرآن دليل لمن يؤمن به ويتَّبعه

دلالةُ الأمرِ في قوله تعالى: ﴿فَٱتَّبِعُوهُ﴾:

اتّباعُ الكتاب المرادُ منه الالتزامُ بجميع أوامره ونَواهِيهِ، وفي الجملة تمثيل بحال مُرْشِدٍ يدلُّ على الطَّريق، فيقتضي من السَّالكين اتِّباعه واقتفاء أثره، والامتناع عن سلوك سُبل أخرى، قال الطَّبريُّ: فاجعلوه إمامًا تتَّبعونه، وتعملون بما فيه، أيُّها النَّاس[2].

الأمرُ بالاتِّباع أمْرٌ بالتزام الوصايا كلِّها أوامرها ونواهيها

دلالةُ الجمع بين الاتّباع والتَّقْوى:

الأمر بالتَّقوى جاء بعد الأمر بالاتِّباع في قوله سبحانه: ﴿فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُواْ﴾؛ لأنَّ الاتِّباع يُورِثُ التَّقوى ويُثمرُها، ثمَّ إنَّ رحلة الاتِّباع قد تستغرق الحياة كلَّها، فلا يكون الاتِّباع كاملًا إن لم يُشفَع بالتَّقوى، فجاء الأمر بالتَّقوى مُتمِّمًا لغاية الأمر بالاتِّباع، فالاتِّباع والتَّقوى ثنائيَّة، تصون صحَّة الالتزام بدين الله.

الاتِّباع والتَّقوى ثنائيَّةٌ تكامل للدِّين القويم

بلاغةُ حذْفِ مفعولِ الفعل ﴿وَٱتَّقُواْ﴾:

جاء فعل التّقوى محذوف المفعول إذ لم يقل: (واتَّقوا الله أو اتَّقوا النَّار)، وفائدة هذا الحذف: الإيجاز وتعدُّد المعاني؛ إذ إنَّ فيه ثلاثة أقوال: "قيل: اتَّقوا مخالفته على رجاء الرَّحمة، وقيل:

تقوى اللهِ رهينةُ الإيمانِ بما أنزلَ اللهُ، واتِّباعِ رسوله ﷺ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/423.

(2) ابن جرير، جامع البيان: 12/238.

اتَّقوا؛ لتُرحموا، أي: ليكون الغرض بالتَّقوى رحمة الله، وقيل: اتَّقوا لترحموا جزاء على التَّقوى"[1].

نكتةُ التَّعبير بأداة الرَّجاء (لعلَّ):

التَّلازمُ بين الاتِّباع والتَّقوى مؤشِّرٌ لحصول رحمة الله بهم

وفي قوله: ﴿فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُواْ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾ (لعلَّ) للتَّقريب؛ إذ تضمَّنَ الخطاب بأنَّه ستصيبكم رحمة الله على قدر اتِّباعكم وتقواكم؛ فهما ثنائيَّة النَّجاة، فإن تحقَّقتا فقد أوجبتا رحمة الله لهم، ودلالة الرَّجاء بـ(لعلَّ): هو التَّلازم بين الرَّحمة الَّتي هي رحمة الله لأهل الاتِّباع والتَّقوى، فلا شكَّ أنّ الذين يجتهدون في اتّباع أحكام الكتاب، ويجتهدون في مدارج التّقوى، يكونون من المرحومين.

بناءُ الفعلِ للمفعولِ في ﴿تُرۡحَمُونَ﴾ ودلالةُ التَّعريضِ:

أفاد البناءُ للمفعولِ: الوعدَ بالرَّحمةِ، والوعيدَ بالعذابِ

في قوله: ﴿لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾ جاء الفعلُ ﴿تُرۡحَمُونَ﴾ في صيغة ما لمْ يُسَمَّ فاعله، وهذا الصّنيعُ يوحي بوجود قوَّة خفيَّة مراقبة لأعمال المخاطبين، بيدها الرَّحمة، فمَنْ كان يرجو تلك الرَّحمة فعليه أن يأتمر بما سبق من الاتِّباع والتَّقوى، وفيه تعريض بالوعيد بعذاب الدُّنيا والآخرة إن لم يتَّبعوه.

بلاغةُ تنوّع التّذييل في فواصلِ الآياتِ السَّابقةِ:

تنوّعُ التّذييل يتناسبُ مع مضمون الآيات

تعدّدت التَّذييلات الَّتي عُقِّبت بها الأغراض السّابقة: ﴿لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ١٥١﴾ [الأنعام: 151]، ﴿لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾، ﴿لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾، وهذا كلام جامع لاتِّباع ما يجيء إلى الرَّسول ﷺ من الوحي في القرآن[2]، وقد ختمت الآية السَّابقة بقوله سبحانه: ﴿لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾، والثَّانية بقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾؛ لأنَّ القوم كانوا مستمرين على الشِّرك، وقتل الأولاد، واقتراف الزِّنى، وقتل النَّفس المحرَّمة بغير حقٍّ غيرَ مستنكفين ولا عاقلين قبحها،

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 14/187.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/171.

فنهاهم سبحانه عن ذلك، لعلَّهم يعقلون قبحها، فيستنكفوا عنها، ويتركوها، وأمَّا الأوامر في الآية الَّتي تليها من حفظ أموال اليتامى عليهم، وإيفاء الكيل، والعدل في القول، والوفاء بالعهد فصفات وأعمالٌ كانوا يفعلونها أو يفعلون بعضًا منها ويفتخرون بالاتِّصاف بذلك، فأمرهم الله تعالى بذلك لعلَّهم يذَّكرون، إن عرض لهم نسيان، وأنَّ السَّبب في ختم كلِّ آية بما ختمت به أنَّ التَّكاليف الخمسة المذكورة في الآية الأولى، ظاهرة جليَّة، فوجب تعقُّلها وتفهُّمها، والتَّكاليف الأربعة المذكورة في الآية الَّتي تليها أمور خفيَّة غامضة، لا بدَّ فيها من الاجتهاد والفكر الكثير، حتَّى يقف على موضع الاعتدال وهو التَّذكُّر[1].

أمّا ختمُ آية الاتّباع والتّقوى بقوله تعالى ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾، فلا يخفى أنّ اتّباع أوامر الكتاب ونواهيه جُملة، واجتهاد المسلم في أبواب التّقوى الكثيرة، يكونُ المتّصفُ بهاتين الصّفتين قريبًا من رحمة الله ومستحقًّا للدّخول في صفوف المرحومين.

التَّرقِّي في قوله: ﴿فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾:

ترَقّى الخطاب من الأمر بالاتِّباع إلى مصافّ التّقوى؛ لأنَّهُ من أحسن الاتِّباع؛ فإنَّه سيصيب التَّقوى لا محالة، فجاء الأمر بالاتّباع والتَّقوى متلازمين، فمن كان له نصيب منهما؛ حفَّته عناية الله ورحمته سبحانه، فارتقى بهما إلى مدارج الفلاح، فقال: ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾، وهذا سبب من أسباب تغيُّر فاصلة هذه الآية عن سابقتها: ﴿تَعْقِلُونَ﴾، ﴿تَذَكَّرُونَ﴾، ﴿تَتَّقُونَ﴾.

الإيمانُ والتَّقوى درجاتٌ عاليةٌ، غايتُها تحقيقُ رحمة الله ورضاه

(1) الآلوسّي، روح المعاني: 4/299.

﴿أَن تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلۡكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيۡنِ مِن قَبۡلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمۡ لَغَٰفِلِينَ ١٥٦﴾ [الأنعام: 156]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

بيانُ إنزالِ القرآنِ؛ لئلَّا يتعلَّلوا بعدمِ إنزالِ كتابٍ على شاكلة اليهودِ والنَّصارى

بعد أن بيَّن في الآية السَّابقة عظيمَ فضل الله في إنزال القرآن إليهم؛ بيَّن أن في إنزال القرآن إليهم رَدًّا على أقوال المشركين السَّابقة أو المُتوقعة منهم، فقال: ﴿أَن تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلۡكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيۡنِ مِن قَبۡلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمۡ لَغَٰفِلِينَ﴾، "فالمعنى: وهذا كتابٌ مباركٌ خاطبناكم به؛ لِئلَّا تقولوا معتذرين، أو فأنزلناه حجَّة عليكم، حتَّى لا تقولوا إنَّما أنزل الكتاب على طائفتين من أهل الكتاب، هم اليهود والنَّصارى، وهي حجَّة واهيَةٌ لاغيَةٌ"[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿طَآئِفَتَيۡنِ﴾: جذر الكلمة هو (طيف)، الطَّائفةُ: الجماعة من النَّاس، تقع على القليل والكثير. وفي التَّنزيل: ﴿وَلۡيَشۡهَدۡ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٞ مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٢﴾ [النّور: 2]، وفي الحديث: «لا تزال طائفةٌ من أمَّتي على الحقِّ»[2]. قال الرَّاغب: "إذا أريد بالطَّائفة الجمع؛ فجمع طائف، وإذا أريد به الواحد؛ فيصحُّ أن يكون جمعًا، ويكنَّى به عن الواحد، وإن جعل كراوية وعلامة، ونحو ذلك"[3]، والمعنى المُراد في الآية بالطَّائفتين، أي: اليهود، والنَّصارى.

2) ﴿دِرَاسَتِهِمۡ﴾: جذر الكلمة هو (درس)، والدَّرس: بقيَّة أَثَرِ الشَّيءِ الدَّارس، والمصدر الدُّرُوس، ودَرَسَتهُ الرِّياح، أي: عَفَتْه،

(1) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 5/2747.
(2) أحمد، مسند الإمام أحمد، حديث معاوية بن أبي سفيان، رقم الحديث: (16881): 28/94.
(3) الزَّبيديّ، تاج العروس: (طوف).

والدَّرْس: دَرْسُ الكتابِ للحِفْظ، ودَرَسَ دِراسةً، ودارَسْتُ فلانًا كتابًا، لكي أحفَظَ[1]، وقيل: درستُ: قرأتُ كتب أهل الكتاب، ودارستُ: ذاكرتهم، وقُرِئَ (دَرَسَتْ)، أي: هذه أخبار قد عفت وامَّحَت[2]، ودرس الكتاب للحفظ: كرَّر قراءته درسًا ودراسة، ودَرَّسَ غيره، ودارسته الكتاب مُدارسَة، وتدارسُوه حتَّى حفظوه، واجتمعت اليهود في مدراسهم، وهو بيت تُدرَّس فيه التَّوراة[3].

3) ﴿لَغَٰفِلِينَ﴾: جذر الكلمة هو (غفل)، والتَّغافُلُ: التَّعَمُّدُ، والتَّغَفُّلُ: ختل عن غَفْلةٍ، وأَغفَلْتَ الشَّيءَ: تركته غُفْلًا، وأنت له ذاكر، والمُغَفَّلُ من لا فطنة له، والغُفْل المُقَيَّدُ لا يرجى خَيْرُهُ، ولا يخشَى شرُّهُ[4]، وقوله تعالى: ﴿وَكَانُواْ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ١٣٦﴾ [الأعراف: 136]، يصلح أن يكون، كانوا في تركهم الإيمان بالله تعالى، والنَّظر فيه، والتَّدبير له بمنزلة الغافلين، ويجوز أن يكون: وكانوا عمَّا يراد بهم من الإثابة عليه غافلين[5]، والغفلة: سهوٌ يعتري الانسان من قلَّة التَّحفُّظ والتَّيقُّظ، قال تعالى: ﴿لَّقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا﴾ [ق: 22]، وقوله: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ٢٨﴾ [الكهف: 28][6].

المَعْنى الإجْماليُّ:

قولهم فيما سبق: ﴿إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا﴾، ويقصدون بالطَّائفتين اليهود والنَّصارى، والكتاب إنَّما هو التَّوراة والإنجيل، وذلك أنَّ كفَّار مكَّة قالوا: (قاتل الله اليهود كيف كذَّبوا

نزولُ القرآنِ ردٌّ على اعتذارهم لشركهم بعدم نزول كتاب عليهم

(1) الخليل، العين، وابن سيده، المحكم: (درس).
(2) ابن سيده، المحكم: (درس).
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: (درس).
(4) الخليل، العين: (غفل).
(5) ابن سيده، المحكم: (غفل).
(6) الرّاغب، المفردات: (غفل).

أنبياءهم؟ والله لو جاءنا نذير أو كتاب؛ لكنَّا أهدى منهم)، فأنزل الله تعالى القرآن حجَّة عليهم، ثم قال: ﴿وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ﴾، يعني: عن قراءتهم الكتاب لغافلين عمَّا فيه[1]، ومؤدَّاه أيضًا: "لكيلا تقولوا يوم القيامة معتذرين عن شرككم: إنَّما أنزل الكتاب على اليهود والنَّصارى ﴿طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا﴾، وما كنّا نفهم ما جاء فيهما؛ لأنَّ الكتابين لم يكونا بلغتنا، ولم نؤمر بالأخذ بهما، وبما جاء فيهما من أحكام، ولذلك كنَّا غافلين عن دراسة اليهود والنَّصارى لما جاء في كتبهم"[2].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

غرضُ حذفِ لامِ التَّعليلِ في قوله: ﴿أَن تَقُولُوٓاْ﴾:

قوله تعالى: ﴿أَن تَقُولُوٓاْ﴾ في موضع التَّعليل لفعل ﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾ على تقدير لام تعليل محذوفة (لَأَنْ تَقُولُوا)، على ما هو معروف من حذفها مع (أنْ)، والتَّقدير: لأن تقولوا، أي: لقولكم ذلك في المستقبل، أي: لملاحظة قولكم وتَوقُّع وقوعه، فالقول باعث على إنزال الكتاب[3]، قال الفرَّاء: (أن) في موضع نصب في مكانين: أحدهما: أنزلناه، لئلَّا تقولوا، والآخر: من قوله: واتَّقوا أن تقولوا[4]، أو كراهة أن تقولوا[5]، وقال مجاهد: لئلَّا تقوله قريش[6]، والخطاب بهذه الآية مُوَجَّهٌ إلى أهل مكَّة، والمراد إثبات الحجَّة عليهم بإنزال القرآن، كي لا يقولوا يوم القيامة: إنَّ التَّوراة والإنجيل أنزلا على اليهود والنَّصارى، وكُنَّا غافلين عمَّا فيهما[7].

إنزالُ الكتابِ قطعٌ للحُججِ الواهيةِ والادِّعاءاتِ الباطلة

(1) السّمرقنديّ، بحر العلوم: 1/513.
(2) أسعد حومد، أيسر التّفاسير، ص: 946.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/177.
(4) ابن الجوزي، زاد المسير: 2/94.
(5) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/77.
(6) مجاهد، تفسير مجاهد: 1/331.
(7) ابن الجوزي، زاد المسير: 2/94.

دلالةُ التَّنكيرِ في لفظ ﴿طَآئِفَتَيۡنِ﴾:

الطَّائفتان معروفتان، المرادُ بهما أهل التَّوراة وأهل الإنجيل؛ لأنَّهما عُرفتا بقوله: ﴿مِن قَبۡلِنَا﴾، و(مِن) تفيد القرب من الزَّمان، أي: منذ زمن غير بعيد، ولذلك استغنى بالتَّنكير عن التَّعريف، هذا فضلًا عن كون اليهود والنَّصارى، كانوا يعيشون مع العرب في المدينة؛ ولذلك جاء التَّنكير في ﴿طَآئِفَتَيۡنِ﴾ لمعلوميَّة مَنْ يكونون، ثمَّ إنَّه كانت اليهودُ تُبشِّر بنزول كتاب، وإرسال رسول يأتي من بعد موسى مُصدِّقًا له ولرسالته. والتّعبيرُ من باب الكناية.

مَلْمَحُ التَّعايشِ بين اليهودِ والنَّصارى في شبهِ الجزيرةِ العربيَّةِ

دلالة أسلوب القصر بـ﴿إِنَّمَآ﴾:

في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلۡكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيۡنِ مِن قَبۡلِنَا﴾ قصرٌ حقيقيٌّ؛ وهو من قبيل قصر صفة على موصوف، والمراد قصرُ صفة إنزال الكتاب على الموصوف، وهو: ﴿طَآئِفَتَيۡنِ مِن قَبۡلِنَا﴾، وهو كذلك قصر تعيين؛ لانحصار وتحديد المقصور عليه، وهم اليهود والنَّصارى، وفائدة هذا القصر: أنَّه حصر الكتب السَّماويَّة الَّتي كانت قبل القرآن الكريم، واستحضرها في الأذهان، بعد ما ذكر من الوصايا والصِّراط المستقيم، وذكر كتاب موسى عليه السلام، وذكر القرآن الكريم؛ استقطابًا للإيمان في صدور المؤمنين من المخاطبين، وإنكارًا على المعارضين، وتعريضًا بهم.

حَصْرُ رسالات الأنبياء السَّابقين في بني إسرائيل

نكتةُ القصرِ بقوله: ﴿إِنَّمَآ﴾ دون الاستثناءِ بعد النَّفي:

الأصل في القصرِ بالنَّفي والاستثناء، أن يكون في الأمور الَّتي يُنكرها المُخاطَب، أو يشُكُّ فيها، بينما القصر بـ ﴿إِنَّمَآ﴾ تكون في الأمور الَّتي يعلمها السَّامع، ولا يُنكرها، وذلك كما في هذه الآية: ﴿إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلۡكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيۡنِ مِن قَبۡلِنَا﴾، فهي من الحقائق الَّتي يعلمها السَّامعون، ولا ينكرها أحد منهم؛ ولذلك جاء في هذه الآية القصر بـ﴿إِنَّمَآ﴾، دون النَّفي والاستثناء.

إنزالُ الكتابِ على اليهودِ والنَّصارى حقيقةٌ يعلمها المخاطَبونَ

نُكْتَةُ إسنادِ الإنزالِ للمفعول:

الكِبْرُ هو ميدانُ قلوبِ المُعرضين عن الرِّسالات السَّماويَّة

قوله: ﴿إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلۡكِتَٰبُ﴾ أُسنِد الإنزال للمفعول، ونُكتة ذلك أنَّ غايتهم من هذا القول تهوين أهمِّيَّة الإنزال، والتَّشكيك بأنَّه نزل من عند الله، فالعبارة تستخرج ما في نفوسهم من الاعتراض والشُّكوك، والأمراض النَّفسيَّة النَّاتجة عن الكِبْر الَّذي أدَّى إلى اعتراضهم، فجاءت (أنْ) في موضع نصب من مكانين؛ أحدهما: أنزلناهُ لئلَّا تقولوا: إنَّما أنزلَ، والآخر من قوله: واتَّقوا أن تقولوا، و(لا) يصلح في موضع (أنْ) هاهنا، كقوله: ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ أَن تَضِلُّواْۗ﴾؛ يصلح فيه لا تضلُّون[1].

معنى (ال) في ﴿ٱلۡكِتَٰبُ﴾:

الكتاب هو جملةُ الكُتب السَّماويَّة السَّابقة، وكلُّها بيان وهداية

والكتاب في قولهِ تعالى: ﴿إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلۡكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيۡنِ مِن قَبۡلِنَا﴾ مراد به الجنس المنحصر في التَّوراة والإنجيل والزَّبور، وهذا يؤيِّد الاعتقاد بوحدة المصدر، وأنَّ هذه الكُتُبَ مصدرها واحد، وهي تدعو إلى دين واحد، هو الإسلام، ومعنى إنزال الكتاب عليهم: أنَّهم خوطبوا بالكتب السَّماوية الَّتي أنزلت على أنبيائهم، فلم يكن العرب مخاطبين بما أنزل على غيرهم، فهذا تعلُّلٌ أوَّلُ منهم، وثمَّة اعتلال آخر عن الزّهادة في التَّخلُّق بالفضائل، والأعمال الصَّالحة[2].

نوعُ الواوِ في قولهِ: ﴿وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمۡ لَغَٰفِلِينَ﴾:

الكِبْرُ غرورٌ قاتلٌ يودي بصاحبه في أدنى تحدٍّ يعرض له

الواو عاطفة بين خبرين، حيثُ إنَّ جملة: ﴿إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلۡكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيۡنِ مِن قَبۡلِنَا﴾، هي جملة مقول القول، والجملة بعد الواو معطوفة على جملة مقول القول، وفائدتها: الوصل بين الجملتين؛ إذ بهذا الوصل تكتمل الصُّورة، ويبين ما في النُّفوس من علامات الكبر؛ ففي الجملة الأولى اعتراضهم على أنَّ الكتاب أنزل على طائفتين،

(1) الفرّاء، معاني القرآن: 366.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/180.

ولم يُنزَّل عليهم، فأعرضوا عن الحقِّ لهذا السَّبب الباطل، فكشف ذلك غرورهم وصدَّهم عن الدِّين القويم.

نكتةُ التَّعبيرِ بـ﴿وَإِن﴾ ودلالةُ اللَّام في ﴿لَغَٰفِلِينَ﴾:

﴿وَإِن﴾ في هذه الآية بمعنى: ما النَّافية، واللَّام بمعنى: (إلا)، فكأنَّه قال: وما كنَّا عن دراستهم إلَّا غافلين، أو وما كنَّا إلَّا غافلين عن تلاوة كتبهم[1]، أو أن يكون التَّقدير: وإنَّا كُنَّا عن دراستهم غافلين؛ في حال كون (إن) مخففة من الثقيلة، يخفَّف معها التَّوكيد، واللَّام في ﴿لَغَٰفِلِينَ﴾ عوض، أو فارقة بين إن وما[2]، والأصل: وإنَّه كنَّا عن دراستهم غافلين، على أنَّ الهاء ضمير الشَّأن[3].

الغفلةُ عن تلاوةِ الكتابِ محضُ إعراضٍ وكِبْرٍ عن دين الله القويمِ

دلالةُ التَّعبيرِ بـ﴿كُنَّا﴾:

في قوله تعالى: ﴿وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ﴾، التَّعبيرُ بـ(كان) يفيد الزَّمن الماضي، وفيها دلالة على البعد؛ لأنَّهم كانوا لا يعرفون لغة كُتُبهم، فعبَّر بالغفلة عنها، أو لأنَّها تحكي حالهم يوم القيامة، فيكون التَّعبير بـ﴿كُنَّا﴾ دالّا على ما قد كان منهم في الدُّنيا، من البعد عن الرِّسالة، والغفلة عن الوصايا والتَّشريعات والقيم الَّتي جاءت بها.

لا يُقبلُ الاعتذارُ عن معرفةِ الدِّين ودراسةِ الكتاب في كلِّ حالٍ

المجازُ المرسلُ في قوله: ﴿عَن دِرَاسَتِهِمْ﴾:

قولهم: ﴿وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ﴾، أي: وأنَّا كنَّا قاصرين عن اتِّباع رشدهم؛ لأنَّا لم نتعلَّم، فالدِّراسة مقصود بها التَّعليم[4]، فهي مجازٌ مرسل، والعلاقة السَّببيَّة، والدِّراسة: القراءة بتمهُّل للحفظ أو للفهم، ودرس الكتاب، أي: تعلَّم[5]، قال الكسائيُّ: ﴿وَإِن

الكتابُ الحقُّ شاملٌ لعموم الخير، وخيرُ النَّاس من تعلَّمه وعلَّمه

(1) الزّجّاج، معاني القرآن: 2/308، وابن عطيّة، المُحرَّرُ الوجيز: 2/365.
(2) أبو البقاء العكبريّ، التّبيان في إعراب القرآن: 1/551.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/81.
(4) ابن عطيّة، المُحرَّرُ الوجيز: 2/365.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/422.

﴿كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ﴾، أي: لا نعلم ما هي؛ لأنَّ كتبهم لم تكن بلُغَتِنَا، فقد غاب عن أذهانهم حاجتهم إلى تعلُّم الكتاب؛ لترتقي حياتهم، ويحقِّقوا رضا الله، وغاب عنهم أنَّه كلام الله، فاقتضى ذلك منهم أن يتعلَّموا لغته، ويدرسوا ما فيه من الوصايا، فأنزل الله كتابًا بلغتهم لتنقطع حجَّتهم[1].

الكنايةُ عن الاتِّباع أو عدمه في لفظ: ﴿لَغَٰفِلِينَ﴾:

انتفاءُ الدِّراسةِ والعلم يعني: الانقطاعَ عن الكتاب، وانتفاءَ اتِّباعه

الدِّراسة تعني: التَّعلُّم والاهتمام بمضمون الرِّسالة، لغاية المعرفة والاتِّباع، فتكون الدِّراسة قد تضمَّنت معنى الاتِّباع، أو هي كناية عنه، والغفلة: السَّهو الحاصل من عدم التفطُّن، أي: لم نهتمَّ بما احتوت عليه كتبهم، فنقتدي بهديها، فهي كناية عن عدم الاتِّباع، فكان مجيء القرآن منبِّهًا لهم للهدي الكامل، ومُغنِيًا عن دراسة كتبهم[2].

بلاغةُ المؤكِّدات في قوله: ﴿وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ﴾:

تتنوَّعُ أعذارُ المُخاطَبينَ؛ لتكشفَ عن قساوةِ القلوبِ وإقفالها عن قَبول الحقِّ

ورود أكثر من مؤكِّد في النَّصِّ، يعكس اضطراب النَّفس المُخاطبة المنكرة والمتردِّدة، ومحاججتها في قبول الحقِّ، فتأتي بجملة من المؤكِّدات الَّتي توحي بذلك الإنكار أو التَّردُّد، وما اعتذارهم عن تعلُّم الكتاب، بإنزال الكتاب على أقوام آخرين، وغفلتهم عن دراسته إلَّا حُجَّة واهية، تكشف عن مساحة الكبر الَّتي غشيت قلوبهم؛ فلا يؤمنون إلَّا قليلًا.

بلاغةُ تقديمِ ﴿عَن دِرَاسَتِهِمْ﴾ عن العامل:

فقدانُ القدرةِ والمهارةِ هو جانبٌ من الغفلةِ والنَّقصِ في التَّمكين

قدَّم شبه الجملة: ﴿عَن دِرَاسَتِهِمْ﴾، على العامل ﴿لَغَٰفِلِينَ﴾ للاهتمام؛ إذ هي محور الحديث، وأساس الرِّسالة، وهي العلم والدِّراسة والاهتمام بمضامين الرِّسالة النَّبويَّة، فلمَّا كانوا لا

(1) ابن الجوزيّ، زاد المسير: 2/94.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/181.

يجيدون لغة الرِّسالة، فهم عن الدِّراسة والعلم مِثْلُ الغافلين عن الرِّسالة ومضامينها.

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(الطَّائفة) و(الفرقة) و(الفئة):

الطَّائفةُ: الجَماعة من النَّاس، وتقع على الواحد ويكونُ المُراد نفسًا طائفة، وقيل: الطَّائفة جماعة دون الألف، والفرقة والفِرقُ: طائفة من النَّاس ومن كلِّ شيءٍ[1]، وهو من الشَّيء المُتفرِّق[2]، والفرق يُقال اعتبارًا بالانفصال، قال تعالى: ﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾﴾ [الشُّعراء: 63]، ويقال: الفرقة: للجماعة المُتفرِّدة من النَّاس، والفريق: الجماعة المُتفرِّدة عن الآخرين، قال تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ﴾ [آل عمران: 78]، والفئة: هِيَ الْجَمَاعَة المتفرِّقة من غَيرهَا، من قَوْلك: فأوْتُ رَأسَه، أَي: فلقتُهُ، وانفَأى؛ إذا انفرج مكسورًا، والفئة في الْحَرْب: الْقَوْم يكونُونَ ردْء المُحَاربين يعنون إليهم؛ إذا حالوا، وَمِنْه قَوْله ﷻ: ﴿أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ﴾ [الأنفال: 16]؛ ثمَّ قيل لجمع كلِّ من يمْنَع أحدًا، وينصره: فِئَة، وَقَالَ أَبُو عُبَيْدَة: الفئة: الأعوان[3]، فالطائفة: تُطلق على الجماعة الكبيرة، وأمَّا الفرقة من النَّاس: فهم الجماعة المُنحازة عن الأغلبيَّة، لأمرٍ فيهم من رأي أو اعتقاد، أمَّا الفئة: فهِيَ المجموعة المتفرِّقة من غَيرهَا، فقال في الآية: الطَّائفة؛ كونها الجماعة الكبيرة المُجتمعة على كتاب الله، وهم اليهود والنَّصارى.

الطَّائفةُ: جماعةٌ كثيرةٌ، والفرقةُ: مـا تـفـرَّق لاعتقادٍ، والفئةُ: الأعوانُ

(الغفلة) و(الغرور):

الغفلة سهوٌ يعتري الإنسان، من قلَّة التَّحفُّظ والتَّيقُّظ؛ فيكون

(1) الخليل، العين: (فرق).
(2) ابن سيده، المُحكم والمحيط الأعظم: (فرق).
(3) العسكريّ، الفروق اللّغويّة: 279.

الغفلةُ: سهوٌ يعتري الإنسانَ بغيرِ قصدٍ، والغرورُ: إغواءٌ له بقصد

بغير قصد، أمَّا الغرور فهو كلُّ ما يَغُرُّ الإنسانَ من مال وجاه وشهوة وشيطان، وقوله: ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ۝٣٣﴾ [لقمان: 33]، وقد فُسِّر بالشَّيطان؛ إذ هو أخبث الغارِّين، وبالدُّنيا لمَّا قيل: الدُّنيا تغُرُّ، وتضرُّ، وتمرُّ[1]، فيكون الغرور بقصد، فقال في الآية: ﴿وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ﴾؛ إذ طرأ عليهم ذلك دون قصد منهم.

(1) الرّاغب، المفردات: (غرر).

﴿أَوۡ تَقُولُواْ لَوۡ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا ٱلۡكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهۡدَىٰ مِنۡهُمۡۚ فَقَدۡ جَآءَكُم بَيِّنَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞۚ فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنۡهَاۗ سَنَجۡزِي ٱلَّذِينَ يَصۡدِفُونَ عَنۡ ءَايَٰتِنَا سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يَصۡدِفُونَ ١٥٧﴾ [الأنعام: 157]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

المناسبةُ بين الرَّدِّ على عدمِ دراسةِ ما قبلَهم، وأنَّه لا حجَّةَ بعد نزولِ القرآنِ عليهم

الآية امتدادٌ لسياق سابقتها؛ إذ ذُكرت في سابقتها الحُجَّة الأولى الَّتي قالوا فيها: ﴿أَن تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلۡكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيۡنِ مِن قَبۡلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمۡ لَغَٰفِلِينَ﴾، أو أنَّهم من المحتمل أن يقولوا ذلك، فإنَّه في هذه الآية أردفها بحجَّة أخرى، فقال: ﴿أَوۡ تَقُولُواْ لَوۡ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا ٱلۡكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهۡدَىٰ مِنۡهُمۡۚ﴾؛ فيردُّ عليهم بأنَّه قد أنزل إليهم القرآن، وهو الرِّسالة المهيمنة، على ما سبقها من الكتب والبيِّنات، وقد جاءكم بساطع البرهان، وقاطع التِّبيان، ممَّا لا عذر بعده لمعتذر، ولاحجَّة بعد نزوله لمحاجج.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَهۡدَىٰ﴾: من (هدي)، وهداه للسَّبيل وإلى السَّبيل، وهداه من الضَّلالة فاهتدى، وهدى هَدْيَ فلان: سار سيرته، وما أحسن هديَهُ! وهو لا يتهدَّى لذلك[1]، و"قد ورد (هدى) في الكتاب العزيز على ثلاثة أوجه: معدّى بنفسه كقوله (تعالى): ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ٦﴾ [الفاتحة: 6]، وقوله تعالى: ﴿وَهَدَيۡنَٰهُ ٱلنَّجۡدَيۡنِ ١٠﴾ [البلد: 10]، ومعدّى باللَّام كقوله (تعالى): ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي هَدَىٰنَا لِهَٰذَا﴾ [الأعراف: 43] وقوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يَهۡدِي

(1) الزَّمخشريُّ، أساس البلاغة: (هدي).

لِلْحَقِّ﴾ [يونس: 35]، ومعدّى بإلى كقوله تعالى: ﴿وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ۝٢٢﴾ [ص: 22]"[1].

2) ﴿وَصَدَفَ﴾: بمعنى: أعرض، وقال اللَّيث: الصَّدْفُ: الميل عن الشَّيء، وأصدفني عنه كذا وكذا، وصدف ونكب وكنف: إذا عدل[2]، صَدَفَ عن الشَّيء صُدوفًا: أعرض عنه، وتصادفا: تقابلا[3]، ومعناه في القرآن: صَدَف عن الشَّيء؛ إذا مال عنه، وولَّى ذاهبًا، ويقال للإبل الَّتي تقف عند أعجاز الإبل على الحوض، تنتظر انصراف الشَّاربة لتدخل: هي الصَّوادفُ[4].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

إبْطالُ حُجَّةِ الكفَّارِ بعدمِ وجودِ كتابٍ بإنزال الكتابِ المعجزِ البليغِ عليهم

معنى هذه الآية: إبْطالُ حُجَّةِ قريش وسائر العرب، بأنَّهم لم يكن لهم كتاب، فكأنَّه قال: وهذا القرآن يا معشر العرب، أُنزل حُجَّة عليكم؛ لئلَّا تقولوا: إنَّما أنزلت التَّوراة والإنجيل بغير لساننا على غيرنا، ونحن لم نعرف ذلك، فهذا كتاب بِلُغَتِكُم وجاء على لسان رجل منكم، أَوْ تَقُولُوا: لو نُزِّل علينا كتاب؛ لكنَّا أسرعَ إلى الهدى من النَّاس كلِّهم، فقيل لهم: قد جاءكم كتاب من اللّه وهدى ورحمة، وحيث إنَّ البيِّنة قد جاءت، والحجَّة قد قامت، فسوف يقع التَّقرير بقوله: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا﴾[5]، حينئذٍ ستكونون أظلم النَّاس؛ إذا أعرضتم عن الآيات البيِّنات بعد إذ جاءتكم، ومن جاءهم الهدى، فأعرضوا، وصدُّوا عنه؛ فقد استحقُّوا عقاب اللّه، وسينالهم أسوأ العذاب، بإعراضهم وصدِّهم عن سبيل اللّه.

(1) زين الدّين الرّازي، مختار الصّحاح: (هدي).
(2) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (صدف).
(3) الزّمخشريّ، أساس البلاغة: (صدف).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (صدف).
(5) ابن عطيّة، المُحرّر الوجيز: 2/365 - 366.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالةُ الحرفِ ﴿أَوْ﴾ في قوله ﴿أَوْ تَقُولُواْ﴾:

فائدة العطف بـ ﴿أَوْ﴾ هُنا التَّخيير بين أمرين، فقد عرض أمرين محتملين: الأوَّل: اعتذارهم عن دراسة الكتاب لجهلهم بلغته، والثَّاني: ترشيح أنفسهم لتلقِّي الرِّسالة، والتَّأكيد على أنَّهم سيكونون أهدى ممَّن سبقوهم من أهل الكتاب، وكلٌّ من المقالتَيْن مقالةٌ واهيةٌ وحُجّةٌ داحضةٌ، أمام عظيم الأمر، وهو الإيمان بالله تعالى وكتابه الَّذي أنزل؛ إذ إنَّ كلتا الحُجَّتين يشوبُهُما هوى النَّفس، وتصدران عن الكبر الَّذي في صدورهم.

التَّخييرُ في الآية حصرٌ لمساحةِ التَّخبُّطِ في الإعراض عن الكتاب

التَّرقِّي والتَّدرُّجُ في الاعتلال:

قوله: ﴿أَوْ تَقُولُواْ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْۚ﴾، جاء بعد قوله: ﴿أَن تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ﴾، وهذا ترقٍّ في الاعتلال في القول، جاء على ما تُكِنُّه نفوس العرب من شفوفهم بأنفسهم على بقيَّة الأمم، وتطلُّعهم إلى معالي الأمور، وإدلالهم بفطنتهم وفصاحة ألسنتهم وحِدَّة أذهانهم وسرعة تلقِّيهم، هم أخلقاء بذلك كلِّه[1]، وفي الإعراب عن هذا الاعتلال منهم تلقين لهم، وإيقاظ لأفهامهم أن يغتبطوا بالقرآن، ويفهموا ما يعود عليهم به من الفضل والشَّرف بين الأمم، كقوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۝١٠﴾ [الأنبياء: 10]، وقد كان الَّذين اتَّبعوا القرآن أهدى من اليهود والنَّصارى ببون بعيد الدَّرجات[2].

التَّخييرُ في الآية يكشفُ عن أهواء الأنفسِ والكِبْرِ الَّذي في صدورهم

غرضُ التَّعبيرِ بالشَّرطيَّة في قولهم: ﴿لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ﴾:

ومعنى قوله: ﴿أَوْ تَقُولُواْ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/181.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/181.

مِنۡهُمۡۚ﴾، مُفسِّرٌ للأوَّل في أنَّ معناه: لئلَّا يقولوا ويحتجُّوا بذلك[1]، وقد أفاد هذا الشَّرط الانتقال من الإخبار - لحصر إنزال الكتاب على غيرهم، وأنَّه لم ينزل عليهم - إلى الإخبار بحكم على تقدير (والكتاب)، يجوز أن يراد به الكتاب السَّابق ذكره، ويجوز أن يراد الكتاب الَّذي تمنَّوْا أن ينزل عليهم[2].

الإيمانُ لا يقبلُ الافتراضاتِ المشروطةَ، وإنَّما هو تصديقٌ وعملٌ

بلاغةُ العدولِ عن الفعليّة إلى الاسميّة:

ذكَرَ القرآن على ألسنة المشركين أنّهم قالوا: ﴿لَوۡ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا﴾ بالصيغة الاسميّة، ولم يقولوا بالصيغة الفعليّة: لو أُنزِلَ علينا؛ ذلك لأنّ الجملة الاسميَّة تدلُّ على الثَّبات على خلاف الجملة الفعليَّة الَّتي تدلُّ على التَّغيير مع الزَّمن، وبلاغة ذلك أنَّهم قد وثَّقوا ادِّعاءهم، ووكَّدوا قولهم، بالجملة الاسميَّة، ومؤكِّدات عديدة، أنَّهم سيكونون أهدى من اليهود والنَّصارى، لو أنَّهم أُنزل الكتاب عليهم.

دلالةُ الثُّبوتِ على اليقينِ في النَّفسِ وانشراحِ الصَّدرِ للإيمانِ

نكتةُ إسنادِ الإنزالِ إلى المبني للمفعول: ﴿أُنزِلَ﴾:

جاء فعلُ الإنزال ﴿أُنزِلَ﴾ بصيغة ما لم يُسَمَّ فاعله لأنَّ المُنزِلَ معلوم، وهو اللّه سبحانه، بمعنى: لوْ أنزلَ اللّه علينا الكتابَ، ولا ينصرفُ الذّهن إلى غيره، وأمثلته في القرآن كثيرة، منها قوله: ﴿فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتۡ ۝٨ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتۡ ۝٩ وَإِذَا ٱلۡجِبَالُ نُسِفَتۡ ۝١٠﴾ [المرسلات: 8 - 10]، فهذه الأفعال وأشباهها لم تُسنَدْ إلى الفاعل لأنّ الفاعل معلومٌ من السّياق، ولا ينصرفُ الذّهنُ إلا إليه سبحانه؛ إذ لا يقدرُ أحدٌ غيره على ذلك.

خالقُ الكونِ والإنسانِ ومنزِّلِ القرآنِ، هو اللهُ تعالى وحده لا شريك له

بلاغةُ تقديمِ شبهِ الجملة ﴿عَلَيۡنَا﴾:

جاء في جملة ﴿لَوۡ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا ٱلۡكِتَٰبُ﴾ تقديمُ شبه الجملة ﴿عَلَيۡنَا﴾ للتَّخصيص؛ إذ المعنى لو أنَّ اللّه خصَّنا بالكتاب دونهم؛

تخصيصُ قومٍ بالكتاب لحكمةٍ لا يعلمُها إلَّا اللهُ سبحانه

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 14/6.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/257.

لكُنَّا أهدى منهم، وهذا من قبيل الأماني على اللّه؛ لذلك فقد جاءهم الرَّدُّ الحاسم، بقوله: ﴿فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾، أي: جاءكم الكتاب، وهو القرآن، واضحًا بيّنًا، فما الَّذي يمنعكم من الهداية، أو من أن تكونوا أهدى النَّاس.

معنى (ال) في لفظ ﴿ٱلْكِتَٰبُ﴾:

(الـ) التَّعريف في لفظ ﴿ٱلْكِتَٰبُ﴾ للجنس، أي: جنس الكتاب الَّذي هو كناية عن الرِّسالة القادمة من اللّه تعالى، لما فيها من الحفاوة والشَّرف العظيم، ولذلك قالوا: ﴿عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ۝٣١﴾ [الزّخرف: 31]، فقد كانت نفوسُهم تتشوَّف إلى ذلك الشَّرف طلبًا له ولكرامته.

الكتابُ هو القرآنُ الكريمُ الَّذي بشَّرتْ بهِ الرِّسالاتُ السَّابقةُ

معنى اللَّامِ في ﴿لَكُنَّآ﴾:

اللَّام في ﴿لَكُنَّآ﴾ في قوله تعالى ﴿لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ﴾ هي للتَّوكيد، وفائدة التَّوكيد محاولة إثبات المتكلّمين صدقهم فيما يدَّعونه، وتأكيد الاتِّصاف بالهداية في الزَّمن الماضي، بل تأكيد كونهم أهدى من اليهود والنَّصارى، ويعكس التَّوكيد ما في نفوسهم من تناقضات واختلافات، فتفضح شكوكهم وضعف قناعاتهم.

التَّوكيداتُ في كلامِ المعارضينَ كَشْفٌ لخبايا النَّفس وتناقضاتها

نكتةُ التَّعبيرِ بالفعل (كان) في صيغة المُضيّ:

(كان): فعل ماضٍ ناقص غير أنَّ (كان) لا تختصُّ بالماضي فقط، بل قد تكون لغيره، وأبرز معانيها الماضي المنقطع، وهي في قولهم ﴿لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ﴾ تُفيدُ ذلك؛ إذ أرادوا بيان اتِّصافهم بالحدث في الزَّمن الماضي على وجه الثُّبوت، وهي هُنا لاتِّصافهم بالهداية أكثر من اليهود والنَّصارى، فوصفوا أنفسهم بأفضل أوصاف المُهتدين بالكتاب.

يُستَخدَمُ غالبًا أُسلوبُ الماضي المنقطع في وصف الأماني التي لا تتحقَّقُ

نكتةُ استعمال صيغة ﴿أَهْدَىٰ﴾:

صيغة ﴿أَهْدَىٰ﴾ صيغةُ مبالغة، ومعنى ﴿أَهْدَىٰ مِنْهُمْ﴾: أرشد

وأسرع اهتداء من الطّائفتين، لكونه نزل علينا بلساننا، فنحن نتفهَّمه ونتدبَّره، وندرك ما تضمَّنه من غير إكداد فكر، ولا تعلّم لسان، على خلاف الكتاب الَّذي أنزل على الطَّائفتين، فإنَّه بغير لساننا، فنحن لا نعرفه ونَغْفُلُ عن دراسته، أو أهدى منهم لكون اليهود والنَّصارى، قد افترقت فرقًا متباينة، فلا نعرف الحقَّ من الباطل[1].

الهداية نورٌ يُقذف في القلب، لا تتأتَّى بالأماني وأهواءِ النُّفوس

عودُ الضَّميرِ وغرضُ الإضمارِ في ﴿مِنْهُمْ﴾:

قوله: ﴿لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ﴾، أي: من الأمم قبلهم الَّذين أنزل عليهم الكتب، والجمع هنا باعتبار الفرقة والطَّائفة[2]، قال قتادة: يعني بالطَّائفتين اليهود والنَّصارى، وقال: يعني بالدَّراسة التِّلاوة، ثمَّ قال تعالى: ﴿لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ﴾، أي: أفهم وأوعى منهم، لأنَّهم يحفظون أشعارهم وأخبارهم، وهم أمِّيُّون[3]، والمعنى العام: إذ لدينا من القُدُرات اللُّغويَّة، ما تؤهِّلنا إلى أن نكون أهدى النَّاس، وهذا ما أكَّده الواقع عندما نزل عليهم القرآن، فكانوا أكثر النَّاس فهمًا له، وكانوا هم ميدان التَّحدِّي من جانب القرآن.

العربُ هم مَعْقِدُ التَّحدِّي بالقرآن، لِما وصلوا إليه من الرُّقيِّ اللُّغويِّ

بلاغةُ المؤكِّداتِ في الجملة الشَّرطيَّة ﴿لَوْ أَنَّآ﴾:

تعدَّدَتِ المؤكِّداتُ في الجملة الشَّرطيَّة في قوله: ﴿أَوْ تَقُولُواْ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ﴾، حيث نجد التَّوكيد بـ (أنَّ)، والضَّمير (نا)، ولام التَّوكيد، في ﴿لَكُنَّآ﴾ وصيغة المُبالغة في ﴿أَهْدَىٰ﴾، فتعدُّد المؤكِّدات هنا، يدلُّ على عدم القناعة الذَّاتيَّة لدى المتكلِّمين أنفسهم بما يقولون، فاحتاجوا إلى طمأنة ذواتهم وإثبات ما يقولون إلى تلك المؤكِّدات.

عدمُ القناعاتِ الذَّاخليَّة، تتجلّى في تأكيداتٍ وتبريراتٍ متواليَةٍ

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/257.
(2) عبد القادر العاني، بيان المعاني: 3/427.
(3) النّحّاس، معاني القرآن: 2/521.

الإيجازُ بحذف الشَّرط:

تنزُّل القرآنِ الكريمِ يكشف عن الصِّدق من الزَّيف

قوله تعالى: ﴿فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ هو جوابٌ لشرط محذوف، يدُلُّ عليه المقام، والمعنى: إنْ صدقتكم فيما كنتم تعِدُّون من أنفسكم، فقد جاءكم بيِّنة من ربِّكم، فحذف الشَّرط، وهو من أحاسن الحذف وأبلغه.

ومن أهل التّفسير من يرى أنَّ الفاء في الفعل ﴿فَقَدْ جَآءَكُم﴾ هي الفصيحة، أي: الفاء التي تُفصِحُ عن كلام محذوف قبلها، ويؤولُ الكلامُ إلى معنى واحد مُفاده: إذا كنتم تَقولون ذلك، ويهجس في نفوسكم؛ فقد جاءكم بيانٌ من ربِّكم، يعني: القرآن، يدفع عنكم ما تستشعرون من الانحطاط عن أهل الكتاب[1]، والجملة بلفظ التَّعنيف جواب شرط جازم محذوف، مقترن بالفاء، في محلِّ جزم، وجاء التَّبكيت عليهم؛ لأنَّهم كانوا قد اشترطوا لإيمانهم.

غرضُ التَّحقيقِ بـ ﴿فَقَدْ﴾:

إقامةُ الحجَّةِ على مشركي العرب وقطع احتجاجهم

ودَوْرُ (قَدْ) في قوله: ﴿فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ هو تأكيدُ الكلام وتحقيقه، وغرضه إثبات الحُجَّة على الَّذين يجادلون، ويُحاجُّون، فقوله: ﴿فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ تبكيت لهم[2]، وقد أطبق المفسِّرون على أنَّ الغرض بهذه الجملة إقامة الحجَّة، على مشركي العرب وقطع احتجاجهم[3].

نكتةُ إسنادِ المجيء إلى البيِّنة:

مجيءُ البيِّنةِ هو فضلُ الله لهداية البشر

قوله: ﴿فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ﴾، أي: فقد جاءكم كتابٌ بلسانكم عربيٌّ مبين، حجَّة عليكم واضحة بيِّنة من ربِّكم[4]، فأسند المجيء إلى البيِّنة في قوله: ﴿فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ﴾، وهو على

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/181.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/77.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/697.
(4) ابن جرير، جامع البيان: 12/243.

سبيل المجاز العقليِّ، من الإسناد إلى المفعول؛ لأنَّ اللّه هو الَّذي آتاكم تلك البيِّنة.

الالتفاتُ بينَ صيغة: ﴿أُنزِلَ﴾ وصيغة ﴿فَقَدْ جَآءَكُم﴾:

بمجيءِ بيِّنةِ القرآنِ العجيبِ قَطَعَتْ جَهيزةُ قولَ كلِّ خطيبِ

الالتفاتُ من البناء للمفعول ﴿أُنزِلَ﴾، يعكس ما فيه من التَّحسُّر، فبإنزال الكتاب عليهم تحقيق فخر لهم، وهيمنة على ما حولهم من الأمم، لكنَّه كما قالوا: ﴿أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا﴾، فالتفت إلى البناء للمعلوم في قوله: ﴿فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾، بشرى لهم بالكرامة الَّتي أصابتهم، فقد جاءهم البيِّنة، وهو الكتاب، وهو القرآن الكريم المُهيمن على الكُتب كلِّها.

نكتةُ تنكيرِ ﴿بَيِّنَةٌ﴾ وتقديمها في الذِّكر:

البيِّنةُ هي القرآنُ الكريمُ المُعجزُ في بيانه ونظمه وأدلَّته

وتنكير بيِّنة في قوله جلّ شأنه: ﴿فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ﴾ للتَّعظيم، وتقديمها على الهدى والرَّحمة؛ لأنَّها الأصل فيهما، وقد أضاف بيِّنة إلى ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾، فقال: ﴿بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾، ولو عُرِّفت بـ(الـ)؛ لقال: فقد جاءكم البيّنة، كما في سورة البيِّنة: ﴿إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ۝٤﴾ [البيّنة: 4].

البيّنة كنايةٌ عن موصوفٍ هو القرآن في هذه الآية الكريمة:

القرآنُ الكريمُ هو الإعجازُ الَّذي تضمَّن الهُدى والرَّحمةَ

قوله: ﴿فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ﴾، هذا التَّركيب في مجموعه كناية عن موصوف هو القرآن، وقد عُدل من الكناية عن الموصوف إلى الوصف؛ لأنَّ الوصف هو الذي عليه المُعوَّل في الهداية وإقامة الحُجَّة، وهي البيِّنة والهُدى والرَّحمة[1]، والبيِّنة ما به البيان وظهور الحقِّ، فالقرآن بيِّنة على أنَّه من عند اللّه لإعجازه بُلَغاءَ العرب، وهو هدى بما اشتمل عليه من الإرشاد إلى طرق الخير، وهو رحمة بما جاء فيه من شريعة سمحة لا حرج فيها،

(1) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 1/357.

فهي مقيمة لصلاح الأمَّة مع التَّيسير، وهذا من أعجب التَّشريع، وهو أدلُّ على أنَّه من أمر العليم بكلِّ شيء[1]، ويتوسَّع المعنى في كناية البيِّنة، في قول ابن عبَّاس: ﴿فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ﴾، أي: حجَّة، وهو النَّبيُّ، والقرآن، والهدى، والبيان، والرَّحمة، والنِّعمة[2].

نكتةُ تنكير لفظي: ﴿وَهُدًى﴾ و﴿وَرَحْمَةٌ﴾:

تنكير ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةٌ﴾ للتَّفخيم والتَّعظيم، فلا يحدُّهما تعريف أو وصف، فهذه البنية تحقِّق غاية الهُدى، وهي تمام الرَّحمة من اللّه تعالى

تمامُ الهدى وغاية الرَّحمة في القرآن

فائدةُ الجمعِ بين البيِّنة والهدى:

أمَّا فائدة الجمع بين البيِّنة والهدى في قوله: ﴿فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ﴾؛ فإنَّ القرآن بيِّنة فيما يعلم سمعًا، وهو هدى فيما يعلم سمعًا وعقلًا، فلمَّا اختلفت الفائدة؛ صحَّ هذا العطف، وقد بيَّنَّا أنَّ معنى رحمة، أي: نعمة في الدِّين[3]، وقوله: ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةٌ﴾ عطفٌ على ﴿بَيِّنَةٌ﴾ وتنوينُهما - أيضًا - تفخيميٌّ، عبَّر عن القرآن بالبيِّنة إيذانًا بكمال تمكُّنِهم من دراسته، ثمَّ بالهُدى والرَّحمة تنبيهًا على أنَّه مشتملٌ على ما اشتمل عليه التَّوراةُ من هداية النَّاس ورحمتِهم، بل هو عينُ الهداية والرَّحمة[4].

ذكرُ (البيِّنة) توحي بدراسته، وذكر (الهدى) لاشتماله على ما في التَّوراة

التَّفريعُ في قوله: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ﴾:

تفرَّع عن هذا الإعذار لهم الإخبارُ عنهم بأنَّهم لا أظلم منهم؛ لأنَّهم كذَّبوا وأعرضوا؛ فالفاء في قوله: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ﴾ للتَّفريع، وقد كشف بذلك عن زيف الادِّعاء في طلب الإيمان، فقد جاءهم كتابٌ بيِّنٌ بلُغتهم، وهم أرباب الفصاحة، وأهل البيان وأجدرُ النَّاس

من أعرض عن الحقِّ بعد الدَّليل؛ فهو من أظلمَ النَّاس عند الجليل

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/182.
(2) ابن الجَوزيِّ، زاد المسير: 2/95.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 14/187.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/202.

بمعرفة أنَّ هذا القرآن، هو كتاب اللّه، وما هو بقول بشر، ولا بقول كاهن أو ساحر، لكنَّهم أعرضوا عنه، فكانوا بذلك أظلم النَّاس وأجحدهم موقفًا.

سرُّ مجيءِ لفظة الرَّبِّ ونكتةُ الإضافة:

جاءت لفظةُ (رَبِّكُم) لتقريبِ الهداية والرُّجوع عن المُكابرة

في قوله: ﴿بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾، أضاف البيِّنة إلى ربِّهم؛ تعريفًا بكونها من أعظم البيِّنات، وجاء بلفظ (الرَّبِّ) تقريبًا للهداية إليهم، وقوله: ﴿رَّبِّكُمْ﴾، مناسبة لمقتضى حال المُخاطبين؛ إذ إنَّهم لمَّا قالوا: ﴿إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا﴾، وقالوا: ﴿لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ﴾، يريدون القول بأنَّ الكتاب لم يُنزَّل علينا؛ فقولهم هذا صادر عن نفوس تتباعد عن مصدر التَّنزيل والتَّشريع، فجاءهم الخطاب هنا مُطمئنًا لهم: أنَّ ربَّهم هو الَّذي أنزل عليهم القرآن، وهو بيِّنة من ربِّهم، والخطاب مُداراة للنُّفوس، وتطمينٌ لها، وشدُّها إلى الإيمان.

بلاغةُ الاستفهامِ الإنكاريِّ ودلالته في قوله ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ﴾:

أظلمُ النَّاسِ من جاءتهم الآيات البيِّناتُ، ثمَّ جحدوها وأنكروها

الاستفهام في قوله: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ إنكاريٌّ، أي: لا أحد أظلم من الَّذين كذَّبوا بآيات اللّه[1]، بعد ما عرفوا صحَّتها وصدقها، أو تمكَّنوا من معرفة ذلك ﴿وَصَدَفَ عَنْهَا﴾ النَّاس فضلُّوا وأضلُّوا، ﴿سَنَجْزِى ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَٰتِنَا سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾[2]، وهو من قبيل الإنكار التَّوبيخيِّ، وهو يكون على فعلٍ قد وقع، بمعنى: ما كان ينبغي أن يكون، ومنه قوله: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا﴾.

نكتةُ التَّعبيرِ بـ ﴿أَظْلَمُ﴾ مادَّةً وصيغةً:

وقد تكرَّرتْ صيغةُ أفعل التَّفضيل ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ﴾ في القرآن الكريم

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/182.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/77.

مرَّات كثيرة؛ وقد جاءت وصفًا في جميع آياتها لموصوف واحد هم المشركون؛ لأنَّهم أظلم الظَّالمين[1]، ويدلُّ اسم التَّفضيل على الزِّيادة في أصل الفعل غالبًا، وهو في الآية الكريمة كذلك، فالظُّلم هنا يشمل ظلم نفوسهم، فقد كذَّبوا الرَّسول ﷺ، وما هو بأهل للتَّكذيب، وكذَّبوا بآيات الله، وهي آياتٌ بيِّنات واضحاتٌ جليّاتٌ، وصدُّوا عن سبيله، وهو السَّبيل الوحيد الموصل إلى الهداية، فمجموع ذلك كلِّه زيادة في أصل الفعل من الكفر والتَّكذيب.

المشركون أظلمُ النَّاس؛ لأنَّهم بالغوا في ظلمِهم، وزادوا فيه

بلاغةُ استعمال الاسم الموصول في ﴿مِمَّن كَذَّبَ﴾:

وقوله ﷻ: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ﴾، و(مَن) الأولى استفهاميَّة، والثَّانية موصولة[2]، وقد جيء باسم الموصول لتدلَّ الصِّلة على تعليل الحكم، ووجه بناء الخبر؛ لأنَّ من ثبَت له مضمون تلك الصِّلة، كان حقيقًا بأنَّه لا أظلم منه[3]، فقد بالغوا في ممارستهم أنواع الظُّلم كِبْرًا وعُتُوًّا، وبين (مَن) الأولى و(مَن) الثَّانية: جناسٌ تامٌّ، فتوافق معنى الظُّلم التَّامِّ مع الجناس التَّامِّ.

الكِبْرُ هو سبب العتوِّ والصَّدِّ عن سبيل الله

المبالغةُ في الذَّمِّ من خلال قوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ﴾:

في قوله: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ﴾ مبالغة في الذَّمِّ، حيث كذّب الظالم بآيات الله، وجعل غيره يعرض عنها، ويكذّب بها[4]، فكان الجزاء من جنس العمل، فكما أنَّهم بالغوا في ظلمهم، فقد جاء الجزاء بالمبالغة في ذمِّهم؛ إذ إنَّهم لم يكتفوا بالإعراض، وإنَّما حثُّوا النَّاس على ذلك، ومنعوا النَّاس من الهداية.

جاء وصفُهم بالمبالغة في بالظّلم لمبالغتهم في التّكذيب

سرُّ التَّضعيفِ في لفظ ﴿كَذَّبَ﴾:

الجمهورُ على تشديد الذَّال في ﴿كَذَّبَ﴾، وقرئ: بتخفيفها على

(1) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 1/356.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/182.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/182.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/697.

تضمين كَذَبَ معنى: كَفَرَ؛ لأنَّ معنى: كَذَبَ بالشَّيء، وكفر به سواء، ويحملنا على هذا التَّضمين إتيان الباء في ﴿بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾، وقوله: ﴿وَصَدَفَ عَنۡهَاۗ﴾، أي: وأعرض عنها، والمعنى: لا أحد أظلم ممَّن كذَّب بآيات الله، بعدما عرف صحَّتها وصدقها، أو تمكَّن من معرفة ذلك، وأعرض عنها من غير استدلال ولا تفكُّر[1].

التَّكذيبُ بآياتِ اللهِ؛ هو اتِّباعُ سُبُلِ غيرِ سبيلِ الله

معنى الباءِ في قوله تعالى: ﴿بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾:

عمومُ معنى الباء هو: الإلصاق؛ وفائدتها: معرفة أنَّ تكذيب المُكذِّبين بآيات الله، كان بعد تماسٍّ مباشر مع تلك الآيات، ومعرفة حقائقها، وألَّا شكَّ فيها ولا مراء، فقد علموا من خلال ما أوتوا من البيان والفصاحة: أنَّه كتاب الله، وأنَّ تلك الآيات ليست من عند بشر.

المكذِّبونَ عايشوا الآياتِ الَّتي من عندِ اللهِ، ثمَّ أنكروها

نُكْتَةُ إضافةِ الآيات إلى لفظ الجلالة:

فائدةُ إضافةِ الآيات إلى الله تعالى في قوله تعالى: ﴿مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ هو بيانُ عظيم شأنها، وأنَّها الآيات الَّتي لا يمكن أن تُنكَر، ولا يمكن أن تُعارَض، فلن يستطيع مخلوق أن يأتي بما يعارض آيات الله الخالق لكلِّ شيء، فيكون أيضًا في الآية تيئيس من إيمان هؤلاء المكذِّبين لآيات الله؛ أي: أنَّهم لن يؤمنوا لانصرافهم عن تلك الآيات، والصَّدِّ عنها، مع علمهم أنَّها آيات الله.

آياتُ اللهِ هي سبيلُ اللهِ الَّذي يحقِّق الاستقامةَ لمتَّبعيه

الالتفاتُ في قوله: ﴿فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾:

قوله: ﴿فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ المراد من الموصول في قوله ﴿مِمَّن كَذَّبَ﴾ أولئك المخاطبون، ووضع موضع ضميرهم بطريق الالتفات، حيث التفت من الخطاب إلى الغيبة تنصيصًا على اتِّصافهم بما في حيِّز الصِّلة، وإشعارًا بعلَّة الحكم، وإسقاطًا لهم عن رتبة الخطاب، وعبَّر عمَّا جاءهم بآيات الله تعالى تهويلًا

إسقاطُ المشركين عن رتبةِ الخطابِ لما اقترفوه مِنَ الظُّلمِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/182.

للأمر[1]، وتنبيهًا على أنَّ تكذيبَ أيّ آيةٍ كانت من آياتِ الله تعالى كافٍ في الأظلميَّة، فما ظنُّك بتكذيب القرآن المنطوي على الكلِّ، والمعنى: إنكارُ أن يكون أحدٌ أظلم ممَّن فعل ذلك، أو مساويًا له[2].

بلاغةُ العدول من الإفراد إلى الجمع في ﴿ٱلَّذِينَ﴾:

يتكاثرُ المُعرضون عنِ الإيمانِ في الأزمنة والأمكنة، ثُمَّ تجمعُهم عقوبةٌ واحدةٌ

لمَّا ذكر ظلم النَّفس في تكذيب آيات الله ذكرها بالإفراد مُخاطبًا النَّفس ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ﴾، وكأنَّه خطابٌ موجَّهٌ إلى نفس كلِّ واحدٍ من أولئك الَّذين كذَّبوا بآيات الله، اهتمامًا بكلِّ نفسٍ، وطلبًا للرُّجوع عن هذا الظُّلم، فلمَّا انتقل إلى مشهد الجزاء؛ جمع أولئك الَّذين كانوا يُكذِّبون، وجعلهم في مشهد واحد، وجزاءٍ واحدٍ، وعقوبة واحدة، فهم مشتركون جميعًا في جريمة واحدة، وستكون عقوبتهم كذلك واحدة.

فعليَّة جملة ﴿يَصْدِفُونَ﴾ ودلالةُ الالتفاتِ:

الظّلم والأفعال المنكرة سببٌ في تجدّد الإصرار على المَعصيَةِ

جاءت جملة صلة الموصول فعلًا مضارعًا؛ لتدلَّ على إصرار المشركين، وتجدُّد ذلك الإصرار والإعراض والتَّكذيب، وصدِّهم عن سبيل الله، فالتفت من الماضي (صدف) إلى المُضارع يصدفون، وكذلك عدل عن المفرد إلى الجمع، للدلالة على الجزاء الواحد، والعقوبة الثَّابتة لكلِّ فرد من أفراد الَّذين يصدفون عن آيات الله تعالى.

بلاغةُ الإضمارِ بعد الإظهارِ ﴿ءَايَٰتِنَا﴾:

تعظيمُ شأنِ الآياتِ في القرآنِ تهذيبٌ للنُّفوس، وتربيَةٌ لها

بعد أن ذكر لفظ الجلالة في قوله: ﴿بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾، أضمر في قوله: ﴿ءَايَٰتِنَا﴾ إيجازًا، فالتفت من ذكر لفظ الجلالة ﴿ٱللَّهِ﴾ إلى صيغة المُتكلِّمين، فجاء بضمير الجمع تعظيمًا لتلك الآيات، وما في ذلك من تهذيب نفوس المؤمنين على تعظيم القرآن الكريم والرِّسالة

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/202، والآلوسّي، روح المعاني: 4/304.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/202.

النَّبويَّة، ثمَّ إنَّ دلالة هذا الحضور ﴿ءَايَٰتِنَا﴾ في سياق قوله: ﴿سَنَجۡزِي ٱلَّذِينَ يَصۡدِفُونَ عَنۡ ءَايَٰتِنَا﴾، غاية الوعيد بأشدِّ العذاب، فناسب ذلك قوله: ﴿سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ﴾.

نكتةُ إضافةِ الصِّفةِ إلى الموصوفِ في قوله ﴿سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ﴾:

السُّوءُ والعذابُ معنيان مُتراكِبان، وذلك أسوأُ وعيدٍ للمُكذِّبين

في المركّب الإضافي ﴿سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ﴾، جاء لفظ ﴿سُوٓءَ﴾ مضافًا إلى الموصوف ﴿ٱلۡعَذَابِ﴾؛ لأنَّ الصِّفة تضمَّنت معنًى ليس في الموصوف، فصحَّت الإضافة للمغايرة[1]، فتكون النُّكتة البلاغيَّة في الإضافة تراكب معنيين: هما السُّوء والعذاب معًا، والمعنى المُستحصَل من تلك الإضافة: أنَّ العذاب الَّذي سيلاقونه، هو أسوأ ما يلاقيه ظالم على ظلمه يوم القيامة.

دلالةُ (ال) في لفظ ﴿ٱلۡعَذَابِ﴾:

(الـ) في لفظ العذاب في قوله: ﴿سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ﴾ للتَّعظيم ولاستغراق كلِّ أصناف العذاب، فأفعالهم هي أفعال أظلم النَّاس في هذه الحياة، وهو تكذيبهم بآيات الله والصَّدُّ عنها.

(الـعـذاب) في الآيـةِ أريـدَ به جنسُ العذابِ الشَّاملِ لأصنافه

الذِّكرُ في موضع الإضمار توكيدًا:

كرَّر قوله: ﴿بِمَا كَانُواْ يَصۡدِفُونَ﴾ وهو موضع إضمارٍ؛ لأنَّه سبق أن ذكر العبارة نفسها، فقال: ﴿سَنَجۡزِي ٱلَّذِينَ يَصۡدِفُونَ عَنۡ ءَايَٰتِنَا سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ﴾، ففُهِمَ من الآية أنَّهُم سيُجزون بما كانوا يصدفون، لكنَّه ذكرها توكيدًا؛ إذ يُفهم من هذا التَّكرار أنَّ هذا العذاب واقع بهم لا محالة.

تكرارُ العبارةِ يُفهِمُ أنَّ الأمر لا مردَّ له، وأنَّه آتٍ لا محالةَ

معنى الباءِ في قوله تعالى: ﴿بِمَا كَانُواْ يَصۡدِفُونَ﴾:

جزاءُ المشركين من جنسِ عملهم، وبسببِ ما اختاروا لأنفسهم

في قوله تعالى: ﴿بِمَا كَانُواْ يَصۡدِفُونَ﴾، الباء للسَّببيَّة، أي: بسبب ما كانوا يصدفون، فلا يُجزون إلَّا بما سوَّلت لهم أنفسهم، واقترفت أيديهم، وأنَّه سبحانه، مهما أذاقهم من سوء العذاب، فإنَّ ذلك

(1) ابن قيّم الجوزيّة، بدائع الفوائد: 1/27.

من استحقاقهم، فقد جاءهم النَّذير من قبل، والخطاب الإلهيُّ والتَّحذير النَّبويُّ، فلمَّا أعرضوا؛ أصابهم العذاب.

دلالةُ (ما) في قوله تعالى: ﴿بِمَا كَانُواْ يَصۡدِفُونَ﴾:

(ما) اسم موصول بمعنى: (الذي) وهو لغير العاقل، أي: بالذي كانوا يصدفون وهو الإعراض والصَّدُّ عن سبيل الله، فيكون جزاؤهم بمثل أعمالهم المقصودة في الآية، وهي الصُّدوف عن الحقِّ، والإعراض عن صراط الله المستقيم، إذ سلكوا سُبُل الباطل، فتفرَّقت بهم عن سبيل الله.

أعرضُوا لسلوكِهم سُبُلَ الباطلِ وتركِهم صراطَ اللهِ المستقيمَ

دلالةُ (كان) في قوله تعالى: ﴿بِمَا كَانُواْ يَصۡدِفُونَ﴾:

الفعل الماضي النَّاقص (كان) في قوله تعالى ﴿بِمَا كَانُواْ يَصۡدِفُونَ﴾ دالٌّ على قدم ما هم فيه من حالة التَّكذيب، و(كان) تفيد هنا الاتِّصاف بالحدث في الزَّمن الماضي على وجه الثُّبوت، فقد ثبت عليهم إعراضُهم وإصرارهم وإنكارهم، فاستحقُّوا الجزاء الموصوف بسوء العذاب.

ثَبَتَ عليهم الإعراضُ والإصرارُ، فاستحقُّوا سوءَ العذاب في النَّار

نكتةُ حذفِ مُتَعَلِّقِ ﴿يَصۡدِفُونَ﴾:

﴿يَصۡدِفُونَ﴾ فعل مضارع متجدِّد مع الزَّمن؛ لأنَّهم مستمرُّون في تكذيبهم لآيات الله، وقد حُذف مُتَعَلِّقُ ﴿يَصۡدِفُونَ﴾ للإيجاز، ولعدم التَّكرار، فقد سبق أن ذكر المعنى بقوله: ﴿سَنَجۡزِي ٱلَّذِينَ يَصۡدِفُونَ عَنۡ ءَايَٰتِنَا﴾، فاكتفى في الثَّانية إيجازًا، بعدم ذكر متعلِّق الفعل.

محورُ الكتابِ والآياتِ: الإيمانُ والتَّكذيبُ بالرِّسالاتِ

الالتفاتُ منَ الغيبةِ إلى التَّكلُّم: ﴿بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ ﴿سَنَجۡزِي﴾:

الالتفات من ذكر لفظ الجلالة ﴿ٱللَّهِ﴾ إلى ضمير الجمع ﴿سَنَجۡزِي﴾، فائدته مواجهة المشركين المكذّبين بتكذيبهم لينزجروا ويتوبوا إلى الله تعالى ويعودوا إلى رشدهم، وتبصيرهم بأنّهم يتجاسرون على تكذيب آياتنا والإعراض عنها، وسنجزيهم على ذلك كلّه.

يكون الجزاءُ بإحضار المشركين يومَ القيامة لينالوا ما يستحقُّون

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(الإعراض) و(الصَّدّ) و(الصُّدوف):

الإعراضُ: الإدبارُ، والصَّدُّ: الانصرافُ، أمّا الصُّدوفُ؛ فأشدُّ الصَّدِّ والإعراضِ

الإعراضُ عن الشَّيء، بمعنى: الإدبار عنه، فإن قيل: أَعْرَضَ عنِّي، فمعناهُ: ولَّى مُبْدِيًا عَرْضَهُ، قال: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ﴾ [السّجدة: 22]، وقال: ﴿وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ ۝٣٢﴾ [الأنبياء: 32][1]، وَيُقَالُ: أَعرَض فُلَانٌ، أَي: ذهَب عرْضًا وَطُولًا[2]، وأمَّا الصَّدُّ والصُّدود فقد يكون انصرافًا عن الشَّيء وامتناعًا، نحو: ﴿يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ۝٦١﴾ [النّساء: 61]، وقد يكون صرفًا ومنعًا، قال تعالى: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾[3]، وأمَّا الصَّدْف والصُّدوفُ فمن الفعل "صدف عنه، أي: أعرض إعراضًا شديدًا، يجري مجرى الصَّلابة، كصدف الجبل، أي: جانبه، أو الصَّدف الَّذي يخرج من البحر"[4].

ممَّا سبق: يَتبيَّن أنَّ الصَّدْف والصُّدوف هو أشدُّ الصَّدِّ والإعراض، ولذلك قال تعالى: ﴿سَنَجْزِى ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَٰتِنَا سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾؛ إذ لا يستحقُّ سوء العذاب إلَّا من اتَّصف بصفة الصَّدْف عن الآيات بإعراضه الشَّديد المُتَّصل أمام الحقِّ.

(الآية) و(البيِّنة):

الآيةُ: المُعجِزةُ الدَّالَّةُ على صِدقِ المُرسَلِ، والبيِّنةُ: الدَّليلُ مع وضوحٍ

الآية: هي المعجزة، وهي ما يدلُّ على تصديق اللّه تعالى للمدَّعي، في دعواه الرِّسالة[5]، والبيِّنة: الحُجَّة والبيان: والبَيِّنُ من الرِّجال: الفَصيحُ، وجاء ببيان ذلك وبَيِّنته، أي: بحجَّته، ورجل بيِّنٌ: فصيح ذو بيان[6]. قال سبحانه: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ [هود: 17]،

(1) الأصفهاني، مفردات ألفاظ القرآن: (عرض).
(2) الجوهريّ، الصّحاح، وابن منظور، لسان العرب: (عرض).
(3) الرّاغب، المفردات: (صدد).
(4) الرّاغب، المفردات: (صدد).
(5) فضل عبّاس، إعجاز القرآن الكريم، ص: 20.
(6) الخليل، العين: (بين).

وقال: ﴿لِّيَهۡلِكَ مَنۡ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٖ وَيَحۡيَىٰ مَنۡ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٖۗ﴾ [الأنفال: 42]، وقال: ﴿وَجَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِۖ﴾ [الرّوم: 9]. ويقال: آية مُبَيَّنَة؛ اعتبارًا بمن بيَّنها، وآية مُبَيِّنَة؛ اعتبارًا بنفسها، وآيات مبيَّنات ومبيِّنات[1]، فتأتي عادة الآية موصوفة بالبيان، أي: بالوضوح، فقوله: ﴿وَلَقَد تَّرَكۡنَا مِنۡهَآ ءَايَةَۢ بَيِّنَةٗ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ٣٥﴾ [العنكبوت: 29]. فاختار البيِّنة في الآية الكريمة؛ لأنَّها تشمل البيان والوضوح والدَّليل والمُعجزة، وذلك كناية عن القرآن الكريم.

(1) الرّاغب، المفردات: (بين).

﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَوۡ يَأۡتِيَ رَبُّكَ أَوۡ يَأۡتِيَ بَعۡضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَۗ يَوۡمَ يَأۡتِي بَعۡضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفۡسًا إِيمَٰنُهَا لَمۡ تَكُنۡ ءَامَنَتۡ مِن قَبۡلُ أَوۡ كَسَبَتۡ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيۡرٗاۗ قُلِ ٱنتَظِرُوٓاْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ١٥٨﴾ [الأنعام: 158]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

مَنْ كفرَ باللهِ، ولم يؤمنْ بالبعثِ، لا ينفعُه الإيمانُ بعد فواتِ الأوانِ

بعد أنْ ذكرتِ الآياتُ السَّابقةُ إقامةَ الحجَّةِ على الظَّالمين، بإنزالِ القرآنِ، وأنَّ في ذلك دفعًا لتعلُّلِهم بعدمِ إنزالِ كتابٍ عليهم، كما أُنزِل على السَّابقين، وأنَّهم بعدَ نزولِ القرآنِ هدًى ورحمةً كذَّبوا به، بل صَدَفُوا عن آياتِه؛ جاءَ الإنذارُ الشَّديدُ لهُم بتوجيه سُؤالٍ غرضُه: بيانُ حالِهم الَّذي هم عليه، من عدمِ الاكتراثِ بالذِّكرِ، وعدمِ إيمانِهم بالبعثِ، وإشعارٌ بأنَّ الكفرَ إن طغى على قلبِ صاحبِه، فإنَّ اليأسَ من إيمانِه هو الأظهرُ، وتوطئةٌ لبيانِ حالِ المفرِّقين دينَهم بسبب أهوائهم واتِّباعِ شهواتهم.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَنظُرُونَ﴾: فعلٌ مضارعٌ دالٌّ على الحالِ والاستقبالِ، والنَّظرُ على قسمين: بصريٍّ وقلبيٍّ، والأصل فيه: "تأمُّل الشَّيء ومعاينتُه، ثمَّ يُستعار، ويُتَّسع فيه"[1]، و"النَّظر: تقليبُ البصر والبصيرة، لإدراكِ الشَّيء ورؤيته، وقد يرادُ به التأمُّل والفَحْصُ، وقد يُراد به المعرفةُ الحاصلةُ بعد الفحص، وهو الرويَّة، يقال: نظرتَ فلم تنظر، أي: لم تتأمَّل، ولم تتروَّ"[2]، ومعنى الفعلِ ﴿يَنظُرُونَ﴾، أي: ينتظر هؤلاء المخاطَبون مجيءَ الملائكةِ للعذابِ، أو لقبض الأرواح.

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نظر).
(2) الرّاغب، المفردات: (نظر).

2) ﴿كَسَبَتۡ﴾: "يقال: كَسَبتُ الشَّيءَ أكسِبهُ كَسْبًا، واكتسبتُه اكتسابًا، ويقال: كَسَبْتُ الرَّجلَ مالًا، فكَسَبه"[1]، وهو يدلُّ "عَلَى ابْتِغَاءٍ وَطَلَبٍ وَإِصَابَةٍ"[2]، ومعناه: طلبُ الرِّزقِ عمومًا[3]، ومن معانيه: "ما يتحرَّاه الإنسان ممَّا فيه اجتلابُ نفعٍ، وتحصيل حظٍّ، كَكَسْبِ المال. وقد يُستعمل فيما يَظنُّ الإنسان أنَّه يَجْلِبُ منفعةً، ثمَّ استُجلِبَ به مضرَّةٌ"[4]، والمقصودُ به في الآيةِ ما يَكْسِبُه الإنسانُ من الإيمانِ، وعمل الصَّالحات.

3) ﴿ٱنتَظِرُوٓاْ﴾: فعلٌ طلبيٌّ دالٌّ على الأمر، جذره: (نَظَرَ)، والنَّظرُ يأتي معناه مساويًا للانتظارِ، فنظرْتُ فلانًا، وانتظرْتُهُ بمعنًى واحد[5]، وجعل النَّظر بمعنى الانتظار، "كأنَّه ينظر إلى الوقت الَّذي يأتي فيه"[6]، فالانتظار: التَّربُّص، ومعنى ﴿ٱنتَظِرُوٓاْ﴾، "أي: انتظروا ما تتربَّصون به من ظهوركم علينا على زعمكم، إنَّا منتظرون ما وعدنا ربُّكم من نصره"[7]، فهو بمنزلة التَّهديد والوعيد على الانتظار والإمهال، أو على التَّريُّث والتَّأخُّر في دخولهم الإسلام، حتَّى يأتيهم العذاب[8].

المَعْنى الإجْماليُّ:

ابتدأتِ الآيةُ بسؤالٍ إنكاريٍّ، مشوبٍ بوعيدٍ وتهكُّمٍ، مترتِّبٍ على تكذيبِهم وصدِّهم عن آياتِ اللهِ، وإعراضهم عنها، فماذا ينتظرون؟ هل ينتظرون أن تأتيَهم الملائكةُ بالعذابِ أو بالموتِ، فَتَقْبِضَ أرواحَهم،

ماذا ينتظرُ المكذِّبُ والمعرِضُ غيرَ ملائكةِ العذابِ أو الموتِ

(1) ابن دريد الأزديُّ: (كسب).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (كسب).
(3) الجوهريّ، الصّحاح: (كسب).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (كسب).
(5) الخليل، العين، وابن دريد، جمهرة اللّغة: (نظر).
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نظر).
(7) السّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (نظر).
(8) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/191.

أو أنْ يأتيَهم "بعضُ آيات اللّه قبل قيام السَّاعة، وهي الآياتُ الموجبةُ للإيمان الاضطراريِّ، حين يرون شيئًا من أشراط السَّاعة"[1]، أو أنْ يأتيَهم ربُّك للفَصْلِ بين خلقِه في موقفِ القيامةِ، فلا ينفعُ نفسًا لم تكن آمنتْ من قبلُ، أو كَسَبَتْ في إيمانِها خيرًا، ثمَّ عقَّبه بأمرِهم بأن ينتظروا، ليروا لمن تكون لهُ العاقبةُ.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ الاستئنافِ البيانيِّ في الآية الكريمة:

للمُعْرِضِ عن آياتِ اللهِ التَّهديدُ والوعيدُ، وللمكذِّبِ التَّهكُّم والاستهزاءُ

تقع هذه الآية موقعًا بلاغيًّا، فهي استئنافٌ بيانيٌّ، إمَّا أن يكونَ ناشئًا عن قولِهِ تعالى: ﴿سَنَجْزِى ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَٰتِنَا سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْدِفُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [الأنعام: 157]، فمعناه: التَّهديد والوعيد، فكأنَّ سائلًا يسأل عن موعدِ جزائِهم، فكانَ الجوابُ: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾.

وإمَّا أن يكونَ ناشئًا عن قولِهِ تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا﴾ [الأنعام: 157]، فمعناه: التَّهكُّمُ والاستهزاء؛ لِأَنَّهُ يُثِيرُ سُؤَالَ سَائِلٍ: (مَاذَا كَانُوا يَتَرَقَّبُونَ مِنَ الْآيَاتِ فَوْقَ الْآيَاتِ الَّتِي جَاءَتْهُمْ)؟ فكانَ الجوابُ: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾[2]، وهل كان تطلُّعهم إلى آيات أعظم ممَّا في وهمهم؟

والصَّحيحُ أنَّ بلاغةَ الاستئنافِ البيانيِّ، تقضي بأن يكونَ المعنيان مُرادَيْن، فالتَّهديد والوعيدُ متناسبٌ مع سيَاقِ الكلامِ، وكذلك التَّهكُّم بحال من جاءَتْه الآياتُ، ولا ينتظرُ إلَّا وقوعَ العذابِ، وهذا من بديعِ التَّنوُّع في الاستئنافِ البيانيِّ.

غرضُ الاستفهامِ ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾:

خرجَ الاستفهامُ في قولِهِ تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ

(1) أسعد حومد، أيسر التّفاسير، ص: 948.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/183.

ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾، إلى معنى النَّفي[1]؛ ليُؤذِنَ بالتَّبكيتِ[2] والتَّوبيخِ والتَّقريعِ والتَّهديدِ، جزاءً وفاقًا؛ فإنَّهم لن ينظروا إلَّا ما سيأتيهم جزاءَ تكذيبِهم وإعراضِهم وتماديهم، واستحكامِ الغفلَةِ على عقولِهم.

دلالةُ الاستفهامِ على التَّبكيتِ والتَّهديدِ

نكتةُ العدولِ عن حرفِ النَّفي إلى حرفِ الاستفهامِ ﴿هَلۡ﴾:

قولُه تعالى: ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾، التَّعبيرُ بحرفِ الاستفهامِ ﴿هَلۡ﴾ الَّتي تخرجُ للنَّفي معَ الاستثناءِ، يحقِّقُ القَصْرَ، ويفيدُ الاستفهامَ الإنكاريَّ[3]، وهوَ أبلغُ منْ طريقةِ النَّفي المحضِ معَ الاستثناءِ؛ لِما في الاستفهامِ منْ ملمحِ التَّوبيخِ والإنكارِ.

خروجُ (هل) للنَّفي مع الاستثناءِ تلميحٌ للتَّوبيخِ والإنكارِ

توجيهُ القراءاتِ القرآنيَّةِ في قولِهِ: ﴿تَأۡتِيَهُمُ﴾:

اختلف القُرَّاءُ في قراءةِ ﴿تَأۡتِيَهُمُ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾؛ فقرَأَ حمزةُ والكِسائيُّ وخَلَفٌ بالياءِ ﴿يَأۡتِيَهُمُ﴾ تذكيرًا، وقرأ الباقون بالتَّاء[4] تأنيثًا، ومن حيثُ جوازُ القراءةِ لغةً، فكلاهما جائزٌ، فالملائكةُ جمعُ تكسيرٍ، ويجوزُ في فعلِه التَّذكيرُ والتَّأنيث[5]، لكن على قراءةِ التَّاء فهي على تقديرِ جماعة الملائكة، وعلى قراءةِ الياءِ فهي على تقدير جمعِ الملائكة[6].

سرُّ قراءةِ التَّذكيرِ باعتبارِ الجمعِ، والتَّأنيثِ باعتبارِ الجماعةِ

نكتةُ أسلوبِ القَصْرِ:

لَمَّا خرَجَ الاستفهامُ في قولِهِ تعالى: ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾ عن معناه الحقيقيِّ إلى النَّفي؛ عومِل معاملةَ النَّفي في لازمِ المعنى والنَّظم، ففيهِ تحقيقٌ للقصرِ بالنَّفي والاستثناء، ونكتتُه: الكشفُ عن حقيقةِ حالِ المُشركين، وأنَّهم لم يكونوا ينتظرون شيئًا

بيانُ ضَعفِ عقولِ المشركين في تصوُّرِهم لعذابِ الله

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 14/8، والشّيخ زاده، حاشية الشّيخ زاده: 4/178.
(2) التَّبكيت: استقبالُك المرءَ بما يكرَه من ذمٍّ وتقريعٍ وتوبيخٍ. يُنظر: الزّمخشريّ، الفائق في غريب الحديث: 1/125.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/184.
(4) ابن مهران، المبسوط في القراءات العشر: 205، وابن الجزريّ، النّشر في القراءات العشر: 2/266.
(5) ابن خالويه، إعراب القراءات السّبع، ص: 109، ومحيسن، الهادي شرح طيبة النّشر: 2/225.
(6) ابن زنجلة، حجّة القراءات، ص: 277.

بعد آياتِ اللهِ إلَّا الآياتِ الَّتي سألوها، وعلَّقوا إيمانَهم بأن يُجاء لهم بِها[1].

القَصْرُ بحسبِ الحقيقةِ والمجازِ في الآيةِ الكريمة:

من بديع بيانِ القرآنِ ائتلافُ الحقيقةِ والمجازِ في تجليَةِ المعنى

والقصْرُ في قولِه تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾، يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ حقيقيًّا؛ لأنَّ عامَّتهم ينتظرونَ مجيءَ الآياتِ انتظارًا حقيقيًّا، ويحملونه على محمل الجدِّ. ويَحتملُ أن يكونَ مجازيًّا، غرضُه الاستهزاءُ والتهكُّمُ من قادتِهم ورؤوسِ الضَّلالةِ فيهم[2]، والمعنيانِ مُرادان على اعتبارِ أنَّ الانتظارَ الحقيقيَّ، يدلُّ على غفلتهم الَّتي تدعو إلى التَّهكُّمِ بِهم.

نكتةُ العُدُولِ عن (ينتظرون) إلى ﴿يَنظُرُونَ﴾:

غرضُ تصويرِ مشهدِ الانتظارِ وتجسيدِ الحالةِ النَّفسيَّةِ للمنتظرِ

عَدلَ النَّظمُ عنِ التَّعبيرِ بالفعلِ (ينتظرون) إلى الفعلِ ﴿يَنظُرُونَ﴾، ونكتةُ ذلك تنزيلُ الانتظارِ منزلةَ النَّظرِ، وما سيأتيهم من العذابِ منزلةَ الرُّؤيةِ العينيَّةِ، وهو أشدُّ وقعًا من الانتظار؛ لأنَّ فيه تجسيدًا وتصويرًا لما ينتظرُه أولئك من مجيءِ العذابِ، وعبَّرَ بالمضارعِ لبيانِ حالِهم الَّتي هم عليها من النَّظرِ المُحاطِ بالانتظارِ، وفي ذلك استمرارٌ لعذابِهم النَّفسيِّ وتجدُّدِه، حتَّى مجيءِ ما ينتظرون وقوعَه من موتٍ أو عذابٍ.

سرُّ التَّعبيرِ بالمضَارِعِ بدلًا من الاسمِ:

توقُّعُ إتيانِ العذابِ في كلِّ حينٍ عذابٌ متجدِّدٌ

عبَّرَ النَّظمُ بصيغةِ الفعل المضارعِ لفعل الإتيانِ في قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ﴾، ولم يُعبِّر بالاسم، فلم يقل: (إتيانُ الملائكة أو إتيانُ اللهِ...)، وذلك لبيانِ أنَّ الرَّغبةَ بالإتيانِ حدثٌ متجدِّدٌ، ورغبة مستَمِرَّةٌ لديهم، كي يبقى ترقُّبُهم وانتظارُهم الموتَ أو العذابَ قائمًا ومستمرًّا على الدَّوام، وفي ذلك زيادةٌ في العذابِ.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/184.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/184.

أثرُ إسنادِ فعلِ الإتيان إلى لفظِ (الرَّبِّ):

ترهيبُ المشركين من أماراتِ رحمةِ اللهِ بعبادِهِ

أُسنِدَ الإتيانُ إلى اللهِ ﷻ في قَولِهِ تعالى: ﴿أَوۡ يَأۡتِيَ رَبُّكَ﴾؛ وذلك تهويلٌ للموقفِ في نفوسِ المخاطَبين، وترهيبٌ من ذلك اليومِ المشهودِ؛ فإنَّ في الجملة الإسناديَّةِ تخويفًا من إتيانِ الرَّبِّ لعذابِهم، والتَّعبير بلفظ الرَّبِّ يوحي بالاستيلاء، وينبئ عن أنَّه مالك كلِّ شيء[1].

فائدةُ إضافةِ ضميرِ النُّبوَّةِ إلى اسم الرّبوبيّة:

تأييدٌ وتثبيتٌ للنَّبيِّ ﷺ في مواجهةِ أهلِ الباطلِ

أُضيفَ لفظُ الرَّبِّ إلى ضميرِه ﷺ (ربُّك)، في ثلاثة مواضعَ في قولِه تعالى: ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَوۡ يَأۡتِيَ رَبُّكَ أَوۡ يَأۡتِيَ بَعۡضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَۗ يَوۡمَ يَأۡتِي بَعۡضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ﴾؛ تأييدًا للرَّسولِ ﷺ، وتثبيتًا له أمام خصومه المُشركين؛ إذ كانوا يُفاخِرون بأربابِهم وآلهتِهم؛ فهو أولى أن يعتزَّ بربِّه، ويتثبَّت به[2].

غرضُ إبهامِ علاماتِ القيامةِ:

سرُّ تحريكِ ذهنِ المخاطَبِ بقصدِ التَّرهيبِ والتَّخويفِ

المرادُ من الآيات في قولِه تعالى: ﴿أَوۡ يَأۡتِيَ بَعۡضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَۗ﴾، علاماتُ القيامةِ، ولو وقفتَ على ظاهرِ اللَّفظ؛ لألفيت تعميةً وإبهامًا للمرادِ، وهو أشراطُ السَّاعةِ من غير تعيينٍ لها، ودون أن يُعيِّنَ من ذلك شرطًا، وغرضُ ذلك تركُ السَّامع يتخيَّلُها، فيذهبُ في ذلك التَّخيُّلِ كلَّ مذهبٍ[3]، بقصدِ التَّرهيبِ النَّافعِ والتَّخويفِ الرَّادعِ.

سرُّ تقديمِ بعضِ الجملِ على بعضٍ في الآيةِ الكريمة:

ترتيبُ الجملِ مِنَ الأدنى إلى الأعلى زيادةٌ في التَّهديدِ

قولُه تعالى: ﴿تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَوۡ يَأۡتِيَ رَبُّكَ أَوۡ يَأۡتِيَ بَعۡضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَۗ﴾، هنا ثلاثُ جُمَلٍ، قدَّم فيها إتيانَ الملائكةِ، ثمَّ وسَّطَ إتيانَ الرَّبِّ، ثمَّ أخَّرَ إتيانَ بعضِ آياتِه، وسرُّ هذا التَّقديمِ والتَّوسيطِ والتَّأخيرِ، أنَّه من باب التَّرتيبِ التَّصاعديِّ من الأدنى إلى الأعلى في

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/309.
(2) الطّباطبائيّ، الميزان في تفسير القرآن: 8/401.
(3) ابن عطيّة، المحرَّر الوجيز: 2/366، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/699.

تخويفهم تعزيزًا للوعيدِ، فإنَّ التَّحوُّلَ من الأدنى إلى الأعلى، يفيدُ التَّفخيمَ والتَّهويل.

بلاغةُ الاستئنافِ البيانيِّ في جملة ﴿يَوْمَ يَأْتِي﴾:

التَّأخُّرُ عَنِ الإيمانِ وخيمُ العقبى، سيِّئُ المآل

جاءَ قولُه تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ﴾ آخذًا موقعًا بيانيًّا، فكأنَّ سائلًا سأل: فماذا سيكونُ يومَ يأتي بعضُ آياتِ ربِّكَ؟ فالجواب: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا﴾، وهذا تَذْكِيرٌ لَهُمْ بِأَنَّ الانْتِظَارَ وَالتَّرَيُّثَ عَنِ الْإِيمَانِ وَخِيمُ الْعَاقِبَةِ، آيلٌ صاحبه إلى سوء المآل؛ لِأَنَّهُ مُهَدَّدٌ بِمَا يَمْنَعُ مِنَ التَّدَارُكِ عِنْدَ النَّدَامَةِ، فَإِمَّا أَنْ يَعْقُبَهُ الْمَوْتُ وَالْحِسَابُ، وَإِمَّا أَنْ يَعْقُبَهُ مَجِيءُ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ اللهِ - وَهِيَ آيَةُ عَذَابٍ خَارِقٍ لِلْعَادَةِ، يَخْتَصُّ بِهِمْ - فَيَعْلَمُوا أَنَّهُ عُقُوبَةٌ عَلَى تَكْذِيبِهِمْ وَصَدِّفِهِمْ، وَحِينَ يَنْزِلُ ذَلِكَ الْعَذَابُ لَا تَبْقَى فُسْحَةٌ لِتَدَارُكِ مَا فَاتَ؛ لِأَنَّ اللهَ إِذَا أَنْزَلَ عَذَابَهُ عَلَى الْمُكَذِّبِينَ، لَمْ يَنْفَعْ عِنْدَهُ استدراكٌ ولا معاذير[1].

بلاغةُ أسلوبِ اللَّفِّ:

بعدَ ظهورِ الآياتِ للبشرِ، لا ينفعُ عذرُ من تابَ واعتذرَ

في جملة ﴿أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ﴾ "اشتملَ هذا الكلامُ على النَّوعِ المعروفِ من علم البيان والبلاغةِ باللَّفِّ، وأصلُ الكلام: (يوم يأتي بعض آيات ربِّك، لا ينفع نفسًا لم تكن مؤمنةً قبلُ، إيمانُها بعدُ، ولا نفسًا لم تكسب في إيمانها خيرًا قبل، ما تكسبه من الخيرِ بعدُ)، إلَّا أنَّه لفَّ الكلامين، فجعلهما كلامًا واحدًا بلاغةً واختصارًا وإعجازًا، ومبدأ أهل السُّنَّةِ: لا ينفع بعد ظهورِ الآياتِ اكتسابُ الخير، وإن نفع الإيمانُ المتقدِّم في السَّلامة من الخلود في النَّار"[2]، "ولم يعقِّب عليه بالنَّشرِ؛ لأنَّ المآل واحدٌ، وهو معروفٌ لكليهما"[3].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/186.
(2) وهبة الزّحيلّي، التّفسير المنير: 8/112، ونقلا عن أحمد الإسكندريّ من حاشيّته على الكشّاف: 1/537.
(3) محيي الدّين درويش، إعراب القرآن وبيانه: 3/284.

نكتةُ إظهارِ ﴿بَعۡضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَۗ﴾ وتكرارِها في موضعِ إضمارِها:

أهمِّيَّةُ الزِّيادة في البيانِ، وتدعيمُ المعنى وتأمينُهُ

قولُه تعالى: ﴿يَوۡمَ يَأۡتِي بَعۡضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ﴾، الجملةُ هنا من بابِ وضعِ الظَّاهرِ موضعَ المضمَرِ، فإنَّ التَّقديرَ يومَ يأتي بعضُها؛ لذكرِها على وجهِ الظَّاهرِ قبلَه بقولِه: ﴿أَوۡ يَأۡتِيَ بَعۡضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَۗ﴾، فإنَّه مِن وضْعِ الظَّاهرِ موْضعَ المُضْمَر، وهو من الظَّواهر المُهمَّة في لسانِ العرب، وذلك بأن يَرِد الظَّاهر، ثمَّ يُكرِّره، والمقامُ مقامُ الإضمارِ[1]، والغرضُ من ذلك زيادةٌ في البيانِ، وتقويَةٌ للمعنى وتحقيقُهُ؛ لأنَّ ما بعده معتمدٌ عليه، وهو مجيء الآياتِ القاهرةِ منه تعالى، وما يشتملُه من آياتٍ كطلوعِ الشَّمس من مغربِها ونحوه[2]، فضلًا عمَّا يوقعُه ذكْرُ هذه الآياتِ في النُّفوس من رهبةٍ ووجلٍ، وتحفيز لها على المسارعةِ في الخيرات.

دلالةُ الاحتراسِ في التَّعبير بالظَّاهر بدل المضمرِ:

من بلاغةِ النَّظمِ تدقيقُ المعنى بالاحتراسِ من إرادةِ سواه

التَّعبيرُ بالظَّاهر مع عدمِ التَّعبيرِ بالمضمرِ عندَ تكرارِ قوله تعالى: ﴿يَوۡمَ يَأۡتِي بَعۡضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ﴾، بابٌ من الاحتراسِ، فآياتُ اللّهِ المذكورةُ هنا تحتملُ أنْ تكونَ مجيءَ الملائكةِ، أوْ مجيءَ أمرِ اللّهِ، فهيَ مِنَ الآياتِ الأخرى، وهوَ غيرُ مرادٍ هنا، بلِ المقصودُ هنا علامات القيَامَةِ[3]، فأعادَ الظَّاهرَ تنبيهًا واحترازًا، على أنَّها المقصودةُ لا تلكَ المذكورةُ أوَّلًا.

بلاغةُ التَّقديمِ للظَّرفِ على الجملةِ الفعليَّةِ:

اليومُ الموعودُ مؤكَّدُ الوقوعِ، وما قبلَهُ محتملُ الوقوعِ

قولُه تعالى: ﴿يَوۡمَ يَأۡتِي بَعۡضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ﴾، تقديمُ الظَّرفِ ﴿يَوۡمَ﴾ على الجملةِ الفعليَّةِ، ﴿يَأۡتِيَ بَعۡضُ﴾، وحقُّه التَّأخيرُ، فلأنَّه محطُّ الاهتمامِ، وهو محلُّ التَّحذيرِ والتَّهديدِ لهم؛ و"لأنَّ إتيانَ الملائكة، والمعطوف عليه غيرُ محتملِ الوقوعِ، وإنَّما جرى ذكرُه

(1) الكفويّ، الكليّات، ص: 136.
(2) الشّيخ زاده، حاشية الشّيخ زاده: 4/178، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/699.
(3) ابن عبّاس، تنوير المقباس، ص: 123، والسّيوطي، الدّر المنثور: 3/389.

إبطالًا"[1] لأقوالهم السَّابقةِ من نحو: ﴿أَوۡ تَأۡتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلٗا ٩٢﴾ [الإسراء: 92].

نكتةُ التَّعبيرِ بالمضارعِ في قوله تعالى: ﴿لَا يَنفَعُ نَفۡسًا إِيمَٰنُهَا﴾:

غرضُ نفي النَّفعِ، متعلِّقٌ بالآخرةِ، وهي أمرٌ مستقبليٌّ

قولُه تعالى: ﴿لَا يَنفَعُ نَفۡسًا إِيمَٰنُهَا﴾، نفيُ النَّفعِ عن النَّفسِ، وردَ هنا بصيغةِ المضارعِ الدَّالِّ على استحضارِ الصُّورةِ، على أنَّها مشهدٌ حيٌّ يراهُ المتدبِّرُ بعينِه، وهذا أوقعُ في التَّأثيرِ، فَضْلًا عنْ دلالتهِ على الحالِ أوِ الاستقبالِ؛ لأنَّ النفعَ المقصودَ هنا هوَ نفعُ الآخرةِ بنجاةِ النَّفسِ مِنَ العذابِ[2]، وهوَ نفعٌ فيما يُستقبَلُ مِنَ الزَّمانِ، أمَّا نفعُ الدُّنيا الفائتُ، فلا يقعُ عندَ مجيءِ آياتِ يومِ القيامةِ.

نكتةُ تنكيرِ لفظ ﴿نَفۡسًا﴾ في سياقِ النَّفي:

غرضُ التَّنكيرِ إفادةُ العمومِ والشُّمولِ، لكلِّ نفسٍ منفوسةٍ

قولُه تعالى: ﴿لَا يَنفَعُ نَفۡسًا إِيمَٰنُهَا﴾، هنا أوردَ كلمةَ ﴿نَفۡسًا﴾ بالتَّنكيرِ، ونكتةُ ذلك إفادةُ العمومِ والشُّمولِ[3]، فالقاعدةُ عندَ العربِ ناطقةٌ بأنَّ "النَّكرةَ في سياقِ النَّفيِ تعمُّ"[4]، فالمعنى منْ عدمِ انتفاعِ النَّفسِ بإيمانها، يشملُ كلَّ نفسٍ وُضعتْ هذا الموضعَ.

دلالةُ تقديمِ المفعولِ على الفاعلِ:

غرضُ التَّهديدِ والوعيدِ ردعُ كلِّ نفسٍ مستهينةٍ بذلك اليوم

قولُه تعالى: ﴿لَا يَنفَعُ نَفۡسًا إِيمَٰنُهَا﴾، هنا قدَّم المفعولَ ﴿نَفۡسًا﴾ على الفاعل ﴿إِيمَٰنُهَا﴾، وهذا التَّقديم يحقِّق الإيجاز في التَّعبيرِ من خلال اتِّصالِ الضَّميرِ العائد على المفعولِ، بالفاعلِ إيمانها[5]، فضلًا عنْ كونِ السِّياقِ هنا قائمٌ على التَّهديدِ والوعيدِ لكلِّ نفسٍ، مهما كانتْ، فإنَّهُ لنْ يغنيَ عنها في ذلكَ اليومِ شيءٌ، فالمقصودُ أساسًا

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/190.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/186.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 8/65، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/187.
(4) ابن الخبّاز، توجيه اللّمع، ص: 229.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/187.

من التَّهديد، هو هذه النُّفوسُ، فكان تقديمُها للعنايةِ بها، من حيثُ إنَّها مناطُ هذا الأمر.

علَّةُ إضافةِ الإيمانِ إلى النَّفسِ:

لا انفكاكَ للنَّفسِ عنِ العقيدةِ، والإيمانُ الصُّوريُّ لا نفعَ لَهُ

قولُه تعالى: ﴿لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا﴾، أضافَ الإيمانَ إلى النَّفسِ؛ للإشارة أنَّه لا غنى لأيِّ نفسٍ كانت أن تنفكَّ عن هذا الإيمانِ؛ لأنَّه مركوزٌ في الفطرةِ، ومن المقوِّماتِ الأساسيَّة لهذه النَّفس الَّتي لا تفارقُها بحالٍ، فضلًا عن كونِها من بابِ التَّعريضِ بالمشركين؛ لأنَّ إيمانهم ليس حقيقيًّا صادقًا، بل هو إيمانٌ شكليٌّ، وآية ذلك أنَّهم لم ينتفعوا منه، فأوردَهم المهالك.

الموقعُ البيانيُّ لقولِهِ: ﴿لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ﴾:

تخصيصُ عمومِ النَّفسِ بالإيمانِ ضرورةٌ لا مندوحةَ منها

قولُه تعالى: ﴿لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ﴾، جملةٌ وقعتْ صفةً للنَّفسِ السَّابقةِ، لذا لمْ تعطفْ عليها، لكمالِ اتِّصالِها بها، فقدْ خصَّصتْ عمومَها، ويمكن أنْ تُحملَ على الاستئنافِ البيانيِّ، جوابًا عنْ سؤالٍ مقدَّرٍ في الذِّهنِ: (ما هيَ النَّفس الَّتي لا ينفعُها إيمانُها؟)، ويَحتملُ أنْ تُحملَ على الحاليَّةِ، وهوَ أقوى[1]، لتعالُقِ هذهِ الجملةِ بِما قبلَها، ممَّا لا يحسنُ فيه الانفصالُ؛ ولأنَّ افتقادَ الإيمانِ قبلًا، حالَ تحوُّلٍ إلى الإيمانِ فيما بعدُ، غيرَ أنَّهُ لمْ يكنْ ذا منفعةٍ لفواتِ أوانِ التَّوبةِ.

نكتةُ التّعبيرِ بـ(كان) مع الفعلِ ﴿ءَامَنَتْ﴾:

في استعمالِ (كان) إشارةٌ إلى عدمِ تمكُّنِ الإيمانِ في هذه النَّفسِ

قولُه تعالى: ﴿لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ﴾، جاءتْ (كانَ) هنا للإشارةِ إلى أنَّهُ لمْ يتمكَّنِ الإيمانُ في هذهِ النَّفسِ، ولمْ يكنْ وصفًا ملاصقًا لها، وجاءتْ بصيغةِ المضارعِ المنفيِّ بـ﴿لَمْ﴾ الَّتي قلبتْ معنى المضارعيَّة إلى معنى الماضويَّةِ، والمعنى النَّفسُ الَّتي ما كانتْ آمنتْ منْ قبلُ، فدلَّتْ على تيسيرِ الأمرِ بتقريبِ زمانِ القبلِ، فإنَّهُ لمْ

(1) العكبريّ، التّبيان: 1/552، والسّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 5/235.

يَجْعَلِ الإيمانَ مستغرقًا في الزَّمنِ، لكنَّهُ قيَّدهُ بقبلِ إتيانِ الآيةِ بزمنٍ موصولٍ بمجيئِها[1].

نكتةُ حذفِ مُتَعَلِّقِ الإيمانِ في قوله: ﴿لَمۡ تَكُنۡ ءَامَنَتۡ﴾:

حذفُ مُتَعَلِّقِ الإيمانِ، يقتضي التَّعميمَ في السِّياق

قولُه تعالى: ﴿لَمۡ تَكُنۡ ءَامَنَتۡ﴾ فعلُ الإيمانِ، يقتضي معمولًا متعلِّقًا، فإنَّ الإيمانَ «أنْ تؤمنَ باللهِ، وملائكتهِ، وكتبهِ، ورسلهِ، واليومِ الآخرِ، وتؤمنَ بالقدرِ خيره وشرِّه»[2]، ولمَّا أرادَ نفيَ الإيمانِ عنهمْ على وجهِ العمومِ، حذفَ مُتَعَلِّقَ الإيمانِ؛ فإنَّهم لمْ يؤمنوا بشيءٍ منْ ذلكَ، حتَّى إتيانِ العلاماتِ الدَّالَّةِ على اليومِ الآخرِ، فالحذفُ هنا أبلغُ في الدَّلالةِ على نفيِ الإيمانِ عنهمْ بالكليَّةِ.

فائدةُ الجملةِ الخبريَّةِ في قولِهِ: ﴿لَمۡ تَكُنۡ ءَامَنَتۡ مِن قَبۡلُ﴾:

التَّوكيدُ والتَّوبيخُ مِن أغراضِ الخبرِ المُبَيَّنةِ

دلَّت الجملةُ الخبريَّةُ في قولِهِ تعالى: ﴿لَمۡ تَكُنۡ ءَامَنَتۡ﴾ على التَّوكيدِ والتَّوبيخِ في آنٍ معًا، فإنَّ الإيمانَ مذكورٌ قبله، وهذا توكيدٌ لهُ، وأنَّ إيمانَهمْ لمْ يكنْ نافعًا لهمْ عندَ إغلاقِ بابِ التَّوبةِ، وهذا توبيخٌ لمنْ آمنَ، ولمْ يَنتفعْ بإيمانه.

فائدةُ ذكرِ حرفِ الجرِّ ﴿مِن﴾ في قولِهِ: ﴿مِن قَبۡلُ﴾:

النُّفوسُ المُتأبِّيةُ عن الإيمانِ في إبَّانه، لا ينفعُها بعد أوانه

قولُه تعالى: ﴿لَمۡ تَكُنۡ ءَامَنَتۡ مِن قَبۡلُ﴾، في ذكرِ حرفِ الجرِّ ﴿مِن﴾ دلالةٌ ومعنًى، فذكرُها لاستبعادِ اقترانِ هذه النُّفوسِ بالإيمانِ من أوَّلِ أمرها، فإنَّ ﴿مِن﴾ تفيدُ ابتداءَ الغايةِ.

معنى ﴿أَوۡ﴾ في قوله: ﴿أَوۡ كَسَبَتۡ﴾:

النُّفوسُ البشريَّةُ، منها: كافرةٌ لمْ تؤمنْ، ومؤمنةٌ لمْ ينفعْها إيمانُها

قولُه تعالى: ﴿لَمۡ تَكُنۡ ءَامَنَتۡ مِن قَبۡلُ أَوۡ كَسَبَتۡ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيۡرٗاۗ﴾، جاءت النُّفوسُ في الآيةِ على نوعينِ: نفوسٍ كافرةٍ لمْ تؤمنْ، ونفوسٍ مؤمنةٍ لمْ ينفعها إيمانُها؛ لأنَّها ما كسبتْ في ذلكَ الإيمانِ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/333.
(2) مسلم، الصحيح، الحديث رقم: (8).

خيرًا[1]، فجاءت ﴿أَوۡ﴾ مفيدةً للتَّقسيمِ، والتَّقسيمُ من خصائصِ (أو) العاطفة[2].

الموقعُ البيانيُّ لقوله تعالى: ﴿أَوۡ كَسَبَتۡ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيۡرٗاۗ﴾:

جملة ﴿أَوۡ كَسَبَتۡ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيۡرٗاۗ﴾، واقعةٌ موقعَ العطفِ على جملة: ﴿لَمۡ تَكُنۡ ءَامَنَتۡ مِن قَبۡلُ﴾، فهيَ صفةٌ أخرى أوْ حالٌ ثانيةٌ للنَّفسِ الَّتي لا تنتفعُ بإيمانها، فإنَّ أشراطَ السَّاعةِ إنَ ظهرتْ "ذهب أوانُ التَّكليفِ عندَها، فلمْ ينفعِ الإيمانُ حينئذٍ نفسًا غيرَ مُقدِّمةٍ إيمانَها منْ قبلِ ظهورِ الآياتِ، أوْ مقدِّمةَ الإيمانِ غيرَ كاسبةٍ في إيمانِها خيرًا"[3]، وبين العبارتين ترابطٌ لا ينحلُّ على أسلوبِ قولِهِ تَعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، فلا يجدي إيمانٌ من غيرِ عملٍ صالحٍ.

نكتةُ العدولِ عن ذكرِ (كان) مع الكسبِ في الآيةِ الكريمة:

قولُه تعالى: ﴿أَوۡ كَسَبَتۡ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيۡرٗاۗ﴾، عَدَلَ عن ذكرِ الفعلِ النَّاقصِ (كان)، مع فعلِ الكسبِ ﴿كَسَبَتۡ﴾، اختصارًا لدلالةِ الكلامِ السَّابقِ عليه، بقولِهِ: ﴿لَمۡ تَكُنۡ ءَامَنَتۡ﴾، فقد ذكرَ فعلَ الكَوْنِ مع الإيمانِ، والنَّحويُّون يقولون: "وحذْفُ ما يعلم جائزٌ"[4]، ولأنَّهُ هنا نفى عنها الكَسْبَ فقطْ، وهناكَ نفى عنها الإيمانَ مطلَقًا، فضلًا عنْ نفيِ تمكُّنِهِ في النَّفسِ الَّتي منْ شأنِها في الأصلِ ألَّا تنفكَّ عنهُ؛ لأنَّهُ مركوزٌ في الفطرةِ.

النَّفسُ لا تنفكُّ عن الإيمانِ؛ لأنَّهُ مركوزٌ في الفطرةِ

بلاغةُ التَّقديمِ لشبهِ الجملةِ على المفعولِ:

قولُه تعالى: ﴿كَسَبَتۡ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيۡرٗاۗ﴾، في ذكرِ شبهِ الجملةِ وتقديمِها ﴿فِيٓ إِيمَٰنِهَا﴾، على المفعولِ ﴿خَيۡرٗا﴾، الإيماءُ إلى علوِّ

سرُّ التَّنويهِ بمنزلةِ الإيمانِ باعتبارِ أنَّ الخيرَ منحصرٌ فيه

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/187.
(2) ابن الصّائغ، اللّمحة في شرح الملحة: 2/694.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/415.
(4) الشّاطبيّ، المقاصد الشّافيَةُ: 2/91.

الإيمانِ ومكانتهِ، فكأنَّهُ يجعل كسبَ الخيرِ منحصرًا في الإيمانِ، أي: إنَّها ما كسبَتِ الخيرَ في إيمانِها فحسب، بلِ اقتصرتْ على الإيمانِ فقطْ[1]، وهوَ حصرٌ متأتٍّ منْ تقديمِ الإيمانِ، وأنَّهُ ينبغي لهذا الإيمانِ ألَّا ينفكَّ عَنِ النَّفسِ، بلْ هوَ ملاصقٌ لها لا ينفكُّ عنها بحالٍ مِنَ الأحوالِ، لذا أضيفَ إليها، فضلًا عنْ كونِ المقامِ للعنايةِ بهذهِ النَّفسِ.

نكتةُ المجازِ في استعمالِ ﴿فِيٓ﴾ الظَّرفيَّة في قوله: ﴿فِيٓ إِيمَٰنِهَا﴾:

الغرضُ مِنَ الظَّرفيَّة إفادةُ مُدَّةِ الإيمانِ وإحاطتِه وشمولِه

قولُه تعالى: ﴿كَسَبَتۡ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيۡرٗاۗ﴾، للجارِّ في قولِه: ﴿فِيٓ إِيمَٰنِهَا﴾ إشارةٌ ظرفيَّةٌ، فهوَ دليلٌ على مدَّةِ الإيمانِ، وليسَ الإيمانُ نفسُهُ، أيْ: إنَّ الخيرَ منْ صالحِ الأعمالِ، خالصِ الطَّاعاتِ، يجبُ أنْ يكسبَ في مدَّةِ الإيمانِ، والتَّقديرُ: أنَّها كسبتْ في مدَّةِ إيمانها خيرًا[2]، ليتوافقَ الاعتقادُ معَ العملِ. فضلًا عنْ أنَّ الحرف ﴿فِيٓ﴾ هنا، يدلُّ على الظَّرفيَّة المجازيَّة، حيث أفادتْ إحاطةَ الإيمانِ بالنَّفسِ إحاطةَ الظَّرفِ بالمظروفِ، فشَبَّهتِ الإيمانَ بشيءٍ منْ شأنه أنْ يحيطَ بالنَّفسِ منْ جميعِ أطرافِها؛ لأنَّ لوازمَ الإيمانِ وأدلَّتَهُ، تحيطُ الإنسانَ في الأنفسِ. ويمكنُ أنْ تكونَ ﴿فِيٓ﴾ هنا سببيَّةً على معنى: أنَّ هذهِ النَّفسَ لمْ تكسبْ بسببِ إيمانها حينَ آمنتْ أيَّ خيرٍ مهما كانَ.

نكتةُ تنكيرِ لفظ ﴿خَيۡرٗاۗ﴾:

غرضُ التَّنكيرِ إفادةُ تعميمِ الخيرِ المكتسَبِ

قولُه تعالى: ﴿كَسَبَتۡ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيۡرٗاۗ﴾، أورد كلمة ﴿خَيۡرٗاۗ﴾ هنا نكرةً، وهيَ في ذلكَ واقعةٌ في سياقِ النَّفيِ فتكون عامَّةً "ويلزمُ أنْ يكونَ نفعُ الإيمانِ بمجرَّدِ الخيرِ، ولوْ واحدًا"[3]، فتنكيرُ الخيرِ يلزمُ نفعُه، ولو كانَ قليلًا.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/187.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/187.
(3) الآلوسّي، روح المعاني: 8/67.

تقديمُ النَّفسِ (غيرِ المؤمنةِ) على الَّتي (لم تكسبْ في إيمانها خيرًا):

قولُه تعالى: ﴿لَمۡ تَكُنۡ ءَامَنَتۡ مِن قَبۡلُ أَوۡ كَسَبَتۡ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيۡرٗاۗ﴾، ذكرَ في الآيةِ جملتينِ قدَّمَ واحدةً، وأخَّرَ الأخرى، فتقدَّمتِ الجملةُ المعنيَّةُ بنفي الإيمانِ، وتأخَّرتِ المعنيَّةُ بنفي الكسبِ بذلكَ الإيمانِ، وهوَ مِنْ بابِ تقديمِ الأصلِ على الفرعِ، فإنَّ الإيمانَ هوَ الأصلُ، ثمَّ يترتَّبُ عليهِ أنْ تكسبَ النَّفسُ الخيرَ بهذا الإيمانِ، فالأهمُّ هوَ الإيمانُ، يتلوهُ صنيعُ الإنسانِ المُؤسَّسُ على ذلكَ الإيمانِ.

من البلاغةِ تقديمُ الأصلِ على الفرعِ، والأهمِّ على المهمِّ

بلاغةُ الإيجازِ في استعمالِ أسلوبِ التَّقسيمِ:

قولُه تعالى: ﴿لَا يَنفَعُ نَفۡسًا إِيمَٰنُهَا لَمۡ تَكُنۡ ءَامَنَتۡ مِن قَبۡلُ أَوۡ كَسَبَتۡ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيۡرٗاۗ﴾، في الكلامِ إيجازٌ بالحذفِ، تقديرُهُ: "لا ينفعُ نفسًا غيرَ مؤمنةٍ إيمانُها، أوْ نفسًا لمْ تكنْ كسبتْ خيرًا في إيمانِها منْ قبلِ كسبِها، يعني: أوْ ما يقومُ مقامَ كسبِ الخيرِ مثلُ التَّوبةِ، فإنَّها بعضُ اكتسابِ الخيرِ"[1]، فليسَ المغزى المرادُ أنْ يضيعَ الإيمانُ، إنْ لمْ يكنْ معهُ كسبٌ، وهذهِ مزيَّةُ التَّقسيمِ، ولولا ذلكَ لعبَّرَ عنْ نفيِ النَّفعِ حالةَ كونِ الكسبِ معدومًا.

دلالةُ الألفاظِ المذكورةِ على المحذوفةِ من جميلِ البيانِ

بلاغةُ الإدماجِ في قوله ﴿أَوۡ كَسَبَتۡ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيۡرٗاۗ﴾:

قولُه تعالى: ﴿لَا يَنفَعُ نَفۡسًا إِيمَٰنُهَا لَمۡ تَكُنۡ ءَامَنَتۡ مِن قَبۡلُ أَوۡ كَسَبَتۡ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيۡرٗاۗ﴾، ظاهرُ الآيةِ ينعى على المشركينَ التَّأنِّيَ في دخولِ الإيمانِ؛ لأنَّ عاقبتَهُ وخيمةٌ إنْ ظهرتِ الآياتُ، ثمَّ أدمجَ معَ هذا المقصودِ، تحذيرًا للمؤمنينَ مِنَ التَّجافي عَنِ الأعمالِ الصَّالحةِ، وعدمِ المبادرةِ إليها، وهوَ المفهومُ منْ قولِهِ: ﴿أَوۡ كَسَبَتۡ﴾.

تحذيرُ المشركينَ، يتضمَّن تعريضًا بالتَّحذيرِ للمؤمنينَ

نكتةُ الأمرِ بـ﴿قُلِ﴾ في قوله تعالى ﴿قُلِ ٱنتَظِرُوٓاْ﴾:

قولُه تعالى: ﴿قُلِ ٱنتَظِرُوٓاْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾، ذكرَ فعلَ الأمرِ ﴿قُلِ﴾،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/188.

الإشارةُ إلى أهمِّيَّةِ مقولِ القولِ في دلالة السِّياق عن المرادِ

لنكتةٍ، وهيَ الإشارةُ إلى أهمِّيَّةِ مقولِ القولِ، وهوَ الانتظارُ الدَّالُّ على الوعيدِ والتَّهكُّم، وقدْ حُفَّتِ السُّورةُ بهذا الفعلِ (قلْ)، ممَّا يدلُّ على أهمِّيَّةِ الأمورِ الَّتي تأتي بعدَها، وأنَّ هذهِ التَّكاليفَ مِنَ الأهمِّيَّةِ بمكانٍ، بحيثُ ينبغي للنَّبيِّ ﷺ، أنْ يبلِّغها بنفسهِ.

سرُّ تتابعِ فَعْلَيِ الأمر في قوله ﴿قُلِ ٱنتَظِرُوٓاْ﴾:

ورودُ الفعلين المُتتابعينِ بالأمرِ، قد يفيدُ التَّهديدَ والوعيدَ

قولُه تعالى: ﴿قُلِ ٱنتَظِرُوٓاْ﴾، تضمَّنَ فعلَيْ أمرٍ، الأولُ: ﴿قُلِ﴾ مع فاعلِه، والثَّاني: فعلُ الأمرِ ﴿ٱنتَظِرُوٓاْ﴾ مع فاعلِه، وسرُّ تواليهما: إفادةُ التَّهديدِ والوعيدِ من مجيءِ الآياتِ والعذابِ، والتَّقديرُ: سترون من يكونُ كلامُه صحيحًا[1].

الغرضُ البيانيُّ من الأمرِ بالانتظار ﴿قُلِ ٱنتَظِرُوٓاْ﴾:

الأمرُ بالانتظارِ تهديدٌ ووعيدٌ

والغرضُ البيانيُّ من فعلِ الأمرِ ﴿ٱنتَظِرُوٓاْ﴾، ليس على ظاهرِه، وإنَّما قصدَ التَّعريضَ والتَّهديدَ[2] للمشركين بالعذابِ في الدُّنيا والآخرةِ، وفيه تقريرٌ لحرِّيَّتهم الدِّينيَّة وتَحميلُهمُ المسؤوليَّةَ، والمعنى: "قل لهؤلاءِ الكافرين، بعد بيان حقيقة الحال، على وجه التَّحديد: انتظروا ما تنتظرونه، من إتيان أحدِ الأمور الثَّلاثةِ، لتروا أيَّ شيءٍ تنتظرون، إنَّا مُنْتَظِرُونَ، أي: لذلك، لنشاهدَ ما يحلُّ بكم من سوءِ العاقبةِ"[3].

نكتةُ حذفِ مُتَعَلِّقِ فعلِ الأمرِ ﴿ٱنتَظِرُوٓاْ﴾:

غرضُ حذفِ المفعولِ للتَّهويلِ والتَّعظيمِ من بلاغةِ الأسلوبِ

قولُه تعالى: ﴿قُلِ ٱنتَظِرُوٓاْ﴾، الفعلُ هنا يقتضي مفعولًا، وهوَ على تقديرِ: انتظروا العذابَ، أوِ انتظروا عاقبةَ أمركمْ[4]، والانتظارُ مِنَ الترقُّبِ، وحذفُ مفعولِ الفعلِ ﴿ٱنتَظِرُوٓاْ﴾ للتَّهويلِ والتَّعظيمِ، أي: انتظروا كلَّ ما منْ شأنهِ أنَ يُفْزِعَكُمْ، وأنَ يُرْهِبَكُمْ من ألوانِ العذابِ الدُّنيويِّ والأخرويِّ.

(1) الخازن، لباب التَّأويل: 2/176، وابن عطّية، المحرّر الوجيز: 2/367.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/700.
(3) القاسميّ، محاسن التَّأويل: 4/550.
(4) السّمرقنديّ، بحر العلوم: 1/497، والشّوكانّي، فتح القدير: 2/606.

الموقعُ البيانيُّ لِقولِهِ: ﴿إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾ في الآية الكريمةِ:

غرضُ حُسْنِ الفصلِ في الجملةِ المُستأنَفةِ الاهتمامُ بها

يجوزُ أن يكونَ قولُه تعالى: ﴿إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾، بعدَ قولِه: ﴿قُلِ ٱنتَظِرُوٓاْ﴾ على تقديرِ الكلامِ: انتظروا ننتظرْ معكمْ على أنَّها جملةٌ واقعةٌ في جوابِ الطَّلبِ. ويمكنُ أنْ يكونَ قولُه: ﴿إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾، استئنافًا بيانيًّا، على تقديرِ سؤالٍ: (وماذا تفعلونَ أنتمْ؟)، لذا لمْ تُعطفْ عليها، فالمعطوفُ لكونِهِ تابعًا، لا يَهتمُّ لهُ السَّامعونَ كمالَ الاهتمامِ، ولقوَّةِ الارتباطِ بينَ هذهِ الجملةِ وما قبلَها، فالجميعُ قائمٌ على الانتظارِ، فأنتمْ تنتظرونَ إتيانَ أحدِ الأمورِ الثَّلاثةِ، ونحنُ منتظرونَ لنعاينَ ما سوفَ يَحيقُ بكمْ مِنْ عقابٍ[1].

دلالةُ توالي المؤكِّدات في فاصلةِ الآيةِ:

إذا كان التَّهديدُ والوعيدُ من اللهِ؛ كان الهلاكُ ساحقًا ماحقًا

في قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾، طائفةٌ مِنَ المؤكِّداتِ، منها: إنَّ، والجملةُ الاسميَّةُ، فضلًا عنْ مجيءِ المسنَدِ الفعليِّ ﴿مُنتَظِرُونَ﴾ الَّذي أفادَ تقويَةَ الحكمِ، وقدْ أفادَ توالِيَ هذهِ المؤكِّداتِ التَّهديدَ والوعيدَ لهمْ.

غرضُ الجملةِ الخبريَّةِ في قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾:

المسلمون ينتظرون نصرَ اللهِ المبينَ بما وعد به عباده الصَّالحين

قولُه تعالى: ﴿إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾، جملةٌ خبريَّةٌ جمعتْ بين أمرين؛ انتظارِ المسلمين لنصرِ اللهِ، ونزولِ العقابِ بأعدائِهم"[2]، فهذا هو معنى الانتظارِ، ومفاد المعنى: أنَّ اللهَ يقول لهم: (انتظروا - أيُّها المعاندون - ما تتوقَّعون إتيانه ووقوعَه بنا، واكتفاء أمر الإسلام به، إنَّا منتظرون وعدَ ربِّنا لنا ووعيده لكم)، كقولِه تعالى: ﴿فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِهِمْۚ قُلْ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ١٠٢﴾ [يونس: 102].

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/313.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/191.

نكتةُ مجيءِ ضمائرِ الجمعِ في الفاصلةِ وحذفِ المتُعَلِّقِ:

جملةُ الفاصلةِ، كالتَّعليلِ لما سبقها، وهو من فصيحِ البيانِ

قولُه تعالى: ﴿قُلِ ٱنتَظِرُوٓاْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾: وردتِ الضَّمائرُ في الفاصلةِ بصيغةِ الجمعِ في المسنَدِ إليه (نا)، والمسنَدِ ﴿مُنتَظِرُونَ﴾، مُناسِبَةً لما قبلَها من جمعٍ، وهو قولُه: ﴿ٱنتَظِرُوٓاْ﴾ فجملةُ الفاصلةِ، كالتَّعليلِ لما سبقها من أمرِ الانتظارِ[1]، وحذفَ متعلِّقَ الانتظارِ، ليشملَ إعلاءَ اللّٰهِ لشأنِ المؤمنين، وعذابَ الكافرين.

نكتةُ مجيءِ ﴿مُنتَظِرُونَ﴾ مادَّةً وصيغةً:

الانتظارُ فيه تهكُّمٌ بهم، وهو دالٌّ على التَّمكُّنِ والثِّقةِ بنصرِ الله

قولُه تعالى: ﴿إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾ إيرادُ لفظةِ ﴿مُنتَظِرُونَ﴾ دلَّت على الترقُّبِ والتربُّصِ، وصيغةُ اسمِ الفاعلِ دلَّت على قوَّةِ تمكُّنِ الفعلِ بالفاعلِ، وهذا أبلغُ في تهديدِهم ووعيدِهم.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(النَّظر) و(الانتظار):

النَّظرُ متعلِّقٌ بالحقيقةِ المشاهَدةِ، والانتظارُ بترقُّبِ الخيرِ أو الشَّرِّ

النَّظرُ يكونُ بمعنى البَصرِ العينيِّ، وهوَ الأشيعُ، ويكونُ بمعنى البصيرةِ والتَّفكُّرِ، والواردُ في الآية مِنَ المعنى الأوَّلِ؛ فإنَّ الأمرَ متعلِّقٌ بالحوادثِ الَّتي تُرى، وتشاهَدُ كأشراطِ السَّاعةِ، ومنها طلوعُ الشَّمسِ منْ مغربها[2]. وقدْ يكونُ النَّظرُ بمعنى الانتظارِ؛ لأنَّ "الانتظارَ طلبُ ما يقدرُ النَّظرُ إليهِ، ويكونُ في الخيرِ والشَّرِّ، ويكونُ معَ شكٍّ ويقينٍ"[3]، والواردُ في الآية ﴿هَلْ يَنظُرُونَ﴾، من هذا البابِ، وهو استعمالُ النَّظرِ بمعنى الانتظارِ، فإنَّهم لا يؤمنون حتَّى يروا هذه الآياتِ[4].

(الإنظار) و(الإمهال):

الإنظارُ: مقيَّدٌ بما هو محلٌّ للنَّظرِ، والإمهالُ: الإبهامُ

وممَّا يَقْرُبُ معنًى مِنَ الانتظارِ، لفظةُ الإمهالِ، إلَّا أنَّ ثمَّةَ فرقًا دقيقًا بينهما، وهوَ أنَّ الإنظارَ مقترنٌ بمقدارٍ معيَّنٍ، يكونُ محلًّا

(1) الدّرّة، تفسير القرآن الكريم: 8/191.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/415.
(3) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 75.
(4) الشّيخ زاده، حاشية الشّيخ زادة: 4/178.

للنَّظرِ، أمَّا الإمهالُ؛ فهوَ على نيَّةِ الإبهامِ[1]، والواقعُ في الآيةِ ليس منه؛ لأنَّ انتظارَهم موقَّتٌ بزمنِ إتيانِ الملائكةِ، أو إتيانِ أمرِ اللّهِ، أو أشراطِ السَّاعةِ[2].

(الانتظار) و(التربُّص):

الفرقُ بينهما: أنَّ الانتظارَ عامٌّ، والتَّربُّصَ: طولُ الانتظارِ، والأصلُ فيهِ مِنَ الرُّبْصَةِ، وَهيَ البقاءُ طويلًا في الانتظارِ[3]، والواردُ في الآيةِ مَظِنَّتُهُ زمنٌ قريبٌ، والمعنى: "ما ينتظرونَ هؤلاءِ المكذّبونَ أدنى انتظارٍ، وَأَقْرَبَهُ وأيسرهُ"[4]، فورودُ الانتظارِ أبلغُ وأدقُّ، وأدلُّ على المعنى المرادِ في الآيةِ.

التَّربُّصُ البقاءُ طويلًا في الانتظارِ، والانتظارُ في الآيةِ تهديدٌ ووعيدٌ

وفيهِ فرقٌ آخَرُ، وهوَ أنَّ التَّربُّصَ هوَ الانتظارُ الَّذي يحملُ معهُ الخيرَ أوِ الشَّرَّ الَّذي يحلُّ بالمتربِّصِ به[5]، أمَّا الانتظارُ الواردُ في الآية ﴿إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾، فقدْ أجمعتْ كلمةُ المفسِّرينَ، على أنَّ المقصودَ مِنَ الانتظارِ، هوَ التَّهديدُ والوعيدُ[6].

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 202.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 14/8.
(3) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 76.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/331.
(5) ابن دريد، جمهرة اللّغة: (ربص).
(6) الماتريديّ، تأويلات أهل السُّنّة: 4/331، والزّمخشريّ، الكشّاف: 2/416، وابن عطيّة، المحّرر الوجيز: 2/367، وغيرهم من المفسّرين.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمۡ وَكَانُواْ شِيَعٗا لَّسۡتَ مِنۡهُمۡ فِي شَيۡءٍۚ إِنَّمَآ أَمۡرُهُمۡ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ١٥٩﴾ [الأنعام: 159]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

تحدِّي الكفرِ وسوءِ عقباهُ، وعلاقتهُ ببراءةِ النَّبيِّ ممَّن فرَّق دينَ مولاه

بعدَ ما ذكرَ الحقُّ ﷻ في الآياتِ السَّابقةِ مِنَ الآياتِ الدَّالَّةِ على عظمتهِ تعالى، اشتدَّ استشرافُ النَّبيِّ ﷺ، وحرصُهُ على إسلامِ قومه؛ لما طَبَعَهُ الحقُّ ﷻ على رسولهِ الكريمِ بالشَّفقةِ على الخَلْقِ؛ لهدايتهمْ ومحوِ غَوايتهمْ، فأخبرهُ تعالى مثبِّتًا إيَّاهُ، ومسلِّيًا لهُ؛ بأنَ الَّذينَ تفرَّقوا بعدَ بلاغكَ إيَّاهمْ، فكانوا شِيَعًا وأحزابًا، تَبَعًا لأهوائهمْ، فهؤلاءِ ليسَ عليكَ حسابُهمْ ولا عقابُهمْ ولا هدايتُهمْ، بلْ أمرُهمْ للهِ تعالى، فمنْ شاءَ هداهُ، ومنْ شاءَ أعماهُ[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَرَّقُواْ﴾: فعلٌ مضعَّفٌ مسنَدٌ إلى الجَمَاعَةِ، الجذرُ اللُّغويُّ منهُ (فرق)، وهوَ مِنَ الفصلِ والتَّفريقِ، "وكلُّ شيئينِ فَصَلْتَ بينهما، فقد فرَّقْتَهما فَرْقًا، وكلُّ ناحيةٍ منهما فِرْقٌ وفَريقٌ"[2]، والأصلُ في معناهُ: "تمييزٌ وتزييلٌ بينَ شيئينِ، منْ ذلكَ الفِرْقُ"، والفَرْقُ: الانفصالُ عنِ الشَّيءِ، والفَريقُ جماعةٌ تتفرَّقُ وتنفصلُ عنْ غيرِها[3].

ومعنى ﴿فَرَّقُواْ﴾ في الآيةِ، أي: غيَّروا في دينِهم، وخلطوا الحقَّ بالباطلِ، وآمنوا ببعضِ الرُّسلِ، وكذَّبوا ببعضٍ، وهم أصحابُ البِدَعِ والأهواءِ الَّذين حرَّفوا الدِّينَ، فهذا هو التَّفريقُ[4].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/335.
(2) ابن دريد، جمهرة اللّغة: (فرق).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (فرق).
(4) السّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (فرق)، والسّيوطي، الدّرّ المنثور: 3/402.

2) ﴿شِيَعًا﴾: اسمٌ ثلاثيٌّ مجرَّدٌ، الجذرُ اللُّغويُّ منهُ (شيع)، والمشايعةُ المتابعةُ على أمرٍ معيَّنٍ، كمثلِ قومٍ يتَّبعونَ أهواءَ غيرِهمْ، ويتابعونهمْ، ومنْ معانيهِ الظُّهورُ والتَّفرُّقُ[1]. والمعنى المحوريُّ لهُ: "تفرُّقُ الشَّيءِ المجتمِعِ إلى تجمُّعاتٍ صغيرةٍ بتشعُّث، أيْ: عدم انتظام، كالشَّعرِ الموصوفِ، أصولهُ متجاورةٌ ولا بدَّ، أي: مجتمعةٌ"[2]. والشِّيعُ: الفِرَقُ الَّذين يتابعُ بعضُهم بعضًا[3]، وليسَ شرطًا أنْ يكونَ تجمُّعهمْ على خيرٍ أوْ صوابٍ.

ومعنى ﴿شِيَعًا﴾ في الآيةِ، أي: أصبحوا فِرَقًا مختلفةً، وكلُّ فِرْقَةٍ تتبعُ إمامًا لها، كاليهودِ والنَّصارى، وأصحابِ البدعِ والأهواءِ والضَّلالاتِ، منْ هذهِ الأمَّةِ[4].

3) ﴿يَفْعَلُونَ﴾: فعلٌ مسنَدٌ إلى الجَمَاعَةِ، دالٌّ على الحالِ والاستقبالِ، الجذرُ اللُّغويُّ منهُ (فعل)، والفعلُ معروفٌ، وهوَ القيامُ بعملٍ أوْ نحوه. والأصلُ في الفاءِ والعينِ واللَّامِ يدلُّ على إحداثِ أمرٍ أوْ شيءٍ، أوْ نَحْوِهِ[5]، ويَرِدُ بمعنى التَّأثيرِ حسنًا كانَ أمْ غيرَ ذلكَ، بعلمٍ وقصدٍ أمْ بغيرِ ذلكَ، صادرًا مِنَ الإنسانِ أمْ مِنَ الحيوانِ[6].

ومعنى ﴿يَفْعَلُونَ﴾ في الآيةِ، أي: ما يُحدِثونهُ من السَّيِّئاتِ والتَّفرقةِ والسَّيرِ خلفَ الأهواءِ، فيجازيهم على تلكَ الأفعالِ[7].

المَعْنى الإِجْماليُّ:

إخبارٌ منهُ تعالى لرسولهِ الكريمِ ﷺ عنْ أقوامٍ انحرفوا عنْ جادَّةِ

لا عليكَ ممَّنْ فرَّقَ الدِّينَ واتَّبعَ الهوى، وحسابُهمْ ومآلُهمْ إليهِ سبحانهُ

(1) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللّغة: (شيع).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (شيع).
(3) السّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (شيع).
(4) البغويّ، معالم التّنزيل: 3/208، والزّمخشريّ، الكشّاف: 2/416.
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (فعل).
(6) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (فعل).
(7) القاسميّ، محاسن التّأويل: 6/2586.

الصَّوابِ، ومالوا عن طريقِ الحقِّ، وتفرَّقوا شَذَرَ مَذَرَ، فكانوا فِرَقًا وجماعاتٍ، وكانوا قيدَ أهوائِهِمُ الباطلةِ، فلستَ منهمْ، وليسَ عليكَ حسابهم ولا جزاؤهم ولا هداهم، فلا نجمعكُ معهم؛ إذْ شأنُهمْ راجعٌ إليه تعالى، فهوَ الَّذي يخبرُهمُ الخبرَ العظيمَ بقبائحِ أفعالِهِمْ، بعدَ أنْ يحشرهمْ إليهِ صاغرينَ داخرينَ.

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ الاستئنافِ البيانيِّ في جملة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ﴾:

مَن يبدِّدُ الدِّينَ فإنَّ مصيرَه إلى اللـه، لا إلى رسولِ الله

قولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا﴾، آيةٌ مستأنَفَةٌ بيانيًّا، جَوَابٌ عنْ سؤالٍ مقدَّرٍ، مضمونهُ: هلْ على الرَّسولِ ﷺ أنْ يتولَّى جزاءَ هؤلاءِ المفرِّقينَ المنحرفينَ عنْ جادَّةِ الحقِّ والصَّوابِ، على ما ارتكبوا منْ سيِّئِ الأعمالِ[1]، وهم أهلُ الكتابِ من اليهودِ والنَّصارى، ممَّن بدَّدَ الدِّينَ، وبعَّضه، وقسَّمه، فتمسَّكتْ كلُّ فِرْقَةٍ ببعضٍ منه[2].

غرضُ التَّعبيرِ بالاسمِ الموصولِ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ في الآية الكريمة:

في الاسمِ الموصولِ تشويقٌ، وبيانٌ بعدَ إبهامٍ

وجاءَ بالمسنَدِ إليه اسمًا موصولًا معرفةً في قولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ﴾، لِغَرَضٍ: وهو إحداثُ عنصرِ التَّشويقِ في التَّعريفِ بهؤلاءِ المفرِّقين وحدَة الدِّينِ عقيدةً وعملًا[3]، والتَّشويقُ يتأتَّى منْ كونهِ يردُ على مرحلتينِ: إبْهَامٍ ثمَّ بَيَانٍ، فَذِكْرُ الموصولِ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ لا يُفهمُ منهُ شيءٌ، فهذا هوَ الإبهامُ، ثمَّ تَعْرِيفُهُ بجملةِ الصِّلةِ فهذا هوَ البيانُ، وفي هذا الأسلوبِ تشويقٌ إلى جُمْلَةِ الصِّلةِ الدَّالَّةِ على التَّفرُّقِ في الدِّينِ والانحيازِ عنهُ.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/192.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/313.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/191.

نكتةُ مجيءِ جملةِ صلةِ الموصولِ فعليَّةً:

الجملةُ الفعليَّةُ تدلُّ على عدمِ الثُّبوتِ، وكذلك تفريقُ الدِّينِ

وردتْ صلةُ الاسمِ الموصولِ جملةً فعليَّةً، في قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمۡ﴾؛ لتدلَّ على الحدوثِ وعدمِ الثُّبوتِ، وهو شأنُ الجملةِ الفعليَّةِ في لسانِ العربِ، وتفريقُ الدِّينِ كذلك، فهو مِنَ الأمورِ الحادثةِ الَّتي بها حاجةٌ للتَّعمُّلِ والتَّغيُّرِ، كما هوَ شأنُ الأفعالِ. وفي التَّركيبِ بالموصولِ وصِلَتِهِ ما يدلُّ على" أنَّ الدِّين يأمرُ بالاجتماع والائتلافِ، وينهى عن التَّفرُّق والاختلاف في أهل الدِّين، وفي سائر مسائلهِ الأصوليَّة والفروعيَّة"[1].

بلاغةُ الجمعِ بين القراءاتِ القرآنيَّةِ في قوله: ﴿فَرَّقُواْ﴾:

مِنْ فرَّقَ الدِّينَ فقدْ جعلهُ أحزابًا ومذاهبَ، وفارقه في حقيقتهِ

قولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمۡ وَكَانُواْ شِيَعٗا﴾ قرأَ حمزةُ والكسائيُّ (فارقوا)[2]، فقراءةُ الجماعةِ بالتَّشديدِ مِنَ التَّفريقِ، وعلى قراءةِ حمزةَ والكسائيِّ بالتَّخفيفِ مِنَ المفارقةِ، أي: تركوا دينَهمُ الحَقَّ الَّذي أُمِروا بهِ[3]. وعلى قراءةِ الجمهورِ يكونُ المعنى بدَّدوا وشتَّتوا دينَهمْ، وأضحوا أحزابًا وفِرقًا، ومذاهبَ في الضَّلالةِ والأهواءِ والبدعِ يكفِّرُ بعضُهمْ بعضًا[4]. وفي الجمعِ بينَ القراءتينِ، بيانٌ لا يخفى؛ "لأنَّ الَّذي فرَّقَ دينَهُ، بمعنى: أنَّهُ أقرَّ ببعضٍ، وأنكرَ بعضًا، فقدَ فارقه في الحقيقةِ"[5] فالقراءتان تسندُ إحداهما الأخرى.

دلالةُ المجازِ من بابِ الاستعارةِ، في قولِهِ: ﴿فَرَّقُواْ دِينَهُمۡ﴾:

حقيقةُ الدِّينِ واحدةٌ، وفي التَّفرُّق تفريقٌ للدِّينِ، وتمزيقٌ لهُ

تفريقُ الدِّينِ في قولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمۡ وَكَانُواْ شِيَعٗا﴾، معناهُ الفصلُ والتَّمييزُ ونحوهُ، والتَّعبيرُ عنْ تفريقِ الدِّينِ

(1) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 282.
(2) ابن مجاهد، السّبعة في القراءات، ص: 274.
(3) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 9/134.
(4) ابن زنجلة، حجّة القراءات، ص: 278، والواحديّ، التّفسير الوسيط: 2/341.
(5) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 4/9، والآلوسّي، روح المعاني: 8/68.

تعبيرٌ مجازيٌّ من بابِ الاستعارةِ[1]، فكأنَّهمُ اجتمعوا على الدِّينِ، وهوَ وحدةٌ واحدةٌ، فجعلوهُ مفرَّقًا، وهذهِ استعارةٌ، يمكن أن تشبَّه بالتَّفرُّق، أو على المكنيَّة بتشبيه الدِّين بشيءٍ من شأنه أن يُفَرَّقَ، فَحَذَفَ المُشَبَّهَ بهِ، وتركَ شيئًا من لوازمِه، وأسنده إلى المُشبَّهِ على سبيل الاستعارة المَكنيَّة التَّخييليَّة. فالدِّينُ واحدٌ في حقيقته، لا يكونُ فيهِ التَّفريقُ والتَّمييزُ، فلمَّا تفرَّقوا مذاهبَ وأحزابًا، فكأنَّهمْ قدْ فرَّقوا الدِّينَ تفريقًا، وجعلوهُ شِيَعًا[2]، والقصدُ منهُ تكذيبُ بعضِ الدِّينِ وآياتهِ، وصدوفهمْ عنها، وتصديقُ بعضهِ والإيمانُ بهِ، فرَّقوهُ على هذا النَّحوِ ففارقوهُ؛ لأنَّ الكفرَ ببعضهِ كفرٌ بكلِّهِ[3].

نكتةُ إضافةِ الدِّينِ إلى الضَّميرِ العائدِ على المُفرّقين:

غـرضُ الإضافـةِ الـدِّلالـةُ على رغبتِهم في الدِّينِ وعدمِ انحلالِهم عنه

قولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمۡ وَكَانُواْ شِيَعٗا﴾، أضافَ الدِّينَ إلى الَّذين حصلَ منهم تفريقُ الدِّينِ، ونكتةُ إضافةِ "الدِّينِ إليهم، لشدَّةِ رغبتِهم فيه، ومقاتلتِهم عليه"[4]، للإشعارِ بأنَّهم لا ينفكُّون عنه، ولا ينفكُّ عنهم، ومعلوم أنَّهم "فَرَّقُوا دِينَهُمْ، أي: اختلفوا فيه، مع وحدتِهِ في نفسه، فجعلوه أهواءً متفرِّقة، وَكانُوا شِيَعًا أي: فِرَقًا تشيِّع كلُّ فرقةٍ إمامًا لها، بحسب غلبةِ تلك الأهواء، فلم يتعبَّدوا إلَّا بعاداتٍ وبِدَعٍ، ولم ينقادوا إلَّا لأهواءٍ وخدعٍ"[5].

دلالةُ توالي المؤكِّدات في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمۡ﴾:

ابتعادُ هؤلاءِ عنِ الدِّينِ أمرٌ متيقَّنٌ مؤكَّدٌ، والتَّحذيرُ منهمْ واجبٌ

قولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمۡ وَكَانُواْ شِيَعٗا﴾ في الآيةِ عدَّةُ مؤكِّداتٍ، فقد صدَّرها بـ﴿إِنَّ﴾، ثمَّ بالجملة الاسميَّة، فضلًا عن

(1) الاستعارةُ "أن يكون للّفظ أصلٌ في الوضع اللُّغويّ معروفٌ، تدلّ الشّواهد على أنّه اختصّ به حين وضع، ثمّ يستعمله الشّاعر أو غير الشّاعر في غير ذلك الأصل" كقولنا: (رأيتُ أسدًا في المدرسةِ)، فالأصل (رأيتُ رجلاً شجاعاً كالأسدِ في المدرسةِ)، ثمّ صارت الجملة إلى ما ترى. يُنظر: الجرجانيّ، أسرار البلاغة، ص: 30.

(2) جعفر شرف الدّين، الموسوعة القرآنيّة خصائص السّور: 7/24.

(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/334.

(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/334.

(5) القاسميّ، محاسن التّأويل: 4/550.

أنَّ ذكرَ الفاعلِ مرَّتيْن يفيدُ التَّوكيدَ، تارةً بكونِه مسندًا إليه مبتدأ، وتارَّة بكونه فاعلَ ﴿فَرَّقُواْ﴾، ثمَّ استعمالُ أداةِ الحصرِ ﴿إِنَّمَآ﴾، ثمَّ الباء ﴿بِمَا﴾، فهذهِ مؤكِّداتٌ كثيرةٌ، توالتْ في الكلامِ، وهوَ ضرْبٌ منْ ضروبِ البلاغةِ القرآنيَّةِ، فيهِ إشارةٌ إلى ابتعادِ هؤلاءِ عنْ طريقِ الحقِّ، وإيغالِهمْ في طريقِ الباطلِ، وأنَّ الحذرَ منهمْ واجبٌ، وأنَّ مردَّهمْ إلى اللّهِ، فينالوا جزاءَهمْ.

معنى الواو بين العطفِ والحاليَّةِ في ﴿وَكَانُواْ شِيَعًا﴾:

العطفُ جمعٌ للمعاني، والحالُ تجميلٌ للتَّركيبِ

معنى الواو في قولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا﴾ عاطفة[1]؛ إذ عطفتْ جملةَ ﴿وَكَانُواْ شِيَعًا﴾، على جملةِ ﴿فَرَّقُواْ دِينَهُمْ﴾، فإنَّ منْ صفاتِهمْ بعدَ تفريقِ الدِّينِ، تشايُعَهمْ على الطَّوائفِ والملِلِ، بأنَ يشايعَ بعضُهمْ بعضًا. ويجوزُ أنْ تكونَ الواوُ حاليةً، أيْ: إنَّهم فرَّقوا دينهمْ بتفرُّقهمْ أحزابًا وجماعاتٍ حالَ كونِهمْ شِيَعًا؛ لأنَّ كونهَمْ على ذلكَ الحالِ مفضٍ إلى تفرُّقِهمْ وتشتتِهمْ.

غرضُ العدولِ من الفعليَّةِ إلى الاسميَّةِ في ﴿وَكَانُواْ شِيَعًا﴾:

الثَّباتُ على التَّفرُّقِ والتَّوزُّعِ شِيَعًا ضلالٌ وخيبةٌ

قولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا﴾، جملةُ ﴿وَكَانُواْ شِيَعًا﴾ جملةٌ اسميَّةٌ منسوخةٌ، ويجوزُ لغةً التَّعبيرُ بالجملةِ الفعليَّةِ، منْ نحوِ (وتشيَّعوا)، وغرضُ العدولِ مِنَ الجملةِ الفعليَّةِ إلى الجملةِ الاسميَّةِ؛ للإيحاءِ بالثُّبوتِ والاستمرارِ على ما همْ فيهِ مِنَ التَّفرُّقِ بإشارةِ الجملةِ الاسميَّةِ الدَّالَّةِ على ذلكَ، لا سيَّما إنْ كانتْ جملة حاليَّة.

نكتةُ تنكيرِ ﴿شِيَعًا﴾ في قوله: ﴿وَكَانُواْ شِيَعًا﴾:

التَّنكيرُ يدلُّ على العمومِ، فكلُّ من فرَّق الدِّينَ داخلٌ فيه

وردتْ كلمةُ ﴿شِيَعًا﴾ نكرةً في قولِه تعالى: ﴿وَكَانُواْ شِيَعًا﴾، وفي تنكيرِها نكتةٌ لغويَّةٌ، وهي دلالتُها على العمومِ، فهي ليستْ خاصَّةً بفئةٍ دونَ الأخرى، فكلُّ "منْ فارقَ دينَه الَّذي بُعثَ بهِ ﷺ، منْ

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 3/285.

مشركٍ، ووثنيٍّ، ويهوديٍّ، ونَصرانيٍّ، ومتحنِّفٍ مبتدعٌ قدِ ابتدعَ في الدِّينِ، ما ضلَّ بهِ عَنِ الصِّراطِ المستقيم، والدِّينِ القيِّم"[1]، فكلُّ هؤلاءِ داخلون في عموم ﴿شِيَعًا﴾، لدلالةِ النَّكرةِ على العموم.

ويجوزُ أن يكونَ التَّنكيرُ دالًّا على التَّحقيرِ تهوينًا لشأنهم، والتَّنكيرُ في لفظةِ ﴿شِيَعًا﴾، يجوزُ أنْ يكونَ دالًّا على التَّحقيرِ، فالنَّكرةُ مُؤْذِنةٌ بذلكَ، وأنَّهمْ لا يُؤْبَهُ لهمْ، وإيرادُهمْ هنا بصيغةِ النَّكرةِ للدَّلالةِ على تحقيرِهمْ وإهانتِهمْ، جزاءً وفاقًا.

نكتةُ التَّعبيرِ بقوله: ﴿شِيَعًا﴾ بعدَ وصفِهم بتفريقِ الدِّينِ:

قولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا﴾، ذكرَ الحقُّ ﷻ من شأنِهم، أنَّهم فرَّقوا دينَهم كاليهودِ والنَّصارى، وأربابِ الأهواءِ وغيرهم[2]، ثمَّ زادَ عليهم أنْ وصفَهم بالشِّيعِ، وهم الطَّوائفُ والفِرقُ، فيكونُ كالتَّكرارِ لما سبقَ. والنُّكتةُ في ذلك زيادةُ التَّشنيعِ عليهم وتَبْشيعِ فِعْلِهِمْ، فهو "أشنعُ ممَّن لو كانَ كلُّ واحدٍ منهم يتَّبعُ دينًا؛ لأنَّهم في هذه الحالةِ اجتمعوا جماعة الضَّلال"[3]؛ فالفردُ في ضلالِه أقلُّ شناعةً وقبحًا من الجماعةِ في ضلالِهَا.

اجتماعُهم على الضَّلالةِ أشنعُ ممَّا لو كانوا فُرادى

نكتةُ دخولِ (كان) ودَلالَتُهَا في جملة ﴿وَكَانُواْ شِيَعًا﴾:

قولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا﴾، النُّكتةُ في دخولِ (كانَ) في التَّركيبِ القرآنيِّ بأنَّها جاءت على معنى الصَّيرورةِ، إذَ المُرَادُ: صاروا شيعًا، أيْ: إنَّهم بعد ما كانوا على الفطرةِ السَّويَّةِ، وعلى ما جاءتهمْ رسلُهمْ، صاروا فِرقًا وأحزابًا متفرِّقين[4].كما أنَّ دخولَ (كانَ) يُشْعِرُ بديمومةِ تفرُّقِهم، فكأنَّه كائنٌ مستقرٌّ فيهم، ومنْ خصائصِ إيرادِ (كانَ) على الجملةِ الاسميَّةِ، المُخبِرةِ عنْ

كانَ بمعنى الصَّيرورةِ والتَّحوُّلِ من الفطرةِ، وبمعنى ديمومةِ التَّفرُّقِ

(1) ابن جرير، جامع البيان: 12/271.
(2) الجرجانّي، درج الدّرر: 2/741.
(3) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/206.
(4) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنة: 8/273، والسّمرقنديّ، بحر العلوم: 1/498.

تفرُّقِهمْ شيعًا؛ أنَّ (كانَ) مشعرةٌ بديمومةِ تفرُّقِهمْ، ولكأنَّ هذا التَّفرُّقَ ثابتٌ مستقرٌّ فيهمْ، متمكِّنٌ منهمْ.

الموقعُ البيانيُّ لقولِهِ: ﴿لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾:

قولُه تعالى: ﴿لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾، هذهِ الجملةُ تقعُ موقعًا بيانيًّا متمِّمًا لما قبلَها، من جملةِ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا﴾، في أنَّها خبرٌ لهذهِ الجملةِ. أو على الاستئنافِ البيانيِّ، فكأنَّ سائلًا سألَ: فإنْ كانوا كذلكَ من التَّفرُّقِ والتَّشتُّتِ، فماذا على الرَّسولِ ﷺ؟ فيكونُ الجوابُ أنَّكَ بريءٌ منْ هؤلاءِ الَّذينَ فرَّقوا دينَهمْ، وصاروا شِيعًا[1].

إظهارُ براءةِ النَّبيِّ الخاتَم، ممَّن تفرَّقَ في صفوفِهِ، وفرَّقَ الدِّينَ

معنى (مِن) في قولِه تعالى: ﴿لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾:

(مِن) في الآية تفيدُ الابتداءَ، وهو معنًى شائعٌ غالبًا عندَ النَّحويِّينَ، حتَّى ادَّعى جماعةٌ أنَّ أكثرَ معانيها راجعةٌ إلى الابتداءِ[2]، والمعنى هنا: "لستَ منهمْ في شيءٍ، أنَّكَ لا صلةَ بينكَ وبينهمْ، فحرفُ (منْ) اتِّصاليَّةٌ، وأصلُها (منْ) الابتدائيَّة"[3]، فالنَّفيُ يكونُ أقوى بوجودِها، فلا علاقةَ له بهم من أوَّلِ أمرِه، وهو تبرئتُه ﷺ بأقوى وجهٍ.

الدِّلالةُ على الابتداءِ أو على التَّبعيضِ في تبرئتِهِ بأقوى وجهٍ

ويجوزُ أن تكونَ دالَّةً على التَّبعيضِ تنزيهًا له ﷺ، إذْ حرفُ الجرِّ (مِنْ) في الآيةِ يجوزُ أنْ يكونَ على معنى التَّبعيضِ، وهوَ معنًى متداوَلٌ منْ معانيها[4]، ونفي كونه ﷺ بعضَهمْ في قوله: ﴿لَّسْتَ مِنْهُمْ﴾؛ تنزيهٌ لهُ ممَّا وصفَهمْ الحقُّ ﷻ مِنَ الأوصافِ السَّيِّئَةِ في تفريقِ الدِّينِ، وكونهمْ شيعًا.

(1) ابن عجيبة، البحر المديد: 2/191.
(2) ابن هشام، مغني اللّبيب، ص: 419.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/192.
(4) المراديّ، الجنَى الدّاني، ص: 309.

دلالةُ دخولِ ليس واسمها وخبرها في قولِهِ ﴿لَّسْتَ مِنْهُمْ﴾:

براءتُهُ ﷺ من دينِ اليهودِ والنَّصارى

قولُه تعالى: ﴿لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾، (ليسَ) دالَّةٌ على النَّفي، نفي كونه ﷺ من أفعالِهم في التَّفريقِ، فالإسلامُ جاءَ جامعًا، فأيُّ تفريقٍ فأنتَ بريءٌ منه، والمعنى: "لستَ من دينِ اليهودِ والنَّصارى في شيءٍ، فقاتلْهم"[1].

نكتةُ تنكيرِ ﴿شَيْءٍ﴾:

إظهارُ براءتِهِ ﷺ من أدنى صلةٍ بهمْ

قولُه تعالى: ﴿لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾، (شيءٍ): اسمٌ نكرةٌ واقعٌ في سياقِ النَّفي، والنُّكتةُ في تنكيرِه: أنَّهُ "اسمُ جنسٍ بمعنى موجودٍ، فَنَفْيُهُ يفيدُ نفيَ جميعِ ما يوجَدُ مِنَ الاتِّصالِ"[2]، أي: تبرئتُه ﷺ من كلِّ وجهٍ، وفروغُه من كلِّ ما له صلةٌ بهم.

بلاغةُ الإيجازِ في جملة ﴿لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾:

غرضُ السِّياقِ نفيُ موالاةِ المتفرِّقين شِيَعًا، ونبذُ مذاهبِهم الفاسدة

قولُه تعالى: ﴿لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾، بلاغةُ الإيجازِ في هذهِ الجملةِ: أنَّها مشتمِلةٌ على المعاني الجمَّةِ الغزيرةِ، ومعناها: "المباعدةُ التَّامَّةُ منْ أنْ يجتمعَ معهمْ في معنى منْ مَذَاهِبِهِمُ الفاسدةِ"[3].

بلاغةُ الاستئنافِ البيانيِّ في جملة ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ﴾:

المصيرُ والجزاءُ راجعٌ إلى الله، لا إلى أحدٍ سواه

قولُه تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ﴾، الجملةُ واقعةٌ موقعًا بيانيًّا، دالًّا على الاستئنافِ[4] بعدَ ذكرِ براءتِه ﷺ؛ فجاءتْ ردًّا على سؤالِ سائلٍ مُفْتَرَضٍ: هلْ جزاءُ أعمالِهمْ ممَّا يقعُ على الرَّسولِ ﷺ؟ فكانَ الجوابُ أنَّ مصيرَهمْ إلى اللهِ تعالى وحدَهُ، إمَّا أنْ يعاقبَهمْ إنْ ثبتوا على ضلالِهمْ، أوْ يعفو عنهمْ عندَ توبَتِهمْ[5].

---

(1) ابن جرير، جامع البيان: 12/273.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/192.
(3) الجصّاص، أحكام القرآن: 3/34.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/192.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/234.

القَصْر وطريقتُه ونوعُه في جملة ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُمۡ إِلَى ٱللَّهِ﴾:

الجملةُ كالتَّعليلِ لنفيهِ تعالى أنْ يكونَ الرَّسولُ منهمْ

في قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُمۡ إِلَى ٱللَّهِ﴾ معنى الجملةِ: حصرُ أمرِهمْ إليهِ تعالى دونَ سواهُ، وهذهِ الجملةُ كالتَّعليلِ لما سبقَها[1] من قولِه: ﴿لَّسۡتَ مِنۡهُمۡ فِي شَيۡءٍۚ﴾، أي: لا رابطةَ لكَ بهمْ، فهوَ منْ يتولَّى شأنَهمْ وحدَهُ، ويدبِّرُهُ كيفَما يشاءُ، وحسبَما تقتضيهِ حكمتُهُ، وهوَ قصرُ موصُوفٍ على صفةٍ، وهوَ قصرٌ إضَافِيٌّ، وجاءتْ بـ﴿إِنَّمَآ﴾؛ لأنَّ الأمرَ ممَّا ينبغي ألَّا ينكرَهُ منكِرٌ.

غرضُ القَصْرِ قلبُ اعتقادِ السَّائلِ المتردِّدِ:

مهمَّةُ الرَّسولِ البلاغُ، وأمرُ العبادِ إلى اللهِ

لمَّا دلَّ قولُه تعالى: ﴿لَّسۡتَ مِنۡهُمۡ فِي شَيۡءٍۚ﴾ على البراءةِ منهمْ وتركِ مخالطَتِهمْ؛ أُثيرَ سؤالٌ: هلْ يتولَّى الرَّسولُ ﷺ مجازاتَهمْ؟

فجاءَ الجوابُ بصيغةِ القَصْرِ، وفائدتُهُ قلبُ اعتقادِ السَّائلِ المتردِّدِ وظنِّهِ[2]، بقولِه: ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُمۡ إِلَى ٱللَّهِ﴾، فشأنُهم وعاقبتُهم إلى اللهِ وحدَه لا إلى غيرِه.

التَّعبيرُ بحرفِ الجرِّ ﴿إِلَى﴾ مجازٌ من بابِ الاستعارةِ:

شبَّه أمرَ منْ فَرَّقَ الدِّينَ بضالَّةٍ تركَها النَّاسُ، حتَّى وصلتْ إلى مرجِعها

والتَّعبيرُ بحرفِ الجرِّ ﴿إِلَى﴾ في قولِه تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُمۡ إِلَى ٱللَّهِ﴾، يفيدُ انتهاءَ الغايةِ مجازًا من بابِ الاستعارةِ، فقدْ "شبَّهَ أمرَهمْ بالضَّالَّةِ الَّتي تركَها النَّاسُ، فسارتْ حتَّى انتهتْ إلى مُراحِها، فإنَّ الخلقَ كلَّهمْ عبيدُ اللهِ، وإليهِ يرجعونَ"[3].

دلالةُ الحرفِ ﴿ثُمَّ﴾ في قوله: ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُهُم﴾:

اللهُ تعالى يؤخِّرُ عقابَهُ مدَّةً مِنَ الزَّمنِ، إمهالًا مِنْهُ للعباد

معنى حرفِ العطفِ ﴿ثُمَّ﴾ في قولِه تعالى: ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ﴾: أنَّه يفيدُ التَّرتيبَ مع المُهْلَةِ، والمعنى في الآيةِ: أنْ يبقى

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/313.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/192.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/193.

شأنُهمْ إلى اللهِ مدَّةً مِنَ الزَّمنِ، إمهالًا منهُ تعالى وإملاءً لهم[1]. والتَّعبيرُ بـ﴿ثُمَّ﴾ الَّتي تفيدُ المهلةَ؛ لتراخي الحشرِ والحسابِ عن زمانِ التَّكليفِ، وفي التَّعبيرِ بـ﴿ثُمَّ﴾ "إشارةٌ إلى افتراقِ حالهِمْ في دنياهُمْ، عنْ حالهِمْ في أُخْرَاهُمْ افتراقًا بيِّنًا؛ لأنَّ بينهمْ مسافةً بعيدةً"[2]، فالدُّنيا دارُ فناءٍ، والآخرةُ دارُ بقاءٍ، لمنْ يعتبرُ.

التَّعبيرُ بـ﴿يُنَبِّئُهُم﴾ كنايةٌ عن معاقبتِهم جزاءَ أفعالِهم:

الإنباءُ مقدِّمةٌ لعقوبتِهم، وتقريرٌ لهم فيما ارتكبوا

قولُه تعالى: ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ﴾، بعدَ ما آلَ أمرُهم إلى اللهِ، بيَّنَ أنَّهُ سيُخبرُهمْ بما كانوا يعملونَ، وليسَ هذا مآلَ الكافرينَ، بلْ جزاؤهمْ العقابُ، فجعلَ الإنباءَ كنايةً عَنِ العقابِ؛ لأنَّ النَّبأَ هوَ الخبرُ الشَّديدُ الخطيرُ، "ومعنى أنبأهم بما كانوا يفعلونَ: إنباؤهمْ بما ينتظرُهمْ مِنَ العقابِ، بما كانوا يقولونَ، فينالونَ منْ بعدِ ذلكَ جزاءَهُ، ويصحُّ أنْ يكونَ الإنباءُ بإنزالِ العذابِ فعلًا"[3].

فالإنباءُ من مقدِّماتِ العقوبةِ المستحقَّةِ لهم، وهو كالتَّقريرِ لهم، فيما ارتكبوه في حياتِهم، وهناكَ مقصدٌ منْ مجيءِ التَّعبيرِ بالفعلِ، ﴿يُنَبِّئُهُم﴾، وهوَ تنبيهُهمْ على جهلِهمْ وغفلتِهمْ بما اقترفوا مِنَ الأفعالِ الدَّنيئةِ المستحقَّةِ للعذابِ، فيظهرُ لهمْ على رؤوسِ الأشهادِ، ويطلعُهمْ على ذميمِ ما كانوا يفعلونهُ، فيقرُّونَ، ويعترفونَ، فيتعرَّفونَ عَدْلَهُ تعالى في معاقبتِهمْ[4].

دلالةُ الباءِ على السَّببيَّةِ في قوله: ﴿بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ﴾:

تفريقُ الكفرةِ الدِّينَ، والمروقُ منه سببُ عقوبتِهم ومجازاتِهم

قولُه تعالى: ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ﴾، معنى الباءِ في قولهِ: ﴿بِمَا﴾ السَّببيَّةُ، وهوَ أحدُ معانيها في لسانِ العربِ[5]،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/193.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2756.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2756، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/193.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/314، والشّنقيطيّ، العذب النّمير: 2/607.
(5) ابن هشام، مغني اللّبيب، ص: 139.

والمعنى: أنَّه يعاقبُكُم بسببِ ما كنتمْ تفعلونَه من تفريقِ الدِّينِ والخروجِ منه. ويمكن أن تكونَ الباءُ للنَّقل والتَّعديةِ، وهو معنًى أصيلٌ، لا ينفكُّ عنها.

معنى العمومِ في الأداة (ما) في قولِه تعالى ﴿بِمَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ﴾:

قد تكون (ما) مصدريَّةً، والمعنى: ينبِّئكم بفعلكم، وقد تكون موصولةً على معنى ينبِّئكم بالذي كنتم تفعلونَهُ، فضلًا عن دلالتِها على العمومِ لا التَّعيينِ كـ(الّذي) ونحوِه، ومعناها: أنَّ الحقَّ ﷻ يخبرُهمْ بكلِّ شيءٍ كانوا يفعلونهُ، ويستحقُّونَ العذابَ عليهِ.

اللهُ عالمٌ بما كان عبادُهُ يفعلون، صَغُرَ أو كَبُرَ ما يقترفون

نكتةُ التَّعبيرِ بالفعلِ في قوله ﴿بِمَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ﴾:

قولُه تعالى: ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ﴾، نكتةُ التَّعبيرِ بالفعلِ ﴿يَفۡعَلُونَ﴾، ودلالتهُ على الشُّمولِ، فإنَّ الفعلَ يشملُ القولَ أيضًا، ويشمل ما كان مقصودًا، وما كان غيرَ مقصود، وهمْ محاسَبونَ على القولِ والفعلِ، كالخيرِ والشرِّ والتَّفريقِ والابتداعِ في الدّينِ.

علَّةُ حذفِ مفعولِ الفعلِ (يفعلون):

وأوردَ الفعلَ ﴿يَفۡعَلُونَ﴾ في قولِه تعالى: ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ﴾، من غيرِ تعيينِ مفعولٍ له، فيكونُ التَّقديرُ (يفعلونهُ)، لدلالةِ الكلامِ السَّابقِ عليهِ ﴿بِمَا كَانُواْ﴾، أيْ: بالَّذي يفعلونهُ، فضلًا عنْ أنَّ حذفَ المفعولِ، يوحي بإطلاقِ الفعلِ، أي: إنَّهُ ينبِّئُهمْ بأيِّ شيءٍ يفعلونهُ، فيحاسبُهم عليهِ.

حذفُ المفعولِ لدلالةِ الكلامِ السَّابقِ عليه معَ إطلاقِ الفعلِ:

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(التَّفرُّق) و(التَّشيُّع) و(التَّحزُّب):

التَّفرُّقُ منْ مادَّةِ (فرق)، والأصلُ في معناهُ: الفصلُ والتَّمييزُ بينَ أمرينِ[1]، وهوَ طباقُ المعنى في الآيةِ في أنَّهمُ انفصلوا، وتميَّزوا عَنِ

التَّفرُّق: انفصالٌ، والتَّشيُّعُ كذلك، معَ مساعدةٍ وإثارةٍ، والتَّحزُّبُ تجمُّعٌ ودعْمٌ

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (فرق).

الجماعةِ، وفرَّقوا دينَهمْ، " أي: جعلوا دينَهمْ مختلفًا، فخلطوا حقَّهُ بباطلِهِ، بأنْ آمنوا ببعضِ الرُّسلِ وبعضِ الكتبِ، وكفروا ببعضٍ"[1].

وكونهُمْ شيعًا، مأخوذٌ منْ شيعةِ الرَّجلِ، وهُمُ الجماعةُ الَّتي تميلُ إليهِ، وأصلُها مِنَ الشِّياعِ، وهيَ أعوادُ الحطبِ الدَّقيقَةُ الَّتي تُجعلُ معهُ، وتكونُ تابعةً للحطبِ لتساعدَ على الاشتعالِ[2]. فالمشايعةُ المساعدةُ والإثارةُ، كما ظهرَ مِنَ المعنى المستوحى منْ شياعِ الحطبِ.

أمَّا الحزبُ؛ فيختلفُ عَنِ اللَّفظينِ السَّابقَيْنِ في أنَّهُ جماعةٌ تتعاونُ، فالجماعةُ الَّتي تُعينُ الرَّجُلَ، فيتقوَّى أمرُهُ، تسمَّى الحزبَ، وهوَ مِنْ قولِهمْ: حَزَبَنِي الأمرُ عندَ اشتدادِهِ عليَّ[3].

(الفعل) و(العمل) و(الصُّنع):

الفعلُ تأثيرٌ، والعملُ إحداثٌ، والصُّنعُ إحداثٌ مع إجادةٍ

معنى الفعلِ تأثيرٌ بمؤثِّرٍ إنْ كانَ بإجادةٍ أوْ بغيرِها، فهوَ عامٌّ، ولما كانَ عنْ علمٍ ومعرفةٍ أوْ بغيرِ علمٍ، وأنْ يكونَ بقصدٍ أوْ منْ دونِ قصدٍ، وقدْ يكونُ مِنَ الإنسانِ أوْ منْ غيرِهِ[4]، فهوَ بذلكَ يدلُّ على العمومِ، وعلى عدمِ الإتقانِ، والتَّعبيرُ في الآيةِ في قولِه: ﴿بِمَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ﴾، مطابقٌ لما وردَ مِنْ معانٍ، فإنَّ فعلَهمْ كانَ عشوائيًّا خارجًا عنْ دائرةِ العلمِ واليقينِ؛ لذا وصفَ الحقُّ - ﷻ - حَالَهُمْ بأنَّهُ سيخبرُهمْ بعظيمِ مرتكبِهمْ بقولِه: ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُهُم﴾، والإنباءُ إخبارٌ عَنِ الشَّيءِ العظيمِ، والإنباءُ هنا أنْ يؤولَ أمرُهمْ إلى العذابِ.

أمَّا العملُ؛ فهوَ إيجادُ الأثرِ في الشَّيءِ منْ غيرِ علمٍ، فالعملُ لا يقتضي العلمَ، والعملُ يكونُ بمعنى الإحداثِ[5]، وهوَ أخصُّ مِنَ الفعلِ؛ لأنَّ الفعلَ قدْ ينسبُ إلى الحيواناتِ الَّتي يقعُ منها فعلٌ بغيرِ قصدٍ.

(1) السّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (فرق).
(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 307.
(3) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 415.
(4) الرّاغب، المفردات: (عمل).
(5) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 135.

أمَّا الصُّنعُ؛ فيختلفُ عَنِ الاثنين؛ لأنَّهُ إجادةُ الشَّيءِ، ولاتوصفُ الحيواناتُ والجماداتُ بأنَّها صانعةٌ، بلْ يوصفُ الحاذقُ المُجيدُ بأنَّهُ صانعٌ لإجادتهِ وجودتهِ[1]، ولم يوصفْ به غيره.والصُّنع يقتضي تهيئةً وإعدادًا ومراحل في العمل، لذلك وردَ ذكرهُ في القرآنِ في قضايا تحتاج إلى هذه العمليَّات والمراحل المتعدِّدة.

(1) الرّاغب، المفردات: (صنع).

﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشۡرُ أَمۡثَالِهَاۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَا وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ١٦٠﴾ [الأنعام: 160]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

ربطُ المآلِ إلى اللهِ وحسابِهِ للعبادِ، بمجازاتِهِ بالحسنةِ والسَّيِّئة

هذهِ الآيةُ متَّصلةٌ بما سبقَها اتِّصالَ الجوابِ بالسُّؤالِ، فإنَّهُ لمَّا ختمَ الحقُّ ﷻ الآيةَ السَّابقةَ بقولِه: ﴿لَّسۡتَ مِنۡهُمۡ فِي شَيۡءٍۚ إِنَّمَآ أَمۡرُهُمۡ إِلَى ٱللَّهِ﴾، فإذا آلَ أمرُ هؤلاءِ إليهِ، فثمَّةَ سائلٌ يسألُ: فما هوَ مصيرُهمْ ؟ الجوابُ عنْ ذلكَ: أنَّهُ سيجازيهمْ بأفعالِهمْ، فمنْ يجيءُ بالحسنةِ؛ فلهُ مثلُها عشرًا إكرامًا وإحسانًا، هذا جزاؤهُ في الدُّنيا والآخرةِ، ومنْ جاءَ بالسَّيِّئةِ، فَعَدْلُهُ تعالى أنْ يُجازَى بمثلِها؛ فإنَّهُ لا يُظلمُ عندَهُ أحدٌ منْ خلقِه[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿بِٱلۡحَسَنَةِ﴾: الجذرُ اللُّغويُّ منه (حسن)، والأمرُ الحسنُ ضدُّ السَّيِّئ، والحسنُ: الإجادةُ في العملِ والمعرفةِ والإتقانِ[2]، وأصلُ معناهُ واضحٌ وهو نقيضُ القُبْحِ[3]. والحسنُ: "عبارةٌ عن كلِّ مبهجٍ مرغوبٍ فيه...والحسنةُ يُعبَّر بِهَا عن كلِّ ما يسرُّ من نعمةٍ تنالُ الإنسانَ في نفسهِ وبدنِه وأحوالِه"[4].

والحسنةُ منْ أسماءِ الأجناسِ الَّتي تشتملُ على أنواعٍ كثيرةٍ، وتفسيرُها بحسبِ نوعِها في الآيةِ، فقدْ يكونُ الحُسْنُ معنويًّا، وقدْ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/336.
(2) الخليل، العين، والفيّومي، المصباح المنير: (حسن).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حسن).
(4) الرّاغب، المفردات: (حسن).

يكونُ بمعنى الإيمانِ والتَّوبةِ والعملِ، كهذهِ الآيةِ[1]، فهي هنا أنْ يوافيَ الإنسانُ ربَّه يومَ القيامةِ بالتَّوبةِ والإيمانِ، والعملِ الصَّالحِ والإقلاعِ عن المعاصي.

2) ﴿بِٱلسَّيِّئَةِ﴾: اسمٌ مؤنَّثٌ، الجذرُ اللُّغويُّ منه (سوء)، "والسُّوءُ نعتٌ لكلِّ شيءٍ رديء، ساءَ يسوءُ، لازمٌ ومجاوزٌ، والسُّوء: اسمٌ جامعٌ للآفاتِ والدَّاءِ"[2]. والسَّيِّئةُ "من بابِ القبحِ، تقولُ: رجلٌ أَسوأُ، أَي: قبيحٌ، وامرأَةٌ سوْءَاءُ، أَي: قبيحةٌ... ولذلكَ سمِّيتِ السَّيِّئةُ سيِّئةً، وسمِّيتِ النَّار سُوْءَى لِقُبْحِ منظرِها"[3].

والمعنى العامُّ للسُّوءِ ما يحصلُ للإنسانِ من الغمِّ والهمِّ، من أمورِ الدُّنيا والآخرةِ، وما يعرضُ له من الأمورِ النَّفسيَّةِ كفقدِ المالِ والجاهِ وغيرِه[4].

والسَّيِّئةُ مِنَ السُّوءِ، وهيَ ما قَبُحَ مِنَ الأفعالِ، وهيَ صفةٌ جاريةٌ مجرى الجوامدِ لإفادةِ الذَّمِّ، وهيَ على ضربينِ منهُ ما يُقالُ باعتبارِ العقلِ والشَّرعِ[5]. ومعنى ﴿بِٱلسَّيِّئَةِ﴾ في الآيةِ: الإشراكُ والكفرُ باللهِ تعالى[6].

3) ﴿يُظْلَمُونَ﴾: فعلٌ مضارعٌ دالٌّ على الحالِ والاستقبالِ، الجذرُ اللُّغويُّ منهُ (ظلم)، ومعناهُ: أنْ تأخذَ حقَّ غيرِكَ، وتسلبهُ إيَّاهُ[7].

والأصلُ في معنى الظُّلمِ وضعُكَ الشَّيءَ في غيرِ الموضعِ الحقيقِ، بهِ تعدِّيًا[8]، فهوَ خلافُ الحقِّ، فمنْ تعدَّى مِنَ الحقِّ إلى الباطلِ، فقدَ وضعَ الشَّيءَ في غيرِ موضعهِ نقصانًا أوْ زيادة، أوْ ميلًا وانحرافًا عنْ زمانهِ أوْ مكانهِ، وبذلكَ يسمَّى ظالمًا[9].

وهوَ أيضًا الجَوْرُ ومجاوزةُ الحدِّ، وبذلكَ يدخلُ في المعنى العامِّ الموضوعِ لهُ، فالجَوْرُ على حقوقِ النَّاسِ هوَ منعٌ لهم[10].

---

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (حسن).
(2) الخليل، العين: (سوأ).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سوء).
(4) الرّاغب، المفردات: (سوأ).
(5) السّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (سوأ).
(6) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/701، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 3/380.
(7) الخليل، العين: (ظلم).
(8) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن دريد، جمهرة اللّغة: (ظلم).
(9) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفاظ: (ظلم).
(10) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (ظلم).

ونفيُ الظُّلمِ هنا توكيدٌ لجزاءِ السَّيِّئةِ بمثلِها، تحقيقًا للعدلِ، وأنَّهُ موضعٌ لا ظلمَ فيهِ، كيْ ينصفوا أنفسَهمْ[1].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

ميزانُ الجزاءِ الإلهيِّ، بِجَزَاءِ الحسنةِ بِعشرٍ، والسَّيِّئةِ بمثلِها

إنَّه ميزانٌ وضعَه الحقُّ ﷻ: أنَّ من عملَ حسنةً؛ فجزاؤه عشرٌ من مثلِها، لذَّةً ونعيمًا، ومن عملَ سَيِّئَةً؛ فلا يُجزى إلَّا بواحدةٍ من مثلِها، وهذا من مقتضى عدلِه، ومن عظيمِ فضلِه على عبادِه، بأنْ أفاضَ على الطَّائعينَ من جودِه العميمِ، وعاقبَ العاصينَ بمقدارِ عصيانِهم، بعدلِه الرَّحيمِ، فالجميعُ عندَه لا يُظلمونَ.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ الاستئنافِ البيانيِّ في جملة ﴿مَن جَآءَ﴾:

مَنْ يأتِ بالحسنةِ يُجْزَ عشرَ أضعافِها بكرمِ اللهِ الواسعِ

قولُه تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشۡرُ أَمۡثَالِهَاۖ﴾ هذه الآيةُ استئنافٌ بيانيٌّ لتعيينِ جزاءِ العاملينَ، فكأنَّ سائلًا يسألُ عنْ جزاءِ منْ يعملُ حسنةً؟ فكانَ الجوابُ أنْ يُجازى بعشرِ أضعافِها، ثمَّ ذكرَ أضدادَهمْ، والآيةُ تذييلٌ للكلامِ السَّابقِ[2].

غرضُ التَّعبيرِ بالاسمِ الموصولِ ﴿مَن﴾:

الاسمُ الموصولُ (مَنْ) مُؤْذِنٌ بالعمومِ، فالمحسنُ مجازًى أيًّا كانَ

قولُه تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشۡرُ أَمۡثَالِهَاۖ﴾، ﴿مَن﴾ اسمٌ موصولٌ دالٌّ على العمومِ، وهوَ هنا كذلكَ، خلافًا لمنْ قيَّدهُ بالأعرابِ أوْ نحوِهمْ، فحكمُ المجيءِ بالحسنةِ والسَّيِّئةِ، وما يترتَّبُ عليهما، عامٌّ يشملُ الجميعَ كائنًا منْ كانَ[3]. ﴿مَن﴾ هنا استُعملت في معنى الشَّرطِ، حيث ربطت بين فعلِ الحسنةِ ومضاعفةِ أجرِها، ومعاملةُ اللهِ النَّاسَ فيما أحسنوا وأساؤوا قائمةٌ على العدلِ، فلا يضيعُ عنده جهدُ العاملين، مهما كان ضئيلًا، وقد وردَ في القرآنِ الكريمِ قولُه

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/197.
(2) الآلوسّي، روح المعاني: 8/68 - 69، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/195.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/702، وإسماعيل حقّي، روح البيان: 3/126.

تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجۡرَ مَنۡ أَحۡسَنَ عَمَلًا ٣٠﴾ [الكهف: 30].

نكتةُ التَّعبيرِ بفعلِ المجيء في جملة ﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ﴾:

المجيءُ إتيانٌ معَ إصابَةٍ، وهو أفخمُ في التَّعبيرِ من (عملِ الحسنة)

وقدْ عبَّرَ بالمجيء بالحسنةِ في قولِه تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشۡرُ أَمۡثَالِهَاۖ﴾، والأصلُ في الحسنةِ أنْ تكونَ معمولةً، فالمعنى منْ عملَ الحسنةَ، لكنَّهُ استعملَ المجيءَ معَ الحسنةِ، تشبيهًا لعاملِها بمنْ يخرجُ يطلبُ رزقَهُ، منْ وجوهِه المختلفةِ، منْ صيدٍ أوِ احتطابٍ، فيصيبُ منهُ ما يشاءُ، فيجيءُ أهلَهُ بشيءٍ منْ ذلكَ[1]، وهو أفخمُ من التَّعبيرِ بعملِ الحسنةِ.

بلاغةُ المجازِ والحقيقةِ في المجيءِ بالحسنةِ والسَّيِّئةِ:

ما يستوجبُ للمرءِ ثوابًا وعقابًا، هوَ المعتمدُ، فالأمورُ بخواتيمِها

قولُه تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشۡرُ أَمۡثَالِهَاۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ﴾، المجيءُ بالحسنةِ والسَّيِّئةِ له وجهان:

فإمَّا أن يكون مجازًا، منْ بابِ الاستعارةِ، فقدْ شبَّهَ المحسنَ وغيرَهُ بمنْ يخرجُ طالبًا رزقَهُ أوْ نحوهُ، فيصيبُ منهُ ما قدَّرَ اللّٰهُ لهُ، وشُبِّهت الحسنة بالشَّيء المحسوس الَّذي من شأنه أن يُجاء به. أو يكون المجيءُ بالحسنةِ والسَّيِّئةِ حقيقةً، لكنَّهُ لمْ "يقلْ: مَنْ عَمِلَ لِيُعْلَمَ أنَّ النَّظرَ إلى ما خُتِمَ بهِ، وقُبِضَ عليهِ دونَ ما وُجِدَ منهُ مِنَ العملِ، فكأنَّهُ قالَ: منْ خُتِمَ لهُ بالحسنةِ، وكذلكَ السَّيِّئةُ"[2].

فجعلَ عاقبةَ أمرِ المرءِ، وما يستوجبُ مِنَ الثَّوابِ والعقابِ، هوَ المُعَوَّلَ عليهِ، لا الأعمالَ نفسَها، فقدْ يأتي بعملٍ حسنٍ، ثمَّ يفسدهُ، فالأعمالُ بِخَوَاتِيمِهَا.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/195.
(2) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنة: 4/334.

دلالة الباء في ﴿بِٱلۡحَسَنَةِ﴾ و﴿بِٱلسَّيِّئَةِ﴾:

المحسنُ يكتبُ حسناتهُ في صحيفةِ أعمالهِ يومَ الحساب الأكبر

قولُه تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشۡرُ أَمۡثَالِهَاۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ﴾ الباءُ الدَّاخلةُ على الحسنةِ والسَّيِّئةِ، تفيدُ المصاحبةَ، والكلامُ تمثيلٌ[1] فقد شبَّهَ عملَ الحسنةِ والسَّيِّئةِ بحالِ المكتسبِ، كأنَّه يجيءُ بها. ويمكن أن تكونَ الباءُ على أصلِها في معنى التَّعدية، ويمكنُ حملُ المجيءِ على حقيقتهِ، أي: أنْ يأتيَ إلى الحسابِ، فيجيءُ بحسنتهِ، ويكتبُها في صحيفةِ أعمالهِ[2].

معنى (أل) في لفظي الحسنة والسّيّئة:

الألفُ واللّامُ جنسيَّةٌ تشملَ جميعَ الحسناتِ والسَّيِّئاتِ

قولُه تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشۡرُ أَمۡثَالِهَاۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ﴾، الألفُ واللّامُ في الحسنةِ والسَّيِّئةِ جنسيَّةٌ تفيدُ العمومَ، أيْ: جميعُ الحسناتِ والسَّيِّئاتِ، فاللَّفظُ عامٌّ في كلِّ حسنةٍ أوْ سيِّئةٍ، تصدرُ مِنَ العبدِ[3].

نكتةُ إفرادِ الحسنةِ والسَّيِّئةِ في الآيةِ الكريمةِ:

إفرادُهما لبيانِ ما سيليهما من جزاءٍ مُضاعفٍ للمُحسنِ، ومُفردٍ للمُسيء

ونكتةُ ورودِ الحسنةِ والسَّيِّئةِ هنا مفردةً: هو بيانُ ما سيليها منْ جزاءٍ، فقدْ ذكرَ أنَّ المحسنَ إن جاءَ بواحدةٍ؛ كُتبتْ لهُ عشرًا، والمسيءُ إن جاءَ بواحدةٍ؛ جُزيَ بمثلِها[4]، فلو لم تفردْ؛ لما تبيَّنَ هذا الجزاءُ، فضلًا عن كونهما - أي: الحسنة والسَّيِّئة - اسمَيْ جنسٍ.

"قال ابن مسعود وغيره: بِالْحَسَنَةِ هنا: (لا إله إلا اللّه)، وبِالسَّيِّئَةِ: الكفر.. وهذه هي الغايةُ من الطَّرفَيْنِ، وقالت فرقةٌ: ذلك لفظٌ عامٌّ في جميع الحسناتِ والسَّيِّئاتِ، وهذا هو الظَّاهر، وتقديرُ الآية: (مَنْ جاء بالحسنة، فله ثوابُ عَشْرِ أمثالها)"[5].

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/195.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/195.
(3) الماورديّ، النّكت والعيون: 2/193، والخازن، لباب التأويل: 2/177.
(4) السّيوطيّ، الدّرُّ المنثور: 2/37.
(5) الثّعالبيّ، الجواهر الحسان: 2/534.

بلاغةُ النَّظمِ في إفادةِ معنى الشَّرطِ ودلالتهِ في الآيةِ:

دلالةُ التَّرغيبِ للمحسنِ في الحسنةِ، والتَّنفيرِ للمسيءِ منَ السَّيِّئةِ

والنَّظمُ القرآنيُّ في قولهِ تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشۡرُ أَمۡثَالِهَاۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ﴾ قائمٌ على الشَّرطِ، ودلالةُ هذا الشَّرطِ في الآيةِ قائمٌ على المجازاةِ، وهيَ متناسبةٌ معَ معنى الآيةِ، فإنَّ منْ جاءَ بالحسنةِ؛ جُوزي عليها عشرًا، ترغيبًا لمن جاءَ بها، ومنْ جاءَ بالسَّيِّئةِ؛ جُوزيَ عليها بمثلها تنفيرًا من تعاطيها.

بلاغةُ طباقِ السَّلبِ بينَ لفظي (الحسنةِ) و(السَّيئةِ) في الآيةِ:

بضدِّها تتميَّزُ الأشياءُ، والضِّدُّ يُظهرُ حسنَهُ الضِّدُّ

قولُه تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ﴾ مقابلَ قولِه تعالى: ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ﴾، جاءَ بالمتضادَّاتِ ﴿بِٱلۡحَسَنَةِ﴾، ﴿بِٱلسَّيِّئَةِ﴾ بطباقِ السَّلبِ[1]، وفي هذا الضَّربِ إشارةٌ مؤثِّرَةٌ في وضوحِ المغزى، ومزيدِ فصاحتِه؛ بما يجعلُ النَّفسَ مشدودةً إليهِ، منجذبةً نحوَ تعرُّفِ معناهُ، واستكناهِ سرِّهِ، والعربُ تقولُ: (بضدِّها تتميَّزُ الأشياءُ)، فَذِكْرُ السَّيِّئةِ بعدَ الحسنةِ، يخلعُ على الجملةِ بهاءً وبيانًا، ويزيدُها نصاعةً وتقريرًا.

وفي ذلكَ زيادةٌ في تعالقِ الجملِ المشتملةِ على الألفاظِ المتضادَّةِ، والطِّباقُ أسلوبٌ رائعٌ، لا يُحسِنهُ إلَّا منْ أوتيَ جوامعَ الكلمِ، فإنَّ اللَّفظةَ تُظهِرُ نصاعةَ اللَّفظةِ الأخرى وجمالَها، أكثرَ ممَّا لوْ كانتْ منفردةً، والعربُ تقولُ: (والضِّدُّ يُظْهِرُ حُسْنَهُ الضِّدُّ).

الرَّبطُ في دخولِ الفاءِ في قوله: ﴿فَلَهُۥ﴾، وقوله: ﴿فَلَا﴾:

الفاءُ دالَّةٌ على الجزاءِ ترغيبًا معَ الحسنةِ وتنفيرًا معَ السَّيِّئةِ

ودخلتِ الفاءُ رابطةً في جملتين، الأولى: قولُه تعالى: ﴿فَلَهُۥ عَشۡرُ أَمۡثَالِهَاۖ﴾، مقابلَ قولِه تعالى: ﴿فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَا﴾، ففي الأولى قالَ: ﴿فَلَهُۥ﴾؛ لأنَّه إيجابُ الجزاءِ في الحسنةِ، وفي الثَّانيةِ قالَ: ﴿فَلَا﴾، وهو ممَّا ليسَ فيه إيجابٌ مع السَّيِّئةِ[2]، وفي الموضعين:

(1) ويقال التَّضادّ، والتَّكافؤ والمقابلة، وحاصله الإتيان بِالنَّقِيضَيْنِ والضّدين، كالحسنة والسّيئة في الآية، يَحْيَى العلويّ، الطّراز: 3/198.

(2) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنة: 4/333.

تدلُّ ﴿يُجۡزَىٰٓ﴾ على يقينِ العطاءِ المُضاعَفِ في قوله: ﴿فَلَهُۥ عَشۡرُ أَمۡثَالِهَاۖ﴾، وفي الثَّانية على المماثلة، ونفي الأضعاف في قوله: ﴿فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَا﴾.

غرضُ تقديمِ شبهِ الجملةِ في ﴿فَلَهُۥ عَشۡرُ أَمۡثَالِهَاۖ﴾:

اختصاصُ مجازاةِ المُحسنِ بعشرٍ مِنْ أمثالِها إشعارًا بعلوِّ منزلتِهِ

قولُه تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشۡرُ أَمۡثَالِهَاۖ﴾، هنا قدَّم الجارَّ والمجرور ﴿فَلَهُۥ﴾ على المسنَد إليه ﴿عَشۡرُ أَمۡثَالِهَاۖ﴾، وهوَ تقديمٌ جائزٌ لا واجب، وتظْهرُ فائدتهُ في الاختصاصِ، اخْتِصَاصِ جزاءِ الَّذي يأتي بالحسنةِ في أنَّهُ يُجازى بعشرِ أمثالِها إشعارًا بأنَّه ذو منزلةٍ عاليةٍ، حتَّى نالَ هذا الجزاءَ، واللَّام فيه للتَّخصيص أو للاستحقاق.

دلالةُ التَّعبيرِ بـ﴿عَشۡرُ﴾ من دون تاءٍ مع المعدودِ المذكَّرِ (مِثْل):

يجعلُ اللهُ تعالى الأصلَ في العطاء على الحسنةِ، لا على المِثْل

واستعملَ كلمةَ ﴿عَشۡرُ﴾ من غيرِ تاءٍ في قولِه تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشۡرُ أَمۡثَالِهَاۖ﴾ معَ أنَّ المعدودَ (مثل) مذكرٌ، والأصلُ في العددِ أنْ يباينَ المعدودَ في لحوقِ التَّاءِ مِنْ عدمِها[1]، فالمعدودُ هنا مذكَّرٌ، والقيَاسُ أنْ تلحقَ التَّاءَ، فالتَّاءُ قرينُ التَّذكيرِ، وعدمُها قرينُ التَّأنيثِ، فتركُها هنا إيذانٌ بأنَّ الحقَّ ﷻ: "لمْ يجعلِ الأصلَ في العطاءِ هوَ المثلَ، بلْ جعلَ الأصلَ هوَ الحَسَنَةَ"[2]، وهذا من مطلقِ رحمتِه وكرمِه وفضلِه ﷻ.

جاء في (الدّرّ المصون): "قولهُ تعالى: ﴿فَلَهُۥ عَشۡرُ أَمۡثَالِهَاۖ﴾: إنَّما ذكَّر العددَ، والمعدودُ مذكَّرٌ، لأوجهٍ؛ منها: أنَّ الإضافةَ لها تأثيرٌ - كما تقدَّم غيرَ مرَّةٍ - فاكتسب المذكَّرُ من المؤنَّثِ التأنيثَ، فأُعطي حكمَ المؤنَّث من سقوط التَّاء من عددِه، ولذلك يؤنَّثُ فعلُه حالةَ إضافتِه إلى مُؤَنَّثٍ. ومنها: أنَّ هذا المذكَّر عبارة عن مؤنَّثٍ، فَروعِيَ

(1) الحريريّ، ملحة الإعراب، ص: 73.
(2) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 7/4017.

المُرادُ دون اللَّفظ. ومنها: أنَّه راعى الموصوف المحذوف، والتَّقديرُ: فله عشرُ حسناتٍ أمثالها، ثمَّ حذف الموصوف وأقام صفتَه مُقامَه، تاركًا العددَ على حالِه"[1].

توجيهُ القراءاتِ القرآنيَّةِ في قولِه تعالى: ﴿عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾:

قراءةُ التَّنوينِ كانت دفعًا لتوهُّمِ إضافةِ الشَّيءِ إلى نفسِه

قولُه تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾، قرأَ يعقوبُ (عَشْرٌ أَمْثالُها)، بتنوينِ عشرٍ، ورفعِ أمثالِها، وقرأَ الباقون ﴿عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾، بغيرِ تنوينٍ مع جرِّ أمثالِها على الإضافةِ[2].

والمعنى على قراءةِ يَعْقوبَ: فلهُ حسناتٌ عشرُ أمثالِ الحسنةِ تلكَ، فـ(أمثالها) صفةٌ أو بدلٌ من (عَشْرٌ). والمعنى على قراءةِ عامَّةِ القرَّاءِ: فلهُ عشرُ أمثالِ تلكَ الحسنةِ[3].وفي توجيهِ قراءةِ يعقوبَ ابتعادٌ عنْ شبهةِ إضافةِ الشَّيءِ إلى نفسهِ بقولِه: ﴿عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾، فالشَّيءُ لا يضافُ إلى نفسهِ[4].

مضاعفة الحسناتِ بينَ العشرِ والسَّبْعِمِئَةِ:

هذهِ الآيةُ عامَّةٌ لجَميعِ أفعالِ الخيرِ، وآيةُ البقرةِ خاصَّةٌ بالإنفاقِ في سبيلِه

قالَ تعالى هنا: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾، وقالَ في سورةٍ أخرى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ﴾ [البقرة: 261] فَيُسألُ عن الفرقِ بين الآيتين؟

والجوابُ عن ذلكَ: أنَّ آيةَ البقرةِ خاصَّةٌ في الإنفاقِ في سبيلِ اللّهِ، وهو من أعظمِ القرباتِ إلى اللّهِ تعالى، أمَّا آيةُ الأنعامِ فعامَّةٌ في مُطلَقِ الحسناتِ[5]، شاملةٌ جَميعَ أفعالِ الخيرِ.

(1) السّمين الحلبيّ، الدر المصون: 5/237، وبتصرف.
(2) ابن الجزريّ، النشر: 2/267.
(3) الأزهريّ، معاني القراءات: 1/397.
(4) ابن جرير، جامع البيان: 12/280.
(5) ابن جماعة، كشف المعاني: ص 171 - 172.

نكتةُ التَّعبيرِ بالصِّيغةِ الفعليَّةِ بدلًا من الاسميَّةِ في الآية الكريمة:

دلالةُ الفعلِ على عدمِ الثُّبوتِ مُؤْذِنٌ بجوازِ العفوِ عَنِ السَّيِّئةِ

قولُه تعالى: ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَا﴾، عَدَلَ عن المجازاةِ بالسَّيِّئَةِ من الاسميَّةِ إلى الفعليَّةِ ﴿يُجۡزَىٰٓ﴾ في أنَّهُ تعالى يمكنُ "أنْ يعفوَ عَنِ السَّيِّئةِ فلا يحسبُ حتَّى المِثْلُ الوَاحِدُ"[1]؛ لأنَّ الفعلَ يدلُّ على عدمِ الثُّبوتِ خلافًا للجملةِ الاسميَّةِ، فالمحسنُ لهُ عشرُ أمثالِ الحسنةِ ثابتةً قائمةً تزيدُ، ولا تنقصُ.

نكتةُ التَّعبيرِ عن فعلِ الجزاءِ بالبناءِ للمفعولِ في ﴿يُجۡزَىٰٓ﴾:

انصِباب المَعنى على وقوعِ فعل الجزاء على وجه السّرعة

وبُنِي الفعلُ ﴿يُجۡزَىٰٓ﴾ للمفعولِ بحذفِ الفاعلِ، والأصلُ فيهِ (يجزي اللهُ)، ونُكْتَتُهُ أنَّ المُجازيَ هوَ اللهُ، وقدْ حُذِفَ لفظهُ للعلمِ بهِ، فلا جزاءٌ إلَّا منهُ ﷻ، وليسَ لغيرهِ مِنَ الأمرِ شيءٌ، فالدَّعوةُ هنا للانشغال بالفعل عن الفاعل للعلم به.

بلاغةُ القَصْرِ ونوعُه في الاستثناءِ بعدَ النَّفي:

الاهتمامُ بالجزاءِ، والكشفُ عن مصيرِ من يأتي بالسَّيِّئاتِ

قولُه تعالى: ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَا﴾، جاءتِ العبارةُ هنا على طريقةِ الحَصْرِ، وهوَ حصرٌ حقيقيٌّ غرضُهُ الإخبارُ عَنِ الأمرِ حقيقةً، وليسَ منْ بابِ ردِّ الاعتقادِ[2].

والتعبيرُ بأسلوبِ الحصرِ منْ بابِ الاهتمامِ بجزاءِ المسيءِ، ولِما فيهِ منْ جانبِ النَّفي ممَّا يزيدُ الأمرَ توكيدًا، فمنْ يعملُ سيِّئةً فجزاؤهُ مثلُها، طباقًا وفاقًا منْ غيرِ زيادةٍ أوْ نقصانٍ، فالقصرُ هنا من قصر الجزاءِ على صفة المِثليَّة، وهو قصر إضافيٌّ، وجاء بأسلوب الاستثناء، بعد النَّفي الَّذي يأتي مع المُنَكَّرِ أو من يُنزَّل هذه المنزلة؛ لأنَّ الإنسان قد يظنُّ أنَّ هذه السَّيِّئة قد تُضاعف، كما هي الحسنة، فجاء هذا الأسلوبُ من القصرِ، ليبيِّنَ أنَّ الأمرَ ليس كما يُظنُّ.ويُقال في الفاء هنا، كما قيل في تلك.

---

(1) الطّباطبائي، الميزان: 8/403، والشّنقيطيّ، العذب النّمير: 2/613.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/196.

التَّعبيرُ بقوله: ﴿مِثْلَهَا﴾ في الآيةِ فيه مجازٌ بالحذفِ:

قولُه تعالى: ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَا﴾، دلالةُ قولِه: ﴿إِلَّا مِثۡلَهَا﴾، على حذفِ مضافٍ، والتَّقديرُ: (عقابَ مثلِ السَّيِّئَةِ)؛ لأنَّ المجازاةَ لا تكونُ بالسَّيِّئَةِ نفسِها، وإنَّما أضافَ المِثْلَ إلى ضميرِ السَّيِّئَةِ للملابسةِ، والإضافة في اللُّغةِ، تكونُ لأدنى ملابسةٍ واتِّصالٍ، ثمَّ حذفَ المضافَ (عقاب)، وأقامَ المضافَ إليهِ مُقامهُ امتنانًا منهُ تعالى على خلقهِ.

الكلامُ على حذفِ مضافٍ، تقديرهُ (عقاب مثلِها)، وإضافتُها للملابسةِ

وقدْ يكونُ المِثْلُ على غيرِ نوعِ الأصلِ، "حيثُ أوجبَ في الحسنةِ مِنَ الثَّوابِ عشرَ أمثالِها، ومِنَ السَّيِّئَةِ مِثلَها، وليسَ واحدٌ منهما منْ نوعِ الأصلِ والعملِ الَّذي يُثابُ عليهِ"[1]، فالمثلُ يختلفُ عَنِ الأصلِ، والمظنونُ أنَّ المِثْلَ هنا أفضلُ منَ الأصلِ؛ لأنَّ الحسنةَ والسَّيِّئَةَ صادرةٌ منَ البشرِ، والمِثْلَ صادرٌ منْ ربِّ البشرِ.

معنى الواوِ في: ﴿وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾، وموقعُ الجملةِ بعدَها:

قولُه تعالى: ﴿وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾، الواوُ في هذهِ الجملةِ تَحتملُ العطفَ، عطفتِ الجملةَ بعدَها على جوابِ الشَّرطِ، وهو قولُه: ﴿فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَا﴾، لتفيدَ تشريكًا معنويًّا، فإنَّ المجازي هو الحَكَمُ العَدْلُ، لا يجازي أحدًا من خلقه إلَّا بما يستحقُّ. ويَحتمِلُ أن تكونَ الواوُ في هذهِ الجملةِ حاليَّةً، أيْ: إنَّ الحقَّ ﷻ يجازي المحسنَ عشرًا، والمسيءَ واحدةً، حالةَ كونِ الجميع غيرَ مظلومينَ، فلا تُزادُ سيِّئَةُ المسيءِ، ولا تُنقصُ منْ حسناتِ المحسنِ شيئًا[2].

الواوُ تفيدُ العطفَ أو الحالية، وفيهما المُجازي عادلٌ في حكمِه

دلالةُ الضَّميرِ (هم) ومرجعيَّتُهُ في قوله: ﴿وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾:

والضَّميرُ (هم) في قولِه تعالى: ﴿وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾، ضميرُ غَيْبَةٍ، فلا بدَّ لهُ منْ مرجعيَّةٍ تفسِّرهُ، وهوَ هنا يعودُ على منْ جاءَ بالسَّيِّئَةِ،

عودةُ الضَّميرِ لإظهارِ العدلِ الإلهيِّ، وتوخِّي الإبانةِ من الجملة

(1) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنة: 4/335.
(2) الشّنقيطيّ، العذب النّمير: 2/612.

ففيهِ إظهارٌ للعدلِ الإلهيِّ، وأنَّهُ يسجِّلُ عليهمْ بانتفاءِ الظُّلمِ، وتحقيقِ الإنصافِ، وأنَّهُ عاملَهمْ بعدلهِ وإحسانهِ[1].

ويجوزُ عودةُ الضَّميرِ (همْ)، إلى منْ جاءَ بالحسنةِ، فَجُوزِيَ عليها، وإلى منْ جاءَ بالسَّيِّئةِ، فجوزيَ عليها، فلا ينقصُ منْ حسناتِ المحسنينَ، ولا يزادُ على سيِّئاتِ المسيئينَ[2]؛ فَعَدْلُه تعالى يشملُ الجميعَ.

نكتةُ العدولِ من (مَن) إلى ضميرِ الجمعِ للغائبِ (هم):

سرُّ الانتقالِ الرُّتْبيِّ مِن دلالةِ العمومِ (مَن) إلى دلالةِ التَّعيينِ (هم)

قولُه تعالى: ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ انتقالٌ من ﴿مَن﴾ الدَّالَّةِ على العمومِ في قولِه: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ﴾، إلى تعيينِ مَن شملهُم جزاءُ الحسنى وجزاءُ السُّوءِ، وهو انتقالٌ رُتْبِيٌّ من العمومِ إلى الخصوصِ.

نكتةُ توسُّطِ ﴿لَا﴾ بينَ المسنَدِ إليه (هم)، والمسندِ الفعليِّ ﴿يُظْلَمُونَ﴾:

تحقيقُ العدلِ، يقعُ يومَ القيامةِ، والتَّوسُّطُ يفيد تقويةَ الحكمِ

وفي قولِهِ تعالى: ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾، توسَّطَ النَّفيُ بينَ المبتدأِ ﴿وَهُمْ﴾، والخبرِ الفعليِّ ﴿يُظْلَمُونَ﴾، ونكتةُ ذلكَ أنَّ الفعلَ المضارعَ يَحتمِلُ زمنينِ: الأوَّلُ الحالُ، والثَّاني الاستقبالُ، فلمَّا دخلتْ ﴿لَا﴾ عليهِ، خلَّصتهُ إلى الاستقبالِ[3]، فنفي الظُّلمِ هنا وتحقيقُ العدلِ يكونُ "يومَ القيامةِ، ويقالُ: إنَّها آخرُ آيةٍ نزلتْ من كتابِ اللهِ جلَّ وعزَّ"[4]. وتوسُّطُ النَّفي بينَ المسنَدِ إليهِ، وهوَ هنا المبتدأُ (همْ)، والمسندِ الفعليِّ، وهوَ الخبرُ ﴿يُظْلَمُونَ﴾؛ يفيدُ تقويَةَ الحكمِ، فلا ظلمَ يقعُ على المخاطَبينَ في الآيةِ زيادةً أوْ نقصانًا، ولا مجالَ لأن يفيدَ هذا الأسلوب التَّخصيص هنا ؛ لأنَّ الظُّلم لن يلحقَ غيرهم أيضًا.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/197.
(2) أبو حفص النّسفيّ، التّيسير في التّفسير: 6/270، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 2/191.
(3) ابن الورّاق، علل النّحو، ص: 562.
(4) الزّجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 1/360.

نكتةُ بناءِ الفعلِ ﴿يُظْلَمُونَ﴾ للمفعولِ:

الفعلُ ﴿يُظْلَمُونَ﴾ في الآيةِ مبنيٌّ للمفعولِ، بحذفِ الفاعلِ الدَّالِّ عليهِ سبحانهُ؛ تنزيهًا للحقِّ ﷻ مِن اقترانهِ بلفظةِ الظُّلم، وتناسبًا معَ الفاصلةِ القرآنيَّةِ، فالحذفُ للإيجاز وللعلم بالفاعل، ولكي ينشغلوا بنفي الظُّلم، بغضِّ النَّظرِ عن جهةِ صدورِه.

تنزيهُ الحقِّ، ورعايةُ الفاصلةِ، مقصدٌ في البناءِ للمفعول

غرضُ التَّعبيرِ بالمضارعِ ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾:

قولُه تعالى: ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾، أوردَ الفعلَ ﴿يُظْلَمُونَ﴾، بالصِّيغةِ المضارعيَّةِ للدَّلالةِ على الاستمرارِ والتَّجدُّدِ إلى زمانِ الإخبارِ، وكذلكَ فيما يأتي مِنَ الزَّمانِ لعمومِ المعنى المقتضي نَفْيَ الظُّلمِ عنهمْ، وأنَّهُ حكمٌ جارٍ في كلِّ زمانٍ.

غايةُ الفعلِ التَّجدُّديِّ جريانُ الحكمِ في كلِّ زمانٍ

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(المجيء) و(الإتيان):

ثمَّةَ فرقٌ بينَ المجيءِ والإتيانِ، فإنَّ المجيءَ هوَ "الإتيانُ، ويُعَبَّرُ بهِ عَنِ القصدِ بالأمرِ والتَّدبيرِ"[1]، أمَّا الإتيانُ والإيتاءُ؛ فهوَ دالٌّ على المجيءِ بسهولةٍ ويسرٍ[2]، وهذا الفعلُ مختصٌّ بدفعِ الصَّدقةِ الواجبةِ، حيثما وردَ في القرآنِ الكريمِ[3]؛ لذلكَ لا يحسنُ التَّعبيرُ بالإتيانِ معَ الحسنةِ والسَّيِّئةِ؛ لأنَّهما ليسا صدقةً، وهذا في القرآنِ الكريمِ، أمَّا في اللُّغةِ؛ فيُطلقُ على سَبيلِ التَّجوُّزِ، أوْ لأنَّهُ " كَثُرَ ذلكَ حتَّى استُعمِلَ أحدُ اللَّفظينِ في موضعِ الآخرِ"[4].

الإتيانُ مختصٌّ بالصَّدقةِ والإنفاقِ، ولا يُعبَّرُ به معَ الحسنةِ والسَّيِّئةِ

(1) السّمين الحلبيّ، عمدة الحفاظ: (جيء).
(2) الرّاغب، المفردات: (أتى).
(3) السّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (أتى).
(4) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 309.

﴿قُلۡ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ دِينٗا قِيَمٗا مِّلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ١٦١﴾ [الأنعام: 161]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

ربطُ جزاءِ الحسناتِ والسَّيِّئاتِ بملَّةِ إبراهيمَ الحنيفيَّةِ، ودينه القيِّم

لمَّا بيَّنَ السِّياق - ما مضى من آياتٍ - دلائلَ التَّوحيدِ بالأدلَّةِ القاطعةِ، وأظهَرَ ميزانَ الجزاءِ بمضاعفتهِ الحسناتِ، والعدلَ في تقرير السَّيِّئاتِ، تقديمًا لمن أحسنَ، وإنصافًا لمن أساءَ؛ أمرهُ ﷺ، أنْ يبيِّنَ لهمُ الدِّينَ القويمَ، والطَّريقَ المستقيمَ الَّذي شرعهُ لهُ، وجعَلَ هدايتَهُ فيهِ، فهوَ دينُ الفِطرةِ، دينُ أبيهمْ إبراهيمَ[1] عليه السلام، وكلُّ إنسانٍ مسؤولٌ عن نفسِه، والهدايةُ لا تحصلُ إلَّا منهُ تعالى.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿قِيَمٗا﴾: مِنَ الفعلِ (قام)، الجذرُ اللُّغويُّ لهُ (قَوَمَ)، ومنهُ قِوامُ الأمرِ، أي: أساسُهُ ومِلاكهُ، وبهِ يقومُ أمركمْ[2]، والأصلُ في معنى القافِ والواوِ والميمِ دلالتُهُ على الثَّباتِ والعزيمةِ، ويقالُ: قامَ بهذا الأمرِ؛ إذا اتَّخذهُ، واعتنقهُ. ويقالُ: هذا قِوامُ الدِّينِ، أي: بهِ يقومُ[3]، ومعنى دينًا ﴿قِيَمٗا﴾: "أي: ثابتًا مقوِّمًا لأمورِ معاشِهم ومعادِهم"[4]. ومعنى الدِّينِ القيِّمِ في الآيةِ بمعنى المستقيمِ الَّذي لا عِوَجَ فيه، أو هو ذو الاستقامةِ[5].

2) ﴿مِّلَّةَ﴾: جذرهُ اللُّغويُّ منْ (ملل)، ويجوزُ منْ (ملو)، والمِلَّةُ معناها: "الشَّريعةُ والدِّينُ، شريعةٌ تمدُّ، ويُزَوَّدُ بها لإصلاحِ حالِ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/337، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 14/12.
(2) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (قوم).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (قوم).
(4) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (قوم).
(5) مقاتل، تفسير مقاتل: 1/600، والماتريديّ، تأويلات أهل السّنة: 4/336.

الخلقِ ومآلهمْ"[1]. والأصلُ في معنى المِلَّةِ دلالتُها على الامتدادِ في الزَّمانِ وغيرِه[2]، و"المِلَّةُ لاتُضافُ إلّا إلى النَّبيِّ - ﷺ - الَّذي تُسنَدُ إليهِ؛ نحوُ: ﴿فَٱتَّبِعُواْ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ﴾ [آل عمران: 95]" وإضافتُها إلى اللّهِ تعالى، لا تكادُ تكونُ موجودةً في القرآنِ الكريمِ، ولا إلى آحادِ أمَّةِ الرَّسولِ ﷺ[3].

ومعنى الـ ﴿مِّلَّةَ﴾ في الآيةِ وفي القرآنِ: مجموعةٌ مِنَ الأعمالِ والعقائدِ الَّتي تُلْتَزَمُ منْ طائفةٍ مِنَ النَّاسِ تجمعُهمْ، وتكونُ طريقةً لهمْ في عبادتِهمْ، فهيَ الدِّينُ والشَّريعةُ، أوْ مرادفةٌ لهما[4].

3) ﴿حَنِيفٗاۚ﴾: اسمٌ على وزنِ فَعِيل، جذرُهُ اللُّغويُّ من (حنف)، ومعنى الحنيفيَّةِ: الميلُ، فإنَّ إبراهيمَ عليه السلام مالَ إلى دينِ اللّهِ، وهو الإسلامُ[5]، والأصلُ في معنى الحنيفِ: الميلُ إلى الدِّينِ المستقيمِ[6]، فهو ميلٌ عن الضَّلالِ، يقالُ: تحنَّفَ فلانٌ؛ إذا تحرَّى طريقَ الاستقامةِ، ثمَّ أُطلِقَ على دينِ إبراهيمَ[7] عليه السلام.

والحنيفُ المسلِمُ الَّذي يتحنَّفُ عنِ الأديانِ الباطلةِ، أي: يميلُ عنها إلى الدِّينِ الحقِّ، "فقد كانت عبادةُ الأصنامِ هي الشَّائِعَةَ، وكان هناك أفرادٌ نصارى، وربَّما كانَ هناك غيرُ ذلكَ، فمنْ مالَ عن ذلك كلِّهِ، وعَبَدَ اللّهَ وحدَه، كانَ حنيفًا"[8].

ومعنى ﴿حَنِيفٗاۚ﴾ في الآيةِ، أي: مائلًا إلى دينِ اللّهِ، وهوَ الإسلامُ[9].

المَعْنى الإجْماليُّ:

أمرٌ من الحقِّ ﷻ لرسولِهِ الكريمِ ﷺ أنْ يخبرَ النَّاسَ بما امتنَّ عليه من الهُدى، وبأن أرشدَه إلى سبيلِ الحقِّ المستقيمِ الَّذي لا عِوَجَ فيه ولا حَيَدانَ؛ فهو الدِّينُ القويمُ الثَّابتُ،

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (ملل).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ملل).
(3) الرّاغب، المفردات: (ملل).
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/693.
(5) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (حنف).
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حنف).
(7) الرّاغب، المفردات: (حنف).
(8) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (حنف).
(9) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنة: 4/337.

الموصلُ إلى سعادةِ الدَّارينِ، فهو شريعةُ إبراهيمَ عليه السلام، المتجانفِ عن الشِّركِ والضَّلالِ إلى الحقِّ والتَّوحيدِ.

هدايتُه تعالى لرسولِه إلى شريعةِ إبراهيمَ المُجانِفَةِ للشِّركِ والضَّلالِ

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

الآيةُ واقعةٌ موقعَ الاستئنافِ الابتدائيِّ في السِّياق:

تقعُ هذهِ الآيةُ بلاغيًّا موقعَ الاستئنافِ الابتدائيِّ، المنتقلِ من مجادلةِ المشركينَ، إلى ما أمرَ به الرَّسولُ ﷺ في شأنِ التَّوحيدِ، من أجلِ غلقِ بابِ الجدالِ مع أولئك، وأنَّه ثابتٌ على ما جاءَ به من الحقِّ والهدايةِ، وليسَ إعراضُهم عن الحقِّ بشيءٍ[1].

الانتقالُ من مجادلةِ المشركينَ، إلى ما أمرَ به من التَّوحيدِ والهدايةِ

طيُّ سجلِ المحاجَّةِ مُؤْذِنٌ باختتامِ السُّورةِ الكريمةِ:

إذا أشبعَ الواعظُ الكلامَ في مرماهُ وغرضِه، ثمَّ انتقلَ إلى ما رضيهُ لنفسِه، وما هو قارٌّ عليه من أصولِ الدِّينِ؛ عَلِمَ المُخاطَبُ أنَّه في طريقِهِ إلى طَيِّ سجلِّ المناقشةِ والمُحاجَّةِ، إيذانًا بانتهاءِ السُّورةِ[2]، وقد آلَتْ إلى بيانٍ ختاميٍّ بليغٍ، مفادُه أن يقولَ الرَّسول المبلِّغ للنَّاس: "إنَّ ربِّي أرشدني، ووفَّقَني إلى طريق مستقيم، بلغَ نهايةَ الكمالِ في الاستقامةِ، وكان هو الدِّين الَّذي اتَّبعه إبراهيم، مائلًا به عنِ العقائدِ الباطلةِ، وما كان إبراهيم يعبدُ مع اللّٰه إلهًا آخر، كما يزعم المشركون"[3].

هناك براعةٌ في الاختتامِ تُضاهي براعةَ الاستهلالِ

دلالةُ فعلِ الأمرِ ﴿قُلْ﴾ في ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ﴾:

في الآيةِ استهلَّ الحقُّ ﷻ بفعلِ القولِ في قولِه: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾، وثمرةُ فعلِ القولِ الإشارةُ إلى أهمِّيَّةِ مقولِ القولِ، والتَّنويهُ به[4]، فمن الملاحظ في القرآن الكريم أنَّ الآياتِ الَّتي

لا أهمَّ من الدِّلالةِ على الهدايةِ، ولا أعظمَ منها مقصدًا وغايةً

(1) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنة: 8/197.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/197.
(3) لجنة من علماء الأزهر، المنتخب في تفسير القرآن الكريم: 8/197.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/197.

ابتدأت بهذا الفعل، تَلَتْها أوامرُ وأحكامٌ وقضايا، استحقَّت أن يتولَّى أمرَها النَّبيُّ ﷺ، وهو هنا هدايتُه تعالى إلى طريقِ الحقِّ المستقيم، وهو قَمينٌ بذلكَ، فلا أعظمَ من أن يكونَ اللّهُ لك هاديًا.

نكتةُ اشتمالِ جملة ﴿إِنَّنِي هَدَىٰنِي﴾ على مؤكِّداتٍ عدَّةٍ:

تقويةُ مضمونِ العمومِ في هدايتِه تعالى

قولُه تعالى: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ﴾، فائدةُ توالي المؤكِّداتِ في الجملةِ، كحرفِ التَّوكيدِ (إنَّ)، والجملةِ الاسميَّةِ، وذِكْرِ المسنَدِ إليه مرَّتين: مرَّةً بكونهِ مبتدأً، ومرَّةً بكونهِ ضميرًا متَّصِلًا بالفعل ﴿هَدَىٰنِي﴾ وكلُّ ذلك جاءَ لبيانِ تمامِ الاعتناءِ بمضمونِها؛ ولأنَّها خطابٌ للمشركينَ الَّذين كذَّبوه[1]، وهو أنَّ هدايتَه تعالى الغايةُ الَّتي يرجوها كلُّ إنسانٍ.

دلالةُ تعريفِ المسنَدِ إليه ﴿رَبِّيٓ﴾ وإضافتِه:

غرضُ الإضافةِ الاعتزازُ بمربوبيَّةِ اللهِ، والتَّعريضُ بالمشركينَ

وقولُه: ﴿رَبِّيٓ﴾ تعريفٌ للمسنَدِ إليهِ بالإضافةِ، وهي إضافةُ تشريفٍ، فهوَ منْ بابِ الاعتزازِ بِمَرْبوبيَّتِهِ ﷻ الَّذي هداهُ، وتعريضٌ بالمشركينَ الَّذينَ اتَّخذوا أربابًا، فأضلُّوهمُ الطَّريقَ[2]، وقد ربَّاه ربُّه وحماه، وأمره " أن يخبر بما أَنْعَمَ اللّهُ عليه من الهداية إلى الطَّريق القويم الَّذي لا عِوَجَ فيه ولا انحراف، وهو الدِّين القَيِّم، المؤدِّي إلى سعادةِ الدُّنيا والآخرة"[3].

الغرضُ من الخبرِ في ﴿إِنَّنِي هَدَىٰنِي﴾:

الهادي هو الحقُّ الجديرُ بالعبادةِ، لا معبوداتُ البشرِ

قولُه تعالى: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ﴾، في خبرِ الجملةِ أسندَ الهدايةَ إلى ربِّهِ، وفيها دلالةٌ على الاختصاصِ، والمعنى: أنَّ الهاديَ هوَ معبودي الَّذي أعبدهُ، وهوَ الحقُّ ﷻ، لا معبودكمُ الَّذي تعبدونهُ مِنَ الأصنامِ والأوثانِ، فإنَّكمْ لوْ وحَّدتمُ الرَّبَّ الجديرَ بالعبادةِ؛ لَهُديتمْ[4].

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/314، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/198.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/198.
(3) وهبة الزّحيلّي، التّفسير المنير: 1/632.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/703، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/198.

تعديةُ فعلِ الهدايةِ بـ﴿إِلَىٰ﴾:

غرضُ تضمُّنِ الاهتداءِ فعلَ الإرشادِ إلى الطَّريقِ الصَّحيحِ

جعلَ الفعلَ (هدى) متعدِّيًا بالحرفِ ﴿إِلَىٰ﴾ في قولِه تعالى: ﴿هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾، معَ أنَّ الفعلَ (هدى) يتعدَّى بنفسِه لقولِه تعالى في فاتحةِ الكتابِ: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ٦﴾ [الفاتحة: 6]، فأوردهُ على جعلِ الهدايةِ متضمِّنةً معنى الإرشادِ والتَّعليمِ، فالمهتدي كمن يسيرُ راشدًا إلى الطَّريقِ الصَّحيحِ المستقيمِ[1].

نكتةُ تقديمِ المفعولِ بهِ على الفاعلِ، يفيدُ الاختصاصَ:

الهدايةُ إلى الطَّريقِ المستقيمِ، لا تكونُ إلَّا منهُ تعالى

وفي جملةِ: ﴿هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾، تقدَّمَ المفعولُ الياءُ من ﴿هَدَىٰنِي﴾، على الفاعلِ ﴿رَبِّيٓ﴾، والمعنى: "إنَّني أرشدَني رَبِّي، وأوصلَني بما أوحاهُ إليَّ بفضلِه واختصاصِه في هذهِ السُّورةِ، وكذا غيرِها، إلى طريقٍ مستقيمٍ، يصلُ سالكهُ إلى سعادةِ الدَّارينِ"[2]، فقدِ اختصَّهُ تعالى بإرشادِ قومِه وهدايتِهمْ، وهوَ منْ فضلِه وامتنانِه على رسولِه، فالتَّقديمُ هو لعظيمِ الامتنانِ والشُّكرِ للهِ.

الاستعارةُ في التَّشبيهِ بهيئةِ مَنْ يدلُّ السَّائرَ على الطَّريقِ:

الإرشادُ إلى الحقِّ دلالةٌ وتوجيهٌ، يؤدِّي إلَى صراطٍ مُستقيمٍ

وفي قولِه تعالى: ﴿هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ استعارةٌ، فقدْ "شَبَّهتْ هيئةَ الإرشادِ إلى الحقِّ المُبَلِّغِ إلى النَّجاةِ، بهيئةِ منْ يدلُّ السَّائرَ على الطَّريقِ المُبَلِّغةِ المُوصِلَةِ إلى المَقْصُودِ. وثمَّةَ علاقةٌ وثيقةٌ بَيْنَ الهِدَايَةِ وَالصِّرَاطِ؛ فالهدايةُ تعريفٌ بالطَّريقِ، والطَّريقُ هوَ الصِّراطُ"[3]، فتناسبا منْ هذهِ الجهةِ.

بلاغةُ استعارةِ الصِّراطِ للدِّينِ القويمِ بجامعِ المشاكلةِ:

الدِّينُ والصِّراطُ، كلاهما طريقٌ مُفْضٍ إلى المُرادِ

ومعنى الصِّراطِ المستقيمِ في قولِه تعالى: ﴿هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/198، والقشيريّ، لطائف الإشارات: 1/514.
(2) رضا، تفسير المنار: 8/211.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/198. (بتصرف).

مُّسْتَقِيمٍ﴾، هوَ الدِّينُ القويمُ، وهوَ الطَّريقُ الواسعةُ[1]، فاستُعيرَ للدِّينِ القويمِ، بجامعِ أنَّ كليهما موصلٌ إلى الغَايَةِ والهدفِ.

نكتةُ وصفِ الصِّراطِ بالاستقامةِ معَ أنَّهُ لا يكونُ إلَّا مستقيمًا:

قولُه تعالى: ﴿هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسْتَقِيمٖ﴾، وصفَ الصِّراطَ بأنَّهُ مستقيمٌ، أيْ: لا خطأَ فيهِ ولا انحرافَ؛ إذْ لا يتحيَّرُ سالكهُ في أمرِهِ، "ولمَّا شبَّهَ الإسلامَ بالصِّراطِ، وجُعِلَ كالشَّيءِ المشاهدِ، صارَ كالطَّريقِ الواضحةِ البيِّنةِ، فادَّعى أنَّهُ مستقيمٌ، أيْ: لا اعوجاجَ فيهِ؛ لأنَّ الطَّريقَ المستقيمَ أيسرُ سلوكًا على السَّائرِ، وأسرعُ وصولًا بهِ"[2]، فأفادَ وصفُهُ بالاستقامَةِ مزيدَ توكيدٍ وتقريرٍ.

الإسلامُ كالصِّراطِ المستقيمِ، وهو الطَّريقُ الواضِحَةُ البَيِّنَةُ

الموقعُ البيانيُّ والنَّحويُّ لِلَفْظِ ﴿دِينًا﴾، محتمِلٌ أَوْجُهًا عِدَّةً:

ولفظةُ (الدِّين) في قولِه تعالى: ﴿هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسْتَقِيمٖ دِينًا قِيَمًا﴾، لها اتِّصالٌ بسابقِها، فهيَ إمَّا بدلٌ مِنَ الصِّراطِ المذكورِ آنفًا، والتَّقديرُ: هداني صراطًا مستقيمًا، ويجوزُ أنْ تكونَ مفعولًا لفعلٍ مضمرٍ، تقديرهُ: هداني، أوْ عرَّفني، أوْ نحوهُ[3]، ويجوزُ أنْ يكونَ منصوبًا على الحالِ منْ ﴿صِرَٰطٖ﴾؛ لأنَّهُ نكرةٌ موصوفةٌ[4].

اللَّفظُ متَّصلٌ بما قبلهُ، واقعٌ موقعَ المفعولِ أوِ الحالِ أوِ البدلِ

توجيهُ القراءاتِ في لفظ ﴿قِيَمًا﴾ من قوله تعالى: ﴿دِينًا قِيَمًا﴾:

قولُهُ تعالى: ﴿دِينًا قِيَمًا﴾ قِيَمًا: بكسرِ القافِ، وفتحِ الياءِ مخفَّفةً، قراءةُ ابنِ عامرٍ والكوفيِّينَ، وفتحُ القافِ وكسرُ الياءِ مشدَّدةً قراءةُ الباقينَ[5]، و(القيِّم) زنةُ (فَيْعِل)، وهو بمنزلةِ فعَّال[6] الدَّالِّ على المبالغةِ في الاستقامةِ، ولزومِ الطَّريقِ المستقيمِ، وهو أبلغُ من ﴿قِيَمًا﴾ من غيرِ تشديدٍ، فهو الدِّينُ الحقيقُ بأن يقومَ له الموحِّدون

التَّشديدُ دالٌّ على المبالغةِ في الاستقامةِ ولزومِ طريقِها

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/198.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/172.
(3) الآلوسّي، روح المعاني: 8/70.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/198.
(5) ابن الجزريّ، النّشر: 2/267.
(6) سيبويه، الكتاب: 3/642، والشّيخ زاده، حاشية الشّيخ زاده: 4/183.

بوجوهِهم، والمبالغةُ في قراءةِ التَّشديدِ، من قولِه تعالى: ﴿دِينًا قِيَمًا﴾، مِنَ القيامِ بالأمرِ "فالإسلامُ قيِّمٌ بالأمَّةِ وحاجتِها، يقالُ: فلانٌ قيِّمٌ على كذا، بمعنى: مدبِّرٌ لهُ ومصلحٌ، ومنهُ وصفُ اللهِ تعالى بالقيُّومِ"[1]، فقراءةُ التَّشديدِ أبلغُ.

وصفُ الدِّينِ بأنَّهُ قيِّمٌ منْ بابِ الاستعارةِ:

الأمَّةُ مفتقرةٌ إلى أنْ يكونَ الإسلامُ قيِّمًا على دينِها ودنياهَا

قولُه تعالى: ﴿دِينًا قِيَمًا﴾، إذا أُطلِقَ القيامُ على الاستقامةِ، فهوَ منْ بابِ المجازِ؛ لأنَّ المرءَ عندَ قيامِه تعتدلُ قامتُه، والأقربُ جعلُه منْ بابِ القيامِ بالأمرِ، "فيستعارُ القيامُ للكفايةِ بما يحتاجُ إليهِ، والوفاءُ بما فيهِ صلاحُ المقوَّمِ عليهِ، فالإسلامُ قيِّمٌ بالأمَّةِ وحاجتِها، يقال: فلانٌ قيِّمٌ على كذا، بمعنى: مدبِّرٌ لهُ ومصلحٌ"[2]، ففي ذلكَ فحوًى بليغٌ في أنَّ حاجةَ الإسلامِ دينيَّةٌ ودنيويَّةٌ.

الموقعُ النَّحويُّ والبيانيُّ لقولِه: ﴿مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ﴾:

موقعُ الآيةِ عودٌ على ما سبقَ إغراءً باتِّباعِ ملَّةِ إبراهيمَ

قولُه تعالى: ﴿مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًاۚ﴾، يقعُ لفظُ ﴿مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ﴾، موقعًا نحويًّا وبيانيًّا في كونِه متعالقًا معَ ما سبقَ، فإنَّهُ يَحتمِلُ أن يكونَ منصوبًا على الإغراءِ، أي: اتَّبعْ ملَّةَ إبراهيمَ[3]. ويجوزُ جعْلُ الملَّةِ بدلًا مِنَ الدِّينِ[4]، أو تكون منصوبة بفعل محذوف، مثل: أعني أو أخصُّ، وفي كلٍّ؛ فهي متَّصِلةٌ بما قبلَها غيرُ منقطِعةٍ عنهَا.

حكمةُ التَّعبيرِ بملَّةِ إبراهيمَ بطريقِ الإضافةِ:

استمالةُ العربِ وأهلِ الكتابِ لملَّةِ إبراهيمَ الَّذي يؤمنونَ بهِ جميعًا

قولُه تعالى: ﴿مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًاۚ﴾ منْ حديثِه ﷺ؛ إذْ أخبرَ أنَّ الحقَّ ﷻ قدْ هداهُ إلى الدِّينِ القيِّمِ، وهوَ ملَّةُ إبراهيمَ عليه السلام، معَ أنَّ الدِّينَ القَيِّمَ الَّذي جاءَ بهِ هوَ دينُ الإسلامِ، وحكمةُ التَّعبيرِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/199.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/199.
(3) السّمعانّي، تفسير القرآن: 2/161.
(4) العكبريّ، التّبيان: 1/553، والسّمين الحلبيّ، الدُّرّ المصون: 2/137.

بملَّةِ إبراهيمَ، أنَّه منْ بابِ "استمالةِ العربِ، ثمَّ أهلِ الكتابِ إلى الإسلامِ، ببيانِ أنَّ أساسَهُ وقواعدَ عقائدِهِ، ودعائمَ فضائلِهِ، هيَ ما كانَ عليهِ إبراهيمُ، المتَّفقُ على هداهُ وجلالتِهِ"[1]. وهذا منْ دأبِهِ المستمرِّ ﷺ، في أنَّهُ كانَ حريصًا على هدايةِ النَّاسِ جميعًا، ولقدْ وصفهُ الحقُّ ﷻ، بقولِهِ تعالى: ﴿وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ ١٠٣﴾ [يوسف: 103].

فائدةُ العدولِ منْ صيغةِ (مفعول) إلى صيغةِ (فعلة):

وعدلَ عن المفعولِ إلى الفِعْلةِ في قولِه تعالى: ﴿مِّلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۚ﴾، فالمِلَّةُ صيغةُ (فِعْلة) بمعنى المفعولِ، أي: المملولِ منْ أملَّ الكتابَ: إذا لقَّنهُ الكاتبَ ما يكتبهُ، ثمَّ اقترنتْ بالتَّاءِ لمَّا صيَّروها بمعنى الدِّينِ[2]. ولمَّا كانَ الإملالُ أوِ الإملاءُ، يحدثُ شيئًا فشيئًا، وهوَ " أنَ تُلقي على الكاتبِ جملةً، فيكتبَها، ثمَّ تُملي عليهِ جملةً أخرى فيكتبَها... قالوا: لأنَّ المِلَّةَ - وهيَ الشَّريعةُ - تنزلُ جُمَلًا جُمَلًا حتَّى تَتِمَّ كما وقعَ في ديننا، فُرضتِ الصَّلاةُ أوَّلًا قبلَ الهجرةِ، ثمَّ فُرضتِ الزَّكاةُ والصِّيامُ في عامِ اثنينِ منَ الهجرةِ، وفُرِضَ الحجُّ في عامِ تسعةٍ على أصحِّ الأقوالِ، شيئًا بعدَ شيءٍ حتَّى تتمَّ"[3].

الإملالُ أنْ يُملي عليهِ جملةً جملةً، والمِلَّةُ الدِّينُ المُنْزلُ شيئًا فشيئًا

معنى لفظةِ ﴿حَنِيفٗاۚ﴾، ودلالتُها النَّحويَّةُ في الآية:

ومعنى لفظةِ الحنيفِ في قولِه تعالى: ﴿مِّلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۚ﴾ هو الَّذي يجانبُ الباطلَ منَ الأديانِ، فيكونُ مهتديًا مخلصًا في عبادتِه[4]، أمَّا دلالتُه النَّحويَّةُ: فعلى "أنْ يكونَ حالًا من إبراهيمَ ومن المِلَّةِ، وذكَّر لأنَّ المِلَّةَ والدِّينَ واحدٌ"[5]. ويجوزُ أن يكونَ مفعولًا لفعلٍ

الحنيفُ الَّذي يُجانِفُ الباطلَ، وهوَ حالُ إبراهيمَ عليه السلام

(1) رضا، تفسير المنار: 8/212.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/199 - 200.
(3) الشّنقيطيّ، العذب النّمير: 2/617.
(4) الآلوسّي، روح المعاني: 8/70، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/200.
(5) العكبريّ، التّبيان: 1/280، والشّنقيطيّ، العذب النّمير: 2/620.

مقدَّرٍ بمعنى: أعني حنيفًا[1]، والحاليَّةُ أقوى لما فيها من تغيُّرٍ في مجانبةِ الباطلِ إلى الحقِّ.

نكتةُ مجيءِ الحالِ من المضافِ إليه إبراهيمَ عليه السلام:

غرضُ الاستغناءِ عَنِ المضافِ، وكأنَّ إبراهيمَ قد تلبَّسَ بالمِلَّةِ

وقعَ الحالُ ﴿حَنِيفًا﴾ من المضافِ إليه ﴿إِبْرَٰهِيمَ﴾ في قولِه تعالى: ﴿مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا﴾، وجازَ ذلكَ؛ لأنَّ المضافَ جزءٌ من المضافِ إليه، وآيةُ ذلكَ عدمُ تأثُّرِ المعنى العامِّ، مع حذفِه، كأن يقالَ: اتَّبعوا إبراهيمَ عِوَضًا من اتَّبعوا مِلَّةَ إبراهيمَ[2]، وفي ذلكَ إيماءٌ بتلبُّسِ إبراهيمَ عليه السلام بالمِلَّةِ والدِّينِ، وكأنَّهما أصبحا شيئًا واحدًا؛ ولذلكَ وصَفَهُ الحقُّ سبحانه وتعالى بأنَّهُ كانَ أمَّةً وحدَهُ.

(الواوُ) تفيدُ العطفَ في قوله: ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾:

العطفُ فيه ردٌّ على من يزعمُ من المشركينَ بأنَّهُ من مِلَّتِه

قولُه تعالى: ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾، الواوُ هنا تفيدُ العطفَ، والجملةُ معطوفةٌ على ما سبقَ منْ كلامٍ مُتَعَلِّقٍ بالهدايةِ إلى الطَّريقِ المستقيمِ، وهوَ ردٌّ على منْ يدَّعي منَ المشركينَ، على أنَّهُ منْ ملَّتِه عليه السلام[3]؛ فكلٌّ يزعمُ أنَّ إبراهيمَ عليه السلام نبيُّهُ ورسولُهُ. ويمكنُ حملها على الحال، والتَّقدير: دينًا قيِّمًا مِلَّةَ إبراهيمَ، حالَ كونهِ حنيفًا، وحالَ كونِهِ ليس من المشركين.

نكتةُ دخولِ ﴿كَانَ﴾ الدَّالَّةِ على المضيِّ بعدَ النَّفي:

إيذانٌ بنفيِ الشِّركِ عنْ إبراهيمَ على وجهِ التَّأبيدِ

ولمَّا نفَى انتماءَ إبراهيمَ إلى المشركينَ، أولجَ ﴿كَانَ﴾ الماضَويَّةَ، بعدَ النَّفيِ في قولِه تعالى: ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾، ونكتةُ ذلكَ أنَّهُ تعالى "نفَى عنْ إبراهيمَ الشِّركَ في الكونِ الماضِي، معناهُ: أنَّهُ لم يقعْ منهُ كونُ الشِّركِ فيما مضَى أبدًا، وهذا حقٌّ لا شكَّ فيهِ، والآياتُ الدَّالَّةُ عليهِ كثيرةٌ"[4]. فالنَّفيُ هنا نفيٌ قاطعٌ على نِيَّةِ

(1) الآلوسّي، روح المعاني: 8/70.
(2) الشّنقيطيّ، العذب النّمير: 2/620.
(3) الآلوسّي، روح المعاني: 8/70.
(4) الشّنقيطيّ، العذب النّمير: 2/621.

الاستغراقِ، فلم يكنْ مِن إبراهيمَ شركٌ أبدًا، فلذلكَ جاءَ بـ﴿كَانَ﴾ في سياقِ النَّفي.

معنى حرفِ الجرِّ ﴿مِنَ﴾ في قوله تعالى: ﴿مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾:

إفادةُ (مِن) الاستغراقَ في نفي إشراكِهِ عليه السلام من كلِّ وجهٍ

قولُه تعالى: ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾، حرفُ الجرِّ ﴿مِنَ﴾ في الجملةِ ابتدائيَّةٌ استغراقيَّةٌ، تفيدُ استغراقَ الجنسِ في نفيِ إشراكِهِ عليه السلام، "وفيهِ ردٌّ على كفَّارِ قريشٍ؛ لأنَّهمْ يزعمونَ أنَّهمْ على دينِ إبراهيمَ، فأخبرَ اللهُ تعالى أنَّ إبراهيمَ لمْ يكنْ مِنَ المشركينَ، ولاممَّنْ يعبدُ الأصنامَ"[1]، فـ﴿مِنَ﴾ تنفي إشراكَ إبراهيمَ عليه السلام من جميعِ الوجوهِ. ويمكن أن تكون للتَّبعيض.

نكتةُ العدولِ عن نفيِ الإشراكِ إفرادًا إلى نفيِ الإشراكِ جمعًا:

التَّعبيرُ بالجمعِ يتضمَّنُ نفيَ الإشراكِ المحضِ وشوائبِهِ عنهُ

عبَّرَ بالجمعِ في قولِهِ تعالى: ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾، ولم يقلْ: (وما كانَ مشركًا)، لاشتمالِهِ على نُكْتَةٍ، وهيَ أنَّ نفيَ الإشراكِ مجموعًا، يتضمَّنُ نفيَ الإشراكِ المحضِ عنْ إبراهيمَ عليه السلام، دِقِّهِ وجِلِّهِ وشوائبِهِ. فالمشركونَ على أصنافٍ كثيرةٍ: وَثَنِيِّين، ومُجَسِّمينَ، ومُثَلِّثينَ، ومُتَوَسِّطينَ بينهمْ وبينَ اللهِ وغيرهمْ، فأرادَ في هذا التَّعبيرِ أنْ يُنَزِّهَ إبراهيمَ عنْ هذهِ الأصنافِ جميعًا[2] من دعاويهم وافتراءاتِهم.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(الدّين) و(المِلّة):

الدِّينُ هوَ الانقيادُ للشَّريعةِ، والمِلَّةُ جملةُ الشَّريعةِ لا آحادُها

الدِّينُ معروفٌ، وهوَ يطلقُ على الطَّاعةِ والانقيادِ للشَّريعةِ، أمَّا المِلَّةُ، فهيَ تستعملُ في جملةِ الشَّريعةِ لا آحادِها؛ لذلكَ لا تُضافُ إلَّا إلى النَّبيِّ مسندةً إليهِ كقولِهِ تعالى: (مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ) و(مِلَّةَ ءابَآءِى)[3]، أمَّا الدِّينُ؛ فهو "اسْمٌ لما عليهِ كلُّ وَاحِدٍ من

(1) الخازن، لباب التَّأويل: 2/178.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 3/1266.
(3) الرّاغب، المفردات: (ملل).

أَهلِهَا، أَلا ترى أَنَّه يُقَالُ: فلَانٌ حسنُ الدِّينِ، وَلَا يُقَالُ: حسنُ الْمِلَّةِ، وَإِنَّمَا يُقَالُ: هُوَ من أهلِ الْمِلَّةِ"[1].

وفي الآيةِ عبَّرَ عن الطَّاعةِ الشَّخصيَّةِ والانقيادِ الفرديِّ بالدِّينِ: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ دِينٗا قِيَمٗا﴾، ثمَّ انتسبَ إلى جملةِ الشَّريعةِ بقولِه: ﴿مِّلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۚ﴾، والمِلَّةُ: النِّحْلَةُ الَّتي ينتحلُها الإنسانُ مِنَ الدِّينِ، وهيَ الدِّينُ والمِلَّةُ، وتُتَّخذُ عقيدةً، مثلَ العطيَّةِ، ومنْ ينتحلُ مذهبًا، أيْ: يتَّخذهُ[2].

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 220.

(2) ابن دريد، جمهرة اللّغة: (لم)، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (نحل).

﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾ [الأنعام: 162 - 163]

مُناسَبَةُ الآيتَينِ لِمَا قَبْلَهما:

العلاقةُ بينَ ثمرةِ الهدايةِ، وبينَ تمحيضِ العبادةِ والمصيرِ إلى اللهِ دونَ شريكٍ

لَمَّا ذكرَ في الآيةِ السَّابقةِ أنَّهُ تعالى أرشدَهُ إلى الدِّينِ القويمِ، والصِّراطِ المستقيمِ، وختمَ الآيةَ بنفيهِ أنْ يكونَ منَ المشركينَ؛ أكَّدَ هذا النَّفيَ هنا بأنَّ غايتَهُ وعبادتَهُ عامَّةً منْ صلاةٍ ونحوِها، وخاصَّةً منْ ذبحٍ ونحوِهِ، وتَصَرُّفَهُ في حياتهِ ومآلِه بعدَ مماتهِ - إنَّما هيَ للهِ ربِّ العالمينَ، وحدَهُ لا شريكَ له[1]. فهذه نتيجةُ الهدايةِ ومحصِّلتُها: وهي العبادةُ المَحْضَةُ له تعالى؛ لأنَّه لا شريكَ له تعالى، فَحَرِيٌّ بِعِبَادَةِ المرءِ أَنْ تَكُونَ على الغايةِ من الإخلاصِ.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَنُسُكِي﴾: جمعُ تكسيرٍ، مفردُها (نَسيكَةٌ)، وجذرهُ اللُّغويُّ (نسك)، ومعنى النُّسُكِ: الذَّبيحةُ، ثمَّ أصبحَ يُطلَقُ على كلِّ عبادةٍ، وتقرُّبٍ إلى اللهِ[2]. والنُّسكُ بمعنى التَّطهيرِ، فنسكْتُ الشَّيءَ: طهَّرتُهُ وصفَّيتُهُ ممَّا عَلِقَ بهِ منْ أدرانٍ[3]، وبينَ العبادةِ والطَّهارةِ وشائجُ وعلائقُ لا تخفَى، فالعابدُ يخلِّصُ نفسَهُ ممَّا يَعْلَقُ بها منْ أكدارِ الدُّنيا وأوساخِها، وقدِ اختصَّتْ هذهِ اللَّفظةُ بعبادةٍ معيَّنةٍ هيَ الحجُّ ومناسكُ الحجِّ، مواقفُهُ وأعمالُهُ[4].

ومعنى ﴿وَنُسُكِي﴾ في الآيةِ: "أرادَ بالنُّسكِ الذَّبيحةَ في الحجِّ والعمرةِ، وقالَ مقاتلٌ: نسكِي: حجِّي، وقيلَ: ديني"[5].

(1) ابن عطيّة، المحّررالوجيز: 2/369.
(2) الخليل، العين: (نسك)، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (نسك).
(3) الجوهريّ، الصّحاح: (نسك)، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (نسك).
(4) الرّاغب، المفردات: (نسك)، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (نسك).
(5) البغويّ، معالم التّنزيل: 3/211، وابن الجوزيّ، زاد المسير: 2/98.

2) ﴿وَمَحۡيَايَ﴾: (الحياةُ) ضدُّ الموتِ، و(الحيُّ) ضدُّ الميِّتِ، و(المَحْيا) مَفْعَل، من الحياة، تقولُ: محياي ومماتي[1]، أي: حَياتِي وموتي. وَيجوز فِيهَا فتحُ الْيَاءِ وإسكانُها، وَالْأَكْثَرُونَ على فتح محيايَ، وَإِسْكَان مماتي[2]، وتقول: ﴿وَمَحۡيَايَ وَمَمَاتِي﴾، والجمع (المحايي) ذكره الجوهريُّ، ويقع على المصدر والزَّمان والمكان[3]. وفي قراءةِ نافعٍ: ﴿وَمَحۡيَآيَ وَمَمَاتِيَ﴾، بسكون ياءِ محيايَ، لكنَّها ملفوظٌ بها ممدودة، وهذا مع كون الأوَّلِ منهما حرفَ مدٍّ[4].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

إخلاصُ مجملِ العبادةِ والنُّسك والحياةِ والموتِ للهِ وحده دون سواه

يأمرُ الحقُّ ﷻ نبيَّهُ الكريمَ ﷺ أنْ يُخْبِرَ المشركينَ بأنَّ الدِّينَ الحقَّ أنْ تكونَ عبادتي جميعًا، منْ صلاةٍ ونسكٍ للهِ ربِّ العالمينِ، وأنْ يكونَ صنيعي في حياتي، وعاقبتي بعدَ مماتي كلُّهُ للهِ ربِّ العالمينِ، فهوَ عينُ الإخلاصِ، فلا يقبلُ اللهُ تعالى إلَّا ما كانَ خالصًا. ثمَّ نفى ﷻ أنْ يكونَ للهِ شريكٌ، وأثبتَ وحدانيَّتَهُ تعالى، والإقرارُ بهذا التَّوحيدِ أمرٌ منهُ تعالى، وأنا أوَّلُ المنقادينَ إليهِ، فلا اختيارَ لي أصلًا، وهيَ أوَّليَّةٌ في المنزلةِ والدَّرجةِ بينَ الأنبياءِ والرُّسلِ، وأوَّليَّةٌ في السَّبقِ والزَّمنِ بينَ بني أمَّتِهِ.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

الآيةُ مستأنَفَةٌ واقعةٌ موقعًا بلاغيًّا مستقلًّا عن غيره:

لا بدَّ للإنسانِ أن يكونَ كلُّهُ للهِ في عبادتهِ وحياتهِ ومماتِه

هذهِ الآيةُ متفرِّعةٌ عمَّا سبقَها منْ هدايتهِ للطَّريقِ المستقيمِ، والتَّوحيدِ، وعدمِ الإشراكِ، فجاءتْ هذهِ لتمامِ تلكَ الهدايةِ والإخلاصِ للهِ، ولكنَّها جاءتْ على سبيلِ الاستئنافِ، ولمْ تُعطَفْ

(1) الجوهريّ، الصّحاح: 6/2323.
(2) النّوويّ، تحرير ألفاظ التّنبيه، ص: 63.
(3) الزَّبيديّ، تاج العروس: 37/527.
(4) ابن سيده، المحكم: 3/7.

وَصْلًا على تلكَ، وفائدةُ الفصلِ هنا "للإشارةِ إلى أنّهُ غرضٌ مستقلٌّ مهمٌّ في ذاتِه، وإنَ كانَ متفرِّعًا عنْ غيرِه"[1] مهمٌّ في أن يكونَ حالُ الإنسانِ كلُّه للهِ عبادةً وحياةً وموتًا.

دلالةُ فعلِ الأمرِ ﴿قُلْ﴾ في قوله: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي﴾:

قولُه تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي﴾ استهلَّ الحقُّ ﷻ الآيةَ بفعلِ الأمرِ ﴿قُلْ﴾ أمرٌ منهُ تعالى للرَّسولِ ﷺ، أنْ يُظْهِرَ للنَّاسِ حالَ عبادتِه، ومآلَ شأنِه في حياتِه ومماتِه[2].

الرَّسولُ مأمورٌ بتبليغِ دعوةِ اللهِ تعالى على الوجهِ الأكملِ

والتَّعبيرُ بهذا الفعلِ لدلالتِه على التَّبليغِ بالدَّعوةِ[3]، ويلاحظ أنَّ الأوامرَ والنَّواهي والأحكام الَّتي تأتي بعد هذا الفعل، تستحقُّ التَّنبُّهَ لها والحرصَ على أن يتولَّى النَّبيُّ ﷺ تَبْليغَها بنفسِه للأمَّةِ.

فائدةُ توالي المؤكِّداتِ في الآيةِ الكريمة:

تتابعتْ عدَّةُ مؤكِّداتٍ في قولِه تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي﴾، فالجملةُ مُفْتَتَحةٌ بحرفِ التَّوكيدِ ﴿إِنَّ﴾، للاهتمامِ بالخبرِ وتحقيقِه، فضلًا عن مجيئِها بالاسميَّة، وفي هذا التَّعبيرِ ردٌّ على المشركينَ الَّذينَ كانوا يتَّهمونَهُ ﷺ، بالرِّياءِ في صلاتِه[4].

الاهتمامُ بمضمونِ ركنَي الجملةِ وتحقيقهما

فتوالتِ المؤكِّداتُ، اهتمامًا بمضمونِ الجملةِ بِرُكْنَيْها، لبيانِ كمالِ الوصفِ في عبادتِه ﷺ للهِ تعالى، وأنَّها خالصةٌ لهُ تعالى، وليسَ لغيرِه منْ أصنامٍ يعبدونَها، أوْ أوثانٍ يتوجَّهونَ إليها.

بلاغةُ التَّرتيبِ بينَ (الصَّلاةِ) و(النُّسكِ) و(المحيا) و(المماتِ):

قولُه تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي﴾، قدَّمَ الصَّلاةَ والنُّسكَ على المحيا والمماتِ، وسرُّ ذلكَ أنَّ الغايةَ منْ خلْقِ الإنسانِ، هيَ العبادةُ، و"أنَّهُ قدْ وجَّهَ وَجْهَهُ، وحصرَ نيَّتَهُ وعزمَهُ في حبسِ

العبادةُ أصلٌ في خلقِ الإنسانِ، والأصلُ مقدَّمٌ على سواهُ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/201.
(2) الماورديّ، النّكت والعيون: 2/195.
(3) رضا، تفسير المنار: 8/210.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/201.

حياتِه لطاعتِه ومرضاتِه، وبَذْلِهَا في سبيلِه"[1]، لقولِه تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾ [الذّاريات: 56]، فهذا هو الأصلُ، وهو مقدَّمٌ على غيرِه.

نكتةُ عطفِ النُّسكِ على الصَّلاةِ:

عطفُ العامِّ على الخاصِّ لاشتمالِ الدِّين على الصَّلاةِ

وعَطَفَ النُّسكَ على الصَّلاةِ في قولِه تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي﴾ منْ معاني النُّسكِ في الآيةِ، فيكونُ عطفُ النُّسكِ على الصَّلاةِ منْ بابِ عطفِ الأعمِّ على الأخصِّ؛ لأنَّ الدِّينَ والعبادةَ مشتملٌ على الصَّلاةِ، وفائدتُه التَّعميمُ، وإفرادُ الخاصِّ بالذِّكرِ اهتمامًا بشأنِه، فالصَّلاةُ عمودُ الدِّينِ[2].

ولتقديمِ الصَّلاةِ على النُّسكِ إشارةٌ أخرى، وهيَ أنَّ الصَّلاةَ لازمةٌ على الجميعِ، وهيَ الرُّكنُ الثَّابتُ الَّذي لا يسقطُ أبدًا؛ فيصلِّيها المرءُ ولوْ إيماءً[3]، والحجُّ لا يجبُ إلَّا بتوافرِ شرائطِه، وهي الاستطاعةُ لقولِه تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ [آل عمران: 97].

دلالةُ التَّعبيرِ بالصَّلاةِ والنُّسكِ مقترنَيْنِ مجتمِعَيْنِ:

ذكرُ (الصَّلاة والنُّسك)، لفشوِّ الشِّركِ في ممارستِهما آنئذٍ

قولُه تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي﴾، أوردَ الصَّلاةَ، وهيَ أوَّلُ أركانِ الإسلامِ العمليَّةِ بعدَ الشَّهادةِ، ثمَّ قرنَها بذِكْرِ النُّسُكِ حقيقةً، أوْ بكونِه دالًّا على الحجِّ[4]، والمقصدُ منْ ذلكَ الإشارةُ إلى أنَّ أركانَ الإسلامِ تقعُ بينَ هذينِ الرُّكنينِ العظيمينِ: الصَّلاةِ والحَجِّ.

وفي اقترانِ الصَّلاةِ بِالنُّسُكِ في قولِه تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي﴾ غرضٌ، وهوَ أنَّ منْ معاني النُّسكِ التطهُّرَ مِنَ الآثامِ

(1) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 8/90.
(2) السّيوطي، معترك الأقران: 1/272، ورضا، تفسير المنار: 8/214.
(3) الشّعراوي، تفسير الشّعراويّ: 7/4012.
(4) ابن الجوزيّ، زاد المسير: 2/98، والشّيخ زاده، حاشية الشّيخ زاده: 4/183.

والأدرانِ "وقيلَ للمتعبِّدِ ناسكٌ؛ لأنَّهُ خلَّصَ نفسَهُ منْ دنائسِ الآثامِ وصفَّاها"[1]. والصَّلاةُ أكبرُ سببٍ لطهارةِ الإنسانِ العينيَّةِ والمعنويَّةِ لقولهِ ﷺ: «أرأيتمْ لوْ أنَّ نَهَرًا ببابِ أحدِكمْ، يغتسلُ فيهِ كلَّ يومٍ خمسًا، ما تقولُ ذلكَ يُبْقي منْ دَرَنِهِ؟ قالوا: لا يُبْقي منْ دَرَنِهِ شيئًا، قالَ: فذلكَ مِثْلُ الصَّلواتِ الخمسِ، يمحو اللّهُ بهِ الخطايا»[2]. وفي اقتصارِ الذِّكْرِ على هذينِ النَّوعينِ منْ عمومِ العبادةِ، وهما الصَّلاةُ والنُّسكُ، كونهما مِنَ المظاهرِ العظيمةِ الظَّاهرةِ، الَّتي فشا فيهما الإشراكُ في ذلكَ الوقتِ[3]؛ لقولِهِ تعالى: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً﴾ [الأنفال: 35]، وقولِهِ تعالى: ﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ﴾ [المائدة: 3].

دلالاتُ التَّعبيرِ بالمصدرِ الميميِّ ﴿وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى﴾:

قولُه تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، (محيايَ ومماتي)، مِنَ المصادرِ الميميَّةِ، فالمعنى على تقديرِ مضافٍ، وهوَ أعمالُ المحيا والمماتِ، أوِ الأَعْمَالُ الَّتي تقترنُ بحياةِ المرءِ وموتِهِ، وتلتبسُ بهِ مِنَ العملِ الصَّالحِ والإيمانِ[4].

التَّعبيرُ على حذفِ مضافٍ، تقديرهُ: (أعمالُ المحيا والمماتِ)

دلالةُ ضمير ﴿صَلَاتِى﴾، ودلالة لام ﴿لِلَّهِ﴾ مضافةٌ إلى الألوهيَّةِ:

قولُه تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، إيرادُ الصَّلاةِ مضافةً إلى ضميرهِ ﷺ ﴿صَلَاتِى﴾، واقترانُ اللَّامِ بلفظِ الجلالةِ ﴿لِلَّهِ﴾، الدَّالَّةِ على الملكِ والاستحقاقِ[5]، فيهِ تعريضٌ بالمشركينَ الَّذينَ يُصلُّونَ للأصنامِ بالسُّجودِ لها، ويذبحونَ لغيرِ اسمِهِ تعالى[6].

تعريضٌ بجعل المشركين صلاتَهم ونُسُكَهم لغيرِ اللهِ

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 14/13، والنيّسابوريّ، غرائب القرآن: 3/194.
(2) البخاري، الجامع الصحيح، رقم: (528).
(3) رشيد رضا، تفسير المنار: 8/214.
(4) الآلوسّي، روح المعاني: 8/70، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/102.
(5) الزّجّاجي، اللاّمات، ص: 65.
(6) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 3/381، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/201.

نكتةُ الجمعِ بين الألوهيَّةِ والرُّبوبيَّةِ في ﴿لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾:

ربوبيَّتُهُ تعالى لخلقِهِ سببُ استحقاقِهِ العبادةَ دونَ غيرِهِ

لمَّا ذكرَ صلاتَهُ ونُسكَهُ، ومَحْياهُ ومماتَهُ؛ جعلهُ للهِ، ثمَّ زادَ عليها صفةَ الرُّبوبيَّةِ بقولِه: ﴿لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، وسرُّ اختيارِ هذهِ السِّمةِ؛ لأنَّها المستأهلةُ لأنْ يكونَ صنيعُ مخلوقاتِهِ وعبادتُهمْ لهُ وحدَهُ، بما تفضَّلَ عليهمْ مِنَ الخلقِ والرِّزقِ والإيجادِ، ومنْ بيدِهِ الموتُ والحياةُ[1].

فائدةُ التَّعبيرِ بالخبرِ في ﴿قُلۡ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحۡيَايَ﴾:

التَّعريضُ بالمشركينَ وغباوتِهِمْ في سجودِهِمْ للأصنامِ العاجزةِ

قولُه تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحۡيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، لفظُ الجلالةِ ﴿لِلَّهِ﴾، متعلِّقٌ بمحذوفٍ، خبرٌ، أي: خالصًا للهِ[2]، وتتجلَّى فائدةُ التَّعبيرِ بالخبرِ: أنَّهُ جعلَ "صلاتَه للهِ دونَ غيرِهِ، تعريضًا بالمشركينَ، إذْ كانوا يسجدونَ للأصنامِ، ولذلكَ أردفَ بجملةِ ﴿لَا شَرِيكَ لَهُۥ﴾"[3]، واللهُ أحقُّ أن يسجدُوا له، لو كانوا يفقهون.

الموقعُ النَّحويُّ والبيانيُّ لجملةِ التَّوحيدِ ﴿لَا شَرِيكَ لَهُۥ﴾:

غرضُ جملةِ نفي الشَّريكِ الحاليَّةِ، التَّعريضُ بالمشركينَ والتَّوبيخُ لهم

وتقعُ جملةُ التَّوحيدِ ﴿لَا شَرِيكَ لَهُۥ﴾، موقعًا بيانيًّا ونحويًّا، باتِّصالِها بما قبلَها في كونِها حالًا من لفظِ الجلالةِ من قولِهِ تعالى: ﴿لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، ومزيَّةُ الحالِ هنا أنَّها ردٌّ على المشركينَ، وتعريضٌ بهمْ، وتوبيخٌ لهمْ، بأنَّهمْ لمْ يخلصوا لخالقِهمْ، وأنَّهمْ أشركوا معهُ تعالى غيرَهُ، وهوَ الجديرُ بالوحدانيَّةِ[4]، ويمكن أن تكون الجملةُ في محلِّ جرٍّ صفةً للفظ الجلالة.

الدِّلالةُ النَّحويةُ للأداة ﴿لَا﴾ النَّافيةِ للجنسِ:

نفيُ الشَّريكِ منْ كلِّ وجهٍ؛ لأنَّ الإخلاصَ منْ لوازمِ العبادةِ

أوردَ (لا) النَّافيةَ للجنسِ في قولِه تعالى: ﴿لَا شَرِيكَ لَهُۥ﴾؛ لأنَّه أرادَ نفيًا للشَّريكِ من كلِّ وجهٍ، بدلالةِ هذا الحرفِ[5]، الدَّالِّ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/203، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2763.
(2) المنتجب الهمذانّي، الفريد في إعراب القرآن المجيد: 2/734.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/201.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/203.
(5) مجموعة من الأساتذة، إعراب القرآن الكريم: 2/673.

على التَّبرئةِ المَحْضَةِ، وهذا النَّفيُ المؤكَّدُ جاءَ عقبَ بيانِ أنَّ أحوالَ الإنسانِ كلَّها منْ عبادةٍ وحياةٍ وموتٍ للّهِ ربِّ العالمين، فهذا النَّفيُ توكيدٌ لذلكَ البيانِ، فلا يكفي في العباداتِ أنْ تؤدَّى بأفضلِ صورةٍ، بلْ يجبُ أنْ يقترنَ معها تمامُ الإخلاصِ[1].

نكتةُ الإضمارِ بعد الإظهارِ في قولِهِ تعالى ﴿لَهُۥ﴾:

وقولُه تعالى: ﴿لَا شَرِيكَ لَهُۥ﴾ فيهِ إضمارٌ بعدَ الإظهارِ، وهوَ متأتٍّ على بابهِ لغةً، ونُكتتُهُ أنَّهُ لمَّا كانَ السِّياقُ في التَّوحيدِ، ونبْذِ الشِّركِ والرِّياءِ، أضمرَ الاسمَ في إشارةٍ إلى أنَّ العبادةَ مبنيَّةٌ على الإخلاصِ بينَ العبدِ وربِّهِ، فغايةُ الإضمارِ هو الإيجازُ.

في الإضمارِ إشارةٌ إلى أنَّ العبادةَ مبنيَّةٌ على الإخلاصِ للمعبودِ وحدَه

الواوُ في قولِهِ تعالى: ﴿وَبِذَٰلِكَ أُمِرۡتُ﴾، وإفادتُها العطف:

والواوُ في قولِهِ تعالى: ﴿وَبِذَٰلِكَ أُمِرۡتُ﴾، تفيدُ العطفَ، والجملةُ معطوفةٌ على جملةِ ﴿إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحۡيَايَ وَمَمَاتِي﴾، فهو أمرٌ منه تعالى، بأنْ يقولَ هذا القولَ[2]، وفيه أنَّ جميعَ أحوالِ الإنسانِ من عبادةٍ وحياةٍ وموتٍ، إنَّما هي صائرةٌ إليه ﷻ.

سرُّ عطفِ الجملةِ على مقولِ القولِ بدلالتِها على أنَّ الأمرَ للهِ وحدَه

معنى الباءِ في قولِه تعالى: ﴿وَبِذَٰلِكَ أُمِرۡتُ﴾:

ومعنى الباءِ في قولِه تعالى: ﴿وَبِذَٰلِكَ أُمِرۡتُ﴾، تفيدُ الاستعانةَ والاعتمالَ[3]، وهوَ أحدُ أشهرِ مَعَانيهَا، " أي: إنَّ ذلكَ كانَ للّهِ بهدي مِنَ اللّهِ وأمرٍ منهُ، فرجعَ إلى قولِه: ﴿إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾"[4] فالدُّخولُ في الإسلامِ، والثَّباتُ عليهِ، كانَ بمعونةِ الحقِّ ﷻ وهديهِ، وقد تفيد السَّببيَّةَ أيضًا.

لا إسلامَ ولا ثباتَ عليه إلَّا بمعونةِ الحقِّ (تعالى) وهدايتِه

دلالةُ البُعْدِ في اسمِ الإشارةِ (ذلك) ﴿وَبِذَٰلِكَ أُمِرۡتُ﴾:

واسمُ الإشارةِ في قولِه تعالى: ﴿وَبِذَٰلِكَ أُمِرۡتُ﴾، جاءتْ

اللَّامُ مُؤْذِنةٌ بعلوِّ المشارِ إليه، وبُعْدِ منزلتِه عند الآمرِ

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 14/12.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/204.
(3) الموزعيّ، مصابيح المغاني، ص: 80.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/204.

متضمِّنةً لامَ البعدِ، والكافُ للخطابِ، ودلالةُ التَّعبيرِ بهِ "إشارةٌ إلى الإخلاصِ، وما فيهِ منْ معنى البُعدِ؛ للإشعارِ بعلوِّ رتبتهِ، وبُعْدِ منزلتهِ في الفضلِ، أي: بذلكَ الإخلاصِ"[1]. المذكورِ قبلَه، وهو جملةُ ﴿لَا شَرِيكَ لَهُۥ﴾؛ لأنَّه نفيُ الشَّريكِ من كلِّ وجْهٍ.

سرُّ العدولِ في فعلِ الأمرِ إلى البناءِ للمفعولِ ﴿أُمِرْتُ﴾:

الحثُّ على الانشغالِ بالأمرِ نفسِهِ لعظمةِ الآمرِ، ومعرفتِنا بجلالِهِ

وفعلُ الأمرِ في قولِه تعالى: ﴿وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ﴾، بُنِيَ الفعلُ هنا للمفعولِ، بحذفِ الفاعلِ العائدِ عليهِ (سبحانهُ)، وسرُّ ذلكَ أنَّهُ تعالى لهُ في كلِّ شيءٍ آيةٌ، تدلُّ على أنَّهُ واحدٌ، وأنَّ دينَهُ الإسلامُ في شدَّةِ ظهورِهِ وانتشارِهِ، ليسَ بهِ حاجةٌ إلى الأمرِ، فكيفَ إذا برزتِ الأوامرُ الإلهيَّةُ، والدَّواعي الرَّبَّانيَّةُ[2]، فالحذفُ للإيجازِ من ناحيةٍ، وللدَّعوة للانشغالِ بالأمر نفسِهِ دون الآمر.

بلاغةُ تقديمِ الجارِّ والمجرورِ على الفعلِ في ﴿وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ﴾:

عِلَّةُ الاهتمامِ بشأنِ المشارِ إليهِ، وهوَ العبادةُ، وأنَّهُ بهَدْيٍ منهُ تعالى

قولُه تعالى: ﴿وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ﴾ هنا قدَّمَ الجارَّ والمجرورَ على الفعلِ، والأصلُ تأخيرهُ، وسببُ تقديمِهِ للاهتمامِ بشأنِ المشارِ إليهِ، والاعتناءِ به، أي: إنَّ صَلَاتِيْ ونسكي كانَ بهدي منهُ تعالى[3].

الدَّلالةُ النَّحويَّةُ للواوِ في قولِه: ﴿وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾:

الواوُ عاطفةٌ؛ لأنَّه لمَّا أمرهُ تعالى، كانَ أوَّلَ المجيبين

قولُه تعالى: ﴿وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾، دلالةُ الواوِ هنا العطفُ على جملةِ: ﴿وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ﴾، فإنَّه لمَّا أمرَني ربِّي؛ أجبْتُهُ فورًا، والأوَّليَّةُ هنا على سبيلِ الرَّغبةِ والمحبَّةِ؛ فإنَّ مَنْ أحبَّ شيئًا سارعَ إليهِ. ومن الممكن أن تكونَ الواوُ حاليَّةً على معنى: وبذلك أُمرتُ، والحال أنِّي أوَّلُ المسلمين، قال الشَّعراوي: "إنَّ الرَّسولَ ﷺ، له منزلةٌ بين رسل اللّه أجمعين، تتجلَّى في أنَّه أُخِذَ العهد على غيره له، ولم يؤخذِ العهدُ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/315، والشّنقيطيّ، العذب النّمير: 2/629.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/340.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/204.

عليه لأحدٍ، فإنْ كان أوَّلَ المسلمين في أمَّته؛ فهو أوَّلُ المسلمين بين الرُّسُلِ أيضًا، وإن لم تأخذها حدثًا؛ خذها للمكانة"[1].

التَّعبيرُ بالجملةِ الاسميَّةِ، يدلُّ على الثُّبوتِ والدَّوامِ:

والتَّعبيرُ بالجملةِ الاسميَّةِ في قولِه تعالى: ﴿وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾، يحقِّقُ الثَّباتَ والاستقرارَ والدَّوامَ؛ لما في الاسمِ منْ مزيَّةِ الثُّبوتِ والدَّوامِ، فلا أثبتَ منهُ ﷺ في إسلامِه وإيمانِه.

لا أثبتَ من الرَّسولِ الأكرمِ، فهوَ منتظمٌ في المسلمينَ على جهةِ الدَّوامِ

الإخبارُ بكونِهِ أوَّلَ المسلمينَ، مع أنَّه معلومٌ محقَّقٌ:

وأخبرَ عنْ نفسِهِ بكونِهِ أوَّلَ المسلمينَ معَ أنَّهُ معلومٌ متحقِّقٌ؛ لأنَّ الخبرَ هنا ليسَ على معناهُ الصَّريحِ أصلًا، فهوَ قليلُ الجدوى لِمن لم يؤمن؛ فكلُّ من يدعو إلى أمْرٍ، فهوَ أوَّلُ أصحابِهِ منْ بَابِ أولى، فليسَ المعنى كونَهُ مسلمًا خاضعًا للّهِ هوَ وبنوهُ، فإنَّ هذا متحقِّقٌ، وإنَّما المعنى: أنَّهمْ متمكِّنونَ مترجِّحونَ في دينِهمْ، وفيهِ تيئيسٌ للمشركينَ مِنَ التَّخلِّي عنْ دينِهمْ، ولوْ كانَ تَخلِّيًا ضئيلًا[2].

تيئيسُ المشركينَ مِنَ التَّخلِّي عنْ إيمانِهمْ، والمسلمُ متمكِّنٌ في دينِهِ

فائدةُ الإضافةِ في قولِهِ تعالى: ﴿وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾:

والتَّعبيرُ بكونِهِ أوَّلَ المسلمينَ، ليسَ الغرضُ منهُ بيانَ أسبقيَّتِهِ الزَّمنيَّةِ، ولا "يريدُ أنَّهُ كانَ في المعالي أقدمَ منْ غيرِهِ؛ لأنَّ في أهلِ المعالي مَنْ هوَ أكبرُ منهُ سنًّا، ولكنَّهُ أرادَ أنَّهُ تمكَّنَ منْ نوالِ العُلا، وأصبحَ الحائزَ لهُ، والثَّابتَ عليهِ"[3]، وأنَّه أحبَّ ذلكَ الهدفَ، ورغبَ فيه، ومن أحبَّ شيئًا أسرعَ إليه، فهو من بابِ التَّمكُّنِ من الإسلامِ والاغتباطِ به.

الأوَّليَّةُ من بابِ الإسراعِ إلى الشَّيءِ المرغوبِ، حُبًّا وتمكُّنًا

المتشابه اللَّفظيّ بين ﴿أَوَّلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾، و﴿أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾:

قولُه تعالى: ﴿وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾، هوَ منْ حديثِ الرَّسولِ ﷺ

(1) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ (الخواطر): 7/4024، ولقوله تعالى: ﴿وَإِذۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [آل عمران: 81].

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/204 - 205.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/204.

ووصفِهِ لنفسهِ، وقد وصفَ موسى عليه السلام نفسَهُ بأنَّهُ أوَّلُ المؤمنينَ بقولهِ: ﴿وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًاۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٤٣﴾ [الأعراف: 143]، فيُسألُ عن الفرقِ بينَ التَّعبيرين؟

الإسلامُ من محمَّدٍ ﷺ بمعنى الإيمانِ، والإيمانُ من موسى عليه السلام بمعنى التَّصديقِ

والجوابُ عن ذلكَ: أنَّ لفظتي الإسلام والإيمان، كما هو مقرَّرٌ: إذا افترقتا اجتمعتا، وإذا اجتمعتا افترقتا، ففي الآيتَيْن الكريمتين أُريد بهما الإسلام والإيمان معًا.ثمَّ إنَّ عبارةَ ﴿أَوَّلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ خاصَّةٌ بهِ ﷺ، فهوَ أوَّلُ أهلِ مكَّةَ إسلامًا. أمَّا عبارةُ ﴿أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾؛ فهيَ جاءتْ على لسانِ موسى عليه السلام، ولمْ يُرِدِ الدِّينَ بلْ أرادَ أنَّهُ أوَّلُ المصدِّقينَ في امتناعِ رؤيةِ الحقِّ ﷻ في الدُّنيا[1]، بعد أن تجلَّى ربُّه للجبلِ، فخرَّ موسى صعِقًا.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(الصَّلاة) و(النُّسك) و(الشَّعيرة):

الصَّلاةُ معروفةٌ مألوفة دلالةً وممارسةً، وهيَ الرُّكنُ الثَّاني الرَّكينُ في الإسلامِ؛ ولذلكَ قدَّمها في قولهِ: ﴿قُلۡ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي﴾ لأهمِّيَّتِها، ولا يقبلُ عملُ مسلمٍ إلَّا بها؛ ولقولِه: ﷺ: «أولُّ شيءٍ مِمَّا يُحاسَبُ بهِ العبدُ يومَ القيامةِ صلاتُه المكتوبةُ»[2].

الصَّلاةُ معروفةٌ، والنُّسكُ غلبَ على الحجِّ، والشَّعيرةُ من بابِ المجازِ

أمَّا النُّسكُ؛ فهو العبادةُ عمومًا في أصلِه، ثمَّ غلبَ على الرُّكنِ الخامسِ، وهو الحجُّ[3]، فقيلَ: مناسكُ الحجِّ، وإنْ كانَ معنى النُّسكِ في الآيةِ العبادةَ عمومًا؛ فيكونُ قولُهُ في الآيةِ مِنْ بابِ عطفِ العامِّ على الخاصِّ.

أمَّا الشَّعيرةُ؛ فهيَ "الحديدةُ الَّتي تجعلُ مساكًا لنصلِ السِّكِّينِ،

(1) ابن جماعة، كشف المعاني، ص: 172.
(2) رواه الإمام أحمد، المسند، الحديث رقم: (7902).
(3) السّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (نسك).

إذا ركبَ، فإنَّما هوَ مشبَّهٌ بحبَّةِ الشَّعيرِ"[1]. وتُطلقُ أيضًا على البدنةِ الَّتي تُنحرُ لوجهِ اللّهِ، وفي ذلكَ استعمالٌ مجازيٌّ، لما بينَ آلةِ الذَّبحِ والمذبوحِ منْ علاقةٍ، والتَّعبيرُ بالنُّسكِ في الآيةِ أعمُّ؛ لأنَّهُ يشملُ مناسكَ الحجِّ كلَّها.

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (شعر).

﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ ۚ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿١٦٤﴾﴾ [الأنعام: 164]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

إردافُ ما أرشدَ إليه من توحيدِ الألوهيَّةِ بتوحيدِ الرُّبوبيَّةِ

فيما سبقَ منْ آياتٍ أمرٌ مِنَ الحقِّ ﷻ، لنبيِّهِ ﷺ بالتَّوحيدِ المَحْضِ، بجعلِ صلاتهِ ونُسكهِ ومحياهُ ومماتهِ للّهِ، ونفيِ الشِّركِ عنهُ، وهذا منْ توحيدِ الألوهيَّةِ، ثمَّ أمرَه بتوحيدِ الرُّبوبيَّةِ المتمِّم لتوحيدِ الألوهيَّةِ في أنَّ المشركينَ مُقِرُّونَ بكونهِ تعالى خالقَ كلِّ شيءٍ، فكيفَ أَتَّخِذُ ربًّا، وهوَ ربُّ كلِّ شيءٍ[1]؟!

وأيضًا: "لَمَّا عُلِمَ أَنَّ اللّهَ هَداهُ إِلَى صِراطٍ مُستَقيم، وَأَنْقذَهُ مِنَ الشِّرك، وَأَمَرهُ بِأَنْ يُمحِّضَ عِبادَتهُ وطاعتَهُ لرَبِّهِ تَعَالَى، شُكْرًا عَلَى الهِدَايَةِ، أَتْبعَ ذلكَ بأَنْ يُنكِرَ أَنْ يَعبدَ غيْرَ اللّهِ تعالى لأَنَّ واهِبَ النِّعَمِ هُوَ مُسْتَحِقُّ الشُّكْرِ، والعِبَادَةُ جِمَاعُ مَراتِب الشُّكرِ، وفي هذا رجوعٌ إِلَى بَيانِ ضَلالِهِمْ إِذْ عَبَدوا غَيرَهُ"[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَبْغِي﴾: فعلٌ دالٌّ على الحالِ والاستقبالِ، الجذرُ اللُّغويُّ منهُ (بغي)، ومعنى البغي: الطَّلبُ منْ بغيتُ الشَّيءَ؛ إذا طلبتَهُ[3]، والأصلُ في الباءِ والغينِ والياءِ هو الحاجةُ والطَّلبُ[4]، وقدْ يكونُ الطَّلبُ تجاوزَ الحدِّ، ومنهُ ما هوَ محمودٌ مثلَ "تجاوزِ العدلِ إلى الإحسانِ، والفرضِ

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 14/14.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 14/14.
(3) الخليل، العين، وابن دريد، جمهرة اللّغة: (بغي).
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 205/أ8.

إلى التطوُّعِ"[1]. و﴿أَبۡغِي﴾ في الآيةِ بمعنى الطَّلبِ[2]، بغَى الأمرَ: طلَبَه، وأرادَه ورَغِبَ فيه، وفي القرآن قوله تعالى: ﴿لَا يَبۡغُونَ عَنۡهَا حِوَلٗا ١٠٨﴾ [الكهف: 108]، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَبۡغِ ٱلۡفَسَادَ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ﴾ [القصص: 77].

2) ﴿تَزِرُ﴾: فعلٌ دالٌّ على الحالِ والاستقبالِ، الجذرُ اللُّغويُّ منهُ (وزر)، والوِزْرُ الحِمْلُ الثَّقيلُ مِنَ الآثامِ والذُّنوبِ[3]، والأصلُ في معنى الواوِ والزَّاي والرَّاءِ ثِقْلُ الشَّيءِ، فهوَ متعلِّقٌ بالحَمْلِ[4]، ثمَّ عبَّر عنهُ بالذُّنوبِ والآثامِ، تشبيهًا بثِقْلِ الجبلِ، فهوَ يُثقِلُ صاحبَه[5]. فمعنى لا ﴿تَزِرُ﴾ هنا، لا "تحملُ نفسٌ حِمْلَ أخرى، أيْ: لا يؤاخَذُ أحدٌ بذنْبِ غيرِه"[6].

قال أميَّة بن أبي الصَّلْت:

مِنْهُمْ رِجَالٌ عَلَى الرَّحْمَنِ رِزْقُهُمُ *** خَفَّفَ عَنْهُمْ مِنَ الْأَحْدَاثِ مَا وَزَرُوا[7]

قول الله (جلّ وعزّ): ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰۚ﴾ [الأنعام: 164]، أي: لا تَحمِلُ نفسٌ آثمةٌ، وِزْرَ نفسٍ أخرى، ولكن كلٌّ يُجزى بما كَسَبَ، والآثام تُسمَّى أوزارًا؛ لأنَّها أحمالٌ مثقلةٌ، واحدها وِزْرٌ[8].

المَعْنى الإجْماليُّ:

الآيةُ ردٌّ على المشركينَ الَّذينَ "قالوا للنَّبيِّ ﷺ: ارجعْ يا محمَّدُ إلى دينِنا، واعبدْ آلِهَتَنَا، واتركْ ما أنتَ عليهِ، ونحنُ نتكفَّلُ لكَ بكلِّ تِباعَةٍ تتوقَّعُها في دنياكَ وآخرتكَ"[9]، فأمرَ الحقُّ ﷻ نبيَّهُ الكريمَ

لا يكون غيرُ اللهِ ربًّا، وهوَ مالكُ كلِّ شيءٍ، وإليهِ يرجعُ الخلقُ كلُّهُ

(1) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (بغي).
(2) ابن جرير، جامع البيان: 12/286.
(3) الخليل، العين، والجوهريّ، الصّحاح: (وزر).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (وزر).
(5) السّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (وزر).
(6) البغويّ، معالم التّنزيل: (وزر).
(7) الأنباريّ، الزّاهر في معاني كلمات النّاس: 1/207.
(8) الأنباريّ، الزّاهر في معاني كلمات النّاس: 1/207.
(9) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/370.

ﷻ، أنْ يُنكرَ على نفسهِ وعليهمْ، بِأَنْ يطلبَ ربًّا خالقًا ورازقًا سواهُ تعالى، فهوَ ربُّ كلِّ شيءٍ ومَليكُهُ، فكيفَ يُؤْثَرُ عنهُ بدلًا، وما منْ كسبٍ إلَّا ويُجازى عليهِ، ولا يؤخذُ امرؤٌ بجريرةِ غيرِهِ، فالجميعُ مَجزيُّونَ بأعمالهمْ، ثمَّ يعودون إلى خالقهمْ للحسابِ والجزاءِ؛ ليخبرَهمْ بما كانوا فيهِ يختلفونَ منْ أمورِ الحقِّ والدِّينِ.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

الدَّلالةُ النَّحْويَّةُ والبلاغيَّةُ في قوله: ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا﴾:

استئنافٌ بيانيٌّ مسبَّبٌ عمَّا قبلَه ردًّا على دعواهُم لعبادةِ غيرِ اللهِ

قولُه تعالى: ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا﴾، استئنافٌ بيانيٌّ ينزَّلُ منزلةَ النَّتيجةِ لما قبلهُ، وهوَ جوابٌ لسؤالِ سائلٍ عنِ اتِّخاذهِ ﷺ آلهتَهمْ غيرَ اللهِ ربًّا، فالجوابُ أنَّهُ ﷺ، لمَّا مَحَضَ عِبَادَتَهُ للهِ، شكرًا على هدايتهِ، أنكرَ عليهمْ أنْ يعبدَ سواهُ تعالى؛ فهوَ واهبُ النِّعمِ، وعبادتُهُ جماعُ لمراتبِ الشُّكرِ وهوَ مستحقُّها[1].

نكتةُ تَكْرارِ ﴿قُلْ﴾ أربع مرَّاتٍ:

إشارةُ الثَّلاثِ إلى أهمِّيَّةِ مقولِ القولِ، والرَّابعةُ إلى نفي الشِّركِ عنه تعالى

في الآيةِ استهلَّ الحقُّ ﷻ بفعلِ القولِ، وقدْ أوردهُ في مواضعَ سابقةٍ كقولهِ: ﴿قُلِ ٱنتَظِرُوٓاْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾، وقولِه: ﴿قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾، وقولِه: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى﴾، فوردتِ الرَّابعةُ هنا، والنُّكْتَةُ منْ تكريرِ فعلِ القولِ، الإشارةُ إلى أهمِّيَّةِ مَقولِ القولِ، وهوَ هنا نفيُ اتِّخاذِ غيرِ اللهِ ربًّا، وهوَ قمينٌ بذلكَ، فلا أعظمَ مِنَ التَّوحيدِ، ولا أسمَى منهُ.

غرضُ الاستفهامِ ونوعُهُ في ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا﴾:

استفهامٌ إنكاريٌّ يفيدُ التَّوبيخَ، وإنكارُ مواطأتِهم الاعترافَ بأصنامِهم

الهمزةُ في قولِهِ تعالى: ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا﴾، للاستفهامِ الإنكاريِّ، أيْ: لا أطلبُ ربًّا سواهُ، فكلُّ مَنْ دونهُ مربوبٌ؛ فهذا هوَ معنى الهمزةِ، فالإنكارُ والتَّوبيخُ متوجِّهٌ إلى اتِّخاذهمُ المعبودَ الباطلَ،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/205.

وظنِّهمْ أنَّهُ هوَ الحقيقُ بالعبادةِ[1]، وفي الاستفهامِ إنكارُ أمنيَّتِهمْ في أنَ يواطِئَهمْ ﷺ، على الاعترافِ بأصنامِهمْ ودينِهِمُ الزَّائفِ[2].

نكتةُ العدولِ منَ الجُملِ الخبريَّةِ إلى الإنشائيَّةِ:

إنكارُ الإشراكِ باللهِ، لا يقتضي أدنى احتمالٍ للكذبِ

والجملةُ في قولِه تعالى: ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا﴾، بعد قولِه: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى﴾، وقولُه: ﴿لَا شَرِيكَ لَهُۥ﴾ فيهِ انتقالٌ وتحوُّلٌ مِنَ الجُملِ الخبريَّةِ إلى الجملِ الإنشائيَّةِ، وفائدتهُ إفهامُ المخاطَبينَ وإلجامُهمْ بالقولِ، فإنَّ الجملةَ الخبريَّةَ تحتملُ الصِّدقَ والكذبَ[3]، وليسَ كذلكَ حال الجملةِ الإنشائيَّةِ، وكلامُ اللهِ تعالى كلُّهُ صدقٌ، فكانَ مرادُه تعالى ممَّا سبقَ منْ آياتٍ إعْلامَ المشركينَ أنَّ عبادةَ المرءِ وحياتَه للهِ الَّذي لا شريكَ لهُ، ولمَّا كانَ هذا الخبرُ محتمِلًا للصِّدقِ والكذبِ عندهمْ، عاجَلَهمْ بالأسلوبِ الإنشائيِّ، بنَفْيِ أنْ يبتغيَ غيرَ اللهِ تعالى ربًّا؛ في أسلوبٍ إنشائيٍّ لا يقتضي أدنى احتمالٍ للكذبِ، فَضْلًا عن أنَّ الجملةَ هنا ليست إنشائيَّةً على بابها، فيُطلبُ لها جوابٌ محدَّدٌ، وإنَّما غرضُها التَّوبيخُ والتَّكذيبُ.

تقديمُ المفعولِ به على الفعلِ والفاعلِ:

إنكارُ أن يكونَ المربوبُ شريكًا للرَّبِّ لاستحالة ذلك

قدَّمَ المفعولَ على عاملِه في قولِه تعالى: ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا﴾، (غيرَ) مفعولٌ للفعلِ ﴿أَبْغِى﴾، وقدْ تقدَّمَ على عاملِه، وهوَ تقديمٌ جائزٌ لا واجبٌ، ممَّا يُؤْذِنُ بوجودِ سببٍ لتقديمِه، وهوَ الاهتمامُ؛ لأنَّهُ المقصودُ منَ الاستفهامِ الإنكاريِّ[4] إنكارُ أن يجعلَ المربوبَ شريكًا للرَّبِّ. وقد يَحتملُ التَّقديمُ أن يكونَ للتَّخصيصِ أيضًا.

(1) السّبكّي، عروس الأفراح: 1/384، والزّمخشريّ، الكشّاف: 2/419.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/206.
(3) عبد القاهر، أسرار البلاغة، ص: 351.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/206، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/704.

بلاغةُ التَّعبيرِ بلفظِ (الرّبّ) دونَ غيرِه في الآيةِ الكريمة:

الرُّبوبيَّةُ والألوهيَّةُ حقيقتانِ متلازمتانِ، لا انفكاكَ بينهما

وآثرَ التَّعبيرَ بلفظِ الرَّبِّ على لفظِ الإلهِ، "مَعَ أنَّ المقصودَ هوَ العبادةُ؛ إذِ المعنى: أبغِي غيرَ اللّهِ إلهًا، وهوَ ربُّ كلِّ شيءٍ، للإشارةِ إلى التَّلازمِ بينَ الرُّبوبيَّةِ والأُلوهيَّةِ"[1]، فإنَّهمْ كانوا يُقِرُّونهُ ربًّا خالقًا، لكنَّهمْ يعبدونَ الأوثانَ شِركًا.

نكتةُ تنكيرِ ﴿رَبًّا﴾ التَّحقيرُ المؤْذِنُ بالتَّعريضِ بهم:

كيفَ أبغي ربًّا حقيرًا مخلوقًا، وأنا أعبدُ ربًّا مستحِقًّا للرُّبوبيَّةِ

نكَّرَ كلمةَ الرَّبِّ في قولِه تعالى: ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا﴾، ونكتةُ التَّنكيرِ في ذلكَ دلالتُها على التَّحقيرِ والتَّقليلِ، أي: كيفَ أبغي ربًّا حقيرًا مخلوقًا، وأنا أعبدُ ربًّا مستحِقًّا للرُّبوبيَّةِ، وآيةُ ذلكَ أنَّه قالَ بعدَه: ﴿وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ﴾؟ فأتى بـ﴿كُلِّ﴾ الدَّالةِ على الشُّمولِ، المباينَةِ للنَّكرةِ منْ كلِّ وجهٍ، وفي هذا التَّحقيرِ تعريضٌ بهمْ، وتنبيهٌ لهمْ[2] في طلبِهم ذاك؛ فإنَّه لا ينبغي لمنْ خَلَقَه ورَزَقَه، أن يطلبَ ربًّا سواهُ. ويمكن أن يكون التَّنكيرُ للتَّعميمِ، ليشملَ أيَّ ربٍّ من دون اللّهِ تعالى.

نوعُ الواوِ في ﴿وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ﴾، وغرضُ الجملةِ بعدَها:

جملةٌ حاليَّةٌ موضوعُها تعليلُ إنكارِ أنْ يُتَّخَذَ غيرُ الخالقِ والرّازقِ ربًّا

صدَّرَ جملةَ: ﴿وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ﴾ بالواوِ الابتدائيَّةِ الدَّالَّةِ على الحالِ، وموضوعُها التَّعليلُ ممَّا سبقَ، منْ إنكارِ أنْ يُتَّخَذَ غيرُ اللّهِ ربًّا وخالقًا ورازقًا، فإنَّهمْ معترفونَ بأنَّهُ الخالقُ والرَّازقُ - فلا حَقَّ إذًا لغيرِه أنْ يعبدهُ الخلائقُ، فعبادةُ غيرِه ظلمٌ كبيرٌ[3].

فائدةُ التَّعبيرِ بالضَّميرِ (هو) في ﴿وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ﴾:

الضَّميرُ توكيدٌ للقَصْرِ اعتبارًا لكونِه الرَّبَّ المالكَ، ولا ربَّ سواهُ

قولُه تعالى: ﴿وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ﴾: ابتداءُ الجملةِ بالضَّميرِ بقولِه: ﴿وَهُوَ﴾، يفيدُ توكيدَ القَصْرِ[4] على معنى: وهو الرَّبُّ لا غَيْرُهُ، خالقُ كلِّ شيءٍ، وهو المستحِقُّ العِبَادَةَ وحدَه؛ لأنَّه مالكُ كلِّ شيءٍ.

---

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2764.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/341.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/206.

(4) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2765.

نكتةُ الإظهارِ بعدَ الإضمارِ في قوله: ﴿وَهُوَ﴾:

الإظهارُ يَخلَعُ على الاسمِ تفخيمًا وتعظيمًا

قولُه تعالى: ﴿وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍۚ﴾ فيهِ إظهارٌ بعدَ الإضمارِ، فالضَّميرُ(هو)يعود على الذَّاتِ العليَّة، ونكتتُهُ لأجلِ التَّفخيمِ والتَّعظيم؛ فإنَّهمْ لمَّا طلبوا ربًّا سواهُ بيَّنَ أنَّهُ ربُّ كلِّ شيءٍ، "وكلُّ ما سواهُ مَرْبُوبٌ مِثْلي لا يصلحُ للرُّبوبيَّةِ"[1].

نُكتَةُ إضافةِ الرَّبِّ إلى لفظِ العمومِ ﴿كُلِّ﴾:

ربوبيَّةُ اللهِ لكلِّ شيءٍ، حكمٌ عامٌّ، أمَّا أربابُهم؛ فليست كذلك

قولُه تعالى: ﴿وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍۚ﴾، أضافَ لفظةَ (الرَّبِّ) إلى لفظةِ (كلِّ)، الدَّالَّةِ على الشُّمولِ والعموم، ولم يقل: (وهو ربّي) "لإثباتِ أنَّهُ ربُّهُ بطريقِ الاستدلالِ؛ لكونهِ إثباتَ حكمٍ عامٍّ يشملُ المقصودَ الخاصَّ، ولإفادةِ أنَّ أربابَهمْ غيرُ حقيقةٍ بالرُّبوبيَّة"[2]، لأنَّها مخلوقةٌ مثلهم، فلا تستحقُّ منزلةَ الرُّبوبيَّةِ، وإنَّهم وأَرْبَابُهُمْ مربوبونَ له ﷻ.

غرضُ تنكيرِ لفظةِ ﴿شَيْءٍۚ﴾:

اللهُ ﷻ ربُّ الأشياءِ الموجودةِ والمعدومةِ

وَرَدَتْ لفظةُ ﴿شَيْءٍۚ﴾ نكرةً، والشيءُ "هوَ الذي يَصِحُّ أَنْ يُعْلَمَ ويُخْبَرَ عنهُ، ويقعُ على الموجودِ والمعدوم"[3]، وهوَ لفظٌ نكرةٌ، وقدْ أُضيفَ إلى لفظةِ ﴿كُلِّ﴾، وفي تنكيرِهِ غرضٌ: وهوَ دلالتُهُ على الموجودِ والمعدومِ، منْ بشرٍ وشجرٍ وحجرٍ، فتنكيرُه للعموم، فالحقُّ ﷻ ربُّ كلِّ هذهِ الموجوداتِ وغيرِها منَ المعدوماتِ، وليسَ في الكونِ مَنْ لهُ الرُّبوبيَّةُ غيرهُ[4].

دلالةُ الواوِ العاطفةِ في ﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَاۚ﴾:

الجملةُ السَّالفةُ معلِّلةٌ للإنكارِ، مفضيةٌ إلى تقريرِ الوحدانيَّةِ

قولُه تعالى: ﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَاۚ﴾، جملةٌ معطوفةٌ على ما قبلَها، وهي قولُه: ﴿وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍۚ﴾؛ لأنَّها تعليلٌ للإنكارِ،

(1) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 2/191.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/206.
(3) الرّاغب، المفردات: (شيء).
(4) النّسفيّ، مدارك التّنزيل: 1/552.

وتقريرٌ للتَّوحيدِ كسابقتِها، وهي أصلٌ من أصولِ الدِّينِ الَّذي جاءتْ به الرُّسلُ جميعًا[1].

بلاغةُ القَصْرِ في ﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا﴾:

النَّفسُ المشارُ إليها، لا تكسبُ إلَّا ما يكونُ وبالًا عليها

قولُه تعالى: ﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا﴾، جملةٌ مصدَّرةٌ بالنَّفي، ثمَّ أعقبَها بالاستثناءِ، ممَّا يحقِّقُ أسلوبَ القصرِ، ونوعُ القصرِ هنا إضافيٌّ، فنفَى منْ كلِّ وجهٍ أنْ تكسبَ هذهِ النَّفسُ غيرَ ما يكونُ وبالًا عليها؛ فإنَّها قدْ تَكْسِبُ خيرًا إلَّا أنَّ لِعظَمِ ما تكسبهُ مِنَ السَّيِّئاتِ أصبحَ الكسْبُ مقْصورًا عَليها.

الغرضُ من الخبرِ في جملة ﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا﴾:

إخبارٌ عن المشركينَ، وأنَّ كسبَهم عليهم لا يتعدَّى سواهُم

الغرضُ من الجملةِ الخبريَّةِ في قولِه تعالى: ﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا﴾، تركُ المشركينَ ومَقْتُهُمْ، فإنَّ عنادَهم وما اقترفوهُ من الشِّركِ ليسَ بضارِّهِ ﷺ، ولن ينالَه شيءٌ من كسبِهم؛ لأنَّه لا يتجاوزهُم إلى سواهُم[2]، والتَّعميمُ هنا لإثباتِ الحكمِ العامِّ، كالتَّعميمِ في قولِه: ﴿وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ﴾.

في الآيةِ إيجازٌ بالحذفِ على تقديرِ (شَرًّا أو إثمًا عليها):

من شأنِ المخاطَبينَ اكتسابهُم الشَّرَّ والإثمَ وسائرَ الموبقاتِ

وجعلَ فعلَ الكسبِ مطلَقًا، ولمْ يعيِّنْ مفعولَهُ، فهوَ إيجازٌ بالحذفِ، فمفعولُ الكسبِ هنا محذوفٌ تقديرهُ: شرًّا أوْ إثمًا، فالمخاطَبونَ منْ شأنِهمُ اكتسابُ الشَّرِّ والإثمِ[3]، ومن بلاغةِ الحذفِ أنَّ حرفَ الجرِّ (على) مِنْ ﴿عَلَيْهَا﴾، هو من دلَّ على المحذوفِ.

بلاغةُ الاحتباكِ في قولِه ﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا﴾:

وقولُه تعالى: ﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا﴾، يتوفَّرُ على الاحتباكِ، وهوَ إيجازٌ بالحذفِ على جهةِ التَّقابلِ: يُحْذَفُ مِنَ الأوَّلِ

(1) رضا، تفسير المنار: 8/217.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/206 - 207.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/207.

لدلالةِ الثَّاني عليه، ويحذفُ منَ الثَّاني لدلالةِ الأوَّلِ عليه، فإنَّ فعلَ الكسبِ هنا دالٌّ على معنَيَين: كسبٍ للنَّفسِ، ويغلبُ في الخيرِ، واكتسابٍ عليها، ويغلبُ في الشَّرِّ، كما في قولِه تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَعَلَيۡهَا مَا ٱكۡتَسَبَتۡۗ﴾ [البقرة: 286]، إلَّا أنَّه هنا حذفَ من الأوَّلِ لدلالةِ الثَّاني، وعمومُ المعنى: أنَّ أيَّ كسبٍ أو اكتسابٍ لا يتخطَّى المرء إلى غيرِه[1].

المعنى حصولُ الكسبِ لها في الخيرِ، والاكتسابِ عليها في الشَّرِّ

دلالةُ الواوِ العاطفةِ في قولِه ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰۚ﴾:

وجملةُ: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰۚ﴾، معطوفةٌ على قولِه تعالى: ﴿وَلَا تَكۡسِبُ كُلُّ نَفۡسٍ إِلَّا عَلَيۡهَاۚ﴾، ومكمِّلةٌ لها، فمثلما كانَ كسبُ النَّفسِ لا يتعدَّاها إلى غيرِها "كذلكَ لا تحملُ نفسٌ عنْ نفسٍ شيئًا، والمعنى: ولا أَحملُ أَوزارَكم"[2].

من كسبَ خيرًا نجا وفاز، ومن اكتسب وِزرًا فما له من مَفازٍ

غرضُ الإخبارِ بنفيِ الوِزْرِ:

الخبرُ في قولِه تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰۚ﴾، الغرضُ منه: بيانُ أنْ لا "تأثمَ نفسٌ آثمةٌ، بإثْمِ نفسٍ أخرى غيرِها، ولكنَّها تأثمُ بإثمها، وعليهِ تُعاقَبُ، دونَ إثمِ أخرى غيرِها"[3]، فكلُّ نفسٍ تتحمَّلُ ما اكتسبتْهُ من الذَّنبِ لا يجاوزُها إلى غيرِها، وهذا من عَدْلِه تعالى.

حكمةُ اللهِ في تحميلِ المخطئِ وحدَهُ مَغَبَّةَ فعلِهِ دون غيرِهِ

نكتةُ تنكيرِ ﴿وَازِرَةٞ﴾ في جملة ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ﴾:

النُّكتةُ في تنكيرِ ﴿وَازِرَةٞ﴾، لإفادةِ التَّعميمِ ثمَّ التَّوكيدِ، فلمَّا كانتْ ﴿وَازِرَةٞ﴾، بمعنى نفسٍ وازرةٍ آثمةٍ، فالمعنى: أنَّ وِزْرَ كلِّ نفسٍ يقعُ عليها، ولا تبعةَ أحدٍ على غيرِه[4]، فالنَّكرةُ تؤدِّي معنى التَّعميمِ، فإذا كانتْ في سياقِ السَّلبِ؛ أفادتْ معنى التَّوكيدِ، توكيدِ أن لا إثمَ من نفسٍ إلَّا عليها.

النَّكرةُ في سياقِ السَّلبِ تفيدُ التَّعميمَ والتَّوكيدَ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/207، والماتريديّ، تأويلات أهل السّنة: 4/340.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/207.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 12/286.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/208.

نكتةُ حذفِ الموصوفِ في قولِهِ تعالى: ﴿وَازِرَةٌ﴾:

كأنَّما أذابَ النَّفسَ في الوزرِ كنايةً عنْ تلبُّسها بها

ولفظُ ﴿وَازِرَةٌ﴾ في الجملةِ، صفةٌ تقتضي موصوفًا، وهو هنا محذوفٌ، تقديرُه ﴿نَفْسٍ﴾، وجملةُ: ﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا﴾، دلَّتْ على الموصوفِ المحذوفِ، فكلُّ نفسٍ تحملُ حملَها، لا تتخطَّاهُ إلى غيرِها[1]، وحَذْفُ المَوْصوفِ كِنايةٌ عنْ تَلَبُّسِ الموصوفِ بالصِّفةِ، فكأنَّه لمْ يبقَ منهُ شيءٌ.

تشبيهُ الإثمِ بالوزرِ في الآيةِ الكريمةِ منْ بابِ الاستعارةِ:

الإثمُ في وَقْعِهِ كالحِمْلِ الثَّقيلِ الَّذي ينُوءُ بِثِقْلِهِ الإنسانُ

وفي جملةِ: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ استعارةٌ، فقدْ شبَّهَ الإثمَ بالوزرِ، وهوَ الثِّقلُ في أصلِه، ثمَّ استُعملَ في الإثمِ والذَّنْبِ؛ لأنَّهُ ينقضُ الظَّهرَ[2]؛ لأنَّهُ حملٌ ثقيلٌ ينوءُ بثِقْلِه المرءُ، وهوَ منْ بابِ التَّجوُّزِ، وليسَ منْ باب الحقيقةِ، حيث إنَّ "مادَّة الوزر، هي الثِّقْلُ بمشقَّةٍ، أي: لا يحمل إنسانٌ مشقَّةً ثقيلةً عن آخر، فالمسؤوليَّة لا تتعدَّى إلَّا إذا تعدَّى الفعل"[3].

نكتةُ الحذفِ في قوله تعالى: ﴿وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾:

المحذوفُ كَلِمَةُ (نفس) اختصارًا، لسبقها إلى الأفهامِ

في قولِه: ﴿وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾، ثمَّةَ محذوفٌ، "أيْ: ذنبُ نفسٍ أخرى، أيْ: فلا تحملُ آثمةٌ ولا طائعةٌ ذنبَ غيرِها"[4]، فحذفَ كلمةَ نفسٍ، وأبقَى وصفَها لدلالةِ الكلامِ السَّابقِ عليها، فكلُّ نفسٍ رهينةٌ بمكسبِها، بريئةٌ منْ مكاسبِ غيرِها.

دلالةُ ﴿ثُمَّ﴾ العاطفةِ في قوله: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ﴾:

غرضُ التَّعقيبِ المشتملِ على التَّهديدِ والوعيدِ وأَثَرُهُ

قولُه تعالى: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ﴾، عطفَ هذهِ الجملةَ على سابقتِها بالحرفِ ﴿ثُمَّ﴾، وهوَ الدَّالُّ على العطفِ والتَّرتيبِ والتَّعقيبِ،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/207.
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/370.
(3) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ (الخواطر): 7/4026.
(4) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 9/158، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 7/342.

و"يَحتمِلُ أنْ يكونَ منْ جملةِ القولِ المأمورِ بهِ، فيكونُ تعقيبًا للمتاركةِ بما فيهِ تهديدُهمْ ووعيدُهمْ، فكانَ موقعُ ثمَّ؛ لأنَّ هذا الخبرَ أهمُّ"[1].

إضافة إلى ذلك، نذكر بأنَّ من المعاني المشتهرةِ للحرف ﴿ثُمَّ﴾ في لسانِ العربِ التَّرتيبَ والمُهْلَةَ[2]، وهو كذلكَ في الآيةِ، فإنَّ قولَه تعالى: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ﴾، "أي: بعدَ طولِ الإمهالِ لكم، لطفًا منه بكم"[3]، ففيه إمدادٌ وتراخٍ لهم، لعلَّهم يعودون إلى طريقِ الحقِّ، وجادَّةِ الصَّوابِ.

بلاغةُ تقديمِ الجارِّ والمجرورِ:

التَّقديمُ يفيدُ اختصاصَ مصيرِ الإنسانِ ومآلِه إلى اللهِ وحدَه

قولُه تعالى: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ﴾، الأصلُ في الجملةِ الابتدائيَّةِ تقدُّمُ المبتدأِ بشروطِه على الخبرِ، فإنْ تقدَّمَ الخبرُ فيكونُ لنكتةٍ بلاغيَّةٍ، تدورُ أغلبُها حولَ الاهتمامِ والاختصاصِ، وههنا قدَّمَ المُتَعَلِّقَ الواقعَ خبرًا ﴿إِلَىٰ رَبِّكُم﴾، على المبتدأِ المعرفةِ ﴿مَّرْجِعُكُمْ﴾، وبلاغةُ تقديمِ شبهِ الجملةِ هنا متوجِّهٌ إلى الاختصاصِ، فمعنى ﴿إِلَىٰ رَبِّكُم﴾ أي: المَرجِعُ إلى اللهِ وحدهُ لا غيرهُ، مالكِ يومِ الدِّينِ وحدَهُ، يُجازي المُحْسِنَ إحْسَانًا، والمُسيءَ عذابًا وخسرانًا[4].

بلاغةُ الالتفاتِ منَ الغَيْبَةِ إلى الخطابِ:

الغرضُ تلوينُ الخطابِ، وتأكيدُ الوعدِ، وتشديدُ الوعيدِ

قولُه تعالى: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ﴾، جملةٌ دالَّةٌ على الخطابِ، واقعةٌ بعدَ قولِه: ﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ﴾، وهوَ كلامٌ يتوفَّرُ على الغَيْبَةِ، وفي ذلكَ التفاتٌ مِنَ الغَيبةِ إلى الخطابِ، وبلاغةُ هذا الانتقالِ تقومُ على "تلوينٍ للخطابِ، وتوجيهٍ لهُ إلى الكلِّ، لتأكيدِ الوعدِ وتشديدِ الوعيدِ، أي:

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/208.
(2) المراديّ، الجنى الدّاني، ص: 426.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/343، والسّامرائّي، معاني النّحو: 1/323.
(4) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2766، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 7/343.

إلى مالكِ أمورِكمْ، ورجوعِكمْ يومَ القيامةِ"[1]. فالانتقالُ من الغَيبةِ إلى الخطابِ يخلعُ على الكلامِ أهمِّيَّةً بالغةً، جاءتْ هنا في سياقِ الوعدِ والوعيدِ، وتأكيدِهما.

دلالةُ الخبرِ في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ﴾:

غرضُ الجملةِ الخبريَّةِ التَّهديدُ والوعيدُ لمن لا يؤمنُ بدينه

قولُه تعالى: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ﴾ جملةٌ خبريَّةٌ غرضُها التَّهديدُ والوعيدُ، في أنَّكمْ ستعودونَ إلى ربِّكمْ، فيُعلمُكم بما تستحقُّونَ مِنَ العقابِ على ما قدَّمتمْ، تبيينًا لموضعِ الحقِّ، فسيَاقُ هذهِ الجملةِ خبريٌّ، ومغزاهُ التَّهديدُ والوعيدُ[2].

نكتةُ التَّعبيرِ بـ﴿مَّرْجِعُكُمْ﴾ دونَ (ترجعون):

إشارةٌ إلى عودِ الإنسانِ إلى الأصلِ

التَّعبيرُ بـ﴿مَّرْجِعُكُمْ﴾ في الجملةِ دونَ غيرِها، فيه نكتةٌ، ذلكَ أنَّ ﴿إِلَىٰ﴾ حرفٌ يدلُّ على انتهاءِ الغايةِ، و﴿رَبِّكُم﴾ اسمٌ مجرورٌ، فالمعادُ يكونُ إليهِ تعالى، والجارُّ والمجرورُ مُتَعَلِّقٌ بمحذوفٍ، خبرٌ مقدَّمٌ جوازًا، و﴿مَّرْجِعُكُمْ﴾ مبتدأٌ مؤخَّرٌ مرفوعٌ، وهوَ مُعَرَّفٌ بإضافتهِ إلى ميمِ الجمعِ، والمعنى: أنَّكمْ صائرونَ إليهِ، وهوَ مصدرٌ ميميٌّ، والمصدرُ في اللُّغةِ "أصلُ الكلمةِ الَّتي تصدرُ عنها صوادرُ الأفعالِ، وتفسيرهُ: أنَّ المصادرَ كانتْ أوَّلَ الكلامِ"[3]، وهوَ المبدأُ، فكانَ في ذلكَ إشارةٌ، إلى معادِ الإنسانِ إلى الأصلِ، فمآلُ كلِّ إنسانٍ إليهِ تعالى.

معنى (الفاء) في جملة ﴿فَيُنَبِّئُكُم﴾:

الفاءُ عاطفةٌ أو سببيَّةٌ، وكلا الغرضين يخدمُ المعنى ويجلِّيه

قولُه تعالى: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾، الفاءُ في ﴿فَيُنَبِّئُكُم﴾، تَحتملُ أنْ تكونَ عاطفةً على تقديرِ أنَّ رجوعَكمْ إلى ربِّكمْ، يَتْبعُهُ إنباؤكمْ باختلافِكمْ، فالفاءُ هنا

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/316.
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/370، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/705.
(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: 12/95.

لترتيبِ هذهِ الجملةِ على ما قبلَها[1]. وتَحتملُ أنْ تكونَ سببيَّةً؛ فإنَّكمْ ستعودونَ إليهِ تعالى، لينبِّئَكُمْ بما كنتمْ فيهِ تختلفونَ في دنياكُمْ.

معنى (الباء) في ﴿بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾:

قولُه تعالى: ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾، الباءُ في ﴿بِمَا﴾ للإلصاقِ[2]، والمعنى: أنَّ صدورَ الاختلافِ حصلَ منهمْ، فبوساطةِ ذلكَ الاختلافِ قدَّرَ اللهُ تعالى عليهمُ الإنباءَ، وهوَ الحدثُ الَّذي يسبقُ العقابَ، أوْ هوَ العذابُ نفسُهُ، فالمؤثِّرُ في مصيرِهمْ هذا هوَ اختلافُهمْ.

بسببِ اختلافِهم كتبَ اللهُ عليهم الإنباءَ والعذابَ

دلالةُ التَّعبيرِ بالموصولِ (مَا) ﴿بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾:

قولُه تعالى: ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾، ﴿بِمَا﴾ المجرورُ فيه اسمٌ موصولٌ بمعنى: الَّذي كنتم تختلفون فيه[3]، والتَّعبيرُ بالموصولِ الدَّالِّ على العموم، وعدمِ التَّعيينِ في هذا الموضعِ، يفيدُ التَّعظيمَ، تهويلًا ممَّا ارتكبوهُ، فاستحقُّوا عليهِ العذابَ.

دلالةُ الموصولِ على عدمِ التَّعيينِ والعمومِ، يفيدُ التَّعظيمَ والتَّهويلَ

نكتةُ تقديمِ شبهِ الجملةِ ﴿فِيهِ﴾ على الفعلِ والفاعلِ:

قدَّمَ الجارَّ والمجرورَ ﴿فِيهِ﴾ على الفعلِ والفاعلِ ﴿تَخْتَلِفُونَ﴾، ونكتةُ تقديمِهِ هي الاهتمامُ، وسرُّ هذا الاهتمامِ "لقوَّةِ داعيَتِهم إليهِ منْ غيرِ إكراهٍ ولا ذهولٍ ولا نسيانٍ"[4]، فاختلافُكمْ كائنٌ معَ هذا الرَّسولِ ومعَ المسلمينَ، فيكونُ حالُكمْ ومآلُكمْ، عِقابًا عظيمًا تَسْتَحِقُّونَهُ بكفرانِكمْ نِعمَهُ.

التَّقديمُ في السِّياقِ لشدَّةِ اختلافِهمْ فيهِ، وقوَّةِ داعيَتِهم إليهِ

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(أبغي) و(أريد):

الفعلُ أبغي مِنَ الجذرِ اللُّغويِّ (بغي)، تقولُ: بغيتُ الأمرَ أبتغيهِ،

الابتغاءُ بمعنى الطَّلبِ، والإرادةُ تكونُ بمعانٍ شتَّى

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2767.
(2) ابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 20/86.
(3) الشّنقيطيّ، العذب النّمير: 2/635.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/343.

أي: طلبتُهُ، فهوَ بمعنى: الطَّلبِ والاجتهادِ فيهِ[1]. أمَّا الفعلُ أريدُ؛ فالمصدرُ منهُ الإرادةُ، وهيَ "المشيئةُ، أرادَ الشَّيءَ: أحبَّهُ وعنّى بهِ ذهابَ النَّفسِ إلى الشَّيءِ طلبًا ورغبةً قويَّةً في تحصيلهِ"[2]. فالإرادةُ تتوفَّرُ على غيرِ معنى واحدٍ، أمَّا الابتغاءُ فمعناهُ واحدٌ، ولمَّا كانَ سياقُ الآيةِ في توحيدهِ تعالى؛ استعملَ الفعلَ أبغي.

(تكسب) و(تزر):

الكسبُ دالٌّ على النَّفعِ والضُّرِّ حقيقةً، والوِزْرُ الذَّنبُ الثَّقيلُ مجازًا

فِعْلُ الكسبِ عائدٌ على الفاعلِ نفعًا أوْ ضرًّا، وقيلَ: ما يقعُ مراسًا أوْ علاجًا، وما كانَ بفعلِ الجوارحِ[3]، وقد وردتْ في سياقِ فعلِ الجوارحِ: ﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا﴾، فهو ما يكسبُه الإنسانُ من خيرٍ، وما يكتسبُه غير ذلك. أمَّا قولُه: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ بالوزرِ؛ فهوَ تعبيرٌ مجازيٌّ عَنِ الذَّنبِ، فأصلُه منَ الثِّقْلِ، أي: إنَّهُ يُثقِلُ صاحبَهُ تشبيهًا بثِقْلِ الجبلِ[4]، فجاءَ بالكسبِ أوَّلًا على الحقيقةِ، ثمَّ ثنَّى بالذَّنبِ الثَّقيلِ مجازًا.

(الاختلاف) و(التَّفرُّق) و(التَّنازع) و(التَّشتُّت):

الاختلافُ بمعنى المباينةِ والتَّفرُّقِ، والتَّعبيرُ به في الآيةِ أدقُّ من غيره

الاختلافُ والمخالفةُ، أنْ يأخذَ كلُّ إنسانٍ طريقًا، يباينُ طريقَ إنسانٍ آخرَ، حالًا أوْ مقالًا، وقدْ يقتضي الاختلافُ التَّنازعَ، فاستُعيرَ للمنازعةِ ونحوِها[5]، والمعنى في الآيةِ في قولِه: ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾، أيْ: تَختَلِفُونَ في هذا الدِّينِ مع الرَّسولِ ﷺ وأصحابِهِ.

أمَّا التَّفرُّقُ: فهوَ مِنْ (فرق) وهوَ فصلُ الشَّيءِ عنْ غيرِهِ فصلًا يصلُ إلى العمقِ[6].

---

(1) السّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (بغي).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (ريد).
(3) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 137.
(4) العسكريّ، الفروق اللّغويّة: 234، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (وزر).
(5) الرّاغب، المفردات: (خلف).
(6) الفيّوميّ، المصباح المنير، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (فرق).

وأمَّا التَّشتتُ: فيأتي بمعنى التَّفرُّقِ والتزيُّلِ كتشتيتِ الشَّيءِ، أي: تفرُّقِهِ، فهوَ مرادفٌ لهُ[1]. وأمَّا التَّنازعُ، فهوَ شدَّةُ الاختلافِ الموصلِ إليهِ، كما مرَّ آنفًا.

ونخلصُ منْ ذلكَ كلِّه: أنَّ التَّعبيرَ بفعلِ الاختلافِ جاءَ دقيقًا في الآية الكريمة، وجاريًا على كلامِ العربِ الأقحاح.

(1) الجوهريّ، الصّحاح: (شتت)، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (شت).

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴿١٦٥﴾﴾ [الأنعام: 165]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الرَّبطُ بين الرُّجعى إلى الله، والاستخلافِ والتَّنافسِ في العملِ النَّافعِ

بعد أنْ أخبرَ الحقُّ ﷻ، أنَّ مآلَ النَّاسِ جميعًا كائنٌ للجزاءِ والحسابِ ولا سلطانَ فيهِ إلَّا للّه (ﷻ)، بقوله: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾، أعقبهُ بأنْ يصيِّرهُمْ خلائفَ يخلفُ بعضُهمْ بعضًا، لتمتدَّ الحياةُ، وينافسَ بعضُهمْ بعضًا في الصَّالحِ مِنَ الأعمالِ، وفي ذلكَ ابتلاءٌ منهُ تعالى لهمْ، فمنهم من يسيء، ويُعاقبه اللّه، ومنهم من يحسنُ، فيتجاوز عنه الغفورُ الرَّحيم.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿خَلَٰٓئِفَ﴾: جمعٌ مكسَّرٌ مفردُه خليفةٌ، وجذرُه اللُّغويُّ (خلف)، ومعناه المتأخِّرُ[1]، و"الخاءُ واللَّامُ والفاءُ، أُصولٌ ثلاثةٌ: أَحدُها أَن يجيءَ شيءٌ بعد شيءٍ يقومُ مقامَه، والثَّاني خلافُ قُدَّامٍ، والثَّالثُ التَّغيُّرُ"[2].

وتناسِبُ هذه المعاني الثَّلاثةُ لفظةَ ﴿خَلَٰٓئِفَ﴾ في أنَّهم قاموا مقامَ غيرِهم، وكانوا متأخِّرين عنهم، وفي ذلكَ تغيُّرٌ وتبدُّلٌ، ومعنى التَّأخُّرِ ليسَ شرطًا أنْ يكونَ لقصورٍ في منزلتهِ، بلْ قدْ يَخْلُفُ عنْ غيرهِ، إمَّا لغَيبتهِ، أوْ فقدهِ أوْ عجزهِ، وقدْ يكونُ لتشريفهِ؛ واللَّفظةُ في هذهِ الآيةِ على هذا الوجهِ، فقدِ استَخْلَفَهمْ تشريفًا لهمْ[3].

(1) الخليل، العين، وابن دريد، الجمهرة: (خلف).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (خلف).
(3) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (خلف).

ومعنى جعلَكم ﴿خَلَٰٓئِفَ﴾، أي: إنَّهُ أورثَكم الأرضَ بعد هلاكِ من كانَ قبلَكم، فجعلَكم تخلفونَهم، وتعمرونَها بعدَهم[1].

2) ﴿دَرَجَٰتٍ﴾: جمعٌ بالألفِ والتاءِ، مفردهُ درجةٌ، والجذرُ اللُّغويُّ منهُ (درج)، ومعنى الدَّرجةِ متعلِّقٌ بالرِّفعةِ والمنزلةِ[2]. والدَّرجاتُ تأتي بمعنى المراتبِ مَادِّيًّا ومعنويًّا[3]، وبمعنى المراقي الَّتي يترقَّى فيها الإنسانُ[4].

ومعنى الدَّرجاتِ في الآيةِ: أنَّ الحقَّ ﷻ بايَنَ بينَ أوضاعِكمْ، فبسطَ لبعضِكمُ الرِّزقَ خلافَ بعضٍ، وفضَّلَ بعضَكمْ على بعضٍ بالمالِ، وجعلَ لبعضكمُ القوَّةَ والأَيْدَ، ولمْ يجعلهُ لآخرينَ[5].

3) ﴿لِّيَبۡلُوَكُمۡ﴾: فعلٌ مضارعٌ، جذرهُ اللُّغويُّ منْ (بلو)، والفعلُ (يبْلُو) منَ الابتلاءِ، وهوَ الامتحانُ والتَّمحيصُ والتَّجربة[6]، والأصلُ في معناهُ الاختبارُ خيرًا وشرًّا، صبرًا وشكرًا؛ لإظهارِ جودتهِ منْ سواها[7].

وغالبُ التَّراكيبِ القرآنيَّةِ، تأتي بمعنى الشِّدَّةِ معَ الاختبارِ[8]، ومنهُ الواردُ في هذهِ الآيةِ، فهوَ بمعنى الاختبارِ والامتحانِ؛ ليظهرَ منكمْ ما يكونُ مقصدُهُ العقابَ والثَّوابَ[9].

المَعْنى الإجْماليُّ:

يومئُ الحقُّ ﷻ إلى امتنانهِ على عبادِهِ، بأنْ مكَّنَ لهمُ الأرضَ، حتَّى استخلفُوها، وآثرَ بعضَكمْ على بعضٍ درجاتٍ، ابتلاءً لكمْ فيما

نعمةُ الاستخلافِ وعمرانِ الأرضِ، والابتلاءِ برفْعِ بعضِ النَّاسِ فوق بعض

(1) النّعلبيّ، الكشف والبيان: 12/286.
(2) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة: (درج).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (درج).
(4) السّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ، والفيّوميّ، المصباح المنير: (درج).
(5) ابن جرير، جامع البيان: 12/288.
(6) الخليل، العين: (بلو).
(7) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (بلوي)، والرّاغب، المفردات: (بلى).
(8) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (بلو - بلى).
(9) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 7/158.

آتاكمْ، وامتحانًا فيما أعطاكُمْ، فحسابُهُ لاحقٌ، وحكمهُ سابقٌ[1].وهوَ سريعُ العقابِ لمن يخشاهُ، وغفورٌ رحيمٌ لمن يترجَّاه، " وهكذا يتحرَّك النَّاس في الحياة، صعودًا وهبوطًا، ويتبادلونَ المواقفَ، ويتنازعون منازلَ الفضلِ، وبهذا تظلُّ ريحُ الحياةِ في حركةٍ دائمةٍ مجدَّدةٍ، يتنَّفس فيها النَّاس أنفاسَ الأملِ، والقوَّة، والحياة"[2].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ عطفِ قوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ﴾ على ما سبقَها:

هذه الآيةُ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ﴾ معطوفةٌ على ما سبقَها، وبلاغةُ هذا العطفِ تناسُبُهُ معَ ما قبلَهُ، فإنَّهُ قدْ ذكرَ فيما سبقَ إحسانَهُ تعالى بربوبيَّتِهِ، ثمَّ ختمَ بالتَّهديدِ، وأنَّهمْ محشورونَ إليهِ، فأتبعهُ مستعطفًا مذكِّرًا بنعمهِ وآلائهِ بأنَ جعلَهمْ خلائفَ الأرضِ، ومكَّنهمْ فيها[3].

استعطافٌ وتذكيرٌ بنعمهِ وآلائهِ بعدَ تهديدهِ ووعيدهِ بعذابه

بلاغةُ التَّعبيرِ بالاسمِ الموصولِ ﴿ٱلَّذِى﴾:

قولُه تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ﴾، جاءَ الاسمُ الموصولُ ﴿ٱلَّذِى﴾ العائدُ عليهِ سبحانهُ، والغرضُ منهُ تعظيمُ ذاتِ اللّهِ في أنَّهُ جعلَكمْ خلائفَ، ومكَّنكمْ فضلًا منهُ وإحسانًا، ثمَّ إنَّ ذِكْرَ الموصولِ بعدَ الضَّميرِ حتَّى تتشوَّقَ القلوبُ إلى معرفةِ الصِّلةِ.

دلالةُ الموصولِ على التَّعظيمِ لتتشوَّقَ القلوبُ إلى معرفةِ الصِّلةِ

نكتةُ مجيء جملةِ صلةِ الموصولِ فعليَّةٍ:

ورودُ صلةِ الموصولِ جملةً فعليَّةً للدَّلالةِ على الحدوثِ بأنَ جعلَهمْ خلائفَ، أمرٌ حادثٌ منهُ تعالى، بعدَ أنْ كانوا مستضعَفينَ يَتَخَطَّفُهُمُ النَّاسُ، فلا يركنوا ويغترُّوا، فتصيبَهمْ سنَّةُ اللّهِ في التَّغييرِ. وفيهِ منَ الامتنانِ عليهمْ ما فيهِ، بأنَ صيَّرَهم كذلكَ، ومكَّنهمْ في الأرضِ.

كونُهم خلائفَ أمرٌ حادثٌ، فلا يركنوا ولايغترُّوا

(1) القشيريّ، لطائف الإشارات: 1/516.
(2) عبد الكريم الخطيب، التّفسير القرآنّي للقرآن: 4/360.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/343 - 344.

دلالةُ التَّعبيرِ بقولِهِ تعالى: ﴿جَعَلَكُمْ﴾ دونَ (خلقكم):

عبَّرَ بالفعلِ ﴿جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ﴾، ولم يأتِ بالفعلِ (خلقكُم)؛ لأنَّ الفعلَ (جعلَ) أليقُ وأنسبُ لموضعِهِ في الآيةِ، ولما فيه من معنى الامتنانِ، فثمَّةَ فرقٌ بينَ الخلقِ والجعلِ، وهوَ "أنَّ الخلقَ فيهِ معنى التَّقديرِ، وفي الجعلِ معنى التَّضمينِ، كإنشاءِ شيءٍ منْ شيءٍ، أوْ تصييرِ شيءٍ شيئًا، أوْ نقلِهِ منْ مكانٍ إلى مكانٍ"[1]. والجعلُ في الآيةِ واحدٌ منْ هذهِ المعاني، وهوَ التَّصييرُ بأنَ صيَّرهمْ منْ كونِهمْ مستضعَفينَ في الأرضِ، إلى كونِهمْ خلائفَ، بأن "أهلكَ منْ كانَ قبلَكمْ مِنَ القرونِ والأممِ الخاليةِ، واستخلفَكمْ، فجعلَكمْ خلائفَ منهمْ في الأرضِ تَخْلُفونَهمْ فيها، وتعمرونَها بعدَهمْ"[2].

الجعلُ بمعنى التَّحويلِ، أيْ: صيَّركُم خلائفَ، وفيه معنى الامتنانِ

فائدةُ العمومِ للمخاطَبينَ في قوله: ﴿جَعَلَكُمْ﴾:

والتعبيرُ في قولِه تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ﴾ يَحتمِلُ أنْ يكونَ خطابًا عامًّا، أيْ: يخلفُ بعضُكمْ بعضًا في الأرضِ فتتصرَّفونَ فيها، ومنْ حكمتِهِ تعالى تعاقبُ البشرِ على التصرُّفِ في الأرضِ وعِمارتِها، فلا يذهبُ جيلٌ حتَّى يَخلُفَهُ آخرُ إلى أنْ يقعَ الفناءُ، ويحينَ موعدُ النِّهايةِ[3].

خلافةُ البشرِ في الأرضِ، وتعاقبهمْ على عِمَارَتِهَا من حكمةِ اللهِ الرَّاقية

نكتةُ التَّعبيرِ بقوله: ﴿خَلَٰٓئِفَ﴾ مادَّةً وصيغةً:

قولُه تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ﴾، عبَّرَ بلفظةِ ﴿خَلَٰٓئِفَ﴾، وهيَ صيغةُ جمعِ تكسيرٍ، مفردهُ (خليفةٌ)، وهوَ اسمٌ لما يَخْلُفُ، أي: يكونُ خَلَفًا وعِوَضًا من سابقِهِ[4].

ونكتةُ التَّعبيرِ بالخلائفِ، أنَّهُ جعلَهمْ كذلكَ، يفعلونَ فعلَ الخليفةِ

الاستخلافُ استرعاءٌ للبشرِ، وتبصُّرٌ بمصيرِ من كانَ من قبل

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/320.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 12/287 - 288، وابن أبي حاتم، تفسير القرآن العظيم: 5/1435.
(3) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 2/192، ومحمّد المكّي، التّيسير في أحاديث التّفسير: 2/190.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/210.

في الأرضِ، وهمْ متمكِّنونَ ومتصرِّفونَ، منْ كلِّ ما يريدونَ فيها[1]، وهذا من إنعامِهِ تعالى عليهم.

وفي الاستخلافِ استرعاءٌ، يختصُّ بمن ينصحُ للمَرعِيِّ، وفي تصييركِمْ خلفاءَ لمنْ كانَ قبلَكمْ، فيهِ معنى الإنذارِ والعبرةِ والحذرِ، منْ أنْ يصيبَكمْ، ما اعترى منْ كانَ قبلَكمْ مِنَ العدمِ، فلو قدَّرَ بقاءَ غيركمْ، لما استخلفَكمْ بعدَهمْ[2] فأخذهُم اللهُ، وشَمَلَتْهُم سنَّةُ الاستبدالِ لقولِه تعالى: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمْثَٰلَكُم ۝٣٨﴾ [محمّد: 38].

سرُّ إضافةِ الخلائفِ إلى الأرضِ في ﴿جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ﴾:

قولُه تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ﴾، أضافَ لفظةَ ﴿خَلَٰٓئِفَ﴾ إلى لفظةِ ﴿ٱلْأَرْضِ﴾، وفيهِ معنيانِ: ظاهرٌ وباطنٌ، أمَّا الظَّاهرُ؛ فهوَ استخلافُهمْ في جزيرةِ العربِ الَّتي يقطنونَ فيها، وأمَّا الباطنُ؛ فهيَ بشارتُهمْ في أنَّ دينَهمْ سينتشرُ في الأرضِ، وغلبةُ سلطانِهمْ على أهلِ الأرضِ في ذلكَ الوقتِ، وفيما يستقبلُ مِنَ الزَّمانِ[3].

الاستخلافُ منه ظاهرٌ في جزيرةِ العربِ، وباطنٌ في الأرضِ كلِّها

الفرق بين ﴿خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ﴾ و﴿خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾:

وذكرَ الخلائفَ هنا معرَّفًا، وذكرَه منكَّرًا في قولِه تعالى: ﴿خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾، فَيُسأَلُ عن الفرقِ بينَ الموضعين؟ والجوابُ عن ذلكَ: أنَّ سياقَ الخطابِ في (الأنعام)، جارٍ على المعارفِ، كقولِه: ﴿جَعَلَكُمْ﴾، أي: جعلَ كلَّ واحدٍ منهم الخليفةَ في الأرضِ، وتمكينَهم، أمَّا آيةُ (فاطر)، فليستْ كذلك؛ لذلكَ أخرجَ لفظةَ

التفريق بين خطاب التعريف، وخطابِ التنكير

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/344، والقاسميّ، محاسن التّأويل: 6/2597.

(2) النّحاس، إعراب القرآن: 3/254، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/210.

(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/344، "مع ملاحظة أنَّه يجوز في الإضافةِ أنْ تكونَ (على) معنى (في)، على أن يكونَ الخطابُ موجَّهًا إلى المشركين على معنى: جعلَكمْ خلائفَ فيها، أي: إنَّكم خلفٌ لما مضَى مِنَ الأممِ"، كقولِهِ تعالى ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ﴾ [الأعراف: 74]، يُنظر: ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/210.

﴿خَلَٰٓئِفَ﴾ مخرجَ النَّكرةِ "كأنَّهُ قالَ: جَعَلَكُمْ خَلَفًا لمنْ تقدَّمكمْ غيرُ معلومٍ إلَّا عندَ اللهِ ما يكونُ منْ أمركمْ، فأنتمْ مجهولونَ عندَ أشباهِكمْ وأمثالِكمْ"[1]، فنزَّلهم هنا منزلَةَ المجهولينَ. والتَّنكيرُ أليقُ بهذا التَّنزيلِ، وقد ناسب هذا التَّعميمُ في هذه السُّورةِ الإضافةَ بقوله: ﴿خَلَٰٓئِفَ ٱلۡأَرۡضِ﴾، لدلالةِ الإضافةِ على التَّوسُّعِ في الاستيلاءِ والإطلاقِ، ولم يكنْ ليناسبَ التَّعبيرَ بحرفِ الظَّرفيَّةِ ﴿فِي﴾ الدَّالِّ على التَّقييدِ[2].

اللَّامُ في لفظ ﴿ٱلۡأَرۡضِ﴾ بين العهد والاستغراق:

المخاطَبون العربُ أو الأمَّةُ، والأرضُ جزيرةُ العربِ أو العالمُ كلُّه

واللَّامُ في لفظةِ ﴿ٱلۡأَرۡضِ﴾، تَحتمِلُ أن تكونَ عهديَّةً[3]، فالمخاطَبون هم العربُ، فيرادُ بالأرضِ ما هم عليه من جزيرةِ العربِ[4]. ويجوزُ أنْ يكونَ الخطابُ للرَّسولِ ﷺ، وللأمَّةِ الإسلاميَّةِ. والمقصودُ بالأرضِ أيُّ أرضٍ، فاللَّامُ على نيَّةِ الاستغراقِ، فيكونُ الكلامُ متضمِّنًا البشارةَ للأمَّةِ الإسلاميَّةِ آخرِ الأممِ الَّتي صيَّرها اللهُ، لتكونَ سببًا في عمارةِ الأرضِ[5].

غرضُ المجيءِ بخبرِ جعلهمْ خلائفَ:

جعلكمْ خلائفَ فيهِ آيةٌ على إمكانِ البعثِ والنُّشورِ

وقولُه تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَكُمۡ خَلَٰٓئِفَ ٱلۡأَرۡضِ﴾ جملةٌ خبريَّةٌ، الغرضُ منها أنَّ في جعلِكمْ خلائفَ الأرضِ، بعدَ ما سبقَها ممَّنْ كانَ قبلَكمْ، لهوَ منْ أوضحِ الأدلَّةِ على إمكانِ البعثِ والنُّشورِ، فمنْ فعلَ ذلكَ لا يعجزهُ أنْ يحشرَ الجميعَ، بعد انقضاءِ عالمِ الحياةِ الدُّنيا[6].

---

(1) الاسكافيّ، درّة التّنزيل: 1/1081، والكرمانيّ، أسرار التّكرار في القرآن، ص: 115.

(2) ابن الزّبير، ملاك التّأويل: 1/175.

(3) اللاّم العهديّة الدّاخلة على الأسماء النّكرة الّتي تشير إلى معهود معروف بعينه، وهو أن يكون بينك وبين المخاطب معرفة وعهد سابق. يُنظر: ابن السّراج، الأصول في النّحو: 1/150.

(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/344.

(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/210.

(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/209.

دلالةُ العطفِ في قوله: ﴿وَرَفَعَ بَعۡضَكُمۡ﴾:

والواوُ في قولِه تعالى: ﴿وَرَفَعَ بَعۡضَكُمۡ فَوۡقَ بَعۡضٖ دَرَجَٰتٖ﴾، تفيدُ العطفَ، فهذهِ جملةٌ معطوفةٌ على ما سبقَها منْ جعلِهمْ خلائفَ الأرضِ، ودلالةُ العطفِ هنا تجري على ما في المخاطَبِ مِن احتمالين: الأوَّلُ: للعبرةِ والعظةِ وعدمِ الاغترارِ بالقوَّةِ، والثَّاني: أن تكونَ وسيلةً لشكرِ النِّعمةِ رفقًا بالضَّعيفِ، وإنصافًا للمظلومِ[1].

التَّبايُنُ في الدَّرجاتِ عبرةٌ ووسيلةٌ لشكرِ العطاءاتِ

نكتةُ استتارِ الفاعلِ من: ﴿وَرَفَعَ﴾:

الفعلُ: ﴿وَرَفَعَ﴾ من قوله: ﴿وَرَفَعَ بَعۡضَكُمۡ فَوۡقَ بَعۡضٖ دَرَجَٰتٖ﴾ فعلٌ استترَ فاعلُه، ونكتةُ استتارِ الفاعلِ من الفعلِ، طلبًا للاختصارِ، وأنَّه ذكرَه قبلَه في قولِه تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَكُمۡ خَلَٰٓئِفَ ٱلۡأَرۡضِ﴾، فاللَّفظُ يُحذفُ لدلالةِ الكلامِ السَّابقِ عليه، وهنا أشيرَ إليه سبحانهُ بقولِه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي﴾.

إيثارُ الإيجازِ، ودلالةُ ما سبقَ عليه؛ لأنَّه معلومٌ من سياقِ الآيةِ

بلاغةُ الاستعارةِ في رفعِ الدَّرجاتِ في الآية الكريمة:

والتَّعبيرُ برفعِ الدَّرجاتِ في الآيةِ مِنْ بابِ الاستعارةِ؛ لبيانِ تفاوتِ النِّعمِ في الفضلِ والغنى، ونحوِ ذلكَ، شبَّهَ فيها المعقولَ بالمحسوسِ لتقريبِه[2]، والجامع بينهما التَّفاوتُ والتَّباينُ، فهي استعارةٌ تصريحيَّةٌ تبعيَّةٌ. ومن معانيهِ الأخرى، فإنَّهُ رفَعَ الدَّرجاتِ، وحصلَ التَّفاوتُ، معَ أنَّكمْ منْ نفسٍ واحدةٍ، ولعلَّ الوضيعَ لهُ عقلٌ، فلمَ ينفعهُ، وأصبحَ أدنى مِنَ الرَّفيعِ، وفي ذلكَ آيةٌ بيِّنةٌ، ودلالةٌ واضحةٌ على أنَّهُ منْ فعلِ الواحدِ القهَّارِ مِنْ غيرِ عَجْزٍ عن المساواةِ بينهمْ[3].

رفعُ الدَّرجاتِ تشبيهٌ لتفاوتِ النِّعَمِ في الفضلِ والغنى

نكتةُ تنكيرِ لفظةِ ﴿بَعۡضٖ﴾:

في قولِه تعالى: ﴿وَرَفَعَ بَعۡضَكُمۡ فَوۡقَ بَعۡضٖ﴾، وردتْ لفظةُ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/211، والمنتجب الهمذانّي، الفريد في إعراب القرآن المجيد: 2/735.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/211.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/344.

﴿بَعۡضٖ﴾ نكرةً، والنُّكتةُ في هذا التَّنكيرِ إفادتُه التَّعظيمَ، فقد "أفادَ نَبيَّنا صلواتُ اللهِ وسلامهُ عليه بلفظِ البعضِ إعلاءً لقدرِه"[1] فضلًا عن إفادة التَّنكير هنا معاني العموم، ليشملَ الجميع دون استثناءٍ.

التَّنكيرُ يفيدُ التَّعظيمَ والتَّعميمَ، وهو من بليغِ الأساليبِ

نكتةُ ورودِ كلمةِ ﴿دَرَجَٰتٖ﴾ بالجمعِ والتَّنكيرِ:

ونكتةُ إيرادِ كلمةِ ﴿دَرَجَٰتٖ﴾ بالجمعِ والتَّنكيرِ في الآيةِ أنَّها دالَّةٌ على الدَّرجاتِ الكثيرةِ، معَ التَّفاوتِ الكثيرِ، مثلما نجدُهُ "بينَ العالمِ والجاهلِ، والحَسَنِ والقبيحِ، والشَّريفِ والوضيعِ، والغنيِّ والفقيرِ، والمريضِ والصَّحيحِ"[2].ولوْ شاءَ اللهُ لجعلكمْ متساوينَ منْ غيرِ هذا التَّفاوتِ، ولكنَّ حكمتَهُ اقتَضَتْ ذلكَ، فالتَّنكير قد يفيد التَّكثير، وقد يدلُّ أيضًا على التَّعميم.

التَّفاوتُ بينَ البشرِ من حكمتِه تعالى في الخلقِ والتَّقديرِ

دلالةُ (اللّام) في قولِه: ﴿لِّيَبۡلُوَكُمۡ﴾ على التَّعليل:

قولُه تعالى: ﴿لِّيَبۡلُوَكُمۡ﴾ اللَّامُ المقترنةُ معَ فعلِ الابتلاءِ والاختبارِ، لامُ التَّعليلِ، والمعنى: أنَّهُ تعالى يفعلُ معكمْ ذلكَ، اختبارًا لكمْ، لإقامةِ الحجَّةِ عليكمْ، وتسميَةُ البلوى لخفائِها، وأنَّها لا تظهرُ إلَّا بعدَ العملِ، فيكونُ واقعًا بعدَ أنْ كانَ مقدَّرًا[3].

غرضُ الاختبارِ بالطَّاعةِ والمعصيَةِ، إقامةُ الحجَّةِ على العباد

التَّعبيرُ بالفعلِ في قولِه: ﴿لِّيَبۡلُوَكُمۡ﴾ من بابِ المجازِ المرسلِ:

والتَّعبيرُ بفعلِ الابتلاءِ في الآيةِ، ليسَ على حقيقتِه، بلْ هوَ منْ بابِ المجازِ المرسَلِ[4]، فالابتلاءُ لا يجوزُ في حقِّه تعالى؛ لأنَّهُ ليسَ محلًّا للحوادثِ؛ ولأنَّ علمَهُ تعالى أزليٌّ، فهوَ عليمٌ بكلِّ شيءٍ، لكنَّهُ أطلقَ الابتلاءَ، وأرادَ انكشافَ حقيقةِ المُبْتَلَينَ؛ المُسَبَّبَةِ عنْ ذلكَ الابتلاءِ والاختبارِ.

القصدُ إطلاقُ الابتلاء، وإرادَةُ انكشاف حقيقةِ البشرِ فيما أعطاهم

(1) الحنفيّ، الأطول شرح تلخيص مفتاح العلوم: 1/335.
(2) ملا حويش، بيان المعاني: 3/436.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/344، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/211.
(4) "هو الكلمة المستعملة قصدًا في غير معناها الأصليّ لملاحظة علاقة غير المشابهة، مع قرينة دالَّة على عدم إرادة المعنى الوضعيّ"، يُنظر: الهاشميّ، جواهر البلاغة، ص: 252.

معنى (ما) في ﴿فِي مَآ ءَاتَىٰكُمۡۗ﴾ في الآية الكريمة:

قولُه تعالى: ﴿لِّيَبۡلُوَكُمۡ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمۡۗ﴾ ﴿مَآ﴾ في الجملةِ تَحْتَمِلُ مَعْنَيَيْنِ: الأوَّلُ أنْ تكونَ موصولةً، أيْ: (ليبلوَكم في الَّذي آتاكمْ منْ فضلٍ ونعمةٍ، وأنعمَ بهِ عليكمْ)[1].والثَّاني أن تكونَ مصدريَّةً، أي: (ليبلوكُم في هذا المأتيِّ من عطائِه وفضلِه).

(ما) تَحتمِلُ الموصوليَّةَ، وتحتملُ المصدريَّةَ، وكلاهما معنًى مفيدٌ

بلاغةُ التَّعبيرِ بالإيتاءِ مادَّةً وصيغةً:

في قوله تعالى ﴿لِّيَبۡلُوَكُمۡ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمۡۗ﴾، جاء فِعْلُ الإيتاءِ بمعنى: الإعطاءِ، والمعنى: ما أعطاكُم من النِّعمِ الكثيرةِ كالجاهِ والمالِ[2]، وجاءَ بالصِّيغةِ الفعليَّةِ الماضَويَّةِ للدَّلالةِ على تحقُّقِ الإعطاءِ ووقوعِه، فيكونُ مِنَ الأجدرِ بهمْ أنْ يشكروا نعمةَ ربِّهمْ، وبألَّا ينسَوا الفضلَ بينَهمْ، صَغيرُهُم وكَبيرُهُم، شَريفُهُم وحَقيرُهُم.

من حازَ نِعمًا وفيرةً منْ عطاء الله، فحقيقٌ به أن يشكرَ مولاه

بلاغةُ الاستعارةِ في التَّعبيرِ عنْ تفاوتِ النِّعمِ بالإيتاءِ:

قولُه تعالى: ﴿لِّيَبۡلُوَكُمۡ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمۡۗ﴾ فعلُ الإيتاءِ هنا يدلُّ على تفاوتِ النِّعمِ، وهو "مستعارٌ لتكوينِ الرِّفعةِ في أربابِها تشبيهًا للتَّكوينِ بإعطاءِ المعطي شيئًا لغيرِه"[3].

الإيتاءُ مستعارٌ لإيجادِ الرِّفعةِ تشبيهًا بإعطاءِ المعطي شيئًا لغيرِه

الموقعُ البيانيُّ لجملة ﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلۡعِقَابِ﴾:

قولُه تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلۡعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾، يقعُ موقعَ الاستئنافِ البيانيِّ؛ لأنَّه وردَ عقبَ قولِه تعالى: ﴿لِّيَبۡلُوَكُمۡ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمۡۗ﴾، فينشأُ عنْ سؤالِ سائلٍ: فماذا بعد الابتلاءِ؟ فالجوابُ أنَّ منْ أعرضَ وكفَرَ، فإنَّهُ سريعُ العقابِ، وهوَ الغفورُ الرَّحيمُ، وفيهِ تذكيرٌ بالنِّعمةِ، بعدَ أنْ حذَّرهمْ بأنْ يسلبَها منهمْ، ويحرِّضهمْ على ما فاتهمْ لتدارُكِه، وينظروا في عواقبِ الأممِ، وانقراضِها، وبقائِها، فيعتبروا بهمْ[4].

تذكيرٌ بالنِّعَمِ، وتحذيرٌ من سَلْبِه، وحضٌّ على تدارُكِ ما فاتَ

(1) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 5/231.
(2) النّسفيّ، مدارك التّنزيل: 1/553.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/211.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/210.

بلاغةُ توالي المؤكِّداتِ:

وختمَ الآيةَ بجملتين مشحونتين بالمؤكِّداتِ، هما قولُه تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، ففي هذهِ الجملةِ طائفةٌ مِنَ المؤكِّداتِ، منها: (إنّ) في موضعين استهلَّ بهما الجملتين، وتعريفُ جزأيِ الجملةِ الأولى، والمسحةُ التَّوكيديَّةُ بيِّنةٌ فيها، فضلًا عَنِ التَّعبيرِ بصفتينِ للمبالغةِ، والمبالغةُ قرينةُ التَّوكيدِ، وكذلك التَّعبيرُ بالجملتيْنِ الاسميَّتيْنِ. والغرضُ مِنْ ذلكَ تحقيقُ القَصْرِ، فالمعنى: الإقرارُ منهما، بأنَّهُ تعالى سريعُ العقابِ، وأنَّه غفورٌ رحيمٌ، لا غيرهُ، وإنْ كانَ غيرُهُ ممَّا يمكنُ أنْ يوصفَ بالرَّحمةِ.

الصِّفاتُ المذكورةُ مقصورةٌ عليهِ ﷻ، وإنْ وُصِفَ غَيْرُهُ بمثلِها

غرضُ إضافةِ الصِّفةِ إلى الموصوفِ في ﴿سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ﴾:

قولُه تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ﴾، قدْ أضافَ صفةَ السَّريعِ إلى العقابِ، "واسْتُعيرت السّرعة لعدم التَّردُّد ولِتمام المَقْدرة على العقاب، لأنّ شَأْنَ المُتردِّدِ أوِ العاجز أنْ يَتَرَيَّثَ وأنْ يَخْشى غائلةَ المُعاقِبِ، فالمُراد سريعُ العقاب في يوم العقاب، وليس المرادُ سريعَه مِن الآن، حتى يؤولَ بمعنى: كُلُّ آتٍ قريبٌ، إذ لا موقع له هنا"[1].

السُّرعةُ مُستعارةٌ للقدرةِ على العقابِ، ونفيِ خشيةِ غائلةِ المُعاقَبِ

نكتةُ الإضمارِ بعدَ الإظهارِ في ﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ﴾:

قولُه تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ﴾، أظهرَ اسمَ الرَّبِّ، ثمَّ عطفَ عليه قولَه تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، فأضمرَهُ، ونُكْتَتُهُ أنَّ الأصلَ الإضمارُ بعدَ الإظهارِ، فهوَ قائمٌ على بابِه، وأنَّ في الإضمارِ إحرازًا لِحُسْنِ الاتِّصالِ بينَ الجملتينِ وكمالِه، وفيه قوَّةٌ في تَعالُقِ الجُملِ، وبُعدٌ عن التَّكرارِ.

في الإضمارِ حُسْنُ اتِّصالِ الجملتينِ بِعَوْدِ الضَّميرِ على سابقٍ

نكتةُ ختمِ الآيةِ بصفاتِ العقابِ والمغفرةِ والرَّحمةِ:

قولُه تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، ختمَ الحقُّ ﷻ الآيةَ بهذهِ الصِّفاتِ؛ لنكتةٍ، وهيَ أنَّها تجري مجرَى التَّذييلِ

دلالةُ التَّذييلِ المناسبِ لما سبقَ تحفيزٌ إلى العملِ والامتثالِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/212.

للكلامِ السَّابقِ قصدًا منهُ إلى العملِ والامتثالِ، فالجمعُ بينَ سرعةِ العقابِ والمغفرةِ والرَّحمةِ، مناسبٌ لجميعِ ما جاءتْ بهِ السُّورةُ[1].

نكتةُ تقديمِ الوعيدِ على الوعدِ في أسمائهِ ﷻ:

تقديمُ الوعيدِ في مناظرةِ الكافرينَ أليقُ بحالِهِمْ زجرًا وتهديدًا

قدَّمَ في هذهِ الصِّفاتِ الَّتي ذيَّلَ بها الآيةَ الوعيدَ ﴿سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ﴾، على الوعدِ ﴿وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، والنُّكتةُ في ذلكَ: أنَّ السِّياقَ العامَّ للسُّورةِ، يجري في مناظرةِ الكافرين[2]، فمِنَ المناسبِ تقديمُ الوعيدِ، زجرًا لهم عن الكفرِ، وتهديدًا وترهيبًا لهم بما يليقُ بحالِهم.

دخولُ اللَّامِ على لفظ ﴿لَغَفُورٌ﴾، وعدمُ دخولِها على ﴿سَرِيعُ﴾:

ترجيحُ الغفرانِ على العقابِ تُبْرِزُهُ دلالةُ التَّوكيدِ في اللَّامِ

قولُه تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، قرنَ اللَّامَ الدَّالَّةَ على التَّوكيدِ معَ الغفورِ، ترجيحًا منهُ تعالى للغفرانِ على العقابِ[3]، و"هذه الجملةُ من الصِّفات الذَّاتيَّةِ الواردةِ على بناء المبالغةِ، مؤكِّدًا باللَّام، مع جعل خبرِ الأولى صفةً جاريةً على غيرِ مَنْ هيَ له في التَّنبيهِ على أنَّه تعالى غفورٌ رحيم بالذَّاتِ"[4].

سرُّ التَّوكيدِ مع الوعدِ دونَ الوعيدِ في الآيةِ الكريمة:

رحمتُه تعالى سبقت غضبَهُ وغفرانُهُ مقدَّمٌ على عقوبتِهِ

وفي توكيدِ الوعدِ بقولِه: ﴿لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، وعدمُ توكيدِ الوعيدِ بقولِه: ﴿سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ﴾ سرٌّ، وهو من قولِه: «إنَّ رحمتي غلبتْ غضبي»[5]، على معنى: "﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ﴾ لمن كفر، ﴿وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، لمن قامَ بشكرها، ووصفَ العقابَ بالسُّرعةِ؛ لأنَّ ما هو آتٍ قريبٌ، ﴿وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾"[6].

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/211.

(2) الزّركشّي، البرهان: 4/58.

(3) الفيروزابادي، بصائر ذوي التّمييز: 1/200.

(4) الفيروزابادي، بصائر ذوي التّمييز: 1/200.

(5) السّخاويّ، تفسير القرآن العظيم: 1/273، وابن بَرَّجان، تنبيه الأفهام إلى تدبّر الكتاب الحكيم: 2/295، والحديث أخرجه البخاري، الجامع الصحيح، برقم: (3194) عن أبي هريرة، ومسلم، الصحيح، برقم: (2751)، وأحمد، المسند، برقم: (7500)، وغيرهم.

(6) النّسفيّ، مدارك التّنزيل: 1/553.

"ومِنْ لَطائفِ القرآن الاقتصارُ في وصف ﴿سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ﴾ على مُؤكّد واحد، وتعزيز وصف (الغفور الرحيم) بمُؤكّدات ثلاثةٍ، وهي (إنّ)، ولام الابتداء، والتوكيد اللفظي؛ لأنّ (الرحيم) يؤكّد معنى (الغفور): لِيُطَمْئِنَ أهلَ العمل الصالح إلى مغفرة الله ورحمته، وليَسْتَدعِيَ أهلَ الإعراض والصُّدوفِ، إلى الإقلاع عمّا هم فيه"[1].

غرضُ تقديمِ المغفرةِ على الرَّحمةِ في ﴿وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾:

المغفرةُ سلامةٌ، والرَّحمةُ غنيمةٌ، والسَّلامةُ مطلوبةٌ قبلَها

قدَّمَ صفةَ (الغفورِ) على صفةِ (الرَّحيمِ)، ولهذا التَّقديم أسبابٌ، منها: أنَّ المغفرةَ للمكلَّفينَ منَ البشرِ، وحيثما وردَ ذكرُ المكلَّفينَ متقدِّمًا، تقدَّمَ الغفورُ على الرَّحيمِ، وفي "تقديمِ الغفورِ على الرَّحيمِ أنَّ المغفرةَ سلامةٌ، والرَّحمةَ غنيمةٌ، والسَّلامةُ مطلوبةٌ قبلَ الغنيمةِ"[2]، وأنَّ الرَّحمةَ أعمُّ مِنَ المغفرةِ، فهيَ تشملُ البشرَ والحيوانَ وغيرهما، وآيةُ ذلكَ قولهُ ﷺ منْ حديثٍ طويلٍ: «فَمِنْ ذَلِكَ الْجُزْءِ تَتَرَاحَمُ الْخَلَائِقُ، حَتَّى تَرْفَعَ الدَّابَّةُ حَافِرَهَا عَنْ وَلَدِهَا، خَشْيَةَ أَنْ تُصِيبَهُ»[3].

التَّعبيرُ بصيغِ المبالغةِ في الاسمين الأحسنين (غَفُورٌ، رَحِيمٌ):

غرضُ التَّنبيهِ أنَّ غفرانَهُ ورحمتَهُ، ذاتيَّانِ لا يتوقَّفان

قولُه تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، ختمَ الحقُّ ﷻ السُّورةَ بأسمائهِ تعالى، موردًا إيَّاها بصيغِ المبالغةِ، وعلَّةُ إيرادِهِ أسماءَهُ على هذهِ الصِّيغِ تنبيهًا على مغفرتهِ ورحمتهِ ﷻ، ذاتية لا تتوقَّفُ على شيءٍ[4]، ولقولِهِ في الحديثِ القدسيِّ: «سَبَقَتْ رَحْمَتِي غَضَبِي»[5].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 8/212أ.
(2) السّهيلّي، نتائج الفكر، ص: 212 - 213، وابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 4/171.
(3) مسلم، الصحيح، برقم: (2752).
(4) الآلوسّي، روح المعاني: 8/73.
(5) البخاريّ، الجامع الصحيح، الحديث رقم: (7114).

المتشابه اللَّفظيّ بين هذه الآيةِ وآية سورة الزُّخرفِ:

قولُه تعالى: ﴿وَرَفَعَ بَعۡضَكُمۡ فَوۡقَ بَعۡضٖ دَرَجَٰتٖ لِّيَبۡلُوَكُمۡ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمۡۗ﴾، والمرادُ من الدَّرجاتِ هنا الرِّفعةُ والمنزلةُ، كإيمانِ بعضِ المؤمنين ورفعتِهم، أمَّا قولُه تعالى: ﴿وَرَفَعۡنَا بَعۡضَهُمۡ فَوۡقَ بَعۡضٖ دَرَجَٰتٖ لِّيَتَّخِذَ بَعۡضُهُم بَعۡضٗا سُخۡرِيّٗاۗ﴾ [الزُّخرف: 32]؛ فالمرادُ هنا أنَّ الحالَ هنا أن يَسْخَرَ ويستهزئَ الكافرون من فقراءِ المُؤْمِنِينَ[1]، ويمكن أن تدلَّ آيةُ الزُّخرف على نوعٍ مخصوصٍ من البلاء، يتعلَّق بنعمة التَّفاوتِ الطَّبَقيِّ بين النَّاس، فبعضُهم مُسخَّرٌ لخدمة بعضِهم الآخر، ولولا هذه النِّعمةُ لما استقامت الحياة، في ظلِّ وجود طبقةٍ واحدةٍ فقط.

الدَّرجاتُ هنا منْ بابِ التَّفاوتِ المعنويّ، والدَّرجاتُ هناكَ سخريَّةٌ واستهزاءٌ

الفرق بين ﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلۡعِقَابِ﴾، و﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلۡعِقَابِ﴾:

في قولِه تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلۡعِقَابِ﴾ [الأعراف: 167] بزيادةِ اللَّامِ، فَيُسألُ عَنِ الفرقِ بينَ التَّعبيرين؟

والجوابُ عنْ ذلكَ: أنَّ الخطابَ في (الأنعام) قدْ تقدَّمَ لهُ ﷺ وأمَّته، وهؤلاءِ المذكورونَ بجملتِهمْ ممَّنْ لا يستحقُّونَ عقابًا، فليسَ مِنَ المناسبِ توكيدُ العقابِ باللَّامِ، خلافَ ما جاءَ في سورةِ الأعرافِ، فقدْ تخلَّصتْ للمستحقِّينَ عقابَهُ بما اجْتَرَحوا مِنَ الكفرِ، فكانَ تهديدًا لهمْ، فناسبَ حالُهُمُ التَّوكيدَ باللَّامِ، ولمْ يناسبِ الآيةَ الأخرى[2].

السِّياقُ هنا في المؤمنينَ، وهم ليسوا على الأغلبِ ممَّن يستحقُّ عقابًا

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(جعلَ) و(خلقَ):

قولُه تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَكُمۡ خَلَٰٓئِفَ ٱلۡأَرۡضِ﴾، أوردَ الفعلَ (جعلَ)، ولم يوردِ الفعلَ (خلقَ) معَ أنَّهُ يرادفهُ في عموم معناهُ، وسببُ ذلكَ أنَّ الحقَّ ﷻ، لمْ يُرِدْ خلقَهمْ خلائفَ مِنَ العدمِ؛ فَهُمْ

الخلقُ إيجادٌ مِنَ العدمِ، والجَعْلُ تَصرُّفٌ بالمخلوق بعدَ الخلقِ

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2769.

(2) ابن الزّبير، ملاك التّأويل: 1/176، وابن عادل، اللّباب: 8/540.

مخلوقونَ أصلًا، إنَّما القصدُ أن يجعلهم خلائفَ، فهذا الفعلُ يفيدُ التَّحويلَ والتَّصييرَ، أيْ: إنَّهم موجودونَ على كلِّ حالٍ، إنَّما أرادَ هنا أنْ يجعلَهمْ خلفاءَ "في الأرضِ، ملقًى إليكمْ مقاليدُ التَّصرُّفِ والانتفاعِ بما فيها، أوْ جعلَكمْ خلفاءَ ممَّنْ قبلَكمْ مِنَ الأممِ، وأورثَكمْ ما بأيدِيكمْ منْ متاعِ الدُّنيا لتشكروهُ"[1]، فَثَمَّةَ فرقٌ بينَ الخَلْقِ والجَعْلِ؛ لأنَّ الخلقَ: إيجادٌ مِنَ العدمِ، والجَعْلَ: تصرُّفٌ بعدَ الخلقِ.

(1) الآلوسّي، روح المعاني: 11/374.

سُورَةُ الأَعْرَافِ

سُورَةُ الأَعْرَافِ

تعريفٌ عامٌّ بسورةِ الأعراف:

سورةُ الأعرافِ: مَكيّةٌ[1]، وعددُ آياتِها مئتانِ وستُّ آياتٍ في المدنيّ والمكّيّ والكوفيّ، وخمسُ آيات في البصريّ والشَّاميّ[2]، وقد وردَ ذكرُ بعض آياتٍ منها بأنَّها مدنيَّةٌ على اختلافٍ في عددها في قولَيْن[3]: الأوَّلُ: هي خمسُ آياتٍ من قولِه تعالى: ﴿وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ﴾ إلى قولِه تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ١٦٧﴾ [الأعراف: 163 - 167]، الثَّاني: هي ثماني آياتٍ من قولِه تعالى: ﴿وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ﴾ إلى قولِه تعالى: ﴿۞وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ﴾ [الأعراف: 163 - 171]. والحقيقةُ أنَّه لا يوجد دليلٌ قويٌّ ثابتٌ، يجزِم بمدنيَّتها، فتبقى السُّورة الكريمة مكِّيَّةً بجميع آياتها.

زمن نزولِ سورةِ الأعرافِ:

نزلتْ في السَّنةِ العاشرةِ من البعثةِ النَّبويَّة في المُدَّةِ الزَّمنيَّةِ الواقعةِ بين الهجرةِ إلى الحبشةِ وحادثةِ الإسراءِ والمعراج[4]. وقد قيل: "نزلت سورةُ الأعرافِ بعد (سورةِ ص)، وقبل (سورةِ الجنِّ)، وكان نزولُ (سورة الجنِّ) مع رجوعِ النَّبيِّ ﷺ من الطَّائف، وكان قد سافرَ إليها سنةَ عشْر من بعثتِه، ليعرض الإسلامَ على أهلها"[5].

وقال المحقِّقون: وظاهرُ حديثِ ابن عباس في (صحيح البخاري) أنَّ سورةَ الجنِّ، أُنزلت في أوَّلِ الإسلامِ، ولعلَّ ذلك في السَّنة الثَّانيةِ من البعثة، ولا أحسبُ أن تكونَ سورةُ الأعرافِ، قد نزلت في تلك المدَّةِ؛ لأنَّ السُّورَ الطِّوال، يظهر أنَّها لم تنزل في أوَّل البعثةِ[6].

أسماءُ سورةِ الأعرافِ وسببُ تسميتها:

الأوَّلُ: سورةُ الأعراف، وقد ورد ذِكْرُ الأعرافِ في قولِه تعالى: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ

(1) قاله ابن عبّاس رضي الله عنهما وقتادة، ينظر: النَّحاس، النَّاسخ والمنسوخ: 2/358، والسُّيوطي، الدُّرُّ المنثور: 3/125، والإتقان: 1/49.
(2) الدَّاني، البيان في عدِّ آيات القرآن، ص: 155.
(3) ابن سلامة، النَّاسخ والمنسوخ، ص: 70، والزَّركشي، البرهان: 1/200، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 9/149.
(4) جعفر شرف الدّين، الموسوعة القرآنيَّة: 3/95.
(5) جعفر شرف الدّين، الموسوعة القرآنيَّة: 3/95.
(6) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/07.

﴿ٱلۡأَعۡرَافِ﴾ [الأعراف: 48]، وهي سورٌ بين الجنَّة والنَّار. والثَّاني: سورةُ الميقات؛ لاشْتمالِها على ذِكْرِ ميقاتِ موسى عليه السلام في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا﴾ [الأعراف: 143]. والثَّالث: سورةُ الميثاقِ؛ لاشْتمالِها على حديثِ الميثاقِ في قولِه تعالى: ﴿أَلَسۡتُ بِرَبِّكُمۡۖ قَالُواْ بَلَىٰ﴾ [الأعراف: 172]، وأَشْهرُها الأعراف[1]. وما ذكرهُ بعضُهم من تسميَتِها بالحروفِ المقطَّعة الَّتي في أوَّلها ﴿الٓمٓصٓ﴾، على نحو ما فعلَ ابنُ أبي زيدٍ في الرِّسالة[2]، فقد ذكرَ ابنُ عاشورٍ أنَّه ضعيفٌ، وذكر أيضًا أنَّ "ما في حديثِ زيدٍ، من أنَّها تُدعى طُولى الطُّولَيَيْنِ، فعلى إرادةِ الوصفِ دون التَّلقيب"[3]، فهي بذلك ليست اسمًا.

ترتيبُ سورة الأعراف بين السُّوَرِ:

ترتيبُ نزولِها هو التَّاسعُ والثَّلاثون، من ترتيبِ نزول السُّوَر، عند جابرِ بن زيدٍ، عن ابن عبّاسٍ[4] رضي الله عنهما، وترتيبُها بين السُّوَرِ الَّتي بُدِئَتْ بحروفِ الهجاءِ من حيثُ النُّزولُ الرَّابعة، وترتيبُها بين السُّوَرِ الطِّوالِ من حيثُ النُّزولُ الأولى، وترتيبُها المصحفيُّ بين السُّوَرِ في القرآنِ الكريمِ السَّابعة[5]، وهذا هو التَّرتيبُ الثَّابتُ المعوَّل عليه.

المحورُ الأساسيُّ لسورة الأعراف:

المحور الرئيس الّذي دارت عَلَيْهِ آيات سورة الأعراف هو بيان أثر الاتّباع الحاسم للوحي الإلهيّ في تحقيق الإصلاح للبشريّة ودفع الفساد عنها بَدْءًا من دعوة أبينا آدم عليه السلام وانتهاءً بدعوة نبيّنا محمّد صلى الله عليه وسلم.

الاتِّباعُ الحاسم للوَحْيِ فيه تحقيقُ صلاحِ البشريَّة

(1) الفيروزابادي، بصائر ذوي التَّمييز: 1/203 - 204.

(2) قال النَّفراويُّ: "أُولاهَا سَجْدَةٌ (فِي المص) الْأَعْرَافِ (عِنْدَ قَوْلِهِ) تَعَالَىٰ: ﴿وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسۡجُدُونَ ۩ ۝٢٠٦﴾ [الأعراف: 206] وَهُوَ آخِرُهَا"، يُنظر: شهاب الدّين النّفراويّ، الفواكه الدّواني على رسالة ابن أبي زيد القيروانيّ: 1/250.

(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/6.

(4) الفيروزابادي، بصائر ذوي التَّمييز: 1/98.

(5) جعفر شرف الدِّين، الموسوعة القرآنيَّة: 3/85 - 87.

وقد ظهر هذا المحور فيها جليًّا واضحًا منذ مطلعها في قوله تعالى: ﴿الٓمٓصٓ ۝١ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ مِّنۡهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٢ ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۗ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ۝٣﴾ [الأعراف: 1 - 3]، وفي آخر آياتها: ﴿وَإِذَا لَمۡ تَأۡتِهِم بِـَٔايَةٖ قَالُواْ لَوۡلَا ٱجۡتَبَيۡتَهَاۚ قُلۡ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ مِن رَّبِّيۚ هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمۡ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ۝٢٠٣ وَإِذَا قُرِئَ ٱلۡقُرۡءَانُ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ۝٢٠٤ وَٱذۡكُر رَّبَّكَ فِي نَفۡسِكَ تَضَرُّعٗا وَخِيفَةٗ وَدُونَ ٱلۡجَهۡرِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ ۝٢٠٥ إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسۡجُدُونَ ۩﴾ [الأعراف: 203 - 206].

وظهر هذا المحور بشكلٍ غير مباشر في كلّ مشاهد قصص هذه السّورة: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسۡجُدَ إِذۡ أَمَرۡتُكَۖ﴾ [الأعراف: 12]، وفي قوله له ناعيًا له ولمن تبعه تعالى: ﴿قَالَ ٱخۡرُجۡ مِنۡهَا مَذۡءُومٗا مَّدۡحُورٗاۖ لَّمَن تَبِعَكَ مِنۡهُمۡ لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمۡ أَجۡمَعِينَ ۝١٨﴾ [الأعراف: 18].

تكذيبُ دعواتِ الأنبياءِ هلاكٌ وبَوارٌ

وبيَّنَتِ السّورةُ الكريمة مصارعَ الأقوام الّذين كذّبوا دعوات أنبيائهم وذلك بسبب أنّهم لم يتّبعوهم، وعَرَضَتْ لأسباب جحودهم وعلى رأسها اتّباعُ وساوس الشّيطان، بدلًا من هدي الرّحمن.

الاستِكْبارُ قَنْطَرةُ الإعـــراضِ عـنِ الهُدى

وسلّطت السّورة الكريمة الضّوء على سببٍ آخر من أسباب ترك الاتّباع وهو الاستكبار، بَدْءًا من أوّل المستكبرين: ﴿قَالَ فَٱهۡبِطۡ مِنۡهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخۡرُجۡ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ۝١٣﴾ [الأعراف: 13]، وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝٣٦﴾ [الأعراف: 36]، وقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمۡ أَبۡوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلۡجَمَلُ فِي سَمِّ ٱلۡخِيَاطِۚ﴾ [الأعراف: 40]، وغيرها من الآيات. فهذه السّورة من أكثر السُّوَرِ الّتي ذكرت لفظةَ الاستكبار ومقارباتها.

وذكَّرَتِ السّورة كذلك بالعهد الأوّل المأخوذ على بني آدم والمطلوب اتّباعه والعمل به: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾﴾ [الأعراف: 172 - 173].

اتباعُ هَدْيِ الأنبياءِ مَعْقودٌ بالعَهْدِ المأْخوذِ على آدمَ

وتخلّل السّورةَ الكريمةَ الأمرُ للنّاس جميعًا بضرورة اتّباع النّبيّ ﷺ: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾﴾ [الأعراف: 158]، وأثنت السّورة الكريمة على المبالغين في التّمسّك بالكتاب في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٧٠﴾﴾ [الأعراف: 170]، فضلًا عن تصويرها حال من ترك الاتّباع لآيات الله تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾﴾ [الأعراف: 175 - 176].

قَصَصُ الأنبياءِ مَلْمَحٌ شامِخٌ بِضَرورةِ اتِّباعِ الرَّسولِ الخاتَمِ

وقد اقتضى هذا المحور الّذي قامت عليه السّورة من أن تُكْثِرَ من ذكر قصص الأنبياء مع أقوامهم مُبَيِّنةً نماذجَ متنوّعةً من تَرْك الاتّباع على الصُّعُد: العَقَديّة والسّياسيّة والاقتصاديّة والأخلاقيّة وغيرها. واقتضت كذلك أن تُكثر من ذكر مفردة النّصح على ألسنة الأنبياء لأقوامهم بأن يتّبعوا شرعة الله حتّى تصلح حياتهم.

سببُ تسميَتِها:

سُمِّيتْ سورةُ الأعرافِ بهذا الاسم، الّذي ورد ذِكْرُه في قولِه تعالى: ﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ ۚ وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ﴾ [الأعراف: 46]، ويُقصد به

المكانُ المرتفعُ الَّذي يجلسُ فيه مَنْ تساوتْ حسناتُه وسيِّئاتُه، على سورٍ حاجزٍ مضروبٍ بين الجنَّةِ والنَّار، يَبقَوْنَ فيه حتَّى يقضيَ اللّهُ في أمرهم، ولم يرد ذكر اسم (الأعراف) فيما سِواها من السُّوَر[1].

ثمّ إنّ اسم السّورة مرتبط بمحور السّورة ومقصودِها الّذي قامت عليه، وعند إنعام النّظر في مقاطع هذه السّورة وموضوعاتها الجزئيّة يتبيّن أنّ المحور الرئيس الّذي يجمع مقاطعها وآياتها يدور حول أثر الاتّباع الحاسم للوحي الإلهيّ في تحقيق الإصلاح ودَرْءِ الفساد؛ فالسّورة قد نصّت على هذا الاتّباع الحاسم في الآيات الأولى منها بقوله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ مِّنۡهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ٢ ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۗ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ٣﴾ [الأعراف: 2 - 3].

أمثلة على تسلسل ورود مقاطع السورة لتتواءم مع المحور:

لذا فإنّ السّورة الكريمة قد ارْتَبَطَتْ بعضُ مفاصِلِها ومشاهِدِها بهذا المحور الرئيس، فمثلًا عندما ذكرت جانبًا من قصّة آدم عليه السلام، قد سلّطت الضّوء على قضيّة رفضِ إبليسَ اتّباعَ الأمر له بالسّجود بقوله تعالى: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسۡجُدَ إِذۡ أَمَرۡتُكَۖ﴾ [الأعراف: 12]! فكان الأصل أن يتّبع إبليسُ أمرَ ربِّه دون مواربةٍ أو تعليلٍ مَبْنيٍّ على قياسٍ فاسدٍ.

وكذلك فإنَّ مشاهدَ قصّة آدم في السّورة الكريمة قد ألمحت إلى معصية آدم عليه السلام والّتي تاب اللّه تعالى فيها عليه بأنْ عَلَّمَه الكلمات الّتي تُيَسِّر عليه أمرَ التّوبة، إذ إنّ الأصل في نهي اللّه تعالى له ولِزَوْجِه عن أن يَقْرَبا الشّجرةَ ويأكلا منها، أن يتمَّ بحسمٍ وطاعةٍ لا يعتريها ضعفٌ أو نسيانٌ، لكنّ الأمر كان على غير ذلك، فجاءتِ التّوجيهاتُ لذرِّيَّتِه من بعده في نداءات أربعة أوردتها السّورة الكريمة؛ في الآيات:

﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ ٢٦ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآۗ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡۗ إِنَّا جَعَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ٢٧﴾ [الأعراف: 26 - 27]. وقوله: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ﴾ [الأعراف: 31]. وقوله: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ إِمَّا

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/5، والشّعراوي، التّفسير: 8/4556.

يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِي فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الأعراف: 35].

ويُلْمَحُ من هذه النّداءات والتّوجيهات ضرورةُ اتّباعِ أوامرِ اللّه تعالى ونواهيه، دون تردّدٍ لاستماع وسوسة الشّيطان حتّى يتحقّق الصّلاح في الأرض، وهذا هو المحور الّذي تدور حوله السّورة.

وفي قصّة موسى عليه السلام ورحلتِه الطّويلة مع بني إسرائيل يظهر لنا أثرُ هذا الحسم في اتّباع أوامر نبيِّهم، فالسَّحَرةُ لمّا حَسَموا أمرَهم وعزموا عليه بعد أن رأوا الآياتِ البَيِّناتِ على صدق موسى عليه السلام، ردّوا على فرعونه وعيدَه الشّديد لهم: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا ۚ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾﴾ [الأعراف: 123 - 126].

لكنّهم لمّا خَبَتْ جذوةُ عزيمتِهم في اتّباع موسى عليه السلام بعد ذلك؛ فعلوا الأعاجيبَ الكثيرةَ الّتي صوَّرَتْها السُّورةُ الكريمةُ، فما أنْ قطعوا اليَمَّ سالمين وأرجلُهم لم تَجِفَّ بعدُ من أثرِ الماء؛ حتّى أصابهمُ الوَهَنُ وقلّةُ العزيمة: ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾﴾ [الأعراف: 138]. وكان الأصل فيهم أن يستمرّوا على هذا الاتّباع بحزم وقوّة وإصرار بدلًا من أن يطالبوا نبيَّهم بالمعجزات تلوَ المعجزات، والمعضِلات تلوَ المعضلات، حتّى كتب اللّه عليهم التّيهَ، فلم يَصِلوا بُغيتَهم ولم يحقّقوا خلافتَهم في حياة موسى عليه السلام.

وضَرَبتْ لنا السّورة كذلك مثلًا من غير الحاسمين في اتّباع وحيِ اللّه من خلال قصّة أصحاب القرية الّتي انقسم أهلها إلى ثَلاثِ فِرَقٍ إزاءَ فتنةِ الصّيد في يوم النّهي، فقال عنهم: ﴿وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ قَالُوا۟ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾﴾ [الأعراف: 163 - 165].

فالعصاةُ قد حَسَموا أمرَهم بمعصيتِهم، والآمرون بالمعروف النّاهون عن المنكر قد حَسَموا أمرهم، وباشروا دعوة قومهم، لكنّ الفريق الثّالث القائلين لإخوانهم: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ﴾ لم يَحْسِموا أمرَهم لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء فاستحقّوا أن يكونوا مع الهالكين عند من يرى ذلك من المفسّرين، أو على أقلّ تقدير أن يكونوا من المسكوتِ عن جزائهم؛ لأنّ الآيات بيّنت جزاءَ كلٍّ من الحاسمين أمرهم وسكتت عن غيرهم.

ثمّ ساقت لنا السّورة الكريمة أنموذجًا آخرَ لغير الحاسمينَ أمرَهم في الاتّباع؛ من خلال قصّة المنسلخ عن آيات الله: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾﴾ [الأعراف: 175 - 176]. فقد أَشعرتْ لفظةُ الانسلاخِ بتركِ الاتّباع شيئًا فشيئًا، والتّردّد بين الرّفع أو الإخلاد، حتّى استحقَّ أن ينال صاحبه هذا التّشبيه وهذا الجزاء.

وكذلك كان الحال في أصحاب الأعراف الّذين لم يحزموا أمرهم، ولم يرجّحوا كفّتهم فوقفوا على سورٍ مشرفٍ بين أصحاب الجنّة وبين أصحاب النّار حتّى أنعم الله عليهم برحمته، ولكنّ ذلك كان بعد تطلّعاتٍ وحواراتٍ مع كلا الفريقيْن حولهم، فجاءت تسميةُ السّورة باسمهم تحمل في عنوانها الدّعوةَ إلى الاتّباع الحازم الحاسم لدعوة الخير، دون التحيّر والتّردّد بين حاليْن وجاذبيْن. ونلمح قلّة الحسم في شَخْصِيَّتِهم من خلال حواراتهم مع أصحاب الجنّة وأصحاب النّار: ﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ ۚ وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّۢا بِسِيمَىٰهُمْ ۚ وَنَادَوْا۟ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ ۚ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴿٤٦﴾ * وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَٰرُهُمْ تِلْقَآءَ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ قَالُوا۟ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾ وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَىٰهُمْ قَالُوا۟ مَآ أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٨﴾ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحْمَةٍ ۚ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [الأعراف: 46 - 49]، فقد كانوا يطمعون في الجنّة ومع ذلك لم يدخلوها، ويعيِّرون أهلَ النّار بأنّهم كانوا يُقسِمون بأنّ الله لن يرحم المؤمنين، ومع ذلك ما استطاعوا دخول الجنّة دخول السّابقين.

لذا فإنّ تسمية السّورة باسم أهل الأعراف تحمل في طيّاتها رسالة موجّهة إلى النَّاسِ كافّة بضرورة المسارعة والعزم في اتّباع وحيِ السّماء دون تلكُّؤٍ أو تردُّدٍ.

فضلُ سورةِ الأعرافِ:

سورةُ الأعرافِ من السَّبْعِ الطُّوَلِ باتِّفاقٍ، وفي الحديثِ: «أُعْطيتُ السَّبعَ الطُّوَلَ مكان التَّوراة»، وهذا جزءٌ من حديث[1]، وقد رُوي عن ابن عبَّاسٍ أنَّه قال: السَّبْعُ المثاني: البقرةُ، وآلُ عمران، والنِّساءُ، والمائدة، والأنعام، والأعراف، ويونس، وكذلك قال سعيد بن جُبَيْرٍ ومُجاهد[2]، هذا عن موقعِها في الطُّوَلِ. وقد ثبتَ أنَّ النَّبيَّ ﷺ كان يقرأُ بها في المغرب يُفرِّقُها في الرَّكعتَيْن[3].

سببُ نزولِ سورة الأعراف:

ليس لسورةِ الأعرافِ سببُ نزولٍ من حيثُ الجملةُ، وليس لكلِّ سورةٍ أو آيةٍ سببُ نزولٍ، بل هو نزولٌ ابتداءً، ولكن يُوجَدُ سببُ نزولٍ لعديدٍ من آياتِ هذهِ السُّورِ، كما في قولِه تعالى: ﴿۞يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ﴾ [الآية: 31]. فقدْ صَحَّ عن ابنِ عبّاسٍ رضي الله عنهما، أنَّ النِّساءَ كُنَّ يَطُفْنَ عَارِيَاتٍ إلَّا أنْ تجعلَ المرأةُ على فَرْجِها خِرقةً، وتقول:

الْيَوْمَ يَبْدُو بَعْضُهُ أوْ كُلُّهُ *** وَمَا بَدَا مِنْهُ فَلَا أُحِلُّهُ

فَنزَلت: ﴿خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ﴾[4].

وسيأتي ذكرُ أسبابِ هذه الآيات في مواضِعها من السُّورة.

تناسبُ سورةِ الأعرافِ مع أخواتِها طوال السُّوَر:

تعدُّ سورةُ البقرةِ أكْثرَ السُّوَر ذكرًا لأصولِ الإسلامِ والعقيدةِ، بما في ذلكَ من توحيدٍ وبعثٍ والحديثِ عن أهلِ الكتابِ والمشركين والمنافقين، وقد جاءتْ طِوالُ السُّوَرِ مُتمِّمةً لما فيها، فالسُّوَرُ الثَّلاثُ بعدَها، وهي آلُ عمران، والنِّساء، والمائدة، فصَّلَتْ في الحديثِ عن

(1) هذا الحديث نصُّه: «أعطيت السّبع الطّول، مكان التّوراة، وأعطيت المئين، مكان الإنجيل، وأعطيت المثاني، مكان الزّبور، وفضّلت بالمفصّل»، وقد رواه أبو عبيد بسنده إلى واثلة بن الأسقع، عن النّبيّ ﷺ، انظر: أبو عبيد، فضائل القرآن، باب فضائل السّبع الطّول، ص: 157، وينظر: ابن جرير، جامع البيان: 1/44، والدّارميّ، سنن الدّارمي: 2/453.

(2) السّخاويّ، جمال القرّاء: 1/126.

(3) النَّسائي، السُّنن، برقم: (990)، عن عائشة رضي الله عنها، وصحَّحه الألبانّي.

(4) مسلم، صحيح مسلم، الحديث رقم: (3028).

أهلِ الكتاب، ثمَّ فصَّلتْ سورةُ الأنعامِ في الحديثِ عن المشركين، وجاءتْ بعدَ ذلك سورةُ الأعراف مُتمِّمةً لذلك، فذكرتْ سُنَنَ اللّهِ مع الأنبياءِ والمرسَلينَ وأقوامِهم، من أهلِ الكتاب والمشركين جميعًا[1].

مناسبةُ صَدْرِ السُّورة لخاتمةِ السُّورةِ الَّتي قبلَها (الأنعام):

لَمَّا ذكرَ ﷻ في آخرِ السُّورة الَّتي قبلَها أنَّه أنزلَ إليهم كتابًا مباركًا، وأمرَ باتِّباعه، وعلَّلَ إنزالَه وذكرَ ما اسْتتبعه ذلكَ ممَّا لا بدَّ منه في منهاجِ البلاغةِ ومَيْدانِ البراعة، وكانَ من جُملتِه أنَّ أمرَ المدعوِّين به ليس إلَّا إليه، إن شاءَ هداهم، وإنْ شاءَ أضلَّهم، واسْتمرَّ فيها، لا بدَّ منه في تتميم ذلكَ إلى أنْ ختمَ السُّورةَ بما انْعطفَ على ما افتُتحتْ به، فاشتدَّ اعتناقُه له حتَّى صارَ كشيءٍ واحد، أخذَ يستدلُّ على ما ختمَ به تلكَ من سرعةِ العقابِ وعُموم البِرِّ والثَّواب وما تقدَّمَه، مُخبرًا عن مبتدأٍ تقديرُه: هو ﴿كِتَٰبٌ﴾، أي: عظيم، أوضحَ الطَّريقَ المستقيمَ فلم يَدَعْ بها لَبْسًا، ولم يَذَرْ خيرًا إلَّا أمرَ به، ولا شرًّا إلَّا نهى عنه، فإنزالُه من عظيم رحمتِه، ثمَّ وصفَه بما أكَّدَ ما أشارَ إليه من رحمته بقوله: ﴿أُنزِلَ إِلَيۡكَ﴾[2].

مناسبةُ السُّورة لِما بعدَها (الأنفال):

جاءَ في آخرِ الأعرافِ قصَّةُ موسى عليه السلام، المُختَتمَةُ بقصَّة الَّذي انسلخ من آيات اللّه، وأنَّ ما بعدَ ذلك، إنَّما هو تَتِمَّاتٌ لما تقدَّمَ، لا بُدَّ منها، وتَتِمَّاتٌ للتَّتِمَّات، حتَّى كانَ آخرُ ذلكَ مدحًا من أهلِهم، لعنديَّتِه سُبحانَه بالإذْعانِ وتمامِ الخُضوع، فلمَّا أُضيفُوا إلى تلكَ الحَضْرةِ العالية، اقتضَى ذلك سؤالًا عن حالِ الَّذين عندَ المخاطَب ﷺ، فأُجيبَ بقولِه تعالى: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ﴾، أي: الَّذين عند ربِّكَ هُمُ الَّذينَ هَزَموا الكفَّار في الحقيقة، كما علمتُم ذلك، فهمُ المُستحِقُّونَ للأنفال، وليس لهم إليها الْتفاتٌ، وإنَّما هَمُّهمُ العبادة، والَّذين عندَك إنَّما جعلتَهم آلةً ظاهرة، ومع ذلك يسألونَ ﴿عَنِ ٱلۡأَنفَالِۖ﴾ الَّتي تولَّيتهم إيَّاها بأيدي جنودي، سؤالَ منازعٍ ينبغي الاسْتعاذةُ باللّه منه، كما نبَّه عليه آخرُ الأعراف؛ لأنَّ ذلكَ يُفضي إلى افتراقِ الكلمةِ والضَّعفِ عن مقاومةِ الأعداء[3]. وقد يكون في مجيء

(1) فهد الرّومي، اتِّجاهات التَّفسير في القرن الرَّابع عشر، ص: 719.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 7/347 - 348.
(3) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 8/216 - 217.

هذه السُّورة وما حملتْهُ من معاني نصرةِ اللّه تعالى لعباده المؤمنين، وما تحقَّق فيها من نُصرة المؤمنين في بدر، وهم قلَّة بعد سورة الأعراف الَّتي ذكرت المعاناةَ الطَّويلة لرحلة الأنبياء عليهم السلام مع أقوامهم، واستعجالهم العَذَابَ لَهُمْ، ما يجعل لُحمة قويَّة بين السُّورتيْن في مجيء النَّصرِ بعد الصَّبرِ والعناء.

موضوعاتُ السُّورة:

تناولتْ سورةُ الأعرافِ مواضيعَ عديدةً، من أهمِّها ما يلي[1]:

أوّلاً: تثبيتُ رسولِ اللّه ﷺ ومؤازرتُه والتَّسليةُ عنه لما واجَهه من تكذيبِ الكافرين له.

ثانيًا: الحديثُ عن توحيدِ اللّهِ تعالى والبعث، وعرضُ الأدلَّةِ الَّتي تثبتُ ذلك.

ثالثًا: الحديثُ عن خَلْقِ الإنسان، وذكرُ قصَّةِ آدمَ عليه السلام ونزولِه إلى الأرض.

رابعًا: الحديثُ عن الميثاقِ الَّذي أخذَه اللّهُ تعالى على عبادِه في قولِه تعالى: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ﴾ [الأعراف: 172].

خامسًا: التَّعريفُ بمعجزةِ القرآنِ الكريم، وأنَّه نعمةُ اللّهِ الباقيةُ إلى يومِ الدِّين، والأمرُ باتِّباعِ ما جاءَ به من أوامرَ ونواهٍ.

سادسًا: بيانُ أصحابِ الأعراف وقصَّةِ نوحٍ وهودٍ وصالحٍ ولوطٍ وشُعَيْبٍ عليهم السلام، وهلاكِ أقوامِهم، وتفصيلِ أحوالِ موسى عليه السلام مع فرعونَ وقومه، وذكرِ النَّبيِّ الأمِّيِّ العربيِّ ﷺ.

مقاصدُ السُّورة:

من أهمِّ المقاصدِ الَّتي تضمَّنَتْها سورةُ الأعراف[2]:

1. بيانُ أنَّ اللّهَ عزّ وجلّ أنزلَ القرآنَ لإنذارِ الخلْقِ وتذكيرِهم، فهو كتابُ حقٍّ، ويصدَعُ بالحقِّ، وإزهاقِ ما هو فاسدٌ من العقائدِ والشَّرائعِ الباطلة، ومعارضٌ للنُّظُمِ الظَّالمةِ المنحرفةِ عن صراطِ اللّهِ المستقيم.

2. تسليَةُ الرَّسول ﷺ في تكذيبِ الكُفَّارِ إيَّاه.

3. إنذارُ مَنْ أعرضَ عمَّا دعا إليه الكتابُ في السُّوَرِ الماضية.

(1) الفيروزابادي، بصائر ذوي التَّمييز: 1/204.

(2) الفيروزابادي، بصائر ذوي التمييز: 1/204 - 205، والبقاعيّ، نظم الدُّرر: 8/347 - 348.

4. توجيهُ القلوبِ والألبابِ إلى توحيدِ اللّه تعالى، والتزامِ دينهِ وشريعتِه، ونَبْذِ عبادةِ غيرِه، وإبانةُ صفاتِه ﷻ، وشؤون ربوبيَّتِه.

5. قرَّرتِ السُّورةُ أنَّه ﷻ خالقُ الأرضِ وما فيها، وخالقُ النَّاسِ جميعًا، مكَّن لهم في الأرض، بأنْ جعلَها دارًا لهم، وأودَعَ فيها ما يناسبُهم في أقواتِهم ومعاشِهم، وإقامتهم فيها.

6. بيَّنتِ السُّورةُ أصولَ التَّشريعِ الكليَّة، وبعضَ قواعدِ الشَّريعةِ العامَّة، فقرَّرَتِ ابتداءً أنَّ شارعَ الدِّين الإسلاميِّ هو اللّهُ ﷻ، وعظَّمتْ شأنَ النَّظرِ العقليِّ والتَّفكُّر في إبداعِ اللّهِ وحكمتِه، ليتعرَّفَ الإنسانُ آياتِ اللّهِ وسُنَنَهُ في كونِه وخلقِه، وليتبيَّن له الحقُّ.

7. الأمرُ بأخذِ الزِّينةِ عند بيوتِ اللّه، والأكلِ والشُّربِ من الحلالِ الطَّيِّب، والإنْكارُ على من حرَّمَ زينَةَ اللّهِ الَّتي أخرجَ لعبادِه والطَّيباتِ من الرِّزق، وحرَّمتْ مقابلَ ذلكَ الفواحشَ، ما ظهرَ منها وما بطَنَ، والإثمَ والبَغيَ بغيرِ الحقِّ، والشِّركَ والقولَ على اللّهِ بِغَيْرِ علمٍ.

8. الأمرُ بالتَّقوى والعملُ بها، لتحصيلِ بركاتِ السَّماءِ والأرضِ وخيراتهما بفضلِ اللّه ورحمته.

9. إيضاحُ سُنَنِ اللّهِ في الأُممِ السَّابقةِ، فَمَنْ غَلبَ بظلمهِ وتسلُّطِه على عبادِ اللّه، أخذَه اللّهُ، ونصرَ أهلَ الحقِّ عليه، وفي ذلك عبرةٌ لمن بعدَهم من الأُمم.

10. أَبانَتْ أصولَ الفضائلِ الأدبيَّةِ والتَّشريعيَّة، ودَعَتْ إلى التَّخلُّقِ بالسَّماحةِ واليُسْر، والإعراضِ عنِ الجاهلين والاحتفالِ بهم.

11. وجَّهتِ المؤمنينَ إلى أدبِ الاسْتماعِ للقرآنِ الكريم، وذكرِ اللّهِ ﷻ، وعدمِ الغَفْلةِ عنه.

أساليبُ السُّورةِ:

ممَّا تقدَّمَ من بيانِ موضوعاتِ سورةِ الأعرافِ ومقاصدِها، يتَّضحُ أنَّها تهتمُّ بعرضِ الحقائقِ السَّابقةِ في أساليبَ عديدةٍ، منها:

أوّلاً: أسلوبُ الخبرِ في بيانِ عقيدةِ التَّوحيد وصفاتِه ﷻ، وأصولِ التَّشريعِ وقواعدِه.

ثانيًا: أسلوبُ الإنشاءِ، وذلك بالأمرِ بالنَّظرِ والتَّفكُّرِ في خَلْقِ اللّه، وعظيمِ صُنعهِ وحكمتِه، وكذلكَ الأمرُ بأخذِ الزِّينة عند بيوتِ اللّهِ، والأكلِ والشُّربِ مِنَ الطَّيِّباتِ من الرِّزقِ

الرَّبَّاني، والأمرُ بالتَّقوى والتَّخلُّقِ بخُلُق السَّماحة واليُسر، والأمرُ بالإنصات والتَّأدُّبِ، في الاسْتماعِ للقرآنِ الكريم، ومن الإنشاءِ النَّهيُ عن الفواحشِ، ما ظَهرَ منها وما بَطَنَ، والإثمِ والبغيِ بغير الحقِّ.

ثالثًا: أسلوبُ التَّذكيرِ بنعمِ اللّهِ على عباده الَّتي سخَّرها لهم، لتحقيقِ مصالِحهم ومعايشهم، وهم يتقلَّبون بها في جميعِ أحوالهم.

رابعًا: أسلوبُ التَّخويفِ من عذابِ اللّهِ وانتقامه، كما في قَصصِ الأنبياء مع أقوامهم، وما آلَ إليه أمرُ المكذِّبينَ، المعاندين للحقِّ من إهلاكِهم، واسْتئصالِ شَأفتِهم، وإنْجاءِ الأنبياءِ والمؤمنينَ بهم.

﴿الٓمٓصٓ ۝١ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ مِّنۡهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٢﴾ [الأعراف: 1 - 2]

مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِما قَبْلَهُما:

الرَّبطُ بين الصِّراعِ المحتومِ مع الكفرِ، ومعجزةِ الكتابِ المُنْذِرِ المُذَكِّرِ

العلاقةُ بين مَدْلولِ آخرِ آيةٍ في سورةِ الأنعام، وهي قولهُ تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَكُمۡ خَلَٰٓئِفَ ٱلۡأَرۡضِ﴾، وما جاء من مدلولِ مَطْلَعِ سورَة الأعراف، مُكرَّسةٌ لتأكيد الاستخلافِ في الأرض، وما يتْبعهُ من رفعِ بعضٍ على بعضٍ، وابتلاءٍ فيما آتى اللّهُ النَّاسَ من نِعَم شتَّى، معقَّبًا بقول مفاده: "إنَّ ربَّك سريعُ العقاب للمخالفين؛ لأنَّ عقابَهُ آتٍ لا ريبَ فيه، وكلُّ آتٍ قريب، وإنَّه لعظيمُ المغفرة لمخالفات التَّائبين المحسنين، واسعُ الرَّحمةِ بهم"[1]، فجاء في هاتين الآيتين بالحروفِ المقطَّعةِ المعجزةِ، منوِّهًا بالكتابِ المنزل لإنذارِ المكذِّبين، وتذكيرِ المؤمنين، ومنبِّهًا للرَّسولِ المبلِّغ، على ألَّا يكونَ في صدره حرجٌ عند البلاغِ، فالتَّكذيبُ معهودٌ مع كلِّ شريعةٍ جاء بها رسولٌ إلى قومه منذ آمادٍ بعيدةٍ. ويجعلُها بعضُهم حروفًا مأخوذةً من صفاتِ اللّه تعالى يجتمعُ بها في المفتَتَحِ صفاتٌ كثيرة، ويكون هذا فنًّا من فنونِ الاختصارِ عند العرب.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿الٓمٓصٓ﴾: ورد في تَفْسيرَاتِ هذه الأحرف معانٍ وتأويلاتٌ كثيرة جِدًّا، "فمنهم من يجعلها أسماءً للسُّورِ، تُعرف كلُّ سورةٍ بما افتتحت به منها، فهي أعلامٌ تدلُّ على ما تدلُّ عليه الأسماءُ من أعيانِ الأشياء، ويجعلها بعضُهم للقَسَم، وكأنَّ اللّه ﷻ أقسم بالحروف المقطَّعةِ كلِّها، واقتصرَ على ذكرِ بعضِها من جميعِها. وذهبَ بعضُهم

(1) لجنة من علماء الأزهر، المنتخب في تفسير القرآن الكريم، ص: 203.

إلى أنَّ هذه الحروفَ جعلها اللّه تعالى حفظًا للقرآنِ من الزِّيادة والنُّقصان"[1]. وقد بيَّن الباقِلَّانيُّ أنّ نبوَّةَ محمَّدٍ ﷺ مبنيَّةٌ على دلالةِ معجزةِ القرآنِ، وقال: إنَّه ما من سورةٍ من السُّورِ المفتَتَحةِ بذكر الحروفِ المقطَّعةِ إلَّا وقد أُشْبِع فيها بيانُ ذلك، قال: "وكثيرٌ من هذه السُّورِ إذا تأمَّلتَهُ، فهو من أوَّلِهِ إلى آخره مبنيٌّ على لزوم حجَّةِ القرآنِ، والتَّنبيه على معجزتهِ"[2]، ومن هنا، فالَّذي عليه جمهورُ المحقِّقين أنَّها جاءت للتَّحدِّي والإعجازِ.

2) ﴿صَدْرِكَ﴾: الصَّدْرُ: الجَارِحَةُ: قالَ تعالى: ﴿رَبِّ ٱشْرَحْ لِي صَدْرِي ۝٢٥﴾ [طه: 25]، وجمعُه: صُدُورٌ، قالَ تعالى: ﴿وَحُصِّلَ مَا فِي ٱلصُّدُورِ ۝١٠﴾ [العاديات: 10].ثمَّ اسْتُعيرَ لمقدَّم الشَّيءِ كصَدْرِ القناة، وصَدْرِ المجلس، والكتاب، والكلام، وصَدْرُ كلِّ شيء: أوَّلُه[3]. قالَ بعضُ الحكماء: حيثُما ذَكرَ اللّهُ تعالى القلبَ فهو إشارةٌ إلى العقلِ والعلم، نحو: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾ [ق: 37]، وحيثما ذُكِرَ الصَّدْرُ فهو إشارةٌ إلى ذلك، وإلى سائرِ القُوى من الشَّهوةِ والهوَى والغضبِ ونحوِها، وقولُه: ﴿رَبِّ ٱشْرَحْ لِي صَدْرِي ۝٢٥﴾ [طه: 25]، فسؤالٌ لإصلاحِ قُواه[4]، والمرادُ بالصَّدْرِ في قولِه تعالى: ﴿فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ﴾ ظاهرُه، أي: الجارحةُ، وهذا الحَرَجُ سيُؤثِّرُ في الصَّدْرِ تأثيرًا سلبيًّا، فيصيبُه بضيقٍ وهمٍّ وغمٍّ.

3) ﴿حَرَجٌ﴾: أصلُ الحَرَجِ والحَراجِ: مجتمعُ الشَّيئَيْن، وتُصُوِّرَ منه ضيقُ ما بينهما، فقيلَ للضَّيِّق: حَرَج، وللإثْم حَرَج، قالَ تعالى: ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا﴾ [النِّساء: 65]. وقد حَرِجَ صَدْرُه، قالَ تعالى: ﴿يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ [الأنعام: 125]، أي: ضيِّقًا بكفرِه؛ لأنَّ الكفرَ لا يكادُ تَسْكُنُ إليه النَّفسُ لكونِه اعتقادًا عن ظنٍّ[5]، وقولُه تعالى هنا: ﴿فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ﴾ قيل: هو نهيٌ، وقيل: هو دُعاءٌ، وقيل: هو حكمٌ منه[6]، وقيل: ضِيقٌ[7]، وقيل: شكٌّ[8]، وقيل: هو إثمٌ[9]، والقولُ الأرجحُ المناسبُ للسِّياق، هو أنَّه بمعنَى الضِّيق.

(1) الأبياريّ، الموسوعة القرآنيّة: 3/130.
(2) أبو بكر الباقلاّني، إعجاز القرآن، ص: 68.
(3) الرّاغب، المفردات، والرَّازي، مختار الصّحاح: (صدر).
(4) الرّاغب، المفردات: (صدر).
(5) الرّاغب، المفردات، والرّازي، مختار الصِّحاح: (حرج).
(6) الرّاغب، المفردات: (حرج).
(7) البغوي، معالم التَّنزيل: 3/213، وابن الجوزي، زاد المسير: 3/112.
(8) ابن جرير، جامع البيان: 8/116، وابن الجوزي، زاد المسير: 3/112.
(9) ابن عادل، اللُّباب: 6/470.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

التَّنويهُ بعظمةِ القرآنِ في حروفِهِ وهدايتِهِ، وانشراحِ الصَّدرِ بِهِ

يقولُ اللهُ ﷻ لرسولِه ﷺ، مبيِّنًا له عظمةَ القرآن: هذا الكتابُ الَّذي أنزلتُه عليكَ - يا محمَّدُ ﷺ - كتابٌ جليلٌ، حوَى كلَّ ما يحتاجُ إليه العباد، وجميعَ المطالبِ الإلهيَّة، والمقاصدِ الشَّرعيَّةِ، محكَمًا مُفصَّلًا، فلا يكن في صدركَ ضيقٌ وشكٌّ واشْتباهٌ؛ بل لتعلم أنَّه أصدقُ كلامٍ، ولا يأتيه الباطلُ من بين يدَيْهِ ولا من خَلْفِه، فَلْينشرِحْ له صدرُك، ولْتطمئنَّ به نفسُكَ، ولْتصدعْ بأوامرِه ونواهيه، ولا تَخشَ لائمًا ومعارِضًا، وليكنْ ذلكَ كلُّه لِتُنذرَ به الخَلْق، وتَعظَهم، فتقومَ به الحُجَّةُ على المعاندين، ويكونَ ذكرى للمؤمنين تنفعُهم في عاجلِهم وآجلِهم[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

الموقعُ النَّحْويُّ لـ ﴿كِتَٰبٌ﴾ في قوله: ﴿كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ﴾:

اختلافُ وجوهِ الإعرابِ باختلافِ التَّقديرِ

قولُه تعالى: ﴿كِتَٰبٌ﴾ فيه أربعةُ أَوْجه: الأوَّلُ: خبرٌ للمبتدأ ﴿الٓمٓصٓ﴾، فهذه الحروفُ في موضع مبتدأ، أي: المسمَّى بـ ﴿الٓمٓصٓ﴾ كتاب، فما يُجعَلُ عنوانًا للموضوع حقُّه أن يكون معلومَ الانتساب إليه عند المخاطب، وإذْ لا عهدَ بالتَّسمية قبلُ، فحقُّها الإخبارُ بها. والثَّاني: خبرُ مبتدأٍ محذوف، أي: المدْعوُّ به ﴿الٓمٓصٓ﴾. والثَّالثُ: خبرُ مبتدأٍ محذوف، أي: هذا أو هو[2]. والرَّابع: مبتدأٌ وخبرُه جُملةُ ﴿أُنزِلَ إِلَيۡكَ﴾[3].

نُكتةُ الابْتداءِ بالنَّكرةِ ﴿كِتَٰبٌ﴾ عندَ من يعدُّه مبتدأ:

ابتُدِئَ بالنَّكرة؛ لإرادة النَّوع، أو التَّعظيم، أو كونه محلَّ للوصف

وقعَ الابْتداءُ بالنَّكرة؛ إمَّا لأنَّها أُريدَ بها النَّوعُ لا الفرد، فلم يكنْ عليها في الحكمِ إبْهام، وذلكَ كقولهم: رَجُلٌ جاءني، أي: لا امرأة،

(1) السّعدي، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 237.
(2) الزَّمخشري، الكشَّاف: 2/65، والعكبريّ، الإملاء: 1/267، وأبو السُّعود، الإرشاد: 2/317.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/11.

وتمرةٌ خيرٌ من جرادة، وإمَّا لأنَّ التَّنكير أُريدَ به التَّعظيمُ، وإمَّا لأنَّ ﴿كِتَٰبٌ﴾ يمكن أن يكونَ موصوفًا لـ﴿أُنزِلَ إِلَيۡكَ﴾، فيكون مسوِّغًا عندئذٍ للابْتداءِ بالنَّكرة[1].

الأغراضُ البلاغيَّةُ لتنكيرِ لفظ ﴿كِتَٰبٌ﴾ بناءً على تعدُّد المعاني:

لتنكيرِ لفظ ﴿كِتَٰبٌ﴾ أغراضٌ بلاغيَّة فائقة، وهي:

سرُّ تعدُّد الأغراض لاستيفاءِ (التَّوعية، والتَّعظيم، والتَّعجيب)

أولًا: التَّنكيرُ للنَّوعيَّة، وهو ما أوحتْ به فائدةُ إرادة النَّوعِ الَّذي كانَ أحدَ أسبابِ الابْتداءِ بـ﴿كِتَٰبٌ﴾، مع كونِه نكرةً، ففي هذا الكتابِ ردٌّ على المشركين في إنكارِهم، أن يكونَ القرآنُ الكريمُ من عندِ اللّه، واسْتبعادِهم ذلك، فجاءَ التَّذكيرُ الإلهيُّ هنا للمشركين، بأنَّه كتابٌ من نوعِ الكتُبِ المنزَّلةِ على الأنبياء، فكما نزلتْ صُحُف إبراهيم، وكتابُ موسى، كذلك نزلَ هذا القرآن، فيكونُ تنكيرُ النَّوعيَّةِ لدفعِ الاسْتبعاد، ونظيرُه قولُه تعالى: ﴿قَالُواْ لَا تَخَفۡۖ خَصۡمَانِ بَغَىٰ بَعۡضُنَا عَلَىٰ بَعۡضٖ﴾ [ص: 22].

ثانيًا: للتَّعظيم، كقولهم: (شرٌّ أَهَرَّ ذا نابٍ)، أي: شرٌّ عظيم، أي: هو كتابٌ عظيمٌ تنويهًا بشأنه، فصارَ التَّنكيرُ في معنى التَّوصيف.

ثالثًا: التَّعجيبُ، أي: من شأنِ هذا الكتابِ في جميعِ ما حُفَّ به من البلاغةِ والفصاحةِ، والإعجازِ والإرشاد، وكونه نازلًا على رجلٍ أُمِّيٍّ[2].

دلالةُ الموقعِ النَّحويِّ لقولِه تعالى: ﴿أُنزِلَ إِلَيۡكَ﴾:

جملةُ (أُنزِلَ) صفةٌ أو خبرٌ لـ(كتاب)

قولُه تعالى: ﴿أُنزِلَ إِلَيۡكَ﴾ صفةٌ لذلكَ الخبر، وهو ﴿كِتَٰبٌ﴾، أي: السُّورةُ المُسمَّاةُ بقولنا: ﴿الٓمٓصٓ ۝١ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ﴾. ويجوزُ أن يكونَ هو الخبر[3]، ولئن قلتَ: "بِمَ رفعتَ الكتابَ في هَؤُلاءِ الأحرف؟

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/10 - 11.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/11.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 14/194، والعكبريّ، الإملاء: 1/267.

قلت: رفعتُهُ بِحروف الهجاء الَّتي قبلَهُ، كأنَّكَ قلت: الألفُ واللَّامُ والميم والصَّاد من حروف المقطع، كتابٌ أنزل إليك مجموعًا"[1].

فوائدُ الخبرِ في قولهِ تعالى: ﴿أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾:

غرضُ الخبرِ: تقريعُ المنكِرينَ والكافرين، وتسكينُ روع سيِّد المرسلين

إنَّ فوائدَ هذا الخبرِ عديدةٌ؛ أوَّلًا: أن يكونَ المقصودُ من الإخبارِ بقولِه: ﴿أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ تذكيرَ المنكِرين والمكابرين؛ لأنَّ النَّبيَّ ﷺ والمؤمنينَ، يعلمونَ أنَّه أُنزلَ من عند الله، فلا يحتاجونَ إلى الإخبارِ به، فالخبرُ مُستعملٌ في التَّعريضِ بتغليظِ المشركين والمكابرينَ والقاصدينَ إغاظةَ الرَّسولِ ﷺ بالإعراض. وثانيًا: أن يكونَ المقصودُ من الخبرِ الامْتنانَ والتَّذكيرَ بالنِّعمةِ، فيكونُ الخبرُ مُستعمَلًا في الامْتنانِ. وثالثًا: أن يُجعَلَ الخبرُ ﴿أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ مع ما انْضمَّ إليه من التَّفريغِ والتَّعليلِ، لفائدةِ تسكينِ نفسِ النَّبيِّ ﷺ، أي: هو كتابٌ أُنزِلَ إليكَ، فكنْ منشرحَ الصَّدر، فإنَّه أُنزلَ إليكَ لِتُنذِرَ به الكافرين، وتُذكِّرَ المؤمنين. ورابعًا: إغاظةُ الكافرين، وتأنيسُ المؤمنينَ، أي: هو كتابٌ أُنزِلَ لفائدة، وقد حصلتِ الفائدةُ، فلا يكنْ في صدرِكَ حَرَجٌ إن كذَّبوا.

وبهذه الفوائدِ واعتباراتِها الجليلةِ مع عدمِ منافاةِ بعضِها بَعْضًا، يُحملُ الكلامُ على إرادةِ جميعِها، وذلكَ من مطالعِ السُّوَرِ العجيبةِ البيان[2].

نكتةُ خطاب النَّبيِّ ﷺ في قوله: ﴿كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾:

رفْعُ شَأْنِ النَّبيِّ ﷺ، والاهْتمامُ به من مقاصد البيانِ القرآنيِّ البليغِ

في قولِه تعالى: ﴿إِلَيْكَ﴾ بضميرِ المخاطَبِ، تسكينٌ لنَفْسِ النَّبيِّ ﷺ، ورفعٌ لشأنِه واهتمامٌ بالغٌ بمقامِه الشَّريف ﷺ، وفيه إغاظةٌ للكافرين الَّذين كذَّبوه، وتأنيسٌ للمؤمنين الَّذين آمنوا به ونصروه[3]،

(1) الفرّاء، معاني القرآن: 1/368.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/12.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/12.

"قَالَ الفرَّاء: تَقْدِيرهُ: (هَذَا كتابٌ أنزل إِلَيْك، فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِك حَرَجٌ مِنْهُ)، أَي: شكٌّ، وَالْخطاب للرَّسول، وَالْأمَّة هم المُرَاد"[1].

بلاغةُ المجازِ المرسَلِ المركَّبِ:

إفـادةُ معنَى الامْتنان

ذلك أنَّ المقصودَ من الخبر في قوله تعالى: ﴿أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾، الامْتنانُ والتَّذكيرُ بالنِّعمة[2]، أي: نعمةِ إنزالِ الكتاب على النَّبيِّ ﷺ، على طريقةِ المجازِ المرسَلِ المركَّب[3]، "الدَّليل الَّذي دلَّ على صحَّة نبوَّة محمَّد ﷺ، هو أنَّ اللّه تعالى خصَّه بإنزالِ هذا القرآنِ عليه، وصريحُ العقل يشهد، بأنَّ هذا لا يكونُ إلَّا بطريقِ الوحي من عندِ اللّه تعالى، فثبت بهذا الدَّليلِ العقليِّ أنَّ ﴿الٓمٓصٓ﴾ كتابٌ أُنزِلَ على محمَّدٍ ﷺ، من عند ربِّهِ وإلهه"[4].

نكتةُ بناءِ الفعل ﴿أُنزِلَ﴾ لما لم يُسَمَّ فاعلُه:

غرضُ هذا البناءِ الاخْتصارُ، والجَرْيُ على سَنَنِ الله المُنَزَّل في الإخبارِ

بُنِي الفعلُ للمفعولِ في قولِه تعالى: ﴿أُنزِلَ﴾ جَرْيًا على سَنَن الكبرياء، وإيذانًا بالاسْتغناءِ عن التَّصريحِ بالفاعلِ، لغايةِ تَعَيُّنِه، وهو السِّرُّ في تركِ مبدأِ الإنزالِ، كما في قوله تعالى: ﴿بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ [المائدة: 67][5]. ويمكنُ أن يكونَ هذا البناءُ من بابِ الاخْتصار، للعلمِ بفاعلِ الإنزال؛ لأنَّ الَّذي يُنزِلُ الكتُبَ على الرُّسُلِ هو اللّهُ تعالى، ولما في مادَّةِ الإنزالِ من الإشعارِ بأنَّه من الوحيِ لملائكةِ العوالمِ السَّماويَّة[6].

---

(1) السّمعانّي، تفسير القرآن: 2/163.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/11.

(3) المجاز المرسل المركَّب، هو مجازٌ لغويٌّ، وهو اللَّفظُ المركَّبُ المستعملُ في غير المعنَى الَّذي وُضع له، وعلاقته غير المشابهة، وسُمّي مُرسَلًا؛ لأنَّ الإرسالَ هو الإطلاق، أي: ليس له علاقة معيَّنة - كما هو الشَّأن في الاستعارة - مع قرينة مانعة من إرادة المعنَى الأصليّ، كما في الجُمل الخبريَّة المستعملة في الإنشاء، لأغراض لم يُوضع لها الخبر، كإظهار التَّحسُّر، أو الضَّعف، أو السُّرور، أو الامتنان، ومثالُ الأخير ما ورد في الآية ﴿أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ كما ذُكر في المتن، وغير ذلك من الأغراض، ينظر: حامد عوني، المنهاج الواضح للبلاغة: 3/309، 313، وفضل عبّاس، أساليب البيان، ص: 283، 295.

(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 14/195.

(5) أبو السُّعود، الإرشاد: 2/317.

(6) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/12.

معنَى الفاءِ في قولِه: ﴿فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ مِّنۡهُ﴾:

أفادتِ الفاءُ الاعْتراضَ في سياقِ الآيةِ الكريمةِ

الفاءُ في قولِه تعالى: ﴿فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ﴾ اعْتراضيَّةٌ، إذِ الجملةُ معترِضةٌ بين فعلِ ﴿أُنزِلَ﴾ ومُتَعَلِّقِه وهو ﴿لِتُنذِرَ بِهِۦ﴾، فإنَّ الاعتراضَ يكونُ مقترنًا بالفاءِ، كما يكونُ مقترنًا بالواو، كما في قولِه تعالى: ﴿هَٰذَا فَلۡيَذُوقُوهُ حَمِيمٞ وَغَسَّاقٞ ٥٧﴾ [ص: 57] وقولِه: ﴿إِن يَكُنۡ غَنِيًّا أَوۡ فَقِيرٗا فَٱللَّهُ أَوۡلَىٰ بِهِمَاۖ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلۡهَوَىٰٓ﴾ [النِّساء: 135]، وليس المرادُ بأنَّ الفاءَ زائدةٌ للاعْتراض، ولكنَّها ترجعُ إلى معنَى التَّسبُّب، وإنَّما الاعْتراضُ حصلَ بتقديم جُملتِها بين شيئَيْن مُتَّصلَيْن مُبادَرةً من المتكلِّم بإفادتِه لأهمِّيَّته. وأصلُ ترتيبِ الكلامِ هنا: كتابٌ أُنزِلَ إليكَ لِتُنذِرَ به وذكرى للمؤمنينَ، فلا يكنْ في صَدْرِكَ حَرَجٌ منه، والمعنَى: أنَّ اللهَ أنزلَه إليكَ لا ليكونَ في صدرِكَ حرجٌ بل لينشرحَ صدرُك به[1].

أفادتِ الفاءُ تضمينَ معنَى الشَّرطِ في السِّياقِ المسوقِ في الآية

من ناحية أخرى، أفادَ قولُه تعالى: ﴿فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ﴾ احْتواءَ السِّياق لمعنَى الشَّرط، كأنَّ الأصلَ أن يُقال: كتابٌ أُنزِلَ إليكَ، فإن كنتَ في حرجٍ ممَّا أنزلنا إليك، فلا يكنْ في صَدرِك ذلكَ الحرج، وهنا جاءتِ الفاءُ على هذا التَّقدير، متضمِّنةً معنى الشَّرط، لتقويَةِ نفيِ الحرجِ أيِّ حرجٍ يمكنُ أنْ يُراوِدَ صدرَ النَّبيِّ ﷺ.

دَلالةُ النَّهي بالحرفِ (لا):

دلَّ السِّياقُ بحرفِ النَّهي على النَّهي عن الحرجِ أوالنَّهي عن الشَّكِّ

قولُه تعالى: ﴿فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ﴾، نهيٌ متوجِّهٌ إلى النَّبيِّ ﷺ، أي: نهيُه عن المبالاةِ بالمكذِّبين بالقرآن، والغمِّ من صنيعهم، وكذلكَ نهيٌ له ﷺ من الحَرج في تبليغِ القرآن خشيةَ تكذيبِهم له وإعراضِهم عنه وأذاهم[2].

ويمكنُ أن يكونَ المرادُ نهيَ النَّبيِّ ﷺ في أن يكونَ في صدرِه شكٌّ،

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/13.
(2) الزَّمخشريّ، الكشَّاف: 2/66، والشَّنقيطيّ، أضواء البيان: 2/285 - 286.

في كونِ هذا القرآن حقًّا، كقولِه تعالى: ﴿ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ ١٤٧﴾ [البقرة: 147]، وعلى هذا القولِ، فالخطابُ للنَّبيِّ ﷺ، والمرادُ نهيُ غيرِه عن الشَّكِّ في القرآن، حيث لا يمكنُ أنْ يكونَ في صدرِه ﷺ أيُّ شكٍّ في كون القرآن حقًّا[1].

ويمكن أن تكونَ صيغةُ نَهي الحرجِ، عن أنْ يحصُلَ في صدرِ النَّبيِّ ﷺ، ليكونَ النَّهيُ نَهْيَ تكوين، بمعنَى: تكوينِ النَّفي، عكس أمرِ التَّكوين الَّذي هو بمعنَى تكوينِ الإثبات، مُثِّلَ تكوينُ نفيِ الحرجِ عن صَدْرِه بحالةِ العاقلِ المدرِكِ للخطابِ عن الحصولِ في المكان[2].

والأظهرُ أن يكونَ المرادُ بالحرجِ في الآيةِ الضِّيق، وأنْ يكونَ النَّهيُ واردًا أنْ يكونَ في صدرِه ﷺ أيُّ ضيقٍ عن تبليغِ ما أُمِرَ به، لشدَّةِ تكذيبِهم له، والتَّعرُّضِ لبطشِهم ممَّا يضيقُ به الصَّدْر، ويَدُلُّ علَى هَذَا الوجهِ في الآيةِ، قولُه تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعۡضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدۡرُكَ﴾ [هود: 12].

ويُؤيِّدُه كذلك أنَّ الحرجَ في لغةِ العرب: الضِّيقُ، وذلكَ معروفٌ في كلامِهم، كما في قولِه تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖ﴾ [الحجّ: 78] أي: ضيق[3].

نكتةُ إسنادِ النَّهيِ إلى النَّبيِّ الكريم:

المبالغةُ في تنزيهِ النُّبوَّةِ الخاتمةِ عن أيِّ حرجٍ مهما كانتِ العَقَبات

عبَّرَ بيانُ اللهِ تعالى عمَّا يُمكنُ أنْ يُلازمَ صدرَه الشَّريفَ ﷺ من الحَرَجِ الَّذي يُسبِّبُ له ضيقَ الصَّدْر، وفي مقابلِه ما يمكنُ أنْ يَعتريَ المتيقِّنَ من انشراحِ الصَّدْرِ وانْفساحِه، وذلكَ مبالغةٌ في تنزيهِ ساحتِه ﷺ، وما قد يقعُ من نسبتِه إليه ضمن النَّهي، فعلَى طريقةِ التَّهيُّجِ والإلْهابِ، والمبالغةِ في التَّنفيرِ والتَّحذيرِ، بإيْهَامِ أنَّ ذلكَ من

(1) الشِّنقيطيّ، أضواء البيان: 2/285.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/13.
(3) الشِّنقيطيّ، أضواء البيان: 2/286.

القُبحِ والشَّرِّيَّة، بحيث يُنْهَى عنه، مَنْ لا يمكنُ صدورُه عنه أصلًا، فكيف بمن يمكنُ ذلكَ منه[1]؟

غرضُ تقديمِ شبهِ الجملةِ في ﴿فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ﴾:

غرضُ تقديمِ شبهِ الجملةِ التَّخصيصُ والاهتمامُ بالمرادِ

في قولِه تعالى: ﴿فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ﴾، تقدَّمَ الجارُّ والمجرور (شِبه الجملة)، على ﴿حَرَجٌ﴾، والأصلُ أن يُقال: (فلا يكن حرجٌ في صَدرِك)، وهذا التَّقديمُ لما حقُّه التَّأخير، فيه تخصيصُ الصَّدْرِ، بكونه محلًّا للحرَج، وتخصيصُ صدرِ النَّبيِّ دون غيرِه بالحرج؛ لأنَّه هو الَّذي ينزلُ عليه الكتابُ وحيًا من اللّه تعالى، وفيه كذلك تقديمٌ للخبر على اسْم يكن ﴿حَرَجٌ﴾، ليكونَ أقوى في الدَّلالةِ على المراد، وهو ألَّا يكونَ صَدْرُ رسولِ اللّه ﷺ محلًّا لأيِّ ضيقٍ يتسلَّلُ إليه[2].

بلاغةُ المجازِ أو الكنايةِ في قولِه ﴿فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ﴾:

الصَّدْرُ محلٌّ للضِّيقِ أوِ الانشراحِ على سبيلِ المجازِ لا الحقيقةِ

جاءَ قولُه تعالى: ﴿فِي صَدْرِكَ﴾ مُرتبطًا بالحَرَج، وجُعِلَ الصَّدرُ مَحَلًّا له على سبيل المجاز، إذْ ليس الصَّدرُ وعاءً حقيقةً لذلكَ الحرجِ، الَّذي هو مجازٌ كذلك، وإنَّما الصَّدر وعاءٌ للقلب الَّذي يحمل الحرج، فأطلق الصَّدرَ، وأراد القلبَ السَّاكنَ فيه على سبيلِ المجاز المرسَل، والخطابُ توجَّه بالنَّهي عن أنْ يكونَ في صدرِ رسولِ اللّهِ أيُّ حَرَجٍ، والتَّقديرُ: (فلا يكن في صَدْرِكَ حَرَجٌ منه، من جهةِ ما جرَّهُ نزولُه إليكَ من تكذيبِ قومِكَ وإنكارِهم نزولَه، فلا يكنْ في صَدْرِكَ حَرَجٌ منه، من عِظَمِ أمرِه وجَلالتِه، ولايكنْ في صَدْرِكَ حَرَجٌ منه، فإنَّه سببُ شَرْحِ صدرِك بمعانيه وبلاغتِه)[3].

بلاغةُ الاستعارةِ في قولِه: ﴿فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ﴾:

تعبيرُ الاستعارةِ عن تصويرِ حالةِ النَّفسِ حين الحُزْنِ والأسَفِ

حقيقةُ الحَرَج أنَّه المكانُ الضَّيِّقُ من الغاباتِ الكثيرةِ الأشجار، بحيثُ يَعسُرُ السُّلوكُ فيه، ويُستعارُ لحالةِ النَّفْسِ عند الحُزْنِ

(1) أبو السُّعود، الإرشاد: 2/217 - 218.
(2) فضل عبَّاس، أساليب البيان: ص: 107 - 108.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/13.

والغَضَبِ والأَسَف؛ لأنَّهم تخيَّلُوا للغاضِبِ والآسفِ ضيقًا في صَدْرِه، لَمَّا وجدوه يَعسُرُ منه التَّنفُّسُ من انْقباضِ أعصابِ مجاري النَّفَس، وفي معنَى الآية قولُه تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌۢ بَعۡضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدۡرُكَ أَن يَقُولُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ كَنزٌ أَوۡ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٞۚ﴾ [هود: 12][1].

نكتةُ تنكيرِ لفظِ ﴿حَرَجٌ﴾:

غرضُ التَّنكيرِ عمومُ الحَرَجِ، ويمكنُ أن يفيدَ التَّحقيرَ

جاءَ قولُه تعالى: ﴿حَرَجٌ﴾ نكرةً، ليعمَّ أيَّ حَرَجٍ، وخاصَّةً أنَّه سُبِقَ بنفيٍ، وبصيغةِ النَّهي بقولِه: ﴿فَلَا يَكُن﴾، أي: فلا يكنْ في صَدْرِكَ - يا محمَّدُ ﷺ - أيُّ غمٍّ من صنيعِهم، أو حُزنٍ وهمٍّ بسببِ تكذيبِهم لدعوتِك[2]، ولَمَّا جاءَ سياقُ قولِه تعالى: ﴿فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ﴾ - على معنَى أنَّ الحَرَجَ بمعنَى الشَّكِّ - من المبالغةِ في تنزيهِ ساحتِه ﷺ، وما قد يقعُ من نسبتِه إليه في ضمنِ النَّهي، مبالغةً في التَّنفيرِ والتَّحذيرِ، بإيهامِ أنَّ ذلك من القُبحِ، بحيث يُنهَى عنه من لا يمكنُ صدورُه منه أصلًا، فكيف بمن يمكنُ ذلك منه؟ فيمكن أن يكون التَّنوينُ هنا في لفظ ﴿حَرَجٌ﴾ للتَّحقيرِ الَّذي يُعبِّر عن ذاك التَّنفير والتَّحذير[3].

نكتةُ توجيهِ النَّهي إلى (الحَرَج) في الآيةِ الكريمة:

أثرُ أسلوبِ المبالغةِ في النَّهي بطريقِ الكنايةِ

جعلَ بيانُ اللهِ النَّهيَ مُتوجِّهًا إلى الحَرَجِ للمبالغةِ في التَّكليف، باقْتلاعِهِ من أصلِه على طريقةِ قولِ العرب: (لا أَرَيَنَّكَ هَاهُنَا)، أي: لا تَحضُرْ فأَرَك، نهيًا بطريقِ الكناية[4]، وتوجيهُ النَّهي إلى الحَرَجِ، مع أنَّ المرادَ نهيُه ﷺ عنه لأمرَيْن وَجيهَيْن: الأوَّلُ: أنَّه لَمَّا مرَّ من المبالغةِ في تنزيهِه ﷺ عن الشَّكِّ فيما ذُكر، فإنَّ النَّهيَ عن الشَّيء، ممَّا يُوهمُ إمكانَ صدورِ المنهيِّ عنه عن المنهيِّ.

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/13 - 14.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/13.
(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/318.
(4) الزَّمخشريّ، الكشَّاف: 2/66.

والثَّاني: للمبالغة في النَّهي، فإنَّ وقوعَ الشَّكِّ في صدرِه ﷺ سببٌ لاتِّصافه ﷺ به، والنَّهيُ عن السَّببِ نهيٌ عن المسَبَّبِ بالطَّريقِ البُرهانيِّ، ونفيٌ له من أصلِه بالمرَّة[1].

معنَى (مِن) في قولِهِ تعالى: ﴿حَرَجٌ مِّنْهُ﴾:

الأداة (مِن)، متأرجحةٌ بين الابتدائيَّةِ أو السَّببيَّةِ

في قولِه تعالى: ﴿فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ﴾، نجد أنَّ (مِنْ) ابتدائيَّةٌ، أي: حَرَجٌ ينشأُ ويَسْري من جَرَّاءِ المذكور، أي: من تكذيبِ المكذِّبينَ به، فلمَّا كانَ التَّكذيبُ به من جُملةِ شؤونه، وهو سببُ الحَرَج؛ صحَّ أنْ يُجعَل الحَرجُ مُسبَّبًا عن الكتابِ بواسطةٍ، والمعنَى على تقديرِ مضاف، أي: حرجٍ من إنكارِ إنزالِه من اللّٰه[2]. ويمكنُ أن تكونَ (مِنْ) سببيَّةً، أي: حَرَجٌ بسببِه، تقولُ: حَرِجتُ منه، أي: ضِقْتُ بسببِه[3].

تعلُّقُ الجارِّ في شبه الجملة: ﴿مِّنْهُ﴾، وصلةُ (الفاء) به:

تعلُّقُ الجارِّ بـ(حَرَج)، أو بمحذوفٍ صفةٍ لـه، والفاءُ بالتعلُّقين

تقدَّم آنفًا أنَّ ﴿مِّنْهُ﴾ متعلِّقٌ بـ﴿حَرَجٌ﴾، يُقال: حَرِجَ منه، أي: ضاقَ به صدرُه، ولكنْ يمكنُ أن يكونَ ﴿مِّنْهُ﴾، مُتعلِّقًا بمحذوفٍ وقعَ صفةً له، أي: حرَجٌ كائنٌ منه، أي: لا يكنْ فيكَ ما في أحقِّيَّتِه أو في كونِه كتابًا مُنزَّلًا إليكَ من عندِه تعالى، وبناءً على هذين التَّعلُّقَيْن، يكونُ (الفاء) معنًى يتناسبُ مع كلٍّ منهما: فالفاءُ على الأوَّلِ، لترتيبِ النَّهي، أوِ الانْتهاءِ على مضمونِ الجملة، فإنَّه يُوجِبُ انتفاءَ الشَّكِّ، فيما ذُكِرَ بالكُليَّةِ، وحصولَ اليقين به قطعًا. وأمَّا على الثَّاني: فالفاءُ لترتيبِ ما ذُكِرَ على الإخبارِ بذلكَ، لا على نفسِه[4].

معنَى حرف اللَّامِ في قوله تعالى: ﴿لِتُنذِرَ بِهِۦ﴾:

اللَّامُ في ﴿لِتُنذِرَ﴾ فيها أربعةُ أوجهٍ: الأوَّلُ: أن تكونَ متعلِّقةً

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/318.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/13.
(3) السّمين الحلبيّ، الدُّرّ المصون: 5/241.
(4) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/318.

بـ﴿أُنزِلَ﴾، أي: أُنزِلَ إليكَ للإنذار، وهذا على التَّقديم والتَّأخير، على تقدير: (كتابٌ أُنزِلَ إليك لِتُنذِرَ به فلا يكنْ في صَدْرِكَ حرجٌ منه)، وعلى هذا تكونُ جملةُ النَّهي معترضةً بين العلَّةِ ومعلولِها[1].

الثَّاني: أن تكونَ اللَّامُ متعلِّقةً بما تعلَّق به خبرُ الكَوْنِ ﴿يَكُن﴾؛ إذ التَّقديرُ: فلا يكن حرجٌ مستقرًّا في صدرِكَ لأجل الإنذار[2]. والثَّالثُ: فلا يكنْ في صدرِكَ شيءٌ لتُنذِر[3]. والرَّابع: اللَّامُ لامُ التَّعليل، واقْتَرَنَ الفعلُ بها، دونَ الإتيانِ بمصدرٍ منصوب (إنذارًا) لاختلافِ فاعلِ العاملِ، وفاعلِ الإنذار[4].

اللَّامُ فيها أربعةُ أوجهٍ، تتنوَّعُ وتبين بحسبِ متعلَّقها

بلاغةُ حذفِ المتعلَّقِ في ﴿لِتُنذِرَ﴾ مِنَ الآية الكريمة:

حذَفَ بيانُ اللهِ تعالى متعلَّقَ ﴿لِتُنذِرَ﴾ لِظهورِ تقديرِ المحذوفِ من ذِكْرِ مُقابِله المذكور، والتَّقديرُ: لِتُنذِرَ به الكافرين[5]، من قوله تعالى: ﴿لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾.

غرضُ الحذف ظهورُ تقديرِه، بذكرِ ما يقابلُه

بلاغةُ التَّصريحِ بمتعلَّقِ ﴿وَذِكْرَىٰ﴾ دون مُتعلَّق ﴿لِتُنذِرَ﴾:

صُرِّحَ بمتعلَّقِ ﴿وَذِكْرَىٰ﴾ دونَ مُتعلَّقِ ﴿لِتُنذِرَ﴾، تنويهًا بشأنِ المؤمنينَ ومكانتِهم عند مُنزِّلِ الكتابِ، وهو اللهُ ﷻ، وتعريضًا بتحقيرِ الكافرين تجاهَ ذكرِ المؤمنين[6]، وتَخصيصُ التَّذكير بالمؤمنين؛ لأنَّهم الَّذين ينجعُ فيهم ذلك، وللإيذانِ باخْتصاصِ الإنذارِ بالكَفَرَة[7].

غرضُ التَّصريحِ بتذكيرِ المؤمنينَ عُلُوَّ شأنِهم عندَ اللهِ تعالى

معنَى الباءِ والهاءِ في ﴿بِهِۦ﴾ من قولِه: ﴿لِتُنذِرَ بِهِۦ﴾:

قولُه تعالى: ﴿بِهِۦ﴾، عائدٌ إلى ﴿كِتَٰبٌ﴾، أي: الكتابُ المنزَّلُ وهو القرآنُ الكريم[8]، ويمكنُ أن يكونَ عائدًا على الإنزال، أي: أُنزِلَ

(الهاءُ) هي للكتابِ أو للإنزال، وكلاهما ذو دلالةٍ مفيدةٍ

(1) الفرَّاء، معاني القرآن: 1/370، والزَّمخشريّ، الكشَّاف: 2/66، والعكبريّ، الإملاء: 1/268.
(2) السّمين الحلبيّ، الدُّرُّ المصون: 5/242.
(3) الزَّمخشري، الكشَّاف: 2/66.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/14.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/14.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/14.
(7) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/319، والشَّوكاني، فتح القدير: 2/264.
(8) العكبري، الإملاء: 1/268، وأبو السُعود، إرشاد العقل السّليم: 2/318.

إليكَ لإنذارِك به، أو لِتُنذِرَ بهذا الإنزال، لمكانتِه بأنَّه منزَّلٌ من عندِ اللّه[1]، والباء للتَّعديَةِ، ويمكن أن تكونَ للمصاحبةِ.

نكتةُ تقديمِ الإنذارِ على التَّذكير:

يردُ التَّقديمُ في السِّياقِ لِلَفْظٍ على لفظٍ لأهميَّة المقدَّم

قدَّمَ بيانُ اللّهِ تعالى الإنذارَ على التَّذكيرِ في قولِه تعالى: ﴿لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾؛ لأنَّه الغرضُ الأهمُّ بحسبِ المقام، وذلك لإبْطالِ ما عليه المشركونَ من الباطلِ، وما يُخلِّفونه في النَّاسِ من العوائدِ الباطلةِ الَّتي تُعانَى إزالتُها من النَّاسِ بعدَ إسلامِهم[2].

بلاغةُ العطفِ في قوله سبحانه ﴿وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾:

تواردُ العطفِ يُجلِّي قوَّةَ السَّبكِ في معاني السِّياق

جاءتْ ﴿وَذِكۡرَىٰ﴾ معطوفةً بالرَّفعِ من وجهَيْن: أحدهما: أنَّها عطفٌ على ﴿كِتَٰبٌ﴾، أي: كتابٌ وذكرى، أي: تذكير، فهي اسْمُ مصدرٍ. والثَّاني: أنَّها خبرُ مبتدأٍ مُضمَرٍ بفعلٍ، أي: هو ذكرى. ويمكنُ أنْ تكونَ معطوفةً بالنَّصبِ على المعنَى، وهي أن تكون في محلِّ نصبٍ نَسَقًا على موضع ﴿لِتُنذِرَ﴾، فإنَّ موضعَه نصبٌ، وهذا كما تُعطفُ الحالُ الصَّريحةُ على الحالِ المؤوَّلةِ كقولِه تعالى: ﴿دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوۡ قَاعِدًا أَوۡ قَآئِمًا﴾ [يونس: 12]، ويكونُ حينئذٍ مفعولًا من أجله، كما نقولُ: جئتكَ لِتكرَمني وإحسانًا إليَّ.

ويمكنُ أن تكونَ عطفًا في موقع الجرِّ من وجهين أيضًا: أحدهما: العطفُ على المصدرِ المُنسَبِكِ من (أنْ) المقدَّرةِ بعد لام (كي) والفعل، والتَّقديرُ للإنذارِ والتَّذكير. والثَّاني: العطفُ على الضَّمير في ﴿بِهِۦ﴾، وهذا وجهٌ حَسَنٌ كونُ (ذكرى) في تقديرِ حرفٍ مصدريٍّ، وهو (أنْ) وفعل، ولو صُرِّح بـ(أن) لَحَسُنَ معها حذفُ حرفِ الجرِّ، فهو أحسنُ من قول: مَرَرْتُ بكَ وزيد، إذ التَّقدير: لأنْ تُنذرَ به وبأن تُذكِّر[3].

---

(1) الزَّمخشري، الكشَّاف: 2/66.

(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 2/319، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/14.

(3) الزَّمخشري، الكشَّاف: 2/66، والعكبريّ، الإملاء: 1/268، والسّمين الحلبيّ، الدُّرُّ المصون: 5/244 - 245.

وهذه الوجوهُ في عطفِ قولِه تعالى: ﴿وَذِكْرَىٰ﴾ أفادتِ السَّبكَ في ألفاظِ السِّياقِ ومعانيه، ما بين الظَّاهرِ منها والمُضْمَر، ما بين الكتابِ والإنذارِ والتَّذكير، فالكتابُ الكريمُ أُنزِلَ للإنذارِ والتَّذكير، الأوَّلُ للكافرين، والثَّاني للمؤمنين.

نكتةُ العُدولِ الصَّرْفيِّ بين المعطوفِ والمعطوفِ عليه:

العُدولُ بين مكوِّنات العطفِ، يُراعى فيها اختلافُ المتعلِّق

جاءَ المعطوفُ عليه ﴿لِتُنذِرَ﴾ فعلًا، والمعطوفُ ﴿وَذِكْرَىٰ﴾ مصدرًا، وذلك لأنَّ ﴿لِتُنذِرَ﴾ مُتعلِّقٌ بـ ﴿أُنزِلَ﴾ على المفعولِ لأجله، واقترانُه بلامِ التَّعليل، دونَ الإتْيان بمصدرٍ منصوبٍ، لاختلافِ فاعلِ العاملِ، وفاعلِ الإنذار، وإنَّما يتأتَّى التَّعليلُ بالإنذارِ، لا بتذكيرِ المؤمنين؛ إذْ ليس فيه شائبةُ خوفٍ حتَّى يُجعَلَ غايةً لانْتفائه. وجاءَ ﴿وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ في حيِّزِ النَّصبِ، بإضمارِ فعلِه معطوفًا على تُنذر، أي: وتُذكِّرَ المؤمنين: تذكيرًا[1]، والتَّعبيرُ بالمصدر آكَدُ في الدِّلالة على مهمَّةِ القرآن الأساسيَّةِ في تذكيرِ المؤمنين.

معنَى اللَّام و(أل) في قوله تعالى: ﴿وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾:

حروفُ المعاني يعمل بعضُها على تقويةِ المعنَى في عناصرِ التَّركيبِ

اللَّامُ للتَّعليلِ، أي: وذكرى لأجلِ المؤمنين، ويجوزُ أن تكونَ اللَّامُ في قولِه تعالى: ﴿لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ مزيدةً في المفعولِ به تقويةً له؛ لأنَّ العاملَ فَرْعٌ، والتَّقديرُ: وتُذكِّرَ المؤمنين، ويمكنُ أنْ تتعلَّقَ بمحذوف؛ لأنَّه صفةٌ لِذكْرَى[2]، و(أل) استغراقيَّةٌ جنسيَّةٌ تشملُ المؤمنين كافَّةً.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(الحَرَج) و(الضِّيق) و(الضَّرَر) و(المشقَّة):

الحَرَجُ: ضيقٌ لا مَنْفذَ فيه، مأخوذٌ من الحَرِجةِ بكسرِ الرَّاءِ وفتحِها، وهي الشَّجرُ المُلْتَفُّ حتَّى لا يمكنَ الدُّخولُ فيه ولا الخُروجُ

الحَرَجُ أشدُّ الضِّيق، وهو اللَّفظ المناسبُ لسياقِ الآيةِ دونَ غيرِها

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/319، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/14.
(2) السّمين الحلبيّ، الدُّرُّ المصون: 5/245.

منه، وحَرِجَ صدرُه، أي: ضاق، وقولُه تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍۚ﴾ [الحجّ: 78]، أرادَ ضيقًا لا مخرجَ منه، وذلك أنَّه يُتخلَّصُ من الذَّنْبِ بالتَّوبة، فالتَّوبةُ مخرجٌ[1]، والضِّيقُ ضدُّ السَّعة. ويُقالُ: الضَّيْقُ أيضًا، والضَّيْقَةُ، يُستعمَلُ في الفَقْرِ والبُخلِ والغَمِّ ونحوِ ذلك، قالَ تعالى: ﴿وَيَضِيقُ صَدْرِي﴾ [الشُّعراء: 13]، وقالَ تعالى: ﴿وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ١٢٧﴾ [النَّحل: 127]، وكلُّ ذلك عبارةٌ عن الحُزْن، وقولُه تعالى: ﴿وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُواْ عَلَيْهِنَّۚ﴾ [الطَّلاق: 6]، ينطوي على تَضْييقِ النَّفقةِ وتَضْييقِ الصَّدْر[2].

والضُّرُّ: ضدُّ النَّفْع، وهو ما تَضُرُّ به صاحبَك وتنتفعُ به أنت، وقولُه: لا ضَرَرَ، أي: لا يَضُرُّ الرَّجُلُ أخاه، فيُنقِصُه شيئًا من حقِّه، والضِّرارُ: فِعالٌ من الضُّرِّ، أي: لا يُجازيه على إضرارِه، بإدخالِ الضَّررِ عليه. والضُّرُّ: فعلُ الواحد، والضِّرارُ: فعلُ الاثنَيْن، والضُّرُّ: ابتداءُ الفعل، والضِّرارُ: الجزاءُ عليه، والضِّرارُ: أنْ تضرَّه من غيرِ أنْ تنتفعَ به، وقيل: هما بمعنًى واحدٍ[3].

والشِّقُّ: المشَقَّةُ، والانْكسارُ الَّذي يلحقُ النَّفْسَ والبَدَن، وذلكَ كاسْتعارةِ الانْكسارِ لها، قالَ تعالى: ﴿لَّمْ تَكُونُواْ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِۚ﴾ [النَّحل: 7]. والشُّقَّةُ: النَّاحيةُ الَّتي تَلحقُكَ المشقَّةُ في الوصول إليها، قالَ تعالى: ﴿بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ ٱلشُّقَّةُۚ﴾ [التَّوبة: 42][4].

وكلمةُ (الحَرَج) الَّتي وردت في الآية الكريمة هي المناسبةُ لسياقِها دونَ غيرِها من الكلماتِ المقاربة لارْتباطها بالضِّيق الَّذي يحصُلُ في صدرِ النَّبيِّ ﷺ بتكذيبِ قومِه له ومعاندتِهم لدعوتِه، وهو ليس أيَّ ضيق؛ بل هو ضيقٌ لا مَنْفَذَ فيه لشدَّته.

(1) العسكريّ، الفروق، ص: 182، والرّازي، مختارُ الصِّحاح: (حرج).
(2) الرّاغب، المفردات: (ضيق)، والعسكريّ، الفروق، ص: 333.
(3) ابن الأثير، النِّهاية: (ضرر)، والعسكريّ، الفروق، ص: 328، والكفوي، الكلِّيات: 3/147.
(4) الرّاغب، المفردات: (شق)، والرّازي، مختار الصِّحاح: (شقق).

﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۗ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ٣﴾ [الأعراف: 3]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الرَّبطُ بين تكليفِ المُرسَلِ بالإنذارِ والتَّذكيرِ، وأمرِ الأمَّةِ بالانصياعِ والاتِّباع

يقول الرَّازيُّ: اعلمْ أنَّ أمرَ الرِّسالةِ، إنَّما يَتِمُّ بالمُرسِلِ: وهو اللهُ ﷻ، والمُرسَلِ: وهو الرَّسولُ، والمُرسَلِ إليه وهو الأُمَّة، فلمَّا أمرَ في الآيةِ الأولى الرَّسولَ بالتَّبليغِ والإنذارِ مع قلبٍ قويٍّ وعزمٍ صحيح؛ أمرَ المُرسَلَ إليه - وهمُ الأُمَّةُ - بمتابعةِ الرَّسولِ، فقال: ﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ﴾[1]، "ولا تتَّبِعوا من دونهِ أولياءَ، تستجيبونَ لهُم، وتستعينونَ بهِم، إنَّكم قلَّما تتَّعظونَ حينَ تتركونَ دينَ اللهِ، وتتَّبعون غيرَهُ، مع أنَّ العِبَرَ في ذلك كثيرةٌ"[2].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَوۡلِيَآءَۗ﴾: وَلِيَ: الواوُ واللَّامُ والياءُ: أَصْلٌ صحيحٌ، يدُلُّ على قُرْب، من ذلكَ الوَلْيُ: القُرْب، يُقالُ: تباعَدَ بعدَ ولي، أي: بعدَ قُرْبٍ، وجَلَسَ ممَّا يليني، أي: يُقاربُني. ومنَ البابِ المَوْلَى: المُعتِقُ والمُعتَقُ، والصَّاحبُ، والحليفُ، وابنُ العمِّ، والنَّاصرُ، والجارُ: كلُّ هؤلاء من الوَلْي، وهو القُرْب. وكُلُّ مَنْ وَلِيَ أمرَ آخرَ، فهو وَليُّهُ[3]، "﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾، أي: يتولَّى نصرهم؛ لأنَّ حزبَهم هم الغالبون، ويتولَّى مجازاتَهم بالحُسْنى"[4]. والوليُّ خلاف العدوِّ، قال اللهُ تعالى: ﴿لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَۘ﴾ [المائدة: 51]، وقال: ﴿لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمۡ أَوۡلِيَآءَ﴾ [الممتحنة: 1]، أي: اتَّخذوهم أعداءً،

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 14/196.
(2) لجنة من علماء الأزهر، المنتخب في تفسير القرآن الكريم، ص: 204.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، والفيروزابادي، القاموس المحيط: (ولَي).
(4) أبو إسحاق الزّجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 1/427.

حتَّى لا تناصحوهم، وقيل: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، أي: ناصرهم ومرشدهم، ومتكفِّل بأمورهم، كوليِّ الطِّفل يكفيه أموره"[1].

2) ﴿تَذَكَّرُونَ﴾: الذِّكرُ: تارةً يُقالُ ويُرادُ به هيئةٌ للنَّفْسِ، بها يمكنُ للإنسانِ أنْ يحفظَ ما يَقتنيه من المعرفة، وهو كالحِفْظِ إلَّا أنَّ الحفظَ يُقالُ اعْتبارًا بإحرازِه، والذِّكرُ يقالُ اعْتبارًا باسْتحضاره، وتارةً يُقالُ لحضورِ الشَّيءِ القلبَ أوِ القولَ، ولذلكَ قيل: الذِّكرُ ذِكْران: ذِكْرٌ بالقلب، وذِكْرٌ باللِّسان، وكلُّ واحدٍ منهما ضربان: ذكرٌ عن نسيان، وذكرٌ لا عن نِسْيان، بل عن إدامةِ الحفظ، وكلُّ قولٍ يُقال له ذِكْر.

فمن الذِّكرِ باللِّسان قولُه تعالى: ﴿وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ﴾ [الأنبياء: 50]. ومن الذِّكر عن النِّسيان قولُه تعالى: ﴿فَإِنِّي نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ﴾ [الكهف: 63]. ومن الذِّكرِ بالقلبِ واللِّسان معًا قولُه تعالى: ﴿فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾ [البقرة: 200]، والذِّكرى: كثرةُ الذِّكر، وهو أبلغُ من الذِّكر، وهو المعنَى المرادُ في قولِه تعالى هنا: ﴿وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾[2].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

الأمـرُ بِاتِّبـاعِ الـوحـي المنـزلِ، وترك المعبوداتِ المتَّخذةِ من دونِ اللهِ

صُدِّرَ هذا الخطابُ الرَّبَّانيُّ بأمرٍ ثمَّ نهيٍ: الأوَّلُ أمرٌ من اللهِ لنبيِّه ﷺ ولأُمَّتِه، باتِّباعِ ما أنزلَهُ إليهم في هذا القرآنِ الكريم، لتكتملَ به تربيتُهم، وتتمَّ عليهم نعمتُه، وَيَهْتَدُوا بهدْيه لأحسنِ أعمالِهم وأخلاقِهم. والثَّاني نهيٌ لهم أن يتَّبعوا من دونِ القرآن غيرَه، يُلقُون إليه بزمامِهم، فيسوقُهم إلى تركِ الحقِّ، واتِّباعِ أهوائِهم. ويرشدُهم بيانُ اللهِ تعالى، أنَّهم لو تذكَّروا هاتَيْنِ الوصيَّتَيْنِ حقَّ

(1) أبو هلال العسكريّ، الوجوه والنّظائر، ص: 494.
(2) الرّاغب، المفردات: (ذكر).

التَّذكُّر، فلن يُؤثِروا ما يضرُّهم على ما ينفعُهم، ولن يَرْكَنُوا إلى عدوِّهم، ويَتَجَافَوْا عن وَليِّهم[1].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ الفَصْلِ وتركِ عطفِ الآيةِ عن سابقَتِها:

غرضُ استئنافِ الكلامِ بيانُ ما تقدَّمَهُ في السِّياقِ

قوله تعالى: ﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ﴾، لم يأتِ هذا الصَّدرُ من الآيةِ معطوفًا على سابِقَيها؛ لأنَّ المَقامَ مَقامُ بيانٍ لما تقدَّمَ من قولِه تعالى: ﴿لِتُنذِرَ بِهِۦ﴾ بقرينةِ تذييلِها بقولِه تعالى: ﴿قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾[2]، ولذلكَ فإنَّ قولَه تعالى: ﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم﴾، كلامٌ مستأنفٌ، خُوطِبَ به جَميعُ المكلَّفين بطريقِ التَّلوين[3].

دَلالةُ الأمرِ في قولِهِ تعالى: ﴿ٱتَّبِعُواْ﴾:

توجُّهُ الأمرُ بالاتِّباعِ للرَّسولِ ﷺ والمؤمنينَ به والمشركين

الأمرُ بالاتِّباعِ يندرجُ فيه ثلاثُ جهات: الأولى: الرَّسولُ ﷺ، وقد نوَّهتِ الآيةُ السَّابقةُ بالكتابِ المُنزَّلِ إليه ﷺ.والثَّانيةُ: المشركونَ الَّذي أُنزلَ إليهمُ الزَّجرُ عن الشِّركِ والاحْتجاجُ على ضلالهم، ونوَّهتِ الآيةُ المتقدِّمةُ لذلك بقولِه تعالى: ﴿لِتُنذِرَ بِهِۦ﴾.الثَّالثةُ: المسلمونَ الَّذينَ أُنزل إليهم الأمرُ والنَّهيُ والتَّكليفُ، وجاءَ التَّنويهُ به في الآيةِ السَّابقةِ بقولِه تعالى: ﴿وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾، فكلُّ تلكَ الجهاتِ مأمورةٌ باتِّباع ما أُنزلَ إليها، والمقصودُ الأجدرُ، همُ المشركون، تعريضًا بأنَّهم كفروا بنعمةِ ربِّهم[4].

بلاغةُ الاسْتعارةِ في مادّة الاتّباع:

جمالُ الاسْتعارةِ في تشبيهِ المحسوسِ بالمعقول

يُسْتعارُ الاتِّباعُ للعملِ بأمرِ الآمر، نحوُ: ﴿مَا مَنَعَكَ إِذۡ رَأَيۡتَهُمۡ ضَلُّوٓاْ ٩٢ أَلَّا تَتَّبِعَنِۖ أَفَعَصَيۡتَ أَمۡرِي ٩٣﴾ [طه: 92 - 93]، وهو اسْتعارَةٌ

(1) الشَّوكاني، فتح القدير: 2/264، والسَّعدي، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 237.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/14.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 14/197، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/319.
(4) الفرّاء، معاني القرآن: 1/371، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/319، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/15.

تمثيليَّةٌ مبنيَّةٌ على تشبيهِ حالتَيْن، ويُستعارُ للاقْتداءِ بسيرةٍ أو قولٍ، نحو: ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ﴾ [البقرة: 168]، وهو اسْتعارَةٌ مُصرَّحةٌ تَنْبني على تشبيهِ المحسوسِ بالمعقول، كما في قولِه تعالى: ﴿إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّۚ﴾ [الأنعام: 50]، ومنه قولُه هنا: ﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ﴾[1].

نكتةُ عدمِ التَّصريحِ بالمخاطَبين في جملة ﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم﴾:

الخطابُ يشْمَلُ جميعَ النَّاسِ مؤمنِهم وكافرِهم

جاءَ الأمرُ بوجوبِ الاتِّباعِ بقولِه: ﴿ٱتَّبِعُواْ﴾ دونَ تعيينٍ للمخاطَبين، ليشملَ جميعَ النَّاس، كلٌّ يتَّبعُ ما هو به أَعْلَق، فالمشركون يتَّبعونَ ما أُنزِلَ إليهم من الزَّجرِ عن الشِّرك، والمسلمون يتَّبعونَ ما أُنزِلَ إليهم من الأوامر والنَّواهي والتَّكليف، فكلٌّ مأمورٌ باتِّباع ما أُنزِلَ إليه[2].

نكتةُ التَّعبيرِ بالاسْمِ الموصولِ ﴿مَآ﴾ عن الكتابِ:

هذا التَّعبيرُ يفيد ثبوتَ عمومِ الحكمِ المنزَّلِ بجميعِ آياتِ الكتابِ

وردَ اسمُ الموصول (ما) تعبيرًا عن عموم آيات الكتابِ الَّذي تقدَّمَ ذكرُه في الآيةِ السَّابقة ﴿كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ﴾، ليدُلَّ على ثبوتِ الحُكْمِ المُنَزَّلِ بالكتابِ ابتداءً، وليكون أَوْلى بالرِّعايةِ والالْتزام، وهو الَّذي جاءَ التَّنويهُ به هنا بالكتابِ المُنزَّلِ على رسولِ اللّه ﷺ، حاملًا معه بيانَ حكمةِ إنزالِه للإنْذارِ والتَّذكير[3].

فائدةُ التَّعبيرِ بجملةِ الموصول ﴿أُنزِلَ إِلَيۡكُم﴾ عن القرآن:

أفادَ هذا التَّعبيرُ تأكيدَ اتِّباعِ القرآنِ دونَ غيرِه

أفادَ قولُه تعالى: ﴿أُنزِلَ إِلَيۡكُم﴾ وجوبَ اتِّباعِ القرآن حصْرًا لجميعِ النَّاس، وإن كان الخطابُ بقولِه: ﴿مِّنكُمۡ﴾، يعني: المسلمينَ ابتداءً، لكنَّه يشملُ غيرَهم. ودَالًّا كذلك على أنَّ كلَّ ما يُغايرُ الحكمَ الَّذي أنزلَ اللّهُ في القرآن، فإنَّه لا يجوزُ اتِّباعُه[4].

---

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/15.

(2) ابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 2/373، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/319، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/15.

(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/319، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/15.

(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 14/197.

نكتةُ بناءِ الفعلِ ﴿أُنزِلَ﴾ لِمَا لم يُسمَّ فاعلُه:

غرضُ البناءِ للمفعولِ الاهتمامُ بالمُنْزِلِ ومادَّةِ الإنْزال

وردَ قولُه تعالى: ﴿مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم﴾ بصيغةِ النَّائبِ عنِ الفاعلِ، جريًا على سَنَنِ الكبرياء، ممَّا تقدَّمَه من قبلُ: ﴿كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ﴾، وللعلمِ بفاعلِ الإنزال؛ لأنَّ الَّذي يُنَزِّلُ الكتُبَ على الرُّسُلِ هو اللّٰهُ تعالى، وللاهْتمامِ بمادَّةِ الإنْزالِ مع الإشعارِ بأنَّها من الوحيِ لملائكة العوالمِ السَّماوية، وقد أكَّدَ هذه المعاني، قولُه تعالى من بعدُ: ﴿مِّن رَّبِّكُمۡ﴾[1].

بلاغةُ تقديمِ شِبْهِ الجُملةِ ﴿إِلَيۡكُم﴾ في قوله ﴿إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ﴾:

غرضُ السِّياقِ الاهتمامُ بالمخاطَبين، وحثُّهم على الامْتثالِ لشرعِ الله

تقدَّمَ الجارُّ والمجرورُ في قولِه تعالى: ﴿إِلَيۡكُم﴾، وجاءَ مُسنَدًا إلى قولِه: ﴿مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ ليكونَ في هذا التَّقديمِ والإسنادِ إلى وصفِ الرُّبوبيَّةِ مزيدُ لُطفٍ بالمخَاطَبينَ، واهتمامٌ بشأنِهم، وترغيبٌ لهم في الامْتثالِ بما أُمروا به، وتأكيدٌ لوجوبه[2].

فائدةُ العدولِ من ضميرِ المخَاطَبِ المفردِ إلى الجمعِ ﴿إِلَيۡكُم﴾:

المرادُ المخاطبونَ جميعُهم في دلالةِ على الشُّمولِ والعذاب

في قولِه تعالى: ﴿إِلَيۡكُم﴾ تعميمٌ لمن أُنزِلَ إليهم الكتابُ، إذ همُ المُعوَّلُ عليهم في مادةِ الإنزال، سواءٌ أكانوا مشركين فيكونُ زجرًا لهم عن الشِّركِ وإقامةً للحُجَّةِ عليهم، أمْ كانوا مسلمين فيكونُ أمرًا لهم باتِّباعِ تفاصيلِ أوامرِه ونواهيه وأحكامهما، وممَّا يتضمَّنه التَّكليفُ[3].

مُتعلَّقُ قولِهِ تعالى: ﴿مِّن رَّبِّكُمۡ﴾، ومعنى ﴿مِّن﴾:

تُعلَّقان: بـ(أُنزِلَ)، وبمحذوفٍ حال، و(من) لابْتداءِ الغايةِ

يجوزُ في متعلَّقِ قولِهِ تعالى: ﴿مِّن رَّبِّكُمۡ﴾، وجهان: الأوَّل أنَّه مُتعلِّقٌ بـ﴿أُنزِلَ﴾، وتكونُ ﴿مِّن﴾ لابتداءِ الغايةِ المجازيَّة، والثَّاني: أنْ يتعلَّقَ بمحذوفٍ على أنَّه حالٌ؛ إمَّا من الموصول، وإمَّا من عائدِه القائمِ مقامَ الفاعل[4].

---

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/317، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/12.

(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/211.

(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 9/15.

(4) العكبري، الإملاء: 1/268، والسَّمين الحلبي، الدُّرُّ المصون: 5/245.

نكتةُ مجيءِ لفظِ الرَّبِّ، وإضافتِه إلى ضميرِ (هم):

دعوةٌ للعنايةِ بالمخاطَبين، وتحفيزِهم إلى امْتِثالِ أوامرِ ربِّهم

في التَّعرُّضِ لوصفِ الرُّبوبيَّةِ مع الإضافةِ إلى ضميرِ المخاطَبين مزيدُ لطفٍ بهم وترغيبٌ لهم في الامْتثالِ بما أُمِرُوا، وتأكيدٌ لوجوبه، وجعلُ ما أُنزِلَ هَاهُنَا عامًّا للسُّنَّةِ القوليَّة والفعليَّة بُعيدَ نِعَمٍ يعمُّها حكمُهُ بطريقِ الدَّلالةِ لا بطريقِ العبادة[1].

بلاغةُ عطفِ النَّهيِ ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ﴾ على الأمرِ ﴿ٱتَّبِعُواْ﴾:

في هذا العطفِ بيانٌ أنَّ المُنْزَلَ واحدٌ، والأمرَ والنَّهيَ سواءٌ في الكلِّ

جاءَ النَّهيُ في قولِه تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ﴾ عطفًا على الأمرِ ﴿ٱتَّبِعُواْ﴾ تصريحًا بما تضمَّنه: ﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ﴾، لأنَّ فيما أُنزِلَ إليهم من ربِّهم يتضمَّن: أمرًا ونهيًا، فجاءَ الأمرُ أوَّلًا، ثمَّ أَرْدَفَه بالنَّهي عن اتِّباعِ غيره[2].

دَلالةُ النَّهي في قوله ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۗ﴾:

دلالَةُ النَّهي على تأكيدِ مُقتضى الأمرِ في الآيةِ الكريمةِ

جاءتْ دَلالةُ النَّهي في ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ﴾، تأكيدًا لمقتضى الأمرِ باتِّباعِ ما أُنزِلَ إليهم، اهْتمامًا بهذا الجانبِ ممَّا أُنزِلَ إليهم، وتسجيلًا على المشركين وقطعًا لمعاذيرِهم، أن يقولوا: إنَّنا اتَّبعْنا ما أُنزِلَ إلينا، وما نرى أولياءنا إلَّا شفعاءَ لنا عندَ اللّه، فما نعبدُهم إلَّا ليُقرِّبونا إلى اللّهِ زُلْفَى، فكما أنَّ موقعَ ﴿ٱتَّبِعُواْ﴾، موقعُ الفَصْلِ الجامعِ من الحدِّ، فموقعُ ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ﴾ موقعُ الفَصْلِ المانعِ من الحدِّ[3].

بلاغةُ الاستعارةِ في ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۗ﴾:

تَجَلِّي البيانِ في استعارةِ معنَى الاتِّباعِ وفي معنى الطَّلبِ والاتِّخاذِ

الاتِّباعُ في قولِه: ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۗ﴾، مستعارٌ في المعنَى الَّذي اسْتعملَ الاتِّباعَ في قوله: ﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ﴾، وذلكَ على تقديرِ: (لا تتَّبعوا ما يأتيكم من أولياءَ من دون اللّه)، فإنَّ المشركين يَنسُبونَ ما هم عليه من الدِّيانةِ الضَّالَّةِ إلى

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 3/211، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/15.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/15.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/15 - 16.

الآلهةِ الباطلة، أوْ إلى سَدَنة الآلهةِ وكُهَّانِها، ويمكنُ أن يكونَ الاتِّباعُ مُسْتعارًا للطَّلبِ والاتِّخاذ، أي: ولا تتَّخذُوا أولياءَ غيرَه، نحوَ قولِهم: هو يتَّبعُ زلَّةَ فُلانٍ، أي: يتطلَّبُها[1].

معنَى الحرف ﴿مِن﴾ في ﴿مِن دُونِهِۦٓ﴾:

(من) الابتدائيَّةُ لها دورٌ في دلالةِ السِّياقِ المتوخَّاةِ

﴿مِن﴾ في قولِه: ﴿مِن دُونِهِۦٓ﴾ ابْتدائيَّةٌ، أي: من دونِ ربِّكم الَّذي أَنزلَ إليكم ما يَهديكم إلى الحقِّ[2]، وقوله: "﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ﴾ أي: من دونِ ربِّكم الَّذي أنزل إليكم ما يهديكم إلى الحقِّ، ومحلُّه النَّصبُ على أنَّه حالٌ من (فافعل)، فعلُ النَّهي، أي: لا تتَّبعوا متجاوزين اللّه تعالى"[3].

متعلَّقُ ﴿مِن دُونِهِۦٓ﴾ والمعنَى المُترتِّبُ عليه:

التَّعلُّقُ بالفعلِ قبلَ ذلك، أو بالمحذوف يحدِّدُ الدِّلالةَ

قولُه تعالى: ﴿مِن دُونِهِۦٓ﴾ له مُتعلَّقان[4]: الأوَّلُ: بالفعلِ قبلَه، والمعنَى: لا تَعدِلوا عنه إلى غيرِه من الشَّياطينِ والكُهَّان. والثَّاني: بمحذوف؛ لأنَّهُ كانَ في الأصلِ صفةً لأولياء، فلمَّا تقدَّمَ؛ نُصِبَ حالًا[5]، والمعنَى: لاتَتولَّوْا من دونِه من شياطينِ الإنسِ والجنِّ، فيحملُوكم على الأهواءِ والبِدَع، ويُضِلُّوكُمْ عن دينِ اللّهِ، وما أَنزلَ إليكم، وأَمرَكم باتِّباعِه[6].

عَوْدُ الضَّميرِ في قولِهِ تعالى: ﴿مِن دُونِهِۦٓ﴾:

يعودُ الضَّميرُ على: (رَبِّكُم)، أو (ما)، أو الكتابِ المُنْزَلِ

في عَوْدِ الضَّميرِ في ﴿دُونِهِۦٓ﴾ ثلاثةُ أَوجهٍ: الأوَّلُ: أنْ يعودَ على ﴿رَّبِّكُمْ﴾؛ وهو الظَّاهر[7]. والثَّاني: على ﴿مَآ﴾ الموصولة. والثَّالث: على الكتاب المُنْزَلِ، والمعنَى: لا تعدِلُوا عنه إلى الكُتُبِ المنسوخة[8].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/16.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/319، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/16.
(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/211.
(4) السَّمين الحلبي، الدُّرُّ المصون: 5/245.
(5) العكبريّ، الإملاء: 1/268.
(6) الزَّمخشريّ، الكشَّاف: 2/66.
(7) الزَّمخشريّ، الكشَّاف: 2/66، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/319.
(8) السَّمين الحلبيّ، الدُّرُّ المصون: 5/245 - 246.

نكتةُ تقديمِ شِبْهِ الجملةِ ﴿مِن دُونِهِۦٓ﴾ على المفعولِ ﴿أَوۡلِيَآءَۗ﴾:

غرضُ التَّقديمِ التَّنفيرُ من اتِّباعِ أهلِ الزَّيْغِ والضَّلالِ

جاءَ هذا التَّقديمُ وحقُّه التَّأخير، أي: ولا تتَّبعوا أولياءَ من دونِه؛ لأنَّ الغرضَ بيانُ حالِ من يتَّبعُهُمُ المشركون من شياطينِ الإنسِ والجنِّ في ضلالاتهم وبِدَعِهم، للتَّنفيرِ منهم، وتَنكُّبِ طريقِهم في الدُّنيا، قبلَ التَّبرُّؤِ منهم في الآخرةِ، يومَ لا ينفعُهم ذاك التبرُّؤ، كما قالَ تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ لَوۡ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنۡهُمۡ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّاۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعۡمَٰلَهُمۡ حَسَرَٰتٍ عَلَيۡهِمۡۖ﴾ [البقرة: 167][1].

نكتةُ الاستِعارةِ في قوله تعالى: ﴿مِن دُونِهِۦٓ﴾:

سرُّ التَّعبيرِ بالدُّونِ عن التَّركِ لعبادةِ اللهِ والإعراضِ عن أوامرِه

قولُه تعالى: ﴿مِن دُونِهِۦٓ﴾ اسْتعارةٌ للتَّرْكِ والإعراض، فإنَّ المشركينَ اتَّبعوا الأصنامَ بعبادتِها، أو نسبةِ الدِّين إليها، وكلُّ عملٍ عملوه امْتثالًا لأمرٍ يُنسَبُ إلى الأصنام؛ فهم عند عملِه يكونون متَّبعينَ اتِّباعًا فيه إعراضٌ عنِ اللهِ، وتركٌ للتقرُّب إليه، فيكونُ اتِّباعًا من دونِ اللهِ[2].

بلاغةُ اسْتعارةِ لفظ ﴿أَوۡلِيَآءَۗ﴾ لآلهتِهم:

جسَّدتْ (أَوْلياء) الموالاة لجميعِ أصنافِ آلهةِ المشركين وأنواعِها

جاء قوله: ﴿أَوۡلِيَآءَۗ﴾ تعبيرًا عن أيِّ اتِّباعٍ من دون اللهِ، أي: فيه إعراضٌ عن اللهِ وتركٌ للتقرُّب إليه، وبهذا النَّهي عن اتِّخاذِ أيٍّ من دونِ اللهِ وليًّا، سُدَّتْ على المشركين جميعُ أبوابِ الشِّركِ وتأويلاته، كقولِهم: ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ [الزُّمر: 3]، فقد جاءَ قولُه: ﴿أَوۡلِيَآءَۗ﴾ مع ما سبقه بقولِه: ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ﴾ في أعلى درجةٍ من الإيجازِ واسْتيعابِ المقصود[3].

نكتةُ العُدولِ عن أسلوبِ القَصْرِ:

أفادَ مجموعُ قولِه تعالى: ﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ وَلَا

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/16 - 17.
(2) الزَّمخشريّ، الكشَّاف: 2/66، والعكبريّ، الإملاء: 1/268، والسَّمين الحلبيّ، الدُّرُّ المصون: 5/245.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/17.

﴿تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۗ﴾، مُفَادَ صيغةِ قَصْر، كأنَّه قال: (لا تتَّبعوا إلَّا ما أمَرَ به ربُّكم)، أي: دون ما يأمرُكم به أولياؤكم، فعَدَلَ عن طريقةِ القَصْرِ هذه؛ لتكونَ جملةُ: ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۗ﴾ مُستقلَّةً صريحةَ الدَّلالةِ، اهْتِمامًا بمضمونها الَّذي هو المقصدُ الأسْنَى من سَوْقِها وسِياقها[1].

سرُّ العدولِ لتحقيقِ المرادِ، غايتهُ نَفْيُ أيِّ وليٍّ من دونِ اللهِ

الموقعُ النَّحويُّ للفظ ﴿قَلِيلًا﴾:

قولُه تعالى: ﴿قَلِيلًا﴾ فيها وجهان إعرابيَّان: الأوَّلُ: صِفَةُ مصدرٍ محذوفٍ، دلَّ عليه ﴿تَذَكَّرُونَ﴾، أي: تذكَّرونَ تذكُّرًا قليلًا تذكَّرون. والثَّاني: صفةُ ظرفِ زمانٍ محذوف أيضًا، أي: زمانًا قليلًا تذكَّرون لا كثيرًا[2].

لفظُ (قليلا) يتنوَّعُ موقعُهُ بينَ صفةِ المصدرِ أو ظرفِ الزَّمانِ

الموقعُ البيانيُّ لقوله تعالى: ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾:

جملةُ ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ جملةٌ حاليَّةٌ من قوله: ﴿لَا تَتَّبِعُواْ﴾، وهي حالٌ سببيَّةٌ وكاشفةٌ لصاحبها، وليستْ مقيِّدةً للنَّهي، لظهورِ أنَّ المتَّبعين أولياءَ من دون اللهِ ليسوا إلَّا قليلي التَّذكُّر، ويجوزُ أن تكونَ هذه الجملةُ اعتراضًا تَذْييليًّا[3].

الجملةُ إمَّا حاليَّةٌ سَبَبيَّةٌ كاشفةٌ، أو اعْتِرَاضٌ تَذْيِيليٌّ في السِّيَاقِ

بلاغةُ لفظِ ﴿قَلِيلًا﴾ في سياقِ الآيةِ الكريمةِ:

لفظُ ﴿قَلِيلًا﴾ يجوزُ أنْ يُحمَلَ على حقيقته؛ لأنَّهم قد يتذكَّرون ثمَّ يُعرِضونَ عن التَّذكُّرِ في أكثرِ أحوالِهم، فهم في غفلةٍ مُعرِضون، ويجوزُ أن يكونَ ﴿قَلِيلًا﴾، مُستعارًا لمعنَى النَّفي والعَدَمِ على وجهِ التَّلميح[4]، كقولِه تعالى: ﴿فَقَلِيلًا مَّا يُؤۡمِنُونَ ٨٨﴾ [البقرة: 88] واسْتعمالُ ﴿قَلِيلًا﴾ هنا في العدَمِ هو على طريقةِ التَّهكُّم بالمضيِّعِ للأمرِ على

تنوُّعُ لفظِ (قليلا) بين الحقيقةِ، أو الاستعارةِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/17.

(2) الزَّمخشريّ، الكشَّاف: 2/66، والسّمين الحلبيّ، الدُّرُّ المصون: 5/246، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السليم: 2/320.

(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السليم: 2/320، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/17.

(4) أبو السُّعود، إرشاد العقل السليم: 2/320، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/17.

خَطئه، وإنَّه وإنْ كانَ في ذلكَ تفريطٌ، فلا ينبغي أن يتجاوزَ حدَّ التَّقليلِ دون التَّضييعِ له كلِّهِ[1].

معنى ﴿مَّا﴾ في قولهِ تعالى: ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾:

المصدريَّةُ أو الزِّيادة للتَّأكيدِ

﴿مَّا﴾ مصدريَّةٌ موصولةٌ بالفعلِ بعدَها، والتَّقدير: (قليلًا تذكُّركم)[2]، ويمكنُ أن تكون ﴿مَّا﴾ المصدريَّةُ وما بعدَها بتأويلِ مصدرٍ مبتدأً مؤخَّرًا، والتَّقديرُ: زمنًا قليلًا تذكُّركم، أي: إنَّهم لا يقعُ تَذَكُّرُهُمْ إلَّا في بعضِ الأحيان، ويمكنُ أن تكونَ ﴿مَّا﴾ مزيدةً لتوكيدِ القِلَّة[3]، وقد قيل: إنَّ ﴿مَّا﴾ هذه نافيةٌ، وهو بعيدٌ؛ لأنَّ ﴿مَّا﴾ لا يعملُ بعدَها فيما قبلَها عند البصريِّين، وعلى تقديرِ تسليم ذلك، فيصيرُ المعنَى: ما تذكَّرون قليلًا، وليس بطائل[4].

بلاغةُ التَّعبيرِ بالفعل المضارعِ في قوله: ﴿تَذَكَّرُونَ﴾:

أفادَ الفعلُ بصيغةِ (تفعّلون) دَيْمومةَ الغَفْلةِ والإعراض عن الحقِّ

الفعلُ المضارعُ يفيدُ التَّجدُّدَ والاسْتمراريَّة، وهو المعنَى في ﴿تَذَكَّرُونَ﴾، لكنَّ إسنادَ ﴿قَلِيلًا﴾ إليه، أَفْقَدَه دَيْمومةَ التَّذكُّر، وصيَّره إلى معنَى أنَّهم قد يتذكَّرونَ، ثمَّ يُعرِضونَ عن التَّذكُّرِ في جُلِّ أحوالهم، وهذا يعني: أنَّهم في الحقيقةِ مستمرُّون في غفلتِهم، دائمون في إعراضِهم[5].

بلاغةُ الالْتفاتِ في قراءة (يتذكَّرون):

أعرضَ بيانُ اللهِ عن الكافرين، كما أعرَضوا هم عنِ الله

جاءتْ قراءةُ (يتذكَّرون) - بتحتيَّةٍ في أوَّله ثمَّ فوقيَّةٍ[6]. على طريقةِ الالْتفاتِ من الخطابِ إلى الغَيْبة، حيث أَعْرَضَ عنهم، ووجَّه

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/18.
(2) ابن عطيّة، المحرَّر الوجيز: 2/373، والسّمين الحلبيّ، الدُّرُّ المصون: 5/246.
(3) الزَّمخشريّ، الكشَّاف: 2/66، والشَّوكاني، فتح القدير: 2/264.
(4) السّمين الحلبيّ، الدُّرُّ المصون: 5/246.
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/17.
(6) هي قراءة ابن عامر، وقرأ حفص، وحمزة، والكسائي، وخلف: ﴿تَذَكَّرُونَ﴾ وقرأ الباقون: ﴿تَذَّكَّرُونَ﴾، ينظر: محمّد كريّم راجح، القراءات العشر المتواترة، ص: 151.

الكلام على غيرِهم من السَّامعين إلى النَّبيِّ ﷺ والمسلمين[1]. وفي هذا الالْتفاتِ إيْذَانٌ باقْتضاءِ سُوءِ حالِهم في عدمِ الامْتثالِ بالأمرِ والنَّهي، وفي صرفِ الخطابِ عنهم وحكايةِ جناياتِهم لغيرِهم؛ ازدراءٌ بهم وبحالهم، فهم أقلُّ شأنًا، وأوْضَعُ مكانةً عندَ مُخاطِبِهم، ليُوجِّهَ لهم خطابَه مباشرةً[2].

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(أَوْلِياء) و(شُركاء) و(أَنْداد) و(آلهة):

الوَلاءُ والتَّوالي: أنْ يحصُلَ شيئان فصاعدًا، حصولًا ليس بينَهما ما ليس منهما، ويُستعارُ ذلك للقُربِ، من حيث المكانُ، ومن حيث النِّسبةُ، ومن حيث الدِّينُ، ومن حيث الصَّداقةُ والنُّصرةُ والاعْتقاد.

اسْتخدامُ (أَوْلِياء) في السِّياقِ، أعمُّ دَلالةً في أيِّ ولايةٍ غيرِ ولايةِ اللهِ

ونفى اللّهُ الولايةَ بين المؤمنين والكافرين في غيرِ آية، قالَ تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ﴾ [الممتحنة: 1]، ومنه الآيةُ الَّتي معنا: ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾[3].

ولفظ شُركاء، من الشِّركة والمُشارَكة، وهي خلطُ المِلْكَيْن، وقيل: هو أنْ يوجدَ شيءٌ لاثْنَيْنِ فصاعدًا، عينًا كان ذلكَ الشَّيء، أو معنًى، قالَ تعالى: ﴿وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى ۝٣٢﴾ [طه: 32]، وجمعُ الشَّريك: شُركاء، قال تعالى: ﴿فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَـٰكِسُونَ﴾ [الزُّمر: 29][4].

أمّا (الإلَهُ) فهو المعبودُ، وإلَهٌ حقُّهُ ألَّا يُجمَعَ؛ إذْ لا معبودَ سوى اللّه، لكنَّ العربَ استعملوا اللفظ جمعًا، فقالوا: الآلهة، وقالَ تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا﴾ [الأنبياء: 43][5].

وبالنَّظرِ في الفروقِ بين تلكُمُ المفرداتِ السَّابقةِ، يظهرُ جليًّا أنَّ

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 14/198، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/18.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السليم: 3/211.
(3) الرّاغب، المفردات، والفيروزابادي، القاموس المحيط: (ولي).
(4) الرّاغب، المفردات، والفيروزابادي، القاموس المحيط: (شرك).
(5) الرّاغب، المفردات، والرّازي، مختار الصّحاح: (أله).

كلمةَ ﴿أَوۡلِيَآءَۗ﴾، أَوْلى من غيرِها، ممَّا يُقاربُها في المعنَى، ولكنَّه لا يُحقِّقُ المرادَ من السِّياق، فليس المقصودُ من النَّهي الواردِ بقوله: ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۗ﴾ النَّهيَ عن النِّدِّيَّةِ أو الشَّراكةِ أوِ الآلهة، وإنَّما المرادُ النَّهيُ عن اتِّباعِ أيِّ وِلايةٍ غيرِ وِلايةِ اللّٰهِ، فيما أنزلَ في الكتاب مِنْ دينهِ وشريعتهِ وأحكامِه.

﴿وَكَم مِّن قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأۡسُنَا بَيَٰتًا أَوۡ هُمۡ قَآئِلُونَ ٤ فَمَا كَانَ دَعۡوَىٰهُمۡ إِذۡ جَآءَهُم بَأۡسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ٥﴾ [الأعراف: 4 - 5]

مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِما قَبْلَهُما:

لَمَّا أمرَ اللّهُ تعالى رسولَه ﷺ في الآيةِ السَّابقةِ بالإنْذارِ والتَّبليغِ، وأمرَ القومَ بالقَبولِ والمتابعة؛ ذكرَ في هاتيْنِ الآيتَيْنِ ما في تركِ المتابعةِ والإعراضِ عنها من الوعيدِ مع المبالغةِ في إحلالِهِ بأهلِهِ، مبيِّنًا حالَ أولئكَ المعرضينَ عندما يأتيهمُ العذابُ[1].

الإعْـــراضُ عـنِ اتِّباعِ ما أنزلَ الله ظُـلْـمٌ لـلنَّـفْسِ يَعْقُبُه العذابُ والهلاكُ

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَكَم﴾: هو عبارةٌ عنِ العدد، ويُستعمَلُ في بابِ الاسْتفهام، ويُنصَبُ بعدَه الاسْمُ الَّذي يُميَّزُ به، نحو: كَمْ رجُلًا ضربتَ؟ ويُستعملُ في بابِ الخبر، ويُجَرُّ بعدَه الاسْمُ الَّذي يُميَّزُ به، نحو: كَمْ رَجُلٍ! ويقتضي معنَى الكَثْرَة، وقد يدخلُ (مِنْ) في الاسْمِ الَّذي يُمَيَّزُ بعدَه، كما في قولِه هنا: ﴿وَكَم مِّن قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَا﴾[2].

2) ﴿قَرۡيَةٍ﴾: القَرْيَةُ: اسْمٌ للموضعِ الَّذي يجتمعُ فيه النَّاس، وللنَّاسِ جميعًا، ويُستعمَلُ في كلِّ واحدٍ منهما، قالَ تعالى: ﴿وَسۡـَٔلِ ٱلۡقَرۡيَةَ﴾ [يوسف: 82]، أي: أهل القرية[3]، وقولُه تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ﴾ [هود: 117]، وقولُه هنا: ﴿وَكَم مِّن قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَا﴾، فإنَّها

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 14/198، والبِقاعيّ، نظم الدُّرر: 7/356.
(2) الرّاغب، المفردات: (كم)، والرّازي، مختار الصِّحاح: (كمم).
(3) وهو قولُ جُلِّ المفسِّرين، ويرى المبرِّدُ في كتابه: ما اتَّفق لفظُه واختلفَ معناه من القرآن المجيد، ص: 77، أنَّ المرادَ هنا القومُ أنفسُهم.

اسْمٌ للقرية[1]، فأصلُ هذه الكلمةِ من قولنا: قَرَى الماءَ في الحَوْضِ يَقْريهِ قَرْيًا، وقَرَّى: جَمَعَه، وقرَى الشَّيءَ في فمِهِ: جَمَعَهُ، وقُرْيانُ الماءِ: مُجتَمعُهُ[2].

3) ﴿أَهْلَكْنَٰهَا﴾: هَلَكَ: الهاءُ واللَّامُ والكافُ: يدلُّ على كَسْرٍ وسُقوط، ومنه الهلاكُ: السُّقوط، ولذلك يُقالُ للميِّت: هَلَكَ، وهلَك الشَّيءُ يَهلِكُ هلاكًا وهُلُوكًا ومَهْلِكًا، بفتح اللَّام وكسرِها وضمِّها، وتَهلُكةً بكسرِ اللَّام وضمِّها، والاسْمُ: الهُلكُ، والتَّهلُكةُ من نوادرِ المصادرِ لا تجري على قياس[3].

4) ﴿بَأْسُنَا﴾: بأْسٌ: الباءُ والهمزةُ والسِّينُ أصلٌ واحدٌ، والشِّدَّةُ وما ضارَعَها، فالْبَأْسُ الشِّدَّةُ في الحربِ، ورجلٌ ذو بَأْسٍ وبَئيس، أي: شجاع، والبَأْسُ: العذاب، وعذابٌ بئيسٌ، أي: شديدٌ، والبَأْساءُ: الشِّدَّة، وبمعنَى الشِّدَّة جاءتْ كلمةُ (البُؤسُ)، أي: الشِّدَّة في العَيش[4]، وقولُه في الآية: ﴿فَجَآءَهَا بَأْسُنَا﴾ أي: عذابُنا[5].

5) ﴿بَيَٰتًا﴾: أَصْلُ البَيْتِ: مأوَى الإنسانِ باللَّيل؛ لأنَّه يُقالُ: باتَ: أقامَ باللَّيل، وقد يُقالُ للمَسْكنِ: بيتٌ من غيرِ اعْتبارِ اللَّيلِ فيه، ويُقال: باتَ يفعلُ كذا؛ إذا فعلَهُ ليلًا[6]، فقوله تعالى: ﴿بَيَٰتًا﴾، أي: ليلًا في حالةِ النَّوم[7]، وعليه فالبَيَاتُ كلُّ ما كان بليْلٍ، وهو منصوبٌ على الوَقْتِ[8]. بَيَّتَ: قَدَّرَ بليْلٍ، يُقَال: بَيَّتَ فلَانٌ رَأْيَهُ؛ إذا فكَّر فِيهِ لَيْلًا، وَمِنْه قَوْله جلَّ وَعزَّ: ﴿فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَٰتًا﴾. أَي: لَيْلًا. وَكَذَلِكَ بيَّتَهُمُ الْعَدوُّ، والبَيَاتُ: الْإِيقَاعُ بِاللَّيْلِ[9]، قال النَّحَّاس: "المعنى: فجاءهم العذابُ على غفلةٍ باللَّيلِ وهم نائمون"[10].

6) ﴿قَآئِلُونَ﴾: قِلْتُ قَيْلُولةً: نمتُ نصفَ النَّهارِ، أو موضعَ القَيْلُولةِ، والقائلةُ: الظَّهيرة، يُقالُ: أَتَانا عندَ القائلة، ومنه (القَيْلولةُ) وهي النَّومُ في الظَّهيرة، يُقالُ: قالَ قَيْلُولَةً ومَقيلًا

(1) الرّاغب، المفردات: (قرى)، والشِّنْقيطيّ، أضواء البيان: 2/288.
(2) الرّاغب، المفردات: (قرى)، وابن منظور، لسان العرب: (قرا).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (هلك).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (بأس).
(5) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 2/187، والشَّوكاني، فتح القدير: 2/265.
(6) الرّاغب، المفردات، والرّازي، مختار الصِّحاح: (بيت).
(7) الشَّوكاني، فتح القدير: 2/265، والشِّنقيطيّ، أضواء البيان: 2/288.
(8) الزّجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 3/24.
(9) السّجستاني، غريب القرآن المسمّى بنزهة القلوب، ص: 119.
(10) النّحاس، معاني القرآن: 3/9.

فهو قائلٌ، والقَيْلُ: شِربُ نصفِ النَّهارِ[1]، "وقال اللَّيث: القيلولة: نومةُ نصف النَّهارِ، وهي القائلة، وقد قال يَقيل مَقيلًا، والمقيل أيضًا: الموضع، قال: وقالت قريشٌ للنَّبيِّ ﷺ، قبل أن يَفْتَحَ اللّه عليه الفتوح: إنَّا لأكرمُ مقامًا وأحسن مقيلًا، فأنزل اللّه: ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٤﴾﴾ [الفرقان: 24]"[2].

المَعْنى الإجْماليُّ:

التَّذكيرُ بهلاكِ القرى المكذِّبةِ على غفلةٍ منهم بليلٍ أو نهارٍ

حذَّر اللّهُ ﷻ عبادَه عقوباتِه للأُمَمِ الَّذين كذَّبوا ما جاءتهمْ به رُسُلُهم أنْ يُشابهوهم، فَيُصيبَهُم ما أصابَهم، وقد بيَّن تعالى أنَّ ذلك العذابَ الشَّديدَ جاءهم على حينِ غَفْلَةٍ، حيث لم يَخْطُرْ ببالهم الهلاكُ، ولذلك حين جاءهُمُ العذابُ لم يستطيعوا دفْعَه، ولا أَغْنَتْ عنهم آلهتُهُم الَّتي كانوا يَرْجونَها، ولم يُمَكَّنوا من إنكارِ ما كانوا يفعلونَه من الظُّلمِ والمعاصي، ولا كان دعاؤهم ربَّهُم عند نُزولِ العذابِ إلَّا اعترافًا بالظُّلم على أنفُسِهم، وحينها لا ينفَعهمُ الاعترافُ، ولا تُغني عنهم الضَّراعةُ[3].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ عطفِ ﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا﴾ على ما سبق:

غرضُ أسلوبِ التَّحذيرِ لكفَّارِ مكَّةَ، أن يَحلَّ بهم ما حلَّ بالغابرين

العطفُ في قولِه: ﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ﴾، فيه تعريضٌ لأهلِ مكَّةَ الَّذين مَشَوْا على سَنَنِ تلكَ الأُممِ السَّابقةِ، في تكذيبِهم لدينِ اللّه، وإعراضِهم عن دعوةِ رسولِ اللّه ﷺ، بعد أن ذكرَ اللّهُ تعالى في الآيةِ السَّابقةِ، أولئك المكذِّبين الَّذين اتَّبعوا من دونِ اللّهِ أولياءَ[4].

(1) الرّاغب، المفردات، والرّازي، مختار الصّحاح: (قيل).
(2) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (قيل).
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/19.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/19.

فائدةُ مجيءِ (كم) الخبريَّة:

أفادتِ الكَثْرةُ في (كم) الخبريَّةِ في قوله تعالى ﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا﴾ بيانَ شُمولِ وقوعِ العذابِ، بأهلِ قرًى كثيرةٍ، كذَّبتْ وعاندتْ رُسُلَ اللّه، وذلك بقصدِ العِبْرةِ والعِظَةِ لمن أتَى بعدَهم، ومنهم أهلُ مكَّة[1]، ومفاد المعنى في هذا الملمح: أنَّ اللّه يقول: "لقد أهلكنا كثيرًا من القرى، بسبب عبادةِ أهلِها غيرَ اللّه، وسلوكهم غير طريقه، وقد جاءهم عذابُنا في وقتِ غفلتِهم ليلًا، وهم نائمونَ، كما حدثَ لقومِ لوطٍ، أو نهارًا وهم مستريحونَ وقتَ القيلولةِ، كقومِ شعيب"[2]. قال الشَّعراويُّ: "وساعة تسمع (كَمْ)، فاعرف أنَّ المسألةَ خرجتْ عن العدِّ، بحيثُ تستوجبُ أن تستفهمَ عنها، وهذا يدلُّ على أمرٍ كثير فوق العددِ، لكن عندما يكون العددُ قليلًا، فلا يُستفْهمُ عنه، بل يُعرفُ"[3].

أفادَ التَّكثيرُ شمولَ العذابِ كَثِيرًا من القُرى الكافرة

فائدةُ مجيءِ الخبرِ في ﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا﴾:

جاءَ الخبرُ في قولِه: ﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ﴾، لتهديدِ المشركينَ الَّذين وُجِّهَ إليهمُ التَّعريضُ في الآيةِ السَّابقةِ والَّذين قُصِدوا من العُموم، فثُلِّثَ هنا بِتَمْحيض التَّوجيه إليهم[4]، والغرضُ في الأساسِ، هو إتاحةُ الفرصة للعبرة، وإفساحُ المجالِ للعظة، وذلك أمرٌ متاحٌ في كلِّ العصور، وهو ما أشارَ إليه صاحب التَّفسيرِ الوسيط، منْ "أنَّ العاقلَ، هو الَّذي يحافظُ على أداء الأوامرِ، واجتنابِ النَّواهي، ولا يأمن صفوَ اللَّيالي، ورخاءَ الأيَّام، بل يعيش حياتَهُ، وصلتُه بربِّهِ مبنيَّةٌ على الخوف والرَّجاءِ، فإنَّهُ ﴿فَلَا يَأۡمَنُ مَكۡرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ٩٩﴾ [الأعراف: 99]"[5].

الوعيدُ للمشركينَ بالخبرِ بغرضِ العبرةِ والعظةِ

(1) أبو السُّعود، الإرشاد: 2/320.
(2) إبراهيم القطّان، تيسير التّفسير: 2/32.
(3) الشّعراويّ، تفسير الشّعراوي (الخواطر): 7/44.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/19.
(5) محمّد سيّد طنطاويّ، التّفسير الوسيط للقرآن الكريم: 5/46.

نكتةُ مجيءِ ﴿مِّن﴾ في ﴿وَكَم مِّن قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَا﴾:

إفادةُ (من) التَّأكيدَ تزيدُ في الإبانةِ ما يفيدُ

﴿مِّن﴾ في قولِه تعالى: ﴿مِّن قَرۡيَةٍ﴾ زائدةٌ[1]، وأفادَ وجودُها التَّأكيدَ والتَّمييز، أي: كم قريةٍ أهلكناها![2] والحرف الزَّائدُ ﴿مِّن﴾ يُبَيِّنُ توالي الهلاك عبر الأيامِ واللَّيالي في كثيرٍ من الأممِ الخوالي، وهو قانون سنَّهُ اللهُ لعقوبةِ من رفضَ الإيمانَ، وجاهرَ بالكفرانِ.

موقعُ لفظِ ﴿قَرۡيَةٍ﴾ وتنكيرُه:

أفادَ التَّنكيرُ العمومَ والإحاطةَ والتَّكثيرَ

قولُه: ﴿قَرۡيَةٍ﴾ اسمٌ مجرورٌ لفظًا منصوبٌ محلًّا على أنَّه تمييزٌ[3]، كما أفادَ تنكيرُ ﴿قَرۡيَةٍ﴾ العمومَ والشُّمول، وخاصَّةً لِسَبْقِها بـ ﴿وَكَم﴾ الَّتي أفادتِ التَّكثيرَ، كأنَّ بيانَ اللهِ قال: وكثيرٌ من القُرى أهلكناها، أوْ ما من قريةٍ إلَّا أهلكناها[4].

دَلالةُ قولِه تعالى: ﴿أَهۡلَكۡنَٰهَا﴾ بين الحقيقةِ والمجازِ:

الدَّلالةُ على إرادةِ القيامِ بالفعلِ وعلى عزمِ الفاعلِ على الفعل

فعلُ ﴿أَهۡلَكۡنَٰهَا﴾ يجوزُ أنْ يكونَ مُستعمَلًا في معنَى الإرادةِ بحصول مَدْلولِه، ويجوزُ أنْ يكونَ مُستعمَلًا في ظاهرِ معناه، واسْتعمالُ أهلِها بما أصابَ القُرَى وأهلَها، ولأنَّ لتعليق فعلِ ﴿أَهۡلَكۡنَٰهَا﴾ بالقريةِ دونَ أهلِها لقصدِ الإحاطةِ والشُّمول، غِنًى عن أدواتِ الشُّمول، فالسَّامعُ يعلمُ أنَّ المرادَ من القرية أهلُها؛ لأنَّ العبرةَ والموعظةَ إنَّما هي بما حصلَ لأهلِ القرية، ونظيرُها قولُه تعالى: ﴿وَسۡـَٔلِ ٱلۡقَرۡيَةَ ٱلَّتِي كُنَّا فِيهَا﴾ [يوسف: 82]، ونظيرُهما معًا قولُه تعالى: ﴿مَآ ءَامَنَتۡ قَبۡلَهُم مِّن قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَآۖ أَفَهُمۡ يُؤۡمِنُونَ ٦﴾ [الأنبياء: 6]، فكلُّ هذا من الإيجازِ البديع، والمعنَى على تقديرِ المضاف، وهو

(1) العكبريّ، الإملاء: 1/268.
(2) السّمين الحلبيّ، الدُّرُّ المصون: 5/247، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/321.
(3) السّمين الحلبيّ، الدُّرُّ المصون: 5/247، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/321.
(4) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/321، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/19.

تقديرُ معنى[1]. ويمكن أن يكونَ على سبيلِ المجازِ العقليِّ حيثُ أسندَ الإهلاكَ إلى القريةِ، وأرادَ أهلها لعلاقة الحاليَّة والمحليَّة.

بلاغةُ العطفِ بالفاءِ في قولِهِ تعالى: ﴿فَجَآءَهَا بَأۡسُنَا بَيَٰتًا﴾:

أفادَ العطفُ بالفاءِ التَّرتيبَ بين الفعلِ وسببِه

الفاءُ في قولِه تعالى: ﴿فَجَآءَهَا بَأۡسُنَا﴾ عاطفةٌ لجملتِها على جملةِ ﴿أَهۡلَكۡنَٰهَا﴾، وأصلُ العاطفةِ أن تُفيدَ ترتيبَ حصولِ معطوفِها بعد حصولِ المعطوفِ عليه، والإتْيانُ بحرفِ التَّعقيبِ (الفاء) للدَّلالةِ على عدمِ التَّريُّث، وحصولِ الفعلِ بعدَ سببِه. وقد يكونُ التَّرتيبُ في فاءِ العطفِ التَّرتيبَ الذِّكْريَّ، أي: ترتيبَ الإخبارِ بشيءٍ عن الإخبارِ بالمعطوفِ عليه، ففي الآية أخبرَ عن كيفيَّةِ إهلاكِهم بعد الخبرِ بالإهلاك، وهذا التَّرتيبُ هو في الغالب تفصيلٌ بعد إجمال، فيكونُ من عطفِ المفصَّلِ على المجمَل[2].

عِلَّةُ تقديمِ الإهلاك على مجيءِ البأسِ في الآيةِ الكريمةِ:

المرادُ إرادةُ الإهلاك لإفادةِ العزمِ على القيامِ بالفعل

كيف يتقدَّمُ ذكرُ الإهلاكِ على ذكرِ البأس، والإهلاك حاصلٌ بعدَه أو معه؟ والجوابُ: هو أن قولَه تعالى: ﴿أَهۡلَكۡنَٰهَا﴾، معناه: أَرَدْنا إهلاكَها كقولِه تعالى: ﴿إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾ [المائدة: 6]، أي: أردتُم القيامَ إلى الصَّلاة[3]، والتَّعبيرُ عن إرادةِ الفعلِ، بذكرِ الصِّيغةِ الَّتي تدلُّ على وقوعِ الفعلِ، يكونُ لإفادةِ عزمِ الفاعلِ على الفعل عزمًا لا

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 4/198، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/19، ومن المفسّرين من يرى عدم الحاجة إلى تقدير المضاف، كالزَّمخشري في الكشَّاف: 2/67، وحيث قال: "فإن قلتَ: هل يُقدَّرُ حذفُ المضاف الَّذي هو الأهل قبل قرية أو قبل الضَّمير في أهلكناها؟ قلتُ: إنَّما يقدَّر المضاف للحاجة ولا حاجة، فإنَّ القرية تُهلَك كما يُهلك أهلُها". وهذا مَنْحى السَّمين الحلبي، الدُّرُّ المصون: 5/248. والتَّعبيرُ بالقرية؛ لأنَّها أعظم في العقوبة إذا هلكَ البشر وقريتهم، وخاصَّة أنَّه بيَّن آخر الآية بقوله: ﴿أَوۡ هُمۡ﴾ أنَّ البشر داخلون في الهلاك، ينظر: ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/373.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/20. ولمَّا لم يقعِ الاتّفاقُ بين بعض المفسّرين، على موقع الفاء هنا، نتج عنه اختلافٌ في تكييف موقع الجملة بمفرداتها، فالفرَّاء لا يرى أنَّ الفاء تفيد التَّرتيب، ولذلك قال: "يُقال: إنَّما أتاها البأس قبل الإهلاك، فكيف تقدَّمَ الهلاك؟ قلت: لأنَّ الهلاكَ والبأس يقعان معًا، كما تقول: أعطيتني فأحسنت، فلم يكن الإحسان بعد الإعطاء ولا قبلَه، إنَّما وقعا معًا، فاستجيزَ ذلك، وإن شئت كان المعنَى: وكم من قريةٍ أهلكناها فكان مجيء البأس قبل الإهلاك، فأضمرت كان وإنَّما جاز ذلك على شبيه بهذا المعنى"، يُنظر: الفرّاء، معاني القرآن: 1/371.

(3) الزَّمخشري، الكشَّاف: 2/67، والعكبري، الإملاء: 1/268، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 14/199.

يتأخَّرُ عنه العمل، بحيث يُستعارُ اللَّفظُ الدَّالُّ على حصولِ المرادِ للإرادةِ لتشابههما[1].

بلاغةُ الاستعارةِ في الفعل (فجاءها):

في قوله تعالى ﴿فَجَآءَهَا بَأۡسُنَا بَيَٰتًا﴾، البَأسُ ما يحصُلُ به الألم، وأكثرُ إطلاقهِ على شدَّةِ الحساب، ولذلكَ سُمِّيتِ الحربُ البأساءَ، واسْتُعير المجيءُ لحدوثِ الشَّيءِ وحصولِه بعد أنْ لم يكن تشبيهًا لحُلولِ الشَّيءِ بوصولِ القادمِ من مكانٍ إلى مكانٍ بتنقُّلِ خطواتِه[2].

استُعيرَ البأسُ لبيان شدَّةِ الحرب واشتدادِ أوارها

المواقعُ النَّحويّةُ لـ ﴿بَيَٰتًا﴾ بناءً على معنَى البَأسِ:

قولُه تعالى: ﴿بَيَٰتًا﴾ مصدرٌ منصوبٌ على الحالِ من البَأس بمعنَى بائتين، أي: جاءهُمُ البأسُ مُبَيِّتًا لهم، أي: جاءهُمْ ليلًا[3]، ويُطلقُ البَيَاتُ على ضَرْبٍ من الغارةِ تقعُ ليلًا، فإن كانَ المرادُ من البأسِ الاسْتعارةَ لشدَّةِ الحرب - كما تقدَّم آنفًا - كان المرادُ من البياتِ حالةً من حالِ الحرب، هي أشدُّ الغَزْوِ[4]، ويجوزُ أن يكونَ ﴿بَيَٰتًا﴾ منصوبًا على النِّيابةِ عن ظرفِ الزَّمان، أي: في وقت البَيَات[5]، ويجوزُ أنْ يكون مفعولًا له[6].

تنوُّعُ الموقعِ الإعرابيِّ، يُفسحُ المجالَ لتنوُّعِ المعنى وتأويلاته

معنَى ﴿أَوۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَوۡ هُمۡ قَآئِلُونَ﴾:

لفظ ﴿أَوۡ﴾ هنا للتَّنويعِ وتفصيلِ الجُمَل، أي: لتقسيمِ القُرى المُهلَكَة، أي: جاءَ إلى بعضِهم بأسُنا وإهلاكُنا ليلًا، وإلى بعضِهم الآخرِ نهارًا، وإنَّما حذفوها لاسْتثقالهم نَسَقًا على نَسَق[7]، والمقصودُ من هذا التَّقسيمِ تهديدُ أهلِ مكَّةَ، حتَّى يكونوا على وَجَلٍ في كُلِّ وقتٍ

تنوُّعُ العقابِ وزمانِه، يدلُّ على مطلقِ قدرةِ اللهِ في التَّصرُّف

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/20 - 21.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/21.
(3) الزَّمخشريّ، الكشَّاف: 2/66، والعكبريّ، الإملاء: 1/268، والسَّمين الحلبيّ، الدُّرُّ المصون: 5/249.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/21.
(5) العكبريّ، الإملاء: 1/268، والسَّمين الحلبيّ، الدُّرُّ المصون: 5/250.
(6) الإملاء للعكبريّ: 1/268، والدُّرُّ المصون: 5/250.
(7) الفرَّاء، معاني القرآن: 1/372، والعكبري، الإملاء: 1/268، والسَّمين الحلبي، الدُّرُّ المصون: 5/250.

لا يَدْرونَ متَى يَحِلُّ بهمُ العذاب، بحيث لا يَأْمنونَ في وقتٍ ما[1].
ويمكنُ أنْ يكونَ معنَى (أو) للتَّخييرِ أوِ الإباحة، أي: إنَّ (أوْ) دخلتْ هنا على جهةِ تصرُّفِ الشَّيءِ ووقوعِه، إمَّا مرَّةً كذا، وإمَّا مرَّةً كذا، فهي في الخبر هَاهُنَا بمنزلة (أوْ) في الإباحة، تقولُ: جالسْ زيدًا أوْ عمرًا، أي: كلُّ واحدٍ منهما أهلٌ أنْ يُجالَس[2].

سرُّ العدولِ عنِ (الواو) إلى ﴿أَوْ﴾ في قوله ﴿بَيَٰتًا أَوۡ هُمۡ قَآئِلُونَ﴾:

العدولُ مفيدٌ عندَ الاستثقالِ وسنوحِ مبدأِ التَّخييرِ

حُذفت الواوُ من الحالِ المعطوفة على أختها، أي: فجاءها بأسُنا بَيَاتًا وهم قائلون، وأُبدلتْ بـ﴿أَوۡ هُمۡ قَآئِلُونَ﴾ وذلك استثقالٌ لاجتماع العاطِفَين، فإنَّ واوَ الحال حرفُ عطفٍ قدِ اسْتُعيرتْ للوَصْل، لا اكتفاءً بالضَّمير كما في: جاءني زيدٌ هو فارس، فإنَّه غيرُ فصيح، وإنَّما الفصيحُ أن يُقال: جاءني زيدٌ وهو فارسٌ[3]. و﴿أَوۡ﴾ هَاهُنَا أحسنُ من (الواو)؛ لأنَّ الواوَ تتضمَّنُ اجتماعَ الشَّيئَيْن، لو قلتَ: ضربتُ القومَ قيامًا وقعودًا؛ لَأَوْجَبَت الواوُ أنَّكَ ضربتَهم وهم على هاتَيْنِ الحالتَيْن، وإذا قلتَ: ضربتُهم قيامًا أوْ قعودًا، ولم تكنْ شاكًّا، فإنَّما المعنَى: أنَّكَ ضربتَهم مرَّةً على هذه الحال، ومرَّةً على هذه الحال، وهذا هو المرادُ هنا في هذه الآية[4].

نكتة التّعبير بالحالِ المفردِ ﴿بَيَٰتًا﴾ والحالِ الجملة ﴿هُمۡ قَآئِلُونَ﴾:

من البيانِ الفصيحِ العدولُ من صيغةٍ إلى أخرى للإبانة والتَّوضيحِ

قولُه تعالى: ﴿هُمۡ قَآئِلُونَ﴾ في محلِّ نصبٍ على الحالِ لعطفِها على ﴿بَيَٰتًا﴾، بـ﴿أَوۡ﴾[5]، كلتاهما واقعتان في موقع نصبٍ على الحال، وهذا العدولُ بسببِ وضعِ الجملة مع صاحبِ الحال، هل هي وصفٌ له، أو فيها زيادةٌ على وصفه؟ فكلا القولَيْن: ﴿بَيَٰتًا﴾ و﴿هُمۡ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/22.
(2) الزّجّاج، معاني القرآن: 2/318.
(3) الفرّاء، معاني القرآن: 1/372، والزَّمخشري، الكشَّاف: 2/67، والسَّمين الحلبي، الدُّرُّ المصون: 5/250، وأبو السُّعود، الإرشاد: 2/321.
(4) الزّجّاج، معاني القرآن: 2/318.
(5) العكبريّ، الإملاء: 1/268، والسَّمين الحلبيّ، الدُّرُّ المصون: 5/250.

﴿قَآئِلُونَ﴾ حال، لكنَّ الأوَّلَ مفردٌ والثَّاني جملة، وإذا كانت جملةُ الحالِ اسْميَّةً، وهي إمَّا أن تكونَ مُنحلَّةً إلى مفردَيْن: أحدُهما وَصْفُ صاحبِ الحال، فهذه تجرُّدُها عن الواو قبيحٌ؛ لأنَّ الأصلَ في فصيحِ الكلامِ أنْ يُجاءَ بالحالِ مفردةً؛ إذْ لا داعيَ للجملة، نحوَ: جاءني زيدٌ هو فارسٌ؛ إذ يعني أنْ تقولَ: فارسًا، وأمَّا إذا كانتِ الجملةُ اسميَّةً فيها زيادةٌ على وصفِ صاحبِ الحال، وفيها ضميرُ صاحبِ الحال، فخلُوُّها عن الواو حسنٌ[1]، ويجوزُ أنْ يكونَ حذفُ الواوِ بين الحالَيْنِ هنا، لدفعِ اسْتثقالِ توالي حَرْفَيْنِ من نوعٍ واحد[2].

سرُّ اخْتيارِ وقتَي البياتِ والقيلولةِ دونَ غيرِهما:

تحديدُ وقتي الرَّاحةِ لنزولِ العذابِ، أدْعى لتصوُّرِ عظمِ المفاجأةِ

خصَّ بيانُ اللهِ تعالى هذيْن الوقتيْنِ بالذِّكر: وقتَ البَيَاتِ، ووقتَ القَيْلولة؛ لأنَّهما وقتا الغَفْلةِ والدَّعة، فيكونُ نزولُ العذابِ فيهما أَشَدَّ وأفظع[3]، ولأنَّ التَّذكيرَ بالعذابِ فيهما يُنغِّصُ على المكذِّبينَ استمراء نعيم الوقْتَيْن، كأنَّ بيانَ اللهِ تعالى يقول: يا معشرَ أهلِ مكَّة كونوا على حذَرٍ أن نُصيبَكم مثلَ ما أصابهم، فإنَّكم وإيَّاهم سواءٌ[4].

معنَى الفاءِ في جملة ﴿فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَآ﴾:

الفاءُ للتَّرتيبِ الذِّكريِّ أوِ المعنويِّ، وكلاهما مُهمَّان في تجليَةِ المعنى

يصحُّ أن تكونَ الفاءُ هنا للتَّرتيبِ الذِّكريِّ تَبَعًا للفاءِ في قولِه: ﴿فَجَآءَهَا بَأْسُنَا﴾؛ لأنَّه من بقيَّةِ المذكور، ويصحُّ أن تكونَ للتَّرتيب المعنويِّ؛ لأنَّ دعواهُم ترتَّبتْ على مجيءِ البأس[5]، وفي كلا التَّأويلين فإنَّ الخطب جللٌ، والبأس حاصلٌ بقرارٍ قَدَرِيٍّ تدبِّره القدرةُ الإلهيَّة العليا، لتُحِلَّ العذاب بكلِّ من كذَّبَ بالكتاب، وما يسعُهُمْ حينها

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/22.
(2) الفرَّاء، معاني القرآن: 1/372، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 14/199، والسَّمين الحلبيّ، الدُّرُّ المصون: 5/250.
(3) الزَّمخشريّ، الكشَّاف: 2/67، وأبو السُّعود، الإرشاد: 2/331.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/23.
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/23.

إلَّا الاعترافُ بظُلْمِهم، والإقرار بما كانوا يقولون ويفعلون، ومعنى السِّياق: أنَّهم "لم يقدروا على ردِّ العَذاب، حِين جَاءَهُم العَذَاب، وَكَانَ حَاصِلُ أَمرهم أَن اعترفوا بالخيانة حِين لَا ينفعُ الِاعْتِراف"[1].

دَلالةُ التَّركيبِ في قولهِ تعالى: ﴿فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ﴾:

اعترافُ الكفرةِ ببطلانِ شركِهم وظُلمِهم دليلٌ على أنَّ الباطلَ كان زهوقًا

دلَّ قولُه تعالى: ﴿فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ﴾ على أنَّهم لم يُحصِّلُوا ممَّا كانوا يَنْتحِلونَه من مذهبِهم وطريقتِهم ومنهجِهم في ادِّعاء أنَّهم على حقٍّ في تعدُّدِ آلهتِهم، وأنَّ عبادتَهم لها حقٌّ - إلَّا الاعترافَ بأنَّهم مُبطِلونَ ظالمون[2].

بلاغةُ القَصْرِ في الاسْتثناءِ بعدَ النَّفي:

الاعترافُ بالاقترافِ سيِّدُ الأدلَّةِ مهما تكن التَّعِلَّةُ

جملة ﴿فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ﴾ ﴿إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ﴾ من قبيل القصر المكوّن من استثناء بعد نفي، وهو قصرٌ موصوفٍ على صفةٍ، وهو قصرٌ إضافيٌّ، فيه بيانُ أنَّ ذلكَ القولَ بعد نَفْيِ الدَّعوَى مقدِّمةُ التَّوبة؛ لأنَّ التَّوبةَ يتقدَّمُها الاعترافُ بالذَّنب، فهمُ اعْترفوا على نيَّةِ أن ينتقلوا من الاعترافِ إلى طلبِ العفو، فعُوجِلوا بالعذاب، فكانَ اعترافهم - وهو آخرُ قولهم في الدُّنيا - مقدِّمةً لشهادةِ ألسنتِهم عليهم في الحشر، وبيانًا لعنادِهم وكِبْرِهم اللَّذَيْنِ كانا يَصُدَّانِهم عن الإقلاعِ عن ظُلْمِهم[3].

دَلالةُ المصدرِ المؤوَّلِ في قوله ﴿إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ﴾:

المصدرُ وإنْ تأخَّر ذكرُه، فَالِاهْتِمَامُ بِهِ هُوَ المُعَوَّلُ عَلَيْهِ في السِّياقِ

المصدرُ المؤوَّل ﴿أَن قَالُوٓاْ﴾، هو اسْمُ كان الَّذي أُفْرِغ له عملُ كان، وهو المترَقَّبُ من السَّامعِ الاهتمامُ به ابتداءً، كأنَّ السَّامعَ يسأل: ماذا قالوا لَمَّا جاءهمُ البأس؟ فقيل له: كان قولُهم: ﴿إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ دعاءَهُمْ، فأُفيدَ القولُ، وزيدَ عليه بأنَّهم فرَّطوا في الدُّعاء[4].

(1) السّمعانّي، تفسير القرآن: 2/165.
(2) الزّجّاج، معاني القرآن: 2/318.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/24.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/25.

نكتةُ تقديمِ خبرِ كان ﴿دَعۡوَىٰهُمۡ﴾ على اسْمِها: ﴿أَن قَالُوٓاْ﴾:

المحصورُ أولى بالتَّقدُّمِ الرُّتْبِيِّ، وهو لا يكونُ إلَّا في آخرِ الجزأيْن

المصدرُ المؤوَّل ﴿أَن قَالُوٓاْ﴾، هو اسمُ ﴿كَانَ﴾، وكلُّ موضعٍ جاء فيه المصدرُ المؤوَّلُ من أنْ والفعلِ محصورًا بعد كان، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوۡمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخۡرِجُوهُم مِّن قَرۡيَتِكُمۡۖ﴾ [الأعراف: 82]، هو استعمالٌ مُلْتَزِمٌ غريبٌ، مُطَّرِدٌ في كلِّ ما وقعَ فيه جزءُ الإسنادِ، ذاتَيْن أُريدَ حَصْرُ تحقُّقِ أحدِهما في تحقُّق الآخر؛ لأنَّهما لما اتَّحدَا في الماصَدَق، واسْتويا في التَّعريف، كان المحصورُ أوْلى باعتبار التَّقدُّمِ الرُّتْبِيِّ، ويتعيَّنُ تأخيرُه في اللَّفظ؛ لأنَّ المحصورَ لا يكونُ إلَّا في آخرِ الجزأيْن[1].

معنَى (الدَّعوى) ونكتتُها في نوعِ الاسْتثناءِ بين الاتِّصالِ والانْقطاع:

دلالةُ الدَّعوى بمعنَى الدُّعاءِ، ودلالتُها بمعنى الادِّعاءِ

الدَّعْوَى: اسْمٌ بمعنَى الدُّعاء، كقولِه تعالى: ﴿دَعۡوَىٰهُمۡ فِيهَا سُبۡحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ﴾ [يونس: 10]، وهو كثيرٌ في القرآن، والدُّعاءُ هنا لرفعِ العذابِ، وذلكَ أنَّ شأنَ النَّاسِ إذا حلَّ بهم العذابُ أن يَجْأروا إلى اللّهِ بالاسْتغاثة، ومعنَى الحصرِ أنَّهم لم يستغيثوا باللّهِ، ولا توجَّهوا إليه بالدُّعاء، ولكنَّهم وضَعوا الاعْترافَ بالظُّلم موضعَ الاسْتغاثة، فلذلكَ اسْتثناهُ اللّهُ من الدَّعوى. ويجوزُ أن تكونَ الدَّعوَى بمعنى الادِّعاء، أي: انْقطعتْ كلُّ الدَّعاوَى الَّتي كانوا يَدَّعونَها من تحقيقِ تعدُّدِ الآلهةِ، وأنَّ دينَهم حقٌّ، فلم تبقَ لهم دَعْوى، بلِ اعْترفوا بأنَّهم مُبطِلون، فيكونُ الاسْتثناءُ مُنقطعًا؛ لأنَّ اعْترافَهم ليس بدَعْوَى[2]، والمقصودُ بها هَاهُنَا يَحْتَمِلُ الأمرَيْنِ جميعًا، ويَحتمِلُ أيضًا أنْ يكونَ بمعنَى الاعْتراف[3]، قال ابن الأنباريِّ: وللدَّعوى في الكلام موضعان: أحدهما: الادِّعاءُ. والثَّاني: القول والدُّعاء. قال الشَّاعر:

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/25.
(2) الزَّجّاج، معاني القرآن: 2/318 - 319، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/23.
(3) ابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 2/374، والسَّمين الحلبي، الدُّرُّ المصون: 5/254.

إِذَا مَذِلَتْ رِجْلِي دَعَوْتُكِ أَشْتَفِي *** بِدَعْوَاكِ مِنْ مَذْلٍ بِهَا فَيَهُونُ[1]

معنَى لفظِ ﴿إِذْ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَآ﴾:

ظرفُ الزَّمانِ مهمٌّ لتحديدِ حيثيَّاتِ الدِّلالةِ في وصفِ الحالةِ

﴿إِذْ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَآ﴾ بمعنَى (حين) وهي ظرفُ زمانٍ منصوبٌ بـ ﴿دَعْوَىٰهُمْ﴾[2]، والظَّرفيَّةُ مرتبطةٌ هنا بالدَّعوى عند نزول البأس، ومعنى دعواهم، أي: دعاؤهم، "قَالَ سيبويهِ: تَقول: اللَّهُمَّ اجْعَلنِي فِي دَعْوَى الْمُسلمين، أَي: فِي دُعَاء الْمُسلمين، فَقَوله: ﴿فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾، مَعْنَاهُ: لم يقدروا على ردِّ الْعَذَاب حِين جَاءَهُم الْعَذَاب، وَكَانَ حَاصِل أَمرهم أَن اعْتَرَفُوا بالخيانة"[3]، وهذا أمرٌ تحكمه ملابساتُ الأوانِ، ومقتضياتُ الظَّرفِ الَّذي تزامن مع وقوعِ العذاب، حيث لا مفرَّ منه، ولا مندوحةَ عنه.

بلاغةُ الاسْتعارةِ في قولِهِ تعالى: ﴿جَآءَهُم بَأْسُنَآ﴾:

مجيءُ البأسِ يستعارُ لحصولِ الشَّيءِ القادمِ، ووقوعِ آثارِهِ

كلمةُ البأسِ تُوحي بالشِّدَّةِ الَّتي يحصل بها، ومعها الألمُ والعذاب، ولذلكَ اسْتُعيرَ هنا في هذا المقامِ المجيء للبأس، بمعنى حدوث الشَّيءِ ووقوعِهِ، بعد أن لم يكن، وذلك تشبيهٌ لحلول الشَّيءِ بوصولِ القادمِ من مكانٍ إلى آخر، وكأنَّ لَهُ قدمين يتنقَّل بهما[4].

موقعُ الجملةِ الاعْتراضيَّة ﴿إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَآ﴾، وبلاغتُها:

نزولُ العذابِ متحقِّقٌ على الظَّالمينَ، ولو اعترفوا واسْتغاثوا

جاءتْ جملةُ: ﴿إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَآ﴾ اعتراضيَّةً بين قولِه تعالى: ﴿فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ﴾، وهم في حالِ دعائهم واسْتغاثتِهم ربَّهم، وقولِه تعالى: ﴿إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾، باعترافِهم بظُلمِهم، وتَندُّمِهم وتحسُّرِهم على كُفرِهم وشركِهم، وما بين الجُملتَيْن

(1) ابن الجوزي، زاد المسير: 2/102، والبيت غَيْرُ مَعْزُوٍّ إلى قائله، يُنظر: الأزهري، تهذيب اللغة: 14/435، وابن منظور، اللسان: (مذل)، والسّمين الحلبيّ، الدرّ المصون: 5/254، ومعنى (مذِلَتْ): خَدِرَت.

(2) السَّمين الحلبيّ، الدُّرُّ المصون: 5/255.

(3) السّمعانّي، تفسير القرآن: 2/165.

(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/21.

إيذانٌ بنُزولِ العذابِ عليهم، وأنَّ هذا العذابَ لا يَنزِلُ إلَّا على الظَّالمين[1].

غرضُ الخبرِ ﴿إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ في الآيةِ الكريمةِ:

مفادُ الخبرِ إنشاءُ الإقرارِ على أنفسِهم بالظُّلم

صيغةُ الخبرِ في قولِه تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾، تُومِئُ إلَى الإقْرَارِ المحضِ على أنفسِهم بالظُّلم، فهو خبرٌ مُستعمَلٌ في إنشاءِ الإقرار، وهو إقرارٌ مَشوبٌ بحسرةٍ وندامة[2]، والمعنى: "﴿إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾، أي: إلَّا اعترافَهم بظلمهم، فيما كانوا عليه، وشهادتَهم ببطلانه، تحسُّرًا عليه وندامةً، وطمعًا في الخلاص، وهيهاتَ ولاتَ حين نجاة"[3].

بلاغةُ المؤكِّداتِ في قوله تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾:

غرضُ التَّأكيدِ تحقُّقُ ظلمِ المشركين، والعبرةُ والعظةُ للمخاطَبين

جاءتِ المؤكِّداتُ لتحقيق الظُّلم للنَّفس، وإثباتِه وبيانِ اتِّعاظ المُخَاطَبين، فمِنَ الأوَّلِ بيانُ أنَّهم ظلموا أنفسَهم بالعنادِ وتكذيبِ الرُّسُل، والإعراضِ عن الآيات، وصمِّ الآذانِ عن الوعيدِ والوعظ، وذلك يجمعُه الإشراكُ باللّه، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ ١٣﴾ [لقمان: 13].ومن الثَّاني وهو بيانُ موضعِ الاعْتبارِ للمخاطَبين بقولِه تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۗ﴾ [الأعراف: 3]، أي: إنَّ اللّه لمْ يظلمْهم، كما قال تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ٣٣﴾ [النَّحل: 33] وهو يجمعُ الأمرَيْن معًا: تأكيدَ ظُلمهم لأنفُسِهم، وعدمَ ظُلمِ اللّهِ لهم، لِيَنْأَى المخاطَبونَ عن ظُلمِهم لأنفُسهم، فَيتَّعظُوا ويَعتبِرُوا[4].

بلاغةُ الخبرِ في قولِه تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾:

بلاغةُ اجتماعِ المعنيَيْنِ المجازيِّ الصَّريحِ والكِنائيِّ

الخبرُ في قولِه تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾، مُستعمَلٌ في معناه المجازيِّ الصَّريحِ، ومعناهُ الكِنائيِّ، والمعنَى المجازيُّ هنا يجتمعُ مع

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/212.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/23.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/212.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/24.

الكناية، باعْتبارِ كونِه مجازًا صريحًا. وهذا القولُ منهم يقولونَه لغيرِ مُخاطَبٍ مُعيَّنٍ، كشَأْنِ الكلام الَّذي يجري على اللِّسانِ عندَ الشَّدائد، كالوَيْلِ والثُّبُور، فيكونُ الكلامُ مُستعمَلًا في معناهُ المجازيِّ، أوْ يقولُه بعضُهم لبعضٍ بينَهم على معنَى التَّوبيخِ والتَّوقيفِ على الخطأ، وإنشاءِ النَّدامة، فيكونُ مُستعمَلًا في المعنَى المجازيِّ الصَّريح، والمعنَى الكِنائيِّ كما تقدَّمَ آنفًا[1].

نكتةُ حذفِ متعلَّقِ ﴿ظَٰلِمِينَ﴾ في قولهم: ﴿إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾:

إفادةُ اعترافِهم بشركِهم الَّذي هو أَقْبحُ الظُّلم

جَرَى قولُه تعالى: ﴿ظَٰلِمِينَ﴾ مَجْرَى التَّعليلِ لنزولِ البأسِ بهم، والاعْترافِ بأنَّهم جَديرونَ به لا مَحالة، فهم ظالمون بِشركهم، وأيُّ ظلم أَشْنعُ من الشِّرك! ولذلك أَطْلقوا على الشِّركِ حينئذٍ الاسْمَ المُشْعِرَ بِمَذَمَّتِه الَّذي لم يكونوا يُطلقونَه على دينهم من قبل[2].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(القَرْية) و(المدينة):

القَرْيةُ: اسْمٌ للموضعِ الَّذي يجتمعُ فيه النَّاس، وللنَّاسِ جميعًا، ويُستعمَلُ في كلِّ واحدٍ منهما، قالَ تعالى: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾، أي: أهلَ القَرْية[3]، ويمكنُ أنْ يُرادَ: القومُ أنفُسُهم، وجمعُ القرية: القُرَى، قالَ تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ﴾ [هود: 117] [4].

القَرْيةُ: النَّاسُ ومكانُ اجْتماعهم، وهي أجدرُ في الاستعمالِ في هذه الآيةِ

والأَصْلُ في كلمةِ (القرية) من قولِنا: قَرَيْتُ الماءَ في الحوض، أي: جمعتُه، وقَرَى الشَّيءَ في فمِه: جَمَعَه، وقُرْيانُ الماء: مُجتَمعُه[5].

وأمَّا المدينةُ: ففَعيلةٌ عندَ قوم، وجَمْعُها مُدُنٌ، ومَدَائنُ، ومُدْنٌ، ومُدُنٌ، وقد مَدَنْتُ مَدينَةً، وناسٌ يجعلونَ الميمَ زائدة، قالَ تعالى:

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/25.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/25.
(3) الرّاغب، المفردات: (قرى).
(4) المبرِّد، ما اتَّفق لفظُه واخْتلفَ معناه، ص: 77.
(5) الرّاغب، المفردات: (قرى)، والفيروزابادي، القاموس المحيط: (قرا).

﴿وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ مَرَدُواْ عَلَى ٱلنِّفَاقِ﴾ [101]، ومَدَنَ بالمكان: أقامَ به، وقيل: هي من دِينَتْ، أي: مُلِكتْ[1]، ومن بيانِ الفرقِ بينَ الكلمتَيْن يتَّضحُ أنَّ كلمة (القرية) أوْلى بالسِّياق من كلمة (المدينة) حيث المرادُ - كما سبق - أهلُ القَرْية، والقَرْيةُ نفسُها.

(البأس) و(العقاب) و(العذاب):

البأس: الشِّدَّةُ في الحرب، ويجري على العُدَّة من السِّلاح وغيرِها، ومنه قولُه تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ [الحديد: 25]، ويُستعمَلُ في موضعِ الخَوْف مجازًا، فيُقالُ: لا بأسَ عليك، أي: لا خوفَ عليك، ولا بأسَ في هذا الفعل، أي: لا كراهةَ فيه، والبأسُ: العذاب[2]. والعقابُ: يُنبِئُ عن اسْتحقاقٍ، وسُمِّيَ بذلك؛ لأنَّ الفاعلَ يستحقُّه عقيبَ فعله، ويجوزُ أنْ يكونَ العذابُ مُستحَقًّا وغيرَ مُستحَقٍّ، وأصلُ العقاب: التُّلُوُّ، وهو تأديةُ الأوَّلِ إلى الثَّاني، يُقال: عَقِبَ الثَّاني الأوَّلَ؛ إذا تلاه، وعَقِبَ اللَّيْلُ النَّهارَ، واللَّيلُ والنَّهارُ عَقيبان، وأَعْقَبَه بالغِبْطةِ حَسْرةً إذا أبدَله بها، وفي التَّنزيل: ﴿وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ [النمل: 10]. والعقابُ يقتضي بظاهرِه الجزاءَ على فعلِ المعاقَب؛ لأنَّه من التَّعقيب والمعاقَبة[3]، والعذابُ ليس كذلك، إذْ يُقال للظَّالمِ المُبتَدِي بالظُّلم: إنَّه معذَّب، وإنْ قيلَ: مُعاقَب، فهو على سبيلِ المجازِ لا الحقيقة، فبينَهما عمومٌ وخُصوص[4]. والعذابُ: هو الإيجاعُ الشَّديد، وقد عذَّبَه تعذيبًا: أكثرَ حَبْسَه في العذاب، قالَ تعالى: ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ [النَّمل: 21]، وأصلُ العذاب: هو من قولِهم: عَذَبَ الرَّجُلُ: إذا ترك المأكلَ والنَّوم، فالتَّعذيبُ في الأصلِ هو حَمْلُ الإنسانِ أنْ يُعذَّب، أي: يجوعَ ويَسْهَر. وقيل: أَصْلُه من الضَّرْب،

البأسُ: الشِّدَّةُ مع العذابِ، ويناسبُ معنَى الأخذِ الشَّديدِ الَّذي وردَ في السِّياق

(1) الرّاغب، المفردات، والرّازي، مختار الصِّحاح: (مدن).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: 1/328، والعسكريّ، الفروق، ص: 89.
(3) العسكريّ، الفروق، ص: 364، والرَّازيّ، مختار الصِّحاح: (عقِبَ).
(4) العسكريّ، الفروق، ص: 365.

وقيل: عذَّبْتُه: كدَّرْتُ عيشَه[1]. والَّذي يظهرُ جليًّا من بيان الفروق بين تلكُمُ الكلمات أنَّ (البأْسَ) أشدُّها وطئًا، وأقومُها قيلًا، فيما يناسبُ معنَى الأخذِ الشَّديدِ، والإهلاكِ الَّذي وردَ في السِّياق.

(بَيَاتًا) و(قَائِلُونَ):

البَيْتُ: مأوى الإنسانِ باللَّيل، ومعنَى باتَ: أظلَّهُ المَبيتُ، وأَجَنَّهُ اللَّيل، سواءٌ نامَ أم لم ينَم، يدُلُّ على ذلك قولُه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمۡ سُجَّدٗا وَقِيَٰمٗا ٦٤﴾ [الفرقان: 64][2]. وأمَّا القَيلولة: فهي النَّوْمُ في الظَّهيرة، أي: في نصفِ النَّهار، ولذلكَ كانَ لكلِّ كلمةٍ ما تختصُّ به من وقت، فالبياتُ يكونُ في اللَّيل وهو وقتُ الرَّاحةِ والدَّعَة، والقَيْلولةُ تختصُّ بالنَّومِ في مُنتَصفِ النَّهار، وهو وقتُ الرَّاحةِ كذلك، فلا كلمةُ اللَّيلِ تُجْزِئُ في ذِكْرِها عن كلمةِ ﴿بَيَٰتًا﴾، ولا كلمةُ النَّهار تُجزىء عن كلمةِ ﴿قَآئِلُونَ﴾. فاخْتيارُ السِّياق لِتَيْنِكَ الكلمتَيْن أوْلى وأوْفَى به من غيرِهما من الكلمات.

البياتُ: الرَّاحةُ في اللَّيل، والقيلولةُ: النَّوم والرَّاحةُ في نصفِ النَّهار

(1) الرّاغب، المفردات، وابن منظور، اللِّسان: (عذب).

(2) الجرجاني، التَّعريفات، ص: 318، والكفويّ، الكلِّيات: 4/368، ولامنس، الفرائد، ص: 34.

﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٦ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ ۖ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ۝٧﴾ [الأعراف: 6 - 7]

مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِما قَبْلَهُما:

لَمَّا ذكر الاتِّباعَ والعقابَ؛ أبان أنَّه يحاسبُ الرُّسل وأقوامهم بعلمٍ وإحاطةٍ

لَمَّا أمرَ اللهُ ﷻ الرُّسُلَ في الآيةِ الآنفة بالتَّبليغِ والبيانِ، وأمرَ الأُمَّةَ بالاهتداءِ والاتِّباع، وأزجى التَّهديدَ على تركِ القَبول والطَّاعةِ؛ ذكرَ نزولَ العذابِ في الدُّنيا، وأتبعَه بأنَّه تعالى يسألُ الكلَّ عن أعمالِهم يوم القيامة، وعن سبَبِ ظُلمِهم وتقصيرِهم على جهة التَّقريعِ والتَّوبيخِ للعصاةِ والمكذِّبين، وسيسألُ الرُّسُلَ المعصومين، فيضاعفُ لهم الإكرامَ، لبراءتهم من مُوجباتِ التَّقصير، كما يُضاعفُ الخِزْيَ والإهانةَ للكفَّارِ بمَا اقترفوه من كفرٍ وآثام، حيث يبيِّنُ لهم ما أَعْلنوهُ وأسرُّوه من أعمالِهم الظَّاهرةِ والباطنة؛ لأنَّه تعالى ما كان غائبًا عن أحوالهم، بل كان عَالِمًا بها، وبتفصيلاتِها كلِّها، وهو الَّذي لا تخفى عَلَيهِ خافية[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَلَنَقُصَّنَّ﴾: القَصُّ: تَتَبُّعُ الأَثَرِ، يُقالُ: قَصَصْتُ أثرَه، والقصَصُ: الأَثَرُ، قالَ تعالى: ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ﴾ [القصَص: 11]، و"القِصَّةُ الخبرُ، والجمعُ: قِصَصٌ، وقد قصَّ عَلَيَّ خَبَرَهُ يَقُصُّهُ قَصًّا وقَصَصًا، وتقصَّصتُ كلامَه حفظتُه، وتقصَّصتُ الخبرَ تتبَّعتُهُ"[2].

وقصَّ الحديث واقتصَّه، أي: رواهُ على جهتِه، ويستعملُ استعمالَ المصدرِ في اقتصاصِ الحديث والأثر جميعًا[3]والقَصَصُ: الأخبارُ

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 14/200 - 201، والبقاعي، نظم الدُّرر: 7/358. (بتصرّف).
(2) ابن سيده، المخصّص: (قصّ).
(3) النّسفيّ، طلبة الطّلبة: (قصص).

الْمُتَتَبَّعة، قالَ تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ﴾ [آل عمران: 62][1]. وبهذا المعنَى - وهو الإخبار - قولُه تعالى في الآية معنا: ﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ﴾، حيث يُنْطَقُ لهم كتابُ أعمالِهم بالحقِّ[2].

2) ﴿غَآئِبِينَ﴾: الغَيْبُ: كلُّ ما استَتَر عنك، يقال: اطلبهُ في ذلك الغيبِ من الأرضِ، أي: المُطْمَئِنِّ منها، والغَيابةُ: الموضعُ الَّذي يُستَتَرُ فيه[3]. (والغيب) ما غاب عن العيونِ، وإن كان محصَّلًا في القلوب[4]، وهو أيضًا مصدرُ غابتِ الشَّمسُ وغيرُها، إذا اسْتَتَرتْ عن العَيْن. واسْتُعمِلَ في كلِّ غائبٍ عن الحاسَّة، وعمَّا يَغيبُ عن علمِ الإنسانِ بمعنى الغائبِ، قالَ تعالى: ﴿وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ۝٧٥﴾ [النَّمل: 75][5]، ومنه قولُه تعالى في الآيةِ معنا: ﴿وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ﴾، أي: عنِ الرُّسُلِ فيما بلَّغوا، والأُمَمِ فيما أجابوا[6].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

يُقسمُ اللهُ ﷻ، فيقول: لَنسألنَّ الأُمَمَ الَّذين أرسلنا إليهمُ المرسَلين عمَّا أجابوا رسُلَهم، ولَنسألنَّ المرسَلين عن تَبْليغهم لرسالاتِنا، وعمَّا أجابتْهم به أُمَمُهم، كما قالَ تعالى: ﴿۞يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ﴾ [المائدة: 109]، ولَنُخبرنَّ الخلقَ كلَّهم ما عَمِلوا بعلمٍ منَّا لأعمالِهم، لا يغيبُ عنَّا شيءٌ من أعمالِهم وأحوالِهم في أيِّ وقتٍ من الأوقات[7].

الحسابُ سَيَلْحَقُ الرُّسلَ وأقوامَهم، فيخبرونَ بالدَّقائقِ من العليمِ بالحقائقِ

(1) الرّاغب، المفردات، وابن منظور، اللِّسان: (قصص).
(2) قاله ابن عبَّاس ﵄، يُنظر: ابن جرير، جامع البيان: 8/122.
(3) ابن دريد، جمهرة اللّغة: 1/371.
(4) المُطَرِّزيُّ، المغرب: (غيب).
(5) الرّاغب، المفردات: (غيب).
(6) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 2/187، والشَّوكاني، فتح القدير: 2/266.
(7) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 2/187، والسَّعدي، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 237.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

معنَى الفاءِ في قولِهِ تعالى: ﴿فَلَنَسۡـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرۡسِلَ إِلَيۡهِمۡ﴾:

الفاءُ عاطفةٌ

الفاءُ في قولِه تعالى: ﴿فَلَنَسۡـَٔلَنَّ﴾ عاطفةٌ، وهي لترتيبِ الأحوالِ الأُخرويَّةِ على الأحوالِ الدُّنيويَّة[1]، وهو بيانٌ لعذابِهم الأخرويِّ إثرَ بيانِ عذابِهم الدُّنيويِّ، وقد تعرَّضَ السِّياقُ، لبيان ما ينتظر المُكَلَّفينَ جميعًا، لا فرق في السُّؤالِ بين مُرْسَلٍ وَمُرْسَلٍ إليْهِ، وغَايَةُ ذَلِكَ تَهْوِيلُ الحال الَّتي سوف يؤولون إليها، والفاءُ رتَّبت ذلك النَّوْعَ مِنَ المَآلِ المرتبطِ بَعْضُهُ ببعضٍ، والمترتِّبِ بَعْضُهُ على بعضٍ، وقد ظهر أنَّ ترتُّب الأحوالِ الأخرويّةِ على الدُّنيويَّةِ، كان ذِكرًا، حسَبَ ترتُّبِها عليها وجودًا، ومفاد السِّياق قوله: (لنسألنَّ الأممَ قاطبةً، رسولًا ومرسلًا إليهم، قائلين لهم جميعًا: ماذا أجبتُم المرسلين؟)[2].

دلالةُ المؤكِّداتِ في قوله تعالى: ﴿فَلَنَسۡـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرۡسِلَ إِلَيۡهِمۡ﴾:

غرضُ توالي المؤكِّدات إزالةُ الشَّكِّ، وتجسيدُ معاني الوعدِ والوعيدِ

ضمَّ قولُهُ تعالى: ﴿فَلَنَسۡـَٔلَنَّ﴾ لامَ القَسَم - وهي علامةٌ على أنَّه كلامٌ أُنُفٌ، انتقالٌ من خَبرٍ إلى خبر، ومن قِصَّةٍ إلى قصَّة - ونونَ التَّوكيدِ الثَّقيلة، وكلاهما تأكيدٌ للخبر، ولإزالةِ الشَّكِّ في ذلك[3]، وأفادت معانيَ الوعدِ للمؤمنين والمصلحين، ومعاني الوعيدِ للعصاةِ الَّذين لا يستجيبون لدعوةِ الرُّسلِ.

غرضُ التَّعبيرِ بالاسمِ الموصولِ في ﴿ٱلَّذِينَ أُرۡسِلَ إِلَيۡهِمۡ﴾:

الاسمُ الموصولُ ملمحٌ أسلوبيٌّ قويٌّ في التَّشويقِ والتَّفخيمِ

عبَّر بيانُ اللهِ عن أُمَمِ الرُّسُلِ بالموصولِ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ لما فيه من معاني الإبهامِ ثمَّ الإعلامِ، وهو أسلوبٌ قويٌّ في التَّشويقِ، وقد يفيد معاني التَّعظيم والتَّفخيم، وقد يفيد معاني التَّحقير والذَّمِّ؛ وهذا بحسب ما تقتضيه أحوالُ المقصودين، ولما تدلُّ عليه الصِّلةُ من

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/321.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/212.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/26.

التَّعليلِ، فإنَّ فائدةَ الإرسالِ هي إجابةُ الرُّسُل، فلا جَرَمَ أنْ يُسألَ عن ذلكَ، المرسَلُ إليهم[1].

نكتةُ مجيءِ جملةِ صلةِ الموصولِ فعليَّة ﴿ٱلَّذِينَ أُرۡسِلَ إِلَيۡهِمۡ﴾:

جاءتْ جملةُ الصِّلةِ فعليَّةً ﴿أُرۡسِلَ إِلَيۡهِمۡ﴾ لتحقُّقِ أمرَيْن: الأوَّلُ: وجودُ فعلِ الإرسال واستمرارُه، فإنَّ اللّٰه قد أرسلَ رسُلًا إلى جميعِ الأُممِ على مرِّ الدُّهورِ وكرِّ العصور. والثَّاني: أنَّه لا بدَّ من سؤالِ المرسَلِ إليهم في يومٍ تظهرُ فيه السَّرائرُ وتنكشف الضَّمائر، وتُعرَضُ الأفعالُ والأقوالُ ويُحاسَبُ عليها أصحابُها[2].

إفادةُ تحقُّقِ الإرسالِ، وحَتْمِيَّةِ السُّؤالِ بأمرِ اللهِ ذي الجلالِ

نكتةُ بناءِ الفعلِ ﴿أُرۡسِلَ إِلَيۡهِمۡ﴾ على ما لم يُسَمَّ فاعلُه:

ورَدَ الفعلُ: ﴿أُرۡسِلَ إِلَيۡهِمۡ﴾ بصيغةِ المبني للمفعول؛ لأنَّ المُرْسَلَ معلومٌ مقرَّرٌ، وإنَّما لينشغلوا بفعل الإرسال عن غيره، وكذلك لفكِّ القيدِ عن تعيينِ الرَّسولِ؛ إذِ المَلامةُ على تكذيبِ الرَّسولِ، لا بقيدِ كونِه معيَّنًا؛ بل هو أيُّ رسول، هل امتثلَ قومُه أوامرَ دَعْوتِه وأَحْجَموا عن زواجرها، أم لا؟[3].

صيغةُ البناءِ للمفعول؛ لأنَّ المُرْسَلَ معلومٌ، والصِّيغةُ تصلحُ للتَّعميمِ

فائدةُ تقديمِ ذكرِ ﴿أُرۡسِلَ إِلَيۡهِمۡ﴾ على ﴿ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾:

لَمَّا كان المقصودُ الأهمُّ من السُّؤالِ هو الأُمم، لإقامةِ الحُجَّة عليهم في اسْتحقاقِ العذاب، قُدِّم ذكرُهم على ذكرِ الرُّسُل، ولِمَا تدلُّ عليه صِلةُ (الَّذي)، وصِلَةُ (الـ) من أنَّ المسؤولَ عنه، هو ما يتعلَّقُ بأمرِ الرِّسالة، وهو سؤالُ الفريقَيْن عن وقوعِ التَّبليغ[4].

المقصودُ في التَّقديمِ، هو أمرُ الرِّسالةِ وتبليغُها

نكتةُ إخفاءِ جوابِ الرُّسُلِ وأُمَمِهم:

لَمَّا جاءَ بيانُ اللّٰهِ تعالى بالتَّعبير بـ﴿ٱلَّذِينَ أُرۡسِلَ إِلَيۡهِمۡ﴾ وبـ﴿ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ لم يحتجِ السِّياقُ إلى ذِكْرِ جوابِ المسؤولينَ، لظهورِ

الغايةُ من السُّؤالِ إظهارُ التَّبليغِ وقد تحقَّقت

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/27.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 7/358.
(3) البقاعي، نظم الدُّرر: 7/358.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/27.

المرادِ الأهمِّ، وهو إثباتُ التَّبليغِ والبلاغ في طَرَفَيْه: المرسَلين والمرسَل إليهم[1].

نكتةُ السُّؤالِ لـ ﴿ٱلَّذِينَ أُرۡسِلَ إِلَيۡهِمۡ﴾ مع علمِ اللهِ بالجوابِ:

غرضُ السُّؤالِ تَوْبِيخُ المُشْرِكِينَ وَإِهَانَتُهُمْ

هذا السُّؤالُ ليس سؤالَ اسْتعلامٍ، وإنَّما هو سؤالُ توبيخٍ وتَقْريعٍ للكَفَرةِ والمشركين، أو أنَّه يقع في موقف العقاب، لا في موقفِ الحساب[2]، وحينئذٍ سوف يكون تجلِّي الوعيد بما حذَّرَ اللّه منه البشر، واقِعًا ما له من دافعٍ، ممَّا سَيُسْفِرُ عنه موقفُ القيامة الأعظم من عرضٍ للأعمال، وعقابٍ على المخالفات في الأقوال والأفعال، وهو ما سوفَ يُشاهَدُ عينَ يقين، بعدما كان يُعْرَفُ علمَ يقينٍ، ممَّا توعَّدَ به ربُّ العالمين العاصين، ووعد بعكسه التُّقاة الصَّالحين، ومَنْ أَنْذَرَ، فَقَدْ أَعْذَرَ.

دَلالةُ العطفِ في قوله تعالى ﴿وَلَنَسۡـَٔلَنَّ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾:

تغايرُ سؤالِ المرسَلين عن سؤالِ المرسَلِ إليهم لاختلافِ المقامِ والمهامِّ

دلَّ العطفُ في قولِه تعالى: ﴿وَلَنَسۡـَٔلَنَّ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ على إيجابِ السُّؤالِ على المرسَلين، وتَغَايُرِ سؤالِهم عن سؤالِ الأُمم، فإنَّ سؤالَهم عن وقوعِ التَّبليغِ من جهتِهم، وعمَّا أُجيبوا به من أقوامِهم، وهل كانَ في صدورِهم حَرَجٌ ممَّا أرسَلْناهم به[3]، فهو سوف" يسأل النَّبيِّين عما بَلَّغُوا، وهذا هو سُؤَالُ التَّقرير، فإنَّ اللّه سبحانه قد أَحَاطَ علمًا بكلِّ ذلك قبل السُّؤال، فأمَّا الأَنْبِيَاءُ والمؤمنون فيُعقبهم جوابهم رحمة وكرامة، وأمَّا الكفَّارُ ومن نفذ عليه الوَعِيد من العُصَاةِ؛ فيُعقبهم جوابهم عَذَابًا وتوبيخًا"[4].

بلاغةُ المؤكِّداتِ في قوله: ﴿وَلَنَسۡـَٔلَنَّ﴾:

جاءتِ المؤكِّداتُ في قولِه تعالى: ﴿وَلَنَسۡـَٔلَنَّ﴾: لامُ القَسَمِ - وهي

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/27.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 14/201، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/321.
(3) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 7/358.
(4) الثّعالبيّ، الجواهر الحسان: 7/358.

علامةٌ على الاسْتئنافِ والانْتقالِ من خبرٍ إلى خبر - ونونُ التَّوكيد، وكلتاهما تدُلُّ على تحقُّقِ وقوعِ الخبر، وإزالةِ أيِّ شكٍّ قد يتطرَّقُ إليه. وهي كذلك تدلُّ على عظمةِ السَّائل، وهو اللهُ ﷻ، فـ ﴿وَلَنَسْـَٔلَنَّ﴾ أي: بعظَمتنا[1]. ودلَّت هذه المؤكِّداتُ على أنَّ قوَّةَ السُّؤالِ ليست حِكرًا على الأقوامِ المُرسل إليهم، بل هي أيضًا متحقِّقة في حقِّ الرُّسل، فكلٌّ مسؤولٌ عن مهمَّته، فأفادَ سؤالُ الرُّسُلِ براءتَهم من أيِّ فُتورٍ في التَّبليغ، وأنَّ كاملَ التَّقصيرِ من جانبِ الأُمم.

أدَّتِ المؤكِّداتُ تحقُّقَ وقوعِ الخبرِ، وإزالةَ الشَّكِّ عنهُ

سرُّ العدولِ عن الفعليَّةِ ﴿أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ﴾ إلى الاسْمِ ﴿ٱلْمُرْسَلِينَ﴾:

أفادَتْ كلمةُ ﴿ٱلْمُرْسَلِينَ﴾، وهي اسْمٌ ومُحَلَّى بـ(الـ) الاستغراقيَّة الدلالةَ على ثبات صبغةِ الرِّسالةِ وديمومتِها لمن حمَّلهمُ اللهُ مسؤوليَّةَ تبليغِ رسالتِه تعالى لأقوامِهم، فالمُعَوَّل عليه أمرُ الرِّسالةِ، ووقوعُ تبليغِها وإثباتِها للنَّاس، وهذه المعاني لا تفيدُها الجملةُ الفعليَّةُ على وجهِ الخصوص[2].

إيثارُ الاسْمِ مفيدٌ، لِمَا يتميَّزُ بهِ من خاصيَّةِ الوقوعِ والإثباتِ

معنَى الفاءِ في قوله تعالى: ﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ﴾:

الفاءُ في قولِه تعالى: ﴿فَلَنَقُصَّنَّ﴾ للتَّفريعِ والتَّرتيبِ على قولِه: ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ﴾، أي: لَنَسألنَّهم ثمَّ نخبرُهم بتفصيلِ ما أَجْملَه جوابُهم، أي: فَلَنَقُصَّنَّ عليهم تفاصيلَ أحوالِهم، فعلمُنا غنيٌّ عن جوابِهم، ولكنَّ السُّؤال لغَرضٍ آخر[3]. "قال ابن عبَّاسٍ في آية: ﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ﴾: يوضع الكتابُ يوم القيامة، فيتكلَّم بما كان يعملون، وَما كُنَّا غائِبِينَ عنهم في وقتٍ أو حال، بل كنَّا معهم نسمع قولهم، ونبصر فعلَهم، ونعلم ما يُسِرُّون وما يُعلِنُون، ونخبرُ العبادَ يوم القيامة، بما قالوا وبما عملوا من قليلٍ وكثيرٍ وجليلٍ وحقيرٍ"[4].

اللهُ تعالى شهيدٌ على كلِّ شيء، ولا يخفى عليه شيءٌ

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 7/358، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/26.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/27.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/27.
(4) وهبة الزّحيلّي، التّفسير المنير: 8/144.

بلاغةُ المؤكِّداتِ في قولِهِ تعالى: ﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ﴾:

ساقَ بيانُ اللهِ تعالى المؤكِّداتِ في قولِه: ﴿فَلَنَقُصَّنَّ﴾: لامَ القَسَم، ونونَ التَّوكيد، دَلالةً على تحقُّق وقوعِ الخبر، وزيادةً في تأكيدِه لإزالةِ أيِّ شكٍّ قد يَعْتورُه، أي: ﴿فَلَنَقُصَّنَّ﴾ بما لَنا من صفاتِ العظَمةِ المستلزِمةِ لكلِّ كمال[1].

غرضُ السِّياقِ تحقُّقُ وقوعِ الخبر، وعظمةُ المُخْبِرِ ﷻ

سرُّ تقديمِ شِبهِ الجُملةِ ﴿عَلَيْهِم﴾ في قولِه: ﴿عَلَيْهِم بِعِلْمٍ﴾:

تقدَّمَ قولُه: ﴿عَلَيْهِم﴾ على ﴿بِعِلْمٍ﴾ وحقُّه التَّأخيرُ؛ لزيادةِ الاهتمام بهم، وبالخَبرِ المقصوصِ عليهم؛ إذِ المرسَلون وأممُهم هم المعنِيُّونَ بهذا الخبرِ، بل هُمُ المعنِيُّونَ في السِّياق كلِّه في سؤالِهم والقَصِّ عليهم بما يفيد إثباتَ البلاغِ والتَّبليغ[2].

غرضُ أسلوبِ التَّقديمِ الاهتمامُ بهم، وإثباتُ التَّبليغ لهم

بلاغةُ الإضْمارِ بعدَ الإظهارِ في قوله: ﴿عَلَيْهِم﴾:

جاءَ الضَّميرُ في: ﴿عَلَيْهِم﴾ تعبيرًا عن: (المرسَلِ إليهم)، و﴿ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ لغايتَيْن جليلتَيْن: الأولى: أن يكونَ مرجعُ الضَّمير المذكور آنفًا - دائمَ الحضور في الذِّهن، وهم المُعوَّلُ عليهم بالسِّياقِ من حيثُ السُّؤالُ ومن حيث القصُّ، وإن لم يُذكر إيجازًا. والثَّانيةُ: أنْ يكونَ مَا بعدَ الضَّميرِ تَمْكينًا في نفسِ السَّامع، وتَشْويقًا إلى مَعْرِفَتِه، وهو ما يقصُّه اللهُ تعالى عليهم ﴿بِعِلْمٍ﴾، وأنَّه تعالى لا يغيبُ عن علمِه شيءٌ[3] ﷻ.

بلاغةُ الإضمارِ ودلالتُها على الإيجازِ والتَّشويقِ إلى المتأخِّرِ

الموقعُ النَّحويُّ لقوله: ﴿بِعِلْمٍ﴾ ومعنَى الباء فيها:

قولُه تعالى: ﴿بِعِلْمٍ﴾ في موضعِ الحالِ من الفاعل[4]، والباءُ فيها للمصاحَبة، أي: لَنَقُصَّنَّ على الرُّسُلِ والمرسَلِ إليهم حالَ كونِنا مُلْتَبِسينَ بالعلم[5].

دورُ الحالِ، وباءُ المصاحبةِ في السِّياقِ

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 7/358.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/321 - 322، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/27.
(3) أحمد الهاشميّ، جواهر البلاغة في المعاني والبيان، ص: 110.
(4) العكبريّ، الإملاء: 1/268.
(5) السَّمين الحلبيّ، الدُّرُّ المصون: 5/255.

نكتةُ تنكيرِ لفظ ﴿بِعِلۡمٖ﴾ وتنوينه:

أثرُ التَّنكيرِ في التَّفصيلِ، والتَّنوينِ في التَّعظيمِ

دلَّ تنكيرُ ﴿بِعِلۡمٖ﴾ على إرادةِ التَّفصيلِ في قوله: ﴿فَلَنَقُصَّنَّ﴾ أي: تفاصيلَ أحوالِهم بعلمِنا، أي: علم عظيم، فإنَّ تنوينَ ﴿بِعِلۡمٖ﴾ للتَّعظيمِ، وكمالُ العلمِ إنَّما يظهرُ في العلمِ بالأمورِ الكثيرة[1].

دَلالةُ الواوِ والتَّذييلِ في قولِهِ تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ﴾:

العطفُ اشتراكٌ في المعنى، والتَّذييلُ استخلاصٌ في آخرِ السِّياق

الواوُ عطَفَتْ ﴿وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ﴾ على ﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيۡهِم بِعِلۡمٖ﴾، وجملتُها في موقعِ التَّذييلِ المقرِّرِ لما قبلَها[2]، وقد تكونُ حاليَّةً على معنى: فلنقصَّنَّ عليهم والحال أنَّنا ما كنَّا غائبين.

نكتةُ دخولِ (كان) في قولِهِ تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ﴾:

(كانَ) في حقِّ اللهِ تعالى تفيدُ الدَّوامَ وعدمَ الانْقطاعِ

(كان) تقتضي في حقِّ اللهِ الدَّيمومةَ، وعدمَ الانْقطاع، فهي غيرُ مجرَّدةٍ عن التَّقيُّدِ بزمانٍ ومكانٍ، وتدلُّ على تَحَقُّقِ الأمرِ الحاضرِ، وكأنَّه مضى، فهو لتأكيدِ البقاءِ وتحقُّقِ اسْتمرارِه، فـ(كانَ) أفادتْ هنا في سياقِ الآية: أنَّه لا يعزُبُ عن علمِ اللهِ شيءٌ، يغيبُ عنه[3].

دَلالةُ التَّركيبِ ﴿وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ﴾:

نفى النَّقصَ والغيابَ عنِ اللهِ وأثبتَهُ لغيرِهِ

تقدَّمَ في هذا التَّركيبِ النَّفي على المسندِ إليه، والمسندِ الفعليِّ، وهذا التَّركيبُ يفيد التَّخصيص، حيثُ ينفي عن الذَّاتِ العليَّة هذا الغيابَ، ويثبتهُ لغيرِه، فالنَّقص شأنٌ كائنٌ للبشرِ، وليس لخالقهم، فاللهُ لا يوصف بنقصٍ، ولا عجز، ولا حاجةٍ إلى سِوَاهُ، فهو عَلَمٌ على واجبِ الوجودِ بكلِّ معاني الكمالِ فيه.

بلاغةُ التَّعبيرِ بنونِ العظمةِ في أفعالِ الآيةِ:

مقتَضَى الكمالِ الإلهيِّ أن يحتاجَ إلَيْهِ كلُّ شيءٍ، ولا يحتاجَ إلى شيءٍ

أفادَ وجودُ نونِ العَظَمةِ الَّذي تحلَّتْ به الأفعالُ في الآيةِ الكريمة: ﴿فَلَنَسۡـَٔلَنَّ﴾، و﴿وَلَنَسۡـَٔلَنَّ﴾، و﴿فَلَنَقُصَّنَّ﴾، و﴿وَمَا كُنَّا﴾، مقتضى

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/27.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/322، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/27.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/27.

صفاتِ العَظَمةِ الإلهيَّةِ، المستلزمةِ لكلِّ كمَالٍ في قدرتِه تعالى وحِكمتِه وحُكمِه وإحاطتِه ﷻ، بعلمِ كلِّ شيءٍ، وأنَّه تعالى يتولَّى هذه الأمورَ بنفسِه، لعظمِها عنده، بأن يميِّزَ المطيعَ من العاصي، ويحكُمَ في خلقِه، ويَقدِرَ عليهم بقدرتِه، ومَنْ لَمْ يَكُنْ كَذَلِكَ لا يصحُّ أن يكونَ إلهًا[1].

دَلالةُ نَفْيِ الغيابِ عنِ اللهِ تعالى مِن خلال: ﴿وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ﴾:

الغائبُ ضدُّ الحاضر، وهو هنا كنايةٌ عن الجاهلِ؛ لأنَّ الغَيْبَةَ تستلزِمُ الجهالةَ عُرْفًا، أي: الجهالةَ بأحوالِ المَغيبِ عنه، فإنَّها ولو بلَغَتْهُ بالأخبارِ لا تكونُ تامَّةً عندَه مثلَ المشاهِد، فَنفيُ الغَيْبَةِ هنا عنِ اللهِ تعالى، يعني: نفيَ الجهالة، أي: وما كنَّا جاهلين بشيءٍ من أحوالِهم؛ لأنَّنا مُطَّلِعونَ عليهم، وهذا النَّفيُ للغيبَةِ هنا، شأنُه شأنُ إثباتِ المعيَّةِ للهِ ﷻ في قولِه تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد: 4][2].

إسنادُ كلِّ كمالٍ إلى الله، يقتضي نفيَ كلِّ نقصٍ عنهُ

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 14/201، والبقاعي، نظم الدُّرر: 7/359.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/28.

﴿وَٱلۡوَزۡنُ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡحَقُّۚ فَمَن ثَقُلَتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ٨ وَمَنۡ خَفَّتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَظۡلِمُونَ ٩﴾ [الأعراف: 8 - 9]

مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِما قَبْلَهُما:

العلاقةُ بينَ سؤالِ المرسَلين وأقوامِهم، وبين وزنِ أعمالِ الفلاحِ والخسرانِ

لَمَّا بيَّنَ ﷻ في الآيتَيْن السَّابقتَيْن سؤالَه يومَ القيامةِ للمرسَلينَ ولأُمَمهم، والسُّؤالُ يقتضي الحسابَ والجزاء، وبيَّن أنَّه تعالى قد أحاطَ بكلِّ شيءٍ علمًا؛ بيَّن في هاتَيْن الآيتَيْن أنَّ من جُملةِ أحوالِ القيامَةِ أيضًا وزنَ الأعمال، فمنِ اتَّبعَ المرسلينَ؛ ثَقُلَتْ موازينُه، ومَنْ أعرضَ عن دَعْوتِهم؛ خسرَ نفسَه وظلَمها[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَٱلۡوَزۡنُ﴾: من الميزانِ، وأصله: موزانٌ، انقلبتِ الواوُ ياءً لكسرةِ ما قبلَها، وقام ميزانُ النَّهارِ، أي: انتصفَ، ووزنْتُ الشيءَ وَزْنًا وزِنَةً، ويقال: وزنتُ فلانًا، ووزنتُ لفلانٍ، قال تعالى: ﴿وَإِذَا كَالُوهُمۡ أَو وَّزَنُوهُمۡ يُخۡسِرُونَ ٣﴾ [المطفّفين: 3][2]، والوَزْنُ: معرفةُ قَدْرِ الشَّيء، يُقالُ: وَزَنْتُه وَزْنًا وزِنَةً. وقولُه تعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلۡوَزۡنَ بِٱلۡقِسۡطِ﴾ [الرَّحمن: 9]، إشارةٌ إلى مراعاةِ العدلِ في جميعِ ما يتحرَّاه الإنسانُ من الأقوالِ والأفعال[3]، وقولُه تعالى: ﴿وَٱلۡوَزۡنُ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡحَقُّۚ﴾، إشارةٌ إلى العَدْلِ في محاسبةِ النَّاس[4]. والمرادُ بـ﴿وَٱلۡوَزۡنَ﴾ هنا: وزنُ أعمالِ العباد، وذلك أنَّ اللّه ﷻ ينصِبُ ميزانًا يومَ القيامة، فتُوزَنُ به أعمالُ العبادِ خَيْرُها وشَرُّها[5].

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 14/202، والبقاعي، نظم الدُّرر: 7/359.
(2) الجوهريّ، الصّحاح: (وزن).
(3) الرّاغب، المفردات، وابن منظور، اللّسان: (وزن).
(4) الرّاغب، المفردات: (وزن).
(5) ابن جرير، جامع البيان: 8/122، والشَّوكانّي، فتح القدير: 2/267.

2) ﴿ٱلۡحَقُّۚ﴾: أصْلُ الحقِّ: المطابقةُ والموافَقَة، والحقُّ يقالُ على أَوْجُه: الأوَّلُ: يُقالُ لِمُوجِدِ الشَّيْءِ بسببِ ما تقتضيه الحكمةُ، ولهذا قيل في اللّهِ تعالى: هو الحقُّ، قالَ تعالى: ﴿وَرُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوۡلَىٰهُمُ ٱلۡحَقِّۖ﴾ [يونس: 30]، والثَّاني: يُقالُ للمُوجَدِ بحسبِ مُقْتَضَى الحكمة، ولهذا يُقالُ: فِعلُ اللّهِ تعالى كلُّه حقٌّ، نحو قولِنا: الموتُ حقٌّ، والبعثُ حقٌّ، قالَ تعالى: ﴿مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۚ﴾ [يونس: 5]. والثَّالثُ: في الاعْتقادِ للشَّيءِ المطابقِ لما عليه ذلكَ الشَّيءُ في نفسِه، كقولِنا: اعْتقادُ فُلانٍ في البعثِ والثَّوابِ والعقابِ والجنَّةِ والنَّار؛ حقٌّ، والرَّابعُ: للقولِ والفعلِ بحسَبِ ما يجبُ وبَقدْرِ ما يجب، وفي الوقتِ الَّذي يجب، قالَ تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ حَقَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ [يونس: 33][1].

وقولُه في الآية: ﴿وَٱلۡوَزۡنُ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡحَقُّۚ﴾ معناه: والقضاءُ يومَ القيامةِ العدلُ[2]، والحقُّ أنَّها صحائفُ الأعمالِ توزنُ وزنًا حقيقيًّا[3].

3) ﴿ثَقُلَتۡ﴾: ثِقَلٌ: الثَّاءُ والقافُ واللَّامُ أصلٌ واحدٌ، يتفرَّعُ منه كلماتٌ متقاربة، وهو ضدُّ الخِفَّةِ، ولذلكَ سُمِّيَ الجنُّ والإنسُ: الثَّقَلَيْن، لكثرةِ العدَد، وأثقالُ الأرض: كنوزُها في قولِه تعالى: ﴿وَأَخۡرَجَتِ ٱلۡأَرۡضُ أَثۡقَالَهَا ۝٢﴾ [الزَّلزلة: 2]، ويُقالُ: هي أجسادُ بني آدم، قالَ اللّهُ تعالى: ﴿وَتَحۡمِلُ أَثۡقَالَكُمۡ﴾ [النَّحل: 7]، أي: أجسادَكم[4].وفي قولِه تعالى: ﴿فَمَن ثَقُلَتۡ مَوَٰزِينُهُۥ﴾، أي: ثِقَلُ الموازين يكونُ بثِقْلِ ما وُضِعَ فيها من صحائفِ الأعمالِ الصَّالحةِ، والحسناتِ الَّتي قدَّمها في الدُّنيا[5].

4) ﴿خَفَّتۡ﴾: الخَفيفُ: بإزاءِ الثَّقيل، ويُقالُ ذلك باعْتبارِ المضايَفة بالوزن، وقياسِ شيئَيْنِ أحدِهما بالآخر، نحو: درهمٌ خفيفٌ، ودرهمٌ ثقيلٌ[6]، وقولُه تعالى: ﴿وَمَنۡ خَفَّتۡ مَوَٰزِينُهُۥ﴾، فإشارةٌ إلى قِلّة الأعمالِ الصَّالحةِ[7].

5) ﴿خَسِرُوٓاْ﴾: خَسِرَ: الخاءُ والسِّينُ والرَّاءُ أصلٌ واحدٌ، يدلُّ على النَّقْص، فمن ذلك

(1) الرّاغب، المفردات: (حق).
(2) ابن جرير، جامع البيان: 8/122.
(3) الشَّوكانّي، فتح القدير: 2/267.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: 1/382.
(5) ابن جرير، جامع البيان: 8/123، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 9/156.
(6) الرّاغب، المفردات: (خف).
(7) الرّاغب، المفردات: (خف)، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 9/156.

الخُسْرُ والخُسْران، كالكُفرِ والكُفران، والفُرقِ والفُرقان، ويُقالُ: خَسَرتُ الميزانَ وأخْسَرْتُه؛ إذا نقَصتَهُ[1]. وقد يكونُ الخُسرانُ في الصِّحةِ والسَّلامة، والعقلِ والإيمانِ والثَّواب، وهو الَّذي جعلَهُ اللّهُ تعالى الخُسران المبين، قالَ تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَأَهۡلِيهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ ١٥﴾ [الزُّمَر: 15]. وقولُه تعالى: ﴿وَلَا تُخۡسِرُواْ ٱلۡمِيزَانَ ٩﴾ [الرحمن: 9] إشارةٌ إلى تَعاطي ما لا يكونُ به ميزانُه في القيامةِ خاسرًا[2].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

بيانُ عدلِ اللهِ في ميزانِ القيامةِ، لمكافأةِ المحسنِ، ومعاقبةِ المسيءِ

أخبرَ اللّهُ تعالى عبادَه أنَّ الوزنَ يومَ القيامةِ يكونُ بالعدلِ والقِسْطِ الَّذي لا جَوْرَ فيه ولا ظُلْمَ، فمَنْ رجَحتْ كِفَّةُ حسناتِه على سيِّئاته، فأولئك همُ النَّاجونَ من عذابِ اللّه، المدرِكونَ للمحبوبِ الَّذي حصلَ لهم به الرِّبحُ العظيم، والسَّعادة الدَّائمة.

ومَنْ رجَحتْ سيِّئاتُه؛ فقد فاتَهم النَّعيمُ المقيم، وحصلَ لهمُ العذابُ الأليمُ بسببِ ظلمِهم، فلم ينقادوا لآياتِ اللّهِ كما يجبُ عليهم[3].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دَلالةُ العطفِ في قولِهِ تعالى: ﴿وَٱلۡوَزۡنُ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡحَقُّۚ﴾ على سابقَيْها:

عدالةُ اللهِ لا غبنَ فيها ولا ظلمَ، وعلمُه محيطٌ بكلِّ ظاهرٍ ومخبوءٍ

عطفَ جملةَ ﴿وَٱلۡوَزۡنُ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡحَقُّۚ﴾ على جملةِ ﴿فَلَنَقُصَّنَّ﴾، لما تضمَّنَهُ المعطوفُ عليها من العلمِ بحسناتِ النَّاسِ وسيِّئاتهم، فلا جَرَمَ أَشْعرتْ بأنَّ مظهرَ ذلك العلمِ وأَثَرَه هو الثَّوابُ والعقاب، وتفاوتُ درجاتِ العاملينَ ودَرَكاتهم، تفاوتًا لا يُظلَمُ العاملُ فيه مثقالَ ذرَّةٍ، إنْ خيرًا فخير، وإنْ شرًّا فشرٌّ، فكأنَّ بيانَ اللّهِ قال: (فلنقُصَّنَّ عليهم بعلمٍ، ولَنُجازينَّهم على أعمالهم، جزاءً لا غُبْنَ فيه على

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (خسر).
(2) الرّاغب، المفردات: (خسر).
(3) السَّعدي، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 237.

أحد). ويمكنُ أن يكونَ العطفُ على قولِه السَّابق: ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ﴾، وما عُطفَ عليه في السِّياق بالواوِ وبالفاءِ، وتقديرُه: يومئذٍ نسألُهم، ونسألُ رُسُلَهم ونقُصُّ ذنوبَهم عليهم[1].

دَلالةُ (ال) في لفظِ (الوَزْن):

الـــوزنُ يـومَ القيامةِ مقصورٌ على الحقِّ، ولا يعامل الحقُّ العبادَ إلَّا بالحقِّ

في قوله تعالى ﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ﴾، اللَّامُ في لفظ (الوزن) لامُ التَّعريف، وقد دلَّت على الاستغراق، لتعمَّ كلَّ وزنٍ، وقد تكون عهديَّةً تشير إلى الوزنِ المعهود لمن سبقَ بيانُ عظمته في قوله: ﴿وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ﴾ أي: مَنْ عُهِدتْ عظمتُه بعدم غيابِ شيءٍ عن علمِه، وإحاطتِه بكلِّ شيء علمًا وقدرةً وعظمة، أي: إنَّا لا نكتفي بما نَقُصُّ، بل نزنُه، فيصيرُ بحيث يظهرُ لكلِّ أحدٍ، أنَّه على غايةِ ما يكونُ من التَّساوي، فالوزنُ بميزانٍ حقيقيٍّ، والوزنُ في ذلكَ اليومِ مقصورٌ على الحقِّ، يطابقُهُ الواقعُ مطابقةً حقيقيَّةً[2].

لفظ (الوَزْن) بين الحقيقةِ والمجازِ:

حملُ (الـوَزْن) على الحقيقة، أوْلَى من حملِهِ على المجازِ

في قولِه تعالى: ﴿وَٱلْوَزْنُ﴾، إعلامٌ من اللهِ تعالى لعبادِه أنَّ الحسابَ والنَّظَرَ يومَ القيامةِ، هو في غايةِ التَّحرير ونهايةِ العدلِ، فمثَّلَ لهم في ذلكَ بالوزنِ والميزان على حقيقتِهما؛ إذْ لا يعرفُ البشرُ أمرًا أكثرَ تحريرًا منه. وهناك من يستبعدُ حملَ الوزنِ والميزانِ على حقيقتِهما فَيَحملُهُما على المجازِ المشهور، كقولِه تعالى: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾﴾ [الكهف: 105][3].

وحملُ الوزنِ والميزانِ على الحقيقةِ قد يكون في هذا السِّياق أَصَحَّ وأَوْلى من حملهما على المجازِ من جهاتٍ عديدةٍ: أوَّلُها: أنَّ ظواهرَ كتابِ اللهِ ﷻ تقتضيه، وحديثَ الرَّسولِ ﷺ ينطقُ به، ومنها

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/28 - 29.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 7/360.
(3) ابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 2/375، والبغويّ، معالم التَّنزيل: 2/149، والشَّوكانّي، فتح القدير: 2/267.

قولُه ﷺ: «فتوضَعُ السِّجلَّاتُ في كِفَّةٍ، والبطاقةُ في كِفَّةٍ، فطاشتِ السِّجلاتُ، وثَقُلتِ البطاقةُ»[1]. وثانيها: أنَّ النَّظرَ في الميزانِ والوزنِ، والثِّقلِ والخِفَّةِ المُقترناتِ بالحساب، لا يَفسُدُ شيءٌ منه، ولا تختلُّ صحَّته، وإذا كان الأمرُ كذلك، فَلِمَ نَخْرُجُ من حقيقةِ اللَّفظِ إلى مجازِه، دون علَّةٍ[2]؟!

دلالةُ تنوينِ لفظِ ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ من قولِه: ﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ﴾:

التَّنوينُ تنوينُ عوضٍ عن الجملةِ المضافِ إليها

التَّنوينُ في قولِه: ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ عِوَضٌ عن مضافٍ إليه دلَّ عليه قولُه السَّابق: ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ﴾ [الأعراف: 6] وما عُطِفَ عليه بالواوِ والفاء، والتَّقديرُ: يومئذٍ نسألُهم، ونسألُ رُسُلَهم، ونقصُّ ذنوبَهم عليهم[3].

بلاغةُ تقديمِ ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ في قوله: ﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ﴾:

ظرفُ الزَّمانِ فيهِ مزيدُ اهتمامٍ بيومِ القيامةِ، وما يكتنفُه من رهبةٍ أوْ رغبةٍ

جاءَ تقديمُ ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ على ﴿ٱلْحَقُّ﴾، وحقُّه التَّأخيرُ، لمزيدِ الاهْتمامِ والعنايةِ بهذا اليومِ، وَوَزْنِ الأعمالِ القائمِ فيه، ولإدخالِ الرَّهبةِ في قلوبِ الكَفَرةِ والعاصين ليُقلِعوا عن كفرِهم وعصيانِهم، ولإدخالِ الرَّغبة والسُّرور في قلوبِ الطَّائعينَ والمظلومين، بأنَّ حسناتِهم لن تكونَ هباءً منثورًا، ولن يضيعَ على المظلومين حسناتُ صبرِهم، ولن يضيعَ كذلك عليهم انْتِصَافُهُمْ من الظَّالمين الَّذين ستُوزنُ عليهم أعمالٌ وأقوالٌ، ظلموا بها غيرَهم، فالعدلُ الإلهيُّ في هذا اليومِ، في أجْلى معانيه وأسمَى درجاته[4].

---

(1) هو جزء من حديث، والمراد بالبطاقة كما ورد في الحديث: «فيخرج له بطاقة فيها: أشهد أن لا إله إلَّا الله وأنَّ محمَّدًا عبده ورسوله»، وهو عند أحمد، في المسند، برقم: (6994)، والترمذي، السنن، برقم: (2829)، وابن ماجه، السنن، برقم: (4300)، والحاكم، المستدرك: 1/529، وصحَّحه ووافقه الذَّهبي.

(2) ابن عطيّة، المحرَّر الوجيز: 2/375، والشَّوكانّي، فتح القدير: 2/267.

(3) النَّسَفي، مدارك التَّنزيل: 1/556، والسَّمين الحلبيّ، الدُّرُّ المصون: 5/255، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/29.

(4) انظر في وجوه تقديم ﴿يَوْمَئِذٍ﴾، أو تأخيره، مكّيّ القيسّي، مشكل إعراب القرآن: 1/283.

دلالة (ال) في لفظ ﴿ٱلۡحَقُّۚ﴾ من قولهِ ﴿وَٱلۡوَزۡنُ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡحَقُّۚ﴾:

(الـ) في ﴿ٱلۡحَقُّۚ﴾ للتَّعريفِ الاستغراق الحقيقيِّ، ودخولُها على (حقّ) - وهو مصدرٌ - لإفادةِ المبالغةِ فيما أُسنِد إليه، وهو (الوَزْنُ)، أو كانَ هو وصفًا له، فالإخبارُ عن الوزنِ هنا في السِّياقِ بهذا المصدرِ، مبالغةٌ في كونِه مُحِقًّا على وجهِ التَّمامِ والكمال[1].

معنَى (الـ): الاستغراقُ الحقيقيُّ لإفادةِ المبالغةِ في إحقاقِ الحقِّ بتمامِهِ

لفظ ﴿ٱلۡحَقُّۚ﴾ بين الحقيقةِ والمجاز:

لفظةُ ﴿ٱلۡحَقُّۚ﴾ مرتبطةٌ بـ﴿وَٱلۡوَزۡنُ﴾، فهي على أحدِ الأقوالِ صفةٌ له، أو هو خبرٌ لمبتدأ محذوف تقديرُه: ﴿وَٱلۡوَزۡنُ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡحَقُّۚ﴾، ويمكنُ أن يكونَ خبرَ ﴿وَٱلۡوَزۡنُ﴾[2]، وأيًّا كان؛ فـ﴿ٱلۡحَقُّۚ﴾ إن كانَ الوَزْنُ مجازًا عن تعيينِ مقاديرِ الجزاءِ، فالحقُّ بمعنَى العدل، أي: الجزاءُ عادلٌ غيرُ جائر؛ لأنَّه من أنواعِ القضاءِ والحُكم، وإنْ كانَ الوزنُ تَمْثِيلًا بِهَيْئَةِ المِيزَانِ فَالعَدْلُ بِمَعْنَى السَّوِي أَيْ وَالوَزْنُ يومَئذٍ مُسَاوٍ للأعمالِ، لا يَرْجَحُ ولا يَجْحَفُ[3].

معناها العدلُ في الجزاءِ، ومُساواةُ الوزنِ للأعمال

معنَى الفاء في جملة ﴿فَمَن ثَقُلَتۡ مَوَٰزِينُهُۥ﴾:

الفاءُ في قوله: ﴿فَمَن﴾ للتَّفريع، أي: تفرَّعَ على كونِ الوزنِ هو الحَقَّ، قولُه تعالى: ﴿فَمَن ثَقُلَتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾، فهو تفصيلٌ للوَزْنِ ببيانِ أَثَرِه على قَدْرِ الموزُون[4]، والإشارة هنا أنَّ "وزن الأعمالِ يومئذٍ بالعدل، فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوازِينُهُ، أي: رجحت حسناتُهُ على سيِّئاتِهِ، فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ، أي: النَّاجُون"[5].

من ثَقُلَت موازينُهُ؛ نجا، ومن خفَّت موازينُهُ؛ هلكَ

معنَى (مَنْ) الموصولةِ في قولهِ ﴿فَمَن ثَقُلَتۡ مَوَٰزِينُهُۥ﴾:

جاءتْ (مَنْ) اسمَ موصولٍ بمعنَى الَّذي في قولِه: ﴿فَمَن ثَقُلَتۡ﴾،

(مَنْ) اسمُ موصولٍ بمعنى الَّذي، ويفيد معنى الشَّرطِ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/30.
(2) مكّيّ القيسّي، مشكل إعراب القرآن: 1/282، والعكبريّ، الإملاء: 269.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/30.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/30.
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/30.

وقولِه: ﴿وَمَنْ خَفَّتْ﴾[1]، وهي شرطيَّةٌ تربطُ جوابَها بفعلِها، والمعنى: "فمن رجحتْ أعمالُه الموزونةُ الَّتي لها وزنٌ وقَدْرٌ، وهي الحسنات، أو ما توزن به حسناتهم، فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ المفلحون الفائزون"[2].

ثِقَلُ الميزانِ وخِفَّتُهُ بين رجحانِ الأعمالِ، أو خفَّتها بالتَّقصيرِ والإهمالِ

بلاغةُ ثِقَلِ الموازينِ وخفَّتِها بين الحقيقةِ والمجازِ:

ثِقَلُ الميزانِ في المعنَى الحقيقيِّ: رُجحانُ الميزانِ بالشَّيءِ الموزون، وهو هنا مستعارٌ لاعْتبارِ الأعمالِ الصَّالحة غالبةً ووافِرَة، أي: مَنْ ثَقُلَتْ موازينُه الصَّالحات، وإنَّما لم يذكرْ ما ثَقُلَتْ به الموازين؛ لأنَّه معلومٌ باعْتبارِ الوزن؛ لأنَّ مُتعارَفَ النَّاسِ أنَّهم يَزِنونَ الأشياءَ المرغوبَ في شرائِها المُتنافَسَ في ضَبْطِ مقاديرِها، والَّتي يتغابنُ النَّاسُ فيها.

والثِّقَلُ مع تلكَ الاسْتعارةِ هو أيضًا ترشيحٌ لاسْتعارةِ الوزنِ للجزاء، ثمَّ الخِفَّةُ مُستعارةٌ لعدمِ الأعمالِ الصَّالحةِ أَخْذًا بغايةِ الخِفَّةِ على وِزانِ عكسِ الثِّقَلِ، وهي أيضًا ترشيحٌ ثانٍ لاسْتعارةِ الميزان، والمرادُ هنا الخِفَّةُ الشَّديدة، وهي انْعدامُ الأعمالِ الصَّالحة لقولِه: ﴿بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَظۡلِمُونَ﴾[3].

فائدةُ وضعِ الميزانِ أنْ يظهرَ الرُّجحانُ بالحسناتِ، والخِفَّةُ بالسَّيِّئات

إيرادُ لفظ (الموازين) بالجمعِ:

المَوَازِيْنُ وردت بالجمع، مع أنَّ السِّياقَ في قوله تعالى: ﴿فَمَن ثَقُلَتۡ مَوَٰزِينُهُۥ﴾، يحتمل المفرد والجمعَ، لكن جاءت قرينةُ الجمعِ محدِّدةً له في قولِه تعالى بعدها: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾، وعليه فلفظ (الموازين)، فيها قولان:

أحدهما: أنَّها جمع ميزانٍ: وهو الآلةُ يوزنُ بها، وإنَّمَا جمع؛ لأنَّ كلَّ إنسانٍ له ميزانٌ يخصُّه، أو جُمع باعتبار الأعمالِ الكثيرةِ، وعبَّرَ عن هذا الحالِ بالمحلِّ.

(1) مكّيّ القيسّي، مشكل إعراب القرآن: 1/283، والعكبريّ، الإملاء: 1/269.
(2) النّسفيّ، مدارك التّنزيل: 1/556.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/31.

والثَّاني: أنَّها جمع موزون، وهي الأعمال، ومثلُها ظاهر في قوله: ﴿وَنَضَعُ ٱلۡمَوَٰزِينَ ٱلۡقِسۡطَ لِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَلَا تُظۡلَمُ نَفۡسٞ شَيۡـٔٗاۖ وَإِن كَانَ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٍ أَتَيۡنَا بِهَاۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ٤٧﴾ [الأنبياء: 47]؛ لأنَّه لا يبعد أن يكونَ لأفعال القلوب ميزانٌ، ولأفعال الجوارح ميزانٌ، وللأقوال ميزان. وذهب الزَّجَّاجُ: إلى أنَّ جمع الموازين راجعٌ، إمَّا إلى أنَّ العربَ قد تُوقِعُ لَفْظَ الجَمْعِ على الواحد، أو إلى أنَّ الموازينَ هَا هُنَا جمْعُ موزونٍ لا جمع ميزان.

وقيل: المرادُ بالميزانِ العدلُ والقضاء، وهذا المعنى شَائِعٌ في اللُّغَةِ؛ لأنَّ العدلَ في الأخذ والإعطاءِ لا يظهر إلَّا بالكَيْل والوزنِ في الدُّنْيَا؛ قال تعالى: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَزۡنٗا ١٠٥﴾ [الكهف: 105][1].

معنى (الفاء) في قولِهِ تعالى: ﴿فَمَن ثَقُلَتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾:

بلاغةُ الجملةِ الشَّرطيَّةِ، وأثرُ التَّفريعِ في الآيةِ الكريمةِ

الفاءُ هنا رابطةٌ لجوابِ الشَّرطِ، وتَحقُّقِ مضمونِ صلتِه في حالِ الفلاحِ، وحالِ الخُسران، وقد جاءتِ الجملةُ الشَّرطيَّةُ ﴿فَمَن ثَقُلَتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾، تفريعًا على الفاءِ، وهذا التَّفريعُ متعلِّقٌ بالأَثَرِ ومحلِّه، فالأثَرُ مرتبطٌ بتفصيلِ الوَزْن وقَدْرِ الموزون، وقد عبَّر عنهما بيانُ اللهِ في حالتَيْن: الأولى بقولِه تعالى: ﴿فَمَن ثَقُلَتۡ مَوَٰزِينُهُۥ﴾، والثَّانيةُ بقولِه سبحانه: ﴿وَمَنۡ خَفَّتۡ مَوَٰزِينُهُۥ﴾، وجاءَ محلُّ التَّفريعِ فيهما بالنَّتيجةِ المناسبةِ لكلٍّ واحدٍ منهما: الأولى بقولِه تعالى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾، والثَّانيةُ بقولِه سبحانه: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم﴾[2].

نكتةُ استعمالِ اسمِ الإشارةِ للبعيد ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾:

استعمالُ اسمِ الإشارةِ للبعيدِ تنبيهٌ على البُعدِ المعنويِّ الاعتباريِّ

اختارَ بيانُ اللهِ اسْمَ إشارةٍ للبعيدِ تنبيهًا على البُعدِ المعنويِّ الاعتباريِّ لكلِّ فريقٍ، فالأوَّلُ بعدٌ معنويٌّ في الخيريَّة للمفلحينَ الَّذين

(1) ابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 9/22.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/30.

ثَقُلتْ موازينهم، والثَّاني بعدٌ معنويٌّ في السُّوءِ للخاسرينَ الَّذين خفَّتْ موازينُهم، فالأوَّلُ للتَّحفيزِ والتَّرغيب، والثَّاني للتَّثبيطِ والتَّرهيب[1].

معنى(أل) في لفظ ﴿ٱلْمُفْلِحُونَ﴾:

التَّعريفُ في قولِه: ﴿ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ من قوله: ﴿فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ للجنسِ أو للعَهْد، وللجنسِ أظهرُ؛ إذْ لا معهودَ هنا بحسبِ ظاهرِ الحال؛ بلِ المقصودُ إفادةُ أنَّ هؤلاءِ مفلحون، وكلُّ من تحقَّقتْ فيهم صفةُ المفلحين، وتحقَّقوا بما يُوصلُهم إلى صفتِها، وتَصوَّروا بصورتِهمُ الحقيقيَّة، فهم لا يَعْدونَ تلكَ الحقيقة[2]. ولفظ ﴿ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ مرتبطٌ بثقل الموازين، والمفلحون هم النَّاجونَ الفائزونَ، والسُّعداء المكرمون، وهم المؤمنون الَّذين يؤولون إلى حسن المصيرِ بثقلِ موازينهم، قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٦ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝٧﴾ [القارعة: 6 - 7].

لا ينالُ الفلاحَ يومَ المعادِ إلَّا مَن ثَقُلَت موازينُهُ مِنَ العبادِ

وفي هذا التَّعريفِ كذلكَ إشارةٌ إلى ما يعرفُه كلُّ أحدٍ من حقيقةِ المفلحين وخصائصِهم، فهمُ النَّاسُ الَّذين عنهم بلغَنا أنَّهم تثقلُ موازينُ صحائفِ أعمالِهم الصَّالحةِ، ويُفلحون في الآخرة[3].

بلاغةُ أساليبِ القَصْرِ في قولِه: ﴿فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾:

جاءَ اسْمُ الإشارةِ ﴿فَأُوْلَـٰٓئِكَ﴾، وهو معرفةٌ، وهو إشارةٌ للبعدِ المعنويِّ الاعتباريِّ المحمود، وجاء بضميرِ الفصل ﴿هُمُ﴾، فائدتهُ: أنَّ صفة المسنَدِ ثابتةٌ للمسنَدِ إليه دونَ غيرِه، و﴿ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ المعرَّف بأل، فأولئك هم دون غيرهم ﴿ٱلْمُفْلِحُونَ﴾، ليبصِّرَ بيانُ اللهِ العبادَ بمراتبِهم، ويُرغِّبَهم في طلبِ ما طلَبوا، ويُنشِّطَهم لتقديمِ ما قدَّموا، ويثبِّطَهم عن الطَّمعِ الفَارغِ والرَّجاءِ الكاذبِ، والتَّمنِّي على اللهِ ما

فلاحُ مَن ثَقُلَتْ موازينُهم محفِّزٌ إلى التَّأسِّي بهم لنيل ما نالوا

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/31.
(2) الزَّمخشري، الكشَّاف: 1/147 - 148، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/246، 8/31.
(3) الزَّمخشريّ، الكشَّاف: 1/146، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/323 - 324.

لاتَقْتَضيه حكمتُه، ولم تسبقْ إليه كلمتُه، لتنفتحَ لهم وجوهُ الظَّفَرِ، وليصلُوا بعدَ ذلكَ إلى ما وصلوا[1].

بلاغةُ العطفِ في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُۥ﴾:

الـعـطـفُ هنا لمغايرةِ هذه الصُّورةِ عن سابقتِها

وردتْ جملةُ ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُۥ﴾، معطوفةً على ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُۥ﴾، والعطفُ يقتضي المغايَرة، وبضدِّها تتميَّزُ الأشياء، فإذا كانَ الثِّقَلُ - كما تقدَّم - ترشيحًا لاسْتعارةِ الوزنِ للجزاء، فإنَّ الخِفَّةَ في مقابلتِها، مستعارةٌ لعدمِ الأعمالِ الصَّالحةِ، أخذًا بغايةِ الخِفَّةِ على عكسِ الثِّقَلِ، فهي أيضًا ترشيحٌ ثانٍ لاسْتعارةِ الميزان، لكن في انعدامِ ما يُثقِّلُ الميزانَ بفُقدانِ الأعمالِ الصَّالحةِ، لقولِه: ﴿بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَظۡلِمُونَ﴾[2].

نكتةُ التَّعبيرِ بالاسْمِ الموصولِ ﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم﴾:

بيانٌ بخسارةِ المشركين، وخفَّةِ موازينهم يوم الدِّين

جاءَ الاسْمُ الموصولُ ﴿ٱلَّذِينَ﴾، تعبيرًا عنِ المشركينَ الَّذين سوَّلتْ لهم نفوسُهم أعمالًا كانتْ سببَ خفَّةِ موازينِ أعمالِهم، أي: سببَ فَقْدِ الأعمالِ الصَّالحة منهم، فكانتْ نفوسُهم كرأسِ مالِ التَّاجر الَّذي رَجَا منه زيادةَ الرِّزقِ، فأضاعَه كلَّه، فهو خاسرٌ له، فكذلكَ هؤلاءِ خسروا أنفُسَهم، إذْ أَوْقعتْهم في العذابِ المقيم، فنتيجتُهم، كما قالَ تعالى: ﴿فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمۡ وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ ١٦﴾ [البقرة: 16][3].

نكتةُ العدولِ عن الاسميَّةِ إلى الفعليَّةِ:

عـبَّرتِ الجملةُ الفعليَّةُ على قيامهم في الدُّنيا بأعمالٍ سيِّئةٍ أوصلتْهم إلى خسارةِ أنفسِهم

جملةُ ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾، جملةٌ اسْميَّةٌ تفيدُ الثَّباتَ في وصفِهم بالمفلحين، وهم الَّذين ثَقُلَتْ موازينُهم، وهو تعبيرٌ عن حالِهم في الدُّنيا، فقد ثَبتوا في حياتهم الدُّنيا على الإيمان واسْتقاموا على دينِ الإسلامِ، وطاعةِ الرَّحمن. وأمَّا الَّذين خَفَّتْ موازينُهم، فهمُ

(1) الزَّمخشري، الكشَّاف: 1/146، وأبو حيَّان، البحر المحيط: 1/74.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/31.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/32.

الَّذين خسروا أنفُسَهم، في ماضي حياتهمُ الدُّنيا، فلم يُقدِّموا فيها لأنفسِهم خيرًا، فمضَى بهم خسرانُهم في الدُّنيا إلى خسارةِ أنفُسِهم في الآخرةِ، فصاروا إلى الجحيم، فعبَّر عنهم بالجملة الفعليَّةِ الَّتي تدلُّ على تجدُّدِ هذه الخسارةِ، لِمَنْ لم يتَّبع طريق المرسلين.

بلاغةُ المجازِ في قولهِ تعالى: ﴿خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم﴾:

الخُسرانُ هنا في قولِه تعالى: ﴿خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم﴾، مُستعارٌ لفقدانِ نفعِ ما يُرجَى منه النَّفع، إذِ الخُسرانُ حقيقةً ضدُّ الرِّبح، وهو عدمُ تحصيلِ التَّاجرِ على ما يَستفضلُه من بَيْعِه، فتكون خسارتُهم لأنفسِهم، تعني: أنَّهم فَقدوا فوائدَها، فإنَّ كلَّ أحدٍ يرجو من مواهبِه - وهي مجموعُ نفسِه - أنْ تجلبَ له النَّفعَ، وتدفَعَ عنه الضُّرَّ: بالرَّأيِ السَّديد، وابْتكارِ العملِ المفيد، ونفوسُ الَّذين خفَّتْ موازينُهم، كانت بسببِ فقدانِ أعمالِهم الصَّالحة، فلم يزرعوا في دُنياهم ما يحصُدون به ثِقَلَ موازينهم؛ بل زَرَعُوا شِرْكًا وكُفرًا، فحصَدوا بَوارًا وخُسرانًا[1].

الخُسرانُ مُستعارٌ لفقدِ النَّفعِ، وجلبِ الضُّرِّ

معنَى الباء في قولِه: ﴿بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَظۡلِمُونَ﴾:

الباءُ في قولِه تعالى: ﴿بِمَا كَانُواْ﴾ باءُ السَّببيَّة، وهي متعلِّقةٌ بخسروا، أي: خَسِروا أنفُسَهم بسببِ تكذيبِهم المستمرِّ بآياتِنا[2]، "قَالَ الْحسن: إِنَّمَا ثَقُلَ ميزَانُ من ثقلَ مِيزَانُه بِاتِّبَاع الْحقِّ، وَحُقَّ لِميزَانٍ وُضِعَ فِيهِ الْحقُّ أَن يثقل، وَإِنَّمَا خفَّ ميزَانُ من خفَّ مِيزَانُهُ بِاتِّبَاع الْبَاطِل، وَحَقُّ الْمِيزَان الذي لم يُوضع فِيهِ إِلَّا الْبَاطِلُ أَن يخفَّ"[3]، ومن ظلمَ بالآياتِ، وخَسِر نفسَه بفعلِ السَّيِّئات، وخفَّ ميزانه بعدم المبادرة للخيرات، استحقَّ سوءَ المصيرِ في الحياةِ وبعد الممات.

بثقلِ الميزانِ وخفَّتِهِ تكونُ النَّجاةُ أو الهلاكُ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/31 - 32.

(2) ابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 2/377، والعكبريّ، الإملاء: 2/269، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/324.

(3) السّمعانّي، تفسير القرآن: 2/166.

معنَى الأداة ﴿بِمَا﴾ في قوله: ﴿بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَظۡلِمُونَ﴾:

(ما) في قولِه تعالى: ﴿بِمَا كَانُواْ﴾ مصدريَّةٌ، أي: بكونِهم ظَلَموا بآياتِنا في الدُّنيا[1]، ويمكنُ أن تكون موصولة، أي: بالَّذي كانوا بآياتنا يظلمون، والظُّلم هنا: الجحودُ لآياتِ اللّهِ، قال سلمان الفارسيُّ: يوضعُ الميزانُ يوم القيامة، ولو وُضِعَ في كفَّتِه السَّماواتُ والأرض لوسعتْها، فتقولُ الملائكة: ربَّنا ما هذا؟ فيقولُ تعالى: أَزِنُ به لمن شئتُ من خلقي، فتقول الملائكةُ: ربَّنا ما عبدناك حقَّ عبادتِك[2].

لحروفِ المعاني دلالاتٌ في السِّياقِ بحسبِ معانيها

معنَى الباءِ الجارَّةِ في قولِه تعالى: ﴿بِـَٔايَٰتِنَا يَظۡلِمُونَ﴾:

الباءُ في قولِه تعالى: ﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾ باءُ التَّعدية، مع احتمال كونها للسببيَّة أو للمصاحبة والملابسةِ، وهي حرفُ جرٍّ عُدِّيَ بها ﴿يَظۡلِمُونَ﴾ لتضمُّنِه معنَى التَّكذيبِ أو الجحودِ[3] - كما سيأتي -.

تنوُّعُ معاني الحرفِ بالتَّأويلِ، يوسِّعُ الدِّلالةَ، وينفسحُ به المعنى

بلاغةُ تقديمِ شبهِ الجُملة ﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾:

تقديمُ المجرورِ في قولِه تعالى: ﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾ على عامله، وهو ﴿يَظۡلِمُونَ﴾ في قوله: ﴿بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَظۡلِمُونَ﴾، للاهْتمامِ بالآياتِ، على أنَّها تكون سببًا في النَّجاة أو الهلاك، فضلًا عن مراعاةِ الفواصِل[4]. "و (الآيات) هنا البراهينُ والأوامر والنَّواهي، و﴿يَظۡلِمُونَ﴾ أي: يضعونها في غيرِ مواضعِها بالكفرِ والتَّكذيبِ"[5].

تقديمُ شِبهِ الجملةِ للاهتمامِ بالآياتِ ولمراعاةِ الفواصل

نكتةُ إضافةِ الآياتِ إلى ضميرِ العَظَمةِ ﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾:

جاءتْ إضافةُ الآياتِ إلى ضميرِ العَظَمة في قولِه تعالى:

(1) ابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 2/377، والعكبريّ، الإملاء: 2/269، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/324.

(2) مكّيّ القيسّي، الهداية إلى بلوغ النّهاية: 4/2287.

(3) السّمين الحلبيّ، الدُّرُّ المصون: 5/257، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/324، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/32.

(4) السّمين الحلبيّ، الدُّرُّ المصون: 5/257، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/324، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/32.

(5) ابن عطيّة، المحرر الوجيز: 2/377.

﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾، تعظيمًا لشأنِ الآياتِ، حيث أُسندتْ إلى مَنْ أَنْزلَها، وأمرَ بها، وهو اللهُ ﷻ، صاحبُ العَظَمةِ المُطْلَقةِ، والحِكْمةِ البالغة، وفي هذا التَّعظيم مزيدُ اهتمامٍ بها، ودَفْعُ العبادِ للإيمانِ بها والعملِ بموجبِها.

آياتُ اللهِ جديرةٌ بالتَّعظيمِ والاهتمامِ بها والعملِ بمضامينها

غرضُ التَّعبيرِ بالمضارعِ في ﴿يَظْلِمُونَ﴾:

أفادتْ صيغةُ المضارعِ في قوله تعالى: ﴿بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ﴾، حكايةَ حالِهم في تجدُّدِ الظُّلم فيما مَضَى، كقولِه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ﴾ [فاطر: 9][1]، وتجدُّدُ الظُّلم في هذه الحياة من الأمورِ المسلَّمةِ المعهودةِ؛ إذ تتماوج الطِّباعُ والممارسات بألوانٍ شتَّى من الظُّلم الصُّراح، والاعتداء البواح على آياتِ الله وأحكامه وحرماته، وهو أمرٌ مُشاهَدٌ مَعيشٌ، لا يَنفكُّ عنه الأفرادُ، ولا تخلو منه المجتمعاتُ.

معنى التَّجدُّدِ في الفعلِ، يضاهي تجدُّدَ ظُلمِهم في الدُّنيا

التّضمين في فعلِ ﴿يَظْلِمُونَ﴾ وتعديَته بالباء:

ضُمِّن قولُه تعالى: ﴿يَظْلِمُونَ﴾، معنَى الفعل (يُكذِّبون)، فلذلك عُدِّي بالباء، فكأنَّه قيل: بما كانوا يَظلمونَ، فيُكذِّبونَ بآياتنا، وإمَّا لتَضمُّنِه معنَى الجَحْدِ على حدِّ قولِه تعالى: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّاۚ﴾ [النَّمل: 14]، وإنَّما جُعِلَ تكذيبُهم وجحودُهم ظُلمًا؛ لأنَّه تكذيبُ ما قامتِ الأدلَّةُ على صدقِه، فتكذيبُه وجحودُه ظلمٌ للأدلَّة بِدَحْضِها وعدمِ إعمالِها[2].

تكذيبُ الكافرينَ وجُحودُهم لادليلَ عليهِ، بل هو ظلمٌ للأدلَّة

نكتةُ الجمعِ بين صيغتَي الماضي ﴿كَانُواْ﴾، والمستقبلِ ﴿يَظْلِمُونَ﴾:

جاءَ الجمعُ بين صيغتَي الماضي في قولِه تعالى: ﴿كَانُواْ﴾ والمستقبلِ في قولِه تعالى: ﴿يَظْلِمُونَ﴾، للدَّلالةِ على اسْتمرارِ الظُّلم في الدُّنيا،

سرُّ الجمعِ بين الماضي والمستقبلِ للدَّلالةِ على الاسْتمرارِ في الظُّلم

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/32.

(2) السَّمين الحلبي، الدُّرُّ المصون: 5/257، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/324، وابن عاشور، التَّحرير والتّنوير: 8/32.

أي: فأولئكَ الموصوفونَ بخفَّةِ الموازينِ الَّذين خسروا أنفُسَهم بسببِ تكذيبهمُ المستمرِّ بآياتنا - ظالمون[1].

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(المفلحون) و(الفائزون):

الفلاحُ: نَيْلُ الخيرِ والنَّفعِ الباقي أثرُه، وسُمِّيَ الشَّيءُ الباقي الأَثَرِ: فَلَحًا، ويُقالُ للأَكَّار: فلَّاحٌ؛ لأنَّه يشقُّ الأرضَ شقًّا باقيًا في الأرض، ويُقالُ لكلِّ من عَقَلَ وتكاملتْ فيه خِلالُ الخير: قد أَفْلح[2]، والفَلاحُ: السَّحور، وهو الأكلُ في السَّحَر، سُمِّيَ بذلك؛ لأنَّ به بقاءَ الصَّوْم[3].

الفلاحُ هو الفوزُ بالنَّفعِ مع بقاءِ أثرِه

والفَوْزُ: نَيْلُ الحظِّ من الخير[4]، والفَوْزُ: هو الخَلاصُ من المكروه مع الوصولِ إلى المحبوب، ولَمَّا كان الفوزُ يقتضي نَيْلَ المحبوب، قيل: فازَ بِطِلْبَتِه، وقالَ تعالى: ﴿يَٰلَيۡتَنِي كُنتُ مَعَهُمۡ فَأَفُوزَ فَوۡزًا عَظِيمٗا ٧٣﴾ [النِّساء: 73]، أي: أنالَ الخيرَ نَيْلًا كثيرًا[5]، والفَوْزُ: الظَّفَرُ بالخيرِ مع حصولِ السَّلامة، قالَ تعالى: ﴿فَلَا تَحۡسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٖ مِّنَ ٱلۡعَذَابِۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ١٨٨﴾ [آل عمران: 188]، أي: بمنجاةٍ منه[6].

(خَسِروا) و(اشْتَروا):

الخُسرُ والخُسْران: انتقاصُ رأسِ المال، ويُنسَبُ ذلكَ إلى الإنسان، فيُقالُ: خسِرَ فلانٌ، وإلى الفعل فيُقالُ: خَسِرَتْ تجارتُه. والخسرانُ كذلك: ذهابُ رأسِ المالِ كلِّه، ثمَّ كثُرَ حتَّى سُمِّي ذهابُ بعضِ رأس المال خُسرانًا، قالَ تعالى: ﴿خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ﴾ [الأنعام: 12]، لأنَّهم عَدِموا الانتفاعَ بها، فكأنَّها هلكتْ، ولم يبقَ منها شيء.وقد

الخُسرانُ فيه معنَى الذَّهابِ بالكُليَّة، والهلاكُ التَّام

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/324.
(2) العسكريّ، الفروق، ص: 321، والرّازي، مختار الصِّحاح: (فلح).
(3) الرّازي، مختار الصِّحاح: (فلح).
(4) العسكريّ، الفروق، ص: 340.
(5) العسكريّ، الفروق، ص: 532.
(6) الرّاغب، المفردات، والرّازي، مختار الصِّحاح: (فوز).

تكونُ الخسارةُ في الصِّحَّةِ والسَّلامة والعقلِ والإيمان والثَّواب، وهو الَّذي جعلَه اللّٰهُ تعالى الخُسرانَ المبين، بل جعلَه اللّٰهُ خسارةً للنَّفس، قالَ تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَأَهۡلِيهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ ١٥﴾ [الزُّمر: 15]. وكلُّ خسرانٍ ذكرَه اللّٰهُ تعالى في القرآن هو ما يتعلَّقُ بما يكون فيه ميزانُ الإنسانِ يوم القيامة خاسرًا بخلوِّهِ من صحائفِ الأعمالِ الصَّالحةِ أو قِلَّتها[1].

شَرَيْتُ بمعنَى: بعتُ أكثر، وابْتعتُ بمعنَى اشْتريتُ أكثر، قالَ تعالى: ﴿وَشَرَوۡهُ بِثَمَنِۭ بَخۡسٖ﴾ [يوسف: 20]، وذلك أنَّ لفظَ البيعِ والشِّراءِ يُستعملُ كلُّ واحدٍ منهما في موضعِ الآخر، وهو من الأضداد، لَكِنْ ما تقدَّمَ هو الأَشْهر، وتُجوِّزَ بالشِّراء والاشْتراء في كلِّ ما يحصُلُ به شيء، نحو: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشۡتَرُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: 77][2].

(1) الرّاغب، المفردات: (خس)، والعسكريّ، الفروق، ص: 574.

(2) الرّاغب، المفردات، والفيروزابادي، القاموس المحيط: (شرى).

﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ١٠﴾ [الأعراف: 10]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الـرَّبـطُ بين موازينِ الحسابِ والـجـزاء، والتَّذكيرِ بنِعَمِ التَّمكينِ الواجبِ شكرُها

لَمَّا أمرَ اللّه ﷻ بمتابعةِ الرُّسُلِ، وحذَّرهم من مخالفتِهم، فأَبْلَغَ في تحذيرِهم بعذابِ الدُّنيا ثمَّ بعذابِ الآخرة، والتَّذكيرِ بنصْبِ الموازين القِسْطِ للفَصْل في مصائر العباد، الْتَفَتَ إلى تذكيرِهم ترغيبًا في ذلكَ بإسباغِ نعمِه، وتحذيرًا من سلبِها؛ لأنَّ المواجهةَ أردَعُ للمخاطَب، فقال في موضعِ الحالِ من ﴿خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم﴾: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ﴾، والحالُ أنَّا مَكَّنَّاكُمْ من إنْجائها بخلقِ القُوى والقُدرِ، وإدْرارِ النِّعَمِ، وجعلنا مكانًا يحصُلُ التَّمكُّنُ فيه هو (الأرض) كلُّها، لانتفاعِكم بها، وهي أشياءُ يحصُلُ بها العَيْشُ؛ لتشكروا اللّه على هذه النِّعم الَّتي أسبغَها عليكم ظاهرةً وباطنة، لكنَّ الشَّاكرين اللّه على هذه النِّعم نادرون، وقليلٌ ما هم[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مَكَّنَّٰكُمْ﴾: المكانُ عندَ أهلِ اللُّغةِ الموضعُ الحاوي للشَّيء، ويُقالُ: مكَّنتُه ومكَّنتُ له فتمكَّنَ[2]، و"المكان أصلٌ في جميع ما يتَّصل بهذه المادَّة، لمنزلة (المكان) في العربيَّة فكرًا وواقعًا وسلوكًا. ومن المفيدِ أن نشيرَ إلى أنَّ (المكان) جاء من (الكون)، بمعنى: الوجود والهيئة، ولمنزلته الَّتي أخذها في تفكير العرب، صار أصلًا لحاجاتٍ كثيرة"[3]. ويُقالُ: مكَّنهُ اللّهُ من الشَّيء تمكينًا، وأَمكَنه

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 14/204، والبقاعيّ، نظم الدُّرر: 7/361.
(2) الرّاغب، المفردات، وابن منظور، اللِّسان: (مكن).
(3) جعفر شرف الدّين، الموسوعة القرآنيّة، خصائص السّور: 4/157.

منه بمعنًى، واسْتمكَنَ الرَّجلُ من الشَّيءِ وتمكَّنَ منه بمعنًى، وفي قولِه تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ المرادُ هنا: جعلْنا لكم فيها مكانًا للعيش[1].

2) ﴿مَعَٰيِشَ﴾: العَيْشُ: الحياةُ المختصَّةُ بالحيوان، وهو أخصُّ من الحياة؛ و"مَعايِشَ لا تهمزُ؛ لأنَّها مفاعل من العيشِ، مفردها معيشةٌ، والأصل (مَعْيِشَةٌ) على وزن (مَفْعِلَةٌ)، وهي ما يعاشُ به من النَّباتِ والحيوان وغير ذلك"[2]. ويُشتقُّ من العيشِ المعيشةُ، لما يُتَعيَّش منه، قالَ تعالى: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [الزُّخرف: 32]. وقد عاشَ يعيشُ مَعاشًا ومَعيشًا، كلٌّ واحدٍ منهم يصلُحُ أنْ يكونَ مصدرًا واسْمًا كمَعَاب ومَعيب[3]. والمعيشةُ: جمعُها معايش، كما في الآية: ﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ﴾، أي: هيَّأنا لكم فيها أسبابَ المعايشِ من المطعومِ والمشروبِ وما تكونُ به الحياة[4].

المَعْنى الإجْماليُّ:

التَّذكيرُ بالشُّكرِ على التَّمكينِ من المسخَّراتِ، وتيسيرِ المعايشِ في الحياةِ

يقولُ اللّٰه تعالى مُمتنًّا على عبيده فيما مكَّنَ لهم من أنَّه جعلَ الأرضَ قرارًا، وجعلَ فيها رواسيَ وأنهارًا، وجعلَ لهم فيها منازلَ وبيوتًا، وأباحَ لهم منافعَها، وسخَّرَ لهم السَّحابَ لإخراجِ أرزاقِهم منها، وجعلَ لهم فيها مكاسبَ وأسبابًا يكسبونَ بها، ويتَّجرون فيها، ويتسبَّبون أنواعَ الأسبابِ، وأكثرُهم مع هذا قليلُ الشُّكرِ على هذه النِّعم وغيرِها، كما قالَ تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾﴾ [إبراهيم: 34][5].

(1) الشَّوكاني، فتح القدير: 2/268.
(2) ابن الهائم، التّبيان في تفسير غريب القرآن، ص: 164.
(3) الرّاغب، المفردات، وابن منظور، اللِّسان: (عيش).
(4) الشَّوكاني، فتح القدير: 2/268.
(5) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 2/188، والسَّعدي، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 237 - 238.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ عطفِ قولِهِ تعالى: ﴿وَلَقَدۡ مَكَّنَّٰكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ على سابقتِها:

العطفُ للتَّذكيرِ بنعمِ اللهِ، ومنها المعايشُ وألوانُ التَّسخيرِ

قولُه تعالى: ﴿وَلَقَدۡ مَكَّنَّٰكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾، عطفٌ على قولِه السَّابقِ: ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۗ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ٣﴾ [الأعراف: 3]، وهو تذكيرٌ لهم بأنَّ اللهَ هو وليُّ الخَلْقِ؛ لأنَّه تعالى خالقُهم على وجهِ الأرضِ، وخالقُ ما به عيشُهم الَّذي به بقاءُ وجودِهم إلى أجلٍ معلومٍ، وتوبيخٌ على قلَّةِ شُكرهم[1].

دَلالةُ المؤكِّداتِ في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ مَكَّنَّٰكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾:

المؤكِّداتُ لها أثرٌ في إزالةِ أيِّ إنكارٍ لوقوعِ التَّمكينِ في الأرضِ

جاءَ تأكيدُ الخبرِ بـ (لامِ القسَمِ)، و(قدْ) المفيدِ للتَّحقيقِ تنزيلًا للَّذين هُمُ المقصودُ من الخطابِ مَنزِلَةَ مَنْ يُنكرُ مضمونَ الخبرِ؛ لأنَّهم لَمَّا عبَدوا غيرَ اللهِ، كان حالُهم كحالِ مَنْ يُنكرُ أنَّ اللهَ هو الَّذي مكَّنَهم من الأرضِ، أو كحالِ مَنْ يُنكرُ وقوعَ التَّمكينِ من أصلِه[2].

بلاغةُ المجازِ أو الكنايةِ في ﴿مَكَّنَّٰكُمۡ﴾:

جاءَ معنَى التَّمكينِ بالإقْدارِ على التَّصرُّفِ والتَّغلُّبِ على المصاعبِ

الأصلُ في التَّمكينِ جعلُ الشَّيءِ في مكانٍ، وهو يُطلقُ على الإقْدارِ على التَّصرُّفِ على سبيلِ الكنايةِ، فهو مُستعمَلٌ هنا في معناه الكِنائيِّ لا الصَّريحِ، أي: جَعلْنا لكم قُدرة، أي: أَقْدرْناكم على أمورِ الأرضِ، وخوَّلناكمُ التَّصرُّفَ في مخلوقاتها، وذلكَ بما أَودعَ اللهُ في البشرِ من قوَّةِ العقلِ والتَّفكيرِ الَّتي أهَّلتْهم لسيادةِ العالمِ، والتَّغلُّبِ على مصاعبِه[3]. ويمكنُ أن يكونَ على المجازِ على سبيلِ الاستعارةِ التَّصريحيَّةِ، بتشبيهِ قدرتهم على التحكُّمِ في الأرضِ بحالِ الشَّيءِ المتمكِّنِ بجامعِ قوَّةِ الرُّسوخِ.

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/324، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/33.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/33.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/33 - 34.

الانصراف بالمعنى من الحقيقةِ إلى المجازِ أمكنُ في البيانِ وأرسخُ

دَلالةُ الحرفِ ﴿فِي﴾ في قولِه: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾:

دلَّ إدخالُ ﴿فِي﴾ على كلمةِ ﴿ٱلْأَرْضِ﴾، على أنَّ المرادَ بالتَّمكينِ المعنَى المجازيُّ، وليس الحقيقيَّ وهو جعلُ المكانِ في الأرض؛ لأنَّ قولَه: ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾ يمنعُ ذلك؛ لأنَّه لو كانَ كذلكَ؛ لقالَ: ولقد مكَّنَّاكُمُ الأرضَ، وقد قالَ تعالى عن عاد: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ﴾ [الأحقاف: 26]، أي: جَعلنا ما أَقْدَرْناهم عليه أعظمَ ممَّا أَقدرْناكم عليه، أي: في آثارِهم في الأرض، أمَّا أصلُ القرارِ في الأرضِ، فهو صراطٌ بينَهما[1].

معنَى (ال) في لفظ ﴿ٱلْأَرْضِ﴾:

تمكينُ الإنسانِ في الأرضِ للشُّكرانِ، لا للكفرانِ

(ال) التعريف في كلمة ﴿ٱلْأَرْضِ﴾ من قوله: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ للعهدِ، أي: الأرضِ الَّتي قالَ اللّٰهُ عنها مخاطبًا ملائكته: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: 30]، وهي الَّتي أَهْبطَ إليها آدمَ عليه السلام وزوجَه، وأَهبطَ معهما إبليسَ (لعنه اللّٰه)، قالَ ﷻ: ﴿وَقُلْنَا ٱهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾﴾ [البقرة: 36]، وجعلَ فيها المعايشَ من طعامٍ وشرابٍ وسائرِ أسبابِ الحياة[2].

فائدةُ مجيء الجارِّ والمجرورِ في قوله: ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾:

تسخيرُ المخلوقاتِ لخدمةِ الإنسانِ، لا للكفرِ والشَّنآنِ

أفاد مجيءُ الجارِّ والمجرورِ من قولِه: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أنَّه ليس المرادُ من التَّمكينِ هنا القُوَّةَ والحكم، كالمرادِ في تمكينِ ذي القرنَيْنِ في قولِه تعالى: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [الكهف: 84]؛ لأنَّ ذلكَ ليس حاصلًا بجميع البشرِ إلَّا على تأويل، وإنَّما المرادُ الإقدار على التَّصرُّفِ في مخلوقاتِ الأرضِ، وتسخيرِها لخدمتِكم وإقامةِ عَيْشكُم[3].

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/34.

(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/324.

(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 14/204 - 205، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/324، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/34.

دَلالةُ العطفِ في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ﴾:

مغايرة ما تقدَّمَه من التَّمكين

دلَّ العطفُ في ﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ﴾ على مغايرةِ ما عُطِفَ عليه، وهو ﴿مَكَّنَّٰكُمْ﴾ فليس التَّمكينُ في الجَعْل، وإنَّما الجَعْلُ هنا: الإنْشاءُ والإبداعُ كما سيأتي[1].

معنَى الجَعْلِ في ﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ﴾ وما يترتَّبُ على ذلك من إعرابٍ:

للجَعْل معنيان: الخَلْقُ والتَّصييرُ، وكلاهما مهمَّانِ في التَّمكينِ

قولُه تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ﴾: يجوزُ أن تكونَ بمعنَى (خَلَق)، فتتعدَّى لواحدٍ، فيتعلَّقُ الجارَّان ﴿لَكُمْ فِيهَا﴾ بالجَعْلِ، أوْ بمحذوفٍ على أنَّهما حالان من ﴿مَعَٰيِشَ﴾؛ لأنَّهما لو تأخَّرا لجاز أن يكونا وصفَيْن. ويجوزُ أن تكونَ بمعنى (صيَّرَ) أي: صيَّرنا لكم، فتَتعدَّى لاثْنَيْن أوَّلهما ﴿مَعَٰيِشَ﴾، والثَّاني أحدُ الجارَّيْن، والآخرُ: إمَّا حالٌ؛ فيتعلَّقُ بمحذوف، وإمَّا مُتعلِّقٌ بنفسِ الجَعْل، وهو الظَّاهر[2].

نكتةُ التَّعبيرِ بالجَعْلِ في: ﴿وَجَعَلْنَا﴾:

غرضُ (الجعل) إفادةُ معنَى الإنشاءِ والإبداعِ والتَّسخيرِ

في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ﴾ عبّرَ بالجَعل لأنَّه تصييرٌ وتهيئةٌ بعد الخلق؛ لذا عبَّر به دون الخَلْقِ، أي: أَنْشأنا وأَبْدَعْنا لمصالِحكمْ ومنافِعكم في الأرضِ، أسبابًا تعيشونَ بها، وأَقْدرْناكم على تسخيرِها لكم والتَّصرُّفِ فيها[3].

معنى اللَّامِ وعِلَّةُ تقديم ﴿لَكُمْ﴾ على ﴿فِيهَا﴾:

التَّقديمُ لعنصرٍ من التَّركيبِ على آخرَ، غرضُهُ مزيدُ الاعْتناءِ بالمقدَّمِ

اللَّامُ في ﴿لَكُمْ﴾ هي للتَّعليلِ، أي: لأجلكم، ويمكن أن تكون للتَّخصيص، وأمَّا تقديم شبه الجملة على ﴿فِيهَا﴾؛ فلأنَّ المقصودَ الرئيس هو العنايةُ بالمخاطبينَ قبلَ بيانِ محلِّ هذا الإكرامِ والعناية، وفي تأخير محلِّ المنفعةِ من التَّشويق للمؤَخَّر، فالاعْتناءُ بشأنهِ هنا أتمُّ، والمُسَارعةُ بذكرِه أهمُّ.

---

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/324.

(2) السَّمين الحلبيّ، الدُّرُّ المصون: 5/257، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/324 - 325.

(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/324.

عِلَّةُ تقديمِ شِبْهِ الجملة على المفعول:

التَّقديمُ لإفادةِ الاعْتناءِ بالمقدَّمِ والتَّشويقِ إلى المؤَخَّرِ

تقدَّمتْ شِبهُ الجملة ﴿فِيهَا﴾ على المفعولِ ﴿مَعَٰيِشَ﴾ في قوله: ﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ﴾ لإفادةِ الاعْتناءِ بشأنِ المقدَّم والتَّشويقِ إلى المؤَخَّر، فإنَّ النَّفسَ عندَ تأخيرِ ما حقُّه التَّقديمُ لا سيَّما عند كونِ المُقدَّم مُنبئًا عن منفعةٍ للسَّامعِ، تبقى مُترقِّبةً لورودِ المؤَخَّر، فيتمكَّنُ فيها عند الورودِ فَضْلَ تمكُّنٍ[1].

نكتةُ التَّعبيرِ بـ ﴿مَعَٰيِشَ﴾:

مِن البيانِ تسميَةُ الشَّيءِ باسْمِ سببِهِ على طريقةِ المجازِ

وذلك في قولِهِ تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ﴾، فكلمةُ ﴿مَعَٰيِشَ﴾ مشتقَّةٌ من العَيْش، وهو الحياة، وأصلُ المعيشةِ اسْمُ مصدرِ (عاشَ) قالَ تعالى: ﴿فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ [طه: 124]، وسُمِّيَ به الشَّيءُ الَّذي يحصُلُ به العيش تسميَةً للشَّيءِ باسْمِ سببِهِ على طريقةِ المجازِ الَّذي غَلَبَ حتَّى صارَ مساويًا للحقيقة، وياءُ ﴿مَعَٰيِشَ﴾ أصلٌ في الكلمة؛ لأنَّها عَيْنُ الكلمةِ من المصدر (عَيْش) فوزنُ مَعيشةٍ مَفْعِلةٌ، ومَعايشُ مَفاعِل، فحقُّها أنْ يُنطَقَ بها في الجمع ياءً ألَّا تُقلبَ همزة[2].

الموقعُ النَّحْويُّ لـ ﴿قَلِيلًا﴾:

صفةٌ لمصدرٍ أو لظرفِ زمانٍ محذوفين

قولُه تعالى: ﴿قَلِيلًا﴾ فيه ثلاثةُ وجوهٍ إعرابيَّة: الأوَّلُ: صفةٌ لمصدرٍ محذوف، دلَّ عليه ﴿تَشْكُرُونَ﴾، أي: تشكرون شكرًا قليلًا تشكرون، والثَّاني: صفةُ ظرفِ زمانٍ محذوفٍ أيضًا، أي: زمانًا قليلًا تشكرون لا كثيرًا[3]، والثَّالث: حالٌ من ضمير المخاطَبين[4].

الموقعُ البيانيُّ لقوله: ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾:

هذه الجملةُ حاليَّةٌ

جملةُ ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ جملةٌ حاليَّةٌ من قولِه: ﴿مَكَّنَّٰكُمْ﴾ و﴿جَعَلْنَا لَكُمْ﴾.

---

(1) أبو السُّعود، الإرشاد: 2/324.

(2) الزَّمخشري، الكشاف: 2/68، والعكبري، الإملاء: 1/269، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/34.

(3) الزَّمخشري، الكشاف: 2/66، والسَّمين الحلبي، الدُّرُّ المصون: 5/546، وأبو السُّعود، الإرشاد: 2/320.

(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/53.

فالَّذين مكَّنهمُ اللّٰهُ في الأرض، وجعلَ لهم فيها أسبابَ المعايش، وأقدَرهُمْ على التَّصرُّف فيها؛ لَيْسُوا إلَّا قليلي الشُّكر لهذه النِّعم، والمصدرُ المؤوَّلُ في محلِّ الفاعل بـ ﴿قَلِيلًا﴾ فهي حالٌ سببيَّةٌ.

ويجوزُ أن تكونَ جملةُ ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ تذييلًا مسوقًا لبيانِ سوءِ حالِ المخاطَبين وتحذيرِهم ممَّا هم فيه من قلَّةِ شكرِ اللّٰهِ على نعمه[1].

معنَى ﴿مَّا﴾ في ﴿قَلِيلًا مَّا﴾:

﴿مَّا﴾ هنا مصدريَّةٌ موصولةٌ بالفعلِ بعدَها، والتَّقديرُ: قليلًا شُكرُكم[2].

(مـا) هنا مصدريَّةٌ أو مزيدةٌ لتأكيدِ القِلَّةِ

ويمكنُ أنَّ (ما) المصدريَّة هذه وما بعدَها بتأويلِ مصدرٍ مُبتدأٌ مؤخَّر، والتَّقديرُ: زمنًا قليلًا شكرُكم، أي: إنَّهم لا يقعُ شكرُهم إلَّا في بعضِ الأحيان.

ويمكنُ أنْ تكونَ (ما) مزيدةً لتوكيدِ القِلَّة[3].

وقد قيل: إنَّ ﴿مَّا﴾ هذه نافية، وهو بعيد؛ لأنَّ (ما) لا يعملُ بعدَها فيما قبلها عند البصريِّين، وعلى تقديرِ تسليمِ ذلك، فيصيرُ المعنَى: ما تشكرونَ قليلًا، وليس بطائل[4].

بلاغةُ التَّعبيرِ بالمضارع في ﴿تَشْكُرُونَ﴾:

تَجَدُّدُ الشُّكرِ

الفعلُ المضارعُ يُفيدُ التَّجدُّدَ والاسْتمراريَّة، وهو المعنى في ﴿تَشْكُرُونَ﴾، لكنَّ إسنادَ ﴿قَلِيلًا﴾ إليه أفقدَه دَيْمومةَ الشُّكر، وصيَّره إلى معنَى أنَّهم قدْ يشكرون، ثمَّ يُعرِضونَ عن الشُّكرِ في غالبِ أحوالِهم، وهذا يعني: أنَّهم في الحقيقةِ مستمرُّون في غَفْلتِهم، دائمونَ في إعراضهم[5].

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/320، 325، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/17، 35.
(2) ابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 2/373، والسَّمين الحلبي، الدُّرُّ المصون: 5/246.
(3) الزَّمخشري، الكشاف: 2/66، والشَّوكاني، فتح القدير: 2/264.
(4) السَّمين الحلبي، الدُّرُّ المصون: 5/246.
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/17.

نكتةُ حذفِ متعلِّقِ الشُّكرِ:

حُذِفَ في الجملة السَّابقةِ مفعولُ ﴿تَشْكُرُونَ﴾ أي: تشكرون اللّه، أو: تشكرون رسله، أو: النِّعَمَ.

نكتةُ التَّعبيرِ بالشُّكرِ في هذا الموضعِ والتَّذكُّرِ في الموضعِ السَّابق:

اسْتصحابُ قلَّةِ الشُّكرِ لقلَّةِ التَّذكُّرِ

لَمَّا أمرَ اللّهُ عبادَه باتِّباع ما أنزَله عليهم في القرآنِ، ونهاهُم أنْ يتَّبعوا من دونهِ أولياءَ، ولكنَّهم كانوا قليلي التَّذكُّرِ أو عَديميه، ثمَّ منَّ وأنعمَ عليهم بالتَّمكينِ، وخَلقَ لهم أسبابَ المعايشِ في حياتِهم وأَقْدرَهم على التَّصرُّفِ بها وتسخيرِها لمصالِحهم - ختمَ بمقابَلتِهم لهذه النِّعم بالشُّكرِ القليل، أو عدمِ الشُّكر، تعبيرًا فائقًا بأنَّ مَنْ لا يتذكَّرُ أو أنَّ تذكُّره قليل لا يمكنُ أن يشكر؛ لأنَّ المتذكِّرَ يتَّعظُ، ويعتبرُ فيشكر، وإلَّا فلا، وذلكَ لأنَّ القِلَّة قد تكونُ كنايةً عن العَدَم على طريقةِ الكلامِ المُقتَصَدِ اسْتنزالًا لتذكُّرِهم، فإذا عُدِمَ التَّذكُّرُ؛ عُدِمَ الشُّكرُ، وإذا قلَّ التَّذكُّرُ؛ قلَّ الشُّكر، ولذلكَ جاءَ التَّعقيبُ بهذه الآيةِ بليغًا غايةَ البلاغةِ بعدَ آيةِ: ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ۝٣﴾ [الأعراف: 3]، وبعدَ آية: ﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا﴾ [الأعراف: 4]، إيماءً إلى أنَّ إهمالَ تذكُّرِ النِّعمةِ ومَنْ أَنْعمَ بها يُفضي إلى إهمالِ شُكرِ النِّعمة، ويُعرِّضُ صاحبَها لزوالِها، وهو ما دلَّ عليه قولُه تعالى: ﴿أَهْلَكْنَاهَا﴾[1].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(الاستخلاف) و(الاستعمار) و(الاستقرار) و(التَّمكين):

التَّمكينُ يقتضي ما لا يقتضيه غيرُه من إعطاءِ ما يصحُّ به الفعلُ، ويقومُ من آلاتٍ وعُدَدٍ وقوًى

خلفُ: ضدُّ القُدَّام، قالَ تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ [البقرة: 255]، وخَلَفَ: ضدُّ تقدَّمَ وَسَلَف، والخِلافةُ: النِّيابةُ عن الآخرِ، إمَّا لِغَيْبةِ المنوبِ عنه، وإمَّا لموتِه، وإمَّا لعجزِه، وإمَّا لتَشريفِ المُسْتَخلَف، وعلى هذا الوجهِ الأخيرِ اسْتخلَفَ اللّهُ أولياءَه في الأرض، قالَ تعالى:

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/35.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ﴾ [الأنعام: 165]، وقالَ تعالى: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [ص: 26]، وقالَ ﷻ: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [النُّور: 55][1].

والعِمارَةُ: نقيضُ الخراب، ويُقالُ: عَمَرَ أرضَه يعمُرُها عِمارةً، قالَ تعالى: ﴿وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ [التَّوبة: 19]، وأَعْمَرتُه الأرضَ واسْتَعمرْتُه: إذا فَوَّضْتَ إليه العِمارة، قالَ تعالى: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [هود: 61]، أي: جعلَكم عُمَّارها[2].

والاستقرار من: قَرَّ في المكانِ يقِرُّ قرارًا، إذا ثبتَ ثبوتًا جامدًا، وأصلُه من القُرِّ: وهو البَرْد، وهو يقتضي السُّكون، والحرُّ يقتضي الحركة[3]، قالَ تعالى: ﴿وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ﴾ [الأحزاب: 33]، أصلُه: اقْرَرْنَ فحذفَ إحدَى الرَّاءَيْن تَخْفيفًا[4]، ويومُ القَرِّ: بعدَ يوم النَّحر، لاسْتقرارِ النَّاس فيه بمِنَى، واسْتقرَّ فُلان؛ إذا تَحرَّى القَرار، قالَ تعالى في الجنَّة: ﴿خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٤﴾﴾ [الفرقان: 24][5].

والمكانُ عند أهلِ اللُّغة: الموضعُ الحاوي للشَّيء، ويُقالُ: مَكَّنْتُه ومكَّنتُ له فتمكَّن، قالَ تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف: 10][6].

والمكانُ مَفعلٌ من الكون، ولكثرتِه في الكلامِ أُجْرِيَ مَجْرَى فَعال[7]، فقيل: تمكَّنَ وتَمَسْكَنَ، نحو: تمنزَل[8].

والتَّمكينُ: إعطاءُ ما يصحُّ به الفعلُ كائنًا ما كان من الآلات والعُدَدِ والقُوَى، والتَّمكينُ لا يعني: التَّمليك، فليس كُلُّ مَنْ مُكِّنَ مِنْ شيءٍ يكونُ قد مَلَكه[9].

(1) الرّاغب، المفردات، وابن منظور، اللِّسان: (خلف).
(2) الرّاغب، المفردات، وابن منظور، اللِّسان: (عمر).
(3) الرّاغب، المفردات، والفيروزابادي، القاموس المحيط: (قرر).
(4) الفرَّاء، معاني القرآن: 2/342.
(5) الرّاغب، المفردات، والفيروزابادي، القاموس المحيط: (قرر).
(6) الرّاغب، المفردات، والفيروزابادي، القاموس المحيط: (مكن).
(7) الخليل، العين: (مكن).
(8) الرّاغب، المفردات: (مكن).
(9) العسكري، الفروق، ص: 142.

الجَعْل والخَلْق:

الجَعْل: لفظٌ عامٌّ في دَلالاتِه، وأوسَعُ في تصريفاتِه من (الخَلْق)

جَعَلَ: لفظٌ عامٌّ في الأفعالِ كلِّها، وهو أعمُّ من فَعَلَ وصَنَعَ وسَائِرِ أخواتِها.

ويتصرَّف على خمسة أوجه: الأوَّل: يَجري مَجْرى صارَ وطَفِقَ، فلا يتعدَّى. والثَّاني: يَجري مَجْرَى أَوْجَدَ، فيتعدَّى إلى مفعولٍ واحد، قال تعالى: ﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَۖ﴾ [الأنعام: 1]. والثَّالثُ: في إيجادِ شيءٍ من شيءٍ وتكوينِه منه، نحو: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا﴾ [النَّحل: 72]. والرَّابعُ: في تَصْييرِ الشَّيءِ على حالةٍ دونَ حالةٍ، نحو قولِه تعالى: ﴿ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشٗا﴾ [البقرة: 22]، وقولِه تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا﴾ [الزُّخرف: 3]. والخامسُ: الحكمُ بالشَّيء على الشَّيء، حقًّا كان أو باطلًا، فأمَّا الحقُّ؛ فنحوُ قولِه تعالى: ﴿إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيۡكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ٧﴾ [القصص: 7][1].

وأمَّا الباطلُ كما في قولِه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ جَعَلُواْ ٱلۡقُرۡءَانَ عِضِينَ ٩١﴾ [الحجر: 91]، أي: مُتفرِّقًا[2].

والخلقُ في اللُّغة: التَّقدير، يُقالُ: خَلَقْتُ الأديمَ؛ إذا قدَّرْتَه خُفًّا أو غيره، وبابُه (نصَرَ): خلَقَ يَخْلُقُ، والخَليقة: الخَلائقُ، يُقالُ: هم خليقةُ اللّه، وهم خَلْقُ اللّه، وهو في الأصلِ مَصْدر، وخَلَقَ الإفكَ يخلُقُه، واخْتَلَقَه وتَخلَّقَه: افْتَراهُ، والمُتَخَلِّقُ: المُعتدِلُ في طِباعه.

والنَّاسُ يقولون: لا خالقَ إلَّا اللّه، والمرادُ أنَّ هذا اللَّفظَ لا يُطلَقُ إلَّا للّه، إذْ ليس أحدٌ إلَّا وفي فعلِه سَهْوٌ أو غَلَطٌ يَجري منه على غيرِ تقديرٍ، غيرُ اللّهِ ﷻ[3].

(1) الرّاغب، المفردات: (جعل).
(2) العسكري، الفروق، ص: 224 - 225، والرّازي، مختار الصِّحاح: (خلق).
(3) الرّاغب، المفردات، وابن منظور، اللِّسان: (جعل).

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿١١﴾﴾ [الأعراف: 11]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

التَّرغيبُ في قَبُولِ دَعْوَةِ الأنْبِيَاءِ يَكْتَنِفُهُ التَّرهيبُ مِنَ النِّقَمِ وَالتَّنْبيهُ عَلى النِّعَمِ

رغَّبَ ﷻ الأُمَمَ في قبولِ دعوةِ الأنبياءِ - عليهم السلام - بالتَّخويفِ أوَّلًا ثمَّ بالتَّرغيب ثانيًا، والتَّرغيبُ إنَّما كان لأجلِ التَّنبيه على كثرةِ نِعَم اللهِ تعالى على الخلق، فبدأ بشرحِ تلك النِّعم بقولِه: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ﴾ ثمَّ أَتْبَعَه بذكرِ أنَّه خلقَ آدمَ وجعلَه مسجودًا للملائكة.

والإنْعامُ على الأبِ يَجري مَجْرَى الإنعامِ على الابنِ، والمقصودُ تقريرُ أنَّ مع هذه النِّعم العظيمة لا يليق بالأُمَمِ التَّمرُّدُ والجحود؛ بل الأحقُّ والأَوْفى هو شكرُ المنعمِ على سابغِ نِعمه، وأعظمُ الشُّكرِ هو توحيدُه تعالى فلا يُعبدَ معه سواه، والتزامُ دينه وشريعتِه ودَعْوَةِ أنبيائه ورُسُلِه[1].

قِصَّةُ السُّجودِ لآدَمَ وَمَا فيها مِنِ امْتِثَالٍ وَامْتِنَاعٍ وَأَمْرُ اللهِ آدَمَ وَنَهْيُهُ وَالمِنَّةُ عَلَى الخَلْقِ

وأيضًا لما تَقَدَّمَ في الآيات السابقة ما يَدُلّ على تَقْسيم المُكَلَّفين إلى طائعٍ وعاصٍ، أَخَذَ يُنَبِّهُ على أنَّ هذا التقسيمَ كان في البَدْءِ الأَوَّلِ مِنْ أَمْرِ اللهِ تعالى الملائكةَ بالسُّجودِ فامْتَثَلَ مَنِ امْتَثَلَ وامْتَنَعَ مَنِ امْتَنَعَ، ومِنْ نَهْيِه تعالى آدَمَ وأمرِه، وما وقَعَ مِن آدمَ فحكى عنه في هذه الآية وما يليها، مُستفتحًا ببيانِ مَوضع الاعتبار وإظهار المِنَّةِ على الخلق بالإيجاد من العَدم، والتّصوير في هذه الصورة البَديعة[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿صَوَّرْنَٰكُمْ﴾: صَوَرَ: الصَّادُ والواوُ والرَّاءُ كلماتٌ كثيرةٌ

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 14/205، والبقاعي، نظم الدُّرر: 7/362.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 5/15.

مُتباينةُ الأصول، ومن ذلك الصُّورة، صورةُ كلِّ مخلوق، والجمعُ صُوَر، وهي هيئةُ خِلْقتِه، واللّهُ تعالى البَارِئُ المصوِّرُ، قالَ تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ﴾ [الحشر: 24]، ويُقالُ: رجلٌ صَيِّرٌ إذا كان جميلَ الصُّورة[1].

والصُّورةُ: ما يُنْتَقَشُ به الأعيانُ، ويَتميَّزُ بها عن غيرِها، وذلك ضَرْبان: أحدُهما: محسوسٌ يُدْرِكُه الخاصَّةُ والعامَّة، بلْ يُدْرِكُهُ الإنسانُ وكثيرٌ منَ الحيوان، كصورةِ الإنسانِ والفَرَس والحِمَارِ بالمعايَنَةِ. والثَّاني: معقولٌ يدركُه الخاصَّةُ دونَ العامَّة، كالصُّورةِ الَّتي اخْتُصَّ الإنسان بها من العقل، والرَّوِيَّةِ، والمعاني الَّتي خُصَّ بها شيءٌ بشيءٍ. وإلى الصُّورتين أشارَ بقوله تعالى: ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ [غافر: 64][2]، وبقولِه تعالى في الآيةِ الَّتي معنا: ﴿ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ﴾ [الأعراف: 11]، أي: صوَّرناكم في أرحامِ النِّساء، أو خلقَ الإنسانَ في الرَّحِمِ، ثمَّ صوَّرهُ، فَشَقَّ سمعَه وبصَرَه وأصابعَه[3].

2) ﴿إِبْلِيسَ﴾، بَلَسَ: الباءُ واللَّامُ والسِّينُ أَصْلٌ واحد يدُلُّ على اليأسِ، يُقال: أَبْلَسَ إذا يَئِسَ، قالَ اللّهُ تعالى: ﴿إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ۝٧٧﴾ [المؤمنون: 77]، ومن ذلك اشْتُقَّ اسْمُ إبْليس، كأنَّه يَئِسَ من رحمةِ اللّه.

والإبلاسُ: الحُزْنُ المعترضُ من شدّةِ البأس، يُقال: أَبْلَسَ، ومنه اشْتقَّ إبليسُ فيما قيل، قالَ ﷻ: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبْلِسُ ٱلْمُجْرِمُونَ ۝١٢﴾ [الرُّوم: 12][4].

ويمكنُ أن يكونَ المعنيان داخلَينِ في تركيبة اسْمِ إبْليسَ - لعنه اللّه - فهو آيسٌ من رحمة اللّه، شديدُ الحُزن على اعتراضه على أمرِ اللّه وكِبْره عليه، وكيف لايكون كذلك، وقد لعنَه اللّهُ وطردَه من رحمته؟ لكنَّ حُزنَه ليس حُزنَ ندَمٍ على كبرِه وتحدِّيه لأمرِ اللّه ﷻ، ولو كان بعد لعن اللّهِ له؛ فلا فائدةَ منه مَرجُوَّة.

المَعْنى الإجْماليُّ:

يُنَبِّهُ اللّهُ تعالى بني آدمَ في هذا المقام على شرفِ أبيهم آدمَ عليه السلام ويُبيِّن لهم عداوةَ

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (صور).
(2) الرّاغب، المفردات: (صور).
(3) ابن جرير، جامع البيان: 8/127 - 128، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 2/188.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (بلس)، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، اللّسان: (بلس).

عدوِّهم إبليس، وما هو مُنْطَوٍ عليه من الحَسَدِ لهم ولأبيهم آدم؛ ليحذروه، ولا يتَّبعوا طرائقَه، وذلكَ أنَّه تعالى لَمَّا خلقَ آدمَ ﷺ بيده من طينٍ لازبٍ، وصوَّرَه بشرًا سَويًّا ونَفخَ فيه من رُوحه، أمرَ الملائكةَ بالسُّجود له تعظيمًا لشأنِ اللهِ تعالى وجلالِه، فسمعوا كلُّهم وأطاعوا إلَّا إبليسَ لم يكنْ من السَّاجدين[1].

تَبْيِينُ اللهِ تَعَالَى عَدَاوَةَ إِبْلِيسَ لِخَلْقِهِ وَلِأَبِيهِمْ آدَمَ ﷺ وَالتَّحْذِيرُ مِنْهَا

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ عطفِ الآيةِ على سابقتِها:

هذا العطفُ نستلُّه من مناسبةِ الآيةِ لما قبلَها، حيث حدَّثَنا بيانُ اللهِ، فقالَ: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ فجاء العطفُ تذكيرًا بنعمةِ إيجاد النَّوع، وهي نعمةُ عنايةٍ ورعايةٍ عظيمة؛ لأنَّ الوجودَ أَشْرَفُ من العَدَم، بغضِّ النَّظَرِ عمَّا يعرِضُ للموجودِ من الأكْدارِ والمتاعب، وبنعمةِ تفضيلِه على النَّوْع بأن أمرَ الملائكةَ بالسُّجود لأصله. وأُدمجَ في هذا الامْتنانِ تنبيهٌ وإيقاظٌ إلى عداوةِ الشَّيطانِ لنوعِ الإنسان من القِدَم، ليكونَ ذلكَ تمهيدًا للتَّحذيرِ من وسْوَسَته وتضليلِه، وإغراءً بالإقْلاعِ عمَّا أَوْقعَ فيه النَّاسَ من الشِّركِ والضَّلالة، وهو غرضُ السُّورة الَّتي سَعتْ لترسيخِه والدَّعوةِ إليه، وذلكَ عندَ قوله تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ﴾ [الأعراف: 27]، وما تلاه من الآيات، فلذلكَ كان هذا بمنزلةِ الاسْتدلالِ وُسِّطَ في خلالِ الموعظة[2].

للتَّذكيرِ بنعمٍ سابقةٍ، وأخصُّها الإيجادُ، وللتَّنبيه إلى عداوةِ الشَّيطانِ للحذرِ منه

المرادُ بالخطابِ في الآيةِ:

الخطابُ في الآيةِ للنَّاسِ كلِّهم توطئةٌ لقولِه فيما يأتي: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ﴾ [الأعراف: 27]، ويدخل فيه المشركون؛ لأنَّهم الغَرضُ الأساسُ في هذه السُّورة، فهم

الخطابُ للنَّاسِ كافَّةً

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 2/188، والسَّعدي، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 238.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/325، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/36.

الَّذين سوَّلَ لهمُ الشَّيطانُ كُفرَ هذه النِّعم، لقولِه عَقِبَ ذلك: ﴿وَإِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا﴾ [الأعراف: 28]، وقولِه فيما تقدَّم: ﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ۝٣﴾ [الأعراف: 3][1].

دَلالةُ المؤكِّداتِ في الآيةِ:

دلَّت المؤكِّداتُ على تحقيقِ كفرِهم باللهِ إلهًا وخالقًا، وبيانِ تناقُضِهم لإعادتِهم إلى الحقِّ

تأكيدُ الخبرِ بلامِ القَسم وحرفِ (قد) المفيدِ التَّحقيقَ، تنزيلٌ للمُثبت مَنزلةَ مَنْ يُنكرُ مضمونَ الخبر؛ لأنَّهم لَمَّا عبدوا غيرَ اللهِ كان حالُهم كحالِ مَنْ يُنكرُ أنَّ اللهَ هو الَّذي خلقَهم وصوَّرهم، ولبيانِ أنَّ من يُشركونَه معه في العبادةِ أو يجعلونَه واسطةً تُقرِّبهم إلى اللهِ زُلْفى، كما كانوا يدَّعون، هو مخلوقٌ مثلُهم، فكيف يعبدونَه من دونِ اللهِ، أو يشركونَه معه في العبادة؟

قالَ تعالى مبيِّنًا تناقضَهم في هذه القضيَّة المهمَّة: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [لقمان: 25]، ثمَّ هم أنفسُهم قالَ اللهُ عنهم: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزُّمر: 3][2].

معنَى ﴿ثُمَّ﴾:

تراخيَ التَّصويرِ عنِ الخَلْق

عُطِفتْ جملةُ ﴿صَوَّرْنَٰكُمْ﴾ بـ﴿ثُمَّ﴾ الدَّالةِ على تَراخي رُتبةِ التَّصويرِ عن رُتبة الخلق، والمعنَى: إنَّا بَدأْنا خلقَ آدمَ، ثمَّ صوَّرناه، فابْتداءُ خَلْق آدمَ التراب، كما قالَ تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ﴾ [آل عمران: 59]، ثمَّ وقعتِ الصُّورةُ بعد ذلك، أي: هذا أصلُ خلقكم، ثمَّ إنَّما هي لما بعدُ[3].

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/36 - 37.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/33، 36.

(3) الزَّجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 2/321، 322، وقد نَعى الزَّجّاج على من ذهب إلى أن (ثمّ) هنا في معنى الواو، فقال: "زعم الأخفش أنَّ (ثمّ) ههنا في معنى الواو، وهذا خطأ لا يجيزه الخليل وسيبويه، وجميع من يُوثَق بعربيَّته، إنَّما (ثمَّ) للشيء الَّذي يكون بعد المذكور قبله لا غير"، وينظر: السَّمين الحلبي، الدُّرُّ المصون: 5/260.

فائدةُ عطفِ التَّصويرِ على الخَلق:

لبيانِ أنَّ التَّصويرَ إتمامٌ للخَلقِ على أَتْقَنِ صورة

عُطفت جملةُ ﴿صَوَّرْنَٰكُمْ﴾ على جملةِ ﴿خَلَقْنَٰكُمْ﴾، لبيانِ أنَّ التَّصويرَ حالةُ كمالٍ في الخلق، بأنْ كان الإنسانُ على الصُّورةِ الإنسانيَّةِ المتقنَةِ حُسْنًا وشرَفًا، بما فيها من مشاعرِ الإدراكِ والتَّدبير، سواءٌ أَكَانَ التَّصويرُ مقارنًا للخَلْقِ كما في خَلقِ آدم، أم كانَ بعدَ الخلقِ بمدَّة، كما في تصوير الأجنَّةِ من عظامٍ ولحمٍ وعصبٍ وعروقٍ ومشاعر، كقولِه تعالى: ﴿فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا﴾ [المؤمنون: 14][1].

نكتةُ تعلُّقِ فعلَي الخلقِ والتَّصوير بضميرِ المخاطَبين:

هي توفيةٌ لمقامِ الامْتنان، وتأْكِيدُ وُجُوبِ الشُّكْرَان

نُسبَ الخلقُ والتَّصويرُ إلى المخاطَبين مع أنَّ المرادَ بهما خلقُ آدمَ وتصويرُه ﷺ حتمًا، تَوْفيةً لمقامِ الامْتنانِ حقَّه، وتأكيدًا لوجوبِ الشُّكر عليهم بالرَّمز إلى أنَّ لهم حظًّا من خَلْقِه ﷺ وتصويره، لِمَا أنَّهما لَيْسا من الخصائصِ المقصورةِ عليه ﷺ كسجودِ الملائكة له ﷺ بل من الأمورِ السَّاريةِ إلى ذُرِّيته جميعًا إذِ الكُلُّ مخلوقٌ ضمن خَلْقِه وتصويرِه، أي: خلقْنا أباكم آدمَ طينًا غيرَ مُصوَّر، ثمَّ صوَّرناه أبدعَ تصويرٍ وأحسنَ تقويمٍ سارَ إليكم جميعًا[2].

نكتةُ التَّعبيرِ وبلاغةُ الإيجاز في: ﴿ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾:

لبيانِ أنَّ إيجابَ السُّجودِ للملائكة كان بعدَ فضل اللهِ على آدمَ بخلقِه وتصويرِه بشرًا سويًّا

في قولِه تعالى: ﴿ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ﴾ دليلٌ واضحٌ على أنَّ المخلوقَ والمصوَّرَ هو آدمُ ﷺ ومعنَى الكلام: خلَقْنا أَصْلَكم، وصوَّرناهُ، فبرَزَ موجودًا مُعيَّنًا بآدم، فإنَّ التَّسميةَ طريقٌ لتعيين المسمَّى، ثمَّ أَظْهَرْنا فضلَه وبديعَ صُنعِنا فيه، فقُلْنا للملائكة: اسْجدوا له، فوقعَ إيجازٌ بديعٌ في نَسْجِ الكلام[3].

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/325 - 326، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/36.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/325، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/37.
(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/325، وابن عاشور، التَّحري والتَّنوير: 8/37.

دَلالةُ ﴿ثُمَّ﴾ في قولِه: ﴿ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾:

دلَّت (ثُمَّ) على التَّراخي الرُّتْبِيِّ

﴿ثُمَّ﴾ هنا عاطفةُ الجملةِ على الجملة، فهي مُقيَّدةٌ للتَّراخي الرُّتْبي لا للتَّراخي الزَّماني، وذلك أنَّ مضمونَ الجملةِ المعطوفةِ هنا أرقَى رُتبةً من مضمونِ الجملةِ المعطوفِ عليها[1].

معنى (ال) في ﴿لِلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾:

(الـ) في (الملائكة) للجنسِ أو للعهدِ

تعريفُ الـ في ﴿لِلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ للجنسِ، أي: لجميع الملائكة، أي: قلنا للملائكةِ جميعِهم اسْجدوا لآدم،

وللعهد، أي: الملائكة الَّذين عَهِدَ إليهم اللّٰهُ تعالى بعدَ خلقِ اللّٰهِ لآدم عليه السلام في قولِه تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: 30]، ثمَّ تعليمُ اللّٰهِ آدمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثمَّ عَرْضُهُمْ على الملائكةِ إلى أن قالَ تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِآدَمَ فَسَجَدُوٓاْ﴾ [البقرة: 31 - 34].

ويعني هذا: أن يكونَ المأمورون هم الملائكة الَّذين كانوا في المكانِ الَّذي خُلِقَ فيه آدم، ويَحْتَمِلُ اسْتِغراقَ الجنسِ كما تقدَّم، وطريقُ أمرِهم جميعًا وسجودِهم جميعًا لآدمَ لا يعلمُه إلَّا اللّٰه؛ لأنَّ طُرُق علمِهم بمرادِ اللّٰهِ عنهم في العالمِ العلويِّ لا تُقاسُ على المألوفِ في عالَمِ الأرض[2].

دَلالةُ الأمرِ في ﴿ٱسْجُدُواْ﴾:

الأمرُ للوجوبِ، ولا يُعطي دَلالةً خاصَّةً في مكانِ هذا الأمر

الأمرُ يقتضي الوجوبَ، وأَمْرُ اللّٰهِ لابدَّ أن يُنفَّذَ خاصَّةً من قِبَلِ الملائكة الَّذين قالَ اللّٰهُ عنهم: ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۝٦﴾ [التَّحريم: 6].

وأَمْرُ اللّٰهِ الملائكةَ بالسُّجودِ لآدمَ إكرامًا له وإظهارًا لفضلِه،

(1) السَّمين الحلبي، الدُّرُّ المصون: 5/261، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/38.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 2/326، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/38.

وهذا الأمرُ لا يقتضي أن يكونَ آدمُ قد خُلِقَ في العالمِ الَّذي خُلِقَ فيه الملائكة، بل ذلك مُحْتمِل، وكذلك فإنَّ الآيةَ ليستْ نصًّا في أنَّ آدمَ خُلِقَ في السَّماوَاتِ، ولا أنَّه في الجنَّة، وإن كانَ ظاهرُها يقتضي ذلك، وبهذا الظَّاهرِ أخذَ جمهورُ أهلِ السُّنَّة[1].

معنَى اللَّام في ﴿لِآدَمَ﴾:

اللَّامُ للتَّعليلِ أو الاستحقاقِ

دلَّتْ هذه التَّسميةُ على أنَّ المخلوقَ والمصوَّرَ هو آدم، ومعنَى الكلام: أمرَ اللّهُ الملائكةَ بالسُّجودِ لأجل آدم، أو لأنَّه مستحقٌّ لذلك بما هيَّأه اللّهُ فيه لهذه المهمَّة بظهورِ فَضْلِ ما علَّمه اللّهُ من الأسماءِ مالم يُعلِّمه الملائكة، فأظهرَ اللّه فضلَ بديع صنعِه فيه[2].

معنَى الفاءِ في ﴿فَسَجَدُوٓاْ﴾:

الفاءُ للتَّعقيب والتَّرتيب

الفاءُ في قولِه تعالى: ﴿فَسَجَدُوٓاْ﴾ للتَّرتيبِ والتَّعقيبِ، أي: فبادَروا كلُّهم بالسُّجودِ امْتثالًا لأمرِ اللّهِ ﷻ من غيرِ تلعثُم[3].

نوعُ الاسْتثناءِ في قولِه: ﴿إِلَّآ إِبۡلِيسَ﴾:

الاسْتثناءُ هنا متَّصلٌ أو منقطع

الاسْتثناءُ في قولِه تعالى: ﴿إِلَّآ إِبۡلِيسَ﴾ استثناءٌ مُتَّصلٌ لما أنَّه كان جنِّيًّا مفردًا مغمورًا بألوفٍ من الملائكة مُتَّصفًا بصفاتِهم، فَغَلَبوا عليه في ﴿فَسَجَدُوٓاْ﴾، ثمَّ اسْتثني واحدٌ منهم من السُّجود، والأفضل أن يكونَ اسْتثناءً منقطعًا، فحينئذٍ يكون مُتَّصلًا بما بعدَه، أي: لكنَّ إبليسَ لم يكن من السَّاجدين[4].

الموقعُ النَّحويُّ والبيانيُّ لقوله: ﴿لَمۡ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾:

هذه الجملة إمَّا حالٌ، أو اسْتئنافيَّةٌ

جملةُ ﴿لَمۡ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ حالٌ مُؤكِّدةٌ لمضمونِ عاملِها، وهو ما دلَّتْ عليه أداةُ الاسْتثناء، لما فيها من معنَى: أَستثني؛ لأنَّ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/38.
(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 7/364، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/37.
(3) البقاعي، نظم الدُّرر: 7/364، وأبو السُّعود، الإرشاد: 2/327.
(4) الزّجّاج، معاني القرآن: 2/322، ومكيّ، مشكل إعراب القرآن: 1/284، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/327.

الاستثناءَ يقتضي ثبوتَ نقيض حكم المُستَثنَى منه للمُستَثنَى، وهو عينُ مدلولِ ﴿لَمۡ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ فكانت الحالُ تأكيدًا[1].

ويمكنُ أن تكونَ هذه الجملةُ استئنافيَّةً مبيِّنَةً كَيْفِيَّةَ عدمِ السُّجودِ المفهومِ من الاسْتثناء، فإنَّ عدمَ السُّجُودِ قد يكونُ للتأمُّل، ثمَّ يقعُ السُّجودُ وبه علمٌ أنَّه لم يقع قطُّ[2].

معنَى ﴿لَمۡ﴾:

النَّفيُ التَّامُّ للسُّجود

دلَّت ﴿لَمۡ﴾ عَلَى الإِخْبَارِ التَّامِّ عن نفيِ سجودِه بجعلِه من غيرِ السَّاجدين، فقلبت معنى المضارعيَّةِ إلى معنى الماضويَّةِ، أي: ما كان ساجدًا، إشارةً إلى أنَّه انْتفى عنه السُّجودُ انْتفاءً شديدًا[3].

نكتةُ التَّعبيرِ بالمضارعِ ﴿يَكُن﴾:

بيانُ تجدُّدِ استمرارِ نكوصِهِ عن أمرِ اللهِ

قولُه: ﴿يَكُن﴾ بصيغةِ المضارعِ تدلُّ على أنَّه أبَى السُّجودَ، وتجدَّدَ إباؤه، واستمرَّ على عصيانِه لأمرِ اللّه، والدَّليلُ المؤكِّدُ أنَّه علَّل عدمَ سجودِه بِصيَغٍ عديدةٍ في القرآن الكريم كلِّها تُجلِّي رفضَه تَنْفيذَ أمرِ اللّهِ بالسُّجودِ لآدم[4].

معنَى ﴿مِّنَ﴾ و(ال) في قوله: ﴿مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾:

لم يكنْ من طائفةِ الملائكةِ السَّاجدين

أشَارَتْ ﴿مِّنَ﴾ إلى معنى التَّبعيض، أي: لم يكن بعضًا من السَّاجدين، ويمكن أن تكون ﴿مِّنَ﴾ ابتدائيَّةً، وأمَّا (الـ)؛ فهي عهديَّةٌ تعود على الملائكة المأمورين بالسُّجود، إشارة إلى أنَّه لم يُقدَّرْ له أن يكونَ من الطَّائفةِ السَّاجدين، أي: انْتفى سجودُه انتفاءً لا رجاءَ في حصولِه بعدُ[5].

---

(1) العكبري، الإملاء: 1/269، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/327، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/38 - 39.

(2) السَّمين الحلبي، الدُّرُّ المصون: 5/261، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/327.

(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/327، وابن عاشور، التَّحرير والتّنوير: 8/39.

(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/39.

(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/39.

بلاغةُ المتشابهِ اللَّفظيِّ مع آياتِ السُّجودِ الأُخرى في القرآن:

اعـتراضُ إبليسَ وتكبُّره على اللهِ ﷻ

في قولِه ﷻ: ﴿ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ بيانُ أنَّ إبليسَ لعنَه اللهُ لم يكنْ ممَّن سجدَ لآدمَ عليه السلام معترضًا على اللهِ متكبِّرًا على الامتثالِ لأمرِه تعالى.

وقد وردَ لهذه الآيةِ نظائرُ في القرآن الكريم في بيانِ عدمِ سجودِ إبليسَ لعنَه اللهُ لآدمَ عليه السلام بصيَغٍ مختلفةٍ وأساليبَ متنوِّعة، ومن هذه الآيات:

﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ۝٣١﴾ [الحجر: 31]، و﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٧٤﴾ [ص: 74]، و﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ۝١١﴾ [الأعراف: 11]، و﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ۝١١٦﴾ [طه: 116].

يتبيَّنُ من خلالِ الآياتِ السَّابقةِ أنَّ بيانَ اللهِ اسْتخدَمَ الفعلَيْن ﴿أَبَىٰ﴾ و﴿ٱسْتَكْبَرَ﴾ في حقِّ إبليس - لعنَه اللهُ - بقولِه: ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ۝١١٦﴾ [طه: 116] وقولِه: ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ﴾ [البقرة: 34] أو بغَيْرِهِمَا.

وفي سورةِ طه وردَ في معصيةِ آدمَ أنَّه نسيَ بقولِه تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ﴾ أي: عن جَهْل، أمَّا إبليسُ فـ﴿أَبَىٰ﴾ [طه: 116] أي: عن عمد.

وفي الحِجْر تميَّزتِ السُّورةُ بالتَّكرارِ لذا جاءَ فيها ﴿أَبَىٰ﴾ [الحجر: 31].

وفي سورة (ص) جاءَ ﴿ٱسْتَكْبَرَ﴾ [ص: 74]؛ لأنَّ السُّورة بُنيتْ على اسْتكبارِ الكَفرةِ وكونِهم ﴿فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ۝٢﴾ [ص: 2].

وسورةُ البقرة جمعتْ بين التَّعبيرَيْن، وفي جميعِ السُّوَرِ جاءَ لفظُ (أبَى) عدا سورة الأعراف و(ص) لم يأتِ فيهما (أبَى).

وجاء السِّياقُ مختلفًا لا يحدثُ فيه لَبْس في سورتي الإسراءِ والكهفِ في قولِه تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ۝٦١﴾ [الإسراء: 61].

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ۝٥٠﴾ [الكهف: 50].

وقولُه في الأعراف: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ﴾ وفي (ص): ﴿قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ﴾ [ص: 75] وفي الحِجْر: ﴿قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ﴾ [الحجر: 32] بزيادةِ ﴿يَٰٓإِبْلِيسُ﴾ في السُّورتَين؛ لأنَّ خطابَه قرُبَ من ذكرِه في هذه السُّورة، وهو قولُه: ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ۝٣١ قَالَ مَا مَنَعَكَ﴾ فَحَسُنَ حَذْفُ حرفِ النِّداءِ والمنَادَى، ولم يقربْ في سورة (ص) قُربَه منه في هذه السُّورة؛ لأنَّ في سورة (ص): ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٧٤﴾ [ص: 74] بزيادةِ ﴿ٱسْتَكْبَرَ﴾ فزادَ حرفَ النِّداء والمنادَى، فقالَ: ﴿يَٰٓإِبْلِيسُ﴾ وكذلك في الحِجْر، فإنَّ فيها: ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ۝٣١﴾ [الحجر: 31] بزيادة ﴿أَبَىٰٓ﴾، فزادَ حرفَ النِّداء والمنادَى، فقالَ: ﴿يَٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ﴾[1].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(إبليس) و(الشَّيطان) و(الجنّ):

إبليسُ أوْلى بالسِّياقِ فهو أصلُ الجنِّ والشَّياطين، وأيسَ من رحمةِ الله لتكبُّرِه على أمرِه ﷻ

الشَّيطانُ هو الشِّرِّيرُ من الجنِّ وهو من شطنَ، أي: تباعد، ولهذا يُقالُ للإنسانِ إذا كان شرِّيرًا: شيطان، ولا يُقالُ جنِّي؛ لأنَّ قولَكَ: شيطان، يُفيد الشَّرَّ، ولا يُفيدُه قولُك: جنِّي، وإنَّما يُفيد الاستِتارَ والخفاءَ الَّذي هو معنَى الجنِّ، ولهذا يُقالُ على الإطلاق: لعنَ اللّٰهُ الشَّيطان، ولا يُقالُ لعنَ اللّٰهُ الجنِّي.

والشيطانُ: اسمٌ لكلِّ عارمٍ من الجنِّ والإنسِ والحيوانات، قالَ تعالى: ﴿شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ﴾ [الأنعام: 112].

والجنِّيُّ: اسْمُ جِنسٍ، والشَّيطانُ صفةٌ، وقيل: الشَّياطينُ جنس،

(1) الكِرماني، البرهان في توجيه متشابه القرآن: ص116، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/325، 327 - 328.

والجنُّ جنس، كما أنَّ الإنسان جنس، والفَرَسَ جنسٌ آخر، والجنُّ منهم أخيارٌ ومنهم أشرار، والشياطينُ اسْمُ أشرارِ الجنِّ ومُتمرِّديهم[1].

وإبليسُ أصلُه من اليَأس، قالَ تعالى: ﴿إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ۝٧٧﴾ [المؤمنون: 77] ومن ذلكَ اشْتقَّ اسْمُ إبليس، كأنَّه يئِسَ من رحمةِ اللّه.

وإبليسُ: أصلُ الجنِّ والشَّياطين، وهم جميعًا مخلوقون من مارجٍ من نارٍ، ويُقالُ: أَبْلَسَ؛ إذا حَزِن، ومنه اشْتُقَّ إبليسُ كذلك، قالَ تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبْلِسُ ٱلْمُجْرِمُونَ ۝١٢﴾ [الرُّوم: 12][2].

(1) الرّاغب، المفردات: (جن)، وأبو عبيدة، مجاز القرآن: 1/32، والعسكري، الفروق، ص: 307، والكفوي، الكليّات: 2/169، 3/54.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، اللّسان: (بلس).

﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ۖ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾﴾ [الأعراف: 12]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

المناسبةُ بينَ أمرِ اللهِ للملائكةِ بالسُّجودِ، وجوابِ إبليسَ المكابرِ المتغطرسِ

لـمَّا كان ترْكُ إبليسَ السُّجودَ لآدم بمنزلةِ جوابٍ عن قولِ اللّٰه: ﴿ٱسْجُدُوا۟ لِآدَمَ﴾، فكانَ بحيثُ يتوجَّه إليه استفسارٌ عن سببِ تركِهِ السُّجودَ؛ جاءتْ هذهِ الآيةُ في مقامِ سؤالٍ نشأَ من حكايةِ عدمِ سجودِ إبليسَ لآدمَ[1]، وسألَ اللّٰهُ تعالى إبليسَ، عن امتناعه عنِ السُّجود حينما أمرهُ بالسُّجود، فردَّ عليه في صَلَفٍ وغرورٍ، قائلًا: إنَّه خيرٌ من آدمَ؛ لأنَّه مخلوقٌ من نارٍ، وآدمُ مخلوقٌ من طينٍ، والنَّارُ أفضلُ وأشرف مِنَ الطِّين في رأي إبليسَ؛ لذلك لم يسجدْ لآدمَ، والأفضلُ لا يسجدُ للمفضولِ[2].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مَنَعَكَ﴾: المنْعُ: خلافُ الإعطاء، وقد منعَ فهو مانعٌ ومنوع ومنَّاع، ومنعتُ الرَّجلَ عنِ الشَّيءِ، فامتنعَ منه، ومانعتُه الشَّيءَ ممانعةً، ومكانٌ منيعٌ، وقد مُنع بالضَّمِّ مناعةً، وفلان في عزٍّ ومَنَعَة بالتَّحريك، وقد يُسَكَّن[3]، قال الفرزدق:

وَجَدِّي الَّذِي مَنَعَ الوَائِدَاتِ *** وَأَحْيَا الوَئِيدَ فَلَمْ يُوأَدِ[4]

ويقال: المنعُ: هو الحجزُ بينَ شيئين، أو أنْ يُحالَ بينَ المرادِ ومريدِه، دون الوصول إليهِ، فيصدُقُ بمنعِ الإعطاءِ؛ لأنَّ الحاجزَ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/39.
(2) أسعد حومد، أيسر التّفاسير، ص: 967.
(3) الجوهريّ، الصّحاح تاج اللّغة وصحاح العربيّة: (منع).
(4) الزّمخشريّ، أساس البلاغة: (وأد).

يحجِزُ بينَ المعطِي والعطيَّةِ، ومنه رجلٌ مانعٌ ومنَّاعٌ، أي: بخيلٌ، وَرجلٌ منيعٌ: لَا يُخْلَصُ إِلَيْهِ، وَفُلَانٌ فِي عزٍّ وَمَنَعَة فِي قومِه، أي: يمنعونَه ويحمونَه، و﴿مَا مَنَعَكَ﴾ في الآيةِ بمعنى: ما الَّذي حالَ بينكَ وبينَ السُّجودِ؟ أو بمعنى: ما حملكَ على تركِ السُّجود؟[1].

2) ﴿أَمَرْتُكَ﴾: منَ الجذر اللّغويّ (أمر)، والأمرُ بمعنى طلبِ حصولِ الفعلِ، هو ضدُّ النَّهي، وجمعُهُ: أَوَامِرُ؛ فَرْقًا بَيْنَهُ وبينَ الأمر بمعنى الْحَالِ، ويجمع: أُمُورٌ، والأصلُ في الأمر أن يدلَّ على عُلُوِّ الآمرِ، ونفاذِ أمرِه، ومنه الأميرُ، أي: ذو الأَمْر، وهو الَّذي له أنْ يطلبَ استحداثَ أشياءَ أو عملَها، و﴿أَمَرْتُكَ﴾ في الآية، بمعنى: الأمرِ الواجبِ النَّفاذ[2]، قال الشَّاعر:

أمرتُك الخَيْرَ فافعَل ما أُمِرْتَ به *** فقد تركْتُك ذا مالٍ وذا نَشَب[3]

❁ المَعْنى الإِجْماليُّ:

قال تعالى مُنكرًا على إبليسَ تَرْكَ السُّجود، وموبِّخًا له: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾؟ قال إبليس: أنا أفضلُ منه خَلْقًا؛ لأنَّك خلقتَني من نَّار، وخلقتَ آدمَ من طينٍ، فرأى أنَّ النَّار أشرفُ منَ الطِّين، والقول منَ اللّه لإبليسَ "إنكارٌ عليه، وتوبيخٌ له، واستخراجٌ لكفره الَّذي كان يُخفيه، بما يبدي من جوابه؛ ليعلم الخَلقُ سببَ طردِه"[4].

توبيخُ إبليسَ على فعلِهِ المشهودِ، وتعاليه على أمرِ ربِّهِ بالسُّجودِ

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ الاستئنافِ البيانيِّ في الآية الكريمة:

فصَّلَ في قوله: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾، موردًا الكلامَ على طريق الاستئنافِ البيانيِّ، مَسوقًا للجوابِ عن سؤالٍ

تشويقُ السَّامعِ واستدرارُ إصغائهِ لما هو مهمٌّ

(1) الأزهري، تهذيب اللّغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (منع).
(2) الفيّوميّ، المصباح المنير، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (أمر).
(3) الخطّابيّ، غريب الحديث: 1/243.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر في تناسب الآيات والسّور: 7/364.

نشأَ من حكايةِ عدم سجودِه، كأنَّه قيلَ: فماذَا قالَ اللّه تعالى حين أعرضَ عنِ السُّجود، وعدم امتثالِه لأمرِ اللّه تعالى؛ تشويفًا للسَّامع إلى خبره، واستدرارًا لإصغائه لما هو مهمٌّ في الكلام، فكان الجوابُ: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾[1]، والمعنى: "﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ﴾، أي: ما صرفك إلى أن لا تسجدَ؟ كما قال القاضي: "ذكرَ اللّهُ المنعَ، وأراد الدَّاعي، فكأنَّه تعالى قال: ما دعاك إلى أن لا تسجدَ لآدم؟ لأنَّ مخالفة أمر اللّه تعالى حالةٌ عظيمة، يُتَعجَّب منها، ويُسأَل عنِ الدَّاعي إليها"[2].

براعةُ الالتفاتِ:

توبيخُ إبليسَ بالإنكارِ عليه، والتَّنبيهُ على عظمِ مخالفتِه

قولهُ تعالى: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ انتقلَ فيه من صيغةِ التَّكلُّم في الآية السَّابقة إلى صيغة الغيبةِ على طريق الالتفاتِ، وهو من مجيءِ الكلامِ على خلافِ مقتضى الظَّاهرِ؛ إذ كان مقتضاهُ أن يقولَ: (قلنا)، وفي الالتفاتِ مِنَ التَّكلُّم إلى الغَيبةِ نُكتٌ لطيفةٌ، وهي تحويلُ مقامِ الكلامِ؛ إذ كان المقامُ مقامَ أمرٍ للملائكةِ ومَن في زمرتهم، فصار مقامَ توبيخٍ لإبليسَ خاصَّةً، ولتنبيهِ السَّامعِ على سببِ مخالفةِ إبليسَ أمرَ اللّهِ تعالى، وأيضًا: لمَّا كانت مخالفةُ الملكِ العظيم أمرًا مهولًا؛ عُدِلَ عنَ التَّكلُّم إلى الغَيْبة؛ زيادةً في الإنكارِ على إبليس، وإشعارًا بهولِ مخالفة أمرِ اللّه، وبالالتفات ظهرَ وجهُ مجيء الكلام على طريق الاستئنافِ البيانيِّ؛ إذ لا وجهَ لتقديرِ السُّؤالِ على وجه المخاطبةِ، وفيه فائدةٌ أخرى؛ هي الإشعارُ بعدم تعلُّقِ المحكيِّ بالمخاطَبينَ مِنَ الملائكة، كما في حكاية الخلْقِ والتَّصويرِ[3].

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/216، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 8/342.
(2) محمّد بن عمر نووي الجاويّ، مراح لبيد لكشف معنى القرآن المجيد: 1/363.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/216، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/39.

بلاغةُ الاستفهامِ المجازيِّ في قوله: ﴿مَا مَنَعَكَ﴾:

استخراجُ كُفْرِ إبليسَ الَّذي كان يُخفيه؛ ليعلمَ الخلقُ سببَ طردِهِ

جاءَ الاستفهامُ في قوله: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ على طريقِ المجازِ؛ إنكارًا على إبليسَ، والغرضُ منه توبيخُ إبليسَ وتقريعُه، وليَسْتَخرجَ كفرَهُ الَّذي كانَ يُخفيه، بما يُبدي مِن جوابِه؛ لِيعلمَ الخلقُ سببَ طردِه[1]، و﴿مَا﴾: اسمُ استفهام، في محلِّ رفعٍ مبتدأٌ، وجملةُ ﴿مَنَعَكَ﴾ في محلِّ رفعٍ خبرُها، والمعنى: أيُّ شيءٍ منعك؟ ومَفادُ السُّؤال: "﴿مَا مَنَعَكَ﴾؟ محمولٌ على (ما حملكَ، وما دعاك؟) مجازًا أو تضمينًا، وقال الرَّاغب: "المنعُ ضدُّ العطيَّة، وقد يقال في الحماية، والمعنى: ما حماكَ عن عدم السُّجود، ولا يخفى أنَّ السُّؤال عنِ المانع مِنَ السُّجود، مع علمه به، للتَّوبيخ، ولإظهار معاندتهِ وكُفْرِهِ وكِبرِهِ وافتخاره بأصله، وتحقيرِهِ أصلَ آدمَ عليه السلام"[2].

مناسبةُ مجيءِ الكلامِ على طريقةِ الاستفهامِ الإنكاريِّ:

الاعتراضُ على أوامرِ اللهِ من عظائمِ الأمور

وناسبَ مجيءُ الكلامِ على طريقةِ الاستفهامِ الإنكاريِّ أيضًا؛ لإظهار معاندةِ إبليسَ باعتراضِه على اللّه تعالى، وتكبُّرِه على الأمرِ الإلهيِّ، وافتخارِه بأصلِه، وازدرائه لأصلِ آدمَ، وللإيذانِ بأنَّه خالفَ أمرَ ربِّه، مُعتقدًا أنَّه غيرُ واجبٍ عليه، ولتعظيم شأنِ الاعتراضِ على اللّهِ سبحانه[3]، ومعلومٌ أنَّ أوَّل من قاس أمر الدِّين برأيه إبليسُ، قَالَ جَعْفَر: "فَمن قَاس أَمرَ الدّين بِرَأْيِهِ؛ قرنه اللّهُ تعالى يوم القيامة بإبليس؛ لِأَنَّهُ اتَّبعهُ بالقياس"[4]، ولا غروَ أن يكون الاستفهامُ إنكاريًّا؛ لأنَّ الفعل مُستَنكرٌ، ولم يكن إبليسُ جاهلًا، بل كان عارفًا بوحدانيَّة اللّه، ومُدركًا لـمَغَبَّة المخالفة للأوامر الإلهيَّة، وقد أضلَّه اللّه على علمٍ، فغلبت عليه شِقْوتُه، فأودتْ به، وقد عبَّر القرآن عن معرفة

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/364.
(2) جمال الدّين القاسميّ، محاسن التّأويل: 5/12.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/89.
(4) السّيوطيّ، الدّرُّ المنثور: 3/425.

إبليسَ بالعواقب، بما يقولهُ لِمَن يُغرِّر بهم، بعد انجلاءِ الحقِّ، وزهوقِ الباطل، يوم يُبعثُ النَّاسُ لربِّ العالمين، بما نَصُّه: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمۡ وَعۡدَ ٱلۡحَقِّ وَوَعَدتُّكُمۡ فَأَخۡلَفۡتُكُمۡۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيۡكُم مِّن سُلۡطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوۡتُكُمۡ فَٱسۡتَجَبۡتُمۡ لِيۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُمۖ﴾ [إبراهيم: 22].

نكتةُ التَّعبيرِ بقوله تعالى: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسۡجُدَ﴾؟

توبيخُ إبليسَ على كبريائِه الَّتي حالت بينَهُ وبينَ الانصياعِ لأمرِ اللهِ

المنعُ: هو أنْ يُحالَ بينَ المرادِ ومُريدِه، ولمَّا كانَ المنعُ يدلُّ على الرَّغبةِ في الحصولِ على الشَّيءِ، والتَّنافسِ فيه؛ أفادَ الكلامُ الإنكارَ على إبليسَ، وتوبيخَه وتقريعَه؛ إذْ فوَّتَ الامتثالَ لأمرِ اللهِ فيما كان ينبغي أن يتنافسَ إبليسُ في سُرعةِ امتثالِه لأمرِه تعالى، فأشعرَ الكلامُ أنَّ الَّذي منعَ إبليسَ من سجودِه؛ ما أضمرَه في نفسِه، ممَّا هو أعظم عندَه مِنَ الامتثالِ لأمرِ اللهِ تعالى، فيكون تمهيدًا لذكر سببِ المنعِ المؤهِّل، لاستحقاقِه العقابَ بالهبوطِ[1]، وإنَّما ذُكِرَ المنع؛ لأنَّه أقوى دلالةً على معنى الإنكارِ من غيره، ونظيرهُ قولهُ تعالى: ﴿قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذۡ رَأَيۡتَهُمۡ ضَلُّوٓاْ ٩٢﴾ [طه: 92][2]، "و(لا): مزيدةٌ للتَّنبيه على أنَّ الموبَّخ عليه تَرْكُ السُّجود، ولتوكيدِ معنى الفعل الَّذي دخلت عليهِ وتحقيقِه، كما في قوله تعالى: ﴿لِّئَلَّا يَعۡلَمَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ [الحديد: 29]، كأنَّه قيلَ: ليتحقَّقَ عِلْمُ أهل الكتاب، وما منعك أن تُحقِّقَ السُّجود، وتُلْزِمَهُ نفسَك"[3].

التَّنوُّعُ بين التَّضمينِ والمجازِ المرسلِ في ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسۡجُدَ﴾[4]؟

المنعُ أقوى دلالةً على الإنكارِ في السِّياقِ من غيرِه مِنَ الصِّيغ

في قولِه: ﴿مَا مَنَعَكَ﴾ يحتملُ الكلامُ أن يكونَ على تضمينِ الفعل

(1) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 1/297.

(2) الرّاغب، المفردات: (منع)، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 14/207، والسّكاكّي، مفتاح العلوم، ص: 376.

(3) جمال الدّين القاسميّ، محاسن التّأويل: 5/12.

(4) في قوله تعالى: ﴿أَلَّا تَسۡجُدَ إِذۡ أَمَرۡتُكَۖ﴾: هذهِ العبارةُ من براعةِ بلاغةِ القرآنِ؛ لإفادتِها معانيَ كثيرةً متنوِّعةً مناسبةً لسيَاقِ الكلامِ مع وجازتِها، وبيانُ الأمر: أنَّ (لا) تحتملُ أن تكونَ على أصلِها؛ لتفيدَ النّفيَ، وتحتملُ أن تكونَ زائدةً، ففي الكلام توجيهاتٌ بلاغيّةٌ متنوِّعةٌ، تظهر في المباحث اللّاحقة.

﴿مَنَعَكَ﴾ معنى: اضطرَّك، أو يكونَ المنعُ مجازًا عن الاضطرارِ، و(لا) قرينةٌ على المجازِ؛ فإنَّ الممنوعَ عنِ الشَّيء مضطرٌّ إلى خلافِه، فيكونُ مِنَ المجازِ المرسلِ باعتبار المآلِ، وتكونُ (لا) على أصلِها في النَّفي في الحالتين، وبيانُه: أنَّه لمَّا كان الممنوعُ عنِ الشَّيءِ مضطرًّا إلى خلافِ ما مُنِعَ منه، جاء بـ (لا) لِمناسبة الكلامِ، فكأنَّ (مَنَعَ) تضمَّنَ معنى الاضطرارِ، والمعنى: ما منعكَ مِنَ السُّجودِ، واضطرَّكَ إلى تركِه؟ أو يكونُ على المجازِ المرسل، والمعنى: ما اضطرَّك إلى ألَّا تسجدَ[1]، ويُحتمَل أنْ يكونَ ﴿مَنَعَكَ﴾ مرادًا به (حَمَلَك)، أو (دعاك)، وتكونَ (لا) على أصلِها في النَّفي كذلك، وهي قرينةٌ على المجازِ كذلك، وبيانُه: أنَّه لمَّا كانت مخالفةُ أمرِ اللهِ تعالى حالةً عظيمةً، يُتعجَّب منها، ويُسألُ عنِ الدَّاعي إليها، والسَّببِ في الأمرِ، جاء بهذا الأسلوبِ، والمعنى: ما دعاك إلى ألَّا تسجدَ؟ أو ما حملَكَ على تَرْك السُّجود؟ فذكر المنعَ وأراد الدَّاعيَ أو الحاملَ، ويكونُ الفعلُ موصولًا إلى المفعول بحرف الجرِّ (إلى) في الحالتين، وإنّما ذُكِرَ المنعُ؛ لأنَّه أقوى دلالةً على معنى الإنكارِ من غيره، ونظيرُه قولُه تعالى: ﴿قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذۡ رَأَيۡتَهُمۡ ضَلُّوٓاْ ٩٢ أَلَّا تَتَّبِعَنِۖ أَفَعَصَيۡتَ أَمۡرِي ٩٣﴾ [طه: 92 - 93][2].

بلاغةُ اعتبارِ القرائنِ الدَّالَّةِ على المعنَى في ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسۡجُدَ﴾:

لمَّا كانَ الاستفهامُ على سبيلِ الإنكارِ؛ أفادَ مجيءُ (لا) السُّؤالَ عن سببِ تركِ السُّجود، مع اعتبارِ القرائنِ الدّالَّةِ على وجوبِ امتثالِ أمرِ اللهِ تعالى، والمعنى: أيُّ شيءٍ منعكَ عن تركِ السُّجودِ، مع أنَّه لا يوجدُ أيُّ مانعٍ منه ويكونُ الفعلُ على أصله في تعلُّقِه بالمفعولِ بحرف

لا مانعَ لإبليسَ مِنَ السُّجودِ لآدمَ سوى التَّأبِّي والغَطرسةِ

(1) ابن جرير، جامع البيان: 12/325، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/7، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 8/343.

(2) الرّاغب، المفردات: (منع)، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 14/207، والسّكاكيّ، مفتاح العلوم، ص: 376.

الجرِّ (مِن)، فيكون المعنى كقول القائل لـمَنْ ضربه ظُلمًا: ما الَّذي منعكَ مِن ضَرْبي، أَدِينُكَ، أم عقلُك، أم حياؤك؟ والمعنى: أنَّه لم يوجد أحدُ هذه الأمور، ومع هذا ما امتنعتَ مِن ضَرْبي[1]، والمعنى: هل منعكَ كبرياؤك؟ أم نُكْرانُك؟ أم حسبتَ نفسكَ مِنَ الملائكة العالين، الَّذين لا يشملهم الأمرُ؟ وعلى القياس: لا يوجد شيءٌ من هذا، ومع ذلك رفضتَ السُّجود لآدمَ كما أمرتُك.

سرُّ تأكيدِ المعنى وتقريرِه بزيادةِ ﴿أَلَّا﴾ في ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ﴾:

لا تـزادُ (لا) إلَّا في أمـرٍ عظيمٍ شـأنُـه، مـمَّـا ينبغي التَّنبُّه له

لـمَّا كانت هذهِ العبارةُ قد صرَّحت بعدمِ سجودِه؛ كان المعنى غيرَ مُلْبسٍ بإدخالِ (لا) في قوله: ﴿أَلَّا تَسْجُدَ﴾، فتكون (لا) زائدةً، ولا تزاد (لا) إلَّا في أمرٍ عظيمٍ شأنُه، ممَّا ينبغي التَّنبُّه له، فأفادت (لا) توكيدَ معنى الفعل الذي دخلت عليه وتحقيقَه، وبيانُه: أنَّه لـمَّا كان قوله تعالى: ﴿إِذْ أَمَرْتُكَ﴾، بمعنى: أمري لك بالسُّجود أُوجِبُه عليك إيجابًا، وأُحَتِّمُه عليك حتمًا؛ ناسب أن يأتيَ في سياقِه ما يُحقِّق هذا الإيجابَ، كأنَّه قيلَ: وما منعكَ أن تُحقِّقَ السُّجودَ، وتُلزمُه نفسَك، إذْ كان أمري لك حتمًا وإيجابًا؟ فكانت (لا) مُؤكِّدةً معنى الفعلِ: ﴿تَسْجُدَ﴾ الَّذي دخلت عليه، ومُنبِّهة على أنَّ الـمُوَبَّخ عليه تركُ السُّجود[2].

مناسبةُ اقترانِ (لا) النَّافيةِ بلفظِ ﴿مَنَعَكَ﴾ في ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ﴾:

ذِكْرُ (لا) النَّافية أفاد التَّوسُّع في المعنى

يُحتمل أن يكونَ مجيءُ لفظِ (لا) لِمَا ناسبه مِن لفظِ المنع في السِّياق، فتكون (لا) على أصلها في النَّفي؛ لتفيدَ تأكيدَ الدَّلالةِ على الإنكارِ والامتناعِ مِنَ الفعلِ، والإقدامِ على التَّرك، فيكون كأنَّه قيل: ما منعكَ مِنَ السُّجود وحَمَلكَ على تَرْكه؟ في قوله: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 14/207، والنّيسابوريّ، غرائب القرآن: 3/207.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/89، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/7، وأبو حيان، البحر المحيط: 5/17، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 8/343.

تَسْجُدَ﴾، فأفادَ التَّعبيرُ بـ(لا) هنا معنيين، ولو حُذِفت (لا) لأفاد الكلامُ معنًى واحدًا[1].

الإنكارُ على إبليسَ بتركِ السُّجود بالاستفهامِ عن سببِ عدمِ السُّجود:

تأرجُحُ (لا) بين الزِّيادة والأصالةِ في هـذه الآيـةِ الكريمةِ

قولهُ تعالى: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾، لنا أن نسألَ: كيف يكونُ الإنكارُ على إبليسَ بترك السُّجود، بالاستفهامِ عن سبب عدم السُّجود؟ يجيبُ المفسِّرون على هذا بأجوبة كثيرة؛ منها: القول بأنَّ (لا) النَّافية زائدةٌ، وهو أرجحُ الآراءِ عندهم، والقولُ بزيادة اللَّام لا معقول له إلَّا - عند القائلين به - أنَّه يسوِّي النَّظم القرآنيَّ، ويمنعُ اضطرابَ المعنى، أو فساده! ولا يشفعُ لهذا القولِ ما جاؤوا به من شواهدَ مِنَ الشَّعر العربيِّ بزيادةِ حرف النَّفي (لا) عند الشُّعراء، فالقرآن حُجَّة على الشِّعر، وليس الشِّعر حُجَّة على القرآن، والقرآنُ لا علاقةَ له بالضَّرورات الشِّعريَّة الَّتي تُجيزُ للشَّاعر ما لا يجوز لغيره، ثمَّ إنَّ القرآن ليس من قول بشرٍ حتّى تحكمه الضَّرورةُ، وتلتمسَ لقائلهِ المعاذيرَ، ولكنَّه كلامُ اللهِ الَّذي وُصِفَ بأنَّه: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾ [فصلت: 42]، قال صاحبُ (التَّفسير القرآنيُّ للقرآن): "وإذن فحرفُ النَّفي (لا) حرفٌ أصيل، هو من صميمِ النَّظم القرآنيِّ في الآيةِ الكريمةِ، له مكانهُ مِنَ الإعجازِ الَّذي تحملُه الآيةُ الكريمةُ، ولو حُذِفَ؛ لحُذِف معه بعضُ ما في الآيةِ من إعجازٍ"[2].

دلالةُ المصدرِ المؤوَّلِ ﴿أَلَّا تَسْجُدَ﴾ في سياقِ الآيةِ الكريمة:

استمرارُ إبليسَ على تمرُّده، مع علمِه إنكارَ اللهِ عليهِ ذلك الفعلَ

عُبِّر بالمصدرِ المؤوّلِ؛ للدَّلالةِ على أنَّ الإنكارَ على مطلقِ تركِه للسُّجودِ، من غيرِ نظرٍ إلى طولِ السُّجودِ أو قِصَرِه، أو أيِّ وصفٍ آخرَ مقيِّدٍ للسُّجودِ، وللإشعارِ باستمرارِ إبليسَ على عدمِ الامتثال، وأنَّه

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/364.
(2) عبد الكريم الخطيب، التّفسير القرآنّي للقرآن: 4/372.

لن يسجدَ لآدمَ، وإنْ علمَ إنكارَ اللّٰه على عدمِ امتثالِه، لِمَا تدلُّ عليه (أنْ) الدَّالَّة على الاستقبالِ معَ الفعلِ المضارع.

سرُّ التَّعبير بالمضارع ﴿تَسْجُدَ﴾:

تصويرُ قبحِ امتناعِ إبليسَ عنِ السُّجود زيادةٌ في تقبيحِ حالِه

في قولِه: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ﴾ جاء الفعلُ بصيغةِ المضارعِ؛ لتصويرِ الحالةِ القبيحةِ لإبليسَ، في تركِ السُّجود بعدَ أن أمرَه اللّٰه تعالى به، وهو قادرٌ عليه، زيادةً في توبيخِه وتقريعِه؛ لتحذيرِ النَّاس منه، والسُّجود للّٰه غايةُ العبوديَّة له، وقد أمر اللّٰهُ به الملائكةَ، وتقرَّب به الأنبياءُ والرُّسل المكرَّمون إلى اللّٰه، ولا سجودَ في الكونِ إلَّا للّٰهِ، فإذا تمحَّض السُّجودُ للخالق؛ رَفَعَ عنِ المخلوق حَرَجَ السُّجود للمخلوق، ووجَّهَ خضوعَهُ للّٰهِ وحده دون سواهُ.

دلالةُ ﴿إِذْ﴾ في قولِه تعالى: ﴿إِذْ أَمَرْتُكَ﴾:

علَّةُ الإنكارِ على إبليسَ عدمُ الامتثالِ للآمِرِ، وليس تَرْكَ السُّجودِ لآدمَ عليه السلام

جاءُ ظرفُ الزَّمان ﴿إِذْ﴾ في قولِه تعالى: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ للدَّلالةِ على أنَّ الإنكارَ على إبليسَ في تركِه السُّجودِ كان في وقتِ أمرِ اللّٰهِ له به، والمعنى: "ما منعَكَ مِنَ السُّجود في وقت أمري إيَّاكَ به"[1]، ولمَّا كانت ﴿إِذْ﴾ هنا مشعرةً بالتَّعليلِ؛ أفادت أنَّ الإنكارَ عليه بسببِ عدمِ امتثالِه لأمر اللّٰه، وليس لخُصوصيَّة تركِ السُّجودِ لآدمَ.

نكتةُ التَّعبيرِ بلفظِ ﴿أَمَرْتُكَ﴾:

امتناعُ إبليسَ استمرارٌ للعصيانِ، وهو يقتضي استمرارًا للعقوبةِ

أفاد التَّعبيرُ بقولِه: ﴿أَمَرْتُكَ﴾ في قولِه: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ تأكيدَ الأمرِ بالسُّجودِ لإبليسَ؛ ليدلَّ على أنَّ ما أمرَه بهِ على الحقيقةِ لا على المجازِ، وللإشعارِ بأنَّ اللَّعينَ لمَّا لم يسجدْ، بقيَ أمرُ الامتثالِ عليه مستمرًّا، فيقتضي استمرارَ العقوبةِ واللَّعنِ.

مناسبةُ تجريدِ الخبرِ عنِ الجمعِ في قوله: ﴿أَمَرْتُكَ﴾:

لمَّا تجرَّدَ الخبرُ عن جمعِ المخاطبينَ؛ ليكونَ لِلمفرد المخاطَب،

(1) السّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 5/264.

بتوجيهِهِ هنا إلى إبليسَ، مع أنَّ الأمرَ بالسُّجودِ موجَّهٌ إلى الملائكةِ أيضًا، وليس له وحده؛ لكن حين تجرَّدَ الخبرُ لإبليسَ وحدَهُ؛ دلَّ على التَّغليظِ عليهِ، ولِتصويرِهِ في صورةِ مَنْ خَصَّه اللهُ بالأمرِ فعصاهُ، وفيهِ منَ التَّقريعِ والتَّوبيخ له ما فيه[1].

إبرازُ إبليسَ في صورةِ مَنْ خصَّهُ اللهُ بالأمرِ فعصاهُ

توجيهُ المتشابهِ اللَّفظيِّ:

قالَ في هذه السُّورةِ: ﴿مَا مَنَعَكَ﴾ من دونِ نداءٍ لإبليسَ اللَّعينِ، وقالَ في سورةِ (ص): ﴿يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ﴾ [الآية: 75] وفي (الحِجْر): ﴿يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا لَكَ﴾ [الآية 32]، فَحُذِف المنادى في هذه السُّورةِ لقُربِ مُضيِّ ذِكْرِهِ هنا، في قولِه: ﴿فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ لَمۡ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾، فلم يحتجْ إلى إعادةِ اسم إبليسَ اللَّعينِ بالنِّداء[2].

لمَّا قَرُبَ الذِّكرُ في (الأعراف) حُذِف نداءُ إبليسَ، بينما ذُكِرَ في آيتي (ص) و(الحجر)

أدمجَ إبليسُ في معصيةٍ واحدةٍ ثلاثَ معاصٍ، فاستحقَّ اللَّعنةَ:

قالَ اللهُ تعالى هنا: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسۡجُدَ إِذۡ أَمَرۡتُكَۖ قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ﴾، وقال في سورةِ (الحِجْر): ﴿قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ۝٣٢ قَالَ لَمۡ أَكُن لِّأَسۡجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقۡتَهُۥ مِن صَلۡصَٰلٖ مِّنۡ حَمَإٖ مَّسۡنُونٖ﴾، وفي سورة (ص): ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ﴾، فذَكَرَ لفظ ﴿مَنَعَكَ﴾ في سورة (الأعراف وص)، ولم يَذكرْهُ في سورة (الحِجْر)، كما أنَّهُ جمع بين لفظِ المنع، ولفظِ (لا) في سورة (الأعرافِ)، فقال: ﴿أَلَّا تَسۡجُدَ﴾، وفي سورة (ص)، ذكر ﴿أَن تَسۡجُدَ﴾ [ص: 75] من غير (لا)، وأمَّا في سورةِ (الحِجْر)؛ فذكرَ ﴿أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ۝٣٢﴾ [الحجر: 32]، وبيانُ أسرارِ هذه المتشابهاتِ، هو أنَّهُ في سورة الأعرافِ قالَ: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسۡجُدَ إِذۡ أَمَرۡتُكَۖ﴾؛ لِيتوسَّلَ إلى تصريحِ إبليسَ بخيريَّته، ومقارنتِهِ بين خَلْقِه وخلقِ آدم،

معاندةُ القُدْرةِ بالعصيانِ والتَّطاولِ تؤولُ إلى اللَّعنةِ والهلاكِ

(1) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 1/362.
(2) النيّسابوريّ، غرائب القرآن:/216.

الَّذي يدلُّ على تكبُّرِه وعتوِّه، فناسبَ قوله: ﴿قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ﴾، بعدَ أن تقدَّم في هذه السُّورة ذكرُ خَلْقِ الإنسان وتصويره، من غير ذكر المادَّة الَّتي خُلق منها، فاستوفى ذكر المادَّتين، وبنى على ذلك ما توهَّم من فضل النَّار على الطِّين، ولهذا جاء ما في سورة (ص) موافقًا لما في آية الأعراف، إذ صرَّح بخيريَّته وأفضليَّته، فقال ﴿أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ ٧٦﴾ [ص: 76]، وأمَّا آيةُ الحِجْر؛ فقد تقدَّمَ قبلها قولُه تعالى: ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن صَلۡصَٰلٖ مِّنۡ حَمَإٖ مَّسۡنُونٖ﴾، إلى قوله: ﴿فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ٢٩﴾ [الحجر: 26 - 29]، فأشارت الآيةُ بظاهرها إلى أنَّ إبليسَ مِنَ الملائكةِ، وقد نطقتِ الآيةُ أنَّ الملائكة همُ المأمورون بالسُّجود، فقيل: (معهم)، إذ هو ليس منهم، وبحسب ذلك استُؤنِفَ نداؤه، فقيل: ﴿قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ٣٢﴾ [الحجر: 32]، ولم يقل: (ما منعك؟)؛ لأنَّ ذلك لو قيل، كان يقتضي أنَّه منهم، ولم يكن ليناسب ما أشار إليه صدرُ الكلام، من أنَّه ليس منهم، فنُودي باسمهِ المشعر بطردِه، ومغايرته لهم، فقيل: ﴿يَٰٓإِبۡلِيسُ﴾، فتناسب أيضًا ما ورد في الحِجْر من تبيينِ خَلْقِ إبليسَ مِنَ النَّار، وفصلِهِ مِنَ الملائكة ما أعقبَ بهِ من محكيِّ قولِه: ﴿لَمۡ أَكُن لِّأَسۡجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقۡتَهُۥ مِن صَلۡصَٰلٖ مِّنۡ حَمَإٖ مَّسۡنُونٖ ٣٣﴾ [الحجر: 33]، واحتقارِه مادَّةَ الطِّين، وتفضيلِه مادَّةَ النَّارِ عليها، ثمَّ إنَّه قال في سورة (ص): ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ﴾ [ص: 75]، فكان اختلافُ العبارات عند الحكايةِ دالًّا على أنَّ اللَّعينَ قد أدمج في معصيةٍ واحدةٍ ثلاثَ معاصٍ: مخالفةَ الأمر، ومفارقةَ الجماعة، والإباءَ عنِ الانتظامِ في سلكِ أولئك المقرَّبين، والاستكبارَ مع تحقيرِ آدمَ عليه السلام، وقد وُبِّخ حينَئذٍ على كلِّ واحدةٍ منها، لكن اقتُصر عند الحكاية في كلِّ موطنٍ على ما ذُكِر به، اكتفاءً بما ذُكِر في موطن آخر؛ إشعارًا بأنَّ كلَّ واحدةٍ منها كافيةٌ في التَّوبيخ، وإظهارِ بطلان ما ارتكبَه[1].

بلاغةُ الاستئنافِ البيانيِّ في جملة ﴿قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ﴾:

لـمَّا كان سؤالُ اللهِ لإبليسَ على سبيلِ الإنكارِ والتَّوبيخ على اعتراضهِ على الله تعالى، في أن أمرَه بالسُّجودِ، وإنكارُه تعالى على تركِه السُّجودَ، وعدمِ امتثالِه لأمرِه سبحانه؛ جاء

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/216.

الكلامُ مَسوقًا للجوابِ عن سؤالٍ مفادُه: فماذا قال إبليس اللَّعين عندَ ذلك؟ فقيل: ﴿قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ﴾، فَنُزِّلَ الكلامُ منزلةَ مَن يَسأل عَمَّا أجاب به إبليسُ، فإنَّ مَنْ يسمعِ السُّؤالَ؛ يتشوَّقُ لمعرفةِ الجوابِ[1].

جوابُ إبليسَ المُدرَجُ، يقتضي تنزيلَ الكلامِ منزلةَ السُّؤالِ المقدَّرِ

مجيءُ الجوابِ على خلافِ مقتضى الظَّاهرِ في ﴿أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ﴾:

جوابُ إبليسَ اللَّعينِ في قوله: ﴿أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ﴾، ليس عمَّا سُئِلَ عنه، فلم يطابق جوابُه السُّؤالَ، فكان على خلافِ مقتضى الظَّاهر؛ لأنَّ قولَه: ﴿أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ﴾، إنَّما هو جوابُ (أيُّكما خيرٌ)، ولكنَّه جاء بكلامٍ يتضمَّنُ الجوابَ والحُجَّةَ عليه، فكانَ الظَّاهرُ أن يقولَ في الجوابِ: منعني كذا، فجاءَ الجوابُ بطريقةِ استئنافِ قصَّةٍ أخبرَ فيها عن إنكاره الأمرَ، واستبعادِهِ لأن يكونَ مثلُه مأمورًا بالسُّجودِ لمثلِ آدمَ، وأخبرَ فيها كذلكَ عن نفسِه بالفضلِ على آدمَ، وبعلَّةِ فضلِه عليهِ؛ وهو أنَّ أصلَه من نارٍ، وأصلَ آدمَ من طينٍ، فكأنَّه قالَ: المانعُ أنِّي خيرٌ منه، حينَ خلقتني من نارٍ، وخلقتَهُ من طينٍ، وإذا كانَ كذلك، فالنَّاشئُ مِنَ الأفضل لَا يَسْجُدُ للمفضولِ، فكيف يحسُنُ أن يؤمَرَ به، فسُلِكَ في الكلامِ الإيجازُ البليغُ[2].

تعاظَمَ إبليسُ، واستنكفَ عنِ السُّجودِ لآدمَ، فطالتهُ اللَّعناتُ

مناسبةُ التَّعبيرِ بالجملةِ الاسميَّةِ في قولِهِ: ﴿أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ﴾:

أفادتِ الجملةُ الاسميَّةُ في قوله: ﴿أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ﴾ ثبوتَ مضمونِ الجملةِ، وهي تُفْصِحُ عن معنى: أنَّ إبليسَ قَصَدَ إثباتَ خيريَّتِهِ على آدمَ، وأنَّها أمرٌ دائمٌ؛ تعنُّتًا منه، "فقد أمرهُ اللهُ ﷻ بالسُّجود، وكان عليه أن يمتثلَ لهذا الأمرِ، وأن يسجدَ كما سجدَ الملائكةُ كلُّهم أجمعون، أمَّا التَّردُّد في الامتثال لهذا الأمرِ، أو النُّكوصِ عنهُ، فهو

قَصَدَ إبليسُ إثباتَ أفضليَّتِهِ على آدمَ، وأنَّها متأصِّلَةٌ فيهِ ودائمَةٌ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم 4/373.

(2) الواحديّ، التّفسير البسيط: 9/45، والزّمخشريّ، الكشّاف: 2/90، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/379، وأبو حيّان، البحر المحيط: 5/17.

عصيانٌ صريح للّه، وتحدٍّ وَقاحٍ لأمره، لا تقوم لصاحبه حُجَّةٌ، ولا يُقبل منه قول"[1].

جملتا الخَلقِ بين عطفِ البيانِ والاستئنافِ البيانيِّ:

تمادي إبليسَ في عتوِّهِ وتمرُّدِهِ، يُرديهِ في العاجِلَةِ، ويُزري به في الآجلَةِ

لـمَّا كانت جملة: ﴿أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ﴾، فيها إجمالٌ في المعنى، أفادت جملةُ: ﴿خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ﴾، بمجموع المعطوف عليه والمعطوف، معنى عطفِ البيانِ في الكلامِ، على معنى اتِّحادِ المَقول، ولهذا جاءتِ الجملةُ بطريقة كمال الاتِّصال[2]؛ لتفيدَ الإيضاح والتَّبيين، لقوله: ﴿أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ﴾، من حيثُ إنَّه حينَ ذكرَ خيريَّتَه الَّتي تحتملُ أوصافًا كثيرة، ذكرَ وصْفَ النَّشأةِ الَّذي يكونُ أظهرَ وصفٍ، معَ عدمِ تقصِّيهِ عن موصوفِه، تماديًا في عُتوِّه وتمرُّدِه، فقولُه: ﴿خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ﴾، بمنزلةِ عطفِ البيانِ مِنَ الإجمالِ في قوله: ﴿أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ﴾، كما تحتملُ أنْ تكونَ جملتا المعطوفِ والمعطوفِ عليه استئنافًا بيانيًّا، كأنَّ سائلًا سأل لماذا أنت خيرٌ منه؟ فقال: ﴿خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ﴾، فهي على معنى التَّعليلِ، والتَّقديرُ: لأنَّك خلقتني من نارٍ، وخلقْتُه من طينٍ[3].

نكتةُ التَّعبيرِ بالفعليَّة في: ﴿خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ﴾:

تصوُّرُ إبليسَ أنَّ أفضليَّتَه على آدمَ أمرٌ مقطوعٌ به أزلًا

عُبِّرَ بالجملةِ الفعليَّةِ الماضويَّةِ في: ﴿خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ﴾؛ للإشعارِ بتحقُّقِ أفضليَّته على آدم - كما زعم اللَّعين - وأنَّه أمرٌ مقطوعٌ به، قال محمَّد بن جرير: "ظنَّ الخبيث أنَّ النَّار خيرٌ مِنَ الطِّين، ولم يعلم أنَّ الفضلَ لمن جعل اللّهُ له الفضلَ، وقد فضَّل الطِّين على النَّار"[4]، وهو ما قالته الحكماء: بأنَّ للطِّين فضلًا على

(1) عبد الكريم الخطيب، التّفسير القرآنّي للقرآن: 4/373.
(2) السّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 5/264، وابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 9/31، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/41.
(3) الأشمونّي، منار الهدى: 2/210.
(4) ابن عادل الدّمشقيّ، اللّباب في علوم الكتاب: 9/32.

النَّار من وجوهٍ، تتعلَّق بالخصائص والمميِّزات الَّتي لكلٍّ منهما، وقد تبيَّن فضلُ الطِّين، وضررُ النَّار، بمجرَّد المقارنةِ العقليَّة البسيطةِ[1]، ويضاف أيضًا: "أنَّ اللَّعين غفل عمَّا خصَّ اللّٰهُ به آدمَ مِن خَلْقِه بيده، والنَّفخ فيه مِن روحهِ، وجعل استعداده العلميَّ والعمليَّ فوق استعدادِ غيره مِن خَلْقه، ومِن تشريفهِ بأمرِ الملائكة بالسُّجود له، وجَعْله بتلك المزايا أفضلَ مِن أولئك الملائكةِ، وهم أفضلُ مِن إبليسَ بعنصرِ الخِلقَةِ وبالطَّاعةِ"[2].

الطِّباق بينَ النَّار والطِّين، وبيانُ أنَّ قياسَ إبليسَ حُجَّةٌ عليه:

عُبِّر بالطِّباقِ بين النَّار والطِّينِ، في قوله: ﴿خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾؛ للإشعار بعتوِّ إبليسَ اللَّعينِ وعنادِه، وليكون قياسُه حجَّةً عليه، فأخطأ اللَّعينُ حيث خَصَّ الفضلَ بما مِن جهة المادَّةِ والعنصُرِ، وزلَّ عنه ما مِن جهة الفاعل، مع أنَّه ذَكَره بقولِه: ﴿خَلَقْتَنِي﴾، و﴿وَخَلَقْتَهُۥ﴾[3]، وأشعرَ الكلامُ أنَّ المعنى لا يتمُّ مقصودُه من دون اجتماعِ جملتي العطف؛ لما فيهما من معنى المقايسة.

المعنى لا يتمُّ دون اجتماعِ جملتي العطفِ، وما فيهما من معنى المقايسةِ

(1) ابن عادل الدّمشقيّ، اللّباب في علوم الكتاب: 9/32.
(2) محمّد رضا، تفسير المنار: 8/295.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/216.

﴿قَالَ فَٱهۡبِطۡ مِنۡهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخۡرُجۡ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ١٣﴾ [الأعراف: 13]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الجزاءُ من جنسِ العملِ، ولا يظلمُ ربُّك أحدًا

لَمَّا كَانَ امْتِنَاعُ إبليسَ مِنَ السَّجود بسبب تكبُّره عَلَى اللّٰه، بعدم امتثالِه لأمرِه، وتكبُّره على آدَمَ عند نَفْسِهِ، وكان مجرَّدُ التَّكبُّرِ على اللّٰه كُفرًا على أيِّ وجهٍ كانَ؛ أعرضَ عن جوابه بغيرِ الطَّرد، الَّذي معناه: نزوله مِنَ المنزلة الَّتي هو فيها؛ تعنيفًا له. وأيضًا: لـمَّا كان امتناعُ إبليسَ مِنَ السُّجودِ لإظهارِ فضلِه وارتفاعِ منزلتِه على آدم؛ قَابَلَهُ اللّٰهُ بالهُبوط المُشْعِر بالنُّزول مِنْ عُلُوٍّ إلى أَسْفَلَ؛ ليكونَ مُسَبَّبًا عن إبائِهِ[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَٱهۡبِطۡ﴾: الهبوطُ: هو الانحدارُ على سبيل القَهْرِ من صعودٍ وعُلوٍّ، كهبوط الحَجَرِ، والهَبوطُ بالفتح: المنحدَرُ الَّذي يُهْبِطُك من أعلى إلى أسفل، وهبط نقيضُ ارتفع، ويقال على المجاز: هبط الرَّجل؛ لـمَّا كان في انحطاطِ المنزلة، وهبطوا من حالِ الغنى إلى حال الفقر[2]، ومَهْبَط، ومَهْبِط، ويجمع على مَهابِط: اسم مكان مِن هبَطَ، وهو مكان النُّزول، يقال: (مكَّة المَهْبِط الأوَّل للوحي)، قال الشَّاعر:

والعُمْرُ إصْعادُ إنْسَان وَمَهْبِطُهُ *** كَالأَرْضِ أوديةٌ مِنْهَا وأجبالُ[3]

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/365، وأبو حيّان، البحر المحيط: 5/18.
(2) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، والزّمخشريّ، أساس البلاغة، والرّاغب، المفردات: (هبط)، وابن الهائم، التّبيان في تفسير غريب القرآن، ص: 68.
(3) أحمد مختار عمر، معجم اللّغة العربية المعاصرة: (هبط).

2) ﴿تَتَكَبَّرَ﴾: الكِبْرُ: هو الحالةُ الَّتي يتخصَّص بها الإنسانُ من إعجابهِ بنفسه، وتعظيمِه إيَّاها، وذلك أنْ يرى الإنسانُ نفسَه أكبرَ من غيره، بأن يتشبَّعَ، فيُظهر من نفسهِ ما ليسَ له، وأعظم الكِبْرِ والتَّكبُّرِ: ما وقع في جانبِ أوامرِ اللّه ونواهيه، وذلك أن يتكبَّر على أداءِ طاعاتِه، والانزجار عن معاصيه[1]، وقوله تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ [الأعراف: 146]، قال الزَّجاج: "ومعنى ﴿يَتَكَبَّرُونَ﴾: أنَّهم يرون أنَّهم أفضل الخلق، وأنَّ لهم من الحقِّ ما ليس لغيرهم، وهذه الصفة لا تكونُ إلَّا للّهِ خاصَّةً؛ لأنَّ اللّه ﷻ هو الَّذي له القدرةُ والفضلُ، الَّذي ليس لأحدٍ مثلِه، وذلك الَّذي يستحقُّ أن يقالَ له: المتكبِّرُ، وليس لأحدٍ أن يتكبَّر؛ لأنَّ النَّاس في الحقوق سواءٌ، فليس لأحدٍ ما ليس لغيره"[2]، "والمرادُ بالتَّكبُّر هنا: إمَّا التَّكبُّر على اللّه تعالى، وهو أعظمُ التَّكبُّرِ، ويكون بالامتناع مِن قبول الحقِّ والإذعانِ له بالعبادة، وإمَّا التَّكبُّر على آدم عليه السلام، بزعم إبليسَ أنَّه خيرٌ منهُ، وأكبرُ قدرًا"[3].

3) ﴿ٱلصَّٰغِرِينَ﴾: أصلُ الكلمة مِنَ الصِّغَر، والصِّغَرُ والكِبَر مِنَ الأسماءِ المتضادَّة، وتقالُ باعتبار الزَّمان، فيقالُ: فلانٌ صَغِيرٌ، وفلانٌ كبيرٌ؛ إذا كان ما له مِنَ السِّنين أقلَّ ممَّا للآخر، وباعتبار الجثَّة، وباعتبار القَدْر والمنزلةِ، والصَّغَار مصدر الصَّغير في القَدْر والمنزلة: هو الذُّلُّ الَّذي يُصَغِّر إلى المرء نفسَه، والصَّاغِرون: جمع صاغرٍ، وهو المتَّصفُ بالصَّغارِ، أي: الذُّلُّ والحقارة، بمعنى: الأذلَّاءِ الرَّاضين بالذُّلِّ[4]، قال ذو الرِّمَّة:

تَصَاغَرَ أَشْرَافُ البَرِيَّةِ حَوْلَهُ *** لِأَبْيَضَ صَافِي اللَّوْنِ مِن نَفَرٍ زُهْرِ[5].

المَعْنى الإِجْمالِيُّ:

قال اللّهُ لإبليسَ: فاهبط مِنَ الجنَّة، فما يصحُّ لك أن تتكبَّر فيها، فاخرج منها، إنَّك مِنَ الذَّليلين الحقيرين[6]، والمعنى: فَاهْبِطْ مِنَ السَّماء الَّتي هي مكان المطيعين المتواضعين

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (كبر).
(2) الزَّبيديّ، تاج العروس: (كبر).
(3) الآلوسّي، روح المعاني: 4/331.
(4) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، والرّاغب، المفردات: (صغر)، وابن الهائم، التّبيان في تفسير غريب القرآن، ص: 146.
(5) ابن الهائم، التّبيان في تفسير غريب القرآن: (صعر).
(6) نخبة من أساتذة التّفسير، التّفسير الميسّر، ص: 152.

الأمرُ بهبوطِ إبليسَ مِنَ الجنَّةِ صاغرًا مذمومًا

مِنَ الملائكةِ، إلى الأرضِ الَّتي هي مقرُّ العاصين المتكبِّرين، مِنَ الجنِّ والإنس، فَما يصحُّ لك أن تَتَكَبَّر فيها، وتعصي خالقك، فَاخْرُجْ إِنَّكَ من أهل الصَّغارِ والهوان على اللّه، وعلى أوليائه؛ لتكبُّرك وصلفك[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالةُ الفاءِ في قولِهِ تعالى: ﴿فَٱهۡبِطۡ مِنۡهَا﴾:

عقوبةُ إبليسَ على كبريائهِ وتأبِّيهِ بتجريدهِ ممَّا كانَ فيه

أفادتِ الفاءُ تعقيبَ هذا الجزاءِ وترتيبَه على ما ذُكِرَ مِنَ الذَّنب قبلَه، من اعتراضِه على اللّه تعالى في أمرِه، وعدمِ امتثالِه، وادِّعائِه الخيريَّةَ على آدمَ، وعتوِّه في الخطابِ، فجاءَ الأمرُ بالهبوطِ مسبَّبًا عمَّا صدرَ مِنَ المطرودِ، بلا تأخيرٍ ولا مهلةٍ[2]، والهبوطُ: الانحدارُ، وقولُهُ: ﴿فَٱهۡبِطۡ مِنۡهَا﴾، أي: اخرج منها، وهو بذلك قدِ انحدرَ مِنَ الأعلى إلى الأسفلِ، وفي ذلك عقوبةٌ مستَحقَّةٌ بفعل العصيان العلنيِّ، الَّذي بادرَ بهِ إبليسُ دون أن يُقدِّرَ العواقبَ، مع ما أظهرهُ من غرورٍ وفجورٍ في ردِّهِ المتعالي على اللّهِ جلَّ في علاهُ.

نكتةُ التَّعبيرِ بلفظ الهبوط:

هبوطُ إبليسَ حسِّيٌّ؛ بنزولِه من علوٍّ إلى سُفْلٍ، ومعنويٌّ؛ بسقوطِ المنزلةِ

لـمَّا كانَ الهبوطُ هو الانحدارَ والسُّقوطَ من مكانٍ إلى ما دونَه، على سبيل القهرِ، أو من مكانةٍ ومنزلة إلى ما دونها؛ دلَّ على أنَّ الهبوط حسِّيٌّ ومعنويٌّ، وكلا المعنيين مقصودان، وبيانُه: أنَّه لـمَّا كان امْتِنَاعُهُ مِنَ السُّجود بسببِ كِبْرِه وعُتوِّه؛ عُبِّرَ بلفظ الهبوط المُشْعِرِ بالنُّزُولِ مِن عُلُوٍّ إلى سُفْلٍ، والحدورِ والانحطاطِ، والنُّقصانِ والوقوع، وأيضًا لـمَّا كان مقصودَ هذه السُّورة الإنذارُ؛ عُبِّر بالهبوط الَّذي يلزم منه سقوطُ المنزلة والمكانة، دونَ الخروج، وهو أدلُّ عليه؛ لموافقته للأمر الَّذي هو مِنَ الأعلى إلى الأدنى، فناسبَ أن يكون جزاءَ العقابِ هو الهبوط[3].

(1) إبراهيم الأبياريّ، الموسوعة القرآنيّة: 9/483.
(2) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 8/346، ورشيد رضا، تفسير المنار: 8/269.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/366، ورشيد رضا، تفسير المنار: 8/269.

مناسبةُ عودِ الضَّميرِ على غيرِ مذكورٍ في قوله: ﴿مِنْهَا﴾:

يَحتمل السِّياق أن يكونَ الهبوطُ هبوطَ مكانٍ، أو هبوطَ مكانةٍ

لم يتقدَّم للضَّمير مُفَسِّرٌ يعود عليه، ولـمَّا كان الضَّميرُ متعلِّقًا بالفعلِ ﴿فَٱهۡبِطۡ﴾؛ دلَّ على أنَّ ما يعود إليه الضَّمير واقع في علوٍّ، ويوصف بالتَّأنيث، وهو معلوم بين المتكلِّم والمخاطَب، فذهب جمهور المفسِّرين إلى أنَّ السِّياق يدلُّ على أنَّ المقصودَ هو الجنَّةُ، وذهب بعضُهم إلى أنَّ الضَّميرَ يعود إلى ما يُفهم منه، وهو السَّماء[1]، ولم يُصَرّح بمرجعِ الضَّمير؛ لأنَّ النَّظرَ موجَّهٌ إلى الهبوطِ مِن علوٍّ، وليس إلى ذكرِ المكانِ المخصوصِ الَّذي يهبِطُ منه، كما أنَّ المقامَ مقامُ إنذارٍ في سياق الإخبارِ، عن تكبُّر إبليسَ وعُتوِّه، فكنَّى بالضَّمير للإشعارِ بعلوِّ شأنِ الجنَّة أو السَّماء، وانحطاطِ إبليسَ وسُفْلِه، قال الشَّعراويُّ: "والهبوط يستدعي الانتقالَ مِن منزلةٍ عالية إلى منزلة أقلَّ، وهذا ما جعل العلماءَ يقولون: إنَّ الجنَّة الَّتي وصفها اللهُ بأنَّها عالية، هي في السَّماء، ونقول: لا، فالهبوط لا يستدعي أن يكونَ هبوطًا مكانيًّا، بل قد يكونُ هبوطَ مكانةٍ، وهناك فرقٌ بين هبوطِ المكان، وهبوطِ المكانة، وقد قال الحقُّ لنُوحٍ عليه السلام: ﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهۡبِطۡ بِسَلَٰمٖ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٖ مِّمَّن مَّعَكَۚ﴾ [هود: 48]، أي: اهبطْ مِنَ السَّفينة"[2].

براعةُ التّعبيرِ بالفاءِ:

التَّكبُّرُ لا يليق بأهلِ الجنَّةِ، ولله الكبرياءُ لا لسواه

في قوله تعالى: ﴿فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا﴾: أفادتِ الفاءُ معنى السَّببيَّةِ، وترتُّبِ ما بعدَها على ما قبلَها، أي: تَسبَّبَ عن أمرِه بالهبوط، أنْ لا يتكبَّر فيها، فإنَّها مكانُ المطيعين الخاشعين؛ للإشعارِ بأنَّ التكبُّرَ لا يليق بأهل الجنّةِ، ومن عجيبِ بلاغةِ الكلامِ هنا أنَّه كما كان الهبوط مِنَ الجنَّة سببًا لكي لا يُتكَبَّرَ فيها؛ أشعر الكلامُ بأنَّ

(1) ابن جرير، جامع البيان: 12/329، والبغويّ، معالم التّنزيل: 2/182، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/379.

(2) محمّد متوليّ الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ (الخواطر): 7/1065.

تكبُّرَه سببٌ للأمر بالهبوطِ؛ للإشعارِ بأنَّ تكبُّرَ إبليس وصفٌ لازمٌ له، كما أفادت الفاء السَّببيَّةُ أنَّه تعالى إنَّما طرده لاعتراضِه على الله تعالى، ولتكبُّره على أمرِه سبحانه، لا لمجرَّد عصيانِه بعدمِ الامتثالِ[1].

دلالةُ النَّفي في قوله: ﴿فَمَا يَكُونُ لَكَ﴾:

لا يبرأُ إبليسُ منَ الذُّنوبِ، ولا يعفو عنهُ علَّام الغيوبِ

النَّفيُ بصيغةِ: (ما يكون لك كذا)، أشدُّ مِنَ النَّفي بـ(ليس لك كذا)؛ لأنَّ نفيَ الكونِ والإمكانِ أبلغُ أنواعِ النَّفي وأشدُّه، فدلَّ التَّعبيرُ في قوله: ﴿فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا﴾ بهذا الأسلوبِ، على أنَّ تكبُّرَ إبليسَ لا يُغتفَرُ منه أبدًا، وأنَّه ارتكب أعظمَ ذنبٍ وأشدَّه[2].

دلالةُ ﴿يَكُونُ﴾ بينَ النُّقصانِ والتَّمامِ:

لا كبرياءَ في الجنَّةِ، بل سيكونُ أهلها إخوانًا على سُرُرٍ متقابلين

تحتملُ ﴿يَكُونُ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا﴾ أنْ تكون ناقصةً، فيكونَ لها اسمٌ وخبرٌ، كما هو ظاهرُ ما ذهبَ إليه ابنُ عاشورٍ، وبيانُه: أنَّ أصلَ هذا التَّركيبِ في الكلام: (ما يكونُ إبليسُ متكبِّرًا في الجنّة)، فلمَّا أُريدتِ المبالغةُ في النَّفي؛ عدلَ عن نفي اسمِ الفاعلِ إلى نفيِ المصدرِ: ﴿أَن تَتَكَبَّرَ﴾، الدَّالِّ على الجنس، وجعلَ نفيَ الجنسِ عن إبليسَ، بواسطةِ نفي الاستحقاقِ، فصار التَّركيبُ: ما يكون لك أن تتكبَّرَ، أي: ليس التَّكبُّر مجعولًا لك في الجنَّة، فأفادَ العدولُ عنِ الأصلِ المبالغةَ في نفي أن يكونَ أيُّ تكبُّرٍ في الجنَّة. وتحتمل أن تكونَ تامَّةً، وهو الظَّاهرُ مِنَ السِّياق؛ لتكونَ بمعنى الحصولِ أو الوجودِ؛ وليكون المنفيُّ أعمَّ ما يحتمله الكلامُ، والمعنى: ما يقعُ أو ما يوجدُ التَّكبُّر في الجَنَّة، فلمَّا نفى أصلَ الوجودِ؛ دلَّ على المبالغة في النَّفي[3].

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/217.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/44.

(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/366، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/294، 8/44، ودرويش، إعراب القرآن وبيانه: 3/312.

مناسبةُ مجيءِ الكلامِ على خلاف مقتضى الظَّاهرِ:

ما يصحُّ التَّكبُّر في الجنَّة؛ لأنَّه صفةُ أهلِ الدُّنيا

لـمَّا كان وقوعُ التَّكبُّرِ من إبليسَ قد حصلَ، كان نفيُ وقوعِ التَّكبُّر في قوله: ﴿فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا﴾ على خلافِ مقتضى الظَّاهر، فالمقطوعُ بوقوعِهِ لا يُنفَى، ومناسبتُه: أنَّه لـمَّا أُريدَ المبالغةُ في نفيِ صحَّةِ التَّكبُّرِ في الجنَّةِ، توجَّهَ النَّفيُ إلى الكونِ والإمكانِ؛ لِنفي أصل وقوعِهِ، ليكونَ على معنى الإغلاظ على إبليسَ، والمعنى: ما يصحُّ أن تتكبَّرَ فيها، وما يتوجَّه بوجهٍ مِنَ الوجوهِ، أو ما ينبغي أن تتكبَّر فيها[1].

دلالةُ النَّفي على النَّهي:

استلزامُ نفي التَّكبُّرِ النَّهيَ عنه، والتَّحذيرَ منهُ

لـمَّا كان إبليسُ قد تكبَّرَ في عدمِ سجودِه؛ أفادَ نفيُ صحَّةِ وقوعِ التَّكبُّر في قوله تعالى: ﴿فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا﴾ استلزامَه النَّهيَ عنه؛ لأنَّهُ نفاهُ عنه مع وقوعِه[2]، وقال له: "ليس ينبغي أن تتكبَّرَ في هذا المكان المُعدِّ للكرامة والتَّعظيم، ثمَّ تعصي ربَّك فيه"[3]، وفي هذا نفيٌ لصفةِ التَّكبُّر في الجَنَّة، وهي بمعنى: النَّهي عن هذا الفعل المَشين الَّذي استنَّه إبليسُ في الكونِ.

نكتةُ التَّعبيرِ بقولِهِ: ﴿لَكَ﴾:

أشدُّ الكفرِ مَن كفرَ بالله، وارتدَّ بعدَ أنْ عبده، وعرف هداهُ

ليس في الجارِّ والمجرور المقدَّم على عاملِهِ في ﴿لَكَ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا﴾ أيُّ تخصيصٍ، بل هو للعنايةِ والاهتمامِ لبيانِ خطرِ تكبُّر إبليسَ وهولِ عقابِه، كما أنَّ مجيء الجارِّ والمجرور - أصلًا - أفادَ التَّغليظ على إبليس في تكبُّرِه؛ للإيذانِ بأنَّه كان الأولى بإبليسَ اللَّعين ألَّا يتكبَّرَ، وهو الَّذي كان مع الملائكة حينَ خاطبهم الله تعالى، وأمرهم بالسُّجودِ لآدمَ، وهو

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/366، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/7، وأبو حيّان، البحر المحيط: 5/19، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 8/346.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/44.

(3) إبراهيم القطّان، تيسير التّفسير: 2/35.

أسلوبٌ عربيٌّ مستعملٌ في بديع الكلامِ كما يُنْبِئُ عنه قولُنا لشخصٍ عرفَ اللّه وعبَدَه زمنًا، ثمَّ نكصَ على عقبيه، كافرًا به ﷻ، فنقولُ له: (ما يكونُ لك أنْ تكفرَ باللّه)، فليس الغرضُ أنَّ غيرَه له الحقُّ في الكفرِ، بل الأمرُ على سبيل الإغلاظ، على قُبحِ ما فعلَه[1]، من حيثُ إنَّه قد عرف اللّه وعبَدَه زمنًا، ومَن عرف وجبَ عليه أن يلزمَ، ومَن انسلخ مِنَ الملَّة، وارتدَّ عنِ المَحجَّة؛ خسرَ الدُّنيا والآخرة.

نكتةُ التَّعبيرِ بصيغةِ تتفعَّلُ في قولِهِ تعالى: ﴿أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا﴾:

التَّكبُّر: أنْ يجعلَ نفسَه أكبرَ ممَّا هي عليه

أفادت صيغةُ: ﴿تَتَكَبَّرَ﴾ معنى التَّكبُّر، أي: أنْ يجعلَ نفسَهُ أكبرَ ممَّا هي عليه، أو أكبرَ ممَّن هي في ذاتِها أصغرُ منه، وعُبِّرَ بصيغة التَّفعُّل للإشعارِ بتعمُّده الكِبَرَ وتكلُّفِه فيه، وبَذْلِ الجهدِ في تحصيلِه، معَ أنَّه ليسَ من أهلِه، ولا يليقُ به[2].

علَّةُ التَّعبيرِ بالمصدرِ المؤوَّل في قوله تعالى ﴿أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا﴾:

التكبُّر قبيح في ذاته، ولا ينبغي وجـــودُه، من غيرِ نظرٍ إلى أيِّ وصفٍ آخرَ له

عُبِّر بالمصدرِ المؤوَّل: ﴿أَن تَتَكَبَّرَ﴾؛ لإفادة نفي أيِّ نوعٍ مِن أنواعِ التَّكبُّر، ففي التَّعبيرِ به تحصينٌ مِنَ الإشكال، وتخليصٌ له مِن شوائبِ الإجمالِ، الَّذي يكونُ في المصدرِ الصَّريح[3]، في مثل هذا السِّياق، ولو قال: (ما يكون لك التَّكبُّر فيها)؛ لاحتملَ المصدرُ الصَّريحُ السُّؤالَ عن أيِّ نوعٍ مِن أنواعِ التَّكبُّر المنفيِّ في الكلام؟ فلمَّا عُبِّر بالمصدرِ المؤوَّل؛ أفادَ أنَّ نفسَ التَّكبُّرِ قبيحٌ، وهو الَّذي ينبغي ألَّا يكونَ، ولا يصحُّ وجودُه من غيرِ نظرٍ، إلى أيِّ وصفٍ آخر له.

سرُّ التَّعبير بالمضارعِ ﴿تَتَكَبَّرَ﴾:

إظهـارُ شناعةِ حـالـةِ إبليس، عندَ إظهارِ تكبُّرِه في الجَنَّة

تُوسِّل بالمصدر المؤوَّل للتَّعبيرِ بصيغةِ الفعلِ المضارعِ: ﴿تَتَكَبَّرَ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا﴾؛ لتصويرِ حالةِ قُبحِ

(1) ابن عطيّة، المحرر الوجيز: 2/379.
(2) رشيد رضا، تفسير المنار: 8/296.
(3) ابن قيّم الجوزية، بدائع الفوائد: 1/92 - 93.

إبليسَ، وهو يتكبَّر في الجنَّة، الَّتي لا يليقُ فيها التَّكبُّر؛ إظهارًا لشناعةِ فعلِه وفظاعتِه.

مناسبةُ مجيءِ الحالِ في قوله تعالى: ﴿فِيهَا﴾:

التكبُّرُ منهيٌّ عنه مطلقًا في الجنَّة وفي غيرها

لمَّا كان الحالُ قيدًا لعاملِه، وكان ﴿فِيهَا﴾ حالًا من فاعل ﴿تَتَكَبَّرَ﴾؛ دلَّ على أنَّ المعنى: ما يكونُ لك - يا إبليسُ - أنْ تتكبَّرَ في الجَنَّة حالَ كونِك فيها، وأشعرَ القيدُ إمكانَ وقوعِه في غيرِ الجَنَّة، والمعنى: فاهبطْ مِنَ الجنَّة، فإنَّه لا يسكنُ الجنَّةَ متكبِّرٌ عن أمرِ اللهِ، فأمَّا غيرُها، فإنَّه قد يسكنُها المستكبِرُ عن أمرِ الله، والمستكينُ لطاعتِه، وفيه تأكيدٌ على أنَّ التَّكبُّر لا يليق بأهل الجنَّةِ، وأنَّه ﷺ إنَّما طردَه وأهبطَه لتكبُّرِه، لا لمجرَّدِ عِصيانِه. ويُحتَملُ أنْ يكونَ قُيِّدَ الحالُ بـ﴿فِيهَا﴾؛ تهويلًا لأمرِ التَّكبُّرِ في الجَنَّة؛ لأنَّ التَّكبُّر منهيٌّ عنه مطلقًا، في الجنَّة وفي غيرها[1].

توجيهُ المتشابهِ اللَّفظيِّ:

أمرُ اللهِ بالخروجِ مِنَ الجنَّة مقرونٌ بالتَّعنيف، والأمرُ بالهبوطِ ليس كذلك

قالَ اللهُ تعالى في آية (الأعراف): ﴿فَٱهۡبِطۡ مِنۡهَا﴾ وفي آية (ص): ﴿فَٱخۡرُجۡ مِنۡهَا﴾ [ص: 77]، وليس التَّعبيرُ بالإخراجِ كالتَّعبيرِ بالهبوطِ، فقد أُمِرَ آدمُ بالهبوطِ، ولم يَقصدْ من تعنيفِه ما قُصِدَ بإبليسَ، فالفرقُ ما بينَ العبارتين فيما تُعطيانِه: أنَّه في سورة الأعراف تدرَّجَ في التَّعنيفِ والإغلاظِ؛ ليدلَّ على أنَّ سببَ الهبوطِ، هو اعتراضُه على أمره تعالى، واعتقادُه خيريَّتَه على آدمَ، فما كان لله تعالى أن يأمرَه بما أمرَه، بحسبِ ظنِّه وتوهُّمِه، ثمَّ أمرَه بالخروجِ المسبَّبِ عن تكبُّرِه؛ ليكونَ أبلغَ في الإغلاظِ لمناسبةِ المقام، فقال: ﴿فَٱخۡرُجۡ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾، وسيقَ الأمرُ بالخروجِ في سورةِ الحِجْر من أوَّلِ وهلةٍ؛ لظهورِ اعتراضِه على أمرِ اللهِ وتكبُّره في قوله: ﴿لَمۡ أَكُن

(1) ابن جرير، جامع البيان: 12/329، والماورديّ، النّكت والعيون: 2/4، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/6، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 7/366.

﴿لِّأَسۡجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقۡتَهُۥ مِن صَلۡصَٰلٖ مِّنۡ حَمَإٖ مَّسۡنُونٖ ٣٣﴾ [ص: 33]، فأعقبَه بقوله: ﴿فَٱخۡرُجۡ مِنۡهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٞ ٣٤﴾ [ص: 34]، ولـمَّا كانَ في سورةِ (ص) قد ذكرَ تكبُّرَه في قوله: ﴿أَسۡتَكۡبَرۡتَ أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡعَالِينَ ٧٥﴾ [ص: 75]؛ ناسبَه ذِكْرُ الأمرِ بالخروجِ دونَ الهبوطِ؛ لأنَّ الخروجَ مسبَّبٌ عنِ التَّكبُّر، فجاء كلٌّ على ما يجب ويناسب، ولم يكن ليناسبَ ورودُ العكس في المواضع الثَّلاثة[1].

دلالةُ الفاءِ في قوله: ﴿فَٱخۡرُجۡ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾:

الأمرُ بالهبوطِ سببٌ للأمرِ بالخروجِ مِنَ الجنَّةِ

أفادتِ الفاءُ معنى السَّببيَّةِ والتَّفريعِ عنِ الأمرِ بالهبوط، والمعنى: الأمرُ بالهبوط سببٌ للأمرِ بالخروج مِنَ الجنَّة وتعليلٌ له[2]، "قولهُ تعالى: ﴿فَٱخۡرُجۡ﴾ تشير إلى أنَّ سببَ الأمرِ بالهبوط هو التَّكبُّر، والمعنى: إذا كنتَ تتكبَّر ذلك التَّكبُّرَ، فالأولى لنفسك أن تَهبطَ، فتكونَ مِنَ الصَّاغرين"[3].

دلالةُ قوله تعالى: ﴿فَٱخۡرُجۡ﴾ بين التَّأكيدِ والتَّأسيسِ:

خروجُ إبليسَ مِنَ الجنَّةِ صاغرًا ذليلًا، مع منعِه الأبديِّ من دخولِها

تحتملُ جملةُ: ﴿فَٱخۡرُجۡ﴾ أنْ تكون بيانًا وتفسيرًا لقوله: ﴿فَٱهۡبِطۡ﴾، كأنَّه كَرَّرَ مَعْنَى الهبوطِ لتأكيدِه وتقريرِه، فإنَّ الهبوطَ مِنَ الجنَّةِ خُروجٌ منها[4]. وتحتمل أنْ تكونَ دالَّةً على معنًى آخر على سبيلِ التَّأسيس، فإنَّه لـمَّا أمرَ اللهُ إبليسَ بالهبوط، قد يتوهَّم متوهِّمٌ أنَّه هبط من موضعٍ إلى موضعٍ آخرَ فيه كرامةٌ أيضًا، فصُرِّح بالخروجِ منها؛ ليكونَ على معنى الطَّردِ منها صاغرًا ذليلًا، ومنعِه من دخولِها مرَّةً أخرى، ولهذا أعقبه بقولِه: ﴿إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾؛ ليكون خروجُه على سبيلِ الإهانةِ. ويُحتمَل أنْ يكونَ الخروجُ عقوبةً خاصَّة به؛ للإشعارِ بعقوبةِ الإبعادِ عنِ المكانِ المقدَّسِ الفاضلِ،

(1) الغرناطيّ، ملاكُ التّأويل: 1/178.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 5/19، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/217.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير 5/2796.
(4) أبو حيان، البحر المحيط: 5/19، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/217.

المطهَّرِ مِن كلِّ ما لَهُ وصفٌ ينافيه؛ لأنَّ خُلُقَ التَّكبُّرِ غيرُ ملائمٍ لِمَا جعل اللّهُ ذلكَ المكانَ لهُ[1].

براعةُ التَّعبيرِ بينَ الاستئنافِ البيانيِّ والتَّعليلِ:

مَنِ ارتدى رداءَ الاستكبارِ؛ آلَ بـه الأمـرُ إلى هَوَانٍ وبَوَارٍ

تَحتمِل جملةُ: ﴿إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾ أنْ تكونَ على طريقِ الاستئنافِ البيانيِّ؛ إذا كانَ المرادُ مِنَ الخبرِ الإخبارَ عن تكوينِ الصَّغارِ في إبليسَ، بجعل اللّهِ تعالى إيَّاه صاغِرًا حقيرًا حيثُما حلَّ، فَفَصَلَها عنِ الَّتي قبلَها للاستئنافِ المُبيِّنِ للسَّببِ الخاصِّ، كأنَّه قيل: هل خروجُه مِنَ الجنَّة خروجُ صَغَارٍ وذِلَّةٍ؟ فأُجيبَ بقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾. وتَحتمِل أنْ تكونَ واقعةً موقعَ التَّعليل للإخراجِ، على طريقة استعمال (إنَّ) في مثل هذا المقامِ استعمالَ فاءِ التَّعليلِ، فهذا إذا كانَ المرادُ مِنَ الخبرِ إظهارَ ما فيه مِنَ الصَّغارِ والحقارةِ الَّتي غفلَ عنها، فذهبتْ بهِ الغفلةُ عنها إلى التَّكبُّرِ[2].

نكتةُ التَّعبيرِ بلفظ: ﴿ٱلصَّٰغِرِينَ﴾:

الكنايةُ: إثباتُ الشَّيءِ بإثباتِ ملزومِه، وهي أبلغُ مِنَ التَّصريحِ

قد يقالُ: لِمَ لمْ يقُلْ: (إنَّك صاغرٌ)، وهو أخصرُ، والمعنى واحدٌ؟ والجواب: ليس المعنى بواحدٍ، وبينهما فرقٌ، فإنَّ قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾، أشدُّ في إثباتِ الصَّغار لإبليسَ مِن نحو: (إنَّكَ صاغرٌ)، أو قد (صَغُرتَ)، وبيانُه: أنَّه لمَّا كانت (أل) في قوله: ﴿ٱلصَّٰغِرِينَ﴾ جنسيَّةً؛ دلَّت على أنَّه واحدٌ مِنَ الفئةِ المعروفة بالصَّغارِ، ومعدودٌ منهم، فيكونُ قد أثبتَ صَغارَه بطريقةٍ تُشبهُ الاستدلالَ، فإنَّ مَن كان مِن فئةٍ موصوفةٍ بوصفٍ، ثبتَ له هذا الوصفُ بطريقِ اللَّازمِ؛ ليكونَ من قبيلِ الكناية الَّتي هي إثباتُ الشَّيءِ بإثباتِ ملزومِه، وهي أبلغُ مِنَ التَّصريحِ، فكأنَّه أثبتَ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/44.

(2) رشيد رضا، تفسير المنار: 8/297، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/45.

الصَّغارَ له مرَّتين: مرَّةً لأنَّهُ عدَّهُ مِن زُمرةِ الصَّاغرينَ، وأخرى حينَ أثبتَ له الوصفَ باللُّزوم[1].

مناسبةُ ذكرِ الصَّغارِ في الآيةِ الكريمةِ:

مَنِ اتَّصفَ بصفةِ الاستكبارِ؛ عاقبَهُ اللهُ بالصَّغارِ

لـمَّا كان خروجُ إبليسَ مِنَ الجنَّةِ بسببِ تكبُّرِه؛ أَخبَر بِصَغَارِهِ وَذِلَّتِهِ؛ ليكونَ جزاءً على تَكَبُّرِه، وقُوبلَ بالضِّدِّ مِمَّا اتَّصَفَ بِهِ، وهو الصَّغَارُ الذي هُوَ ضِدُّ التَّكَبُّرِ، وكونُه مِنَ الصَّاغرينَ، أي: مِن أهلِ الصَّغارِ والهوانِ على اللهِ وعلى أوليائه، يذمُّه كلُّ إنسان، ويلعنه كلُّ لسانٍ، لِتَكَبُّرِه، وبه عُلِم أنَّ الصَّغار لازمٌ للاستكبار[2].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(الهبوط) و(الإنزال):

يُستعملُ الهبوطُ في مقامِ العقوبةِ، والإنزالُ: في مقامِ التَّكريمِ

يُستعمَلُ الهُبوطُ على سبيلِ الاستخفافِ والعقوبةِ، قال تعالى: ﴿وَقُلۡنَا ٱهۡبِطُواْ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ﴾ [البقرة: 36]، وقال: ﴿فَٱهۡبِطۡ مِنۡهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا﴾ [الأعراف: 13]، وقال: ﴿ٱهۡبِطُواْ مِصۡرٗا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلۡتُمۡۗ﴾ [البقرة: 61]، وليس في قوله: ﴿فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلۡتُمۡۗ﴾ [البقرة: 61] تعظيمٌ وتشريف؛ إذ أعقبه بقوله: ﴿وَضُرِبَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلۡمَسۡكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٖ مِّنَ ٱللَّهِۚ﴾ [البقرة: 61]، وقال جلَّ ذكرُهُ: ﴿قُلۡنَا ٱهۡبِطُواْ مِنۡهَا جَمِيعٗاۖ﴾ [البقرة: 38]. وأمَّا الإنزالُ فيستعمَلُ في مقامِ التَّشريف والتَّكريم، فهو بخلاف الهبوط؛ إذ ذَكَره تعالى في الأشياءِ الَّتي نبَّهَ على شرفِها، كإنزالِ الملائكةِ والقرآنِ والمطرِ وغيرِها، فناسبَ ذِكرَ الهبوطِ في الآيةِ دونَ الإنزالِ؛ لمناسبتِهِ المقامَ.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/45.
(2) النّسفيّ، مدارك التّنزيل وحقائق التّأويل: 8/45.

المحتويات

الجزء الثامن 7

سورة الأنعام 9

- [الأنعام: 124] 10
- [الأنعام: 125] 25
- [الأنعام: 126] 42
- [الأنعام: 127] 51
- [الأنعام: 128] 59
- [الأنعام: 129] 80
- [الأنعام: 130] 86
- [الأنعام: 131] 101
- [الأنعام: 132] 114
- [الأنعام: 133] 126
- [الأنعام: 134] 148
- [الأنعام: 135] 156
- [الأنعام: 136] 176
- [الأنعام: 137] 193
- [الأنعام: 138] 210
- [الأنعام: 139] 245
- [الأنعام: 140] 268
- [الأنعام: 141] 287
- [الأنعام: 142] 316
- [الأنعام: 143] 328
- [الأنعام: 144] 345
- [الأنعام: 145] 363
- [الأنعام: 146] 390
- [الأنعام: 147] 402
- [الأنعام: 148] 413
- [الأنعام: 149] 434
- [الأنعام: 150] 441
- [الأنعام: 151] 456
- [الأنعام: 152] 486
- [الأنعام: 153] 522
- [الأنعام: 154] 537
- [الأنعام: 155] 549
- [الأنعام: 156] 556
- [الأنعام: 157] 565
- [الأنعام: 158] 582
- [الأنعام: 159] 600
- [الأنعام: 160] 614
- [الأنعام: 161] 626
- [الأنعام: 162 - 163] 637
- [الأنعام: 164] 648
- [الأنعام: 165] 662

سورة الأعراف 677

- [الأعراف: 1 - 2] 690
- [الأعراف: 3] 705
- [الأعراف: 4 - 5] 717
- [الأعراف: 6 - 7] 733
- [الأعراف: 8 - 9] 742
- [الأعراف: 10] 757
- [الأعراف: 11] 767
- [الأعراف: 12] 778
- [الأعراف: 13] 792

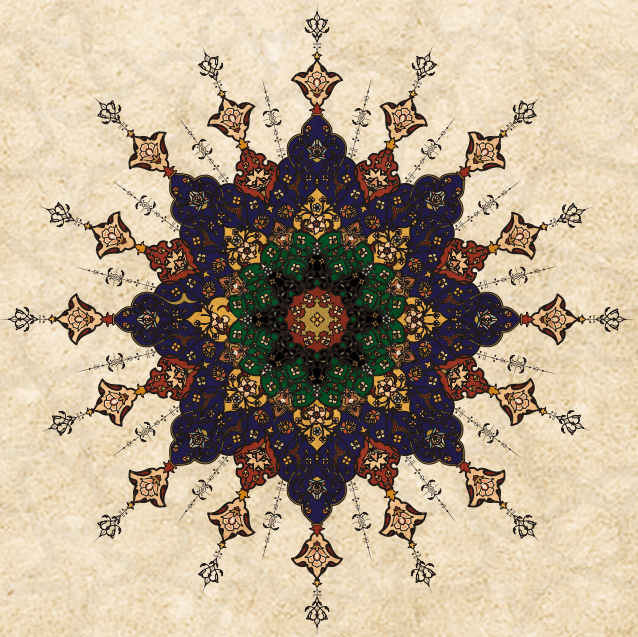

مجمع القرآن الكريم بالشارقة

موسوعة التفسير البلاغي

المُجلَّدُ الثّالثَ عَشَرَ

سورة الأعراف من الآية 14 إلى الآية 87

موسوعة التفسير البلاغي

Government of Sharjah حكومة الشارقة
مجمع القرآن الكريم بالشارقة
HOLY QURAN ACADEMY IN SHARJAH

موسوعة التفسير البلاغي

المُجَلَّدُ الثّالثَ عَشَرَ

سورة الأعراف من الآية 14 إلى الآية 87

نُخْبَةٌ مِنْ عُلَماء مَجْمَعِ القُرْآنِ الكَرِيمِ بِالشّارِقَةِ

منشورات القاسمي
AL QASIMI PUBLICATIONS
20/24

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثالث عشر، سورة الأعراف من الآية 14 إلى الآية 87
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: سورة الأعراف من الآية 14 إلى الآية 87 [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 13 ، 804 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-09-8
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 13 : سورة الأعراف من الآية 14 إلى الآية 87.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-768-09-8
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-6551762 بتاريخ 2023/12/20م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الجُزْءُ الثَّامِنُ

سُورَةُ الأَعْرَافِ

﴿قَالَ أَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ١٤ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ ١٥﴾

[الأعراف: 14 - 15]

مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِما قَبْلَهُما:

المناسبةُ بين هبوطِ إبليسَ، وبين الإمهالِ الَّذي طلبَهُ وأجيبَ إليهِ

لمَّا عَلِمَ إبليسُ اللَّعينُ أنَّ اللّهَ قد غضبَ عليه، وأبعدَه عن ساحةِ الرِّضا، وأنَّه مِنَ الصَّاغرين، سألَ اللّهَ النَّظِرَةَ والإمهالَ إلى يوم البعثِ؛ ليتمكَّنَ من إغواءِ ما يَقدِرُ عليه مِن ذرِّيَّةِ آدمَ، فجاءتْ هذه الآيةُ. وأيضًا: لمّا كانت حكمةُ اللّهِ في خَلْقِه مقتضيةً ابتلاءَ العبادِ واختبارَهم؛ ليستبينَ المطيعُ ربَّه والمطيعُ عدوَّه، حكمَ اللّهُ له بالإمهالِ والتَّأخيرِ، ليكونَ بتقديرِ اللّه وعلمِه، فجاءت هذهِ الآيةُ بعدَ الأمرِ بالخروجِ مِنَ الجنَّة، وطَرْدِه منها[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَنظِرۡنِيٓ﴾: النَّظَرُ: تَقْليبُ البَصَرِ والبصيرةِ؛ لإدرَاكِ الشَّيءِ ورؤيَتِهِ، ويأتي بمعنى النَّظرِ بالعين أو بالقلب، وبمعنى التَّأمُّلِ والفَحْصِ، كقوله تعالى: ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ [يونس: 101]، أي: تَأَمَّلُوا، وبمعنى: الانْتِظَارِ، يقال: نَظَرْتُهُ وانتظرتُهُ وأنظرْتُهُ، أي: أمهلتُه أو أَخَّرْتُهُ، ويُقَال: بِعْتُ فُلانًا شَيْئًا، فأَنْظَرْتُه، أي: أَمْهلتُه زمنًا، والاسم منه: النَّظِرةُ، واستنظر فُلانٌ فُلانًا، مِنَ النَّظِرَة، وأنظِرْني في الآية بمعنى: أخِّرني[2].

2) ﴿يُبۡعَثُونَ﴾: أصلُ البعث: إثارةُ الشَّيء وتوجيهُه، بعد بُروكٍ أو قُعودٍ أو رُقود، ومنه: بَعَثْتُ البَعِير، فانبعثَ، والبَعْثُ في كلام

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/367، والسّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 284.

(2) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (نظر)، وابن الهائم، التّبيان، ص: 164.

العرب يستعملُ على وجهين؛ أَحدهمَا: الإرسال، كقول اللّه تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ﴾ [الأعراف: 103]، مَعْنَاهُ: أرسلنَا، وفيه معنى إثارةِ بارِكٍ أَو قَاعدٍ، والثَّاني: الإحياء مِنَ اللّه للمَوْتى، ومنه قولُه جلَّ وعزَّ: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ﴾ [البَقَرَة: 56]، أَي: أحييناكم، وفيه معنى الإثارة؛ لأنَّهم كانوا راقدين، والتَّوجيه إلى وجهةٍ معيَّنة؛ لأنَّه يخرجُهم ويسيِّرهم إلى القيامة[1].

المَعْنى الإِجْماليُّ:

قال إبليس: أخِّرني، فلا تُمِتْني إلى يوم يُبْعثُ الخَلْقُ مِن قبورهم، وهو النَّفخَةُ الأخيرةُ عند قيامِ السَّاعةِ، أراد الخبيثُ ألَّا يَذُوقَ الموتَ، فقضى اللّهُ تعالى أن يكونَ مِنَ المؤخَّرين، ممَّن كَتبَ عليهم تأخيرَ الأجلِ إلى النَّفخةِ الأولى في الصُّورِ، حين يموتُ الخَلْقُ كلُّهُم[2]، وخلاصةُ المعنى: (أخِّرني وأمْهِلْني، فلا تمتني إلى يوم يُبعثون مِن قبورهم)، وهي النَّفخَةُ الأخِيرَةُ عند قِيَام السَّاعَةِ، فأنظرَهُ اللّهُ إلى الوقت المعلومِ في عِلْمِ اللّه تعالى[3].

إنـظـارُ إبـلـيسَ إذلالٌ له وهوانٌ، واختبارٌ ممدود لـكـافَّـةِ بـني الإنسانِ

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ الاستئنافِ البيانيِّ في جملة ﴿قَالَ أَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾:

في قوله: ﴿قَالَ أَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ استئنافٌ مبنيٌّ على سؤالٍ، نشأَ ممَّا قبلَهُ، كأنَّه قيل: فماذا قالَ اللَّعين بعدما سمع هذا الطَّردَ المؤكَّد؟ فقيل: قال: ﴿أَنظِرْنِىٓ﴾[4]، ففيه تشويقٌ للسَّامعين إلى معرفةِ قول إبليسَ، وتنبيهٌ لهم إلى أنَّه طلب إنظارَ العقوبةِ وتأخيرِها.

تـشـويـقُ السَّامعين إلى حصولِ إبليسَ على الإنـظـارِ في عقوبتِهِ

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ (بعث).
(2) البغويّ، معالم التّنزيل: 2/183.
(3) ابن عادل الدّمشقيّ، اللّباب في علوم الكتاب: 9/36.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/217.

مناسبةُ تحديدِ الإنظارِ في قوله تعالى ﴿إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ﴾:

طَلَبُ إبليسَ إمهالَه إلى يومِ يُبعثُ الخَلْقُ؛ كي لا يَذوقَ الموتَ المعتادَ

لمَّا كان يومُ البعثِ هو يومُ النَّفخةِ الثَّانيةِ الَّتي يقومُ فيها الخلقُ إلى ربِّ العالمين، أرادَ إبليسُ اللَّعينُ ألَّا يذوقَ الموتَ، فطلبَ أن يكونَ إمهالُه إلى يومِ يبعثُ الخَلْقُ، ومِن هنا حدَّدَ الإنظارَ بقوله: ﴿إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ﴾ بعد بعثِ الخلائقِ.

مرجع الضَّميرِ المتَّصلِ في الفعل ﴿يُبۡعَثُونَ﴾:

إعلامُ إبليسَ بأنَّ آدمَ سيكونُ له ذريّةٌ سوف يُبعثون

يعودُ الضَّميرُ في: ﴿يُبۡعَثُونَ﴾ عَلَى بني آدم، بمَا دَلَّ عليه المعنى والسِّياق؛ إذ ليس في اللَّفْظِ ما يَعُودُ عليهِ[1]، وذلك لِلإيجازِ في الكلامِ، وللإشعارِ بأنَّ اللهَ أَعْلَمَ إبليسَ بأنَّ آدمَ سيكونُ له ذريَّةٌ.

نكتةُ مجيءِ لفظِ البعثِ على صيغةِ المبنيِّ للمفعولِ:

هولُ يومِ البعثِ عظيمٌ، ولا مفرَّ للآثمين مِنَ العذابِ الأليمِ

كانَ في الظَّاهرِ أن يقولَ إبليسُ: (إلى يومِ تبعثهم)، فهو في مقامِ مخاطبةِ اللهِ ربِّ العالمين، فعُدِلَ إلى صيغةِ المبنيِّ للمفعولِ في قوله: ﴿يُبۡعَثُونَ﴾؛ لتوجيهِ النَّظرِ إلى حدث بَعْثِ الخَلْقِ يومَ القيامةِ، وليس إلى إسنادِ البعثِ إلى اللهِ تعالى؛ للإشعارِ بعظمةِ يومِ البعثِ وهولِه، كما أنَّ الفاعلَ معلومٌ، وإبليسُ مُقرٌّ به، فليس في ذِكرِه هنا فائدةٌ، ففيه إيجازٌ كذلك.

بلاغةُ الاستئنافِ البيانيِّ في جملة ﴿قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ﴾:

حوارُ اللهِ تعالى مع إبليسَ يستحقّ الادِّكارَ والاعتبارَ

جاء قولُه تعالى: ﴿قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ﴾ على طريقِ الاستئنافِ، المبنيِّ على سؤالٍ نشأَ ممَّا قبلَهُ، كأنَّه قيلَ: فبماذا أجابه اللهُ على سؤالِه بالإنظارِ إلى يومِ البعث؟ فقيلَ: قال اللهُ: ﴿إِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ﴾؛ لتشويقِ السَّامعين إلى المقاولةِ بين اللهِ تعالى وإبليسَ، وتنبيههم إلى الإصغاء إليها.

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/19، وابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 9/36.

مناسبةُ الجوابِ في قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ﴾:

أنظرَ اللهُ إبليسَ إلى يومِ النَّفخةِ الأولى، لا إلى يـومِ يُبعثُ الخَلْق

جاء الجوابُ من غيرِ غايةٍ زمنيَّةٍ للإنظار؛ للإيذان بأنَّ اللّه لم يُجِبْه إلى ما سأل، وإنَّما كان مجيبًا له إلى ما سأل، لو كان قالَ له: (إنَّك مِنَ المنظرين إلى الوقتِ الَّذي سألتَ، أو إلى يومِ البعث، أو إلى يوم يُبعثون)، أو ما أشبهَ ذلك، ممَّا يدلُّ على إجابتِه إلى ما سألَ مِنَ النَّظِرة، فلمَّا قال: ﴿إِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ﴾؛ دلَّ على أنَّه إذا أنظره يومًا واحدًا، أو أقلَّ منه أو أكثرَ، فقد دخل في عِداد المنظَرين، وتمَّ فيه وَعْدُ اللّهِ الصَّادقُ، وقد بيَّنَ اللّهُ تعالى في آيةٍ أخرى مدَّةَ الإنظار في قوله: ﴿فَإِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ ٣٧ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡوَقۡتِ ٱلۡمَعۡلُومِ ٣٨﴾ [الحِجر: 37، 38، ص: 80-81]، أي: إلى يومِ النَّفخة الأولى، فقضى على إبليس أنْ يموتَ، كما يموتُ الخلقُ[1].

بلاغةُ التَّعبيرِ بالاسميَّةِ في قوله: ﴿إِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ﴾:

طـلـبُ إبـلـيـسَ الإنـظـارَ لتأخيرِ الموتِ، لا لتأخيرِ العقوبة

لـمَّا كانت الجملةُ الاسميَّةُ دالَّةً على الثُّبوتِ؛ دلَّ قولُه تعالى: ﴿إِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ﴾ على أنَّه إخبارٌ بالإنظارِ المقدَّر للمُنظَرين أزلًا، لا إنشاءٌ لإنظارٍ خاصٍّ به؛ إجابةً لدعائِه، فلا خُصوصيَّةَ له كما تقدَّم، ودلَّ الكلامُ أيضًا على أنَّ استنظارَه، كان طَلَبًا لتأخيرِ الموتِ؛ إذ به يتحقَّق كونُه مِن جُملتهم، لا لتأخيرِ العُقوبةِ، كما ذهب إليه بعضُ المفسِّرين، والمعنى: إنَّك مِن جُملةِ الَّذينَ أُخِّرتْ آجالُهم أزلًا، حسبما تقتضيهِ الحِكمةُ التكوينيَّةُ إلى يومِ الوقتِ المعلومِ[2].

فائدة (إنَّ) في قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ﴾:

تـأخـيرُ مـوتِ إبليسَ مؤكَّدٌ، وهو مِن تصريفِ الله في الآجال

تُفيد (إنَّ) في قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ﴾ تأكيدَ مضمونِ الجملةِ وتقريرَها، بمعنى: تأكيدِ كونِ إبليسَ مِنَ الطَّائفةِ التي أخَّرَ اللّهُ تعالى موتَها، "وأنَّ استنظارَه كان طَلَبًا لتأخيرِ الموتِ؛ إذْ به

(1) ابن جرير، جامع البيان: 12/331.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/217.

يتحقَّق كونُه مِن جملتِهم، لا لتأخيرِ العُقوبةِ كما قيل، أي: إنَّك مِن جُملةِ الذينَ أُخِّرتْ آجالُهم أزلًا، حسبما تقتضيه الحِكمةُ التَّكوينيَّةُ، إلى وقت فناءِ غيرِ ما استثناه اللهُ تعالى مِنَ الخلائق، وهو النَّفخةُ الأولى، إلى وقتِ البعثِ الَّذي هو المسؤولُ"[1].

نكتةُ جمعِ ﴿ٱلْمُنظَرِينَ﴾ في قوله تعالى ﴿إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ﴾:

عُبِّر بصيغة الإدخالِ في جمعِ المنظَرين؛ ليكون إبليسُ مِن بعضِهم، فيكونَ مشمولًا بما سألهُ الآخَرون؛ لِيُشعرَ بأنَّ السَّائلَ تبَعٌ لهم، ولئلَّا يتوهَّم إبليسُ أنَّ إنظارَه خُصوصيّةٌ له، بل حالُه حالُ الطَّائفةِ الَّتي تأخَّرت أعمارُها كثيرًا، حتَّى جاءتْ آجالُها على اختلافِ أوقاتِها، فقد عمَّ تلكَ الفرقةَ إنظارٌ، وإنْ لم يكونوا أحياءً مدَّةَ الدَّهرِ[2].

إنظارُ إبليسَ ليسَ خصوصيَّةً لهُ، بل هو مِنَ الَّذينَ تأخَّرت أعمارُهم

توجيهُ المتشابهِ اللَّفظي:

قوله تعالى: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ﴾ في هَذه السُّورَة، وفي (ص): ﴿قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ﴾، وفي الحِجْر: ﴿قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا لَكَ﴾، بِزِيَادَة ﴿يَٰٓإِبۡلِيسُ﴾ فِي السُّورتين؛ لأَنَّ خطابه قَرُبَ مِن ذكرِه في هذه السُّورة، وهو قوله: ﴿إِلَّآ إِبۡلِيسَ لَمۡ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ١١ قَالَ مَا مَنَعَكَ﴾، فَحَسُنَ حذفُ حرفِ النِّداءِ والمنادَى، وَلم يقرُب في (ص) قُرْبَه منه في هذه السُّورة؛ لأنَّ في (ص): ﴿إِلَّآ إِبۡلِيسَ ٱسۡتَكۡبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٧٤﴾ [ص: 74]، بِزِيَادَة: ﴿ٱسۡتَكۡبَرَ﴾، فزاد حرفُ النِّداء والمنادَى، فقال: ﴿يَٰٓإِبۡلِيسُ﴾، وَكَذَلِكَ فِي (الحِجْر)، فَإِنَّ فِيهَا: ﴿إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ٣١﴾ [الحِجْر: 31] بِزِيَادَة ﴿أَبَىٰٓ﴾، فزاد حرفَ النِّداء والمنادَى، فَقَالَ: ﴿يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا لَكَ﴾، وكذلك في سورة (الحِجْر)، فإنَّ فيها قوله: ﴿إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ٣١﴾ [الحِجْر: 31].

لمَّا زادَ قُربُ الخطابِ مِن ذكرِه؛ حَسُنَ حذفُ حرفِ النِّداء

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/217.

(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/380، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/217.

النِّداءُ بالاسمِ في قوله: ﴿يَٰٓإِبۡلِيسُ﴾ أَمَارةُ الفعلِ الشَّنيعِ:

لمَّا قال اللّه تعالى في سورة الحِجْر: ﴿أَبَىٰٓ﴾، وفي (ص): ﴿ٱسۡتَكۡبَرَ﴾، فقدَّمَ استكبارَه في سورتي (الحِجْر) و(ص)، على سؤالِهِ عن سبب امتناعِه مِنَ السُّجود؛ ناداه باسمِهِ ليَدُلَّ على قُبحِ فِعْلِهِ الشَّنيع بطريق النِّداء، وليُشْعِر نداؤهُ باسمِهِ بطردِهِ ومغايرتِهِ للملائكةِ[1].

إبليسُ تمرَّدَ على أوامرِ الخالقِ، فلُعِنَ على رؤوسِ الخلائقِ

مقامُ الاستنظارِ يقتضي إظهارَ الضَّراعة بلفظِ الرّبوبيّة:

قال تعالى في سورة (الأعراف): ﴿قَالَ أَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ١٤ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ﴾، وقال في سورة الحِجْر: ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ٣٦ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ ٣٧﴾ [الحجر: 36 - 37]، وفي سورة ص: ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ٧٩﴾ [ص: 79]، فصَدَّر الكلامَ في سورةِ الحِجْر وسورة ص بقوله: ﴿رَبِّ﴾، واقترنتِ الفاءُ بالفعل في الموضعين، وبيانُه: أنَّه ابتدأ القصَّة في سورة الأعراف بقوله: ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَٰكُمۡ ثُمَّ صَوَّرۡنَٰكُمۡ ثُمَّ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ لَمۡ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ١١﴾ [الأعراف: 11] من غير أن يَذكرَ وصفَ الرُّبوبيَّة، وفي سورة الحِجْر قال: ﴿وَإِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرٗا مِّن صَلۡصَٰلٖ مِّنۡ حَمَإٖ مَّسۡنُونٖ ٢٨﴾ [الحِجْر: 28]، وفي سورة ص قال: ﴿إِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرٗا مِّن طِينٖ ٧١﴾ [ص: 71]، فجاء كلٌّ بما يناسب الابتداء به، فلم يَذْكُر تضرُّعَ إبليسَ في سورة الأعراف، وذَكَره في سورتي (الحِجْر) و(ص)، كما أنَّه لمَّا كانَ مقامُ الاستنظار يقتضي إظهارَ الضَّراعة، وترتيبَ الاستنظار على الحِرمان المدلولِ عليه بالطَّرد والرَّجم، وكان مقامُ الإنظارِ، يقتضي ترتيبَ الإخبارِ بالإنظار على الاستنظار؛ صُدِّر الكلامُ بالضَّراعة إلى ربِّ العالمين، وجِيءَ بالفاء، فقال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ

تختلفُ السِّياقاتُ في الحذفِ والذِّكر باختلافِ مقتضياتِ الدِّلالة

(1) تاج القراء الكرمانيّ، أسرار التّكرار في القرآن، ص: 116، والغرناطيّ، ملاك التّأويل، ص: 178، والأنصاريّ، فتح الرّحمن، ص: 187.

يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ٣٦ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ ٣٧ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡوَقۡتِ ٱلۡمَعۡلُومِ ٣٨﴾

[الحِجْر: 36 - 38].

يناسبُ مجرَّدُ الإخبارِ الايجازَ، وهو مَلْمَحٌ في البلاغةِ رفيعٌ:

دلالةُ الإيجازِ والإطنابِ في تحديدِ المعنى وبلاغتِهِ

لـمَّا كان مقامُ الحكايةِ مجرَّدَ إخبارٍ بالاستنظارِ والإنظار في سورة الأعراف، سيقت الحكايةُ على نهج الإيجاز والاختصارِ، مِن غيرِ تعرُّضٍ لبيانِ كيفيَّةِ كلِّ واحدٍ منهما عند المخاطبة والحِوار؛ ليُوفَّى كلٌّ واحد مِن مقامَي الحكايةِ والمحكِيِّ جميعًا حظَّه، فإذا اقتضى مقامُ الحكاية التَّفصيلَ، كما في سورتي (الحِجْر) و(ص)؛ فصَّل الكلام، وإذا اقتضى المقامُ الإيجاز، كما في سورة الأعراف؛ رُوعِي جانبُه. وممَّا يُؤيِّد مقامي الإيجازِ والتَّفصيل في المواضع الثلاثة: أنَّ مجموع الكَلِم الواقعة مِن لَدُن قولهِ في سورةِ الأعراف: ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَٰكُمۡ ثُمَّ صَوَّرۡنَٰكُمۡ﴾ وهو ابتداءُ القصَّة، إلى قوله: ﴿قَالَ أَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ﴾ بضعٌ وأربعون كلمةً، والواردُ في (الحِجْر) مِن لَدُن قوله: ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ﴾، إلى قوله: ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ٣٦﴾ [الحجر: 26 - 36] بضعٌ وسبعون كلمةً، وفي سورة (ص) مِن لَدُنِ قوله: ﴿إِذۡ قَالَ رَبُّكَ﴾ [ص: 71] إلى الآية بضعٌ وستون كلمةً، فقد وضح ما قُصِد في الأعرافِ مِن إيجازِ الأخبار في القصَّة، وما في السُّورتين بَعدُ مِنَ الإطناب[1].

الفاءُ قرينةُ التَّسبيب عمَّا قبلَها في جملة ﴿فَإِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ﴾:

حذفُ الحرفِ وذِكْرُهُ يلائمُ المعنى، ويَخدمُ البيانَ

في بيان سببِ مجيءِ الفاءِ في سورتي (الحِجْر) و(ص) دونَ سورة الأعراف يقال: إنَّه لـمَّا كانت آيةُ الأعراف استئنافَ سؤالٍ غيرِ مُسبَّبٍ عمَّا قبلَه؛ لم تقع الفاء في حيِّزه، وناسبه أن يقول في الجواب: ﴿إِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ﴾، والَّذي في سورة الحِجْر: لـمَّا كان الكلامُ استئنافًا

(1) الغرناطيّ، ملاك التّأويل، ص: 179، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/218.

مُسبَّبًا عمَّا قبلَه؛ ناسبَ مجيءُ الفاءِ الَّتي تُفيد التَّفريعَ كذلك، والمعنى: ما دُمتَ قد طردتني ولعنتني؛ فأخِّرني إلى يوم الدِّين، ولـمَّا جاء بفاء السَّببية هنا؛ ناسب: ﴿فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ﴾[1].

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(الإنظار) و(الإمهال):

لـمَّا كان الإنظارُ مِنَ النَّظَر، كان مقرونًا بمقدارِ ما يقعُ فيه النَّظر، فيكونُ له وقتٌ معلومٌ محدودٌ، والإمهالُ: فيه معنى التَّأجيلِ الـمُبْهَم الَّذي لا يُقدَّرُ له وقتٌ معيَّن، مع رفقٍ في التَّأجيلِ، وتُؤَدَةٍ فيه، فناسبَ ذِكرُ الإنظارِ هنا دونَ الإمهالِ؛ لِمناسبتهِ شِدَّةَ عقوبةِ إبليسَ، وتوقيتَ إنظارِه إلى وقتٍ معيَّنٍ محدودٍ. أو أنَّ الإنظار: تأخيرُ العبد ليُنظَر في أمره، والإمهال: تأخيرهُ ليَسْهُلَ ما يتكلَّفُه مِن عِلْمه[2].

النَّظرُ محدَّدٌ معلومٌ، والإمهالُ تأجيلٌ مخفيٌّ برفقٍ

(1) ابن جماعة، كشف المعاني في متشابه المثاني، ص: 175.

(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 202، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (مهل).

﴿قَالَ فَبِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي لَأَقۡعُدَنَّ لَهُمۡ صِرَٰطَكَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ١٦ ثُمَّ لَأٓتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ وَعَن شَمَآئِلِهِمۡۖ وَلَا تَجِدُ أَكۡثَرَهُمۡ شَٰكِرِينَ ١٧﴾ [الأعراف: 16 - 17]

مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِما قَبْلَهُما:

المناسبةُ بين إنظارِ إبليسَ، والتزامِهِ بالإغواءِ والإغراءِ للبشرِ

لـمَّا كانَ قد حُكِمَ على إبليسَ بالشَّقاءِ، قابلَ اللَّعينُ نعمةَ الإمهالِ وإطالةَ العُمُر بالتَّمادي في الكفر، فقال: بما أغويتني لأَقْطَعنَّهمْ عنكَ؛ بمنعِهم مِن فعلِ ما أمرتَهم به، وحملِهم على فعلِ ما نهيتَهم عنه، ولـمَّا أرادَ أن يُبيِّنَ أنَّه أقام نفسَه في هذا الأمرِ، في غايةِ الجدِّ وتمامِ الاجتهادِ، أشارَ إليه بحرفِ التَّراخي، فقال: ﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم﴾ الآيةَ[1]. وأيضًا: لـمَّا أنظرَ اللّٰهُ تعالى إبليسَ، قابلَ هذه النِّعمةَ بما هو من جِبلَّتِه، بالتَّمادي في الكفرِ؛ لإضلالِ البَشَرِ مِن كلِّ وجهٍ ممكنٍ، فأفادتِ الآيةُ الأولى تَرَصُّدَه للبشرِ بالإغواءِ، وأفادتِ الآيةُ الثَّانيةُ المعطوفةُ بـ﴿ثُمَّ﴾، تَهجُّمَه عليهم بشتَّى الوسائلِ، ومِن جميعِ الجهاتِ الَّتي يأتي منها العدوُّ غالبًا[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَغۡوَيۡتَنِي﴾: يدور معنى غَوِيَ على خلافِ الرُّشدِ، وإظلامِ الأمرِ والجهلِ به، والانهماكِ في الباطلِ، وهو مشتقٌّ مِنَ الغِيايَةِ، وهي الغَبَرةُ والظُّلمةُ، تغشيانِ الشَّيءَ، كأنَّ ذا الغَيِّ قد غَشِيَه ما لا يَرى معه سبيلَ حقٍّ، فهو في ظُلمةِ الباطلِ، لا يَرى طريقًا إلى الرُّشدِ، كما يدلُّ على فسادٍ في شيءٍ، يقالُ: غَوِيَ الفصيلُ؛ إذا أكثرَ مِن شُربِ اللَّبنِ؛ ففسدَ جوفُه، ولهذا يُطلق على ما يكونُ مِن اعتقادِ شيءٍ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/367 - 368.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/49.

فاسدٍ، والغِوايةُ: الانهماكُ في الغَيِّ، و﴿أَغْوَيْتَنِي﴾ في الآية بمعنى: أضللتني[1]، ومِن معنى أغواه اللّه: عاقبه وأهلكه، ومنه قوله تعالى: "﴿قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ﴾، وقوله: ﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِيٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْۚ﴾ [هود: 34][2].

2) ﴿لَأَقْعُدَنَّ﴾: القُعُودُ يُقابَلُ به القيامُ، وامرأةٌ قاعدٌ؛ إذا قعدَتْ عنِ المَحيض، فَإذا أردتَ القُعود؛ قلتَ: قَاعِدَة، وَيُقَال: رجلٌ قاعدٌ عنِ الغَزْو؛ إذا لم يَغزُ، وقعيدة الرَّجُل: امْرَأَتُه؛ لملازمة جلوسِها معه، فالقُعُودُ: فيه مُلازمةٌ ومطاولةٌ في الوقتِ، ومنه: قواعدُ البيت أساسُه، ومنه كذلكَ: التَّعبيرُ عنِ التَّرصُّد للشَّيء بالقُعُودِ له، ومنه: قوله تعالى: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ۝٢٢٤﴾ [الشّعراء: 224]، قال الزَّجَّاج: والمعنى: أنَّ الشَّاعر إذا هجا بما لا يجوز؛ هويَ ذلك قومٌ، وأحبُّوه، فهمُ الغاوون[3].

3) ﴿صِرَٰطَكَ﴾: الصِّراطُ: هو الطَّريقُ المستقيمُ الواضح، الَّذي يمرُّ سالكه فيه مرورًا سهلًا سريعًا، بلا عقبات تُرَيِّثُه، وهو كالطَّريق والسَّبيل في التَّذكير والتَّأنيث، وَتَذْكِيرُهُ أَكْثَرُ، ومِنَ المجاز: سيفٌ سراط؛ هو السَّيف القاطع الماضي في الضَّريبة، لا يعوقه شيءٌ، وقد رُسِمت كلمةُ صراطٍ في المصحف بالصَّاد؛ لمناسبةِ صوت الطَّاءِ بعدها، وأصلُها اللُّغويُّ بالسِّين (سِراط)[4]، وقوله: ﴿صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾، بمعنى: دينِ اللّهِ الحقِّ، أي: الملَّةِ الحنيفيَّةِ السَّمْحةِ، المتوسِّطةِ بينَ الإفراطِ والتَّفريط[5].

4) ﴿بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾: هذا التَّركيبُ يأتي بمعنى: الأمام أو القُدَّام، يقالُ: بين يَدَيَّ، لكلِّ شيءٍ أمامَك، وحقيقةُ قولِهم: جلستُ بينَ يَدَي فُلانٍ، أنْ يجلس بينَ الجهتينِ المُسامِتتينِ ليَمينِه وشمالِه قريبًا منه، فسُمِّيتِ الجهتانِ يَدَينِ؛ لكونِهما على سَمتِ اليَدَينِ، معَ القُربِ منهما توسُّعًا، كما يُسَمَّى الشَّيءُ باسمِ غيرِه، إذا جاورَه وداناه في غير موضعٍ، فيُسْتَعملُ بين يَدَيهِ على سبيلِ الاستعارةِ، بأن يكونَ أمامَه قريبًا منه،

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (غوي)، وابن الجوزيّ، تذكرة الأريب، ص: 108.
(2) أحمد مختار عمر، معجم اللّغة العربيّة المعاصرة: 2/1652.
(3) ابن سيده المرسّي، المحكم والمحيط الأعظم: (غوى).
(4) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والزّمخشريّ، أساس البلاغة، والرّاغب، المفردات: (سرط).
(5) ابن جرير، جامع البيان: 12/334.

وقد لا يكونُ للمُتقدَّمِ عليه يَدَانِ، ويقالُ: مَشى بَين يَدَيْهِ، أي: قُدَّامَه[1]..

5) ﴿أَيۡمَٰنِهِمۡ﴾: الأَيمانُ: جمع يمين، واليمينُ هنا: جِهةُ جانبِ جسم الإنسان، وتكون مُقابلَ الشِّمال، وتُطلقُ اليمينُ على الجارحةِ كذلك[2]، "واليمين: لليد والرِّجل مِنَ الإنسان مؤنَّثة، ويقال في جمعها: أيمان، والشِّمال مؤنَّثة، ويقال في جمعها: شمائل، قال اللّه تعالى: ﴿عَنِ ٱلۡيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدٗا لِّلَّهِ﴾ [النّحل: 48]، وقال تعالى: ﴿وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ﴾ [الأعراف: 17]، ويقال أيضًا في الجمع: أَيْمُن وأَشْمُل"[3].

6) ﴿شَمَآئِلِهِمۡ﴾: جمعُ شِمال، واليَدُ الشِّمَال، والجانبُ الشِّمَال بكسرِ الشِّين، خِلَافُ اليَمِينِ، وهي الجِهةُ الَّتي تكون شِمالًا مِن جسم الإنسانِ، أي: مُقابِلَ اليَمين، وَالتَفَتَ يمينًا وشِمالًا، أَي: جِهَةَ اليمِينِ وجِهَةَ الشِّمال[4].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

إبليسُ يُقسمُ على إضلالِ بني آدمَ، وصدِّهم عن الهُدى

قال إبليسُ اللَّعينُ: فبسببِ إضلالِك لي، أُقسمُ بكَ لألزمنَّ الجلوسَ لذريَّة آدمَ على طريقِ الإسلامِ الحقِّ القويمِ الَّذي فطرتَهم عليه، ثمَّ لآتينَّهم من جميعِ الجهاتِ والجوانبِ، فأصدَّهم عن عبادتِك وطاعتِك، وأزيِّنَ لهمُ الباطلَ؛ لئلَّا يوحِّدوك ويعبدوك، ولا تجدُ أكثرَ بني آدمَ شاكرينَ لك نِعمَك عليهم.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالةُ الفاءِ على التَّرتيب والتَّسبُّبِ في قوله ﴿فَبِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي﴾:

تُفيدُ الفاءُ التَّرتيبَ، وأن يكونَ ما بعدَها مُسَبَّبًا على ما قبلَها،

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/350، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/180، ومجمع اللّغة العربيّة، القاهرة، المعجم الوسيط: (يدي).

(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، الفيومي، المصباح المنير، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (شمل).

(3) ابن سيده المرسّي، المخصص: 5/128.

(4) الفيّومي، المصباح المنير، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (شمل).

والمعنى: كلُّ ما تَقدَّم ممَّا حَكَم اللهُ تعالى به على إبليسَ اللَّعين، هو سببٌ لِمَا بعدَ الفاء، وما بعدها مُرتَّبٌ على ما قبلَها، أي: لأنَّكَ أهبطتني مِنَ الجنَّة، وأخرجتني منها، وجعلتني مِنَ الصَّاغرين، وأنظرتني إلى يومِ الوقت المعلوم؛ لأجتهدَنَّ في إغواء النَّاس، وأصدَّهُم عن صراطكَ المستقيم. ويُحتمَلُ أن تكون الفاءُ مُرتِّبةً الإغواءَ على الإنظار، أي: بعدَ أن أمهلتني، لأجتهدَنَّ في إغوائهم. وذهب ابن عاشور - رحمه الله - إلى أنَّ الفاء للتَّرتيب والتَّسبُّب على أمرين؛ هما: قوله: ﴿إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾، وقوله: ﴿إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ﴾؛ إذْ دلَّ مضمونُ ذَيْنِكَ الكلامين على أنَّ اللهَ خلق في نفس إبليسَ مَقْدرةً على إغواءِ النَّاس بقوله: ﴿إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾، وأنَّه جعله باقيًا متصرِّفًا بِقِواهُ الشِّرِّيرةِ إلى يومِ الوقتِ المعلوم[1].

إبليس يقابلُ إغواءَهُ بالتَّرصُّد لإغواءِ البشرِ إلى يومِ الوقتِ المعلومِ

دلالةُ الباءِ في قوله تعالى: ﴿فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى﴾:

يُحتمَل أن تكونَ الباء للقَسَم، أي: بقدرتك عليَّ، ونَفاذِ سلطانِكَ فيَّ، لأقعُدَنَّ لهم على الطَّريق المُسْتَقيم الَّذي يسلكونه إلى الجَنَّة؛ بأنْ أزيِّنَ لهم الباطِلَ وما يُكسبُهُمْ المآثِمَ، ويدلُّ على أنَّها باء القَسَم قولُه تعالى: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ﴾ [ص: 82]، كما تقول: فبِاللهِ لَأفعلنَّ. ويُحتمَل أن تكون سببيَّةً، وهو ظاهر اختيار الزَّمَخْشَرِيِّ وغيره، والمعنى: فَبِسبب وُقُوعِي في الغَيِّ، أُقسِم لأجْتَهِدَنَّ في إغوائهم؛ حتَّى يَفْسُدُوا بسببي، كما فَسَدْتُ بسببهم. كما يُحتمَل أن تكون للمُجازاةِ، وفيها معنى السَّببيَّة، والمعنى: فبإغوائِك لي لَأقعدنَّ لهم، كما يقول أحدهم: فبإكرامك يا زيدُ لأكرمنَّك[2].

اجتهادُ إبليسَ في إشاعةِ الإغواءِ مسلكٌ للانتقامِ والإضلالِ

(1) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/7، والقونويّ، حاشيته على البيضاويّ: 8/348، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/46.

(2) ابن جرير، جامع البيان: 12/333، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/380، والزّمخشريّ، الكشّاف: 2/91، وابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 9/37.

دلالةُ (ما) على المصدريَّةِ في جملة ﴿فَبِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي﴾:

اتِّصافُ إبليسَ بحقيقةِ الإغواءِ وتمرُّسه فيه

تُفيد (ما) هنا المصدريَّة[1]، بمعنى: حصولِ حقيقةِ الإغواءِ لإبليس، من غيرِ نظرٍ إلى وصفِ هذا الإغواء، بأيِّ وصفٍ كان، ومِن غيرِ تقييدٍ بوقتٍ، والمعنى: أنَّ الإغواء إذا أُطلِق يُوصَف به ما حصلَ لإبليسَ اللَّعين، فيكونُ الوصفُ بمعنى المُطْلَق، أي: اتِّصافُه بكمال الإغواءِ.

دلالةُ صيغةِ ﴿أَغۡوَيۡتَنِي﴾ في جملة ﴿فَبِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي لَأَقۡعُدَنَّ لَهُمۡ﴾:

نسبةُ إبليسَ إلى الإغواءِ؛ لاعتراضِه على اللهِ؛ وتكبُّرِه على أمرِه وهداهُ

صيغةُ (أفعل) للنِّسبةِ، فمعنى: ﴿أَغۡوَيۡتَنِي﴾ نَسَبْتَني إلى الإغواء، أي: بسببِ اعتراضِه على اللّه تعالى وتكبُّره؛ ولأنَّه مِنَ الصَّاغرين. أو تكونُ الصِّيغة حملًا على الغيِّ، أي: لـمَّا أمر اللّهُ تعالى بالسُّجود لآدمَ، عند ذلك ظهر غَيُّ إبليسَ وكُفْرُه، فجاز أن يُضيفَ ذلك الغَيَّ إلى اللّه تعالى، باعتبارِ أنَّ غَيَّه ظهر لـمَّا اعترض على أمرِ اللّه، وتكبَّر على آدم، فلم يسجد. ويُحتمَل أن تكونَ الصِّيغةُ على أصلِها، والمعنى: أغواه اللّهُ تعالى، بما قضى مِن حِكْمتِه وتقديرِه[2].

لفظ القُعُود بينَ الكنايةِ والاستعارةِ التَّمثيليَّةِ:

مواظبةُ إبليسَ على الإفسادِ بالوسوسةِ، لا يَفْتُر عنها ولا يتوانى

عبَّر بلفظ: ﴿لَأَقۡعُدَنَّ﴾ كنايةً عن مُلازمته للإفسادِ، ومواظبتِه عليه مواظبةً لا يَفْتُر عنها، ووجه الكنايةِ: هو أنَّ مُلازمةَ المكانِ تستلزمُ الإعياءَ مِنَ الوقوف عنده، فيَقْعُد المُلازِمُ طلبًا للرَّاحةِ، وأيضًا مَن أراد أنْ يبالغَ في تكميلِ أمرٍ مِنَ الأمورِ؛ قعدَ حتَّى يصيرَ فارغَ البالِ، فيمكنهُ إتمامُ المقصود، أو يكونُ الكلامُ على طريقِ الاستعارةِ التَّمثيليَّةِ؛ إذْ عُبِّر بالقعود مجازًا عن ترصُّده لآدمَ وذُرِّيَّتِه، مع مواظبتِه عليه، إذْ مَثَّل إغواءَهم عن دينِ الحقِّ، بكلِّ ما يمكن مِنَ الحِيَلِ، بمَنْ يريدُ أنْ يقطعَ الطَّريقَ على السَّابلةِ، فيَكْمَنَ لهم

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/20، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 8/348.
(2) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/7، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 8/348.

مِن حيث لا يَدْرون، ويترصَّدُ بهم من حيثُ لا يشعرون، كما يَقعُد القُطَّاعُ للقَطْعِ على السَّابلةِ في الطَّريق، والمعنى: صَدُّ المؤمنين عنِ الصِّراط المستقيم، وقَطْعُه عليهم، بما يُزيِّنه مِنَ الباطلِ، فيسلكوا سبُلًا أُخرى، حتَّى يَهْلِكوا كما هَلَكَ، أو يَضِلُّوا كما ضَلَّ، أو يَخِيبوا كما خَابَ[1].

دلالةُ صيغةِ المضارعِ المؤكَّدِ في قولِه: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ﴾:

أفادتْ صيغةُ المضارعِ استمرارَ قعودِ إبليسَ على الصِّراطِ المستقيمِ لإفسادِ النَّاسِ، وتجدُّدَه حالًا فحالًا، مِن غير انقطاعٍ ولا فُتورٍ، ومعنى ذلك: "لأَلْزَمنَّ الصِّراط، ولأَسعَينَّ غايةَ جَهْدي، على صدِّ النَّاس عنه، وعدمِ سلوكِهم إيَّاه"[2].

استمرارُ قعودِ إبليسَ تجدُّدٌ للإفساد للعبادِ دون انقطاعٍ

دلالةُ تتابعِ التَّأكيدِ في قولِه: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ﴾:

جاء الفعلُ المضارعُ في قوله: ﴿لَأَقْعُدَنَّ﴾، مُقترنًا بتأكيدين: بلام القَسَمِ وبنونِ التَّأكيد الثَّقيلة؛ لِتأكيد قعودِه، وتقريرِ استمرارِه مِن غير انقطاعٍ، لقصد تأكيدِ حصول ذلك، وتحقيقِ العزم عليه[3].

تأكيدُ إبليسَ قُعُودَه على الصِّراط بعقدِ العزمِ على إغواءِ البشرِ باطِّرادٍ

علَّةُ عودِ الضَّميرِ في ﴿لَهُمْ﴾ من قوله: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ﴾:

عاد ضميرُ الجمعِ (هم) إلى غير مذكورٍ؛ لأنَّه معلومٌ عند المخاطَبين مِنَ السِّياق ومَقامِ المقاولةِ، والمعنى: لَأَقْعُدَنَّ لآدمَ وذرِيَّته صراطَكَ المستقيم[4]، وهو بذلك: "يتحدَّى اللهَ، ويثأرُ لنفسه - في شخصِ هذا الإنسان الَّذي أرادهُ اللهُ ليكون خليفةً في أرضهِ - فيُفسدُ عليه أمرَه، ويُشوِّه وجهَ خلافته"[5].

استغنى السِّياقُ عن ذِكْرِ لفظِ (النَّاس) للعِلْمِ بهم

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 14/212، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/7، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/219، والشّهاب، حاشية على تفسير البيضاويّ: 4/188، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/47.

(2) السّعدي، تيسير الكريم الرّحمن في تفسير كلام المنّان، ص: 284.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/46.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/47.

(5) عبد الكريم الخطيب، التّفسير القرآنّي للقرآن: 4/378.

بيانُ تقديمِ الجارِّ والمجرورِ في قوله ﴿لَأَقۡعُدَنَّ لَهُمۡ صِرَٰطَكَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾:

قعودُ إبليسَ على الصِّراطِ إغواءٌ للنَّاسِ، وصدٌّ عن نهجِ ربِّ النَّاس

أفادَ تقديمُ ﴿لَهُمۡ﴾ على ﴿صِرَٰطَكَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ اهتمامَ إبليسَ بآدمَ وذرِّيَّتِه، وأنَّ قعودَه وتَرصُّده إنَّما هو لأجل إغوائهم، كما أشعرَ التَّقديمُ بالتَّعليل، أي: إنَّ قعودَه على الصِّراط المستقيم لأجلِ إغوائهم وصدِّهم عنه.

دلالةُ اللَّام في ﴿لَهُمۡ﴾ في قوله تعالى ﴿لَأَقۡعُدَنَّ لَهُمۡ﴾:

غايةُ القُعودِ الإغواءُ بإفساد بني آدمَ وحوَّاء

اللَّام هنا بمعنى: لأجل، والمعنى: لأجل إغوائهم[1]، فغايةُ القُعودِ ودَاعِيه: الإزاغةُ والإغواء عنِ السَّبيلِ القويم والطَّريق المستقيم، والمعنى: "فبسببِ إغوائِك إيَّايَ مِن أجلِ آدمَ وذُريَّته، أُقسِم لَأَقعدَنَّ لهم على صراطك المستقيم، أو فيه، أو لَأَلْزَمَنَّه، فأَصُدَّهم عنه، وأَقْطَعَهُ عليهم؛ بأن أُزَيِّنَ لهم سُلوكَ طُرقٍ أُخرى، أُشَرِّعُها لهم، مِن جميعِ جوانبِه لِيَضِلُّوا عنه"[2].

نكتةُ تعدِّي ﴿لَأَقۡعُدَنَّ﴾ إلى المفعولِ ﴿صِرَٰطَكَ﴾:

تنوُّعُ التَّوجيهِ وتعدُّدُ المعنى وسعتُهُ مِن بلاغةِ السِّياقِ

يُحتمَلُ أن يكونَ صراطُك منصوبًا بنزع الخافض، بتقديرِ: (على صراطِكَ)، وحَذْفُ كلمةِ (على) جائزٌ؛ لأنَّ الصِّراط ظرفٌ في المعنى، ويكونُ المعنى على إرادةِ إبليسَ اللَّعينِ استيعابَ قعودِه على صراطِ اللهِ القويم؛ ليكونَ مُتمكِّنًا مِن الإغواءِ والتَّزيين، والصَّدِّ عنِ الصِّراط، وقَطْعِ الطَّريق على المؤمنين. ويُحتمَل أن يكونَ بتضمين الفعلِ ﴿لَأَقۡعُدَنَّ﴾ فعلًا متعدِّيًا بنفسه إلى ﴿صِرَٰطَكَ﴾؛ ليكونَ ﴿صِرَٰطَكَ﴾ مفعولًا به، والتَّقديرُ: (لَأَلْزَمَنَّ بِقُعُودِي صِرَاطَكَ المُسْتَقِيمَ)؛ لِمَا في القعود مِن معنى الملازمةِ والمطاولةِ في الوقت، ومِن معنى التَّرصُّد، كما يُحتمَل أن يكونَ منصوبًا على الظَّرفيةِ المكانيَّةِ اتِّساعًا، بتشبيهِ الظَّرفِ المُخْتصِّ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/47.
(2) محمّد رضا، تفسير المنار: 8/300.

بالمُبْهَم، بتقديرِ: (لأقعدنَّ في صراطك)[1]، فتنوَّعَ التَّوجيهُ، وتَكَثَّرتِ المعاني.

دلالةُ الإضافةِ في قوله تعالى: ﴿صِرَٰطَكَ﴾ مِنَ الآيةِ الكريمة:

إضافةُ الصِّراطِ إلى اسم الجلالة على تقديرِ اللَّام، بمعنى: الصِّراطِ الَّذي هو لك، أي: الَّذي جعلتُه طريقًا لك، فأفادتِ الإضافةُ مَزيدَ إيضاحٍ بتخصيصِ الصِّراطِ، بإضافتِه إلى اللّه تعالى، فلا طريقَ مُوصِلًا إلى اللّه تعالى ورضوانِه، سوى صراطِه المستقيم[2].

لا طريقَ يُوصلُ إلى اللّه تعالى ورضوانِه سِوى صراطِهِ المستقيمِ

نكتةُ مجيءِ الصِّفةِ ﴿ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾:

لـمَّا كان الصِّراطُ هو الطَّريق المستقيمُ، أفادت الصِّفةُ في قولِه تعالى: ﴿لَأَقۡعُدَنَّ لَهُمۡ صِرَٰطَكَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ تأكيدَ معنى استقامةِ الصِّراط وتقريره؛ للإشعارِ بأنَّه أقصرُ طريقٍ مُوصِلٍ إلى اللّه تعالى، "أي: في جميعِ صراطِك، بما دلَّ عليه نزعُ الخافضِ و﴿ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾، وهو الإسلام بجميع شُعَبِه"[3].

الصِّراطُ المستقيمُ أقصرُ وأضمَنُ طريقٍ مُوصِلٍ إلى اللّه تعالى

بلاغةُ الاستعارةِ في قولِه: ﴿صِرَٰطَكَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾:

في قوله: ﴿صِرَٰطَكَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ استعارةٌ تصريحيَّةٌ، فقد شَبَّه الدِّينَ الحقَّ الَّذي لا تخالطُه شُبهةُ باطلٍ بالطَّريقِ المستقيم، الَّذي ليسَ بهِ أدقُّ انحرافٍ قد يخرجُه عن حدودِ الاستقامةِ، فهو كالطَّريق الذي لا تتخلَّلُهُ عَثَراتٌ[4].

صراطُ اللّه المستقيمُ طريقٌ لا انحرافَ فيه ولا تَعثُّر

دلالةُ حرفِ العطف ﴿ثُمَّ﴾ في قولِه: ﴿ثُمَّ لَأٓتِيَنَّهُم﴾:

أفادت ﴿ثُمَّ﴾ هنا التَّرتيبَ الرُّتَبيَّ، بمعنى التَّدرُّج في الأخبار إلى خبر أهمَّ وأكثرَ خَطرًا؛ لأنَّ مضمونَ الجملةِ المعطوفةِ أوقعُ في غرضِ

إفادةُ (ثُمَّ) التَّدرُّجَ الرُّتَبيَّ في الأخبارِ، بالانتقالِ إلى الخبرِ الأهمِّ

(1) الزّجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 2/324، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 14/212، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/7، وأبو حيّان، البحر المحيط: 5/21.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/47.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر في تناسب الآيات والسّور: 7/368.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/190 - 191.

الكلام، مِن مضمونِ الجملةِ المعطوفِ عليها؛ فإنَّ الجملةَ الأولى: أفادت تَرَصُّدَ إبليسَ للبشرِ بالإغواءِ، وبالقعودِ على صراطِ اللهِ المستقيم، المعلومِ عند المؤمنين، والجملةَ المعطوفةَ: أفادت تَهَجُّمَهُ عليهم بشتَّى الوسائلِ، ومِن جهاتٍ متنوِّعة.

توجيهُ التَّعبيرِ بالمضارعِ مع توالي المؤكِّدات في ﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم﴾:

إغواءُ إبليسَ مُتجدِّدٌ، لا تَفْتُرُ لهُ فيه عزيمةٌ

في قوله: ﴿لَآتِيَنَّهُم﴾ أفادت صيغةُ المضارعِ المؤكَّدِ بتأكيدين: (اللَّام، والنُّون الثَّقيلة)، استمرارَ إتيانِ إبليسَ للنَّاس مِنَ الجهاتِ الأربعِ لإضلالهم، وتَجَدُّدَ هذا الإتيانِ حالًا فَحَالًا، وقد أفادت لامُ القسم ونونُ التَّوكيد الثَّقيلة في قوله: ﴿لَآتِيَنَّهُم﴾ تأكيدَ الحَدَث والزَّمن، بمعنى: تأكيدِ إتيانِ إبليسَ اللَّعينِ مِنَ الجهات المذكورة، وتأكيدِ استمرارِ إتيانه مِن غير انقطاعٍ.

مناسبةُ عطفِ ﴿لَآتِيَنَّهُم﴾ على ﴿لَأَقْعُدَنَّ﴾:

تدرُّجُ إغواءِ إبليسَ مِنَ القعودِ إلى إتيانِ النَّاسِ في محالِّهم

جَمَعَ في عطف الجملتينِ الواقعتين جوابًا للقسم بينَ القعودِ على الصِّراط، بمعنى الصَّدِّ عنه، والإتيانِ إلى المؤمنين في محالِّهم وطريقِهم، فلم يكتفِ الملعون بالقُعودِ لصَدِّ السَّائرين إلى الله تعالى، بل زادَ مِن إغوائه، بأن يأتيَ هو إليهم مِن جميعِ الجهاتِ، ولهذا كانت ﴿ثُمَّ﴾ على معنى التَّدرُّج مِنَ القعودِ إلى الإتيانِ، أي: إلى الأكثرِ إغواءً وإضلالًا عن طريقِ الحقِّ، فكأنَّ الإتيانَ أخطرُ مِنَ القعودِ.

نكتةُ المخالفةِ في حروفِ الجرِّ في ﴿مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ﴾:

تنويعُ إبليسَ الجهاتِ الَّتي يأتي منها؛ ليكونَ أشدَّ في تزيينِ الباطلِ

عُبِّر بـ ﴿مِنۡ﴾ في قوله: ﴿مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ﴾؛ لأنَّ الإتيانَ مِنَ الأمامِ ومِنَ الخَلْفِ لا يكون فيه انحرافٌ ولا تَجافٍ، وعُبِّر بـ﴿وَعَنۡ﴾ في قوله: ﴿وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ وَعَن شَمَآئِلِهِمۡ﴾ لما في (عن) مِن معنى المجاوزةِ، أي: يأتيهم مُتجافيًا عن جهة اليمين وعن جهة الشِّمال، مُنحرفًا عنِ المؤمنِ غيرِ ملاصقٍ له؛ ليكون أشدَّ في تزيين الباطل، كي لا يعلمَ المؤمنُ أنَّ إبليس هو الَّذي يزيِّنُ له الباطلَ ويصدُّهُ

عنِ الصِّراط، فيجتنبَ تزيينَه، وقال أبو السُّعود في نُكتة المخالفة في حَرْفي الجرِّ هنا: "وإنَّما عُدِّيَ الفعلُ إلى الأَوَّلَيْن بحرف الابتداء؛ لأنَّه منهما مُتوجِّهٌ إليهم، وإلى الآخَرَين بحرفِ المجاوزة، فإنَّ الآتيَ منهما كالمُنحَرفِ المُتجافي عنهم، المارِّ على عَرضِهم"[1].

بلاغةُ التَّركيبِ بينَ المجازِ والكنايةِ:

أفاد التَّعبيرُ بالتَّركيب: ﴿مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ﴾، الإشعارَ بقُرْبِ إبليسَ مِنَ النَّاس، فلم يَقُل: (مِن أمامهم)؛ لأنَّ الأمامَ أوسعُ مِن أنْ يكونَ بينَ يَديه، والمعنى: أنَّه يكونُ أمامَه بقُربٍ منه مسامتًا يديه؛ للإشعارِ بشدَّة قُربه، ولذلك قُوبِل بالخَلْف، فإمَّا أن يكون مجازًا مِن استعمال التَّركيب في المعنى المجاور له على سبيلِ التَّوسُّع، وإمَّا أن يكون كنايةً عنِ الأمامِ مع القُرْبِ منه[2].

شدَّةُ قُربِ إبليسَ مِنَ النَّاس؛ لإغوائهم وصدِّهم عنِ الصِّراط

مناسبةُ جمعِ اليمينِ والشِّمالِ في ﴿وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ وَعَن شَمَآئِلِهِمۡۖ﴾:

جُمِعَ اليمينُ والشِّمالُ في قوله: ﴿وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ وَعَن شَمَآئِلِهِمۡۖ﴾؛ لأنَّ الجمعَ هنا في مقابلة كَثْرةِ مَن يريد إغواءَهم، فكأنَّه أقسمَ أن يأتيَ إلى كلِّ واحدٍ مِنَ النَّاسِ مِن بينِ يديه ومِن خلفه، وعن يمينه وعن شماله، ولا يَحْسُنُ هنا عن يمينِهم وعن شمالِهم، بل الجمعُ هاهنا مِن مقابلةِ الجُملةِ بالجُملة، المُقْتَضِي توزيعَ الأفرادِ، ونظيرُه: ﴿فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ إِلَى ٱلۡمَرَافِقِ﴾ [المائدة: 6][3]، كما أنَّ الأيمانَ والشَّمائلَ مُتعدِّدةٌ، وأمَّا الأمامَ والخَلْفَ فهو واحدٌ؛ للإشعارِ بأنَّ اعتراضَه المؤمنين عن أيمانِهم وشمائلهم أكثرُ من غيرِهما؛ لِمَا يقعُ فيهما مِن قلَّةِ اليقظةِ.

اعتراضُ إبليسَ عنِ الأيمانِ والشَّمائل؛ لِمَا يَقعُ فيهما مِن قلَّةِ اليقظة

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/219.

(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/350، والنّيسابوريّ، غرائب القرآن: 3/261، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/180.

(3) ابن قيّم الجوزيّة، بدائع الفوائد: 1/120.

سُبُل إبليسَ كثيرةٌ متنوِّعةٌ، وصراطُ اللهِ مستقيمٌ واحدٌ:

شـتَّـان بـين سُبُل الشَّيطانِ وسبيلِ الرَّحمن

وأشعرَ الجمعُ - أيضًا - أنَّ سُبُلَ إبليسَ كثيرةٌ متنوِّعةٌ، وأنَّ صراطَ اللهِ مستقيم واحدٌ، قال الله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ﴾ [الأنعام: 153]، فعن عبد الله بنِ مسعُودٍ ﵁ قال: "خطَّ لنا رسولُ اللهِ ﷺ خطًّا، ثُمَّ قال: «هذا سَبِيلُ اللهِ»، ثُمَّ خطَّ خُطُوطًا عن يمينه وعن شِماله، وقال: «هذه سُبُلٌ، على كُلِّ سَبِيلٍ منها شيطانٌ يَدْعُو إليه»، وقرأ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ﴾ [الأنعام: 153] الآيةَ"[1]، ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ﴾ [الأنعام: 153]، أي: سُبُلَ الشَّياطينِ المُنْحَرِفةَ الزَّائغةَ المُتَشَعِّبةَ، مِن طُرُقِ الشِّرْكِ والبِدْعَةِ الَّتي أشارَ إليها ﷺ بقوله: «سَتَفْتَرِقُ أُمَّتِي على ثَلَاثٍ وسبعينَ فِرْقَةً، كُلُّها في النَّارِ إلَّا الَّتي على ما كُنتُ عليهِ أنا وأصحابي»، وبهذا الحديث يندفع زَعْمُ كلِّ فريق أنَّه على الصِّراط المستقيم، ﴿فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ﴾ بحذْفِ إحدَى التَّاءَيْنِ، ﴿عَن سَبِيلِهِۦۚ﴾ [الأنعام: 153] إشارةٌ إلى أنَّهُ لا يمكن اجتماعُ سَبِيلِ الحَقِّ مع السُّبُلِ الباطِلَةِ[2].

بلاغةُ الإطنابِ:

إيضاحُ مسالكِ إتـيـانِ إبـلـيسَ للمؤمنينَ

ورد قولُه تعالى: ﴿مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ وَعَن شَمَآئِلِهِمۡۖ﴾، على طريقِ الإطنابِ؛ للتَّنبيه إلى عِظَمِ خَطَرِ إبليسَ، فأوضحَ طريقَ إتيانِه تمامَ الإيضاحِ والبيانِ، والمعنى: (ثمَّ لآتينَّهم بالإغواءِ والإضلالِ من جميعِ جهاتِهم)، فجاء الكلامُ على التَّفصيل مُبالغةً في التَّوكيد، أو المعنى: ثمَّ لآتينَّهم مِن جميعِ وجوه الحقِّ والباطل، فأَصدَّهم عنِ الحقِّ، وأُحَسِّنَ لهم الباطلَ[3].

(1) الحديث رواه أحمد والنّسائي والدّارميّ، ينظر: الهرويّ، مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح: 1/254.
(2) الهرويّ، مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح: 1/254.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 12/341، والواحديّ، التّفسير الوسيط: 2/355.

بلاغةُ الاستعارةِ التَّمثيليَّة في هذه الآيةِ الكريمةِ:

ذكرَ الجهاتِ الأربعَ في قوله: ﴿مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ وَعَن شَمَآئِلِهِمۡۖ﴾، على طريقِ الاستعارة التَّمثيليَّة؛ لأنَّ هذهِ الجهاتِ هي الَّتي يُعتاد هجومُ العدوِّ منها، وهذه الجهات معنويَّة، كما أنَّ الصِّراطَ الذي يريد إضلالهم عنه معنويٌّ، ووجهُ الاستعارةِ هنا: أنَّه مثَّلَ قَصْدَه إيَّاهم للتَّسويل والإضلال مِن أيِّ وَجهٍ يتيسَّر، بإتيان العدوِّ مِنَ الجهات الأربعِ، ولذلك لم يُذكَرِ الفَوْقُ والتَّحْتُ؛ لأنَّه غيرُ متعارَف، وهو نادر الوقوعِ[1]، ولقد حمى اللهُ ﷻ المؤمنين من هذا الوعيد بقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَيۡسَ لَهُۥ سُلۡطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ٩٩ إِنَّمَا سُلۡطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوۡنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشۡرِكُونَ ١٠٠﴾ [النّحل: 99 - 100].

ذكرَ الجهاتِ الأربعَ؛ لأنَّها هي الَّتي يُعتاد هجومُ العدوِّ منها

بديعُ الطِّباق في الآية الكريمة:

ورد الطِّباقُ في قوله: ﴿مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ وَعَن شَمَآئِلِهِمۡۖ﴾، وفي ذِكْرِ: ﴿بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ﴾ و﴿خَلۡفِهِمۡ﴾، وذِكْر: ﴿أَيۡمَٰنِهِمۡ﴾ و﴿شَمَآئِلِهِمۡۖ﴾، استغراقٌ للجهات الَّتي يأتي منها العدوُّ غالبًا، ومزيدُ بيانٍ لإحاطته بسُبُل الإتيانِ المُصَوَّرِ بالجهات، ومبالغةٌ في توكيد الإغواء، وفي هذا الصَّدد ورد عن ابنِ عمرَ رضي الله عنهما قولُه: لم يكن رسولُ الله ﷺ يَدَعُ هؤلاء الدَّعوات: «اللَّهُمَّ احفظني مِن بين يَديَّ ومِن خَلْفي، وعن يَميني وعن شِمالي، ومِن فوقي، وأعوذُ بكَ أن أُغتال مِن تحتي»[2].

الإحاطةُ بجهاتِ الإغواءِ المُحتَمَلةِ مبالغةٌ في الإغواءِ

بلاغةُ الكنايةِ في جملة ﴿وَلَا تَجِدُ أَكۡثَرَهُمۡ شَٰكِرِينَ﴾:

لـمَّا كان اتِّباعُ صِراطِ اللهِ مِنَ الإيمانِ، كان التَّنكُّبُ عنه، واتِّباعُ

(1) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/7، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 8/350، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/219.

(2) الحديث رواه أحمد في المسند: 8/403، وأبو داود في سننه: 4/318، والطبراني في المعجم الكبير: 12/343، وذكره الهيثميُّ في موارد الظَّمآن إلى زوائد ابن حِبّان، ص: 585.

الشُّكرُ على نِعَمِ اللهِ مِنَ الإيمانِ، وجَحْدُها كفرٌ

سُبُلِ إبليسَ مِنَ الكُفر، فكُنِّيَ بنفي الشُّكر عنِ الكفر؛ إذ لا واسطة بينهما، كما قال تعالى: ﴿وَٱشۡكُرُواْ لِي وَلَا تَكۡفُرُونِ ١٥٢﴾ [البقرة: 152]. ووَجْهُ هذه الكنايةِ، إن كانت محكيَّةً كما صَدرت مِن كلام إبليس: أنَّه أرادَ الأدبَ مع اللّهِ تعالى، فلم يُصَرِّحْ بينَ يديهِ بكُفرِ أتباعِه، المُقتَضِي أنَّه يأمرُهم بالكُفر، وإنْ كانت مِن كلامِ اللّهِ تعالى: ففيها تنبيهٌ على أنَّ المشركين باللّه قد أَتَوا أمرًا شنيعًا؛ إذ لم يشكروا نِعمَهُ الجَمَّةَ عليهم[1].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/464.

﴿قَالَ ٱخۡرُجۡ مِنۡهَا مَذۡءُومٗا مَّدۡحُورٗاۖ لَّمَن تَبِعَكَ مِنۡهُمۡ لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمۡ أَجۡمَعِينَ ١٨﴾ [الأعراف: 18]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

المناسبةُ بينَ تفاخُرِ إبليسَ بالغوايةِ، ومصيرِهِ مذمومًا مدحورًا في النَّار

لـمَّا قيل: فماذا قال اللّهُ لإبليس بعد أن وَعَدَ اللَّعينُ بالإفساد الَّذي ذَكَره؟ قيل: خاطبَه اللّهُ تعالى، فـ﴿قَالَ ٱخۡرُجۡ مِنۡهَا مَذۡءُومٗا مَّدۡحُورٗاۖ﴾ الآيةَ[1]، ومُفَادُ ذلك أن: "زادَه اللّهُ نكايةً، وقال له: اخرج مِن دارِ كرامتي، مذمومًا بكِبرك وعصيانك، وهالكًا في نهايتك، وأُقْسِمُ أنَّ مَن اتَّبعك مِن بني آدم؛ لأملأنَّ جهنَّم منك ومنهم أجمعين"[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مَذۡءُومٗا﴾: اسم مفعولٍ مِن ذَأَمَه؛ إذا حقَّره وعابَه وذمَّه، والذَّأمُ: أبلغُ الذَّمِّ، ومعنى ﴿مَذۡءُومٗا﴾: مذمومًا محقَّرًا معيبًا، بأبلغِ الذَّمِّ والتَّحقيرِ والعيبِ[3]، "عن ابنِ السِّكِّيت قال: ذَأَمْتُه وذأبتُه؛ إذا طَردْتُه وحَقَرتُه، قال: وسمعتُ أبا العبَّاس يقول: ذَأَمْتُه: عِبْتُه، وهو أكثر مِن (ذَمَمتُه)"[4].

2) ﴿مَّدۡحُورٗاۖ﴾: الدَّحْرُ: هو الدَّفعُ بعنفٍ على سبيل الإهانةِ والإذلال؛ كراهةً فيه، ونُفورًا منه، و﴿مَّدۡحُورٗاۖ﴾: بمعنى: مَطرودًا مُبعدًا على سبيل الإذلالِ والنُّفورِ منه[5]، وقال الطَّبريُّ: "وأمَّا

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 14/216، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 7/370.
(2) لجنة مِن علماء الأزهر، المنتخب في تفسير القرآن الكريم، ص: 206.
(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ (ذأم)، وابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 166، وابن الهائم، التّبيان في تفسير غريب القرآن، ص: 164.
(4) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (ذأب).
(5) يحيى بن سلام، تفسير يحيى بن سلام: 1/136.

المَدْحور: فهو المُقْصَى، يقال: "دَحَرهُ، يَدحَرُه، دَحْرًا، ودُحُورًا"؛ إذا أقصاه وأخرجَه، ومنه قولهم: "ادحَرْ عنكَ الشَّيطانَ"[1].

❁ المَعْنى الإجْمالِيُّ:

الطَّردُ مِنَ الجنَّة منتهى الإذلالِ والهوانِ

قال اللّهُ تعالى لإبليسَ على سبيلِ الزَّجرِ والإهانةِ: اخرج مِنَ الجنَّة ممقوتًا مَطرودًا، لأملأَنَّ جهنَّمَ منكَ وممَّن تبعكَ، مِن بني آدمَ أجمعين[2]؛ وذلك جزاءُ ما أعلنتَه مِن تأَبٍّ مَقيتٍ على أوامري، وتكبُّرٍ مُنكرٍ على آدمَ، حينما أَمَرتُكَ بالسُّجودِ له، فَرَفضتَ ذلك، وأَصررْتَ عليه.

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ الاستئنافِ في الآيةِ الكريمة:

الاستئنافُ جوابٌ للقولِ قبلَه، وإيضاحٌ للدَّلالة ضِمْنَه

جاء الكلامُ في قوله: ﴿قَالَ ٱخۡرُجۡ مِنۡهَا مَذۡءُومٗا مَّدۡحُورٗاۖ﴾ على طريقِ الاستئنافِ[3]، كأنَّه قد قيل: فما قال اللّهُ تعالى لإبليس حين قال: ﴿فَبِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي لَأَقۡعُدَنَّ لَهُمۡ صِرَٰطَكَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾، إلى آخر الآية، فكانَ الجوابُ: قال اللّه له: ﴿ٱخۡرُجۡ مِنۡهَا مَذۡءُومٗا مَّدۡحُورٗاۖ﴾.

دلالةُ عودِ الضَّميرِ في قوله تعالى: ﴿ٱخۡرُجۡ مِنۡهَا﴾:

جُمِعَ لإبليسَ الخروجُ مِنَ الجَنَّة، ودوامُ القضاءِ عليهِ باللَّعنة

الضَّميرُ في قوله: ﴿ٱخۡرُجۡ مِنۡهَا﴾ عائدٌ على الجنَّة، ممَّا هو معلومٌ مِنَ السِّياق[4]، ويَحْتَمِلُ وجهين: أحدهما: مِن حيثُ كان مِن جنَّةٍ أو سماءٍ. والثَّاني: مِنَ الطَّاعة، على وجه التَّهديد[5]. وقال أبو حيَّان: "الجمهور على أنَّ الضَّمير عائدٌ على الجنَّة، والخِلافُ فيه كالخِلافِ في ﴿فَٱهۡبِطۡ مِنۡهَا﴾"[6].

(1) ابن جرير، جامع البيان: 12/343، وأبو عبيدة، مجاز القرآن: 1/212.
(2) نخبة مِنَ الأساتذة، التّفسير الميسّر، ص: 152.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/219.
(4) ابن عطيَّة، المُحرَّر الوجيز: 2/381.
(5) الماورديّ، النّكت والعيون: 2/208.
(6) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/23.

دلالةُ مجيءِ الخروجِ مُقيَّدًا بالحالِ:

مَن يتَّبعُ إبليسَ فحالُه في الصَّغارِ والطَّردِ مِنَ الرَّحمةِ كَحَاله

ورد الأمرُ بالخروجِ مِنَ الجنَّة في قوله: ﴿ٱخۡرُجۡ مِنۡهَا مَذۡءُومٗا مَّدۡحُورٗاۖ﴾، مؤكِّدًا للأمر السَّابق، وجاءَ مُقَيَّدًا بالحالين: ﴿مَذۡءُومٗا مَّدۡحُورٗاۖ﴾، أي: بِالذَّمِّ والطَّرْدِ؛ ليفيدَ أنَّ خروجه مِنَ الجنَّة قد اقترنَ بحالِ كَونِه مذؤومًا مدحورًا[1]؛ ولمناسبته لأن يكونَ تمهيدًا لِمَا بعدَه، والمعنى: لمَّا كان إبليس مذمومًا أشدَّ الذَّمِّ ومطرودًا، دلَّ على أنَّ اتِّباعَه مذمومٌ كذلك، وأنَّ حالَ مَن يتَّبعُه كَحَالِه في الذَّمِّ والطَّرد.

نكتةُ ورودِ الحالين مِن غير قيدٍ:

إبليسُ ممقوتٌ بإطلاقٍ، مُبْعَدٌ مِن كلِّ خيرٍ

وردَ الحالانِ في قوله: ﴿مَذۡءُومٗا مَّدۡحُورٗاۖ﴾، من غير قيدٍ، فلم يقل: (مذؤومًا مِنَ اللّٰه، أو مِنَ الملائكة) مثلًا، وكذلك لم يقل: (مدحورًا مِنَ الجنَّة، أو مدحورًا مِن رحمتي) مثلًا؛ ليُشعرَ الإطلاقُ بعمومِ المعنى، أي: اخرج منها ممقوتًا معيبًا، ومُبعدًا مِن كلِّ خيرٍ[2].

علَّة إيثارِ لفظ ﴿مَذۡءُومٗا﴾ في هذا الموضع:

الذَّأمُ أشدُّ الذَّمِّ وأبلغُه، والوصفُ به تشنيعٌ وتبشيعٌ

لم يرد هذا اللَّفظ في القرآن الكريم إلَّا في هذا الموضع، وإنَّما اختُصَّ هذا الموضع بهذا اللَّفظِ؛ لأنَّ اللَّعين لمَّا بالغ في العزم على الإغواء، فقال: ﴿لَأَقۡعُدَنَّ لَهُمۡ﴾ إلى آخره، بالغ اللّٰه ﷻ في ذمِّه؛ إذِ الذَّأمُ أشدُّ الذمِّ[3].

دلالةُ اللَّامِ في قولِه تعالى: ﴿لَّمَن تَبِعَكَ مِنۡهُمۡ﴾:

تأكيدُ القسمِ وجوابِه للمبالغةِ في تقريرِ المعنى

اللَّامُ هي الموطِّئة للقسم، وتفيدُ المبالغةَ والتَّوكيدَ، لِمَا تدخلُ عليه مِنَ القسَم وجوابِه، ولمَّا دخلت على الشَّرط في قوله: ﴿لَّمَن تَبِعَكَ مِنۡهُمۡ﴾؛ دلَّ على تأكيد الشَّرطِ وجوابِه كذلك[4].

---

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 5/23.
(2) البغويّ، معالم التّنزيل: 2/183.
(3) النّيسابوريّ، غرائب القرآن: 3/217.
(4) الزّجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 2/325.

نكتةُ الالتفاتِ في لفظ ﴿مِنْهُمْ﴾ في قولهِ ﴿لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ﴾:

الانتقالُ مِنَ الخطابِ إلى الغيبةِ؛ لدفعِ اللَّبسِ في المعنى، وللتَّنبيهِ لأمرٍ عظيم

يعودُ الضَّميرُ في قوله: ﴿مِنْهُمْ﴾ على ولدِ آدمَ؛ لأنَّه حين قال: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ﴾ [الأعراف: 11]، كان مُخاطِبًا لولدِ آدمَ، فرجعَ إليهم، فقال: ﴿لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ﴾، فجعلَهم غائبين، على طريقِ الالتفاتِ؛ لأنَّ مخاطبتَهم في هذا الموضعِ تُوقِع لَبْسًا وضعفًا في الكلامِ، كما أنَّ مِن عادةِ العربِ أنْ ترجعَ مِنَ الخطابِ إلى الغيبةِ، ومِنَ الغيبةِ إلى الخطابِ، وأيضًا في الالتفاتِ تطريةٌ للسَّامع، واستدرارٌ لإصغائه، وفيه تنبيهٌ لأمرٍ عظيم[1].

دلالةُ حرفِ الجرِّ في ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ﴾:

رحمةُ اللهِ بالمؤمنينَ؛ إذ قال: (منكم) ولم يقل: (بكم)

لمَّا كان الحرف (مِنْ) يدلُّ على التَّبعيض، أفاد أنَّ مَلْءَ جهنَّم يكون من بعضِهم، وإلَّا قيل: لأملأنَّ جهنَّم بكم، ولكان كلُّ مَن اتَّبعَ إبليسَ، ولو قليلًا، يدخل في الحُكم المذكور، وذلك أنَّ بعضَ مَنْ يتَّبِعُه مِنَ المؤمنين الموحِّدين في بعض المعاصي، يَغفرُ اللهُ لهم، ويعفو عنهم[2].

جملة ﴿لَأَمْلَأَنَّ﴾ بين جوابِ القسمِ وجوابِ الشَّرطِ:

تأكيدُ وعدِ الله بملءِ جهنَّمَ مِن أتباعِ إبليسَ أجمعين

لمَّا كان القَسَمُ يقتضي جوابًا، وكان الشَّرطُ يقتضي جوابًا كذلك، كان قولُه: ﴿لَأَمْلَأَنَّ﴾ بمنزلَةِ جواب القسم وجوابِ الشَّرط في الوقت نفسِه؛ تعظيمًا للجوابِ، وتفخيمًا له، وتقريرًا لتحقيقه، ولمَّا كان القسم متقدِّمًا على الشَّرط في الكلام، وهو أعلى رُتبةً مِنَ الشَّرط؛ لتعظيم المُقْسَم به، ولتفخيم المُقْسَم عليه، ولأنَّه أدعى إلى التَّحقُّق مِنَ الشَّرط، وكان قوله: ﴿لَأَمْلَأَنَّ﴾ جوابًا للقسم، سادًّا مَسَدَّ جوابِ الشَّرط، أو يُقال: اللَّامُ وقعت جوابًا للقَسَم، وسَدَّت مَسدَّ جوابِ الشَّرط، والمعنى: أُقسم مَن تبعكَ منهم؛ لأملأنَّ جهنَّم منهم ومنك أجمعين[3].

(1) ابن الجوزيّ، زاد المسير: 2/107.
(2) رشيد رضا، تفسير المنار: 8/301.
(3) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/8، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/51.

نكتةُ التَّعبيرِ بقوله تعالى: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ﴾:

تصويرُ امتلاءِ جهنَّمَ بأتباعِ إبليسَ امتلاءً مستمرًا ومُرهِقًا

أفاد التَّعبيرُ بالفعلِ المضارعِ: أنَّ الامتلاءَ يكونُ حالًا فحالًا، للإشعارِ بجمع كلِّ مَن يتَّبع إبليسَ في جهنَّم، كما يُشْعِر اللَّفظُ بضيقِ الفُسْحةِ عليهم في جهنَّمَ؛ ليكونَ العذابُ عليهم أشدَّ وأقسى.

دلالةُ قولِهِ: (من) بين الشَّرطيَّةِ والموصوليَّة:

تحقُّقُ الوعيد باتِّباعِ إبليسَ البئيسِ

في قوله تعالى: ﴿لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ﴾: يَحتمِل (مَن) أن يكون اسمَ شرطٍ مفيدًا العمومَ، وهو الظَّاهر عند جمهور المفسِّرين؛ لتكونَ جملةُ الشَّرطِ ﴿تَبِعَكَ مِنْهُمْ﴾، بمنزلةِ السَّبب لقوله تعالى: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ﴾، وليدلَّ الشَّرطُ وجَوابُه على تحقُّق الوعيدِ باتِّباع إبليس؛ لاقترانِ تَحقُّقِ الجزاءِ بتحقُّق الشَّرط. كما يَحْتمِل أنْ يكون اسمًا موصولًا مُفيدًا العمومَ كذلك، وتكون صلةُ الموصول: ﴿تَبِعَكَ مِنْهُمْ﴾ لبيان وجهِ بناءِ الخبرِ: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ﴾ على الاسم الموصول، والمعنى: لأَملأنَّ جهنَّم منكم؛ بسبب اتِّباعهم لكَ، والمعنى على الوجهين متقارب[1].

بلاغةُ التَّغليبِ في قوله: ﴿مِنكُمْ﴾:

إبليسُ وأتباعُه طائفةٌ واحِدَةٌ، وكلُّهم عصاةٌ بغاةٌ

جاء الخطابُ في قولِهِ: ﴿مِنكُمْ﴾ على تغليبِ ضميرِ المخاطب[2]، فأدخلهُ في الوعيد معهم، بحكم الكاف في ﴿مِنكُمْ﴾، وغُلِّبَ في الضَّميرِ حال الخطاب، وإن كانَ قليلًا على الغائبين، وإن كان كثيرًا؛ لأنَّ الفردَ الموجودَ من هذا العموم هو المخاطَبُ، وهو إبليسُ، ولأنَّه المقصودُ ابتداءً من هذا الوعيدِ؛ لأنَّه وعيدٌ على فعله، وأمَّا وعيدُ أتباعه فبالتَّبعِ له، كما أشعرَ الخطابُ أنَّ أتباعَ إبليسَ صاروا معه طائفةً واحدةً، فلم يقع العطفُ، فيقول: (منك ومنهم)؛ لئلَّا تقع

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/94، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/8، وأبو حيّان، البحر المحيط: 5/24، والسّمين الحلبيّ، الدّرُّ المصون: 5/273.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/94.

المغايرة أيضًا، والمعنى: لأملأنَّ جهنمَّ منكَ ومِن ذُرِّيَّتكَ، ومِن كُفَّارِ ذُرِّيَّةِ آدَمَ أجمعين[1].

دلالةُ قوله تعالى: ﴿أَجْمَعِينَ﴾:

مجيءُ التَّأكيدِ للتَّنصيصِ على العمومِ؛ ولدفعِ إرادةِ المجازِ

﴿أَجْمَعِينَ﴾ في قوله: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ توكيدٌ للضَّمير في ﴿مِنكُمْ﴾، والفائدة: التَّنصيصُ على العُموم؛ لئلَّا يُحمَل على المجاز، فيُظَنَّ أنَّ المرادَ: لأملأنَّ جهنَّم مِن أكثرِكم، أو مِن أغلبِكم، وذلك أنَّ الكلامَ جرى على أُمَّةٍ بعنوان كونِهم أتباعًا لواحدٍ، والعربُ قد تُجْري العُمومَ في مثلِ هذا على المجموعِ دون الجمعِ، كما يقولون: قتلتْ تميمٌ فلانًا، وإنَّما قتلَه بعضُهم، كما يُشْعِرُ اللَّفظُ بالتَّنكيلِ بإبليسَ وأتباعِه؛ لحسمِ الأمرِ في كونِهم في جهنَّم[2].

(1) البغويّ، معالم التّنزيل: 2/184، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/51.
(2) السّمين الحلبيّ، الدّر المصون: 5/275، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/52.

﴿وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ فَكُلَا مِنۡ حَيۡثُ شِئۡتُمَا وَلَا تَقۡرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٩﴾ [الأعراف: 19]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لـمِّا فَـرَغَ مِن حديثِ الحاسدِ؛ انـتـقـلَ إلى المحسودِ

لـمَّا أَوجَبَ لإبليسَ ما ذُكِرَ مِنَ الشَّقاوة تَماديهِ في الحسد، وكثرةُ كلامِه في محسودِه؛ الْتَفَتَ إلى محسودِه (آدمَ)، الَّذي لم يتكلَّم فيه كلمةً واحدةً، فناداه قائلًا له: ﴿وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ فَكُلَا مِنۡ حَيۡثُ شِئۡتُمَا وَلَا تَقۡرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[1]، وتوجَّه الخطابُ لهما معًا، فقال لهما: "ويا آدمُ اسكُنْ أنتَ وزوجُكَ دارَ كرامتي، وهي الجَنَّةُ، وتنعَّما بما فيها، فكُلا مِن أيِّ طعامٍ أردتُما، إلَّا هذه الشَّجرةَ، فلا تقرباها؛ حتَّى لا تكونا مِنَ الظَّالمين لأنفسهم، بالعقاب المترتِّب على المخالفةِ"[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱسۡكُنۡ﴾: يدور معنى السُّكونِ على ثُبوتِ الشَّيء بعدَ تحرُّكٍ، حِسًّا أو معنىً، أو على خِلافِ الحركةِ والاضطراب، ويُستَعمل في الاستيطان، نحو: سَكَنَ فلانٌ مكانَ كذا، أي: استوطنه؛ لأنَّه محلُّ ثُبوتِه بعد حركتِه في المعاشِ وغيرِه، واسم المكان: مَسْكَنٌ، وكلُّ ما يُسكَنُ إليه هو سَكَنٌ، وسُمِّيَ المِسْكينُ مِسْكينًا؛ لِقلَّةِ تَصَرُّفِه وحركتِه، وتَمَسْكَنَ واستكان، أي: خَضَع وذَلَّ، وسُمِّيت النَّارُ سكنًا؛ لأنَّ النَّاظر إليها يَسْكُنُ حِسًّا، كما أنَّه مِن حيثُ المعنى، يَسْكُنُ إليها وإلى أهلها[3].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/370 - 371.
(2) لجنة من علماء الأزهر، المنتخب في تفسير القرآن الكريم: 1/206.
(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (سكن).

2) ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾: جمع ظالم، والظُّلم: وَضْعُ الشَّيءِ في غير موضعه المختصِّ به، إمَّا بنقصان أو بزيادة، وإمَّا بعدولٍ عن وقتِه أو مكانِه، ومنه ظَلَمْتُ الأرضَ: حَفرْتُها، ولم تكن موضعًا للحَفْر، والظُّلْمُ: مجاوزةُ الحقِّ، ويقالُ فيما يَكْثُر وفيما يقلُّ مِنَ التَّجاوزِ، ولهذا يُسْتَعملُ في الذَّنب الكبيرِ وفي الذَّنب الصَّغيرِ، ولذلك قيل لآدمَ في تَعدِّيه: ظالمٌ، وفي إبليسَ: ظالمٌ، وإن كان بينَ الظُّلْمَين بَونٌ بعيدٌ، وأعظمُ الظُّلمِ الشِّركُ باللّٰهِ، كما يُطلقُ الظُّلمُ على المَيْلِ عنِ القَصدِ؛ لمجاوزتِه المطلوب[1].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ﴾ [البقرة: 35]، واستَقِرَّا فيها، وكُلا مِن ثمارِها، مِن أيِّ مكانٍ فيها، ولكِن لا تقربَا ثمارَ هذهِ الشَّجرةَ - وعيَّنها لهم - فتكونَا بذلك مِنَ الظَّالمين لأنفسِهم؛ إذ تجاوزتُما حدودَ اللّٰه تعالى[2].

الأمرُ بالاستقرارِ في جنَّةِ الاختبارِ، مـع الالـتـزامِ بالمنعِ والازدجارِ

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

براعةُ الوصلِ في الآيةِ الكريمةِ:

يَحتمِل الوصلُ بالواو في قوله تعالى: ﴿وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ﴾، أن يكونَ مِن عطفِ الآيةِ على قوله: ﴿قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿١١﴾﴾ [الأعراف: 11][3]، ومناسبةُ الوصلِ: أن يكون الخطابُ على نَسَقِ ما جاء في سورة البقرة: ﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ﴾ [البقرة: 35]، وليكون معنى الامتنانِ ظاهرًا؛ لمجيء الخطابِ بتقدير صيغة التَّعظيمِ ﴿وَقُلْنَا﴾[4]، ولعطفهِ

تنوُّعُ احتمالاتِ العطفِ توسُّعٌ في الدِّلالةِ

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، والرّاغب، المفردات: (ظلم).
(2) مجمع البحوث، التّفسير الوسيط: 3/1393.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/94، وأبو حيّان، البحر المحيط: 5/24، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/219.
(4) الطيبّي، فتوح الغيب: 6/348.

على ما امتنَّ اللهُ به على آدمَ، بأمرِ الملائكةِ بالسُّجودِ له، كما أنَّ كِلْتَا الآيتين - المعطوفَ والمعطوفَ عليها - تضمَّنتا صيغةَ الأمر، ويقوِّي هذا الوجهَ: مجيءُ الخطابِ هنا لآدمَ على الأصالةِ، وعَطْفُ زوجه عليه، كما سيأتي. ويَحتمِل أنْ يكونَ معطوفًا على قوله: ﴿قَالَ ٱخۡرُجۡ مِنۡهَا مَذۡءُومٗا مَّدۡحُورٗاۖ﴾؛ ليكونَ مِن عَطْفِ المَحْكيِّ على المَحْكيِّ، فالنِّداءُ والأمرُ مِن جُملةِ المَقول المَحْكيِّ، والتَّقدير: قال اللهُ لإبليسَ: اخرجْ منها، وقال لآدمَ: ويا آدمُ اسكنْ؛ ليكونَ مِن عطفِ المتكلِّم بعضَ كلامِه على بعضٍ، إذا كانَ لبعض كلامِه اتِّصالٌ وتناسبٌ معَ بعضِه الآخَرَ، ولم يكنْ أحدُ الكلامينِ مُوجَّهًا إلى الَّذي وُجِّهَ إليه الكلامُ الآخرُ، معَ اتِّحادِ مقامِ الكلامِ، كما يَفْعَلُ المُتكلِّمُ معَ مُتعدِّدينَ في مجلسٍ واحدٍ، فيُقْبِلُ على كلِّ مخاطَبٍ منهم بكلامٍ يَخُصُّه؛ ليُعلِمَ المُخاطَبين بالقرآنِ الفرقَ بينَ خطابِه لآدمَ وخطابِه لإبليسَ.

بلاغة التعريض بإهانة إبليس في قوله: ﴿ٱسۡكُنۡ﴾:

وفي توجيهِ الخطابِ لآدمَ بهذهِ الفضيلةِ، بحضورِ إبليسَ بعدَ طردِهِ، زيادَةُ إهانةٍ لإبليس؛ لأنَّ إعطاءَ النِّعَمِ لمَرضيٍّ عليه حينَ عقابِ مَنِ استأهلَ العقابَ، زيادةُ حسرةٍ على المعاقَبِ، وإظهارٌ للتَّفاوت بين مُستَحِقِّ الإنعامِ ومُستَحِقِّ العقوبةِ.

قوله: ﴿ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ﴾ إيحاءٌ بقَمْع إبليسَ:

الأمرُ في قوله: ﴿ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ﴾ "بمسمَعٍ مِن إبليسَ، مَقْمَعَةٌ لإبليسَ؛ لأنَّه إن كانَ إبليسُ مُستقرًّا في الجنَّةِ مِن قبلُ، فالقَمْعُ ظاهرٌ؛ إذْ طردَه اللهُ، وأسكنَ الَّذي تكبَّر هو عنِ السُّجودِ إليه، في المكانِ المُشَرَّفِ الَّذي كانَ له قبلَ تكبُّرِه، وإنْ لم يكن إبليسُ ساكنًا في الجنَّةِ قبلُ؛ فإكرامُ الذي احتقرَه، وترفَّعَ عليه قَمْعٌ له؛ فقد دلَّ موقعُ هذا الكلامِ في هذهِ السُّورةِ، على معنًى عظيمٍ مِن قَمْعِ إبليسَ، زائدٍ على ما في آيةِ سورةِ البقرةِ، وإن كانتا

العقوبةُ النَّفسيَّةُ أشدُّ وقعًا على المعاقَبِ مِنَ العقوبةِ الحسيَّةِ

ترتفعُ المقاماتُ عند اللهِ بالطَّاعةِ والإيمانِ، وتنحطُّ بالعصيانِ

متماثلَتينِ في اللَّفظِ، ولكنّ هذا المعنى البديعُ استُفيدَ مِنَ الموقع، وهذا مِن بدائع إعجازِ القرآن"[1].

مناسبةُ النِّداء في قوله: ﴿يَـٰٓـَٔادَمُ﴾:

تصديرُ الكلامِ بالنِّداء في قوله تعالى: ﴿يَـٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ﴾، للإقبالِ على آدمَ، ولِتنبيهه على الاهتمام بتلقِّي المأمورِ به، والعملِ به، بالإقبالِ عليه رغبةً فيه، كما أنَّ في النّداء تنويهًا بذكره في ذلك الملأ؛ إظهارًا للتَّكريم[2]، وقد "قال له هذا القولَ، بعد إخراجِ إبليسَ مِنَ الجنَّة أو مِنَ السَّماء، أو مِن بين الملائكةِ، والمعنى: اتَّخِذْها مسكنًا، وتخصيص الخطاب بآدمَ للإيذان بأصالته في تلقِّي الوحي، وتعاطي المأمور به"[3].

نداءُ آدمَ تنويهٌ بذكرِه في الملأِ الأعلى، وإظهارٌ للتَّكريم

نكتةُ تخصيصِ الخطابِ بآدمَ، وعَطْفِ زوجِه عليه:

تخصيصُ الخطابِ بآدمَ عليه السلام في قوله: ﴿ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ﴾، إذْ لم يُخاطبْه وزوجَه معًا؛ للإيذانِ بأصالتِه في تلقِّي الوحي، وتعاطِي المأمور به، وللتَّنبيه على أنَّه المقصودُ بالحُكم، والمعطوفُ عليه تَبَعٌ له[4]، "واختلفوا في خَلْق حواء، فقال ابن إسحق: خُلِقَتْ قبلَ دخولِ آدمَ الجَنَّة، وهو ظاهرُ هذه الآيةِ، وقيل: بعد دخولِ الجنَّة، وقيل: الخطابُ للمَعْدومِ؛ لوجودِه في عِلْمِ الله"[5].

أصالةُ آدمَ في تلقِّي الوحي، وتعاطي المأمورِ بِهِ مع تَبَعِ زوْجِهِ لَهُ

توجيهُ الأمرِ في المَطْلع بقوله تعالى: ﴿ٱسۡكُنۡ﴾:

في قوله: ﴿ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ﴾، يَحتمِل الأمرُ في قوله: ﴿ٱسۡكُنۡ﴾ أن يكون بمعنى: الْزَم المكانَ الذي دخلتَهُ، ولا تنتقلْ منه، إذا كان آدمُ في الجنَّة أصلًا، وبيانُه: أنَّه لـمَّا كانَ المقْصِدُ مِن أمرِ

أمرُ الإنسانِ بما هو مُتلبِّسٌ بِهِ، إشارةٌ للاستمرارِ عليه

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/52.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/220، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/53.
(3) القِنَّوجيّ، فتحُ البيان في مقاصد القرآن: 4/317.
(4) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 1/72، وأبو السّعود، إرشاد العقل السليم: 3/220.
(5) القِنَّوجيّ، فتحُ البيان في مقاصد القرآن: 4/317.

الإنسان بشيءٍ في حالِ تلبُّسِه به أنْ يستمرَّ على حالِه، ويتمادَى في هيئتِه، ويَلْبَثَ فيه، كان قولُه تعالى لآدمَ: ﴿ٱسۡكُنۡ﴾ من هذا الباب، بمعنى: لازِم الجنَّة، واتِّخذْها مَسْكَنًا، ويَحتمِل أن يكون بمعنى: ادخلْها ساكنًا لها، فافعلْ فيها كذا وكذا، إذا كان آدمُ لم يدخلْها بَعدُ؛ ليوافقَ دخولُ آدمَ الجنَّةَ خروجَ إبليسَ منها، في قوله: ﴿قَالَ ٱخۡرُجۡ مِنۡهَا مَذۡءُومٗا مَّدۡحُورٗاۖ﴾[1].

بديعُ إيثارِ لفظِ ﴿ٱسۡكُنۡ﴾:

يُشْعِرُ التَّعبير بلفظِ السَّكنِ في قوله تعالى: ﴿ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ﴾ أنَّ الجنَّةَ التي أُمِرَ آدمُ بالسَّكنِ فيها، هي مَحلُّ استقرارٍ، وأنَّ السُّكونَ فيها يكونُ إلى مُدَّةٍ ثمَّ ينقطعُ، فَدُخولُهما في الجنَّة كان دخولَ سُكنى، لا دُخولَ إقامةٍ[2]، ولهذا سمَّى اللهُ تعالى الجنَّةَ الَّتي يسكنها المؤمنون يومَ القيامة: (دارَ المُقامة)، للإقامةِ فيها، من غير خروجٍ منها، فقال تعالى فيما حكاه عن قول المؤمنين في الجنَّة: ﴿ٱلَّذِيٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلۡمُقَامَةِ مِن فَضۡلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٞ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٞ ٣٥﴾ [فاطر: 35].

دخولُ آدمَ وحوَّاءَ في الجنَّةِ كان دخولَ سُكنى، لا دخولَ إقامةٍ

بلاغةُ التَّعريضِ بالضَّميرِ المنفصلِ:

جاء الضَّمير المنفصل ﴿أَنتَ﴾ بعدَ فعلِ الأمرِ، مُؤكِّدًا الضَّميرَ المُستَتِرَ؛ تقريرًا لِلامتنانِ على آدمَ عليه السلام وإشعارًا بالتَّودُّدِ لمناسبةِ المقامِ، وزيادةً في التَّنكيل بإبليسَ؛ لأنَّ ذِكْرَ الضَّمير العائدِ على آدمَ، في مقامِ العطفِ على ما حُكِيَ عن إبليسَ، يُذَكِّرُ إبليسَ بأنَّه ليس مثلَ آدمَ، فأفادَ الضَّميرُ المنفصلُ الاحترازَ عن غيرِ صاحبِ الضَّميرِ، بالقرينةِ على طريقةِ التَّعريضِ، فما اختيرَ الفصلُ بالضَّميرِ المنفصلِ إلَّا لِمَا يُفيدُ مِنَ التَّعريضِ بغيرِه[3].

إظهارُ التودُّدِ والمنَّةِ على آدمَ، وترسيخُ هوانِ إبليسَ

(1) ابن عطيّة، المحرَّر الوجيز: 2/382، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 1/289، والإسكافيّ، دُرّة التّنزيل: 1/224.

(2) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 1/299.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/53.

مناسبةُ تَعدِّي الفعلِ ﴿ٱسۡكُنۡ﴾ بغيرِ حرفِ الجرِّ:

مِن تكريمِ آدمَ جَعْلُ جميعِ مواضعِ الجَنَّةِ سكنًا لهُ ولزوجِهِ

لم يَقُل: (اسْكُنْ أَنْتَ وَزوْجُكَ فِي الجَنَّةِ)؛ لِمَا قد يُشْعِرُ به حَرفُ الجرِّ (في) مِن تقييدٍ للسَّكنِ في الجنَّة، في موضعٍ معيَّن، فلمَّا تعدَّى الفعلُ بنفسِه إلى ﴿ٱلۡجَنَّةَ﴾؛ أفادَ أنَّ الجَنَّةَ بجميعِ مواضعِها سَكَنٌ له؛ ليَدُلَّ على العُموم، إظهارًا لعظيمِ الامتنانِ، وتشريفًا لآدمَ عليه السلام.

بلاغةُ التَّغليبِ في لفظِ ﴿فَكُلَا﴾:

لا خُصوصيَّةَ لآدمَ على زَوجِه في الجنَّةِ

غُلِّبَ المخاطَبُ على الغائبِ في قوله تعالى: ﴿فَكُلَا مِنۡ حَيۡثُ شِئۡتُمَا﴾ على ما هو الأصل في التَّغليبِ، فقال: ﴿فَكُلَا﴾، فمعناه: (كلْ أنت وزوجُك)، ونكتةُ مجيءِ الكلام على التَّغليب، بتوجيهِ الخطابِ إليهما، بضمير التَّثنيةِ، هي الإيجازُ في الكلام، ولِتعميم التَّشريفِ، والإيذانُ بأنَّ الحكمَ على آدمَ وزوجِه، بعدَ السَّكنِ في الجنَّة، كالحكم على الواحدِ، أي: بتساويهما في مباشرة المأمورِ به، فإنَّ حواءَ أُسْوةٌ له عليه السلام في حقِّ الأكلِ، بخلاف السَّكنِ، فإنَّها تابعةٌ له فيه، فلا خصوصيَّة لآدم على زوجِه بعد سكنِهما في الجنَّة[1].

نكتةُ التَّعبيرِ بـ﴿مِنۡ﴾:

سعةُ الجنَّة وكَثْرةُ مآكلِها، دليلٌ على سعةِ عطاء الله

أفادت ﴿مِنۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿مِنۡ حَيۡثُ شِئۡتُمَا﴾ ابتداءَ حيثيَّةِ مشيئتِهما؛ لإباحةِ الأكلِ في أماكنِها دونَ غايةٍ تنتهي إليها مشيئتُهما؛ للإشعارِ باتِّساعِ مساحةِ الجنَّة، وكَثْرةِ مآكِلها، وفي الحديثِ القُدُسيِّ: «أَعدَدْتُ لعبادي الصَّالحين، مَا لا عينٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعتْ، وَلَا خطر على قلب بشر»[2]، قال المناويُّ في شرحه: "ولا شكَّ أنَّ نعيم الجَنَّة وتُحَفَها، شيءٌ لا يمكن للإنسان أن يصفه؛ لأنَّه باقٍ لا يَلْحَقُه التَّغييرُ والانحلال، ولا العَطَب

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/220، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 8/354.
(2) رواه أحمد، والشّيخان، والتّرمذيّ، وابن ماجه عن أبي هريرة، والطّبرانّي في الأوسط عن أنس، وابن جرير عن أبي سعيد، وعن قتادة مرسلًا. ينظر: عبد الرؤوف المناويّ، الإتحافات السّنيّة بالأحاديث القدسيّة، ص: 37.

والاضمحلالُ، بخلافِ مَلذَّات الدُّنيا ونعيمها، فإنَّها سريعةُ الفناء، قليلُ الانتفاعِ بها"[1].

مناسبةُ العمومِ في قوله تعالى: ﴿مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا﴾:

لـمَّا كان ﴿حَيْثُ﴾ للمكان المُبهم؛ دلَّ على العموم، فبدلًا مِن أن يقول: فَكُلا مِن هذا المكانِ وهذا المكانِ، على سبيل التَّعداد؛ أوجزَ، فعبَّر بالاسمِ المبهمِ على معنى العموم، ﴿حَيْثُ شِئْتُمَا﴾، أي: فَكُلا من أيِّ مكانٍ مِنَ الجنَّةِ شئتُما، فأطلقَ لهما الأكلَ مِنَ الجنَّةِ على وجهِ التَّوسِعةِ البالغةِ، إزاحةً للعلَّةِ ولِلعُذْرِ، في التَّناولِ مِنَ الشَّجرةِ المنهيِّ عنها، مِن بينِ أشجارِها الفائتةِ[2].

وسَّعَ في الأكلِ مِن شَجَرِ الجنَّة؛ تعويضًا عنِ المنهيِّ عنها

نكتةُ التَّعبيرِ بلفظِ ﴿شِئْتُمَا﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا﴾:

عُبِّرَ بـ﴿شِئْتُمَا﴾ للإشعارِ بأنَّ الأمرَ بالأكل مِن ثمارِ الجنَّةِ، مُيسَّرٌ مُتاحٌ لآدم وحوَّاء على وَفق مشيئتِهما، زيادةً في التَّكريم والامتنانِ.

الأكلُ مِن ثمارِ الجِنانِ الفِساحِ، مُيسَّرٌ مُتاحٌ لآدمَ وزوجه

دلالةُ اسمِ الإشارةِ في قوله تعالى: ﴿هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾:

عُبِّرَ باسم الإشارة لكمالِ العنايةِ، بتمييزِ الشَّجرة المنهيِّ عن قُربِها أكملَ تمييزٍ، فدلَّ اسمُ الإشارة على أنَّ "الظَّاهرَ أنَّه أشار إلى شخصِ شجرةٍ واحدةٍ، مِن نوعٍ مُعيَّنٍ وأرادها، ويَحتمِل أن يشير إلى شجرةٍ معيَّنةٍ وهو يريدُ النَّوع بجملتِه، وعبَّر باسم الواحدةِ، كما تقولُ: أصابَ النَّاسُ الدِّينارَ والدِّرهم، وأنت تريد النَّوع"[3].

كمالُ العنايةِ بتمييزِ الشَّجرةِ المنهيِّ عن قُربِها إزاحةً للعُذر

مناسبةُ مجيءِ الكلامِ على البدلِ في قوله: ﴿هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾:

لـمَّا كان المقامُ مقامَ اعتناءٍ بالشَّجرةِ للتَّحذيرِ من قُربِها والأكلِ منها؛ استدعى الأمرُ إعادةَ الكلامِ بلفظٍ أوفى مِن اسمِ الإشارةِ، وهو: ﴿ٱلشَّجَرَةَ﴾، فصار البدلُ أوفى مِن اسم الإشارة؛ لاقترانِه

الاعتناءُ بالتَّعريفِ بالشَّجرة المنهيِّ عنها إفصاحٌ وإيضاحٌ

(1) المناويّ، الإتحافات السّنيّة بالأحاديث القدسيّة، ص: 37.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/127، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 1/72.
(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/328.

باسم الإشارةِ؛ ولِيظهرَ القصدُ مِن اسمِ الإشارة مِن جهةٍ أخرى، فيظهرَ بمجموع القصدين إليه؛ في اسم الإشارة: ﴿هَٰذِهِ﴾، والاسم المعَرَّف: ﴿ٱلشَّجَرَةَ﴾، أعني: المُبْدَلَ منه والبدلَ، مَزيدُ الاعتناءِ بالتَّعريفِ بالشَّجرةِ؛ ليتَّضحَ الأمرُ تمامَ الإيضاح[1].

❁ بيانُ المتشابهِ اللَّفظيِّ:

مقامُ تعدادِ النِّعم يناسبه استقلالُ كلٍّ منها بالواوِ:

يأتي اللَّفظُ لتعدادِ النِّعَمِ، أو بيانِ استقلالِها، أو زيادتِها

قال تعالى في سورة البقرة: ﴿وَكُلَا مِنۡهَا رَغَدًا﴾ [البقرة: 35] بالواوِ، وقال هاهنا: ﴿فَكُلَا﴾ بالفاءِ، والعلَّة: أنَّ ما جاء في سورةِ البقرةِ، لـمَّا كان في مقامِ الامتنانِ والتَّذكير بنِعم الله، ويدلُّ عليه قولُه تعالى قبل ذكر قصَّة آدمَ: ﴿كَيۡفَ تَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمۡ أَمۡوَٰتٗا فَأَحۡيَٰكُمۡۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يُحۡيِيكُمۡ ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ۝٢٨ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا﴾ [البقرة: 28 - 29]، وقال بعد قصَّة آدمَ: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ۝٤٠﴾ [البقرة: 40]، فلمَّا كان السِّياقُ في مقام تعدادِ النِّعم ناسبَه تعدادُ النِّعم على آدمَ بذكر الواو؛ ليكونَ الإسكانُ نعمةً مستقلَّةً، والأكلُ نعمةً مستقلَّةً أُخرى، وناسبه كذلك ذِكْرُ ﴿رَغَدًا﴾ [البقرة: 35] في آيات البقرة؛ لإشعارِ اللَّفظة بزيادةِ النِّعمة ورخائها، وأمَّا في سورة الأعرافِ؛ فإنَّها مِن تتمَّة السِّياقِ الواردِ في النَّشأةِ الأُولى للبشر وشياطين الجنِّ، أُنزلت تمهيدًا لبيانِ كرامةِ آدمَ عند الله، وما رتَّبهُ له في الجَنَّة، ولهداية النَّاسِ بما يتلوها مِن الآيات، في وعظ بني آدمَ، وتحذيرهم مِن اتِّباع إبليس اللَّعين، وإرشادهم إلى ما تكمُلُ به فطرتُهم، فناسب مجيءُ الفاءِ في قوله: ﴿فَكُلَا﴾؛ ليكونَ مُرتَّبًا على الإسكانِ في الجنَّة[2].

(1) السّكاكي، مفتاح العلوم، ص: 253.
(2) رشيد رضا، تفسير المنار: 8/307.

تنوّعُ التَّعبيرِ بينَ الواوِ والفاء، تناوبٌ في ذكرِ مطلقِ الأكلِ ونوعِهِ:

المفهومُ مِنَ الفاءِ داخلٌ تحت المفهومِ مِنَ الواو؛ وجامعُهما التَّشريكُ

ذكر الفخر الرَّازيُّ في توجيه المتشابه اللَّفظيِّ في السُّورتين سببًا آخرَ، فرأى: أنَّه لمَّا كانتِ الواو تُفيد الجمعَ المطلق، والفاءُ تُفيد الجمع على سبيل التَّعقيبِ، كانَ المفهومُ مِنَ الفاء نوعًا داخلًا تحت المفهوم مِنَ الواو؛ لاجتماعهما في التَّشريك، ولا مُنافاة بينَ النَّوع والجنس، ففي سورة البقرةِ ذَكَر الجنسَ، وهو مُطلقُ الأكل، وفي سورة الأعراف ذكر النَّوع، وهو الأكلُ المرَتَّب على الإسكانِ في الجنَّة[1].

السُّكنى لا تستدعي زمانًا ممتدًّا، يُجمعُ فيه بينَ الاتِّخاذِ والأكل:

زادَ في البقرةِ (رغدًا)، لمَّا زاد في الخبر تعظيمًا

قال النِّيسابوريُّ في بيان سرِّ المتشابهِ اللَّفظيِّ هنا: "لأنَّ ﴿ٱسۡكُنۡ﴾ هاهنا مِنَ السُّكنى الَّتي معناها: اتِّخاذُ الموضع مسكنًا، وهذا لا يستدعي زمانًا ممتدًّا، يمكن الجمع بينَ الاتِّخاذِ والأكل فيه، بل يقع الأكلُ عقيبَه، وفي البقرة: مِنَ السُّكون الَّذي يُراد به الإقامةُ، فلم يَصْلُح إلَّا بالواو؛ فإنَّ المعنى: اجمعا بينَ الإقامة فيها والأكلِ مِن ثمارها، ولو كان بالفاء؛ لوجبَ تأخيرُ الأكلِ إلى الفراغ مِنَ الإقامةِ، وإنَّما زاد في البقرة ﴿رَغَدًا﴾ [البقرة: 35]، لمَّا زاد في الخبر تعظيمًا بقوله: ﴿وَقُلۡنَا﴾ "[البقرة: 35][2]

العطفُ بالواوِ والفاء أوفى بالمعنى في موقعِ استعمالِه المعجز:

التَّمتُّعُ بالرَّغدِ عَقِبَ السُّكنى، مِنَّةٌ مُؤذنةٌ بتمامِ الإكرامِ

قال ابن عاشورٍ في الفرق بينهما: "﴿وَكُلَا﴾ في البقرة بالواو، وهنا بالفاء، والعطف بالواو أعمُّ، فالآية هنا أفادت: أنَّ اللّٰه تعالى أذنَ لآدمَ بأنْ يتمتَّعَ بثمار الجنَّة عَقِبَ أَمْرِه بسُكنى الجنَّة، وتلك مِنَّةٌ عاجلةٌ تُؤْذِنُ بتمام الإكرام، ولمَّا كان ذلك حاصلًا في تلك الحضرة، وكان فيه زيادةُ تنغيصٍ لإبليسَ، الَّذي تكبَّر، وفضَّل نفسَه عليه، كان الحالُ مقتضيًا إعلامَ السَّامعين به في المقامِ الَّذي

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 14/217.
(2) النّيسابوريّ، غرائب القرآن: 3/217.

حُكِيَ فيه الغضبُ على إبليسَ وطَرْدُه، وأمَّا آيةُ البقرة؛ فإنَّما أفادتِ السَّامعين: أنَّ اللّٰه امتنَّ على آدمَ بِمنَّةِ سُكنى الجنَّةِ والتَّمتُّعِ بثمارِها؛ لأنَّ المقامَ هنالكَ لتذكيرِ بني إسرائيل بفضلِ آدمَ وبذنبِه وتوبته، والتَّحذيرِ مِن كيدِ الشَّيطانِ، ذلك الكيدُ الَّذي هم واقعونَ في شيءٍ منه عظيمٍ، على أنَّ آية البقرة، لم تَخْلُ عن ذِكْرِ ما فيه تَكْرِمَةٌ له، وهو قوله: ﴿رَغَدًا﴾ [البقرة: 35]؛ لأنَّه مَدْحٌ للمُمْتَنِّ بهِ، أو دعاءٌ لآدمَ، فحصل مِن مجموعِ الآيتين عِدَّةُ مكارمَ لآدمَ، وقد وُزِّعتْ على عادة القرآنِ في توزيع أغراضِ القَصصِ على مواقعِها؛ ليَحْصُلَ تجديدُ الفائدةِ، تنشيطًا للسَّامع، وتفنُّنًا في أساليبِ الحكاية؛ لأنَّ الغرضَ الأهمَّ مِنَ القَصَص في القرآن، إنَّما هو العبرةُ والموعظة والتَّأسِّي[1]، والمناسباتُ المذكورةُ في توجيه المتشابهِ اللَّفظيِّ يُكَمِّل بعضُها بعضًا، والاكتفاءُ بواحدٍ منها، يكفيكَ مؤونةَ السَّهرِ إلى السَّحرِ، والجمعُ بينها إظهارٌ للدُّرر.

نكتةُ التَّعبيرِ بلفظةِ ﴿تَقْرَبَا﴾ في ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾:

القربُ مِنَ الشَّيءِ مِن مُقدِّمات التَّناولِ

إنَّ اللّٰه تعالى لمَّا أرادَ النَّهيَ عن أكلِ الشَّجرة؛ نهى عنه بلفظةٍ تقتضي الأكلَ وما يدعو إليه، وهو القُرْبُ؛ لأنَّ القُرْبَ مِن مقدِّمات التَّناول[2].

بلاغةُ النَّهي في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾:

النَّهيُ يقتضي البُعدَ عن موارد الشُّبهات وما يُلهي عن مقتضى المأموراتِ

في النَّهي مبالغاتٌ متنوِّعة، فتعليقُ النَّهي بالقُرْبِ الذي هو مِن مُقدِّماتِ التَّناول، مبالغةٌ في تحريمه، ووجوبِ الاجتنابِ عنه، فإنَّه لم يُرِدْ بالنَّهي الدُّنُوَّ مِنَ الشَّجرة، ولكن أراد الذَّوقَ والأكلَ منها؛ لأنَّه قال: ﴿فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ﴾، كما أنَّ في النَّهي تنبيهًا على أنَّ القُربَ مِنَ الشَّيءِ يُورثُ داعيةً ومَيْلًا، يأخذ بمجامعِ القلب، ويُلْهيه عمَّا هو

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/54.
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 1/127.

مقتضى العقلِ والشَّرعِ، وفيه: إشعارٌ بأنَّ النَّهيَ يقتضي البُعدَ عن موارد الشُّبهات الَّتي تُغْري بالمَنهيِّ، وتُفضي إليه ورعًا واحتياطًا[1].

دلالةُ الفاءِ في قوله تعالى: ﴿فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾:

الأجودُ أن يكونَ قولُهُ: ﴿فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، في موضع نصبٍ على جواب الأمرِ بالفاء، أي: فإنَّكما إنْ قَرِبْتُماها كنتُما مِنَ الظَّالمين. ويجوز أنْ يكون في موضع جزم، عطفًا على قوله: ﴿وَلَا تَقْرَبَا﴾، أي: فلا تقربا هذه الشَّجرةَ، فلا تكونا مِنَ الظَّالمين، وسواءٌ جعلتَ الفاء للجواب، أو للطَّلب، أو للعطف على النَّهي، فإنِّها تُفيدُ السَّببيَّة، بمعنى: جعلَ القُربَ مِنَ الشَّجرة سببًا لأن يكونا مِنَ الظَّالمين، الَّذين ظلموا أنفسَهم بارتكاب المعاصي، أو بنقص حظِّهما، بالإتيان بما يُخِلُّ بالكرامة والنَّعيم[2].

جعلَ اللهُ القربَ مِـنَ الـشَّـجـرةِ سببًا في ظُلم الأنفسِ المُؤثِّرة

علَّةُ إيثارِ لفظةِ: ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ دون سواها مِنَ المترادفاتِ:

لـمَّا كان آدمُ ﷺ قد ظلمَ نفسَهُ بإلقائها في العواقب السَّيِّئة، أو كان قدِ اعتدى على حقِّ غيرِه؛ فإنَّ العصيانَ ظُلْمٌ لحقِّ ربِّ العالمين، الواجبِ طاعتُه؛ استحقَّ أن يكون مِنَ الظَّالمين[3]، والأكلُ مِنَ الشَّجرةِ سببٌ للعصيانِ، حيث أفاض السِّياق "وبيَّن أنَّهما إذا أكلا منها؛ كانا مِنَ الظَّالمين لعصيان أمر ربِّهما، ولضعف إرادتهما، وأوَّل الظُّلم ضعفُ إرادة الظَّالم، وكان نَهْيُ اللهِ تعالى لهما، ألَّا يقربا هذه الشَّجرة، والنَّهيُ عنِ القُرْبِ نهيٌ عنِ الأكل بالأولى"[4].

العصيانُ ظُلمٌ لحقِّ ربِّ العالمين

(1) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنة: 4/377، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 1/72.
(2) الزّجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 2/326، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 1/72.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/56.
(4) أبوزهرة، زهرة التّفاسير: 5/2798.

﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ۝٢٠﴾ [الأعراف: 20]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

المناسبةُ بين امتحانِ الإنسانِ، ووسوسةِ الشَّيطانِ؛ لإخراجِهِ مِنَ الجِنان

لمَّا أسكن اللّهُ آدمَ وزوجَه الجنَّة، ونهاهما عنِ الأكلِ مِن تلك الشَّجرةِ، لم يزالا ممتثلَين لأمرِ اللّه حتَّى وَسوسَ لهما الشَّيطانُ؛ لبيانِ حالِ الحاسدِ مع محسودِه، فيما سألَ الإنظارَ بسببِه، فكانت وسوسة الشَّيطان بقُربِ نَهي آدمَ عنِ الأكلِ مِنَ الشَّجرة[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَوَسْوَسَ﴾: مِنَ الوَسوسة الخَطْرةُ الرَّديئةُ، ويُقالُ: لصوت الحَلْي، وللهمْسِ الخَفيِّ، أو القولِ الخفيِّ لقصدِ الإضلالِ: وِسْوَاس[2]، وسمِّي إلقاءُ الشَّيطان في نفس ابنِ آدمَ: وَسْوَسة؛ إذ هي أبلغ السِّرار وأخفاه، والوَسْوَاسُ: اسْمُ الشَّيْطَانِ، و﴿فَوَسْوَسَ﴾ هنا بمعنى: حدَّثهما الشَّيطانُ بالقول الكَذِب، بالهَمْسِ الخفيِّ، أو بما ألقاه في قلبهِما لأجلهما[3]، "وقوله تعالى: ﴿مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ﴾ [النّاس: 4]، أراد ذي الوِسْواس، وفلانٌ المُوَسْوِسُ: الَّذي يعتريه الوَسْواسُ، ووَسْوَسَ الرَّجُلَ: كلَّمَهُ كلامًا خفيًّا"[4].

2) ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ﴾: مأخوذٌ مِن شَطَنَ، أي: تباعَدَ، ومنه: بِئْر شَطُونٌ، وشَطَنَتِ الدَّار، والشَّطَنُ: الحَبْلُ؛ لأنَّه بعيد ما بينَ الطَّرفين، فسُمِّيَ

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 7/372، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/56.
(2) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات: (وسس) أو (وسوس).
(3) ابن جرير، جامع البيان: 12/347، والبغوي، معالم التنزيل: 2/142، وابن عطية، المحرَّر الوجيز: 2/384.
(4) ابن سيده المرسّي، المحكم والمحيط الأعظم: (وسوس).

الشَّيطانُ بذلك لبُعْده عنِ الحقِّ وتمرُّدِه، وذلك أنَّ كلَّ عاتٍ مُتمَرِّدٍ مِنَ الجنِّ والإنسِ والدَّوابِّ شيطانٌ، وذهب بعضُ اللُّغويِّين إلى أنَّ النُّون فيه زائدةٌ، أي: مأخوذٌ مِن شَاطَ يَشِيطُ، أي: احترق غضبًا، فَالشَّيْطَانُ مخلوق مِنَ النَّار، ولكونه مِن ذلك اختصَّ بفَرْط القوَّةِ الغضبيَّةِ، والحَمِيَّة الذَّميمة، وامتنع مِنَ السُّجود لآدمَ، ويُطْلَقُ الشَّيطانُ ويُراد به إبليسُ نفسُه[1].

3) ﴿لِيُبْدِيَ﴾: بدا الشَّيءُ بمعنى: ظهر ظُهورًا بيِّنًا، بعدَما كانَ خفيًّا، وسُمِّيَّ البَدْوُ بَدْوًا؛ لأنَّهم في بَراز مِنَ الأرض، وليسوا في قُرى تسترهم أبنيتُها، والباديةُ خِلافُ الحاضرة[2]، "(وافعَلْهُ بَدْءًا): ما تريد أوَّل شيء، و(هاتِها مِن ذي تبدَّأت)، أي: أَعِدِ الكلمةَ أو القِصَّةَ مِن أوَّلها، وأَبْدَأَ في الأمر وأعاد، واللهُ المُبدئُ المُعيدُ، وفلانٌ ما يُبْدِئُ وما يُعيدُ؛ إذا لم يكن له حِيْلَةٌ. قال عَبيد بن الأبرص:

أَقْفَرَ مِنْ أَهْلِهِ عَبِيدُ *** فَاليَوْمَ لَا يُبدي وَلَا يُعِيدُ[3].

4) ﴿وُورِيَ﴾: سُتِرَ أو غُطِّيَ، يُقال: وَارَيْتُ كذا؛ إذا سترتُه، وتوارى؛ إذا استتر، والتَّورية في الكلام؛ إذا سترَ كلامًا، وأظهر غيرَه، ومنه الوراء بمعنى: الخَلْف؛ لاستتارِه عنِ الرَّائي[4]، "ووريتُ الشَّيءَ وأوريتُه أخفيتُه، وقيل: وَرَيتُ الخبرَ: جعلتُه ورائي، وسترتُه عن كراع، وليس مِن لفظ وراء؛ لأنَّ لام وراء همزة، وفلانٌ وَرِيُّ فلانٍ، أي: جاره الَّذي تُواريه بيوتُه وتسترهُ[5].

5) ﴿سَوْءَاتِهِمَا﴾: السُّوءُ: كلُّ ما يغمُّ الإنسانَ مِنَ الأمور الدُّنيويَّة والأخرويَّة، وعُبِّر عن كلِّ ما يَقْبُح بالسُّوء، ولذلك سُمّيتِ السَّيِّئَة سيِّئَةً، فهو مِنَ الأسماء الجامعةِ للآفات، ثمَّ استُعمِل في كلِّ ما يُستقبح، وكُنِّي عنِ الْفَرْجِ بالسُّوء؛ لأنَّه يَسوءُ صاحِبَها انكشافُها مِن جَسَدِه، و﴿سَوْءَاتِهِمَا﴾ بمعنى: عَوْراتِهما[6]، "والسَّوءة: ما يسوءُ الإنسانَ مِن أمرٍ شائنٍ وعملٍ قبيحٍ،

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات (شطن)، وابن عطية، المحرّر الوجيز: 2/384.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (بدو).
(3) الزّمخشريّ، أساس البلاغة: (بدأ).
(4) الرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (وري).
(5) ابن سيده المرسّي، المحكم والمحيط الأعظم: (وري).
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (سوء)، وابن الهائم، التّبيان في تفسير غريب القرآن، ص: 74.

والسَّوءةُ السَّوءَاء: الخَلَّة القبيحةُ، والمرأةُ المخالِفة، قال في حقيقة الأساس: وسوءَةٌ لك، ووقعت في السَّوءةِ السَّوءاء، قال أبو زبيدٍ:

لَمْ يَهَبْ حُرْمَةَ النَّدِيمِ وَحَقَّتْ *** يَا لَقَوْمِي لِلسَّوْءَةِ السَّوْءَاءِ[1]

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

بيانُ وسوسةِ إبليسَ لآدمَ وإغرائِهِ بالملائكيَّةِ والخلودِ

لـمَّا أباح اللّٰهُ تعالى لآدمَ ﷺ ولزوجته حواءَ نِعَمَ الجنَّة، بأن يأكلا منها مِن جميع ثمارِها، إلَّا شجرةً واحدةً، حسدهما الشَّيطانُ، وسعى في المكرِ والخديعةِ والوسوسة، ليُسلبا ما هما فيه مِنَ النِّعمة واللِّباس الحسن، فقال كَذِبًا وافتراء: نهاكما ربُّكما عن أكل الشَّجرةِ لكي لا تكونا مَلَكين، أو خالِدَين هاهنا، ولو أنَّكما أكلتُما منها لحصلَ لكُما ذلكما[2].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالةُ الفاءِ في قوله تعالى: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ﴾:

كلُّ ذي نعمةٍ محسودٌ، والحسودُ لا يسودُ

أفادتِ الفاءُ معنى السَّببيَّة، بمعنى: إسكانُ اللّٰهِ آدمَ وزوجَه في الجنَّة أظهرَ حَسَدَ الشَّيطانِ، وكان سببًا لوَسْوَسته، فالوَسْوَسةُ مُسبَّبَةٌ عن تكرمةِ اللّٰه إيَّاهما، كما أفادتِ الفاءُ التَّعقيبَ، بمعنى: قُرْبِ الوَسوسة مِن إسكانِ آدمَ، إشارةً إلى أنَّه قُرب قريب؛ لأنَّ تعقيب كلِّ شيءٍ بحسبه[3].

دلالةُ التَّعبيرِ بقوله تعالى: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ﴾:

الوسوسةُ تكون بأبلغِ الإسرارِ، ولاتكونُ إلَّا فيما هو ضارٌّ

سُمِّيَ إلقاءُ الشَّيطان وَسْوَسةً؛ لأنَّه ألقى إليهما تسويلًا خفيًّا، مِن كلامٍ كلَّمَهُما به، أو انفعالٍ في أنفسِهما، فإنَّ الوَسْوَسةَ تكون بأبلغِ الإسرارِ وأخفاه، كهيئة الغاشِّ الماكر؛ إذ يُخفي كلامًا عنِ الحاضرين، كيلا يُفسِدوا عليه غِشَّهُ بفضح مَضارِّه، فإنَّ الوسوسة

(1) محمّد رضا، تفسير المنار، ص: 74.
(2) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 3/397.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/56.

لا تكون إلَّا فيما هو ضارٌّ، وليوهمَهُما أنَّه يُخلِصُ لهما النَّصيحةَ، بإلقائهِ الكلامَ لهما في صورة التَّخافت[1].

بلاغةُ تكرارِ الصَّوتِ في الفعلِ: ﴿فَوَسْوَسَ﴾:

تُؤْذِنُ صيغةُ: ﴿فَوَسْوَسَ﴾ بتكرُّر تسويلِ الشَّيطان، بأبلغِ الهمسِ الخفيِّ الضَّارِّ، وتكرارُ الصَّوتِ في وسوس كما في (زلزل)، يُشْعِرُ بتكرارِ إلقاء الكلامِ الخفيِّ؛ للإشعارِ أنَّ الشَّيطان لم يكتفِ بالتَّسْويل مرَّةً واحدةً[2]، بل هو يفعلُ ذلك بالعشيِّ والإبكارِ، دون كَللٍ يُذكر، ولا مَللٍ يُؤثر، ويبقى على ذلك، حتَّى يوقعَ الإنسانَ في أباطيلِه، فيَضِلَّ عنِ الصِّراط السَّويِّ القويم.

تكرارُ الصَّوتِ، يشعرُ بتكرارِ إلقاءِ الكلامِ الخفيِّ

مناسبةُ إيثارِ لفظِ ﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾ في قولِه تعالى: ﴿فَوَسۡوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾:

لمَّا كانتِ الوسوسة تجرُّ إلى الباطلِ والسُّوء، ناسبها ذِكرُ الشَّيطانِ، لِمَا في اللَّفظ مِن معنى التَّمرُّد والعُتوِّ، والبُعْد عنِ الحقِّ. وأيضًا: لمَّا كان لفظ الشَّيطانِ مُشعرًا بالقُبح، وهو أقبحُ ما يكونُ مِنَ الأشياء، ويدلُّ عليه قولُه تعالى: ﴿طَلۡعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ٦٥﴾ [الصَّافات: 65]؛ دلَّ على أنَّ وَسْوَستَه أقبحُ ما يكون، فالقبيحُ لا يَصدرُ منه إلَّا القبيحُ.

الشَّيطانُ ملعونٌ قبيحٌ، والشَّيءُ مِن معدنِهِ لايُستغرَبُ

توجيهُ اللَّامِ بينَ العاقبةِ والتَّعليلِ في جملة ﴿لِيُبۡدِيَ لَهُمَا﴾:

تَحتمِلُ اللَّامُ في قوله: ﴿لِيُبۡدِيَ﴾ أنْ تكونَ مستعارةً للعاقبة والصَّيرورة، وذلك لأنَّ الشَّيطان لم يقصد بالوَسْوَسة ظُهورَ عورتِهما، ولم يعلم أنَّهما إنْ أكلا مِنَ الشَّجرة؛ بدت عوراتُهما، ولم يخطر له ببالٍ، وإنَّما كان قصْدُه: أنْ يحملَهُما على المعصية فقط، وإنَّما آلَ الأمرُ إلى انكشاف عورتيهما، أي: عاقبةُ الوسوسةِ أدَّت إلى ظهورِ عورتيهما، ولم تكنِ الوسوسةُ لظهورها. كما تَحتمِل اللَّامُ

مُرادُ إبليسَ إشراكُ آدمَ وزوجِهِ في المُخالَفَةِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/56.

(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/94، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 8/355.

أنْ تكونَ للتَّعليل على أصلِها، وذلك أنَّه أراد بوسوسته أن يَسُوءَهما بانكشافِ عورتيهما، ولذلك عبَّر عنهما بالسَّوءةِ، أي: جعل ذلك غرضًا له ليَسُوءَهما، إذا رأيا ما يُؤْثِران سَتْره، وألَّا يُطَّلَع عليه مكشوفًا، أو أراد بوسوسته حطَّ مرتبتِهما وإلقاءَهما في العقوبة، بأنْ يَجعَل بُدوَّ العورةِ كنايةً عن سقوط الحُرمَةِ، وزوالِ الجاه، والمعنى: أراد كَشْفَ ما يَنْبَغِي سَتْرُهُ، وَأَلَّا يَجْتَنِبَا نَهْيَ اللهِ، فَيَكُونَ هُوَ وَهُمَا سَوَاءً فِي الْمُخَالَفَةِ، هُوَ أُمِرَ بِالسُّجُودِ فَأَبَى، وهما نُهِيَا، فلم يَنْتَهِيَا[1].

بلاغةُ المجازِ العقليِّ في جملة ﴿لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا﴾:

أُسْنِدَ إبداءُ السَّوءاتِ إلى الشَّيطانِ؛ لأنَّه المتسبِّبُ فيه

لمّا كانتِ الوسوسةُ من الشَّيطان؛ ناسبَ أن يُجْعَلَ له غرضٌ فيها، ليتمَّ ادِّعاءُ كونِه فاعلًا الفعلَ القبيحَ، وكونِه قاصدًا من وسوستِه أقبحَ ما يظهر من القبيحِ، كشأنِ المخادعين في أن يكونَ لهم أغراضٌ، أو عللٌ في أفعالِهم، إتمامًا للكيدِ، فأسندَ إبداءَ السَّوءات إلى الشَّيطان؛ لأنَّه المتسبِّبُ فيه على طريقة المجاز العقليِّ[2].

دلالةُ صيغةِ: ﴿مَا وُورِيَ عَنْهُمَا﴾ مِنَ الآيةِ الكريمة:

المبالغةُ في التَّعبيرِ عنِ المواراةِ، حرصٌ على سترِ العوراتِ

لـمَّا كانت صيغةُ: ﴿وُورِيَ﴾ مأخوذةً مِنَ المواراةِ، على معنى المفاعلةِ؛ احتملَ اللَّفظُ أن يكونَ مفاعلةً مِن واحدٍ، لتكون الصِّيغةُ بمعنى: فَعَل. ونكتةُ مجيء الفعل بصيغة المفاعلة: هي الإشعارُ بالمبالغةِ في سترِ العورةِ، والتَّحرُّز مِن أن يُرى منها شيءٌ. ويمكن أن تُقدَّرَ المفاعلةُ مِن اثنين؛ لأنَّ الشَّيء الَّذي يُوارى، هو أيضًا يُوارِي، مِن جهة قبولِه المواراةَ على سبيلِ المجاز[3].

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/95، وابن عطيَّة، المحرّر الوجيز: 2/384، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/8، وأبو حيّان، البحر المحيط: 5/25، وروح المعاني، الآلوسيّ: 4/339، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 8/355.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/57.

(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/385.

نكتةُ التَّعبيرِ بلفظِ ﴿مَا وُۥرِيَ﴾:

في قوله تعالى: ﴿مَا وُۥرِيَ عَنۡهُمَا﴾ لـمَّا كان (عَنْ) للمُجاوزة؛ دلَّ على أنَّ سوءاتِهما كانت مستورةً عن أنفسهما، ولـمَّا كانا لا يريانِها مِن أنفسهما، فعدمُ رؤيةِ أحدهما مِنَ الآخر بطريق الأولى[1]، "وفيه دليلٌ على أنَّ كشف العورةِ في الخَلوة، وعند الزَّوجِ من غير حاجة، قبيحٌ مُستهجَنٌ في الطِّباع"[2].

سوءاتُ آدمَ وحوَّاءَ كانت مستورةً عنهما بسترِ اللهِ

مناسبةُ تقديمِ لفظِ ﴿عَنۡهُمَا﴾:

أصلُ الكلامِ في قوله تعالى: ﴿مَا وُۥرِيَ عَنۡهُمَا﴾: (ليُبديَ لهما ما وُورِيَ مِن سوءاتِهما عنهما)، فقُدِّمَ ﴿عَنۡهُمَا﴾ للعنايةِ والاهتمامِ بستر عورتَيْهما عن أنفسهما، فإنَّ مَن سَترَ عورتَه عن نفسه، فأن لا يراها غيرُه بطريق الأولى.

مَن سترَ عورتَه عن نفسهِ، فَسَتْرُها مِن بابٍ أولى عن غيرِهِ

سرُّ التَّعبيرِ بالجمعِ في قولِهِ تعالى: ﴿مِن سَوۡءَٰتِهِمَا﴾:

لـمَّا كانتِ السَّوءةُ بمعنى: العورةِ، كان مجيءُ لفظةِ سَوْءَةٍ بصيغة الجمع في قوله: ﴿مِن سَوۡءَٰتِهِمَا﴾ على خلافِ الأصل، كقوله تعالى: ﴿فَقَدۡ صَغَتۡ قُلُوبُكُمَاۖ﴾ [التَّحريم: 4]، ونكتتُه: أنَّه إمَّا أن يكون مِن وَضْعِ الجمعِ مَوْضِعَ التَّثنيةِ؛ كَراهَةَ اجتماعِ مِثْلَيْنِ للتَّخفيفِ في اللَّفظ، ولتعظيم شأنِ إبداء السَّوءَةِ، فكأنَّ مَن أظهر عورتَه؛ أظهر كلَّ سوءاتِهِ، وكلَّ ما يَعيبُه، وإمَّا أن يكون على أصل وَضْعِهِ، باعتبارِ أنَّ كلَّ عورةٍ هي الدُّبُرُ والفَرْجُ، وذلك أربعةٌ: فهي جَمْعٌ[3].

كشفُ العورةِ مِنَ المنكراتِ، وهو مستهجنٌ في كلِّ المجتمعاتِ

دلالةُ العطْفِ في قوله: ﴿وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا﴾:

إمَّا أن يكونَ العطفُ على معنى بيان الوَسْوَسةِ، فيكون ما وَسْوَسَ بهِ الشَّيطانُ هو قوله: ﴿مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنۡ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن

مراودةُ إبليسَ وقسَمُه، خَدَعا آدمَ وزوجَه، فانساقا لمُراده

(1) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 8/356.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم إلى مزايا الكتاب الكريم: 3/220.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/25.

﴿تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ﴾، ويكون العطف بالواوِ مِن عطف التَّتابع، بمعنى البيانِ، أو أن يكونَ العطفُ على المغايرةِ، أي: إنَّ الشَّيطان قد وسوس لهما بطريق خَفِيٍّ، ثمَّ حاورَهما بعدَ ذلك، فثنَّى وسوسته، بأنْ قالَ: ﴿مَا نَهَىٰكُمَا﴾، فيكون مِن تكرار الوسوسة، وفي هذا العطف إشعارٌ، بأنَّ آدم وزوجَهُ تردَّدا في الأخذِ بوسوسة الشَّيطان أوَّلًا، فأخذَ الشَّيطانُ يراودُهما، وأقسمَ لهما، حتَّى أكلا مِنَ الشَّجرةِ[1].

نكتةُ التَّعبيرِ بلفظ ﴿رَبُّكُمَا﴾:

عَبَّر بـ﴿رَبُّكُمَا﴾ من قولهِ: ﴿مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ﴾، ولم يقل: (ما نهاكما اللّه)؛ للإشعار بأنَّه تعالى هو مالك الجنَّة ومُدبِّرها، وليُسَهِّل إبليسُ أمرَ المخالفة؛ لما يُشعرُ به لفظُ الرُّبوبيَّة من معنى الرِّعاية لمربوبيهِ والإنعام عليهم، وقد أَبْعَد ضميرَ الجمعِ بأن يقول: (ربّكم)، واستعمل ضميرَ المثنَّى: ﴿رَبُّكُمَا﴾؛ ليستثني نفسَه مِنَ الخطابِ، وهذا لونٌ مِنَ التَّأبِّي والكبرياء، وكأنَّه مُستغنٍ عنِ الرُّبوبيَّة المشفقةِ.

اللهُ تعالى مالكُ الجنَّة، ومُدبِّر أمرِها، وهي مِن فيوضاتِ نعمهِ على عبادهِ

مناسبةُ مجيءِ اسمِ الإشارةِ ﴿هَٰذِهِ﴾ في قوله: ﴿هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ﴾:

في قوله تعالى: ﴿هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ﴾، أعادَ الشَّيطانُ الإشارةَ إلى الشَّجرةِ باسم الإشارةِ الَّذي يدلُّ على القريبِ، بعد أن صارت معروفةً لهما؛ للإشعار بسهولةِ الأكلِ منها، زيادةً في إغرائِهما بالمعصية بالأكلِ مِنَ الشَّجرة[2].

تَنوُّعُ إغراءاتِ الشَّيطان؛ لتزيين الأكلِ مِنَ الشَّجرةِ

دلالةُ الاستثناءِ المفرَّغِ:

لمَّا كان الاستثناءُ المفرَغُ على معنى نفي أعمِّ الأشياءِ وإثباتِ ما بعد ﴿إِلَّآ﴾؛ ليكونَ الحصرُ على أتمِّهِ وأوعبِه؛ دلَّ في قوله: ﴿مَا

تعظيمُ شناعةِ الوسوسةِ، وأثرُها في الضَّلالِ والمَفسدةِ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/220، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/58.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/59.

نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنۡ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيۡنِ أَوۡ تَكُونَا مِنَ ٱلۡخَٰلِدِينَ﴾، على عظيم شناعةِ وسوسةِ الشَّيطانِ؛ ليكونَ المعنى نفيَ أيِّ عِلَّةٍ أو غرضٍ في النَّهي عنِ الأكلِ مِنَ الشَّجرةِ، قائلًا لهما بأنَّ علَّة ذلك: ﴿إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيۡنِ أَوۡ تَكُونَا مِنَ ٱلۡخَٰلِدِينَ﴾.

في الاستثناءِ المفرَّغ تنوُّعٌ في التَّوجيهِ وتكثيرٌ للمعنى:

لمَّا كانَ الاستثناءُ مفرَّغًا مِنَ المفعولِ لأجلِه، ويقتضي تقديرًا ليتمَّ المعنى، على ما يدلُّ عليه السِّياق، كان توجيهُ الاستثناءِ على ثلاثةِ أوجهٍ؛ أحدها: أن يكونَ مِن نفي العلَّة، والمعنى: ما نهاكُما ربُّكما عن هذه الشَّجَرَةِ لعلَّةٍ، إلَّا لأن تكونا مَلَكين، والثَّاني: أن يكونَ بتقديرِ (لا) النَّافيةِ بعد (أنْ)، والمعنى: ما نهاكما ربُّكما عن هذهِ الشَّجرةِ إلَّا ألَّا تكونا مَلَكين، والثَّالثُ: وهو ما ذهب إليه كثيرٌ مِنَ النُّحاة والمفسِّرين، مِن أنَّ الكلامَ بتقدير الاسمِ، والمعنى: كراهةَ أنْ تكونا مَلَكين[1].

شرفُ التَّوقِ للصُّعودِ إلى مرتبةِ الملائكيَّةِ، يُغري بالمجازَفةِ والغوايةِ

مناسبةُ الحصرِ في جملةِ الاستثناءِ في قوله: ﴿إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيۡنِ﴾:

مجيءُ الكلامِ في قوله تعالى: ﴿مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنۡ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيۡنِ أَوۡ تَكُونَا مِنَ ٱلۡخَٰلِدِينَ﴾، بطريقِ الحصرِ بالنَّفي والاستثناء، أفاد أنَّ آدمَ وزوجَه كانا مُصِرَّين على ألَّا يأكلا مِنَ الشَّجرة الَّتي نهى اللهُ عن قُربها، فأوهمَهُما الشَّيطانُ بوسوستهِ وكلامِه المعسولِ، أنَّهما مخطئانِ في إصرارِهما على عدمِ الأكلِ مِنَ الشَّجرةِ[2]، وهذا مظهرٌ مِن مظاهرَ تلبيسِ إبليسَ على المؤمنين الطَّائعين، بحيثُ يثيرُ فيهم قناعاتٍ غيرِ مؤسَّسةٍ مِنَ النَّاحيَةِ الشَّرعيَّة، ولا مقبولةٍ في العقلِ، ولا في المعهودِ مِنَ الدِّين، وقد وقعَ الحضورُ أخيرًا بالأكلِ مِنَ الشَّجرةِ.

قاومَ آدمُ وحواءُ إغواءَ إبليسَ بقوَّةٍ

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/91، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/385، وأبو حيّان، البحر المحيط: 5/25، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 8/59.

(2) السّكاكي، مفتاح العلوم، ص: 294.

نكتةُ العطفِ بـ ﴿أَوْ﴾:

من مكْرِ إبليسَ، قَصْرُ الوسوسةِ على الملائكيَّةِ والخلودِ

في قوله تعالى: ﴿أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ﴾، أغرى إبليسُ اللَّعينُ آدمَ وزوجَهُ وخدعَهما بذكرِ هذين الأمرينِ دونَ غيرِهما؛ لِما رآهُ آدمُ مِنَ الملائكةِ حين سجودِهم له، مِن قُربِهم مِنَ اللّهِ تعالى، وما ذاقَهُ والتذَّ بهِ في الجنَّةِ؛ ليكونَ أوثقَ في إقناعِهما بالأكلِ مِن تلْكُما الشَّجرةِ.

إفادةُ ﴿أَوْ﴾ التَّخييرَ مع جوازِ الجمعِ بينهما:

إمعانُ إبليسَ في المراوغةِ لإقناعِ آدمَ أنَّه مِنَ النَّاصحين

تُفيدُ (أو) التَّخييرَ، فذكرَ إبليسُ اللَّعينُ الأمرينِ على طريقة التَّخييرِ، مع جوازِ الجمعِ بينهما؛ إمعانًا في الخِداعِ، ليُشْعِرَ آدمَ أنَّه مِنَ النَّاصحينَ[1].

(1) النّيسابوريّ، غرائب القرآن: 3/215.

﴿وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ٢١﴾ [الأعراف: 21]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

ربطُ نصيحةِ إبليسَ المسمومةِ بِقَسَمِهِ بِأَنَّهُ ناصحٌ أمينٌ

لمَّا وَسْوَسَ الشَّيطانُ لآدمَ وزوجِه، وشعرَ أنَّهما في شكٍّ ممَّا قالهُ ونصحَ بهِ، أرادَ تأكيدَ ما ألقاهُ لهما بأقوى المؤكِّدات، فجاء قولُه تعالى: ﴿وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾[1]، أي: إنَّ إبليس لم يكتفِ في خداعِ آدمَ وزوجِه بالوسوسة، ولا بالقولِ المجَرَّد مِنَ القسم، حتَّى أقسمَ على أنَّه ناصحٌ لهما[2]، وجاءتِ الآيةُ تحمل معنى التَّرقِّي في خِداعِ إبليسَ لآدمَ وزوجِه؛ إذ ذُكِر في الآية السَّابقةِ الوسوسةُ أوَّلًا، ثمَّ أعقبَها بالقول الَّذي يكونُ أكثرَ تأثيرًا مِنَ الإلقاء، ثمَّ ترقَّى في هذه الآيةِ إلى القسم باللّه تعالى، لعِلْمِ اللَّعين بفظاعةِ عملِه وشناعةِ قولِه.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَقَاسَمَهُمَآ﴾: أصل معنى القَسَم: هو النَّصيبُ مِنَ الخيرِ، والقَسَمُ: الحَلِفُ أو اليمين، وأَقْسَمَ: حَلَفَ، وأصله مِنَ القسامَةِ؛ وهي أيمانٌ تُقْسَمُ على أولياء المقتول، إذا ادَّعوا دمَ مقتولهم على ناسٍ اتَّهموهم به، ثمَّ صار اسمًا لكلِّ حَلِفٍ، فمَن حَلَفَ على شيءٍ، كأنَّه أشهدَ غيرَه بأنَّ ما يقوله مِن نصيبهِ ومِن قسمه، ﴿وَقَاسَمَهُمَآ﴾ بمعنى: حَلَفَ لهما[3].

2) ﴿ٱلنَّٰصِحِينَ﴾: جمعُ ناصحٍ، "وقومٌ نُصحاءُ، ورجلٌ ناصحُ الجيبِ، أي: نقيُّ القَلْبِ، قال الأصمعيُّ: النَّاصحُ الخالصُ مِنَ العسلِ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/373، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/10.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/26.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة، السّجستانّي، غريب القرآن، ص: 375، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (قسم).

وغيرِه، مثل النَّاصعِ، وكلُّ شيءٍ خَلَصَ؛ فقد نَصَحَ، وانتصح فلانٌ، أي: قَبِلَ النَّصيحةِ، يقال: انتصِحْني إنَّني لكَ ناصحٌ، وتنصَّح، أي: تشبَّه بالنُّصحاءِ، واستنصحَهُ: عَدَّه نَصيحًا"[1]، ومِن معناها ما قالَهُ النابغة الذُّبيانيُّ:

نَصَحْتُ بَنِي عَوْفٍ فَلَمْ يَتَقَبَّلُوا *** رَسُولِي، وَلَمْ تَنْجَحْ لَدَيْهِمْ وَسَائِلِي[2]

❁ المَعْنى الإِجْماليُّ:

مِن سُبُلِ إغواءِ إبليسَ التَّلويحُ بالنُّصحِ

أقسَمَ إبليسُ لآدمَ وحوَّاءَ باللّهِ، إمعانًا في الإغواءِ، وإصرارًا على الوسوسةِ، أنَّه إذ قال لهما ما قال؛ فإنَّه لهما مِن جملةِ النَّاصِحِينَ[3]، وتأكيدُه ذلك بالأَيمانِ المُغلَّظةِ؛ إذ كان عندَهم محلَّ الشَّكِّ والظِّنَّةِ، لأنَّ اللّه تعالى كان قد أخبرهما أنَّه عدوٌّ لهما[4].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالةُ صيغةِ المفاعلةِ في قولِهِ تعالى: ﴿وَقَاسَمَهُمَآ﴾:

قد يُخدَعُ المؤمنُ باللهِ، ولكنَّه ليس بالخِبِّ، ولا الخِبُّ يخدعُهُ

جاءت صيغةُ المفاعلةِ في قوله تعالى: ﴿وَقَاسَمَهُمَآ﴾، على معنى المبالغةِ في القسم، وفاعَلَ قد يأتي بمعنى: أَفْعَلَ، نَحْوُ: بَاعَدْتُ الشَّيءَ وَأَبْعَدْتُهُ، فإذا صدر الفعل عن واحدٍ وجيء بزنةِ المفاعلة، دلَّ ذلك على المبالغة في الفعل، أي: إنَّ الشَّيطانَ اجتهد في القسمِ لهما اجتهادَ المقاسمِ ليَغْلبَهُما، بمعنى: أنَّه جدَّ في قَسَمه؛ لإقناعِهما بما قاله لهما، ويَحتمِل أن تكونَ الصِّيغةُ على أصلها، بمعنى: المشاركةِ، كأنَّهُ قال لهما: أُقْسِمُ لكما إنِّي لمن النَّاصحينَ، وقالا له: أَتُقْسِمُ باللّهِ إنَّك لمن النَّاصحينَ، فجعل ذلك مقاسمةً بينهم، أو أَقْسَم لهما بالنَّصيحة، وأَقْسَما له بقبولِها، فالقَسَمُ على هذا الوجهِ وقع مِنَ

(1) الجوهريّ، الصّحاح: (نصح).
(2) الجوهريّ، الصّحاح: (نصح).
(3) السّعدي، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 285.
(4) أسعد حومد، أيسر التّفاسير، ص: 285.

الجانبين، لكنَّه اختلف مُتَعَلَّقُه، فهوَ أقسمَ لهما على النُّصْحِ، وهما أقسما له على القبولِ، وإنَّما يُعْلَم ما ذُكِر في الوجهِ الثَّاني والثَّالث، بالنَّقلِ عنِ المعصوم وليس ثمة نقل، فالوجهُ الأوَّلُ أولى[1].

مناسبةُ تتابُعِ المؤكِّداتِ في ﴿وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾:

تزيينُ الباطلِ وتقريبُهُ مِنَ النَّفسِ، مِن فعلِ الشَّيطانِ ومُراوغاتِهِ

لـمَّا كانت نصيحةُ إبليسَ محلَّ الظِّنَّة والشَّكِّ عند آدمَ وزوجِه؛ لأنَّه تعالى أخبرَهما بأنَّه عدوٌّ لهما، أشعرَ أنَّ آدم كانَ مُنْكِرًا لوسوسةِ إبليسَ وقولِه: ﴿مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ﴾، فأكَّد الشَّيطانُ دعواه بأشدِّ المؤكِّدات وأغلظِها، فقال مُخبرًا عنه: ﴿وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾، فقد تتابعتْ خمسةُ مؤكِّداتٍ، وهي القسمُ، و(إنَّ)، ومجيءُ الكلام بطريق الجملةِ الاسميَّة، وتقديم ﴿لَكُمَا﴾، واللَّام، وعليه: فقد أفاد التَّأكيدُ بالقسم، وبـ (إنَّ)، ومجيءِ الكلام بأسلوبِ الجملة الإسميَّة، تأكيدَ مضمونِ الجملة أيَّ تأكيدٍ، لكونه مِنَ النَّاصحين، وأنَّ نُصْحَه ثابتٌ لهما.

دلالةُ التَّقديمِ لشِبهِ الجملةِ ﴿لَكُمَا﴾:

تخصيصُ النُّصحِ لآدمَ وحوّاءَ، يُستفادُ مِنَ السِّياقِ

أصلُ الكلامِ في قوله: ﴿إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾: (وقاسمهما إنِّي لمن النَّاصحين لكما)، فقدَّم الجارَّ والمجرورَ؛ لإفادةِ تأكيدِ نُصْحِه، والاهتمامِ به وتخصيصه، والمعنى: تخصيصُ النُّصح لهما، وأنَّه إنَّما يَنصَحُ لأجلِهما، وقد "أقسمَ لهما قسمًا مُغلَّظًا: إنِّي لكما لمن النَّاصحينَ المخلصينَ، ثمَّ بعد هذا، ما زال يَخدعُهُما بالتَّرغيبِ، وبالوعدِ، وبالقَسَمِ، حتَّى نسيا موقفَهما مِنَ اللهِ، وأَمْرِه إليهما، وأسقطَهُما عمَّا كانا فيهِ مِن مكانةٍ ومنزلةٍ وطبيعةٍ"[2].

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/95، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 14/220، وأبو حيّان، البحر المحيط: 5/26، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/220.

(2) الحجازيّ، محمّد محمود، التّفسير الواضح: 1/702.

دلالةُ التَّأكيدِ باللَّامِ في قوله: ﴿لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾:

ترسيخُ الإغـواءِ يقتضي التَّوكيدَ

لـمَّا شعرَ الشَّيطانُ أنَّ آدمَ وزوجَهُ في شَكٍّ مِن قولِهِ، جعل قولَهُ نصيحةً لهما؛ ليُشْعِرَهُما بأنَّ الخيرَ فيما أُلْقِي في نفسيهما، وفي قولِه، فكانَ تأكيدُ نُصْحِه مِن مقتضياتِ المقامِ، ومتطلَّباتِ الإغواءِ، ممَّا بَرعَ فيه إبليسُ وجندُه، على مدى الأزمنةِ وفي كلِّ الأحوالِ.

توجيهُ التَّعبيرِ بقوله ﴿لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾، ودلالتُهُ على المراوغَةِ:

نظمُ القرآنِ أبلغُ في إثباتِ النُّصحِ وتقريرِهِ

قد يقالُ: لِمَ لمْ يقُلْ: (إنَّي لكما لناصحٌ)؟ وهو أخصرُ، والمعنى واحدٌ؟ والجوابُ: ليس المعنى بواحد، وبينهما فرقٌ، فإنَّ قوله تعالى: ﴿إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾، أبلغُ في إثباتِ النُّصْحِ، مِن نحو: إنِّي ناصحٌ، أو قد نصحْتُك، أو نصحْتُ لك؛ لـمَا تدلُّ عليه (أل) الجنسيَّةُ في قوله: ﴿ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ مِن أنَّه واحدٌ مِن فئة النَّاصحين، ومَن كانَ مِن فئةٍ موصوفةٍ بوصفٍ، ثبتَ له الوصفُ بطريقِ اللُّزوم؛ ليكونَ مِنَ الكنايةِ عن طريقِ إثباتِ الشَّيءِ بإثباتِ ملزومِهِ، وهو أبلغُ مِنَ التَّصريحِ، وتقدَّم نظيرُ هذا الأسلوبِ في قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾.

﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٖۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتۡ لَهُمَا سَوۡءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخۡصِفَانِ عَلَيۡهِمَا مِن وَرَقِ ٱلۡجَنَّةِۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمۡ أَنۡهَكُمَا عَن تِلۡكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمَا عَدُوّٞ مُّبِينٞ ٢٢﴾ [الأعراف: 22]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

العلاقةُ بين نتيجةِ الوسوسةِ، ومآلِ الإغواءِ الَّذي حَمَلَ كِبْرَهُ إبليسُ

لـمَّا أخبرَ اللّٰهُ تعالى ببعضِ وسوستهِ لهما، سبَّبَ عنها ترجمُتها، بأنَّها إهباطٌ مِن أوجِ شَرَفٍ إلى حضيضِ أذًى، فجاءتِ الآيةُ تفريعًا على جملة: ﴿فَوَسۡوَسَ لَهُمَا﴾، وما عُطِفَ عليها، لبيانِ ترتُّبِ ما في هذه الآية على ما تقدَّمَها[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَدَلَّىٰهُمَا﴾: أصلُ (دلى): يدُلُّ على مُقارَبةِ الشَّيءِ، ومُداناته بسُهولَةٍ ورِفقٍ، وأَدْلَى الشَّيءَ: ألقاهُ في مَهْواةٍ، ولا يكونُ التَّدلِّي إلَّا مِن عُلْوٍ إلى سُفْلٍ، ومنه أَدْلَيْتُ الدَّلْوَ: ألقيتُها في البئرِ، ويُقالُ لكُلِّ مَن ألقى إنسانًا في بليَّةٍ: قد دلَّاه في كذا، مأخوذٌ مِن تَدْلِيةِ الرَّجُلِ العطشانِ في البئرِ؛ لِيَرْوَى مِن مائِها، فلا يجِدُ فيها ماءً، فيكونُ مُدَلًّى فيها بغُرورٍ، فوُضِعَتِ التَّدليةُ مَوضِعَ الإطماعِ، فيما لا يُجْدي نفعًا، ويقالُ: ما زال فلانٌ يُدَلِّي فلانًا بغرورٍ"، بمعنى: ما زال يخدعُهُ بغرورٍ، ويُكَلِّمُه بزخرفٍ مِنَ القولِ باطلٍ، ومعنى ﴿فَدَلَّىٰهُمَا﴾: فخَدَعَهما، أو فأوْقَعَهما في الهلاكِ، أو فَجَرَّأَهما، والدَّالَّةُ الجُرْأَةُ[2].

2) ﴿بِغُرُورٖۚ﴾: الغُرور: مصدر غَرَّه يغُرُّه غُرورًا، أي: خدعه،

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/374، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/61.

(2) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (دلي)، وابن الهائم، التّبيان في تفسير غريب القرآن، ص: 64.

والغِرُّ: هو الَّذِي لَا يَفْطُنُ للشَّرِّ، ويَغْفُلُ عَنْهُ، ومنه أصاب غِرَّتَه، أي: غفلتَهُ في اليَقَظةِ، ونال منه ما يُريد، حتَّى يُدخِلَه في معصيةِ اللهِ، فيما يستوجِبُ به عُقوبتَهُ، فالَّذي يقوم بالغرورِ هو الخِبُّ، أي: الخَدَّاعُ المُفْسِدُ، ويقال: غَرَّ فلانٌ فلانًا، معناهُ: قد عَرَّضَهُ للهَلَكَةِ والبَوارِ، والغُرور هو: إظهارُ النُّصحِ مع إبطان الشَّرِّ[1].

3) ﴿ذَاقَا﴾: الذَّوق: وجودُ الطَّعمِ باللِّسان، مِن مأكولٍ أو مشروبٍ، وهو يحصُلُ عند ابتداءِ الأكلِ أو الشُّرْب، أو يكون عندَ اختبار الشَّيء مِن جهة التَّطعُّم، ويقالُ: ذاقَ الطَّعام، أي: خَبِرَه، وأصله فيما يقلُّ تناولُه، دون ما يكثرُ، فإنَّ ما يكثرُ منهُ يقالُ لهُ: الأكلُ[2]، وذاقا بمعنى: طعِما ثمرَ الشَّجرةِ[3]، "ثمَّ يُشْتَقُّ منه مجازًا، فيقال: ذُقْتُ ما عند فلانٍ: اختبرتُه، وفي كتابِ الخليلِ: كلُّ ما نزلَ بإنسانٍ مِن مكروهٍ، فقد ذاقَهُ"[4].

4) ﴿وَطَفِقَا﴾: طَفِقَ يفعل كذا، بمعنى: أخذ يفعل كذا، على معنى الملازمة للشَّيءِ والاستمرارِ عليه، ويَجْمَع (طفق) معنى: (ظَلَّ وَبَاتَ)، ﴿وَطَفِقَا﴾ بمعنى: أقبلَا وجعَلَا وأخذا وظلَّا[5]، قال أبو عُبَيدةَ: طَفِقَ يفعلُ، مثل: ما زالَ يفعلُ، وهو مثلُ ظلَّ وبات، يقالُ: طَفِقَ يَطْفَق طَفْقًا وطُفوقًا"[6].

5) ﴿يَخْصِفَانِ﴾: الخَصْفُ: يدلُّ على اجتماعِ شيءٍ إلى شيءٍ، يقالُ: خَصَفَ النَّعْلَ يَخصِفُها خَصْفًا: ظاهَر بعضَها على بعضٍ، بأنْ يُلْصِقَ عليها رُقعةً، ويُطَبِّق عليها طاقًا على طاق، وخَصَفَ العُريانُ على نَفسه الشَّيءَ يَخْصِفه: وَصَله وألزَقَه[7]، و﴿يَخْصِفَانِ﴾ في الآية بمعنى: يُلْصِقانِ الورقَ بعضَه على بعض، أو يجعلانِ عليهما خَصَفَةً، أي: ورقةً، أو يَصِلانِ الوَرَقَ بَعضَه ببعضٍ، ويُلصقانِ بعضَه على بعضٍ[8].

6) ﴿عَدُوٌّ﴾: يدورُ معنى العداوةِ على تجاوزِ الحدِّ ومنافاةِ الالتئام، وأصلهُ: مِن

(1) الأزهري، تهذيب اللّغة، والرّاغب، المفردات: (غرر)، وابن الهائم، التّبيان في تفسير غريب القرآن، ص: 64.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (ذوق).
(3) ابن جرير، جامع البيان: 12/351.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ذوق).
(5) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: 9/27، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (طفق).
(6) الواحديّ، الوسيط في تفسير القرآن المجيد: 3/352.
(7) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم، والرّاغب، المفردات: (خصف).
(8) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 166.

عَدْوَتَي الجبلِ، وهما طرفاه، سُمِّيا بذلك لبُعدِ ما بينَهما، أو مِن عَدَا، أي: ظَلَم، ويقال: عدا فلانٌ طَورَهُ؛ إذا جاوز قَدْرَه، والتَّعَدِّي: مُجاوَزَةُ الشَّيءِ إلَى غيرِه، ومنه الاعْتِدَاءُ، وهو مجاوزةُ الحقِّ إلى الظُّلم، والعَدُوُّ ضربان: أحدهما: بقصد مِنَ المُعَادِي، مثل: عداوةِ الشَّيطان، والثَّاني: لا بقصده، بل تَعْرِض له حالةٌ يتأذَّى بها، كما يتأذَّى ممَّا يكون مِنَ العِدَى، نحو قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ وَأَوۡلَٰدِكُمۡ عَدُوّٗا لَّكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُمۡۚ﴾ [التّغابن/ 14]، والعدوُّ يكون للواحدِ والاثنين والجمع، والمذكَّر والمؤنَّث[1].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

لقد خدعَ الشَّيطانُ آدمَ وزوجَه، وحطَّهما في المنزلَة، أو جَرَّأَهُما على أكل الشَّجرة بما غرَّهما به مِن يمينه، فلمَّا طَعِمَ آدمُ وحوَّاءُ ثَمَرَ الشَّجرةِ، ظهرت عورةُ كُلٍّ منهما، بعدما كانت مَستورةً، وأقبلا يُلصِقانِ على جَسَدِهما ورقةً فوقَ ورقةٍ، مِن وَرَقِ الجنَّة؛ ليَسْتُرا به عَوْراتِهما، ونادى آدَمَ وحوَّاءَ ربُّهما مُعاتِبًا لهما: أَلَمْ أَنهَكُما عن أكل ثمرةِ تِلْكُمَا الشَّجرةِ الَّتي أَكَلْتُما ثمَرَها، وأُعْلِمْكُما أنَّ الشَّيطانَ لكما عدوٌّ بيِّنُ العَداوةِ؟[2].

مَـن لا يمتثلُ لأمرِ اللهِ مولاه؛ يَلْقَ ما لا تُحْمَد عُقباهُ

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالةُ الفاءِ في الفعل: ﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٖۚ﴾:

أفادتِ الفاءُ في قولِه تعالى: ﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٖۚ﴾ معنى السَّببيَّة، بمعنى: ترتُّبِ تدليَةِ آدمَ وزوجِه بغرورٍ على وسوسةِ الشَّيطان وخِداعِه في قولِه، وإقسامِه لهما أنَّه مِنَ النَّاصحين، وأشعرَ الكلامُ أنَّ الإقسامَ كان أهمَّ سببٍ إلى الإقدامِ على الأكل مِنَ الشَّجرة؛ لمجيءِ التَّدليةِ عَقِبَ الإقسامِ مباشرةً.

قَسَمُ الشَّيطانِ كان تغريرًا بآدمَ وحوَّاءَ، في الأكلِ ممَّا نُهِيَا عنهُ

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، والرّاغب، المفردات، والزّبيديّ، تاج العروس: (عدا).
(2) ابن جرير، جامع البيان: 12/351، والواحديّ، الوجيز، ص: 381.

بلاغةُ الاستعارةِ التَّمثيليَّةِ في الفعل ﴿فَدَلَّىٰهُمَا﴾:

أهمِّيَّةُ تصويرِ المعقولِ بصورةِ المحسوسِ في إيضاحِ المعنى وبيانِه

في قولِه: ﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍۚ﴾ استعارةٌ تمثيليَّةٌ، وبيانُ وجهِ الاستعارة: أنَّه يقالُ لِمَنْ يطلب شيئًا مِن مظنَّتِه فلا يجدهُ، فيقعُ في مصيبةٍ دلَّاه؛ إذ وُضِعَتِ التَّدْلِيَةُ مَوْضِعَ الطَّمَعِ، فيما لا فائدةَ فيه، وفيما يكون مآلُ صاحبِها الهلاكَ، فأفادتِ الاستعارةُ تمثيلَ حالِ آدمَ وحوَّاءَ، حين صَدَّقا إبليسَ في خِداعِه إيَّاهما، وإظهارِ النُّصْحِ، وإبطانِ الغِشِّ، وإطْماعِهِمَا أن يكونا مَلَكَيْنِ أو خالِدَيْنِ، وفي إقْسامه أَنَّهُ نَاصِحٌ لَهُمَا، بحالِ مَن يُدْلي دَلْوَهُ أو رجليهِ في البئرِ، ليَسْتقيَ مِن مائِها، فلا يجدُ فيها ماءً، أو بحالِ مَن يُدَلِّي مِن هُوَّةٍ حبلًا ضعيفًا، قد أَرِمَ، يَغترُّ به، فإذا تَدَلَّى بهِ وتَورَّكَ عليهِ انقطعَ به، فهلَكَ، والغرضُ مِنَ الاستعارةِ التَّمثيليَّةِ: تصويرُ المعقولِ بصُورةِ المحسوسِ؛ لإيضاحِ الصُّورةِ المعنويَّةِ وبيانِها، ولتكون الاستعارةُ في مقامِ الاستدلالِ على عِظَمِ خِداعِ إبليسَ، ولِلتَّحذيرِ مِن غرورِه[1].

مناسبةُ التَّعبيرِ بصيغةِ: ﴿فَدَلَّىٰهُمَا﴾ في الآية الكريمة:

أسلوبُ التَّدريجِ في الخِداعِ والوسوسةِ مسلكُ الشَّيطانِ مع الإنسانِ

عُبِّر بصيغة: ﴿فَدَلَّىٰهُمَا﴾ الَّتي فيها معنى التَّدريجِ أو التَّكثيرِ؛ للإشعار بأنَّ إبليسَ أرسلَ آدمَ وحوّاءَ إلى الأسفلِ رويدًا رويدًا، أي: فما زالَ يَخدعُهُما بالتَّرغيب في الأكل مِنَ الشَّجرةِ، والقَسَمِ على أنَّه ناصِحٌ بذلك لهما به، حتَّى أسقطَهما، وحطَّهُما عمَّا كانا عليه[2].

الباء بينَ السَّببيَّة والملابسةِ في لفظ ﴿بِغُرُورٍۚ﴾:

كانَ آدمُ لا يَظُنُّ أنَّ أحدًا يحلفُ باللهِ كاذبًا

تفيدُ الباءُ في قوله: ﴿بِغُرُورٍۚ﴾ السَّببيَّةَ، أي: بما غرَّهما به مِنَ القسمِ، فالغُرُورُ مُسبَّبٌ عن قَسَمِ إبليسَ باللهِ، أنَّه مِنَ النَّاصحين، أو عنِ القَسَمِ، وتكرُّرِ محاولاتِه في الوسوسةِ والخداعِ، والمعنى: أنَّ

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/386، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/9، وأبو حيّان، البحر المحيط: 5/26، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/61.
(2) رشيد رضا، تفسير المنار: 8/310.

آدمَ وزوجَهُ لم يأكلا مِنَ الشَّجرة حتَّى أقسمَ لهما الشَّيطانُ باللّهِ، فانخدعا له بسببِ غُرُوره لهما؛ لأنَّهما لم يكونا ليتصوَّرا أنْ يُقسِمَ أحدٌ باللّهِ كاذبًا مخادعًا. وذكر الشَّعراويُّ أنَّ لفظ (قَاسَمَ)، بمعنى: أَقْسَمَ، "ولذلكَ حينما عاتبَ ربُّنا سيِّدَنا آدمَ، أوضحَ سبحانَه: أنا قلتُ: إنَّه عدوٌّ لكَ ولزوجكَ، ولسوفَ يُخرجَنَّكما مِنَ الجنَّة؛ لتتعبَ وتَشْقَى، فقال آدمُ: يا رَبِّ، ما كنتُ أعتقدُ أنَّ خلقًا مِن خَلْقكَ يُقسمُ بكَ على الباطلِ، ولم يأتِ على البال أنَّ خَلْقًا يُقْسِم باللّهِ على الباطلِ، وكانت هذه أوَّلُ خديعةٍ في الخَلْق، ولذلك نجدُ قتادةَ ﵁ يقول: "المؤمِنُ باللّه يُخدَع"[1]، وذلك عينُ ما رُوِيَ عنِ ابن عبَّاس ﵄ حيثُ قال: "غرَّهما باليمينِ، وكانَ آدمُ لا يظنُّ أنَّ أحدًا يحلفُ باللّهِ كاذبًا"، وتَحتمِل أن تكونَ الباءُ للمُلابسةِ، بمعنى: دلَّاهما حالَ كونِهما مُلْتبسين بغُرورِ الشَّيطانِ وخداعِه[2].

نكتةُ التَّعبيرِ بلفظِ ﴿فَلَمَّا﴾ مِن قوله تعالى ﴿فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ﴾:

ظهورُ السَّوءاتِ وحصولُ العقوباتِ بسببِ ارتكابِ المنهيّاتِ

أفادتْ: ﴿فَلَمَّا﴾ وجودَ بُدُوِّ سوءاتِ آدمَ وزوجِه عند وُجودِ ذَوْقِهما الشَّجرةَ، أي: حصل ظهورُ سوءاتِهما عندَ وقت ذوقِهما الشَّجرةَ، مِن غير مُهلةٍ في الوقت بينَ وقوع الشَّرط وحصولِ الجواب، والمعنى: لـمَّا وَجدَا طعمَها آخِذَين في الأكل منها، أخذَتْهُما العقوبةُ وشُؤمُ المعصيةِ، فتهافتَ عنهما لباسُهما، وظهرت لهما عوراتُهما؛ ليُفيدَ التَّعبيرُ بـ (لـمَّا) مقارنةَ ظهورِ السَّوءاتِ بالذَّوقِ مِنَ الشَّجرة، كما أفاد أنَّ ذوقَهُما الشَّجرةَ سببٌ في حصولِ العقوبةِ، فاجتمعَ في التَّعبيرِ بـ (لـمَّا) اقترانُ الجوابِ بالشَّرط في الواقعِ، وكونُ الشَّرط سببًا في حصولِ الجواب في التَّصوُّر والإدراك، فلو لم يذوقا الشَّجرة لما حصلتِ العقوبةُ. وذهب ابن عاشورٍ إلى أنَّ الشَّرط والجوابَ

(1) محمّد متوليّ الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ (الخواطر): 7/4085.

(2) ابن الجوزيّ، زاد المسير: 2/108، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/9، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/221.

المقترن بـ(لـمَّا)، لا يدلُّ على أكثر مِن حصول ظهورِ السَّوءات عند ذَوْقِ الشَّجرةِ، أي: إنَّ اللّه جعل الأمرين مُقترنَين في الوقت نفسِهِ، فليس ذَوقُ الشَّجرة عنده سببًا للعقوبة بظهورِ السَّوءاتِ[1].

علَّةُ التَّعبيرِ بلفظ ﴿ذَاقَا﴾:

الحذرُ مِن ارتكابِ المنهيِّ، وإنْ كان يسيرًا

لـمَّا كان الذَّوقُ هو التَّطَعُّم على وجهِ الاختبارِ، وكان الأصلُ فيه أن يكونَ يسيرًا لا كثيرًا؛ دلَّ قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ﴾ على أنَّهما طَعِما ثمرَ الشَّجرةِ يسيرًا، حينَ كانا آخِذَين في الأكلِ منها يسيرًا، قصدًا إلى معرفة طعمِهِ، وهذا يدلُّ على أنَّهما إنَّما ذاقاها، ولم يُبالغا في الأكل، ولولا أنَّه تعالى ذَكرَ في آيةٍ أخرى أنَّهما أكلا منها؛ لكان ما في هذه الآيةِ لا يدلُّ على الأكلِ؛ لأنَّ الذَّائِقَ قد يكون ذائقًا مِن دونِ أكل[2].

بلاغةُ الكنايةِ في مَلْمَحِ الجزاءِ:

تعظيمُ أمرِ انكشافِ العوراتِ ورؤيتِها

ومِن بابِ الكنايةِ: بدتْ سَوءتُه، وقوله تعالى: ﴿بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا﴾، يقول صاحبُ المنار: "وإذا أُضيفت السَّوءةُ إلى الإنسانِ، أُريدَ بها عورتُهُ الفاحشةُ؛ لأنَّه يسوؤُه ظهورُها، بمقتضى الحياءِ الفطريِّ، ما لم يُفسِدْه بتَعوُّدِ إظهارِها مع آخرين، فيرتفعُ الحياءُ بينهم"[3]، وجَعلَ عقوبةَ عدمِ الامتثال في قوله: ﴿بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا﴾، ظهورَ السَّوءاتِ؛ تعظيمًا لأمرِ انكشافها ورؤيتِها، وعلَّق حكمَ العقوبةِ بالذَّوق؛ إذ هو أوَّلُ الأكلِ، وبهِ يُرتكَبُ النَّهيُ[4].

بلاغةُ المجازِ في ذوق الشَّجرةِ:

في قولهِ تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ﴾ يُحتمَل إيقاعُ الذَّوقِ على

(1) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/9، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/62.

(2) الزّجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 2/328، والزّمخشريّ، الكشّاف: 2/95، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 14/229.

(3) محمّد رضا، تفسير المنار: 8/310.

(4) ابن عطية، المحرّر الوجيز: 2/386.

الشَّجرة لا على الثَّمرةِ، وأنْ يكون من قبيلِ المجاز العقليِّ وعلاقتِه السببيَّة؛ لأنَّ المذوقَ هو ثمارُها، وليس الشَّجرة، كما يُحتمَل أن يكونَ مجازًا مُرسلًا؛ حيث أطلقَ الكلَّ ﴿ٱلشَّجَرَةَ﴾، وأراد الجزءَ (الثَّمرة)، على سبيل المبالغةِ، وبيانُه: أنَّه لـمَّا كان عدمُ الامتثال لنَهي اللّٰهِ تعالى أمرًا عظيمًا؛ جعل اللّٰهُ الأكلَ مِنَ الشَّجرةِ الَّتي نُهِيَ آدمُ وزوجُه عنها، بمنزلةِ الأكل مِن جميعِها، على سبيلِ المبالغة، مع أنَّ آدمَ وحوَّاءَ إنَّما ذاقا مِن ثمرها، بمعنى: أكلا أكلًا يسيرًا.

استعظامُ عدمِ الامتثالِ لنهي اللهِ تعالى، وعواقبُهُ الوخيمةُ

وجْهُ تقديم ﴿لَهُمَا﴾ في قوله تعالى ﴿بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا﴾:

أفاد تقديمُ الجارِّ والمجرور هنا العنايةَ والاهتمامَ، بظهور السَّوءاتِ لآدمَ وحوّاءَ؛ لِمَا في ظهورِها مِنَ الأذى في أنفسِهما؛ ليُشْعرَ التّقديمُ بسبب الظُّهور، كما أفاد تقديم الجارِّ والمجرورِ الاختصاصَ، بمعنى: ظهرت سوءاتُهما لهما دون غيرِهما، فلم يرَها أحدٌ سواهما رحمةً بهما.

مِن رحمةِ اللهِ بآدمَ وحوَّاءَ سَتْرُ سوءاتِهما عن أعينِ الآخَرين

نكتةُ التَّعبيرِ بالفعل المضارعِ في ﴿يَخْصِفَانِ﴾:

أفاد التَّعبيرُ بالفعلِ المضارعِ ﴿يَخْصِفَانِ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ﴾ استحضارَ صورةِ خَصْفِ ورقِ الجنَّة عليهما، وتكرارِ الحالةِ منهما، وحاصلُ ما انتهى إليه أمرُ آدمَ وزوجِه، إلى أن بَدَتْ لَهُما سوءاتُهما، أي: تهافت عنهما اللِّباسُ، فظهرت لهما عوراتُهما، فَخَجِلا، وجعلا يجمعان بعضَ أوراق الشَّجرِ مِنَ الجنَّة؛ لِيَسْتُرا بها عوارتِهما، فعاتبَه اللّٰهُ تعالى على عصيانه أمرَهُ، وإطاعتِه للشَّيطان[1].

في استحضارِ الصُّورةِ عبرةٌ كبيرةٌ وعظةٌ أثيرةٌ

مناسبةُ العطفِ في جوابِ الشَّرطِ في الآيةِ الكريمةِ:

لـمَّا كانت جملةُ: ﴿وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ﴾، معطوفةً على: ﴿بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا﴾، وكان المعطوفُ عليه سببًا في المعطوف، بمعنى: أنَّ ظهورَ

ظهورُ السَّوءاتِ يقتضي المبادرةَ بسترِها مِن ورقِ الجنَّة

(1) إبراهيم الأبياريّ، الموسوعة القرآنيّة: 9/485، وإبراهيم القطّان، تيسير التّفسير: 2/36.

سوءاتِهما سببٌ في أنَّهما أخذا يخصفانِ مِن ورق الجنَّة عليهما؛ دلَّ على أنَّ المعطوفَ لا يكون شيئًا، حتَّى يكونَ المعطوفُ عليه، ويكونَ الشَّرطُ الَّذي هو ذَوقُ الشَّجرةِ والأكلُ منها سببًا في خصفِهما ورقَ الجنَّة عليهما، بوساطةِ كونِ الشَّرط سببًا لظهورِ السَّوءات[1].

إيثارُ التَّعبيرِ بالنّداء:

الغفلةُ عنِ اللهِ تُبعِدُ صاحِبَها عن منهجِه وهِدايتِهِ

لـمَّا كان الأصلُ في النِّداءِ أن يكون برفعِ الصَّوتِ، لبُعدِ المنادَى مِنَ المنادِي؛ أشعرَ لفظ: ﴿وَنَادَىٰهُمَا﴾ ببُعد آدمَ وحوّاءَ عنِ اللّٰه تعالى، حينما أكلا مِنَ الشَّجرةِ؛ بسبب غفلتِهما عن أمرِه، وارتكابِهما ما نهاهُما اللّٰهُ عنه.

مجازُ الاستفهامِ في قوله: ﴿أَلَمْ أَنْهَكُمَا﴾:

اجتماعُ العتابِ والتَّوبيخِ لمخالفةِ النَّهي

الاستفهامُ في قوله: ﴿أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ﴾ مجازيٌّ لإفادة التَّقريرِ، بمعنى: قد نهيْتُكُما عن تلك الشَّجرةِ، وفي هذا الاستفهام المجازيِّ عتابٌ مِنَ اللّٰه تعالى لآدمَ وحوَّاءَ، على مخالفة النَّهي، وتوبيخٌ على ارتكابِ ما نُهيا عنه[2].

دلالةُ الاستفهامِ المجازيِّ في ﴿وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ﴾:

الاستفهامُ يُقرِّرُ المعنى، وينبِّهُ على عواقبِ الاغترارِ بالعدوِّ اللَّدودِ

لـمَّا كانت جملةُ: ﴿وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ معطوفةً على قوله: ﴿أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ﴾؛ كانت هي كذلك على معنى الاستفهام المجازيِّ، والتَّقديرُ: (وألَمْ أَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ)؛ ليُفيدَ الاستفهامُ التَّقريرَ كذلك، بمعنى: قد قلتُ لكُما: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾، وفي هذا الاستفهام المجازيِّ تنبيهٌ على موضع الغفلةِ والخطأ، حيثُ لم يتحذَّرا ما حذَّرهما اللّٰهُ مِن عداوةِ إبليسَ، مع أنَّه عدوٌّ مبينٌ، وتوبيخٌ على الاغترارِ بالعدوِّ[3].

---

(1) عبد القاهر الجُرجانّي، دلائل الإعجاز، ص: 233.

(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/96، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/386، والبيضاوي، أنوار التَّنزيل: 3/9، وأبو حيَّان، البحر المحيط: 5/28.

(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/96، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/9، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/221.

نكتةُ التَّعبيرِ بالفعلِ ﴿وَطَفِقَا﴾:

لـمَّا كان أصلُ طَفِقَ مِن: طَفِقَ الموضعَ، أي: لزمَه، وكان الفعلُ يَجمَعُ معنى: ظَلَّ، وَبَاتَ؛ دلَّ قولُه تعالى: ﴿وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا﴾ على أنَّ المعنى: بادَرا إلى الاستتار لقُبحِ التَّكشُّفِ، وشَرَعَا في الخصف مِن ورق الجنَّة لِيُوارِيا سوءاتهما، وأنَّهما لازما الفعل، واستمرَّا عليه[1].

كشفُ العورةِ قبيحٌ مِن لَدُنْ آدمَ إلى أن يقومَ النَّاسُ لربِّ العالمينَ

مجيء الكلامِ على خلافِ مقتضى الظَّاهرِ في ﴿يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا﴾:

لـمَّا كان عودُ الضَّميرِ على آدمَ وحوَّاءَ في قوله: ﴿عَلَيْهِمَا﴾، لا يصحُّ من حيث تأليفُ الكلامِ، فلا يقالُ: (طَفِقَ آدمُ وحواءُ يخصفانِ على آدمَ وحواءَ مِن ورقِ الجنَّة)، ومثلُه: (طَفِقَ زيدٌ يخصفُ عليه مِنَ الثِّياب)، اقتضى أن يكون الكلامُ على خلاف مقتضى الظَّاهر، والأَوْلَى أن يعودَ الضَّميرُ في: ﴿عَلَيْهِمَا﴾ على عورتَيْهِما، كأنَّهُ قيل: يَخْصِفانِ على سوءاتِهما مِن ورق الجنَّةِ، أو أن يكون بتقديرِ مضافٍ، وتقديرُه: يَخْصِفَانِ على بدنَيْهِما[2]، ووجه التَّعبير بالضَّمير الَّذي يعود في الظَّاهرِ على آدمَ وحوَّاءَ الإشعارُ بمبالغتهما في خَصفِ ورقِ الجنَّةِ ليَسْتُرا سوءاتِهما، فكأنَّهما لم يكتفيا بستر العورةِ، بل غطَّيا جسمَهما كلَّه.

مِن حياءِ آدمَ وحوَّاءَ أنَّهما لم يكتفيا بسترِ العورةِ، بل غطَّيا جسمَهما كلَّه

نكتةُ التَّعبيرِ بحرفِ الاستعلاءِ (عَلَى):

في قوله تعالى ﴿يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا﴾، عُدّيَ فعل الخصفِ بحرفِ الجرِّ (على)؛ للإشعارِ باستيعابِ ما خَصفاه مِن ورق الجنّة لسَوءاتِهما كلِّها، مِن ورقِ الجنَّة، قال بعضُ العلماءِ: "ولعلَّ المعنى - واللّه أعلم - أنَّهما لـمَّا ذاقا الشَّجرةَ، وقد نُهيا عنِ الأكلِ منها، ظهر لهما أنَّهما قد زَلَّا، وخَلَعا ثوبَ الطَّاعةِ، وبَدَت منهما سَوءَةُ المعصيةِ،

شَمِلَ الخصفُ كلَّ السَّوءاتِ؛ لوجودِ الخوفِ والخجلِ مِنَ الانكشافِ

(1) الزّجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 2/328، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/221.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/27.

فاستحوذَ عليهما الخوفُ والحياءُ مِن ربِّهما، فأخذا يفعلانِ ما يفعل الخائفُ الخَجِلُ عادةً، مِنَ الاستتار والاستخفاءِ حتَّى لا يُرَى، وذلك بخصفِ أوراقِ الجنَّة عليهما ليَسْتَترا بها، وما لهما إذْ ذاكَ حيلةٌ سوى ذلك"[1].

مناسبةُ التَّعبيرِ بالمضمَر دونَ الظَّاهرِ:

لـمَّا اختلفَ المقامُ؛ اختلفَ التَّعبيرُ، وجيءَ لذلك بالضَّميرِ

لـمَّا كان وقتُ الهناءِ؛ شُرِّفَ بالتَّصْريحِ باسْمِهِ في النِّداء، فقيل: ﴿وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ﴾، وحين كان وَقْتُ العِتَابِ؛ أخبر في قوله: ﴿وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ﴾ أنَّهُ نَادَاهُ، ولَمْ يُصَرِّحْ باسْمِه؛ لمناسبةِ التَّعبيرِ بالـمَكْنِّي وقتَ ظهورِ السَّوءاتِ، فلمَّا اختلف المقامُ؛ اختلفَ التَّعبيرُ[2].

نكتةُ التَّعبيرِ بقولهِ ﴿رَبُّهُمَآ﴾ دون سواهُ مِنَ الأسماءِ والصِّفاتِ:

يـربِّـي الـلـهُ المؤمنَ في حالةِ الـعـصـيـانِ، ويأخذُ بيدهِ في حالةِ الإذعانِ

عُبِّر بوصف الرُّبوبيَّة؛ للإشعارِ بأنَّه تعالى مالكُ أمرِهما، ومُدَبِّرُ أحوالِهما، وأنَّه هو الَّذي يُربِّيهما في حالِ المخالفةِ والعصيانِ، كما يُربِّيهما في حال الطَّاعة والإذعانِ[3].

دلالةُ جملةِ الاستفهامِ في قولهِ تعالى: ﴿أَلَمۡ أَنۡهَكُمَا﴾:

معصيَةُ آدمَ وزوجِهِ لم تنحطَّ إلى مستوى ما فعلَهُ اللَّعينُ إبليسُ

تَحتملُ جملةُ الاستفهامِ: ﴿أَلَمۡ أَنۡهَكُمَا عَن تِلۡكُمَا ٱلشَّجَرَةِ﴾ أن تكون بيانًا وتفسيرًا للنِّداء لإيضاحه، فتكونَ مِن عطفِ البيان، فجُملةُ الاستفهام هي النِّداءُ الَّذي به ناداهما ربُّهما، وفيه إشعارٌ بإقبالِ المنادي على مَن ناداهما، حالَ غفلتِهما، وبأنَّ ما فعلاه لم يكن بمستوى ما فعله اللَّعينُ إبليسُ. وتَحتمِل جملةُ الاستفهام أن تكون معمولًا لقولٍ محذوفٍ، حالٍ مِن ﴿رَبُّهُمَآ﴾، أي: ناداهما ربُّهما قائلًا: ألم أنهَكُما؟ ويجري الكلامُ نفسُه في الجملة المعطوفة: ﴿وَأَقُل لَّكُمَآ

(1) محمّد سيّد طنطاويّ، التّفسير الوسيط للقرآن الكريم: 5/258.

(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/28.

(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/221، ورشيد رضا، تفسير المنار: 8/311.

﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمَا عَدُوّٞ مُّبِينٞ﴾، بحُكم التَّشريكِ في العطف، وعلى كلا الاحتمالين جاءت جملةُ: ﴿أَلَمۡ أَنۡهَكُمَا عَن تِلۡكُمَا ٱلشَّجَرَةِ﴾، بطريقِ الفصلِ؛ لكمالِ الاتِّصال مع جملة: ﴿وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ﴾.

مناسبةُ التَّعبيرِ باسمِ الإشارةِ (تلكما):

لـمَّا كان قوله: ﴿تِلۡكُمَا﴾ اسمَ إشارةٍ فيه معنى البُعدِ، كان إشارةً إلى أنَّه أكلَ مِنَ الشَّجرةِ الَّتي نُهيَ عن قُربانِها، وأنَّ مصيرَ الآكلِ منها هو الإبعاد[1]، ومعنى: ﴿أَلَمۡ أَنۡهَكُمَا عَن تِلۡكُمَا ٱلشَّجَرَةِ﴾ "أي: أجعلُ لكُمَا نهايةً فيما أُذِنَ لكُمَا فيه، متجاوزةً ﴿عَن تِلۡكُمَا ٱلشَّجَرَةِ﴾، أي: الَّتي كان حقُّها البُعدَ منها، الموجبة للقُربة مِن هذا الموضع الشَّريفِ إحسانًا إليكما"[2].

مصيرُ المخالِفِ الإبعادُ، وتلكَ سنَّةُ اللهِ في عُصاةِ العبادِ

بيانُ المتشابهِ اللَّفظيِّ:

في قوله هنا: ﴿تِلۡكُمَا ٱلشَّجَرَةِ﴾، وفي قوله في الآيةِ السَّابقة: ﴿وَلَا تَقۡرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾، إشارةٌ لطيفةٌ، فإنَّه حيثُ كان مُبَاحًا له الأكلُ، قارًّا ساكنًا، أُشيرَ إلى الشَّجرةِ باللَّفظِ الدَّالِّ على القُرْبِ والتَّمكُّنِ مِنَ الأشجارِ، فقيل: ﴿وَلَا تَقۡرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾، وحيثُ كان تعاطِي مخالفةِ النَّهْيِ، وقُرْبُ إخراجِهِ مِنَ الجنَّةِ، واضطرابُ حالِه فيها، وفرارُه على وجْهِه فيها، قيل: ﴿أَلَمۡ أَنۡهَكُمَا عَن تِلۡكُمَا﴾، فأُشِيرَ إلى الشَّجرةِ باللَّفظِ الدَّالِّ على البُعْدِ، والإنذارِ بالخروجِ منها، فناسب كلُّ لفظٍ مقامَه في النَّظم[3].

دلَّت الإشارةُ إلى الشَّجرةِ على القُربِ مرَّةً، وعلى البُعدِ أُخرى

دلالةُ عَطْف ﴿وَأَقُل لَّكُمَآ﴾ على جملة الاستفهام:

قوله تعالى: ﴿وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمَا عَدُوّٞ مُّبِينٞ﴾: تقديره: (أَلَمْ أَقُلْ لكما إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ؟) بدخولِ الاستفهامِ

القرآنُ يفسِّرُ بعضُه بعضًا، ما تقدَّم نزولُه وما تأخَّر

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/221.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر في تناسب الآيات والسّور: 7/374.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/28.

على المعطوف كما تقدَّم، ولـمَّا لم يُحكَ هذا القولُ ها هنا؛ دلَّ على أنَّ في الكلامِ إيجازًا وكلامًا مطويًّا، بمعنى: قد قال لهُما ربُّهما هذا الكلامَ، فأشار إليه في جملةِ التَّذييلِ هنا؛ تقريرًا له وتأكيدًا، وقد حُكِي في سورة طه تصريحًا، في قوله تعالى: ﴿فَقُلْنَا يَـٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَـٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾﴾ [طه: 117]، والقرآنُ يُفسِّرُ بعضُه بعضًا، سواءٌ ما تقدَّمَ نزولُه منه وما تأخَّرَ[1].

بلاغةُ التَّذييلِ بجملة ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾:

تقدَّم أنَّ اللّٰه تعالى قد ذكر لهم هذا الكلامَ مِن قبلُ، كما يشيرُ إليه قولُه تعالى: ﴿وَأَقُل لَّكُمَآ﴾، فتكونُ الجملة في حُكم المكرَّرة؛ لأهمِّيَّتها ولعمومِ معناها وكلِّيَّتِه، ولأنَّها كالـمَثَل يُتَمثَّلُ بها في الكلام، فناسبَ أن تكون تذييلًا للآية.

هـذهِ الجملةُ يُتَمثَّلُ بها في الكلامِ لعمومِها وكلِّيَّتِها

دلالةُ ضميرِ الخطابِ ﴿لَّكُمَآ﴾:

في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ يَحتمِلُ ضميرُ الخطابِ أن يكونَ على أصلِه، وتكونَ عداوةُ إبليسَ لبني آدمَ، بحكم أنَّ الحُكمَ على الأصلِ يجري في الفرعِ والذُّرِّيَّة على السَّواء، كما يَحتمِلُ أن يكونَ مِن مجيءِ الكلامِ على خلافِ مقتضى الظَّاهر، فالخطابُ وإن كان لمعَيَّنٍ، لكن قُصِدَ به غيرُ المعيَّن، على معنى العموم، أي: إنَّ عداوةَ إبليسَ الظَّاهرةَ، لا تختصُّ بآدمَ وحواءَ دونَ غيرِهما مِن بني آدم، بل آدمُ وذُرِّيَّتُه لهم مَدْخَلٌ في الخطابِ[2].

عداوةُ الشَّيطانِ الظَّاهرةُ متعدِّيةٌ مِـن آدمَ إلى ذرِّيَّتِهِ قاطبةً

توجيهُ التَّوكيدِ بـ ﴿إِنَّ﴾:

في قوله تعالى: ﴿وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ أفادت ﴿إِنَّ﴾ تأكيدَ مضمونِ الجملةِ؛ لتقريرِ المعنى وتثبيتِه، وللإشعارِ بأنَّ وسوسةَ إبليسَ لآدمَ وحوَّاءَ وتكرُّرَها، جعلتْهُما كالـمُتَحَيِّرينِ في أمر

السِّياقُ تقريرٌ لمعنى حيرةِ آدمَ وحـوَّاءَ في أمرِ عـداوةِ إبليسَ القَدَرِيَّة

(1) رشيد رضا، تفسير المنار: 8/312.
(2) السّكاكي، مفتاح العلوم، ص: 180.

عداوتِه لهما، مع أنَّ عدواتَهُ ظاهرةٌ بيِّنة، وأنَّ اللّه تعالى قد نبَّهَهُما على هذا من قبلُ كما تقدَّم.

نكتةُ إيثارِ لفظِ الشَّيطانِ في جملة ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمَا عَدُوّٞ مُّبِينٞ﴾:

لمَّا كان لفظُ الشَّيطانِ دالًّا على معنى التَّمرُّد والعُتوِّ، وفيه معنى البُعد عنِ الحقِّ، كما أنَّ لفظ الشَّيطانِ مُشْعِرٌ بالقُبح، بل هو أقبحُ ما يكونُ مِنَ الأشياء، كما تقدَّم؛ ناسبَ أن يُخبِر عنه في قوله: ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمَا عَدُوّٞ مُّبِينٞ﴾، بأنَّه عدوٌّ مبينٌ، دونَ أن يقولَ: إنَّ إبليس لكما عدوٌّ مبين.

مناسبةُ لفظِ الشَّيطانِ للفظِ العداوة، باعتبارِها عميقةً وخالدةً

سرُّ تقديمِ شِبهِ الجملةِ ﴿لَكُمَا﴾:

يدلُّ تقديمُ الجارِّ والمجرور: ﴿لَكُمَا﴾ في قولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمَا عَدُوّٞ مُّبِينٞ﴾ على اهتمام الشَّيطانِ وعنايتِه بعداوته لآدمَ وحوَّاءَ، كما أفاد التَّقديمُ التَّخصيصَ، بمعنى: أنَّ الشَّيطان عدوٌّ لكما ولِمَن يأتي مِن ذرِّيَّتِكُما، دون غيرِكما مِنَ الخَلْقِ[1].

اهتمامُ الشَّيطانِ وعنايتُه بعداوتِه لآدمَ وحوَّاءَ ولذرِّيَّتِهما

بلاغةُ تكرارِ الجارِّ والمجرورِ (لكما):

ورد الجارُّ والمجرور ﴿لَكُمَا﴾ مُكرَّرًا في قوله: ﴿وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمَا عَدُوّٞ مُّبِينٞ﴾، وفائدةُ التَّكريرِ هنا: هي المبالغةُ في الزَّجر والتَّنديم، وللحثِّ على الاعترافِ بخطئِهما؛ تمهيدًا للعفوِ عليهما[2].

الاعترافُ بالخطأِ تمهيدٌ للعفوِ، وسبيلٌ للمغفرة

دلالةُ الختامِ بالصِّفة ﴿مُّبِينٞ﴾:

وذلك لقولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمَا عَدُوّٞ مُّبِينٞ﴾؛ فلمَّا كان العدوُّ قد يُظهِرُ الخِداعَ، فمنهُ ما لا تنكشفُ عداوتُه، وكان مَدارُ وَسْوسةِ الشَّيطانِ وعملِه على الخداع؛ نبَّهَ اللّهُ تعالى المؤمنين على أنَّ الشَّيطانَ، وإنْ كان مخادعًا، لكنَّ عداوتَه واضحةٌ ظاهرةٌ، فجاء بالصِّفة: ﴿مُّبِينٞ﴾، فجعلَ عداوةَ إبليسَ لا تلتَبِس على أحدٍ، مِنَّةً منه ﷻ وفضلًا، كما أنَّ الصِّفةَ ناسبت فواصلَ الآياتِ.

الشَّيطانُ مخادِعٌ، لكنَّ عداوتَه ظاهرةٌ لا تلتبسُ على أحدٍ

(1) رشيد رضا، تفسير المنار: 8/311.

(2) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام في القرآن الكريم: 1/364.

﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ٢٣﴾ [الأعراف: 23]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الرّبْطُ بين مَعصيةِ آدمَ وحوّاءَ وعُقوبتِها، وبينَ الاستجابةِ والتّوبةِ لله الغفّارِ

لمَّا ذكرَ اللّه تعالى في الآيةِ السَّابقةِ أنَّ آدمَ وزوجَه أكلَا مِنَ الشَّجرةِ بعد إغواء إبليسَ لهما، وبَدَتْ سوْءَاتُهما، وكانَ نداءُ ربِّهما لهمَا بتذكيرِهما بالنَّهْيِ عنِ الأكلِ منَ الشَّجرةِ، وعداوةِ الشَّيطان لهما؛ فكانت هذه الآيةُ لبيان معرفةِ جوابِهما بعدَ هذا النّداءِ وتذكيرِ اللّه لهما[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلْخَٰسِرِينَ﴾: يدورُ معنى الخُسرانِ على النَّقصِ، ويُستعملُ ذلك في المُقتنياتِ الخارجةِ، كالمالِ، وهو الأصلُ في الاستعمالِ، يُقالُ: خَسِرَ التَّاجرُ في بيعِه بمعنى: نقصَ مالُه، وخسِرَ نقيضُ ربِحَ، كما يُستعملُ مجازًا في المقتنياتِ النَّفسيَّةِ كالصِّحَّةِ والسَّلامةِ والعقلِ والإيمانِ والثَّوابِ، ويُستعملُ الخُسرانُ في تعاطي ما يكونُ به الميزانُ في القيامةِ خاسرًا، ولهذا عُبِّرَ بالخُسرانِ عنِ الضَّلَالِ وَالهَلَاكِ، وكلُّ خسرانٍ ذكره اللّهُ تعالى في القرآن؛ فهو على هذا المعنى[2].

المَعْنى الإجْماليُّ:

مِنَ الأدبِ في الدّعاءِ، نِسبةُ الذَّنْبِ إلى النَّفْسِ مع الرّجاءِ والخَشْيةِ

بيَّنتِ الآيةُ أنَّ آدمَ وحوَّاءَ اعترفا بذنبِهما قائلَيْن: يا ربَّنا، ظلمْنَا أنفسَنا بالأكلِ منَ الشَّجرةِ الّتي نَهيتَنا عن أكلِها، وإنْ لم تغفرْ لَنا ذنوبَنا، وترحمْنا لَنكونَنَّ منَ الهالكينَ، ممَّن أضاعُوا حظَّهم في

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/375.

(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والزّمخشريّ، أساس البلاغة، والرّاغب، المفردات: (خسر).

دُنياهم وأُخراهم. وهذهِ الكلماتُ هي الّتي تلقَّاها آدمُ من ربِّهِ، فدعا بها، فتابَ اللّهُ عليه[1].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

بَلاغةُ الاستئنافِ في قولِه تعالى: ﴿قَالَا رَبَّنَا﴾:

اعترافُ آدمَ وزوجِهِ بعدَ الأكلِ منَ الشَّجرةِ

لم تُعطفْ هذه الجملةُ على ما قبلَها؛ لأنَّها استئنافٌ بيانيٌّ، كأنَّ سائلًا سأل: ما جوابُهما بعد نداءِ ربِّهما لهما في الآيةِ السَّابقةِ ﴿وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ﴾ [الأعراف: 22] الآية؟ كان الاعترافُ بالخطأِ من آدمَ وزوجِهِ، وتضرَّعا إلى اللّه تضرُّعَ المُذنبِ المستغيثِ، قائلَيْن: ربَّنا ظلمْنا أنفسَنا.

دلالةُ التَّثنيةِ في قولِه تعالى: ﴿قَالَا﴾:

التَّكاليفُ يتساوَى فيها الذَّكرُ والأُنثَى

جاء التَّعبيرُ بالمثنَّى في قولِه تعالى: ﴿قَالَا﴾ للدَّلالة على اعترافِهما بوقوعِهما في الأكل منَ الشَّجرة على حدٍّ سواءٍ، دونَ التَّفرقةِ بين آدمَ وزوجِه، وهذا دليلٌ على أنَّ التَّكاليفَ الشّرعيَّةَ، لافرقَ فيها بين الذَّكر والأنثى، وهذا ما ذُكر في هذه الآيةِ، من إقرارهما بتجاوُزِ نهْيِ اللّه لهما عنِ الأكلِ منَ الشّجرة، واعترافِهما بالذَّنب معًا.

سِرُّ التَّعبيرِ بالقولِ دونَ الدُّعاءِ أوِ النِّداء، في الآيةِ الكريمةِ:

القولُ أعمُّ وأبْينُ في التّعبيرِ عنِ الحالِ، وفيه اعترافٌ بظلْمِ النَّفْسِ

قوله تعالى: ﴿قَالَا رَبَّنَا﴾: عبَّر بالقول دون النِّداء أو الدُّعاء؛ لأنَّه أعمُّ من الدّعاء والنّداء، وفيه إشارةٌ إلى الاعترافِ بظلمِ النَّفس، وأنَّهما أضرَّا بأنفسِهما بارتكابِ المعصية، وجَرَّا على أنفسِهما ما لم يكن موجودًا، وذلك بأن بدَتْ سوءاتُهما.

نُكتةُ حذْفِ حرفِ النِّداءِ، في قوله تعالى: ﴿قَالَا رَبَّنَا﴾:

حُذِفَ حرفُ النِّداء (يَا) للإيجازِ وللإيذانِ بقُربِ اللّهِ تعالى منَ الدَّاعي، وللإشعارِ بطلبِ المبادرةِ إلى التَّضرُّعِ بعد المعصيةِ،

(1) ابن جرير، جامع البيان: 12/356، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/387.

ويُحتملُ أنْ تكونَ الصيغةُ نداءً، وهو ليس بنداءٍ، بل هو بمعنى الدُّعاءِ والتَّضرُّعِ؛ لِيكونَ على خلافِ مقتضَى الظَّاهرِ، كما تأتي صيغةُ الأمرِ بمعنى الدُّعاءِ، وهو في القرآنِ كثيرٌ، مثلُ قولِ إبراهيمَ عليه السلام: ﴿رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡحِسَابُ ۝٤١﴾ [إبراهيم: 41]، فهذا دعاءٌ بصيغةِ الأمرِ لطلبِ المغفرةِ منَ اللّه له ولوالديه ولجميعِ المؤمنين في يوم القيامة. ونُكتةُ مجيءِ الدُّعاءِ والتَّضرُّعِ بصيغةِ النِّداءِ الّذي حُذفَتْ منه الأداةُ هي الإشعارُ بقُربِ الدَّاعِي إلى المدعوِّ معَ إقبالِ المدعوِّ إليهِ بالاستجابةِ، ويُحتملُ أنْ يكونَ حذفُ الأداة لنُكتةٍ أخرى، فإنَّه لمّا كانَ النِّداءُ فيه طَرَفٌ من معنى الأمرِ، حُذِفَتْ (يا) من نداءِ الرَّبِّ؛ لينقُصَ معنى الأمرِ أو يزولَ؛ لأنَّ (يا) تُؤكِّدُه، وتُظهرُ معناهُ، فكانَ في حذفِ (يا) النِّداء إجلالٌ وتعظيمٌ وتنزيهٌ لربِّ العالمين[1].

اللّهُ تَعالى قريبٌ، مِنَ الدَّاعِي والمتَضرِّع

نُكتةُ النِّداءِ بـ ﴿رَبَّنَا﴾:

لمّا كانَ الربُّ بمعنى المربِّي والمنعِم والمدبِّرِ والمالكِ والمتكفِّلِ بمصلحةِ الخلْقِ؛ ناسبَ نداءَ آدمَ وحوَّاءَ هنا بـ ﴿رَبَّنَا﴾؛ للإشعارِ بحاجتِهما إلى ربِّ العالمينَ، وأنَّه الملجأُ الّذي يَلجأُ إليه الخلقُ دائمًا، ولهذا جاءَ قولُه: ﴿ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا﴾ بعدَ النِّداءِ بـ ﴿رَبَّنَا﴾.

ربُّ العالمينَ هو الملْجأُ الّذي يَلجأُ إليه الخلْقُ دائمًا

مُناسبةُ الإضافةِ، في قولِهِ تعالى: ﴿رَبَّنَا﴾:

أفادتِ الإضافةُ التَّعريفَ، بمعنى: ﴿رَبَّنَا﴾ الّذي نعرفُه ونعرفُ صفاتِه، ولمّا كانتِ الإضافةُ هنا على معنَى اللَّام؛ أفادتْ معنى تخصيصِ حاجتِهما إلى ربِّ العالمينَ، وتَحْمِلُ طلب التَّلَطُّف والتَّحَنُّن عليهما؛ لأنَّهما في مقام التربيةِ.

تخصيصُ الحاجةِ إلى الله ربِّ العالمينَ، يقينٌ وخَشيةٌ

(1) ابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 9/65، والخفاجيّ، عناية القاضي: 4/159، والقونويّ، حاشيته على البيضاويّ: 8/360.

مُناسبةُ تسميةِ الذَّنْبِ ظُلمًا للنَّفسِ:

ارتكابُ الذَّنْبِ ظُلمٌ للنَّفْسِ، وجِنايةٌ عليها

لمّا كانَ مآلُ الذَّنبِ ما يقعُ على النَّفسِ منَ العقوبةِ كان ارتكابُه ظُلمًا للنَّفسِ، وكذلك لمّا أكلَا منَ الشَّجرةِ وعصَيَا ربَّهما جرَّا على أنفسِهما الدُّخولَ في طورِ ظهورِ السَّوءاتِ، ومشقَّةَ اتِّخاذِ ما يستُرُ عوراتِهما، وجرَّا على أنفسِهما كذلكَ غضبَ اللّهِ تعالى[1]، وفيه إشارةٌ إلى هضْمِ النَّفسِ والحرصِ على الطَّاعةِ على الوجهِ الأكملِ.

سِرُّ التَّعبيرِ بالجمْعِ في لفظ ﴿أَنفُسَنَا﴾، مع أنَّهما مُثنًّى:

أثرُ المعصيةِ عامٌّ، يُؤثِّرُ على الظَّاهرِ والباطنِ

عبَّر بالجمعِ دون المُثنَّى (نَفْسَيْنَا)؛ إشعارًا بأنَّ قلبَيهما - أيضًا - قد صُفِّيا، وخُلِّصا من أثرِ تلك المعصيةِ، وأنَّ ذلك مطمورٌ وداخلٌ في نفوسِ ذرِّيَّتِهما.

سببُ إيثارِ لفْظِ ﴿ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا﴾، في الآيةِ الكريمةِ:

الاعترافُ بالذَّنبِ يتضمَّنُ طلبَ المغفرةِ، والتَّجاوُزِ عنِ الإثمِ

لمّا قالَ اللّهُ تعالى في الآيةِ الّتي سبقتْ: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأعراف: 19]، ثمَّ إنَّهما أكَلا منها، كانَ في قولِه تعالى: ﴿فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، معنى تلقينِ الاعتذارِ لهما؛ لعلمِه تعالى بأنَّهما يقعانِ في الأكلِ منَ الشَّجرةِ، فمِنْ ثمَّ قالَا: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا﴾، فتأيَّدَ أنَّ الظُّلمَ في قوله: ﴿فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأعراف: 19] قُصِدَ به ظُلمُ النَّفسِ[2].

دَلالةُ إسنادِ الظُّلْمِ إليهما:

حُسْنُ الأدَبِ في الدُّعاءِ، مِفتاحٌ للوُلُوجِ إلى الإجابةِ

في قولِه تعالى: ﴿ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا﴾ دلَّ إسنادُ الظُّلم إليهما دون أن يقولَا: (ربنا قدَّرتَ علينا كذا)، أو (قضيتَ علينا كذا)؛ إلى الأدبِ في الدُّعاءِ، حيثُ أسندَا المعصيةَ إليهما، واعترفا بها.

سِرُّ وصْفِهما لذنْبِهما بالظُّلْمِ، في: ﴿ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا﴾:

وصفَ وقوعَهُما في المعصيةِ - مع أنَّها منَ الصَّغائرِ - بظُلْمِ

(1) رضا، تفسير المنار: 8/312، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/67.
(2) السّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: 3/10.

النَّفسِ على عادةِ الأولياءِ والصَّالحين باستعظام الصَّغيرِ منَ السَّيِّئات، فالعبدُ كمالُه في حاجتِه إلى ربّه وعبوديتِه وفقرِه وفاقتِه إليه، فكلَّما كانت عبوديتُه أكملَ كان أفضلَ، وصدورُ ما يحُوجُه إلى التّوبة والاستغفارِ ممّا يزيدُه عبوديةً وفقرًا وتواضعًا. ومنَ المعلوم أنَّ ذنوبَهم ليست كذنوب غيرِهم، بل كما يقال: "حسناتُ الأبرارِ سيئاتُ المقرَّبين"[1].

الأبرارُ يَستعْظِمُون صَغيرَ السَّيئاتِ، تَعظيمًا لِحَقِّ الله عليهِم

دَلالةُ تقديمِ الاعْترافِ بظلْمِ النّفْسِ، على طلَبِ المغفرةِ والرَّحمةِ:

قوله تعالى: ﴿ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا﴾، وفيها قُدِّمَ الاعترافُ بالذَّنب، للإشعارِ بأنَّه سبيلٌ إلى طلبِ المغفرةِ والرَّحمةِ، وفي هذهِ الآيةِ موعظةٌ لنسلِ آدمَ وحوَّاءَ، وتعريفُهم كيفَ السَّبيلُ إلى التَّنصُّلِ منَ الذُّنوبِ، وأنَّه لا ينفعُ إلّا الاعترافُ والتَّوبةُ[2].

تعليمُ بنِي آدمَ طريقَ التَّنصُّلِ منَ الذُّنوبِ، عندَ علّامِ الغيوبِ

نُكتةُ مُناسَبةِ طلَبِ المغفرةِ والرَّحمةِ في الآيةِ:

لَمَّا توقَّعا استحقاقَ العذابِ ووجوبَه بسببِ ارتكابِ المعصيةِ؛ ناسبَ أنْ يطلبَا المغفرةَ والرَّحمةَ من ربِّ العالمينَ، فإنَّهما رأيَا منَ العصيانِ بوادرَ الضُّرِّ والشَّرِ ببدُوِّ السَّوْءَات، فعَلِما أنَّه منْ غضبِ اللّهِ ومنْ مخالفةِ وصايتِه[3].

مِن أماراتِ غضبِ اللهِ ظُهورُ السَّوءَاتِ والعوْراتِ

دَلالةُ الواوِ في قولِه تعالى: ﴿وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا﴾:

أفادتِ الواوُ عطفَ المسبَّبِ على السَّبب، بمعنى: أَنَّ الاعترافَ بالذَّنبِ سببٌ للتَّوسُّل لِطلبِ المغفرةِ والرَّحمة.

الاعترافُ بالذَّنْبِ

مُناسبةُ التَّعبيرِ بـ ﴿إن﴾ الشَّرطيَّةِ، في السِيّاقِ الحكيمِ:

قوله تعالى: ﴿وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا﴾، عُبِّرَ بـ﴿إن﴾ الشَّرطيَّةِ الّتي تكونُ لما يندرُ وقوعُهُ، أوتأتِي في مقامِ الخُلوِّ عنِ الجزم بوقوعِ الشَّرطِ؛

مَنْ تابَ مِنْ ذنْبِه؛ أَشْبَهَ آدمَ، ومَنْ أصرَّ أَشْبَهَ إبليسَ

(1) ابن تيمية، منهاج السنة النبوية: 2/407.
(2) الزّجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 1/116.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 8/67.

للإيذانِ بأنَّ آدم وحوَّاءَ، كانَا يشعرانِ بعظَمِ الذَّنبِ الّذي ارتكباه في حقِّ اللّه تعالى، فأفادت ﴿وَإِن﴾ تصويرَ الأمرِ بأنَّه لا يصلحُ إلَّا لمجرَّدِ الفرضِ للارتيابِ في مغفرةِ اللّهِ لهما ورحمتِه بهما؛ تعظيمًا لمعصيةِ اللّهِ تعالى، على عكسِ إبليسَ الّذي تمادَى، وتكبَّرَ، ولمْ يعترفْ بذنبِهِ.

دَلالةُ الجمْعِ بينَ المغفرةِ والرَّحمةِ في الآيةِ الكريمةِ:

قوله تعالى: ﴿وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا﴾، أفادتِ الواوُ هنا التَّشريكَ على معنى الجمعِ بينَ المعطوفِ والمعطوفِ عليه في الشَّرط، فطلبَا المغفرةَ لذنبِهما والرَّحمةَ بهما؛ لِما ذكره سبحانه منْ أنَّ الشَّيطانَ عدوٌّ لهما، فلا قُدرةَ لهما على ردِّ عُدوانِ الشَّيطان بغيرِ رحمةِ اللّهِ تعالى.

لا قُدرةَ لبنِي آدمَ على رَدِّ عُدْوانِ الشَّيطانِ بغَيْرِ رحْمةِ اللهِ تعالى

مُناسَبةُ حذْفِ مفعولِ ﴿تَغْفِرْ﴾:

حُذِفَ مفعولُ ﴿تَغْفِرْ﴾؛ إذ لم يقولا: (وإنْ لم تغفرْ لنا ذنبَنا هذا أو ظُلمَنا)، وبيانُ المناسبةِ أنَّه لمّا كانَ حذفُ المفعولِ هنا يفيدُ العمومَ؛ دلَّ على أنَّهما قد علَّقا النَّجاةَ منَ الخُسرانِ على المغفرةِ العامَّةِ المطلقةِ الّتي تشملُ هذا الذَّنْبَ وغيرَه؛ لمناسبةِ مقامِ الرُّجوعِ إلى اللّهِ[1].

أفضلُ الدُّعاءِ ما أفادَ عُمومَ المغفرةِ، لِمَحْوِ عُمومِ الخطايَا

مُناسَبةُ التَّرتيبِ بينَ المغفرةِ والرّحمةِ فِي السِّياقِ:

لمّا كان ظلمُ أنفسِهما بمعنى اتِّهامِهما إيَّاها بالتَّقصيرِ بمجاوزتِها الحقَّ؛ ناسبَ أنْ يبدأَ بطلبِ المغفرةِ في قوله: ﴿تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا﴾، فيكونَ عطفُ الرَّحمةِ على المغفرةِ من عطفِ العامِّ على الخاصِّ، كما أشعرَ التَّرتيبُ أنَّ اللّه تعالى إنَّما يغفرُ الذُّنوبَ برحمتِه، والتَّخليةُ سابقةٌ على التَّحليةِ، وذلك لأنَّ مغفرة الذُّنوب تخليةٌ، والرَّحمةَ تحليةٌ - وأيضًا - لأنَّ المغفرةَ سلامةٌ، والرَّحمةَ غنيمةٌ، والسَّلامةُ مطلوبةٌ قبلَ الغنيمة، وأيضًا أنَّ المُذنبَ يطلبُ المغفرة أوَّلاً، ثمَّ بعد ذلك تنزلُ الرَّحمةُ ثانيًا.

إنَّما يَغفرُ الله تعالى الذُّنوبَ برحْمتِه وصَفْحِه

(1) رشيد رضا، تفسير المنار: 8/312.

سِرُّ العُدولِ عن طلَبِ المغفرةِ والرَّحمةِ إلى صِيغةٍ أُخرَى:

تعدُّدُ صِيَغِ السُّؤالِ والطَّلبِ، من بَليغِ التَّصويرِ

عدلَ القرآنُ الكريمُ عن طلب المغفرةِ والرَّحمةِ مباشرةً بأن يقولا: (فاغفر لنا وارحمنا) إلى هذا الأسلوب ﴿وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا﴾؛ للدَّلالةِ على تعدُّد صُور طلبِ المغفرةِ والرَّحمة؛ فإنَّ السّائلَ تارةً يسألُ بصِيغةِ الطَّلب، وتارةً يسألُ بصِيغةِ الخبر، إمَّا بوصْفِ حالِه، وإمَّا بوصْفِ حال المسؤولِ، وإمَّا بوصف الحالَيْنِ معًا، وتارةً يكون بصيغةِ الشَّرطِ كما هنا.

سِرُّ عدَمِ الإتيانِ بلفْظِ ﴿رَبَّنَا﴾ في هذا المقامِ كسابِقِه:

المتضرِّعُ إلى اللهِ قريبٌ منهُ، يُجيبُ دَعْوتَه إذا دَعاه

لم يأتِ التَّعبيرُ بلفظ ﴿رَبَّنَا﴾؛ بأن يقولا: (وإن لم تغفر لنا ربَّنا وترحمنا)، لسبْقِ ذكرِه في قولِه تعالى: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ﴾، وأيضًا لأنَّ المقامَ مقامُ تضرُّعٍ وتذلُّلٍ؛ فحالهم يُنبئُ بنُطقهم: (ربَّنا ربَّنا) من شدَّة الإلحاحِ عليه سبحانه بمغفرةِ ذنوبهم.

سِرُّ تَقديمِ ﴿لَنَا﴾ على ﴿وَتَرْحَمْنَا﴾:

الاعترافُ بالذَّنْبِ سبيلُ التَّوفيقِ إلى التَّوبةِ

قُدِّم الجارُّ والمجرورُ للتَّخصيصِ؛ لأنَّهما اعترفا بذنْبِهما، والسِّياقُ في حقِّهما؛ أمَّا أمرُ الرَّحمة في قوله: ﴿وَتَرْحَمْنَا﴾ فهو مزيدُ فضلٍ يَعُمُّهم، ويعُمُّ غيرَهم.

دَلالةُ التَّعبيرِ عن الغفران والرّحمة بالفعل المضارعِ:

من صِفاتِ المؤمنين، الإصرارُ على طلبِ المغفرةِ والرَّحمةِ

في قولِه تعالى: ﴿وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا﴾، عبَّرَ بالمضارعِ استدرارًا واستمرارًا لمغفرةِ ذنبهما ونزولِ الرَّحمَةِ عليهما. وفيه إشارةٌ إلى استحضارِ صورةِ آدمَ عليه السلام وزوجِه، وهما يرفعان أَكُفَّ الضَّراعة مجدِّدين طلبَ المغفرة والرَّحمةِ، مُلحِّين على اللّه، وفي هذا تعليمٌ لبني آدمَ بالإلحاح على اللّه في طلبِ المغفرة والرَّحمة.

بَراعةُ التَّعبيرِ بجوابِ القَسمِ:

لمّا وقعتِ اللَّامُ في قولِه تعالى ﴿لَنَكُونَنَّ﴾ في موضعِ الجوابِ دلَّ على أنَّ ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ جوابُ قسَمٍ محذوفٍ، والتَّقديرُ:

(وَاللهِ إِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنا وَتَرْحَمْنا لَنَكُونَنَّ مِنَ الخاسِرِينَ)، ثمَّ إنَّ الشَّرطَ المذكورَ: ﴿وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا﴾ حُذِفَ جوابُه؛ لدلالةِ جوابِ القسمِ المقدَّرِ عليه، فحُذفَ القسمُ المقدَّرُ من نفسِ لفظِ الشَّرطِ، وذُكِرَ جوابُه، وذُكرَ الشَّرطُ، وحُذِفَ جوابُه المقدَّرُ من نفسِ لفظِ جوابِ القسَمِ، ودلَّ المذكورُ على المحذوفِ في الموضعين، فكأنَّ جملةَ ﴿وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا﴾ كُرِّرت مرَّتين: مرَّةً باعتبارِها جملةَ القسمِ، وأخرى باعتبارها جملةَ الشَّرطِ، وكذلك الأمرُ في جملةِ ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾، فالكلامُ على نيَّةِ التَّكرير، والنُّكتةُ في هذا التَّعبير أنَّه تضمَّنَ أسلوبَيْن: أسلوبَ القسَم المفيدَ تأكيدَ المعنى وتقويتَه وتقريرَه، وأسلوبَ الشَّرطِ الدّالَّ على أنَّ وقوعَ الشَّرطِ سببٌ لوقوعِ الجزاءِ، معَ ما تدلُّ عليه (إنْ) الشَّرطيَّةُ كما تقدَّمَ[1].

مِن آدابِ الدُّعاءِ تأكيدُ طلَبِ المغفرةِ والرَّحمةِ، بإخباتٍ وخُشوعٍ

سِرُّ تَقديمِ المغفرةِ على الرَّحمة والعكس:

النَّاظرُ في هذهِ الآية الّتي تحدَّثتْ عن آدمَ وزوجِه، يجدُ تقديمَ المغفرةِ على الرَّحمة، وذلك من باب التَّناسب مع مطلَعِ الآيةِ؛ حيث بُدِئَتْ بقوله تعالى: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا﴾، والظُّلم ذنْبٌ يتطلَّب المغفرةَ، فناسبه تقديمُ المغفرة على الرَّحمة؛ أمَّا الآيةُ الّتي جاءت في قصَّة موسى مع قومه؛ فقد بُدِئَت بقولِه تعالى: ﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِيٓ أَيۡدِيهِمۡ وَرَأَوۡاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ ضَلُّواْ﴾؛ فلمَّا كان الضَّلالُ لا يزولُ إلَّا برحمةِ اللّه؛ وذلك بعد تصميمِهم وتصلُّبِهم في عبادة العِجل وقولِهم: ﴿لَن نَّبۡرَحَ عَلَيۡهِ عَٰكِفِينَ﴾ [طه: 91]، ناسبه تقديمُ الرَّحمة، قال تعالى: ﴿قَالُواْ لَئِن لَّمۡ يَرۡحَمۡنَا رَبُّنَا وَيَغۡفِرۡ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: 149].

الظُّلمُ ذنْبٌ يَتطلَّبُ المغفرةَ، فناسبَه تَقديمُ المغفرةِ على الرَّحمةِ

دَلالةُ تتابُعِ التَّأكيدِ، في قولِه تعالى: ﴿لَنَكُونَنَّ﴾:

أُكِّدَتْ جملةُ جوابِ القسم الدَّالَّةُ على جوابِ الشَّرطِ المحذوفِ

تأكيدُ الخُسرانِ بانتفاءِ مَغفرةِ اللهِ ورحْمتِه

(1) الأخفش، معاني القرآن: 1/323، وأبو حيان، البحر المحيط: 5/29، وابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 9/65.

بمؤكِّدين: لام القسم ونون التَّوكيد الثَّقيلة؛ إظهارًا لتحقيق الخُسران بانتفاء مغفرة اللّه ورحمته، واستغفارًا للّه واسترحامًا منه[1] ﷻ.

بَراعةُ التَّعبيرِ بالكِنايةِ، في قولِه تعالى: ﴿مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾:

قد يقالُ: لو قالَا: (لنكونَنَّ خاسرَين)؛ لكان أخصرَ وأوفى للمعنى، والجوابُ: أنَّه ليسَ كذلك، وبينهما فرقٌ، فإنَّ ﴿مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾، أشدُّ من (خاسرَين)، وبيانُه أنَّه لمّا كانت (أل) في قولِه: ﴿ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ جنسيَّةً، دلَّتْ على أنَّ مَن لم يغفرِ اللّهُ له ويرحمْه؛ هو واحدٌ من الفئةِ الموصوفةِ بالخُسرانِ ومعدودٌ منهم، فيكونُ قد أثبتَ خسرانَه بطريقةٍ تشبهُ الاستدلالَ، لثبوتِ الوصْفِ له بطريقِ اللَّازم؛ ليكونَ من قبيلِ الكنايةِ الّتي هي إثباتُ الشَّيءِ بإثباتِ ملزومِه، وهي أبلغُ منَ التَّصريحِ، فكأنَّه أثبتَ الخُسرانَ له مرَّتين: مرَّةً لأنَّهُ عدَّهُ من زُمرةِ الخاسرين، لدخولِه فيهم بسببِ (أل) الجنسيَّةِ، وأخرى حينَ أثبتَ له الوصفَ باللُّزوم.

وُرودُ التّكنيّةِ دونَ التّصريحِ، من بَليغِ البيَانِ القُرآنيِّ

بَلاغةُ حذْفِ مُتعلَّقِ ﴿ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾:

حُذِفَ متعلَّقُ الخاسرين، فلم يقلْ: (لنكوننّ من الخاسرين أنفسنا، أو آخرتنا) مثلًا، إمَّا لإفادةِ العمومِ بمعنى: إنْ لم تغفرْ لنا، وترحمْنا لنكونَنَّ منَ الخاسرين الّذينَ خسروا أنفسَهم بظلمِهم لها، وخسرُوا غُفرانَ اللّه تعالى ورحمتَه[2]، وخسروا كلَّ شيءٍ، وإمَّا بمعنى: أنَّ الوصفَ المشتقَّ ﴿ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ صارَ لازمًا لهما إنْ لم يتحقَّق الشَّرطُ.

يُحذفُ المتعلَّقُ، لإفادةِ عُمومِ الخُسرانِ أو لإثباتِ الوصْفِ

بَلاغةُ الكِنايةِ في أُسلوبِ الشَّرطِ في السِّياقِ:

أفادَ الشَّرطُ معنى آخرَ مقصودًا منه هو الدُّعاءُ والسُّؤالُ، بمعنى كُنِّيَ بالشَّرط لسؤالِ التَّوبةِ والسَّترِ والتَّغمُّدِ بالرَّحمةِ، فيكونُ من

مِن روائعِ بلاغةِ القُرآنِ الكِنايةُ بالشَّرطِ عنِ الدُّعاءِ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 8/65.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2800.

مجيء الشَّرط على طريقِ الكناية، ولكن بإرادةِ مجموعِ المصرَّح به والمكنَّى عنه، أو يكونُ بتقديرِ محذوفٍ دلَّ عليه المذكورُ، وتقديرُ الكلام: (ربَّنا اغفرْ لنا، وارحمْنا، وإنْ لم تغفرْ لنا، وترحمْنا؛ لَنكونَنَّ من الخاسرينَ)، ومثلُه قولُ نوحٍ عليه السلام: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنۡ أَسۡـَٔلَكَ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞۖ وَإِلَّا تَغۡفِرۡ لِي وَتَرۡحَمۡنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ [هود: 47][1].

سِرُّ الوصْفِ بـ﴿ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾، في الآيةِ الكريمةِ:

اختارَ التَّعبيرَ بوصْفِ ﴿ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ دون غيرِه كالظَّالمين؛ لأنَّ الخُسرانَ يدلُّ على انتقاص رأسِ المالِ، والطَّاعةُ هي رأسُ مال المسلمِ، فإذا عصى، وظلم؛ خسر رأسَ ماله؛ تشبيهًا بالظَّالم الّذي ظلم نفسَه، وعرَّضها للعذابِ، وفي ذلك خَسارةٌ للنَّفس أيُّ خَسارةٍ.

المعصيةُ خُسرانٌ واضحٌ، وبلاءٌ فاضِحٌ

سِرُّ التَّعبيرِ باسْمِ الفاعلِ ﴿ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾:

عبَّر باسمِ الفاعلِ ﴿ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ دون الفعلِ (خسروا)؛ للدَّلالةِ على الثُّبوت، وتمكُّنِ الخُسرانِ، إذا لم تُغفرْ ذنوبُهما.

الدَّلالةُ على الثُّبوتِ، وتمكُّنِ الخُسرانِ

بيانُ الفَرْقِ بينَ مَعصِيةِ إبليسَ ومَعصِيةِ آدمَ:

مِن لطائفِ الآيةِ بيانُ الفرقِ بَين معصيةِ إبليسَ ومعصيةِ آدمَ، فإبْليسُ عصَى، وأصرَّ على المعْصِيَة، وآدَمُ عصى، وَتَابَ عَنِ المعْصِيَة فقَبِل اللّهُ توبته، وهداه رُشدَه: ﴿ثُمَّ ٱجۡتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيۡهِ وَهَدَىٰ ١٢٢﴾ [طه: 122]، وَإِبْلِيسُ كَانَ مُتَعَمِّدًا، وآدَمُ كَانَ سَاهِيًا، وإبليسُ طلبَ النَّظِرةَ، ولم يطلبِ التَّوبةَ، وآدمُ طلب التَّوبةَ والرَّحمةَ، فوُكلَ كلُّ واحدٍ إلى ما طلبَه[2].

كلُّ فرْدٍ مَوكولٌ إلى طلَبِه، فمَنِ استغفرَ غُفرَ له، ومَنْ تكبَّر؛ لُعِنَ وطُرِدَ

(1) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنة: 4/386، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/387، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2800.

(2) السّمعانّي، تفسير السّمعاني: 2/172، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/387.

﴿قَالَ ٱهۡبِطُواْ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُسۡتَقَرّٞ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٖ ٢٤﴾ [الأعراف: 24]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

المناسبةُ بين توبة آدمَ وزوْجِه، وبين نُزولِهما إلى دارِ المقارَعةِ والمُناكَدَةِ

لمّا ذكرتِ الآيةُ السَّابقةُ أنَّ آدمَ وزوجَهُ طلبا المغفرةَ والرَّحمةَ ضمّنَ اعترافِهما بظُلمِهما لأنفسِهما؛ جاءتْ هذهِ الآيةُ لبيان جوابِ العليِّ الكبير ﷻ، فناسبَ ذكرَ ما بعدَ توبتِه عليهما، وتحذيرَ آدمَ وذرِّيَّتِه من عداوةِ الشَّيطانِ لهم بعدَ وجودِهم في الأرضِ[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿بَعۡضُكُمۡ﴾: بَعْضُ الشيء جزءٌ منه، ويقابَلُ به الكلُّ، وبعضُ كلِّ شيءٍ طائفةٌ منه، فقد يكونُ البعضُ أكثرَ من جُزءٍ منَ الشَّيءِ، فيَتَناوَلُ مَا فَوْقَ النِّصْفِ كَالثَّمَانِيَةِ، فَإِنَّهُ يَصدُقُ عَلَيْهِ أَنَّهُ بعضٌ مِنَ العَشَرَةِ، وقد يطلقُ على ما هو فردٌ منَ الشَّيء، كَمَا يُقَال: (زيدٌ بعضُ الإنسان)، والبعضُ يتَجَزَّأُ، والجزءُ لَا يتَجَزَّأُ، وبعَّضتُ الشَّيءَ تبعيضًا؛ إذا فرَّقْتُهُ أجزاءً.

والمُرادُ بِالبَعْضِ في الآية الكريمة: البَعْضُ المُخالِفُ في الجِنْسِ، فَأَحَدُ البَعْضَيْنِ هو آدَمُ وزَوْجُهُ، والبَعْضُ الآخَرُ هو إبْلِيسُ[2].

2) ﴿مُسۡتَقَرّٞ﴾: قَرَّ في مكانهِ يَقِرُّ قَرَارًا؛ إذا ثبت ثُبوتًا جامدًا متمكِّنًا فيه، على معنى المُكثِ في المكانِ، وأصلُه منَ القُرِّ، وهو البَرْدُ، وهو يقتضِي السُّكونَ، والحرُّ يقتضِي الحركةَ، واسْتَقَرَّ فلانٌ: إذا

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/68.

(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، والكفويّ، الكليّات: (بعض)، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 8/68.

تحرَّى القَرَارَ، وقد يُستعملُ في معنى قرَّ، كاستجابَ وأجابَ، ومعنى ﴿مُسْتَقَرٌّ﴾: اللُّبثُ والإقامةُ[1].

3) ﴿وَمَتَٰعٌ﴾: يُحتمَلُ أن يكونَ المتاعُ بمعنى التَّلذُّذِ، ومنه مَتَعَ النَّهارُ؛ لأنَّه يتمتَّعُ بضيائِه، والمتاعُ الانتفاعُ بما فيه لذَّةٌ عاجلةٌ، كما يُحتمَلُ أنْ يكونَ المتاعُ بمعنى الامتدادِ والارتفاعِ، فالمتاعُ انتفاعٌ ممتدُّ الوقتِ في خَيرٍ، ومنه مَتَعَ النَّهارُ؛ إذا امتدَّ ضياؤه، ومَتَعَ النَّباتُ؛ إذا ارتفعَ، والمتاعُ من أمتعةِ البيتِ: ما يستمتعُ به الإنسانُ في حوائجِه، والمتاعُ في الآيةِ، بمعنى: كلِّ ما ينتفَعُ به منَ الأشياءِ على وجهٍ ما، من نَيلِ الملذَّاتِ والمرغوباتِ غيرِ الدَّائمةِ، فيشملُ المالَ والطَّعامَ والمركبَ والتَّعميرَ وغيرَها[2].

4) ﴿حِينٍ﴾: الحينُ هو وقتُ بلوغِ الشَّيءِ وحصولِه، وهو ظرف زمانٍ مبهمُ المعنى، فليسَ له حدودٌ، ويتخصَّصُ بالمضافِ إليه، فقد يأتي بمعنى الأجلِ، وبمعنى السَّنةِ، وبمعنى الزَّمانِ المطلَقِ غيرِ المحدَّدِ، وقد يتعيّنُ بالقرائنِ، ويأتي الحينُ في الاستعمالِ الكثيرِ للوقتِ الطَّويلِ، يقالُ: ما رأيتكَ منذُ حينٍ، تريدُ منذُ حينٍ طويلٍ، وقد يأتي للوقتِ القصيرِ، والعبرةُ بالقرينةِ.

ومعنى الحين في الآية الكريمة: الزَّمَنُ المُقارِنُ لِحالَةِ الحَياةِ والإدْراكِ، وهو المُسَمّى بِالأجَلِ[3].

المَعْنى الإجْماليُّ:

قالَ اللّهُ تعالى مخاطبًا آدمَ وحوَّاءَ - عليهما السلام - وإبليسَ: اهبطوا منَ

العَداوةُ بين آدمَ وذريَّتِهِ، وبين إبليسَ وأعوانِهِ، أمرٌ قَدَريٌّ، لا مَفرَّ منه

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (قرر)، وابن الهائم، التبيان في تفسير غريب القرآن، ص: 68.

(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، والفيّومي، المصباح المنير: (متع)، وابن الهائم، التّبيان في تفسير غريب القرآن، ص: 68.

(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (حين)، والزّجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 1/116، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/68.

السَّماءِ إلى الأرضِ، بعضُكم لبعضٍ عدوٌّ، ولكم في الأرضِ مكانٌ تستقرُّونَه، وتمتُّعٌ تستمتعونَه إلى تقضِّي آجالِكم[1].

وتُرشدُ الآيةُ إلى أنَّ شُؤمَ الخطيئة كان سببَ طردِ إبليس منَ الرحمة، وإخراجِ آدمَ منَ الجنّة.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بَلاغةُ الاستئنافِ، في قولِه تعالى: ﴿قَالَ﴾:

اسْتدرارُ سمْعِ المخاطَبين، وتنبيهُهم إلى الإصْغاءِ للخِطابِ

جاءَ الكلامُ على طريقِ الاستئنافِ البيانيِّ، كأنَّه قيلَ: ماذا قالَ اللّهُ تعالى بعدَ أنْ تابَ على آدمَ وحوَّاءَ، فأجابَ: ﴿قَالَ ٱهۡبِطُواْ﴾، لاستدرارِ سمْعِ المخاطَبين وتنبيهِهم إلى الإصغاءِ للخطابِ، وأفادَ الاستئنافُ كذلكَ إظهارَ العنايةِ بالأمرِ بالهبوطِ وبما بعدَه.

الفرق بين ﴿قَالَ ٱهۡبِطُواْ﴾، و﴿وَقُلۡنَا ٱهۡبِطُواْ﴾ في سورةِ البقرةِ:

كلُّ تعبيرٍ قرآنيٍّ يُناسبُه ما يَدلُّ عليه السِّياقُ في موضِعِه من سُورتِه

جاءَ التَّعبيرُ بقوله: ﴿قَالَ﴾ في سورة الأعرافِ في سياقِ إبرازِ المُفارَقة بين سلوكِ إبليسَ وسلوكِ آدمَ بعد المعصيةِ، والمُتَّبَعُ في هذه السُّورة، التَّعبيرُ بـ ﴿قَالَ﴾ المناسبُ للتَّفرُّد والوحدانيَّةِ، وهذا واضحٌ في قولِه تعالى: ﴿قَالَ فَٱهۡبِطۡ مِنۡهَا﴾، وفي قولِه تعالى ردًّا على إبليسَ: ﴿قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ﴾ إلى غيرِ ذلك منَ المواطنِ الّتي ورد فيها التَّعبيرُ بـ ﴿قَالَ﴾، أمَّا ما ورد في سورة البقرةِ، فجاء مناسبًا للسِّياق هناك بتذكيرِ بني آدمَ بفضلِ اللّه عليهم، وكان المُتَّبَعُ في ذلك، التَّعبيرَ بما يدلُّ على العَظَمةِ، وهذا واضحٌ في كثيرٍ من مشاهدِ القصّةِ، قال تعالى: ﴿وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ﴾ [البقرة: 34]، وقال تعالى: ﴿وَقُلۡنَا يَٰٓـَٔادَمُ﴾، وقالَ تعالى: ﴿وَقُلۡنَا ٱهۡبِطُواْ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞ﴾.

(1) نخبة من العلماء، التّفسير الميسّر، ص: 153.

معنَى واوِ الجمْعِ، في قولِه تعالى: ﴿ٱهۡبِطُواْ﴾:

جاءَ الضَّميرُ بصِيغةِ الجمعِ؛ ليشملَ آدمَ وحوَّاءَ - عليهما السلام - وإبليسَ اللَّعينَ، فلمَّا اجتَمعُوا في الإنزَال؛ جمَعَ بَينهم في الخطابِ، وذهبَ بعضُ المفسِّرينَ إلى أنَّ الخطابَ يشملُ ذرِّيَّةَ آدمَ كذلك، لدلالةِ السِّياقِ على دخولِ بني آدمَ في الخطابِ، ووجهُه أنَّه لمّا كانَ آدمُ وحوَّاءُ أصلَ الإنسِ؛ كانا كأنَّهما جنسُ الإنسِ كلِّه، كما أنَّه لامانعَ من خطابِ الذّرِّيَّةِ، وهي لم توجدْ بعدُ؛ لأنَّ خطابَ الأبناءِ تابعٌ لخطابِ الآباءِ، ولأنَّ المنتظَرَ هو في حُكمِ الموجودِ، أو يكونُ من قبيلِ المجازِ المرسلِ باعتبارِ ما سيكونُ مع إرادةِ المعنى الأصليِّ كذلك، فيكونُ من قبيلِ الجمعِ بينَ الحقيقةِ والمجاز[1].

الأمْـرُ الإلـهـيُّ مُـوجَّـهٌ للبَنين كما وُجِّهَ للآباء، على حدٍّ سَواءَ

دَلالةُ الأمرِ بالهبُوطِ، في قولِه تعالى: ﴿ٱهۡبِطُواْ﴾:

لمّا كانَ الأمرُ بالهبوطِ هنا للكلِّ، أي: لآدمَ وحوَّاءَ وإبليسَ؛ أفادَ أنَّ الأمرَ بالهبوطِ هنا غيرُ الأمرِ بالهبوطِ في قولِه تعالى: ﴿قَالَ فَٱهۡبِطۡ مِنۡهَا﴾، فلا تكرارَ بالأمرِ؛ لأنَّه علَّق بكلِّ أمرٍ منهما حُكمًا غيرَ حُكمِ الآخرَ، فعلَّقَ بقولِه: ﴿فَٱهۡبِطۡ مِنۡهَا﴾ العقوبةَ لإبليسَ - والأمرُ خاصٌّ به - وعلَّقَ بقولِه: ﴿ٱهۡبِطُواْ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ﴾ معنى إقامةِ الحياةِ في الأرضِ والاستقرارِ والمتاعِ إلى حينٍ، كما أنَّه كرَّرَ الأمرَ لإبليسَ تبعًا لآدمَ وحوَّاءَ؛ إذ جاءَ بصِيغةِ الجمعِ؛ ليُعلمَ أنَّهم قرناءُ أبدًا، أي: باعتبارِ جنسِ النَّاس، وإلَّا فعبادُ اللهِ المخلصون أمناءُ من مقارنَتِه[2].

لا تَـكـرارَ في القرآنِ الكريم، فـلِـكـلِّ لـفـظٍ معناهُ في سِياقِه الخاصِّ به

دَلالةُ الخِطابِ بالأمْرِ بينَ الجمْعِ والتَّفريقِ:

يحتملُ الإخبارُ بالأمرِ بالهبوطِ أنْ يكونَ للجميعِ دُفْعةً واحدةً، وأنْ يكونَ أخبرَ عمَّا قال لهم مفرَّقًا بين آدمَ وحوَّاءَ من جهةٍ، وإبليسَ

وُرودُ الخطابِ بـصـيـغـةِ تـجـمـعُ كـلَّ الـشّـخـصـيّـاتِ، تُـشـيـرُ إلى صَلاحيّتِها لكلِّ المواقفِ

(1) الفرّاء، معاني القرآن: 1/31، والسّمعاني، تفسير السّمعاني: 2/173، وابن عطيّة، المحرر الوجيز: 2/387، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 8/361، ومجموعة من المؤلّفين ولجنة من أساتذة الأزهر، التّفسير الوسيط: 3/1399.

(2) البيضاوي، أنوار التنزيل: 3/9، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 8/361.

اللَّعينِ من جهةٍ أُخرى، ويرِدُ مثلُ هذا الخطابِ في القرآنِ كما في قولِه تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ﴾ [المؤمنون: 51]، فهو هنا خطابٌ للأنبياءِ - عليهم السلام - على التَّفريقِ، مع كونِهم أُرْسِلُوا في أزْمِنَةٍ مُخْتَلِفَةٍ، وأنَّ كُلًّا مِنهم خُوطِبَ بهذا الخطابِ كذلك في زَمانِهِ[1].

سِرُّ التَّعبيرِ بالجمْعِ هنا، وبالمُثَنَّى في سورةِ طه:

جاء التَّعبيرُ القرآنيُّ في سورة الأعرافِ - وقبل ذلكَ في سورةِ البقرة - بالأمرِ بالهبوطِ بصِيغةِ الجمعِ ﴿ٱهْبِطُواْ﴾، أمَّا في سورة طه؛ فجاءَ بصِيغة المثنَّى ﴿ٱهْبِطَا﴾ [طه: 123] وسببُ ذلك أنَّ الأمرَ في موضعِ الجمعِ موجَّهٌ لآدمَ وزوجِه والذُّرِّيَّةِ؛ لأنَّ كلَّ واحدٍ منَ البشرِ فيه جزءٌ من آدمَ؛ إذًا أمْرُ الذريَّةِ معتبرٌ في صِيغة الجمع؛ أمَّا في سورةِ طهَ؛ فالأمرُ محمولٌ على طرفَي المواجهةِ، فالطَّرفُ الأوَّلُ: آدمُ وذرِّيتُهُ، والطَّرفُ الثَّاني: الشَّيطانُ وأعوانُهُ.

تَعدُّدُ جِهاتِ الهُبوطِ، لكوْنِ الأمْرِ جاء بتعميمِ أمْرٍ، هو بذِمّةِ آدمَ مَنُوطٌ

تأصُّل العَداوةِ بين إبليسَ وآدمَ وذرِّيتِه في السِّياقِ:

لمّا كانَ كلُّ مَنْ يسعى في هلاكِنا هو عدوٌّ لنا، ونحنُ عدوٌّ له، وكانَ إبليسُ قد أقسمَ بأنْ يغويَ بني آدمَ بالقُعودِ لهم على الصِّراطِ المستقيمِ، وإتيانِهم من جميعِ الجهاتِ، كما يأتي العدوُّ؛ ناسبَ أنْ تكونَ العداوةُ متواردةً بينَ الطَّرفين[2]، فقال تعالى: ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾.

إبليسُ يَسعَى في هلاكِ البَشرِ، وهو عدُوٌّ لهم، وهُم أعداءٌ له

نُكتةُ التَّعبيرِ بلفْظِ ﴿بَعْضُكُمْ﴾:

لمّا كانَ لفظُ (بعض) يُطلقُ على الفردِ منَ الشَّيءِ، وعلى الطَّائفةِ؛ دلَّ التَّعبيرُ بهذا اللَّفظِ على أنَّ عداوةَ إبليسَ لبني آدمَ قد تكونُ لفردٍ واحدٍ، أي: للأفرادِ على البدلِ، وقد تكونُ لطائفةٍ، كما في عداوتِه لطائفةِ المؤمنينَ؛ إذ أخبرَ عن عُمقِ صَرْفِه النّاسَ عن عبادةِ اللّه بقولِه:

عَداوةُ إبليسَ للفردِ الواحدِ، كما هي لِطائفةِ المؤمنينَ قاطبةً

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 3/9، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/221.
(2) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنة: 4/392.

﴿وَلَا تَجِدُ أَكۡثَرَهُمۡ شَٰكِرِينَ ١٧﴾ [الأعراف: 17]، زِيادَةً في بَيانِ قُوَّةِ إضْلالِهِ البشرَ، بِحَيْثُ لا يُفْلِتُ مِنَ الوُقُوعِ في حَبائِلِهِ إلّا القَلِيلُ مِنَ النّاسِ[1].

مُناسبةُ التَّعبيرِ بالبَعضيَّةِ ﴿بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ﴾:

البَادِئُ بالعَداوةِ لبني آدمَ هو إبليسُ اللَّعينُ

لمّا كانَ البعضُ الأوَّلُ هو إبليسُ، والبعضُ الثَّاني هو آدمُ وحوَّاءُ، أفادَ أنَّ المرادَ بالبعضِ البعضُ المخالِفُ في الجنسِ، بمعنى عداوةِ إبليسَ لآدمَ وجنسِه، وليس المرادُ عداوةَ بني آدمَ بعضِهم لبعضٍ[2]، كما أفادَ قولُه تعالى: ﴿بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞ﴾ أنّ البادئَ بالعَداوةِ هو إبليسُ اللَّعينُ.

دَلالةُ آيةِ البعضيّةِ، بين الحالِ والاستِئنافِ:

ثُبوتُ العَداوةِ بينَ إبليسَ وبني آدمَ، واستِمرارُها على مدَى الدّهرِ

تحتملُ جملةُ ﴿بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞ﴾ أنْ تكونَ حالًا، ولمَّا كانتِ اسميَّةً، وكانَ الحالُ على معنى اقترانِه بعامله؛ دلَّ الكلامُ على ثبوتِ اقترانِ العداوةِ بالهبوطِ، أي: إنَّهم نزَلُوا متعادِين؛ لإفادةِ استمرارِ العداوةِ وثبوتِها، فإبليسُ يعادِيهما، وهما يعادِيانِه، أي: إنَّ العداوة ثابتةٌ بين الجنِّ والإنسِ لا تزولُ البتّةَ[3]، كما تحتملُ أنْ تكونَ استئنافًا بيانيًّا، كأنَّهم لمَّا أُمروا بالهبوطِ سألوا: كيفَ يكونُ حالُنا؟ فأجيبوا بأنَّ بعضَكم لبعضٍ عدوٌّ، ولايخرجُ التَّركيبُ على هذا الاحتمالِ - أيضًا - عن معنى ثبوتِ العداوةِ واستمرارِها[4].

مُناسَبةُ التَّعبيرِ بالعَداوةِ، في قولِه تعالى: ﴿عَدُوّٞ﴾:

التَّمسُّكُ بالصِّراطِ المستقيمِ يَقِي مِن مَصارِعِ الشَّيطانِ الذّميمِ

أشعرَ التَّعبيرُ بالعداوةِ تحذيرَ بني آدمَ منَ الشَّيطانِ، وتذكيرَهم بعداوتِه لهم ولأصلِهم؛ ليتَّهمُوا كلَّ وسوسةٍ تأتيهم مِنْ قِبَلِه، وللإشعارِ بوجوبِ التَّهيُّؤِ له، كما يُتهيَّأُ للعدوِّ وذلك بالتّمسُّك بالصِّراط المستقيم[5].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/50.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/68.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/97، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 14/221.
(4) الآلوسّي، روح المعاني: 4/342.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/68.

بَلاغةُ التَّقديمِ ﴿ لِبَعْضٍ ﴾ والتَّأخيرِ للفظِ ﴿عَدُوٌّ﴾ في السِّياقِ:

لايزالُ إبليسُ يترصَّدُ لبني آدمَ، حتّى يُوقعَهم في شِباكِه

هذا من أساليب البيانِ القرآنيِّ الّذي يعبِّرُ عن ترتيب الكلماتِ والجُملِ بحسبِ ما يتناسبُ مع المقصودِ والموقفِ، فقد أفادَ تقديمُ ﴿لِبَعْضٍ﴾ على ﴿عَدُوٌّ﴾ الاهتمامَ؛ للتَّحذيرِ من عداوةِ إبليسَ والاهتمامِ بها، وللإشعارِ بترصُّده لآدمَ وذرِّيَّتِه.

سِرُّ التَّعبيرِ بالمفردِ: ﴿عَدُوٌّ﴾ دونَ (أعداءٌ):

العَدُوُّ مَصدرٌ يُطلقُ على المفردِ والمثنَّى والجمْعِ

عبَّر بلفظ ﴿عَدُوٌّ﴾ دون أعداءٍ، كأن يقولَ: (بعضُكم أعداءٌ لبعضٍ)؛ لأنَّ ﴿عَدُوٌّ﴾ مصدرٌ، فيُطلق على المفرد والمثنَّى والجمع. وأيضًا لأنَّ لفظَ (بعض) يُخبرُ عنه بالواحدِ لفظًا ومعنًى، وفيه إشارةٌ إلى أنَّ العداءَ بين آدمَ وذرّيته من جهةٍ، وبين إبليسَ وأعوانِه من جهةٍ أخرى، عداوةٌ واحدةٌ ناتجةٌ عنِ الطَّاعة والمعصيةِ. وللإشارةِ إلى الفرْقِ بين العداوةِ الإيمانيَّةِ والعداواتِ المجتمعيَّةِ، فأشكالُها متعدِّدةٌ وأسبابُها متنوعةٌ.

جُملة ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ﴾ بين الحاليَّةِ والاستئنافيَّةِ:

توسُّعُ المعنَى بتَنوُّعِ التَّقديرِ، من بديعِ كلامِ العليمِ الخبيرِ

قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾، لمّا كانتْ هذهِ الجملةُ معطوفةً على قولهِ تعالى: ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾[1]؛ احتملتْ أنْ تكونَ حالًا، أو استئنافًا بيانيًّا، مثلَ الجملةِ المعطوفِ عليها، فعلى تقديرِ الحالِ، يكونُ المعنى اقترانَ الهبوطِ بحالَين ثابتَين، أي: اهبطوا منها في حالِ تعاديكم، وفي حالِ أنْ يكونَ لكم في الأرضِ مستقرٌّ ومتاعٌ إلى حينٍ، وتحتملُ أنْ تكونَ استئنافًا بيانيًّا، فكأنَّهم لمَّا أُمروا بالهبوطِ؛ سألوا كيفَ يكون حالُنا في الأرضِ؟ فأجيبوا بما ذُكِرَ.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/69.

دَلالةُ صِيغةِ: ﴿مُسْتَقَرٌّ﴾:

تحتملُ الصِّيغةُ أنْ تكونَ مصدرًا ميميًّا، وأنْ تكونَ اسمَ مكانٍ، فإذا كانتْ مصدرًا ميميًّا، فالمعنى: ولكم في الأرضِ استقرارٌ ومُكثٌ؛ لِإفادةِ حقيقةِ الاستقرارِ في الأرضِ، كما تحتملُ الصِّيغةُ أنْ تكونَ اسمَ مكانٍ؛ لإفادةِ موضعِ الاستقرارِ والمُكثِ، وهو رأيُ جمهورِ المفسِّرين، والمعنى: في الأرض مكانُ استقرارِكم في حياتِكم، ومُكثِكُم فيها[1].

الأرضُ هي مكانُ استقرارِ بني آدمَ، ومَوضعُ مُكثِهم

دَلالةُ تقديمِ ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾، على قولِهِ تعالى ﴿مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ﴾:

لمّا تقدَّم الجارُّ والمجرورُ أفادَ الحاليَّةَ والعنايةَ والاهتمامَ، بمعنى إظهارِ العنايةِ والاهتمام ببيانِ حالِ مكانِ الاستقرارِ والمتاع لبني آدم، ويُحتمَلُ أنْ يفيدَ التَّخصيصَ - أيضًا - بمعنى لا يجتمعُ الاستقرارُ والمتاعُ في غيرِ الأرضِ الّتي نحن ساكنُوها، وقد يكونُ فيه إشارةٌ إلى وجهٍ منَ الإعجازِ العِلميِّ لم تتحقَّق معرفتُه لنا.

لا يجتمعُ الاستقرارُ والمتاعُ في غيرِ الأرضِ الّتي نحن سَاكِنُوها

سببُ إيثارِ العطْفِ، في قولِه تعالى: ﴿مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ﴾:

عطْفُ المتاعَ على الاستقرارِ في الأرضِ؛ لبيانِ أنَّ الاستقرارَ والمتاعَ في الأرضِ مقترنانِ لا يفترقانِ، والمعنى: ولكم في الأرضِ استقرارٌ أو مكانٌ تستقرُّونَ فيه في حياتِكم، ومتاعٌ تنتفعونَ به في معيشتِكم إلى حينٍ، وهذا المستقرُّ والمتاعُ هنا بمعنى قولِه تعالى في أوَّلِ هذا السِّياقِ: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ﴾ [الأعراف: 10]، فهو تعالى يذكِّرُنا فيما خاطبَ به آخرَنا على لسانِ آخرِ رسلِهِ وخاتمِهم ﷺ بما قاله لأوَّلِنا[2].

لا استقرارَ في الأرضِ مِنْ غيرِ تمتُّعٍ فيها، وتلك سُنّةُ الله في العُمْرانِ

دَلالةُ التَّنكيرِ، في قولِه: ﴿مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ﴾:

أفاد التَّنكيرُ في لفظَيْ ﴿مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ﴾ التَّقليلَ، بمعنى: أنَّ الاستقرارَ في الدُّنيا، والمتاعَ فيها قليلٌ، وإنْ طالَ بالنِّسبةِ لآجالِ

لا بقاءَ في الدّنيا لمتاعٍ، وإن طالَتِ الآجالُ، واتّسعتِ الأعمارُ

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 3/646، والآلوسّي، روح المعاني: 4/342.
(2) رشيد رضا، تفسير المنار: 8/313.

النَّاس، كما جاءَ في قولِه تعالى: ﴿قُلۡ مَتَٰعُ ٱلدُّنۡيَا قَلِيلٞ وَٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾، فالاستقرارُ ومتاعُ الدُّنيا سريعَا التقضِّي، وشيكَا الانصرامِ، وإنْ أُخِّر النَّاسُ إلى حينٍ.

سِرُّ تَقديمِ (المُستَقرّ) على (المتاعِ):

المستقرُّ لفظٌ شامِلٌ، يجمَعُ بين الحياةِ الدُّنيا وحَياةِ القُبورِ

قوله تعالى: ﴿وَلَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُسۡتَقَرّٞ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٖ﴾، قُدِّمَ المُستَقرُّ على المتاع؛ لأنَّه لفظٌ عامٌّ يشمَلُ زمنَ الحياة وزمنَ الإقامة في القبورِ، كما وصفَ اللّه الأرضَ الّتي نعيشُ عليها، بأنها تضمُّ على ظهرها أحياءً لا يُحصَوْن، وفي بطنها أمواتًا لا يُحصَرُون، بقوله تعالى: ﴿أَلَمۡ نَجۡعَلِ ٱلۡأَرۡضَ كِفَاتًا ٢٥ أَحۡيَآءٗ وَأَمۡوَٰتٗا ٢٦﴾ [المرسلات: 25 - 26]؛ أمَّا المتاعُ من نَيلِ الملذّات والمرغوباتِ غيرِ الدّائمة، أو ما يتَّمتعُ به وينتفعُ به منَ الأشياء؛ فهو بحسبِ كلِّ إنسانٍ ومدّةِ حياتِه؛ لأنَّ المتاعَ هو التَّمتُّعُ والنَّيلُ منَ الفوائدِ، وعلى ذلك؛ فالمتاعُ أخصُّ منَ المُستقرِّ.

نُكتةُ التَّعبيرِ بحرفِ الجرِّ، في: ﴿إِلَىٰ حِينٖ﴾:

المُكثُ والانتفاعُ في الدُّنيا، لهما وقتٌ يَنتهِيانِ إليه

أي: إنَّ المستقرَّ والمتاعَ بالغانِ ومنتهيانِ إلى حينٍ؛ ليكونَ إعلامًا منَ اللّهِ بما قدَّرهُ للإنسِ والجنِّ في هذهِ الأرضِ، وإيذانًا بأنَّ مُكثَهما وانتفاعَهما في الأرضِ لهما غايةٌ زمنيَّةٌ ينتهيان إليها، وليس في ذكرِ انتهاءِ الغايةِ امتنانٌ ولا تنكيلٌ بهم[1].

بَراعةُ التَّعبيرِ بلفْظِ ﴿حِينٖ﴾:

(الحينُ) مِنَ المشتركِ اللّفظيِّ الحاملِ أكثرَ مِن معنًى

عُبِّر بالحينِ لفوائدَ هي: لإفادةِ أنَّ المستقرَّ والمتاعَ في الأرضِ يكونُ لزمنٍ كثيرٍ وطويلٍ بالنَّظر إلى أعمارِ النَّاس وآجالِهم، فإنَّه لمَّا كانت أعمارُ النَّاسِ طويلةً، وآجالُهم عن أوائلِ حدوثِهم متباعدةً؛ جاز أنْ يقولَ: ﴿وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٖ﴾، كما يكونُ لفظُ ﴿حِينٖ﴾ دالًّا على الزّمنِ، فهو قصيرٌ بالنَّظرِ إلى مدَّةِ الدُّنيا إلى الآخرةِ، فمتاعُ الدُّنيا

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 8/69.

قليلٌ وقصيرٌ، ولمّا كانَ الحينُ في الآيةِ غيرَ مُعيّنٍ ولا محدَّدٍ بزمنٍ؛ احتُمِل أنْ يكونَ المرادُ به إلى حينِ الموتِ أو إلى حينِ يومِ القيامة، فيصحَّ حملُه على المعنيَيْنِ، فإذا كانَ بحسبِ الفردِ الواحدِ منَ النَّاس؛ فالمرادُ به الموتُ، وإذا كانَ بحسبِ عُمومِ النَّاس؛ فالمرادُ به قيامُ السَّاعةِ، وعلى كلا التَّقديرين يشملُ المستقرُّ والمتاعُ زمنَ الحياةِ كلِّها[1].

مُناسبةُ تَنْكيرِ لفْظِ ﴿حِينٍ﴾:

نُكِّرَ لفظُ ﴿حِينٍ﴾ هنا، ولم يحدَّدْ؛ لاختلافِ مقدارِه، فقد يكونُ الاستقرارُ في الأرضِ والتَّمتُّع فيها طويلًا، وقد يكونُ قصيرًا، وذلكَ باختلافِ الأجناسِ والأفرادِ، وباختلافِ النَّظرِ إلى المجموعِ أو إلى الأفرادِ كما تقدَّمَ[2].

الاستقرارُ والتَّمتُّعُ في الأرضِ، يختلفُ قِصَرًا وطُولًا باختلافِ الأجناسِ والأفرادِ

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(الهبوطُ) و(النّزولُ):

عبَّرَ بالهبوطِ دونَ النُّزول؛ لوجودِ فرقٍ بينهما، فالنُّزولُ: هو الحلولُ والانحطاطُ من عُلوٍّ، ويُعَبَّرُ بالنَّازلة عنِ الشِّدَّة في الحربِ، ويُستعملُ الإنزالُ في الدَّلالةِ على نزولِ الأشياءِ من جهة العُلوِّ للدَّلالة على شرفِها وعُلُوِّها؛ كإنزال الملائكةِ والقرآن والغيثِ ونحوِ ذلكَ.

الهُبوطُ نقيضُ الصُّعودِ، وهو نزولٌ تَعقبُهُ إقامةٌ، والنّزولُ الانحدارُ من عُلوٍّ فقط

أمَّا الهبوطُ؛ فيُطلقُ على الانحدارِ على سبيلِ القهرِ، وهو نقيضُ الصُّعود، ويقالُ: رجلٌ مَهْبُوط، أي: نَقُصت حالُه، وعلى ذلك؛ فالتَّعبيرُ بالهبوطِ، هو المناسبُ هنا للنَّقص الّذي طرأَ على آدمَ وزوجِه وعلى إبليسَ، وأيضًا؛ لأنَّ الهبوطَ نزولٌ تعقبُه إقامةٌ، فتقولُ: هبطْنا مكانَ كذا: أي: نزلناه وأقمْنا فيه؛ لذلك كان التَّعبيرُ بالهبوط

(1) الزّجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 1/116، وابن عطية، المحرر الوجيز: 2/387، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 3/646.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 8/69.

دون النُّزول هو المناسبُ لحال آدمَ؛ لأنَّه خليفةُ اللّه في الأرض، والخلافةُ تقتضي الإقامةَ فيها.

(الحينُ) و(الوقتُ) و(الأجلُ):

آثرَ التَّعبيرَ بـ(الحين) دونَ الوقت؛ لأنَّ الحينَ أعمُّ منَ الوقتِ والأجل، حيث يُطلقُ على بلوغ الشَّيءِ وحُصولِه، وهو مُبهمُ المعنى، ويتخصَّصُ بالمضاف إليه، نحوَ: ﴿وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾، ويأتي بمعنى الأجل، نحو: ﴿وَمَتَّعۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ حِينٍ﴾، وبمعنى السَّنَة: ﴿تُؤۡتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينِۭ﴾ [إبراهيم: 25]، وبمعنى السَّاعة: ﴿فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمۡسُونَ وَحِينَ تُصۡبِحُونَ ١٧﴾ [الرّوم: 17]، وللزَّمانِ المطلقِ: ﴿هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ حِينٞ مِّنَ ٱلدَّهۡرِ﴾ [الإنسان: 1]، بخلاف الأجلِ؛ فهو المدَّةُ المضروبةُ للشَّيء، ويقالُ للمدَّة المضروبةِ لحياة الإنسان: أجلٌ، قال تعالى: ﴿وَلِتَبۡلُغُوٓاْ أَجَلٗا مُّسَمّٗى﴾ [غافر: 67].

أمَّا الوقتُ؛ فيُطلقُ على نهاية الزَّمانِ المفروضِ للعمل، ولهذا لا يكادُ يُقالُ إلا مُقيَّدًا، نحوَ قولِه: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتۡ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ كِتَٰبٗا مَّوۡقُوتٗا ١٠٣﴾ [النساء: 103]. وبناءً على كلِّ ذلك: كان التَّعبيرُ بـ ﴿حِينٍ﴾ هو المناسبُ لهذا السِّياقِ؛ لأنَّ استقرارَ البعضِ تتعدَّد أحوالُه وأزمنتُهُ.

(الحينُ) يُطلقُ على بلوغِ الشَّيءِ وحُصولِه، والوقتُ على نهايةِ الزَّمانِ المفروضِ للفعلِ والأجلُ المدّةُ المضروبةُ للشّيء

﴿قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ۝٢٥﴾ [الأعراف: 25]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الهبوطُ إلى الأرض المُهيّأة للمَحيَا والرُّفاتِ، والبعثِ بعدَ المماتِ

لَمَّا ذكرَ اللهُ تعالى في الآيةِ السَّابقةِ أنَّه أهبط آدمَ وزوجَه إلى الأرضِ؛ استأنفَ الكلامَ؛ فأخبرَهما بحالِ إقامتِهما في الأرضِ، وأنَّها ليستْ دارَ خُلودٍ، وأيضًا لمّا أجملَ الكلامَ في قولِه: ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ فسَّرَه، وبيَّنه في هذهِ الآيةِ.

المَعْنى الإجْماليُّ:

الأرضُ مَحضنُ الحياةِ والموتِ

قال اللهُ تعالى لآدمَ وحوَّاءَ وذرّيتِهما: في الأرض تقضون أيّامَ حياتِكم الدُّنيا، وفيها تكونُ وفاتُكم، ومنها يُخرجُكم ربُّكم، ويَحشرُكم أحياءً يومَ البعثِ[1].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

دَلالةُ فصْلِ هذهِ الآيةِ عمَّا قبْلَها:

تعدُّدُ المخاطَبين في الآيةِ، يَستوعِبُ المعانيَ العديدةَ ويَختصِرُها

جاءتِ الآيةُ بطريقِ الاستئنافِ الابتدائيِّ؛ لِلاهتمامِ بالخبرِ، إيذانًا بتغيُّرِ الخطابِ، وإعادةِ القولِ مع جوازِ الاستغناءِ عنه بالواوِ؛ فإنَّ قولَه: ﴿قَالَ ٱهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ خطابٌ لآدمَ وزوجِهِ والشَّيطانِ، والمخاطَبُ في هذه الآية آدمُ وزوجُه وأبناؤُهما، فإنْ كان هذا الخطابُ قبلَ حدوثِ الذُّرِّيَّةِ لهما - كما هو ظاهرُ السِّياقِ - فهو خطابٌ لهما بإشعارِهما أنَّهما أَبَوَا خلْقٍ كثيرٍ، كلُّهم هذا حالُهم، وهو منْ تغليبِ الموجودِ على مَنْ لم يُوجَدْ، باعتبارِ أنَّ الموجودَ أصلٌ لِمَن سيوجدُ، وإنْ كانَ قد وقعَ بعد وجودِ الذُّرِّيَّةِ لهما، فوجهُ الفصْلِ أظهرُ وأجدرُ، بأنْ يكونَ بين الخطابَيْنِ تخالفٌ مّا،

(1) مجموعة من المؤلّفين، التّفسير الميسّر، ص: 153.

فالمخاطَبُ بالأوَّلِ: آدمُ وزوجُه والشَّيطانُ، والمخاطَبُ بالثَّاني: آدمُ وزوجُه وأبناؤُهما[1].

دَلالةُ الآيةِ بينَ كوْنِها تفسيريَّةً أوِ استئنافيَّةً:

تخالُفُ القولَيْنِ بين التَّخاطُبِ والتَّقديرِ والقضاءِ، مُستوعِبٌ للمُرادِ

يحتملُ القولُ مع مقُولِه في الآيةِ أنْ يكونَ كالتَّفسيرِ والبيانِ لِقَوْلِهِ: ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾، وَلِذَلِكَ جَاءَ ﴿قَالَ﴾ بِغَيْرِ وَاوِ العَطْفِ، فقد ذكرَ موضعَ الاستقرارِ والمتاعَ في الأرضِ، ولم يذكرْ مكانَ الموتِ ولا مكانَ الخروجِ إلى يومِ البعثِ، فتُمِّمَ هُنَا المَقْصُودُ بِالتَّنْبِيهِ عَلَى موضعِ الموتِ، وعلى البَعْثِ وَالنُّشُورِ للإشارةِ إِلَى المُجَازَاةِ بِالثَّوَابِ وَالعِقَابِ، ففيه بيانٌ للمعنى، وتكثيرٌ له، ويكونُ الكلامُ بمجموعِ المفسَّرِ والمفسِّرِ أكثرَ إيضاحًا وبيانًا[2].

ويحتملُ أنْ يكونَ استئنافًا بيانيًّا؛ لِتنبيهِ السَّامعِ ولِاستدرارِ إصغائِه، فيما هو مهمٌّ، وينبغي العنايةُ به، ولِتكثيرِ المعنى كذلك، فإنَّه لمّا قال تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾، كأنَّه قيل: وكيف يكونُ الاستقرارُ والمتاعُ في الأرضِ، أو وماذا يكونُ حالُنا بعدَ ذلك؟ فالكلامُ على تقديرِ سؤالٍ مَطويٍّ يُعرَفُ منَ السِّياقِ، ولم يُذكَرْ؛ لئلَّا ينقطعَ الكلامُ، فأجابَ بطريقِ الإخبارِ والإعلامِ، فقال تعالى: ﴿قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾.

وجُعِل تغييرُ الأسلوبِ وسيلةً للتَّخلُّصِ إلى توجيهِ الخطابِ إلى بني آدمَ؛ لأنَّ الأرضَ قرارُهم ومنها مَبْعَثُهُم، وفيه إشارةٌ إلى التَّفريقِ بينَ القَولَيْنِ؛ ففي قولِه: ﴿قَالَ ٱهْبِطُواْ﴾ هو قولُ مخاطَبةٍ؛ أمَّا في هذهِ الآيةِ: ﴿قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ﴾ الآية؛ فهو قولُ تقديرٍ أي: قَدرُ اللّٰه أنَّكم فيها تحيَون، وفيها تموتون، ومنها تُخرجون.

(1) الواحديّ، الوجيز، ص: 390، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 3/464، ورشيد رضا، تفسير المنار: 8/313، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/69.

(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 3/464، وأبو حيّان، البحر المحيط: 5/29، ورشيد رضا، تفسير المنار: 8/313.

بَلاغةُ تقديمِ الجارِّ والمجرورِ في جملة ﴿فِيهَا تَحْيَوْنَ﴾:

الأرضُ مَوضِعُ حياةِ بني آدمَ واستقرارِهم ومَتاعِهم ومماتِهم وبعثِهم

أفادَ تقديمُ الجارِّ والمجرورِ ﴿فِيهَا﴾ على الفعلِ ﴿تَحْيَوْنَ﴾ الاهتمامَ والعنايةَ بالحياةِ في الأرضِ الّتي جُعِلَ فيها موضعُ استقرارِ بني آدم ومتاعُهم فيها، إذْ كانتْ هي مقرَّ جميعِ أحوالِهم، وقد جُعِلَ هذا التَّقديمُ وسيلةً إلى مراعاةِ النَّظير؛ إذْ جمعتِ الأرضُ حياتَهم ومماتَهم ومكانَ إخراجِهم إلى البعثِ يومَ القيامة، فالأرضُ واحدةٌ، وقد تداولتْ فيها أحوالُ سكَّانِها المتخالفةِ تخالفًا بعيدًا[1]، كما يحتملُ أنْ يفيدَ التقديمُ الحصرَ؛ ليدلَّ على التَّخصيصِ، بمعنى تخصيصِ حياة بني آدم الّتي فيها الاستقرارُ والمتاعُ في الأرضِ لا في غيرِها، فهذا حُكمٌ من اللّه - ﷻ - أمضاه وجعلَه حتْمًا في رقابِ العبادِ، يحيَوْن في الأرضِ لا في غيرِها، ويموتونَ فيها، ويُبعثونَ منها إلى الحشرِ أحياءً كما أنشأَ أوَّل خلقٍ يُعيدُه[2].

دَلالةُ عَوْدِ الضَّميرِ في قولِه تعالى: ﴿فِيهَا تَحْيَوْنَ﴾ وما بعدَهُ:

حياةُ بني آدمَ في الأرضِ مَشُوبةٌ بالمنغِّصاتِ

عُبِّر بالضَّمير في الآيةِ في ثلاثةِ مواضعَ، فقال: ﴿فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾؛ لِيعودَ إلى الأرضِ في قولِه: ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾، إذْ وقعَ الجارُّ والمجرورُ حالًا للمستقرِّ والمتاعِ؛ لِلإشعارِ بأنَّ الحياةَ الّتي تحيونَها في الأرضِ هي حياةُ المُكثِ والمتاعِ إلى حينٍ، وهي مقترنةٌ بعداوةِ إبليسَ لكم، فلا استقرارَ ولامتاعَ دائمَيْن في الأرض، ولاخلودَ في العيشِ فيها.

والإضمارُ كذلك خلافُ الإظهارِ، في هذا إشارةٌ إلى أنَّ الحياةَ الدّنيا لبني آدمَ على الأرض هي حياةٌ ينبغي ألَّا تظهرَ، ولا تُقدَّمَ على حياة الآخرة؛ لأنَّ الحياةَ الدُّنيويةَ موقوتةٌ بدليل الموتِ فيها والإخراجِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/71.

(2) ابن عطية، المحرّر الوجيز: 2/388، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 3/646، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 8/362.

منها، وعلى هذا فالحياةُ الحقيقيَّةُ الظَّاهرةُ هي الدَّارُ الآخرةُ، قالَ تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ لَهِيَ ٱلۡحَيَوَانُۚ﴾ [العنكبوت: 64].

دَلالةُ مَجيءِ الضَّميرِ بصِيغةِ الجمعِ في الآيةِ:

شُمولُ الحُكمِ الموجودِينَ والَّذينَ سيُوجدُونَ مِنْ بعدُ

دلَّ ضميرُ الجمعِ على كلامٍ مَطويٍّ حُذفَ للإيجازِ: وهو أنَّ آدمَ وزوجَه استقرَّا في الأرضِ، وجُعِلَ لهما ذرِّيَّةٌ، وأنَّ اللّٰه أعلمَهم بطريقٍ من طُرقِ الإعلامِ الإلهيِّ بأنَّ الأرضَ قرارُهم، ومنها مبعثُهم، لِيشملَ هذا الحكمُ الموجودينَ منهم يومَ الخطابِ والَّذين سيوجدونَ مِنْ بعدُ[1].

هلْ يدخلُ البحرُ في قولِه تعالى: ﴿فِيهَا تَحۡيَوۡنَ﴾؟

البحرُ ليسَ موضِعَ حياةٍ بالمعنى المتعارَفِ عليه، ولكنّه يمدُّ اليابسةَ بالحياةِ

إمَّا أنْ يقالَ: البحرُ منَ الأرضِ، فيدخلُ في الكلامِ، أو هو في الأرضِ، فتكونُ الأرضُ ظرفًا له، فيدخلُ فيها تبعًا[2]، وإمَّا أنْ يقالَ: لمّا علَّقَ الحياةَ في الأرضِ على كونِها موضعَ إقامةٍ ومتاعٍ طويلٍ بالنَّظرِ إلى أعمارِ النَّاسِ الطَّويلةِ وآجالِهم المتباعدةِ لم يدخلِ البحرُ في قولِه: ﴿فِيهَا تَحۡيَوۡنَ﴾؛ لِأنَّه ليس موضعَ حياةٍ بالمعنى المذكورِ؛ لأنَّ اللَّفظَ؛ إذا أُطلقَ انصرف إلى المتعارَفِ عليه.

سِرُّ التَّعبيرِ بالحياةِ، في قولِه تعالى: ﴿فِيهَا تَحۡيَوۡنَ﴾:

الحياةُ أعمُّ منَ المعيشةِ، والمعيشةُ من خصائصِ الحيوانِ، عاقلًا كان أو غيرَ عاقلٍ

عبَّر بالحياة دونَ المعيشةِ؛ لأنَّه سبقَ ذكرُها في قولِه تعالى: ﴿وَلَقَدۡ مَكَّنَّٰكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَجَعَلۡنَا لَكُمۡ فِيهَا مَعَٰيِشَۗ﴾؛ فلمَّا سبق ذكرُ المعايشِ، جاء هنا ليبيِّن المكانَ الّذي تكونُ فيه المعيشَةُ.

وأيضًا؛ لأنَّ الحياةَ أعمُّ منَ المعيشةِ، ذلك لأنَّ المعيشة تختصُّ بالحيوانِ، فهي أخصُّ منَ الحياةِ، ولذلك تطلقُ الحياةُ على اللّٰهِ؛ بخلافِ المعيشةِ، فهي من خصائصِ الحيوانِ، عاقلًا كان أو غيرَ عاقلٍ، قال تعالى: ﴿نَحۡنُ قَسَمۡنَا بَيۡنَهُم مَّعِيشَتَهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ﴾.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 8/71.
(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 8/362.

بَلاغةُ تقديمِ الجارِّ والمجرورِ في قولِه تعالى ﴿وَفِيهَا تَمُوتُونَ﴾:

قُدِّمَ الجارُّ والمجرورُ ﴿وَفِيهَا﴾؛ لِلاهتمامِ والعنايةِ بالأرضِ كما تقدَّمَ في الكلامِ على تقديمِ الجارِّ والمجرورِ عندَ قولِه: ﴿فِيهَا تَحْيَوْنَ﴾، ولا يبعدُ أنْ يكونَ التَّقديمُ للحصرِ - أيضًا - بتقديرِ المجموعِ بما يدلُّ عليه ضميرُ الجماعةِ (الواو)، أي: في الأرضِ تموتونَ بمجموعِكُم، وإنِ احتُمِلَ أنْ يموتَ بعضُ الأفرادِ في غيرِ الأرضِ، والبحرُ هنا داخلٌ باعتبارِ أنَّه منَ الأرضِ أو أنَّ الأرضَ ظرفٌ له.

الاهتمامُ والعنايةُ بالأرضِ، إذْ فيها نِهايةُ المطافِ، بالموتِ الزُّعافِ

سِرُّ التَّعبيرِ بقولِه تعالى: ﴿تَمُوتُونَ﴾:

عبَّر القرآنُ الكريمُ بقولِه: ﴿تَمُوتُونَ﴾ الَّذي يحملُ معنى إنهاءِ الحياةِ على وجهِ الأرضِ دونَ (تُقبرون)؛ لأنَّ القبرَ هو المَقرُّ الَّذي يُقبر فيه الميِّتُ بعد موتِه، قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ﴿٢١﴾﴾ [عبس: 21]، فالقبرُ مرحلةٌ تاليةٌ بعد الموتِ، لذلكَ عبَّر بالموتِ دونَ القبرِ. وفيه إشارةٌ إلى أنَّ بعضَ الأجناسِ على الأرضِ منَ الدَّوابِّ تموتُ ولا تُقبر، إذًا فالموتُ هو العُنوان الأعمُّ.

الموتُ هو العُنوان الأعمُّ لانْقضاءِ الحياةِ، وانْصِرامِ العُمُرِ

بديعُ الطِّباقِ، في قولِه: ﴿تَحْيَوْنَ﴾، ﴿تَمُوتُونَ﴾:

وردَ الطِّباقُ في الفعلَيْن، وهو من طباقِ الضِّدِّ؛ للإشعارِ بقصَرِ الحياةِ في الأرضِ، فمتاعُ الدُّنيا قليلٌ وقصيرٌ، وللإشعارِ بأنَّ الموتَ حتمٌ على الإنسانِ.

الموتُ حَتْمٌ على الإنسانِ، وكلُّ مَن عليها فانٍ

بَلاغةُ تقديمِ الجارِّ والمجرورِ في قولِه تعالى ﴿وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾:

أفاد تقديمُ الجارِّ والمجرورِ الاهتمامَ والعنايةَ بمكانِ الإخراجِ إلى الحشرِ، وأفادتِ الجملةُ أنَّ الخطابَ في الآيةِ لبني آدمَ، وإبليسُ غيرُ داخلٍ في الخطابِ؛ لأنَّ الإخراجَ منَ الأرضِ يقتضي سبقَ الدُّخولِ في باطنِها، وذلك هو الدَّفنُ بعد الموتِ، والشَّياطينُ لا يُدفنون، وقد أمهلَ اللهُ إبليسَ بالحياةِ إلى يومِ البعثِ، فهو يُحشرُ حينئذٍ، أو يموتُ ويُبعثُ، ولا يعلمُ ذلك إلَّا اللهُ تعالى[1].

مِن خصائصِ بني آدمَ، أنَّهم يُقبَرون، والشَّياطينُ لا يُقبَرون

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 8/71.

سِرُّ التَّعبيرِ بالإخراجِ في قولِه تعالى ﴿وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾:

الإخراجُ أعمُّ منَ البعثِ، وهو بُروزٌ منَ الأرضِ بعدَ اللُّبْثِ

آثرَ التَّعبيرَ بالإخراجِ دون البعثِ؛ لأنَّ الإخراجَ منَ الأرضِ يقتضي سبْقَ الدُّخولِ في باطنها، كما قال تعالى: ﴿۞مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ۝٥٥﴾ [طه: 55]، والمرادُ بهِ الدفنُ بعد الموتِ، ومن المعلومِ أنَّ إبليس ومعه ذرِّيَّتُهُ لا يَجري عليهم ذلك؛ لأنَّه طلبَ من اللّٰه أن يُنظرَه إلى يوم البعثِ، وأجابهُ اللّٰه إلى ذلك بقوله: ﴿إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ﴾ فهو باقٍ إلى يومِ البعث؛ فيموتُ عندها، ثم يُبعث. وأيضًا؛ لأنَّ البعثَ ضربان: بشريٌّ، كبعثِ الإنسانِ في حاجةٍ، وإلهيٌّ كإيجاد الأعيان والأجناسِ والأنواعِ عن لَبْسٍ، وذلك يختصُّ به الباري تعالى، ومنه - أيضًا - إحياءُ الموتى.

بَديعُ المقابلةِ بين الأفعال ﴿تَحْيَوْنَ﴾ و﴿تَمُوتُونَ﴾، و﴿تُخْرَجُونَ﴾:

الدّلالةُ على الإدخالِ في الأرضِ وعكسِه، مَلْمَحٌ كَونيٌّ مَسنونٌ

لمّا كان الإحياءُ والإماتةُ في الأرض بعد الهبوطِ إليها بمعنى: الإدخالِ فيها، ناسبه أن يقابلَهما بالإخراج، فقال: ﴿وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾، ويؤيِّدُه اقترانُ الفعلَيْن ﴿تَحْيَوْنَ﴾ و﴿تَمُوتُونَ﴾ بالجار والمجرور ﴿فِيهَا﴾ ليقابلَ الجارَّ والمجرورَ ﴿وَمِنْهَا﴾، المقترنَ بقولِه: ﴿تُخْرَجُونَ﴾.

دَلالة المضارعيّة في ﴿تَحْيَوْنَ﴾ و﴿تَمُوتُونَ﴾ و﴿تُخْرَجُونَ﴾:

مِن دلائلِ عظَمةِ اللهِ وقُدْرتِه، أنّه يَبعثُ النَّاسَ كلَّهم في آنٍ واحدٍ

أفادتْ صيغةُ المضارعِ استمرارَ تجدُّدِ الحياةِ وتجدُّدِ الموتِ للنَّاس في الأرضِ حالًا فحالًا، وهو ظاهرٌ كما في الواقع، ولمّا كان الحشرُ في يومٍ واحدٍ؛ كان التَّعبيرُ عنِ الإخراجِ منَ الأرضِ إلى الحشرِ بـ﴿تُخْرَجُونَ﴾ على معنى إخراجِ كلِّ فردٍ منَ الأمواتِ في ذلكِ الوقتِ، فيكونُ بمجموعِ خروجِ النَّاس تجدُّدٌ في الإخراجِ، وفيه بيانٌ لعظمةِ اللّٰه وقُدرتِه المطلقةِ؛ إذ يُخرج النَّاس كلَّهم في يومٍ واحدٍ.

القراءاتُ القرآنيَّةُ وأثرُها في ضبْطِ لفْظِ ﴿تُخْرَجُونَ﴾:

قرأ الجمهورُ: ﴿تُخْرَجُونَ﴾ على البناءِ للمفعولِ، منَ الفعلِ

الرُّباعي (أُخْرِج يُخْرَجُ)، أي: (تَخْرُجون أنتم بأمرِ اللّه خُرُوجًا)، ولم يُذكرِ الفاعلُ للعلمِ به، فخروجُ الأمواتِ منَ القبورِ، إنَّما هو بإخراجِ اللّه تعالى إيَّاهم، وفي هذا بيانٌ لحالةِ بني آدمَ في الأرضِ الّتي أُنزِلَ آدمُ إليها، وبيانُ بعثِهم منها، وفي القراءةِ إشعارٌ بهولِ الموقفِ، وتعظيمُ شأنِ البعثِ من القبور. وقرأ حمزةُ والكسائيُّ وخلَفٌ العاشرُ وابنُ ذكوان عن ابنِ عامرٍ: (تَخْرُجُونَ) من الفعل الثلاثيِّ: (خرجَ يخرج)، بالبناء للفاعل بنسبة الفعل إلى بني آدم؛ ليكون على نسقِ ﴿تَحْيَوْنَ﴾ و﴿تَمُوتُونَ﴾[1].

تعدّد القراءات المتواترة بمنزلةِ تعدّد الآيات من حيث إثراء المعنى

دَلالةُ حذْفِ مُتَعلَّقِ ﴿تُخْرَجُونَ﴾:

حُذفَ مُتعلَّقُ الفعلِ ﴿تُخْرَجُونَ﴾؛ ليشملَ خروجَ الرُّوحِ والبدنِ بعد الموتِ للجزاءِ والثَّوابِ، ولبيان إفادةِ العُمُومِ، حيثُ إنّ الإخْراجَ منَ الأجْداثِ، يضُمُّ الشّيوخَ والأحْداثَ.

بَراعةُ الإيجازِ في الآيةِ الكريمةِ:

تضمَّنتِ الآية إيجازًا بليغًا؛ إذِ اختصرت حياةَ النَّاسِ في الأرضِ، وموتَهم وبعثَهم منها في ثلاثِ جملٍ، يلخّصها بعبارات جامعة مانعة، قوله تعالى: ﴿فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾.

بلاغةُ الإيجازِ في اختِصارِ مَسيرةِ حياةِ النَّاسِ في ثَلاثِ جُمَلٍ

(1) الأزهريّ، معاني القراءات: 1/402، وابن الجزريّ، النّشر في القراءات العشر: 2/267.

﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ ٢٦﴾ [الأعراف: 26]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

رَبْطُ الحياةِ والمصيرِ في الأرضِ، بالتَّذكيرِ بنِعمةِ اللِّباسِ الحِسِّيِّ والمعْنويِّ

لَمَّا ذكرَ اللّٰهُ تعالى في الآياتِ السَّابقةِ قصَّةَ آدمَ وزوجِه، وفيها سترُ السّوْءَات بعد انكشافِها بسبب المعصيةِ، قاما بخصفِ الأوراقِ منَ الجنَّة للسَّتر بها؛ ذكرَ في هذه الآية ما امتنَّ بهِ على بني آدمَ من إنزالِ اللِّباس الذي يسترُ العوراتِ، ويُتجمَّلُ بهِ للزِّينة.

وأيضًا لمّا بيَّن فيما مضى أنَّ موجبَ الإخراجِ منَ الجنَّة هو ما أوجبَ كشفَ السَّوْءَةِ منَ المخالفة وبعدَ أنْ حكمَ بإسكانِنا في الأرضِ شرعَ يحذِّرُنا مِنْ عدوِّنا كما حذَّرَ أبانا آدمَ، فذكرَ كلَّ ما يُحتاجُ إليه في الدِّينِ والدُّنيا منَ النَّصائحِ الهاديةِ إلى أقومِ طرقِ تربيَتِهم لأنفسِهم، ومن جُملتِها اللِّباسُ؛ إيذانًا بما في كشفِ العورةِ منَ الفضيحةِ والإبعادِ من كلِّ خيرٍ، وإشعارًا بأنَّ التَّستُّرَ بابٌ عظيمٌ من أبوابِ التَّقوى[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿لِبَاسٗا﴾: أصلُ اللَّبْسِ: سترُ الشَّيءِ وتغطيتُه، يقال: لَبِسَ الثَّوبَ يَلْبَسُه لُبْسًا، أي: استتر به، وألبستُ الشَّيءَ، إذا غطَّيْتَهُ، واللِّبَاسُ واللَّبُوسُ واللَّبْسُ هو ما يُلْبَسُ ممَّا يغطِّي البدنَ، وجُعلَ اللِّباسُ لكلِّ ما يغطِّي منَ الإنسان عن قبيحٍ، و﴿لِبَاسٗا﴾ في الآية ما يَلْبَسونَ منَ الثِّيابِ[2].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/378.

(2) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (لبس)، وابن جرير، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، تح، شاكر: 12/361.

2) ﴿وَرِيشًا﴾: يدلُّ أصلُ مادَّةِ الكلمةِ على حُسنِ الحالِ، وما يكتسبُ الإنسانُ من خيرٍ، فالرِّيش: الخيرُ، والرِّيشُ والرِّياش: الخِصبُ، والمعاشُ، والمالُ، والأثاثُ، ورشتُ فلانًا أريشُه ريشًا؛ إذا قمتَ بمصلحةِ حاله، ورِيشُ الطَّائر: كسوتُه، وهو معروف، وقد يُخَصُّ الجناحُ من بين سائرِه، ولكونِ الرِّيشِ للطَّائر كالثِّيابِ للإنسان؛ استُعير للِّباسِ الحسنِ. و﴿وَرِيشًا﴾ في الآية: مَا ظهر من الثِّياب ممَّا يُلبس، أو بمعنى الخِصبِ ورفاهةِ العيش[1].

3) ﴿ءَايَٰتِ﴾: جمع آيةٍ، وهي مُشتقَّةٌ من (أيِّ)، فإنَّها هي الّتي تُبيِّن أيًّا من أيٍّ، أو من قولهم: أويَ إليه، والصحيح أنَّها مُشْتَقَّة منَ (التَّأيِّي) الّذي هو التَّثبُّتُ والإقامةُ على الشَّيء. ويدورُ معناها على العلامة الظَّاهرةِ الجسيمةِ، وقد تكونُ علامةً إعجازيةً، كقولِه تعالى: ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً﴾ [الأعراف: 73]، أو علامةً لأمرٍ من عند اللّه؛ وإن لم يكن من باب المعجزاتِ: ﴿قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّىٓ ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا﴾ [آل عمران: 41]، أو علامةً دالَّةً على وجود الخالقِ وصُنعِه في هذا الكون من مثلِ قولِه: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ [فصلت: 53]، وقد تأتي بمعنى العِبرةِ للاتِّعاظ، كقولِه تعالى: ﴿۞لَّقَدْ كَانَ فِى يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ۝٧﴾ [يوسف: 7]، ومنَ الجسامة الآيةُ منَ القرآن الكريم لجماعةٍ من حروف القرآن، أي: كلماته الّتي تبيِّنُ أوَّلَها وآخرَها توقيفًا[2]، و﴿ءَايَٰتِ﴾ في الآية: بمعنى علاماتٍ عظيمةٍ ظاهرةٍ على فضل اللّهِ ورحمتِه[3].

المَعْنى الإجْماليُّ:

يقول تعالى: يابني آدمَ قدْ رزقناكم لباسًا يسترُ عوراتِكم عن أعينِكم، ولباسًا للزِّينة والتَّجمُّلِ، ولباسُ التَّقوى بالإيمانِ والعملِ الصَّالحِ هو خيرُ لباسٍ لكم، ذلكَ الّذي مَنَّ اللّهُ به عليكم منَ الدَّلائلِ على ربوبيَّةِ اللّهِ تعالى ووحدانيَّته وفضلِه ورحمتِه بعبادِه؛ لكي تتذكَّروا هذهِ النِّعَمَ، فتحرصُوا على طاعتِه وتشكروهُ على نِعَمِه.

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (ريش)، والسّجستانّي، غريب القرآن، ص: 246.
(2) ابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (أيي).
(3) البيضاويّ، أنوار التنّزيل: 3/9.

اللِّباسُ استجابةٌ للفطرةِ، وصِيانةٌ للحياةِ، والتّقوَى أنفعُ في الحياةِ وبعدَ المماتِ

وفي الآيةِ إظهارٌ للمنَّةِ فيما خُلِقَ منَ اللِّباسِ؛ لِمَا في العُرْيِ وكشفِ العورةِ منَ المهانَةِ والفضيحةِ[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دَلالةُ فصْلِ هذهِ الآيةِ عمَّا قبْلَها:

إبطالُ عاداتِ المشركينَ الجاهليَّةِ، كالطَّوافِ بالبيتِ عُراةً

فُصِلت هذه الآيةُ عمَّا قبلَها؛ لأنَّها استئنافٌ ابتدائيٌّ، عادَ الخطابُ فيها إلى سائرِ النَّاس الّذينَ خُوطبوا في أوَّل السُّورةِ بقولِه تعالى: ﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ الآيات، وهم أمَّةُ الدَّعوة؛ لأنَّ الغرضَ منَ السُّورة، إبطالُ ما كان عليه مشركُو العربِ منَ الشِّرك وتوابعِه من أحوالِ دِينهم الجاهليِّ.

بَلاغةُ النِّداءِ، في قولِه تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ﴾:

تنوُّعُ المعاني البلاغيَّةِ بأُسلوبِ النِّداءِ، من لَطيفِ البيانِ في القرآنِ

في نداءِ النَّاس بنسبتِهم إلى آدمَ ﷺ فوائدُ لطيفةٌ متنوِّعةٌ، هي[2]:

أولاً: تذكيرٌ بعداوةِ الشَّيطانِ لآدمَ وذرّيَّتِه وبما أصابَه بسببِ طاعةِ الشَّيطانِ من كشفِ السَّوءات؛ لتتَّخذَ ذرّيَّتُه الشيطانَ عدوًّا لها، وتحترسَ منَ الوقوعِ في شَركِه.

ثانيًا: تذكيرُ بني آدمَ بما أنعمَ اللّهُ على آدمَ بالتَّوبةِ، وما أخبرَ به من إسكانِهمُ الأرضَ واستقرارِهم فيها.

ثالثًا: فيه إشارةٌ إلى طبيعة الذُّرِّيَّةِ بأنَّ من شأنها أن تثأرَ لأبنائها، وتعاديَ عدوَّهم، وتحترسَ منَ الوقوعِ في شَرَكِ عداوتهم.

رابعًا: فيه إشارةٌ - أيضًا - إلى عالميَّة الدّعوةِ؛ لأنَّه خطابٌ لجميع الأممِ في زمن بعثتِه ﷺ.

خامسًا: وفيه إشارةٌ إلى عادةٍ من عادات العربِ مُفادُها: أنَّها

(1) البغويّ، معالم التّنزيل: 2/186، والزّمخشريّ، الكشّاف: 2/97، ونخبة من أساتذة التفسير، التّفسير الميسر، ص: 153.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/73.

إذا عظَّمت قبيلةً؛ نَسَبَتْ إلى الجدِّ الأقربِ والأشهرِ، وإذا لم تُعظِّمْ؛ نَسَبَتْ إلى الجدِّ الأبعدِ، وهذا ما ذكره القرآنُ توبيخًا لكفَّارِ مكَّةَ.

سِرُّ عدَمِ تخصيصِ الخطابِ للمؤمنين، وتَوجِيهِه لبني آدمَ أجمعينَ:

إفادةُ العُمومِ للمخاطبين، من بَرَرَةٍ وكَفرةٍ، يُوحِي بعالَمِيّةِ الإسلامِ

وُجِّهَ الخطابُ إلى بني آدمَ دون المؤمنين؛ للإيذانِ بأنَّ ما ذُكِرَ منَ النِّعَمِ في هذهِ الآيةِ، وما أشارت إليه يشملُ جميعَ الأممِ إلى يومِ القيامةِ، والخطابُ وإنْ كانَ يشملُ المؤمنينَ والمشركينَ، لكنَّ الحظَّ الأوفرَ منه للمشركينَ؛ لأنَّ حظَّ المؤمنينَ منه هو الشُّكرُ على يقينِهم بأنَّهم موافقونَ في شؤونِهم لمرضاةِ ربِّهم، وأمَّا حظُّ المشركينَ؛ فهو الإنذارُ بأنَّهم كافرون بنعمةِ ربِّهم، مُعَرَّضونَ لِسُخْطِه وعقابِه، ومن أبرز ذلك أنَّهم كانوا يطوفونَ بالبيتِ عُراةً.

مُناسَبةُ مَجيءِ (يا) النِّداءِ:

تَنبيهُ النَّاسِ بما أنعمَ اللهُ على أبيهم، من نِعمةِ اللِّباسِ

خاطبَ اللهُ تعالى بني آدمَ في هذه الآية وأمثالِها بالنِّداءِ؛ ليكونَ أدعَى إلى إقبالِ النَّاسِ على ما بعدَه، وامتثالِهم له، وآثرَ الأداةَ (يا) الّتي يخاطَبُ بها البعيدُ؛ لِمَا كان عليه النَّاسُ وقتَ نزولِ هذه السُّورة في مكَّةَ منَ البُعدِ عنِ الفطرةِ السَّليمةِ، والشِّرعةِ القويمةِ، تنبيهًا لِلأذهانِ، بما يقرَعُ الآذانَ، فامتنَّ عليهم بعدَ أنْ أنبأهم بما كانَ من عُرْيِ سلفِهم الأوَّلِ بما أنعمَ به عليهم منَ اللِّباسِ على اختلافِ درجاتِه وأنواعِه[1].

دَلالةُ ﴿قَدْ﴾ في الآيةِ الكريمةِ:

التَّحذيرُ منَ الغفلةِ عنْ شُكرِ نِعمةِ اللِّباس، لله المتفضّلِ به على النّاسِ

تفيدُ ﴿قَدْ﴾ في سياق النَّظمِ الكريمِ تأكيدَ نعمةِ إنزالِ اللِّباس والرِّيشِ، وأتى بحرف التَّأكيدِ لما يظهرُ منَ النَّاس غالبًا من بوادرِ التّحيُّر في هذهِ النِّعمةِ العظيمةِ بغفلتِهم عنْ شُكرِها، وعنْ كونِها من آياتِ اللهِ، أو كأنَّهُ أقامَهم مقامَ المنكرينَ لهذه النِّعمةِ - لتعاقُبِ

(1) رشيد رضا، تفسير المنار: 8/319.

التَّأكيد بتقديم ﴿عَلَيْكُمْ﴾ كما سيأتي - لِما ظهرَ عليهم من ملابسِ الإنكارِ بالغفلةِ عن شُكرِ هذهِ النِّعمةِ أو بإظهارِ سوءاتِهم.

مُناسبةُ إيثارِ لفْظِ ﴿أَنزَلْنَا﴾:

الـلِّـبـاسُ أوَّلُ مَظاهِرِ الحضارةِ الإنسَانيَّةِ

ذُكِرَ لفظُ ﴿أَنزَلْنَا﴾ لقصدِ تشريفِ نعمةِ اللِّباس على بني آدم، فآذنَ بمكانتِه العاليةِ لما ذكرَه بأنَّه مُنزلٌ على النَّاس من عند اللّه، أو لأنَّ الّذي كان منه على آدمَ، نزل به منَ الجنَّة إلى الأرض الّتي هو فيها، فكان له في معنى الإنزال مزيدُ اختصاصٍ، فآثر لفظَ ﴿أَنزَلْنَا﴾ ليكونَ أدعَى للشُّكر، وفي التَّعبير بـ﴿أَنزَلْنَا﴾ تنبيهٌ إلى أنَّ اللِّباسَ من أصل الفطرةِ الإنسانيَّةِ، والفطرةُ أوَّلُ أصولِ الإسلام، وأنَّه ممَّا كرَّمَ اللّهُ به النَّوعَ منذُ ظهورِه في الأرضِ، وهو أوَّلُ مظاهرِ الحضارة[1].

مُناسَبةُ التَّعبيرِ بالجارّ والمجرور ﴿عَلَيْكُمْ﴾:

تـمـكُّـنُ نِـعْـمـةِ اللِّباسِ بالنَّاسِ، ووِقـايـتُـهـم بها من كلِّ بأسٍ

عُبِّرَ بـ﴿عَلَيْكُمْ﴾ دون (إليكم)؛ ليدلَّ الكلامُ على تمكُّن النِّعمة الّتي أنزلها اللّهُ تعالى وانتهائِها إلى بني آدمَ ووصولِها إليهم، ولمّا كانَ السِّياقُ في بيانِ نعمةِ اللِّباسِ الّذي يُقصدُ منه السَّترُ أوَّلًا وبالذَّاتِ؛ ناسبَه التَّعبيرُ بـ (عَلَى)؛ لِيدلَّ حرفُ الجرِّ على تمكُّنِ هذه النِّعمةِ وإحاطتِها بالمنزَّل عليهم إحاطةً يسترونَ أجسادَهم بها، ولو قال: (أنزلنا إليكم)؛ لأفادَ الانتهاءَ وبلوغَ الغاية من غير تمكُّنٍ ولا إحاطةٍ ولا استيعابٍ؛ لأنَّ (إلى) لا تختصُّ بجهةٍ دونَ جهةٍ، والإحاطةُ بالاستعلاءِ بـ(على) تُحقِّقُ معنى انتهاءِ الغايةِ.

بَلاغةُ التَّعريضِ، في قولِه تعالى: ﴿يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ﴾:

الـتَّـعَـرِّي من أمْـرِ الشَّيطانِ، والـسَّـتْرُ مع الـحـيـاءِ مـنَ الإيمانِ

في هذه الجملةِ تعريضٌ بالمشركين الّذينَ جعلوا من قُرُباتِهم نزعَ لباسِهم بأنْ يحجُّوا عُراةً، ويتعرَّوا للطَّوافِ اتِّباعًا منهم أمرَ الشَّيطانِ، وتركًا منهم طاعةَ اللّه، حتَّى أبدى سوءاتِهم،

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 8/73.

وأظهرَها من بعضِهم لبعضٍ، معَ تفضُّلِ اللّهِ عليهم بتمكينِهم ممَّا يسترونَها بهِ[1].

التَّعبير عنِ اللِّباس بالإنزالِ، مع أنَّه منَ الأرضِ في الظَّاهرِ لنا:

تـنـوُّعُ معنَى الإنـزال لِسَعةِ معـانِي ألـفـاظِ القرآنِ

عُبِّر بلفظِ الإنزالِ في هذهِ الآيةِ بطريقِ المجازِ؛ لأنَّ المشاهَدَ أنَّ اللِّباسَ حدثَ في الأرضِ، ولم ينزلْ حقيقةً من السَّماءِ، ويحتمل المجازُ هنا توجيهاتٍ عدَّةً، هي:

أولاً: أنْ يكونَ ما قضى به اللّهُ تعالى وكتبَه في عُلوِّه من أنْ يكون لبني آدم لباسًا يسترُ سوءاتِهم وريشًا ينتفعون منه، بمنزلةِ أنْ يكونَ هذا اللِّباسُ والرِّيشُ منزَّلًا منَ السَّماء، فإنَّ الأشياءَ الّتي تحدثُ في الأرضِ لمَّا كانت معلَّقةً بما كتبَه اللّهُ؛ صار كأنَّه تعالى أنزلَها منَ السَّماءِ لعلمِه وقضائِه بها[2].

ثانيًا: أنْ يكونَ من قبيلِ المجازِ المرسَلِ، بذكرِ السَّببِ وإرادةِ المسبَّبِ، فذكرَ ما أنزلَه منَ السَّماءِ إشارةً إلى المطرِ الّذي يكون منه النَّباتُ، ومنَ النَّباتِ يكونُ جميعُ ما يُلبَسُ، ويُتنعَّمُ به، فصارَ كأنَّه أنزلَ اللِّباسَ والرِّيشَ، فيكونُ الكلامُ على معنى التَّدريجِ؛ لِأَنَّهُ تَعَالَى سمَّى الشَّيءَ باسمِ مَا انْدرجَ عَنهُ، أي: من المطرِ الّذي نبتَ به الكَتَّانُ والقطنُ، وَنبتَ بِهِ الكلأُ الَذِي هُوَ سَبَبُ نَبَاتِ الصُّوفِ والوبَرِ وَالشَّعرِ على ظُهُورِ البَهَائِمِ والانتفاعِ منه بالصِّناعاتِ وغيرِها[3].

ثالثًا: أنْ يكونَ ﴿أَنزَلْنَا﴾ بِمَعنَى: خَلَقنا، كَقَوْلِهِ تعالى: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾ [الزمر: 6]، للإشعارِ بعُلوِّ شأنِ اللِّباسِ والرِّيشِ، وخلقُ اللّهِ ﷻ وأفعالُه إنَّما هي من عُلوٍّ في القدرِ والمنزلةِ[4].

(1) ابن جرير، جامع البيان، تح، شاكر: 12/361، وابن عاشور، التّحرير والتنوير: 8/73.
(2) الزمخشري، الكشاف: 2/97.
(3) مكّيّ القيسّي، مشكل إعراب القرآن: 1/286، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/388، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 14/221، وأبو حيّان، البحر المحيط: 5/30.
(4) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/388، وأبو حيّان، البحر المحيط: 5/30.

رابعًا: أنْ يكونَ على الاستعارة، فقد شُبِّه الإلهامُ باستعمالِ اللِّباسِ والرّيشِ بتسخيرٍ إلهيٍّ؛ بالإنزالِ منَ السَّماء لعمومِ الجدوَى على النَّاسِ، وعظيمِ النَّفعِ في كلِّ ما يَنزلُ منَ السَّماء؛ تشريفًا لشأنِ اللِّباسِ والتَّجمُّلِ، وتفخيمًا لهذه النِّعمةِ الظَّاهرةِ العامَّةِ لجميعِ بني آدم، ثمَّ حذفَ المشبَّهَ، وذكرَ المشبَّهَ به على طريقةِ الاستعارةِ التَّصريحيَّةِ التَّبعيَّةِ؛ لاستحضارِ الصُّورةِ بالفعلِ ﴿أَنزَلْنَا﴾ تذكيرًا بالنِّعمةِ العظيمةِ[1].

نُكتةُ التَّعبيرِ بصِيغةِ الماضِي، في قولِه تعالى ﴿أَنزَلْنَا﴾:

تَعظيمُ نِعمةِ اللِّباس وتَكثِيرُها؛ للحَثِّ على شُكرِها

عُبِّر بصيغة الفعل الماضي مع أنَّ بعضَ الإنزال مترقَّبٌ غيرُ واقعٍ؛ تنزيلًا للمنتَظَرِ منزلةَ المتحقَّقِ الوقوعِ، تتميمًا للنِّعمة وتعظيمًا لها، أو يكونُ من تغليب الموجودِ على ما لم يوجدْ؛ تكثيرًا للنِّعمة ولإظهارِ أنَّ وجودَها هو الأصلُ كما هو حالُ مَجيءِ التَّغليبِ في الكلامِ[2].

مُناسبةُ تقديمِ ﴿عَلَيْكُمْ﴾ في الآيةِ الكريمةِ:

اللِّباسُ نِعمةٌ خَصَّ اللهُ بها بنِي آدمَ قاطِبةً

قُدِّمَ الجارُّ والمجرورُ على المفعولِ به ﴿لِبَاسًا﴾؛ للاهتمام والعنايةِ بنعمةِ اللِّباسِ والرِّيشِ وللتَّخصيصِ، فإنَّ اللِّباسَ نعمةٌ خَصَّ اللهُ بها بني آدمَ، فيكونُ أدعَى إلى مزيدٍ منَ الشُّكرِ على هذه النِّعمةِ الفضيلةِ، كما أفادَ التَّقديمُ تأكيدَ إنزالِ اللهِ تعالى اللِّباسَ وتقريرَه، كما تقدَّمَ في بحثِ دلالةِ ﴿قَدْ﴾.

مُناسبةُ مَجيءِ النَّعْتِ في قولِه تعالى ﴿لِبَاسًا يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ﴾:

وظيفةُ اللِّباسِ أوَّلًا سَتْرُ العَوراتِ، وهي مَطلَبُ كلِّ الأعرافِ والدِّياناتِ

لمّا كان أصلُ وضعِ اللِّباسِ أنْ يكونَ للسَّترِ، وأهمُّ موضعٍ للسَّتر هو السّوءاتُ؛ كان مجيءُ جملةِ ﴿يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ﴾ نعتًا على معنى أنَّه صفةُ مدحٍ للِّباسِ، أي: مِنْ شأنِه أنْ يكونَ كذلك[3]؛ فأفادَ النَّعتُ هنا

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/74.
(2) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 8/362.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/74.

مدحَ المنعوتِ؛ إشعارًا بأولويَّةِ أنْ يكونَ اللِّباسُ لسَترِ العوراتِ، وأنَّه أهمُّ ما يكونُ له، وللتَّنبيهِ إلى قُبحِ إظهارِ العوراتِ.

مُناسبةُ إيثارِ لفْظِ ﴿يُوَٰرِى﴾ في الآيةِ الكريمةِ:

وردَ النَّعتُ بلفظ ﴿يُوَٰرِى﴾: الّذي استُعملَ في قصَّةِ آدمَ الّتي تقدَّم ذكرُها بجذرِه، إذ ذكرَ ﴿وُۥرِىَ﴾ في قولِه: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِىَ لَهُمَا مَا وُۥرِىَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا﴾ [البقرة: 20]؛ للتَّنبيهِ إلى أنَّ انكشافَ العورةِ أوَّلُ سُوءٍ أو قُبحٍ أصابَ الإنسانَ منَ الشَّيطانِ، وأنَّه أغواهُم في ذلك كما أغوى أبَوَيْهم، وفيهِ تذكيرٌ بأنَّ اللِّباسَ الّذي يواري سوءاتِكم يُغنيكُم عن خَصفِ الوَرَقِ[1].

انْكشافُ العَورةِ أوَّلُ سُوءٍ أصابَ الإنسانَ في الكوْنِ

نُكتةُ التَّعبيرِ بصِيغةِ المضارعِ ﴿يُوَٰرِى﴾:

للإشعارِ باستمرارِ نعمةِ سَترِ العوراتِ باللِّباسِ وتجدُّدِه حالًا فحالًا لجميعِ بني آدمَ، ولاستحضارِ صورةِ سَترِ العوراتِ باللِّباسِ المنْزلِ من عندِ اللهِ تذكيرًا بالنِّعمةِ للمبادرةِ إلى شُكرِها بالتَّقوى.

التَّذكيرُ بالنِّعمةِ؛ للمُبادرةِ إلى شُكْرِ الله عليها

سِرُّ التَّعبيرِ بـ﴿يُوَٰرِى﴾ دونَ (يسترُ):

آثرَ التَّعبيرَ بالمواراةِ في قولِه تعالى: ﴿يُوَٰرِى﴾ دون يسترُ؛ لوجودِ فرقٍ بينهما: فالسَّترُ معناهُ تغطيةُ الشَّيءِ بحيثُ لا تراهُ العيونُ، ومن ذلك الحجابُ المستورُ الّذي بلغ حدًّا في ستَرِه عن أعينِ النَّاسِ؛ أمَّا المواراةُ؛ فتزيدُ عنِ السَّترِ بأنَّها تُستَخدم في سترِ الشَّيءِ الّذي يخجلُ الإنسانُ منه، ويشعرُ بالخزيِ إذا انكشفَ، كالسَّوءةِ في قولِه تعالى: ﴿يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ﴾، وكالمُبشَّرِ بالأنثى في الجاهليَّةِ؛ لأنَّهم كانوا يشعرون بالخزيِ والعارِ منَ الإناثِ، قال تعالى: ﴿يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ﴾ [النحل: 59]، وكما في قصَّةِ ابني آدمَ عندما قَتَلَ أحدُهما الآخرَ، وبالتأكيدِ أمرٌ مخزٍ قتْلُ الأخِ لأخيه، قال تعالى: ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ﴾

المواراةُ سَتْرُ الشَّيْءِ الّذِي يَخْجَلُ الإنْسَانُ منْهُ

(1) البيضاويّ، أنوار التنّزيل: 3/9.

[المائدة: 31]، وهذا في الغالب، أمَّا ما ورد في قصَّةِ سليمانَ في قولِه تعالى: ﴿فَقَالَ إِنِّيٓ أَحۡبَبۡتُ حُبَّ ٱلۡخَيۡرِ عَن ذِكۡرِ رَبِّي حَتَّىٰ تَوَارَتۡ بِٱلۡحِجَابِ ٣٢﴾ [ص: 32]، فهو من بابِ المجازِ.

سِرُّ التَّعبيرِ بلفْظِ (السَّوءةِ) دونَ العَورةِ:

قوله تعالى: ﴿يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ﴾، آثر التَّعبيرَ بالسّوءة دون العورةِ؛ لأنَّها أعمُّ منَ العَورة، فالسَّوءةُ: كلُّ ما يسوءُ الإنسانَ حِسّيًّا كان أو معنويًّا؛ لذلك جعل اللّه اللِّباسَ الّذي يسترُ السَّوءةَ الحسّيَّةَ، وكذلك أنزل اللِّباسَ الّذي يواري السَّوءةَ المعنويَّةَ، وهو لباسُ التَّقوى.

السَّوءةُ كلُّ ما يسُوءُ الإنسانَ حِسّيًّا أو معنويًّا، وهي أعمُّ منَ العَورةِ

أمَّا العورةُ؛ فهي جزءٌ منَ السَّوءة، قال الراغبُ: العورةُ سَوءةُ الإنسان، وتُطلقُ على البيوت الخاليةِ منَ الرِّجالِ، كما في قولِه تعالى: ﴿يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوۡرَةٞ وَمَا هِيَ بِعَوۡرَةٍۖ﴾ [الأحزاب: 13]، وتُطلقُ على إطاقةِ الجِماع والمعرفةِ به، كما في قولِه تعالى: ﴿أَوِ ٱلطِّفۡلِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يَظۡهَرُواْ عَلَىٰ عَوۡرَٰتِ ٱلنِّسَآءِۖ﴾ [النور: 31][1].

دَلالةُ العطْفِ، في قولِه تعالى: ﴿وَرِيشٗاۖ﴾:

دلَّ العطفُ في قوله تعالى: ﴿وَرِيشٗاۖ﴾ على ﴿لِبَاسٗا﴾ على أنَّ لباسَ الزِّينةِ غرضٌ صحيحٌ شرعيٌّ، وأنَّ أخْذَ الزّينةِ مأمورٌ به، وبخاصّة في بعض المناسبات والأوقاتِ، وتظهرُ به أثرُ نعمةِ اللّهِ على عبدِه.

أَخذُ الزِّينةِ مَطلبٌ شرعيٌّ، يَعكسُ مَدنيّةَ الإسلامِ وحضارَتَه

بَلاغةُ الاستعارةِ في قولِه تعالى: ﴿وَرِيشٗاۖ﴾:

جاء الكلامُ على طريقِ الاستعارةِ؛ إذْ شبَّه التنعُّمَ والتجمُّلَ بأحسنِ الثِّياب بلباسِ الزِّينةِ الزَّائدِ على ما يسترُ العورةَ بريشِ الطَّائرِ، وإنَّما اختارَ ريشَ الطَّائرِ؛ لأنَّهُ لا يوجدُ أفضلُ منَ الطِّيور في كثرةِ أنواعِ ريشِها وبهجةِ مناظرِها وتعدُّدِ ألوانِها، فهي جامعةٌ لجميعِ المنافعِ، ثمَّ حُذفَ المشبَّهُ، وذكِرَ المشبَّهُ به على طريقِ الاستعارةِ التَّصريحيَّةِ الأصليَّةِ، ومنْ فوائدِ الاستعارةِ هنا أنْ يقال: إنَّه لمّا كانَ الرِّيشُ ممَّا

لُبسُ الرَّفيعِ منَ الثِّيابِ، دونَ تَكبُّرٍ ولا خُيلاءَ، منَ التّحدُّثِ بنِعَمِ الله

(1) الرّاغب، المفردات: (عور).

يُتَزَيَّنُ به، ويُتجَمَّلُ بهِ في أحسنِ الثِّيابِ، وكان عبارةً عَنْ سَعَةِ الرِّزْقِ ورَفَاهِيةِ العَيْشِ ووُجُود اللِّبْسِ وَالتَّمَتُّعِ، وكان مجيئُه في سياقِ ذكرِ نِعَمِ اللّهِ على بني آدم؛ دلَّ على أنَّ لُبْسَ الرَّفيعِ منَ الثِّيابِ ورفاهيَّةَ العيشِ من نعمِ اللّهِ، وأنَّ الزِّينةَ غرضٌ صحيحٌ، وقد كانَ الفُضَلاءُ منَ العلماءِ يَلْبَسونَ الرَّفيعَ منَ الثِّيابِ معَ حُصولِ التَّقوى[1].

مُناسبةُ العطْفِ في قولِهِ تعالى: ﴿وَرِيشًا﴾:

عَطْفُ الرِّيشِ عَلَى ﴿لِبَاسًا﴾ في قوله تعالى: ﴿قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشًا﴾ يَقتَضِي المُغَايَرَةَ بين المعطوفِ والمعطوفِ عليهِ، وَأَنَّهُ قَسِيمٌ للِّباسِ لَا قِسْمٌ مِنْهُ، فهو من عطف الصِّنف على الصِّنفِ؛ للإشعار بتكثير النِّعم المقتضَى شكرُها، والمعنى: أنزلنا عليكم لباسًا يسترُ عوراتِكم ولباسًا تتزيَّنونَ به[2].

تَكثيرُ النِّعمِ يقتضِي المسارعةَ إلى شُكْرِها

وأيضًا أنَّه لمّا ذكرَ أدنى اللِّباسِ وأقلَّه، وهو اللِّباسُ الّذي يواري سوءاتِكم الّذي يعدُّ فاقدُه ذليلًا مَهينًا، وعطفَ عليه أعلاه وأكملَه، وهو الرِّيشُ الّذي تتزيَّنونَ به في حياتِكم، دلَّ على أنَّ بينهما لباسَ الحاجةِ، وهو ما يقي الحرَّ والبردَ، والامتنانُ به يؤخَذُ منَ الامتنانِ بما فوقَه، أي: لباسَ التزيُّنِ بطريقِ المفهومِ منَ الأسلوبِ، أو هو داخلٌ في الرِّيشِ بطريقِ المنطوق، فيكون كلُّ لباسٍ فوقَ لباس سَترِ العورة منَ الرِّيشِ هو زينةٌ وتجمُّلٌ[3]

سِرُّ التَّعبيرِ بلفْظِ (اللِّباس)، دونَ(الثِّيابِ):

في قوله تعالى: ﴿أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا﴾ عبَّرَ باللِّباس دون الثِّياب؛ لأنَّ اللِّباسَ أعمُّ منَ الثِّيابِ، حيثُ يُطلقُ على كلِّ ما يلبسُه الإنسانُ ليسترَ به جُزءًا من جسَدِه، فالقميصُ والإزارُ لباسٌ، والعِمامةُ لباسٌ، وهكذا

اللِّباسُ يُطلَقُ على كلِّ ما يَلبسُه الإنسانُ ليَستترَ به، فهو أعمُّ منَ الثِّيابِ

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/97، والزّمخشريّ، أساس البلاغة: (ريش)، وأبو حيّان، البحر المحيط: 5/30، ورشيد رضا، تفسير المنار: 8/318، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/75.

(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/30، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/75.

(3) رشيد رضا، تفسير المنار: 8/319.

إطلاقاتُه متعدِّدةٌ، بخلافِ الثّيابِ؛ فإنَّها تُطلقُ على الرِّداءِ، وهو ما يسترُ أعلى الجسدِ منَ الثياب، كالجُبَّة والعباءةِ، ويكونُ عادةً ما يُلْبَس فوقَ الإزارِ أو السّراويلِ، كما في قولِه تعالى: ﴿وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتٍۭ بِزِينَةٍ﴾ [النور: 60]، وتُطلقُ على الثَّوب بعينِه، كما في قولِه تعالى: ﴿وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ﴾ [النور: 58]، وعلى هذا؛ فاللِّباسُ أعمُّ.

بَلاغةُ الاستعارةِ، في قولِه تعالى: ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ﴾:

مَـنْ تـعـرَّى من لِباسِ التَّقوَى؛ لم يسْتَتِرْ بشَيءٍ من لِباسِ الدُّنيَا

شبَّه تمكُّنَ التَّقوى واستقرارَها والتّمسُّكَ بها باللِّباس؛ لاشتِمَالِه عَلَى اللَّابِسِ مَا غَشِيَ الإنسَانَ، ويكونُ ملتصقًا به مُلامسًا ومُحيطًا به ومُلازمًا له كملازمة اللِّباسِ لابسَه، فالجامعُ بينهما هو الإحاطةُ واللُّزومُ والغشيانُ، والتّشبيهُ هنا من تشبيه المعقولِ بالمحسوسِ، ثمَّ حذف المشبَّه وذكرَ المشبَّه به ليكونَ استعارةً تحقيقيَّةً مكنيَّةً تخييليةً؛ لأنَّ اللِّباس ليس ثابتًا للتَّقوى، فقُصِدَ تخييلُ التَّقوى بلباسٍ يُلبسُ؛ ليُكنَّى بها عن ملازمتِها والتّحريضِ على تحصيلِها، ولمّا كان التّعبيرُ بـ ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ على طريقِ المجازِ ذهب بعضُ المفسِّرين إلى أنَّ المرادَ به الإيمانُ، وقيل: خشيةُ اللّه، وَالأَحْسَنُ أَنْ يكونَ المرادُ من لباس التَّقوى العُمومَ، أي: تقوى اللّه الّتي هي قُصارى أمرِ العابد ومُنتهى جُهدِه، فَكُلُّ مَا يَحْصُلُ بِهِ الاتِّقَاءُ المَشْرُوعُ، فَهُوَ مِنْ لِبَاسِ التَّقْوَى[1].

دَلالةُ التَّعبيرِ بصِيغةِ البُعدِ لاسْمِ الإشارةِ ﴿ذَٰلِكَ﴾:

لِـبـاسُ التَّـقـوَى خيرٌ منَ اللِّباسِ الحِسِّي المألوفِ

عُبِّرَ بصِيغةِ البُعدِ في قوله: ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ للإشعارِ بارتفاعِ شأنِ لباسِ التَّقوى وعُلوِّ مكانتِه، ولا تخلُو الإشارةُ مِنْ أنْ يُرادَ بها تعظيمُ لباسِ التَّقوى[2].

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/31، وابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 9/72، والآلوسّي، روح المعاني: 4/344، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/75.

(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/97، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 8/365، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/75.

دَلالةُ تركِ مَعمولِ اسمِ التّفضيلِ ﴿خَيۡرٞۚ﴾:

خيريَّةُ لِباسِ التَّقوَى، لاتَبلَى ولا تَبيدُ

ترْكُ معمولِ اسمِ التَّفضيل؛ لأنَّه أبلغُ منَ الذِّكرِ وأزيدُ فائدةً وأتمُّ بيانًا وأعمُّ في المعنى، فأفادَ عمومَ خيريَّة لباسِ التَّقوى، ويدخلُ في العمومِ أنَّه خيرٌ منَ اللِّباسِ والرِّيشِ الّذي يُتنعَّمُ به دخولًا أوَّليًّا لورودِه في سياقِه، ولو ذُكِرَ المعمولُ؛ تقيَّدتْ خيريَّةُ لباسِ التَّقوى مع أنَّ المقصودَ العمومُ، كما هو ظاهرٌ، وذهب بعضُ المفسِّرينَ إلى أنَّ المفضَّلَ عليه قد حُذِفَ في الآيةِ، والسِّياق قرينةٌ عليه، والمعنى: ولباسُ التَّقوى خيرٌ لصاحبِه؛ إذا أخذَ به، وأقربُ له إلى اللّهِ تعالى ممّا خلقَ منَ اللِّباسِ والرِّياشِ الّذي يُتجمَّلُ بها، وهو داخلٌ في العمومِ دخولًا أوَّليًّا كما تقدَّم[1].

إشعارُ الجُملةِ الخبريَّةِ بالطَّلبِ:

الأمرُ بلِبسِ لِباسِ التَّقوَى وتحصِيلِهِ، من مقاصدِ الخطابِ القُرآنيِّ

في الإخبارِ عن لباسِ التَّقوى بأنَّه خيرٌ؛ إشعارٌ بالأمرِ بتحصيلِه، وتحريضٌ على تقوى اللّهِ، فإنَّها خيرٌ للنَّاس من منافعِ الزِّينةِ، والمعنى: ولباسُ التَّقوى ذلك خيرٌ، فالبَسُوه[2]؛ لأنَّ اللِّباسَ الماديَّ يسترُ العورةَ الماديَّةَ، وغايةُ أمره سترُ ما يفضحُ في الدّنيا ومواراتُه، لكنَّ لباسَ التَّقوى يُؤدِّي إلى مواراةِ ما يفضحُ في الآخرة.

القِراءاتُ القرآنيَّةُ، وأثرُها في تجليّةِ المعنَى وإيضاحِه.:

تنوُّعُ المعنَى بتنوُّعِ القراءةِ القُرآنيَّةِ

وردَ في قولِه تعالى: ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ﴾ قراءتان: الأولى: قرأ نافعٌ وأبو جعفرٍ وابنُ عامرٍ والكِسائيُّ ﴿وَلِبَاسَ﴾[3] بالنَّصب عطفًا على ما تقدَّمَ، والتَّقديرُ: أنزلنا عليكم لباسًا وريشًا ولباسَ التَّقوى، و﴿ٱلتَّقۡوَىٰ﴾، على هذه القراءة، تحتملُ أنْ تكونَ مصدرًا بمعنى الوِقايةِ، والمرادُ: لبوسُ الحربِ منَ الدُّروعِ والجَوَاشِنِ - جمع

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 14/222.
(2) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 7/185، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/75.
(3) ابن مجاهد، السّبعة في القراءات، ص: 280، وابن الجزريّ، النّشر: 2/268.

جَوْشَن، وهو دِرْع حديديٌّ يَلْبَسُه المحاربُ ليسترَ به صدرَه ويتقيَ به ضرباتِ العدوِّ - والمغافِر، وتحتملُ أنْ تكونَ بمعنى تقوى الله، والمرادُ إنزالُ أسبابِها منَ الآياتِ المقروءةِ والمنظورةِ، فيكونُ الإنزالُ إشارةً إلى الحِسِّي: ﴿لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا﴾، والمعنويِّ: ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ﴾، ويكونُ ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارةً إلى هذه الثَّلاثةِ، ليُخبرَ عن اسمِ الإشارةِ بأنَّه خيرٌ.

الثّانية: قرأَ ابنُ كثيرٍ وأبو عمرٍو وعاصمٌ وحمزةُ وخلَفٌ ﴿وَلِبَاسُ﴾ بالرَّفعِ[1]، فيكونُ مبتدأً خبرُه جملةُ ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾؛ ليكونَ الإخبارُ بالجملةِ الاسميَّةِ على معنى ثبوتِ الخيريَّةِ للباس التَّقوى واستمرارِها، وفيه تأكيدٌ لمضمونِ الجملة بتكرارِ الإسناد، ويُحتمَلُ على قراءة الرَّفعِ أنْ يكون ﴿وَلِبَاسُ﴾ مبتدأً و﴿ذَٰلِكَ﴾ بدلًا أو عطفَ بيانٍ أو صفةً، و﴿خَيْرٌ﴾ خبرًا.

دَلالةُ الإتيانِ باسْمِ الإشارةِ، في قولِه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾:

تعظيمُ اللِّباس، وعُلوُّ مكانته، ورِفعةُ شأنِه

أتَى باسمِ الإشارةِ ﴿ذَٰلِكَ﴾ لتوضيحِ اللِّباس وبيانِه أتمَّ بيانٍ اهتمامًا بشأنِه، والغرضُ منه التَّعظيمُ وعُلوُّ المكانةِ ورِفعةُ الشَّأنِ لِلِّباس[2]؛ لأنَّه لا تخلُو الإشارةُ من أن يُرادَ بها تعظيمُ لباس التّقوى، أو أن تكونَ إشارةً إلى اللِّباس المواري للسَّوءة؛ لأنَّ مواراةَ السَّوءةِ منَ التّقوى، وفي ذلك تفضيلٌ له على لباس الزِّينةِ.

نُكتةُ التَّعبيرِ باسْمِ الإشارةِ ﴿ذَٰلِكَ﴾ في الآيةِ الكريمةِ:

كلُّ أنواعِ اللِّباسِ من آياتِ الله الدَّالَّةِ على فضْلِهِ ورحْمتِه

يُحتمَلُ أنْ يكونَ ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارةً إلى إنزالِ اللِّباس والرِّيش، ويُحتمَلُ أنْ يكونَ إشارةً إلى جميعِ ما تقدَّم من إِنْزَالِ اللِّبَاسِ وَالرِّيَاشِ وَلِبَاسِ التَّقْوَى، فإنزالُها مِنْ آيَاتِ اللهِ الدَّالَّةِ عَلَى وَحدانيَّة اللهِ تعالى وفَضْلِهِ وَرَحْمَتِهِ عَلَى عِبَادِهِ[3].

(1) ابن مجاهد، السّبعة في القراءات، ص: 280، وابن الجزريّ، النّشر: 2/268.
(2) الأزهريّ، معاني القراءات: 1/403، وأبو حيّان، البحر المحيط: 5/31، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/75.
(3) ابن عطيّة، المحرر الوجيز: 2/389، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/9، وأبو حيّان، البحر المحيط: 5/31.

نُكتةُ التَّعبيرِ باسْمِ الإشارةِ، بصِيغةِ المفرَدِ ﴿ذَٰلِكَ﴾:

للإشعارِ بأنَّ اللِّباسَ والرِّيشَ ولباسَ التَّقوى كلَّها شيءٌ واحدٌ بالنَّظرِ إلى إنزالِها، فليست هي بعينِها آيةً، بل إنزالُها - سواءً كان بمعنى إنزال المطرِ وما اندرج عنه، أو بمعنى خلْقِها أو الإلهامِ إلى صُنعِها - هو آيةٌ من آياتِ اللّه، فالآيةُ في إحداثِها للخَلْقِ.

كلُّ ما ذُكِرَ في الآيةِ مِن أنواعِ اللِّباسِ، هو آيةٌ واحدةٌ من آياتِ اللهِ

نُكتةُ التَّعبيرِ بصِيغةِ البُعدِ، في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ﴾:

آثرَ استعمالَ صِيغةِ البُعدِ؛ للإشعارِ بارتفاعِ شأنِ هذه الآية وعُلوِّ مكانتِها وتعظيمِها، بتنزيلِ البُعد الرُّتْبي منزلةَ البُعدِ الحِسِّي[1]، وقوّى هذا المعنى إشارةُ ﴿ذَٰلِكَ﴾ إلى إنزالِ اللِّباس والرِّيشِ الدّالِّ على العُلوِّ.

عُلوُّ مَنزلةِ لِباسِ التَّستُّرِ والزِّينةِ والتَّقوَى، وارتفاعُ شأنِه عندَ اللهِ

مُناسبةُ الإخبارِ، في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾:

لمّا كانتِ الآيةُ بمعنى العلامةِ الجسيمةِ الظَّاهرةِ دلَّ إنزالُ اللِّباس، وما يتنعَّمُ به الإنسانُ على أنَّه آيةٌ واحدةٌ من آياتٍ كثيرةٍ دالَّةٍ على وجودِ اللّه تعالى ووحدانيَّته، بدلالَةِ هذه الآيةِ على علْمِه تعالى بخلقِه ولُطفِه بهم، كما تدلُّ هذهِ الآيةُ بقرينة قولِه: ﴿قَدْ أَنزَلْنَا﴾ على عظيم فضلِه ونعمِه، وعميمِ رحمتِه، وفيها آيةٌ أخرى، وهي الدَّلالةُ على علْمِ اللّه تعالى بأنْ ستكونُ أمَّةٌ يغلبُ عليها الضَّلالُ، فيكونون في حِجِّهم عراةً؛ فلذلك أكَّدَ الوصايةَ به، وفي الكلامِ إشارةٌ لِمَا كان في شرعِ اللِّباس من تمييزِ الإنسان عن سائرِ الحيوانِ، فالتذكُّر لِمَن له عقلٌ يتذكَّرُ به[2].

اللِّباسُ الجميلُ، بهِ يتميَّزُ الإنسانُ عن سَائرِ الحيوانِ

نُكتةُ تَكريرِ اسْمِ الإشارةِ ﴿ذَٰلِكَ﴾:

تكرَّرَ اسمُ الإشارة في الآيةِ، والمشارُ إليه بالإشارةِ في قولِه:

(1) الآلوسّي، روح المعاني: 4/344.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/380، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/222، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/75.

تنوُّعُ الإخبارِ، يقتضِي تنوُّعَ المعنى، والاهتمامَ بكلتا الجُملتَيْن

﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ﴾، يحتملُ أن يكونَ عينَ المشارِ إليه بالإشارةِ الّتي في قولِه: ﴿ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾، ولمّا اختلفَ الإخبارُ عنِ اسمِ الإشارةِ؛ تنوَّع المعنى، فجُعلتِ الجملةُ الثَّانيةُ مستقلَّةً غيرَ معطوفةٍ على الأولى؛ للاهتمامِ بكلتا الجُملتين؛ للإشعارِبأنَّ كلَّ معنًى من معاني الجُملتين له شأنُه وأهمِّيَّتُه، مع اجتماعِهما في المقصدِ العامِّ، كما يحتملُ أنْ يكونَ اسمُ الإشارةِ في ﴿ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ لِما ذُكرَ من إنزالِ اللِّباس والرِّيشِ أو يكونَ معهما لباسُ التَّقوى، فيفيدَ الإيجاز، وكأنَّها كلَّها آيةٌ واحدةٌ لتعالقِها في الغرضِ والمقصدِ[1].

دَلالةُ ﴿مِنۡ﴾ في قولِه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾:

كلُّ آيةٍ من آياتِ الرّحمن، هي نِعمةٌ جليلةٌ تَستلزمُ الشُّكرَانَ

﴿مِنۡ﴾ هنا تبعيضيَّةٌ؛ للإشعار بأنَّ كلَّ آيةٍ من آياتِ اللّهِ جعلَها للبشرِ هي عظيمةٌ وجليلةٌ؛ لتعبيرِه عنِ الآية باسمِ الإشارة ﴿ذَٰلِكَ﴾، وفيه إيماءٌ لشُكْرِ ما يحصلُ الانتفاعُ به.

دَلالةُ قولِه تعالى: ﴿لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ﴾:

الرَّجاءُ لا يَجوزُ على عالمِ الغيبِ والشَّهادةِ

لمّا كان لفظُ (لعلَّ) يُفيدُ رجاءَ حصولِ الأمرِ، ولا يجوزُ أنْ يُحمَلَ هذا على معنى رجاءِ اللّهِ تذكُّرَهُم؛ لأنَّ الرَّجاءَ لا يجوزُ على عالمِ الغيبِ والشَّهادةِ؛ حُمِلَ اللَّفظُ هنا على المجازِ بمعنى تصويرِهم في صورةِ المرجوِّ منهم أنْ يتذكَّروا بآيةِ إنزالِ اللّباس والرِّيش لظهورِها وعميمِ نفعِها لكلِّ النَّاس[2].

مُناسبةُ مَجيءِ الخبرِ جُملةً فعليةً، في: ﴿لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ﴾:

تَقريرُ المعنى وتأكيدُه بتقوِّي حُكْمِ التَّذكُّرِ

جاء الخبرُ فعلًا لتقريرِ المعنى وتأكيدِه بتقوِّي الحُكم؛ لأنَّ الإسنادَ على نيَّة التَّكريرِ؛ لعوْدِ الضَّمير في ﴿يَذَّكَّرُونَ﴾ على المسنَدِ

(1) ابن جرير، جامع البيان، تح، شاكر: 12/372، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/389، وأبو حيّان، البحر المحيط: 5/31.

(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/92.

إليه (هم)، والمعنى تحقيقُ تصويرِهم في صورةِ المرجوِّ أن يتذَكَّروا بهذه الآية العظيمةِ الظَّاهرةِ.

دَلالةُ إدغامِ الفعْلِ، في قوله تعالى: ﴿يَذَّكَّرُونَ﴾:

أَدنَى وُجوهِ التَّذكُّرِ، تكفِي للاعتبارِ، بآيةِ إنْزالِ اللِّباسِ

أصلُ اللَّفظ (يتذكَّرون)، فأُدغم صوتُ التَّاء في الذَّال للإشعار بأنَّ لِهذه الآيةِ منَ الظُّهورِ ما يكفِي فيها أدنى وجوهِ التَّذكُّرِ[1].

وذلك تلازمٌ مع موضوع السُّورة وهو الإنذارُ؛ لأنَّها مكيَّة، والملاحَظُ أنَّ الفعلَ جاء في سياقِ الحديثِ عن قصَّة آدمَ وإغواءِ الشَّيطانِ له، وما نتجَ عن ذلك من كشفِ العورةِ؛ فامتنَّ اللّه عليه وعلى بَنيه باللِّباس الّذي يُواريها؛ لذلك كان الإدغامُ الّذي يحمل معنى الإخفاءِ هو الملائمُ لهذا المشهدِ الّذي ظهر فيه آدمُ ومن بعْدِه بنُوه بالضَّعفِ، بسببِ مخالفةِ أمرِ اللّه؛ فكان المطلوبُ إليهم التَّذكُّر لنعمِ اللّه، ولو بأدنى وجهٍ منَ الذِّكرِ.

دَلالةُ حذْفِ مفعولِ ﴿يَذَّكَّرُونَ﴾:

آيةٌ واحدةٌ منَ اللهِ تَكْفِي للتَّذكُّرِ

حُذِف المفعولُ إمَّا لتنزيل الفعلِ ﴿يَذَّكَّرُونَ﴾ منزلةَ الفعلِ اللَّازمِ؛ لتصويرِهم في صورة المرجوِّ أن يكونَ تذكُّرهم كالوصفِ الثَّابتِ لهم؛ ليكونوا في حالةِ تذكُّرٍ مُستمرٍّ، وإمَّا لإفادةِ العُمومِ بمعنى يذَّكَّرون عظيمَ قدرةِ اللّه تعالى وانفرادَه بالخلقِ والتَّقدير واللُّطف ممَّا يقرِّبُهم إلى التَّقوى وطاعةِ اللّه؛ للإشعارِ بأنَّ آيةً واحدةً - وهي إنزالُ اللِّباس الّذي يُواري السّوءات وما يتنعَّمُ به في الحياة - تكفِي ليذَّكَّروا.

بَلاغةُ الالتفاتِ، في قوله تعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾:

يُستقبَحُ من كلِّ إنسانٍ ما يُستقبَحُ مِنْ غيرِه

عُدِلَ عن ضميرِ الخطابِ إلى ضميرِ الغيبة بطريقِ الالتفات؛ ليكونَ تعريضًا بمَنْ لم يتذكَّر من بني آدمَ، فكأنَّه غائبٌ عن حضرة الخطابِ، على أنَّ ضمائرَ الغيبةِ، في مثل هذا المقامِ في القرآنِ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/380.

كثيرًا ما يُقصَدُ بها مشركُو العربِ، ولئلَّا يقولَ المتعنِّتُ: إنَّ الحثَّ على التذكُّر خاصٌّ بالمخاطَب، ويدَّعِي أنَّه لِلمسلمين فقط، أي: أنزلنا ذلك ليكونَ حالُهم حالَ مَن يتذكَّرُ، فيعرفَ أنَّه يُستقبَحُ منه ما يُستقبَحُ من غيره[1].

سِرُّ اختيارِ التَّعبيرِ بالتّذكّر ﴿لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾:

التّذكيرُ بالعَداوةِ الأبديّةِ بين الإنسانِ والشّيطانِ

آثرَ التَّعبيرُ القرآنيُّ الفعلَ ﴿يَذَّكَّرُونَ﴾ دون غيره كالتفكُّرِ أو التعقُّل؛ لأنَّه هو المناسبُ لسياق القصَّةِ؛ حيث جاء لغرضٍ مهمٍّ، هو تذكيرُ بني آدمَ العداوةَ الكامنةَ بين آدمَ وإبليسَ؛ فعليهم دائمًا ألَّا يأمنُوا له ولا ينخدعوا بإغراءاتِه؛ بل يتذكَّروا أنَّه هو الّذي أخرجَ آدمَ منَ الجنَّة، وأنَّه عدوٌّ لذُرّيَّتِه من بعده؛ لذلك كان التَّعبيرُ بـ﴿يَذَّكَّرُونَ﴾ هو الأوفقُ والأنسبُ للمقام؛ لأنَّ الذِّكرَ استدعاءٌ لأمرٍ سبقَ، والذي سبقَ هو عداوةُ إبليسَ لآدمَ وذُرِّيَّتِه.

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/380، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/76.

﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآۚ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡۗ إِنَّا جَعَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ٢٧ ﴾ [الأعراف: 27]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

أعقبَ المنّةَ بنِعمةِ اللّباس، بالتّحذيرِ من فتنةِ الشّيطان، ومُحاولتِه إظهارَ عَوارِ الإنسانِ

لمَّا ذَكَّر اللّه ﷻ بني آدمَ في الآيةِ السَّابقةِ بنعمةِ اللّباس الّذي هو بابُ سَترِ العوراتِ وبابُ التّقوى، وكان ذلك مُستفادًا من قصَّة أَبوَيهِمْ مع الشَّيطان الّذي أغراهما وأوقعهُما في المعصيةِ، ونتجَ عنها بُدُوُّ السّوءاتِ، وهو أمرٌ لا تقبلُه الفِطرةُ السَّليمةُ؛ فطفقَا يخصِفان عليهما من ورقِ الجنَّةِ؛ جاءت هذه الآيةُ بهذا النِّداء؛ لتحذِّرَهم منَ الوقوع في شِراك الشَّيطان الّذي بيَّن القرآنُ عداوتَه المُتأصِّلةَ لأَبويهم بقولِه تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾.

وأيضًا أنَّه أعاد خطابَ بني آدم؛ ليكونَ النِّداءُ تكملةً للآي قبلَه، فجاءَ على التَّحذيرِ منَ الافتتانِ بالشَّيطانِ ومن متابعتِه بإظهارِ كيدِه للنَّاس منِ ابتداءِ خلْقِهم؛ إذْ كادَ لأصلِهم[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ﴾: أصلُ معنى الفتنةِ: هو الاختبارُ والابتلاءُ، يقال: فتنتَ الذَّهبَ في النَّار؛ إذا أدخلتَه إليها لتعلمَ جودتَه من رداءتِه، والفِتنَةُ منَ الأفعال الّتي تكونُ منَ اللّه تعالى، ومن غيره، ومتى كانت منسوبةً إلى اللّه تعالى؛ فهي على وجه الحكمةِ، بمعنى إظهارِ الأمر بالاختبار والابتلاء، ومتى كانت من غيره؛ فهي بمعنى

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/76.

الصَّدِّ والإضلالِ والخداعِ. ومعنى: ﴿لَا يَفْتِنَنَّكُمُ﴾: لَا يُضلَّنَّكُم، ولا يخدعنَّكم، أو لا يمحنَنَّكم، ويبتليَنَّكم[1].

2) ﴿أَبَوَيْكُم﴾: الأبُ: الوالد، وأصلُه أَبَوٌ، ويُسمَّى كلُّ من كان سببًا في إيجاد شيءٍ أو صلاحِه أو ظهورِه (أبًا) أو إيوائِه أو غيرِ ذلك، ويُسمَّى العَمُّ مع الأب: (أبوين)، وكذلك الأمُّ مع الأبِ. ويقال للأب والأمِّ: أبوان، على التَّغليب. وسُمِّيَ الأَبُ أَبًا لغَذْوه أولادَه ومَنْ يعُولُه، أي: إطعامُهم، والسّعيُ عليهم؛ من أجل ذلك[2]. والمرادُ بالأبوين في الآية: آدم وحوَّاء.

3) ﴿يَنزِعُ﴾: يدورُ معنى النَّزعِ على اقتلاع شيءٍ خارجًا عن مقرِّه بجَذْبٍ قويٍّ ممَّا يلتحمُ به أو يكونُ ملتصقًا به، يقالُ: نزعَ الشَّيءَ، أي: قلعَهُ من مقرِّه وجذبَه وسلبَه، كنَزْعِ القَوْس عن كبدِه، ونزع الشَّيءَ من فلانٍ: سلبُه بعد أن كان متمسِّكًا فيه، ومنه نزْعُ الملائكةِ الأرواحَ منَ الأَبدان، والتَّنَازُعُ والمُنَازَعَةُ: المُجَاذَبَة، بأن يريد كلٌّ أن يقتلعَ أمرًا من يد صاحبِه[3].

4) ﴿وَقَبِيلُهُۥ﴾: القَبِيلُ: جمعُ قَبِيلَةٍ، وهي الجماعةُ المجتمعةُ الّتي يُقبِلُ بعضُها على بعض، وقد تكونُ من قبائلَ شتَّى، أو لبني أبٍ واحدٍ، وكلُّ مجموعةٍ منَ الإنس أو منَ الجنِّ: قبيلٌ، والقبيلةُ لا تكونُ إلَّا لأب واحدٍ، وسائرُها منَ النَّاس، فليست القبيلةُ تَأنِيثَ القَبيلِ لهذه المُغايرَةِ. والمرادُ بـ﴿وَقَبِيلُهُۥ﴾ هنا جنودُ إبليسَ منَ الجنِّ[4].

5) ﴿أَوْلِيَآءَ﴾: الوَلْيُ: القَرِيبُ، يُقال: جلسَ ممَّا يليني، أي: يقاربُني، ويُستعملُ للقُربِ من حيث المكانُ، ومن حيثُ النِّسبةُ، ومن حيث الدِّينُ، ومن حيث الصّداقةُ والنُّصرةُ والاعتقادُ، وكلُّ من ولي أمرَ آخرَ؛ فهو وليُّه، وفلانٌ أولى بكذا، أي: أحرَى به وأجدرُ، لقربِه منه، وقولُهم في الشّتمِ: أولى لك، هو تهديدٌ ووعيدٌ بمعنى: قاربَه ما يُهلكُه، والوَلِيُّ: التَّابِع

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (فتن)، وابن جرير، جامع البيان، تح، شاكر: 12/373، والسّمعاني، تفسير السّمعانيّ: 2/176.

(2) الرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (أبو).

(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (نزع).

(4) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (قبل)، وابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 9/75.

المُحِبُّ لقُربِه ممَّن وليَه[1]، وأولياءُ في الآيةِ بمعنى: قرناءَ، أو أعوانٍ، أي: مُوالِين لهم[2].

المَعْنى الإجْماليُّ:

الطّاعةُ لأوامرِ الله تعالى، هي الحِصنُ الّذي يَقِي المؤمنَ فِتنةَ الشَّيطانِ وزَيْغَه

يا بني آدمَ، لا يخدعنَّكم الشَّيطانُ، فيُزيِّنَ لكم المعصيةَ، كما زيَّنها لأبويكم آدمَ وحوَّاءَ، فأخرجَهما بسببِها منَ الجنَّة، ينزعُ عنهما لباسَهما الّذي سترَهما اللّهُ به؛ ليريَهما سوءاتِهما بكشفِ عورتِهما، وإظهارِها لأعينِهما بعد أنْ كانت مستترَةً، إنَّ الشَّيطانَ يراكم هو وذريَّتُه وجنسُه، وأنتم لا ترونهم، فاحذرُوهم؛ لأنَّ اللّه جعلَهم أولياءَ للكفَّارِ الّذين لا يوحِّدونَ اللّه، ولا يصدِّقونَ رسُلَه، ولا يعملون بهديِه[3]. وتُرشدُ الآيةُ إلى الحذر منَ الشّيطان، وعدمِ الغفلةِ عنِ المواضعِ التّي يدخلُ منها على الإنسان.

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

سِرُّ تَكرارِ النِّداءِ في الآيةِ، مع قُربِ العهْدِ به:

تأكيدُ النَّهيِ عنِ الإصغاءِ إلى الشَّيطانِ واتِّباعِه

كُرِّرَ النِّداءُ بقولِه تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ﴾: لِزيادةِ التَّنويهِ بمنَّة اللِّباسِ؛ توكيدًا للتَّعريضِ بحماقةِ الّذينَ يحجُّون عُراةً، ولِتأكيدِ التَّحذيرِ لبني آدم؛ فإنَّه لمَّا بلغ تأثيرُ وسوسةِ الشَّيطانِ في حقِّ آدمَ مع جلالةِ قدرِه إلى أنْ أخرجَه منَ الجنَّة، فكيف يكون حالُ آحادِ النَّاس؟

وفيه أيضًا إيذانٌ بكمالِ الاعتناءِ بمضمونِ ما صُدِّرت به الآيةُ، وهو النَّهيُ عنِ الإصغاءِ إلى الشَّيطانِ واتِّباعه، كما أنَّه لمّا كانت الآيةُ تحكي أحوالا مختلفة، ناسبَ أنْ يُكرَّرَ النّداءُ، وفيه إشارةٌ إلى كمال لُطفِه ﷻ، وعنايتِه ببني آدمَ في توجيهِهم وتحذيرِهم، ممّا

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (ولي).
(2) البغويّ، معالم التنّزيل: 2/186.
(3) ابن جرير، جامع البيان، تح، شاكر: 12/373، ونخبة من العلماء، التّفسير الميّسر، ص: 153.

يَجبُ الحذرُ منه، وهذا منهجٌ دعويٌّ في سياقِ الوعظِ والتَّذكيرِ؛ لأنَّ التّكريرَ من أقوى أساليبِ التَّنبيهِ والتَّأثيرِ[1].

العُدول عن نهْيِ الشَّيطانِ عنِ الفِتنةِ، إلى نهْيِ المُخاطَبينَ:

المبالغةُ في النَّهْيِ عنِ الافتتانِ بالشَّيطانِ، تُظهرُ عظيمَ خطرِه

قوله تعالى: ﴿لَا يَفْتِنَنَّكُمُ﴾: ظاهرُ اللَّفظِ نهيُ الشَّيطانِ عن أنْ يفتِنَ بني آدمَ، فذكرَ اللَّازمَ، وأرادَ ملزومَهُ، وهو نهيُ المخاطَبين عنِ الافتتانِ به ومتابعتِه والإصغاءِ إليه، وهذا من أساليبِ العربِ البليغةِ، كقولِهم: لا أرينَّك هنا: أي: لا تحضرنَّ هنا، فأراكَ، وإنَّما عدلَ عنِ الأصلِ للمبالغةِ الحاصلةِ في النَّهيِ عنِ الافتتانِ بالشَّيطانِ بسلوكِ طريقِ الكنايةِ، وللإيذانِ بأنَّ الشَّيطانَ هو مبدأُ الفتنَةِ تنبيهًا إلى عظيمِ خطرِه، وللإشعارِ بأنَّه يسعى دائمًا إلى فتنتِهم، فمَن لم يفتتِن بفتنةِ الشَّيطانِ؛ كأنَّ الشَّيطانَ لم يتعرَّض لفتنتِه أصلًا[2].

نُكتةُ إيثارِ صِيغةِ الفعلِ المضارعِ، في قولِه: ﴿لَا يَفْتِنَنَّكُمُ﴾:

وَسواوِسُ الشَّيطانِ تَصِلُ إلى عقلِ الإنسانِ وفِكْرِه وقلْبِه

عبَّر بصيغةِ المضارعِ؛ للدَّلالةِ على استمرارِ فتنةِ الشَّيطانِ لبني آدمَ، وتجدُّدِها حالًا فحالًا، فهو يَجري من ابن آدم مجرَى الدّمِ في الجسدِ؛ إذ إنَّ وساوسَ الشَّيطانِ تصِلُ إلى عقلِه وقلبِه وعُروقِه، كما أنَّ الدَّمَ يَسيرُ في جميعِ البدَنِ.

سرُّ إيثارِ التَّعبيرِ، بقوله تعالى: ﴿لَا يَفْتِنَنَّكُمُ﴾ دون غيرِه:

الفِتنةُ إمَّا بمعنَى الإضلالِ، وإمَّا بمعنَى المِحنةِ والابتلاءِ

لمّا كان الافتتانُ بمعنى الاختبارِ والامتحانِ، وكان امتحانُ الشَّيطانِ لبني آدم مقترنًا بوسوستِه لكي يضلَّهم، كان المرادُ من لفظِ الفتنة هنا مآلَه وغايتَه، فإمَّا أنْ تكونَ الفتنةُ بمعنى إضلالِ بني آدم لكي يعصُوا اللّه تعالى ولا يطيعوه، وإمَّا أنْ تكونَ بمعنى المحنةِ والابتلاءِ.

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب مفاتيح الغيب: 14/223، والآلوسّي، روح المعاني: 4/344، ورشيد رضا، تفسير المنار: 8/321، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/76.

(2) ابن عطيةّ، المحرّر الوجيز: 2/390، وابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 9/72، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 8/366، وابن التّمجيد، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 8/366.

دَلالة مجيءِ نونِ التَّوكيدِ الثَّقيلةِ في: ﴿لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ﴾:

دوامُ التّحذيرِ، من فِتنةِ الشّيطانِ الخطيرِ

جاء استعمالُ نونِ التّوكيد الثّقيلةِ في قولِه تعالى: ﴿لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ﴾: لتأكيدِ النَّهي عن الافتتانِ بالشَّيطان، والتّحذيرِ من فتنتِه الدّائمةِ.

بَلاغةُ التَّشبيهِ والاحْتباكِ في الآيةِ الكريمةِ:

من بلاغةِ القرآنِ الجمْعُ بين التَّشبيهِ والاحتباكِ

في قولِه تعالى: ﴿لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ﴾، تقديرُ الكلام: لا يَفتننَّكم فتنةً مثلَ فتنةِ إخراجِ أبوَيكم، وهو من تشبيه المرَكَّب بالمركَّب، ولم يأتِ الكلامُ كما في صورة التَّقدير، كما لم يقلْ: (لا يفتننَّكم الشَّيطانُ كما فتنَ أبَوَيكم)؛ من أجلِ تأديةِ المعنى بمنتهى الإيجاز مع براعة التَّعبير[1]، وبيانُهُ أنَّه لمّا كان الكلامُ على معنى تشبيهِ فتنةِ الشَّيطانِ لبني آدمَ بفتنتِه لآدَمَ وحوَّاءَ، دلَّ على أنَّ الكلامَ على تقديرِ محذوفٍ من المشبَّهِ بما دلَّ عليه المشبَّهُ بهِ، وتقديرِ محذوفٍ منَ المشبَّهِ به بما دلَّ عليه المشبَّه، اتِّكاءً على قرينة السّياقِ؛ ليكونَ على أسلوبِ الاحتباك، فإذا كان ﴿لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ﴾ معنى: لا يضلَّنَّكم، أو لا يخدعنَّكم، فيكونُ قد ذكر السَّبب، وحذف المسبَّب في المشبِّه، وذكر المسبَّبَ، وحذف السَّببَ في المشبَّه به، أي: أقيم الإخراجُ، وهو المسبَّبُ مقام المشبَّهِ بهِ، والمعنى: لا يضلَّنَّكم الشَّيطانُ أو لا يخدعنَّكم، فيترتَّب عليه ألَّا تدخلوا الجنَّةَ كما فتنَ أبويكم، فترتَّبَ عليه خروجُهما منَ الجنَّةِ الّتي كانا يتمتَّعانِ بنعيمها[2]، وإذا كانَ قولُه: ﴿لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ﴾ بمعنى: المحنةِ والابتلاءِ، فيكونُ على العكسِ، أي: ذكرَ المسبَّبَ، وحذف السَّببَ في المشبَّهِ، وذكر السَّببَ، وحذف المسبَّبَ في المشبَّهِ به، أي: أقيم السَّببُ: وهو الإخراجُ مقامَ المشبَّه به، والمعنى: لا يمحننَّكم الشَّيطانُ بأنْ يمنعَكم

(1) السّمين الحلبيّ، الدّر المصون: 5/291، والشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 7/4098.

(2) ابن جرير، جامع البيان: 12/373، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 14/223، ورشيد رضا، تفسير المنار: 8/322.

دخولَ الجنَّة بإغوائِكم، كَما أوقعَ أَبَوَيكُمْ في المحنِ والبلاءِ بسببِ الإخراجِ من الجنَّة، ومن مقاصدِ التَّشبيه هنا تذكيرُ البشرِ بأعظمِ فتنةٍ فَتَنَ الشَّيطانُ بها نوعَهم، وشملت كلَّ واحدٍ منَ النَّوعِ؛ إذ حُرِمَ منَ النَّعيمِ الّذي كان يتحقَّقُ له لو بقيَ أبواه في الجنَّة، وتناسلا فيها، والتَّذكيرُ بأنَّ عداوةَ البشرِ للشَّيطانِ موروثةٌ، فيكونُ أبعثَ لهم على الحذرِ من كيدِه[1].

النُّكتةُ في تشبيهِ فِتنةِ الشَّيطانِ بالإخراجِ منَ الجَنّةِ:

مآلُ الافْتتانِ بالشَّيطانِ، الحِرمانُ منَ الجِنانِ

لمّا كانت فتنةُ الشَّيطانِ غيرَ ظاهرةٍ، وهي أمرٌ معنويٌّ جُعلَ المشبَّه به أمرًا حسِّيًّا؛ لتقريبِ معنى الفتنةِ للبشرِ وتخويفِهم بها، فشبَّهَ فتنةَ الشَّيطانِ بما آلت إليه فتنةُ آدمَ وحوَّاءَ، إذ كانَ مآلُ فتنةِ الشَّيطانِ لآدمَ وحوَّاءَ الحرمانَ منَ البقاءِ في الجنَّة، ففي التَّشبيهِ تذكيرٌ وتنبيهٌ لبني آدمَ بأنَّ الفتنةَ ستضرُّكم كما سبقَ وألحقتِ الضّررَ بأبويكم آدمَ وحواءَ.

سِرُّ التَّعبيرِ بـ﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾ دونَ إبليسَ:

أذَى إبليسَ مقصورٌ على نفسِهِ، وأذَى الشَّيطانِ مُتَعدٍّ إلى غيرِه

في قوله تعالى: ﴿لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾ جاء التعبير بلفظ ﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾ دون إبليس، والنَّاظرُ في آياتِ القرآنِ الكريم في قصَّة آدمَ عليه السلام وطلبِ السُّجودِ له منَ الملائكة، يجدُ أنَّ التّعبير بلفظ (إبليس) وردَ في سُوَرٍ عديدةٍ منها؛ البقرةُ، والأعرافُ، والحجرُ، وغيرُها منَ السُّور الّتي وردَ فيها لفظُ (إبليس)، وهو مأخوذٌ من الإبلاسِ، والمرادُ به شدَّةُ اليأسِ؛ لأنَّ اللّه آيسَهُ منَ الخيرِ، وقيلَ: مأخوذٌ منَ البَلَس، وهو الحزنُ المُعترضُ من شدَّةِ الإبلاسِ. والمُلاحظ أنَّه في هذا المشهدِ، لم يتعدَّ أذاهُ إلى غيره، بل عادَ عليه هو؛ حيثُ لُعن وطُرد بسبب استكبارِهِ عنِ السُّجودِ.

(1) البيضاويّ، أنوار التنّزيل: 3/10، والطّيبي، فتوح الغيب: 6/360، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 8/366، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/77.

أمَّا لفظُ ﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾: وأصلُه من شَطَنَ أي: (بَعُد) أو من شَاطَ؛ إذا احترق، وهلك، ولذلك فهو وصفٌ يَقعُ على كلِّ عاتٍ متمرِّدٍ منَ الجنِّ والإنس، وهذا يدلُّ على تعدِّي أذاه إلى الآخرِ؛ يؤكِّدُ ذلك أنَّه لمَّا أوقع آدمَ وحوَّاءَ في المعصية بأكلِهما منَ الشَّجرة؛ عبَّر القرآن عنه بوصف الشَّيطانِ، فقال تعالى: ﴿فَوَسۡوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾، وهذا واضحٌ في تعدِّي أذاه إلى الآخرِ.

نُكتةُ إيثارِ المصْدرِ المؤَوَّلِ، في قوله تعالى: ﴿كَمَآ أَخۡرَجَ﴾:

عُبِّرَ بالمصدرِ المؤوَّلِ؛ للدَّلالةِ على تشبيهِ فتنةِ الشَّيطانِ بنفْسِ خروجِ آدمَ وحوَّاءَ منَ الجنَّة من غير نظرٍ إلى أيِّ وصفٍ لنوعِ الخروجِ؛ للإشعارِ بأنَّ نفسَ الخروجِ منَ الجنَّة أعظمُ فتنةٍ فعلَها الشَّيطانُ وتسبَّبَ بها.

إخراجُ آدمَ منَ الجنَّة، أعظمُ فِتنةٍ فعلَها الشَّيطانُ، وتسبَّبَ فيها

سِرُّ التَّعبيرِ بالماضِي، في قولِه تعالى: ﴿كَمَآ أَخۡرَجَ﴾:

عبَّر بالفعلِ الماضي للدَّلالةِ على تحقُّقِ الإخراجِ لآدمَ وزوجِه، وفي هذا إلهابٌ لمشاعرِ الأبناءِ للحذرِ من فتنةِ الشّيطان؛ لأنَّه مُصِرٌّ على إبعاد ذريَّةِ آدمَ عنِ الجنَّة، كما حقَّق ذلك مع أبوَيْهم.

شِدّةُ تحذيرِ أبناءِ آدمَ من فِتنةِ الشّيطانِ

سِرُّ العُدولِ عن نِسبةِ الفِتنةِ إلى آدمَ وحوّاءَ:

في قولِه تعالى: ﴿لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ﴾، عبَّر مع آدمَ بالإخراجِ، ومع بَنيهِ بالفتنةِ؛ لأنَّ الغرضَ تحذيرُ بني آدمَ من فتنةِ الشَّيطانِ حتى لا يخرجُوا من جنَّةِ التَّكليفِ والطَّاعةِ؛ كما خرج أبواهُما منَ الجنّة. وأيضًا لاختلاف الموقفَيْن، فأمْرُ إخراجِ آدمَ أمرٌ قدَّره اللّه أزلًا؛ لأنَّه سيخرجُ منَ الجنَّة إلى الأرض لأداء مهمَّةِ الخلافة؛ فاصطفاه اللّه واجتباهُ، فلم يعُدْ للشَّيطانِ معهُ طريقٌ. أمَّا بالنِّسبةِ لبنيهِ؛ فأمرُ الفتنةِ معهم أمرٌ ثابتٌ بينَ الشَّيطان وبني آدمَ، والمطلوبُ منَ الإنسانِ أن يُنَقِّيَ نفسَه من شوائب الشِّرك والمعصيةِ؛ لأنَّ ذلك هو دورُ الشَّيطانِ في فتنة بني آدمَ.

تحذيرُ بني آدمَ من فِتنةِ الشَّيطانِ وإغوائِه

سِرُّ العُدولِ عن لفظَيْ (آدمَ) و(حوّاءَ) إلى لفْظِ ﴿أَبَوَيْكُم﴾:

إرشادُ بني آدمَ إلى أنَّ الشَّيطانَ عدُوٌّ، مُتمكِّنٌ في عَداوتِه لهم

عدلَ القرآنُ عنِ التَّصريح باسمِ آدمَ وحواءَ إلى التَّعبير بقولِه: ﴿أَبَوَيْكُم﴾؛ لإثارة الحَميَّةِ في قلوبِ بني آدمَ ليأخذوا بثأرِ أبيهم منَ الشَّيطان، وليعلمُوا أنَّ الشَّيطانَ عدوٌّ متمكِّنٌ في عداوتِه لهم بدليل موقفِه مع أبوَيْهِم.

بَلاغةُ المجازِ العقليِّ في قولِه: ﴿أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ﴾:

الإشعارُ بأنَّ مآلَ اتِّباعِ فِتنةِ الشَّيطانِ، انتفاءُ دُخولِ الجنَّةِ

نسبَ إخراجَ آدمَ وحوَّاءَ إلى الشَّيطانِ، وإنْ لم يتولَّ ذلك؛ لأنَّ الإخراجَ كانَ بسببٍ منه، فأُسنِدَ إليه على طريقِ المجازِ العقليِّ؛ لتعظيمِ خطرِ الشَّيطانِ وللتَّحذير منِ اتِّباعِ وسوستِه.

وللإشعار بأنَّ مآل اتِّباعِ فتنةِ الشَّيطانِ انتفاءُ دخولِ الجنَّة، كما أنَّه لمّا فتنَ أبويكم؛ أُخرجا منَ الجنَّة، وللتَّذكيرِ بعظمِ فتنةِ الشَّيطان لتأكيدِ التَّحذيرِ منه.

نُكتةُ ذكْرِ قولِهِ تعالى: ﴿مِّنَ ٱلْجَنَّةِ﴾:

الإيماءُ بأنَّ مَصيرَ مَن يَقعُ في فِتنةِ الشَّيطانِ، أن يُحرمَ منَ الجنّةِ والرّحمةِ

للإشعار بأنَّ مصيرَ من يقعُ في فتنة الشَّيطان أن يُحرمَ من دخولِ الجنَّةِ، وفيه حثٌّ لبني آدمَ بالحذرِ من فتنةِ الشَّيطان وعدمِ اتِّباع إغوائه، لما يعقُبُ ذلك منَ الخُسرانِ المبينِ.

نُكتةُ التَّعبيرِ بصِيغةِ المضارعِ: ﴿يَنزِعُ﴾:

استحضارُ بشاعة ما قام به الشَّيطانُ

جيءَ بصِيغةِ المضارعِ على أنَّه حكايةُ حالٍ؛ لتصويرِ الحالةِ واستحضارِ الصُّورةِ البَشعةِ الّتي قام بها الشَّيطانُ، فهو الّذي تسبَّبَ في نزعِ لباسِهما[1].

سِرُّ التَّعبيرِ بـ ﴿يَنزِعُ﴾:

الشّيطانُ أغوَى آدمَ وزوجَهُ، تَرغيبًا لا ترهيبًا

في قولِه تعالى: ﴿يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا﴾، آثرَ فيه التّعبيرَ بالنَّزعِ، في قولِه: ﴿يَنزِعُ﴾ دون (يسلبُ)؛ لوجودِ فرْقٍ بينهُما، فالسَّلبُ نزعُ

(1) السّمين الحلبي، الدّر المصون: 5/291، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/222.

الشَّيءِ منَ الآخرِ على سبيل القهْرِ، قال تعالى: ﴿وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا﴾ [الحج: 73]، أمَّا النَّزْعُ فهو جذْبُ الشَّيءِ من مقرِّه كنزعِ القوسِ عن كَبِدِهِ، ويُستعملُ في الأعراضِ، ومنه نزْعُ العداوةِ والمحبَّة منَ القلب، قال تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾ [الأعراف: 43].

وبناءً على هذا، نلاحظُ أنَّ التّعبيرَ القرآنيَّ آثرَ النَّزعَ دونَ السَّلبِ؛ لأنَّ إبليسَ أغوى آدمَ وزوجَهُ خِداعًا وغُرورًا؛ فصفةُ القهرِ غيرُ موجودةٍ؛ لذلك عَبَّر بالنَّزع، وهو أخذُ الشَّيءِ من مقرِّه الثَّابت فيه، والمُتمكِّن منه، وفي هذا إشارةٌ إلى أنَّ اللِّباس بالنِّسبة لهما شيءٌ ثابتٌ مستقرٌّ، وما فعله الشَّيطانُ هو قَلْعُ اللِّباس من مَقرِّه؛ كأنَّهما كانا داخلَيْن فيه، وتسبَّب الشَّيطانُ في إسقاطِه عنهما، يؤكِّدُ ذلك تعدِّي الفعلِ بـ (عن) دون (مِنْ)؛ فلم يقل: (ينزع منهما)؛ لأنّ تعدِّي الفعل بـ(مِنْ) يشيرُ إلى معنى الأخْذِ بقوةٍ، كما في قولِه تعالى: ﴿وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ﴾ [آل عمران: 26]

دَلالةُ جُملةِ ﴿يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا﴾:

وردتْ هذه الجملةُ حالًا، وصاحبُ الحالِ إمَّا ﴿أَبَوَيْكُم﴾ أو الضَّميرُ في ﴿أَخْرَجَ﴾، والمعنى: أخرجَ الشَّيطانُ أبوَيْكم نازعًا عنهما لباسَهما، ولمّا كان نَزْعُ اللِّبَاسِ عَنْهُمَا قَبْلَ الإِخْرَاجِ؛ كانت هذه الجملةُ على سبيلِ حكايةِ أَمْرٍ قَدْ وَقَعَ، والمقصودُ من هذه الحال تفظيعُ هيئةِ الإخراج بكونها حاصلةً في حال انكشافِ سوءاتِهما؛ لأنَّ انكشافَ السَّوءةِ من أعظمِ الفظائعِ في متعارَفِ النَّاسِ[1].

انكشافُ السَّوءةِ، من أَعْظمِ الفظائعِ في مُتعارَفِ النَّاسِ

بَلاغةُ المجازِ العقليِّ في قولِه تعالى: ﴿يَنزِعُ﴾:

أضاف نزعَ اللِّباسِ إلى الشَّيطانِ، وإنْ لم يتولَّ ذلك؛ للمبالغةِ في المعنى؛ لأنَّهُ كان بسببٍ منه لغُرورِ الشَّيطانِ وَوسْوستِه لهما بالأكلِ

تَنوُّعُ الأساليبِ البلاغيَّةِ، غايتُه تقريرُ المعنى وتأكيدُه

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/98، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 14/223، وأبو حيّان، البحر المحيط: 5/32، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/78.

منَ الشَّجرةِ، فأسندَ النَّزعَ إليه، كما تقولُ: أنت فعلتَ هذا؟ لمن حصلَ منه ذلك الفعلُ بسببٍ؛ وإن لم يباشرْه[1].

دَلالةُ اللَّامِ في قولِه تعالى: ﴿لِيُرِيَهُمَا﴾:

مآلُ نزعِ اللِّباسِ، انكشافُ العَورةِ، وضَياعُ السَّتْرِ

تحتملُ اللَّامُ أنْ تكونَ لامَ العاقبةِ، والمعنى: مآلُ نزعِ اللِّباسِ رؤيتُهما سوءاتِهما، وتحتملُ أن تكونَ للتَّعليلِ الادِّعائي، تبعًا للمَجازِ العقليِّ؛ لأنَّه لمَّا أسندَ الإخراجَ والنَّزعَ والإراءةَ إلى الشَّيطانِ على وجهِ المجاز العقليِّ، فجُعِلَ كأنَّه فاعلُ الإخراجِ ونزعِ لباسِهما وإراءتِهما سوءاتِهما؛ فانتظمَ الإسنادُ الادِّعائيُّ معَ التَّعليلِ الادِّعائيِّ، فكانت لامُ العلَّةِ قرينةً مُقوِّيةً للإسنادِ المجازيِّ.

سِرُّ التَّعبيرِ بقولِه تعالى: ﴿لِيُرِيَهُمَا﴾ دون (لِيرَيا سوءاتِهما):

الشَّيطانُ يَسرُّه أنْ يرَى ابنَ آدمَ مكشوفَ السَّوْءَةِ، حِسًّا ومعنًى

جاء التَّعبيرُ بهذه الصِّيغةِ؛ لِيدلَّ على أنَّ الشَّيطانَ له غرضٌ واضحٌ، وهو أنْ يُريَهما سوءاتِهما ليتمَّ ادِّعاءُ كونِه فاعلَ ذلك الفعل المُضِرِّ، وكونِه قاصدًا من ذلك الشَّناعةَ والفظاعةَ، كشأنِ الفاعلين أنْ تكونَ لهم عللٌ غائيَّةٌ من أفعالِهم إتمامًا للكيدِ، وإنَّما الشَّيطانُ في الواقعِ سببٌ لرؤيتِهما سوءاتِهما. وفي العبارةِ إشارةٌ إلى أنَّ الشَّيطانَ يهتمُّ بكشفِ سَوءةِ ابنِ آدمَ؛ لأنَّه يسرُّه أنْ يراه في حالةِ سُوءٍ وفظاعةٍ[2].

بَلاغةُ الاستئنافِ البيانيِّ، في جملة ﴿إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ﴾:

اسْتِدرارُ أسماعِ المخاطَبينَ، للتَّحذيرِ من فِتنةِ الشَّياطين

لمَّا نهى اللّه تعالى عنِ الافتتانِ بالشَّيطانِ ومتابعتِه، فكأنَّه قيل: لماذا هذا التَّحذيرُ المؤكَّد منَ الافتتانِ بالشَّيطان، وهل فتنتُه خطيرةٌ وعظيمةٌ؟ فأجابَ: ﴿إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ﴾، لاستدرارِ أسماعِ المخاطَبين والتَّنبيهِ على أهمِّيَّة إصغائِهم.

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 14/223.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 14/223.

دَلالةُ (إنَّ)، في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ﴾:

الجَمْعُ بينَ التَّعليلِ والتَّأكيدِ في لفْظِ (إنَّ)

تُفيدُ (إنَّ) تعليلَ النَّهي وتأكيدَ التَّحذيرِ من فتنةِ الشَّيطانِ، وبيانُه: أنَّه لمَّا تقدَّمَ أنَّ نهيَ الشَّيطانِ عن فتنتِنا إنَّما هو في الحقيقة نهيٌ لنا عنِ الافتتان به، فهو في قوَّةٍ لِيشتدَّ حذرُكم من فتنتِه فإنَّه دقيقُ الكيدِ بعيدُ الغَورِ بديعُ المخاتلة؛ علَّل ذلك، وأكَّده بقوله: ﴿إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ﴾، فإنَّه إذا علَّلَ النَّهيَ بعلَّةٍ؛ كانَ أدعَى إلى الإقرارِ وآكدَ في التَّحذيرِ[1].

دَلالةُ تأكيدِ رُؤيةِ الشَّيطانِ وقَبيلِهِ لبني آدمَ:

مَنْ لا يحذرُ منَ الشَّيطانِ بمنزلَةِ المتردِّدِ في فِتنتِه

في قولِه تعالى: ﴿إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡۗ﴾: جاء الأسلوبُ مؤكَّدًا مع أنّ رؤيةَ الشَّيطان وقبيلِه لبني آدمَ أمرٌ واضحٌ مُشاهدٌ لا يحتاجُ إلى تأكيدٍ، لكنه نَزَّلَ المخاطَبين في إعراضِهم عنِ الحذرِ منَ الشَّيطان وفتنتِه منزلةَ من يتردَّدونَ في أنَّ الشَّيطانَ يراهُم، وفي أنَّهم لا يرونَه، فكأنَّهم بينَ بينَ في تحيُّرهم، فاستُحسِنَ تقويةُ الكلامِ بـ(إنَّ).

دَلالةُ الضَّميرِ، في قولِه تعالى: ﴿إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ﴾:

الذي يَراكُم هو وقبيلُه، هو الّذي يَفتِنُكم، كما فتنَ أبوَيْكم

يحتملُ الضَّميرُ أنْ يكونَ للشَّأنِ، تعظيمًا للمذكورِ بعدَه وتفخيمًا له؛ لاقتضاءِ المقام؛ فإنَّه لمّا أبهمَ الأمرَ بالضَّمير تطلَّعتِ النَّفوسُ إلى معرفةِ الخبرِ، وتشوَّقت إلى فهمِه، فلمَّا فسَّره بجملة ﴿يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡۗ﴾؛ أفادَ المبالغةَ في تعظيم أمرِ ما أخبرَ به وتفخيمِه[2]، وبيانُه أنَّ المخاطَبين كأنَّهم استبهمُوا الأمرَ وسألوا عن سببِ التَّحذيرِ من فتنةِ الشَّيطانِ، فقيلَ: إنَّ الشَّأنَ والأمرَ العظيم الّذي أُخبرُكم عنه هو أنَّ الشَّيطانَ يراكُم هو وقبيلُه من

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/98، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 14/223، والبيضاويّ، أنوار التنّزيل: 3/10، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/222، وابن التّمجيد، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 8/366.

(2) الرّضي، شرح الكافية/2/27.

حيث لا ترونَهم؛ تهويلًا للأمرِ وللمبادرةِ إلى الحذَرِ منه، كما يحتملُ أنْ يكونَ عائدًا للشَّيطان، والمعنى: إنَّ الشَّيطانَ يراكُم هو وقبيلُه من حيث لا ترونَهم. والنُّكتةُ في إعادةِ ذكر الشَّيطانِ بالضَّمير تأكيدُ الأمرِ، والإعلامُ بأنَّ الّذي يراكم هو وقبيله هو عينُ الّذي يريدُ أنْ يفتنَكم كما فتنَ أبويكم للحذَرِ والاحتراسِ منه[1].

دَلالةُ ذكْرِ الضَّمير ﴿هُوَ﴾ في قولِه تعالى: ﴿هُوَ وَقَبِيلُهُۥ﴾:

تأكيدُ تحذيرِ المؤمنين من إبليسَ اللَّعينِ

ذهب بعضُ المفسِّرين إلى أنَّ الضَّميرَ المنفصلَ أُعيدَ ذكرُهُ؛ ليصحَّ عطفُ ﴿وَقَبِيلُهُۥ﴾ على الضَّمير في ﴿يَرَىٰكُمْ﴾، وذهب بعضُهم إلى أنَّ العطفَ صحيحٌ، وإنْ لم يُذكرِ الضَّميرُ لوجودِ الفاصل (كُمْ)، وهو كافٍ في صحَّة العطف[2]، وعلى كلا القولين أفادَ ذكرُ الضَّميرِ تأكيدَ الضَّميرِ المستترِ في قولِه: ﴿يَرَىٰكُمْ﴾؛ لِتأكيدِ تحذيرِ المؤمنين من إبليسَ اللَّعينِ، والمعنى: الّذي فتن أبوَيْكم هو الّذي يراكم، فاحذرُوا أنْ يفتنَكم.

سِرُّ التَّعبيرِ بلفظ ﴿ وَقَبِيلُهُۥ ﴾، دونَ (جنوده):

الشَّيطانُ وجُنودُهُ كالقبيلةِ الواحدةِ، في تعاوُنِهم على بنِي آدمَ

لم يقلْ: (إنَّه يراكم هو وجنودُه)؛ لِمَا يشعرُ به قولُه: ﴿وَقَبِيلُهُۥ﴾ أنَّ الشَّيطانَ وجنودَه كالقبيلةِ الواحدةِ في تعاونِهم على بني آدمَ، فيكونُ لفظُ ﴿وَقَبِيلُهُۥ﴾ مستعارًا لجنودِ الشِّيطانِ وقبيلتِه؛ لأنَّهما في التَّعاونِ كالقبيلةِ.

سِرُّ مَجيءِ الظَّرْفِ، والتَّعبيرِ بعدَمِ الرّؤيةِ في ﴿لَا تَرَوْنَهُمْ﴾:

العَدوُّ إذا أتَى من حيثُ لا يُرى، يكونُ أَشَدَّ وأخْطرَ

لمّا كان ﴿حَيْثُ﴾ في قوله تعالى: ﴿مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾ منَ الظُّروفِ المبهمةِ الّتي تتحدَّدُ بما تضافُ إليه، وكانت ﴿مِنْ﴾ لابتداءِ الغاية المكانيَّةِ هنا، أفادَ التَّركيبُ ابتداءَ غايةِ رؤيةِ الشَّيطانِ وجنودِه

(1) الزّمخشري، الكشّاف: 2/98، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 7/382، والآلوسّي، روح المعاني: 4/344، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/79.

(2) السّمين الحلبيّ، الدّر المصون: 5/292.

بني آدمَ منَ المكانِ الّذي تنتفي فيه رؤيةُ بني آدمَ للشَّيطانِ وجنودِه، أَي: إنَّ الشَّيطانَ يراكُم هو وجُنُودُه وَنَوعُهُ وَذُرِّيَّتُهُ مِنَ الجِهَةِ الّتي لَا تُبصرُونَهُ مِنهَا، فأفادت ﴿حَيۡثُ﴾ عُمومَ رؤيتِهم لبني آدمَ من كلِّ مكانٍ، وإنْ تحدَّدَت بالمضافِ إليه.

وعَبَّرَ بقولِه: ﴿لَا تَرَوۡنَهُمۡۗ﴾؛ للدَّلالةِ على بيانِ انتفاءِ رؤيةِ بني آدمَ لهم في عُمومِ الأماكن قريبِين أو بعيدِين، فلا قُدرةَ لبني آدمَ على مجاراتِهم ودفعِهم إلَّا بعدمِ الافتتانِ بالشَّيطانِ وجنودِه، وذلك بالاعتصامِ بالتَّقوى، والغرَضُ منَ الكلامِ التَّحذيرُ من فتنتِه، فهو بمنزلةِ العدوِّ المُداجي المطاوِلِ الّذي يأتي ليلًا لا يُرى، فهو يكيدُ ويَغتالُ من حيثُ لا يشعرُ النَّاسُ، والعدوُّ إذا أتى من حيث لا يُرى كان أشدَّ وأخوفَ[1].

بَراعةُ التَّعبيرِ بالمضارعِ في الفعلَيْن ﴿يَرَىٰكُمۡ﴾ و﴿لَا تَرَوۡنَهُمۡۗ﴾:

أفادت صِيغةُ المضارعِ في الفعلَيْن الاستمرارَ وتجدُّدَ الحدوث بتجدُّدِ الأزمانِ، ففي صِيغةِ الفعلَيْن معنى الدَّوام، ولمَا كانت جملةُ ﴿إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡۗ﴾ بمنزلة التَّعليلِ للنَّهي عنِ الافتتان بالشَّيطانِ وجنودِه، وكانت تدلُّ على الدَّوامِ وعُمومِ المكان؛ بدلالةِ ﴿حَيۡثُ﴾، أفادَ الكلامُ دوامَ النَّهي عنِ الافتتان بهم في كلِّ زمانٍ ومكانٍ.

النَّهيُ عنِ الافتتانِ بالشَّيطانِ وجنودِه، تَفاديًا للزَّيغِ والهلاكِ

بَديعُ طِباقِ السّلْبِ في قولِه: ﴿يَرَىٰكُمۡ﴾ و﴿لَا تَرَوۡنَهُمۡۗ﴾:

وردَ الكلامُ على طريق طِباقِ السَّلبِ، إظهارًا للتَّفاوتِ بين جانبِ كيدِهم وجانبِ حذَرِ النَّاس منهم، فإنَّ جانبَ كيدِهم قويٌّ متمكِّنٌ، وجانبَ حذَرِ النَّاسِ منهم ضعيفٌ؛ لأنَّهم يأتونَ المكيدَ من حيثُ لا يدرونَ[2].

كيدُ الشّياطين قَويٌّ عَنيفٌ، وحَذَرُ النَّاسِ منه رَخيٌّ ضَعيفٌ

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/32، والسّمين الحلبيّ، الدّر المصون: 5/293، والآلوسّي، روح المعاني: 4/344.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/79.

دَلالةُ ﴿لَا﴾ النَّافيةِ في قولِهِ ﴿لَا تَرَوْنَهُمْ﴾:

عُبِّرَ بـ﴿لَا﴾ النَّافيةِ لإفادتِها استمرارَ النَّفْيِ[1].

بَلاغةُ موقعِ قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ﴾:

سُلِكَ في هذه الجملةِ مسلكَ الاستئنافِ، وتحتملُ معانيَ عدَّةً، هي[2]:

مَـــنْ يُـــوالِي الـكـافـريـنَ الظّلمةَ، مُوالٍ لـلـشَّـيـاطـين الفَجرةِ

أولاً: أنْ تكونَ تعليلًا آخرَ للنَّهْيِ عنِ الافتتانِ بالشَّيطانِ وجنودِه، فتكونَ من قَبيلِ تأكيدِ التَّحذيرِ إثْرَ تأكيدٍ، بل هذا التَّحذيرُ أبلغُ منَ الأوَّلِ، وجاءَ الكلامُ مؤكَّدًا؛ لتنزيلِ المخاطَبينَ منزلةَ المتردِّدينَ المتحيِّرين في كوْنِ الشَّياطين أولياءَ للَّذين لا يؤمنون، لِمَا يظهرُ منْ مُوالاةِ بعضِ النَّاس للكافرين، فإنَّ مَنْ يُوالي الكافرين مُوالٍ للشَّياطين.

ثانيًا: أنْ تكونَ إجمالًا لِمَا فُصِّل في الكلامِ قبلَها، فتكونَ بمنزلةِ جُملةِ التَّذييل لتفيدَ عمومَ المعنى وكلِّيَّتَه.

ثالثًا: أنْ تكونَ استئنافًا بيانيًّا، فتكونَ جوابًا لسؤالٍ مطويٍّ، كأنَّه قيل: إذا كان الشَّيطانُ يرى النَّاسَ هو وقبيلُه من حيثُ لا يرونَهم، فأجابَ ﴿إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾، أو يقال: لما قال: ﴿إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾ كأنَّ المؤمنين قالوا: لم سُلِّطوا علينا هذا التَّسليطَ العظيمَ الّذي لا يكادُ يسلَمُ معه أحدٌ، فقالَ مخفِّفًا لأمرِهم مُوهيًا في الحقيقةِ لكيدِهم: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾، فالذين لمْ يوالُوا الّذينَ لا يؤمنون، واتَّخذوا اللّٰه تعالى وليًّا؛ لا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون.

رابعًا: أنْ تكونَ استئنافًا ابتدائيًّا قُصدَ منه الانتقالُ إلى أحوالِ الكافرينَ في ائتمارِهم بأمرِ الشَّيطانِ؛ تحذيرًا للمؤمنينَ منَ الانتظامِ في سِلْكِهم، وتنفيرًا من أحوالِهم.

---

(1) السّامرائّي، معاني النّحو: 4/206.

(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/98، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/223، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 7/382، والآلوسيّ، روح المعاني: 4/344، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/80.

دَلالةُ الضَّميرِ (نا)، في قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّا﴾، و﴿جَعَلْنَا﴾:

عُبِّرَ بضميرِ العظمةِ في الموضعَيْن العائدِ إلى اللّهِ تعالى[1]؛ للإشعارِ بأنَّ اللّه تعالى أعظمُ منَ الشَّياطين وجنودِه، وأنَّ الأمرَ كلَّه بإذنِه سبحانه، فمَنْ يتَّخذِ اللّه وليًّا؛ فلا سلطانَ للشَّياطينِ والّذين لا يؤمنون عليه.

مَنْ يتَّخذِ اللهَ وليًّا فلا سُلطانَ للشَّياطينِ والكافِرينَ عليه

مُناسبةُ الجمْعِ في قوله تعالى: ﴿ٱلشَّيَٰطِينَ﴾:

لم يقلْ: (إنَّا جعلنا الشيطان وليًّا)، بل جعلَ قبيلَه من جُملتِه، فجمعَ[2]، كما أفادَ الجمعُ المطابقةَ بين جمعِ الشَّياطين وجمعِ الّذينَ لا يؤمنون، وممّا يؤكِّدُ المُطابقةَ: التَّعبيرُ بالجمعِ ﴿أَوْلِيَآءَ﴾.

المطابَقةُ بين جمْعِ الشَّياطين، وجمْعِ الّذينَ لا يُؤمنون

مجازُ التَّعبيرِ، في قولِه تعالى: ﴿أَوْلِيَآءَ﴾:

لمّا كانتِ الموالاةُ على حقيقتِها مُنتفيةً بين الشَّياطينِ والّذين لا يؤمنون، دلَّ على أنَّه قُصِدَ بالمولاةِ ما يتسبَّب عنها بما أوجدَه اللّهُ تعالى بينَهم منَ التَّناسُبِ، أو بإرسالِ الشَّياطينِ على الّذينَ لا يؤمنون وتمكينِهم من خِذلانِهم وحملِهم على ما سَوَّلوا لهم[3].

بيانُ إرسالِ الشَّياطينِ على الّذينَ لايُؤمنون، وتَمكينِهم من خِذْلانِهم

سَببُ إيثارِ قولِه تعالى: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ دون غيرِه:

آثرَ التَّعبيرَ بنفْيِ الإيمانِ دونَ إثباتِ الكُفرِ، فلم يقلْ: (أولياء للذين كفروا)؛ للإشعارِ بأنَّ الإيمانَ قريبٌ منهم حاضرٌ بين أيديهم، ولكنَّهم يصدُّون عنه، فلا يقالُ: فلانٌ لا يؤمنُ إلَّا والإيمانُ معروضٌ عليه.

تحذيرُ النَّاسِ منَ الصَّدِّ عنِ الإيمانِ، فذلك أصلُ الخُسرانِ

مُناسبةُ مَجيءِ الاسمِ الموصولِ وصِلتِهِ:

في قولِه تعالى: ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾، سُلِك في الكلامِ التَّعبيرُ بالاسمِ الموصولِ لما تومئُ إليه صِلتُه إلى الوجهِ الّذي جعلَ اللّهُ الشَّياطينَ أولياءَ لهذهِ الطَّائفةِ وبيانِ السَّببِ، أي: لأنَّهم لا يؤمنون

عدمُ الإيمانِ باللهِ ورسولِهِ، هو السَّببُ في تَولِّي الشَّياطينِ للَّذين لا يُؤمنون

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/382.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/223.
(3) البيضاويّ، أنوار التنّزيل: 3/10، والخفاجيّ، عناية القاضي: 4/161.

باللّه جعل اللّهُ الشَّياطينَ أولياءَ لهم، والغرَضُ إهانتُهم واستحقاقُهم ما أخبرَ اللّهُ به عنهم[1].

حُسْنُ التَّذييلِ في آخر الآية، وأثَرُه في المعنَى:

جُملةُ التَّذْييلِ، تَجرِي مجرَى المثَلِ الأصيلِ

جاءت جملةُ التَّذييلِ في قولِه تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ لتُفيدَ عُمومَ المعنى وكلِّيَّتَه، فهي كالمثلِ تجرِي في الكلام، والمعنى: قد مضت سنَّتُنا في التَّناسُبِ بينَ أنواعِ المخلوقات المتجانسةِ والمتشاكلةِ، أنْ يكونَ الشَّياطينُ الّذينَ هم شِرارُ الجنِّ أولياءَ لشِرارِ الإنسِ، وأشعرتْ جملةُ التَّذييلِ بالمفهومِ، أي: الّذي آمنَ لا يتَّخِذُهُ الشَّيطانُ وليًّا[2].

اختلاف التّعبير بـ(جعْلِ) الشّياطين، و(إرسالِ) الشّياطينِ:

الجَعْلُ حُكمٌ وتَصييرٌ، والإرسالُ تخليةٌ بين الكَفرةِ والشّياطينِ

اختلافُ قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ﴾ [الأعراف: 27]، عن قوله: ﴿أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ﴾ [مريم: 83]، عبَّرَ بالجَعْلِ هنا؛ لأنَّ معناهُ: (حَكمنا وصَيَّرنا بأنَّ الشَّياطينَ أولياءَ للَّذين لا يؤمنون)؛ أمَّا التَّعبيرُ بلفظِ الإرسال؛ فمعناهُ: (خَلَّينا بين الكَفَرَةِ وبين الشّياطين).

(1) السّكّاكي، مفتاح العلوم: ص: 182.

(2) رشيد رضا، تفسير المنار: 8/330، والشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 7/4103.

﴿وَإِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً قَالُواْ وَجَدۡنَا عَلَيۡهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَاۗ قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ٢٨﴾

[الأعراف: 28]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا خُتِمتِ الآيةُ السَّابقةُ بجعْلِ الشَّياطينِ أولياءَ للذين لا يؤمنون؛ جاءتْ هذه الآيةُ لتؤكِّدَ هذا الحُكمَ بذكْرِ بعضِ قبائحِهم في قولِه تعالى: ﴿وَإِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً قَالُواْ وَجَدۡنَا عَلَيۡهَآ ءَابَآءَنَا﴾؛ فهُم يفعلونَ الفواحشَ، ويعتذرونَ عن فعلِها بأنَّهم اتَّبعوا آباءَهم وأنَّ اللّٰه أمرَهم بذلك، وهذا كذبٌ وافتراءٌ على اللّٰه تعالى[1].

العلاقةُ بين التّحذيرِ من فِتنةِ الشّيطان، وبين سُوءِ الفواحشِ المُتوارَثةِ عنِ الأجدادِ

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَٰحِشَةً﴾: يدلُّ الفُحشُ على قُبحٍ في شيءٍ وشناعةٍ، ويكونُ مكروهًا، أو هو ما تجاوزَ قدرَهُ بحيثُ بلغَ النِّهايةَ في القُبحِ منَ الأفعالِ والأقوالِ، وَمِنهُ غبنٌ فَاحِشٌ؛ إذَا جَاوَزَتِ الزِّيَادَةُ مَا يُعتَادُ مِثلُهُ، وَأَفحَشَ الرَّجُلُ: أَتَى بِالفُحْشِ، وهو القَولُ السَّيِّئُ، وأكثرُ ما ترِدُ الفاحشةُ في الاستعمالِ القرآنيِّ بمعنى: الزِّنى. ومعنى الفاحشةِ في الآية: كُلُّ مَا يَشتدُّ قُبحُه مِنَ الذُّنُوبِ وَالمعاصِي ممَّا ينفرُ عنه الطَّبعُ السَّليمُ، ويستنقصُه العقلُ المستقيم[2].

المَعْنى الإجْماليُّ:

وإذا فعلَ الّذينَ لا يؤمنونَ باللّٰه قبيحًا منَ الفعل؛ كطوافِهم بالبيت عَرايَا، علَّلوا فعْلَهم بأنَّه ممَّا ورثوه عن آبائِهم، وأنَّ اللّٰه

شرعُ اللّٰهِ لا يأمرُ إلَّا بالخيرِ، واللّٰه لا يأمرُ بالفحشاءِ

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/291، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 7/384، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/81.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، والفيّوميّ، المصباح المنير: (فحش)، والبغوي، معالم التّنزيل: 2/186.

أمرَهم به، قلْ لهم أيُّها الرَّسولُ: إنَّ اللّٰهَ لا يأمرُ عبادَه بقبائحِ الأفعالِ ومساوئِها، أتقولونَ على اللّٰهِ - أيُّها المشركونَ - ما لا تعلمون كذبًا وافتراءً؟[1]

وتُرشدُ الآيةُ الكريمةُ إلى قُبحِ الفواحش وحُرمتِها، وإلى تنزُّهِ اللّٰهِ تعالى عنِ الرّضا بالفواحش، فضلاً عنِ الأمر بها.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

مُناسبةُ الوَصْلِ بالواوِ في الآيةِ الكريمةِ:

التَّشْريكُ في الحُكمِ بينَ المعطوفِ والمعطوفِ عليهِ

تحتملُ الواوُ أنْ تكونَ عاطفةً لجملةِ: ﴿وَإِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً﴾، وما بعدَها على جملة الصِّلةِ ﴿لَا يُؤۡمِنُونَ﴾، فتفيدُ التَّشريكَ في الحُكم، فيكونَ الشَّياطينُ أولياءَ للَّذينَ لا يؤمنون، وهذا العطْفُ يُبرزُ قوَّةَ الشَّيطانِ في إغواءِ بني آدمَ وإضلالِهم بما يُزَيِّنُهُ لهم، وفيه إدماجٌ لكشْفِ باطلِهم في تَعَلُّلاتِهم ومعاذيرِهم الفاسدةِ، ويُحتملُ أنْ تكونَ استئنافيَّةً؛ للإخبارِ عمَّا كانَ يفعلُه المشركونَ العربُ في طوافِهم حولَ البيتِ عُراةً[2].

دَلالةُ التَّعبيرِ بأداةِ الشَّرطِ (إذا) بَدلًا مِن (إنْ):

فِعْلُ الفواحِشِ منَ المشركين أمرٌ مُحقَّقٌ

عبَّرَ بـ﴿وَإِذَا﴾ مكانَ (إن)؛ لأنَّها تُفيدُ تَحَقُّقَ الوقوعِ، بخلافِ (إن) الّتي تفيدُ الشَّكَّ في وقوعِ الفعل ونُدرتِه؛ لذلكَ كان التَّعبيرُ بـ﴿وَإِذَا﴾ هو الأوفقُ في هذا السِّياقِ للدَّلالةِ على أنَّ المشركين لا يَنْفَكُّون عن فعْلِ الفواحش، وأنَّ ارتكابَهم لها واقعٌ مُحقَّقٌ ظاهرٌ للعِيَانِ يراهُ كلُّ من زارَ البيتَ الحرامَ للحجِّ قبلَ الإسلامِ.

سِرُّ التَّعبيرِ بالفعْلِ الماضِي في الشَّرطِ ﴿فَعَلُواْ﴾:

عبَّرَ بالفعلِ الماضي في الشَّرطِ؛ لأنَّهُ أقربُ إلى القَطعِ منَ الفعل

(1) ابن جرير، جامع البيان: 12/397، ونخبة من العلماء، التّفسير الميسّر، ص: 153.

(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/391، وابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 9/78، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/223، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/81.

المضارعِ الدّالِّ على الاستقبالِ غالبًا؛ فأشعرَ التَّعبيرُ بالماضِي على أنَّ فعلَ الفاحشةِ أمرٌ مُتأصِّلٌ فيهم، وموروثٌ عن آبائِهم.

فِعْلُ الفاحشةِ أَمرٌ مُتأصِّلٌ فيهم، ومَوروثٌ عن آبائِهم

سِرُّ التَّعبيرِ بـ﴿فَعَلُواْ﴾ دونَ عَمِلُوا:

آثرَ القرآنُ التَّعبيرَ بـ﴿فَعَلُواْ﴾ دون (عَمِلُوا)؛ لبيانِ اصطفاءِ القرآنِ الكريمِ للألفاظِ؛ فالفعلُ يختلفُ عنِ العملِ؛ ذلك لأنَّ الفعلَ يكونُ بقصْدٍ وبغيرِ قصْدٍ، بخلافِ العملِ؛ فإنَّه يكونُ دائمًا بالقصْدِ.

بيانُ فِعْلِ المشركين الفواحشَ من غيرِ إعمالِ فكْرٍ ونظرٍ في عواقبِها

والنَّاظرُ في آياتِ القرآنِ الكريمِ يجدُ أنَّ أمرَ العملِ في مَحلِّ التَّكليفِ والمُساءلةِ؛ فهو مقرونٌ مع الإيمانِ، وذلك لما يحملُه منَ القصدِ، بخلافِ الفعلِ؛ فهو أعمُّ؛ فقد يكونُ بقصدٍ وبغيرِ قصدٍ، وهذا يدلُّ على أنَّهم يفعلون الفواحشَ من غيرِ إعمالِ فكْرٍ، ومن غيرِ النَّظرِ في عواقبِ ما يفعلون.

دَلالةُ تنكيرِ لفظِ ﴿فَٰحِشَةً﴾:

لمّا جاء لفظُ الفاحشةِ نكرةً أفادَ تعظيمَ فعلِ الفاحشةِ ونكرانَها، وذلك لشُؤمِها وخطرِ أثرِها في الفردِ والمجتمعِ. ولإفادةِ الإنْكارِ على فعْلِ الفاحشةِ ولتهويله وتَفظيعِه.

دَلالةُ التَّعبيرِ بـ﴿فَٰحِشَةً﴾ في سِياقِ الشَّرطِ ﴿وَإِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً﴾:

الفاحشةُ تشملُ كلَّ كبيرةٍ من كبائرِ الذُّنوبِ

لمّا كان لفظُ الفاحشةِ يُطلقُ على كلِّ ما يقبحُ فعلُه، وكان في سياقِ الشَّرطِ؛ دلَّ هنا على العمومِ، فيصدقُ اللَّفظُ على أنواعِ الفواحشِ، فيشملُ كلَّ كبيرةٍ من كبائرِ الذُّنوبِ، ويدخلُ في العُمومِ ما كان يفعلُه المشركون بطوافِهم بالبيتِ عُراةً دخولًا أوّليًّا، ويساعدُ عليه السِّياقُ والسِّباقُ، أمَّا السِّياقُ؛ فإنّ قولَه تعالى: ﴿يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآۚ﴾ يدلُّ على وجهِ التَّشبيهِ في قولِه: ﴿لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ﴾ [الأعراف:27] أي: لا تتَّصفُوا بصفةٍ يُوقعُكم الشَّيطانُ بسببِها في الفتنةِ، ومنها وأوّلُها دخولًا في الكلامِ العُريُ في

الطَّوافِ، وأمَّا السِّباقُ؛ فقولُه: ﴿۞يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ﴾ [الأعراف: 31][1].

دَلالةُ حذْفِ الموصوفِ وإبقاءِ الصِّفةِ في ﴿فَٰحِشَةٗ﴾:

الفاحِشةُ غَلبتْ عـلى أفـعـالِ المشركين الّتي لا يَقبلُها عقلٌ، ولا فِطرةٌ

عَبَّرَ القرآنُ الكريمُ في قولِه تعالى: ﴿وَإِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةٗ﴾ بالصِّفةِ دونَ الموصوفِ، فقال: ﴿فَٰحِشَةٗ﴾، أي: فِعلَةً فاحشةً؛ فنُزِّلُ الوصفُ مَنْزلةَ الاسمِ لكثرة دورانِه، فصارتِ الفاحشةُ اسمًا لكلِّ فعلٍ ذميمٍ.

وفي هذا إشارةٌ إلى أنَّ الفاحشة غلبتْ على أفعالِهم الّتي لا يقبلُها العقلُ وتُنكرُها الفِطرةُ.

دَلالةُ إسْنادِ الفعْلِ والقوْلِ إلى الضّمير:

تَصدِيقُ بعضِهم بعضًا كأنَّهم فعلُوا الفاحِشةَ كلُّهم

في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةٗ قَالُواْ﴾ أُسنِدَ الفعلُ والقولُ إلى ضميرِ (الّذينَ لا يؤمنون) الوارد في ذيل الآية السابقة، على معنى الإسنادِ إلى ضميرِ المجموعِ؛ لأنَّه قد يكونُ القائلُ غيرَ الفاعل، والفاعلُ غيرَ القائل؛ لكنَّهم لمَّا صدَّق بعضُهم بعضًا؛ فكأنَّهم فعلُوه كلُّهم، واعتذرُوا عنه كلُّهم.

دَلالةُ جوابِ الشَّرطِ، في ﴿وَإِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةٗ﴾:

أشـدِّ الـقُـبحِ وأعظُمُهُ، اقترانُ الـقَـولِ القبيحِ بفعْلِ الفاحِشةِ

لمّا كان جوابُ الشَّرطِ على معنى اقترانِه بالشَّرطِ في الوقوعِ والتَّحقُّقِ؛ دلَّ على أنَّهم كانوا يقولون القولَ القبيحَ حين يفعلونَ الفاحشةَ؛ للإشعارِ بزيادةِ قُبحِهم في اقترانِ قولِهم القبيحِ بفعلِهم الفاحشِ.

سِرُّ التَّعبيرِ بالفعلِ الماضِي: ﴿قَالُواْ﴾:

الإشـارةُ بأنَّهم جمعُوا إلى قُبحِ الفاحشةِ، قبْحَ القولِ

عبَّرَ بالفعلِ الماضِي ﴿قَالُواْ﴾ الّذي يدلُّ على تحقُّقِ وقوعِ الجوابِ منهم عندما يُسألون عن علَّةِ فعْلِ الفاحشةِ، يُجيبون بجُرأةٍ ﴿وَجَدۡنَا عَلَيۡهَآ ءَابَآءَنَا﴾؛ فهم بذلك يُعلِّلونَ ارتكابَ فواحشِهم، وفيه إشارةٌ بأنَّهم جمعُوا مع قُبحِ فعْلِ الفاحشةِ قُبْحَ القولِ.

(1) الطيّبي، فتوح الغيب: 6/366.

الإيجازُ بالحذْفِ في أسلُوبِ الشَّرطِ:

أهلُ الفواحِشِ يَحتجُّون لأفعَالِهم

أشعرَ جوابُ الشَّرطِ بتقديرِ محذوفٍ يُرشدُ إليه السِّياقُ، ويتطلَّبُه المقامُ، تقديرهُ: إذا فعلُوا فاحشةً ونهاهم عنها ناهٍ؛ قالوا: وجدنا عليها آباءنا، واللّهُ أمرنا بها؛ لأنَّ قولَهم مشعرٌ بأنَّهم في مقامِ الاحتجاجِ لفعلِهم الفاحشةَ، ففي العبارةِ إيجازٌ في التَّعبيرِ، ودقَّةٌ في الأداءِ[1].

نُكتةُ التَّعبيرِ بالفعْلِ ﴿وَجَدْنَا﴾:

الإشعارُ بأنَّهم قد حَصلُوا على مَغنمٍ عظيمٍ بوُجْدانِهم آباءَهم يَفعلونَ الفاحِشةَ

يحتملُ الفعلُ ﴿وَجَدْنَا﴾ أنْ يكونَ بمعنى لَقِينا، وأن يكون بمعنى علمْنا[2]، وبيانُ مناسبةِ التَّعبيرِ به، أنَّه لمّا كان الفعلُ (وجد) يُستعملُ في تحصُّلِ شيءٍ ذي بالٍ في حَوْزةٍ أو العثورِ عليه لحصولِ مَغنمٍ؛[3] دلَّ على أنَّهم كانوا راغبين في فعْلِ الفاحشة مع وجدانِ آبائِهم على هذه الصِّفة، أي: كأنَّ آباءَهم كانوا يُكثرون من فعْلِ الفواحشِ حتَّى اتَّصفوا بهذه الصِّفة، فوجدُوا آباءَهم عليها، وكأنَّهم قد حصلُوا على مغنمٍ عظيمٍ تقبيحًا لأمرِهم وتوبيخًا لفعْلِهم، وإنْ كانَ الفعلُ (وجد) بمعنى علمَ، فيكونُ الكلامُ على معنى اعتقادِهم اليقينيِّ بصحَّةِ فعْلِ آبائِهم.

دَلالةُ جُملةِ ﴿وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا﴾:

اتّخاذُ الأبناءِ آباءَهم قُدوةً لهم في هذا المسلَكِ المذمُومِ

دلَّت هذه الجملةُ على تقليدِهم الشَّديدِ لآبائِهم ممّا جعلَهم يُلغون عقولَهم، ولا ينظرون نظرةَ تأمُّلٍ في إغواءِ الشَّيطان في الاستهزاءِ بهم ودعوتِهم لكلِّ قبيحٍ. إنَّهم نَصَّبوا آباءَهم قُدوةً لهم في هذا المسلكِ المذمومِ، وفيه إشارةٌ - أيضًا - إلى اعتزازِهم بآبائِهم، ولو كانوا على الباطلِ.

---

(1) المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 1/365.

(2) السّمين الحلبيّ، الدّر المصون: 5/295.

(3) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (وجد).

نُكتةُ التَّعبيرِ بحرفِ الجرِّ (عَلَى)، في قولِه تعالى: ﴿عَلَيۡهَآ﴾:

تَوبيخُ آبائِهم من تمكُّنِهم من فعْلِ الفواحِشِ

لمّا كان الجارُّ والمجرور حالًا من ﴿ءَابَآءَنَا﴾، دلَّ على أنَّهم وجدوا آباءَهم، وهم في حالةِ تمكُّنٍ من فعْلِ الفاحشةِ وإحاطةٍ بها، فيكونُ توبيخًا لهم ولآبائِهم.

وفيه إشارةٌ إلى عُكوفِ الآباء على ارتكابِ تلك الفواحشِ، حتى أصبحتْ منَ العاداتِ المألوفةِ في سلوكيَّاتِهم.

الإيجازُ بالحذْفِ في قولِه تعالى: ﴿عَلَيۡهَآ﴾ و﴿بِهَاۗ﴾:

اختِصارُ الكلامِ لظُهورِ معناه، من بلاغةِ السِّياقِ

أصلُ نظْمِ الكلامِ: (وجدنا على فعْلِها آباءَنا واللّه أمرنا بفعْلِها)، فحذفَ المرادَ بالنَّظم، واكتفَى بالضَّمائرِ؛ للإيجاز بما دلَّ عليه قولُه ﴿فَعَلُواْ﴾، ولو جاءَ على ما هو أصلُ نظمِ الكلامِ؛ لكانَ إكثارًا وتطويلًا[1].

نُكتةُ تقديمِ قولِه تعالى: ﴿عَلَيۡهَآ﴾ على ﴿ءَابَآءَنَا﴾:

اهتِمامُهم وعِنايتُهم بفعْلِ الفاحشةِ الّتي كان آباؤُهم يَفعلونها

أفادَ تقديمُ الجارِّ والمجرورِ على المفعول به اهتمامَهم وعنايتَهم بفعْلِ الفاحشةِ الّتي كان يفعلُها آباؤُهم، وعلى أنَّها في موضعِ المفعول الثّاني للفعل (وجد)؛ إذا كان بمعنى (عَلِمَ)؛ تكونُ تقدّمت على المفعول الأوّلِ للاهتمامِ والتَّخصيصِ الإضافيِّ، بمعنى: ما علمْنا آباءَنا على فعلٍ منَ الأفعال سوى فعْلِ الفاحشةِ، ليكونَ على سبيل المبالغةِ في الذَّمِّ والتَّوبيخِ.

دَلالةُ التَّعبيرِ بـ ﴿ءَابَآءَنَا﴾ دونَ قومِنا:

شِدَّةُ تَمسُّكِهم بنَهْجِهم الرّديء

دلَّ التَّعبيرُ بآبائِنا على قوَّةِ الرَّابطةِ الّتي تجمعُهم مع مُقلِّديهم، وأنَّ الصِّلةَ بينهم قويَّةٌ، ممَّا أدَّى إلى شدَّة تمسُّكِهم بنهْجِهم في ارتكابِ الأفعالِ وإن كانت قبيحةً.

(1) المطعني، التّفسير البلاغي للاستفهام: 1/366.

مُناسبةُ العطْفِ، في قولِه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَاۗ﴾:

أَقبحُ القبائحِ، الافْتراءُ على الله

جاءَ جوابُ الشَّرط معطوفًا؛ ليدلَّ على التَّشريك بين المعطوفِ والمعطوفِ عليه، بمعنى: قالوا المقُولَتين، في مقام تسويغِ فعْلِهمُ الفاحشةَ والاحتجاجِ لها، فجمعُوا بين تقليدهم لآبائِهم، ولو كان فُحشًا، ولو كان آباؤُهم لا يعقلون شيئًا، ولا يهتدون وبين الافتراءِ على اللّه تعالى.

مُناسبةُ مَجيءِ الجُملةِ الاسميَّةِ: ﴿وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَاۗ﴾:

الجمْعُ بينَ قُبحِ الفعْلِ، وأَشدِّ أنواعِ قُبحِ القَولِ

لمّا أرادوا تقريرَ كذبِهم وافترائِهم لتسويغِ فعلِهم الفواحشَ؛ جاء الكلامُ بطريقِ الجملةِ الاسميَّةِ، كما أفادَ الكلامُ تقويةَ الحُكمِ بمجيء الخبر جملةً فعليَّةً، وكأنَّهم كانوا مُتيقِّنين بأنَّ اللّه أمرَهم بها كذبًا وافتراءً على اللّه تعالى، فجمعُوا بينَ الفعْلِ القبيحِ وأشدِّ أنواعِ قُبحِ القولِ.

الفرقُ بين ﴿وَجَدْنَا عَلَيْهَآ﴾، و﴿وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَاۗ﴾، وهما من مَقُولِ القولِ:

رضَا المشركين بفِعْلِ آبائِهم واحتِجاجُهم به وافتِراؤُهم على الله

النَّاظرُ في الجُملتين يجدُ أنَّ الجملةَ الأولى جاءت ماضويَّةً؛ للدَّلالةِ على تحقُّق الوقوعِ المناسبِ لارتكاب آبائِهم للفواحش.

أمَّا الجُملةُ الثَّانيةُ؛ فجاءت اسميَّةً دالَّةً على الثُّبوت والدَّوام من أجل أن يُظهروا أنفسَهم في صورة الصَّادقين الّذينَ لم يكذبُوا، ولم يتأوَّلُوا على اللّه.

سِرُّ تقديمِ اعتذار المشركين بفعْلِ آبائِهم:

إدْخالُ آبائِهم في مقامِ الاعتذارِ عنهم، وأنَّ الأمرَ لهم جميعًا

قدَّموا اعتذارَهم بفعْلِ آبائِهم قبل زعمهم الكاذب، ويظهر ذلك في التّعبير القرآني: ﴿قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَاۗ﴾؛ لأنَّ اعتذارَهم بفعْلِ آبائِهم هو المُعَوَّلُ عليه عندهم، وللإشارة في الدِّفاع عن آبائهم بأنَّهم كانوا يفعلون ذلك بأمرِ اللّه، بناءً على أنَّ الضَّميرَ في قولِه: ﴿أَمَرَنَا﴾ لهم ولآبائهم، وكأنَّهم بذلك يُدخلون آباءَهم في مقام الاعتذارِ عنهم، وأنَّ الأمرَ لهم جميعًا.

سِرُّ التَّعبيرِ بلفظِ الجلالةِ، في جملة ﴿وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَاۗ﴾:

مُحاولةُ شَرْعَنةِ ارتكابِهم الفواحشَ

عبَّرَ المُشركون بلفظِ الجلالةِ ﴿وَٱللَّهُ﴾ في قولِه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَاۗ﴾؛ لمحاولةِ شرعَنةِ ارتكابِهم لتلك الفواحشِ.

دَلالةُ إيثارِ صِيغةِ ﴿أَمَرَنَا﴾ دونَ غيرِها:

الإيماءُ إلى أنَّ ارتكابَهم الفواحشَ نتيجةٌ لأوامرِ الله

عبَّروا عن موقفِهم بصِيغةِ الأمرِ ﴿أَمَرَنَا﴾؛ ليُبيِّنوا أنَّ ارتكابَهم لهذهِ الفواحشِ جاء نتيجةً لالتزامِهم بأوامرِ اللّه، وأنَّهم ينبغِي لهمُ الالتزامُ بهذه الأوامرِ، وهذا مسلكٌ خبيثٌ منَ المشركين للإضلالِ.

نُكتةُ تصْديرِ الكلامِ، بقولِه تعالى: ﴿قُلْ﴾:

تنوُّعُ المقاصِدِ البلاغيَّةِ في التَّعبيرِ بلفظِ (قُلْ) في القُرآنِ الكريمِ

تصديرُ الكلامِ بـ﴿قُلْ﴾ مُشعرٌ بالاهتمامِ بالمقولِ والعنايةِ به، وكونِه رسالةً خاصَّةً تجبُ المواجهةُ بها، وتُؤدَّى فورَ تلقِّيها منَ اللّه ﷻ، كما أنَّه مُشعرٌ بتشوُّفِ المخاطَبين إلى سماعِ المقُولِ، ولا يقعُ الأمرُ بـ(قل) إلَّا فيما كان صريحًا منَ الكلامِ لا يحتملُ التَّأويلَ، كما أنَّه لمّا كان التَّبليغُ بـ﴿قُلْ﴾ على معنى تبليغِ اللّهِ تعالى لرسولِه بهذا الكلامِ ليقولَه لهم، كانَ بمنزلةِ تكرارِ العبارةِ مرَّتين، ليُشعِرَ بتأكيدِ المقولِ وتقريرِه اهتمامًا به، وأيضًا في الأمرِ بـ﴿قُلْ﴾ إيذانٌ باستعلاءِ اللّهِ تعالى المناسبِ للمقامِ، وتشريفٌ لسيّدِنا رسولِ اللّهِ محمَّدٍ ﷺ وإعلامٌ بأنَّه هو المبلِّغُ عنِ اللّه ربِّ العالمين.

بَلاغةُ حذفِ متعلَّقِ فعلِ الأمرِ ﴿قُلْ﴾:

الأمرُ بالتَّبليغِ ليس مُختصًّا بمَن يكونُ حاضرًا وقتَ التّنزيلِ

الأصلُ في استعمالِ فعلِ الأمرِ (قُلْ) أنْ يكونَ موصولًا بمتعلَّقِه، أي: (قُلْ لَهمْ)، فحُذِفَ المتعلَّقُ هنا، وفي أغلبِ المواضعِ الّتي ورد فيها في القرآنِ الكريمِ[1]؛ لإفادةِ العُمومِ بمعنى: أنَّ الأمرَ بالتَّبليغِ ليس مختصًّا بمَن سأل أو بمَن يكونُ حاضرًا وقتَ تنزيلِ الخطابِ.

---

(1) إذ ورد في بعضها بيانُ المتعلّق منَ الأمر، نحو قولِه تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُ ٱللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمۡ فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ وَعِظۡهُمۡ وَقُل لَّهُمۡ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ قَوۡلَۢا بَلِيغٗا ﴿٦٣﴾ ﴾ [النّساء: 63]، وقولِه: ﴿ وَإِمَّا تُعۡرِضَنَّ عَنۡهُمُ ٱبۡتِغَآءَ رَحۡمَةٖ مِّن رَّبِّكَ تَرۡجُوهَا فَقُل لَّهُمۡ قَوۡلٗا مَّيۡسُورٗا ﴿٢٨﴾ ﴾ [الإسراء: 28].

دَلالةُ قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ﴾:

تضمَّنتِ الجملةُ ثلاث تأكيداتٍ، فأفادت ﴿إِنَّ﴾ تأكيدَ مضمُونِ الجُملة، كما أنَّ مَجيء الجملةِ اسميَّةً تقريرٌ للتَّأكيد، ولمّا جاء الخبرُ فعلًا ﴿يَأۡمُرُ﴾ متحمِّلًا للضَّمير العائدِ إلى الاسم الجليلِ أفاد تقويةَ الحُكم وتأكيدَه؛ ليكونَ على نيَّة تكريرِ الإسنادِ، والغرضُ من تتابُعِ التَّأكيد: العنايةُ بمضمونِ الجملةِ لِخُصوصيَّة الأمرِ باللّه تعالى، ولتأكيدِ تنزيهِ اللّهِ - ﷻ - على ما يزعمُه هؤلاء المشركون ويدَّعونه، تعالى اللّه عما يقولون عُلوًّا كبيرًا.

العِنايةُ بمضمُونِ الجُملةِ لِخُصوصيَّةِ الأمْرِ باللّه تعالى

إفادةُ الحصرِ، بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ﴾:

لمّا جاء المسندُ إليه المعرفةُ متقدِّمًا على الخبر الفعليِّ المنفيِّ أفادَ الحصرَ، والمعنى: اللّهُ وحدَه الّذي لا يأمرُ بالفحشاءِ، وأمَّا الشَّيطانُ؛ فيأمرُ بها، كما دلَّ عليه السِّياقُ، وقولُه تعالى: ﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلۡفَقۡرَ وَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ﴾ [البقرة: 268]، والقرآنُ يفسِّرُ بعضُه بعضًا[1].

اللّهُ وحدَه الّذي لا يأمرُ بالفحشاءِ، وأمَّا الشَّيطانُ؛ فيأمرُ بها

سِرُّ التَّعبيرِ بالاسْمِ الجليلِ وإظهارِه في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾:

في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ﴾ عبَّرَ بالاسمِ الظَّاهرِ ﴿ٱللَّهَ﴾ في مقام الإضمارِ، بأن يقولَ: (إنه لا يأمرُ بالفحشاءِ)؛ لزجْرِهم وتوبيخِهم على تقوُّلِهم على اللّه صاحبِ العظَمةِ والجبروتِ.

وأيضًا فإنَّ التَّعبيرَ بالاسمِ الجليلِ ﴿ٱللَّهَ﴾ أفادَ أنَّه سبحانه لكونِه إلهًا لا يأمرُ بالفحشاءِ، فليسَ الأمرُ بالفحشاءِ من شأنِه، ولا يليقُ به سبحانه هذا الأمرُ، تعالى اللّه عن ذلكَ علوًّا كبيرًا، فلا يأمرُ سبحانه إلَّا بالمعروفِ.

ليس الأمرُ بالفحشاءِ من شأنِ الألوهيَّةِ، ولا يليقُ هذا الأمرُ به تعالى

سَببُ إيثارِ التَّعبيرِ بالفعلِ المضارعِ المنْفِيِّ بـ ﴿لَا﴾:

في قوله: ﴿لَا يَأۡمُرُ﴾، آثرَ التَّعبيرَ بـ﴿لَا﴾ دون غيرِها من أدوات النّفيِ؛ فلم يقلْ: (ما أمرَ بالفحشاء)، أو: (لم يأمرْ بالفحشاء)،

نفيُ الأمرِ بالفحشاءِ سُنَّةٌ مُطَّرِدةٌ للهِ في جميعِ الأوقاتِ

(1) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 8/368، ورشيد رضا، تفسير المنار: 6/333.

بل قال نافيًا الأمرَ بالفعلِ المضارع المنفيِّ بالأداة (لا)؛ ليدلَّ على أنَّ اللّه تعالى لا يمكنُ أنْ يأمرَ بالفحشاء فيما مضى وفي الحالِ والاستقبال، وللإشعارِ بأنَّ نفيَ الأمرِ بالفحشاء سنَّةٌ مطَّردةٌ للّه في جميع الأوقات؛ لأنَّه نفيٌ لشأنٍ من شؤونِ اللّه تعالى[1].

سِرُّ التَّعبيرِ بالإظهارِ في مقامِ الإضمارِ، فقال: ﴿بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ﴾:

نفيُ الاسْمِ أبلغُ من نفْيِ الوصْفِ في السِّياقِ

لمّا افترَوْا على اللّهِ تعالى بأنَّه سبحانه قد أمرَهم بالفاحشةِ؛ نفَى اللّهُ تعالى الأمرَ بذكرِ لفظِ ﴿بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ﴾، وهو اسمٌ لِلْوصفِ: (الفاحشةِ)[2]، حيثُ ذكرَ الفحشاءَ تصريحًا في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ﴾، ولم يقلْ: (إنَّ اللّهَ لا يأمرُ بها)، ونفيُ الاسم أبلغُ من نفيِ الوصف وأعمُّ وأشْمَلُ؛ ولأنَّ (أل) في ﴿بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ﴾ لإرادة الجنس، وفي هذا دلالةٌ على أنَّ اللّهَ لا يأمرُ بشيءٍ من جنْسِ الفواحشِ كلِّها.

بَلاغةُ الاحتِجاجِ في سياقِ الآيةِ الكريمةِ:

سُنَّةُ اللهِ الأمرُ بمحاسنِ الأفعالِ، والحثُّ على مكارمِ الخِصالِ

لمّا كانوا قدِ اعتذرُوا واحتجُّوا بأمرين: تقليدِ الآباءِ والافتراءِ على اللّهِ ﷻ، أعرضَ عنِ الأوَّلِ لظهورِ فسَادِه وبُطلانِه، وردَّ الثاني الّذي هو افتراءٌ على الملِكِ الأعلى بقوله: ﴿قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ﴾[3]، ويمكنُ أنْ يكونَ قولُه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ﴾ ردًّا على الأمرَيْن معًا، فإنَّه لمّا كان مقتضى ألوهيَّتِه سبحانه أنَّه لا يأمرُ بالفحشاءِ، وكانَ شأنُه كذلك، وكانت سُنَّتُه سبحانه قد جرتْ على الأمرِ بمحاسنِ الأفعال والحثِّ على مكارمِ الخصالِ؛ دلَّ على أنَّ فعلَ آبائِهم لا حجَّةَ فيه؛ لمخالفتِه ما جرتْ به سنَّةُ اللّه في خلقِه.

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 6/2812.

(2) ابن منظور، لسان العرب: (فحش).

(3) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/10، وأبو حيّان، البحر المحيط: 5/34، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 7/384.

دَلالةُ حذفِ المفعولِ، في قولِه تعالى: ﴿لَا يَأۡمُرُ﴾:

حُذِفَ مفعولُ ﴿لَا يَأۡمُرُ﴾[1]، فيحتملُ أنْ يكونَ الحذفُ لإفادةِ العُموم، أي: لا يأمرُ أحدًا بالفحشاءِ، ويحتملُ أنْ يكونَ على معنى: أنَّ شأنَه وعادتَه سبحانه أنَّه لا يأمرُ بالفحشاء، فعلى التَّقديرين يكونُ المعنى: إنَّ اللّه لا يأمرُكم بالفحشاءِ، لدخولِ المخاطَبينَ وقتَ التَّنزيلِ في الحُكم دخولًا أوَّليًّا لمناسبةِ السِّياقِ.

إفادةُ العُمومِ، وشأنُ اللهِ تعالى، عَدمُ الأمْرِ بالقَبائِحِ

بَلاغةُ الاستفهامِ المجازيّ، في قولِه تعالى: ﴿أَتَقُولُونَ﴾:

الاستفهامُ في قولِه تعالى: ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ﴾، أفادَ إنكارَ الواقعِ واستقباحَهُ على وجهِ المبالغةِ، فضلًا عمَّا فيه من تهديدٍ شديدٍ لتعمُّدِهم الكذبَ على اللّه، وفيه زَجْرٌ وتوبيخٌ لكلِّ من تُسوِّلُ له نفسُه التّقوُّلَ على اللّه بغير علمٍ[2].

الاستفهامُ الإنكاريُّ يُفيدُ معنَى النَّهْيِ

نُكتةُ التَّعبيرِ بالفعلِ المضارعِ، في قوله تعالى: ﴿أَتَقُولُونَ﴾:

عُبِّرَ بالفعل المضارع؛ للإشعار بتجدُّدِ هذا القولِ المُفترَى واستمرارِ صُدورِه منهم؛ فقد وقعَ منهم مرَّاتٍ ومرَّاتٍ.

دَلالةُ التَّضمينِ، في قولِه تعالى: ﴿أَتَقُولُونَ﴾:

ضُمِّنَ ﴿تَقُولُونَ﴾: معنَى (تكذِبون) أو معنى (تتقوَّلونَ)، فلذلك عُدِّي بـ ﴿عَلَى﴾، وكان حقُّه أن يعدَّى بـ (عن) لو كان قولًا صحيحَ النِّسبةِ[3]، فأفاد التَّضمينُ تكثيرَ المعنى، أي: أتقولونَ عنِ اللّهِ وتتقوّلونَ عليهِ ما لا تعلمونَ، والمعنى: أَتقولونَ عنِ اللّهِ مُتقوّلين عليه؟

مَجيءُ اللَّفظِ على التَّضمينِ، لتَكْثيرِ المعنَى، وتَجليّةِ المرادِ في السِّياقِ

مُناسبةُ تقديمِ قولِه تعالى: ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾ على المفعولِ به:

قُدِّمَ ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾ على المفعولِ به ﴿مَا﴾؛ لِتعظيم الكذبِ والافتراءِ على اللّه سبحانه.

---

(1) السّمين الحلبيّ، الدّر المصون: 5/295.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/223، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 8/369.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 8/85.

مُناسبةُ وضْعِ المُظهرِ مَوضِعَ المُضمَرِ:

إحضارُ الاسمِ الجليلِ للتَّخويفِ والتَّرهيبِ

لمّا تقدَّمَ ذكرُ الاسمِ الجليلِ كان الظَّاهرُ أنْ يأتيَ بصِيغةِ المضمَرِ، كأن يقول: (أَتَقُولُونَ عَلَيه)، ولكنْ جاءَ قوله تعالى: ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ على خلافِ مقتضى الظَّاهر، ونُكتتُه البلاغيَّةُ إحضارُ الاسمِ الجليلِ في ذهنِ المخاطبين؛ ليتميَّزَ به عمَّن عداه؛ للإيذانِ بتعظيمِ خطرِ الافتراء على اللّه سبحانه، ففيه معنى التَّخويفِ والتَّرهيبِ.

سرّ مَجيءِ جُملةِ الاستفهام مع سابقتِها مَقُول قوْلٍ واحدٍ:

هذه العِبارةُ من تمامِ الحُجَّةِ، ومن بليغِ الرَّدِّ على مَقُولتِهم القبيحةِ

لم يُعطفْ قوله تعالى: ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ على سابقتِها، معَ أنَّها من تمامِ القولِ المأمورِ بتبليغِه، وكذلك لم يُعَدْ فعلُ القول تنبيهًا للمخاطَبين على عِظَمِ الافتراء على اللّه، وإشعارًا بأنَّ هذهِ الجملةَ مع الّتي سبقتها مقولٌ واحدٌ؛ ليكونَ من تمامِ الحُجَّة والردِّ على مقولتِهم القبيحةِ.

بَلاغةُ الالتفاتِ، في قولِه تعالى: ﴿أَتَقُولُونَ﴾:

الزَّجرُ والتّأنيبُ للمُشركين

في قولِه تعالى: ﴿أَتَقُولُونَ﴾ التفاتٌ منَ الغيبةِ في قولِه تعالى: ﴿فَعَلُواْ﴾ إلى الخطابِ في ﴿أَتَقُولُونَ﴾ زجرًا وتأنيبًا لهم.

دَلالةُ ﴿مَا﴾، في قولِهِ تعالى: ﴿مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾:

عبَّر بـ﴿مَا﴾ للإشعارِ بأنَّ المفردَ في قُوَّة الجملةِ؛ لأنَّ ما لا يعلمون ممَّا يتقوَّلونه على اللّه تعالى كلامٌ كثيرٌ من قولِهم[1].

مُناسبةُ حذْفِ مفعولِ الفعلِ ﴿تَعۡلَمُونَ﴾:

مَنْ لا يعلمُ ألوهيَّةَ اللهِ تعالى ووَحدانيَّتَهُ لا يَعلمُ شيئًا

إمَّا أنْ يكونَ الحذفُ لإفادة العموم، أي: أتقولونَ على اللّه ما لا تعلمون أيَّ أمرٍ عنِ اللّه، أو يكونَ قد جعلَ وصفَهم اللّازمَ لهم هو كونُهم لا يعلمون، فإنَّ مَنْ لا يعلمُ ألوهيَّةَ اللّهِ تعالى ووحدانيَّته لايعلمُ شيئًا.

(1) السّمين الحلبيّ، الدّر المصون: 5/295.

﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَقِيمُوا۟ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۚ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [الأعراف: 29]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

العلاقةُ بين تَنْزيهِ الله عن الأمْرِ بالفاحشةِ، وبيانِ أمْرِه بجِماعِ الخيرِ كلِّه

بعد أن أبطلَ اللهُ زعمَهم في قولِهم السَّابقِ في فعلِ الفواحشِ بأنَّ اللهَ أمرَهم بهَا؛ فردَّ عليهم زعمَهم بقولِه تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ﴾، جاءت هذه الآيةُ؛ لتُبيِّنَ أنَّ اللهَ يأمرُهم بجِماعِ الخيرِ كلِّه في الدِّين بقوله: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِٱلْقِسْطِ﴾.

وممَّا يُذكرُ في المناسبةِ - أيضًا - بعد أنْ أُنكِرَ عليهم أنْ يكونوا على علمٍ في هذا الطَّريقِ النَّقليِّ، وهو من بابِ السَّلْبِ والنَّفيِ، توجَّهتِ الأنفسُ إلى معرفةِ ما يأمرُ به تعالى من محاسنِ الأعمالِ ومكارمِ الأخلاقِ والخصالِ، فبيَّنهُ بطريقِ الاستئنافِ قائلًا لرسولِه: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِٱلْقِسْطِ﴾[1].

وأيضًا لمّا كانَ فعلُهم وقولُهم يخالفُ المعقولَ والمشروعَ في الكُتبِ السَّماويَّةِ كلِّها أعقبَه بالأمرِ بما قامَ في العقولِ أنَّه مستقيمٌ حسنٌ في المعقولِ والمنقولِ.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿بِٱلْقِسْطِ﴾: القسطُ هو النَّصيبُ بالعدلِ كالنَّصفِ والنَّصَفَةِ، والقِسْطُ: هو أن يأخذَ قسطَ غيره، وذلك جورٌ، فهو من الأضدادِ، والإِقْسَاطُ: أن يعطيَ قسطَ غيرِه، وذلك إنصافٌ، ولذلك قيل: قَسَطَ الرَّجلُ؛ إذا جار، وأَقْسَطَ؛ إذا عدلَ، فالقاسطون هم الجائرون، والمُقْسِطُون: العَادِلُونَ، وذهب بعضُ اللُّغويِّين إلى أنَّ القِسطَ هو

(1) رشيد رضا، تفسير المنار: 8/333.

العدلُ، والقَسطَ هو الجَور. و﴿بِٱلۡقِسۡطِۖ﴾ في الآية بمعنى: بالعدلِ، وهو الوسطُ من كلِّ أمرٍ، المتجافي عن طرفَيِ الإفراط والتَّفريطِ[1].

2) ﴿وَأَقِيمُواْ﴾: يدورُ معنى (قَوَمَ) على انتصابِ الشَّيءِ إلى أعلى ثابتًا، كقامةِ الإنسانِ، وقيامِه، وقامَ على الأمر: دامَ وثبتَ، فأداءُ الصَّلاةِ بشروطِها في أوقاتِها مع الجماعةِ والمداومةِ نصْبٌ وإقامةٌ لها، وإقامةُ الشَّيءِ: مراعاتُه وحفظُه والمداومةُ عليه وإعطاؤُه حقَّه وتوفيتُه شروطَه على الوجهِ الّذي ينبغي أنْ يكونَ عليه[2]. ومعنى ﴿وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمۡ﴾: توجَّهوا إلى عبادة اللّه مستقيمِين ثابتِين غيرَ عادلين إلى غيرِها[3].

3) ﴿وُجُوهَكُمۡ﴾: أصلُ الوجهِ: العُضوُ المعروفُ منَ الإنسانِ، ولمّا كانَ الوجهُ أوّلَ ما يستقبلُك، وأشرفَ ما في ظاهرِ البدنِ استُعمِلَ في مستقبلِ كلِّ شيءٍ، وفي أشرفِه ومبدئِه، وقد يُطلقُ على توجُّهِ القلبِ وصحَّةِ القصْدِ. والمعنى: أخلصوا للّهِ العبادةَ[4].

4) ﴿مُخۡلِصِينَ﴾: الخُلوصُ: هو تنقية الشَّيء وتهذيبُه، وخلاصةُ السَّمن: ما خلَص منْه منَ الزُّبدِ الّذي أُذيبَ، والإخلاصُ تمحيصُ الشَّيءِ من مخالطةِ غيرِه، وحقيقةُ الإخلاص للّه تعالى هو التَّبرِّي عن كلِّ ما دون اللّهِ تعالى، والمُخْلَصُ: المختارُ، ليفيدَ معنى انتقائهِ واتِّخاذهِ من بين مَن حولَهُ، والمخلِصُ للّه: المتبرِّي عن كلِّ ما دونَ اللّهِ تعالى بتنقية قلبِه وتصفيتِه[5].

5) ﴿ٱلدِّينَ﴾: الدِّينُ يقالُ للطَّاعة والانقيادِ للشَّريعة؛ لما فيها من معنى اللُّزوم بقوَّةٍ، من قولهم: دِنْتُ لفلانٍ، أي: أطعْتُهُ، ويقال للملَّةِ، بمعنى لزومِها في القلب وتمكُّنِها فيه، ويأتي الدِّينُ بمعنى الحسابِ؛ لتعلُّقِ الأعمالِ بأصحابِها في ذمَّتِهم كالدَّيْن يُسألون عنها، وفيها – أيضًا – قَهْرُ الخضوعِ للمحاسبةِ. ومعنى ﴿ٱلدِّينَ﴾: الطاعةَ والعبادةَ[6].

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، والفيّومي، المصباح المنير: (قسط)، وابن جرير، جامع البيان: 12/379، والبيضاويّ، أنوار التنزيل: 3/10.

(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وجبل المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (قوم).

(3) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/10.

(4) الأزهري، تهذيب اللّغة، والرّاغب، المفردات: (وجه)، ورشيد رضا، تفسير المنار: 8/334.

(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (خلص).

(6) الرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (دين).

المَعْنى الإجْماليُّ:

أمْرُ اللهِ بالعَدلِ في العِباداتِ وفي المُعاملاتِ، بتَوجُّهٍ وإخلاصٍ

قلْ - أيُّها الرَّسولُ - لهؤلاء المشركينَ: أمرَ ربِّي بالعدْلِ، وأمرَكم بأنْ تتوجَّهوا إلى اللهِ تعالى وحدَه عندَ كلِّ مكانٍ متَّخَذٍ لعبادةِ اللهِ تعبدونَه فيه وتؤدُّوا حقَّه ولا تنصرفُوا عنه إلى سواهُ، وأنْ تدْعُوه مخلصينَ له الطَّاعةَ والعبادةَ، وأنْ تؤمنوا بالبعثِ بعدَ الموتِ، وكما أنَّ اللهَ أوجدَكم ابتداءً منَ العدمِ؛ فإنَّه قادرٌ على إعادةِ الحياةِ إليكم مرَّةً أخرى بعدَ الموت[1].

وترشدُ الآيةُ الكريمةُ إلى العدْلِ في الأقوالِ وفي الأحكامِ، ووجوبِ إخلاصِ العبادةِ للهِ ﷻ صلاةً كانت أو دعاءً.

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

مُناسبةُ مَجيءِ جُملةِ ﴿قُلْ﴾ بطريقِ الفصْلِ:

من براعةِ التَّعبيرِ القرآنيِّ، لفتُ الأذهانِ بطريقِ الفصْلِ

فُصِلَتْ هذه الجملةُ عنِ الّتي قبلها، ولم يُعطفِ القولُ على القول، ولا المقُولُ على المقُولِ؛ لأنَّ في إعادةِ فعْلِ القول وفي ترك عطفِه على نظيره لفتًا للأذهانِ إليه، ليعلمُوا ما شأنُه أن يأمرَ اللهُ به ممَّا لهُ مزيدُ عنايةٍ واهتمام، ولمضادَّتِه لمدّعاهُمُ المنفيِّ في جملةِ: ﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ﴾ [الأعراف: 28][2]. وفيه إشارةٌ إلى توجيههم إلى العقيدةِ السَّليمةِ وتركِ ما كانوا عليه منَ الضَّلالِ.

نُكتةُ تَصديرِ الكلامِ بقولِهِ تعالى: ﴿قُلْ﴾:

الإشعارُ ببيانِ معنًى جديدٍ ينبغِي الاهتمامُ به

تقدَّمَ بيانُ نُكتةِ التَّصدير بلفظِ ﴿قُلْ﴾ في الآيةِ السَّابقةِ، وفي إعادة اللَّفظِ إشعارٌ ببيانِ معنًى جديدٍ ينبغِي الاهتمامُ به كذلك.

وفيه إشارةٌ بأنَّ ما سيقولُه الرّسولُ ﷺ إنَّما هو بطريقِ الوحْي، وعليهم أن يتَّبعوه فيما يقولُ، ويتركوا ما زعمُوه من قولِهم: اللهُ أمرنا بارتكابِ الفواحشِ.

(1) ابن جرير، جامع البيان، تح، شاكر: 12/387، ونخبة من العلماء، التّفسير الميّسر، ص: 153.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 8/86.

نُكتةُ التَّعبيرُ بالفعلِ الماضِي، في قولِه تعالى: ﴿أَمَرَ﴾:

مَن يأمر بالقِسطِ لا يأمرُ بالفحشاءِ

في التَّعبيرِ بصِيغةِ الفعل الماضِي ﴿أَمَرَ﴾ تكذيبٌ لافتراءِ المشركين فيما ادَّعَوه، فلمَّا قالوا: ﴿وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾؛ ناسبَه أنْ يأتيَ بصيغةِ الماضي، فإذا كانَ يأمرُ بالقسطِ؛ فكيف يأمرُ بالفحشاء؟ ففي التَّعبيرِ به معنى إثباتِ الأمرِ بالقسطِ وتأكيدِ نفْيِ أمرِه بالفحشاءِ[1].

سِرُّ التَّعبيرِ المجرّدِ، بقولِه تعالى: ﴿أَمَرَ رَبِّي﴾:

الإشارةُ إلى أنَّ المأمورَ به، في طاقةِ المُكلَّفينَ جميعًا من بنِي آدمَ

جاء التَّعبيرُ بقولِه تعالى: ﴿أَمَرَ رَبِّي﴾ دون تخصيصِه ﷺ كأن يقول: (أمرني ربي)، أو مخاطبتِهم بقولهم: (أمركم ربُّكم)؛ للإشارةِ إلى أنَّ المأمورَ به في طاقة المُكلَّفينَ جميعًا من بني آدمَ، وهذا دليلٌ على أنَّ التشريعاتِ الإلهيَّةَ في قُدرةِ المُكلّفين.

سِرُّ التَّعبيرِ بالرُّبوبيَّةِ دونَ الألوهيَّةِ، في الآيةِ الكريمةِ:

التَّعبيرُ بوصْفِ الرُّبوبيَّةِ في هذا المقامِ، هو الأنسبُ للرَّدِّ على المُشركين

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي﴾، عبَّرَ بوصْفِ الرّبوبيةِ هنا، ولم يقل: (أمرَ اللّه)؛ إذِ التَّعبيرُ بوصْفِ الرُّبوبيَّةِ في هذا المقام هو الأنسبُ للرَّدِّ على المُشركين، لما فيه من تذكيرِهم بربوبيَّته سبحانه الّتي من شأنِها الرَّحمةُ بخلقِه؛ فلا يأمرُهم إلَّا بما فيه صلاحُهم في الدُّنيا والآخرة.

دَلالةُ حذْفِ مفعولِ ﴿أَمَرَ﴾:

العُمومُ والإيجازُ

أفادَ حذفُ مفعولِ ﴿أَمَرَ﴾ في قولِه تعالى: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِٱلْقِسْطِ﴾ العمومَ، والمعنى: أمرَ كلَّ النَّاسِ، فيدخلُ فيه الّذينَ افترَوْا على اللّهِ تعالى دخولًا أوَّليًّا لمناسبةِ السِّياقِ، ونكتةُ حذفِ المفعولِ الإيجازُ.

مُناسبةُ الإضافةِ في قولِه تعالى: ﴿رَبِّي﴾:

القِسْطُ الّذي أمرَ به اللهُ تعالى، هو ما عليه رسولُه الأكرمُ ﷺ

لم يقلْ: (أمرَ اللّهُ بالقسط) ولا (أمر ربُّنا) بصيغةِ الجمعِ، بل جاءَ التَّعبيرُ بصيغةِ الإضافةِ الدَّالَّةِ على التَّخصيصِ؛ للإيذانِ بأنَّ ما عليه رسولُ اللّهِ ﷺ هو القسطُ الّذي أمرَ به اللّهُ تعالى، وللإشعارِ

(1) الزّجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 2/330، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 6/2813.

ببُعدِ الّذينَ يفعلون الفاحشةَ عن مُدبِّر أمورِهم ومالكِهم بما فعلوهُ، وافترَوْا به على اللهِ تعالى، وفيه تشريفٌ للنبيِّ ﷺ وتوبيخٌ للمُشركين بسلْبِ وصْفِ الرُّبوبيَّةِ عنهم.

نُكتةُ التَّعبيرِ بلفظِ (القِسْطِ):

آثرَ التَّعبيرَ بلفظِ القسطِ؛ لأنَّه بمعنى العدْلِ، وهو منَ المعاني الكلِّيَّةِ الّتي تشملُ كلَّ ما هو وسطٌ في الاعتقادِ والأخلاقِ والعملِ[1]، ودلَّ على أنَّ فعلَهم ليس منَ القسطِ، وأنَّهم قد أفرطُوا في المنكرِ في الاعتقادِ والأخلاقِ والعملِ.

الأمرُ بالعَدْلِ والاعتدالِ في الأمورِ كُلِّها، هو مأمورُ الله تعالى

وكذلك هذه الكلمةُ تدورُ بِنيتُها اللّغويَّةُ على معنيَي العدلِ والجَورِ؛ فإذا قلتَ: أقسطَ الرّجلُ في حُكمه؛ فهو مُقسطٌ، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ۝٤٢﴾ [المائدة: 42] وتقول: قَسطَ الرّجلُ، بمعنى: جارَ، قال تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلْقَـٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ۝١٥﴾ [الجنّ: 15]، وعلى ذلك اختِيرَ هذا اللَّفظُ؛ ليخدمَ قضيَّتين: الأولى: وصف سلوكِ المشركين فيما فعلوا منِ ارتكابِ الفواحشِ وتقوُّلِهم على الله بأنَّه ظُلمٌ وجَور.

والقضيَّةُ الثّانيةُ: أنَّ ما أمرَ اللهُ بهِ في قولِه تعالى: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ﴾ هو العدلُ الّذي يعملُ على صيانة المُجتمع من غوائلِ الشِّرك وأوهامِ الضَّلال، يؤكِّدُ ذلك أنَّ (أل) في ﴿بِٱلْقِسْطِ﴾ للجنسِ، أي: العدلُ بمعناه: الأعمِّ؛ أي: الفعلُ الّذي هو وسطٌ بين الإفراط والتَّفريطِ في الأشياءِ، وهو الفضيلةُ من كلِّ فعْلٍ. وأيضًا؛ لأنَّ القسطَ صفةٌ للفعْلِ في ذاتِه، بأن يكونَ مُلائمًا للصَّلاحِ عاجلًا وآجلًا.

الأمرُ بالتّوجُّهِ لله، والاجتهادِ في تكميلِ العباداتِ

مناسبةُ العطْفِ بفعْلِ الأمرِ ﴿وَأَقِيمُوا۟﴾:

العطفُ في قولِه تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا۟ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ على

(1) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 8/370.

نيَّةِ تكرير الفعْلِ (قُلْ)، والتَّقديرُ: قل أمرَ ربِّي بالقسطِ، وقل: أقيمُوا وجوهَكم عندَ كلِّ مسجدٍ وادْعُوه مخلصينَ له الدِّينَ[1].

سِرُّ عدمِ تكرارِ لفْظِ (قُلْ)، مع قولِهِ تعالى ﴿وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمْ﴾:

عطفُ الخاصِّ على العامِّ لمزيد الاهتمام

لم يكرِّرْ لفظَ (قُلْ)؛ للإشعارِ بأنَّ قولَه تعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ هو منَ القِسطِ، فيكونُ من عطفِ الخاصِّ على العامِّ، لمزيدِ اهتمامٍ بما جاء بصيغة الأمرِ.

جُملة ﴿وَأَقِيمُواْ﴾ بين الخبرِ والإنشاءِ:

جَوازُ عطْفِ الجُملةِ الخبريَّةِ، على الجملةِ الإنشائيَّةِ

تعدَّدت آراءُ العلماءِ في هذه المسألة بين مُجيزٍ ومانعٍ: فالّذين قالوا بالمنعِ بناءً على أنَّ جملةَ ﴿وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمْ﴾ إنشائيَّةٌ لفظًا ومعنًى، وجملةَ ﴿أَمَرَ رَبِّي بِٱلْقِسْطِ﴾ خبريَّةٌ لفظًا ومعنًى؛ لذلك أوَّلُوا بعدَّةِ تأويلاتٍ منها: تقديرُ (قُلْ): أي: (وقل أقيموا وجوهكم).

وذهب عبدُ القاهر الجُرجانيُّ وبعضُ المفسِّرين إلى أنَّ قولَه تعالى: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِٱلْقِسْطِ﴾ تضمَّن معنى (أقسطوا) بقرينة ﴿أَمَرَ﴾، فعطفَ عليه قولَه: ﴿وَأَقِيمُواْ﴾ حملًا على المعنى، وتقديرُ الكلام: (قل يقول ربِّي: أقسطوا وأقيموا)[2]، أو يقال: إنَّ ﴿وَأَقِيمُواْ﴾ مَعْطُوفٌ عَلَى مَا يَنحَلُّ إِلَيْهِ المَصدَرُ الَذِي هُوَ القِسطُ، أَي: بِأَنْ أَقسِطُوا وَأَقِيمُوا[3]، ويحتملُ أنْ يكونَ تقديرُ الكلام: أمرَ ربِّي بالقسطِ وبإقامةِ وجوهِكم عندَ كلِّ مسجدٍ، فعدلَ عنِ الفعل الماضي إلى فعل الأمرِ؛ توكيدًا لما أُجريَ عليه فعلُ الأمرِ في قولِه تعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾؛ لمكانِ العنايةِ بإقامةِ الوجوهِ عندَ كلِّ مسجدٍ والإخلاصِ في العملِ[4].

وذهبَ البعضُ إلى جوازِ عطْفِ الخبرِ على الإنشاءِ، وهذا واضحٌ عند ابنِ عاشورٍ في تفسيرِه، لمن أراد التفصيلَ.

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/99، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 14/226.
(2) السّمين الحلبيّ، الدّر المصون: 5/279.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/37.
(4) ابن الأثير، المثل السائر: 2/12، والعلويّ، الطّراز: 2/73.

العُدول عنِ الأسلوبِ الخبريِّ إلى أسلوبِ الأمرِ ﴿وَأَقِيمُواْ﴾:

جذْبُ الانتباهِ، وإثارةٌ لكوامنِ نفوسِ المشركين، للالتفاتِ للنّافعِ

النَّاظرُ في أسلوب الآيةِ يجدُ أنَّه جاء مُغايرًا لما سبقَ في قولِه تعالى: ﴿أَمَرَ رَبِّي بِٱلْقِسْطِۖ﴾، وهو أسلوبٌ خبريٌّ، وكان مُقتضَى الكلامِ في غير القرآن، أن يأتيَ على نمطٍ واحدٍ، بأن يُقالَ: (أمر ربي بالقسط وبإقامة وجوهكم عند كلِّ مسجدٍ)؛ لكنَّه جاء بأسلوبِ الأمرِ ﴿وَأَقِيمُواْ﴾ جذْبًا للانتباه، وإثارةً لكوامن نفوس هؤلاء المشركين وخفاياها لما هو أنفعُ لهم، وفيه إشارةٌ - أيضًا - إلى التَّأهُّبِ والاستعداد لتلقِّي ما يُلقَى عليهم.

بَلاغةُ الاستعارةِ، في قولِهِ تعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ﴾:

الإقامةُ أنْ تَضعَ الشَّيءَ فيما هُيِّئَ له، وطُلبَ إليه

قوله: ﴿وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمْ﴾، لمّا كانَ أصلُ القيامِ في اللُّغة هوالانتصابُ المضادُّ للجلوسِ والاضطجاعِ، وإنَّما يقومُ القائمُ لقصْدِ عملٍ صعْبٍ لا يتأتَّى من قعودٍ؛ كان قولُه تعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمْ﴾ استعارةً تبعيَّةً، فقدْ شبَّهَ توجُّهَ ذواتِ النَّاس لعبادة ربِّ العالمين، وتشمُّرَهم في الأمرِ، وجَلَدَهم فيه مع المحافظةِ والمداومةِ عليه مع الإشعارِ بِثِقَلِ الأمرِ، بجعلِ الشَّيءِ قائمًا، كما أنَّه عُبِّرَ بـ﴿وَأَقِيمُواْ﴾؛ لأنَّ الإقامة أنْ تضعَ الشَّيءَ فيما هُيِّئَ له، وطُلبَ إليه، وإنْ وجَّهته لناحيةٍ ثانيةٍ تكونُ قد ثنيتَه، وأمَلْتَه، وحَنَيتَه، وعَوَجتَه[1].

سِرُّ التَّعبيرِ بالضَّميرِ في قولِه تعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ﴾:

يُحملُ الضّميرُ على عُمومِ المشركين والمؤمنين

عُبِّر بالضَّمير في قولِه: ﴿وَأَقِيمُواْ﴾، وإن كان المرادُ به (المشركين)؛ لأنَّهم المُتَّصفون بعدم إقامةِ وجوهِهم لله في العبادة، ومع ذلك؛ فلا مانعَ أن يكونَ المرادُ بالأمرِ المؤمنين؛ لأنَّ لهم حظَّ الدَّوامِ على إقامةِ وجوهِهم عند كلِّ مسجدٍ.

(1) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 8/370، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/231، والشّعراويّ، تفسير الشّعراوي: 7/4107.

لفظ ﴿وُجُوهَكُمْ﴾ بين المجازِ المرسلِ والاستعارةِ:

توقيرُ المساجدِ، بإعطائِها حقَّها في الاحترامِ والإجلالِ

إمَّا أنْ يكونَ المرادُ منَ الوجوه الذّواتِ؛ ليكونَ مجازًا مرسلًا بذكرِ الجُزءِ وإرادةِ الكلِّ؛ لأنَّ الوجهَ يُستعملُ في مستقبلِ كلِّ شيءٍ، وفي أشرفِه ومبدئِه، والمعنى توجَّهوا، أي: بذواتِكم إلى عبادتِه عندَ كلِّ مسجدٍ، وإمَّا أنْ يكونَ استعارةً تصريحيَّةً للمقصدِ والمنزعِ، أي: أقيموا قصدَكم وتوجُّهَكم إلى عبادتِه عند كلِّ مسجد[1]، وعلى التَّوجُّهَين، يكونُ للتَّعبير بالوجهِ دونَ غيرِه من الأعضاءِ إشعارٌ بأهمِّيَّتِه؛ لأنَّه يكون مَوْضِعًا للسُّجود بوضْعِ الجبهةِ على الأرض، وفي هذا إقرارٌ وخضوعٌ للّه ربِّ العالمين، وفيه توقيرُ المساجدِ وإعطاؤها حقَّها في الاحترامِ والإجلالِ، فلا يصحُّ أن يكون فيها عُرْيٌ: أو ما يكون رذيلةً في ذاتِه، أو ما يبعثُ على الرَّذيلة، وأن يكونَ الاحتشامُ هو الزيُّ الأكملُ[2].

وممّا يُذكرُ في سرِّ التَّجَوُّز بالاستعارة ما لهُ مِن دورٍ مهمٍّ في تأكيدِ إخلاصِ العبادةِ للّه وحده بأن تكونَ مبنيَّةً على التَّوحيدِ، وعلى عدمِ الانشغالِ بالإغراءاتِ الدُّنيويَّةِ الّتي تُخرجُ العبدَ عن توجُّهِه للّهِ.

دَلالةُ قولِهِ تعالى: ﴿عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾:

من براعةِ أُسلوبِ القرآنِ، تعدُّدُ المعنى بإيجازِ اللَّفظِ

لمّا كانت صِيغةُ ﴿مَسْجِدٍ﴾ تحتملُ أنْ تكونَ اسمَ زمانٍ أو مكانٍ؛ دلَّ على أنَّ المرادَ أقيمُوا وجوهكم عند وقتِ كلِّ صلاةٍ، والمعنى: أقيموا وجوهَكم في أيِّ مسجدٍ حضَرتْكم الصّلاةُ عنده ولا تؤخِّروها، أو عندَ مكانِ كلِّ سجودٍ، أي: الصلاةُ كذلك؛ للإشعارِ بأنَّ الأرضَ كلَّها مسجدٌ، وحينئذٍ تكونُ ﴿كُلِّ﴾ تفيدُ العمومَ على سبيل البدلِ، أي: الكلُّ الإفراديُّ[3]، ويحتملُ أنْ تكونَ الصّيغةُ مصدرًا ميميًّا فيقدَّرَ الوقتُ والمكانُ بإرادة

(1) ابن عطيّة، المحرر الوجيز: 2/391، والبيضاويّ، أنوار التنّزيل: 3/10، والقونويّ، حاشيته على البيضاويّ: 8/370.

(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 6/2813.

(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/99، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 14/227، والبيضاويّ، أنوار التنّزيل: 3/10.

المعنيَيْن من صِيغةٍ واحدةٍ، وهذا من براعةِ أسلوبِ القرآن، فيكونَ من تكثيرِ المعنى بإيجازِ اللَّفظ، والمعنى: أقيمُوا وجوهَكم عِنْدَ وَقْتِ كُلِّ سُجُودٍ، فلا تؤخِّروا الصَّلاة، وَفِي مَكَانِ كلِّ سُجُودٍ، فالأرضُ كلُّها مسجدٌ؛ للإشعارِ بأنَّ الأرضَ كلَّها مسجدٌ، وفي كلِّ الأوقات[1]، ويحتملُ أنْ يكونَ المرادُ هو المسجدُ الّذي تقامُ فيه الصَّلاةُ، فالمقصودُ إقامةُ الصَّلاة في المكانِ المخصوص، وله متَّجهٌ، وهو الكعبةُ، أي: أقيموا وجوهَكم عند كلِّ مكانٍ تصلُّون فيه إلى الكعبة[2]، وذهب ابنُ عاشورٍ إلى أنَّ سياقَ الآية لمّا كان في مقامِ الرَّدِّ على المشركين الّذينَ ادَّعوا أنَّ ما يقومون به من فعْلِ الفاحشة وطوافِهم بالبيتِ وقتَ الحجِّ عُراةً هو بأمرِ اللّه لهم، ولمّا كان اسمُ المسجدِ منقولًا في الإسلام للمكان المعيَّنِ المحدودِ المتَّخَذِ للصَّلاةِ، ولم يكنْ لهم مساجدُ غيرَ شعائرِ الحجِّ، كانَ ذكرُ المساجدِ في الآية يُعيِّنُ أنَّ المرادَ إقامةُ الوجوه عند التّوجُّه إلى اللّهِ في الحج بأنْ لا يُشركوا مع اللّهِ في ذلك غيرَه من أصنامِهم بالنِّيَّةِ، أفادَ أنَّ الأمرَ بإقامةِ الوجوه عند المساجدِ كلِّها أمرٌ بالتزام التَّوحيد وكمالِ الحالِ في شعائر الحجِّ كلِّها، فهذه مناسبةُ عطْفِ قولِه: ﴿وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ عقبَ إنكارِ أنْ يأمرَ اللّهُ بالفحشاءِ من أحوالِهم، وإثباتِ أنَّه أمرَ بالقسطِ مما يضادُّها، وهذا الأمرُ، وإنْ كانَ المقصودُ به المشركين؛ لأنَّهم المتَّصفونَ بضدِّه، فكانَ للأمرِ بإقامة الوجوهِ عندَ كلِّ مسجدٍ حظُّ الدَّوام عليه للمؤمنين، كما كان حظُّ الإعراضِ عنه والتَّفريطِ فيه للمشركين[3].

الإرشـــادُ إلى المنهجِ القويمِ، في عـبـادةِ الله سُبحانه

دَلالةُ الواوِ، في قولِه تعالى: ﴿وَٱدْعُوهُ﴾:

دلالةُ الواو: العطفُ؛ لأنَّها عطفتْ هذه الجملةَ على ما قبلَها ﴿وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمْ﴾؛ لاتِّفاقِهما في الإنشائيةِ لفظًا ومعنًى، ولما

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 5/38، والسّمين الحلبيّ، الدّر المصون: 5/279.
(2) ابن جرير، جامع البيان، تح، شاكر: 12/380.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 8/88.

بينَهما من اشتراكٍ في الهدف؛ فهما يُرشدانِ إلى المنهجِ القويمِ في عبادةِ اللّه سبحانه.

سِرُّ التَّعبيرِ بالدُّعاءِ دونَ العبادةِ، في ﴿وَٱدۡعُوهُ﴾:

الدُّعاءُ أساسُ التّقرّبِ إلى الله، ومُخُّ العبادةِ

عبَّرَ بالدُّعاءِ عنِ العبادةِ في قولِه تعالى: ﴿وَٱدۡعُوهُ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَۚ﴾ ؛ لأنَّ الدُّعاءَ يأتي بمعنى العبادةِ، ويأتي بمعنى الدُّعاءِ الحقيقيِّ، وهو التَّضرُّعُ، والعبادة تشملُ الدّعاءَ، وعلى هذا يكونُ التّعبيرُ بالدُّعاء عنِ العبادة من بابِ المجاز المُرسَلِ من باب إطلاقِ الخاصِّ على العامّ، والغرضُ منه بيانُ أثرِ الدُّعاء في قُرب العبدِ من ربِّه، وإظهارِ الخضوع والتّذلّل له سبحانه.

دَلالةُ التَّعبيرِ بقولِه تعالى: ﴿مُخۡلِصِينَ﴾:

الدّعوةُ خالصةٌ لله وحدَه

جاء التَّعبيرُ بقولِه: ﴿مُخۡلِصِينَ﴾ للدّعوةِ إلى العبادةِ الحَقَّةِ الّتي لا تشوبُها شوائبُ الشِّرك، وذلك لوجودِ من يعبدُ اللّه، ويشركُ معه غيرَه، كما فعلَ مُشركُو العربِ.

سِرُّ التَّعبيرِ باسْمِ الفاعلِ ﴿مُخۡلِصِينَ﴾ دونَ الفعْلِ (وأخلصوا):

عبَّرَ باسمِ الفاعل لدلالتهِ على الثُّبوتِ والدَّوامِ، وهذا هو نهجُ المُسلمِ الحقيقيِّ في عبادتِه، وهو مَجْلوٌّ في اللّفظِ والعبارةِ.

دَلالةُ تقديمِ: ﴿لَهُ﴾ في السِّياقِ:

قُدِّمَ الجارُّ والمجرورُ ﴿لَهُ﴾ على المفعول ﴿ٱلدِّينَۚ﴾؛ لإفادةِ تخصيصِ الإخلاصِ للّهِ تعالى وقصرِه عليه.

دَلالةُ (أل) في لفظِ: ﴿ٱلدِّينَۚ﴾:

الإيماءُ إلى الإخلاصِ، في كلِّ أركانِ الدِّين

أفادت (أل) هنا العهدَ الذهنيَّ، والتَّعبيرُ بها في هذا المقام؛ لتنْبيههم إلى الدِّين الحقِّ الّذي جاء على لسان رسولِه ﷺ والمرادُ الإخلاصُ في كلِّ أركانِ الدِّين.

مُناسبةُ التَّعبير بـ﴿ٱلدِّينَ﴾ في الآيةِ الكريمةِ:

عُبِّرَ بـ﴿ٱلدِّينَ﴾: دونَ الطَّاعةِ أوِ العبادةِ؛ لما يُشعرُ به لفظُ ﴿ٱلدِّينَ﴾ منَ الانقيادِ في الظَّاهرِ؛ ليكونَ مطابقًا للإخلاصِ الّذي يكونُ في الباطن.

دَلالةُ فصْلِ جُملةِ: ﴿وَٱدۡعُوهُ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ عمَّا قبلَها:

فُصلتْ هذه الجملةُ عمَّا قبلَها؛ لأنَّها تعليليَّةٌ، وغرضُها التَّحذيرُ من مَغَبَّة المخالفة لأوامرِ اللّه الّتي سبقَ ذكرُها في الآية من إقامة الوجوهِ عند كلِّ مسجدٍ والإخلاصِ في العبادةِ.

التَّحذيرُ من مَغَبَّةِ المخالَفةِ لأوامرِ الله

بَلاغةُ التَّشبيهِ في﴿كَمَا بَدَأَكُمۡ﴾:

شبَّه الإعادةَ بالإبداءِ في قولِه تعالى: ﴿كَمَا بَدَأَكُمۡ تَعُودُونَ﴾، والمعنى: عودُكم بعدَ الموتِ مثلُ بدئِكم؛ تقريرًا لإمكانِ عَوْدِكم والقُدرةِ عليه، ولمّا كان التَّقديرُ: تعُودُون عَوْدًا مثلَ ما بدأكم، كان تقديمُ المتعلَّق الدّالِّ على التَّشبيهِ ﴿كَمَا بَدَأَكُمۡ﴾ على فعلِه ﴿تَعُودُونَ﴾؛ للاهتمامِ به ولِلتَّذكيرِ بخَلقِهم الأوَّلِ، ولينبِّهَ العاقلَ على أنَّ قضاءَ اللّه تعالى للشُّؤونِ لا يخالفُ قدَرَهُ وعِلمَه الأزليَّ البتَّةَ، ولمّا كان الأصلُ في المشبَّه به أنْ يكون أقوى منَ المشبَّه؛ دلَّ على أنَّ الإعادةَ أسهلُ من بدءِ الخلقِ، ولهذا قال اللّه تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهۡوَنُ عَلَيۡهِۚ﴾ [الروم: 27]، وليس المعنى تشبيهَهم بالبَدَاء، إنَّما المعنى على إعادةِ الخَلْق، كما ابتُدِئَ[1].

إعادةُ إحياءِ الخلْقِ عندَ الله كَبَدْئِهِم

مُناسبةُ التَّعبيرِ بالفعْلِ ﴿تَعُودُونَ﴾:

لمّا كانَ المعنى: (كما بدأ خَلْقَكم يعودُ خلقُكم)، فليس المَعنَى تشبيهَهم بالبَدءِ، إنَّمَا المعنى على إعادة الخلقِ كما ابتُدِئَ، أفادَ حذفُ (خلق) في الموضعين، تصويرَ حالةِ كمالِ خلقِهم،

تَصويرُهم في حالةِ العَوْدِ؛ لبيانِ قُدْرةِ الله تعالى

(1) البيضاويّ، أنوار التنزيل: 3/10، والطّيبي، فتوح الغيب: 6/370، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/89.

وتصويرَهم في حالةِ العَوْدِ؛ ليكونَ الكلامُ أكثرَ ظهورًا في بيانِ قُدرةِ اللّه سبحانه[1].

نُكتةُ العُدولِ عنِ التَّشبيهِ بالمصدرِ، إلى التَّشبيهِ بالفعْلِ:

التّنبيهُ على تَرتُّبِ سُرعةِ عَوْدِهم على إعادتِه سُبحانه لهم

لمّا كان الظَّاهرُ أنْ يكونَ التَّشبيهُ في قولِه تعالى: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ من تشبيهِ الحدَثِ بالحدَثِ، أي: تشبيهُ إعادةِ اللّهِ الخلقَ بالبدْءِ في خلْقِهم؛ كانَ مجيءُ تشبيهِ الفعلِ بالفعلِ مُنبِّهًا على ترتُّبِ سرعةِ عَوْدِهم على إعادتِه سبحانه لهم، كما أنَّ الغرَضَ منَ التَّشبيهِ هو التَّشبيهُ في نفسِ الإحياءِ والخلْقِ لا في نوعِ الحدثِ وكيفيَّتِه، فطُويَتِ الإعادةُ، وذُكِرَ الفعلُ ﴿تَعُودُونَ﴾[2].

دَلالةُ إسْنادِ أمرِ الإعادةِ إليهم، في قولِه تعالى: ﴿تَعُودُونَ﴾:

الإشارةُ إلى أنَّ الإعادةَ أهونُ عليه منَ البدْءِ

أسندَ الإعادةَ إليهم، ولم يُسندْها إليه سبحانه؛ كما في قولِه: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ﴾، وكان مقتضَى السِّياق في غيرِ القرآنِ أن يُقالَ: (كما بدأكم يعيدُكم)، بإسنادِ الأمرين إليه؛ وذلك للإشارةِ إلى أنَّ الإعادةَ أهونُ عليه منَ البدء، فلاتحتاجُ إلى مَزيد عناءٍ، كأنَّه عادَ بنفسِه، بحيثُ لو تُصُوِّرَ الاستغناءُ عنِ الفاعل؛ لكان في الإعادةِ دون البدءِ، سواءٌ كانت الإعادةُ الإيجادَ بعد الإعدامِ بالكُليَّةِ، أو بجمْعِ مُتفرِّقِ الأجزاءِ.

سَببُ إيثارِ مَجيءِ الكلامِ بأسلوبِ التَّشبيهِ:

الاحتِجاجُ على المشركين في إنكارِهم البعثَ

أفادَ التَّشبيهُ الاحتجاجَ على المشركين في إنكارِهم البعثَ وإعادةَ الخلْقِ عَودًا جديدًا، كما أفادَ الحثَّ على امتثالِ الأوامرِ الّتي ذكرتْ في الآية، كما أشعرَ بمجازاةِ المُحسِنِ على إحسانِه والمُسيءِ على إساءتِه، والمعنى: أنّه تعالى يُعيدُكم، فيُجازيكم على أعمالكم، فأخلصُوا له العبادةَ[3].

---

(1) السّمين الحلبيّ، الدّر المصون: 5/279.

(2) الزّجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 2/331، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 8/371، والقنوجيّ، فتح البيان: 4/329.

(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/99، والقنوجيّ، فتح البيان: 4/329.

دَلالةُ التَّعبيرِ بالماضِي ﴿بَدَأَكُمْ﴾، والمضارعِ ﴿تَعُودُونَ﴾:

بيانُ تحقُّقِ وقوعِ البدْءِ، وتجدُّدِ حدوثِ العَوْدِ

جاء التَّعبيرُ بالماضِي الّذي يدلُّ على تحقُّقِ الوقوع مُتناسِبًا مع تحقُّقِ البدْءِ، والتَّعبيرُ بالمضارع في ﴿تَعُودُونَ﴾، الّذي يدلُّ على الحدوثِ والتَّجدُّدِ مُناسبًا لما سيكونُ في المُستقبلِ.

دَلالةُ حذْفِ مُتعلَّقِ ﴿تَعُودُونَ﴾:

وضوحُه ودَلالةُ السِّياقِ عليه، مِنَ البيانِ الفصيحِ

حُذفَ مُتعلَّقُ ﴿تَعُودُونَ﴾ لدلالةِ السِّياق عليه؛ لأنَّه لا عودةَ هناك إلَّا للهِ ﷻ؛ فلا مُنازعَ ولا شريكَ تعودون إليه؛ لأنَّه مالكُ يومِ الدِّينِ.

﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُۚ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُواْ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ٣٠﴾

[الأعراف: 30]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الرَّبْطُ بين الأوامرِ بالعبادةِ والإخلاصِ، وبين موقفِ النّاسِ منها بينَ مُهْتدٍ وضَالٍّ

لَمَّا ذكرَ اللّٰهُ تعالى في الآيةِ السَّابقةِ أنَّ الخلقَ يعودونَ إليه يومَ القيامةِ؛ ناسبَ أنْ يَذكرَ في هذه الآية أنَّهم يَرجعون إليه فريقَيْن: فريقًا هداهُم في الدُّنيا ببعثِه الرُّسُلَ، فاهتدَوا بإيمانِهم به وإقامةِ وجوهِهم له وحدَه في العبادةِ، ودعائِه مُخلصينَ له الدِّينَ، لا يُشركونَ بهِ أحدًا ولا شيئًا، وفريقًا حقَّ عليهمُ الضَّلالةُ لاتِّباعِهم إغواءَ الشَّيطانِ، وإعراضِهم عن طاعةِ الرَّحمنِ، وكلُّ فريقٍ يموتُ على ما عاشَ عليه، ويُبعَثُ على ما ماتَ عليه.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿هَدَىٰ﴾: والهُدى ضِدُّ الضَّلَالِ، وجمهورُ اللّغويِّين على أنَّ الهُدى هو التَّوجيهُ إلى سبيل الرَّشادِ، لا مجرَّدَ التَّوجيه، كما يُستعمل الهُدى بمعنى الرَّشاد نفسِه. وفي الهُدى معنى الدَّلالة بلُطفٍ، وخصَّ ما كان دلالةً بـ(هديتُ)، وما كان إعطاءً بـ(أهديتُ). وقولُه ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ﴾ بمعنى: أرشدَهُ إلى الحقِّ والقسطِ[1].

2) ﴿ٱلضَّلَٰلَةُۚ﴾: ضلَّ الشَّيءُ خَفِي وغَابَ، يقال: ضلَّ الماءُ في اللَّبنِ؛ إذا غاب، وغُلب عليه؛ فلم يُتبيَّن، ومنه أَضْلَلْتَ الشَّيءَ؛ إذا غَيَّبْتَه، وأَضْلَلْتَ المَيِّتَ دَفَنْتَه، وضَلَلْتَ المَسْجدَ؛ إذا لَمْ تَعْرِفْ مَوْضِعَهُ، ويُستعملُ الضَّلالُ في كلِّ شَيْءٍ مُقيمٍ ثَابِتٍ لا تتبيَّنُ

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (هدى).

وجهتُه، والضَّلالَةُ هنا بمعنى: الضَّلال، وهو العُدولُ عنِ الطَّريقِ المُستقيمِ[1].

المَعْنى الإجْماليُّ:

بيانُ حالِ النَّاسِ في يومِ القيامةِ، بينَ الضَّلالةِ والهِدايةِ

ذكرَ اللّهُ تعالى أنَّ عبادَه الّذينَ يرجعونَ إليه يومَ القيامةِ، فريقان: فريقٌ وفَّقهم للهدايةِ إلى الصِّراطِ المستقيم، وفريقٌ وجبتْ عليهم الضَّلالةُ، فخُذِلوا؛ بسبب أنَّهم اتَّخذُوا الشَّياطينَ أولياءَ من دونِ اللّهِ، فأطاعوهم جهلًا منهم، وهم يظنُّونَ أنَّهم مُوَفَّقون؛ لاغترارِهم بخداعِ الشَّياطينِ[2].

وتُرشدُ الآيةُ الكريمةُ إلى أنَّ الهدايةَ بفضل اللّه ومَنِّه، وأنَّ الضلالةَ بخِذْلانه للعبدِ إذا تولّى - بجهله وظلمه - الشّيطانَ، وتسبَّب لنفسِه الضَّلالَ.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

الوقْفُ القرآنيُّ وتعدُّدُ المعنى:

التَّحريضُ على تَوخِّي الاهتداءِ، والإنذارِ منَ الوقوعِ في الضَّلالةِ

يحتمل أنْ يكونَ ﴿فَرِيقًا﴾ مفعولَ ﴿هَدَىٰ﴾، وقُدِّم للدَّلالة على اختصاصِ فريقِ المؤمنين بهدايةِ اللّه لهم، وأشعرَ الاختصاصُ بأنَّ فريقًا آخرَ ما أراد هدايتَهم، وقرَّر هذا المعنى، وأكَّده بأنْ عطفَ عليه ﴿وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ﴾، وفي الاختصاصِ تأكيدُ هدايةِ اللّه للمؤمنين، للُزومِ التَّأكيدِ للاختصاصِ، وعلى المعنَى الأَوَّلِ يَحسُنُ الوَقفُ عَلَى تَعُودُونَ، ويحتملُ أنْ يكونَ قولُه: ﴿وَفَرِيقًا﴾ في الموضعين حالًا من ضمير ﴿تَعُودُونَ﴾، ويَكُونُ الوَصلُ حينئذٍ أولى منَ الوقفِ على ﴿تَعُودُونَ﴾؛ لأنَّ الحالَ على معنى اقترانِه بصاحبه مقيِّدًا لعاملِه، فيكونُ متمِّمًا لمعنى سبقَه،

(1) الرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، والكفويّ، الكليّات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (ضلل).

(2) البيضاويّ، أنوار التّنزيل، ونخبة من أساتذة التفسير، التّفسير الميّسر، ص: 153.

والمعنى: تعودون كما ابتدأ خَلقَكم مختلفِين، بعضُكم مهتدون سعداءُ، وبعضُكم ضالُّون أشقياءُ[1].

نُكتة إسنادِ (الهُدى) إلى الله دونَ (الضَّلالةِ):

جَاءَ إِسنادُ الهُدَى إِلَى اللّٰه، وَلَمْ يجئْ مُقَابِلُهُ، فلم يقل: (وَفَرِيقًا أَضَلَّ)؛ للإشعار بأنَّ الّذي ضلَّ إنَّما ضلَّ بفتنة الشّيطانِ، فإنَّ المساقَ مَسَاقُ مَنْ نُهِيَ عَنْ أَنْ يَفتِنَهُ الشَّيْطَانُ، وَإِخبَارٌ أَنَّ الشَّيَاطِينَ أَولِيَاءُ لِلَّذِينِ لَا يُؤمِنُونَ، كما أنَّ فيه تحسينًا للَّفظِ وتعليمًا لعبادِه الأدبَ[2].

مَن هُديَ؛ فبِهدايةِ الله، ومَن ضلَّ؛ فبِفِتْنةِ الشَّيطانِ

براعةُ الاختباكِ في الآية:

في الآية احتباكان، فإنَّهُ لمّا أثبتَ للفريقِ الأوَّل ﴿هَدَىٰ﴾؛ دلَّ على أنَّ في المقابل حذفًا، والتَّقدير: وفريقًا أضلَّ، ثمَّ إنَّه لمّا أثبت للفريق الثاني حقوقَ الضَّلالةِ؛ دلَّ على حذف حقوقِ الهدى، والتَّقدير: (فريقًا حقَّ عليهم الهدى، فهدى، وفريقًا حقَّ عليهم الضَّلالةُ، فأضلَّ)[3]، كما أنَّه لمّا أثبت تعليلَ ضلالة الفريقِ الثاني بأنَّهم اتَّخذُوا الشَّياطين أولياءَ من دون اللّٰه - كما سيأتي بيانُه في دلالةِ (إنَّ) - أفاد أنَّ الفريقَ الّذي هدى إنَّما هداهم؛ لأنَّهم اتَّخذُوا اللّٰهِ وليًّا من دونِ الشَّياطين، ويعلمون أنَّهم مهتدون.

الذين هداهُمُ الله؛ همُ الّذينَ لم يتَّخذُوا الشَّياطينَ أولياءَ

دَلالةُ تقديمِ فريقِ المهتدينَ، على الضَّالِّين في الآيةِ:

قدَّم فريقَ المُهتدين في قولِه تعالى: ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ﴾ على فريق الضَّالّينَ؛ للدَّلالة على مزيد العنايةِ والاهتمام والاختصاصِ؛ كأنَّ الهدايةَ خُصَّت بهم، وفيه إشارةٌ إلى ذمِّ أهلِ الضَّلالِ.

أهلُ الهدايةِ هم أهلُ الشَّرفِ والسَّبْقِ

سِرُّ اختلافِ التعبير بين: ﴿حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ﴾ مَقابلَ الهدايةِ:

لمّا كان لفظُ ﴿حَقَّ﴾ في الآية، بمعنى: ثبتَ لهم الضَّلالةُ ولزمُوها،

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/39، والسّمين الحلبيّ، الدّر المصون: 5/300، والآلوسّي، روح المعاني: 4/348، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/90.

(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/39، والسّمين الحلبيّ، الدّر المصون: 5/301.

(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/386.

ولم يُقلعُوا عنها، دلَّ على أنَّ لزومَ الضَّلالة لهم مكتوبٌ عليهم ومقدَّرٌ؛ وذلك أنَّ المخاطَبين كانوا مشركين كلَّهم، فلمَّا أُمرُوا بأنْ يعبدُوا اللّه مخلصين افترقوا فريقين: فريقًا هداه اللّه إلى التَّوحيد، وفريقًا لازمَ الشِّرك والضَّلالةَ، فلم يطرأْ عليهم حالٌ جديدٌ، وبذلك يظهرُ حسنُ موقعِ لفظ: ﴿حَقَّ﴾ هنا، دون أنْ يُقال: (أضلَّهُ اللّهُ)؛ لأنَّ ضلالَهم قديمٌ مستمرٌّ اكتسبوه لأنفسِهم، كما قال تعالى في نظيره: ﴿فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ﴾ [النحل: 36]، فليس تغييرُ الأسلوبِ بينَ: ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ﴾ وبينَ ﴿وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ﴾ تحاشيًا عن إسنادِ الإضلالِ إلى اللّهِ، بل اختلافُ الأسلوبِ لاختلافِ الأحوالِ ومقاماتِ الكلام[1].

اختلافُ الأُسلوبِ في القرآنِ، لاختلافِ الأحوالِ ومقاماتِ الكلامِ

نُكتةُ التَّعبيرِ بـ(على)، في قوله تعالى ﴿عَلَيْهِمُ﴾:

عُبِّرَ بحرف الجرِّ (على)؛ لإفادة تمكُّن الضَّلالة منهم وإحاطتِها بهم.

سِرُّ حذْفِ المُسْنَدِ:

حُذف المُسندُ في قولِه تعالى: ﴿وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ﴾، وتقديرُه: (وأضَلَّ فريقًا حَقَّ عليهم الضّلالة)، والغرضُ من ذلك الإيجازُ؛ لأنَّه يُفهمُ من ذكرِ مُقابلِه في أوَّل الجملةِ ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ﴾، ومن ذكْرِ الضَّلالة بعد ذلك في قولِه: ﴿حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ﴾.

بيانُ الإيجازِ، وكونِه مفهومًا من ذِكْرِ مُقابلِه في السِّياقِ

بَلاغةُ الطِّباقِ في الآية:

قوله تعالى: ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ﴾، فيه طِباقٌ بين قولِه تعالى: ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ﴾، وبين قولِه: ﴿وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ﴾، وتظهرُ بلاغةُ الطِّباق فيما سيؤولُ إليه الخلقُ بعد بعثِهم من انقسامهم إلى فريقين: فريقٍ هداه اللّه، فربح، وفازَ بالجنة، وفريقٍ أضلَّه اللّه بسبب اتِّباعه الشَّيطانَ، فخاب، وخسرَ.

بيانُ مآلِ الخلْقِ بعدَ بعْثِهم

(1) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 8/90.

المتشابِهُ اللَّفظِيُّ بين آيتي الآعراف (29)، والنّحلِ (36):

للحروف أثرٌ في زيادةِ المبنَى واختلافِ المعنَى

النَّاظرُ في هذه الآيةِ في سورة الأعرافِ في قولِه تعالى مع ما جاء في سورة النّحل: ﴿فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ﴾ [النحل: 36]، يجدُ أنَّ موضعَ الأعراف ﴿حَقَّ﴾، وفي النَّحل ﴿حَقَّتْ﴾ [النّحل: 36]، فلحقتْ تاءُ التَّأنيثِ مَوضِع النَّحل، ولم تلحقْ موضعَ الأعراف، وعلى هذا يوجد فرقٌ بينهما في التعبيرِ.

والفرقُ بينهما من وجهين لفظيٍّ ومعنويٍّ: أمَّا اللَّفظيُّ؛ فهو أنَّ الحروفَ الحواجزَ بين الفعل والفاعل في قوله: ﴿حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ﴾ أكثرُ منها في قوله: ﴿حَقَّتْ عَلَيْهِ﴾ [النحل: 36]، وقد تقدَّم أنَّ الحذف مع كثرة الحواجزِ أحسنُ، وأمَّا المعنويُّ؛ فإنَّ (مَن) في قوله: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ﴾ [النحل: 36] واقعةٌ على الأمَّة والجماعة، وهي مؤنَّثة لفظًا، ألا تراه يقول: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا﴾ ثم قال: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ﴾ [النحل: 36] أي: من تلك الأمم أممٌ حقَّت عليهمُ الضَّلالةُ، ولو قال بدل ذلك: ضلَّت؛ لتعيَّنتِ التاء، ومعنى الكلامين واحدٌ، وإذا كان معنى الكلامين واحدًا؛ كان إثبات التاء أحسنَ من تركها؛ لأنَّها ثابتة فيما هو في معنى الكلام الآخر، وأما: ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ﴾، فالفريقُ مذكَّرٌ، ولو قال: فريقًا ضلوا؛ لكان بغير تاء، وقوله: ﴿حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ﴾ في معناه، فجاء بغير تاء، وهذا أسلوبٌ لطيفٌ من أساليبِ العربيَّةِ[1].

ومما يُذكر في الفرق - أيضًا - أنَّه في سورة الأعراف ذكرَ قولَه: ﴿عَلَيْهِمُ﴾ وفي سورة النَّحل ﴿عَلَيْهِ﴾؛ فعبَّر في الأعراف بالجمع مراعاةً للَّفظ ﴿فَرِيقًا﴾، وفي سورة النَّحلِ بالمُفرد، مراعاةً للَّفظ ﴿مَّنْ﴾.

(1) ابن القيّم، بدائع الفوائد: 1/126.

دَلالةُ التَّعبيرِ بـ(إنَّ)، في سياقِ الآيةِ الكريمةِ:

سَبَبُ ضَلالِ المشركين، اتِّخاذُهم الشَّياطينَ أولياءَ من دونِ الله

يحتمل قولُه تعالى: ﴿إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُواْ﴾، أن يكونَ استئنافًا بيانيًّا، وبيانُه أنَّه لمّا ذكر الله تعالى أنَّ الفريقَ الثَّاني ثبتتْ عليه الضَّلالَةُ، كأنَّ سائلًا سأل: لماذا حقَّت عليهم الضَّلالةُ، ولم يهتدُوا؟ فجاء قولُه: ﴿إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُواْ﴾ ليكونَ جاريًا مَجْرى التّعليلِ، وهذا شأنُ (إنَّ)؛ إذا وقعتْ في صدر جملة عقِبَ جملةٍ أخرى أن تكون للرَّبط والتّعليل، والمعنى: حَقَّ عليهم الضَّلالةُ لاتِّخاذهم الشياطينَ أولياءَ، ويُحتمَلُ أن تكونَ (إنَّ) لتحقيقِ ضلالِهم وتأكيدِه باتِّخاذِهم الشَّياطينَ أولياءَ من دون الله[1].

دَلالةُ التَّعبيرِ بلفظِ ﴿ٱتَّخَذُواْ﴾، دونَ غيرِه:

حِرْصُ المشركين على اتِّخاذِ الشَّياطين أولياءَ من دونِ الله

آثرَ التَّعبيرَ بلفظِ ﴿ٱتَّخَذُواْ﴾ دون غيرِه؛ كالاتِّباع مثلاً؛ لأنَّ الاتِّخاذَ - بمعنى: اتِّخاذِ الشَّيءِ لنفسه بقوَّةٍ حرصًا على تحصيلِه والتّمكُّن منه - أفاد أنَّ الّذينَ حقَّ عليهم الضَّلالةُ اتَّخذُوا الشَّياطينَ أولياءَ لأنفسِهم محبَّةً ورغبةً وحرصًا على أنْ يكونَ الشَّياطينُ أولياءَهم من دونِ الله[2]، وهذا المعنى لا يتأتَّى إلا من لفظِ ﴿ٱتَّخَذُواْ﴾ ويُشيرُ - أيضًا - إلى كمال انقيادِهم لهم.

سِرُّ التَّعبيرِ بالجمْعِ دونَ الإفرادِ، في سِياقِ الآيةِ الكريمةِ:

تأكيدُ استِحْقاقِهم للضَّلالِ، يُبرِّرُ عقوبَتهم

في قولِه تعالى: ﴿إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُواْ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ﴾، عبَّر بالجمعِ في ﴿ٱلشَّيَٰطِينَ﴾، و﴿أَوۡلِيَآءَ﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّهم لم يَتْركوا سبيلًا يؤدِّي بهم إلى الضَّلال إلا سلَكُوه واتَّبعوه، وهذا ممَّا يؤكِّدُ استحقاقَهم للضَّلال.

دَلالةُ الصِّفةِ في قولِه تعالى: ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾:

مَن ضلَّ عن اتِّخاذِ اللهِ وليًّا؛ استحقَّ العذابَ المهينَ

لمّا كان الجارُّ والمجرورُ في قولِه تعالى: ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ في محلِّ نصبٍ نعتًا لِـ ﴿أَوۡلِيَآءَ﴾؛ أفاد النَّعتُ التّخصيصَ بمعنى: اتَّخذوا

(1) البيضاويّ، أنوار التنّزيل: 3/10، وأبو حيّان، البحر المحيط: 5/40، والسّمين الحلبيّ، الدّر المصون: 5/301، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 8/372.

(2) ابن مالك، شرح التّسهيل: 3/455، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (أخذ).

الشَّياطين أولياءَ من غيرِ اللّه؛ ليكونَ النَّعتُ على معنى الذّمِّ والتّوبيخِ، كما أنَّ في النّعتِ إشعارًا بالتَّعجيبِ من حالِهم، إذْ ضلُّوا عنِ اتِّخاذِ اللّهِ وليًّا، فاستحقُّوا الضَّلالةَ والعذابَ.

الواو في الفعل ﴿وَيَحْسَبُونَ﴾ بين الحاليَّةِ والعطْفِ:

المخطئُ والمعانِدُ سواءٌ، فلا عذرَ للضَّالِّ في ضَلالِه ولو بالخطأِ

تحتمل الواوُ أنْ تكون حاليَّةً، ولمّا كان الحالُ على معنى اقترانِه بصاحبه؛ أفاد المعنى: أنَّهم اتَّخذوا الشَّياطين أنصارًا يُطيعونَهم في حالِ أنَّهم يظنُّون أنَّهم مهتدون بفعْلِهم، فظنُّهم مُقترنٌ باتِّخاذِهمُ الشَّياطينَ أولياءَ، والحالُ في حيِّز التَّعليلِ، فأشعرَ الحالُ أنَّهم مع قُبحِ فعلِهم في اتِّخاذِهمُ الشَّياطينَ أولياءَ يطيعونَهم، لم يعترفوا على أنفسِهم بالضَّلالة، وهذا أشدُّ في تمرُّدِهم وعِنادِهم[1].

كما تحتملُ أنْ تكونَ عاطفةً، أي: عَطْفَ جُملةِ: ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ على جملةِ ﴿ٱتَّخَذُواْ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ﴾، ولمّا كان العطفُ على معنى التَّشريكِ في الحكمِ للمعطوف والمعطوفِ عليه؛ دلَّ على اعتبارهما سواءً في الإخبارِ عنِ الفريق الّذينَ حقَّت عليهمُ الضَّلالةُ، لقصدِ الدَّلالةِ على أنَّ ضلالَهم حاصلٌ في كلِّ واحدٍ منَ الخبرين، فولايةُ الشَّياطينِ ضلالةٌ، وحسبانُهم ضلالَهم هدًى ضلالةٌ أيضًا، سواءٌ كانَ ذلك كلُّه عن خطأٍ أو عن عنادٍ، فيدلُّ على أنَّ الكافرَ المخطئَ والمعاندَ سواءٌ في استحقاق الذَّمِّ، إذْ لا عذرَ للضَّالِّ في ضلالِه بالخطأ؛ لأنَّ اللّه نصبَ الأدلَّةَ على الحقِّ وعلى التَّمييزِ بينَ الحقِّ والباطلِ، كما دلَّ العطفُ على اعتبارِ الجملتَين تعليلًا لضلالِهم أو تحقيقًا وتأكيدًا له[2].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/386، والآلوسّي، روح المعاني: 4/384، والقنوجيّ، فتح البيان: 4/331، ورشيد رضا، تفسير المنار: 8/336.

(2) الآلوسّي، روح المعاني: 4/348، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/92.

دَلالةُ لفْظِ ﴿وَيَحْسَبُونَ﴾، في سياقِ الآيةِ:

لمّا كان ﴿وَيَحْسَبُونَ﴾ هنا بمعنى الظَّنِّ أفاد التَّعبيرُ أنَّ مجرَّدَ الظَّنِّ لا يكفِي في صحَّةِ الدِّينِ، بل لا بدَّ فيه منَ الجزمِ والقطعِ واليقينِ؛ لأنَّه تعالى عابَ الكفَّارَ بأنَّهم يحسَبونَ كونَهم مُهتدين، ولولا أنَّ هذا الحسبانَ مذمومٌ؛ لَمَا ذمَّهم بذلك، كما أفادَ الفعلُ جهلَهم المركَّبَ، الدَّالَّ على ما يظهرُ بأنّهم عالمون بهدايتِهم، وهم في الحقيقة جاهلون بها؛ إذ همْ على الضَّلالِ، ويظنُّون أنَّهم على الهدايةِ[1].

لابدَّ في الاعتقادِ منَ اليقينِ، فلا يكفِي مُجرَّدُ الظَّنِّ فيهِ

مُناسبةُ التَّعبيرِ بصِيغةِ المضارعِ، ﴿وَيَحْسَبُونَ﴾:

أفاد مجيءُ الفعلِ بصِيغةِ المضارعِ استمرارَ حُسبانِهم أنَّهم مهتدون، فإذا كانتِ الجملةُ حالًا؛ دلَّت على تجدُّدِه حالًا فحالًا، وإذا كانتِ الجملةُ على معنى تحقيقِ ضلالِهم؛ دلَّت على استمرارِه وتجدُّدِه كذلك.

تجدُّدُ ضلالِهم واستمرارُه، دليلٌ على رُسوخِهم في الضّلالِ

دَلالةُ المصدرِ المؤَوَّلِ: ﴿أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾:

عُبِّر بالمصدرِ المؤَوّلِ من (أنَّ) والجملةِ الاسميَّةِ؛ للدَّلالةِ على أنَّ ظنَّهم ثابتٌ في أنفسهم لا يشكُّون فيه، وأفادت (أنَّ) تأكيدَ هذا الظّنِّ وتقريرَه.

الدَّلالةُ على أنَّ ظنَّهم ثابتٌ في أنفُسِهم

سِرُّ خِتامِ الآيةِ بقولِه تعالى: ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾:

خُتِمَت الآيةُ بحسبان أنَّهم مهتدون دون غيرِه منَ الأوصاف؛ للدَّلالةِ على أنَّهم أصحابُ ظنٍّ وخاطرٍ وتوقُّعٍ لشيءٍ ما، وهم في الحقيقة منَ الّذينَ ضلَّ سعيُهم، ويَحسبون أنَّهم يُحسنون صنعًا فيما ارتكبوا منَ الفواحش كطوافِهم بالبيت الحرام عرايًا، بزعم كاذبٍ أنَّهم لا يطوفون في ثيابٍ عَصَوُا اللّه فيها، وممّا يؤكِّدُ هذا الزَّعمَ الكاذبَ، التَّعبيرُ بالاسميَّةِ ﴿مُّهْتَدُونَ﴾ دونَ الفعليَّةِ (اهتدَوْا).

الدَّلالةُ على أنَّهم أصحابُ ظنٍّ وتوقُّعٍ، وهُم في ضلالٍ بيِّنٍ

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 14/228، وأبو حيّان، البحر المحيط: 5/39، والنيّسابوريّ، غرائب القرآن: 3/224.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الظّنُّ والحُسبانُ:

الظَّنّ ضربٌ منَ الاِعْتِقَاد، وَقد يكونُ حسبانًا لَيْسَ باعتقاد، وأصلُ الحُسبان منَ الحساب تَقول أَحْسبهُ بِالظَّنِّ قد مَاتَ، كَمَا تَقول أعدّه قد مَاتَ، ثمَّ كثر حَتَّى سمّيَ الظَّنُّ حُسبانا على جِهَة التَّوَسُّع وَصَارَ كالحقيقة بعد كَثْرَة الاِسْتِعْمَال[1]، وإذا جمعا معا دلّا على المبالغة وغلبة الظّنّ[2]. وفُرّق بين الفعل منهما، فيُقالُ في الظّنّ: حَسِبَ، وفي الحساب: حَسَبَ؛ ولذلك فرّق بين المصْدرين، فقِيل: حِسْبانٌ وحُسْبانٌ[3].

الظنُّ لونٌ منَ الاعتقادِ، ليس مقطوعًا به، والحُسبانُ ما ليسَ باعتقادٍ

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 99.
(2) الكورانّي، الكوثر الجاري إلى رياض أحاديث البخاري: 6/450.
(3) العسكري، الفروق اللّغويّة، ص: 99.

﴿۞يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ٣١﴾ [الأعراف: 31]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

نَزعُ ثيابِ الطُّهرِ مَبدأُ الفِتنةِ، وتَخليصُ القلْبِ مِنَ الإخلاصِ رأْسُها

تَظهرُ المُناسبةُ بينَ هذه الآيةِ وما قَبلَها في مجموعةٍ منَ الرَّوابطِ الوثيقَةِ العَريقةِ:

أوَّلُها: ناسَبَ النّداءُ في قولِه تعالى: ﴿۞يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ﴾ النِّداءَ السابقَ في قولِه: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾ [الأعراف: 27]؛ فأخذُ الزِّينةِ دِرعٌ صادٌّ عن فتنةِ الشَّيطانِ وأوليائِه.

ثانيها: لَمَّا نبَّه سبحانَه على فتنةِ الشَّيطَانِ في نَزعِ الثِّيابِ في قولِه: ﴿لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآۚ﴾ [الأعراف: 27]، حسُنَ الأمرُ باتِّخاذِ الزِّينةِ؛ لِتكونَ على التَّضادِّ من نزعِها، وتعريضًا بما يصنعُه المشركون في نَزعِ الزِّينةِ اتِّباعًا لأوليائِهم من شياطِينِ الإنسِ.

ثالثُها: لَمَّا أمَرَ بالقِسطِ فيما سبق، وكانَ من جُملَةِ القِسطِ أمرُ اللِّبَاسِ وأمرُ المَأكُولِ والمَشرُوبِ، لا جَرَمَ أتبَعَهُ بذِكرِهما[1]، فنبَّه في قولِه تعالى: ﴿قُلۡ أَمَرَ رَبِّي بِٱلۡقِسۡطِۖ﴾ [الأعراف: 29] على أنَّ أوامرَه كلَّها قسطٌ وعدلٌ، فناسَبَ أن يأمرَ بشَيءٍ من هذا القسطِ، فقالَ: ﴿خُذُواْ زِينَتَكُمۡ﴾.

رابعُها: لَمَّا أمَرَ تعالى بإقامَةِ الصَّلاةِ في قَولِه: ﴿وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ﴾ [الأعراف: 29] - وكانَ سَترُ العَورَةِ شَرطًا لِصِحَّةِ الصَّلاةِ - لا جَرَمَ أتبَعَهُ بذِكرِ اللِّبَاسِ[2]، فقالَ: ﴿خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ﴾.

خامسُها: لَمَّا ذكرَ في قولِه تعالَى: ﴿وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمۡ عِندَ كُلِّ

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 14/228.

(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 14/228.

﴿مَسۡجِدٖ وَٱدۡعُوهُ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَۚ﴾ تمامَ الإقامةِ الباطنةِ للصّلاةِ وهو الإخلاصُ، ناسبَ أن يذكرَ في قولِه: ﴿خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ﴾ تمامَ الإقامةِ الظَّاهرةِ لها وهو اللِّباس.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿زِينَتَكُمۡ﴾: جذرُ المفردةِ (زين) يدلُّ في أصلِه على مقابلةِ الشَّينِ في الحِسِّيَّاتِ والمعنويِّاتِ، والزِّينةُ اسمٌ جامعٌ لكُلِّ ما يُتزيَّنُ به. وزَينُ الدِّيكِ: عُرفُه. فالزِّينةُ هي ما يظهرُ للعيانِ من حُسْنٍ وجَمالٍ، فاجتَمَعَ فيها أمران؛ الظُّهورُ والجمالُ، ممَّا يُورِّثُ راحةً في النَّفسِ. والمقصودُ في الآيةِ اللِّباسُ الظَّاهرُ الّذي يستُرُ العَورةَ؛ تحسينًا للابسِه[1].

2) ﴿مَسۡجِدٖ﴾: جَذرُ المفرَدةِ (سجد) يدُلُّ في أَصلِه على التَّطَامُنِ والتَّذلُّلِ، فيُقالُ: نِساءٌ سُجَّد: فاتِراتُ الأَعيُنِ. وَأسجَدَ الرّجلُ إذا طَأطَأَ رأسَهُ وانحَنى، وسَجَدَ إذا وضعَ جَبهتَهُ على الأَرضِ، والإسجادُ: إدامةُ النَّظرِ مع سكونٍ، واستُعمِلَ الإسجادُ في الجزيةِ؛ لأنَّها تدلُّ على تطامُنٍ وتذلُّلٍ، فالسُّجودُ في اللُّغةِ يدلُّ على تطامنٍ مع سكينةٍ دالَّةٍ على خضوعٍ داخليٍّ، والمَسجدُ منَ الأرضِ: موضعُ الصّلاةِ اعتبارًا بالسّجود. والمقصودُ في الآيةِ هو كلُّ مكانٍ يُصلَّى فيه أو يُطافُ منَ المسجدِ الحرامِ، فعلى الإنسانِ أن يتزيَّنَ فيه باللِّباسِ؛ لتُقبلَ عبادتُه[2].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

خاطَبتِ الآيةُ بني آدَمَ بالنِّداءِ المُمهِّدِ للأمرِ باتِّخاذِ اللِّباسِ الّذي يُزيِّنُ بدَنَ مَن يُصلِّي، أو يطوفُ، وأُخِذَ من ذلك أنَّ سترَ البَدَنِ واجبٌ عندَ الصَّلاةِ، وتفصيلُه في كُتُبِ الفقهِ، وعطَفَت على ذلكَ الأمرِ الأمرَ

سَتْرُ الأبدانِ، والاغتِدالُ في طَعامِها وشَرابِها، عُنوانُ الوَسَطِيَّةِ

(1) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (زين).

(2) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (سجد).

بالأكلِ والشّربِ مع الاعتدالِ فيهما، فنَهَتْ عنِ الإسرافِ فيهما، وتعليلُ ذلك بنفي حبِّ اللّهِ عمَّن يُسرِفُ؛ ترغيبًا بالاعتدالِ وتركِ المغالاةِ في الأمورِ كلِّها، فالآيةُ ضبطَت ما يتعلَّقُ بالبدنِ ظاهرًا وباطِنًا.

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

نُكتةُ إعادةِ النِّداءِ:

تَكرارُ نِداءِ الخامِلِ مِن شأنِه تحريكُ قَلْبِه وتَثويرُ عَقْلِه

أُعيدَ النِّداءُ في قولِه تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ﴾ للمرَّة الثَّالثة في هذه السُّورةِ، فقد ورَدَ في قولِه تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ﴾ [الأعراف: 25]، وفي قولِه تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآۚ﴾ [الأعراف: 26]، وسيأتي مرَّةً رابعةً في قولِه: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأۡتِيَنَّكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي﴾ [الأعراف: 35]، ولم يأتِ نداءُ النَّاسِ بهذا التَّعبير في ابتداءِ آيةٍ إلَّا في هذه المَواضِعِ الأربعةِ، وقد وردَ في قولِه تعالى: ﴿۞أَلَمۡ أَعۡهَدۡ إِلَيۡكُمۡ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعۡبُدُواْ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ٦٠﴾ [يس: 60].

ونُكتةُ ذلك تثويرُ عقولِ المُخاطَبينَ وتحريكُ نفوسِهم، صوبَ أبيهم آدَمَ عليه السلام؛ لردِّهم إلى أصلِ فطرتِهم، ولاسيَّمَا ورودُه في مَطلَعِ السُّورَةِ: ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَٰكُمۡ ثُمَّ صَوَّرۡنَٰكُمۡ ثُمَّ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ﴾ [الأعراف: 11]، وذلك يحسُنُ بتَكرارِ النِّداءِ الدَّالِّ على أنَّهم أبناءُ آدَمَ، وإيقاظًا لمشاعرِهم الخامدةِ، فإنَّ تَكرارَ النِّداءِ يُوقظُ النَّائِمَ، واكتفى ابنُ عاشور بالإشارةِ إلى عنصرِ الاهتمامِ بالمُنادَى، فقال: "إعادَةُ النِّداءِ في صَدرِ هَذِهِ الجُملَةِ للاهتِمامِ"[1].

نُكتةُ نداءِ النَّاسِ ببَنِي آدمَ:

شأنُ العَرَبِ الاعتزازُ بآبائِهم، والانقيادُ لأصولِهم

نُودِيَ النَّاسُ بإضافتِهم إلى أبيهم في قولِه تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ﴾ دونَ أن يُنادَوا بلفظِ النَّاسِ، أو بغيرِه منَ الألفاظِ؛ لأمرينِ اثنينِ:

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/92.

الأوَّل: تعريفُ النَّاسِ بكونِهم أبناءَ آدمَ يُعيدُهم إلى أصلِهم، وشَأنُ العَرَبِ الاعتزازُ بآبائِهم، والانقيادُ لأُصولِهم، ولمَّا كانَ السِّياقُ سياقَ أمرٍ بالعبادةِ والتَّخلُّصِ من مظاهرِ الشِّركِ، نَاسَبَ أنْ يُناديهم بهذا التَّعريفِ الإضافيِّ، "وفي تَعريفِ المُنادى بطَريقِ الإضافَةِ بوَصفِ كَونِهم بَنِي آدَمَ مُتابَعَةٌ لِلخِطابِ المُتَقَدِّمِ في قَولِه: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا﴾ [الأعراف: 26]"[1]، ولو قال: (يا أيُّها النَّاسُ) لفاتَ هذا المقصودُ.

الأمرُ الآخر: السِّمةُ التَّعبيريَّةُ الخاصَّةُ بهذه السُّورةِ، فقد تكرَّر ذكرُ التَّركيبِ الإضافيِّ (بَني آدَمَ) فيها خمسَ مرَّاتٍ، إحداها بدونِ نداءٍ.

دَلالةُ تَرَتُّبِ الأَمْرِ على النِّداءِ:

لُطفُ النِّداءِ يُلَيِّنُ قلوبَ المُكلَّفين، ويُغْرِي بالقَبولِ

رُتِّبَ الأمرُ باتِّخاذِ الزِّينةِ: ﴿خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ﴾ على النِّداءِ: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ﴾؛ ليكونَ النِّداءُ تَوطِئَةً وتمهيدًا للأمرِ، وهي توطِئَةٌ نفسيَّةٌ، فإنَّ الأوامرَ تستثقِلُها النُّفوسُ، فحسُنَ التَّمهيدُ بالنِّداءِ؛ ليكونَ أدعى في الاستِجابةِ، فأمرُ المُخاطَبِ دونَ تمهيدٍ فيه جفوةٌ وقَسوةٌ، والّذي يدفعُ ذلك بلاغةُ اللُّطفِ في النِّداءِ حتَّى يَجِدَ الأمرُ وقعَه المناسبَ في نَفسِ المُتَلَقِّي.

بَلاغةُ التَّعْبِيرِ بالأَخْذِ دُونَ فعْلِ اللّبْسِ:

مَن أَلقَى ثيابَ السَّتْرِ لَقِيَ خطابَ الزَّجْرِ

اختارَ النَّظمُ القرآنيُّ مُفردةَ الأخذِ في قولِه: ﴿خُذُواْ﴾ دونَ غيرِها منَ الألفاظِ النَّاصَّةِ على ارتداءِ الملابسِ، وذلك بلاغةٌ في التَّعبيرِ تُنبئُ عن تصويرِ المَشهدِ الّذي عاشَه الجاهليُّونَ في إلقاءِ الملابسِ عندَ الطَّوافِ بالبيتِ الحرامِ، فقد وردَتِ الرِّواياتُ في أنَّ المُشركينَ "كانوا يطُوفونَ بالبيتِ عُراةً، فأمرَهم اللّه أن يَلبسُوا ثِيابَهم ولا يَتعرَّوا"[2]، ولا يُؤدِّي هذا المعنى إلَّا لفظُ الأخذِ، فالآيةُ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/92.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 10/150.

تأمرُ المُخاطَبينَ أن يأخُذوا تلك الملابسَ الّتي أَلقَوها جانِبًا وتعرَّوا، ففي التَّعبير أمرٌ زاجرٌ عمَّا اقترفُوه.

وفي التَّعبير استعارةٌ، إذ شبَّهَ الارتداءَ بالأخذِ، ثمَّ اشتقَّ منه فعلَ الأمرِ ﴿خُذُواْ﴾ على سبيلِ الاستعارةِ التَّبعيَّةِ، والاستعارةُ أبلغُ منَ الحقيقةِ في بيانِ الموقفِ، لِمَا فيها من تصويرِ حالِ المشركينَ في التَّعرِّي؛ فإنَّ العربَ - ما عدا قُرَيشًا - كانوا لا يَطُوفون بالبيتِ في ثِيابِهم الَّتي لَبِسوها، ويَتَأَوَّلون في ذلك أَنَّهم لا يَطُوفون في ثيابٍ عَصَوُا اللّٰه فيها، وكانت قُرَيشٌ - وهم الحُمْس - يَطُوفونَ في ثيابِهم، ومَن أعارَه أَحْمَسِيٌّ ثوبًا طَاف فيه، ومَن معه ثوبٌ جَديدٌ طافَ فيه، ثُمَّ يُلقيه فلا يتملَّكُه أحدٌ[1]، فزجرَهم اللّٰهُ عن هذا الصَّنيعِ الجاهليِّ في المُسارَعةِ بأخذِ اللِّباسِ، ودفعِ التَّذرُّعِ بتأويلِهم الباطلِ حولَهُ، فكأنَّ اللِّباسَ المُتخلَّى عنه موجودٌ مُلقًى على قارعةِ الطَّريقِ، لكلِّ راغبٍ في تناولِهِ.

غَرَضُ الأَمرِ بأَخْذِ الزِّينةِ:

الأَمرُ في قولِه تعالى: ﴿خُذُواْ زِينَتَكُمْ﴾ للوجوب، حيثُ كان المشركونَ في جاهليَّتِهم يَطُوفونَ بالبيتِ عَرَايا؛ فأمرَهم اللّٰه تعالى باتِّخاذِ الزِّينةِ المقصودِ بها اللِّباسُ، وأمرَ المؤمنينَ بأخذِ أحسنِ اللِّباسِ، فإنَّ الأمرَ موجَّهٌ للمُشركينَ والمؤمنينَ، فعلى المُشركِ أن يُؤمنَ، ثمَّ يقوم بأدنى دَرَجاتِ الأمرِ، وعلى المؤمنِ أن يقومَ بأحبِّه وأكملِه؛ ولهذا استحبَّ السَّلفُ أن يَتَجَمَّلَ الرَّجُلُ في صلاتِه، وقد "أَمَرَ اللّٰهُ بِقَدرٍ زائدٍ على سَترِ العَورَةِ في الصَّلاةِ، وهو أَخذُ الزِّينَةِ؛ فَقالَ تعالى: ﴿خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ [الأعراف: 31]، فَعَلَّقَ الأَمرَ بأَخذِ الزِّينَةِ، لا بِسَترِ العَورَةِ، إيذانًا بأنَّ العَبدَ يَنبَغِي لَهُ: أن يَلبَسَ أَزيَنَ ثِيابِهِ، وأَجمَلَها في الصَّلاةِ"[2].

أخذُ الزِّينةِ في الصَّلاةِ هو تمامُ المَقصودِ التَّكليفيِّ، وكمالُ المَطلوبِ الشَّرعيِّ

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 3/402.
(2) ابن قَيِّم الجوزيَّة، مدارج السّالكين: 2/363.

سِرُّ التَّعْبير بلفْظِ الزِّينةِ دونَ اللِّباسِ:

مَن تدثّرَ بالسَّتْرِ تَـزيّـنَ بـأبْـهَـى الحُلَلِ

عُبِّرَ بلفظِ الزِّينةِ في قولِه: ﴿زِينَتَكُمْ﴾ دونَ أن يُقَالَ: (لباسَكم) أو (ثيابَكم)، وهو أشهرُ دلالةً، وأصرحُ تعبيرًا عنِ المقصودِ، بل هو المذكورُ في سِياقِ السِّياقِ: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ﴾ [الأعراف: 26]، وذلك أنَّ لفظَ الزِّينةِ دالٌّ على معنًى محبَّبٍ للنَّفسِ، لِمَا فيه منَ الحُسنِ والجمالِ، فاختارَ النَّظمُ اللَّفظَ الأليقَ بمقامِ المُخاطَبين، وهو الزِّينةُ، للإسراعِ في الاستجابَةِ، فإنَّ الأوامرَ القرآنيَّةَ صِيغَت بما يُحقِّقُ المطلوبَ، كما أُوثِر التَّعبيرُ بالزِّينةِ؛ للإشارةِ إلى أنَّ كلَّ ما يستُرُ عورةَ الإنسانِ فهو زينةٌ، وإنِ لم يكن أَحسنَ الثِّيابِ؛ "لأنَّه هو المرادُ من لباسِ التَّقوى"[1]؛ فلباسُ تقوى اللهِ تعالى بفعلِ الأوامرِ واجتنابِ النّواهي هو خيرُ لباسٍ للمؤمنِ.

بلاغةُ الاسْتِعارةِ والكنايةِ تظْهرُ في اشْتِمالِها على الضَّروريات والتِّحْسِينيَّاتِ

وفي اختيارِ لفظِ الزِّينةِ استعارةٌ بديعةٌ، حيثُ شبَّهَ اللِّباسَ بالزِّينةِ، وصرَّح بالزِّينةِ على سبيلِ الاستعارةِ التَّصريحيَّةِ الأصليّةِ، والاستعارةُ أبلغُ منَ الحقيقةِ؛ لِمَا فيها منَ الحثِّ النَّفسيِّ على الامتثالِ، وتحسينِ اللَّابسِ وتجميلِه، وتبشيعِ تارِكِه وتقبيحِه، فهذه معانٍ زائدةٌ على أصلِ معنى اللِّباسِ.

أو أن يُحملَ لفظُ الزِّينةِ على الكنايةِ، فتكون من قبيلِ الكنايةِ عنِ الصِّفةِ، وهي السّترُ والحشمةُ، حيثُ أطلقَ الزِّينةَ وأرادَ السِّترَ، فكأنَّه قالَ: (استَتِروُا) مع إرادةِ المعنى الحقيقيِّ، وهو التَّزيُّنُ، وبلاغةُ الكنايةِ تظهرُ في جمعِها للضَّرورةِ وهي السِّترُ، والمعنى التّحسينيِّ وهو التَّزيُّنُ.

دلالةُ إضافةِ لفْظِ الزِّينةِ لكاف الخِطابِ:

في إضافة لفظِ الزِّينةِ لكافِ الخطابِ في قولِه تعالى: ﴿خُذُواْ

(1) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 8/373.

التَّمليكُ بغرَضِ التَّرغيبِ في طَلَبِ السَّتْرِ والتَّجمُّلِ

﴿زِينَتَكُمْ﴾ تحفيزٌ للمُخاطَبين، وترغيبٌ في التَّجمُّلِ عندَ الصَّلاةِ؛ فالزِّينةُ مِلْكٌ لَهم، وتختصُّ بِهِم، مطروحة أمامَهم، فهم لا يجدون عناءً في تحصيلِها وأخْذِها، فالإضافةُ هي إضافةُ تمليكٍ بغرضِ طلبِ التَّجميلِ والتَّحفيزِ على اللِّبس؛ لغايةِ السَّترِ وتحصيلِ الكمالِ الإنسانيِّ في المظهرِ الخارجيِّ.

دلالةُ التَّعْبيرِ بالعِنْديَّةِ دونَ الظَّرفيَّةِ:

وجوبُ التَّجَمُّلِ عندَ بيوتِ اللهِ احترامًا وتوقيرًا

عُبِّر بالعِنديَّةِ دونَ الظَّرفيّةِ في قولِه: ﴿عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾، إذ لم يقُل: (في كُلِّ مسجدٍ)؛ لدفعِ توهُّمٍ قد يطرأُ على ذهنِ المُخاطَبِ، وهو أنَّ السِّترَ مطلوبٌ داخلَ المسجدِ، فجيءَ بلفظِ ﴿عِندَ﴾ لبيانِ المقصودِ، ولدفعِ أوهامِ الأفهامِ، والعنديَّةُ تبدأُ من لحظةِ التَّوجُّهِ إلى المسجدِ لأداءِ العبادةِ، فيُؤخَذُ اللِّباسُ استعدادًا لذلك، فعلى العبدِ ألَّا يدْلِفَ إلى المسجدِ إلَّا في أكملِ هيئةٍ مِن ستر العورةِ، والتَّجَمُّلِ احترامًا لبيوتِ اللهِ، وتوقيرًا لَهَا.

سِرُّ إيثارِ العُمومِ على الخُصوصِ:

الإيماءُ إلى الإعجازِ الغَيْبيِّ في انتشارِ المساجِدِ في أصْقاعِ الدُّنيا

أُوثِر العمومُ على الخصوصِ في قولِه تعالى: ﴿كُلِّ مَسْجِدٍ﴾، حيث إنَّ المقصودَ في السِّياقِ المسجدُ الحرامُ، فهي حكايةُ حالِ المُشركِينَ فِيمَا كَانُوا يَتَعمَّدُونَهُ مِنَ الطَّوَافِ بِالبَيتِ عُراةً، الرِّجَالُ وَالنِّسَاءُ؛ فالرِّجَالُ بِالنَّهارِ، والنِّسَاءُ بِاللَّيلِ[1]، فلم يقُل: (عند المسجدِ الحرامِ)؛ لأنَّ المرادَ أَخذُ الزِّينةِ وسَترُ العورةِ عندَ كُلِّ مكانٍ مُتَّخَذٍ لعبادةِ اللهِ تعالى، وليس المسجدَ الحرامَ فحسب؛ أي: أنَّه عَامٌّ في كُلِّ مَسجِدٍ لِلصَّلَاةِ؛ لأنَّ العِبرةَ بعمومِ اللَّفظِ لا بخصوصِ السَّببِ، كما هو الرَّاجحُ في أقوالِ جماهيرِ أهلِ العلمِ.

ولأمرٍ آخر، ألَا وهو أنَّ الآيةَ تُشيرُ إلى ما سيكونُ في المستقبلِ

(1) مسلم، صحيح مسلم، الحديث رقم: (3028)، والنّسائي، السّنن: 5/233، وابن جرير، جامع البيان: 12/390.

من انتشارِ المساجدِ في أصقاعِ الدُّنيا، فأمرَتْ بأخذِ الزِّينةِ عندَ كلِّ مسجدٍ قبلَ تحقُّقِ ذلك إيماءً إلى تحقُّقِه.

غَرَضُ إضافَةِ أداةِ العُمومِ ﴿كُلِّ﴾ إلى النَّكرةِ:

أُضيفت أداةُ العموم ﴿كُلِّ﴾ إلى النّكرة ﴿مَسْجِدٍ﴾؛ لبيانِ غرضِ الشُّمولِ؛ فلا يُستثنَى من ذلك أيُّ مسجدٍ، وفي هذه الإضافة فائدةٌ؛ وهي أنَّ هذا العمومَ هو إحدى صور العامِّ الّذي لم يُخصّ، فيصدُقُ على كلِّ ما يصدُقُ عليه اسمُ مسجدٍ، فإنَّ من مقتضيات التَّوجُّهِ إليه أخذَ الزِّينةِ.

اشْتِمالُ الإضافةِ لكلِّ ما يصدُقُ عليه اسمُ مسجدٍ

بديعُ فنِّ الاختباكِ:

غرضُ الأمرِ في قوله تعالى: ﴿وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ﴾ للإباحةِ، وجاءَ معطوفًا على سابقِه: ﴿خُذُواْ زِينَتَكُمْ﴾ الّذي هو للوجوب؛ تمهيدًا لِمَا سيُبنَى على هذا الأمرِ منَ النَّهي في تحريمِ الإسرافِ ﴿وَلَا تُسْرِفُوٓاْ﴾، فيكونُ التَّناسُبُ بين المُتعاطفين هو الإلزامُ بالفعلِ في أخذِ الزِّينةِ، والإلزامُ بالتَّركِ في كيفيّةِ الأكلِ والشُّربِ، فهو تناسبٌ بين جملتين إنشائيّتين إلزاميَّتَيْن، ولمَّا كان أخذُ الزِّينةِ فيه تكميلًا للظَّاهرِ دُفِعَ الإسرافُ في التَّكميل فيما يتعلَّقُ بالطَّعامِ والشَّرابِ؛ لأنَّه الأغلبُ في سلوكِ النَّاسِ، ففي الآيةِ احتباكٌ بديعٌ، تقديره: خذوا زينَتَكم عندَ كلِّ مسجدٍ ولا تسرفوا، وكلُوا واشربُوا في كلِّ مكانٍ ولا تسرفُوا.

المسلمُ مأمورٌ بأخذِ الزِّينةِ والأكلِ والشُّربِ بشرْطِ عدَمِ الإسرافِ

وللإشارةِ إلى أنَّ الأكلَ والشُّربَ قد يَكونانِ واجبَين أيضًا في الحُكمِ، فلا زُهدَ في تَركِ مَطعَمٍ ولا مَشرَبٍ، وتاركُه بالمَرَّةِ قاتلٌ لِنَفسِهِ وهو من أهلِ النّارِ، كما صَحَّ في الأحاديثِ الصَّحيحَةِ، والمُقَلِّلُ منه على وجهٍ يَضعُفُ بِهِ بَدَنُه، ويَعجَزُ عَنِ القِيامِ بِما يَجِبُ عليه القِيامُ به من طاعَةٍ أو سَعيٍ على نَفسِهِ وعلى مَن يَعُولُ، مُخالِفٌ لِما أمَرَ اللّٰهُ بِهِ وأرشَدَ إلَيهِ[1].

الآيةُ تُعالجُ التَّطرّفَ السُّلوكيَّ في العِباداتِ والمأكولاتِ والمَشروباتِ

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 14/66، والقَنّوجيّ، فَتح البيان: 4/332.

فالآيةُ تُعالجُ التَّطرفَ السُّلوكيَّ في تركِ الزِّينةِ جملةً، وفي تركِ الطَّعامِ والشَّراب جملةً، أو الإسراف فيهما، فهي دعوةٌ إلى الاعتدالِ والتَّوسُّطِ في السُّلوكِ التَّعبديِّ في العلاقةِ مع اللّه تعالى ومع النَّفسِ.

بَلاغةُ التَّرتيبِ في الآيةِ:

الغاياتُ مُقدَّمةٌ على وسائِلها

جاء تَرتيبُ المأمورات بذكْرِ الأمْرِ بأخْذِ الزِّينةِ ثم الأمْرِ بالأكلِ والشُّربِ وهو من بابِ تقديمِ الغاياتِ على الوسائلِ، فأخذُ الزِّينةِ إيماءٌ إلى كمالِ عبادةِ اللّهِ تعالى كما يحبُّ ويرضى، والأكلُ والشُّربُ هو طريقُ التَّقوِّي على ذلك، فقُدِّمتِ الغايةُ على الوسيلةِ، فهي نظيرُ قولِه تعالى: ﴿وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَاۖ﴾ [القصص: 77]، وهو من بابِ التَّرتيبِ على سَبيلِ التَّرقّي، وذلك أن تكونَ البَداءةُ بأخْذِ الزِّينةِ، فالأكلِ، فالشُّربِ، فإنَّ الإنسانَ يحتاجُ اللِّباسَ، واحتياجُه للطَّعامِ أشدُّ، ثمّ احتياجُه للماءِ أشدُّ الأمْرَين.

وجهُ تقديمِ الأمْرِ بالأكلِ على الشُّربِ:

التَّرتيبُ على سبيلِ التَّرقي أو التَّدلِّي بحسبِ الاعتبارِ

جاء تقديمُ الأمرِ بالأكلِ على الأمرِ بالشُّرب في قوله تعالى: ﴿وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ﴾ على سبيل الامتنان؛ فالامتنان بالطَّعام أوضح من الماءِ، مع أنَّ الماءَ هو أصلُ الحياة، وذلك لسهولة العثور عليه في الجملة، وصعوبة الحصولِ على الطعام في الجملة، فإنَّ الإنسان لا يقلق بسبب التَّفكير في شربِ الماءِ إلَّا في حالاتٍ طارئة، بخلافِ الطَّعام فإنَّه هو الذي يُقلِق غالبَ الفقراء، فقدَّمت الآيةُ ذكرَ الأمرِ بالأكلِ على الأمرِ بالشُّربِ للتَّنبيهِ على أنَّ الآمرَ ﷻ بما فيه قوام حياتِهم، هو الآمرُ بما فيه كمالُ عبادتِهم.

دلالةُ عطْفِ النَّهْيِ على الأمرِ:

تَقييدُ المُطلَقِ احتراسٌ عنِ الوُقوعِ في التَّعدِّي

جاءَ قولُه تعالى: ﴿وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ﴾ احتراسًا عنِ الوقوعِ في الإسرافِ في الطَّعامِ والشَّرابِ، فإنَّ المقصودَ منَ الأمرِ بالطَّعامِ والشَّرابِ هو الاستعانةُ بهما على الطَّاعةِ، لا أن يصبحَا غايةً مقصودةً لذاتِهما،

بحيثُ يُسرفُ طالبُهما، فكان عطفُ النَّهي على الأمر لدفعِ أوهامِ الأفهامِ، في مظنَّةِ أنَّ الأمرَ مُطلَقٌ غيرُ مقيَّدٍ، فجاءَ العطفُ للتَّقييدِ وضبطِ المُكلَّفِ، فالإسرافُ هو تَجاوُزُ الحَدِّ المُتعارَفِ في الشَّيءِ، فلا يجوزُ التَّعَدِّي في الطَّعامِ والشَّرابِ فيدخُلا في وصفِ الحَرامِ، فإنَّ ذلك يتصادمُ مع مقصودِ الشَّرعِ.

غَرَضُ النَّهْيِ عنِ الإسرافِ:

إرشادُ العبادِ إلى تعيينِ مفهومِ الإسرافِ لِيَجتنِبوه

النَّهيُ عنِ الإسرافِ في قولِهِ تعالى: ﴿وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ﴾ نَهيُ إرشادٍ لا نَهيُ تَحريمٍ؛ وذلك "بِقَرينَةِ الإباحَةِ اللّاحِقَةِ في قَولِهِ: ﴿قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ﴾ [الأعراف: 32] إلى قَولِهِ: ﴿وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ﴾ [الأعراف: 32]، ولِأنَّ مِقدارَ الإسرافِ لا يَنضَبِطُ؛ فلا يَتَعَلَّقُ بِهِ التَّكليفُ، ولَكِنْ يُوكَلُ إلى تَدبيرِ النّاسِ لِمَصالحهم، وهذا راجِعٌ إلى مَعنى القِسطِ الواقِعِ في قَولِهِ سابِقًا: ﴿قُلۡ أَمَرَ رَبِّي بِٱلۡقِسۡطِۖ﴾ [الأعراف: 29] فَإنَّ تَركَ السَّرَفِ مِن مَعنى العَدلِ"[1]؛ فالإسرافُ يتعيَّنُ بحسبِ الحالةِ والبيئةِ والعرفِ، فإذا انضبطَ بمجموعةٍ منَ المعاييرِ المتوائمةِ ومقاصدِ الشّريعةِ، وحُكِمَ عليه بأنَّه إسرافٌ، فهو محظورٌ لا يُقرَبُ.

فائِدةُ جُملةِ التَّذْييلِ:

تعليلُ النَّهْيِ عنِ الإسرافِ بمَقْتِ اللهِ هذا السُّلوكَ

وقعَت جملةُ التَّذييلِ: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ﴾ تعليلًا للنَّهي السّابقِ، فَقَولُه: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ﴾ يَحتَمِلُ وجهَينِ: أحَدُهُما: لا يُحِبُّ أفعالَهم في السَّرَفِ، والآخر: لا يُحِبُّهم في أنفُسِهم لأجلِ السَّرَفِ[2]، فالإسرافُ لا يحبُّه اللّهُ تعالى ابتداءً، وكلُّ مَن يقترفُ هذا السُّلوكَ، فيصبح صفةً لازمةً له، فهو من غيرِ المحبوبين للّه تعالى؛ بكونه لم يتحدَّث بنعمةِ اللّهِ عليه بحفظِ النِّعمةِ، ولم يقم بشُكْرِها في وضعِها في محلِّها. وفي التّذييلِ تنبيهٌ على الابتعادِ عن

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/95.
(2) الماورديّ، النُّكت والعيون: 2/218.

مساخطِ اللّهِ وأسبابِ غضبِهِ ومَقتِهِ، والبعدِ عن كلِّ ما يدعو إلى الزَّهْوِ والتَّكبُّرِ والإعجابِ بالفِعلِ أو النَّفسِ.

نُكتةُ إيثارِ نَفْيِ الحُبِّ على إثباتِ الكراهيةِ:

إطماعُ المُخاطَبين وإرشادُهم إلى تركِ الإسرافِ

لم يَرِدْ في القرآن الكريم لفظُ الكراهةِ مُسندًا إلى اللّه تعالى في سياقِ النّفي كأن يُقال: (إنه يكره المسرفين)؛ لأنَّ نفيَ المحبَّةِ أبلغُ تأثيرًا، وأشَدُّ أثرًا، وقال في هذه الآيةِ: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ ذلك أنَّ نفيَ الحبِّ يُرادُ به أمران: إطماعُ المُخاطَبين بحبِّ اللّه تعالى، وإرشادُهم إلى ذلك بترك الإسرافِ، كما أنَّ الإخبارَ بالكُره إبعادٌ لِمَن كُرِهَ بالكُلّيّةِ، وهو داعٍ إلى اليأسِ والقنوطِ من رحمةِ اللّه ومغفرتِه، وصارفٌ لِلْهمم عنِ التّنافس وعملِ الصّالحات، كما أنَّ نفيَ المحبَّةِ يتضمَّنُ إثباتَها لِمَن لم يكن كذلك، وهو غيرُ لازمٍ في الكُره؛ لأنَّ مَن كَرِهَ شيئًا لا يلزمُ أن يُحِبَّ ضدَّه.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الإسرافُ والتَّبذيرُ:

الإسرافُ صَرْفُ الشَّيءِ فيما ينبغِي زائدًا، والتّبذيرُ صَرفُ الشّيءِ فيما لا يَنبغِي

التَّبذير: يدلُّ أصلُ المادَّةِ على معنى واحدٍ، وهو نَثرُ الشَّيءِ وَتَفريقُه، وأَصلُه: إلقاءُ البَذْر وطرحُه، فاستُعير لكلِّ مُضيِّعٍ لِماله[1].

بينما يَدُلُّ أصلُ مادَّة الإسرافِ على معنى واحدٍ، وهو تَعَدِّي الحَدِّ، والإسراف: تجاوزُ الحَدِّ في سائرِ الأفعالِ، إلّا أنّه غلبَ في الإنفاق، ويُقال باعتبارين: باعتبار القدرِ، وباعتبار الكيفيّةِ[2].

والفرقُ بينهما هو أنَّ الإسرافَ صَرفُ الشَّيءِ فيما ينبغي زائدًا على ما ينبغي بخلاف التّبذيرِ؛ فإنّه صرفُ الشّيءِ فيما لا ينبغي أصلًا، فبينهما عمومٌ وخصوصٌ؛ إذ قد يجتمعان فيكون لهما المعنى نفسه أحيانًا، وقد ينفردُ الأعمُّ وهو الإسرافُ[3].

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرّاغب، المفردات: (بذر).
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والسَّمين الحلبيّ، عُمدة الحُفَّاظ: (سرف).
(3) الجرجانّي، التّعريفات، ص: 24.

ولذلك آثرَ النّظمُ النّهيَ عنِ الإسرافِ؛ الّذي هو - هنا - الإفراطُ ومُجاوَزةُ الحَدِّ في اللّباسِ والأكلِ والشّربِ، فالواقعُ فيه فاقدٌ لفضائلِ تَدبيرِ الإنسانِ لنَفسِه، والسَّرَفُ في كلِّ شيءٍ يُضِرُّ بالجسَدِ، ويُضِرُّ بالمعيشةِ؛ فيُؤدِّي إلى الإتلافِ، ويُضِرُّ بالنَّفسِ إذ كانَت تابعةً للجسَدِ في أكثَرِ الأحوالِ، بخلافِ التّبذيرِ الّذي هو إتلافُ المالِ وإضاعتُه؛ إذ المبذِّرون أشباهُ الشّياطين في الشّرِّ والفسادِ والمعصيةِ، كما قالَ اللّهُ عنهم: ﴿إِنَّ ٱلۡمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخۡوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِۖ﴾ [الإسراء: 26].

﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [الأعراف: 32]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

إنكارُ دينِ الفِطْرةِ الجامِعِ بينَ مَصالِحِ البَشَرِ ظلمٌ للنَّفْسِ

لَمَّا أمرَ اللّهُ تعالى في الآيةِ السَّابقةِ باتِّخاذِ الزِّينةِ عند كلِّ مسجدٍ، وأكلِ الطَّيِّباتِ دونَ إسرافٍ، أردفَ ذلك باستنكار تحريمِ الزِّينةِ الّتي أخرجَها اللّهُ لعباده، وتحريمِ الطّيّباتِ منَ الرِّزقِ؛ حيث إنَّه مِنَ المُستنكرِ أن يُحَرِّمَ أَحَدٌ بِهَواه ورأيه ما أحلَّه اللّهُ تعالى، وما أخرجَه للنَّاس مِنَ الزِّينة أو منَ الطَّيِّبات، فالتَّحريمُ والتَّحليلُ لا يكون إلّا بِشَرعٍ منَ اللّه تعالى وَحدَه، فالمناسبةُ بين الآيتين تأكيدُ حلِّ الطَّيّباتِ، وأنَّه ليس لأحدٍ أن يجني على نفسِه وعلى غيرِه، "وأيضًا لَمَّا حَرَّمَتِ العَرَبُ في جاهِلِيَّتِها زينةَ اللِّباسِ في الطَّوافِ تعبُّدًا وقُربةً، وحَرَّمَ بعضُهم أكلَ بعضِ الطَّيِّباتِ مِنَ الأَدهانِ وغَيرِها في حال الإحرامِ بالحَجِّ كذلك، وحَرَّموا مِنَ الحَرثِ والأنعامِ ما بيَّنه تعالى في سورة الأنعام، وحَرَّمَ غَيرُهم مِنَ الوَثنِيِّينَ وأهلِ الكِتابِ كثيرًا مِنَ الطَّيِّباتِ والزِّينةِ، كذلك جاءَ دينُ الفِطرةِ الجامِعُ بين مصالِحِ البَشَرِ في معاشِهِم ومَعَادِهم، المُطَهِّرُ المُرَبِّي لأرواحِهم وأجسادِهم، يُنكِرُ هذا التحَكُّمَ والظُّلمَ للنَّفسِ"[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَخْرَجَ﴾: من خَرَجَ يَخرُجُ خُرُوجًا ومَخْرَجًا: بَرَز من مقرِّه أو حالِه، سواء كان مقرُّه دارًا، أو بلدًا، أو ثوبًا، وسواء كان حالُه

(1) رضا، تفسير المنار: 8/345.

حالةً في نفسِه، أو في أسبابِه الخارجةِ. والخُروج: نَقِيضُ الدُّخُولِ[1]. وأَخرجَ الشَّيءَ: أَبرزَه وجعلَهُ خرجًا فهو مُخرَجٌ. ومعنى الإخراج في الآيةِ: إتاحةُ رزقِ اللّهِ منَ المأكولاتِ والمشروباتِ والملبوساتِ.

2) ﴿وَٱلطَّيِّبَٰتِ﴾: جذر الكلمة (طيب)، وأَصلُ الطَّيِّب: ما تستلذُّه الحَواسُّ. والطَّيِّبُ نَقيضُ الخَبيث. "والطّعامُ الطَّيِّبُ شرعًا ما كان متناولًا من حيث ما يجوز، وبقدر ما يجوز، ومنَ المكان الّذي يجوز، فإنّه متى كان كذلك كان طَيِّبًا عاجلًا، وهذا هو المرادُ في الآيةِ الكريمةِ"[2]. والطَّيِّباتُ: المُستَلَذّاتُ مِنَ الطَّعام، وقِيلَ: هو اسمٌ عامٌّ لِما طابَ كَسبًا ومَطعَمًا[3].

3) ﴿خَالِصَةً﴾: من (خلص)، وأَصلُ الخلوص: تَنقِيَةُ الشَّيءِ وتهذِيبُه[4]. والخالِصَةُ: السّائِغَةُ؛ أي: المُباحَةُ؛ أي: لا شائِبَةَ حَرَجٍ فِيها؛ أي: في أكلِها، وَفي قَوله: ﴿خَالِصَةً﴾ وجهانِ: أَحَدُهُما: خالِصَةٌ للمؤمنين مِن دُونِ الكُفّارِ، والثّاني: خالِصَةٌ مِن مَضَرَّةٍ أو مَأثَمٍ[5].

4) ﴿نُفَصِّلُ﴾: من (فَصَل)، أصلٌ يدلُّ على إبانةِ أحدِ الشّيئين منَ الآخر: حتّى يكونَ بينهما فُرجَةٌ، ومنه قيل: المَفَاصِلُ، الواحدُ مَفْصِلٌ، وفَصَلْتُ الشّاةَ: قطعتُ مفاصلَها، وفَصَلَ القوم عن مكانِ كذا، وانفَصَلُوا: فارقوه[6]، فالمعنى المحوريّ للمادَّة هو تميّزُ الشّيءِ عن غيرِه مع تمامٍ[7]. والمرادُ هنا: التّبيينُ والتّوضيحُ والتّفسيرُ.

5) ﴿ٱلْأَيَٰتِ﴾: من (أيي)، يدلُّ أَصلُ الكلمةِ على بقاءِ الشَّيء في مكانه شَاخِصًا، عَلَامَةً لِشَيءٍ وأمارَةً عليه. ومِنهُ قولهُم: خرجَ القومُ بآياتهم؛ أي: جماعتِهم، فَلَم يَدَعُوا شيئًا ممَّا مِن شأنِه أَن يكُونَ شاخصًا إلَّا حَملُوه، وفيهِ معنَى الكَثرَةِ والجسَامَةِ أيضًا[8]، والآيَةُ: كُلُّ شيءٍ ظاهرٍ مُلازِمٍ لشيءٍ باطنٍ يُعرَفُ بِهِ، حسِّيًّا كان أو عقليًّا[9]، والمرادُ منَ الآيات هنا الأحكامُ، وتعاليمُ الإسلامِ.

(1) الرّاغب، المفردات: (خرج).
(2) السَّمين الحلبيّ، عُمدة الحُفَّاظ: (طاب).
(3) الشَّوكانّي، فتح القدير: 2/282.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (خلص).
(5) الماورديّ، النُّكَت والعيون: 2/219.
(6) الرّاغب، المفردات: (فصل).
(7) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصَّل: (فصل).
(8) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصَّل: (أيى).
(9) الرّاغب، المفردات: (أي).

المَعْنى الإجْماليُّ:

إبطالُ مزاعمِ أهلِ الجاهليّةِ فيما حرَّموه من اللِّباسِ والطَّعامِ

أمرَ اللّهُ تعالى رسولَه ﷺ بأن يقولَ لأولئك الّذين يطوفون بالبيت عَرايا، ويمتنعون عن أكلِ الطّيّباتِ: مَنِ الّذي حَرَّم الزِّينةَ الّتي أحلّها اللّهُ مِنَ اللّباسِ والجواهرِ؟ وَمنِ الّذي حرَّمَ الطَّيِّباتِ منَ المأكولاتِ والمشروباتِ؟ ومَنِ الّذي يتجرَّأُ على اللّه تعالى فيحرِّمَ ما أحلَّه سبحانه؟ أو يُحَلِّلَ ما حرَّم؟!

إنَّ هذه النِّعم أحقُّ النّاس بها المؤمنون، وإن شاركهم فيها الكفّارُ في الدّنيا، فهي في الآخرة خالصةٌ للمؤمنين فحسب، وبمثل هذا البيانِ في مسائل الزِّينةِ والأكلِ والشّربِ يبيِّنُ اللّهُ تعالى الأحكامَ؛ ليكونَ المؤمنُ على هُدًى وبصيرةٍ في كُلِّ شؤونِه.

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

أغراضُ الاسْتِئْنافِ:

تفنيدُ ادِّعاءاتِ أهْلِ الجاهليَّةِ فِيما حَرَّمُوه على أنفُسِهم مِنَ اللِّباسِ والطَّعامِ

افتُتِحتِ الآيةُ الكريمةُ باستِئنافٍ جاء مُعترِضًا بَينَ الخِطاباتِ المَحكِيَّةِ والمُوَجَّهَةِ، فقال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ﴾، ولهذا الاسْتِئْنافِ أغراضٌ:

الأوَّل: إبطالُ ادِّعاءات أهلِ الجاهليَّةِ فيما حَرَّمُوه على أنفسِهم مِنَ اللِّباسِ والطَّعامِ[1].

الثَّاني: تأكيدُ الإباحةِ والاستمتاعِ بالزّينةِ، والأكلِ، والشّربِ، مع عدمِ الإسرافِ[2].

الثَّالث: الرّدُّ على المُتَنَطِّعِينَ الّذين يُضَيِّقونَ على أنفسِهم ما وسَّعَه اللّهُ عليهم[3].

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 5/95.
(2) درويش، إعراب القرآن: 3/344.
(3) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 5/265.

الرابع: مزيدُ تَأكِيدِ وجوبِ التَّسَتُّرِ عامَّةً، وفي المَساجِدِ خاصّةً؛ احترامًا لقدسيّتِها ومكانتِها.

فائدةُ البَدْءِ بفعْلِ الأمْرِ:

فائدةُ الافتِتاح بفعل الأمرِ ﴿قُلْ﴾ تظهرُ في الآتي:

توجيهُ العِنايةِ بالرَّدِّ على المُجادِلين المُنكِرين

الأوّل: الإشارةُ إلى أنَّ الكلامَ الآتي بعد فعلِ ﴿قُلْ﴾ مَسُوقٌ لِلرَّدِّ والإنكارِ والمُحاوَرَةِ والمجادلةِ على زَعمٍ باطلٍ.

الثّاني: الاهتمامُ بالقول، وأنَّه رسالةٌ خاصَّةٌ تَجِبُ المواجهةُ بِها، وتُؤَدَّى فورَ تلقِّيها.

الثَّالث: توجيهُ العنايةِ بالرَّدِّ على المُنكِرين بالتزامِ منهجِ الوحي وقِيَمِه.

غرَضُ الاسْتِفهامِ:

الإنكارُ على الزَّاعِمين وتَوبيخُهم بخروجِ الاستفهامِ مَخرجَ التَّهكُّمِ

الاستفهامُ في قولِه: ﴿مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ﴾ إنكاريٌّ توبيخيٌّ، ومعناه: إنكارُ تحريمِ تلك الأشياء مِنَ الثِّيابِ وسائِرِ ما يُتَجَمَّلُ بِهِ ويُتَزَيَّنُ، وتوبيخُ مُحَرِّميها وتسفيههم؛ حيث تجاسروا وحَرَّموا مِن تلقاءِ أنفسِهم ما أَحَلَّه اللّهُ تعالى لَهُم، وما لم يُحرِّمه عليهم، ولا جَوابَ للاستِفهام؛ لتضمُّنه معنى الإنكار؛ إذ لا يُرادُ به الاستعلامُ. وقُصِدَ بالاستفهامِ التَّهَكُّمُ؛ إذ جَعَلَهم بِمَنزِلَةِ أهلِ علمٍ يُطلَبُ مِنهُمُ البَيانُ والإفادَةُ نَظِيرَ قَولِه: ﴿قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ﴾ [الأنعام: 148] وقَوْلِه: ﴿نَبِّـُٔونِي بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ١٤٣﴾ [الأنعام: 143]، وقَرِينَةُ التَّهَكُّمِ: إضافَةُ الزِّينَةِ إلى اسمِ اللّهِ، وتَعريفُها بأنَّها أخرَجَها اللّهُ لِعِبادِه، ووَصفُ الرِّزقِ بالطَّيِّبات، وذَلِكَ يَقتَضِي عَدَمَ التَّحريمِ، فالاستِفهامُ يَؤُولُ أيضًا إلى إنكارِ تَحريمِها[1].

دَلالةُ الاسْتِفهامِ:

دَلَّ الاستفهامُ في قولِه تعالى: ﴿مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ﴾ على أنَّ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/96.

الأصلَ في الملبوساتِ والمطعوماتِ وأنواعِ التَّجَمُّلاتِ الإباحةُ، ويدخُلُ تحتَ الزِّينةِ "جميعُ أنواعِ التَّزيينِ، ويدخُلُ تحتَ الطَّيِّباتِ مِنَ الرِّزقِ كلُّ ما يُستلَذُّ ويُشتَهى من أنواعِ المأكولاتِ والمَشروباتِ، ويدخلُ أيضًا تحتَه التّمتُّعُ بالنِّساءِ وبالطِّيبِ"[1].

الإباحةُ هي الأصلُ في المَلبوساتِ والمَطعوماتِ وأنواعِ التَّجَمُّلاتِ

بَلاغةُ الاسْتِفهامِ في تقرير المَعاني:

الإنكارُ في قولِه تعالى: ﴿مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ﴾ مُوجَّهٌ للفاعلِ لا للفعْلِ بدليلِ السُّؤالِ بـ﴿مَنْ﴾، وهذا هو الوجهُ الأبلغُ في الإنكارِ؛ "فإنكارُ الفاعلِ يُوجِبُ إنكارَ الفعلِ؛ لِعَدمِه بدونِه"[2]، ووجهُ الأبلغيَّةِ أنَّ الاستفهامَ جاءَ بطريقِ الكنايةِ؛ حيث لم يُسَلَّط على الفعلِ مباشرةً، بل أُخرِجَ مَخرجَ الثَّابتِ غيرَ المنفيِّ، ثُمَّ وُجِّه الاستفهامُ إلى ما هو فاعلٌ له في المعنى بأداة الاستفهام (مَن)، بمعنى: أنَّ هذا الاستفهامَ ليس له فاعلٌ، ويترتَّبُ على ذلك نفيُ التّحريمِ بطريقِ الكنايةِ الّتي تأتي فيها الدَّعوى مصحوبةً بالدَّليل، ومِمَّا هو بَيِّنٌ أنَّ الكنايةَ أبلغُ في مَوضِعِها مِنَ التَّصريح[3]، فما جاء عليه النَّظمُ أبلغَ من صريحِ التَّحريمِ.

نفيُ التَّحريمِ بطريقِ الكنايةِ أبلغُ مِنَ التَّصريحِ

دَلالاتُ إضافةِ ﴿زِينَةَ﴾ إلى لفْظِ الجلالةِ:

دلَّت إضافةُ الزِّينةِ إلى اللّه تعالى على الآتي:

الأوّل: التَّشريفُ؛ فإنَّ إضافةَ الشَّيءِ إلى اللّه تعالى إضافةُ تشريفٍ.

الثَّاني: زيادةُ الإنكارِ على الّذين حرَّموا الزِّينةَ وتوبيخهم؛ لأنَّهم جعلوا أنفسَهم مُشَرِّعينَ في دينِ اللّهِ.

الثَّالث: التّجرُّؤُ على تحريمِ زينةِ اللّهِ، فهم لم يُحرِّموا الزِّينةَ فحسب، بل حرَّموا الزّينةَ الّتي أخرجَها اللّهُ للنَّاس.

الاجتراءُ على تحريمِ زينةِ اللهِ هو اجتراءٌ على الله تعالى

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 14/67.
(2) الخفاجيّ، عناية القاضي: 4/164.
(3) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام في القرآن الحكيم: 1/368.

الرَّابع: الإيذانُ باستحسان الزِّينةِ والامتنانِ على العبادِ بإخراجِها لهم.

الخامس: "الزِّينةُ غيرُ المُحَرَّمةِ هي الزِّينةُ الّتي شرعَها اللّهُ منَ التَّجمّلِ باللّباسِ، وحُسنِ السَّمتِ، وليسَت زينةَ الشّيطانِ كارتداء اللّباسِ اختيالًا وتكبُّرًا، وما دَأبَت عليه النِّساءُ المُتبرِّجاتُ، فهذه كلُّها زيناتٌ مُحَرَّمةٌ، وكذلك الإسراف في التّزَيُّنِ، وإن كان أصلُه الإباحةَ"[1].

نُكتةُ وَصْفِ الزِّينةِ بالاسْمِ الموصولِ:

الزِّينةُ المعهودةُ مِنَّةٌ مِنَ اللهِ تعالى

وُصِفتِ الزِّينةُ بالاسم الموصولِ؛ لمعرفتِها لدى المُخاطَبين، ولمعرفتِهم بأنَّها منَّةٌ منَ اللّه تعالى، فهي زينةٌ معهودةٌ، وفي ذلك إقامةٌ للحجَّةِ عليهم، وذمُّهم في تركِها وعدمِ أخذِها.

فائِدةُ اسْتِعمالِ الفعْلِ ﴿أَخْرَجَ﴾:

تفصيلُ الزِّينةِ ببيانِ أنَّها مُخرَجةٌ بفضْلِ اللهِ

أفادَ استعمالُ الفعلِ ﴿أَخْرَجَ﴾ في قولِه تعالى: ﴿ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ﴾: تفصيلَ الزِّينةِ، ومزيدَ إيضاحٍ لها، فإخراجُها "للنَّاس عبارةٌ عن خَلْقِ موادِّها لَهُم وتعليمِهم طرائقَ صُنْعِها، بما أودعَ في فِطَرِهم مِن حُبِّها، وفي عقولِهم منَ الاستعدادِ للإبداعِ فيها لِيَبلُوَهُم أيُّهم أحسنُ عملًا، وأكثرُ للمُنعِم شُكرًا، وأوسعُهم بِسُنَنِه وآياتِه عِلمًا"[2].

نُكتةُ الإيجازِ في الإسْنادِ:

إخراجُ الزِّينةِ قائمٌ على إخْراجِ أصُولِها

في استعمالِ الفعلِ ﴿أَخْرَجَ﴾ مجازٌ عقليٌّ؛ لأنَّ معنى إخراجِ الزِّينةِ إخراجُ موادِّها؛ كإخراجِ القُطنِ والكَتَّانِ مِنَ النَّباتِ، والصُّوفِ والحريرِ مِنَ الحيوان، والدُّروعِ منَ المعَادنِ[3]، ووَجهُ بلاغتِه: الإيجازُ في تأديةِ المعنى، وتصويرُه في صورةٍ محسوسةٍ مشاهَدَةٍ؛ فالإخراجُ يكونُ من خَبِيءٍ أو باطنٍ.

(1) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام في القرآن الحكيم: 1/368.
(2) رضا، تفسير المنار: 8/388.
(3) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 8/384.

معنى اللّامِ ودَلالتُها:

غايةُ إخراجِ الزِّينةِ السَّترُ والتَّجمّلُ، فتركُ أشرفِهما دليلُ خِسَّةِ التَّاركِ

أفادتِ اللَّامُ في قوله: ﴿لِعِبَادِهِۦ﴾ الاختصاصَ الدَّالَّ على الامتنان؛ فإنَّ الإخراجَ ارتبطَ بغايةٍ، وهي أن تكونَ الزِّينةُ للعبادِ، فلم يُخرجْها سبحانَه إخراجًا مُطلَقًا من غيرِ غايةٍ، بل لغاية أن ينتفعَ العبادُ بها سترًا وتجمُّلًا، وكانت غايةُ السَّترِ في الصَّلاةِ والعباداتِ، فتركوا هذه الغايةَ، ووقعوا في مقاصدِهم الخبيثةِ، وكلُّ كشفٍ للعورةِ مذمومٌ في أصلِه ومآلِه، وفي انبعاثِه وغايتِه، وطريقةُ الجاهليِّين مرهونٌ وجودُها بوجودِ عقائدِهم، وما يُشابِهُها من أفكارٍ.

دَلالةُ الاخْتِيارِ اللَّفظيِّ:

إغراءُ العِبادِ بالدُّخولِ تحتَ لِواءِ صِفةِ العُبوديَّةِ لله تعالى

آثرَ النَّظمُ استعمالَ لَفظِ (عِباد) دونَ مرادفاتِها في قولِه تعالى: ﴿ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ﴾؛ لإغراءِ المُخاطَبين بأن يكونوا عبادًا لله تعالى، فإنَّ مَنِ التزمَ منهجَ اللهِ تعالى استحقَّ تلك الصِّفةَ، ولبيانِ أنَّ مقتضى العبوديَّةِ التزامُ الجادَّةِ وفقَ المطلوبِ، وللتَّنبيه على أنَّ غايةَ خلقِ النَّاسِ هي عبادةُ خالقِهم.

فائِدةُ إضافةِ اللّفْظِ إلى الضّميرِ:

تَشريفُ العِبادِ وتكريمُ البلادِ بأن يكونُوا على مَنهجِ اللهِ

أفادَت إضافةُ لفظِ (عباد) إلى الضَّميرِ العائدِ على لفظِ الجلالةِ في قولِه: ﴿لِعِبَادِهِۦ﴾ التَّشريفَ، تشريفَ العبادِ لعبوديّتِهم للّه تعالى، فتلك العبوديَّةُ للخالقِ سبحانه شَرَفٌ ما بعدَه شَرَفٌ، بخلاف العبوديّةِ للمخلوقِ، ففيها ذُلٌّ ما بعده ذُلٌّ، وفيها إيماءٌ للعبادِ بأن يكونوا مُخلصِينَ على منهجِ اللهِ وشرعتِه.

نُكتةُ عَطْفِ الطَّيِّباتِ على الزِّينة:

مناسبةُ العَطْفِ لِمَقامِ الامْتِنانِ

يُلاحظُ أنَّه في الآية السَّابقةِ قد عُطِفَ الأمرُ بالأكلِ والشُّربِ على أخذِ الزِّينةِ، وهنا عُطِفتِ الطّيّباتُ على الزّينةِ، ففيه إشرابُ الزِّينةِ المباحةِ معنى الطَّيِّبات، وإكسابُ الطَّيِّباتِ معنى الزِّينةِ، وهذا في غايةِ ما يكون عليه لُطفُ الامتنانِ على العبادِ، وفيه توسيعٌ لدائرة

الحِلِّ للعِباد، فَهَذِهِ الآيَةُ تَقتَضِي حِلَّ كُلِّ المَنافِعِ، وما يَرْتفِقُون به من أمورِ معاشِهم.

معنَى التَّعريفِ في لفْظِ: ﴿وَٱلطَّيِّبَٰتِ﴾:

جنسُ الطَّيِّباتِ مَفهومٌ عامٌّ لا يُستثنَى منه إلَّا بدَليلٍ

التَّعريفُ في قولِه: ﴿وَٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ للجِنس؛ أي: أحَلَّ اللهُ لعباده جِنسَ الطَّيِّبات، فاللّفظُ على العموم، ويدخلُ تحتَ الطّيِّباتِ منَ الرِّزقِ كلُّ ما يُستَلَذُّ ويُشتَهى من أنواعِ المأكولاتِ والمشروباتِ، ويدخلُ تحتَه التَّمتعُ بالنِّسَاءِ والطّيبِ إلّا ما نُهِي عنه، ووَرَدَ النَّصُّ بتَحريمِه[1]، ففي الجملة إيجازُ قَصرٍ؛ حيث عُبِّر عن صنوفِ الطَّيِّباتِ على كثرتها بجملةٍ مُوجزةٍ.

نَوعُ ﴿مِنَ﴾ وأثرُه في المعنَى:

بيانُ الجنْسِ أوِ التَّبْعيضِ

إذا حملنا ﴿مِنَ﴾ على بيانِ الجنسِ فيكون معنى قوله تعالى: ﴿مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ﴾ بيانَ جنسِ الطَّيِّباتِ، وأنَّها الرّزقُ، وإذا حملناها على معنى التَّبعيضِ فيكون المعنى أنَّ الطَّيِّباتِ هي بعضُ الرِّزقِ، وأنَّ اللهَ رزقَ العبادَ الطَّيّباتِ لينتفعوا بها، ورزقَهم الخبائثَ لِيَبتليَهم بها؛ فالرّزقُ نوعان: طيّبٌ وخبيثٌ، ولكلٍّ حكمُه الخاصُّ به.

نُكتةُ تَكرارِ فعْلِ الأمْرِ ﴿قُلۡ﴾:

إبرازُ بَلاغةِ التَّقابُلِ بين المعاني المُختلِفةِ

أُعيدَ فعلُ ﴿قُلۡ﴾ في قولِه تعالى: ﴿قُلۡ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، فلم يقُل: (هي للّذين آمنوا) بإسقاط فعلِ الأمرِ، ونُكتةُ ذلك: بيانُ أنَّ السُّؤالَ سُؤالُ عالِمٍ لا سُؤالُ طالبِ علمٍ، أُمِرَ السّائِلُ بأن يُجيبَ بنَفسِه سُؤالَ نَفسِه، فَعُقِّبَ ما هو في صُورَةِ السُّؤالِ بقَولِه: ﴿قُلۡ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ على طَريقَةِ قَولِه: ﴿قُل لِّمَن مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ قُل لِّلَّهِۚ﴾ [الأنعام: 12][2].

وأمرٌ آخر وهو: أنَّ النَّبيَّ ﷺ أُمِرَ أن يسألَهم عنِ المحرِّمِ، وأن

(1) ابن عادل، اللّباب: 9/90.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/96.

يُخبرَهم لِمَنِ الطَّيِّبات، فاجتمع أمران: إنكارُ التَّحريم، وتوبيخُ المحرِّم، والإخبارُ بالتَّحليل، وتشريفُ المحلَّلِ له، وهذا آكدُ وأوضحُ مع ذكرِ فعل الأمرِ ﴿قُلْ﴾.

بَلاغةُ الاستِئنافِ البيانيِّ:

إظهارُ ما يَجولُ في أذهانِ المُخاطَبين في البحثِ عنِ المقصودِ بالإكرامِ

جاء قولُه تعالى: ﴿قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ استئنافًا بيانيًّا جوابًا لسؤالٍ تقديرُه: لِمَنِ الطَّيِّبات؟ فقال: ﴿قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، وتظهرُ بلاغةُ الاستئنافِ في إبرازِ ما يجولُ في أذهانِ المُخاطَبين منَ السُّؤالِ عنِ المقصودِ بالإكرامِ، وليست جوابًا لقولِه تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ﴾ كما توهَّمه بعضُ المُفسِّرين[1].

تعيينُ مَرجِعِ الضّميرِ:

حِلُّ الزِّينةِ والطَّيِّباتِ للمؤمنين، فالّذين حَرَّموها عَلى أنفُسِهِم حَرَمُوا أنفُسَهم

يعودُ الضَّميرُ المنفصلُ في قولِه تعالى: ﴿قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ على الزِّينةِ مِنَ الثِّيابِ والطَّيِّباتِ منَ الرِّزقِ، "بِقَطعِ النَّظَرِ عَن وصفِ تَحريمِ مَن حَرَّمَها، أي: الزِّينَةُ والطَّيِّباتُ مِن حَيثُ هي، هي حَلالٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا، فَمَن حَرَّمَها عَلى أنفُسِهِم فَقَد حَرَمُوا أنفُسَهم"[2].

نُكتَةُ حذفِ المُسندِ:

مفاهيمُ القرآنِ مُسلَّماتٌ لدى المُخاطَبين تُدرَكُ بأدْنَى إشارةٍ

حُذِف المسندُ في قولِه تعالى: ﴿قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ على جعلِ الضَّميرِ مبتدأً، وتقديرُ الخبرِ المحذوفِ: حلالٌ؛ أي: الزِّينةُ والطَّيِّباتُ حلالٌ للّذين آمنوا في الحياةِ الدُّنيا، وهذا الحذفُ ظاهرٌ على قراءةِ نافعٍ بالرّفع كما سيأتي لاحقًا، ويُؤيِّده معنى الاختصاص في قولِه: ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، وتظهرُ بلاغةُ الحذفِ في جعل المحذوفِ منَ المسلَّماتِ البدهيَّةِ لدى المُخاطَبين، فالزِّينةُ والطَّيِّباتُ حلالٌ ليست بحرامٍ، وبه يكون الّذين آمنوا هُمُ العبادُ الّذين أخرجَ اللّهُ لهم الزّينةَ والطَّيِّباتِ منَ الرِّزقِ.

(1) السّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 5/301.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/96.

معنَى اللَّامِ ودَلالتُها:

المسلمُ فائزٌ بالدَّارَيْنِ وحائزٌ على الكرامتَيْن

اللَّامُ في قوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ لَامُ الاختِصاص، وهو يدُلُّ على الإباحَةِ، فالمَعنَى: ما هِيَ بِحَرام، ولكنَّها مُباحَةٌ للَّذينَ آمَنُوا، وإنَّمَا حَرَمَ المُشرِكُونَ أَنفُسَهُم مِن أَصنافٍ مِنَ المباحاتِ في الحَياةِ الدُّنيَا كُلِّها، مِثلَ ما ابتدعوه في بهيمة الأنعامِ مِن تَرْكِ الانتفاعِ بها وجعلِها للأصنام: كالبحِيرَةِ - الّتي تُقطعُ أذنُها إذا ولدَت عددًا منَ البطون - والسَّائِبَةِ - الّتي تُتركُ للأصنام - والوَصِيلَةِ - الّتي تتّصلُ ولادتُها بأنثى بعدَ أنثى - والحَامِي - هو الذّكرُ منَ الإبل إذا وُلِدَ من صُلْبِهِ عددٌ منَ الإبل - وما في بُطونِهَا، وَحَرَمَ بَعضُ المُشرِكِينَ أَنفُسَهُم مِن أَشيَاءَ في أَوقَاتٍ مِنَ الحَيَاةِ الدُّنيَا مِمَّا حَرَّمُوهُ على أَنفُسِهِم مِنَ اللِّبَاسِ في الطَّوَافِ وفي مِنًى، ومِن أَكلِ اللُّحُومِ والوَدَكِ والسَّمنِ واللَّبَنِ، فَكانَ الفَوزُ لِلمُؤمِنِينَ إِذِ اتَّبَعُوا أَمرَ اللهِ بِتَحلِيلِ ذَلِكَ كُلِّهِ في جَميعِ أَوقاتِ الحَياةِ الدُّنيا[1].

سِرُّ إيثارِ الاسْمِ الموصولِ على الاسْمِ الظّاهِرِ:

التَّعريضُ بالمُشركين الّذين حرَّموا الزِّينةَ والطَّيِّباتِ

آثرَ النَّظمُ استعمالَ الاسم الموصولِ على الاسم الظّاهرِ في قوله: ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾، فلم يقُل: (للمؤمنين)؛ وذلك للإشارة إلى عِلَّة بِناءِ الحُكمِ في الجملة؛ أي: تلك الزّينة، والطَّيّبات مِنَ الرِّزق إنَّما هي لَهُم بسبب إيمانِهم، ففيه تعريضٌ بالمشركين الّذين لم يُؤمنوا.

سِرُّ ذِكْرِ الموصوفِ وعَدَمِ الاكْتِفاءِ بالصِّفةِ:

الزِّينةُ والطَّيِّباتُ تُدْخِلانِ الحياةَ الكريمةَ على المؤمنِ

آثرَ النَّظمُ ذكرَ الموصوفِ وهو ﴿ٱلۡحَيَوٰةِ﴾، فلَم يُكْتفَ بالصّفة ﴿ٱلدُّنۡيَا﴾ في قولِه تعالى: ﴿ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾؛ وذلك أنَّ الغايةَ الّتي لأجلِها أحلَّ اللهُ الزِّينةَ والطَّيِّباتِ هي الحياةُ الكريمةُ، فأشارَ بذكرِ الموصوفِ وهو ﴿ٱلۡحَيَوٰةِ﴾ أنَّ على المؤمن أن يحيا حياةً طيِّبةً مُزيَّنةً

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/96.

بالمباحاتِ، وفي ذلك ردٌّ على اتجاه الزُّهدِ المُطلَقِ؛ فإنَّه يُخالفُ مقاصدَ القرآنِ في الإنكارِ على تحريمِ المباحاتِ الّتي من شأنِها إدخالُ السُّرورِ على النَّفسِ المؤمنةِ.

سِرُّ حذْفِ المعطوفِ:

الكفّارُ تابِعُونَ للمُؤمنين في التَّمَتُّعِ بالزِّينةِ والطَّيِّباتِ

في قوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ اكتفى بإيراد (الّذين آمنوا) دونَ عطفِ غيرِهم عليهم، وإن شاركَهم غيرُهم في الزِّينةِ والطَّيِّباتِ في الدّنيا؛ تَنبيهًا على أنَّ هذه الزِّينةَ والطَّيِّباتِ خُلِقَتْ للعبادِ أصالةً ﴿فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾، وغيرُهم لهم مقامُ التَّبعِ، فقد شملَتْهم الرَّحمةُ الإلهيَّةُ[1].

نُكتةُ التَّقديمِ والتَّأخيرِ:

المُسارعةُ بالبُشرَى مُقدَّمٌ على التَّشويقِ

قُدِّمَ قولُه: ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ على قولِه: ﴿فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾، فلم يقُل: (هي في الحياةِ الدُّنيا للّذين آمنوا)؛ فترَكَ التّشويقَ لِلمُسارعةِ إلى تبشيرِهم، وإدخالِ السُّرورِ عليهم؛ لإيمانِهم بالمُنعِمِ عليهم سبحانَه، وإقرارِهم بنِعمِه عليهم؛ فقُدِّموا لَفظًا، كما قُدِّمُوا مكانةً وقربًا.

تَوجِيهُ القراءاتِ القرآنيّةِ:

الطَّيِّباتُ خالصةٌ للمُؤمنينَ يومَ القيامةِ مِن دُونِ الكُفّارِ

وردَت قراءتان في قولِه: ﴿خَالِصَةً﴾؛ الأولى: بالرَّفع، وهي قراءةُ نافع، على أنَّها خبرٌ بعدَ خبرٍ، ﴿هِيَ لِلَّذِينَ﴾؛ والمعنى: قُل هي حلالٌ أو ثابتةٌ للمؤمنين في الحياة الدُّنيا، خالصةٌ لهم يومَ القيامة. والثَّانية: بالفَتحِ على الحاليَّة، وهي قراءةُ الجمهور؛ والمعنى: ثابِتَةً لِلمُؤمِنِينَ، مُستَقِرَّةً في الحَياةِ الدُّنيا، خالِصَةً لهم يَومَ القِيامَةِ[2].

بَراعةُ تقديرِ المحذوفِ:

المحذوفُ المقدَّرُ لا يأخذُ جميعَ معانِي المذكورِ

في قوله تعالى: ﴿قُلۡ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا خَالِصَةً﴾ محذوفٌ يُقدَّرُ بالمقابلِ اللَّفظيِّ ﴿خَالِصَةً﴾، والمعنى: قل هي للّذين

(1) الزَّمخشريّ، الكَشّاف: 2/439، والبِقاعيّ، نَظم الدُّرر: 6/388.
(2) الزّجّاج، معاني القرآن: 2/321، وابن الجزريّ، النّشر في القراءات العشر: 2/269.

آمنوا في الحياة الدّنيا مُشْتَرَكَةً مع غيرِهم، وهي لهم في الآخرة خالِصَةً[1]، لا يشْركهم غيرُهم، ومعنى الاشتراك يظهرُ إيماءً وإشارةً؛ لأنَّ الاشتراكَ ليس على جميع معانيه، وإنَّما على معنًى واحدٍ وهو الانتفاعُ والتَّمتّعُ، أمَّا الحِلُّ والطِّيّبُ فهذا للمؤمنين فحسب، وهو ما يُؤكِّدُه معنى الاختصاصِ في حرفِ اللَّامِ.

بَلاغةُ التّشْبيهِ المُرسَلِ المُجمَلِ:

الإيماءُ إلى الإعجازِ الغَيبيِّ في مُعالجةِ المُستجدَّاتِ الفقهيَّةِ

في قولِه: ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ﴾ تشبيهٌ مُرسَلٌ مُجمَلٌ، ومعناه: مِثلُ هَذا التَّفصيلِ نُفَصِّلُ الآياتِ المُشتَمِلةَ على التَّحليلِ والتَّحريمِ[2]، وغرضُ التّشبيه بيانُ حالِ المشبَّه، والمُرادُ بالآياتِ الدَّلائِلُ الدّالَّةُ على الألوهيَّة، وعلى عظيمِ قدرةِ اللّه تعالى، والدّالَّةُ على نُبُوّةِ محمَّدٍ ﷺ، وتظهرُ بلاغةُ التَّشبيهِ في بيانِ استمرارِ التَّفصيلِ في جميعِ الأحكامِ المُستجدَّةِ، ففيه إخبارٌ عن أمرٍ غيبيٍّ؛ وهو إحاطةُ القرآنِ وشمولُ أحكامِهِ في بيانِ التَّفصيلِ المُستجدِّ في كلِّ عصرٍ.

سِرُّ التَّعْبيرِ بالفعْلِ المضارعِ:

كلَّما استجدَّ أمرٌ جاءَ تفصيلُه من صاحبِ الأمرِ

التَّعبيرُ بصيغةِ المضارعِ في قولِه: ﴿نُفَصِّلُ﴾ دون التَّعبير بالماضي (فَصَّلنا)؛ لترشيحِ معنى الاستمرارِ الّذي أشارَ إليه التَّشبيه، فكلَّما استجدَّ أمرٌ كان له تفصيلٌ واضحٌ في الكتابِ العزيزِ؛ لأَنَّ اللّه تعالى نزَّلَ القرآنَ توضيحًا لكلّ أمرٍ يَحتاج إلى بيانٍ، كأحكام الحلالِ والحرامِ، والثّوابِ والعقابِ، وغير ذلك.

فائِدةُ اللَّامِ ودلالتُها:

التّعريضُ بمَن لا يطلُبُ بيانَ آياتِ الله تعالى

اللّامُ في قَولِه تعالى: ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ لامُ العِلَّة؛ أي: لأجلِ قومٍ يعلمون، وهي مُتَعَلِّقةٌ بِفعلِ ﴿نُفَصِّلُ﴾؛ أي: تَفصيلُ الآياتِ لا يَفهَمُهُ إلّا قَومٌ يَعلَمُونَ، ففيه تعريضٌ بمَن لا يكترثُ بتفصيلِ اللّهِ لآياتِه.

(1) الفَرَّاء، معاني القرآن: 2/156.

(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 2/224.

إيثارُ التَّعْبيرِ بلَفْظِ (قَوْمٍ):

أُوثرَ التَّعبيرُ بلَفظِ (قَوْم)؛ للإشارة إلى أنَّ هذِهِ الآياتِ الإلهيَّةَ لا يَنتَفِعُ بها إلّا مَن كانَ العِلمُ مِن مُقَوِّماتِ قَوميَّتِهِ، فإنَّ تفصيلَ الآياتِ لِيَقومَ بها المؤمنون والعلماءُ في حياتِهم، ففيه إشارةٌ إلى أنَّ العلماءَ قائمونَ بآياتِ اللّهِ تعالى، وهي تصرِّحُ بأنَّ مَن يعلمُ آياتِ اللّهِ هو منَ القومِ الّذين يعلمون، فدلَّ اجتماعُ العلماءِ وقيامُهم بالآياتِ على أنَّهم وحدةٌ واحدةٌ.

أَهلُ العِلْمِ همُ القائمون بآياتِ اللهِ

غَرَضُ تنكيرِ (قَوْم):

تنكيرُ (قَوْم) في قَولِه: ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ للتَّعظيمِ والثَّناءِ على المؤمنين؛ لاتِّصافهم بالعلمِ النَّافعِ الهادي إلى الصِّراطِ المستقيمِ، والمُستَمَدِّ مِن آياتِ اللّهِ، وهَدي رسولِه ﷺ.

تعظيمُ المؤمنين والثَّناءُ عليهم

سِرُّ التَّعْبيرِ بالعلْمِ دونَ الفهْمِ:

في التَّعبير بالعِلمِ تعريضٌ بانحطاطِ الجهلِ وأَهلِه، وفيه أيضًا تحريكٌ لمشاعرهم وتهييجٌ وإلهابٌ لعقولِهم وضمائرِهم؛ لِيُفيقوا مِن غفلتِهم، ويستيقظوا مِن سُباتِهم، ويُصحِّحوا ما هُم فيه مِن أخطاءَ؛ عَلَّهم يثوبون إلى رُشدِهم[1].

العلمُ ركيزةُ بناءِ الأُممِ والحضاراتِ، والجَهلُ داؤُها

دَلالةُ التَّعْبيرِ بالفعْلِ المضارعِ:

التَّعبيرُ بالمضارع: ﴿يَعْلَمُونَ﴾ تَنويهٌ بِفَضل استمرارِ طَلبِ العِلمِ، وفيه أيضًا إشارةٌ إلى شِدَّةِ حِرصِ هؤلاء المؤمنين الموصوفين بالعِلم على تَجَدُّدِ معرفتِهم بِرَبِّهم، وتجَدُّدِ عِلمِهم بوحدانيَّةِ اللّهِ تعالى، وما شرعَهُ لهم من أحكامٍ، والعمل بمقتضى ذلك.

دعوةُ المؤمنين للاستمرارِ في طَلَبِ العِلْمِ

تَوجِيهُ المُتَشابِهِ اللّفظيِّ:

قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ

(1) المَطعنيّ، التَّفسير البلاغيّ للاستفهام في القرآن الحكيم: 1/369.

مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ قُلۡ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا خَالِصَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾ [الأعراف: 32].

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَآءٍ أَنزَلۡنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخۡتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلۡأَرۡضِ مِمَّا يَأۡكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلۡأَنۡعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلۡأَرۡضُ زُخۡرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتۡ وَظَنَّ أَهۡلُهَآ أَنَّهُمۡ قَٰدِرُونَ عَلَيۡهَآ أَتَىٰهَآ أَمۡرُنَا لَيۡلًا أَوۡ نَهَارٗا فَجَعَلۡنَٰهَا حَصِيدٗا كَأَن لَّمۡ تَغۡنَ بِٱلۡأَمۡسِۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [يونس: 24].

وقال تعالى: ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلٗا مِّنۡ أَنفُسِكُمۡۖ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِي مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ فَأَنتُمۡ فِيهِ سَوَآءٞ تَخَافُونَهُمۡ كَخِيفَتِكُمۡ أَنفُسَكُمۡۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾ [الرُّوم: 28].

فهذه ثلاثُ آياتٍ كريمةٍ يُسأَلُ فيها عن سِرِّ خِتام الأولى بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ٣٢﴾ [الأعراف: 32]، والثَّانية بقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ٢٤﴾ [يونس: 24]، والثّالثة بقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ٢٨﴾ [الرّوم: 28].

الخَتْمُ بالعلْمِ يُناسِبُ ذكرَ المُحرَّماتِ والمُباحاتِ

ويُجاب عن هذا بأنَّ تَخصيصَ تَفصيلِ الآياتِ بأنّها ﴿لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾ في سورة الأعراف جاء مناسبًا لسياقِها؛ لأنّها وردَت في سياقِ الرَّدِّ على مزاعمِ الكُفَّار وجهالاتِهم في تحريمِ زينةِ اللّهِ تعالى، والطَّيّباتِ منَ الرِّزقِ؛ حيث كانوا يطوفون بالبيتِ الحرامِ عَرايا، ويُحرِّمون أَكلَ الدَّسَمِ وغيره في أثناء حجِّهم، فجاءَتِ الآيةُ الكريمةُ للإنكارِ عليهم وتوبيخِهم، وبيانِ أنَّ اللّه سبحانَه هو الّذي أَحَلَّ لعباده الطَّيِّباتِ، وهذا الحُكمُ الّذي لا ينتفعُ به إلَّا مَن أُوتي عِلمًا؛ أي: مَن كانت لَهُم مَلَكَةٌ وقابِلِيَّةٌ لِلعِلمِ؛ لِيَتَوَصَّلُوا به إلى الاعتِقادِ الحَقِّ الصَّوابِ، والعَمَلِ الصّالِحِ؛ لذا كان منَ الملائمِ ختامُ الآيةِ بقولِه: ﴿لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾.

أمَّا آيةُ يونسَ فوردَت في مقام الحديثِ عن زوالِ التَّمتّعِ بالدّنيا

من خلال صورةٍ تشبيهيّةٍ مُركَّبةٍ؛ حيث شُبِّهَت هَيئَةُ التَّمَتُّعِ بالدُّنيا لأصحابِها بِهَيئَةِ الزَّرعِ في نَضارَتِه، ثُمَّ في مَصيرِه إلى الحَصدِ، وتَخصيصُ تَفصيلِها بـ(قوم يتفكّرون)؛ لأنَّهُمُ المُنتَفِعُونَ به؛ ولأنَّ ما ذُكِر في هذا المَثَل يحتاجُ إلى رَوِيَّةٍ وتَدَبُّرٍ وتَفَكُّرٍ؛ لذا كان الملائمُ ختامَ الآيةِ بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [يونس: 24]، "فَإنَّها آياتٌ وعَلاماتٌ يَستَدِلُّ بها مَن يَتَفَكَّرُ فيها على أحوالِ الحَياةِ الدُّنيا حالًا ومآلًا"[1].

الخَتْمُ بالتَّفكُّرِ يُناسبُ تدبُّرَ مَثلِ الدُّنيا وما تَؤُولُ إليه

"وفيه تَعريضٌ بأنَّ الَّذينَ لَم يَنتَفِعُوا بالآياتِ لَيسُوا مِن أهلِ التَّفَكُّرِ، ولا كانَ تَفصيلُ الآياتِ لأجلِهِم"[2].

وأمَّا آيةُ الرّوم فقد اشتملَت على مَثَلٍ ضَرَبَه اللّٰهُ ﷻ لِمَن جَعَلَ لَهُ شَريكًا مِن خَلقِه، مَثَلًا مُنتَزَعًا مِن أَنفُسِ المُخاطَبين الَّتي هي أقرَبُ الأُمُورِ إلَيهم، إذ ضربَ اللّٰهُ للمشركين مثلًا من عبيدِهم وإمائِهم ممَّن يشاركُهم في رزقِهم، ويرون أنّهم وإيَّاهم متساوون فيه، فأنتم تخافونَهم كما تخافونَ الأحرارَ الشّركاءَ في مقاسمةِ أموالِكم؟ إنّكم لن ترضَوا بذلك، فكيف ترضَون بذلك في جنبِ اللّٰهِ بأن تجعلوا له شريكًا مِن خَلْقِهِ؟؛ لِذَلِكَ عَقَّبَ بِجُملَةِ ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الرّوم: 28]؛ لأنَّهم هُمُ الّذين يَستَعمِلُون عُقُولَهم في تَدَبُّرِ الأمثالِ، وهم أصحابُ العقولِ السّليمةِ الّذين ينتفعونَ بها، والقَومُ الَّذينَ يَعقِلُونَ هُمُ المُطيعونَ، الّذين يَنْأَون بأنفسِهم عنِ اللَّجاجِ والعنادِ والمكابرةِ، الباحثونَ عنِ الحَقِّ، تقودُهم عقولُهم.

الخَتْمُ بالعقلِ يُناسبُ غَرَضَ المَثلِ في إقرارِ التَّوحيدِ

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

العِلْمُ والفِقْهُ:

العِلمُ: يَدُلُّ أصلُ مادَّةِ العلمِ على أَثَرٍ بالشَّيءِ يَتَمَيَّزُ بِهِ عَن

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 6/325.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 9/178.

غَيرِهِ[1]، والعِلمُ نقيضُ الجَهلِ، وهو إدراكُ الشّيءِ بحقيقته، سواءٌ كان ذلك الشّيءُ خفيًّا، أو جليًّا، والحُكْمُ عَلَيه[2]، نحو قوله تعالى: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مُتَقَلَّبَكُمۡ وَمَثۡوَىٰكُمۡ﴾ [مُحَمَّد: 19]، وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٖ فَٱمۡتَحِنُوهُنَّۖ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّۖ﴾ [الممتحنة: 10].

العلمُ هو تحصيلُ المعلومِ جُملةً، والفقهُ نظرٌ زائدٌ عليه بفِطنةٍ وحُسْنِ فهمٍ

أَمّا الفِقهُ فالمعنى المِحوريُّ للمادَّة هو وُصولٌ إلى حقيقةِ باطنِ الشّيءِ[3]، والفِقهُ هو العِلمُ بالشَّيءِ والفهمُ لَهُ، وغلبَ على علم الشَّريعةِ؛ لسِيادَتِه وشَرَفِه وفَضلِه على سائرِ أنواعِ العِلمِ[4]، فالفقه: فِطنةٌ وتدقيقُ نَظَرٍ، ومن شواهدِه قولُه تعالى: ﴿قُلۡ هُوَ ٱلۡقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبۡعَثَ عَلَيۡكُمۡ عَذَابٗا مِّن فَوۡقِكُمۡ أَوۡ مِن تَحۡتِ أَرۡجُلِكُمۡ أَوۡ يَلۡبِسَكُمۡ شِيَعٗا وَيُذِيقَ بَعۡضَكُم بَأۡسَ بَعۡضٍۗ ٱنظُرۡ كَيۡفَ نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَفۡقَهُونَ﴾ [الأنعام: 65]، وقولُه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ عَلَى ٱلۡقِتَالِۚ إِن يَكُن مِّنكُمۡ عِشۡرُونَ صَٰبِرُونَ يَغۡلِبُواْ مِاْئَتَيۡنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٞ يَغۡلِبُوٓاْ أَلۡفٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَفۡقَهُونَ﴾ [الأنفال: 65].

فالعلمُ هو تحصيلُ المعلوم، والفقهُ نظرٌ زائدٌ عليه، وسياقُ الآيةِ يناسبُه خَتْمُها بالعلم؛ لكون التّحريم والتّحليل يحتاجان إلى علم في فهم معاني القرآنِ الكريم وأحكامِه، وأنّ هذا التّفسيرَ والتّبيانَ لا يصلُ إليه أحدٌ إلّا مَن تحلّى بالإخلاصِ والفطنةِ والبصيرةِ.

التّفكّرُ والتّدبُّرُ:

التَّفَكُّرُ: يدلُّ أصلُ مادّةِ التَّفكُّرِ على تَرَدُّدِ القَلبِ في الشَّيءِ[5]،

التَّفكُّرُ تَصَرُّفُ القَلبِ بالنَّظَرِ، أمّا التَّدبُّرُ فهو النَّظَرُ العَقليُّ إلى عواقبِ الأمورِ مع إدامةِ النَّظرِ

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (علم).
(2) الرّاغب، المفردات: (علم).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (فقه).
(4) ابن منظور، لسان العرب: (فقه).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (فكر).

أمَّا التَّدَبُّرُ فيدلُّ المعنى المِحوريُّ للمادَّة على امتدادٍ غائرٍ إلى آخرِ الشّيءِ أو خَلفِه[1].

والتَّفَكُّرُ هو: تَصَرُّفُ القَلبِ بالنَّظَر في الدّليل، أمَّا التَّدبُّرُ فإنّه يعني النَّظَرَ العَقليَّ إلى عواقبِ الأمور[2]، أو أن ينظرَ الإنسانُ في الشّيء على وجه العِبرةِ والعِظَةِ؛ لتقويةِ جوانبِ الخيرِ والصَّلاحِ، ومقاومةِ دواعي الشَّرِّ والفسادِ[3].

ولا يشترطُ في التَّفَكُّرِ إدامةُ النّظرِ، أمَّا التَّأمُّلُ فقد رُوعِي فيه إدامةُ النّظرِ والتّثبّتُ، وكُلٌّ مِنَ التَّدَبُّرِ والتَّفَكُّرِ مِن عَمَل القلبِ وَحدَه.

التَّفصيلُ والتَّبْيينُ:

الفَصلُ: إبانةُ أحدِ الشّيئين منَ الآخر حتَّى يكون بينهما فُرْجَةٌ، وفي الفَصل قَطعٌ وتمييزٌ. والتّفصيلُ: التَّبيينُ والتّوضيحُ بصورةٍ واسعةٍ لأُمورٍ متعدّدةٍ مختلفة، نحو قوله تعالى: ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰۖ يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَيِّۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًاۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُواْ بِهَا فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [الأنعام: 95 - 97].

التّفصيلُ فيه زيادةُ تفريقٍ وتجزيءٍ، أمَّا التّبيينُ ففيه زيادةُ بيانٍ وإيضاحٍ

التَّبيين: يَدُلُّ أَصلُ المادَّةِ على بُعدِ الشَّيءِ وانكشافِه، ومن شواهدِه قولُه تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْۚ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّۗ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْۖ فَٱلْـَٰٔنَ بَٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُواْ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْۚ وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِۖ ثُمَّ أَتِمُّواْ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِۚ وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَٰكِفُونَ فِي ٱلْمَسَٰجِدِۗ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٨٧﴾﴾ [البقرة: 187].

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (دبر).
(2) الجرجانّي، التّعريفات، ص: 249.
(3) الشَّرباصّي، موسوعة أخلاق القرآن: 2/226.

﴿قُلۡ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلۡإِثۡمَ وَٱلۡبَغۡيَ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَأَن تُشۡرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ٣٣﴾ [الأعراف: 33]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

تَفصيلُ المَفاسِدِ بالتّدرُّجِ مِنَ الأخفِّ إلى أخطرِها ضَررًا

لَمّا بَيَّنَ اللّهُ تعالى في الآيَةِ السّابقةِ، أنَّ الَّذي حَرَّمه المشركون لَيسَ بِحَرام، بَيَّنَ في هذِهِ الآيةِ أنواعَ المُحرَّماتِ[1]، كما أنَّه سبحانَه بَعد أن أَنكَرَ في الآية السَّابقةِ على المشركين تحريمَ زينةِ اللّهِ الّتي أخرَجَ لعبادِه والطَّيِّباتِ منَ الرِّزقِ، أَردَفَ بِبَيان أصولِ المُحرَّماتِ العامَّةِ الّتي حرَّمها لضررٍ ثابتٍ لازمٍ لها لا لِعَلَّةٍ عارضةٍ؛ لِيَعلمَ النَّاسُ أنَّ خالقَهم سبحانَه لم يُحَرِّم عليهم إلَّا ما هو ضارٌّ بهم دون ما هو نافعٌ لهم[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلۡفَوَٰحِشَ﴾: جذرها (فحش)، وهي كَلِمَةٌ تَدُلُّ عَلَى قُبْحٍ في شَيءٍ وَشَنَاعَةٍ، والفَاحِشَةُ هي: كُلُّ شَيءٍ جاوَز قَدرَهُ، ولا يَكونُ ذَلِك إلَّا فِيما تُنكِره الفِطرةُ، والطِّباعُ السَّوِيَّةُ، والدِّينُ. والفُحشُ والفَحشَاءُ والفَاحِشَةُ: ما عَظُمَ قُبحُهُ مِنَ الأفعالِ والأقوالِ. وهو المعنى المرادُ في الآية[3].

2) ﴿ظَهَرَ﴾: يُقال: ظَهَر الأمرُ ظُهورًا بمعنى: تَبَيَّن، وبدا بعدَ الخَفاء. وَالأَصلُ فِيهِ كُلِّهِ ظَهرُ الإِنسَانِ، وهو خِلَافُ بَطنِه، وهُوَ يَجمَعُ البُرُوزَ والقُوَّةَ. والظُّهور: البُروز، والانكشاف، وضِدُّ الظّهور الاستتارُ؛

(1) البِقاعيّ، نظم الدُّرَر: 7/389.
(2) رضا، تفسير المنار: 8/397.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (فحش).

وَلِذَلِكَ سُمِّيَ وَقتُ الظُّهرِ والظَّهِيرَةِ، وهُوَ أَظهَرُ أَوقَاتِ النَّهَارِ وأَضوَؤُهَا ومعنى: ﴿مَا ظَهَرَ﴾: ما كان علانيةً أو من أفعال الجَوارِحِ[1].

3) ﴿بَطَنَ﴾: بَطَن الشَّيء بُطونًا: خَفِيَ. ويُقال لكلِّ غامضٍ بَطْنٌ، ولكلّ ظاهرٍ ظَهْرٌ، ومنه: بُطنَانُ القِدرِ وظَهرَانُها، ويُقال لِمَا تدركُهُ الحاسّةُ ظاهرٌ، ولِمَا يَخفَى عنها باطنٌ[2]. والمرادُ من قوله: ﴿وَمَا بَطَنَ﴾: ما كان خفيًّا في السِّرِّ، أو اعتِقادُ القُلُوبِ وأعمالُها[3].

❁ المَعْنى الإِجْماليُّ:

بـيـانُ أصُـولِ المُحرَّماتِ العامَّةِ في الشّرائعِ كلِّها

أمرَ اللّهُ تعالى رسولَه ﷺ أن يُبَلِّغَ النَّاسَ، بأنَّه تعالى لَم يُحَرِّمْ عليهم الطَّيِّباتِ، وإنَّما حَرَّم عليهم القبائحَ منَ الأعمالِ مِمَّا أَسرُّوا وأعلنوا، وسائرَ الإثمِ كبيره وصغيره، ومجاوزةَ الحَدِّ في كُلِّ الأمورِ، كما حَرَّمَ عليهم الشِّركَ باللّه وهو أكبرُ الكبائرِ، وأن يختلقوا على اللّه كَذِبًا وزورًا، وينسبوا إليه ما لم يَأذنْ به، كالكَذِبِ في التَّحليلِ والتَّحريمِ.

وترشدُ الآيةُ إلى أنَّ اللّهَ تعالى حرَّم الفواحشَ سِرَّها وعَلانيَتَها؛ غَيْرَةً على عِبادِه، وحِفظًا لِمَصالِحِهم، ومِن ثَمَّ: فظُهورُ الفواحشِ مُؤذِنٌ بخَطَرٍ عَظيمٍ، ومُؤذِنٌ بتَعجيلِ العُقوبةِ.

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

دَلالةُ ذِكْرِ لفْظِ (قلْ):

تعليمُ النّاسِ ما هو حَلالٌ وحَرامٌ من عندِ اللهِ هو من أعظمِ مَهامِّ الرّسالةِ النّبويّةِ

آثرَ النّظمُ البداءةَ بفعْلِ الأمْرِ خطابًا للرّسولِ ﷺ ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، بغَرَضِ تبليغِ المُشركين، دونَ الإخبارِ بسَرْدِ أصولِ هذه المُحرَّماتِ منَ اللّه تعالى مباشرةً؛ لأنَّ الآيةَ تأتي في سياقِ تحريرِ العقولِ والضّمائرِ منَ

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (ظهر)، وابن الجوزيّ، زاد المسير: 2/115.
(2) الرّاغب، المفردات: (بطن).
(3) البَغَويّ، معالم التّنزيل: 2/131، وابن الجوزيّ، زاد المسير: 2/115.

الأوهامِ والخرافاتِ، الّتي أشاعَها أهلُ الجاهليّةِ ممَّا اشتهَوْا حلَّه أو حُرمتَه، وأنَّ تعليمَ النّاسِ ما هو حلالٌ وحرامٌ من عند اللّهِ هو من أعظمِ مهامِّ الرّسالةِ النّبويّةِ، فأمرَ اللّهُ تعالى رسولَه الكريمَ ﷺ أنْ يقولَ للنّاس بأنَّ التشريعَ مِن علمِ اللّهِ وحِكمتِهِ، وأنّهم لا يجوزُ لهم أن يحرِّموا على أنفسِهم ما أحلَّه اللّهُ لهم، أو أن يُحلُّوا لأنفسِهم ما حرَّمَهُ اللّهُ عليهم، ولذا نعى ربُّنا الحكيمُ على المشركين ما تقوَّلوه على اللّه منَ الكذبِ الّذي تصفُه ألسنتُهم: هذا حلالٌ لِما حَرَّمه اللّه، وهذا حرامٌ لِما أحَلَّه اللّهُ؛ ليختلقوا على اللّه الكذبَ بنسبة التّحليلِ والتّحريمِ إليه، فالّذين يختلقون على اللّه الكذبَ لا يفوزون بخيرٍ لا في الدّنيا ولا في الآخرة: ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلۡسِنَتُكُمُ ٱلۡكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٞ وَهَٰذَا حَرَامٞ لِّتَفۡتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ لَا يُفۡلِحُونَ ١١٦﴾ [النّحل: 116].

غَرَضُ القَصْرِ في سِياقِ الرَّدِّ على المُشركين:

تفنيدُ اعْتِقادِ المُشركين فيما حَلَّلوه، وفيما حرَّموه

في الآية الكريمة إثباتٌ لِبَعض ما حَرَّمَه اللّهُ تعالى على خَلقِه وتعديدٌ له، وقد استُخدمَ أسلوبُ القصرِ بطريق ﴿إِنَّمَا﴾؛ لِبيان هذا الخبر في قولِهِ: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَ﴾، والقصرُ إضافيٌّ؛ لأنَّ المُحَرَّماتِ المذكورةَ في الآية غيرُ محصورةٍ في هذه الأشياءِ.

وغرضُ القَصر بيانُ أنَّ اللّهَ حَرَّمَ الفَواحِشَ وما ذُكِرَ معها، لا ما حَرَّمه المشركون مِنَ الزِّينةِ والطَّيِّباتِ؛ أي: تفنيدُ اعتقادِ المشركين وإبطالُه، وذلك بتَحليل ما زَعَمُوه حَرامًا، وتَحريمِ ما استَباحوه مِنَ الفَواحِشِ وما مَعَها[1].

سِرُّ القَصْرِ بـ﴿إِنَّمَا﴾ دونَ النَّفْيِ والاسْتثناءِ:

أُوثِرَ استعمالُ أسلوبِ القَصرِ بـ﴿إِنَّمَا﴾ في هذا السِّياقِ، دونَ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/99.

أساليبِ القصرِ الأخرى؛ لأنَّ (إنّما) تُستخدَمُ في الخبرِ الّذي يعلمُه المخاطَبُ، ولا ينكرُه، ولا يدفعُ صِحَّتَه كما قرَّره الجرجانيُّ[1]؛ فيكون القَصرُ بـ﴿إِنَّمَا﴾ هنا تقريرًا لِما يَعرفُه المخاطَبون من تحريمِ اللّهِ للفواحشِ، ومقصُودُه دفعُ ادِّعائِهم الباطل بما يعلمونه، وتوبيخُهم تعريضًا بكونهم عالمينَ بالفواحش مع مخالفتِهم لذلك.

توبيخُ المُشركين بمخالفةِ ما يعلَمُونَه

بَراعةُ اسْتِعمالِ ﴿حَرَّمَ﴾ في الآيتين:

ممَّا يُلحظُ استعمالُ الفعل ﴿حَرَّمَ﴾ في صَدرِ هذه الآيةِ، وفي الآيةِ قبلَها في قولِه تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾؛ وذلك لبيان الفرقِ بين تحريمِ المشركينَ وتحريمِ اللّهِ من خلالِ أسلوبِ المقابلةِ بالألفاظِ، فَهُم ما حَرَّموا إلَّا الطَّيِّبَ، واللّهُ تعالى ما حَرَّمَ إلَّا كُلَّ خبيثٍ، وفي هذا إظهارٌ لجهلِهم، وغبائِهم، وسفاهةِ عقولِهم، وإظهارُ رحمةِ اللّه بعبادِه حفظًا لمصالحِهم العاجلةِ والآجلةِ.

بيانُ الفرْقِ بين تحريمِ المُشركين وتحريمِ الله تعالى

نُكتةُ الإتْيانِ بعُنوان الرُّبوبيَّةِ دونَ الأُلوهيَّةِ:

أُوثرَ التَّعبيرُ بعنوان الرّبوبيّةِ دون الألوهيّةِ في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ﴾ مع أنَّ التَّحريمَ والتَّحليلَ من مقتضيات الألوهيَّةِ؛ وذلك للإشارة إلى إحسانِ اللّهِ تعالى إلى رسولِه ﷺ بجَعلِ دينِه أحسَنَ الأديانِ وأجمعَها وخاتمَها[2]، وأنّه هو الرّسولُ المبلِّغُ عن ربِّه ما يحلُّ وما يحرِّمُ، ولبيانِ أنَّ من مقتضياتِ الرُّبوبيّةِ تحريمَ الفواحشِ؛ رعايةً للخلق، فإنَّ مفاسدَ الفواحشِ على البشرِ عظيمةٌ، ومن مقتضيات الرُّبوبيّةِ دفعُها بتربيتِهم على النَّافعِ دونَ الضَّارِّ، وهذا يدخلُ في الحفاظِ على النَّسيجِ الاجتماعيِّ.

المحافظةُ على النَّسيجِ الاجتماعيِّ من مُقتضيات التَّربيّةِ والرِّعايةِ

(1) الجُرجانيّ، دلائل الإعجاز، ص: 330.
(2) البِقاعيّ، نظم الدُّرر: 7/390.

دَلالةُ إضافةِ (ربّ) إلى ضَميرِ المُتكلِّمِ:

تشريفُ الرَّسولِ ﷺ عند ربِّه، وتشريفُ متَّبِعيه

في إيثارِ التَّعبيرِ بـ(ربّ)، وإضافتِه إلى ضميرِ المُتكلِّم ﴿رَبِّيَ﴾ إشارةٌ إلى مكانةِ الرَّسولِ ﷺ عند ربِّه، وقُرْبِهِ منه؛ فهو المُتفضَّلُ عليه باصطفائِهِ للرِّسالةِ، المُنعمُ عليه، المُتولِّي أمرَه، "وللإشارة إلى أنَّ المُحَرِّمَ هو رَبُّ الوجودِ، وربُّ الإنسانِ الّذي يَعلَمُ الفِطرةَ، وفي ذلك إشارةٌ إلى أنّ الّذي حَرَّمَ هذا إنَّما حَرَّمَهُ مُتَّسِقًا مع الفِطرةِ الّتي فَطَرَ النّاسَ عليها، وهو ربُّ كُلِّ شَيء"[1].

دَلالةُ جمْعِ الفاحشةِ دونَ إفرادِها كالإثمِ والبَغْيِ:

الزِّنى أُمُّ الفواحشِ لِمَا ينتجُ عنه من آثارٍ، ويترتَّبُ عليه مِن دَمارٍ

إن كان المرادُ بالفاحشةِ في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ﴾ الزِّنى أو ما يَتَعَلَّقُ بِالفُرُوجِ، فالعدولُ عنِ الإفرادِ إلى الجمعِ قُصِدَ به المبالغةُ في تصويرِ شناعةِ تلك الفاحشةِ، وعظيمِ خَطَرِها، بجَعلِ الفواحش كلّها مجتمعةً فيها، أو جعلِها وحدَها الفواحشَ كلَّها؛ لِمَا ينتجُ عنها من آثارٍ، ويترتَّبُ عليها مِن دمارٍ يُحَطِّمُ أركانَ الأُمَّةِ، ويزلزلُ كيانَها، ويُقَوِّضُ بُنيانَها[2].

وقد ذَكَرَ الآلوسيُّ نُكتةً أخرى لدلالة جَمعِ الفاحشة، وهي إمَّا لِلمُبالَغَةِ، أو باعتِبارِ تَعَدُّدِ مَن تَصدُرُ عَنه، أو لِلقَصد إلى النَّهي عَنِ الأنواعِ؛ إذ الفواحشُ هي ما تَزايَدَ قُبْحُهُ مِنَ المَعاصِي[3].

بَديعُ فنِّ الاكْتفاءِ:

المناسبةُ بين إبهامِ الإطْلاقِ وخفاءِ الفواحِشِ

المرادُ بقوله: ﴿مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾: جَهرُها وسِرُّها، وفي حَذف الجارِّ والمجرور في قوله: ﴿وَمَا بَطَنَ﴾، فلم يقُل: (وما بطن منها)، كما قال: ﴿مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾، اكتفاءٌ بالمذكورِ على المحذوفِ، وفي هذا الحذفِ محافظةٌ على رشاقةِ العبارةِ وعذوبتِها، وخِفَّتِها على اللِّسان في النُّطقِ.

---

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2822.

(2) الخضريّ، الإعجاز البيانّي في صِيَغ الألفاظ، ص: 112.

(3) الآلوسّي، روح المعاني: 8/112.

وسرُّ الاكتفاءِ المناسبةُ بينَ الخفيِّ منَ الفواحشِ وحذفِ الجارِّ والمجرور، فإنَّ إطلاقَ ﴿وَمَا بَطَنَ﴾ دون تقييدٍ يجعلُها مبهمةً، والإبهامُ مناسبٌ للخفيِّ.

بَلاغَةُ الطِّباقِ وفائِدتُه:

تحريمُ عُمومِ صُوَرِ الفاحشةِ مُطلَقًا

أبرزَ الطِّباقُ في قوله تعالى: ﴿مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ التَّحريمَ القاطعَ لفاحشة الزِّنى سِرًّا وجَهرًا في صورةٍ جَلِيَّةٍ مُؤَكَّدةٍ، فتلك الفاحشةُ مُحَرَّمةٌ في كُلِّ حالٍ، وفي أيِّ زمانٍ ومكانٍ، وقد أتى الطِّباقُ على عمومِ صوَرِ الفاحشةِ، وهذا دليلٌ على عظيمِ أثرِها، وأنَّها تنخرُ المجتمعاتِ من باطنِها وظاهرِها.

نُكتةُ تَرتيبِ المُحَرَّماتِ في الآيةِ:

ترتيبُ المَذكوراتِ باعتبارِ شِدَّةِ خَطرِها على المُجتمعِ أخلاقيًّا

المُتأمِّلُ في ترتيبِ المُحَرَّماتِ في الآية الكريمةِ يَلحَظُ أنَّها بدأَت بما يتعلَّقُ بالعباد، ثمّ بما يتعلّقُ باللّه تعالى، فقد بُدِئَ بالفواحش؛ لعظيم خطرِها على الفردِ والمجتمعِ، ثُمَّ بالإثمِ، والإثمُ أَعَمُّ مِنَ الفواحشِ، فهو مِن باب ذِكر العامِّ بعدَ الخاصِّ؛ وذلك للاهتمامِ بالتَّحذيرِ منها قبلَ التَّحذيرِ مِن عُمومِ الذُّنوبِ[1].

وقُدِّم الإثمُ على البغي؛ لأنّه أعمُّ منَ البَغي الّذي يشملُ كُلَّ ذنبٍ سواء كان ظلمًا للنَّفس أو للغير، كما أُخِّرَ البَغيُ؛ ليناسبَ القَيدَ بَعدَه ﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾.

﴿وَٱلْبَغْىَ﴾ هو الظُّلمُ والعُدوانُ، والاستِطالَةُ على النّاسِ، وأُفرِدَ بالذِّكر بِناءً على التَّعميمِ فِيما قَبلَه، أو لدُخُولِه في الفَواحِشِ لِلمُبالَغَة في الزَّجرِ عَنه.

وقُدِّمَ تحريمُ الشِّركِ باللّه تعالى على تحريمِ التَّقوُّلِ عليه سبحانَه؛ أي: الإلحادُ في صفاتِه، والافتراءُ عليه تعالى زورًا وكذبًا؛

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/100.

لأنَّ الشِّركَ به سبحانَه لا يُدانيه ذَنبٌ؛ فقُدِّمَ على ما بَعده؛ لشدَّةِ خطورتِه؛ وللمبالغةِ في الزَّجرِ عنه؛ فهو أَبطلُ الباطلِ.

فالتَّرتيبُ قائمٌ على بيانِ شدَّةِ خطورةِ المُحرَّماتِ على المجتمعِ كلِّه، ابتداءً منَ الفواحشِ، وانتهاءً بالشِّركِ، وإن كان الشِّركُ أعظمَها، إلَّا أنَّ خطورتَه أوضحُ في المُعتقَدِ، وليس كلُّ مُعتقَدٍ باطلٍ مؤثِّرًا في دمار المجتمعِ أخلاقيًّا، بينما الفواحشُ هي المُدمِّرةُ للمجتمعات، وإن كان أصحابُها يدَّعون سلامةَ اعتقادِهم.

التَّرتيبُ باعتِبارِ ذكْـرِ الخطيرِ فالأخْطرِ ترتيبًا تصَاعُديًّا

أو أن نحملَها على توجيهٍ آخرَ، وهو ترتيبُ المُحرَّماتِ باعتبار الخطيرِ فالأخطر، ترتيبًا تصاعديًّا، وهو رأي ابن القيّم رحمه اللّه تعالى حيث يقول: "وأمّا القولُ على اللّه بلا علمٍ فهو أشدُّ هذه المُحرَّمات تحريمًا، وأعظمُها إثمًا، ولهذا ذُكِرَ في المرتبةِ الرّابعةِ منَ المُحرَّماتِ الّتي عليها الشّرائعُ والأديانُ، ولا تباحُ بحالٍ، بل لا تكون إلّا مُحرَّمةً، وليست كالميتةِ والدّمِ ولحمِ الخنزير الّذي يُباح في حالٍ دونَ حالٍ، فإنّ المُحرَّماتِ نوعان: مُحرَّمٌ لذاته لا يباحُ بحالٍ، ومحرَّمٌ تحريمُه عارضٌ في وقتٍ دونَ وقتٍ، قال اللّهُ تعالى في المُحرَّم لذاتِه: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾، ثمّ انتقلَ منه إلى ما هو أعظَمُ منه فقالَ: ﴿وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾، ثمّ انتقلَ منه إلى ما هو أعظمُ منه فقال: ﴿وَأَن تُشْرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا﴾، ثمّ انتقلَ منه إلى ما هو أعظمُ منه فقال: ﴿وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، فهذا أعظمُ المُحرَّمات عندَ اللّهِ وأشدُّها إثمًا، فإنّه يتضمّنُ الكذبَ على اللّه، ونسبتَهُ إلى ما لا يليقُ به، وتغييرَ دينِه وتبديلَهُ، ونفيَ ما أثبتَهُ، وإثباتَ ما نَفاهُ، وتحقيقَ ما أبطلَهُ، وإبطالَ ما أحقَّهُ، وعداوةَ مَن والاه، وموالاةَ مَن عاداه، وحُبَّ ما أبغضَهُ، وبغضَ ما أحبَّهُ، ووصفَهُ بما لا يليقُ بهِ في ذاتِه وصفاتِه وأقوالِه وأفعالِه. فليسَ في أجناسِ المُحرَّماتِ أعظمُ عندَ اللّه منهُ ولا أشدُّ إثمًا، وهو

أصلُ الشّركِ والكفرِ، وعليه أُسِّسَتِ البِدَعُ والضّلالاتُ. فكلُّ بدعةٍ مُضلَّةٍ في الدّين أساسُها القولُ على اللّه بلا عِلمٍ"[1].

نَوعُ عَطْفِ البَغْيِ على الإثمِ:

عَطفُ البَغيِ؛ أي: الظُّلم أو الكِبر على الإثمِ في قولِه: ﴿وَٱلۡإِثۡمَ وَٱلۡبَغۡيَ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ﴾ مِن باب عَطفِ الخاصِّ على العامِّ؛ للاهتمامِ به؛ لأنَّ البغيَ كان دأبَهم في الجاهليَّةِ، وأُفرِدَ بالذِّكر؛ للمُبالغةِ في الزَّجرِ عنه[2].

البَغيُ كان دَأبَ أهلِ الجاهليَّةِ، وأُفرِدَ بالذِّكرِ؛ للمُبالغةِ في النَّهْيِ عنه

فائِدةُ ذِكرِ قَيدِ ﴿بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ﴾:

البَغْي: هو الظُّلْمُ، والاعتداءُ على ما يَخُصُّ الغَيرَ، والبَغيُ لا يكون إلّا بغيرِ الحقِّ، وفائدةُ ذِكرِ القَيدِ ﴿بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ﴾ يظهرُ في الأمرين الآتيين:

مِعيارُ أخذِ حقوقِ النَّاسِ يجبُ أن يقومَ على الحقِّ

الأوَّل: دفعُ ما يعتقدُه النَّاسُ بأنَّه ليس بغيًا، فإنَّهم يأكلُ بعضُهم حقَّ بعضٍ بحججٍ واهيةٍ، فكان ذكرُ هذا القيد لبيانِ أنَّ أكلَ حقوقِ الآخرينَ يجبُ أن يكونَ بالحقِّ، وما سواه فليس بحقٍّ، فهي دعوةٌ لإنباتِ النَّاسِ على الحقِّ، والنَّظرِ في معاملاتِهم على ضوءِ الحقِّ.

الآخر: الاحتراسُ بإخراجِ ما كان فيه حقٌّ كالقِصاص، واستردادِ الحقوقِ، وصَدِّ العُدوانِ، وغيرها من صورِ الدِّفاعِ عنِ النَّفسِ، والجهادِ دونَ النَّفسِ والعِرضِ والمالِ، والأرضِ..إلخ، وهذا لا يُسَمَّى بَغْيًا حقيقة بل مشاكلة، وذلك على غرارِ قولِه تعالى: ﴿وَلَا تَقۡتُلُواْ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۚ﴾ [الأنعام: 151]، وقوله تعالى: ﴿وَإِنۡ عَاقَبۡتُمۡ فَعَاقِبُواْ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبۡتُم بِهِۦۖ وَلَئِن صَبَرۡتُمۡ لَهُوَ خَيۡرٞ لِّلصَّٰبِرِينَ ١٢٦﴾ [النَّحل: 126]، وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلۡبَغۡيُ هُمۡ يَنتَصِرُونَ ٣٩ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ

(1) ابن القَيِّم، مدارج السَّالكين، ص: 177.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/225.

ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ [الشّورى: 39 - 40]، فإطلاقُ العِقابِ والبَغي على القِصاصِ إنَّما هو من بابِ المشاكلةِ.

فائِدةُ إيثارِ ذِكْرِ الشِّركِ على الكُفرِ بالله:

خطورةُ الشِّركِ في تشريعِه الباطلِ ونِسبتِه للحقِّ

أُوثرَ ذِكرُ الشِّركِ على الكفرِ باللّه في قولِه تعالى: ﴿وَأَن تُشۡرِكُواْ بِٱللَّهِ﴾؛ لمناسبته لسياقِ الآيةِ الكريمةِ، وما فيه مِن تعديدٍ لِصُورِ الشِّركِ، ومظاهرِه؛ فإنَّ الشِّركَ باللّه تعالى - كأن يُعبدُ المخلوقُ كما يُعبدُ اللّه، أو يُعظَّمُ كما يعظَّمُ اللّه، أو يُصرفُ له نوعٌ من خصائصِ الرّبوبيّةِ، أو الألوهيّةِ، مثل عبادةِ الأصنامِ، واعتقادِ شريكٍ للّه في تصريفِ الكونِ، وجعلِ شريكٍ للّه في أسمائِه، وصفاتِه - هو أسوأُ صورِ الكفرِ، وهو جذرُ كلِّ رذيلةٍ، لِمَا فيه منَ التّشريعِ الباطلِ، وادِّعاء أنَّه حقٌّ، فالمشركُ يأتي بالباطلِ وينسبُه للحقِّ، وهو ما يقعُ فيه الجاهليُّون في كلِّ زمانٍ ومكانٍ.

بَلاغةُ ذِكْرِ الأُلوهيَّةِ دونَ الرُّبوبيَّةِ:

تعظيمُ خطَرِ الشِّركِ باللّه تعالى

عُدِلَ عن ذِكرِ الرُّبوبيَّةِ إلى الألوهيّةِ في قوله تعالى: ﴿وَأَن تُشۡرِكُواْ بِٱللَّهِ﴾ مع أنّ المُتقدِّمَ ذكرُه في صدر الآيةِ الكريمةِ هو الرُّبوبيّة: ﴿قُلۡ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلۡفَوَٰحِشَ﴾؛ تجاوبًا مع الارتقاءِ في التَّحريمِ؛ وذلك بِذِكرِ الاسمِ الأعظمِ الَّذي اختَصَّ بِصفاتِ الكَمالِ والجلالِ، ولتعظيمِ خطرِ الشِّركِ به سبحانَه، والتَّشنيعِ على مرتكبِه.

بَلاغةُ ذِكْرِ القَيدِ:

التَّهكُّمُ بعُقولِ المُشركين والاستِخفافُ باعتِقادِهم

في قوله تعالى: ﴿مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗا﴾ كنايةٌ، وهي نَفْيُ لازِمِ الشَّريكِ، وهو السُّلطانُ، الّذي يقتضي نَفْيَ مَلْزومِه، وهو الشِّركُ، والمعنى: حرَّم رَبِّي أن تشركوا به شركاءَ لا ثبوتَ لَها، ولا أنزلَ سبحانَه بإشراكها سلطانًا[1].

(1) الطِّيبيّ، فتوح الغيب: 6/377.

وفي هذه الصِّلةِ تَهَكُّمٌ بالمشركين، واستخفافٌ بعقولهم؛ لأنَّه يستحيلُ عَقلًا أن يُنَزِّلَ اللّهُ تعالى بُرهانًا؛ لِيُشرَك به، وإذا لم يَجُز إنزالُ البُرهانِ بالإشراكِ كان ذِكرُ ذلك سُخريةً منهم، وتَهَكُّمًا بِهِم، واستهزاءً، ومنَ المعلوم أنَّه لا بُرهانَ عليه حتَّى ينزل[1]، وهذا من قبيل قول ابن أحمر:

لَا تُفزِعُ الأَرنَبَ أَهوَالُهَا *** ولَا تَرَى الضَّبَّ بِها يَنجَحِرُ[2]

مَعاني الباءِ ودَلالاتُها:

إمَّا المُصاحبةُ المَجازيَّةُ أوِ الاستِعلاءُ المَجازيُّ

الباءُ في قولِه تعالى: ﴿مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ﴾، إمَّا أن تكونَ لِلمُصاحَبَة المجازيَّة بمعنى (مَعَ)، والتَّقدير: لَم يُنَزِّلْ حُجَّةً مُصاحِبَةً له، وهي مُصاحَبَةُ الحُجَّةِ والدّليلِ والبُرهانِ لِلمُدَّعِي، وإمَّا أن تَكونَ الباءُ بمعنى (على)، والاستِعلاءُ مَجازِيٌّ على غرار قَولِه تَعالى: ﴿مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ﴾ [آل عمران: 75]؛ أي: سُلطانًا عليه؛ أي: دَليلًا[3].

نُكتةُ العُدُولِ عنِ لفْظِ الافْتِراءِ إلى ذِكْرِ لفْظِ القَولِ:

التَّلطُّفُ بالمُخاطَبِين مع إشْعارِهم بجَهْلِهم وباطِلِهم

عُدِلَ عنِ لفْظِ الافْتراءِ إلى ذِكْرِ لفْظِ القولِ في قولِه تعالى: ﴿وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، إذ كان مُقتضَى الظّاهرِ أن يقولَ: وأن تفتروا على اللّه؛ لأنَّ التَّقوّلَ على اللّه جهلًا افتراءٌ، ونكتةُ ذلك المبالغةُ في استقباحِ هذا القَول وتحريمِه، وأنَّ هذا التّقوّلَ في دِين اللّه تعالى إنَّما هو مُجرَّدُ تَوَهُّمٍ لا سَنَدَ له.

وذهبَ ابنُ عاشور إلى تضَمُّنِ (تَقُولُونَ) مَعنى تُكَذِّبُونَ أو مَعنى تَتَقَوَّلُونَ، ولِذَلِكَ عُدِّيَ بِـ(عَلى)، وكانَ حَقُّهُ أن يُعَدّى بِـ(عنَ) لَو كانَ قَولًا صَحِيحَ النِّسبَةِ[4].

(1) شيخ زاده، حاشية على تفسير البيضاويّ: 4/213.
(2) البغدادي، خزانة الأدب: 4/273.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/101.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/101.

والأَولى من ذلك كلِّه: أن يكونَ ذكرُ القولِ باعتبارِ جهلِهم بمآلِه الباطلِ، وذكرُ حرفِ الاستعلاءِ باعتبارِ الإشارةِ إلى ذلك، فتكون الآيةُ قد تلطَّفَت بالمُخاطَبين، مع إشعارِهم بجهلِهم وعدمِ تحرِّيهم الحقَّ.

والتَّقوُّلُ على اللّه مِن أعظم أصولِ المُحَرَّماتِ الذَّاتيةِ الّتي حَرَّمَها اللّهُ تعالى في دِينِه على ألسنةِ جميعِ رُسلِه؛ لأنَّه أصلُ التَّحريفِ، وشُبْهةُ الابتداعِ في الدِّين الحقِّ، والمقصودُ في الآية تَحريمُ القَولِ في الدِّينِ مِن غَيرِ يَقِينٍ، بالإلحادِ في صِفاتِه سبحانَه والافتراءِ عليه[1].

فائِدةُ إظهارِ ما حقُّه الإضْمارُ:

إدخـالُ المهابةِ على الخبَرِ وبيانُ شَناعةِ التَّقوُّلِ على الله تعالى

عُدِل عنِ الإضمارِ إلى الإظهارِ في قولِه تعالى: ﴿وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾، إذ لم يقُل: وأن تقولوا عليه؛ وذلك لإدخالِ المَهابةِ على الخبر، وللتّذكيرِ بشناعةِ التَّقَوُّلِ، وشِدَّةِ تحريمِه؛ لأنَّه تَقَوُّلٌ على اللّه تعالى ملكِ الملوكِ ﷻ.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

ظَهَرَ وبَدا:

الظُّـهـورُ أقـوَى انْكشافًا وبُروزًا، أمّـا الـبُـدوُّ فهو مُطلقُ الظُّهورِ

الظُّهورُ يدلُّ على قوّةٍ وبُروزٍ، من ذلك: ظهرَ الشّيءُ يَظهرُ ظُهورًا فهو ظاهرٌ، إذا انْكشفَ وبَرزَ، ولذلك سُمِّي وقتُ الظُّهرِ والظَّهيرةِ، وهو أظهرُ أوقاتِ النّهارِ وأضْوَؤُها، والأصلُ فيه كلِّه ظَهْرُ الإنسانِ، وهو خِلافُ بطْنِه، وهو يجمعُ البُروزَ والقُوّةَ[2].

أما البُدوُّ فهو مُطلقُ الظُّهورِ، يُقال: بدَا الشيء يبدُو: إذا ظهرَ، فهو بادٍ، وسُمِّي خلافُ الحَضَرِ بَدْوًا من هذا؛ لأنَّهم في بَرازٍ منَ الأرضِ، وليسُوا في قُرى تَسترُهم أبنِيتُها[3].

(1) الآلوسّي، روح المعاني: 6/167.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ظهر).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بدو).

وأمَّا ما قيلَ من أنَّ الظّهورَ يكون بِقَصْدٍ وبغيرِ قَصْدٍ، يُقال: استَتَر فلانٌ ثُمَّ ظَهَرَ، ويدلُّ هذا على قصْدٍ للظّهور، أمَّا البُدُوُّ فيَكونُ بغيرِ قصْدٍ، يُقال: بَدا البَرقُ، وبَدا الصّبحُ، وبدَتِ الشَّمسُ[1]؛ فليس دقيقًا لورودِ الاسْتِعمال بخلافِه، قال تعالى: ﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا رَأَوُاْ ٱلۡأٓيَٰتِ لَيَسۡجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٖ ٣٥﴾ [يوسف: 35].

فالظُّهورُ والبُدوُّ يَلتقيان في معنى الانْكشافِ، ويختصُّ الظُّهورُ في قوّةِ الإبرازِ، أما البُدوُّ ففي مُطلَقِ الظُّهورِ، وحَسُنَ التَّقابلُ في الآية لبيانِ مُقابَلةِ الظَّهرِ للبطْنِ.

بَطَنَ وخَفِيَ:

لـفـظُ (بَـطَـنَ) أوغلُ في التَّستّرِ والإخْـفـاءِ مـن (خـفـي)؛ و(خَفِيَ) مُطلقُ السّتْرِ

خَفِيَ الشَّيءُ: استَترَ، وتَوارى، ولم يَظهر. والإخفاءُ: السَّتْرُ والتَّغطيةُ. يُقال: خفي الشّيءُ، وأخفيتُه: استترَ وسترتُه. والخَفاء: ما يُستَرُ به كالغطاء[2].

بَطَنَ الشَّيءُ: خَفِيَ. ويُقال لكلّ غامضٍ بَطْنٌ، ولكلّ ظاهرٍ ظَهْرٌ، ومنه: بُطْنَانُ القِدرِ وظَهرَانُها، ويُقال لما تدركُه الحاسَّةُ ظاهرٌ، ولمَا يَخفَى عنها باطنٌ[3]. واستُعير في الأمور المعنويّةِ نحو: هذا بَطْنُ الأمر، وبَطْنُ الوادي أيضًا، تشبيهًا بِبَطنِ الإنسانِ[4].

الإثمُ والعُدوان والبَغيُ:

الإثمُ هو المُحرَّمُ، والعُدوانُ اعْتِداءٌ عـلى الآخـريـن، والبَغْيُ اعتداءٌ مُبالَغٌ فيه

قال ابنُ القيّم: إنّ الإثمَ ما كان مُحَرَّمَ الجِنسِ، والعُدوانَ ما كان مُحَرَّمَ القَدرِ والزّيادةِ، فهو تعدّي ما أُبيحَ إلى القَدرِ المُحَرَّمِ، كالاعتداء في أخذِ الحقِّ ممّن هو عليه بأخذِ زيادةٍ عمّا له، وبإتلافِ أضعافِ ما أُتلِفَ عليه، أو قول أضعافِ ما قيل فيه. فهذا كلُّه تَعَدٍّ للعدل.

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويَّة، ص: 227.
(2) السَّمين الحلبيّ، عمدة الحُفَّاظ: (خفي).
(3) الرّاغب، المفردات: (بطن).
(4) السَّمين الحلبيّ، عُمدة الحُفَّاظ: (بطن).

إنّ الغالبَ في استعمالِ البغي أن يكونَ في حقوقِ العبادِ والاستطالةِ عليهم، وأنّه إذا قُرِنَ بالعدوان كان البغيُ ظلمَهُم بمحرَّمِ الجنسِ كالسّرقةِ والكذبِ والبهتِ والابتداءِ بالأذى، والعدوانُ تعدّي الحقّ في استيفائِهِ إلى أكبر منه، فيكون البغيُ والعدوانُ في حقِّهم كالإثم والعدوان في حدودِ اللّهِ، فههنا أربعةُ أمور: حقٌّ للّه وله حدٌّ، وحقٌّ لعباده وله حدٌّ، فالبغيُ والعدوانُ والظّلمُ تجاوزُ الحدّين إلى ما وراءهما، أو التّقصيرُ عنهما فلا يصلُ إليهما[1].

السُّلطانُ والحُجَّةُ:

السُّلطانُ الحُجَّةُ القويَّةُ في البَيِّنةِ، والحُجَّة المُجادَلُ بها

السُّلطانُ: الحُجَّةُ البَيِّنَةُ؛ لأنَّ لها سُلطَة على العقلِ والقلبِ. والسُّلطانُ عندَ العربِ الحُجَّةُ، ولا يُجمَعُ لأنّ مَجرَاهُ مَجرَى المصدرِ. واللّفظُ يُذَكَّرُ ويُؤَنَّثُ، فَمَن ذَكَّرَ السُّلطانَ ذَهَبَ به إلى معنى الرَّجل، ومَن أَنَّثَه ذَهَبَ به إلى معنى الحُجَّة. والسُّلطان: الحاكم، وإنَّما سُمِّيَ سُلطانًا؛ لأنّه حُجَّةُ اللّهِ في أَرضِهِ، أو هكذا ينبغي أن يكون[2]، وقوله تعالى: ﴿هَلَكَ عَنِّي سُلۡطَٰنِيَهۡ﴾ [الحاقّة: 29]؛ معناه: ذهبَت عني حجّتي.

الحُجَّة: الدّليلُ والبرهانُ. يُقال: حاجَجتُه فأَنا مُحاجٌ وحَجِيجٌ، فَعِيل بمعنى فاعل. ومن أَمثالِ العربِ: لَجَّ فَحَجّ؛ معناه لَجَّ فَغَلَبَ مَن لاجَّه بِحُجَجِه، يُقال: حاجَجتُه أُحاجُّه حِجاجًا ومُحاجَّةً حتَّى حَجَجتُه؛ أَي: غَلَبتُه بالحُجَجِ الّتي أَدلَيتُ بها. والمَحَجَّةُ: الطَّريق[3].

(1) ابن قَيِّم الجوزيَّة، بدائع التَّفسير: 2/210.
(2) ابن منظور، لسان العرب: (سلط).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (حجج).

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [الأعراف: 34]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

آجـالُ الأُمـمِ مَرهونةٌ بظُهورِ الفواحشِ فيهم

لَمَّا بيَّن اللّٰهُ تعالى في الآية السَّابقةِ الحَلالَ والحَرامَ وأحوالَ التَّكاليفِ، بَيَّن في هذه الآية أنَّ لِكُلِّ أمَّةٍ مُدَّةً وأجلًا[1]؛ للتَّحذير من هلاك المجتمعِ ممَّا يُصيبُه من داءِ الفواحشِ والشِّركِ باللّٰه تعالى، وفي السِّياق السَّابقِ نَعى اللّٰهُ عَلى المُشركينَ إعراضَهم عنِ الحقِّ، وانغماسَهم في الباطل، وعُتُوَّهم في الكفر بَعدَ أن دُعوا إلى الإيمانِ، فكانَ حالُهم حالَ مَن لا يُقلِعُ عَمّا هوَ فِيهِ؛ لذا أعقَبَ ذَلِكَ بإنذارِهم ووَعيدِهم إقامَةً لِلحُجَّةِ عليهم وإعذارًا لَهم قَبلَ حُلولِ العَذابِ بِهِم[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أُمَّةٍ﴾: من أَمَّ المكان: قَصَده. وأُمُّ الشَّيء: أَصلُه. والأُمُّ: الوالدة. وأُمُّ الكِتاب: اللَّوح المحفوظ، ويُطلَق أيضًا على سورة الفاتحة. والأُمَّة: الجماعة، أو القَرْن، والجِيل، وكلُّ جماعةٍ يجمعُهم أمرٌ ما، إمَّا دينٌ واحدٌ، وإمَّا زمانٌ واحدٌ، وإمَّا مكانٌ واحدٌ، سواء كان ذلك الأمرُ الجامعُ تسخيرًا أو اختيارًا، وجَمْعُها: أمم. وقد وردَت كلمةُ (الأُمَّة) في البيانِ القرآنيِّ على خمسَةِ معانٍ؛ هي: الجماعة منَ النّاسِ، والمِلَّةُ والسُّنَّةُ والدِّينُ، والرَّجُلُ الصّالحُ الّذي يؤتَمُّ به، والزَّمانُ، والصِّنفُ[3].

(1) ابن عادل، اللُّباب: 9/99.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتّنوير: 8/102.

(3) ابن الأنباريّ، الزَّاهر في معاني كلمات النَّاس: 2/255، والرّاغب، المفردات، والفَيُّوميّ، المصباح المُنير، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (أمّ)، ويُنظر: ابن الجوزيّ، وهو الّذي عدّها خمسةً فزاد: (الصنف)، في نزهة الأعين النّواظر، ص: 143 - 144.

ومعنى ﴿أُمَّةٍ﴾ في الآية: الجماعة منَ النّاسِ اجتمعوا على الكفرِ.

2) ﴿أَجَلٌ﴾: من أَجَلَ، وهو غَايَةُ الوَقتِ في مَحَلِّ الدَّينِ وَغَيرِه، والأَجَل: المدَّةُ المضروبةُ، ويُقال للمُدَّة المُحَدَّدة لِعُمر الإنسانِ، وهو الوَقتُ المُوَقَّتُ المَضرُوبُ لانقضاءِ المُهلَة، وأجَلُ الشّيءِ: مُدَّتُه ووقتُه الّذي يَحلُّ فيه. وَقَولُهُمْ " أَجَلْ " في الجَوَابِ، هُوَ مِن هَذَا البَابِ، كَأَنَّهُ يُرِيدُ انتَهَى وبَلَغَ الغَايَةَ[1]. والمرادُ هنا: وَقتُ حلولِ الهلاكِ ونزولِ المَثُلاتِ على المشركين.

3) ﴿يَسْتَأْخِرُونَ﴾: من أَخَرَ، ويدلُّ أصلُ الكلمةِ على نقيضِ التَّقَدُّم. والمعنى المحوريّ تَخَلُّفُ الشَّيءِ (في المكان أو الزّمان) عن مُقارنه: كخَشَبَة الرَّحلِ النّاتئة في مُؤَخَّرَتِه، وكَخِلْفَي النّاقة ومُؤْخِرِ العين ومُؤَخَّرِ الرّأس[2]. والأُخُرُ ضِدُّ القُدُم[3]. والمرادُ هنا: لا يُترَكُونَ بَعدَ الأجَلِ شَيئًا قَلِيلًا مِنَ الزَّمانِ.

4) ﴿يَسْتَقْدِمُونَ﴾: من قَدَمَ، أَصلٌ صَحِيحٌ يَدُلُّ عَلَى سَبقٍ وَرَعف، ثُمَّ يُفَرَّعُ مِنهُ ما يُقارِبُهُ: يَقُولُونَ: القِدَمُ: خِلَافُ الحُدُوثِ، وَأَصلُهُ قَولُهُمْ: مَضَى فُلَانٌ قُدُمًا: لَمْ يُعَرِّجْ وَلَمْ يَنْثَنِ. والمعنى المحوريّ للمادَّة: سَبقُ الشَّيءِ نافذًا إلى الأمام بِقُوَّةٍ أو حِدَّةٍ[4]. والمعنى المرادُ نَفيُ إهلاكِ الأُمَمِ قَبلَ مَوعدِ أَجَلِها المضروبِ.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

نِهايةُ أعمارِ الأُمَمِ نهايةٌ حَتميَّةٌ وزوالٌ أكيدٌ

أخبَرَ تعالى أنَّ لكلِّ أمَّةٍ مُكَذِّبةٍ، مُصِرَّةٍ على الكُفر، وقتًا مُحَدَّدًا لحُلولِ العُقوبةِ عليهم، ونزولِ المَثُلات بهم على شِركِهم، فإذا جاءَ الوقتُ المُعَيَّنُ لإهلاكِهم هَلَكوا، لا يتأخَّرونَ عنه أَقَلَّ وقتٍ، ولا يتقدَّمون، وفي هذا تهديدٌ لِمشركي مَكَّةَ ووعيدٌ لَهُم[5].

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والفيّوميّ، المصباح المُنير، والسَّمين الحلبيّ، عمدة الحفَّاظ: (أجل).
(2) جَبَل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (أخر).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (أخر).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (قدم).
(5) ابن جرير، جامع البيان: 12/391.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

مَوقعُ هذه الآيةِ منَ السّابقِ واللّاحقِ:

الآجالُ مكتوبةٌ والنِّهاياتُ قريبةٌ

موقعُ هذه الآيةِ يحتملُ وجهين: فإمَّا أن تكونَ استئنافيّةً؛ للدّلالة على أنّ الآجالَ مكتوبةٌ، والأعمارَ محسوبةٌ؛ لئلّا يغترَّ الإنسانُ بحياته الدُّنيا الفانية[1].

وإمَّا أن تكونَ اعتراضيّةً بَينَ جُملَةِ: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ﴾ [الأعراف: 31] وبَينَ جُملَةِ: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأۡتِيَنَّكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ﴾ [الأعراف: 35]؛ للتَّنبيه على أنَّ المخاطَبين لهم آجالٌ محتومةٌ، فعليهم أن يَعمَلُوا بأخْذِ الزِّينةِ واتِّباعِ الرُّسُلِ.

دَلالةُ العُمومِ الصّريحِ:

تَرسيخُ مَفهومِ السُّنَّةِ الاجتماعيَّةِ في اجْتِماعِ الأُممِ وانْدثارِها

يتضمّنُ قولُه تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٞۖ﴾ وعيدًا وتهديدًا للمشركين من أهلِ مكّةَ بإخبارهم أنَّ لِكُلِّ أُمَّةٍ كافرةٍ مُعاندةٍ لرسولها، ومخالفةٍ لأَمرِ رَبِّها، أجَلًا مُؤَقَّتًا لِمَجيءِ العَذابِ، وهذا ما أشارَ إليه التّنكيرُ بدلالته على العمومِ الصَّريحِ في قولِهِ تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٞۖ﴾.

وفي الجملة إشارةٌ إلى الخصوصِ الضِّمنيِّ، بيان ذلك أنَّ في العموم بشارةً بانتهاء صَوْلةِ المشركين، وانكسارِ شوكتِهم، وبأفولِ زمانِهم، وشروقِ شمسِ الإسلامِ، وارتفاعِ رايةِ التّوحيدِ، فما وقعَ للأممِ السَّابقةِ سيكون لهم.

نُكتةُ تَقديمِ الجارِّ والمجرورِ على عاملِه:

سُنَّةُ اللهِ تعالى في إهلاكِ الأُممِ المُكَذِّبةِ

في قولِه تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٞۖ﴾ تَقَدَّمَ الجارُّ والمجرورُ ﴿وَلِكُلِّ﴾ على المبتدأ ﴿أَجَلٞۖ﴾؛ لتأكيد العمومِ المستفادِ من لفظِ (كُلّ)، ومن تنكيرِ ﴿أُمَّةٍ﴾ و﴿أَجَلٞۖ﴾؛ أي: تأكيد أنَّ لِكُلِّ أُمَّةٍ مِنَ الأمم المُكَذِّبةِ في أيِّ زمانٍ منَ الأزمانِ وقتًا مُعَيَّنًا مَحدُودًا يَنزِلُ فِيهِ عَذابُهم مِنَ اللّه، أو يُميتُهم فيه.

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 3/344.

سِرُّ التَّعبيرِ بِأُمَّةٍ:

كلُّ مَن رضيَ بإمامةِ الكُفرِ فهو داخلٌ في التَّهديدِ

هناك مترادفاتٌ كثيرةٌ تدلُّ على الفِرقةِ أو الجماعةِ منها: قَرْن، وقرية، لكن أُوثرَ التَّعبيرُ في قوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾ بلفظِ ﴿أُمَّةٍ﴾؛ لأنَّ المُرادَ بالأُمَّةِ الجَماعَةُ الَّتي اشتَرَكَت في عَقيدَةِ الإشراكِ أو في تَكذِيبِ الرُّسُلِ[1]، فهم جماعةٌ يجمعُهم الكفرُ باللّه تعالى، وبرزَت فيه عواملُ الاجتماعِ، من دينٍ واحدٍ، وزمانٍ واحدٍ، ومكانٍ واحدٍ، ففي هذه الجماعةِ معنى الاجتماعِ على قيادةٍ واحدةٍ، وهو مأخوذٌ منَ الأصلِ اللُّغويِّ، إذِ الإمامُ هو القائدُ لمَن تَبِعَه، ففي لفظ الأمّةِ معنى اجتماعِ النَّاسِ على قيادةٍ واحدةٍ والرّضا بها، ففي الآية إيماءٌ في تهديد كلِّ مَن رضي بإمامة الكفرِ وتابع على ذلك.

وأيضًا لم يَقُل: (ولكلِّ إنسان أجلٌ)، مع أنّه لكلِّ إنسانٍ أجلٌ فعلًا، فلماذا اختارَ ﷻ ذكرَ أجلِ الأمَّةِ، تلك حكمةُ اللّهِ تعالى فيما يختارُ من بيانٍ في الذِّكرِ الحكيمِ، ونتلمَّسُ الحكمةَ في ذلك، فنقول: إنَّه ﷻ ذكرَ الأمَّةَ، دون آحادها، أوّلًا: لأنّه إذا كان للأمَّة بآحادها وجماعاتها أجلٌ، فأولى أن يكون للآحاد آجالُها، ثانيًا: لأنّ الأمّةَ هي الجماعةُ الّتي يجمعُها عصرٌ وعاداتٌ وتقاليدُ، ويكون فيها توجيهٌ إلى الخير أو إلى الشّرّ، فهي جيلٌ له أحوالُه، وعليه تَبِعاتُه، فاللّهُ ﷻ أخبرَنا أنَّ لكلِّ جيلٍ منَ الأجيال أَجَلَهُ الّذي ينتهي عندَه، ويذهبُ بأثقالِه، ويجيءُ مِن بعده جيلٌ آخرُ له شأنُه[2].

نُكتةُ الإيجازِ بِحَذْفِ الصِّفَةِ:

تفخيمُ النّكرةِ وتعظيمُ شأنِها

قولُه تعالى: ﴿أُمَّةٍ﴾ موصوفٌ حُذِفَت صفتُه، والتّقدير: (أمَّةٍ مُعانِدَةٍ مُكَذِّبَةٍ). وهذا إيجازٌ بالحذف، والمعنى: لِكُلِّ أُمَّةٍ مُكَذِّبَةٍ إمهالٌ[3].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/104.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 6/2825.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/103.

وبَيَّنَ ابنُ جِنِّي عِلَّةَ حَذفِ الموصوفِ أكثرَ منَ الصِّفةِ بقوله: "يقعُ حذفُ الموصوفِ أكثرَ مِن صفتِهِ؛ لأنَّ الصِّفةَ تأتي لإيضاحِ الموصوفِ وبيانِهِ، ولَمَّا كانتِ الصّفةُ مُختصّةً بالإيضاحِ والبيانِ كَثُرَ قيامُها مقامَ الموصوفِ، بخلافِ الموصوفِ، فإنّه يكثرُ إبهامُه من غيرِ ذِكرِ الصِّفَةِ؛ لذا كان قيامُه مقامَ الصّفةِ قليلًا، ويشترطُ لحذفِ الصّفةِ أن تدلَّ الحالُ عليها"[1].

وفي حذفِ الصّفةِ إشارةٌ إلى تهويلِها وتفخيمِها، وأكثرُ ما يرِدُ الحذفُ للتّفخيم والتّعظيم في النَّكِراتِ، وكأنّ التّنكيرَ حينئذٍ عَلَمٌ عليه، ويستشهدُ بآياتٍ كثيرةٍ منها قوله تعالى: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَزْنًا﴾ [الكهف: 105]؛ أي: وزنًا نافعًا، وقوله: ﴿ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ﴾ [قريش: 4]؛ أي: من جوعٍ شديدٍ وخوفٍ عظيمٍ[2].

بَراعةُ الاسْتِعارةِ المَكنيَّةِ:

في قوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾ استعارةٌ مكنيَّةٌ؛ حيث شُبِّهتِ الأُمَمُ بِبَشرٍ لَهُم حياةٌ وأَجَلٌ ينتهي، وحذَفَ المُشبَّهَ به وذكرَ لازِمًا من لوازِمِه وهو الأجلُ، وفيها تصويرٌ للمعنى المعنويّ في صورةٍ محسوسةٍ مُشاهَدةٍ.

تَصويرُ المَعنويِّ في صُورةٍ مَحسوسةٍ مُشاهَدةٍ

سِرُّ التَّعْبيرِ بلفْظِ (الأجل):

لم يُعبِّرِ النَّظمُ القرآنيُّ بلفظ (عذاب) أو (إهلاك) أو (كتاب)؛ لتثبيتِ الرّسولِ ﷺ وطمأنتِهِ بأنَّ تَأخيرَ العَذابِ عَن مُكذِّبيه، إنَّما هو جَريٌ على سُنَّةِ اللّهِ تعالى في إمهالِ الظّالِمينَ[3]، ولإعلامِ الخلقِ أنَّ نزولَ العذابِ عامٌّ في الجميعِ إن جَرَوا على ما جرى عليه المُتقدِّمون.

سنَّةُ اللهِ لا تتخلَّفُ وعذابُه لا يَتخفَّفُ

(1) ابن جنّي، الخصائص: 1/82.
(2) الزّركشّي، البرُهان: 3/176.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/103.

سِرُّ إيثارِ التَّعبيرِ بالمجيءِ:

مناسبةُ ما أُسنِدَ إلى المجيءِ مِن عذابٍ وهلاكٍ

أُوثِرَ التَّعبيرُ بـ﴿جَآءَ﴾ على (أتى) في قولِهِ تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ﴾؛ إذِ المجيءُ أعمُّ، لأنَّ الإتيانَ مجيءٌ بسهولةٍ، والمجيءُ صَعبٌ، فهو مجيءُ عذابٍ، وبَأسٍ، وشِدَّةٍ، ومَوتٍ، والأَجَل مِن ذلك[1].

معنَى الفاءِ:

للفاءِ معانٍ كثيرةٌ، منها: الفاءُ الاستئنافيّةُ، كما وقعَت هنا في قولِهِ تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾؛ وذلك للدّلالة على نهوضِ تلك الجملةِ بمعناها.

سِرُّ إيثارِ (إذا):

أُوثِرَ التَّعبيرُ بـ (إذا) دون (إنْ) في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ﴾؛ للدّلالةِ على تحقّقِ انقضاءِ أجلِهم؛ لأنَّ (إذا) تدلُّ على تحقّقِ وقوعِ الشّرطِ بخلاف (إنْ).

بَلاغةُ الاسْتِعارةِ في إسْنادِ المجيءِ إلى الأَجَل:

تصويرُ المعاني بصُورةٍ حِسّيَّةٍ

في إسنادِ المجيءِ إلى الأجلِ في قولِه تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ﴾ استعارةٌ مكنيَّةٌ؛ حيث شُبِّه الأجلُ بشخصٍ غائبٍ يُتَرَقَّب وصولُه، وقد حَضَر، وبلاغةُ هذه الاستعارة أنّها صَوَّرتِ المعنى المعنويَّ في صورةٍ حَرَكِيَّةٍ حِسِّيَّةٍ مُشاهَدةٍ ماثلةٍ أمامَ الأعين.

عِلَّةُ إظْهارِ الأجلِ دونَ إضمارِه:

التَّنبيهُ على اختلافِ معنَى الأجلِ في المَوضِعَين

عُدِل عنِ الإضمارِ إلى الإظهارِ في قولِه تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ﴾، حيث كان مقتضى الظّاهرِ أن يُقال: ولكُلِّ أُمَّة أَجَلٌ فإذا جاءَ لا يستأخرون؛ وذلك لاختلافِ الأجلِ في المَوضِعين، فالمقصودُ منَ الأَجَلِ الأَوّلِ مُدَّةُ العُمر كاملةً بتمامها مِن أوَّلها إلى

(1) الرّاغب، المفردات: (جاء)، ومحمود موسى حمدان، الإتيان والمجيء فِقْه دلالتهما واستعمالهما في القرآن الكريم، ص: 66.

آخرها، والمقصودُ منَ الأجلِ الثّاني الجزءُ الأخيرُ من مُدَّةِ الأجل[1]، ولزيادةِ تقريرِ الحُكم، ولتكونَ هذه الجملةُ مُستقلَّةً بنفسِها، غيرَ مُتوقِّفةٍ عَلى سماعِ غيرِها؛ لأنَّها بحيثُ تَجري مَجرَى المَثَل[2].

غَرَضُ إضافةِ الأجلِ إلى ضَميرِ الأُمَّةِ:

شُمولُ جميعِ الأُمَمِ بدونِ استِثناءٍ، ومجيءُ الأجلِ كِنايةٌ عن تمامِه

إنْ جُعِلَ المرادُ بالضَّميرِ في قولِه تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ﴾ جميعَ الأُمَمِ المُشارِ إليها، فالغرضُ هو إفادةُ المعنى المَقصُودِ الَّذي هو بُلُوغُ كُلِّ أُمَّةٍ أجَلَها الخاصَّ بها ومَجيئُه إيّاها، بواسِطَةِ اكتِسابِ الأجَلِ، وقد دَلَّتِ الإضافَةُ على الشّمولِ والجمعِ، وكأنَّه قِيل: إذا جاءَتهم آجالُهم بأن يَجيءَ كلَّ واحِدَةٍ مِن تِلكَ الأُمَمِ أجلُها الخاصُّ بها.

وإنْ جُعِلَ لِكُلِّ أُمَّةٍ خاصَّةً كما هو الظّاهِرُ، فالإظهارُ في مَوقِعِ الإضمارِ؛ لِزيادَةِ التَّقريرِ، والإضافَةُ إلى الضَّميرِ لإفادَةِ أكمَلِ التَّمييزِ؛ أي: إذا جاءَها أجلُها الخاصُّ بها[3].

وليس المرادُ بالأجل هنا العُمر؛ وإلَّا لقالَ: (لكلِّ واحدٍ)، بل المقصودُ هنا أجَلُ العذابِ والهلاكِ أو الاستئصالِ؛ إذ أمهلَ اللّهُ تعالى كُلَّ أُمَّةٍ كَذَّبت رسولَها إلى وقتٍ مُعَيَّنٍ، حتَّى إذا جاءَ ذلك الوقتُ حاقَ بهم العذابُ؛ لذا كانتِ الآيةُ الكريمةُ وعيدًا لأهلِ مَكَّةَ، وإنذارًا، وتهديدًا، ومجيءُ الأجلِ هنا كِنايةٌ عن تمامِه.

تَوجيهُ قراءةِ الحسَنِ بالجمْعِ:

قراءةُ الجمْعِ باعتِبارِ أعمارِ أفرادِ جميعِ الأُمَمِ

قَرَأ الحَسَنُ: (فَإذا جاءَ آجالُهُمْ) بالجَمعِ، وتوجيهها: أنَّ لِكُلِّ إنسانٍ أجَلًا، كما قالَ اللّهُ تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًاۖ﴾ [الأنعام: 2]، إذ كتبَ اللّهُ مدّةَ بقاءِ عمومِ البشرِ في هذه الحياةِ الدّنيا، وأمَّا الإفرادُ فلِأنَّه اسمُ جِنسٍ، والجِنسيّةُ مِن قبيل

(1) الجَمَل، الفتوحات الإلهيَّة: 2/136.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/105.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/225.

المصدرِ، أو لِتَقارُبِ أعمارِ أهلِ كُلِّ قَرنٍ[1]، وحَسَّنَ تلك القراءة إضافَتُه إلى الجَماعَة[2].

دَلالةُ صِيغةِ الاستِفعالِ:

السِّين والتَّاء إمَّا للطَّلَبِ، وإمَّا للتَّأكيدِ بحسبِ المعنَى

أشعرَ التَّعبيرُ بصيغة الاستِفعالِ في الألفاظِ: ﴿يَسْتَأْخِرُونَ﴾ و﴿يَسْتَقْدِمُونَ﴾ بعَجزِ الأمَّةِ الّتي حانَ موعدُ عذابِها، واستئصالِها عن تأخيرِ مُدَّتِها، أو تقديمِها، وحِرْمانِهم عَن ذلك على الرَّغم مِن طَلَبِهم لَه، وسعيهم إليه، وبذلِهم أقصى الطَّاقةِ في تحقيقِه[3]، وهذا المعنى على اعتبار السِّينِ والتَّاءِ للطَّلب.

أو المعنى على النَّفْي؛ أي: كِناية عن عدم طَلبِ التّأخُّرِ ولا استطاعة تغييرِه[4]، وتكون السّينُ والتّاءُ للتّأكيد.

بَديعُ فنِّ الطِّباقِ:

تأكيدُ معنَى وقتِ حُلولِ العُقوبةِ بالأُممِ المُكذِّبةِ

بين الفعلين: ﴿يَسْتَأْخِرُونَ﴾ و﴿يَسْتَقْدِمُونَ﴾ طباقُ سلبٍ، إذ جمعَ السّياقُ بين فعلين مُتضادَّين في المعنى، وهما استئخارُ الأجلِ واستقدامُه، وهو وصفٌ لحالِ المشركين وقتَ حلولِ العقوبةِ بهم، فإذا جاءَ الوقتُ الّذي وقَّته اللهُ لإهلاكِهم، لا يتأخَّرون عنه لحظةً، ولا يتقدَّمون عليه، فأَكَّدَ هذا الأسلوبُ البلاغيُّ المعنى.

سِرُّ التَّعْبيرِ بساعةٍ عن أقلِّ الوقتِ:

تُطلَقُ السَّاعةُ في عُرْفِ العربِ على أقَلِّ وَقتٍ

خُصَّتِ السَّاعةُ بالذِّكرِ في قولِه: ﴿لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾؛ لأنَّها أَقَلُّ أسماءِ الأوقاتِ في استعمالِ العربِ، يعني لا اسم في عُرْفِهم لأقلِّ وقتٍ إلَّا السَّاعة؛ لذا ذَكَرها وخَصَّها؛ والمعنى: لا يَتَقَدَّمون ولا يتأخّرون أقصرَ وقتٍ[5].

(1) أبو حيَّان، البحر المحيط: 5/45.
(2) الخفاجيّ، عناية القاضي: 4/166.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/225.
(4) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 3/376.
(5) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 3/376.

ولسببٍ إشاريٍّ وهو أنَّ ذكرَ السَّاعةِ فيه تذكيرٌ بعذابِ السَّاعةِ، فكما أنَّ عذابَ الدُّنيا لا يتأخَّر، فكذلك إذا جاءَتِ السَّاعةُ لا يتأخَّرُ عذابُها.

فائِدةُ عَطْفِ الجُمَلِ:

تـأخُّـرُ الأَجَـلِ مُسَاوٍ لِتَقَدُّمِهِ في الاسْتِحالَةِ

عُطِفَ الاستقدامُ المنفيُّ على طلب التَّأَخُّرِ المنّفي في قولِه تعالى: ﴿لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾؛ "للمُبالَغَةِ في انتفاءِ التَّأَخُّرِ، يَعنِي أنَّ التَّأَخُّرَ مُساوٍ لِلتَّقَدُّمِ في الاستِحالَةِ؛ ولذا نَظَمَهُ مَعَهُ في سِلكٍ، كما في قَولِه سُبحانَه: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ [النّساء: 18]، فَإنَّ مَن ماتَ كافِرًا مَعَ ظُهُورِ أن لا تَوبَةَ لَهُ رَأسًا، قَد نُظِمَ في عَدَمِ القَبُولِ في سِلكِ مَن سَوَّفَها إلى حُضورِ المَوتِ؛ إيذانًا بِتَساوِي وُجُودِ التَّوبَةِ حِينَئِذٍ وعَدَمِها بِالمَرَّةِ"[1].

وقُدِّمَ في هذا الموضع انتِفاءُ الاستِئخارِ؛ لأنَّ الغرضَ بَيانُ عَدمِ خَلاصِ الأمَّةِ المُكَذِّبةِ رسولَها ونجاتِها مِنَ العَذابِ، وجاء عكسُ ذلك في قَولِه تَعالى: ﴿مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ۝٥﴾ [الحِجر: 5]؛ لأنَّ المقصودَ هناك بَيانُ سِرِّ تَأخِيرِ إهلاكِهِم مَعَ استِحقاقِهِم لَهُ، حَسبَما يُنبِئُ عَنه قَولُه تَعالى: ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ۝٣﴾ [الحِجر: 3] فالأَهَمُّ بَيانُ انتِفاءِ السَّبقِ[2].

تَوجِيهُ المُتَشابِهِ اللَّفظِيِّ:

قال تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [الأعراف: 34]، وقال: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَـٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ۝٦١﴾ [النّحل: 61]، وقال: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ

(1) القاسميّ، محاسن التَّأويل: 7/2676.

(2) القاسميّ، محاسن التّأويل: 7/2676.

لِنَفۡسِي ضَرّٗا وَلَا نَفۡعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۗ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌۚ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ فَلَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ سَاعَةٗ وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [يونس: 49].

اتَّفقتِ الآياتُ في إخبارِها عن موضوعٍ واحدٍ، وهو عدمُ الإمهالِ أو الاستعجالِ عند حلولِ الأَجَلِ، ومِمَّا يُلحَظُ فيها اقترانُ (إذا) بالفاء في آيتي الأعراف والنَّحل، وعدمُ اقترانِها في آية يونس؛ وذلك لأنَّ ما في سورةِ الأعرافِ، وكذلك ما في سُورةِ النَّحلِ مِن باب عَطفِ جُملةٍ على جملةٍ أُخرى مُصدَّرةٍ بالواوِ بينهما اتِّصالٌ وتَعقيبٌ، فبدأَت آيةُ الأعرافِ بالواو في قولِه تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌۖ﴾، واستهلَّت آيةُ النّحلِ بالواو في قولِه: ﴿وَلَوۡ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلۡمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيۡهَا مِن دَآبَّةٖ﴾ [النَّحل: 61]، فكان الموضعُ - في الآيَتَيْن - موضِعَ الفاء، فحسُنَ الإتيانُ بالفاءِ الدَّالّةِ على التّعقيبِ، كما أنّه استُغنِيَ بِفاءِ تَفريعِ عامِلِ الظَّرفِ هُنا عَنِ الإتيانِ بِالفاءِ في جَوابِ (إذا)؛ لِظُهُورِ مَعنى الرَّبطِ والتَّعليقِ بِمَجموعِ الظَّرفِيَّةِ والتَّفريعِ، بخلافِ ما في جاءَ سورة يُونُسَ الّتي أمرَ اللّهُ تعالى الرّسولَ أن يقولَ للمشركين فيها: لا أستطيعُ أن أدفعَ عن نفسي ضرًّا، ولا أجلبَ لها نفعًا، إلّا ما شاءَ اللّهُ أن يدفعَ عنِّي مِن ضرٍّ أو يجلبَ لي من نفعٍ. لكلِّ قوم وقتٌ لانقضاء مدّتهم في هذه الحياةِ، ﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي ضَرّٗا وَلَا نَفۡعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۗ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌۚ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ فَلَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ سَاعَةٗ وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [يونس: 49]؛ فإنَّ (إذا) في هَذِهِ الآيَةِ مُشْرَبَةٌ مَعنى الشَّرطِ، فَلِذَلِكَ اقتَرَنَتْ جُملَةُ عامِلِها بِالفاءِ الرّابِطَةِ لِلجَوابِ مُعامَلَةً لِلفعلِ العامِلِ في (إذا) مُعامَلَةَ جَوابِ الشَّرطِ[1].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

المجيءُ والإتْيانُ:

الإتيان: مجيءٌ بسهولةٍ، ومنه قيل للسّيلِ المارِّ على وجهِهِ: أَتِيّ وأَتَاوِيّ[2]، وبه شبّهَ الغريبُ فقيل: أتاويٌّ، ويُقال الإتيان للمجيء بالذّاتِ وبالأمرِ وبالتّدبيرِ، ويُقال في الخيرِ والشَّرِّ، وفي الأعيانِ والأعراضِ، نحو قولِهِ تعالى: ﴿إِنۡ أَتَىٰكُمۡ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوۡ أَتَتۡكُمُ

(1) الكرمانيّ، أسرار التّكرار، ص: 119، والأنصاريّ، فتح الرّحمن: 1/191 - 192، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/105، 11/191.
(2) الجوهريّ، الصّحاح: (أتى).

الإتـيـانُ مجـيءٌ بـسـهـولـةٍ، بخلاف المجـيءِ فـيُـلـحـظُ فيه الصُّعوبة

ٱلسَّاعَةُ﴾ [الأنعام: 40]، وقوله تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ﴾ [النّحل: 1]، وقوله: ﴿فَأَتَى ٱللَّهُ بُنۡيَٰنَهُم مِّنَ ٱلۡقَوَاعِدِ﴾ [النّحل: 26]، أي: بالأمر والتّدبير[1].

المجيء: تَدُلُّ المادَّةُ على معاني الصُّعوبةِ والغلبةِ والإلجاءِ، والحَبسِ، وعَدَمِ إدراكِ الغايةِ[2]. ومنه قوله تعالى: ﴿فَأَجَآءَهَا ٱلۡمَخَاضُ إِلَىٰ جِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ قَالَتۡ يَٰلَيۡتَنِي مِتُّ قَبۡلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسۡيٗا مَّنسِيّٗا ٢٣﴾ [مريم: 23].

والفرقُ بينهما أنَّ الإتيانَ مجيءٌ بسهولةٍ، بخلاف المجيءِ فإنَّه مجيءٌ بِصُعوبةٍ، وبينهما عمومٌ مِن حيث دلالتُهما على مُطلَقِ الحركةِ، والانتقالِ دون التَّقيُّدِ بسهولةٍ أو غيرها[3].

(1) الرّاغب، المفردات: (أتى).
(2) الجوهريّ، الصِّحاح، وابن فارس، مقاييس اللُّغة، وابن منظور، لسان العرب: (جاء).
(3) محمود موسى حمدان، الإتيان والمجيء فقه دلالتهما واستعمالهما في القرآن الكريم، ص: 14.

﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأۡتِيَنَّكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصۡلَحَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٣٥ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٣٦﴾ [الأعراف: 35 - 36]

مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِمَا قَبْلَهُما:

مَنْ عُذِّبَ في الدُّنيا ديانةً لَحِقَه عذابُ الآخرةِ جزاءً

لَمَّا بَيَّنَ اللّهُ تعالى في الآيةِ السَّابقةِ أنَّ لِكُلِّ أُمَّةٍ أجَلًا مُعَيَّنًا لا تتَقَدَّمُ عليه ولا تتَأَخَّرُ، بيَّن في هاتين الآيتين أحوالَهم بَعدَ المَوتِ، فإن كانُوا مُطيعِينَ فَلا خَوفٌ عَلَيهِم ولا حُزنٌ، وإن كانُوا مُتَمَرِّدِينَ وقَعُوا في أشَدِّ العَذابِ[1]، فالمناسبةُ بينَ الآياتِ هي إتباعُ بيانِ عذابِ اللّهِ في الدُّنيا عذابَ اللّه في الآخرةِ، وحسُنَ البَدءُ بعذاب الدّنيا إذ هي السَّابقةُ لعذاب الآخرةِ.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَقُصُّونَ﴾: من (قَصَص)، ويدلُّ أصلُ المادَّةِ على تَتَبُّعِ الشَّيءِ، مِن ذَلِك قَولُهُم: اقتَصَصتُ الأَثَرَ، إذَا تَتَبَّعتُه. ومِن ذَلِكَ اشتِقاقُ القِصاصِ في الجِراح، وَذَلِكَ أنَّهُ يُفعَلُ بِهِ مِثلُ فِعلِهِ بالأَوَّلِ، فكأَنَّهُ اقتَصَّ أَثَرَهُ[2]. ويُقال: قَصَّ أثرَ الشّيءِ؛ أي: تتبَّعَه. وكذلك اقتَصَّ أثرَه، وتَقَصَّصَ أثرَه. والقِصَّةُ: الأمرُ والحديث[3]. والاستقصاءُ: تَتَبُّعُ كُلِّ شيءٍ. والقَصَص: الأخبارُ المُتَتَبَّعةُ. ومعنى الآية: يَتلُونَها ويَحكُونَها.

2) ﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾: اشتقاقُ الآية إمَّا من (أيّ)، فإنّها هي الّتي تبيِّن

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 14/73.
(2) الجوهريّ، الصّحاح: (قصَّ).
(3) الجوهريّ، الصّحاح: (قصَّ).

أيًّا من أيّ، وإمّا من قولِهم: أوى إليه. والصّحيحُ أنّها مُشتقَّةٌ منَ التّأيي الّذي هو التّثبُّتُ، والإقامةُ على الشّيءِ، والآياتُ جمعُ آيةٍ، وهي العلامةُ الظّاهرةُ، وأُطلِقَ عليها هذا الاسم؛ لِمَا فيها منَ الدّلالةِ الباهرةِ والبراهينِ الظّاهرةِ، وسُمِّيتِ الآيةُ منَ القرآن آيةً؛ لأنَّها علامةٌ يُقطَعُ بها كلامٌ من كلامٍ[1]. ومعنى الآيات: الدّلائلُ على توحيدِ اللّهِ.

3) ﴿وَٱسۡتَكۡبَرُواْ﴾: من (كبر)، بمعنى: عَظُمَ، والكِبرُ: العَظَمَةُ والتَّجَبُّرُ، والإثمُ العظيمُ. والكِبرياء: العَظَمةُ، والتَّجَبُّرُ والتَّرفُّعُ عنِ الانقياد، ويُقال: تَكابَر فُلان: أَرى مِن نَفسه أنَّه كبيرُ القَدرِ أو السِّنِّ. واستَكبَر فلانٌ: امتَنَعَ عن قَبولِ الحَقِّ مُعانَدةً وتَكَبُّرًا، والاستِكبارُ: المُبالَغَةُ في التَّكَبُّرِ، وأن يتشبَّعَ الإنسانُ فيظهرَ من نفسِه ما ليس له، وهذا هو المَذمومُ، وعلى هذا ما وردَ في القرآن[2].

المَعْنى الإجْماليُّ:

وظيفةُ الرُّسلِ البيانُ، ووظِيفةُ النَّاسِ الإيمانُ

يُخاطِبُ اللّهُ بني آدَمَ أنَّه إن جاءَهم رُسُلٌ مِن جِنسِهم البَشَريِّ، يتلونَ عليهم آياتِ كِتابِه، ويُبَيِّنون لَهُم الدِّينَ، فمَنِ اتَّقى فترَك المُحَرَّماتِ، وتَرَكَ المَنهياتِ، وعَمِلَ الطَّاعاتِ؛ فلا خوفٌ عليهم ممَّا يَستقبِلونَ مِن أهوالِ يومِ القيامةِ، ولا هم يحزَنونَ على ما فاتَهم من حُظوظِ الدُّنيا، وعلى ما يَتركون مِن مالٍ وذُرِّيَّةٍ، ومَن كَذَّبَ بالدّلائلِ على توحيدِ اللّهِ، فلم يُؤمِنْ بِها، واستكبرَ عنها فلم يَنْقَدْ لأحكامِها، بل كَذَّبَ وتَوَلَّى عُتُوًّا وكِبْرًا، فأولئك هم أصحابُ النَّار، ماكِثون فيها، لا يخرجونَ منها أبدًا.

(1) الرّاغب، المفردات، والسَّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (آي).
(2) الرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (كبر).

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

نُكتةُ تَكرارِ النّداءِ:

الـنِّـداءُ إيـقـاظٌ للغافلِ، وتنبيهٌ للعاقلِ

تَكَرَّر النِّداءُ بقولِهِ تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ﴾ قَبلَ هذه الآيةِ ثلاثَ مَرَّاتٍ؛ وذلك للاهتمام بِشَأنِ ما في حَيِّزِهِ[1]، وقد سبقتِ الإشارةُ إلى هذه النّكتةِ.

بَلاغةُ تأكيدِ الشّرطِ:

يُؤَكَّدُ فِعلُ (إمَّا) بنونِ التّوكيدِ؛ لِئَلّا تنحطَّ دَرجةُ فعْلِ الشَّرطِ عن حَرفِهِ

أُوثِرَ الشَّرطُ في قولِهِ تعالى: ﴿إِمَّا يَأۡتِيَنَّكُمۡ﴾ في الحَضِّ على الاسْتِجابةِ؛ لتأكيدِ المعنَى المُرادِ هنا، وهو إرسالُ رُسُلٍ مُبَشِّرينَ ومُنذِرينَ؛ لذا أُكِّد هذا الشّرطُ بالنُّون.

فقد ضُمَّت (إنْ) إلى (ما) في قوله تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأۡتِيَنَّكُمۡ رُسُلٞ﴾؛ لِتَأكيدِ مَعنى الشَّرطِ؛ "لِما فيها مِنَ الدَّلالةِ على شَرطِ التَّعليقِ، والدَّلالةِ على زيادةِ العِلْمِ في المُعَلَّقِ عليه، والتُزِم أن يُؤَكَّدَ فعلُها بنونِ التّوكيدِ الثّقيلةِ أوِ الخفيفةِ؛ لئلّا تنحطَّ درجةُ فعْلِ الشَّرطِ عن حَرفِهِ، وتعاضُدًا في الدَّلالةِ على إرادةِ التّوكيدِ"[2]، وجوابُ هذا الشَّرطِ قولُه تعالى: ﴿فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾؛ والمَعنى: إنْ أتاكم رُسُلٌ كائِنُونَ مِنكم، يُخبِرُونَكم بأحكامِي، ويُبَيِّنُونَها لكم، فَمَنِ اتَّقى مَعاصِيَ اللّهِ، وأصلَحَ حالَ نَفسِهِ، بِاتِّباعِ الرُّسُلِ وإجابَتِهِم ﴿فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾[3].

دَلالةُ العُدولِ عنِ الماضِي إلى المضارعِ:

أَثَرُ رُسُلِ اللهِ باقٍ في الـدُّعـاةِ إلى قِيامِ السَّاعةِ

عُدِلَ عنِ الماضي إلى المضارعِ في قولِهِ: ﴿يَأۡتِيَنَّكُمۡ﴾؛ لِيَدُلَّ على أنَّ الإتيانَ باقٍ وقتَ الخِطابِ؛ لِتَقوى الإشارَةُ بِصِحَّةِ النُّبُوَّةِ إلى مُحمَّدٍ ﷺ؛ وهذا على مُراعاةِ وقتِ نُزولِ الآيةِ[4]، ولإفادةِ أنَّ الدُّعاةَ

(1) الآلوسّي، روح المعاني: 5/169.
(2) شيخ زاده، حاشية على البيضاويّ: 4/215.
(3) الشَّوكانّي، فتح القدير: 2/286.
(4) ابن عطيّة، المُحَرّر الوجيز، ص: 700.

ورثةُ الأنبياءِ، وأنَّ على النَّاس الاستماعَ إلى دعوتِهم، والاستجابةَ إلى كلمتِهم؛ كاستماعِهم إلى الرُّسلِ والنَّبيِّين.

غَرَضُ تَنكيرِ ﴿رُسُلٌ﴾:

نُكِّرَت كلمةُ ﴿رُسُلٌ﴾ في قولِه تعالى: ﴿رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى﴾؛ للتَّعظيمِ والتَّكريمِ؛ لِعَظمةِ مَن أرسلَهم سبحانَه؛ ولعظمةِ رسالةِ هؤلاء الرُّسلِ ﷺ، ولاصطفاءِ اللهِ لهم مِن بين سائرِ خَلقِه.

مَنِ اتَّبعَ رسولًا واحدًا فقدِ اتَّبعَ سائرَ الأنبياءِ والمُرسَلينَ

والمرادُ بالرُّسُلِ هنا جميعُ الرُّسُلِ ﷺ، وعليه فالجمعُ على حقيقتِه، وليس كما قيلَ: إنَّ المرادَ به رسولُنا محمّدٌ ﷺ، وأنَّ الجمعَ للتّعظيم[1]؛ لمنافاته للسِّياقِ؛ فالآيةُ ليسَت محمولةً على إطلاقِ الكلِّ وإرادةِ الجزءِ بالاعتبارِ المجازيِّ، بل هي على الحقيقةِ؛ لأنَّ مَنِ اتَّبعَ رسولًا واحدًا فقدِ اتَّبعَ جميعَ المرسلينَ، وهذا هو مُقتضَى الإيمانِ بهم، كما قال ربُّنا: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ﴾ [البقرة: 285].

دَلالةُ الجارِّ والمجرورِ في الامْتِنانِ:

للجارِّ والمجرور ﴿مِّنكُمْ﴾ المُتعلِّقِ بمحذوفٍ والواقعِ صِفَةً لِرُسُلٍ في قولِه تعالى: ﴿رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى﴾، أثرٌ بالغٌ في الامتنان بإرسالِ الرُّسُلِ إلى بني آدمَ، والمقصودُ أنَّ الرُّسلَ مِن عموم بني آدمَ، وكذلك من خصوص قبيلةِ كُلِّ نَبيٍّ، وهذا أقطعُ لِعُذرِ المُرسَلِ إليهم، وأثبتُ للحُجَّةِ عليهم؛ لأنَّهم به أَلصَقُ، وبأحوالِه أخبَرُ، وبِشَأنه أعلَمُ.

إرسالُ الرُّسُلِ للنَّاسِ رحمةٌ منَ اللهِ وتَفَضُّلٌ عليهم، وتَعريضٌ بالجَهَلَةِ الَّذينَ أنكَرُوا بعثَتَهم

كما أنَّ الأُلفَةَ، وسُكُونَ القَلبِ، واطمئنانَ النَّفسِ تتحقَّقُ عند إرسالِ الرُّسُلِ إلى بني جِنسِهم بِخِلافِ ما لا يَكونُ مِنَ الجِنسِ، فإنَّه لا يَحصُلُ مَعَهُ شيءٌ مِن ذلك، وهذا مِن بابِ الامتنانِ منَ اللهِ على عبادِه.

(1) الجَمَل، الفتوحات الإلهيَّة: 2/137.

وفي التَّعبير بالجارِّ والمجرور ﴿مِّنكُمْ﴾ قَطعٌ لِطَمَعِ المُكذِّبين في أن يُرسِلَ اللّهُ تعالى لَهُم رُسُلًا مِنَ المَلائِكَة؛ لأنَّ المُرسَلَ يَكُون مِن جِنسِ مَن أُرسِلَ إلَيهِم، وفي هذا تَعرِيضٌ بالجَهَلَةِ مِنَ الأُمَمِ الَّذِينَ أنكَرُوا رِسالَةَ الرُّسُلِ؛ لأنَّهم مِن جِنسِهِم، مِثلُ قَومِ نُوحٍ إذ قالُوا: ﴿مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا﴾ [هود: 27]، وكمشركي مكَّةَ إذ كَذَّبُوا رِسالَةَ محمَّدٍ ﷺ؛ لأنّه بَشَرٌ كما حكى القرآنُ عنهم: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾﴾ [الإسراء: 94][1].

نُكتَةُ التَّعْبيرِ عنِ الصِّفَةِ بالفعْلِ المُضارِع:

مَـدحُ الـرُّسُـلِ وأتْباعِهم بتلاوةِ آياتِ اللهِ للنَّاسِ أجمعين

عُبِّر عنِ الصِّفَةِ ﴿يَقُصُّونَ﴾ بصيغةِ الفعلِ المضارِعِ في قولِهِ تعالى: ﴿رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى﴾ للإشارةِ إلى إتمامِ رُسُلِ اللّهِ رسالتَهم إلى النَّاس، وكمالِ إبلاغِهم مُرادَ اللّهِ إلى خَلقه، وبَذلِهم أقصى طاقاتِهم في تلاوة منهجِ اللّهِ إلى البَشَرِ، فالآيةُ أفادَت تصويرَ تلاوةِ الرُّسلِ آياتِ اللّهِ، وحكايتَها للنّاس، أو أنّهم مواظبون على تبليغِ رسالاتِ اللّهِ إلى أممِهم، فهم يُتبِعُونَ الآيَةَ بأُخرى، أو أنّهم يُظهِرُونَ ما جاءَهم منَ الآياتِ عنِ اللّه دون كتمانٍ أو إخفاءٍ، وكُلُّها مَعانٍ مَجازِيَّةٌ لِلقَصِّ؛ لِأنَّ حَقيقَةَ القَصِّ هي أنَّ أصلَ القَصَصِ إتباعُ الحَديثِ مِنَ اقتِصاصِ أثَرِ الأرجُلِ واتِّباعِهِ؛ لِتُعْرَفَ جِهَةُ الماشِي، فَعَلى المَعنى الأوَّلِ فَهو كَقَولِهِ في الآيَةِ الأُخرى: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ﴾ [الزّمر: 71]، وأيًّا ما كانَ فَهو مُحتَمَلٌ لِلحَملِ عَلى جَميعِها مِنَ استِعمالِ اللَّفظِ في مَجازَيهِ[2]، أو أنَّ الرّسلَ عليهم السلام مُستمرُّون في تلاوةِ آياتِ اللّهِ تعالى من خلال أتباعِهم، وفي ذلك مدحٌ عظيمٌ وثناءٌ بالغٌ على المُبلِّغينَ رسالةَ الرُّسلِ للنَّاس دونَ تحريفٍ أو تبديلٍ أو تغييرٍ.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/108.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/108.

سِرُّ اخْتِيارِ مُفردةِ ﴿يَقُصُّونَ﴾ دونَ مُرادفاتِها:

تَناسُبُ التَّعْبيرِ بالقَصِّ مَعَ المَقصودِ الأعلَى للسُّورةِ

أُوثِرَ التَّعبيرُ بـ﴿يَقُصُّونَ﴾ دون (يَتْلون) مع أنَّها الأظهرُ في مقامِ ذكرِ الآياتِ؛ لأنَّ القَصَّ أَعَمُّ؛ حيث يَشملُ كُلَّ ما يُخبَرُ به، سواء كان من صُحُفٍ أَم مِن دون صُحُفٍ، وسواء كان بتلاوةٍ مباشرةٍ بالتزامِ حروفِها أم بغيرِها، فالتَّعبيرُ بـ﴿يَقُصُّونَ﴾ يشملُ جميعَ الرُّسُلِ ممَّنْ أُنْزِلَت عليهم الكُتُبُ، ومَن لم تُنَزَّلْ عليهم، كما حكى اللهُ مثلَ ذلك في السّورةِ السّابقةِ: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾ [الأنعام: 130][1].

وقد رَبَطَ البِقاعيُّ بَين مقصودِ السُّورةِ، وإيثارِ التَّعبيرِ بالقَصِّ دون التِّلاوة ومرادفاتِها فقال: "ولَمّا كانَ الأغلَبُ على مَقصدِ هَذِهِ السُّورَةِ العِلْمَ كما تَقَدَّمَ في قوله: ﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ ۖ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ۝٧﴾ [الأعراف: 7]، ويأتي في قوله: ﴿وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ [الأعراف: 52] وغَيرِها، كانَ التَّعبيرُ بِالقَصِّ الَّذي هو تَتَبُّعُ الأثَرِ كما تَقَدَّمَ في الأنعامِ أليَقَ، فَقالَ: ﴿يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى﴾؛ أي: يُتابِعُونَ ذِكرَها لَكم على وجهٍ مَقطوعٍ بِهِ، ويَتَّبِعُ بَعضُهم بِها أثَرَ بَعضٍ لا يَتَخالَفُونَ في أصلٍ واحِدٍ مِنَ الأُصُولِ"[2].

نُكتةُ تَعْدِيةِ الفعْلِ بحرفِ الاسْتِعلاءِ:

قَصُّ الرُّسُلِ آياتِ اللهِ لإقامةِ الحُجَّةِ على المَدعُوِّين، وقطْعِ معاذيرِهم

عُدِّيَ الفِعلُ ﴿يَقُصُّونَ﴾ بحرفِ الاستعلاءِ ﴿عَلَيْكُمْ﴾، ولم يُتَعَدَّ بحرفِ الاختصاصِ (اللّام) فلم يُقَل: (يَقُصُّون لَكُم)، ولم يَرِد كذلك الفعلُ غيرَ مُتعدٍ بحرفٍ كقولِهِ تعالى: ﴿يَقُصُّ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ ۝٥٧﴾ [الأنعام: 57]؛ لأنَّ (على) تُشعِرُ بالثِّقَلِ والتَّحَمُّلِ والتَّبِعةِ، وهذا يناسبُ المقامَ هنا؛ حيث لم يكن قَصُّ الرُّسُلِ آياتِ اللهِ على المبعوثينَ إليهم بغرضِ تزجيةِ الوقتِ والتَّسليةِ، وإنَّما لإقامةِ الحُجَّةِ

(1) السَّامرائي، أسئلة بيانيّة: 2/50.
(2) البِقاعيّ، نظم الدُّرر: 7/394.

عليهم، وقطعِ معاذيرِهم، وتلك مسؤوليّةٌ عليهم وتَبِعةٌ إن أعرضوا عن آياتِ اللّهِ، ومنهجِ رَبِّهم، والتّصديقِ بآياتِهِ؛ لذا كان الملائمُ هنا تعديةَ الفعلِ بحرفِ الاستعلاءِ لا بحرفِ الاختصاصِ.

نُكتةُ تقديمِ الجارِّ والمجرورِ على المفعولِ:

المُخاطَبونَ هم المُستهدفونَ مِن تلاوةِ آياتِ اللّهِ عليهم، وتبليغِها إليهم

قُدِّمَ الجارُّ والمجرورُ في قولِه: ﴿يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي﴾؛ للاهتمام بالمُقَدَّم؛ حيث إنَّ المُخاطَبينَ هم المُستهدفونَ مِن تلاوةِ آياتِ اللّهِ عليهم، وتبليغِها إليهم؛ لذا قُدِّمَ الجارُّ والمجرورُ؛ ففيه معنى الرِّعايةِ بالمُخاطَبين وبيانِ رحمةِ اللّهِ بهم، فهو أرسلَ الرُّسلَ ليقُصُّوا عليهم الآياتِ، ولو عكسَ لكان الاهتمامُ بالآياتِ، ففيه إيماءٌ إلى أنَّ دعوتَهم هي غايةُ الإرسالِ، وهذا من حكمةِ اللّهِ تعالى الّذي يضعُ الأمورَ في نصابِها، كما قالَ تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ﴾ [إبراهيم: 4]؛ إذ مهمّةُ كلِّ رسولٍ هي البلاغُ بلُغةِ قومِهِ ليوضِّحَ لهم شريعةَ اللّه.

دَلالةُ إضافةِ (آيات) لضميرِ المُتكلِّمِ المُفرِدِ:

تشريفُ الآياتِ وتعظيمُ الدّاعينَ لها

المرادُ بآياتِ اللّهِ تعالى في قولِه: ﴿يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي﴾ آياتُ كُتُبِه سبحانَه، والدَّلائِلُ، والأحكامُ، والشَّرائِعُ؛ لأنَّ جَميعَ هَذِهِ الأشياءِ آياتُ اللّهِ تعالى؛ كما أنَّ الرُّسُلَ إذا جاءُوا فلا بُدَّ وأن يَذكُرُوا جَميعَ هذه الأقسام[1].

وإضافةُ (آيات) لضميرِ المتكلِّم المفردِ ﴿ءَايَٰتِي﴾؛ لتشريفِ الآياتِ، ولتعظيمِ الدَّاعينَ إليها، فالآياتُ آياتُ اللّهِ تعالى مَلِكِ الملوكِ، بارئِ الكَونِ، ربِّ العالمينَ.

تقديرُ المحذوفِ بين جُملةِ الشّرطِ وجوابِها:

وَقَعَت جُملَةُ ﴿فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصۡلَحَ﴾ جَوابًا للشَّرط في قولِه تعالى: ﴿إِمَّا يَأۡتِيَنَّكُمۡ﴾، وبَينَ جُملَةِ الشَّرطِ وجوابها محذوفٌ تقديرُهُ:

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 14/73.

(فاتَّقى منكم فَريقٌ، وكَذَّبَ فَريقٌ؛ فَمَن اتَّقى)...، وهَذه الجُملَةُ شَرطِيَّةٌ أيضًا، وجَوابُها: ﴿فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ﴾؛ أي: فَمَن اتَّبَعَ رُسُلِي فاتَّقاني، وأصلَحَ نَفسَهُ وعَمَلَهُ، فَلا خَوفٌ عليهم ولا هم يَحزنونَ[1].

الإيجازُ بالحذْفِ دَلَّت عليه الفاءُ الفصيحةُ، وهو مِن سِماتِ البيانِ القرآنيِّ

وهذا مِنَ الإيجاز بالحذف، دَلَّت عليه الفاءُ الفصيحةُ، وقد جَنَّبَ هذا الأسلوبُ الرشيقُ طُولَ العبارة وتَرَهُّلَها، وحافظَ على رشاقةِ الجُملةِ وخِفَّتِها، وتلك مِن سمات التَّعبيرِ القرآنيِّ المُعجِزِ.

نُكتةُ اقْترانِ جوابِ الشَّرطِ بالفاء:

وُجوبُ تَحقُّقِ الوعْدِ، وجوازُ تَخَلُّفِ الوعيدِ

اقتُرِنَ جوابُ الشَّرطِ الأوَّلُ بالفاءِ في قولِه: ﴿فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصۡلَحَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾، دونَ الجزاءِ الثّاني في قولِه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾؛ للمبالغةِ في الوعدِ؛ لِعَدم تَخَلُّفِه، إذ حرفُ الفاءِ يُشعِرُ بأنَّ الاتِّقاءَ سَبَبٌ للفَلاحِ، وهو لا يتخَلَّفُ عنِ الاتِّقاء[2]، واقترنَ بالفاءِ أيضًا؛ للمبالغة بِعَدم تَخَلُّفِه، وللمُسامحةِ في الوعيدِ، فإنَّه يجوزُ تَخَلُّفُه رحمةً منَ اللّه تعالى ببَعض العُصاةِ، ومغفرةً مِنه سبحانَه، وتَفَضُّلًا، وعفوًا، والمعنى: لا خوفَ عليه منَ العقاب، ولاهُم يحزنون لفواتِ الثَّواب[3].

سِرُّ العُدولِ عمَّا يقتضِيه الظَّاهرُ في جوابِ الشَّرطِ:

غايةُ إرسالِ الرُّسُلِ توريثُ التَّقوَى وإصلاحُ النَّاسِ

جاءَ جوابُ الشَّرطِ خلافَ ما يُتوقَّعُ، وهو: (فَمَنِ اتَّبَع الرُّسُل)، فآثر النَّظمُ قولَه تعالى: ﴿فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصۡلَحَ﴾؛ لأنَّ غايةَ إرسالِ الرُّسُلِ هي توريثُ التَّقوى، وإصلاحُ النّاسِ، لا نَفعُ الرُّسُلِ ﷺ، إذ هو لسانُ حالٍ ومقالٍ موكبِ الأنبياءِ الكريمِ، حينما قالُوا لأقوامِهم: ﴿وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٠٩﴾ [الشّعراء: 109]؛ فأرادَ النَّظمُ إبرازَ هذا المطلوبِ، فغرضُ النَّظمِ تجليةُ المقصودِ، وتبيينُ المرادِ.

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتّنوير: 8/109.
(2) القونويّ، حاشيته تفسير على البيضاويّ: 8/378.
(3) الخفاجيّ، عناية القاضي: 4/166.

فائِدةُ التَّعْبيرِ بالفعْلِ الماضِي:

الإغراءُ بسُرعةِ الاستِجابةِ، ووجوبِ المُبادرةِ إلى الطاعةِ

أُوثِرَ التَّعبيرُ بالفعل الماضي في قولِهِ تعالى: ﴿فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصۡلَحَ﴾ على المضارع: (يَتَّقي ويُصْلِح)؛ إغراءً بسرعة الاستجابةِ، وحَثًّا عليها، وإظهارًا لِلعبد المُستجيبِ الطَّائعِ الّذي اتّقى التَّكذيبَ بآياتِ اللّهِ، وأصلحَ عملَه في صورةِ مَن بادرَ إلى العملِ فورَ تلقِّيه آياتِ رَبِّه.

وفي هذا أيضًا إشارةٌ إلى وجوبِ المُبادرةِ إلى طاعةِ اللّهِ تعالى دونَ تباطؤٍ أو تَلَكُّؤٍ، وإلى تطبيقِ شَرعِ اللّهِ في أرضِهِ، واتِّخاذِه مَنهَجَ حياةٍ دون سَخَطٍ أو إجبارٍ، بل طَواعِيَةً، وبِصَدرٍ مُنشَرِحٍ، ونَفسٍ راضيةٍ.

غَرَضُ التَّنكيرِ:

نفيُ أدْنى خَوفٍ أو حُزنٍ مِن جميعِ مَكارِهِ النَّفسِ ينالُ الأتقياءَ الأنقياءَ

غرضُ التَّنكيرِ في قولِه: ﴿خَوۡفٌ﴾ التَّقليلُ، والمُرادُ نَفيُ أن يَمَسَّ المُتَّقينَ الطَّائعينَ المُصلِحينَ أدنى خَوفٍ مِن جميعِ مَكارِهِ النَّفسِ وأنكادِها في مُستَقبَلِهم وماضيهم، فهنا نَفيٌ لِجِنسِ الخَوفِ بدلالة (لا) النّافية للجنس ﴿فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ﴾؛ والمعنى: فَلا خَوفٌ عليهم في الدّارَين مِن لُحُوقِ مَكرُوهٍ، ولاهُم يَحزَنُونَ مِن فَواتِ مَطلُوبٍ.

تَوجيهُ القراءاتِ القرآنيَّةِ:

قراءةُ الفتحِ تَنفِي جميعَ أنواعِ الخَوْفِ

قرأ يَعقُوبُ (فَلا خَوْفَ عَلَيْهُم) بِفَتحِ الفَاءِ من غيرِ تَنوينٍ، وَقرأَ البَاقُونَ بِالرَّفعِ والتّنوين؛ وذلك أنَّ (لا) إذا بُنيَت مع النَّكرةِ على الفتحِ كانَ النّفيُ بها عامًّا، نحو: لا رجلَ في الدَّار، فهو نفيٌ لجميع أجناسِ الرِّجالِ في الدَّار، كأنَّه جوابُ سؤالٍ مُقدَّرٍ: هَل من رجلٍ في الدّارِ؟

فتكون قراءةُ الفتحِ: (فَلا خَوْفَ) آكدَ في نفي الخوفِ؛ لِمَا فيها من عموم نفي جنسِ الخوفِ، فأفادَت نفيَ جميعِ أنواعِ الخوفِ عن متَّبعي هدى الرّحمنِ[1]، وأنَّ المكلَّفَ الّذي أطاعَ اللّه تعالى لا يلحقُه

(1) الشّيرازيّ، الموضَح: 1/269 - 270.

خوفٌ في القبرِ، وعندَ البعثِ، وعندَ حضورِ الموقفِ، وعندَ تطايرِ الكتبِ، وعندَ نصبِ الميزانِ، وعندَ الصّراطِ[1].

نُكتةُ التَّعْبيرِ بحرفِ الاسْتِعلاءِ:

نفيُ اسْتِعلاءِ الخَوفِ عليهم وتمكُّنِه منهم، وإحاطَتِه بِهِم، لا مُطلَقِ الخوفِ

الاستعلاءُ في قولِه: ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ استعلاءٌ مجازيٌّ، وأُوثِرَ التَّعبيرُ بـ(على)؛ لما في (على) مِنَ الدِّلالة على الاستِعلَاءِ والإحاطَةِ، ولأنَّ الخوفَ مَضَرَّةٌ وأَلَمٌ نفسيٌّ وثِقَلٌ يَعتَري صاحبَه، ويستولي عليه، وهذا يناسبُه حرفُ الاستعلاءِ، كما أنَّ في التَّعبيرِ بحرفِ الاستعلاءِ تصويرُ الخوفِ بجاثمٍ على الصّدرِ، مُتمكِّنٍ من صاحبِه، وهذا حالُ الخائفِ، فالآيةُ نفَت ذلك الخوفَ، وأثبتتِ الأمانَ والطَّمأنينةَ لصاحبِها، فيكُونُ المَنفيُّ استعلاءَ الخَوفِ عَلَيهِم وتمكُّنَه منهم، وإحاطتَه بِهِم، لا مطلق الخوفِ، فلا يكون فِيهِ نفيُ خوفِ المُتّقينَ مِن أهوَالِ القِيَامَةِ، لكنَّها تكُونُ مُخَفَّفَةً عَنهُم، ثُمَّ إذا صارُوا إلى رحمةِ اللّهِ سبحانَهُ؛ كانَ حَالُهم كَحَالِ مَنْ لَم يخَفْ[2].

سِرُّ تَقديمِ نَفْيِ الخَوفِ على نَفْيِ الحُزنِ:

الخوفُ يَقوَى مع اقترابِ المَخوفِ منه بخلافِ الحُزنِ فيضعَفُ بالابتعادِ عن زمانِهِ

قُدِّم نَفيُ الخَوفِ على نَفي الحُزنِ في قولِه تعالى: ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾؛ لأنَّ الخوفَ يكونُ لِمَا سيأتي، بينما الحزنُ فلمَا مضى، وما مضى يضعفُ مع الأيّام، بخلافِ الخَوفِ فإنَّه يَشتَدُّ بمرِّ الزَّمانِ ويَقوى، والحُزنُ يَخِفُّ ويَضعفُ؛ لذا قُدِّمَ الأقوى في النَّفسِ، والأشدُّ أَثَرًا فَقالَ: ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾؛ أي: مِن شَيءٍ آتٍ، فإنَّ الخَوفَ اضطِرابُ النَّفسِ مِن تَوَقُّعِ فِعلٍ ضارٍّ[3].

وأيضًا، لأنَّ الحُزنَ يحصلُ نتيجةَ الخوفِ، فالحزنُ مرحلةٌ تاليةٌ للخوفِ، فإذا نُفِي ما يُستَجَدُّ منَ الحزنِ يُنفى ما يُستَجَدُّ منَ الخوفِ.

---

(1) الجاويّ، مَراح لبيد: 1/17.

(2) أبو حيَّان، البحر المحيط: 1/274.

(3) البِقاعيّ، نظم الدُّرَر: 1/65.

نُكتةُ اختلافِ المتقابلات:

خوفُ المؤمنين مِن أهوالِ يومِ القيامةِ واقعٌ، وإثباتُه مَدحٌ لَهُم

المُتأمِّلُ في صياغةِ جُملَتي الجزاء: ﴿فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ﴾، وجملة: ﴿وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ يلحظُ اختلافَ الصّياغةِ بينَ الجملتين؛ حيث جاءَت الأُولى بالاسم ﴿خَوۡفٌ﴾، والثّانية بالفعل ﴿يَحۡزَنُونَ﴾، حيث لم يقُل سبحانَه: (لا يخافون)، كما قال: ﴿وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾؛ وذلك لأنَّ الخوفَ يقوى ويثبتُ مع تقادمِ الأيَّام، والّذي يناسبُ ذلك التَّعبير بالاسم، بينما الحزنُ فإنَّه يضعفُ مع تباعدِ الأيَّام، فناسبَ ذلك الفعلَ.

فائِدةُ مجيءِ المُسندِ إليه مَنفيًّا، والمُسنَدِ فعلًا:

التَّعريضُ بالجديرين بالحُزنِ منَ الكفَرةِ

أفادَ النَّظمُ الاختصاصَ، فأتى بالمسندِ إليه المسبوقِ بأداةِ النَّفي، والمسندِ الفعليِّ؛ فأفادَ نَفيَ الحُزنِ عنهم، وإثباتَه لغيرِهم؛ والمعنى: أنَّ الحزنَ سيقعُ لكن على غيرِهم لا عليهم، فهو تعريضٌ بمَن آثرَ الكفرَ على الإيمانِ في الدُّنيا.

وعَدَل عَنِ المُفرَدِ، بأن يُقالَ: ولا حُزنٌ عليهم، إلى ما عليه النَّظمُ القرآنيُّ؛ لِيَتَأتّى بِذَلِكَ بِناءُ المُسنَدِ الفعلِيِّ على ضميرِهم؛ فيفيد القَصرَ؛ أي: تخصيصُ المُسنَدِ إلَيهِ المُتَقَدِّم ﴿هُمۡ﴾ بالخَبَرِ؛ فَيَدُلُّ على أنَّ الحُزنَ واقِعٌ بِغَيرِهِم، وهم الَّذينَ كَفَرُوا[1].

سِرُّ الاخْتِلافِ في التَّعْبيرِ بينَ المُتَقابِلاتِ:

التّكذيبُ كالاستِكبارِ، كلاهما مانعٌ منَ التّقوَى والعمَلِ الصّالِحِ

جاءَ قولُه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَآ﴾ معطوفًا على ما قَبله، ولم يقُل: (ومَن كفرَ وأفسدَ) موافقًا للمعطوفِ عليه في اللّفظ؛ لِلإيذانِ بأنَّ مَدارَ الفَلاحِ لَيسَ مُجَرَّدَ عَدَمِ التَّكذيبِ، بل هو الاتِّقاءُ والاجتِنابُ عنه[2]، والمرادُ هنا: بيانُ عاقبةِ الّذين أعرضوا عنِ التَّصديقِ بآياتِ اللّهِ الدَّالّةِ على وحدانيَّتِهِ سبحانَه، وأنِفُوا مِن قَبُولِها وتَمَرَّدُوا عَنِ الإذعانِ لها، والعملِ بمقتضاها.

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتّنوير: 8/109.
(2) الآلوسّي، روح المعاني: 6/170.

نُكتةُ التَّعبيرِ بالاسمِ الموصولِ:

كُفْرُ المُخبَرِ عنهم بجميعِ آياتِ اللهِ تعالى

أُوثِرَ التَّعبيرُ بالاسمِ الموصول دون الاسمِ الظّاهرِ في قولِهِ: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾، حيث لم يقُل: (والمُكَذِّبون بآياتنا)؛ لبناءِ الخبرِ على صلةِ الموصولِ؛ أي: إنَّ ذَلِكَ العقابَ لِأجل تَكذيبِهِم بآياتِ اللّهِ واستِكبارِهِم عنها.

غَرَضُ إضافةِ الآياتِ إلى ضَميرِ التَّعظيمِ:

تفخيمُ الآياتِ وتعظيمُها وبيانُ فظاعةِ جُرْمِ المُكَذِّبِينَ

أُضيفتِ الآياتُ إلى ضميرِ الجَمعِ لتفخيمِها وتعظيمِها، كما لا تَخفى دلالةُ الإضافةِ إلى ضميرِ العظمةِ (نا) على فظاعةِ جُرمِ هؤلاء المَخلوقينَ الضُّعفاءِ الّذين يتجاسرون على محاربةِ رُسُلِ اللّهِ تعالى، والتّكذيبِ بآياتِ اللّهِ خالقِهم ورازقِهم.

نُكتةُ جمْعِ الآياتِ:

الإشارةُ إلى المُبالغةِ في مقابَلةِ حُججِ الحقِّ بأكاذيبِ الباطلِ

التَّعبيرُ بصيغةِ الجَمعِ في قولِهِ: ﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾ في المَوضِعين، حيث قالَ في الآيةِ السَّابقةِ: ﴿يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي﴾ مبالغةً في الإخبار عن جحودِهم، وإعراضِهم عن آياتِ اللّهِ تعالى، وتكذيبِها، وكأنَّهم ما تركوا آيةً من آيات دلائلِ وحدانيّةِ اللّهِ تعالى جاءَتهم بِها رُسُلُهم عليهم السلام إلّا وكذَّبوها، وأعرضوا عنِ الإيمانِ بِها.

فائِدةُ عطْفِ الاسْتِكبارِ على التَّكذيبِ:

بيانُ عِلّةِ التَّكذيبِ وهي الاسْتِكبارُ

ذُكِرَ الاستكبارُ عن آياتِ اللّهِ تعالى بعدَ ذكرِ التَّكذيبِ بها في قولِه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَآ﴾؛ لبيانِ عتوِّ المُكذِّبينَ، وأنَّهم كُذِّبُوا بسببِ استكبارِهم عن آياتِ اللّهِ وقَبولِها، ففائدةُ العطفِ تظهرُ في أمرين:

الأوَّل: بيانُ شدَّةِ تكذيبِ المُكذِّبين، وطغيانِهم.

الآخر: بيانُ علَّةِ التَّكذيبِ وهي الاستكبار، فهو من عطفِ العلَّةِ على النَّتيجةِ؛ كأنَّه قال: كذَّبوا؛ لأنَّهم مُستكبرونَ عن آياتِ اللّهِ.

دَلالةُ عدَمِ إشرابِ الاسمِ الموصولِ معنَى الشَّرطِ:

العبارةُ فيها تهديدٌ ضِمْنيٌّ مناسِبٌ لشناعةِ جُرْمِ المُكذِّبين

منَ الملحوظِ في هذه الآيةِ الكريمةِ عدمُ إشرابِ الاسم الموصولِ معنى الشَّرط بإثباتِ الفاءِ في جملةِ خبرِه، حيث خلا قولُه تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ﴾ منَ الفاءِ، فلم يقُل: (فأولئك أصحاب النّار)؛ وذلك "لِلتَّرهيبِ مِن شَكاسَةِ الطِّباعِ"[1]، فأُخرِجَتِ العبارةُ في صورةِ خَبَرٍ مشحونٍ بالوعيدِ والتّهديدِ؛ ليتناسبَ مع شناعةِ جُرمِ المُكذِّبينَ المُعاندينَ للّه تعالى، ورُسُلِه الكرامِ ﷺ.

نُكتةُ التَّعْبيرِ باسْمِ الإشارةِ في الإنباءِ عن مَصيرِ المُكذِّبينَ:

الإيماءُ بأنَّ المُشارَ إليهم غارقونَ في الضَّلالِ، وشِدَّةِ العَذابِ

عُبِّرَ باسم الإشارةِ للبعيد؛ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ﴾، فلم يأتِ بضمير الفصلِ (هم أصحاب النَّار)؛ وذلك للدّلالةِ على بُعدِ منزلتِهم في البُغضِ والضَّلالِ والهلاكِ، فتضمَّنَ اسمُ الإشارةِ ما يُفيدُه ضميرُ الفصلِ من بيانِ مآلِهم، وفي الإشارة إلى الموصوفين بصفاتِ التَّكذيبِ والاستكبارِ إيماءٌ إلى أنَّ هذه الصّفاتِ هي السّببُ في الجزاء.

دَلالةُ اخْتيارِ لفْظِ الصُّحبةِ:

التَّركيبُ يُشيرُ إلى المُلازمةِ الدَّائمةِ للنَّار

اختارَ النَّظمُ الكريمُ لفظَ الصُّحبةِ في قولِه تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ﴾ وتعني الصُّحبةُ "الاقترانَ بالشَّيء في حالٍ ما، وفي زمانٍ ما، فإن كانتِ المُلازمةُ والخُلْطةُ، فهي كمالُ الصُّحبةِ، وهكذا هي صُحبةُ أهلِ النَّارِ"[2]، صُحبةٌ دائمةٌ ملاصقةٌ مُستمرِّةٌ، صحبةٌ لا انفكاكَ منها. وفي التَّعبير بهذا التّركيبِ إشارةٌ إلى أنَّ هؤلاء الكُفَّار هُم أَحَقُّ بهذه النَّار؛ لأنَّهم أهلُها، وقد قَدَّموا ما يستأهلونَ به صُحبةَ النَّارِ، وجدارةَ ملازمتِها، والخلودَ فيها، "وأفادَ تَحْقيقَ أنَّهم صائِرُونَ إلى النّارِ بِطَريقِ قَصرِ مُلازَمَةِ النّارِ

(1) البِقاعيّ، نظم الدُّرر: 7/395.
(2) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 9/219.

عليهم في قولِه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ﴾؛ لأنَّ لَفظَ ﴿أَصۡحَٰبُ﴾ مُؤذِنٌ بالمُلازَمَةِ"[1].

كما أنَّ هذا التَّركيبَ يُشيرُ إلى قصرِ ملازمةِ النَّارِ لهم، فهم مُلازِمون لها على الدَّوامِ دونَ غيرِهم، ممَّن سيدخلُها من فَسَقَةِ المؤمنين، وهذا دليلٌ على الخلودِ.

نُكتةُ الفصْلِ:

توكيدُ الخُلودِ لمعنَى الصُّحبةِ

جاء قولُه تعالى: ﴿هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ مفصولًا غير موصولٍ؛ لإفادتِه توكيدَ الجملةِ السَّابقةِ، فقد أفادَت الجملةُ السَّابقةُ أنَّ أصحابَ النَّارِ مُلازمونَ لها على الدَّوام، فكان ذكرُ الخلودِ توكيدًا لمعنى الجملةِ السَّابقةِ، ولذلك فُصِلَت، وهي من بابِ كمالِ الاتِّصالِ.

دَلالةُ التَّوكيدِ بضميرِ الجمْعِ ﴿هُمۡ﴾:

مزيدُ ترويعٍ للمُكذِّبين وتهديدٍ لَهُم، وعَدمُ خُلودِ مُرتكِبِ الكبيرةِ منَ المسلمينَ في النَّارِ

دلَّ التَّوكيدُ بضميرِ الجمعِ ﴿هُمۡ﴾ على عَدمِ خلودِ العاصِي مِن غَيرِ تَكذيبٍ ولا استِكبارٍ في النَّارِ، وبدليل تقديمِ الجارِّ والمجرورِ على الخبرِ في قولِه: ﴿فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾، ودلالتِه على القَصرِ؛ أي: هؤلاء البُعداء المُكَذِّبون المُستكبرون هم خالدون فيها دونَ غيرِهم، فالخلودُ فيها خاصٌّ بهم لا بغيرِهم، وكأنَّ النَّارَ خُلِقَت لهم خاصّةً، وفي هذا مزيدُ ترويعٍ لَهُم وتهديدٍ.

دَلالةُ التَّوكيدِ بالجُملةِ الاسْميَّةِ:

كثرةُ المُؤكِّدات دليلُ إرادةِ تثبيتِ الحقائقِ لإقامةِ الحُجَّةِ على المُنكِرين

دلَّتِ الجملةُ الاسميَّةُ في قولِه: ﴿هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ على طول ملازمةِ الكفرةِ وبقائِهم في النّار، وعلى الدَّوامِ والثَّباتِ، وأُكِّد هذا البقاءُ الأبديُّ للكفّار في النَّار بمؤكِّدٍ ثالثٍ، هو قولُه: ﴿خَٰلِدُونَ﴾.

فقد أَكَّد النَّظمُ خُلودَ هؤلاءِ الموصوفين في النَّار بمؤكِّدات أربعة:

أوّلها: القَصرُ، فقد قَصرَ الخلودَ في النَّار عليهم بتعريف الطَّرَفين.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/111.

ثانيها: أنّهم أصحابُ النّار؛ أي: الملازمون لها ملازمةَ الصّاحبِ لصاحبِهِ.

ثالثها: التّأكيدُ بضمير الفصلِ، إذ يقول: ﴿هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾.

رابعها: تقديمُ الجارِّ والمجرورِ ﴿فِيهَا﴾ في معنى قصرِهم على النّار؛ أي: أنّهم فيها لا في غيرِها خالدون.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

القَصُّ والتِّلاوةُ:

القَصُّ أعـمُّ منَ التِّلاوةِ في الفعْلِ والأثَرِ

يَدُلُّ جِذْرُ كلمةِ (قَصَّ) على تَتَبُّعِ الأثرِ، أمَّا كلمة (تَلا) فيدلُّ أصلُ معناها على الاتِّبَاع. يُقَالُ: تَلَوتُه إذا تَبِعتَه. ومِنهُ تِلاوَةُ القُرآنِ؛ لأَنَّه يُتبِعُ آيَةً بَعدَ آيَةٍ.

والقَصُّ أعمُّ منَ التِّلاوةِ؛ لأنَّه يشملُ كُلَّ ما يُخبَرُ به، سواء كان من صُحُفٍ أَم مِن دون صُحُفٍ، وسواء كان تلاوةً أم لا.

الخوفُ والحُزنُ:

الـخـوفُ هَـمٌّ لمتوقَّعٍ لم يأتِ، والـحُـزنُ غـمٌّ لمَا وقعَ

الخوفُ يكون منَ المستقبل، والحُزنُ يكون على الماضي، وكلاهما من أوصافِ هذه الحياةِ، وممّا يوجدُ في هذه الحياة، يقولُ اللّهُ تعالى: ﴿فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: 38]، وهذا في الآخرة إذ لا يخافونَ منَ المستقبل، ولا يحزنونَ على ما فاتَ وما مضى.

والخوفُ هَمٌّ يلحقُ الإنسانَ لشيءٍ مُتوقَّعٍ، والحُزنُ غَمٌّ يلحقُه لشيءٍ وقع[1].

الكذبُ والافْتراءُ:

الافـتـراءُ أخـصُّ مِـنَ الـكـذِبِ وأشَدُّ ذَمًّا

الكَذِب: هو عدمُ مطابقةِ الخبرِ للواقع، أو لاعتقاد المُخبرِ لهما على خلافٍ في ذلك.

(1) الزَّمخشريّ، الكشَّاف: 3/231.

والافتراءُ: أخصُّ منه؛ لأنَّه الكذبُ في حقِّ الغير بما لا يرتضيه، بخلاف الكذبِ، فإنَّه قد يكون في حقِّ المتكلِّم نفسِه، ولذا يُقال لمَن قال: فعلتُ كذا، ولم أفعلْ كذا مع عدمِ صدقِه في ذلك: هو كاذبٌ، ولا يُقال: هو مُفترٍ، وكذا مَن مدحَ أحدًا بما ليس فيه، يُقال: إنَّه كاذبٌ في وصفِهِ، ولا يُقال: هو مُفترٍ؛ لأنَّ في ذلك ممّا يرتضيه المقولُ فيه غالبًا[1]، وقد يحسنُ الكذبُ على بعضِ الوجوهِ، كالكذبِ في الحربِ، وإصلاحِ ذاتِ البينِ، وعلى الزّوجةِ، كما وردَت به الرّواية[2]؛ لأنَّ المُؤمِنَ لا يكونُ كَذّابًا، ولكنَّ بَعضَ الأحوالِ يُطلَبُ فيها التَّورِيَةُ أو المُداراةُ، وتَصريحُ الشَّخصِ بما يُرضي الطَّرَفَ الآخَرَ؛ لِرعايَةِ مَصلَحَةٍ، أو دَرءِ مَفسَدَةٍ، أو التَّخلُّصِ من عَدوٍّ، والتَّحايُلِ عليه، بخلافِ الافتراءِ.

(1) العسكريّ، الفروق اللُّغويَّة، ص: 145.

(2) عن أمِّ كلثوم بنت عقبة ﵂، قالت: ما سمعتُ رسولَ اللهِ ﷺ رخَّصَ في شيءٍ منَ الكذبِ إلاّ في ثلاثٍ: «الرَّجلُ يقولُ القولَ يريدُ به الإصلاحَ، والرّجلُ يقولُ القولَ في الحربِ، والرّجلُ يُحدِّثُ امرأتَه، والمرأةُ تحدِّثُ زوجَها». أخرجه أبو داود في سننه، الحديث رقم: (4921)، والنّسائّي في السّنن الكُبرى، الحديث رقم: (9134)، وأحمد في مسنده، الحديث رقم: (27275).

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَـٰتِهِۦٓ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوٓا۟ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَـٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾﴾ [الأعراف: 37]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

جزاءُ اللهِ تعالى قائمٌ على عدْلِه ورحْمتِه بذكْرِ الأدلّةِ وتوضيحِ البيِّناتِ

لَمَّا ذَكَر اللّهُ تعالى في الآيتين السَّابقتين كُلًّا مِنَ الّذين اتّبعوا هُداه، وما منحَهُم مِن فَضلِه، وكريمِ عطاياه مِن اطمئنانٍ وأمنٍ ورحمةٍ، والّذين شقُوا، فكذّبوا بآياتِه تعالى، واستكبروا، حسُنَ أن يذكرَ وَصَفَ بعضِ أفعالِ المُكذِّبين الكافرين ومآلِهم، فذكرَ افتراءَهم على اللّه الكذبَ، وهم بذلك ظالمون، وكَذَّبوا بآياتِه، وذلك ظلمٌ ثانٍ عظيمٌ، فقال تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَـٰتِهِۦٓ ۚ﴾[1]، ثمَّ ذكرَ نهايةَ أمرِهم في الدُّنيا عندَ الموتِ، وأنَّ اللّه لا يُعاقبُهم إلّا بأقوالِهم وشهادتِهم على أنفسِهم بالكفرِ، وهذا تذكيرٌ دائمٌ بعدلِ اللّهِ تعالى، وأنَّه لا يظلمُ النَّاسَ شيئًا، وفيه عظيمُ رحمةِ اللّه بعبادِه المؤمنينَ.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَنَالُهُمْ﴾: منَ الجذر (نَيَلَ)، ويدلُّ أَصلُ المادَّةِ على العطاء[2]. والنَّيلُ: ما ينالُه الإنسانُ بيده، يُقال: نِلتُهُ أَنَالُه نَيلًا. والنَّولُ: التّناول[3]. والنَّوالُ والنَّالُ والنَّائلُ: العَطاءِ[4]. والمعنى هنا: يَصِلُ إليهم.

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2829.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نيل).
(3) الرّاغب، المفردات: (نيل).
(4) الفيروزابادي، بَصائر ذوي التَّمييز: (نيل).

2) ﴿نَصِيبُهُم﴾: أَصل (نَصبَ): إقامةُ شيءٍ، وإهدافٌ في استواءٍ، والنّصيبُ: الحظُّ من كلِّ شيءٍ؛ إذ يُعزَلُ ويُقامُ لصاحبِهِ. وكلُّ لفظ (نصيب) في القرآنِ معناه الحظُّ منَ الشّيءِ. والمقصودُ في الآيةِ حظُّهم المُعَيَّن؛ أي: ما أخبرَ اللّهُ ﷻ من جزائِهم[1].

3) ﴿ٱلْكِتَٰبِ﴾: جَمعُ كُتُبٍ وكُتْبٍ. وكَتَبَ الشّيءَ: خَطَّه. وسُمِّيَ القرآنُ الكريمُ كتابًا؛ لِمَا جُمِعَ فيه منَ القصصِ والأَمرِ والنَّهي والأمثالِ والشّرائعِ والمواعظِ، أو لأَنَّه جُمِعَ فيه مقاصدُ الكتبِ المنزلةِ على سائر الأنبياءِ، وكلُّ شيءٍ جمعتَ بعضَه إلى بعضٍ فقد كتبتَه[2]. والمرادُ به هنا اللَّوحُ المحفوظُ؛ أي: ممَّا كُتِبَ لهم فيه.

4) ﴿رُسُلُنَا﴾: من (رسل)، والرَّسلُ: الانبعاثُ على تؤدةٍ. ومنه: ناقة رَسْلَة؛ أي: سهلةُ الانقياد، وإبلٌ مَراسيلُ، والرّسولُ: المنبعثُ، وأُخِذَ منه تارةً الرِّفقُ والمَهَلُ، فقيل: على رِسلِك، وتارةً الانبعاث، فاشتُقَّ منه الرّسول[3]. ورُسُلُ اللّهِ تارةً يُرادُ بها الملائكةُ، وتارةً يُرادُ بها الأنبياءُ[4]. والمقصودُ بالرُّسلِ هنا: مَلَكُ الموتِ وأعوانُه.

5) ﴿تَدْعُونَ﴾: من (دعو)، والدُّعاء: النِّداء، والمعنى المحوريُّ للكلمةِ: جَذبُ الشّيءِ أو محاولةُ ضمِّهِ إلى حيّزٍ أو أمرٍ: كجَذب اللّبَنِ إلى حَيّزِه أو حيّزِ الحالبِ، وجَذبِ النَّاسِ إلى الوليمةِ والاجتماعِ، والسَّوقِ إلى الأمير. والدّعاءُ: العبادةُ؛ لأنَّ العبادةَ تَقَرُّبٌ إلى المعبودِ، واعتزاءٌ إليه، واستكفاءٌ به، فهي منَ الجذبِ والانجذابِ، وسياقاتُ هذا المعنى واضحةٌ في القرآن الكريم، وكثيرٌ منها تصحبه عبارةُ: ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾، أو نحوها[5]. والمعنى في الآية: تعبدون.

6) ﴿ضَلُّواْ﴾: ضَلَّ يَضِلُّ ضلالًا وضلالةً: حادَ عن جادَّةِ الصَّوابِ، فهو ضالٌّ. وضَلَّ عنِ الطَّريق، وضَلَّ الطّريقَ لم يهتَدِ إليه. وضَلَّ البعيرُ: ضاع. الضَّلال: مضادُّ الهدايةِ والرَّشادِ، وهو العدولُ عنِ الطَّريقِ المستقيمِ، ومنَ الضَّلالِ: غيابُ الفقدِ، وضابطُه كلُّ ما جاءَ بعدَه في القرآنِ (ضلّ عن)، ونحوها[6]. والمعنى هنا: ذهبوا عنا.

(1) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 128، وابن فارس، مقاييس اللّغة، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (نصب).
(2) الفيروزابادي، بصائر ذوي التَّمييز: (كتب).
(3) السَّمين الحلبيّ، عمدة الحُفَّاظ: (رسل).
(4) الرّاغب، المفردات: (رسل).
(5) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (دعو).
(6) الرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (ضل).

❁ المَعْنى الإجْمالِيُّ:

أظلمُ النّاسِ مَن بـدَّلَ مـرادَ اللهِ تـعـالى وكـذَّبَ بشرائعِه

أخبَرَ الحَقُّ ﷻ أنَّه لا أحَدَ أشنَعُ ظُلمًا، ولا أبشعُ جُرمًا، ولا أقبحُ ذَنبًا مِمَّنِ اختَلَقَ على اللّه الكَذِبَ، أو كذَّبَ بآياتِه الّتي أنزَلَها على رُسلِهِ الكِرام ﷺ، أولئك الموصوفون يَصِلُهُم نصيبُهُمُ المكتوبُ في اللَّوحِ المحفوظِ مِنَ الأرزاقِ والأعمالِ والآجالِ، والخيرِ والشَّرِّ عَدلًا منه سبحانَه إلى أن تحضرَهم الملائكةُ؛ لتقبِضَ أرواحَهم، فتسألهم مُوَبِّخين مُستنكرين: أين ما كنتم تَعبدونَ مِن دونِ اللّهِ؟ فيجيبون: غابُوا عَنَّا فلم نَرَهم، ويُقِرُّون على أنفُسِهم أنَّهم كانوا كافرينَ، وإقرارُهم في ذلك الوقتِ حجَّةٌ عليهم، ولن ينفعَهم.

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

معنَى الفاءِ وأثرُها في الرَّبْطِ:

الفـاءُ لِـربْـطِ أو ترتيبِ ما بَعدها عَلى ما سَبَقَها

الفاءُ في قولِهِ تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ﴾ رابطةٌ معنويَّةٌ، فهي إمَّا أن تكونَ تفريعيَّةً على ما سَبَقها، "وهذه كالفَذلَكَةِ لِما تَقَدَّمَ لِتُبَيِّنَ أنَّ صِفاتِ الضَّلالِ، الَّتي أُبهِمَ أصحابُها، هي حافَّةٌ بالمُشرِكينَ المُكَذِّبينَ برسالةِ مُحَمَّدٍ ﷺ، فإنَّ اللّه ذَكَرَ أولِياءَ الشَّياطِينِ وبَعضَ صِفاتِهم"[1]، وإمَّا أن تكونَ لِتَرتيبِ ما بَعدها على ما سَبَقَ مِن تَبكيتِهم وإظهارِ كَذِبِهم وافترائِهم[2].

غَرَضُ الاسْتفهامِ وفائِدتُه:

الإنكارُ والتَّعجُّبُ والتّـوبـيـخُ ممَّا وقعَ منَ الكفّارِ، ونـفـيُـه نـفـيًا قاطعًا لشَناعةِ ما فيه

غرضُ الاستفهامِ في قولِهِ: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ﴾ الإنكارُ؛ أي: إنكارُ الواقعِ، ويتولَّدُ منه معاني التَّعجّبِ والتّوبيخِ على ما وقعَ مِن هؤلاء الكفّار. وفائدتُه: النَّفي؛ أي: لا أَحَدَ أبشَعُ ظُلمًا، وأخطأُ فِعلًا، وأجهلُ قولًا، وأَبعدُ ذَهابًا عنِ الحَقِّ والصَّواب مِمَّنِ اختلقَ على اللّه زُورًا مِنَ القول، فَنَسَبَ إليه الوَلَدَ والصّاحبةَ، وحرَّمَ ما لَم يُحَرِّمْه اللّهُ تعالى،

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتّنوير: 8/111.
(2) الآلوسّي، روح المعاني: 5/63.

فلم يَقتَصِرْ على افتراءِ الكَذِبِ في حَقِّ نَفسِهِ وضَلالِها، حتّى قَصَدَ بذلِكَ ضَلالَ غَيرِهِ؟! أو كَذَّبَ بأدِلَّةِ اللّهِ وآياتِه الدَّالّةِ على وحدانيّتِه سبحانَه، ونبوّةِ أنبيائِه، فجحدَ حقيقتَها ودافع صحَّتَها؟![1].

وَجْهُ التَّعْبيرِ بصِيغةِ (أفعل):

الاعتداءُ على حقِّ اللهِ هو أظلمُ اعتداءٍ مارسَتْه البشريَّةُ في تاريخِها

جاء التَّعْبيرُ بصِيغةِ المفاضَلةِ في قوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ﴾؛ لأنَّهم "كانُوا أظلَمَ النّاسِ ولَم يَكُن أظلَم منهم؛ لأنَّ الظُّلمَ اعتداءٌ على حَقٍّ، وأعظَمُ الحُقُوقِ هي حُقُوقُ اللّهِ تعالى، وأعظَمُ الاعتداءِ على حقِّ اللّهِ الاعتداءُ عليه بالاستِخفافِ بِصاحِبِه العَظيمِ، وذَلِكَ بأن يُكَذِّبَ بما جاءَهُ مِن قِبَلِه، أو بأن يَكذِبَ عليه فَيُبَلِّغَ عنه ما لَم يَأمُرْ بِهِ، فَإنْ جَمَعَ بَينَ الأمرَينِ فَقَد عَطَّلَ مُرادَ اللّهِ تعالى مِن جِهَتَينِ: جِهَةِ إبطالِ ما يَدُلُّ على مُرادِهِ، وجِهَةِ إيهامِ النّاسِ بأنَّ اللّهَ أرادَ منهم ما لا يُرِيدُهُ اللّهُ"[2].

بَلاغةُ الاحْتِراسِ:

إرادةُ عُمومِ الحُكْمِ لا شَخْصٍ مَخصوصٍ

في العدولِ عنِ التَّعبيرِ بالاسمِ الموصولِ في قولِه: ﴿مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ﴾ إلى (مَن) احتراسٌ دقيقٌ؛ لأنَّه لو قالَ: (مِنَ الّذي افترى)؛ لفُهِمَ أنَّ المرادَ به معيَّنٌ مخصوصٌ، وهذا غيرُ مرادٍ؛ لأنَّ المقصودَ التّعميمُ؛ ليشملَ كُلَّ مَن صَدَرَ عنه هذا الفعلُ الشّنيعُ، أو اتَّصفَ بهذا الوصفِ الوضيعِ، أو قالَ هذا القولَ البغيضَ، وليس المقصودُ التّخصيصَ بِمُعَيَّنٍ.

سِرُّ التَّعْبيرِ بِمُفردةِ الافْتراءِ دونَ الكَذِبِ:

الافتراءُ أَخَصُّ مِنَ الكَذِبِ

عُبِّرَ بالافتراءِ مع الكَذِبِ في قولِه: ﴿ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ﴾؛ حيث لم يقُل: "مِمَّن كَذَبَ على اللّهِ أو كذَّب" فحسب؛ تَجَنُّبًا لتكرارِ الكلمةِ؛ وللجمعِ بين وصفين شنيعين لهؤلاء الكفرةِ

(1) ابن جرير، جامع البيان: 12/408.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/111.

هُما: الافتراء والكَذِب، فإنَّ افتراءَ الكذبِ لعنةٌ قائمةٌ بذاتِها، فكيف إذا اجتمعَت معها لعنةٌ أخرى، والافتراءُ: هو القولُ المُختَرَعُ الّذي لا أَصلَ له[1]، وهو كَذِبٌ في ذاتِه، فهؤلاء جمعوا بين الكذبِ على اللّه بما لا يرتضيه، والكذبِ على النَّاس، والكذبِ على أنفسِهم.

نُكتةُ تقديمِ الجارِّ والمجرورِ على المفعولِ:

تهويلُ جُرمِهم وعظيمُ شأنِ الافتراءِ على الله تعالى فهو لا يُوازيه افتراءٌ آخرُ

قُدِّم الجارُّ والمجرورُ في قولِه تعالى: ﴿مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾، فلم يقُل: (ممن افترى كذبًا على اللّه)؛ لتهويلِ جُرمِهم بافترائِهم على مَلِك الملوكِ؛ لذا أُوثِرَ التَّعبيرُ بلفظِ الجلالةِ؛ لزيادةِ تقبيحِ أفعالِهم وأقوالِهم، فتقديمُ الجارِّ والمجرورِ؛ للاهتمام بالمُقَدَّم، فهو ليس افتراءً معهودًا، بل هو افتراءٌ عظيمٌ في ذاتِه ومآلِه وآثارِه.

بَراعةُ التَّعبيرِ في الجمْعِ بين لفْظِ الافْتراءِ والتّكذيبِ:

كُلُّ واحِدٍ مِنَ الفَرِيقَينِ لا أظلَمَ مِنهُ؛ لأنَّ الفَرِيقَ الآخَرَ مُساوٍ لَهُ في الظُّلمِ، ولَيسَ أظلَمَ مِنه

في قوله تعالى: ﴿فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾: نُظِمَ الافتراءُ على اللّه تعالى، والتّكذيبُ بآياتِه في سِلكٍ واحدٍ؛ للإشارة إلى المساواةِ بالأظلميَّةِ بينهما، وفائدةُ ذلك: التَّحذيرُ الشَّديدُ، والوعيدُ المزلزلُ لِكُلِّ مَن تُوسوسُ له نَفسُه التَّقَوُّلَ على اللّه تعالى، والتّشريعَ للنَّاسِ في الدِّين ما لَم يَأذَنْ بِهِ اللّهُ، ونسبتَهُ إلى اللّهِ، أو التّكذيبَ بآياته، وفائدته أيضًا عَدَمُ التَّهاون في أحدهما، فالاتّصافُ بأحدهما كفيلٌ بالهلاكِ والعقابِ، فمَن تقَوَّلَ على اللّه تعالى ما لم يَقُلْه، أو جَحَدَ ما قالَه وكَذَّبَه، فَكِلا الأمرين مُساوٍ للآخر في الجُرم والظُّلم، "وعلى هذا فكُلُّ واحِدٍ مِنَ الفَرِيقَينِ لا أظلَمَ مِنهُ، لأنَّ الفَرِيقَ الآخَرَ مُساوٍ لَه في الظُّلمِ ولَيسَ أظلَمَ مِنهُ، فأمّا مَن جَمَعَ بَينَ الأمرَينِ مِمَّن لَعَلَّهم أن يَكُونُوا قَد شَرَعُوا لِلمُشرِكِينَ أُمُورًا مِنَ الضَّلالاتِ، وكَذَّبُوا مُحَمَّدًا ﷺ، فَهم أشَدُّ ظُلمًا، ولكِنَّهم لمّا كانُوا لا يَخلُونَ عَنِ الانتِسابِ إلى كلا الفَرِيقَينِ،

(1) ابن منظور، لسان العرب: (فري).

وجامِعِينَ لِلخَصلَتَينِ لَم يَخرُجُوا مِن كَونِهِم مِنَ الفَرِيقِ الَّذِينَ هم أظلَمُ النّاسِ"[1].

معنَى حرفِ ﴿أَوۡ﴾:

نتيجةُ اجتماعِ الافْتراءِ والتَّكذيبِ أو افتراقِهما واحدةٌ

أفادَ التَّعبيرُ بحرف ﴿أَوۡ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوۡ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓۚ﴾ بدلَ الواو التّرديدَ، وهي تشيرُ إلى أنَّ الافتراءَ على اللّه بمثل تحليلِ ما حَرَّمَ، وتحريمِ ما حَلَّلَ، ونسبةِ ذلك إليه سبحانَه، واتّخاذِ الولد، وغيرِ ذلك منَ المفترياتِ ظُلمٌ فاحشٌ يُستَنكَرُ ويُتَعَجَّبُ منه، فليس الاستنكارُ منهما مجتمعَين، بل من كلٍّ واحدٍ منهما مُنفرِدًا، ومُجتمِعًا[2].

فالمُفتري وهو الّذي أنشأَ الباطِلَ والفِريَةَ، ووضعَها، ودعا النَّاسَ إليها، كُفرُه بالافتراءِ، وإنشاءِ الباطِلِ، والمُكَذِّبُ بالحَقِّ، كُفرُه بجُحودِ الحَقِّ، وهذان النَّوعانِ يَعرِضانِ لكُلِّ مَن يأتي بالباطل[3].

بَلاغةُ فصْلِ الجُمَلِ:

تحفيزُ السُّؤالِ عن مصيرِ المُفتَرين لاجْتِنابِ خَطواتِهم

فُصِلَت جملةُ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَنَالُهُمۡ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِۖ﴾ عَمَّا قَبلها لِشِبهِ كمالِ الاتِّصالِ (الاستئناف البيانيّ)، حيث وقعَت جوابًا عن سؤالٍ أثارَهُ الاستفهامُ بما فيه من إنكارٍ مفاده: ما جزاءُ أولئك الّذين افتروا على اللّه، وكَذَّبُوا بآياتِهِ؟ فجاءَ الجوابُ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَنَالُهُمۡ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِۖ﴾.

نُكتةُ التَّعْبيرِ باسْمِ الإشارةِ (أولئك):

الإشارةُ إلى تمادِي المُفتَرِينَ في الغَيِّ والضَّلالِ

جِيءَ بِاسمِ الإشارَةِ في قَولِهِ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَنَالُهُمۡ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِۖ﴾ دون (هؤلاء)؛ لتمييزِ المشارِ إليهم، وللإشارة إلى بُعدِهِم في الضَّلال، وبُعدِهِم عن رحمةِ اللّهِ ورضوانِهِ، وللدّلالةِ إلى أنَّ ما

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتّنوير: 8/113.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2830.
(3) ابن القَيِّم، الرِّسالة التبوكيّة، ص: 47.

اتَّصفوا به مِنَ الافتراءِ والكذبِ هو سببُ ذلك الحُكمِ عليهم، وإلى استحقاقِهم العذابَ الشّديدَ المُعَدَّ لَهم.

بَلاغةُ الاسْتِعارةِ المَكنيَّةِ:

تصويرُ المَعنويِّ في صُورةٍ محسُوسةٍ تَتراءَى أمامَ الأعيُن

النَّيلُ: ما ينالُه الإنسانُ بيدِه، ويدلُّ أَصلُ المادَّةِ على الإعطَاء[1]، وأضفى الاستعمالُ القرآنيُّ للكلمةِ في قولِه تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَنَالُهُمۡ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِۖ﴾ ظِلالًا تُناسبُ المقامَ مِن معنى الإصابةِ والإساءةِ والضَّررِ، وأكَّد هذا إسْنادُ فِعْل ﴿يَنَالُهُمۡ﴾ إلى ﴿نَصِيبُهُم﴾؛ للدّلالة على مُطلَقِ الإصابَةِ. وقد صُوِّر المعنويُّ وهو النَّصيبُ مِنَ الكِتابِ في صورةٍ محسوسةٍ مُشاهَدةٍ على طريق الاستعارةِ المكنيّةِ، حيث شُبِّهَ النَّصيبُ بِشَخصٍ طالبٍ ثأرًا فَنالَه. "وإنَّما يُصارُ إلى هذا لِلتَّنبيهِ على أنَّ الَّذي يَنالُهم شَيءٌ يَكرَهُونَهُ، وهو يَطلُبُهم، وهم يَفِرُّونَ مِنهُ، كما يَطلُبُ العَدُوُّ عَدُوَّهُ، فَقَد صارَ النَّصيبُ مِنَ الكِتابِ كأنَّهُ يَطلُبُ أن يُحَصِّلَ الفَريقَ الَّذينَ حَقَّ عليهم ويُصادِفَهم"[2].

نُكتةُ خُلوِّ الفعْلِ من حرفِ التَّنْفيسِ:

أحكامُ اللهِ تَجرِي على الجميعِ دونَ تأخِيرٍ أو تأجيلٍ

جاءَ الفعلُ ﴿يَنَالُهُمۡ﴾ مُجَرَّدًا من حرف التّنفيس (السّين، سوف)؛ "للإيذان بأنَّ نصيبَهم الّذي ينالُهم هو جريانُ أحكامِ اللّهِ تعالى عليهم في هذه الحياةِ الدُّنيا، وخضوعُهم لإرادتِهِ وقُدرتِهِ مِن غنًى وفقرٍ، وصحّةٍ ومرضٍ، وحياةٍ وموتٍ، وأنَّ معنى الكِتابِ على هذا هو كتابُ القضاءِ والقَدَرِ النَّافذِ في جميع المخلوقاتِ"[3].

سِرُّ اسْتِعمالِ مُفردةِ (النَّصيب):

لَفظُ (النَّصِيبِ) مُجمَلٌ عامٌّ مُحتَمِلٌ لِكُلِّ الوُجُوهِ المَذكُورةِ

المراد بـ ﴿نَصِيبُهُم﴾؛ أي: ما كُتِبَ لَهُم مِن رِزقٍ وعُمُرٍ وعَمَلٍ، أو ما كُتِبَ لَهُم مِن شَقاءٍ وسَعادةٍ[4]. وكلُّ لفظ (نصيب) في القرآنِ معناه

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نيل).
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/114.
(3) المَطعَنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام في القرآن الحكيم: 1/371.
(4) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 9/214.

الحظُّ منَ الشّيءِ، وأُوثِرَ استعمالُ مفردةِ ﴿نَصِيبُهُم﴾ دونَ مرادفاتِها؛ لأنَّ لَفظَ (النَّصيبِ) مُجمَلٌ عامٌّ مُحتَمِلٌ لِكُلِّ الوُجُوهِ المَذكُورةِ، وأيضًا لبيان أنّ الأمرَ قِسمةٌ، فَلَهُم قِسمةٌ ولغيرهم قِسمةٌ، ففيه إشارةٌ إلى غيرِهِم، كما أنَّ التَّعبيرَ بـ﴿نَصِيبُهُم﴾ يُصوِّرُ عدلَ اللّهِ تعالى؛ فنصيبُ هؤلاء منَ العذابِ هو نصيبُهم في أعمالِهِم، فجزاؤُهم مُشتقٌّ من أعمالِهِم، فَكُلُّ نَفسٍ تُجزَى ما كسبَت؛ أي: جزاؤها مِن كسبِها، فلولا ما كسبَت ما عُذِّبَت، فعقابُهم جزاءً وفاقًا لِعَمَلهم[1].

دَلالةُ اسْتِعمالِ مُفرَدةِ الكِتَابِ ومعنَى التَّعريفِ:

عَدْلُ اللهِ تعالى يُصيبُ أعتَى عِباده كُفْرًا

الكِتابُ هنا بِمَعنى المَكتُوبِ، ويدُلُّ استعمالُ مفردةِ الكِتَاب في قولِهِ تعالى: ﴿مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ على أنَّ المرادَ به اللَّوحُ المحفوظُ، و(أل) للعهد، والمرادُ: ما كَتَبَ اللّهُ لهم من خيرٍ وشرٍّ، ورزقٍ وَعُمُرٍ، وَعَمَلٍ، فَهُم مَعَ ظُلمِهِم وافترائِهِم لا يُحرَمُونَ ما قُدِّرَ لَهم مِن ذَلِكَ إلى انقِضاءِ أجَلِهِم[2].

والكتابُ الإلهيُّ "هو الّذي يتضمَّنُ الوعدَ على الأعمالِ؛ أي: والوعيد بدليل بيانِه بالخيرِ والشّرِّ. وهو عامٌّ يشملُ جزاءَ الدّنيا والآخرة"[3]، كما قال تعالى: ﴿۞وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ۝٥٩﴾ [الأنعام: 59]، فكلُّ ذلك مُثبَتٌ في كتابٍ واضحٍ لا لَبْسَ فيه، وهو اللَّوحُ المَحفوظُ.

دَلالةُ اسْتِعمالِ أداةِ ﴿حَتَّىٰٓ﴾:

لا يمنعُ كَونُ (حَتَّى) ابتدائيّةً أن تكون غايةً لِمَا قَبْلَها

أداةُ ﴿حَتَّىٰٓ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ﴾ حَرفُ ابتِداءٍ، وهي غايَةُ نَيلِهِم؛ أي: استيفاءُ المذكورين نصيبَهم

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2831.
(2) الآلوسّي، روح المعاني: 5/171.
(3) محمد رضا، تفسير المنار: 8/412.

ممَّا كُتِبَ لهم في اللَّوحِ المَحفوظِ، ولا يمنع كَونُ ﴿حَتَّىٰٓ﴾ ابتدائيّةً أن تكونَ غايةً لِما قَبلَها، فَلا بُدَّ أن يَنالَ المُفترون على اللّه تعالى، والمُكَذِّبون بآياتِهِ نَصِيبَهم مِنَ الكِتاب كاملًا تامًّا إلى أن تتوفّاهم مَلائِكَةُ المَوتِ[1].

والكلامُ الواقعُ هنا بعدَ حتَّى فيه ترويعٌ لَهُم، وتهويلٌ لِما يُعاينوه عندَ قَبضِ أرواحِهم، وهو أدخلُ في تهديدِهم وتخويفِهم وموعظتِهم مِنَ الوعيدِ المُتعارَفِ[2].

بَلاغةُ التَّعْبيرِ بلفْظِ المجيءِ:

المقصودُ تصويرُ صُعوبةِ مجيءِ ملائكةِ الموتِ لا الإخبارُ عن مَجيئِهم

أُوثِرَ التَّعبيرُ بالمجيء على الإتيان في قولِهِ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُنَا﴾، حيث لم يقُل: (حتَّى إذا أتتهم رُسُلنا)، كما لم يقُل: (حتّى إذا تَوَفَّتْهم رُسُلنا)، وهو أوجزُ لفظًا؛ لأنَّ مجيءَ الملائكةِ صَعبٌ شديدٌ على مَن تحضرُه الوفاةُ، مجيءٌ خَطِرٌ، وذو شأنٍ؛ لذا كان المقامُ للمادَّة الّتي تدلُّ على الصّعوبة، وهي مادَّةُ (جاء)، بخلاف الإتيان الّذي يدلُّ على مجيءٍ فيه سهولةٌ ولِينٌ، كَما سَبَق بيانُه مرارًا.

ولتصويرِ مجيءِ ملائكةِ الموت، فهو مجيءٌ حتميٌّ له بدايةٌ ونهايةٌ وحدثٌ، ومضمونُه فظيعٌ، ولاسيَّما إذا ارتبطَ بالمُكذِّبينَ، فكان المقصودُ تصويرَ مشهدِ المجيءِ لغايةِ التَّوفِّي، لا الإخبارَ عنِ التَّوفِّي فحسب.

نُكتةُ التَّعْبيرِ بأداة (إذا) دونَ (إن):

مجيءُ ملائكةِ الموتِ حتميٌّ لا شكَّ فيه ولا جدالَ

في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوۡنَهُمۡ﴾ عُبِّرَ بـ﴿إِذَا﴾ دون (إنْ)؛ لأنَّ أداةَ الشّرطِ (إنْ) تفيدُ التَّشكيكَ في حصولِ الفعلِ، إذ قد يحصلُ أو لا يحصلُ، بخلاف (إذا) الّتي تفيدُ القَطْعَ بحصولِه، وللدّلالة على حَتميَّةِ هذا المجيء، وتَحَقُّقِه، وعَدَمِ تَخَلُّفِه

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 3/226، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 8/379.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/116.

عن أَحَدٍ بدليلِ قولِه تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ١٨٥﴾ [آل عمران: 185].

نُكْتة التَّعْبيرِ بالرُّسُلِ دونَ الملائكةِ:

التَّنْبيهُ على الفَرْقِ بين الرُّسُلِ المُبلِّغين والرُّسلِ المُوكَّلين بقبْضِ الأرواحِ

المقصودُ منَ الرُّسُلِ في قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ﴾ مَلَكُ الموتِ وأعوانُه[1]، بدليل قولِه تعالى في آيةٍ أُخرى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ [الأنفال: 50]، وأُوثِرَ التَّعبيرُ بالرُّسل دون الملائكةِ أو ملكِ الموتِ، كما جاءَ في قولِه تعالى: ﴿۞قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ١١﴾ [السّجدة: 11]؛ للإشارةِ إلى أنَّ الرُّسُلَ المذكورين في قولِه تعالى: ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ - فيما سبق - هم أداةُ النَّجاةِ منَ الرُّسُلِ المذكورين في هذه الآية، فهو بمنزلةِ التَّنبيهِ على الفَرقِ بين الرُّسُلِ في التَّبليغِ والتَّوَفِّي، فمَنِ استجابَ للرُّسلِ المبلِّغينَ عنِ اللّٰه في دعوتِهم نجا مِن عذابِ الرُّسلِ المُوكَّلين بقبضِ الأرواحِ عند توفِّيهم.

غَرَضُ الإضافةِ:

التَّشريفُ والتَّكريمُ للملائكةِ، وبيانُ أنّهم رُسلٌ أمناءُ مُطيعونَ

غرضُ الإضافةِ في قوله: ﴿رُسُلُنَا﴾ تعظيمُ مكانةِ تلك الرُّسُل عندَ اللّٰهِ تعالى، والتّشريفُ والتّكريمُ للملائكة، وبيانُ أنّهم مبعثون منَ اللّٰهِ تعالى، وأنّهم لا يخطِئون في قبضِ الأرواحِ، ولا يزيدونَ أو يَنقُصونَ من أجلِ الميِّت، ولا يخالفونَ أمرَ اللّٰهِ في شيءٍ، فهم مُطيعونَ ولا يستقلُّونَ عن أمرِ اللّٰهِ في ذلك، بل يقبضونَ بإذنِه ومشيئتِه، كما قال ﷻ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ٦١﴾ [الأنعام: 61].

بَلاغةُ إسنادِ التَّوفيةِ إلى الرُّسُلِ:

إسنادُ التَّوفيةِ (الموت) إلى الرُّسُل (الملائكة) في قولِه تعالى:

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 14/76.

﴿جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوۡنَهُمۡ﴾ مجازٌ عقليٌّ، علاقته السّببيَّة؛ لأنَّ المُتوفِّيَ الحَقَّ هو اللّهُ تعالى، كما قال سبحانَه: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلۡأَنفُسَ حِينَ مَوۡتِهَا وَٱلَّتِي لَمۡ تَمُتۡ فِي مَنَامِهَاۖ فَيُمۡسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيۡهَا ٱلۡمَوۡتَ وَيُرۡسِلُ ٱلۡأُخۡرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّىۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ٤٢﴾ [الزّمر: 42]، ونكتةُ ذلك بيانُ أنَّ اللّه تعالى وكَّلَ ملائكةً مَخصوصين لهذا الأمر، كما أنَّه وكَّل آخرينَ منهم لوظائفَ أخرى، وأنَّ تنظيمَ شؤونِ الكونِ كلِّه قائمٌ بأمره.

لكلِّ وظيفةٍ كونيَّةٍ ملائكةٌ يتوَلَّونها

نُكتةُ التَّعْبيرِ بصِيغة المضارعِ:

أُوثِرَ التَّعبيرُ بالمضارعِ ﴿يَتَوَفَّوۡنَهُمۡ﴾؛ للدِّلالة على تَجدُّدِ التّوفيةِ، وتكرارِها مع كلِّ حيٍّ نَفْسًا نَفْسًا[1]، وأنَّ هذه التَّوفيةَ ستصلُ لكلِّ حيٍّ ما دامَت أنفاسُ العبادِ قائمةً في الحياةِ، كما حكى ﷻ عن وظيفةِ ملكِ الموتِ وأعوانِه: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ تَوَفَّتۡهُ رُسُلُنَا وَهُمۡ لَا يُفَرِّطُونَ ٦١﴾ [الأنعام: 61]، وجملة ﴿يَتَوَفَّوۡنَهُمۡ﴾ في محلِّ نصبٍ على الحال.

الوفاةُ حقٌّ واصلٌ لكلِّ حيٍّ ما دامَت أنفاسُ الحياةِ فيه

غَرَضُ الاسْتِفهامِ التَّهكُّمي:

تسألُ ملائكةُ الموتِ هؤلاء الموصوفين بما ذُكِر عند قَبضِ أرواحِهم مُوَبِّخين لَهُم، ومُبَكِّتين ﴿أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ﴾؛ أي: أين الشّركاءُ الّذين كنتُم تَعبدُونَهُم من دون اللّهِ؟! تهكُّمًا بهم، فلا يوجدُ مَن يدفعُ عنهم ما هُم مُقبلون عليه من عذابٍ شديدٍ، والتَّحسيرِ لفواتِ الفرصةِ لرجوعِهم إلى الحَقِّ بالإيمانِ باللّهِ ورسلِهِ، وبما جاؤوا به من عندِ اللّهِ، والتّيئيسِ الحاصلِ مِن فَقْدِهم شُركاءَهم، أو يُحمَلُ الاستفهامُ على التَّوبيخِ والتّقريرِ[2]، أو يُحمَلُ على الإنكارِ بطريقِ الكنايةِ؛ حيث تُوصِّلَ إلى إنكارِ الحالِّ في المكان بإنكارِ المكانِ

توبيخُ المُكذِّبين وتقريرُهم عند قَبضِ أرواحِهم تحذيرٌ لغيرِهم في حياتِهم

(1) المَطعَنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام في القرآن الحكيم: 1/371.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/48.

المَحلولِ فيه، وهو إنكارُ الآلهةِ المُدَّعاةِ على أبلغ وجهٍ؛ أي: إنكارُ وقوعِ أن تكونَ لهم آلهةٌ أخرى شركاء لله ينفعونَهم أو يضرّونَهم[1].

فللاستفهام غرضان:

الأوَّل: تَوبيخُ وتقريعُ وتَبْكِيتُ المُكذِّبين ليَزيدهم غَمًّا إلى غَمٍّ.

الآخر: لُطفٌ بالمُكَلَّف؛ لأنَّه إذا تَصَوَّرَ ذَلِك صَرَفَه عَنِ التَّكذيبِ[2].

بَلاغةُ اسْتِعمالِ ﴿مَا﴾ بعدَ أداةِ الاسْتِفهامِ ﴿أَيْنَ﴾:

توريثُ المُخاطَبين النَّدمَ والحسرةَ في وقتِ الانْقطاعِ الكلّيِّ عنِ الأملِ

﴿مَا﴾ اسمٌ موصولٌ جاءَ بعدَ أداةِ الاستفهام عنِ المكان في قوله تعالى: ﴿أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾، فالسُّؤالُ عنِ الآلهةِ الّتي كان يعبدُها أولئك في حياتِهم، فهو سؤالٌ يقتضي استحضارَ مكانِ العبادةِ الّتي كانوا يرجون فيه النَّجاةَ، ويفيدُ الاسمُ الموصولُ استحضارَ عموم الآلهةِ الّتي كانوا يعرفونها حقَّ المعرفةِ، وينتظرون إعانتَها؛ فقد جمعَ الاستفهامُ بـ﴿أَيْنَ﴾ واستعمالُ ﴿مَا﴾ بعدَه استحضارَ العبادةِ والمعبودين ومكانَها، وما يقتضيه ذلك من عموم الأوقاتِ، وهذا التّركيبُ اللّغويُّ يُورِثُ المُخاطَبين شديدَ النَّدم في تلك اللّحظةِ الحَرِجةِ، فكأنَّ المعنى: "أين الآلِهَةُ الَّتِي كُنْتُمْ تَعْبُدُونَهَا لِيَكُونُوا لَكم شُفَعاءَ؟ فَلا نَراهم يُخَلِّصُونَكم مِمّا تَحَقَّقَ عَلَيكم مِن هَذِهِ الشَّدائِد"[3].

بَلاغةُ التَّعْبيرِ بالدّعاءِ دونَ العِبادةِ:

التَّعْبيرُ بالدُّعاءِ لِمُناسبتِه لِمقامِ الاسْتِغاثةِ والنَّجاةِ

عُبِّرَ بالدّعاءِ دونَ العبادةِ في قولِه تعالى: ﴿أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾؛ لأنَّ الموطنَ موطنُ طلبِ نجاةٍ واستغاثةٍ والتجاءٍ، فيحسنُ فيه الدّعاءُ، وهذا في غاية التّيئيسِ لَهُم والتَّبكيتِ؛ لانصراف شركائِهم عنهم، ومَن كانوا يظنّون نُصرَتهم، وهم في أحوجِ ساعاتِ الإجابةِ لمطالبِهم.

(1) المَطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام في القرآن الحكيم: 1/371.
(2) القاسميّ، محاسن التّأويل: 7/2679.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/440، والطِّيبيّ، فتوح الغَيب: 6/379.

أمَّا دلالةُ استعمالِ ﴿تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ﴾، حيث لم يقُل: تشركونَ باللّه؛ فلأنّ المرادَ بالدُّعاءِ دُعاءُ العِبادَة[1]، وهذا هو المناسبُ للمقام كما تَمَّ بيانه.

دَلالةُ اسْتِعمالِ لفْظِ ﴿دُونِ﴾:

زيادةُ تبكيتٍ للعابدِين من دونِ اللهِ تعالى

في التَّعبيرِ بِلَفظِ ﴿دُونِ﴾ وإضافتِه إلى لفظ الجلالة الاسم الأعظم في قولِهِ تعالى: ﴿أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ﴾ زيادةُ تبكيتٍ لهم، وتعنيفٍ، وتقريعٍ؛ حيث انصرفوا عن عبادة خالقِهم ورازقِهم والمُنعِم عليهم، ومالكِ أمورِهم إلى عبادة المخلوقِ الأدنى خِسَّةً ورُتبةً سواء أكان بَشَرًا، أو جِنًّا، أو ملائكةً، أو حجارةً، أو أوثانًا.

سِرُّ اسْتِعمالِ لفْظِ الضَّلالِ:

الاعترافُ بضَلالِ المعبودِ دليلٌ على ضلالِ العابدِ

في استعمال ﴿ضَلُّواْ عَنَّا﴾ هنا إشارةٌ إلى الاعتراف بضلالِهم بالتّصريحِ بضلالِ معبوداتِهم، حيث قالوا: ﴿ضَلُّواْ عَنَّا﴾؛ أي: غابوا غيبةَ مَن لَا يستطيعُ أن يعود منها، وبذلك ثبَتَ عجزُهم، وثَبَتَ لهم بهذا الإقرارِ أنّهم لا يستطيعونَ أن ينفعوهم أو يضرُّوهم في هذا اليومِ العصيبِ الّذي يستقبلُهم.

وفي قوله: ﴿ضَلُّواْ عَنَّا﴾ كنايةٌ عنِ العدم، فالآلهةُ المزعومةُ لم يكن لها وجودٌ بهذا المعنى حتَّى تَضِلَّ طريقَها إلى عابديها، فقد أَقَرُّوا أنَّهم كانوا يدعون العَدمَ والوهمَ؛ لعجزِهم عن فعلِهم وقتَ الحاجةِ إليهم[2].

والمُتأمِّلُ في جوابهم ﴿ضَلُّواْ عَنَّا﴾ يَجِدُ أنَّه جوابٌ من حيث المعنى لا من حيث اللَّفظ؛ وذلك لأنَّ السُّؤالَ إنَّما وقعَ عن مكانِ الّذين كانوا يدعونهم من دونِ اللّهِ، فلو جاءَ الجوابُ على نَسَقِ السُّؤالِ لقيل:

(1) البِقاعيّ، نظم الدّرر: 7/396.
(2) المَطعَنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام في القرآن الحكيم: 1/371.

هم في المكانِ الفلانيِّ، وإنَّما المعنى: ما فعلَ معبودكم ومن كنتُم تدعونهم، فأجابُوا بأنَّهُم ذهبوا عنهم، وغابُوا فلم يرَوْهم[1].

فائِدةُ العطْفِ ودلالتُه:

عَطفُ الدَّليلِ على الدَّعوَى يَستوجبُ استِحْقاقَهم كُلَّ عِقابٍ إلهِيٍّ

وُصِلَ قولُه تعالى: ﴿وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰفِرِينَ﴾ بالواو على ما قَبلها: ﴿قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا﴾ للتَّوَسُّطِ بين الكمالين، وهذا التّذييلُ مُؤكِّدٌ لمضمونِ ما قَبلَه، ودَلَّ عَطفُ قولِه تعالى: ﴿وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰفِرِينَ﴾ على قوله تعالى: ﴿ضَلُّواْ عَنَّا﴾ على أنَّ الشّهادةَ هنا إقرارٌ وحُكمٌ على أنفسِهم أنَّهم كانوا في حياتهم الدّنيا كافرين بالحقِّ، جاحدين به، وبالله تعالى، وحسبُ ذلك دليلًا دامغًا عليهم، وعلى استحقاقِهم كُلَّ عقابٍ إلهِيٍّ ينتظرُهم[2]، ففيه عَطفُ الدَّليلِ على الدَّعوى، فَهُم قالوا، ثُمَّ شهدوا على أنفسِهم.

غَرَضُ ذِكْرِ القيْدِ:

الشَّهادةُ على النَّفْسِ أقوَى أدلَّةِ الإثباتِ

لم يقُل: (وشهدوا أنّهم كانوا كافرين) مع وجازته، بل أتى بقيدٍ: ﴿عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ﴾؛ وذلك لتكونَ نَصًّا على أنَّ الشّهادةَ صَدَرَت عنِ المُكَذِّبين، ولتكونَ حسرةً عليهم أن يشهدوا على أنفسِهم لا لَها.

سِرُّ العُدولِ عنِ الكذبِ إلى الكُفرِ:

إظهارُ عَراقَتِهم في الكُفرِ، واستِحقاقِهم العذابَ

في صدرِ الآيةِ جاء الحديثُ عنِ المُكَذِّبين، وفي آخرها جاءَ قولُه: ﴿أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰفِرِينَ﴾ فوصفهم بأنَّهم كانوا كافرين، فلم يقُل: (أنَّهم كانوا مُكذِّبين)، وضَمَّ الكَذِب إلى الكُفر؛ ليجمعَ لهم بين وصفين شنيعين يستحقّون بالاتّصافِ بهما أشدَّ العذابِ، وهُمَا: الكُفر والكَذِب.

فائَدةُ التّوكيدِ:

أُكِّدَ الخبرُ ﴿أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰفِرِينَ﴾ بأنَّ واسميّة الجملةِ وبالكون

(1) ابن عادل، اللُّباب: 9/105.

(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2832.

بيانُ تناقُضِ المُشركين، وإظهارُ حُجَّةِ اللهِ عليهم

الماضي؛ للدِّلالة على اعترافِهم بعراقتِهم في الكُفر، ولبيانِ مدى تناقضِ المشركين وجهلِهم وضلالِهم في حالتي عبادتِهم الآلهةَ المزعومةَ وإقرارِهم بكفرِهم، ولإظهارِ حُجّةِ اللّهِ عليهم، وتقريرِ عَدْلِه في عقوبتِهم، وللتّنبيهِ على أنّهم لم يكونوا جاهلينَ بحالِهم، بل كانوا يعلمونَ أنَّهم كافرونَ، ولكنّهم أصرُّوا على الكفرِ والشِّركِ، ففي هذا التّأكيدِ تحذيرٌ شديدٌ لِمَنِ اتّخذَ من دون اللّهِ أولياءَ وأندادًا.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

النَّصيبُ والحَظُّ:

النَّصيبُ يكونُ في المحبوبِ والمكروهِ، والحَظُّ النَّصيبُ المُقَدَّرُ منَ الخيرِ والفضْلِ

النَّصيب: الحَظُّ المُعَيَّن[1]. ويدُلُّ الأصلُ على إقامَةِ شَيءٍ وإهدَافٍ في استِواءٍ. والنَّصِيبُ: الحَظُّ مِنَ الشَّيءِ، يُقالُ: هذا نَصِيبِي؛ أي: حَظِّي، وهو مِن هَذا، كأَنَّهُ الشَّيءُ الَّذي رُفِعَ لَكَ وأُهْدِفَ[2]. والنَّصيبُ يكونُ في المحبوبِ والمكروهِ، يُقال: أَخَذَ نصيبَه منَ الدُّنيا؛ أي: المقسوم لَه، خيرًا كان أو شَرًّا، سعادةً أو شَقاءً. والنَّصيبُ ما يُصيبُ الإنسانَ من قِسمَةٍ سواء ارتفع بها شأنُه أم لا[3].

أمَّا أصلُ الحظِّ فهو النَّصيبُ والجَدُّ[4]. والحَظُّ: النَّصيبُ المُقَدَّرُ منَ الخير، وهو ما يَحَظُّه اللّهُ تعالى للعبد منَ الخيرِ والفضلِ، وهو يرتفعُ به المحظوظُ؛ ولهذا يُذكَرُ على جهةِ المدحِ؛ فيُقال: لفلان حَظٌّ، وهو محظوظٌ[5]، ولذا عبَّر ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ۝٣٥﴾ [فُصّلت: 35]؛ أي: منَ الخيرِ والفضلِ والكرامةِ عندَ اللّهِ، وكلُّ (حظٍّ) في القرآن فهو بهذا المعنى.

(1) الرّاغب، المفردات: (نصب).
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (نصب).
(3) العسكريّ، الفروق اللُّغويَّة، ص: 135.
(4) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (حظَّ).
(5) العسكريّ، الفروق اللُّغَويَّة، ص: 135، والزّبيديّ، تاج العروس، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (حظَّ).

الكِتابُ والقرآنُ:

لُـوحِـظَ في الاسْـتِـعـمـالِ الـقـرآنيِّ الـطَّـردُ والـعَـكـسُ بين الكِتابِ والقرآنِ

المعنى المحوريّ لأصلِ مادّة (كَتَبَ) إلصاقٌ بدقّةٍ وقُوّةٍ، ومن ذلك الكتابةُ المعروفةُ فهي إلصاقُ الكلام بتثبيت رموزِه[1]. وقد يُقال ذلك للمضموم بعضه إلى بعض؛ لذا سُمّي كلامُ اللّه - وإن لم يُكتَبْ - كِتَابًا وإن أُنزل مقروءًا، ولكنّه كان مكتوبًا في اللّوحِ المحفوظِ قبلَ أن ينزّلَ على رسولِ اللّهِ ﷺ[2].

ومعنى القُرآن الجَمعُ، وَسُمِّيَ قُرآنًا؛ لأَنَّه يَجمَعُ السُّوَر، فيَضُمُّها[3].

أَمَّا من ناحية الاستعمالِ القرآنيِّ فَيُلحظُ أنَّه إذا كَثُر ورودُ (الكِتاب) في السّورة أكثرَ منَ القرآن أو لم يُذكرْ فيها، فإنّه يُعَبَّرُ عنِ القرآن بالكتاب، والعكس أيضًا إذا كان ذِكرُ كلمةِ القرآنِ في السّورة أكثرَ ورودًا من كلمة الكتابِ، فإنَّه يُعَبَّرُ عنِ الكِتاب بالقرآن، وإذا اجتمعَ القرآنُ والكتابُ فيتردّدان في السّورة بشكلٍ متساوٍ تقريبًا، ومن شواهد ذلك، أنَّه في سورة البقرةِ بدأَ بالكتاب: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَۛ فِيهِۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾، وذكرَ (الكتاب) في السّورة 47 مرّةً، و(القرآن) مرّةً واحدةً في آية الصّيام: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِۚ﴾[4].

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (كتب).
(2) الرّاغب، المفردات: (كتب).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (قرأ).
(4) السّامرائّي، لمَسات بيانيَّة، ص: 254.

﴿قَالَ ٱدۡخُلُواْ فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِكُم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ فِي ٱلنَّارِۖ كُلَّمَا دَخَلَتۡ أُمَّةٞ لَّعَنَتۡ أُخۡتَهَاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعٗا قَالَتۡ أُخۡرَىٰهُمۡ لِأُولَىٰهُمۡ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمۡ عَذَابٗا ضِعۡفٗا مِّنَ ٱلنَّارِۖ قَالَ لِكُلّٖ ضِعۡفٞ وَلَٰكِن لَّا تَعۡلَمُونَ ٣٨﴾ [الأعراف: 38]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الاعْتِرافُ بالكُفرِ الموجِبِ للنَّارِ هو مبدأُ دُخولِ النَّارِ لا النَّجاةُ منها

لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى المُفتَرِينَ عليه الكَذِبَ أو المُكذِّبينَ بآياتِه، ثمَّ ذكَرَ ما سيكُون من سُؤالِ الملائكةِ لهم عندما يَتَوفونَهُم: ﴿أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ﴾[الأعراف: 37]؟ ذكَرَ على لسَانِهم أنَّهم قالُوا: ﴿ضَلُّواْ عَنَّا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰفِرِينَ ٣٧﴾ [الأعراف: 37]، فكأنَّه قِيلَ: لقدِ اعترَفُوا، والاعترَافُ إنصَافٌ، فهل ذَلِكَ نافِعُهُم؟ فبيَّنَ سُبحانَهُ أنَّ ذلك غيرُ نافعٍ لهُم، لفواتِ محلِّه بفواتِ دَارِ العَمَلِ، فقال سُبحانَهُ: ﴿قَالَ ٱدۡخُلُواْ فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِكُم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ فِي ٱلنَّارِۖ﴾[1]، فالمناسبةُ بين الآيتين قائمةٌ على بيانِ حالِ أهلِ النَّارِ عند الإقرارِ بأفعالِهم التي يَستحقُّون بها دخولَ النَّارِ قبل دُخولِها، وعندَ الأمرِ بدخولِها.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أُمَمٖ﴾: جمعُ أُمَّةٍ، ومادَّتُهَا الهمزةُ والميمُ، وهي دالَّةٌ على تَضَامِّ شيءٍ أو أشياءَ مُتَجانِسَةٍ، بمعنَى: لَحَاقِ بعضِها ببَعضٍ في حيِّزٍ يُحِيط بظاهِرِهَا بلُطفٍ[2]، ومنه الأُمُّ؛ فإنَّ العرَبَ تُسمِّي كلَّ شيءٍ يُضَمُّ إليه سائرُ ما يليهِ أُمًّا[3].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/379.
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (أمم).
(3) الخليل بن أحمد، العين: (أم).

وذكر ابنُ قُتيبة أنَّ الأصلَ في الأُمَّةِ: الجماعَةُ والصِّنفُ مِنَ النَّاس[1]، وتَرِدُ الأمَّةُ في القرآنِ الكريمِ على خمسَةِ معانٍ؛ هي: الجماعة، والملَّة، والزَّمن، والإمامُ، والصِّنفُ[2].

والأُمَمُ في قولِهِ تعالى: ﴿قَالَ ٱدۡخُلُواْ فِيٓ أُمَمٖ﴾ يُرادُ بِهَا: الجماعاتُ والأحزابُ وأهلُ الملِ الكَافِرَة[3].

2) ﴿خَلَتۡ﴾: الخاءُ واللَّامُ والحرف المعتلُّ تدورُ تصريفَاتُهَا حَوْلَ مَعنَى تعَرِّي الشَّيءِ مِنَ الشَّيءِ[4]، والخَلاءُ مِنَ الأرضِ: قَرَارٌ لا شَيءَ فيه[5]. وخَلا لَكَ الشَّيءُ، بِمَعنَى: فَرَغَ[6]. والخُلُوُّ مُستَعمَلٌ في الزَّمانِ والمَكَانِ، إلَّا أنَّهُ لَمَّا تُصُوِّر في الزَّمَانِ المُضِيُّ؛ فُسِّرَ الخُلُوُّ بالمُضِيِّ، فيُقَالُ: خلَا الزَّمانُ؛ أي: مَضَى وذهبَ[7]، ومِنهُ قولُ اللّه تعالى: ﴿قَدۡ خَلَتۡ﴾، فإنَّ معناهُ: قد مضَتۡ[8].

3) ﴿ٱلۡجِنِّ﴾: الجِيمُ والنُّون أصلٌ يدُلُّ على السَّترِ، ومِنهُ: الجنَّةُ في الدُّنيا وهي البُستَان؛ لأنَّ الشَّجرَ بِوَرَقِهِ يستُرُ، والجَنَّةُ في الآخرة: ثَوَابٌ مَستُورٌ عَنَّا اليَومَ[9]. والجِنُّ: خلقٌ مِن خَلقِ اللّهِ تعالى مُكلَّفُونَ، خلقَهُمُ اللّهُ تعالى مِن نارٍ، وسُمُّوا بذلك لاستتَارِهم عنِ الأعيُنِ[10]، وهو المرادُ في قَولِهِ تعالى: ﴿قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِكُم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ﴾.

4) ﴿وَٱلۡإِنسِ﴾: الهمزةُ والنّون والسِّين تدور تصاريفُهَا على معنَى ظهورِ الشَّيءِ، ومِنه قولُهم: آنسَ الشَّيءَ؛ أي: رآهُ، ومِنه قولُ اللّهِ تعالى: ﴿إِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهۡلِهِۦٓ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا﴾ [النّمل: 7]، وسُمِّيَ الإنسُ إنسًا لظهورِهِم[11]، والإنسُ: بنُو آدَمَ[12]، وهو المَعنَى المرادُ في قَولِهِ تعالى: ﴿قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِكُم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ﴾.

(1) ابن قتيبة، تأويل مشكل القرآن، ص: 248.
(2) ابن الجوزيّ، نزهة الأعين النّواظر، ص: 143 - 144.
(3) الخازن، لباب التَّأويل: 2/198.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (خلو).
(5) الخليل بن أحمد، العين: (خلو).
(6) ابن منظور، لسان العرب: (خلو).
(7) الرّاغب، مفردات ألفاظ القرآن الكريم: (خلا).
(8) ابن أبي حاتم، تفسير القرآن العظيم: 5/1475.
(9) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (جن).
(10) ابن الأنباريّ، الزَّاهر في معاني كلمات النَّاس: 2/322.
(11) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (أنس).
(12) ابن الأثير، النّهاية في غريب الحديث والأثر: (أنس).

5) ﴿لَّعَنَتۡ﴾: اللَّام والعَين والنّونُ تدور اشتقاقَاتُهَا على الإبعادِ والطَّرد، ومِنه: لعنَ اللّهُ تعالى الشَّيطانَ؛ بمعنَى: أبعَدَهُ عنِ الخَيرِ والجنَّةِ[1]. واللَّعنُ في الشَّرع: الطَّرد والإبعَادُ عَن رَحمَةِ اللّه تعالى[2].

واللَّعنُ في قولِهِ تعالى: ﴿كُلَّمَا دَخَلَتۡ أُمَّةٞ لَّعَنَتۡ أُخۡتَهَاۖ﴾ بمعنى الشَّتم؛ أي: شتمَتِ الجماعةَ الأخرى مِن أهلِ مِلَّتها، تَبَرِّيًا مِنهَا[3].

6) ﴿ٱدَّارَكُواْ﴾: الدَّالُ والرَّاءُ والكافُ تدورُ تصريفَاتُها على معنَى لُحُوقِ شيءٍ بشيءٍ ووصولِهِ إليه، ومِنه قولُهم: أدركتُ الشَّيءَ؛ أي: لحقتُهُ[4]. والإدراك والدَّرَكُ: لحَاقُ المُطارِد بالمُطارَد، ومنه قولُه تعالى: ﴿أَيۡنَمَا تَكُونُواْ يُدۡرِككُّمُ ٱلۡمَوۡتُ﴾ [النّساء: 78][5].

وأصلُ ﴿ٱدَّارَكُواْ﴾: تَدَارَكُوا؛ أُدغِمَتِ التَّاء في الدَّال، وجيءَ بهمزة الوصلِ لئلَّا يُبتدأ بالسَّاكنِ، ومعنى قولِه تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعٗا﴾: تلاحَقُوا وأدرَكَ آخرُهم أوَّلَهم، واجتَمَعُوا في النَّار جميعًا[6].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

اجتِماعُ الكافرين مُتخاصِمين ومُتلاعِنين في النَّارِ عذابٌ فوقَ العذابِ

قالَ اللّهُ تعالى لهؤلاءِ المُشركِين المُفتَرِينَ حِينَ وَرَدُوا عليهِ يومَ القيامَة: ادخُلُوا النَّارَ في جماعاتٍ مِن ضُرَبائكُم في الكفرِ، قد سَلَفَتْ مِن قَبلِكُم مِنَ الجنِّ والإنسِ في النَّار، كُلَّما دخلتِ النَّارَ جماعةٌ مِن أهلِ ملَّةٍ لعَنَتْ نظيرتَهَا الّتي ضلَّت بالاقتِدَاء بهَا، حتَّى إذا تلاحَقَ في النَّارِ الأوَّلون مِن أهلِ المِلَلِ الكافرَةِ والآخرون مِنهُم؛ قال الآخِرُون المتَّبعون في الدّنيا لقَادَتِهم: ربَّنا هؤلاء أضلُّونَا عَن سَبِيلِك، ودَعَونَا إلى عبادة غَيرِك، وزيَّنوا لنَا طاعةَ الشَّيطان، فآتهم اليومَ مِن عذابك الضِّعفَ

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (لعن).
(2) بكر أبو زيد، معجم المناهي اللّفظيَّة، ص: 456.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 12/416.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (درك).
(5) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (درك).
(6) محمّد الأمين الشّنقيطيّ، العذب النّمير: 3/225.

على عذابِنَا، قال اللّه تعالى: لكلٍّ مِنكُم ومِنهُم عذابٌ مُضاعفٌ مِنَ النَّار، ولَكِن لا تُدرِكُون قدْرَ ما أعدّ اللّهُ لَكُم مِنَ العذَابِ[1].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

عِلَّةُ فَصْلِ: ﴿قَالَ ٱدۡخُلُواْ فِيٓ أُمَمٖ﴾ عَمَّا قَبلَهُ:

الاعتِرَافُ بالحقِّ بَعدَ فواتِ الأَوانِ حَسرَةٌ وخُسرانٌ

فُصِلَ قولُ اللّه تعالى: ﴿قَالَ ٱدۡخُلُواْ فِيٓ أُمَمٖ﴾ عمَّا قبلَهُ؛ لوقوعِه استئنافًا بيانيًّا، فبَيْنَ هذهِ الجملةِ وما قبلَهَا شبهُ كمال الاتِّصالِ، وذلك أنَّ قولَهُ سُبحانَهُ: ﴿وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰفِرِينَ ٣٧﴾ [الأعراف: 37] دالٌّ على اعترافِهِم، والاعترافُ إنصافٌ، فرُبَّما تُوُهِّمَ أنَّ اعترافَهُم نافعٌ لهم ومُخرِجُهم مِن تَبِعَةِ العقابِ، فأثار ذَلِكَ سُؤَالًا: هَلِ اعترَافِهُم نافعُهم؟ فجاءَ الجوابُ في قَولِ اللّه تعالى: ﴿ٱدۡخُلُواْ فِيٓ أُمَمٖ﴾ بيانًا لعدَمِ انتفاعِهِم باعترافِهِم ذلكَ[2].

بَلاغةُ الاسْتعارَةِ التَّصريحيَّةِ:

إثباتُ البَعثِ واقعًا أوقعُ في التَّحقُّقِ وأثبتُ في البُرهانِ

وردَ فعلُ القولِ في قولِه تعالى: ﴿قَالَ ٱدۡخُلُواْ فِيٓ أُمَمٖ﴾ ماضِيًا، والفعلُ الماضي دالٌّ على حدَثٍ مَضَى زمانُهُ، وسياقُ الآيةِ حديثٌ عمَّا يكُون يومَ القِيامَةِ، وهو أمرٌ مُستقبَلٌ لم يقَعْ بعدُ، فكان مُقتضَى الظَّاهرِ التَّعبيرَ بفعلٍ يدلُّ على المستقبلِ، ونُكتَةُ العدُولِ عَنِ التَّعبيرِ بفعلٍ يدلُّ على مستقبلٍ إلى المَاضي: الإيماءُ إلى تَحَقُّقِ وقوعِ هذا الخطابِ، وصِدقِ القِصَّةِ، حتَّى كأنَّها أمرٌ قَد وقعَ وفُرِغَ منه[3].

ففِي الآيةِ استعارَةٌ بليغَةٌ، حيثُ شبَّه القَولَ في المُستقبلِ بالقَولِ في الماضي، في تحقُّقِ وقوعِ القَولِ، على سبيلِ الاستعارةِ التَّصريحيَّة، ونُكتَةُ الاستعارَةِ: إثباتُ البعثِ؛ بما سيكونُ فيه من وعيدٍ للمُفترِين، فلمَّا أنكرُوه افتراءً، أثبَتَه اللّه بما سيقعُ فيه حقًّا وصِدقًا.

---

(1) ابن جرير، جامع البيان، 12/415 - 419، ونخبة منَ العلماء، التّفسير الميسّر، ص: 155.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/397.

(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/398.

نُكتةُ حذْفِ المُسنَدِ إليه لِلفِعل ﴿قَالَ﴾:

لَا يُكَلِّمُ اللهُ تَعالى الكُفَّارَ كَلامَ تَكرِيمٍ

لَم يُنصَّ النَّظمُ على تعيينِ القائلِ (المسنَدِ إليه) لِلفعلِ ﴿قَالَ﴾ بالِاسمِ المُظهَرِ، والقائلُ هو اللّٰهُ تعالى، وفي توجيهِ ذلك من حيثُ الحقيقةُ والمجازُ مسلكَانِ:

أحَدُهُما: أنَّ الكلامَ موجَّهٌ إلى الكُفَّار مباشرةً.

والآخَرُ: أنَّ اللّٰه تعالَى يقُولُ لَهُم ذَلِكَ بِواسطةِ الملائكةِ؛ وذلك لورُود ما يدلُّ على عدمِ تكليم اللّٰه تعالى لِلكُفَّار يومَ القِيامَةِ[1]، كما في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشۡتَرُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ وَأَيۡمَٰنِهِمۡ ثَمَنٗا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيۡهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ [آل عمران: 77]، ويُجابُ عن هذا بأنَّ المرادَ بتكليمِهم المَنفيِّ هو تكليمُ التَّكرِيم؛ لأنَّ اللّٰه تعالى أخبر في آيةٍ أخرَى أنَّه يقولُ لَهُم في النَّار: ﴿ٱخۡسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ١٠٨﴾ [المؤمنون: 108][2].

والأظهَرُ الأوَّلُ؛ لأنَّه جارٍ على الأصلِ في حملِ الكلامِ على الحقيقةِ، بخلاف القولِ الآخَرِ؛ فإنَّه مجازٌ عقليٌّ بعلاقةِ السَّببيَّةِ، وإنَّما لم يُصرَّح بالفاعِلِ لِنُكتَتَين:

إحداهما: أنَّ اللّٰه سُبحانَهُ مذكورٌ دائمًا في الأفهامِ وفي القلوبِ، فلَم يُفتَقَر إلى ذِكرِه ههنا[3].

والأخرى: أنَّ المقامَ معيِّنٌ لَهُ؛ إذْ إنَّ مثلَ هذا القولِ لا يَصدُرُ مِن أحدٍ غَيرِ اللّٰه سُبحانَه[4].

غَرَضُ الأَمْرِ في قولِه تعالى: ﴿ٱدۡخُلُواْ﴾:

الأمرُ في قولِ اللّٰه تعالى: ﴿ٱدۡخُلُواْ فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِكُم

(1) مقاتل بن سليمان، تفسير مقاتل: 2/36، والواحديّ، التّفسير البسيط: 9/119، وابن الجوزيّ، زاد المسير: 117 - 118/2، والسّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 288.

(2) ابن أبي العزّ، شرح الطّحاويّة، ص: 131.

(3) محمد أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 6/2833.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8ب/118.

مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ فِي ٱلنَّارِۖ﴾ فوقَ أنَّه جارٍ على حقيقتِهِ في الدِّلالةِ على الإيجابِ والإلزامِ الجبريِّ؛ فهُم غيرُ مخيَّرينَ في ذلك اليوم؛ فدُخولُهم النَّارَ أمرٌ حتميٌّ، فيُراد من هذا الإلزامِ الإهانَةُ والتَّحقيرُ، ذلك أنَّ أمرَ هؤلاءِ بالدُّخولِ إلى النَّارِ بأنفسِهم عذابٌ فوقَ العذابِ، بقرينَةِ قولِهِ بعدُ: ﴿فِي ٱلنَّارِۖ﴾؛ فإنَّ الكفَّار حالَ خِطابِهم بالأمرِ في حالٍ مَهينَةٍ، وقد طُلِبَ مِنهُم دخولُ النَّارِ مع الدَّاخِلينَ، وهذا قاطِعٌ بأنَّ أمرَهُم واقعٌ على وجهِ الإهانَةِ لَهُم، زيادةً على ما هُم عليهِ مِنها.

مِن أعظَمِ العَذابِ أنْ يُؤمرَ أهلُ النَّارِ بدُخولِها

براعةُ استعمالِ حَرفِ الجَرِّ ﴿فِي﴾:

حرفُ الجرِّ ﴿فِي﴾ مِن قولِ اللهِ سُبحانه: ﴿قَالَ ٱدۡخُلُواْ فِيٓ أُمَمٖ﴾ يَحتَمِلُ وَجهَين[1]:

الدُّخولُ في الأممِ التي في النَّارِ دخولٌ في النَّارِ

أحدهمَا: أن تكونَ ﴿فِي﴾ بمعنَى (مَعَ)، والتَّقدير: ادخُلُوا النَّارَ مَعَ أُمَمٍ.

والآخَرُ: أن تكونَ ﴿فِي﴾ على بابِهَا في الدّلالَةِ على الظَّرفيَّةِ، وهي ظرفيَّةٌ مجازيَّةٌ؛ إذِ المَعنَى: كونُهم في حالٍ واحدةٍ وحُكمٍ وَاحِدٍ، سواءٌ أكان دخولُهم النَّارَ في وسطِهم أم كان قبلَهُم أو بعدَهم.

والأوفقُ بالبلاغةِ أن يكونَ معنى الظَّرفيَّة على بابِه، بمعنى: أنَّ الدُّخولَ في تلك الأممِ هو في الحقيقةِ دُخولٌ في النَّارِ، ذلك أنَّ تلكَ الأُممَ ماكثةٌ في النَّارِ، والمُخاطَبون مأمورونَ أن يدخُلُوا في تلك الأممِ الّتي هي في النَّارِ، فدُخولُهم في الأممِ دخولٌ في النَّارِ.

نُكتَةُ تَنكِيرِ ﴿أُمَمٖ﴾:

نُكِّر لفظُ ﴿أُمَمٖ﴾ مِن قَولِ اللهِ سُبحانَه: ﴿قَالَ ٱدۡخُلُواْ فِيٓ أُمَمٖ﴾ للدِّلالَةِ على التَّكثيرِ، فالأُمَمُ الدَّاخِلَةُ النَّارَ كثيرٌ عَدَدُهَا، وفي هذا مِنَ الوَعيدِ والتَّهديدِ ما يقرَعُ سَمعَ كُلِّ مُتَلَقٍّ لهذا الخِطَابِ.

كَثرَةُ الدَّاخِلِينَ النَّارَ مِنَ الأُمَمِ

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/398، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 14/237، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8ب/119.

كُلُّ مُخَالِفٍ لِدِينِ الإِسلامِ مَآلُهُ النَّارُ

سِرُّ جَمْعِ ﴿أُمَمٍ﴾:

جُمِعَ لفظُ ﴿أُمَمٍ﴾ في قَولِه ﷻ: ﴿قَالَ ٱدۡخُلُواْ فِيٓ أُمَمٖ﴾؛ لإفادة التَّكثيرِ والتَّنويعِ، فأمَّا دِلالَتُهَا على التَّكثيرِ فظاهِرٌ، وهي دِلالَةٌ تُضافُ إلى دلَالَةِ تنكيرِ الكلِمَةِ أيضًا، وأمَّا التَّنويعُ فإنَّ الأُمَمَ الدَّاخِلَةَ النَّارَ مُتَعَدِّدَةٌ أَنوَاعُهَا؛ إذْ فيهِم جِنٌّ وإنسٌ، وفِيهِم يَهُودٌ ونصَارَى ومُشرِكُونَ ومنافِقُونَ.

تَعجيزُ الدَّاخلينَ في النَّارِ منَ النَّجاةِ

نُكتةُ التَّعرِيضِ في الآيةِ:

في قولِه تعَالَى: ﴿قَالَ ٱدۡخُلُواْ فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِكُم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ فِي ٱلنَّارِۖ﴾ تعريضٌ بالوعيدِ؛ بأَنْ يَحِلَّ بِهِم مثلُ ما حلَّ بِمَن قبلَهُم، وبيانٌ بأنَّهم سواءٌ في عذابِ النَّارِ[1]، ونُكتُته التَّعجيزُ منَ الخروجِ، إذ عِلمُهم بحالِ تلك الأممِ الّتي لم تخرُجْ منَ النَّار، يقودُهم إلى اليأسِ منَ الخُروجِ، فلن يكونوا خيرًا من غيرِهم.

مَعرفةُ العذابِ الجِسّيِّ بعد إبهامِه عذابٌ نفسِيٌّ

بَرَاعَةُ تأخيرِ قَولِهِ تعالى: ﴿فِي ٱلنَّارِۖ﴾:

في قولِه سُبحانَهُ: ﴿قَالَ ٱدۡخُلُواْ فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِكُم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ فِي ٱلنَّارِۖ﴾ تقديمٌ وتأخيرٌ فيما يقتضيه الظَّاهر، والتَّقدير: ادخُلُوا في النَّارِ مع أممٍ[2]، لكنَّ القرآنَ جاءَ على ما يقتضيه المقامُ، وما يُحتِّمه علمُ اللّه تعالى، ففي تأخيرِ محلِّ الجزاءِ ﴿فِي ٱلنَّارِۖ﴾ زيادَةٌ في إدخالِ الرَّهبَةِ والفَزَعِ في قُلُوبِ المخاطَبينَ؛ إذ كان أوَّلُ الكلام غيرَ دالٍّ على تَعيينِ الجزاءِ، فتقَعُ النُّفوسُ في حيرةٍ ودهشةٍ وترقُّبٍ، فيجيءُ البيانُ قاطعًا لمصيرِهم، مُزيلًا كلَّ أَمَلٍ للنَّجاةِ ربَّما خطرَ بأوهامِهم، وهو ما يتَّفقُ مع نُكتةِ حملِ حرفِ الظَّرفيَّةِ على بابِه.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8ب/119.
(2) الواحديّ، التّفسير البسيط: 9/120.

دَلَالَةُ استِعمالِ أداةِ ﴿قَدْ﴾ في الآيةِ:

التَّحذِيرُ مِنَ الضَّلَالِ المُوجِبِ لِلهَلَاكِ الدُّنيَوِيِّ وَالأُخرَوِيِّ

﴿قَدْ﴾ في قولِ اللّه سُبحانَهُ: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِى ٱلنَّارِ﴾ مؤكِّدَةٌ لِلجُملةِ الفعليَّةِ ومقوِّيَةٌ لَهَا، فَفيهِ تحقيقُ دُخولِ جماعَاتٍ مِنَ الجِنِّ والإنسِ النَّارَ، ودخولُهُم إيَّاها بِسَبَبِ الضَّلالِ يُوجِبُ الحَذَرَ مِن سُلُوكِ سَبيلِهِم في الدُّنيا، فيَكُون مُصاحِبًا لَهُم في الآخِرَة.

نُكتَةُ تأنِيثِ فعْلِ: ﴿خَلَتْ﴾:

اقتِحَامُ ما فِيهِ الخَسارَةُ دَلِيلُ رِقَّةِ العَقلِ وَضَعفِهِ

لَحِقَتِ المسنَدَ ﴿خَلَتْ﴾ تاءُ التَّأنيثِ إعلامًا بضَعفِ عقولِهِم وسَفَهِ أحلامِهِم[1]؛ حيثُ اقتحَموا ما كان فيه خَسارَتُهُم الأبديَّةُ.

دَلَالَةُ حرفِ ﴿مِن﴾ في قولِه تعالى: ﴿مِن قَبْلِكُم﴾:

دِقَّةُ البَيَانِ القُرآنِيِّ فِي انتِقاءِ حُرُوفِ المَعَانِي

دخُولُ حرفِ الجرِّ ﴿مِن﴾ على ﴿قَبْلِكُم﴾ مِن قَولِه تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم﴾ أفادَ نُكتَتَينِ:

إحداهُمَا: توكيدُ المَعنَى وتَقوِيَتُهُ؛ وهو الدّلالَةُ الغالبَةُ على (مِنْ) المُقتَرِنَةِ بـ (قَبْلُ) و(بَعْدُ).

والأُخرَى: أنَّه لَمَّا وُجِدَ مَن آمَنَ في الزَّمَنِ الماضِي، أدخلَ (مِنْ)؛ احتراسًا مِن دخولِ هؤلاءِ في نظمِ الآيةِ[2].

دَلَالَةُ ﴿مِّنَ﴾ فِي قَولِهِ تَعالى: ﴿مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾:

شُمُولُ العَذَابِ الضَّالِّينَ كُلَّهُم؛ إِنسَهُم وَجِنَّهُم

﴿مِن﴾ في قولِ اللّهِ سُبحانَهُ: ﴿مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾ بيانيَّةٌ، وذلك لبيانِ شمولِ العذابِ الضَّالِّينَ كُلَّهم، سواءٌ أكانُوا جِنًّا أم إنسًا[3]؛ إذ علَّةُ العذابِ هُوَ الضَّلالُ، وهذه العلَّةُ كائنَةٌ في الجنِّ كما هِيَ في الإنسِ، كما قالَ اللّهُ تعالى عَنِ الجِنِّ: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ﴾ [الجنّ: 14].

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/397.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/397.

(3) محمّد أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 6/2834.

دَلَالَةُ اللَّامِ فِي ﴿ٱلْجِنِّ﴾ وَ﴿وَٱلْإِنسِ﴾:

بَيانُ جِنسِ الأُمَمِ الدَّاخِلَةِ فِي النَّارِ

اللَّامُ في ﴿ٱلْجِنِّ﴾ وَ﴿وَٱلْإِنسِ﴾ من قَولِ اللّه ﷻ: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِى ٱلنَّارِ﴾ لِبَيَانِ الحقيقَةِ، وهي المسمَّاةُ: لامُ الجنسِ؛ إذِ المُشَارُ إليه هُنا هُو الحقيقَةُ بِقَطعِ النَّظَرِ عَن عُمومِهَا أَو خُصُوصِها، والمَعنَى: أنَّ هذهِ الأُمَمَ الدَّاخِلَةَ النَّارَ قَد تكُونُ مِن جنس الجنِّ، وقد تَكونُ مِن جنس الإنسِ.

سِرُّ تَقدِيمِ الجِنِّ عَلى الإنسِ:

الجِنُّ أَصلٌ فِي الإِغوَاءِ والإِضلَالِ

قُدِّم الجِنُّ على الإنسِ في قولِه تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾؛ لكونِهم أَعرَقَ في الكفرِ؛ فَالجنُّ الأصلُ في الإغواءِ والإِضلَالِ[1]، وهم السَّابقون في التَّكليف والخلقِ.

دَلَالَةُ ﴿فِى﴾ فِي قَولِه تعالى: ﴿فِى ٱلنَّارِ﴾:

تَصوِيرُ اجتِماعِ الكَفَرَةِ جِنًّا وإِنسًا فِي قَعرِ جَهَنَّمَ

﴿فِى﴾ مِن قولِ اللّه سُبحانَهُ: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِى ٱلنَّارِ﴾ للظَّرفيَّةِ، وفي ذلكَ إيمَاءٌ إلى أنَّ اجتماعَ أهلِ النَّارِ حاصِلٌ في قَعرِ جَهَنَّمَ، وأنَّ بعضَهم يركَبُ بعضًا، كما أومأَ إلى ذلكَ الإدغَامُ في فعلِ ﴿ٱدَّارَكُواْ﴾، وهذا الاجتِمَاعُ واقعٌ لجميعِهم، دونَ أن يتخلَّفَ أحدٌ، كما دلَّ على ذلك قولُ اللّه تعالى: ﴿جَمِيعًا﴾.

فأَفَادَ حرفُ الجرِّ ﴿فِى﴾ تصويرَ اجتماعِ الكَفَرةِ جنًّا وإنسًا في قَعرِ جَهَنَّمَ.

عِلَّةُ حَذْفِ مَعمُولِ ﴿دَخَلَتْ﴾:

الاقتِصَادُ اللَّفظِيُّ عِندَ الدَّلِيلِ مِن مَحاسِنِ البيانِ

حُذِفَ معمولُ الفعلِ ﴿دَخَلَتْ﴾ من قَولِه تعالى: ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ﴾، والتَّقدير: كلَّما دَخَلَتْ أمَّةٌ النَّارَ؛ لعنَتْ أُختَهَا، وحُذِفَ المعمولُ اكتفاءً بدلالَةِ تقدُّمِ ذكرِ النَّارِ مع فِعلِ الدُّخولِ في قوله سُبحانَهُ: ﴿ٱدْخُلُواْ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِى ٱلنَّارِ﴾.

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/398، وأبو حيّان، البحر المحيط: 5/48، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 7/397.

فائِدةُ تَنكِيرِ ﴿أُمَّةٌ﴾:

النَّكِرَةُ الوَاقِعَةُ في حَيِّزِ عُمومِ الأَزمانِ تَعُمُّ

نُكِّرت ﴿أُمَّةٌ﴾ مِن قولِه تعالى: ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ﴾ لإفادَةِ العُموم، وذلك لأنَّها نكرةٌ وقعَتْ في حيِّزِ عُموم الزَّمانِ ﴿كُلَّمَا﴾، فأفادَتِ العُمومَ، وهو عمومُ الدَّاخِلينَ النَّارَ، والمعنَى: كُلُّ أمَّةٍ دخلَتْ.

وقولُهُ بعدُ: ﴿أُخْتَهَا﴾ نَكِرَةٌ أضيفَ إلى ضميرٍ راجعٍ إلى نكِرَةٍ، فلا يُفيدهُ ذلك تعريفًا، فتكون ﴿أُخْتَهَا﴾ نكرةً واقعةً في حيِّزِ عموم الأزمِنَةِ أيضًا؛ فتُفيدَ العُمُومَ كذلكَ[1].

نُكتةُ الاستِعَارَةِ التَّصريحيَّةِ في قَولِهِ تَعالى: ﴿أُخْتَهَا﴾:

قوّةُ علاقةِ أهلِ الضَّلالةِ في الدُّنيا ينقلبُ لعنةً في الآخرةِ

في قولِ اللهِ ﷻ: ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا﴾ استعارةٌ؛ حيثُ شُبِّهَت الأُمَّةُ الموافقَةُ لغيرِهَا في الضَّلالِ بالأختِ، بجامعِ مُطلَقِ الاشتراكِ، وحُذفَ المشبَّه وصُرِّح بالمشبّه به على طريقةِ الاستعارةِ التَّصريحيَّةِ الأصليَّةِ، ونكتةُ الاستعارَةِ بيانُ شدَّةِ حسرةِ الأُمَمِ الضَّالَّةِ وعظيمِ العداوَةِ الحاصِلَةِ بينَهُم يومَ القيامَةِ؛ حيث إنَّ كلَّ أهلِ دينٍ وملَّةٍ يلعَنُ نظيرَهُ ممَّن اتَّبعَ آثارَه وماثلَهُ في دينِهِ؛ فاليهودُ تلعنُ اليهودَ، والنَّصارَى تلعنُ النَّصارى، والمجوسُ المجوسَ، وهكذا[2].

دَلَالَةُ السَّابقِ واللَّاحقِ لأداةِ ﴿حَتَّىٰٓ﴾:

دلَّتْ (حتى) على أنَّ ما قبلَها سَببٌ فيمَا بعدَها

الجُملةُ في قولِ اللهِ سُبحانَهُ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعًا﴾ مُستَأنَفَةٌ، و﴿حَتَّىٰٓ﴾ ابتدائيَّةٌ، وهي مُفيدَةٌ معنَى التَّسبُّبِ؛ أي: تسبُّبِ مضمونِ ما قبلَهَا في مَضمونِ ما بعدَهَا، والغايَةُ الّتي تدلُّ عليها هي غايةُ ما يُخبِرُ به المُخبِرُ.

و﴿حَتَّىٰٓ﴾ الابتدائيَّةُ تدلُّ على أنَّ مضمونَ ما بعدَهَا أجدرُ بعنايةِ المتلقِّي في الفهمِ والتَّدبُّرِ؛ لأنّه نتيجةُ ما قبلَها، ولأنَّه أجدَى في

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8ب/120.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/397.

الغرضِ الّذي سِيقَ الكلامُ لأجلِه، والواقعُ بعدَ ﴿حَتَّىٰٓ﴾ في هذه الآيةِ فيه مِنَ التَّهويلِ شيءٌ عظيمٌ؛ إذ نُصَّ على مآلِهم الأبديِّ وهو النَّارُ، وذلك أَدخَلُ في ترويعِهم وَتَهديدِهم[1].

لطِيفةٌ في توجيهِ الإدغَامِ في قولِه: ﴿ٱدَّارَكُواْ﴾:

أصلُ ﴿ٱدَّارَكُواْ﴾: تَدَارَكُوا؛ أُدغِمَتِ التَّاء في الدَّالِ، ثُمَّ جيءَ بهمزة الوصلِ ليُتوصَّلَ بها إلى النُّطقِ بالسَّاكنِ، ومَعنَى ﴿ٱدَّارَكُواْ﴾: تدَارَكُوا وتلاحَقُوا، ومن لطيفِ ما يُشعرُ به الإدغامُ في لَفظِ: ﴿ٱدَّارَكُواْ﴾ أنَّهم حالَ إدراكِ بَعضِهم بعضًا في النَّار: يركَبُ بعضُهم بعضًا[2].

مِن قَبيحِ أَحوَالِ الكُفَّارِ رُكوبُ بَعضِهِم بَعضًا في نَارِ جَهَنَّمَ

معنَى اللَّامِ فِي قَولِهِ تعالى: ﴿لِأُولَىٰهُمۡ﴾:

اللَّامُ في قولِ اللهِ سُبحانه: ﴿قَالَتۡ أُخۡرَىٰهُمۡ لِأُولَىٰهُمۡ﴾ لامُ أجْلٍ وسَبَبٍ؛ إذِ القولُ ﴿قَالَتۡ أُخۡرَىٰهُمۡ لِأُولَىٰهُمۡ﴾ خبرُ اللهِ عنهم، فالمعَنى: أنَّ القائلين ﴿رَبَّنَا﴾ قالُوا ما قالُوا بسبب إضلالِ المُشارِ إليهم بقولِه: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ إيَّاهُم، وليسَ المعنَى أنَّهم ذكَرُوا هذه المقالَةَ لِأُولَاهُم؛ لأنَّهم لم يُخاطِبُوهم، وإنَّما خاطَبُوا اللهَ سُبحانَهُ بهذا[3]، وهذا يدلُّ على أنَّ صداقةَ الكافرين في الدُّنيا، ستكونُ عاقبتُها وخيمةً في الآخرةِ.

صَداقةُ الكُفرِ تَنقلِبُ عَداوةً يومَ القيامةِ

نُكتةُ النِّدَاءِ بلفظِ الرُّبُوبِيَّةِ ﴿رَبَّنَا﴾:

وقعَ النِّداءُ في قَولِ اللهِ تعالى: ﴿قَالَتۡ أُخۡرَىٰهُمۡ لِأُولَىٰهُمۡ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا﴾ باسم الرُّبوبيَّةِ مضافًا إلى ضميرِ المُتكلِّمينَ (نَا)؛ ونكتَةُ ذلك الإشْعارُ بأنَّ اللهَ تعالى الّذي لم يَقطَعْ إحسانَهُ عنهم في الدُّنيا على ما كان منهُم من مقابلَةِ إحسانِه إليهم بالإساءَة في العمَلِ[4]؛ يجوزُ أن يُجيبَ دعاءَهُم على المُضلِّينَ - فيما يظنُّون - فإنَّ في ذلك إحسانًا إلى الدَّاعينَ بتشفِّيهم مِمَّن أضلَّهُم.

اعتقادُ العَبدِ يُصاحِبُه في الآخرةِ، وهو في قَعرِ جهنَّم

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8ب/166 - 121.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/397.
(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/399، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 14/238.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/398.

وأمرٌ آخر وهو أنَّ الدَّاعينَ قد أقرُّوا في الدُّنيا بالرُّبوبيّة، وعاندُوا في الألوهيّة، فناسَبَ ذلك أن يكونَ دُعاؤُهم مُتَّسقًا مع أعمالِهم.

نُكتَةُ الإشارَةِ بِ ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾:

التَّعبيرُ باسمِ الإشارَةِ ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ في قَولِ اللّهِ تَعالى: ﴿رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا﴾ فيه إشعارٌ بِحُضورِ هذهِ الطَّائِفَةِ، المُضِلِّ أصحابُهَا، المُشَارِ إِلَيهِم؛ وذلك أنَّ الأَصلَ في اسمِ الإشارةِ أَن يَكونَ لِحاضِرٍ.

ونُكتَةُ الإتيانِ باسمِ الإشارَةِ هَهُنا: تمييزُ المشارِ إِلَيهِ أكملَ تَمييزٍ؛ ليُرتِّبُوا عليهِ قولَهُم بعدُ: ﴿فَـَٔاتِهِمۡ عَذَابٗا ضِعۡفٗا مِّنَ ٱلنَّارِ﴾.

الإشعارُ بِحُضورِ الطَّائِفَةِ المُشارِ إِلَيها في ذِهْنِ السَّامِعِ

نُكتَةُ المَجازِ المُرسَلِ في: ﴿أَضَلُّونَا﴾:

﴿أَضَلُّونَا﴾ مِن قولِهِ تَعالى: ﴿قَالَتۡ أُخۡرَىٰهُمۡ لِأُولَىٰهُمۡ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا﴾ بمعنَى: سَنُّوا لنا الضَّلالَ فاقتدينَا بِهِم، أو دَعَوْنا إِلَيهِ وأمرونَا به، فأَطَعناهُم[1]، فالإضلَالُ مرادٌ به التَّسبُّبُ به، فهو مجازٌ مرسَلٌ، علاقَتُهُ المسبَّبيَّةُ؛ حيثُ أُطلِقَ المُسَبَّبُ والمرادُ السَّبَبُ، وإنَّما عبَّرُوا بالمسبَّبِ مبالغَةً؛ لذِكرِ أعظَمِ الأشياءِ الموجبَةِ مُضَاعفةَ العذابِ عليهم.

الإضلَالُ مِن أَعظَمِ الأَشياءِ المُوجِبَةِ مُضاعَفَةَ العَذابِ

دَلالَةُ حَذْفِ مُتَعَلَّقِ ﴿أَضَلُّونَا﴾:

حُذِفَ مُتعلَّقُ الفعلِ ﴿أَضَلُّونَا﴾ من قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿قَالَتۡ أُخۡرَىٰهُمۡ لِأُولَىٰهُمۡ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا﴾، والتَّقدير: أضلُّونا عَنِ الهُدَى[2]، فحُذِفَ المُتعلَّق لِلعِلمِ به، أو لإرادَةِ العُمومِ، وأنَّهم أضلُّوهم عن كُلِّ خَيرٍ دنيويٍّ وأخرَويٍّ، فإنَّ مَن خسِرَ آخِرَتَهُ لا يُعتَدُّ بأيِّ خَيرٍ كانَ قَد حصَّلَهُ في دُنياهُ.

مَن خَسِرَ آخِرَتَهُ؛ خَسِرَ خيرَ دُنيَاهُ

معنى الفاءِ ودِلَالَةُ الفعلِ في قَولِهِ تَعالى: ﴿فَـَٔاتِهِمۡ﴾:

قولُ اللّهِ تعالى: ﴿فَـَٔاتِهِمۡ﴾ أي: بِسَبَبِ إضلالِهم[3]، فالفاءُ سببيَّةٌ،

إضلالُ رؤوسِ الكُفرِ لأتباعِهم مَظِنَّةُ مُضاعَفَةِ العَذابِ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/227، والآلوسّي، روح المعاني: 4/356.
(2) الثّعلبيّ، الكشف والبيان: 4/232.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/398.

والفعلُ (آتِهم) مِن قولِه سُبحانَهُ: ﴿فَـَٔاتِهِمۡ عَذَابٗا ضِعۡفٗا مِّنَ ٱلنَّارِۖ﴾ خرَجَ عَن حقيقتِهِ في إرادَةِ الإلزَامِ بالفعلِ إلى معنَى الدُّعاءِ؛ إذِ الطَّلَبُ صادِرٌ مِنَ العبادِ إلى ربِّهِم ﷻ، فانتفَى مِنه الإلزامُ قطعًا، فهو مَجازٌ مُرسَلٌ مركَّبٌ، بعلاقةِ الإطلاقِ والتَّقييد؛ إذِ اشترَكَ الأمرُ في حَقيقَتِهِ مع الدُّعاءِ في مُطلَقِ الطَّلَبِ، واختلفَا في القَيدِ المُميِّزِ لكلِّ واحدٍ مِنهما عَنِ الآخَرِ.

نُكتَةُ تَنكِيرِ ﴿عَذَابٗا﴾:

نُكِّرَ العذابُ في قولِ اللهِ ﷻ: ﴿فَـَٔاتِهِمۡ عَذَابٗا ضِعۡفٗا مِّنَ ٱلنَّارِۖ﴾ تعظيمًا له وتفخيمًا لقَدرِهِ، ويجوزُ أن يكونَ التَّنكِيرُ لبيانِ النَّوعيَّةِ؛ أي: آتِهم نوعًا مِنَ العذابِ مغايِرًا لِلمَعهُودِ مِنه.

عَظَمَةُ عَذَابِ النَّارِ وَشِدَّتُهُ نوعٌ غيرُ مَعهودٍ

والوجهانِ متآيِلانِ؛ لأنَّ نوعَ العذابِ غيرَ المعهودِ مِن شأنِهِ أن يَكونَ عظيمًا.

بَراعَةُ الكِنايَةِ في قَولِهِ تَعالى: ﴿فَـَٔاتِهِمۡ عَذَابٗا ضِعۡفٗا مِّنَ ٱلنَّارِۖ﴾:

قَولُ اللهِ تعالى حكايَةً عنِ الأتباعِ مِنَ الكُفَّارِ: ﴿فَـَٔاتِهِمۡ عَذَابٗا ضِعۡفٗا مِّنَ ٱلنَّارِۖ﴾ يحتَمِلُ وجهينِ[1]:

الكافرُ ذليلُ النَّفسِ، هيِّنٌ على اللهِ تَعالى

أحدهما: أن يكُونَ المرادُ طلبَ تخفيفِ العذابِ عَنهُم، ولكِن أَخرَجوهُ في صورة طَلَبِ تَضعيفِ العذابِ على القادَةِ، فيكُون قَولُه: ﴿فَـَٔاتِهِمۡ عَذَابٗا ضِعۡفٗا مِّنَ ٱلنَّارِۖ﴾ كِنايةً عَن طلَبِ تخفيفِ العذَابِ، وإنَّما عدلُوا عنِ التَّصريح - على هذا الوجهِ - إلى الكنايَةِ لِرُؤيتِهِم هوانَهُم على اللهِ تعالى وسُفُولَ قدرِهِم عنِ التَّصريحِ بطلَبِ تَخفيفِ العذابِ.

والآخَرُ: أن يكونَ على الظَّاهرِ؛ وهو طلبُ الانتقامِ مِنَ القادَةِ بطلبِ مضاعفةِ العذابِ عليهِم.

(1) الماورديّ، النّكت والعيون: 2/222.

عِلَّةُ فَصْلِ: ﴿قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ﴾ عمَّا قَبلَهُ:

أَثَرُ الاستِئنافِ البَيانِيِّ في إبرَازِ مُتابَعَةِ المُتَلَقِّي وشَوْقِهِ

فُصِلَ قولُ اللّه تعالى: ﴿قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ﴾ عمَّا قبلُ؛ لوقوعِهِ استئنَافًا بيانيًّا، فقولُهُ سُبحانَهُ: ﴿قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ﴾ وقعَ جوابًا عن سؤالٍ يُفهَمُ ممَّا قبلُ، وذلك أنَّ قولَهُ تعالى: ﴿قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ﴾ يبعَثُ في نفسِ السَّامعِ سؤالًا، وهو: لقد قالُوا مَا لَهُ وَجهٌ، فبِمَ أُجيبُوا؟ فجاء الجوابُ في قَولِهِ تعالى: ﴿قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ﴾[1].

وما ذكَرَهُ بعضُ أهلِ العِلمِ مِن أنَّ الفصلَ جارٍ على طريقةِ حكايَةِ الأقوَالِ في المحاوراتِ[2]؛ يَؤولُ إلى ما سبَقَ، وذلك أنَّ حكايةَ القولِ في المحاورَةِ باعثَةٌ في نفس السَّامعِ الاستعلَامَ عن جوابِ القولِ المحكِيِّ، فرجَعَ الأمرُ في الفَصلِ إلى شبهِ كمالِ الاتِّصالِ المُسمَّى: الاستئنافَ البيانيَّ.

بَلاغةُ الإيجازِ بالحَذْفِ:

يُغني عَنِ التَّصريحِ باللَّفظِ دَلَالَةُ السِّياقِ على المَحذوفِ

التَّنوينُ في ﴿لِكُلٍّ﴾ مِن قول اللّه ﷻ: ﴿قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ﴾ عِوَضٌ عن مُضَافٍ إليه مَحذُوفٍ، والمعنَى: لِكُلِّ أُمَّةٍ أو لكلِّ طائفَةٍ ضِعفٌ[3]، ولَم يُذكَرُ مُتعلَّقُ التَّضعيفِ؛ لتقدُّمِ ذِكرِهِ قريبًا في: ﴿فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ﴾، فأغنَى ذلك عَنِ التَّصريح به ثانيًا، فكانَ في قَولِهِ تعالى: ﴿قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ﴾ إيجازٌ بالحذفِ؛ لوجودِ الحذفِ مِن جِهَتَينِ، والتَّقديرُ على الحذفَين: (لكلِّ أمةٍ ضعفٌ منَ النَّارِ).

دَلَالَةُ استعمالِ: ﴿وَلَٰكِن﴾:

الأتْبَاعُ والمَتبوعُونَ مُتَسَاوُونَ في مُضاعَفَةِ العَذَابِ

(لَكِنْ): حرفُ استدراكٍ، ومعناهُ: تعقيبُ الكلامِ بِرَفعِ ما يُتَوَهَّم ثبوتُه أو نفيُه مِنَ الكلَامِ السَّابقِ[4]، والاستدراكُ في قولِهِ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/398.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8ب/123.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8ب/123.
(4) خالد الأزهريّ، التّصريح بمضمون التّوضيح: 1/294.

تعالى: ﴿وَلَٰكِن لَّا تَعۡلَمُونَ﴾ جيءَ به لرفعِ ما تُوهِمُهُ التَّسويَةُ بينَ المَتبُوعِينَ والأتباعِ في مضاعفةِ العذاب: أنَّ مضاعفتَهُ على الأتباعِ لا مُوجِبَ لهَا[1].

تَوجِيهُ القِرَاءَاتِ في قَولِهِ تعالى: ﴿تَعۡلَمُونَ﴾:

أهلُ الدُّنيا لا تَرتقِي عُقولُهم لمعرفةِ ما سيكونُ لأهلِ النَّارِ على الحقيقةِ

قرأ شعبَةُ عن عاصمٍ بالياءِ على الغَيبَةِ ﴿وَلَٰكِن لَّا يَعۡلَمُونَ﴾، وقرأ الباقُونَ بالخطابِ ﴿وَلَٰكِن لَّا تَعۡلَمُونَ﴾، فعلى قراءة شُعبةَ رُوعِيَ لفظُ (كلّ)؛ فإنَّ الاسمَ الظَّاهِرَ بمنزلَةِ الغائبِ، ويكون المعنَى: ولَكِنْ لا يَعلَمُ كلُّ واحدٍ مِنهُم مقدارَ عذابِ الآخَرِ.

وعلى قراءةِ الباقِين جَرى الكلامُ على ما قبلَهُ مِنَ الخِطابِ، ويكون المعنَى: لكلٍّ مِنكُم ضعفٌ، ولَكِنْ لا تَعلَمُونَ أيُّها المُخاطَبُونَ ما لِكُلِّ واحدٍ مِنكُم مِنَ العذَابِ، أو: ولَكِنْ لا تعلمونَ يا أهلَ الدُّنيا مقدارَ ذلكَ[2].

نُكتَةُ حَذْفِ مَعمُولِ: ﴿تَعۡلَمُونَ﴾:

شأنُ الجاهلِ أنْ يُوقِعَ نفسَه في المَصَائِبِ

حُذِفَ معمول ﴿تَعۡلَمُونَ﴾ من قولهِ تعالى: ﴿قَالَ لِكُلّٖ ضِعۡفٞ وَلَٰكِن لَّا تَعۡلَمُونَ﴾، وفي تخريجِهِ مسلَكانِ:

أحدُهمَا: أن يُقَدَّر بحسَبِ المَقَامِ، والمَعنَى: ولَكِنْ لا تَعلَمونَ مقدارَ ما لِكُلِّ فريقٍ مِنَ العذَابِ.

والآخَرُ: أن يُنزَّل الفعلُ المُتَعَدِّي منزلَةَ الفعلِ اللَّازمِ، والتَّقدير: ولكن لَستُم مِن أهلِ العِلمِ والمعرفَةِ.

ونكتةُ ذلك: وصفُ أولئكَ والمُخاطَبين - على القراءتين - على حدٍّ سواءٍ بالجَهلِ اللَّاصقِ بهم، وفيه مزيدُ تَرهِيبٍ، فإنَّ شأنَ الجاهلِ أن يقعَ في المصائِبِ.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8ب/123.

(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 14/239، ومحمّد سالم محيسِن، المغنيّ في توجيه القراءات العشر المتواترة: 2/126.

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الإِنسُ والنَّاسُ:

النّاسُ أعـمُّ منَ الإنسِ

بينَ الإِنسِ والنَّاس عمومٌ وخصوصٌ مُطلَقٌ في أصحِّ قَولَي أهلِ العِلمِ؛ وذلك أنَّ التَّحقيقَ في معنى النَّاسِ شمولُها الجنَّ والإنسَ، فقد صحَّ عَن عَبدِ اللّٰه بنِ مسعودٍ ﵁ أنَّه قال في تَفسيرِ قولِ اللّٰه تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓۚ﴾ [الإسراء: 57]، «كانَ ناسٌ مِنَ الإِنسِ يَعبُدُونَ ناسًا مِنَ الجِنِّ، فَأَسلَمَ الجِنُّ، وتَمَسَّكَ هَؤُلاءِ بدينِهِم»[1]، فسمَّى الجِنَّ ناسًا.

أمَّا الإنسُ فهُم خُصوصُ بَنِي آدمَ؛ وسُمُّوا بذلك؛ لأنَّهم يُؤنَسُون؛ أي: يُبصَرونَ، مِنْ (آنسَ الشَّيءَ)؛ إذا أَبصرَه، ويُقابِلُهم الجنُّ، فقد سُمُّوا جنًّا لاجتِنَانِهم؛ أي: استِتَارِهم عَنِ الأعيُنِ[2].

وبهذا يَتَبيَّنُ أَنَّ بينَ الإنسِ والنَّاسِ عُمومًا وخُصوصًا مُطلَقًا؛ إذِ النَّاسُ أعمُّ مِنَ الإنسِ بهذا الاعتبارِ التَّقابليِّ، ومن حيثُ غلَبَةُ الاستِعمالِ فإنَّ النَّاسَ والإنسَ يُستعملانِ في بني آدم، فإذا أُطلِقَ النَّاسُ أُريدَ بِهم الإنسُ لا الجنُّ، ولا يُستعملُ النَّاسُ مع الجنِّ إلَّا بالتَّقييدِ السِّياقيِّ، كما هو في حديثِ ابنِ مسعودٍ ﵁، وعلى القولِ الآخر، أنَّ استعمالَ النَّاسِ من بابِ المُشاكلَةِ، والمُراد به الفريقُ منَ الإنسِ والجنِّ.

(1) رواه البخاريّ في صحيحه، الحديث رقم: (4714).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (جن).

﴿وَقَالَتۡ أُولَىٰهُمۡ لِأُخۡرَىٰهُمۡ فَمَا كَانَ لَكُمۡ عَلَيۡنَا مِن فَضۡلٖ فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡسِبُونَ ٣٩﴾ [الأعراف: 39]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

جوابُ الخصومِ وتبرّؤُ الضّالّين ممّن أضلّهم

لَمَّا ذكر اللّه تعالى دعاءَ الآخِرين على الأَوَّلينَ في قولِه سُبحانه: ﴿قَالَتۡ أُخۡرَىٰهُمۡ لِأُولَىٰهُمۡ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمۡ عَذَابٗا ضِعۡفٗا مِّنَ ٱلنَّارِ﴾؛ أعقَبَهُ ببيانِ جوابِ الأوَّلينَ لَهُم، فقال ﷻ: ﴿وَقَالَتۡ أُولَىٰهُمۡ لِأُخۡرَىٰهُمۡ فَمَا كَانَ لَكُمۡ عَلَيۡنَا مِن فَضۡلٖ﴾[1]؛ فالمناسبةُ بين الآيتين ذكرُ جوابِ الخصْمِ على خصمِه، وردِّ المتَّهَم على من اتَّهمَه.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَضۡلٖ﴾: الفاءُ والضَّادُ واللَّامُ تدور تصاريفُهَا على زيادَةٍ في شيءٍ، ومِنهُ: الفَضلُ وهو الزِّيادَةُ والخيرُ، والإفضالُ: الإحسانُ[2]. والفَضلُ نوعانِ: محمودٌ؛ كفضلِ العِلمِ والجُودِ، ومذمومٌ؛ كفضلِ الغضَبِ على ما ينبغِي أن يَكونَ عليهِ، إلَّا أنَّ استعمالَ الفَضلِ في المحمودِ أكثَرُ[3].

والفَضلُ في قولِ اللّه تعالى: ﴿فَمَا كَانَ لَكُمۡ عَلَيۡنَا مِن فَضۡلٖ﴾ بمعنى: المزيَّةِ، والمعنى: لا مزيَّةَ لأُخرَاهُم على أُولَاهُم في تَعذِيبِهم عذابًا أقلَّ مِن عذابِهم[4].

2) ﴿فَذُوقُواْ﴾: الذَّال والواو والقافُ تدورُ اشتقاقاتُهَا على معرفةِ طَعم الشَّيءِ، بمعنَى: إيقَاعهِ على الحِسِّ بالتَّناوُلِ منه، ويلزَمُ منه

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/398.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (فضل).
(3) الرّاغب، مفردات ألفاظ القرآن الكريم: (فضل).
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8ب/124.

اختبَارُهُ[1]، وهذا مرادُ مَن جَعَلَ مَعنَى أصلِ المادَّةِ اخْتِبارَ الشَّيءِ من جهةِ الطَّعم[2].

ويُستعمَلُ الذَّوقُ مجازًا في مُطلَقِ الإحساسِ[3]، ومعنَى قَولِ اللّه تعالى: ﴿فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾: تَلَقَّوُا العذابَ وأحسُّوا به[4].

3) ﴿تَكْسِبُونَ﴾: الكافُ والسِّينُ والباءُ تدلُّ تصريفَاتُهَا على جَمعِ الشَّيءِ وتحصيلِهِ شيئًا بعدَ شيءٍ بِضربٍ مِنَ الجُهدِ[5]، ومِنه: الكَسبُ؛ وهو الابتغاءُ والطَّلَبُ والإصابةُ[6].

والكَسبُ في قولِه تَعالى: ﴿فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ بمعنى العَمَلِ؛ أي: فَذُوقُوا العذَابَ بِسَبَبِ أَعمَالِكُم.

❁ المَعْنى الإِجْماليُّ:

المتبوعون يتنصّلون ممّن اتّبَعوهم

تُبيِّنُ الآيةُ ما سَيقُولُه المَتبُوعُونَ منَ قادَةِ الفِكرِ والضَّلالةِ لأتباعِهِم: نحنُ وأَنتُم مُتَساوُونَ في الضَّلالِ والانحرافِ، وفي ارتكَابِ أسبابِ العذَابِ؛ فلا مزيَّةَ لأُخرَاهُم على أُولاهُم في تعذيبِهم عذابًا أقلَّ مِن عذابِهِم، قال اللّهُ تعالى لهُم جَمِيعِهم: ذوقُوا عذابَ النَّار بِسَبَبِ مَا كَسَبتُم مِنَ الذُّنوب والمعاصِي[7].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

سَبَبُ عَطْفِ جُملةِ ﴿وَقَالَتْ﴾ عَلَى مَا قبلهَا:

فَصْلُ الجُمَلِ وَوَصلُهَا يَحكُمُهُ السِّياقُ

عُطِفَ قولُ اللّهِ تعالى: ﴿وَقَالَتْ أُولَىٰهُمْ لِأُخْرَىٰهُمْ﴾ على قَولِهِ

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصَّل: (ذوق).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ذوق).
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 4/46.
(4) الزّحيلّي، التّفسير الوسيط: 1/658.
(5) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصَّل: (كسب).
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (كسب).
(7) ابن جرير، جامع البيان: 415 - 419/12، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8ب/124، ونخبة منَ العلماء، التّفسير الميسّر، ص: 155.

سُبحانَهُ: ﴿قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا﴾؛ لكونِهم لم يدخُلوا في المحاورَةِ ابتداءً، ولذا لم تُفصَل الجملةُ[1].

معنَى اللَّامِ في قَولِهِ تعالى: ﴿لِأُخْرَىٰهُمْ﴾:

سِياقُ الكَلامِ مُوَجِّهٌ لِحُروفِ المَعانِي

اللَّامُ في قول الله سُبحانَهُ: ﴿وَقَالَتْ أُولَىٰهُمْ لِأُخْرَىٰهُمْ﴾ لَامُ التَّبليغِ، نحو قولِكَ: قُلْتُ لَكَ افعَلْ كذَا، وإنَّما كانتِ اللَّامُ للتَّبليغِ؛ لأنَّ الخطابَ هنا مَعَ أُخرَاهُم، بخلاف اللَّامِ في قوله سُبحانَهُ: ﴿قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ﴾ فإنَّها لامُ أجْلٍ وسَبَبٍ؛ لأنَّ الكلامَ إخبارٌ منَ الله تعالى لا كلامٌ صادِرٌ عنِ الطَّائفةِ الأُولَى[2].

بَلاغةُ الفَاءِ الفصيحةِ:

تبرُّؤُ المَتبوعينَ مِنْ أتباعِهم إيحاءٌ استباقيٌّ لإنقاذِ الأتباعِ

الفاءُ في قولِ الله تعَالَى حِكايةً عَن مقَالَةِ الأَوَّلِينَ: ﴿فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ﴾ هي الفصِيحةُ، فهي واقعةٌ في جوابِ شَرطٍ مُقدَّرٍ، والتَّقديرُ: إذا كانَ الأمرُ كَذلِكَ؛ فَقَد ثَبَتَ أنْ لا فَضلَ لَكُم علينا، وهي مُفيدَةٌ تَرَتُّبَ الجملةِ على قَولِهِ تعالى قَبلُ: ﴿لِكُلٍّ ضِعْفٌ﴾ حَيثُ سُوِّيَ بين الطَّائِفَتَينِ في مضاعفَةِ العذابِ[3]، وهذا يدلُّ على أنَّ قولَه تعالى: ﴿قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ﴾ سَمِعَتْه الطَّائفتانِ، فكانَ قولُه: ﴿فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ﴾ مُترتِّبًا عليه.

ويَجوز أن تَكُونَ الفاءُ عاطفةً، والمعطوفُ جملةٌ محذوفَةٌ بعدَ القَولِ، دلَّ عليها مَا تقدَّم مِنَ الكلامِ، والتَّقدير: دَعَوتُمُ اللهَ تعالى، فسوَّى بينَنَا وبينَكُم في مُضاعفة العذابِ، فمَا كانَ لَكُم علينا مِن فَضلٍ بِضَلالِكُم[4].

وعلى كِلا الوَجهَينِ في معنَى الفاءِ إيجازٌ بالحَذفِ؛ دلَّ المقامُ على تَعيينِ المَحذُوفِ.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8ب/124.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/50.
(3) الآلوسّي، روح المعاني: 4/357، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8ب/124.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/50.

فائِدَةٌ ﴿مِن﴾ في قَولِهِ تَعالى: ﴿مِن فَضْلٍ﴾:

أفادَتْ ﴿مِن﴾ في قولِ اللّه تعالى: ﴿فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ﴾ فائِدَتَين:

لَا مُوجِبَ لِتَخفِيفِ العَذَابِ على الأَتبَاعِ ولا على المَتبُوعِينَ

الأولى: تَوكِيدُ النَّفي، وذلكَ لأنَّ قولَهُ سُبحانَهُ: ﴿لِكُلٍّ ضِعْفٌ﴾ سبَبٌ لِلعِلمِ بِأَنْ لا مزيَّةَ لأُخرَاهُم على أولاهُم في تَعذِيبِهم عذابًا أقلَّ، فكانَ التَّقديرُ: فإذا كانَ لِكُلٍّ مِنكُم ضِعفٌ؛ فَما كانَ لَكُم مِن زيادَةٍ في العذابِ[1].

الأُخرى: التَّنصيصُ على العُمومِ؛ وذلك لأنَّ ﴿فَضْلٍ﴾ نَكِرَةٌ في سِيَاقِ النَّفي، فأفادتِ العُمومَ ظاهرًا، فلمَّا اقترنَتْ بها ﴿مِن﴾ نَقَلَتِ العُمومَ مِن كَونِه ظاهرًا إلى كَونِه نَصًّا.

غرَضُ الأَمرِ في قوله تعالى: ﴿فَذُوقُواْ﴾:

لمَّا كانَ ذَوقُ المُكذِّبِينَ في الدُّنيا كرامةً كان لهم في الآخرةِ إهانةً

الأمرُ في قولِ اللّه تعالَى: ﴿فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ﴾ خارِجٌ عن أصلِ دِلالَتِهِ من إرادَةِ الإلزَامِ بالفعلِ، والمرادُ به: الإهانَةُ والتَّشفِّي[2]، إذا كانتِ الجملةُ مِن تمامِ حكايةِ أُخرَى الطَّائفتَينِ.

ويُرادُ بالأمرِ الإهانَةُ والتَّكوينُ إذا كان ﴿فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ﴾ كلامًا مُستَأنفًا مِن كلامِ اللّه تعالى.

والقَرِينَةُ في صَرفِ الأمرِ مِن دِلالتِهِ الأصليَّةِ إلى معنَى الإهانَةِ: كونُ الكفَّارِ حالَ خطابِهم بالصِّيغةِ في غُصَصِ المذوقِ ومِحَنِهِ؛ إذْ هذا القولُ واقعٌ، وهُم في النَّارِ، كما يدلُّ عليه قولُ اللّهِ تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعًا﴾، فليسَ المُرَادُ أمرَهُم بذَوقِ العذابِ حقيقةً، وإلَّا كان تحصيلَ حاصلٍ، وهو مُحَالٌ.

والعلَاقَةُ بينَ المَعنَى الأصلِيِّ والإهانَةِ: التَّضادُّ؛ لأنَّ الإيجابَ على

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8ب/124.

(2) الآلوسّي، روح المعاني: 5/50، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8ب/124.

العبادِ مِن بابِ التَّشريفِ لهم؛ لِما فيه من تأهُّلِهم لخدمة اللّه تعالى، فهو ضدُّ الإهانَةِ[1].

بَراعَةُ المَجازِ في مُفردةِ (الذَّوقِ):

عَذابُ الكُفَّارِ في الآخِرَةِ عَذابٌ مُتَزايِدٌ غَيرُ مُتَناهٍ

الذَّوقُ في قولِ اللّه تعالى: ﴿فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ﴾ مُستَعمَلٌ مجازًا في معنَى الإحساسِ بحاسَّةِ اللَّمسِ[2]، وهو مجازٌ مُرسَلٌ، بعلاقَةِ المَلزُومِيَّةِ؛ إذِ الإحسَاسُ لازِمٌ للذَّوقِ.

ويجوزُ أن يَكونَ ذَوقُ العذابِ استِعَارَةً لإحساسِهِ؛ وذلك لأنَّ الذَّوقَ أَقوَى الحواسِّ المُبَاشِرَةِ لِلجِسمِ، فشُبِّهَ بهِ إحساسُ الجِلدِ[3]؛ ففي قَولِه: ﴿فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ﴾ استعارةٌ تصريحيَّةٌ تبعيَّةٌ.

وفي التَّعبيرِ بالذَّوقِ وعيدٌ عظيمٌ؛ حيث جُعِلَ ما هُم فيه مِنَ العَذَابِ الأليمِ الشَّديد بمنزِلَةِ الذَّوقِ الّذي هُوَ مقدِّمَةٌ للطَّعامِ، فكذلك عذابُهُم الّذي يُقاسُونَهُ يَعقُبُهُ ألوَانٌ مِنَ العذابِ أشدُّ مِمَّا هُم فيه، كما يُشيرُ إلى ذَلِكَ قولُ اللّهِ سُبحَانَهُ: ﴿فَذُوقُواْ فَلَن نَّزِيدَكُمۡ إِلَّا عَذَابًا ٣٠﴾ [النّبأ: 30].

أثرُ تَعيينُ قائِلِ: ﴿فَذُوقُواْ﴾ في رَبْطِ المعطوفاتِ:

تَزدادُ كلامِ الحقِّ في النَّارِ لا يُنقِذُ مِن لهيبِها، ولا يُخرِجُ من حميمِها

قولُ اللّهِ تعالى: ﴿فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡسِبُونَ﴾ يَجُوزُ أن يكونَ مِن كَلامِ أُولَاهُم، فَيَكونوا قَد عطفُوا قولَهم: ﴿فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ﴾ على قولِهم قبلُ: ﴿فَمَا كَانَ لَكُمۡ عَلَيۡنَا مِن فَضۡلٖ﴾ بفاءِ العطفِ المُفيدَةِ التَّرتُّبَ؛ إذِ التَّشفِّي مِنهم فِيما ينالُهم مِن مُضَاعَفَةِ العذابِ تَرَتَّبَ على تحقُّقِ انتفاءِ الفَضلِ بينَهُم في مضاعفةِ العذابِ الّذي دلَّ عليه قولُ اللّهِ تعالى: ﴿قَالَ لِكُلّٖ ضِعۡفٞ﴾[4].

(1) عبد الله المَعْزَبِيّ الزَّبيديّ، تشحيذ الأفهام في إطلاقات الأمر والنّهي والاستفهام، ص: 55 - 56.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8ب/124.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/188.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8ب/124.

ويجوزُ أن يكُونَ قولُه سُبحانَهُ: ﴿فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡسِبُونَ﴾ من كلام الله تعالى، خطابًا للفَريقَين معًا، فيكون مَعطُوفًا على قوله سُبحانَهُ: ﴿قَالَ لِكُلّٖ ضِعۡفٞ وَلَٰكِن لَّا تَعۡلَمُونَ﴾، ويكون قَولُه: ﴿وَقَالَتۡ أُولَىٰهُمۡ لِأُخۡرَىٰهُمۡ فَمَا كَانَ لَكُمۡ عَلَيۡنَا مِن فَضۡلٖ﴾ اعتراضًا بَينَ الجُملَتَينِ المُتَعَاطِفَتين[1].

ويصحُّ الجمعُ بينَ الاحتِمالَين، ذلك أن يكونَ قد قالَ اللّه تعالى تلكَ القَولَةَ، ثمَّ قالها أولئكَ بعضُهم لبعضٍ تَردادًا لما سَمِعُوه، وتنفيسًا عمَّا عانُوه.

بَلاغَةُ الكِنايَةِ في الآيَةِ:

تصريحُ النَّصِّ بما سيكُونُ، تخويفٌ رادعٌ وترهيبٌ لاذعٌ

قولُ اللّهِ تعالى: ﴿فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡسِبُونَ﴾ يُرادُ به الإهانَةُ - على ما تقدَّم -، والمقصودُ مِن عمُومِ الكلامِ لازِمُهُ؛ وهُو ما يترتَّبُ عليهِ مِنَ التَّخويفِ والزَّجرِ، فكان هذا مِنَ الكِنايَةِ عن الصِّفَةِ، ووجهُ إرادَةِ اللَّازِمِ ههنا: أنَّ اللّه سُبحانَهُ لَمَّا أخبرَ عن تبرُّؤِ القادةِ والأتباعِ بعضِهم مِن بعضٍ، ولَعْنِ بعضِهم بعضًا؛ كان ذلك موجبًا لوقوعِ الخَوفِ العَظيمِ في القُلوبِ[2].

معنَى اللَّامِ في ﴿ٱلۡعَذَابَ﴾:

تعدُّدُ التَّفسِيرِ لمعنَى اللَّامِ لا يُلغِي التَّكامُلَ في المعنَيَيْنِ

اللَّامُ في ﴿ٱلۡعَذَابَ﴾ مِن قَولِ اللّه سُبحانه: ﴿فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡسِبُونَ﴾ للعَهدِ، وهذا العهدُ يحتَمِلُ وجهَين:

أحدهُمَا: أن يكون العهدُ ذِكريًّا صَريحيًّا، والمرادُ: العذابُ المُضَاعَفُ المذكُور في قولِه سُبحانَهُ قبلُ: ﴿فَـَٔاتِهِمۡ عَذَابٗا ضِعۡفٗا مِّنَ ٱلنَّارِۖ قَالَ لِكُلّٖ ضِعۡفٞ وَلَٰكِن لَّا تَعۡلَمُونَ﴾، فالمعنَى: ذُوقُوا العذابَ المُضاعَفَ بِسَبَبِ ما كسبتُم مِنَ الآثَامِ.

والآخَرُ: أن يكون العَهدُ حضوريًّا، والمعَنى: ذوقُوا العذابَ الحاضِرَ الّذي أنتُم فيهِ.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8ب/125.

(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 14/239.

ولا تعارُضَ بين المعنَيين؛ لأنَّ العذابَ الحاضرَ الّذي هُم فِيهِ هو العذابُ المضاعَفُ المذكُورُ في الآيةِ المُتقدِّمَةِ.

معنى (مَا) ودلالتُها:

مُجازَاةُ اللهِ تعالى لجميعِ ما اقترَفَهُ الكافرون، وَهُم يَعلَمُونَه

(مَا) في قولِ اللّه تعالى: ﴿فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ تَحتَمِلُ وَجهَين:

أَحَدُهُما: أن تَكُونَ مصدريَّةً، فتُسبَكُ مَعَ ما بعدهَا بِمَصدَرٍ، والتَّقدير: فَذُوقُوا العَذَابَ بِسَبَبِ كَسبِكُم.

والآخَرُ: أن تَكُونَ مَوصُولًا اسمِيًّا، والتَّقديرُ: فذُوقُوا العذابَ بِسَبَبِ الّذي كُنتُم تَكسِبُونَهُ، وفيه إيماءٌ إلى أنَّ اللّه ﷻ يُجازِيهِم على جَميعِ ما اقتَرَفُوهُ؛ لأنَّ الاسمَ الموصولَ مِنَ الألفاظِ الدَّالَّةِ على العُمُومِ، وكذلكَ يُوحي بمعرفتِهم بما اكتَسَبُوه في الدُّنيا، وهذا من عظيمِ عدلِه، وواسِعِ فضلِه، في إنذارِهم، وتحذيرِهم.

ويكونُ في قولِه: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ - على هذا الوجهِ - إيجازٌ بحذفِ العائِدِ، مراعاةً للتَّناسُبِ الصَّوتِيِّ لِفواصِلِ الآيِ.

دلَالَةُ اجتِماعِ فِعْلِ الكَونِ والمضارِعِ: ﴿كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾:

زيادةُ الحسرَةِ في استحضارِ مشاهِدِ الحَرامِ وارتكابِ الآثامِ

جاءَ التَّعبيرُ بفعلِ الكونِ في قولِه تعالى: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ دون (بِمَا تَكسِبُون)؛ للإعلامِ بأنَّ اللّه سُبحانَهُ عالمٌ بِما استمرُّوا عليه مِنَ الكَسبِ في المَاضِي.

وفي اختيارِ الفعلِ المضارعِ ﴿تَكْسِبُونَ﴾ دونَ الماضي: (بِمَا كَسَبْتُمْ) إبرازٌ لأعمالِهم القبيحَةِ الّتي عملُوهَا في صورَةِ ما يُعمَلُ في الحَالِ؛ لِيَستَحضِرُوا مُوجِبَ مُضاعَفَةِ العذابِ عليهِم وقتَ تعذِيبِهِم.

وفيهِ من زيادةِ العذابِ النَّفسيِّ، ومضاعَفَةِ الحَسرَةِ ما لا تُحيطُ به الأفئدةُ، فهو جمعَ بين الفعلِ ﴿كُنتُمْ﴾ الّذي أفادَ تصويرًا شموليًّا لجميعِ ما كانوا عليه، والمضارِعِ ﴿تَكْسِبُونَ﴾ الّذي أفادَ استمرارَهم

فيما هُم فيه منَ الآثامِ، فكأنَّ حالَهم في الدُّنيا قد حضرَت، وهُم يَرَونَها بأمِّ أعيُنِهم.

نُكتَةُ التَّعبيرِ بِالكَسْبِ دُونَ الكُفرِ:

كلُّ كَسْبٍ قامَ على كُفرٍ مُؤدٍّ إلى نَارٍ

عُبِّر بالكَسبِ دُون الكُفرِ في قولِ اللهِ تعالى: ﴿فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡسِبُونَ﴾؛ لكونِ الكَسبِ يعُمُّ جميعَ أحوالِهم؛ وذلك لأنَّ إضلالَهم حاصِلٌ بالكُفرِ وبِحُبِّ الفخرِ والإغرَاب بما علَّموهُم وما سنُّوا لَهُم، فكان لفظُ الكَسبِ أنسَبَ لكونِه أَعَمَّ وأشمَلَ[1]، فيدخلُ فيه الكفرُ وغيرُه، ولو قالَ: (بما كُنتُم تَكفُرُون)؛ لكانَ نصًّا في الكُفرِ، فيُظنُّ أنَّه المقصودُ فحسب، والمُرادُ جميعُ أنواعِ الكَسب، من مثلِ: القَتلِ، والإضلالِ، والإفسادِ، ممَّا يغفُلُ عنها النَّاس فيتهاوَنون فيها.

تَوجِيهُ المُتَشابِهِ اللَّفظِيِّ:

دِقَّةُ اختِيَارِ الأَلفَاظِ المُلائِمَةِ لِسِياقاتِهَا

قال اللهُ سُبحانه في آية الأعراف: ﴿وَقَالَتۡ أُولَىٰهُمۡ لِأُخۡرَىٰهُمۡ فَمَا كَانَ لَكُمۡ عَلَيۡنَا مِن فَضۡلٖ فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡسِبُونَ﴾، وقال في سورة الأنفالِ: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمۡ عِندَ ٱلۡبَيۡتِ إِلَّا مُكَآءٗ وَتَصۡدِيَةٗۚ فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ ٣٥﴾ [الأنفال: 35]، ووجهُ التَّغايُرِ بينهما أنَّ آيةَ الأنفال جاءَت في ذكر كُفَّار قُرَيشٍ، وما كانوا يفعلونَهُ عندَ البيتِ الحرامِ منَ المُكاء والتَّصديةِ، فناسب ذلك أن تُختَمَ الآيةُ بوصف الكُفرِ.

بخلاف آية الأعراف فإنَّها في قومٍ ضلُّوا في أنفسهم، وأضلُّوا غيرَهُم، فقيل لهم: ﴿فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡسِبُونَ﴾؛ أي: بما كسبتُم من إضلالِكُم غيرَكُم مع كُفرِكُم في أنفسِكُم، فناسب أن يُزادَ في العذابِ وتضعِيفِه؛ لزيادةِ الكَسبِ في الضَّلالةِ[2].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8ب/124.

(2) محمّد مُحمّد داود، معجم الفروق الدّلاليّة في القرآن الكريم، ص: 513.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمۡ أَبۡوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلۡجَمَلُ فِي سَمِّ ٱلۡخِيَاطِۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُجۡرِمِينَ ٤٠﴾ [الأعراف: 40]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

عاقِبةُ المكذِّبين والمستكبرين لا تَحتَمِلُ النَّجاةَ

لَمَّا ذكرَ اللّٰهُ سُبحانَهُ جزاءَ الكفَرَةِ المُكذِّبينَ بآياتِه في قولِه تعالى: ﴿قَالَ ٱدۡخُلُواْ فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِكُم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ فِي ٱلنَّارِۖ﴾، وبيَّن سُبحانَهُ أنَّ لهم ضِعْفًا منَ العذابِ، وكانتِ العادَةُ جاريَةً بأنَّ مَن وقعَ في شدَّةٍ؛ توقَّعَ الخَلَاصَ منها؛ أخبرَ سُبحانَهُ في هذه الآيةِ أنَّ هؤلاءِ الكفرةَ المُكذِّبينَ ليسُوا كذلكَ؛ لكونِهم أنجاسًا، فليسُوا أهلًا للنَّجاةِ والخلاصِ، فقال ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمۡ أَبۡوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلۡجَمَلُ فِي سَمِّ ٱلۡخِيَاطِۚ﴾[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿كَذَّبُواْ﴾: الكافُ والذَّال والباءُ تدورُ اشتقاقَاتُهَا على خلافِ الصِّدقِ، ومِنه الكذِبُ؛ وهو الإخبارُ عنِ الشَّيءِ بخلافِ ما هو عليه مُطلَقًا، سواءٌ أَوقَعَ ذلك الإخبارُ عن عَمدٍ أم خطَأٍ، إلَّا أنَّ الإثمَ في الشَّرعِ مُعَلَّقٌ على ما وقعَ مِنه عَمدًا[2].

ويُطلَقُ الكَذِبُ على مَعَاريضِ الكلَامِ؛ وهو الكَلامُ الّذي هو كَذِبٌ من حَيثُ ظَنُّ السَّامعِ، وصِدقٌ مِن حَيث قالَه القائلُ[3].

وأمَّا التَّكذيبُ فهو بزنةِ التَّفعيلِ، وهذا الوزنُ (التَّفعيلُ) يَرِدُ لإرادةِ النِّسبةِ، كما في التَّكذيبِ؛ فإنَّهُ هُنا النِّسبةُ إلى الكَذِبِ[4].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/399.
(2) الزَّبيديّ، تاج العروس: (كذب)، والفيوميّ، المصباح المنير: (كذب).
(3) أبو موسى المدينيّ، المجموع المغيث في غريبي القرآن والحديث: (كذب).
(4) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة: (كذب).

2) ﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾: الهمزَةُ والياء والحرفُ المعتَلُّ[1] تدلُّ علَى بقاءِ الشَّيء في مكانه شَاخِصًا، عَلامةً لِشَيءٍ وأمارَةً عليه[2]، ومِنه قولُهم: خرجَ القومُ بآياتِهم؛ أي: جماعتِهم؛ فَلَم يَدَعُوا شيئًا مِمَّا مِن شأنِهِ أَن يكُونَ شاخصًا إلَّا حَمَلُوهُ، وفِيهِ معنَى الكَثرَةِ والجسَامَةِ أيضًا.

والآيَةُ: كلُّ شيءٍ ظاهرٍ مُلازِمٍ لشيءٍ باطنٍ يُعرَفُ بِهِ، حسّيًّا كان أو عقليًّا[3].

وآياتُ اللّهِ تعالى المذكورةُ في قوله سُبحَانَه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ هي الحججُ والأدلَّةُ[4]؛ وهِيَ شامِلَةٌ لجميعِهَا، فتَدخل فيهَا الآياتُ الشَّرعيَّةُ والكونيَّةُ.

3) ﴿وَٱسۡتَكۡبَرُواْ﴾: الكَافُ والبَاءُ والرَّاء تدلُّ تصاريفُها على ضدِّ الصِّغَرِ، ومِنه: الكِبَرُ؛ وهو الهرَمُ، والكِبرِياء؛ وهي: العظَمَةُ[5].

وَالكِبرُ: هو التَّرفُّعُ عنِ الإقرار بالحقِّ والطُّغيانُ في دفعه، واحتقارُ النَّاسِ والإزراءُ بِهِم[6]، وهذا المفهومُ عبَّر عَنه رسولُ اللّه ﷺ بأَوجَزِ عبارةٍ وأبلغِها؛ فقالَ: «الكِبْرُ: بَطَرُ الحَقِّ، وَغَمْطُ النَّاسِ»[7].

والسِّينُ والتَّاء فِي ﴿وَٱسۡتَكۡبَرُواْ﴾ تدلُّ على القوَّةِ لا الطَّلبِ، فمعنى ﴿وَٱسۡتَكۡبَرُواْ﴾: قَوِيَ كِبرُهُم[8].

4) ﴿يَلِجَ﴾: الواوُ واللَّامُ والجِيمُ تدلُّ اشْتِقاقاتُهَا على دخولِ شيءٍ[9]، والولوجُ: الدُّخول[10]، ومنه قولُ اللّهِ تعالى: ﴿يَعۡلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [سبأ: 2] أَي: يَدخُلُها مِن مطَرٍ وغَيرِهِ[11]، وهو المعنَى المرادُ مِن قَولِهِ سُبحانَهُ: ﴿حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلۡجَمَلُ﴾؛ أي: يدخُلَ.

5) ﴿ٱلۡجَمَلُ﴾: الجيمُ والميمُ واللَّامُ تدلُّ تصريفَاتُهُ على معنَيَينِ كُلِّيَّيْنِ؛ أَحَدُهُما: تجمُّعُ

(1) في اشتقاق لفظ (الآية) خلافٌ. يُنظر: الآلوسّي، روح المعاني: 1/242.
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصَّل: (أيى).
(3) الرّاغب، المفردات في غريب القرآن، ص: 101.
(4) ابن جرير، جامع البيان: 12/421.
(5) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (كبر).
(6) ابن الجوزيّ، كشف المُشكل من حديث الصَّحيحين: 3/323.
(7) رواه مُسلم في صحيحه، الحديث رقم: (91).
(8) أحمد الحمَلاوِيّ، شذا العَرْف في فنِّ الصَّرف، ص: 35.
(9) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (ولج).
(10) ابن الأثير، النّهاية في غريب الحديث والأثر: (ولج).
(11) أبو عُبيد الهرويّ، الغريبَيْن في القرآن والحديث: (ولج).

وعِظَمُ خَلْقٍ، والآخَرُ: حُسْنٌ. ومِنَ الأوَّلِ قولُكَ: أجْمَلتُ الشَّيءَ؛ أي: جمعتُهُ وحصَّلْتُهُ، ومنه قولُهُ سُبحانَهُ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلۡقُرۡءَانُ جُمۡلَةً وَٰحِدَةٗۚ﴾ [الفرقان: 32]، ومِن هذا المعنَى: الجُمَّلُ؛ وهو الحبلُ الغَليظُ، وَالجَمَلُ: الحيوَانُ المعروفُ، وجائزٌ أن يكون سُمِّيَ بذلك لعِظَمِ خَلْقِه[1].

وما ذكره بعضُ المُحدَثِينَ مِن أنَّ ﴿ٱلۡجَمَلُ﴾ في قولِه تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلۡجَمَلُ فِي سَمِّ ٱلۡخِيَاطِۚ﴾، هو الحَبلُ الغَليظُ خطأٌ[2]، وهو تفسيرٌ حادِثٌ لا شاهدَ له من كلامِ العربِ، ولا قائلَ به من فحولِ أئمَّةِ التَّفسيرِ، وإنَّما الحَبلُ الغَليظُ يُقال له: الجُمَّلُ أو الجُمَلُ - بالتَّخفيف والتَّشديد - [3] لا الجَمَلُ، ولذا قال ابنُ مسعودٍ رضي الله عنه لَمَّا سُئلَ عن الجَمَلِ: (هو زَوجُ النَّاقَةِ)، قال القرطبيُّ مُعلِّقًا: "كأنَّه استجهَلَ مَن سألَهُ عَمَّا يَعرِفُه النَّاسُ جَميعًا"[4].

6) ﴿سَمِّ﴾: السِّينُ والميمُ تَدورُ اشتقَاقَاتُهَا على مدخَلٍ في شيءٍ، ومِنه: السَّمُّ؛ وهو الثُّقبُ فِي الشَّيءِ، والسُّمُّ القاتِلُ؛ سُمِّيَ بذلكَ لأَنَّهُ يرسُبُ في الجسمِ ويُداخِلُهُ[5].

ومنه سَمُّ الخياطِ في قولِه تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلۡجَمَلُ فِي سَمِّ ٱلۡخِيَاطِۚ﴾، وهو ثقبُ الإبرةِ[6].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

اسْتِحالةُ نَجاةِ المكذِّبين المسْتَكْبِرين منَ النَّارِ

إنَّ الّذينَ كذَّبُوا بِحُجَجِنَا وأدِلَّتِنا فلَم يُصَدِّقُوا بها، ولَم يَتَّبِعُوا رُسُلَنا، وتَكَبَّروا عنِ التَّصديقِ بِهَا، وأَنِفُوا مِن اتِّباعها والانقِيَادِ لَهَا

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (جمل).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصَّل: (ولج).
(3) بيانُ الحقِّ النّيسابوريّ، باهر البرهان في معاني مشكلات القرآن: 1/518.
(4) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 7/206، والشِّنقيطيّ، العذب النَّمير: 245 - 247/3.
(5) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (سم).
(6) القِنَّوجيّ، فتح البيان: 4/358.

تكبُّرًا؛ لا تُفَتَّحُ لِأَرواحِهم إذا خَرَجَت مِن أَجسَادِهم أبوابُ السَّماء، ولا يَصعَدُ لَهُم في حياتِهم إلى اللّهِ تعالى قولٌ ولا عمَلٌ؛ لأنَّ أعمالَهُم خَبيثَةٌ، ولا يَدخُلُ هؤلاءِ الجنَّةَ الّتي أعدّها اللّهُ لأولِيَائِهِ المُؤمِنين أبدًا، كما لا يَلِجُ الجَمَلُ في ثُقبِ الإبرَةِ أبدًا، ومثلُ ذلكَ الجزَاءِ نَجزِي الّذين كَثُرَ إجرَامُهُم، واشتدَّ طُغيَانُهُم[1].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

عِلَّةُ فَصْلِ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ﴾ عَمَّا قَبلُ:

فُصِلَ قولُ اللّهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ عمَّا قبلَهُ؛ لوقوعِهِ استئنافًا بيانيًّا، فَبينَ الجملتَينِ شبهُ كمالِ الاتِّصالِ، وذلك أنَّ قولَهُ تعالى: ﴿قَالَ ٱدۡخُلُواْ فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِكُم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ فِي ٱلنَّارِۖ﴾ يَبْعَثُ في نَفسِ المتلقِّي سُؤالًا وهو: هَل لِهَؤُلاءِ خَلاصٌ ونجاةٌ ممَّا وقعُوا فيهِ مِنَ النَّار؟ فجاء الجوابُ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾؛ فبيَّنَ اللّهُ ﷻ أنَّهُم ليسُوا أهلًا لِلخَلاصِ ممَّا وقعُوا فيه مِنَ المَهالِكِ[2].

ويجوزُ أن تَكُون علَّةُ الفصلِ كونَ الآيةِ استئنافًا ابتدائيًّا مسوقًا لتحقيقِ خلُودِ الفَريقَينِ المذكورَينِ قَبلُ في النَّارِ[3].

المُكَذِّبُونَ لِلآيَاتِ لَيسُوا أَهلًا لِلخَلاصِ والنَّجاةِ يَومَ القِيامَةِ

سِرُّ التَّأكيدِ بأداةِ ﴿إِنَّ﴾:

أُكِّدَ قولُ اللّهِ سُبحانَهُ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمۡ أَبۡوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ﴾ - وهو جملةٌ خبريَّةٌ - بـ﴿إِنَّ﴾؛ لإرادَةِ تَيئِيسِهِم مِنَ النَّجاةِ ودخولِ الجنَّةِ، وذلك لدفعِ توهُّمِ أن يكُونَ المرادُ بالخلُودِ المُتقدِّمِ ذِكرُهُ - في قولِهِ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٣٦﴾ [الأعراف: 36] - كنايةً عن طولِ البقاءِ في النَّارِ؛ إذِ الخلودُ يَرِدُ لهذا

دَفعُ أوهامِ المُكَذِّبِينَ في النَّجاةِ من تمامِ العَدْلِ وكَمالِ الفَضْلِ

(1) ابن جرير، جامع البيان: 421 - 427/12، ونخبة منَ العلماء، التّفسير الميسّر، ص: 155.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/399.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8ب/125.

المعنَى، فبيَّن في قولِه سُبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمۡ أَبۡوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ﴾ أنَّ المرادَ بالخلودِ خلودٌ أَبَدِيٌّ دائمٌ[1].

نُكتَةُ الإظهارِ في مَوضِعِ الإضمارِ:

الجَزاءُ بالخُلودِ في النَّارِ عامٌّ لِكُلِّ مُكَذِّبٍ بآياتِ اللهِ تعالى

في قولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَا﴾ إظهارٌ في محلِّ الإضمار؛ إذ مُقتضَى الظَّاهِرِ أَن يَرِدَ النَّظمُ القرآنيُّ: (إنَّهم لا تُفتَّحُ لَهُم أبوابُ السَّماءِ)، فأُظهِرَ في مقامِ الإضمَار، وفي ذلك ثلاثُ نِكَاتٍ[2]:

أُولاها: إرادةُ تعميمِ الحُكمِ لكلِّ مُكذِّبٍ بالآياتِ مُستكبِرٍ عنها، بخلافِ الإضمارِ؛ فإنَّه يُوهِمُ اختصاصَهُ بالطَّائِفَتَينِ المُتحدَّثِ عنهما دون مَن يُماثِلُهُمَا.

ثَانِيهَا: تعليقُ الحُكمِ بالوَصفِ؛ لبيانِ أنَّ سببَ خلودِهم في النَّارِ هو تكذيبُهُم بالآياتِ واستكبارُهُم عنها.

ثَالِثُهَا: دَفعُ احتمالِ أن يكُونَ الضَّميرُ - في حال جَريانِ الكلامِ على مُقتَضَى الظَّاهِرِ - راجِعًا إلى إحدَى الطَّائفتينِ المُتحاوِرَتَينِ في النَّار.

وَجهُ تَعريفِ المُسنَدِ إلَيهِ بالمَوصوليَّةِ:

اسْتِحقاقُ دخولِ النَّارِ بسَببِ التَّكذيبِ والاستِكبَارِ

عُرِّفَ المسندُ إليه بالموصوليَّةِ في قولِه سُبحانَهُ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَا﴾ لِلإيماءِ إلى وجهِ بناءِ الخبَرِ؛ أي: أنَّهم استحقُّوا الجزاءَ المذكورَ في الخبَرِ مِن عدمِ تفتيحِ أبوابِ السَّماءِ لهم، وعدمِ دخولِهم الجنَّةَ بسبَبِ تكذيبِهم بآياتِ اللهِ تعالى واستكبارِهم عنها[3].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8ب/125.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/399، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8ب/126.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8ب/126.

عِلَّةُ إيرادِ الاسمِ المَوصولِ جَمْعًا:

المُكذِّبونَ مِلَّةٌ واحدةٌ حالًا ومَآلًا

إيرَادُ الاسمِ الموصول جَمعًا في قولِه سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَا﴾؛ فيهِ إيماءٌ إلى كثرةِ المُكذِّبينَ بآياتِ اللّه سُبحانَهُ المُستكبرينَ عنها، وأنَّهم كالفريقِ الواحدِ في العلَّةِ والمآلِ.

سِرُّ مَجيءِ الصِّلَةِ فِعْلًا ماضِيًا:

تَحَقُّقُ وَصْفِ التَّكذيبِ والاستِكبارِ

جيءَ بصلةِ المَوصولِ فعلًا ماضيًا ﴿كَذَّبُواْ﴾ و﴿وَٱسۡتَكۡبَرُواْ﴾ مِن قولِه سُبحَانَهُ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَا﴾ للدّلالَةِ على تحقُّقِ وَصفِ التَّكذيبِ والاستِكبارِ فيهِم.

نُكتَةُ إضافَةِ (الآيَاتِ) إلى ضَميرِ العَظَمَةِ ﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾:

إظهارُ كَمالِ قُبْحِ التَّكذيبِ بآياتِ اللهِ تعالى

إضافةُ الآياتِ إلى الضَّمير الرَّاجع إلى اللّه ﷻ في قولِه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ يُراد به تعظيمُ المضافِ وهو الآياتُ[1]، لا سيَّما وأنَّ الضَّميرَ جاءَ بأسلوبِ العظَمَةِ؛ لزيادةِ المهابةِ وإدخالِ الرَّوعةِ في نفوس المُتَلَقِّينَ.

وفي تعظيمِ الآياتِ على النَّحو المُتقدِّمِ إظهارٌ لكمال قبحِ التَّكذيبِ بها والاستكبارِ عنها.

سِرُّ عَطْفِ الاستِكبارِ على التَّكذِيبِ:

بَيانُ إيغالِ الكُفَّارِ في الضَّلالِ؛ بذكرِ صُوَرِ الضَّلالِ وأنواعِهِ

عُطِفَ الاستكبَارُ على التَّكذيبِ في قَولِ اللّهِ ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَا﴾؛ للإيمَاءِ إلى توغُّلِهم في الضَّلالِ؛ إذ لَم يكتَفُوا بالتَّكذيب، فيتوهَّمُ مُتوهِّمٌ أنَّ لَهُم بيِّنَةً على تكذيبِهم هذا، أو أنَّهم مُتأوِّلُونَ فيه، بل إنَّ الّذي حملَهُم على التَّكذيبِ هو استكبَارُهُم عَن قبولِ الحقِّ.

وهَذا العَطفُ يجُوزُ أن يكُونَ مِن عَطفِ الخاصِّ على العامِّ، ومن عطفِ العامِّ على الخاصِّ، فأمَّا كونُهُ مِن عطفِ الخاصِّ على العامِّ؛

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/399.

فإنَّ المُكذِّبَ قَد يكُونُ مُستَكبِرًا، وقد لا يَكُونُ، فالتَّكذِيبُ بهذا أعمُّ مِنَ الاستكبَارِ، وأمَّا كونُهُ مِن عطفِ العامِّ على الخاصِّ؛ فذلكَ أنَّ المُستَكبِرَ قَد يصدُرُ منه تكذِيبٌ، وقد لا يَبدُرُ منه ذَلِكَ.

فبينَ الاستكبَارِ والتَّكذِيب عمومٌ وخصوصٌ وَجهِيٌّ، يجتَمِعانِ في صورةِ المُكذِّب المُستكبِرِ، ويفترِقُ كلٌّ مِنهُما عنِ الآخَرِ على الوَجهِ المُتقدِّمِ آنِفًا، فباعتبَارِ الفَرقِ بينَهُما يصحُّ حَملُهُ على العَطفَينِ، فتكونُ الجملةُ مِن قَبيلِ الإطنَابِ، ونُكتتُهُ: بيانُ إيغالِهِم في الضَّلالِ والانحرَافِ، بجمعِهِم بينَ صُوَرِهِ وأنواعِهِ.

سِرُّ بِناءِ الفِعْلِ ﴿تُفَتَّحُ﴾ لِلمَفعولِ:

تَعظِيمُ قَدْرِ المَلَائِكَةِ وتَحقِيرُ شَأْنِ المُكَذِّبِينَ

بُنِيَ الفعلُ ﴿تُفَتَّحُ﴾ للمَفعُولِ في قولِ اللهِ سُبحانَهُ: ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ﴾؛ صِيانَةً لِمَلائكَةِ السَّماءِ عَن أن تُذْكَرَ مع أهلِ التَّكذيبِ والاستكبَارِ؛ تعظيمًا لَهُم، وتحقيرًا لِلمُكذِّبينَ، والدَّالُّ على أنَّ الَّذي يصدُرُ منه التَّفتيحُ هُم الملائكَةُ قولُ النَّبيِّ ﷺ: «وإنَّ العَبدَ الكَافِرَ إذا كَانَ في انقطاعٍ مِنَ الدُّنيَا وإقبَالٍ مِنَ الآخِرَةِ، نَزَلَ إلَيهِ مِنَ السَّماءِ مَلَائِكَةٌ سُودُ الوُجُوهِ، مَعَهُمُ المُسُوحُ، فَيَجلِسُونَ منه مَدَّ البَصَرِ، ثُمَّ يَجِيءُ مَلَكُ المَوتِ، حتَّى يَجلِسَ عِندَ رَأسِهِ، فَيَقُولُ: أَيَّتُهَا النَّفسُ الخَبِيثَةُ، اخرُجِي إلى سَخَطٍ مِنَ اللهِ وَغَضَبٍ. قَالَ: فَتُفَرَّقُ في جَسَدِهِ، فَيَنتَزِعُهَا كَمَا يُنتَزَعُ السَّفُّودُ مِنَ الصُّوفِ المَبلُولِ، فَيَأخُذُهَا، فَإذَا أَخَذَهَا لَم يَدَعُوهَا في يَدِهِ طَرفَةَ عَينٍ حَتَّى يَجعَلُوهَا في تِلكَ المُسُوحِ، ويَخرُجُ مِنهَا كأَنتَنِ رِيحِ جِيفَةٍ وُجِدَتْ على وَجهِ الأَرضِ، فَيَصعَدُونَ بها، فلا يَمُرُّونَ بها على مَلأٍ مِنَ المَلَائِكَةِ، إلَّا قالُوا: ما هذا الرُّوحُ الخَبِيثُ؟ فَيَقُولُونَ: فُلَانُ بنُ فُلَانٍ بِأَقبَحِ أَسمَائِهِ الَّتِي كانَ يُسَمَّى بِهَا في الدُّنيَا، حتَّى يُنتَهَى به إلى السَّمَاءِ الدُّنيَا، فَيُستَفتَحُ لَهُ، فَلَا يُفتَحُ لَهُ»، ثُمَّ قَرَأَ رَسولُ اللهِ ﷺ: ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ﴾[1].

(1) رواه أحمد في مسنده، الحديث رقم: (18534)، وصحّحه الألبانّي في صحيح الجامع الصّغير: (برقم: 1676).

نُكتَةُ تَضعِيفِ الفِعْلِ ﴿تُفَتَّحُ﴾:

شِدَّةُ تعذِيبِ أهلِ الكُفرانِ دليلٌ على عِظَمِ كرامةِ أهلِ الإيمانِ

وردَ الفعلُ ﴿تُفَتَّحُ﴾ في قَولِ اللّهِ تعالى: ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ﴾ بصيغةِ التَّضعيفِ لنكَاتٍ[1]:

أُولاها: الدّلَالَةُ على كثرةِ الأبوَابِ لا كَثرةِ الفعلِ؛ لأنَّ ذلك لا يُناسِبُ المقامَ.

ثانيهَا: إفادَةُ تحقيقِ نَفيِ الفَتحِ لهُم.

ثالثُهَا: الإيماءُ إلى أنَّ المبالغَةَ بتضعيفِ الفعلِ دالَّةٌ على أنَّ المنفيَّ هو فَتحٌ مَخصُوصٌ؛ وهو الفتحُ الّذي يُفتَحُ لأهلِ الإيمانِ، وهو فَتحٌ قَوِيٌّ، فيكون في تِلكَ الإشارَةِ زيادَةٌ في نِكايَتِهم.

دَلَالَةُ اللَّامِ في: ﴿ٱلسَّمَآءِ﴾:

انْغلاقُ السَّماءِ الأُولى دليلٌ على أنَّ ما بعدَها أَولَى

اللَّامُ في ﴿ٱلسَّمَآءِ﴾ من قَولِ اللّهِ سُبحانَهُ: ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ﴾ للعَهدِ العِلميِّ، والمرادُ السَّماءُ الأُولَى وهِيَ سَمَاءُ الدُّنيَا، وذلك أَبلَغُ في بيانِ عدَمِ تفتِيحِ أَبوَابِ السَّمَاءِ لهُم؛ لأنَّ أرواحَ هَؤُلاءِ المُكَذِّبين إذا لَم تَتَجاوَزِ السَّماءَ الدُّنيا؛ فهِيَ لَم تتجاوَزْ ما فوقَها مِنَ السَّماواتِ مِن بابِ أَولَى وأحرَى.

بَرَاعَةُ النَّظْمِ في الجمْعِ بين الحقيقةِ والمجازِ:

تَنزيلُ المُكَذِّبِينَ بِالآيَاتِ مَنزلةَ الشُّفعاءِ الّذين يُهانُونَ بالرَّدِّ

قولُ اللّهِ ﷻ: ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ﴾ ظاهِرُه أنَّه حقيقَةٌ لا مجَازٌ، كما يدلُّ على ذلك الحديثُ الآنِفُ الذِّكر، ويجوزُ أن يُرَادَ منه معنًى مجازِيٌّ؛ لأنَّ اللَّفظَ يحتمِلُهُ، والتَّحقيقُ أنَّ هذا يندَرِجُ تحتَ حَملِ اللَّفظِ المُشترَكِ على معنَيَيه، فالمعنَى المجازِيُّ الّذي تُرشِدُ إليه الآيةُ الكريمَةُ قد سيقَ مساقَ التَّمثيلِ؛ وهو تمثيلٌ لأسبابِ التَّزكيَةِ، فكمَا أنَّ الشُّفعاءَ إذا أَتَوا مكانًا قد يُقبَلُون ويُرضَى عَنهُم، فتُفَتَّحُ لهم أبوابُ القصورِ ويدخلُونَ على وجه التَّكريم، وقد يُردُّون وتوصَدُ

(1) الآلوسّي، روح المعاني: 4/358، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8ب/127.

الأبوابُ في وجوهِهم على وجهِ الإهانَةِ والسُّخطِ؛ فكذلك مُثِّلَ إقصاءُ المُكذِّبين بآياتِ اللهِ تعالى المُستَكبِرين عنها وعدَمُ الرِّضا عنهم بحالِ مَن لا تُفتَّحُ له أبوابُ المنازِلِ والقصور، وأُضيفَتِ الأبوابُ إلى السَّماء لِلإيماءِ إلى أنَّ هذا التَّمثيلَ واردٌ لِبيانِ حِرمَانِهم مِن وَسائِلِ الخَيرَاتِ الإلهيَّةِ[1].

معنَى اللَّامِ في: ﴿ٱلْجَنَّةَ﴾:

الجَنَّةُ أَطهَرُ المَنَازِلِ وأَشرَفُها

اللَّامُ في: ﴿ٱلْجَنَّةَ﴾ مِن قَولِه تعالى: ﴿وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ﴾ لامُ العهدِ العِلميِّ، والمرادُ: جنَّةُ الخُلدِ الّتي هِيَ أطهَرُ المنازِلِ وأشرَفُهَا[2].

بَلاغةُ تَعْليقِ النَّجاةِ بالمستحِيلِ:

تَأْكِيدُ تَيئِيسِ المُكَذِّبِينَ مِن دُخولِ الجَنَّةِ

في قَولِ اللهِ سُبحانَهُ: ﴿وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ﴾ تمثيلٌ بليغٌ لبيانِ تَيئِيسِهم مِن دخولِ الجنَّةِ؛ فقد عُلِّقَ دُخُولُهم إيَّاهَا على محالٍ؛ إذِ الجَمَلُ يستحِيلُ دخولُهُ في مَسلَكٍ ضيِّقٍ كثُقبِ الإبرةِ، وهذه الجملةُ - ﴿وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ﴾ - تأكيدٌ بطريقِ تأكيدِ الشَّيءِ بما يُشبِهُ ضدَّه، إذ جُعِلَ انتفاءُ دخولِهم الجنَّةَ مُستمِرًّا على وجهِ الدَّوامِ؛ لجعلِهِ المُستَحِيلَ غايةً له[3].

بَراعةُ الاِحْتِبَاكِ في الآيةِ:

حَذْفُ المُقَابِلِ لِدِلالَةِ المَذكُورِ عليه

في قولِ اللهِ ﷻ: ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ﴾ حذفٌ على طريقةِ الاحتباكِ، وهُوَ المُسمَّى: حذفَ التَّقابُلِ أَوِ الحذفَ المُقَابَلِيَّ؛ إذ حُذِفَ مِن كُلِّ جملةٍ ما دلَّ عليهِ مقابِلُهَا مِنَ الجملةِ الأُخرى، وتَقديرُ الجملَةِ: لا تُفَتَّحُ لهم أبوابُ السَّماءِ فيدخُلُوهَا، ولا تُفتَّحُ لهُم أبوابُ الجنَّةِ فيدخُلُوها، فحُذِفَ الدُّخولُ مِنَ الجملةِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8ب/126.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/399.

(3) الماورديّ، النّكت والعيون: 2/223، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 7/400، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8ب/127.

الأُولَى؛ لدلالة: ﴿وَلَا يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ﴾ عليه مِنَ الجملَةِ الثَّانِيةِ، وحُذِفَ تَفتِيحُ الأبوابِ منَ الثَّانيَةِ لدلالةِ ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمۡ أَبۡوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ﴾ عليهِ منَ الجملةِ الأُولَى.

نُكتَةُ تَخصِيصِ الجَمَلِ دُونَ غَيرِهِ:

خُصَّ الجَمَلُ بالذِّكرِ دونَ سائرِ الدَّوابِّ، مع أنَّ فيهَا ما هو أعظَمُ منه؛ لنكاتٍ[1]:

الأُولى: أنَّ المرادَ ضربُ المَثَلِ، وهذا المرادُ يحصُلُ بالجَمَلِ؛ إذِ المعنَى: نَفيُ دُخولِهم الجنَّةَ كما لا يَدخُلُ الجمَلُ في ثُقبِ الإبرةِ.

الثَّانيةُ: أنَّ الجَمَلَ أكبرُ شأنًا عند العربِ مِن سائر الدَّوابِّ؛ فإنَّهم يُقدِّمونَهُ في القُوَّة على غيرِه، ولذا عجَّبهم اللهُ سُبحانه مِن خَلقِ الإبلِ، فقال سُبحانَهُ: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلۡإِبِلِ كَيۡفَ خُلِقَتۡ ١٧﴾ [الغاشية: 17]، فآثرَ اللهُ ﷻ ذكرَ الإبلِ على غيرِهَا لهذا المعنى.

ولم يُذكَرِ الفيلُ مع أنَّه أكبَرُ منَ الجَمَلِ؛ لأنَّ القرآنَ الكريم واردٌ على ما تعرفُهُ العربُ؛ إذْ هو جارٍ على لغتِهم، والعرَبُ إنَّما يعرفُونَ الجَمَلَ، ولم يكُنْ في بلادِهم الفيَلَةُ[2].

الثَّالثة: أنَّ الجملَ شاخصٌ أمامَ أعيُنِ العربِ؛ فهم يَرَونَه صباحَ مساءَ، وربطُ الآيةِ بما هو حاضرٌ في الحياةِ اليوميَّةِ، أدعى للتَّفكُّرِ، وأحرى بالتَّأمّلِ.

مُعايَشَةُ الجَمَلِ للعربِ في حياتِهم دعوةٌ للتَّأمُّلِ الدَّائمِ في مَصيرِ المُكذِّبين

نُكتَةُ تَعريفِ ﴿ٱلۡجَمَلُ﴾:

اللَّامُ في: ﴿ٱلۡجَمَلُ﴾ مِن قَولِهِ تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلۡجَمَلُ فِي سَمِّ ٱلۡخِيَاطِۚ﴾ هي لامُ العَهدِ الذِّهنيِّ عند البلاغيِّينَ لا النَّحويِّينَ، وهي الدَّالَّةُ على الحَقيقَةِ في ضِمنِ فَردٍ مُبهَمٍ، فهيَ في المَعنَى بمنزلَةِ النَّكرةِ، والتَّقدير:

استِحضارُ المُكذِّبِ لجملٍ بعينِه أوقعُ في مَعرفةِ الاستحالةِ ذِهنيًّا

(1) ابن الجوزيّ، زاد المسير: 2/119.
(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/225.

حتَّى يَلِجَ جَمَلٌ مِنَ الجِمَالِ في سَمِّ الخياطِ، والقَرِينَةُ هو الفعلُ ﴿يَلِجَ﴾؛ فلا يُرادُ به استِغرَاقُ الأَفرَادِ قَطعًا، ولا الحقيقةُ مِن حيثُ هِيَ؛ لأنَّ الحقيقةَ معنًى في الذِّهنِ، وهي لا تُوصَفُ بالوُلُوجِ أو عَدَمِه.

ونكتةُ هذا التَّعريف اللَّفظيِّ الّذي هو في حقيقتِه نكرةٌ، هو أنَّ هؤلاءِ المُكذِّبين سيستحضِرُونَ جَملًا بعينِه يَعْرِفونَهُ، فيتمثَّلُون به الآيةَ، فيقعُ منهم مَوقِعَ المعرِفة، فهو تجسيدٌ للصُّورةِ في الأذهانِ، واستحضَارٌ للاستحالةِ في الأفئدةِ.

دَلَالَةُ التَّشبِيهِ في الآيَةِ:

استِحالَةُ دُخولِ الجَنَّةِ تَنالُ كُلَّ مُجرِمٍ

التَّشبِيهُ في قولِ اللّه سُبحَانَهُ: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾، الّتي تدلُّ عليه كافُ التَّشبِيهِ، مَعقُودٌ ما بينَ عذابِهم واستحالَةِ الرَّحمةِ بِهم ودُخُولِهم الجنَّةَ، وبينَ ما أعدَّهُ اللّهُ ﷻ بالنِّسبةِ لكلِّ مَن يُجرِمُ ويأثَمُ في حقِّ اللّهِ سُبحانَهُ[1].

دَلَالَةُ اسمِ الإشارَةِ في: ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾:

فَظاعَةُ عَذابِ المُجرِمِينَ قَادَةً كانُوا أَو أَتبَاعًا

وَرَدَ اسمُ الإشارَةِ (ذَلِكَ) مِن قَولِ اللّه تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ دالًّا على البُعدِ؛ لِلإيماءِ إلى عظَمَةِ ذلك الجَزاءِ وفظاعَتِه[2]، والإشارةُ راجعةٌ إلى أنَّ القَاطِعِين لِمَا أمرَ اللّهُ تعالى به أن يُوصَلَ، ولو كانوا أتباعًا مُقلِّدِين لِلمُكَذِّبينَ والمُستَكبِرِينَ؛ فإنَّ دخولَهُم الجنَّةَ محالٌ عادةً[3].

دَلَالَةُ اللَّامِ في: ﴿ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾:

يَعظُمُ العَذابُ الأُخرَوِيُّ بِعِظَمِ الإجرَامِ

اللَّامُ في ﴿ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ مِن قَولِ اللّهِ سُبحانَهُ: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ دالَّةٌ على الكَمَالِ، والمعنَى: وكذلِكَ نَجزِي أهلَ الإجرَامِ الكَامِلِينَ فِيهِ.

---

(1) محمّد أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 6/2838.

(2) جمال الدّين القاسميّ، محاسن التَّأويل: 5/58.

(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/400.

بَلاغَةُ التَّذْيِيلِ في الآيةِ:

الإجـرَامُ سَبَبٌ لإيقاعِ أَهلِهِ في شَدِيدِ العَذابِ

قولُ اللّهِ ﷻ: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ تمثيلٌ غيرُ جارٍ مَجرَى المثلِ؛ لِعدَمِ استقلالِهِ، ولافتِقَارِهِ إلى ما قبلَهُ في الكَشفِ عَن تمامِ المرادِ منه؛ لِرُجوعِ اسمِ الإشارَةِ (ذَلِكَ) إلى مُتقدِّمٍ.

وهذا التَّذييلُ مُشعِرٌ بأنَّ الإجرَامَ هو السَّبَبُ الّذي أوقعَهُم في ذلك الجَزاءِ، "فَهُم قَد دَخَلُوا في عمُومِ المُجرِمينَ الّذين يُجزَون بمِثلِ ذلكَ الجزَاء، وهمُ المَقصُودُ الأوّلُ منهم؛ لأنَّ عِقَابَ المُجرِمينَ قد شُبِّه بعِقَابِ هَؤلاءِ، فَعُلِمَ أنَّهُم مُجرِمُون، وأنّهم في الرَّعِيلِ الأوَّلِ مِنَ المُجرِمين، حتَّى شُبِّه عقَابُ عُمومِ المُجرِمينَ بِعِقابِ هَؤلَاءِ، وكانُوا مَثَلًا لِذَلِكَ العُمومِ"[1].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

التَّكذِيبُ والاستِكبارُ:

التّكذيبُ يَغلِبُ في العقليَّاتِ والاستِكبارُ في النّفسيَّاتِ

ذَهَبَ ابنُ عرفَةَ إلى أنَّ التَّكذيبَ أعمُّ مِنَ الاستِكبَارِ؛ لأنَّ المُكذِّبَ قَد يَكونُ مُستَكبِرًا، وقَد لَا يكونُ[2].

والظَّاهرُ أنَّ بينَ التَّكذِيبِ والاستِكبَارِ عُمومًا وخصوصًا مِن وجهٍ؛ فالتَّكذِيبُ أعمُّ مِنَ الاستِكبَار بالاعتِبَارِ المُتَقَدِّمِ ذكرُهُ، والاستِكبَارُ أعَمُّ مِنَ التَّكذِيبِ؛ باعتِبارِ أنْ ليسَ كلُّ مُستكبِرٍ يَقعُ منه تَكذِيبٌ، فتحصَّلَ أنَّ بَينَهُما عُمومًا وخصوصًا وَجهيًّا، فقد يَجتَمِعانِ، وقَد يفترِقُ كلٌّ مِنهمَا عنِ الآخَرِ.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8ب/128.
(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/225.

﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوۡقِهِمۡ غَوَاشٍۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ ٤١﴾ [الأعراف: 41]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

تَفْصِيلُ عَذابِ المكذِّبين

بَعدَ أَن ذَكَرَ اللّٰهُ تعالى تعذيبَ المُجرِمينَ، وأنَّ لَهُم عذابًا كَعَذابِ المُكذِّبينَ المُستَكبِرين؛ فَسَّر في هذه الآيَةِ جَزَاءَ الجَمِيعِ، فقالَ سُبحَانَهُ: ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوۡقِهِمۡ غَوَاشٍۚ﴾[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مِهَادٌ﴾: الميمُ والهَاءُ والدَّالُ تدُلُّ اشتِقاقاتُها على تَوطِئَةٍ وتَسهِيلٍ للشَّيءِ، ومنه: المَهدُ[2]؛ وهو ما يُهيَّأُ للصَّبيِّ مِنَ الفِرَاشِ[3]. ويُقال: مَهَّدتُ لنَفسِي؛ أَي: جَعَلتُ مَكَانًا وطيئًا سَهلًا[4]، والمِهَادُ: الفِرَاشُ[5].

والمِهَادُ في قولِ اللّٰهِ تَعَالَى: ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ﴾، الفراشُ، والمعنَى: لَهُم فِرَاشٌ مِن تَحتِهِم مِن نَارٍ[6].

2) ﴿غَوَاشٍۚ﴾: الغَينُ والشِّينُ والحرفُ المعتلُّ تدلُّ تصريفَاتُهَا على تغطيةِ شيءٍ بشيءٍ، ومنه: الغِشاءُ وهو الغِطَاءُ، وسُمِّي يومُ القيامَةِ غاشيةً؛ لأنَّها تغشَى الخلقَ بإفزَاعِهَا[7].

وغواشٍ في قولِهِ تعَالَى: ﴿وَمِن فَوۡقِهِمۡ غَوَاشٍۚ﴾ جمعُ غَاشِيَةٍ، والمرادُ: أنَّ لَهُم أَغطِيَةً مِن نارٍ مُوقَدَةٍ[8].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/400.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (مهد).
(3) الرّاغب، مفردات ألفاظ القرآن: (مهد).
(4) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 80، والأزهريّ، تهذيب اللّغة: (مهد).
(5) ابن سِيده، المحكم والمحيط الأعظم: (مهد).
(6) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 288.
(7) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (غشي).
(8) محمّد أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 6/2839.

المَعْنى الإجْماليُّ:

النّارُ تُحيطُ بالمكذِّبين والمستَكْبِرين

لِهَؤُلاءِ المُكذِّبينَ بِآيات اللّه تعالى المُستَكبِرينَ عنها فراشٌ مِن نارٍ يفترشُونَهُ، ومِن فوقِهِم غطاءٌ مِن نارٍ يَلتَحِفُونَهُ، وكذَلِكَ نُجازِي مَن ظلَمَ نفسَهُ وجاوزَ حُدودَهُ، فأكسَبَها مِن غضَبِ اللّهِ تعالَى ما لا قِبَلَ لهَا بِهِ؛ بِكُفرِهِ بِرَبِّهِ، وتكذيبِهِ أَنبِيَاءَهُ[1].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

عِلَّةُ فَصْلِ قوله تعالى: ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ﴾:

بَيانُ حَقِيقَةِ العَذابِ الّذِي يَنَالُ المُكَذِّبِينَ

فُصِلَ قولُ اللّه تعالى: ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ﴾ عمَّا قبلَهُ لوقوعِهِ استئنافًا؛ فكأنَّ سائلًا قد سألَ: فماذا لهُم منَ العذابِ؟ فجاءَ الجوابُ: ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾ تَفسيرًا لِلعَذابِ الّذِي تَوَعَّد اللّهُ تعالى بِهِ المُكذِّبينَ بِآياتِهِ المُستَكبِرينَ عَنها.

بَراعَةُ الاستِعارَةِ التَّبعيَّةِ:

التَّهَكُّمُ بِالمُكَذِّبِينَ عَذابٌ مَعْنوِيٌّ

في قَولِ اللّه سُبحَانَه: ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ﴾ استِعارَةٌ تبعيَّةٌ في حَرفِ الجَرِّ اللَّام؛ وذلكَ لأَنَّ اللَّامَ تكونُ لِلمَنفَعَةِ، وهِيَ مُستَعمَلَةٌ هنا لِلمَضرَّةِ، فكانت هذهِ استِعَارَةً تهكُّميَّةً لاستعمالِ الحَرفِ في ضِدِّ معناهُ، فالمِهَادُ مِنَ النَّارِ عليهم لا لَهُم[2].

وحسَّن هذِهِ الاستِعارَةَ التَّعبيرُ عمَّا يكونُ تَحتَهُم مِنَ النَّارِ بالمِهادِ.

بَلاغةُ التَّجْرِيدِ في الآيةِ:

عِظَمُ النَّارِ الّتِي يَصْلاها المُكَذِّبُونَ

في قَولِهِ تعالى: ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ﴾ تجريدٌ بـ﴿مِّن﴾ التَّجريديَّةِ، حيثُ دلَّت على عِظَمِ النَّارِ الّتِي يَصلَونَهَا حتَّى إنَّها أفَاضَتْ على غيرِهَا منها، وفي ذلكَ أيضًا: إثارةٌ لِلخَيالِ، وتَنشِيطٌ لِلأَذهانِ، وتنبيهٌ للعقول، بِما فيه مِن تَنويعٍ في الصِّياغَةِ وتَلوِينٍ فيها[3].

(1) ابن جرير، جامع البيان: 435 - 436/12، ونخبة منَ العلماء، التّفسير الميسّر، ص: 155.
(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/226.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/228.

دَلالةُ تَنْكِيرِ ﴿مِهَادٌ﴾:

جراءةُ الذَّنْبِ يُقابِلُهُ عِظَمُ العِقابِ

نُكِّر ﴿مِهَادٌ﴾ في قَولِ اللّهِ سُبحانَهُ: ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ﴾ لإرادَةِ التَّعظيمِ والتَّفخيمِ[1]؛ مجازَاةً على عِظَمِ ما ارتَكَبوهُ مِن تَكذيبِهم آياتِ اللّهِ تعالى واستِكبارِهم عنها، وتحذيرًا لسامِعِ هذا الخطابِ مِن سُلوكِ مَسلَكِ هؤلاءِ المُكذِّبين؛ لئلَّا يَنالَهُ ما نالَهم.

سِرُّ التَّعبيرِ بقولِه: ﴿مِهَادٌ﴾ دونَ (عذابٌ):

الجَزاءُ مِن جِنْسِ العَمَلِ

في التَّعبيرِ عَن جهَنَّمَ بأنَّ لهم مِنها مِهَادًا فيه ضَربٌ مِن ضروبِ التَّهَكُّمِ بهم[2]، والمعنَى: أنَّ اللّهَ سُبحانَهُ مَهَّدَ لَهُم جهنَّم بدلًا مِنَ الرَّاحةِ الّتي كانَت لَهُم في الدُّنيا بِتَمهيدِ الأرضِ لَهُم يتمتَّعونَ مِن خيراتِهَا.

فأصلُ المِهَادِ دالٌّ على التَّوطئةِ والتَّسهيلِ، ومنه المَهدُ؛ وهو ما يُهيَّأُ للصَّبيِّ مِنَ الفِرَاشِ[3]، واستُعمِلَ المِهَادُ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ﴾ لمعنَى العذابِ، وهو ضدُّ السّهولةِ، فكان في ذلك استعارَةٌ تهكُّميَّةٌ بهم؛ جزاءً وفاقًا لتكذيبِهم بآياتِ اللّهِ تعالى واستكبارِهم عنها؛ فإنَّ صنيعَهُم هذا ضربٌ مِنَ التَّهكُّمِ بالآياتِ.

فالمِهَادُ في الآيَةِ الكريمَةِ واردٌ بمعنى العذَابِ، ولو جاءَ النَّظمُ القُرآنيُّ: (لَهُم مِن جَهنَّمَ عذابٌ) صحَّ المعنى، ولكنَّ التَّعبيرَ القُرآنيَّ آثرَ لفظَ (المهادِ) دُونَ (العذَابِ)؛ لِمَا في لَفظِ المِهَادِ مِنَ السُّخْرِيَةِ بالقومِ والاستهزاءِ بهم ما لا يكونُ ذلك في لَفظِ (العذابِ)[4].

بَراعةُ المقابلةِ بينَ ﴿مِهَادٌ﴾ و﴿فَوْقِهِمْ﴾:

اللَّفظُ إذا كانَ صَريحًا في دَلالَتِهِ؛ يُستَغنَى عَن تَقييدِهِ

تُرِكَ التَّصريحُ بِتَحتيَّةِ المهادِ في قولِه تعالى: ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ﴾؛ لأنَّ ذِكرَ المِهَادِ أغْنَى عنه، وذلك أنَّ المِهادَ بمعنى الفِرَاشِ، ولا يكُونُ ذلكَ إلَّا مِن تَحتُ، بخلاف الغَواشي؛ فقد صُرِّحَ بفوقيَّتِهَا؛

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/228.
(2) محمّد أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 6/2839.
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (مهد)، والرّاغب، مفردات ألفاظ القرآن: (مهد).
(4) عبد الفتاح لاشين، صفاء الكلمة، ص: 116 - 117.

لأنَّ الغاشيةَ تكونُ مِن فوقُ، ورُبَّما كانَتْ عَن يمينٍ أو شِمَالٍ، وتَرِدُ مرادًا بها مُطلَقُ الوصولِ والإدراكِ، فاحتيجَ إلى بيانِ محلِّهَا، فَنُصَّ على الفَوقيَّةِ[1].

فنُّ الاختِباكِ في الآيةِ:

الاقتِصادُ في اللَّفظِ اكتِفاءً بالقَرِينَةِ

في قَولِ اللّهِ سُبحانَهُ: ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوۡقِهِمۡ غَوَاشٍۚ﴾ احتباكٌ وهو المُسَمَّى: حذفَ التَّقابُلِ أو الحذفَ المقابَلِيَّ؛ ووجهُ ذلك أنَّه حُذِفَ مِن: ﴿وَمِن فَوۡقِهِمۡ غَوَاشٍۚ﴾ ذِكرُ جَهَنَّمَ، استغناءً بذِكرِهَا قبلُ، وحُذِفَ مِن: ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ﴾ ذكرُ التَّحتيَّةِ استغناءً بذِكرِ مقابِلِهَا، وهو الفَوقيَّةُ في الجُملَةِ بعدَهَا[2]، والتَّقديرُ: لهُم من جَهنَّمَ من تحتِهم مهادٌ، ولَهُم من جَهنَّمَ مِن فوقِهم غواشٍ.

بَلاغةُ الاستِعارَةِ التَّمثيليَّة:

ذِكرُ التَّحتيَّةِ والفَوقيَّةِ تَمثيلٌ لإحاطَةِ العَذابِ مِن جَميعِ الجِهاتِ

في التَّصريحِ بالمِهادِ والغَواشي في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوۡقِهِمۡ غَوَاشٍۚ﴾ استعارَةٌ تمثيليَّةٌ لما يُحيطُ بِهم مِنَ النَّارِ من كُلِّ جانِبٍ[3]، فذِكرُ ما يدلُّ على التَّحتيَّةِ والفوقيَّةِ تمثيلٌ للإحاطَةِ من جميعِ الجهاتِ، كما جاءَ مُصرَّحًا به في قولِ اللّه تعالى: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةُۢ بِٱلۡكَٰفِرِينَ ۝٥٤ يَوۡمَ يَغۡشَىٰهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِن فَوۡقِهِمۡ وَمِن تَحۡتِ أَرۡجُلِهِمۡ﴾ [العنكبوت: 55]، فصرَّحَ بإحاطةِ النَّار بِهم، ثُمَّ بيَّنَهُ بالفوقيَّةِ والتّحتيّةِ، فأفادَ أنَّ هذه طريقَةُ القرآنِ الكريمِ في التَّعبيرِ عَن إحَاطَةِ النَّارِ بالمعذَّبينَ، كما هو الواردُ في قولِ اللّه ﷻ: ﴿لَهُم مِّن فَوۡقِهِمۡ ظُلَلٞ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحۡتِهِمۡ ظُلَلٞۚ﴾ [الزّمر: 16].

بَلاغةُ التَّشبيهِ بالكافِ الدَّاخلةِ على اسمِ الإشارةِ:

عَذابُ المُكَذِّبينَ بالآياتِ أعظَمُ مِن عَذابِ الظَّالِمينَ

الكافُ في ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ مِن قَولِ اللّهِ ﷻ: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ كافُ التَّشبيهِ، فقد شُبِّهَ جزاءُ الظَّالمين بجَزاءِ المُكَذِّبينَ بآياتِ اللّهِ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/400.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/400.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/52.

تعالى والمُستكبِرينَ عنها، وأفادَ هذا أنَّ هَؤلاءِ المُكَذِّبينَ داخِلُونَ في جملةِ الظَّالمينَ، وأنَّهم المَقصودُ الأوَّلُ مِن هذا التَّشبيهِ، بحيثُ صارُوا مثلًا لعُمومِ الظَّالمينَ[1].

ولَمَّا كانَ المُشَبَّهُ بشَيءٍ لا يَقوَى قُوَّتَهُ؛ دلَّ على أنَّ عذابَ المُكذِّبين بالآياتِ أعظَمُ وأشدُّ مِن عذابِ الظَّالمينَ[2].

ووَرَدَ اسمُ الإشارَةِ (ذَلِكَ) مِن قولِ اللّه تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ دالًّا على البُعدِ؛ للإشارةِ إلى شدَّةِ ذلك الجزاءِ وعِظَمِهِ[3].

دَلالةُ التَّذْييلِ في الآيةِ:

قَولُ اللّهِ ﷻ: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ تمثيلٌ غيرُ جارٍ مَجرَى المثلِ؛ لعدمِ استِقلالِهِ، ولافتِقارِهِ إلى ما قبلَهُ في الكشفِ عَن تمامِ المرادِ منه؛ لِرُجوعِ اسمِ الإشارَةِ (ذلك) إلى مُتقدِّمٍ.

وهذا التَّذييلُ دالٌّ على أنَّ ما اقتحَمُوه منَ التَّكذيبِ بآياتِ اللّه تعالى واستكبارِهم عنها ظُلمٌ عظيمٌ، وأنَّ ظُلمَهُم هذا سببٌ في استِحقاقِهم ذَلِكَ العذابَ.

التَّكذيبُ والاستِكبارُ مِن أعظَمِ الظُّلمِ وأَقْبَحِهِ

معنَى اللَّامِ في ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾:

اللَّامُ في ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ مِن قَولِ اللّهِ ﷻ: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ دالَّةٌ على الكَمالِ وشمولِ جميعِ أنواعِ الظلمِ الذي يقعُ منهم، والمعنَى: وكذلك نَجزِي الظَّالمينَ مَهْما تنوَّعَ الظُّلمُ الواقعُ منهم ومَهْما كان الظَّالم قد اقْترف من ظلْم، لا فرق بين ظالم وآخر.

عِظَمُ العُقوبَةِ في الآخِرَةِ على قَدْرِ عِظَمِ الظُّلْمِ

تَوجِيهُ تَشابُهِ الفاصِلةِ بالّتي قبلَها:

خُتِمَت هذه الآيَةُ بذِكرِ الظَّالمينَ، وفي الآيَةِ المُتَقدِّمَةِ ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ ذُكِرَ المُجرِمونَ؛ وذلكَ لأنَّ الوصفَينِ يتحقَّقَانِ

الإجرَامُ بريدُ الظُّلْمِ، والظُّلمُ أثرٌ خَبيثٌ من آثارِ الإجرامِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8ب/129.
(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/226.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/228.

فيهما، فَهُم قَد أجرَمُوا بالإفسادِ، وظلَمُوا أنفسَهُم، وظلَمُوا الحقائقَ بما ارتكبُوهُ مِن معاصٍ، وتعدَّوهُ مِنَ الحدودِ[1].

ونُبِّهَ بتغايُرِ الأوصَافِ ﴿ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ و﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، على تَلازُمِها، فمَنْ كانَ ظالمًا؛ لَزِمَهُ الإجرَامُ والتَّكذيبُ والاستكبَارُ، وبالعكسِ[2].

وفي تَنويعِ وَصفِهِم، تارةً بالمُجرِمِينَ وأُخرَى بالظَّالمين إشعارٌ بأنَّهم بِتَكذِيبِهم الآياتِ قَدِ اتَّصفوا بكلِّ واحدٍ مِن هَذَينِ الوَصفَينِ القَبِيحَينِ، وفي ذِكرِ الجُرمِ معَ الحِرمَانِ مِن دُخُولِ الجنَّةِ، والظُّلمِ مع التَّعذيب بالنَّار: تَنبِيهٌ على أنَّه أعظمُ الجرائِمِ[3].

تَوجِيهُ المُتَشابِهِ اللَّفظِيِّ:

دِقَّةُ البَيانِ القُرآنِيِّ في انتِقاءِ الأَلفاظِ المُلائِمَةِ لِسِياقاتِها

قال اللهُ ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُواْ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ﴾، وقال سُبحانَهُ: ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، وقال ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ﴾ [الأعراف: 152]، فاختلفَت خَواتيمُ هذهِ الآيِ، ووجهُ ذلكَ: أنَّ الآيةَ الأولَى صُدِّرت بقَولِهِ سُبحانَهُ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُواْ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ ۚ﴾، ولمَّا كان التَّكذيبُ بآياتِ اللهِ تعالى والاستكبَارُ عنها قاطعًا الصِّلَةَ بينَهُم وبَينَ اللهِ تعالى، ناسبَهُ ذِكرُ الإجرامِ، فقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ﴾، وأصلُ الإجرَامِ: القطعُ[4].

وأمَّا الآيةُ الثَّانيةُ فقد صُدِّرت بقَولِ اللهِ ﷻ: ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ

(1) محمّد أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 6/2839.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/401.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/228.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (جرم).

وَمِن فَوۡقِهِمۡ غَوَاشٖۚ﴾، فلمَّا كان هؤلاءِ قد أورَدُوا أنفسَهُم مَوردَ الهلاكِ بسببِ ظُلمِهم؛ ناسبَهُ خَتمُ الآيةِ بالظُّلمِ، فقال سُبحانَهُ: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

وأمَّا الآيَةُ الثَّالثَةُ فَقَد بُدِئَت بِقَولِهِ سُبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ ٱلۡعِجۡلَ سَيَنَالُهُمۡ غَضَبٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَذِلَّةٞ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ﴾، فلمَّا كان سببُ اتِّخاذِهم العجلَ زعمَهُم استحقاقَهُ العبادَةَ، وكان كذلكَ محضَ افتراءٍ؛ ناسبَهُ خَتمُ الآية بِهِ، فقال سُبحَانَهُ: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُفۡتَرِينَ ١٥٢﴾ [الأعراف: 152].

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٤٢﴾ [الأعراف: 42]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

إتْباعُ عاقِبَةِ المؤمنين بعاقبةِ المُكَذِّبين

لَمَّا أخبرَ اللّهُ تعالى عَن أحوَالِ المُكَذِّبينَ بآياتِهِ المُستَكبِرينَ عنها ترهيبًا مِن سُلوكِ مَسلَكِهم؛ أتبعَهُ في هذه الآيةِ بالإخبارِ عَن أحوالِ المُؤمِنِينَ ترغيبًا في اقتفاءِ آثارِهم، فقالَ سُبحَانَهُ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿نُكَلِّفُ﴾: تَكَلَّفَ الشَّيءَ: تجشَّمَهُ على مشقّة وعُسرٍ، وكلَّفهُ بمعنَى: أَمَره بما يشُقّ عليه[2]، والتَّكليفُ: الأَمرُ بِما يَشُقُّ عليكَ[3].

والتَّكليفُ في قولِ اللّه سُبحانَهُ: ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَآ﴾ بمعنَى مُطلَقِ الطَّلَبِ والأمر؛ أي: لا نَأمُرُهَا إلَّا بما في وُسعِهَا وطاقتِهَا.

2) ﴿وُسۡعَهَآ﴾: الواوُ والسِّينُ والعينُ تدورُ اشتقاقَاتُهَا على ضدِّ الضّيقِ والعُسرِ. يُقال: وَسُعَ الشَّيءُ واتَّسعَ؛ خلافُ ضَاقَ[4]. والوُسْع: الطَّاقةُ، ومنه قَولُ اللّه تعالى: ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَآ﴾؛ أي: لَا نُكَلِّفُ نفسًا مِنَ الأعمالِ إلَّا ما تطيقُهُ[5].

3) ﴿خَٰلِدُونَ﴾: الخاءُ واللَّامُ والدَّالُ تدلُّ تَصريفاتُها على الثَّبات

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/401.
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (كلف).
(3) الزّبيديّ، تاج العروس: (كلف).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (وسع).
(5) ابن جرير، جامع البيان: 12/437.

والمُلازَمَة[1]، ومنه الخُلدُ والخلودُ: البَقاء والدَّوام، وهو في الأَصلِ: المُكثُ الطَّويلُ، ولا يلزَمُ منه الدَّوامُ، ولذا يُقَيَّدُ في مواضِعَ بِـ(أبدًا) مِن باب التَّمييز لا التَّأكيد[2].

وخُلُودُ أهلِ الإيمانِ في الجنَّةِ مقطوعٌ به، وذلك مُستَفادٌ مِن أدلَّةٍ أُخرَى كثيرةٍ، منها ما وَرَدَ في القُرآن الكَريم مقيَّدًا خُلُودُهم في الجَنَّة بالتَّأبيد، كقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ لَّهُمۡ فِيهَآ أَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞۖ وَنُدۡخِلُهُمۡ ظِلّٗا ظَلِيلًا ٥٧﴾ [النّساء: 57].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

جَـزاءُ المؤمنين جَنَّةُ رَبِّ العالَمين

وَالّذينَ صَدّقُوا اللّهَ ورسولَهُ، وأقرُّوا بِمَا جاءَهُم بِهِ مِن وَحيِ اللّهِ سُبحَانَهُ وتَنزيلِه وشرَائِعِ دِينِه، وانقادُوا لذلِكَ، وعَمِلُوا ما أَمَرَهُمُ اللّهُ تعالى به فأطَاعُوهُ، وتَجَنَّبُوا ما نَهَاهُم عنه، لا نُكَلِّفُ نفسًا مِنَ الأعمَالِ إلَّا ما تُطيقُهُ، هَؤُلَاءِ الّذين آمنُوا وعَمِلُوا الصَّالحاتِ هُم أهلُ الجنَّةِ الّذين هُم أَهلُهَا، دُونَ غَيرِهِم مِمَّن كفَرَ باللّهِ، مَاكِثُونَ في الجَنَّةِ، دائمٌ فيها مُكثُهُم، لا يَخرُجُونَ منها، ولا يُسلَبُونَ نَعِيمَهَا[3].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

عِلَّةُ وَصْلِ ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بِما قَبْلَهُ:

استِيعابُ أَقسامِ النَّاسِ يَومَ القِيَامَةِ مُؤمنِهم وكافِرِهم

الواوُ في قولِه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ عاطِفةٌ، وَوُصِلَت هذِهِ الجُملَةُ بِما قبلَهَا؛ لِمَا بينَهُما مِنَ التَّوسُّطِ بينَ الكَمالَين، وذلِكَ أنَّ الجُملتَين: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَا﴾ و﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ خبريَّتَانِ، وبينَهُمَا تناسُبٌ مِن وَجهَين[4]:

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (خلد).

(2) أبو البقاء الكفويّ، الكلّيّات، ص: 434، وابن القيّم، شفاء العليل، ص: 257، وابن عثيمين، شرح العقيدة الواسطيَّة: 1/265.

(3) ابن جرير، جامع البيان: 12/437، ونخبة منَ العلماء، التّفسير الميسّر، ص: 155.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8ب/129 - 130.

أحدهما: لفظيٌّ، وهو اتِّفاقُهُما في الاسميَّةِ، وكونُ المسنَدِ إليه في كُلٍّ مِنها الاسمَ الموصول (الّذِينَ) مع تبايُنٍ في الصِّلَةِ.

والآخَرُ: معنويٌّ، وهو الجامعُ بين الجملَتينِ؛ إذ بينَهُما تضادٌّ، وهو جامعٌ وهمِيٌّ عندَ البلاغيِّينَ.

فعُطِفَ جزاءُ أَهلِ الإيمانِ على جَزاءِ أَهلِ الكُفرِ؛ لاستيعابِ أقسامِ النَّاسِ يومَ القيامَةِ.

نُكتَةُ تَعريفِ المُسنَدِ إليه بالموَصُوليَّةِ:

عُرِّفَ المُسنَدُ إليه بالمَوصُوليَّةِ في قولِهِ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ لِبَيَانِ العِلِّيَّةِ والسَّببيَّةِ، والإيماءِ إلى وَجهِ بناءِ الخبَرِ؛ وهو أنَّ استحقاقَهُم الجزاءَ بالجنَّةِ حاصلٌ بسببِ إيمانِهِم وعملِهِمُ الصَّالحاتِ[1].

الإيمانُ والعَمَلُ الصَّالِحُ سَبَبانِ لِدُخولِ الجَنَّةِ

سَبَبُ إيرادِ الاسْمِ المَوصولِ جَمْعًا:

في إيرادِ الاسمِ الموصولِ (الّذِينَ) جَمعًا في قولِه ﷻ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ إشعارٌ بأنَّهم أُمَّةٌ مُجتَمِعةٌ على الحقِّ والإيمانِ، لا سيَّما أنَّ ذِكرَهم جاءَ في مقابلِ ذكرِ أهلِ النَّارِ، فكانَ التَّقابلُ بين الجَمعينِ مُشعِرًا بذلكَ الاجتِماعِ.

أَهلُ الإيمانِ أُمَّةٌ قائِمةٌ على الحقِّ، مُؤْتَلِفونَ عليه

نُكتَةُ الإتيانِ بالصِّلَةِ فِعلًا ماضِيًا:

جيءَ بالصِّلَةِ ﴿ءَامَنُواْ﴾، ﴿وَعَمِلُواْ﴾ فِعلًا ماضيًا؛ دُونَ إيرادِه فعلًا مُضَارِعًا إشعارًا بأنَّهم مُتحقِّقونَ بالإيمانِ والعَمَلِ الصَّالِحِ، ولإفادةِ ثُبوتِ ذلك ورُسوخِه فيهم، ولبيانِ أنَّ إيمانَهم وأعمالَهم الصَّالحةَ كانتْ سُلوكًا مُتجدِّدًا في الدُّنيا؛ حثًّا لِلمُخَاطَبِين على تَجديدِ إيمانِهِم والاستمرَارِ عليه، وعلى العملِ الصَّالحِ.

الحَثُّ على تحقيقِ الإيمانِ ومُوَاصَلَةِ العَمَلِ الصَّالِحِ

(1) محمّد أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 6/2841.

نُكتَةُ حَذْفِ مُتَعَلَّقِ ﴿ءَامَنُواْ﴾:

الإيمانُ الّذي يَتبادَرُ إلى الأذهانِ هو الإيمَانُ بجمِيعِ أركانِ الإيمانِ

حُذِفَ مُتَعَلَّقُ الإيمانِ في قَولِهِ سُبحَانَهُ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، فلم يُذكَر بِماذا آمنوا؛ وذلك لنُكتَتَين:

الأولى: لِلعِلمِ بِهِ؛ فإنَّ مُتعلَّقَ الإيمانِ كان مَعرُوفًا عندَ المُخَاطَبِينَ.

الأُخرى: لقصدِ إفادَةِ العُمومِ، وعدمِ التَّنصيصِ على أحدِ أركانِ الإيمانِ؛ أي: آمَنُوا بِجَميعِ ما يَجِبُ الإيمانُ بِهِ؛ لأنَّ حذفَ المُتعلَّقِ مُؤذِنٌ بالعمُومِ[1].

ولا تعارُضَ بَينَ المَعنَيَينِ؛ لأنَّ الإيمانَ المعهودَ عندَ أَهلِ الإيمانِ هو الإيمانُ بجميعِ ما أَوجَبَ اللّٰه تعالى عليهم الإيمانَ بِهِ.

سِرُّ الإطنابِ بِعَطْفِ الخاصِّ على العامِّ:

شَرَفُ العَمَلِ الصَّالِحِ وعَظِيمُ مَنزِلَتِهِ

عطفُ العملِ الصَّالحِ على الإيمانِ في قَولِه سُبحانَهُ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ هو مِن بابِ الإطنابِ بعَطفِ الخاصِّ على العامِّ؛ إذ إنَّ حقيقةَ الإيمانِ قولٌ وعملٌ واعتقادٌ، فالعمَلُ داخِلٌ في مُسمَّى الإيمانِ وحقيقتِهِ الشَّرعيَّةِ، والنُّكتَةُ في عطفِ الخاصِّ على العامِّ التَّنبيهُ على شرفِ العملِ الصَّالحِ بذِكرِهِ مرَّتينِ؛ إحدَاهُمَا: مُندَرِجًا تحتَ لَفظِ الإيمانِ، والأُخرَى: مُنفَرِدًا، والتَّحذيرُ منَ الظَّنِّ بأنَّ الإيمانَ كافٍ دونَ عملِ الصَّالحاتِ.

نُكتَةُ الإيجازِ بحذْفِ مَوصُوفِ ﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾:

الاقتِصادُ في اللَّفظِ اكتِفاءً بالقَرِينَةِ

في قَولِ اللّٰهِ تعالى: ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ إيجازٌ بالحَذفِ؛ إذ إنَّ ﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ صِفةٌ لموصوفٍ محذوفٍ، والتَّقدير: وعَمِلُوا الأعمالَ الصَّالحاتِ[2]، والقَرِينَةُ على تَعيينِ المَحذوفِ هو الفعلُ ﴿وَعَمِلُواْ﴾، فاكتُفِيَ بالقَرِينَةِ عنِ التَّصريحِ بالمَوصوفِ؛ اقتِصَادًا في اللَّفظِ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/228، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8ب/130.
(2) الآلوسّي، روح المعاني: 4/359.

وإيجازًا في التَّركيب، ونُكتةُ ذلكَ تنزيلُ الصِّفةِ منزلَةَ المَوصوفِ؛ لتتَّجِه الأذهانُ صَوبَ الصَّالحاتِ، باعتبارِها صالحاتٍ، وهذا أشدُّ أثرًا وأرسخُ في الإقبالِ.

معنَى اللَّامِ في ﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾:

العَمَلُ الصَّالِحُ هو الجامِعُ لِلإخلاصِ والمتابَعَةِ

اللَّامُ في ﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ من قولِه تعالى: ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ يُرَادُ بها العَهدُ العلميُّ؛ وذلك أَنَّ العملَ الصَّالحَ معروفَةٌ حقيقَتُهُ في الشَّرعِ، وأنَّه الجامعُ لأمرَينِ:

أحدهما: الإخلاصُ للّه تعالى.

والآخَر: المتابعَةُ لرَسول اللّه ﷺ.

أو أن تَكونَ اللَّامُ للاستغرَاقِ العُرفي، وفي هذا ضَربٌ مِنَ المبالغَةِ في وصفِ أهلِ الإيمانِ، حتَّى كأنَّهم ما تركُوا عملًا صالحًا إلَّا ولهم فيه نصيبٌ بالفعلِ، أو بالنِّيَّةِ، كما جاءَ من حديثِ أبي هُرَيرَةَ رضي الله عنه، قالَ: قَالَ رَسولُ اللّهِ ﷺ: «مَن ماتَ ولَم يَغزُ، ولَم يُحَدِّثْ بِهِ نَفسَهُ، ماتَ على شُعبَةٍ مِن نِفاقٍ»[1].

والمعنيانِ صحيحانِ، وحملُها على الاستغراقِ أعظمُ أثرًا، إذ فيها إشعارٌ بضرورةِ أنْ يُحدِّثَ المُؤمنُ نفسَه بالأعمالِ الصَّالحاتِ، مُستغرِقًا لجميعِ أنواعِها، سواءٌ أقامَ بها أم لا، كما جاء من حديثِ أَنَسٍ رضي الله عنه: أنَّ النَّبيَّ ﷺ كان في غزاةٍ، فقال: «إنَّ أَقوَامًا بالمَدِينَةِ خَلْفَنَا، ما سَلَكْنَا شِعْبًا ولا واديًا إلَّا وهُم مَعَنا فيه، حَبَسَهُمُ العُذرُ»[2].

دَلَالَةُ جَمْعِ ﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾:

أَعمالُ الخَيرِ في الإسلامِ كَثِيرَةٌ أفرادُها، ومُتَنَوِّعَةٌ مَجالاتُها

جُمِعَتْ ﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ مِن قَولِه تعالى: ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ للإيماءِ إلى الإتيانِ بها بأنواعِها دُون الاكتفاء ببَعضِها؛ إذْ إنَّ أركانَ

(1) صحيح مسلم: كتاب: الإمارة، الحديث رقم: (1910): 3/1517.

(2) البخاري، الجامع الصحيح: كتاب: الجهاد والسّير، الحديث رقم: (2839): 4/26.

الإسلام وأعمالَ الخيرِ مترابطةٌ، آخِذٌ بعضُها بحُجَزِ بعضٍ، كما قال اللهُ تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ﴾ [البقرة: 208].

بَراعةُ الإطنابِ بالاعتِراضِ:

الجَنَّةُ مَعَ عَظيمِ مَنزِلَتِهَا يُوصَلُ إلَيهَا باليَسِيرِ غيرِ العَسِيرِ

قولُ اللهِ تعالى: ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَآ﴾ جملةٌ اعتراضيَّةٌ بينَ قَولِه: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾، وقَولِه: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ أَصۡحَـٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ﴾، ووجهُ الاعتراضِ: أنَّ ذِكرَ الأَعمالِ الصَّالحات لمَّا كان مظنَّةً لتوهُّم أنَّ عملَ جميع الصَّالحاتِ - لكونِهِ جمعًا محلًّى باللَّام - شرطٌ في دخول الجنَّةِ؛ اعتُرِضَ بقَولِهِ تعالى: ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَآ﴾ لِثَلَاثِ نِكَاتٍ:

الأُولى: التَّخفيفُ على العبَادِ، وأنَّ اللهَ تعالى لَم يَأمُرْهُم باستيعابِ الأعمالِ الصَّالحاتِ فِعلًا لها.

وثانيها: التَّرغيبُ في تحصيلِ ما لا يُوصَفُ مِنَ النَّعيمِ العظيمِ الدَّائمِ بما هو في الوُسعِ والطَّاقةِ مِنَ العملِ[1].

وثالثها: التَّنبيهُ على أنَّ الجنَّةَ - مع عِظَمِ محلِّها - يُوصَلُ إليها بالعمَلِ اليسيرِ المُستطاعِ مِن غَيرِ تَحَمُّلِ المَشاقِّ[2].

تَعريفُ المُسنَدِ إليه بالإشارَةِ:

الإيمانُ والعَمَلُ الصَّالِحُ سَبَبانِ لِبُلوغِ المَرَاتِبِ العَالِيَةِ

الإشارَةُ بـ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ﴾ في قَول اللهِ تعالى: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ أَصۡحَـٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ﴾ إلى المَذكورينَ قَبلُ باعتِبارِ أوصافِهم؛ مِنَ الإيمانِ والعملِ الصَّالحِ؛ للإشعارِ بأنَّ تلكَ الصِّفاتِ هي سببُ بُلوغِهم هذه المراتبَ العاليَةَ والجزاءَ الجليلَ.

وفي التَّعبيرِ باسم الإشارَةِ إيماءٌ إلى أنَّهم متميِّزُونَ بصُحبَةِ الجنَّةِ أكملَ تمييزٍ وأَبيَنَهُ، وهذا أبلغُ في مدحِهِم والثَّناءِ عليهم.

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/401.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 14/242.

وزادَ دِلالةَ المَدحِ والثَّناءِ ما في اسمِ الإشارةِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ من مَعنَى البُعدِ المفيدِ بُعدَ منزلتِهم في الخَيرِ، وعلُوَّ رُتبتِهم في الصَّلاحِ[1].

غَرَضُ القَصْرِ في الآيةِ:

التَّعريضُ بالمُشركين وتَيئيسُهم مِن دُخولِ الجَنَّةِ

في قولِ اللهِ سبحانَهُ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ﴾ أسلوبُ قصرٍ، وهو مِن قَصرِ الصِّفَةِ على المَوصوفِ، وطَريقُهُ: تعريفُ جُزأَيِ الإسنادِ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ و﴿أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ﴾، ففيهِ قصرُ صُحبَةِ الجنَّةِ على أولئك المَذكورينَ؛ لأنَّ المقصورَ بتعريفِ طَرَفَي الإسنادِ هو المُعرَّفُ باللَّامِ، سواءٌ أكان مُقدَّمًا أَم مُؤخَّرًا، و﴿أَصۡحَٰبُ﴾ هَهُنا مُضافٌ لِمَا فيه اللَّامُ فهو بمنزلَتِه.

وهذا القصرُ حقيقيٌّ تحقيقيٌّ؛ وذلك أنَّ دخولَ الجنَّةِ مقصورٌ حقيقةً على مَن آمَنَ وعَمِلَ صالحًا، لا يَشرَكُهُم فِيها غيرُهُم، فإنَّ اللهَ تعالى حرَّم الجنَّةَ على الكافِرينَ، ففي جُملَةِ القصرِ تعريضٌ بالمشركين؛ أي: أولئكَ المُؤمِنون هم أصحابُ الجنَّةِ، لا غيرُهم، وَتَيئِيسٌ آخَرُ لِلمُشركينَ مِن دخولِ الجنَّةِ بعد تَيئِيسِهم في قَولِهِ قَبلُ: ﴿وَلَا يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلۡجَمَلُ فِي سَمِّ ٱلۡخِيَاطِۚ﴾[2].

عِلَّةُ فَصْلِ ﴿هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾:

العلاقةُ بينَ الخُلودِ في الجنَّة وصُحبتِها ما بينَ البيانِ والتَّوكيدِ بحسَبِ التَّقديرِ

فُصِلَ قولُ اللهِ تعالى: ﴿هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ عَن قولِهِ سُبحانَهُ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ﴾؛ لأنَّ بينَهما كمالَ الاتِّصالِ؛ فإنَّ الجُملَةَ الثَّانيةَ ﴿هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ نُزِّلت مَنزِلَةَ البَيانِ مِنَ الأُولَى؛ وذَلِكَ لأنَّ وصفَهُم بالصُّحبَةِ للجنَّةِ لا يقتضِي بحسبِ الوَضعِ اللُّغَويِّ الخلودَ والدَّوامَ، وإنْ كانَ العُرفُ الشَّرعيُّ يَقتَضيهِ، فَصُرِّحَ في الجُملَةِ بعدَهُ بأنَّ هذِهِ الصُّحبَةَ تقتضِي الخُلودَ والدَّوامَ.

أو أن تكونَ الثَّانيةُ تأكيدٌ للأُولى، بحملِ الصُّحبةِ على الدَّوامِ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/228، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 7/401.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8ب/130.

الأبديِّ المأخوذِ من عمومِ النُّصوصِ الشَّرعيَّة، ومنَ السِّياقِ نفسِه، وهي كذلِك من صورِ كمالِ الاتِّصالِ.

بَراعةُ الاحتِراسِ في الآيةِ:

تَرَقُّبُ انقِطاعِ اللَّذَّةِ عِندَ المُنعَمِ عليه يُنَغِّصُ عليه تلك اللَّذَّةَ

قَولُ اللّهِ تعالى: ﴿هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ واردٌ على جِهَةِ الاحتِراسِ؛ وذلِكَ لِدَفعِ تَوَهُّمِ انقِطاعِ النَّعيمِ المذكورِ قبلُ؛ وسبَبُ هذا التَّوهُّمِ: ما جَرَتْ بهِ العادَةُ مِن انقطاعِ اللَّذَّاتِ في الدُّنيا، وذلك يُنغِّصُ اللَّذَّةَ عِندَ المُنعَمِ عليه، فبيَّن سُبحانَهُ أنَّ نعيمَ الجنَّة لا يَزُولُ، وأنَّه مُباينٌ لنعيمِ الدُّنيا، وهذا هو تمامُ السَّعادةِ، فإنَّهُم مَعَ هذا النَّعيمِ في مَقامٍ أمينٍ مِنَ المَوتِ والانقِطاعِ، فلا آخِرَ لهُ ولا انقِضاءَ، بل في نَعيمٍ سَرمَدِيٍّ أَبَدِيٍّ على الدّوامِ، واللّهُ المسؤولُ أَن يَحشُرَنَا في زُمرَتِهِم، إنَّه جَوادٌ كَريمٌ، برٌّ رحيمٌ[1].

نُكتَةُ تَقدِيمِ الجَارِّ والمَجرورِ:

مَدحُ أَهلِ الجَنَّةِ والثَّناءُ عليهم بِبَيانِ خُلودِهِم فيها

قُدِّمَ الجارُّ والمَجرورُ ﴿فِيهَا﴾، فلم يَرِد النَّظمُ القُرآنيُّ: (هُم خَالِدُونَ فِيهَا)؛ وذلك لِنُكتَتَينِ:

إحدَاهُمَا: إفادَةُ التَّخصِيصِ؛ فخلُودُهم في الجنَّةِ لا غيرَ، وذلك أَدخَلُ في مَدحِهِم والثَّناءِ عليهم.

وليس مَعنَى التَّخصيصِ هَهُنَا أَنْ لا خُلودَ إلَّا في الجنَّةِ؛ فإنَّ هذا مَعَ كَونِه مُخالِفًا للشَّرعِ - إذْ ثبَتَ الخُلودُ لِلكَفَرَةِ في النَّارِ - لا يُسعِفُهُ نظمُ الآيةِ الكريمةِ.

والأخرى: مراعاةُ توافقِ الفواصلِ[2]؛ فإنَّ الآيةَ قَبلَها خُتِمت بقولِ اللّهِ سُبحانَهُ: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، والآيةَ بعدَها خُتِمت بقولِ اللّهِ ﷻ: ﴿وَنُودُوٓاْ أَن تِلۡكُمُ ٱلۡجَنَّةُ أُورِثۡتُمُوهَا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾، وهذا التَّوافقُ تابعٌ للمعنى، وما أعظمَ هذا النَّظمَ الّذي لَقَحتْ معانيه ألفاظَه! فجاءَ على أبدعِ مثالٍ سَمِعَته أُذنُ بشريٍّ.

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 1/206.

(2) الآلوسّي، روح المعاني: 4/359.

تَوجِيهُ المُتَشابِهِ اللَّفظِيِّ:

دِقَّـــةُ الـبَـيـانِ القُرآنيِّ في اختِيارِ الأَلفاظِ المُناسِبَةِ لِسِياقاتِها

قال اللّهُ سُبحانَهُ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾، وقال في مَوضِعٍ آخَرَ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ [الأحقاف: 14]، ووجهُ التَّغايُرِ بينَهُما: أنَّ آيةَ الأعرافِ سُبِقَت بقوله ﷻ: ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٞ وَمِن فَوۡقِهِمۡ غَوَاشٖۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، فلمَّا خصَّ هؤلاءِ بما هم فيه منَ العذاب؛ ناسبَهُ تخصيصُ المؤمنينَ العامِلينَ الصَّالحاتِ بما هم فيه مِنَ النَّعيم، فقال سُبحانه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾.

بخلاف آية الأحقافِ؛ فإنَّه تقدَّمها قولُه سُبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ١٣﴾ [الأحقاف: 13]، فلمَّا تقدَّم تخصيصُهم بالبُشرَى، وهي ملازِمَةٌ للجنَّة بقوله: ﴿وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُحۡسِنِينَ ١٢﴾ [الأحقاف: 12]؛ ناسبَهُ بيان حالهم فيهَا بقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾.

﴿وَنَزَعۡنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنۡ غِلّٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهۡتَدِيَ لَوۡلَآ أَنۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُۖ لَقَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلۡحَقِّۖ وَنُودُوٓاْ أَن تِلۡكُمُ ٱلۡجَنَّةُ أُورِثۡتُمُوهَا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٤٣﴾ [الأعراف: 43]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

قلوبُ المُكذِّبين مملوءةٌ بالبُغض، وقلوبُ أهلِ الجَنَّة مَنْزوعَةُ الغِلِّ

لَمَّا ذَكَرَ اللهُ ﷻ جَزاءَ أهلِ الإيمانِ في قَولِهِ سُبحَانَهُ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾، وكانَتِ الدَّارُ لا يَطِيبُ المقَامُ فيها إلَّا بحُسنِ الجوارِ؛ قال بَعدَهَا: ﴿وَنَزَعۡنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنۡ غِلّٖ﴾[1]؛ لبيانِ أنَّ الجنَّةَ دارٌ للمتَّقِين السَّالمين من أيِّ حِقْدٍ، والمنزوعين من كلِّ غلٍّ، لِيهْنأ أهلُ الجنَّةِ برؤيةِ بعضِهم بعضًا، وقد حسُن ذكرُ نزعِ الغِلِّ؛ لمناسبتِه لذكرِ تلاعُنِ أهلِ النَّار بعضِهم بعضًا؛ فإذا كان أهلُ النَّار يَتلاعَنُون، فأهلُ الجنّةِ يَتحابُّون برِضْوان الله تعالى.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَنَزَعۡنَا﴾: النُّونُ والزَّايُ والعَينُ تدورُ اشتقَاقاتُهَا على مَعنَى قَلْعِ الشَّيءِ[2]. ومنه: نَزْعُ الشَّيءِ: وهو جذبُهُ مِن مقرِّه، ويكُونُ في الحسِّيَّاتِ، كنَزعِ القَوسِ عَن كَبِدِهِ، ويُحمَلُ على هذا، فيُستعمَلُ في المعنويَّاتِ، ومنه: نَزْعُ العدَاوَةِ أو المحبَّةِ مِنَ القَلبِ[3]، ومِن هذا قولُ الله ﷻ: ﴿وَنَزَعۡنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنۡ غِلّٖ﴾، فإنَّ معناهُ: أذهبنا الغِلَّ وأبطَلْنَاهُ بإعدامِهِ مِنَ الصَّدرِ[4].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/402.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نزع).
(3) الرّاغب، مفردات ألفاظ القرآن الكريم: (نزع)، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (نزع).
(4) الواحديّ، التّفسير البسيط: 9/139.

2) ﴿غِلٍّ﴾: الغَينُ واللَّامُ تدلُّ اشتقاقاتُهَا على تخلُّلِ شيءٍ وثباتِ شيءٍ، ومنه الغُلُول؛ وهو الأخذُ مِنَ الغَنِيمَةِ قبلَ قِسمَتِهَا، كأنَّ الغالَّ قد أَخفَاهُ بين ثِيابِهِ[1].

والغِلُّ: الحقدُ، ويَرِدِ بمعنَى الشَّحناءِ والحسَدِ[2]، كأنَّه يتخلَّلُ القَلبَ فيَعُمَّهُ، والمعنَى المقصودُ لِلغِلِّ في قَولِهِ تعالى: ﴿وَنَزَعۡنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنۡ غِلّٖ﴾، هو: الحِقدُ الكامِنُ في الصَّدرِ[3]، لا مُطلَقُ الحقدِ.

3) ﴿أُورِثۡتُمُوهَا﴾: الواوُ والرَّاءُ والثَّاءُ تدلُّ تصريفَاتُها على معنَى كون الشَّيءِ لقوم، ثُمَّ يصِيرُ إلى آخرينَ[4]، ومنه الميرَاثُ وهو المالُ الّذي يُخلِّفُهُ المَيِّتُ؛ فإنَّه كانَ له، فانتقلَ إلى ورثتِهِ مِن بَعدِهِ.

وكلُّ مَن حصَلَ له شيءٌ من غير تعَبٍ، يُقال فيه: قد ورِثَ كذا، ويُقال لِمَن خُوِّلَ شيئًا مهنِّئًا: أُورِثَ، ومنه قوله تعالى: ﴿وَنُودُوٓاْ أَن تِلۡكُمُ ٱلۡجَنَّةُ أُورِثۡتُمُوهَا﴾[5].

المَعْنى الإجْماليُّ:

استِحْضارُ أسبابِ النَّعيمِ مِنَ النَّعيمِ المقيمِ

بيَّنتِ الآيةُ إذهابَ اللّهِ ما في صُدورِ أَهلِ الإيمانِ مِن حِقدٍ وعَداوةٍ كَانَت مِن بَعضِهِم في الدُّنيَا على بَعضٍ، تَجري مِن تَحتِهِم أنهَارُ الجنَّةِ، وقالَ هَؤُلاءِ لَمَّا رَأَوا ما أَكرَمَهُمُ اللّهُ بِهِ مِن كرَامَتِهِ، وما صَرَفَ عَنهُم مِنَ العذابِ المُهِينِ الّذي ابتُلِيَ بِهِ أَهلُ النَّار بكُفرِهِم بِرَبِّهِم وتَكذِيبِهِم رُسُلَهُ: الحَمدُ للّه الّذي وفَّقَنَا لِلعَمَلِ الّذي أَكسَبَنَا هذا الّذي نَحنُ فيه مِن كَرامَةِ اللّه وفَضلِهِ، وصَرفِ عذابِهِ عنَّا، وما

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (غلّ).
(2) ابن الأنباريّ، الزّاهر في معاني كلمات النّاس: 1/364، ونشوان الحميريّ، شمس العلوم: (غلّ).
(3) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 7/208.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ورث).
(5) الرّاغب، مفردات ألفاظ القرآن: (ورث).

كُنَّا لِنَرشُدَ لِذلِكَ لولا أَن أَرشَدَنا اللّهُ لَهُ ووَفَّقَنا بمنِّهِ، وقالُوا: واللّهِ لَقَد جاءَتنَا في الدُّنيا رُسُلُ ربِّنا بالحَقِّ مِنَ الأخبارِ عَن وَعدِ اللّهِ أهلَ طاعَتِهِ والإيمَانِ بهِ وبِرُسُلِهِ، ووَعِيدِهِ أهلَ مُعَاصِيه والكُفرِ بهِ، ونادَى منادٍ: أنْ يا هَؤُلاءِ! تِلكُم الجَنَّة الّتي كانَت رُسُلِي في الدُّنيا تُخبِرُكُم عنها، أَورَثَكُموها اللّه عَنِ الّذِين كذَّبُوا رُسُلَهُ؛ لِتَصدِيقِكُم إيَّاهم وطَاعَتِكُم ربَّكُم[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

عِلَّةُ وَصْلِ قَولِهِ تعالى: ﴿وَنَزَعۡنَا﴾ بِما قَبلَهُ:

تقديرُ المحذوفِ لبيانِ أنَّ دُخولَ الجنَّةِ ممَّا يُعلمُ لأهلِها

عُطِفَ قولُ اللّهِ تعالى: ﴿وَنَزَعۡنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنۡ غِلّٖ﴾ على قولِهِ قبلُ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾؛ لِمَا بينَهُما مِنَ التَّوسُّطِ بينَ الكمالَين، وذلكَ لاشتراكِهما في الخَبَريَّةِ، ووجودِ الجامِعِ بينَهُما؛ إذ كلٌّ مِنهُما حديثٌ عَن جَزَاءِ أَهلِ الإيمانِ في الآخِرَةِ، أو أنْ تُحمَلَ على أنَّها معطوفةٌ على مُقدَّرٍ محذوفٍ، تقديرُه: (أدخلناهُم الجَنَّةَ)؛ لأنَّ نزعَ الغِلِّ لا يكونُ إلَّا بعدَ إدخالِ الجنَّةِ، والجملةُ المُقدَّرةُ تكونُ خبرًا ثالثًا لاسم الإشارةِ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ﴾ وجملة: ﴿هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ هي الخبرُ الثَّاني، فمعنى الكلامِ حينئذٍ: (أولئكَ أصحابُ الجنَّةِ الخالدونَ فيها أدخلناهم الجنَّةَ، ونزعنَا في صُدُورِهم من غِلٍّ)، ولم يُنصَّ على دخولِ الجنَّةِ لبيانِ أنَّ هذا ممَّا يُعلمُ لأهلِها، بخلافِ أهلِ النَّار فقد نصَّ على دخولِهم النَّارَ؛ لدفعِ توهّماتِهم النَّاشئةِ عن غباوَةٍ وحماقة.

نُكتةُ الاستِعارَةِ التَّصريحيَّة:

جاءَ التَّعبيرُ بالنَّزعِ في قولِهِ تعالى: ﴿وَنَزَعۡنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنۡ غِلّٖ﴾؛ للإيماءِ إلى شدَّة التَّطهيرِ الحاصِلِ لهُم مِن أدرَانِ الغِلِّ،

(1) ابن جرير، جامع البيان: 437 - 442/12.

وذلك أنَّ أصلَ النَّزعِ قَلْعُ الشَّيءِ مِن موضِعِه، واستُعِيرَ هَهُنا لإزالةِ الصِّفاتِ والمعاني، فشُبِّهَ المعنَى الكامنِ في الصَّدرِ بالذَّاتِ المتَّصلةِ بالمكانِ، وشُبِّهَتْ إزالتُهُ بالنَّزعِ[1]، فهي استعارةٌ تصريحيَّةٌ تبعيَّةٌ، ونكتةُ الاستعارةِ بيانُ الاستئصالِ التَّامِّ لما بقيَ من آثارِ الدُّنيا المُنغِّصةِ على أهلِ الجنَّةِ، وهذا من تمامِ الإنعامِ.

الاستئصالُ التَّامُّ لأدرانِ الغِلِّ المُنغِّصةِ على أهلِ الجنَّةِ

دَلَالَةُ تَعرِيفِ المُسنَدِ إليهِ بِضَميرِ العَظَمَةِ ﴿وَنَزَعْنَا﴾:

أُسنِدَ فعلُ النَّزعِ إلى ضَميرِ العظمَةِ الرَّاجعِ إلى اللهِ سُبحانَهُ؛ لأنَّه مقامُ تشريفٍ لأَهلِ الإيمانِ، وما يَصدُرُ مِنَ العَظِيمِ عظيمٌ، وفيهِ إيماءٌ إلى أنَّ نَزْعَ الغِلِّ مِنَ الصُّدورِ أمرٌ جليلٌ لا يقدِرُ عليه إلَّا اللهُ تعالى[2].

تَشريفُ أَهلِ الإيمانِ وتَعظِيمُ قَدْرِهِمْ

نُكتَةُ التَّعبيرِ بصِيغةِ المَاضِي ﴿وَنَزَعْنَا﴾:

نَزعُ الغِلِّ الّذي في الصُّدورِ الواردُ في قولِ اللهِ ﷻ: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾ يكُونُ في الآخِرَةِ، فكان مُقتضَى الظَّاهرِ أن يَرِدَ النَّظمُ القرآنيُّ: (وننزعُ ما في صدورِهِمْ مِنْ غِلٍّ)، إلَّا أنَّه أُوثِرَ الفعلُ الماضي للإيذانِ بتحقُّقِ وقوعِه، فهو نَظيرُ قولِه سُبحَانَهُ: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ [النّحل: 1][3]، فهو استعارةٌ تصريحيَّةٌ بتشبيه ما سيكونُ بما كانَ، وذلك لتأكيدِ تحقُّقِ النَّزعِ، وأنَّه عِدةٌ كريمةٌ مُتحقِّقةٌ من كريمٍ.

تَحقُّقُ مَوعُودِ اللهِ سُبحَانَهُ لأَهلِ طاعَتِهِ

بَلاغةُ الكِنايَةِ في الآيةِ:

قولُ اللهِ سُبحَانَهُ: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾ واردٌ على جِهَةِ الكِنايةِ عَن خُلُقِ أَهلِ الإيمانِ في الآخرةِ، وأنَّهم يَدخُلونَ الجنَّةَ سالمةً صُدورُهُم، طاهِرَةً قلوبُهم، مُتَوادِّين مُتَعاطِفينَ[4].

سَلامَةُ صُدورِ أَهلِ الجَنَّةِ وطَهارَةُ قُلوبِهِم

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 14/242، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/213، 8ب/131.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/402.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/228، والآلوسّي، روح المعاني: 4/360، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8ب/131.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/53.

نُكتةُ التَّعبيرِ بالصُّدُورِ بَدَلَ القُلوبِ:

الغِلُّ سَببُ انقباضِ الصَّدرِ، ونَزْعُه سببُ الانشراحِ

إذا أُريدَ بالصُّدور في قولِ اللّه سُبحانَهُ: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾ القلُوبُ؛ لأنَّها محلُّ هذه الآفاتِ، ففي الآيَةِ مَجازٌ مُرسَلٌ، علاقتُهُ المحليَّة؛ إذ أُطلِقَ المحلُّ وهو الصَّدرُ، وأُرِيدَ الحالُّ فيه وهو القَلبُ، ويجوزُ أَن يَكونَ مَجازًا مُرسَلًا بعلاقةِ المجاورَةِ.

والنُّكتَةُ في المَجازِ هَهُنا: بَيانُ المبالغَةِ في تطهيرِ دواخِلِهِم، حتَّى إنَّ التَّطهيرَ تجاوزَ محلَّهُ إلى ما جاورَهُ.

وأمَّا إذا أُريدَ بالصُّدُورِ ما يعتريها منَ الانشراحِ والانقِباضِ، فإنَّها تكونُ قد أَتَتْ على بابِها، واستُعمِلَت في حقيقةِ معناها؛ فإنَّ وجودَ الغِلِّ سببُ الانقباضِ، ونزعَه سببُ الانشراحِ، وهذا هو الأوفقُ بعمودِ البلاغةِ، وهو ما يقتضيه السِّياقُ.

دَلالَةُ التَّعبيرِ بوصْفِ الأَنهارِ بالجَرَيانِ:

تصويرُ جَمالِ الجَنَّةِ بجمالِ أنهارِها بالمجازِ

وَصفُ الأَنهارِ بِجَري مِياهِها يُراد به المدحُ؛ وذلك لأنَّ أَحسَنَ المياهِ ما كانَ جارِيًا؛ لأنَّ ذلك يَقتَضِي كونَه جَدِيدًا كلَّما اغتُرِفَ أوِ اغتُسِلَ منه.

وَأصلُ الجَري: شِدَّةُ سُرعةِ المَشي، وإطلاقُهُ على سَيلان الماء سَيلًا مُتكرِّرًا مُتَعَاقبًا: مَجازٌ[1]، وفيه مَسلَكانِ:

أحدهما: أنَّه مجازٌ بالاستِعارَةِ؛ ووجهُهُ: أنَّه شُبِّهَ سيَلان الماءِ سَيلًا مُتَكرِّرًا مُتعاقِبًا لشِدَّة سُرعة المشي؛ لجامِعِ سُرعة الانتقال والحركةِ في كلٍّ مِنهُما، فيكونُ مِنَ الاستعارَةِ التَّصريحيَّةِ التَّبعيَّةِ.

والآخَرُ: أنَّه مجازٌ مُرسَلٌ بعلاقةِ الإطلاق والتَّقييد، فأصلُ الجري: شدَّةُ سُرعة المشي، ثُمَّ أُطلِقَ عَن قَيْدِ المشي، واستُعمِلَ في شِدَّة السُّرعةِ مُطلَقًا.

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/354.

وهو على كلا الوَجهَينِ أدخَلُ في مَدحِ الماءِ الجاري؛ لاقتِضائِهِ المُبَالغةَ في جِدَّتِهِ بشدَّةِ جَريِهِ.

بَلاغةُ المَجازِ العَقليِّ في الآيةِ:

وَفرَةُ مِياهِ أَنهارِ الجَنَّةِ وكَثرَتُها وقُوَّةُ جَرَيانِها

إسنادُ الجريِ للأَنهارِ في قولِهِ تعالى: ﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ﴾ مجازٌ عقليٌّ؛ إذِ النَّهرُ في الأَصلِ هو الشَّقُّ في الأرضِ، وهو لا يَجري، وإنَّما يجري الماءُ الّذي فيه[1]، فعلاقَةُ المجازِ مكانيَّةٌ، وفائدةُ المجازِ هَهنا: التَّنبيهُ على وَفرَةِ المياهِ الجاريةِ وكَثرَتِها، حتَّى كأَنَّ نفسَ المكانِ يَجري.

معنَى اللَّامِ في كلِمةِ ﴿ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ﴾:

الأنهارُ في الجنَّةِ لا تُحيطُ بها الأوهامُ، ولا تبلُغُها الأَفهامُ

اللَّامُ في الأَنهَارِ من قولِ اللّٰه سُبحانَهُ: ﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ﴾ لِتَعريفِ الجِنسِ، فيكون في قوَّةِ النَّكرةِ.

ويجوزُ أن تكونَ اللَّامُ للعَهدِ التَّقديريِّ؛ وذلك أنَّه لَمَّا ذُكرتِ الجنَّةُ في الآيَةِ قبلُ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾؛ استَحضَرَ السَّامعُ لَوازِمَها ومقارناتِها؛ فساغَ لِلمُتَكلِّم أن يُشيرَ إلى ذلك المعهودِ، فَجِيء باللَّام.

ويجوزُ أَن تكون لِلعَهدِ الخارجيِّ، والإشارةُ فيه إلى قَولِ اللّٰهِ تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلۡمُتَّقُونَۖ فِيهَآ أَنۡهَٰرٞ مِّن مَّآءٍ غَيۡرِ ءَاسِنٖ وَأَنۡهَٰرٞ مِّن لَّبَنٖ لَّمۡ يَتَغَيَّرۡ طَعۡمُهُۥ وَأَنۡهَٰرٞ مِّنۡ خَمۡرٖ لَّذَّةٖ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنۡهَٰرٞ مِّنۡ عَسَلٖ مُّصَفّٗىۖ﴾ [محمّد: 15].

وجميعُ ما يَرِدُ من معانٍ في تعريفِ الأنهارِ يبقى محمولًا على التَّقريبِ الذِّهنيِّ، فإنَّ الجنَّةَ غَيبٌ، بقصدِ التَّرغيبِ وتحريكِ الهِمَمِ؛ لنيلِ رضوانِ اللّٰه والفوز بجنَّته.

بَراعَةُ الكِنايَةِ في الآيةِ:

رِفعَةُ أَهلِ الجَنَّةِ مَكانَةً ومَكانًا

في ذِكرِ جَريِ الأنهَارِ مِن تحتِ أهلِ الجنَّةِ في قَولِهِ تعالى:

(1) الجرجانيّ، درج الدّرر في تفسير الآي والسّور: 1/124، والهرريّ، تفسير حدائق الرَّوح والرَّيْحان: 18/290.

﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ﴾ كنايَةٌ إلى عُلُوِّهِم[1]، وعُلُوُّهم مكانًا مُشعِرٌ بعلُوِّهم قَدْرًا.

معنَى اللَّامِ في كلِمةِ ﴿ٱلۡحَمۡدُ﴾:

ما مِنْ خَيرٍ وَنِعمَةٍ إِلَّا كانَ اللهُ ﷻ مُولِيَها

اللَّامُ في ﴿ٱلۡحَمۡدُ﴾ للاستِغراقِ؛ أَي: أنَّ جميعَ المحامِدِ للّه تعالى، وهو القولُ الصَّحيحُ، وذلك أنَّ الحمدَ حقيقةً للّهِ وحدَهُ؛ إذ ما مِن خيرٍ ونعمةٍ إلَّا كان اللّهُ سُبحانَهُ مُولِيَها مباشرةً أو بواسطةٍ، وفي هذا اليومِ يستحضِرُ أهلُ الجنَّةِ الحمدَ بجميعِ أفرادِه تَكرارًا وتذكارًا.

نُكتَةُ التَّعبيرِ بالحَمْدِ دُونَ الشُّكْرِ والمَدحِ:

الحَمدُ مُتَضَمِّنٌ الحُبَّ والتَّعظِيمَ

اختِيرَ لفظُ الحَمد دونَ الشُّكرِ؛ لكون الحَمدِ يعُمُّ الفضائلَ والفواضِلَ، بخلاف الشُّكرِ؛ فإنَّه خاصٌّ بالفواضل، فأُوثِرَ اللَّفظُ الأَعَمُّ.

وجاءَ التَّعبيرُ بالحَمدِ دون المَدحِ، مع أنَّ المدحَ أَعَمُّ؛ لكونِهِ قَد يَعرَى عَنِ المحبَّة والتَّعظيم، والأبلَغُ في الثَّنَاءِ اختيارُ اللَّفظِ الَّذي يكون نصًّا في الحبِّ والتَّعظيم؛ وذلك هو لفظُ الحَمدِ.

نِكاتُ إيثارِ الجُملَةِ الاسمِيَّةِ على الفعليَّةِ:

استِحقَاقُ اللهِ تعالى الحَمدَ قَبلَ أَن يَحمَدَهُ الخَلْقُ

جملةُ ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾ جُملةٌ اسميةٌ، وأُوثِرَت على الجُملة الفِعليَّة (نَحمَدُ اللّه)؛ لنِكَاتٍ:

أوَّلُهَا: أَنَّ جملةَ (نَحمَدُ اللّه) يُوهِمُ أَنَّ قائليهَا قادرُونَ على تَوفِيَةِ الحَمدِ حقَّهُ، بخلافِ (الحَمدُ للّه)؛ فإنّه يُفيدُ استحقاقَ اللّهِ تعالى الحَمدَ قَبلَ أن يحَمدَهُ الخَلقُ.

ثانيها: أنَّ جملةَ ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾ دالَّةٌ على استِحقاقِ اللّهِ سُبحانَهُ الحَمدَ، بخلاف جملةِ (نَحمَدُ اللّه)؛ فلا يدُلُّ على ذلك، واللَّفظُ الدَّالُّ على استحقاق اللّه تعالى الحَمدَ أَولَى مِنَ اللَّفظِ الدّالِّ على حَمدِ الأفرادِ لَهُ.

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/402.

ثالثُها: أنَّ جملةَ (نَحمَدُ اللهَ) إخبارٌ مِنَ العبادِ بأنّهم حامِدُونَ، وحقيقةُ الحمد ملازِمٌ لِلتَّعظيم، فالمُتَلفِّظ بـ(نَحمد الله) مُدَّعٍ أنَّ قلبَهُ مُعَظِّمٌ لله تعالى، فإنْ كان غافلًا عِندَ التَّلفُّظِ؛ كان في كلامِه نَوعُ كَذِبٍ، بخلاف: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾ فهو صِدقٌ بكُلِّ حالٍ.

رابعُها: أنَّ في جملةِ ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾ مِنَ الاستِغراق لأنواع المَحامِدِ ما لَيسَ في (نَحمد الله).

خامسُها: أنَّ جملةَ ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾ جملةٌ اسميَّةٌ، وهي دالَّةٌ على الثُّبوت والاستمرار بالقرائن، بخلاف جملة (نَحمد الله)؛ فإنَّها جملةٌ فعليَّةٌ تَدُلُّ على التَّجدُّدِ والحدوثِ، والثُّبوتُ والاستمرارُ أنسَبُ في مقام الثَّناءِ.

معنَى اللَّامِ في ﴿لِلَّهِ﴾:

اللَّامُ في ﴿لِلَّهِ﴾ مِنَ ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾ للاستِحقاق؛ وذلك لوقوعِهَا بينَ مَعنًى - وهو الحَمدُ - وذاتٍ - وهو اللهُ سُبحانه -، وذلك يقتضِي كونَهَا للاستِحقاقِ[1].

استِحقاقُ الحمدِ لله وحدَه

نُكتَةُ اختِيارِ الاسمِ الأَحسَنِ:

اختِير الاسمُ الأَحسَنُ (اللهُ) مع الحَمدِ دون غيره مِنَ الأسماء؛ لكونِهِ بمفردِهِ دَالًّا على صِفاتِ الجَلالِ والجمالِ، ولِدلالة ذلك على استِحقاقِه الحمدَ لذاتِه؛ بخلاف ما لَو عُلِّقَ الحَمدُ على غَيرِه مِنَ الأسماء؛ فإنَّهُ قَد يُتوهَّم اختصاصُ الحَمدِ بصفةٍ دُونَ أُخرَى؛ إذ إنَّ تَعليقَ حُكمٍ بلفظٍ مُشتَقٍّ مُشعِرٌ بعِلِّيَّةِ ما منه الاشتقاقُ[2].

استِحقاقُ اللهِ تعالى الحَمدَ استِحقاقٌ ذَاتِيٌّ

سِرُّ الوَصْفِ بالاسمِ المَوصولِ:

وُصِفَ الاسمُ الأحسَنُ (اللهُ) بالاسم الموصولِ في قولِ اللهِ ﷻ: ﴿وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي هَدَىٰنَا لِهَٰذَا﴾، لإرادَةِ المَدحِ بما تضَمَّنَتهُ

الهِدايَةُ سَبَبُ دُخولِ الجَنَّةِ

(1) ابن هشام، مغني اللَّبيب، ص: 275.
(2) الهرريّ، حدائق الرَّوح والرّيحان: 1/226.

الصِّلَةُ، وهو هدايةُ اللّهِ سُبحانَهُ؛ لِكَونِهَا سببًا لِما وصلَ إليهِ أهلُ الإيمانِ من نعيمِ الجنَّةِ.

بَلاغةُ المَجازِ المُرسَلِ:

هِدايَةُ اللهِ تعالى شامِلةٌ للتَّوفيقِ والإرشادِ

الهِدايَةُ في قَولِ اللّهِ تعالى: ﴿وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي هَدَىٰنَا لِهَٰذَا﴾ شاملةٌ لهدايةِ الدّلالةِ والإرشادِ، وهدايةِ التَّوفيقِ والإلهامِ، وإطلاقُ الهدايَةِ على ما وصلُوا إليهِ مِنَ النَّعيمِ الأُخرَوِيِّ مجازٌ مُرسَلٌ[1]، علاقتُهُ السَّببيَّةِ؛ فإنَّ هدايةَ اللّهِ تعالى لَهُم سببٌ فيما وَصَلوا إليهِ مِن هذا النَّعيمِ، استحضارًا لِفضلِ اللّهِ تعالى عليهم في الماضِي والحاضِرِ.

تَوجِيهُ القراءاتِ القُرآنيَّةِ:

إثباتُ الواوِ بمعنى الحالِ، وحذفُها لِكمالِ الاتِّصالِ

قرأَ جمهورُ القرَّاءِ: ﴿وَمَا كُنَّا لِنَهۡتَدِيَ لَوۡلَآ أَنۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُۖ﴾ بالواوِ، وقَرَأَ ابنُ عامرٍ بِحَذفِها، وهو كذلك في مُصحَفِ أهلِ الشَّامِ[2]، فإثباتُ الواوِ على أنَّها واوُ الحالِ، وأمَّا حذفُهَا فعلَى أنَّ عِلَّةَ الفصلِ وقوعُ الجملةِ بيانًا لما قَبلَها[3]، فبينَ الجُملَتَينِ كَمالُ الاتِّصالِ.

نُكتَةُ إيجازِ الحَذْفِ:

ظُهورُ الحقائقِ دَليلٌ على ظُهورِ الرَّقائقِ

حُذِفَ مُتعلَّقُ الهدايةِ في ﴿لِنَهۡتَدِيَ﴾ و﴿هَدَىٰنَا﴾، فلم يُذكَرْ أيُّ شيءٍ هُدُوا إليه؛ لظهُورِ المَعنَى مِن قَولِهِ تعالى عَنهُم: ﴿وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي هَدَىٰنَا لِهَٰذَا﴾، فالمعنَى: وما كنَّا لنهتدِيَ لهذا الجزاءِ في دُخولِ الجنَّةِ لَولا أَن هَدانا اللّهُ لَهُ.

ويجوزُ أن يَكُونَ حذفُهُ إشعارًا بالعمومِ؛ لأنَّ حَذفَ المُتعلَّقِ مُؤذِنٌ بذَلِكَ، والمَعنَى: وما كنَّا لنهتدِيَ لأيِّ خيرٍ حصَّلناهُ في الدُّنيا أو خيرٍ وجدنَاهُ في الآخرةِ لَولا أَن هَدانَا اللّهُ تعالى له[4].

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/403.

(2) ابن الجزريّ، النّشر في القراءات العشر: 2/269.

(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/403، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/229.

(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/229.

دَلالَةُ حَذْفِ الجوابِ:

تعليقُ الهدايةِ بالله لأنَّه الموفِّقُ وحدَه

﴿لَوْلَآ﴾ مِن قَولِ اللّهِ تعالى: ﴿لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ حرفٌ دالٌّ على التَّعليقِ، فهو في التَّعليق كأدواتِ الشَّرطِ، وجوابُهَا محذوفٌ، دلَّ عليه قولُهُ قبلُ: ﴿وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ﴾، والتَّقدير: لولا أَن هَدانَا اللّهُ ما كُنَّا لِنَهتَدِيَ، أو: لَولا أَن هَدانَا اللّهُ لَضَلَلْنَا[1].

بَلاغَةُ المَجازِ المُرَكَّبِ:

إظهارُ أَهلِ الجَنَّةِ سُرُورَهُم بِما نَالُوهُ مِنَ النَّعيمِ العَظيمِ

مَقالَةُ أَهلِ الجَنَّة الّتي ذَكَرَها اللّهُ سُبحانَهُ عَنهُم بِقَولِهِ ﷻ: ﴿وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ جملةٌ خبريَّةٌ لا يُرادُ بها فائدَةُ الخَبَرِ ولا لازِمُها، وإنَّما الخبرُ هَهُنا جَارٍ على طَريقَةِ المجازِ المُرسَلِ المُرَكَّبِ، فهو دالٌّ على إظهارِ السُّرورِ بما نالُوه مِنَ النَّعيم، والتَّلذُّذِ بالتَّحدُّثِ به، ولا يُقصَدُ به التَّقرُّب والتّعبُّد؛ لكَونِ الآخرةِ لَيسَت مَحَلًّا لذلك، ونظيرُ هذا مِنَ الأَحوالِ: مَن يُرزَقُ خيرًا في الدُّنيا؛ فإنَّه يتكلَّمُ بنحوِ هذا الكَلامِ، ولا يتمالَكُ أن لا يقولَهُ، بقصدِ إظهار الفرحِ لا لإرادَةِ القُربَةِ[2].

نُكتَةُ التَّأكِيدِ بلامِ القسَمِ و(قد):

أهلُ الجنَّةِ يُثنون على الرُّسُلِ لِصدقِ ما جاؤوا به

أُكِّدَت الجملَةُ في قولِ اللّهِ سُبحانَهُ: ﴿لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ﴾ بلامِ القسَمِ وقَد، معَ أنَّهم ليسُوا مُنكِرينَ لمجيءِ الرُّسُلِ؛ لأحد وَجهَين[3]:

أحدُهَما: أن يكُونَ ذلك كنايةً عن إعجابِهم بمطابقَةِ ما وعَدَتهُم بهِ رسُلُ اللّهِ تعالَى مِنَ النَّعيم.

والآخَرُ: أنَّ مرادَهُم الثَّناءُ على الرُّسُلِ وصِدقِهم؛ ليكُونَ ذلك مقرونًا بحَمدِ اللّهِ سُبحانَهُ والثَّناءِ عليه، فجاؤُوا بالخَبَرِ في صورةِ الشَّهادَةِ المؤكَّدَةِ الخاليَةِ مِنَ التَّردُّدِ.

---

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/54.

(2) الآلوسّي، روح المعاني: 4/360.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8ب/133.

دَلالَةُ الإضافَةِ في ﴿رَبِّنَا﴾:

إرسَالُ الرُّسُلِ مِن مُقتَضَياتِ الرُّبُوبِيَّةِ

أُضِيفَتِ الرُّسلُ إلى الاسم الأحسَن (الرَّبِّ) في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ﴾ تعظيمًا للمُضافِ، وهُمُ الرُّسُلُ، وإشعَارًا بأنَّ إرسالَهُم إلى الخَلقِ هو مِن مُقتضياتِ الرُّبوبيَّةِ الدَّالَّةِ على الإحسانِ والإنعامِ إلى الخَلقِ.

نُكتَةُ التَّعبيرِ بالرُّبُوبِيَّةِ:

الإشعارُ بإحسانِ الرَّبِّ إلى خَلْقِهِ

في التَّعبير باسمِ اللّهِ تعالى (الرَّبِّ) في قَولِهِ تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ﴾ إشعارٌ بإحسانِه تعالى إليهم بإرسالِ الرُّسُلِ إليهم؛ لأنَّ اسمَ الرَّبِّ دالٌّ على تربيَتِهِ خلقَهُ بالنِّعَمِ وإحسانِهِ إليهم[1].

دَلالَةُ الباءِ في ﴿بِٱلْحَقِّ﴾:

الباءُ بين التَّعْدِيةِ والملابَسةِ

البَاءُ في ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ مِن قولِ اللّه تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ﴾ للتَّعديةِ، وتكُون مُتعلِّقةً بالفعلِ ﴿جَآءَتْ﴾، ويجُوزُ أن تَكُونَ للمُلابَسَةِ، وبناءً عليه فهيَ مُتعلِّقةٌ بمقدَّرٍ هو حالٌ مِن ﴿رُسُلُ﴾، والمعنى: واللّهِ لَقَد جاءَت رُسُلُ ربِّنَا، وهُم حالَ مَجيئِهم قَد جَاؤُوا بالحقِّ[2].

سِرُّ بِنَاءِ الفِعْلِ ﴿وَنُودُوٓاْ﴾ للمَفعولِ:

إدخَالُ الفَرَحِ والسُّرُورِ على أَهلِ الجنَّةِ

لَمَّا كان المقصودُ إدخالَ الفرَحِ والسُّرورِ على أَهلِ الجنَّةِ، وكان هذا مُتحقِّقًا بمُطلَقِ الإخبارِ عَنِ الإيراثِ لا كَونه صادرًا مِن معيَّنٍ؛ بُنِيَ الفعل ﴿وَنُودُوٓاْ﴾ للمفعولِ[3]، ولبيانِ أنَّ الالتفاتَ كانَ للنِّداءِ، وما في مضمونِه من معنًى.

والنِّداءُ في قَولِ اللّهِ تعالى: ﴿وَنُودُوٓاْ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، يحتَمِلُ وَجهَينِ[4]:

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/403.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/229.

(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/403.

(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 14/244، وأبو حيّان، البحر المحيط: 5/54، والآلوسّي، روح المعاني: 4/361.

أَحَدُهُما: أن يَكونَ صادِرًا مِنَ اللّه ﷻ، وهو أدخَلُ في سُرورِ قلوبِهِم، وأبيَنُ في رِفعَةِ قَدرِهم.

والآخرُ: أَن يَكُونَ النِّداءُ صادرًا مِنَ الملائكَةِ.

واختارَ الأَوَّلَ الرَّازيُّ وأبو حيَّان، بالنَّظر إلى المعنَى، واختارَ الثَّانيَ الآلوسيُّ بالنَّظَرِ إلى الآثَارِ.

ولا مانِعَ مِنَ الجمعِ بَينَ القولَين، بأَن يَكونَ نداؤُهم مُتكرِّرًا؛ مبالغةً في إظهارِ شرفِهِم، وزيادةً في تَذكِيرِهِم بِعَظيمِ فَضلِ اللّهِ تعالى عليهم.

معنَى ﴿أَن﴾:

تَفسِيرُ النِّدَاءِ وبَيانُ شَأنِهِ

﴿أَن﴾ مِن قَولِ اللّهِ سُبحَانَهُ: ﴿وَنُودُوٓاْ أَن تِلۡكُمُ ٱلۡجَنَّةُ أُورِثۡتُمُوهَا﴾ يَجوزُ أن تَكونَ تَفسِيريَّةً؛ وذلِكَ لِوُرُودِها بعدَ فِعلٍ اشتمَلَ على مَعنَى القَولِ دُون حروفِهِ وهو ﴿وَنُودُوٓاْ﴾، ويَجوز أن تَكونَ ﴿أَن﴾ مُخفَّفةً مِنَ الثَّقيلَةِ، ويكُونَ اسمُها ضميرُ الشَّأنِ محذوفًا، والتَّقديرُ: أنَّه - أي: الشَّأنُ والحالُ - تِلكُمُ الجنَّةُ أُورِثتُموها.

دَلالةُ اسمِ الإشارَةِ ﴿تِلۡكُمُ﴾:

تَعظِيمُ المِنَّةِ بالجَنَّةِ، وتَعجِيلُ البِشارَةِ لأَهلِ الإيمانِ بها

اسمُ الإشارةِ ﴿تِلۡكُمُ﴾ في قَولِهِ تعالى: ﴿وَنُودُوٓاْ أَن تِلۡكُمُ ٱلۡجَنَّةُ﴾ دالٌّ على البُعدِ، وفي ذلك ثلاثةُ مسالِكَ[1]:

أَحَدُها: أن يكونَ ذلك إشعارًا بِرِفعَةِ مَنزِلَتِهَا وبُعدِ مَرتَبتِها، وتَعظِيمِ المنَّة بها.

ثانِيها: أنَّ ذلكَ لِكَونِهم قَد نُودُوا عِندَ رُؤيَتِهم إيَّاها مِن مَكانٍ بعيدٍ؛ تَعجِيلًا لِلبِشارَةِ لَهُم.

ثالثُها: أنَّ في ذلِك إيماءً إلى أنَّها تِلكَ الجنَّةُ الّتي قَد وُعِدُوهَا في الدُّنيا.

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 14/244، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 7/403، وابن الجوزيّ، زاد المسير: 2/121، والآلوسيّ، روح المعاني: 4/361، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8ب/134.

معنَى اللَّامِ في لَفْظِ ﴿ٱلْجَنَّةُ﴾:

صِدْقُ اللهِ تعالى وَعـدَهُ لِعِبادِهِ، وَمَنْ أَصدَقُ مِنَ اللهِ حَدِيثًا

اللَّامُ في ﴿ٱلْجَنَّةُ﴾ مِن قَولِهِ تعالى: ﴿وَنُودُوٓاْ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ﴾ يجوزُ أن تكون للعَهدِ العِلمِيِّ، إذا كان قولُهُ سبحانَهُ: ﴿وَنُودُوٓاْ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ﴾ إشعارًا بأنَّها الجنَّةُ الّتي قَد وُعِدُوها في الدُّنيا، والمعنَى: الجنَّةُ الّتي وُعِدتُم بها هذه هيَ أمامَكُم؛ قد صدَقَكم اللهُ وعدَهُ بها.

ويَجوزُ أن تَكونَ اللَّامُ للعَهدِ الحضُوريِّ؛ أي: هذه الجنَّةُ الحاضرَةُ أمامَكُم تعاينُونَها.

بَلاغةُ القَصْرِ في الآيةِ:

جَـلالُ أَوْصَـافِ الجَنَّةِ وكَمالُ نَعِيمِها

قولُ اللهِ تعالى: ﴿تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ﴾ يجُوزُ أن يكونَ مبتدأً وخبرًا، ويحتَمِلُ أن يَكُونَ ﴿تِلْكُمُ﴾ مبتدَأً و﴿ٱلْجَنَّةُ﴾ بدلًا، والخَبَرُ هو قولُه بعدُ: ﴿أُورِثْتُمُوهَا﴾[1].

وعلى الوَجهِ الأَوَّلِ يَكونُ في قَولِهِ: ﴿تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ﴾ أُسلوبُ قَصرٍ بتَعريفِ جُزأَيِ الجُملَةِ، فَقُصِرَتِ الجنَّةُ على المُشارِ إليه؛ لأنَّ المَقصورَ بتَعريفِ طرفَيِ الإسنادِ هو المُعرَّفُ باللَّامِ، سواءٌ تقدَّمَ أَو تأخَّرَ، وهذا القصرُ حقيقِيٌّ ادِّعائيٌّ، والقصدُ منه المُبالَغَةُ في استِحقاقِ المُشارِ إليهِ اسمَ الجنَّةِ، حتَّى كأنَّ ما عداهَا مِمَّا يُطلَقُ عليه اسمُ الجنَّةِ ليسَ جنَّةً على جهةِ الحقيقَةِ.

دَلالَةُ التَّعبيرِ بالإِرْثِ:

العَمَلُ الصَّالِحُ سَـبَـبٌ لِنَعيمِ الجَنَّةِ بِفَضْلٍ مِنَ اللهِ تعالى ومَنِّهِ

أَصلُ الإرثِ: مَصيرُ مالِ الميِّتِ إلى أقرَبِ النَّاسِ إليهِ بسَبَبٍ أو نسَبٍ، ويُطلَقُ مجازًا على مصيرِ شيءٍ إلى أَحَدٍ من غيرِ عِوَضٍ ولا غصْبٍ؛ تشبيهًا له بإرثِ الميِّتِ، وهو المعنى المرادُ في قولِهِ تعالى: ﴿وَنُودُوٓاْ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا﴾، ففي الآيةِ مَجازٌ بالاستِعارةِ،

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/229.

والنُّكتَةُ فيها: الإيماءُ إلى أنَّهم أُعطُوا الجنَّةَ عطيَّةً هنيَّةً لا تعبَ فِيها ولا مُنازَعَةَ[1]، وفيه إشارَةٌ إلى أنَّ اللّه سُبحانَهُ هو الّذي جَعَلَ ذلِكَ النَّعيمَ عطاءً لِلعَمَلِ، فليسَ العمَلُ وحدَهُ مُنتِجًا العطَاءَ، وإنَّما العمَلُ سَبَبٌ لجعلِ النَّعيمِ مِيرَاثًا لهُ، والفضلُ في جميعِ الأحوالِ للّه سُبحانَهُ[2].

معنَى الباءِ في ﴿بِمَا﴾:

الباءُ للسَّببيَّةِ لا للعِوَضِ

الباءُ في قَولِهِ تعالى: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ سببيَّةٌ[3]؛ لأنَّ اللّه سُبحانَهُ جعلَ العمَلَ سببًا لِدُخولِ الجنَّةِ، ولَيسَتِ الباءُ لِلعِوَضِ؛ لأنَّ ثوابَ اللّه تعالى أعظَمُ مِن أن يَكونَ شيءٌ مِن أَعمالِ العِبادِ عِوَضًا عنه، ويدلُّ لذلك صَراحةً قولُ النَّبيِّ ﷺ: «لَا يَدخُلُ أَحَدٌ مِنكُمُ الجَنَّةَ بِعَمَلِهِ»، قالوا: ولا أَنتَ يا رَسولَ اللّهِ؟ قالَ: «ولا أَنَا، إِلَّا أَن يَتَغَمَّدَنِيَ اللّهُ منه بِرَحمَةٍ وفَضلٍ»[4].

نُكتَةُ التَّعبيرِ بِفِعْلِ الكَوْنِ مَعَ المُضارِعِ ﴿كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾:

دَوامُ أَهلِ الإيمانِ على العَمَلِ الصَّالِحِ حتَّى صارَ طَبْعًا لَهُم

جاءَ التَّعبيرُ بالفعلِ المُضارِعِ ﴿تَعْمَلُونَ﴾ مقرونًا بفعل الكَونِ في قَولِهِ تعالى: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ للإيماءِ إلى دَوامِ عَمَلِهِم الصَّالِحِ واستمرَارِهم عليه.

وانضَمَّ إلى دِلالَةِ ﴿كُنتُمْ﴾ على الدَّوام والاستمرار: الإتيانُ بالفعلِ ﴿تَعْمَلُونَ﴾ بصِيغَةِ المُضارِعِ؛ فأفادَ مَجموعُ ذلك: أنَّهم مُداوِمونَ على العمَلِ الصَّالِحِ، مُستَمِرُّونَ فيه، وأنَّ ذلكَ أمرٌ مُتجَدِّدٌ فِيهِم، حتَّى صارَ طَبعًا وجِبِلَّةً لَهُم.

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/403، والآلوسّي، روح المعاني: 4/361، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8ب/134.

(2) محمّد أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 6/2844.

(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/403.

(4) رواه أحمد في مسنده، الحديث رقم: (7479)، والبخاريّ، الجامع الصّحيح، الحديث رقم: (6463)، ومسلم، صحيح مسلم، الحديث رقم: (2816)، واللَّفظُ لأحمدَ.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الفُؤَادُ والصَّدرُ:

الفؤادُ للمعاني اللّطيفةِ، والقلْبُ للنّعوتِ الحصيفةِ، والصّدْرُ للأفعالِ المُنيفةِ

تَرِدُ هذهِ الأَلفاظُ في القرآنِ الكَريمِ لِلدّلالَةِ على مَعانٍ، مِنها: الدّلالةُ على مَوَاطنِ كَسبِ الخَيرِ والشَّرِّ، والشّعور والتَّعقّل، والتّأثُّرِ بالعقائدِ والأفكار.

فالفُؤادُ: ألطفُ ما في الجسَدِ على الإطلاقِ، ولذا يُعبَّرُ بهِ عَن جميعِ البدَنِ؛ لكونِه أشرفَ ما فِيهِ، كما قال تعالى: ﴿فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ﴾ [إبراهيم: 37]، وهو أشدُّ تألُّمًا بأدنى أذًى يلحقُهُ.

أمَّا القلبُ فليسَ مَدارُ الحديثِ عنه في القُرآنِ الكَريمِ مِن حيثُ رِقَّتُهُ وسُرعةُ تأثُّرِه بما يطرَأُ عليه، بل يَرِدُ وصفُهُ بالقسَاوةِ وضدِّهَا، كما قال تعالى: ﴿فَوَيۡلٞ لِّلۡقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ﴾ [الزّمر: 22]، وقال سُبحانه: ﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ﴾ [الزّمر: 23].

فالقَلبُ مَوطِنُ القُوَّةِ والجَلَدِ، ولذا يُعَبَّرُ به في المواطِنِ الدَّالَّةِ على القوَّةِ والتَّعقُّلِ.

أمَّا الصَّدرُ فيُستعمَلُ في مَواطِنِ الانقباضِ والانبساطِ، فالصَّدرُ قَد يتأثَّر، فينشرِحُ للمُؤثِّر أو يضيقُ، ولكنَّه لا يصلُ إلى فَرطِ تأثُّرِ الفؤادِ مِن حيثُ فراغُهُ وخلاؤُهُ، وضيقُ الصَّدرِ حاصِلٌ مِن حيثُ كونُهُ مَكمَنَ القُوَى النَّفسيَّةِ، مِنَ الشَّهوَةِ والهَوى والغضبِ، فيضيقُ الصَّدرُ باتِّباعِهَا على وَجهِ الاسترسالِ، وينشَرِحُ بِمُخالفتِها إيثارًا لِلحَقِّ[1].

(1) محمّد ياس خضر الدّوري، دقائق الفروق اللّغويّة في البيان القرآنّي، ص: 106 - 112.

﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدۡ وَجَدۡنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّٗا فَهَلۡ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمۡ حَقّٗاۖ قَالُواْ نَعَمۡۚ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنُۢ بَيۡنَهُمۡ أَن لَّعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ٤٤﴾ [الأعراف: 44]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

اعْتِراف أهلِ الجنّةِ بالنّعيمِ المُستحَقِّ، وإقْرارهم مع أهلِ النّارِ بأنّ وعْدَ الله حقٌّ

لمّا ذكرَ اللّهُ تعالى في الآيات السّابقة الجزاءَ المُعدَّ للكافرين والثَّوابَ المُعدَّ للمؤمنين؛ جاءت هذه الآيةُ لتذكرَ طرفًا ممّا يكونُ بينهم من حواراتٍ ومناظراتٍ بعد استقرار كلِّ فريقٍ منهم في داره.

وممّا يُذكر في المناسبة ما ذكرَ اللّهُ تعالى عن استقرارِ أهلِ الجنَّةِ في الجنَّةِ، وما حصَّلوه فيها مِنَ النَّعيم الدّائم في قولِه سُبحانَهُ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٤٢ وَنَزَعۡنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنۡ غِلّٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ﴾ [الأعراف: 42 - 43]؛ أخبرَ ﷻ في هذه الآية أنَّهم أقبَلوا على أهلِ النّارِ موبِّخينَ لَهُم، شامِتين بهم في إحلالِهم دارَ الهلاكِ؛ زيادةً في التَّلذُّذِ بما هم فيهِ مِنَ النَّعيمِ، وزيادَةً في التَّكديرِ على الأشقياءِ[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَنَادَىٰٓ﴾: النّونُ والدّالُ والحرف المعتَلُّ تدورُ تصريفاتُهُ على بُعْدِ مَدَى ما يَبْلُغُه الشَّيْءُ ارْتِفاعًا أو انْفِصالًا، ومنه امْتِدادُ النَّباتِ والدُّعاءِ[2]، ومِنْ هذا قولُهم: فلانٌ أندَى صوتًا مِنْ فلانٍ، أيْ: أبْعَدُ مَذْهبًا، وأرْفَعُ صَوْتًا[3]، والنِّداءُ: بُعْدُ مَدَى الصَّوْتِ[4]، ويُرادُ

(1) البقاعيّ، نظم الدرر: 7/404.
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصَّل: (ندو، ندي).
(3) الزَّبيدي، تاج العروس: (ندا).
(4) ابن دريد، جمهرة اللّغة: (دنو، ندو).

به الخِطابُ المقرونُ برفْعِ الصَّوْتِ به[1]، وهو المرادُ في قَولِهِ ﷻ: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ﴾.

2) ﴿فَأَذَّنَ﴾: الهمزَةُ والذّالُ والنّونُ تدلُّ كثيرٌ مِن اشتقاقاتِهِ على معنى العِلْم[2]، والتَّأْذينُ: الإعْلامُ[3]، ومنه الأذانُ الشَّرْعيُّ؛ إذْ هو الإعْلامُ بِدُخولِ وقتِ الصَّلاةِ بألفاظٍ مخصوصَةٍ[4]، يُقال: أُذِّنَ بالصَّلاةِ، أي: أُعْلِمَ بِها[5]. والمعنى المُرادُ في الآيةِ: فنادى مُنادٍ.

3) ﴿لَّعۡنَةُ﴾: اللّامُ والعينُ والنّونُ تدلُّ على نَفْيٍ أو طَردٍ وإبعادٍ مِنَ الحيِّزِ بتَخْويفٍ وذعْرٍ؛ لعدم قَبول القُربِ[6]. وقولُ القائلِ: لَعَنَهُ اللّه، يُريدُ: طَردَه اللّهُ عنه، وباعَدَهُ منه، ونحوَ ذلك[7]، واللَّعْنَةُ في العُرْفِ الشَّرعيِّ: الطَّردُ والإبعادُ عَن رحمةِ اللّهِ تعالى[8]، وهو المعنى المُرادُ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿لَّعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

4) ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾: الظّاء واللّامُ والميمُ تدورُ تصريفاتُها على حَجْبِ ما يَنْبَغي أو ما يَسْتَحِقُّ، أي: مَنْعُه أو انْتِقاصُه[9]. ومنه الظَّلامُ؛ لحجبِهِ الرُّؤْيَةَ، والأرضُ المَظْلومةُ: التي لَم يَنَلْها المطرُ[10]، والظُّلم: وضْعُ الشَّيْءِ في غَيْرِ مَوْضِعه المُخْتَصِّ به، إمّا بنُقْصانٍ أو بزيادَةٍ، وإمّا بعُدولٍ عَنْ وقْتِه أو مكانِه[11].

والظّالِمونَ في قولِهِ تعالى: ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ هُمُ المشركونَ الكافرونَ الصّادّون عن سبيلِ اللّهِ تعالى، وإنَّما سُمّي المُشْرِكُ ظالمًا؛ لأنَّهُ وضَعَ العبادَةَ في غيرِ مَنْ خَلَقَ[12]، وسُمّيَ الكافِرُ ظالِمًا؛ لأنَّهُ وضَعَ الكُفْرَ مَوْضِعَ الإيمانِ[13].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/136.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أذن).
(3) نشوان الحِميريّ، شمس العلوم: (أذن).
(4) النّفراوي، الفواكه الدّواني: 1/171.
(5) الفيّومي، المصباح المنير: (أذن).
(6) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصَّل: (لعن).
(7) ابن قُتيبة، غريب القرآن، ص: 27.
(8) الشّنقيطي، العذب النَّمير: 5/626.
(9) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصَّل: (ظلم).
(10) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (ظلم)، والزَّبيديّ، تاج العروس: (ظلم).
(11) ابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم: (ظلم)، والرّاغب، المفردات: (ظلم).
(12) الشِّنقيطيّ، العذب النَّمير: 1/82.
(13) العُلَيميُّ، فتح الرَّحمن: 1/478.

المعنى الإجماليُّ:

الحِوار بين أهلِ الجنّةِ وأهلِ النّارِ، وإقرار كلِّ طَرَفٍ بحالِه من النّعيمِ أوِ العَذابِ

ونادَى أهلُ الجنَّة أهلَ النّار بَعْدَ دخولِ كلٍّ في محلِّه: يا أهلَ النّارِ؟ قد وجَدْنا ما وعَدَنا ربُّنا حقًّا في الدُّنيا على أَلْسُنِ رُسُلِه مِنَ الثَّوابِ على الإيمانِ به وبِهِمْ، وعلَى طاعَتِه، فهَلْ وجَدْتم ما وعَدَنا رَبُّكُم على أَلْسِنَتِهم على الكُفْرِ به وعلَى معاصيه مِنَ العِقابِ؟ فأجابَهُم أهْلُ النّارِ بأنْ نَعَمْ، قَد وجَدْنا ما وعَدَ رَبُّنا حَقًّا، فنادَى مُنادٍ بصوتٍ عالٍ بين أصحاب الجنة وأصحاب النّار، بأنَّ لعنةَ اللّه وسَخَطَهُ وعُقوبَتَهُ على الظّالمينَ الذينَ تَجاوَزوا حُدودَهُ، وكَفَروا بهِ وبِرُسُلِه[1].

وترشدُ الآيةُ الكريمة إلى أنَّ هذا النداءَ من أهل الجنةِ لأهلِ النار تقريعٌ، وتوبيخٌ، وزيادةٌ في الكرب.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

عِلَّةُ وَصْلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿وَنَادَىٰٓ﴾ بِما قَبْلَهُ:

اسْتِبْشارُ أَهْلِ الجَنَّةِ بِما هُمْ فِيهِ، وَشَماتَتُهُمْ بِما عَلَيْهِ أَعْداؤُهُمْ

قولُ اللّه سُبحانَهُ: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ﴾، مَعْطوفٌ على قولِه: ﴿وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي هَدَىٰنَا لِهَٰذَا﴾ [الأعراف: 43] من بابِ عطْفِ القولِ على القَوْلِ؛ إذْ قَدْ حُكيَ قولُهُم الدّالُّ على بَهْجَتِهم بما هُم فيه مِنَ النَّعيم، ثُمَّ حُكيَ قَوْلُهم لأهل النّارِ حينَما يَرَوْنَهم، وبهذا التَّقريرِ يَكونُ بين الجُمْلَتَيْنِ توسُّطٌ بين الكَمالَيْنِ؛ لاشتراكِهما في الخَبَريَّةِ، وبينَهُما تناسبٌ مِنْ وجْهَيْنِ: **أحَدُهما:** لَفْظيٌّ، وهو اشْتِراكُ الجُمْلَتَيْنِ في الفِعْليَّةِ والماضويَّةِ؛ فكلٌّ منهما جملةٌ فعليَّةٌ، صُدِّرت بفِعْلٍ ماضٍ.

والآخَرُ: مَعْنَويٌّ، وهو اشتراكُهُما في الحديثِ عن مقالَةِ أهْلِ الجنَّةِ؛ استبشارًا بما هُم فيه، وشماتَةً بما عليه أعداؤُهم مِنَ الكَفَرَةِ.

ويَجوزُ أن يكونَ قولُهُ تعالى: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ أَصۡحَٰبَ

(1) ابن جرير، جامع البيان: 12/445 - 447، ونخبة من العلماء، التّفسير الميسّر، ص: 156.

ٱلنَّارِ﴾، معطوفًا على قوله: ﴿وَنُودُوٓاْ أَن تِلۡكُمُ ٱلۡجَنَّةُ أُورِثۡتُمُوهَا﴾ [الأعراف: 43] من عَطْفِ القِصَّةِ على القِصَّةِ، وذلك بمناسبَةِ الانتقالِ مِنْ ذِكْرِ نداءِ اللّهِ تعالى إلى ذِكْرِ مناداةِ أهلِ الآخرَةِ بعضِهم بعضًا[1].

سِرُّ التّعبير عنِ الخِطابِ بالنِّداءِ في قوله: ﴿وَنَادَىٰٓ﴾:

النِّداءُ الواردُ في قولِ اللّه تعالى: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ﴾، خطابٌ من أصحابِ الجنَّةِ، وقد جاءَ التَّعبيرُ عنْ هذا الخِطابِ بالنِّداءِ كنايةً عن بلوغِهِ إلى أسماعِ أصحابِ النّارِ مِن مسافةٍ شديدَةِ البُعْدِ، وذلكَ أنَّ سعةَ الجنَّةِ وسعةَ النّار تقتَضيانِ ذلك، ووسيلَةُ بلوغِ هذا الخِطابِ من الجنَّةِ إلى أسماعِ أصحاب النّارِ وسيلَةٌ عجيبَةٌ غيرُ متعارَفَةٍ، وهي مِن أحوال الغَيْبِ الواجِبِ الإيمانُ بها[2].

شِدَّةُ التَّبايُنِ بَيْنَ مَنازِلِ أَهْلِ الإيمانِ، وَدَرَكاتِ أَهْلِ الكُفْرانِ

دلالةُ التَّعبيرِ بالمُناداةِ ﴿وَنَادَىٰٓ﴾ دونَ القولِ (وقال):

قوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ﴾، عبَّر فيه بالمناداةِ دون القول؛ لأنَّ النِّداءَ أعمُّ، فيشملُ القولَ وغيرَهُ، ولأنَّ النِّداءَ يحملُ معنى المخاطبةِ بين الفريقين؛ بخلافِ القول، فقد يكونُ خطابًا وغَيبةً، وقد يكونُ كلامًا نفسيًّا، كما في قوله: ﴿وَيَقُولُونَ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ لَوۡلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ﴾ [المجادلة: 8]، وهذا غيرُ مناسبٍ في هذا المشهَد؛ لبُعدِ المسافة بين الفريقين.

مَعْرِفَةُ أهلِ الجنَّةِ بقيمةِ نَعِيمِها، ومَناظِرِها الآسرة، سَعادةٌ غامرةٌ

وفيه إشارةٌ علميَّة إلى إمكانيَّة التَّحدُّث والتَّخاطب عن بُعدٍ؛ لأنَّ المسافةَ بين الجنَّة والنّار بعيدةٌ.

وفيه إشارةٌ إلى فضحِ الكافرين على رُؤوسِ الأشهاد بأسلوبِ المُناداة، ولا يتأتَّى ذلك مِنَ القولِ، وفيه دلالةٌ على بُلوُغ النِّداء إلى أسماعِ أصحابِ النّار من مسافةٍ بعيدةٍ؛ لأنَّ قَعْرَ جهنَّم بعيدٌ.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/135.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/136.

وفيه إشارةٌ إلى بُعد المسافةِ بين الجنَّة والنّار، وذلك لأنّ سَعَةِ الجنَّةِ من جهةٍ، والنّارِ من جهةٍ أخرى يقتَضي بُعْدَ المسافة.

دلالة التَّعْبيرِ بالماضِي في قوله: ﴿وَنَادَىٰٓ﴾:

أَحْـوالُ الآخِـرَةِ مِنْ أُمُورِ الغَيْبِ الواجِبِ الإيمانُ بِـهـا، والـيـقـينُ بِصِدْقِها

المُناداةُ المَذْكورَةُ في قَوْلِ الله سُبْحانَهُ: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ﴾ مستقبَلَةٌ؛ لكونِها من أحْوال الآخرَةِ، إلّا أنَّه جاءَ التَّعبير عَنْها بالفعلِ الماضي، دون التَّعبيرِ بالمُضارع - على خلافِ مقتضَى الظّاهرِ - للدَّلالَةِ على تَحَقُّقِ وقوعِهِ، وأنَّ هذا النِّداءَ ممّا لا بُدَّ أن يكونَ[1].

سِرُّ التَّعبيرِ بلفْظِ ﴿أَصۡحَٰبُ﴾، دونَ (الأهل) مع الجنَّةِ والنّارِ:

الـصُّـحـبـةُ أعـمُّ مِنَ الأهلِ، ورُبّ أخٍ لك لم تَلِدْهُ أمُّكَ

في قوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ﴾ آثرَ القرآنُ التَّعبيرَ بلفظِ (الأصحاب) مع الفريقينَ دون غيرِه؛ لأنَّه مأخوذٌ من مادَّة (صَحِبَ) الَّتي تدلُّ على المُقارنةِ والملازمة، وفي ذلك إشارةٌ إلى أنَّ كُلَّ فريقٍ تحقَّق فيه ذلك؛ فأصحابُ الجَنَّة لازمتهم الجنَّة وصحبَتهُم، وكذلك مع أصحابِ النّار، ولكنَّ هذه الصُّحبةَ قد لا تكونُ دائمة؛ لأنَّ الدَّوامَ يَعني عدمَ الانقطاعِ، وعلى ذلك فالصُّحبَةُ تقتضي نوعًا منَ الملازمةِ بين الطَّرفين؛ فكلُّ طرفٍ يتجاذبُ مع مَسْكَنِه.

وممّا يؤكِّد أنَّ الصُّحبةَ لا تقتَضي الدَّوام وحدَها، استعمالُ القرآنِ الكريم للفظِ الخُلود مع أصحاب الجنَّة وأصحاب النّار؛ بخلافِ لفظ (الأهل) فهو أخصُّ منَ الصَّحْبِ، ولذلك يُعَبَّرُ بأهل الجنَّة لَمَنِ اختُصّوا بها، يؤكِّد ذلك الحديث الَّذي يقول: «إذا دخل أهلُ الجنَّةِ الجنَّةَ وأهلُ النّارِ النّارَ، نادى مُنادٍ يا أهلَ الجنَّة خلودٌ بلا

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/402 - 403، وأبو حيان، البحر المحيط: 5/55، والآلوسي، روح المعاني: 4/362.

موتٍ، ويا أهلَ النّار خُلودٌ بلا موتٍ»[1]، فالمُلاحظُ أنَّ لفظ (الأهل) يأتي بعد الصُّحبَة؛ لأنَّهُ أخصُّ منها.

نُكْتَةُ الإِظْهارِ فِي مَوْضِعِ الإِضْمارِ، فِي مُناداةِ أهلِ الجنّةِ وأهلِ النّارِ:

مِنْ بَراعَةِ البَيانِ القُرْآنِيِّ التَّعْبِيرُ عَنْ كُلِّ فَرِيقٍ بِوَصْفِهِ المُخْتَصِّ بِهِ

قولُه ﷻ: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ﴾، فيه إظهارٌ في موضِعِ الإضْمارِ، وذلكَ أنَّ مقتضَى الظّاهرِ أنْ يَرِدَ النَّظْمُ القرآنيُّ: (ونادَوْا أصحابَ النّارِ)؛ لأنَّ أهلَ الجَنَّة ذُكروا في الآيةِ قبلُ في قولِهِ سُبحانَهُ: ﴿وَنُودُوٓاْ أَن تِلۡكُمُ ٱلۡجَنَّةُ أُورِثۡتُمُوهَا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾، وعُدِلَ عنِ الإِضْمارِ إلى التَّصريحِ بالاسْمِ الظّاهرِ؛ لنُكْتَتَيْنِ:

إحداهُما: أن يكونَ ذلكَ توطئةً لذِكْرِ نداءِ أصحابِ الأعرافِ، ونداءِ أصحابِ النّار؛ ليُعبِّر عَنْ كلِّ فريقٍ بوَصْفِهِ المختصِّ به.

والأُخْرَى: أن يكونَ في ذَلِكَ تحسينٌ بالطِّباقِ؛ لمقابلَةِ أصحابِ الجنَّةِ بأصحابِ النّارِ[2].

بَلاغَةُ الطِّباقِ، بين لفْظَيْ: ﴿ٱلۡجَنَّةِ﴾، و﴿ٱلنَّارِ﴾:

بَيانُ شَرَفِ الجَنَّةِ، وَشَرَفِ أَهْلِها، وَحَقارَةِ أَصْحابِ النّارِ

قول الله ﷻ: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ﴾، فيه طباقٌ بينَ ﴿ٱلۡجَنَّةِ﴾، و﴿ٱلنَّارِ﴾، وفي ذلك إظهارٌ لشَرَفِ الجنَّةِ وشرفِ أهلِها، وعظيمِ منزلَتِها ومنزلةِ أهلِها، وبيانٌ لحقارَةِ أهلِ النّارِ؛ وذلك أنَّ الضِّدَّ يُظْهِرُ حُسْنَهُ أو قُبْحَهُ ضِدُّهُ.

دَلالةُ التَّعبيرِ باسْمِ ﴿ٱلۡجَنَّةِ﴾ دونَ بعضِ أوصَافِها:

وصْفُ الجنَّةِ عَلَمٌ على درجاتِها، وإبانةٌ عن رَونقِها وبهائِها

في قوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ﴾ آثرَ القرآنُ التَّعبيرَ بـ ﴿ٱلۡجَنَّةِ﴾ دونَ بعضِ أوصافِها؛ كأصحابِ النَّعيمِ ونحو ذلك؛ لأنَّ الجنَّة عَلَمٌ يندرجُ تحته كلُّ الأوصافِ والدَّرجات،

(1) البخاري، الجامع الصحيح، الحديث رقم: (6545)، مختصرًا، وأحمد، المسند، الحديث رقم: (8911)، واللفظ له، وابن ماجه، السنن، الحديث رقم: (187)، والنسائي، السنن الكبرى، الحديث رقم: (11234).

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/136.

ولأنَّ المَقامَ هنا في انقسامِ النّاس إلى فريقين؛ أمّا الحديثُ عن الأوصافِ، فيأتي بعد دخولِ أهلِ الجنَّةِ الجنَّةَ.

سِرُّ التَّعبيرِ بالمُفردِ ﴿ٱلْجَنَّةِ﴾، دون الجمْعِ أو المُثنَّى:

النّاظرُ في آياتِ القرآنِ الكريم يجدُ أنَّ لفظ ﴿ٱلْجَنَّةِ﴾ جاءَ مفردًا ومُثنًّى وجمعًا، فإذا عُبِّرَ بالمُفرد كما هنا فالمرادُ به عَلَمٌ على دارِ الثَّواب كلِّها، وإذا جاء مُثنًّى كما في سورةِ الرَّحمنِ في قوله: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾، وقوله: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾؛ فالخطابُ - في سورة الرَّحمنِ - موجَّهٌ للإنس والجنِّ معًا، فكلٌّ منهما له جَنَّةٌ، وهناك أقوالٌ أخرى ذكرها الزَّمخشريُّ في الكشّافِ لمن أرادَ المزيد.

المفردُ من صِيغِ العُمومِ، والمعنى مُرتبطٌ بالصِّيغة المتاحةِ في السِّياقِ

ولا يردُ على ذلك موضعُ سورة الكهف في قوله تعالى: ﴿۞وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ﴾ [الكهف: 32]، وما كان في بابها كما في قصَّة سبأ في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌۖ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍۖ﴾ [سبأ: 15]؛ فالمرادُ بهما ما كانَ من بساتينِ الدنيا.

وأمّا التَّعبيرُ بالجمع في نحوِ قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُۖ﴾ [البقرة: 25]، وعبَّر بالجمعِ؛ لأنَّها مُشتملةٌ على جِنانٍ كثيرةٍ مُرتَّبةٍ على حسب استحقاقاتِ العاملين؛ لكلِّ طبقةٍ منهم جنَّةٌ من تلك الجنان.

ومما يلزم التَّنبيهُ عليه أنَّ ذلك مقصودٌ به ما كان في الآخرةِ؛ لأنَّه قد تردُ بعضُ الآياتِ بلفظ الجمع كما في قوله: ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ﴾ [الرَّعد: 4] الآية، فهذه في الدُّنيا.

سِرُّ التَّعبيرِ بالإفرادِ في لفْظِ ﴿ٱلنَّارِ﴾:

النّارُ عَلَمٌ على نارِ العَذابِ في الآخرةِ، لا نارِ الانتفاعِ في الدُّنيا

قوله: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾، عبَّر فيه بالنّارِ بالإفراد دون الجمع، إمّا من باب الجنسِ على اعتبار أنَّ (أل) في ﴿ٱلنَّارِ﴾

للجنس، وعلى ذلك يندرج تحتها كلُّ دركاتها. ويجوز أن تكونَ للعهدِ، وينصرفُ الكلامُ إلى النّار المعهودةِ، والمعروفةِ بنار الآخرة، لا إلى نار الدُّنيا، كما في قوله: ﴿كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا﴾ [البقرة: 17]، وقوله: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ۝٧١ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ۝٧٢﴾ [الواقعة: 71 - 72].

سِرُّ التَّعبيرِ بـ ﴿أَصْحَـٰبَ ٱلنَّارِ﴾:

عبَّر القرآنُ الكريم بـ ﴿أَصْحَـٰبَ ٱلنَّارِ﴾ دون (أصحابِ الجحيم) و(أصحاب السَّعير) كما ورد في بعض الآياتِ؛ لأنَّ الموقفَ هنا يدورُ على انقسامِ النّاس أوَّلًا إلى أصحابِ جنَّةٍ وإلى أصحاب نار؛ أمّا دركاتُها؛ فتأتي وفقَ طبيعةِ المُعذَّبين، كلٌّ على قدرِ جُرمه، فمثلًا في قوله: ﴿وَلَا تُسْـَٔلُ عَنْ أَصْحَـٰبِ ٱلْجَحِيمِ﴾ [البقرة: 119] اختارَ لهم هذا الوصفَ؛ لأنَّهم لا يُرجى منهم خيرٌ، بأن يخرجوا من كفرِهم وضلالِهم إلى الإيمانِ والانقياد؛ فهذا الصِّنفُ يناسبُه وصفُ الجحيم، الَّذي هو نارٌ على نارٍ، وجمرٌ على جمرٍ؛ جزاءً وفاقًا على كُفرِهم وعِنادِهم.

وأمّا لفظ ﴿ٱلسَّعِيرِ﴾ كما في قوله: ﴿فَسُحْقًا لِّأَصْحَـٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك: 11]؛ فهو المناسبُ لهؤلاء الَّذين كفروا، وعاندوا بعد أن جاءهم النَّذيرُ، قال تعالى: ﴿كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ۝٨ قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ﴾ [الملك: 8 - 9] الآيات، فالملاحظُ أنَّهم كذَّبوا بالآيات الَّتي جاء بها الرَّسولُ، فناسبَ ذلك أن تُسَعَّر لهم النّارُ كما سَعَّروا وجوهَهم في وجه الرَّسول ﷺ.

على قدرِ الجُرمِ يأتي العَذابُ، وبحجمِ الذّنبِ يُزجَى العَذابُ

دَلالةُ (أَنْ) في قولِهِ تعالى: ﴿أَن قَدْ وَجَدْنَا﴾:

﴿أَن﴾ يُحتمل أن تكون تفسيريَّة للنِّداء، ويُحتمل أن تكونَ مخفَّفة منَ الثَّقيلة، واسمها ضميرُ الأمر والشَّأن، والجملةُ بعدَها خبرها[1].

جَمالُ العَطاءِ، يُؤدِّي إلى سُرعةِ الإعلانِ به

(1) السّمين الحلبيّ، الدّر المصون: 5/325.

ومع تعدُّد أوجهِ الإعراب فيها إلّا أنَّها تشير إلى معنًى يُفهم من سياق الآية أنَّ الوجدان الَّذي نادى به أصحابُ الجنَّة قالوه حين رَأوه؛ فكأنَّ (أنْ) أشارت إلى الآنيَّةِ الَّتي قيل فيها: ﴿قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا﴾، ولو خَلَت الجُملةُ منها ما وُجدت إشارةٌ إلى الآنيَّةِ الزَّمنيَّة، وكان المعنى ﴿قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا﴾ يمكن أن يكون النِّداء بعد زمنٍ قصيرٍ من دخول الجنة أو زمنٍ طويل، لكنَّ بهجة النَّفس يُناسبها الإسراعُ بإعلانِ النعيم، فكانت ﴿أَن﴾ هيَ المُرشِّحة لهذا المعنى.

دَلالَةُ (قَدْ) فِي قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿أَن قَدْ وَجَدْنَا﴾:

﴿قَدْ﴾ في قَوْلِه تعالى: ﴿أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا﴾ حرفٌ دالٌّ على التَّحقيق، وهو مؤكِّدٌ لِلْجُمْلَةِ الدّاخلِ عَلَيْها، وقد أفادَ دخولُهُ على الجُمْلَةِ المتقدِّمَةِ أنَّ موعودَ اللّهِ تعالى عبادَهُ محقَّقٌ وجودُهُ لا محالَةَ[1].

مَوْعُودُ اللهِ تَعالَى عِبادَهُ مُحَقَّقُ الوُجُودِ، في كلّ العهودِ

بَلاغةُ المَجازِ المُرْسَلِ المركّبِ:

قولُ اللّه ﷻ حكايةً عن أهلِ الجنَّةَ قولَهم: ﴿قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا﴾ جملَةٌ خبريَّةٌ، لا يُرادُ بها فائدَةُ الخبَرِ ولا لازِمُها، بل خَرَجَت عَن أصلِ دلالَةِ الخبَرِ إلى معانٍ أُخْرَى، هي معانٍ أُخْرَى[2]: **أوَّلُها:** زيادةُ التَّلذُّذِ بما هم فيهِ مِنَ النَّعيم، **ثانيها:** زيادَةُ التَّنغيصِ والتَّكديرِ على أهل النّارِ، فإنَّ الكائِنَ في مَهْلَكَةٍ تزدادُ حسرَتُهُ، ويَعْظُمُ أَلَمُهُ؛ إذا رأى أهلَ التَّنعُّم والرَّفاهيَةِ، **ثالثُها:** إظهارُ الاغتباطِ بحالِهم والتَّبجُّحِ بها، تحدُّثٌ بنِعْمَةِ اللّهِ سُبحانَهُ عَلَيْهِم.

المُبْتَلَى تَزْدادُ حَسَراتُهُ، وتَتَلاحَقُ زفَراتُه، إذا رَأَى أَهْلَ التَّنَعُّمِ والرَّفاهِيةِ

فالآيةُ واردَةٌ على سَبيلِ المجازِ المرسَلِ المُرَكَّبِ، حيثُ استُعْمِلَ الخبَرُ في هذه المعاني التي خرجَ بها عَن أصلِ دِلالتِهِ.

(1) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 6/2845.

(2) البقاعيّ، نظم الدرر: 7/404، وابن عطية، المحرر الوجيز: 2/403، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/136.

سِرُّ التَّعبيرِ بالوجْدانِ ﴿وَجَدْنَا﴾، دونَ الرُّؤيةِ:

وسائلُ إدراكِ نَعيمِ الجنَّةِ؛ أعمُّ من وسائلِ إدراكِ نَعيمِ الدُّنيا

قوله: ﴿قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا﴾، عَبَّر فيه بالوجدانِ؛ لأنَّه أعمُّ منَ الرُّؤية؛ لأنَّ الوجدان يأتي بمعنى إلفاءِ الشَّيء ولُقياه؛ كما في قوله: ﴿فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ﴾ [القصص: 15]، وفِعلُه يتعدَّى إلى مفعولٍ واحدٍ، قال تعالى: ﴿وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ﴾ [النّور: 39]، ويغْلِبُ أن يُذْكر مع المفعولِ حالُهُ، فقولهُ تعالى: ﴿وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا﴾ معناه: ألفَيناهُ حالَ كونِه حقًّا؛ لا تخَلُّفَ في شيءٍ منه، وقد يُستَعمَلُ الوجدانُ في الإدراك والظَّنِّ مجازًا؛ بخلاف الرُّؤية فلا تنصرفُ في مثل هذا إلّا إلى الرُّؤية البصريَّة.

وفيه إشارةٌ إلى وجود الشَّيء من غير طلبٍ أو بحثٍ عنه، كما في قوله: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ﴾ [القصص: 23].

وفيه إشارةٌ أيضًا إلى أنَّ وسائِلَ الوجدانِ أعمُّ من وسائلِ الرُّؤية، فأصحابُ الجنَّةِ وجدوا نعيمَها بكلِّ وسائلِ الإدراكِ الظّاهرةِ والباطنةِ.

سِرُّ التَّعبيرِ بالفعْلِ الماضِي ﴿وَجَدْنَا﴾، في السِّياقِ:

نَعيمُ أهْلِ الجنَّةِ مُعَدٌّ للمتّقين، قبْلَ أن يَدخلوها بسَلامٍ آمنينَ

قوله: ﴿قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا﴾، عبَّر فيه بالفعل الماضي ﴿وَجَدْنَا﴾ للدَّلالةِ على تحقُّق الموعودِ به وتمكُّنهم من التنعُّم به؛ وفي هذا إشارةٌ إلى أنَّ هذا النعيمَ قد أُعِدَّ لأهلِ الجنَّة قبلَ أن يدخلوها.

دَلالةُ ذكْرِ المفعولِ الأوَّلِ ﴿قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا﴾ في الآيةِ الكريمةِ:

مَقامُ التَّكريمِ يختلفُ عن مَقامِ التَّبْكيتِ، وكلٌّ بعملِه يُجازَى

ذُكرَ المفعولُ الأوَّلُ في قوله: ﴿قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا﴾، ولم يُحذَف كما حُذفَ، في قوله: ﴿فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا﴾؛ من باب المباهاةِ بما أعطاهم اللهُ، والتَّلذُّذِ بالنَّعيم، وفيه إشارةٌ إلى إعلان حضورِهم في سياق التَّكريم؛ بخلافِ الموضع الثّاني، فقد

حُذف المفعولُ احتقارًا للمخاطَبين، وسيأتي مزيدُ تفصيلٍ عند قوله: ﴿فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا﴾.

دَلالَةُ التَّعْبِيرِ بِالرُّبوبيَّةِ دونَ الألوهيَّةِ:

الرُّبوبيَّةُ مَقامُ إنعامٍ وإمْهالٍ، والألوهيّةُ مَقامُ قهْرٍ وجَلالٍ

في قَوْلِه تعالى: ﴿قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا﴾ جاءَ المسنَدُ إليه معبَّرًا عنه باسْمِ (الرَّبِّ)؛ للإشارَةِ إلى أنَّ اللّه سُبحانَهُ الذي أحسنَ إلى أهْلِ الإيمانِ في الدُّنيا بنِعَمِه وهدايتِه إيّاهم؛ لَم يقْطَعْ عنْهُم هذا الإحْسانَ، بَلْ آتاهم ما وعَدَهُموهُ في الآخرَةِ، وأنَّه ﷺ الذي أحسَنَ إلى أهْلِ الكُفْرِ في الدُّنيا، فأغْدَقَ عليهِمُ النِّعَمَ، وهداهم هدايةَ الإرشادِ، إلّا أنَّهم قابَلوا إحْسانَهُ إليهم بالكُفْرانِ والجُحودِ[1].

سِرُّ التَّعبيرِ بقولِه: ﴿حَقًّا﴾ دونَ غيرِه منَ الألفاظِ:

حقُّ اليقينِ في دارِ المتّقين، يَحظَى بها صَفْوةُ عِبادِ الله المُخلَصِين

قوله تعالى: ﴿قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا﴾، عبَّر بالحقِّ دون غيرِه؛ لأنَّ أصلَ معناه المُطابقةُ والموافقة؛ وهذا مناسبٌ لما وجدوهُ من نعيم الجنَّة الَّذي وُعدوا به في الدُّنيا، فكلُّ ما وُعدوا به من جزاءٍ على العملِ الصّالح وجدوهُ في الآخرة مُطابقًا وموافقًا لما سمعوه مِنَ الرُّسل، وقرَؤوهُ في الكتبِ السَّماويَّة، أي: وجدناه حَقًّا من اللّه، وصَدَقَنا وعدَه، إذ يقولون ذلك يومَ القيامة: ﴿وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَـٰمِلِينَ ﴿٧٤﴾﴾ [الزمر: 74] فوجَدْنا وعدَ اللّهِ بالنَّعيمِ المقيمِ، والخلودِ الأبديِّ في الجنةِ على ألسنةِ الرُّسُل، وأورثَنا أرضَ الجنة نَنْزِل منها في أيِّ مكانٍ شئنا؛ فنِعمَ ثوابُ المحسنينَ الذين اجتهَدوا في طاعةِ ربِّهم.

دَلالَةُ الِاسْتِفْهامِ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَهَلْ وَجَدتُّم﴾:

الشَّماتَةُ في عُقبَى أهْلِ الكُفْرِ، يَزيدُ فيما يُعانونَ من حَسْرَةٍ وقَهْرٍ

الاسْتِفْهامُ في قولِ اللّه تعالى: ﴿فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا﴾، ليس جاريًا على حقيقَتِه مِن إرادَةِ طلبِ العِلْمِ بِشَيْءٍ لَمْ

(1) البقاعيّ، نظم الدرر: 7/404.

يكُنْ معلومًا مِنْ قَبْلُ، وإنَّما خرَجَ إلى معانٍ مجازيَّةٍ، وهي التَّقريعُ، والتَّعْييرُ، وإدخالُ الحُزْنِ في قُلوبِ أعداءِ اللّهِ تعالى، وتَوْقيفُهم على غَلَطِهِمْ، وباطِلِ حالِهِمْ، وإثارَةُ نَدامَتِهِم وغَمِّهِم على ما بَدَرَ منهمْ، والشَّماتَةُ بهم في عَواقِبِ عِنادِهِمْ[1].

سِرُّ التَّعْبيرِ بقوله: ﴿مَّا وَعَدَ﴾ دُونَ (الوَعِيدِ):

التَّهكُّمُ والسُّخريةُ بأصحابِ النّارِ، يدعُو إليه حالُهمُ المُخْزِي

في قَوْلِهِ تعالى: ﴿فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا﴾، جرى عُرفُ العرب في استعمال الوعد في الخير، وفيه إشارةٌ إلى ما وُعدوا به على ألسنةِ الرُّسُل عليهم السلام، من ترتيب العطاء على العمل؛ فكان الوعدُ مناسبًا لهذا السّياق. والوعدُ في قولِ اللّه تعالى: ﴿فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا﴾، يتضمّن معنى الوعيد، لكنّه جاء بالوعد من قبيل التّهكُّم بهم، فالكلامُ جارٍ على الاستعارَةِ التَّهكُّميَّةِ؛ وأفاد هذا الاستعمال معنًى إضافيًّا آخر أقوَى في إدْخالِ الحَسْرَةِ عَلَيْهِم. ويجوز أن يكونَ ذَلِكَ مِن قبيلِ المشاكَلَةِ لقولِه قبلُ: ﴿قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا﴾، فيكون من قَبيلِ المجازِ المُرسَلِ بعلاقَةِ المجاوَرَةِ اللَّفْظيَّةِ[2].

نُكْتَةُ حَذْفِ المَفْعُولِ الأَوَّلِ، في قوله: ﴿مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا﴾:

جَميعُ وَعْدِ الله تَعالَى للعِبادِ في الدّارِ الآخِرَةِ، واقعٌ بالحقِّ واليقينِ

حُذِفَ المفعولُ الأوَّلُ للفعْلِ (وَعَدَ) في الموضِعِ الثّاني في قولِه سُبحانَهُ: ﴿فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا﴾؛ إذْ لَمْ يَرِدِ النَّظْمُ القرآنيُّ: (فهل وجدتم ما وعدَكُمْ ربُّكُم حقًّا)، وصُرِّحَ به في الموضعِ الأوَّلِ في قولِه تعالى قبْلُ: ﴿قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا﴾، وفي ذلِكَ نِكاتٌ:

إحْداها: أنَّ إثباتَ المفعولِ أوَّلًا يُرادُ به التَّلَذُّذُ؛ لِوُرودِه في سياقِ الكرامَةِ، بخلافِ الموضِعِ الثّاني، فقد حُذِفَ المفعولُ احتقارًا للمخاطَبينَ.

---

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/245، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 7/209، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/136.

(2) البقاعيّ، نظم الدرر: 7/404، والآلوسي، روح المعاني: 4/362.

ثانيها: يدلُّ على أنَّ أصحاب الجنة كانوا يؤمنون بوعدِ الله تعالى بالجزاءِ الحسنِ لمن أطاعَهُ واتَّبعَ رسولَه، وكانوا يوقنون بهذا الوعدِ بيقينٍ وثقةٍ، فلمّا دخلوا الجنةَ شهدوا بأنَّ وعدَهُ تعالى حقٌّ، وأخبروا أصحابَ النارِ بذلك تعييرًا وتوبيخًا لهم.

ثالثها: أنَّ في حذْفِ المفعولِ إيماءً إلى العُموم؛ فيكونُ شاملًا لكلِّ موعودٍ مِن عذابِ أهل النّارِ ونعيم أهل الجنَّةِ، وتكونُ إجابتُهُم بـ ﴿نَعَمْۚ﴾ تصديقًا لجميعِ ما وعدَ اللّهُ سُبحانَهُ بوقوعِهِ في الدّار الآخرةِ للفريقَيْنِ، وذلك أنَّ ما ساءَهُم مِنَ الوُعودِ لَمْ يَكُنْ بِأسْرِهِ خاصًّا بهمْ، فهم قَد وجَدوا جَميعَ ذَلِكَ حَقًّا، ويكونُ ذلك اعترافًا منهم بحصولِ موعودِ أهلِ الإيمان، وذلك أدْخَلُ في تحسُّرهم على ما فاتَهم مِن هَذا النَّعيم، ويكون قَوْلُهُم: ﴿وَجَدْنَا﴾ على هذا الوَجْهِ بمعنَى: العِلْم لا بمعنَى حُصولِهِ لهم؛ لأنَّ نعيمَ الجنَّةِ لا يَحْصُلُ شَيْءٌ منه لِأهْلِ النَّار كما لا يَخْفَى[1].

ويجوزُ أن يكونَ حذْفُهُ من بابِ التَّخفيفِ والإيجازِ، والاِسْتِغْناءِ بالأوَّلِ.

وخرَّجَ هذا الحَذْفَ البقاعيُّ علَى أنَّهُ مِنْ باب الاحتباكِ؛ حيث أُثْبِتَ المَفْعُولُ الثّاني أوَّلًا دَليلًا على حَذْفِ نظيرِهِ ثانيًا، وحُذِفَ ثانيًا دَليلًا علَى إثْباتِ مِثْلِهِ أوَّلًا[2].

دَلالَةُ التَّعْبيرِ بِالاِسْمِ المَوْصُولِ وَصِلَتِهِ:

انْحِرافُ أَصْحابِ النّارِ فِي الدُّنْيا، مَعَ عِلْمِهِمْ بِوَعْدِ الرُّسُلِ وَوَعِيدِهِمْ

في قَوْلِهِ تعالى: ﴿قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّاۖ﴾ جاءت (ما) في الموضعينِ اسمًا موصولًا، وذلك دالٌّ على أنَّ الصِّلَةَ معلومَةٌ لدَى المُخاطَبينَ على تفاوُتٍ بينَهم في العِلْمِ بها إجمالًا وتفصيلًا، فقد كانوا يعلمونَ أنَّ رُسُلَ اللّهِ - عليهم السلام - وعَدوا

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 5/55، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 7/404، والآلوسي، روح المعاني: 4/362.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/405.

أهلَ الإيمانِ بالنَّعيم العظيمِ، وتوعَّدوا أهلَ الكفرانِ بالعذاب الأليم؛ سمِعَ بعضُهم تفاصيلَ ذلك كُلًّا أو بعضًا، وسمِعَ آخرونَ بعضَها إجمالًا، إمّا مباشرَةً أو بالتَّناقُلِ عَنْ غيرِهم، فكانَ للموصوليَّةِ في قولِهِ سُبحانَهُ: ﴿قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا﴾ إيجازٌ بديعٌ[1].

دَلالَةُ الجَوابِ بِـ ﴿قَالُواْ نَعَمْ﴾ في سِياقِ الآيةِ:

اعْتِرافُ أَصْحابِ النّارِ، بعْدَ فَواتِ الأوانِ، حَسْرةٌ وهَوانٌ

﴿نَعَمْ﴾ حرفٌ يُجابُ به عنِ الاستفهامِ في إثبات المُستَفهَمِ عنه، وهي هنا تشيرُ إلى وصف حال أصحابِ النّار بأنَّهم في خزيٍ وهَوان؛ صوتُهم بنُطْقِ ﴿نَعَمْ﴾ خافتٌ، يشبهُ صوتَ المريض المُسَجَّى على فراشِ الموت بما فيه من الحشرجةِ الَّتي تدلُّ على أنَّه ليس له منَ الأمرِ شيءٌ.

وممّا يؤكِّد ذلك: التَّعبيرُ بالقول دون النِّداء ﴿قَالُواْ نَعَمْ﴾، فالقولُ لا يحمل هنا معنى علوِّ الصَّوت.

دَلالَةُ تعقيبِ جوابِهم بهذه الجملةِ: ﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ بَيْنَهُمْ﴾:

فَضْحُ الظّالمين عـلى رُؤوسِ الأشهادِ، مَشْهدٌ مُرعِبٌ في المَعادِ

عَقَّبَ جوابَهم الَّذي اعترفوا فيه بخزيهم وعذابِهم ﴿قَالُواْ نَعَمْ﴾، بهذهِ الجملةِ الَّتي تدلُّ على زيادةِ الحسرةِ والألم من خلالِ صوتٍ يخرجُ مناديًا عليهم باللَّعنةِ والطَّردِ من رحمةِ اللّه؛ ﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، فكأنَّ الوجودَ كلَّه يلعنُهم على ظُلمِهم.

دَلالَةُ الفاءِ، فِي قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿فَأَذَّنَ﴾:

بَيانُ ضَلالِ أَهْلِ النّارِ، وتَداعِياتِ ظُلْمِهم، المُفْضِي إلى سُوءِ القَرارِ

الفاءُ في قولِ اللّه سُبحانَهُ: ﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ دالَّةٌ على أنَّ التَّأذينَ مُسبَّبٌ على المحاوَرَةِ المذكورَةِ قَبْلُ، وذلك تحقيقٌ لمَقصد أهلِ الجنَّةِ مِن سُؤالِ أهلِ النّارِ؛ وهو إظهارُ ضلالِهم وفَسادِ اعتقادِهِمْ[2].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/137.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/137.

نُكْتَةُ تَنْكِيرِ ﴿مُؤَذِّنٌ﴾:

نُكِّرَ ﴿مُؤَذِّنٌ﴾ مِن قولِ اللّهِ تعالى: ﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ﴾؛ لأنَّ مَعْرِفَتَهُ غيرُ مقصودةٍ؛ إذِ المَقْصودُ هو الإعلامُ بما يكونُ هُناكَ مِنَ الأحكامِ[1].

لا يُحتاجُ إلى تَعْيينِ الفاعِلِ، إذا كانَ القَصْدُ الأَعْظَمُ تَبْيينَ الحُكْمِ

سِرُّ العُدولِ عنِ النِّداء إلى الأذانِ:

في قَوْلِهِ تعالى: ﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، عدلَ القرآنُ الكريم عن استعمال النِّداء كما سبقَ في مطلع الآية: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ﴾ إلى التَّعبيرِ بالتَّأذين، في قوله تعالى: ﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾؛ لأنَّ التَّأذينَ فيهِ إعلانٌ مع النِّداء؛ فالأذانُ في اللُّغة معناهُ الإعلامُ[2]، وأذَّنَ: أكثرَ الإعلامَ بالشَّيء، ومنه المؤذِّنُ لكثرة الإعلام منه، وفيه إشارةٌ إلى رفْعِ الصَّوت مراتٍ متعدِّدة، وهذه المعاني لا تؤخَذُ من النِّداء وحده؛ لذلك كان الأنسبُ في مثل هذا المشهدِ، هو التَّعبيرَ بالفعل (أذَّن)، وهو على وزن فعَّل الّذي يدلُّ على التَّكلُّف وبذلِ الجهد. ولذلك استعملَهُ القرآنُ الكريم هنا مناسبًا لمشهد الحوارِ، بين أصحابِ الجنَّةِ وأصحابِ النّار.

الأذانُ شِعارُ حَقٍّ، وإيذانٌ بصِدْقٍ، وهو من خُصوصِيّات أمّةِ الإسلامِ

سِرُّ جمْعِ الفعْلِ ﴿فَأَذَّنَ﴾، مع اسْمِ الفاعلِ ﴿مُؤَذِّنٌ﴾:

ذكر القرآن الكريم فاعل التأذين ﴿مُؤَذِّنٌ﴾ مع أنَّ الفعل (أذَّن) يلزمُ منه ذلك، وإمكانُ الاكتفاء بالفعل ﴿فَأَذَّنَ﴾ دلالةً عليه، لكن لمّا كان المؤذِّن ليس من أصحاب الجنَّة، بل هو من الملائكةِ، فكانَ ذِكرهُ لإزالةِ اللَّبسِ، وإشارةً إلى جنس المؤذِّن، وهم الملائكة.

نداءُ المؤذِّنِ بين أهلِ النّارِ، له صَوْلَةٌ تُنذِرُ بالبَوارِ

بَلاغةُ جِناسِ الاشتقاقِ، في قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ﴾:

تظهرُ بلاغةُ هذا الجناسِ في إفادةِ التَّهويلِ والتَّعظيمِ في هذا

(1) طنطاويّ، التَّفسير الوسيط: 2/276.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أذن).

الأذانُ في الآخرةِ إعلامٌ وبلاغٌ، بما يُسفرُ عنه مَشهدُ القيامةِ

المشهدِ الرَّهيب، حيث "أعلم مُعْلِمٌ من الملائكة بينهم، أي بين الفريقين اللّذين يتبادلان ذلك الحديث، ﴿أَن لَّعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾"[1].

دَلالَةُ البَيْنِيَّةِ بلفْظِ ﴿بَيۡنَهُمۡ﴾:

بَيانُ إيقاعِ الأذانِ في ذلك اليومِ العَسيرِ، حيثُ الفصْلُ بتقريرِ المصيرِ

دلَّ التعبيرُ بقوله تعالى: ﴿بَيۡنَهُمۡ﴾ مِنْ قولِ اللّهِ تعالى: ﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنُۢ بَيۡنَهُمۡ أَن لَّعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ على أنَّ المعنى المراد: أنَّ مُؤذِّنًا أوقعَ ذلك الأذانَ بينَهم وفي وسَطِهِمْ.[2].

سِرُّ التَّعبيرِ بالجَمْعِ ﴿بَيۡنَهُمۡ﴾ دون المُثَنَّى (بينهما):

المنادِي منَ الملائكة، وهو يُسمِعُ أهلَ الجنَّةِ وأهلَ النّارِ

قوله تعالى: ﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنُۢ بَيۡنَهُمۡ﴾، عبَّر بالجمع دون المُثنَّى؛ لأنَّ المرادَ التَّأذين بين الفريقينِ لا بين القائلين ومجموع الفريقَين يمثّل جمعًا، "فينادي منادٍ من الملائكة يُسمع أهلَ الجنَّة وأهل النّار، بأنّ الطّرد من رحمة اللّه على الظّالمين الّذين ظلموا أنفسهم؛ بعدم الإيمان، وبالتّكذيب باليوم الآخر"[3].

دَلالَةُ (أَنْ) فِي قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿أَن لَّعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾:

أثَرُ دَلالاتِ الحُرُوفِ في تَوْجِيهِ المَعانِي القُرْآنِيَّةِ

(أنْ) إذا صَحِبت مِنَ الكَلامِ ما ضارَعَ الحِكايَةَ، وليس بصريح الحكايةِ، العربُ تُشدِّدها أحيانًا، وتوقع الفعلَ عليها، فتفتحُها، وتخفِّفُها أحيانًا، وتُعمِلُ الفعلَ فيها فتنصبُها به، وتُبطلُ عملَها عن الاسم الَّذي يَليها[4].

وقد وردَ في قوله تعالى: ﴿أَن لَّعۡنَةُ﴾ قراءتان، **الأولى:** قراءة جمهور القراء بِفَتحِ الهَمزَةِ وتشديدِ النّونِ في (أنَّ)، ونصب اللَّعنة على أنَّها اسمها، و﴿عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ خبرها، **والثانية:** قراءة نافع، والبصريين، وعاصم بتخفيف ﴿أَن﴾ ورفع ﴿لَّعۡنَةُ﴾، واسمها ضميرُ الشَّأن محذوفٌ، والجملةُ الاسميَّة بعدها خبرٌ[5].

---

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 6/2845.

(2) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/247، والآلوسي، روح المعاني: 8/123.

(3) الشّعراوي، تفسير الشّعراوي: 7/4148.

(4) ابن جرير، جامع البيان: 8/187.

(5) السّمين الحلبيّ، الدر المصون: 5/327، وابن الجزري، النشر في القراءات العشر: 2/269.

دَلالةُ التَّعبيرِ بِاللَّعْنِ دونَ الطَّردِ:

في قوله تعالى: ﴿أَن لَّعۡنَةُ ٱللَّهِ﴾ آثر التَّعبيرَ باللَّعنِ دون الطَّرد؛ لوجودِ فرقٍ بينَه وبين الطَّرد؛ فاللَّعن: هو الطَّردُ والإبعادُ على سبيل السُّخط، وذلك من اللهِ تعالى في الآخرةِ عقوبةٌ، وفي الدُّنيا انقطاعٌ من قبولِ رحمتهِ وتوفيقهِ؛ واللَّعنُ من الإنسان: دعاءٌ على غيره.

إذًا فاللَّعنُ يدورُ حولَ الطَّرد والإبعاد على سبيل السُّخطِ والبُعدِ، أمّا الطَّرد؛ فهو الإزعاجُ والإبعادُ على سبيل الاستخفافِ[1].

وممّا يؤكِّد ذلك أنَّ لفظَ الطَّرد جاء في حديث القرآن ناهيًا الرَّسولَ ﷺ عن طرد ضعفاءِ المسلمينَ في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَطۡرُدِ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم﴾ [الأنعام: 42]؛ لأنَّ كفّار مكَّةَ كانوا يريدون من الرَّسول ﷺ طردَ هؤلاءِ الضُّعفاءِ مِن مجلسِهم استخفافًا واستضعافًا لهم، فجاء القرآن ونهى رسولَ الله ﷺ عن ذلك.

الظّالمُ في الدّنيا، لا أملَ له في نَعيمِ الأُخرَى

دَلالَةُ التَّعْبِيرِ بِاسْمِ الجلالة (اللهِ):

في قَوْلِهِ تعالى: ﴿أَن لَّعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، إضافَةُ اللَّعْنَةِ إلى اسم الجلالة (الله) في الآية الكريمة، تعظيمًا للَّعْنَةِ التِّي تَلْحَقُ أهلَ الظُّلْم؛ إذْ كانَ هذا الطَّرْدُ والإبعادُ مِنَ المَلِكِ الأعظَمِ الجامِعِ لصفاتِ الجلال والكمالِ، وكان إبعادُهُ أهلَ الظُّلْمِ إبعادًا على وجهِ الغَضَبِ[2].

إبْعادُ اللهِ تَعالَى أَهْلَ الظُّلْمِ، مَشوبٌ بالسُّخطِ عليهم، والغضبِ منهم

دَلالَةُ (ال) فِي لفظِ ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾:

اللّامُ في ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ مِنْ قَوْلِ اللهِ سُبحانَهُ: ﴿أَن لَّعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، دالَّةٌ على استغراقهم لكلِّ أفرادِ الظُّلم، والمعنى: أنَّ لعنةَ اللهِ على أهلِ الظُّلْمِ الذين استشرى الظُّلمُ فيهم وتمكَّن منهم، فلم يدَعوا بابًا من أبوابِ الظُّلم إلّا وارتكبوهُ، وعلى رأس ذلك كلِّه الإشراكُ باللهِ، قالَ اللهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ﴾ [لقمان: 13].

عِظَمُ اللَّعْنَةِ مَنوطٌ بعِظَمِ الظُّلْمِ المُوجِبِ لَها

(1) الراغب، المفردات: (طرد، لعن).
(2) البقاعيّ، نظم الدرر: 7/405.

دَلالَةُ الإخْبارِ بِعبارةِ ﴿لَّعۡنَةُ ٱللَّهِ﴾:

تَحْقِيقُ طَرْدِ الظَّالِمِينَ وإبْعَادِهم عن رَحْمَةِ اللهِ، عقابٌ هُم به جَديرون

التَّأذينُ الواردُ بالإخبارِ عن الظَّلَمَةِ باللَّعْنِ في قولِه تعالى: ﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنُۢ بَيۡنَهُمۡ أَن لَّعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ هو إعلامٌ بأنَّ أهلَ النّار مُبْعَدونَ عن رحمةِ اللّه تعالى، والغَرضُ مِنَ الإخبار: زيادَةُ التَّيئيسِ لهم، وهو دعاءٌ عليهم بزيادَةِ البُعْدِ عن الرَّحمَةِ، إمّا بمضاعفَةِ العذابِ عليهم، أو تحقيقِ خلودِهم في نارِ جهنَّمَ[1].

سِرُّ التَّعْبِيرِ بِـ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾:

الظُّلْمُ مُوجِبٌ مِنْ مُوجِباتِ اللَّعْنِ للمُستحِقِّ له بتصرُّفاتِه

جاءَ اسمُ ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ فاصِلَةً لِلآيةِ في قَوْلِ اللّهِ تعالى: ﴿أَن لَّعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ دونَ (أن لعنةُ اللّهِ على أصحابِ النّارِ)، وذلك لنِكاتٍ: **إحداها:** تعليلُ استحقاقِهمُ اللَّعْنَ، وأنَّ ظُلْمَهُم هو الذي أورَدَهم مواردَ الهلاكِ، **وثانيها:** النِّداءُ على خُبْثِ نفوسِهم، وفسادِ اعتقادِهم، **وثالثها:** زيادَةُ تفظيعِ حالِهم[2]، **ورابعها:** أن يُعْلَمَ أنَّ المُرادَ بالظّالِمينَ وما لَحِقَهُ مِنَ الأوْصافِ في الآيةِ بَعْدُ - ﴿ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجٗا وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ كَٰفِرُونَ﴾ - يُرادُ به: أصحابُ النّارِ، **وخامسها:** تتمَّةً لمسرَّة أهلِ الجنة، وزيادةً في حسرةِ أهلِ النّار.

دَلالةُ الوَصْفِ بِصِيغَةِ اسْمِ الفاعِلِ ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾:

اعتبارُ الظُّلْمِ لَقَبًا لِأَصْحابِ النّارِ لِشِدَّةِ مُلازَمَتِهِمْ لَهُ

وردَ وصفُهم بالظُّلْمِ بصيغَةِ اسم الفاعل ﴿أَن لَّعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، وشأنُ اسم الفاعِلِ أن يكونَ حقيقةً في الحالِ مجازًا في الاستقبالِ، ولا يكونُ للماضي، والظُّلْمُ قد صدَرَ منهم قَبْلَ ورودِهم الآخرَةَ، وذلك لأنَّ وصْفَ ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ تعريفٌ لهم بوصفٍ جرَى مَجْرَى الألقابِ، به تُعْرَفُ جماعَتُهُم، كما يُقال لأهلِ الإسْلام:

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/138.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/138.

المؤمنونَ، فلا يُنافي أنَّهم حين وُصِفوا به لَم يَكونوا ظالِمين؛ لأنَّهم قَد عَلِموا بُطْلانَ الشِّرْكِ حقَّ العِلْم[1].

سِرُّ التَّعبيرِ بالاسميَّةِ في قوله: ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾:

دوامُ الظّالِمِ على ظُلمِه، جعلَه عُرْضَةً لِلَعْنَةِ الله تعالى

في قوله: ﴿أَن لَّعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ عبَّر بالاسميَّة الَّتي تفيد الثُّبوت والاستمرارَ؛ بخلاف الفعليَّة الَّتي تدلُّ على التَّجدُّد والحدوث كأن يقولَ: (أن لعنةُ الله على الذين ظلموا)؛ لأنَّ المناسبَ لحال هؤلاء الذين لعنَتهُم الملائكةُ والنّاس جميعًا، أنَّ الظُّلمَ فيهم ثابتٌ ومستقرٌّ؛ لأنَّهم ظلّوا طَوالَ حياتِهم على ارتكابِ الظُّلم؛ فما جاء هذا الوصفُ إلّا بعدَ وقوعِه منهم واستمرارهم عليه؛ فما انفكّوا عن الظُّلم، ولا انفكَّ الظُّلم عنهم، فصاروا عنوانًا لكلِّ ظلمٍ في المجتمع.

بَلاغَةُ التَّصْوِيرِ فِي الآيَةِ الكَرِيمَةِ:

بَيانُ فَرَحِ المؤمنين، وخِزْيِ المُكَذِّبينَ؛ وحِرْمانِهم من رَحْمَةِ اللهِ

في هذه الآيةِ تصويرٌ لمشهدٍ من مشاهدِ اليوم الآخر، وهو نداءُ أصحابِ الجنَّةِ أصحابَ النّارِ نداءً يُسجِّلُ عليهم الخِزْيَ والعارَ والنَّكالَ، ويُدْخِلُ على نفوسِهم النَّدامَة والحَسْرَة؛ لكونِهم كذَّبوا بما يَرَوْنَ حقيقَتَهُ ماثِلَةً أمامَهم، في مقابِلِ النَّعيم الذي آلَ إليه أهلُ الإيمانِ، ورأوْهُ أيْضًا واقعًا ماثلًا، وفي هذا صورةٌ مِنَ الكَلامِ الدّالِّ على الرِّضا والطُّمأنينَةِ واللَّذَّةِ من جانِبٍ، والحسرةِ والقَلَقِ والذِّلَّةِ من جانِبٍ آخَرَ، ويُصَوِّرُ الحُكْمَ النّافذَ الَّذي لا يُرَدُّ؛ حيث يُعْلِمُ بِهِ مُؤَذِّنٌ، لا تُدْرَكُ حقيقَتُهُ ولا مَن هو، ولا ما هو أثرُه في نفوسِ سامِعيه؛ فهو تصويرٌ بديعٌ قويٌّ يُحرِّكُ النُّفوسَ، ويهُزُّ المشاعِرَ، ويُظْهِرُ العاقِبَةَ الأليمَةَ لِلْمُكَذِّبينَ؛ وهي طردُهم وحرمانُهمْ من رحمَةِ اللّهِ تعالى مُشيرًا إلى أسبابِ هذا الحِرْمانِ، وهو ظُلْمُهم[2].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/138.
(2) طنطاوي، التّفسير الوسيط: 5/276.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(النّداءُ) و(الدُّعاءُ):

بَعُدَ أهلُ النّارِ، فناسَبَهم النِّداءُ للبعيدِ

قوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ﴾، جاء بالنداء، وليس بالدّعاء، ويرى بَعضُهم أنَّ الدُّعاءَ والنداءَ، بمعنًى واحدٍ، في حين أنَّ القرآن الكريم فرَّقَ بينهما في الاستعمال في قوله تعالى: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنۡعِقُ بِمَا لَا يَسۡمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءًۚ﴾ [البقرة: 171]، وهذا يدلُّ على أنَّ النِّداء له معنًى يختلف عن الدُّعاء يؤكِّد وجودَ فرقٍ بينهما؛ فالنِّداءُ رفعُ الصَّوت، والدُّعاءُ يكون برفعِ الصَّوتِ وخفضِهِ، فتقولُ: دَعَوتُ فلانًا مِنْ بعيدٍ، وتَقولُ: دعوتُ اللّٰه تعالى في نَفْسي، ولا يَصِحُّ أن تقولَ: نادَيْتُ اللّٰه في نَفْسي، والدُّعاءُ قد يكونُ بعلامةٍ من غير صوتٍ ولا كلام، ولكن يكونُ بإشارةٍ تنبئُ عن معنًى؛ بخلاف النِّداء، فلا يكونُ إلّا برفع الصَّوت وامتدادِهِ[1].

(1) العسكريُّ، الفروق اللغوية، ص: 38.

﴿ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجٗا وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ كَٰفِرُونَ ٤٥﴾ [الأعراف: 45]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

العلاقةُ بين أوصافِ المستحِقِّين للنّارِ واللّعنةِ، وبين الكفَرةِ الصّادِّين عن سَبيلِ الله المستقيمِ

لَمّا ذَكَرَ اللّهُ تعالى في الآية السابقة إعلامَ المؤَذِّنِ باستحقاقِ أصحابِ النّارِ الطَّرْدَ والإبعادَ مِن رحمَةِ اللّهِ تعالى، وذكَرَ الوصْفَ الَّذي بِهِ استحقّوا ذلك وهو الظُّلْمُ؛ ذكرَ في هذه الآيَةِ بقيَّة هذهِ الأوصاف الَّتي صدرت منهم، واستحقّوا بها اللَّعنَ؛ فقالَ سُبحانَهُ: ﴿ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجٗا وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ كَٰفِرُونَ﴾.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَصُدُّونَ﴾: الصّادُ والدّالُ تدورُ أكْثَرُ تصاريفِها علَى معنَى الإعراضِ والعُدُولِ، وَمِنْهُ: الصَّدُّ؛ وهو الإعراضُ، والمَيْلُ إلى أحدِ الجانِبَيْنِ[1]، وَصَدَّ عَنِ الشَّيءِ: صَرفَ غيرَهُ عَنْهُ[2].

والصَّدُّ يَرِدُ على ضَرْبَيْنِ[3]: **أحدهُما**: أن يكونَ بمعنَى الانصِرافِ عن الشَّيءِ والامتناعِ عنه، ومنه قَوْلُ اللّهِ تعالى: ﴿رَأَيۡتَ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودٗا﴾ [النساء: 61]. **والآخَرُ**: أن يكونَ بِمعنى الصَّرْفِ والمَنْعِ، ومنه قَوْلُه سُبحانَهُ: ﴿ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾.

2) ﴿وَيَبۡغُونَهَا﴾: الباءُ والغَيْنُ والياءُ تدلُّ اشتقاقاتُها على معْنَيين، أحدُهما: طلبُ الشَّيءِ، والآخَرُ: ضَرْبٌ مِنَ الفسادِ، ومِنَ الأوَّلِ قولُهُم: بَغَيْتُ الشَّيءَ أبْغيهِ، بمعنَى: طلَبْتُهُ[4]، ومن الثاني: معنَى قولِ اللّه

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (صد).
(2) نشوان الحميري، شمس العلوم: (صد).
(3) الرّاغب، المفردات: (صدد).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بغي).

تعالى: ﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾: أنَّهُم طلبوا سَبيلَ اللّهِ بالصَّلاةِ لِغَيْرِهِ، وتَعْظيمِ ما لَم يُعَظِّمْهُ اللّهُ، فأخْطَؤوا الطَّريقَ وطلَبوهُ ضالّينَ عنه[1].

3) ﴿عِوَجًا﴾: العَيْنُ والواوُ والجيمُ ترجِعُ تصاريفُها إلى معنى المَيْلِ في الشَّيءِ[2]، أو العَطْف عَن حالِ الانْتِصابِ[3]، ومنه العَوَجُ؛ وهو: الانْعِطافُ فيما كانَ قائِمًا، فمالَ[4].

ومعنَى قولِهِ ﷻ: ﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ أي: يَلْتَمِسونَ المَيْلَ والانْحِرافَ لدينِ اللّه تعالى[5].

❁ المعنى الإجْماليُّ:

بيَّن اللّه تعالى في هذه الآية أنَّ الظّالِمين الّذين حقَّت عليهم لعنَةُ اللّهِ تعالى، هُمُ الّذين كفروا باللّهِ سُبحانَهُ، ومنعوا النّاسَ بغيًا وعدوانًا مِن سلوكِ طريقِ الحقِّ، وحاوَلوا أن يُغيِّروا دينَ اللّهِ، ويُبدِّلوهُ عمّا جعلَهُ لَهُ مِنَ الاسْتِقامَةِ حتَّى ينفرَ النّاس منهُ، ويبتعدوا عنهُ، وهم بالآخرةِ وما فيها من البعْثِ والثَّواب والعقابِ جاحِدونَ[6]. وترشدُ الآيةُ إلى التّنديدِ بالصدِّ عن سبيل اللّه، والظّلمِ والكفرِ بالآخرة، وهي الأسبابُ الجامعة للشّقاء في الدّار الآخرة.

أوصَافُ الظّلَمةِ الّذين استحَقُّوا اللّعْنَةَ، باعْوجاجِ سبيلِهم، وصدِّهم عنِ الحقِّ

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

عِلَّةُ فَصْلِ قَوْلِ اللهِ تَعالَى: ﴿ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ عَمّا قَبْلَهُ:

فُصِلَ قولُ اللّه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ عمّا قبلَهُ؛ لكونِ الاسم الموصولِ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ وقعَ صِفَةً لـ ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ من قوله سُبحانَهُ: ﴿أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، وشأنُ الصِّفَةِ ألّا تُعْطَفَ على الموصوفِ.

بَيانُ حَقيقَةِ الظُّلْمِ الّذي يَسْتَحِقُّ أَهْلُهُ عَظيمَ اللَّعْنِ، وشَديدَ العَذابِ

(1) الواحدي، التفسير البسيط: 9/149.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عوج).
(3) الرّاغب، المفردات: (عوج).
(4) ابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم: (عوج).
(5) مكّيّ القيسّي، الهداية إلى بلوغ النهاية: 5/3770.
(6) ابن جرير، جامع البيان: 12/448، ونخبة من العلماء، التّفسير الميسّر، ص: 156.

ويَجوزُ أنْ يَكونَ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ في محلِّ رفعٍ على أنَّه خبرٌ لمبتدأٍ محذوفٍ، وفُصِلَتِ الجُمْلَةُ عَمّا قبلَها - على هذا الوَجْهِ - لوقوعِها بيانًا وتفسيرًا لِما قبلَها[1]، فبينَ الجُمْلَتَينِ كمالُ الاتِّصالِ، ويَحْتَمِلُ أن تكونَ الجملَةُ استئنافًا بيانيًّا، فيكون بين الجُملَتَيْنِ شِبْهُ كمالِ الاتِّصالِ، وذلك أنَّه لمّا قيل: ﴿أَن لَّعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ وكان ذلكَ يورِثُ سُؤالًا في نفسِ المُتَلَقّي؛ وهو: هل المرادُ كلُّ مَنْ وقعَ منه ظُلْمٌ ولو كان ذلك يسيرًا؟ فجاء الجوابُ ببيانِ حقيقةِ هؤلاءِ الظّالِمين، فقال سُبحانَهُ: ﴿ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾.

دَلالَةُ الوَصْفِ بالاسمِ المَوْصُولِ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ حِكايَةً عَن قَوْلِهِمُ السّابِقِ:

الإعْراضُ عَنْ سَبِيلِ اللهِ تَعالَى وهَدْيِه، طبيعةُ كُلِّ ظالِمٍ غَشومٍ

في قَوْلِ اللّهِ تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، يَجوزُ أن يكونَ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ وصْفًا لـ ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، ونُكْتَةُ الوصْفِ تقريرُ معنَى الظُّلْم؛ لكَوْنِ الإعراضِ لازمًا لكلِّ ظالمٍ[2]، وهذا الوصْفُ بالاسْمِ المَوْصولِ حِكايَةٌ عَن قَوْلِهِمُ السّابِقِ، والمعنى: الذينَ كانوا يَصُدّون عن سبيلِ اللّهِ؛ وذلك لأنَّهم حالَ تأذينَ المؤذِّنِ لَمْ يَكونوا مُتَّصِفينَ بِهَذا الوَصْفِ[3].

سِرُّ التَّعبيرِ بالصَّدِّ ﴿يَصُدُّونَ﴾ دونَ المَنْعِ:

شِدَّةُ الظُّلْمِ مَدْعاةٌ إلَى مَنْعِ وُصُولِ الخَيْرِ إلَى الخَلْقِ

في قَوْلِ اللّهِ تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، آثر القرآنُ الكريم التَّعبيرَ بالصَّدِّ دون المنع؛ لوجود فرقٍ بينهما؛ فالصَّدُّ كما يقول الرّاغبُ: قد يكون انصرافًا عن الشَّيءِ وامتناعًا، كما في قوله تعالى: ﴿يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودٗا ٦١﴾ [النساء: 61]، وقد يكون صرفًا ومنعًا كما في هذه الآية ﴿ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، والصَّدُّ: ما يحول من الجبل، والصَّديد: ما يحول بين اللَّحم والجلد من القَيح.

(1) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 6/2845.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السليم: 3/229، والآلوسي، روح المعاني: 4/362.
(3) أبو حيان، البحر المحيط: 5/56.

أمّا المنع: أن تحولَ بينَ الرَّجلِ وبين الشَّيءِ الَّذي يريده، قاله ابن منظور، ولذلك أُطلقَ المنعُ على ما لأجلهِ يتعذَّر الفعلُ على القادر[1].

وممّا سبقَ يتبيَّن لنا أنَّ الصَّدَّ: هو المنعُ عن قصد الشَّيء خاصةً، والمنعُ يكون في ذلك وفي غيره، فهو أعمُّ، فتقول: منعَ الحائطَ عن الميل، ولا تقول: صدَّ الحائطَ عن الميل؛ لأنَّ الحائطَ لا قصدَ له.

وعلى هذا فاختيارُ لفظ (الصَّدِّ) هنا في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ﴾ لما يحمله من دلالةٍ في موجبِ لعنةِ الظالمين؛ لأنَّهم لم يقِفوا عند ظُلم أنفسِهم بكُفرهم فقط، بل تعدَّى دورهم إلى صرفِ النّاس ومنعهم عن الإيمانِ باللّه وبرسوله، وذلك بتنفيرِ النّاس عن هذا الدّين ومحاولةِ إظهارِ أنَّهُ غيرُ صالحٍ لحياة النّاس.

والصَّدُّ عَمّا هذا وصْفُهُ يَفْتَقِرُ إلى قوَّةٍ في هذا المَنْعِ واجتهادٍ فيه، ففي هذا إيماءٌ إلى اجْتِهادِهم في باطِلِهِمْ، لذلك عبَّرَ بالصَّدِّ.

دَلالةُ حذْفِ المفعولِ للفعْلِ ﴿يَصُدُّونَ﴾:

حُذفَ مفعولُ ﴿يَصُدُّونَ﴾ من باب الإيجاز، ونُكْتَتُه: إرادَةُ العُموم، أي: يصدّونَ كُلَّ أحدٍ عن سبيلِ اللّهِ، فقد بلَغَ بهم الظُّلْمُ والانحرافُ أنَّهم لا يُريدونَ أن يَصِلَ الخَيْرُ إلى أحدٍ مِنَ الخَلْقِ.

دَلالَةُ إجْراءِ الصِّلَةِ بِصِيغَةِ المُضارِعِ:

جاءَ الفِعْلان ﴿يَصُدُّونَ﴾ و﴿وَيَبْغُونَهَا﴾ في جملة الصِّلَةِ مِن قَوْلِهِ تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ مُضارِعَيْنِ؛ مَعَ أنَّ شأنَ الفِعْلِ المُضارِعِ أن يَدُلَّ على حدثٍ حاصلٍ في زَمَنِ الحالِ، وهم زَمَنَ تأذينَ المؤذِّنِ لم يكونوا متَّصفين بالصَّدِّ عن سبيلِ اللّه ولا بِبَغْيِ عِوَجِ السَّبيلِ، وذلك لإرادَةِ ما يُفيدُهُ الفِعْلُ المضارِعُ من تَكرارِ حصولِ الحَدَثِ تبعًا لمعنى التَّجدُّدِ، والمُراد:

حِرْصُ الظّالمينَ عَلى مَنْعِ وُصولِ الخَيْرِ إلى المحتاجِين مِنَ العِبادِ

تَقْرِيعُ أَصْحَابِ النّارِ بِاسْتِحْضارِ الأَحْوالِ القَبِيحَةِ

(1) الرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (صدد).

وصفُهم بتكرُّرِ ذلك منهم في الزَّمَنِ الماضي؛ استحضارًا لحالِهِمُ القَبيحَةِ[1].

بَراعَةُ التَّصْوِيرِ، فِي الصّدِّ عن سَبيلِ الصّانعِ القديرِ:

الصّدُّ مَنْعُ أَهْلِ الباطِلِ أَهْلَ الحَقِّ مِنْ سُلُوكِ طَرِيقِ الهُدَى

في قَوْلِ اللّهِ تَعالَى: ﴿ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، تظهرُ براعةُ هذا التَّصويرِ في جعلِ الَّذين يصُدُّون النّاس عن سبيلِ اللّه تعالى بأنَّهم قُطّاع طريق، فكأنَّهُمْ يقفُونَ على رأسِ طريقِ الحقِّ يَمْنَعُونَ مَن يُريدُ سُلوكَهُ؛ فهم يترصَّدُونَ أهلَ الهُدَى، ويَرُدُّونَهُمْ[2] عن الصِّراطِ المستقيمِ الموصلِ إلى الحقِّ.

سِرُّ التَّعْبِيرِ بِالسَّبِيلِ، دون غيرِهِ منَ الألفاظِ:

دِينُ اللّهِ تَعالَى وَشَرْعُهُ سَهْلٌ سُلُوكُهُ؛ لِمُوافَقَتِهِ الفِطْرَةَ الإِنْسانِيَّةَ

جاءَ التَّعبيرُ عَن دين اللّهِ تعالى وشَرْعِهِ بالسَّبيلِ في قَوْلِه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾؛ لِما يدلُّ عَلَيْهِ مِنَ الِامْتِدادِ والسُّهولةِ والسَّعَةِ[3].

ولذلك فإنَّ النّاظرَ في آياتِ القرآن الكريمِ يجدُ لفظَ السَّبيل في الغالب مضافًا إلى لفظ الجلالة؛ ليؤكِّدَ ملمحَ السُّهولةِ في شرعِ اللّه ووضوحِهِ للسّالكين.

بخلاف الطَّريق؛ فهوَ مستعملٌ في القرآنِ الكريم في الدَّلالة على المسلكِ الَّذي يسلكه الإنسانُ؛ محمودًا كان أو مذمومًا.

سِرُّ إِضافَةِ السَّبِيلِ إِلَى اسْمِ الجلالة (الله):

تَفْظِيعُ شَأْنِ الصّادِّينَ عَنْ سَبِيلِ اللّهِ تَعالَى، كُفْرانًا وظُلْمًا

أُضيفَ السَّبيلُ إلى اسْم الجلالة (اللّه) في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾؛ لأنَّه هو الَّذي شرعَها، وبيَّن معالمها، وأمرَ بسلوكها، ووعدَ بالثَّواب مَن سلكَها، وحذَّر بالعقاب مَن لم يسلُكْها[4]،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/138.
(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 6/2845.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/405، ومحمَّد داود، معجم الفروق الدّلاليّة في القرآن الكريم، ص: 281 - 284.
(4) الشّنقيطيّ، العذب النّمير: 3/277.

وفي ذلك تفظيعُ شأنِ الصّادّينَ عن هذا الأمْرِ الجليلِ، والنِّداءُ عليهم بالانحرافِ والضَّلالِ؛ لأنَّ الأحرى بهم بدلًا منَ الصَّدِّ عن سبيل اللّه أن يتَّبعوه، ويرغِّبوا النّاسَ فيه.

بَلاغة المَجازِ، فِي قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾:

شِدَّةُ حَنَقِ أَهْلِ الباطِلِ عَلَى دِينِ اللهِ تَعالَى، تَتَكَرَّرُ دائِمًا وتَتَوالَى

في قولِه تعالى: ﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ مجازٌ مرسَلٌ، بعلاقَةِ المَلْزوميَّة، فأُطْلِقَ الملزومُ وأُريدَ لازِمُه؛ لأنَّ دينَ اللّهِ تعالى وشرعَهُ غيرُ قابلٍ للاعْوِجاجِ، ولا يستَطيعونَ ذلك، وإنَّما المرادُ أنَّهم يُريدونَ إظهارَ هذه السَّبيلِ عَوْجاءَ، بما يَخْتَلِقونَ لها من نقائِصَ يُموِّهونَها على النّاس؛ تنفيرًا لهُم عَنِ الإسلامِ[1].

وفي التَّعبير بالمجازِ: إشارةٌ إلى شدَّةِ حَنقِهم على هذا الدّين، بحيثُ إنَّه لو أمكنَهم إدخالُ العِوَجِ على الدّينِ ذاتِهِ؛ لما تَرَدَّدوا في ذَلِكَ.

نُكْتَةُ التَّعْبِيرِ بِالمَصْدَرِ ﴿عِوَجًا﴾:

مهْمَا اعوَجَّ أَهْلُ الكُفْرِ، فدِينُ اللهِ تَعالَى وَشَرْعُهُ مُسْتقيمٌ

﴿عِوَجًا﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ مصدَرٌ، وإنَّما وقعَ التَّعبيرُ بالمصدَرِ على سبيلِ المبالغَةِ[2]، والتقدير: (ويبغونها بَغيًا متّصفًا بشدّة العِوَجِ) أي: إنَّهم يرغبون رَغْبَةً عوْجاء في إظهارِ دينِ اللّهِ تعالى وشرعِهِ، حتّى انْسَلَخَ مُتَطلّبُهم هذا من ثوب الاستقامة، وأصبحَ في ثَوْبِ الاعْوِجاجِ والضّلال.

سِرُّ التَّعبيرِ بقوله ﴿عِوَجًا﴾ على صيغة التنكير:

الظّالمُ مُتطبّعٌ بإرادةِ مُطْلَقِ العِوَجِ، وذلك إلفٌ له وعادةٌ

عبَّر بالنَّكرة ﴿عِوَجًا﴾ الَّتي تدلُّ على الشّيوع، دون المعرفةِ (العِوج) الَّتي تفيدُ التَّعيين أو التّخصيص؛ لأنَّهم يريدون مطلقَ العِوَج، وهذا يدلُّ على شدَّة بغضهم لدين اللّه وعداوتهم له، ولا ينحصرون بعِوَجٍ بعينه، بل يريدون أن يقع العِوجُ في شريعة اللّه على أيِّ شكلٍ من الأشكال صغيرًا أو ضئيلًا.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/140.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/139.

سِرُّ التَّعبيرِ بالعِوَجِ دونَ الميلِ:

الظّالم يَميلُ مَعَ الفِتَنِ، لِيُشْبِعَ رغْبتَه في إشْقاءِ الآخَرينَ

في قوله تعالى: ﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ عبَّر بالعِوَج دون الميل؛ لوجود فرقٍ بينهما في الاستعمال، فالعَوجُ معناهُ في اللغة: العطف عن حال الانتصابِ، يقال: فلانٌ ما يعوُجُ عن شيءٍ يهمُّ به -أي ما يرجع-، والعَوَجُ يقال فيما يُدرك بالبصر سهلًا؛ كالخشب المنتصبِ ونحوه، والعِوَجُ يقالُ في ما يُدرك بالفكر والبصيرة، ويستعمل ذلك في الدّين والمعاش، قال تعالى: ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ﴾، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾. والعِوَجُ: ضِدُّ الاِسْتِقامَةِ، وهو بِفَتْحِ العَيْنِ في الأجْسامِ، وبِكَسْرِ العَيْنِ في المَعاني، وأصْلُهُ أنْ يَجُوزَ فِيهِ الفَتْحُ والكَسْرُ، ولَكِنَّ الاِسْتِعْمالَ خَصَّصَ الحَقِيقَةَ بِأحَدِ الوَجْهَيْنِ والمَجازَ بِالوَجْهِ الآخَرِ، وذَلِكَ مِن مَحاسِنِ الاِسْتِعْمالِ، فالإخْبارُ عَنِ السَّبِيلِ بِعِوَجٍ إخْبارٌ بِالمَصْدَرِ لِلْمُبالَغَةِ، أيْ ويَرُومُونَ ويُحاوِلُونَ إظْهارَ هَذِهِ السَّبِيلِ عَوْجاءَ، أيْ يَخْتَلِقُونَ لَها نَقائِصَ يُمَوِّهُونَها عَلى النّاسِ تَنْفِيرًا عَنِ الإسْلامِ كَقَوْلِهِمْ ﴿هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ۝٧﴾ [سبأ: 7]، ﴿أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ﴾ [سبأ: 8][1] أمّا الميلُ؛ فهو: العدولُ عن الوسط إلى أحد الجانبين، ويُستَعمل في الجور[2]. ومن خلالِ النَّظر في المعنى اللُّغوي لكلٍّ منهما: نجد أنَّ (عوج) يختلف عن الميلِ؛ لأنَّه يخرج عن حال الانتصابِ، وفي هذا إشارةٌ إلى أنَّ الدّين قائمٌ ومنتصبٌ في فطرة الإنسان، وما يفعله الظالمون هو ثنيُ هذا الانتصابِ الفطري في نفس المؤمن.

أمّا الميلُ؛ فهو في الغالب متعلِّقٌ بالأمور المعنويَّة؛ كميل القلب نحو شيء ما، قال تعالى: ﴿فَلَا تَمِيلُواْ كُلَّ ٱلْمَيْلِ﴾، وبذلك يتبيَّن أنَّ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/139.

(2) الراغب، المفردات: (عوج - ميل).

اختيار لفظ العِوَج هو المناسبُ لهذا السّياق في بيان فعل الصّادين في تغيير اتجاه الفطرة من الاستقامة إلى العِوَج، ويطلبون لسبيل اللّه اعوجاجًا بإيهام الناس ذلك.

بَلاغةُ الاستِخدامِ في الآية الكريمة:

سَبيلُ اللهِ مُستقيمٌ، والصّادّون يَتّخِذون طُرُقًا عَوجَاءَ

في قوله تعالى: ﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ محسِّنٌ بديعيٌّ وهو مُحسِّنُ الاستخدام؛ حيثُ إنّ عَوْدَ الضّمير على ما يدلّ عليه جميع معنى ذكر السَّبيل، في قوله تعالى: ﴿يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ لكلّ أجزائه، توسيعًا للمعنى، واستغراقًا في وصف طريقة الصّادّين من أهل الكفر والشّرك من اتّخاذ الطريق الأعوج، لِما هم عليه من الظُّلم والكفر[1]. وجاءَ التَّعبيرُ بالتَّأنيث في قوله تعالى: ﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾؛ لأنَّه عائدٌ إلى السَّبيل، وهو يُذكَّر ويؤنَّث[2]، كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ﴾.

فائِدةُ التَّعبيرِ بـ ﴿وَيَبْغُونَهَا﴾ دونَ يطلُبُونَها:

حَنَقُ الظّالمين، أورَثَهم ضَنَكَ الاعْوِجاجِ

آثر القرآنُ الكريم التَّعبيرَ بالفعل ﴿وَيَبْغُونَهَا﴾ دون يطلبونها؛ لأنَّ البغيَ طلبٌ بشدَّةٍ، فكأنَّهم في طلب العِوَج يعتبرون ذلك هو بُغيَتُهُم الَّتي يبتغونها، ويتركون كلَّ مستقيم، ويريدون كلَّ مُعوجٍّ، وذلك لسيطرة الأوهامِ عليهم، وتسلُّط الأهواءِ والشَّهوات.

سِرُّ ذِكْرِ الضّميرِ المُنفصلِ ﴿وَهُم﴾ مرّةً لا مرّتين:

لم يحْتَجْ مَوضعُ سُورةِ الأعراف إلى مزيدِ تَعيينٍ؛ فمَبْناها على الإيجازِ

ورد قوله تعالى: ﴿وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ كَٰفِرُونَ﴾، محتويا على الضّمير المنفصل مرّة واحدة، بينما ورد الضمير في سورة هود، في قوله تعالى: ﴿وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ﴾ مرّتين. والنّاظرُ في هاتين الآيتين من السّورتَين يجد تشابهًا لفظيًّا واضحًا مع اختلافٍ يسيرٍ بينهما؛ وقد أجاب العلماءُ عن ذلك، فقال ابن الزُّبير الغَرْناطي: "إنَّ ابتداءَ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/139.
(2) الثعلبي، الكشف والبيان: 12/93.

الإخبار في الأعراف بحالِ هؤلاءِ الملعونين في الآيتين هو قوله في موضعِ الأعراف: ﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ بَيۡنَهُمۡ أَن لَّعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

وفي موضع هودٍ ابتدأ الإخبارُ عنهم بقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُعۡرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمۡ وَيَقُولُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمۡۚ أَلَا لَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [هود: 18].

فالملاحظُ أنَّ موضعَ سورةِ هود جاء على الإطناب؛ وممّا يؤكِّد ذلك ورودُ الظّاهر في موضع المضمَر من قوله تعالى: ﴿عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، ولم يقُل: (عليهم)، فناسبَ الإطنابُ زيادةَ ضمير الفصل ﴿وَهُم﴾.

أمّا آيةُ الأعرافِ؛ فمبناها على الإيجاز، والَّذي ناسبه سقوطُ ضمير الفصل"[1].

وممّا يُذكَر في سرِّ عدم ذِكرِ ضمير الفصل في الأعراف، وذِكرِهِ في سورة هود: أنَّ ما في الأعراف جاء على أصلهِ غيرَ مزيدٍ فيه ما يجري مجرى التَّوكيد؛ أمّا الَّذي في سورة هودٍ فجاءَ بعد قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمۡۚ﴾ [هود: 18] فأُشير إليهم، ثم قال: ﴿أَلَا لَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، فلمّا صرَّح بوصف الظّالمين؛ التبسَ الأمرُ على السّامع: أهُمُ الذين كذَبوا على ربّهم أم غيرُهم ؟ فقال: ﴿وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ﴾؛ ليُعلَم أنَّهم هم المذكورون لا غيرهم؛ بخلافِ موضع سورة الأعرافِ، فلا يردُ فيه هذا الاحتمالُ؛ لذلك لم يُحتَجْ إلى توكيدِه.

دَلالَةُ تَقْدِيمِ الجارِّ والمَجْرُورِ:

بيانُ تَعْظِيمِ الكُفْرِ بِالآخِرَةِ، والمُبالَغةِ في تَقْبِيحِهِ

في قَوْلِهِ تعالى: ﴿وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ كَٰفِرُونَ﴾، قُدِّمَ الجارُّ والمجرورُ ﴿بِٱلۡأٓخِرَةِ﴾ اهتمامًا بشأنِ الآخِرةِ، وذلك يَقْتَضي تَعْظيمَ الكُفْرِ بها

(1) ابن الزبير الغرناطي، ملاك التأويل: 1/181.

والمبالغَةَ في تَقْبيحِه، ولا يُرادُ بالتَّقديم القَصْرُ؛ لأنَّ الكافِرَ بالقيامَةِ كافِرٌ بأشياءَ متعدِّدَةٍ ممّا يجبُ الإيمانُ به شَرْعًا. ولتَقْديمِ الجارِّ والمجرورِ فائدَةٌ أُخْرَى؛ وهي مراعاةُ التَّناسُبِ الصَّوْتيِّ لفواصِلِ الآيِ[1]، وذلك لأنَّ الآيةَ قبلَها اخْتُتِمَت بقولِه تعالى: ﴿أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، والآيةَ بعدها خُتِمَت بقولِه سُبحانَهُ: ﴿أَن سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾، فلو جرَى الكلامُ في هذه الآيَةِ على مقتضَى الظّاهرِ من تأخيرِ الجارِّ والمجْرورِ بأنْ يَرِدَ النَّظْمُ القرآنيُّ: (وهم كافِرون بالآخِرَةِ)؛ لفاتَ هذا التَّناسُبُ الصَّوْتيُّ.

نُكْتَةُ التَّعْبيرِ بالجُمْلَةِ الاسْمِيَّةِ، في هذه الآيةِ:

بَيانُ شِدَّةِ رُسُوخِهِمْ في الكُفْرِ، وَقُوَّةِ تمكُّنِ الكُفْرِ منهُمْ

الجُمْلَةُ في قولِ اللّه ﷻ: ﴿وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ كَٰفِرُونَ﴾ جملَةٌ اسميَّةٌ، وعُدِلَ إليها لِلدَّلالة على الدَّوام والثَّبات، وفي ذلكَ إشارَةٌ إلى رُسوخ الكُفْرِ فيهِم ورُسوخِهم فيه[2]، وأنَّهم كانوا جاحِدينَ جَحْدًا لا تحلُّلَ منه[3]، وذلك لأنَّ أكثَرَ الكُفْرِ حاصِلٌ بالاعْتِقادات العقليَّة الَّتي لا يُناسِبها التَّكَرُّرُ، ولِذا غويرَ بينَهُ وبَيْنَ وصْفِهِمْ بالصَّدِّ عَن سَبيلِ اللّهِ تعالى وإرادَةِ إظْهارِ العِوَجِ فيها؛ لأنَّهُما مِنَ الأفْعالِ القابلَةِ للتَّكَرُّرِ، بِخِلافِ الكُفْرِ، فإنَّ أكثَرَهُ لَيْسَ مِنَ الأفْعالِ، ولَكِنَّهُ مِنَ الانْفِعالاتِ القلبيَّة[4].

دَلالَةُ التَّعْبيرِ عَنْ كُفْرِهِمْ بِاسْمِ الفاعِلِ (كافِرُونَ):

اسْتِحْضارُ فَظائِعِ أَصْحابِ النّارِ، وَتَذْكِيرُهُمْ بِمُوجِبِ العَذابِ المُضارّ

وُصِفَ كُفْرُهم باسْمِ الفاعِلِ في قولِه تعالى: ﴿وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ كَٰفِرُونَ﴾، وإنْ كانَ اسمُ الفاعِلِ دالًّا في الأصْلِ على الحالِ، وهو مستعمَلٌ هُنا في الماضي؛ إذْ إنَّ كُفْرَهُم بالآخِرَةِ كانَ فيما مضَى مِنْ حياتِهم الدُّنيا[5]، وذلكَ لقَصْدِ وصفِهِم بتكرُّرِه منهم في الزَّمنِ

(1) الآلوسي، روح المعاني: 4/363.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 4/363.
(3) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 6/2846.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/140.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/138.

الماضي؛ اسْتِحْضارًا لحالِهِمُ الشَّنيعَةِ، ولتذكيرِهِمْ بِموجِبِ العَذابِ الذي هم فيهِ.

سِرُّ التَّعبيرِ بالآخرةِ في الآية الكريمة:

كُفرُهم بالآخرةِ كُفرٌ بكلِّ ما فيها من مشاهدَ وغَيْبِيّاتٍ

في قولِه تعالى: ﴿وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ كَٰفِرُونَ﴾ آثر القرآنُ الكريم ذِكرَ كُفرِهِم بالآخرةِ دون غيرِها من أوصافِ القيامة؛ لأنَّ لفظَ الآخرةِ هو الأعمُّ، وتندرج تحته كلُّ المشاهد بعد ذلك؛ فهم كفروا بالبعث والنُّشور والحساب والجزاء؛ من العقاب والثواب إلى غير ذلك ممّا يكون في الآخرة.

دَلالةُ التَّأكيدِ بعدّةِ مُؤكِّداتٍ في ختامِ هذه الآيةِ:

التَّأكيدُ أُسلوبٌ من أساليبِ إقامَةِ الحُجَّةِ على الظّالمين الكَفرةِ

قوله تعالى: ﴿وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ كَٰفِرُونَ﴾، النّاظرُ في ختامِ هذه الآية يجد أنَّ اللّه أكَّد كُفرَهم بالآخرة بعدة مؤكِّدات: **أوَّلُها:** ضمير الفصل (هم)، والغرضُ منه تأكيدُ الحكم بكفرِهم. **ثانيها:** تقديمُ الجار والمجرور ﴿بِٱلۡأٓخِرَةِ﴾ على ﴿كَٰفِرُونَ﴾، والغرضُ منه مزيدُ تأكيد كفرهم بالآخرة. **ثالثها:** التَّعبير بالجملةِ الاسميَّة، فإنَّها تدلُّ على استمرارهم على هذا الكفرِ، وأنَّهم جاحدون بالآخرة جحدًا مطلقًا[1].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(العِوَجُ) و(العَوَجُ):

العِوَجُ في القِيَمِ، والعَوَجُ في المحسُوساتِ، وكِلاهما مِنَ اللّفظِ المستعمَلِ الفَصيحِ

فرَّق كثيرٌ مِنْ أهل العِلْمِ بين العِوَجِ والعَوَجِ؛ بأنَّ العِوجَ يكونُ في المَعاني، والعَوَجَ في المحسوسات[2]، ويُشْكِلُ عليهِ قولُ اللّه تعالى: ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡجِبَالِ فَقُلۡ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسۡفٗا ١٠٥ فَيَذَرُهَا قَاعٗا صَفۡصَفٗا ١٠٦ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجٗا وَلَآ أَمۡتٗا ١٠٧﴾ [طه: 105 - 107]، وأجاب عنه الزَّمخشريُّ بقولِه: "فإنْ قُلْتَ: قد فرَّقوا بينَ العِوَجِ والعَوَجِ، فقالوا:

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 6/2846.

(2) الواحديّ، التَّفسير البسيط: 5/457، والماورديّ، النّكت والعيون: 3/284، وابن الجوزيّ، زاد المسير: 1/310.

العِوَجُ - بالكَسْرِ - في المعاني، والعَوَجُ - بالفَتْحِ - في الأعيانِ، والأرْضُ عَيْنٌ، فكَيْفَ صَحَّ فيها المَكْسورُ العَيْنِ؟ قلتُ: اخْتيارُ هذا اللَّفْظِ له مَوْقِعٌ حَسَنٌ بديعٌ في وصف الأرْضِ بِالاسْتِواءِ والمَلاسَةِ، ونَفْيِ الاعْوجاجَ عَنْها على أبْلَغِ ما يكونُ، وذلك أنَّكَ لَو عَمَدْتَ إلى قِطْعَةِ أرضٍ، فسَوَّيْتَها، وبالَغْتَ في التَّسوية على عَيْنِكَ وعيونِ البُصَراءِ مِنَ الفلّاحة، واتَّفقتُم على أنَّه لم يَبْقَ فيها اعوجاجٌ قطُّ، ثُمَّ اسْتَطْلَعْتَ رأْيَ المُهَنْدِس فيها وأمَرْتَهُ أن يَعْرِضَ اسْتِواءها على المقاييس الهَنْدَسيَّة؛ لَعَثَرَ فيها على عَوَجٍ في غَيْرِ مَوْضِعٍ، لا يُدْرَكُ ذلك بحاسَّةِ البَصَرِ، ولكنْ بالقياس الهندَسيِّ، فنفَى اللهُ عزَّ وعلا ذلك العَوَجَ الذي دقَّ، ولَطُفَ عَنِ الإدراك، اللَّهُمَّ إلّا بالقياس الذي يَعْرِفُه صاحِبُ التَّقدير والهندَسَة، وذلكَ الاعْوِجاجُ لَمّا لَم يُدْرَك إلّا بالقياس دون الإحْساسِ؛ لَحِقَ بالمعاني، فقيلَ فيهِ: عِوَجٌ بِالكَسْرِ"[1].

وقيَّدَ البيضاويُّ الفَرقَ بينَهُما بأنَّ العِوَجَ - بالكَسْرِ - في المعاني والأعيانِ ما لَم تَكُنْ مُنْتَصِبَةً، وبِالفتْحِ: ما كانَ في المُنْتَصِبِ مِنْها، كالحائط والرُّمْحِ[2]، والأرْضُ المستويَةُ مِنَ الأوَّلِ؛ فتكونُ آيةُ سورةِ طَهَ جاريةً على الأصْلِ، إلّا أنَّ الأكثرينَ على التَّفريقِ الأوَّلِ.

(1) الزمخشري، الكشّاف: 3/88.

(2) البيضاوي، أنوار التنزيل: 3/14.

﴿وَبَيۡنَهُمَا حِجَابٞۚ وَعَلَى ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٞ يَعۡرِفُونَ كُلَّۢا بِسِيمَىٰهُمۡۚ وَنَادَوۡاْ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡۚ لَمۡ يَدۡخُلُوهَا وَهُمۡ يَطۡمَعُونَ ٤٦﴾ [الأعراف: 46]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الرّبْطُ بين حالِ أهلِ الجنّةِ والنّارِ، وحالِ أصْحابِ الأعرافِ فيما بينَهُما

لمّا ذكرَ أهلَ الجنَّةِ وأهلَ النّارِ وجَزاءَ كُلٍّ منهما، ثُمَّ مُناداةَ أصحابِ الجنَّةِ لأصحابِ النّارِ؛ ذكَرَ الحِجابَ المضروبَ بينَهُما، وأصحابَهُ الذينَ هم عَلَيْه، فقال سُبحانَهُ: ﴿وَبَيۡنَهُمَا حِجَابٞۚ وَعَلَى ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٞ يَعۡرِفُونَ كُلَّۢا بِسِيمَىٰهُمۡۚ﴾.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿حِجَابٞۚ﴾: الحاءُ والجيمُ والباءُ تدورُ اشتقاقاتُها على معنَى المَنْعِ والسَّتْرِ، تقولُ: حَجَبْتُهُ، أي: مَنَعْتُهُ[1]، وكُلُّ شيءٍ مَنَعَ شَيئًا مِن شيءٍ؛ فقَدْ حَجَبَه[2]، ومنه: احْتَجَبتِ الشَّمْسُ في السَّحاب؛ إذا اسْتَتَرَتْ فيه[3].

والحجابُ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿وَبَيۡنَهُمَا حِجَابٞۚ﴾، السّاتِرُ الحاجِزُ بين أهلِ الجنةِ وأهلِ النار، والمرادُ بهِ السّورُ المذكورُ في قولِه سُبحانَهُ: ﴿فَضُرِبَ بَيۡنَهُم بِسُورٖ لَّهُۥ بَابُۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحۡمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلۡعَذَابُ﴾[4] [الحديد: 13].

2) ﴿ٱلۡأَعۡرَافِ﴾: العَيْنُ والرّاء والفاءُ تدورُ تصريفاتُها على تَمْييزِ أعلَى الشَّيءِ أو ظاهِرِه بِمَلْمَحٍ يدلُّ عَلَيْه، ومنه: عُرْفُ الجَبَلِ؛ وهو أعاليه، وكلُّ مُرْتَفَعٍ عِنْدَ العرَبِ: أعْرافٌ، ومنه قولُ الشّاعرِ:

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حجب).
(2) الخليل بن أحمد، العين: (حجب).
(3) ابن دريد، جمهرة اللغة: (حجب).
(4) ابن جرير، جامع البيان: 12/449.

كُلُّ كِنازٍ لَحْمُهُ نِيافِ *** كالعَلَمِ المُوفِي عَلَى الأعْرافِ[1]

والأعرافُ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَٰهُمْۚ﴾ سورٌ بينَ الجنَّةِ والنّارِ، سُمّيَ بِذَلِكَ لِارْتِفاعِهِ[2].

3) ﴿بِسِيمَٰهُمْۚ﴾: الواوُ والسّين والميمُ تدلُّ اشتِقاقاتُهُ على معنَى التَّأثير في ظاهِرِ الشَّيْءِ بأثَرٍ لازِمٍ يدُلُّ علَيْهِ[3]، والوَسْمُ: التَّأثير، والسِّمة: الأثرُ، تقولُ: وسَمْتُ الشَّيْءَ وسْمًا؛ إذا أثَّرْتَ فيه بِسِمَةٍ، ومنه قولُهُ تعالى: ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ﴾[4] [الفتح: 29].

والسّيما: العلامَةُ، و﴿بِسِيمَٰهُمْۚ﴾ في قولِ اللّه سُبحانَهُ: ﴿وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَٰهُمْۚ﴾ أي: بعلاماتِهِم، وسيما أهْلِ الجنَّةِ: بياضُ وجوهِهِم، وسيما أهلِ النّار: سَوادُ وجوهِهِمْ وزُرقةُ أعيُنِهِم[5].

4) ﴿يَطْمَعُونَ﴾: الطّاءُ والميمُ والعَيْنُ تدور تصاريفُها على رجاءٍ قويٍّ في القلبِ للشَّيْءِ[6]، والطَّمَعُ: نُزوعُ النَّفْسِ إلى الشَّيْءِ شَهْوَةً لَهُ[7]، ومنه قولُه تعالى: ﴿لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾، وهو طمَعٌ مسْتَنِدٌ إلى أماراتِ وقوعِ المطموعِ به، فهو مِنْ جنسِ الرَّجاءِ[8].

❁ المعنى الإجْماليُّ:

قِصّةُ الأعـرافِ بـين الـجَـنّـةِ والـنّـارِ، وبيانُ حـالِ أهلِها بين الخوفِ والشّوقِ والحِوارِ

بيَّنَ اللّه تعالى في هذه الآية، أنَّه يوجد بَيْنَ أصحابِ الجنَّةِ وأصحابِ النّار حاجِزٌ عظيمٌ يُقالُ لَهُ: الأعرافُ، وعلَى هذا الحاجِزِ رِجالٌ يعرفونَ كُلًّا مِنْ أهْلِ الجَنَّة وأهلِ النّار بعَلاماتِهِم؛ كابْيِضاضِ وُجوهِ أهلِ الجَنَّة، واسْوِدادِ وجوهِ أهْلِ النّارِ؛ وهَؤُلاءِ الرِّجالُ قَومٌ قَدِ

(1) ابن منظور، لسان العرب: (نوف).
(2) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 168.
(3) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (وسم).
(4) الرّاغب، المفردات: (وسم).
(5) الواحدي، التفسير البسيط: 9/153.
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (طمع).
(7) الراغب، المفردات: (طمع).
(8) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/143.

اسْتَوَتْ حسَناتُهُم وسَيِّئاتهم، وهم يَرْجونَ رَحْمَةَ اللهِ تعالى بهمْ، نادوا أهلَ الجَنَّةِ بالتَّحيَّةِ تكريمًا لهم قائلينَ: سَلامٌ عَلَيْكُم، وأهْلُ الأعْرافِ لَمْ يَدْخُلوا الجنَّةَ بَعْدُ، وهم يَرْجونَ دُخولَها[1].

وتُرشدُ الآية الكريمةُ إلى تقرير مبدأ أنَّ ثِقَلَ الحسناتِ ينجّي يوم القيامة، وأنَّ خِفَّتها تُرْدي، وأنَّ مَن استوَت حسناتُه وسيِّئاتُه ينجو آخِرَ مَن ينجو من دخولِ النار، وإلى مشروعيةِ الطَّمعِ إذا كان مُقتضاهُ موجودًا.

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

عِلَّةُ وَصْلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ﴾ بِما قَبْلَهُ:

اسْتِيعابُ ذِكْرِ أَقْسامِ النّاسِ يَوْمَ القِيامَةِ

وُصِلَ قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ﴾ بما قَبْلَهُ؛ لِاشْتِراكِهما في الخبريَّةِ، ووجودِ المناسبَةِ بينَهُما وهو الحديثُ عَنْ أحوالِ النّاسِ في الآخرَةِ، فبَيْنَ الجُمْلَتَيْنِ: توسُّطٌ بَيْنَ الكَمالَيْنِ؛ لأنَّ اللهَ تعالى لمّا ذكرَ أهلَ الجنَّةِ وأهلَ النّارِ وجزاءَ كُلٍّ، ذكَرَ الحِجابَ المضروبَ بينَهُما وأهلَهُ الذينَ هم عَلَيْهِ.

تَقْدِيمُ مُتَعَلَّقِ الخَبَرِ ﴿وَبَيْنَهُمَا﴾، على المسنَدِ إليه ﴿حِجَابٌ﴾:

بَيانُ أَهَمِّيَّةِ (الأَعْرافِ)

في قَوْلِهِ تعالى: ﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ﴾، قُدِّمَ مُتَعَلَّق الخبرِ (بَيْنَهُما) على المبتدأ ﴿حِجَابٌ﴾؛ لإرادَةِ الاهْتِمامِ بِهَذا المَكانِ المتوسِّطِ بينَ الجنَّةِ والنّار، وما ذُكِرَ مِنْ شَأْنِهِ وحالِهِ[2].

سِرُّ التَّعبيرِ بقوله: ﴿وَبَيْنَهُمَا﴾:

الحِجابُ المَضْروبُ وَسَطٌ بين الجَنَّةِ والنّارِ

آثرَ التَّعبيرَ بقوله: ﴿وَبَيْنَهُمَا﴾ - دون أن يقال: (بينهم) - لأنَّهُ يعود إلى الجنَّة والنّار، وهما اسما مكانٍ، فتصلحُ الإشارة بتوسُّط الحجاب بينهما، وليس بين المؤمنين والكافرين، وإنْ أجازَ بعضُهم ذلك، ورجَّحه ابنُ جُزيٍّ، حيث قال: "أو بَيْنَ أصحابِهما وهو أرجحُ لقوله: ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ﴾ [الحديد: 13]"[3].

(1) ابن جرير، جامع البيان: 12/449، ونخبة من العلماء، التّفسير الميسّر، ص: 156.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/140.
(3) ابن جزي، التسهيل لعلوم التنزيل: 1/289.

سِرُّ التَّعبيرِ بـ ﴿حِجَابٌۚ﴾ دونَ (الحاجزِ) أوِ (السّاترِ):

الحِجابُ أعمُّ مِنَ الحاجزِ والسّاترِ، لأنّه يَحجُبُ ما خلْفَه

عبَّر بالحجابِ دونَ الحاجزِ أو السّاترِ لوجودِ فرقٍ بينهم؛ فالحجابُ هو المانعُ والممنوعُ به، والسّاترُ هو المستورُ به، وفرَّق أبو هلالٍ العسكريُّ بينهما بأنَّ السِّتر لا يمنعُ من الدُّخول؛ والحجابُ يمنع من الدُّخول؛ لذلك كان التَّعبيرُ بالحجاب هنا هو المناسبَ؛ لأنَّ المقصودَ ليس ما يحجبُ البصرَ، وإنَّما يعني به: ما يمنعُ من وصولِ لذَّةِ أهلِ الجنَّة إلى أهلِ النّار، وأذيَّةِ أهلِ النّارِ إلى أهلِ الجنَّة[1].

يؤكِّد هذا قوله ﷻ: ﴿فَضُرِبَ بَيۡنَهُم بِسُورٖ لَّهُۥ بَابُۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحۡمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلۡعَذَابُ﴾؛ أمّا الحجزُ؛ فهو المنعُ بين الشَّيئين بفاصلٍ بينهما يمنعُ من كلِّ شيء، قال تعالى: ﴿وَجَعَلَ بَيۡنَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ حَاجِزٗاۗ﴾، وهذا غيرُ مرادٍ هنا في هذا المشهد؛ لأنَّهم يرون بعضَهم بعضًا، وعلى هذا فالحجابُ أعمُّ؛ لأنَّه يكون حسّيًّا ومعنويًّا؛ فالحسّيُّ منه ما يمنع الاستطراق دون الرّؤية، كالزُّجاج، وما يمنع الرّؤية وحدَها، كالسُّتور، وما يمنعهُما جميعًا؛ كالأسوار والحيطان، وهذا الحجابُ بين الجنَّة والنار هو السّورُ المذكور في قوله: ﴿فَضُرِبَ بَيۡنَهُم بِسُورٖ لَّهُۥ بَابُۢ﴾ الآية، ومن الحجْب المعنويِّ: منعُ الإرث حرمانًا أو نقصانًا[2].

نُكْتَةُ تَنْكِيرِ ﴿حِجَابٌۚ﴾:

عَظَمَةُ أحوالِ الآخِرَةِ، وَمُبايَنَتُها لمعهودِ النّاسِ فِي الدُّنْيا

في قَوْلِهِ تعالى: ﴿وَبَيۡنَهُمَا حِجَابٌۚ﴾، نُكِّر ﴿حِجَابٌۚ﴾ من قَوْلِ اللّهِ سُبحانَهُ: ﴿وَبَيۡنَهُمَا حِجَابٌۚ﴾ لإرادَةِ التَّعظيم[3]، ويجوزُ أن يكونَ التَّنكيرُ لبيانِ النَّوعيَّةِ، أي: بينَ الجنَّةِ والنّارِ نوعٌ منَ الحُجُبِ غَيْرِ المعهودَةِ عِنْدَ النّاسِ.

ولا تنافيَ بينَ الدَّلالَتَيْنِ، بَل إنَّ إحْداهُما تؤيِّدُ الأخرَى وتقوّيها،

(1) الراغب، المفردات: (حجب).
(2) محمد رضا، تفسير المنار: 8/380.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/140.

وذلك أنَّ كونَ التَّنكير لبيانِ النَّوعيَّةِ يقْتَضي تعظيمَهُ وتفخيمَهُ؛ فالحجابُ المضروبُ بينَ الجنَّةِ والنّارِ حجابٌ عظيمٌ، وهو غيرُ المعهودِ عِنْدَ النّاسِ.

دَلالَةُ (ال) فِي لفْظِ ﴿ٱلْأَعْرَافِ﴾:

أَصْلُ الأَعْرافِ: ما يُوجَدُ بارِزًا فِي أَعالِي السُّورِ؛ لِرَقابةِ حَرَكَةِ الأَعْداءِ

اللّامُ في ﴿ٱلْأَعْرَافِ﴾ مِنْ قَوْلِ اللهِ سُبحانَهُ: ﴿وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَٰهُمْۚ﴾ لِلْعَهْدِ، وهي الأعرافُ المعهودَةُ التي توْجَدُ بارِزَةً في أعالي الأسوارِ؛ ليَرْقُبَ مِنْها النَّظّارَةُ حركَةَ الأعداءِ، وليشْعُروا بهمْ؛ إذا داهَموهم، وهذا العَهْدُ عهدٌ عِلْميٌّ لا ذِكْريٌّ؛ إذْ لم يتقدَّمْ في سورَةِ الأعرافِ ذِكْرٌ للأعرافِ حتَّى يُقالَ: إنَّ العَهْدَ ذِكْريٌّ، فدلَّ هذا على أنَّ العَهْدَ ههنا علْميٌّ، وهو ما يعْهَدُهُ النّاسُ في الأسْوارِ، إلّا أنَّ حقيقتَهُ في الآخِرَةِ غيرُ معروفَةِ الكَيْفيَّةِ؛ لكوْنِها مِنْ أمورِ الغَيْبِ.

ويجوزُ أن تكونَ اللّامُ عِوضًا عنِ المُضافِ إليهِ، كالواردِ في قولِهِ تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِيَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: 41] أي: مأواهُ، وكذلك في قولِهِ ﷻ: ﴿وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ﴾ أي: وعَلَى أعْرافِ السّورِ[1].

دَلالةُ التَّعبيرِ بـ ﴿عَلَى﴾ الدّاخلةِ على لفْظِ ﴿ٱلْأَعْرَافِ﴾:

عُلوٌّ مكانٍ لا عُلوُّ مَكانةٍ؛ لأنّهمُ الّذين استوتْ حَسناتُهم وسَيّئاتُهم

قوله: ﴿وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ﴾، عبَّر بالحرف ﴿عَلَى﴾ في قوله: ﴿وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ﴾، مع أنَّ (على) تفيد الاستعلاءَ في اللُّغة، إلّا أنَّها جاءت هنا بدفعِ توهُّمِ أنَّهم فوق الفريقَين منزلةً، بل المراد من (على) هو العلوُّ الحسّيُّ؛ والمقصودُ أنَّ عُلوَّهم في المكان والموقعِ ليرَوا الفريقَين، لا لعلوِّ المكانة.

سِرُّ التَّعبيرِ بالأعراف دونَ السُّورِ:

عبَّر بالأعراف دون السّور؛ للدَّلالة على أنَّ المرادَ بها الأماكنُ البارزة في أعلى السّور للمراقبة، وهو فيما يسمَّى عادةً (ببرج

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/141.

المراقبة). وفيه إشارةٌ إلى أنَّ الرّجال الّذين على الأعراف يتطلَّعون إلى الأعلى في المنزلة، والمراد هنا الجنَّة، وساعدَ على ذلك أنَّ لفظَ الأعرافِ يُطلق على المكان المرتفع، ومنه عُرْف الدّيك الَّذي هو أعلى شيءٍ فيه، وأيضًا وصفُ اللّهِ حالَهم في قوله: ﴿وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾؛ بأنَّ طمَعهُم مسْتَنِدٌ إلى أماراتِ وقوعِ المطموعِ به، فهو مِنْ جنسِ رجاءِ ما عندَ اللّهِ الكريم.

أبراجُ الحِراسةِ الأمنيَّةِ سَبْقٌ قُرآنيٌّ، مَوجودٌ منذُ آمادٍ بعيدةٍ

دَلالَةُ تَأْخِيرِ المُسْنَدِ إِلَيْهِ ﴿رِجَالٌ﴾ في السِّياقِ:

أُخِّرَ المسنَدُ إليه ﴿رِجَالٌ﴾ مِنْ قَوْلِهِ ﷻ: ﴿وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ﴾ لتصحيحِ إيقاعِهِ مبتدأً؛ إذْ هو نكرَةٌ لا مُسوِّغَ لها إلّا تأخيرُها، وإنَّما جيءَ بالمسنَدِ إلَيْهِ نكِرةً؛ لأنَّ المقامَ يقْتَضي الحديثَ عن رجالٍ غيرِ معروفينَ، يَكونونَ على أعرافِ هذا السّورِ، فالتَّنكيرُ لإرادةِ عَدَمِ التَّعيينِ[1].

القَصْدُ تَبْيينُ الحُكْمِ؛ فَلا يُفْتَقَرُ إِلَى تَعْيينِ الأَفْرادِ

دَلالَةُ المَجازِ المُرْسَلِ:

الرِّجالُ في قولِ اللّه تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ﴾ يُرادُ بهم طائفَةٌ مِنَ الموحِّدينَ قصَّروا في العَمَلِ، فلم يبلغوا درجةَ استحقاقِ دخول الجنة، فيُحْبَسون بينَ الجنَّةِ والنّار، حتى يحكمَ اللّه فيهم[2].

قُصُورُ أَصْحابِ الأَعْرافِ عَنْ بُلُوغِهِمْ دَرَجاتِ أَهْلِ الجَنَّةِ

سِرُّ تخصيصِ المجازِ المُرْسَلِ ﴿رِجَالٌ﴾ بالذِّكرِ:

خَصَّ القرآنُ الكريم لفظَ الرِّجال بالذِّكر في قوله: ﴿وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ﴾ لما يحملُه هذا اللَّفظ من العموم في شموله للرَّجل والمرأة، وليس من باب التّقسيم، كما يظنُّ بعضُهم في تخصيصِ الرِّجالِ بالذِّكرِ دلالةً على عَدَمِ وجودِ نساءٍ بين أهلِ الأعرافِ[3]، ولكِنَّ لفظَ الرِّجالِ مجازٌ مرسَلٌ، بعلاقَةِ التَّقييد

إرادةُ العُمومِ في لفظِ (رجال) لشُمولِه الرَّجلَ والمرأةَ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/141.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/230.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/141 - 142.

والإطلاقِ، وذلك أنَّ الرَّجُلَ لفظٌ خاصٌّ في الأصْلِ بالإنسانِ بِقَيْدِ الذُّكوريَّةِ، فأُطْلِقَ عن هذا القَيْدِ، واستُعْمِلَ في مُطلَقِ الإنسانِ الشّامِلِ للرَّجُلِ والمرأةِ.

وذهب بعضُهم إلى أنَّ المقصود بالرِّجال هنا (الذُّكور)، وذلك بعمَلِهم لعملٍ يختصُّ بالرِّجال دون النِّساء، كالجهادِ؛ وهذا رأيٌ غيرُ دقيق، بل المرادُ الجميعُ، وإنَّما ذكرَ الرِّجالَ؛ لأنَّهم هم الذين يخاطبون أهلَ الجنَّة وأهلَ النّار دون مَن معهم من النِّساء، وهذا من باب التَّكريمِ والتَّصوُّنِ والإجلالِ لهنَّ، والحرصِ على مصلحتهنَّ؛ وفْق مقتضى قِوامةِ الرِّجال على النِّساء.

سِرُّ التَّعبيرِ بالمعرفةِ دونَ العلْمِ:

في قوله تعالى: ﴿يَعۡرِفُونَ كُلّٗا بِسِيمَٰهُمۡۚ﴾ آثرَ التَّعبيرَ بالمعرفة؛ لأنَّها أخصُّ من العِلم؛ وضدُّها الإنكار، ولأنَّ المعرفةَ تتعلَّق بإدراكِ الشَّيء بتفكُّرٍ وتدبُّرٍ لأثرِه دون إدراكٍ لذاتِ الشَّيء، ولهذا يُقال: فلانٌ يعرفُ اللّه، ولا يقال: فلانٌ يعلَمُ اللّه، وأيضًا لأنَّ المعرفة تتعلَّق بالظّاهر، ولذلك تجد استعمالَ القرآن يؤكِّدُ ذلك، قال تعالى: ﴿تَعۡرِفُ فِي وُجُوهِهِمۡ نَضۡرَةَ ٱلنَّعِيمِ﴾ [المطففين: 24]، وقال تعالى: ﴿تَعۡرِفُهُم بِسِيمَٰهُمۡ﴾ [البقرة: 273] ونحو ذلك من الآياتِ الَّتي تؤكِّد الفرقَ بين العِلم والمعرفة، لذلك ناسبَ هنا التعبيرُ بالمعرفة؛ لأنَّها مُتعلِّقةٌ بالمحسوسِ الظّاهرِ المكشوف، وهذا واضحٌ في وجوه أهلِ الجنَّة من بياضِ وجوهِهم، ومن سوادِ أهلِ النّار في وجوههم.

المعرفةُ إنَّما تكونُ بالظَّاهرِ، واللّه يَتولَّى السَّرائرَ

سِرُّ التَّعبيرِ بالفعْلِ المضارع ﴿يَعۡرِفُونَ﴾:

قوله: ﴿يَعۡرِفُونَ كُلّٗا بِسِيمَٰهُمۡۚ﴾، عبَّر بالفعل المضارع ﴿يَعۡرِفُونَ﴾ الَّذي يدلُّ على التجدُّد والحدوثِ في موقف أصحاب الأعراف عندما ينادون أصحابَ الجنَّة، وعندما تُصرف وجوهُهم تلقاءَ أصحابِ النّار؛ ففي كلِّ مرةٍ يتَّجهون فيها إلى الفريقَين تتجدَّد معرفتُهم

تجدُّدُ مَعرفتِهم لِسِيمَا الفريقَيْن عندَ رُؤيتِهم، مُفيدٌ في الوصْفِ

بسيماهم؛ وفي هذا إشارةٌ إلى ثبوت بياضِ ونضرة وجوه أهل الجنَّة، وعُبوسِ وسواد وجوه أهل النّار؛ فالتجدُّد في الرّائي وليس فى المرئي.

دَلالَةُ التَّنْوِينِ فِي لفْظِ ﴿كُلًّا﴾:

مَعْرِفَةُ أَصْحابِ الأَعْـــرافِ بِكُـلِّ فَرِيقٍ مِنْ فَرِيقَيِ الجَنَّةِ والنّارِ

التَّنوين في ﴿كُلًّا﴾ من قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَٰهُمْۚ﴾، عِوضٌ عَنِ المضافِ إليه، وسِياقُ الكلامِ يُعَيِّنُهُ، وهو قولُهُ تعالى قَبْلُ: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ﴾، وتقديرُ قولِهِ: ﴿يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَٰهُمْۚ﴾: يعرفونَ كُلَّ فريقٍ من أصحاب الجنَّة وأصحابِ النّارِ بعلاماتِهِمْ، أو: يعرفونَ كُلَّ أصحابِ الجنَّةِ وأصحابِ النّار[1].

دَلالَةُ حَرْفِ الباءِ فِي قولِه تعالى: ﴿بِسِيمَٰهُمْۚ﴾:

سِيمَا أَهْلِ الجَنَّةِ إِكْرامٌ وَتَشْرِيفٌ، وَسِيمَا أَهْلِ النّارِ إِذْلالٌ وَتَحْقِيرٌ

حَرْفُ الجرِّ (الباءُ) في ﴿بِسِيمَٰهُمْۚ﴾ مِنْ قَوْلِهِ تعالى: ﴿يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَٰهُمْۚ﴾، يُرادُ بِهِ المُلابسَةُ[2]، فعلاماتُ كُلٍّ مِن أهلِ الجنَّةِ وأهْلِ النّارِ مُلابِسَةٌ لَهُم ملازِمَةٌ، فسيما أهلِ الجنَّة ملازِمَةٌ لَهم إكرامًا لهم وتشريفًا لشأنِهِم، وسيما أهلِ النّارِ ملازِمَةٌ لهم إذلالًا لهم وتحقيرًا لشأنِهِمْ.

سِرُّ التَّعبيرِ بلفْظِ ﴿بِسِيمَٰهُمْۚ﴾ دونَ لفْظِ (علاماتِهِم):

السِّماتُ أَخَصُّ مِنَ العلاماتِ، في البيانِ القُرآنيِّ

آثر التَّعبير بـ(سيماهم) في قوله تعالى: ﴿يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَٰهُمْۚ﴾، دون أن يقال: (علاماتهم)؛ لأنَّ السِّمة أخصُّ من العلامة؛ لأنَّها تُطلق على العلامة الخفيَّة الَّتي تتراءى للمستبصر؛ فهي جزءٌ من العلامة، وهذا هو المناسب لسياق الآية في وسمِ أصحابِ الجنَّة وأصحاب النّار، وذلك من خلال الأثرِ النّاتج عن ذلك في الوجه؛ بخلاف العلامة فهي ما يُعرف به المَعْلم من إشارةٍ وغيرها؛ كالحجر تجعلهُ علامةً لدفينٍ تدفنه[3]، أو ما يكون في الأرض من معالمَ يُستدَلُّ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/143.
(2) الآلوسّي، روح المعاني: 4/364.
(3) العسكريّ، الفروق اللّغوية: (سيما).

بها على الطُّرق نهارًا، كما أنَّ النّجوم جعلها علاماتٍ للاهتداء بها ليلًا: ﴿وَعَلَٰمَٰتٖۚ وَبِٱلنَّجۡمِ هُمۡ يَهۡتَدُونَ ١٦﴾ [النّحل: 16].

سِرُّ التَّعبيرِ بالنِّداءِ:

عبَّر بالنِّداء في قوله: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ﴾ دون الأذان؛ لأنَّ المقامَ مقامُ تلطُّفٍ واستعطاف، وتضرُّعٍ ورجاء؛ بخلاف الأذان فهو إعلامٌ يحملُ معه الشِّدَّة والتوبيخ، كما سبق في قوله تعالى: ﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنُۢ بَيۡنَهُمۡ أَن لَّعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، وكما في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلۡعِيرُ إِنَّكُمۡ لَسَٰرِقُونَ﴾ [يوسف: 70].

نِداءُ أصحابِ الأعرافِ، للاسترحامِ والاستِعطافِ

معنى (أَنْ) فِي قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿أَن سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡۚ﴾:

﴿أَن﴾ مِنْ قَوْلِ اللهِ سُبْحانَهُ: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡۚ﴾ يَحْتَمِلُ أن تكونَ تَفْسيريَّةً، وذلك لِوُرودِها بعدَ فِعْلٍ اشتمَلَ على معنى القَوْلِ دون حروفِهِ، وهو (نادَوْا)، ويَجوز أن تَكونَ (أنْ) مُخفَّفةً مِنَ الثَّقيلَة، ويكونَ اسمُها (ضميرُ الشَّأْنِ) محذوفًا، والتَّقديرُ: أنَّه - أي: الشَّأْنُ والحالُ - سلامٌ عَلَيْكُمْ[1].

تَفْسيرُ النِّداءِ وَبَيانُ شَأْنِهِ، مُسْعِفٌ في الإبانةِ والبلاغِ

سِرُّ التَّعبيرِ بـ ﴿سَلَٰمٌ﴾ دونَ غيرِها في سِياقِ الآيةِ:

في قَوْلِهِ تعالى: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡۚ﴾، آثرَ التَّعبيرَ بالسَّلام دون غيرِهِ من عبارات التّحية؛ لأنَّه يحملُ أكثرَ من معنًى؛ فإنْ كانتِ المناداةُ بقولهم: سلامٌ عليكم قبل دخول الجنَّة، كان المرادُ الإخبارَ بالسَّلامة من العذابِ، والبشارةِ بالنَّجاة. وإنْ كان بعد دخول الجنَّة؛ فهي تحيةٌ محضة داخلةٌ في عموم قولِهِ تعالى: ﴿لَا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوٗا وَلَا تَأۡثِيمًا ٢٥ إِلَّا قِيلٗا سَلَٰمٗا سَلَٰمٗا ٢٦﴾ [الواقعة: 25 - 26][2].

السَّلامُ فيه كلُّ معاني الأمانِ، وسَوانحِ الاطْمئنانِ

سِرُّ تَنْكيرِ لفْظِ ﴿سَلَٰمٌ﴾:

نُكِّر لفظُ ﴿سَلَٰمٌ﴾ مِنْ قَوْلِه ﷻ: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 5/58، وأبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 6/2848.
(2) رضا، تفسير المنار: 8/383.

عَلَيْكُمْ﴾ لإرادَةِ التَّفخيم والتَّعظيم، فهو سَلامٌ وأمْنٌ عَظيمانِ يَمْنَعانِ وُصولَ أيِّ ضارٍّ ومُنَغِّصٍ إلى أَهْلِ الجنَّةِ[1].

أَهْلُ الجَنَّةِ في أمنٍ وسلامٍ، لا يَعرِضُ لهم ضَررٌ ولا تنغيصٌ

بَلاغَةُ المَجازِ المُرَكَّبِ في: ﴿سَلَمٌ عَلَيْكُمْ﴾:

قَوْلُ اللهِ تعالى: ﴿سَلَمٌ عَلَيْكُمْ﴾ جملَةٌ خبريَّةٌ، يجوزُ أن تكونَ باقيةً على دلالَتِها من إرادَةِ الإخبارِ بنجاتِهِمْ مِنَ المَكارِهِ على وجهِ التَّهنِئَةِ لأهلِ الجنَّةِ، أو المشارَكَةِ لهم في سُرورِهِمْ بالقَوْلِ، وليسَتْ واردَةً على سَبيلِ البِشارَةِ؛ لأنَّ البِشارَةَ تَرِدُ فيما لا يَعْلَمُهُ المُبشَّرُ، فيُعْلَمُ به.

لُزُومُ السَّلامَةِ والأَمْنِ لأَهْلِ الجَنَّةِ، في الحالِ والاستقبالِ

ويَجوزُ أن تكونَ الجملةُ خبريَّةً يُرادُ بها الإنشاءُ؛ وهو الدُّعاءُ والتَّحيَّةُ[2]، وإخْراجُ الدُّعاءِ بصيغَةِ الخَبَرِ، تحقيقٌ لثُبوتِهِ، وأنَّه ممّا يَنْبَغي أن يكونَ واقِعًا ولا بُدَّ؛ ففيه إيماءٌ إلى لُزومِ السَّلامَةِ والأَمْنِ أهلَ الجنَّةِ في جميعِ أحوالِهِمْ ومُسْتَقْبَلِ أوقاتِهِمْ.

ولا تَنافيَ بينَ الدَّلالَتَيْنِ، فيجوز أن يُحْمَلَ اللَّفْظُ عليهما معًا؛ إذِ اللَّفْظُ يجوزُ حَمْلُهُ على حقيقتِهِ ومجازِهِ؛ لكونِ هذا الحَمْلِ ضَرْبًا من ضُروبِ حَمْلِ المُشْتَرَكِ على مَعْنَيَيْهِ أو مَعانيه.

سِرُّ تَعديةِ ﴿سَلَمٌ﴾ بـ ﴿عَلَيْكُمْ﴾ دونَ اللّام:

عُدّيَ سلامٌ بـ (على) دون اللّام لوجود فرقٍ بينهما؛ فإذا قلتَ: سلامٌ عليكم؛ فمعناهُ التَّحيَّة؛ فقولك: سلَّمتُ عليه، أي: ألقَيتُ عليه هذا اللَّفظ تحيَّةً، وأوضَعتهُ عليه إيذانًا باشتمال معناهُ كاشتمال اللِّباس به؛ بخلاف سلامٌ لك، فهو من السَّلامةِ من المكروهِ، وهي مقصودُ العبدِ من الحياة، ولا يتأتَّى ذلكَ إلّا بسَلامتهِ من الشَّرِّ، وهو بدورِهِ يؤدّي إلى حصولِ الخير، والمعنى: ثبتَ لك السَّلامُ وحصل[3].

(السَّلامُ عليكَ)، فيه إلقاءُ التَّحيَّةِ، و(السَّلامُ لكَ) فيه الأمانُ الّذي يَكْتنِفُكَ

(1) البقاعيّ، نظم الدرر: 7/406.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 4/364، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/143.
(3) ابن القيم، بدائع الفوائد: 2/168.

عِلَّةُ فَصْلِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿لَمْ يَدْخُلُوهَا﴾ عَمّا قَبْلَهُ:

فُصِلَ قَوْلُ اللهِ ﷻ: ﴿لَمْ يَدْخُلُوهَا﴾ عَمّا قَبْلَهُ؛ لوُقوعِهِ استِئْنافًا بيانيًّا، فيكونَ بينهُ وبينَ ما قَبْلَهُ شِبْهُ كمالِ الاتِّصالِ، وذلك أنَّه لمّا قالَ سُبحانَهُ: ﴿وَنَادَوْاْ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْۚ﴾، وكانَ هذا السَّلامُ رُبما أشْعَرَ أنَّه بعدَ دخولِ أصحابِ الأعرافِ الجنَّةَ، فأورثَ ذلكَ في نَفْسِ المُتَلَقّي سؤالًا؛ وهو: أكانَ نداؤُهُم هذا بَعْدَ مفارَقَتِهِمُ الأعرافَ ودخولِهِم الجنَّةَ؟ فكان الجَواب: ﴿لَمْ يَدْخُلُوهَا﴾ أيْ: لم يدخلوا الجنَّةَ بَعْدُ[1]، ويَجوزُ أن تَكونَ الجملةُ السّابقَةُ مثيرَةً لسؤالٍ آخرَ، وهو: ما مصيرُ أصحابِ الأعرافِ؟ أإلَى الجنَّةِ صائرونَ أمْ إلى غيرِها؟ الجوابُ: ﴿لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾[2] أي: لَم يدخلوها بعدُ، والحالُ أنَّهم يطمَعونَ في دُخولِها.

الجَنَّةُ مَآلُ أَصْحابِ الأَعْرافِ، حينَ يلفُّهم الله بعد حينٍ بالألطافِ

نُكْتَةُ التَّعْبِيرِ بِالفِعْلِ المُضارِعِ ﴿يَطْمَعُونَ﴾:

في التَّعْبيرِ بالفِعْلِ المُضارِعِ ﴿يَطْمَعُونَ﴾ مِنْ قَوْلِ اللهِ سُبحانَهُ: ﴿لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾ إشعارٌ بتجَدُّدِ طَمَعِهِم في دُخول الجَنَّةِ لِشِدَّة رجائِهِم في اللهِ تعالى ورَحْمَتِهِ، ولم يجعلِ اللهُ الطمعَ في قلوبهم إلّا لما يريدُ بهم من كرامتِه[3].

شِدَّةُ رَجاءِ أَصْحابِ الأَعْرافِ فِي اللهِ تَعالَى وَرَحْمَتِهِ، تُفْضِي بهم إلى الجنّةِ

دَلالَةُ الِاعْتِراضِ فِي قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾:

جملَةُ ﴿وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾ جملَةٌ حاليَّةٌ مِن ضميرِ الفاعِلِ في ﴿يَدْخُلُوهَا﴾، وهذه الجملةُ مع جملَةِ ﴿لَمْ يَدْخُلُوهَا﴾ معترِضَتانِ بَيْنَ قولِهِ تعالى: ﴿وَنَادَوْاْ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْۚ﴾ وقَوْلِهِ سُبحانَهُ: ﴿۞وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَٰرُهُمْ تِلْقَآءَ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ﴾[4] [الأعراف: 47]،

رجاءُ أَصْحابِ الأَعْرافِ في المولَى، يَجعلُهم بِجنّتِه ورحمتِه أولَى

(1) البقاعيّ، نظم الدرر: 7/406.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/143.
(3) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 290.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/143.

والغَرضُ مِنَ الاعْتِراضِ بيانُ قوَّةِ رَغْبَتِهم وطمَعِهم فيما عِنْدَ اللّه تعالى مِنَ الجزاءِ الحسَنِ والعَفْوِ الجَميلِ.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(الطَّمَعُ) و(الرَّجاءُ) و(الأَمَلُ):

الأمـلُ انتـظـارٌ، والرَّجاءُ ترقُّبٌ، والطَّمَعُ حِرْصٌ

مادَّةُ الأمَلِ تدورُ حولَ معنَى التَّثَبُّتِ والانتظارِ[1]، ولفظُ الرَّجاءِ قَدْ يَرِدُ مرادًا به الخَوْفُ، كما في قولِ اللّه تعالى: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ [نوح: 13] أي: لا تخافون للّهِ تعالى عَظَمَةً[2].

وأمّا الطَّمَعُ؛ فخصَّهُ ابنُ فارسٍ بالرَّجاءِ القَويِّ[3]، وزاد ابنُ سيدَه في الطَّمَعِ معنى الحِرْصِ[4].

وحاصِلُ كلامِ اللُّغويّينَ أنَّ بينَ الألفاظِ الثَّلاثَةِ - الأمَلِ والرَّجاءِ الطَّمعِ - تقارُبًا دَلاليًّا؛ إذْ جميعُها دالٌّ على توقُّعِ الخبَرِ، إلّا أنَّ الأمَلَ يتميَّزُ بمَلْمَحِ طولِ الزَّمَنِ وبُعْدِ المَطْلوبِ؛ لأنَّ أصلَ مادَّتِهِ دالَّةٌ على التَّثَبُّتِ والانتظارِ، ويَرِدُ الرَّجاءُ في معانٍ قَدْ تُبْعِدُهُ عن نَظيرَيْهِ - الطَّمعِ والأمَلِ - كمجيئِهِ في معنَى الخَوْفِ والمبالاةِ، وأمّا الطَّمَعُ؛ فيتَمَيَّزُ بقوَّةِ الرَّغبَةِ وقُرْبِ المطلوبِ والحِرْصِ عَلَيْهِ[5].

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أمل).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (رجو).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (طمع).
(4) ابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم: (طمع).
(5) مُحمَّد داود، معجم الفروق الدلالية في القرآن الكريم، ص: 71 - 74.

﴿۞وَإِذَا صُرِفَتۡ أَبۡصَٰرُهُمۡ تِلۡقَآءَ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِ قَالُواْ رَبَّنَا لَا تَجۡعَلۡنَا مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ٤٧﴾ [الأعراف: 47]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

تَكْمِلةُ مَشاهِدِ أصْحابِ الأعْرافِ، المستَعِيذِين منَ النّار، والخائفين منَ سخَطِ الجبّارِ

لمّا ذَكَرت الآيةُ السّابقة ما يدلُّ على أنَّهم مُقْبِلونَ على الجنَّةِ وأصحابِها؛ جاءت هذه الآيةُ لتؤكِّد هذا المعنى بطلَبِهم وتضرُّعهم إلى الله تعالى بألّا يجعلَهُم في القوم الظّالمين، قال تعالى: ﴿۞وَإِذَا صُرِفَتۡ أَبۡصَٰرُهُمۡ تِلۡقَآءَ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِ قَالُواْ رَبَّنَا لَا تَجۡعَلۡنَا مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿صُرِفَتۡ﴾: الصّادُ والرّاءُ والفاءُ تدورُ تصاريفُها على معنى الرُّجوعِ، أو هُوَ ردُّ الشَّيءِ من حالٍ إلى حالٍ أو إبدالُهُ بغيرِه، وَمِنْهُ: انْصَرَفَ القومُ، أي: رجعُوا، ويَرِدُ الصَّرْفُ بمعنَى التَّوبَةِ؛ لأنَّه يُرْجَعُ بِهِ عنَ رُتبةِ المُذْنِبينَ إلى حالِ الطّائعينَ[2]، ومِنْ هذا البابِ قولُ الله تعالى: ﴿وَتَصۡرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ﴾ [البقرة: 164]، أي: تَحْويلُها من وَجْهٍ إِلَى وَجْهٍ وَمن حالٍ إِلى حالٍ[3].

ومعْنَى قولِ الله تعالى: ﴿۞وَإِذَا صُرِفَتۡ أَبۡصَٰرُهُمۡ تِلۡقَآءَ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِ﴾: حوِّلَتْ جِهَةَ أصحابِ النّارِ.

2) ﴿تِلۡقَآءَ﴾: أصلُهُ من لَقيَ، واللِّقاء: مقابلةُ الشَّيء ومصادفتُهُ معًا، وقد يُعَبَّر به عن كلِّ واحدٍ منهما، يقال: لَقِيَهُ، يَلقاه، لقاءً ولُقْيا، ولُقْية، ويقال ذلك في الإدراك بالحسِّ وبالبصر وبالبصيرة، ويقال:

(1) البقاعيّ، نظم الدرر: 7/406.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة:، والرّاغب، المفردات: (صرف).
(3) الزَّبيدي، تاج العروس: (صرف).

لَقيتُه بكذا؛ إذا استقبلته به، قال تعالى: ﴿وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا﴾، وتَلَقّاه كذا: أي: (لَقِيَهُ)[1].

ومعنى قوله: ﴿تِلْقَآءَ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ﴾ جهةَ أهلِ النار.

❁ المعنى الإجْماليُّ:

اسْتِعْظامُ أصْحابِ الأعْرافِ العَذابَ المهينَ، والتِماسُ أن لا يُحشَرُوا مع الظّالمين

وَإذا صُرِفَتْ أبْصارُ أصحابِ الأعْرافِ حيالَ أصْحابِ النّارِ وجِهَتَهم، فنَظَروا إلى سواد وجوههم؛ فقالوا: ربَّنا لا تُصَيِّرْنا معَ القَوْمِ الذينَ ظَلَموا أنْفُسَهُم، فأكْسَبوها مِنْ سَخَطِكَ ما أوْرَثَهم مِن عذابِكَ ما هم فيهِ[2].

وترشد الآية الكريمةُ إلى أنَّ أصحابَ الأعرافِ لشدَّةِ طَمعهم في دخول الجنةِ يوجِّهون أبصارَهم إلى أصحابِ الجنَّة؛ بالقصد والرغبةِ ويُلْقون إليهم السَّلام، ويكرهون رؤيةَ أهلِ النّار.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

عِلَّةُ وَصْلِ قَوْله تَعالَى: ﴿وَإِذَا صُرِفَتْ﴾ بِما قَبْلَهُ:

اسْتِكْمالُ الحَديثِ عَنْ أَصْحابِ الأَعْرافِ

وُصِلَ قولُ الله سُبحانَهُ: ﴿وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَٰرُهُمْ﴾ بالجملَةِ قَبْلَهُ؛ لِما بيْنَهُما مِن التَّوسُّطِ بين الكَمالَيْنِ؛ وذلك أنَّ الجملَتَيْنِ خبريَّتانِ، وبينَهُما تناسُبٌ؛ إذِ هذه الآيَةُ واردَةٌ لِاسْتِكْمالِ حديثِ أصحابِ الأعْرافِ[3].

نُكْتَةُ التَّعْليقِ بِأَداةِ الشَّرْطِ (إذا):

أَخْبارُ اللهِ تَعالَى مُحَقَّقَةُ الوُقُوعِ، فالإيمانُ بها واجِبٌ

جاءَ التَّعبيرُ في قولِ الله سُبحانهُ: ﴿وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَٰرُهُمْ﴾ معلَّقًا بأداةِ الشَّرْطِ (إذا) دونَ (إنْ)؛ لِما في (إذا) مِنَ الدَّلالَةِ على الجَزْمِ بوقوعِ مَدْخولِها، بخلافِ (إنْ) فإنَّها تدلُّ - في الأصْلِ - على عدَمِ

(1) الراغب، المفردات: (لقي).
(2) ابن جرير، جامع البيان: 12/466، ونخبة من العلماء، التّفسير الميسّر، ص: 156.
(3) درويش، إعرابُ القرآنِ وبيانُه: 3/359.

الجَزْمِ بوقوعِه، فالتَّعليقُ بـ (إذا) يُفيدُ تحقُّقَ وقوعِ هذا الصَّرْفِ والقولِ المَذْكورِ بَعْدَهُ.

سِرُّ بِناءِ الفِعْلِ لِلْمَفْعُولِ فِي: ﴿صُرِفَتْ﴾:

انْصِرافُ نَظَرِ أَصْحابِ الأَعْرافِ إلى أَصْحابِ النّارِ، قَهْرِيٌّ ولكنّه فظيعٌ

بُنِيَ الفِعْلُ ﴿صُرِفَتْ﴾ لِلْمَفْعولِ في قولِ اللّهِ سُبحانَهُ: ﴿۞وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَٰرُهُمْ﴾؛ لعدَمِ الحاجةِ إلى ذِكْرِ مَنْ صرفَهم؛ لأنَّ المقصودَ التَّخويفُ، والمُخيفُ لَهُمْ هو نفسُ الصَّرْفِ، لا كَوْنُهُ مِنْ مُعَيَّنٍ، والمعنى: صَرَفَ أبصارَهُم صارِفٌ مِنْ قِبَلِ اللّهِ تعالى بِغَيْرِ اخْتيارٍ منهمْ[1]، فهم لَم يَصْرِفوا أبْصارَهم؛ لِأنَّهم يَكْرَهون أن يَنْظُروا إلَيْهم؛ لِكَونِهم مَلْعونينَ[2].

ويَجوزُ أن يكونَ إسنادُ الفعلِ إلى غيرِ معلومٍ جاريًا على المُتَعارفِ في نظائرِهِ مِنَ الأفْعالِ التي لا يُتطلَّبُ لَها فاعِلٌ مُعَيَّنٌ.

سِرُّ التَّعبيرِ بالصَّرفِ دونَ التَّحْويلِ:

الصَّرْفُ تَغيُّرٌ مِن حالٍ إلى حالٍ، والتَّحويلُ انفِصالٌ

في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَٰرُهُمْ﴾ عَبَّر بالصَّرف دون التَّحويل لوجود فرقٍ بينهما، فالصَّرْف: ردُّ الشَّيء من حالةٍ إلى حالةٍ أو إبدالُهُ بغيره، يقالُ: صرفتهُ، فانصرف، قال تعالى: ﴿ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ﴾ [آل عمران: 152]، والتَّصريفُ يقالُ في صرفِ الشَّيء من حالةٍ إلى حالةٍ، ومن أمرٍ إلى أمرٍ، ومنه تصريفُ الرياح[3].

أمّا التَّحويل؛ فأصلهُ من حَوَلَ، ويُطلق على تغيُّر الشَّيء وانفصالِه عن غيره، وباعتبار التغيُّر قيلَ: حالَ الشَّيءُ، يحول، حُؤولًا، واستحالَ: تهيَّأ لأن يُحَوَّل، وباعتبار الانفصالِ قيل: حالَ بيني وبينك كذا، وحوَّلت الشيءَ، فتحوَّل: غيَّرته إمّا بالذّات، وإمّا بالحُكْمِ والقول[4].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/406، وأبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 6/2850.
(2) الشّعراوي، تفسير الشّعراوي: 7/4151.
(3) الرّاغب، المفردات: (صرف).
(4) الراغب، المفردات: (حول).

وبناءً على ما سبقَ في بيان المعنى اللُّغوي لكلٍّ منهما، يتبيَّن أن التَّعبيرَ بالصَّرْف في قوله تعالى: ﴿*وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَٰرُهُمْ﴾ هو المناسبُ لهذا المشهدِ؛ لأنَّها حوِّلت من النَّظر إلى أهل الجنَّة إلى النَّظر إلى أهل النّار؛ فالملاحَظ أنَّهم تحوَّلوا من حالةٍ إلى حالةٍ، ومن أمرٍ إلى أمرٍ، وهذا لا يتأتَّى من مادة التَّحويل الَّتي يدور معناها حول تغيُّرِ الشيء وانفصاله.

دَلالةُ اختلافِ التَّعْبيرِ مرّةً بالنّداءِ، ومرّةً بالصَّرفِ:

رَغْبَةُ أَصْحابِ الأَعْرافِ فِي الجَنَّةِ، ناتِجةٌ عَنْ شِدَّةِ تَطَلُّعِهِمْ إِلَى دُخُولِها

في التَّعبيرِ عَنْ حالِ أصحابِ الأعْرافِ مَعَ أهل الجنَّةِ بالنِّداءِ مبنيًّا لِلْفاعِلِ في قولِهِ تعالى: ﴿وَنَادَوْاْ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ﴾، والتَّعبيرِ عَن حالِهِم معَ أهْلِ النّارِ بالصَّرفِ مبنيًّا لِلْمَفْعولِ في قَوْلِه سُبحانَهُ: ﴿*وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَٰرُهُمْ تِلْقَآءَ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ﴾ دليلٌ على أنَّ أكْثَر أحوالِ أصحابِ الأعرافِ النَّظَرُ تلقاءَ أصحابِ الجنَّةِ، وأنَّ نَظَرَهُم إلى أصحابِ النّارِ عارِضٌ، وليس واقعًا باختيارٍ منهمْ، وإنَّما هو بكونِهم قد صُرِفَت أبصارُهم تِلْقاءَهم، فليس هذا الصَّرْفُ مِنْ قِبَلِهم بل هُم محمولونَ عَلَيْه، مفعولٌ بهمْ ذلك؛ وذلك أنَّ المَطْلَعَ مخوفٌ مِنْ سماعِهِ، فضلًا عن النَّظرِ إليهِ، بَلْهَ التَّلبُّسَ به ومُعاناة ذلك العذابِ[1].

وفي هذا التَّغايُرِ إشعارٌ بقوَّةِ رغبتِهم في الجنَّة وشدَّة تطلُّعِهم إلى دخولِها، وعَدَمِ إرادَتِهم النَّظَرَ إلى أصحابِ النّار باختيارِهِم فضلًا عمّا هو فوقَ ذلكَ مِن ضُروبِ المخالَطَةِ.

دَلالَةُ التَّعْبيرِ بِالفِعْلِ الماضِي ﴿صُرِفَتْ﴾:

ما أَخْبَرَ اللهُ تَعالَى بِهِ، كائِنٌ مُستقبَلًا، وكأنَّه حَدَثَ في الماضِي

الصَّرْفُ المَذْكورُ في قَوْلِ اللّه سُبْحانَهُ: ﴿*وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَٰرُهُمْ تِلْقَآءَ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ﴾ مُسْتَقْبَلٌ؛ لكونِهِ مِن أحوالِ الآخرَةِ، إلّا أنَّ التَّعبيرَ عنه جاءَ بِالفِعْلِ الماضي - على خلافِ مقتضَى الظّاهرِ -

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/59.

للدَّلالَةِ على تحقُّقِ وقوعِهِ، وأنَّ هذا الصَّرْفَ والقَوْلَ المُرتَّبَ عليهِ ممّا لا بُدَّ أن يكونَ في ذلك الموقف.

بَلاغَةُ الِاسْتِعارَةِ فِي صَرْفِ الأبصَارِ إلى النّارِ:

صَرْفُ أبصارِ أصحابِ الأعرافِ، غايتُه الاعتبارُ بحالِ أهْلِ النّارِ

الصَّرْفُ في قولِ اللّه سُبحانَهُ: ﴿*وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَٰرُهُمْ تِلْقَآءَ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ﴾ استِعارَةٌ في لَفْتِ النَّظَرِ[1]؛ إذِ الأصلُ في الصَّرفِ أن يَرِدَ بمعنَى أمْرِ الحالِّ بمكانٍ ما بِمُغادَرَتِه، واستُعْمِلَ ها هُنا في لَفْتِ النَّظَرِ على سبيلِ الاسْتِعارَةِ التَّصريحيَّةِ التَّبعيَّةِ، فشُبِّهَ لَفْتُ النَّظر بالصَّرْفِ بجامعِ مُطْلَقِ التَّغْيير، والنُّكْتَةُ في الاسْتِعارَةِ: الإيماءُ إلى أنَّهُم لا يَنْظُرونَ إلى أصْحابِ النّارِ "إلّا نَظَرًا شَبيهًا بِفِعْلِ مَن يَحْمِلُهُ على الفِعْلِ حامِلٌ، وذلك أنَّ النَّفْسَ، وإن كانَتْ تَكْرَهُ المَناظِرَ السَّيِّئَةَ؛ إلّا أنَّها حُملت على أن توَجِّهَ النَّظر إلَيْها آونَةً لِتَحْصيلِ ما هو مَجْهولٌ لَدَيْها"[2].

بَراعَةُ المَجازِ المُرْسَلِ المُرَكَّبِ، في صَرْفِ الأبصَارِ:

كَراهَةُ أَصْحابِ الأَعْرافِ النَّظَرَ إِلَى أَهْلِ النّارِ، دليلُ فزَعِهم من حالِهم

في التَّعبير بصَرْفِ النَّظَرِ مبنيًّا لِلْمَفْعولِ في قولِ اللّه سُبحانَهُ: ﴿*وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَٰرُهُمْ تِلْقَآءَ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ﴾ مِنَ الدِّلالَةِ على كراهَةِ أصحابِ الأعرافِ النَّظَرَ إلى أهلِ النّارِ، وهذا لونٌ مِنْ ألوانِ التَّوبيخِ لهم[3]؛ حَيْثُ ارتَكبوا مِنَ الجرائمِ والقَبائِحِ ما كَرِهَهُمُ الخَلْقُ مِنْ أجلِها، فلَمْ يُطيقوا أدْنَى اتِّصالٍ بهِمْ وهو النَّظَرُ، فضلًا عمّا هو فوقَ ذَلِكَ، فالجملَةُ خبريَّةٌ دلَّتْ - معَ إفادَتِها مَضْمونَ الخَبَرِ - على معنى التَّوبيخِ، فكان ذلكَ مَجازًا مُرْسَلًا مركَّبًا.

دَلالَةُ التّعبير بلفْظِ (الأبصَارِ) دونَ (الأعيُنِ):

الأبصارُ فيها معنَى التّأمُّلِ والتّدقيقِ، للنّظرِ الثّاقِبِ الدّقيقِ

في قولِهِ: ﴿وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَٰرُهُمْ﴾، عبَّر بالأبصارِ دون الأعيُنِ؛

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/143.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/144.
(3) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 7/4151.

لأنَّه أراد الأثرَ الناتج من الأعيُن، وهو الإبصارُ، ولم يُعَبِّر بالأعيُن؛ لأنَّه قد توجد الأعيُن ولا تُبصِر؛ وهذا غيرُ مرادٍ هنا.

وَجْهُ التَّعبيرِ بالضَّميرِ في: ﴿أَبْصَٰرُهُمْ﴾:

الأبصارُ ليست مجرَّدَ حاسَّةٍ بصَريَّةٍ، بل هي مُرتبطةٌ بالقُلوبِ والعُقولِ

الضَّمير في ﴿أَبْصَٰرُهُمْ﴾ يرجعُ إلى أصحابِ الأعراف؛ فهم المقصودونَ في هذه الآية، وعَدلَ النَّظمُ الكريمُ إلى الإضمار ولم يُظهِر نائبَ الفاعلِ في الجملة، كأنْ يقال: (وإذا صُرِفت أبصارُ أصحابِ الأعراف)؛ قصدًا للإيجاز لذِكرهم في السِّياق قريبًا، والضَّميرُ المتصلُ يشيرُ إلى أنَّ هذه الأبصارَ متصلةٌ بأجسادهم، وليست مستقلَّةً عنها، فهم يرون بأمِّ أعيُنِهم ما يحدثُ بين أصحاب الجنَّة، وأصحابِ النّار، ويشعرون بالخوف والطَّمع والرجاء، وأنَّ هذه الأبصارَ ليست مجرَّد حاسَّةٍ بصريَّة، بل هي مرتبطةٌ بالقلوب والعقول، فهُم يتدبَّرون ما يَرَون من المشاهدِ المختلفة عند الفريقين، ويستفيدون منها دروسًا وعبَرًا.

سِرُّ التَّعبيرِ بقولِه: ﴿تِلْقَآءَ﴾ دونَ (جهةَ):

التِّلقاءُ فيه معنَى المصادَفةِ، والجِهةُ فيها التَّعيينُ

قوله تعالى: ﴿تِلْقَآءَ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ﴾، آثرَ فيه التَّعبيرَ بقوله: ﴿تِلْقَآءَ﴾ دون (جهة)؛ لأنَّ اللِّقاء يُطلق على مقابلةِ الشَّيءِ ومصادفته من غير قصدٍ منهم، وما وقع هو بإرادة مَن صرَفهُم.

بخلاف (الجهة) ففيها معنى القصدِ والشَّرف؛ لأنَّها مأخوذةٌ من مادة (وجه)، وتدور بنيةُ هذه المادة على هذا المعنى؛ فيقالُ: واجهتُ فلانًا: جعلت وجهي تلقاءَ وجهِه، ويقال للقصد: وجهٌ، وللمقصد: جهةٌ[1]؛ ولذلك كان اختيارُ لفظ ﴿تِلْقَآءَ﴾ هو المناسبَ هنا؛ لأنَّ المراد أنَّهم صُرفت أبصارُهم تلقاءَ أصحاب النّار غيرَ عامدين ولا قاصدين ولا متَّجهين.

(1) الراغب، المفردات: (وجه).

نُكْتَةُ الإضافَةِ فِي ﴿أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِ﴾:

حَقارَةُ أَصْحابِ النّارِ المُعَذَّبِينَ فِيها

الإضافَةُ في ﴿أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِ﴾، مِنْ قَوْلِهِ تعالى: ﴿۞وَإِذَا صُرِفَتۡ أَبۡصَٰرُهُمۡ تِلۡقَآءَ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِ﴾، يُرادُ بها تحقيرُ المضافِ، وهُمُ الأصْحابُ؛ الدّاخلون النّارَ، الملازِمونَ لَها، المعذَّبون فيها.

سِرُّ التَّعبيرِ بالقَولِ دونَ النِّداءِ:

النِّداء فيه إعلانٌ، والقَولُ أعمُّ منه

في قوله تعالى: ﴿قَالُواْ رَبَّنَا﴾ آثرَ التَّعبيرَ بالقول دون النِّداء؛ لأنَّه أعمُّ حيثُ يشملُ النِّداء وغيره، وأيضًا لأنَّ القول يُطلق على الكلام النَّفسيِّ واللَّفظيِّ، فكأنَّ اللَّفظ يصوِّر ما في نفوسهم من هذا الطَّلب بألّا يكونوا مع الظّالمين، وأظهروا ذلك بنُطقهم قائلين: ﴿رَبَّنَا لَا تَجۡعَلۡنَا مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾

دَلالَةُ النِّداءِ بِاسْمِ الرُّبُوبِيَّةِ ﴿رَبَّنَا﴾، في سِياقِ الآيَةِ:

المُحْسِنُ فِيما مَضَى، جَدِيرٌ بِالإِحْسانِ فِيما بَقِيَ

في النِّداءِ باسمِ الرُّبوبيَّةِ في قولِهِ سُبحانَهُ: ﴿قَالُواْ رَبَّنَا لَا تَجۡعَلۡنَا مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ طلبُ رحمَتِهِ سُبحانَهُ واستِعْطافُ كَرَمِهِ؛ إذْ هو المحسِنُ إليهم في الدُّنيا بكلِّ إحسانٍ، وفي الآخِرَةِ بكونِهِ لَمْ يُدْخِلْهُم النّارَ إلى وقتِ هذا النِّداءِ؛ والمُحْسِنُ إلَيْهِم فيما مَضَى جَديرٌ بالإحْسانِ إلَيْهِم فيما بَقِيَ[1].

دَلالَةُ النَّهْيِ فِي الآيَةِ الكريمة:

مِنْ أَسْبابِ النَّجاةِ التَّذَلُّلُ إِلَى اللهِ، وَسُؤالُهُ عَدَمَ الحَشْرِ مَعَ الظّالمين

النَّهْيُ في ﴿لَا تَجۡعَلۡنَا﴾ مِنْ قولِهِ سُبحانَهُ: ﴿قَالُواْ رَبَّنَا لَا تَجۡعَلۡنَا مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ خرَجَ عَنْ دلالَتِهِ الأصليَّةِ مِنْ إرادَةِ الإلزامِ بالتَّرْكِ إلى معنى الدُّعاءِ؛ لكَوْنِ الخِطابِ متوجِّهًا مِنَ العبادِ إلى ربِّهِم تعالى.

ويَجوزُ أن يكونوا قَدْ سألوا اللهَ ﷻ ألّا يجعَلَهم مع الظّالمين، وهم عالِمونَ أنَّه سُبحانَهُ لا يجعَلُهُم معَهم؛ فيكونُ أسلوبُ النَّهْيِ دالًّا مع الدُّعاءِ على معنى التَّذلُّلِ وطَلَبِ الدَّوامِ على هذِهِ الحالِ[2].

---

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 5/59، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 7/407.

(2) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 7/214.

دَلالةُ التَّعبيرِ بقولِه: ﴿لَا تَجۡعَلۡنَا﴾ دونَ (لا تُدخلْنا):

آثرَ التعبيرَ بقوله: ﴿لَا تَجۡعَلۡنَا﴾ دون (لا تُدخلنا)؛ لأنَّه أبلغُ في البُعد عن أصحاب النّار؛ لأنَّ (لا تُدخلنا) قد يُفهم منها أنَّهم من أصحاب النّار، ويطلبون عدم الدُّخول؛ أمّا ﴿لَا تَجۡعَلۡنَا﴾؛ فهم لا يريدونَ أن يكونوا من أهلِ النّار أصلًا فضلًا عن دخولها.

الجَعْلُ فيه معنَى الانْتِسابِ، وهو أبلَغُ في البُعدِ والوِقايةِ

سِرُّ التَّعْبِيرِ بِالمَعِيَّةِ، فِي قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾:

عُبِّر بالمعيَّةِ في قولِه ﷻ: ﴿قَالُواْ رَبَّنَا لَا تَجۡعَلۡنَا مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ ولَمْ يَرِدِ النَّظْمُ القرآنيُّ: (لا تجعلْنا مِنَ القومِ الظّالمينَ)؛ لأنَّ كونَهم مَعَهم أعمُّ من كونِهِمْ منهمْ، فنَفْيُهم الأعمَّ عن أنفُسِهِمْ يسْتَلْزِمُ نفيَ الظُّلْمِ عنهمْ بطريقِ الأوْلَى[1].

النّأْيُ عن كَوْنِه مَعَ الظّالِمِينَ، نَفْيٌ للظُّلْمِ من بابِ أَوْلَى

سِرُّ ذِكْرِ لفْظِ ﴿ٱلۡقَوۡمِ﴾ في سِياقِ الآيةِ:

قوله تعالى: ﴿لَا تَجۡعَلۡنَا مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، ذكرَ القرآنُ الكريم لفظَ (قوم) مع أنَّ المعنى ظاهرٌ من غيره، لكنَّه يشيرُ إلى نوعيَّة هؤلاءِ الظّالمين؛ فهم من قيادات الكفر؛ لأنَّ لفظَ القوم، مأخوذٌ من مادة (قوم)، والقيام يعني: الانتصابَ والوقوف في وجه الأنبياءِ، فقادةُ الكفرِ كذَّبوا طاعنين في الآيات، مستكبرين عن اتِّباع الأنبياء.

لفْظُ القومِ فيه معنَى القِيادةِ والرّيادةِ والتّميُّزِ

نُكْتَةُ الوَصْفِ بِلفْظِ ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، في السِّياقِ:

في وصفِ أصحابِ النّارِ بالظُّلْمِ في قولِ اللهِ ﷻ: ﴿قَالُواْ رَبَّنَا لَا تَجۡعَلۡنَا مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ دونَ ما هم عليهِ حينئذٍ منْ ألْوانِ العذابِ وسوءِ الحالِ الذي اقتضَى هذا الدُّعاءَ: إيماءٌ إلى أنَّ المحذورَ عَنْدَهم ليسَ ذاتَ العذابِ، فحسبُ، وإنَّما هو العذابُ معَ ما يُؤَدّي إليهِ مِنَ الظُّلْمِ[2].

وُجُوبُ الحَذَرِ مِنْ أَسْبابِ العَذابِ الهُونِ

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/227.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السّليم: 3/230، والآلوسي، روح المعاني: 4/364.

سِرُّ حَذْفِ مُتَعَلَّقِ الظُّلْمِ:

أَعْظَمُ الظُّلْمِ: الشِّرْكُ بِاللهِ تَعالَى، وهو أُسُّ الآثامِ

حُذِفَ متعلَّقُ الظُّلْمِ في قَوْلِ اللهِ سُبحانَهُ: ﴿قَالُواْ رَبَّنَا لَا تَجۡعَلۡنَا مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، والتَّقديرُ: الظّالمينَ أنفسَهم بالشِّرْكِ[1]، وحُذِفَ لِدلالَةِ اللّامِ في (الظّالِمينَ) عَلَيْه؛ إذْ هي دالَّةٌ على الكَمالِ، والمعنى: لا تَجْعَلْنا مع القَوْمِ الكامِلينَ في الظُّلْمِ، وأعْظَمُ الظُّلْمِ: الشِّرْكُ باللّه تعالى، كما قال ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: 13].

ويجوزُ أن يكونَ المُتعلَّقُ محذوفًا؛ للدَّلالَةِ على العُمومِ، وذلك أنَّ حَذْفَ المتعلَّق يُؤْذِنُ بذلِكَ، أي: الذين ظلَموا أنفسَهم بالشِّرْكِ والمَعاصي، وظلَموا غَيْرَهم بضُروبٍ مِن هضْمِ الحُقوقِ.

(1) الخازن، لباب التأويل: 2/204.

﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٗا يَعۡرِفُونَهُم بِسِيمَىٰهُمۡ قَالُواْ مَآ أَغۡنَىٰ عَنكُمۡ جَمۡعُكُمۡ وَمَا كُنتُمۡ تَسۡتَكۡبِرُونَ ٤٨﴾ [الأعراف: 48]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

تَوْبيخُ أهلِ الأعْرَافِ لأهْلِ النَّارِ، وما جناهُ عليهم الكُفرُ والحَشْدُ والاسْتِكبارُ

لَمّا ذَكَر اللّهُ سُبحانَهُ كلامَ أصحابِ الأعرافِ لأهل الجنَّة بالسَّلام في قولِه تعالى: ﴿وَنَادَوۡاْ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡۚ﴾؛ أخبرَ أنَّهم يُكلِّمونَ أهْلَ النّارِ بِالتَّوْبيخِ واللَّوْم، فقالَ ﷻ: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٗا يَعۡرِفُونَهُم بِسِيمَىٰهُمۡ قَالُواْ مَآ أَغۡنَىٰ عَنكُمۡ جَمۡعُكُمۡ وَمَا كُنتُمۡ تَسۡتَكۡبِرُونَ﴾[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَغۡنَىٰ﴾: الغَينُ والنُّون والحَرْفُ المعتلُّ تدُور كثيرٌ مِن اشتقاقاتِها على معنى الكِفايَةِ، ومِنْهُ قولُهم: فلانٌ لا يُغْنِي غناءَ فُلانٍ، أي: لا يكفِي كفايَتَهُ[2]، والغَناءُ: الكفايَةُ والإجْزاءُ[3]، ومعنى قولِ اللّهِ تعالى: ﴿مَآ أَغۡنَىٰ عَنكُمۡ﴾: ما أجْزَأ عنكُمْ، وما نَفَعكُمْ.

2) ﴿تَسۡتَكۡبِرُونَ﴾: الكافُ والباءُ والرّاء تدلُّ تصاريفُها على ضدِّ الصِّغَرِ، ومنه: الكِبَرُ؛ وهو الهرَمُ، والكِبْرياءُ؛ وهي: العظمة[4]، والكِبْرُ: هو التَّرفُّعُ عن الإقرار بالحقِّ، والطُّغيانُ في دَفْعِهِ، واحتقارُ النّاسِ والإزراءُ بهمْ[5]، وهذا المفهومُ عبَّر عنه رسولُ اللّه ﷺ بأوْجَزِ عبارةٍ وأبلغِها؛ فقالَ: «الكِبْرُ: بَطَرُ الحَقِّ، وغَمْطُ النّاسِ»[6].

(1) البقاعيّ، نظم الدرر: 7/406.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (غني).
(3) الأزهري، تهذيب اللغة: (غني).
(4) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (كبر).
(5) ابن الجوزيّ، كشف المشكل من حديث الصَّحيحين: 3/323.
(6) مسلم، صحيح مسلم، الحديث رقم: (91).

والسّينُ والتّاء في ﴿تَسۡتَكۡبِرُونَ﴾ دالَّةٌ على القوَّةِ لا الطَّلبِ، فمعنى ﴿تَسۡتَكۡبِرُونَ﴾: قَوِيَ كِبۡرُكُمۡ[1].

المعنى الإجْماليُّ:

في هذه الآية نادَى أهْلُ الأعْرافِ رجالًا مِن قادَةِ الكُفّار الذين في النّار يَعْرِفونَهُم بِعَلاماتِ أهلِ النّارِ، قالوا لَهُم: ما نَفَعَكُم ما كُنْتُم تَجْمَعونَهُ مِنَ الأموالِ والرِّجال في الدُّنْيا، وما نَفَعَكُم اسْتِعْلاؤُكُم عَنِ الإيمانِ باللّه تعالى وقَبولِ الحَقِّ[2]. وتُرشدُ الآيةُ إلى أنَّ جمعَ المالِ والرِّجالِ في الدُّنيا لا ينفعُ لمن مات كافرًا مشركًا من أهلِ الظُّلم والفسادِ.

أهْلُ الأعْرافِ يُبَكِّتون رُؤوسَ الكُفْرِ في هذا الموقِفِ العَسِرِ، وَسَطَ اللّهيبِ المُستَعِرِ

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

عِلَّةُ وَصْلِ نداءِ أصْحابِ الأعْرافِ بما قبْلَه:

وُصِلَ قولُ اللّهِ ﷻ: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٗا﴾ بالجُملَةِ قَبْلَهُ؛ لِما بيْنَهُما مِن التَّوسُّطِ بين الكَمالَيْنِ، وذلك أنَّ الجملتَيْنِ خبريَّتانِ، وبينَهُما تناسُبٌ؛ إذِ هذه الآيَةُ واردَةٌ لِاسْتِكْمالِ حديثِ أصحابِ الأعْرافِ.

شَماتةُ أصْحابِ الأعْرافِ في أهلِ النّارِ وقادتِهم، جُزءٌ منَ الحِوارِ

نُكْتَةُ التَّعْبيرِ بِالفِعْلِ الماضِي، في قوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰٓ﴾:

النِّداءُ الواردُ في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٗا﴾ مستقْبَلٌ، فهو مِنْ أحوالِ الآخِرَةِ، لكنَّه وردَ ههنا - على خلافِ مُقْتَضَى الظّاهرِ - بصيغَةِ الفعل الماضي (**نادَى**) مع أنَّه في المستقبلِ من أحوال الآخرة؛ للإشعارِ بتحقُّقِ وقوعِ هذا النِّداءِ، وأنَّه ممّا لا بُدَّ أن يقَعَ على الوَجْهِ المُخْبَرِ بهِ في الآيَةِ.

أَخْبارُ اللهِ تَعالَى ليسَ فيها زُورٌ، وقد أثبتَ الزّمانُ صِحّتَها في كلِّ العُصورِ

(1) الحمَلاويّ، شذا العَرْف في فنِّ الصَّرف، ص: 35.

(2) ابن جرير، جامع البيان: 12/467، ونخبة من العلماء، التّفسير الميسّر، ص: 156.

سِرُّ التَّعْبِيرِ بِالمُناداةِ ﴿وَنَادَىٰٓ﴾، وأثَرُه في المعنى:

انْحِطاطُ أَقْدارِ أَصْحابِ النّارِ، بسببِ الهلاكِ والضَّلالِ والعارِ

النِّداءُ في قولِ اللّه سُبحانَهُ: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٗا﴾ خطابٌ مِنْ أصحابِ الأعرافِ لأهْلِ النّارِ، وعُبِّر عَن هذا الخِطابِ بالنِّداءِ كِنايةً عن بلوغِهِ إلى أسماعِ أهل النّار مِنْ مسافَةٍ سَحيقَةِ البُعْدِ، وفيهِ إيماءٌ إلى بُعْدِ أصْحابِ النّار وانحطاطِ أقدارِهِمْ؛ حيثُ بَعُدوا عَن أصْحابِ الأعرافِ بحيثُ صارَ الخِطابُ بينهم مِنْ بابِ المُناداةِ، فكيفَ ببُعْدِهم عن أصحابِ الجنَّةِ؟

دَلالَةُ (ال) فِي لفْظِ ﴿ٱلۡأَعۡرَافِ﴾:

النِّـداءُ صادِرٌ مِنْ طائِفَةٍ مِنْ أَصْحابِ الأَعْرافِ لا مِنْ جَمِيعِهِمْ

اللّامُ في (الأعْرافِ) مِنْ قولِ اللّه ﷻ: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٗا﴾ للعَهْدِ الذِّكْرِيِّ الصَّريحيِّ؛ لتقدُّمِ ذِكْرِه صريحًا في قولِهِ سُبحانَهُ: ﴿وَعَلَى ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٞ﴾، فلا يُرادُ كلُّ أصحابِ الأعرافِ، وإنَّما طائفَةٌ منهمْ، ويقوّي ذلكَ قولُهُ هُنا: ﴿رِجَالٗا يَعۡرِفُونَهُم﴾؛ إذْ لا يستقيمُ أن يُناديَ أولئِكَ الرِّجالَ كلَّ مَنْ كانَ على الأعرافِ، ولا أنْ يَعْرِفَهم بسيماهم جميعُ مَن كانَ على الأعرافِ، مَعَ تبايُنِ العصورِ، واختلافِ الأُمَمِ، فأفادَ هذا كُلُّهُ أنَّ المرادَ بأصحابِ الأعرافِ: الرِّجالُ المذكورون قبلُ في قَوْلِهِ سُبحانَهُ: ﴿وَعَلَى ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٞ﴾، والمعنى: ونادَى أولئكَ الرِّجالُ الذينَ على الأعرافِ رجالًا يعرفونَهم بسيماهم[1].

نُكْتَةُ الإِظْهارِ فِي مَوْضِعِ الإِضْمارِ:

زِيادةُ التَّقريرِ ومَزيدُ التَّخصيصِ، في عَنْوَنَةِ القصّةِ، بمَنْ مارَسَ أحداثَها

في قَوْلِ اللّهِ تعالى: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٗا﴾، أُظْهِرَ المسنَدُ إليه - ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلۡأَعۡرَافِ﴾ - ولَمْ يُضمَرْ في قولِهِ تعالى: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٗا﴾؛ إذْ لَمْ يرِدِ النَّظْمُ القرآنيُّ: (ونادَوْا رجالًا)، وذلك لأربعِ نِكاتٍ: **إحداها:** زيادةُ التَّقريرِ[2]،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/144.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/230.

ثانيها: لئلّا يلْتَبِسَ المسنَدُ إليه حالَ إضْمارِهِ بأصحابِ الجنَّةِ، وذلك لأنَّهُ لمّا تعدَّدَ في الآيةِ المتقدِّمَةِ ما يَصْلُحُ لِعَوْدِ الضَّمائِرِ إلَيْهِ؛ دُفِعَ اللَّبْسُ بالتَّصريح بالمسنَدِ إليهِ مُظْهَرًا، ولم يُضْمَرْ[1]، **ثالثُها:** التَّفريقُ بَيْنَ المرادِ بأصحابِ الأعرافِ في هذهِ الآيةِ، والمرادِ بهمْ فيما تقدَّمَ؛ وذلك أنَّ النِّداءَ فيما تقدَّم صادرٌ مِنَ الجميعِ، وفي هذهِ الآيةِ مِنْ بعضِهِمْ[2].

رابعُها: أنَّ هذا النِّداء خاصٌّ في موضوعٍ خاصٍّ؛ فكان مستقلًّا دون ما قبلَه الموجَّه إلى أهل الجنَّة في جملتهم[3].

سِرُّ التّعبيرِ بلفْظِ ﴿رِجَالًا﴾ في أثناء السِّياقِ:

ذكرَ القرآنُ الكريم لفظَ ﴿رِجَالًا﴾ للإشارة إلى أنَّ أصحاب الأعراف يخاطبونهم فُرادى تقريعًا وتذكيرًا بسيِّئاتهم منفردين عن غيرهم[4].

إبْطالُ الوَهْمِ الّذي عاشَهُ قادَةُ الكُفْرِ في الدّنيا

سِرُّ تَنْكِيرِ ﴿رِجَالًا﴾:

نُكِّرَت ﴿رِجَالًا﴾ في قَوْلِ اللهِ ﷻ: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٗا﴾؛ للدَّلالَةِ على إرادَةِ عدَمِ التَّعيينِ، فهم رجالٌ غيرُ مُعَيَّنينَ.

ويَجوزُ أن يكونَ المخاطَبونَ مُعيَّنين، وهم رُؤساءُ المشركينَ، كأبي جَهْلٍ وعُتبةَ بن أبي مُعيطٍ ونحوِهما[5]، ونُكِّرَ لفظُ الرِّجالِ في قولِه تعالى: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٗا﴾ تحقيرًا لَهم وحطًّا لشأنِهِمْ، ودَفْعًا لتوهُّمِ إرادَةِ الكَمالِ بتعريفِ لفظِ ﴿رِجَالًا﴾ باللّامِ، ولا سيَّما أنَّهم كانوا في الدُّنيا في واجهة القوم، وأعطَوْا لأنفسهم مكانةً بأنَّهم هم الرِّجال دون غيرهم؛ فجاء هذا المشهدُ ليسلبَهُم كلَّ ذلك.

حَقارَةُ أَصْحابِ النّارِ جَمِيعًا، واخْتِصاصُ رُؤَساءِ أَهْلِ الشِّرْكِ بِمَزِيدٍ مِنْها

(1) البقاعيّ، نظم الدرر: 7/407، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/144.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 4/364.
(3) محمد رضا، تفسير المنار: 8/385.
(4) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 6/2851.
(5) أبو حيان، البحر المحيط: 5/59.

سِرُّ تَرْكِ ذِكْرِ المركّبِ الإضَافيِّ مع ﴿رِجَالًا﴾:

تُـرِكَ التَّصريحُ لدلالةِ السِّياقِ عليه

استغنى القرآنُ الكريمُ عن ذكرِ أصحابِ النّار، فلم يقُل: (رجالًا من أصحابِ النّار)؛ لأنَّ الكلام المذكورَ في الآية ﴿مَآ أَغۡنَىٰ عَنكُمۡ جَمۡعُكُمۡ وَمَا كُنتُمۡ تَسۡتَكۡبِرُونَ﴾ لا يليقُ إلّا بهم، فهو عنوانٌ عليهم، ووصفٌ لأكابرهم، ودليلٌ على حذف (أصحاب النار).

سِرُّ تكرار التَّعبيرِ بقوله: ﴿يَعۡرِفُونَهُم﴾:

فـرقٌ بَـيْن المعرفةِ العامّةِ، والمعرفةِ الخاصّةِ

أعادَ ذِكرَ الفعلِ ﴿يَعۡرِفُونَهُم﴾، مع سبقِ هذا الفعلِ: قبلَ ذلك في قوله: ﴿وَعَلَى ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٞ يَعۡرِفُونَ كُلَّۢا بِسِيمَٰهُمۡۚ﴾؛ لاختلافِ المعرفتين، فالسّابقة معرفةٌ عامَّة، فمعَ أهل النّار يعرفونهم بسَوادِ الوجوهِ وزُرقةِ العيونِ، أمّا هنا؛ فيعرفونهم بسيماهم الخاصَّة الَّتي كانوا عليها في الدُّنيا أو بسيما المستكبرين؛ لأنَّها تغلب عليهم، وتكون علامةً تدلُّ عليهم[1].

دَلالَةُ (الباءِ) فِي قَوْلِه: ﴿بِسِيمَٰهُمۡ﴾:

اسْـوِدادُ وُجُـوهِ أَصْحابِ النّارِ، عَـلامَـةٌ مُـلازِمَـةٌ لَـهُـمْ، لِـسَـوادِ قُلوبِهم

(الباءُ) في ﴿بِسِيمَٰهُمۡ﴾ مِنْ قَوْلِ اللّهِ سُبحانَهُ: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٗا يَعۡرِفُونَهُم بِسِيمَٰهُمۡ﴾ لِلْمُلابسَةِ، وذلكَ أنَّ علاماتِ أصحابِ النّارِ - مِن اسوِدادِ الوَجْهِ ونحوِ ذلكَ - ملابِسَةٌ لَهم وملازِمَةٌ.

ويجوزُ أن تكونَ الباءُ سَبَبيَّةً، أيْ: إنَّهم عَرَفوهم بسَبَبِ عَلاماتٍ فيهِمْ دلَّتْ عَلَيْهِم؛ لأنَّ النّار قد أكلَتهُم، وغيَّرت معالمَهم مع تغيُّرهم بالسِّمَن وسَواد الوجوه، وعِظَم الجُثث[2].

عِلَّةُ الفَصْلِ في: ﴿قَالُوا۟ مَآ أَغۡنَىٰ﴾ عَمّا قَبْلَهُ:

تَـفْـسِـيرُ نِـداءِ أَصْحابِ الأَعْرافِ لِأَصْحابِ النّار

فُصِلَ قولُ اللّه تعالى: ﴿قَالُوا۟ مَآ أَغۡنَىٰ عَنكُمۡ جَمۡعُكُمۡ﴾ عمّا قبلَهُ؛ لوقوعِ هذهِ الجملَةِ بيانًا لِلْجُملَةِ قبلَها أو بدلًا مِنْها[3]،

(1) محمد رضا، تفسير المنار: 8/385.
(2) البقاعيّ، نظم الدرر: 1/37.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 4/364.

وعلَى كِلا الوجْهَينِ يكونُ بينَ الجملَتَيْنِ كمالُ الاتِّصالِ؛ فالوَصْلُ مُتعَيِّنٌ.

وكَوْنُها بيانًا: أوْلَى، وذلكَ لِما في إطلاقِ النِّداءِ مِنَ الإبهامِ الذي تتَطَلَّعُ مَعَهُ النَّفْسُ إلى معرفَةِ مضمونِهِ.

ويجوزُ أن يكونَ الفصلُ من بابِ الاستئنافِ البيانيِّ، فيكونُ بين الجُملَتينِ شِبْهُ كمالِ الاتِّصالِ، وذلك أنَّ قولَهُ ﷻ: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٗا يَعۡرِفُونَهُم بِسِيمَٰهُمۡ﴾، يبعَثُ في النَّفْسِ سُؤالًا: ما مضمونُ هذا النِّداءِ وما حقيقَتُهُ؟ فجاءَ الجَوابُ في قولِهِ تعالى: ﴿قَالُواْ مَآ أَغۡنَىٰ عَنكُمۡ جَمۡعُكُمۡ﴾.

سرُّ التَّعبيرِ بالقولِ دونَ النِّداء:

في قوله: ﴿قَالُواْ مَآ أَغۡنَىٰ عَنكُمۡ جَمۡعُكُمۡ﴾، عَبَّر بالقول دون النِّداء؛ لأنَّ القولَ أعمُّ من النِّداء، ولأنَّ الغرضَ من القول التَّبكيتُ والتوبيخ؛ لأنَّهم في الدُّنيا ما كانوا يسمحون للضُّعفاء والفقراء من أهل الإيمان بالقول، فأراد اللهُ أن يُسمعَهم قولهم.

التّوبيخُ مُستحَقٌّ لأصحابِ الوَجاهةِ الّذين جمعُوا الأموالَ، واستكبرُوا عنِ الحقِّ

بَراعَةُ المَجازِ المُرَكَّبِ:

قولُ اللهِ سُبحانَهُ: ﴿مَآ أَغۡنَىٰ عَنكُمۡ جَمۡعُكُمۡ﴾ يَحْتَمِلُ أن يكونَ خبرًا أو استفهامًا.

فعلى الخبر يُحمل معنى الآية على الخبَريَّةِ، ويكونُ الخبَرُ خارجًا عن أصلِ دلالَتِهِ مِنْ فائدةِ الخبَرِ أو لازِمِها إلى معْنًى مجازيٍّ؛ وهو شَماتَةُ أصْحابِ الأعرافِ بِوُقوعِ المُخاطَبينَ مِن أهلِ النّارِ في العُقوبَةِ، وفي ذلكَ تَبْكيتٌ عَظيمٌ يَحْصُلُ لأصحابِ النّارِ بِسَبَبِ هذا الكَلامِ[1].

تَبْكِيتُ أَصْحابِ النّارِ والشَّماتَةُ بِهِمْ، بما قدّمتْ أيدِيهم من فسَادٍ

وعلى دلالةِ الاستفهام في قَوْلِ اللهِ تعالى: ﴿قَالُواْ مَآ أَغۡنَىٰ عَنكُمۡ جَمۡعُكُمۡ﴾يكون من باب توبيخِ أهْلِ النّارِ وتقريعِهِم، وهذا عَذابٌ يُزادُ فوْقَ عَذابِهِمُ الذي هم فيهِ.

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/251، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/146.

وهذا المعنى صوَّبَهُ ابن عطيَّةَ[1]، ويكون الاسْتِفْهامُ خارجًا عن دلالَتِه الحقيقيَّةِ مِنْ إرادَةِ طلبِ العِلْمِ بشيءٍ لَم يكُنْ معلومًا مِنْ قَبْلُ، والمُرادُ به التَّوبيخُ والتَّقريعُ[2]، وذلك متضمِّنٌ معنى النَّفْيِ أيضًا، ولا إشكالَ في ذلك، حيث آلَ معْنَى الجملَةِ حالَ حملِها على الخبريَّةِ إلى مَعْناها حالَ حملِها على الإنشائيَّةِ، وذلك أنَّ الخبرَ المَنْفيَّ يُرادُ به الشَّماتةُ والتَّبكيتُ، والاستفهامُ يُرادُ به النَّفيُ والتَّوبيخُ، وهي معانٍ مُتآيِلَةٌ.

سِرُّ التَّعبيرِ بقوله: ﴿مَآ أَغۡنَىٰ﴾ دونَ غيرِها في الآيةِ:

تَطاوُلُ الكفّارِ على شرعِ اللهِ، بما أعطاهُم سبحانه من غِنًى

آثرَ التَّعبيرَ بمادة الغِنَى في قوله: ﴿مَآ أَغۡنَىٰ﴾؛ لأنَّها تدلُّ على عدَّة معانٍ، منها: عدمُ الاحتياج، وكثرةُ المقتنيات، وهذا ما كان يدَّعيه قادةُ الكفر في مكّة، وذلك بما أعطاهم اللّهُ من المال والولد؛ كما ذكر القرآنُ ذلك عنهم بقوله: ﴿ذَرۡنِي وَمَنۡ خَلَقۡتُ وَحِيدٗا ١١ وَجَعَلۡتُ لَهُۥ مَالٗا مَّمۡدُودٗا ١٢ وَبَنِينَ شُهُودٗا ١٣﴾ [المدثر: 11 - 13]، فكانوا يستغنون بذلك عن نعيم الجنَّة، ويقولون: لا حاجة لنا بنعيمِ الجنَّة، فجاء هذا القولُ من باب التَّبكيت.

سِرُّ تَقْديمِ الجارِّ والمجرور ﴿عَنكُمۡ﴾ في السِّياقِ:

إذا كان الوَصْلُ بالله مَقطوعًا، فلا يُغنِي مالٌ ولا جاهٌ

قوله: ﴿مَآ أَغۡنَىٰ عَنكُمۡ جَمۡعُكُمۡ﴾، قُدِّم الجار والمجرور ﴿عَنكُمۡ﴾ لإفادة تخصيصِ هذه الفئة وتعيينِها، الَّتي استغنت بمالها وولدها، ولِتَمَيُّزها عن غيرها من بقيَّة الكفّار.

سِرُّ التَّعبيرِ بلفْظِ ﴿جَمۡعُكُمۡ﴾ في أثناء السِّياقِ:

لا يُغْنِي عَنْ أَصْحابِ النّارِ شَيْءٌ، مَهْما تَنوّعَ وتَعدّدَ وكَثُرَ

(الجَمْعُ) في قولِ اللّه سُبحانَهُ: ﴿قَالُواْ مَآ أَغۡنَىٰ عَنكُمۡ جَمۡعُكُمۡ﴾ يحْتَمِلُ أن يُرادَ بهِ: جَمْعُ النّاس، والمعنى: ما أغْنَتْ عنكُم كَثْرَتُكم التي تَعْتَزّونَ بها، ويَحْتَمِلُ أن يكونَ (الجَمْعُ) مصدَرًا، يُرادُ به:

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/405.
(2) البقاعيّ، نظم الدرر: 7/407.

اسمُ المَفعولِ، والمعنى: ما أغنَى عنكُم الذي جَمَعْتُموهُ مِنَ المالِ[1]، فهو كقولِهِ تعالى: ﴿مَآ أَغۡنَىٰ عَنِّي مَالِيَهۡۜ ٢٨﴾ [الحاقة: 28]، فيكونُ مجازًا مرسلًا، بعلاقَةِ التَّعلُّقِ الاشتقاقيِّ.

ويضافُ إلى ذلك أنَّ التَّعبيرَ بلفظ الجمع يشير إلى العصبيَّة الجاهليَّة الَّتي كانت تجمعَهم على العناد والغطرسةِ، فكأنَّ كلمة الجمع لا تنفكُّ وصفًا عن ذواتهم الَّتي استكبرت عن الإيمانِ بالآيات الَّتي أنزلها اللّهُ على رسوله.

دَلالةُ التَّعبيرِ بالمصْدرِ ﴿جَمۡعُكُمۡ﴾ دونَ غيرِهِ:

والتَّعبيرُ بلفْظِ المَصدَرِ ﴿جَمۡعُكُمۡ﴾ أبلَغُ؛ مِنْ جِهَةِ أنَّ نفسَ الجَمْعِ لَمْ يُغْنِ عنهمْ شيئًا، بقَطْعِ النَّظَرِ عن المَجْموعِ؛ فإنَّه مَهْما اختلفَتْ أنواعُهُ، وتعدَّدت أفرادُهُ؛ فإنَّها لن تُغنيَ عنهم.

الجُموعُ لا تنفعُ ما لم تكُنْ في طاعةِ اللهِ، مُؤدّيةً لشَرْعِه وهُداه

سِرُّ زِيادَةِ فِعْلِ الكَوْنِ ﴿كُنتُمۡ﴾:

جاءَ التَّعبيرُ بِفِعْلِ الكوْنِ في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿وَمَا كُنتُمۡ تَسۡتَكۡبِرُونَ﴾ دون أنْ يَرِدَ النَّظْمُ القرآنيُّ: (**وَما تَسْتَكْبِرونَ**)؛ للإشْعارِ بأنَّ استكبارَهم لَمْ يكُنْ أمرًا عارِضًا، وإنَّما كان خُلُقًا تكوَّنوا عليه وتخلَّقوا بهِ واستمرّوا عليهِ[2].

تَخَلُّقُ أَصْحابِ النّارِ فِي الدُّنْيا بِالِاسْتِكْبارِ، واسْتِمْرارُهُمْ عَلَيْهِ

نُكْتَةُ التَّعْبِيرِ بِالفِعْلِ المُضارِعِ ﴿تَسۡتَكۡبِرُونَ﴾:

يُلاحظ في اختيارِ التَّعبيرِ بالفِعْلِ المُضارعِ ﴿تَسۡتَكۡبِرُونَ﴾ في قَوْلِ اللّهِ تعالى: ﴿وَمَا كُنتُمۡ تَسۡتَكۡبِرُونَ﴾، دونَ الماضي: (اسْتَكْبَرْتُمْ) إظهار قبيحِ أعمالِهم الَّتي عملوها في صورَةِ ما يُعْمَلُ في الحالِ؛ ليَسْتَحْضِروا موجِبَ عذابِهِمْ وقْتَ تعذيبِهِمْ، فيَكونَ ذلكَ أشدَّ في حسرَتِهِمْ وأبلغَ في تبكيتِهِمْ.

اسْتِحْضارُ مُوجِبِ العَذابِ، أَشَدُّ فِي حَسْرَةِ المُعَذَّبِينَ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/145.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/230.

دَلالَةُ حَذْفِ مُتَعَلَّقِ فِعْلِ ﴿تَسْتَكْبِرُونَ﴾، في السِّياقِ:

التَّكَبُّرُ ضَرْبانِ: تَكَبُّرٌ عَلَى الخَلْقِ، وَتَكَبُّرٌ عَنْ قَبُولِ الحَقِّ

حُذِفَ متعلَّقُ فِعْلِ الاِسْتِكْبارِ في قَوْلِ اللّهِ سُبحانَهُ: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ﴾، إيماءً إلى تخلُّقِهم بعُمومِ أفرادِ هذا الخُلُقِ الذَّميم، فهم قَدْ تكبَّروا عَنْ قبولِ الحقِّ، وتكبَّروا على الخَلْقِ[1]، فحَذْفُ المتعلَّقِ كان مؤذِنًا بالعُمومِ مُشْعِرًا به.

ويَجوزُ أن يكونَ حَذْفُ المُتعلَّقِ لدلالَةِ القرينَةِ عليه، وأنَّ المرادَ به: التَّكبُّرُ على الخَلْقِ، بدليلِ قولِ اللّه ﷻ بعدُ: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحْمَةٍۚ﴾.

ويَنْضَمُّ إلى ذلكَ أنَّ الحذْفَ أليَقُ بالتَّناسُبِ الصَّوْتيِّ لأواخِرِ الآيِ؛ إذْ لَوْ نُصَّ عَلَيْه؛ لفاتَ هذا التَّناسُبُ.

نُكْتَةُ العُدُولِ عَنِ المَصْدَرِ إِلَى الفِعْلِ المُضارِعِ:

اسْتِكْبارُ أَصْحابِ النّارِ كانَ عادَةً لَهُمْ فِي الدُّنْيا، وَطَبْعًا مُتأصِّلًا

(ما) في قولِ اللّهِ سُبحانَهُ: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ مصدريَّةٌ، والمعنى: ما أغنَى عَنْكُمْ جمعُكُم واسْتِكْبارُكم؛ وصيغَ الاستكبارُ مِنَ الفِعْلِ دونَ المصْدَرِ، فلَمْ يَرِدِ النَّظْمُ القرآنيُّ: (ما أغْنَى عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ واسْتِكْبارُكُمْ)؛ ليُتَوسَّلَ بالفِعْلِ إلى إيرادِهِ مُضارعًا، فيُفيدَ أنَّ استكبارَهم كان عادةً لهم وطبعًا، لا ينقطِعونَ عنه، ولا يفتُرونَ[2].

سِرُّ اخْتِيارِ الاسْتكبارِ في قوله: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ﴾:

الاسْتِكبارُ مانِعٌ من قَبولِ الحقِّ

آثَرَ القرآنُ الكريم التَّعبيرَ بالاستكبار؛ لأنَّه يشير إلى نظرةِ قادة الكفر إلى أتباعِ الأنبياء، فيرونهم ضعفاءَ فقراءَ عبيدًا؛ لذلك كانوا يستكبرون، ويستعلون عليهم، ويصفونهم بأنَّهم أراذلُ الخلق، وهذا ما ذكره القرآن الكريم عن قوم نوح في استكبارهم على أتباع نوح، قال تعالى: ﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْيِۖ﴾؛ لذلك كان التَّبكيتُ لهم من جنس ما فعلوا.

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/230.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/146.

سِرُّ الجمْعِ بين تَجمِيعِ الأموالِ والرّجالِ، والاسْتِكبارِ، في سِياقٍ واحدٍ:

جُموعُ الكُفرِ تُؤدِّي إلى الاسْتِكبارِ، والعُتوِّ في الأرضِ

في قولِه: ﴿مَآ أَغۡنَىٰ عَنكُمۡ جَمۡعُكُمۡ وَمَا كُنتُمۡ تَسۡتَكۡبِرُونَ﴾، جمعَ القرآن الكريم بين جَمْعهم واستكبارِهم ولم يكتَفِ بواحدةٍ منهما؛ لشدَّة التَّلازم بينهما، فالجَمْعُ يكون للأتباع والأشياع، ويُطلق على جمع المال أيضًا، والاستكبارُ ناتجٌ عن هذا الجَمْع الَّذي أدَّى إلى الاستكبار، ولذلك يكون المعنى: ما أغنى عنكم أتباعُكم، والَّذي كنتم تستكثرونه من الأموال[1].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(الاسْتِنْكافُ) و(الاسْتِكْبارُ):

الاسْتِكْبارُ مَرحلةٌ أعلى منَ الاسْتِكبارِ

الاسْتِنْكافُ والاسْتِكْبارُ متغايِرانِ، بدليلِ ورودِهما متعاطِفَيْنِ في قولِ اللّه سُبحانَهُ: ﴿وَمَن يَسۡتَنكِفۡ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَيَسۡتَكۡبِرۡ فَسَيَحۡشُرُهُمۡ إِلَيۡهِ جَمِيعٗا ١٧٢﴾ [النساء: 172]، وقولِه تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسۡتَنكَفُواْ وَٱسۡتَكۡبَرُواْ فَيُعَذِّبُهُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا﴾ [النساء: 173].

فالاسْتِنْكافُ: الأنَفَةُ والتَّرفُّعُ، ومعناهُ: الانقباضُ والامتناعُ عَنِ الشَّيءِ مِن بابِ الحميَّةِ والعِزَّةِ، فهو أشدُّ من الاستكبار، وأمّا الاستكبارُ؛ فهو دونَ الاسْتِنْكافِ؛ ولذا عُطِفَ عَلَيْهِ في الآيَتَيْنِ المُتَقَدِّمتَيْنِ، مِنْ بابِ التَّدلّي، فالاسْتِكْبارُ: طَلَبُ الكِبْرِ بِغَيْرِ اسْتِحْقاقٍ لَهُ؛ لأنَّ صاحبَهُ يُظْهِرُ مِنْ نَفْسِه ما ليسَ لَهُ.

والسّينُ والتّاءُ في الاسْتِكْبار تدلُّ على القوَّةِ والشدَّةِ، فاسْتَكْبَرَ، أيْ: قويَ كِبْرُهُ وعَظُمَ، وأمّا السّينُ والتّاءُ في الاسْتِنْكافِ فهي دالَّة على الطَّلبِ والتَّحوُّلِ في التَّركِ مع أنَفَةٍ وتكبُّرٍ وامتناعٍ، ولَيْسَ هذا المعنى في الاسْتِكْبارِ.

أما القول المنسوب إلى المبرّد رحمه الله من كون السينِ والتاء في

(1) الآلوسي، روح المعاني: 8/125.

الاستنكاف للسَّلْب، فهو مبنيٌّ على أنَّ أصلَ الكلمة مشتقٌّ من النَّكْفِ، وهو قَوْلُ السّوءِ أو العَيْب، كما تقول العرب: "ما عَلَيْهِ في هَذا الأمْرِ نَكْفٌ ووَكْفٌ"، أي: عَيبٌ، فعلى هذا القولِ تكونُ السينُ والتاء في "اسْتَفْعَلَ" لسلْبِ المعنى من العَيب إلى ما يضادُّه، وهو فعلُ العَيبِ وارتكابُ المعيبِ مع علوٍّ وارتفاعٍ وأنفَةٍ.[1].

(1) ابن منظور، لسان العرب: (نكف)، والشوكاني: فتح القدير: 1/625، والآلوسي، روح المعاني: 3/211، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 6/59، والدّوري، دقائق الفروق اللغوية في البيان القرآني، ص: 194 - 195.

﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمۡتُمۡ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحۡمَةٍۚ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمۡ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ ٤٩﴾ [الأعراف: 49]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لَفْتُ نَظَرِ أَصْحابِ الأعْرافِ، إلى المُستضعَفين المحتَقَرين من أهلِ الجَنّةِ، وحُسْنِ مَصيرِهم

لمّا أخبرَ اللّهُ ﷻ عَن أصْحابِ الأعْراف في الآية السّابقة أنَّهم كلَّموا أصحابَ النّارِ بِكلامٍ متضمِّنٍ التَّوْبيخَ واللَّوْمَ، فقالَ سُبحانَهُ: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٗا يَعۡرِفُونَهُم بِسِيمَٰهُمۡ قَالُواْ مَآ أَغۡنَىٰ عَنكُمۡ جَمۡعُكُمۡ وَمَا كُنتُمۡ تَسۡتَكۡبِرُونَ﴾؛ أخبرَ ﷻ في هذه الآية عن تتمَّةِ تَوْبيخِ هؤلاءِ وتَقْريعِهم وتَحْزينِهم والإنْكارِ عَلَيْهِمْ.[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَقۡسَمۡتُمۡ﴾: القافُ والسِّينُ والميمُ تدلُّ كثيرٌ مِنْ تصاريفِها على معنى تجزئةِ الشَّيءِ[2]، وَمِنْهُ: القَسَمُ بِاللّهِ، وهوَ الحَلِفُ بِهِ، كأنَّ الحالِفَ جَعَلَهُ مِن نَصيبِهِ، أيْ: معَهُ، بمعنَى: أشْهَدَهُ عَلَى ما يَقُولُ[3]، أو أنَّ أصلَ القَسَمِ الذي بمعنَى الحَلِفِ: أنَّهُ مِنَ القَسامَةِ، وَهِيَ أيمانٌ تُقْسَمُ علَى أوْلِياءِ المَقْتُولِ، ثُمَّ أُطْلِقَ علَى كُلِّ حَلِفٍ[4]، وهو المرادُ بقولِ اللّهِ تعالَى: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمۡتُمۡ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحۡمَةٍۚ﴾ أي: حَلَفْتُمْ.

2) ﴿خَوۡفٌ﴾: الخاءُ والواو والفاءُ تدورُ اشتقاقاتُها على معنى الذُّعْرِ والفَزَعِ[5]، ومِنْهُ الخَوْفُ، وهُوَ ضدُّ الأمْنِ[6]، وحقيقتُهُ: أنَّهُ غَمٌّ يَلْحَقُ العبدَ مِنْ توقُّعِهِ المكروهَ[7]، فهو خاصٌّ بالزَّمن المُسْتَقْبَل[8].

(1) البقاعيّ، نظم الدرر: 7/407.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (قسم).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (قسم).
(4) الرّاغب، المفردات الكريم: (قسم).
(5) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (خوف).
(6) ابن دُريد، جمهرة اللُّغة: (خوف).
(7) الكفويّ، الكلّيّات، ص: 428.
(8) الشّنقيطي، العذبُ النَّمير: 1/284.

3) ﴿تَحۡزَنُونَ﴾: الحاءُ والزّاي والنُّون تَدُور تصريفاتُها على معنى خُشُونةِ الشَّيءِ والشِّدَّةِ فِيهِ[1]، وَمِنْهُ: الحَزَنُ: وهو الغِلَظُ مِنَ الأرضِ[2]، والحُزْنُ: وهو ضدُّ الفَرحِ والسُّرور؛ لأنَّه شِدَّةٌ تَعْتَرِي قلبَ الإنْسانِ[3]، وحقيقَةُ الحُزْنِ: غَمٌّ مِن أمرٍ فائتٍ[4].

❁ المعنى الإجْماليُّ:

تنبيهُ أهْلِ الأعْرافِ إلى الضُّعفاءِ والفُقراءِ المؤمنين، كيفَ صارُوا لا خوفٌ عليهم ولا تَحزينٌ

بيَّن اللّه في هذه الآية أنَّ أهل الأعراف يقولون لأولئك الكفّار الذين في النّار: أهَؤُلاءِ الضُّعَفاءُ والفُقَراءُ مِنْ أهْلِ الجَنَّةِ الذينَ أقْسَمْتُمْ في الدُّنْيا: إنَّ اللّه سُبحانَهُ لا يَشْمَلُهم يَوْمَ القيامَةِ بِرَحْمَةٍ، ولَن يُدْخِلَهُمُ الجَنَّةَ؟ فقَدْ غَفَرَ اللّه لَهم، ورَحِمَهم بِواسعِ فضْلِه ورَحْمَته. ويقال لأصحاب الأعراف: ادخُلوا يا أصْحابَ الأعْرافِ الجَنَّةَ، لا خوْفٌ عَلَيْكُمْ بعدَها مِن عُقوبَةٍ تُعاقَبونَ بِها على ما سلَفَ مِنْكُمْ في الدُّنْيا مِنَ الآثامِ والإجْرامِ، ولا أنْتُمْ تَحْزَنونَ على شَيْءٍ فاتَكُمْ مِنْ حظوظِ الدُّنيا[5].

وترشدُ الآية الكريمةُ إلى تحقُّقِ ما رجاهُ القومُ الذين استوَتْ حسناتُهم وسيئاتُهم - وكانوا على الحاجز العظيم بين الجنَّة والنارِ، الذي يُقال له الأعرافُ - من نَيْل رحمةِ اللّه تعالى لهم والإنعام عليهم بدخولِ الجنة؛ فإنَّ اللّه الكريمَ المنّانَ لم يجعلِ الطَّمعَ في قلوبهم إلّا لما يريدُ بهم من كَرامتِه سبحانه.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

عِلَّةُ فَصْلِ قَوْلِه تَعالَى: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ﴾ عَمّا قَبْلَهُ:

الدِّفاعُ عَنْ أَصْحابِ الجَنَّةِ، بَعْدَ تَبْكِيتِ أَصْحابِ النّارِ

فُصِلَ قولُ اللّه سُبحانَهُ: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمۡتُمۡ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (حزن).
(2) ابن دُريد، جمهرة اللُّغة: (حزن).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (حزن).
(4) الشّنقيطي، العذبُ النَّمير: 4/462.
(5) ابن جرير، جامع البيان: 12/472، ونخبة من العلماء، التّفسير الميسّر، ص: 156.

﴿بِرَحۡمَةٖۚ﴾ عمّا قبلَهُ؛ لِما بينَهُما من كمالِ الانقطاعِ، وذلك لِاخْتِلافِ الجملتَيْنِ خبرًا وإنشاءً، فقولُ اللّه تعالى: ﴿قَالُوٓاْ مَآ أَغۡنَىٰ عَنكُمۡ جَمۡعُكُمۡ وَمَا كُنتُمۡ تَسۡتَكۡبِرُونَ﴾ جملةٌ خَبَرِيَّةٌ، وقولُهُ سُبحانَهُ: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمۡتُمۡ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحۡمَةٍۚ﴾ جملةٌ إنشائيَّةٌ؛ إذْ هي استفهامٌ، وليسَ هذا الفصلُ مِمّا يوهِمُ خلافَ المقصودِ.

سِرُّ التَّعْرِيفِ بِاسْمِ الإشارَةِ (هَؤُلاءِ):

تَمْيِيزُ أَصْحابِ الجَنَّةِ أَكْمَلَ تَمْيِيزٍ؛ تَسْجِيلًا عَلَى أَصْحابِ النّارِ

عُرِّفَ المسنَدُ إليهِ بِالإشارَةِ في قَوْلِ اللّه ﷻ: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمۡتُمۡ﴾ للتَّسجيلِ على أصحابِ النّارِ بتقريرِ المسنَدِ إليه وإيضاحِهِ وتمييزِهِ أكملَ تَمْييزٍ؛ ليَرِدَ قولُه تعالى بَعْدُ: ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ﴾ نقضًا لذاتِ دَعْواهُمُ الباطِلَةِ بقسَمِهم بأنَّ هؤلاء الفقراء أتباعَ النبيّين لن ينالهم اللّه برحمةٍ من عنده؛ بناءً على ازدرائهم لهم في الدُّنيا.

دَلالَةُ الِاسْتِفْهامِ ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ﴾:

قَسَمُ الكَفَرَةِ عَلَى مَنْعِ اللهِ تَعالَى رَحْمَتَهُ عَنْ عِبادِهِ: جَراءَةٌ مِنْهُمْ عَلَى مَقامِ الرُّبُوبِيَّةِ

الاسْتِفْهامُ في قولِ اللّه سُبحانَهُ: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمۡتُمۡ﴾ ليسَ على حَقيقتِهِ مِن إرادَةِ طلب العِلْمِ بشيءٍ لَمْ يكُنْ معلومًا مِنْ قبلُ، وإنَّما المرادُ به التَّوبيخُ والتَّقريعُ والتَّحزينُ[1]، وذلك كلُّه متضمِّنٌ الإنكارَ عليهِمْ؛ إذْ كيفَ تَجَرَّؤوا على مَقامِ الرُّبوبيَّة بالإقْسامِ على مَنْعِ اللّهِ تعالى رَحْمَتَهُ عَنْ عِبادِهِ!! وهذا مزيدُ تقريعٍ وتوبيخٍ لهم بأن يقال لهم: أهُمُ الذين ترونهم رأيَ العين في رحمة اللّه تعالى في جنَّة الخُلد، فكأنَّ ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ﴾ وظيفتُها الإشارةُ إلى هؤلاء الضعفاء في زعمهم، فهُم اليوم في جنَّة الخُلد.

سِرُّ التَّعْبِيرِ عنِ الفُقراءِ والضُّعفاءِ من أهْلِ الإيمانِ بالقَسَمِ:

مَقامُ الإيمانِ مآلُهُ، إغْلاءُ صاحِبِه وإكرامُه في الدّارَيْن

قوله: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمۡتُمۡ﴾، عبَّر فيه القرآنُ الكريمُ عن هؤلاء الفقراء والضُّعفاء من أهلِ الإيمان بهذا التَّعبيرِ الموصوفِ؛ ليُعلِيَ من

(1) البقاعيّ، نظم الدرر: 7/407.

قدرهم، ولينفيَ عنهم ما زعمه الكفّارُ في الدُّنيا من ضَعفهم وعدم الاكتراثِ بهم؛ فلم يُرِد أن يلحقَ بهم هذا الوصفُ المزعوم الذي أطلقَهُ مرَدةُ الكفّار؛ جَبرًا لخواطرهم، وتبكيتًا لقادة الكفرِ الذين افتَروْه عليهم؛ لذلك جاء التَّعبيرُ باسمِ الإشارة وجملةِ الصِّلة؛ ليبيِّن علوَّ منزلتهم في الآخرة، وردًّا على الذين كانوا يُقسِمون بأنَّ هؤلاءِ الفقراءَ لن ينالهم اللّٰه برحمةٍ من عنده.

سِرُّ التَّعْبيرِ بالقسَمِ في قوله: ﴿أَقْسَمْتُمْ﴾:

بذلُ الكفّارِ أقصَى المحاولاتِ في إضْعافِ رُوحِ الإيمانِ عندَ المؤمنينَ

عبَّر القرآنُ الكريم بالقَسَمِ في قوله: ﴿أَقْسَمْتُمْ﴾؛ لبيان موقف المشركينَ من أتباع الرَّسول ﷺ الَّذين وعدَهُم بالثَّواب من عند اللّٰهِ تكريمًا لهم؛ فأراد الكفّار أن يُكذِّبوا الأنبياء في وعدِهم لهم بالجنَّة في الآخرة بهذا القسَم الَّذي يظنّون أنَّهم به صادقون.

ولإظهار تصلُّبهم واعتقادِهم أنَّهم لا يُخامرهم شكٌّ في أنَّ هؤلاءِ الضُّعفاءَ لا ينالهم اللّٰه برحمةٍ[1].

دَلالةُ التَّعْبيرِ بصِيغةِ الجمْعِ في القسَمِ ﴿أَقْسَمْتُمْ﴾:

رِضا أهْلِ الكُفرِ عمومًا بإهانةِ المؤمنينَ

عبَّر القرآنُ الكريم بصيغة الجمع في القسَمِ الصادر عن الكفارِ في ﴿أَقْسَمْتُمْ﴾، وإن كان هذا القَسَمُ قد وقع من بعضِهم، وهم أئمّةُ الكفر وقادتُه؛ لأنَّ أهلَ ملّةِ الكفر على وجهِ العمومِ رضوا بذلك، وأقرّوا كُبراءَهم على هذا الادِّعاء الكاذب؛ فاعتبرَ القرآنُ رضا الجميعِ وعدمَ إنكارِهم على عتاتهم، من باب موافقتهم فيما يقولون.

دَلالَةُ النَّفْيِ في قَوْلِه: ﴿لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحْمَةٍۚ﴾:

إبطالُ زَعْمِ الكفَّارِ في نفْيِ الرَّحمةِ عنِ المؤمنينَ

النَّفْيُ بـ (لا) في قولِ اللّٰه ﷻ: ﴿لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحْمَةٍۚ﴾ مُسلَّطٌ في كلامِهِمْ على مُراعاةِ نَفْيِ كلامٍ يقولُهُ الرَّسولُ ﷺ أو المؤمنونَ، ووجهُ ذلك: أنَّ بِشاراتِ القرآنِ الكَريمِ لِأولَئِكَ الضُّعفاءِ، ووَعْدَهُ إيّاهُم

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/146.

بالجَنَّةِ، مُنَزَّلٌ مَنْزِلَةَ كلام مُفادُهُ: أنَّ اللّه تعالى أصابهم بِرَحْمَةٍ منه، فكانَ في نفيهم نيلَ اللّهِ تعالى هَؤُلاءِ برحمةٍ: ضَرْبٌ مِنْ ضُروبِ المشاكلَةِ لِلَفْظٍ مُقدَّرٍ، كما هو أحدُ صورَتَي المُشاكَلَةِ؛ فإنَّها: ذِكْرُ الشَّيْءِ بِلَفْظِ غَيْرِهِ؛ لِوُقوعِهِ في صُحْبَتِهِ تَحْقيقًا أو تَقْديرًا[1].

بَلاغَةُ الاستعارَةِ التَّصريحيَّةِ التَّبعيَّةِ:

في قولِ اللّه ﷻ: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمۡتُمۡ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحۡمَةٍۚ﴾ اسْتِعارَةٌ؛ إذ شُبِّهَ إيواءُ اللّهِ تعالى إيّاهم في الجنَّةِ بالنَّيْلِ؛ وهو حُصولُ الأمرِ المَحْبوبِ المبْحوثِ عنه، فأُطْلِقَ على ذَلِكَ الإيواءِ فِعْلُ النَّيْلِ، على سَبيلِ الاستعارَةِ التَّصريحيَّةِ التَّبعيَّةِ، وجُعِلَتِ الرَّحْمَةُ بمنزِلَةِ الآلَةِ لهذا النَّيْلِ[2]، ونُكْتَةُ الاستعارَةِ المبالَغَةُ في نفي رحْمَةِ اللّه تعالى لَهَؤُلاءِ؛ بحيثُ إنَّ هذه الرَّحْمَةَ المُسداةَ لهم من ربِّهم الرحمنِ تطلبُهم، وهم كالفارّينَ مِنْها.

بيانُ مُبالَغَةِ أَصْحابِ النّارِ في الدُّنْيا، في نَفْيِ رَحْمَةِ اللهِ تَعالَى بِالضُّعَفاءِ مِنَ المُؤْمِنِينَ

دَلالَةُ الباءِ ﴿بِرَحۡمَةٍۚ﴾:

الباءُ في ﴿بِرَحۡمَةٍۚ﴾ مِن قولِ اللّه ﷻ: ﴿لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحۡمَةٍۚ﴾ للآلَةِ، فتَكونُ الرَّحمَةُ بمنزلةِ الآلَةِ والوسيلةِ لهذا النَّيل، ويجوزُ أن تكونَ الباءُ لِلْمُلابسَةِ، فتكون الرَّحْمَةُ مُلابِسَةً للنَّيْلِ، شاملةً لإكرام اللّه لهم بدخول الجنَّة ومنازلها[3].

بَيانُ كَوْنِ الرَّحْمَةِ مُلابِسَةً لِلنَّيْلِ المَذْكُورِ وَآلَةً لَهُ

دَلالَةُ المَجازِ المُرْسَلِ المُرَكَّبِ:

جملةُ ﴿لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحۡمَةٍۚ﴾، المحكيَّةُ عنْ أصحابِ النّارِ إقسامُهم عَليْها جملةٌ خبريَّةٌ، لا يُرادُ بها مُطْلَقُ الإخبار، وإنَّما المرادُ لازِمُ ذلك: وهو التَّهَكُّمُ بضعفاءِ المؤمنينَ في الدُّنيا[4]؛ حيثُ لم يَرَوْهم أهلًا لنَيْلِ رَحْمةِ اللّه تعالى، فكانَتِ الجُمْلَةُ مَجازًا مُرْسَلًا مُرَكَّبًا.

مَقاييسُ أَهْلِ الكُفْرِ في مَعْرِفَةِ أَقْدارِ النّاسِ، تَتَعَلَّقُ بِمَظاهِرَ دُنْيَوِيَّةٍ

(1) الصَّعيدي، بغية الإيضاح: 4/588.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/146.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/147.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/147.

نُكْتَةُ الإِظْهارِ فِي مَحَلِّ الإِضْمارِ:

جُرأةُ الكفَّارِ في التَّضْييقِ على أهلِ الإيمانِ بِمُجَرَّدِ هوَى النُّفوسِ

في قولِ اللّه ﷻ: ﴿لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحۡمَةٍۚ﴾ إظهارٌ في مَوْضِعِ الإضمار، وذَلِكَ أنَّ جملةَ ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمۡتُمۡ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحۡمَةٍۚ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ﴾ مِنْ قولِ اللّه تعالى لأصحابِ النّارِ تبكيتًا لَهم وتقريعًا، فكان مقتضَى الظّاهرِ أن يَرِدَ النَّظْمُ القرآنيُّ: (أهؤلاء الذين أقسمْتُم لا أنالُهم برحمةٍ)، فأُظْهِرَ المسنَدُ إليهِ، وجيءَ بهِ معرَّفًا بالعلَميَّةِ - بالاسْمِ الأحسنِ (اللّه) - مبالغَةً في تقريعِهِمْ وتَبْكيتِهم؛ إذْ إنَّ اسمَ (اللّهِ) دالٌّ على مَنْ لَهُ صفاتُ الكَمالِ والجمالِ والجَلالِ، ومِنْ جملَةِ تلكَ الصِّفاتِ الكاملَةِ: رَحْمَتُهُ سُبحانَهُ[1]، فقَبيحٌ بأحدٍ مِنَ الخَلْقِ أن يتجرَّأ على هذه الصِّفةِ وغيرِها من الصِّفاتِ الإلهيَّةِ بالحَجْرِ والتَّضْييقِ، بمجرَّدِ مشْتهَياتِ النُّفوسِ وأهوائها.

سِرُّ إيثَارِ التَّعْبيرِ بالرَّحمةِ دونَ غيرِها:

الرَّحمةُ بابٌ واسِعٌ يَعمُّ الجميعَ، ويَنتفعُ به كلُّ منْ رَحِمَه الله

قوله: ﴿لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحۡمَةٍۚ﴾، آثرَ القرآنُ الكريم التَّعبيرَ بالرَّحمة؛ لأنَّها تُطلق على أبوابٍ من الخير كثيرةٍ؛ فهي في الدُّنيا تأتي بمعنى (الرِّزق، النَّصر، العافية، التَّوفيق، غيثِ المطر) إلى غير ذلك من المعاني الَّتي تحملُ بشاراتٍ وافرةً من الخير، وفي الآخرة تأتي بمعنى الجنَّة، قال تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبۡيَضَّتۡ وُجُوهُهُمۡ فَفِي رَحۡمَةِ ٱللَّهِۖ﴾ [آل عمران: 107] يعني في الجنَّة؛ وفي ذلك إشارةٌ إلى أنَّ جبابرةَ الكفارِ لا يريدون لضَعَفةِ المؤمنين خيرًا في الدُّنيا ولا في الآخرة.

سِرُّ تَنْكيرِ لفْظِ (رَحْمَةٍ):

ضَلالُ أَفْهامِ الكُفّارِ، وَأَفَنُ عُقُولِهِمْ

في قَوْلِ اللّهِ تعالى: ﴿لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحۡمَةٍۚ﴾، نُكِّرت كَلِمَةُ (رَحْمَةٍ) مِنْ قَوْلِ اللّهِ سُبحانَهُ حكايةً لمقالَةِ أصحابِ النّارِ التي قالوها في الدُّنيا: ﴿لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحۡمَةٍۚ﴾؛ لإرادةِ التَّصغيرِ، أي: إنَّهم أقسَموا أنَّ اللّه ﷻ لا ينالُهم بأيِّ رحمةٍ مَهْما صَغُرَتْ. ويَجوزُ أن يكونَ التَّنكيرُ

(1) البقاعيّ، نظم الدرر: 7/407.

لإفادَةِ العُمومِ؛ لوُرودِها في سياقِ النَّفْيِ، فيكونَ نفيُهُم واقعًا على كلِّ رحمةٍ صغيرةً كانت أو عظيمَةً، وعلى الوَجْهِ المتقدِّمِ يكونُ النَّفْيُ لِصَغيرِ الرَّحْمَةِ، ويُستفادُ نفيُ عَظيمِها بطريقِ الأولَويَّةِ والأحْرَويَّةِ.

وهذا مِن عَظيمِ جراءَتِهم على مقام الرُّبوبيَّةِ، وهو من أفَنِ عقولِهم، وضلالِ أفهامِهم؛ إذْ ظنّوا أنَّ مَن ينالونَ قوَّةً وثراءً في الدُّنيا؛ ينالونَها في الآخرةِ إن وُجدَتْ[1].

دَلالةُ عَدَمِ ذِكْرِ القَولِ قبلَ قولِه: ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ﴾:

جاء التعبيرُ القرآنيُّ ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ﴾ من غير ذِكرِ القول أو النِّداء بأن يُقال لهم: ادخلوا الجنَّة مع أنَّ السّياق في هذا المشهد مبنيٌّ على الحوار والمناداة، فلم يَرِد القولُ - سواءً كانَ خِطابًا مِنَ اللّه لِأهْلِ الأعْرافِ، أو كانَ خِطابًا مِنَ اللّه لِأهْلِ الجَنَّةِ[2] - ليعجلَ بالبشارة لأهل الإيمانِ المعنيّين في الخطابِ بدخول الجنة: ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ﴾، فأراد تقصيرَ الزَّمن بحذفِ فعل القول استعجالًا للبشارة.

حَذْفُ القَوْلِ لِتعجيلِ البِشارةِ لهم، فلا حائلَ بينهم وبين الدُّخولِ

ويحتمل أنْ يَكونَ الخطابُ المطويُّ نسبتهُ حاصلًا مِن أهْلِ الأعْرافِ لِأهْلِ الجَنَّةِ؛ فعَلى هَذا الوَجْهِ يَكونُ مَعْنى قَوْلِ أهْلِ الأعْرافِ لِأهْلِ الجَنَّةِ: ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ﴾، أي: اعْلوا إلى القُصورِ المُشْرِفَةِ، وارْتَفِعوا إلى المَنازِلِ المَنيفَةِ؛ لِأنَّهم قَدْ رَأوْهم في الجَنَّةِ[3]. وفيه إشارةٌ إلى توجيهِ الخطاب - إلى هؤلاءِ الذين أقسَمَ الكفّار عليهم - من التَّحدُّث عنهم إلى الخطاب معهم.

بَراعَةُ التَّعْبيرِ بِدُخولِ الجَنَّةِ ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ﴾، في أثناء الآيةِ الكريمةِ:

أقْسَمَ أصحابُ النّار في دُنياهم ألّا ينالَ اللّهُ تعالى ضُعَفاءَ أهلِ الإيمانِ برحمةٍ، كما قالَ اللّه سُبحانَهُ: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمۡتُمۡ لَا

نَقْضُ مَقالَةِ أَصْحابِ النّارِ، بِالدَّلِيلِ والبُرْهانِ

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 6/2852.
(2) ابن الجوزي، زاد المسير: 2/125.
(3) الزَّجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 2/343، وابن الجوزي، زاد المسير: 2/125.

﴿يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحۡمَةٍۚ﴾، فرَدَّ اللّهُ ﷻ عَلَيْهِمْ بإبطالِ مَقالَتِهم، فقال: ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ﴾، وأمَرَهُم بدخولِ الجنَّةِ نكايَةً في أهلِ النّارِ؛ لأنَّ ذلك أنْفَى لِما أقسَموا عَلَيْه[1]، لاشتمالِهِ على نقيضِ قولِهم مقرونًا بالدَّليلِ، فكأنَّ المعنى: بل أنالُهم برحمةٍ مِنّي، والدَّليلُ على ذلك إدخالي إيّاهُمُ الجنَّةَ.

دَلالَةُ الأَمْرِ فِي قَوْلِ اللهِ تَعالَى: ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ﴾:

إكْـــرامُ أَهْـــلِ الجَنَّةِ، وَإِدْخالُ الغَمِّ والحَسْرَةِ عَـلَى أَصْـحـابِ النّارِ

الأمْرُ في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ﴾ خَرَجَ عَن أصْلِهِ في الدَّلالَةِ على الإلْزام بالفِعْلِ؛ لِعَدمِ قُدرَةِ العبادِ على دُخولِ الجنَّةِ باخْتيارِهِم، ولانقِطاعِ التَّكليفِ في الآخِرَةِ، وإنَّما الأمْرُ في ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ﴾ يُرادُ به الإكرامُ، ولازِمُ ذلك إدخالُ الغَمِّ والحسْرَةِ[2] على أصحابِ النّارِ الذين احْتَقَروا هؤلاءِ الضُّعفاءَ مِنَ المؤمنينَ.

ويجوز أن يكونَ الأمرُ مُرادًا به الدُّعاءُ؛ وذلك لأنَّ المشارَ إلَيْهِمْ بِـ (هَؤُلاءِ) هم ناسٌ مِنْ أهْلِ الجَنَّةِ؛ إذْ ذَلك الوَقْتُ قَدِ اسْتَقَرَّ فيهِ أهلُ الجنَّةِ في الجنَّةِ، وأهلُ النّارِ في النّارِ، فلمّا كان دخولُ كُلٍّ حاصِلًا، فكانَ الدُّعاءُ مرادًا به الدَّوامُ[3].

ويؤكِّد ذلك ما ذكره أبو زهرةَ بقوله: "وطلبُ الدُّخولِ هنا تقريرٌ للدُّخول؛ لأنَّهم دخلوا فعلًا، وما كان دخولهم بعد الطَّلب، إنَّما كان قبلَه، كما ترى إنسانًا في أرضٍ طيِّبةٍ، فينتفعُ وهو فيها، ويستحقُّها، تقول له: ادخُلْها وابقَ فيها"[4].

دَلالَةُ التَّعبيرِ بالضَّميرِ، في قوله: ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ﴾:

عبَّر بالضَّمير لتَعدُّد المراد فيه، فقيل: هم أصحابُ الأعراف،

(1) البقاعيّ، نظم الدرر: 7/407 - 408.
(2) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 7/214.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/147.
(4) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 6/2853.

والله تعالى يقول لهم ذلك أو بعضُ الملائكة الَّذين يأمرُهم اللهُ تعالى بهذا القول، وقيل: المرادُ أهلُ الجنَّة الذين وردَ ذِكرُهم في قوله: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمۡتُمۡ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحۡمَةٍۚ﴾، ويكون القائلُ ذلك لهم: ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ﴾ أصحابَ الأعراف[1].

الإضمارُ ناسَبَ تَعَدُّدَ مَرْجِعِ الضَّميرِ

سِرُّ التَّعبيرِ بالجنَّةِ فقط، دونَ ذِكْرِ أوصَافِها:

جاء التَّعبيرُ القرآنيُّ بلفظ الجنَّة من غير وصفٍ من باب استغراقِ أفرادِ الجنسِ، فيشملُ كلَّ أوصافِ الجنّات؛ لذلك ذهبَ العلماءُ في المرادِ باللّام في ﴿ٱلۡجَنَّةَ﴾ مِنْ قَوْلِ اللهِ ﷻ: ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ﴾ أنَّها لِلْعَهْدِ العِلْميِّ، وهيَ جنَّةُ الخُلْدِ التي أعدَّها اللهُ سُبحانَهُ نعيمًا لأهل الإيمانِ، ويَجوزُ أن تكونَ اللّامُ للعَهْدِ الحُضوريِّ، أي: ادخلوا الجنَّة الَّتي هي حاضرَةٌ أمامَكُمْ، أو اسْتَمِرّوا على دخولِكُمُ الجنَّةَ التي أنتُمْ مستقرّونَ فيها وقتَ الخِطاب.

الجَنَّةُ دارُ الثَّوابِ والنَّعيمِ لِأَهْلِ الإيمانِ

نُكْتَةُ نَفْيِ الخَوْفِ والحُزْنِ على عبادِه المستضعَفين فِي الجنّةِ:

في قَوْلِ اللهِ تعالى: ﴿لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمۡ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ﴾، نُفيَ الخوفُ عن المُكَرَّمين بدخول الجنة بصيغةِ الاسْمِ في قولهِ سُبحانَهُ: ﴿لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمۡ﴾، ونُفيَ الحُزْنُ عنهم بصيغَةِ الفِعْلِ في قولِهِ ﷻ: ﴿وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ﴾؛ لأنَّ متعلَّقَ الخَوْفِ أمْرٌ مستقْبَليٌّ، بِخلافِ مُتعلَّقِ الحُزْنِ فهو ماضٍ، والأُمورُ المستقبَلَةُ غيرُ مُتَناهيَةٍ، بخلافِ الأمورِ الماضيَةِ؛ فهيَ مُتَناهيَةٌ لانقطاعِها[2]، فكان الأوفقُ أن يُقال: (فلا حُزنٌ عليهم ولا يخافون)؛ فهو أرتَبُ ليعبِّر عن المستقبلِ بصيغة المستقبل، إلّا أنَّ النَّظمَ الكريمَ آثرَ الإشارةَ إلى تكرُّرِ الحزنِ منهم المرّةَ بعد المرّة؛ وتذكُّرُ الإنسانِ أمرًا مضى، أقربُ من تذكُّرِهِ أمرًا مستقبلًا، وتأسُّفُه على الماضي المحَّققِ الوقوعِ أشدُّ من حُزنِهِ

مُتَعَلَّقُ الخَوْفِ أَمْرٌ مُسْتَقْبَلِيٌّ، وَمُتَعَلَّقُ الحُزْنِ أَمْرٌ ماضٍ

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 7/295.

(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/227.

على المستقبل؛ لأنّه يتكرَّرُ تذكُّرهُ الماضيَ شيئًا بعدَ شيء، بل فمهما تذكَّره يحزن عليه، فعبَّر عنه بالفعل المقتضي للتجدُّد، وليس كذلك المستقبل بوجه[1].

دَلالَةُ التَّعْبِيرِ بِالفِعْلِ المُضارِعِ ﴿تَحْزَنُونَ﴾:

عَظَمَةُ ما عِنْدَ أَهْلِ الجَنَّةِ مِنَ الخَيْراتِ

عُبِّر بالفِعْلِ المُضارِعِ في قَوْلِ اللّه سُبحانَهُ: ﴿وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ لنَفْيِ تُجدُّدِ الحُزْنِ عَلَيْهِمْ في وقتٍ مِن الأوْقاتِ على أيِّ شَيْءٍ فاتَ؛ وذَلِكَ لما عِنْدَهم مِنَ الخَيْراتِ التي لا تَدْخُلُ تَحْتَ الوَصْفِ لعظَمَتِها[2].

نُكْتَةُ تَعْدِيَةِ الخَوْفِ بِـ(عَلَى) فِي قَوْلِهِ: ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ﴾:

نَفْيُ اسْتِعْلاءِ الخَوْفِ عَلَى أَصْحابِ الجَنَّةِ أَوْ إِحاطَتِهِ بِهِمْ

عُدّيَ الخَوْفُ في قولِ اللّه ﷻ: ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ﴾ دون أنْ يَرِدَ النَّظْمُ القرآنيُّ: (لا خَوْف لَهُم) أو (لا خَوف عِنْدَهُم)؛ وذلك لِما في حَرْفِ الجرِّ (عَلَى) مِنَ الدَّلالة على الاسْتِعْلاءِ والإحاطَةِ، فيكونُ المَنْفيُّ: اسْتِعْلاءَ الخَوْفِ عَلَيْهِمْ وإحاطتَهُ بهمْ.

سِرُّ اختِصاصِ نفْيِ الخوفِ والحُزنِ دونَ سِواهما:

الخوفُ والحُزْنُ أكثرُ ما يُنَغِّصُ بهجَةَ العَيْشِ

جاء التَّعبيرُ القرآنيُّ بنفيِ الخوفِ والحزنِ دون سِواهما؛ لأنَّ الإنسانَ يعيش بين حالتين: بين خوفٍ بما يتعلَّق بمستقبلِه من أمور الآخرة، وحزنٍ على ما فاتَ من أمورِ الدُّنيا، وهذا يؤدّي إلى عدمِ استقرار النَّفس؛ لذلك كانت منَّة اللّه على عبادِه المؤمنين بأنْ أراحَ نفوسَهُم من الحزنِ على الماضي، ومن الخوف على المستقبل.

دَلالةُ تَقْديمِ الخوفِ على الحُزنِ في الآيةِ الكريمةِ:

الخوفُ أشدُّ منَ الحُزْنِ، وأعتَى منه أثَرًا

قوله: ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾، قدَّم نفيَ الخوفِ على نفي الحزنِ؛ لعِلْمِ اللّه ﷻ بطبيعةِ النَّفس الإنسانيَّة في حرصها على المصالح الدُّنيويَّة في قابل أيّامها، فهو شُغلها الشّاغلُ، أمّا ما

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/266.
(2) البقاعيّ، نظم الدرر: 7/408.

كان في الماضي؛ فطبيعة النَّفس النِّسيان له، فسَرْعان ما تنسَى ما أصابها من حوادثَ فيما مضى.

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(الخَوْفُ) و(الحُزْنُ):

الفَرقُ بينَ الخَوْفِ والحُزْنِ في متعلَّقَيْهِما؛ فمُتعلَّقُ الخَوْفِ مستقبَلٌ، ومُتعلَّقُ الحُزنِ ماضٍ؛ وذلكَ أنَّ الخَوْفَ غَمٌّ مِن أمرٍ مستقبَلٍ، والحُزْنَ: غَمٌّ مِنْ أمرٍ قد مَضَى[1].

الخَوْفُ من مُستقبَلٍ، والحُزنُ على ماضٍ

وذكَر الشِّهابُ الخَفاجيُّ أنَّ الخوفَ أشدُّ مِنَ الحُزْنِ[2]، ووجهُهُ: أنَّ سببَ الحُزْنِ وقَعَ وانقَضَى، وإنَّما يتجَدَّدُ الغَمُّ به عِنْدَ تذكُّرِهِ، بخلاف الخَوْفِ؛ فإنَّ سبَبَهُ مُستقبَلٌ، وقد تكونُ فيهِ نَوْعُ جَهالةٍ، وربما كان ذَلِكَ شَديدًا عَظيمًا.

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/378، والشّنقيطي، العذب النَّمير: 1/284.
(2) الشِّهاب الخفاجيّ، عناية القاضي وكفاية الرّاضي: 2/172.

﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَنۡ أَفِيضُواْ عَلَيۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ أَوۡ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُۚ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ٥٠﴾ [الأعراف: 50]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

العَلاقةُ بين حالِ أهْلِ الجنّةِ، واستغاثةِ أهْلِ النّارِ بهم، وقد حُرّمَ نعيمُها على أهْلِ النّارِ

لمّا ذكرَ اللّهُ تعالى نداءَ أصحابِ الجنَّةِ - وقد حصلَ لهُمُ السُّرورُ بدُخولِها - لأصحابِ النّارِ بما يُؤْلِمُ ويُنْكي، وخَتَمَ ذلك بِنَفْيِ الخَوْفِ والحُزْنِ عَنْ أصحابِ الجنَّةِ؛ أخبرَ هنا أنَّ أصحابَ النّارِ يُنادونَ أصحابَ الجنَّةِ - وقد حصلَ لَهُمُ الغَمُّ بدخولِها - لكِنْ بما يُرقِّقُ ويُبْكي، فقال سُبحانَهُ: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَنۡ أَفِيضُواْ عَلَيۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ أَوۡ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُۚ﴾، فثَبَتَ لأصحابِ النّارِ مِنَ الخوفِ والحُزْنِ ما نُفيَ عَنْ أهْلِ الجنَّةِ في الآيَةِ المتقدِّمَةِ[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَفِيضُواْ﴾: الفاءُ والياءُ والضّادُ تدلُّ اشتقاقاتُها على جَرَيانِ الشَّيءِ بسهولَةٍ[2]، ومِنْهُ: أفاضَ إناءَهُ؛ إذا ملأَهُ حتَّى أسالَهُ، ويُقالُ للرَّجُلِ السَّخِيِّ: فيّاضٌ[3]؛ كأنَّ العَطاءَ يجري مِنْهُ جَرْيًا سَهْلًا، وإفاضَةُ الماءِ في قولِه: ﴿أَفِيضُواْ عَلَيۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ﴾ هيَ التَّوْسِعَةُ في إعْطائِه[4].

2) ﴿حَرَّمَهُمَا﴾: الحاءُ والرّاءُ والميمُ تدورُ تصريفاتُها على المَنْعِ والتَّشديد، ومنه الحَرامُ، وهوَ ضِدُّ الحَلالِ[5]، وذلك أنَّ الحلالَ مأذونٌ فيه إتيانُهُ، بخلافِ الحرامِ فيُمْنَعُ منه.

(1) البقاعيّ، نظم الدرر: 7/408.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (فيض).
(3) الرّاغب، المفردات الكريم: (فيض).
(4) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 6/2854.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حرم).

والتَّحريمُ في قولِ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ يُرادُ به المَنْعُ، أي: إنَّ اللهَ تعالى مَنَع الكافرينَ منهما، ولَيْسَ المُرادُ التَّحْريمَ الشَّرْعيَّ؛ إذِ الدّارُ الآخِرَةُ لَيْسَتْ دارَ تَكْليفٍ[1].

المعنى الإجْماليُّ:

في هذه الآية نادَى أصحابُ النّارِ بَعْدَ ما دَخَلوها أصْحابَ الجَنَّةِ بَعْدَ ما سَكَنوها: يا أهْلَ الجَنَّةِ صُبّوا علينا الماءَ بكثرةٍ وسَعةٍ، أو أطْعِمونا ممّا رزَقَكُمُ اللهُ تعالى مِنَ الطَّعامِ، فأجابَهم أهْلُ الجَنَّةِ بأنَّ اللهَ سُبحانَهُ حَرَّمَ الماءَ والطَّعامَ على الذينَ جَحَدوا تَوْحيدَهُ، وكَذَّبوا في الدُّنيا رُسُلَهُ[2].

استِجداءُ أهْلِ النّارِ أهلَ الجنَّة، فاعتذروا لهم، بأنّ الله حرّم ما في الجنّة عليهم

وترشدُ الآيةُ الكريمة إلى أنَّ سقيَ الماءِ من أفضل الأعمال، وقد سُئل ابن عباس رضي الله عنهما: أيُّ الصدقةِ أفضل؟ فقال: الماءُ؛ ألم تروا إلى أهلِ النّار حين استغاثوا بأهل الجنَّة: ﴿أَنْ أَفِيضُواْ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾. وقد قال بعضُ التابعين: مَن كثُرتْ ذنوبُه؛ فعليه بسقْيِ الماء، وقد غفرَ اللهُ ذنوبَ الذي سقى الكَلْب، فكيفَ بمَن سقى رجلًا مؤمنًا موحِّدًا، وأحياه[3].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

عِلَّةُ وَصْلِ قَوْلِ اللهِ تَعالَى: ﴿وَنَادَىٰٓ﴾ بِما قَبْلَهُ:

وُصِلَ قولُ اللهِ سُبحانَهُ: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ﴾ بما قبْلَهُ؛ لِما بينَهُما مِنَ التَّوسُّطِ بَيْنَ الكَمالَيْنِ، وذلك لِوُرودِ هَذِهِ الآيَةِ في جُملةِ الآياتِ التي صُدِّرت بالنِّداءِ، فاشْتَرَكَتْ مَعَ ما قبلَها - ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْأَعْرَافِ رِجَالًا﴾ - في الخبريَّةِ، والفعْليَّة، والماضَويَّة، وبينَهُما مناسبةٌ؛ وهو اشتراكُهُما في المُسْنَدِ - وَهو الفعلُ (نادَى) - ووُقوعِ هذا النِّداءِ في الآخرةِ.

اسْتِكْمالُ المُحاوَراتِ الجارِيَةِ في عَرَصاتِ القيامةِ بينَ المؤمنينَ وغيرِهم

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/227.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 12/473، ونخبة من العلماء، التّفسير الميسّر، ص: 156.
(3) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 9/233.

بَلاغَةُ الكِنايَةِ فِي التَّعْبِيرِ بِالنِّداءِ فِي قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿وَنَادَىٰٓ﴾:

عُلُوُّ أَهْلِ الجَنَّةِ مَكانًا ومَكانَةً، وما أُوتُوا من فضْلٍ وكَرامةٍ

النِّداءُ في قولِ اللّه سُبحانَهُ: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ﴾ خطابٌ مِنْ أصحابِ النّارِ، وقَدْ وردَ التَّعبيرُ عنْ هَذا الخِطابِ بالنِّداءِ كِنايةً عَن بُلوغِهِ إلى أسْماعِ أصْحابِ الجنَّةِ مِن مسافةٍ سَحيقَةِ البُعْدِ، وذلكَ أنَّ سَعةَ النّارِ وسَعةَ الجنَّةِ مقتَضيَتانِ ذَلِكَ، وطَريقُ بلوغِ هذا الخِطابِ من النّارِ إلى أسماعِ أصحابِ الجنَّةِ عجيبٌ غيرُ معهودٍ، وهو مِن أحوالِ الآخرَةِ الغَيْبيَّةِ عَنْ مداركِ العبادِ في الدُّنيا؛ والواجِبُ الإيمانُ بِها.

والتَّعبيرُ بالنِّداءِ يقتضي سماعَ كلٍّ من الفريقين للآخر، وهذا السَّماعُ يجوزُ أن يكون مع رؤيةٍ واطِّلاعٍ؛ لأنَّه أخزَى وأنكَى للكافرين، ويجوز أن يكون مع السَّدِّ المضروب أيضًا[1].

نُكْتَةُ التَّعْبِيرِ بِالفِعْلِ الماضِي ﴿وَنَادَىٰٓ﴾:

تَحَقُّقُ وُقُوعِ جَمِيعِ ما أَخْبَرَ اللهُ ﷻ بِهِ، يَقينٌ لا رَيْبَ فيه

النِّداءُ الوارِدُ في قَوْلِ اللّه ﷻ: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ﴾ مُسْتَقْبَلٌ؛ لكونِهِ من أحْوالِ الآخرَةِ، إلّا أنَّه عُبِّرَ عنه بِصيغَةِ الفِعْلِ الماضي (نادَى) - على خلافِ مقتضَى الظّاهرِ - لِلْإيماءِ إلى تحقُّقِ وقوعِهِ، وأنَّ هذا النِّداءَ بينَ أصحابِ النّارِ وأصحابِ الجَنَّةِ ممّا يُقْطَعُ بِوُقوعِهِ على النَّحْوِ الذي أخْبَرَ اللّهُ تعالى بِهِ.

سِرُّ الإِضافَةِ فِي الفريقَيْنِ مِنْ (أصحابِ النّارِ) و(أصحابِ الجنّةِ):

تَحْقِيرُ شَأْنِ أَصْحابِ النّارِ، وَتَعْظِيمُ أَصْحابِ الجَنَّةِ وَتَكْرِيمُهُمْ

في قَوْلِهِ تعالى: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ﴾، أُضيفَ الأصحابُ إلى النّارِ في مَوْضِعِ الفاعليَّةِ، وإلى الجنَّةِ في مَوْضِعِ المفعوليَّةِ في قولِ اللّه سُبحانَهُ: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ﴾؛ تحقيرًا لِلْمُضافِ - وَهو ﴿أَصۡحَٰبُ﴾ - في المَوْضِعِ الأوَّلِ، وتعظيمًا وتفخيمًا وتكريمًا للمُضافِ أيضًا - وَهو ﴿أَصۡحَٰبَ﴾ - في الموضع الثّاني.

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 4/304.

بَراعَةُ الطِّباقِ بَيْنَ ﴿ٱلنَّارِ﴾ و﴿ٱلْجَنَّةِ﴾ في الآيةِ الكريمةِ:

عَظِيمُ التَّبايُنِ بَيْنَ فَرِيقِ النّارِ وَفَرِيقِ الجَنَّةِ

في قَوْلِهِ تعالى: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ﴾ نلاحظ أنّ ما بَيْنَ لفظي ﴿ٱلنَّارِ﴾ و﴿ٱلْجَنَّةِ﴾ من الآية الكريمة، طباقُ إيجابٍ، وهو يُظْهِرُ التَّبايُنَ العَظيمَ بَيْنَ فريقَي المحَلَّيْنِ: فريقِ النّارِ وفريقِ الجنَّةِ، وأنَّهُما مُتَباينانِ لَفْظًا ومكانًا ومَكانَةً.

دَلالَةُ (أَنْ) التّفسيريّةِ فِي أثناء الآيةِ القرآنيّةِ:

تَفْسِيرُ النِّداءِ وَبَيانُ شَأْنِهِ

﴿أَنْ﴾ مِنْ قَوْلِ اللّهِ ﷻ: ﴿أَنْ أَفِيضُواْ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ﴾ تَفْسيريَّةٌ، وذَلِكَ لِوُرودِها بَعْدَ فِعْلٍ مُشتَمِلٍ على معنى القَوْلِ دونَ حُروفِهِ، وهو (نادَى)، فأفادَ أنَّ مضمونَ النِّداءِ كانَ قَوْلَهم: ﴿أَنْ أَفِيضُواْ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ﴾.

دَلالَةُ التَّعْبِيرِ بِالفعْلِ ﴿أَفِيضُواْ﴾:

عُلُوُّ مَكانِ أَهْلِ الجَنَّةِ مُشْعِرٌ بِعُلُوِّ مَكانَتِهِمْ، عِنْدَ مَنْ إليه المرجِعُ والمآبُ

في التَّعبيرِ بالإفاضَةِ في قولِ اللّه ﷻ: ﴿أَنْ أَفِيضُواْ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ﴾ دلالَةٌ على عُلوِّ أهْلِ الجنَّةِ مكانًا، وذلك أنَّ أصلَ الإفاضةِ دالٌّ على جَرَيانِ الشَّيءِ بسهولَةٍ[1]، فإفاضَةُ الماءِ: جريانُهُ بسهولَةٍ، وذلك مُقْتَضٍ انحدارَهُ مِنْ مكانٍ عالٍ إلى ما دونَهُ، فأفادَ هذا أنَّ أهلَ الجنَّةِ أعلَى مكانًا؛ بحيث لو أفاضوا الماءَ وصَلَ إلى أهل النّارِ[2]؛ وعلوُّ مكانِهِمْ مُشْعِرٌ بعُلوِّ مكانتِهِمْ.

سِرُّ التَّعْبِيرِ بِلفْظِ (الإفاضَةِ) دُونَ (السُّقْيا):

الإفاضَةُ مُقْتَضِيَةٌ التَّوْسِعَةَ فِي العَطاءِ، والإغداقَ بالماءِ

عُبِّرَ بالإفاضَةِ في قَوْلِ اللّه ﷻ: ﴿أَنْ أَفِيضُواْ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ﴾ دونَ السُّقيا، فلَمْ يَرِدِ النَّظْمُ القرآنيُّ: (أنِ اسْقونا)؛ وذلك لأنَّ الإفاضةَ أمْكَنُ؛ لكونِها تقتضي التَّوسِعةَ، كما يُقال: أفاضَ اللّهُ سُبحانَهُ على عَبْدِهِ نِعَمَهُ، أي: وسَّعَها عليه[3].

وللإشارةِ إلى أنَّهم يطلبون أن يشربوا من الماء الزّائد عن

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (فيض).
(2) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/252، والبقاعيّ، نظم الدرر: 7/408.
(3) أبو حيان، البحر المحيط: 5/61.

حاجتهم، والَّذي يجري من أعلى إلى أسفلَ بخلاف السُّقيا؛ فيلزمُ منها اقترابُ السّاقي ممَّن يُسقَى من أهل النّار، وهذا يُنافي كمالَ التَّنَعُّم.

بَلاغَةُ المَجازِ على سَعَةِ العَطاءِ والسَّخاءِ:

عَظِيمُ النِّعَمِ الّتِي يَتَقَلَّبُ أَهْلُ الجَنَّةِ فِيها، لا تُعدُّ ولا تُحْصَى

يَجوزُ أن تُحْمَلَ الإفاضَةُ في قولِ اللّه ﷻ: ﴿أَنْ أَفِيضُواْ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ﴾ على مَعْناهُ المجازيِّ، وهو سعَةُ العطاءِ والسَّخاءِ مِنَ الماءِ والرِّزْقِ، والمقصودُ: الإرسالُ والتَّفضُّلُ[1]، والمعنى: ألّا يَمْنَعوهُ بِسُدودٍ، حتَّى يَنْهمِرَ أنهارًا، ويَفيضَ عَلَيْهِمْ مِدْرارًا[2]، وهَذا مُشْعِرٌ بِعَظيمِ نِعْمَةِ أَهْلِ الجَنَّةِ؛ حَيْثُ إنَّهم لَو أَرْسَلوا ما زادَ عَن حاجَتِهِم؛ لَكانَ الزّائدُ مُنْهَمِرًا أَنْهارًا.

الدَّلالَةُ المَجازِيَّةُ لِلْأَمْرِ ﴿أَفِيضُواْ﴾:

الآيِسُ مِنَ الشَّيْءِ، قَدْ يَطْلُبُهُ عَلَى وَجْهِ التَّمَنِّي، وقد لا ينالُه رُغْمَ طُولِ الأَمانِي

الأمرُ في قولِ اللّه ﷻ: ﴿أَفِيضُواْ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ﴾ لا يُرادُ به حقيقَتُهُ مِنْ إرادَةِ طلَبِ الفِعْلِ على وجهِ الإلْزام، فإنَّ أصحابَ النّار أَحْقَرُ مِنْ أن يَصْدُرَ منهمْ هذا على وجْهِ الإلْزام، بل خرَجَ الأمرُ إلى دلالَةٍ مجازيَّةٍ، وهيَ الاستجداءُ والسُّؤالُ؛ لِكَونِ الطَّلَبِ صادِرًا مِمَّنْ هو مُنْحَطُّ المنزلَةِ قليلُ القَدْرِ، وهذه الدَّلالَةُ لفعلِ الأمْرِ بِناءً على أنَّ أصحابَ النّارِ سألوا مَعَ رَجائِهِم حُصولَ ما سألوهُ وتجْويزِهم وقوعَهُ.

وأمّا إذا كانَ طَلَبُهُم هذا مَعَ اليَأْسِ مِنَ الحُصولِ؛ لِعِلْمِهم بدَوامِ عِقابِهِم، وأنَّه لا ينقطِعُ عنهمْ، فيكونُ ذلكَ على وجْهِ التَّمَنّي، وذلك لأنَّ الآيِسَ مِنَ الشَّيءِ قَدْ يَطْلُبُه، كما ورَدَ في المثَلِ: الغَريقُ يتعلَّقُ بالزَّبَدِ، وإن كان قد عَلِمَ عَدَمَ إغاثَتِهِ لَهُ[3].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/148.
(2) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 6/2854.
(3) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/252.

دَلالَةُ اللُّزُومِ فِي ﴿أَفِيضُواْ﴾:

بيانُ عَظِيمِ البَلاءِ الّذِي يُقاسِيهِ أَصْحابُ النّارِ، وَشِدَّةِ العَذابِ الّذِي يُعَذَّبُونَهُ

الأمْرُ في قولِ اللّه ﷻ: ﴿أَفِيضُواْ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُۚ﴾ سواءٌ حُمِلَ على معنى الدُّعاءِ أو التَّمنّي؛ فإنَّ لازِمَهُ دالٌّ على حصولِ العَطَشِ الشَّديدِ، والجوعِ العظيمِ لَهم[1]، فهذا الأمْرُ مُفيدٌ عظيمَ البَلاءِ الذي يُقاسونَهُ، وشدَّةَ العذابِ الّذي يُعذَّبونَهُ، فالذين كفروا يحيطُ بهم العذابُ في هيئةِ ثيابٍ جُعِلَت لهم من نارٍ يَلْبَسونها، فتشوي أجسادَهم، ويُصَبُّ على رؤوسهم الماءُ المتناهي في حَرِّه، ويَنزِلُ إلى أجوافهم فيُذيبُ ما فيها، حتى ينفُذَ إلى جلودِهم فيشويَها فتسقطَ، وتضربُهم الملائكةُ على رؤوسهم بمطارقَ من حديدٍ، كلَّما حاولوا الخروجَ من النّار - لشدَّة غمِّهم وكَرْبهم - أُعيدوا للعذابِ فيها، وقيل لهم: ذوقُوا عذابَ النّار المحرقِ: ﴿فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُواْ فِيهَا وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٢٢﴾﴾ [الحج: 19 - 22].

دَلالَةُ التّخصِيص في تَقديمِ الجارّ والمجرور ﴿عَلَيْنَا﴾:

طلبُ أهلِ النّارِ من أهلِ الجنّةِ إفاضةَ الماءِ عليهم، وهو أَوْلَى ما يَحتاجُونَه هناك

قوله: ﴿أَفِيضُواْ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ﴾، قدَّم الجار والمجرور ﴿عَلَيْنَا﴾ ولم يقُل: (أفيضوا من الماء علينا)؛ لأنَّهم يطلبون مزيدَ اختصاصهم بإفاضة الماء، فكأنَّهم استشعروا ما كان بينهم من قرابةٍ في الدُّنيا، فأرادوا أن يُخَصّوا بها دون غيرهم.

سِرُّ التَّعبير بـ ﴿مِنَ﴾:

طلبُوا الماءَ ولو قطرةً منه

في قوله: ﴿مِنَ ٱلْمَآءِ﴾: عبَّر بـ ﴿مِنَ﴾ ولم يقُل: (أفيضوا علينا الماءَ)؛ للإشارة إلى أنَّهم يطلبون بَعضًا من الماء، وليس كلَّ الماء، وفي هذا إشارةٌ إلى تذلُّلِهم ومحاولتِهم استعطافَ أهل الجنَّة، في أعزِّ مفقودٍ، وأهونِ موجودٍ.

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/252.

دَلالةُ طلَبِ الماءِ دونَ غيرِه:

الماءُ سِرُّ الحياةِ؛ ولذا طلبَهُ أهلُ النَّارِ باستِجداءٍ

قوله: ﴿أَنْ أَفِيضُواْ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ﴾، طلبوا الماءَ من أهل الجنَّةِ لشدَّة ما في بَواطِنِهم من الاحتراقِ واللَّهب؛ لأنَّهم في سَموم وحميم، ومَن كان كذلك، فطلبُه للماء البارد أشدُّ حاجةً من شعورِهِ بالحاجة إلى الطَّعام ونحوِه.

دَلالَةُ ﴿أَوْ﴾ بين التّخْيير والتّشْريك، في سِياقِ الآيةِ:

لا يَطْلُبُ صاحبُ الشِّدةِ إلّا بمِقْدارِ ما تُدْفَعُ بِهِ، وَلَوْ بَقِيَ أَصْلُها وَدامَ

﴿أَوْ﴾ مِنْ قَوْلِ اللّه سُبحانَهُ: ﴿أَفِيضُواْ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُۚ﴾ يَجوزُ أن تُكونَ على بابِها من التّخيير، فيكونوا قَد طَلَبوا أحدَ شيئَيْن، ويَحْتَمِلُ أن تكونَ ﴿أَوْ﴾ مرادًا بها الواوُ الدّالَّةُ على التَّشريك، فيكونوا قد طَلَبوا الأمْرَيْنِ معًا[1]، والأوَّلُ أنْسَبُ لِحالِهِمْ؛ إذْ مَن كان في شدَّةٍ يُريدُ تخفيفَها لا يَطْلُبُ إلّا مقدارَ ما تُدْفَعُ به الشِّدَّةُ العُظْمَى، ولو بَقيَ أصلُها، واستمرَّ.

بَراعَةُ إيجازِ الحَذْفِ فِي ﴿أَفِيضُواْ عَلَيْنَا﴾:

التَّضْمينُ اقْتِصادٌ في اللَّفْظِ، وإيصالٌ لِلْمعنى بِأَقْرَبِ طَريقٍ

فِعْلُ الإفاضَةِ في قولِ اللّه سُبحانَهُ: ﴿أَفِيضُواْ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُۚ﴾ مضمَّنٌ معنى الإنْزالِ **والإلقاءِ**، والمعنى: أنْزِلوا عَلَيْنا مِنَ الماء، أو أنزِلوا علينا ممّا رزقَكُم اللّهُ تعالى[2]، ويجوزُ أن يكونَ فِعْلُ الإفاضَةِ مضمَّنًا معنى الإلقاءِ، وعلى الوجهَيْنِ يصحُّ العطفُ في قوله: ﴿أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُۚ﴾ دونَ تقديرِ فعلٍ خاصٍّ.

ويَحْتَمِلُ أن يكونَ ثَمَّ فِعْلٌ مُضمَرٌ بعدَ ﴿أَوْ﴾، وهو الإلقاءُ، ويبقَى فعلُ الإفاضَةِ على دلالَتِهِ الأصليَّةِ مِنْ غير تضمينٍ، والمعنى: أفيضوا عَلَيْنا مِنَ الماء، أو ألقوا عَلَيْنا ممّا رزقكُم اللّه سُبحانَهُ[3].

والتَّضمينُ أو تقديرُ فِعْلٍ خاصٍّ كلاهُما مِن إيجازِ الحذفِ، فقَدْ

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 5/61.
(2) البقاعيّ، نظم الدرر: 7/408.
(3) أبو حيان، البحر المحيط: 5/61.

طويَ مِنَ الكلامِ ما دلَّ السّياقُ عَلَيْهِ؛ اقْتِصادًا في اللَّفْظِ وإيصالًا لِلْمعنى بِأَقْرَبِ طَريقٍ.

دَلالةُ الجمْعِ بين الماءِ والطَّعامِ:

قوله: ﴿أَنْ أَفِيضُواْ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُۚ﴾، جمعَ القرآنُ الكريمُ في طلبهِم بين الماءِ والطَّعام؛ ليُبيِّنَ أنَّ هؤلاءِ الكفّارَ كان همُّهم في الدُّنيا الأكلَ والشُّربَ والتَّمتُّع بالملذّات والشَّهوات، وعلى رأسِها الماءُ والطَّعام؛ والمرءُ يُبعث على ما مات عليه.

الشَّرابُ والطَّعامُ هَمُّ الكافرين، في الدّنيَا وفي الآخِرةِ

سِرُّ اخْتِيارِ مادَّةِ الرِّزقِ دون غيرها:

في قوله تعالى: ﴿مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُۚ﴾ اختارَ مادَّة الرِّزق لأنَّها لفظٌ عامٌّ يُطلقُ على كلِّ ما يُنتفَع به، وهم يَعلمون أنَّ الجنَّة فيها أنهارٌ من الماء والعسل واللَّبن والخمر، فيريدون الانتفاعَ بأيِّ شيءٍ من هذهِ العطايا الَّتي منحَها اللهُ لأهل الجنَّة، ولأنَّ البنية البشريَّة لا تستغني عن مُقَوِّتها، وهم يبحثون عن ذلك من أيِّ ناحيةٍ من باب الطَّعام أو الفاكهة أو الشراب.

لفظُ الرِّزق عامٌّ، يُطلقُ على كلِّ ما يُنتفَعُ به، ورزقُ الجنّةِ أوفَى وأرقَى وأبقَى

دَلالَةُ حَرْفِ الجَرِّ (مِنْ)، فِي قَوْلِهِ: ﴿مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُۚ﴾:

﴿مِمَّا﴾ في قَوْلِ اللّه سُبحانَهُ: ﴿مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُۚ﴾ مركَّبةٌ مِنْ (مِنْ) الجارَّةِ و(ما) الموصولَةِ[1]، و(مِنْ) دالَّةٌ على التَّبعيض، والمعنى: أطْعِمونا بعضَ ما رزقَكمُ اللّه تعالى؛ وطلبُهم بعضًا مِنْ ذلك استعطافٌ منهمْ أهلَ الجنَّةِ، حيثُ لَمْ يَطْلُبوا إلّا النَّزْرَ اليسيرَ، وهو نافعٌ لهم في حالِ حصولِهم، وليس بضارٍّ أهلَ الجنَّةِ.

اسْتِعْطافُ أَصْحابِ النّارِ أَصْحابَ الجَنَّةِ، وَتَذَلُّلُهُمْ لَهُمْ، دليلُ حالتِهم المزْرِيَةِ

دَلالَةُ الاِسْمِ المَوْصُولِ (ما):

﴿مِّمَّا﴾ في قولِ اللّه ﷻ: ﴿مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُۚ﴾ مُكَوَّنةٌ مِنْ حرف الجرِّ (مِنْ)، ومِن الاِسْمِ المَوْصولِ (ما) - كما تقدَّمَ - وفي التَّعبير

(1) أحمد الدَّعّاس وجماعةٌ، إعراب القرآن: 1/365.

الإيماءُ إلى طَلَبِهِمُ اليَسِيرَ مِنْ رِزْقِ اللهِ تَعالَى؛ لِثِقَتِهِمْ بِنَفْعِهِ فِي تَخْفِيفِ كُرْبَتِهِمْ

بالاسْمِ المَوْصولِ الَّذي يفيد العموم إيماءٌ إلى طلبِهِمْ بعضًا مِنْ عُمومِ ما رزَقَ اللهُ تعالى أهلَ الجنَّةِ، مِن غيرِ تَعْيينِ شيءٍ، ثِقَةً بأنَّ وُصول أيِّ شيءٍ إِلَيْهِم ممّا يَتَنعَّمُ بهِ أهلُ الجنَّةِ سيُزيلُ شدَّتَهم، ويُخفِّفُ كُرْبَتَهم.

دَلالةُ حذْفِ مُتعلَّق ﴿مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُۚ﴾:

مُتعلَّقُ الفِعْلِ حُذِفَ لإفادةِ العُمومِ

حُذف متعلَّقُ قوله: ﴿مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُۚ﴾؛ لإفادة العموم، فهم يبحثون عن أيِّ شيءٍ دون تحديدِ مطلوب، وفي هذا إشارةٌ إلى تذلُّلهم وخِزيهم أمام مَن كانوا يستكبرون عليهم في الدُّنيا.

نُكْتَةُ تَعْرِيفِ المُسْنَدِ إِلَيْهِ بِالعَلَمِيَّةِ، فِي قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُۚ﴾:

عَظَمَةُ المُعْطِي تَسْتَلْزِمُ عَظَمَةَ عَطائِهِ، والمولَى لا نِهايةَ لعطائِه

في تَعْريفِ المسنَدِ إِلَيْهِ بالعَلميَّةِ في قولِ اللهِ ﷻ: ﴿مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُۚ﴾ مبالغَةٌ في التَّوَدُّدِ إلى أصحابِ الجنَّةِ في سُؤالِهِم، حَيْثُ إنَّ ما هم فيهِ مِنَ النَّعيم يأتيهم مِن الذي لَه الغِنَى المطلقُ[1]، فهو نعيمٌ عظيمٌ؛ إذْ إنَّ عَظَمَةَ المُعْطي تستلزِمُ عظَمَةَ عطائِهِ، وإذا كان الشَّأْنُ كَذَلِكَ؛ فإنَّ أصحابَ الجنَّةِ لو أوصلوا لِأهلِ النّارِ شيئًا ممّا رزقَهُمُ اللهُ سُبحانَهُ، فلَنْ يضُرَّهم ذلِكَ في نقصِ ما عِنْدَهم.

عِلَّةُ الفَصْلِ فِي قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ﴾ عَمّا قَبْلَهُ:

أَثَرُ الاسْتِئْنافِ البَيانِيِّ فِي إِبْرازِ مُتابَعَةِ المُتَلَقِّي وَشَوْقِهِ

فُصِلَ قولُ اللهِ سُبحانَهُ: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ عمّا قَبْلَهُ؛ لِما بينَهُما مِن شِبْهِ كمالِ الاتِّصالِ، فقوله ﷻ حكايةً عن أصحابِ النّار قولَهم: ﴿أَنْ أَفِيضُواْ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُۚ﴾ يَبْعَثُ في نفسِ المتلقّي سؤالًا، وهو: ما كانَ جَوابُ أصحابِ الجنَّةِ على مقالةِ أصحاب النّار؟ فجاء الجوابُ: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[2].

(1) البقاعيّ، نظم الدرر: 7/408.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/231.

نُكْتَةُ التَّأْكِيدِ بجُملةِ مُؤكِّداتٍ في سِياقِ الآيةِ الكريمةِ:

الكُفْرُ أَعْظَمُ مانِعٍ لِنَعِيمِ الآخِرَةِ، فالكافرُ لا طَمَعَ له في إنْعامِ الله عليه

أُكِّدَ قولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ بإيرادِ الجملَةِ اسميَّةً، وهي دالَّةٌ على الثُّبوتِ والدَّوامِ بمعونَةِ القرائنِ، وبتصديرِ الجُمْلَةِ بحَرْفِ التَّأكيدِ (إنَّ)؛ وذلك لِلْمُبالغَةِ في قطْعِ أطْماعِ أصحابِ النّارِ في أنْ ينالَهم شيءٌ مِنَ النَّعيم الذي اختصَّ اللّهُ تعالى به أهلَ الجنَّةَ ورزقَهم إيّاهُ.

وحرفُ التَّأكيدِ (إنَّ) دالٌّ أيضًا على التَّعليلِ، فكأنَّ المعنى: لن نُفيضَ عَلَيْكُمْ مِنَ الماءِ، ولا شيئًا ممّا رزَقَنا اللّهُ تعالى؛ لأنَّ اللّه تعالى حرَّمهما على الكافرينَ.

سِرُّ التَّعبيرِ بمَنْعِ النّعيمِ على الكافرينَ دونَ أصحابِ النّارِ:

بَيانُ أَنَّ سَبَبَ حِرْمانِ أَهْلِ النّارِ، من رِزْقِ الجَنَّةِ، هُوَ كُفْرُهُمْ بِاللهِ سُبْحانَهُ

في قولِ اللّه ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ إظهارٌ في محلِّ الإضمار، وذلك أنَّ مقتضَى الظّاهرِ حالَ المخاطَبَةِ أن يَرِدَ النَّظْمُ القرآنيُّ: (قالوا: إنَّ اللّه حرَّمهما عليكُمْ)، ولكِنْ أُظْهِرَ للإشارَةِ إلى أنَّ سببَ الحِرْمانِ هو الكُفْرُ، وأنَّه لا خلاصَ لكُمْ ممّا كُتِبَ عليكُمْ بأعمالِكُمْ[1].

سِرُّ التَّعبيرِ بالفِعْلِ (حرَّمَ)، دونَ (المنعِ) في السِّياقِ:

التَّحريمُ في الآخرةِ تحريمُ قهْرٍ وعِقابٍ

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾، آثرَ التَّعبيرَ بالتَّحريم دون المنعِ لوجودِ فرقٍ بينهما: فالمنعُ قد يكون ذاتيًّا أو بفعل الآخر؛ بخلاف التَّحريم فلا يتأتَّى إلّا من جهة التَّكليف، ولذلك قالوا: إنَّ التَّحريم قسمان: تحريمٌ بالحكم والتكليف، كتحريم اللّه للفواحشِ والمنكرات، وتحريمٌ بالفعل أو القهر، كتحريمِ الجنَّة وما فيها على الكافرين في هذه الآية، وفي قوله: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ﴾ [المائدة: 72][2].

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 6/2855.
(2) محمد رضا، تفسير المنار: 8/388.

دَلالةُ تَعدِّي الفِعْلِ ﴿حَرَّمَهُمَا﴾، في سِياقِ الآيةِ:

اسْتِشْعارُ أنّ التّحريمَ منَ اللهِ لا مِنَ البَشرِ، توبيخًا وتبكيتًا لهم

عُدّيَ الفعل ﴿حَرَّمَهُمَا﴾ بحرف الجر ﴿عَلَى﴾ فى قوله تعالى: ﴿حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾؛ للدَّلالة على أنَّ مصدر التّحريم من جهة العلوِّ؛ فليس من قِبَل أصحاب الأعراف حتَّى يطمعَ أهلُ النّار في إعطاء ما حرَّمه اللّه؛ بل التَّحريمُ صادرٌ من اللّه ﷻ؛ توبيخًا وتبكيتًا لهم بسبب إعراضِهم عنِ اللّه ورسولِه.

دَلالَةُ الوَصْفِ بِاسْمِ الفاعِلِ ﴿ٱلْكَٰفِرِينَ﴾:

جَرَيانُ الكُفْرِ لَقَبًا لِأَصْحابِ النّارِ لِشِدَّةِ مُلازَمَتِهِمْ لَهُ

في قَوْلِ اللّهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾، وردَ وصفُ أهلِ النّارِ بِالكُفْرِ بصيغَةِ اسْمِ الفاعِلِ ﴿ٱلْكَٰفِرِينَ﴾؛ والأصلُ في اسْمِ الفاعِلِ أن يردَ لِلْحالِ، ودِلالَتُهُ على الاستقبالِ مِنْ بابِ المجازِ، ولا يَرِدُ مُرادًا به الماضي؛ وكُفْرُ أصحابِ النّارِ قد صدَرَ منهم في الدُّنيا قَبْلَ ورودِهم الآخرَةَ؛ وذلك لأنَّ وصْفَ ﴿ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ تعريفٌ لهم بِوَصْفٍ جرَى مَجْرَى الألقابِ، به تُعْرَفُ جماعَتُهُم، كَما يُقالُ لِأهلِ الإِسْلامِ: المؤمنونَ، فلا يُنافي أنَّهم وقْتَ وصفِهِمْ به لَم يَكونوا كافرينَ.

دَلالَةُ (ال) فِي لفْظِ ﴿ٱلْكَٰفِرِينَ﴾:

كَمالُ الكُفْرِ سَبَبٌ فِي كَمالِ حِرْمانِ النَّعِيمِ

اللّامُ في ﴿ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ مِنْ قَوْلِ اللّهِ سُبحانَهُ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾، دالَّةٌ على استغراق أفراد الكفرِ الَّذين تمكَّن الكفرُ منهم، والمعنى: إنَّ اللّه تعالى حرمَّهما على أهْلِ الكُفْرِ الكامِلينَ فيهِ، وهُمُ الواقعونَ في الكُفْرِ الأكْبَرِ.

﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمۡ لَهۡوٗا وَلَعِبٗا وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۚ فَٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰهُمۡ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوۡمِهِمۡ هَٰذَا وَمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ ٥١﴾

[الأعراف: 51]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الرّبْطُ بين بيانِ حِرمانِ أهلِ الكُفرِ منَ الجنّةِ، ودُخولِهم النّارَ باللّهوِ والاغْترارِ

لمّا ذكَرَ اللّهُ تعالى تحريمَ ما رَزَقَ به أهلَ الجَنَّة مِن النَّعيم على أصحابِ النّار، مَعَ بيانِ علَّةِ ذلكَ: وهو الكُفْرُ؛ ذكرَ أوصافَ الكافرينَ بأنَّهم كانوا السَّبَبَ في هذا الحِرْمانِ والمَنْعِ؛ إذِ اتخذوا دينَهُم لهوًا ولعبًا إرضاءً لشهواتهم وملذّاتهم، وما فعلوه في الدّين من أعمال لا تُزكّي النَّفْسَ، ولا تجعلُها أهلًا لِلْكَرامَةِ والتَّشريفِ، بَل هيَ: إمّا لهوٌ يشغَلُ الإنْسانَ عمّا يُفيدُ مِنَ الأعْمال، وإمّا لَعِبٌ لَيْسَ وراءَهُ فائدَةٌ صَحيحةٌ، فقال سُبْحانَهُ: ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمۡ لَهۡوٗا وَلَعِبٗا﴾[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿لَهۡوٗا﴾: اللّام والهاءُ والحرفُ المعتلُّ تدلُّ كثيرٌ مِن تصاريفِها على شُغْلٍ عن شيءٍ بشيءٍ آخرَ، ومِنْهُ اللَّهْوُ، وهو: كلُّ شيءٍ شغَلَ عَن شيءٍ[2]، ويُطْلَقُ علَى ما يَشْغَلُ الإنْسانَ عَمّا يَعْنيه، وَيَهُمُّهُ[3]، لا على مُطْلَقِ الشّاغِلِ، ومِنْهُ قولُ اللّهِ تَعالَى: ﴿لَاهِيَةٗۗ قُلُوبُهُمۡۗ﴾ [الأنبياء: 3] أي: مُتشاغِلَةً عمّا يُدْعَوْن إلَيْهِ[4].ومعنى قولِ اللّهِ تَعالَى: ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمۡ لَهۡوٗا﴾، أي: اشْتِغالًا بِما مِنْ شَأْنِهِ أنْ يُنْسِيَ كُلَّ نافعٍ[5].

2) ﴿وَلَعِبٗا﴾: لَعِبَ، يلعَب، لَعِبًا، ولَعِب فلانٌ؛ إذا كان فعله غيرَ

(1) المراغي، تفسير المراغي: 8/164.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (لهو).
(3) الرّاغب، المفردات: (لهى).
(4) الأزهري، تهذيب اللغة: (لهى).
(5) البقاعيّ، نظم الدرر: 7/409.

قاصدٍ به مقصدًا صحيحًا، ومادة: اللّام والعَيْنُ والباءُ تدورُ اشتقاقاتُها على معنى اضْطِرابٍ وتَسَيُّبٍ فِيما يَصْدُرُ عَنِ الشَّيْءِ، بِسَبَب تَجَمُّع حَيَوِيَّته أو نشاطِه، ومِنْهُ: اللَّعِبُ - وهو ضدُّ الجِدِّ - وهُوَ تَسَيُّبٌ في الحَرَكَةِ واضْطِرابٌ، أيْ: عدَمُ اسْتِقامَةٍ أو عدَمُ قَصْدٍ في الاتِّجاه والتَّصَرُّف[1].ومعنى قولِ اللّه سُبحانَهُ: ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمۡ لَهۡوٗا وَلَعِبٗا﴾ أيْ: إقْبالًا علَى ما يَجْلِبُ السُّرورَ، ويَقْطَعُ الوَقْتَ الحاضِرَ بالغُرُورِ[2].

3) ﴿وَغَرَّتۡهُمُ﴾: غرَّه يغُرُّه، بمعنَى: خدَعَه، والغرُورُ: الخديعَةُ[3]، والغُرور: كلُّ ما يغرُّ الإنسان من مالٍ وجاهٍ وشهوةٍ وشيطان، وقد فُسِّر بالشيطان؛ إذ هو أخبثُ الغارِّين، والدُّنيا كما قيل: الدُّنيا تَغُرُّ وتَضُرُّ وتَمُرُّ[4]. والغِرَّةُ: الغفلَةُ[5]، وفرَّقَ الرّاغبُ بَيْنَ الغِرَّة والغِرارِ؛ بأنَّ الغِرَّةَ: غَفْلَةٌ في اليَقَظَةِ، والغِرارَ: غَفْلَةٌ مَعَ غَفْوَةٍ[6].ومعنى قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۚ﴾ أي: خَدَعَهُم عاجِلُ ما هُمْ فِيهِ مِنَ العَيْشِ والدَّعةِ[7].

4) ﴿نَنسَىٰهُمۡ﴾: النُّون والسِّينُ والياءُ تدلُّ تصريفاتُهُ على مَعْنَيين: أحدهما: إغفالُ الشَّيءِ، والآخرُ: تَرْكُهُ[8]، فَمِنَ الأوَّلِ قولُ اللّه سُبحانَهُ: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذۡنَآ إِن نَّسِينَآ أَوۡ أَخۡطَأۡنَاۚ﴾ [البقرة: 286]، وحقيقةُ النِّسيانِ: ذُهُولُ القَلْبِ عَنْ مَعْلُومٍ[9]، ومِنَ الآخَرِ قولُ اللّه ﷻ: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰهُمۡ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوۡمِهِمۡ هَٰذَا﴾؛ فإنَّ معناه: نترُكُهم فِي العَذابِ، كما تَرَكُوا العَمَلَ فِي الدُّنْيا لِلِقاءِ اللّهِ تعالَى يَوْمَ القِيامَةِ[10].

وقد عبَّر الرّاغبُ عن النِّسيانِ الجامِعِ لقِسْمَيْهِ بقولِه: (تَرْكُ الإنْسانِ ضَبْطَ ما اسْتودِعَ، إمّا لضَعْفِ قَلْبِه، وإمّا عَن غَفْلَةٍ، وإمّا عَنْ قَصْدٍ حَتَّى يَنْحَذِفَ عَنِ القَلْبِ ذِكْرُهُ)[11].

5) ﴿يَجۡحَدُونَ﴾: الجيمُ والحاءُ والدّالُ تدور اشتقاقاتُها على قِلَّةِ الخيْرِ، ومنه قولُهم:

(1) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (لعب).
(2) البقاعيّ، نظم الدرر: 7/409.
(3) الجوهري، الصّحاح: (غرر).
(4) الراغب، المفردات: (غرَّ).
(5) الفيّومي، المصباح المنير: (غرر).
(6) الرّاغب، المفردات: (غرر).
(7) ابن جرير، جامع البيان: 12/475.
(8) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نسي).
(9) ابن عثيمين، تفسير الفاتحة والبقرة: 1/346.
(10) ابن جرير، جامع البيان: 12/476.
(11) الرّاغب، المفردات: (نسي).

عامٌ جَحِدٌ، أي: قليلُ المطَرِ[1]، ورجُلٌ جَحِدٌ: شحيحٌ قليلُ الخيرِ يُظْهِرُ الفقْرَ، وحقيقةُ الجحودِ: نَفْيُ ما في القَلْبِ إثْباتُهُ، وإثباتُ ما في القَلْبِ نَفْيُهُ[2]، ومنه قولُ اللّه سُبحانَهُ: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّاۚ﴾ [النّمل: 14]. والجَحْدُ في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿وَمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ هو إنكارُ الأمْرِ المَعْروفِ، أي: الإنكارُ معَ العِلْمِ بوقوعِ ما يُنْكَرُ؛ فهو نفيُ ما يَعْلَمُ النّافي ثُبوتَهُ، فيكون ذَلِكَ إنكارَ مكابَرةٍ[3].

❁ المعنى الإجْماليُّ:

بيَّن اللّه تعالى فى هذه الآية أنَّ الذين حَرَمهم اللّهُ سُبحانَهُ من نَعيمِ الآخِرَةِ هُمُ الذين جَعَلوا الدّينَ - الذي شرَعَهُ اللّهُ ﷻ وأمَرَهُم باتِّباعِهِ - سُخْريَّةً ولَعِبًا، وخَدَعَهم عاجِلُ ما هم فيهِ مِنَ العَيْشِ والدَّعَةِ عَنِ العمَلِ لِلْآخِرَةِ، حَتَّى أتَتْهُمُ المَنيَّةُ، ففي يومِ القيامَةِ يَتْرُكُهُم اللّهُ تعالى في العَذابِ المُبينِ جياعًا عِطاشًا كَما تَرَكوا العَمَلَ لِلقاءِ يَوْمِهم هذا، ورَفَضوا الاسْتِعْدادَ لَهُ بِإتْعابِ أبْدانِهِم في طاعَةِ اللّهِ سُبحانَهُ، ولإنكارِهِم أدلَّةَ اللّهِ ﷻ وبراهينَهُ مَعَ علْمِهِم بأنَّها حقٌّ[4].

من أسبابِ سُوءِ المصيرِ، اللّهوُ في الدّنيا، واللّعبُ بالدِّينِ، ومن نَسِيَ يُنسَى

وترشدُ الآيةُ الكريمةُ إلى تحريمِ اتِّخاذِ شيءٍ من الدِّين - صغيرًا أو كبيرًا - سُخريَّةً وعبثًا، والتَّحذيرِ من الاغترارِ بالدُّنيا حتى لا ينسى العبدُ آخرتَه وما يُعِدُّ لها ممّا ينفعه فيها من الإيمان وصالحِ الأعمال؛ فالجزاءُ يوم القيامة يكونُ بحسَبِ أعمالِ الناس.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

عِلَّةُ فَصْلِ قَوْلِه تَعالَى: ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ﴾، عَمّا قَبْلَهُ:

فُصِلَ قولُ اللّه سُبحانَهُ: ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا﴾ عمّا

بَيانُ حَقيقَةِ الكُفْرِ المانِعَةِ أَصْحابَها مِنَ النَّعيمِ في الآخِرَةِ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (جحد).
(2) الرّاغب، المفردات: (جحد).
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/199.
(4) ابن جرير، جامع البيان: 12/474 - 475، ونخبة من العلماء، التّفسير الميسّر، ص: 156.

قَبْلَهُ؛ لوقوعِ صدْرِ الجملَةِ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ صِفَةً لـ ﴿ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ مِنَ الآيَةِ قبلها، وشَأْنُ الصِّفَةِ ألّا تُعْطَفَ على المَوْصوفِ.

ويَجوزُ أن يَكونَ الاسمُ الموصولُ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ في محلِّ رفعٍ بالابتداءِ، ويكونُ فصلُ الجملَةِ عمّا قبلَها لِما بينَهُما مِن كمالِ الاتِّصالِ؛ لوقوعِ جملةِ ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا﴾ بيانًا لِما قَبْلَها.

ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ الفصْلُ لِما بَيْنَ الجُملَتَيْنِ مِن شِبْهِ كمالِ الاتِّصالِ، وهو المَعْروف بالاسْتِئْنافِ البيانيِّ، وذلك أنَّ قولَهُ ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ يُثيرُ في نفسِ المتَلَقّي سؤالًا: ما حقيقةُ هؤلاءِ الكافِرينَ؟ أهُمُ المتلبِّسونَ بكُفْرِ النِّعْمَةِ؟ فجاء الجوابُ: ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا﴾؛ لبيانِ أنَّ المرادَ بالكُفْرِ الكُفْرُ الأكْبَرُ الذي لا يجتَمِعُ معَ أصلِ التَّوحيدِ.

بَلاغَةُ التَّعْبيرِ بلفْظِ ﴿ٱتَّخَذُواْ﴾:

قالَ اللّهُ ﷻ: ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا﴾، ولَمْ يَرِدِ النَّظْمُ القرآنيُّ: (الّذين اتَّخَذوا اللَّهْوَ واللَّعبَ دينًا)، وذلك لِتَصْديرِ جُملة الصِّلَةِ بالفعلِ ﴿ٱتَّخَذُواْ﴾، وهم لم يَجْعَلوا كلَّ ما هو لَهْوٌ ولعبٌ دينًا يتَدَيَّنونَ به، بَل عمَدوا إلى أن يبْتَدِعوا دينًا، فجمعوا لهُ أشياءَ مِنَ اللَّهْوِ واللَّعب، وسمَّوها: دينًا، فكان قولُهُ سُبحانَهُ: ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا﴾ أدلَّ على هذا المُرادِ[1].

ابْتِداعُ أَشْياءَ مِنَ اللَّهْوِ واللَّعِبِ، وَجَعْلُها دِينًا: طَرِيقَةُ الكَفَرَةِ

دَلالَةُ عودِ الضّميرِ في ﴿دِينَهُمْ﴾ على الكافِرين:

إضافَةُ الدّينِ إلى الكافرينَ في ﴿دِينَهُمْ﴾ مِنْ قولِ اللّه ﷻ: ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا﴾؛ تَحْقيرٌ لَهُ وإظهارٌ لبُطلانِهِ، فهو لَيْسَ دينًا للّهِ تعالى الذي شرعَهُ وأمَرَهم بالتزامِهِ، وإنَّما هو دينُهُمُ الذي ابتدَعوهُ، ولفَّقوهُ مِنْ أشْياءَ هيَ مِنْ جِنْسِ اللَّهْوِ واللَّعِبِ.

يُضافُ الدِّينُ إِلَى المولَى بِاعْتِبارِهِ شَرَعَهُ، وإلى البَشرِ بِاعْتِبارِهِمْ أُمِرُوا بِالتِزامِهِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/295.

ويَجوز أن تكون الإضافَةُ إليهمْ باعتبارِهِمْ قد أُمِروا بالتزامِهِ[1]؛ فإنَّ الدّين يُضافُ إلى اللّهِ تعالى باعتبار أنَّه سُبحانَهُ الذي شرَعَهُ، وأمرَ به، ويُضافُ إلى الخَلْقِ باعتبارِهم أُمِروا بالتزامِهِ.

سِرُّ التَّعْبيرِ بلفْظِ ﴿دِينَهُمْ﴾ دونَ (ملَّتَهُمْ):

قوله: ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا﴾، آثرَ فيه التَّعبيرَ بالدّين دون الملَّة لوجودِ فرقٍ بينهما؛ فالملَّة تُطلقُ على السُّنَّة والطَّريقة، واستُعيرت لإطلاقها على عقائدِ الشَّريعة، وصارت اسمًا لما شرعَهُ اللّه تعالى لعبادِهِ على لسان أنبيائه؛ لذلك تضاف إليهم، قال تعالى: ﴿قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًاۖ﴾، ولا تكاد تضافُ الملَّة إلّا إلى نبيٍّ؛ لأنَّها تقال اعتبارًا لمن يؤدّي الشَّرع عنِ اللّهِ؛ بخلافِ الدّين، فيُطلق على الجزاء، فيقالُ: كما تَدين تُدانُ.

لفظةُ الدِّين فيها معنَى العادةِ والمجازاةِ، وهو مُصطلحٌ عندَ كلِّ الأُممِ

وممّا يُفرَّقُ به بين الدّين والملَّة: أنَّ الدّينَ اسْمٌ لما عليه كلُّ واحدٍ؛ فيَصْدُقُ على ما يذهبُ إليه الإنسانُ، ويعتقدُ أنَّه يقرِّبُه إلى اللّه، وإن لم يكن فيه شرعٌ؛ بخلاف الملَّة فهي أخصُّ منَ الدّين؛ لذلك آثرَ التّعبيرَ بكلمة ﴿دِينَهُمْ﴾؛ لأنَّ ما عليه أهلُ الكُفرِ والشِّرك لا شرعَ فيه، إنَّما هو لهوٌ ولعبٌ[2].

بَراعَةُ التّعْبيرِ بالفعْلِ ﴿وَغَرَّتْهُمُ﴾:

الفعْلُ ﴿وَغَرَّتْهُمُ﴾ في قَوْلِ اللّهِ تعالى: ﴿وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَاۚ﴾، هو مِنَ الغُرورِ؛ وهو الخداعُ، والمعنى: خدَعَتْهُم الحياةُ الدُّنيا بزخارِفِها، واعتِقادِهِم أنَّها الغايةُ القُصْوَى. ويَجوزُ أن يَكونَ الفعلُ (غَرَّتْهُمُ) مِن الغَرِّ: وهو مِلْءُ الفَمِ، والمعنى: أشبعَتْهم الدُّنيا، وأبْطَرَتْهم[3]. والمعنيان متكامِلانِ: فالدُّنيا خدعَتْهم حتَّى ظنّوا أنَّها المُنْتهَى، فانغمَسوا فيها وفي شهَواتِها، حتَّى بَطِروا، وأُتْخِموا بِها.

التَّكامُلُ الدَّلاليُّ لِلْأَلْفاظِ القُرْآنِيَّةِ ذاتِ المَعاني المُتَعَدِّدَةِ، مُفيدٌ وسَديدٌ

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/407.
(2) الفراء، معاني القرآن وإعرابه: 1/202.
(3) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/407، والشِّهاب الخفاجي، عناية القاضي وكفاية الرّاضي: 4/79.

بَلاغَةُ المَجازِ العَقْلِيِّ في ﴿وَغَرَّتْهُمُ﴾:

قُوَّةُ الطَّمَعِ فِي مُتَعَلَّقاتِ الدُّنْيا حاجِبَةٌ عَنْ طَلَبِ الدِّينِ الحَقِّ

في إِسْنادِ الفعلِ ﴿وَغَرَّتْهُمُ﴾ في قَوْلِ اللّهِ: ﴿وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾، إلى الحياة الدُّنيا مجازٌ عقليٌّ؛ وذلكَ لأنَّ الحياةَ الدُّنيا لا تَغُرُّ، وإنَّما يحصُلُ الغرورُ فيها، مِنْ جِهَةِ أنَّ الإِنْسانَ يَطْمَعُ في طولِ العُمُرِ وسعَةِ العيشِ ووفرةِ المالِ، ونحو ذَلِكَ، فلِقوَّةِ رغبتِهِ في هذِهِ الأَشْياءِ يَصيرُ مَحْجوبًا عَن طلَبِ الدّينِ الحقِّ[1].

بَلاغَةُ التَّعْبيرِ بالفعْلِ الماضِي ﴿وَغَرَّتْهُمُ﴾:

الاغْتِرارُ بالدُّنيا مُتأصِّلٌ في طِباعِ الكافرين

قوله: ﴿وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾: جاء التَّعبيرُ فيه بالفعل الماضي دون المضارعِ، كأن يُقال: (ويغترّون بالحياة)؛ للدَّلالة على أنَّ اغترار الكافرين بالحياة الدُّنيا أمرٌ مركوزٌ في فِطَرهم وراسخٌ في قلوبهم؛ فكأنَّ غرور الحياة الدُّنيا مرتبطٌ بهم، وهم مرتبطون به، ومراعاةً لسياقِ الآية بالتَّعبير بفعل الاتِّخاذ بالفعل الماضي؛ حتى ينتظمَ الأفعالَ المذكورةَ وِزانٌ نَسَقيٌّ واحد.

نُكْتَةُ التَّعْبيرِ بلفْظِ ﴿ٱلْحَيَوٰةُ﴾:

هَمُّ الكَفَرَةِ مِنَ الدُّنْيا هُوَ الحَياةُ، لا ما يُحَصَّلُ فِيها مِنَ المَكارِمِ والخَيْراتِ

قالَ اللّهُ ﷻ: ﴿وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ فجاءَ التَّعبير بالحَياةِ، ولَمْ يَرِدِ النَّظْمُ القرآنيُّ: (وغرَّتْهُم الدُّنيا)، وذلِكَ لِلْإيماءِ إلى أنَّ همَّهُم مِنْ هذهِ الدُّنيا هو الحياةُ فيها، لا ما يُحَصَّلُ فيها مِنَ الخَيْراتِ والمكارِمِ التي هيَ سببٌ لِسَعادَةِ الحياةِ في الأولَى والآخِرَةِ، فأفادَ قولُهُ سُبحانَهُ: ﴿وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ أنَّ الحياةَ الدُّنيا غرَّتْهم، فأوْهَمَتْهم أنْ لا حَياةَ بَعْدَها[2].

بَلاغَةُ الاعْتِراضِ فِي: ﴿فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ﴾:

قولُ اللّه تعالى: ﴿فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا وَمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ اعتراضٌ مِنْ كلامِ اللّهِ تعالى يُعْلَنُ به، ويَسْمَعُهُ

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/253.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/296.

الفَريقانِ، وذَلِكَ أنَّ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ۝٥٠ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمۡ لَهۡوٗا وَلَعِبٗا وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۚ﴾ من كَلامِ أهْلِ الجنَّة، كما يدلُّ عليهِ تَصْديرُ هذه المَقالَةِ بـ ﴿قَالُوٓاْ﴾، ولمّا اخْتَلَفَ الأُسْلوبُ في قولِهِ سُبحانَهُ: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰهُمۡ﴾؛ عُلِمَ أنَّ المتكلِّمَ اختلفَ، فالكلامُ المتقدِّمُ حكايةٌ لِكَلامِ أهْلِ الجنَّة، وقولُه: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰهُمۡ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوۡمِهِمۡ هَٰذَا وَمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ﴾ من كلامِ اللّٰه تعالى، وذَلِكَ لِلتَّصريحِ بِنِسْبَةِ ما لا تَصِحُّ نِسْبَتُهُ إلى غيرِهِ سُبحانَهُ[1].

ما لا تَصِحُّ نِسْبَتُهُ إِلَى غَيْرِ اللهِ ﷻ، مَمْقوتٌ عندَ الله

دَلالَةُ الفاءِ فِي: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰهُمۡ﴾، وبراعَةُ الإيجازِ:

الفاءُ في قَوْلِ اللّٰهِ ﷻ: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰهُمۡ﴾ للتَّفريعِ على قولِ أصحابِ الجنَّةِ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ۝٥٠ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمۡ لَهۡوٗا وَلَعِبٗا وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۚ﴾، وهذا العَطْفُ بالفاءِ هو مِن قَبيلِ ما يُعرفُ بعَطْفِ التَّلْقينِ، وهو هُنا عَطْفُ كلامِ متكلِّمٍ على كلامِ متكلِّمٍ آخرَ، وفي نَظْمِ الكلامِ حذفٌ لفِعْلِ القولِ مع فاعلِهِ، وفيه براعَةٌ في الإيجاز؛ إذِ التَّقدير: (قال اللّٰهُ: فاليَوْمَ نَنْساهم)، ويكونُ الغرضُ مِنْ جُمْلَةِ التَّفريعِ تَصْديقَ كلامِ أصحابِ الجنَّة.

الِانْخِداعُ بِالدُّنْيا سَبَبٌ لِتَرْكِ الِانْقِيادِ لِشَرْعِ اللهِ تَعالَى

وجائزٌ أنْ يَكونَ التَّفريعُ في كَلامٍ واحدٍ، عِنْدَ مَنْ يرَى أنَّ قولَهُ: ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمۡ لَهۡوٗا وَلَعِبٗا﴾ كلامٌ مستأنَفٌ مِنْ كلامِ اللّٰه تعالى لا محكيٌّ عَن أصحابِ الجنَّة[2].

ويَحْتَمِلُ أن تكونَ الفاءُ فصيحَةً[3]، ويكونَ قولُهُ: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰهُمۡ﴾ جوابَ شَرْطٍ محذوفٍ، والتَّقديرُ: إذا كانوا قد اتَّخذوا دينَهم لهوًا ولعبًا، وخدَعَتْهُم الدُّنيا، فألهَتْهم عَنِ الانْقيادِ لِشَرْعِ اللّٰهِ تعالى ودينِهِ، حتَّى ترَكوهُ بالكُلِّيَّةِ، فجزاؤُهُم: أنَّنا نَنْساهم كَما نَسوا لِقاءَ يَوْمِهم هذا.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/150.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/150.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/231، والآلوسي، روح المعاني: 4/366.

دَلالةُ التّعبيرِ باليومِ، في: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ﴾ دونَ غيرِه:

يومُ القيامةِ عَسيرٌ، وهو على الكافرِ أشدُّ عُسْرًا

آثرَ التَّعبيرَ بـ ﴿فَٱلۡيَوۡمَ﴾ دونَ (الآن) مثلًا؛ لأنَّها تُستَعمل للزمن الحاضر، كما قال اللّه لفرعون: ﴿ءَآلۡـَٔـٰنَ وَقَدۡ عَصَيۡتَ قَبۡلُ﴾، أمّا لفظ اليوم؛ فله أكثرُ من إطلاقٍ في اللُّغة؛ لذلك ليس المقصود به يومًا بعينه إنَّما يُرادُ به الزَّمنُ الحاضرُ الذي يحصل فيه الحسابُ والجزاءُ؛ لإظهار أنَّ حرمانَهم من الرَّحمة في هذا المشهدِ كان في أشدِّ أوقات احتياجهم إليها، فكان ذِكرُ اليوم له أثرٌ في تحسُّرهم وندمهم وتوبيخهم على الأيّام الَّتي ضيَّعوها في الدُّنيا من غير إيمانٍ ولا طاعة.

دَلالَةُ النِّسْيانِ بَيْنَ الحَقِيقَةِ والمَجازِ:

النِّسْيانُ الواردُ في الآيةِ معناه التَّركُ لا الذُّهولُ أوِ الغَفْلةُ عِياذًا باللّه

النِّسْيانُ في قَوْلِ اللّهِ ﷻ: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰهُمۡ﴾ يَحْتَمِلُ أن يَكونَ تَمْثيلًا؛ بأنْ يكونَ اللّهُ سُبحانَهُ قَد شبَّهَ مُعامَلَتَه مع هَؤُلاءِ بالمعاملَةِ مع مَن لا يُعْتَدُّ به، ولا يُلْتَفتُ إلَيْه، فيُنْسَى، والقَرينَةُ على إرادَةِ التَّمثيلِ لا الحقيقَةِ أنَّ اللّه تعالى قد نفَى النِّسيانَ عَن نفسِهِ في نحوِ قولِه ﷻ: ﴿قَالَ عِلۡمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٖۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ۝٥٢﴾ [طه: 52]، فلا يصحُّ حَمْلُ النِّسيانِ في آيةِ الأعراف على هذا المعنى المنفيِّ[1]، والمختارُ أنَّ النِّسْيانَ المُسنَدَ إلى الضَّميرِ الرّاجِعِ إلى اللّه سُبحانَهُ نسيانٌ حقيقيٌّ، ولَكِنْ لا يُرادُ به الذُّهولُ عنْ معلوم؛ فإنَّ هذا منفيٌّ عنِ اللّه تعالى، كَما في آيَةِ سورَةِ طَهَ المذكورَةِ آنفًا، وإنَّما يُرادُ به مُطْلَقُ التَّرْكِ، وهو إطلاقٌ لغويٌّ معروفٌ، ولا يَفتقِرُ النَّظْمُ القرآنيُّ إلى حَمْلِ النِّسيانِ على المَجازِ في الإهْمالِ والتَّرك، باعْتِبارِهِما مِن لوازمِ النِّسيانِ[2].

(1) الشِّهاب الخفاجي، عناية القاضي وكفاية الرّاضي: 4/172.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/150.

بَلاغةُ الاسْتِعارةِ في قوله: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰهُمۡ﴾:

النِّسْيانُ لا يقعُ في حقّ اللّه تعالى مطلقًا، قال تعالى: ﴿لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ۝٥٢﴾ [طه: 52]، وجاء التّعبير بالنّسيان في قوله: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰهُمۡ﴾ مشبِّهًا معاملتَه تعالى مع الكفّارِ، بمعاملةِ من نَسيَ عَبده من الخير، ولم يلتفت إليه[1]، بجامع الترْكِ وعدمِ النّظر إليهم، فحَذَف المُشبَّهَ وهو حرمانُهم من نظرِهم إليه، وأَبقَى المشبَّه به، وهو نسيانُ السَّيِّد لعبدِهِ عديمِ الفائدة، على سبيل الاستعارة التصريحيّة التّبعية.

إنَّما العِقابُ من جِنْسِ الذَّنْبِ

دَلالَةُ الكافِ فِي قَوْلِ اللهِ: ﴿كَمَا نَسُواْ﴾:

اختارَ التعبيرَ بالكاف دون غيرها نحو: (مثل)؛ لأنَّ الكافَ تتعدَّدُ معانيها، فمنها: التَّشبيهُ والتَّعليلُ بخلاف (مِثل)، فهي للتَّشبيه فقط؛ لذلك فالكافُ في قَوْلِ اللّهِ ﷻ: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰهُمۡ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوۡمِهِمۡ هَٰذَا﴾ للتَّعليلِ[2]، فهي كالواردَةِ في قولِ اللّه ﷻ: ﴿وَٱذۡكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمۡ﴾ [البقرة: 198]، والمعنى: فاليومَ نَنْساهم؛ لأنَّهم نَسوا لقاءَ يَوْمِهِم هَذا.

وفيهِ إشارةٌ إلى أنَّ حرمانَهم من رحمةِ اللّه تعالى كان مقابلًا لإهمالهم التَّصديقَ باللِّقاء، وبذلك يكون الجزاءُ من جنسِ العمل.

الجَزاءُ مِنْ جِنْسِ العَمَلِ، وكما يَدينُ الفتَى يُدانُ

سِرُّ التعليق بِنسيانِهِمُ اللّقاءَ:

جاء التَّعبيرُ القرآنيُّ بقوله: ﴿كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوۡمِهِمۡ هَٰذَا﴾ دون أن يقولَ: (كما نَسُوني)؛ لتنزيهِهِ ﷻ عن هذا النِّسيان؛ لأنَّه الفعّال لما يريد، وهو الحيُّ القيُّوم، فعطاؤه متجدِّد ونِعَمُهُ متواصلةٌ، فلا ينبغي لإنسانٍ عاقلٍ أن ينسى المنعِمَ عليه؛ وما وقعَ من الكفّار هو خروجٌ عن منطقِ العقلِ والفطرة.

لا يقوَى قلْبُ العبدِ على نِسيانِ خالقِهِ، إلّا إذا قسَا وجَمَدَ إحساسُه

(1) الهرري، حدائق الروح والريحان: 9/377.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 5/62.

بَلاغَةُ الإِضافَةِ فِي المركّبِ الإضافيِّ ﴿يَوْمِهِمْ﴾:

شَناعَةُ تَرْكِ المَرْءِ أَمْرًا مِنْ مُهِمَّاتِ مُتَعَلَّقاتِهِ

في قَوْلِ اللّهِ تعالى: ﴿فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا﴾، أُضيفَ اليَوْمُ إلى الضَّميرِ العائدِ إلى الكافِرينَ في قولِ اللّه تعالى: ﴿فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا﴾؛ لزيادَةِ التَّشنيعِ عليهِمْ، وأنَّهم نسوا ما لا يَنْبَغي لَهم أن ينسَوْهُ؛ إذِ اليومُ يومُهم، وكيفَ ينسَى المَرءُ أمرًا مِن متعلَّقاتِهِ؟

دَلالَةُ الإشارَةِ فِي لفْظِ ﴿هَٰذَا﴾:

المُبالَغَةُ فِي تَقْرِيعِ الكافِرِينَ؛ لِغَفْلَتِهِمْ عَمَّا كانَ مُحَقَّقَ الوُقُوعِ

دلَّ اسمُ الإشارَةِ ﴿هَٰذَا﴾ مِنْ قولِ اللّه سُبحانَهُ: ﴿فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا﴾ على المبالغَةِ في تَقْريعِهِمْ؛ حيثُ أُشيرَ إلى اليَوْمِ تَحْقيقًا لَهُ، وأنَّه اليومُ نَفْسُهُ الذي غفَلَ عنه هَؤُلاءِ الكفرَةُ وجحَدوهُ، فهو نَظيرُ قَوْلِ اللّهِ تعالى: ﴿هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [الأنبياء: 103].

دَلالَةُ التَّعْبيرِ بِفِعْلِ الكَوْنِ ﴿كَانُواْ﴾:

إِصْرارُ الكُفَّارِ عَلَى جَحْدِ الآياتِ الإِلَهِيَّةِ، واسْتِمْرارُهُمْ عَلَيْهِ

عُبِّرَ بِفِعْلِ الكوْنِ في قولِ اللّهِ سُبحانَهُ: ﴿وَمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ ولم يَرِدِ النَّظْمُ القرآنيُّ: (وَما بِآياتِنا يَجْحَدونَ)؛ للإشْعارِ بأنَّ جَحْدَهم لَمْ يكُنْ عارِضًا، وإنَّما كانوا مُنْكِرينَ بأنَّها مِنْ عِنْدِ اللّه ﷻ إنكارًا مستَمِرًّا[1]، متأصِّلًا في نفوسهم.

نُكْتَةُ إِضافَةِ ﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾، في السِّياقِ:

إِظْهارُ عَظيمِ قُبْحِ جَحْدِ آياتِ اللهِ تَعالَى

أُضيفَتِ الآياتُ إلى الضَّمير العائِدِ إلى اللّه تعالى في قَوْلِهِ: ﴿وَمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ﴾؛ تعظيمًا للمُضافِ وهو الآياتُ، ويُقَوّيه مَجيءُ الضَّميرِ بِأُسْلوبِ العظَمَةِ؛ زيادةً في المَهابَةِ وإدخالِ الرَّوعةِ في نفوسِ المُتَلَقّينَ.

وفي تَعْظيمِ الآياتِ على النَّحو المتقدِّمِ إظهارٌ لبلوغِ قُبْحِ جَحْدِها درجةً عالية.

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/231.

سِرُّ جَمْعِ الآياتِ بقوله تعالى: ﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾:

كَثْرَةُ الآياتِ الإلَهِيَّةِ أَبْلَغُ فِي إِقامَةِ الحُجَّةِ عَلَى مُنْكِرِيها

وذلك في قولِ اللّه تعالى: ﴿وَمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ﴾، ففي جَمْعِ الآياتِ، زيادَةٌ في تقبيحِ جَحْدِهِم لَها، فإنَّهم لَوْ جَحَدوا آيةً واحدةً مِن آيات اللّه سُبحانَهُ؛ كان ذلك قبيحًا شَنيعًا، فكيف وقَدْ جحدوا آياتٍ من أدلةِ اللّه وبراهينِه مع عِلْمِهم بأنَّها حقٌّ؟

دَلالةُ تَقديم ﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾ على قولِه: ﴿يَجۡحَدُونَ﴾:

تَقديمُ شِبْهِ الجُملةِ لأهميَّةِ ما تمَّ تَقْديمُه

قدَّم القرآنُ الكريمُ التَّعبيرَ بلفظ الآيات لمزيد العنايةِ والاختصاصِ بهذه الآياتِ الكونيَّةِ والشَّرعيَّةِ، التي كان عليهم أن يتوصَّلوا بها إلى الإيمانِ بدلًا من الجحود والنُّكران.

نُكْتَةُ التَّعْبيرِ بِالفِعْلِ المُضارِعِ ﴿يَجۡحَدُونَ﴾:

إِحْضارُ مُوجِبِ العَذابِ فِي أَذْهانِ الكافِرِينَ، أَشَدُّ فِي حَسْرَتِهِمْ وَأَبْلَغُ فِي تَبْكِيتِهِمْ

في التَّعبيرِ بالفعلِ المُضارعِ ﴿يَجۡحَدُونَ﴾ في قَوْلِ اللّه: ﴿وَمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ﴾، دونَ الماضي: (**جَحَدوا**) إظهارٌ لِشَنيعِ أعمالِهمُ التي عملوها في صورَةِ ما يُعْمَلُ في الحالِ؛ ليكونَ موجبُ العذابِ أحضَرَ في أذْهانِهم وقْتَ تعذيبِهِمْ، فيَكونَ ذلكَ أشدَّ في حسرَتِهِمْ وأبلغَ في تبكيتِهِمْ.

دَلالةُ تَرتيبِ أوصَافِ الكافرين، في هذه الآيةِ وما قبلَها:

للكافرين مَسْلكٌ وطريقةٌ، زاغوا بها عن صِراطِ الله المستقيمِ

جاءت هذه الأوصاف المتعدِّدة للكافرين لتجيبَ عن سؤالٍ: ما سبَبُ هذه التَّشديدات والعقوبات لهم؟ فكان الجواب؛ لأنَّهم كانوا كافرين، ثمَّ بعد ذلك بيَّن من حالِ كفرِهم أنَّهم اتَّخذوا دينَهم لهوًا ثمَّ لعبًا، ثمَّ غرَّتهم الحياة الدُّنيا، فكان عاقبة هذه الأحوالِ أنَّهم جحدوا بآياتِ اللّه، وذلك يدلُّ على حبِّهم الشَّديد للدُّنيا الَّذي هو رأسُ كلِّ خطيئة[1].

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 7/297.

المُتشابِهُ اللَّفْظِيُّ بين آيةِ الأعراف (51)، وآيةِ العنكبوت (64):

تَوجِيه تقْديمِ اللَّهوِ على اللَّعبِ، والانتباهُ إلى غُرورِ الدّنيا، والحَذرُ من نِسيانِ الآخرةِ

قدَّم النَّظمُ القرآنيُّ اللَّهوَ على اللَّعب في موضِعَين، هما: هنا في سورة الأعراف في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمۡ لَهۡوٗا وَلَعِبٗا وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۚ فَٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰهُمۡ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوۡمِهِمۡ هَٰذَا وَمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ﴾، وفي سورة العنكبوت في قوله: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا لَهۡوٞ وَلَعِبٞۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ لَهِيَ ٱلۡحَيَوَانُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ٦٤﴾ [العنكبوت: 64]. وعِلَّةُ تقديم اللَّهو في سورة الأعراف؛ لأنَّ ذلك يكون يومَ القيامة، فذُكِرَ على ترتيب ما انقَضَى، وبدأ بما به الإنسانُ انتهى من الحالين. وأمّا في سورة العنكبوت؛ فلأنَّ زمانَ الشَّباب الذي يكون فيه اللَّهو أكثرُ من زمانِ الصِّبا الذي يكون فيه اللَّعب. وإنَّما ذكر ذلك هنا لأنَّ المرادَ زمانُ الدُّنيا، وأنه سريعُ الانقضاء قليلُ البقاء.

وقدَّم اللَّعبَ على اللَّهو في مواضعَ أربعة، هي: الأنعام في الآيتين: ﴿وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا لَعِبٞ وَلَهۡوٞۖ وَلَلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ٣٢﴾ [الأنعام: 32]، وقوله تعالى: ﴿وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمۡ لَعِبٗا وَلَهۡوٗا وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۚ﴾ [الأنعام: 70]، وفي سورة محمد ﷺ في آيةٍ واحدة: ﴿إِنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞۚ وَإِن تُؤۡمِنُواْ وَتَتَّقُواْ يُؤۡتِكُمۡ أُجُورَكُمۡ وَلَا يَسۡـَٔلۡكُمۡ أَمۡوَٰلَكُمۡ ٣٦﴾ [محمد: 36]، وفي سورة الحديد في آيةٍ واحدةٍ كذلك، وهي قوله تعالى: ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞ وَزِينَةٞ وَتَفَاخُرُۢ بَيۡنَكُمۡ وَتَكَاثُرٞ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِۖ كَمَثَلِ غَيۡثٍ أَعۡجَبَ ٱلۡكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمٗاۖ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٞ شَدِيدٞ وَمَغۡفِرَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٞۚ وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ ٢٠﴾ [الحديد: 20].

وعِلَّةُ تقديم اللَّعب على اللَّهو بأنَّ اللَّعب يكون زمنَ الصِّبا، واللَّهوَ يكون زمنَ الشَّباب؛ وزمانُ الصِّبا متقدِّمٌ على زمانِ اللَّهو[1].

(1) الزركشي، البرهان في علوم القرآن: 1/121.

تَوْجِيهُ المُتَشابِهِ اللَّفْظِيِّ:

قالَ اللهُ سُبحانَهُ: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰهُمۡ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوۡمِهِمۡ هَٰذَا وَمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ﴾، وقال ﷻ: ﴿كَذَٰلِكَ يُؤۡفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ﴾ [غافر: 63]، ووجهُ المغايَرَةِ بينَهُما: أنَّ آيةَ الأعرافِ ورَدَ فيها قولُهُ تعالى: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰهُمۡ﴾، فلمّا كان التَّعبيرُ بنون العظمَةِ؛ ناسبَهُ إضافَةُ الآياتِ إلى ضمير (نا) الدّالَّةِ على العظَمَةِ في قولِهِ: ﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾، بخلاف آيةِ غافرٍ فقد صُدِّرت بقولِهِ ﷻ: ﴿كَذَٰلِكَ يُؤۡفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُواْ﴾، فلمّا كان مِن إفْكِ هؤلاءِ إشْراكُهُم باللهِ تعالى وعدَمُ توحيدِهِم لَهُ؛ ناسبَهُ إضافةُ الآياتِ إلى الاسم الأحسَن (اللهِ) بقولِهِ تعالى: ﴿بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾.

دِقَّةُ النَّظْمِ القُرْآنِيِّ فِي اخْتِيارِ الأَلْفاظِ المُلائِمَةِ لِسِياقاتِها

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

اللَّهْوُ واللَّعِبُ:

اللَّهْوُ واللَّعِبُ متقاربانِ، حتَّى فسَّر بعضُ أهلِ العربيَّةِ أحدَ اللَّفظَين بالآخَرِ، كما فعلَ ابنُ الأثير؛ إذ قالَ: "اللَّهْوُ: اللَّعِبُ، يُقالُ: لَهَوْتُ بِالشَّيْءِ أَلْهو لَهْوًا، وتَلَهَّيْتُ به؛ إذا لعبتُ به، وتشاغلتُ، وغفلتُ به عَنْ غَيْرِهِ"[1]، وقد يَكونُ قصْدُهُ التَّقريبَ، كما هو طريقةُ كثيرٍ مِن أصْحابِ المُعْجَماتِ في جُملةٍ مِنَ الألفاظِ الّتي يُريدونَ بيانَ حقيقَتِها.

والتَّحقيقُ أنَّ بينَهُما فرْقًا، وقدِ اختلَفَ أهلُ العِلْمِ في محلِّ الفَرْقِ بينَهما: فاختار أبو السُّعود أنَّ اللَّهْوَ صرفُ الهمِّ إلى ما لا يَحْسُن أن يُصْرفَ إلَيْهِ، بخلاف اللَّعِبِ؛ فإنَّهُ طلبُ الفرحِ بما لا يَحْسُنُ أن يُطْلَبَ[2].

والأصَحُّ أنَّ بينَهُما عمومًا وخصوصًا وجهيًّا؛ وذلك أنَّ حقيقةَ اللَّعِبِ: عملٌ أو قولٌ ليسَتْ لَهُ غايةٌ مفيدَةٌ، وإنَّما غايتُهُ إراحَةُ البالِ،

لِلَّعِبِ واللَّهْوِ دَلالاتٌ واسِعةٌ، يَتَّصِفُ بها الظَّالِمون، ولها عمومٌ وخُصوصٌ

(1) ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث والأثر: (لها).
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/231.

وتقصيرُ الوقْتِ، واستجلابُ العقولِ في حالِ ضَعفِها، كَما هو أكثَرُ عملِ الصِّبيانِ، بخلاف اللَّهْوِ؛ فإنَّه ما يشْتَغِلُ به الإنسانُ ممّا تميلُ إليه النَّفسُ وترتاحُ، ولا يتعَبُ عَقْلُهُ في الاشتغالِ به، فلا يُطْلَقُ اللَّهْوُ إلّا على ما فيه لذَّةٌ واسْتِمْتاعٌ وملاءَمَةٌ للشَّهْوَةِ.

فيجتَمِعُ اللَّهْوُ واللَّعِبُ في العمَلِ الذي فيه مُلاءَمةٌ، وينفَرِدُ اللَّعِبُ في نحوِ لعبِ الصِّبيانِ، وينفردُ اللَّهْوُ في نَحْوِ الميسِرِ والصَّيْدِ[1].

الغُرُورُ والخِداع:

غـرّتِ الظّالمَ شَهواتُه، فصار لـهـا عـبـدًا، وخَدعتْهُ الدّنيا، فضَيّعَ بها قصْدًا

الغُرورُ: فعلٌ تظهَرُ فيهِ غَفْلَةُ المغرورِ وقِلَّةُ فِطْنَتِهِ؛ لأنَّه سكونُ النَّفسِ إلى ما يوافق الهَوَى ويميلُ إلَيْهِ الطَّبْعُ، بخلافِ الخِداعِ: فإنَّه يعْتَمِدُ على براعَةِ الخادِعِ.

فبينَ الغُرورِ والخداعِ تقارُبٌ دِلاليٌّ؛ فهُما يَشْتَرِكانِ في معنًى عامٍّ؛ وهو الإيقاعُ في الشَّرِّ، ويختصُّ كلٌّ منهما بمَعْنًى: فالخداعُ: يعْتَمِدُ على براعَةِ الخادِعِ، والغرورُ: يعتَمِدُ على غفلةِ المغرورِ وقلَّةِ فِطْنَتِهِ[2].

الجُحُودُ والإنْكارُ:

الظّالمُ تخطّى إنكارَ آياتِ الله إلى الجُحودِ بها، مع أنّه مدرِكٌ صِدْقَها

الجُحودُ والإنْكارُ يَرِدان مُصاحبَيْنِ للكُفْرِ، ويفْتَرِقانِ مِنْ ثلاثَةِ أوجُهٍ[3]:

أحدها: أنَّ ضدَّ الجحودِ: الاعترافُ، وضدَّ الإنكارِ: الإقرارُ.

ثانيها: أنَّ الجحودَ يكون معَ معرفةِ القَلْبِ بصحَّةِ ما يجْحَدُهُ، لكنَّ الجاحِدَ لا يقرُّهُ بلسانِهِ، وممّا يدلُّ على أنَّ الجحودَ إنكارٌ معَ عِلْمِ قولُ اللّه سُبحانَهُ: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّاۚ﴾ [النّمل: 14]، وأمّا الإنكارُ؛ فأعَمُّ مِنَ الجحودِ، والغالبُ أن يكونَ بسبَبِ جَهْلِ صاحبِهِ بما أنْكَرَهُ.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/193.
(2) محمّد محمد داود، معجم الفروق الدلالية في القرآن الكريم، ص: 235 - 236.
(3) محمد الدّوري، دقائق الفروق اللغوية، ص: 219 - 220.

ثالثُها: أنَّ الجحودَ يكونُ في إنكارِ الأمر الظّاهرِ؛ لسَبْقِ المعرفَةِ بهِ، ولذا يُستعمَلُ في القرآنِ الكريم لتكذيبِ آياتِ اللهِ سُبحانَهُ؛ إشعارًا بأنَّ آياتِهِ ﷻ مِنَ الوُضوحِ والظُّهورِ بحيث يُدْرِكُ كُلُّ أحدٍ صِدْقَها، كما في قَوْلِهِ تعالى: ﴿وَمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ﴾، وأمّا الإنكارُ؛ فيكون لِما خَفيَتْ حِكْمَتُهُ على المَرْءِ، ولذا لَمْ يُستعمَلِ الإنكارُ مع الآياتِ في القُرْآنِ الكَريمِ إلّا مَعَ ضَرْبٍ مِنْ ضُروبِ التَّخصيصِ، كما في قولِ اللهِ سُبحانَهُ: ﴿وَيُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ فَأَيَّ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ﴾ [غافر: 81].

﴿وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝٥٢﴾ [الأعراف: 52]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

كتابُ الله هدايةٌ لمن رام النَّجاة، ورحمةٌ لمن حرص على الفوز

في الآيةِ مُناسبتان؛ الأولى: عامَّة مع السّياقِ السّابقِ، والأُخرى: خاصّة مع الآيةِ السّابقةِ وحدَها. أمّا المناسبةُ العامَّة: فلَمّا بيَّنتِ الآياتُ السّابقةُ أحوالَ أهلِ الجَنَّةِ وأهلِ النّارِ وأهلِ الأعرافِ، وبيَّنت ما كان بينهم مِن محاوراتٍ وشَرَحِ الكَلِمات الدّائِرَة بَينَهم على وجهٍ يَصيرُ سَماعُ تِلكَ المناظَراتِ حامِلًا لِلمُكَلَّفِ على الحَذَرِ والاحترازِ، وداعيًا له إلى النَّظَر والاستدلالِ، جاءت هذه الآيةُ آخذةً مَوقِعًا في الإبانةِ عن واقعِ القرآنِ، وأنَّه كتابٌ مُفصَّلٌ على علمِ اللّهِ، هدايةٌ لمَن رامَ النَّجاةَ، ورحمةٌ لمَن حَرِصَ على الفوز، وهو في المقابلِ عذابٌ أليمٌ لمَن تركَهُ خلفَ ظهرِه مهجورًا. وأمّا المناسبةُ الخاصَّةُ: فلمّا ذَكَرَ في الآية السّابقةِ جحودَهم بآياتِ اللّه تعالى: ﴿فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُوا۟ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا وَمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ۝٥١﴾ [الأعراف: 51] ذكرَ في هذه الآيةِ وصفَ الآياتِ الّتي جحدَها أولئك، زيادةً في التَّرهيبِ والوعيدِ.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿بِكِتَٰبٍ﴾: مِنَ الجذر (كتب)، وهو أصل صحيح واحد يدلُّ على جمع شيء إلى شيء، ومِن ذلك الكتاب والكتابة، والكتابُ: مصدرٌ كالكَتْبِ، وأصلُه: جمعُ شيءٍ إلى شيءٍ، وتُعورِفَ في ضَمّ الحروفِ بعضِها إلى بعضٍ بالخطّ، وقد يُقال ذلك للمَضمومِ بعضِها إلى بعضٍ باللّفظ، فالأصلُ في الكِتابَةِ النّظمُ بالخطّ، لكنْ يُستعارُ كلٌّ واحدٍ للآخر، ولهذا سُمّي كلامُ اللّه كِتابًا، وإنْ لم يُكتَب[1].

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (كتب).

2) ﴿فَصَّلۡنَٰهُ﴾: مِنَ الجذر (فصل)، وهو أصل صحيح يدلُّ على تمييز الشَّيء مِنَ الشَّيء وإبانته عنه، وأصلُ التّفصيلِ: مِنَ الفصْل، وهو: قطعُ الشَّيء وإبانَتُه، وتفريقُهُ عمّا سواه؛ ليتميّزَ ويستقلَّ ويَبينَ مِن غيرِه[1]. وتفصيلُ الكتابِ: جَعلُ حقائقِه ومسائلِه المرادِ بيانُها مفصولًا بعضُها مِن بعضٍ بحيثُ لا تَشتَبِه[2].

❁ المعنى الإجْماليُّ:

أقام الله الحُجّة على خَلْقه بإنزال الكتاب مفصَّلًا، وهاديًا لأهل الإيمان ورحمة لهم

بيَّنتِ الآيةُ العدلَ الإلهيَّ والرَّحمة الرَّبّانيَّة، بإقامة الحُجَّةِ على الخَلْقِ، بأنْ جاءَهم بكتابٍ مُفصَّلٍ على عَلْمٍ مِن لدنّا بما بيَّناه، وعِلْمٍ عظيمٍ كائنٍ فيه، ومُشتمِلٍ عليه؛ لأجلِ أن يكونَ هاديًا لهم ومُرشدًا ودليلًا للحقّ، وسببًا في رحمتِهم إنْ هم صدّقوه، وعمِلوا بما فيه، وكانوا قومًا مؤمنين.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

معنى الواو في قوله: ﴿وَلَقَدۡ﴾:

الاستئنافُ النَّحويُّ وعطفُ القصَّةِ على القصَّة متقارِبان في الدّلالةِ

تَحتمِل الواوُ في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ جِئۡنَٰهُم بِكِتَٰبٖ﴾ أن تكون استئنافًا نحويًّا، أو عطفًا، أمّا الاستئناف النَّحويّ: فباعتبارِ أنَّ الكلامَ قد تمَّ عند: ﴿يَجۡحَدُونَ﴾ في قولِه: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰهُمۡ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوۡمِهِمۡ هَٰذَا وَمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ ٥١﴾ [الأعراف: 51]، وأمّا العطفُ: فهو مِن بابِ عطفِ القصَّةِ على القصَّةِ، فالجملةُ معطوفةٌ على جُملَةِ: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ﴾ [الأعراف: 50]، فهو كَلامٌ أنِفٌ انتُقِلَ به مِن غَرَضِ الخبَرِ عَن حالِ المُشرِكينَ في الآخِرَةِ، إلى غَرَضِ وصفِ أحوالِهم في الدُّنيا، المُستَوجِبينَ بها لِما سَيُلاقونَهُ في الآخِرَة، وليس هو مِنَ الكَلامِ الَّذي عَقَّبَ اللّه به

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (فصل).
(2) رشيد رضا، تفسير المنار: 8/393.

كَلامَ أصحابِ الجَنَّةِ في قَولِهِ: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰهُمۡ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوۡمِهِمۡ هَٰذَا﴾ [الأعراف: 51][1].

ومعنى الاستئنافِ والعطفِ متقاربٌ، حيث إنَّ عطفَ القصَّةِ على القصَّةِ فيه معنى الاستئنافِ؛ لأنَّه يَشْرعُ في معنًى جديدٍ كُلّيٍّ، على معنًى كلّيٍّ سابق.

بلاغةُ القَسَمِ في إقامةِ الحُجَجِ:

تأكيدُ البلاغِ المبينِ دافعٌ لشُبهةِ تقصيرِ سيِّدِ المُرسلين

جاءَ التّعبير بجملةِ القَسَم في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ جِئۡنَٰهُم﴾؛ لتأكيدِ استحقاقِ المشركين ما حصل لهم مِن سوءِ العاقبةِ، ودَفْعِ توهُّمِ التّقصيرِ في بلاغِهم وحِجاجِهم؛ ففيه دَفعُ شُبهةِ أنَّ النَّبيَّ ﷺ قصَّر في التَّبليغِ، وإيصالِ الرِّسالةِ على وجهِها للعالَمين، وفي القَسَم: تأكيدٌ بأنَّ التّعذيبَ ليس مُرادًا ابتداءً مِنَ اللّه بخَلْقه، بل ما كان للّه أن يُبادِئَ أحدًا بالعقوبة، إلّا إذا استوفى مِن نفسه خُسرانَها، فسَوقُ الكلامِ بأسلوبِ القَسَمِ دليلٌ على أنّ الرَّحمةَ أصلٌ سابقٌ على الغضبِ.

تعيينُ مَرجِعِ الضّمير في قوله تعالى: ﴿جِئۡنَٰهُم﴾:

يُحتمَلُ عَوْدُ الضّمير على الأُممِ السَّابقةِ عامّةً، أو على المعاصرين خاصَّةً

يرجع الضَّميرُ في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ جِئۡنَٰهُم﴾ على الكفرةِ عامَّةً، والمرادُ بالكتابِ الجنسُ، أو على المشركين المُعاصرين للرَّسولِ ﷺ، والمرادُ بالكتابِ القرآنُ[2].

والمعنيان مُعتبران، إلّا أنَّ اطِّرادَ الكلامِ على صيغة الغيبة، فلم يقُل: (ولقد جئناكُم)، وتأكيده بالقَسَم يُرشِّح أن يكونَ الكلامُ عنِ الأممِ الفائتةِ الغائبةِ، لا عن أُمَّةٍ حاضرةٍ، يَغلبُ أن يكونَ الكلامُ عنها بالخطاب دونَ الغَيْبة، فضلًا على أنّ المذكورَ القريبَ هم كافرو الأممِ الماضيةِ مِنَ الأوَّلينَ والآخِرينَ، وعَودُ الضَّمير على مذكورٍ صريحٍ أولى مِن عَوْدِه على معهودٍ مُقدَّرٍ.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/151.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/231.

معنى الباء في قولِه: ﴿بِكِتَٰبٍ﴾:

الباءُ في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ﴾ للتَّعدية، كأنّه قيل: (ولقد أجَأناهم كتابًا)، فالكتابُ الّذي دخلَت عليه الباءُ هو مفعولٌ به في المعنى، والنُّحاةُ يُعبِّرون عن ذلك بأنّ الباءَ للتَّعدية، بمعنى: أنَّنا لو أزلناها لَتَعدَّى الفعلُ بالهمزة، وصار المجرورُ منصوبًا، فلمّا دخلتِ الباءُ تعدَّى الفعلُ بها، كقوله تعالى: ﴿ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ [البقرة: 17]، وأفادَ دخولُ الباءِ بيانَ تمكُّنِ المجيءِ، في إقامةِ الحُجَّةِ عليهم، بأداةٍ لا تقبل الشَّكَّ، وهي الكِتاب.

الباءُ للتَّعديةِ، ونكتتُها: بيانُ تمكُّنِ المجيءِ في إقامةِ الحُجَّةِ

دلالةُ لفظِ (كِتاب) بينَ العُمومِ والخصوصِ:

يَحمِل المفسِّرون معنى الكتابِ في قوله تعالى: ﴿بِكِتَٰبٍ﴾، إمّا على جنسِ الكُتبِ الّتي جاءت بها الرُّسُلُ أقوامَهم، وإمّا على القرآنِ خاصَّةً، وكلا المعنيينِ صحيحٌ، فحَمْلُه على الجنس شاملٌ لجميعِ الكُتبِ، ومنها: القرآنُ الكريمُ، لكنَّ القرآنَ يدخلُ في الآيةِ دخولًا أوّليًّا، فهو المقصودُ فيما يتعلّقُ بالمُخاطَبين، إذ إقامةُ الحجَّةِ تتَّجهُ إلى المعاصِرين بصورةٍ مباشرةٍ، وحَمْلُه على الجنسِ لبيانِ عدالةِ اللّهِ تعالى في إرسالِ الرُّسلِ إلى جميعِ الخَلْقِ، وإقامةِ الحجَّةِ عليهم.

لفظُ الكِتاب يُرادُ به جنسُ الكُتُبِ، ويدخل القرآنُ دخولًا أوّليًّا

سرُّ التَّعبيرِ بمفردة: (كتاب):

عَبَّرَ بالكتابِ ليَشملَ جميعَ الكُتبِ، فلو قال: (بقرآنٍ) لاقتصرَ على القرآنِ، ولبيانِ توثيقِ ما جاءَ في جميعِ الكُتبِ، فهي مكتوبةٌ مُدَوَّنةٌ محفوظةٌ، انتهى حفظُها إلى القرآنِ الكريم، فهو الكِتابُ النّاسخُ المهيمنُ على بقيَّة الكُتب، ولا كتابَ يقبلُه اللّهُ بعدَ نزولِه سواه.

القرآنُ الكريم كتابٌ ناسِخٌ، مُهيمنٌ على بقيّة الكتبِ

غَرَضُ تنكيرِ لفظِ (كتاب) في قوله: ﴿بِكِتَٰبٍ﴾:

نُكِّرَ لفظُ (كِتابٍ) لقصدِ الإجلالِ والتّعظيم، وإشارةً إلى فخامته، وإلى أنّه كتابٌ لا يتسامى إلى مثله كتابٌ[1]، ولإرادةِ كمالِ

تعظيمُ الكتابِ وإجلالُه، فهو ليسَ كبقيَّةِ الكُتبِ

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 6/2857.

النَّوعِ؛ على القولِ بأنَّه القرآنُ خاصَّةً؛ أي: هو نوعٌ ضمنَ الكُتبِ الّتي أُنزِلَت مِن قبلُ، وفَرْدٌ مِن أفرادها[1]، ولإفادة الشّمول في أصله؛ باعتبار إرادةِ الجنسِ في معنى الكِتابِ، أو باعتبار شُيوعه في الأمم؛ أي: كتابٌ حاصلٌ في كلّ أُمَّة، بشيوع الوحي فيها جميعًا، وعدم اقتصاره على طَرَف منها.

فوائدُ نعتِ لفظِ ﴿بِكِتَٰبٍ﴾ بالجملة الفعليّة: ﴿فَصَّلۡنَٰهُ﴾:

تفصيلُ الكتابِ جاء ليشملَ الواقعَ والمستقبلَ

جاءَ الكتابُ في قوله تعالى: ﴿بِكِتَٰبٖ فَصَّلۡنَٰهُ عَلَىٰ عِلۡمٖ﴾ منعوتًا بالفعل دونَ الاسم والمصدر، فلم يقُل: (جئناهم بكتاب مُفصَّلٍ، أو فصْلٍ)؛ لفوائد:

الأولى: دَفْعُ توهُّم أنَّ التَّفصيلَ مقصورٌ على الكِتابِ، دون ملاحظةٍ لـمَنْ فُصِّل لأجلِه الكِتابُ، فجاء التّعبيرُ بالفعل؛ لإفادة أنَّ الكِتابَ مُفصَّلٌ في ذاته، ومُفصَّلٌ لأجل مَن نزل فيهم، وأنَّهم كانوا همُ المقصودينَ مِن تفصيل الكِتاب خطابًا، وتكليفًا، وهِدايةً.

الثّانية: الإشارةُ إلى حركة تبليغِ الرُّسلِ، وأنَّه كلَّما تجدَّد للأقوام مِنَ الرّسل البلاغُ، اتَّسعَ لهم في تفصيل الكتابِ جديدٌ لم يكن معهودًا لهم مِن قبل، فكلَّما أحدث الرَّسولُ بلاغًا كان هذا بمثابة تجدُّدِ التَّفصيل واستزادةٍ فيه.

الثّالثة: الإشارةُ إلى أمرٍ غيبيٍّ، وهو أنَّ الكتابَ فيه تفصيلُ كلِّ شيءٍ إلى قيام السّاعة، فكلُّ مستجدّات الحياةِ تفصيلُها في القرآن الكريم.

فائدةُ تقييدِ جملةِ: ﴿فَصَّلۡنَٰهُ﴾ بالجارِّ والمجرور: ﴿عَلَىٰ عِلۡمٖ﴾:

الكِتابُ أصلُه العِلْم، وهو قائمٌ على الحقِّ، لا يتطرّقُ إليه الشَّكُّ

قُيِّدَت جملةُ: ﴿فَصَّلۡنَٰهُ﴾ بالجارّ والمجرور: ﴿عَلَىٰ عِلۡمٖ﴾؛ لبيانِ موقعِ الكِتابِ مِنَ اليقين والحقِّ، فهو قائمٌ بالحقِّ، مُرتكِزٌ على العِلْم، فالعِلْمُ هو قاعدةُ الكِتابِ الّتي يرتكزُ عليها، وينطلقُ منها؛ فكأنَّ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/152.

الكِتابَ مُسْتعلٍ عليه استعلاءَ البُنيانِ على قواعده، فلا انفكاكَ لأحدهما عنِ الآخَر، ويُرشِّحه حَملُ حرفِ (على) على الاستعلاء المجازيِّ. وفيه تعريضٌ بالكافرين وتشنيعٌ عليهم، بأنَّ كُفرَهم لم يَصدر عن عِلْمٍ، ولا عن حقٍّ ويقينٍ، بل كانوا ما بين اتِّباعِ الظَّنِّ والهوى، والافتراءِ على اللّه الكذبَ، وتحريفِ الكَلِم عن مَواضِعه في كُتبهم، وأنَّ كلَّ كتابٍ لم يَقُمْ على حقيقةِ العِلْمِ فهو أجدرُ أن يُطرَحَ، ولا يُكْترَث له، ولا سيَّما ما لَحِقَه التَّحريفُ. وفيه حضٌّ للمؤمنين أن يستمسكوا بمسلكِ العِلْمِ واليقين، وألّا يتَّبعوا مَسالكَ الظُّنونِ والتَّقليدِ أيًّا كان أهلُها ورُعاتُها.

سرُّ استعمالِ حرفِ الاستعلاءِ في قوله: ﴿فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾:

الكِتابُ قائمٌ على العِلْمِ أصالةً، مشتملٌ عليه تبعًا

حرفُ الاستعلاءِ ﴿عَلَىٰ﴾: إمّا أن يُحمَلَ على الاستعلاءِ المجازيِّ، فهو يدلُّ على التَّمكُّن مِن مجروره، ومعنى هذا التَّمكُّنِ: أنَّ عِلْمَ اللّهِ تعالى ذاتيٌّ لا يَعْزُب عنه شيءٌ مِنَ المعلومات[1]، فهو العِلْمُ الإلهيُّ الثّابتُ الكاملُ، المُنزَّهُ عنِ الخطأ والنَّقص، ويكون ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ حالًا مِنَ الفاعل؛ أي: فصَّلْناه عالِمين بتفصيلِه[2].

وإمّا أن يُحمَلَ حرفُ الاستعلاءِ على التّعليل؛ أي: لأجل العِلْم، ويُفيدُ قصدَ تعليمِهم وإعلامِهم، فالعِلْمُ مُتعلِّقٌ بالمُخاطَبين؛ أي: العِلْم الّذي يهديهم به اللّهُ ويرحمُهم، وهو عِلْمُ اليقينِ والحقِّ، ويكون: ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ حالًا منَ المفعول؛ أي: فصَّلْناه مُشتمِلًا على عِلْم[3].

وحَمْلُ حرفِ الاستعلاء على أصلِه في الاستعلاءِ هو الأوْلى بالمقام، ومعنى التَّعليل يدخل تَبَعًا، فإنَّ الكتابَ الّذي قام على

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/152.
(2) السّمين الحلبي، الدّرّ المصون: 5/336.
(3) السّمين الحلبي، الدّرّ المصون: 5/336.

علمِ اللّهِ تعالى، قد اشتملَ يقينًا على العِلْم الّذي يُفيدُ الخَلْقَ، فالمعنيان مُتعانقان.

دلالةُ تنكيرِ لفظِ: ﴿عِلْمٍ﴾:

تعظيمُ العِلْم، يُفيد التَّحضيضَ عليه، والاستنهاضَ إليه

أفادَ تنكيرُ لفظِ ﴿عِلْمٍ﴾ التَّعظيمَ، وكمالَ الجنسِ، وتمامَ الإتقانِ واليقين؛ أي: عالِمين أعظمَ العِلْم، على أكمل وجهٍ بذلك، حتّى جاء حكيمًا مُتْقَنًا، والعَظَمةُ هنا راجعةٌ إلى كمالِ الجنسِ في حقيقته، وأعظمُ العِلْم وأكملُه: هو العِلْم الّذي لا يَحتمِلُ الخطأ ولا الخفاءَ، وهو العِلْم الذّاتيُّ الإلهيُّ، الّذي لا يتخلَّفُ ولا يَخْتلفُ في ذاته، فلا يَحتمِلُ الخطأ ولا التَّردُّدَ[1].

نكتةُ تقييدِ الكتابِ بالحالِ بصيغةِ المصدرِ: ﴿هُدًى وَرَحْمَةً﴾:

التَّعبيرُ بالمصدرِ؛ للمبالغةِ في بيانِ ثباتِ هدايةِ الكتابِ ورحمتِه بالعباد

جاء تقييدُ الكتابِ بقوله: ﴿هُدًى وَرَحْمَةً﴾ حالًا بصيغة المصدر؛ مبالغةً في تثبيتِ عاقبةِ اتِّباعِ الكِتابِ، وتنبيهًا على "قوَّةِ هَدْيِه للنّاسِ، وجَلْبِ الرَّحْمةِ لهم"[2]، ويُؤوَّل بالوصف، أو التّقدير بالإضافة؛ "أي: جعلنا الكِتابَ هاديًا وذا رحمة"[3].

دلالةُ عطفِ الرَّحمة على الهُدى:

تلازمُ الهدى والرَّحمة، فيه اختزالُ معاني البلاغِ والاستجابةِ والعاقبةِ

اطِّرادُ مجيءِ الرَّحمةِ بعدَ الهُدى، كاطِّرادِ ترتيبِ النَّتيجةِ على المُقدِّمَة، وحدوثِ العاقبةِ بعد العملِ، فالهُدى: أصلُ الرَّحمة، وهي ثمرتُه، وفيه مراعاةٌ لرُتَبِ المقاماتِ، والتماسِ العواقبِ بعد تحقيقِ أسبابِها؛ أي: تحقَّقوا بالهُدى تجدوا الرَّحمةَ تاليةً له، حاضرةً بعدَه، وفيه مِنَ البُشْرى والاستنهاض ما فيه؛ لأنَّ اقترانَ المكافأةِ بالتَّكليف حافزٌ على القيامِ به، والنَّشاطِ له، والقيدُ بالحال هدًى ورحمةٌ معًا؛ لاشتمالهما على معاني البلاغِ والاستجابةِ والعاقبةِ.

(1) الآلوسّي، روح المعاني: 4/366، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/153.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/153.
(3) البغويّ، معالم التّنزيل: 3/235.

أغراضُ توجيهِ المخصوصِ بالذِّكر في قوله تعالى: ﴿لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾:

التَّخصيصُ بالذِّكر اجتمع فيه: المناسبةُ، والمقابلةُ، والاختصاصُ، ودَفْعُ الإيهام

خصَّصتِ الآيةُ صِفةَ الإيمان في وصْفِ القومِ، وذلك لمجموعةٍ مِنَ الفوائد:

الأولى: غرضُ المناسبة، والرَّبطُ بأوَّلِ السّورةِ، فالآيةُ "مردودةٌ على قوله: ﴿كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ مِّنۡهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ٢﴾ [الأعراف: 2]"[1].

الثّانية: غرضُ المقابلة؛ لأنَّ السياقَ موصولٌ بذِكْرِ الكافرين قبلَه، في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ٥٠﴾ [الأعراف: 50]، فالكافرون اتَّخذوا دينَهم لهْوًا ولَعِبًا، والمؤمنون اتّخذوه هدايةً ورحمةً.

الثّالثة: غرضُ الاختصاص؛ فإنَّ الرَّحمةَ المذكورةَ في قوله: ﴿هُدٗى وَرَحۡمَةٗ﴾ لا تقعُ إلّا لـمَن تلقَّى الكِتابَ والوحيَ بإيمانٍ وإذعانٍ.

الرّابعة: غرضُ التّفريقِ بينَ هدايةِ التّوفيقِ، وهدايةِ الإرشادِ، ودَفْعِ الإيهامِ؛ ولذلك لم يوصفِ الكِتابُ بأنَّه هُدًى للكفّار؛ لئلّا يُتَوهَّم أنَّهمُ اهتَدَوا بالفعل، وإن كان هو هدًى لهم بقوَّة الدَّليلِ والبيانِ فقط، فكذلكَ هاهنا اختُّص المؤمنون بالذِّكر؛ ليَدُلَّ على هدايتهم بالفعلِ والقوَّةِ معًا، بالدَّليلِ، والتَّحقيقِ، والبيانِ، والتَّصديقِ.

نكتةُ التَّعبيرِ بصيغةِ المضارعِ في قوله تعالى: ﴿لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾:

الإيمانُ المبنيُّ على عِلْمٍ مُتَجدِّدٌ في القلوب، مُتَّقِدٌ في الأفئدة

عبَّرتِ الآيةُ بصيغة المضارعِ في قوله تعالى: ﴿لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ للدَّلالة على أنَّ الإيمانَ يتجدَّدُ بتجدُّدِ تَعَلُّمِ الكِتابِ، وطَلَبِ المزيدِ منه، وأنَّ هناك علاقةً قائمةً بينَ الإيمان والعِلْم، فالعِلْمُ هو وقودُ الإيمان، وهو مَنبَعُ اتِّقادِه، فالإيمانُ مُتجدِّدٌ في القلوب، يزيدُ بعدَ نقصٍ، ويقوَى بعدَ ضَعْفٍ، فالتَّعبير بالفعليَّة بصيغة المضارع معناه: أنَّه يَحْدُثُ مَرَّةً بعد مَرَّة.

(1) ابن جرير، جامع البيان: 10/240.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(التَّفصيل) و(التَّبيينُ):

التَّفصيلُ هو غايةُ التَّبيين، فلا يمكن التَّفصيل مِن غيرِ بيان، ولكن يمكنُ العكسُ

التَّفصيلُ: هو التَّمييزُ بين شيئين، بحيث تُقيم فاصلًا بينهما، فلا يتداخلان أو يتمازجان. والبيانُ: هو كَشْفُ الشَّيء، وتجليَتُه، وإيضاحُه باستقلالٍ، مِن غير اشتراطِ وقوعِه مُقارَنًا بغيره، أو استصحابِ غيرِه معَه، ولذلك؛ فالتَّفصيلُ: بيانٌ زوجيٌّ أو جَمعيٌّ لمُتَعدِّدٍ، والتَّبيينُ: بيانٌ فرديٌّ لا يَلْزم فيه استحضارُ معنى الثُّنائيَّة أو التَّعدُّديَّة. والتَّفصيلُ: هو الانتقالُ بينَ الفصولِ والمُقابَلاتِ، ولذلك عُبِّرَ بالتَّفصيل في الآية بعدَ أن ذَكَرَ الفصولَ المتقابلةَ بينَ أصحابِ الجَنَّةِ وأصحابِ النّارِ، ومصيرَ كُلٍّ، والتَّبيينُ: هو مُطلَقُ الإيضاحِ.

وعليه: فالتَّفصيلُ أعمُّ مِنَ البيان، فهو بيانٌ مَزيدٌ؛ بتحريرِ وإقالةِ المُبَيَّنات بعضِها عن بعض، بحيث لا يُحتَمَل معها تداخُلٌ أو التباسٌ، ولا يَقَعُ عليها إيرادٌ أو إشكالٌ، ولا تفتقرُ لاستيفاءٍ واستتمامٍ، والتَّفصيلُ: هو غايةُ التَّبيين، فلا يمكنُ التَّفصيل مِن غير بيان، ولكن يمكنُ التَّبيين مِن غير تفصيل[1].

(جاء) و(أتى):

الفرقُ بين هذين اللَّفظين مِن جِهتين:

الفرق بينَ المجيءِ والإتيانِ مِن جِهَتين: اعتبارُ السُّهولةِ وضِدِّها، واعتبارُ التَّحقُّقِ وخِلافِه

الأولى: باعتبار السُّهولةِ والشِّدَّة: فالإتيانُ: مجيءٌ بسُهولةٍ ويُسرٍ[2]، والمجيءُ: إتيانٌ فيه شِدَّةٌ وعِظَمٌ، كما قال تعالى: ﴿فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ ۖ قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾﴾ [مريم: 27]، ذلك أنَّ الإتيانَ به وحَمْلَه أمرٌ يسيرٌ لا كُلفَةَ فيه حِسًّا ومعنًى، ولكنَّ الإتيانَ بالفاحشة أمرٌ عسيرٌ مُسْتَبْشَعٌ، فاقترنَ بالمجيء؛ ولذلك جاء قولُه

(1) العسكريُّ، الفُروق اللُّغويَّة، ص: 59، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (بين)، والزَّمخشريُّ، أساس البلاغة: 2/25، وابن الجوزيّ، نزهة الأعين، ص: 212، والكفويّ، الكلِّيّات، ص: 230.

(2) الزَّمخشريُّ، أساس البلاغة: 1/20.

تعالى: ﴿أَتَىٰهَآ أَمۡرُنَا لَيۡلًا أَوۡ نَهَارٗا فَجَعَلۡنَٰهَا حَصِيدٗا كَأَن لَّمۡ تَغۡنَ بِٱلۡأَمۡسِۚ﴾ [يونس: 24]، جاءَ بالإتيان، ولم يأتِ بالمجيءِ، مع أنَّه واردٌ في شِدَّةٍ وإهلاكٍ؛ للإخبارِ بأنّه في قدرة اللّه أمرٌ يسيرٌ لا عناءَ فيه، ليتقابلَ مع قوله: ﴿وَظَنَّ أَهۡلُهَآ أَنَّهُمۡ قَٰدِرُونَ عَلَيۡهَآ﴾ [يونس: 24]، فإذا كانوا قادرين عليها بالظَّنِّ، فقُدْرة اللّهِ عليها بالإذهاب والفناء يسيرةٌ بيقينٍ كلَمْحِ البَصرِ، وبقول: ﴿كُن﴾ [البقرة: 117].

الثّانية: باعتبار التَّحقُّقِ وقُرْب التَّحقُّقِ: فالمجيءُ: هو الإتيانُ المُتحقِّقُ التّامُّ، والإتيانُ مجيءُ قريبٍ مُتَوقَّعٍ، أو حصل لكنَّه لم يَتمَّ بعدُ، ولذلك لم يجىءِ المجيءُ في القرآن إلّا بصيغة الماضي، بخلافِ الإتيانِ الّذي توفَّرت عليه الصّيَغُ؛ ﴿تَأۡتِينَآ﴾ [البقرة: 118]، ﴿ٱئۡتُونِي﴾ [يونس: 79]، ﴿فَأۡتِنَا﴾ [الأعراف: 70]، ﴿أَتَىٰٓ﴾ [النحل: 1]، كما قال تعالى: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١﴾ [النّصر: 1]؛ فهو مُتحقِّقٌ حاصِلٌ، وقال: ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ﴾ [النّحل: 1]، فهو وعدٌ مُستقبليٌّ قريبٌ، جرى مَجرَى المُتحقِّق[1].

(1) الهرويّ، الغريبين: 1/41، والرّاغب، المفردات، ص: 60، وابن الجوزيّ، نزهة الأعين، ص: 166، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: 1/361، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (أتو، أتى، جيأ).

﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأۡوِيلَهُۥۚ يَوۡمَ يَأۡتِي تَأۡوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلۡحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشۡفَعُواْ لَنَآ أَوۡ نُرَدُّ فَنَعۡمَلَ غَيۡرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعۡمَلُۚ قَدۡ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ٥٣﴾ [الأعراف: 53]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الكتاب هدًى ورحمةٌ لمن أقبلَ عليه وآمن به، وحرمانٌ وندامةٌ لمن أعرض عنه وكفر به

لمّا ذكَرَ اللّهُ ﷻ أحوالَ الكتابِ، وحالَ مَن يَنتَفِعُ به، أعقَبَ ذلك بتعريضٍ ووعيدٍ لأولئك الّذين لا ينتفعون ولا يؤمنون؛ لِتكونَ الآياتُ جامعةً لوصفِ الكتابِ، ووصفِ مَنْ يتفاعلون معه بالإيمانِ أو بالنِّسيان، ووصفِ مصيرِ كلٍّ، فهو هدى ورحمةٌ لِمَنْ آمَنَ، وحرمانٌ وندامةٌ – بعد فواتِ الأوانِ – على مَن أعرضَ وكَفَر.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تَأۡوِيلَهُۥۚ﴾: مِنَ الجذر (أول)، وهو أصلان: ابتداءُ الأمرِ وانتهاؤه، وكلمة "أوَل" في اللُّغة تدور على معنى الرَّجوع، وآلَ يؤول، أي: رجع، وأوَّل الشَّيءَ إلى أهله، أي: أرْجَعه وردَّه إليهم، أو هو رَدُّ الشَّيء إلى الغاية المُرادة منه، عِلْمًا كان أو فِعلًا، وأوَّلَ الكلامَ وتَأوَّله: دَبَّره وقدَّره وفَسَّره، فالتَّأويل: تفعيل مِن أوَّل يُؤَوِّل تأويلًا، أي: تفسير ما يَؤولُ إليه الشَّيء، أو هو تحقُّقُ المآلِ، ووقوعُ العاقبةِ والمصير، والمرادُ هاهنا: حصولُ الوعيدِ الّذي أخبرَ به الكتابُ في المآلِ والعاقبةِ، فيَرونه رأيَ العينِ[1].

2) ﴿نَسُوهُ﴾: مِنَ الجذر (نسي)، وهو أصلان صحيحان؛ يدلُّ

(1) الأزهريُّ، تهذيب اللُّغة، والجوهري، الصِّحاح، وابن فارس، مقاييس اللُّغة، وابن منظور، لسان العرب: (أول)، والهرويّ، الغريبين: 1/121.

أحدهما: على إغفال الشَّيء، والثّاني: على ترك الشَّيء، والنِّسيان: ضِدُّ الذِّكر والحِفظ، وأصلُه: زوالُ صورةِ الشَّيءِ مِنَ الذّهنِ، زوالًا يَمنع مِن تذكُّرها، فهو يدلُّ على إغفالِ الشَّيءِ وتَركِه، والنِّسيانُ: التَّركُ، وهو إمّا تركُ الشَّيء على ذُهول وغَفْلة، وذلك خِلاف الذِّكر له، وإمّا أن يكون التَّرك على تَعمُّد، ومنه قولُه تعالى: ﴿وَلَا تَنسَوُاْ ٱلۡفَضۡلَ بَيۡنَكُمۡۚ﴾ [البقرة: 237]، وقولُه: ﴿نَسُواْ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمۡۚ﴾ [التوبة: 67]، قال ثعلبُ: "لا يَنْسى اللّهُ ﷻ، إنَّما معناه: تركوا اللّه فتركَهُم، فلمّا كان النِّسيان ضربًا مِنَ التَّرك وضَعَه موضِعَه، والمرادُ هنا: تركوه إعراضًا وجُحودًا، واستعمالُه هاهنا في التّركِ والإعراضِ مَجازٌ"[1].

3) ﴿شُفَعَآءَ﴾: مِنَ الجذر (شفع)، وهو أصل صحيح يدلُّ على المقارنة بين شيئين، أو هو ازدواجٌ بِرِقّة؛ إذ إنَّ الشّافِع ينضمُّ إلى المستَشْفِع طالبًا له أو معه، فارتبط به، كأنَّه أزْوَجه، وشفعاء: جمعُ شفيع، وهو الشّافع، وصاحب الشُّفْعَة والشَّفاعة، وأصلُه: "مِنَ الشَّفْع: وهو ضَمُّ شيءٍ إلى مِثلِه، ومنه الشّفاعةُ؛ لأنّ فيها انضمامَ واحدٍ إلى آخر ناصرًا له، وأكثر ما يُستعمَل في انضمامِ مَن هو أعلى رتبةً إلى مَن هو أدنى"، "والشّفيع: الوسيطُ بين طرفين، أحدهما أملَكُ للآخَر؛ بغرض استخلاصِ المنفعةِ منه، وإيصالِها للطَّرف الآخَر، وشرطُ الشَّفيعِ أن يكونَ وجيهًا"[2].

4) ﴿وَضَلَّ﴾: مِنَ الجذر (ضلل)، وهو يدلُّ على ضياع الشَّيء وذهابه في غير حَقِّه، أو غيابُ شيء في أثناء شيء؛ حتَّى لا تُميّز هذا مِن ذاك، وضَلَّ الشَّيءُ: خَفي وغابَ، أو ضاع وهلك، وضَللتَ الشَّيءَ: إذا أخطأتَه في مكانه فلم تهتدِ إليه، وأضللتَه: غَيَّبتَه، والضَّلال والضَّلالة ضِدُّ الهدى والرَّشاد، وكلُّ جائرٍ عنِ القَصْد ضالٌّ، وأصلُه: الغيابُ والعُدولُ، "ويُقال الضَّلال لكلِّ عُدولٍ عنِ المنهج، عمدًا كان أو سهوًا، يسيرًا كان أو كثيرًا"[3]، والمرادُ هاهنا: غابَ وعَدَلَ عن نُصرَتِهم شُركاؤهُمُ الّذين افتَرَوهُم مِن دون اللّه.

(1) الجوهريّ، الصّحاح، وابن منظور، لسان العرب: (نسا)، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (نسي).
(2) الخليل، العين، والجوهري، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللُّغة، وابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (شفع)، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: 2/278.
(3) الجوهريُّ، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (ضل، ضلل)، والفيروزباديّ، بصائر ذوي التّمييز: 2/382.

❁ المعنى الإجْماليُّ:

الحقيقة تهدّم كلَّ ما أثاره الكافرون مِن أوهام

ابتدأتِ الآيةُ ببيانِ حالِ الكافرين الذين يَنتَظِرون تحقُّقَ عواقبِ ما كفروا به مِنَ القرآنِ ووعيدِه، وحينَئذٍ سيتحسَّرون ويتذلَّلون مُضطرين في استجداءِ الشَّفاعةِ لهم، وحين يُدركون يأسَهم وبؤسَهم سيَلهَجون - قانِطينَ - بأنْ يُرَدّوا إلى الدُّنيا؛ طمعًا منهم في تبديلِ أعمالِهم بأعمالٍ أحسنَ منها، وهنالكَ في هذا الموقفِ، لا مُجيبَ لهم ولا جوابَ يصلُح لأمانيِّهم، إلّا تأكيد مصيرهِم بخسرانِ أنفسِهم، فمَنْ يشفع - إذن - لأنفُسٍ خاسرةٍ كاسدةٍ؟! وكيف يُردُّ إلى العمل مَن خَسِر نفسَه وأفناها بموبقاتِ الشِّركِ والكفر؟! كيف يَعملُ ونفسُه في حُكم العَدَم؟! وليسَتْ أنفسُهم هي الّتي خذلتهم فحَسْب، بل غابَ عن إغاثتهم مَن كانوا يُشْركونهم مع اللّه، ويكفرون به لأجلِهم؛ افتراءً منهم وضلالًا.

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

سرُّ التَّعبير بالاستفهام الدَّالِّ على معنى النّفي:

الاستفهامُ على إرادةِ النَّفي أبلغُ مِن صريحِ النَّفي؛ لأنَّه يجمع معنَيَيْن

معنى الاستفهامِ في قوله تعالى: ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأۡوِيلَهُۥۚ﴾ النَّفيُ، وعَبَّر به دون النَّفي؛ لأنَّ الاستفهامَ فيه زيادةٌ على معنى الخبرِ الحاصلِ بالنَّفي، إذ يتضمَّنُ الاستفهامُ معنى الوعيدِ بما أفاده مِنَ التَّعجيبِ والاستِهْجانِ مِن حالهم، وفي إتيان النَّفي على صورةِ الاستفهامِ، استنطاقٌ لهم إنْ كانوا ينطقون، ولم يجئْ هذا الاستنطاقُ بصيغةِ الخطابِ: (هل تنظرون)؛ إعراضًا عنهم كأنّهم ليسوا أهلًا للخطاب، وجريًا كذلك على أسلوبِ الغيبةِ في: ﴿جِئۡنَٰهُم﴾ قبله.

بلاغةُ الاستعارةِ التَّهكُّميَّةِ في التّعبير بالنَّظر في قولِه: ﴿يَنظُرُونَ﴾:

معنى النَّظر في قوله: ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأۡوِيلَهُۥۚ﴾ الانتظارُ، وآثَره على الانتظار، فلم يقُل: (ينتظرون تأويلَه) وهو المقصود؛ للدِّلالة على

انتفاءِ قَصْدِهم[1]، فليس غرضَهم الانتظارُ، فهم في حُكْم الانتظارِ لا في حقيقته، فإطلاقُ الانتظار هنا استعارةٌ تهكُّميَّةٌ؛ شَبَّه حال تمَهُّلِهم إلى الوقت الذي سيَحِلُّ عليهم فيه ما أوعدَهم به القرآنُ بحال المنتظرين، وهم ليسوا بمنتظرين ذلك، إذ هم جاحدون وقوعَه، وهذا مثل قوله تعالى: ﴿فَهَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأۡتِيَهُم بَغۡتَةٗۖ﴾ [محمد: 18][2]، والتّعبير بـ (نظر) مُشْعِرٌ بأنّ الوعيدَ سيباغِتُ أنظارَهم على حين غفلةٍ منهم، فلو انتظروه حقيقةً لَعَمِلوا له.

الإخبارُ عن منتظرِ الوعيدِ، وهو لا يقصدُه، إخبارٌ عن حُمْقِه وغفلتِه

فوائدُ حذفِ المضافِ في قولِه: ﴿تَأۡوِيلَهُۥۚ﴾:

حُذف المضافِ من قوله: ﴿تَأۡوِيلَهُۥۚ﴾، الواردِ في قوله تعالى: ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأۡوِيلَهُۥۚ﴾، والتَّقدير: إتيانُ تأويلِه، أو عاقبةُ تأويلِه، أو ظهورُ تأويلِه؛ لفوائد عديدة: الأولى: الإيجازُ، فأهمل في الذِّكر ما هو معلومٌ في الفِكر، والثّانية: تسريعُ إسماعِ الوعيدِ لهم، فالتفتَ عنِ الحدث؛ وهو الظُّهورُ والانكشاف، انشغالًا بالحادث؛ وهو التَّأويلُ ذاتُه، إسراعًا بهم لمُلابستِه والدُّخولِ في طَيِّه، وإقصارًا للمسافة بينهم، وبينَ ما ينتظرُهم مِن سوءِ العاقبةِ، والثّالثة: إفادةُ عموم المُتوقَّع؛ فلو ذُكِرَ المضافُ لاختصَّ به، لكن لمّا حُذِف ذهب الفكرُ في ميادين التَّوقُّع.

الإيجازُ اللَّفظيُّ، وتعميمُ التَّوقُّعِ، وتسريعُ إسماعِ الوعيدِ

عِلَّةُ إضمَارِ المُضَافِ إليه في قولِه: ﴿تَأۡوِيلَهُۥۚ﴾:

آثر النَّظمُ إضمارَ ذِكْرِ الكتابِ في قوله: ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأۡوِيلَهُۥۚ﴾، فلم يقُل: (هل ينظرون إلّا تأويلَ الكتاب)؛ استغناءً بالظّاهر السّابق في قوله: ﴿بِكِتَٰبٖ﴾، واكتفاءً بدلالة المضاف على ما يُغني عنِ الذِّكر، فإنَّ لفظَ (تأويل) لا يلتبس معه إرادةُ غيرِ الكتاب، وإيجازًا لمقامِ الوعيدِ الكائنِ في جملة الاستفهامِ

مَن لم يؤمنْ بتأويلِ الكتابِ المسطورِ؛ سيُعذَّبُ بعد أخذِ الكتابِ المنشورِ

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 7/411.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/154.

الإنكاريِّ النّافية، وغَرضُ الإيجازِ الدِّلالةُ على خُلوص الوعيدِ لهم، وقَصْرُه عليهم.

القَصْرُ الإضافيُّ في قوله: ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ﴾:

نوعُ القصرِ في قولِه تعالى: ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأۡوِيلَهُۥۚ﴾ المفهوم مِن ﴿هَلۡ﴾ مع الاستثناء إضافيٌّ؛ أي: بالنِّسبَة إلى غَيرِ ذلك مِن أغراضِ نِسيانِهم وجُحودِهم بالآياتِ[1].

بلاغةُ الاستئنافِ البيانيّ في: ﴿يَوۡمَ يَأۡتِي تَأۡوِيلُهُۥ﴾:

قولُه تعالى: ﴿يَوۡمَ يَأۡتِي تَأۡوِيلُهُۥ﴾، بيانٌ لقوله: ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأۡوِيلَهُۥۚ﴾؛ أي: ذلك التّأويل "الّذي سيظهر يوم القيامة، فالمرادُ باليوم يوم القيامة، بدليل تعلُّقه بقوله: ﴿يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبۡلُ﴾، فإنَّهم لا يعلمون ذلك، ولا يقولونه إلّا يوم القيامة"[2]، وجملةُ: ﴿يَوۡمَ يَأۡتِي﴾ استئنافٌ بيانيٌّ ممّا قبله، واقعٌ جوابًا لسؤالٍ مُقدَّرٍ عنه، كأنّه قيل: "فهل إذا جاءَ هذا اليوم، ووقعَ بهم الوعيدُ الّذي أوعدهمُ اللّهُ به، أينفعُهم إيمانٌ أو يُقبلُ منهم عملٌ؟"[3]؛ فأُجيبَ: ﴿يَوۡمَ يَأۡتِي تَأۡوِيلُهُۥ﴾ "التَّحسُّرُ والإذعانُ حيثُ لا ينفع، والتَّصديقُ والإيمانُ حين لا يُقبَل"[4].

عنصرُ الحوارِ الضِّمنيّ مُؤثِّرٌ في المُخاطَب بما يُوزِّث الاستجابة

سرُّ تقديمِ ﴿يَوۡمَ﴾ على عامله:

قَدَّم اليومَ في قوله: ﴿يَوۡمَ يَأۡتِي تَأۡوِيلُهُۥ﴾، ثمَّ أتبعَه بالعامل فيه وهو: ﴿يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبۡلُ﴾؛ اهتمامًا به[5]، وترهيبًا منه، وهو قولُه تعالى: ﴿يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبۡلُ﴾؛ لأنَّ السّياقَ وعيدٌ، وتمكينًا لاستحضاره وذِكره في النُّفوس، وتخصيصًا له؛ لأنَّ تأويلَ الكتابِ لن

الأزمنةُ ظروفٌ للحوادث، ووِعاءُ الشَّيءِ له حقُّ التَّقديم عليه

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/154.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/154.
(3) الخطيب، التَّفسير القرآنيُّ للقرآن: 4/410.
(4) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 7/411.
(5) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 7/411.

يكونَ إلّا فيه، وهذا غرضٌ معنويٌّ، ولغرضٍ لفظيٍّ أيضًا؛ وهو انتظامُ التَّوازنِ الصَّوتيِّ، وتحقُّقُ خِفَّةِ النُّطقِ والأداءِ في التَّركيب، بعكس ما لو أخَّره؛ فقال: (يقول الّذين نسوه من قبل يوم يأتي تأويلُه)؛ لكان ثِقَلٌ وعدمُ أريحيَّةٍ في النُّطق.

بلاغةُ المجازِ العقليِّ في إسنادِ الإتيانِ إلى التَّأويل في قوله: ﴿يَأۡتِي تَأۡوِيلُهُۥ﴾:

تصويرُ الوعيدِ بزائرِ الشُّؤمِ الذي يأتي الجاحدين بما يسوؤهم

إسنادُ الإتيانِ إلى التَّأويل، إسنادٌ مجازيٌّ، علاقتُه اللُّزوم، فإنَّ المرادَ بإتيانه: انكشافُه وظهورُه ظهورًا دالًّا "على صدقِ القرآنِ، فيما أخبرهم وما توعَّدهم"[1]، وظهورُه المراد لازمٌ عن إتيانه، وفي التَّعبيرِ بالإتيان تصويرٌ للجانب الحسّيِّ المنظورِ مِنَ الوعيد، وأنَّه يَحْضُرهم حضورَ الزّائرِ الآتي، القادمِ بما يَسوء.

بلاغةُ الإظهارِ بالموصولِ في قوله: ﴿يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ﴾:

عنوانُ المشركين يومَ القيامةِ نسيانُ الكتاب

يرجعُ ضميرُ ﴿نَسُوهُ﴾ إلى المقصود بقوله: ﴿يَنظُرُونَ﴾ في ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأۡوِيلَهُۥۚ﴾؛ وهم المشركون، وبناءً على ذلك، كان مُقتَضى الظّاهر أن يُقال: (يوم يأتي تأويله يقولون) أي: (الّذين ينظرون)؛ بدلاً من ﴿يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ﴾ فعُدِلَ عنِ الإضمارِ إلى الإظهار، والتَّعبيرِ بالاسمِ الموصولِ، فقال: ﴿يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ﴾؛ تسجيلًا ونعيًا عليهم بنسيان ما لا يَحْسُنُ نسيانُهُ، وبإهمالِ العملِ به، ولِلِالْفات إلى أنَّ النّاسين همُ المُتكلِّمون بالأعذار والأماني في هذا اليوم لا غيرُهم[2]، وردًّا على قوله تعالى: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰهُمۡ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوۡمِهِمۡ هَٰذَا﴾.

سرُّ التَّعبيرِ بالنِّسيانِ عنِ التَّرك:

توريثُ الحَسرةِ للجاحدين، مِن أساليبِ القرآنِ في وعيدِ الغافلين

عبَّرتِ الآيةُ بمفردةِ النِّسيان في قوله تعالى: ﴿يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبۡلُ﴾، وسرُّ التَّعبيرِ بالنِّسيان؛ لتشبيه تَرْكِهم الكُلّيِّ عن قَصْدٍ،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/155.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/155.

بمَن نَسيَ أمرًا مُهمًّا، فهو استعارةٌ في التَّرك، والاستعارةُ أبلغُ لما فيها مِنَ الحَسْرة والنَّدامة والتَّقريع على النِّسيان، أو أن يكونَ النِّسيانُ كنايةً عنِ التَّركِ؛ لأنَّ التَّركَ لازمٌ مِن لوازم النِّسيان.

سرُّ استعمالِ حرفِ ﴿قَدْ﴾ في قوله: ﴿قَدْ جَآءَتْ﴾:

اعترافُ الجاحدِ بعدَ فواتِ الأوان؛ ذلٌّ نفسيٌّ، وإيمانٌ غير مقبول

صدَّر النّاسون كلامَهم بأداة ﴿قَدْ﴾ التَّحقيقيَّةِ؛ إغراءً على تحقيق مُناهم في شفاعةِ الشَّفيعِ؛ لأنَّ عادةَ الجاني أن يستعطفَ القاضي، باعترافٍ مُؤكَّدٍ بعدَ يأسِه مِن جدوى إنكاره، فلهذا الحرفِ رسالةٌ بلاغيّةٌ؛ وهي تصويرُ الذُّلِّ النَّفسيِّ في الاعترافِ المؤكَّد.

توجيهُ تخصيصِ قول النَّاسين دون غيرِه مِن أقوالِهم بالذِّكر:

مُلابسةُ الواقعِ بعدَ إنكارِه، مُؤذنة بالاعترافِ الصَّريح

ذكرتِ الآيةُ الكريمةُ مَقولَ قولِ الّذين نَسوا الكتابَ يومَ القيامة: ﴿قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ﴾، ولهؤلاء أقوالٌ كثيرةٌ سوى المذكور، سواءٌ أذُكِرت في القرآنِ أم لم تُذْكر، فلماذا آثرَ القرآنُ ذِكْرَ قيلِهم هذا دون سواه؟ والجواب: أنَّه توطئةٌ لما بعدَه مِن كلامهم في طلبِ الشَّفاعة: ﴿فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُواْ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ﴾[1]، وفيه: أنَّ ملابسةَ الواقعِ بعدَ إنكارِه، مُؤذنَة باعترافٍ مِن جنسِه، فيَستحيلُ الإنكارُ تصديقًا، وهو تأييدٌ للواقع الحاصل، فإنَّ الحقَّ الّذي جاءَت به الرُّسلُ هو تحقُّقُ تأويلِ الكتابِ الذي حَقَّ عليهم، فهم ناطقون بما هم مُتلبِّسون به.

بلاغةُ الكنايةِ عنِ الحسرةِ والنَّدمِ:

الإخبارُ عنِ الحسرةِ قبلَ وقوعِها مِن كمالِ عنايةِ الله بعبادِه

قولُه تعالى على لسانِ الجاحدين: ﴿قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ﴾ كنايةٌ عن حسرتِهم، واستحواذِ الأسى عليهم، وجاءَ تحسُّرهم بصيغةِ الخبرِ دونَ الإنشاءِ، من مثل: (يا حسْرتنا)، و(يا ويْلنا)؛ للجمع بين "الإقرارِ بخطئهم في تكذيبِ الرُّسل، وإنشاءِ الحسرةِ

(1) الآلوسيُّ، روح المعاني: 4/367.

على ذلك، وإبداءِ الحيرة في ماذا يصنعون؟"[1]؛ ففيه إخبارٌ بحسرتِهم قبلَ الحسرة، وبيانٌ كاشفٌ عن ندمهم قبل النَّدامة؛ ليتداركوا ما هم فيه مِنَ الهلاكِ المُحقَّقِ في الدُّنيا، وهذا في غايةِ الرِّعايةِ وجليلِ العنايةِ.

بلاغةُ إضافةِ ﴿رُسُلُ﴾ إلى: ﴿رَبِّنَا﴾:

آثرَ القائلون ذِكْرَ: ﴿رُسُلُ رَبِّنَا﴾، دون الاقتصارِ على ذِكْرِ مجيءِ الحقِّ؛ فلم يقولوا: (قد جاءَنا الحقُّ) ونحوه؛ لغرضِ الاستعطافِ، وطلبِ الإحسانِ، فإنَّهم في مقامِ الطَّمعِ في الشَّفاعة، وفي مقامِ الاعتذارِ والاعترافِ.

لا ينفعُ الاعترافُ بعد صدورِ الأمرِ ووقوعِ الحتمِ

والتَّعبيرُ بالرُّبوبيَّة، وإضافتها إلى ضمير المُتكلِّم الجمعيِّ، اعترافٌ بالعناية الرَّبّانيَّة، والتَّربيةِ الحَكيمةِ، والرِّعايةِ الإلهيَّة، وإيرادُ قيلهم - الذي هو مستقبلٌ غيبيٌّ - تعريضٌ بهم بقيلهم، ونَعْيٌ عليهم بتفضُّل الله عليهم، بمُقتضَى ربوبيَّتِه، بإرسالِ رسلِه إليهم.

دلالةُ التَّعبيرِ بالفاءِ في ﴿فَهَل﴾:

في إردافِ استعطافِ الجاحدين، وتحسُّرِ المُكَذِّبين، طَلَبَ الشَّفاعةِ والرَّدَّ إلى الدُّنيا؛ لتدارُكِ أعمالِهم، وتفريعِ ذلك بالفاء في قوله تعالى: ﴿فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ﴾، دليلٌ على تعجّلهم المدفوعِ بفَزَعٍ وخَوْفٍ مِنَ القادِم؛ لمعرفتهم بسوء حالهم، فمَن ساءَ فِعْلُه ساءَ ظنُّه بنفسه، ولذا؛ طفقوا في إنشاءِ الاستِشْفاعِ فورَ التَّمهيد له، بالاعتراف بمجيء الرُّسل بالحقِّ إليهم.

مَـن ساءَ عملُه في الدُّنيا، ساءَ ظنُّه بنفسِه في الآخِرة

بلاغة الاستفهام في قوله: ﴿فَهَل لَّنَا﴾:

دلَّ استعمالُ حرفِ (هل) في قوله تعالى: ﴿فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ﴾ على التَّمنّي، وأوثِر استعمالُه بدلًا مِن استعمالِ أداةِ التَّمنّي الصَّريحةِ

التَّمنِّي بطريق الاستفهام دليلٌ على تمكُّنِ الاعترافِ بعظيم الجُرم

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/155.

(ليتَ) ونحوها؛ استتمامًا لأُسلوب التَّعطُّف والتَّذلُّل، وتوريةً منهم، وتخشُّعًا، واستخفاءً في الطَّلب، كَمَن يَطلُب وهو خَجِلٌ أن يطلبَ، فلا يَقْدِر على التَّصريح، فيقع طلبُه مِن طَرْفٍ خَفيٍّ، ويُعَزِّز ذلك قولُه تعالى: ﴿خَٰشِعَةً أَبۡصَٰرُهُمۡ تَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٞۖ﴾ [القلم: 43]، وقولُه تعالى: ﴿يَنظُرُونَ مِن طَرۡفٍ خَفِيّٖۗ﴾ [الشّورى: 45]، وقولُه: ﴿إِذِ ٱلۡقُلُوبُ لَدَى ٱلۡحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَۚ﴾ [غافر: 18].

يُحتمَلُ الاستفهامُ على حقيقتِه عند ابتداءِ تيقُّنِ العذابِ

ويُحتمَلُ حَمْلُ الاستفهامِ على الحقيقةِ، على أن يكونَ قالَهُ بعضُهم لبعض؛ طلبًا للخلاصِ مِن ذلك المأزقِ، وتلك الفاجعةِ، على أن يكونَ هذا القولُ صادرًا عنهم في ابتداءِ رؤيةِ ما يُهدِّدُهم، قبلَ أن يوقنوا بانتفاءِ الشُّفعاءِ المَحْكيِّ عنهم في قوله تعالى: ﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ١٠٠ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٖ ١٠١﴾ [الشّعراء: 100 - 101].

يُحتمَلُ الاستفهامُ على النَّفي؛ لبيانِ شدَّة يأسهم مِنَ النَّجاة

ويُحتملُ أن يكونَ الاستفهامُ مُستعمَلًا في النَّفي؛ أي: (فما لنا مِن شُفعاء)، على معنى التَّحسُّرِ والتَّندُّم[1]، وإظهارِ اليأسِ الشَّديدِ. وبلاغةُ استعمالِ (هل) في معنى النَّفي؛ لبيانِ ما يَجول في نفوسهم مِنَ الاضطرابِ والحَيْرةِ.

سرُّ دخولِ (هل) على الجملة الاسميَّة، وتقديمُها على الفعليَّة، والتَّغايرُ بينهما:

الشَّفاعةُ أصلٌ لبُعدِها عنِ الاستحالة، والرَّدُّ فَرْعٌ لقُربِه مِنَ الاستحالة

حرف (هل) مِنَ الحروفِ المُشْتَرَكَةِ الّتي تدخلُ على الأفعال والأسماء، لكنَّ غالبَ دخولِها على الأفعال، وإنْ دخلت على الاسم فلِنُكْتةٍ بيانيَّةٍ، كما في قولِه: ﴿فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ﴾، ونكتةُ ذلك: أنَّ دخولَها على الاسميَّة يُشعِر بأنَّ طلبَ الشُّفعاءِ هو الأصلُ في تَمنّيهم؛ لأنَّه أمرٌ مُستقبليٌّ، وأمّا طَلَبُ الرَّدِّ إلى الدُّنيا فهو مُتفرِّعٌ عليه؛ لأنَّه مُستحيلٌ وقوعُه، بخلافِ طلبِ الشُّفعاءِ، فإنَّ إمكانيَّةَ وجودِهم أقربُ إلى الحُكْمِ العقليِّ، فقُدِّم الأصلُ الأبعدُ عنِ الاستحالةِ، على الفَرْعِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/156.

الأقربِ للاستحالةِ، ودخلَت (هل) على الاسميّة لبيانِ هذه النُّكتَةِ، وهذا يدلُّ على استحضارِهم أساليبَ النَّجاةِ في ذلك اليوم، ممّا يورثُ مزيدَ خوفٍ ورهبةٍ؛ لأنَّه كاشفٌ عن طبائع القوم في طلبِ الحيلةِ للنَّجاة، ولا يكون ذلك إلّا مِن علّام الغيوبِ سبحانه[1]. والتَّغايُر بينَ اسميَّةِ الأولى وفعليَّةِ الثّانية؛ لتصويرِ التَّغايرِ في عنديّات بواطنِهم، مِنَ الأمانيّ والأطماع، وفيه إشارةٌ إلى ضَعَةِ نفوسِهم في إيثار عملِ غيرِهم لأجلِهم على عملهم لأنفسهم؛ إيثارًا لوازعِ الاعتماديَّةِ على وازعِ الكسبِ الذّاتيِّ.

نكتةُ تقديمِ الجارِّ والمجرورِ ﴿لَّنَا﴾ وتَكرارِه:

تصويرُ حالِ المُكذِّبين في الآخرةِ، كافٍ في الاتِّعاظِ والاعتبار

وقعَ تَكرارُ الجارِّ والمجرورِ ﴿لَّنَا﴾ وتقديمُه، في قولِه تعالى: ﴿فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُواْ لَنَآ﴾، ونُكتةُ ذلك: بيانُ العنايةِ، ومزيدُ التَّخصيصِ بمتعلَّقِ الشَّفاعةِ، وهي الأنفسُ، فالمكذِّبون في الدُّنيا، المُصدِّقون في الآخرةِ، قدَّموا ما يحرصون على نجاتِه في الآخرةِ، فهُم لا يفكِّرون إلّا في نجاةِ أنفسِهم، فالتَّقديمُ لبيانِ حالِهم المزرية، الّتي تطلُبُ النَّجاةَ مِنَ الذِّلَّة والمهانة، وكُرِّرَ ذِكْرُ ذلك مع الاستغناء عنه؛ لبيانِ حالِهم المضطربةِ، وواقعِهم المرذولِ.

نُكَاتُ إيثارِ الجمعِ في قولِه: ﴿شُفَعَآءَ﴾ على المفردِ:

إمَّا لغرضِ التَّوزيعِ، أو عدمِ كفايةِ الواحدِ، أو الطَّلبِ في الزِّحامِ

جاء لفظُ الشُّفعاءِ بصيغة الجمعِ في قوله تعالى: ﴿فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُواْ لَنَآ﴾ لمجموعةٍ مِنَ النِّكاتِ المحتمَلة:

إمّا للتَّوزيع؛ أي: باعتبار توزيع الشُّفعاء على جماعة المُستشفعين، وإمّا لأنَّ المقامَ "مقامٌ لا يشفع فيه إلّا الشُّفعاء، لا الشَّفيع الواحد"[2]؛ فكأنَّ الكافرَ يعلمُ أنَّ جريرةَ الكُفرِ لا تكفيها شفاعةُ واحدٍ، بل يحتاج إلى جماعةٍ متزاحمةٍ مِنَ الشُّفعاء، وإمّا "لدخولهم في جملةِ النّاسِ في

(1) أشار إلى هذه النُّكتة الآلوسيُّ، روح المعاني: 4/367.
(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/228.

الشَّفاعة العظمى لفَصْل القضاءِ؛ ثمَّ سبَّبوا عن ذلكَ تحقيقَ كونِهم لهم؛ أي: بالخصوص؛ فقالوا: ﴿فَيَشْفَعُواْ لَنَآ﴾؛ أي: سواء كانوا مِن شركائنا الّذين كنّا نتوهَّمُ فيهم النَّفعَ، أو مِن غيرهم؛ ليُغْفَر لنا ما قَدَّمنا مِنَ الجرائم"[1]، ففي الجمع دليلٌ على وجود شُفعاء يشفعون للنّاس، وهم يرغبون أن ينضموا لتلك الأفواجِ المَشْفوعِ لهم.

دلالةُ استعمالِ حرفِ ﴿أَوْ﴾، ونكتتُه في هذا السِّياق:

فقدان حيلة أهل الكفر يوم القيامة، وبقاؤهم في الحسرةِ والبؤسِ

عطفَت ﴿أَوْ﴾ الجملةَ الفعليَّةَ: ﴿نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُۚ﴾ على الجملة الاسميَّة: ﴿فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُواْ لَنَآ﴾[2]، وأفادَتْ ﴿أَوْ﴾ معنى التّخيير؛ أي: لا طريقَ لنا إلى الخَلاص ممّا نحن فيه إلّا أحَدُ هذَين الأمرين، ونكتةُ استعمال ﴿أَوْ﴾ على معنى التَّخيير؛ لتقرير استمرارِ حسرتهم وبؤسِهم، وأنَّهم صاروا بمحلٍّ لا حيلةَ لهم فيه إلّا التَّوسُّلُ بالأماني، وعطفُ البدائلِ الأكثرِ استحالةً عليها، وهي حيلةُ مَن لا حيلةَ لهُ، والعياذ باللّه.

نكاتُ تقديمِ طلبِ الشَّفاعةِ على الرَّدِّ إلى الدُّنيا:

فَقْدُ الأملِ، وثباتُ اليأسِ، عنوانُ المُكذِّبين في القيامةِ

قُدِّم في الآية طلبُ الشَّفاعةِ على الرَّدِّ إلى الدُّنيا، مِن باب تقديم المِنحةِ على العَكلِ[3] المبذولِ، فالشَّفاعةُ بلا مقابلٍ، والرَّدُّ فيه عناءٌ وبذلٌ، وفي تقديم الشَّفاعة نكاتٌ عدَّةٌ:

الأولى: بيانُ فقدِ الأملِ، فقُدِّمَ الأقربُ منالًا على الأبعدِ منالًا؛ إذِ الشَّفاعةُ ممكنةٌ فيما يتصوَّرُه العقلُ، بخلاف الرَّدِّ فإنَّه أبعدُ، فهم طلبوا الأقربَ قبلَ الأبعد، ولا شيءَ على اللّه مستحيلٌ.

الثّانية: إلْفاتٌ إلى خِسَّة نفوسِهم، وقلَّةِ حيائِهم في إيثارِهم النَّجاة من غير عمل، وطمعِهم في الشَّفاعةِ من غيرِ سابقِ إحسانٍ.

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 7/412.
(2) السَّمين الحلبي، الدُّرُّ المصون: 5/337.
(3) تقول: عكلتُ المتاع أعكُلُه، بالضمّ، إذا نَضّدْتَّ بَعْضَه على بعض، يُنظر: الأزهري، الصحاح: (عكل).

الثّالثة: ذِكرُ البديلِ الأكثر استحالةً يُنبئ بوقوعِهم في اليأس، فالجملة الثّانية وهي طلبُ الرَّدِّ إلى الدُّنيا، بمثابة تعلُّقِ الغريقِ بقشَّةِ سرابٍ.

الرّابعة: تعريضٌ بمسلكهم في الشِّرك الّذي اعتادوه واعتقدوه في الدُّنيا، مِن "أنَّ النَّجاةَ عند الله، وكلَّ ما يُطلَب منه إنَّما يكون بواسطة الشُّفعاء عندَه، وعندما يتبيَّن لهم الحقُّ الّذي جاءَت به الرُّسلُ، وهو أنَّ النَّجاةَ والسَّعادةَ إنَّما تكون بالإيمانِ الصَّحيحِ والعملِ الصّالحِ، ويعلمون هنالك أنَّ الشَّفاعةَ لله وحدَه، فلا يشفعُ أحدٌ عنده إلّا بإذنه: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ﴾، يتمنَّون لو يُرَدّون إلى الدُّنيا فيعملوا فيها غيرَ ما كانوا يعملون في حياتهم الأولى"[1].

دلالةُ تتابعِ الفاءاتِ في: ﴿فَهَل﴾، و﴿فَيَشْفَعُواْ﴾، و﴿فَنَعْمَلَ﴾:

تتابعتِ الفاءاتُ في قوله تعالى: ﴿فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُواْ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ﴾؛ لتصويرِ اللَّهفةِ والفَزَعةِ في نفوسِ المُكذِّبين، وللدّلالة على ضيقِ الوقتِ، بل ذهابِه، واستحضارِ فواتِ فرصةِ النَّجاةِ، وضياعِ الأملِ، فهو عبارةٌ عن وصْفِ شعورِهم بالغَرقِ في بحرِ اليأسِ، وتحقُّقِ الهلاكِ.

نُطْقُ الألسنِ في الظَّاهر، ترجمةٌ لمعاني الأنفسِ في الباطنِ

بلاغةُ الإيجازِ في حذف بعضِ المُتعلِّقاتِ:

آثَرتِ الآيةُ الإيجازَ في عدم ذِكْرِ بعضِ المُتعلِّقات، إذ تقدير الآية: ﴿فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُواْ لَنَآ﴾ في إزالةِ العذابِ، أو نُردّ إلى مكان العمل فنعملَ صالحًا غير الذي كنّا نعمله؛ مِنَ الجُحود واللَّهو واللَّعب وأعمال الدُّنيا[2]؛ فحَذفَ مُتعلِّقاتِ الطَّلبِ مراعاةً للمَقام، وتنبيهًا على مُقتضَى الحال، فإنَّ المقامَ بين يَدَي مَن عَنَتْ له الوجوه،

الفَزَعُ واليأسُ يُولِّدانِ عُسْرَ النُّطقِ، فلا يُنطَقُ إلَّا بالضَّروراتِ المُنجيات

(1) رشيد رضا، تفسير المنار: 8/394.

(2) القاسميُّ، محاسن التَّأويل: 5/67.

وحالُ الطّالبِ أنَّه فزِعٌ يائسٌ، قلَّما يستجمع فيه المتكلِّم مَنطِقَه، فالكلماتُ على قدرِ الحاجاتِ، والإيجازُ أجمعُ للصَّواب، وأوثقُ له، وحسراتُهم قيَّدَتْ ألسنتَهُم، فلا ينطقون إلّا بقَهْرِ المَذَلَّةِ والضّيقِ، ولولا إرادةُ الخلاصِ ما قَدَروا على النُّطق طَرْفةَ عينٍ؛ مِن هولِ ما يلابِسونه ويغشاهم، فحصلَ الاكتفاءُ بالقَدْر الضَّروريِّ مِنَ الكلامِ، والاقتصارِ على ما يَصْلحُ الإخبارُ به، ولكَ أن تنظرَ في الإطنابِ في قولِه تعالى: ﴿قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ١٨﴾ [طه: 18] جوابًا لقولِه تعالى: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَـٰمُوسَىٰ ١٧﴾ [طه: 17]؛ لتدركَ الفرقَ بينَ المقامين.

دلالةُ التَّعبير بالموصول ﴿ٱلَّذِى﴾، وإيثاره على (ما):

أمور الدِّين مقصودة في التّعيين، لبيانِ ندم المُفَرّطينَ عليها

عُبِّر بالاسم الموصول ﴿ٱلَّذِى﴾ للتَّعيين، والنَّصُّ على المراد بالصِّلة في قوله: ﴿ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُۚ﴾، وهو ما كانوا يعملونه مِن أُمور الدّين، بدليلِ قرينةِ السّياق في قولهم: ﴿قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ﴾[1]؛ أي: "حتَّى نعملَ غيرَ ما كنّا نعملُه؛ حتَّى نوحِّدَ اللّه بدلًا عنِ الكفر"[2].

بلاغةُ حذفِ أوصافِ العملِ في قوله: ﴿فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُۚ﴾:

خلُّوُ أعمالِ المشركين مِنَ الصَّلاحِ، وامتلاؤها بالسُّوءِ، عِلَّةُ الفرارِ عن وصفِها

حُذِفَ مُتعلَّقُ العملِ في قوله: ﴿فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُۚ﴾، فلم يقُل: (فنعمل صالحًا غيرَ العملِ السَّيءِ الَّذي كنّا نعمل)؛ مراعاةً لقرينةِ سؤالهم الرَّدَّ إلى الدُّنيا، فإنَّ الرَّدَّ إلى دار التَّكليف هو لأجلِ استبدالِ عملٍ بعملٍ، ولا يكون البَدلُ إلّا لغرضِ إزاحةِ عملِ السُّوءِ بعملِ الصّالحات، فلمّا كان هذا جليًّا في مفهوم الرَّدِّ، استَغنى عن ذِكْره. فإن قيل: سؤالُ الرَّدِّ لا يَلْزم عنه استبدالُ سَيِّءٍ بصالح، بل ربَّما كان سؤالُهم الرَّدَّ لأجلِ الاستزادةِ مِن عملٍ صالحٍ؟ قلتُ: لو كان لهم عملٌ صالحٌ لاستشفعوا به واحتجّوا، فهم أحوجُ إلى ذكر ذلك

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/157.
(2) ابن عادل، اللُّباب في علوم الكتاب: 9/139.

لو كان لهم، فضْلًا عن أنَّ السّياقَ يَنفيهِ، ويُثبِتُ تكذيبَهم وجُحودَهم بالكلّيَّةِ، فأنَّى يَسْلمُ هذا الاحتمالُ، وأيضًا: لغَرَضِ الإعراضِ عن ذِكْر ما يُستحيا مِن ذِكْره، فإنَّهم لو صرَّحوا بالـمُتعلَّق، فقد أشهدوا على أنفسهم أنَّهم لم يعملوا صالحًا، فيكونُ حينَئذٍ تسجيلًا منهم على أنفسهم بعدم أهليَّتهم واستحقاقِهم لجوابِ سؤالهم، وهو ما يخالف مقصودَ مَن يسأل حاجةً لنفْسِه.

إيثارُ التَّعبير بالمضارع في قوله: ﴿فَنَعْمَلَ﴾ على الماضي:

إتقانُ صَوْغِ الحِيلةِ عند سؤالها

عَبَّر بالفعل المضارعِ في قولِه: ﴿فَنَعْمَلَ﴾؛ لبيانِ إتقانِ المشركين صوغَ حيلتهم عند سؤالها، وهو إشعارُ السّامعِ أنَّ للسّائل حُجَّةً في سؤاله، وأنَّه ما مِن مانعٍ لابتغائها، ولذا عَبَّر عنِ الماضي بالمضارع في حقِّ الفائتِ القديمِ مِنَ الأعمالِ؛ إيهامًا بالقرب وعدمِ البُعد، فأوانُها قريبٌ، وما قَرُبَ أوانُه صحَّ تداركُه. ويجوز أن يكونَ إقرارًا منهم على أنفسهم بالاعتراف والاعتذار، في أنَّ ما عملوه كان عادةً لهم متجدِّدةً، مرَّة بعد مرَّة، ومستمرَّةً آثارُها لم تنقطعْ، فعبَّروا بالمضارع إغراءً على تحقيق مبتغاهم، في أن يُصلحوا ما كان منهم؛ ليقطعوا عنه صِفةَ بقائِه في الأثر والعاقبة.

موقعُ قوله تعالى: ﴿قَدْ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ ممَّا قبله:

خُسْرانُ الكافرين هو المُتحقِّقُ، ولو أفرطوا في التَّوسّلِ

قولُه تعالى: ﴿قَدْ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾ كلامٌ مُستأنفٌ مسوقٌ لتقريرِ الإجابةِ عنِ الاستفهامَين السّابقين[1]، وهو استئنافٌ في معنى التَّعليل لما قبله، فسيق مساقَ الاعتراضِ عليهم في سؤالهم أحدَ الأمرين: الشَّفاعة أو الرَّدَّ إلى الدُّنيا، كأنَّه قيل: (كيف يسألون هذا السَّؤال؟)، ثمَّ ابتدأ فأجاب: ﴿قَدْ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾، أو أن يكونَ استئنافًا ابتدائيًّا تذييليًّا[2].

(1) درويش، إعراب القرآن: 3/365.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/157.

بلاغةُ التَّعبيرِ في قوله تعالى: ﴿خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ﴾:

التَّعبيرُ بخسارةِ الأنفسِ في قوله تعالى: ﴿قَدۡ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ﴾ يُحمَلُ على ثلاثةِ توجيهاتٍ بيانيَّةٍ، وهي:

الأوَّل: الاستعارة، فاستُعيرت خسارةُ الأنفسِ في إضاعةِ أسبابِ النَّفعِ وفقدانِها[1]، وغلبَ إطلاقُ الخسارةِ على مَن فقَدَ رأسَ مالِه، أو عَجَزَ عن استعادةِ كَسْبِه؛ لفقدانِه القدرةَ أيضًا، فالاستعارةُ في التَّعبير بالخُسران تُصوِّرُ حالةَ العَدَم والضَّياع الَّتي صاروا إليها مِن جميع الوجوه، معَ استنفادِهم وسائلَ الاستدراكِ والاستصلاحِ.

الاستعارةُ تُصَوِّرُ حالةَ الضَّياع بعد الفوات

الثّاني: المجازُ المُرسَل، فالنَّفْسُ هي وعاءُ الأعمال، ومحلُّ عائدها مِنَ الثَّواب والعقاب، وهي آلةُ اكتسابِ الخير والشَّرِّ، ففي التَّعبير بخُسرانها تصويرٌ لانقطاعهم التّامِّ عن عوائدِ الخيرِ؛ لفقدانِهم سببها وآلتِها، وإذا بطلَ السَّببُ انعدمَ المُسَبَّب، وخَرابُ المَحلِّ مُؤذِنٌ بفسادِ الحالِ، فهو مجازٌ مُرسَلٌ، علاقتُه السَّببيَّةُ، أطلقَ السَّببَ، وهي النَّفْس، وأرادَ المُسَبَّبَ، وهو ما ينتج عنها.

النَّفْسُ هي سببُ الأعمالِ ووعاؤه، فإنْ فُقِدَت خَسِر صاحبُها

الثّالث: الكناية، فهو كنايةٌ عن زوالِ القُدرةِ في تحصيلِ ثوابِ العملِ؛ لأنَّ زوالَ قُدْرتِهم لازمٌ عن خُسرانِ أنفسِهم، وهو عبارةٌ عنِ الفَوْتِ والانفضاضِ.

زوالُ القُدرةِ لازمٌ عن خُسرانِ الأنفس

بلاغةُ الاستعارةِ التَّهكُّميَّةِ:

استُعيرَ الضَّلالُ في قوله تعالى: ﴿وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ﴾؛ للعَدَم، على طريقة التَّهكُّم، فقد شَبَّه عَدَمَ شفعائِهم المزعومين بضَلالِ الإبلِ عن أربابها؛ تَهكُّمًا بهم، وهذا التَّهكُّمُ قد روعيَ فيه محاكاةُ ظنِّهم يومَ القيامة، الصّادر عنهم في قوله تعالى قبلَه: ﴿قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا﴾ [الأعراف: 37][2].

التَّهكُّمُ بما يَصدُرُ عنِ المُتهكَّمِ به أبلغُ مِن إنشائه ابتداءً

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/157.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/158.

تردُّدُ ﴿مَا﴾ بين المصدريَّة والموصوليَّة:

إن كانت ﴿مَا﴾ بمعنى اسمِ الموصولِ في قولِه تعالى: ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾؛ فإسنادُ الضَّلالِ إلى ذواتِ شُفعاء المشركين ومعبوداتهم الباطلة، فالفاعلُ الشُّفعاءُ، والمعنى: ضلَّ الشُّفعاءُ المُفتَرَون. وإن كانت ﴿مَا﴾ مصدريَّةً؛ أي: ضلَّ افتراؤهم[1]، فالفاعلُ الافتراءُ نفسُه، والمعنيانِ صحيحان، إلّا أنَّ الظّاهر في الاستعمال أن تكون موصوليَّةً، والمعنى على المصدريَّة أقوى في المجازِ، إذ هي تُشخِّصُ الافتراء.

إسنادُ فِعْلِ الضَّلالِ للشُّفعاءِ على الموصوليَّة، وللافتراء على المصدريَّة

سرُّ التَّعبيرِ بالمضارع في قوله تعالى: ﴿يَفْتَرُونَ﴾:

استُعمِلَ الفعلُ المضارعُ في قوله: ﴿يَفْتَرُونَ﴾؛ لبيانِ استمرارِهم على مُلابسةِ الافتراءِ بقولِهم: ﴿أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ﴾، فإنَّهم لو رُدّوا لَعادوا لما نُهوا عنه، وإنَّهم لكاذبون؛ ولتصويرِ أنَّ الافتراءَ كان وصفًا مُعتادًا لهم، يُلابسونَه ولا ينفكّون عنه.

الافتراءُ وصفٌ مصاحِبٌ للمُشركين لا ينفكُّون عنه

علَّةُ حَذْفِ مفعول: ﴿يَفْتَرُونَ﴾:

حُذِفَ مفعولُ: ﴿يَفْتَرُونَ﴾، فلم يقُل: (يفترونه)؛ للعموم؛ ولتعدُّدِ ما افتَرَوه وكَثْرته، فلا ينحصر الأمرُ بتعيينِ مفعولٍ واحدٍ، فمُقتضَى العموم حَذْفُ المفعولِ؛ ولاعتيادهمُ الافتراءَ والبُهتانَ، فالغرضُ: إثباتُ معنى الافتراءِ للفاعل، فالافتراءُ وصْفٌ ثابتٌ لهم، وهذا مِن بابِ تنزيل الفعلِ اللّازمِ منزلةَ المُتعدّي، وهو الأنسبُ بالفاصلةِ، وهو أمرٌ لفظيٌّ تابعٌ للمعنى الدَّلاليِّ.

الافتراء والبهتان عادة أهل الكفر، ولا تنفكّ أفعالهم عنه في كل حال

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(يَنظُرون)، (يَنتَظِرون):

(يَنظُرون): مِن نظرَ الشَّيءَ، إذا صوَّب نظرَه ناحيةَ مجيئِه؛

(1) الآلوسيُّ، روح المعاني: 4/118.

دلالةُ بناءِ (نَظَرَ) أسرعُ في الزَّمنيَّةِ مِنِ (انْتَظَرَ)

ترقُّبًا له، وتشوُّفًا لحضوره، سواءٌ حصل في ذلك مُهلةٌ وتراخٍ، أم كان فورًا وعاجلًا.

(يَنتَظِرون): مِن انتظر الشَّيءَ، إذا جعله محلَّ تَفقُّدِ نظرِه مَرَّةً بعد مَرَّةٍ، وتارةً بعدَ تارةٍ؛ توقُّعًا لحضوره، فالانتظار: نظَرٌ مُقدَّرٌ بالقوَّة لما هو مُتوقَّعٌ أن يَحصُلَ، فيَحتمِلُ الشَّكَّ واليقينَ تجاهَ مُتعلَّقِه، ولذا روعيَ فيه التَّكرارُ والإبطاءُ والإمهال، فهو ترقُّبٌ ونظرٌ خاصٌّ، مقترنٌ بما يُطلَب مجيئُه، فالانتظارُ أخصُّ مِنَ النَّظر، والنَّظرُ أعمُّ.

والخلاصة: أنَّ النَّظرَ يُرادُ منه: النَّظر فقط مِن غيرِ انتظارٍ، ويَرِدُ كذلك بمعنى الانتظار؛ لأنَّ المُنتَظِرَ يَستقبِلُ بنظرِه ما يرتقِبُ حضورَه، والانتظارُ لا يُستعمَلُ بمعنى النَّظر؛ لأنَّك قد تنتظر الشَّيءَ ولا تُدرِكُه، فلا يُدْرِكُه نظرُك حينَئذٍ، ولذا عبَّر هاهنا بـ (ينظرون) دونَ (ينتظرون)؛ لأنَّ المرادَ مِنَ الآيةِ: إدراكُهم للوعيدِ المذكورِ الَّذي ستُحَدِّق فيه أنظارُهم، فنفى بهذا التَّعبير احتمالَ عدمِ إدراكِهم للمُنتَظَر.

ودلالةُ بناءِ (نظر) أسرعُ في الزَّمنيَّةِ مِن (انتظر)، فبِناءُ (انتظر): (افتعل)، خاصٌّ في الدّلالة على الإبطاءِ وعدمِ السُّرعةِ، كـ (كَسَبَ) و(اكْتَسَبَ)، ولذا كان الانتظارُ مُشتملًا على معنى التَّكلُّف وقلَّة الأريحيَّة، فهذا من حيث الاستعمالُ، ومن حيث الآلةُ: فالنَّظرُ أعمُّ في مُتعلَّقاته، فأصلُ النَّظر: المقابلة، وذلك قد يحصُل بالعين إقبالًا بها نحو المنظور، وبالقلب إقبالًا بالفِكْر نحو المُفَكَّر فيه، ويكون باللَّمس ليدريَ اللّينَ مِنَ الخُشونة، ويكونَ نحو ما يتوقَّع، بمعنى الانتظار، "وأمّا الانتظارُ: فحصولُ المقابلةِ فيه بالمُثولِ والحضورِ والملابَسةِ مع المُنتَظَرِ[1].

(1) العسكريُّ، الفروق اللُّغويَّة، ص: 75، وعلي النُّزهيُّ، الفروق اللّغويّة في تفسير الكلمات القرآنيّة، ص: 133.

(نَسُوه)، (تَركُوه):

النِّسيانُ: زوالُ ذِكْرِ الشَّيءِ في النَّفْس، ولازمُ النِّسيان التَّركُ والإهمالُ؛ لأنَّ تلاشيَ التَّذكُّر مُؤذِنٌ بعدم استحضارِ المذكورِ أصلًا، فتغيبُ صورتُه مِنَ الذِّهن، فيقعُ الإعراضُ لا عنه؛ لأنَّه في حكمِ غيرِ الموجودِ، بل يقع الإعراضُ عن كونه موجودًا أصلًا.

وأمّا التَّرك: فهو مغادرةُ ما هو مذكورٌ في النَّفس، وحاضرٌ في الإدراك؛ لأنَّ صورتَه الحاصلةَ في الواقعِ لم تتلاشَ أو تغِبْ عنِ العقل، ولكنَّه تُرِكَ عمدًا رَغمَ استحضاره، فالإعراضُ عنه إعراضٌ عن ذات الشَّيء، لا عن كونِ وجودِه.

فالتَّرك يكون لموجودٍ قائمٍ في ذهنِ التّارك، والنِّسيانُ يكون تركًا بسببِ عدمِ وجودِ الشَّيءِ، وغيابِه في ذهن النّاسي، فاستعمالُ النِّسيان هاهنا في معنى التَّرك مجازٌ، علاقتُه الملزوميَّةُ؛ لأنَّه متى وُجِدَ النِّسيان لَزِمَ عنه التَّرك، وعُبِّر بالنِّسيان في قوله تعالى: ﴿يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبۡلُ﴾؛ ليَدلَّ على تمكُّنهم وعَراقتهم في الكُفرِ والإعراضِ، بحيث إنَّهم لم يتركوا الكتابَ وراءَ ظهورِهم فحسبُ، بل نَسوه ومَحَوا صورتَه ووجودَه مِن أنفسهم، فهو غيرُ موجودٍ بالنِّسبة لهم، كأنَّه لم يَبْلُغْهم[1].

التَّركُ: لموجودٍ قائمٍ في الذِّهن، والنِّسيان: تَرْكًا لعدم وجودِ الشَّيء، وغيابِه عنِ الذِّهن

(نُرَدُّ)، (نَرْجِع):

الرَّدُّ: صَرفُ الشَّيء عن وجهه[2]، ونقلُه مِن حالةٍ إلى حالةٍ، أو إبدالُه بغيره، ومنه: رَدَّ عليه الشَّيءَ: إذا لم يقبلْهُ أو خَطَّأَهُ[3]، فهو تحوُّلٌ مع حِدَّةٍ[4]، والرَّدُّ حاصلٌ في الذّات أو في الحال[5]، فمِنَ الرَّدِّ

الرُّجوعُ: يجري على جِهةِ اليُسرِ وانتفاءِ الكُلْفَةِ، والرَّدُّ: عَوْدٌ يُلاحَظ فيه القَسْرُ وصعوبةُ الإمكان

(1) ابن الجوزيّ، نزهة الأعين، ص: 579، والكفويّ، الكلّيّات، ص: 506.
(2) الكفويّ، الكلّيّات، ص: 476.
(3) الجوهريُّ، الصّحاح: (ردد).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقيُّ المؤصَّل: (ردد).
(5) الرّاغب، المفردات: (رد).

بالذّات قولُه تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ﴾ [الأنعام: 28]، ومِنَ الرَّدِّ إلى حالةٍ كانَ عليها قولُه: ﴿وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ﴾ [يونس: 107]؛ أي: لا دافعَ ولا مانعَ له، وعلى ذلك: ﴿عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ۝٧٦﴾ [هود: 76]، وقد يشتملُ على معنى الجفاءِ والغِلْظةِ، كقوله: ﴿فَرَدُّوٓاْ أَيْدِيَهُمْ فِيٓ أَفْوَٰهِهِمْ﴾ [إبراهيم: 9]، وإنَّما جاء التَّعبير هاهنا: ﴿أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ﴾؛ لأنَّهم عَلِموا أنَّه عَوْدٌ على غيرِ القانونِ والعادةِ، فيَحتاجُ لِخَرْقٍ مُغالِبٍ، أو قَهْرٍ مُعْجِز، بدليل قولهم: ﴿قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ﴾، فهو رجوعٌ خاصٌّ على خلاف السُّنَنِ الَّتي عَلِموها مِنَ الرُّسل، وفي التَّعبير بالرَّدِّ دون الرَّجوع إلماحٌ إلى يأسهم مِن تحَقُّقِ ذلك، ولا سيَّما مع اقترانه بما يقتضي عِلْمَهم بصعوبةِ إمكانِه أو استحالتِه، وهو اعترافُهم بمجيء الرُّسل.

وعليه: فالرَّدُّ: عَوْدٌ يُلاحَظُ فيه الغَلَبَةُ والقَسْرُ، وعدمُ الخِطَّةِ، وصعوبةُ الإمكانِ، ويشتمل على معاني الجفاءِ والقَسْوةِ، وفيه معنى الفواتِ والتَّبديل.

والرُّجوعُ: العودُ إلى ما كان عليه؛ مكانًا أو صفةً أو حالًا، وسواءٌ كان رجوعُه بذاته، أو بجُزءٍ مِن أجزائِه، أو بفعلٍ مِن أفعالِه، يُقال: رجع إلى مكانه، وإلى حالةِ الفقرِ أو الغنى، ورجع إلى الصِّحَّةِ أو المرضِ، أو غيرِه مِنَ الصِّفات[1]، فهو عَوْدٌ إلى ما كان منه البَدْءُ[2]، ويُلحَظُ فيه معنى اليُسْرِ، والسَّلاسَةِ، والموافقةِ؛ كقوله تعالى: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: 230]، ومعنى التَّحَوُّلِ إلى الأصلِ؛ كقوله تعالى: ﴿فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۝٦٤﴾ [الأنبياء: 64]؛ أي: إلى عقولهم وفِطْرتهم بأصلها الأوَّلِ المستقيم، ومعنى القبولِ وعَدمِ التَّذمُّرِ؛ كقوله تعالى: ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ﴾ [فُصّلت: 50]، فقدِ استَعملَ الرُّجوعَ مع كونه كافرًا للدَّلالة على قبولِه وعدمِ تذمُّرِه إن حصلَ ذلك، وإن جرى عنده مَجرَى الفَرَضِ لا الحقيقةِ، فهو قابلٌ للفَرَضيَّةِ، غيرُ مُتَحَرِّجٍ منها، ولذا قَرَنَه بأعلى الثَّواب، وهي الحُسْنى، بخلاف صاحب الجنَّتين، في قوله تعالى: ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّىٓ لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ۝٣٦﴾ [الكهف: 36]، فهو وإن كان كافرًا كسابقه، إلّا أنَّه جاء التَّعبيرُ في حقِّه بالرَّدِّ للدَّلالة على أنَّه يَفْتَرِضُ، وهو

(1) الكفويّ، الكلِّيّات، ص: 478.
(2) الرّاغب، المفردات: (رجع).

مُتَذَمِّرٌ غيرُ قابلٍ حتَّى لمجردِ الفَرَضِ، وغيرُ مُستحسنٍ له؛ ولذا قَرَنه بثوابٍ أدنى مِنَ الآخَر، ولم يَرْبطْه بالثَّوابِ الأحسنِ المُطلَقِ مثله، فقال: ﴿لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾. وعليه: فالرُّجوعُ عَودٌ يُلاحَظُ فيه موافقةُ الخِطَّةِ، والقانونِ، والسُّننِ المُستقرَّة، ويجري على جِهَةِ اليُسْرِ، والطَّواعيَةِ، وانتفاءِ الكُلْفَةِ والعَناءِ.

(نَعْمَل)، (نَفْعَل):

العملُ: كلُّ فعلٍ يكون مِن حيٍّ بقَصْد، فهو أخصُّ منَ الفعل؛ لأنَّ الفعلَ قد يُنسَبُ إلى الحيوانات الَّتي يقع منها الفعلُ بغيرِ قصدٍ، وقد يُنسَبُ إلى الجماداتِ، والعَمَلُ قلَّما يُنسَبُ إلى ذلك، ولم يُستَعمِلِ العَمَلُ في الحيواناتِ إلّا في قولهم: البقر العَوامِلُ[1]. ولارتباطِ العمل بالقَصْد اقترنَ بإيجاد الأثرِ في الشَّيء، فيُقال: فلانٌ يعمل الطّينَ خَزَفًا، والأديمَ سِقاءً[2]، ولا يُقال: يفعل ذلك؛ لأنَّ الفعلَ يُعبَّر به عن القُدْرةِ على الشَّيء، مِن غيرِ نظرٍ للأثرِ والقَصْدِ، وهو عامٌّ لما كانَ بإجادةٍ وغيرِ إجادةٍ، ولما كان بعِلْمٍ أو بغير عِلْمٍ[3]، ولذا قال هاهنا: ﴿فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ﴾؛ استحضارًا لاختيارِهم وتأثيرِهم في أعمالهم السّابقة، ولقصْدِهم في أعمالِهم بعد الرَّدِّ؛ أي: نعملُ بقَصْدِ الجزاءِ، وطَلَبِ العَفْوِ غيرَ الَّذي عملناهُ باختيارنا وعَمْدِنا، كما قال: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [الصّافات: 96]؛ أي: خَلقكُم وخلقَ ما تُؤثِّرون فيه، بِنَحْتِكُم إيّاه أو صَوغِكم له[4].

العملُ أخصُّ مِنَ الفِعلِ، فالفِعلُ عامٌّ في الأحداثِ بقصدٍ أو من غير قَصدٍ، والعمَلُ فِعلٌ مقصودٌ

(1) الرّاغب، المفردات: (عمل).
(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 134.
(3) السّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: 3/241.
(4) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 134.

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [الأعراف: 54]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لـمّا بيَّن ﷻ في الآيةِ السّابقة خسارةَ النّاسين كتابَ الله يومَ القيامةِ، ناسَبَ ذِكرُ بَدْءِ الخَلْقِ بعد ذِكْرِ المَعادِ؛ تذكيرًا للعبادِ، فمَن نَسيَ الكتابَ المسطورَ، عليه أن لا ينسى الكتابَ المنشورَ، فهو انتقالٌ مِنَ الحديثِ عنِ المعادِ إلى التَّذكيرِ بأصلِ الخَلْقِ؛ لبيانِ العلاقةِ بينَ البداية والنِّهاية؛ فمَنِ اعترفَ بالبدايةِ للخالقِ سبحانه، عليه أن يُؤمِنَ بالنِّهاية لله وحدَه، فلله الخَلْقُ والأمرُ أوَّلًا وآخِرًا، وما بينَ البَدْءِ والمَعادِ يكونُ عملُ العبادِ، فهو استشهادٌ بالحقيقةِ الملموسةِ المتَّفقِ عليها؛ للوصولِ إلى الهدايةِ في العقيدةِ والتَّشريعِ.

مَن نسيَ الكتابَ المسطورَ، عليه أن لا ينسى الكتاب المنشور، وبينَ البَدْء والمَعاد يكون عملُ العِباد

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱسْتَوَىٰ﴾: مِنَ الجذر اللُّغويِّ (سوي)؛ وهو "أصلٌ يدلُّ على استقامةٍ واعتدالٍ بين شيئين"[1]، سواء كان ذلك باعتبارِ إسنادِه إلى شيئين فأكثر، أو باعتبارِ اعتدالِ الشَّيءِ في ذاته[2]، واستوى الشَّيء: اعتدل، والاسم السَّواء، والاستواء في كلام العرب يُطلَق على معانٍ؛ أحدها: أن يستويَ الرَّجل فيبلغَ أشُدَّه، وينتهي شبابُه وقوَّته، والثّاني: أن يستويَ الأمر عنِ اعوجاج، والثّالث: أن يُقْبِل على أمر ما، واستوى إليَّ: أقبل إليَّ، وقد فسَّر ثعلبُ قولَه تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سوي).
(2) السّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: 2/241.

[البقرة: 29] فقال: أقبل إليها، وقال أحمد بن يحيى: الاستواء: الإقبال على الشَّيء، ولـمّا سُئِل الإمام مالك بن أنس: كيف استوى؟ فقال: الكيف غيرُ معقول، والاستواء غيرُ مجهول، والإيمان به واجب، والسُّؤال عنه بدعة[1]. فالاستواءُ على العرشِ: صفةٌ للّه تعالى بلا كيفٍ، على الوجهِ الَّذي عناه، مُنزَّهًا عنِ الاستقرارِ، والتَّمكُّنِ، ومشابهةِ الحوادثِ[2].

2) ﴿ٱلۡعَرۡشِ﴾: مِنَ الجذر اللُّغويِّ (عرش)، وهو أصلٌ يدلُّ على ارتفاعٍ في شيءٍ مبنيٍّ، ثمَّ يُستَعار في غير ذلك[3]، ويُجمَع على عُروش، والعَرْش في كلام العرب: سرير المَلِك؛ لأنَّه يُصْنَع مُنبسطًا مُرتفعًا عنِ الأرض[4]، قال تعالى: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيۡهِ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ﴾ [يوسف: 100]، وهو الشَّيءُ المسقَّفُ[5]، وكلُّ بناء يُسْتَظلُّ به فهو عرش، وقد كُنّيَ به عنِ العِزِّ والسُّلطان والمملكة، يقال: ثُلَّ عَرْشُه، أي: زال مُلكُه وعِزُّهُ، وعَرْشُ الرَّجلِ: قَوام أمرِه[6]، وعَرْشُ اللّهِ: ما لا يعلمُه البَشر على الحقيقة إلّا بالاسم، وليس كما تذهبُ إليه أوهامُ العامَّة[7]، وقيل: بأنَّه الجسمُ المحيطُ بسائرِ الأجسامِ، سُمّي به لارتفاعه، أو للتَّشبيه بسريرِ المَلِكِ، فإنَّ الأمورَ والتَّدابيرَ تَنزِلُ منه[8].

3) ﴿يُغۡشِي﴾: مِنَ الجذر اللُّغويِّ (غشى)، وهو أصل صحيح يدلُّ على تغطية شَيء بشيء، يقال: غَشَّيتُ الشَّيءَ أُغَشّيه، والغِشاء والغَشاوَة: الغِطاء، وغَشيَ الشَّيءُ الشَّيءَ: إذا كان أحدُهما غطاءً للآخر، وغشاء كلِّ شيء: ما تغشّاه؛ كغشاء القَلْبِ والرَّحْل والسَّرْج والسَّيف ونحوها، والمعنى المحوري: تغطيةُ الشَّيء بكثيف يُعَمِّهُ. والمرادُ هنا: أنَّ اللّه تعالى يمحو ضياءَ النَّهارِ بظُلمةِ اللّيلِ، ويمحو ظُلمةَ اللَّيلِ بضوءِ النَّهارِ، فكُلٌّ منهما غِطاءٌ للآخَر[9].

---

(1) ابن منظور، لسان العرب: (سوا).
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/232.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عرش).
(4) الأزهريُّ، تهذيب اللُّغة، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (عرش).
(5) الرّاغب، المفردات: (عرش).
(6) الأزهريُّ، تهذيب اللُّغة: (عرش).
(7) الرّاغب، مفردات القرآن: (عرش).
(8) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/232.
(9) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرّاغب، مفردات القرآن: (غشي)، وابن منظور، لسان العرب: (غشا)، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (غشو - غشى).

4) ﴿حَثِيثًا﴾: مِنَ الجذر اللُّغويِّ (حثث)، ويَدلُّ في أحد أصلَيه على الحَضِّ على الشَّيء، ومنه: حَثَثْتُه على الشَّيء أحُثُّه، ومنه: الحثيث؛ يقال: ولَّى حثيثًا، أي: مسرعًا حريصًا، ورجلٌ حثيثٌ ومحثوثٌ: جادٌّ سريع، والحَثُّ: السُّرعة، والإعجالُ في اتِّصال، وقيل: هو الاستعجالُ ما كان. والمرادُ بـ ﴿حَثِيثًا﴾ في الآية: سريعًا، إسراعَ مَن يَدفعُه غيرُه، ويَحثُّه على الموالاة في الحركة[1].

5) ﴿مُسَخَّرَٰتٍ﴾: مِنَ الجذر (سخر)، وهو أصل مُطَّرِد مستقيم يَدلُّ على احتقارٍ واستذلالٍ، والمعنى المحوري: انقيادٌ بيُسر مع عدم مقاومة، ويَلزَم ذلك الخِفَّة، كما تجري السَّفينةُ وتتحرَّكُ بيُسر، لقوَّتها وضَعْف مقاومةِ الماء في الظَّرف الموصوف، وسَخَّر اللهُ ﷻ الشَّيءَ؛ وذلك إذا ذَلَّلَهُ لأمره وإرادته، وأصلُ "التَّسخير: سياقةٌ إلى الغَرض المُختصِّ قَهْرًا"[2]، وهو التَّذْليل، وسُفنٌ سَواخِرُ مَواخِر، فالسَّواخِرُ: المُطيعة الطَّيبة الرّيح، والمواخِر: التي تَمخُر الماءَ وتَشُقُّه[3]. والمرادُ بـ ﴿مُسَخَّرَٰتٍ﴾ في الآية: مذلَّلات في مَداراتها، لا تخرج عن النِّظام، ولا تَتَمرَّد.

6) ﴿وَٱلۡأَمۡرُۗ﴾: مِنَ الجذر (أمر)، وهو خمسة أصول: الأمْرُ مِنَ الأُمور، وضِدُّ النَّهي، والنَّماء والبَركَة بفتح الميم، والمَعْلَم، والعَجَبُ، والمعنى المِحْوريُّ: نفاذٌ مع عُلوٍّ، وراءَه جمعٌ بشدَّة. وأصل الأمر: الشَّأن، وجمعه أُمور، ومصدر أمَرْتُه: إذا كلَّفْتُه أن يفعل شيئًا، وهو لفظٌ عامٌّ للأفعال والأقوال كلِّها[4]، والمرادُ به هنا: التَّدبير، والتَّصرّف في مخلوقاته كما يشاء[5].

7) ﴿تَبَارَكَ﴾: مِنَ الجذر (برك)، وهو أصل واحد، يدلُّ على ثبات الشَّيء، ثمَّ يتفرَّع فروعًا يقارب بعضُها بعضًا، والمعنى المحوري هو: ثباتٌ واستمرارٌ مع لطفٍ، و(تبارك): فِعلٌ ماضٍ لا يتصرَّف، أصله: مِنَ البَرْك؛ وهو صَدْر البعير إذا أناخَ في مَوضِعٍ فلَزِمَهُ وثَبَتَ فيه، واعتُبِر

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرّاغب، مفردات القرآن، وابن منظور، لسان العرب: (حث، حثث)، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: 1/373.

(2) الرّاغب، المفردات: (سخر).

(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والجوهري، الصّحاح، وجبل، المعجم الاشتقاقيُّ المؤصَّل: (سخر).

(4) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيُّ المؤصَّل: (أمر).

(5) الميسّر في الغريب، مركز الدّراسات القرآنيّة بمجمع الملك فهد: 157.

منه معنى اللُّزوم، فاشتُقَّ منه: البرَكَة، وهي بمعنى: الثُّبوت والكَثْرة، أو النَّماء والزِّيادة، في الشَّيء والحال، بحيث يبقى وتَدوم منفعتُه أطولَ مُدَّة، فلا ينفَدُ سريعًا، وغلَب إطلاقُها على ثُبوتِ الخيرِ الإلهيِّ في الشَّيء، وقيل: لكلِّ ما يُشاهَد منه زيادَةٌ غيرُ محسوسة: هو مُبارَكٌ، وفيه بركة، والمرادُ بـ ﴿تَبَارَكَ ٱللَّهُ﴾: ثَبَتَ وكثُرَ خيرُه على خَلْقِه[1].

❁ المعنى الإجْماليُّ:

إنَّ اللّه ﷻ هو ربُّ العالمين، الَّذي خلقَ السَّماواتِ والأرضَ في ستَّة أيّام، ثمَّ استوى على عَرْشه استواءً يليق به سبحانه، فتمَّ بذلك حُكمُهُ وتدبيرُه، وقَهْرُه للمخلوقات جميعًا، ففي العالَم العلويِّ اللَّيلُ يسترُ النَّهارَ بظُلْمته، والنَّهارُ يمحو الظُّلمةَ بضيائه، وكلٌّ منهما في طَلبٍ مُتوالٍ ومتواترٍ للآخَر، والشَّمسُ والقَمرُ كذلك، والنُّجومُ مُذلَّلاتٌ ومُسَخَّراتٌ في أفلاكها، سابحةٌ في مداراتها، لا تخرجُ عن نظامها طرفةَ عينٍ؛ لأنَّها محكومةٌ، ومقهورةٌ بأمر اللّه، وقانونِه، وإرادتِه، وفي العالَم الأدنى له الخَلْقُ مُلْكًا وتدبيرًا، وله الأمْرُ تكليفًا وتيسيرًا، مع ما له تعالى مِن واسعِ الخيرِ، ووافرِ الإنعام على خَلْقِه كافَّةً، فتباركَ اللّهُ ربُّ العالَمين.

آيات الكون العِظام محكومةٌ ومقهورةٌ بأمر الله وتقديره، فلَهُ الخَلْق مُلكًا وتدبيرًا، وله الأمر تكليفًا وتيسيرًا

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

نُكتة التَّأكيدِ بالحرف ﴿إِنَّ﴾:

ابتُدِئَ بحرفِ ﴿إِنَّ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ﴾؛ لتأكيدِ مضمونِ الكلامِ، وللاهتمام بالخبر، أمّا التأكيدُ - وإن كان المشركون يثبتون الرُّبوبيَّة للّه، والمسلمون لا يَمْتَرون في ذلك - فهو لِتَنْزيل المشركين مِنَ المُخاطَبين منزلةَ مَن يتردَّد في كونِ اللّه ربًّا لهم؛ لكثْرةِ إعراضِهم عنه في عباداتهم وتوجُّهاتهم[2].

تأكيدُ انفرادِ الله بالألوهيَّة، والاهتمام بالخبر؛ لزيادةِ إيمان المؤمنين

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيُّ المؤصَّل: (برك)، طنطاويٌّ، الوسيط: 5/286.

(2) ابن عاشور: التّحرير والتّنوير: 8/161.

فهو جارٍ في تقرير ما نفاه المشركون مِن انفرادِ اللّهِ بالرُّبوبيَّة والأُلوهيَّة، وأمّا الاهتمامُ بمضمونِ الخبرِ: فهو يزيدُ المسلمين بصيرةً بعِظَمِ مَجدِ اللّهِ وسَعةِ ملكِه، ويزيدُهم ذِكْرى بدلائلِ قدرتِه[1].

فائدةُ إضافةِ لفظِ الرُّبوبيَّة إلى ضميرِ المُخاطَبين:

الخطابُ يشملُ جميعَ النَّاسِ؛ المؤمنينَ والمشركينَ

أُضيفَ لفظُ الرُّبوبيَّة إلى ضميرِ الخطابِ في قوله: ﴿رَبَّكُمُ﴾ للشُّمولِ، فهو يصلحُ في إرادة الفريقين معًا، فهو خطابٌ للمشركين ابتداءً، وللمؤمنين؛ لعموم مُتعلِّق الضَّمير، وبدليل اللِّحاق، فقد أُريد المؤمنون أصالةً بقوله: ﴿ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ﴾ [الأعراف: 55]، وقولِه: ﴿إِنَّ رَحۡمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ مِّنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٥٦﴾ [الأعراف: 56]، فهو بهم أليقُ، وأُريدَ المنكرون أصالةً في المثالِ المختومِ بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ نُخۡرِجُ ٱلۡمَوۡتَىٰ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ٥٧﴾ [الأعراف: 57]، وهم داخلون كذلك في قوله: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾، فهذا بهم أليق[2].

سرُّ تقديمِ المسنَدِ إليه ﴿رَبَّكُمُ﴾، على المسنَدِ ﴿ٱللَّهُ﴾:

إذا اجتمعَتْ معرفتان قُدِّم في الذِّكر الأعرفُ لدى المُخاطَب

لسائلٍ أن يسألَ عن سرِّ تقديم ﴿رَبَّكُمُ﴾ على لفظ الجلالة، فلم يقُل: (إنَّ اللّه ربُّكم)؟ والجوابُ: إنَّ الرَّبَّ المعلومَ للمُخاطَبين، هو ما دلَّ اسمُه على ذاته: اللّهُ، لا غيرُه ممَّن ليس له هذا الاسمُ، على ما هو الشَّأن، فهو تعريفُ المسنَدِ، في نحو: أنا أخوكَ، يقُال لمَن يعرف المتكلِّمَ، ويَعرفُ أنَّ له أخًا، ولا يعرفُ أنَّ المتكلِّم هو أخوه. فالمقصودُ مِن تعريفِ المسنَدِ: إفادةُ ما يُسمَّى في المنطق بحَمْلِ المواطأة، وهو حملُ (هو هو)، ولذلك يُخيَّر المتكلِّم في جَعْلِ أحد الجزأين مُسنَدًا إليه، وجعلِ الآخَر مُسنَدًا؛ لأنَّ كليهما معروفٌ عند المُخاطَب، وإنَّما الشَّأنُ أن يجعلَ أقواهما معرفةً عند المُخاطَب هو المُسنَدَ إليه؛ ليكونَ الحَمْلُ أجدى إفادةً[3].

(1) ابن عاشور: التّحرير والتّنوير: 8/159.
(2) ابن عاشور: التّحرير والتّنوير: 8/159.
(3) ابن عاشور: التّحرير والتّنوير: 8/160.

مناسبةُ ذكرِ الخَلْقِ للرُّبوبيَّة، والأمر للألوهيَّة:

اعتبارُ المناسبة في الخَلْقِ والأمرِ

الآية اشتملَتْ على ذِكْرِ الخلقِ الَّذي ناسب ذِكْر الرُّبوبيَّة، وهم به مُعْترفون، واشتملَت على ذِكْر الأمر والتَّسخير، الَّذي هو استعارةٌ في التَّكليفِ والتَّشريعِ، فناسبَ ذِكْرَ الألوهيَّة.

ومن فوائد الإخبارِ عنِ الرُّبوبيَّة بلفظ الجلالةِ: قطعُ الشِّرك، ودَحْضُ ادِّعاء مَن يُفرِّق بينهما، فينسِب لغير اللّٰه منهما شيئًا، ويُخلّي عنِ اللّٰه ما هو مُنفردٌ به، وخالصٌ له.

غرضُ وصفِ المسنَدِ ﴿ٱللَّهُ﴾:

الوصفُ بالمخصوصِ المتَّفقِ عليه أقوى في إقامةِ الحُجَّة

وُصِفَ لفظُ الجلالةِ: ﴿ٱللَّهُ﴾ بقوله: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ للتَّخصيص، والنَّصِّ، والتَّعيين؛ إكبارًا للشَّأن، وإلفاتًا للمقام، وتنبيهًا على الوصف الَّذي لا يلتبس، وهو أنَّ الرَّبَّ المعبودَ هو الَّذي خلق السَّماواتِ والأرضَ، "والصِّلةُ مُؤذِنةٌ بالإيماء إلى وجهِ بناءِ الخبرِ المُتقدِّم، وهو: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ﴾؛ لأنَّ خلقَ السَّماواتِ والأرضِ يكفيهم دليلًا على انفراده بالإلهيَّة"[1]، فالوصفُ بما هو متَّفقٌ عليه عقلًا، أقوى بُرهانًا، وأهدى سبيلًا في الإلزامِ والمُحاجَّة.

دلالة حرف ﴿ثُمَّ﴾ في قوله: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ﴾:

الاستواءُ على العرش بعدَ الخَلْقِ، يتناسبُ مع ترتُّبِ الأمرِ على الخَلْقِ

التَّرتيبُ في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ على ظاهره، قال ابن عاشور: "فدلَّت ﴿ثُمَّ﴾ في قوله: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ على التَّراخي الرُّتَبيِّ؛ تنبيهًا على أنَّ خَلْقَ السَّماواتِ والأرضِ لم يُحدِثْ تغييرًا في تصرفاتِ اللّٰهِ، بزيادةٍ ولا نقصانٍ، ولذلك ذكرَ الاستواءَ على العرشِ عَقِبَ ذِكْرِ خَلْقِ السَّماواتِ والأرضِ في آياتٍ كثيرةٍ، ولعلَّ المَقْصِدَ مِن ذلك إبطالُ ما يقولُه اليهودُ: (إنَّ اللّٰهَ استراحَ في اليوم السّابع)، فهو كالمَقْصِد مِن قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ

(1) ابن عاشور: التّحرير والتّنوير: 8/161.

خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾ [ق: 38]"[1].

الـرَّدُّ عـلى مَـن يعتقدُ أنَّ فِعلَ الله في الخَلْقِ والإيجـادِ دونَ البقاءِ والتَّدبيرِ

جاء قولُه تعالى: ﴿ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ كنايةً عنِ الإحاطةِ الكاملةِ للّه تعالى، وهيمنتِه على تدبيرِ أُمورِ الكونِ، سماءً وأرضًا بعد خَلْقِها، فالفائدةُ مِن ذِكْرِ ﴿ثُمَّ﴾ ومدخولها: الإشارةُ إلى أنَّ اللّه تعالى بعد أنْ خلقَ السَّماواتِ والأرضَ، دبَّرَ شؤونَ الخَلْقِ ورعاها، فهو الخالقُ ابتداءً، وهو المدبِّرُ امتدادًا، فقال تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾، وهذا ردٌّ على مَن يعتقد أنَّ الكونَ محتاجٌ إلى اللّه تعالى في الخلقِ والإيجادِ دونَ البقاءِ والتَّدبيرِ.

بلاغةُ جملةِ الحالِ: ﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ﴾:

بيـانٌ مستأنفٌ لـلـتَّـدبـيـرِ المُضَمَّنِ معناه في الاستواء

جملة: ﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ﴾ في مَوضِعِ الحالِ مِن اسمِ الجلالةِ، جاءَ به في صورة الحالِ، لا في صورة الخبرِ؛ ليكون بيانًا مُستأنَفًا للتَّدبيرِ[2] المُضَمَّن معناه في الاستواء على العرش، تنبيهًا على المقصود مِنَ الاستواء[3].

جزالةُ التَّعبيرِ البلاغيِّ في قولِه: ﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ﴾:

اجتماعُ الإيجازِ والـمَـجـازِ والاستعارةِ في تعبيرٍ واحدٍ، تصويرٌ فنيٌّ بديعٌ

في قوله: ﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ﴾ مجموعةٌ مِنَ الفوائدِ البلاغيَّةِ:

أوَّلًا: الإيجازُ: "فمِن بديعِ الإيجازِ ورشاقةِ التَّركيبِ: جَعْلُ اللَّيلِ والنَّهارِ مفعولين لفعل فاعلِ الإغشاء، فهُما مفعولان، كلاهما صالحٌ لأن يكونَ فاعلَ الغَشْيِ، ولهذا استغنى بقوله: ﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ﴾ عن ذِكْرِ عكسه"[4]، وهذا الإيجازُ مبنيٌّ على أنَّ الغِطاءَ والغِشاءَ أنسبُ للظُّلْمة منه إلى ضوء النَّهار.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/166.
(2) رضا، تفسير المنار: 8/403.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/166.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/167.

ثانيًا: المجازُ الإسناديُّ: فقد حصلَ هذا التَّجوُّز بإسناد ما هو خاصٌّ بمكان الشَّيء، إلى الشَّيء نفسِه، ومكانُ الغَشَيان: هو الجوُّ، على معنى: أنَّه مكانٌ للضَّوء الَّذي هو لازمه، لا أنَّه مكانٌ للنَّهار نفسِه؛ لأنَّ الزَّمان لا مكانَ له[1].

ثالثًا: الاستعارةُ: وهي جاريةٌ بجَعْله غشيان مكانِ النَّهارِ وإظلامِه، بمنزلةِ غشيانِه للنَّهار نفسه، فكأنَّه لَفَّ عليه لَفَّ الغِشاء، أو شَبَّه تغييبَ كلٍّ منهما للآخر بطَرَيانِه عليه، بسترِ اللِّباسِ لِلابسِه[2]، فالغَشْيُ للمكان، ونِسبَتُه للزَّمان مجازٌ للمُلابسَة.

توجيهُ القراءاتِ القرآنيَّةِ في قوله: ﴿يُغْشِى﴾:

قرأ نافعٌ، وابنُ كثير، وأبو عمرو، وابنُ عامر، وعاصمٌ في رواية حفص: ﴿يُغْشِى﴾، بضمِّ الياء وسكونِ الغين وتخفيف الشّين، وقرأ حمزةُ، والكِسائيُّ، وعاصمٌ في رواية أبي بكر، ويعقوبُ، وخَلَفٌ: ﴿يُغَشِّى﴾ بضمِّ الياء وفتح الغين وتشديد الشّين، وهما بمعنًى واحدٍ في التَّعدية، إلّا أنَّ قراءة التَّشديد تدلُّ على التَّكرارِ، وقوَّةِ التَّمكُّنِ، والاستِحواذِ مبالغةً في الغَشَيان الحاصلِ بينهما[3].

التَّضعيفُ يفيدُ التَّمكُّنَ، والتَّكرارَ، والإمعانَ في حدوث الفعل

أثرُ الاستعارةِ التَّمثيليَّةِ في تصويرِ المعنى:

في قوله تعالى: ﴿يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا﴾ استعارةٌ تمثيليَّةٌ، حيث صوَّرتِ الآيةُ اللَّيلَ يُلاحقُ النَّهارَ بظَلامه فيسترُه، ويطلبُه طلبًا سريعًا فيدركُه؛ كمَن يُلاحِق شخصًا آخَر في عمليَّة ملاحقةٍ سريعةٍ، فإسنادُ فعلِ الطَّلب إلى اللَّيل مجازيٌّ، وفيه إشارةٌ إلى أنَّ اللَّيلَ هو الأصلُ، والنَّهارَ طارئٌ؛ لأنَّه المقصودُ أصالةً مِنَ الإسناد، فكأنَّ النَّهارَ في مجيئه وإشراقه قد أخذ مِنَ اللَّيلِ سلطانَه، فبدأ اللَّيلُ في محاولةٍ دائمةٍ، وطلبٍ حثيثٍ لاسترجاعِ بعضِ ما فقدَه مِن ذلك.

تشبيهُ طلبِ اللَّيلِ النَّهارَ برجلٍ يُلاحِقُ آخَر ليُدركَه

(1) الآلوسيُّ، روح المعاني: 4/375.
(2) الشِّهاب الخفاجي، حاشية الشِّهاب: 4/173، والآلوسي، روح المعاني: 4/375.
(3) ابن الجزريِّ، النَّشر في القراءات العشر: 2/202، والآلوسي، روح المعاني: 4/376.

المعنى الكنائيُّ في التَّعاقُبِ الزَّمانيِّ:

متابعةُ اللَّيلِ للنَّهارِ أو العكس، دائمةٌ متَّصلةٌ غيرُ منقطعة

معنى قوله: ﴿يَطۡلُبُهُۥ حَثِيثٗا﴾؛ أي: يطلبُ اللَّيلُ النَّهارَ، أو كلاهما يطلبُ الآخر طلبًا سريعًا حتَّى يلحقَه ويُدركَه، وهو كنايةٌ عن أنَّ أحدَهما يأتي عَقِبَ الآخَر، ويَخلُفُه بلا فاصل، فكأنَّه يطلبُه طلبًا سريعًا لا يَفْتُر عنه حتَّى يلحقَه[1]، فهي كنايةٌ عن سرعةِ الملاحقةِ واتِّصالِها ودوامِها دونَ انقطاع.

موقع جملة: ﴿يَطۡلُبُهُۥ حَثِيثٗا﴾ ممَّا قبلها:

الجملةُ تتعاوزُها الحاليَّةُ، أو البَدليَّةُ، أو الاستئناف

جملة: ﴿يَطۡلُبُهُۥ حَثِيثٗا﴾ واقعةٌ استئنافًا، أو بدلَ اشتمالٍ، مِن جملة: ﴿يُغۡشِي ٱلَّيۡلَ﴾، والضَّميرُ المنصوبُ في ﴿يَطۡلُبُهُۥ﴾ يعودُ على اللَّيل وعلى النَّهار، ويمكن أن تكونَ حالًا مِن أحدِ المفعولَين: ﴿ٱلَّيۡلَ﴾ ﴿ٱلنَّهَارَ﴾ على السَّواء؛ فإنَّ كلًّا مِنَ اللَّيل والنَّهار يُعتبَرُ طالبًا ومطلوبًا، تَبَعًا لاعتبار أحدِهما مفعولًا أوَّلَ أو ثانيًا[2].

دلالةُ الواو في قوله: ﴿وَٱلشَّمۡسَ﴾:

الشَّمس يَصحُّ عطفُها على: ﴿خَلَقَ﴾ أو ﴿يُغۡشِي﴾

الواو في قوله: ﴿وَٱلشَّمۡسَ﴾ معطوفةٌ على السَّماوات في قوله: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾؛ أي: (وخلقَ الشَّمسَ)، أو أن تكونَ معطوفةً على: ﴿يُغۡشِي ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَ﴾؛ أي: (ويُغْشي الشَّمسَ)؛ أي: يَغْشَى كُلٌّ قَبيلٍ منهُما ما الآخَرُ آيَتُهُ، حالَ كَوْنِ الكُلِّ ﴿مُسَخَّرَٰتِۭ﴾[3].

توجيهُ المخصوص بالذِّكْر: ﴿وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ﴾:

تكوينُ الشَّمس والقمرِ أَصيلٌ ضروريٌّ، لا تابعٌ جماليٌّ

خُصَّتِ الشَّمسُ والقَمرُ بالذِّكرِ مع دُخولِهما في النُّجوم؛ لإظهارِ شرفِهما مِن حيثُ التَّكوينُ والرُّتبةُ والأثرُ؛ لما فيهما مِن مزيدِ الإشراقِ والنّورِ، وتوقُّفِ معرفةِ الأوقاتِ على حركَتِهما في الآفاقِ، ولأنَّه قد لا يُفهَم دخولُهما في النُّجوم.

---

(1) سيِّد طنطاويّ، التَّفسير الوسيط: 5/285.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/167.

(3) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 7/417.

نُكْتةُ تقديمِ الشَّمسِ على القَمَرِ والنُّجوم:

الأصلُ تقديمُ الأصلِ على فرعِه، ومراعاةُ المطابقةِ في التَّرتيبِ

قُدِّم ذِكْرُ الشَّمس على القَمر والنُّجوم؛ لأنَّها أشدُّ ضوءًا مِنَ القَمر، بل نور القمرِ هي أصله، فهي أسنى وأسمى.

ورعايةً لبديعِ المُطابقةِ، مع ما تقدَّم، فاللَّيلُ يُطابقُ الشَّمسَ، والنَّهارُ يُطابقُ القمرَ، فروعيتِ المُطابقةُ في التَّرتيب[1]، وثُلِّثَ بسائر النُّجوم؛ لأنَّها كالخَدَم منهما[2].

نُكْتةُ الاستعارةِ في قوله: ﴿مُسَخَّرَٰتٍ﴾:

الامتنانُ على النَّاسِ بما أخضعَه لهم مِن عظيمِ خَلْقِه وبديعِ صُنْعِه

التَّسخيرُ في حقيقته: تذليلٌ بقَهْرٍ وتخويفٍ، أو بتعليمٍ وسياسةٍ بدون عِوَض، ومنه: تسخيرُ العَبيد والأسرى، ويُستَعمل مجازًا في تصريفِ الشَّيء غيرِ ذي الإرادة، في عملٍ عظيمٍ مِن شأنه أن يَصْعُبَ استعمالُه فيه، تصريفًا يُصيِّرُه مِن خصائصه وشُؤونه، فقولُه: ﴿وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتِۭ بِأَمۡرِهِۦٓۗ﴾ أطلَقَ التَّسخيرَ فيه مجازًا على جَعْلِها خاضعةً للنِّظام، خُضوعًا مُطَّرِدًا لا يتخلَّف، مع أنَّ شأنَها العظيم يمتنعُ معه أن يَضعَها غيرُ اللّٰهِ على نظامٍ مُحدَّدٍ منضبطٍ[3]، فشُبِّهَتِ الشَّمسُ والقمرُ والنُّجومُ بحيوانٍ سُخِّر ليُقادَ لإفادةِ غيرِه، فهي استعارةٌ مَكنيَّةٌ تخييليَّة، نُكْتَتُها: الامتنانُ على النّاسِ بما سخَّره اللّٰهُ لهم مِن بديعِ خَلْقِه، وعظيمِ صُنْعِه.

دلالةُ الباءِ في قوله: ﴿بِأَمۡرِهِۦٓۗ﴾:

كلُّ مُسخَّرٍ في الوجودِ فَسَبَبُه مُوجِدُ الوجودِ

الباء في قولِه تعالى: ﴿بِأَمۡرِهِۦٓۗ﴾ للسَّببيَّة، وفيه إلْفاتٌ إلى أنَّ كلَّ تسخير وطواعيَة تجود بها الأشياءُ، إنَّما هو بسببِ أمرِ اللّٰه، وهو دَفْعٌ لاعتقاد مَن يزعم أنَّ الكونَ يسير صُدْفةً مِن غير مُؤثِّر فيه بالفعل

(1) الآلوسيُّ، روح المعاني: 4/377.
(2) النَّيسابوريُّ، غرائب القرآن: 3/253.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/67، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/169.

والتّحريك، "ويَجوزُ أن تكونَ الباءُ للحال؛ أي: مصاحبةً لأمره، غيرَ خارجةٍ عنه في تسخيرها"[1].

بلاغةُ النَّظم في قوله تعالى: ﴿بِأَمۡرِهِۦٓۗ﴾:

بلاغةُ التَّعبيرِ في تنوُّعِ مُرادِ الخبيرِ، دليلٌ على مُكْنةِ النَّظْم في دَفْعِ الوَهْم

لفظُ الأمر في قوله: ﴿بِأَمۡرِهِۦٓۗ﴾ مُستعمَلٌ مجازًا في التَّصريفِ، بحسب القُدرةِ الجاريةِ على وفقِ الإرادةِ[2]، "فتسميَةُ ذلك أمرًا على سبيل التَّشبيه والاستعارة"[3]، "إذ جَعَلَ هذه الأشياءَ لكونها تابعةً لتدبيره وتصريفه كما يشاء، كأنَّهُنَّ مأموراتٌ مُنقادَةٌ لأمره"[4]، تنبيهًا على أنَّها في امتثالها وعدم عصيانِها كالمُكلَّفينَ العُقلاء، وحقيقةُ الأمرِ في الطَّلبِ الجازم. ويَصحُّ حَمْلُ الأمرِ على تلك الحقيقةِ، ولا مجازَ بِحَمْله على الأمر الكَلاميِّ؛ بمعنى: أنَّه سبحانه أمرَ هذه الأجرامَ بالسَّيرِ الدّائم، والحركةِ المُستَمرَّة على الوجه المخصوص إلى حيث شاءَ، ولا مانعَ مِن أن يُعطيَها اللّهُ تعالى إدراكًا وفهمًا"[5]، ويَصِحُّ أن يكون ﴿بِأَمۡرِهِۦٓۗ﴾كنايةً عن إرادته وقضائه، فلازمُ الأمرِ أنَّه قاضٍ مُريد.

فائدةُ التَّعبيرِ بأداة الاستفتاح ﴿أَلَا﴾ في هذا السِّياق:

تنبيهُ النَّاسِ وتهيئةُ نفوسِهم للشُّؤون العظيمة الَّتي تُقَرَّر

﴿أَلَا﴾ حرفُ تنبيه، وجاء في قولِه تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُۗ﴾ للجَهْرِ في أسماع النّاس بالإيقاظ والتَّنبيه لما سيُلْقَى عليهم مِنَ الأمرِ العظيم الثّابتِ، ففائدةُ تلك الأداة: تهيئةُ النُّفوس للشُّؤونِ العظيمةِ التي تُقَرَّر، إذ إنَّ هذه الآية بهذا التَّركيب الَّتي صيغ نظمُها عليه، تُعَرِّضُ بالنُّفوس البشريَّة الَّتي تعتقد إمكانَ أن يكونَ لغير اللّه – في مُلكه – تأثيرٌ في شَيء مِنَ المقاديرِ والحوادثِ والتَّصاريفِ، فنفَى

(1) السّمين الحلبيّ، الدُّرُّ المصون: 5/344.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/169.
(3) الآلوسّي، روح المعاني: 4/378.
(4) الشّهاب، حاشية الشّهاب: 4/173.
(5) الآلوسّي، روح المعاني: 4/377.

اللّهُ بتلك الآية كلَّ ظَنٍّ قد يعتري النُّفوسَ، بأنْ سيْقَ تركيبُها غايةً في الوَجازَة، وكمالًا في الإثباتِ والتَّأكيدِ والحَصْرِ، فوَقعَت جامعةً مانعةً مُحكَمةً، يَنْقشِعُ بها كلُّ ظَنٍّ واحتمال.

نُكْتةُ تقديمِ المُسنَد على المُسنَد إليه في: ﴿لَهُ ٱلْخَلْقُ﴾:

اختصاصُ الله تعالى بمُلكِ الخَلْقِ، وتدبيرِه

اللّامُ الجارَّةُ لضمير الجلالة في قوله تعالى: ﴿أَلَا لَهُ﴾ لامُ المُلك، وتقديمُ المسنَد هنا؛ لتخصيصه بالمسنَد إليه[1]؛ أي: له وحدَه لا لغيره، الخَلْق والأمْر.

نُكْتةُ تقديمِ ﴿ٱلْخَلْقُ﴾ على ﴿وَٱلْأَمْرُ﴾:

قَدَّم المُسَبَّب وهو: ﴿ٱلْخَلْقُ﴾، على السّبب وهو: ﴿وَٱلْأَمْرُ﴾؛ ترقيةً مِنَ المحسوس إلى المعقول[2].

مَوقِعُ قولِه: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ مِنَ الكلامِ السَّابق:

وقعتِ الجملةُ استئنافًا تذييليًّا لما سبق

المرادُ بالخلقِ في قوله: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ ما يتعلَّقُ بإيجادِ ذواتِ الأشياءِ، وبالأمرِ: ما يتعلَّقُ بتحديد أوضاعِها، وتكييفِ النِّظامِ الجاري عليها، وقد باينَ بينهما في صدرِ الآيةِ، فقال: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾، وهذا هو إيجادُ الذَّواتِ، ثمَّ قال: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِي ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ﴾، وهذا هو إيجادُ نظامِها الأمثل، وتدبيرها الأحكم، وجملة: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ استئنافٌ مَسوقٌ للتَّذييل على الكلام السّابق في قوله: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ﴾، وقولِه: ﴿بِأَمْرِهِۦ﴾، ومردودٌ إليه[3].

نوعُ التَّعريفِ في قوله: ﴿ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾:

أفادَت (ال) استغراقَ الجنسِ كلّه في عالمِ الغيبِ والشَّهادةِ

(ال) في لفظي: ﴿ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ لاستغراقِ الجنسِ، وهو يفيدُ العمومَ؛ أي: كلُّ الخَلْق، وكلُّ الأمر له، ليس لغيره، وهو يفيدُ القصرَ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/169.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 7/417.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/169.

الحقيقيَّ في كليهما، بقرينةِ تقديمِ الجارِّ والمجرور، وبمعونةِ الاستهلال بـ ﴿أَلَا﴾ الافتتاحيَّة، وهو ما يُشاهده الخلقُ، ويحكمُ به الحقُّ.

وأفادَت استغراقَ الخَلْقِ والأمرِ للعالَمين: عالَم الغيبِ والشَّهادة، فالمادَّةُ المشهودةُ: اللَّيل والنَّهار، والشَّمس والقمر، والغيبُ: هو الاستواءُ على العَرْشِ، وإنشاءُ خَلْقِ السَّماواتِ والأرضِ، كما قال تعالى: ﴿مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ﴾ [الكهف: 51].

ربطُ جملةِ التَّذييلِ: ﴿تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾:

جملة: ﴿تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، اعتراضٌ بينَ جملة: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ﴾، وجملةِ: ﴿ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾، في موقع التَّذييل لآية: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ﴾، وفي موقعِ التَّمهيدِ والتَّهيئةِ للأمر بعدَه، في قوله: ﴿ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ﴾[1]، وهي تطمينٌ وبُشْرى بعد تقريرِ إفرادِ اللهِ بالخَلْق والأمر، المُشْعِر بالتَّرهيبِ منه؛ لكمالِ سُلطانِه وهيمنتِه بهما، فأتبَعَهُ بما يُفيدُ التَّرغيبَ في خيره المتواترِ، وخزائنِه ذاتِ البركةِ الدّائمة، وإذا كان ذلك كذلك، فتَهَيَّؤوا لقوله بعدَه: ﴿ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾، فكان هذا التَّذييل على هذا التَّركيب كاللُّحْمَة الآخِذَة بزمام ما قبلَها وما بعدَها؛ لِتُسْلِمَ السّامع مِن ترهيبٍ لترغيبٍ، ومِن عبوديَّة الخالقِ بالمعرفةِ والاعتقادِ، إلى عبوديَّته بالعمل وحُسْنِ الوسيلة إليه.

تذييلُ الكلامِ بالثَّناءِ على الله، هو مُقتضَى التَّعليم والتَّربية الحَقَّة

خصوصيَّة لفظ: ﴿تَبَارَكَ﴾ في الاستعمال:

صيغة: ﴿تَبَارَكَ﴾ لم يجئْ منها مضارعٌ ولا أمرٌ ولا اسمُ فاعل، فلا يُقال: مُبارَكٌ ولا مُتَبارِكٌ، وهي لازمةٌ للماضي، والنُّكتةُ في ذلك: أنَّه لم يوصَفْ به غيرُ الله، واللهُ تعالى تباركَ في الأزل، وهو تعليلٌ يناسبُ مَعنَيَيْها، فـ ﴿تَبَارَكَ﴾[2] مِن مادَّة البركة، وأصلها: (بَرْك)

(تَبَارَكَ) خاصَّةٌ بالله تعالى؛ لما لها من معانٍ لا تليقُ إلَّا به

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/170.
(2) ابن منظور، لسان العرب: (برك).

البعير؛ أي: صدُره؛ لأنَّ الإبل إذا ثبتَت واستقرَّت في مكان، ألصقَت صدرَها بالأرض، ثمَّ استُعيرَت هذه الكلمة، فاستُعمِلَت في كلِّ ثبوتٍ واستقرارٍ محمودٍ، حتَّى غلبَت على النِّعم الثّابتةِ الدّائمة، والأعمارِ الطَّويلةِ، فوُصفَت بها، فالشَّيءُ المُبارَكُ: هو الموصوفُ بالدَّوام والثُّبوت، وأليق وأحقُّ وجودٍ لهذه الصِّفة هو وجودُ اللّه تعالى، فهو وجودٌ مُبارَكٌ، أزليٌّ أبديٌّ في ذاتِه وأفعالِه، وهو مَنشأُ ومصدرُ جميع البركات والخيرات، والمعنى الثّاني: مِنَ البَرَكَة، بمعنى: الكَثْرة مِن كلِّ خيرٍ، وكِلا المعنيين ثابتٌ للّه تعالى، فتباركَ اللّهُ في ذاته ثُبوتًا وأزلًا، وفي عطاءاته كثرةً ووفْرةً[1]، فلا جَرَمَ حينَئذٍ أن كانت تلك الصّيغة: ﴿تَبَارَكَ﴾ مشتملةً على اللُّزوم والثُّبوت، مَبنىً ومعنىً. وفي إيراد هذا الختْم بتلك الصّيغةِ بعد ذِكْرِ الخَلْقِ والتَّدبيرِ والأمرِ، نوعٌ مِن أنواعِ الثَّناءِ على اللّه، فكأنَّ تلك المذكورات سببٌ يستلزمُ الثَّناءَ على اللّه، فسيقَت هذه الجملة مساقَ الثَّناء عليه؛ تعليمًا للخَلْق، وتحريضًا لهم على ترديدها، وذِكْرِ اللّهِ بها: ﴿تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

بلاغةُ التَّصديرِ في الآية الكريمة:

في قوله: ﴿رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ تفريعٌ وبيانٌ جرى مَجرَى التَّعليل لما قبلَه؛ أي: تباركَ اللّهُ، وكَثُر فيضُه، ودامَت وعمَّت بَرَكتُه؛ لأنَّه اللّهُ ربُّ كلِّ المخلوقات والكائنات، "فهو ختامٌ لوحِظَ فيه مَطلَعُه"[2]، فهو تصديرٌ بديعٌ، وردٌّ أخّاذ.

البَدْءُ بالرُّبوبيَّةِ والختمُ بها دليلٌ على أنَّ الخيرَ بيدِه ابتداءً وانتهاءً

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(حثيثًا)، (سريعًا):

السُّرعة: مُطلَقُ الاندفاعِ في المَسار، وهي ضِدُّ البُطْءِ، والحثيث: هو السَّريعُ بفِعل الحَثِّ والحَضِّ؛ ولذا فسُرعتُهُ تكون متواليةً بفعلِ

(سريعًا) أعمُّ مِن (حثيثًا)؛ لأنَّ الحثيثَ سرعةٌ مطلوبةٌ مِن مُعاقِب

(1) الآلوسيُّ، روح المعاني: 4/378.
(2) الآلوسّي، روح المعاني: 4/378.

تحريكٍ آخَرَ يَدفعُها ويُديمها، فسريعٌ أعمُّ مِن حثيث؛ لأنَّ الحثيثَ سُرعةٌ مطلوبةٌ مِن مُعاقِب، فهي سُرعةٌ مُطاوِعةٌ لِمُسْرِعٍ وراءَها، ولذا قال: ﴿يَطْلُبُهُۥ﴾؛ أي: يَعقُبُه، فلَزِم أن يُقالَ: ﴿حَثِيثًا﴾ لا سريعًا؛ لإرادةِ التَّنبيه على أنَّها سرعةٌ مِن طرفين، أو جهتين، كلٌّ منهما يُحرِّك الآخَر[1].

(سَخَّر)، (ذَلَّل):

التَّذليلُ: أعمُّ مِنَ التَّسخير، والتَّسخيرُ نوعٌ خاصٌّ منه، والفرق بينهما: أنَّ التَّسخير تذليلُ الشَّيء بقوَّةِ القابليةِ والاستعدادِ، وفِطرةِ التَّكوينِ؛ كَتَسخير الشَّمس والقمر، فهما لا يخرجان عنِ النِّظام بفعل قوَّةِ الطَّواعيَةِ والقابليَّةِ الكائنةِ فيهما، وأمّا التَّذليل فقد يقع بقوَّة الخارج والسُّلطة، من غير استعدادٍ أو قابليَّة أو طواعيَةٍ ذاتيَّة، فيكون عن قَهْر، كقوله تعالى: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ﴾ [آل عمران: 112]، ويكون معناه الإيقاع في الذُّلِّ، وقد يكون ذاتيًّا ناشئًا باختيار الفاعل، من غير قَهْر، كقوله تعالى: ﴿وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ﴾ [الإسراء: 24]، وقولِه تعالى: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: 54]، وقد يكون في التَّكوين كالتَّسخير، كقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا﴾ [تبارك: 15]، ﴿فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا﴾ [النّحل: 69]، ﴿وَذَلَّلْنَٰهَا لَهُمْ﴾ [يس: 72]، فالتَّذليلُ مَوارِدُه كثيرةٌ، وتتعلَّقُ به معانٍ تخرجُ به عنِ الانقياد التَّكوينيِّ الثّابت مِن غير مُقاومةٍ، بيُسرٍ وسلاسةٍ، ولذلك عَبَّر هاهنا بقوله: ﴿مُسَخَّرَٰتٍۭ﴾؛ للتَّنبيه على أنَّ تذليلَ الشَّمسِ والقمرِ والنُّجومِ والأفلاكِ العُلويَّةِ، هو تذليلٌ مُتفرِّدٌ لا نظيرَ له.

التَّذليل: فيما له نظيرٌ غيرُ مُذَلَّلٍ مِنْ جنسه، وفيما يَتعدَّى فِعلُ المخلوقِ إليه بالمُكْنَةِ والغَلَبَةِ، وأمَّا التَّسخيرُ: فليس مُستعمَلًا في هَذَيْن

والضّابطُ الحاصلُ في الفرق بينَ التَّذليل والتَّسخير:

أنَّ التَّذليلَ يُستعمل فيما يمكن أن يكونَ له نظيرٌ غيرُ مُسخَّر؛

(1) الأزهريُّ، تهذيب اللُّغة، والجوهري، الصِّحاح، وابن فارس، مقاييس اللُّغة: (حثَّ)، وجبل، المعجم الاشتقاقيُّ المؤصَّل: (حثث - حثحث).

كتذليل الأنعام في قوله: ﴿وَذَلَّلْنَٰهَا لَهُمْ﴾ [يس: 72]، فهذه الأنعامُ لها نظائرُ مِن جنسها غيرُ مُذلّلةٍ، فلا تُؤكَل ولا تُركَب.

والتَّذليلُ يُستعمَل فيما يتعدَّى فِعلُ المخلوقِ إليه، كقوله تعالى: ﴿جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا﴾، ﴿فَٱسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا﴾ [النّحل: 69]، ففِعلُ المخلوق في هاتين مُتعدٍّ إليهما بالتَّأثير والتَّغيير.

وأمّا التَّسخير فليس مُستعملًا في هَذَين، فالأفلاكُ المُسخَّرةُ ليس لها نظيرٌ مِن جنسها غيرُ مُسخَّر، وليس للمخلوق مُكْنَةٌ عليها بتأثيرٍ أو تغييرٍ لإرادتها المطبوعة فيها، بل يكون التَّسخيرُ في الذَّوات المُحترمَة ذاتِ الرُّتْبَةِ في العلوِّ والاعتبار، حِسًّا أو معنًى؛ كالأفلاك والفُلْك والبحار واللَّيل والنَّهار، ولهذا المعنى استُعمِل (التَّسخير) في بني آدم في قوله: ﴿لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾ [الزّخرف: 32]، فاستُعمل التّسخير؛ لأنَّها أنْفُسٌ محترَمةٌ، ولأنَّها نفوسٌ تعلَّقَ بها إكرامُ اللّهِ لها: ﴿۞وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ [الإسراء: 70]، فلِعُلوِّ رتبتِهم لم يَستعمِل معهم صيغةَ: (التَّذليل)[1].

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: 10/158، والرّاغب، المفردات: (ذلل - سخر)، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (ذلل - ذلذل - سخر).

﴿ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةًۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ٥٥﴾

[الأعراف: 55]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

بعد تقريرِ أنَّ الخَلْقَ والأمرَ لا يكون إلّا للّهِ، ناسَبَ أن يَذكُرَ بعد ذلك إلزامَ الخَلْقِ بتكليفٍ وأمْرٍ، هو أصلُ معنى العبوديَّة، وهو الدُّعاءُ على جهة التَّذَلُّلِ، والاستخفاءِ، والنَّهي عنِ الاعتداءِ بتَركِ الدُّعاءِ، أو الإتيانِ به بما يُخالفُ شرطَهُ، أو الإعراضِ عنه بالإعراضِ عنِ العُبوديَّةِ والإقرارِ بها للّهِ العظيمِ.

الدُّعاء أعظم مظاهر العبوديَّة لله تعالى، وأقرب للإجابة إن اقترن بالإخفاء والتَّذلُّل والافتقار إلى الله

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تَضَرُّعٗا﴾: مِنَ الجذر (ضرع)، وهو أصل يدلُّ على لين في الشَّيء، والمعنى المحوري هو: رخاوةٌ أو رِقَّةٌ معنويَّةٌ بالغةٌ، عُبِّر بها عنِ التَذَلُّل، وضَرَعَ الرَّجلُ يَضْرَع ضَرْعًا وضَراعَة؛ إذا استكان وخَضَعَ وذَلَّ، فهو ضارِع بيِّنُ الضَّراعَة، والتَّضرُّع: إظهارُ الضَّراعَةِ، وهي التَّذلُّلُ، والخُضوعُ، والاستِكانةُ، وتَضَرّعَ إلى اللّه: ابتهل[1]، والمراد: تدعون مُظهرينَ الضَّراعَة، وهي شِدَّة الفقر إلى الشَّيء، والحاجة إليه[2].

2) ﴿وَخُفۡيَةًۚ﴾: مِنَ الجذر (خفي)، وهو أصلان متباينان مُتضادّان، فالأوَّل: السَّتْر، والثّاني: الإظهار، وخَفيَ الشَّيء: يخفى، وأخفيتُه وخَفيتُه، وهو في خُفيَة وخَفاء؛ إذا سترتُه وكَتَمتُه، والخفاء، والخافي، والخافية: الشَّيءُ الخَفيُّ، وهو نقيض العلانيَّةِ، وفعل

(1) ابن دُريد، جمهرة اللُّغة، والأزهري، تهذيب اللُّغة، والجوهري، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللُّغة، وجبل، المعجم الاشتقاقيُّ المؤصَّل: (ضرع)، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: 2/376.

(2) الزَّجاج، معاني القرآن: 2/259.

الشَّيءَ خَفيًّا، وخِفْيَة، وخِفْوَة، وخُفْيَة، مصادر، وفِعلُها اللّازم: اختَفَى، بمعنى: استَتَرَ وتَوارى، والمرادُ: ادْعوُه سِرًّا أو في الخَفاء[1]، أي: اعتَقِدوا عبادتَه في أنفسكم؛ لأنَّ الدُّعاء معناه العبادة[2].

المعنى الإجْماليُّ:

توَجِّهُ الآيةُ النّاسَ إلى دعاءِ اللّه تعالى دون غيره، في تلبيةِ حوائجِهم بتَذلُّلٍ، واستكانةٍ، وإسرارٍ، واستِتارٍ، فإنَّه سبحانه يسمعُ الدُّعاءَ، ويجيبُ المضطرَّ، ويكشفُ السّوءَ، وهو القادرُ على إجابةِ دعائكم، وغيرُه عن ذلك عاجزٌ[3]، وفي الآيةِ: نهيٌ عنِ الاعتداء في الدُّعاء، فهو لا يحبُّ المتجاوزين حدودَ شرعِه[4]، وأعظمُ التّجاوزِ دعاءُ غيرِ اللّهِ أو تركُ دعاءِ اللّهِ.

التَّذلُّل لله والاستكانة إليه في السِّرّ مفتاحُ إجابةِ الدُّعاء، مع وجوب عدم الاعتداء به

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

مناسبَةُ الابتداءِ بالأمرِ بالدُّعاءِ لِمَا قَبلَه:

ابتُدِئت الآيةُ بالأمر: ﴿ٱدۡعُواْ﴾، وهو تفريعٌ معنويٌّ عن قوله: ﴿أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُۗ﴾، فالَّذي له الخَلْقُ والأمر؛ هو الَّذي خلقَكم، وأمرَكم بدعائه، كما يُحبُّ مِنَ الضَّراعةِ في الخفاءِ.

مَوقِعُ جملةِ الأمرِ: ﴿ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ﴾:

قوله تعالى: ﴿ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةًۚ﴾ جملةٌ استئنافيّةٌ سيقَت تفريعًا على الآية قبلَها، ولم تُعْطَفْ على ما قبلها في اللَّفظ؛ إيقاعًا لها مَوقِعَ الاستقلال، وإيذانًا بأنَّ الدُّعاءَ عبادةٌ تنفردُ رأسًا بالإنشاءِ والابتداءِ والتَّكليفِ، ولتجريَ تلك الآيةُ مَجرَى القانونِ المُصاغِ، والتَّشريعِ المَسْنونِ.

الدُّعاءُ مِن أعظم العباداتِ الَّتي يقوم عليها المُعتَقَدُ والسُّلوكُ

(1) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللُّغة، والجوهري، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللُّغة، وابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم: (خفي)، والقاسميُّ، محاسن التَّأويل: 5/102.

(2) ابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم: (خفي).

(3) طنطاويّ، الوسيط: 5/287.

(4) التَّفسير الميسَّر: 157.

توجيهُ تخصيصِ الدُّعاءِ بالذِّكر:

تكليفُ المُخاطَبين بالدُّعاءِ تعليلٌ عقليٌّ، وإرشادٌ نفسيٌّ، وتعليمٌ سلوكيٌّ

جاءَ الأمرُ للمَخلوقين بالتَّكليفِ بالدُّعاءِ دونَ غيره مِنَ الأوامرِ والتَّكليفاتِ؛ ليكونَ كالتَّعليل النّاشِئ عن ختامِ الآيةِ قبلَه، فقولُه: ﴿تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ تحضيضٌ وإغراءٌ بما جاء بعدَه مِنَ الأمر بالدُّعاء؛ يعني: إذا كان اللهُ قد تباركَ وكَثُرَ خيرُه ودامَ؛ لأنَّه ربُّ العالَمين؛ فجَديرٌ بكم سؤالُ خَيرِه، ورجاءُ بركتِه، بدعائِكم له، وتَضَرُّعِكم إليه.

بلاغةُ الاستئنافِ في تقريرِ المقابلةِ، واستتمامِ التَّقاسيمِ:

جمعُ أنواعِ المكلَّفين، والمقابلةُ بين العالَم العُلْويِّ والعالَم الأرضيِّ

لمّا كان قولُه: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ يُغۡشِي ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَ يَطۡلُبُهُۥ حَثِيثٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتِۭ بِأَمۡرِهِۦٓۗ أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ مستأنفًا عمّا قبلَه؛ لتقريرِ سلطانِ اللهِ بالخَلْقِ والأمرِ على العالَم العُلْويّ، المُكلَّفِ تسخيرًا وكَرْهًا بأمر الله، فوافقَ أن يُتبِعَ ذلك باستئنافٍ مُقابَلٍ بتكليفِ الإنسانِ وأمرِه في العالم الأرضيِّ تكليفَ تخييرٍ وطواعيَةٍ، فقال: ﴿ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةًۚ﴾، فلغَرضِ استيفاءِ الأنواع والأجناس والأقسام أردفَ ذِكْرَ تسخيرِ الشَّمسِ والقَمرِ والنُّجوم، وأنَّه ربُّ كلِّ العالَمين، بذِكْر التَّكليف بالدُّعاء للعُقلاء مِنَ العالَمين، فهذا مُنعقِدٌ مع ما قبلَه في استتمام التَّقسيم بينَ أنواعِ المخلوقاتِ وأجناسِهم.

فِعلُ الأمر: ﴿ٱدۡعُواْ﴾ بين الحقيقة والمجاز:

الدُّعاءُ جُزءٌ مِنَ العبادة، أو كنايةٌ عنها؛ لأنّ العبادةَ لا تخلو منَ الدّعاء

حقيقةُ الدُّعاء: النِّداءُ بالطَّلب المُهمِّ[1]، "واستُعمل مَجازًا في العبادة؛ لاشتمالها على الدُّعاء والطَّلب بالقولِ أو بلسانِ الحالِ، كما في الرُّكوعِ والسُّجود، مع مقارنتهما للأقوال"[2]، فإنْ أُريدَ به العبادةُ هاهنا فهو مجازٌ مُرسَلٌ، علاقتُه الجزئيَّةُ؛ لأنَّ الدُّعاءَ جُزءٌ

(1) الزَّمخشريُّ، أساس البلاغة: (دعو).
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/171.

مِنَ العبادةِ، أو كنايةٌ؛ لأنَّ العبادةَ لا تخلو مِنَ الدُّعاء، والظّاهر أنَّ الدّعاءَ على حقيقته، بقرينة القيد المذكور: ﴿تَضَرُّعًا وَخُفۡيَةً﴾[1]، وإن كان الدُّعاءُ في حقيقته الشَّرعيَّةِ يتضمَّنُ مجموعَ الأمرين: المسألةَ والعبادةَ، وهو حقيقةٌ في كليهما، "وليس هذا مِنِ استعمالِ اللَّفظِ المُشْتَركِ في معنييهِ كليهما، أو استعمالِ اللَّفظِ في حقيقته ومجازه، بل هذا استعمالٌ له في حقيقته الواحدة المُتضمِّنة للأمرين جميعًا"[2]، والأصلُ: حملُ الألفاظِ على حقائقها، ما لم يمنعْ مِن ذلك مانعٌ، وما دامَ الاستعمالُ الحقيقيُّ مُتضمِّنًا لمجموعِ الأمرين، فهو الأولى بالقَبول.

سرُّ التَّعبير بلفظِ الرُّبوبيَّة في قوله: ﴿ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ﴾:

اقترانُ الرُّبوبيَّة بخِطاب التَّكليف بالدُّعاء، مُؤذِنٌ بالاستجابة بعد الدُّعاء

جاءَ التَّعبيرُ عنِ المفعولِ بلفظ الرُّبوبيَّة، المُضاف لخطاب الجمع ﴿رَبَّكُمۡ﴾، ولم يَقُل: (ادْعوا اللّه)؛ ليتناسبَ مع خِطاب الرُّبوبيَّة قبلَه في قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ﴾، ومع قولِه: ﴿تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، ولِلَفْتِ الأنظار إلى أنَّ المدعوَّ سبحانه هو الخالقُ المربّي الرّازقُ، فهو المُستَحِقُّ للدُّعاءِ أصالةً وامتدادًا، وهو مُؤذِنٌ بالاستجابة بعدَ الدُّعاء؛ لما فيه مِنَ الاستجابةِ والامتثالِ؛ ولأنَّ الرُّبوبيَّة تتعلَّقُ بها أعيانُ الحاجات مِنَ الأرزاقِ والألطافِ والمنافعِ، وعموم العطايا والمسائلِ.

نُكتةُ إضافةِ لفظِ الرُّبوبيَّة إلى ضميرِ المُخاطَبين:

ترغيبُ المؤمنِ بالقَبولِ عند التَّكليفِ مِن دواعي التَّشريفِ

تشريفُ المؤمنين عند تكليفهم بإضافتهم لربِّهم؛ شهادةٌ لهم بمكانتهم مِنَ اللّه، كأنَّهم لولا تلك المكانة لما استَحقّوا خِطابَه لهم وإضافتَهم له؛ وتبشيرًا لهم بالقَبول إنْ هم قَبِلوا تكليفَه إيمانًا

(1) قيل: المراد منه هنا العبادةُ، لأنَّه عطف عليه: ﴿وَٱدۡعُوهُ خَوۡفٗا وَطَمَعًاۚ﴾، والمعطوف يجب أن يكون مُغايرًا للمعطوف عليه، وفيه نظر، أمّا أوَّلًا: فلأنَّ المُغايرةَ تكفي باعتبار المتعلَّقات، كما تقول: ضربتُ زيدًا وضربتُ عَمْرًا. وأمّا ثانيًا: فلأنَّها لا تستدعي حَملَ الدُّعاء هنا على العبادةِ، بل حَمْلَه على ذلك إمّا هنا وإمّا هنا. وأمّا ثالثًا: فلأنَّه خِلافُ التَّفسيرِ المأثورِ. يُنظر: الآلوسيُّ، روح المعاني: 4/378.

(2) ابن القيّم، التَّفسير القيّم، ص: 249.

واحتسابًا، ولذلك قال: ﴿ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ﴾، ولم يقُل: (ادعوه)؛ اعتمادًا على الظّاهر في قوله: ﴿تَبَارَكَ ٱللَّهُ﴾، ولم يقُل: (ادعوني)؛ لِوَصْلِ المؤمنين بصِفة الرُّبوبيَّة، وللدَّلالة على اهتمامِه، وعنايتِه بهم، وتشريفِه لهم[1]، وهو لونٌ مِن ألوانِ هَمْزِ أفئدةِ المؤمنين بمِهْمازِ الشَّرف، وتحريكِهم بعصا التَّرغيب؛ ليَرتَعوا في رياضِ القَبولِ.

نُكْتةُ الكناية في قوله تعالى: ﴿تَضَرُّعًا وَخُفۡيَةً﴾:

التَّضرُّعُ: هو التَّذلُّلُ، مِنَ الضَّراعَةِ، وهي الضَّعفُ والذِّلَّةُ، والخُفيَةُ: هي الاستتارُ، وليس مانعًا أن يكون كنايةً عنِ التَّذلُّل، جيءَ به لتأكيد التَّضرُّعِ، فإنَّ المُتذلِّل يكاد يختفي مِن حال الإملاق والإشفاق الَّتي تعتريه عند سُؤال حاجته، وهذا لا يكون إلّا للمؤمنين الكُمَّل، ففي الآيةِ دعوةٌ للعبادِ أن يتَّصفوا بهذه العبادةِ على أكمل وجهٍ، وأرحبِ حالٍ.

الخُفيَةُ تأكيدٌ للتَّضرُّعِ، لما يعتري المُتذلِّلَ مِنَ الإشفاق عندَ السُّؤال

فائدةُ وَضْعِ التَّضرُّع مَوضِعَ الجهر:

ويُسَوِّغُ أن يكونَ المرادُ مِنَ التَّضرُّعِ والخُفيَةِ الجهرَ والسِّرَّ، وإنَّما وُضِعَ التَّضرُّع مَوضِعَ الجَهْر؛ لكونِ الجَهرِ في الدُّعاء مُنافيًا لأدبِ العبوديَّةِ، إلّا أن يُصاحِبَ التَّضرُّعَ، "وإنَّما طُلِبَ الدُّعاءُ مع تَيْنِكَ الحالتين؛ لأنَّ المقصودَ مِنَ الدُّعاء أن يُشاهِدَ العبدُ حاجتَه وعَجْزَه وفَقْرَه لربِّه، ذي القُدْرة الباهرة، والرَّحمة الواسعة، وإذا حصل له ذلك، فلا بدَّ مِن صَونه عنِ الرّياء، وذلك بالاختفاء، وتوصُّلًا للإخلاص[2].

الأدبُ في الدُّعاءِ خَصْلةٌ حميدةٌ، وإيمانٌ راسِخٌ

دلالة الجمع بينَ التَّضرُّع والخُفْيَة:

الواو للجَمْع بينَ التَّضرُّع والخُفيَة في الدُّعاء؛ لكونهما غيرَ مُتقابلَين، فيتعَذَّرُ الجمعُ بينَهما، بل هما مُنفكّان، فلا يتعارضان؛ لأنَّ التَّضرُّعَ: هيئةُ النَّفس، والخُفيَة: هيئةُ الظّاهرِ. والتَّضرُّعُ وإن

الذِّلةُ مع الخفاءِ في الدُّعاءِ، مِن أكْمَلِ أشكالِ الدُّعاء

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/171.
(2) القاسميُّ، محاسن التَّأويل: 5/102.

كان يَظْهَرُ أثرُه في الصَّوتِ والبَدَنِ، إلّا أنَّه أثرٌ تبايُنيٌّ في تغيُّر كيفيَّةِ الصَّوتِ عن عادته الغالبة، وليس أثرًا في مُستوى الصَّوتِ جَهرًا وصياحًا، فلا يكون مُقابلًا لخُفيَة، وعليه: فالتَّقسيمُ في معنى الواو بعيدٌ، والجمعُ أولى وأظهرُ، فمعنى الجَمْعِ في خطابِ المؤمنين: كونوا "جامعينَ في نفوسكم بينَ التَّضرُّع والخُفيَة في دَعَواتكم، ولا تقطعوا أنَّكم - وإنِ اجتهدتُّم - قد أدَّيتُم حَقَّ ربِّكم، ويتأكَّدُ هذا بقوله: ﴿يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ [المؤمنون: 60]"[1].

غرضُ التَّعبيرِ بالمصدرِ في قوله: ﴿تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾:

التَّنبيه على إرادةِ اتِّصاف الدُّعاء والدَّاعي بالتَّضرُّع والخُفْيَة

جاءَ التَّعبيرُ بالمصدر: ﴿تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾، دون اسم الفاعل، فلم يقُل: (مُتضرِّعين ومُخفين)؛ كأنَّه أراد منهم لا إيقاعَ عبوديَّة التَّكليفِ على جهةِ فِعْلِها وحدوثِها منهم فحسبُ، بل أرادَها معنًى مُنطبِعًا في ذواتهم، ومُمتزِجًا بها، فنَفْسُ المعنى مُلتبِسًا بهم، لا ينفكُّ عنهم انفكاكَ الزَّمنِ الَّذي اشتمل عليه اسم الفاعل: (مُتضرِّعين)، ولا يتغيَّر عليهم بزيادةٍ أو نقصانٍ أو زوالٍ، بل هو ثابتٌ فيهم.

فالغَرضُ: التَّنبيهُ على إرادةِ الهيئةِ المطلوبةِ حالةً لازِمةً، وعادةً قائمةً، وأن يكونَ الوصفُ المذكورُ دائرًا على الدُّعاء والدّاعي معًا؛ لأنَّ "المأمورَ به هنا شيئان: الدُّعاءُ الموصوفُ المقيَّدُ بصفةٍ معيَّنةٍ، وهي صِفةُ التَّضرُّع والخَوف والطَّمع، فالمقصودُ تقييدُ المأمور به بتلك الصِّفة، وتقييدُ الموصوفِ الَّذي هو صاحبها بها. فأتى بالحال على لفظ المصدر؛ لصلاحيته لأن يكون صفةً للفاعل، وصفةً للفعل المأمور به. والنُّكْتةُ في ذلك: أنَّك إذا قلتَ: (اذْكُر ربَّكَ تضرُّعًا)، فإنَّك تُريد: (اذْكُره مُتضرِّعًا إليه، واذْكُرْهُ ذِكْرَ تضرُّعٍ)، فأنتَ مُريدٌ للأمرين معًا، ولذلك إذا قلتَ: (ادْعُهُ طمعًا)؛ أي: ادْعُهُ دعاءَ طَمَعٍ، وادْعُه طامعًا في فضله، فأتى فيه المصدرُ الدّالُّ على وصْفِ

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/285.

المأمورِ به بتلك الصِّفة، وعلى تقييد الفاعل بها، تقييدَ صاحبِ الحالِ بالحال"[1].

بلاغةُ الفاصلةِ القرآنيَّةِ:

بـلاغـةُ كـمـالِ الانقطاعِ

خبريَّةٌ جملة ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾ بعدَ الإنشاء قبلَها، وتضمُّنُها معنى الإنشاء، وإنْ وقعَت بلفظ الخبر، وتأكيدُها بالاستئناف عمّا قبلَها، وبافتتاحها بـ ﴿إِنَّ﴾، وبِسَوقها بالنَّفي لا بالإثبات، وتضمُّنُها معنى التَّرهيب بلفظها، ومعنى التَّرغيب بمفهومها، "وإفادةُ ﴿إِنَّ﴾ في افتتاحها التَّعليلَ والرَّبطَ لما قبلَها، كأنَّها تقومُ مقامَ الفاء"[2]، فذلك مِن وجوه بلاغة الفَصْل في هذا المَوضِع.

جريانُ الفاصلةِ بـمـا يُـوافـقُ صَدارةَ السِّياق

قال الله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾؛ ليَلْفِتَ أنَّ التَّكليفَ على جهة التَّخيير، وتفضيلَ الإنسانِ به على المُسخَّراتِ بأمره قَهْرًا وتسييرًا، يقتضي مُراعاةَ هذا التَّخصيصِ بعدمِ الاعتداءِ وتجاوزِ ما لم تجرِ سُنَّتُه بإعطائه أو إيجاده أو تغييره، وهو خبرٌ في معنى الإنشاء؛ أي: التَزِموا بسُنَن اللهِ الثّابتة، ولا تعتدوها، ولا يَحْمِلَنَّكُم وازعُ الإرادةِ والاختيارِ فيكم، أن يَحْمِلَكُم على مُخالفةِ سُننِ اللهِ المُسَخَّرةِ، فلا يقع منكم إخلالٌ لها بإهدار سُنَنه في تَشْريعه وتكاليفه.

الافتتاحُ المؤكَّدُ أجـرى التَّركيبَ مَـجـرَى المثـلِ السَّائر

الافتتاح بـ ﴿إِنَّ﴾ لمحضِ الاهتمام والعنايةِ بتقرير الجُملة، وكأنَّ الغَرضَ بالافتتاح المؤكَّد إجراءُ التَّركيب مَجرَى القانونِ المُحَدَّدِ، والمثلِ السّائرِ المُحْكَم، وقرينةُ خُلوِّ المُخاطَبين عنِ التَّردُّد في هذا الخبر، تجعلُه مَسوقًا لأجل تأكيد انتفاعِهم به، لا لإثباتِ أصلِه، فيكونُ خبرًا بمعنى الإنشاء؛ أي: أكِّدوا انتفاعَكُم بمقتضى ذلك، بدوامكم على الاستقامة، وعدمِ التَّجاوز، أو لأجل أن يَسوقوه إلى غيرهم بهذا المَساقِ المُؤكَّد؛ للتَّرهيب والتَّرغيب، فإنَّ المؤمنَ مُبَلِّغٌ عن ربِّه.

(1) ابن القيّم، التَّفسير القيّم، ص: 265.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/172.

النَّفيُ محمولٌ على النَّهي، فهو خبرٌ بمعنى الإنشاء

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾ خبَرٌ له معنى الإنشاء؛ أي: لا تعتدوا، فالنَّفيُ فيه محمولٌ على النَّهي، ويُكأنَّ هذا النَّهيَ المفهومَ تفريعٌ عن ذِكْر المُسخَّرات بأمره، فكَما أنَّها تتحرَّك في مَداراتها مُستجيبةً طائعةً، مِن غير إخلال ولا نُشوز طَرفةَ عينٍ، في سَكينة ونِظام لا يَشُذُّ ولا يَتمَرَّدُ، فكذلك أنتُم، لا يكنْ منكم إخلالٌ أو عُدوانٌ أو تمرُّدٌ على طاعةِ اللهِ والخُضوعِ له.

تعليلُ التَّكاليف مِن تمام المِنَّة على العقول

كما أنَّ قوله: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾ تعليلٌ للأمر الواردِ قبلَه؛ أي: ادْعوه لأجل أنَّه لا يُحبُّ مَن يَعتَدي بتَرْك ذلك، فلا يُثيبُه ولا يستجيبُ له.

إيثارُ التَّعبيرِ بنفي الحُبِّ، أبلغُ مِن إثباتِ الكُرهِ

آثرَ النَّظمُ التَّعبيرَ بنفي الحُبِّ لا بإثباتِ الكراهيَةِ للمُعْتدين؛ لِثُبوتِ مَدخولِ حَرْفِ النَّفي، مع ثبوتِ لازمِه، وهو الكُرهُ، ولو أثبتَ الضِّدَّ فقال: (إنَّه يكره المُعتدين)، لما لَزِمَ عنه ثبوتُ الضِّدِّ الموجِب، وهو الحُبُّ، فالنَّفي يُثبتُ موجَبَ الفعل ويُثبتُ ضِدَّه؛ فالتَّعبيرُ بعدم مَحبَّته للمُعتدين جَرى على طريقةِ إثباتِ الشَّيءِ بإبطال ضِدِّه؛ قَصْدًا للتَّنبيه على الأمرين معًا، وإيجازًا في الكلام[1]؛ أي: إذا كان لا يحبُّ المُعتدين، فهو يُحبُّ أضدادَهم مِنَ المستقيمين المُتَعبِّدين، ونَفْيُ الشَّيء إثباتٌ لضِدِّه.

إضمارُ الاسمِ الجليلِ في الختم، نوعُ مقابلةٍ، ودلالةُ ترهيبٍ

مِن وجوه بلاغةِ الفاصلةِ: إضمارُ اسم ﴿إِنَّ﴾ العائدِ على الذّات العَليَّة؛ لِفصْل المُعتدين عنِ الدّاعين تَضَرُّعًا وخُفْيَة، في إظهار اسمه بالرُّبوبيَّة لهم، وإضافتهم إليه: ﴿رَبَّكُمۡ﴾، وأمّا المُعتدون بتَرْك ما في حَيِّز خطاب الرُّبوبيَّة السّابق مِنَ التَّكليف، فمَنزوعٌ منهم هذا التَّشريفُ معنًى بعدم المحبّةِ، ولفظًا بعدم إظهارِ الاسمِ الجليلِ معهم، كما أظهره في المَطلَع، ففي إضمارِ الاسمِ الجليلِ في الخَتْم نوعُ مقابلةٍ، ودلالةُ ترهيبٍ.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/172.

فائدةُ حَذْفِ مُتعلِّق اسمِ الفاعل: ﴿ٱلْمُعْتَدِينَ﴾:

تعميمُ الاعتداءِ في الدُّعاءِ على جميعِ وَحَداتِ التَّركيبِ

لم يُذكرْ مُتَعلِّقُ الاعتداءِ في قوله: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾؛ ليشملَ كلَّ فردٍ مِن أفراده، وإيقاعُه على جهة العموم أبلغُ مِن تخصيصه على الاعتداء في الدُّعاء فقط؛ ليكون أبلغَ في الدَّلالة على غايةِ الأمرِ، وهو تحقيقُ العبوديَّةِ، وليس مُنحصرًا في ظاهرِ الأمرِ فقط، وهو ممارسةُ الدُّعاء، فيدخلُ فيه دخولًا أوَّليًّا الاعتداءُ بتَرْك الدُّعاء أصلًا، أو دعاءِ غيرِه، وهو موضوعُ التَّكليفِ في الآية، أو إيقاعِه لمفعولٍ مُغايرٍ. ففائدةُ عدمِ ذكرِ مُتعلِّقِ الاعتداءِ: تسليطُه على جميع وحَدات التَّركيب؛ ليشملَ الاعتداءَ بتَركِ الأصلِ (الدُّعاء)، والإخلالَ بالأصل وتَركِ التَّوجُّهِ به لغايته المذكورة: ﴿رَبَّكُمْ﴾، والإخلالَ بالقصد وتركِ قَيدِه المَنوطِ به: ﴿تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾، والإخلالَ بالشَّرط.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(تضرَّع)، (خَضَع):

التَّضرُّعُ: أوَّلُه مِنَ القلبِ، وآخِرُه إلى البدنِ، والخُضوعُ: أوَّلُه مِنَ البدنِ، وآخرُه إلى القلب

أصلُ مادَّةِ الخُضوعِ: "التَّطامُن والتَّواضُع"[1]، ويَختصُّ بالبدن؛ بدليل قوله تعالى: ﴿فَظَلَّتْ أَعْنَـٰقُهُمْ لَهَا خَـٰضِعِينَ ۝٤﴾ [الشّعراء: 4]، وقد يكون عن تكلُّفٍ؛ بدليل قوله تعالى: ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ﴾ [الأحزاب: 32].

وأصلُ مادَّةِ التَّضرُّع: اللِّينُ والضَّعْف[2]، ويُستعمَل في التَّذلُّلِ والانقيادِ والاستكانةِ، "والسِّياقاتُ القرآنيَّة للتَّضرُّع رَبَطَت بينَه وبينَ مَواطِنِ الخَوفِ واليأسِ والعذابِ؛ كقوله تعالى: ﴿فَأَخَذْنَـٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ۝٤٢﴾ [الأنعام: 42]. وقوله: ﴿فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟﴾ [الأنعام: 43]، وربطَت بينَه وبين الخفاء؛ كقوله: ﴿تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ [الأنعام: 63]، وقوله: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ [الأعراف: 55]، وهذا يعني: أنَّ التَّضرُّعَ يكون في الأمرِ الشَّديدِ الَّذي يقتضي

(1) الجوهريُّ، الصّحاح: (خضع).
(2) الجوهريُّ، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللُّغة: (ضرع).

المبالغةَ في التَّذلُّل، وهو التَّضرُّع، ويكون مصاحبًا للصَّوتِ المُرتجفِ المُستغيثِ، الخافضِ مِن شِدَّةِ الهولِ والشُّعور بالمَسْكَنةِ والاضطرارِ للّه، وعلى هذا: فالتَّضرُّعُ يتضمَّنُ: التَّذلُّلَ (يقترنُ غالبًا بالشِّدَّةِ والهَولِ)، الخوفَ، ظهورَ أثرِ ذلك في الصَّوت"[1].

(المُعْتَدين)، (الظَّالِمين):

يُفَرَّقُ بينَ الظُّلم والعُدوان؛ بأنَّ الظُّلمَ: ما كان بغير حَقٍّ بالكُلِّيَّة، كأخْذِ مالٍ بغيرِ استحقاقٍ لشيءٍ منه، وقتلِ نفسٍ لا يَحلُّ قتلُها، وأمّا العُدوانُ: فهو مُجاوزةُ الحدودِ وتَعَدّيها فيما أصْلُه مباحٌ، مثل: أن يكونَ له على أحدٍ حَقٌّ، مِن مالٍ أو دَمٍ أو عِرْضٍ، فيستوفي أكثرَ ممّا له، فهذا هو العُدوانُ، وهو تجاوزُ ما يجوزُ أخْذُه[2]، والقرآنُ صريحٌ في أنَّ الاعتداءَ: هو تجاوزُ الحدِّ فيما له أصلٌ صحيحٌ، ولذلك قال هاهنا: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾؛ لأنَّه واردٌ بعدَ قوله: ﴿ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةًۚ﴾، والدُّعاءُ: أصلٌ صحيحٌ، والمرادُ: عدمُ تجاوزه أو تجاوز شَرْطِه الموصوف، بالتَّضرُّع والخُفْيَة، ونظائرُ هذا كثير.

الظُّلمُ أعمُّ، والاعتداءُ أخصُّ، والأوَّلُ: محظورٌ ليس فيه حَقٌّ، والثَّاني يعني: تخطِّي الحَقِّ إلى ما ليس حقًّا

وأصلُ الظُّلم "عند أهلِ اللُّغة وكثيرٍ مِنَ العلماء: وضْعُ الشَّيء في غير مَوضِعه المُختصِّ به، إمّا بنقصانٍ، أو بزيادةٍ، وإمّا بعدولٍ عن وقته، أو مكانه"[3].

وأصلُ الاعتِداء: "يدلُّ على تجاوزٍ في الشَّيءِ، وتَقَدُّمٍ لما ينبغي أن يُقتَصَر عليه"[4].

والخلاصة: أنَّ الظُّلْمَ أعمُّ، والاعتداءَ أخصُّ، والأوَّلُ: محظورٌ ليس فيه حَقٌّ، والثّاني: يعني تخطّيَ الحقِّ إلى ما ليس حقًّا[5].

(1) داود، معجم الفروق الدّلاليَّة، ص: 292.
(2) ابن رجب، تفسير ابن رجب: 1/323.
(3) السّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: 3/9.
(4) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (عدو).
(5) جبل، المعجم الاشتقاقيُّ المؤصَّل: (عدو).

﴿وَلَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَا وَٱدۡعُوهُ خَوۡفٗا وَطَمَعًاۚ إِنَّ رَحۡمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ مِّنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٥٦﴾ [الأعراف: 56]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

كمال العبوديَّة لله: القيام بحقِّ الخالق وبحقِّ الخَلْق، مع الخوف مِنَ الله ورجاء رحمته

لمّا ذكرَ اللّهُ ﷻ واجِبَ العبوديَّةِ في حقِّ الخالقِ بتكليفِ الأمرِ بالدُّعاء، أعقبه بتكليفِ نهيٍ في حقِّ الخَلْق؛ وهو عدمُ الإفسادِ في الأرض، فالأرضُ مِنَ الخَلْقِ، وإفسادُها يُضِرُّ بهم، وختمَ ذلك بتكرير الأمر بالدُّعاء، ليكونَ مبدأُ التَّكليف في التَّوجُّه إليه، ومنتهاه في التَّوجُّه إليه، فمنه وإليه المبدأُ والمنتهى، في كلِّ قَصْدٍ وإرادة.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تُفۡسِدُواْ﴾: مِنَ الجذر (فسد)، وفَسَدَ الشَّيءُ يفسُد فسادًا وفُسودًا، فهو فاسد وفسيد، والمفسدة: خلاف المصلحة، والاستفساد: خلاف الاستصلاح، وفسد الشَّيءُ: بَطَل واضمَحَلَّ، والفساد: الخروجُ عن حَدِّ الاعتدالِ والاستقامة، وكونُ الشَّيءِ منتفعًا به، قليلًا كان الخروجُ عنه أو كثيرًا، ويُضادُّه: الصَّلاح، ويُستعمل في النَّفس، والبَدَنِ، والأشياءِ الخارجة عنِ الاستقامة، والمعنى المحوريّ: ذهابُ نفعِ الشَّيء المقصود منه[1]، والمرادُ: النَّهيُ عن إيقاع الفساد[2].

2) ﴿وَطَمَعًاۚ﴾: مِنَ الجذر (طمع)، ويدلُّ على رجاءٍ في القلب قويٍّ للشَّيء، وهو ضِدُّ اليأس، وطمع في الشَّيء طمعًا وطماعَة وطماعيَّة: حَرِصَ عليه ورجاه، والمطمَع: ما طَمِعْتَ فيه[3]، وهو "نُزوعُ

(1) الجوهريُّ، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيُّ المؤصَّل: (فسد).

(2) الرّاغب، المفردات: (فسد).

(3) الأزهريُّ، تهذيب اللُّغة، والجوهري، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (طمع).

النَّفسِ إلى الشَّيءِ شهوةً له"[1]، فهو عبارةٌ عن شِدَّةِ التَّعلُّقِ بالشَّيءِ باطنًا، والإلحاحِ في ابتغائِه ظاهرًا، والمرادُ: قوَّةُ الرَّجاءِ، والتَّعلُّقِ بثوابِ اللّهِ ورحمتِه.

❁ المعنى الإجْماليُّ:

تنهى الآيةُ عمومَ النّاسِ عنِ الإفسادِ في الأرض، بأيِّ نوعٍ مِنَ الفساد كان، فإنَّ الأرضَ كانت صالحةً بإرسالِ الرُّسلِ ﷺ، وإعمارِها بطاعة اللّه وحْدَه، وادْعوهُ سبحانه خائفينَ مِن عقابه، طامعينَ في ثوابه[2]، إنَّ رحمةَ اللّه قريبٌ مِنَ المُحسنين، فكونوا منهم.

النّهي عن الفساد والإفساد، مع الأمر بصدق التّوجه إلى الله

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

علَّةُ إيقاعِ النَّهي بعد جُملةِ التَّعليل في الآية السَّابقة:

"في إيقاع هذا النّهي عقب قوله: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ تعريضٌ بأنَّ المعتدينَ - وهم المشركون - مُفسدونَ في الأرض، وإرباءٌ للمسلمين عن مشابهتهم؛ أي: لا يليق بكم، وأنتمُ المقرَّبون مِن ربِّكم، المأذونُ لكم بدعائه، أن تكونوا مثلَ المُبْعَدينَ منه المُبْغَضينَ"[3].

التّعريضُ بالمشركين بأنّهم مفسدون في الأرض

معنى العطفِ في قوله: ﴿وَلَا تُفْسِدُواْ﴾:

الواو في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُفْسِدُواْ﴾ عطفتِ النَّهيَ على الأمر، وهو قوله: ﴿ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ﴾؛ لِنسَقِه معه، لغرضِ استيفاءِ التَّكليفِ بالأمرِ والنَّهي معًا، بعطفِ المسائلِ الجامعةِ في المأموراتِ والمحظوراتِ بعضِها على بعض، وهي قوله: ﴿ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ﴾ في الأوامر، وقوله: ﴿وَلَا تُفْسِدُواْ﴾ في المناهي.

استيفاءُ التَّكليفِ بالأمر والنَّهي معًا

علَّةُ إيثارِ النَّهي عنِ الإفسادِ دونَ الأمرِ بالإصلاح:

جاء النَّهيُ عنِ الفساد، ولم يجئْ الأمرُ بالإصلاحِ في قوله: ﴿وَلَا

دَرءُ المفاسدِ أَولى مِن جَلْبِ المصالحِ

(1) الرّاغب، المفردات: (طمع).
(2) المجلس الأعلى للشُّؤون الإسلاميَّة، المختصر في التّفسير: 214.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/174.

﴿تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَا﴾؛ تقديمًا لدَرءِ المفاسدِ على جَلْبِ المصالحِ، وإلْفاتًا لكثرةِ وقوعِ الإفسادِ في بني آدمَ، فنهى عنِ الأكثر، وتنبيهًا على أنَّ إصلاحَ الأرضِ لا يتأتَّى مِن غير دَحْضِ الفسادِ وتنحيتِه، وتأكيدًا على أنَّ النَّفعَ لازمٌ عن إزالة الضَّرر، فإزالةُ الضَّررِ بريدُ النَّفع وتحقيقُه، وليس العكس. وفيه: أنَّ التَّخليةَ قبلَ التَّحلية، وأنَّ تركَ المناهي أبلغُ مِن فعلِ المأمورات، فهو كالأصل له.

غرضُ التَّعبيرِ بالظَّرف في قوله: ﴿بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَا﴾:

فائدةُ التَّعبيرِ بالظَّرف: ﴿بَعۡدَ﴾ في قوله: ﴿وَلَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَا﴾؛ "تقريرٌ لواقع الأمور؛ لأنَّ الفسادَ لا يكونُ إلّا تقويضًا لصالحٍ"[1]، وللتَّنبيه على بشاعةِ تقويضِ أعمالِ المُصلِحين؛ فإنَّ "الإفسادَ بعدَ الإصلاحِ أظهرُ قبحًا مِنَ الإفساد على الإفساد، فإنَّ وجودَ الإصلاحِ أكبرُ حُجَّةً على المُفسدِ، إذا هو لم يحفظه ويجري على سُنَنه، فكيف إذا هو أفسدَهُ وأخرجَهُ عن وضعه؟ ولذلك خصَّهُ بالذِّكر"[2]، وفيه: تحضيضٌ على استبقاءِ هيئةِ الإصلاحِ الحاصلةِ، والتَّنميةِ عليها؛ للاحتراز بها مِن فساد المُفسدين.

الحضُّ على استبقاء الإصلاح؛ للاحتراز به عن فسادِ المفسدِين

نُكْتةُ تعقيبِ الأمرِ بالدُّعاءِ النَّهيَ عنِ الإفسادِ:

في الأمر بالدُّعاء بعدَ النَّهي عنِ الفساد إيذانٌ" بأنَّ مَن لا يُعرِّفُ نفسَه بالحاجة والافتقار إلى رحمةِ ربِّه الغنيِّ القديرِ، وفضلِه، وإحسانِه، ولا يدعوه تضرُّعًا وخُفْيَةً، ولا خَوفًا مِن عقابه، وطمعًا في غُفْرانه، فإنَّه يكون أقربَ إلى الإفساد منه إلى الإصلاح"[3].

مَن لم يَعرِفْ ربَّه في الدُّعاءِ، كان أقربَ إلى دائرةِ الإفسادِ

تَكرارُ الأمر بالدُّعاء بينَ الإثباتِ والنَّفي:

تكرار الأمرِ بالدُّعاءِ في قوله: ﴿وَٱدۡعُوهُ خَوۡفٗا وَطَمَعًاۚ﴾؛ إمّا أن

(1) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 6/2869.
(2) رضا، تفسير المنار: 8/410.
(3) رضا، تفسير المنار: 8/410.

نحمِلَه على التَّكرارِ الحقيقيِّ، فيكونَ غَرَضُه التَّنبيهَ على أصلِ الغايةِ مِنَ العبادة، واقترانِها بمبدأ التَّكليف ومُنتهاه، فالأمرُ بالدُّعاء أوَّلًا: تأسيسٌ لحقِّ العبوديَّة الواجبِ على العبد، وإنباءٌ بكيفيَّته المصروفةِ للّه في القَصْد والتَّعلُّق، والأمرُ بالدُّعاء. ثانيًا: مشفوعٌ بحالة الإنسان الوجوديَّة وحركته في الأرض: ﴿وَلَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَا﴾؛ لتقرير امتزاجِ هذا الغرضِ التَّعميريِّ الإصلاحيِّ، بغاية العبوديّة كذلك، معَ الإنباء بكيفيَّته الجزائيَّة العائدةِ على العبد، فقولُه: ﴿تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةًۚ﴾ كيفيَّةٌ تصفُ القصدَ والتَّوجُّهَ، وقولُه: ﴿خَوۡفٗا وَطَمَعًاۚ﴾ كيفيَّةٌ تُشعِرُ بالعائد الذي تتشوَّفُ له النَّفسُ، وتراقبُ جزاءَه.

الدّلالةُ على امتزاجِ الغرضِ التَّعميريِّ الإصلاحيِّ بغاية العبوديَّة

وإمّا أن نحمِلَه على التَّكرارِ اللَّفظيِّ لكلمة الدُّعاء دون المُتعلِّق، وحينَئذٍ فلا تكرار؛ لأنَّ مُتعلِّقاتِ الجُمَل مُتباينةٌ، واختلافُ المُتعلِّق يعني اختلافَ المعنى وعدمَ التَّكرار، وبيان ذلك: أنَّه "أمَرَ أوَّلًا بدعائه تضرُّعًا وخُفْيَةً، ثمَّ أمَرَ بأن يكون الدُّعاء - أيضًا - خوفًا وطمعًا، وفصلَ بينَ الجُملتين بجُملتين؛ إحداهما: خبريَّة مُتضمِّنةٌ للنَّهي، وهي قوله: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾، والثّانية: طلبيَّةٌ، وهي قوله: ﴿وَلَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَا﴾، والجملتان مُقرِّرتانِ مُقوّيتانِ للجُملة الأولى، مؤكِّدتان لمضمونها، ثمَّ لمّا تمَّ تقريرُها وبيانُ ما يُضادُّها ويناقضُها، أمرَ بدعائه خوفًا وطمعًا، ثمَّ قرَّرَ ذلك، وأكَّدَ مضمونَه بجملةٍ خبريَّةٍ، وهي قوله: ﴿إِنَّ رَحۡمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ مِّنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾، فتعلُّقُ هذه الجملةِ بقوله: ﴿وَٱدۡعُوهُ خَوۡفٗا وَطَمَعًاۚ﴾، كتعلُّقِ قولِه: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾ بقوله: ﴿ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةًۚ﴾"[1].

اختلافُ المُتعلِّق يقضي باختلافِ مفهوم وجوه الألفاظِ

بلاغةُ الرَّبطِ بينَ مُتعلِّقاتِ الدُّعاء في الآيتين:

قولُه تعالى: ﴿خَوۡفٗا وَطَمَعًاۚ﴾ هو استتمامٌ لشرط حصولِ أثرِ الدُّعاءِ وضمانِ منفعتِه، بعدَ تقرير شَرْطِ صِحَّتِه وإقامته في قوله:

شرطُ الدُّعاءِ مَقدَّمٌ على الباعثِ عليه

(1) ابن القيّم، التَّفسير القيّم، ص: 264.

﴿ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةًۚ﴾، وتثنيةً ببيانِ الباعثِ على الدُّعاء: ﴿خَوۡفٗا وَطَمَعًاۚ﴾، بعد تعليمهم كيفيَّتَه: ﴿تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةًۚ﴾[1].

معنى الواوِ في قوله: ﴿خَوۡفٗا وَطَمَعًاۚ﴾:

اجتماعُ الضِّدَّينِ الباعثَين على الدُّعاء، لا يعني اجتماعَهما في كلِّ دعاء

الواو للتَّقسيم النَّوعيِّ؛ بمعنى: أنَّ الدُّعاءَ على نوعين: "الدُّعاء لأجلِ الخَوفِ؛ نحو: الدُّعاء بالمغفرة، والدُّعاء لأجلِ الطَّمعِ نحو: الدُّعاء بالتَّوفيق وبالرَّحمة"[2]، ويَصِحُّ أن تكونَ للجَمْع، بالنَّظر إلى صِحَّة اجتماعهما في قَلْب الدّاعي، لا بمعنى: أنَّ مَقولَ الدُّعاء لا بدَّ أن يشتملَ على كليهما في آنٍ.

علَّةُ فصلِ قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَحۡمَتَ﴾:

رحمةُ اللهِ وعدٌ ومكافأةٌ لمَنِ امتثلَ الأمرَ بالدُّعاء

أفادَت جُملةُ: ﴿إِنَّ رَحۡمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ مِّنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ التّفريعَ والتَّعليلَ لما قبلَها: ﴿وَٱدۡعُوهُ خَوۡفٗا وَطَمَعًاۚ﴾، فجاءَت كالوعدِ والمكافأةِ بعدَها، وانفصلَت عنها بالتَّجرُّد مِنَ العاطِف، واستهلَّتْ بـ ﴿إِنَّ﴾ الدّالَّة على التَّوكيد؛ اهتمامًا بالخَبَر، "ومِن شأن (إنَّ) إذا جاءَت على هذا الوجه، أن تُفيدَ التَّعليلَ، وربطَ مَضمونِ جُملتِها بمضمونِ الجملةِ التي قبلَها، فتُغْني عنِ فاء التَّفريع، ولذلك فُصِلَتِ الجملةُ عنِ التي قبلَها، فلم تُعْطَفْ لإغناء (إنَّ) عنِ العاطف"[3].

نُكْتةُ تذكيرِ لفظِ: ﴿قَرِيبٞ﴾:

إكسابُ الرَّحمةِ قوَّةً تقتربُ بها منَ المحسنين

جاءَ لفظُ ﴿قَرِيبٞ﴾ مذكَّرًا مع أنَّه خبرٌ لمؤنَّثٍ، وهو ﴿رَحۡمَتَ﴾؛ وذلك لاستحضار معنى العزيمةِ والقوَّةِ الكائنةِ في معنى التَّذكيرِ، تناسبًا مع ما في صفة الإحسان مِنَ العَزْم والقوَّة والبِدار والبَذْل والإيثار، ومِن حيثُ المبحثُ اللَّفظيُّ، فقد يُقال: "إنَّ المرادَ أنّه تعالى قريبٌ برحمته مِنَ المحسنين، كما أنَّه قريبٌ بعِلْمِه وإجابته مِنَ

(1) ابن عادل، اللُّباب: 9/160، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/175.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/176.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/176، ومحمد رضا، تفسير المنار: 8/410.

الدّاعين، وكثيرًا ما يُعطَى المضافُ صفةَ المضافِ إليه وضميرَه"[1]، وعند العرب ألفاظٌ يستوي فيها التَّذكيرُ والتَّأنيثُ، كصَبور ومِعْطار وقتيل، فيُقال: (رجلٌ صَبورٌ)، و(امرأةٌ صبورٌ)، و(رجلٌ مِعْطارٌ)؛ أي: يُكْثِرُ استخدامَ العطرِ، و(امرأةٌ مِعْطارٌ)، و(رجلٌ قتيلٌ)، و(امرأةٌ قتيلٌ)، ولا يُقال: (قتيلة) إلّا إذا لم يُذكَر معها كلمةُ امرأةٍ أو يدلَّ على التَّأنيث؛ لأنَّ القتيلَ للذَّكر وللأُنثى.

وسِرُّ التَّذكير: استحضارُ معاني الشِّدَّة والقوَّة التي تضمَّنَتها هذه الأبنيَةُ، فالصَّبر يقتضي الجَلَدَ والعَزْمَ والشِّدَّةَ؛ لذلك لا نقول: (امرأةٌ صبورةٌ)، بل نأتي بالوصفِ المناسبِ للجَلَدِ والشِّدَّة، ولذلك لا نُضْعِفُها بحكايةِ التَّأنيثِ، وكذلك الرَّجلُ المِعطارُ؛ وهو مَن تعرِفُه النّاسُ مِن نفاذِ رائحةِ عِطْرِه، والمرأةُ مبنيَّةٌ على السِّترِ، فإن تَعَطَّرتْ فهي تَشَبَّهتْ بالرَّجل، فيُقال لها: امرأةٌ مِعْطارٌ.

وعليه: فكلمةُ ﴿قَرِيبٌ﴾ يستوي فيها المُذَكَّر والمؤنّث؛ بدليل أنَّ اللّه قال: ﴿وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيۡهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوۡلَىٰهُ وَجِبۡرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ۝٤﴾ [التّحريم: 4]، والملائكةُ لفظُها لفظُ مؤنَّثٍ، ولم يقُل الحقُّ: (ظهيرة)؛ لأنَّ ﴿ظَهِيرٌ﴾ يعني: مُعين، والمعونة تتطلَّب القوَّةَ والعَزْمَ والمَدَدَ؛ لذلك جاء لها باللّفظ المناسب الّذي يدلّ على القوّة وهو ﴿ظَهِيرٌ﴾. وكذلك قولُه: ﴿إِنَّ رَحۡمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾، فـ (قريب) بوزن: (فعيل)، بمعنى: مفعول؛ أي: الرَّحمة هي المقروبَةُ، والإحسانُ هو الذي يقرِّب إليها، فيكون (فعيل) هنا بمعنى مفعول، الذي يستوي فيه المُذَكَّرُ والمؤنَّث[2].

تشبيهُ الرَّحمةِ برجلٍ مِعطاءٍ في محلٍّ قريبٍ، لا يَقْرَبُه إلَّا أهلُ الإحسان

بلاغةُ الاستعارةِ التَّمثيليَّةِ:

في قوله: ﴿رَحۡمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ وصَفَ الرَّحمةَ بالقُرْب

(1) رضا، تفسير المنار: 8/413.
(2) الشَّعراويّ، تفسير الشَّعراويّ: 7/4182.

مجازًا؛ لأنَّ الشُّروعَ في الاقتراب مِن صفات العُقلاء، حيث شَبَّه الرَّحمةَ برجلٍ مِعطاءٍ مرغوبٍ، في محلٍّ قريبٍ منظورٍ، لا يَسْمَحُ لأحدٍ بمجاوَرتِه والقُرْبِ منه، إلّا أهل الإحسان فقط، ولا يُجالِس أو يُقارِبُ إلّا هُم، فهذه استعارةٌ تمثيليَّةٌ؛ لقَصْدِ تنزيلِ المعقولِ منزلةَ المحسوسِ؛ استدامةً لاستحضاره في النُّفوس، وتنشيطًا لها على إدراكه. "والقُرْبُ حقيقتُهُ: دُنوُّ المكانِ وتجاوزُهُ، ويُطلَقُ على الرَّجاءِ مَجازًا، يُقالُ: هذا قريبٌ؛ أي: مُمْكِنٌ مَرجوُّ الحصولِ، وليس بقُرْبِ مكانٍ"[1].

إقامة الظَّاهر مقام المُضمَر في: ﴿ٱلْمُحْسِنِينَ﴾:

عند تحقُّقِ الإحسانِ تَتَنزَّلُ الرَّحمةُ

أتى النَّظْمُ بوصف ﴿ٱلْمُحْسِنِينَ﴾، فلم يَقُل: (إنَّ رحمتَ اللهِ قريبٌ منكم)، بعدَ قولِه: ﴿وَٱدْعُوهُ﴾؛ للنَّصِّ على مادَّة الإحسانِ والتّصريحِ بها؛ تأسيسًا لاطِّراد الإحسان مع رحمة الله، فمتى أحسنَ أحدٌ رُحِم؛ وتقريرًا لكونِ الجزاءِ مِن جنسِ العملِ، فكَما أنَّ الرَّحمةَ إحسانٌ مِنَ اللهِ، فكذلك لا ينالُها إلّا المحسنون، فاحتجَّ للتَّنصيص والتَّصريح.

توجيهُ المخصوصِ بالذِّكرِ في لفظِ ﴿ٱلْمُحْسِنِينَ﴾:

غايةُ الإحسان أن يجمعَ العبدُ بين مقامي الخوفِ والطَّمعِ

في قوله تعالى: ﴿وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾، ذكرتِ الآية الطّمعَ وهو رغبةٌ قويّةٌ لدى المخلوقِ في تحصيل الإحسان، كما أنّ الإصلاح المذكور في الآية إحسانٌ للموجودات، فلمّا اشتملتِ الآيةُ على الإحسانِ مِنَ الخالقِ بذِكْرِ الطَّمعِ، وعلى الإحسانِ مِنَ الخَلْقِ بعدمِ الإفسادِ والحِفاظ على صلاح الأرض، روعيَ في فاصلةِ الختمِ ملاحظةُ المَطلَع وهو الإحسان.

وأمرٌ آخَرُ دلاليٌّ: وهو أنَّ الجمعَ بين باعثِ الخوفِ والطَّمعِ بما عند الله تعالى؛ هو غايةُ ما يَصِلُه العبدُ العابدُ لله تعالى مِنَ الإحسانِ في عبادتِه، فلا طَمَعُ التُّجارِ وحدَه، ولا خَوفُ العبيدِ وحدَه، بل بكليهما يجتمعُ في قلبِ العبدِ الإحسانُ، وعالي درجةِ الإيمانِ.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/177.

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(الخَوْف)، (الخَشْيَة):

مُتعلَّقُ الخوفِ استقباليٌّ، ومُتعلَّق الخشيةِ حاليٌّ، وكلاهما يظهر أثرُه على الجوارح

الخوفُ: توقُّعُ المكروهِ بسببِ أمارةٍ معلومةٍ أو مظنونةٍ[1]، وغالبًا يكون من ضَعْفِ الخائفِ، وإن كان المَخوفُ أمرًا يسيرًا[2]، وهو قلبيٌّ نفسانيٌّ يَحمِلُ على حركةِ البَدنِ بالفِرارِ والانتشارِ، أو الكَفِّ والاحترازِ.

الخشيةُ: خوفٌ مَشوبٌ بتعظيمٍ[3]، يمنعُ مِن ارتكابِ ما يُسبِّبُ المكروهَ، ويبعثُ على الامتثال والانقياد، حتَّى وإن كانَ الخاشي قويًّا[4]، فهو سكونٌ وانقباضٌ عن التَّوجُّه إلى الإبايَة أو العِصيان[5]، وأكثرُ ما يكون ذلك عن عِلْم بما يُخشَى منه، ولذلك خَصَّ العلماءَ بها في قوله: ﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْۗ﴾ [فاطر: 28][6].

والفرقُ بينهما: أنَّ مُتعلِّقَ الخوفِ استقباليٌّ، ومُتعلِّقَ الخشيةِ حاليٌّ، وكلاهما يظهر أثرُه على الجوارحِ، وأثرُ الخوفِ: قَلْقَلَةٌ وعدمُ قرارٍ، وأثرُ الخشيةِ: سكينةٌ، وكلاهما مانعٌ عن ملابسةِ سببِ المكروه، والعِلْمُ في الخشية أحضرُ منه في الخَوْف، والتَّعظيمُ في الخشية ألصَقُ منه في الخوف، وقد قُرِنَ الخوفُ هاهنا بالطَّمع دون الخشية؛ لأنَّ كلًّا مِنَ الخَوفِ والطَّمَعِ مُتَعلِّقُهُما في المستقبل؛ ولأنَّ اقترانَ الخوفِ مع الطَّمعِ مُؤذِنٌ بتوليد الخشية؛ ولأنَّ الأمرَ بإظهارِ الضَّراعةِ سابقٌ عليه، والتَّضَرُّعُ مَلْزومُه الخشيةُ.

(الطَّمَعُ)، (الرَّجاءُ):

الرَّجاءُ بدايةُ الطَّمَعِ، والطَّمَعُ غايتُه

الطَّمعُ: تطلُّعُ القلبِ الشَّديدِ لنيلِ المرغوبِ القريبِ، ويكون بسببٍ وعن غيرِ سببٍ، وعَبَّر عن وقوعِه بغير سببٍ الرّاغبُ الأصفهانيُّ

(1) الرّاغب، المفردات: (خوف).
(2) النّزهيُّ، الفروق اللُّغويَّة، ص: 22.
(3) الرّاغب، المفردات: (خشي).
(4) النّزهيُّ، الفروق اللُّغويَّة، ص: 22.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/480.
(6) الرّاغب، المفردات: (خشي).

بقوله: "نزوعُ النَّفس إلى الشَّيء شهوةٌ له"؛ أي: بحسب الهوى، لا بسببٍ مُعتَبَرٍ، ولذا قد يأتي مذمومًا؛ كقوله تعالى: ﴿أَيَطۡمَعُ كُلُّ ٱمۡرِيٕ مِّنۡهُمۡ﴾ [المعارج: 38]، كما يأتي في سياقِ المدحِ، ويُلْمَحُ فيه معنى هوى النَّفْسِ، كشاهدِ الآيةِ هاهنا: ﴿وَٱدۡعُوهُ خَوۡفٗا وَطَمَعًاۚ﴾، فعَبَّر بالطَّمع دونَ الرَّجاء؛ لتذهبَ النَّفْسُ مذاهبَها في كلِّ ما تهواه مِن ربِّها، ولاقترانِه بالدُّعاء؛ ليَدلَّ على أنَّ الدُّعاءَ بابُه بابُ طمعٍ لا رجاءٍ، والطَّمعُ أوسعُ مِنَ الرَّجاء، كذلك الدُّعاءُ أوسعُ أبوابِ العبوديَّةِ، وليَدلَّ على أنَّ الدُّعاءَ لا يُعْتَمَدُ فيه على الأسبابِ، ولا يُعلَّقُ عليها، ولذا اقترنَ بالطَّمع الذي يكونُ مِن غير سببٍ ومِن غير استحقاقٍ، وليَدلَّ على أنَّ الطَّمعَ في الدُّعاءِ هو السَّببُ الذي يحبُّه اللهُ، لأجلِ تحصيلِ ما ليس للعبد فيه استحقاقٌ ولا سببٌ.

والرَّجاءُ: إرادةُ المرغوبِ مُقترنًا بخوفِ فواتِه، ولذا كان الخوفُ والرَّجاءُ متلازمَين، وأُطلِق الرَّجاءُ على الخوفِ، قال الفرّاءُ: "إنَّما يوضَع الرَّجاءُ مَوضِعَ الخوفِ؛ لأنَّ معَ الرَّجاء طَرَفًا مِنَ الخوف"[1]، ويكونُ الرَّجاءُ عن سببٍ يدعو إليه[2]، كقوله تعالى: ﴿مَّا لَكُمۡ لَا تَرۡجُونَ لِلَّهِ وَقَارٗا ١٣﴾ [نوح: 13]، فذكر السَّببَ، وهو قولُه بعدَه: ﴿وَقَدۡ خَلَقَكُمۡ أَطۡوَارًا ١٤﴾ [نوح: 14]، وقولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرۡجُونَ رَحۡمَتَ ٱللَّهِۚ﴾ [البقرة: 218]، فذَكرَ السَّببَ في صَدْر الآية، والرَّجاءُ وإنِ اقترنَ بخوف فواتِ المطلوبِ، فهو مُقْتَرِنٌ بغَلَبةِ ظَنٍّ في حُصوله[3]؛ لأنَّ معنى الأملِ والخَوفِ يتواردان عليه في آنٍ، كأنَّما يُغذّيانِ مادَّتَه[4].

(1) الفرّاء، معاني القرآن: 1/286.
(2) النُّزهيُّ، الفروق اللُّغويَّة، ص: 174.
(3) الزَّمخشريُّ، الكشّاف: 1/561.
(4) الخليل، العين: 6/176، والأزهريُّ، تهذيب اللُّغة: 11/125، والعسكريُّ، الفروق اللُّغويَّة، ص: 244، وابن الجوزيِّ، نزهة الأعين، ص: 308.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَىۡ رَحۡمَتِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتۡ سَحَابًا ثِقَالًا سُقۡنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلۡنَا بِهِ ٱلۡمَآءَ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۚ كَذَٰلِكَ نُخۡرِجُ ٱلۡمَوۡتَىٰ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ٥٧﴾ [الأعراف: 57]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الرِّياح والأمطار مِن مظاهر رحمة الله وإحسانه، ودليلٌ على قُدرته على الإحياء بعد الإماتة

لمّا ذكرَ اللّهُ ﷻ مبدأ الخَلْقِ بقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾، وأعْقبَه بتكليفِ الخَلْقِ بقوله: ﴿ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ﴾، ﴿وَلَا تُفۡسِدُواْ﴾، ناسبَ أن يَذكرَ هاهنا: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرۡسِلُ﴾ مِثالًا على مُنتهَى الخَلْقِ، وقُدْرتِه على بَعْثِهم وإعادتِهم. وكذلك لمّا بيَّن اللّهُ تعالى أنَّ رحمتَه العامَّةَ قريبٌ مِنَ المُحسنين في عبادتهم وفي سائر أعمالِهم، ذكَّرنا بما نغفلُ عنه كثيرًا مِنَ التَّفكُّرِ والتَّأمُّلِ في أظهر أنواع هذه الرَّحمة، وهو إرسالُ الرِّياح وما فيها مِن منافعِ الخَلْقِ، وإنزالِ المطرِ الذي هو مصدرُ الرِّزقِ، وسببُ حياةِ كلِّ حيٍّ في هذه الأرضِ، وما فيه مِنَ الدَّلالة على قُدرته تعالى على البعث، وما يَسْتَحقُّه عليه مِنَ الحمدِ والشُّكرِ[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يُرۡسِلُ﴾: مِنَ الجذر (رسل)، ويَدلُّ على الانبعاثِ والامتِداد، فالرَّسْلُ: السَّيْرُ السَّهْل السَّريع، وأرْسَل الشَّيءَ: أطلقه وأهْمَله، والمرسَلات: الرِّياح، والمعنى المحوريّ: تسيُّبٌ مِنَ المَقَرِّ أو الحَيِّز، مع امتدادٍ وتمُّيز[2]، والمراد بإرسال الرِّياح: هُبوبُها مِن مَصدَرها وإيصالُها لمكانِها.

(1) رشيد رضا، تفسير المنار: 8/413.

(2) ابن دُريد، جمهرة اللُّغة، والجوهري، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللُّغة، وابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقيُّ المؤصَّل: (رسل).

2) ﴿ٱلرِّيَٰحَ﴾: مِنَ الجذر (روح)، ويَدلُّ على سعة وفُسْحة واطِّراد، والمعنى المحوري: هو انبساطٍ أو اتِّساعٍ وانتشار مع شمول ولُطف، والرّيح: نسيمُ الهواء مِن كلِّ شيءٍ، طيِّبًا كان أو غيرَ ذلك، يَنتشِر منه مع لُطفِ جِرمِه، وأصلُ الياء في الرّيح الواو، وإنّما قُلِبت ياءً لكسرة ما قبلَها، وجمْعُها: رياح وأرواح، وتصغيرها: روَيْحَة، وراحَ يومُنا يَراحُ ريحًا: إذا اشتدَّت ريحُه، وهو يومٌ راحٌ، وراحَ يومُنا يَراحُ رَوحًا: إذا طابت ريحُه، وريّحَ القومُ وأراحوا: دخلوا في الرّيح، وريّحَ الغديرُ: أصابتْهُ الرّيح، والرّيحَةُ: طائِفَة مِنَ الرّيح[1].

3) ﴿أَقَلَّتْ﴾: مِنَ الجذر (قلل)، وقلَّ الشَّيءَ وأقلَّه واستقلَّه: حمَلَهُ ورفعَهُ، وأقلَّتِ الرّياحُ سحابًا: رفعتَها[2]، واشتِقاقُه مِنَ القِلَّة؛ لأنَّ الرّافِعَ المُطيقَ يَرى ما يَرفعُهُ قليلًا، والمرادُ هنا: حمَلَتِ الرّيحُ السَّحابَ، فكان قليلًا باعتبارِ قوَّتها[3].

4) ﴿سَحَابًا﴾: مِنَ الجذر (سحب)، ويدلُّ على جَرِّ شيءٍ مبسوطٍ ومَدِّه، والمعنى المحوري: جَرٌّ وتحريكٌ لما هو مستقرٌّ أو مماسٌّ لمَقرِّه، وسحبتُ الشَّيءَ أسحبُه سحبًا: إذا جَررتُه، وكلُّ مُنجرٍّ: مُنسَحِبٌ، ومنه اشتقاقُ السَّحابِ؛ لانسحابه في الهواء انسحابًا، والسَّحابةُ: الغيمُ، سواءٌ كان فيه ماءٌ أو لم يكنْ، والجمْعُ: سحابٌ وسُحُبٌ وسحائبُ[4]، وسُمّي السَّحاب سحابًا؛ إمّا لجرِّه الماءَ، أو لجرِّ الرّياح له، أو لانجراره في مَمَرِّه[5].

5) ﴿ثِقَالًا﴾: مِنَ الجذر (ثقل)، ويدلُّ على انجذاب الشَّيء المحمول إلى الأرض أو إلى أسفل، وهو نقيض الخِفَّة، والثِّقَلُ مصدر الثَّقيل، وهو رُجحانُ الثَّقيل، تقول: ثَقُل الشَّيءُ ثِقَلًا وثقالَةً، فهو ثَقيل، والجمع ثِقالٌ وأثقال، وأصلُه في الأجسامِ، ثمَّ يُقال في المعاني، والمرادُ: وصْفُ السَّحابِ بالثِّقَل؛ لامتلائِها ماءً[6].

---

(1) ابن دريد، جمهرة اللُّغة، والأزهري، تهذيب اللُّغة، وابن فارس، مقاييس اللُّغة، وابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم، وابن منظور، لسان العرب: (روح)، وجبل، المعجم الاشتقاقيُّ المؤصَّل: (روح - ريح).

(2) الأزهريُّ، تهذيب اللُّغة، وأبو عُبيد الهرويّ، الغريبين، وابن منظور، لسان العرب: (قلل)، وجبل، المعجم الاشتقاقيُّ المؤصَّل: (قل، قلقل).

(3) الرّاغب، المفردات: (قل)، والنّسفيّ، مدارك التّنزيل: 1/575.

(4) ابن دريد، جمهرة اللُّغة، والأزهري، تهذيب اللُّغة، والجوهري، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللُّغة، وجبل، المعجم الاشتقاقيُّ المؤصَّل: (سحب).

(5) السّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: 2/176.

(6) الجوهريّ، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم، وابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقيُّ المؤصَّل: (ثقل).

6) ﴿سُقۡنَٰهُ﴾: مِنَ الجذر (سوق)، ويدلُّ على الدَّفْعِ إلى الأمام أو إلى أعلى بقوَّة، والمرادُ هنا: دفعْناه وحرَّكْناه تحريكَ مَن يَسوقُ الشَّيءَ لِمَحلِّه ووِجْهته[1].

❁ المعنى الإجْماليُّ:

إحياء الموتى من أعظم مظاهر قدرة الله تعالى

تخاطبُ الآيةُ النّاسَ ببيانِ نِعَمِ اللّه عليهم، فهو مَن يرسلُ الرّياحَ التي تحملُ السُّحبَ الثِّقالَ؛ ليسقيَ الأرضَ المَيْتةَ، فتحيا بالزُّروع والنَّباتات؛ ليأكلوا وترعى أنعامُهم، وبمثلِ هذا التَّدبيرِ في إنزالِ المطرِ وإحياءِ الأرضِ بعدَ موتِها يُحييكُم بعدَ موتِكم، فيخرجُكم مِن قبورِكم أحياءً؛ ليحاسبَكُم على كَسْبكم في هذه الدّار، ويجزيَكُم به الخيرَ بالخير، والشَّرَّ بمثله، جزاءً عادلًا لا ظُلْمَ فيه، وهذا الفعلُ الدّالُّ على القُدْرةِ والرَّحمةِ، ولُطْفِ التَّدبيرِ يُريكُموه، فترونَه بأبصاركم، لعلَّكم به تذكَّرون، أنَّ القادرَ على إحياءِ مَواتِ الأرضِ قادرٌ على إحياءِ مَواتِ الأجسامِ، فتؤمنوا بلقاءِ ربِّكم، وتوقنوا به، فتعملوا بمُقتضَى ما يُسْعِدُكم ولا يُشقيكم فيه[2].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بيانُ وجهِ عطفِ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ﴾:

قولُه تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَىۡ رَحۡمَتِهِۦ﴾ معطوفٌ على ما بيَّن به تعالى تدبيرَه لأمرِ العالمِ، في إثْرِ إثباتِه لخلقِ السَّماواتِ والأرضِ، واستوائِه على العَرشِ، في قوله: ﴿يُغۡشِى ٱلَّيۡلَ﴾، وما بينهما مِن قبيلِ الاعتراضِ المقصودِ بالذّات، مِنَ التَّذكيرِ بهذه الآيات، وهو إخلاصُ العبادةِ له وحدَه، بالفعلِ والتَّركِ، المُعَبَّرِ عنه بالنَّهي عنِ الإفساد في الأرض، وهو شاملٌ لجميع ما حرَّمه الإسلام[3].

الانتقالُ مِن مظهرِ غَشَيانِ اللَّيلِ النَّهارَ، إلى غَشَيانِ الماءِ التُّرابَ

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيُّ المؤصَّل: (سوق).
(2) الجزائريُّ، أيسر التَّفاسير: 2/184.
(3) رضا، تفسير المنار: 413 - 414/8.

نُكتةُ استعمالِ الضَّمير في قوله: ﴿وَهُوَ﴾:

الابتداءُ بالضَّمير في قوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ﴾ دونَ الاسم الظّاهر، استغناءٌ بالتَّصريحِ السّابقِ في قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ﴾، وقولِه: ﴿تَبَارَكَ ٱللَّهُ﴾، وقولِه: ﴿ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ﴾، وقولِه: ﴿إِنَّ رَحۡمَتَ ٱللَّهِ﴾، فحَسُنَ استعمالُ الضَّمير ليَخْتَزِلَ فيه هذه العوائدَ بمُتعلَّقاتها جميعًا، وهذا مِنَ التَّعظيم؛ أي: هو اللّه الذي علمتُم صفاتِه المذكورةَ سابقًا، وليُعلمَ أنَّ الفعلَ بعدَ هذا الضَّمير فعلٌ عظيمٌ لا يَقْدِرُ عليه إلّا مَنِ استحقَّ مجموعَ تلك الصِّفات.

الابتداءُ بالضَّميرِ دون الظَّاهرِ، استغناءٌ بالتَّصريح السَّابق

فائدةُ مجيءِ المُسْنَد اسمًا موصولًا ﴿ٱلَّذِى﴾:

جاءَ المُسنَدُ اسمًا موصولًا في قوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى﴾؛ دلالةً على كون ذلك معهودًا عند السّامع، مفروغًا مِن تحقُّقِ النِّسبةِ فيه والعِلْم به[1]، فلم يَقُل: (وهو يُرسل الرّياح)؛ إعظامًا للذّاتِ التي تُسَخِّرُ الرّياحَ وتُرسلُها، فهي ذاتٌ مُتعيِّنةٌ مخصوصَةٌ بالأُلوهيَّةِ والرُّبوبيَّةِ وطَلاقةِ القُدْرةِ، فأتى بالموصول مبالغةً في إظهار الهيمنةِ والعِزَّة الكاملةِ، وأفادَ الإتيانُ بالاسم الموصول الاختصاصَ؛ أي: هو الذي يُرسلُ الرّياحَ بهذه الكيفيَّةِ دونَ سواه.

إفادةُ الاختصاصِ، والتَّعظيمِ، والرِّعايةِ المُطلقةِ

براعةُ الاستعارةِ في قوله: ﴿يُرۡسِلُ﴾:

أطلقَ الإرسالَ على الانتقالِ على وجهِ الاستعارةِ، فإرسالُ الرّياحِ: هبوبُها مِنَ المكانِ الذي تَهُبُّ فيه إلى مَحلِّ وصولها، فشُبِّهَتْ بالعاقلِ المُرسَلِ إلى جهةٍ ما[2]، ومَفادُ التَّشبيه: أنَّ الرّيحَ مُسَخَّرةٌ في صيرورتها مِن جهةٍ إلى جهةٍ، والتَّعبيرُ بالإرسال يُفيدُ انقيادَها التّامَّ، ومطاوعتَها مُطاوعةَ العبدِ الذي يُرسِلُه سَيِّدُه حيثُ يشاءُ، مِن غير عَناءٍ لسيِّده، ومِن غير تَردُّدٍ منه أن يُرسَل.

التَّعبيرُ بالإرسال يُفيدُ انقيادَ الرِّياحِ التَّامِّ، كانقيادِ العاقلِ المُطيعِ

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/76.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/178.

توجيهُ القراءاتِ القرآنيَّةِ في قوله: ﴿بُشْرًا﴾:

قرأ عاصم: ﴿بُشْرًا﴾، وقرأ ابن عامر: (نُشْرًا)، وحمزةُ والكسائيُّ وخَلفٌ: (نَشْرًا)، والباقون: (نُشُرًا).

فمَن قرأ: (نُشْرًا)؛ فهي جمع نُشور، ونُشورٌ بمعنى: ناشر، كَطَهورٍ بمعنى طاهِر، ومعناها: أنَّ الرّياحَ ناشِرةٌ للأرض؛ أي: مُحييَةٌ لها؛ إذ تأتي بالمطر الذي يكون به الإنباتُ، أو نُشورٌ بمعنى: منشور؛ أي: أرسلَ اللّهُ الرّياحَ لتأتيَ بينَ يدي رحمتِه، فهي ريْحٌ مَنْشورةٌ؛ أي: أنشَرها اللّهُ تعالى، بمعنى: بعثَها وأرسلَها.

ومَن قرأ: (نَشْرًا) فهي خِلافُ الطَّيِّ، كأنَّ الرّيحَ في سُكونها كالمَطْويَّة، فإذا أُرسِلَت تفرَّقَتْ وانتشرَت، وانفتحَت هنا وهناك.

ومَن قرأ: ﴿بُشْرًا﴾ فعلى معنى البِشارةِ، فالرّيحُ تُبشِّرُ بالمطر[1].

اللهُ أرسلَ الرّياح بينَ يدي الغيثِ، مُتفرّقةً بعدَ طَيٍّ، ومُحيِيَةً للأرضِ، فهي بشارةٌ مِنَ الله تعالى

بلاغةُ الاستعارة التَّمثيليَّة:

قولُه: ﴿بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ﴾؛ أي: بين يدي المطرِ، وهو مِن أحسن أنواع المجاز، ذلك أنَّ العربَ تستعملُ اليدين في معنى التَّقدِمَةِ على سبيل المجاز، فكلُّ ما كان يتقدَّمُ شيئًا أُطلِق عليه لفظُ اليدين، على سبيل المجاز لأجل هذه المشابهة، فلمّا كانتِ الرّياحُ تتقدَّمُ المطرَ عَبَّر عنه بهذا اللَّفظ[2].

والاستعارةُ تخييليَّةٌ: حيث شبَّه المطرَ بالإنسانِ الغائبِ الذي ينتظرُه أهلُه فيقْدُمُ، ومِن أمامِه بشيرٌ يبشِّرُ بقدومه، واستُعيرتِ اليدانِ للرَّحمة تمثيلًا بالإنسان، فإنَّه وإن كان الشَّيءُ أمامَه أو في حِجْره فهو بين يديه؛ لأنَّ يدي الإنسان يتقدَّمانِه عند المناولة، وعند المشي استعانةً.

تشبيهُ الغيثِ بالغائب الذي ينتظرُه أهلُه فيقْدُمُ أمامَه بشيرٌ يبشِّر به

(1) الدِّمياطيُّ، إتحاف فضلاء البشر، ص: 284، وابن الجزريِّ، النَّشر في القراءات العشر: 2/202.
(2) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/289.

نُكْتَةُ إسنادِ اليدين إلى الرَّحمة:

الماءُ النَّازلُ مِنَ السَّماءِ ليس على طريقةٍ واحدةٍ في الإفادةِ

وفي إسناد اليدين إلى الرَّحمة نُكْتَةٌ لطيفةٌ، حيث عبَّر فيه باليدين، وهما يُطلَقان على اليد اليمنى واليد اليُسرى؛ لدلالته - مع ما فيه مِنَ الفخامة - على أنَّ المطرَ تارةً يكونُ رحمةً، وتارةً يكونُ عذابًا، كما كانَ على قوم نوح عليه السلام: ﴿فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾﴾ [القمر: 11]، أو تارةً يكونُ نافعًا، وتارةً يكونُ ضارًّا، وتارةً يكونُ مُقوِّمًا للزُّروع والأشجار، وتارةً يكونُ مُهْلِكًا لها، وإن كانتِ الرَّحمةُ فيه أغلب، وهي ذاتُ اليمين[1].

دلالةُ الإضافةِ في قوله تعالى: ﴿رَحْمَتِهِۦ﴾:

أفادَ التَّعريفُ بالإضافةِ العهدَ؛ إنْ أُريد بالرَّحمة المطرُ، ويفيدُ الجنسَ إنْ أُريدَ بالرَّحمة العُمومُ، باعتبار أنَّ المطرَ واحدٌ، مِن جُملةِ منافعَ تأتي بها الرّياحُ.

سرُّ إضافةِ الرَّحمةِ إلى ضمير الذَّات العليَّة:

الإغراءُ بالْتِماسِ الرَّحمةِ العامَّةِ والخاصَّةِ مِنَ الله وحدَه

فقال: ﴿رَحْمَتِهِۦ﴾ فأُضيفتِ الرَّحمةُ إلى الضَّميرِ العائدِ على الله تعالى؛ لإفادةِ اختصاصِ تلك الرَّحمة بالله وحدَه، وهي في حقِّه تعالى تنفي اشتراكَ غيرِه معَه فيها بالكلّيَّة؛ أي: رحمةً منه، وله وحدَه لا لغيره، وفيه إغراءٌ على الْتِماسِ الرَّحمةِ العامَّةِ والخاصَّةِ، والتَّوسُّلِ إلى الله بها.

سرُّ تسميةِ المطرِ رحمةً:

غلبَ على المطر الرَّحمةُ للعبادِ، فسُمِّيَ باعتبار أثره

سُمّيَ المطرُ رحمةً بحسب أثره وما يَؤول إليه؛ أي: هو سببُ الرَّحمة، وسُمّي رحمةً لما يترتَّب عليه - في العادة - مِنَ المنافع، وتسميةُ المطر بالرَّحمة مجازٌ؛ لكونه استعمالَ اللَّفظ في غير ما وُضِعَ له، إذ لفظُ الرَّحمة لم يوضَع للمطر بخصوصه، وإن كان إطلاقُها عليه باعتبارِ عمومِه وكونِه فردًا مِن أفراد ذلك العامِّ، فهو

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 7/421.

بذلك حقيقةٌ؛ لأنَّه استعمالُ اللَّفظِ فيما وُضِعَ له، والمقامُ ظاهرٌ في إرادة هذا المعنى[1].

معنى ﴿حَتَّىٰٓ﴾ في قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتۡ﴾:

نوع ﴿حَتَّىٰٓ﴾ في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتۡ سَحَابٗا ثِقَالٗا﴾ ابتدائيَّةٌ، وهي غايةٌ للإرسال، فإنزالُ الماءِ هو غايةُ تقدُّم الرّياحِ وسَبْقِها المطرَ، وكانتِ الغايةُ مُجزَّأةً أجزاءً، فأوَّلُها: مضمونُ قولِه: ﴿أَقَلَّتۡ سَحَابٗا﴾؛ أي: حَمْلُ الرّياحِ للسَّحاب، ثمَّ مضمونُ قولِه: ﴿ثِقَالٗا﴾، ثمَّ مضمونُ: ﴿سُقۡنَٰهُ﴾؛ أي: إلى البلد الذي أرادَ اللهُ غيثَه، إلى أن ينزلَ منه الماءُ. وكلُّ ذلك غايةٌ لتقدُّم الرّياحِ؛ لأنَّ المُفرَّعَ عنِ الغايةِ هو غايةٌ[2].

غايةُ إرسالِ الرِّياحِ إقلالُها للسَّحاب، فَسَوقُها، فإنزالُ الماءِ

بلاغةُ استعمالِ جمعِ التَّكسير في قوله: ﴿ثِقَالٗا﴾:

قولُه تعالى: ﴿ثِقَالٗا﴾ على وزن: (فِعال)، وهو صفةٌ للسَّحاب، و(فِعال) وزنٌ يُفيدُ الكثرةَ، وهو من جُموعِ التَّكسيرِ للصِّفات، لا (فِعال) التي هي مِن أوزانِ المصادرِ، كنِكاح وقِتال، فهو جمعُ (ثَقيل)، على وزن: (فَعيل) الدّالِّ على الطَّبائع والسَّجايا والغرائز[3]، و﴿ثِقَالٗا﴾ يدلُّ على جانب الثِّقَل المادّيِّ في الشَّيء، ولذا وُصِفَتْ به السَّحاب؛ لأنَّ ثِقَلَها بالماءِ حقيقيٌّ، وهو ثِقَلُ الأجرام، فالثِّقَلُ أصيلٌ فيها، ولم توصَفْ بجمعِ: (فُعَلاء)؛ لأنَّه مُستعمَلٌ في جانب الثِّقَل المعنويِّ؛ كَثِقَل الطِّباع والنُّفوس؛ فما أجملَ وصفَ الرِّجالِ بقولنا: رِجالٌ ثِقالٌ! وما أقبحَ وصفَهم بقولِنا: رجالٌ ثُقلاء!.

الثِّقَلُ للسَّحاب وَصْفٌ ملازمٌ لها، كالسَّجيَّة، فهي صِفةُ مدح

براعةُ اختيار نوع الجمع في ﴿ثِقَالٗا﴾:

لم يوصَفِ السَّحابُ بالجَمْعِ السّالم (ثقيلاتٌ)؛ لثلاثةِ أسباب:

الأوَّل: أنَّ الجمعَ السّالمَ يدلُّ على الحَدَثِ، فهو أقربُ إلى الفعل،

التَّنبيهُ على الاسميَّة والسَّجيَّة للسَّحاب، مع المناسبة السِّياقيَّة والصَّوتيَّة

(1) الآلوسيُّ، روح المعاني: 4/384.
(2) الآلوسيُّ، روح المعاني: 4/385، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/181.
(3) فاضل السّامرائيُّ، معاني الأبنية العربيَّة، ص: 144.

وأمّا جمعُ التَّكسيرِ في ﴿ثِقَالًا﴾ فهو إلى الاسميَّة أقربُ، ويدلُّ على استحضار معناها في الوصف، وهنا أُريدَ في الآية بجمعِ التَّكسيرِ التَّنبيهُ على الاسميَّة، لا إرادةِ الحَدَث، ولو قيل: (ثقيلات) لفُهِم الحَدَثُ، وإرادةُ الاسميَّة أنسبُ بالسَّحاب؛ لأنَّ السَّحابَ أجسامٌ مائيَّةٌ، مُكوِّنُها الرَّئيسيُّ الماءُ، وهي أيضًا تحملُ الماءَ، فكأنَّه أرادَ بهذا الوصفِ على تلك الصّيغةِ أن يقولَ: إنَّ الثِّقَل للسَّحابِ وصْفٌ مُلازمٌ لها، كالسَّجيَّة والطَّبع، فقولُه: ﴿ثِقَالًا﴾ جارٍ في السَّحاب مَجرَى الطَّبائع في الأجسام، ولو قال: (ثقيلات) لفُهِم أنَّ الوصفَ بالثِّقَل يتواردُ عليها قُبيلَ نزولِ المطرِ فقط، أو في هذا المشهدِ المذكورِ فقط، وقد يزولُ عنها، يَعود إليها أو لا يعود، ولذا قَرَنَ اللّٰهُ ثِقَلَ السَّحابِ بنشأتها وتكوينِها، فقال: ﴿وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ﴿١٢﴾﴾ [الرّعد: 12].

السَّببُ الثّاني: لو قال: (سحابًا ثقيلات)؛ لكان ذلك نصًّا على تأنيثِ لفظِ السَّحابِ، فلا يستقيمُ أن يقولَ بعدَها: ﴿سُقْنَٰهُ﴾ على التَّذكير، والسَّحابُ مُستعمَلٌ في التَّذكير والتَّأنيث - كما سيأتي - فجاء بوصْفٍ أنسبَ في تلاؤم النَّظم، فإنَّ ﴿ثِقَالًا﴾ لا يمتنع معه الدَّلالة على التَّذكير، كدلالة: ﴿سُقْنَٰهُ﴾ - بعده - عليه؛ لأنَّ ﴿ثِقَالًا﴾ جمعٌ لِثَقيل؛ كَضِعافًا لِضَعيف، وشِدادًا لِشَديد، ويَصِحُّ كذلك أن يكونَ جمعًا لـ (ثقيلة) المؤنّث، فأتى بجمعٍ يتآلفُ مع ألفاظِ السّياقِ وضمائرِه، فثَبَتَ بذلك أنَّ الألفاظَ في هذا الموضِع مطابقةٌ لمعانيها.

السَّببُ الثّالث: سلاسةُ الإيقاعِ الصَّوتيِّ في التَّركيب مع ﴿ثِقَالًا﴾، بخلاف ما لو قيل: (أقلَّتْ سِحابًا ثقيلاتٍ سُقناه لبلدٍ)، لكان ثمَّةَ نُفْرَةٌ في الإيقاعِ، وتَعثُّرٌ في التَّركيبِ العامِّ.

استحضارُ حالةِ العَزْمِ والقُوَّةِ التي تُساق بها السَّحابُ

غرضُ التَّذكيرِ في قوله تعالى: ﴿سُقْنَٰهُ﴾:

آثرَ النَّظمُ التَّذكيرَ في قوله: ﴿سُقْنَٰهُ﴾، فلم يقُل: (سقناها) بالتَّأنيث؛ لأنَّ "السَّحابَ اسمُ جنسٍ جَمْعيٍّ، يُفرَّقُ بينَه وبينَ واحِدِه

بالتّاء؛ كَتَمْر وتَمْرَة، وهو يُذكَّر ويُؤَنَّث، ويُفْرَدُ وصْفُه ويُجْمَعُ، وأهلُ اللُّغة تُسَمّيه جمعًا؛ فلذا روعيَ فيه الوجهان في وصْفه وضميره"[1]، والعِلَّةُ في كَوْن فعلِ السَّوق جاء على صيغة المُذَكَّر؛ لاستحضار حالة العَزْم والقوَّةِ التي تُساق بها السَّحاب؛ لأنَّها تُساقُ حالَ امتلائِها ماءً، ولذا فِعْلُ السَّوقِ جاء بعد وصْفِها: ﴿ثِقَالًا﴾، فهيَ ثقيلةٌ تحتاج إلى قوَّةٍ وشِدَّةٍ، فأُضيفَ الفعلُ لضمير المُذَكَّر؛ ليناسِبَ اللَّفظُ المعنى، ويُؤيدُ ذلك إسنادُه لنونِ العَظَمةِ؛ أي: بعظمتنا وقُدرتنا البالغة ﴿سُقْنَٰهُ﴾.

نُكْتَةُ الالتفاتِ في قوله تعالى: ﴿سُقْنَٰهُ﴾:

بيانُ الامتنانِ بعظيم المِنَن

جاءَ الكلامُ على الالتفاتِ مِنَ الغَيْبةِ في قوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى﴾، إلى التَّكَلُّم في قوله: ﴿سُقْنَٰهُ﴾؛ تأكيدًا للامتنان، وإظهارًا له، فإنَّ سَوْقَه للمكان المُقَدَّر نِعْمَةٌ عظيمةٌ.

بلاغة الاستعارةِ التَّمثيليَّة في قوله: ﴿سُقْنَٰهُ﴾:

تشبيهُ سَوْقِ الرِّياحِ بِسَوقِ الأنعامِ

حقيقةُ السَّوْق أنّه تسييرُ ما يمشي، ومُسَيِّرُهُ وراءَه يُزْجيه ويَحثُّه، وهو هنا مُسْتَعار لتسيير السَّحابِ بأسبابه التي جعلها اللهُ، وقد يُجعَل تمثيلًا، إذا روعيَ قولُه: ﴿أَقَلَّتْ سَحَابًا﴾؛ أي: سُقناهُ بتلك الرّيح إلى بلد، فيكونُ تمثيلًا لحالةِ دَفْعِ الرّيحِ السَّحابَ، بحالةِ سَوْقِ السّائقِ الدّابَّةَ[2].

فائدةُ اللَّام في قوله: ﴿سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ﴾:

الاختِراز أن يكونَ الذي وصَلَ له الماءُ غيرَ الذي عُلِّلَ بِهِ السَّوْقُ

معنى اللّام في قوله تعالى: ﴿سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ﴾ العِلَّة؛ أي: لأجل بَلَد؛ لمنفعتها أو إحيائها أو لِسَقْيها، وتعدّيها باللّام لمعنى الاختصاص بقِسْمَة اللهِ العادِلَة؛ أي: سُقْناه إلى هذا البلدِ ليكونَ مُختَصًّا بها، حتَّى يُحْيِيَ مَواتَها، فإذا ماتَت أرضٌ أُخْرى اختصصناها بما يُحْييها مِن غير تثريب[3]، فاللّامُ دالَّةٌ على وصولِ العنايةِ الرَّبّانيَّةِ لتلكَ

(1) الشِّهاب، حاشية الشِّهاب: 4/175.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/182.
(3) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 6/2873.

البلدِ[1]، وتُسَمَّى هذه اللّامُ لامَ التَّبليغِ، وهي تُفيدُ أكثرَ مِن مُجَرَّد العِلَّة، وتعني: وصولَ الشَّيءِ وتسليمَهُ حتَّى يبلغَ صاحبَه، كما تقولُ: سُقتُ لكَ مالًا، وسُقتُ لأجلكَ مالًا، فالأوَّل: معناه أوصلتُ لكَ ذلكَ وأبلغْتُكَهُ، والثّاني: لا يَلزَمُ منه وصولُهُ إليه، وفائدةُ تلك اللّام هنا: الاحترازُ مِن أن يكونَ الذي وصلَ له الماءُ غيرَ الذي عُلِّلَ به السَّوْقُ، كما يُقال: لأجْلِ زيدٍ سُقْتُ لك مالَك، فالعِلَّةُ منفكَّةٌ عنِ الغاية، ومعنى اللّام يمنع هذا الانفكاك[2].

بلاغةُ المجازِ في الاستعمالِ، والإسنادُ في وَصْفِ البلدِ بمِيّت:

تشبيهُ البلد بالمَيِّت استحضارٌ لليأس، توطئةً لذِكْرِ الإحياء

وَصَفَ البلدَ بالموت تجوُّزًا في الاستعمالِ على سبيلِ الاستعارةِ؛ لجَدْبِه وجُفوفِ نباتِه وثَمَرِه، كأنَّما شُبِّه بجسدٍ مَيِّتٍ لا روحَ فيه، بجامع الخُلوِّ وعدمِ الانتفاع في كُلٍّ[3]، فهي استعارةٌ مَكْنيَّةٌ تخييليَّةٌ، وإسنادُ الموتِ إلى البلد إسنادٌ إلى غيرِ الفاعلِ، فهو مجازٌ عقليٌّ؛ لأنَّ المَيْتَ هو النَّباتُ والزَّرعُ[4]، والقصدُ مِن ذلك كلِّه، استحضارُ اليأسِ في لفظِ الموتِ، ثمَّ الإحياءُ بالأسبابِ التي اقتضتْها مَشيئةُ اللّهِ تعالى.

دلالةُ تتابعِ الفاءِ في قوله: ﴿فَأَنزَلْنَا﴾، و﴿فَأَخْرَجْنَا﴾:

فوريَّةُ التَّفاعلِ والتَّلاقُحِ والمُطاوَعةِ في التَّأثُّر بينَ المطرِ والنَّباتِ

الفاء للتَّعقيب، وهو في كلِّ مَوضِعٍ بحسبه في العادة الغالبة له، قال تعالى: ﴿فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾، وغَرَضُه: الدَّلالةُ على قوَّةِ استجابةِ المُسَبِّبات لأسبابها؛ أي: ما يَنْتَظرُ خروجُ النَّباتِ إلّا نزولَ المطرِ، والتَّعقيبُ الذي أفادته الفاءُ بينَ النُّزول والإخراج ليس تعقيبَ الفوريَّةِ الزَّمنيَّةِ، بل التَّعقيبُ في فوريَّة التَّفاعلِ والتَّلاقُحِ والمطاوعَةِ في التَّأثُّر بينَهما.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/183.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/78.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/78.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/183.

تنوُّعُ مَرجعِ الضَّمير في: ﴿فَأَنزَلۡنَا بِهِ﴾:

الضَّمير في قوله تعالى: ﴿فَأَنزَلۡنَا بِهِ ٱلۡمَآءَ﴾ يعود على البَلَد، فالباءُ للظَّرفيَّة تجوُّزًا؛ لأنَّ الإنزالَ ليس في البلد، بلِ المُنَزَّلُ، فيكونُ تخريجُها على الإلصاقِ أولى وأحسنَ[1]، أو على السَّحاب، فتكونُ للسَّببيِّة[2]، أو الباء للآلَة[3]، والضَّمير في ﴿بِهِ﴾ يعود على البلد، أو على الرّياح، أو السَّحاب، أو فِعْلِ السَّوقِ المفهوم مِن قوله: ﴿فَسُقۡنَٰهُ﴾؛ أي: أنزلنا بهذا السَّوْق، وجميعُ المعاني محتمَلةٌ، وهو دليلُ اتِّساعِ رحمةِ اللهِ بعبادِه.

كَثْرةُ المعاني المُحْتمَلةِ دليلُ اتِّساعِ رحمةِ اللهِ بكثرةِ أسبابِها

تَنوُّعُ مَرجِع الضَّمير في ﴿فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ﴾:

معنى قوله: ﴿فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ﴾؛ أي: بسببه، يعني: ماءَ المطر، فالباء للسَّببيَّة، وهذه هي السَّببيَّةُ القريبة في السّياق، وهو الأحسنُ في عَوْدِ الضَّمير؛ لقُرْبه لفظًا ومعنًى، وأمّا الْتِماسُ السَّببيَّةِ البعيدة في السَّحاب أو الرّياح أو فِعْلِ السَّوْق فبعيدٌ لفظًا ومعنًى؛ إذ آخِرُ ما تراهُ الأعينُ قبلَ خروجِ النَّباتِ مُلابسةُ الماءِ له، والشَّيءُ يُرَدُّ إلى مُلابِسه، والرّيحُ والسَّحابُ ليسا في محلِّ الملابسةِ بموضِع الإنبات، ويُحتمَلُ: ﴿فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ﴾؛ أي: بالبلد، باعتبار أنَّه محلُّ إخراجِ النَّباتِ، فالباء للظَّرفيَّة، والضّابطُ في ذلك: "أنَّ مطابقةَ النَّظائرِ، وانفكاكَ الضَّمائرِ، لا بأسَ به، إذا قامَ الدَّليلُ عليه، وحُسْنُ الملاءَمَةِ"[4].

الأحسنُ في عَوْدِ الضَّميرِ أن يكونَ إلى الأقربِ لفظًا ومعنًى

معنى حرفِ الجرِّ في قوله: ﴿مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۚ﴾:

تعدَّدَت أوجهُ معنى حرف ﴿مِن﴾ في قوله تعالى: ﴿مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۚ﴾، فقيل: إنَّها لبيانِ الجنسِ، وتفيدُ الاستغراقَ بالنِّسبة إلى مجموعِ الأرضِ كلِّها، لا باعتبار أنَّ قطعةً منها تُخرجُ كلَّ الثَّمرات،

إفادةُ الاستغراق، وهذا دليلُ شمولِ رحمةِ اللهِ بعبادِه

(1) الآلوسيُّ، روح المعاني: 4/385.
(2) طنطاويّ، الوسيط: 5/292.
(3) رضا، تفسير المنار: 8/416.
(4) الآلوسيُّ، روح المعاني: 4/385.

وبهذا الاعتبار يكونُ الاستغراقُ حقيقيًّا. وقيل: إنَّها للابتداء، و﴿كُلِّ﴾ لعموم الأفرادِ النَّوعيَّةِ، لا الأفرادِ الشَّخصيَّة؛ أي: مِن كلِّ أنواعها، على أنَّ الاستغراقَ غيرُ مُرادٍ ولا واقعٍ؛ ليكونَ أبلغَ في إظهارِ القُدْرةِ، ويُرادُ بها مُطلقُ التَّكثير[1]، ويجوزُ إرادةُ الاستغراقِ العُرفيِّ لا الحقيقيِّ؛ أي: مِن كلّ الثَّمَرات المعروفة في ذلك البلد[2].

مَوقِعُ جملةِ الاعتراضِ: ﴿كَذَٰلِكَ نُخۡرِجُ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾ ممَّا قبلَها:

قولُه تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نُخۡرِجُ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾ اعتراضٌ بينَ التَّذكرةِ بإرسال الرّياحِ، والتَّذييلُ برجاء التَّذكُّر: ﴿لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾، وغَرَضُ جملةِ الاعتراضِ: الاستدلالُ على ثبوت البعث الذي ينفيه المشركون، فأتى بالتَّشبيه والإشارة في قوله: ﴿كَذَٰلِكَ﴾، مقصودًا بهما "الإخراجُ المُتضمِّنُ له فِعلُ: ﴿فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۚ﴾ باعتبار ما قبلَه، مِن كون البلد ميِّتًا، ثمَّ إحيائِه؛ أي: إحياءِ ما فيه مِن أثر الزَّرعِ والثَّمرِ، فوَجْهُ الشَّبهِ: هو إحياءٌ بعدَ موتٍ"[3].

اللهُ يَذْكُرُ لعبادِه عظيمَ رحمتِه عندَ الرَّخاء؛ ليذكروه عند الشَّدائد

بلاغةُ التَّشبيه في قوله: ﴿كَذَٰلِكَ نُخۡرِجُ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾:

التَّشبيهُ في مُطلَق الإخراج مِنَ العدم[4] بجامعِ اتِّحاد نوعَيْهما، فكلٌّ مِنَ المُشَبَّه والمُشَبَّه به: إخراجُ الموتى وإخراجُ النَّبات، حاصلان مِن عدم، فهذا وجهُ الشَّبَه، أو وجْهُ الشَّبه: إحياءٌ بعد موتٍ، وفي تقرير هذا القياس نَعْيٌ على عقل مَن يُنكرُ البعثَ؛ لأنَّه إذا كان لا يَتَردَّد في أنَّ النَّباتَ قد خَرجَ بالمطر بعدَ جفافِه وجَدْبِه، ويرى ذلك ويُسَلِّم له، فكيف يرتابُ فيما هو على غِراره مِن إخراجِ الموتى، بل أيسرُ منه في القُدْرة؛ إذِ النَّباتُ ليس له وجودٌ قبلَ إخراجه، وإخراجُ الموتى إعادةٌ للوجودِ، وليس إنشاءً له، فأنَّى يُبصرون، والتَّشبيهُ مُرسَلٌ، ذُكِرَت فيه أداةُ التَّشبيه.

عَقْلُ مَن يُنكِر البعثَ ميِّتٌ، يحتاجُ إلى إنزالِ القرآنِ؛ ليَحْيَا قلبُ صاحبِه

(1) الآلوسيُّ، روح المعاني: 4/385.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/183.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/183.
(4) طنطاويّ، الوسيط: 5/292.

بلاغةُ الفاصلةِ القرآنية:

غايةُ المشاهدات المحسوسة التَّذَكُّرُ والاعتبارُ

قولُه تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ تذييلٌ يُقَرِّرُ نعمةَ المطرِ، والحِجاجَ على البَعْثِ، والتَّحضيضَ على التَّذكُّر الجماعيِّ، والتَّنبيهَ على اعتبار العادات والسُّنَن التي أجراها اللهُ في المقدِّمات والنَّتائج، كما رتَّب إخراجَ النَّباتِ على وجود المطر، وخاتمة: ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ في مَوقِع التَّرجيَة بالتَّذكُّر والاعتبار، أو تعليلٌ لمحذوف؛ أي: قلْنا ذلك أو أنزلْنا تلك الآيةَ ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾، فتؤمنوا بالإحياء، وخروجِ الموتى.

بلاغةُ الاستعارةِ التَّبعيَّةِ في (لَعَلّ):

تشبيهُ أمرِه تعالى برجاءِ غيرِه؛ لبيان قُوَّةِ الطَّلبِ معَ عدمِ الإرغام عليه

أداةُ (لعلَّ) في قوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾، واقعةٌ موقعَ المجاز لا الحقيقةِ؛ لأنَّ المعنى الوضعيِّ لكلمة (لعَلَّ) هو إنشاءُ تَوقُّعِ أمْرٍ مُتَردِّدٍ بينَ الوقوع وعدمه، مع رُجحان الأوَّل، إمّا محبوبٌ؛ فيُسَمَّى ترجّيًا، وإمّا مكروه؛ فيُسَمَّى إشفاقًا، ويَمْتَنِعُ إرادةُ هذا المعنى هاهنا؛ لامتناع التَّوقُّعِ واستحالته في حَقِّ اللّه العليم، فيكونُ المعنى جاريًا على سبيل الاستعارةِ، بتشبيه أمْره تعالى لخَلْقه بالتَّذكُّر، برجاء الرّاجي مِنَ المرجوِّ منه أمْرًا؛ في كون مُتعلَّق كلٍّ منهما مُتَرَدِّدًا بينَ الوقوع وعدمِه؛ مع رُجحان الأوَّل؛ فيُستعار له لفظ (لعلَّ) استعارةً تبعيَّةً حرفيَّةً؛ للمبالغة في الدَّلالة على قوَّة الطَّلب؛ وقُرْب المطلوبِ مِنَ الوقوع[1].

توجيهُ القراءات القرآنيَّة في قوله: ﴿تَذَكَّرُونَ﴾:

قراءةُ التَّخفيفِ أفادَتِ الذِّكرَ بعدَ نسيانٍ، والتَّشديدِ الذِّكرَ بعدَ الذِّكرِ

قُرِئَ قولُه تعالى: ﴿تَذَكَّرُونَ﴾ بتخفيف الذّال، وبتشديدها[2]، فمعنى قراءةِ التَّخفيفِ: الذِّكْرُ عن نسيانٍ، ومعنى قراءةِ التَّشديد:

(1) الزَّمخشريُّ، الكشّاف: 1/92، والآلوسي، روح المعاني: 1/188، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 1/59.

(2) ابن الجزريّ، النَّشر في القراءات العشر: 2/200.

هي ذِكرٌ لا نسيانَ فيه؛ لأنَّ بناءَ (تَفَعَّل) فيه تضعيفٌ زائدٌ، يُفيد التَّدرُّجَ؛ أي: حصولَ شَيءٍ بعدَ شَيءٍ، كأنَّه تَذَكُّرٌ بعدَ تَذَكُّرٍ؛ ليتفهَّمَ مَن خوطِبَ بذلك؛ لأنَّ زيادةَ المبنَى تدلُّ على زيادة المعنى وتُؤكِّدُه، وخلاصةُ القول: إفادةُ التَّدرُّجِ في التَّذَكُّر، حتَّى يَحصُلَ الرُّسوخُ؛ لاجتماعِ وتراكمِ التَّذَكُّر على التَّذَكُّر[1].

توجيهُ المتشابهِ اللَّفظيِّ:

جاءَت ثلاثُ آياتٍ متشابهاتٍ مع قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَىۡ رَحۡمَتِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتۡ سَحَابٗا ثِقَالٗا سُقۡنَٰهُ لِبَلَدٖ مَّيِّتٖ فَأَنزَلۡنَا بِهِ ٱلۡمَآءَ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۚ كَذَٰلِكَ نُخۡرِجُ ٱلۡمَوۡتَىٰ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾، وهي قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَىۡ رَحۡمَتِهِۦۚ وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ طَهُورٗا ﴿٤٨﴾﴾ [الفرقان: 48]، وقولُه تعالى: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرۡسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٖ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحۡمَتِهِۦ وَلِتَجۡرِيَ ٱلۡفُلۡكُ بِأَمۡرِهِۦ وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿٤٦﴾﴾ [الرّوم: 46]، وقولُه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابٗا فَسُقۡنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٖ مَّيِّتٖ فَأَحۡيَيۡنَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ﴿٩﴾﴾ [فاطر: 9].

والتَّشابهُ في الآيات في المَواضِع الآتية:

المَوضِع الأوَّل: ﴿يُرۡسِلُ﴾ و﴿أَرۡسَلَ﴾، ففي (الأعراف) صيغة المضارع ﴿يُرۡسِلُ﴾؛ للتَّناسبِ اللَّفظيِّ مع ما تقدَّمها مِن أفعالِ المُضارَعةِ والاستقبالِ في قوله تعالى: ﴿يُغۡشِى ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَ﴾، ﴿ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ﴾، والدُّعاءُ مُرادٌ به ما سيأتي، ﴿وَلَا تُفۡسِدُواْ﴾، وكذا في آية سورة الرّوم لمناسبة ما تقدَّم بصيغةِ المضارعِ في قوله: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرۡسِلَ ٱلرِّيَاحَ﴾ [الرّوم: 46]، وللمناسبةِ المعنويَّةِ في قوله قبلَه: ﴿وَٱدۡعُوهُ خَوۡفٗا وَطَمَعًاۚ إِنَّ رَحۡمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ مِّنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [الأعراف: 56]، "فتعليقُ الخوفِ والطَّمعِ بما يكون منه سبحانه مِنَ الرَّحمة وصنوفِ ما رزقَ اللهُ به الخَلْقَ مِنَ النِّعم، فكان لفظُ المستقبلِ في: ﴿يُرۡسِلُ﴾ أشبهَ بمَوضِع الخوفِ والطَّمعِ للدّاعين، وأدْعَى لهم إلى الدُّعاء"[2].

وآيةُ سورة الفرقان جاءَت بصيغة الماضي؛ لتقدُّمِ الأفعالِ الماضية: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيۡفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوۡ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنٗا ثُمَّ جَعَلۡنَا ٱلشَّمۡسَ عَلَيۡهِ دَلِيلٗا ﴿٤٥﴾ ثُمَّ قَبَضۡنَٰهُ إِلَيۡنَا

(1) فاضل السّامرائيُّ، بلاغة الكلمة، ص: 41.

(2) الإسكافيُّ، درَّة التَّنزيل وغرَّة التَّأويل: 2/590.

قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا ﴿٤٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ﴾ [الفرقان: 45 - 48].

وآيةُ سورة فاطر تقدَّم عليها ما يُفيد الماضي، فسيقَت بصيغة الماضي، وهو قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ﴾ [فاطر: 3]، وهو تذكيرٌ لهم بشُكْرِ النِّعم الماضية، فاستَعْمَل الماضي كذلك بعدَه في تلك النِّعمة، فقال: ﴿أَرْسَلَ﴾.

الموضِع الثّاني: القيدُ بـ ﴿بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ﴾ في سورتي الأعراف والفرقان، دونَ سائرِ المواضِع. جاءَ هذا القيدُ في هاتين السورتين؛ لأنَّه سبقه في كليهما ما يدلُّ على الاسترحام، والاستعطافِ، والتَّرجّي، والامتنانِ، ففي سورة الأعراف ذكرَ الرُّبوبيَّة وما يستلزِمُها مِنَ الآلاء في قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾، وقولِه: ﴿تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، وقولِه: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ﴾ في الموضِعين، وختم بقوله: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾، فناسبَ أن يُبشِّرَ بالرَّحمة بعدَ ذلك.

وفي سورة الفرقان سُبقَ السّياقُ بالامتنان وتعديدِ النِّعم، المُؤْذِن بوصول الرَّحمة، فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾﴾ [الفرقان: 45]، ثمَّ قال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا ﴿٤٧﴾﴾ [الفرقان: 47]، ولم يَرِدْ في سورة الرّوم، ولا في سورة فاطر، مثلُ ذلك ولا بعضُه، فلم يُتْبِعْ ذِكْرَ إرسالِ الرّياحِ بما أُتْبِعَ في آيتي سورة الأعراف وسورة الفرقان[1].

الموضِعُ الثّالثُ: ذكَرَ السَّحاب في سورتي الأعراف وفاطر دون الموضِعين الآخَرَيْن.

لمّا قال في سورة الأعراف: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ﴾، و﴿كُلِّ﴾ أفادتِ العمومَ والاستغراقَ؛ ناسبَ أن يَذْكُرَ السَّحابَ الثِّقالَ المليئةَ بالماءِ الكثيرِ؛ لتُلائمَ هذه الكَثْرةُ سَقْيَ كلِّ الثَّمراتِ.

وفي سورة فاطر ذَكَرَ على جهة التَّعميم قولَه: ﴿فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ﴾ [فاطر: 9]، فناسبَ أن يكتفيَ بذِكْرِ إثارةِ الرّياحِ، مِن غير التَّفصيلِ الواردِ في سورة الأعراف؛ لعدمِ ما يقتضيه.

(1) الغرناطيُّ، مَلاك التَّأويل: 1/185.

وأمّا سورة الرّوم فليس فيها عمومٌ، بل فيها خصوصٌ حاصلٌ مِنَ التَّقييد بقوله: ﴿فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ﴾ [الروم: 48]، والاكتفاءُ فيها بذِكْرِ إثارةِ الرّياحِ السَّحابَ أبينُ شيءٍ، فجاءَ كلٌّ على ما يناسبه.

ولم يَرِدْ في سورةِ الفرقانِ ذِكْرُ إثارةِ الرّياحِ السَّحابَ اكتفاءً ببشارةِ قوله: ﴿بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ﴾ [الفرقان: 48][1]؛ لأنَّه قَصَد هنا ذِكْرَ بادِئِ الإنعام، لا منتهاه، بذِكْرِ غايةِ المطرِ.

الموضِعُ الرّابعُ: ذَكَرَ البلدَ المَيِّتَ في المواضِع عدا آية سورة الرّوم.

لم يَذْكُر في سورة الرّوم سَوقَ الرّياح للبلدِ الميِّتِ؛ لحصول ذلك في قوله بعدَه: ﴿فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ﴾ [الرّوم: 50]، فلو قيل أوَّلًا: ﴿فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ﴾ لكان تكرارًا[2].

الموضِعُ الخامسُ: دخولُ الفاءِ في قوله: ﴿فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ﴾، وتجريدُها من قوله: ﴿سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ﴾.

في سورة الأعراف جاءَ الفعلُ مُجرَّدًا مِنَ الفاء؛ لأنَّه لا مَدْخَلَ هاهنا للفاء التي تربط الجوابَ بالشَّرط، ولا الفاءِ العاطفة، بل هو على غِرار قولِه تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦ﴾ [البقرة: 89]، وقولِه تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُواْ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ﴾ [يونس: 22]؛ فالجوابُ قولُه: ﴿جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ﴾.

وأمّا مَوضِع سورة فاطر: ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ﴾ [فاطر: 9]، فكلامٌ معطوفٌ بعضُه على بعض بالفاء المقتضيةِ التَّرتيبَ والتَّعقيبَ؛ ليُطابِقَ اللَّفظُ ما تحتَه مِنَ المعنى، فلَزِمَتِ الفاءُ هنا؛ لاحتراز معناها.

الموضِعُ السّادسُ: الجرُّ بـ (اللّام) في قوله: ﴿لِبَلَدٍ﴾ وبـ ﴿إِلَىٰ﴾ في قوله: ﴿إِلَىٰ بَلَدٍ﴾.

في سورة الأعراف: ﴿سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ﴾، وفي سورة فاطر: ﴿فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ﴾ [فاطر: 9]؛ ليتناسبَ التَّعدّي باللّام فقط معَ وجازة التَّركيبِ بتجريده مِنَ الفاء في سورة الأعراف، ويتناسبَ التَّعدّي بـ ﴿إِلَىٰ﴾ في سورة فاطر مع زيادة الفاء في التَّركيب، فزيادةٌ بزيادة، وإيجازٌ بإيجاز.

(1) الغرناطيُّ، مَلاك التَّأويل: 1/186.
(2) الغرناطيّ، مَلاك التَّأويل: 1/187.

الموضِعُ السّابعُ: تخصيص ﴿فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۚ﴾ بالأعراف.

التَّخصيصُ مناسبٌ لقوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتۡ سَحَابٗا ثِقَالٗا﴾؛ فكَثْرةُ الماءِ في السَّحاب ناسبَهُ التَّعريفُ بكَثْرة ما يُخرج سبحانَه به مِن مختلِف الثَّمرات.

الموضِعُ الثّامنُ: تخصيص ﴿مَآءٗ طَهُورٗا ٤٨﴾ [الفرقان: 48]؛ لأنَّه قَصَد في آية سورة الفرقان سَقْيَ الأناسيِّ مِنَ العُقلاء، وسَقيَ الأنعام مِن غير العُقلاء، فناسبَ أن يَنُصَّ على طَهوريَّةِ الماءِ لذِكْرِ الأناسيِّ، وقد حصل إخراجُ الثَّمرات بقوله بعدَه: ﴿لِّنُحۡيِۦَ بِهِۦ بَلۡدَةٗ مَّيۡتٗا﴾.

الموضِعُ التّاسعُ: تخصيصُ ﴿فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ ٤٨﴾ [الروم: 48].

قولُه في سورة الرّوم: ﴿فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ﴾ مُتسِقٌ مع قوله قبلَه: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرۡسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٖ﴾، فلمّا ذَكَرَ سبحانَه إرسالَها مُبشِّراتٍ، أَتْبَعَ ذلك ما به تَحْصُلُ البشارةُ، وهو الوَدَقُ المُرْسَلُ مِنَ السَّحابِ المُشارِ إليه بقوله: ﴿بِهِۦ﴾، معَ الإخبار بالمُبَشَّر بها، وهو مَن يشاءُ تخصيصَه مِن عباده بتلك الرَّحمة، فبيَّن في آخِر هذه الآية ما كان مُجملًا في الآية قبلَها.

الموضِعُ العاشرُ: تخصيصُ ﴿فَأَحۡيَيۡنَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ﴾ و﴿كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ٩﴾ [فاطر: 9].

تخصيصُ سورةِ فاطر بقوله: ﴿فَأَحۡيَيۡنَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ﴾ [فاطر: 9] مبنيٌّ على قوله قبلَها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ﴾ [فاطر: 5]، والمرادُ بهذا: العودةُ الأُخْرَويَّةُ، فذكرَ اللّٰهُ بعدَها مثالًا يوضِّحُها، فقال تعالى: ﴿فَسُقۡنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٖ مَّيِّتٖ فَأَحۡيَيۡنَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ﴾ [فاطر: 9]، ثمَّ قال: ﴿كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ٩﴾ [فاطر: 9]، والمواضِعُ المتشابهة الأُخرى لم يتقدَّمْها مِثلُ ما تقدَّمَ هنا، مِن تحريكِ الخَلْقِ وتخويفِهم بالوَعْدِ الأُخْرَويِّ، فلم تُعَقَّبْ بمثل هذا الموضِع، مِن تحريرِ التَّشبيهِ وتجليَته، وإنْ كانَ في أكثرها التَّشبيهُ على إحياء الموتى، ولكنَّه ليسَ كالواقع هنا.

الموضِعُ الحادي عشَرَ: تخصيصُ ﴿كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ٩﴾ [فاطر: 9]، لمقابلته مع قوله: ﴿فَأَحۡيَيۡنَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ﴾، ولو قيل: (كذلك الإحياءُ)، أو: (كذلك إحياء الموتى)، لاجتمعَ فيه الطّوْلُ مع مخالفةِ الفواصلِ فيما قبلَ الآيةِ وما بعدَها، كما في قوله تعالى

قبله: ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ۝٥﴾ [فاطر: 5]، وقولِه بعدَه: ﴿وَمَكْرُ أُوْلَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ ۝١٠﴾ [فاطر: 10]، ثمَّ إنَّ النُّشورَ جامعٌ بين إخراج الموتى وإحيائهم، وليس الإحياء فقط، فضلًا عن كَونِ التَّعبيرِ به أوجزَ وأطبقَ للفواصلِ، وأمّا سائرُ المواضِعِ فلم تُبنَ على قَصْد التَّشبيهِ، ولا جَرى فيها ذلك، فوقعَ الاكتفاءُ فيها بمجرَّد الإيماء والإحالة، على غير طريقة التَّشبيه.

الموضِعُ الثّاني عشَرَ: تخصيصُ ﴿كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ بالأعراف؛ ليكونَ مُقابَلًا بقوله: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۚ﴾، ولم يَرِدْ في سائر الآيات التَّعبيرُ بلفظِ الإخراجِ لما يُنْبِتُ المطرُ، وما يَخْلقُ سبحانَه في الأرض، فاستدعى كلُّ سياقٍ ما يُناسبه.

الموضِعُ الثّالث عشَرَ: تخصيصُ الختم بـ ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ في الأعراف؛ وذلك لكونه ذَكرَ ما يَسْتلْزِمُ التَّذَكُّرَ وعدمَ الغفلةِ والنِّسيانَ، فقال: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۚ﴾، والنّازلُ مِنَ السَّماء ماءٌ واحدٌ، ومع ذلك تخرجُ بسببه أنواعٌ شتَّى مِنَ الثَّمرات، في لونها، ورائحتِها، وأصنافِها، فكذلكَ أنفُسُ الموتَى المُتكاثِرَةُ والمُتباينَةُ، تتعلَّقُ بها قُدْرَةٌ واحدةٌ مِنَ الرَّبِّ الواحدِ، فتَعودُ حَيَواتُها إليها على كَثْرتها واختلافها، وهذا موجِبٌ قويٌّ يستَحِثُّ على التَّذَكُّر واليَقظَة.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(الرِّياح)، (الرِّيح):

الرّيح: يدلُّ على الإفراد، وفرديَّة الرّيح تدلُّ على شراستِها؛ لنُشوئها مِن جهةٍ واحدةٍ، واتِّحادِ نوعِها.

والرّياحُ: جمعٌ يدلُّ على التَّعدُّد والتَّباين النَّوعيِّ بينَها، فبعضُها يُخفِّفُ بعضًا، ويكون بعضُها لَواقحَ لبعضٍ، فتُثْمِرُ بعوائدِ الخيرِ.

أغلبُ لفظِ (الرِّيح) مُقترنٌ بالعذاب، وقد يَقْترِنُ بالرَّحمة، ولفظُ (الرِّياح) لا يأتي في العذاب أبدًا

"وعامَّة المواضِعِ التي ذَكَرَ اللّهُ تعالى فيها إرسالَ الرّيحِ بلفظِ الواحد فعبارةٌ عنِ العذاب، وكلُّ موضِعٍ ذُكِرَ فيه بلفظِ الجمعِ فعبارةٌ عنِ الرَّحمة"(1)، وليُنْتَبَه إلى لفظ: "وعامَّة المواضِع" السّابق؛ فإنَّه لا يُفيدُ الحصرَ، بل الأغلبيَّةَ، فأغلبُ لفظِ الرّيحِ استُعملَ في العذاب، معَ مجيئه أحيانًا في الرَّحمة أيضًا، وليُنْتَبَه كذلك إلى لفظ: "وكلُّ موضِع..." السّابق؛ فإنَّه يُفيدُ الحصرَ والاستغراقَ، ولذا لم يأتِ لفظُ الرّياحِ بالجمعِ في العذابِ أبدًا.

فمِن مجيءِ الرّيحِ في العذابِ - وهو الغالبُ - قولُه تعالى: ﴿رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ﴾ [آل عمران: 117]، ﴿ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ﴾ [إبراهيم: 18]، ﴿رِيحًا صَرْصَرًا﴾ [القمر: 19]، ومِن مجيءِ الرّيحِ في الرَّحمة - وهو قليلٌ - إفرادُ الرّيح هاهنا: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ﴾ [الأعراف: 57] في قراءة ابنِ كثير وحمزةَ والكسائيِّ وخَلَفٍ، والباقون بالجمع.

(أَقَلَّتْ)، (حَمَلَتْ):

أقلَّتْ: دالٌّ على قِلَّةِ المحمول، وحمَلَتْ: عامٌّ في الدَّلالة على رَفْعِ الشَّيءِ بتكلُّفٍ أو إقلال

﴿حَمَلَتْ﴾ أعمُّ مِن ﴿أَقَلَّتْ﴾، و﴿أَقَلَّتْ﴾ أي: حملتْها حِمْلَ القليلِ، وهو دالٌّ على قِلَّةِ المحمول بالنِّسبة لإطاقةِ الحامل، وأمّا الحَمْلُ: فليس فيه معنى أنَّ المحمولَ قليلٌ بالنِّسبة لحامله، بل هو عامٌّ في الدَّلالة على رَفْعِ الشَّيء بتكلُّفٍ أو إقلال، بدليل قوله تعالى: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ [العنكبوت: 13]، فالحَمْلُ هاهنا فوقَ الإطاقةِ، وبتكلُّفٍ، وعُسْرٍ، وقوله تعالى: ﴿حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ﴾ [الأعراف: 189]، فالحَمْلُ هاهنا بإقلالٍ ويُسْرٍ.

وأمّا قولُه تعالى: ﴿أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا﴾ فنَصٌّ في أنَّ المحمولَ قليلٌ، من جهتين: مِن جهةِ الاشتقاقِ، فبناءُ اللَّفظ مِنَ القِلَّة، ومِن جهةِ السّياق، فالسَّحابُ موصوفٌ بالثِّقال؛ ليندفعَ به إيهامُ مَن يَظُنُّ

(1) الرّاغب، المفردات: (روح).

أنَّ القِلَّةَ حاصلةٌ بسبب خِفَّةِ السَّحاب، بل هي حاصلةٌ بسبب قوَّةِ الرّياحِ، وتمكُّنِها منه تمكُّنَ الأكثرِ مِنَ الأقل[1].

(أخرجنا)، (أنبتنا):

الإنبـاتُ تكوينٌ وتهيُّؤٌ للخروج، والـخُـروجُ هو تمامُ الإنباتِ

أصلُ الخروجِ: النَّفاذُ عنِ الشَّيء[2]، وهو البُروزُ مِنَ المَقرِّ، سواءٌ أكانَ دارًا، أم بلدًا، أم ثوبًا، وسواءٌ كان بنفسه، أو بأسبابه الخارجة عنه[3]، وهو خلافُ التَّكوينِ والإنشاءِ، بدليلِ قوله: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ﴾ [النّحل: 78]، فخُروجُه لاحِقٌ لتمامِ تكوينِه، ولذا عَبَّر هنا بالإخراج دونَ الإنباتِ: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۚ﴾؛ لإرداةِ منتهى التَّكوينِ، وهو خروجُ الثَّمرات وإدراكُها ناضجةً تامَّةً، وليوافقَ قولَه بعدَه: ﴿كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾، فيتطابقَ اللَّفظانِ بينَ المقيس عليه والمقيس في الدَّلالة على الغرض.

وأمّا الإنباتُ: فهو الإنشاءُ والتَّكوينُ قبلَ أن يَخرجَ، وهو أوَّلُ الخُروجِ إلى أن يَتمَّ، واستعمالُ الإنباتِ في الإنشاءِ والتَّكوينِ كما في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾﴾ [نوح: 17]؛ "أي: أنشأكم منها، فاستُعير الإنباتُ للإنشاء؛ لكونه أدلَّ على الحدوث والتَّكوُّن"[4]؛ "للمشابهة بينَ إنشاءِ الإنسانِ وإنباتِ النَّباتِ، من حيثُ إنَّ كليهما تكوينٌ"[5]، وعليه: فالإنباتُ: تكوينٌ وتهيُّؤٌ للخروج، والخروجُ: هو تمامُ الإنباتِ.

(نُخْرِج)، (نُحْيي):

الإخـراجُ مُتأخِّرٌ، والإحـيـاءُ مُتقدِّمٌ، والمتأخِّرُ يدلُّ على حصولِ المتقدِّمِ، وليس العكس

إحياءُ الموتى: إعادةُ الحياةِ إليهم روحًا وجسدًا.

إخراجُ الموتى: إنفاذُ النّاسِ مِن قبورهم، وبُروزُهم عنها.

(1) ابن الجوزيّ، نزهة الأعين، ص: 226، وجبل، المعجم الاشتقاقيُّ المؤصَّل: (قلل - قلقل).
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (خرج).
(3) السّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: 1/495.
(4) الآلوسّي، روح المعاني: 15/84.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/204.

فالإخراجُ متأخِّرٌ، والإحياءُ مُتقدِّمٌ، قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا﴾ [المعارج: 43]، وقال: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ ۝٤٢﴾ [ق: 42]؛ "أي: خروجُ النّاسِ مِنَ الأرضِ، فالخروجُ صارَ كالعَلَمِ بالغَلَبة على البعثِ"[1]؛ أي: نُحْيي النّاس ثمَّ نُخْرِجُهم؛ لأنَّ الخروجَ حركةٌ، والحركةُ لا تكونُ مِن غيرِ حياةٍ، فإخراجُهم يقتضي إحياءَهم، لكنَّ الإحياءَ لا يَلْزمُ عنه الإخراجُ. وقال هاهنا: ﴿كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ تطابقًا في اللَّفظ والغرضِ مع: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۚ﴾، فقد أراد مُنتهَى التَّكوين؛ وهو خروجُ الثَّمراتِ مِن أكمامها، وأرادَ هنا مُنتهى إعادةِ الموتى؛ وهو خروجُهم مِن قبورهم[2].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 26/294.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (خرج).

﴿وَٱلۡبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخۡرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذۡنِ رَبِّهِۦۖ وَٱلَّذِي خَبُثَ لَا يَخۡرُجُ إِلَّا نَكِدٗاۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَشۡكُرُونَ ٥٨﴾ [الأعراف: 58]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

العِبرَةُ بِطِيبِ المَسْقِيِّ وخُبْثِه، لا بِطَهارَةِ الماءِ السَّاقِي ورَيِّه

هذه الآيةُ من تمام المعنى في الآية قبلَها، تُعرِّف بعادةِ اللّه تعالى في إنباتِ الأرضين[1]، فبعدَ "أن ضرب اللّهُ إحياءَ البلاد بالمطر مثلًا لبعث الموتى؛ ضربَ اختلاف نتاجِ البلاد مثلًا لما في البشرِ من اختلاف الاستعداد لكلٍّ من الهُدى والكفر والرَّشاد والغيِّ، فقال: ﴿وَٱلۡبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخۡرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذۡنِ رَبِّهِۦۖ وَٱلَّذِي خَبُثَ لَا يَخۡرُجُ إِلَّا نَكِدٗاۚ﴾"[2]، فالتَّفاوتُ بين النّاس في تقبُّل الوحي يماثل تفاوتَ الأرضين من حيثُ الإنباتُ، "فكما أنّا فاوتنا بين جواهرِ الأراضي بخلق بعضِها جيِّدًا وبعضِها رديئًا، كذلك فاوتنا بين عناصر الأناسيِّ بجعلِ بعضِها طيِّبًا وبعضِها خبيثًا، فالجيِّدُ العنصرِ يسهلُ إيمانُه، والخبيث الأصلِ يعسر إذعانُه، وتبعد استقامتُه وإيقانه"[3].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَٱلۡبَلَدُ﴾: (بلد) أصْلٌ يدلُّ على الصَّدْر، يُقالُ: بَلَّدَ الرَّجُلُ بِالْأَرْضِ: لَزِقَ بِها، وبَلَدَ بالمكان: أقام به، فهو بالِدٌ، والبلد: المكان المحيط المحدود المتأثِّرُ باجتماع قطّانهِ وإقامتهم فيه، وجمعه: بلادٌ وبلدان، وسمِّيت المفازة: بلدًا؛ لكونها موطنَ الوحشيّات، والمقبرةُ بلدًا لكونها موطنًا للأموات[4].

2) ﴿ٱلطَّيِّبُ﴾: (طيب) أصلٌ يدلُّ على خلافِ الخبيثِ، وأصلُ

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/414.
(2) المراغي، تفسير المراغي: 8/185.
(3) البقاعيّ، نظم الدرر: 7/423.
(4) الجوهريّ، الصحاح، وابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات: (بلد).

الطَّيِّب: ما تستلذُّه الحواسُّ، وما تستلذُّه النَّفس، يقالُ: أرضٌ طيِّبةٌ للَّتي تصلحُ للنَّبات، وريحٌ طيِّبةٌ؛ إذا كانت ليِّنةً ليست بشديدةٍ؛ وطُعْمةٌ طَيِّبَةٌ؛ إذا كانت حلالًا، وامرأة طيِّبةٌ؛ إذا كانت حَصانًا عفيفة[1]، وأمّا قوله: ﴿وَٱلۡبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ﴾؛ فإشارةٌ إلى الأرضِ الزَّكيَّة الطَّيِّبة التُّربة[2]، والبلد الطَّيِّب هو "الأرض ذاتُ التُّربةِ الخصبةِ المشتملةِ على كلِّ ما يتكوَّنُ منه النَّبات أو الغراسُ مع الماء والحرارةِ، وما تقتضيه طبيعةُ النَّبات، وما يكون غذاءً لهُ"[3].

3) ﴿يَخۡرُجُ﴾: أصلُ الخروجِ: النَّفاذُ عَنِ الشَّيْءِ، خَرَجَ خُرُوجًا: برز من مقرِّهِ أو حاله، سواءٌ كان مقرُّه دارًا، أو بلدًا، أو ثوبًا، وسواءٌ كان حالُه حالةً في نفسه، أو في أسبابهِ الخارجة، قال تعالى: ﴿فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦٓ أَزۡوَٰجٗا مِّن نَّبَاتٖ شَتَّىٰ﴾، وقالَ تعالى: ﴿يُخۡرِجُ بِهِۦ زَرۡعٗا مُّخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهُۥ﴾[4].

4) ﴿نَبَاتُهُۥ﴾: (نبت) أصلٌ يدلُّ على نماءٍ في مزروع، يقالُ: نَبَت، وأنبتت الأرض، ونبت الشَّجرُ، وكلُّ ما أَنْبَتَ اللّه في الأرض، فَهُوَ نَبْتٌ، وهو ما يخرجُ من الأرضِ من النّامِيات، سواءٌ كان له ساقٌ كالشَّجر، أو لم يكن له ساقٌ كالنَّجْم، ويستعمل في كلِّ نام، نباتًا كان، أو حيوانًا، أو إنسانًا، والإِنْباتُ يُستعملُ في كلِّ ذلك، قال تعالى: ﴿فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا حَبّٗا ٢٧ وَعِنَبٗا وَقَضۡبٗا ٢٨ وَزَيۡتُونٗا وَنَخۡلٗا ٢٩ وَحَدَآئِقَ غُلۡبٗا ٣٠ وَفَٰكِهَةٗ وَأَبّٗا ٣١﴾ [عبس: 27 - 31][5].

5) ﴿خَبُثَ﴾: (خبث) أَصْلٌ واحِدٌ يَدُلُّ على خلافِ الطَّيِّبِ مِنَ الرِّزْق والولدِ والنّاس، الخُبْثُ والخَبِيثُ: ما يُكرهُ رداءةً وخساسة، محسوسًا كان أو معقولًا، وأصله: الرَّديءُ الدُّخْلة[6]، الجاري مجرى خَبَثِ الحديد، هو خبيثٌ، أي: رديءٌ[7]، وقولهُ تعالى: ﴿وَٱلَّذِي خَبُثَ﴾ هو الأرضُ السَّبِخة[8].

6) ﴿نَكِدٗاۚ﴾: (نكد) أصلٌ يدلُّ على خروج الشَّيء إلى طالبهِ بشدَّةٍ، وتعسُّر، والنَّكد: قلَّة

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، اللسان: (طيب).
(2) ابن الجوزي، تذكرة الأريب، ص: 112.
(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 6/2874.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات: (خرج).
(5) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، اللسان: (نبت).
(6) تَقولُ: إنَّه لعَفِيف الدُّخْلة، وإنَّه لخَبيث الدُّخْلة أَي: باطِنُ أَمره، داخِلةُ الرّجلِ: باطنُ أمره. الجوهري، الصحاح، وابن منظور، اللسان: (دخل).
(7) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، اللسان: (خبث).
(8) ابن الجوزي، تذكرة الأريب، ص: 112.

العطاءِ، والمنكودُ: العطاءُ النَّزر القليلُ، نَكِد الرَّجلُ، فهو منكودٌ، إذا كثُرَ سؤالُه وقلَّ خيرُه. وناقَةٌ نَكْداءُ: قليلةُ اللَّبن طَفيفَةُ الدَّرِّ صَعْبَةُ الحَلْبِ[1]، وقولهُ تعالى: ﴿إِلَّا نَكِدًا﴾ أي: إلّا قليلًا عسيرًا في شدَّةٍ ضعيفَ المنفعة[2].

7) ﴿نُصَرِّفُ﴾: (صرف) أصلٌ يَدُلُّ عَلَى رَجْعِ الشَّيْءِ، والصَّرْفُ: ردُّ الشَّيء من حالة إلى حالة، أو إبداله بغيرهِ، وتَصاريفُ الأُمورِ: تَخاليفُها، وتَصْريفُ الرِّياحِ صَرْفُها مِنْ جِهَةٍ إِلَى جِهَةٍ، وجعلُها جَنُوبًا وشَمالًا وصَبًا ودَبُورًا، وَكَذَلِكَ تَصْرِيفُ السُّيُولِ والخُيولِ والأُمور والآياتِ[3]، ومعنى التَّصريف في قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْآيَٰتِ﴾ أي: نأتي بها من جهاتٍ لمعانٍ: كالإعذار والإنذار والتَّرغيب والتَّرهيبِ، ونحو ذلك[4].

❁ المعنى الإجْماليُّ:

المناسبةُ بين إحياءِ الغَيثِ للأرضِ السَّبخةِ والمُنبِتةِ، وفِعْلِ القرآنِ بالقلوبِ الحيّةِ والميّتةِ

يخبر اللّهُ تعالى "أنَّ الأرضَ الكريمة التُّربةِ يخرج نباتُها وافيًا حسنًا غزير النَّفع بمشيئة اللّه وتيسيره، والذي خبثَ من الأرض كالسَّبخة منها لا يخرج نباتهُ إلّا قليلًا عديم الفائدة، فالأوَّل: مثلٌ ضربه اللّه للمؤمن يقول: هو طيِّبٌ وعمله طيِّبٌ. والثّاني: مثلٌ للكافر، يقول: هو خبيثٌ وعمله خبيثٌ، وفيهما بيانٌ أنَّ القرآنَ يثمر في القلوب الَّتي تشبهُ الأرضَ الطَّيِّبة التُّربة، ولا يثمرُ في القلوب الَّتي تشبهُ الأرضَ الرَّديئة السَّبخة"[5]، ومثل ذلك التَّنويع والتَّصريف البديع في البيان نُنوِّع ونكرِّر الحججَ والبراهين لتبيينِ الحقِّ لقومٍ يشكرون نِعَمَ اللّه، ويطيعونه[6].

(1) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات: (نكد).
(2) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 146، وابن الجوزي، تذكرة الأريب، ص: 11، والبقاعيّ، نظم الدرر: 7/423.
(3) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، اللسان: (صرف).
(4) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 6/428.
(5) طنطاوي، الوسيط: 5/293.
(6) جماعة من العلماء، التفسير الميسر: 1/158.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

معنَى الواوِ في قولِه تعالى: ﴿وَٱلۡبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ﴾:

الواو للاستئناف بغرض الاستطراد، في تفصيل أحوال البلادِ والعِبادِ

الواو في قوله تعالى: ﴿وَٱلۡبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ﴾ واوُ الاستئناف، فالجملةُ مستأنفةٌ[1] للاعتراض والاستطراد، فالجملةُ معترضةٌ بينَ قولِه تعالى: ﴿فَأَنزَلۡنَا بِهِ ٱلۡمَآءَ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۚ كَذَٰلِكَ نُخۡرِجُ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾، وقولِه: ﴿لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ﴾؛ وفائدةُ هذه الجملة: أنَّها "تتضمَّن تفصيلًا لمضمون جملةٍ: ﴿فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۚ﴾؛ إذ قد بيَّن فيها اختلافَ حالِ البلدِ الذي يصيبه ماء السَّحاب"[2]، ودخلت الواوُ على الكلامِ المستطرَد للمناسبةِ بين موضوع الآية السّابقةِ وهذه الآية[3].

دلالة التَّعريف في قوله: ﴿وَٱلۡبَلَدُ﴾:

كلُّ بلدٍ طابتْ تُربتُهُ؛ فإنَّهُ يأتي نباتُهُ مُثمِرًا بإذنِ ربِّهِ

في قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَٱلۡبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخۡرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذۡنِ رَبِّهِۦۖ﴾ جاء البلدُ معرَّفًا بالألف واللّام الدّالَّة على الجنسِ، فليس المرادُ بلدًا بعينه أنَّه طيِّبٌ، بل جنسُ البلاد الطَّيِّبة تتَّصف بكونِ نباتِها يخرج طيِّبًا وافرًا، فالبلدُ الطَّيِّب: هو "الأرْضُ المَوْصوفَةُ بالطّيب، وطيبُها زَكاءُ تُرْبَتِها ومُلاءَمَتُها لإخراجِ النَّباتِ الصّالِحِ وللزَّرع والغَرْس النّافع، وهي الأرْضُ النَّقيةُ"[4]، وهذا لا يختصُّ ببلدٍ بعينِه.

بَلاغةُ التّشبيهِ التَّمثيليِّ:

المُنتفعُ بالقرآنِ كالبلدِ الطَّيِّبِ، والمُعرِضُ عنهُ كالسَّبخةِ الجَدْبةِ

قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَٱلۡبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخۡرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذۡنِ رَبِّهِۦۖ وَٱلَّذِي خَبُثَ لَا يَخۡرُجُ إِلَّا نَكِدٗاۚ﴾ تشبيهٌ تمثيليٌّ؛ إذ "المقصودُ من هذه الآية التَّمثيل، وليس المقصودُ مجَرَّدَ تفصيل أحوال الأرض بعد نزول المطر؛ لأنَّ الغرضَ المسوق له الكلام يجمع أمرين: العبرةَ بصُنعِ

(1) الهرري، حدائق الروح والريحان: 9/370.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/184.
(3) الطيبي، فتوح الغيب: 6/416، والآلوسي، روح المعاني: 4/387.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/185.

اللّه، والموعظةَ بما يماثلُ أحواله"[1]، فالآيةُ الكريمة جاءت لتشبيهِ حال المؤمن والكافرِ من نزول القرآنِ، وموقفِ كلٍّ منهما في الإيمانِ والبقاءِ على الكفر[2].

ويُبيِّنُ هذا التَّأويلَ قولُهُ ﷺ: «مَثَلُ ما بَعَثَني اللّهُ به مِنَ الهُدى والعِلْمِ، كَمَثَلِ الغَيْثِ الكَثيرِ، أصابَ أرْضًا، فكانَ مِنها نَقيَّةٌ، قَبِلَتِ الماءَ، فأنْبَتَتِ الكَلَأَ والعُشْبَ الكَثيرَ، وكانَتْ مِنها أجادِبُ، أمْسَكَتِ الماءَ، فنَفَعَ اللّهُ بها النّاسَ، فشَرِبوا، وسَقَوْا، وزَرَعوا، وأصابَتْ مِنها طائِفَةً أُخْرى، إنَّما هي قيعانٌ لا تُمْسِكُ ماءً، ولا تُنْبِتُ كَلَأً، فذلكَ مَثَلُ مَن فقُهَ في دينِ اللّهِ، ونَفَعَهُ ما بَعَثَني اللّهُ به، فعَلِمَ وعَلَّمَ، ومَثَلُ مَن لَمْ يَرْفَعْ بذلكَ رَأْسًا، ولَمْ يَقْبَلْ هُدى اللّهِ الذي أُرْسِلْتُ به»[3].

غَرَضُ التَّمْثيلِ بالبلدِ الطَّيِّبِ والخبيثِ:

تَصويرُ المعقولاتِ بالحِسِّيَّاتِ، أقربُ للفهْمِ وأبلَغُ في إقامةِ الحُجَّةِ

آثر النَّظمُ التَّمثيل بقوله: ﴿وَٱلۡبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخۡرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذۡنِ رَبِّهِۦۖ وَٱلَّذِي خَبُثَ لَا يَخۡرُجُ إِلَّا نَكِدٗاۚ﴾ على التَّصريحِ بالمؤمنِ والكافر؛ لأنَّه لمّا ذكر الرّياح المبشِّرات والغيث الَّذي ينبتُ كلَّ الثَّمرات كان مناسبًا أن يبني على هذه الآيات والنِّعم موازنة بين النّاسِ في تلقّي ما نزل رحمةً بهم من الوحي، فجاء التَّمثيلُ بالبلد الطَّيِّب والخبيثِ على سبيلِ الاستطرادِ، فإنَّ "إيثارَ خصوص التَّمثيل بالأرضِ الطَّيِّبة والخبيثة استطرادٌ عقيبَ ذكرِ المطرِ وإنزاله بالبلدِ وموازنة بين الرَّحمتين"[4] رحمةِ المطر مع البلد الطَّيِّب والخبيث على حدٍّ سواء، ورحمةِ الوحي مع المؤمنِ والكافر كذلك، فغرضُ التَّمثيلِ بالبلدِ الطَّيِّب والخبيثِ تجسيدُ المعقولاتِ بأمورٍ حسيَّةٍ؛ لتكونَ ظاهِرَةً للعُقولِ.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/184 - 185، وينظر: الطيبي، فتوح الغيب: 6/415.
(2) الزمخشري، الكشّاف: 2/112، والفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/291، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/234.
(3) البخاريّ، الجامع الصحيح، الحديث رقم: (79).
(4) الآلوسي، روح المعاني: 4/387، وينظر: الزمخشري، الكشّاف: 2/112.

عِلَّةُ تَقديمِ البَلدِ (الطَّيِّبِ) على (الخبيثِ):

الإشْعارُ بالاهتمامِ بالطَّيِّبِ الشَّريفِ، والنَّبْذِ للخَبيثِ النَّبيثِ

قُدِّمَ ذِكرُ البلدِ الطَّيِّب على الخبيثِ لثلاثِ عِلَلٍ؛ الإيذانُ بأنَّ "أصلَ الأرضِ أن تكونَ طيِّبةً مُنبتةً، وخلافُه طارئٌ عارضٌ"[1]، والإشعارُ بالاهتمام، فالبلد الطَّيِّب الذي جيءَ به لتمثيلِ الإيمانِ، والإيمان هو الأصلُ، فكان لا بدَّ أن يقدِّم الأصلَ، ويؤخِّر الطّارئ الحادث، والتَّشريفُ للمقدَّمِ ذكرُه، فهذه ثلاثةُ عللٍ لتقديمِ البلد الطَّيِّب على ذكرِ الخبيثِ.

سِرُّ التَّعْبيرِ بلفْظِ ﴿وَٱلۡبَلَدُ﴾ دونَ (القريةِ):

القُرآنُ يَنزلُ في قلوبِ العبادِ، بقطْعِ النَّظرِ عن ماضِيها الإيمانيِّ بربِّ العِباد

لمّا كانَ ماءُ السَّحاب ينزل على الأرض جميعًا العامرِ منها وغيرِ العامرِ آثر التَّعبيرَ بالبلد؛ لأنَّه أعمُّ من القرية؛ فهو "يُطْلَقُ على كلِّ جزءٍ من الأرض عامرًا كان أو خرابًا"[2]، والقرية تُطلقُ على العامرة بالنّاس مسكونة، أو قد طرأ عليها الخراب، فإيثارُ البلدِ على القريةِ لهذا الملحظِ، وأمرٌ آخر: وهو أنَّ البلد يُطلقُ على العامرِ وغير العامر بالسُّكّانِ، ففيه إشارةٌ إلى أنَّ القرآنَ نزل لمن كان عامرًا بالإيمانِ، ومن لم يكن عامرًا به، فالآيةُ تُنبِّهُ على أنَّ الإيمانَ ينبُت في قلوبِ العبادِ بقطعِ النَّظرِ عن ماضيها.

غَرَضُ تَذكيرِ لفْظِ ﴿وَٱلۡبَلَدُ﴾:

عبَّرَ بالبلدِ لا بالبلدةِ للعُمومِ، ولدفْعِ توهُّمِ أنَّ المرادَ بلدٌ بعينِه

وجاء بصيغةِ التَّذكير دون التَّأنيث؛ لأنَّ البلدَ أعمُّ من البلدةِ، فهي جزءٌ منه، والطّائفةُ من البلدِ بلدةٌ، والجمعُ: بلاد، وتُطلق البلدةُ على المفازة[3]، والنَّصُّ في العموم، فكان التَّعبير باللَّفظ الدّالِّ عليه أنسبَ، ولكي لا يُفهم أنَّ المرادَ به بلدةٌ بعينِها، فإنَّ اللَّفظَ العامَّ أبعدُ في دلالتِه عن الخُصوصِ.

---

(1) الآلوسي، روح المعاني: 4/386.

(2) السّمين الحلبيّ، الدر المصون: 5/352.

(3) الخليل، العين: (بلد).

غَرَضُ وصْفِ ﴿وَٱلۡبَلَدُ﴾ بـ ﴿ٱلطَّيِّبُ﴾:

المُدعَمةُ بين البلدِ الطَّيِّبِ والقلْبِ الطَّيِّبِ، المُنتفعِ بنُزولِ القرآنِ

وصف البلدَ بالطَّيِّب في قوله تعالى: ﴿وَٱلۡبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخۡرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذۡنِ رَبِّهِۦۖ﴾ للدَّلالةِ على جودة أرضه، وأنَّها كريمةٌ منبتة[1]، "وطيبُها زكاءُ تربتها وملاءمتها لإخراجِ النَّبات الصّالح، وللزَّرع والغرس النّافع، وهي الأرضُ النَّقيَّة"[2]، وغرضُ وصف البلد بكونهِ طيِّبًا، ليقع التَّمثيل على المؤمن الَّذي انتفع بهدي القرآن.

سِرُّ تَقديم المُسنَدِ إليه، على المُسنِدِ الفِعْليِّ:

قُدِّمَ ذِكرُ البلدِ الطَّيِّبِ اهتمامًا بـه، وتَقويةً لمضمونِ الخَبرِ

جاءُ تقديمُ المُسندِ إليه في قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَٱلۡبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ﴾ على المسندِ الفعليِّ ﴿يَخۡرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذۡنِ رَبِّهِۦۖ﴾ ولم يقل: (يخرج نباتُ البلد الطَّيِّب)؛ للدَّلالةِ على الاهتمامِ به؛ إذ تكرَّر مرَّتين: بالاسم الظّاهر، وبالضَّمير في ﴿نَبَاتُهُۥ﴾، والإخبارُ بالجملةِ الاسميَّة يدلُّ على قوَّة مضمونِها، لما فيها من دلالةٍ على التَّأكيد بثباتِ المعنى ورسوخهِ.

نُكتةُ التَّعبيرِ عنِ الإنبات بالفعلِ المضارعِ ﴿يَخۡرُجُ﴾:

تَصويرُ مُعْجزةِ خُرُوجِ النَّباتِ مِنَ الأَرْضِ، خُرُوجًا مَوزُونًا سَلِسًا

عبَّرتِ الآيةُ عن بروز النَّبات منَ الأرضِ بالخروج ﴿يَخۡرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذۡنِ رَبِّهِۦۖ﴾ دون مرادِفاتِه؛ كالطُّلوع الَّذي يدلُّ على الظُّهور دون النَّفاذِ، فالطُّلوع: الظُّهور والبروز[3]، كما قال سبحانه: ﴿وَزُرُوعٖ وَنَخۡلٖ طَلۡعُهَا هَضِيمٞ ١٤٨﴾ [الشّعراء: 148]، ونكتةُ ذلك أنَّ الخروجَ يدلُّ على النَّفاذ، فهو أكثرُ من مجَرَّدِ البروز والظُّهور، وقد جاء الخروجُ مع الإنباتِ في قوله تعالى: ﴿فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦٓ أَزۡوَٰجٗا مِّن نَّبَاتٖ شَتَّىٰ ٥٣﴾ [طه: 53] وقال تعالى: ﴿يُخۡرِجُ بِهِۦ زَرۡعٗا مُّخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهُۥ﴾ [الزمر: 21]، فالتَّعبيرُ بالخروج يدلُّ على كونه "خروجًا كثيرًا حسنًا سهلًا غزيرًا"[4].

---

(1) البقاعيّ، نظم الدرر: 7/423.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/185.
(3) الجوهري، الصحاح، وابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، اللّسان: (طلع).
(4) البقاعيّ، نظم الدرر: 7/423.

نُكتةُ التَّعبيرِ بالفعْلِ المضارعِ: ﴿يَخۡرُجُ﴾:

ونكتةُ التَّعبيرِ بالمضارعِ الدِّلالةُ على تجدُّد الخروجِ واستمرارِهِ؛ إذ هو فعلٌ مستمرٌّ غير منقطعٍ، كما أنَّ فيه تصويرًا لمشهدِ خروجِ النَّبات منَ الأرض، فيثيرُ مخيِّلة السّامع لاستحضارِ مشهد الإنبات وانبثاقِ النَّبات من الأرض بعد شقِّها وبروزِهِ منها.

تَصويرُ مَشْهدِ خُروجِ النَّباتِ ونُموِّهِ، بوصْفٍ سائغٍ بديعٍ

المجازُ العقليُّ في قولِهِ: ﴿يَخۡرُجُ نَبَاتُهُۥ﴾:

في قولهِ جلَّ شأنه: ﴿يَخۡرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذۡنِ رَبِّهِۦۖ﴾ أسندَ الخروجَ إلى النَّباتِ، والنَّبات لا يخرجُ بنفسِه، بل يخرجهُ اللّه تعالى، ويقوّي إرادةَ المجاز التَّعبيرُ بقوله تعالى: ﴿بِإِذۡنِ رَبِّهِۦۖ﴾ فدلَّ على أن لا خروجَ إلّا بإذنِ اللّه تعالى، وفي إسنادِ الفعل إلى غيرِ فاعله على وجهِ الحقيقة إيجازٌ في القولِ، واقتصادٌ في التَّعبير، إذ لو جاء الكلامُ على الحقيقةِ؛ لقالَ: (والبلد الطَّيِّب يُخرِجُ اللّه نباتَه بإذنِهِ)، كما أنَّ إظهارَ لفظ الجلالة في هذا السّياق لا يناسبُ لكونِهِ في صفات الرُّبوبيَّة، فجاءت العبارةُ على غاية البلاغةِ والإيجاز، فأسند الخروجَ إلى النَّبات، ولم يذكر لفظَ الجلالةِ، وذكر بدلًا عن ذلك لفظَ الرُّبوبيَّة لكونهِ أنسبَ.

النَّباتُ لا يخرجُ بنفسِهِ، بلِ يُخرجهُ اللهُ الّذي خلَقَ فسَوّى، وقدّرَ فهدَى

بَلاغةُ الاستعارةِ في: ﴿يَخۡرُجُ نَبَاتُهُۥ﴾:

في قوله جلَّ شأنُه: ﴿يَخۡرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذۡنِ رَبِّهِۦۖ﴾ استعارةٌ مكنيَّةٌ؛ حيثُ شبَّه النَّبات بالإنسانِ المتأهِّبِ للخروج، وينتظرُ أن يؤذنَ له بذلكَ، فحذف المشبَّه بهِ وأبقى صفةً من صفاتهِ، وهي الخروجُ، وهذا يُظهر عبوديَّةَ النَّبات للّه تعالى، كما أنَّ في هذا التَّعبير من البلاغةِ ما ليس فيهِ لو جاء على وجه الحقيقةِ بأن يقالَ: والبلدُ الطَّيِّبُ يخرج اللّهُ نباتَهُ.

تَشْبيهُ النَّباتِ بالإنسانِ الّذي يَنتظرُ الإذنَ للخُروجِ

دَلالةُ اسْتِعمالِ لفْظِ (النَّباتِ) دونَ (الزَّرعِ):

استُعملَ لفظُ النَّباتِ في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَٱلۡبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخۡرُجُ

النَّباتُ يَشملُ الزَّرعَ والشَّجرَ وغيرَهما، ممّا يَنبتُ في الطّبيعةِ بأمْرِ الله

نَبَاتُهُۥ﴾ دون غيرِه من الألفاظِ، كالزَّرع والشَّجر لدلالةِ النَّبات على كلِّ ما نبتَ من الأرضِ؛ فـ "الزَّرع: ما ينبتُ على غير ساقٍ، والشَّجر ما له ساقٌ وأغصانٌ، يبقى صيفًا وشتاءً، والنَّبات يعمُّ الجميع؛ لأنَّه ما ينبت من الأرضِ، أي: يخرجُ منها"[1]، فالنَّباتُ شاملٌ لكلِّ ذلك.

سِرُّ إضافةِ النَّباتِ إلى ضَميرِ البلدِ، في ﴿نَبَاتُهُۥ﴾:

خَصَّ اللهُ كلَّ بلدٍ بنوعٍ منَ النَّباتِ يَتميَّز فيه مِن غيرِه، في الطَّعْمِ والجَودةِ

أضاف النَّباتَ إلى الضَّميرِ العائد على البلدِ، في قولِه تعالى: ﴿يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ﴾؛ لاختصاص غالبِ البلدان بنوعٍ من النَّبات لا ينبتُ في غيرِه، فكأنَّ ما نبت في بلدٍ ما مختصٌّ بالبلد الَّذي نبتَ فيه، ولا ينتسب إلى غيره، أو أنَّ النَّبات الذي يخرُجُ في بلدٍ له خصائصُ لا تكونُ في غيرِه من البلدان، كما هو معلومٌ لدى أهل الاختصاصِ في تميُّزِ بعض البلدان من بعضِها الآخر بمزايا في التُّربة والهواء تجعلُ نباتَها أفضل من النَّوعِ نفسِه في مكانٍ آخر، وذلك هو المقصودُ في قولِه تعالى: ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي ٱلْأُكُلِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝٤﴾ [الرّعد: 4].

دَلالةُ (الباءِ)، في قوله: ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِۦۖ﴾:

خُروجُ النَّباتِ مُتوقِّفٌ على مَشيئةِ اللهِ تعالى

عبَّر النَّظم بالباء الدّالَّة على السَّببيَّة في قوله جلَّ شأنُه: ﴿يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦۖ﴾ للدَّلالة على أنَّ النَّبات إنَّما يخرجُ بإذنِ اللّه تعالى وبمشيئته وتيسيره[2].

فائِدةُ تعْليقِ خُروجِ النَّباتِ على الإذنِ:

ليس المرادُ بالإذن، إذْنَ التّكْوينِ، ولكنْ إذنَ التّكْريمِ والتّمْكينِ

قال تعالى: ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِۦۖ﴾ ولم يقُل: (بأمرِ ربِّه) إشعارًا بالعناية به، "ليدلَّ على تشريفِ ذلك النَّبات، فهو في معنى الوصفِ بالزَّكاء، والمعنى: البلدُ الطَّيِّبُ يخرج نباتهُ طيِّبًا زكيًّا مثله، وقد أشارَ إلى

(1) العسكريّ، الفروق، ص: 266.

(2) الآلوسي، روح المعاني: 4/386، وينظر: السّمين الحلبيّ، الدر المصون: 5/352.

طيب نباته بأنَّ خروجَه بإذن ربِّه، فأريد بهذا الإذنِ إذنٌ خاصٌّ هو إذنُ عنايةٍ وتكريم، وليس المراد إذنَ التَّقدير والتَّكوين؛ فإنَّ ذلك إذنٌ معروف لا يتعلَّق الغرض ببيانهِ في مثل هذا المقامِ"[1].

بَلاغةُ الكِنَايةِ في قوله: ﴿بِإِذۡنِ رَبِّهِۦۖ﴾:

قولُه تعالى: ﴿بِإِذۡنِ رَبِّهِۦۖ﴾ "كنايةٌ عن كثرةِ النَّبات وحسنهِ وغزارةِ نفعه"[2]، ولما فيه من المدحِ والتَّشريف[3]، "ونسبة الإسنادِ الشَّريفة الطَّيِّبة إليه تعالى، وإن كان كلا النَّباتين يخرجُ بإذنه تعالى"[4]، فهو تشريفٌ له بذكرِ ﴿رَبِّهِۦۖ﴾ في التَّعبير؛ لأنَّ ما أذِنَ اللهُ تعالى فيه، فلا بدَّ أن يكون طيِّبًا وفيرًا مباركًا، ولأنَّ هذا النَّبات هو مرعى المخلوقات وغذاءُ النّاس، فهو رزقُ الله تعالى لخلقهِ، جرتْ به مشيئتُه، فكانَ التَّشريف لهُ تعظيمًا لهذهِ النِّعَم والمِنَن.

النَّباتُ الَّذي يَخرُجُ بإذنِ اللهِ، غَزيرُ العطاء، كثيرُ النّماءِ

بَلاغةُ الإضافة إلى الرُّبوبيَّة في قوله: ﴿بِإِذۡنِ رَبِّهِۦۖ﴾:

ذكرُ لفظِ الرُّبوبيَّة أنسبُ في سياق الإنباتِ ونزول المطرِ، فقوله تعالى: ﴿رَبِّهِۦۖ﴾، أي: "المربّي له بما هيَّأه له"[5]، وقد سلف ذكرُ الرّياح وسوقها السَّحابَ ونزول المطر وإخراج النَّباتِ، وكلُّ هذا من صفات الرَّبِّ ﷻ، فكان التَّعبيرُ به أبلغَ في الآية.

الرُّبوبيَّةُ هي الأنسبُ في سِياقِ إخراجِ النَّبات، لحاجتِه إلى رعايةٍ في كلِّ مراحِله

سِرُّ إضافةِ ضَميرِ النَّباتِ، إلى لفْظِ الرُّبوبيَّةِ في قولِه: ﴿بِإِذۡنِ رَبِّهِۦۖ﴾:

وفي إضافةِ لفظ الرُّبوبيَّة إلى الضَّميرِ في قوله تعالى: ﴿رَبِّهِۦۖ﴾ تكريمٌ لهذا النَّبات، وأنَّه ممّا يجبُ أن يشكرَ العبادُ ربَّهم عليه، وأنَّه مقصودٌ بخصائصِه الغذائيَّة، وصفاتِه الحسيَّة، وأنَّه خرجَ برعايةٍ ربانيَّة، لمقصدٍ عظيمٍ، وغايةٍ مِلؤُها المصلحة والمنفعةُ للعباد.

النَّباتُ خرجَ برعايةٍ ربانيَّةٍ، لمصلحةِ الكافَّةِ منَ البَشريّةِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/185.
(2) الهرري، حدائق الروح والريحان: 9/378، وينظر: الزمخشري، الكشّاف: 2/112، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 3/17، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/234.
(3) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/414.
(4) أبو حيان، البحر المحيط: 5/79 - 80، وينظر: الهرري، حدائق الروح والريحان: 9/377 - 378.
(5) البقاعيّ، نظم الدرر: 7/423.

غَرَضُ عطْفِ: ﴿وَٱلَّذِى خَبُثَ﴾ على ما قبلَها:

إجراءُ التَّمثيلِ لاختلافِ حالِ النَّاس، عند تَلقِّي الوحْيِ، بين مُؤْثِرٍ ومُنْكِرٍ

جملةُ: ﴿وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا﴾ معطوفةٌ على قولهِ تعالى: ﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ﴾[1]، فهو من التَّوسُّطِ بين الكمالين بعطفِ الجملةِ الخبريَّة على مثلِها، فغرضُ عطف البلد الخبيثِ على البلد الطَّيب؛ لإجراء التَّمثيل الَّذي قصدتهُ الآيةُ الكريمة، وإيقاعِ المقارنة؛ إظهارًا للفرق بين هُدى المؤمنين وضلالِ الكافرين.

بَلاغةُ الإيجازِ بالحذْفِ في: ﴿وَٱلَّذِى خَبُثَ﴾:

دَلالةُ المذكورِ على المستورِ، من بَلاغةِ الآيِ المسْطورِ

حذفَ النَّظمُ الشَّريف لفظةَ (البلد) من قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِى خَبُثَ﴾ إيجازًا في التَّعبير، فهي صفة لموصوفٍ محذوفٍ، والتَّقدير: (والبلد الّذي خَبُث)؛ وساغ الحذفُ اكتفاءً بدلالة قوله تعالى: ﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ﴾ عليه[2].

سِرُّ العُدولِ عنِ الاسْمِ الصريح والتَّعبيرِ بالاسْم الموصولِ: ﴿ٱلَّذِى﴾:

كما أنّ صِفةَ الخَبَثِ حادثةٌ، فالكُفرُ حادِثٌ مُخالفٌ للأصلِ

عدلَ عن التَّعبيرِ بالاسم الصَّريحِ إلى الاسم الموصولِ في قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا﴾؛ ليعبِّرَ بصلة الموصول المضمِّنةِ فعلًا ماضيًا إيماءً إلى أنَّ تلك صفة الخبثِ حادثةٌ، وأنَّ الأصلَ في الأرضِ قبولُها المطرَ وإنباتُها الزَّرع، وكذلك ما جرى له التَّمثيل بذلك؛ فأصل فطرة النّاس الإيمانُ، وأمّا الكفر فهو حادث مخالف للأصل، و"إيثارُ ﴿ٱلطَّيِّبُ﴾ وهو صفةٌ مشبَّهة في مقابلِ ﴿وَٱلَّذِى خَبُثَ﴾ الدّالِّ على تجدُّد الفعل"[3] يومئ إليه قولُه ﷺ: «وإنّي خلَقْتُ عبادي حُنَفاءَ كلَّهم، وإنَّهم أتَتْهم الشَّياطينُ، فاجتالَتْهم»[4]، وقولُه ﷺ: «ما مِن مولودٍ إلّا يولَدُ على الفِطْرَةِ، فأبواهُ يهوِّدانِه، أوْ

(1) الهرري، حدائق الروح والريحان: 9/370.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 5/80.
(3) الطّيبي، فتوح الغيب: 6/415 - 416، وتمام عبارة الطّيبي: "(الذي خبث) الدّالّ على تجدّد الفعل إيماء إلى معنى ما ورد في صحيح مسلم"، ورأينا تتميم العبارة بما أثبتناه.
(4) مسلم، صحيح مسلم، الحديث رقم: (2865).

يُنَصِّرانِهِ»[1]، إشارةٌ منه ﷺ إلى أنَّ ما سوى الفطرةِ، وهو الإسلام، لا يخرُجُ عن وصفه بالخُبثِ، فلمّا كان تشبيهُ الكافر بالبلد الخبيثِ عبَّر عن صفة الخبث باللَّفظ الدّالِّ على الحدوث والتَّجدُّد، وهو الفعل فقال: ﴿وَٱلَّذِى خَبُثَ﴾، ولم يقل: والبلدُ الخبيث.

فائِدةُ الطِّباق بين لفظَيْ: ﴿ٱلطَّيِّبُ﴾ و﴿خَبُثَ﴾:

في قولهِ جلَّ شأنه: ﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ﴾ طباقُ إيجابٍ[2]؛ إذ جمعَ بين لفظين متضادَّينِ مثبتين ﴿ٱلطَّيِّبُ﴾ و﴿خَبُثَ﴾، وفائدةُ هذا الطِّباقِ تنبيهُ السّامع إلى الفرقِ بين طرفي الطِّباق، وفيه زيادةٌ في إيضاحِ المعنى المرادِ، وهو التَّباين بين البلد الطَّيب وغير الطَّيِّب؛ إذ بضدِّها تتمايزُ الأشياء، فلو كانت البلادُ كلُّها طيِّبةً لما كان في طيبها ميزةٌ، فلمّا ذكر أنَّ فيها ما هو سبخٌ، زادَ فضلَ الطَّيِّب منها.

بضِدِّها تتبيَّنُ الأشياءُ، والضِّدُّ يُظهِرُ حُسْنَه الضِّدُّ

غَرضُ الحصْرِ في قوله: ﴿لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا﴾:

في قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا﴾ حصرَ النَّبات الَّذي يخرجه البلد الخبيثُ بكونهِ نكدًا، "وكونُ نباتِ الذي خَبُثَ محصورًا خروجُهُ على حالةِ النَّكدِ مبالغةٌ شديدةٌ في كونهِ لا يكون إلّا هكذا، ولا يمكن أن يوجدَ إلّا نكدًا، وهي إشارةٌ إلى من استقرَّ فيه وصفُ الخبيثِ يبعدُ عنه النُّزوع إلى الخيرِ"[3].

مَن خبُثَ طَبعُه؛ نَفرَ منَ الخيرِ، ولم يَستَبِنْ سبيلَ المؤمنين

بَلاغةُ فنِّ الاحْتباكِ:

في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا﴾ أشارَ البقاعيُّ أنَّ "الآيةَ من الاحتباك"[4]، وقد فصَّل ذلك العلّامةُ ابن عاشورٍ رحمه الله

براعة الحذْفِ ناشئة عن براعة التَّقديرِ، وتُبرزُ جمالَ التَّصويرِ

(1) البخاري، الجامع الصحيح، الحديث رقم: (4775).
(2) الهرري، حدائق الروح والريحان: 9/378.
(3) أبو حيان، البحر المحيط: 5/80.
(4) البقاعيّ، نظم الدرر: 7/424، وأمّا تعريف الاحتباك فهو "القول المركَّب من أجزاء فيه متناسبة، نسبة الأوّل منها إلى الثّالث كنسبة الثّاني إلى الرّابع، أوْ ما كانت النّسبة فيه كنحو ذلك، فاجتزئ من كلّ متناسبين بأحدهما، لقطع الدّلالة ممّا ذكر على ما ترك". يُنظر: السجلماسي، المنزع البديع، ص: 195.

بقوله: "والذي يظهرُ لي: أن يكون (الذي) صادقًا على نبات الأرضِ، والمعنى: والنَّبات الذي خَبُثَ لا يخرجُ إلّا نكدًا، ويكون في الكلام احتباكٌ؛ إذ لم يذكر وصف الطَّيِّبِ بعد نباتِ البلد الطَّيِّب، ولم تُذكرِ الأرضُ الخبيثة قبل ذكر النَّبات الخبيثِ، لدلالةِ كلا الضِّدَّين على الآخرِ، والتَّقدير: والبلدُ الطَّيِّب يخرجُ نباتُه طيِّبًا بإذنِ ربِّه، والنَّبات الذي خبث يخرج نكدًا من البلدِ الخبيثِ، وهذا صنعٌ دقيقٌ لا يُهمل في الكلامِ البليغِ"[1].

تَوجِيهُ القِراءاتِ القُرآنيَّةِ في: ﴿نَكِدًا﴾:

النَّعتُ والحالُ مُتقارِبان في الدَّلالةِ على ثُبوتِ النَّكدِ وتَجدُّدِه

وردَ في قوله: ﴿نَكِدًا﴾ قراءتان: قراءةُ الجمهورِ بكسرِ الكافِ، وقراءةُ أبي جعفرٍ بفتحها[2]، فالقراءةُ الأولى جاءت بصيغةِ الصِّفة المُشبَّهةِ، والقراءةُ الثّانية جاءت بصيغةِ المصدرِ، ففي نصب ﴿نَكِدًا﴾ على القراءَتينِ وجهان: "أحدُهما: أن ينتصبَ حالًا، أي: عَسِرًا مُبْطئًا. والثّاني: أن ينتصبَ على أنَّه نعتُ مصدرٍ محذوف، أي: إلّا خروجًا نَكَدًا، وصَفَ الخروجَ بالنَّكَد كما يوصف به غيرُه، ويؤيِّده قراءةُ أبي جعفر: (إلّا نَكَدًا) بفتح الكاف"[3].

بَلاغةُ التَّشبيهِ في: ﴿كَذَٰلِكَ﴾:

المَثلُ إبرازٌ للدَّلائلِ العجيبةِ المُساقةِ للدَّلالةِ على الحقِّ المُشتبِين

بعد أن مثَّل النَّظم الكريم للمؤمن والكافرِ بالبلد الطَّيِّب والبلد الخبيث؛ بيَّن في قوله جلَّ شأنُه: ﴿كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْآيَٰتِ﴾ أنَّنا كما صرَّفنا الآيات فيما تقدَّم ذكرهُ، فكذلك نصرِّف الآياتِ في هذا[4]، فالمشَبَّهُ هو التَّمثيلُ بالبلدِ الطَّيِّب والخبيث، والمشبَّه به هو المشارُ إليه، وهو تصريفُ الآيات؛ لأنَّ "الإشارةَ بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/186.

(2) ابن الجزري، النشر: 2/270.

(3) السّمين الحلبيّ، الدر المصون: 5/352، والزمخشري، الكشّاف: 2/112، والآلوسي، روح المعاني: 4/386.

(4) مكيّ القيسي، الهداية: 4/2404.

﴿ٱلۡأٓيَٰتِ﴾ إلى تفنُّنِ الاستدلال بالدَّلائلِ الدّالَّة على عظيم القدرة المقتضية الوحدانيَّة، والدّالَّة - أيضًا- على وقوع البعثِ بعد الموت، والدّالَّة على اختلاف قابليَّة النّاس للهُدى والانتفاع به بالاستدلال الواضح البيِّن المقرَّب في جميع ذلك"[1].

دَلالةُ الإشارةِ في قوله: ﴿كَذَٰلِكَ﴾:

عبَّر النَّظمُ القرآنيُّ باسمِ الإشارةِ في قولهِ جلَّ شأنُه: ﴿كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ﴾ للإشارةِ إلى "تفنُّنِ الاستدلالِ بالدَّلائل الدّالَّةِ على عظيم القدرة المقتضيةِ الوحدانيَّة، والدّالَّة - أيضًا- على وقوع البعثِ بعد الموت، والدّالَّة على اختلاف قابليَّة النّاس للهُدى والانتفاع به"[2]، فهي إشارةٌ إلى تصريفِ الآياتِ البديع، حيثُ سلف التَّعبيرُ ببيان إنعامِ اللّه تعالى بإيجادهِ السَّمواتِ والأرضَ، والنِّعم في الإنبات والإثمار وإخراجِ ما هو نافعٌ للأحياء، فمثلُ هذا التَّصريفِ الذي رأيتم "نصرِّف الآياتِ، ونبيِّنُها في تصريفٍ محكم مقرّبٍ للنُّفوس"[3].

البلدُ الطَّيِّب والخبيثُ، كِلاهما من آياتِ الله في تَصريفِ الكوْنِ والوُجودِ

بَلاغةُ التَّعبيرِ بلفْظِ ﴿نُصَرِّفُ﴾ دون غيره:

في قوله جلَّ شأنه: ﴿كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ﴾ آثرَ التَّعبيرَ بالفعل: ﴿نُصَرِّفُ﴾ دونَ (نُفصِّل)؛ للدَّلالة على تَكرار الآياتِ وتنويعها لا تفصيلها، وذلك في بيانِ "الآياتِ الدّالَّة على التَّوحيد والإيمان آيةً بعد آية، وحجَّةً بعد حُجَّة"[4]، فالتَّصريف يدلُّ على التَّرديد والتَّكرار والتَّنوُّع والتَّنويع، فقوله تعالى: ﴿نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ﴾ أي: "نردِّدها ونكرِّرها، يعني: ما ذكرنا من الآياتِ المتعدِّدة المفصَّلة المبيّنة من أوَّل هذه السّورة، نصرِّف، ونكرِّر، ونبيِّن سائرَ الآياتِ الَّتي اشتمل عليها هذا الكتابُ الكريمُ أو غيره، وأمّا التَّفصيل؛ فيدلُّ على الشَّرح

التَّصْريفُ يدلُّ على التَّكرارِ والتَّنويعِ، والتَّفصيلُ يُذكرُ بعدَ الإجمالِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/186، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 6/2876.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/186.
(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 6/2876.
(4) الخازن، لباب التأويل: 2/214.

والبيان بعد الإجمالِ والإحكام، ولا يدلُّ على التَّكرير والتَّنويع، فالتَّصريف أعمُّ من التَّفصيلِ، فإنَّ إجمالَ القول، ثمَّ تفصيله هو نوعٌ من أنواعِ تصريفِ الكلام والآيات.

دَلالةُ التَّعبيرِ بالمضارعِ ﴿نُصَرِّفُ﴾:

تَصريفُ الآياتِ مُستمرٌّ مُتجدِّدٌ لا ينقطعُ، رحمةً منَ اللهِ تعالى بخَلْقِه

في قوله جلَّ شأنُه: ﴿كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْآيَٰتِ﴾ لمّا كان التَّصريفُ دالًّا على التَّبديل والتَّكرير، وهذا يقتضي أنَّ وقوعَه ليس في زمانٍ واحدٍ، بل في أزمنةٍ متتابعة، فهوَ يقع باستمرارٍ، فكان من مقتضى البلاغة أن يعبِّرَ عن ذلك التَّصريفِ بالفعل المضارعِ للدَّلالة على حدوثِه وتجدُّدِه مع الدَّلالة على الاستمرار، وهذا يشيرُ إلى عظيمِ نعمةِ اللّٰه تعالى في هداية خلقِه؛ إذ لم يرسلْ لهم آيةً واحدة بل آياتٍ كثيرةً على وجه التَّكرار والتَّصريف والدَّوام والاستمرارِ، ويشير ذلك إلى سنَّةٍ عظيمةٍ من سنن اللّٰه تعالى في خلقِه، فإنَّ هذا المثلَ الذي سيقَ في هذه الآية إنَّما هو من مقتضى هذه السُّنَّةِ الإلهيَّةِ "يعني: كما ضربنا هذا المثلَ كذلكَ نبيِّنُ الآياتِ الدّالَّةَ على التَّوحيد والإيمان آيةً بعد آيةٍ وحجَّة بعد حجَّة"[1]، فلا انقطاعَ ولا تبديل لسنَّة اللّٰه ﷻ.

فائِدةُ الالتِفاتِ منَ الغَيبةِ إلى التَّكلُّم:

التَّعظيمُ مُناسِبٌ لبيانِ غايةِ التَّمثيلِ، في تصريفِ الآياتِ الباهرةِ

التفتَ الخطابُ من الغيبة في قوله تعالى: ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِۦۖ﴾ إلى التَّكلُّم في قولِه: ﴿نُصَرِّفُ﴾؛ للدَّلالة على التَّعظيم المناسبِ لتصريف الآياتِ، أي: نصرِّفها بما لنا من العظمة، ولذا نجد أنَّه قد آثر لفظ الرُّبوبيَّة، وهو اسم ظاهرٌ دالٌّ على الغيبةِ، ولم يُعبَّر بالضَّميرِ الدّالِّ على التَّعظيم، فلم يقل: (بإذننا)؛ لأنَّ الكلامَ ابتداءً قام على وصف حالِ البلدين، فلمّا انتهى من وصفِهما؛ حسُن الالتفاتُ إلى بيان المصرِّف سبحانه بالتَّكلُّمِ.

(1) الخازن، لباب التأويل: 2/214.

دَلالةُ الجمْعِ للفْظِ ﴿ٱلْأَيَٰتِ﴾:

اشْتمالُ المعنى هنا، على آياتِ الكَوْنِ المنْشُورِ، وآياتِ الكوْنِ المسْطُورِ

جاءتِ الآياتُ بصيغةِ الجمع في قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْأَيَٰتِ﴾، أي: كلَّها[1]، فأفاد الجمع الدَّلالةَ على جميع الآيات، وهذه الآياتُ هي الدَّلائلُ الكونيَّة الدّالَّةُ على عظيم قدرتهِ جلَّ ذكره، الحُجَجُ والبراهين الدّالَّة على وحدانيَّتهِ[2]، فهي تعمُّ ما اشتملَ عليهِ القرآنُ من ملفوظِ الآيات، وما اشتمل عليه الكونُ من مبثوثِ عجائبِ الخلق.

سِرُّ التَّعْبيرِ بلفْظِ (قَوْمٍ) في الآية:

اجتماعُ القَوْمِ على الشُّكرِ، من أبْلَغِ الطَّاعةِ، وأرْوعِ الانقيادِ لله

وصف اللّه القوم بأنهم يشكرون بقوله تعالى: ﴿لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾، أي: يشكرونَ نعمةَ اللّه تعالى، وهم المؤمنون[3]، "تنبيهًا على أنَّهم موردُ التَّمثيل بالبلد الطَّيِّب، وأنَّ غيرَهم موردُ التَّمثيل بالبلد الخبيثِ، وهذا كقولهِ تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [العنكبوت: 43]"[4]، ولم يقل: (كذلك نصرِّف الآياتِ للشّاكرين)؛ لأنَّ التَّعبيرَ بلفظِ (قَوْمٍ) يدلُّ على أنَّ قيامَهم كانَ على الشُّكرِ للّه تعالى.

تَوجِيهُ المخصوصِ بالذِّكرِ، في قولِه: ﴿لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾:

أَذِنَ الله للمؤمنِ في الإخْباتِ، كما أذِنَ للبَلدِ الطَّيِّبِ في الإنْباتِ

خصَّتِ الآيةُ في فاصلتِها الشّاكرين بالذِّكرِ في سياق النِّعم الَّتي "موضوعها الاهتداءُ بالعلم والعمل والإرشاد"[5]، والآيات التي صرَّفها ﷻ؛ لأنَّ الشّاكرينَ هم المنتفعون من تلك النِّعم والآيات[6]، وأوضحُ ما يكونُ الانتفاعُ بتلك النِّعمِ إنَّما هو في الشُّكرِ.

---

(1) البقاعيّ، نظم الدرر: 7/424.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 5/81، والطّيبي، فتوح الغيب: 6/416، وطنطاويّ، الوسيط: 5/294.
(3) الزمخشري، الكشّاف: 2/112.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/187.
(5) المراغي، تفسير المراغي: 8/187، وطنطاويّ، الوسيط: 5/294.
(6) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/293، والآلوسي، روح المعاني: 4/386.

وأُشيرَ بذكر الشُّكرِ في فاصلةِ الآية، إلى "نعمتين مذكورتينِ في الآية للمؤمن، وهو أنَّ اللّه تعالى لم يجعله كالبلدِ الخبيثِ، والثّاني: أنَّه أذنَ لهُ في الإيمانِ والطّاعات، كما أذِنَ للبلد الطَّيِّب في إخراج النَّبات"[1].

نُكتةُ التَّعبيرِ بالمضارِعِ ﴿يَشْكُرُونَ﴾، في الآية:

وعبَّر عن الشُّكرِ بصيغةِ الفعلِ المضارعِ ﴿يَشْكُرُونَ﴾، للدَّلالة على أنَّ شكرهم للنِّعم مستمرٌّ متجدِّدٌ، فهم قومٌ شأنهم الشُّكر، وتقبُّل النِّعمة بالقيام بحقِّها؛ ينبعث الشُّكر من أنفسهم المؤمنة[2].

الشُّكرُ اعترافٌ للمُنعِمِ بالإغداقِ، وهو ما لا يَستحقُّه إلّا الكريمُ الخلّاقُ

نُكتةُ حذْفِ مفعولِ ﴿يَشْكُرُونَ﴾:

جاء التَّعبيرُ عن الشُّكر في قوله جلَّ شأنه: ﴿كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾ مطلقًا عن التَّقييد، فحذف المفعول به ولم يبيِّنْه؛ تعميمًا لمتعلَّقات الشُّكر، فهم يمتازون بالشُّكر عمومًا؛ فحذف المفعولَ؛ لأنَّه أرادَ التَّعميم، وأرادَ الاهتمامَ بمجرَّد الشُّكر لا من حيثُ كونهُ متعلَّقًا بأحد يستحقُّه، بل إنَّ صفة الشُّكر استحقَّت أن ينعمَ اللّه تعالى عليهم بهذا التَّصريفِ والتَّبيين لذاتها، وفي ذلك بيانٌ لمكانة الشُّكر عند اللّه تعالى، وقد يدلُّ على أنَّهم يشكرونَ هذه الآياتِ؛ لأنَّهم هم المنتفعون بها بسببِ صفةِ الشُّكر، وليس لأنَّهم يشكرون معيَّنًا، وفيه أيضًا أنَّ المشكور معلومٌ بالضَّرورةِ، وهو اللّه تعالى، فيكونُ العدول عن الذِّكر للإيجاز.

صِفةُ الشُّكرِ تَستحقُّ الإنعامَ بالتَّصريفِ لذاتِها، لا من حيثُ تَعلُّقُها بمعيَّنٍ

بَلاغةُ التَّرقِّي بين الفاصلَتَيْن: ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾، و﴿لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾:

قال تعالى في ختام الآيةِ السّابقة: ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: 57] وقال في ختام هذه الآية: ﴿لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾ وهو من باب التَّرقّي منَ الأدنى إلى الأعلى؛ "لأنَّ من تذكَّرَ آلاءَ اللّهِ تعالى؛ عرفَ حقَّ النِّعمة، فشكرَ"[3]، فالتَّذكُّر يسبقُ الشُّكر، وهو أدنى منه.

تذكُّرُ النِّعَمِ مَبعثُ معرفةِ حقِّهِ ﷻ، بالشُّكرِ على تلكِ الآلاءِ

(1) الواحدي، البسيط: 9/195.
(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 6/2876.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 4/386.

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(البلدُ) و(القريةُ):

البلدُ يُطْلَقُ على كلِّ جزءٍ منَ الأرض، عامرًا كان أو خرابًا، واستعمالُهُ بمعنى القريةِ دلالةٌ عرفيَّةٌ، ومن قبيلِ ذلك إطلاقُهُ على مكَّة المكرَّمة[1]، وأمّا القَرْيةُ؛ فهي من (قَرَيَ) وهو أصلٌ يَدُلُّ على جُمَعٍ واجْتِماعٍ، مِنْ ذَلِكَ الْقَرْيَةُ، سُمّيَتْ قَرْيَةً؛ لاجْتِماعِ النّاسِ فيها، فالقَرْية: هي المصرُ الجامع، وكلُّ موضع يجتمع فيه ناسٌ[2]، وفي الآية استعمل البلدَ للدَّلالة على عموم الأرض، ولم يرد مجتمَعَ النّاس.

القريةُ هي مَجمعُ النَّاسِ، والبلدُ يَعمُّها وغيرَها ممَّا لم يُسكنْ

(الإذنُ) و(الأمرُ):

الإذنُ في الشَّيء: إعلامٌ بإجازتهِ والرُّخصة فيه[3]، فهو يدلُّ على إعطاء حرّيَّة الفعل والسَّماح بفعلهِ والقبول بوقوعهِ بعد مَنعٍ، أمّا الأمرُ؛ فيقالُ باعتبار طلب الفعل، وهو نقيضُ النَّهْيِ[4]، فهو طلبُ الفعل على سبيلِ الإباحةِ أو النَّدب أو الوجوب.

فالإذنُ ما يجيزُه اللّه لعباده من أفعالٍ أو أقوال، ويمكنُ أن يكونَ محبوبًا أو مكروهًا أو مباحًا، ولا يلزمُ منه التَّكليفُ أو الثَّواب أو العقاب، أمّا الأمرُ؛ فهو ما يطلبهُ اللّه من عبادهِ من فعلٍ أو ترْكٍ، ويكون واجبًا أو مستحبًّا، ويلزمُ منه التَّكليف والثَّواب.

الإذنُ: ما يكونُ بعدَ منْعٍ، والأمرُ: يكونُ قبْلَ الفعْلِ

(النّكِدُ) و(السَّيِّئُ):

النَّكدُ: قلَّة العطاءِ، المنكودُ: العطاءُ النَّزر القليلُ[5]، وقولهُ تعالى: ﴿إِلَّا نَكِدًا﴾ أي: إلّا قليلًا، عسيرًا في شدَّةٍ، ضعيف

النَّكِدُ قِلَّةٌ وتنغيصٌ، والسُّوءُ قُبحٌ مَعنويٌّ وحِسّيٌّ رَخيصٌ

(1) السّمين الحلبيّ، الدر المصون: 5/352، والآلوسي، روح المعاني: 4/386.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والفِيروزابادي، البصائر: (قرى/قري).
(3) الراغب، المفردات: (أذن).
(4) ابن منظور، اللّسان، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (أمر).
(5) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللّغة: (نكد).

المنفعة[1]، أمّا السَّيِّئُ؛ فهو من باب القبح، تقولُ: رجلٌ أسوأُ، أي: قبيحٌ، وامرأةٌ سوءاءُ، أي: قبيحةٌ[2]، وفي الآية الكريمة وصفَ النَّباتَ بكونهِ نَكِدًا؛ لأنَّه أرادَ قلَّته وعسرهُ وانتفاء منفعتهِ، وليس المرادُ أن يوصفَ بالقُبحِ.

(التَّصريفُ) و(التَّفصيلُ):

التَّصريفُ تغييرٌ يطرأُ على الشَّيءِ، والتَّفصيلُ تبيينُ الشَّيءِ من الشَّيءِ

التَّصريفُ: ردُّ الشَّيء من حالةٍ إلى حالةٍ، وإبداله بغيرهِ، وتَصْريفُ الرّياحِ: جعلُها جَنوبًا وشَمالًا وصَبًا ودَبورًا[3]، فالتَّصريفُ: هوَ التَّغييرُ في الشَّكلِ والنَّوعِ والعدد.

أمّا التَّفصيلُ؛ فهوَ من فصل، وهو كلمةٌ تدلُّ على تمييزِ الشَّيء من الشَّيء وإبانتهِ عنه، وقوله تعالى: ﴿ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ﴾ [الأعراف: 133]، أي: مبيَّنات، وقيل: تفصيلُها: فصلُها وتمييزُها بعضُها من بعضٍ[4]، والتَّفصيل عكسُ الإجمال، ويعني: تقسيمَ الشَّيء وتحليلهُ إلى جزئيّاتهِ المختلفة، وتفاصيله الدَّقيقة، والمراد منه توضيحُ المعنى بالتَّفاصيل، والتَّركيز على كلِّ واحدٍ ممّا فُصِّل على حِدة، ويذكر ما له علاقة به بطريقة مفصَّلةٍ، فالتَّفصيلُ يتعلَّق بالتَّحليلِ بعدَ الإجمالِ، فالمرادُ منهُ التَّوضيحُ، والتَّصريف يتعلَّق بالتَّغيير والتَّنويع والمرادُ منه تكثيرُ الآيات.

فمعنى تصريفِ الآياتِ في قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ﴾ أي: نأتي بها من جهاتٍ لمعانٍ كالإعذار والإنذار والتَّرغيبِ والتَّرهيب[5]، وهذا التَّنويهُ يناسبهُ التَّصريفُ.

(1) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 146، وابن الجوزي، تذكرة الأريب، ص: 11، والبقاعيّ، نظم الدرر: 7/423.

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سوء).

(3) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، اللسان: (صرف).

(4) ابن فارس، مقاييس اللغة، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (فصل).

(5) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 6/428.

(الزَّرعُ) و(الشَّجرُ) و(النَّباتُ):

الزَّرعُ: ما ينبتُ على غير ساقٍ، والشَّجرُ: ما له ساقٌ وأغصان، يبقى صيفًا وشتاءً، والنَّباتُ يعمُّ الجميعَ؛ لأنَّه ما ينبتُ منَ الأرضِ، أي: يخرجُ منها[1].

وفي قوله تعالى: ﴿يَخۡرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذۡنِ رَبِّهِۦۖ﴾ جاء التَّعبيرُ بالنَّبات؛ لأنَّه يعمُّ جميعَ ما تنبتُ الأرضُ، وهو أبلغُ في السّياقِ.

النَّباتُ أعمُّ منَ الشَّجرِ الَّذي له ساقٌ، وخاصِّيّة الـزَّرعِ أنّـه لا ساقَ له

(1) العسكريّ، الفروق، ص: 266.

﴿لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ٥٩﴾ [الأعراف: 59]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

محاورةُ نُوحٍ وقومِه، تجْسيدٌ لما طابَ وما خَبُثَ

لمّا قرَّر ﷻ في سالفِ الآياتِ البراهين والحججَ على بدايةِ الخلقِ ونهايته؛ أتبعَ ذلك بقصصِ الأنبياءِ - عليهم السلام -[1]، وفي ذلك يقولُ أبو حيّان: "لمّا ذكر في هذه السّورة مبدأ الخلقِ الإنسانيِّ وهو آدم عليه السلام وقصَّ من أخبارهِ ما قصَّ، واستطردَ من ذلك إلى المعادِ ومصيرِ أهلِ السَّعادةِ إلى الجنَّة، وأهل الشَّقاوةِ إلى النّار، وأمره تعالى بتركِ الَّذين اتَّخذوا دينَهم لعبًا ولهوًا، وكان من بعث إليهم رسول الله ﷺ، أوَّلًا غير مستجيبينَ له ولا مصدِّقين لما جاءَ بهِ عن الله قصَّ تعالى عليه أحوال الرُّسلِ - الَّذين كانوا قبله - وأحوالَ من بُعثوا إليهِ على سبيلِ التَّسليةِ لهُ - ﷺ والتَّأسّي بهم، فبدأ بنوحٍ"[2]، فهذه القصصُ سيقت مساقَ الدَّليل التّاريخي الذي يحقِّق ويقرِّر أنَّ في النّاس الخبيثَ والطَّيِّب[3].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَرۡسَلۡنَا﴾: (رسل) أصلٌ يَدُلُّ على الانْبِعاثِ والامْتِدادِ، أرْسَلْتُ الطائرَ من يدي: أطلقتُه، وأرْسَلْتُ رَسولًا: بعثْتُهُ برسالة يؤدّيها، والإِرْسالُ يقالُ في الإنسان، وفي الأشياء المحبوبة والمكروهةِ، وقد يكون ذلك بالتَّسخيرِ، كإرسالِ الرّيح، والمطر، وقد يكونُ ببعث من له اختيارٌ، نحو إرْسالِ الرُّسل، قال تعالى: ﴿وَيُرۡسِلُ عَلَيۡكُمۡ حَفَظَةً﴾ [الانعام: 61][4].

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/293.

(2) أبو حيان، البحر المحيط: 5/81، وينظر: المراغي، تفسير المراغي: 8/188، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 6/2876.

(3) البقاعيّ، نظم الدرر: 7/425، وينظر: أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/234، والآلوسي، روح المعاني: 4/387.

(4) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، والفيّوميّ، المصباح: (رسل).

2) ﴿نُوحًا﴾: نوحٌ: اسمٌ للنَّبيِّ المعروفِ عليه السلام ويقال له: آدمُ الثّاني، وهو أبو البشر؛ لأنَّ أهل الأرض غرقوا بالطّوفان، ثمَّ جاء النّاسُ من نسله، فولد ثلاثةَ أولادٍ: سامَ وحامَ ويافثَ، وهو غير مشتقٍّ لعجمته، وإنَّما صُرف لخفَّته[1].

3) ﴿ٱعۡبُدُواْ﴾: (عبد) أصلٌ يدلُّ على لينٍ وذُلٍّ، والعُبوديَّة: الخضوعُ والذُّلُّ، وهي إظهار التَّذلُّل، والعِبادَةُ أبلغُ منها؛ لأنَّها غايةُ التَّذلُّل، ولا يستحقُّها إلّا من له غاية الإفضال، وهو اللّهُ تعالى، والْعَبْدُ: الإنسانُ، حُرًّا كانَ أو رَقيقًا، يُذْهَبُ بِذَلِكَ إلى أنَّه مَرْبوبٌ لِباريهِ، ولا يُقالُ: عَبَدَ يَعْبُدُ عِبادة إلا لِمَنْ يَعْبُد اللّه[2].

4) ﴿أَخَافُ﴾: (خوف) أصلٌ يَدُلُّ على الذُّعْرِ والْفَزَعِ، الخَوْف: توقُّع مكروهٍ عن أمارةٍ مظنونة، أو معلومة، كما أنَّ الرَّجاء والطَّمع توقُّع محبوبٍ عن أمارةٍ مظنونة، أو معلومة، ويضادُّ الخوفُ الأمنَ، ويستعمل ذلك في الأمور الدُّنيوية والأخرويَّة[3]، والخوفُ هو ذعرٌ معقولٌ يبعثُ على التَّبصُّر بعواقب الأمر، والتَّأهُّب لخطرٍ محدق.

5) ﴿عَظِيمٍ﴾: (عظم) أصلٌ يدلُّ على كِبَرٍ وقوَّة، عظُم الشَّيء عِظمًا: كَبُرَ، فهو عظيمٌ. العِظَم: ضدُّ الصِّغر، وعظَّمه: فخَّمه وكبَّره، واستعير لكلِّ كبيرٍ، فأُجري مجراه محسوسًا كان أو معقولًا، عينًا كان أو معنًى، قال تعالى: ﴿عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٍ﴾[4].

المعنى الإجْماليُّ:

دَعـــوةُ نُـــوحٍ قومَه للتّوحيدِ العتيدِ، والحَذَرِ منَ الخُسرانِ في يومِ الوعيدِ

يخبرُ اللّهُ تعالى أنَّه قد بعث نوحًا إلى قومه؛ داعيًا إلى توحيدِ

(1) السّمين الحلبيّ، عمدة الحفاظ: (نوح).
(2) الأزهري، تهذيب اللّغة، والجوهري، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، اللسان: (عبد).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات: (رسل).
(4) الجوهريّ، الصحاح، وابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، والفِيروزابادي، البصائر: (عظم).

اللّه سبحانه وإخلاصِ العبادة له، فدعاهم مشفقًا عليهم إلى عبادة اللّه وحده، مذكِّرًا إيّاهم بأن ليس لكم من إلهٍ يستحقُّ العبادة غيره ﷻ، فأخلصوا له العبادةَ، فإن لم تفعلوا، وبقيتُم على عبادة أوثانِكم، فإنّني أخاف أن يحلَّ عليكم عذابُ يومٍ يعظمُ فيه بلاؤكم[1].

فوائدُ القَصَصِ القُرآنيِّ وأغراضُهُ:

القَصَصُ القرآنيُّ مَقصدٌ أثيلٌ، ومنهجٌ أصيلٌ، لبيانِ عظَمةِ المتَصرِّفِ الجليلِ

ذكر أئمَّةُ التَّفسير أنَّ للقصصِ القرآنيِّ غاياتٍ وفوائدَ: **أوَّلها:** الاعتبارُ بأحوال السّابقين والوثنيّين الَّذين اعترضوا على الأنبياءِ، **وثانيها:** بيانُ ما نزل بالمشركين - الذين كفروا باللّهِ، وكذَّبوا الأنبياءَ، وعاندوهم، وآذوا مَن اتَّبعوهم - من عذابٍ حُتِّم عليهم، ليعلمَ الوثنيّون الذي يخاطبون النَّبيَّ ﷺ أنَّ اللّه تعالى يمهلُهم ولا يهملُهم، **وثالثها:** أنَّ الآياتِ مهما تكن شديدةً قارعةً حسيَّةً؛ لا تجعلُ من القلب الجاحدِ مؤمنًا، **ورابعها:** التَّسريَةُ عن النَّبيِّ ﷺ بأنَّه لم يكن أوَّل من كُذِّب، **وخامسها:** أنَّ في نبأ كلِّ نبيٍّ من الأنبياء تساقُ الحججُ على التَّوحيدِ، والتَّنبيهِ إلى آيات اللّهِ تعالى في الكون[2].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

عِلَّةُ فَصْلِ جُملةِ: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا﴾ عمَّا قبلَها:

التَّنبيهُ بعد ذِكرِ النِّعَمِ على الاعتبارِ، بما حلَّ بالأقوامِ المكذِّبين الفُجّارِ

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ استئنافٌ انتقلَ به الغرضُ من إقامةِ الحجَّة والمنَّةِ المبتدئة بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف: 10]، وتنبيهِ أهل الضَّلالة أنَّهم غارقون في كيدِ الشَّيطان الذي هو عدوُّ نوعِهم، من قوله: ﴿قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ إلى قوله: ﴿وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأعراف: 16 - 33]، ثمَّ بالتَّهديدِ بوصفِ عذابِ الآخرةِ وأحوالِ النّاس فيهِ، وما تخلَّل ذلك من الأمثالِ والتَّعريضِ إلى غرضِ

(1) جماعة من العلماء، التفسير الميسر: 1/158.

(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 6/2876 - 2877، وينظر: المراغي، تفسير المراغي: 8/188.

الاعتبارِ والموعظةِ بما حلَّ بالأممِ الماضية؛ فهذا الاستئنافُ له مزيد اتِّصالٍ بقولهِ في أوائل السّورة: ﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا﴾ [الأعراف: 4]، وقد أفيضَ القولُ فيه في معظم السّورة[1].

غَرَضُ التَّأكيدِ في قولِه: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾:

جاء قوله جلَّ شأنه: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ مصدَّرًا باللّام وحرف التَّحقيق (قد) المفيدين للتَّوكيد، والجملةُ "جوابُ قسمٍ محذوفٍ، أي: واللهِ لقد أرسلنا، واطِّراد استعمالِ هذه اللّام مع (قد) لكون مدخولِها مَظِنَّةً للتَّوقُّع الذي هو معنى قد، فإنَّ الجملةَ القسَميَّةَ إنَّما تُساق لتأكيدِ الجملةِ المُقسَم عليها"[2]، والغرضُ من ذلك: تأكيدُ الخبر بالقسم[3]؛ لأنَّ المرادَ من هذه الأخبارِ تشبيهُ أحوال الأممِ الَّتي كذَّبت رسلَها بحال مشركي العربِ في تكذيبهم رسالةَ النَّبيِّ ﷺ، وتقترنُ اللّام الواقعةُ في جوابِ القسم بـ (قد)؛ لأنَّ القسم يهيِّئ السّامعَ لتوقُّع خبرٍ مهمٍّ، فيؤتى بـ (قد) الدّالِّ على التَّحقيق لتدلَّ على التَّحقيق؛ لأنَّها تدلُّ على تحقيقِ أمرٍ متوقَّع[4]، وتحقيقها متأتٍّ من اقترانها بالفعلِ الماضي.

ما تَضمّنَتْه قصَّةُ قومِ نوحٍ من أخبارٍ، كالّذي أبْداهُ مُشركو العربِ منَ العُتوّ والإنكارِ

سِرُّ اخْتِيارِ لفْظِ الإرسالِ ﴿أَرْسَلْنَا﴾ دون (البعثِ):

آثر النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ بالإرسال دون البعثِ في قوله تعالى ذكره: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾؛ لأنَّ الإرسالَ لا يكون إلّا برسالةٍ وما يجري مجراها"[5]، فلمّا كان نوحٌ مرسلًا برسالةٍ يبلِّغها إلى قومه؛ جاء التَّعبيرُ بالإرسال دلالةً على الرِّسالة، أمّا قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا﴾، فقد صدَّر بالبعثِ دون الإرسال؛ لأنَّ

نُوحٌ حُمِّل رسالةً للبلاغ، والإرسالُ تصريحٌ بالرِّسالةِ المنزّلةِ منَ الله

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/187.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/235، وينظر: الزمخشري، الكشّاف: 2/112، والنسفي، مدارك التنزيل: 1/575.
(3) أبو حيان، البحر المحيط: 5/81، وينظر: العليمي، فتح الرحمن: 2/535.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/187 - 188.
(5) العسكري، الفروق، ص: 289.

لفظَ الرَّسول في ختامِ الآية يتضمَّن الرِّسالة، فعبَّر في صدر الآية بالبعثِ الدالِّ على الإثارة والتَّوجيه[1]؛ للدَّلالة على توجيهه الرُّسل إلى قومِهم، فدلَّ البعث على التَّوجيه، ودلَّ الرَّسول على تضمُّن الرِّسالة.

دَلالةُ ذِكْرِ قيدِ: ﴿إِلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾:

التَّلطُّفُ بالمرسَلِ إليهم مَسلكُ جميعِ الرِّسالاتِ

ذكرَ قيد ﴿إِلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ تصريحًا بأنَّ المقصودَ من الرِّسالة هم، وفي ذلك تشريفٌ لهم بقصدهم على الخصوصِ بالرِّسالة، كما كان القرآنُ تشريفًا لقوم النَّبيِّ ﷺ؛ إذ قالَ تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ [الزخرف: 44] كما أنَّ في ذكر هذا القيد إيماءً إلى لطفِ اللّٰهِ تعالى بهم؛ إذ أرسل إليهم رسولًا منهم، كما قال: ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ﴾، فهم يعرفونه ليقعَ الاستئناسُ بين المرسَل والمرسلِ إليهم، وفيه إشارةٌ إلى أنَّ اللّٰه تعالى قد يرسل رسولًا إلى قوم، وهو ليس منهم، كما أرسل موسى عليه السلام إلى فرعونَ، بداعي أنَّه ينطقُ بلسانهم مصداقًا لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [إبراهيم: 4].

دَلالةُ العطْفِ بحرف (الفاءِ)، في: ﴿فَقَالَ﴾:

أمرُ الدَّعوةِ مَبنيٌّ على الفَوْرِ والمبادرةِ، لبلاغِ مَضامِينِه النّاهيّةِ الآمرةِ

جاءتِ الجملةُ في قوله تعالى: ﴿فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ معطوفةً على قوله: ﴿أَرْسَلْنَا﴾ بالفاء للدَّلالةِ على أنَّ "ذلك القول صدر منه فورَ إرسالِه، فهي مضمونُ ما أرسلَ به"[2]، فهو لم يتأخرْ في تبليغ الرِّسالة.

تَوجِيهُ المتشابهِ اللَّفظِيِّ:

جاء قوله تعالى: ﴿فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ مقترنًا بالفاء، وكذلك في قوله: ﴿فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [المؤمنون: 23]، أمّا في قصَّة هودٍ وصالحٍ في سورة الأعرافِ، فجاءت

(1) السّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (بعث).
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/188.

بلا فاءٍ، قال تعالى: ﴿۞وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًاۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ [الأعراف: 65]، وقال جلَّ شأنه: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًاۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ [الأعراف: 73]، وفي تعليل ذلك جاء في الدُّرِّ المصون: "وجيء هنا بفاءِ العطفِ حيثُ قيل: ﴿فَقَالَ﴾، وكذا في (المؤمنين)، وفي قصَّة هودٍ وصالح وشعيبٍ هنا بغير فاءٍ، والأصلُ الفاء؛ وإنَّما حُذِفَتْ تخفيفًا وتوسُّعًا واكتفاءً بالرَّبط المعنويِّ، وكانت الثَّواني فما بعدها بالحذف أوْلى"[1].

تماسكُ النَّصِّ وحَبْكتُهُ، تُغْنِي في الرَّبْطِ عنِ الحرفِ المَسوقِ لذلك

فائِدةُ إضافةِ ﴿يَٰقَوْمِ﴾ إلى ضَميرِ المتكلِّمِ المحذوفِ:

خاطبَ نوحٌ عليه السلام جميع قومهِ متودِّدًا لهم: ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ﴾، فكان الخطابُ لكلِّ قومه؛ "لأنَّ الدَّعوة لا تكون إلّا عامَّة لهم، وعبَّر في ندائهم بوصف القومِ لتذكيرهِم بآصرةِ القرابةِ، ليتحقَّقوا أنَّه ناصحٌ ومريدٌ خيرهم ومشفقٌ عليهم، وأضافَ (القوم) إلى ضميرهِ للتَّحبيب والتَّرقيق لاستجلاب اهتدائهم"[2]، وخاطبهم بالنِّداء تنبيهًا إلى ما سيلقيهِ إليهم، وأنَّه أمرٌ يهمُّ الجميعَ، و"في ندائه قومه تنبيهٌ لهم لما يلقيه إليهم واستعطافٌ وتذكير بأنَّهم قومُه، فالمناسبُ ألّا يخالفوه"[3]. فالتَّعبيرُ بأنَّهم قومُه إشارةٌ إلى حرصِه عليهم حثًّا وحثٌّ لهم على تصديقه. وحُذِفت ياءُ المتكلِّم، فلم يقل: (يا قومي)؛ للتَّخفيف لسكونِها وسكونِ ما بعدها.

بيانُ تودُّدِ نوحٍ إلى قومِه، لِحثِّهم على تصْديقِهِ واتِّباعِ هِدايتِه

عِلَّةُ إطْلاقِ الأمرِ بالعبادةِ دونَ التَّقْييدِ بالتَّوحيدِ:

جاءَ الأمرُ بالعبادةِ مطلقًا عن قيد التَّوحيدِ في قوله تعالى: ﴿فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ﴾، فلم يقل: (اعبدوه وحده)، فتركَ تقييدَ العبادةِ بالتَّوحيدِ؛ "للإيذانِ بأنَّها العبادةُ حقيقةً، وأمّا العبادةُ بالإشراكِ

العبادةُ الحقَّةُ، هي المُتضمِّنةُ معنَى التَّوحيدِ، وتَجلِّياتِه في المعاملةِ

(1) السّمين الحلبيّ، الدر المصون: 5/354 - 355، وينظر: أبو حيان، البحر المحيط: 5/82.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/188.
(3) أبو حيان، البحر المحيط: 5/82، والآلوسي، روح المعاني: 4/389.

فليستْ منَ العبادة في شيءٍ"[1]، ويُضاف إلى ذلك أنَّ التَّوحيدَ قد ذُكرَ عقبَ الأمر بالعبادة: ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾، فاكتفى به عن تعليقِ العبادةِ بهِ وحدَه.

مُوجِبُ فَصْلِ جُملةِ: ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ عمَّا قبْلَها:

بيانُ عِلَّةِ اخْتِصاصِ الله تعالى بالعبادَةِ

جاء قولهُ تعالى: ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ مفصولًا بلا عاطف بفاءٍ ولا غيرها؛ لأنَّه استئنافٌ بيانيٌّ مسوقٌ لبيان علَّة اختصاصهِ جلَّ شأنه بالعبادة[2]، ورفض ما سواه، فكانت في غايةِ الاتِّصال[3]، وهو المعروفُ بشبهِ كمال الاتِّصال.

مَوقعُ نفْيِ نوحٍ ألوهيّةَ غيرِ الله، في مُراعاةِ مُقتضَى حالِ قومِه:

دعوةُ نوحٍ ما بين الشِّركِ والوثنيَّةِ المحْضةِ، وبيانِ الحقِّ على الاحْتِمالَيْنِ

جاءَ قوله تعالى: ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ محتملًا أنَّه "خُرِّج مخرج التَّسليم الجدلي؛ فإن كانوا مشركينَ؛ كان أمره إيّاهم بعبادة اللّه مقيَّدًا بمدلولِ قوله: ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾، أي: أفردوه بالعبادةِ ولا تشركوا معه الأصنامَ، وإن كانوا مقتصرينَ على عبادةِ الأوثان؛ كان قوله: ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ تعليلًا للإقبال على عبادة اللّه، أي: هو الإلهُ، لا أوثانكم"[4].

فائِدةُ دُخولِ ﴿مِّنْ﴾ على النَّكرةِ بعد النَّفْي:

تأكيدُ النَّفْيِ وشُمولُه شُمولًا اسْتغراقيًّا، من فصيحِ البيانِ

قوله: ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾، جاء النَّفي متبوعًا بـ ﴿مِّنْ﴾ في قوله تعالى: ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾؛ لاستغراق النَّفي[5]، حيثُ دخلت ﴿مِّنْ﴾ على النِّكرة لتأكيد النَّفي، والمعنى: "ما لكم إلهٌ غيرُه"[6]؛ فمجيءُ النَّكرة في سياق النَّفي مجرورةً بـ ﴿مِّنْ﴾ يدلُّ على

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/235.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 5/82، والزمخشري، الكشّاف: 2/113، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/235.
(3) ابن عادل، اللباب: 9/176.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/189.
(5) البقاعيّ، نظم الدرر: 7/434.
(6) الواحدي، البسيط: 9/196.

شمول النَّفي وعمومهِ، فليس ثمَّة إلهٌ على الإطلاق إلّا الإلهُ الذي يستحقُّ العبادة على وجه الحقِّ، وهو الخالقُ العظيم، وبِه بطلَت عبادةُ كلِّ إلهٍ حجريٍّ، أو بشريٍّ، أو غيبيٍّ، أو فكريٍّ، ممّا يتصوَّره العقل البشريُّ في الحسِّ أو الوَهم سوى اللّه تعالى.

الفرقُ بين قوله: ﴿وَمَا مِنۡ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُۚ﴾ وقوله: ﴿مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ﴾:

استُعمل في القرآنِ الكريم الاستثناءُ بأداة الاستثناءِ ﴿إِلَّا﴾ كما في قولِه تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡقَصَصُ ٱلۡحَقُّۚ وَمَا مِنۡ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٦٢﴾ [آل عمران: 62]، وبأداةِ الاستثناءِ ﴿غَيۡرُهُۥٓ﴾ كما في هذه الآيةِ، وهاتان الأداتان (غير)، و(إلّا) تُستعملان في الاستثناء، وبينهما فرقٌ، حيث يُلاحظ أنَّ كلمة ﴿غَيۡرُهُۥٓ﴾ أشدُّ نفيًا؛ لأنَّها موغلةٌ في الإبهام، فتشمل كلَّ شيءٍ باستثناء ما أُضيفت إليه، فهو المستثنى نفسُهُ مع المضاف إليه، والمستثنى بأداة (إلّا) يأتي بعدَها، فهو مستثنًى بواسطتها، وفي الآيةِ الكريمة سبق الاستثناءَ النَّفيُ، و﴿مِّنۡ﴾، وتنكيرِ ﴿إِلَٰهٍ﴾، وكلُّ ذلك يدلُّ على العمومِ، ثم ختمَ بالإبهام، فجاءتِ العبارةُ على الغاية في نفي الألوهيَّة عن غير اللّه تعالى.

الاستغراقُ في نفي الألوهيَّةِ وإثباتُها لله وحدَه، دليلٌ على غَطرسةِ الكُفرِ

عِلَّةُ فصْلِ جُملةِ: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ﴾ عمَّا قبلَها:

جاءتِ الجملةُ في قوله تعالى: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾ بلا عاطفٍ مفصولةً عن قوله: ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ﴾؛ لأنَّها جاءت لبيان علَّةِ الأمرِ بالعبادةِ والتَّوحيدِ، فهي مستأنفةٌ بيانيًّا، تبيِّن الدّاعي "إلى عبادته؛ لأنَّه هو المحذورُ عقابه دون ما كانوا يعبدونه من دونِ اللّهِ"[1].

تعليلُ الأمرِ بالعبادةِ والتَّوحيدِ، لخوْفِ نُوحٍ على قوْمِه

(1) الزمخشري، الكشّاف: 2/113، وينظر: أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/235، والآلوسي، روح المعاني: 4/388.

فائدةُ إضافةِ (إنَّ)، إلى ياء المتكلِّم في قولِه: ﴿إِنِّيٓ﴾:

الدَّعوةُ المحَّضةُ لله، تُحرِّكُ المخاوفَ على المَدعُوِّ من سُوءِ عُقبَاه

جاءت الجملةُ في قوله تعالى: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾ مؤكِّدةً بـ (إنَّ) تأكيدًا لمضمون الجملة الاسميَّةِ الَّتي تعبِّر عن خوف نوحٍ عليه السلام على قومه، وذلك يدلُّ على أنَّه "كان جازمًا بأنَّ العذابَ ينزل بهم، إمّا في الدُّنيا، وإمّا في الآخرة؛ إن لم يقبلوا ذلك الدّين"[1]؛ فلذا لم يقُل: (أنا أخاف عليكم)؛ لأنَّها خاليةٌ عن ذلك الجزمِ والتَّأكيد، ودخلت (إنَّ) على ضمير المتكلِّم؛ لبيان أنَّ الخوفَ إنَّما هو خوفٌ ذاتيٌّ صادرٌ عن خشيتهِ على قومهِ وحرصهِ عليهم، وأنَّه ليس مأمورًا به من اللهِ تعالى أمرًا مباشِرًا، وهذا يدلُّ على أنَّ على الدُّعاةِ أن يحرِصوا على المدعوّين حرصًا خاصًّا.

سِرُّ التَّعبيرِ بقولِهِ: ﴿أَخَافُ﴾ دونَ: (أحذِّركم):

خَوفُ الأنبياءِ خوفُ شفقةٍ وحنانٍ، لا خوفُ تهديدٍ بالشّتيمةِ والهوانِ

آثرَ النَّظمُ التَّعبيرَ بالخوف في قوله تعالى: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾ دون التَّحذيرِ؛ فلم يقُل: (إنّي أحذِّرُكم)؛ لأنَّه عبَّر عن شفقتهِ عليهم، "ولم يقطع حنوًّا عليهم، واستجلابًا لهم بلطفٍ"[2]؛ وذلك لأنَّ التَّحذيرَ يأتي من رتبةٍ أعلى، والأنبياء دعوتُهم لعامَّةِ النّاس، يخاطبونهم خطابًا ليِّنًا خاليًا من العلوِّ والكبرياء، صادرًا عن شفقتهم على الخلقِ، وهذا يُناسِبه التَّعبيرُ بالخوف دون التَّحذيرِ، والتَّحذيرُ يليق بالملوكِ والحكّام.

دَلالةُ صِيغةِ المضارعِ، في قوله: ﴿أَخَافُ﴾:

الأنبياءُ خَوفُهم علَى الخلْقِ، مُستمرٌّ مُتجدِّدٌ لا يَنفَصِمُ

التَّعبيرُ عن خوفهِ عليهم بالفعل المضارعِ يدلُّ على أنَّه كان يخافُ عليهم باستمرارٍ، فهو خوفٌ يتجدَّد ويستمرُّ، وهذا متناسبٌ مع حرصهِ عليهم المعبَّر عنه في الآيةِ، ويدلُّ على إصرارهِ على الدَّعوة وابتغائه الخيرَ لقومهِ.

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/296.

(2) الآلوسي، روح المعاني: 4/388، وينظر: أبو حيان، البحر المحيط: 5/82.

سِرُّ اسْتِعمالِ حرفِ الاستعلاءِ ﴿عَلَيْكُمْ﴾:

التَّعبيرُ بحرف الجرِّ (على) الدّالِّ على الاستعلاءِ، مع تعلُّقه بالخوفِ يدلُّ على شدَّةِ خوفهِ عليهم، فهو خوفٌ متمكِّنٌ منه عليهم، وفي ذلك إظهارٌ لشدَّة شفقتهِ على النّاس رغمَ شدَّة معارضتهم له، وهو ليس خوفًا عامًّا، بل خوفٌ متعلِّق بهم.

خوفُ الأنبياءِ كخَوفِ الآباءِ، لا يُثْنيهِ الصِّياحُ، ولا تَدفعُه الرِّياحُ

بَلاغةُ تَقديمِ الجارِّ والمجرورِ ﴿عَلَيْكُمْ﴾، على المفعولِ به ﴿عَذَابَ﴾:

قوله تعالى: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾ قدَّم فيه الجارَّ والمجرورَ على المفعولِ به اهتمامًا بالمخوفِ عليه دون المخوفِ منه، فهو لم يخشَ العذابَ لذاتهِ، بل لكونهِ متعلِّقًا بقومه، فكونهُم قومَه هو عِلَّةُ خوفِ العذاب.

مَنْ أهمَّهُ أمرُ أحدٍ؛ خافَ عليه منَ الأذَى والكَمدِ

دَلالةُ وَصْفِ اليومِ بالعظيمِ:

في قولهِ تعالى: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾ وصفُ اليومِ بالعظيمِ، يدلُّ على عظمةِ العذابِ، والمرادُ باليوم: إمّا يوم القيامةِ، أو يوم الطَّوفان[1]، وكلاهما متَّصفٌ بالعظمةِ، فإذا كان الظَّرفُ عظيمًا؛ فإنَّ كلَّ ما يكون في ذلك اليومِ سيكون متَّصفًا بالعظمةِ على وجهِ القطعِ والمبالغةِ؛ فـ "وصفُ اليومِ بالعظمِ لبيان عظمِ ما يقعُ فيه"[2]؛ ولأنَّ الإضافةَ تدلُّ على أنَّه عذابٌ خاصٌّ بذلك اليومِ المتَّصف بالعظمةِ.

عَظَمةُ اليومِ راجعةٌ إلى هوْلِ المشاهدِ الّتي سوفَ تقعُ أثناءَه

سِرُّ وصْفِ اليومِ في الأعْرافِ بـ ﴿عَظِيمٖ﴾، وفي هودٍ بـ ﴿أَلِيمٖ﴾:

جاءَ وصفُ العذابِ بكونهِ واقعًا في يوم عظيمٍ في قولهِ تعالى: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾، وفي سورة هودٍ وُصِفَ بكونه واقعًا في يومٍ أليم: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ أَلِيمٖ ٢٦﴾ [هود: 26]؛ وذلك لأنَّه في سورة هود قد ذكرَ العذابَ فيها بالتَّفصيلِ،

وُصِفَ اليومُ بالعظيمِ عندَ الإجمالِ، وبالأليمِ عندَ التَّفصيلِ

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/295.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/235.

وذلك يظهرُ عظمته؛ ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلۡنَا ٱحۡمِلۡ فِيهَا مِن كُلّٖ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَأَهۡلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيۡهِ ٱلۡقَوۡلُ وَمَنۡ ءَامَنَۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٞ ۝٤٠ *وَقَالَ ٱرۡكَبُواْ فِيهَا بِسۡمِ ٱللَّهِ مَجۡرٖىٰهَا وَمُرۡسَىٰهَآۚ إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ۝٤١ وَهِيَ تَجۡرِي بِهِمۡ فِي مَوۡجٖ كَٱلۡجِبَالِ﴾ [هود: 40 - 42]، فلم يصرِّح بصفةِ العظمةِ لدلالةِ المقامِ عليها، وذكر صفةَ الألمِ؛ لأنَّ السّياقَ يبيِّن ما لاقى نوحٌ عليه السلام من قومه من آلامٍ، فجاءَ الوصفُ بكونهِ أليمًا ليناسبَ تلك الآلامَ الَّتي لاقاها منهم، وفي سورةِ الأعرافِ جاء وصفُ العذابِ بأنَّه عذابُ يومٍ عظيمٍ؛ لأنَّ تفصيلَه لم يُذكر كما ذكرَ في سورةِ هودٍ، فوصفَهُ بالعظيمِ للإخبارِ بتلك الصِّفةِ.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(الإرسالُ) و(البعثُ):

كلُّ إرسالٍ بعثٌ، وليس كلُّ بعثٍ إرسالًا

البعثُ أعمُّ من الإرسالِ؛ لأنَّه "يجوز أن يبعثَ الرَّجل إلى الآخرِ لحاجةٍ تخصُّه دونك، ودون المبعوثِ إليه، كالصَّبي تبعثُه إلى المكتب، فتقول: بعثتُهُ، ولا تقولُ: أرسلتُهُ؛ لأنَّ الإرسالَ لا يكون إلّا برسالةٍ وما يجري مجراها"[1]، وفي قولهِ تعالى: ﴿لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ﴾ آثر التَّعبيرَ بالإرسالِ؛ لأنَّه يتضمَّن رسالةً؛ فمعنى "الإرسال: أنَّه تعالى حمَّله رسالةً يؤدّيها، فالرِّسالة على هذا التَّقدير تكون متضمِّنةً للبعث"[2].

(1) العسكري، الفروق، ص: 289.

(2) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/295، وأبو حيان، البحر المحيط: 5/82.

﴿قَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ٦٠﴾ [الأعراف: 60]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

مُواصلةُ عَرْضِ مَشاهِدِ قصّةِ نُوحٍ وقومِه، تَكذيبًا للرّسولِ، وإسْفافًا في المقُولِ

بعد أن شرعَ ﷻ في ذكر قصَّة نوحٍ عليه السلام وحكايةِ ما قالهُ لقومهِ؛ أتبعهُ على طريقة الحكاياتِ والمحاوراتِ بما أجابه قومُه، فقال: ﴿قَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلۡمَلَأُ﴾: (ملأ) المَلَأُ: جماعةٌ من النّاس يجتمعون ليتشاوروا، ويتحادثوا، والجميعُ: الأمْلاءُ، ومالَأْتُ فلانًا على الأمر، أي: كنتُ معه في مشورتهِ، والممالأة: المعاونة: مالَأْتُ على فلانٍ، أي: عاونتُ عليه، وهم أشرافُ القومِ ووجوهُهم ورؤساؤُهم ومقدِّموهم الَّذين يُرجع إلى قولهم؛ يملَؤون العيونَ رواءً ومنظرًا، والنُّفوسَ بهاءً وجلالًا[2]، قال تعالى: ﴿قَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِهِۦٓ﴾، أي: الكبراءُ الأشرافُ والسّادات الَّذين جعلوا أنفسَهم أضدادَ الأنبياءِ[3].

2) ﴿لَنَرَىٰكَ﴾: (رأى) أصلٌ يدلُّ على نظرٍ وإبصارٍ بعينٍ أو بصيرةٍ، والرُّؤية بالعينِ تتعدَّى إلى مفعولٍ واحد، وبمعنى العلمِ تتعدَّى إلى مفعولين، يقالُ: رأى عمرُ زيدًا عالِمًا، فالرُّؤْيَةُ هي النَّظَرُ بالعَيْن أو القَلْب، والرَّأْيُ: اعتقادُ النَّفس أحدَ النَّقيضين عن غلبةِ الظَّنِّ[4]، والرُّؤيةُ في قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ رؤيةُ القلبِ[5].

---

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/296.

(2) الخليل، العين، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، اللسان: (ملأ).

(3) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/296، والعليمي، فتح الرحمن: 2/536.

(4) الجوهري، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، اللسان: (رأى، رأي).

(5) الزمخشري، الكشّاف: 2/113.

3) ﴿ضَلَٰلٍ﴾: (ضلل) أَصْلٌ يدلُّ على ضَياعِ الشَّيْءِ وذَهابِهِ في غَيْرِ حَقِّهِ، ضلَّ الشَّيء: ضاعَ وهلَك، والضَّلالُ والضَّلالةُ: ضدُّ الهُدَى والرَّشاد، وهو العدولُ عن الطَّريق المستقيم، قال تعالى: ﴿مَّنِ ٱهۡتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيۡهَاۚ﴾ [الإسراء: 15]، ويقالُ: الضَّلالُ لكلِّ عدولٍ عن المنهج، عمدًا كان أو سهوًا، يسيرًا كان أو كثيرًا[1].

4) ﴿مُّبِينٍ﴾: (بَيْنَ) أصلٌ يدلُّ على انْكِشافِ الشَّيء، بانَ الشَّيْءُ، وأبانَ؛ إذا اتَّضَحَ وانْكَشَفَ، أبان الشَّيء، فهو مُبينٌ، يقال: بان لك، وأبان، واستبان، وبيَّن وتبيَّن بمعنًى واحدٍ، والبيانُ: ما يتبيَّن به الشَّيء من الدَّلالة وغيرها، وسمّي الكلامُ: بيانًا لكشفهِ عن المعنى المقصود إظهارهُ[2]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ المبينُ: اسمُ فاعلٍ من أبان، وذلك هو الضَّلال البالغُ الغايةَ في البُعدِ عن طريق الحقِّ[3]، يعني: "تدعوننا إلى عبادة إلهٍ واحدٍ، وهو خطأٌ بيِّنٌ؛ لأنّا وجدنا آباءنا يعبدون آلهةً، فقد ضلَلْتَ أنت عن هذا الطريقِ"[4].

❁ المعنى الإجْمالِيُّ:

يخبرُ اللّه تعالى أنَّ من تصدَّى للرَّدِّ على دعوةِ نوح عليه السلام كبراءُ القوم وأشرافُهم، فقالوا له على وجه اليقين: (إنّا لنعتقدُ - يا نوحُ - أنَّك في ضلال بيِّنٍ عن طريقِ الصَّواب)[5].

المَـلأُ هُـمْ رأسُ الحَـربةِ، وسُـمُّ الرَّميةِ

(1) الجوهري، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، اللسان: (ضلّ، ضلل).

(2) الجوهري، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (بين).

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/191.

(4) النّسفي، التيسير في التفسير: 6/379.

(5) جماعة من العلماء، التفسير الميسر: 1/158.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بَلاغةُ الاستئنافِ البيانيِّ، في قولِه تعالى: ﴿قَالَ ٱلۡمَلَأُ﴾:

تَشويقُ المخاطَبِ لمعرفةِ ردِّ المُبطِلين، وصَدِّ المُناوِئين

فُصِلَ قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ عن سابقِه لكونِه استئنافًا بيانيًّا، مبنيًّا على "سؤالٍ نشأ من حكايةِ قولِه عليه السلام، كأنَّه قيل: فماذا قالوا له عليه السلام في مقابلة نصحِه؟ فقيل: قال الرُّؤساءُ مِن قومِه، والأشرافُ الَّذين يمثِّلون صدورَ المحافلِ بإجرامهم، والقلوبَ بجلالِهم وهيبتِهم، والأبصارَ بجمالِهم وأُبَّهتهم: ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي ضَلَٰلٖ﴾"[1].

سِرُّ مجيء ﴿قَالَ ٱلۡمَلَأُ﴾ بلا فاء، وذكْرِها في سورة (المؤمنون):

آيةُ الأعرافِ بيَّنتِ الجوابَ، وآيةُ (المؤمنون) أبانتْ عن سُرعةِ الجوابِ

قوله: ﴿قَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِهِۦٓ﴾، جاءت الجملةُ مفصولةً غير معطوفةٍ بالفاء في هذه الآية، بخلافِ قولِه تعالى: ﴿فَقَالَ ٱلۡمَلَؤُاْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ﴾ [المؤمنون: 24]، وذلك أنَّ السّياقين يتكاملانِ في بيانِ المقصودِ، فآيةُ الأعراف تُجيبُ عن جوابِ الدَّوابِّ من قومِه، بَيْنما آيةُ (المؤمنون)؛ فتُجيبُ عن سرعةِ جوابِهم، فآيةٌ بيَّنتِ الجوابَ، وأخرى بيَّنتِ السُّرعةَ في الإجابةِ، وهذا من التَّكاملِ بين الآياتِ.

عِلَّةُ إسْنادِ القولِ إلى الملأِ دونَ القومِ:

مَنْ يَتحسَّسِ الخطرَ؛ يُواجِهْهُ بالبَطرِ

قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِهِۦٓ﴾، أسندَ القولُ إلى الملأِ دون القومِ؛ إذ "لم يجبهُ من قومِه إلّا أشرافُهم وسادتُهم، وهم الَّذين يتعاصون على الرُّسلِ؛ لانغمارِ عقولِهم بالدُّنيا، وطلبِ الرِّئاسةِ والعلوِّ فيهما"[2]، فهو إسنادٌ على وجهِ الحقيقةِ.

إيثارُ التَّعبيرِ بلفْظِ ﴿ٱلۡمَلَأُ﴾ دون مُرادِفاتِه:

تَوجيهُ نوحٍ دَعوتَه للملأِ، فكانَ جَوابُهم على المَلَأِ

آثر النَّظمُ التَّعبير بالملأِ دونَ غيرِه من المُرادفاتِ، في قوله جلَّ شأنه: ﴿قَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِهِۦٓ﴾؛ لأنَّ الملأ هم "أشرافُ القومِ

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/235، والآلوسي، روح المعاني: 4/388.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 5/82.

وقادتهم؛ لأنَّ شأنَهم أن يكون رأيُهم واحدًا عن تشاور، وهذا المعنى: هو المناسبُ في هذه الآية، بقرينةِ ﴿مِن﴾ الدّالَّة على التَّبعيض، أي: إنَّ قادةَ القومِ هم الَّذين تصدّوا لمجادلةِ نوحٍ والمناضلةِ عن دينهم بمسمعٍ منَ القومِ الَّذين خاطبَ جميعَهم"[1]، فالتَّعبيرُ عنهم بالملأ يفصح عن صفاتِ الَّذين تصدّوا للرَّدِّ على دعوةِ نوحٍ عليه السلام فلم يكونوا من عامَّةِ النّاس، كما يبيِّن أنَّ نوحًا قد وجَّه دعوتَه للقادةِ والحاكمينَ ومَن له الأمرُ.

دَلالةُ حرفِ ﴿مِن﴾ في قولِه: ﴿مِن قَوۡمِهِۦٓ﴾:

معنى حرفِ ﴿مِن﴾ في قولِه تعالى: ﴿ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِهِۦٓ﴾ التَّبعيضُ، وهو "يقتضي أنَّ ذلك الملأ بعضُ قومِه، وذلك البعضُ لا بدَّ وأن يكونوا موصوفين بصفةٍ لأجلها استحقّوا هذا الوصفَ، وذلك بأن يكونوا هم الَّذين يملؤون صدورَ المجالس، وتمتلئُ القلوب من هيبتِهم، وتمتلئ الأبصارُ من رؤيتهم، وتتوجَّه العيونُ في المحافل إليهم، وهذه الصِّفاتُ لا تحصل إلّا في الرُّؤساء، وذلك يدلُّ على أنَّ المراد من الملأِ الرُّؤساء والأكابر"[2] الَّذين ينطقون عن عامَّةِ النّاسِ، وعامَّةُ النّاس يوافقونَهم في العادةِ.

الملأُ الّذين تَنقادُ لهمُ العامَّةُ، ويَنطقُونَ باسمِها في الأمورِ الخاصّةِ والعامّةِ

دَلالةُ إضَافةِ لفْظِ (القوم) إلى الضَّميرِ، في قولِه: ﴿مِن قَوۡمِهِۦٓ﴾:

أُضيف لفظُ (القوم) في قولِه تعالى: ﴿ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِهِۦٓ﴾ إلى الضَّميرِ العائدِ على نوحٍ عليه السلام لبيانِ أنَّهم يعرفونه، ويعرفون صدقَهُ وحسنَ سيرته، فكان حريٌّ بهم تصديقَهُ واتِّباعَهُ، وأنَّهم القوم أنفسهم الذين خاطبهم، فهو لم يخاطبِ الملأ دونَ القوم، بل دعاهم جميعًا، ولو قال: (قال الملأ: إنّا لنراك) بلا قيدٍ، كونُهم من قومه؛ لمّا تحقَّقتِ الإشارةُ إلى أنَّ القومَ قد أُقيمتْ عليهم الحُجَّة، وأنَّهم مُلامون

أُقِيمتِ الحُجَّةُ على الملأِ وقومِهم، على حدٍّ سواءَ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/190، وينظر: ابن عادل، اللباب: 9/179.
(2) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/296.

ومُحاسبون على ما يقولُه الملأُ، ويُعزِّزُ ذلك قولُه في الآيةِ اللّاحقةِ: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ لَيۡسَ بِي ضَلَٰلَةٞ﴾، فلم يوجِّهه للملأِ فحسب؛ فسكوتُ القومِ وسكونُهم لما يحدثُ، دليلُ الرِّضا الفعليِّ والقوليِّ، وهو المعتبرُ.

سِرُّ المؤكِّداتِ في جُملةِ: ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾:

شَراسةُ مُهاجمةِ الحقِّ الصُّراحِ، تَعكسُ شِدَّةَ التَّمسُّكِ بالباطلِ البَواحِ

عبَّر النَّظم في قوله: ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ عن وصفهم له بذلك على وجه التَّأكيدِ، فجاءت الجملةُ الاسميَّة مصدَّرةً بحرف التَّأكيد (إنَّ) مع دخول لام التَّأكيدِ في خبرها؛ وإنَّما حكى قولهم المضمِّن التَّأكيدَ "للدَّلالة على أنَّهم حقَّقوا، وأكَّدوا اعتقادهم أنَّ نوحًا منغمسٌ في الضَّلالة"[1]، ويدلُّ ذلك على شدَّة تمسُّكهم باعتقادهم، بحيثُ إنَّهم كذَّبوا من يعرفون صدقَه، فأكَّدوا نسبته إلى الضَّلالِ حفاظًا على زيفِ معتقدِهم.

سِرُّ التَّعبيرِ بالرُّؤيةِ في قوله: ﴿لَنَرَىٰكَ﴾:

تَوهُّمُ أهلِ الباطلِ أنّهم يَعتمدُون الجزمَ اليقينيَّ، لا الظَّنَّ المتهافِتَ

عبَّر النَّظم الشَّريف في قوله: ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ عن تأكيدِ الملأِ على ضلالِ نوحٍ بالرُّؤيةِ لا بالظَّنِّ، فلم يقولوا: (إنّا لنظنُّك في ضلالٍ مبينٍ)، فالرُّؤيَةُ "قلبيَّةٌ بمعنى: العلم، أي: إنّا لنوقن أنَّك في ضلالٍ مبينٍ"[2]، ويضافُ إلى ذلك أنَّ قولَهم ذلك جرى في سياق الذَّودِ عن اعتقادِهم والمدافعةِ عن آلهتهم، والحديثُ عن المعتقداتِ يتطلَّب أن يكونَ في غايةِ الحسم والتَّأكيد، فعبَّروا عن يقينِهم بأنَّه ضالٌّ؛ لئلّا يظهروا لمن يسمعُهم من عامَّة القومِ أنَّهم في شكٍّ أو تحيُّرٍ.

بَلاغةُ المجازِ المرسلِ، في قوله: ﴿فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾:

تَصويرُ إحاطةِ الضَّلالِ بنُوحٍ عليه السلام، مُبالغةٌ وتَشنيعٌ

في قوله جلَّ شأنه: ﴿لَنَرَىٰكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ عبَّروا عن شدَّة ضلالِه - بزعمهم - فجعلوه مستقرًّا في الضَّلالِ، فلم يقولوا:

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/190، وينظر: ابن عادل، اللباب: 9/179.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/190.

(إنَّك ضالٌّ، أو إنَّك ذو ضلالٍ)، إذ دلَّت (في) هنا على الظَّرفيَّة المجازيَّة "وجعل الضَّلال ظَرْفًا؛ مبالغةً في وصفهم له بذلكَ"[1]. فكون الضَّلال ظرفًا يدلُّ على أنَّه محيطٌ به، قد استحوذ عليه، والضَّلالُ على الحقيقةِ ليس ظرفًا؛ "لأنَّه معنًى من المعاني، وإنما يحلُّ في مكانهِ، فاستعمالُ الضَّلالِ في مكانهِ مجازٌ مرسلٌ أُطلِقَ فيه الحالُ، وأريدَ المحلُّ، فعلاقتهُ الحاليَّةُ، وفائدتهُ المبالغة في وصفه بالضَّلال وإيغالهِ فيه، حتى كأنَّه مستقرٌّ في ظلماتهِ لا يتزحزحُ عنها، وزادوا في المبالغةِ بأن أكَّدوا ذلك بأن صدَّروا الجملةَ بأن زادوا اللّام في خبرها"[2].

نُكتةُ وصْفِ لفْظِ ﴿ضَلَٰلٍ﴾، بأنّه ﴿مُّبِينٍ﴾:

تفاقُمُ الخلافِ بين نوحٍ وقومِه؛ عِلّةٌ لوصْفِهِمُ الضَّلالَ بالمُبِينِ

قولِه تعالى: ﴿لَنَرَىٰكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾:، ومعنى الضَّلال المبينِ: البيِّنُ كونُه ضلالًا[3]، ووصفُ الملأِ الضَّلالَ بذلكَ دون (البعيد) أو (القديم) أو (الكبير)؛ لأنَّهُ خالفَ دينَهم من جهاتٍ عديدةٍ؛ "إذ نفى الإلهيَّة عن آلهتهم، فهذه مخالفةٌ، وأثبتَها للّهِ وحدَه، فإن كانوا وثنيّين فهذهِ مخالفةٌ أخرى، وتوعَّدهم بعذابٍ على ذلك، وهذه مخالفةٌ أيضًا، وإن كان العذابُ الذي توعَّدهم به عذابَ الآخرةِ؛ فقد أخبرهم بأمرٍ محالٍ عندهم، وهو البعثُ، فهي مخالفةٌ أخرى، فضلالُه عندَهم مبينٌ"[4].

وقد وُصِف الضَّلالُ بالبعدِ في سياقاتِ الكفرِ والضَّلال، كقولهِ تعالى: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾﴾ [النساء: 116]، وقوله: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓاْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾﴾ [النساء: 60]، فوصفهُ بالبعيدِ للدَّلالةِ

(1) ابن عادل، اللباب: 9/179، وينظر: أبو حيان، البحر المحيط: 5/82.
(2) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 3/376.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/235.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/191.

على شدَّة الضَّلال، فقد "شبَّه الكفرَ بضلالِ السّائرِ في طريقٍ، وهو يكون أشدَّ؛ إذا كان الطَّريق بعيدًا، وذلك كنايةٌ عن عسرِ إرجاعهِ إلى المقصودِ، والمعنى: لفي ضلالٍ شديدٍ"[1].

وأمّا وصفُه بأنَّه كبيرٌ؛ فقد جاءَ في قولهِ تعالى: ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۖ كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ۝٨ قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ ۝٩﴾ [الملك: 8 - 9]، ومعناهُ: "شديدٌ بالغٌ غايةَ ما يبلغُ إليه جنسه حتى كأنَّه جسمٌ كبيرٌ"[2]، وهذا الوصفُ جاء في سياقِ جوابِ أهلِ النّار، قالوهُ بصيغةِ الجمع الشّامل لكلِّ الأقوامِ الذين كذَّبوا الرُّسل، فهم الآن أمَّةٌ واحدة، اعترفوا بتكذيبهم الأنبياءَ، فوصْفُهم ضلالَ الأنبياء بالكبير للدَّلالة على أنَّ تكذيبَهم كان تكذيبًا فاحشًا.

وأمّا وصفُه بالقديم في قصَّة يوسفَ في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ ۖ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ۝٩٤ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ۝٩٥﴾ [يوسف: 94 - 95]، "والمعنى: أنَّك مستمرٌّ على التَّلبُّس بتطلُّب شيءٍ من غير طريقهِ، أرادوا طمعهُ في لقاء يوسفَ عليه السلام ووصفوا ذلك بالقديمِ لطولِ مدَّتهِ، وكانت مدَّةُ غيبةِ يوسفَ عن أبيه - عليهما السلام - اثنتين وعشرين سنة"[3]. فجاء كلُّ وصفٍ في مكانه الأنسبِ.

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(الرُّؤيةُ) و(العلْمُ) و(الظّنُّ):

الرُّؤية بمعنى: العِلم، ولكنَّ "الرُّؤية لا تكون إلّا لموجودٍ، والعلمُ يتناول الموجودَ والمعدوم، وكلُّ رؤيةٍ لم يعرض معها آفةٌ؛ فالمرئيُّ بها معلوم ضرورةً، وكلُّ رؤيةٍ؛ فهي لمحدود، أو قائم في محدود"[4]،

الرُّؤيةُ: علمٌ بموجودٍ، والعلْمُ: علْمٌ بموجودٍ ومعدومٍ، والظّنّ: ضَربٌ منَ الاعتقادِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/71.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/26.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/53.
(4) العسكري، الفروق، ص: 94.

فالرُّؤية هي العلم بموجود، والرَّأْيُ: اعتقاد النَّفس أحد النَّقيضين عن غلبةِ الظَّنِّ[1]، وأمّا الظَّنُّ؛ فإنَّه ضربٌ من الاعتقاد[2]، قد يدلُّ على يقينٍ، إلّا أنه لَيْسَ بيقينِ عيانٍ، إنما هوَ يقينُ تَدَبُّرٍ، فأمّا يَقينُ العيانِ؛ فلا يُقالُ فيهِ إلّا عَلِمَ، وهو اسم لما يحصل عن أمارةٍ، ومتى قويت؛ أدَّت إلى العلم، ومتى ضعفت جدًّا؛ لم يتجاوز حدَّ التَّوهُّم[3]، وعليه فإنَّ الرُّؤية أدلُّ على العلم من الظَّنِّ، وفي الآية الكريمة عبَّروا عن قوَّة يقينهم بكونهِ ضالًّا، فقالوا: ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾.

(1) الجوهري، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، اللسان: (رأى، رأي).

(2) العسكري، الفروق، ص: 99.

(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن سيده، المحكم، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، اللّسان: (ظنّ/ظنن).

﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ لَيۡسَ بِي ضَلَٰلَةٞ وَلَٰكِنِّي رَسُولٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٦١﴾

[الأعراف: 61]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

ردُّ أهْلِ الحقِّ أقْوَى حُجّةً، وأوضحُ بيانًا من تُهمةِ أهْلِ الباطِلِ

لما كان جوابُ قومه أنَّهم نسبوه إلى الضَّلال البيِّن؛ أتبعَهُ بحكايةِ ردِّ نوحٍ عليهم بنفي ما قذفوه به بقوله: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ لَيۡسَ بِي ضَلَٰلَةٞ﴾، فلمّا "قذفوه بضلال مقيَّدٍ بالوضوح؛ نفى الضَّلال المطلقَ"[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ضَلَٰلَةٞ﴾: الضَّلالُ والضَّلالة مصدران من قولكَ: ضلَّ يضلُّ ضلالًا وضلالةً، "ولا يظنُّ أنَّه لمّا كان الضَّلالُ والضَّلالة مصدرين من قولك: ضلَّ يضلُّ ضلالًا وضلالة؛ كان القولان سواءً؛ لأنَّ الضَّلالة هنا ليست عبارةً عن المصدر، بل عن المرَّة والنَّفي كما علمت، وإنَّما بالغَ عليه السلام في النَّفي لمبالغتِهم في الإثباتِ حيثُ جعلوهُ - وحاشاه - مستقرًّا في الضَّلال الواضحِ كونه ضلالًا"[2].

المعنى الإجْماليُّ:

تَفْنيدُ نوحٍ لتُهمةِ قومِه له بالضّلالةِ، والتّأكيدُ بأنّه رسولٌ من ربِّ العالَمين

يخبرُ اللّه تعالى بما ردَّ نوحٌ عليه السلام على قومه، نافيًا عن نفسه ما رموه به، متلطِّفًا في جوابه؛ إذ خاطبهم بصلاتِ القُربى، مبيِّنًا أنَّه مرسلٌ من اللّه ربِّ العالمين الذي يتعهَّد خلقهُ بالخيرِ والنَّفع، وهذا أقصى منازلِ الهداية، فقال نوحٌ: "يا قومُ لست ضالًّا في مسألةٍ من المسائلِ بوجهٍ من الوجوهِ، ولكنّي رسولٌ من ربِّ العالمين ربّي وربِّكم وربِّ جميع الخَلق"[3].

(1) البقاعيّ، نظم الدرر: 7/428 - 429.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 4/389.
(3) جماعة من العلماء، التفسير الميسر: 1/158.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

غَرَضُ نِداءِ نوحٍ عليه السلام لقومِه بقولِه: ﴿يَٰقَوۡمِ﴾:

مَنهجُ النّبوّةِ، استمالةُ القلوبِ، بحُسْنِ الأدَبِ، وسَعةِ الصَّدْرِ

افتتحَ نوحٌ عليه السلام جوابَه بنداءِ قومِه في قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ لَيۡسَ بِي ضَلَٰلَةٞ﴾ تنبيهًا لهم على مضمونِ القول، وأضافَهم إليه، فقال: ﴿يَٰقَوۡمِ﴾ "استمالةً لقلوبهم نحو الحقِّ"[1]، وكان ردُّه هذا بعد وصفهم إيَّاه بالضَّلال "مبالغةً في حسنِ الأدب والإعراض عن الجفاءِ منهم، وتناولٍ رفيقٍ وسعة صدرٍ حسبما يقتضيه خُلقُ النُّبوَّة"[2].

فائدةُ تَكرارِ نداءِ: ﴿يَٰقَوۡمِ﴾:

إخلاصُ النُّصحِ، والإعراضُ عنِ الجَفاءِ، طريقانِ للبقاءِ

في قوله جلَّ شأنه: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ لَيۡسَ بِي ضَلَٰلَةٞ﴾ كرَّر نداءَ قومه، وإن كان الَّذين أجابوه هم الملأُ من القومِ، وليس القومُ كلُّهم؛ تفضُّلًا منه بالإعراض عن جفائهم، واستعطافًا لهم، وهذا يدلُّ على سَعة صدرِه معهم[3]، وفي ذلك يقولُ العلّامة ابن عاشورٍ رحمه الله: "ولم يخصَّ خطابه بالَّذين جاوبوهُ، بل أعاد الخطابَ إلى القوم كلِّهم؛ لأنَّ جوابَه مع كونه مجادلةً للملأِ من قومِه هو أيضًا يتضمَّن دعوةً عامَّة، كما هو بيِّنٌ، وتقدَّم آنفًا نكتةُ التَّعبير في ندائهم بوصف القوم المضافِ إلى ضميرِه، فأعاد ذلك مرَّةً ثانيةً استنزالًا لطائرِ نفوسِهم، ممّا سيعقب النِّداء من الرَّدِّ عليهم وإبطال قولهم: ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾"[4].

سِرُّ العُدولِ عن نفْيِ (الضَّلالِ المُبِينِ)، إلى نفْيِ (الضَّلالةِ):

نفيُ نوحٍ وصفَ (ضلالة) عن نفسِه، دليلٌ على سُموِّهِ وصَلاحِه

لمّا حكَى اللّهُ تعالى قولَهم لنوحٍ عليه السلام: ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾، فكان ذلك يقتضي أن يكونَ جوابُه: (ليس بي ضلالٌ) ولكنَّه عدلَ إلى قولِه: ﴿لَيۡسَ بِي ضَلَٰلَةٞ﴾؛ فنفى الضَّلالة دون الضَّلالِ؛ "لأنَّ

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/235.
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/415.
(3) أبو حيان، البحر المحيط: 5/83، والبقاعيّ، نظم الدرر: 7/429.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/191 - 192.

قولَه: ﴿لَيْسَ بِي ضَلَٰلَةٌ﴾ أي: ليس بي نوعٌ من أنواعِ الضَّلالةِ البتَّة، فكان هذا أبلغَ في عمومِ السَّلبِ"[1]. قال الزَّمخشريُّ: "فإن قلت: لِمَ قال: ﴿لَيْسَ بِي ضَلَٰلَةٌ﴾ ولم يقل: (ضلال) كما قالوا؟ قلتُ: الضَّلالة أخصُّ من الضَّلال، فكانت أبلغَ في نفي الضَّلال عن نفسه، كأنَّه قال: ليس بي شيءٌ من الضَّلال، كما لو قيل لك: ألك تمرٌ؟ فقلت: ما لي تمرةٌ"[2]، "فالأسماء المفردة الواقعةُ على الجنس التي يكونُ بينها وبين واحدها تاءُ التَّأنيثِ، فإنَّه متى أريد النَّفي؛ كان استعمال واحدِها أبلغَ، ومتى أريدَ الإثباتُ؛ كان استعمالُها أبلغ"[3]، فقولُنا: الضَّلال والضَّلالة جاءا مصدرين من قولك: ضلَّ يضلُّ ضلالًا وضلالةً سواءٌ؛ لأنَّ الضَّلالة هنا ليست عبارةً عن المصدر، بل عن المرَّة، وإنَّما بالغَ ﷺ في النَّفي لمبالغتِهم في الإثبات[4].

سِرُّ تذْكِيرِ ﴿لَيْسَ﴾ مع تأنيثِ ﴿ضَلَٰلَةٌ﴾:

في قولهِ جلَّ شأنُه: ﴿لَيْسَ بِي ضَلَٰلَةٌ﴾ جاء ﴿ضَلَٰلَةٌ﴾ مؤنَّثًا، وجرَّد الفعل ﴿لَيْسَ﴾ من علامة التَّأنيث، حيثُ "جرى على الجوازِ في تجريدِ الفعل من علامة التَّأنيث، إذا كان مرفوعُه غيرَ حقيقيِّ التَّأنيث، ولمكان الفصل بالمجرور"[5]، وإذا كان التَّذكيرُ والتَّأنيث كلاهما جائزٌ في الفعلِ هنا؛ فإنَّه آثر التَّذكيرَ؛ لأنَّه أخفُّ بتجرُّده عن حرف التَّأنيثِ، فعبَّر به في ردِّ شُبهتهم إيجازًا، واكتفى بعلامة التَّأنيث الظّاهرة في ﴿ضَلَٰلَةٌ﴾ الدّالَّةِ على الوحدة والمرَّةِ؛ ولئلّا تثقلَ العبارةُ بعلاماتِ التَّأنيث، وفي التَّخفيفِ عنها مندوحةٌ.

الضَّلالةُ مؤنَّثٌ غيرُ حقيقيٍّ، وهي انحرافٌ في القولِ أوِ الفعلِ أوِ الاعتقادِ

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/296، وأبو حيان، البحر المحيط: 5/83، والبقاعيّ، نظم الدرر: 7/429.

(2) الزمخشري، الكشّاف: 2/113 - 114.

(3) ابن الأثير، المثل السائر: 2/166.

(4) الآلوسي، روح المعاني: 4/389.

(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/192.

دَلالةُ (الباءِ)، في قوله تعالى: ﴿لَيْسَ بِي ضَلَٰلَةٌ﴾:

بَلاغةُ الرَّدِّ، مُستلَّةٌ من فِقْهِ نوحٍ عليه السلام بمُرادِ خُصومِه

لمّا وصفَ قومُ نوحٍ رسولَهم عليه السلام بكونه مستقرًّا في الضَّلال بإدخال (في) الظَّرفيَّة على الضَّلال؛ أجابهم بنفي ملابستهِ أيَّ نوعٍ من الضَّلالة بإدخال الباء في قوله: ﴿لَيْسَ بِي﴾ الدّالَّة على المصاحبة أو الملابسة، ليناقض معنى الظَّرفيَّة المجازيَّة من قولهم: ﴿فِي ضَلَٰلٍ﴾، فلمّا جعلوا الضَّلال متمكِّنًا منه محيطًا به؛ نفى هو أن يكونَ الضَّلال متلبِّسًا به[1].

سَببُ تَقديمِ الجارِّ والمجرور ﴿بِي﴾ على اسمِ (ليس):

غَرَضُ التَّقديمِ يَجمعُ بين الاهتمامِ بالمتكلِّم، ورعايةِ السِّباق

قدِّم الجارُّ والمجرور ﴿بِي﴾ في قوله تعالى: ﴿لَيْسَ بِي ضَلَٰلَةٌ﴾ لأمرين اثنين: الأوَّل: معنويٌّ، وهو الاهتمامُ بالمنفيِّ عنه، وهو المتكلِّم، فقدَّم الجارَّ والمجرور المتضمِّن ضمير المتكلِّم ليتسلَّطَ النَّفي على المتقدِّم، إذ المهمُّ أن يسلب عن نفسهِ ذلك، والآخر لفظيٌّ نسقيٌّ، وهو بالنَّظر إلى تركيب قولهم: ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ حيثُ تقدَّم ضميره في (نراك) على ذكر الضَّلال، وقدَّم ضميرهُ كذلك في ﴿بِي﴾ على الضَّلالة، فيكونا على نسقٍ واحدٍ.

غَرَضُ التَّنْكيرِ في قوله: ﴿لَيْسَ بِي ضَلَٰلَةٌ﴾:

المبالغةُ في الرَّدِّ على مُبالغتِهم في الاتِّهامِ، قوَّةٌ مُستملَحةٌ، وحقٌّ صَميمٌ

نُكِّرَ لفظُ الضَّلالةِ في قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَٰلَةٌ﴾؛ للمبالغةِ في نفي الضَّلال عنه، أي: ليس بي أيُّ شيءٍ مِن الضَّلال، والغرضُ من ذلك الرَّدُّ بالنَّفي البليغ على مبالغتِهم بوصفه بالضَّلالِ؛ إذ جعلوا الضَّلال ظرفًا له[2].

بَلاغةُ وصْلِ جُملةِ: ﴿وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ﴾ بما قبلَها:

وصلَ قولهُ جلَّ شأنه: ﴿وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ بقولِه: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَٰلَةٌ﴾؛ لكونِهما من مقولهِ عليه السلام؛ فبعد أن "نفى

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/192.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/235.

عن نفسِه العيبَ الَّذي وصفوه به؛ وصفَ نفسَه بأشرف الصِّفات وأجلِّها، وهو كونه رسولًا إلى الخَلق من ربِّ العالمين"[1]، فأعقب التَّخليةَ بالتَّحلية، فزكَّى نفسَه عن الضَّلال، وأثبت نقيضَ ذلك بكونه مبلِّغًا عن اللّٰه تعالى، فأنَّى يعتريه الضَّلال؟

التَّخلية مُقدَّمَةٌ على التَّحليةِ، بنفْيِ المذمّةِ، وتَرسيخِ المَحمَدَةِ

دَلالةُ حرفِ (لكنَّ) المتّصلِ بياءِ المتكلِّم، في قوله: ﴿وَلَٰكِنِّي﴾:

أعقبَ النَّفيَ في قوله تعالى: ﴿لَيْسَ بِي ضَلَٰلَةٌ﴾ بالاستدراك في قوله: ﴿وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ﴾، ولم يقل: (أنا رسول)؛ ليصرِّحَ بالاستدراك، فلمّا نُسِبَ نوحٌ عليه السلام إلى السَّفاهة؛ نفاها عن نفسه في قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، فكان وصفُه بالسَّفاهة يستلزمُ كونَه كاذبًا ضالًّا، فاستدرك عليه بكونهِ رسولًا من ربِّ العالمين، وهذا يقتضي "كونَهُ في الغاية القصوى من الرُّشد والأناةِ والصِّدقِ والأمانة؛ فإنَّ الرِّسالةَ من جهة ربِّ العالمين موجبةٌ لذلك حتمًا، كأنَّه قيل: ليس بي شيءٌ مما نسبتموني إليه، ولكنّي في غايةِ ما يكونُ من الرُّشد والصِّدق"[2].

إثباتُ الهدايةِ بقصْدِ نفْيِ نَقيضِها، وصُدورُ النَّفْيِ والاستدراكِ عن قائلٍ واحدٍ

وفائدةُ دخول (لكنَّ) على ياء المتكلِّم الدَّلالةُ على أنَّ النَّفيَ والاستدراكَ كليهما من قائلٍ واحد؛ لينقضَ المعنى الأوَّل الَّذي رموه به، ويثبتَ نقيضه، "كما تقول: ما زيدٌ بضالٍّ، ولكنَّه مهتدٍ، فـ (لكن) واقعةٌ بين نقيضين؛ لأنَّ الإنسانَ لا يخلو من أحد الشَّيئين: الضَّلال والهدى، ولا تجامع ضلالةُ الرِّسالةَ"[3]، فنفى عن نفسه الضَّلالَ، وأثبتَ نقيضَها، وهو الهدايةُ.

فائِدةُ إيثارِ الوصْفِ لا الإضافةِ، بدُخولِ حرفِ الجرّ ﴿مِّن﴾:

في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ آثرَ

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/296، وأبو حيان، البحر المحيط: 5/83، والبقاعيّ، نظم الدرر: 7/429.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/238.

(3) أبو حيان، البحر المحيط: 5/83.

التَّصريحُ بمبدأِ الرِّسالةِ تَشريفٌ لحامِلِها

الوصف على الإضافةِ، لا العكس كما في قولِه تعالى: ﴿إِنِّي رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٤٦﴾ [الزُّخرُف: 46]؛ فالجارُّ والمجرور ﴿مِّن رَّبِّ﴾ صفة لرسول، و(مِن) لابتداء الغايةِ تصريحًا بمصدر الرِّسالة، وإيثارُ وصفِ ﴿رَسُولٌ﴾ بقولِه: ﴿مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ بالإضافةِ إلى تنكيره تفخيمٌ لهذا الرَّسول، قال في روح المعاني: "و(مِنْ) فيها لابتداء الغاية مجازًا متعلِّقة بمحذوفٍ وقع صفةً لرسولٍ مؤكِّدة ما يفيده التَّنوينُ من الفخامةِ الذّاتيَّة، كأنَّه قيل: إنّي رسولٌ، وأيُّ رسول كائنٌ من ربِّ العالمين"[1]. وهذه الصِّفة تفيد المدحَ لإثبات كونه مرسلًا من الله تعالى، وهذا المدحُ يناسب السّياقَ للرَّدِّ على نسبتهم له إلى الضَّلالِ، فظهر أنَّ الأنسبَ بالسّياق هو الوصفُ لا الإضافةُ.

نُكتةُ إيثارِ ذِكْرِ ﴿رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، بدلًا من اسم الجلالةِ (الله):

إرسالُ الرُّسُلِ لِتحقيقِ المصالحِ والإحسانِ للعِبادِ، هو بالرُّبوبيَّةِ أَلْصَقُ

آثرَ النَّظمُ القرآنيُّ في قولِه جلَّ شأنه: ﴿مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أن يعبِّر عن مصدرِ الرِّسالة بكونِها من ربِّ العالمين بدلًا عن اسم الجلالةِ (اللّه)؛ تذكيرًا لهم بإحسانِه إليهم، فمعنى قوله: ﴿مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ "المحسنُ إليهم بإرسال الرُّسلِ لهدايتهم بإنقاذِهم من الضَّلال، فردَّ الأمرَ عليهم بألطفِ إشارةٍ"[2]، والتَّعبيرُ بالرُّبوبيَّة يناسبُ السّياق الذي يذكر فيه مصالحَ العباد، وما يتعلَّق بهم من إقامة حياتهم، وفيه تنبيهٌ لهم "على أنَّه ربُّهم؛ لأنَّهم من جملة العالم، أي: من ربِّكم المالكِ لأموركم النّاظرِ لكم بالمصلحة حيثُ وجَّهَ إليكم رسولًا يدعوكم إلى إفرادِه بالعبادةِ"[3].

(1) الآلوسي، روح المعاني: 4/390، وابن عادل، اللباب: 9/180.
(2) البقاعيّ، نظم الدرر: 7/429.
(3) أبو حيان، البحر المحيط: 5/83، والمراغي، تفسير المراغي: 8/189.

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(الضَّلالُ) و(الضَّلالةُ):

الضَّلالة أخصُّ من الضَّلال؛ لأنَّها تطلق على ضلالةٍ واحدةٍ، كالتَّمر والتَّمرة، فكانت أبلغَ في نفي الضَّلال عن نفسهِ في قولهِ تعالى: ﴿قَالَ يَقَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَٰلَةٌ﴾ كأنَّه قال: ليس بي شيءٌ من الضَّلال، كما لو قيلَ لك: ألك تمرٌ؟ فقلتَ: ما لي تمرةٌ[1].

الضَّلالةُ تُوصفُ بـواحـدةٍ، أمَّـا الـضَّـلالُ؛ فهو للكثيرِ

(1) الزمخشري، الكشّاف: 2/113 - 114.

﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ٦٢﴾ [الأعراف: 62]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

بعد أن حكى اللّه تعالى عن نوحٍ عليه السلام ردَّه على قومه بنفي الضَّلالةِ وإثباتِ الهداية بكونه رسولًا من ربِّ العالمين، استأنفَ بالإخبارِ عن وظيفتهِ بيانًا لرسالته[1]، فلمّا "نفى عن نفسه العيبَ الَّذي وصفوه به، ووصف نفسَه بأشرفِ الصِّفات، وأجلِّها، وهو كونُه رسولًا إلى الخلقِ من ربِّ العالمين؛ ذكر ما هو المقصودُ من الرِّسالة، وهو أمران: الأوَّل: تبليغُ الرِّسالة. والثّاني: تقريرُ النَّصيحةِ، فقال: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ﴾"[2].

بعدَ دفعِ المعوِّقاتِ يَحسُنُ بيانُ المقصودِ، بِدَوْرِ الرّسولِ في النُّصحِ وإبْلاغِ الرّسالاتِ

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أُبَلِّغُكُمْ﴾: (بلغ) أصلٌ يدلُّ على الوصولِ إلى الشَّيء، تقول: بلغتُ المكانَ؛ إذا وصلت إليه، والإِبْلاغُ والتَّبليغُ: الإيصالُ، والاسْمُ مِنْهُ البَلاغُ، وأبْلغْتُه، وبَلَّغْتُه بِمَعْنًى واحدٍ، يقال: بَلَّغْتُهُ الخبر، وأبْلَغْتُهُ، وبلَّغته أكثر[3]، قال ﷻ: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي﴾ أي: أوصلُ إليكم[4].

2) ﴿أَنصَحُ﴾: (نصح) أصلٌ يدلُّ على مُلاءَمَةٍ بين شَيْئَيْنِ وإصْلاحٍ لَهُما، أصْلُ ذلك ناصِحُ العَسَلِ: خالِصُهُ، ونَصَحْتُ الجِلْدَ: خِطْتُه، والنّاصِحُ: الخَيّاطُ، وكُلُّ شيءٍ خَلَصَ، فقَدْ نَصَحَ، النُّصْحُ والنَّصيحَةُ: خلاف الغشِّ، وهو تَحَرّي فِعْلٍ أو قَوْلٍ فيه صلاحُ

(1) البقاعيّ، نظم الدرر: 7/429.
(2) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/296.
(3) الجوهري، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، اللسان: (بلغ).
(4) العليمي، فتح الرحمن: 2/537.

صاحبِهِ، وهو من قولهم: نَصَحْتُ له الوُدَّ، أي: أخْلَصْتُهُ[1]، وقوله تعالى: ﴿وَأَنصَحُ لَكُمْ﴾ "أي: أتحرَّى ما فيه صلاحُكم"[2].

المعنى الإجْماليُّ:

يخبر اللّهُ تعالى عن نوحٍ عليه السلام أنَّه قال لقومه مبيِّنًا رسالته وغايته: "أبلِّغكم ما أرسلني به ربّي من الدَّعوة إلى التَّوحيد الخالص، والإيمانِ باللّه وملائكته وكتبهِ ورسله واليوم الآخرِ، وما اشتمل عليه من جنَّةٍ ونارٍ، وثواب وعقابٍ، وأبيِّن لكم أصولَ العباداتِ والمعاملات وأحكامها العامَّة وفضائل الأخلاق والآداب، وفي الجملة: كلُّ الأوامر والنَّواهي والمواعظ والزَّواجر والبشائر والنَّذائر، وأنصحُ لكم نصحًا خالصًا من شوائب المصلحةِ والمكر، بتحذيركم من عقاب اللّه على كفرِكم وتكذيبكم لي، وأنا في هذا التَّبليغِ والنُّصح أعلمُ من اللّه وشؤونهِ ما لا تعلمون من مصيرِ هذا العالم، وإنَّ إنذاري عاقبة الشِّرك بعذاب الدُّنيا، ونصحي لكم ناشئٌ عن علمٍ يقينيٍّ لا تعلمونه"[3].

رسالةُ الله مُناطةٌ بالحقِّ والحكمةِ الأثيرةِ، والرّسولُ مُبلّغٌ بالعلْمِ والبَصيرةِ

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

عِلَّةُ فصْلِ جُملةِ: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي﴾ عمَّا قبلَها:

الجملةُ في قوله تعالى: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي﴾ استئنافيَّةٌ، سيقت لبيانِ صفاتِ رسالته من ربِّ العالمين[4]، وفي هذا الاستئنافِ تعليلٌ للرِّسالة، فكأنَّ سؤالًا نشأ عن قوله: ﴿وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ فقيل: ولماذا أرسلكَ ربُّ العالمين؟ فقال: أرسلني إليكم لأبلِّغَكم وأنصحَكم.

تَبليغُ الرِّسالةِ ونُصحُ النّاسِ وإرشادُهم، هو مَقصدُ الرِّسالةِ

سِرُّ التَّعبيرِ بالفعْلِ ﴿أُبَلِّغُكُمْ﴾:

يدلّ فعلُ التَّبليغِ في قوله تعالى: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي﴾ على

اسْتِعارةُ التَّبليغِ للإيصالِ، بقصْدِ تَصويرِ أمانةِ المبَلِّغِ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، اللسان: (نصح).
(2) الآلوسي، روح المعاني: 4/391.
(3) الزّحيلّي، المنير: 8/254.
(4) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/114، والنّيسابوريّ، غرائب القرآن: 3/266 - 367.

جعلِ الشَّيء بالغًا واصلًا إلى المكان المقصود، فاستعار تبليغَ الشَّيء إلى المكانِ المقصود للإعلام بالأمر المقصودِ، فكأنَّه ينقل الخبر من مكانٍ إلى مكان[1].

دَلالةُ التَّعْبِيرِ بالمُضارِعِ، في قوله: ﴿أُبَلِّغُكُمْ﴾:

تَبليغُ نُوحٍ لقومِه مُستمرٌّ لقرونٍ، إصْرارًا منه على دَعْوتِهم

عبَّر عن التَّبليغِ في قوله تعالى: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي﴾ بالفعلِ المضارعِ للدَّلالة على التَّجدُّد، وهذا يدلُّ على أنَّه "غيرُ تاركٍ التَّبليغَ من أجل تكذيبهم تأييسًا لهم من متابعتهِ إيّاهم"[2]، وفيه دليلٌ على حرصهِ وإصرارهِ على دعوتهِ وثباته على ذلك.

دَلالةُ تضْعيفِ الفعْلِ ﴿أُبَلِّغُكُمْ﴾ وجمْعِ ﴿رِسَٰلَٰتِ﴾:

امْتِدادُ دَعوةِ نُوحٍ لقومِه، استغرقَ ما يُوازِي عِدّةَ رِسالاتٍ

في قولهِ تعالى: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي﴾ جاء الفعلُ (أبلِّغ) مضعَّفًا لمناسبة الجمعِ في الرِّسالات؛ فلمّا عبَّر بالرِّسالات في صيغة الجمع الدّالَّة على الكثرةِ؛ ناسبه أن يعبِّرَ بالفعل المضعَّف الدّالِّ على التَّكثيرِ؛ ليقعَ التَّناسب بين اللَّفظين.

تَوجِيهُ القِراءاتِ القُرآنيَّةِ، في قولِه تعالى: ﴿أُبَلِّغُكُمْ﴾:

إشارةُ قراءةِ التَّخفيفِ إلى بدايةِ الدَّعوةِ، والتَّشْديدِ إلى استِمرارِها

في قولهِ تعالى: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي﴾ قرأ الجمهورُ بتشديدِ اللّام من التَّبليغ، وقرأ أبو عمرو بتخفيف اللّام من الإبلاغ[3]، وكلُّ قراءةٍ مثَّلت حقبةً من الزَّمن، فمعلومٌ أنَّ نوحًا عليه السلام قد طال أمدُ دعوتهِ لقومه، فناسبَ التَّخفيفُ بدءَ الدَّعوة، ولمّا تكرَّر تبليغُه لهم ودوامه عليه؛ ناسب أن يعبِّر عن ذلك بالتَّثقيل الدّالِّ على التَّكثير، فأشارتْ كلُّ قراءةٍ إلى معنًى وزمانٍ مرادٍ.

فائِدةُ تعْدِيَةِ الفعْلِ ﴿أُبَلِّغُكُمْ﴾ إلى الضَّميرِ المتَّصلِ:

جاء الفعلُ في قوله تعالى: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي﴾ متعدّيًا إلى

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/193.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/193.
(3) ابن الجزري، النشر: 2/270.

الضَّمير المتّصل، ولم يقل: (أبلِّغ رسالات ربّي)؛ لأنَّه أوقعَ فعلَ التَّبليغ عليهم ليصرِّح بأنَّ المقصودَ من التَّبليغ إنَّما هو أنتم لا أحدَ غيركم، وأنَّ قصدَ الرِّسالة أن تبلغَ لكم، وهذا يشعرُ بالاهتمام بهم وتكريمهم بالخطاب، وإبرازُ المقصودِ له وقعٌ في إقناعِ المخاطَب، وإشباعِ عاطفتهِ.

إبرازُ المقصُودِ لـه وَقْـعٌ في إقْناعِ المخاطَبِ، وإشْباعِ عاطِفتِه

نُكتةُ الجمْعِ في قولِهِ: ﴿رِسَٰلَٰتِ﴾:

عبَّر النَّظمُ عن الرِّسالات بالجمعِ في قوله تعالى: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي﴾ ولم يعبِّر بالمفردِ، فلم يقل: (رسالة ربّي)؛ لأنَّه لمّا أخبر بالفعلِ المضارع ﴿أُبَلِّغُكُمْ﴾ الدّالِّ على التَّجدُّد المشعرِ بطول الزَّمان؛ ناسبَ التَّعبيرُ بالجمع، فالرِّسالات تعبيرٌ عن الوحي في الأوقاتِ المتطاولة، كما أنَّها تدلُّ على المعاني الكثيرةِ المختلفة من الأوامرِ والنَّواهي والمواعظِ والبشائر والأحكام والقصص[1].

طُـولُ الـزَّمـانِ وتجدُّدُ الدَّعوةِ، يُناسبُه الجمْعُ لا الإفرادُ

سِرُّ إضافةِ ﴿رِسَٰلَٰتِ﴾ إلى الرّبِّ:

في قولِهِ تعالى: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي﴾ أضافَ الرِّسالات إلى صفةِ الرُّبوبيَّة، ولم يضفها إلى لفظ الجلالة؛ إشارةً إلى أنَّ من أرسلني هو المحسنُ إليَّ، وأنَّها تتضمَّن الخيرَ للنّاس ومصالح العباد، وأنَّ هذه الرِّسالة من مقتضى رحمته بخلقه ورعايتهِ لهم، فهي رسائلُ من النّاظر بمصالح الخلقِ.

الـرِّسـالـةُ التي تَـرِدُ مـنَ الـرَّبِّ المُحْسنِ لِعبادِهِ، تَـكـونُ خـيرًا محْضًا

فائِدةُ إضافةِ لفْظِ (الرَّبِّ) إلى ضَميرِ المتكلِّم ﴿رَبِّي﴾، والعُدولِ عن (ربِّكم):

أُضيفَ لفظُ الرَّبِّ إلى ضميرِ المتكلِّم في قولِهِ تعالى: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي﴾ بعد أن قالَ: ﴿مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ إيذانًا بأنَّ عليه لزومَ طاعته، وأنَّه لا يسعه إلّا تبليغُ ما أمره بتبليغهِ، وإن كرهَ قومه[2]، قال أبو السُّعود: "وتخصيصُ ربوبيَّتِه تعالى به - ﷻ - بعد بيانِ عمومِها

واجـبُ التَّبليغِ تَكليفٌ، وبَيانُ المقصودِ تلْطيفٌ

(1) النسفي، مدارك التنزيل: 1/576، والزمخشري، الكشّاف: 2/115.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/194.

للعالمين؛ للإشعارِ بعلَّةِ الحُكمِ الَّذي هو تبليغُ رسالتِه تعالى إليهم؛ فإنَّ ربوبيَّتَه تعالى له - ﷻ - من موجباتِ امتثالِه بأمرِه تعالى بتبليغ رسالتِه تعالى إليهم"[1]، فواجبُ تكليفِهِ ﷺ، يختلف عن التَّلطُّفِ بقومه.

سِرُّ العُدولِ عنِ الإضمارِ إلى الإظهارِ، في قولِه: ﴿رِسَٰلَٰتِ رَبِّي﴾:

بيانُ الْتِزامِ المبلِّغِ برسالةِ الله، دونَ أدْنَى تَصرُّفٍ فيها

في قوله جلَّ شأنه: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي﴾ عدلَ عن إضافةِ ﴿رِسَٰلَٰتِ﴾ إلى الضَّمير الذي يعودُ على ﴿رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ المذكورِ في قولِه: ﴿رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، فلم يقل: (رسالاته) فوضعَ ﴿رَبِّي﴾ موضعَ الضَّمير، ووجه هذا العدولِ "هو ما تؤذنُ به إضافةُ الرَّبِّ إلى ضمير المتكلِّم من لزوم طاعتِه، وأنَّه لا يسعه إلّا تبليغُ ما أمرهُ بتبليغِه، وإن كره قومُه"[2]، فإنَّ ربوبيَّته للنَّبيِّ ﷺ تؤذنُ بوجوبِ امتثاله للأمر بالتَّبليغ.

دَلالةُ الواوِ في قوله: ﴿وَأَنصَحُ لَكُمْ﴾:

النُّصحُ دَعامةُ التَّبليغِ وزينتُه، وعليه مُعتمَدُ البلاغِ وحِكْمتُه

قوله تعالى: ﴿وَأَنصَحُ لَكُمْ﴾ معطوفٌ على قوله: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي﴾ لبيانِ كيفيَّةِ أداء الرِّسالة[3]، فعطف النُّصحَ على التَّبليغِ إعلامًا بشدَّة حرصِه عليهم وابتغائِه نفعَهم وإرشادَهم.

نُكتةُ إيثارِ التَّعبير، بفعْلِ ﴿وَأَنصَحُ﴾:

النُّصحُ قائمٌ على إرادةِ النَّفْعِ للآخرِ، وخُلُوِّه مِنِ انتفاعِ النَّفْسِ

آثر النَّظمُ التَّعبيرَ بالنُّصح في قوله تعالى: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ﴾ دون غيرِه من الألفاظِ، كأن يقول: (أرشدكم)، أو (أهديكم)؛ لأنَّ مقصد النّاصح "إرادةُ الخيرِ لغيرِه كما يريدهُ لنفسِه"[4]، فهو يقصدُ مصلحتَهم مع خلوص نيَّته، وتحرّيه لما فيه خيرُهم وصلاحُهم[5]، وهذا المعنى لا يدلُّ عليهِ غيرهُ من مرادفاتِه.

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/236.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/194، والآلوسي، روح المعاني: 4/390 - 391.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/236.
(4) العليمي، فتح الرحمن: 2/537.
(5) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/297، والآلوسي، روح المعاني: 4/391.

دَلالةُ صِيغةِ المضارعِ في: ﴿وَأَنصَحُ لَكُمْ﴾:

الإعلامُ بِتَجدُّدِ النُّصحِ، دليلُ الثَّباتِ والإصرارِ

في قوله تعالى: ﴿وَأَنصَحُ لَكُمْ﴾ عبَّر عن نصحهِ لهم بالفعل المضارعِ؛ للدَّلالةِ على تجدُّد نصحهِ ﷺ لهم[1]، كما دلَّ ذلك على إصرارهِ وثباتهِ في دعوتهِ، ويعربُ عن ذلك قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ۝٥﴾ [نوح: 5].

سِرُّ التَّعْبِيرِ بقوله: ﴿وَأَنصَحُ لَكُمْ﴾ دونَ (وأنصحكم):

تَمحيضُ النَّصيحةِ للمُخاطَبين، أبينُ في إقامةِ الحُجَّةِ

في قولهِ تعالى: ﴿وَأَنصَحُ لَكُمْ﴾ جيءَ باللّام مع أنَّ الفعل (نصح) يتعدَّى إلى المفعولِ بنفسهِ، "للدَّلالة على إمحاضِ النَّصيحةِ لهم وأنَّها لمنفعتِهم ومصلحتِهم خاصَّة"[2]، فالغرضُ من النُّصح إنَّما هو أنتم وليس وراءه منفعةٌ تعودُ عليه ﷺ، وفي ذلك مبالغةٌ في إخلاص النَّصيحةِ لهم، فهي وقعت خالصةً للمنصوح، وقصدَ بها جانبهُ لا غير[3].

دَلالةُ العطْفِ بالواوِ في قوله: ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ﴾:

الإخبارُ بعلْمهِ ما لا يعلمونَ، وعيدٌ أُردِفَ بالوعْدِ بالإبلاغِ والنُّصْحِ

قوله تعالى: ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ معطوفٌ على قوله جلَّ شأنه: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ﴾ تقريرًا لرسالته ﷺ، وما أوعدهم به، والمعنى: أعلمُ من قِبَلِهِ تعالى بالوحي أشياءَ لا علمَ لكم بها كقدرته وشدَّة بطشه[4]، وقد عقَّب بالعلمِ بعد ذكرِ النُّصح والرِّسالات "جمعًا لمعانٍ كثيرةٍ ممّا تتضمَّنه الرِّسالة، وتأييدًا لثباته على دوامِ التَّبليغ والنُّصح لهم، والاستخفافِ بكراهيَّتهم وأذاهم؛ لأنَّه يعلم ما لا يعلمونه ممّا يحمله على الاسترسالِ في عملهِ ذلك، فجاء بهذا الكلامِ الجامع، ويتضمَّن هذا الإجمالُ البديعُ تهديدًا لهم بحلول عذابٍ بهم في العاجل والآجلِ، وتنبيهًا للتَّأمُّل فيما أتاهم

(1) الآلوسي، روح المعاني: 4/391.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/236.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/194.
(4) البيضاوي، أنوار التنزيل: 3/18.

به، وفتحًا لبصائرهم أن تتطلَّبَ العلم بما لم يكونوا يعلمونه، وكلُّ ذلك شأنُه أن يبعثَهم على تصديقه وقبولِ ما جاءهم به"[1].

فائِدةُ التَّعْبِيرِ بالعلْمِ، في قوله: ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ﴾:

التَّزكيةُ بالعِلْمِ بعْدَ النِّسبةِ إلى الجهْلِ والضَّلالِ، مَسْلكٌ للانْتِصارِ للحَقِّ

آثر أن يعبِّرَ بالعلم في قولهِ تعالى: ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ دون مرادفاتِه؛ لأنَّه أجابهم على شبهتِهم، وردَّ نسبتهم إيّاه إلى الضَّلال، فلمّا "كان الضَّلال من الجهل؛ قالَ: ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ﴾ أي: من صفاتِ الَّذي له صفاتُ الكمالِ وسائر شؤونه"[2]، فجاء التَّعبيرُ بالعلم ردًّا على ما نسبوه إليهِ من الضَّلال الذي يقتضي الجهلَ، فإنَّ الضّالَّ قد ضاعَ، وفَقَدَ معرفةَ الطَّريق، أمّا أنا؛ فعلى علم ودرايةٍ، والمعنى: "أنا في هذا التَّبليغ وذلك النُّصح على علمٍ من اللّه أوحاهُ إليَّ لا تعلمون منه شيئًا، كما أنّي أعلم من اللّه وشؤونِهِ ما لا تعلمونَ في نظامِ هذا العالمِ، وما ينتهي إليهِ، كما أعلم ما بعده من أمرِ الآخرةِ والحساب والجزاء، فإذا نصحتُ لكم، وأنذرتُكم عاقبةَ شِركِكم من إنزالِ العذابِ بكم في الدُّنيا؛ إذا جحدْتُم وعاندْتُم، فإنَّما أنصحُ لكم عن علم يقينيٍّ لا تعلمونه"[3].

دَلالةُ صِيغةِ المضارعِ في ﴿وَأَعْلَمُ﴾:

الإشارةُ إلى أنَّ الوَحْيَ مُتجدِّدٌ لا يَنقطِعُ

قولهُ تعالى: ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ عبَّر عن علمهِ عليه السلام بالفعلِ المضارعِ الدّالِّ على التَّجدُّد؛ للدَّلالة على ثباتهِ في الدَّوام على دعوتهِ، وأنَّ علمهُ عن اللّه تعالى متجدِّدٌ مستمرٌّ لا ينقطع، إشعارًا بأنَّ الوحيَ الَّذي يأتيه دائمٌ متجدِّدٌ.

نُكتةُ إسْنادِ العِلْم إلى نُوحٍ، ثمَّ بيانِ أنَّه ﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾:

بيانُ قُوَّةِ العِلْمِ، دَليلُ العِزَّةِ والرِّفعةِ، والمددِ الإلهيِّ

أسندَ نوحٌ عليه السلام العلمَ إلى نفسِه في قوله تعالى: ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ﴾؛ للدَّلالةِ على قوَّة علمهِ في هذا الشَّأنِ؛ لأنَّه في سياقِ وعيدٍ، والوعيدُ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/194 - 195.
(2) البقاعيّ، نظم الدرر: 7/430.
(3) المراغي، تفسير المراغي: 8/190.

يقتضي القوَّة في التَّعبيرِ، ومعلومٌ أنَّه قد علم ذلك من اللّٰه تعالى، أي: إنَّ مصدرَ ما له من علمٍ إنَّما هو من جهتهِ تعالى، فالإخبارُ بأنَّه يعلم يُشعر بمكانةِ علمهِ، والإخبارِ عن جهة علمه وكونهِ من اللّٰه تعالى يغني عن إسنادِ العلمِ إليه ﷻ.

دَلالةُ حرفِ الابتداءِ (من)، في قوله: ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ﴾:

بيانُ نَوْعِ العِلْمِ وأنَّـه وَحْـيٌ لا اكتِسَابٌ

جاءتْ ﴿مِنَ﴾ في قولهِ تعالى: ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ للدَّلالةِ على الابتداءِ، أي: "صار لي علمٌ واردٌ منَ اللّٰه تعالى"[1]، وذلك للدَّلالةِ على أنَّ علمَهُ جاء عن طريقِ الوحي، فهو تأكيدٌ وتقريرٌ لعلمه، ولما أوعدهم به، والمعنى: "أعلمُ من قدرتهِ وشدَّة بطشه، أو من جهتهِ بالوحي أشياءَ لا علم لكم بها"[2]، ففي حرفِ (من) دلالةٌ على تزكية علمه، وأنَّه علمٌ فريد؛ لذلك عقَّب عليه بقوله: ﴿مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، وفائدةُ ذلك تنبيهُهم على الاهتمام بما بلَّغهم به من الرِّسالاتِ وبما ينصحهُم به.

دَلالةُ ﴿مَا﴾ في قوله: ﴿مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾:

عِـلْـمُ نُـوحٍ عليه السلام عامٌّ، يَشمَلُ كلَّ ما جَهِلَهُ قومُهُ عنِ الله تعالى

قوله تعالى: ﴿مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ عبَّر بـ (ما) الموصوليَّة الدّالَّة على الإبهام والتَّعميم، ففي التَّعبير بها "إبهامٌ عليهم، وهو عامٌّ، ولكن ساقَ ذلك مساقَ المعلوماتِ الَّتي يخاف عليهم، ولم يسمعوا قطُّ بأمَّة عذِّبت، فتضمَّن التَّهديد والوعيد، فيحتمل أن يريدَ ما لا تعلمون من صفاتِ اللّٰهِ وقدرته وشدَّةِ بطشهِ على من اتَّخذ إلهًا معهُ، أو يريد ما لا تعلمون ممّا أوحي إليَّ"[3]، فدلالةُ (ما) على التَّعميم لا تصرِّح بما علِم، فيشملُ كلَّ ما يحتملُ أن يعلمه ممّا جهلوهُ عن ربِّه جلَّ ذِكرهُ، وفي ذلك تفخيمٌ لشأنِ المعلوم.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/195.
(2) البيضاوي، أنوار التنزيل: 3/18.
(3) أبو حيان، البحر المحيط: 5/83.

نُكتةُ النَّفْيِ بحرفِ ﴿مَا﴾، في قولِه: ﴿مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾:

نَفْيُ المضارعِ بـ (لا)، يدلُّ على استِمرارِ النَّفْيِ، ونَفْيُهُ بـ (لم) يدلُّ على نَفْيِ الماضِي

آثر في قولِه جلَّ شأنه: ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أن يعبِّرَ عن نفي العلمِ عن قومِ نوحٍ بـ (لا) دون (لم) فلم يقل: (ما لم تعلموا)؛ لأنَّ النَّفي بـ (لم) يدلُّ على نفي العلم في الزَّمن الماضي، فكان إيثار النَّفي بـ (لا) لِما تدلُّ على النَّفي المستمرِّ لاقترانها بالفعل المضارع، فالنَّفي بـ (لم أفعل) يدلُّ على القطع، والنَّفي بـ (لا أفعل) يدلُّ على الاستمرار.

إيثارُ التَّعْبيرِ بلفْظِ العِلْمِ، وصِيغةِ المضارعِ:

مُقتضَى الاستِمالةِ والتَّلطُّفِ، استِعمالُ نَفْيِ العِلْمِ لا إثباتِ الجَهْلِ

آثر النَّظمُ استعمالَ ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ دون أن يقولَ: (ما تجهلون)، وهي أوجزُ لفظًا؛ لسببين اثنين: الأوَّل: لأنَّه لمّا عبَّرَ في صدرِ الجملةِ بالعلم بقوله: ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ﴾ بنى العبارةَ على التَّناسب، فختمها بنفي العلمِ عنهم دون إثبات الجهلِ، فقال: ﴿مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، ولم يقل: (ما تجهلون)، والآخر: دلاليٌّ، وهو ما يتوافقُ مع استمالةِ القومِ للإيمانِ، فإنَّ إثبات الجهلِ فيه لدغةٌ لا تتناسبُ مع ما وردَ في هذا السّياقِ من الاستمالةِ والتَّلطُّفِ بالقومِ.

وآثرَ في نفي العلم عنهم أن يكونَ بالفعل المضارعِ للدَّلالةِ على استمرار النَّفي، فكما أثبتَ العلم له على وجه التَّجدُّد والاستمرار؛ نفاهُ عنهم على التَّجدُّد والدَّوام، وفي ذلك حثٌّ لهم على الاهتمام بما دعاهم له، وتنبيهٌ لهم على الإقبالِ على التَّعلُّم منه.

بَلاغةُ الجِناسِ، في قولِه: ﴿وَأَعْلَمُ﴾، و﴿تَعْلَمُونَ﴾:

تَكرارُ العِلْمِ بصِيغتَيْنِ مختلفتَيْنِ، يَدلُّ على مكانتِه

في قولِه تعالى: ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ جناسٌ اشتقاقيٌّ، حيث ورد لفظانِ من جذرٍ واحدٍ، فكرَّر لفظَ العلم اهتمامًا به وتأكيدًا على قيمته، مع ما في ذلك من جمالٍ لفظيٍّ بتكرار اللَّفظ المتشابهِ، المفضي إلى الانتباهِ إلى أهمّيَّة المكرَّر.

بَلاغةُ طِباقِ السَّلْبِ في قولِه: ﴿وَأَعْلَمُ﴾، وقولِه: ﴿لَا تَعْلَمُونَ﴾:

في قولِه تعالى: ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ طباقُ سلبٍ حيثُ جمعَ في عبارةٍ واحدةٍ بين فعلين من مصدر واحد، وهو (العلم): أحدُهما مثبتٌ ﴿وَأَعْلَمُ﴾، والآخرُ منفيٌّ ﴿لَا تَعْلَمُونَ﴾، وفي ذلك إثارةٌ لانتباهِ المخاطبِ بأن يسمعَ المعنى نفسه لكن مرَّة مثبتًا وأخرى منفيًّا، وفي ذلك تنبيهٌ وحثٌّ لقومِه على مراجعةِ معتقدهم؛ إذ أخبرهم بأنَّه يعلمُ، وهم لا يعلمون.

إثباتُ العِلْمِ ونفيُهُ، يُثيرُ الانتباهَ، ويَحثُّ على الاهتمامِ بفَحْواه

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(التّبليغُ) و(الإنْبَاء):

الإبلاغ: إيصالُ ما فيه بيانٌ للأفهام، وهو أشدُّ اقتضاء للمنتهي إليهِ؛ لأنَّه يقتضي بلوغَ فهمه وعقله، كالبلاغةِ، وهي: إيصالُ المعنى إلى النَّفسِ في أحسنِ صورةٍ من اللَّفظ[1]، أمّا الإنباءُ؛ فهو الإخبار بما لا يعلمه المخبَرُ[2].

التَّبليغُ: إيصالٌ مع إفْهَامٍ، والإنْباءُ: هو إخْبارٌ بالمجْهولِ

فالتَّبليغُ أبلغُ في الدَّلالة على حرص الأنبياءِ على دعوة الخلقِ، فقوله تعالى: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي﴾ لم يرد أنَّه يخبرُهم بما لا يعلمون إخبارًا مطلقًا، بل أراد أنَّه يبلِّغُهم ذلك مع التَّفهيم والبيان حتَّى يبلغ عقولَهُم وأفهامَهم.

(النُّصْحُ) و(الإرشَادُ):

"الإرشادُ إلى الشَّيء هو التَّطريق إليه والتَّبيُّن له"[3]، فهو نوعٌ منَ الهدايةِ يتعلَّق بالدَّلالة على الطَّريق، أمّا النُّصح؛ فهو إخلاصُ الإصلاحِ، فالنُّصْحُ: خلاف الغشِّ، وهو تَحَرّي فِعْلٍ أو قَوْلٍ فيه صلاحُ

الإرشادُ هو بيانُ الطَّريقِ، بَينَما النُّصحُ؛ فيه تَحرِّي النَّصيحةِ بقصْدِ الإصلاحِ عن عِلْمٍ

(1) الرمّاني، النكت في إعجاز القرآن، ص: 75.
(2) العسكري، الفروق، ص: 41.
(3) العسكري، الفروق، ص: 209.

صاحبِهِ، وهو من قولهم: نَصَحْتُ له الوُدَّ، أي: أَخْلَصْتُهُ[1]، وقوله تعالى: ﴿وَأَنصَحُ لَكُمْ﴾ "أي: أتحرَّى ما فيه صلاحكم"[2]، فالتَّعبير بالنُّصحِ أبلغُ في بيان كونهِ حريصًا على هدايةِ قومهِ من مجَرَّد الإرشادِ؛ لما فيه من دلالةٍ على نفي الغشِّ وإخلاصِ الإصلاحِ.

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، اللسان: (نصح).
(2) الآلوسي، روح المعاني: 4/391.

﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُواْ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [الأعراف: 63]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

التَّنبيهُ على سبَبِ الإنكارِ بعْدَ بيانِهِ، أوقعُ أثرًا وأرْسخُ خبرًا

لمّا كان قولُ قومِ نوحٍ عليه السلام في الآيةِ السّابقة: ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ يتضمَّن استبعادَهم ما أخبرَهم بهِ من خوف العذابِ عليهم، وأنَّه بعثهُ اللّه إليهم بعبادتهِ وحدَهُ ورفض آلهتهم، فتعجَّبوا من ذلك[1]، وكان "الحاملُ لهم على هذا مجرَّد استبعادِ أن يختصَّ عنهم بفضيلةٍ، وهو منهم كما سيأتي في غير هذه السّورة، أنكرَ ذلك عليهم بقوله: ﴿أَوَعَجِبْتُمْ﴾"[2]، فبعد أن أجابَهم بما نفى عن نفسهِ الضَّلال، وبيَّن الرِّسالة؛ انتقلَ إلى "كشفِ الخطأِ في شبهتهم، فعطفَ على كلامه قوله: ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾"[3].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَوَعَجِبْتُمْ﴾: (عجب) أصلٌ يدلُّ على كِبْرٍ واسْتِكْبارٍ لِلشَّيْءِ، وهوَ أنْ يَتَكَبَّرَ الْإِنْسانُ في نَفْسِهِ، تَقولُ: هوَ مُعْجَبٌ بِنَفْسِهِ، وأمْرٌ عَجيبٌ؛ إذا اسْتُكْبِرَ واسْتُعْظِمَ، والعجيب: الأمرُ يُتَعَجَّبُ منه، والعَجَبُ والتَّعَجُّبُ: حالةٌ تعرض للإنسانِ عند الجهلِ بسببِ الشَّيءِ، وهو إنكارُ ما يَرِدُ لقِلَّةِ اعْتيادِه؛ ولهذا قال بعضُ الحكماءِ: العَجَبُ ما لا يُعرَف سببُه، ولهذا قيل: لا يصحُّ على اللّه التَّعَجُّبُ، إذ هو علّامُ الغيوبِ لا تخفى عليه خافيةٌ[4].

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 5/84.
(2) البقاعيّ، نظم الدرر: 7/430.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/195.
(4) الجوهري، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، اللسان: (عجب).

2) ﴿ذِكۡرٞ﴾: (ذكر) أصلُ الذِّكر خلافُ النِّسيان، والذِّكْرُ: الشَّيْءُ يَجْري على اللِّسانِ، الذِّكْرُ: تارةً يقالُ، ويرادُ به هيئةٌ للنَّفس، بها يمكنُ للإنسان أن يحفظَ ما يقتنيه من المعرفة، وتارةً يقالُ لحضور الشَّيء في القلبِ أو القولِ، ولذلك قيل: الذِّكرُ ذكران: ذكرٌ بالقلب، وذكرٌ باللِّسان، وكلُّ واحدٍ منهما ضربان: ذكرٌ عن نسيانٍ، وذكرٌ لا عن نسيانٍ بل عن إدامةِ الحفظِ، وكلُّ قولٍ يقالُ له: ذِكرٌ، فمن الذِّكر باللِّسان، مثل قوله تعالى: ﴿وَهَٰذَا ذِكۡرٞ مُّبَارَكٌ أَنزَلۡنَٰهُۚ﴾[1]. وقوله جلَّ شأنه: ﴿أَوَعَجِبۡتُمۡ أَن جَآءَكُمۡ ذِكۡرٞ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ أي: موعظةٌ من اللّه، وهو الوحيُ الَّذي جاءهم به، كما قيل للقرآن: ذِكرٌ[2]، وسُمِّي الوحيُ: ذِكرًا؛ لأنَّه يذكِّرُ النّاس بربِّهم وخالقهم.

3) ﴿رَجُلٖ﴾: (رجل) أصلٌ يدلُّ على العُضو الَّذي هو رِجل كلِّ ذي رِجْلٍ، الرَّجُلُ: الذَّكرُ مِنْ نَوْعِ الإنسان خِلافُ المرأة، وإنَّما يَكونُ رَجلًا فوق الغلام، وذلك؛ إذا احْتَلَمَ وشَبَّ[3]، وقوله تعالى: ﴿عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنكُمۡ﴾ "أي: على لسانِ رجلٍ منكم"[4].

4) ﴿لِيُنذِرَكُمۡ﴾: (نذر) كلمةٌ تدلُّ على تخويفٍ، ومنه الإنذارُ الذي يعني: الإبلاغَ، ولا يكونُ إلّا في التَّخويفِ، فهو: إخبارٌ فيه تخويفٌ، كما أنَّ التَّبشيرَ إخبارٌ فيه سرورٌ[5].

5) ﴿وَلِتَتَّقُواْ﴾: (وقى) أصلٌ يدلُّ على دفعِ شيءٍ عن شيءٍ بغيره، والوقايةُ: ما يقي الشَّيءَ، واتقِ اللّه: أي: اجعل بينك وبينهُ كالوقايةِ، واتَّقَيْتُ الشَّيء: حَذِرْتُه، والاسم التَّقْوَى، والتَّقْوَى جعْلُ النَّفسِ في وِقايَةٍ مما يخاف، وفي تعارف الشَّرعِ: حفظُ النَّفس عمّا يُؤثم، وذلك بترك المحظور[6].

❁ المعنى الإجْماليُّ:

يخبر اللّهُ تعالى عن نوحٍ أنَّه قال لقومه منكرًا شبهتهم: أكذَّبتم، وعجبتم أن جاءكم ذِكرٌ يذكِّركم، ووعظٌ من ربِّكم، على لسانِ رجلٍ منكم، ليحذِّرنَّكم عاقبةَ الكفرِ والشِّرك،

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، اللسان: (ذكر).
(2) الواحدي، البسيط: 9/199، والفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/298، والآلوسي، روح المعاني: 4/391.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، اللسان: (رجل).
(4) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/298.
(5) الجوهري، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات: (نذر).
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، والفِيروزابادي، البصائر: (وقى).

ويعدكم بالتَّقوى لرحمته تعالى التي ينزلُها على المؤمنينَ، ويوجدُ فيكم التَّقوى بسبب الإنذارِ، ولتُرحموا بذلكَ، وليس هذا بعجبٍ أن يوحيَ اللّهُ إلى رجلٍ من جنسكم، رحمةً بكم، ولطفًا وإحسانًا إليكم، لينذركم، ولتتَّقوهُ، وليرحمكم بطاعته والإيمان برسلهِ[1].

تَعجُّبُ النَّاسِ من مُنذِرٍ منهم، يَكونُ بسببِ باطلٍ مُستَحوِذٍ، أو طُغيانٍ مُطبِقٍ

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

غَرَضُ الاسْتِفهامِ، في قوله: ﴿أَوَعَجِبْتُمْ﴾:

ابتدأتِ الآيةُ بالاستفهام في قوله تعالى: ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ توبيخًا لتعجُّبهم، فالهمزةُ "للإنكارِ والتَّوبيخ، أي: هذا ممّا لا يعجبُ منه؛ إذ له تعالى التَّصرُّف التّامُّ بإرسال من يشاء لمن يشاء"[2]، فأنكر التَّعجُّب من إرسالِ الرُّسل، وإنَّما عبَّر عن ذلك بالاستفهام الإنكاريِّ دون الإخبارِ، فلم يقل: (لا عجبَ) إشارةً إلى يقينهم بأنَّه ضالٌّ، كما عبَّر عنه قوله: ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ فهم يرونَ بطلانَ دعوتهِ، فأنكرَ ذلك عليهم.

تَوبيخُ المتعجِّبين منَ الحقِّ، عِزَّةٌ تُصاحبُ أهلَ الحقِّ

بَلاغةُ حذْفِ المعطوفِ عليهِ، في قوله: ﴿أَوَعَجِبْتُمْ﴾:

قولهُ تعالى: ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ معطوفٌ على مقدَّرٍ، كأنَّهُ قيل: "أسْتَبْعَدْتُم، وعَجِبْتُم من أن جاءكم ذِكرٌ، - أي: وحيٌ أو موعظةٌ - من مالك أمورِكم ومربّيكم؟"[3]، أو يقدَّر: أكذَّبتم وعجبتم[4]؟ فيتسلَّط الإنكارُ على التَّكذيب والتَّعجُّب معًا، وتظهرُ بلاغةُ عدم التَّصريح بالمعطوفِ عليه في تركِ الأمر للمخاطَبِ، فأسبابُ العجبِ وإنِ اتَّحدت في الغايةِ، لكنَّ أسبابَها التَّفصيليَّةَ متنوِّعةٌ.

من روعةِ البيانِ في الحذْفِ، تركُ الأمْرِ لِتصَوُّرِ المخاطَبِ

(1) الزحيلي، المنير: 8/255.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 5/84.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/236.
(4) الزمخشري، الكشّاف: 2/115.

بَلاغةُ الكِنايةِ باسْتِعمالِ الفعْلِ ﴿أَوَعَجِبْتُمْ﴾:

جاءَ التَّعجُّب في قولِهِ تعالى: ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ على لسانِ نوحٍ وهودٍ - عليهما السلام - متسلِّطًا عليه الاستفهامُ؛ لأنَّه "كنايةٌ عن الإنكار، كما في قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَتَعۡجَبِينَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۖ﴾ [هود: 73]، أنكروا عليها أنَّها عدَّت ولادتها ولدًا - وهي عجوز - محالًا"[1]، وهذا الأسلوبُ يدلُّ على أنَّ العجبَ المذكورَ قد وقعَ على وجه الاستبعاد والاستحالةِ[2].

التَّعجُّبُ لا يُنْكَرُ لِذاتِهِ، ولكنْ لصُدورِه عنِ اعْتِقادِهم بالاسْتِحالةِ

سِرُّ اسْتِعمالِ المصْدَرِ المؤَوَّلِ، في قوله: ﴿أَن جَآءَكُمْ﴾:

جاءَ التَّعبيرُ عن المتعجَّب منه بالمصدر المؤوَّل من الحرفِ والفعلِ دون المصدرِ الصَّريح في قوله تعالى: ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ﴾؛ فلم يَقُل: (أعجبتُم من مجيئكم الذِّكر من ربِّكم؟)؛ للدَّلالة على زمن حدوث المجيء، وهذا يدلُّ على أنَّ المجيءَ قد حدث في الزَّمن الماضي، فهو مجيءٌ مقطوعٌ به، فيكون تعجُّبهم من شيءٍ قد حدثَ ووقع، ولو عبَّر بالمصدرِ الصَّريح لما كان فيه دلالةٌ قاطعةٌ على حدوثه، بالإضافةِ إلى أنَّ التَّعبيرَ بالمصدرِ المؤوَّل أوجزُ لفظًا من المصدر الصَّريح.

لَفْتُ الأنظارِ إلى أنَّ التَّعجُّبَ، وَقعَ على أمْرٍ قد وَقَعَ وتَحقَّقَ

بَلاغةُ المجازِ العَقْلِيِّ في قولِه: ﴿جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾:

أُسنِدَ المجيءُ إلى الذِّكر في قوله تعالى: ﴿جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ﴾، فلم يقل: (جئتكم بذكرٍ من ربِّكم) تشخيصًا للذِّكر، وفي ذلك مبالغةٌ في الاهتمامِ بهِ وتفخيمُ شأنِه؛ لأنَّ تجسيدَ المعاني وتصويرَها أقوى أثرًا في الفهمِ والعلمِ.

تَصويرُ المعاني أبلغُ في فَهْمِ مَقصُودِها، وأدلُّ على اسْتِجلاءِ مَكْنونِها

سِرُّ تَنكيرِ لفْظِ ﴿ذِكْرٌ﴾:

في قولِهِ تعالى ذكره: ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/195.

(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/416.

آثرَ أن يأتي لفظ (الذِّكر) بصيغة التَّنكير؛ إشارةً إلى أصالةِ كفرِهم ورسوخِه؛ إذ هم رفضوا الوحيَ عمومًا، وليس بكونه ذكرًا معيَّنًا، فلو قال: (أوعجبتم أن جاءَكم الذِّكر من ربِّكم على رجلٍ منكم)؛ لدلَّ على أنَّ تعجُّبهم من كون هذا الذِّكر المخصوصِ جاء على رجلٍ منهم، وهذا يدلُّ على أنَّه لو جاء على رجلٍ ليس منهم أو على مَلَكٍ لم يكونوا في تعجُّبٍ، وعندئذٍ لن يكونوا رافضين للوحي عمومًا، بل ما جاءهم بهِ على الخصوص، فلمّا جاء بصيغة التَّنكير؛ دلَّ على أنَّهم يرفضون الذِّكر أصالةً، إشارةً إلى رسوخِ كفرِهم.

كُفرُهم عريقٌ راسخٌ، مُتَّجِهٌ إلى أصْلِ الوَحْيِ

فائِدةُ تقْيِيدِ الذِّكرِ بقولِه: ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾:

قُيِّدَ مجيءُ الذِّكرِ في قوله تعالى: ﴿جَآءَكُمْ ذِكْرٌ﴾ بقولِه: ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾، وفي ذلك تفخيمٌ لشأنِ الذِّكر، فـ (مِن) لابتداء الغاية متعلِّقةٌ بمحذوفٍ، وهذا المحذوفُ هو صفةٌ للذِّكر، قدَّره بعضُهم: ذكرٌ كائنٌ من ربِّكم[1]، والأوفقُ أن يكونَ بتقديرٍ سياقيٍّ خاصٍّ، وهو: ذكرٌ نازلٌ من ربِّكم.

الذِّكرُ النَّازلُ من ربِّكم، عظيمُ الشَّأنِ؛ لأنَّه حبْلُ الوَصْلِ بالرَّحمنِ

بَلاغةُ ذِكْرِ الرُّبوبيَّة، في قوله: ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾:

في قولِه تعالى: ﴿جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ آثرَ التَّعبيرَ بلفظ الرُّبوبيَّة إشارةً إلى أنَّ الذِّكر جاء من مالكِ أمورِكم ومربّيكم[2]، والتَّعبيرُ بلفظِ الرُّبوبيَّة أنسبُ في سياقِ ما فيهِ خيرٌ للعبادِ ورعاية مصالحهم، وما يتعلَّق بحياتهم.

إنزالُ الوَحْيِ للعِبادِ، من مُقتضياتِ الرُّبوبيَّةِ المتفضِّلةِ بالإمدادِ

غَرَضُ إضافةِ لفْظِ (الرَّبِّ) إلى ضَميرِ المخاطَبين، في قولِه: ﴿رَّبِّكُمْ﴾:

أضاف لفظُ الرَّبِّ إلى ضميرِ المخاطبين في قوله تعالى: ﴿جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ وهم قومه، "أي: المحسنُ إليكم بالإيجادِ والتَّربية"[3]، وذلك تذكيرًا لهم بأنَّ الرِّسالة جاءتهم من ربِّهم،

الامتنانُ بعِنايةِ اللهِ ورعايتِه لأحوالِهم، وعدمِ نَبْذِهم وإهْمَالِهم

(1) الآلوسي، روح المعاني: 4/391.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/236.
(3) البقاعيّ، نظم الدرر: 7/430.

فهو القائمُ بمصالح عبادهِ وما فيه خيرٌ لهم، وفيه لطفٌ بخطابهِم إيقاظًا لهم، وتنبيهٌ لهم بأنَّ الرَّبَّ الذي يعرفونه هو الَّذي أرسلني إليكم، وامتنانٌ بالرِّعايةِ والعنايةِ أن يُرسلَ إليهم رسولًا يوقظُهم من غفلتِهم.

بَلاغةُ الالتفاتِ مِنَ التَّكلُّمِ إلى الغَيْبةِ:

يُظهِرُ أسلوبُ الالتفاتِ، ما يُريدُ النَّصُّ بيانَه والعِنايةَ به

في الآيةِ السّابقةِ جاءَ الخطابُ على طريقِ التَّكلُّم: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، والتفتَ الخطابُ في هذه الآيةِ للخطاب في قوله تعالى: ﴿جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ﴾ فلم يقل: (عليَّ لأُنذركم)، فالرَّجُل الَّذي منهم هو النَّبيُّ ﷺ، فعدلَ عن إضمارِ ذكرِه إلى التَّصريح بالمذكورِ؛ لأنَّه ضمَّن هذا الظّاهر الصِّفةَ الَّتي أنكروها، وهي كونُه رجلًا منهم.

غَرَضُ اسْتِعمالِ حرفِ الاستعلاءِ ﴿عَلَىٰ﴾:

تَضمينُ فعْلِ (جاءكم) معنَى (نزلَ)

في قولهِ تعالى: ﴿جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ﴾ عبَّر بحرفِ الاستعلاء بعد الفعلِ (جاء) للدَّلالةِ على أنَّ المرادَ من المجيءِ النُّزولُ، فـ "معنى (على) من قوله: ﴿عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ﴾ يشعر بأنَّ (جاءكم) ضُمِّن معنى نزل"[1]، أي: إنَّ معنى جاءكم: نزلَ عليكم[2]؛ لأنَّ "كلَّ ما يأتي من الله تعالى، فلهُ حكمُ النُّزولِ، فكأنَّ ﴿جَآءَكُمْ﴾ معناهُ: نزلَ، فحسُن معه أن يقالَ: ﴿عَلَىٰ رَجُلٍ﴾"[3].

وذهبَ بعضُ أئمَّةِ التَّفسيرِ إلى أنَّ قولَه: ﴿عَلَىٰ رَجُلٍ﴾ معناهُ على لسانِ رجلٍ، فحذفَ المضاف إليه، وبعضُهم قال: إنَّ ﴿عَلَىٰ﴾ بمعنى: مع، أي: مع رجلٍ، والأرجحُ أنَّه لا حاجةَ إلى تقديرٍ محذوف، ولا تضمينِ حرفِ (مع)؛ لأنَّ المعنى: أُنزل إليكم ذِكْرٌ على رجلٍ، وهذا

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/196.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 5/84.
(3) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/410.

أوْلَى؛ لأنَّ تضمينَ فعلٍ معنى فعل آخر أحسنُ من جعل الحرفِ يدلُّ على معنى حرفٍ آخرَ[1].

غَرَضُ التَّعْبِيرِ بالرُّجولةِ في قوله: ﴿عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ﴾:

التَّعريضُ بمن لا يَتلقَّى العِلْمَ عنِ الرِّجالِ، بأنَّه ليسَ منهم

آثرَ في قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ﴾ أن يعبِّر بصفةِ الرُّجولةِ، "أي: كاملٌ في الرجوليَّة"[2]؛ تزكيةً من كلِّ عيبٍ، إذ إنَّ هذه الصِّفة تدلُّ ضمنًا على مجموعةِ صفاتٍ من النُّبل والشَّرف وعلوِّ المكانة الَّتي تمنعُ صاحبها مِنَ الافتراءِ والكذب، كما تدلُّ على "أنَّ كونَ المذكِّر رجلًا منهم أقربُ إلى التَّعقُّل من كون مذكِّرهم من جنسٍ آخرَ من ملكٍ أو جنّيٍّ"[3]. وفيه إيماءٌ إلى أنَّ الرِّجال يتلقّون عن الرِّجالِ دون غضاضةٍ، فمنِ اتَّصفَ بصفاتِ الرُّجولةِ؛ تلقَّى الذِّكرَ دونَ حَرَجٍ أو تململٍ، فهو إيماءٌ تعريضيٌّ بهم.

فائِدةُ قَيْدِ الجارِّ والمجرورِ، في قولِه: ﴿مِّنكُمْ﴾:

إقامةُ الحُجَّةِ على من عَلِمَ الحالَ، وتعجَّبَ

وصفَ الرَّجلَ المذكورَ لهم بأنَّه منهم في قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ﴾ إبطالًا لشبهتِهم، فأنتم تعرفونهُ، و"تعرفون نسبهُ، فهو منكم نسبًا؛ وذلك لأنَّ كونَهُ منهم يزيلُ التَّعجُّبَ؛ لأنَّ المرءَ بمن هو من جنسه أعرفُ، وبطهارةِ أحوالِه أعلمُ، وبما يقتضي السُّكون إليه أبصرُ"[4].

دَلالةُ اللَّامِ في قوله: ﴿لِيُنذِرَكُمْ﴾:

الإنذارُ عِلَّةٌ لمجيءِ الذِّكرِ إليهم

في قولِه تعالى: ﴿عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُواْ﴾ عبَّر بلام (كي) للدَّلالة على علَّة المجيء، "أي: ليحذِّركم العذابَ والعقابَ على الكفر والمعاصي"[5]، وذِكرُ علَّة مجيئِه بعد تزكيتِه بكونه رجلًا

(1) السّمين الحلبيّ، الدر المصون: 5/357.
(2) البقاعيّ، نظم الدرر: 7/430.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/196.
(4) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/298، وينظر: أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/236.
(5) الآلوسي، روح المعاني: 4/391، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/236.

تأكيدٌ على إبطالِ شبهتِهم؛ فإنَّ غايةَ هذا الرَّجُل إنَّما هي فائدتكم بتحذيرِكم من سوءِ المصيرِ وإرشادِكم لما فيهِ خيرُكم.

نُكتةُ اسْتِعمالِ فعْلِ ﴿لِيُنذِرَكُمْ﴾ دونَ مرادِفاتِه:

الإنذارُ دالٌّ على الشَّفقةِ والحِرْصِ والنُّصْحِ

استُعملَ الإنذارُ في قولِه تعالى: ﴿عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُواْ﴾ دون التَّحذيرِ؛ لأنَّه ألصقُ بشفقةِ الأنبياءِ بقومِهم منَ التَّحذير؛ لأنَّ التَّحذير يصدُرُ عن علوِّ المحذِّرِ فيكونُ أبعدَ من تقبُّل النّاس له؛ لخلوِّه من الشَّفقة والرِّفق، ولمّا كانت دعوةُ الأنبياءِ لعامَّة النّاس، فإنَّهم يخاطبونهم بلينٍ وشفقةٍ، فكانَ الإنذارُ أصرحَ في إظهار الشَّفقةِ من التَّحذير.

بَراعةُ تَرتيبِ أسْبابِ عَجَبِ قَومِ نُوحٍ عليه السلام:

الذِّكرِ أصلُ الإنذارِ، والإنذارُ باعثُ التَّقوى، ومَناطُ الرَّحمةِ

في قولِه تعالى: ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُواْ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ عدَّدَ أسبابَ العجبِ، وأوقعَها كلَّها ضمنَ حيِّز الاستفهامِ الإنكاريِّ لدحض كلِّ هذه الأسباب؛ إذ إنَّها ليست ممّا يُتعجَّبُ منه، بل إنَّها من النِّعَمِ والخير الَّذي جاءهم، وفي تعدادِ ذلك مبالغةٌ في إظهار جهلهم وتعنُّتهم، وقد جاءت هذه الأسبابُ مترتِّبةً فـ "المجيءُ وهو الإعلامُ بالمخوف، والتَّحذيرُ من سوء عاقبةِ الكفرِ، ووجودُ التَّقوى منهم، ورجاءُ الرَّحمة، وكأنَّها علَّة مترتِّبةٌ، فجاءكم الذِّكرُ للإنذارِ بالمخوفِ، والإنذارُ بالمخوفِ لأجلِ وجودِ التَّقوى منهم، ووجودُ التَّقوى لرجاءِ الرَّحمة وحصولها، فعلَّل المجيءَ بجميعِ هذه العلل المترتِّبة؛ لأنَّ المترتِّبَ على السَّببِ سببٌ"[1].

دَلالةُ الواوِ في قولِه: ﴿وَلِتَتَّقُواْ﴾:

التَّقوَى عِلَّةٌ مُترتِّبةٌ على الإنذارِ، وهي غايةٌ يَرتبِطُ بها كلُّ عمَلٍ

عطفَ قوله تعالى: ﴿وَلِتَتَّقُواْ﴾ على قولِه تعالى: ﴿لِيُنذِرَكُمْ﴾ لكونهما علَّتين، فعطف العلَّةَ الثّانيةَ، وهي الأمرُ بالتَّقوى على العلَّةِ

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 5/84.

الأولى؛ لأنَّها مترتِّبة عليها[1]، والمعنى: أنَّه جاء إليكم ليحذِّركم الكفرَ، فيرشدَكم بذلك إلى التَّقوى.

غَرَضُ تكرارِ اللَّامِ، في قوله: ﴿وَلِتَتَّقُواْ﴾:

الإنذارُ والتَّقوَى نُزِّلتا مَنزلةَ العِلَّتَيْن المُستقلَّتَيْن

معنى قولِه تعالى: ﴿لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُواْ﴾: "ليحذِّركم عاقبةَ الكفرِ، وليوجدَ منكم التَّقوى، وهي الخشيةُ بسبب الإنذار"[2]، ووقع تَكرارُ اللّام؛ للدَّلالة على أنَّ كلَّ واحدٍ من المذكورَيْن منزَّلٌ منزلةَ العلّةِ المستقلَّة بذاتِها لمجيء الذِّكر، وفي ذلك بيانٌ لأهمّيَّتها.

بَلاغةُ ذِكْرِ التَّقوَى إثْرَ الإنذارِ، في قولِه: ﴿لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُواْ﴾:

التَّقوَى المتأتِّيَةُ عنِ الإنذارِ مَطلوبةٌ، وقدْ أَعْذَرَ مَن أنْذرَ

رتَّبَ النَّظمُ عللَ مجيءِ الذِّكرِ في قولِه تعالى: ﴿جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُواْ﴾ على وفقِ "حصول مضمونِها في الوجود؛ فإنَّ الإنذارَ مقدَّمٌ؛ لأنَّه حملَ على الإقلاع عمّا هم عليه منَ الشِّركِ أو الوثنيَّة، ثمَّ يحصل بعده العملُ الصّالح"[3]؛ فإنَّ التَّخليةَ سابقةٌ للتَّحليةِ، ولا تكون التَّقوى على حقيقتِها في قلبِ عبدٍ لم يُنذَر.

سِرُّ التَّصريحِ بالإنذارِ، والإشارةِ بالتَّبْشيرِ في الآيةِ:

تَكفِي الإشارةُ في التَّبْشيرِ، ما لا تَفيهِ في الإنذارِ

في قوله تعالى: ﴿جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُواْ﴾ ذكرَ الإنذارَ الدّالَّ على التَّخويف دون التَّبشير؛ وذلك "لأنَّ تأثيرَ الإنذارِ في الفعل والتَّرك أقوى من تأثيرِ البشارةِ، ولأنَّ اشتغالَ الإنسان بدفع الضَّرر أشدُّ من اشتغالِه بجلبِ المنفعةِ"[4]، وذلك يناسبُ قصَّة نوحٍ لما لاقى من آلامٍ من قومه، وما لاقى من شدَّةِ تعنُّتِهم، فكان الإنذارُ في دعوتِه أبلغَ، ولوقوعِ الإشارةِ إلى التَّبشيرِ في قولِه تعالى: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾؛ فاجتمعَ الرُّكنان الإنذارُ والتَّبشيرُ بما يُحقِّقُ المقصودَ.

---

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/236.

(2) الزمخشري، الكشّاف: 2/115.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/196.

(4) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 2/286.

دَلالةُ ذِكْرِ (الواو)، في قوله: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾:

ذِكْرُ الواوِ في الرَّجاءِ، وحذْفُها حين يكونُ الرَّجاءُ نَتيجةً لعمَلٍ سَابقٍ

عطفَ قولَهُ تعالى: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ على قولهِ جلَّ شأنُه: ﴿وَلِتَتَّقُواْ﴾؛ لأنَّها علَّةٌ ثالثةٌ معطوفةٌ "على العلَّة الثّانية، مترتِّبةٌ عليها، أي: ولتتعلَّق بكم الرَّحمةُ بسبب تقواكم"[1]، فالرَّحمة علَّة مترتِّبةٌ على علَّةٍ قبلَها، وهي التَّقوى، وقد يُذكر رجاءُ التَّقوى بلا عطفٍ حين يكونُ نتيجةً لعملٍ سابقٍ، فتكون حضًّا على العمل، كما في قولهِ تعالى: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ لِمَ تَسۡتَعۡجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبۡلَ ٱلۡحَسَنَةِۖ لَوۡلَا تَسۡتَغۡفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ٤٦﴾ [النمل: 46]، فإنَّ الرَّحمة هنا مرجوَّةٌ بعد الاستغفار، وليست مسبوقةً بعللٍ تترتَّب عليها.

دَلالةُ اسْتِعمالِ أداةِ الترجِّي (لعلّ) بَدلًا من (عسى):

الرَّجاءُ مُحاطٌ بالخَشيةِ، وموصولٌ بالقَبولِ والرّحمةِ

في قولهِ تعالى: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ جاءَ التَّعبيرُ بحرفِ التَّرجّي (لعل)؛ لدلالتهِ على رجاءِ وقوع المرجوِّ لا على سبيلِ الحتمِ والوجوبِ، فالمعنى: "وليكونَ حالكم - إذا لقيتُم اللّه - حالَ من تُرجى رحمته"[2]، أمّا (عسى)؛ فهي من اللّه تعالى متحقِّقَةٌ، "وقول المفسِّرين: عسى من اللّه واجبةٌ، أي: الكريمُ إذا رُجي؛ حقَّق"[3].

فائِدةُ بناءِ الفعْلِ ﴿تُرْحَمُونَ﴾ للمفعولِ:

تَوجِيهُ المخاطَبين إلى أنَّ الرَّحمةَ عزيزةُ الجانبِ، والحرصُ عليها عزيزُ الجَنابِ

في قولهِ تعالى: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ جاء الفعلُ مبنيًّا للمفعولِ، فلم يقُل: (لعلَّ اللّه يرحمكم)، وذلك له غايتان: الأولى: الإيجازُ في التَّعبير بحذفِ الفاعل اعتمادًا على العلم بهِ. والثّانية: الاهتمامُ بالرَّحمةِ لذاتِها لا بكونِها من معيَّنٍ، فالرَّحمةُ مطلوبةٌ لذاتِها، فإنَّ المخاطَبين هم أحوجُ ما يكونون إليه هو رحمةُ اللّه بهم، بما اقترفتهُ أيديهم في سالفِ الأيّامِ.

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/236.
(2) البقاعيّ، نظم الدرر: 7/430 - 431.
(3) الراغب، تفسير الراغب: 3/1358.

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(العجَبُ) و(البَهتُ):

التَّعجُّب: حالةٌ أعمُّ من البُهتِ؛ حيثُ إنَّ البهتَ أصلٌ يدلُّ على الدَّهشِ والحَيرة، البَهْتة: الحَيرة، قال تعالى: ﴿فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ﴾ [البقرة: 258]، أي: دُهِشَ، وتحيَّر، وانقطعت حجَّتُه[1]، فهو حالة التَّوقُّف تمنع المرءَ من إبداء الرَّدِّ والجواب، أمّا التَّعجُّب؛ فلا يتعلَّقُ بذلكَ؛ فالأمرُ العَجيبُ: هو ما يُسْتَكْبَر ويُسْتَعْظَم، والتَّعَجُّبُ: حالةٌ تعرضُ للإنسان عند الجهلِ بسبب الشَّيءِ، وهو إنكارُ ما يَرِدُ لقِلَّةِ اعْتيادِه؛ ولهذا قالَ بعضُ الحكماء: العَجَبُ ما لا يُعرفُ سببُهُ[2].

سَببُ العَجبِ جهلٌ شنيعٌ، وسَببُ البَهتِ تحيُّرٌ مُريعٌ

فالبهتةُ تدلُّ على التَّحيُّر وانقطاع الحُجَّة، أمّا التَّعجُّب؛ فهو حالةٌ من الاندهاش تردُ لورود ما لم يعتدّه المتعجِّب، وليست في سياق الاحتجاجِ وانقطاع الحجَّة، وفي الآية الكريمة قال: ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ﴾ عبَّر بالعجبِ؛ لأنَّهم لم يكونوا قد اعتادوا شأنَ الرِّسالات، وكانوا جاهلينَ بها، وهذا أنسبُ في التَّعبير عنه بالتَّعجُّب، دون البهتِ الَّذي هو أبلغُ في سياق الاحتجاج.

(الإنذارُ) و(التَّرهيبُ) و(التَّخويفُ):

الإنذارُ: لا يكونُ إلّا في التَّخويفِ، فهو: إخبارٌ فيه تخويفٌ، كما أنَّ التَّبشيرَ إخبارٌ فيه سرور[3]، فهو "تخويفٌ مع إعلامِ موضعِ المخافةِ من قولكَ: نذرتُ بالشَّيء؛ إذا علمتَهُ، فاستعددتَ له، فإذا خَوّفَ الإنسانُ غيرَه، وأعلمهُ حالَ ما يخوّفه بهِ؛ فقد أنذَرَهُ، وإن لم يُعلمْه ذلك؛ لم يقل: أنذرهُ، والإنذارُ: إحسانٌ من المنذرِ، وكلَّما كانت

الإنذارُ تخويفٌ مع إعلامٍ، بخلافِ التَّرهيبِ والتَّخويفِ فهما غيرُ مُقترنَيْنِ به

(1) ابن فارس، مجمل اللغة، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (بهت).
(2) الجوهري، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، اللسان: (عجب).
(3) الجوهري، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات: (نذر).

المخافةُ أشدَّ؛ كانتِ النِّعمةُ بالإنذار أعظمَ، ولهذا كان النَّبيُّ أعظمَ النّاس منه بإنذارهِ لهم عقابَ اللّه تعالى"[1].

أمّا التَّرهيبُ والتَّخويف؛ فهو مطلقُ الفعلِ من غير إعلامٍ، كقوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ﴾ [الأنفال: 60]، وقوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾ [الزمر: 36]، أمّا الإنذارُ: تخويفٌ مع الإعلام بما يخوِّفهم به؛ فهو إنعامٌ وإحسان لمن يُنذَر، فيكونُ قوله تعالى: ﴿لِيُنذِرَكُمْ﴾ بيانًا لغرض الرِّسالة، وهو بيانُ حال ما ينتظرهم إن استمرّوا على كفرهِم إحسانًا لهم وإنعامًا عليهم، والإنعامُ والإحسانُ لا يتوافق مع التَّرهيب والتَّخويف.

(1) العسكري، الفروق، ص: 242.

﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ ﴿٦٤﴾﴾ [الأعراف: 64]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

العَلاقةُ بين التّعجُّبِ من إرسالِ الرّسولِ، وبين نجاةِ مَنْ آمنَ، وإهلاكِ من كَفَرَ

لمّا "نسبوه أوّلًا إلى الضَّلال وهو قد يكون خطأً عن ذهولٍ ونحوه، فأقام لهم الدَّليل على أنَّه على الصَّواب، أخبرَ أنَّه لم يتسبَّب عن ذلك إلّا تصريحَهم بما لوَّحوا إليه أوَّلًا بالضَّلال من التَّكذيب، فقال: ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾"[1]، فناسبَ ذِكرُ عاقبةِ المؤمنين وسوء مآلِ المكذِّبين، بعد بيانِ إقامةِ الحجَّةِ عليهم، لبيانِ عدل اللّه مع عبادِه في عقابِه وإنجائه.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلْفُلْكِ﴾: (فلك) أصلٌ يدلُّ على استدارةٍ في شيءٍ، الفَلَك: مدارُ النُّجوم، والجمعُ أفلاكٌ، وفَلَكُ كلِّ شيءٍ: مستدارُهُ، وفَلَكُ البحر: موجهُ المستديرِ المتردِّد، والفُلك: السَّفينة، تذكَّر وتؤنَّثُ وتقع على الواحد والاثنين والجمع، ولعلَّها تسمَّى: فُلكًا؛ لأنَّها تدارُ في الماء[2].

2) ﴿عَمِينَ﴾: (عمي) أصلٌ يدلُّ على سَتْرٍ وتغطيةٍ، من ذلك العمى: ذهابُ البصرِ من العينين كلتيهما، ورجلٌ عمٍ؛ إذا كان أعمى القلبِ، ورجلٌ عَمي القلب، أي: جاهلٌ، والعَمَى: ذهابُ نظر القلب، وذُمَّ العَمَى في القرآن نحو قوله: ﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ﴾ [البقرة: 18]، وقوله: ﴿فَعَمُوا۟ وَصَمُّوا۟﴾ [المائدة: 71]، بل لم يعدَّ افتقادُ البصر في جنب افتقادِ البصيرة عَمًى، حتَّى قال: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾ [الحج: 46][3]، وقوله تعالى: ﴿عَمِينَ﴾ جمع

(1) البقاعيّ، نظم الدرر: 7/431، وينظر: ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/416.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، اللسان: (فلك).
(3) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، اللسان: (عمى، عمي).

عم جمع سلامةٍ، وهو صفةٌ على وزنِ فعِل مثلِ: أشرٍ، ويريدُ عمى البصائرِ عَميت قلوبُهم عن معرفةِ اللّه تعالى[1].

❁ المعنى الإجْماليُّ:

جَـزاءُ الإيـمـانِ نـجـاةٌ وتـمـكـينٌ، وجَـزاءُ الـكُـفـرِ إغـراقٌ واسْـتِـئـصـالٌ للمُكذِّبين

يخبرُ اللّهُ تعالى عن قومِ نوحٍ أنَّهم لم يصغوا لنداءِ الحقِّ، فكذَّبوا نوحًا عليه السلام، وتمادوا في تكذيبه ومخالفته، وما آمن معه منهم إلّا قليلٌ، فكانَ العقابُ إغراقَهم بالطّوفان، بسبب كفرِهم وتماديهم في ضلالهِم وشركهم، فهم كانوا قومًا عُميًا عن الحقِّ، لا يبصرونَهُ، ولا يهتدون له[2].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالة (الفاءِ) في قوله: ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾:

المُسارعةُ إلى التَّكذيبِ بلا تَرَوٍّ دَالٌّ على الغُلُوِّ في الغَطْرسَةِ

افتتحَ قولَه تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ بالفاءِ للدَّلالةِ على أنَّ تكذيبَ قومهِ له وقعَ بعد دعوتهِ بلا مهلةٍ، فالفاءُ تدلُّ على التَّعقيبِ، فالمعنى: أنَّ التَّكذيبَ وقع "عقب سماعِ قول نوحٍ، فعطف على كلامه بالفاء"[3]، وهذا يدلُّ على أنَّهم لم يتروَّوا، ويفقهوا ما دعاهم إليه، بل بادروا إلى تكذيبهِ ورفض دعوتهِ تشبثًا بآلهتهِم الزّائفة.

والفاءُ هي الفصيحةُ؛ لأنَّها وقعت جوابَ شرطٍ محذوفٍ، أي: إذا أردتَ أن تعلمَ مغبَّةَ أمرهِم؛ فقد كذَّبوه[4]، ولا تعارضَ بين أن تكون فصيحةً في تقدير شرطٍ محذوف، وبين إفادتِها التَّعقيب، فهما معنيانِ متآلفانِ، تقديرًا وإفادةً.

بَلاغةُ الإيجازِ في قوله: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ﴾:

في قولهِ تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ﴾ إيجازٌ بليغٌ، فقد طوى أحداثَ

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/416، وابن الجوزي، تذكرة الأريب، ص: 113، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/198.
(2) الزحيلي، المنير: 8/255.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/197.
(4) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 3/375.

القصَّة، وانتقلَ بعد ذكرِ التَّكذيبِ إلى ذكر النَّجاةِ، تعجيلًا بذكر مآل التَّكذيبِ، فإنَّ تكذيبَهم كان سببًا في نزول العذاب وتحقُّق النَّجاة لنوحٍ عليه السلام ومن معه؛ لأنَّ الغرضَ من سَوق القصصِ إنَّما هو الاتِّعاظ بها، فذكرُ ما لاقى القومُ به الدَّعوةَ من التَّكذيب، ثمَّ الانتقالُ إلى المصيرِ؛ فيه من التَّخويفِ لمن يسمعُ القصَّة من المشركينَ، عسى أن يتَّعظوا، ويحدثُ لهم ذكرًا.

تَوجِيهُ الأنظارِ إلى مُنتهَى الحدَثِ، إنشاءٌ للعِبَرِ، وتحريكٌ للفِكَرِ

نُكتةُ التَّصريحِ بالتَّكذيب، في قوله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾:

في قولهِ تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ﴾ صرَّحَ بتكذيبِ قومِ نوحٍ عليه السلام له لاستمرارِهم بالتَّكذيبِ مع الإصرارِ[1]، فهم قد أطبقوا "على تكذيبِهِ في دعوى النُّبوَّة، وما نزل عليه من الوحيِ الذي بلَّغه إليهم، وأنذرهم بما في تضاعيفهِ، واستمرّوا على ذلك هذه المدَّة المتطاولةَ بعد ما كرَّر - عليه السلام - الدَّعوةَ عليهم مرارًا؛ فلم يزدهم دعاؤُه إلّا فرارًا حسبما نطق به قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا﴾"[2]، فناسبَ ذكرَ التَّكذيب لطول مدَّة دعوتهِ لهم.

طولُ مُدَّةِ التَّكذيبِ تَستدعي ذِكرَه، وجعلَه عِلَّةَ الإغراقِ

سِرُّ إيثارِ الإضْمارِ على الإظهارِ، في قوله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾:

وضع الضَّميرَ موضعَ المظهرِ في قوله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾، فلم يقل: (فكذَّبه الملأُ، أو قومه)، وذلك ليدلَّ عليهم جميعًا، فقوله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ أي: الملأُ والذين تابعوهم من دونِهم[3]، فدلَّ الضَّمير على جميعهم، فلو قالَ: (فكذَّبه)؛ لاحتملَ أنَّ المكذِّبين الملأ وحدَهم دون القومِ كلِّهم، ولو صَرَّحَ بالقوم، فقال: (فكذَّبه قومه)؛ لطالت العبارةُ مع إمكانِ الإيجاز، فعدل عن التَّعبير بالظّاهر ليشملَ الجميعَ مع الإيجازِ.

الإضْمارُ إيجازٌ ظاهرٌ، واختزالٌ باهرٌ

---

(1) الآلوسي، روح المعاني: 4/392.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/236 - 237.

(3) البقاعيّ، نظم الدرر: 7/431.

دلالة (الفاءِ) في قوله: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ﴾

النَّجاةُ أعْقَبَتِ التَّكذِيبَ

قوله جلَّ شأنه: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ﴾ عطف (أنجيناه) على (كذَّبوهُ) بالفاءِ الدّالَّة على التَّرتيب والتَّعقيب؛ لأنَّ النَّجاة وقعت بعد التَّكذيب، فهي تفيدُ التَّعقيب، «وهو تعقيبٌ عرفيٌّ؛ لأنَّ التَّكذيب حصل بعده الوحيُ إلى نوحٍ بأنَّه لن يؤمنَ من قومهِ إلّا من قد آمَنَ، ولا يُرجى زيادةُ مؤمن آخر، وأمره بأن يدخلَ الفُلك، ويحملَ معه من آمنَ إلى آخرَ ما قصَّه اللهُ في سورةِ هودٍ»[1].

بَلاغةُ التَّعْبِيرِ بالإنجاءِ، دون الإنقاذِ، في قوله: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ﴾:

النَّجاةُ تَخليصٌ تامٌّ، مع ارتفاعٍ مَعْنويٍّ، يُعْلِي المقامَ

عبَّر النَّظم عن نجاةِ نوحٍ عليه السلام في قوله جلَّ شأنه: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ﴾ بالنَّجاة دون الإنقاذِ، لدلالةِ النَّجاة على الخلوصِ والانفصالِ ممّا حوله، والإنقاذُ هو: التَّخْليصُ من ورْطَةٍ، واستخلاصُ الشَّيء في قوَّة من بين ما لا يُرضَى حوزهُ إيّاه، وأنقذته منه: خلصتهُ. وفرسٌ نقيذٌ: أُخذ من قوم آخرين[2]، أمّا النَّجاةُ فأصلها: الانفصالُ من الشَّيءِ، وخُلوص الجِرم، أو نفاذُه مرتفعًا من بين ما يحيطُ به أو يجاوره، والنَّجاةُ مِنَ الأَرض هي المكانُ المُرتفِع المنفصلُ بارتفاعهِ عمّا حوله، ولا يَعْلوها سَيْلٌ[3]، كقوله تعالى: ﴿فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ﴾ [يونس: 92]، أي: نلقيك على نجوةٍ من الأرضِ، وهي المكانُ المرتفعُ[4].

نُكتةُ إسْنادِ الإنجاءِ إلى ضَميرِ العَظَمةِ في قوله تعالى: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ﴾:

مُناسبةُ عَظَمةِ الإنجاءِ، لعَظَمةِ المُنجِي

أسندَ الإنجاءَ إلى ضميرِ العظَمَةِ في قوله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ﴾، ولم يقل: فأنجاهُ اللهُ، والمعنى: "﴿فَأَنجَيْنَٰهُ﴾ بما لنا من العظمَةِ من أهلِ الأرضِ كلِّهم ومن عذابنا الذي أخذناهم به"[5]،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/197.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (نقذ).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (نجو).
(4) الواحدي، البسيط: 11/306، والماوردي، النكت والعيون: 2/449.
(5) البقاعيّ، نظم الدرر: 7/431.

والإنجاءُ من العذابِ العظيمِ يقتضي أن يكون إنجاءً عظيمًا؛ فلذا نسبهُ إلى اللّهِ تعالى بضمير العظمةِ.

تَوجيهُ المتشابهِ اللَّفْظِيِّ بينَ: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ﴾ و﴿فَنَجَّيْنَٰهُ﴾:

تناول سياقُ قصَّة نوحٍ عليه السلام في سورة يونسَ نوحًا وحسب من غير ذكرِ المجادلةِ مع قومهِ، فكلُّ ضمائرِ المتكلِّم كانت لنوحٍ، ولم ينقل النَّصُّ ما قاله قومه، قال تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾﴾ [يونس: 72 - 73]، فكان السّياق في الإنعامِ على نوحٍ؛ لذا أتبعَ النَّجاةَ بقوله: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ﴾، وكان من تمامِ الإنعامِ أن يذكرَ النَّجاة على وجه المبالغة، فجاءت بصيغة التَّضعيف، ولم يكن السّياق في سورة الأعراف للإنعامِ، فجاءَ بالإخبار عن النَّجاة بلا مبالغة.

ناسبَ سِياقَ الإخْبارِ عنِ النَّجاةِ قولُه: (فأنجيناه)، وناسبَ سِياقَ الإنعامِ قولُه: (فنجّيناه)

نُكتةُ اسْتِعمالِ الاسْمِ الموصولِ ﴿ٱلَّذِينَ﴾، دونَ (مَنْ):

في قولهِ تعالى: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ﴾ عبَّر عن النّاجينَ معهُ بالاسمِ الموصول، فلم يقل: (والمؤمنين معه)؛ لأنَّهم قومٌ معروفون معهودون، وهم من اتَّبعهُ، وآمنَ به، وفي ذلك تكريمٌ لهم، ولم يعبِّر بلفظِ (مَن) وهو وإن كان موصولًا إلّا أنَّ دلالتهُ على العموم أرسخُ، فأتى بالاسمِ الموصولِ بالَّذين دون غيرِها لبيانِ خصوصيَّتهم النّاشئة عن قلَّتهم في وسط المكذِّبين، فخصَّهم بصفةِ المعيَّة والإنجاء لبيانِ فضلهم.

الذين آمنوا مع نُوحٍ، قومٌ مخصُوصُونَ بالكرامةِ والتَّشْريفِ

اخْتِيارُ الاسْمِ الموصولِ (مَن) في سورة الشّعراء:

وفي سورةِ الشُّعراءِ جاءَ استعمالُ (من)؛ ذلك أنَّ سياقَ سورةِ الشُّعراءِ يناسبه (مَن)، قال تعالى: ﴿وَنَجِّنِى وَمَن مَّعِىَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١١٩﴾﴾ [الشّعراء: 118 - 119]، فلمّا قالَ في الآية السّابقة: ﴿وَنَجِّنِى وَمَن مَّعِىَ﴾، ناسبَ أن يُتبِعه في

إنجاءُ الله رحمةٌ وتلطُّفٌ، والله لا يخذلُ مَنِ التجأَ إليه ودَعاه

اللّاحقة بقوله: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ﴾ ليكونا على نسقٍ واحدٍ، ولكي لا يُفهم - إذا استُعمل (الّذين) دون (مَنْ) - أنَّ الّذين نجّاهم الله غيرَ الَّذين طلب تنجيتَهم نوحٌ عليه السلام.

بَلاغةُ الإيجازِ في قولِه: ﴿وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ﴾:

جاء قوله تعالى: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ﴾ خاليًا تقييدهم بالإيمان، كما في سورة الشُّعراءِ ﴿وَنَجِّنِى وَمَن مَّعِىَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾؛ وذلك لأنَّ قوله: ﴿مَعَهُۥ﴾ يتعلَّق به قوله: ﴿فِى ٱلْفُلْكِ﴾ والتَّقدير: "استقرّوا معه في الفلكِ، وبهذا التَّعليق عُلِم أنَّ اللّه أمرهُ أن يحملَ في الفُلك معشرًا، وأنَّهم كانوا مصدِّقين له، فكان هذا التَّعليقُ إيجازًا بديعًا"[1]، فما ركِب معه غير مَنِ اتَّبعه، ولذلك لم يأتِ هذا التَّقييدُ في الآيةِ الثّانيةِ في سورةِ الشُّعراءِ ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾ لهذا السَّببِ، واكتفاءً بالآيةِ السّابقة، وبهذا أغنى ذلك عن التَّصريحِ بالإيمان إيجازًا.

التَّقابُلُ اللَّفْظِيُّ في ذِكْرِ إغراقِ المُكذِّبين، دَالٌّ على نجاةِ المؤمنين

وجاءَ ما يدلُّ على صفةِ الإيمانِ في التَّقابلِ اللَّفظيِّ، حيثُ قابلتِ الآيةُ بينَ الإنجاءِ والإغراقِ، فالإغراقُ كان للمُكذِّبين المذكورين في قولِه: ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟﴾، فدلَّ هذا التَّقابلُ على أنَّ الذين معهُ هم من المؤمنينَ، وهذا من إيجاز القصرِ.

نُكتةُ تَقديمِ الإنجاءِ على الإغْراقِ:

العِنايةُ بالمؤمنين وتَعجيلُ المسَرَّة للسَّامعين، تَستدعِي تَقديمَ الإنجاءِ

في قوله جلَّ شأنُه: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟﴾ قدَّمَ ذكرَ الإنجاءِ على الإغراقِ، وكان المتبادرُ أن يذكرَ العقابَ ليتبيَّنَ من أيِّ شيءٍ أنجاهم؛ لكنَّ النَّظمَ قدَّمَ ذِكْرَ الإنجاءِ للمسارعة بالإخبارِ بهِ والإيذانِ بسبق الرَّحمةِ[2]، و"للاهتمام بإنجاء المؤمنينَ وتعجيلًا لمسرَّة السّامعين من المؤمنينَ بأنَّ عادةَ الله - إذا

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/19، وينظر: أبو حيان، البحر المحيط: 5/85.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/237، والآلوسي، روح المعاني: 4/392.

أهلك المشركين - أن ينجيَ الرَّسولَ والمؤمنين؛ فلذلك التَّقديمُ يفيد التَّعريضَ بالنِّذارة، وإلّا فإنَّ الإغراقَ وقع قبل الإنجاء؛ إذ لا يظهر تحقُّقُ إنجاءِ نوحٍ ومن معه إلا بعدَ حصول العذاب"[1].

بَراعةُ التَّعْبيرِ بلفْظِ ﴿ٱلْفُلْكِ﴾، دونَ السَّفينةِ:

استُعْمِلَ الفُلكُ باعتبارِ حمْلِ البَشريَّةِ النَّاجيةِ، ودَورانِها بحثًا عنِ الاسْتِقرارِ

قولِه: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ﴾، الفلك هو السَّفينةُ، وهي في الاستعمالِ القرآني تُطلقُ على ما كان لها مالكٌ وصاحب، أمّا الفُلكُ؛ فهو مُستعملٌ في القرآنِ باعتبارِ الوظيفةِ العامَّة، لا باعتبارِها مملوكةً لشخصٍ دون آخر، وكذلك باعتبارِ البحرِ فُلكًا لها، فهي تدور فيهِ، فعند إطلاقِ الفُلك في القرآنِ لا يُرادُ بها فُلكًا خاصًّا بل عامًّا، والفُلك الذي صنعه نوحٌ عليه السلام ليس خاصًّا به، بل هو لعمومِ البشريَّة، وسيدورُ في الأرضِ.

وقد يسألُ سائلٌ عن قولِه تعالى: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٥﴾﴾ [العنكبوت: 15]؟ لماذا سمَّى الفلك هنا بالسَّفينةِ؟ وذلك لتنزيلِ المؤمنين منزلةَ الشَّرفِ والتَّكريم، فهم أصحابُ السَّفينة، فعاملَ الفُلك معاملةَ السَّفينة لتكريمِ مَنْ رَكِبَها، فأصبحوا أصحابَها بعد النَّجاةِ، أمّا عندما كان يصنعها؛ فوصفها بقوله: ﴿وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ﴾ [هود: 38].

دَلالةُ عطْفِ: ﴿وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟﴾ على ما قَبْلَها:

بيانُ النِّهاياتِ للفِرقِ المتضادَّةِ، مِهْمَازُ اعْتِبارٍ

عطفُ الإغراقِ في قوله تعالى: ﴿وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ على نجاةِ نوحٍ عليه السلام ومن معه في قوله تعالى: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ﴾ لبيان مصير الفئتين، وإظهارًا لنهاية القصَّة بذكر ما حلَّ بكلِّ فريقٍ.

نُكتةُ إيثارِ ذِكْرِ الإغْراقِ على الإهلاكِ:

في قولِه تعالى: ﴿وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ آثرَ ذكرَ الإغراقِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/197 - 198.

الإهلاكُ عامٌّ، والإغراقُ نوعٌ منه، وذُكِرَ للتَّصريحِ بكيفيَّةِ إهلاكِهم

دونَ الإهلاكِ، وذلك للتَّصريحِ باسمِ العقابِ الذي نالهم؛ فالإهلاكُ عامٌّ، له أسبابٌ كثيرةٌ، الغرقُ واحدٌ منها، فخصَّ ذكرَ الإغراق للتَّصريحِ بنوعِ العذابِ، وهو عاقبةٌ شديدةٌ بليغةٌ.

بَلاغةُ الطِّباقِ المعنويِّ، بين الإنجاءِ والإغراقِ:

بيانُ المعنى بذِكْرِ نقيضِهِ، تَنبيهٌ وتَحذيرٌ

في قولِه جلَّ شأنُه: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟﴾ طباقُ إيجابٍ، بين الفعلين المتضادَّين ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ﴾ و﴿وَأَغْرَقْنَا﴾، وفي ذلك جمالٌ معنويٌّ، وتأكيدُ المعنى بذكرِ النَّقيضينِ تنبيهٌ ولفتٌ لانتباه السّامع لاختلاف المآلِ لمن آمنَ، واتَّبع الرُّسل، ومَن أبى، واستكبر.

نُكتةُ إسْنادِ الإغراقِ إلى ضَميرِ العَظَمةِ، في قولِه: ﴿أَغْرَقْنَا﴾:

الإغْراقِ مُعجزةٌ كاسِحةٌ، نُقِشتْ في ذاكرةِ التّاريخِ البشريِّ

أُسنِدَ الإغراقُ إلى ضميرِ التَّعظيمِ في قوله تعالى: ﴿وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾، ولم يقل: (وأغْرقْتُ الذين كذَّبوا)، ولا: (وأُغرِق الذين كفروا)؛ لأنَّه أرادَ تعظيمَ ذلك الجزاءِ، فهو إغراقٌ عظيمٌ حدثَ بما تقتضيه عظمةُ اللّه تعالى اللّائقةُ به، وقد كان كذلك، فما زالَ طوفانُ نوحٍ في ذاكرةِ البشريَّةِ وملْءِ صفحاتِ التّاريخِ.

غَرَضُ وضْعِ المُظْهَرِ مَوضِعَ المُضمَرِ، في قولِهِ: ﴿وَأَغْرَقْنَا﴾:

تَكرارُ إقامةِ الحُجَّةِ تثبيتٌ للعِبْرةِ، وتأْييدٌ للاعتبارِ

عبَّر عن المُكذِّبين بالاسمِ الموصولِ في قوله تعالى: ﴿وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ دونَ الضَّميرِ وهو ما يقتضيه الظّاهر، فلم يقل: (وأغرقناهم)، فأظهر الموصولَ للإعلام بعلَّةِ الغرقِ، وهو التَّكذيبُ[1]، فعبَّر بالموصول قصدًا لتضمينِ الصِّلة علَّةَ الإغراقِ، والمعنى: "وأغرقنا من كذَّبَ بآياتِنا بالطّوفان بسببِ تكذيبهم"[2]، وهذا تَكرارٌ في بيانِ الحُججِ، وذكر سببِ الإغراقِ، وغرضُه أخذُ العبرةِ والاعتبارِ.

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 5/85.
(2) المراغي، تفسير المراغي: 8/191.

نُكتةُ التَّعْبيرِ بالاسْمِ الموصولِ ﴿ٱلَّذِينَ﴾، دونَ الصَّريحِ (المكذّبين):

ذَمُّ قَومِ نُوحٍ كان لإصْرارِهم على التّكذيبِ، لا لمجرَّدِ التَّكذيبِ

عبَّرَ بالاسمِ الموصولِ في قوله تعالى: ﴿وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ للدَّلالَةِ على معيَّنٍ مع الدَّلالة على أنَّ تكذيبَهم كان مستمرًّا، والاستمرارُ يشعرُ بالإصرارِ، فمعنى: ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ﴾ "أي: استمرّوا على تكذيبها، وليس المرادُ بهم الملأ المتصدّين للجوابِ فقط، بل كان من أصرَّ على التَّكذيب منهم ومن أعقابهم"[1]، فالمرادُ من الموصولِ وصلتِه بيانُ أنَّهم اتَّصفوا بالتَّكذيبِ واستمرّوا عليه، وليس المرادُ بيانَ أنَّهم متَّصفون بالتَّكذيب فحسب.

فائِدةُ ذِكْرِ التّكذيبِ ﴿بِـَٔايَٰتِنَآ﴾، لا التَّكذيبِ بنُوحٍ:

التَّكذيبُ بالآياتِ هو سببُ الإغراقِ، لا تكذيبُ الأشخاصِ

عبَّرَ عن تكذيبِ قومِ نوحٍ بالآياتِ في قوله تعالى: ﴿كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ وهذا "يقتضي أنَّ نوحًا عليه السلام كانت له آياتٌ ومعجزاتٌ"[2]، وإنَّما عبَّر هنا عن تكذيبِهم بالآياتِ، وليس عن تكذيبِهم بنوحٍ عليه السلام لبيانِ شناعةِ تكذيبِهم؛ فهم قد كذَّبوا الآياتِ الَّتي هي مظنَّةُ التَّصديقِ، وهي لغيرهم مناراتٌ هدايةً وبراهينَ علمٍ؛ فالتَّكذيبُ المقيَّد بالآياتِ هو أشدُّ من التَّكذيبِ المطلق، أو تكذيبِ المرسلِ، فكان تكذيبهم استكبارًا عن أدلَّة العلم، ويُشيرُ إلى أنَّ تكذيبَ الآياتِ كان السَّببَ المُعتبرَ الَّذي آلَ بهم إلى الإغراقِ دونَ تكذيبِهم له؛ لأنَّ تكذيبَ الآياتِ دليلٌ على الاستكبار والإصرارِ على الكفرِ.

فائِدةُ إضافةِ آياتٍ إلى ضَميرِ العَظَمةِ، في قولِه: ﴿كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾:

آياتُ العظيمِ معلومةُ الوُرودِ، ولا يَكفرُ بها إلَّا جَحُودٌ لَدودٌ

أضافَ الآياتِ إلى ضميرِ العظمةِ في قوله تعالى: ﴿كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ إشعارًا بأنَّ هذه الآياتِ "هي من الظُّهورِ في حدٍّ لا خفاء به؛ لما لها من العظمةِ بالنِّسبةِ إلينا"[3]، وتعظيمُ هذه الآياتِ يشير إلى عِظم جرمِهم؛ إذ إنَّها آياتٌ لا ينبغي لها أن تُكذَّبَ؛ لأنَّها واردةٌ من اللهِ جل جلاله.

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/237، والآلوسي، روح المعاني: 4/392.
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/416، وأبو حيان، البحر المحيط: 5/85.
(3) البقاعيّ، نظم الدرر: 7/431.

مُوجِبُ فَصْلِ جُملةِ: ﴿إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا عَمِينَ﴾ عمَّا قبلَها:

عَمَى البَصائرِ، عِلَّةُ التَّكذيبِ بالآياتِ

جاءتِ الجملةُ في قولِه تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا عَمِينَ﴾ مفصولةً عمّا قبلَها؛ لبيان أنَّ تكذيبهم لم يكن إلّا لعمى بصائرِهم[1]؛ إذ هو ما حال دون إيمانِهم واعتبارِهم بالآياتِ، فالجملةُ المفصولة "تتنزَّل منزلةَ العلَّةِ لجملة (أغرقنا) كما دلَّ عليه حرفُ (إنَّ)؛ لأنَّ حرفَ (إنَّ) هنا لا يُقصدُ بهِ ردُّ الشَّكِّ والتَّردُّد؛ إذ لا شكَّ فيه، وإنَّما المقصودُ من الحرفِ الدَّلالة على الاهتمامِ بالخبر، ومن شأنِ (إنَّ) - إذا جاءت للاهتمام - أن تقومَ مقامَ فاءِ التَّفريعِ، وتفيدَ التَّعليلَ وربْطَ الجملة بالَّتي قبلَها"[2].

فائِدةُ ذِكْرِ ﴿كَانُواْ﴾، في اتِّصافِ الكَفرةِ بالعَمَى القَلْبيِّ:

عَمَى البصيرةِ راسِخٌ، بِسببِ اكتِسَابِ الجوارحِ

في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا عَمِينَ﴾، قرنَ النَّظمُ الإخبارَ عن اتِّصافِ قومِ نوحٍ بالعمى بالفعل ﴿كَانُواْ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا عَمِينَ﴾، ولم يقل: (إنَّهم قومٌ عَمون)؛ للدَّلالة على أنَّ العمى تراكمَ عليهم عبرَ القرونِ، حتَّى أصبح جزءًا من سلوكِهم، وفي ذلك إيماءٌ إلى عراقتِهم في الضَّلال، وأنَّهم لم يعموا عن الحقِّ اليوم، بل هم مستمرّون عليه، لا ينفكّون عنهُ مع تطاولِ الأيّام، وتعاقبِ الأزمان، وهذا التَّعبيرُ أبلغُ في كونِ نوحٍ عليه السلام قد استنفدَ طرقَ الهدايةِ معهم، لكنَّهم عاندوا بسببِ ما رانَ على قلوبِهم من الاكتسابِ والاجتراح.

دَلالةُ ذِكْرِ ﴿قَوْمًا﴾، ووصْفِهِم بالعَمَى:

اجْتِماعُ البصائرِ على العَمَى، كتجمّعٍ منْ رمَى إذْ رمَى

ذكرَتِ الآيةُ لفظَ (قَوْم) في قولِه تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا عَمِينَ﴾، ولم يقل: (إنَّهم كانوا عمين)؛ حيثُ إنَّ وصفَهم بكونِهم قومًا يدلُّ على أنَّهم كانوا في كفرِهم وعنادِهم مجتمعين قائمين، لما في لفظِ القومِ من دلالةٍ على أنَّ جماعةً ما يقومون قومةً واحدةً، إشارةً

(1) المراغي، تفسير المراغي: 8/191.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/198، وينظر: الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/298.

على صلابتِهم ووحدة كلمتِهم، ووصفَ هؤلاءِ القومَ بعمى البصيرةِ إشارةً إلى أنَّهم في إجماعهم واتِّفاقهم كانوا في ضلالٍ وجهالةٍ، فإنَّ الإجماعَ يدلُّ على قوَّةِ الاتِّفاق، فضلالهُم كان في الغاية القُصوى.

سِرُّ تفرُّدِ هذه الآيةِ بوصْفِ قومِ نُوحٍ، بقولِه: ﴿عَمِينَ﴾:

ناسبَ تفرُّدَ قومِ نُوحٍ بطُولِ الزَّمانِ، تفرُّدُ هذا اللَّفظِ في القرآنِ

وصف اللّهُ تعالى قومَ نوحٍ بالعمى بصيغةِ الصِّفةِ المشبَّهةِ (عم) بوزنِ فعٍ مثل أشِرٍ في قوله جلَّ شأنه: ﴿قَوْمًا عَمِينَ﴾؛ للدَّلالة على ثبوت هذا الوصفِ فيهم، وجمعَها جمعًا سالمًا؛ لأنَّه أرادَ عمى القلب، وليس عمى العين، فلذا لم يقل: (عُميًا) بجمع التَّكسيرِ، فلمّا أرادَ الصِّفةَ الَّتي تدلُّ على عمى القلبِ والبصيرةِ؛ عدلَ إلى جمع المذكَّر السّالم[1].

وهذا اللَّفظُ من الأفرادِ في القرآنِ الكريمِ، وإنَّما تفرَّد هذا الموضعُ بهذا الوصفِ؛ لأنَّ قومَ نوحٍ عليه السلام قد لبث فيهم نبيُّهم زمانًا طويلًا، فكان حريًّا بهم أن يؤمنوا ويفقهوا عنه، ولمّا لم يبصروا الآياتِ مع تطاولِ الزَّمانِ؛ دلَّ على أنَّ عمى القلب والبصيرةِ وصفٌ راسخٌ فيهم، فجاء النَّظم القرآنيُّ بالصِّفة المشبَّهة للدَّلالةِ على ذلك. ولمّا كانوا متفرِّدين بهذا الرُّسوخِ في العماوةِ عن الحقِّ، وفي طولِ زمان الصُّدودِ والتَّكذيب، ناسبَ أن يوصفوا بلفظٍ متفرِّدٍ ذكرُه في القرآنِ؛ ليُناسبَ التَّفرُّدُ التَّفرُّدَ.

تَوجيهُ القِراءاتِ القُرآنيَّةِ في قولِه: ﴿عَمِينَ﴾:

تدلُّ قراءةُ (عامِينَ) على ابتداءِ العَمَى، وتدلُّ (عَمِين) على رُسوخِ العَمَى

قرِئَ في قوله تعالى: ﴿عَمِينَ﴾: (عامينَ)، وهي قراءة شاذَّةٌ[2]، على صيغة اسمِ الفاعل الدّالَّة على الحدوث، وصيغةُ اسم الفاعلِ لا تدلُّ على رسوخِ هذا الوصفِ فيهم، كما تدلُّ عليه القراءةُ الأخرى الَّتي هي قراءةُ الجماعةِ المتواترة: ﴿عَمِينَ﴾ فهي على صيغة الصِّفة المشبَّهة الدّالَّة على ثبوتِ الوصف فيهم، "والفرقُ بين العَمي والعامي،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/198، وينظر: أبو حيان، البحر المحيط: 5/85.
(2) الزمخشري، الكشّاف: 2/115.

أنَّ العمي يدلُّ على عمًى ثابتٍ، والعامي على عمًى حادثٍ، ولا شكَّ أنَّ عماهم كان ثابتًا راسخًا"[1]؛ لأنَّ (العمي) لعمى البصيرةِ، وهو ثابتٌ، و(العامي) لعمى البصرِ، وهو حادثٌ، فإنَّ (فَعِلٌ) تدلُّ على الثُّبوت، لكونِها صفةً مشبَّهة[2].

وهذا الفرقُ بين (العمي) و(العامي) يحتاجُ إلى توجيهٍ على ضوءِ القراءتين، وتوجيهُ ذلك: أنَّ قراءةَ (عامينَ) أشارتْ إلى ابتداءِ الدَّعوةِ من نوحٍ عليه السلام فكانوا وقتئذٍ قومًا عامين، ويكون قولُه: ﴿كَانُواْ﴾ محمولًا على ما كان منهم ابتداءً، وقراءةُ الجمهورِ تُشيرُ إلى ما استقرَّ إليه حالُهم بعد ذلك، وهو الذي أوقعَهم في الإغراقِ المبين، ويكون غرضُ القراءتينِ: التَّنبيهَ والتَّحذيرَ من مشابهتِهم في الاستمرارِ على الطُّغيان والاستكبارِ، فما بدأ فعلًا حادثًا ينتهي وصفًا راسخًا، وهو ما يُؤكِّد أنَّ اللّٰه لم يخلق أحدًا عميًا جبلَّةً، بل هو سلوكُ الاكتسابِ والاجتراحِ مع تطاولِ الأزمانِ.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(الفُلْكُ) و(السَّفينةُ):

السَّفينةُ في القرآنِ ما كان لها رُبّانٌ، والفُلْكُ باعتبارِ الوَظيفةِ والامْتِهانِ

بعد التَّأمُّل في مواضعِ الكلمتين في القرآن الكريم يتبيَّنُ أنَّ استعمالَ السَّفينةِ في التَّعبيرِ القرآنيِّ لمن كان لها مالكٌ وصاحبٌ، كقوله تعالى: ﴿إِذَا رَكِبَا فِي ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَاۖ قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا﴾ [الكهف: 71]، فهي هنا لها أهلٌ، وقوله تعالى: ﴿أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ﴾ [الكهف: 79] فهي لمساكينَ، وقوله تعالى: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ﴾ [العنكبوت: 15].

أمّا استعمالُ الفُلكِ؛ فهو باعتبارِ الوظيفةِ العامَّة، لا باعتبارِها مملوكةً لشخصٍ دون آخرَ، كقولهِ تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/299، والزمخشري، الكشّاف: 2/115.
(2) البقاعيّ، نظم الدرر: 7/432 - 433.

مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡفُلۡكَ تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ بِأَمۡرِهِۦ﴾ [الحج: 65]، وجاء الفُلك في سائر مواضعِ الامتنان على العبادِ بتسخيرِ الفُلك والبحرِ لهم، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلۡفُلۡكِ ٱلَّتِي تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ﴾ [البقرة: 164].

(الأعمَى) و(الأكْمهُ):

العمى: ذهابُ البصرِ من العينين كلتيهما، ورجلٌ عمٍ إذا كان أعمى القلبِ، ورجلٌ عَمي القلب أي: جاهلٌ، والعَمَى: ذهابُ نظرِ القلبِ[1]. أمّا الأكْمَهُ؛ فهو الَّذي يولَد أعمى، فهو مقيَّدٌ بكونِه يولد مطموسَ العينِ[2]، أمّا الأعمى؛ فهو من ذهبَ بَصَرُهُ كُلُّهُ[3]، فالأعمى أعمُّ من الأكمهِ، وقوله تعالى: ﴿عَمِينَ﴾ جمعُ عمٍ، وهو صفةٌ على وزن فعِل، بمعنى: عمى البصائر، أي: عَميت قلوبُهم عن معرفة اللّه تعالى[4]، فالسّياقُ ليس في حاسَّة النَّظرِ، بل في بصيرةِ القلب، وهذا يُعبَّر عنه بـ (عمٍ) لا بـ (كَمِهٍ).

الأعـمَـى: من كان مُبصِرًا قبْلَ العَـمَـى، أمَّـا الأكـمـهُ؛ فهو المولودُ أعْمَى

(1) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، اللسان: (عمى، عمي).

(2) الجوهري، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات: (كمه).

(3) الفيروزآبادي، القاموس: (عمي).

(4) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/416، وابن الجوزي، تذكرة الأريب، ص: 113، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/198.

﴿۞وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًاۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ٦٥﴾ [الأعراف: 65]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

اتِّفاقُ الغاياتِ ومقاصدِ القَصَصِ مع الزَّمان، ملحوظٌ في التَّرتيبِ، بين قصّة نُوحٍ وقصّةِ هودٍ

لمّا تمَّت قصَّةُ قوم نوحٍ عليه السلام حسُنَ ذكرُ قصَّة عادٍ للسّياقِ؛ لأنَّهم كانوا بعدهم في الزَّمان، ولمشابهةٍ بين القصَّتين وقعَ في الغرضِ والغايةِ، فحسُن التَّرتيبُ، فالمناسبةُ بينهما تاريخيَّةٌ زمانيَّةٌ؛ لأنَّ قبيلة عادٍ "من أقدم الأمم وجودًا وآثارًا في الأرض، وهم - على ما يظهر - أقدمُ من إبراهيم، لذا ناسبَ ذكرُها بعد قصَّةِ نوحٍ مع قومهِ"[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿عَادٍ﴾: اسمٌ عربيٌّ؛ لأنَّ العادين كانوا يتكلَّمون بلغةِ العربِ، مشتقٌّ من العُدوان والاعتداءِ، وعادٌ كان أبًا لهؤلاء القَوْم، وكان من أحفاد نوحٍ عليه السلام وهو عادُ بن عَوْص بن إرَم بنِ سام بن نوحٍ، وسَمَّوْه: عاديًا، وقومَه: عادين؛ لزيادة القهرِ والقوَّة والمال والنِّعمة فيهم، أو لزيادَة القَدِّ والقامَة[2]، فسمّيت القبيلةُ باسمِ أبيهم وهو عادُ بن عوص[3].

2) ﴿أَخَاهُمْ﴾: (أخو): الأخُ في الأصلِ مَن ولَده أبواكَ أو أحدُهُما، ويطلقُ أيضًا على الأخِ من الرِّضاعِ، ويُستعارُ الأخُ في كلِّ مشاركٍ لغيرهِ في القبيلةِ أو الصَّنعةِ أو الدّين أو المعاملةِ أو المودَّة أو غيرها من المناسبات، سمّي الأخوان لتأخّي كلِّ واحدٍ منهما ما يتأخّاه الآخر، والأخوَّة مشتَقَّةٌ من الأخيَّةِ: وهو حَبْل يُدْفن في الأرض، ويَبْرُزُ طَرَفٌ كالعُروة تُشدُّ إليه الدابَّة، فالأخوان مرتبطان بخروج كلٍّ منهما من

(1) الزحيلي، المنير: 8/260.
(2) الفيروزآبادي، البصائر: (عاد).
(3) العليمي، فتح الرحمن: 2/538، وأبو حيان، البحر المحيط: 5/85.

نفس الصُّلب أو البطنِ الَّتي خرج منها الآخرُ أو منهما معًا[1]، وقوله تعالى: ﴿۞وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًاۚ﴾، سمّاه أخًا تنبيهًا على إشفاقهِ عليهم شفقةَ الأخِ على أخيه، وأخاهم: أي: صاحبَهم ورسولهم[2].

3) ﴿هُودًاۚ﴾: نبيٌّ كريمٌ عليه السلام "هو ابنُ عبدِ اللّٰهِ بنِ رباحِ بنِ الخلودِ بنِ عادِ بنِ عوصِ بنِ إرَم ابن سامِ بنِ نوحٍ، بعثه اللّٰهُ إلى عادٍ نبيًّا، وكان من أوسطِهم نسبًا، وأفضلِهم حسبًا، وهودٌ: اسمٌ أعجميٌّ، وانصرَفَ لخفَّتِه؛ لأنَّه على ثلاثةِ أحرفٍ، وبعثه اللّٰهُ بعدَ نوحٍ وقبلَ إبراهيم"[3].

❁ المعنى الإجْماليُّ:

إرشـادُ هـودٍ قومَه، أنّ عبادةَ الله وحدَه أصلُ الدَّعواتِ الإلهيَّةِ

يخبرُ اللّٰهُ تعالى أنَّه أرسل إلى قبيلةِ عادٍ أخاهم هودًا، فهو من جنسِهم ومن نسبِهم؛ ليعرفوه، ويأنسوا به، وليفهَموا كلامه ومنطقه، فيكونوا أقربَ إلى تصديقهِ، قال هودٌ: يا قومُ، اعبدوا اللّٰه وحده، ولا تجعلوا معه إلهًا آخر، أفلا تتَّقون ربَّكم، وتبتعدون عمّا أنتم عليه من الشِّركِ والمعاصي[4].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالة العطْفِ على الحذف:

من بديعِ البيانِ، عـطـفُ الـقِـصَّـةِ عـلى الـقِـصَّـةِ، بِتَقديرِ محذوفٍ مُـنـتـزَعٍ مـنَ القصَّةِ السَّابقةِ

قوله تعالى: ﴿۞وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًاۚ﴾ معطوفٌ على قوله تعالى: ﴿أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ بتقدير محذوفٍ، تقديرهُ: "لقد أرسلنا نوحًا إلى قومهِ، وأرسلنا إلى عادٍ أخاهم هودًا"[5]، فهو من عطْفِ القصَّةِ على القصَّةِ، فقد عطفتِ الواو قصَّةَ هودٍ على قصَّة نوحٍ[6] عليهما السلام.

(1) ابن فارس، مجمل اللغة، وابن منظور، اللّسان، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (أخو).
(2) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/299، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (أخو).
(3) العليمي، فتح الرحمن: 2/538.
(4) الزحيلي، المنير: 8/263.
(5) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/299.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/200، والآلوسي، روح المعاني: 4/392.

بيانُ الإشْعارِ بما سيكونُ لعادٍ منَ الإهلاكِ

غَرَضُ تقديمِ المرسَلِ إليهم على المرسَل:

قُدِّمَ ذكرُ ﴿عَادٍ﴾ على المفعولِ به الصَّريحِ ﴿أَخَاهُمْ﴾ في قولِه تعالى: ﴿۞وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾، ولم يقل: (وأرسلنا أخا عادٍ هودًا إلى عادٍ)؛ لسببينِ اثنينِ: الأوَّل لفظيٌّ: وهو إفادةُ "الإيجازِ بالإضمار؛ حيث أريدَ وصفُ هودٍ بأنَّه من إخوة عادٍ ومن صميمِهم، من غير احتياجٍ إلى إعادة لفظ عاد"[1].

ولسببٍ آخرَ دلاليٌّ، وهو أنَّ في التَّركيبِ إشعارًا بأنَّ المذكورَ اللّاحق يُشابِه المذكورَ السّابق، فقصَّةُ عادٍ تُشابِه قصَّةَ قومِ نوحٍ، فإنَّ تقديمَ ﴿عَادٍ﴾ يُشعر بتقديم المقصودِ بالذِّكر بعد الانتهاءِ من تتميم قصَّةِ قوم نوحٍ، وما جرى لهم من الإغراقِ، فكأنَّه قال: ما حصل لقومِ نوحٍ سيحصلُ لعادٍ.

ربْطُ الجُملِ برابطٍ مَعنويٍّ، يَتجلَّى في الاستئنافِ البيانيِّ

بَلاغةُ فصْلِ جُملةِ: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ﴾ عمَّا قبْلَها:

الجملةُ في قوله جلَّ شأنه: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ مستأنفةٌ، فُصلت عن سابقِها، ولم تُعطَف؛ لأنَّها جاءت جوابًا عن سؤالٍ نشأ من حكايةِ إرسالِه عليه السلام إليهم كأنه قيل: فماذا قال لهم حين أرسل إليهم، ودعاهم؟ فقيل: قال: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ﴾[2]؛ ولم يحتج إلى عطفِها بالفاء؛ لأنَّ "الرَّبط بين الجملِ حاصلٌ في الحالتين؛ لأنَّ فاءَ العطفِ رابطٌ لفظيٌّ للمعطوفِ بالمعطوفِ عليهِ، وجوابُ السُّؤال رابطُ جملة الجوابِ بجملةِ مثارِ السُّؤال ربطًا معنويًّا"[3].

تَنْبيهُ المخاطَبين بما سَيُلقَى من بَلاغةِ الخِطابِ

بَلاغةُ مَقُولِ القَولِ المُسْتَفتَحِ به الكلامُ ﴿يَٰقَوْمِ﴾:

افتُتحت جملةُ مقولِ القولِ بحرف النِّداء في قوله جلَّ شأنه: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ تنبيهًا لهم، وإثارةً لاهتمامِهم بمضمونِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/200.

(2) الزمخشري، الكشّاف: 2/116، وينظر: البيضاوي، أنوار التنزيل: 3/18، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/237.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/201.

قولهِ الَّذي سيُلقيه عليهم. وخاطَبهم بكونهِم قومَهُ تذكيرًا "لهم بأنَّه أحدُهم يهمُّه ما يهمُّهم"[1]، فذكَّرهم بأواصرِ القرابةِ، وأنَّه لم يكن ليغشَّ قومهُ، ويكذبَ عليهم، وأضاف (القوم) إلى ضميرهِ ترقيقًا لهم وتحبُّبًا في مخاطبتِهم طمعًا في هداهم، وحُذفتْ ياءُ المتكلِّم تخفيفًا لكونِها ساكنةً وما بعدها ساكنٌ.

سِرُّ تكرارِ جُملةِ: ﴿يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ على ألْسِنةِ الرُّسُلِ:

دَعــوةُ الـرُّسـلِ واحــدةٌ، وغايةُ إرْسالِهم مُوحَّدةٌ

تكرَّرَ قولُه جلَّ شأنه: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ﴾ في قصص الرُّسل؛ "لأنَّ الرُّسل مرسلون من الله، والحكمةُ من الإرسالِ واحدةٌ، فلا جرمَ أن تتشابهَ دعواتُهم"[2]، فلمّا كان الموردُ واحدًا؛ فلا غرو أن تأتيَ الرِّسالات متوافقةً؛ ولأنَّ الحقيقة واحدةٌ، وهي أنَّ الله تعالى لا إله غيره، ومعاصي النّاس واحدةٌ، فلا جرم جاءت نصوصُ الرُّسلِ متوافقةً ومتماثلة.

غَرَضُ الاستئنافِ البيانيِّ، في قوله: ﴿مَا لَكُم﴾:

تَعليلُ العِبادةِ بالتَّوحيدِ، بيانٌ لعلَّةِ الإرسالِ

الجملةُ في قولهِ جلَّ شأنه: ﴿مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ﴾ جملةٌ استئنافيَّةٌ، والاستئنافُ هنا "جارٍ مجرى البيانِ للعبادة المأمور بها، والتَّعليلِ لها أو للأمر بها، كأنَّه قيل: خُصّوه بالعبادة، ولا تشركوا به شيئًا؛ إذ ليس لكم إلهٌ سواه"[3]، فالاستئنافُ جاء تعليلًا للأمرِ بالعبادة.

بَلاغةُ الكِنايةِ، باقْترانِ التَّقوى بالأمْرِ الصَّريحِ بالعِبادةِ:

مـنْ عـبَـدَ الله واتّـقـاهُ، نـالَ الـحُـظْـوةَ عندَ خالِقِه ومَولاه

جاء الأمرُ صريحًا بالعبادة المقرونةِ بالتَّوحيد في قوله جلَّ شأنه: ﴿يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾؛ لكونه تعالى مستحقًّا ذلك لذاتِه، ولتكون العبادةُ له وحده دون ما كانوا يشركون

(1) البقاعيّ، نظم الدرر: 7/434.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/201 - 202.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/237، والآلوسي، روح المعاني: 4/393.

به[1]، وقرن ذلك بالحضِّ على التَّقوى، والمرادُ التَّحذير "من عقابِ اللّه تعالى على إشراكِهم غيره في العبادةِ واعتقاد الإلهيَّة"[2].

غَرَضُ الاستِفهامِ، في قوله: ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾:

غرضُ الاستفهامِ في قوله جلَّ شأنه: ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ الإنكارُ، فهو "إنكارٌ واستبعادٌ لعدمِ اتِّقائِهم عذابَ اللّه تعالى بعدَ ما علموا ما حلَّ بقوم نوحٍ"[3]، كما أنَّ فيه تحضيضًا لهم وحثًّا على الإيمان وتحصيلِ التَّقوى[4]، فبعد أن ذكرَ التَّوحيد والأمر بالعبادةِ حثَّهم على تحقيق التَّقوى بالعبادةِ واعتقاد التَّوحيد.

الذُّهولُ عن عذابِ اللّه بانعدامِ التَّقوَى، دليلُ الغَفلةِ المُستحكِمةِ

دَلالةُ الفاءِ في قوله: ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾:

قوله جلَّ شأنه: ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ معطوفٌ على قوله تعالى: ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ بالفاءِ الدّالَّة على التَّفريع[5]، وهي الفاءُ التي تدلُّ على أنّ ما بعدها مترتِّبٌ على الكلام الذي قبلَها، متفرِّعٌ عنه، تبيِّن العلَّة والسَّبب، وتفصِّل الأمر، فالتَّقوى متفرِّعةٌ عن الأمرِ بالعبادةِ والتَّوحيد.

التَّقوَى نِتاجُ العِبادةِ الحقَّةِ، والتَّوحيدِ الخالِصِ

مُناسبةُ الفاصلةِ ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ لسِياقِ الآياتِ:

جاء في ختامِ الآية قولهُ تعالى: ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ مناسبًا لسياقِ الآيات؛ لأنَّهم كانوا عارفينَ بما أصاب قومَ نوحٍ عليه السلام والمعنى: "أفلا تجعلونَ بينكم وبين عذابِ هذا الواحدِ الجبّارِ وقايةً"[6]، فالحثُّ على التَّقوى في الفاصلةِ مناسبٌ لما مرَّ في سياق الآيات.

خِتامُ الفواصلِ، مَردودٌ على غاياتِ الابتِداءِ

(1) البقاعيّ، نظم الدرر: 7/434، والمراغي، تفسير المراغي: 8/193.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/202.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/237.
(4) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/417، وأبو حيان، البحر المحيط: 5/86.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/202، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/237.
(6) البقاعيّ، نظم الدرر: 7/434.

﴿قَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي سَفَاهَةٖ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ٦٦﴾ [الأعراف: 66]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

المناسبةُ بين دعوةِ هودٍ قومَه، وجوابِ الملأِ الكافرِ منهم بالرَّفْضِ والصُّدودِ

بعد ذكرِ إعلانِ دعوةِ هودٍ عليه السلام لقومِه، أعقبهُ بذكرِ كيفيَّة تلقّيهم له، فلمّا "تشوَّفَ السّامع إلى جوابهم بعد هذا التَّرغيبِ الممزوجِ بالتَّرهيبِ، أجيبَ بقوله: ﴿قَالَ ٱلۡمَلَأُ﴾"[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿سَفَاهَةٖ﴾: (سفه) أصلٌ يدلُّ على خِفَّةٍ وسخافةٍ، السَّفَهُ والسَّفاهة: نَقيضُ الحِلْم، منَ الخفَّةِ والحركةِ، والسَّفيه جاهلٌ، وأصلُه: خفَّة النَّسج في الثَّوب، يقال: ثوبٌ سفيهٌ، أي: خفيف النَّسج: والسَّفه - أيضًا - خفَّةُ البدنِ، وزمامٌ سفيهٌ: كثيرُ الاضطرابِ، واستعملَ في خفَّة النَّفس كنقصان العقلِ في الأمورِ الدُّنيويَّة والأخرويَّة[2]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي سَفَاهَةٖ﴾ أي: في جهل[3].

2) ﴿لَنَظُنُّكَ﴾: الظاء والنّون أصلٌ يدلُّ على معنيَيْنِ مُختلفَين: يَقينٍ وشَكٍّ، الظَّنُّ شَكٌّ ويَقينٌ إلّا أنه لَيْسَ بيقينِ عيانٍ، إنَّما هوَ يقينُ تَدَبُّرٍ، فأمّا يَقينُ العيانِ؛ فلا يُقالُ فيهِ إلّا عَلِمَ، وهو اسمٌ لما يحصل عن أمارة، ومتى قويت؛ أدَّت إلى العلم، ومتى ضعفت جدًّا؛ لم يتجاوز حدَّ التَّوهُّم، قوله: ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمۡ حُصُونُهُم﴾ [الحشر: 2]، أي: اعتقدوا اعتقادًا كانوا منه في حكمِ المتيقِّنينَ[4].

(1) البقاعيّ، نظم الدرر: 7/434.

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، اللسان، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (سفه).

(3) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 146.

(4) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن سيده، المحكم، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، اللّسان: (ظنّ، ظنن).

❁ المعنى الإجْماليُّ:

كُفرانُ قَومِ هودٍ، واتِّهامُ رسولِهم بالسَّفاهةِ والكذبِ عَلانيّةً

يخبر اللّهُ تعالى أنَّ الأشرافَ والكبراء من قوم هودٍ عليه السلام قالوا له بعد إعلان دعوته لهم: "إنّا لنراكَ في خفَّة حلمٍ، وسخافةِ عقلٍ، حيثُ تهجر دينَ قومك إلى دينٍ آخرَ، وإنّا لنظنُّك - في كلامك وادِّعائك أنَّك رسولٌ من ربِّ العالمين - أنَّك أحدُ الكاذبينَ الَّذين يكذبونَ على اللّه في ادِّعائهم الرِّسالةَ"[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

المُحاوَراتُ في القرآنِ قائِمةٌ على الارْتِباطِ المَعْنَويِّ

بَلاغةُ فصْلِ جُملةِ: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ عمَّا قبْلَها:

الجملةُ في قوله جلَّ شأنه: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦٓ﴾ مستأنفةٌ، فُصلت عن سابقِها ولم تعطف[2]؛ لأنَّها جاءت جوابًا عن سؤالٍ نشأ بعد دعوةِ هودٍ عليه السلام لقومه؛ كأنه قيل: فماذا قالوا حينَ دعاهم؟ فقيلَ: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي سَفَاهَةٍ﴾، ولم يحتجْ إلى عطفها بالفاءِ؛ لأنَّه لقوَّة الرَّبط بين الجملِ في المحاوراتِ، وبين السُّؤالِ والجوابِ.

فائِدةُ ذِكْرِ قوله: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾:

وصْفُ المَلأِ بالكُفر، يُشْعرُ بالتَّخصيصِ، وأنَّ منهم من آمنَ سِرًّا

ذهب بعضُ أئمَّةِ التَّفسيرِ إلى أنَّ إضافةَ القيدِ بالوصف ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ في قوله جلَّ شأنُه: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦٓ﴾ أفادَ التَّخصيصَ مع قومِ هودٍ عليه السلام دون قوم نوحٍ عليه السلام لأنَّ بعضَ قومِهِ قد آمنَ بهِ، "فتقييدهُم بالوصفِ يدلُّ على أنَّه كان فيهم من اتَّبعه، بل وإن متَّبعه كان من أشرافِهم"[3]، ولم يرتضِ بعضُ أئمَّةِ التَّفسيرِ هذا التَّخريجَ لقوله تعالى: ﴿لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن

(1) الزحيلي، المنير: 8/263.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/238.

(3) البقاعيّ، نظم الدرر: 7/435، وينظر: الزمخشري، الكشّاف: 2/116، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/238.

﴿قَدۡ ءَامَنَ﴾ [هود: 36] ﴿وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٞ ٤٠﴾ [هود: 40]، فهو وصفٌ جاء للبيانِ والكشف[1]، بقصدِ الذَّمِّ لعتوِّهم في الكُفر، والسّياقُ يُشعرُ بالتَّخصيصِ، وأنَّ بعضَ الملأِ كانوا مؤمنين، يكتمون إيمانَهم، كمؤمن آلِ فرعونَ، ففيه دعوةٌ لمشركي مكَّةَ ممَّن يميلُ إلى الإيمانِ مع ضعفٍ في المواجهةِ، أنْ: آمنوا إلى حينٍ.

فائِدةُ المؤكِّداتِ في الآية الكريمة:

تأكيدُ الافتراءِ على نوحٍ، أمارةُ كَذِبِ الملأِ

في قوله جلَّ شأنه: ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي سَفَاهَةٖ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾ حكى عن قوَّةِ تأكيدِهم بوصفهِ بالسَّفاهةِ والضَّلال؛ لأنَّ الواقعَ كان خلافَ ذلك، فكان لا بدَّ من تأكيدِ كلامِهم، فـ "أكَّدوا ما واجهوهُ به من الجفاء؛ لأنَّهم عالمون بأنَّ حالَهُ في علمهِ وحكمهِ يكذِّبُهم"[2].

لَطِيفةٌ في تَوجِيهِ فكِّ وإدغامِ (إنَّ)، بضَمِيرِ المتكلِّمين:

ثقةُ الإنسانِ بما يَجولُ في خاطرِه، أوثقُ من حُكْمِهِ على الآخَرين

افتتحَ قوله جلَّ شأنه: ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي سَفَاهَةٖ﴾ بـ (إنَّ) الدّالَّة على التَّأكيد، وجاءت مدغمةً بضمير المتكلِّمين، بَيْنما افتُتح قوله تعالى: ﴿وَإِنَّنَا لَفِي شَكّٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ مُرِيبٖ ٦٢﴾ [هود: 62]، بها بفكِّ الإدغام، وما كان بفكِّ الإدغام؛ فهو أشدُّ تأكيدًا، وإنَّما كان تأكيدُ كونهم يشكّون أشدَّ من تأكيدِ كونهم يرونه في سفاهةٍ؛ لأنَّ السفاهة تتعلَّق بهِ، وأمّا الشَّكُّ؛ فيتعلَّقُ بهِم، والمرءُ بما فيه أوثقُ بما في غيرِه.

سِرُّ إيثارِ التَّعْبيرِ بالرُّؤيةِ في السَّفاهةِ، والظَّنِّ في الكذِبِ:

ارْتَبطتِ السَّفاهةُ بالرُّؤيةِ ليَقينهم بقِيلِهِم، بينما ارْتَبطَ التَّكذيبُ بالظَّنِّ لِشَكِّهم بقَوْلِهم

عبَّر الملأُ الذين كفروا عن اتِّهام هودٍ عليه السلام بالسَّفاهةِ بفعلِ الرُّؤيةِ في قولهِ جلَّ شأنُه: ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي سَفَاهَةٖ﴾، وهي رؤيةٌ قلبيَّةٌ بمعنى: العلمِ، أي: إنّا لنعلمُ أنَّك في سفاهةٍ[3]؛ وذلك لأنَّهم رأوه يخالفُ آلهتهم وعقائدَهم، ويأمرُهم بصلةِ الأرحام، وإيتاءِ الزَّكاةِ، وهذا

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/202، والسّمين الحلبيّ، الدر المصون: 5/359.
(2) البقاعيّ، نظم الدرر: 7/434 - 435.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/202.

في زعمِهم سفاهةٌ، وهم على يقينٍ من ذلك، فجاء التَّعبيرُ بالرُّؤية، أمّا في نسبته إلى الكذب؛ فعبَّروا بالظَّنِّ دون الرُّؤية، فتوقَّفوا "في الجزم بالكذبِ، فقالوا: ﴿وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾، أي: المتعمِّدين للكذبِ؛ وذلك لأنَّه كان عندهم عِلمٌ من الرُّسل، وما يأتي مخالفُهم من العذابِ من قصَّة نوحٍ عليه السلام ولم يكن العهدُ بعيدًا"[1].

غَرَضُ المجازِ المرْسَلِ في: ﴿فِى سَفَاهَةٍ﴾:

المبالغةُ في وصْفِ هُودٍ بالسَّفاهةِ، كأنَّها مُحيطةٌ به مُتَمكِّنَةٌ منه

وصفت عادٌ هودًا بكونهِ في سفاهةٍ في: ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ﴾ ولم يقولوا: (سفيهًا)؛ فجعلوها كالظَّرفِ الَّذي يحتوي الشَّيء، فكأنَّ السَّفاهةَ محيطةٌ من جميعِ الجوانب، لا خلاصَ منها، فلذا أدَّت إلى قولٍ لا حقيقةَ له[2]، وفي ذلك مبالغةٌ في تمكُّن خفَّة العقلِ والرُّسوخ في السَّفاهة، بحيثُ لا ينفكُّ عنها[3]، فكون السَّفاهةِ ظرفًا يدلُّ على أنَّه محيطٌ به، قد استحوذَ عليه، والسَّفاهة على الحقيقةِ ليس ظرفًا؛ لأنَّه معنًى لا مكانَ، وإنَّما يحلُّ في مكانه، فاستعمالُ السَّفاهة مجازٌ مرسلٌ أُطلِقَ فيه الحالُ، وأريد المحلُّ، فعلاقتهُ الحاليَّةُ، وفائدتهُ: المبالغةُ في وصفه بالسَّفاهةِ وإيغالهِ فيها، ولو قالوا: (إنا لنراك سفيهًا)؛ لدلَّ على أنَّ السَّفاهة صفةٌ له، ويكون ذلك خاليًا من المبالغةِ الَّتي تدلُّ عليها الظَّرفيَّة.

تَوجِيهُ المتشابِهِ اللّفظي:

كلُّ وصْفٍ مُتَّسِقٌ مع سِياقِه، مُؤَدٍّ لدَلالتِه

وذلك بين: ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ و﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ﴾، والفرقُ بين العبارتين أنَّ نوحًا عليه السلام "لمّا خوَّفَ قومَه بالطّوفان، وطفقَ في عمل السَّفينةِ قال لهُ قومه عند ذلك: ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾؛ حيثُ تتعبُ في إصلاح سفينةٍ في أرضٍ ليس فيها من الماء شيءٌ، وأمّا

(1) البقاعيّ، نظم الدرر: 7/435، وينظر: أبو حيان، البحر المحيط: 5/86.

(2) البقاعيّ، نظم الدرر: 7/435.

(3) الزمخشري، الكشّاف: 2/116، وأبو حيان، البحر المحيط: 5/86، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/238.

هود عليه السلام؛ فإنَّه لمّا زيَّف عبادةَ الأصنام، ونسبَ من عبدها إلى السّفَهِ، وهو قلَّةُ العقل؛ قابلوهُ بمثلِه، فقالوا: ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي سَفَاهَةٍ﴾»[1].

نُكتةُ جعْلِ هُودٍ عليه السلام: ﴿مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾:

وصفت عادٌ هودًا بكونهِ واحدًا من الكاذبين؛ إذ قالوا: ﴿وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾، ولم يقولوا: (كاذبًا)؛ لأنَّهم جعلوهُ واحدًا من فئةٍ مشهورةٍ بالكذب، وهذا أبلغُ من وصفهِ بالكذبِ وحدَه[2]، "وفي قولهم هذا إيماءٌ إلى تكذيبهم كلَّ رسولٍ؛ إذ هم قد عبَّروا عن أصحابِ هذه الدَّعوى بالكاذبين، وجعلوهُ واحدًا منهم"[3]، فتكذيبُهم مستندٌ إلى تكذيبِ كلِّ الرُّسلِ، وهو تكذيبٌ صادرٌ عن إصرارٍ ورسوخٍ في الكفر، حيثُ جعلوا كلَّ من جاء مبلِّغًا عن اللهِ تعالى كاذبًا.

من كذَّبَ رَسولًا؛ فقد كذَّبَ جميعَهم، وحاربَ الله في إرْسالِ رُسُلِه

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

السّفاهةُ والجهلُ:

السَّفَهُ والسَّفاهةُ: نَقيضُ الحِلْم، من الخفَّةِ والحركةِ، والسَّفيهُ جاهلٌ، واستُعمل في خفَّةِ النَّفس كنقصانِ العقلِ في الأمورِ الدُّنيويَّة والأخرويَّة[4]، أمّا الجهلُ؛ فأصلهُ خلاف العلم والخفَّة. وهو على ثلاثة أضربٍ: الأوَّل: وهو خلوُّ النَّفس من العلم، هذا هو الأصلُ. والثّاني: اعتقادُ الشَّيء بخلافِ ما هو عليه. والثّالث: فعلُ الشَّيءِ بخلافِ ما حقُّه أن يفعلَ، كمن يتركُ الصَّلاة متعمِّدًا[5].

السَّفاهةُ: خَللٌ في السُّلوكِ، والجهلُ: نقصٌ في المعْرِفةِ

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي سَفَاهَةٍ﴾، نسبوه إلى الاضطرابِ ونقصانِ العقل، ولم يريدوا أن ينسبوهُ للجهلِ؛ لأنَّ الجهلَ يتعلَّق بالمعرفةِ، وهم

(1) الخازن، لباب التأويل: 2/216، وينظر: الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/300.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 4/393.
(3) المراغي، تفسير المراغي: 8/193.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، اللسان، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (سفه).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات: (جهل).

أرادوا أن يطعنوا في سلوكهِ لا في معرفتهِ، فما فعلهُ بزعمِهم من الدَّعوة إلى التَّوحيدِ هو نقصانٌ في العقلِ، لا ينمحي بالتَّعليم.

الظنُّ والحُسبانُ:

الظَّنُّ أدلُّ على اليقينِ والعلمِ من الحِسبان؛ لأنَّ "الظَّنَّ ضربٌ منَ الاعتقادِ، وقد يكون الحِسبان ليس باعتقادٍ؛ ألا ترى أنَّك تقولُ: أحسب أنَّ زيدًا قد مات، ولا يجوز أن تعتقدَ أنَّه مات مع علمك بأنَّه حيٌّ"[1]، والحِسْبان: أن يحكمَ لأحد النَّقيضين من غيرِ أن يخطر الآخر بباله، ويكونُ بعرضِ أن يعتريه فيه شَكٌّ، والظَّنُّ أن يُخطِر النَّقيضين بباله، فيغلِّب أحدَهما على الآخر[2]، وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾، أي: إنَّهم اعتقدوا اعتقادًا كانوا منه في حكم المتيقِّنينَ، فعبَّروا بالظَّنِّ؛ لأنَّه أدلُّ على اليقينِ من الحسبان.

الظَّنُّ: تَرجيحٌ يُشابِهُ اليقينَ، والحُسبانُ: تَرجيحٌ خاوٍ عنِ الدَّليلِ واليقينِ

(1) العسكري، الفروق، ص: 99.
(2) الرّاغب، المفردات: (حسب).

﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ لَيۡسَ بِي سَفَاهَةٞ وَلَٰكِنِّي رَسُولٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٦٧﴾

[الأعراف: 67]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

ربْطٌ بين تُهمةِ المَلأِ لهودٍ في المواجهةِ، ولُطْفُ الرَّدِّ في مِضْمارِ المناصَحةِ

لمّا نسبوهُ إلى الضَّلالِ، وردّوا على تلطُّفه بجفاءٍ؛ ذكر ردَّه عليهم بنفي السَّفاهةِ بمزيدٍ من التَّلطُّف والحلم، وفي بيان هذه المناسبةِ يقول البقاعيُّ: "ولما قابلوا لينه لهم، وشفقتَه عليهم بهذه الغلظةِ؛ أعرضَ عن ذلك، وعاملهم من الحلم بضدِّ ما سمّوه به بأن ﴿قَالَ﴾ معلمًا الأدبَ في مخاطبة السُّفهاء: ﴿يَٰقَوۡمِ﴾ مذكِّرًا بما بينهم من النَّسبِ الدّاعي إلى الودِّ والمناصحةِ والعطفِ والملاطفةِ"[1].

المعنى الإجْماليُّ:

الواثقُ في مواقِفِه، لا تُغيِّرهُ عَواصِفُ الاستِفزازِ

يخبر اللّهُ تعالى أنَّ هودًا عليه السلام قال لقومه في ردِّه عليهم غاضًّا عن اتِّهامِهم بأدبٍ حسن وخلق عظيم: ليسَ بي جهلٌ أو حماقة، ولكنّي بحقٍّ رسولٌ إليكم من ربِّ الخلقِ أجمعين[2].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

بَلاغةُ فصْلِ جُملةِ: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ﴾:

إبْرازُ الرَّدِّ بعْدَ طُولِ الصَّدِّ، حِكمةٌ أنيقةٌ، وعِبرةٌ رقيقةٌ

الجملة في قوله جلَّ شأنُه: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ لَيۡسَ بِي سَفَاهَةٞ﴾ مستأنفةٌ، فُصلت عن سابقِها، ولم تعطف؛ لأنَّها جاءت جوابًا عن سؤالٍ نشأ بعد محاورتهم، وقولهم: ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي سَفَاهَةٖ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾، فكأنَّه قيل: فماذا قالَ بعد ذلك؟ فقيل: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ لَيۡسَ بِي سَفَاهَةٞ وَلَٰكِنِّي رَسُولٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، ولم يحتجْ إلى عطفِها بالفاءِ؛ لِقوَّة الرَّبط بين الجملِ في المحاورات، وبين السُّؤال والجوابِ.

(1) البقاعيّ، نظم الدرر: 7/436.

(2) الزحيلي، المنير: 8/263، وجماعة من العلماء، التفسير الميسر: 1/158.

بَلاغةُ الرَّدِّ في قولِه تعالى: ﴿لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ﴾:

نفيُ قليلِ السَّفاهةِ نافٍ لِكَثيرِها، بخلافِ العَكْسِ

في قوله جلَّ شأنه: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ لَيۡسَ بِي سَفَاهَةٞ﴾ نفى عن نفسهِ السَّفاهة على وجه المبالغةِ، حيثُ نفى أن يكونَ به "شيءٌ منها ولا شائبةٌ من شوائبِها"[1]، ولو قال: (لست سفيهًا)؛ لدلَّ على نفي ثبوتِ الصِّفة بهِ، ونفي الصِّفة لا يدلُّ على أنَّه لا يفعل شيئًا سفيهًا، بل تنفي ثبوتَ الصِّفة به، ولو قال: (في سفاهة)؛ لدلَّ على أنَّه ينفي عن نفسهِ إحاطة السَّفاهة به، فيكون قد نفى المبالغة، ولم ينفِ السَّفاهة القليلةَ، وعليه فإنَّ قوله: ﴿لَيۡسَ بِي سَفَاهَةٞ﴾ أبلغُ في نفي السَّفاهة قليلِها وكثيرِها، ثبوتِها وحدوثها مرَّة واحدة، أي: ليس بي شيء ممّا يُقال لهُ: سفاهةٌ.

مَعانٍ ضِمنيَّةٌ، في نفيِ السّفاهة والكذب:

نَفْيُ السَّفاهةِ دَالٌّ على إثْباتِ الصِّدقِ

اكتفى - هودٌ عليه السلام - في قولهِ تعالى: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ لَيۡسَ بِي سَفَاهَةٞ﴾ بالتَّصريح بنفي السِّفاهة، ولم يصرِّحْ بكونه صادقًا؛ لأنَّ نفيَ داعي الكذبِ، وهو السَّفاهة ينفي عنه "أن يكونَ كاذبًا؛ لأنَّ الدّاعي إلى الكذب الخفَّةُ والطَّيشُ"[2]، ولمّا نفى ذلك؛ فقد أثبتَ لنفسه الصِّدق، ومن المعلوم أنَّ إثباتَ الصِّفة بطريق النَّفي أبلغُ من الإثبات؛ لأنَّ النَّفي يزيل كلَّ الاحتمالاتِ الَّتي يمكن أن تنقضَ الإثباتَ، فلمّا نفى عنه كلَّ سفاهةٍ داعية للكذب؛ ظهر صدقُه بلا احتمالٍ وبلا شكٍّ.

فائِدةُ عطْفِ جُملةِ: ﴿وَلَٰكِنِّي رَسُولٞ﴾ على ما قبْلَها:

تأييدُ دَعوَى رجاحةِ العقْلِ، بدليلِ الرِّسالةِ

عُطِفَ قولُهُ جلَّ شأنُه: ﴿وَلَٰكِنِّي رَسُولٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ على قولِه: ﴿لَيۡسَ بِي سَفَاهَةٞ﴾ لكونهما من مقولهِ عليه السلام؛ فلمّا "نفى السَّفاهة؛ أثبت ما يلزم منه ضدَّها"[3]، فبعد نفي العيبِ عن نفسهِ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/238، والبقاعيّ، نظم الدرر: 7/436.
(2) البقاعيّ، نظم الدرر: 7/436.
(3) البقاعيّ، نظم الدرر: 7/436.

أعقبهُ بوصفِ نفسهِ بأشرفِ صفةٍ، وهي أنَّه رسولٌ من ربِّ العالمين، فزكَّى نفسه عن السَّفاهة، وأثبت نقيضَها بإثباتِ كونهِ رسولًا من اللّهِ تعالى ليهدي النّاس، فهو أبعدُ ما يكون عن السَّفاهة.

دَلالةُ حرفِ (لكنَّ)، واتِّصالِه بضَميرِ المتكلِّم:

إثباتُ الصِّدقِ والأمانةِ، بعْدَ الرَّمْيِ بالسَّفاهةِ

لمّا نسبت عادٌ هودًا إلى السَّفاهة، ونفاها عن نفسهِ، فكان وصفهُ بالسَّفاهة يستلزمُ كونَه كاذبًا ضالًّا، فاستدركَ على ذلك بقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾؛ لأنَّ الاتِّصافَ بذلك يقتضي كونَه في غاية الرُّشد والصِّدق[1]؛ "فإنَّ الرِّسالةَ من جهة ربِّ العالمين موجبةٌ لذلك حتمًا، كأنَّه قيلَ: ليس بي شيءٌ مما نسبتموني إليه، ولكنّي في غايةِ ما يكونُ من الرُّشدِ والصِّدق"[2].

وفائدةُ دخول (لكنَّ) على ياء المتكلِّم الدَّلالةُ على أنَّ النَّفي والاستدراك واقعان منه، لينقض ما رموه بهِ، ويثبتَ نقيضَه، فوقعت (لكنَّ) بين نقيضينِ، فنفى عن نفسه السَّفاهةَ، وأثبتَ نقيضها، وهو الرُّشد والصِّدق والأمانة.

دَلالةُ تَنْكيرِ ﴿رَسُولٌ﴾، وأنَّه ﴿مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾:

اجْتِماعُ فخامةِ الرِّسالةِ، وعِظَمِ مَصدرِها، سَكينةٌ من ورائِها رُسوخٌ

في قولهِ تعالى: ﴿وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ جاءَ لفظُ (الرَّسول) نكرةً تفخيمًا لكونه متَّصفًا بالرِّسالة، ووصفَ الرَّسول بأنَّه واردٌ من اللّه تعالى تأكيدًا لتفخيم الرَّسولِ، فهو رسولٌ، وأيُّ رسولٍ ذلك الَّذي يردُ من اللّه تعالى، وفي ذلك دلالةٌ على كونهِ في الغايةِ القصوى من الرُّشد والصِّدق[3].

نُكتةُ التَّعْبيرِ بالرُّبوبيَّةِ في قولِه: ﴿مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾:

في قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ عدلَ عن

(1) الآلوسي، روح المعاني: 4/393.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/238.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 4/393، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/238.

مَقامُ إرسَالِ الرُّسُلِ يأتَلِفُ مع صِفاتِ الرُّبوبيَّةِ

ذكرِ اسمِ الجلالةِ إلى ذكرِ الرُّبوبيَّة تذكيرًا لهم بالمحسن إليهم، الذي أوجدهم أوَّلًا، وكفل رزقَهم، ثمَّ أتمَّ نعمتَه عليهم بإرسال الرُّسل[1]، فمقامُ ذكرِ الرِّسالة يليقُ به صفةُ الرُّبوبيَّة؛ إذ بها تستقيم مصالحُ الخلقِ.

فائِدةُ إضافةِ ﴿رَّبِّ﴾ إلى ﴿ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾:

إرْسَالُ الرُّسُلِ سُنَّةٌ رَبانيَّةٌ، مُستمِرَّةٌ إلى يومِ الدِّينِ

في قولِه تعالى: ﴿وَلَٰكِنِّي رَسُولٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ أضافَ لفظ الرَّبِّ إلى ﴿ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ في سياقِ الحديثِ عن مصدرِ رسالتِه؛ تنبيهًا لهم "على أنَّه ربُّهم؛ لأنَّهم من جملة العالم، أي: من ربِّكم المالك لأموركم، النّاظر لكم بالمصلحة، حيث وجَّهَ إليكم رسولًا يدعوكم إلى إفرادِه بالعبادةِ"[2]، وأنَّ ما جرى لكم من إرسالي رسولًا، أدعو إلى عبادتِه وتوحيدِه، كان لمن سبقكم، كما أنَّه سيكونُ لمن سيلحقُ بكم، فكونوا قدوةَ خيرٍ للعالمين، لا عبرةً للمعتبرين.

(1) البقاعيّ، نظم الدرر: 7/436.

(2) أبو حيان، البحر المحيط: 5/83، وينظر: المراغي، تفسير المراغي: 8/189.

﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾﴾ [الأعراف: 68]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

بيانُ وظيفةِ المُرسلِ فيما بلَّغَ، ونفيهُ تُهمةَ السَّفاهةِ عن نفسِهِ

لمّا كان قومُ هودٍ عليه السلام، قد رَمَوْهُ بالسَّفه الَّذي هو ضِدُّ الحلم والرَّزانة[1]، ونفى عن نفسه هذه التُّهمة؛ بيَّن لهم بعد ذلك وظيفتَهُ، وطبيعةَ رسالته، ثُمَّ أخبرهم بمقتضى أُخوَّتِهِ لهم أنَّه ناصحٌ أمين، يهديهم إلى ما يُصلحهم، ويُبعدهم عمّا يَسوؤُهم[2].

ومن لطيف ما قال أبو حيان: "وَهُنا جاءَ ﴿وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾ لَمّا كانَ آخِرُ جَوابِهِمْ جُمْلَةً اسْمِيَّةً جاءَ قَوْلُهُ كَذَلِكَ، فقالوا هم ﴿وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ قالَ هوَ: ﴿وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾"[3].

ويزيد الطاهر ابن عاشور المناسبة بين الآيتين وضوحا فيقول: "وَأُتْبِعَ ﴿نَاصِحٌ﴾ بِـ: ﴿أَمِينٌ﴾ وهوَ الْمَوْصوفُ بِالْأَمانَةِ؛ لِرَدِّ قولهم لَهُ: ﴿لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦٦﴾﴾ [الأعراف: 66]؛ لِأَنَّ الْأَمينَ هوَ الْمَوْصوفُ بالأمانة، والأمانة حالَةٌ في الْإِنْسانِ تَبْعَثُهُ على حفظ ما يَجِبُ عليه مِنْ حَقٍّ لِغَيْرِهِ، وتَمْنَعُهُ مِنْ إِضاعَتِهِ، أَوْ جَعْلِهِ لِنَفْعِ نفْسه، وضِدُّها الخيانة. والْأَمانَةُ مِنْ أَعَزِّ أَوْصافِ البشر، وهيَ مِنْ أخلاق المسلمين"[4].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أُبَلِّغُكُمْ﴾: من الجذر اللغوي (بلغ)، والبُلوغ والبَلاغ: الانتهاء إلى أقصى المقصد والمنتهى، مكانًا كان أو زمانًا، أو أمرًا من الأمور المقدّرة، وربما يعبّر به عن المشارفة عليه وإن لم ينْتهِ

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 7/436 - 437.
(2) الطنطاوي، التَّفسير الوسيط: 5/303.
(3) أبو حيان، البحر المحيط: 5/87.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/203.

إليه[1]، ويُقال: بَلَّغَ الرَّجل الشَّيءَ يبلِّغُه إبلاغًا؛ إذا أوصَلَه[2]، وكذلِكَ التَّبليغُ، والاسمُ منهُ البَلاغُ، وبلَّغتُ الرِّسالة تَبْليغًا أوصلتُها[3]، وأصْلُ (بلغ) يدلُّ على الوصول إلى الشَّيْءِ[4]، يُقال: بَلَغْتَ المكان بُلوغًا: وصلتَ إليه. وقَوْلُه تعالى: ﴿هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ﴾ [إبراهيم: 52]، أي: هَذا القُرْآنُ ذو بَلاغٍ، أي: بَيانٍ كافٍ، والمعنى هُنا: أؤدّي إليكم أمر ربّي ونهيَهُ، وأوصِلُه إليكم[5].

2) ﴿نَاصِحٌ﴾: معروفٌ بالنُّصح، يُقال: نَصَحَ لَهُ يَنْصَحُ نُصْحًا، والنُّصح: تحرّي فعلٍ أو قولٍ فيه صلاحُ صاحبه، والنُّصحُ: بذلُ الْمَوَدَّة والاجْتِهاد في المشورة. ونصحتُه ونَصَحْتُ لَهُ بِمَعْنًى واحِد[6]، ومِنْهُ النُّصْحُ والنَّصيحَةُ: خِلافُ الْغِشِّ ... وهوَ ناصِحُ الْجَيْبِ لِمَثَلٍ؛ إذا وُصِفَ بِخُلوصِ الْعَمَلِ، والتَّوْبَةُ النَّصوحُ مِنْهُ[7]. وأصل (نصح): أنَّه يَدُلُّ على مُلاءمةٍ بين شيئين، وإصلاحٍ لهما، والنّاصحُ: الخالصُ من كُلِّ شَيءٍ الَّذي لا يتَخَلَّلُهُ ما يَشوبُهُ، وبِمُقتضى هذا الصَّفاء يكون النُّصحُ ببذل الرَّأي والتَّوجيه بِما فيه خيرُ المنصوح[8].

3) ﴿أَمِينٌ﴾: مأمونٌ على الرِّسالة، يقال: أمِنَ يَأْمُن أمانةً[9]، وأصلُ (أمِنَ) من الأمانة الَّتي هي ضِدُّ الخيانة، ومعناها: سكونُ القلب، ورجلٌ مَأْمونٌ وأمينٌ ومُؤْتَمَنٌ موثوقٌ بِهِ، يأْمَنُه النّاس، ولا يخافون غائلتَهُ[10]. والأمانةُ هي مصدرُ (أمُنَ)[11] الرَّجل أمانةً فهو أمينٌ؛ إذا صار كذلك، هذا أصلُها، ثمَّ سُمّيَ ما تأْتَمِنُ عليهِ صاحبَكَ أمانَةً، ومنه قوله تعالى: ﴿لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمۡ﴾ [الأنفال: 27][12].

---

(1) الراغب، المفردات: (بلغ).
(2) الخليل، العين: (غلب).
(3) ابن منظور، لسان العرب: 8/419، ومرتضى الزَّبيدي، تاج العروس: (بلغ).
(4) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (بلغ).
(5) مكي، الهداية إلى بلوغ النهاية: 4/2420، والعُليمي، فتح الرحمن: 2/537.
(6) ابن دريد الأزدي، جمهرة اللّغة: (نصح).
(7) أحمد بن فارس، معجم مقاييس اللّغة: (نصح).
(8) ابن سِيدهْ، المحكم، وابن منظور، لسان العرب، والراغب، المفردات، وابن فارس، مقاييس اللُّغة، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (نصح).
(9) ابن منظور، لسان العرب: 13/22.
(10) الخليل، العين: (باب النّون والميم ووا يء)، وابن سِيده، المحكم، وابن فارس، مقاييس اللُّغة، وابن منظور، لسان العرب، والزَّبيديّ، تاج العروس: (أمن)، والجلالين، تفسير الجلالين، ص: 203.
(11) الزَّبيديّ، تاج العروس: (أمن): 34/186.
(12) المُطَرِّزي، المعرب في ترتيب المغرب: (أمن).

المعنى الإجماليُّ:

تبليغُ الرَّسولِ ما أمرهُ بهِ ربُّهُ بإخلاصٍ وأمانةٍ

أُبَلِّغُكم ما أمرني اللّهُ بتبليغهِ إليكم من توحيدهِ وشرعهِ، وإنّي ناصحٌ مُخلصٌ لكم، فيما أُمرتُ بتبليغهِ، أمينٌ فيما أُخبِرُكم به من وحيِ اللّهِ جلَّ في علاهُ، لا أزيد فيه، ولا أنْقُصُ[1]، واستغرابهم من أن يكون منهم رسولٌ متوقَّع مألوفٌ في أمثالهم، وقد ذكروا ذلك كما ذكروهُ من بعد لمحمَّدٍ ﷺ، فالعقليَّة الوثنيَّة الجاحدة واحدة، تختلِفُ الأقوامُ، ولا يختلِفُ المَنْزَعُ[2].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

علَّةُ فصلِ جملة ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي﴾ عن السَّابقةِ:

تقريرُ الرِّسالةِ وتفصيلُ أحكامِها وأحوالِها

قوله تعالى: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي﴾ استئنافٌ، لتقرير رسالته وتفصيل أحكامِها وأحوالِها[3]؛ إذ مِن شأن الرَّسول التَّبليغُ والنُّصح، فيكون جوابًا لما عسى أن يُسْأل، ويُقال: ما شأنك في كونك رسولًا؟ فقال: أبلِّغكم رسالات ربّي وأنصح لكم[4]، وعن هذا اخْتيرَ الفصل على الوصل[5]، وقيلَ: إنَّ الكلام هو صفات أخرى للرَّسول[6]، والمُناسبُ الاكتفاء كونه مستأنفًا.

دلالةُ التَّعبيرِ بالفعل المضارع: ﴿أُبَلِّغُكُمْ﴾:

بيانُ أنَّ التَّبليغَ يجبُ على الرُّسلِ بحكم التَّكليفِ الشَّريف

في قوله: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي﴾ اصطفى النَّظمُ الكريمُ الفعلَ (أبلِّغُ) مضارعًا، تناسبًا مع ذكر الرِّسالة والرَّسول؛ إذ مهمَّة الرُّسل البلاغ، وبذا جرى النَّظم في القرآن الكريم كلِّه، فالرَّسولُ مُبلِّغ عن

---

(1) لجنة من عُلماءِ الأزهر، المنتخَبُ في تفسير القرآنِ الكريم، ص: 215، ونُخْبة من أساتذة التَّفسير، التَّفسير الميُسَّر، ص: 159، وجماعَةٌ من علماء التَّفسير، المخْتَصَر في تفسير القرآن الكريم، ص: 159.

(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 6/2884.

(3) البيضاويُّ، أنوار التَّنزيل: 3/18، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 3/236.

(4) ابن التَّمجيد الحنفي، حاشيته على البيضاويِّ: 8/413.

(5) القونويّ، حاشيته على البيضاويِّ: 8/413.

(6) وحينَئِذٍ تكون صيغة التَّكلُّم نظرًا إلى المعنى، وإلا فالظّاهر: يبلغكم وينصح لكم، لأن الرّسول من الغيب. فالصِّفَة موضِّحة ولا بعد في كونها مادحة، نظيره: أنا الذي سمَّتني أمي حيدرة. وليس بمستحسن عند البلغاء. يُنظر: القونويّ، حاشيَته على البيضاويّ: 8/413.

اللّه ﷻ، فبيَّن وظيفةَ الرَّسول، وحالَه ﷺ فيما بلَّغ[1]، فيجب على الرُّسل التَّبليغ، ويستحيل عليهم ضدُّه، وهو كتمان شيء ممّا أُمِروا بتبليغه[2]، وحيثما قلَّبت النَّظرَ في الذِّكر الحكيم؛ ألفيتَ فعل البلاغِ قرينَ الرِّسالةِ والرَّسول، من ذلك: ﴿فَهَلۡ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ٣٥﴾ [النَّحل: 35]، ﴿أُبَلِّغُكُمۡ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي﴾ [الأعراف: 62، 68]، ﴿لَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُمۡ رِسَالَةَ رَبِّي﴾ [الأعراف: 79]، ﴿لَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُمۡ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي﴾ [الأعراف: 93][3].

سرُّ التَّعبير بقوله: ﴿أُبَلِّغُكُمۡ﴾ دون لفظ (الإيصال):

إيثارُ اللَّفظِ في السِّياق القرآنيّ على سواهُ، يميِّز بلاغتَهُ ومؤدَّاهُ

الملاحظُ أنَّ إيثارَ التَّعبير بالإبلاغ في الآية الكريمةِ دونَ استعمالِ لفظِ الإيصالِ؛ لأنَّ الإبلاغ أشدُّ اقتضاءً للمنتهي إليه من الإيصالِ؛ لأنَّه يقتضي بلوغَ فهمِه وعقله، كالبلاغةِ الَّتي تصل إلى سويداء القلب، ولذا قيل: إنَّ الإبلاغ اختصارُ الشَّيء على جهة الانتهاء[4]. والتَّعبير بالمضارعِ يُفيد التَّجدُّد والاستمرار، وبيان أنَّه غير تاركٍ التَّبليغَ من أجل تكذيبهم، ولذلك جمع الرِّسالات؛ لأنَّ كلَّ تبليغٍ يتضمَّنُ رسالة بما بلَّغَه[5].

دلالةُ تنوُّعِ القراءات في (أُبْلِغُكُمْ) وأثرها في المعنى:

الجمعُ بين التَّعبيرِ عن المرَّة، والتَّعبيرِ عن المرَّاتِ

في هذا الموضعِ قراءاتان: بتسكينِ الباء، وتخفيف اللّام من أُبْلِغ[6] من باب أفْعَلَ[7]، وقرئ (أبلِّغ)، وفي القراءة الأولى إشارةٌ إلى مرَّة التَّبليغ، وفي قراءةِ التَّشديد إشارةٌ إلى تعدُّدِ المرّات، وهو ما يلائم واقعَ بلاغ الرُّسلِ، كأنَّ المعنى: (أبلِّغكم رسالةَ ربّي مرَّةً ومرّاتٍ، وهذا من بالغ إقامة الحجَّة عليهم[8].

(1) المراغي، تفسير المراغي: 8/194، ومحمد رضا، تفسير المنار: 8/497.
(2) حسن أيوب، تبسيط العقائد الإسلاميَّة، ص: 141.
(3) عبد السّلام المجيديّ، إذهاب الحزن وشفاء الصّدر السّقيم، ص: 17.
(4) العسكريُّ، الفروق اللُّغويّة، ص: 65.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/193.
(6) ابن الجزري، النَّشر: 2/270.
(7) الآلوسي، روح المعاني: 4/390، والهرريّ، حدائق الرَّوح والرَّيحان: 9/385.
(8) الكفويّ، الكليّات: 33، والثَّعلبي، الكشف والبيان: 4/244.

سرُّ جمعِ لفظِ ﴿رِسَٰلَٰتِ﴾:

صيغةُ الجمعِ تهدي إلى تعدُّدِ الأوقاتِ والمعاني

في قوله: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي﴾ جُمِعَت ﴿رِسَٰلَٰتِ﴾ باعتبار ما أوحى إليه في الأزمانِ المتطاولة، لاختلاف أوقاتِها؛ لأنَّه كرسول يتلقَّى كلَّ يوم قِسطًا من الرِّسالة، أو بالنَّظر إلى تعدُّدها بحسب تنوُّعِ معانيها كالعقائدِ والمواعظِ والأحكام، أو لأنَّ المُرادَ بها ما أوحيَ إليه، وإلى الأنبياءِ قبلَهُ[1] أو كأنَّ كلَّ موعظةٍ رسالة واحدة، تعظيمًا لهداية الجزءِ، والغايةُ هي هدايةُ الكلِّ بكلِّ رسالاتِ اللّٰه.

سرُّ إضافةِ لفظِ ﴿رِسَٰلَٰتِ﴾ إلى لفظِ ﴿رَبِّي﴾ في الآيةِ:

رسالةُ الرَّبِّ تعالى مبرزةٌ لِلعبَرِ لِمن اعتبرَ

إضافةُ الرِّسالات إلى الرُّبوبيَّة تفيدُ عظيم الإنعام بها، وتفيد أيضًا أنَّها من الرَّبِّ الخالق لا من سواه، واستعمال لفظِ الرَّبِّ، يفيد التَّربيةَ والشَّفقة والإنعام، ممّا يقتضيه هذا اللَّفظُ المعبِّر في مبناه عن معناه، كما أنَّ في قول هودٍ نوعًا من التَّلطُّف في خطاب قومه، رغم ما أُثِرَ عنهم من صدودٍ وجحودٍ، ملفتًا نظرَهم إلى ربوبيَّةِ المولى الَّتي سوف تلفُّهم بالرَّحمةِ، إذا عادوا إلى الهدى، وتركوا الضَّلالَ.

نُكتةُ العدولِ إلى الجملةِ الاسميَّةِ:

التَّأكيدُ على الثَّباتِ والاستمرارِ في النُّصحِ والأمانةِ

أتى في قصَّةِ هودٍ هاته بالجملة الاسميَّة، فقال: ﴿وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾، وهودٌ كان يدعو قومه الفينةَ بعد الفينةِ، ولم تكن دعوته ليلًا ونهارًا، كما كان نوح عليه السلام، بل كانت وقتًا بعد وقتٍ، فلهذا عبَّرَ عنه بالاسميَّةِ[2]، وإنَّما جيء بالجملة الاسميَّةِ مؤكِّدًا لها بالضَّمير (أنا) دِلالةً على الثَّبات والاستمرار، وإيذانًا بأنَّ مَنْ هذا حالُه، لا تحوم حولَه شائبةُ السَّفاهةِ، ولا شبهة الكذبِ[3]، وقد جاء

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 3/236، وإسماعيل حقي، وروح البيان: 3/183، والهرري، حدائق الرَّوح والرَّيحان: 9/385.

(2) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 3/381.

(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 3/238.

في مقابلةِ قَوْلِهم لَهُ: ﴿وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٦٦﴾ [الأعراف: 66]، جيءَ هنا بالجملةِ الاسميَّةِ ليقابلَ الاِسْم بِالاِسْم[1].

سرُّ العدولِ عن الفعلِ (أنصح) إلى الاسمِ (ناصح):

نُصْحُ الرّسول لأمّتِهِ وَصْفٌ ثابتٌ فيهِ مُتَمَكِّنٌ منهُ

الفرق بين الصّورتين أنَّ صيغةَ الفعل تَدلُّ على التَّجدُّد ساعةً فساعةً، وأمّا صيغةُ اسم الفاعل فإنَّها دالَّةٌ على الثَّبات والاستمرار على ذلك الفعل[2]، وهو مناسبٌ لمواجهة ما رَمَوْه به عليه السلام في قولهم: ﴿وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٦٦﴾ [الأعراف: 66]، والسَّفَهُ مِن غَرائِزِ النَّفسِ؛ لأنَّه ضِدُّ الحِلمِ والرَّزانة - فعَبَّرَ عن مضمونِ الجُملةِ النّافية له بما يقتضي الثَّباتَ، فقالَ: ﴿وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ﴾، أي: لم يزَلِ النُّصحُ من صفتي، هو ثابتٌ فيَّ، ومتمَكِّنٌ منّي[3]، كما أنَّ (السَّفاهة) صفة لازمةٌ لصاحبها، فقابلَها بصفةٍ في المعنى (ناصح)[4]، كما أنَّ في مجيء اسم الفاعل في قصَّةِ هود مناسبةً لاسم الفاعل قبله في ﴿وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ وبعده في قوله: ﴿أَمِينٌ﴾[5].

فائدةُ تقديمِ الجارِّ والمجرورِ ﴿لَكُمْ﴾ على الخبرِ:

المبالغةُ في إمحاضِ هودٍ النَّصيحةَ لقومِهِ، والاهتمامِ بما ينفعُهم

في قولِهِ تعالى: ﴿وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ﴾ قُدِّمَ الجارُّ والمجرورُ ﴿لَكُمْ﴾ على عاملِهِ للإيذانِ باهتمامِهِ بما ينفعُهم[6]، وفيه مبالغةٌ ودلالةٌ على إمحاضِ النَّصيحة، وأنَّها وقعت للمنصوحِ له مقصودًا بِهِ جانبَهُ لا غير، فربَّ نصيحةٍ ينتفع بها النّاصح بقصدِ النَّفعين جميعًا، ولا نصيحةَ أنفعُ من نصيحةِ اللّه تعالى ورسلِهِ[7].

(1) الكرماني، البرهان في توجيه متشابه القرآن ص: 122.
(2) الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص: 122، والفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/300.
(3) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 7/436، وابن التَّمجيد الحنفيّ، حاشية ابن التَّمجيد على البيضاويِّ: 8/419، والفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/300، والخازن، لباب التّأويل: 2/217 وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/203.
(4) ابن جماعة، كشف المعاني، ص: 179.
(5) زكريا الأنصاريّ، فتح الرَّحمن: 1/197.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/204.
(7) الزَّمخشريُّ، الكشّاف: 2/115، وأبو حيّان، البحر المحيط: 5/83، والبيضاويُّ، أنوار التَّنزيل: 3/18.

سرُّ وصفِ النَّاصحِ بالأمانةِ في هذا الموضعِ الفريدِ:

مدارُ أمرِ الرِّسالةِ والتَّبليغِ باللهِ عـن الـلـهِ على خصلةِ الأمانةِ

الأمينُ هو الثِّقة[1]، ويَحْتَمِلُ أن يريدَ: على الوحي والذِّكر النّازلِ مِن قِبَلِ اللّه ﷻ. ويَحتمِلُ أن يُريد: أنَّه أمينٌ عليهم وعلى غيبهِم، وعلى إرادةِ الخيرِ بهم، والعربُ تقولُ: (فلانٌ لفلانٍ ناصحُ الجيب، أمينُ الغيب). ويَحتمِلُ أن يُريدَ به (أمين) من الأَمْنِ، أي: جهتي ذات أمنٍ لكم من الكذبِ والغشِّ[2].

و(الأمين) وصفٌ يجمع الصِّفات الَّتي تجعله بمحلِّ الثِّقة من قومه، ومن ذلك إبطالُ كونهِ من الكاذبين[3]، كأنَّه قال لهم: كنتُ قبلَ هذه الدَّعوى أمينًا فيكم، ما وجدتم منّي غدرًا ولا مكرًا ولا كذبًا، واعترفتم لي بكوني أمينًا، فكيف تتَّهموني اليوم، فتنسبوني إلى الكذبِ؟[4]

التَّشابهُ بين قولِ نوحٍ: ﴿أَنصَحَ لَكُمْ﴾، وقول هودٍ: ﴿وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾:

يذكر الشَّعراويُّ: أنَّ قوله: ﴿أَنصَحَ لَكُمْ﴾، واردٌ في سياقِ الكلام في قوم نوحٍ؛ لأنَّ الفعلَ دائمًا يدلُّ على التَّجدُّد، بينما يدلُّ الاسم على الثُّبوت، ونظرًا إلى أنَّ نوحًا عليه السلام، كان يلحُّ على قومه ليلًا ونهارًا، وإعلانًا وسرًّا، لذلك جاء الحقُّ بالفعلِ: ﴿أَنصَحَ لَكُمْ﴾، ليفيدَ التَّجدُّد، ولكن في حالة قوم هودٍ، جاء سبحانه بما يفيدُ الثُّبوت، وهو قوله: ﴿نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾؛ لأنَّ هودًا عليه السلام، لم يلحَّ ويكرِّرَ على قومهِ في دعوتهم إلى الإيمانِ، كما كان يفعل نوحٌ عليه السلام، وغيرهُ من أولي العزمِ من الأنبياءِ الكرامِ.

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/300 - 301.
(2) ابن عطيَّة الأندلسيُّ، المحرَّر الوجيز: 2/417 أبو حيّان، البحر المحيط: 5/87.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/204.
(4) السَّمرقندي، بحر العلوم: 1/526، والفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/301.

﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ۚ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾﴾ [الأعراف: 69]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

التَّعَجُّبُ والاستِنْكارُ من كَوْنِ الرسولِ بَشَرًا هو ممّا يَستحِقُّ التَّعَجُّبَ

لمّا كانَ نبيُّ اللهِ هودٌ عليه السلام، يَعْرِفُ ما يعتقدونه من أمانتهِ وعقله؛ تَوَقَّعَ استغراب قومه من أن يكون منهم رسولٌ، وأنَّ الحامل لهم على هذا هو العَجَبُ من أن يطَّلع على ما لم يطَّلعوا عليه، فأنكرَ عليهم ذلك بقوله: ﴿أَوَعَجِبْتُمْ﴾[1]، أي: لا تعجبوا؛ فلمّا كان التَّعَجُّب المجرَّدُ لا يَحملُ دليلًا لِرَفْضِ المُتَعَجَّبِ منهُ، جاء الرَّدُّ على تعجّبهم هذا بتعجُّبٍ مِثْلِهِ، مع اسْتِنْكار تَعَجُّبِهِم، فجاءت عبارة الرَّدِّ مُصَدَّرَةً باستفهامٍ تَعجُّبيٍّ ممزوجٍ بالاسْتِنْكار.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَوَعَجِبْتُمْ﴾: أي: هل أصابكم العَجَبُ؟ والعَجَبُ: تغيُّر النَّفس بما خفي فيه السَّبب، ممّا لم تجرِ بهِ عادةً، يقال: عَجِبَ يَعْجَبُ عَجَبًا[2]، والعَجَبُ حَيْرة تعرِضُ للإنسانِ عند استعظام، أو انصرافه أو إنكاره ما يَرِدُ عليه ويُشاهده، يُقال: عَجِبَ يَعجَب عَجَبًا، وأمرٌ عَجِيبٌ وعُجابٌ[3]، وَذَلِكَ إذا اسْتُكْبِرَ واسْتُعْظِمَ. وأصلُ (عَجِبَ) يَدُلُّ عَلَى اسْتِكْبارٍ لِلشَّيْءِ واستعظامِه[4] بسببِ الجهلِ به أو لكونهِ غريبًا[5].

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 7/437، وأبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 6/2884.
(2) محمّد ابن فورك، تفسير القرآن العظيم: 2/213.
(3) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة: (عجب).
(4) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (عجب).
(5) الرّاغب، المفردات، والسَّمين الحلبيُّ، عُمدة الحفّاظ، وجبل، المعجم الاشتقاقيُّ المؤصّل: (عجب)، والدُّرة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه: 3/535.

2) ﴿لِيُنذِرَكُمْ﴾: ليُعلمكُم ويُبلِّغكُم مُحذِّرًا، يقال: أنذرَ إنذارًا مِنَ الإبلاغِ والإعذار[1]، ويُقالُ: أنْذَرْتُ القومَ مَسِيرَ عدوِّهم إلَيْهِم، فَنَذِرُوا، أي: أعْلَمْتُهم ذَلِك، فنَذِروا، أي: عَلِمُوا، فَتَحَرَّزوا[2]. وأصلُ (نذر) يدلُّ عَلَى تَخْوِيفٍ أوْ تَخَوُّفٍ، وَلا يَكادُ يَكُونُ إلّا في التَّخْوِيفِ[3]، فأنْذَرَه بالأمْر حَذَّرَه، وخَوَّفَه في إبلاغه[4]، ومِنْهُ المَثَلُ (أعْذَرَ مَنْ أنْذَرَ). والرَّسولُ في أصل مبعثه إنَّما هو بَشيرٌ لِمَنِ اهْتَدَى والتزم واستقام، ونَذيرٌ لِمَنْ ضَلَّ وغَوَى وانحرف عن الهدى والالتزام.

3) ﴿ٱلْخَلْقِ﴾: الخَلْق: مَصْدَرُ: خلقَ اللّهُ الخلقَ يخلقُهم خلقًا، ثمَّ سمُّوا بِالْمَصْدَرِ[5]، وأصل(خَلَقَ) يدلُّ على تَقْدِيرِ الشَّيْءِ، ويستعمل في إبداع الشَّيء من غير أصلٍ ولا احتذاء[6]، والمعنى هنا: وزادكم في الخِلقة،[7]من الإبداع والتَّصوير أو في النّاس[8].

4) ﴿بَصْۜطَةً﴾: سَعَةً وفَضيلَةً، والبَسْطةُ في كلِّ شيءٍ: السَّعةُ، يُقال: رجلٌ بَسيطُ الجسم والباع والعِلم. وأصلُ (بسط)، يَدُلُّ على امْتِدادِ الشَّيْءِ وانفراشِه أو اتِّساعه[9]. والبِساطُ: الأرْض العريضة الواسعة[10]، وبَسْطُ الشَّيءِ: نَشْرُهُ، والبَسْطُ: نَقِيْضُ القَبْضِ[11]. والمعنى هُنا: زاد في أجسامكم طولًا وعِظَمًا على أجسام قوم نوح[12]، ووُصِف طالوت من قبلُ في سورة البقرة بزيادةِ البَسْطة، وهي سَعة في العِلْمِ والْجِسْمِ، وكان أعلمَ بني إسرائيل يومئذٍ، وأجملَهم وأتمَّهم خَلْقًا[13].

5) ﴿ءَالَآءَ﴾: نِعَمُ اللّهِ، وآلاؤه واحِدها: إلًى، وَألًى، وَإلْيٌ، وَألْيٌ[14]، ويقال: أولاني،

(1) ابن دُريد، جمهرة اللُّغة: (ذرن).
(2) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة، والزَّمخشريّ، أساس البلاغة، وابن منظور، لسان العرب: (نذر).
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (نذر).
(4) مرتضى الزَّبيديّ، تاج العروس: (نذر).
(5) ابن دُريد، جمهرة اللُّغة: (خقل).
(6) الرّاغب، المفردات، وابن فارس، مقاييس اللُّغة: (خلق).
(7) ابن عطيَّة الأندلسيُّ، المحرَّر الوجيز: 2/417.
(8) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 3/239.
(9) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (بسط).
(10) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة: (بسط).
(11) الجوهريّ، الصِّحاح: (بسط).
(12) ابن جرير، جامع البيان: 12/505.
(13) ابن جرير، جامع البيان: 12/505.
(14) الرّازيّ، مختار الصِّحاح، ص: 21، وأبو حيّان، تحفة الأريب، ص: 57، والهُنائي، المنتخب من كلام العرب ص: 257.

معناه: أنعم عليَّ[1]. وأصل (ألى) يَدُلُّ على تجمُّع غَضٍّ طريٍّ يَعْلَق بالشَّيء، ومنه "الآلاء: فإنَّها طراءةٌ ولينُ حياةٍ، يحوزه مَنْ وَجَدَها[2]، والمقصود بالآلاءِ هنا: النِّعمُ.

❁ المعنى الإجْماليُّ:

تفنيدُ عجبِ قومِ هودٍ من إرسالِهِ لهم، وتذكيرهُم بنعمِ اللهِ الغزيرةِ

وهل أثار عجبَكم واستغرابَكم أن جاءكم تذكيرٌ من ربِّكم على لسان رجلٍ من جنسِكم، فكذَّبتم، وعجبتم أن أنزلَ ربُّكم وحيَهُ بتذكيركُم وعظتكم على ما أنتم عليه مقيمون من الضَّلالةِ على لسانِ رجلٍ منكم، لينذركم بأسه، ويخوِّفكم عقابه؟"[3]، واذكروا نعمةَ اللّهِ عليكم؛ إذ جعلكم وارثين للأرضِ من بعد قومِ نوحٍ الَّذين أهلكهم اللّه بكفرهِم، وزاد في أجسامِكم قوَّةً وضخامة، فاذكروا نِعَمَ اللّه الواسعة عليكم، رجاء أن تفوزوا الفوزَ العظيمَ في الدُّنيا والآخرة[4].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

الغرضُ من افتتاحِ الجملةِ بالاستفهامِ بالهمزةِ في قوله: ﴿أَوَعَجِبْتُمْ﴾:

وصْفُهم نبيَّهُم بالسَّفاهةِ من القولِ المستنكرِ المذمومِ

قولهُ: ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ﴾ الهَمزةُ في قولهِ: ﴿أَوَعَجِبْتُمْ﴾ استفهاميَّة جاءت لإنكارِ الواقع والتَّوبيخِ، أي: هذا ممّا لا يُعجَبُ منهُ؛ إذ لَهُ تعالى التَّصَرُّفُ التّامُّ بإرسالِ مَن يشاءُ لِمَن يشاءُ[5]، وقدِ افتتح الجملةَ بالاستفهام الإنكاريِّ إشعارًا بأنَّهم أحالوا أن يكونَ رسولًا، مستدلّين بأنَّه بشرٌ مثلهم، كما وقعت حكايتُه في آياتٍ أُخَرَ، واختيرَ الاستفهامُ دونَ أن يقول: لا عَجب؛ إشارةً إلى أنَّ احتمالَ وقوعِ ذلك منهم، ممّا يتردَّد فيه ظنُّ العاقلِ بالعقلاء، فقوله: ﴿أَوَعَجِبْتُمْ﴾

(1) أبو بكر الأنباري، الزّاهر في معاني كلمات النّاس: 2/136.
(2) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (ألى).
(3) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 8/194.
(4) لجنة من عُلماءِ الأزهر، المنتخَبُ في تفسير القرآنِ الكريم، ص: 216، ونُخْبة من أساتذة التَّفسير، التَّفسير الميُسَّر، ص: 159، وجماعَةٌ من علماء التَّفسير، المخْتَصَر في تفسير القرآن الكريم، ص: 159.
(5) الزَّمخشري، الكشّاف: 2/115، والبيضاويُّ، أنوار التَّنزيل: 3/18، وأبو حيّان، البحر المحيط: 5/84.

بمنزلة المنعِ لقضيَّة قولِهم: ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي سَفَاهَةٍ﴾ [الأعراف: 66]؛ لأنَّ قولهم: ذلك بمنزلة مقدِّمةِ دليلٍ على بطلان ما يدعوهم إليه[1].

دلالةُ العطفِ على محذوفٍ بعد همزةِ الإنكارِ في قوله: ﴿أَوَعَجِبْتُمْ﴾:

الجمعُ بينَ الجوابِ والرَّدِّ في حالتي الاستبعادِ أو التَّكذيبِ

دخلت همزةُ الاستفهامِ الإنكاريِّ على الواو العاطفة على مقدَّرٍ ينسحبُ عليه الكلام، كأنَّه قيل: (أستبعدْتُم وعجِبتم، من أن جاءكم وحيٌ أو موعظةٌ من مالِكِ أموركم ومربّيكم؟)[2]؟! وعجبهم من وجوهٍ: إمّا لأنَّ التَّكليف عبثٌ؛ لأنَّهتعالى متعالٍ عنِ الْعبادَة، أو لأنَّ التَّكليف لو وقع؛ لكان بإرسال الْمَلائكَة، وإمّا لأنَّ الرَّسول إذا كان بشرًا، يكون من الأشرافِ الأغنياء وغير ذلك[3]، فأنكرَ عليهم هود عليه السلام ذلك ذاكرًا لما ظنَّه حاملًا لهم، ملوِّحًا بالعطف إلى التَّكذيب[4].

دلالةُ الماضي في قوله: ﴿أَوَعَجِبْتُمْ﴾:

الدَّلالةُ على تحقُّقِ الوقوعِ وتيقُّنِهِ من مقاصدِ التَّركيبِ

إيثارُ صيغةِ الماضي (عجبتم)؛ للدَّلالة على تحقُّق الوقوعِ لا محالةَ؛ لأنَّ الماضي مُتيقَّنُ الوجود، فعجبهم قد وقع حقًّا، ووقوعُه إنَّما كان على جهة الاستبعادِ، هذا هو الظّاهرُ من قصَّتهم بدليلِ قولهم السّابق: ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي سَفَاهَةٍ﴾ [الأعراف: 66][5].

لطيفةُ التَّعبيرِ عنِ الرِّسالات بالذِّكرِ:

بيانُ شرفِ الرِّسالاتِ وشمولِها لما يحتاجهُ النَّاسُ

فُسِّرَ الذِّكْرُ في قوله: ﴿ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ بالموعظة والبيانِ والرِّسالة[6]، فهو تذكيرٌ وزيادة شرف[7]، فهو يدلُّ على شمولِ رسالاتِ المرسلين لكلِّ هذه المعاني العظيمة الدّالَّةِ على شرفِ ما

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/195.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 3/236، والبيضاويُّ، أنوار التَّنزيل: 3/18.
(3) القونويّ، حاشيَته على البيضاويّ: 8/415.
(4) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 7/437.
(5) ابن عطيَّة الأندلسيُّ، المحرَّر الوجيز: 2/416.
(6) البغويّ، تفسير البغويّ: 3/202، وابن الجوزيّ، زاد المسير: 2/133.
(7) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 7/437.

جاء بهِ المرسلون من وحي ربِّ العالمين، وقيل المعنى: "يعني: الرِّسالةَ والبيان على رَجُلٍ مِنْكُمْ، تعرفون نسبه لِيُنْذِرَكُمْ بالعذاب"[1].

فائدةُ تعليقِ الذِّكرِ بالجارِّ والمجرورِ في قوله: ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾:

بيانُ اختصاصِ التَّشريعِ بالرَّبِّ الخالقِ ﷻ

قولهُ: ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾ وردت للابتداء، والجارُّ والمجرور متعلِّقانِ بجاءَ، أو بمحذوف، وقع صفة لذِكر، أي: ذكر كائِنٌ من مالك أموركم ومُربّيكُم[2]، فهو ذكر من عنده لا من عند غيره، فهو خالقُ الخلق، وله بحكمِ الإلهيَّةِ، أن يأمرَ عبيدَهُ ببعضِ الأشياءِ، وينهاهُم عن بعضِها، ويخاطِبَهم بتلك التَّكاليفِ بواسطةِ رسلِه[3]، ولذلك قال: (فما أنا إلّا مبلِّغٌ لكم رسالة ربّي)، وعليه، فالذّكر أمرٌ عظيمٌ لعظم مَنْ كان منه ابتداء.

نكتةُ كونِ الذِّكر جاءَ مِنَ الرُّبوبيَّة:

الذِّكرُ من الرَّبِّ من أعظمِ النِّعَمِ لانفساحِ القربِ بهِ

قوله: ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي: الَّذي لم يقطع إحسانَهُ عنكم قطُّ، فهو مالكُ أموركم ومربّيكم[4]، وفي إيثار الرُّبوبيَّة على الألوهيَّة في هذا السّياق امتنانٌ، وكشْفٌ عن الغرضِ من مجيءِ الذِّكر، ومعنى: ﴿ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾: رسالة أو موعظة على لسان رجلٍ من جنسِكم، فإنَّهم كانوا يتعجَّبون من إرسال البشرِ، ويقولون: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ﴾، لِيُنْذِرَكُمْ عاقبة الكفر والمعاصي[5].

بلاغةُ حذفِ المضافِ:

اللِّسانُ هو الرَّسولُ وهو المبلِّغُ عن الحقِّ مرادَهُ مِنَ الخلقِ

قولُه: ﴿عَلَىٰ رَجُلٍ﴾: أي: على لسان رجلٍ منكم، أو منزل على رجل[6]، كما قال: ﴿رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ﴾ [آل عمران: 194]،

(1) السّمرقنديّ، بحر العلوم: 1/526.
(2) الآلوسّي، روح المعاني: 4/391.
(3) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/298.
(4) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 3/236، والبقاعيّ، نظم الدُّرر: 7/437.
(5) البيضاويّ، أنوار التّنزيل وأسرار التّأويل: 3/18.
(6) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/298.

أي: على لسانِ رسلكِ، وذلك أنَّهم كانوا يتعجَّبون من نبوَّة هودٍ -عليه السلام-[1] ويقولون: لا مناسبة بينه تعالى وبين البشر، من حيثُ إنَّه تعالى في غاية التَّقدُّس والتَّنزُّه، والبشر في غاية التَّعلُّق والتَّكدُّر[2]، فجاءهم الجوابُ بأنَّ هذا الحدثَ الَّذي عظَّمتموه، وضجِجتم له، ما هو إلّا ذِكْرٌ من ربِّكم على رَجُلٍ منكم[3].

دلالةُ التَّعبيرِ بالرُّجولة في مقام النُّبوَّةِ والتَّبليغ عن الله:

بيانُ بلوغِ الأنبياءِ والمرسلينَ درجاتِ الكمالِ

عبَّر النَّظمُ الكريم في مقام الوحي والتَّنزيل بالرُّجولةِ في قوله: ﴿أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ﴾، لكون الرِّسالةِ والنُّبوَّة مختصَّةً بالرَّجل دونَ المرأة؛ ولما تحملُه هذه الكلمة من الطَّهارةِ بشقَّيها الماديِّ والمعنويِّ قال تعالى: ﴿لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ [التَّوبة: 108]، ولما تحمله أيضًا من صفة الصِّدق مع الله، كما قال تعالى: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب: 32]، ولم يرسل الله ﷻ أنثى قطُّ، مِصداقًا لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا﴾ [يوسف: 109]، فأثبت الرِّسالة للرِّجال الموحَى إليهم، وأشعر بنفي ذلك عن غيرهم، فلا تكون أنثى نبيَّةً[4].

دلالةُ (من) بين التَّبعيضِ والبيانِ:

كونُ الرسولِ بشرًا مثلَهم أحَقُّ بالتصديق وأدعى للاتباع

قوله: ﴿مِنكُمْ﴾ أي: تعرفون نسبه، فهو منكم نسبًا، فتعرفون مولده ومنشأه أو من جنسكم، فهي تبعيضيَّة أو بيانيَّة[5]، وفائدتها: أنَّ كونَه منهم يزيلُ التَّعجُّب[6]، فلو كان مَلَكًا فربَّما كان في اختلاف

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/84.
(2) ابن عطيَّة الأندلسيُّ، المحرَّر الوجيز: 2/416، وإسماعيل حقِّي، روح البيان: 3/183.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/195.
(4) السَّفّاريني، لوامع الأنوار البهيّة: 2/265.
(5) الآلوسي، روح المعاني: 4/391.
(6) الخازن، لباب التأويل: 2/215.

الجنسِ تنافرُ الطَّبع[1]، ولأنَّ المرءَ بمن هو من جنسهِ أعرفُ، وبطهارةِ أحواله أعلمُ، وبما يقتضي السُّكون إليه أبصر[2]، فلا يسرعون إلى تكذيبِ الجائي به، وأن يعلموا أنَّ كونَ المُذَكِّر رجلًا منهم أقربُ إلى التَّعقُّل من كون مُذكِّرِهم من جنس آخر من مَلَك أو جِنّيٍّ، بل هم أحقّاء بأن يكون ما جعلوه موجبَ استِبْعادٍ واستحالة، هو موجبُ القبولِ والإيمان[3]، ففي وصْفهِ بأنَّه منهم فضحٌ لشبهتِهم أيضًا، فكانَ هذا الكلامُ من جوامعِ الكلم في إبطال دعوى الخصمِ، والاستدلالِ لصدق دعوى المجادل[4].

دلالةُ اللَّامِ في قوله تعالى: ﴿لِيُنذِرَكُمْۚ وَٱذْكُرُوٓاْ﴾:

غرضُ زيادةِ حرفِ اللَّامِ تبشيعُ خَطَئِهم في ردِّهم على نبيِّهم

قوله: ﴿لِيُنذِرَكُمْ﴾ علَّةٌ للمجيءِ، أي: ليحذِّرَكم عاقبةَ الكفرِ والمعاصي[5]، والمجرورُ في قوله: ﴿لِيُنذِرَكُمْ﴾، ظرفٌ مستقرٌّ في موضع الحالِ من (رجل)، أي: منذرًا، أو هو ظرفٌ مُتَعَلِّقٌ بقوله: ﴿جَآءَكُمْ﴾ فهو زيادةٌ في تشويهِ خَطَئِهم إذ جعلوا ذلك ضلالًا مبينًا، وإنَّما هو هديٌ واضح لفائدتكم بتحذيركم من العقوبة، وإرشادكم إلى تقوى اللّٰه، وتقريبِكم من رحمتهِ[6].

فائدةُ تخصيصِ (الإنذار) دونَ التَّبشيرِ:

التَّخليةُ مقدَّمةٌ على التَّحليةِ في السِّياق

الإنذارُ أحرى بالقصد هنا؛ لأنَّ التَّحذيرَ من الخطر أولى من التَّرغيبِ في الخير، فالحماية مقدَّمةٌ على الرِّعاية، وقد جاء الحقُّ هنا بالذِّكرِ للإنذار، فقال: ﴿لِيُنذِرَكُمْ﴾ فقط، وليس كما قال في قومِ نوحٍ: ﴿وَلِتَتَّقُواْ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾؛ لأنَّ الإنذارَ لم يأتِ لمجرَّدِ

(1) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 7/235.
(2) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/298.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/196.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/196.
(5) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 3/236، والآلوسي، روح المعاني: 4/391، والقنّوجيّ، فتح البيان: 4/388.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/196.

الإنذارِ، بل لنرتدع ونتَّقي، لِكي نُرحم، إذًا فحين يأتي بأوَّل الحلقة، وأوَّل الخيطِ، وهو الإنذارُ، فنحن نستنتج الباقي، وهو التَّقوى لنصلَ إلى الرَّحمة[1].

تلوينُ الخطابِ بذِكْرِ النِّعم بعد ذِكْرِ النِّذارَةِ:

التَّعريضُ بالنِّذارَةِ والوعيد في ذكر النِّعمة

قوله: ﴿لِيُنذِرَكُمۡۚ وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ جَعَلَكُمۡ خُلَفَآءَ﴾، فيه الأمرُ بالتَّذكُّر للنِّعمة، وهو تعريضٌ بالنِّذارَةِ والوعيدِ الَّذي سبق في قوله: ﴿لِيُنذِرَكُمۡ﴾، فإنَّ قومَ نوحٍ إنَّما استأصلَهم، وأبادَهم عذابٌ مِن اللهِ على شِركِهم، فمَن اتَّبعهم في صُنعِهم، يوشِكُ أنْ يَحُلَّ به عذابٌ أيضًا[2].

ثراءُ المعنى بتنوُّعِ المعطوفِ عليهِ:

الإشارةُ إلى تحذيرِهم ممَّا وقعَ لقومِ نوحٍ بسببِ كفرِهم

لمّا كان التَّقديرُ في قولهِ: ﴿لِيُنذِرَكُمۡ﴾، أي: يحذِّركم من وخامةِ العاقبةِ، عطفَ عليهِ تذكيرَهم بالنِّعمةِ ﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ جَعَلَكُمۡ خُلَفَآءَ﴾، مشيرًا به إلى التَّحذيرِ من عظيم النِّقمة في قوله: ﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ﴾، وكأنَّ المعنى: احذروا، واذكروا. أو يكون المحذوف ما اقتضاهُ الاستفهامُ في قوله: ﴿أَوَعَجِبۡتُمۡ﴾ من طلب الجواب، ويكونُ المعنى: أجيبوا واذكروا، أو: ولا تبادروا بالجوابِ حتَّى تذكروا ما أنعمَ به عليكم، وفيه الإشارةُ إلى التَّحذير ممّا وقعَ لقوم نوح.

أو يكون العطفُ على معنى الاستفهامِ الإنكاريِّ في قولهِ: ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ ﴿أَوَعَجِبۡتُمۡ﴾، والمعنى: اتَّقوا، ولا تعجبوا، واذكروا. أو يكون العطف - وهو أحسن - على ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾، والمعنى: اعبدوا اللهَ، واذكروا[3]، فقد تغازرت المعاني بتغازرِ تقديرِ العطف، والرَّسمُ واحدٌ، وهذا من الإيجازِ والإعجازِ.

(1) الشَّعراويّ، تفسير الشَّعراويّ (الخواطر): 7/4210.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/205.
(3) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 7/437.

سرُّ التَّرتيبِ في التَّذكيرِ بالنِّعمةِ بعدَ الإنذارِ:

دوامُ تذكُّرِ النِّعَمِ سبيلُ توحيدِ المُنعِمِ

في قولِه: ﴿لِيُنذِرَكُمۡۚ وَٱذۡكُرُوٓاْ﴾ إنَّما أمرهم بالذِّكر بعد الإنذارِ؛ لأنَّ النَّفس تنسى النِّعم، فتَكْفُرُ المُنعِمَ، فإذا تذكَّرت النِّعمة رأتْ حقًّا عليها أن تشكرَ المُنعم، ولذلك كانت مسألةُ شكر المنعم من أهمِّ مسائلِ التَّكليفِ[1]. كما أنَّ تذكُّرَ النِّعم العظيمة، يوجب الرَّغبةَ والمحبَّة، وزوال النُّفرةِ والعداوة، وقد ذكر هود عليه السلام ههنا نوعين من الإنعام: الأوَّل: أنَّه تعالى جعلهم خلفاء من بعد قوم نوح، وذلك بأن أورثَهم أرضَهم وديارَهم وأموالهم، وما يتَّصل بها من المنافع والمصالح، والثّاني: قَوْلُهُ: ﴿وَزَادَكُمۡ فِي ٱلۡخَلۡقِ بَصۡۜطَةٗۖ﴾[2].

دلالةُ (إذْ) في قولِه: ﴿إِذۡ جَعَلَكُمۡ﴾، وأثرُها في المعنى:

توجيهُ الأمرِ بالذِّكرِ إلى الوقتِ، مُبالغةٌ في إيجابِ ذكرِ ما وقع فيه

قوله: ﴿إِذۡ﴾، إمّا أن تكون ظرف زمان في محلِّ نصبٍ بالفعل (اذْكُروا)، وإمّا أن يكون مفعول (اذْكُروا) محذوفًا، تقديرُه: (واذكُروا آلاء اللّه إذ جعلكم)، و"توجيهُ الأمر بالذِّكرِ إلى الوقت، دون ما وقع فيه من الحوادثِ، مع أنَّها المقصودةُ بالذّات، للمُبالغة في إيجاب ذكرِها، لما أنَّ إيجابَ ذكرِ الوقت، إيجابٌ لذكر ما فيه بالطَّريق البرهانيِّ، ولأنَّ الوقتَ مشتملٌ عليها، فإذا استُحضِر كانت هي حاضرةً بتفاصيلِها كأنَّها مُشاهَدةٌ عيانًا"[3]، فإنَّه الوقت الَّذي ظهرت فيه خلافتكم عن قوم نوحٍ في تعمير الأرضِ، والهيمنةِ على الأمم، فإنَّ عادًا كانوا ذوي قوَّةٍ ونعمة عظيمة، ﴿وَقَالُواْ مَنۡ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةٗۖ﴾ [فصّلت: 15][4]، وفي تذكيرِهم بوقتِ الخلافةِ، عظيم امتنان، وتهديد لهم بإزالتهم عنها، وهو ملائمٌ للإنذار.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/204.

(2) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/301، والقونويّ، حاشيَته على البيضاويّ: 8/421.

(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 3/239، وإسماعيل حقي، روح البيان: 3/186، والآلوسي، روح المعاني: 4/394.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/205.

قال صاحب التحرير والتنوير محرِّرًا كعادته: "و(إِذْ) اسْمُ زَمانٍ مَنْصوبٌ على الْمَفْعولِ بِهِ، ولَيْسَ ظَرْفًا لِعَدَمِ اسْتِقامَةِ المعنى على الظَّرْفيَّةِ، والتَّحْقيقُ أنَّ (إِذْ) لا تُلازِمُ الظَّرْفيَّةَ بَلْ هيَ ظَرْفٌ مُتَصَرِّفٌ، وهوَ مُخْتارُ صاحِبِ الْكَشّافِ، والمعنى: اذْكُروا الْوَقْتَ الَّذي ظَهَرَتْ فيهِ خِلافَتُكُمْ عَنْ قَوْمِ نوحٍ في تَعْميرِ الْأَرْضِ والْهَيْمَنَةِ على الْأُمَمِ، فإِنَّ عادًا كانوا ذَوي قوَّةٍ ونِعْمَةٍ عَظيمَةٍ ﴿وَقَالُواْ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ [فصلت: 15]"[1].

فائدةُ التَّقييدِ والتَّخصيصِ:

بيانُ قُربِ زمانِهم من زمنِ قومِ نوحٍ عليه السلام

في قوله: ﴿جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾ بيانٌ لمجيئهم عقبَ قومِ نوحٍ، كما يعلنُ عنه حرفُ (مِن)، وفيه تذكيرٌ لهم وتخويف بالطّوفانِ الَّذي ذهب بمن كفرَ قبلَهم بنوحٍ عليه السلام.

ولمّا قالَ: ﴿مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾؛ عُلم أنَّ المقصودَ أنَّهم خلفاءُ قومِ نوحٍ، فعادٌ أوَّلُ أمَّةٍ اضطلعت بالحضارة بعد الطّوفانِ، وكان بنو نوحٍ قد تكاثروا، وانتشروا في الأرض، في أرمينيَّة والموصل والعراق وبلادِ العربِ، وكانوا أُممًا كثيرة، أو وكانت عادٌ أعظمَ تلك الأمم، وأصحابَ السّيادة على سائر الأمم. وليس المرادُ أنَّهم خلفوا قوم نوحٍ في ديارهم؛ لأنَّ منازلَ عادٍ غيرُ منازلِ قومِ نوحٍ عند المُؤرِّخين[2].

وتذكير هود بذلك يدلُّ على قرب زمانِهم من زمان نوحٍ[3]، وهذا سرُّ تخصيصِ قوم نوحٍ بالذِّكرِ، وإلّا فقد كانت الأمم كثيرةَ العَدِّ، زائدةً على الحَدِّ، عظيمةَ الانتشار في جميع الأقطار[4].

دلالةُ لفظ (الخَلْقِ) بين المصدريَّة والاسميَّة وأثرهُ في المعنى:

إفادةُ معنى القُوى الجِبِلِّيَّة، ومعنى التَّفضيل على غيرهم من النَّاس

لفظ (الخَلْقِ) يمكنُ أنْ يكون بمعنى المصدر، أي: الزّيادةُ في

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/205.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/205.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/87.
(4) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 7/438.

القوى الجِبلّيَّة، أي: زادهم قوَّة في عقولهم وأجسامهم، أو: بمعنى النّاس، فالمعنى: وزادكم بصطة في النّاس بأن جعلكم أفضل منهم، فيما تتفاضلُ به الأممُ من الأمور كلِّها، فيشمل رجحانَ العقولِ، وقوَّة الأجسام، وسلامتها من العاهاتِ والآفاتِ، وقوَّة البأس[1]، فكما أوقعَ التَّفاوتَ بين شخصٍ وشخص فيما يعود إلى المباني، أوقع التَّباينَ بين قومٍ وقومٍ فيما يرجع إلى المعاني[2]، والمرادان لا يمتنعان، واللَّفظُ واحدٌ، ففي الكلامِ إيجازٌ.

نكتةُ إمساسِ الألفاظِ أشباهَ المعاني، وتوجيهُ قراءةِ (بصطة) بالصَّاد[3]:

استخدامُ الصَّاد للمعنى الأقوى لقوَّتها، والسِّين للمعنى الأخفِّ لضعفِها

(البصطةُ) في الحسِّ بطولِ الأبدان، وفي المعنى بقوَّة الأركان[4]، واللَّفظ يقتضي أنَّ الزيادةَ هي على جميع العالم، وهو الَّذي يقتضي ما يُذكرُ عنهم[5]، والصّاد: أقوى من السّين عند علماء اللُّغة، حيث جعلوا الصّاد للمعنى الأقوى، باعتبار قوَّتها، والسّين للمعنى الأضعف[6]، باعتبار ضعفِها، وتعليلُ معنى القوَّةِ والضَّعف: أنَّ آية سورة الأعراف جاءت في سياقِ قوم عادٍ، وآية سورة البقرة جاءتْ في سياقِ طالوتَ وحدَه، والقومُ أقوى من الفردِ الَّذي هو طالوتُ، فاستَخدمَ الصّادَ للقوم، والسّينَ للفرد (طالوتَ) وحده. و(بَصْطَةً): مطلَقة في الغِنى، والسَّعة، والقوَّة، والعلم... وغيرها[7]، فلفظةُ (بَصْطَةً): تشمل كلَّ شيء، بينما في آية سورة البقرة الَّتي تخصُّ طالوتَ قيَّدها، فهي ﴿بَصۡطَةٗ﴾ فقط بالعلم والجسم.

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/87، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/206.
(2) إسماعيل حقي، روح البيان: 3/186.
(3) ابن الجزريّ، النشر: 2/230.
(4) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 7/439، والثَّعلبي، الكشف والبيان: 4/246.
(5) ابن عطيَّة الأندلسيُّ، المحرَّر الوجيز: 2/418.
(6) ابن جنّي، الخصائص: 2/162، وفاضل السّامرائي، بلاغة الكلمة في التعبير القرآني، ص: 9.
(7) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/88.

دلالةُ الفاءِ الفصيحةِ:

"الفاء في قوله: ﴿فَٱذۡكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ﴾ فصيحةٌ، أي: إن ذكرتم وقتَ جَعَلَكُمُ اللّٰهُ خلفاءَ في الأرض، ووقتَ زادكم بَصْطةً،؛ فاذكروا نعمَهُ الكثيرة تفصيلًا، فالكلام جاء على طريقةِ القياس من الاستدلال بالجزئيِّ على إثبات حكم كلّيٍّ، فإنَّه ذكَّرهم بنعمةٍ واضحةٍ وهي كونُهم خلفاءَ، ونِعَمٍ مُجْمَلَةٍ وهي زيادةُ بَصْطَتِهم، ثمَّ ذكَّرهم بقيَّة النِّعم بلفظ العموم، وهو الجمع المضافُ ﴿ءَالَآءَ ٱللَّهِ﴾"[1].

التَّعميمُ والإفصاحُ بذكر النِّعمِ بعد التَّخصيصِ والإيضاحِ لبعضِها

واصطفاءُ الفاء المفصحةِ عن شرطٍ مقدَّرٍ إيجازٌ بالحذف، وإتاحة الفرصة للعقلِ في التَّدبُّرِ والنَّظر.

فائدةُ إضافةِ (آلاء) إلى اسمِ الجلالةِ (الله) دون الرَّبِّ:

﴿فَٱذۡكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ﴾ أي: اعملوا بما يليقُ بذلك الإنعام، وهو أن تُؤمنوا به، وتتركوا ما أنتم عليه من عبادةِ الأصنام[2]، واشكروهُ على ذلك بإخلاصِ العبادةِ له، وترك الإشراكِ به[3]، وفي ذلك تناسبٌ واتِّساقٌ مع قولِ هودٍ عليه السلام، في أوَّلِ هذه المحاورةِ، ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾، أي: وحِّدوهُ في العبادة، ولا تعبدوا معه آلهةً أخرى[4].

الإشارةُ إلى سياقِ الدَّعوةِ المتضمِّنِ التَّوحيدَ، وهو مقامُ العبوديَّةِ

غرضُ تَكرارِ التَّذكيرِ بالنِّعمِ:

قوله: ﴿فَٱذۡكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ﴾ أي: الَّتي أنعم بها عَلَيۡكُمۡ من فنون النَّعماء الَّتي هذهِ من جملتها، وهذا تكريرٌ للتَّذكير لزيادة التَّقرير، وتعميمٌ إثرَ تخصيص[5]، لبيان أنَّه لا نعمةَ عندكم لغيرهِ أصلًا، فصارَ مُستحِقًّا؛ لأنْ تَخُصّوه بالعبادة[6].

زيادةُ التَّقريرِ بالتَّعميمِ إثرَ التَّخصيصِ

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/206، والهرريّ، حدائق الرَّوح والرَّيحان: 9/405.

(2) الخطيب الشربيني، السراج المنير: 1/487.

(3) محمد رضا، تفسير المنار: 8/448، والقاسميّ، محاسن التّأويل: 5/116، والمراغيّ، تفسير المراغي: 8/194.

(4) أبو بكر الجزائري، أيسر التَّفاسير: 2/190.

(5) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 3/239، وإسماعيل حقي، روح البيان: 3/186.

(6) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 7/439، وأبو حيّان، البحر المحيط: 5/88.

بديعُ الجناس الاشتقاقيِّ في الجمع بين الذِّكر والأمر به:

التَّنبيهُ إلى العلاقةِ بين المعاني باختلافِ اشتقاقاتِ مبانيها

الذِّكر في قوله تعالى: ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾، من معانيه الموعظةُ والرِّسالة، وقوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ﴾، فيه من التَّعريضِ بالنِّذارَةِ والوعيدِ الَّذي سبق[1]، وفي التَّذكير بآلاء الله ونِعَمِه في قوله: ﴿فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ﴾، وأوَّلُ النِّعم أن أرسل إليهم رسولًا يأخذُ بأيديهم إلى مناطقِ الخيرِ[2]، فقد نُسِجت هذه الألفاظُ في نظامٍ بديع، انتقلَ فيه السِّياقُ بين اشتقاقاتِ المباني لجمعِ المعاني.

وجهُ استخدامِ (لعلَّ) للتَّعليل في قوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾:

التَّذكيرُ بالنِّعمِ علَّةٌ لتحقيقِ الفلاحِ بعدَ تعلُّقِ القلوبِ بالرَّجاء

المعنى: فاذكروا لكي يفضي بكم ذِكْر النِّعم إلى شكرها، المؤدّي إلى الفلاح، فبهذا الاعتبار حَسُنَ ترتُّبِ الفلاح على الذِّكر[3]، وفي التَّعبير بلفظِ (لعلَّ) إلماحٌ إلى أنَّ التَّذكير سبب، ولا تحقُّق لنتائجهِ إلّا بتعلُّقِ القلب بخالقهِ.

دلالةُ صيغةِ المضارعِ:

إفادةُ التَّجدُّدِ والاستمرارِ في الظَّفر بالمراد

قولهُ: ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾، أي: ليكون حالُكم حالَ مَنْ يُرْجى فلاحُه، وهو ظَفَرُهُ بجميع مُرادِه، ففازَ بالمطْلوبِ الأعْظَم، والمضارع يُفيد التَّجدُّدَ والاستمرارَ. وقد ناسب التَّعبيرُ بالفعلِ المضارعِ في هذا المقامِ معنى الفلاحِ، وهو البقاءُ الدّائِمُ في النَّعيمِ والسُّرورِ[4].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(جاءكم) و(أتاكم):

الإتيانُ: مجيءٌ بسُهولَةٍ[5]، والمجيءُ: إتيانٌ محقَّقٌ بعيدٌ عن عواملِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/205.
(2) الشَّعراوي، تفسير الشَّعراويّ: 7/4211.
(3) القونويّ، حاشيَته على البيضاويّ: 8/421.
(4) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن: 5/520.
(5) الرّاغِبُ، المُفْرداتُ، ص: 283.

النَّقصِ، والإتيان هو الأعمُّ والأشمل، والإتيانُ بداية المجيء زمانيًّا أو مكانيًّا، وقد لا يتمُّ فلا يكون مجيئًا، أمّا المجيء؛ فهو إتيانٌ محقَّقٌ قريب زمانيًّا ومكانيًّا[1]. كما أنَّ في المجيء معنى المشقَّةِ والصُّعوبة[2]، فكلُّ مجيءٍ إتيانٌ، وليس كلُّ إتيانٍ مجيئًا.

المجيءُ هو تمامُ الإتيانِ واكتمالُهُ، وهما يتقاربانِ في المعنى

وفي قوله تعالى: ﴿فَقَدۡ جَآءُو ظُلۡمٗا وَزُورٗا ۝٤﴾ [الفرقان: 4]، ورد "أنَّ العرب تستعمل (جاء) و(أتى)، بمعنى: (فعل)، فقوله: ﴿فَقَدۡ جَآءُو ظُلۡمٗا﴾، أي: فعلوه، وقيل: بتقدير الباء، أي: جاؤوا بظلم. ومن إتيانِ أتى بمعنى فعل: قولُهُ تعالى: ﴿لَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡرَحُونَ بِمَآ أَتَواْ﴾ [آل عمران: 188]، أي: بما فعلوه"[3]، وهما في هذا يشتركان في المعنى، حين تدلّان على المعنى بصيغةِ (فعل).

(الآلاء) و(النِّعَم):

الآلاءُ: النِّعمةُ الَّتي تتلو غيرَها، من قولك: وليه يليه؛ إذا قَرُبَ منه[4]، والآلاء: كلُّ ما يعدُّ من مصاديق الإكمالِ في الرَّحمةِ والبلوغِ في العطوفةِ، سواء كان بالأمرِ أو بالتَّقديرِ، أو بالخلق، أو بتهيئةِ الأسباب، أو بالنِّعَم العموميَّة، ظاهرةً أو باطنةً، دنيويَّةً أو أخرويَّةً.

الآلاءُ نِعَمُ اللهِ العظيمةُ العامَّةُ، والنِّعَمُ أخصُّ

والآلاءُ أيضًا عطايا الله تعالى الكونيَّةُ للنّاس، ومنها خلق السَّموات والأرض، ومن آلاءِ الله ﷻ، كعطاء ربّاني لقوم عاد، أنْ زادهم بسطةً في الخَلقِ بعد أن جعلَهم خلفاءَ من بعدِ قومِ نوحٍ. فالجامعُ بين معاني الآلاء مفهومُ الانتهاءِ في الإحسان، والبلوغ في إظهار الرَّحمة العامَّة، وعدم التَّقصير فيه[5].

أمّا النِّعمة: فهي إحسانُ اللهِ تعالى إلى الخَلْقِ في حياتهم، مُقابل

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: 1/264.
(2) فاضل السّامرائّي، لمسات بيانيّة، ص: 97.
(3) الشّنقيطي، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن: 6/14.
(4) العسكريُّ، معجم الفروق اللُّغويّة، ص: 6.
(5) حسن المصطفويّ، التَّحقيق في كلمات القرآن: 1/125.

إحسانِهم بالطّاعات والشُّكر، قال الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمۡ يَكُ مُغَيِّرٗا نِّعۡمَةً أَنۡعَمَهَا عَلَىٰ قَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ٥٣﴾ [الأنفال: 53].

كما أنَّ النِّعمة يمكن أن تكون من الإنسان على إنسانٍ آخر، في حين أنَّ الآلاء تخصُّ الله تعالى وحده، قال تعالى: ﴿وَإِذۡ تَقُولُ لِلَّذِيٓ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَأَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِ أَمۡسِكۡ عَلَيۡكَ زَوۡجَكَ﴾ [الأحزاب: 37]. وقيل: إنَّ النَّعْماءَ هيَ النِّعمُ الباطِنَة، والآلاءُ: هيَ النِّعمُ الظّاهِرَة[1].

(1) الكفويّ، الكليّات، ص: 912.

﴿قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِنَعۡبُدَ ٱللَّهَ وَحۡدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ٧٠﴾ [الأعراف: 70]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

ذكرُ جوابِ قومِ هودٍ بعدَ دعوتِهِ إيَّاهم، وإقامته الحجَّة عليهم

لمّا ردَّ هودٌ عليه السلام على قومه ردًّا مُقنِعًا حكيمًا، كان المُتوقَّع من ورائهِ أن يستجيبوا له، وأن يُقبلوا على دعوتهِ، فلا بُدَّ لِكُلِّ سامعٍ مُنْصِفٍ من المبادرةِ إلى الإذعانِ لهذه الحُجَّةِ القطعيَّة، وهي استحقاقهُ سبحانه للإفرادِ بالعبادة، للتَّفرُّد بالإنعام - ازداد تَشَوُّف المخاطب إلى جوابهم[1]. ولكنَّهم لسوءِ تفكيرِهم، وانطماس بصيرتِهم، أخذتْهُمُ العِزَّةُ بالإثم، فقالوا لنبيِّهم ومُرْشِدِهم مُجادلين: ﴿أَجِئۡتَنَا لِنَعۡبُدَ ٱللَّهَ﴾[2]؟ فهي جوابٌ بعد الجوابِ المذكور، حكاية عنهم في قوله: ﴿قَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي سَفَاهَةٖ﴾ [الأعراف: 66].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَنَذَرَ﴾: نترُك ونَدَع، من وذِرَ يَذَرُ، وقد أماتتِ الْعَرَبُ ماضيَهُ ومصدرَهُ، فإذا أُريد الْماضي، قيل: تركته، فلا يَقولونَ: وذَرْتُهُ، ولا يسْتَعْمل مِنْهُ اسْم فاعل، ويَذَرُ الرَّجُلُ الشَّيءَ يتخلَّى عنه مع إهماله لعدم الاعتناءِ بشأنه[3]. ومنها في القرآن بصيغةِ المضارعِ: ﴿فَيَذَرُهَا قَاعٗا صَفۡصَفٗا ١٠٦﴾ [طه: 106]، أي: يترك الجبالَ كالمنبسطات المستويَةِ الواسعة، وبصيغة الأمر: ﴿وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ﴾ [البقرة: 278].

2) ﴿تَعِدُنَآ﴾: تُهدِّدُنا، والوعدُ يكون في الخيرِ والشَّرِّ، يقال:

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 7/440.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 6/2885، والطّنطاويّ، التَّفسير الوسيط: 5/305.
(3) الفراهيديّ، العين: (ذرو، وذر)، وابن عبّادٍ الطّالقانيُّ، المحيط في اللُّغة: (ذرو، وذر)، وابن فارس، مقاييس اللُّغة، والسَّمين الحلبيُّ، عُمدة الحُفّاظ، وجبل، المعجم الاشتقاقيُّ المؤصَّل: (وذر).

وَعَدْتُّهُ بِنَفعٍ وضُرٍّ أعِدُه وَعْدًا ومَوْعِدًا وميعادًا[1]، وأصلُ (وعد) يدلُّ عَلَى تَرْجِيَةٍ بِقَوْلٍ[2]، ومن الوعدِ بالشَّرِّ قولهُ تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ﴾ [الحج: 47]، وإنَّما كانوا يستعجلونه بالعذابِ، وذلك وعيد[3].

والمعنى هنا: فائْتِ بالَّذي تُهَدِّدُنا بهِ، وَتُخَوِّفُنا به[4]، قال أبو عَمْرِو بنُ العلاء: "إنَّ العربَ لا تَعُدُّ عارًا ولا خُلْفًا أنْ تَعِدَ شرًّا ثمَّ لا تفعلُه، ترى ذلك كَرَمًا وفَضْلًا، وإنَّما الخُلْفُ أن تَعِدَ خيرًا، ثمَّ لا تفعلُه"[5].

❁ المعنى الإجْماليُّ:

قال قومُهُ له: أدَعَوْتَنا - يا هودُ - لعبادةِ اللّهِ وحدَهُ وهَجْرِ ما كان يعبدُهُ آباؤنا من الأصنامِ، فائتِنا بالعذابِ الَّذي تخوِّفُنا به، إنْ كنتَ من أهلِ الصِّدقِ فيما تقول[6]! والآيةُ تعبيرٌ عن شدَّةِ عنادِهم وإصرارِهم على الشِّركِ المستَنِدِ على حُجَّةِ التَّقليدِ، والثِّقةِ فيما كان عليهِ الآباءُ.

ردُّ قومِ عادٍ على نبيِّهم بالاستهزاءِ، وجِدالُهُمْ له بالباطلِ المقيتِ

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ شبهِ كمالِ الاتِّصالِ في قولِهِ: ﴿قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا﴾:

الآيةُ السّابِقَةُ حجَّةٌ باهرةٌ، وبرهانٌ قاطعٌ على تفرُّدِهِ (سبحانه) بالألوهيَّة، واستحقاقِهِ العبوديَّةَ، وقد " ازداد تشوُّفُ المُخاطَبِ إلى جوابِهم، ولمّا لم يكن من القومِ جوابٌ عن هذه الحُجَّةِ الَّتي ذكرها إلّا التَّمسُّك بطريقةِ التَّقليد[7]، ﴿أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ﴾، فجيءَ

إسعافُ المتدبِّرِ بالجوابِ عمَّا فعلتْهُ البراهينُ بالكشفِ عن عنادِهم عاجلًا

(1) الرّاغب، المفردات: (وعد).
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والجوهريّ، الصِّحاح: (وعد).
(3) السَّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (وعد).
(4) محمّد الجاوي، مراح لبيد لكشف معنى القرآن المجيد: 1/380، والهرريّ، حدائق الرَّوح والرَّيحان: 9/393، والشّنقيطي، العذب النّمير: 3/492.
(5) الواحديّ، الوسيط في تفسير القرآن المجيد: 3/492.
(6) لجنة من عُلماءِ الأزهر، المنتخَبُ في تفسير القرآنِ الكريم، ص: 216، ونُخْبة من أساتذة التَّفسير، التَّفسير الميُسَّر، ص: 159، وجماعَةٌ من علماء التَّفسير، المُختَصَر في تفسير القرآن الكريم، ص: 159.
(7) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/302 وأبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 3/239.

بالفصلِ لشبهِ كمالِ الاتِّصال بَيْنَ الجملتين؛ لكونِ سياقِ الآياتِ جاءَ على طريقةِ المحاورة، فالجملةُ عن سؤالٍ أثارتْهُ الجملةُ السّابقَةُ تقديرهُ: (ما كان جوابُ قومِ هودٍ على هذه الحُجَجِ الباهرة، والبراهينِ السّاطعة؟).

بلاغةُ الاستفهامِ الإنكاريِّ:

قولُهم: ﴿أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ﴾ استفهامٌ إنكاريٌّ على دَعوتِه للتَّوحيدِ، واستبعادٌ لمجيئِه عليه السلام - بذلك، ومنشَؤُهُ انهماكُهم في التَّقليد والحبِّ لما ألِفوهُ، وألفَوْا عليه أسلافهم[1]، فجاوبوا هودًا بما أنبأ عن ضياع حجَّتِه في جنبِ ضلالةِ عقولِهم، ومكابرةِ نفوسهم[2].

ضلالُ العقولِ ودوافعُ الكبرِ، لا ينفعُ معها برهانٌ

غرضُ التَّنَزُّلِ في الجوابِ من قولهم: ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ﴾ إلى قولهم: ﴿أَجِئْتَنَا﴾:

قولُهم: ﴿أَجِئْتَنَا﴾ هذا الجوابُ أقلُّ جفوةً وغِلظةً من جوابِهم الأوَّل؛ إذ قالوا: ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦٦﴾﴾ [الأعراف: 66] كأنَّهم راموا استنزالَ نفسِ هودٍ، ومحاولةِ إرجاعِه عمّا دعاهُم إليه، فلذلكَ اقتصروا على الإنكارِ[3]، "والظَّنُّ هُنا على مَعْناهُ، فلَوْ قالوا: إنَّهم يَعْلَمونَ ذَلِكَ؛ لَكانوا كاذِبينَ على أنْفُسِهِمْ فيما يَحْكُمونَ مِن اعْتِقادِهِمْ، وأمّا حُكْمُهم عَلَيْهِ بِالسَّفاهَةِ؛ فكانَ على اعْتِقادٍ باطِلٍ مِنْهم، ولِذَلِكَ عَبَّروا عَنْهُ بِالرُّؤْيَةِ الَّتي بِمعنى الِاعْتِقادِ"[4].

الظَّنُّ بكذبِهِ في دعوتِهِ جاء على حقيقتِهِ ظنًّا؛ لأنَّهُ محضُ أباطيلَ

دلالةُ لفظِ (المَجيءِ) بين الحقيقةِ والمجازِ في قولِه: ﴿أَجِئْتَنَا﴾:

الأصلُ في لفظِ (المجيء) في قولِهم: ﴿أَجِئْتَنَا﴾ أن يكون حقيقةً بكونِهِ متغيِّبًا عن قومِهِ منفردًا بعبادة ربِّه، ثُمَّ أرسله اللّٰهُ إليهم، فجاءهم من مكان مُتَغَيَّبِه، والأبرُّ بالسّياق أن يكون قولُهم ذلك على

الزِّيادةُ في الإنكارِ عليهِ وتسفيهُهُ بسببِ اهتمامِهِ بدعوتِهِم

(1) الآلوسّي، روح المعاني: 4/395.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/207.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/207.
(4) رشيد رضا، تفسير المنار: 8/442.

سبيل الاستهزاءِ والتَّهكُّم؛ لأنَّهم كانوا يعتقدون أنَّ اللّهَ لا يُرسل إلّا الملائكة، فكأنَّهم قالوا: (أجئتنا من السَّماء كما يجيء الملَك)، وذلك لا يرادُ حقيقةُ المجيءِ، ولكنَّ المرادَ التَّعرُّض والقصد[1]، فهو مستعمَلٌ على سبيلِ المجازِ المرسَل، والعلاقةُ السَّببيَّة؛ إذِ القصدُ إلى المجيءِ سببٌ للمجيء[2]، فكأنَّ قومَ هودٍ قالوا: أقَصَدْتَنا لِنَعْبد اللّه وحده، وتعرَّضت لنا بتكاليف ذلك[3]. أو يكون ﴿أَجِئْتَنَا﴾ مستعارًا لـ(قصدتنا)؛ زيادةً في الإنكارِ عليه وتسفيهِهِ على اهتمامهِ بأمرٍ مثلِ ما دعاهُم إليهِ[4].

دلالةُ القيدِ بالحالِ في قولهِ: ﴿لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ﴾:

تعـدُّدُ الآلـهـةِ يـغـري غـيرَ العقلاءِ بالتَّقليدِ

قيَّدوا إنكارَهُم العبادةَ بأن تكونَ للّهِ وحدَهُ، ﴿أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ﴾، انهماكًا في التَّقليد، وحبًّا لما ألِفوه، وألِفوا أسلافَهم عليه[5]، كأنَّهم يقولون: أنترك آلهةً كثيرين إلى إلهٍ واحدٍ؟ أو أنترك عبادةَ الجمع إلى الواحدِ، وفي الجمع قوَّةٌ وسَعةٌ؟ لذا جاء القيدُ بالحال، وقد كان المنطقُ أن يعبدوا اللّه وحدَهُ، لا أن يعبدوا الشُّركاءَ الَّذين لا ينفعونهم، ولا يضرّونهم، ولا يسمعونهم[6]، وكلُّهُ تأكيدُ البقاءِ على التَّقليدِ.

سرُّ العدولِ عن المصدرِ الصَّريحِ (العبادة) إلى المصدرِ المؤوَّل (لنعبد):

إفـادةُ معنى الاستقبالِ معَ تجدُّدِ الفعلِ واستمرارِهِ

﴿لِنَعْبُدَ﴾ مضارعٌ منصوبٌ بأن المضمرة[7] بعد لامِ التَّعليل، ومن المتقرِّرِ عند علماء اللُّغة أنَّ دخولَ (أن) المصدريَّةِ على المضارع، يجعلُ الفعلَ المضارع يدلُّ على الاستقبال، فتؤثِّر على زمانِ المُضارع؛

(1) الشِّهاب الخفاجيّ، عنايه القاضي: 4/181.
(2) القونويّ، حاشيَته على البيضاويّ: 8/422.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/88، وابن التّمجيد الحنفي، حاشية ابن التمجيد على البيضاويّ: 8/422.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/208.
(5) الزَّمخشريُّ، الكشّاف: 2/117، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 3/239.
(6) الشَّعراوي، تفسير الشَّعراويّ: 7/4211.
(7) وتسمّى أنْ المصدرية، هي الَّتي تؤول مع الفعل الَّذي بعدها بمصدر يعرب حسب موقعه من الجملة.

لأنَّها تخلِّصُ المضارعَ للزَّمن الاستقبالي، فحالُهم الشِّرك، وهو يدعوهُم أن ينتقلوا من عبادةِ الشِّركِ في الحالِ إلى التَّوحيد في الاستقبالِ، وهو ما يفيدهُ المصدر المؤوَّل، ولايفيده المصدرُ الصَّريح، ثم إنَّ العبادةَ فعلٌ، فعبَّرَ بالفعل.

علَّةُ استنكارِهِم عبادةَ (الله وحده) دونَ الرَّبِّ أو صفةٍ أخرى:

بيانُ عدمِ جَحْدِهِم للرُّبوبيَّة، وأنَّ شِركَهم كان في الأُلوهيَّةِ

ظاهرُ قولِهم: ﴿وَحْدَهُۥ﴾ أنَّهم أنكروا أن يتركوا أصنامَهُم، ويُفردوا العبادةَ للّهِ، مع إقرارِهم بالإلهِ الخالقِ المبدع، كما هو شأن عُبّادِ الأوثان كلِّهم، ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾﴾ [العنكبوت: 61]، ولا يجحدُ ربوبيَّةَ اللّه - تعالى - من الكفرةِ إلّا مَنْ أُفرطت غباوتُه، أو مَنِ ادَّعاها لنفسهِ، كفرعون ونمرود[1]، لذا كان اسمُ الجلالة هو الأدلَّ، وبالسّياق أبرَّ.

دلالةُ العطفِ في قولِهم: ﴿وَنَذَرَ﴾:

تعليلُ إنكارِهم إفرادَ اللهِ بالعبادةِ

قولُهم: ﴿وَنَذَرَ﴾ هذا استبعادٌ منهم لاختصاص اللّه بالعبادةِ، وكيف يتركون ما ألفوا عليه آباءهم مِنَ الشِّرْكِ[2]؟ فلمّا كان هذا منهم في غايةِ العجبِ المستحقِّ للإنكار، أتبعوه ما هو كالعلّةِ لإنكارِهم عليه ما دعاهُم إليه[3]، ولأجلِ هذا الإنكارِ، استخدموا لفظ (نَذَرَ)؛ إذ الإذراء: أن يتخلَّى عن الشَّيء مع إهمالهِ؛ لعدم الاعتناءِ بشأنهِ، يقال: فلانٌ يذرُ الشَّيء، أي: يقذفُه لقلَّة اعتدادهِ بهِ[4]، فجعلوا تركَهم عبادةَ أصنامِهم بِمَنزلَةِ إهمالها، وعدم الاهتمام بها، وهذا ما تأباهُ نفوسُهم، وتستعظمُه.

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/302.
(2) الدرّة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 3/542.
(3) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 7/440.
(4) الخليل، العين، وابن عبّاد، المحيط في اللُّغة، والسَّمين الحلبيُّ، عُمدة الحُفّاظ، وجبل، المعجم الاشتقاقيُّ المؤصَّل: (وذر).

سرُّ إيثارِ التَّعبيرِ بالموصولِ دونَ الاسمِ الصَّريحِ:

التَّنبيهُ على أنَّ أكثرَ المعبوداتِ من الأوثانِ ممَّا لايَعقلُ

عبَّروا عن معبوداتهم بقولهم: ﴿مَا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾؛ وذلك لأنَّ غالب ما عُبد من دون الله مِنَ الأصنامِ ونحوها ممّا لا يعقلُ مِنَ المعبوداتِ؛ إذ إنَّ (ما) يُراد بها ما لا يعقلُ، وهذا على وجه التَّغليب؛ لأنَّ أكثر ما يُعبد من دونِ الله لا يعقل[1]، وهذا هو الَّذي اقتضى التَّعبير عن معبوداتِهم بطريقِ الموصوليَّة[2]، وقد "كان المنطقُ أن يعبدوا اللهَ وحدهُ لا أن يعبدوا الشُّركاء الَّذين لا ينفعونَهُم، ولا يضرّونهم، ولا يسمعونهم، بل إنَّ الواحدَ منهم كان يرى الهواء يهبُّ على الصَّنم، فيميل الصَّنمُ، ويقع على الأرض، وتنكسرُ رقبتُهُ، فيذهب إلى الحدّاد، ليعيدَ تركيب رأس جديدٍ للصَّنمِ، فكيف يُعبدُ مثل هذا الصَّنم؟"[3]. وعليه فإن بلاغة استخدام الموصول (ما) هو إقرارهم على أنفسهم دون أن يشعروا أنّهم يعبدون جمادات لا تعقل، ولا تضرّ، ولا تنفع.

سرُّ الإضافةِ إلى ضميرِ الجمعِ في قولهِ: ﴿يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾:

تعريضُهم بتسفيهِ النَّبيِّ (هود) لآبائهِ بتسفيهِ آبائِهم

ذكَّرَ قومُ هودٍ هودًا بأنَّ الأمرَ الَّذي أنكرهُ هوَ دينُ آباء الجميع، وفي هذا لون بلاغي؛ ألا وهو التعريضُ: فكأنَّهُ سفَّه آباءه؛ إيماءً إلى وجهِ الإنكارِ عليه، وإلى أنَّه حقيقٌ بمتابعةِ دينِ آبائِهِ، وهذا لونٌ من سفاهةِ دعاويهم، وقلبهم للحقائقِ والمفاهيم، وهم في هذا يصدقُ عليهم قولُ اللهِ تعالى: ﴿قُلۡ هَلۡ نُنَبِّئُكُم بِٱلۡأَخۡسَرِينَ أَعۡمَٰلًا ١٠٣ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعۡيُهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ يُحۡسِنُونَ صُنۡعًا ١٠٤﴾ [الكهف: 103 - 104]. وفيه أيضا اعتزاز أهل الباطل بباطلهم؛ تأمل كيف يفتخرون بأن آباءنا كانوا يعبدون غير الله!

(1) القنوجي، فتح البيان: 7/93، والعُليمي، فتح الرحمن: 2/540.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/207.
(3) الشّعراويّ، تفسير الشّعراوي - الخواطر: 7/4211.

فائدةُ ذكرِ (كان) في قولِهِ: ﴿مَا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾:

بيانُ قِدَمِ عِبادتِهم للأصنامِ، وتأصُّلهم في هذا الضَّلالِ

اجتلابُ (كان) في قولهم: ﴿وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعۡبُدُ﴾، لتدلَّ على أنَّ عبادَتَهم أمرٌ قديمٌ، مَضَتْ عليه العُصورُ[1]، " وهكذا يذهب بهم الغلوُّ في الكفرِ إلى درجةِ أن يعتبروا أمرًا نُكْرًا يستحقُّ الاستنكارَ، أن يعبدوا اللّه، ويتركوا ما كان عليه آباؤهم"[2]، على اعتبارِ أنَّ قِدَمَ الزَّمنِ مُسَوِّغٌ لهم أن يفعلوا ذلك، وهذا ملمحٌ من الاعتقادِ، لا دخلَ للتَّقادُمِ فيه.

سِرُّ التَّعبيرِ بالمضارعِ في قوله: ﴿مَا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾:

استحضارُ حالِ آبائِهم، في مواظبتِهم على عبادةِ الأصنام

التَّعبيرُ بالفِعل وكونه مُضارِعًا في قوله: ﴿يَعۡبُدُ﴾؛ ليدلَّ على أنَّ ذلك مُتكرِّرٌ مِن آبائهم ومُتجدِّدٌ، وأنَّهم لا يَفتُرون عنه[3]، ففي هذا إشارةٌ إلى تصوير آبائهم في حالهم ذلك - ليحسنَ في زعمِهم إنكارُ مخالفتِه لهم[4]، وكأنَّهم ماثلون أمامهم، وإنكار ما هو حالٌّ وقائم، صعبٌ تقبُّلُه، فكأنَّ في التَّعبيرِ إسنادًا لحجَّتِهم.

دلالةُ الفاءِ في قولِهِ: ﴿فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾:

بيانُ استعجالِ العقوبةِ، واحتقارِهم أمرَ النُّبوءَةِ

والفاءُ في قولِه: ﴿فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾، لتفريعِ طلبِ تحقيقِ ما توعَّدهم به، أي: ﴿فَأۡتِنَا﴾ عاجلًا، وفيه تصميمٌ على التَّكذيب، واحتقارُ أمر النُّبوءة، واستعجال العقوبة[5]، والعبارة تدلُّ على "أنَّهُ كان يعدهم العذابَ إن لم يصدِّقوه فيما يدعوهم إليه، وترك تقليدِهم آباءهم في عبادتِهم غيرَ اللّه"[6]. فدلّت الفاء على سرعة طلبهم لوقوع العذاب الذي يُخوِّفهم، وفيه كناية على عدم المبالاة التي يُظهرونها، وعلى استخفافهم بوقوع عذاب اللّه.

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 7/440، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/208.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 6/2886.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/208.
(4) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 7/440.
(5) ابن عطيَّة الأندلسيُّ، المحرَّر الوجيز: 2/419، والبقاعيّ، نظم الدُّرر: 7/440.
(6) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنة: 4/476.

سرُّ التَّعبيرِ بالأمرِ المجازيِّ في قولهِ: ﴿فَأْتِنَا﴾:

الإتيانُ بالشَّيء حقيقته أن يجيء مُصاحبًا إيّاه، وهو هنا مستعمل مجازًا في الإحضار والإثبات، واستعمالُ المجاز هنا فيه تعجيلٌ برؤية الوعيد حسًّا، ومرافقته التَّوعُّدَ حقًّا، "فالأمرُ في قولِهم: ﴿فَأْتِنَا﴾ للتَّعجيز؛ تحدّيًا لهود، وإشعارًا له بأنَّهم موقنون بأنْ لا صِدْقَ للوعيد الَّذي يتوعَّدهم، فلا يخشون ما وعدهم به من العذاب"[1].

الدِّلالَةُ على تيقُّنِهم من عدمِ صدقِ الوعيدِ الَّذي يتوعَّدهم به

نكتةُ التَّعبيرِ بالموصولِ (ما) في قولهِ: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾:

فائتِنا بما تعدُنا مِنَ العذابِ المُعجَّلِ، و(ما) بمعنى الَّذي، والعائد محذوفٌ، أي: بما تعدناه[2]، أو مصدريَّة، وجيء بالموصول للدَّلالة على أنَّهم لا يخشون شيئًا مِمّا يريده من الوعيد بالعذاب المُجمل، فالمرادُ بما تتوعَّدنا بهِ، وصيغت صلةُ الموصولِ من مادَّة الوعد؛ لأنَّه أخفُّ[3].

التَّعبيرُ بالعمومِ والإبهامِ إظهارٌ لتيقُّنِهم بكذبِ الوعيدِ، وعدم الخوفِ منه

فائدةُ استعمالِ الوعدِ في الوعيدِ:

تسميَتُهم للإنذار بالعذاب وعدًا - في قوله: ﴿بِمَا تَعِدُنَآ﴾ - من باب الاستهزاءِ[4]، والوعدُ الَّذي أرادوه وعدٌ بالشَّرِّ، وهو الوعيدُ الَّذي تضمَّنه قوله: ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ ۝٦٥﴾ [الأعراف: 65]، إذ هو مُشعرٌ بالتَّهديدِ والتَّخويف، ولأجل ذلك لم يعيِّنوا وعيدًا في كلامهم، بل أبهموهُ بقولهِم: ﴿بِمَا تَعِدُنَآ﴾، ويحتمل أن يكون الوعيدُ مفادًا بالتَّعريض في قوله: ﴿إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾ [الأعراف: 69]، المؤذن بأنَّ اللّه استأصلَ قومَ نوحٍ، وأخلفهم بعادٍ، فيوشكُ أن يستأصل عادًا، ويخلفهم بغيرِهم[5]، وفي كلِّ هذا دليلٌ على أنَّه كان يَعِدُهم بعذابِ اللّه إن داموا على الكفرِ[6]، والغرضُ أنَّه إذا لم يأتِهم بذلك العذابِ،

بيانُ استهزاءِ قومِ هودٍ بإنذارِهِ ووعيدِهِ، وأنَّه غير واقعٍ البتَّةَ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/208.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/146.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/226.
(4) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 7/440.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/209.
(6) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/89.

ظهر للقوم كونَه كاذبًا، وإنَّما قالوا ذلك؛ لأنَّهم ظنّوا أنَّ الوعد لا يجوز أن يتأخَّرَ، فلا جرمَ استعجلوه على هذا الحدِّ[1].

سرُّ إسنادِ الفعلِ (تعد) إلى الضَّميرِ العائدِ على هودٍ عليه السلام:

التَّعريضُ بتكذيبِهم نبوَّةَ هودٍ عليه السلام

أسندوا الفعلَ إلى ضميرِه في قولِهم: ﴿بِمَا تَعِدُنَآ﴾، تعريضًا بأنَّ ما توعَّدهم به، هو شيء من مُختَلَقاتِه، وليس من قِبَلِ اللّهِ تعالى[2]، وهذا نوعٌ من رجمهم بالغيبِ، وقولهم على اللّهِ ما لا يعلمون؛ إذ لا دليلَ لهم على ادِّعائهم ذلك، ولا قرينة تؤيِّد قولَهم، وتُبطِل ما جاءَ به وادَّعاه.

نُكتةُ استعمالِ (إنْ) الشَّرطيَّة في قوله: ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾:

الشَّكُّ في صدقِ الأنبياءِ شأنٌ عامٌّ في كلِّ الكافرين

عقَّب قومُ هودٍ كلامَهم بالشَّرطِ، فقالوا: ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾؛ استقصاءً لمقدرَتِه، قصدًا منهم لإظهارِ عَجْزِه عن الإتيانِ بالعذابِ، وجوابُ الشَّرطِ مَحذوفٌ دَلَّ عليه ما قبلَه، تقديره: أتيتَ به، وإلّا فلَسْتَ بصادقٍ[3]، كما أنَّ فيه إلهابًا وتهييجًا له عليه السلام، للتَّعجيل بمباشرةِ إيقاعِ العذابِ بهم، وفيه أيضًا إظهارٌ لثقتهم بكذبِه، ويقينهم بذلك.

سرُّ العدولِ عن قولِه: (إن كنت صادقًا) إلى قوله: ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾:

التَّشكيكُ في صدقِه بطريقِ الكنايةِ بإثباتِ الشَّيءِ بإثباتِ مَلزومِه

لأجلِ التَّعريضِ السّابقِ في قولهم: ﴿بِمَا تَعِدُنَآ﴾، لم يقولوا: (إن كنت صادقًا)، وقالوا: ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾، ليُشيروا إلى أنَّ في النّاس قومًا صادقين، وآخرين كاذبين، فهو تعريضٌ منهم بتكذيبِه من قبيل الكنايةِ الَّتي هي إثباتُ الشَّيء بإثباتِ مَلزومِه[4]، كأنَّ المعنى: (أنت كذّاب، ولا يمكن بحالٍ أن تُعدَّ من الصّادقين)، وهذا المعنى لايؤدّيه التَّعبير بـ (إنْ كُنْتَ صادقا).

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/302.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/209.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/209.
(4) ولهذا التَّعريض نظائر كثيرة في القرآن الكريم. يُنظر: ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/322.

غرضُ حذفِ المعمولِ:

حَذْفُ المعمول بلاغة إيجازٍ وفصاحةُ بيانٍ

قوله: ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾؛ يعني في قولك: إنَّك رسولُ اللّه[1]، أو في أنَّ العذابَ نازلٌ بنا[2]، فحذف المعمولَ لدلالة سياقِ الكلام عليه، وهو لونٌ من الإيجازِ الَّذي يُستغنى فيه عن المعلومِ دلالةً، حتَّى لا يكونَ الإطنابُ بذكره عبئًا على السّياق، وتكون بلاغةُ حذفه خادمةً لبلاغةِ المؤدَّى تحقيقًا للإفصاحِ والبيانِ.

بلاغةُ حذفِ الجوابِ، والدَّلالةُ عليه بما قبلَهُ:

تلويحُهم إليه وإيماؤهم إلى التَّكذيبِ بنبوَّتِهِ ووعيده

قوله: ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾، جوابُ (إنْ) محذوفٌ لدلالةِ المذكور عليه، أي: فائتِ به[3]، وإلّا فلست بصادقٍ[4]، أو إن كنت من الصّادقين في الوعيد، فإنَّ مناظرتك لا تؤثِّر فينا[5]. وفي هذا الجوابِ تلويحٌ إليه، وإيماءٌ منهم إلى التَّكذيب[6]، وبهذا اتَّضحَ أنَّه لا أمل في اقتناعهم بالدَّعوة إلى الإيمان[7]. كما أنَّ في الحذف إلماعًا إلى أنَّهم على يقينٍ من كونهِ غيرَ قادرٍ على الإتيانِ، فحذف من القولِ ما لا يمكنُ وقوعُهُ عقلًا عندهم.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(نَذَرُ) و(نترك):

الإذراءُ: التَّخلِّي عن الشَّيء مع إهماله والتَّركُ مع عدمِ التَّعلُّق

الإذراء: أن يتخلَّى عن الشَّيء مع إهمالهِ؛ لعدمِ الاعتناءِ بشأنهِ، يقالُ: فلانٌ يذرُ الشَّيءَ، أي: يقذفهُ لقلَّةِ اعتدادهِ بهِ، ومنهُ الوَذْرَةُ، وهي قطعةٌ من اللَّحم، وتَسْميتُها بذلك لِقِلَّةِ الاعتداد بها[8].

---

(1) الخازن، لباب التأويل: 2/217.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/89.
(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 3/239.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/209.
(5) القونويّ، حاشيّة القونويّ، على البيضاويّ: 8/422.
(6) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 7/440.
(7) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 7/4211.
(8) الخليل، العين، وجبل، المعجم الاشتقاقيُّ المُؤَصَّل: (وذر).

وأمّا التَّرك؛ فهو "مفارقة الشَّيء ما كان يعلقُ بهِ، فيبقى بلا حاجةٍ إليه، فمن المفارقةِ: ﴿مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ﴾ [النّساء: 7]، أي: ممّا خلَّفوه من المالِ، وذهبوا، ثمَّ أُطلق في التَّخلّي عن الشَّيءِ وعدم التَّعلُّق بهِ، وعلى مجرَّدِ إبقائهِ على حاله دون مساسٍ بهِ، كأن لا علاقةَ لهُ بما يملكُ أمْرَهُ: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ۝٣٦﴾ [القيامة: 36]"[1].

والخلاصةُ: أنَّ الإذراءَ: تركٌ مع إهمالٍ، والتَّركُ: التَّخلّي عن الشَّيءِ، وعدمُ التَّعلُّق به، فاصطفى الإذراء تناسبًا مع سياقِ الاستفهام الإنكاريِّ.

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: 1/153، و152.

﴿قَالَ قَدۡ وَقَعَ عَلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ رِجۡسٞ وَغَضَبٌۖ أَتُجَٰدِلُونَنِي فِيٓ أَسۡمَآءٖ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٖۚ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُنتَظِرِينَ ٧١﴾ [الأعراف: 71]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

مجابهةُ هودٍ عليه السلام، لِمَا بدرَ من قومِهِ من كُفرٍ وتحدٍّ

لمّا كان قومُ هودٍ قد بالغوا في السَّفَهِ في القولِ، وكان قد عُلِمَ من مُحاورتِهِ عليه السلام الحلمُ عنهم، اشتدَّ التَّطلُّع إلى ما يكون من جوابِهِ لهذا، والتَّوقُّع له، وإزاءَ هذا التَّحدّي السّافر من قومِ هودٍ له ولدعوته، ولوعيدِ اللّه لهم، ما كانَ من هودٍ عليه السلام، إلّا أن جابَهَهم بالرَّدِّ الحاسم الَّذي تتجلَّى فيه الشَّجاعة التّامَّة، والثِّقة الكاملة بأنَّ اللّه سينصرُه عليهم، وينتقمُ له منهم، فشفى غليلَ هذا التَّشوُّف بقوله: ﴿وَقَعَ عَلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ رِجۡسٞ وَغَضَبٌۖ﴾[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَقَعَ﴾: أصابكم ونزلَ بكم، من الوُقوعِ: وهو ثبوتُ الشَّيءِ وسُقوطُه، يُقال: وقع الطّائرُ وقوعًا. وأكثرُ ما جاءَ في القُرآنِ مِن لفظِ (وقع)، جاء في العذابِ الشَّديدِ[2]، وأصلُ وقعَ يدلُّ على سقوطِ شيءٍ مع صدمٍ وشِدَّةٍ، ومنه الواقعة: الدّاهية والنّازلةُ من صروفِ الدَّهر"، ومنه حدوثُ الأمرِ العظيم[3]. والمعنى هُنا: قد وَجَبَ عليكم بِمَقالَتِكُمْ هذه من رَبِّكُم رجسٌ[4].

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 7/440، والطّنطاويّ، التَّفسير الوسيط: 5/306.
(2) الرّاغب، المفردات، وابن فارس، مقاييس اللُّغة: (وقع)، وتذكرة الأريب، وابن الجوزي، ص: 113، والكفويّ، الكليّات، ص: 918.
(3) حسن المصطفوي، التَّحقيق في كلمات القرآن: 13/171، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (وقع).
(4) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 7/237، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 3/435، والشّوكانّي، فتح القدير: 2/249.

2) ﴿رِجْسٌ﴾: عَذابٌ وسَخَطٌ، ويُطلَقُ الرِّجسُ على كلِّ ما استُقذِرَ مِنَ العمَلِ، وعلى العمَلِ المُؤَدِّي إلى العَذابِ والعِقابِ والغضَبِ. وأصل (رجس): النَّتْنُ، ويَدُلُّ أيضًا على اختلاطٍ، ومنه القَذَرُ؛ لأنَّهُ لَطْخٌ وخَلْطٌ[1].

3) ﴿أَتُجَٰدِلُونَنِي﴾: تُخاصمونني، يقالُ: جادلَ يُجادِل مُجادَلةً، خاصمَ، ورجلٌ جَدِلٌ مِجدالٌ، أي: خَصِمٌ مِخْصام[2]، وأصلُ (جدل) يدلُّ على امتدادِ الخصومةِ ومراجعةِ الكلامِ[3]. أتخاصمونني وتناظرونني في أسماءٍ سمَّيتُموها أصنامًا لا تضرُّ ولا تنفع[4].

المعنى الإجْماليُّ:

ردُّ هودٍ عليه السلام على قومه، وتهديدهُ لهم بالعقابِ الشَّديدِ

قال هودٌ لقومِهِ رادًّا عليهم: قد حلَّ بكم عذابٌ وغضبٌ من ربِّكم ﷻ، أتخاصمونني في أصنامٍ سمَّيتُموها أنتم وآباؤكم آلهةً، ما نزَّل اللّه بها من حُجَّةٍ ولابرهان، فانتظروا عقاب اللّه، وأنا معكم، ننتظرُ ما ينزلُ بكم[5].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ شبهِ كمالِ الاتِّصال لجملةِ: ﴿قَالَ قَدۡ وَقَعَ عَلَيۡكُم﴾ ممَّا قبلَها:

جوابُ المعاندين فيه شفاءٌ لصدورِ المؤمنينَ

لمّا كانوا قد بالغوا في السَّفهِ في قولهم: ﴿أَجِئۡتَنَا لِنَعۡبُدَ ٱللَّهَ وَحۡدَهُۥ﴾، وكان قد عُلِمَ من محاورته عليه السلام لهم، الحِلْمُ عنهم؛ اشتدَّ التَّطلُّع إلى ما يكون من جوابه لهذا، والتَّوقُّع له، فشُفي غَليلُ هذا التَّشوُّفِ بقوله: ﴿قَالَ قَدۡ وَقَعَ عَلَيۡكُم﴾[6]، فجيءَ بالفصل؛ لأنَّه

(1) الرّاغب، المفردات ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (رجس)، والكفويّ، الكليّات، ص: 465، وابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 145، وابن جرير، جامع البيان: 10/280.
(2) الفراهيديّ، العين: (جدل)، ونشوان الحميريّ، شمس العلوم: 2/1023.
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (جدل).
(4) ابن جرير، جامع البيان: 12/523، والنّيسابوريّ، غرائب القرآن: 3/271.
(5) لجنة من عُلماءِ الأزهر، المنتخَبُ في تفسير القرآنِ الكريم، ص: 216، ونُخْبة من أساتذة التَّفسير، التَّفسير المُيَسَّر، ص: 159، وجماعَةٌ من علماء التَّفسير، المُخْتَصَر في تفسير القرآن الكريم، ص: 159.
(6) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 7/440.

كلامٌ مستأنَفٌ، مسوقٌ لبيان جواب هودٍ لقومه[1]، فبينَ الجملتينِ شبهُ كمالِ اتِّصال حيث وقعتِ الثّانيةُ من الأولى موقعَ الجوابِ عن سؤالٍ أثارتْهُ الجملة السّابقة، تقديرهُ: فماذا قال؟ والارتباطُ بين السُّؤالِ وجوابه من أعلى وجوهِ الالتئام.

دلالةُ تصديرِ الجوابِ بالحرف (قد):

الإيذانُ بتقريبِ زمنِ الماضي من الحالِ

قوله: ﴿قَدْ وَقَعَ﴾ اقترنَ الفعلُ وقَعَ بـ(قَدْ)؛ للدَّلالةِ على تَقريبِ زَمنِ الماضي مِن الحال، مِثلُ: (قد قامَتِ الصَّلاةُ)[2] تحقيقًا للوقوعِ في مواجهة استهزائهِم، والظّاهر أنَّ ما فعلوه قبل حين قليلٌ، كانوا يستحقّون به أشدَّ العذابِ، وكان ردُّه حاسمًا حازمًا، بعد أن أدَّى دورهُ في البلاغِ، وردَّ أمرهُ إلى مَنْ يملك النَّواصيَ، ليصبَّ عقابَهُ على أهلِ المعاصي، مِمَّن كفر وأنكر واستكبر.

سرُّ العدولِ بالتَّعبيرِ عن المستقبلِ بالفعلِ الماضي في ﴿قَدْ وَقَعَ﴾:

الإشعارُ بتحقُّقِ وقوعِ العذابِ بعد استِنفادِ جميعِ الأسباب

قوله: ﴿وَقَعَ﴾ فيه استعمالُ صيغةِ المُضيِّ في مَعْنى الاستقبالِ؛ إشعارًا بتَحقيقِ وقوعِه، فالتَّعبيرُ بالماضي لتنزيلِ المتوقَّع منزلةَ الواقعِ، كما في قوله تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ﴾ [النّحل: 1][3]، وفي ذلك ما فيه من زيادةِ التَّحذيرِ.

التَّعبيرُ بالمجازِ بالفعلِ (وَقَعَ) في قولِهِ: ﴿قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم﴾:

إفادةُ ثبوتِ العذابِ، وتَحقُّقِ نزولِهِ عليهِم، كما أخبر رسولُهُم

﴿وَقَعَ عَلَيۡكُم﴾ أي: وجَب وثَبَت؛ لأنَّهم طلبوا العذابَ الَّذي خوَّفهم بهِ وحذَّرهم منه، فقال لهم: ﴿قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم﴾، وأصلُ استعمال الوقوعِ في نزول الأجسام، واستعمالهُ هنا - فيما ذُكر - مجازٌ من إطلاقِ السَّبَبِ على المُسَبَّبِ. ويجوزُ أن يكونَ في الكلام

(1) الدرة، إعراب القرآن وبيانه: 3/385.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/89، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/210.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/89، والآلوسي، روح المعاني: 4/396.

استعارةٌ تبعيَّة، والمعنى: (قد نَزَلَ عليكم)[1] وفي التَّعبيرِ بالمجازِ تلاؤُمٌ مع التَّحذير؛ إذِ العذاب الآتي من العلوِّ لا مردَّ لهُ.

وقد يُحمل قوله: ﴿وَقَعَ﴾، على معنى وجدَ وحصلَ، والمعنى: إرادةُ إيقاعِ العذابِ عليكم حصلت من الأزلِ إلى الأبدِ؛ لأنَّ قولَنا: حصلَ لا إشعارَ له بالحدوثِ بعد ما لم يكن[2].

والأظهرُ أنَّ: ﴿وَقَعَ﴾، معناه: حَقَّ وثَبَت، من قولهم للأمر المحقَّقِ: هذا واقعٌ، وقولهم للأمر المكذوب: هذا غير واقعٍ، فالمعنى: حَقَّ وقُدِّر عليكم[3]، فأعلمهم بهذا الفعل أنَّ القضاءَ قد نَفَذَ وحلَّ عليهم الرِّجس، وهو السَّخَطُ والعذاب[4].

دلالةُ حرف الجرِّ (على) الدَّاخل على الضَّمير(كم) في ﴿عَلَيْكُم﴾:

الدَّلالةُ على الاستعلاءِ والثُّبوتِ القويِّ مفيدةٌ في الإبانة

بالنَّظرِ إلى المعاني السّابقةِ للفعل (وَقَعَ)، والمفيدةِ للنُّزول، والتَّقديرُ: نجد أنَّ المُقدَّرات تُضاف إلى السَّماء، وحرفُ الاستعلاء على ذلك ظاهرٌ. وفي تعريفِ الوقوعِ بمعنى: الثُّبوت أيضًا يكون حرف الاستعلاءِ، إمّا لأنَّه ثبوت قويٌّ آكدُ ما يكون واجبه، أو لأنَّه ثبوتٌ حسيٌّ لأمرٍ نازل من علوٍّ، وعذاب اللّه تعالى موصوفٌ بالنُّزول من السَّماء[5].

سرُّ تقديمِ شبهِ الجملة الأُولى ﴿عَلَيْكُم﴾ على شبهِ الجملةِ الثَّانيةِ ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾:

استدعاؤهم وقوع العذاب سبب التعجيل بنزوله

في قوله: ﴿وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ تقديمٌ للظَّرفِ[6] الأوَّل ﴿عَلَيْكُم﴾، على الثّاني (مِنْ رَبِّكُمْ)، مع أنَّ مَبْدأ الشَّيءِ متقدِّمٌ

(1) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 7/237، والآلوسي، روح المعاني: 4/396.
(2) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/303.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/209.
(4) ابن عطيَّة الأندلسيُّ، المحرَّر الوجيز: 2/420.
(5) الآلوسي، روح المعاني: 4/396.
(6) يطلق النُّحاة، وخاصَّة القدماء منهم على الجارِّ والمجرور لفظ الظَّرف، لأنَّ كلمة الظَّرف عندهم تشمل شبهَ الجملة بنوعيهِ المفعول فيه، والجارّ والمجرور وتطلق على كلّ منهما مجازًا، يُنظر: وابن هشام، مغني اللَّبيب، ص: 272.

على مُنتهاه؛ للمُسارعةِ إلى بيانِ إصابةِ المكروهِ لهم، وقُدِّم المجرورُ الَّذي هو ضميرُهم على الَّذي هو وصْفُ ﴿رَبِّكُمْ﴾؛ لأنَّهم المقصودُ الأوَّلُ بالفعلِ[1].

بلاغة تقديم الجارَّيْنِ والمَجْرُورَيْنِ:

لاهتمامِ بتَعجيلِ ذِكرِ المغضوبِ والغاضِبِ والتَّشويقِ إلى المؤَخَّرِ

تقديمُ الظَّرفينِ ﴿عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ على الفاعلِ الَّذي هو قوله تعالى: ﴿رِجْسٌ﴾، للاهتمامِ بتَعجيلِ ذِكرِ المغضوبِ والغاضِبِ، مع ما فيهِ من التَّشويق إلى المؤخَّر، ولأنَّ المَجرورَينِ مُتعلِّقانِ بالفعلِ، فناسَب إيلاؤُهما إيّاه، ولو ذُكِرا بعدَ الفاعِلِ؛ لتوهِّم أنَّهما صِفتانِ له[2]. ولأنَّ في الفاعلِ نوعَ طولٍ بما عُطف عليه، من قوله تعالى: ﴿وَغَضَبٌ﴾، فربَّما يُخِلُّ تقديمهما بتجاوب النَّظمِ الكريم[3].

سِرُّ انتخابِ التَّعبيرِ بالرُّبوبيَّةِ دونَ الألوهيَّةِ:

التَّذكيرُ بجزاءِ الكُفرِ بالمُنعمِ المُحسِنِ

قولهُ: ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي: مُربّيكم الَّذي غَرَّكم به تواتُر إحسانِه عليكم، وطول إملائه لكم[4]، واللّه رؤوفٌ بعبادهِ وإن عصوه، وهو لا يترك لهم فرصةً لِلرُّجوعِ والتَّجاوز عن فعالهم، إلّا فتح مجال القبولِ فيها، فهو قد عاملَ عادًا قومَ هودٍ بمقتضياتِ الرُّبوبيَّةِ، لا بمستلزمات الألوهيَّةِ، وهو ذاته ما فعله مع نظرائِهم من ثمودَ حين قال: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّواْ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾﴾ [فُصِّلت: 17].

معنى الرِّجسِ وبلاغةُ المجازِ فيه:

بيانُ أنَّ الخُبثَ والاضطرابَ موجبانِ للنِّقمةِ والعذابِ

احتمل لفظُ الرِّجس هنا عدَّة معانٍ منها: العذابُ الشَّديد والاضطراب والرِّجس مجازٌ في خبث الباطن وفساد النَّفس، والرِّجس بمعنى: اللَّعنة، وكلُّها هنا مرادةٌ، فاللَّعن سببٌ في الإصابة

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 3/239، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/210 - 211.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/210 - 211.
(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 3/239، والآلوسي، روح المعاني: 4/396.
(4) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 7/441.

بخبثِ الباطن، وفسادِ النَّفس، وكلاهما سببٌ في العذاب الشَّديد والاضطرابِ، وفي هذا إيجازٌ وإعجازٌ[1].

عَطْفُ الغَضَبِ على الرِّجْسِ، وتأخيرهُ عليه:

حلولُ غضبِ اللهِ عليهم بسببِ خبثِ نفوسِهم

قوله: ﴿رِجْسٌ وَغَضَبٌ﴾ عطفَ الغضبَ على الرِّجس لبيان أنَّ الرِّجس قد أُريدَ بهِ الانتقامُ الحتمُ، فلا يمكنُ رفعهُ[2]، وتأخيرُ الغضبِ عن الرِّجسِ؛ لأنَّ الرِّجسَ، وهو خبثُ نُفوسهم، قد دَلَّ على أنَّ استمرارهم في الضَّلالِ، أصبحَ أمرًا متأصِّلًا فيهم، فأوردَ غضبَ اللّه عليهم لما وقع منهم من فسقٍ ورجسٍ، فوقوعُ الرِّجسِ والغضبِ عليهم حاصلٌ في الزَّمن الماضي بالنِّسبة لوقت قول هودٍ[3].

نكتةُ تنكيرِ الغضبِ والرِّجسِ:

إفادةُ التَّهويلِ في السِّياق لإعطاءِ الحدثِ ما يستحقُّه من اهتمامٍ

التَّنوينُ في: ﴿رِجْسٌ﴾ و﴿وَغَضَبٌ﴾ للتَّفخيم والتَّهويل[4]، فهُما رِجْسٌ وغَضَبٌ مخيفان، فلا عذابَ كعذاب اللّه، ولا غَضَبَ كغضبهِ ﷻ. فدلالة التنكير إنما هي لتعظيم أمر هذا الرجس، وهذا الغضب. ثم إن اللّه جمع عليهم بين العذاب البدني الواقع من الرجس، وبين العذاب النفسي الواقع من الغضب.

بلاغةُ الاستفهامِ الإنكاريِّ:

الإنكارُ عليهم مُخاصمتَهم بالباطل، واستقباحُ وقوعِ ذلك منهم

جاء قوله: ﴿أَتُجَٰدِلُونَنِي﴾ استئنافًا بعد الإخبارِ بوقوع ما استعجلوه، وفي الاستئنافِ نعيٌ وتعييب عليهم، وتوبيخٌ لهم، وتحقيرٌ لمستندهم الَّذي يأوون، فهي أسماءٌ لا حقائقَ لها، ولا نفع منها، والمعنى: أتخاصمونني في أسماءٍ سمَّيتموها أنتم وآباؤكم، فهذا إنكارٌ منه لمخاصمتهم له، فيما لا ينبغي فيه الخصامُ، وهو ذكرُ

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 7/441، وأبو حيّان، البحر المحيط: 5/89، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/210.

(2) محمد رضا، تفسير المنار: 8/444.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/210.

(4) الآلوسّي، روح المعاني: 4/396.

ألفاظٍ ليس تحتها مدلولٌ، يستحقُّ العبادة، فصارتِ المنازعةُ باطلةً بذلك[1]، فالهمزةُ فيه للإنكارِ، والتوبيخ، والاستقباح[2].

نكتةُ التَّعبيرِ عن الأصنامِ بالأسماءِ في مقامِ المُجادلةِ:

بيانُ أنَّ آلهتهم لا تَحمِلُ في حقيقتِها إلَّا مُجرَّد الاسم الَّذي لا يدلُّ على معناه

لمّا كانت آلهتهم تلك الَّتي يجادلون فيها، لا تزيد على الأسماء؛ لكونها خاليةً من كلِّ معنى، قال: ﴿فِيٓ أَسۡمَآءٖ﴾، ثمَّ بيَّن أنَّه لم يسمِّها آلهة مَنْ يعبد به، فقال: ﴿سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم﴾[3]، وذلك لأنَّهم كانوا يسمّون الأصنامَ بالآلهة مع أنَّ معنى الإلهيَّة فيها معدومٌ، كما فعل كفّار قريش حين سمّوا واحدًا منها بالعُزَّى، مشتقًّا من العَزيز، والله ما أعطاه عزًّا أصلًا، وسمّوا آخر منها باللّات، وليس له من الإلهيَّة شيء[4].

وهذا كما يقالُ لما لا يليق، ما هو إلّا مجرَّد اسم، فالمعنى: أتخاصمونَني في مُسمَّياتٍ وضعتم لها أسماء لا تليقُ بها، فسمَّيتموها آلهةً، من غير أن يكون فيها من مِصداق الإلهيَّة شيء ما؛ لأنَّ المستحقَّ للعبوديَّة، ليس إلّا مَنْ أوجدَ الكُلَّ، وهيَ بمعزلٍ عن إيجاد ذَرَّة[5].

بلاغةُ الجناسِ الاشتِقاقيِّ بين لفظي: ﴿أَسۡمَآءٖ﴾ و﴿سَمَّيۡتُمُوهَآ﴾:

ملاحظةُ اعتبارِ معاني الإلهيَّةِ عند مَنْ وضعَ تلكَ الأسماءَ

الأسماءُ توضعُ للمسمَّيات المقصودةِ من التَّسميةِ، وهم إنَّما وضعوا لها الأسماءَ، واهتمّوا بها، باعتبار كونِ الإلهيَّة جزءًا من المسمَّى الموضوع له الاسم، وهو الدّاعي إلى التَّسميَةِ، فمعاني الإلهيَّة وما يتبعها ملاحظةٌ، لمن وضَع تلك الأسماء[6]، وهذا ما يُشير إليه الجناس الاشتقاقيُّ بين الاسمِ ﴿أَسۡمَآءٖ﴾ وفعلِه ﴿سَمَّيۡتُمُوهَآ﴾.

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/89.
(2) الهرريّ، حدائق الرَّوح والرَّيحان: 9/393.
(3) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 7/441.
(4) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/303.
(5) الآلوسّي، روح المعاني: 4/397.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/211.

معنى الفعلِ ﴿سَمَّيۡتُمُوهَآ﴾، وعلَّةُ تعدِّيهِ إلى مفعولٍ واحدٍ:

معنى ﴿سَمَّيۡتُمُوهَآ﴾ أي: أحدثْتُموها قَريبًا، أنتم وآباؤكم، وهي (صَمودُ وصُداءُ والْهَباءُ) فالجدالُ إذ ذاك يكونُ في الألفاظ لا مدلولاتِها، ويَحْتَمِلُ أن يكونَ الجِدال وقع في المسمَّيات، وهي الأصنام، فيكون أطلقَ الأسماءَ، وأرادَ بها المسمَّيات، وذلك على حذف مضاف، أي: (أتُجادِلونَني في ذواتِ أسماء) ويكون المعنى: (سَمَّيْتُموها آلهةً) وعبدْتُموها من دون الله، و﴿سَمَّيۡتُمُوهَآ﴾: يَتَعَدَّى إلى مَفْعولَيْنِ، وقَدْ حُذِفَ الثّاني هُنا لدلالة السّياق والحالِ عليه، وقد قيل: إنَّهم سمَّوا كلَّ صنمٍ باسمٍ على ما اشتهوا، وزعموا أنَّ بعضهم يسقيهم المطر، وبعضَهم يشفيهم من المرض، وبعضَهم يصحبُهم في السَّفرِ، وبعضَهم يأتيهم بالرِّزق[1]، فسمَّوا الأصنامَ آلهةً، وذلك معدومٌ فيها[2].

بيانُ إحداثِهم لتلكَ الأسماءِ ونسبتِها للألوهيَّةِ بحسبِ اعتقادِهم فيها

فائدةُ الإتيانِ بالضَّميرِ المنفصلِ (أنتم)، وسِرُّ عطفِ قولِهِ: ﴿وَءَابَآؤُكُم﴾:

﴿أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم﴾ إنكارٌ، واستقباح لإنكارهم مجيئَه ﷺ داعيًا لهم إلى عبادةِ الله - تعالى - وحده، وتركِ ما كانَ يعبدُ آباؤهم من الأصنام[3]، فكان إنكارهُ عليهم بحسبِ إنكارهِم وافتخارهِم بتقليدِ آبائِهم من قبلُ، حين قالوا له: ﴿قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِنَعۡبُدَ ٱللَّهَ وَحۡدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾.

التَّأكيدُ على أنَّ هذه التَّسمياتِ، هي بدعٌ أحدثوها هم وآباؤهم

دلالةُ صيغةِ (فعَّل) في قوله: ﴿مَّا نَزَّلَ﴾:

قولهُ: ﴿نَزَّلَ﴾، هذا التَّفعيلُ يأتي بمعنى الفِعلِ المُجَدَّدِ، وبمعنى الفعلِ بالتَّدريجِ، فقَصَد النَّفيَ بكلِّ اعتبارٍ: سواءٌ كان تجديدًا أو تدريجًا، وإشارةً إلى أنَّهُ لو نَزَلَ عليهم في الأمرِ بعبادَتِها شيءٌ

إفادةُ نفي التَّجديدِ والتَّدرُّجِ في الإنزالِ مُبالغةٌ في بيانِ ضلالِهم وعماهم

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/89.
(2) الخازن، لباب التّأويل: 2/217.
(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 3/239، والآلوسي، روح المعاني: 4/397.

واحِدٌ، لتوَقَّفوا فيه؛ لعَدَمِ فهْمِهم لمعناهُ، حتى يُكَرِّرَ عليهم الأمرَ فيه مَرَّةً بعدَ أخرى، فدلَّ ذلك قطعًا على أنَّ الأمرَ لهم بعبادةِ الأصنام، إنَّما هو ظَلامُ الهوى؛ لأنَّه عَمًى محضٌ، مِن شأنِ الإنسانِ رُكوبُه بلا دليلٍ أصلًا[1].

نكتةُ تخصيصِ اسمِ الجلالةِ (الله) بالذِّكرِ في هذا المقامِ:

التَّنبيهُ على استئثارِ اللهِ بعلمِ الغيبِ، وأنَّه مصدرُ كلِّ تنزُّلٍ

ونَفي أن تكون الحجَّةُ منزَّلةً من اللّه؛ لأنَّ شأنَ الحُجَّةِ في مثلِ هذا أن يكونَ مخبَرًا بها من جانبِ اللّهِ - تعالى - لأنَّ أمورَ الغيبِ ممّا استأثرَ اللّهُ بعلمه[2]، والمعنى: أنَّكمْ سمَّيتم بها معبوداتكم، أنتم وآباؤكم، ما نزَّلَ اللّه بها من حجَّة تحتجّون بها، على ما تدعونه لها من الدَّعاوى الباطلة[3].

سِرُّ تخصيصِ التَّنزيلِ بذكرِ الألوهيَّةِ في هذا المقامِ:

الإشارةُ إلى كونِ الحِجاجِ والمناظرةِ في الألوهيَّةِ

وخصَّ التنزيلَ بالألوهيَّةِ دون الرُّبوبيَّةِ في هذا المقامِ؛ لأنَّه مقامُ حجاجٍ ومناظرة في شأن الألوهيَّة والعبوديَّة، فناسبَ السّياقُ ذكرَ الاسمِ الجليل(اللّه) الدّالِّ على ذلك.

سرُّ إيثارِ التَّعبيرِ بـ(سُلطان) دون (حُجَّة):

بيانُ قوَّةِ السُّلطانِ في كونِهِ يتسلَّطُ على نفسِ المُعارِض، ويُقنعُهُ

السُّلطانُ: الحجَّةُ الَّتي يصدِّق بها المخالفُ، سمّيت سلطانًا؛ لأنَّها تتسلَّطُ على نفس المعارض، وتقنعه[4]، ففي التَّعبيرِ بلفظ (سلطان)، ما في لفظ الحجَّةِ وزيادة، فالسُّلطان البرهان المحقَّقُ للغلبة، والحجَّة فيها معنى قوَّة الظُّهور.

معنى الفاءِ وبلاغةِ الأمرِ المجازيِّ في قولِهِ: ﴿فَٱنتَظِرُوٓاْ﴾:

إفادةُ التَّفريعِ بانتظارِ العذابِ على الإنذارِ والتَّهديدِ السَّابق

والفاءُ في قولِه: ﴿فَٱنتَظِرُوٓاْ﴾ لتَفريعِ هذا الإنذارِ والتَّهديدِ السّابق؛ لأنَّ وُقوعَ الغَضبِ والرِّجسِ عليهم، ومُكابرتَهم واحتجاجَهم لِما لا

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 7/441 - 442.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/213.
(3) الشّوكانّي،: فتح القدير: 8/213.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/213.

حُجَّةَ له؛ ينشأُ عن ذلك التَّهديدِ بانتظارِ العذابِ[1]، فهي للتَّرتيبِ على ما تَقَدَّم[2].

بلاغةُ التَّعبيرِ بصيغةِ الأمرِ:

إفادةُ التَّهديدِ والوعيدِ الجديدِ بعدَ الوعيدِ السَّابقِ

في قولِه: ﴿فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُنتَظِرِينَ﴾ صيغةُ الأمْرِ ﴿فَٱنتَظِرُوٓاْ﴾ للتَّهديدِ والوعيد[3]، مثل قوله: ﴿ٱعۡمَلُواْ مَا شِئۡتُمۡ﴾ [فصلت: 40][4]، فقولهُ: ﴿فَٱنتَظِرُوٓاْ﴾، جعلَنا نَفهمُ قولَهُ السّابق: ﴿قَدۡ وَقَعَ عَلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ رِجۡسٞ وَغَضَبٌۖ﴾، بأنَّ الرِّجسَ والغضبَ قادمانِ لا محالة[5]، فذكرَ لهم عليهم السلام وعيدًا مُجَدَّدًا، فقال: ﴿فَٱنتَظِرُوٓاْ﴾، ما يحصلُ لكم بسببِ عبادةِ هذه الأصنام[6].

بلاغةُ حذفِ المعمولِ في قولِه: ﴿فَٱنتَظِرُوٓاْ﴾:

دلالةُ ما سبقَ من الوعيدِ على انتظارِ العذابِ والعقابِ

﴿فَٱنتَظِرُوٓاْ﴾ مترتِّبٌ على قولِه تعالى: ﴿قَدۡ وَقَعَ عَلَيۡكُم﴾، أي: فانتظروا نزولَ العذاب الَّذي طلبتموه بقولكم: ﴿فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾ إلى آخره[7]، فمفعولُ: ﴿فَٱنتَظِرُوٓاْ﴾، محذوفٌ دلَّ عليه قوله: ﴿رِجۡسٞ وَغَضَبٌۖ﴾[8].

بلاغةُ الفصلِ في قولِه: ﴿إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُنتَظِرِينَ﴾:

جوابُ السُّؤالِ النَّاشئِ عن التَّهديدِ السَّابقِ

الجملةُ الأولى إنشائيَّةٌ لفظًا ومعنى، والثّانية خبريَّة لفظًا ومعنى، فقوله: ﴿إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُنتَظِرِينَ﴾، استئنافٌ إخباريٌّ يخبر به هود عليه السلام عن حالِه بما يقطع عليهم أيَّ سؤالٍ أو استفسارٍ؛ إعلانًا عن ثقته في وعيد ربِّهِ لِمَنْ كفر به؛ لأنَّ تهديده إيّاهم يُثير سُؤالًا في نفوسهم أن يقولوا: إذا كنّا ننتظر العذاب، فماذا يكون حالُكَ؟ فبيَّن أنَّه

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/90، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/213.
(2) الآلوسّي، روح المعاني: 4/397.
(3) ابن عطيَّة الأندلسيُّ، المحرَّر الوجيز: 2/420، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/213.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/213.
(5) الشّعراويّ، تفسير الشَّعراوي: 7/4213.
(6) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/304.
(7) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 3/240 والآلوسي، روح المعاني: 4/397.
(8) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/213.

يَنتظر معهم، وهذا مقام أدَبٍ مع اللّه تعالى، كقوله تعالى تَلْقينًا لرسولِه محمَّد ﷺ: ﴿وَمَآ أَدۡرِي مَا يُفۡعَلُ بِي وَلَا بِكُمۡۖ﴾ [الأحقاف: 09][1].

بديعُ التَّصديرِ في الفاصلةِ والتَّذييلِ:

مقارنةٌ بينَ مَنْ يخشَى وُقوعَ العِقابِ، ومَن يَرجُو مِنَ اللهِ النَّصرَ والثَّوابَ

في قوله: ﴿فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُنتَظِرِينَ﴾ خُتِمَت هذهِ الآيةُ الكريمةُ بتذييلٍ بديعٍ، يصوِّرُ الفرقَ بين انتظارِ كُلِّ فريقٍ، ففَرْقٌ بين الانتظارَين: انتظارِ مَن يخشَى وُقوعَ العِقابِ، ومَن يَرجُو مِنَ اللّهِ النَّصرَ والثَّوابَ، وشتّان بين انتظار العذاب، وانتظار الرَّحمة؛ ولهذا فتَحَ اللّهُ بين الفَريقين، فقال: فَأَنْجَيْناهُ، أي: هودًا والَّذينَ آمَنُوا مَعَهُ، بِرَحْمَةٍ مِنّا، فإنَّه الَّذي هداهم للإيمانِ، وجعَلَ إيمانَهم سببًا ينالونَ به رَحمَتَه، فأنجاهم بِرَحمته[2]، فجيء بجناسِ الاشتقاق بين ﴿فَٱنتَظِرُوٓاْ﴾ و﴿ٱلۡمُنتَظِرِينَ﴾ للتَّفريق بين الانتظارين.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(الغضب) و(السَّخط):

السَّخطُ: الكُرهُ وعدمُ الرِّضا، فإذا اشتدَّ؛ صار غضبًا

الغَضَب: هو تغيُّرٌ يحصُل به ثورانُ دمِ القلبِ، لقصدِ الانتقام[3]، ليحصلَ عنهُ التَّشفّي للصَّدر[4]، والغضب ضدُّه الحلم، والغضبُ قد يصحبهُ فعل، وقد لا يصحبهُ.

والسَّخَطُ: ضدُّه الرِّضا،[5] والسَّخط إذا تعدَّى بنفسهِ، فهو خلافُ الرِّضا، يُقالُ: رضيَهُ، وسخطَهُ، وإذا تعدَّى بـ(على)، فهو بمعنى: الغَضَب، يقال: سخط اللّه عليهِ؛ إذا أراد عقابه[6].

والفرق بينهما: أنَّ في الغضب شِدَّةً وقوَّةً[7]، والغضبُ اشتدادُ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/213.
(2) السَّعديّ، تفسير السَّعديّ، ص: 294.
(3) الرّاغب، المفردات، ومرتضى الزَّبيديّ، تاج العروس: (غضب).
(4) الجرجانّي، التَّعريفات، ص: 209.
(5) ابن دُريد، جمهرة اللُّغة: 1/597.
(6) العسكريُّ، الفروق اللُّغويّة، ص:386.
(7) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: 4/428.

السَّخط[1]، فالغضبُ مراتبُ: أوَّلُها السُّخْطُ[2]، واستخدامُ الغضبِ في هذا الموضعِ، هو الأبرُّ بسياقِ الوعيدِ والتَّهديدِ.

(الجدال) و(الخصومة):

جَدِلَ الرَّجلُ جَدَلًا، فهو جَدِلٌ، من باب تَعِبَ؛ إذا اشتدَّت خصومته، وجادلَ مجادلة وجدالًا؛ إذا خاصمَ بما يشغل عن ظهورِ الحقِّ، ووضوحِ الصَّوابِ، هذا أصلهُ. ثمَّ استُعمل على لسان حَمَلَة الشَّرعِ في مقابلةِ الأدلَّةِ لظهورِ أرجحِها، وهو محمودٌ إن كان للوقوف على الحقِّ وإلّا فمذمومٌ[3]. والجدَلُ شدَّةُ الخصومة[4] ولفظُ الجدلِ هو المناسبُ للسّياقِ.

الجدالُ: اشتدادُ الخُصومةِ، ويُمدَحُ في مواضعَ؛ إذا كان بالَّتي هي أحسن

(الانتظار) و(التربُّص):

الانتظارُ: هو التَّرقُّب والثَّبات لتوقُّع ما يكون من الحالِ[5]، والتَّربُّص طولُ الانتظار والتَّمكُّث، وأصلهُ من الرُّبْصَةِ، وهي التَّلبُّث، يُقال: ما لي على هذا الأمر رُبْصةٌ، أي: تلبُّثٌ في الانتظارِ حتَّى طال[6]. ويُطلقُ على العِدَّة الَّتي تمكثُها المرأةُ بعد وفاةِ زوجها أو طلاقها، لأنَّها تُطيل الانتظار، قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ [البقرة: 234]، وقال الله تعالى: ﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ﴾ [البقرة: 228][7] فاصطفى النَّظمُ الكريمُ اللَّفظَ الدّالَّ على قلَّةِ المهلة، تناسبًا مع التَّعبيرِ بما يُعلي تحقُّقَ الوعيد.

التَّربُّصُ: انتظارٌ بمُكثٍ وطولٍ في المدَّة، والانتظارُ: ترقُّبٌ وتوقُّعٌ

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، وابن منظور، لسان العرب، ومرتضى الزَّبيديّ، تاج العروس: (سخط).
(2) الثّعالبيّ، فقه اللّغة، ص: 130.
(3) الفيّوميّ، المصباح المنير: 1/93.
(4) الرّازيّ، مختار الصّحاح: (جدل).
(5) المناوي، التَّوقيف على مهمّات التّعاريف، ص: 64.
(6) الجوهريّ، الصّحاح: (ربص)، والعسكريُّ، الفروق اللّغويّة، ص: 122، والكفويّ، الكليّات، ص: 320.
(7) المناويّ، التّوقيف على مهمّات التّعاريف، ص: 95.

﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ وَمَا كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٧٢﴾﴾ [الأعراف: 72]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الإخبارُ بسرعةِ نزولِ العذابِ بهم بعد تخويفهم وإقامةِ الحُجَّةِ عليهم

لمّا خوَّفهم هود عليه السلام بنزولِ العذابِ الَّذي استعجلوا، وطلبوه بقولِهم: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾، لم يطلْ انتظارُ هود عليه السلام، فقد حلَّ بهم العقابُ الَّذي توعَّدهم به سريعًا، فنزلَ بِهِم عذابٌ ساحِقٌ أهلَكَهُم اللّهُ تعالى بهِ، وأنجى اللّهُ تعالى هودًا، ومَنْ معهُ من المؤمنين[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ﴾: نَجّاه اللّه تعالى، أي: سلَّمه من الشَّرِّ، قال اللّه تعالى: ﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ﴾ [الأنعام: 63]، ويقال: نجّاهُ، أي: ألقاهُ على نَجْوةٍ من الأرضِ، قال اللّه تعالى: ﴿فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ﴾ [يونس: 92]، أي: نُلقيك على نجوةٍ[2]. والنَّجاةُ الخَلاصُ ممّا فِيهِ المَخافَة ونَظِيرُها السَّلامَة[3]، يُقال: نَجا الإنسانُ يَنْجُو نَجاةً: سَلِم[4]. وأصل النَّجاء الانفصالُ من الشَّيءِ، ومنه نجا فلانٌ من فلانٍ وأنجيتُهُ ونجَّيتُهُ[5]، والمعنى هُنا: فأنقذناهُ، وخَلَّصناهُ.

2) ﴿وَقَطَعْنَا دَابِرَ﴾: قطَع اللّهُ دابرَهم وغابرَهم: أفناهُم عن آخرِهم، قطَع دابرَ الشَّرِّ: استأْصَلَهُ، وقوله: ﴿وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾[6]، أي: أهلَكْناهم، واستأصلناهم عن آخرِهم[7].

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 6/2887، والطنطاوي، التَّفسير الوسيط: 5/307.
(2) نشوان الحِميريّ، شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم: (النّجية).
(3) مرتضى الزَّبيدي، تاج العروس: (نجو).
(4) الصاحب ابن عباد، المحيط في اللغة: (نجو).
(5) الرّاغب، المفردات: (نجو).
(6) أحمد مختار عمر، معجم اللّغة العربية المعاصرة: (دبر).
(7) النّيسابوريّ، إيجاز البيان: 1/335.

وقطْعُ دابرِ الإنسانِ: هو إفناءُ نَوعِه، ودابرُ القوم آخرُهم، وأصل (قطع): الفَصلُ، وأصل (دبر): آخِرُ الشَّيْءِ وخَلْفُهُ، خِلافُ قُبُلِه[1].

المعنى الإجْماليُّ:

إنجاءُ اللهِ نبيَّهُ الكريمَ هودًا عليه السلام، ومَنْ معهُ من المؤمنينَ

فسلَّمنا هودًا عليه السلام، ومَن كان معه مِن المؤمنينَ، برحمةٍ منّا عظيمةٍ، واستأصلنا بالهلاكِ الَّذين كذَّبوا بآياتنا، فلم يَبْقَ لهم من بقيَّةٍ ولا أثرٍ، وما كانوا داخلينَ في زمرة المؤمنين[2].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالةُ الفاءِ في قوله: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ﴾، وأثرُها في المعنى:

بيانُ تعجيلِ الإنجاءِ والإهلاكِ بعد قيامِ الحُجَّةِ وقطعِ المحجَّةِ

قولهُ تعالى: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ﴾ الفاءُ جاءت للتَّعقيبِ، أي: فوقعَ ما وقعَ؛ فأنجيناه[3]، فعجَّل اللّه استئصال عادٍ، ونجَّى هودًا والَّذين معه، أي: المؤمنين من قومهِ، فالمعَقَّبُ بهِ هو قطعُ دابرِ عادٍ[4]، وفي اصطفائها تحقيقٌ لحصول ما جاءَ من قبلُ، تهديدًا على سبيل التَّحقيقِ في قوله تعالى: ﴿قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ﴾.

سرُّ إيثارِ صيغةِ (أفعل) في قولهِ: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ﴾:

الإنجاءُ يدلُّ على سرعةِ التَّخليصِ من الهلاكِ

القرآنُ الكريم كثيرًا ما استعمل (نجَّى)، للتَّلبُّث والتَّمهُّل في التَّنْجية، ويستعمل (أنجى) للإسراع فيها، فإنَّ (أنجى) أسرعُ من (نجَّى)[5]، فإنجاءُ هودٍ والَّذين معه، يدلُّ على سرعة التَّخليصِ من الهلاك.

سببُ انتخابِ اسمِ الموصولِ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ بدلًا مِن (مَن):

رعايةُ ترتيبِ ما هو أصلٌ في الموصوليَّةِ

لفظ (الَّذي) وما تصرَّف منه للمثنَّى والمجموع أصلٌ في الموصولاتِ؛ إذ لا يخرجُ لفظُ (الَّذي) عن الموصوليَّة، أمّا (مَنْ)، فإنَّها تخرج إلى

(1) الرّاغب، المفردات، وابن فارس، مقاييس اللُّغة: (قطع)، وابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 154.
(2) لجنة من عُلماءِ الأزهر، المنتخَبُ في تفسير القرآنِ الكريم، ص: 216، ونُخْبة من أساتذة التَّفسير، التَّفسير الميُسَّر، ص: 159، وجماعةٌ من علماء التَّفسير، المخْتَصَر في تفسير القرآن الكريم، ص: 159.
(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 3/240.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/214.
(5) السامرائي، بلاغة الكلمة في التعبير القرآني، ص: 16.

الاستفهامِ والشَّرط وغيرهما، فهو ثانٍ عن الأصل في الموصوليَّةِ، فروعيَ هنا التَّرتيبُ في الموصوليَّةِ[1] بخلافِ ما جاءَ في قوله تعالى: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١١٩﴾﴾ [الشّعراء: 119].

بلاغةُ الاكتفاءِ بقولِهِ: ﴿مَعَهُۥ﴾ عن ذكرِ صفةِ الإيمانِ:

دلالةُ سياقِ الكلامِ على نجاةِ المؤمنينَ بذكرِ هلاكِ المكذِّبين

قوله: ﴿مَعَهُۥ﴾ يعني: مَنْ آمن معهُ برَحمةٍ سابقةٍ لهم من اللهِ وفَضْلٍ عليهمْ، حيثُ جعلَهم آمنوا، فكان ذلك سببًا لنجاتِهم، ممّا أصابَ قومَهم مِنَ العذابِ[2]. وقد آثرَ التَّعبيرَ بالظَّرفيَّةِ على صفة الإيمانِ، لما في المعيَّةِ من التَّأييدِ وشرف الصُّحبةِ، وهما نتاجُ الإيمان، فالمعيَّةُ هي المصاحبةُ في الدّين، وهي معيَّة مجازيَّة[3]، فلا تَنفَعُ المعيَّةُ في النَّسبِ بلا إيمانٍ[4]، فالمعيَّةُ هنا مجازٌ عن المتابعةِ[5].

معنى الباءِ في قوله: ﴿بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾، وموقعُ لفظِ (مِنَّا) من معناها:

الدَّلالةُ على أنَّ الرَّحمةَ سببُ النَّجاةِ، وأنَّها مُلازِمةٌ للمؤمنينَ في كلِّ وقتٍ وحينٍ

قولُه: ﴿بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾ الباءُ فيه للسَّببيَّة، أي: بسببِ رحمةٍ كانوا يستحقّونها[6]، ويجوزُ أن تكون الباءُ للمصاحبة، أي: فأنجيناهُ ورحمناه فكانت الرَّحمَةُ مصاحبةً لهم؛ إذ كانوا بمحلِّ اللُّطف والرِّفق، حيثما حَلّوا إلى انقضاءِ آجالِهم. وموقع (مِنّا) على هذا الوجهِ موقعٌ رشيقٌ جدًّا، يُؤْذِنُ بأنَّ الرَّحمةَ غيرُ منقطعةٍ عنهم، كقولِهِ: ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [الطّور: 48][7].

علَّةُ تنكيرِ (رحمة)، ووصفِها بشبهِ الجملةِ (مِنَّا):

بيانُ عِظَمِ الرَّحمةِ وكمالِها، واختصاصِها بأهلِ الإيمانِ

وتنكيرُ ﴿بِرَحْمَةٍ﴾ للتَّعظيمِ، أي: برَحْمَةٍ عظيمةٍ، لا يُقادَر قَدْرُها[8]،

(1) ابن الزَّبير الغرناطي، ملاك التأويل: 1/199.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/90.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/214.
(4) القونويّ، حاشيَته على البيضاويّ: 8/425.
(5) القنوجي، فتح البيان في مقاصد القرآن: 4/394.
(6) النَّيسابوري، غرائب القرآن: 3/271.
(7) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/214.
(8) الآلوسي، روح المعاني: 4/397.

ووَصْفُها بأنَّها من اللّه للدَّلالة على كمالِها[1]. وفي تنكيرِ الرَّحمةِ نكتةٌ أخرى، وهي الدَّلالةُ على النَّوع، أي: بنوعٍ من الرَّحمةِ، وهي الرَّحمةُ الَّتي تختصُّ بالمؤمنين من النُّصرةِ الموعودةِ لهم، قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ﴾: [غافر: 51]، وقال: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيۡنَا نَصۡرُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾: [الرّوم: 47].

قوله: ﴿مِّنَّا﴾، أي: من جهتنا، والجارُّ والمجرورُ متعلِّقانِ بمحذوفٍ، هو نعتٌ لـ (رَحْمَةٍ)، مُؤكِّدٌ لفخامتِها الذّاتيَّةِ المنفهمةِ مِن تنكيرِها بالفَخامةِ الإضافيَّةِ[2].

سِرُّ تقديمِ الإنجاءِ على الإهلاكِ:

الاهتمامُ بإنجاءِ المؤمنين، وسبقُ الرَّحمةِ للغضب تَعجيلٌ لمسرَّة السَّامعين

في قوله: ﴿فَأَنجَيۡنَٰهُ﴾ كانَ مُقتضَى الظّاهِرِ، أنْ يَكونَ النَّظمُ هكذا: (وقَطَعْنا دابرَ الَّذينَ كَذَّبوا، وأنْجَيْنا هودًا)، ولكن جَرَى النَّظمُ على خِلافِ مُقتضَى الظّاهِرِ، فبدأ بالمؤمنين اهتمامًا بشأنِهم[3]، والاهتمام بتَعجيلِ الإخبارِ بنَجاةِ هودٍ ومَن آمَن مَعه[4]، فتقديمُ ذكرِ الإنجاءِ على الإهلاك، للمسارعةِ إلى الإخبارِ به، والإيذانِ بسبق الرَّحمةِ الَّتي هي مقتضى الذّاتِ، وتقدُّمِها على الغضبِ الَّذي يظهر أثرُه بمقتضى جرائمِهم[5]. وفيه تنبيهٌ على أنَّ مناطَ النَّجاةِ هو الإيمانُ باللّه تعالى، وتصديقُ آياتِه، كما أنَّ مدارَ البَوارِ هو الكفرُ والتَّكذيب[6].

بلاغةُ الكنايةِ والعدولِ عن التَّعبيرِ بهلاكِهم إلى قطعِ دابرهم:

الدَّلالةُ على الإفناءِ التَّامِّ، والإهلاكِ الشَّاملِ العامِّ

قوله: ﴿وَقَطَعۡنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۖ﴾، كنايةٌ عن استئصالِهم بالهلاكِ بالعذابِ[7]، لأنَّ المعتادَ في الآفةِ إذا أصابتِ الآخرَ أن تمرَّ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/214.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/240، والآلوسي، روح المعاني: 4/397.
(3) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 7/442.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/214.
(5) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 3/237.
(6) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 3/240.
(7) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/90.

على غيرِه، والشَّيءُ إذا امتدَّ أصلُهُ أخذَ برمته[1]؛ لأنَّ قطع الدّابر يستعملُ فيمن يُستأصلُ بالهلاك.

و(الدّابر) الَّذي يَدْبُر القومَ، ويأتي خلفهم: فإذا انتهى القطعُ والاستئصال إلى ذلك، فلم يبقَ أحدٌ[2]، ففي هذا التَّعبيرِ كنايةٌ عن الإفناءِ التّامِّ، والإهلاك الشّامل العامِّ الدّالِّ على استئصالِ القومِ، وذهابِهم، ومحوِ آثارِهم، فلم تبقَ لهم باقيةٌ؛ لأنَّ ذهابَ آخرِ الشَّيء مستلزمٌ لذهاب ما قبلَهُ.

وفيه إعلامٌ منه تعالى أنَّ أخْذَه لهم كان على غيرِ أخْذِ المُلوكِ الَّذينَ يَعجِزونَ عن الاستقصاءِ في الطَّلَبِ، فتَفوتُهم أواخِرُ العَساكرِ والمتفرِّقين مِنَ الجُنودِ والأتباعِ[3]، فدلَّ بهذا اللَّفظِ أنَّه تعالى ما أبقى منهم أحدًا[4].

بديعُ الطِّباقِ المعنويِّ:

تصويرُ المباينةِ والمفارقةِ بين كلِّ فريقٍ

قولهُ تعالى: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۖ﴾، طباقٌ بديعٌ، يصوِّرُ حالةَ الفريقين، والمباينةَ العجيبة بين مآلِ كلٍّ منهما، حيثُ قابلَ بين نجاة المؤمنين، وهلاك الكافرين، بما تحمله كلمةُ (الإنجاء)، من التَّخليص السَّريع من الهلاكِ، وما تحمله عبارةُ (قَطْعُ الدّابر) من الإهلاكِ والاستئصالِ.

إيثارُ التَّعبيرِ باسمِ الموصولِ في قولهِ: ﴿دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ﴾:

عاقبة تكذيب المرسلين استئصال الكافرين

إنَّ التَّأمُّلَ في سياق الآيةِ يكشفُ غرضَ إظهارِ الموصولِ وصلته ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ﴾ في التَّعبير، مع إمكان الإضمارِ من تأديةِ المعنى، فلم يقلْ: (دابرَهم) على الأصل، ولكنَّه أظهرَ تصريحًا بالمقصودِ،

(1) القاسمي، محاسن التّأويل: 5/119.
(2) ابن عطيَّة الأندلسيُّ، المحرَّر الوجيز: 2/420.
(3) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/304، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 7/442.
(4) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/304.

وبيانًا لعلَّة أخذهم[1]، فالقومُ وضعوا الكفرَ موضعَ الشُّكر، وأقاموا المعاصيَ مقامَ الطّاعات، فكان تكذيبُهم هو السَّببَ في هلاكِهم الوخيم، وجرِّ العذابِ الأليم، وكانوا عبرةً للمعتبِرين ممَّن جاء بعدَهُم كالمشركين المكذِّبين[2].

فائدةُ قولِهِ: ﴿بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ في سياقِ الآيةِ الكريمةِ:

قولُهُ تعالى: ﴿وَقَطَّعۡنَٰهُمُ ٱثۡنَتَيۡنًا عَشۡرَةً أُمَمٗاۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسۡتَسۡقَىٰهُ قَوۡمُهُۥٓ أَنِ ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡحَجَرَۖ فَٱنۢبَجَسَتۡ مِنۡهُ ٱثۡنَتَا عَشۡرَةَ عَيۡنٗاۖ قَدۡ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٖ مَّشۡرَبَهُمۡۚ وَظَلَّلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلۡغَمَٰمَ وَأَنزَلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰۖ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ١٦٠ وَإِذۡ قِيلَ لَهُمُ ٱسۡكُنُواْ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةَ وَكُلُواْ مِنۡهَا حَيۡثُ شِئۡتُمۡ وَقُولُواْ حِطَّةٞ وَٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ سُجَّدٗا نَّغۡفِرۡ لَكُمۡ خَطِيٓـَٰٔتِكُمۡۚ سَنَزِيدُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٦١ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡ قَوۡلًا غَيۡرَ ٱلَّذِي قِيلَ لَهُمۡ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِجۡزٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَظۡلِمُونَ ١٦٢﴾ دليلٌ على أنَّه كانت لهود عليه السلام معجزاتٌ، ولكن لم تذكرْ لنا بتعيينها[3]، كما أنَّ في ذكر الآياتِ تأكيدًا لاستفراغ أسباب هدايتهم، واستحقاقِهم الاستئصالَ.

التَّدليلُ على وجودِ مُعجزاتٍ لنبيِّ الله هودٍ عليه السلام

دلالةُ عطفِ: ﴿وَمَا كَانُواْ مُؤۡمِنِينَ﴾ على ما قبلَها:

قولُهُ: ﴿وَمَا كَانُواْ مُؤۡمِنِينَ﴾، عطفٌ على صلةِ ﴿ٱلَّذِينَ﴾، وهي ﴿كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ وفائدةُ هذا العطف الإشارةُ إلى أنَّ كِلتا الصِّلتينِ موجِبٌ لقَطعِ دابرِهم، وهما: التَّكذيبُ، والإشراك، فهو داخلٌ معه في حكم الصِّلةِ[4]. وفي ذلك تأكيدٌ على كفرِهم، فإنَّ التَّكذيبَ يُفْهَمُ منهُ عدمُ إيمانِهم، فجاءَ التَّصريحُ تأكيدًا وفي ذلك تأكيدٌ لاستحقاقِهم العذابَ، فالمعنى: أنَّهم مكذَّبون، وعَلِمَ اللّه منهم، أنَّهم لو بقوا لم يؤمنوا أيضًا، ولو عَلِم تعالى أنَّهم سيؤمنون؛ لأبقاهم[5]. وفيهِ تَعريضٌ بمُشركي قُرَيشٍ، ولموعظتِهم ذُكرتْ هذه القَصصُ[6].

بيانُ إصرارِهم على الجمعِ بين الكفرِ والتَّكذيبِ الموجِبَيْنِ لقطعِ دابرهم

بلاغةُ النَّفي في قولِهِ: ﴿وَمَا كَانُواْ مُؤۡمِنِينَ﴾، والعدولِ عن (وما آمنوا):

قولُهُ: ﴿وَمَا كَانُواْ﴾، أي: وما كانوا خلقًا وجِبِلَّةً مستعدّين؛ لأن يؤمنوا مُستقبلًا، مهما أمهلهم اللّه، وأطال مدَّة اختبارِهم في ظروفِ الحياة الدُّنيا. ولفظُ ﴿مُؤۡمِنِينَ﴾ اسم فاعل بمعنى الفعل

بيانُ عدمِ استعدادِهم للإيمانِ خَلْقًا وجِبِلَّةً

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 7/442.
(2) أبي السّعود، إرشاد العقل السَّليم: 3/134، وأبو حيّان، البحر المحيط: 5/90.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/90.
(4) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 3/240.
(5) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/304.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/215.

المضارع، يدلُّ على الحالِ والاستقبالِ، وهذه العبارةُ جاريةٌ مجرى التَّعليل لأخذهِم، مؤذنةٌ بأنَّه لا يحصل منهم صلاحٌ، كما ختم قصَّةَ نوحٍ بقول: ﴿إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا عَمِينَ ٦٤﴾ [الأعراف: 64]، تعليلًا لإغراقِهم، أي: إنّا قطعنا دابرَهم، وهم مستحقّون لذلك؛ لأنَّهم غيرُ قابلين للإيمان، لما فيهم من شدَّةِ العنادِ، ولزوم الإلحاد، فالمعنى: وما كان الإيمانُ من صفتهم، أي: ما آمنوا في الماضي، ولا يؤمنون في الآتي[1].

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 7/443.

﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًاۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾﴾ [الأعراف: 73]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

ذِكْرُ قصَّةِ ثمودَ عَقِيبَ ما مضى من قصَّة عادٍ، لمجيئِهم بَعْدَهُمْ

أُتْبِعَتْ قِصَّةُ عادٍ بقِصَّةِ ثمودَ، لتقارنِهما غالبًا في القرآنِ، من أجلِ أنَّ ثمودَ عاصرت عادًا وخَلَفَتْها في عظمة الأمم، قال تعالى: ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ﴾ [الأعراف: 74]، وكثيرًا ما يقرنُ اللّهُ في كتابهِ بين ذكرِ عادٍ وثمودَ، لاشتهارهِما بين العربِ[1]، وقد جاءتْهُم حُجَّةٌ على رسالةِ صالحٍ، هي ناقةٌ معجزةٌ، وهي ناقةُ اللّهِ، وأمرهم أن يتركوها تأكلُ في أرضِ اللّهِ، ولا ينالوها بسوءٍ، فينالُهم عذابٌ شديدُ الإيلامِ وخيمُ العاقبة[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿بَيِّنَةٌ﴾: بصيرةٌ ويقينٌ ودَلالةٌ واضِحَةٌ عَقْلِيَّة كانَتْ أو مَحْسوسَة[3]، وتُطلَق على الحُجَّة والبُرهان، وأصلُ (بين) يدلُّ على الانْكِشافِ، ومنه "البَيِّنَةُ على المُدَّعي"؛ لأنَّ بها ينكشفُ الحقُّ ويتَّضح[4].

2) ﴿ءَايَةً﴾: علامةً، يُقال: آيةُ كذا، أي: علامَتُه، وسُمّيت الآيةُ علامةً لأنَّها علامةٌ على صدقِ مَن جاء بها، وأصل (آية) يدلُّ على

(1) الآلوسّي، روح المعاني: 4/315، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/12، وابن كثير، البداية والنّهاية: 1/151.

(2) لجنة من علماء الأزهر، المنتخب في تفسير القرآن الكريم: 1/151.

(3) الزَّبيدي، تاج العروس: (بين).

(4) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (بين)، وابن الجوزي، تذكرة الأريب، ص: 160، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 6/438.

النَّظر والتَّثبُّتِ، يُقالُ: تَأيّا يَتَأيّا تَأيِّيًا، أيْ: تَمَكَّثَ[1]، والمعنى هنا: علامة على صدق النَّبي صالح عليه السلام وأنَّه مرسل من عندِ اللّهِ[2].

3) ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا﴾: لا تُصيبوها، والمسُّ يُقال في كلِّ ما يُصيبُ مِن أذًى، وأصل (مسس) يدلُّ على جسِّ الشَّيءِ باليَدِ، والمعنى هنا: لا تَقتُلوها، ولا تَنالوها بعَقْرٍ[3].

❁ المعنى الإجْماليُّ:

دعوةُ صالحٍ عليه السلام قومَهُ للتَّوحيدِ مؤيَّدًا بمعجزةِ النَّاقةِ

ولقد أرسلنا إلى قبيلةِ ثمودَ أخاهم صالحًا الَّذي يشاركهم في النَّسبِ والوطن، يدعوهم إلى توحيدِ اللّه وعبادتِه، قال لهم: يا قومي، أخلصوا العبادةَ للّه وحده فليس لكم معبودٌ غيرَهُ يستحقُّ العبادةَ، قد جاءتكم علامةٌ واضحةٌ من اللّهِ على صدْقِ ما جئتكم به، تتمثَّلُ في ناقةٍ تخرج من صخرةٍ صمّاءَ، فاتركوها تأكلْ في أرضِ اللّهِ من المراعي، ولا تتعرَّضوا لها بأيِّ أذًى، فينالكم عذابٌ موجعٌ شديدُ الإيلام[4].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

عِلَّةُ وصْلِ قولِهِ تعالى: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا﴾ بِما قبلَهُ:

عطفُ القصَّةِ على القصَّةِ منهجٌ قرآنيٌّ في ترسيخِ العِظةِ والعبرةِ

عَطْفُ قولِ اللّهِ سُبحانَهُ: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا﴾، مِن بابِ عطف الجُمَلِ، فيُقدَّرُ بعد واوِ العطفِ الفعلُ (أرسلنا)، وقد دلَّ عليه حرفُ الجرِّ (إلَى) مع ضَميمَةِ قولِهِ تعالى في طالعَةِ إيرادِ قَصص الأنبياءِ من هذه السّورةِ: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ [الأعراف: 59]، وعلى هذا تكونُ

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (أيَّ).

(2) الرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (أيي)، وابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 212، وابن جرير، جامع البيان: 1/104، و592، وابن عزيز السِّجستانيّ، نزهة القلوب: 1/47.

(3) الرّاغب، المفردات، وابن فارس، مقاييس اللُّغة: (مسّ)، وابن الهائم، البيان، ص: 83، وابن جرير، جامع البيان: 12/456.

(4) لجنة من عُلماءِ الأزهر، المنتخَبُ في تفسير القرآنِ الكريم، ص: 216، ونُخْبة من أساتذة التَّفسير، التَّفسير الميَسَّر، ص: 159، وجماعَةٌ من علماء التَّفسير، المخْتَصَر في تفسير القرآن الكريم، ص: 159.

الواوُ لِمجرَّدِ الجمعِ اللَّفْظيِّ من عطفِ القصَّةِ على القصَّةِ؛ ترسيخًا للعِظة والعبرة.

ويَجوزُ أن تكونَ الواوُ من عطفِ المفرداتِ، فتكون قَدْ عطَفَت لفظَ ﴿صَٰلِحًا﴾ على لفظ ﴿نُوحًا﴾، وعلى هذا تكون الواوُ نائِبَةً عن العاملِ، وهو الفعلُ (أَرْسَلْنا)، والتَّقدير: لقد أرسلنا نوحًا إلى قومِهِ، وهودًا أخا عادٍ إليهم، وصالحًا أخا ثمودَ إليهم[1].

نُكتةُ تقديمِ الجارِّ والمجرورِ على المعمول:

غرضُ مجيءِ الإيجازِ بالإضمارِ من غيرِ إعادةِ لفظِ ثمودَ

قُدِّم الجارُّ والمجرور ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ﴾ على المفعولِ الأصليِّ ﴿أَخَاهُمْ﴾؛ ليتأتَّى الإيجازُ بالإضْمارِ، حيثُ أُريدَ وصفُ صالحٍ، بأنَّه من إخوةِ ثمودَ ومِن صميمِهم من غير افتقارٍ إلى إعادةِ لفظِ ثمودَ مع تجنُّبِ عودِ الضَّميرِ على متأخِّرٍ لفظًا ورُتبةً[2].

دلالةُ المجازِ المُرسلِ:

بيانُ كونِهِ من ذوي النَّسَبِ في قومِهِ، يجعلُ بلاغَتَهُ أمكنَ وأحسنَ

لفظ (الأخ) في قولِ اللّه سُبحانَهُ: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا﴾، مستعمَلٌ في مطلَقِ القريبِ، على سبيلِ المجازِ المرسَلِ بعلاقةِ الإطلاقِ والتَّقييدِ؛ إذ إنَّ الأخَ في الأصلِ هو القريبُ المشارِكُ لقريبِهِ في أبيه أو أمِّه أو هُما معًا، فجُرِّدَ عن هذا القَيْدِ، وأُطْلِقَ على مطلق القريبِ، ومنه قولُهم: يا أخا العرَبِ. ويُطْلَقُ الأخُ مجازًا أيْضًا على الصّاحب الملازِمِ، كقولهم: أخو الحَرْبِ، أي: الملازِمُ لها؛ لفَرْطِ شجاعَتِهِ.

فوصفُ صالحٍ عليه السلام، بأنَّه أخو ثمودَ؛ لكونِهِ كانَ من ذوي نسبِ قومِهِ.

سِرُّ وَصْفِ صالحٍ وهودٍ بالأخوَّة لقومِهِ، وعدمِ وصفِ نوحٍ بها:

بيانُ عدمِ تمايزِ القبائلِ وتشعُّبِها زمنَ نوحٍ عليه السلام

وإنَّما وُصِفَ هودٌ وصالحٌ (عليهما السلام) بذلكَ، ولم يوصفْ نوحٌ عليه السلام بأنَّه أخٌ لقومِه؛ لأنَّ النّاس في زمن نوحٍ لم يكونوا قد انقسموا شعوبًا

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/200.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8 ب/200.

وقبائلَ، والعربُ يقولون للواحدِ من القبيلةِ: أخو بني فلان، قصدًا لعزوِه ونسبتِه، تمييزًا للنّاس؛ إذ قد يَشتركون في الأعلام[1].

دلالةُ إبدالِ لفظِ (صالحًا) من لفظِ (أخاهم):

إحضارُه في ذهنِ السَّامعِ ابتداءً باسمٍ يختصُّ به حكمةٌ في البيان

﴿صَٰلِحًا﴾ مِن قَوْلِه تعالى: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا﴾، بدلٌ من ﴿أَخَاهُمْ﴾؛ يُرادُ به إحضارُه في ذهن السّامع ابتداءً باسمٍ يختصُّ به، ولزيادَةِ تقريرِه.

بلاغةُ الاستئنافِ البيانيِّ:

بيانُ الجوابِ على سببِ الإرسالِ ومضمونِه

فُصِلَ قولُ اللّه تعالى: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ عمّا قبلَهُ؛ لوقوعِه استئنافًا بيانيًّا، فبينَ الجملتينِ شِبْهُ كمالِ الاتِّصالِ، وذلك أنَّ الإخبارَ بإرسالِ صالحٍ عليه السلام إليهم لمّا كان مَظِنَّةً لأن يُسألَ، ويُقال: فماذا قالَ لهم؟ قيل جوابًا عن ذلك: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ﴾[2].

نكتةُ النِّداءِ بالحرفِ (يا) في قوله: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ﴾:

الإشعارُ بأنَّ انصرافَهُمْ عن عبادَةِ اللهِ بمنزِلَةِ البُعْدِ المكانيِّ

في قولِ اللّه تعالى: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ﴾، أسلوبُ نداءٍ، وقد جاءَ بـ (يا) - وهي في الأصلِ موضوعةٌ لنداءِ البعيدِ - لِنُكْتَتَيْنِ: إحداهُما: الإشعارُ بأنَّ انصرافَهم عن عبادَةِ اللّه تعالى بمنزِلَةِ البُعْدِ المكانيِّ في مقامِ مخاطبَةِ الموحِّدينَ، والأخرى: الإيماءُ إلى عِظَمِ شَأْنِ موضوعِ النِّداءِ وهو العبادة، فإنَّ له جلالًا وخطرًا.

دلالةُ النِّداء بلفظ (القوم) في قوله: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ﴾:

إرادةُ استعطافِهِمْ بتذكيرِهمْ بالقرابَةِ المقتضيةِ للإحسانِ والتَّراحم

(قَوْم) من قولِه تعالى: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ﴾، لغةٌ في (قَوْمي)، فحُذِفَت الياءُ إيجازًا وتخفيفًا، ووقعَ النِّداءُ بلفظ القَوْم ﴿يَٰقَوْمِ﴾؛ لإرادَةِ استعطافِهِمْ بتذكيرِهمْ بالقرابَةِ رابطة النَّسَبِ المقتضيَةِ للإحسانِ والتَّراحُم[3].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/201.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 3/241.
(3) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 7/444.

بَراعَةُ المجازِ في قولِهِ: ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾:

بيانُ العبادةِ الشَّرعيَّة المعتدِّ بها، يلزَمُ فيها التَّوْحِيدُ

العبادَةُ في الآية يُرادُ بها التَّوحيدُ، فمعنى: ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ وحِّدوه، والتَّعبيرُ عَنِ التَّوحيد بالعبادة مِن المجازِ المُرْسَلِ بعلاقةِ المَلْزوميَّة؛ فإنَّ العبادةَ الشَّرعيَّةَ المعتدَّ بها يلزَمُ فيها التَّوْحيدُ، فالتَّوحيد شرطٌ في صحَّتِها، ونكتةُ التَّعبيرِ بالمجازِ: التَّنبيهُ على عِظَمِ شأن التَّوحيد، ومنزلتِه مِنَ العبادَةِ.

دلالةُ حرفِ الجرِّ (من) في قولِهِ: ﴿ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓۚ﴾:

نُكتَةُ التَّوكيدِ مراعاةُ حقِّ التَّوحيدِ

(مِنْ) في قولِهِ تعالى: ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓۚ﴾، صِلَةٌ يُرادُ بها توكيدُ النَّفْيِ[1]، فهو في قوَّةِ تَكرار الجملةِ مرَّتين أو ثلاثًا، والتَّقدير: (ما لكم إلَهٌ غيرُهُ، ما لَكُمْ إلهٌ غيرُهُ)، ما لكُمْ إلهٌ غيرُهُ، ونُكتَةُ التَّوكيدِ مراعاةُ حقِّ التَّوحيدِ، والإيماءُ إلى عظيمِ شأنِهِ وجلالَةِ قَدْرِهِ.

علَّةُ فصلِ قولِهِ تعالى: ﴿قَدۡ جَآءَتۡكُم بَيِّنَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡۖ﴾ عَمَّا قَبْلَهُ:

تعليلُ صحَّةِ ما دعاهم إليهِ وأمرَهُم بهِ من التَّوحيدِ والعبادةِ

فُصِلَ قولُ اللهِ تعالى: ﴿قَدۡ جَآءَتۡكُم بَيِّنَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡۖ﴾ عمّا قَبْلَهُ؛ لوقوعِها تعليلًا لِما قبلَها، وذلك أنَّه لمّا دلَّ على صِدْقِهِ في دَعْوَى النُّبوَّةِ أنَّه دعا ربَّهُ، فأخرجَ لهم النّاقةَ، ودَعَوْا هم أوثانَهم فلم تُجِبْهم؛ علَّلَ صحَّةَ ما دعا إليه بقولِه: ﴿قَدۡ جَآءَتۡكُم بَيِّنَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡۖ﴾، أي: آيةٌ ظاهرةٌ على صِدْقي في دَعوى الرِّسالَةِ، وصحَّة ما أمرتُكُمْ بِهِ[2]. والمعنى: اعبدوا اللّه تعالى وحْدَهُ؛ لأنَّه جعلَ لكم آيةً على صِدْقي فيما بلَّغْتُ لكم[3]، فكأنَّهم قالوا: ائتِنا ببيِّنَةٍ تدلُّ على صدقِكَ وأنَّك مرسَلٌ إلينا، فجاء الجواب: ﴿قَدۡ جَآءَتۡكُم بَيِّنَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡۖ﴾[4].

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 7/444.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 7/444.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/217.
(4) أبو حيان، البحر المحيط: 5/92.

دَلالة (مَنْ) في قولِهِ تعالى: ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾:

تنبيهُ الجاهِلينَ الَّذين يظنُّونَ أنَّ الخوارِقَ مِمَّا يدخُلُ في كسْبِ الصَّالحينَ

(مِنْ) في قولِهِ تعالى: ﴿قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾، لابتداءِ الغايَةِ مجازًا، ويجوزُ أن تكون للتَّبعيضِ، والمعنى: قد جاءتْكُمْ بيِّنَةٌ مِنْ بيِّناتِ ربِّكُمْ[1]، المحسِنِ إليكم بنعمهِ وألطافهِ، فقولُه: ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾ للإعلامِ بأنَّها لَيسَتْ مِن فِعلِ صالحٍ عليه السلام، ولا ممّا ينالُها كَسْبُه، وكذلك سائِرُ ما يؤيِّدُ اللّهُ تعالى به الرُّسُلَ مِن خَوارِقِ العاداتِ؛ ففي ذلك تنبيهٌ للجاهِلينَ الَّذين يظنّونَ أنَّ الخوارِقَ، مِمّا يدخُلُ في كسْبِ الصّالحينَ الَّذين هم دونَ الأنبياءِ[2].

دلالةُ التَّعبيرِ باسمِ اللهِ (الرَّبِّ) في قوله: ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾:

الإيماءُ إلى أنَّ اللهَ تعالى لَم يَقْطَعْ إحسانَهُ إلى خَلْقِهِ

في التَّعبيرِ باسْمِ (الرَّبِّ) في قَوْلِهِ سُبْحانَه: ﴿قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾، إشعارٌ بأنَّ الإتيانَ بالبيِّناتِ من مقتضياتِ إحسانِ اللهتعالى إلى خَلْقِهِ؛ لكَوْنِها أدلَّةً وبراهينَ على صِدْقِ رُسلِهِ، فتكون داعيةً لأقوامِهِمْ إلى الهدايَةِ، وهي سِرُّ سعادَتِهِمْ في الدُّنيا والآخِرَةِ. وفي التَّعبيرِ باسم الرَّبِّ - أيضًا - إيماءٌ إلى أنَّ اللهَتعالى، لَم يَقْطَعْ إحسانَهُ إلى خَلْقِهِ[3].

كمالُ الاتِّصال بين قولِهِ تعالى: ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ﴾ وما قَبْلَهُ:

تنزيلُ الجملةِ منزِلةَ البَيان مِنَ الجملةِ قبلَهَا

فُصِلَ قولُ اللّه تعالى: ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً﴾، عمّا قبلَهُ؛ لأنَّه نُزِّلَ منزِلَةَ البيانِ مِنَ الجملةِ قبلَها، وذلك أنَّ النّاقَةَ هي البيِّنَةُ المذكورَةُ قبْلُ في قولِهِ سُبحانَهُ: ﴿قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾[4] وفي ذلك تعظيمٌ لقدرِ البيِّنةِ، فكأنَّهُ ذكرها مرَّتين.

دلالةُ الإشارةِ في قولِهِ: ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ﴾:

أُشيرَ إلى الآيةِ - ناقَةِ اللّهِ تعالى - بعد تكوينِها باسْمِ الإشارةِ

(1) الآلوسّي، روح المعاني: 4/401.
(2) محمد رضا، تفسير المنار: 8/446.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/444.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/218.

﴿هَٰذِهِۦ﴾ في قولِه تعالى: ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمۡ ءَايَةٗۖ﴾، تحقيقًا لها، وتفخيمًا لشأنِها، وتعظيمًا للّهِ تعالى في بديعِ خَلْقِها وسُرْعَةِ تكوينِها، ورَفْعًا لشأْنِ نَبيِّ اللّه صالحٍ عليه السلام حيثُ فعَلَ اللّهُ تعالى ذلك لأجْلِه[1].

تفخيمُ شأنِ النَّاقةِ، وتعظيمُ اللهِ تعالى في بديعِ خَلْقِهَا وسُرْعَةِ تكوينِهَا

سِرُّ الإضافة في ﴿نَاقَةُ ٱللَّهِ﴾:

إضافَةُ النّاقَةِ إلى الاسم الأعظم (اللّه) في قولِه ﷻ: ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمۡ ءَايَةٗۖ﴾، إضافَةُ خَلْقٍ وتَشْريفٍ[2]، وليسَتْ إضافَةَ صِفَةٍ لموصوفٍ، فهيَ كالإضافَةِ في نحْوِ: بَيْتِ اللّه، ورَسولِ اللّه. وفي إضافَتِها إلى اللّهِ سبحانه تعظيمٌ لها مِنْ جهةِ بديعِ خَلْقِها، حيثُ كان خَلْقُها من غيرِ اجتماعِ ذكَرٍ وأنْثى، ولَمْ تكُن في صُلْبٍ ولا رحِمٍ، ولم يَكُنْ للخَلْقِ فيها أدْنَى سَعْيٍ[3]، ولأنَّها حُجَّةٌ على الْقَوْمِ، ولِما أوْدَعَ اللّهُ تعالى فيها مِنَ الآياتِ الباهِراتِ المذكورَةِ في قِصَّةِ قَوْمِ صالحٍ عليه السلام[4].

بيانُ كونِ الإضافةِ إضافَةَ خَلْقٍ وَتَشْريفٍ

دلالةُ التَّخْصِيصِ بِشبه الجملةِ ﴿لَكُمۡ﴾:

دلَّ تخصيصُ النّاقَةِ بهِمْ بقولِه: ﴿لَكُمۡ﴾ مِنْ قولِه سُبحانَهُ: ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمۡ ءَايَةٗۖ﴾ حالَ كونِها آيةً لهم، لتَعُمَّ مَن شاهدَها ومَن سَمِعَ بها، وصحَّ عِنْدَهُ أمرُها[5]، كما أنَّهم خُصّوا بذلك؛ لأنَّهم هم السّائِلون لها، أو المنتفعونَ بها مِن بينِ سائِرِ النّاسِ لو أطاعوا[6].

بيانُ خصوصيَّةِ هذه النَّاقةِ في كونِها لهم، لتعمَّ كلَّ مَنْ عاينها منهم، أو سمعَ بها

دلالةُ التَّأْكِيدِ فِي قولِه تعالى: ﴿قَدۡ جَآءَتۡكُم﴾:

أُكِّدَ قولُ اللّهِ سُبحانَه: ﴿قَدۡ جَآءَتۡكُم بَيِّنَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمۡ ءَايَةٗۖ﴾، بـ (قَدْ)، وزاد على التَّأكيدِ ما أفادَهُ قولُه: ﴿لَكُمۡ﴾ مِنَ التَّخصيصِ تَثْبيت كوْنِها آيةً[7]، فهو يقول لهم: "قد جاءتكم

تأكيدُ كوْنِهَا آيةً

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/444.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/444.
(3) الثّعلبيّ، الكشف والبيان: 4/251، وإسماعيل حقّي، روح البيان: 3/190.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/92.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/444.
(6) ابن عادل الدّمشقيّ، اللباب في علوم الكتاب: 9/192.
(7) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/218.

حُجَّةٌ أو موعظةٌ واضحةٌ من ربِّكم، تَدلُّ على صدقِ رسالتي، وهي هذه النّاقةُ بناء على اقتراحكم، لكم آيةٌ خاصَّةٌ دالَّةٌ على صدقي؛ لأنَّكم المشاهدون لها وحدكم"[1].

دِلَالَةُ اللَّامِ فِي قوله تعالى: ﴿لَكُمْ ءَايَةً﴾:

إفادةُ الاختصاصِ في كونِها مجعولَةً مِنْ أجلِهِمْ

أفادَتِ اللّامُ في ﴿لَكُمْ﴾ مِن قَوْلِهِ ﷻ: ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً﴾ الاختصاصَ، والمعنى: أنَّها آيةٌ مُقنِعَةٌ لكُمْ، ومجعولَةٌ مِنْ أجلِكُمْ[2].

دلالةُ الفاءِ فِي قولِهِ: ﴿فَذَرُوهَا﴾:

تفريعُ كونِ النَّاقةِ آيةً، لتَرْكِ التَّعرُّضِ لَهَا بسُوءٍ

الفاءُ في قَوْلِ اللّه سُبحانَهُ: ﴿فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِيٓ أَرْضِ ٱللَّهِ﴾ تفريعيَّةٌ على كونِها آيةً من آياتِ اللّه تعالى؛ فإنَّ ذلك ممّا يوجِبُ تَرْكَ التَّعرُّضِ لَها بسوءٍ[3].

نُكتَةُ الإظهارِ فِي مقامِ الإضْمارِ:

الإظهارُ لئلّا يُتَوَهَّمَ اختصاصُ أكلِهَا بأرضٍ دُونَ أخرَى

في قَوْلِ اللّه سُبْحانَهُ: ﴿فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِيٓ أَرْضِ ٱللَّهِ﴾ إظهارٌ في مقامِ الإضمار؛ إذْ إنَّ مقتضَى الظّاهر أنْ يَرِدَ النَّظْمُ القرآنيُّ: (فذروها تأكلْ في أرضِهِ)؛ لتقدُّمِ التَّصريحِ بالاسْمِ الأحسن (اللّه) في قولِهِ تعالى: ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً﴾، وذلكَ لئلّا يُتَوَهَّمَ اختصاصُ أكلِها بأرضٍ دونَ أخرَى[4].

سِرُّ إِضَافَةِ الْأَرْضِ إِلَى اسْمِ (اللهِ):

إضافةُ محلِّ رَعْيِها إليهِ قَطْعٌ لِعُذْرِهِمْ فِي التَّعرُّضِ لَهَا

أُضيفَت الأرضُ إلى الاسْمِ الْأَحْسَنِ (اللّهِ) في قَوْلِ اللّهِ سُبحانَهُ: ﴿فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِيٓ أَرْضِ ٱللَّهِ﴾؛ لأنَّه لمّا أُضيفَتِ النّاقةُ إليه سبحانه في قوله: ﴿نَاقَةُ ٱللَّهِ﴾؛ أضيفَ محلُّ رَعْيِها إليهِ؛ قَطْعًا لِعُذْرِهِمْ في التَّعرُّضِ لها، فكأنَّه قيلَ: الأرْضُ أرْضُ اللّهِ، والنّاقةُ ناقَةُ اللّهِ، فذَروا

(1) وهبة الزّحيلّي، التّفسير الوسيط: 1/686.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/218.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/444، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/242.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/445.

ناقةَ اللهِ تَأْكُلْ في أرْضِهِ؛ إذْ لَيْسَتِ الأرْضُ لَكُم، ولا ما عَلَيْها مِنَ النَّباتِ مِنْ إنْباتِكُمْ، فأيُّ عُذْرٍ لَكُمْ في التَّعرُّضِ لَها بالمَنْعِ[1].

بلاغةُ الِاكتِفاءِ فِي قولِهِ: ﴿فَذَرُوهَا تَأْكُلْ﴾:

نُصَّ على الأكلِ في قولِ اللهِ سُبحانَهُ: ﴿فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِيٓ أَرْضِ ٱللَّهِ﴾، ولم يُذْكَرِ الشُّرْبُ؛ اكتفاءً عَنْهُ بذِكْرِ الأكْلِ؛ لأنَّه مُلازِمٌ لَهُ في العادَةِ، وقد ذُكِرَ في موضعٍ آخرَ في قولِهِ ﷻ: ﴿لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾[2][الشُّعراء: 155].

ذِكْرُ الشُّربِ اكتفاءٌ عَنْهُ بذِكْرِ الأكْلِ؛ لأنَّه مُلازِمٌ لَهُ في العَادَةِ

دلالةُ التَّعْبِيرِ بالمَسِّ فِي قولِهِ: ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ﴾:

في التَّعبيرِ بالمسِّ في قولِ اللهِ (ﷻ): ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ﴾، تنبيهٌ بالأدْنَى على الأعلَى؛ إذْ إنَّ نهيَهُم عن مسِّها بسوءٍ - إكرامًا لآيةِ اللهِ تعالى - يقتضي نهيَهُم عن نحرِها وعَقْرِها، ومَنْعِها عن الكلأِ والماءِ، مِنْ بابِ أوْلَى وأحْرَى؛ لأنَّ المسَّ هو مقدِّمَةُ الإصابَةِ بالشَّرِّ الشّامِلِ أنواعَ الأذيَّةِ، فهو صادِقٌ على أقلِّ اتِّصالِ شيءٍ بالجِسْمِ[3]، (فكلُّ ما ينالُها ممّا يُراد منه السّوء، فهو منهيٌّ عنه، وذلك لأنَّ الحيوانَ لا يسوؤه إلّا ما فيه ألَمٌ لِذاتِهِ؛ لأنَّهُ لا يَفْقَهُ المعاني النَّفسانيَّةَ)[4].

تنبيهٌ بالأدْنَى عن الأعلَى؛ إذِ النَّهيُ عن مسِّهَا بسُوءٍ، يقتضِي النَّهيَ عن عَقْرِها

سِرُّ تَنْكِيرِ لفظ (سُوءٍ):

نُكِّر (سوء) في قَوْلِ اللهِ (ﷻ): ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ﴾، لإرادَةِ التَّعميمِ؛ إذِ النَّكِرةُ في سياقِ النَّهْيِ، تُفيدُ العُمومَ؛ وذلك مبالغةٌ في النَّهْيِ تشديدٌ فيه، والمعنى: لا تَتَعَرَّضوا لَها بِشَيْءٍ مِمّا يَسوؤُها أصْلًا، فلا تَطْرُدوها، ولا تَعْقِروها، ولا تُريبوها إلى غَيْرِ ذلكَ من ضُروبِ إيصالِ السّوءِ إليها[5]، فتنكيرُ (سوءٍ) في سياقِ النَّهيِ، يُفيدُ

غرضُ إرادَةِ التَّعميمِ المبالغَةُ في النَّهْيِ والتَّشديدُ فيه

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/93، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 7/445، والآلوسي، روح المعاني: 4/401.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/242.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/92، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/242.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/219.
(5) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/242، والآلوسي، روح المعاني: 4/401.

أنَّ الوعيدَ مُرَتَّبٌ على أيِّ أنواعِ الإيذاءِ لها، سَواءٌ في نَفْسِها، أو أكْلِها، أو شُربِها[1].

بلاغَةُ الاِسْتِعَارَةِ فِي قوله: ﴿فَيَأۡخُذَكُمۡ﴾:

تصويرُ استئصالِهم بالعذابِ بالأخْذِ المقتضي خلوَّ المأخوذِ عن مكانه

الأخْذُ في قولِ اللّه تعالى: ﴿فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ استعارةٌ[2]، وذلك أنَّ أصلَ الأخذِ التَّناوُلُ باليَدِ، وهو يقتَضي خُلوَّ المأخوذِ عن مكانِهِ الأوَّلِ، وانْعِدامَهُ مِنْهُ، فشُبِّهَ استئصالُهم بالعذابِ بالأخْذِ بجامعِ مُطْلَقِ الإعدام والإفْناءِ على سبيلِ الاستعارةِ التَّصريحيَّةِ التَّبعيَّةِ.

براعةُ المجازِ العقليِّ في قولِهِ: ﴿فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾:

الإشعَارُ بإحاطَةِ العذابِ بِهِمْ أخذًا وإهلاكًا

إسنادُ الأخْذِ إلى العذاب في قولِهِ سُبحانَهُ: ﴿فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ مجازٌ عقليٌّ؛ فإنَّ العذابَ سَبَبٌ في ذلكَ، والنُّكْتَةُ في ذلك: الإشعارُ بإحاطَةِ العذابِ بِهِمْ أخذًا وإهلاكًا، حتَّى كأنَّهُ هوَ الآخِذُ نفسُهُ.

اعتبارُ مناسبةِ القصَّةِ لِما سبقَها من القَصَصِ مَطلعًا ومضمونًا:

تنويعُ المطالعِ في القصصِ يقتضي تنويعَ السِّياقِ

قال اللّه تعالى: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمۡ صَٰلِحًاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ﴾، وقال سُبحانه: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمۡ صَٰلِحًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ فَإِذَا هُمۡ فَرِيقَانِ يَخۡتَصِمُونَ ۝٤٥﴾ [النمل: 45]، وخُصَّتْ كُلُّ آيةٍ بِطالِعَةٍ مغايرةٍ لنظيرَتِها، وبما بعدَ قولِه: ﴿أَخَاهُمۡ صَٰلِحًاۚ﴾؛ وذلك: أنَّ آيةَ الأعرافِ سبَقَها قولُ اللّه ﷻ: ﴿لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ﴾ [الأعراف: 59]، وعُطِفَ عليهِ قولُهُ: ﴿۞وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمۡ هُودًاۚ﴾ [الأعراف: 65]، فلمّا تقدَّم ذِكْرُ الإرسالِ في ﴿لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا﴾؛ ناسبَهُ طَيُّهُ إيجازًا لِلعِلْمِ به.

ثُمَّ إنَّ السِّياقَ لمّا كان في بيانِ أنَّ كُلَّ الرُّسُلِ الَّذينَ سبَقوا نبيَّنا محمَّدًا ﷺ، دَعَوا إلى توحيدِ اللّه (سُبحانَهُ)، وعدمِ الشِّرْكِ بهِ؛ ناسبَهُ التَّصريحُ بهِ في قولِهِ: ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ﴾،

(1) رشيد رضا، تفسير المنار: 8/448.

(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/93.

وأمّا آيةُ النَّمل؛ فتَقدَّمَها خاتِمَةُ قِصَّةِ سُليمان عليه السلام، بحكايةِ مقالَةِ ملِكَةِ سبأٍ: ﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٤﴾﴾ [النّمل: 44]، فلمّا لم يتقدَّم ذِكْرُ الإرسالِ؛ كان المناسِبُ ذِكْرَهُ والتَّصريحَ به، فقال سُبحانَهُ: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا﴾، ثُمَّ إنَّه لمّا ذُكِرَ الإرسالُ، وأُريدَ تفسيرُهُ؛ ناسبه أن يقول: ﴿أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ﴾، ولم يُصرِّحْ بقولِهِ ههنا: ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾؛ لأنَّ سياقَ القصَّةِ غيرُ متعلِّقٍ بالشِّرْكِ، وإنَّما متعلِّقٌ بِمَكْرِهِم.

توجيهُ المتشابِهِ اللَّفظيِّ:

بيانُ عَظَمَةِ النَّاقةِ الإضافيَّةِ هنا، وعظمتِها الذاتيَّةِ في سورةِ الشُّعراء

قال الله تعالى: ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ﴾، وقال سُبحانَهُ: ﴿قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾﴾ [الشّعراء: 155]، فأُضيفتِ النّاقَةُ في الموضع الأوَّل، ووُصِفَتْ في الموضع الآخَرِ بقولِهِ: ﴿لَّهَا شِرْبٌ﴾؛ وذلك أنَّ آيةَ الأعرافِ وردتْ في سياق قولِهِ: ﴿قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾، فلمّا وُصِفَتِ البيِّنَةُ بأنَّها مِن ربِّهِمْ لقَصْدِ التَّخْصيصِ، وكانت البيِّنَةُ هي النّاقةَ، وأُريدَ بيانُ عظمتِها؛ ناسبَهُ أنْ تُضافَ إلى الاسمِ الأحسن (الله).

بخلاف آيةِ الشُّعراءِ، فقد تقدَّمَها قولُهُ سُبحانَهُ: ﴿مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٥٤﴾﴾ [الشّعراء: 154]، فلمّا كان هؤلاءِ قد طلَبوا آيةً عظيمةً كما أفادَهُ تنكيرُ لفظِ (آيةٍ)؛ ناسبَهُ تنكيرُ لفظِ (ناقةٍ)، تعظيمًا لها وتفخيمًا، ووَصفها بما يدلُّ على كوْنِها من عند الله، فقال: ﴿قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾.

وأمّا الوصفُ بالعَظَمَةِ في سورة الشُّعراء؛ فهو راجِعٌ إلى اليوم، وذلك لذِكْرِ اليومَيْنِ المقسومَين بين النّاقَةِ وبينَهم، فكأنَّه قالَ لهم: إن مَنَعْتُموها يومَها بعَقْرٍ ونحوِهِ، ولا تَتْرُكونَ اليومَ لها؛ أخذَكُم عذابُ

يومٍ عظيمٍ، فاليوم الذي تُؤلِمونَها فيه، يقابِلُهُ يومٌ يُؤلِمُكم اللّه فيه بعذابِ الاستئصالِ[1].

توجيهُ المتشابهِ اللَّفظيِّ:

بيانُ أنَّ وصفَ العذابِ بالإيلَامِ، لا يُنافِي اتِّصافَهُ بالقُرْبِ، بل بالقربِ يزدادُ الإيلامُ

قالَ اللّه سُبحانَه: ﴿قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، وقال تعالى: ﴿وَيَٰقَوْمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿٦٤﴾﴾ [هود: 64]، وقال ﷻ: ﴿قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥٦﴾﴾ [الشُّعراء: 155 - 156].

وليس بينَ هذه المواضعِ تَنافٍ؛ وذلك لأنَّ وصفَ العذابِ بالإيلامِ، لا يُنافي اتِّصافَهُ بقُرْبِ الوقوعِ، بل إنَّ وصفَه بقُرْبِ ذلك أشدُّ إيلامًا لعدَمِ الإمهالِ.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(المسّ) و(الإصابة):

الإصابةُ: التقاءٌ وزيادةُ تمكُّنٍ وتأثيرٍ، والمسُّ: أقلُّ درجاتِها

المسُّ: اتِّصالُ أحد شيئين بآخرَ، على وجهِ الإحساسِ، أمّا الإصابةُ؛ فهي التقاءٌ وزيادة؛ فالمسُّ أقلُّ تمكُّنًا مِنَ الإصابةِ، وكأنَّه أقلُّ درجاتِها[2]؛ لأنَّ الشَّيءَ المُصيبَ لشيءٍ، فهو مُتَمكِّنٌ منه أو فيه[3]، فالإصابةُ أبلغُ من المسِّ؛ لأنَّ تأثيرَها أقوى وأشدُّ، واصطفاها النَّظم الكريم هنا، تناسبًا مع حالِ التَّهديدِ والوعيد.

وقد جمع السّياقُ القرآنيُّ في آيةٍ واحدةٍ بين اللَّفظين، من ذلك قوله تعالى: ﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا۟ بِهَا﴾ [آل عمران: 120]، كما ورد المسُّ وحدَهُ معبِّرًا عمّا فيه إنالةٌ

(1) الخطيب الإسكافيّ، درّة التَّنزيل: 2/615 - 616، وابن الزُّبير الغرناطيّ، ملاك التأويل: 1/200.
(2) الزَّمخشريُّ، الكشّاف: 1/407، والنّيسابوريّ، غرائب القرآن: 2/245.
(3) ابن عطيَّة الأندلسيُّ، المحرَّر الوجيز: 1/498.

وأذًى وإيلامٌ، كما في قولهِ تعالى: ﴿وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾﴾ [يس: 18]، وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾﴾ [القمر: 48]، وقوله تعالى: ﴿كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِي يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ﴾ [البقرة: 275].

قال ابن عاشور: "والْمَسُّ الْإِصابَةُ، ولا يَخْتَصُّ أحَدُهُما بِالْخَيْرِ والْآخَرُ بِالشَّرِّ، فالتَّعْبيرُ بِأحَدِهِما في جانِبِ الْحَسَنَةِ، وبِالْآخَرِ في جانِبِ السَّيِّئَةِ تَفَنُّنٌ"[1].

(السُّوء) و(الشَّرّ):

الشَّرُّ: خلافُ الخيرِ، وهو عدمُ ملاءمةِ الشَّيءِ الطَّبعَ[2]، الشَّرُّ: اسمٌ جامع للرَّذائل والخطايا، وقد يُطلق على المصائبِ والبلايا، ويدلُّ أصلُه على الانتشارِ والتَّطايرِ[3]، ومنه الشَّرر: وهو ما تطاير من النّار، ورجل شرّيرٌ، أي: كثير الشَّرِّ، والجمع أشرارٌ[4].

السُّوءُ أشدُّ وقعًا من الشَّرِّ، وفي الشَّرِّ معنى الانتشارِ

والسّوءُ يجري مجرى الشَّرِّ، فيحمل معنى الذَّنبِ كالزِّنى والشِّرك[5]، ويطلق السّوء أيضًا على كلِّ ما يغمُّ الإنسانَ من الأمورِ الدُّنيويَّة والأخرويَّة، ومن الأحوال النَّفسيَّة والبدنيَّة والجارحة من فوات مالٍ وجاهٍ، وفَقْدِ حميمٍ[6].

فالسّوء يأتي بمعنى المنكراتِ والرَّذائل، وبمعنى البؤسِ والمصائبِ والشَّدائدِ، وكلُّ ذلك شرٌّ بلا ريبٍ، ولكنَّ السّوءَ أشدُّ من الشَّرِّ، وقد استعملت اللُّغةُ العربيَّةُ السّوءَ موازيًا ومرادفًا للشَّرِّ أيضًا، وطُلِبَ من المؤمنِ في إطار الاستعاذةِ من الشُّرورِ أن يستعيذَ من شرِّ ما خلقَ،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 4/68.
(2) الجرجانّي، التّعريفات، ص: 109، والقاضي نكري، جامع العلوم في اصطلاحات الفنون: 2/151.
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (شرّ).
(4) الفيروزآباديّ، القاموس المحيط، وابن فارس، مقاييس اللُّغة: (شرّ)، والرّازيّ، مختار الصّحاح، ص: 354.
(5) الكفويّ، الكليّات، ص: 503.
(6) الرّاغب المفردات: (سوأ).

وأرشدتهُ آياتُ القرآن في مواقعَ شتَّى منه إلى الاستعاذةِ من همزاتِ الشَّياطين ومن شرورِ البشرِ كالحسدِ والغيرةِ والسِّحر وغيرها من ألوانِ الشُّرورِ الكثيرةِ.

وعند التَّأمُّل الحصيفِ لاستعمال هذين اللَّفظينِ، نجدُ أنَّ كُلَّ سوءٍ لا يخلو من شرٍّ، وأنَّ كلَّ شرٍّ لا ينفكُّ عن سوءٍ، وأنَّ أشدَّ الشَّرِّ في الدُّنيا الشِّركُ والكفران، وأشدَّ الشَّرِّ في الآخرةِ النّارُ والخسرانُ، وكلُّ ذلك سوءٌ مُؤذٍ، وهلاكٌ مُردٍ.

﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ جَعَلَكُمۡ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعۡدِ عَادٖ وَبَوَّأَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورٗا وَتَنۡحِتُونَ ٱلۡجِبَالَ بُيُوتٗاۖ فَٱذۡكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ٧٤﴾ [الأعراف: 74]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

إقناعُ المخاطَبِ باقتلاعِ الإقدامِ على الشَّهواتِ سبيلُه التَّذكيرُ

لمّا أمرَ صالحٌ قومَه بعبادةِ اللّهِ وحدَه، وجاءَهم بالحُجَّةِ على صدْقِ رسالتِه، ونهاهم أن يمُسّوا النّاقةَ بسوءٍ، ذكّرهم بنِعمِ اللّهِ عليهم؛ ترغيبًا في الامتثالِ، ومُشيرًا به إلى ترهيبِهم منَ الإفسادِ[1]، فوَقَعَتْ هذه الآيةُ منَ السّابقةِ موقعَ الإقناعِ باقتلاعِ ما يجولُ في نفوسِهم من عَقْرِ النّاقةِ، بما هو كائنٌ منَ النِّعمِ المُحيطةِ بهم، فكانَ التَّذكيرُ بالنِّعمِ بمثابةِ إقامةِ الحُجَّةِ على الامتثالِ للحُجَّةِ، وتركِ الامتثالِ للشَّهوةِ.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿خُلَفَآءَ﴾: أصلُ (خلف): أن يَجيءَ شَيءٌ بعدَ شَيءٍ يقومُ مَقامَه، وخَلَفَ فلانٌ فلانًا، قامَ بالأمرِ عنه، إمّا معه وإمّا بعده، والخَلْفُ: ضدُّ القُدّامِ، والخِلافةُ النّيابةُ عنِ الغيرِ، إمّا لغيبةِ المَنوبِ عنه، وإمّا لموتِه، وإمّا لعجزِه، وإمّا لتشريفِ المستخلَفِ، وعلى هذا الوجهِ الأخيرِ استخلفَ اللّهُ أولياءَه في الأرضِ، والخليفةُ: الّذي يخلفُكَ، ويكونُ بعدَك، وكلُّ مَنْ تولّى شيئًا بعدَ آخرَ يُقالُ له: خليفةٌ، والخلائفُ: جمعُ خليفةٍ، وخلفاءُ جمعُ خليفٍ[2]، والخليفةُ، وهو الذي يخلفُ غيرَه في شيءٍ، أي: يتولّى عملَ ما كان يعملُه الآخرُ، فالمرادُ: جعلَكم خلفاءَ في تعميرِ الأرضِ[3].

2) ﴿وَبَوَّأَكُمۡ﴾: أصلُ معنى باءَ يدورُ على معنيين: أحَدُهُما

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/444.
(2) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (خلف).
(3) ابن عاشور: التّحرير والتّنوير: 8/205.

الرُّجوعُ إِلَى الشَّيءِ مع تمكُّنٍ فيه، ومنه: الباءةُ والمباءةُ مَنزِلُ القَوم، حيثُ يَتبوّؤون من قِبَل وادٍ أو سَنَد جَبَلٍ؛ ليكونَ مَرجِعًا لهم، وبَوّأتُه مَنزِلًا؛ بمعنى: أنزلتُه، ثمَّ استُعملَتِ الكلمةُ لمعنى الإقامةِ على الشَّيء، والمعنى الثّاني لـ(باء) يدلُّ على تَساوي الشَّيئَينِ وتكافؤِهما، فيُستعملُ البَواءُ في مراعاةِ التَّكافؤِ، فيُقالُ: فلانٌ بواءٌ لفلانٍ إذا ساواه، وقد يُجمَعُ الرّجوعُ والتّكافؤُ في مثلِ قولهم: تَبوَّأ فُلانٌ مَنزِلًا: إذا نظَر إِلَى أسهَلِ ما يُرى وأشَدِّه استِواءً وأمكَنِه، بحيث يكون مُكافِئًا له؛ ليرجعَ إليه في مَبيتِهِ، ومعنى ﴿وَبَوَّأَكُمْ﴾ في الآيةِ: أنزَلكُم وأسكنَكُم[1].

3) ﴿سُهُولِهَا﴾: أصلُ مادّة (سهل) تدلُّ على لينٍ وخلافِ حزونةٍ، والسَّهلُ: خلافُ الحزن[2]، والحزنُ: ما غلُظَ منَ الأرض[3]، فالسّهلُ هو المكانُ المنخفضُ المستوي منَ الأرض، الّذي لا وَعْرَ فيه، وضدُّه الجبلُ، وسُمّي سهلًا للين المشي فيه، بخلاف الجبلِ فهو صعبٌ وشديدٌ، ومعناه في الآية: السُّهولُ التي تُقابل الجبالَ، فهم يتَّخذون فيها قصورًا، لسهولةِ الوصولِ إليها على ساكنيها.

4) ﴿وَتَنْحِتُونَ﴾: أصلُ مادّةِ (نحت) يدلُّ على نجْرِ شيءٍ وتسويتِه بحديدةٍ[4]، ويدورُ المعنى المحوريُّ للنّحتِ على اقتطاعٍ من ظاهر الجرمِ الجافِّ الصّلبِ باتّجاه باطنِه بدقّةٍ نحو البَرْيِ، ويكونُ للشّجرِ والخشبِ ونحوِهما منَ الأجسام الصَّلبةِ، يُقال: نحتَ النَّجّارُ الخشبةَ: نَشَرها، وقَشَرها بدقّةٍ، ومعنى ﴿وَتَنْحِتُونَ﴾: تَبرون أو تقتطِعون[5] الحجرَ بآلةٍ على تقديرٍ مخصوصٍ[6].

5) ﴿قُصُورًا﴾: القِصَرُ خلافُ الطّولِ، وهما منَ الأسماءِ المتضايفةِ الّتي تُعتبَرُ بغيرِها، والقَصرُ الحبسُ، وهو مقصورٌ؛ أي: محبوسٌ، وامرأةٌ قاصرةُ الطَّرفِ: لا تمدُّه إلى غيرِ بعلِها، كأنَّها تَحبسُ طرفَها حبسًا، وقَصَرْتُ كذا: ضممتُ بعضَه إلى بعضٍ، ومنه سمّيَ القَصرُ، وجمعُه قُصورٌ، وهو البناءُ العالي الكبيرُ الّذي يكونُ من حجرٍ وأُحيطَ به، وكلُّ ناحيةٍ منه مقصورةٌ، سُمّيَ بِذَلِكَ؛ لأنَّه تُقصَرُ فيهِ الحُرَمُ؛ أي: تُحْبس، وقد يكونُ سببُ

(1) الأزهريّ: تهذيب اللّغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (بوأ)، والسّجستانّي، غريب القرآن، ص: 121.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سهل).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حزن).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نحت).
(5) الرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (نحت).
(6) ابن عاشور: التّحرير والتّنوير: 8/220.

تسميتِها قصورًا؛ لأنّها حُبِسَت عن نيلِ عُمومِ النّاس، وقصرِهم عن تحصيلِها[1]، والقصرُ هنا ما شُيِّد وعلا منَ المنازلِ[2].

6) ﴿ءَالَآءَ﴾: الآلاء: النِّعَمُ، واحدُها (إِلى) كمِعى، و(أُلى) كرحَى، و(ألي) كهجرٍ، و(إِلي) كفلسٍ[3]، وهي النِّعمةُ الّتي تتلوها غيرُها[4]، ومعنى الآلاء في قولِه تعالى: ﴿فَٱذۡكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ﴾ أي: نعمَه الظاهرةَ والباطنةَ، وإليه الإشارةُ بقولِه تعالى: ﴿وَأَسۡبَغَ عَلَيۡكُمۡ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةٗ وَبَاطِنَةٗۗ﴾ [لقمان: 20][5].

7) ﴿تَعۡثَوۡاْ﴾: من عَثيَ يَعْثَى عُثوّاً، والعَيثُ والعِثيُّ يتقاربان، نحو: جَذَبَ وجَبَذَ، إلّا أنّ العَيثَ أكثرُ ما يُقالُ في الفسادِ الّذي يُدركُ حِسًّا، والعِثيَّ فيما يُدركُ حُكمًا، والعَيثُ أشدُّ الفسادِ وأسرعُه، ويُقالُ: عاث يعيثُ لما يكونُ فيه إسراعٌ في الفساد، والذِّئبُ يعيثُ في الغنم فَلا يَأخُذُ منه شَيئًا إلّا قَتله[6].

8) ﴿مُفۡسِدِينَ﴾: الفسادُ خروجُ الشّيءِ عنِ الاعتدال، قليلًا كان الخروجُ عنه أو كثيرًا، ويُضادُّه الصّلاحُ، ويُستعمَلُ ذلك في النّفسِ، والبدنِ، والأشياءِ الخارجةِ عنِ الاستقامةِ، وفَسَدَ الشّيءُ: بَطُلَ واضْمحلَّ، والمَفسَدَةُ: خلافُ المصلحةِ[7].

المعنى الإجْماليُّ:

واذكروا نعمةَ اللّهِ عليكم، إذ جعلكم تخلُفون عادًا في الأرضِ بعدَ هلاكِها، وأنزلَكم في الأرضِ، ومكّنكُم فيها، فتبنونَ في سهولِها

بقاءُ النِّعمِ مرهونٌ بشُكرِها، وانِدثارُها معذوقٌ بكُفرِها

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (قصر)، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/423.
(2) الماورديّ، النّكت والعيون: 2/236، وابن الجوزيّ، زاد المسير: 2/135.
(3) السّمين الحلبيّ، عمدة الحفاظ: (ألى).
(4) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، والرّاغب، المفردات: (ألى)، والعسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 194.
(5) السّمين الحلبيّ، عمدة الحفاظ: (ألى).
(6) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (عثي).
(7) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (فسد).

البيوتَ العظيمةَ، وتنحِتونَ منَ الجبالِ بيوتًا قويّةً، فاذكروا نِعَمَ اللّهِ الّتي أنعمَ بها عليكُم، واشكروه عليها، ولا تسْعَوا في الأرضِ مُفسدينَ.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

مناسبةُ الوصْلِ بالواوِ في قولِه: ﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ﴾:

عبادةُ الله وحدَه هي أصلُ النَّجاةِ وركنُ البقاءِ

عطفتِ الواوُ جملةَ: ﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ جَعَلَكُمۡ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعۡدِ عَادٖ﴾ وما بعدَها على قولِه تعالى: ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ﴾ [الأعراف: 73]؛ مِن بابِ عطفِ الطَّلبِ على الطّلبِ، فبعد أن أمرَهم بعبادةِ اللّه وحدَه، أمرَهم بتذكُّرِ نِعَمِه؛ ليكونَ الأمرُ بعبادةِ اللّه وحدَه سببًا لِلتَّذكّرِ فيما أسبغَ على المُخاطَبين منَ النِّعَمِ، وهذا هو الّذي يُسمّيه علماءُ البلاغةِ بالتَّوسُّطِ بينَ الكمالَيْن.

دلالةُ الأمرِ على فائدةِ الخبرِ ولازمِها:

مُقتضَى الذّكرِ أداءُ حقِّ المذكورِ وعدمُ الإخلالِ به

لمّا كان الذّكرُ يُطلَقُ على خطورِ شيءٍ ببالِ مَنْ نسيَه، وعلى النّطقِ باسمِ الشّيءِ الخاطرِ ببالِ النّاس، وهو هنا في قوله سبحانه ﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ جَعَلَكُمۡ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعۡدِ عَادٖ﴾ بمعنى الذّكرِ العقليِّ، إذ ليس المقصودُ ذكرَ النّعمةِ باللّسان، فالمرادُ تعهّدُ آلاءِ اللّه تعالى عليهم وحفظُها وعدمُ نسيانها، وأشعرَت فائدةُ الخبرِ بلازمِها، فإنَّ ذكرَها يقتضي مقابلتَها بالشّكرِ والقيامَ بحقِّها بعبادة اللّه وحدَه المُنعِم بها، واجتنابِ القبائحِ والمنهيّاتِ الّتي لا تجتمعُ معَ النّعم، وأمرَهم بذكر النّعمِ الكبيرة؛ لأنّها تورثُ محبَّةَ المُنعِمِ وإجلالَه والاستحياءَ منه، وفي الكلامِ تعريضٌ بالحثِّ على الوفاء[1].

بلاغةُ استعمالِ ﴿إِذۡ﴾ في قولِه: ﴿إِذۡ جَعَلَكُمۡ﴾:

تصويرُ نِعمِ الله كأنّها حاضرةٌ أقوَى في الامتثالِ مِن مُجرَّدِ ذِكرِها

لمّا كانَ لفظُ ﴿إِذۡ﴾ لا يأتي في مثلِ هذا السّياقِ إلّا فيما كانَ له شأنٌ عظيمٌ أفادَ التّعبيرُ تعظيمَ نِعَمِ اللّهِ عليهم في جعلِهم خلفاءَ من

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/277.

بعدِ قومِ عادٍ، وفي أن بوَّأهم في الأرضِ، وزادَه مبالغةً في التّعظيمِ والتَّفخيمِ مجيءُ ﴿إِذْ﴾ مفعولًا للفعلِ ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ﴾، ففيه توجيهُ الأمرِ بالذِّكرِ إلى الوقتِ دونَ ما وقعَ فيه منَ الحوادثِ، مع أنَّها هي المقصودةُ بالذّاتِ، فلم يتَّسعِ المقامُ لذكرِ ذواتِ النِّعمِ؛ لعظَمِها وشمولِها وعمومِ نفعِها، فأفادَ ذكرُ الوقتِ المبالغةَ في تعظيمِ النِّعَمِ؛ لأنَّ إيجابَ ذكرِ الوقتِ إيجابٌ لذكرِ ما فيه بالطَّريقِ البُرهانيِّ، ويحتملُ أن يكونَ على الكنايةِ بطريقِ اللُّزومِ؛ فإنّ الوقتَ إذا استُحضرَ لزمَ مِن استحضارِه أن تكونَ النّعمُ حاضرةً بتفاصيلِها، كأنَّها مشاهَدةٌ عيانًا[1].

فائِدةُ استعمالِ الفعْلِ ﴿جَعَلَكُمْ﴾:

تظهرُ بلاغةُ استعمالِ ﴿جَعَلَكُمْ﴾ في قوله تعالى ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ﴾ في استحضارِ ما كانَ بعد عادٍ؛ أي: استحضارُ أنَّهم جُعلوا خلفاءَ من بعد ما وقعَ لعادٍ منَ العذابِ الأليمِ، وأنَّ هذا الجعلَ مرهونٌ بعبادتِهم وشُكرهم، ففائدةُ استعمالِ الفعلِ ﴿جَعَلَكُمْ﴾ التَّرغيبُ الظّاهرُ، والتَّرهيبُ الضِّمنيُّ، فما جعلَهم خلفاءَ بعد عادٍ إلّا ليشكروا لا ليكفروا، فإن كفروا كان مآلُهم مآلَ عادٍ.

نِعمُ الله ترغيبٌ ظاهرٌ وترهيبٌ باطنٌ فمن عرَفَ وُقيَ

نُكتةُ إضمارِ الفاعلِ في الفعلِ ﴿جَعَلَكُمْ﴾:

لم يأتِ الفاعلُ اسمًا ظاهرًا، فلم يقُل: (جعلكم اللّه خلفاء)؛ لأنَّ جملةَ: ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ﴾ معطوفةٌ على جملةِ: ﴿ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ [الأعراف: 73]، فيكونُ الضّميرُ عائدًا على الاسمِ الجليلِ القريبِ الذّكرِ، وللإيذانِ بأنَّ الّذي جعلَكم خلفاءَ من بعدِ عادٍ هو اللّه الّذي ما لكم من إلهٍ غيرُه، ففي عَوْدِ الضّميرِ على الاسمِ الجليلِ تذكيرٌ بوصْفِ التّوحيدِ الّذي وصفَ اللّهُ تعالى به نفسَه؛ لإيصالِهم إلى إفرادِ اللّه بالعبادةِ؛ لأنّهم كانوا يعبدونَه، ولكنّهم كانوا يُشركون به سبحانه، كأنَّه يقولُ: الذي جعلَكم خلفاءَ،

القياسُ العقليُّ الصَّحيحُ يقتضي قياسَ النِّعَمِ على النِّعمِ والنِّقَمِ على النِّقمِ لا الاستئثارَ بإحداهما

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/239.

هو الذي جعلَهم خلفاءَ، والذي أنزلَ بهم عقوبتَه هو الذي - إن تابعتموهم - سيُنزِلُ بكم عقوبتَه.

نُكتةُ مَجيءِ الجمْعِ بصيغةِ: ﴿خُلَفَآءَ﴾:

الامتنانُ بما كانَ لِثمودَ منَ الاستخلافِ في الأرضِ قوَّةً وتمكينًا

لمّا كانَ السّياقُ سياقَ ذكْرِ النِّعمِ وبيانِ قوّتِهم وتَمكينِهم في الأرضِ ومُلكِهم فيها ناسبَ أن يقولَ: ﴿خُلَفَآءَ﴾، فجمعَ على المعنى؛ لأنّه ذهبَ بالخليفةِ إلى الرَّجلِ، وهو المناسبُ لمعنَى التّمكينِ في اتّخاذِهم منَ السُّهولِ القصورَ، ونحتِهمُ الجبالَ بيوتًا، فكأنَّ واحدَهم خليفٌ، ثمَّ جُمِعَ على خلفاءَ، فأمّا لو جمعتَ (الخليفةَ) على أنَّها نظيرةُ (كريمة)، قيل: (خلائفُ)، كما يُقال: (كرائمُ)، إذ كانَت من صفاتِ الإناثِ، وإنَّما جُمعَتِ (الخليفةُ) على الوجهين اللَّذين جاءَ بهما القرآنُ؛ لأنَّها جُمعَت مرّةً على لفظِها، ومرّةً على معناها على وَفْقِ السّياقِ المناسبِ[1].

فائِدةُ استعمالِ ﴿مِنۢ﴾ في قولِه: ﴿مِنۢ بَعۡدِ عَادٖ﴾:

بينَ عادٍ وثمودَ زمانٌ طويلٌ خلا منَ الأقوامِ سِواهم

أفادَ حرفُ الجرِّ ﴿مِنۢ﴾ فائِدتَيْن: الأولى: ابتداءُ الغايةِ الزَّمانيَّةِ؛ بمعنى: لم يأتِ بعد عادٍ قومٌ غيرُهم، فلو قال: (بعد عادٍ) لاحتملَ النَّصُّ أن يكونَ بعدها أقوامٌ ثمّ جاءَت ثمودُ، لكنْ لمّا قال: ﴿مِنۢ بَعۡدِ﴾ عُلِمَ أنَّ الابتداءَ كانَ بهم، ولم يقُلْ: (خلفاءَ عادٍ) مع أنَّه أخصرُ؛ إشارةً إلى أنَّ بينهما زمانًا طويلًا[2]، فأفادَ التَّعبيرُ أمرَيْن اثنين: الأوّلُ: أنَّ ثمودَ خلفَت عادًا بعدَ زمانٍ طويلٍ، والآخرُ: أنَّه لم يكنْ بين عادٍ وثمودَ أقوامٌ.

الأخرَى: قومُ ثمودَ ليسوا خلفاءَ لعادٍ على الحقيقةِ، وخلافتُهم لعادٍ باعتبارِ خلوِّ الزَّمانِ من أحدٍ سواهم، والخلافةُ هي خلافةُ القيامِ بالتَّكاليفِ الشَّرعيّةِ؛ لذلك هم خلفاءُ من بعد زمان عادٍ لا

(1) ابن جرير، جامع البيان: 12/541.
(2) الآلوسّي، روح المعاني: 4/402.

خلفاءُ لعادٍ، فلمّا لم تقُم عادٌ بواجبِها وكفرتْ وعاندتْ استُؤْصِلت وعوقبت، فكانَت لثمودَ الخلافةُ في الأرضِ.

فائدةُ ذِكر (عاد) في قوله: ﴿مِنۢ بَعۡدِ عَادٖ﴾:

لم يقُل: (من بعد قوم هود) كما قال هود: ﴿مِنۢ بَعۡدِ قَوۡمِ نُوحٖ﴾ [الأعراف: 69]؛ لأنَّ عادًا اشتُهرت عند العربِ باسمِها، بخلاف قومِ نوحٍ، فهم عُرفوا بنسبتِهم إليه، وذكرُ الأشهرِ هو الأصلُ؛ لأنَّه يُستحضرُ بمجرَّدِ ذكرِه، ولتذكيرِهم بما كان عليه قومُ عادٍ منَ القوّةِ والبسْطةِ في الخلْقِ، وما نشأ على أيديهم منَ الحضارة بعدَ الطّوفان؛ ليناسبَ تعليقَ قولِه: ﴿خُلَفَآءَ﴾ بقولِه: ﴿مِنۢ بَعۡدِ عَادٖ﴾، وللإشعارِ بأنَّ مَنِ اتّبعهم في صُنعهم يوشِكُ أن يحلَّ به عذابٌ أيضًا.

عُرِفتْ عادٌ باسمِها أكثرَ من معرفتِها بنِسبتِها إلى نبيِّها

فائدةُ الوصْلِ في قولِه: ﴿وَبَوَّأَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾:

أفادتِ الواوُ عطفَ قولِه: ﴿وَبَوَّأَكُمۡ﴾ على ﴿جَعَلَكُمۡ﴾، فعطفَ الجملةَ الفعليَّةَ على الجملةِ الفعليَّةِ، والتّقديرُ: (اذكروا إذْ جعلَكم، واذكروا إذْ بوّأكم)، كما ناسبَ العطفَ مجيءُ الجُملتينِ على معنى الإنعامِ والمنّةِ؛ للإشعارِ بأنَّه أعطاهُم نِعمًا كثيرةً، ومن أعظمِها شأنًا أنَّه جعلَهم خلفاءَ من بعدِ عادٍ، وأنَّه بوّأهم في الأرضِ، ولمّا جاء السّياقُ بصيغةِ الجمعِ أفاد أنَّ هذه النّعمَ تكونُ لمجموعِ القومِ، وهي نعمةٌ للأفرادِ تبعًا.

خلافةُ السّابقين لا تتمُّ سعادتُها ما لم يَلحقْها تمامُ التَّمكين

نُكتةُ التَّعبيرِ بلفظِ: ﴿وَبَوَّأَكُمۡ﴾:

يُشعِرُ التّعبيرُ بلفظِ ﴿وَبَوَّأَكُمۡ﴾ أنَّهم قد خلَفوا عادًا في الأرضِ، وكثُروا، وعُمِّروا أعمارًا طِوالًا، وكثُرَ تنعّمُهم فيها[1]؛ لِما في اللَّفظِ من معنى التَّمكينِ والاستقرارِ، وذلك أنَّ المباءةَ هي مَنزِلُ القَومِ حيثُ يَتبوّؤون من قِبَلِ وادٍ أو سَنَدِ جَبَلٍ؛ ليكونَ مَرجِعًا لهم،

الأرضُ مَنزِلٌ لثمودَ استقرارًا واستعمارًا واستكثارًا

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/306.

فكأنَّ الأرضَ المعهودةَ كلَّها مَنزِلٌ لهم، يرجعون إليها، فهم يَجولون فيها كلِّها، ويرجِعون إليها كلِّها، فأفادَ اللَّفظُ التَّمكينَ الشّموليَّ للأرضِ، وإذا حملنا الأرضَ على الجنْسِ، فهو محمولٌ على المبالغةِ بقصْدِ الامتنانِ.

نُكتةُ استعمالِ حرفِ الظَّرفيَّةِ ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾:

الإشعارُ بنِعمِ اللهِ حجَّةٌ على الخلْقِ

أفادَ حرفُ الظَّرفيّة ﴿فِي﴾ في قولِه تعالى: ﴿وَبَوَّأَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ تعيينَ المكانِ؛ أي: في الأرض الّتي نزلتُمْ بها، واستقررتُم فيها؛ للإشعارِ بأنَّ تعْيينَها ليتّخذوا من سهولِها قصورًا، وينحتون الجبالَ بيوتًا منَّةٌ منَ اللّه عليهم.

دلالةُ (أل) في لفظ ﴿ٱلۡأَرۡضِ﴾:

تعريفُ الأرضِ بينَ العَهديَّةِ والجنسيَّةِ

تحتملُ (أل) في قولِه تعالى: ﴿ٱلۡأَرۡضِ﴾ أن تكونَ للعهدِ؛ أي: في أرضِكم هذهِ، وهي أرضُ الحِجْر، وتحتملُ أن تكونَ للجنسِ؛ لأنَّه لمّا بوَّأهم في أرضٍ معيَّنةٍ فقد بوَّأهم في جانبٍ من جوانبِ الأرضِ[1].

نُكتةُ التَّعبيرِ بقولِه تعالى: ﴿تَتَّخِذُونَ﴾:

من نِعمِ اللهِ قوَّةُ الأبدانِ الرّافعةِ للقُصورِ

عُبِّرَ بلفظِ ﴿تَتَّخِذُونَ﴾ لِما فيه من معنى تحصيلِ الشّيءِ لنفسِه بقوَّةٍ وتمكُّنٍ منه، وهو المناسبُ للفظِ ﴿وَبَوَّأَكُمۡ﴾، وفي اللَّفظِ معنى تعملونَ وتُشيّدون[2]، فيجمعُ معنى الإنعامِ بالعملِ وبالقوّةِ والتّمكينِ، وآثارُهم تنطقُ بذلك.

نكتةُ استعمالِ المضارعِ ﴿تَتَّخِذُونَ﴾:

طولُ المُكثِ في النِّعمِ يقودُ الجاحدَ إلى تعاطي أسبابِ النِّقمِ

عُبِّرَ بالفعل المضارعِ في قولِه تعالى: ﴿تَتَّخِذُونَ﴾؛ للإيذانِ باستمرارِ اتّخاذِهم من سهولِ الأرضِ قصورًا، ونحتِهمُ الجبالَ بيوتًا، ولأنَّ الأمرَ لم يقتصِر على مرَّةٍ واحدةٍ بل كان الاتّخاذُ مُتجدِّدًا حالًا فحالًا، ففيه معنى كثرةِ الاتّخاذِ، ودلَّ عليه مَجيءُ مُتعلَّقِ الفعلِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/220.

(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/93، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/220.

﴿قُصُورًا﴾ بصيغة جمع الكثرةِ، إيذانًا بكثرة نِعمِ اللّه عليهم، والظّاهرُ أنّهم مكثوا فترةً طويلةً في بنائِها وسُكناها، واستمرَّوا على ذلك آنًا من بعد آنٍ، وفيه إشارةٌ إلى خبرٍ غيبيٍّ.

بلاغةُ استعمالِ ﴿مِن﴾ في ﴿مِن سُهُولِهَا﴾:

السُّهولُ هي مادَّةُ قُصورِ ثمودَ وأماكِنُها

تحتملُ ﴿مِن﴾ في قوله تعالى: ﴿تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا﴾ أنْ تكونَ جنسيَّةً؛ بمعنى: تتّخذون مِن سُهولَةِ الأرضِ بما يعملون منها الصّخرَ واللَّبِنَ والآجُرَّ؛ أي: إنَّ القُصورَ الَّتي بَنَوها، أجزاؤُها ومادّتُها مُتَّخَذَةٌ مِن سهولِ الأرضِ، كما تحتملُ أن تكونَ تبعيضيّةً؛ بمعنى: مِن بعض لَبِنِ السّهولِ وآجُرِّها، أو تكونَ البعضيّةُ في السّهول؛ بمعنى: أنَّ بَعضَ السُّهولِ اتَّخَذوهُ قُصورًا؛ أي: بَنَوا فيهِ قُصورًا، وَأنشَؤوها فيه، وَلَم يَستَوعِبوا جَميعَ سُهولِها بِالقُصورِ، وأجازَ بعضُ المفسِّرين أن تكونَ ظرفيَّةً؛ بمعنى (في): أي: (تتَّخذونَ في سهولِها قصورًا)، وعُبِّرَ بـ ﴿مِن﴾ دونَ (في) على معنى ابتداءِ مكانِ اتّخاذِ القصورِ في السّهولِ، فأفادت ﴿مِن﴾ معنى الابتداءِ والظّرفيّةِ تكثيرًا للمعنى[1].

دلالةُ تقديمِ الجارِّ والمجرور على المفعول في الآية:

كثرةُ النِّعمِ تستوجبُ كثيرَ الشّكرِ ودوامَه

قُدِّمَ الجارُّ والمجرور ﴿مِن سُهُولِهَا﴾ على المفعول به ﴿قُصُورًا﴾ في قوله سبحانه ﴿تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا﴾ للاهتمامِ به، وللإشعار بمنّةِ اللّهِ عليهم في أن هيَّأ لهم السّهولَ ليتّخذوا منها قصورًا، كما يحتملُ أن يكونَ التّقديمُ للتّخصيصِ العُرفيِّ، فإنَّ تشييدَ القصورِ في ذلك الوقتِ كان في السّهول.

دلالةُ تنكيرِ: ﴿قُصُورًا﴾:

غفلةُ الإنسانِ عن نِعمِ اللهِ عليه رُغمَ كَثرتِها

أفادَ تنكيرُ ﴿قُصُورًا﴾ تعظيمَ القصورِ الّتي كانوا يتّخذونَها؛ للإشعار برِفعتِها وفخامتِها؛ لأنَّ القصورَ ما شيِّدَ وعَلا منَ المنازل؛

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/122، وأبو حيّان، البحر المحيط: 5/93، والبروسويّ، روح البيان: 3/191، والآلوسي، روح المعاني: 4/402، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/220.

أي: كانت واسعةً عاليةً حَسَنةً يقصرُ أملُ الآملِ ونظرُ النّاظرِ عليها، ممّا فيها منَ المرافقِ والمحاسِن[1].

جملة ﴿تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا﴾ بين الحاليّةِ والتّفسيريّةِ:

تحتملُ جملةُ: ﴿تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا﴾ أن تكونَ حاليَّةً، وتكونَ الجملةُ المعطوفةُ عليها حاليَّةً كذلك؛ بمعنى: بوّأكُم في الأرضِ حالَ اتّخاذِكم من سُهولِ الأرضِ قصورًا، ومن جبالها بيوتًا، فالتّبوّءُ ظهرَ في هيئتينِ وحالتين؛ في هيئةِ القصورِ المتّخَذةِ من سهولِ الأرضِ، بمعنى الصّالحةِ للبناءِ، وفي هيئةِ نحتِ البيوتِ، بمعنى الصّالحةِ للنّحت.

حالٌ ثمود من اتّخاذِ القصور ونحتِ الجبال هو بيانٌ لتمكّنِهم في الأرضِ

كما تحتملُ جملةُ: ﴿تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا﴾، وما عُطِفَ عليها أن تكونَ بيانًا لمعنى التّمكين والقوّةِ والاستقرارِ في قولِه: ﴿وَبَوَّأَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾؛ لتفيدَ الجملةُ المبيّنةُ معنى التّأكيدِ والتّقريرِ والإيضاحِ والبيانِ، فقيل: إنَّهم كانوا يَسكنونَ الجبالَ في الشِّتاءِ لِما في البيوت المنحوتةِ فيها منَ القوَّةِ الّتي لا تؤثِّرُ فيها الأمطارُ والعواصفُ، ويَسكنونَ السّهولَ في سائرِ الفصولِ لأجلِ الزِّراعةِ والعملِ[2].

ولا تعارُضَ بين الإعرابين، فإنَّ الحاليّةَ تدلُّ على بيانِ الحالِ، والتّفسيريّةَ تدلُّ على المعنى المبيَّن عمومًا.

نُكتةُ المضارعيّة في ﴿تَنْحِتُونَ﴾:

عُبِّرَ بالفعلِ المضارعِ في قولِه تعالى: ﴿وَتَنْحِتُونَ﴾؛ للإيذانِ بأنّهم كانوا مُستمرّين في نحتِ الجبالِ بيوتًا؛ أي: إنَّ الأمرَ لم يقتصرْ على نحتِ بيتٍ واحدٍ أو بيتَيْن، فكان النّحتُ مُتجدِّدًا وقتًا فوقتًا، ممّا يُشعرُ بكثرةِ نحتِهمُ الجبالَ بيوتًا، ودلَّ على هذا مجيءُ مُتعلَّقِ الفعلِ ﴿بُيُوتًا﴾ بصيغة جمعِ الكثرةِ.

تسهيلُ النَّحتِ وتكثيرُه مَدعاةُ شُكرٍ ومَرساةُ يقينٍ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/445.

(2) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/306، وأبو حيّان، البحر المحيط: 5/93، والشّوكاني، فتح القدير: 2/251، ومحمد رضا، تفسير المنار: 8/448.

فائدةُ التَّعبيرِ بنحْتِ الجبالِ كلِّها:

جمعَتْ ثمودُ بينَ قوَّةِ الأبدانِ وهندسةِ الأذهانِ

في قوله تعالى ﴿وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ﴾، جُعِلَ مُتعلَّقُ النَّحتِ هو الجبالُ؛ لأنَّ الأصلَ في النَّحتِ أن يتعلَّقَ بحجارةِ الجبالِ لا بغيرِها[1]، وأفادَ التّعبيرُ بـ ﴿وَتَنْحِتُونَ﴾ معنى اقتطاعِ الحجرِ منَ الجبالِ وتسْويتِه وعملِه بدقَّةٍ؛ إظهارًا للمنَّةِ عليهم بالقوَّةِ والتّمكينِ، وإشعارًا بما أوتوا منَ العلمِ بالهندسةِ، وجعلُ النَّحتِ للجبالِ لا لحجارتِها؛ لبيانِ أنَّ النّحتَ لأكملِ الجَبلِ لا لبعضِه؛ لأنَّ البيوتَ مجمعُ السُّكّانِ، واجتماعُهم يجبُ أن يكونَ ضمْنَ هندسةٍ معماريّةٍ صُعودًا إلى البيوتِ ونزولًا منها، ولو قال: (تنحتون حجارةَ الجبال)، أو: (تنحتون بيوتَكم منَ الجبال)؛ لفُهِم أنَّ المقصودَ بالنَّحتِ هو قصُّ الحجارةِ ونقلُها إلى مكانِ البناءِ.

معنى النَّصْبِ في لفظ ﴿بُيُوتًا﴾:

إضمارُ العملِ قبْلَ الشُّروعِ فيه دليلُ المُكنةِ فيه

انتصبَ ﴿بُيُوتًا﴾ على الحالِ المقدَّرةِ منَ الجبالِ، والمعنى: (صائرةً بعد النّحتِ بيوتًا)؛ أي: مسكونةً، كما يُقالُ: خِطْ هذا الثَّوبَ قميصًا، وابْرِ هذهِ القصبةَ قلَمًا؛ لأنَّ الجبلَ لا يكون حالُه حالَ البيوتِ وقتَ النّحت، ولكنْ يصيرُ بيوتًا بعدَ النَّحت، وفائدةُ مجيءِ ﴿بُيُوتًا﴾ حالًا هنا الإشعارُ بأنّ مقصدَهم من أوَّلِ وقتِ نحتِ الجبالِ هو أن يكونَ لهم بيوتٌ يَسكنونَ فيها؛ إشعارًا بما عندهم منَ القوَّةِ والعلْمِ بطرائقِ البناءِ وهندستِها.

جمالُ الكنايةِ عن التّنعُّم في الآية:

مَن قدَّم رفاهيتَه على دينِه فقد باءَ بالخُسرانِ، وجاءَ بالبُهتانِ

في قولِه تعالى: ﴿تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا﴾: أفادَ التّعبيرُ بتَينِ الجملتين بطريقِ الكنايةِ؛ أي: بذكرِ الملزومِ، وهو الجُملتانِ المذكورتانِ، وإرادةِ لازمِ معناهما أنَّهم كانوا مُتنعِّمين مُترفِّهين أولي قوَّةٍ وبأسٍ، وأنّ أعمارَهم كانت طويلةً[2]،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/220.
(2) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/306.

وهي كنايةٌ عن صفةِ الرَّفاهيّةِ والتَّرفِ، وفائدةُ الكنايةِ الإشارةُ إلى أنَّ ترفَ ثمودَ هو الّذي قادَهم إلى حتْفِهم، فلا ساكنين ولا مُترَفين، وأنَّ التّرفَ الّذي يُنحّي صاحبَه عنِ العبادةِ الحقَّة، بل يجعلُه فاسدًا في الأرض، قائدٌ إلى الغضب والعذابِ.

سرُّ تقديمِ اتِّخاذِ القُصورِ على نحْتِ البيوتِ:

التَّرقّي في ذكْرِ الأسهلِ فالأصعبِ منَ العملِ

قُدِّمَ اتّخاذُ القصورِ على نحتِ البيوتِ في قولِه تعالى: ﴿تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا﴾؛ لأنَّ اتّخاذَ القصورِ في السّهول أسهلُ من نحتِ البيوتِ في الجبال، كما أنَّ تحصيلَ السُّكنَى في الجبال بالقوّة والسَّبقِ، وليس كذلك اتّخاذُ القصورِ في سُهولِ الأرضِ، ففي الكلام معنى التّرقّي في الإنعامِ عليهم؛ ممّا يوجبُ زيادةً في ذكرِ آلاء اللّه وشُكرِها.

سرُّ تعريفِ ﴿ٱلْجِبَالَ﴾ بـ(أل):

عِظَمُ الجبالِ يُناسِبُه الاستقلالُ وسهولةُ السُّهول تحسُنُ معها الإضافةُ

لم يقُل: (وتنحتون من جبالها بيوتًا)، كما قال في شأن القصور وإنّما قال ﴿وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا﴾؛ لأنَّ الجبلَ قطعةٌ عظيمةٌ ناتئةٌ من سهلِ الأرضِ، ولِعظَمِ الجبال وعِظَمِ خلْقِها لم ترِدْ مضافةً إلى الأرض، فذكرَ اللّهُ تعالى أنّه خلقَها وجعلَها في الأرض، قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا﴾ [الرّعد: 3]، وجاءتِ الجبالُ مقابلةً لذكْرِ الأرضِ، كما في قولِه تعالى: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا ﴿١٤﴾﴾ [المزمل: 14]، فلمّا ذكرَها بالتَّعريفِ بأل أعطاها فخامةً وجلالًا لم يكنْ لو أُضيفتْ إلى الأرضِ، فناسبَ إضافةَ السُّهول إلى الأرض لسُهولتِها، كما أنَّ الجبالَ استقلَّت لعظيمِ حالِها ووُعورةِ مَسلكِها.

بديعُ الطّباقِ بين الجبالِ والسُّهولِ:

ذكرَ السُّهولَ والجبالَ على وجهِ الطِّباقِ؛ لأنَّ الجبالَ ضدُّ السُّهولِ، فذكرَ ما أنعمَ عليهم في السُّهول، وما أنعمَ عليهم في ما

يقابلُها وهي الجبالُ؛ للإشعارِ بنِعمةِ الجمعِ بين الشّيءِ ومقابلِه، بأن جعلَ منازلَهم قسمَيْن: قسمٌ صالحٌ للبناء فيه، وقسمٌ صالحٌ لنحتِ البيوتِ[1].

فنُّ الطِّباقِ استكمالٌ للمتقابلات وتتميمٌ للتَّقسيمات

سِرُّ استعمالِ لفظِ (البيوت) دونَ المنازلِ:

لمّا كان البيتُ اسمًا لمسقفٍ واحدٍ له دهليزٌ، وكان الأصلُ في البيتِ أن يكونَ موضعَ المبيتِ ليلًا ذكرَ ﴿بُيُوتًا﴾ دون (منازلَ)؛ إشعارًا بنِعمةِ الإيواء في الجبالِ والأمانِ فيها، كما أفادَ التّعبيرُ عُمرانَ البيوتِ، وأنّها كانت جاهزةً للمبيتِ في وقتِ الخطابِ،؛ لأنَّ البيتَ ليسَ ببيتٍ بعدما يُهدَمُ[2]، وأيضًا في استعمالِ لفظِ ﴿بُيُوتًا﴾ تناسقٌ في اللّفظ مع ﴿قُصُورًا﴾.

تناسُبُ الألفاظِ وتناسُقُ المعاني مَلحظٌ بديعٌ في النَّظْمِ القرآني

دلالةُ تنكيرِ ﴿بُيُوتًا﴾:

أفادَ تنكيرُ ﴿بُيُوتًا﴾ تعظيمَ البيوتِ الّتي نحتوها منَ الجبال؛ إشعارًا بقوَّتها وثباتِها وفخامتِها؛ لارتفاعِها وعُلوِّها، فهي في الجبالِ.

في تنكير (بيوتا) إيماءٌ إلى قوَّتِها وإشعارٌ بمتانتِها

توجيهُ المُتشابهِ اللّفظيِّ:

جاء في هذهِ السّورةِ قولُه تعالى: ﴿وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا﴾، وفي سورةِ الحِجر والشُّعراء قال: ﴿يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا﴾ [الحجر: 82] و[الشّعراء: 149]، بـ ﴿مِنَ﴾ قبْلَ ﴿ٱلْجِبَالِ﴾، وفيه مناسبةٌ حسنةٌ، وذلك لأنَّ في الأعرافِ تَقدَّمه قولُه: ﴿مِن سُهُولِهَا قُصُورًا﴾، فاكتَفَى بذلك[3]؛ أي: أنَّه لمّا قال: ﴿مِن سُهُولِهَا﴾ اكتفَى بإيرادِ حرفِ ﴿مِن﴾ عن إعادتِه، وهو توجيهٌ لفظيٌّ، والأوجهُ أنَّ ما جاءَ في الأعراف بحذفِ (مِن) للمبالغةِ، و﴿مِنَ﴾ في الحِجر والشّعراء دلَّت على البيانِ، بدليلِ هذه الآية، فذكرُ حرفِ (مِن) وحذفُه في الموضعين يدلُّ على معنًى واحدٍ، لكنْ في الأعراف حُذِفَ للمبالغةِ، وفي الحِجر والشّعراء للبيانِ.

حُذِفَ حرفُ (من) للمبالغةِ في تصويرِ نحتِ الجبالِ واستحضارِ قوّةِ ثمودَ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/220.
(2) المناويّ، التّوقيف على مهمات التّعاريف: 1/86، والكفويّ، الكلّيّات، ص: 239.
(3) الكرمانّي، أسرار التّكرار في القرآن، ص: 124.

بلاغةُ الإطنابِ في عطْفِ العامِّ على الخاصِّ بالفاءِ:

تقديمُ النّعمةِ العُظمَى على بقيَّةِ النِّعَمِ دعوةٌ للشُّكرِ وتثبيتٌ للامتنانِ

في قوله تعالى ﴿فَٱذۡكُرُوٓاْ﴾ أفادتِ الفاءُ العطفَ والسَّببيَّةَ، فعَطفتِ العامَّ على الخاصِّ؛ أي: عطفتِ الأمرَ بذكرِ آلاءِ اللّهِ الكثيرةِ المتنوّعةِ في قولِه: ﴿فَٱذۡكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ﴾ على الأمرِ بذكرِ النِّعمتينِ العظيمتَينِ اللَّتينِ خصّهمُ اللّهُ بهما؛ لأنَّه أمَرَهم بذِكرِ نِعمتَينِ، ثمَّ أمَرَهم بذِكرِ جَميعِ النِّعمِ الّتي لا يُحصونَها؛ فكان هذا بمنزلةِ التَّذييلِ، وأفادتِ الفاءُ معنى السَّببيَّةِ في بيانِ أنَّ النّعمتينِ المذكورتينِ سببٌ في ذكرِ آلاءِ اللّهِ الكثيرةِ وشُكرِه عليها، وسببٌ في تركِ الإفسادِ في الأرضِ واجتنابِه، ففي العطفِ زيادةُ تقريرٍ للأمرِ بذكرِ نعمِ اللّهِ وتعميمٌ بعدَ تخصيصٍ[1].

بلاغةُ الإيجازِ في استعمالِ الفعْلِ ﴿فَٱذۡكُرُوٓاْ﴾:

تذكُّرُ آلاءِ اللهِ يبعثُ على ذكْرِ الشُّكرِ والطّاعةِ وتركِ الفسادِ

يحتملُ أن يكونَ الفعْلُ ﴿فَٱذۡكُرُوٓاْ﴾ مأخوذًا منَ الذِّكرِ بكسرِ الذّالِ، وحُذِفَ مُتعلِّقُ الفعلِ لإفادةِ العمومِ، والمعنى: اذكروا آلاءَ اللّهِ بينكم وفي قلوبكم، ففيه الأمرُ بالتّذكّرِ، وهذا منَ الإيجازِ البليغِ.

ويحتملُ أن يكونَ مأخوذًا منَ الذُّكرِ بضمِّ الذّالِ، فيكونَ بمعنى التّذكُّرِ بالعقلِ والنَّظرِ النَّفسانيِّ، وتذكُّرُ الآلاءِ يبعثُ على الشُّكرِ والطّاعةِ وتركِ الفسادِ، فلذلكَ عطف نهيَهم عنِ الفسادِ في الأرضِ على الأمرِ بذكرِ آلاءِ اللّهِ، والوجهُ الأوّلُ هو الأولى، وعليه ظاهرُ قولِ المفسّرينَ[2]، والأمرُ بذكرِ آلاءِ اللّهِ يُقصَدُ به فائدةُ الخبرِ، وهو مدلولُ منطوقِ الجملةِ ولازمِ الفائدةِ، وهو المحافظةُ عليها بشُكرِها والقيامِ بموجبِها بعبادةِ اللّهِ تعالى وحدَه، فهو المنعِمُ بها[3].

الآلاءُ: هي النِّعمُ العظيمةُ الظّاهرةُ والباطنةُ المتواليةُ على العبادِ

نُكتةُ اختيارِ لفظِ ﴿ءَالَآءَ﴾ دونَ (نِعم):

جاء التَّعبيرُ بقولِه تعالى ﴿ءَالَآءَ ٱللَّهِ﴾، دونَ أن يقولَ: (نِعَمَ اللّهِ)؛

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/239، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/223.
(2) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/306، والنّيسابوريّ، غرائب القرآن: 3/271.
(3) البروسويّ، روح البيان: 3/191، والقنّوجيّ، فتح البيان: 4/379.

لأنَ الآلاءَ جمعُ الأُلى، وهي النِّعمةُ الّتي تتلوها غيرُها، وتكون من عظائمِ النّعم؛ للإشعارِ بتوالي نعمِ اللّهِ العظيمةِ السّابغة عليهم.

كذلك يدلُّ التّعبيرُ بالآلاءِ على النّعمِ العظيمةِ ظاهرًا أو باطنًا، والّتي فيها عِظةٌ تستحقُّ شكرَ المنعِم.

فائدةُ جمعِ لفظ ﴿ءَالَآءَ﴾:

الجمعُ إشارةٌ لكثرةِ النِّعم، وذكرُها عبادةٌ مشكورةٌ

تفيدُ صيغةُ الجمعِ ﴿ءَالَآءَ﴾ التَّكثيرَ؛ لمناسبةِ سياقِ الامتنانِ، بمعنى: قد ذكرتُ لكم بعضَ ما آتاكم اللّهُ منَ النِّعم، وذكرُ الكلِّ طويلٌ، فاذكروا أنتم نعمَه تعالى[1]، فما تقدَّم من ذكرِ النِّعمتين على سبيل التَّمثيلِ، لا الاستقصاءِ، فإنَّ نعمَه تعالى لا تُعدُّ ولا تُحصَى.

فائدةُ الإضافة في ﴿ءَالَآءَ ٱللَّهِ﴾:

الآلاءُ من اللّه وحدَه، فهو المستحقُّ للعبادةِ والشّكرِ وحدَه

أفادَتْ إضافةُ ﴿ءَالَآءَ﴾ إلى لفظ الجلالةِ ﴿ٱللَّهِ﴾ التَّخصيصَ وبيانَ مصدرِها، بمعنى: أنَّ الآلاءَ منَ اللّهِ تعالى، وليستْ من غيرِه، كما أفادتِ الإضافةُ إلى اللّه تعالى تشريفَها وتعظيمَها والتّذكيرَ بوجوبِ شُكرِ اللّهِ المنعِم بها على عبادِه.

وفي الإضافةِ إلى اللّه تعالى تنبيهٌ إلى مقامِ الألوهيّةِ المقتضي التّخويفَ من عصيانِ رسولِه.

مُناسبةُ عطْفِ جملة ﴿وَلَا تَعۡثَوۡاْ﴾ على ما قبلها:

الحَذَرُ مِن استبدالِ الكُفرِ بالشُّكرِ

تقدّم أنَّ الفاءَ أفادتِ السَّببيَّةَ في قولِه تعالى: ﴿فَٱذۡكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ﴾؛ بمعنى: أنَّ ذكرَ النِّعمتين سببٌ في الامتثالِ، وعطَفَ طلبَ النَّهيِ عنِ الإفسادِ في الأرض على طلبِ الأمرِ بذكرِ آلاءِ اللّه؛ لأنَّ حقَّ آلائِه تعالى أن تُشكَرَ ولا تُهملَ ولا يُغفَلَ عنها، فكيف بالكفرِ والعثوِّ في الأرض بالفساد؟! وفي عطْفِ نَهيِهم عَنِ الفَسادِ في الأرضِ، على الأمرِ بذِكرِ آلاءِ اللّهِ؛ تقريرٌ لمعنى السّببيّة الّذي أفادته؛ ليُرشِدَ إلى

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/306.

أنَّ تذَكُّرَ الآلاءِ يَبعَثُ على الشُّكرِ والطّاعةِ، وتَركِ الفَسادِ[1]، فيكونَ عطفُ هذه الجملةِ على السّابقةِ من بابِ التَّحذيرِ بعد إنشاءِ الأمرِ بذكْرِ النِّعم الّتي تدعو للشُّكرِ لا الكفرِ.

دَلالةُ النّهيِ في جملة ﴿وَلَا تَعۡثَوۡاْ﴾:

الإفسادُ درجاتٌ، وكلُّه مَنهيٌّ عنه

أفاد النّهيُ أنّهم كانوا مُفسدين في الأرض، فلم يَنهَ عن أمرٍ يُتوقَّعُ حصولُه، بل هو طلبٌ باجتنابِ ما هو واقعٌ، ودلَّ عليه مجيءُ الحالِ في قولِه: ﴿مُفۡسِدِينَ﴾، وأفادَ التّعبيرُ النّهيَ عن جميع أنواعِ الفسادِ، وأنّ إفسادَهم كان درجاتٍ، فمنه الأشدُّ.

نُكتةُ التّعبيرِ بلفظِ ﴿تَعۡثَوۡاْ﴾ دونَ (تُفسدوا):

العُثوُّ هو الإسراعُ في الفسادِ والغُلوّ فيه

عُبِّرَ بلفظِ ﴿تَعۡثَوۡاْ﴾؛ لما فيه من معنى الإسراعِ في الإفساد والغُلوّ فيه، فالعَيثُ أشدُّ الفسادِ وأسرعُه، كما أنَّ في اللّفظِ معنَى الإسرافِ والتَّبذيرِ مع الإفسادِ[2]، وهذا يدلُّ على أنَّ القومَ كان عندَهم فسادٌ شديدٌ، فجاء النَّهيُ عن ذلك، تنبيهًا على أنَّ المُطاولةَ فيه تُؤدّي إلى نزول العذابِ المبينِ.

نُكتةُ تقديمِ ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ على الحال ﴿مُفۡسِدِينَ﴾:

الأرضُ وُضِعتْ لإعمارِها لا لإفسادِها

أفادَ تقديمُ الجارِّ والمجرور على الحالِ الاهتمامَ والرّعايةَ بالأرضِ؛ لتذكيرِهم بأنَّ الأرضَ وُضِعَت لإعمارِها لا لإفسادِها، ففي التّقديم توبيخٌ لهم على عُتوِّهم في الأرضِ، وإفسادِهم فيها.

دلالةُ استِعمالِ ﴿فِي﴾ مع لفظِ ﴿ٱلۡأَرۡضِ﴾:

تعيينُ مكانِ الإفسادِ زيادةٌ في التَّوبيخِ

أفادَ ذكرُ حرف الجرّ - مع أنّه يجبُ ذكرُه لسلامةِ تأليفِ الكلامِ ونظْمِه - تعيينَ مكانِ إفسادِهم زيادةً في توبيخِهم وتقريعِهم.

الحالُ ﴿مُفۡسِدِينَ﴾ بين التّأكيدِ والتَّأسيسِ:

تحتملُ هذهِ الحالُ أن تكونَ مؤكِّدةً، بمعنى: تؤكِّدُ مدلولَ ﴿تَعۡثَوۡاْ﴾؛

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/243، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/221.
(2) رضا، تفسير المنار: 8/447.

والمعنى: لا تفسدوا أشدَّ الإفسادِ في الأرض حال كونِكم مُفسدين، كما تحتملُ أن تكونَ مؤسِّسَةً وهو الظّاهرُ، فإنَّ العثيَّ، وإنْ غلبَ في الفسادِ، ولكنْ قد يكون منه ما ليس بفسادٍ، كمقابلة الظّالمِ المعتدي بفعْلِه، فتُفيدُ الحالُ المقيّدةُ حينئذٍ ﴿وَلَا تَعۡثَوۡاْ﴾ تخليصَ العثيِّ لمعنى الإفسادِ، وتقريرَ معنى النّهي عنِ الإفساد والغُلوِّ فيه كذلك، والمعنى لا تعتدوا حالَ إفسادِكم، كما أنَّ الحالَ هنا مُشعِرةٌ بالتّعليل لبيانِ سببِ النّهي؛ والمعنى: ولا تعتدوا في هذه النِّعم، وتتصرَّفوا فيها تصرُّفَ عَثيانٍ بمخالفةِ ما يُرضي اللّه فيها؛ لأنّكم مُتَّصفون بالإفساد ثابتونَ عليه[1].

التّأكيدُ أفادَ بيانَ قصْدِ المُفسدِ، والتَّأسيسُ أفادَ الاحترازَ عن مقابلةِ الظُّلمِ

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

بوَّأكُم وأسكنكُم وأَنزَلَكُم:

الفرقُ بين الأفعال (بوّأكم) و(أسكنَكم) و(أنزلَكم) هو أنَّ (بوَّأكم) منَ البواءِ الّذي يدلُّ على الرّجوعِ إلى مكانِ إقامةِ القومِ بعد تجوالِهم، ويكونُ المكانُ فيه معنى القوّةِ والتّمكّنِ والأمانِ، وأن يكونَ مكافئًا له ليُرجَعَ إليه في المبيتِ، وأمّا (أسكنَكم) فهو منَ السُّكون، فيُقال: سَكنَ الشّيءُ يَسكُنُ سكوناً إذا ذهبَت حركتُه، وسَكَنَ فلانٌ مكانَ كذا؛ أي: استوطنَه، واسمُ المكانِ مَسكَنٌ، والجمع مَساكِنُ، والسُّكْنُ: أن تُسكِنَ إنساناً مَنزِلًا بلا مقابلٍ، وسَكَنَ بالمَكانِ أقام، ففي السّكنِ معنى الإقامةِ والاستقرارِ والهدوءِ بعدَ حركةٍ أوِ اضطرابٍ، وأمّا (أنزلَكم) فإنّه لمّا كانَ النُّزولُ في الأصل هو انحِطاطٌ من عُلوٍّ كان أنزلَكم بمعنى: أن يحلَّكم في موضعِ حطِّ الرّحلِ والمتاعِ، ففيه معنى الحلولِ مِن عُلوٍّ إلى سُفلٍ[2].

يُلحظُ في (بوَّأ) معنى الرُّجوعِ بعد التَّجوّلِ، والسُّكونُ فيه معنى الهدوءِ بعدَ الحركة، والإنزالُ يكونُ من عُلوٍّ إلى سُفلٍ ففيه معنَى الاستقرار

(1) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 1/83، ومحمد رضا، تفسير المنار: 8/448.
(2) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (بوأ)، (سكن)، (نزل).

القصورُ والبيوتُ:

القصرُ: المسكن الشّامخ، والبيتُ: مكانُ الإيواءِ والسُّكنَى

القصرُ هو المَسكنُ المبنيُّ بالحجارة المجعولُ طِباقًا، بحيث يُضمُّ بعضُه إلى بعضٍ في ارتفاعٍ، ويكونُ واسعًا عظيمًا مُحصَّنًا بالحيطانِ، ويكونُ بناؤُه من حجرٍ، سُمّي بذلك في الأصلِ؛ لأنَّهُ تقصرُ فيه الحُرَمُ وتُحبسُ فيه، أو لاحتوائه على مقصوراتٍ، وأمّا البيتُ فهو مأوى الإنسانِ باللّيل؛ لأنّه يُقال: باتَ: أقامَ باللّيل، كما يُقال: ظلَّ بالنّهار، ثمّ قد يُقالُ للمسكن بيتٌ من غير اعتبار اللّيل فيه، والبيتُ عندَ العربِ هو ما يُعرَفُ عندنا بالحُجرةِ، ولأنَّ الكعبةَ شَرَّفها اللّه تعالى على صورةِ الحُجرةِ سمّيَتْ بيتًا[1].

العُثوّ والإفسادُ:

الفسادُ هو عمومُ التَّغيير للأسوأ، والعُثُوُّ هو شدّةُ الفسادِ وكثرته

الفرقُ بينهما أنَّ الفسادَ هو التّغييرُ عنِ المقدارِ الّذي تدعو إليه الحكمةُ، فهو نقيضُ الصّلاحِ الّذي هو الاستقامةُ على ما تدعو إليه الحكمةُ، فما قصُرَ عنِ المقدار أو أفرطَ كان فسادًا، فهو تغييرُ ما من شأنِه أن يكونَ صالحًا، والفسادُ يكونُ في الأفعال والأقوال، فيَقعُ على الابتداعِ وفعلِ المُنكراتِ وغيرِها، وأمّا العثوُّ فهو كثرةُ الإفساد وأشدُّه، وأصلُه من قولك: (ضبعٌ عَثواءُ) إذا كثرَ الشَّعرُ على وجهِها، وكذلك إذا كَثُرَ الشّعرُ على وجهِ الرَّجلِ، و(عاثَ يعيثُ) لُغةً، و(عثا يعثو) أفصحُ اللُّغتين، فالعيثُ الإفسادُ لا الفسادُ، ومنه عاثَ الذِّئبُ في الغنم إذا أفسد، ﴿وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ﴾، ولم يأتِ في القرآن منَ التّركيب إلّا هذه العبارةُ خمسَ مرّاتٍ، وهذا يؤكّدُ التّلازمَ بين العُثوّ والفساد[2].

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (بيت) و(قصر)، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/286.

(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 213، والكفويّ، الكلّيّات، ص: 598، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (عثو).

الآلاءُ والنِّعمُ:

الآلاءُ هي النّعمةُ الّتي تتلوها غيرُها، من قولك: وليَه يليه إذا قَرُب منه، فالآلاءُ هي النّعمُ العظيمةُ الكثيرةُ المتتاليةُ الّتي ينتفعُ منها جنسُ العقلاء، وتكونُ واضحةً ظاهرةً لا يمكنُ إنكارُها، وواحدُ الآلاء: إِلْيٌ بالكسر، وكدَلْوٍ، ورَحَى ومِعَى، وأمّا النّعمة فهي الحالةُ الحسنةُ، وتُطلَقُ على التّرفُّهِ والمالِ وطيبِ العيشِ، والنِّعَمُ قد تكونُ صغيرةً أو كبيرةً، وظاهرةً أو خفيَّةً، والنَّعماءُ بإزاءِ الضَّرّاءِ، والإنعامُ: إيصالُ الإحسانِ إلى الغَيرِ، ولا يُقال إلّا إذا كان الموصَلُ إليه من جِنسِ العقلاء، فإنّه لا يُقال أنعَمَ فلانٌ على فَرَسِهِ[1].

النِّعمُ عمومُ الخيرِ الذي يُصيبُ الإنسانَ، والآلاءُ النِّعمُ العظيمةُ المتتابِعةُ

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 194، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (إلي)، (نعم).

﴿قَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ لِمَنۡ ءَامَنَ مِنۡهُمۡ أَتَعۡلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحٗا مُّرۡسَلٞ مِّن رَّبِّهِۦۚ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلَ بِهِۦ مُؤۡمِنُونَ ٧٥ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا بِٱلَّذِيٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ٧٦﴾ [الأعراف: 75 - 76]

مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِما قبْلَهُما:

تـوجُّـهُ المـلإِ إلى مُـحـاورةِ أتـباعِ الأنبياءِ والدُّعاةِ دليلُ إفلاسِهم

لمّا أمرَ صالحٌ قومَه بعبادةِ اللّهِ وحدَه، وبذكرِ آلاءِ اللّهِ، ونهاهم عنِ الإفسادِ في الأرضِ، عدلَ الملأُ عن مجادلةِ صالحٍ عليه السلام إلى اختبارِ تصُلُّبِ الّذين آمنوا به في إيمانِهم، ومحاولةِ إلقاءِ الشَّكِّ في نفوسِهم، ولمّا كانَ خطابُهم للمؤمنين مقصودًا به إفسادُ دعوةِ صالح عليه السلام كان خطابُهم بمنزلةِ المحاورةِ مع صالحٍ عليه السلام، فلذلكَ فُصِلَت جملةُ حكايةِ قولِهم على طريقةِ فصْلِ جُملِ حكايةِ المحاوَراتِ، ثمَّ ذكرَ جوابَ الّذين استكبروا للَّذينَ استُضعِفوا إيذانًا بتصلُّبِ الّذين استكبروا على كُفرِهم وثباتِهم فيه[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلۡمَلَأُ﴾: الجماعةُ الّذين يجتمعون على رأي، فيملَؤون العيونَ رَواءً ومنظرًا، والنّفوسَ بهاءً وجلالًا، والملأُ الرّؤساءُ، سُمّوا بذلك؛ لأنَّهم مِلاءٌ بما يُحتاجُ إليهِ، ويُقال: فلانٌ مِلءُ العيونِ؛ أي: مُعظَّمٌ عندَ مَن رآه، كأنَّه ملأ عينَه ونفسَه مِن رؤيتِه، ويحتملُ أن يكونَ مِن أنَّهم إذا تمالَؤوا على أمرٍ تمَّ، والمِلْءُ مقدارُ ما يأخذهُ الإناءُ الممتلئُ، ومالَأْتُهُ: عاونتُه وصرتُ من ملَئِه؛ أي: جمعِه، والملأُ صفةٌ غالبةٌ، وجمعُه أملاءٌ، وذهبَ بعضُ اللُّغويّينَ إلى أنَّ الملأ همُ القومُ منَ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/222.

الرّجالِ ليس فيهم امرأةٌ، والملأُ هنا هم كبارُ القومِ وقادةُ الرّأيِ فيهم الأحقُّ بأن يُعابَ موقفُهم[1].

2) ﴿ٱسۡتَكۡبَرُواْ﴾: الكِبرُ يدلُّ على خلافِ الصِّغَرِ، والكِبْرُ: مُعظمُ الأمر، وكبُرَ الشّيءُ إذا عظُمَ، وأكبرتُه استعظمتُه، ويُقالُ للملوكِ والرّؤساءِ ووُجهاءِ القومِ: الأكابرُ، والكِبْرُ، والتَّكَبُّرُ، والاستِكبارُ تتقاربُ، فالكبرُ الحالةُ الّتي يتخصّصُ بها الإنسانُ من إعجابِه بنفسِه وتعاظُمِه على غيرِه، وذلك أن يَرى الإنسانُ نفسَه أكبرَ من غيرِه، وأعظمُ التّكبُّرِ التّكبُّرُ على اللهِ بالامتناعِ من قبولِ الحقِّ والإذعانِ له بالعبادةِ معاندةً وأنَفةً[2]، وهو المرادُ في الآيةِ.

3) ﴿ٱسۡتُضۡعِفُواْ﴾: الضَّعفُ خلافُ القوّةِ، وقد يكونُ في النّفسِ، وفي البدنِ، وفي الحال، وقال الخليلُ رحمه الله: الضُّعفُ بالضّمّ في البَدنِ، والضَّعفُ بالفتحِ في العقل والرّأي، وأجازَ بعضُ اللُّغويّين الصّيغَتين معًا في كلِّ وَجهٍ، وضَعُفَ عَنِ الشَّيءِ: عَجَزَ عَنِ احتمالِه، واستَضعَفَه: وَجَدَهُ ضَعيفًا أو جعلهُ ضعيفًا، فيُقالُ: استَضعَفتُه لِلَّذي يَتَضَعَّفُه النّاسُ، ويجعلونَه ضعيفًا، ويَتَجَبَّرون عليه في الدُّنيا لِلفَقرِ ورَثاثَةِ الحالِ[3]، والاستضعافُ في الآيةِ هو استضعافُ المؤمنين بسببِ فقرِهم وقلَّةِ حيلتِهم، ويُراد منه ازدراءُ المستكبِرين للمُستضعَفين.

المعنى الإجْماليُّ:

تُبيِّن الآيةُ حِوارًا حصلَ بين الملأِ المُستكبرين والمُستضعَفين؛ فقال السّادةُ والوجهاءُ من قوم صالحٍ الّذين استكبروا عنِ الإيمان باللّه واتّباعِ صالحٍ عليه السلام لأهلِ المسكنةِ منَ المؤمنين به منهم: أتعلمونَ أنّ

محاورةُ المُستكبِرين للمُستضعَفين لا تنتهي إلّا بما يَهواه المستكبِرون

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (ملأ)، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/415، والفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/307.

(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (كبر).

(3) الرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، والفيوميّ، المصباح المنير: (ضعف).

صالحًا أرسله اللّه إلينا وإليكم؟ قال الّذين آمنوا من أهلِ المسكنة: إنّا بما أرسلَ اللّهُ به صالحًا مُصدِّقون مُقرّون، قال الّذين استكبروا عن أمرِ اللّه وأمرِ رسولِه صالحٍ: إنّا بالّذي صدَّقتم به من نبوّة صالحٍ، وأنَّ الّذي جاء به حقٌّ من عندِ اللّه جاحدون مُنكرون[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

توجيهُ قراءة ﴿وَقَالَ ٱلۡمَلَأُ﴾ بإثبات الواو وحذفها:

الـقـراءةُ بحذفِ الـواوِ استئنافٌ بيانيٌّ، وبذكرِها نسقٌ على الكلامِ السّابق

قرأ ابنُ عامرٍ وحدَه في هذا المَوضع: (وَقالَ المَلَأُ) بإثباتِ الواو، وهي محذوفةٌ عندَ جميعِ القرّاء[2]، وبيانُ المعنى على القراءتَين؛ أنَّه على القراءةِ المشهورةِ بحذف الواو يكونُ الكلامُ إمّا اكتفاءً بالرَّبطِ المعنويِّ[3]، وإمّا على طريقِ الاستئنافِ البيانيِّ[4]، وبيانُه أنَّه لمّا أمرَ رسولُ اللّهِ صالحٌ قومَه بعبادة اللّه وحدَه، وجاءَهم بالنّاقة آيةً على رسالتِه تشوّفَتْ نفوسُ المُخاطَبين لمعرفة ما أجابَه قومُه، فعدلوا عن جوابِ صالحٍ عليه السلام إلى سؤالِ المُستضعَفين منَ المؤمنين؛ لتَشكيكِهم في إيمانِهم، ولمّا كانَت محاورتُهم للمُستضعَفين بمنزلة إفسادِهم لدعوةِ صالحٍ عليه السلام، وردًّا عليه، ناسبَ أن يكونَ قولُه تعالى: ﴿قَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ﴾ في مقامِ جوابِهم لصالحٍ عليه السلام، وعلى قراءةِ ابنِ عامرٍ بالواو، من بابِ العطْفِ نسَقًا لهذه الجملةِ على ما قبْلَها[5]؛ أي: قولُه: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ﴾ [الأعراف: 73] ليكونَ إخبارًا بما قاله الملأُ بعدَ إخبارِ ما قالَه صالحٌ عليه السلام لقومِه.

دلالةُ وصف الملإِ بالاسمِ الموصولِ ﴿ٱلَّذِينَ﴾:

أفادَ الاسمُ الموصولُ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ الذّمَّ؛ ليُؤذِنَ بأنَّ الملأ الكافرينَ كلَّهم

(1) ابن جرير، جامع البيان: 12/543.
(2) ابن الجزريّ، النّشر: 2/270.
(3) السّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 5/365.
(4) ابو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/243.
(5) السّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 5/365.

كانوا مُستكبِرين، بما دلَّت عليه الصِّلةُ مِن أنَّ استكبارَهم كانَ معلومًا مشهورًا بين قومِه، ومِن أنَّهم استوجبوا الذّمَّ بسببِه؛ لتفظيعِ استكبارِهم وتعاظُمِهم على عامَّة قومِهم واستذلالِهم إيّاهم، ولمّا كانَ الكِبرُ يقابَلُ به الضَّعفُ أشعرَ التّعبيرُ بالنّعتِ أنَّ الّذين آمنوا بما جاءَهم به صالحٌ عليه السلام هم ضعفاءُ قومِه، كما يحتملُ النّعتُ أن يكونَ للتّخصيصِ، فيكونَ من نعتِ المعرفةِ المخَصِّص، فيفيدَ أنَّ مِنَ الملأِ مَن آمنَ ومنهم مَنِ استكبرَ[1].

الكِبرُ يزيدُ من بشاعةِ الكُفرِ وقُبحِ الإنكارِ

من ناحية أخرى، فإنَّ اختيار طريقِ الموصوليَّةِ في وصْفِهم بـ ﴿ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ﴾ ووصْفِ الآخرين بـ ﴿لِلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ﴾ لما تومئُ إليه الصِّلةُ من وجْهِ صدورِ هذا الكلام منهم، بمعنى: أنَّ استكبارَهم هو الّذي صرفَهم عن طاعةِ نبيِّهم، وأنَّ احتقارَهم المؤمنينَ هو الّذي لم يُسِغْ عندهم سبقَهم إيّاهم إلى الخيرِ والهدى[2].

علَّةُ كُفرِ ثمودَ الكِبرُ

نُكتةُ التّعبيرِ بالاستكبارِ لا الكُفرِ:

عُبِّرَ بقولِه: ﴿ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ﴾، ولم يقُل: (الّذين كفروا) لنُكتتَين: إحداهما بيانُ سببِ كفرِهم وسُؤالِهم المؤمنين المُستضعَفين سؤالَ الاستهزاءِ والسّخرية الّذي لا يصدرُ إلّا عن المُستكبِرين في قولِهم: ﴿أَتَعۡلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحٗا مُّرۡسَلٞ مِّن رَّبِّهِۦۚ﴾، والثّانيةُ لحسنِ التّقابلِ لقولِه: ﴿لِلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ﴾.

إذا استحوذَ الكِبرُ على الملأِ أهلكَهم ومَن تحتَهم

دلالةُ صيغةِ ﴿ٱسۡتَكۡبَرُواْ﴾:

يحتملُ أن تكونَ الهمزةُ والسّينُ والتّاءُ للطَّلبِ، والمعنى: طلبوا الهيبةَ لأنفسِهم، وهو الظّاهرُ، أو يكونَ ﴿ٱسۡتَكۡبَرُواْ﴾؛ بمعنى: كبُروا؛ أي: كبَّرهم كثرةُ المالِ والجاهِ وأعظمَهم، فيكونَ على هذا كبُرَ واستكبرَ بمعنًى، مثلَ: عجِبَ واستعْجَبَ[3].

إذا اقترنَ المالُ والجاهُ بالفسادِ القلبيِّ ولَّدَ الاستكبارَ

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/307، وأبو حيّان، البحر المحيط: 5/94، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/222.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/222.

(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/423، وأبو حيّان، البحر المحيط: 5/94.

فائدةُ حذفِ مُتعلَّقِ الفعلِ ﴿ٱسۡتَكۡبَرُواْ﴾:

مَنِ استكبرَ عنِ الحقِّ استكبرَ عن كلِّ شيءٍ

حُذفَ مُتعلَّقُ ﴿ٱسۡتَكۡبَرُواْ﴾؛ لإفادةِ العمومِ؛ للإشعارِ باستغراقِهم في الاستكبارِ، والمعنى: استكبروا عنِ الإيمانِ باللّه، وعن عبادتِه، وعنِ الإيمانِ بأنَّ صالحًا مُرسَلٌ من ربِّه، وعنِ اتّباعِه، وعنِ الإيمانِ بمعجزةِ النّاقةِ وغيرِها ممّا جاءَ به صالحٌ عليه السلام، فمَنِ استكبرَ عنِ الإيمانِ باللّه ورسولِه استغرقَه الاستكبارُ، فأفادَ حذفُ المُتعلَّقِ العمومَ والإيجازَ، وقد قدّرَ بعضُ المفسّرين مُتعلَّقَ الفعلِ لبيانِ المعنى وإيضاحِه[1].

معنَى اللّام في قولِه ﴿لِلَّذِينَ﴾ وأثرُها الدّلاليُّ:

تأثيرُ القولِ في النّاسِ حالَ حضورِهم أقوَى

اللّامُ في قولِه: ﴿لِلَّذِينَ﴾ لتعديةِ فعلِ القولِ، وهي لامُ التَّبليغِ؛ للإشعارِ بأنَّ الّذين استُضعِفوا كانوا سامعينَ قولَ الّذين استكبروا، وكانوا حاضرين معهم؛ فإنَّ تأثيرَ القولِ في النّاسِ حالَ الحضورِ أقوَى[2].

دلالةُ بناءِ الفعلِ ﴿ٱسۡتُضۡعِفُواْ﴾ للمفعولِ:

الاستضعافُ وصفُ ذمٍّ للفاعلِ لا للمفعولِ

لمّا جاءَ اللّفظُ في قولِه تعالى: ﴿ٱسۡتُضۡعِفُواْ﴾ بصيغةِ المبنيِّ للمفعولِ دلَّ على وجودِ المقابلِ الّذي استُضعفَ، وهمُ الّذين استكبروا الّذين كانوا يستضعفونَهم ويستحقرونَهم، فالاستضعافُ ليس فعلًا صادرًا عنهم بل عن غيرِهم، فهو لا يكونُ صفةَ ذمٍّ في حقِّهم، بلِ الذّمُّ عائدٌ إلى الّذين يستحقرونَهم ويستضعفونَهم، والمعنى: للّذين استضعفَهم رؤساءُ الكفّارِ واستذَلّوهم، والقصدُ منَ التّعبيرِ بصيغةِ المبنيّ للمفعولِ تحقيرُ الفاعلِ؛ للإشعارِ بأنَّه لا يستحقُّ أن يُذكرَ في مقامِ فعلِ الاستضعافِ والاستحقارِ، كما دلَّ

(1) ابن جرير، جامع البيان: 12/542، والواحديّ، الوسيط: 2/381، والبيضاوي، أنوار التّنزيل: 3/21.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/94، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/243، وابن عاشور: التّحرير والتّنوير: 8/223.

على أنَّ المؤمنين ليسوا ضعفاءَ في حقيقةِ الأمرِ، وأنَّ استضعافَهم لم يكن وصْفًا دائمًا لهم[1].

توجيهُ إعرابِ البَدلِ في ﴿لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ﴾:

المؤمنون هم المُستضعَفون على البدلِ الكلّيّ، أو بعضُهم على البدلِ الجزئيّ

جاء قولُه تعالى: ﴿لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ﴾ بدلًا ممّا قبلَه لتمامِ الإيضاحِ والبيانِ في المرادِ منَ الّذين استُضعِفوا، ويحتملُ: ﴿لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُم﴾ أن يكونَ بدلَ الكُلِّ منَ الاسمِ الموصولِ (الّذين)، إن كان ضميرُ ﴿مِنْهُمْ﴾ يعودُ إلى ﴿قَوْمِهِۦ﴾؛ أي: لمَن آمنَ من قومِه، ويدلُّ أنَّ استضعافَهم كان مقصوراً على المؤمنين، وكانَ الَّذينَ استُضعِفوا قِسمًا واحِدًا، ويحتملُ أن يكونَ بدلَ البعضِ، إن كان الضّميرُ يعودُ إلى الاسمِ الموصولِ في قولِه: ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ﴾، فلم يكنِ الاستضعافُ مقصوراً عليهم، ودلّ أنَّ المُستضعَفين كانوا مؤمنين وكافرين، والأوَّلُ هو الوجهُ، إذ لا داعيَ إلى توجيه الخطابِ أوّلاً إلى جميع المُستضعَفين مع أنَّ المجاوبةَ مع المؤمنين منهم، كما أنَّ تكريرَ الجارِّ يومِئُ إلى شدّةِ الاتِّصال وتمامِه، على أنَّ الاستضعافَ مُختصٌّ بالمؤمنين[2].

فائدةُ الطِّباقِ بين الاستكبار والاستضعاف:

استضعافُ الآخرين مسلكُ الجبابرةِ لبلوغِ غايةِ الاستكبارِ

بين ذكرِ المُستكبِرين والمُستضعَفين طباقٌ؛ فالكِبْرُ ضدُّ الضّعفِ، والطِّباقُ من وجوه تحسينِ الكلامِ البليغِ، وفائدتُه في هذه الآيةِ: تأكيدُ صيغة المبنيّ للمفعولِ من أنّ المرادَ بالمُستضعَفين المُستضعَفونَ مِن وِجهةِ نظرِ المُستكبِرين، لا أنَّهم كذلك على الحقيقةِ، والمعنى: استضعفوهم واستذلّوهم[3]، ولمّا أطلقَ الاستكبارَ والاستضْعافَ، ولم

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/123، والفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/307، والنّيسابوريّ، غرائب القرآن: 3/275.

(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/123، والبيضاوي، أنوار التّنزيل: 3/20، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/243، والقونويّ، حاشية على البيضاويّ: 8/430.

(3) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/20، والقونويّ، حاشية على البيضاويّ: 8/430.

يقيّدْه، أفاد الإطلاقُ استكبارَ الملأِ مِن كلِّ الوجوهِ على سبيلِ الذّمِّ للملأ، واستضعافَهم المؤمنين، واستذلالَهم لهم مِن كلِّ الوجوهِ.

غرضُ الاستفهامِ في قولِه: ﴿أَتَعْلَمُونَ﴾:

جاءَ الاستفهامُ في قوله: ﴿أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ على طريق الاستفهامِ المجازيِّ الإنكاريِّ، ليُفيدَ سُخريةَ الملأِ الّذين استكبروا منَ الّذين استُضعِفوا واستهزاءَهم واستخفافَهم بهم، كما يفيدُ تهكّمَهم برسالةِ صالحٍ عليه السلام.

الحربُ النَّفسيَّةُ مِن أدواتِ المُستكبِرين في مجابهةِ أهلِ الحقِّ

وأجازَ رشيدُ رضا أن يكونَ الاستفهامُ حقيقيًّا، ووَجْهُه أنّهم سألوهم عنِ العلم بأنَّه مُرسَلٌ؛ لارتيابِهم في اتِّباعِهم إيّاه عن علمٍ بُرهانيٍّ، وتجويزِهم أن يكونَ اتّباعُهم لصالحٍ عنِ استحسانٍ ما، وتفضيلٍ له عليهم، واختيارٍ لرياستِه على رياستهم[1]. والأقربُ أن يكونَ الاستفهامُ مجازيًّا؛ للإنكارِ على الّذين استُضعِفوا في إيمانِهم؛ لتشكيكِهم فيما آمنوا به، لئلّا يصدِّقوا صالحًا ويتّبعوه، ويدلُّ عليه إصرارُهم على تكذيب صالحٍ بعدَ إقرارِ المُستضعَفين بإيمانِهم به.

فائدةُ الاستفهامِ الإنكاريِّ في جملة ﴿أَتَعْلَمُونَ﴾:

لمّا وقعَ الاستفهامُ الإنكاريُّ على لفظ العلم في قولِه: ﴿أَتَعْلَمُونَ﴾؛ دلَّ على أنّ الملأ الّذين استكبروا قصدوا تشكيكَ الّذين استُضعِفوا في إيمانِهم مع سُخريَّتِهم واستهزائِهم بهم؛ لدلالة الإنكارِ على نفيِ العلم[2]، فهم جمعوا بين الاستهزاءِ النَّفسيِّ، والتَّشكيكِ في المعلومِ منَ الحقِّ، وهذه فائدةٌ عزيزةٌ في بيانِ خطورةِ حِوارِ المُستكبرين، فهم ليسوا أهلَ علم ليتجرّدوا للعلمِ وحدَه، ولا سفهاءَ ليسخروا فحسبُ، بل جمعوا بين السُّخرية والتَّشكيك، وهذا من أشدِّ أنواعِ الحِوارِ خطورةً على المؤمنين.

الجمعُ بين التّشكيكِ في الحقِّ والسُّخريّةِ في الحِوارِ منهجُ المُستكبِرين

(1) رضا، تفسير المنار: 8/449.

(2) الواحديّ، التّفسير الوسيط: 2/384، والزّمخشريّ، الكشّاف: 2/123، وأبو حيّان، البحر المحيط: 5/94، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/223.

نُكتةُ تأكيدِ الجملة الاسميّةِ:

الاستهزاءُ بالعُقولِ تابعٌ لاستضعافِ الشَّخصيّات

جاءَ الكلامُ في قولِه تعالى: ﴿أَنَّ صَٰلِحًا مُّرۡسَلٞ مِّن رَّبِّهِۦۚ﴾ بصيغة الجملةِ الاسميَّةِ المؤكَّدةِ بـ ﴿أَنَّ﴾ في سياق الاستفهامِ الإنكاريِّ؛ بهدفِ إشعارِ الّذين استكبروا الّذين استُضعِفوا أنَّ الإيمانَ بصالحٍ عليه السلام يحتاجُ إلى تثبُّتٍ وتأكيدٍ وتقريرٍ؛ ليكونَ طريقًا إلى تشكيك الّذين آمنوا، ويوحي هذا التَّأكيدُ برائحةِ الاستهزاءِ بالعقولِ، بعدَ استضعافِ الشَّخصيّات، وهو ما يُرشِّحُ معنى الإنكارِ الاستهزائيِّ في الاستفهامِ.

نِكاتُ استعمالِ ﴿مُّرۡسَلٞ﴾ دون (رسولٌ):

تكشفُ الألفاظُ عن خفايا النُّفوسِ وأخلاقِ الرِّجال

آثرَ النَّظمُ التّعبيرَ بصيغة المبنيّ للمفعول ﴿مُّرۡسَلٞ﴾ دونَ (رسول)؛ لمجموعةٍ منَ النِّكات:

الأولى: تشكيكُ المُستضعَفين في رسالةِ صالحٍ عليه السلام.

الثّانية: الكشفُ عمّا في طوايا نفوسِهم من كراهة إثباتِ الرِّسالة لصالحٍ عليه السلام، إذ إنَّ لفظَ (رسول) أثبتُ دلالةً من ﴿مُّرۡسَلٞ﴾ لما فيه من معنى الاسميّة، وهو أثبتُ المشتقّاتِ، و(مُرسَل) اسمُ مفعول منَ الفعل (أُرسِل)، ففيه حدوثٌ[1].

الثّالثة: الإشعارُ بأنَّ صالحًا عليه السلام أقلُّ من أن يكونَ مُرسَلًا، فما بالكم أن يكونَ رسولًا قدِ استقرَّ أمرُ الرِّسالةِ فيه!

الرّابعة: دلالةُ اسمِ المفعولِ على أوَّليَّةِ الإرسالِ، بخلافِ (رسول) فهو يدلُّ على رسوخه.

الخامسة: الاستهزاءُ بصالحٍ عليه السلام، وتعظيمُ أن يكونَ اللّهُ تعالى قد أرسلَه إليهم.

(1) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 1/387.

نُكتةُ الإضافةِ في ﴿رَّبِّهِۦٓ﴾:

اتّهامُ نبيِّ اللهِ باختراعِ الرّسالةِ واختلاقِ النُّبوّة

أفادَت إضافةُ (ربّ) إلى الضَّميرِ العائدِ على صالحٍ عليه السلام التّخصيصَ، فكأنَّ المضافَ مُختصٌّ بِصالحٍ، فَلَم يَقولوا: (مِن رَبِّنا) ولا (مِن رَبِّكُم)؛ لعنادِهم وعُتوِّهم في الكفر بسببِ استكبارِهم[1]، ولجعلِ صالحٍ عليه السلام مُنفرِدًا فيما ادَّعاه، فكأنَّهم قالوا: إنّ ربَّه الّذي أرسلَه قد يكونُ مِن اختراعِ فكرِه، وأباطيلِ وهمِه!

بلاغةُ الاستئنافِ البيانيّ في جملة ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا﴾:

كَسرُ المُتوقَّعِ تُحقِّقُه قوّةُ الإيمانِ وتُعزِّزُه الثِّقةُ بالمُرسلين

لمّا سألَ الّذين استكبروا الّذين استُضعِفوا: ﴿أَتَعۡلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحٗا مُّرۡسَلٞ مِّن رَّبِّهِۦۚ﴾؟! تشوّفَ السّامعُ إلى معرفةِ جوابِ المُستضعَفين الّذين يغلبُ في العادة أنْ لا يخالفوا الّذين استكبروا، فجاءَ الجوابُ جملة استئنافيّةً ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلَ بِهِۦ مُؤۡمِنُونَ﴾ كسرًا للمُتوقَّعِ وإثباتًا لعُلوِّ الدّين في نفوسِ المُستضعَفين؛ بإعلانِ إيمانِهم، ورفعِ صوتِهم في وَجهِ الاستكبارِ.

نُكتةُ العدولِ بالحديث عن الإيمان بدل الإرسال:

الاستضعافُ لا يعني جهلَ المُستَضعَفِ، بل يعني حماقةَ المُستَضعِفِ

سألَ الملأُ في قولِه تعالى: ﴿أَتَعۡلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحٗا مُّرۡسَلٞ مِّن رَّبِّهِۦۚ﴾ المُستضعَفينَ عن علمِهم برسالة صالحٍ عليه السلام لا عن إيمانهم به، فلمّا أجابوهم عن إيمانِهم به في قولهم: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلَ بِهِۦ مُؤۡمِنُونَ﴾ كان الجوابُ على خلاف مُقتضَى الظّاهر، فعدلوا به عنِ الجوابِ الموافقِ للظّاهرِ الّذي هو نَعم، إلى الجوابِ البليغِ السَّويِّ الموافقِ لمُقتضى الحالِ لمقاصدَ متنوّعةٍ هي[2]:

أوّلًا: التَّنبيهُ على أنَّ إرسالَه أظهرُ من أن يشُكَّ فيه عاقلٌ، ويَخفى على ذوي رأيٍ، فهو مكشوفٌ مسلَّمٌ لوضوحِه وبيانِه، حيث أوردوه

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/94.

(2) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنّة: 4/482، والزّمخشريّ، الكشّاف: 2/123، والبيضاوي، أنوار التّنزيل: 3/21، وأبو حيّان، البحر المحيط: 5/95، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/243.

صِلةً للموصول الّتي تكونُ جملةً معلومةَ الانتسابِ عند المُخاطَبين، والمعنى: لا كلامَ في إرسالِه، وإنّما الكلامُ في وجوب الإيمانِ به، فنخبرُكم أنّا به مؤمنون.

ثانيًا: الإيذانُ بمسارعتِهم إلى تحقيق الحقِّ، وإلى إظهارِ ما لهُم منَ الإيمانِ الثّابتِ المستمرِّ الّذي تُنبِئُ عنه الجملةُ الاسميّةُ.

ثالثًا: إرشادُ الّذين استكبروا إلى أنَّ أمرَ إرسالِه منَ الظّهورِ بحيثُ لا ينبغي أن يُسألَ عنه، وإنّما الحقيقُ بالسّؤال عنه هو الإيمانُ به.

رابعًا: لمّا أثبتوا إيمانَهم بما أُرسِلَ به صالحٌ عليه السلام استلزمَ علمَهم بالأمرِ؛ أي: إنّهم علموا بذلك علمًا يقينيًّا إذعانيًّا له السّلطانُ على عقولهم وقلوبهم، إذ آمنوا به إيمانًا صادقًا كاملًا، فالإيمانُ يستلزمُ العلمَ واليقينَ، والمعنى: أنّهم لمّا سألوهم عن علْمِهم به أجابوهم بما يقتضي العلمَ والإيمانَ؛ أي: كأنّهم قالوا: بل علمنا أنّه مُرسَل من ربّه، وإنّا بما أُرسِل به مؤمنون، فتَضَمَّنَ كَلامُهُمُ العِلمَ بأنَّهُ مُرسَلٌ مِنَ اللّه تعالى، فطويَ المهمُّ، وذُكِرَ الأهمُّ، وهو منَ الإيجازِ البليغِ؛ لدلالة المذكور على المحذوف[1].

خامسًا: لمّا تلقَّى المؤمنون الكافرينَ بغير ما كانوا يترقّبونه منَ الجوابِ، فيحتملُ أن يكونَ منَ الأسلوب الحكيمِ، إنْ كان من قولهم المحكيِّ، إذ سألوهم عن صحّةِ الرِّسالةِ فأجابوهم بما هو أولَى، وهو الإيمانُ بها، واستبعدَه ابنُ عاشور؛ لأنَّ هذه الجملةَ من حكايةِ القرآنِ لا منَ المحكيّ من كلامهم، إذ لا يُظَنُّ أنَّ كلامَهم بلغَ منَ البلاغةِ هذا المبلغَ[2].

سادسًا: في التّعبيرِ دلالةٌ على أنَّ مَن مُكِّنَ له منَ العلم بأسبابٍ جُعلَتْ له يصلُ بها إلى العلم، لم يُعذَرْ بجهلِه في ذلك بعدما أُعطيَ أسبابَ العلم[3].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/223.
(2) البروسويّ، روح البيان: 3/192، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/223.
(3) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنّة: 4/482.

فائدةُ التّوكيد بـ (إنَّ) في جملة ﴿إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلَ﴾:

تأكيدُ الإيمانِ بوحيِ الله تعالى

أفادَت (إنَّ) تأكيدَ إيمانِهم بما أُرسِلَ به صالحٌ عليه السلام وتقريرَه؛ لإزالة ما توهَّموه من شكِّ الّذين استكبروا في صحَّة إيمانهم[1].

العُدولِ عن الجوابِ بالفعليَّةِ إلى الاسميّة:

استضعافُ المُستكبرين لا يعني ضَعفَ إيمانِ المُستضعَفين

لمّا كانَ سؤالُ المُستكبرين بالجملةِ الفعليّةِ: ﴿أَتَعۡلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحٗا مُّرۡسَلٞ مِّن رَّبِّهِۦۚ﴾ كان الظّاهرُ أن يكونَ الجوابُ بالجملةِ الفعليّةِ أيضًا، ولكنَّ الّذين استُضعفوا عدلوا إلى الجواب بالجملة الاسميّة: ﴿إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلَ بِهِۦ مُؤۡمِنُونَ﴾؛ للدّلالة على أنَّ الإيمانَ مُتمكِّنٌ منهم بمزيدِ الثَّباتِ، فلم يَتركوا للّذين استكبروا مَطمَعًا في تشكيكِهم، بلهَ صرفَهم عنِ الإيمانِ برسولِهم[2].

براعةُ الجوابِ في ذكرِ الدَّليلِ على الإيمانِ:

تركُ الجوابِ البليغِ إلى الأبلغِ فصاحةٌ صادرةٌ عن إيمانٍ

أشعرَ مجيءُ الصّلةِ في قولِه تعالى: ﴿بِمَآ أُرۡسِلَ بِهِۦ مُؤۡمِنُونَ﴾ أنَّ سببَ إيمانِهم بما أُرسِلَ به؛ هو أنّهم آمنوا بأنّه مُرسَلٌ من ربّه لدلالة ﴿أُرۡسِلَ بِهِۦ﴾، فلمّا آمنوا بهِ آمنوا بجميعِ ما أُرسِل به، وهذا جوابٌ أبلغُ ممّا طلبه المُستكبِرون، فهم سألوا عن علمهم بأنَّ صالحًا مُرسَلٌ من ربِّه، فأجابوا عن ذلك بذكر الدَّليلِ، وهو الإيمانُ بما أُرسِل به، ولمّا كانت جملةُ الصِّلة معلومةَ الانتسابِ بين المُتخاطِبينَ دلَّ أنَّ الّذين استكبروا كانوا يعلمونَ إيمانَ المُستضعَفين قبلَ أن يسألوهم، وأنّهم إنّما سألوهم استهزاءً وسخريَّةً، لا ليسمعوا جوابَهم، الّذي كسرَ توقّعَهم.

نُكتةُ تقديمِ ﴿بِمَآ أُرۡسِلَ بِهِۦ﴾ على الخبر ﴿مُؤۡمِنُونَ﴾:

تعظيمُ شأنِ الرِّسالةِ والرَّسولِ

قُدِّم معمولُ ﴿مُؤۡمِنُونَ﴾؛ فلم يقُل: (إنّا مؤمنون بما أُرسِل به)؛ لتخصيصِ إيمانِهم بما أُرسِل به صالحٌ عليه السلام، وللاهتمامِ به، تعظيمًا لشأنِ الرّسالةِ وما أُرسِلَ به.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/223.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/223.

دلالةُ استعمالِ الاسمِ الموصولِ بأداةِ (ما):

الإيمانُ بعمومِ الرِّسالةِ يُلائِمُه استعمالُ أداةِ العموم

عُبِّر بأداة (ما) الموصوليّةِ الّتي هي أعمُّ منَ (الّذي)؛ للإيذانِ بإيمانِهم بعمومِ ما أُرسِلَ به وتصديقِهم له، كما أنَّ الصِّلةَ تضمَّنَت إدماجًا بتصديقِهم بكلِّ ما جاءَ به صالحٌ من نحوِ التَّوحيدِ وإثباتِ البعثِ.

دلالة المبنيّ للمفعول في الفعل ﴿أُرۡسِلَ﴾:

مناسبةُ الجوابِ للجوابِ إسكاتٌ لأفواهِ الخراب

لمّا كان سؤالُ الملأ الّذين استكبروا بصيغةِ اسمِ المفعول في قولهم: ﴿مُّرۡسَلٞ مِّن رَّبِّهِۦۚ﴾ ناسبَ أن يكونَ جوابُهم بصيغة الفعل المبنيّ للمفعول في قوله: ﴿أُرۡسِلَ﴾، وللإشارةِ إلى الإيمانِ بالمُرسِلِ سبحانه، دون النَّصِّ على ذكرِه، فلم يقولوا: (إنّا بما أُرسِلَ به من ربِّه)؛ كما سيأتي.

نُكتةُ حذف قيدِ ﴿مِّن رَّبِّهِۦۚ﴾ في قول المُستضعَفين:

طَيُّ اللَّفظِ لإخمادِ مقاصدِ الباطلِ

لمّا كان قولُ المُستكبرين ﴿مِّن رَّبِّهِۦۚ﴾ عنادًا وعتوًّا في كفرِهم كما تقدَّم[1]، لم يذكرْه المُستضعَفونَ، ولم يتابعوهم على قولِهم، مع أنَّ الّذي يقتضيه ظاهرُ الأمرِ النَّصُّ عليه؛ وذلك للإشعارِ بقُبحِ قصدِ المُستكبرينَ وسوءِ سريرتِهم، فدلَّ طويُ اللَّفظِ على طويِ قصدِ المُستكبرين، ففيه دلالةٌ على أنَّ المؤمنينَ حاوروا المُستكبرين بعلمٍ متينٍ، وأسلوبٍ حكيمٍ.

دلالةُ التّعبيرِ بصيغة اسمِ الفاعل ﴿مُؤۡمِنُونَ﴾:

تحدّي المؤمنين للمستكبرين من آثارِ الإيمانِ الرّاسخِ

جاءَ التَّعبيرُ عن إيمانِ المؤمنين بصيغة اسمِ الفاعل ﴿مُؤۡمِنُونَ﴾؛ لأنَّ المؤمنين أرادوا إثباتَ أنَّهم على الإيمانِ بقوَّةٍ وجدارةٍ، وأنَّ إيمانَهم نابعٌ من أفعالِهم القلبيّةِ والسّلوكيّةِ، لا مجرَّدَ إيمانٍ عابرٍ، وفي ذلك تحدٍّ صارخٌ للمُستكبرين في التَّشكيكِ في علمهم الصّادرِ عن إيمانهم.

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/94.

دلالةُ إظهارِ ما حقُّه الإضمارُ في جملة ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ﴾:

الإشعارُ بملازمةِ الكبرِ لأصحابِه المعانِدين

كان مُقتضَى الظّاهر أن يعبَّرَ بالضّمير، فأُعيد الموصولُ مع صلتِه إيذاناً بأنّهم قد قالوا ما قالوه بطريقِ العتوِّ والاستكبارِ، وأنَّ استكبارَهم هو الّذي منعَهم منَ الانقيادِ إلى الحقِّ، وجعلَهم مُتمسّكين بكفرِهم ثابتين عليه[1]، ولبيانِ أنَّ استكبارَهم بقيَ مُلازِمًا لهم بعد جوابِ المُستضعَفين، وأنَّهم في مبدأِ الحِوارِ وأثنائه مُستكبرون.

دلالةُ التّأكيدِ:

ثباتُ الكُفرِ دليلُ رسوخِ الإيمانِ

أفادَ إيرادُ كلمةِ التّحقيقِ (إنَّ) والجملةِ الاسميَّةِ في قوله: ﴿إِنَّا بِٱلَّذِيٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ تحقُّقَ ثباتِهم على الكفرِ، وأنّهم قالوه عن عقيدةٍ ثابتةٍ تامَّةٍ، وصدقِ رغبةٍ؛ للتّشكيكِ في إيمانِ المُستضعَفينَ[2].

سِرُّ استعمالِ (الّذي) دون (ما):

يصدُرُ الجوابُ عنِ العلمِ والأخلاقِ، والنَّظمُ يُصدِّقُ ذلك أو يُكذِّبُه

تقدَّم جوابُ المؤمنين بأداة (ما) الدّالّةِ على العمومِ في قولِه تعالى: ﴿إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلَ بِهِۦ مُؤۡمِنُونَ﴾، لكنَّ النَّظمَ عدلَ عنِ التزامِ استعمالِ (ما)، وآثرَ استعمالَ الاسمِ الموصولِ الصَّريحِ، فقال: ﴿بِٱلَّذِيٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾، وذلك لِبيانِ أنَّهم كفروا بشيءٍ معلومٍ لديهم، وأمّا جوابُ المؤمنين فهو يستوعبُ ما هو أعمُّ من ذلك بكثيرٍ، فأشعرَ النَّظمُ أنَّ كلًّا أجابَ بحدِّ علمِه، ومَرمَى فكرِه، ومدى تصوّرِه.

دلالةُ التّعبيرِ بالموصول وصِلتِه:

استكبارُ الكافرين عن أن يكونوا مع المُستضعَفين في صفٍّ واحدٍ

في قوله تعالى ﴿بِٱلَّذِيٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾، أشعرَ التّعبيرُ بصلة الموصولِ أنَّ سببَ كفرهم بصالحٍ عليه السلام تركّبَ من أمرين بعدَ إيمانِ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/243.
(2) القونويّ، حاشية على البيضاويّ: 8/430.

الّذين استُضعفوا، الأوّلُ: هو استكبارهم عنِ الإيمانِ، والثّاني: هو استكبارهم عن أن يكونوا مع المُستضعَفين في صفٍّ واحدٍ، فحملتِ الأنفةُ رؤساءَ القومِ على مناقضةِ المؤمنين في مقالتِهم، واستمرّوا على كفرهم[1].

العدول عن مادّة (الإرسال) إلى لفظ (الإيمان):

كان جوابُ الكفرة ﴿إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ على طريقِ المقابلةِ لقول الّذين استُضعفوا، وهذه المقابلةُ تقتضي أن يقولَ (أُرسِلَ به) دون ﴿ءَامَنتُم بِهِۦ﴾، فعُدلَ بالكلامِ عن مُقتضَى الظّاهر، فوُضِعَ ﴿ءَامَنتُم بِهِۦ﴾ من حيث المعنى مَوضِع ﴿أُرۡسِلَ بِهِۦ﴾؛ لِما في لفظِ المقابلة ﴿أُرۡسِلَ بِهِۦ﴾ من إثبات رسالتِه، وهم يجحدونها، فبالغوا في التّحرُّز حذرًا منَ النُّطقِ بثبوت الرّسالةِ؛ مبالغةً في عُتوِّهم وغَيِّهم، وليكونَ الرَّدُّ باللَّفظِ المذكور: ﴿بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ﴾ أعَمَّ، فقَصَدوا الرَّدَّ على جميع ما آمنَ به المُستضعَفونَ، لمّا جَعَلَهُ المُؤمِنونَ أمرًا مَعلومًا وأخَذوهُ مُسَلَّمًا.

ظهورُ معالمِ التّحدّي الشّخصيِّ في جوابِ المُستكبرين

ولبيانِ وجهِ استكبارِهم في التَّعاملِ مع المؤمنين، فهم يرونَ أنفسَهم أرفعَ من أن يُؤمِنوا بإيمانِ المُستضعَفين.

فنُّ الطِّباقِ بين لفظَي الإيمانِ والكفرِ:

كما أنَّ التّعبيرَ في قولِه تعالى: ﴿إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ فيه إظهارٌ لمخالفتِهم للّذين استُضعفوا، بما يُشعر به لفظُ ﴿ءَامَنتُم﴾ و﴿كَٰفِرُونَ﴾ من معنى الطّباقِ[2]، أي: على جهة الضِّديَّة، فإنَّ مقتضى الاستكبار مخالفةُ الضّعفاءِ، فهم أرادوا مناوأتَهم ومخالفَتهم، ظنًّا منهم أنَّهم بذلك ينالون مزيَّةً ويُحرزون فضيلةً، أو يتخلَّصون من رذيلةٍ.

المستكبرُ يُخالف لنَيلِ المكرماتِ وما هو بنائلِها

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/423.

(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/123، وأبو حيّان، البحر المحيط: 5/95، والطّيّبيّ، فتوح الغيب: 6/453.

علَّةُ التّعبيرِ بصيغة اسمِ الفاعلِ: ﴿كَٰفِرُونَ﴾:

اتِّـفـاقُ صيغِ المقابلةِ دليلُ المجابهةِ

عُبِّرَ بصيغة اسم الفاعل ﴿كَٰفِرُونَ﴾؛ للإشعار بأنَّ قولَهم صدرَ عنهم على وجهِ التَّحدّي في مجابَهةِ قولِ المؤمنين: ﴿مُؤۡمِنُونَ﴾، فأتى كلامُهم تصدّيًا ومناكفةً ومجابهةً.

﴿فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوۡاْ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِمۡ وَقَالُواْ يَٰصَٰلِحُ ٱئۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ٧٧﴾ [الأعراف: 77]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الانتقالُ من دائرةِ الأقوالِ إلى الأفعالِ مزلقُ المُستكبرين

لمّا بالغوا في الباطل وعتَوا في قولِهم، حتّى قال الّذين استكبروا: ﴿إِنَّا بِٱلَّذِيٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ أعقبَه ذكرُ فعْلِه؛ أي: قالوا ذلك، فعقروا النّاقةَ؛ للإشعارِ بأنّهم قد صدعوا بالكفرِ قولًا، وتسبَّبَ عنه اعتداؤُهم على النّاقة فعلًا؛ نكايةً بصالحٍ عليه السلام وإغاظةً له[1]، فالمناسبةُ بين الآية وما قبْلَها بيانُ الانتقالِ من دائرةِ الأقوالِ إلى دائرة الأفعالِ.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَعَقَرُواْ﴾: عُقْرُ الحوضِ والدّارِ أصلُها، ومنه قيلَ: العَقارُ، وهو المَنزِلُ، والأرضُ، والضّياعُ. وعَقَرتُ النّخل: قطعتُه من أصله، ثمَّ أصبحَ يُطلَقُ على القطْعِ منَ الأصلِ، فقيل: امرأةٌ عاقرٌ؛ أي: لا تلدُ، كأنّها تعقرُ ماءَ الفحل. والعُقارُ بالضّمِّ: الخمرُ؛ لكونها تعقرُ العقلَ مجازًا. والعقاقيرُ: أخلاطُ الأدويةِ؛ لأنَّها تعقرُ المرضَ من أصله. وعَقَرتُ البعيرَ: نحرتُه، والعَقرُ لا يكونُ إلّا في القوائم، يُقال عَقَره، إذا قطعَ قائِمَةً من قوائمه، يُفعلُ ذلكَ به كَيلا يَشرُدَ عِندَ النَّحر. والعَقرُ عِند العَرَبِ كَشفُ عرقوبِ البَعير، ثمَّ جُعِل النَّحرُ عقراً؛ لأنّ العَقرَ سببٌ لنحره، وناحِرُ البَعير يَعقِرُه، ثمَّ ينحرُه[2].

2) ﴿وَعَتَوۡاْ﴾: العُتوُّ: هو بلوغُ غايةِ الشّدَّةِ في الأمرِ، وعتى الشَّيخُ يَعتو عِتيًّا بلغَ الغايةَ في السّنِّ والكِبرِ؛ أي: أسَنَّ وَكَبِرَ فهو عاتٍ.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/224.

(2) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (عقر).

والعتوُّ: بلوغُ غايةِ الشِّدَّةِ في النّبوّ عنِ الطّاعة، ومجاوزةُ الحدِّ في التّجبُّر والتّكبُّر. والعاتي: الشَّديدُ الدُّخولِ في الفَساد، المُتَمَرِّدُ الَّذي لا يقبلُ موعِظَةً، و﴿وَعَتَوْاْ﴾ في الآية بمعنى: تكبَّروا وَتجبَّروا بشدَّةٍ بحيث لا يَقبلون موعظةً[1].

3) ﴿أَمْرِ﴾: الأمرُ: الشّأنُ أو الحالُ، يُقالُ أمرٌ مُستَقيمٌ، وجمعُه أُمورٌ، وهو لفظٌ عامٌّ للأفعال والأقوال كلِّها، والأمرُ بمعنى: الطّلب، جمعُه أوامرُ[2]، والمرادُ في الآية هو طلبُ الفعل على وجه اللُّزوم، فهو مفردُ أوامر لا أمور، وأمرُ اللّه هو أمرُهم أن لا يقربوا النّاقةَ بأَيِّ نوعٍ من أنواعِ الأذى.

4) ﴿تَعِدُنَآ﴾: وَعَدَ يكونُ في الخير والشّرّ، ويُعَدَّى بنَفسِهِ وبالباءِ، فَيُقالُ: وَعَدَهُ الخَيرَ، وبالخَيرِ، وشَرًّا، وبالشَّرِّ، وقَد أسقَطوا لَفظَ الخَيرِ والشَّرِّ، وقالوا في الخَيرِ وَعَدَهُ وَعدًا وَعِدَةً، وفي الشَّرِّ وَعَدَهُ وَعيدًا وأوعدَه، والخُلْفُ في الوَعدِ كَذِبٌ، وفي الوَعيدِ كَرَمٌ، الوَعدُ حَقُّ العِبادِ على اللّه تعالى، وَمَن أَوْلَى بالوَفاءِ مِنَ اللّه تعالى، والوَعيدُ حَقُّ اللّه تعالى، فإِنْ عَفا فَقَد أولَى الكَرَمَ، وإِنْ واخَذَ فبالذَّنبِ[3]، وطلبُهم الوعدَ أي العذاب، فجاء على سبيل الخصومةِ والتَّحدّي والمنازعةِ.

❁ المعنى الإجْماليُّ:

يبلغُ الجاهلُ بفعلِه مبلغَ حَتْفِه

فعقرَت ثمودُ النّاقةَ الّتي جعلَها اللّهُ لهم آيةً، وتكبَّروا وتجبَّروا عنِ امتثالِ أمرِ ربِّهم، وقالوا على سبيل الاستهزاءِ والعنادِ والتَّحدّي واستبعادِ العذابِ: يا صالحُ ائتنا بما تتوعّدُنا من عذابِ اللّهِ ونِقمتِه، إنْ كنتَ منَ المرسلين من عندِ اللّهِ تعالى[4].

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (عتو - عتا)، والسّجستانّي، غريب القرآن، ص: 332.

(2) الرّاغب، المفردات، والفيّوميّ، المصباح المنير: (أمر).

(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، والرّاغب، المفردات، والفيّوميّ، المصباح المنير: (وعد).

(4) ابن جرير، جامع البيان: 10/301، ونخبة من أساتذة التّفسير، التّفسير الميسّر، ص: 160.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

معنَى الفاءِ ودلالتُها في الفعل ﴿فَعَقَرُواْ﴾:

الكُفرُ يَدفعُ إلى ارتكابِ أعظمِ الكبائرِ

الفاءُ للتّعقيبِ؛ أي: أعقبَ قولَ الّذين استكبروا: ﴿إِنَّا بِٱلَّذِيٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ عقرُهم النّاقةَ، والتّقديرُ: قالوا ذلك فعقروا، والتَّعقيبُ في كلِّ شيءٍ بحسبِه؛ أي: لمّا صدعوا بالتّكذيب عقروا ناقةَ اللّهِ الّتي كانَت لهم آيةً، فأشعرَ التّعقيبُ أنّهم بادروا إلى الفعلِ المهولِ الجسيمِ عقبَ إظهارِ الكُفرِ بالقولِ[1]، وهو يومئُ إلى طبيعةِ شخصيّاتِهم العنيدةِ المتجبِّرةِ الّتي لا تحتملُ المخالفةَ، فأتَوا على أعظمِ ما عندَهم، وهو سببُ أمنِهم وأمانِهم، فأهلكوا أنفسَهم بإهلاكِه.

جملة ﴿فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ﴾ بين المجازِ والكنايةِ:

ذكرُ تفاصيلِ قتلِ النّاقةِ منَ العَقرِ إلى النَّحرِ تبشيعٌ للجُرمِ وتقبيحٌ لفاعلِه

لمّا كانَ العقرُ سببًا للنَّحر ومقدِّمةً من مقدِّماته عند العربِ، أُطلِقَ على النَّحرِ من بابِ إطلاقِ السَّببِ على المسبَّبِ، فيكونُ مجازًا مُرسَلًا، ويحتملُ أن يكونَ كنايةً؛ لأنّهم كانوا يعقرون البعيرَ المرادَ نحرُه بقطعِ عُضوٍ منه حتَّى لا يستطيعَ الهروبَ عند النَّحرِ، فيكونَ العقرُ كنايةً عن نحرِه[2]، ومعنَيا المجازِ المُرسَلِ والكنايةِ متآيلان في النَّتيجةِ، ونُكتةُ استعمالِ العقرِ دون النَّحرِ تصويرُ شناعةِ فعلِهم بتفاصيلِه، ابتداءً منَ العَقرِ المصرَّحِ به، إلى النَّحرِ المفهومِ من لفظِ العقرِ والسّياقِ.

نُكتةُ التّعبيرِ بلفظِ (العقْر):

مفارقةُ العقرِ للنّحرِ في المعنى

عُبِّرَ بلفظ ﴿فَعَقَرُواْ﴾ دونَ (نحروا)؛ لأنَّ النَّحرَ يُستعمَلُ غالبًا في الانتفاعِ بالمنحورِ لحمًا وجِلدًا وغيرَهما، فلعلَّ التَّعبيرَ به دونَ النّحرِ إشارةٌ إلى أنَّهم لم يقصدوا بنحرِها إلّا إهلاكَها عُتوًّا على اللّه وعِنادًا، وفعلًا للسّوء مخالفةً لنَهي صالحٍ[3] عليه السلام.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/225.
(2) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/307، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/226.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/448.

دلالة المجازِ العقليّ في إسنادِ العقْرِ إلى الجماعة:

الرِّضا بالكُفرِ قولًا لفظيًّا أو قلبيًّا بمنزلةِ القيامِ به

أُسنِدَ العقرُ إلى القومِ جميعِهم في قولِه: ﴿فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ﴾، والّذي قامَ بعقرِها شخصٌ أو اثنان، وأُسنِدَ العقرُ إلى واحدٍ في مَواضعَ أخرى في القرآن الكريم، كما في قولِه تعالى: ﴿فَنَادَوْاْ صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ۝٢٩﴾ [القمر: 29]، وذلك فيمَن تولّى جرحَها ومنعَها عنِ السَّير ونحرَها[1]، فلا يُتصوَّرُ اجتماعُ القبيلةِ في مكانٍ واحدٍ والقيام بذلك؛ وغرضُ المجاز العقليِّ بيانُ أنَّ العقرَ كان بمشورتِهم ومعونتِهم ورضاهُم جميعًا، وإنْ لم يباشره إلّا بعضُهم، ودليلُ رِضاهُم أنَّ العذابَ أحاطَ بالجميعِ ممَّن كفرَ، بدليل قولِه تعالى: ﴿فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ۝٨﴾ [الحاقة: 8].

وقد أُسندَ العقرُ هنا إلى جميعِ القومِ؛ للإشعارِ بأنَّ عقرَها عن تمالُئٍ واتِّفاقٍ منهم جميعًا، وعن رضاهم كلِّهم، وأُسنِدَ العقرُ إلى الواحدِ في مَواضِعَ أخرى في القرآن الكريم، كما في قوله تعالى: ﴿فَنَادَوْاْ صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ۝٢٩﴾ [القمر: 29]، وذلك فيمَن تولّى جرحَها ومنعَها عنِ السَّير ونحرَها[2]، وقد يُقالُ للقبيلةِ الضّخمةِ: أنتم فعلتم كذا، وما فعلَه إلّا واحدٌ منهم، فلمّا كانَ العقرُ على تمالئٍ منهم وإصفاقٍ ورضًى من كبرائِهم أسندَه إليهم جميعًا؛ تهويلًا لِلأمرِ، وتفظيعًا له، بحيث أصابَت غائلتُه الكلَّ[3].

دلالةُ تعريفِ لفظ ﴿ٱلنَّاقَةَ﴾:

التّعرّضُ لحرماتِ الله أمرٌ مَشينٌ لا يُقدِمُ عليه إلّا لَعينٌ

أفادَت (أل) هنا العهدَ الذِّكريَّ؛ ليعودَ لفظُ ﴿ٱلنَّاقَةَ﴾ إلى النّاقةِ الّتي ذُكِرَت في قوله: ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ﴾ [الأعراف: 73]، بكلِّ ما تعلَّقَ بها من أوصافِ التّشريفِ والتَّعظيمِ وكونِها آيةً، ومنَ الأمر بتركِها، والنّهي

(1) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنّة: 4/483، والزّمخشريّ، الكشّاف: 2/123.
(2) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنّة: 4/483، والزّمخشريّ، الكشّاف: 2/123.
(3) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنّة: 4/483، والزّمخشريّ، الكشّاف: 2/123، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/243.

عن مسِّها بسوءٍ في قوله تعالى: ﴿لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِيٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ٧٣﴾ [الأعراف: 73]؛ والمعنى: عقروا عينَ النّاقة المذكورةِ بأوصافِها؛ تهويلًا لقُبحِ فعلِهم، وتوبيخًا لهم.

نُكتةُ التّعبيرِ بفعل (العُتُوّ):

الـعُـتـوُّ نـهـايـةُ الـتّـمـرّدِ مع العلمِ بالمخالفةِ

لمّا كان العتوُّ هو النّهايةَ في التّمرّدِ ومخالفةِ الأمرِ مع العلمِ بمخالفتِهم، والقصدِ إليها، وليس عن غفلةٍ وجهلٍ، عُبِّرَ به؛ للإيذانِ بأنَّهم قد بلغوا النّهايةَ في نبوِّهم عنِ الطّاعة واستكبارِهم وتمرُّدهم، وبأنّهم جاوزوا المقدارَ المعروفَ من أهلِ الكفرِ والضّلالِ[1].

بلاغةُ التّضمينِ في تعْديةِ الفعلِ ﴿وَعَتَوْاْ﴾ بحرفِ ﴿عَنْ﴾:

تـضـمـينُ ﴿وَعَـتَـوْاْ﴾ معنى الإعراضِ والاستكبارِ

لمّا كان الحرفُ ﴿عَنْ﴾ يفيدُ في أصلِه معنى المجاوزة دلَّ على تضمين الفعلِ ﴿وَعَتَوْاْ﴾ معنى: أعرضوا واستكبروا، على ما جاء في أوّل القصّةِ؛ للإشعارِ بأنَّ إعراضَهم واستكبارَهم ظلَّ مُلازمًا لهم بعد عقرِ النّاقة؛ والمعنى: تمرَّدوا مُستكبرين عنِ امتثال أمر ربِّهم[2].

معنى حرفِ ﴿عَنْ﴾ بين المجاوزةِ والسّببيّةِ:

بـلـوغُ المستكبرِ غـايـةَ الـحُـمـقِ يُوصِلُهُ إلى غايةِ المَحقِ

يحتمل حرفُ ﴿عَنْ﴾ أن يكونَ لمعنى المجاوزة، والمعنى: تولّوا عن أمرِ ربِّهم، واستكبروا عنِ امتثاله عاتين؛ أي: عَتَوا مُتجاوزين أمرَ ربِّهم في عُتوِّهم، كما تحتملُ أن تكونَ سببيَّةً، والمعنى: وصدرَ عتوُّهم بسبب أمرِ ربِّهم، كأنَّ أمرَ ربِّهم بتركها كان هو السّببُ في عُتوّهم؛ للإشعارِ ببلوغِهم النّهايةَ في استكبارهم وكُفرِهم[3].

بلاغةُ استعمالِ المشتركِ اللّفظيِّ في لفظ (الأمر):

يُـرادُ بـالأمـرِ: الـدّيـنُ والتّكليفُ، وقد عتَتْ ثمودُ عن كِلَيهما

يحتملُ لفظُ الأمر في قولِه تعالى: ﴿وَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾ أن يكونَ بمعنى الشّأنِ؛ أي: الّذي جمعُه أمورٌ، وتقديرُ الكلام: وعتَوا عن دينِ

(1) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنّة: 4/483.
(2) رشيد رضا، تفسير المنار: 8/449.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/123.

ربِّهم؛ ليشملَ كلَّ ما أبلغهم به صالحٌ عليه السلام من أمور الإيمانِ، كما يحتملُ أن يكونَ بمعنى: ما أمرهم اللّه به؛ أي: الّذي جمعُه أوامرُ، وتقديرُ الكلام: وعتوّا عنِ امتثال أمرِ ربِّهم، وذلك الأمرُ هو الّذي أوصله اللّه إليهم على لسان صالحٍ عليه السلام في قوله: ﴿فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِيٓ أَرْضِ ٱللَّهِۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ﴾ [الأعراف: 73]، فيشملُ الأمرَ والنّهيَ؛ لأنَّ النَّهيَ عنِ الشَّيءِ مقصودٌ منه الأمرُ بفعلِ ضدِّهِ[1]، والمعنيانِ مُرادانِ، حيث إنَّهم عَتَوْا عن هذا الأمرِ؛ لأنَّهم عَتَوْا عن دينِ اللّه.

نُكتةُ التّعبيرِ بعنوانِ الرُّبوبيَّةِ ﴿رَبِّهِمۡ﴾:

جاءَ التَّعبيرُ بعنوانِ الرُّبوبيّةِ في قوله تعالى: ﴿رَبِّهِمۡ﴾ دون لفظِ الجلالةِ (اللّه)؛ للإشعارِ بأنّهم عتَوا عن أمرِ مُدبِّر أحوالِهم والمُنعمِ عليهم بنِعمٍ عظيمةٍ، ومنها ما خُصّوا به من سائرِ الأممِ منِ اتّخاذهم القصورَ وبناءِ البيوتِ في الجبال، فلم يذكروا آلاءَ اللّه، فكانَ إعراضُهم عن أمرِ ربِّهم، واستكبارُهم من أقبحِ ما يكونُ، ففيه معنى التّعجيبِ من عُتوّهم.

التّعجيبُ من عُتوِّ المستكبرين على ربّهم وهم منغمسون في إنعامه

بلاغةُ العطْفِ بين فعْلَي العقْرِ والعُتوّ:

عُطِفَ فعلُ العُتوِّ على فعلِ العقرِ في قولِه تعالى: ﴿فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوۡاْ﴾؛ للإشعارِ بجمعهم بين قبيحَيْن، ولمّا كان العقرُ مَظهرًا خاصًّا لعتوّهم قُدِّمَ عليه؛ ليكونَ قولُه تعالى: ﴿فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ﴾ أبرزَ ما في العتوِّ، وهو من عطفِ العامِّ على الخاصّ، فالعتوّ لفظٌ عامٌّ يدخل فيه العقرُ، فابتدأ به باعتبارِه الفعلَ الأبرز من عُتوِّهم، ثم عطف عليه العُتوَّ العامَّ.

تقديمُ العقرِ الخاصّ على العُتوِّ العامِّ من قَبيل إبرازِ أقبحِ العُتوِّ

توجيهُ الفرق بين عطفِ العُتوِّ على العَقرِ، وعطفِ النَّدامةِ عليه:

ذُكرَ في هذه السّورةِ أنّ قومَ صالحٍ عتَوا عن أمرِ ربِّهم، وجاءَ

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/123، والفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/307، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/243، والبروسويّ، روح البيان: 3/193، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/226.

في سورة الشُّعراءِ قولُه: ﴿فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُواْ نَٰدِمِينَ ١٥٧﴾ [الشعراء: 157]، فذكر النَّدامةَ، وهي خلافُ العُتوِّ، فيُسألُ عن سببِ ذلك؟

عُتوُّ الكافرين صاحَبَ عقرَهم للنّاقةِ، وندمُهم حين رأَوْا بوادرَ العذابِ

والجوابُ: أنَّ الآيتينِ تكاملتا في بيانِ الحَدَثِ، فقولُه تعالى: ﴿وَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾ جاءَ معطوفًا بالواوِ، وهي تُفيد الجمعَ بين الفعلين مع احتمال المعيَّةِ برجحانٍ[1] كما يفيدُه السّياق؛ أي: كان عتوُّهم مصاحبًا لعقرِهم النّاقةَ، فعُطِفَ الفعلُ على الفعلِ؛ لبيانِ أنَّهم فعلوا العتوَّ كما فعلوا العقرَ، زيادةً في فظاعةِ ما فعلوه، بخلافِ آية الشُّعراءِ، فإنَّها جاءَت معطوفةً بالفاءِ؛ وذلك لبيانِ ترتُّبِ الحدثِ على الحدثِ، وأنَّه لم يتأخّرْ عنهم نزولُ العذابِ، فأصبحوا نادمين في صبيحةِ العقرِ؛ فكان الإخبارُ عنهم أنّهم عتَوا عن أمرِ ربِّهم قبل أن ينزلَ بهم العذابُ، ولمّا نزلَ بهم العذابُ، ورأوا بوادرَه، أخبرَ عنهم أنّهم أصبحوا نادمينَ[2]، وكلُّ سياقٍ ذُكِرَ فيه ما يناسبُ وحداتِه الدّلاليّةَ.

نُكتةُ نداء صالح بالأداة (يا) المخصّصة للبعيد:

عادةُ الكافرينَ المستكبرين تهوينُ شأنِ المؤمنين

نادَتْ ثمودُ رسولَ اللهِ صالحًا باسمِه، بأداة نداءِ البعيد (يا) ﴿يَٰصَٰلِحُ﴾ الموحيةِ بالصُّراخِ عليه، الدّالِّ على الاستهزاءِ والسُّخريّةِ؛ تهوينًا لشأنِه، وتعريضًا بما يظنّون من عجزِه، كما هي عادةُ المستكبرين، وليكونَ تمهيدًا لمجيءِ الأمرِ على معنَى التّعجيز[3].

دلالة التّعبيرِ بفعل الإتيان ﴿ٱئۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾:

ظنَّ المستكبرونَ أنّهم مُعاجزو المرسلينَ

عُبِّرَ بفعل الأمر ﴿ٱئۡتِنَا﴾ بطريق المجازِ على معنى تعجيزِ صالحٍ عليه السلام وإفحامِه على زعم الّذين استكبروا، ليكونَ قولُهم زيادةً في العتوِّ.

(1) ابن مالك، شرح التّسهيل: 3/347.
(2) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنّة: 9/453.
(3) رشيد رضا، تفسير المنار: 8/450.

سِرُّ التّعبيرِ بأداةِ (ما) الموصوليَّةِ:

عنجهيَّةُ ثمودَ أوقعتْهُم في التَّحدّي العامِّ

جيءَ بالموصولِ بصيغةِ (ما) في قوله تعالى ﴿بِمَا تَعِدُنَآ﴾ الّتي هي أعمُّ منَ الّذي؛ للدّلالة على أنَّهم لا يخشَون شيئًا ممّا يريدُه منَ الوعيدِ المجمَلِ، والمعنى: فأتِنا بأيِّ شيءٍ تعدُنا به[1]، وهذا في غايةِ الاستهتارِ والتَّكذيبِ وركوبِ متنِ الحماقةِ.

لفظ الوعد بينَ الاستعارةِ التّهكّميّةِ والحقيقةِ:

التّهكُّمُ سبيلُ المستكبرين في تكذيبِ المؤمنين

في جملة ﴿تَعِدُنَآ﴾ يحتملُ أن يكونَ الكلامُ على طريقِ الاستعارةِ التّهكّميَّةِ، وهو الظّاهرُ؛ إذْ جعلَ الّذين استكبروا ما أوعدَهم به صالحٌ عليه السلام منَ العذابِ وعدًا على سبيلِ التّهكّمِ؛ أي: نزّلوا وعيدَهم له حيث لم يؤمنوا به منزلةَ الوعد والبِشارةِ، كمَن يتلذّذ بما يلقاه منَ الوعدِ الحسنِ استخفافًا بصالحٍ عليه السلام، واستبعادًا في وقوعِ العذابِ، ومبالغةً في التّكذيبِ، وإشارةً إلى عدمِ قدرتِه على فعلِ ما أوعدهمْ به، ويحتملُ أن يُقالَ: إنَّ الوعدَ يجري في العذابِ على الحقيقةِ؛ فحسُنَ استعمالُه هنا؛ لأنَّ لفظَ (وعدَ) عامٌّ يشملُ الخيرَ والشَّرَّ[2].

حذفُ قيدِ (منَ العذابِ) في جملة ﴿ٱئۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾:

مَنْ خافَ العذابَ حَذِرَ واحترزَ

حُذِف القيدُ من قولِه تعالى: ﴿ٱئۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾، والتّقديرُ: ائْتِنا بِما تَعِدُنا منَ العذاب، فحذفَ مُتعلَّق ﴿تَعِدُنَآ﴾؛ لأنَّه كان معلومًا ممّا تقدّم منَ السّياق، والغرضُ منِ استعجالهم العذابَ من صالحٍ عليه السلام هو تكذيبُهم له فيما أوعدَهم به؛ لأنَّ مِن حقِّ مَن خافَ النّازلةَ حَذِرَ واحترزَ، فضلًا عن أن يستعجلَ نزولَها[3].

سرُّ استعمالِ ﴿إن﴾ دون (إذا):

في قوله تعالى ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾، عُبِّر بحرفِ الشّرطِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/226.
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/423، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 7/449، ورشيد رضا، تفسير المنار: 8/450.
(3) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنّة: 4/483، والزّمخشريّ، الكشّاف: 2/123، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 7/449، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/243.

الاستمرارُ في التَّكذيبِ والطَّمعُ في إغواءِ المستضعَفين

(إنْ) الدّالِّ على الشَّكِّ في حصول الشَّرطِ في قولِه تعالى: ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾؛ للإيذانِ بأنّهم فرضوا كونَ صالحٍ عليه السلام من المرسلين كما يُفرضُ المحالُ، ولإغواءِ الّذين استُضعفوا بتصويرِ أنَّ المقامَ لا يصلحُ إلّا لفرضِ كونِه منَ المرسلين، ومرادُهم نفيُ رسالتِه[1] عليه السلام.

فائدةُ جملة ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾:

التَّكذيبُ بالأصلِ هو تكذيبٌ بفروعِه

لمّا كان المرادُ بالمرسلين مَنْ صدقَ عليهم هذا اللَّقبُ، فإنَّ كونَ صالحٍ من جملتهم يستدعي صدقَ ما يقول منَ الوعدِ والوعيدِ، علَّقوا استعجالَهم بما أوعدهم به على صدقِه في كونِه مِن جملةِ المرسلينَ مِن عندِ اللّه؛ للإشعارِ بتكذيبِهم له في الإخبارِ بذلك الوعيدِ وبغيرِه[2].

يسلكُ المستهزئُ بكلامِه مَسلكَ النَّاسي لجواهرِ المعاني

من ناحية أخرى، تضمَّنَ الشَّرطُ معنى التَّأكيدِ بطريقِ التّكريرِ، وبيانُه على طريقةِ جمهورِ النّحاةِ أنّه حذفَ الشّرطَ من ﴿ٱئۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾، وأبقى جوابَه، وحذفَ الجوابَ من ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾، وإنّما يقعُ الحذفُ بما دلَّ عليه السّياق، وتقديرُ الكلام: (إنْ كنتَ منَ المرسلينَ فائتِنا بما تعدُنا)، فجاءَ الكلامُ بطريقِ الإيجازِ المضمَّنِ معنى الإطنابِ؛ لإفادةِ الخبرِ الإنكاريِّ، وهو من بليغِ الكلامِ، لجمعِه بين إيجازِ اللّفظِ وإطنابِ المعنى، ونكتةُ هذا التّعبيرِ المؤكَّدِ الإشعارُ بأنّهم كانوا حاكمين بخلافِ ما قاله نبيُّ اللّه صالحٌ عليه السلام، وأنّهم كانوا مُنكرينَ رسالتَه، ويعتقدون كذبَه فيما أُرسِلَ بهِ، فقدَّموا معنى الجوابِ، وأخَّروا الشَّرطَ؛ ليكونَ بمنزلةِ الأمرِ المتداركِ الشَّبيهِ بالمنسيِّ، وهذا على حدِّ قولِ المُستهزئِ بفقيرٍ: (ابنِ قصرًا.... إن كنت منَ الثّريّين)، فما بين الجملةِ الأولى: ﴿ٱئۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾

(1) التّفتازانيّ، المُطوّل، ص: 321.

(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/124، وأبو حيّان، البحر المحيط: 5/96، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/243، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/226.

والثّانية: ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ تحتاجُ إلى تأمُّلٍ للمشهدِ حين قولِهم ما قالوا.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

العقْرُ والنّحرُ والذَّبحُ:

العقرُ يُستَعمَلُ في سياقِ الذَّمِّ، والنَّحر أشملُ، والذَّبح يكون لقطْعِ حلقومِ قصيرِ الرّقبةِ

أصلُ العَقرِ ضَربُ قَوائِمِ البَعيرِ أو الشّاةِ بالسَّيفِ، وهو قائِمٌ، ويفعل ذلك به كَيلا يَشرُدَ عِندَ النَّحر، ثمَّ جُعِل النَّحرُ عقرًا؛ لأنّ العَقْرَ سببٌ لنحره، وناحِرُ البَعير يَعقِرُه ثمَّ ينحرُه، وصار العقرُ يُستعمَلُ للقتلِ والإهلاكِ، كما يأتي لفظُ العقرِ لقتلِ البعيرِ أو الشّاةِ من غيرِ مأكلَةٍ ويأتي لفظُ النّحرِ لمأكلَةٍ، ولم يُستعمَلْ لفظُ العقرِ في القرآنِ بمعنى القتل إلّا في مقامِ الذَّمِّ والتّوبيخِ، وأمّا النّحرُ فهو نحرُ الصَّدرِ أو أعلى الصّدر، ونَحَره: أصاب نَحرَه، وهو مُختصٌّ بالإبلِ لطولِ رقبتِها، وقيلَ: يشملُ غيرَ الإبلِ أيضًا للبعير أو النّاقة، ويُستعمَلُ في الممدوح مثل: يومِ النّحر، وهو عاشِرُ ذي الحِجَّةِ يومُ الأضحى؛ لأنّ البُدْنَ تُنحرُ فيهِ، ووردَ في القرآن الأمرُ به؛ ليكونَ عبادةً للّه تعالى، قال تعالى ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنۡحَرۡ ۝٢﴾ [الكوثر: 2]، وأمّا الذّبحُ فهو في الأصلِ شقُّ حلْقِ الحيوانات، وَهو مَوضِعُ الذَّبحِ منَ الحلْقِ، والذَّبحُ في العُرف إنّما يَكونُ بالسِّكّينِ لا بالسّيف، كما أنَّ الذَّبحَ خاصٌّ بقصيرِ الرَّقبةِ كالغنمِ والبقرِ، قال تعالى: ﴿وَفَدَيۡنَٰهُ بِذِبۡحٍ عَظِيمٖ ۝١٠٧﴾ [الصافات: 107]، وهو الكَبشُ الَّذي فُديَ به إسماعيلُ بنُ خَليلِ اللّه، وأمّا النَّحرُ فمُختصٌّ في الإبل، فالنَّحرُ أعمُّ وأشملُ منَ الذَّبح، ولهذا عبَّر القرآنُ بالنَّحرِ عنِ الذَّبحِ[1].

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (ذبح) و(عقر) و(نحر).

العُتوّ والاستكبار:

العُتوُّ هو بلوغُ غايةِ الشِّدَّةِ في النّبوِّ عنِ الطّاعة وفي التّمرّد، معَ مجاوزة الحدِّ في التّجبُّر والتّكبُّر، والعاتي هو الّذي لا يقبلُ موعِظَةً لشدّةِ تكبُّرِه وتمرُّدِه، وأمّا التّكبّر فهو إظهارُ الكِبَرِ؛ أي: إظهار رفعِ النّفسِ فوقَ الاستحقاق، فالمتكبِّرُ قد يتكبّرُ عن أمرٍ قد أمرَ به أو من غيرِ أمرٍ أصلًا، بأن يعظِّمَ شأنَ نفسِه بينَ النّاسِ، فالعاتي أخصُّ منَ المتكبِّر؛ لأنَّ كلَّ عاتٍ مُتكبِّرٌ، وليس كلُّ مُتكبِّرٍ عاتيًا[1].

التَّكبُّر إظهارُ الكِبر في التَّرفع عنِ الآخرين، وأشدُّه العتوُّ لما فيه من التَّمرد والطُّغيانِ

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (عتو - عتا)، والعسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 247.

﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٧٩﴾﴾ [الأعراف: 78 - 79]

مَناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِما قبْلَهُما:

لا تُعانِدْ مَن إذا قال فَعَل

لمّا عقرتْ ثمودُ النّاقةَ، وعتتْ عن أمرِ ربِّها، تسبَّبَ عن ذلك نزولُ العذاب بهم: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾[1]، فالمناسبةُ بين هاتين الآيتين وما قبلها بيانُ نتيجةِ التّكذيبِ والإصرارِ على الاستكبار.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلرَّجْفَةُ﴾: الرَّجفُ: الاضطرابُ الشَّديدُ للشَّيءِ من أصله، بحيث يكادُ ينقلعُ منه كالشَّجرِ يكادُ ينقلعُ، يُقال: رَجَفَتِ الأرضُ إذا تزلزلت؛ أي: تحرّكتْ حَرَكَةً شَديدَةً. ورَجَفَ البحر إذا اضطربَ، والرّجفةُ الزّلزلةُ الشّديدةُ، وهي الطّامَّةُ الّتي يتزعزعُ لها الإنسانُ ويضطربُ، وذهب بعضُ اللُّغويّينَ إلى أنَّ الرَّجفَةَ هي الزَّلزَلَةُ الّتي يكونُ مَعها الخَسْف، والمرجفونَ هم الَّذين يولِّدون الأخبارَ الكاذِبة، الَّتي يكونُ مَعها اضطرابٌ في النّاس، والرَّجفَةُ في القُرآن: العَذابُ الّذي يَأْخُذُ القومَ بالزّلزلةِ الشَّديدةِ[2].

2) ﴿جَٰثِمِينَ﴾: يدورُ معنى (جثم) على تجمّعِ الشّيءِ وسكونِه، فالجثمانُ شخصُ الإنسان، والجاثمُ البارِكُ على رِجلَيه وركبتيه كما يبركُ البعيرُ، بحيث يلتصقُ بالأرضِ ويلزمُها فيكونُ ثابتًا

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/449.
(2) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (رجف)، والسّجستانّي، غريب القرآن، ص: 237.

جامدًا لا يتحرَّك، يُقال: جَثَم فلان بالأرضِ يَجثِمُ جُثوماً إذا لَصِق بها ولَزِمَها لا يبرح؛ أي: تلبَّدَ بالأرضِ، كما يَجثِمُ الطَّيرُ، فسُمّيَ كلُّ ملازمٍ للشّيءِ لا يبرحه جاثمًا، والأصلُ في الجثوم أنَّه يُقالُ للنّاس والطير، وجاثمين؛ أي: أجسادًا مُلقاةً في الأرض، فبَركوا فيها صرعَى منَ الهلاك[1].

3) ﴿أَبْلَغْتُكُمْ﴾: يدورُ معنى البلوغِ والبلاغِ على وصولِ الشَّيءِ إلى غايةٍ له: مكانٍ أو زمانٍ أو مَدًى مقصودٍ أو أمرٍ منَ الأمورِ المُقدَّرةِ، فإذا انتهى الأمرُ إلى أقصى المقصدِ فقد بلغَ، ومنه بَلَغَ أشُدَّهُ، والإبلاغُ: الإيصالُ، ومنه بَلَغتُ المكانَ: وصلتُ إليه، ويُقال: بَلَّغتُ الرّسالةَ وأبلَغتُها إذا أوصلتَها إلى مُنتهى المقصدِ أو إلى الشَّيءِ المطلوبِ[2]، والمرادُ في الآيةِ هو إقامةُ الحجَّة في التَّحذير والإنذار من وقوع عذابِ اللّه تعالى.

4) ﴿وَنَصَحْتُ﴾: نَصَحَ الشَّيءُ: خَلَصَ، والنّاصحُ: الخالِصُ مِنَ العَسَلِ وغَيرِه. وكُلُّ شيءٍ خَلَصَ، فَقَد نَصَحَ؛ والنّصيحة منه؛ لأنّ صاحبَها يخلصُ في نصحِه، ويصدقُ بالقولِ أو بالفعلِ من أجلِ صلاحِ صاحبِه، ولهذا كانَ النُّصحُ نَقيضَ الغِشّ، ويحتملُ أن تكونَ النّصيحةُ من قولهم: نَصَحتُ الجلدَ: خِطْتُه، والنّاصِحُ: الخَيّاطُ، والنِّصاحُ: الخَيطُ، فتكون منَ الإحكام في القولِ أو الفعلِ، والنَّصيحَةُ كلمةٌ يُعَبَّرُ بها عَن جُملَةٍ هي إرادةُ الخَيرِ لِلمَنصوحِ له، فَلَيسَ يُمكِنُ أن يُعَبَّرَ عَن هذا المعنى بكلمةٍ واحِدَةٍ تَجمَعُ مَعناها غَيرُها، فهي مِن ألفاظِ عمومِ المعنى[3]، ومعنى النَّصيحةِ في الآية، هو ما قدَّمه صالحٌ عليه السلام من شديد العنايةِ في تحذيرِهم من مخالفةِ أمرِ اللّه تعالى، دون تقصيرٍ أو إهمالٍ.

المعنى الإجْماليُّ:

فأخذتِ الَّذينَ كفروا من ثمودَ الزّلزلةُ الشَّديدةُ، فأصبحوا في بلدِهم سقوطًا صرعَى لاصقين بالأرضِ على رُكَبهم ووجوهِهم لا يتحركون، قد هلكوا جميعًا من شدّةِ العذابِ، فأدبرَ صالحٌ خارجًا عن قومِه، حين حلَّ بهم الهلاكُ، وقال لهم: يا قومِ لقد أدّيتُ إليكم ما

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (جثم).
(2) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (بلغ).
(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (نصح).

أمرني ربّي بأدائِه إليكم من أمرِه ونهيِه، وأخلصتُ لكم، وصدقتُ في أدائي رسالةَ اللّهِ إليكم، ولكن لا تحبّونَ النّاصحينَ لكم في اللّهِ[1].

طغيانُ شهوةِ المُستكبرين أقوَى من نُصحِ المُرسَلين

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

معنى العطفِ بالفاء في جملة ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ﴾:

تفيدُ الفاءُ التَّعقيبَ والسّببيَّةَ، وتعقيبُ كلِّ شيءٍ بحسبه، فدلَّ قولُه تعالى في سورة هود: ﴿تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍۖ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ٦٥﴾ [هود: 65]، على أنّ العذابَ جاءَهم بعد ثلاثةِ أيام، فيكونُ المرادُ منَ التّعقيب الزّمنَ القريبَ، الّذي لا يعدُّ طويلًا ولا مهلةَ فيهِ بالمقارنة مع طولِ أعمارهم، فهو تعقيبٌ عُرفيٌّ، فالفاءُ عاطفةٌ لقولهم: ﴿يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾، على تَقديرِ قُربِ زَمانِ الهَلاكِ مِن زَمانِ طَلَبِ الإتيانِ بالوَعدِ، ولِقُربِ ذلك كان العَطفُ بالفاءِ، ويُمكِنُ أن يُقَدَّرَ ما يَصِحُّ العَطفُ بالفاء عليه؛ أي: فواعدهم العَذابَ بَعدَ ثلاثٍ فانقَضَت، فأخَذَتهُمُ الرَّجفَةُ، وطويَت هذه الجملُ للإيجاز، وبقرينة ما ذُكِرَ في سورة هود[2].

وقوعُ العذابِ عقِبَ تكذيبِهم بزمنٍ قليلٍ لا قيمةَ له في عُمرِ المكذِّبِ

كما أفادتِ الفاءُ معنى السّببيَّةَ؛ أي: كان كفرُهم بما آمنَ به المؤمنونَ المستضعَفون، وعقرُهم النّاقةَ، وعتوُّهم عن أمرِ ربِّهم، واستعجالُهم العذاب، كلُّ هذا كانَ سببًا للهلاكِ؛ للإشعارِ بأنَّ وقوعَ العذابِ لم يكن بسببِ كفرِهم فقط، بل بِعقرِهمُ النّاقةَ واستعجالِهمُ العذابَ، كذلكَ استحقّوا وقوعَهُ فهلكوا.

اقترانُ الكفرِ بانتهاكِ حُرماتِ الله سببٌ لوقوعِ العذابِ

بلاغةُ الاستعارةِ التَّصريحيّة التَّبعيّةِ في فعل (الأخذ):

في التَّعبيرِ بقولِه: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ﴾ استعارةٌ بديعةٌ، حيثُ شبَّه إحاطةَ العذاب وإهلاكَهم بقوّة بحيث لم يتفلَّت منهم أحدٌ بالأخذِ

تصويرُ المُستكبرين حين الأخذِ، وهم في غايةِ الصَّغارِ

(1) ابن جرير، جامع البيان: 12/544، ونخبة من أساتذة التّفسير، التّفسير الميسّر، ص: 160.
(2) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/308، وأبو حيّان، البحر المحيط: 1/582، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/226.

باليدِ بحكم إحاطةِ القبضةِ وقوّتها بالأخذِ، واشتقَّ منَ الأخذِ الفعلَ الماضي (أخذ) على سبيل الاستعارةِ التَّصريحيّة التَّبعيّة، وبلاغةُ ذلك تصويرُهم حينَ وقوعِ العذابِ بمَن أُخِذَ، وهو في القبضةِ على غاية الصَّغارِ والحقارةِ، وهو الجزاءُ المناسبُ لاستكبارِهم وعتوّهم عن أمرِ ربِّهم، كما دلَّ اللّفظُ على أنَّ الرّجفةَ أحاطَت بهم إحاطةَ الآخذِ للشّيء[1].

بلاغةُ المجازِ العقليّ في مادّة (الأخذ):

سُرعةُ بطشِ اللهِ بالكافرين وإحاطةِ العذابِ بهم

الرَّجفةُ اسمٌ للحالةِ الحاصلةِ منِ اضطرابِ الأرضِ وارتجاجِها منَ الرّياحِ العاصفةِ والصَّواعق، وقد سمّاها في سورةِ هود بالصّيحةِ، فيكون الّذي أصابَ ثمودَ هو صاعقةٌ أو صواعقُ متواليةٌ رجفتْ أرضُهم بسببِها وأهلكتهم صَعِقين، ويحتملُ أنْ قارنتها زلازلُ أرضيَّةٌ، وعُبِّر بـ ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ﴾، على طريقة المجازِ العقليِّ؛ لأنَّ الّذي أخذهم بالعذاب هو اللّه تعالى، والعلاقة هي السّببيّةُ، فدلَّ المجازُ على سرعةِ إهلاكِها إيّاهم معَ القهرِ وشدّةِ البطشِ، كما يدلُّ التّعبيرُ على إحاطتِها بهم، فلم يُفلتْ منَ العذابِ أحدٌ منَ الكافرين[2].

الاستعارة المكنيَّة التَّخيليّة في تشخيص الرّجفة:

تشبيهُ الرَّجفةِ بشخصٍ يأخذُ ثمودَ صعقًا وزلزلةً

في إسناد فعل الأخذ إلى ﴿ٱلرَّجْفَةُ﴾ استعارةٌ حسنةٌ، حيثُ شبَّه الرَّجفةَ بامرأةٍ مُتجبِّرةٍ أخذتْهُم لتقهرَهم، وذكَرَ لازمًا من لوازمِها، وهو الأخذُ؛ فإنَّه لا يكونُ على الحقيقة إلّا للعقلاءِ، على سبيل الاستعارةِ المكنيّة الأصليَّة، وفي ذلك تخييلٌ لامرأةٍ تأخذُ ثمودَ أخذَ التَّعذيبِ والقهرِ، وفيه منَ الإهانةِ ما لا يخفى، على سبيل الاستعارةِ التَّخيليّة. قال الشيخ ابنُ عاشور ﵀ تعالى: "وأصلُ الأخذِ تَناوُلُ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/449، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/227.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/227، والمطعنيّ، خصائص التّعبير القرآنّي وسماته البلاغيّة: 2/350.

شَيءٍ باليَدِ، ويُستَعمَلُ مَجازًا في مِلكِ الشَّيءِ، بعلاقةِ اللُّزومِ.. وأخذُ الرَّجفَةِ: إهلاكُها إيّاهُم، وإحاطَتُها بِهِم إحاطَةَ الآخِذِ"[1].

معنى الفاء ودلالتُها في الفعل ﴿فَأَصۡبَحُواْ﴾:

أفادتِ الفاءُ التَّعقيبَ والسّببيَّةَ؛ أي: أعقبَ أخذَهم بالرّجفة هلاكُهم، وأنَّ هلاكَهم كان مُسبَّبًا عنِ الأخذِ بالرّجفةِ، والمعنى: أنَّهم لم يلبثوا، وقد وقعتِ الرّجفةُ بهم أن سقطوا وجثَموا هامدينَ خامدينَ بسببِها دون تأخيرٍ أو إمهالٍ.

هلاكُ القومِ تحقَّقَ بمجرَّدِ وقوعِ الرَّجفةِ دون إمهالٍ أو تأخيرٍ

سرُّ استعمالِ لفظِ ﴿فَأَصۡبَحُواْ﴾:

دلَّ استعمالُ لفظ ﴿فَأَصۡبَحُواْ﴾ على أنَّ نهايةَ الإهلاكِ بدَتْ في الصَّباحِ، وهو إمّا أن يكونَ فعلًا ناقصًا بمعنى: صاروا في دارِهم جاثمين في وقتِ الصَّباحِ، وهو الأظهرُ، وإمّا أن يكونَ تامًّا، و﴿جَٰثِمِينَ﴾ حالٌ، والمعنى: دخلوا في وقتِ الصَّباحِ حال كونهم جاثمين، وأفادَ لفظُ ﴿فَأَصۡبَحُواْ﴾ ظهورَ هلاكِهم أمامَ النّاس للعظةِ والاعتبارِ، ولمّا كان الصَّباحُ مُؤذِنًا ببدايةِ يومٍ جديدٍ أشعرَ التّعبيرُ بنهايتِهم، وببدايةِ مجيءِ قومٍ آخرين، يمثّلون عصرًا جديدًا[2].

الصّبحُ موعدٌ لمعرفةِ الحقيقةِ

توجيهُ المتشابهِ اللّفظيِّ في ذكرِ الرّجفةِ والصّيحةِ والطّاغيةِ:

طعنَ بعضُ الطّاعنين في هذه الآيات بأنَّ ألفاظَ القرآنِ قد اختلفَت في حكاية هذه الواقعة، وهي الرَّجفةُ والصَّيحةُ والطّاغيةُ، وزعموا أنَّ ذلك يوجِبُ التَّناقضَ في آياتِ القرآنِ، فذكر في سورة الأعراف: ﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ﴾، وفي مَوضِعٍ آخرَ قال: ﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمۡ جَٰثِمِينَ ٦٧﴾ [هود: 67]، وفي مَوضِع آخر قال: ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهۡلِكُواْ بِٱلطَّاغِيَةِ

الصَّيحةُ هي أصلُ الرَّجفةِ، والطّاغيةُ صفتُها

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/227.

(2) السّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 5/370، ورشيد رضا، تفسير المنار: 8/451، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/227.

﴿ ۝٥ ﴾ [الحاقة: 5]، فلسائلٍ أن يسألَ عن سرِّ ذلكم التَّغاير في أوصافِ العذاب النّازلِ في ثمود؟

والجوابُ: أنْ لا منافاةَ بين تلك الألفاظِ ولا تناقضَ، فقد عُبِّرَ في كلِّ موضعٍ بما يناسبُ المقامَ، ويكونُ الّذي أصابَ ثمودَ هو صاعقةٌ أو صواعقُ متواليةٌ، رجفَت أرضَهم وأعقبَها زلازلُ، فالغالبُ أنَّ الزَّلزلةَ لا تنفكُّ عنِ الصّيحةِ الهائلةِ العظيمةِ، فأهلكتهم صَعقين، فجاز أن يُسنَدَ الإهلاكُ إلى كلٍّ منهما، وأمّا قوله تعالى: ﴿فَأُهۡلِكُواْ بِٱلطَّاغِيَةِ ۝٥﴾ [الحاقة: 5] فالباء للسّببيّة، والتّقدير: بالفعلةِ الطّاغيةِ، والطّاغية: الطُّغيانُ مصدرٌ كالعاقبة، والتّاء للمبالغة، ويُقال للمَلِكِ الجبّار: طاغية، فمعنى ﴿فَأُهۡلِكُواْ بِٱلطَّاغِيَةِ ۝٥﴾ [الحاقة: 5]؛ أي: بسببِ طغيانهم كقوله: ﴿كَذَّبَتۡ ثَمُودُ بِطَغۡوَىٰهَآ ۝١١﴾ [الشّمس: 11]؛ أي: بسبب تجاوُزهم الحدَّ باستكبارهم وكفرهم وعَقْرِهم النّاقَةَ، ويُمكِنُ أن يُرادَ بالطّاغيَةِ: الرَّجفَةُ أو الصَّيحَةُ لِتَجاوُزِ كُلٍّ منهما الحَدَّ في هولِها وعظمِها وسرعةِ أخذها وبطشِها، أو على إرادةِ الجمعِ بينهما، ولمناسبة الفاصلةِ كذلك أثرٌ في التّعبير بقوله: ﴿بِٱلطَّاغِيَةِ ۝٥﴾ [الحاقة: 5][1].

وخُلاصةُ ذلك: أنَّ الصَّيحةَ الشَّديدةَ نتجَ عنها الزَّلازلُ المُرجِفةُ، ولمّا كانت بالغةً شدَّةً غيرَ مسبوقةٍ وُصِفَت بالطّاغية، فالصَّيحةُ هي الأصل، والرَّجفةُ هي نتيجتُها، والطّاغيةُ هي صفتُها، واختيرَ في كلِّ سياقٍ اللَّفظُ الأنسبُ به.

نُكتةُ إفرادِ الدّارِ في جملة ﴿فَأَصۡبَحُواْ فِي دَارِهِمۡ﴾:

أفردَ الدّارَ؛ لأنَّه أرادَ بالدّار ما لكلِّ واحدٍ من منزلِه الخاصِّ[2]، ويكون المعنى على التَّوزيع والتّفريقِ؛ أي: أصبحَ كلُّ واحدٍ في دارِه جاثمًا، وإنّما جاء بصيغة الإفرادِ؛ لإفادة إحاطةِ العذابِ بهم،

تصويرُ شدَّة العذابِ وأنَّه أخذَهم أخذًا واحدًا دون تفريقٍ

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/308، وأبو حيّان، البحر المحيط: 5/97.
(2) النّيسابوريّ، غرائب القرآن: 3/275.

ولتصويرِ الحالةِ، فإنّها بصيغة الإفراد أكثرُ تأثيرًا في المخاطَبين، ويحتملُ أن يكونَ أرادَ بقوله: ﴿دَارِهِمْ﴾ بلدَهم؛ لأنَّ البلدَ دارٌ لأهلِه؛ ليشملَ ديارَهم جميعًا، أو أنّه وحّدَ لإرادةِ الجنسِ[1]، ونكتةُ ذلك: بيانُ أنَّ العذابَ لمّا نزل بهم أخذهم أخذًا واحدًا، ولم يُفرِّق بين العاتي في الاستكبار وغيرِه، فعوملوا معاملةَ الرَّجلِ الواحدِ، في الدّارِ الواحدةِ، في الموطنِ الواحد، تحذيرًا لمَن يتهاونُ في مجاراة الظّالمين.

توجيهُ المتشابهِ اللّفظيّ في إفراد الدّارِ وجمعِها:

إفرادُ الدّارِ مع الرَّجفة لإهلاكِهم من أسفلَ، وجمعُها مع الصَّيحةِ لإهلاكهم من أعلَى

ذكرَ اللّهُ تعالى في سورة الأعراف الدّارَ مفردًا، وذكرَها في مَواضِعَ أخرى من قصّة صالحٍ بصيغة الجمع كما في قوله تعالى: ﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [هود: 67]، وبيانُه أنَّه حيث ذُكِرَت الرَّجفةُ وُحِّدَتِ الدّارُ، وحيث ذُكرت الصَّيحةُ جُمِعَت؛ لأنَّ الصَّيحةَ كانَت منَ السَّماء فبلوغُها أكثرُ وأبلغُ منَ الزَّلزلةِ، فقُرن كلٌّ منهما بما هو أليقُ به[2]، وأيضًا لعلَّ توحيدَ الدّار مع الرَّجفة في قصّة صالحٍ وشعيبٍ عليهما السلام في قوله تعالى: ﴿فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ﴾؛ أي: مساكنهم، وجمعَها في القصّتين مع الصّيحة في سورة هود عليهما السلام؛ للإشارة إلى عِظَم الزَّلزلةِ والصَّيحةِ في الموضعين، فإنَّ الزَّلزلةَ إذا كانَت في شيءٍ واحدٍ كانت أمكنَ وأقوى، فتكون في المقصود منَ النَّكال أعظمَ، والصَّيحةُ من شأنِها الانتشارُ، فإذا عمَّتِ الأماكنَ المتنائيةَ والدّيّارَ المتباعدةَ أهلكَت أهلَها، ومزَّقَت جماعتَها، وفرَّقت شملها، وحاصلهُ أنَّه حيثُ عُبِّرَ بالرَّجفة وحَّد الدّار إشارةً إلى شدَّة العذاب بعظم الاضطراب، وحيث عُبِّرَ بالصَّيحة جمعَ إيماءً إلى عموم الموتِ بشدَّة الصَّوتِ، ولا مخالفة؛ لأنَّ عذابَهم كان بكلٍّ منهما[3].

(1) ابن جرير، جامع البيان: 12/545، والواحديّ، التّفسير الوسيط: 2/384، وأبو حيّان، البحر المحيط: 5/97، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/244.

(2) الكرمانّي، أسرار التّكرار، ص: 123، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/244.

(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/450.

الرَّجفةُ اقترنت بإفرادِ الدّار معاملةً للجمعِ معاملةَ الواحدِ، أمّا الصَّيحة فاقترنت بجمعِ الدّيارِ لشُمولِها

جاءَ في القرآن الكريم في سياق ذكرِ الصّيحة اقترانُ كلمةِ ﴿دِيَٰرِهِمۡ﴾ بها، وفي سياق ذكرِ الرّجفةِ اقترانُ كلمةِ ﴿دَارِهِمۡ﴾ بها، وبيانه أنَّ الصَّيحةَ أشملُ منَ الرَّجفةِ، ويبلغُ مداها أكثرَ منَ الرَّجفة؛ لأنّ الصَّيحَةَ كانَت منَ السَّماء، فبلوغُها أكثرُ وأبلغُ منَ الزّلزلة؛ أي: إنَّ مدى صوتِها أوسعُ من مدى الزّلزلةِ، فالصّيحةُ تُصيب عدداً أكبر وتبلغ مدىً أكثر منَ الرّجفة، لذا جاء استعمالُ كلمة ﴿دِيَٰرِهِمۡ﴾ مع الصَّيحة كما في قولِه تعالى: ﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمۡ جَٰثِمِينَ ٦٧﴾ [هود: 67]، وقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا شُعَيۡبٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمۡ جَٰثِمِينَ ٩٤﴾ [هود: 94]، وأيضًا لمّا دخلتِ الصّيحةُ كلَّ دارٍ من ديارِهم عبِّر بالجمعِ معها، أمّا الرَّجفة فيكون تأثيرُها في مكانها فقط؛ لِأنَّ الرّجفةَ تختَصُّ بِجُزءٍ منَ الأرض، لذا جاء استعمالُ كلمة ﴿دَارِهِمۡ﴾ مع الرّجفة، كما في قوله تعالى في سورة الأعراف: ﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دَارِهِمۡ جَٰثِمِينَ﴾، وقوله تعالى: ﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دَارِهِمۡ جَٰثِمِينَ ٩١﴾ [الأعراف: 91]، وكذلك في قوله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دَارِهِمۡ جَٰثِمِينَ ٣٧﴾ [العنكبوت: 37]، فلمّا كانتِ الرّجفةُ في مكانٍ واحدٍ عُبِّرَ بالمفردِ؛ ليكونَ المرادُ بلدَهم المزلزَل، ولم تردْ في القرآن كلمة ﴿دِيَٰرِهِمۡ﴾ [هود: 67] إلّا مع العذاب بالصّيحة، ولم تردْ كلمة ﴿فِي دَارِهِمۡ﴾ إلّا مع العذاب بالرَّجفةِ، فاتّصل كلُّ لفظٍ بما هو لائِقٌ به في سياقِه[1].

نُكتةُ تقديمِ ﴿فِي دَارِهِمۡ﴾ على الحال ﴿جَٰثِمِينَ﴾:

لا مفرَّ من عذابِ الله إذا نزلَ

لمّا كانَ منَ المُتوقَّعِ أن يبيتَ قومُ صالحٍ عليه السلام خارجَ دارِهم عند تحتُّمِ نزولِ العذابِ، قُدِّمَ الجارُّ والمجرور ﴿فِي دَارِهِمۡ﴾ على الخبر ﴿جَٰثِمِينَ﴾؛ لإفادة تخصيصِ كونهم جاثمين في دارِهم وليس

(1) الكرمانّي، أسرار التّكرار في القرآن، ص: 146، وابن جماعة، كشف المعاني، ص: 180.

خارجَها، كما أفادَ الاهتمامَ بمَوضِعِ هلاكِهم؛ للإشعارِ بأنَّهم لم يستطيعوا الفرارَ ولا الهروبَ من دارِهم، أو أنَّهم استهتروا بسرعةِ نزولِ العذابِ بهم، فباتوا في دارِهم لا في مكانٍ آخر، ويُشعِرُ التَّقديمُ بأنَّهم جميعًا باتوا في دارهم دونَ استثناءٍ.

بلاغةُ التّعبيرِ بلفظ ﴿جَٰثِمِينَ﴾:

الجاثمُ هو المكبُّ على صدرِه في الأرضِ مع قبضِ ساقيه كما يجثو الأرنب، والمعنى: وقوعُ النّاسِ على ركبِهم، وخرورُهم على وجوهِهم، ولمّا كان ذلك أشدَّ سكونًا وانقطاعًا عنِ اضطرابِ الأعضاءِ استُعمِلَ في الآيةِ كنايةً عن همودِ الجثَّةِ بالموت، ويجوزُ أن يكونَ المرادُ تشبيهَ حالةِ وقوعِهم على وجوهِهم حين صُعِقوا بحالةِ الجاثم؛ تفظيعًا لهيئةِ ميتتِهم، والمعنى: أنَّهم أصبحوا جثثًا هامدةً ميّتةً على أبشعِ منظرٍ لميِّتٍ[1].

الجُثومُ حالةٌ تُصوِّرُ موتَ الإنسانِ في حالةِ الهلَعِ الشَّديدِ

ولمّا كان الجزاءُ من جنسِ العملِ، وكان أخصَّ وصفٍ لقوم صالحٍ استكبارُهم بالباطلِ ناسبَ أن يكون جزاؤُهم هو أن يكونوا جاثمين باركين في الأرض مُلتصِقين بها لا يتحرّكون؛ للإشعار بذُلِّهم وصَغارِهم.

الجزاءُ من جنسِ العملِ

دلالةُ الفاءِ في الفعل ﴿فَتَوَلَّىٰ﴾:

دلَّتِ الفاءُ أنَّ صالحًا عليه السلام كان مُشاهِدًا لِما وقع عليهم، وأنّه تولَّى عنهم بعدما أبصرَهم جاثمين، فكأنَّه تولَّى، وهو مُغتمٌّ مُتحسِّرٌ على ما فاتَه من إيمانِهم، والمعنى: قال لهم بعد موتهم: ﴿يَٰقَوۡمِ لَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُمۡ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحۡتُ لَكُمۡ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ٧٩﴾ [الأعراف: 79] على طريق الحكايةِ الماضيةِ، كما وقعَ منَ النّبيّ ﷺ منَ التّكلُّم لأهلِ قليبِ بدرٍ بعد موتِهم، ونحوُ هذا ممّا يُقالُ في أحوالِ الحزنِ المختلفةِ خطابًا للموتى بحسبِ أحوالِهم، وأجازَ

تحسُّرُ صالحٍ عليه السلام على ما فاتَ قومَه منَ الإيمانِ دليلُ رحمتِه وشفقتِه

(1) رشيد رضا، تفسير المنار: 18/451، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/228.

بعضُ المفسّرين أنَّه تولَّى عنهم، وقال لهم تلكَ المقالةِ، وهو مُنكِرٌ إصرارَهم حين رأى العلاماتِ قبل نزولِ العذابِ، وكأنَّه كان مُشاهِداً لذلك، فتحسَّر على ما فاتهم منَ الإيمانِ والسَّلامة منَ العذابِ[1].

نُكتةُ التّعبير بمادّة التّوَلّي:

فراقُ صالحٍ لقومِه بعدَ عقرِهم النّاقة عن غضبٍ ويأسٍ من إيمانِهم

أفاد الفعلُ ﴿فَتَوَلَّىٰ﴾ المتعدّي بحرفِ (عَنْ) إعراضَ الحزنِ لما أصابَ ثمودَ، وأفادَ إعراضَ الغضبِ، وذلك على القولِ بأنَّ قولَه: ﴿يَٰقَوۡمِ لَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُمۡ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحۡتُ لَكُمۡ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ٧٩﴾ [الأعراف: 79] قالَه قبلَ نزول العذابِ، وعندَ رؤيةِ علاماتِه، كما يُشعرُ اللَّفظُ باليأس من خيرِهم واليقينِ في إهلاكِهم[2].

دلالةُ عطف جملةِ ﴿وَقَالَ يَٰقَوۡمِ﴾ على ما قبلها بالواو:

تألّمُ الأنبياء وتحسرُّهم على هلاكِ أقوامِهم

لمّا أفادتِ الواو عطفَ جملة: ﴿وَقَالَ يَٰقَوۡمِ﴾ على قوله: ﴿فَتَوَلَّىٰ عَنۡهُمۡ﴾ دلَّ على أنَّ التّعقيبَ للتّولّي والنّداء، وأنَّ نداءَه قومه كان في وقت تولّيه عنهم؛ أي: تولَّى قائلًا، وناسبَ وصلُ جملةِ النِّداء بتولّيه؛ لأنَّه لمّا كان التّولّي على معنى اليأس من إيمانِهم ناسبه أن يصلَه بما يفيدُ تحسُّرَه عليهم؛ لكونِهم لم يؤمنوا.

عنوان القوميّة ﴿يَٰقَوۡمِ﴾ بين الحقيقة والمجاز:

نداءُ الهالكين لتحذيرِ السّامعين منَ الوقوعِ في المعصيةِ

الظّاهرُ أنَّ النّداء جاءَ عقبَ هلاكِ ثمودَ كما تقدَّمَ، ولمّا كان النّداءُ على معنى طلبِ إقبالِ المنادَى، والحالُ أنَّ المنادى قد هلكَ، والكلامُ معَ الميّتِ غيرُ نافعٍ ولا مفيدٍ، دلَّ على أنَّه قد سُلِكَ بالنّداء سَبيلُ المجاز بقصدِ التَّفَجُّعِ عليهم والتَّحَسُّرِ لكَونِهم لَم يُؤمِنوا فَهَلَكوا، وليَسمَعَ ذلك مَن كانَ معه مِنَ المُسلِمينَ؛ فَيَزدادوا إيمانًا، وانتِفاءً عَن مَعصيَةِ اللّه، واقتِضاءً لِما جاءَ به نَبيُّهُ عَنِ اللّه، وليكون

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/124، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/424، والنّيسابوريّ، غرائب التّفسير: 3/275، والقونويّ، حاشية على تفسير البيضاويّ: 8: 434، ورشيد رضا، تفسير المنار: 8/452.

(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز، والرّاغب، المفردات: (ولي)، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/228.

عِبرةً لِمَن يأتي من بعدهم فينزجرَ عن مثل تلك الطّريقةِ الّتي كانوا عليها[1]، وإن كانَ النّداءُ قبلَ هلاكهم فيكون النّداءُ مُستعمَلًا في التّوبيخِ لهم، والتَّسجيلِ عليهم، ويكون النّداءُ على الحقيقة[2].

نُكتةُ إضافةِ (قوم) إلى الياءِ مع حذفها:

رحمةُ المؤمنين راسخةٌ في قلوبِهم شامخةٌ في أخلاقِهم

عُبِّرَ بنداء القومِ المضاف إلى ياء المتكلِّم المحذوفةِ ﴿يَقَوْمِ﴾؛ للإشعارِ بأنَّ المؤمنين يعزُّ عليهم ما يؤذي قومَهم[3]، وأنَّهم لا ينخلعون عن أسبابِ القرابةِ والرَّحمِ، ولا تزالُ الرَّحمةُ قائمةً في قلوبِهم على أقوامِهم، ولو بعد هلاكِهم.

علَّةُ تأكيدِ التّبليغ ﴿لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ﴾:

الحريصُ على إيمانِ قومِه يُراجعُ نفسَه، ويُؤكِّدُ لها قيامَه بواجبِه

كان مُقتضَى الظّاهر أن يقولَ: (وقال: يا قوم أبلغتكم رسالة ربّي)؛ لوقوعِ الإبلاغِ بصيغةِ الماضي، فهو قد تمَّ ووقع، فلمّا تتابعَ التّأكيدُ بـ(لام القسم وقدْ) دلَّ على أنَّه نزَّلَ قومَه الّذين أبلغهم رسالةَ ربِّه، وأقامَ عليهمُ الحجّةَ منزلةَ المنكِرين لإبلاغِه؛ لأنّهم لم ينتفعوا به، وكذّبوه في رسالتِه.

أو أنَّ التَّأكيدَ موجَّهٌ لا لقومِه بل لنفسِه، وذلك أنَّه يتحسَّرُ على عدمِ إيمانِهم، فكأنّه يُؤكِّد لنفسِه أنَّه قد قامَ بالدَّعوةِ على الوجه المطلوبِ، وهذا الوجهُ أبلغُ في أثرِه الأخلاقيِّ، وفي تصوير حِرصِ الرُّسلِ على القيامِ بواجبِهم دون تقصيرٍ.

فائدةُ تعدية فعل ﴿أَبْلَغْتُكُمْ﴾ إلى ضميرِ المُخاطَبين:

أداءُ الرِّسالةِ على أتمِّ وجهٍ، فلا تقصيرَ ولا فُتورَ

عُبِّرَ بالفعل ﴿أَبْلَغْتُكُمْ﴾ المتعدّي إلى ضميرِ المخاطَبين؛ لِدلالتِه على وصول المُبلَّغ به إلى أقصى مقصدِه وغايةِ مطلوبِه، ليُؤذنَ بقيامِ صالحٍ عليه السلام بمهامِّ الرّسالة على أتمِّ وجهٍ، وهو ما يُعزِّزُ تأكيدَ كلامه بقولِه: ﴿لَقَدْ﴾.

(1) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/22، وأبو حيّان، البحر المحيط: 5/98، والقونويّ، حاشية على تفسير البيضاويّ: 8/434، والقنّوجيّ، فتح البيان: 4/400.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/228.

(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/451.

سببُ إفرادِ لفظِ الرِّسالةِ في ﴿رِسَالَةَ رَبِّي﴾:

لمّا كانت آيةُ النّاقةِ واحدةً حَسُنَ إفرادُ الرِّسالةِ

وحَّد الرِّسالةَ بخلافِ ما مرَّ في قصّتي نوح وهود؛ لأنَّ المرادَ هناك أشياءُ كانا يأمرانِ بها قومَهما بعدَ الإيمانِ باللّهِ، وأمّا الّذي في قصّة صالحٍ فلم يقعْ فيها بعدَ أمرِهم بالعبادةِ غيرُ تعريفِهم بأمرِ النّاقةِ، وأمرِهم برعْيِها، وتذكيرِهم بقومِ هود، كما أنّه وقعَ في آخرِ القصَّة، فأرادَ بها مجموعَ ما أدَّى منَ الرِّسالةِ، أو أراد بذلك أداءَ حديثِ النّاقةِ فقط؛ أي: لكونِ آيتِه واحدةً، تعظيمًا لها وتفخيمًا[1].

فائدةُ تعديةِ فعل النُّصح باللام ﴿وَنَصَحْتُ لَكُمْ﴾:

بيانُ عنايةِ صالحٍ بنُصحِ قومِه

عُدّيَ الفعلُ ﴿وَنَصَحْتُ﴾ باللّام فقال: ﴿لَكُمْ﴾؛ لدلالة اللّام على الاختصاص، بمعنى: أنَّ نصحَه خاصٌّ بهم، ففيه معنى الرِّعايةِ والاهتمامِ بهم، كما أفادتِ اللّامُ تقويةَ معنى النُّصحِ وتقريرَه[2].

دلالةُ الاستدراكِ في جملة ﴿وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾:

عداوةُ الأمم لرُسلِهم ورفضُها نُصحَهم مُؤذِنٌ بقُربِ وقوعِ العذابِ

لمّا كانَ لفظُ ﴿وَلَٰكِن﴾ للاستدراك ممّا سبق، وأفادَ تأكيدَ نفي حبّهم للنّاصحين[3]، دلَّ على أنَّ الكلامَ بتقدير: لقد أبلغتكم رسالةَ ربّي، ففعلتُ معكم ما هو مُقتضٍ لأنْ تحبّوني لأجله؛ للإيذانِ بدفعِ توهُّم تقصيرٍ في الإبلاغِ والنَّصيحةِ؛ لانعدامِ ظهورِ فائدةِ الإبلاغِ والنَّصيحةِ، فاستدركَ على معنى أنّكم تكرهون النّاصحين، فلا تطيعونهم في نصحهم؛ لأنَّ المحبَّ لمَن يحبُّ مطيعٌ[4].

دلالةُ المضارعيّة في الفعل ﴿لَّا تُحِبُّونَ﴾:

تصويرُ حالِ ثمودَ عندَ نُصحهم

لمّا تقدّم أنَّ صالحًا تولَّى عن قومِه بعدَ هلاكِهم أفاد معنى قَولِه: ﴿وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ معنى المضي، وتقديرُ الكلام: ولَكِن

(1) الغرناطيّ، ملاك التّأويل: 1/203، والنّيسابوريّ، غرائب القرآن: 3/275، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 7/451.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/451.

(3) الصّافي، الجدول في إعراب القرآن: 8/464.

(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/451.

كُنتُم لا تُحِبّونَ النّاصِحينَ، فعبَّر بالفعل المضارعِ ﴿تُحِبُّونَ﴾؛ ليكونَ حكايةً للحالةِ الماضية، وتصويرًا لها[1]؛ أي: لم يزل هذا دأبُكم فيكونُ ذلك آخرَ علاجٍ لإقلاعهم إن كانَت فيهم بقيّةٌ للإقلاع عمّا هم فيه، وإن كان بعدَ انقضاءِ سماعِهم، فالمضارعُ لحكاية الحالِ الماضيةِ[2] كما سبق.

بلاغةُ الكنايةِ في جملة ﴿لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾:

الكافرون لا يحبّون النّاصحين لِفسادِ عقولِهم وغلبةِ شهواتِهم

كان من حقِّ الظّاهر أن يُقال في مقابلِ ﴿وَنَصَحۡتُ لَكُمۡ﴾، ولكن ما قبلتم نُصحي، أو ولكن رفضتم نُصحي، فعدل إلى ﴿لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾؛ ليكونَ كنايةً عن رفضهمُ النَّصيحةَ، وعدمِ امتثالِهم ما أبلغهم به صالحٌ عليه السلام من رسالة ربّهم؛ لانتفاءِ رغبتِهم فيما أمرهم به؛ لشدّتِه عليهم، فيدلُّ لزومًا على فسادِ عقولِهم وغلبةِ شهواتِهم، كما أنَّ في العدولِ إشعارًا بمبالغتِهم في الإصرارِ على الكفرِ[3].

نوعُ (أل) في لفظ ﴿ٱلنَّٰصِحِينَ﴾:

كراهيةُ جميعِ النّاصحين دليل البؤس المبين

أفادَت أل في قوله تعالى: ﴿ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ الاستغراق، بمعنى: أنَّ القومَ لا يحبّون كلَّ مَن نصحَ لهم من رسولٍ أو غيرِه.

نُكتةُ العُدولِ إلى الجمعِ في لفظ ﴿ٱلنَّٰصِحِينَ﴾:

المستكبِرون لا يقبلون نُصحَ أيِّ ناصحٍ

عُدِلَ إلى صيغةِ الجمعِ في قوله: ﴿ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ الدّالِّ على عمومِ اللّفظِ مُبالَغَةً في ذَمِّهم؛ للإيذانِ بأنّهم لا يقبلون نُصحَ ناصحٍ[4]، ولمّا كان صالحٌ عليه السلام أوّلَ النّاصحين لهم وأبلغَهم، دخلَ في النّاصحين دخولًا أوّليًّا، كما دلَّ على مبالغتِهم في بغضِه عليه السلام،

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/98.

(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/98، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/244، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/228.

(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/451، والطّيّبيّ، فتوح الغيب: 6/457، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/228.

(4) الطّيّبيّ، فتوح الغيب: 6/457.

وبغضِ نصيحتِه، فهم يكرهون النّاصحين، بقطعِ النَّظرِ عن نسبِهم وقرابتِهم.

دلالةُ اسمِ الفاعلِ في ﴿ٱلنَّٰصِحِينَ﴾:

الرَّسولُ تامُّ النُّصحِ لقومِه

أفادَ التّعبيرُ باسم الفاعل أنَّ صالحًا كان تامَّ النُّصحِ لقومِه مُداوِمًا عليه، لما يدلُّ عليه اسمُ الفاعل من قيامِ الوصف بالذّاتِ ولزومِه.

فائدةُ التَّعبيرِ بنفي الحبِّ لا إثباتِ الكراهية:

الدّعوةُ إلى الله قائمةٌ على حبِّ الخيرِ للنّاس

عُبِّرَ بنفي محبَّتهم للنّاصحين في قوله تعالى: ﴿لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾، ولم يقُل: (ولكن تكرهون النّاصحين)، وفائدته أنّه لمّا كانَ الكرهُ هو المَشَقَّةُ الَّتي تنالُ الإنسانَ من خارج مِمّا يُحمَلُ عليه بإكراه، ففيه معنى الإباء والمَشَقَّة، وكانَ بالإمكانِ أن يقولَ الإنسانُ في الشّيءِ الواحدِ أريدُه وأكرَهُهُ، أي: يريده من حيث الطّبعُ ويكرهُه من حيث العقلُ والشّرعُ أو بالعكس[1]، جاء قولُه تعالى: ﴿لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾؛ للإشعار بأنَّ ما نصحه لهم نبيُّهم ﷺ ليس فيه مشقَّةٌ، وأنَّه ممّا ترغبُ فيه الطّباعُ والعقولُ، كما أنَّ في التّعبير بـ ﴿لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ إشعارًا بأنّهم لم يرغبوا فيه ولم يريدوه، فالعلَّةُ فيهم وليس في ما نصحَهم به، وأيضًا في التّعبير لطفٌ في الدّعوة إلى اللّه، باختيارِ أجملِ الألفاظ وأرقِّها، فالنّصيحةُ قائمةٌ على الحبِّ، والنّاصحُ مُحبٌّ لمَن ينصحُه، ففيه إيذانٌ بأنَّ الدّعوةَ إلى عبادة اللّهِ وحدَه والامتثالِ لشرعِه قائمةٌ على حبِّ الدّاعي لمَن يدعوه.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الزَّلزلة عمومُ اضطرابِ الأرض، والرَّجفةُ زلزلة عظيمةٌ، والصَّيحةُ الصَّوتُ الشَّديدُ المُهلك

الرّجفةُ والزّلزلةُ والصّيحةُ:

الزَّلزلة هي اضطرابُ الأرض اضطرابًا عامًّا، والرَّجفةُ: هي الزَّلزلةُ العظيمةُ، ولهذا يُقال: زُلزلَتِ الأرضُ زلزلةً خفيفةً، ولا

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، والرّاغب، المفردات: (كره)، والكفويّ، الكلّيّات، ص: 769.

يُقالُ: رُجِفَتْ إلّا إذا زُلزلَت زلزلةً شديدةً، وسُمّيَت زلزلةُ السّاعةِ رجفةً لذلك، وأمّا الصّيحةُ فهي الصّوتُ الشّديدُ الّذي يبلغُ مداه بعيدًا، وعبّرَ القرآنُ الكريمُ عن عذاب قوم ثمود مرَّةً بالرّجفةِ ومرَّةً بالصَّيحة، ولا منافاةَ بينهما؛ لأنَّ الرَّجفةَ ناشئةٌ عنِ الصَّيحةِ؛ أي: صيح بهم بصاعقةٍ أو بصواعقَ متتاليةٍ، فرُجِفت أرضُهم، وزُلزلَت زلزالًا شديدًا، فجاز أن يُسنَدَ الإهلاكُ إلى كلٍّ منهما[1].

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (رجف - صيح)، والعسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 249.

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾﴾ [الأعراف: 80]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

قومُ لوطٍ أقربُ الأقوامِ إلى ثمودَ مكانًا وزمانًا

لمّا أتمَّ سبحانه ما وفّى بمقصدِ هذه السّورة في هذا السّياقِ من قصَّتِهم، أتبعَه مَن بعدَه ممَّن تعرفُه العربُ كما فعل فيما قبلُ[1]، وناسبَ ذكرُ قصَّةِ لوطٍ عليه السلام بعد قصَّةِ صالحٍ عليه السلام قُربَ المكانِ، فثمودُ أقربُ من عادٍ إلى قومِ لوطٍ، وقربُ الزَّمانِ كذلك، وقد بُنيت سورةُ الأعرافِ في سردِ القَصص على التَّوالي الزَّمانيّ.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلْفَٰحِشَةَ﴾: يدلُّ الفُحشُ على قُبحٍ في شيءٍ وشناعةٍ، ويكون مكروهًا، فيوصفُ به كلُّ ما تجاوزَ قدرَه بحيثُ بلغَ النّهايةَ في القبحِ منَ الأفعالِ والأقوالِ، والفاحشةُ الشَّيءُ الغليظُ القبيحُ الّذي يكونُ غايةً في القبحِ. وأفحَشَ الرَّجُلُ أتى بالفُحشِ؛ وهو القَولُ السَّيِّئُ، وأكثرُ ما تردُ الفاحشةُ في الاستعمالِ القرآنيّ بمعنى الزِّنا، ومعنى الفاحشة في الآية إتيانُ الذّكور في الأدبار[2].

2) ﴿سَبَقَكُم﴾: السّبقُ هو التّقدّمُ في السّير، ويدلُّ السّبقُ على التّقدّمِ في الجريِ، وفي كلِّ شيءٍ، ويدورُ المعنى المحوريّ للسّبقِ على تقدُّم الشّيء من بين ما حوله في قوّةٍ وجدٍّ، بحيث يكونُ مُنفردًا في تقدُّمِه، ويصلُ إلى المطلوبِ قبلَ وصولِ غيرِه، ويُقال: سابَقتُه فسَبَقتُه، ومنه: له سابِقةٌ في هذا الأمر إذا سَبَق النّاسَ إليهِ، وأسبَقَ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/451.

(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، والفيّوميّ، المصباح المنير: (فحش)، وابن جرير، جامع البيان: 12/547، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/424.

القومُ إلى الأمر وتَسابَقوا: بادَروا، ففي السّبقِ معنى المبادرة إلى التّقدّم[1]، والمقصودُ في الآيةِ هو السَّبقُ بمعنى الابتداعِ السُّلوكيِّ جملةً، فلم يأتِ أحدٌ منَ العالمين بمثل هذا قبْلَهم؛ فأصبحوا أئمّةَ فحشٍ لمن بعدَهم.

3) ﴿ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾: جمعُ العالَم، وهو إمّا أن يكونَ اسمًا لذوي العِلم منَ الملائكةِ والثّقلين (الجنّ والإنس)، أو لِما عُلِمَ به الخالقُ، فيشملَ كلَّ ما خلقَ اللّه، والمرادُ بالعالمين هنا جميعُ الأقوام الّذين كانوا قبلهم.

❁ المعنى الإجْماليُّ:

السَّبقُ إلى المنكَرِ الغريبِ طريقٌ إلى الهلاكِ قريب

واذكر أيّها الرّسول لوطًا حينَ قال لقومِه مُنكِرًا عليهم: أتفعلونَ الفعلةَ الفاحشةَ ما سبقكم بفعلها أحدٌ منَ النّاس، إنَّ إتيانَ الذُّكورِ دونَ الإناثِ منَ الفواحشِ الّتي ابتدعَها قومُ لوطٍ، ولم يسبقْهم بها أحدٌ منَ الخلقِ[2].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

نوعُ العطفِ بالواو، وبيانُ مناسبتِه في ﴿وَلُوطًا﴾:

العطفُ إمّا مِن عَطفِ المفردات، وإمّا مِن عطفِ القِصَّةِ على القصَّةِ

يُحمَلُ العطفُ إمّا على تقدير: (أرسلنا) فيكونُ المعنى: (وأرسلنا لوطًا)؛ ليكونَ على نسقِ ما تقدّم، فيكونَ قد عَطَفَ ﴿وَلُوطًا﴾ على ﴿نُوحًا﴾ [الأعراف: 59] في قوله: ﴿لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا﴾ [الأعراف: 59]، ليكونَ من عطفِ بعضِ مفرداتِ الجملةِ على بعضٍ؛ لمناسبةِ معنى الإرسال بين المعاطيف؛ أي: لقد أرسلنا نوحًا ولوطًا، وإذا كان بتقدير: (اذكر) فيكونُ من عطفِ جملةِ القصَّة على القصَّة، وذلك أنَّ ذكرَ الأنبياء لتثبيت قلبِ الرّسولِ ﷺ بتسليتِه ممّا يقاسي عن قومه[3]؛ أي: واذكر قصَّةَ لوطٍ مع قومِه.

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والفيّوميّ، المصباح المنير، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (سبق).
(2) ابن جرير، جامع البيان: 12/547، ونخبة من أساتذة التّفسير، التفسير الميسر، ص: 160.
(3) الطّيّبيّ، فتوح الغيب: 6/457.

نُكتةُ حذفِ العاملِ في قولِه تعالى ﴿وَلُوطًا﴾:

تنوُّعُ المعاني تابعٌ للتَّقديرِ، والتَّقديرُ قائمٌ على اتِّساعِ النَّصِّ ومُرونةِ دلالتِه

العاملُ المحذوفُ إمّا أن يكونَ: (أرسلنا)، ولمّا كان ﴿إِذْ﴾ ظرفًا مُتعلِّقًا بـ(أرسلنا) المُقدَّرِ، كان المعنى: أرسلناه وقتَ قال لقومه، فجُعِلَ وقتُ القول ظرفًا للإرسال مع أنَّ الإرسالَ قبلَه؛ للإشعارِ بمبادرةِ لوطٍ عليه السلام بدعوة قومِه إلى ما أرسلَه اللهُ به، واقترانُ وقتِ الإرسال بوقتِ قولِه اقترانٌ عُرفيٌّ بمعنى شدَّةِ القربِ بأقصى ما يُستطاعُ من مبادرة التّبليغ، ويحتملُ أن يكونَ المرادُ بالظّرفِ الزّمانَ الّذي أُرسِلَ فيه لوطٌ، وليس وقتَ القولِ نفسِه، فيكون المعنى: وأرسلنا لوطًا في زمنٍ قال لقومه.

وإمّا أن يكونَ منصوبًا بتقدير: (اذكر)، فيكونَ الظّرفُ ﴿إِذْ﴾ بدلَ اشتمالٍ من لوطٍ، والمعنى: اذكر يا محمّد ﷺ لوطًا، اذكرْ وقتَ قولِه لقومِه، وتعظيمُ الوقتِ لتعظيم ما وقع فيه[1]، والقصدُ من تقدير (اذكر) الإيذانُ بأنَّ فعلَهم قبيحٌ شنيعٌ سواء كانِ بإرسالِ رسولٍ أم بغيرِ إرسالِ رسولٍ.

بلاغةُ استعمالِ ﴿إِذْ﴾ في جملة ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ﴾:

في قصصِ الغابرين عِبرةٌ وعِظةٌ وتنبيهٌ للحاضرين

التّعبيرُ بـ ﴿إِذْ﴾ يدلُّ على عِظَمِ شأنِ الأمر، فإنَّ تعظيمَ شأنِ الوقتِ تعظيمٌ لمظروفِه؛ أي: ما يقعُ فيه، ففيه إشعارٌ بتعظيمِ قولِ لوطٍ لحاجةِ القومِ له، فإنَّ الوقتَ عنصرٌ عظيمٌ من عناصرِ نجاةِ الأممِ والأقوام، فإنْ فاتَ لم يُعوَّض، وفي تَكرارِه في القرآنِ تنبيهٌ للمخاطَبين بأنَّ الإنذارَ اليومَ سيكون في الزَّمنِ القادمِ عِبرةً لغيرِكم بأداةِ ﴿إِذْ﴾ وأنتم مظاريفُها! فهي إنباءٌ عمّا مضى؛ للتَّنبيه والاعتبارِ فيما يكون وسيكون.

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/125، والبيضاوي، أنوار التّنزيل: 3/22، والسّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 5/370، والطّيّبيّ، فتوح الغيب: 6/457، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/229.

فائدةُ عدمِ ذكرِ أخوّةِ لوط لقومه:

الدَّعوةُ لا يُشترطُ فيها الانتسابُ العشائريُّ، بل الانتماءُ الإنسانيُّ

لم تذكرِ الآيةُ أُخوّةَ لوطٍ عليه السلام لقومِه كما في شأنِ بقيّة الرُّسُلِ، ففي هودٍ عليه السلام قال: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾ [الأعراف: 65]، وفي صالحٍ عليه السلام قال: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا﴾ [الأعراف: 73]، وفي شعيبٍ عليه السلام قال: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ [الأعراف: 85]، بينما قال جلّ شأنه: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ﴾؛ ذلك لأنَّه لم يكن هناك موجبٌ لذكرِ الأخوّةِ، فلم يكونوا مؤمنين لتكونَ أخوّةُ الإيمان تجمعُهم، كما أنّه لم يكن من قبائلهم، فلم يكن بينه وبين القوم الّذين نزل فيهم قرابةُ نسبٍ تُشبَّهُ بعلاقات الأخوَّة[1]، وبانتفاءِ هذين السَّببين، يمتنعُ ذكرُ الأخوَّةِ، وفي ذلك فائدةٌ عظيمةٌ، أنَّ انتفاءَ الأخوَّةِ، لا يعني انتفاءَ الانتماءِ إلى المعيشةِ والجوارِ؛ ولذلك قال: ﴿لِقَوْمِهِ﴾، وهو سببُ الدَّعوةِ، وبه يستبينُ أنَّ الدَّعوةَ لا يُشترطُ فيها الانتماءُ العشائريُّ، أو القبليُّ، أو العقديُّ، بل عمومُ الانتماءِ ولو بالجوارِ والمعايشةِ، وهذا أصلٌ عظيمٌ من أصول الدَّعوةِ إلى دينِ اللّه تعالى.

معنى اللّامِ في قوله تعالى ﴿لِقَوْمِهِ﴾:

عدمُ تقصيرِ رُسُلِ اللهِ في تبليغِ دعوةِ اللهِ إلى أقوامِهم

أفادتِ اللّامُ في قوله تعالى: ﴿لِقَوْمِهِ﴾ التَّبليغَ؛ أي: تبليغَ لوطٍ قولَهُ لقومِه، وهي لامُ تعديةِ فعلِ القولِ إلى قومِه.

فائدةُ إضافةِ (قوم) إلى الضَّميرِ العائدِ على لوطٍ عليه السلام:

المصلحُ ينخرطُ في مجتمعِه، ولا ينزوي بدعوتِه عن قومِه

ذكرُ لفظِ ﴿لِقَوْمِهِ﴾ يدلُّ على أنَّه ليس دخيلًا بينهم، بل كانَ يعيشُ معهم مُنذرًا لهم، ولكنَّهم انحرفوا عنِ الإنسانيَّة[2]، ففيه أنَّ الصّالحَ قد يعيشُ في مجتمعِ الشَّواذِّ، ويُحافظُ على صلاحِه بإصلاحِهم، ونهيِهم عنِ المنكَرِ الشّاذِّ، وأنَّ السَّبيلَ إلى الإصلاحِ هو المبادرةُ إلى الأمرِ بالمعروفِ والنَّهي عنِ المنكَرِ، لا تركُهم وشأنَهم،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/229.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 6/2892.

ولا معاداتُهم دون دعوةٍ ورفقٍ بهم، فإنَّ المصلحَ ينخرطُ في مجتمعِ الفسادِ مُصلحًا، ولا ينزوي عنهم مُجحِفًا.

سِرُّ البَدءِ بالنّهيِ عنِ الفاحشةِ دونَ الأمر بعبادة الله وتوحيده:

لمّا كانَت فاحشةُ قومِ لوطٍ أشنعَ الشّنعِ بعدَ الشِّركِ باللّهِ، واختُصَّ بمشاركتِه للشِّركِ في أنَّه لم يحلَّ في ملَّةٍ منَ الملِ في وقتٍ منَ الأوقاتِ ولا مع وصفٍ منَ الأوصافِ، ناسبَ أن يقتصرَ في هذا المقام على الإنكارِ على فعلِهم الفاحشةَ، فكأنَّ نهيَهم عنها أمرٌ بعبادة اللّه وتوحيدِه، فإنَّ تركَهم لها رجوعٌ إلى الفطرةِ السَّليمةِ وإلى عبادةِ اللّهِ وحدَه، أو يكونُ الكلامُ على طيِّ الأمرِ بعبادةِ اللّهِ؛ إيجازًا في الكلام، فاقتصر على ذكرِ الإنكار على فعل الفاحشةِ؛ لأنّه أمرٌ فظيعٌ عظيمُ الشَّناعةِ شديدُ العارِ والفُحشِ؛ لنفرةِ كلِّ طبعٍ سليمٍ عنه، فأنكرَ عليهم أقبحَ الفعلِ وأشنعَه زيادةً على شركِهم باللّه.

الشُّذوذُ لا يصحبُه اعتقادٌ قويمٌ ولا سلوكٌ مستقيمٌ، فاستئصالُه ركنُ العملِ وقاعدةُ الأملِ

وفيه أنَّ جميعَ المعاصي تُسبَقُ بالدَّعوة إلى التَّوحيدِ والأمرِ بعبادةِ اللّه، ولكنّ هذا الفعلَ الشّاذَّ يُبدأُ بالنَّهي عنه؛ لأنَّه شرٌّ أخلاقيٌّ، وفسادٌ فطريٌّ، لا يستقيمُ معه شيءٌ، وهو قرينُ الشُّذوذِ الفكريِّ، والاجتماعيِّ، والأسريِّ، والاقتصاديِّ، والأخلاقيِّ، والدّينيِّ، فلا يستقيمُ معه سلوكٌ ولا اعتقادٌ، فاستئصالُه أصلٌ لا يُحادُ عنه، وركنٌ لا يُترك.

بلاغةُ الاستفهامِ المجازيّ في جملة: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ﴾:

وردَ الاستفهامُ بمعنى الإنكارِ، بغرضِ إيقافِهم على حالتِهم، وتوبيخِهم على صَنيعِهِمْ، والتَّشنيعِ على فعلتِهم المتمادية في القبحِ، ولمّا كان الاستفهامُ الإنكاريُّ مُضمَّنًا معنى النّهي عنِ الفعل دلَّ على أنّ لوطًا عليه السلام وبّخَهم على فعل الفاحشةِ ونهاهم عنها[1].

الجمعُ بينَ التّوبيخِ والنّهيِ عنِ الفاحشة

(1) الواحديّ، التّفسير الوسيط: 2/386، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/424، والفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/310، والبيضاوي، أنوار التّنزيل: 3/22.

نُكتةُ اختيارِ مُفردةِ الإتيانِ، والإسنادِ إلى واو الجماعة:

تصويرُ مجتمعِ الشَّواذِّ في إقدامِهم على صنيعِ القُبحِ وعملِ الرَّذيلةِ

اختارَ النَّظمُ مُفردةَ الإتيانِ في قولِه تعالى: ﴿أَتَأْتُونَ﴾ لِما فيه من معنى الإقبالِ على الشَّيء، وأُسندَ إلى ضمير الجمعِ؛ للإشعار بأنَّ الفعلَ هو الغالبُ في القومِ، ففيه أنَّ القومَ مقبلون بكليّتهم على هذا الفعلِ الشَّنيع، فهو تصويرٌ لبشاعةِ حالةِ الإقدامِ تلك.

صحَّةُ حملِ الكلامِ على الكنايةِ والاستعارةِ

من ناحية أخرى، التَّعبيرُ بالإتيانِ في قولِه: ﴿أَتَأْتُونَ﴾ إمّا أن يُحملَ على أنَّه كنايةٌ عن إتيانِ الذُّكور، وهي كنايةٌ مشهورةٌ في الاستعمال وفي العرف، ومثله قوله فيما يأتي: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً﴾[1].

وإمّا أن يُحملَ على الاستعارةِ بتشبيهِ القيامِ بفعلِ الشُّذوذِ بالإتيانِ، فهو استعارةٌ تصريحيّةٌ تبعيَّةٌ، وجاءَ بهذا التَّعبيرِ المجازيِّ؛ للطفه وجمالِه، والمعنى: أتعملون الفاحشةَ.

معنى (أل) في لفظِ ﴿ٱلْفَٰحِشَةَ﴾:

إذا ارتكزَ قُبحٌ في العقولِ لم تزحزِحْه الفحول

تحتملُ (أل) أن تكونَ للعهدِ العلميِّ؛ للإيذانِ بأنَّ هذا الفعل مَعهودٌ قُبحُهُ، ومَركوزٌ في العُقولِ فُحشُهُ، وتحتملُ أن تَكونَ للجِنسِ على سبيل المبالغةِ كأنَّهُ لِشدَّةِ قُبحِه جُعِلَ جَميعَ الفَواحِشِ، وهو الظّاهرُ لِبُعدِ العَربِ عَن ذلك البُعدَ التّامَّ[2]، وتحتملُ أن تكونَ (أل) لكمالِ الوصفِ؛ أي: لجمعِه أوصافَ الفحشِ، بمعنى: أتاتون الفاحشةَ الّتي جمعَت كلَّ أوصافِ الفُحشِ.

نكتةُ الاستعارةِ التَّصريحيّةِ في لفظِ ﴿ٱلْفَٰحِشَةَ﴾:

لفظُ الفاحشةِ أوقعُ في النُّفوسِ أثرًا، وأوجزُ خبرًا

في قولِه تعالى: ﴿ٱلْفَٰحِشَةَ﴾ استعارةٌ، وذلك بتشبيه الرِّجالِ المأتيّين من أدبارِهم بالفاحشةِ؛ بدليلِ قولِه: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً﴾، على سبيل الاستعارةِ التَّصريحيّة الأصليّة، ونكتةُ ذلك: أنَّ

(1) رشيد رضا، تفسير المنار: 8/454، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/231.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/98.

الاستعارةَ أبلغُ منَ الحقيقةِ، فإنَّ التَّعبيرَ عن إتيانِ الرِّجالِ بإتيانِ الفاحشةِ أوقعُ في النُّفوسِ أثرًا، وأدلُّ على المرادِ خبرًا، وفي الاستعارة منَ التّبشيعِ والتّشنيعِ على القائمين بهذا الفعل ما لا يخفى، فإنَّ تشبيهَهم بالفاحشة من دواعي النُّفرةِ منها، فإن هم أصرّوا فهم الفاحشةُ بعينِها حقيقةً لا مجازًا.

الاستعارة التَّهكميَّة في جملة ﴿مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ﴾:

لمّا كان السَّبقُ يُستعمَلُ غالبًا لإحراز الفضلِ والتّبريزِ، وكانَ فيه معنى الجدِّ والاجتهادِ والحرصِ على التّقدّمِ والقوّةِ في الفعل، كما أنَّ فيه معنى التّفرّدِ، ويُستعمَلُ مجازًا بالاستعارة لمعنى التّقدّم في الزّمن[1]، دلَّ على أنَّ قولَه: ﴿مَا سَبَقَكُم بِهَا﴾ استعارةٌ تبعيَّةٌ تهكّميَّةٌ، وذلك بتشبيه سبقهم إلى الفاحشةِ بالسَّبقِ إلى الخيراتِ، ومن هنا أتى معنى التَّهكُّم، كمَن يُشبِّهُ البخيلَ بحاتمٍ؛ فيقول: (أتى حاتم)، والآتي من اتَّصفَ بالبُخلِ، فتشبيهُ النَّقيضِ القبيحِ بنقيضِه الحسنِ تهكُّمٌ؛ وذلك للإشعار بأنّهم كانوا يعدّون فعلَ الفاحشةِ القبيحةِ فضلًا ومزيّةً، وأنّهم كانوا يحرصون عليها بجدٍّ واجتهادٍ، وكانوا يبادرون إلى فعلِها مُنفردين بها من سائر العالمين، إذ لا يقصدُ بمثل هذا التّركيبِ أنّهم ابتدأوا مع غيرهم في وقتٍ واحدٍ، ففيه مبالغةٌ في التّوبيخ والتّعجيب من حالِهم وتقبيحِه[2].

الشُّذوذُ الأخلاقيُّ يتبعُه شذوذٌ ذوقيٌّ وفكريٌّ في عدِّ القبيحِ جميلًا والجميلِ قبيحًا

توجيهُ الفصلِ لجملة: ﴿مَا سَبَقَكُم بِهَا﴾:

تحتملُ جملةُ ﴿مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أربعةَ احتمالاتٍ في سبب فصلِها[3]:

تلتقي التَّوجيهاتُ في معنًى كليٍّ يُعيِّن الذَّمَّ، ويُحدِّدُ الذَّنبَ

(1) الرّاغب، المفردات: (سبق)، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/230.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/230.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/125، والفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/309، والبيضاوي: أنوار التّنزيل: 3/22، والسّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 5/371، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/230.

الأوّل: أن تكونَ استئنافًا نحويًّا؛ لتقريرِ الإنكارِ وتثبيتِه، كأنَّه وبَّخهم أوَّلًا بإتيان الفاحشة، ثُمَّ باختراعِها، فإنَّه أسوأُ.

الثّاني: أن تكونَ صفةً مقيِّدةً للفاحشة، على اعتبار أنَّ الفاحشةَ اسمُ جنسٍ، فليس المقصودُ منها نوعًا معيَّنًا؛ ليكونَ على سبيل تنوّعِ الذّمِّ، فيكونَ قد ذمّهم على فعل الفاحشةِ وعلى تفرُّدِهم بها.

الثّالث: أن تكونَ حالًا من ضمير (تأتون)، والمعنى: أتاتون الفاحشةَ حالَ كونكم ما سبقكم بها من أحدٍ منَ العالمين، فيكونَ الإنكارُ على فعلِهم الفاحشةَ في تلك الحال، ولا يقصدُ بالحال هنا أن تكونَ مقيِّدةً للإنكارِ بل يُقصدُ بها بيانُ الواقِع لتأكيدِ الذّمِّ وتقريرِه.

الرّابع: أن تكونَ استئنافًا بيانيًّا جوابًا لسؤال مُقدَّر، كأنَّهم قالوا: لم لا نأتيها؟ فقال: ما سبقكم بها أحدٌ، فلا تفعلوا ما لم تسبقوا به.

وجميعُ هذه التَّوجيهاتِ تلتقي في معنًى كليٍّ واحدٍ، وهو ذمُّ إتيانِ الفاحشةِ مرَّتين، مرَّةً بإتيانِها، والأخرى بأنَّهم سبقوا جميعَ العالمين بها، فكانوا مهمازَ سوءٍ، ولعنةَ ملعونٍ، لا يُقاربُهم إلّا شيطانٌ، ولا يُقارِنهم إلّا إبليس.

إيثارُ المجازِ بالحذفِ:

المعلومُ القبيحُ يُضمَرُ ذكرُه تشنيعًا على مرتكبِه

في الكلامِ مجازٌ بالحذفِ، حيث قال جلّ شأنه: ﴿بِهَا﴾ مع أنَّ التّقديرَ ما سبقكم بإتيانِ الفاحشةِ من أحدٍ منَ العالمين، لقرينةِ السّياق، وللاقتصار في الذِّكرِ على مَوضعِ الحاجةِ تلطُّفًا في العبارةِ، وإيجازًا في المبنى، وهذا هو مُقتضَى الظّاهرِ والحالِ.

فائدةُ تقديمِ الجارّ والمجرور ﴿بِهَا﴾:

قُدِّمَ الجارُّ والمجرورُ ﴿بِهَا﴾ على الفاعل ﴿مِنْ أَحَدٍ﴾ في قوله جلّ شأنه ﴿مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ﴾ لتخصيصِ سبْقِهم بها، وللاهتمامِ

بِعظَم قُبحِها وشناعتِها، ولمّا كان الجارُّ والمجرورُ على معنى الحاليَّة، فالمعنى ما سبقَكم مُلتبِسًا بالفاحشةِ أحدٌ منَ العالمين.

أسوأُ منَ القُبحِ أن يكون صاحبُه أوّلَ من يبتدِعُه ويفعلُه

دلالةُ ﴿مِنْ﴾ في قوله تعالى ﴿مِنْ أَحَدٍ﴾:

لمّا كان لفظُ ﴿أَحَدٍ﴾ من أكثر النّكراتِ شيوعًا، دلَّ نفيُه على غاية المبالغةِ في النّصِّ على استغراقِ العموم، والمعنى: ما سبقكم بها أيُّ واحدٍ منَ العالمين، وأفاد دخولُ ﴿مِنْ﴾ عليه المبالغةَ في تَأكيدِ النَّفْيِ.

استغراقُ العُمومِ دون تخلُّفِ أحدٍ

معنى التَّعريفِ وسرُّ الجمعِ في لفظ ﴿ٱلْعَٰلَمِينَ﴾:

المقصودُ بالعالمين جميعُ الإنس والجنِّ والحيوان. ومعنى التَّعريفِ في كلمةِ ﴿ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ الاستغراقُ، بمعنى استغراقِ جميعِ العالمين، وعُبِّرَ به دونَ التّعبيرِ بلفظٍ آخر؛ لتعظيم قبحِ فعلِهم؛ ليدخلَ تحت كلمةِ ﴿ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ كلُّ العالمين منَ الإنس والجنّ والحيوان والطّير والهوامِّ، وهذا استغراقٌ شموليٌّ بديعٌ، ينفِّرُ من صنيعِ قومِ لوطٍ، وهذا أبلغُ من أن يقولَ: (منَ النّاس)، وهذا مُقتضَى الظّاهرِ، وحملُها على معنى (النّاس)، كما ذهبَ إليه بعضُ المفسّرين[1]، مجازٌ بإطلاقِ الكلِّ وإرادةِ البعضِ، ولا ضرورةَ له، إذِ السّياقُ يقوّي أن يكونَ اللَّفظُ على حقيقته.

المبالغةُ في التّنفيرِ من هذا الفعلِ الشّنيعِ المُستنكَرِ عند جميعِ الخلْقِ

وأفادَ التَّعبيرُ بصيغةِ الجمعِ المبالغةَ؛ للدّلالةِ على نفيِ أن يكونَ أيُّ أحدٍ من جميعِ العالمين سبقَهم إلى فعل تلك الفاحشة[2].

موقعُ جملةِ ﴿مَا سَبَقَكُم بِهَا﴾ من النّظم:

جاءَ في هذه الآية قولُه تعالى: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، وقال في سورة النّمل: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾﴾ [النمل: 54]، ومناسبةُ مجيءِ قوله: ﴿مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ في سورة الأعراف أنّه لمّا

اجتمع في هذه الفاحشةِ فحشُ الفعلِ وابتداعُه

(1) الطّيّبيّ، فتوح الغيب: 6/458.

(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/99.

تقدّمَ في الأعراف من ذكر مرتكَباتِ الأممِ المُكذِّبين لرُسلِهم؛ أي: قوم نوحٍ وهودٍ وصالحٍ، وخُصَّ بالذِّكر أقبحُها، قيل لقومِ لوطٍ ﷺ: إنَّ هؤلاء الأقوامَ لم يسبقوكم إلى ما أنتم عليه، ناسبَ ذكرُ الأممِ المُكذِّبين قبلَهم تقريعَ هؤلاء بكونهم أوّلَ مَن فعلَ تلك الشَّناعة، وأنّهم لم يسبقْهم أحدٌ منَ العالمين، فكان توبيخُهم على الفعلِ وعلى السّبقِ معًا.

ولمّا لم يتقدّمْ في سورةِ النّمل تفصيلُ أحوالِ الأممِ المُكذِّبين، وأخذِهم، ولم يذكرْ ذلك كما في سورة الأعرافِ، عدلَ عن توبيخهم بما وُبِّخوا، حيث ذكرَ مَن كان قبلَهم، إلى ضربٍ آخرَ منَ التّوبيخِ من بيانِ شنيعِ المرتكَبِ في فعلهم، وأنّه غيرُ خافٍ على كلِّ مَن له عقلٌ أو بصرٌ يبصرُ به، كما أنَّ الّذي في سورة النّمل فيه حثٌّ على النّظر والإبصار إلى آيات اللّه مِن أوّلِ السّورة في قوله تعالى: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ ۝١﴾ [النمل: 1]، وقولِه في قصّة موسى ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً﴾ [النمل: 13]؛ أي: بيّنةً واضحةً، وقولِه في قصّة صالح: ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ﴾ [النمل: 51]، ولهذا أعقبَ قولُه: ﴿وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ۝٥٤﴾ [النمل: 54] توبيخَهم بقوله: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ۝٥٥﴾ [النمل: 55]؛ للإيذانِ بقُبح هذا التَّعامي عن إبصارِ الأمورِ الواضحةِ.

ورؤوسُ الآي في سورة الأعرافِ كلّها أسماء ﴿ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ ﴿ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ ﴿جَٰثِمِينَ﴾ ﴿ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ ﴿كَٰفِرُونَ﴾ ﴿مُؤْمِنُونَ﴾ ﴿مُفْسِدِينَ﴾، والّذي في سورة النّمل وافق ما قبلها منَ الآياتِ، وكلُّها أفعالٌ ﴿تُبْصِرُونَ ۝٥٤﴾ [النمل: 54] ﴿يَتَّقُونَ ۝٥٣﴾ [النمل: 53] ﴿تَعْمَلُونَ ۝٩٣﴾ [النمل: 93][1].

(1) الغرناطيّ، ملاك التّأويل، ص: 206 - 207، والكرمانّي، أسرار التّكرار، ص: 124 - 125.

﴿إِنَّكُمۡ لَتَأۡتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهۡوَةٗ مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِۚ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ مُّسۡرِفُونَ ٨١﴾ [الأعراف: 81]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

البيانُ بعد الإجمالِ، والإيضاحُ بعد الإبهامِ

لمّا أبهمَ الفاحشةَ في قوله: ﴿أَتَأۡتُونَ ٱلۡفَٰحِشَةَ﴾ ليحصلَ التّشوُّفُ إلى معرفتِها، بيّنها في هذه الآية، ليكونَ أدلَّ على تناهي الزَّجرِ عنها وتشديدًا للتّوبيخِ فقال: ﴿إِنَّكُمۡ لَتَأۡتُونَ ٱلرِّجَالَ﴾[1]، فمناسبةُ الآيةِ لما قبلَها مناسبةُ البيانِ والإيضاحِ، زيادةً في التَّقبيحِ والتَّشنيع، فهي مُلتحِمةٌ بها التحامَ المبيِّنِ للمبيَّن.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿شَهۡوَةٗ﴾: أصلُ الشَّهوَةِ: نزوعُ النّفسِ إلى شيءٍ تريده، رغبةً في ذلك الشَّيءِ ومحبَّةً فيه، يُقال: شَهي الشَّيءَ كالنّوم والنّساءِ والطّعام يَشهاه شَهوةً، ورجلٌ شَهوانٌ وشَهوانيٌّ إذا كانَ شديدَ الشَّهوةِ[2]، والمقصودُ بها في الآيةِ: اشتِهاءُ ممارسةِ الرَّذيلةِ مع الرِّجالِ.

2) ﴿دُونِ﴾: ظرفُ مكانٍ، نقيضُ فوق؛ أي بمعنى: تحت حسًّا أو معنًى، فيأتي بمعنى أقلَّ مرتبةٍ في الخيرِ أو في الشّرّ، ويأتي بمعنى المداناةِ والمقاربةِ، يُقال هذا دون ذاك؛ أي: هو أقربُ منه، وقد استُعملَ مجازًا في معنى الرّداءةِ والخِسّة، يُقال: ثوبٌ دونٌ: رَديءٌ، ورجلٌ من دونٍ؛ أي: خسيسٌ وحقيرٌ وساقطٌ[3].

3) ﴿مُّسۡرِفُونَ﴾: السّرفُ تجاوزُ الحدِّ في كلِّ فعلٍ يفعلُه الإنسانُ ليصلَ إلى الإهدار والإفساد، ومنه الإسرافُ في النَّفَقَةِ بمعنى التّبذيرِ،

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/455، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/231.
(2) الرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (شها).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والفيّوميّ، المصباح المنير، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (دون).

وأسرفَ في الكَلامِ وفي القَتلِ أفرطَ فيه، فهو مُسرِفٌ، وتوصَفُ الأمورُ كالسّلوك والمعالجاتِ بالسّرف[1]، ولم يأتِ السّرفُ باشتقاقاته في القرآن إلّا في مَوردِ الذّمِّ، لما فيه من تجاوزِ القصدِ، وهو المرادُ في الآية، إذ إنَّ قومَ لوطٍ قد أسرفوا في فُحشِهم، وطغَوا في تجاوزِهم.

❁ المعنى الإجْماليُّ:

الشَّهوةُ المحرَّمة ومخالفةُ الفطرةِ اعتداءٌ مركَّبٌ

تُخبرُ الآيةُ بما قاله لوطٌ عليه السلام لقومِه، مُنكِرًا عليهم صنيعَهم: إنَّكم لتأتونَ الرِّجالَ في أدبارِهم، شهوةً منكم لذلك، تاركين الّذي أحلَّه اللهُ منَ النِّساءِ عن طريقِ الزَّواجِ، بل أنتم قومٌ عادتُكم تَجاوُزُ الحدودِ في الإسراف[2].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

توجيهُ القراءاتِ القُرآنيّةِ:

تكاملُ القراءاتِ فيما بينها طريقُ البلاغة ومسلكُ البراعة

قرأ نافعٌ وأبو جعفرَ وحفصٌ عن عاصمٍ: ﴿إِنَّكُمْ﴾ على الخبرِ، والباقون: (أئِنَّكُمْ) على الاستفهام[3].

توجيهُ القراءةِ الأولى: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ﴾ الآيةُ بيانٌ وتفسيرٌ لقوله تعالى: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ﴾، وبيانه: أنّه لمّا كان قولُه: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ﴾ إجمالًا، وكانَ المقامُ مقامَ إيضاحٍ وبيانٍ لعظم الأمرِ وخطورتِه جاءَت هذه الجملةُ؛ بيانًا له وتفسيرًا لما أنكرَ عليهم، بالتَّصريح بالفعلةِ القبيحةِ، وهو أبلغُ في الإنكارِ والتّوبيخِ، وتحتملُ أن تكونَ الجملةُ حالًا؛ بمعنى: أتأتون الفاحشةَ ما سبقكم بها من أحدٍ منَ العالمين حالَ كونكم تأتونَ الرّجالَ مُشتهين لها، فالإنكارُ على الفعل وعلى الحالِ الّتي لازمتهم؛ لمجيئها جملةً اسميّةً، فيفيد التّوبيخَ على الفعلِ وعلى الاشتهاءِ مُجتمعَينِ أو مُنفردَينِ.

(1) الرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (سرف).
(2) ابن جرير، جامع البيان: 12/548، ونخبة من أساتذة التّفسير، التّفسير الميسّر، ص: 160.
(3) ابن الجزريّ، النّشر: 2/271.

توجيهُ القراءةِ الثّانية: الاستفهامُ محمولٌ على معنى الإنكار، فتكونُ الآيةُ بيانًا وتفسيرًا للاستفهام الإنكاريِّ المجمَلِ في قوله: ﴿أَتَأۡتُونَ ٱلۡفَٰحِشَةَ﴾، وتقريرًا للنّهي، وبيانًا له لِما يقتضيه الاستفهامُ الإنكاريُّ من معنى النّهي، فكأنَّه قال: (لا تأتوا الفاحشةَ لا تأتوا الرّجالَ من دونِ النِّساء)[1].

بلاغةُ تأكيدُ الكلامِ في جملة ﴿إِنَّكُمۡ لَتَأۡتُونَ﴾:

تأكيدُ الخطابِ للعارفِ يأتي لزيادةِ توبيخِه وتقريعِه

في قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمۡ لَتَأۡتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهۡوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِۚ﴾ أكّد الكلام بـ(إنَّ واللّام واسميّةِ الجملة)، فنزّلهم منزلةَ مَن ينكرُ أنّهم يأتونَ المنكَرَ؛ لِما يشعرُ به فعلُهم من ملابس الإنكارِ؛ لِكونهم مُسترسلين على الفاحشةِ مُستمرّين عليها غيرَ سامعين لنهي النّاهي ولا مُنتفعين به، ففيه توبيخٌ بعدَ توبيخ[2].

وأفادَ مجيءُ المسندِ ﴿لَتَأۡتُونَ﴾ جملةً فعليَّةً مُقوّيًا للحكمِ الإسناديِّ، بمعنى تأكيدِ إثباتِ فعلهم القبيحِ وتقريرِه لِما يقتضيه، فقد ذُكِرَ المسندُ إليه مرَّتينِ، مرَّةً في قولِه: ﴿إِنَّكُمۡ﴾، وأخرى ضميرًا في الفعلِ ﴿لَتَأۡتُونَ﴾، فتَكرارُ المسندِ إليه يُفيدُ تقويةً للحكم.

دلالةُ الإخبار بالجملةِ الفعليّةِ في ﴿لَتَأۡتُونَ﴾:

مصارحةُ الظّالمين سبيلُ فضْحِهم وطريقُ كشفِهم

أفادَ مجيءُ المُسندِ جملةً فعليَّةً تقويةَ الإسنادِ، بمعنى تَقوّي الحكمِ، بتأكيدِ إثباتِ فعلِهم القبيحِ وتقريرِه، لِما يقتضيه تكريرُ المسندِ إليه، وهو الضّمير في ﴿لَتَأۡتُونَ﴾ من تكرّرِ الإسنادِ، فإنّه وقعَ الإسنادُ مرّتين، أحدهما إلى ضمير (كُم)، والثّاني لضميره وهو فاعل ﴿لَتَأۡتُونَ﴾[3].

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/125، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/425، والبيضاوي، أنوار التّنزيل: 3/22، والشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 7/4228.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/231.

(3) السّكاكيّ، مفتاح العلوم، ص: 221، والبهاء السّبكّي، عروس الأفراح: 1/341.

نُكتةُ التّعبيرِ بصيغة المضارعِ في الفعل ﴿لَتَأۡتُونَ﴾:

تصويرُ فعلِ الإتيانِ لتقبيحِ فاعلِه

أفادَ التّعبيرُ بصيغةِ المضارعِ استمرارَهم على الفاحشةِ، وتجدّدَ فعلِهم القبيحِ؛ للإشعارِ بإصرارِهم على المنكَرِ؛ زيادةً في توبيخِهم وتقبيحِ فعلِهم، كما أنَّ في مجيءِ الفعلِ المضارعِ تصويرًا للحالة، وتقبيحًا للصّورة عندَ المخاطَبين عمومًا.

فنُّ التَّعريضِ في الآية:

سبيلُ الشّاذِّ الكشفُ والافتضاحُ ولو بعدَ حينٍ

عرَّضتِ الآيةُ الكريمةُ ﴿إِنَّكُمۡ لَتَأۡتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهۡوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِۚ﴾ بالرِّجالِ الّذين يأتون الرِّجالَ من دون النِّساءِ، بأنَّهم يُؤتَونَ كذلك من قِبَلِ رجالٍ آخرين، بل يشتهونَه في بواطنِ أنفسِهم، وسويداءِ قلوبِهم، وهذا من بديع التَّقبيحِ الخفيِّ، فإنَّ مَن يقومُ بالشُّذوذِ، أو يدعو إليه، أو يَرضى بوجودِه، أو يُناصِرُه، فهو راضٍ به لنفسِه، والرِّضا على درجاتٍ، وإنْ لم يُظهِرْ ذلك في العلنِ؛ فهو في أحشائه كامنٌ، وفي أسفل أمعائه كائنٌ.

بديعُ المقابلةِ بين جملتي ﴿لَتَأۡتُونَ ٱلرِّجَالَ﴾ و﴿مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِۚ﴾:

عندما تُطمسُ الفطرةُ السّليمةُ تحدثُ العجائبُ منَ الأفعالِ الشّنيعةِ

في المقابلة بين إتيانِ الرّجالِ وتركِ إتيانِ النِّساء مبالغةٌ في التَّوبيخِ والتَّقريعِ عجيبةٌ، إذ كيف يأتي الرَّجلُ الرَّجلَ المُشابِه له في الصِّفات، والّذي هو أصلُ القوّة والباه والفحولة، ويتركُ النِّساءَ اللّواتي هنَّ موضعُ الشَّهوةِ الجاذِبةِ والأنوثة؟! وهو مُقتضَى الفطرةِ والعادةِ السَّليمةِ؟! والّذي يظهرُ أنَّ القومَ أرادوا إحداثَ فارقٍ في السُّلوكِ، فإنَّ مَن فرَغَ عقلُه، ودَنَت شهوتُه، وترفَّه في الدُّنيا، حتّى بطرَ، أتى بالعجائبِ، وهذه الفعلةُ القبيحةُ من عجائبِ هؤلاءِ المخانيثِ.

توجيهُ نُكتةِ تقييدِ فعلِ الإتيانِ بلفظ: ﴿شَهۡوَةً﴾:

الإعرابُ فرعُ المعنى، والقيدُ غُصنُ المبنى

لفظُ ﴿شَهۡوَةً﴾ نكرةٌ منصوبٌ، وله ثلاثةُ أوجهٍ في الإعرابِ متفرِّعةٌ عنِ المعنى:

تقبيحُ توخّي قلبِ الحكمةِ والفطرةِ بإتيانِ الرّجالِ

أوّلًا: أن يكونَ مفعولًا لأجله لقولِه: ﴿إِنَّكُمۡ لَتَأۡتُونَ ٱلرِّجَالَ﴾، والمقصودُ من هذا المفعول تفظيعُ الفاحشةِ وفاعليها، بأنَّهم يشتهون ما هو حقيقٌ بأن يُكرهَ ويُستفظَعَ، والمعنى: تقبيحُ توخّي قلبِ الحكمةِ والفطرةِ، فإذا جعلَ الغرضَ الأصليَّ هو الشَّهْوَةَ كان أقبحَ من طلب مُجرَّدِ الشّهوة لكن إذا جُعِلَ وسيلةً إلى طلبِ الولدِ، وتكثيرِ النَّسلِ، وذريعةً إلى التّعفُّفِ، كان محموداً.

إتيانُ الرّجال أدنى من بهيميّةٍ محضة

ثانيًا: أن يكونَ حالًا؛ أي: هو مصدرٌ في مَوقِع الحال؛ للإيذانِ بأنَّ إتيانَهم الرّجالَ كان في حالِ شهوتِهم للفعلِ، والمقصودُ وصفُ حالِهم بالبهيميّةِ، فيكونُ الحالُ لِمجرَّد الذّمّ.

العاقلُ يجعلُ الشَّهوةَ وسيلةً للغايةِ في المحافظة على النّوعِ الإنسانيّ

ثالثًا: أنْ يكونَ مصدرًا مُؤكِّدًا؛ لتقريرِ الفعلِ القبيحِ عليهم، وناصبه ﴿لَتَأۡتُونَ﴾؛ لأنَّه بمعنى (لَتشتهون)، وفيه تنبيهٌ على أنَّ العاقلَ ينبغي أن يكونَ الدّاعي له إلى المباشرة طلبَ الولدِ وبقاءَ النّوعِ، وتمتيعَ النَّفسِ بالحلالِ، لا قضاءَ الوطرِ المُجرَّدِ عن أيِّ غايةٍ[1].

فائدةُ مجيءِ الحالِ: ﴿مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِۚ﴾:

ليسَ إتيانُ الرّجالِ معَ إتيان النّساء بأقلَّ فظاعةً من إتيانِ الرّجالِ وحدَهم

جاء الجارُّ والمجرور في قوله تعالى: ﴿مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِۚ﴾ في مَوضعِ الحالِ لقولِه ﴿ٱلرِّجَالَ﴾ على أحدِ الإعرابَين، أي: أتأتونهم مُنفردين عنِ النّساء[2]؛ لبيانِ الواقعِ، وليس قيدًا للإنكارِ، كما تقدّمَ على توجيه الحالِ في قوله: ﴿مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾؛ ليكونَ زيادةً في التَّفظيع، وقطعًا للعذر في فعل هذه الفاحشة، فليس إتيانُ الرِّجالِ مع إتيانِ النِّساء بأقلَّ منَ الآخر فظاعةً، ولكنَّ المرادَ أنَّ إتيانَ الرّجالِ كلَّه واقعٌ في حالةٍ من حقِّها إتيانُ النّساء، كما قال

(1) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/22، والطّيّبيّ، فتوح الغيب: 6/460، والسّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 5/372.

(2) والإعراب الثّاني أن يكونَ صفةً لشهوة، أي: شهوة كائنة من دون النّساءِ. السّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 5/372.

في سورةٍ أخرى: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم﴾ [الشعراء: 165 - 166].

نُكتةُ التّعبيرِ بالظّرفِ (دون):

مَن تجاوزَ الفطرةَ فقد سَفُلَ وانحطَّ إلى رُتبةِ الحيوان أو أقلَّ

أفادَ التّعبير بالظّرف ﴿دُونِ﴾ اختصاصَ إتيانِهم بالرّجال مع قربِ حصولِهم عليه، ولمّا كان الأصلُ في لفظ ﴿دُونِ﴾ أن يدلَّ على كَونِ الشَّيءِ مُنخفضًا في أسفل شيءٍ، كان في التّعبير به إشعارٌ بسفالةِ فعلِهم وخسَّتِه ودناءتِه، وبرفعةِ إتيانِ النِّساء فيما أحلَّ اللّهُ من زواجهنَّ.

سرُّ التَّعبير بالنِّساءِ دونَ الإناثِ:

النِّساءُ المكتملات نُضجًا هُنَّ المهيَّئاتُ للتَّواصُلِ الاجتماعيِّ

لمّا كانتِ الإناثُ تقابلُ الذّكورَ، ويقالان في الأصل اعتبارًا بالفرْجين، فيُطلَقُ اللّفظان على الصّغيرِ والكبيرِ، وكانتِ النّساءُ تقابلُ الرّجال، ويُطلَقُ اللّفظان على البالِغَينِ منَ النّوعين، فلا يُطلَقُ لفظُ النّساءِ على الصّغيرات قبلَ بلوغهنَّ[1]، فلمّا كانَ الأمرُ كذلك عُبِّرَ بـ ﴿ٱلنِّسَآءِ﴾ دون الإناث؛ للإيذان بأنّهم تركوا الزّواجَ منَ النّساء، وفعلوا ما يخالفُ الفطرةَ والإنسانيّةَ، وفيه إشعارٌ أنَّ العلاقةَ الّتي فطر اللّهُ النّاسَ عليها، وشرعَها على مرِّ العصورِ والأزمانِ، لا تكون إلّا بين رجلٍ وامرأةٍ على سبيلِ الزّواجِ.

دلالةُ حرفِ الإضرابِ في قوله: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾:

إخبارُ الشّواذِّ بحقيقةِ أمرِهم قوّةٌ في الخطابِ وضرورةٌ في الإقناعِ

الأداةُ ﴿بَلْ﴾ جاءَتْ في الآيةِ للإضرابِ الانتقاليِّ، ففي التّعبيرِ بها تنويعٌ في الكلامِ بالانتقالِ من غرضِ الإنكارِ المقتضي التّوبيخَ إلى غرضِ الإخبارِ عن حالِهم، الّتي أدَّت بهم إلى ارتكابِ القبائحِ، وتدعو إلى اتّباع الشّهوات؛ للإيذانِ بأنَّهم مُعتادونَ على الإسرافِ في كلِّ شيءٍ، فلا يبعدُ منهم الإقدامُ على هذا الإسرافِ، وفيه

(1) الرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (أنث - نسو).

ذمٌّ لجميعِ معايبِهم؛ ليكونَ ذمًّا على ذمٍّ، ويحتملُ أن تكونَ (بل) للإضرابِ عن أيِّ جوابٍ يمكن أن يعتذروا به على فعلِهم القبيحِ؛ ليفيدَ أمرين: أحدُهما تقريرُ الحكمِ عليهم بأنّهم قومٌ قد تجاوزوا الحدَّ وارتكبوا الحظرَ، والثّاني إلزامُهم الحجّةَ، والمعنى: لا عذرَ لكم ولا حجَّةَ في أيِّ جوابٍ، بل أنتم قومٌ مُسرفون[1].

فائدةُ ذكرِ الصّفةِ والموصوفِ في ﴿قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾:

قومُ لوطٍ مُسرفون على مستوى المجتمعِ والأفرادِ

أفادَ الخطابُ بالجملةِ الاسميّةِ: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ ثبوتَ إسرافِهم، ولمّا جاء ﴿مُّسْرِفُونَ﴾ صفةً للمسندِ ﴿قَوْمٌ﴾ كان أشدَّ مبالغةً في الذّمِّ من أن يقولَ: (بل أنتم مُسرفون) لدلالةِ الصّفةِ على الذّمِّ، ولما يُفيده وصفُ الخبرِ من تقييدِ القومِ بصفة الإسرافِ وملازمتِها لهم، بمعنى تعميمِ القومِ بهذا الوصفِ، فكأنَّه وصفَهم بصفة الإسرافِ مرّتين: مرَّةً بوصفِ القومِ على المجموعِ بالإسرافِ، وأخرى بما يلزمُه من اتّصافِ كلِّ فردٍ منَ القومِ بالإسراف.

نُكتةُ ذكرِ المسنَدِ إليه ﴿أَئِنَّكُمْ﴾:

الإسرافُ في الفاحشةِ سبقٌ لقومِ لوطٍ وإلحاقٌ لأتباعهم

لمّا كان المقامُ مقامَ خطابٍ ذكر المسندَ إليه ضميرَ جمعِ المخاطَبين ﴿أَئِنَّكُمْ﴾؛ لإثباتِ إدخالِ المخاطَبين في الوصفِ بالإسرافِ؛ ليكونَ أقوى تأثيرًا في نفوسِهم، وأدعى إلى اجتنابِ الفاحشة، وللإشعارِ باختصاصِهم بذلك الإسراف، فلم يأتِ أحدٌ قبلهم، أو في زمانِهم بمثل هذا الإسراف، وهي إشارةٌ قرآنيَّة إلى أنَّ لهم أسلافًا سيلحقونَهم، وإلّا لما ذُكر هذا الخبرُ في القرآنِ.

نُكتةُ التّعبيرِ بصيغة اسمِ الفاعل ﴿مُّسْرِفُونَ﴾:

الإسرافُ في الشّهواتِ عادةٌ إذا استحكمَتْ أهلكَتْ

جاءَ هنا بصفة القومِ اسمِ فاعلٍ؛ لبيانِ أنَّ عادتَهم الإسرافُ وتجاوزُ الحدود في كلِّ شيءٍ، ليشعرَ أنَّ فعلَهم كانَ عن داعيَةٍ ثابتةٍ

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/125، والفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/311، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/22، وأبو حيّان، البحر المحيط: 5/101، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/231.

لا عن علَّةٍ عارضةٍ، وهذا وجهُ إضرابِ الانتقالِ من إسناد إتيانِ الفاحشةِ إليهم بفعل المضارعِ المفيدِ للتّكريرِ والاستمرارِ إلى إسناد صفةِ الإسرافِ إليهم، فَمِنْ ثَمَّ أسرفوا في بابِ قضاءِ الشّهوةِ، حتّى تجاوزوا المعتادَ إلى غير المعتاد، كما أنَّ في التّعبير بصيغة اسمِ الفاعلِ موافقةَ رؤوسِ الآيِ، فكلُّها أسماءٌ.

سرُّ اختيارِ مُفردةِ الإسرافِ في وصفِ قومِ لوطٍ:

وسمّي قومُ لوط ﴿مُّسۡرِفُونَ﴾ من حيث إنّهم تعدَّوا في وضع البذرِ في الحرثِ المخصوص له المعنيّ بقوله: ﴿نِسَآؤُكُمۡ حَرۡثٞ لَّكُمۡ﴾ [البقرة: 223]، وتعدَّوا في اشتهائِهم ما ينفرُ منه الطّبعُ السّليمُ[1].

وضـعُ الـشَّيءِ في غيرِ مَوضعِه سَرَفٌ

نُكتةُ حذفِ مُتعلَّقِ اسمِ الفاعل ﴿مُّسۡرِفُونَ﴾:

حُذِفَ مُتعلَّقُ اسمِ الفاعلِ ﴿مُّسۡرِفُونَ﴾؛ ليفيدَ العمومَ، بمعنى: أنتم قومٌ مُسرفون في البهيميّة، وفي تركِ ما أحلَّ اللّهُ لكم منَ النّساء، وفي التّفحّش، وفي اشتهاء الرّجالِ، وفي الشّذوذ، وفي عدم استنكارِ الفاحشةِ، وفي سبقكم غيرَكم بها، وفي تجاوز المعتادِ إلى غيرِ المعتادِ، ويبقى معنى العموم مُتناوِلًا كلَّ حالةٍ توصَفُ بوصفِ الإسراف في هذه الفاحشةِ المقيتةِ؛ لأنَّ الإسرافَ لا يقفُ بصاحبِه عند حدٍّ.

مَن تجاوزَ حدَّه في الأفعالِ نالَ قطَّه منَ النّكال

أو أن يُعاملَ فعلُ الإسرافِ معاملةَ اللّازمِ، بحيثُ يُصبحُ الإسرافُ سلوكًا قائمًا فيهم، مُتمكِّنًا من جوارِحهم، كأنَّ الإسرافَ يُترجمونَه بأحوالِهم وصفاتِهم.

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/125، والرّاغب، المفردات: (شها)، والسّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 5/373، ومحمد رضا، تفسير المنار: 8/454.

﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ٨٢﴾ [الأعراف: 82]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

مِن شَأنِ المُنغَمِسينَ في الشَّهواتِ، إخراجُ مَن لا يُشارِكُهم فيها

لمّا كان كأنَّه قيل: هذا التَّقريعُ يوجبُ غايةَ الاستحياء، بل إنَّه يُذهِبُ كلَّ مَن سمعَه منهم إلى مكانٍ لا يعرفُ فيه ستراً لحاله، فما كان حالُهم عنده؟ فقيل: أجابوه بوقاحةٍ عظيمةٍ وفجورٍ زائدٍ على الحدِّ، فما كان جَوابَهُمْ إلّا أذى لوطٍ عليه السلام وآلِه بما استحقُّوا منهم بهِ شديدَ الإنذارِ الّذي هو مقصودُ السّورةِ، وأيضًا لَمّا أنكرَ عليهم الفاحشةَ وعظَّمَ أمرَها، وأُفحِموا عنِ المجادلةِ في شَأنِ فاحِشَتِهم، ولم يستطيعوا جوابًا بادروا بشيءٍ لا تعلُّقَ له بكلامِه، فتآمروا على إخراجِ لوطٍ عليه السلام وأهلِه مِنَ القَريةِ فقال: ﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أُنَاسٌ﴾: النّوس: تذبذبُ الشّيء، ناس ينوس نوسًا، وأصل النّاس: أناس، إلّا أنّ الألفَ حُذِفَت منَ الأناس، فصارت: ناسًا، وسمّي ذو نواس؛ لذؤابتين كانتا عليه تتحرّكان[2]، وفي القرآن الكريم: ﴿يَوْمَ نَدْعُواْ كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَٰمِهِمْۖ﴾ [الإسراء: 71]، وقال لبيد:

وكلُّ أناسٍ سوفَ تدخُلُ بينهُم *** دويْهيَةٌ تَصفَرُّ منها الأناملُ[3]

2) ﴿يَتَطَهَّرُونَ﴾: يدورُ المعنى المحوريّ للطُّهرِ على نقاءِ الشَّيء

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/101، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/234.

(2) الخليل بن أحمد، كتاب العين: (نسو).

(3) ديوان لبيد، ص: 256، والقلب والإبدال (الكنز اللّغويّ)، ص: 11، وشرح المفضّليّات، ص: 766، والأضداد، ص: 292، وأبو بكر الأنباريّ، الزّاهر في معاني كلمات النّاس: 2/301.

ممّا يُتَأذَّى به، أو انقطاعِ قذى الشَّيءِ. والطُّهر: نَقيضُ النَّجاسَةِ، ويُطلَقُ الطّهرُ على الطُّهرِ منَ القبائحِ المادِّيَّةِ والمعنويَّةِ، وَرَجُلٌ طاهرُ الثِّيابِ؛ أي: مُنَزَّهٌ عنِ العيوبِ والفسادِ، وتطهّرَ أبلغُ مِن طَهرَ؛ لأنّه يجمعُ الطّهارةَ كلَّها، والتَّطَهُّرُ: التّنزُّهُ عنِ الأدناسِ، والكَفُّ عَنِ الإثمِ وَما لا يُحمدُ، وكلُّ ما في القرآن منَ اللّفظِ ومشتقّاته، هو منَ الطَّهارة بمعنى النَّقاءِ منَ القبائحِ المادِّيَّةِ أو المعنويَّةِ[1]، ومعنى: ﴿يَتَطَهَّرُونَ﴾ في هذا السّياق: يتنزّهون عَن إتيان الذُّكران[2].

❁ المعنى الإجْماليُّ:

لَمَّا أُفحِمَ الفاسقونَ عنِ المجادلةِ، ابتَدَرُوا بالتّآمُرِ على إخراجِ المؤمنين

وما كانَ جوابَ قومِ لُوطٍ للوطٍ، حينَ أنكرَ عَلَيْهِمْ فعلَهُمُ القبيحَ، وركوبَهم ما حرَّمَ اللّهُ عليهم منَ العملِ الخبيثِ، إلّا أن قالَ بعضُهم لبعض: أخرجوا لوطًا وأهلَ دينِه من بلادِكم، إنَّ لوطًا ومَن تبعَه أناسٌ يتنزَّهونَ عمّا نفعله نحنُ، من إتيانِ الرِّجالِ في الأدبارِ[3]، "فكان إخراجُ لوطٍ ومَن معه منَ القرية، تنفيذًا لإرادة اللّه، لأنّه تعالى دمّر قومَ لوطٍ، وأهلكَهم بعد خروج لوطٍ والمؤمنين"[4].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالةُ الوصلِ بالواوِ في قوله: ﴿وَمَا كَانَ﴾:

قبيحُ الجوابِ وغريبُه، من قبيحِ الفعلِ ومريبه

لمّا كان قوله: ﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ﴾ معطوفًا على قولِه: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ﴾ دلّ على أنّ التّقديرَ: (وإذ ما كان جوابَ قومِه)[5]، فـ(إذ) بتقدير أن تكونَ في حيّز الجملة؛ إشعارًا بعظيمِ فحشِ قولِهم وقبحِه، وتعجيبًا من جوابِهم، كأنّ في الكلام حذفًا بلاغيًّا مبسوطًا

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن منظور، لسان العرب، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (طهر).
(2) ابن جرير، جامع البيان: 306/10.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 12/549.
(4) أسعد حومد، أيسر التّفاسير: 12/549.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/234.

يكشفُ عن تعجّبهم من وصف شهواتهم تلك الخبيثة بالفاحشة، بل هي إسرافٌ في الفاحشة، فلم يجدوا أيَّ جوابٍ سوى هذا الّذي سمّاه القرآن جوابًا، تهكّمًا بهم، وهو غايةُ العجزِ عنِ الحوار، فالعاجزُ عنِ الحوار يستخدمُ الفعلَ دليلًا على العجز.

دلالةُ إسناد الإخراج إلى ضميرِ الجمع في: ﴿أَخۡرِجُوهُم﴾:

الكرهُ والبغضُ إذا استبدّا بالنّفس، غيَّبا مَن كان سببًا فيهما

دلّ الظّاهرُ وسياقُ المقال على أنّهم إنّما سعَوا في إخراجِ مَن نهاهم عنِ العملِ الّذي يشتهونَه ويريدونه، وهو لوطٌ عليه السلام وأهلُه، فالعائدُ محذوفٌ عُلِمَ منَ السِّياقِ[1]، والتّعبيرُ بالضّمير هنا مُليحٌ ببغضهم الشّديد لذكر اسمِ مَن نهاهم وأهلِه، وكأنّه يكشفُ عن أمانيهم في أن يغربَ ناهوهم عن وجوههم، وأن يكونوا غيبًا، لأنّ النّهيَ كان مقرونًا بالتّشنيع والتّبشيع: ﴿أَتَأۡتُونَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٨٠ إِنَّكُمۡ لَتَأۡتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهۡوَةٗ مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِۚ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ مُّسۡرِفُونَ ٨١﴾ [الأعراف: 80 - 81]، وهو أخفُّ ممّا اقترن به النّهي في سورة النّمل: ﴿أَتَأۡتُونَ ٱلۡفَٰحِشَةَ وَأَنتُمۡ تُبۡصِرُونَ ٥٤ أَئِنَّكُمۡ لَتَأۡتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهۡوَةٗ مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِۚ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ تَجۡهَلُونَ ٥٥﴾ [النّمل: 54 - 55]، لذا جاء هناك بالاسم الظّاهر: ﴿أَخۡرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٖ مِّن قَرۡيَتِكُمۡۖ إِنَّهُمۡ أُنَاسٞ يَتَطَهَّرُونَ ٥٦﴾ [الآية: 56]؛ ليناسب كلٌّ سياقه الوارد فيه.

سرُّ تَسْمِيَةِ غير الجواب جوابًا:

العجزُ عنِ الجواب كشفٌ عن مباينة الإنصاف

لمّا أنكرَ لوطٌ عليه السلام على قومِه الفاحِشَةَ، وعَظَّمَ أمرَها، ونَسَبَهُم إلى الإسرافِ، لم يأتوا بما يكون جَوابًا عن كلامِ لوطٍ عليه السلام، ولكنَّهم قابلوا نصحَه بما لا تَعَلُّقَ له بكلامِه، وهو الأمرُ بإخراجه هو ومن معه منَ المؤمنين من قريتهم ﴿قَالُوٓاْ أَخۡرِجُوهُم مِّن قَرۡيَتِكُمۡۖ﴾، ولجّوا في الاستهزاء بهم؛ ضجَرًا بهم، وبما يسمعونَهم مِن وعظِهم ونصحِهم،

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/314، والنّيسابوريّ، غرائب القرآن: 3/280، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/235.

والمعنى: ما كانَ لَهُم جَوابٌ إلّا هذا القَوْلَ المُباينَ لِلإنصافِ، المُخالِفَ لِما طَلَبَهُ مِنهُم وأنكَرَهُ عليهم[1]، وفي التّعبير بما سُمِّي جوابًا تهكّمٌ بهم، وكشفٌ عن عجزهم، إذِ الجوابُ هو الكلامُ الّذي يُقابَلُ به كلامٌ آخرُ تقريرًا، أو ردًّا، أو جزاءً[2].

سرُّ التّعبيرِ بأسلوب القصرِ بـ (ما) و(إلّا):

مخالفةُ جـواب قـومِ لـوطٍ لكلِّ فطرةٍ سليمةٍ

أسلوبُ الحصرِ بطريقِ النّفي والاستثناء، ممّا يُسلَكُ معَ مُخاطَبٍ مُرتكبٍ للخطأ في اعتقادِه مع إصرارٍ عليه[3]، وفي انحصار جوابهم فيما لايعدّ جوابًا بأسلوب القصر، بيانٌ عن عجزهم، فليسَ المقصودُ بالحصرِ هنا أنّه لم يكنْ لهم جوابٌ سوى هذا الجواب، بل المقصودُ بالحصرِ أنّه لم يكن لهم أيُّ جوابٍ على إنكارِ لوطٍ عليهم، فحصرَ جوابَ قومِه في مقابل سؤالِ الإنكارِ للتّعجيب مِن أمرهم والتّوبيخِ على قولِهم، إذ جعلوا أمرَهم بإخراج لوطٍ وقومِه جوابًا للإنكارِ عليهم، وليس هذا هو القولُ الّذي ينبغي أن يكونَ جوابًا في الحجاج[4]، وكان مقتضى الجواب أن يقرّوا بأنّ إتيانَ الرّجال بعضهم بعضًا، فاحشة أو غير فاحشة، أو يمتثلون، لكنّ إثباتَ هذا الجواب دلّ على شدّة ضيقهم من مجرّد السّؤالِ عنِ الفعل، وعن كونه فاحشة.

مناسبةُ التّقديمِ والتّأخيرِ:

اعتيادُ قومِ لوطٍ عـلى الـفـسـوقِ واشتهارُهم به، خزيٌ وهوانٌ

قُدِّمَ خبرُ كانَ على اسمِها في قوله: ﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخۡرِجُوهُم مِّن قَرۡيَتِكُمۡۖ﴾؛ لنُكتةٍ بلاغيَّةٍ، وبيانُها أنّه لمّا كانَ الأصلُ في المبتدأ أن يكونَ أعرفَ في الاسميّة، دلَّ على أنَّ قولَهم الّذي قالوه، هو المعروفُ عنهم من أفعالِهم الّتي اشتهروا بها؛ لاعتيادِهم

(1) الكشّاف: 2/126، والبيضاوي: 3/22، وفتح القدير: 2/253.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/324.
(3) السّكاكي، مفتاح العلوم، ص: 294 - 295.
(4) رشيد رضا، تفسير المنار: 8/455.

على الفسوقِ والفجورِ ومنافرتِهم للطِّباعِ السَّليمةِ، فجاءَ ﴿جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ﴾ خبرًا؛ ليفيدَ فائدةً مُتجدِّدةً، بمعنى: أنَّ قولَهم جوابٌ وردٌّ على قولِ لوطٍ ﷺ، كما أنّ في تأخير المبتدأ إلماعًا إلى عدم الاعتداد به، وأنّ العنايةَ انصبَّت على أيِّ جوابٍ ولو صورة جواب.

نكتةُ إسناد الجواب إلى القوم كلّهم:

معاملةُ الموافقِ على المنكَرِ معاملةَ فاعلِهِ

عُبِّر بالقومِ على سبيل المجاز المُرسَل بعلاقة الكلّيّة في قوله: ﴿قَوْمُهُۥٓ﴾، وهو هنا ذكرَ القومَ كلَّهم، مع أنَّ الجوابَ كانَ منَ الملأِ المستكبرين فقط؛ للإيذانِ بنفاذِ كلامِهم في الأمرِ والنّهي[1]، ففي التّعبير بالكلّ عن الجزء إشعارٌ بأنَّ التّابعَ يُعامَلُ معاملةَ المتبوع، وفيه أيضًا نعيٌ على التّقليد.

دلالةُ الإضافة في قولِه: ﴿قَوْمِهِۦٓ﴾:

مقتضى الصّلةِ والقرابةِ النّفعُ والانتفاعُ

تُلمِعُ الإضافة إلى تحسيرهم وتنديمهم، إذ لم ينتفعوا بصلة القربى؛ لأنّ أخوفَ القومِ على القوم مَن كان منهم، لا من غيرهم، وأنّه أصدقُ نصحًا.

دلالةُ الإضافةِ في قوله: ﴿قَرْيَتِكُمْ﴾:

التّمسّكُ بالمعصيةِ يفضي إلى الظّلم البيّن

في هذه الإضافة إلماعٌ إلى المفاصلة، وإلى تخصيص الوطن بالمسّرفين في الفاحشة، وبلوغِ الضّيقِ بالنّاهين أعلى مبلغٍ، وفيها تحريضٌ بالغٌ وتسبيبٌ للإخراج أنّ ناهيهم عنِ الفاحشة ليسوا من بني وطنهم، كما أشعرتِ الإضافةُ المفيدةُ للتّخصيصِ بافتخارِ قومِ لوطٍ بقريتِهم بما فيها منَ القبائحِ زيادةً في تقبيحِ حالِهم.

سرُّ ختمِ الآية، بجملة: ﴿إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾:

الإخراجُ منَ الوطنِ أبلغُ جرمٍ، ولا بدّ له مِن علّة

وقعتِ الجملةُ ممّا قبلها موقعَ التّعليل، بمعنى بيانِ سببِ الأمرِ بإخراجِهم؛ أي: وتعليلُ ذلك هو أنَّهم أناسٌ يتطهَّرونَ، ويتنزَّهونَ

(1) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاويّ: 8/435.

عن مشاركتِهم في رجسِهم[1]، وفي هذه الجملة تحريضٌ للقوم على التّعاون في إخراج لوط وأهله.

بلاغةُ الكنايةِ في قولِه: ﴿إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾:

التّنزّهُ عن المشاركةِ في المعاصي، يدلُّ على عدم الموافقة على فعلِها

في الكلام معنى الكنايةِ، مع إرادةِ المعنى اللّازم والملزوم، وبيانُه أنّ لوطًا وأهلَه لمّا كانوا يتنزّهونَ عن مشاركتِهم في الفعلِ القبيح، لزمَ مِن تنزُّهِهم أنّهم لا يوافِقونهم على ما هم عليه، ومَن لا يوافِقُهم، وجَبَ أن يخرجوه، فلا سبيلَ إلى معاشرتِهم ولا مساكنتِهم معَ هذهِ المباينةِ[2]، وفي التّعبير أيضًا كنايةٌ عن سُخْريَةِ المنغمسينَ في رذيلة اللّواط من لوط عليه السلام، ومَن آمن به، والافتخارِ بما هم عليه منَ القذارة، كما هو ديدنُ الشُّطّار والدُّعّار، الّذين لا وازع لهم ولا خلق ولادين.

تنزيلُ غير الشّاكّ منزلةَ الشّاكّ:

إزالةُ أيّةِ شُبهةٍ تَرِدُ على التّعليل طَريقُ التّأكيد

في قوله تعالى ﴿إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾، المخاطبون بهذا الخطاب هم أهل الفاحشة من قوم لوطٍ، وهم لا يُقرّون بأنّ فعلَهم قبيحٌ، وأنّ لائمَهم عليه رأيه صحيح، فكان الظّاهرُ أن تَعْرَى العبارةُ منَ التّوكيد المُعَبَّر عنه بإنّ واسميّة الجملة، وهذا ممّا يكشفُ عن أنّهم توهّموا أنَّ مَن يكون معَهم، ينبغي أن يفعلَ مثلَ فعلِهم، فظنّوا لقبحِهم، وسوءِ سريرتِهم، أن لا يقعَ مِن أيِّ أحدٍ مخالفةٌ لما هم عليه، فجاءَ الخبرُ مؤكَّدًا، فكأنَّ تنزّه النّاسِ عن فعلَتِهم يبعدُ مثلُه في الظّنِّ، وأنَّه قد جرت عادةُ القومِ بخلافِ التّطهُّرِ، والتَّنزّهِ عنِ الفاحشةِ القبيحةِ الّتي اعتادوها.

نكتةُ التَّعبيرِ بلفظ ﴿أُنَاسٌ﴾:

قلّةُ طائفة المؤمنين لا يعني ضعفَ إيمانِهم

في قوله: ﴿إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ عُبِّرَ بلفظِ اسمِ الجمعِ ﴿أُنَاسٌ﴾ الّذي لا واحدَ له من لفظِه؛ للإشعار بأنّهم ضعفاء، لقلَّةِ عددِهم

(1) الجرجانّي، دلائل الإعجاز، ص: 316 - 323، وأبو حيّان، البحر المحيط: 5/102، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 7/456.

(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/102، ورشيد رضا، تفسير المنار: 8/455.

وعدّتِهم[1]، وغالبًا ما تكون الأغلبيّةُ الضّآلّةُ، تنظرُ إلى الأقليّة المصلحة نظرةَ ازدراءٍ وانتقاصٍ، ويسلقونهم بألسنةٍ حدادٍ، أشحّةٍ على الخير، ويرون طهرَهم مانعًا من شيوع الفاحشة الّتي يريدون أن تنتشر، حتّى تلبّي لهم ذلك السُّعار المحموم، الّذي يريدونه فاشيًا وعامًّا، فيشبعون نهمَهم لذلك الشّذوذ البشع، الّذي هو آفةُ هؤلاء القوم، وأُسُّ بلائهم ومصيبتهم العظمى، الّتي أصابتهم في الصّميم، والمصيبة إذا عمَّت هانَت.

نكتةُ التّعبير بلفظ ﴿يَتَطَهَّرُونَ﴾:

في التّعبير بلفظ ﴿يَتَطَهَّرُونَ﴾ فوائد لغويّة وبلاغيّة متنوّعة، منها[2]؛ أوّلًا: أنَّ ذلك الفعلَ القبيحَ تصرُّفٌ في موضع النَّجاسة، فمَن تركَه فقد تطهَّرَ. ثانيًا: أنّ البعدَ عنِ الإثم يسمَّى طهارةً، والمعنى: يتباعدون عنِ المعاصي والآثام. ثالثًا: وَصفُهُم بالتَّطَهُّرِ يُمكِنُ أن يَكونَ على حَقيقَتِه، وأنَّهُم أرادُوا أنَّ هَؤُلاءِ يَتَنَزَّهُونَ عَنِ الوُقوعِ في هذه الفاحِشَةِ، فلا يُساكِنُونا في قَريَتِنا، فإنَّ التَّطهُّرَ صفةُ كمالٍ، ولأنَّ القومَ تمرَّدوا على الفسوقِ عَدّوا الكمالَ منافرًا لطباعِهم، فلا يطيقونَ معاشرةَ أهلِ الكمالِ، ويَحتَمِلُ أنَّهُم قالُوا ذلك على طَريقِ التّهكُّمِ والسُّخريَةِ والاستِهزاءِ، بتطهُّرِهم منَ الفواحش، وافتخارًا بما كانوا فيه منَ القذارةِ، كما يقولُ بعضُ الفسقَةِ لبعضِ الصُّلحاءِ إذا وعظَهم: أبعدوا عنّا هذا المتقشِّفَ، وأريحونا مِن هذا المتزهِّدِ. رابعًا: إنَّ وصفهم بقوله: ﴿يَتَطَهَّرُونَ﴾، لمّا جاء على سبيلِ الذَّمِّ كانوا قد عابوهم بغير عيبٍ، وذمُّوهم بغير ذَمّ. خامسًا: في الوصفِ بالفعل ﴿يَتَطَهَّرُونَ﴾ تعريضٌ بما يُوهِمُ الذَّمَّ، وهو مَدحٌ، ففيه إشعارٌ بأنَّه إذا كانَ عندهم عيبٌ فهو تطهّرُهم، فإذا كان التّطهّرُ أقلَّ وصفٍ يتّصفون

تركُ القبائحِ تطهُّرٌ وكمالٌ للإنسانِ، والعيبُ بغيرِ عيبٍ بهتانٌ وهوانٌ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/456.

(2) ابن جرير، جامع البيان: 12/550، والزّمخشريّ، الكشّاف: 2/126، والفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/311، وفتح القدير: 2/253.

به، فأوصافُهم كلُّها محمودةٌ ممدوحةٌ[1]. سادسًا: لمّا كانَت صيغةُ (يتطهَّر) أبلغَ من (طهر)، دلَّ التّعبيرُ بصيغة ﴿يَتَطَهَّرُونَ﴾ على عموم التّطهّرِ؛ بمعنى: يتطهّرون من إتيان الأدبار، ويتطهّرون بإتيان النّساء في موضعِ الطّهر[2]، ويحتملُ أنّهم قصدوا بصيغة التّفعُّل معنى التّكلُّفِ؛ أي: نسبتهم إلى محبّة هذا الفعلِ القبيحِ، وأنَّ تركَهم له إنَّما هو تصنُّعٌ وتكليفٌ لنفوسهم، بردِّها عمّا هي مائلةٌ إليه، وأنَّ إقبالَهم على الطّهر وإظهارَه، إنّما هو رياءٌ، وذلك بما أشار إليه إظهار تاء التّفعيل[3]. سابعًا: ثمّ إنّ التّعبيرَ بالمضارع يدلّ على التّجدّد والحدوث.

المتشابه اللّفظيّ:

مجيءُ كلّ لفظٍ على ما يناسبُ سياقَه، في متشابه الآية

وجّه قوله في الأعراف: ﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ﴾ منسوقًا بالواو، وفي النّمل والعنكبوت: ﴿۞فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ﴾ بالفاء، مع أنّ القصّةَ واحدةٌ، فلا فرق بين الجوابين؟

والجواب: أنّه حيث يرادُ مع (ما) سببيّةً، أو ما يُشبهُ معنى المجازِ، وكان الكلامُ المجاوبُ بصريح الفعل، إذ هو أوضحُ إحرازًا لهذا المعنى، فحيث يجيءُ هذا، فالوجه والأولى أن يترتّبَ الجوابُ بالفاء، وسواءٌ تسبّبَ عنِ الأوّل، أو أُقيمَ مقامَ ما تسبّب عنِ الأوّل، مثالُ الجاري على طريقةِ السّببيّةِ قولُه تعالى: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ۝٦﴾ [الأعلى: 6]، وقوله: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ﴾ [الأعراف: 64]، وهذا كثير، ومثال الثّاني: ﴿وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَٰنًا كَبِيرًا ۝٦٠﴾ [الإسراء: 60]، وختام الآيتين في سورة النّمل، بقوله: ﴿وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ۝٥٤﴾ [النّمل: 54]، و﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ۝٥٥﴾ [النّمل: 55]، مُسوّغٌ لتقدير معنى السّببيّة، وأنسبُ لذلك منَ الواو، والختم في الأعراف، ليس في تقدير السّببيّة كالأوّل، فورد كلٌّ على مايقوّيه السّياق، ويشهدُ له المعنى[4]،

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/102.
(2) الماورديّ، تفسير النّكت والعيون: 2/237.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/456 - 457.
(4) الغرناطيّ، ملاك التّأويل: 1/554 - 553.

وقال هنا في سورة الأعراف: ﴿أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ﴾، وقال في سورة النّمل: ﴿۞فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ۝٥٦﴾ [النّمل: 56]، فقال: ﴿أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ﴾، وقال في سورة العنكبوت: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝٢٩﴾ [العنكبوت: 29]، فما هو سرُّ اختلاف العبارة في القصّة نفسِها؟

والجوابُ: أنَّه لمّا زيدَ في تعنيفِهم في النَّمل، وتعريفِهم بإتيانِهم الفاحشةَ على علم بها، أو معَ مشاهدةِ بعضِهم بعضًا وعدمِ استخفائِهم بها، وذلك أقبحُ في المرتكَبِ فقال: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ۝٥٤﴾ [النّمل: 54]، ونسبَهم إلى الجهلِ في كلِّ شيءٍ، فقال: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ۝٥٥﴾ [النّمل: 55]، فلمّا زيدَ في تعليلِ الإخراج نصَّ على الآلِ؛ فقال: ﴿۞فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ۝٥٦﴾ [النّمل: 56]؛ لأنَّ قولَه: ﴿ءَالَ لُوطٍ﴾أنصُّ في إخراجِ جميعِ مَن للوطٍ عليه السلام من ذويه وأهلِه، مِن قولِه: ﴿أَخْرِجُوهُم﴾؛ إذْ جاءَت زيادةُ التَّنصيصِ الأعمِّ، بإزاء الأزيدِ في التَّقريعِ، وأمّا في سورةِ العنكبوت فقد كان جوابُهم بقوله: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝٢٩﴾ [العنكبوت: 29]، وهو أشدُّ حنقًا وأنصُّ تكذيبًا، ممّا في سورتي الأعراف والنّمل؛ لأنَّه لمّا عدَّدَ من قبائحِ مرتكباتِهم في العنكبوتِ ماعدَّدَ، وزادَهم في التّقريعِ بقوله: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ﴾ [العنكبوت: 28]، كانَ تعدادُ مرتكباتِهم أشدَّ توبيخًا وتقريعًا عليهم، فلمّا استحكمَ حنقُهم، وطُبِعَ على قلوبِهم، أتَوه بأبلغَ من هذا تكذيبًا واستهزاءً، فقالوا: ﴿ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ﴾؛ إظهارًا لعنادِهم وتكذيبِهم، فاستعجلوا العذابَ، وأمّا في سورةِ الأعرافِ والنّملِ فقد جاءَ قولُهم: ﴿أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ﴾، و﴿أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ﴾؛ ليفهمَ مِن فحواه ما يستلزمُ إخراجَهم من مُجازاتِهم على ذلك، فجعلَ نطقَهم بالسَّبب نطقًا بالمسبَّبِ، فلمّا أوجزَ في سورةِ الأعرافِ والنّملِ أوجزَ في بيانِ العقوبةِ، وذكرَ ما يُفهم مِنَ الفحوى، ولمّا فصّل قبائحَهم في سورةِ العنكبوتِ، وظهرَت قبائحُ أسرارِهم الموافقةُ لظواهرِهم، طلبوا العذابَ صراحةً، فجاءَ كلُّ لفظٍ على ما يجبُ من سياقِه[1].

(1) الغرناطيّ، ملاك التّأويل: 1/208، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 7/457.

﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [الأعراف: 83]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

إنجاءُ المؤمنين الصّالحين أهمُّ من إهلاكِ الكافرين المارقين

لمّا تسبَّبَ عن عنادِهم إهلاكُ القوم، وإنجاءُ الرّسول، وكانَ الإعلامُ بإنجائِه - معَ كونِه يفهمُ من إهلاكِهم - أهمَّ، قال: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾[1]، وأيضًا لمّا همَّ قومُ لوطٍ بإخراجِه ونفيِه ومَن معَه مِن بينِ أظهرِهم، كان كأنَّه قيلَ: فما كان حالُ لوطٍ ومَن معَه؟ فذكرَ اللّهُ تعالى أنّه أنجاه وأهلَه سالمين، إلّا امرأتَه كانت منَ الغابرينَ، وبيّن نوعَ العذابِ ليتحقَّقَ الإهلاكُ[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ﴾: أصلُ النَّجاء: الانفصالُ منَ الشَّيء، ومنه: نَجا فلانٌ من فلانٍ، والنَّجاءُ: الخَلاصُ مِنَ الشَّيءِ بانفصالِه عنه من خطرٍ، فهو خلوصٌ بصعوبةٍ، وكلُّ ما في القرآن منَ التَّركيب، هو بمعنى الخلوصِ من خطرٍ محدقٍ أو عذابٍ أو غرقٍ أو كربٍ أو غيرِه، ممّا هو في معناه، ما عدا صيغتي (ناجَى)، (تَناجى)[3]، والنَّجوَةُ والنَّجاةُ: المكان المرتفع الّذي تظنّ أنَّه نَجاؤُكَ لا يعلوه السّيل. قال الشّاعر:

ألَم تَرَيا النُّعمانَ كانَ بنَجوَةٍ *** مِنَ الشَّرِّ لَو أنَّ امرَأً كانَ ناجيا[4]

و(نَجا) مِن كَذا يَنجو (نَجاءً) بالمَدِّ، و(نَجاةً) بالقَصرِ. والصِّدقُ (مَنجاةٌ). و(أنجَى) غَيرَهُ و(نَجّاهُ)، وقُرِئَ بهما قَولُهُ تعالى: ﴿فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ﴾ [يونس: 92][5].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/457 - 458.
(2) القاسميّ، محاسن التّأويل: 5/142.
(3) الرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (نجو).
(4) البيت من شعر زهير بن أبي سلمى. الجوهريّ، الصّحاح: (نجا).
(5) الجوهريّ، الصّحاح: (نجا).

2) ﴿ٱلۡغَٰبِرِينَ﴾: الغبارُ: ما يبقى منَ التُّرابِ المُثارِ، والغابرُ منَ اللَّيل: ما بقيَ منه، والغابرُ الباقي بعدَ مضيّ ما هو معه، وجاء في الكلامِ الغُبْرة - بالضّمّ: وهي اللّون الّذي يشبهُ الغُبار، ومعنى (الغابرين) الباقينَ في عَذابِ اللّهِ، أو الهالِكينَ؛ لأنَّ الباقي في عذاب اللّه يهلكُ[1]. فالغابرُ هو الباقي، ومِنه قَول اللّه جلّ وعزّ: ﴿إِلَّا عَجُوزًا فِي ٱلۡغَٰبِرِينَ﴾؛ يَعني: مِمَّن تخلّفَ فلم يمضِ مَعَ لوطٍ عليه السلام، قال عبيد اللّه بن عمر يَوم صفّين، وكانَ مَعَ مُعاويَة:

أنا عُبَيدُ اللّهِ يُنميني عُمَر *** خَيرُ قُرَيشٍ مَن مَضَى ومَن غَبَرْ[2]

المعنى الإجْماليُّ:

فأنجينا لوطًا وأهلَه المؤمنين به، حيثُ أمرناه بمغادرة ذلك البلد، إلّا امرأتَه، كانت منَ الهالكين الباقين في العذابِ مع قومِها[3]، "وكانت كافرةً مواليةً لأهل سَدومَ، فالْتَفَتَتْ، فأصابَها حجرٌ، فماتَت"[4].

تعجيلُ المسرَّة للسّامعين بإظهار إنجاء المؤمنين

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالةُ الفاء في قوله: ﴿فَأَنجَيۡنَٰهُ﴾:

التّعبيرُ بالفاء هنا جلالٌ كاشفٌ عنِ التّعجيل بعقوبتهم؛ لشناعة فعلهم، وفيه أيضًا شفاءُ صدورٍ للمؤمنين بالانتقام منَ الكافرين المعاندين، فإنّهم لمّا أمروا بإخراجِ لوطٍ عليه السلام كان إرسالُ العذابِ عليهم وإنجاءُ لوطٍ ومَن معه منَ المؤمنين، عقبَ قولِهم هذا ومسبَّبًا عنه.

شفاء صدور المؤمنين، بمعاجلة عقوبة الكافرين

بلاغةُ التّقديمِ في قوله: ﴿فَأَنجَيۡنَٰهُ﴾:

قوله تعالى: ﴿فَأَنجَيۡنَٰهُ﴾ هنا مقدَّمٌ من تأخيرٍ، والتَّقديرُ: فأمطرنا

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (غبر)، وابن جرير، جامع البيان: 12/553، والسّجستانيّ، ص: 350.
(2) أبو عُبيد القاسم بن سلاّم، غريب الحديث: (غبر).
(3) ابن جرير، جامع البيان: 12/551 - 553، ونخبة من أساتذة التّفسير، ص: 161.
(4) النّسفيّ، مدارك التّنزيل وحقائق التّأويل: 1/584.

أراد الكافرون الهلاكَ والذّلّةَ للمؤمنين، فجازاهم اللهُ بالخلاصِ والرّفعة

عليهم مطرًا، وأنجيناه وأهلَه، فقُدِّمَ الخبرُ بإنجاءِ لوطٍ عليه السلام على الخبرِ بإمطارِهم مطرَ العذابِ؛ لقصدِ إظهارِ الاهتمامِ بأمرِ إنجاءِ لوطٍ عليه السلام، ولتعجيلِ المسرَّةِ للسّامعين منَ المؤمنين، فتطمئنّ قلوبُهم لحسنِ عواقبِ أسلافِهم من مؤمني الأممِ الماضية، فيعلموا أنَّ تلك سنَّةُ اللهِ في عبادِه[1]، ويؤيّدُ هذا المعنى أنّه لمّا كان إخراجُ لوطٍ وأهلِه بمثابة الطّرد، وفيه ما ظاهره الذّلّةُ، جاءَ التّعبيرُ بالإنجاءِ؛ للإشعار بخلاصِه من قومِه، ومن خطرِ العذابِ الّذي نزل بهم، كما يشيرُ اللّفظُ بدلالةِ النّجاءِ على الأرضِ المرتفعةِ، إلى أنَّ الإنجاءَ فيه معنى الرّفعةِ والعزّةِ، فأرادَ قومُ لوطٍ الذّلّةَ لهُ ولأهله المؤمنين، فجازاهم اللّهُ بالخلاصِ والرّفعةِ على القومِ المجرمين.

مناسبةُ العطفِ على الضّمير في قوله: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ﴾:

نجاةُ الأهلِ تكريمٌ لقائدهم الرّمز لُوطٍ عليه السلام

عطف ﴿وَأَهْلَهُۥٓ﴾ على الضّمير العائد على لوطٍ عليه السلام، فلم يقُلْ: (فأنجيناهم)؛ لإفادةِ تخصيصِ لوطٍ عليه السلام بمزيدِ عنايةٍ ولطفٍ، وكأنّهما إنجاءان، إنجاءٌ للوط، وإنجاءٌ لأهله، عنايةً به، وتكريمًا لَهُ عليه السلام، وإكرامُ أهله إكرامٌ له، ويظهرُ هذا المعنى الجليل لو قيل: فأنجيناه والمؤمنين.

سرُّ الاستثناء: ﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ﴾:

شناعةُ الرّضى عنِ الفعلِ القبيحِ

لمّا قال: ﴿وَأَهْلَهُۥٓ﴾ دخلت امرأتُه في الأهل، فجاء الاستثناءُ لإخراجِها من حكمِ الإنجاءِ؛ لتأكيدِ هلاكِها وتقريرِه بما لايقبلُ التّأويلَ لدلالةِ الاستثناءِ على التّخصيصِ؛ للإشعارِ بشناعةِ الرِّضى عنِ الفعلِ القبيحِ وموالاة أهلِه.

بلاغةُ الاستئنافِ في: ﴿كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾:

الجملةُ استئنافٌ وقع جوابًا عن سؤالٍ نشأ عن استثنائها من حكم

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/236.

الإنجاء، كأنّه قيل: فماذا كان حالها؟ فقيل: كانت منَ الغابرين، فجاء الكلامُ بطريقِ الاستئناف؛ لإغناء السّائل أن يسألَ عن مثلِ هذا الأمر العظيم، ولتشويقِ المخاطبِ إلى معرفة مصير زوجةِ لوطٍ عليه السلام الّتي والَت قومَها[1].

لا شفاعةَ في النّجاة لأيّ علاقةٍ سوى الإيمان

دلالةُ التّعبيرِ بلفظ ﴿كَانَتْ﴾:

يحتملُ لفظُ ﴿كَانَتْ﴾ أن يكونَ بمعنى (صارت)، والمعنى: تغيَّر حالُها منَ الإيمانِ إلى الكفرِ، فإنَّ لوطًا لا يتزوّجُ كافرةً، والمعنى: انتقلَت وصارَت منَ الغابرين، بعدَ أن لم تكن منهم، أو أن يكونَ بمعنى: (كانَت في علمِ اللّه)، أو أن يكونَ الفعلُ باقيًا على ظاهرِه وأصلِه، من تقييدِ غُبُورِها بالزَّمانِ الماضِي[2].

انتقالُ زوجةِ لوطٍ إلى الكفرِ بعدَ أن كانَت مؤمنةً

دلالةُ (مِنَ) في ﴿مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾:

قد يُقال لو قيل: (إلّا امرأته كانت غابرةً) لكان أوجزَ وأوفى للمعنى، والجوابُ أنّه ليسَ كذلك، وبينهما فرقٌ، فإنَّ ﴿مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ أشدُّ من (كانت غابرةً)، وبيانُه أنّه لمّا كانت (أل) في قوله: ﴿ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ جنسيَّةً، دلَّت على أنّ مَن لم يُنجِّه اللّهُ تعالى مِن ذلك العذاب، هو واحدٌ منَ القومِ المعروفين بالغابرين، ومعدودٌ منهم، فيكونُ قد أثبتَ كونَها غابرةً بطريقةٍ تشبهُ الاستدلالَ؛ لثبوتِ البقاءِ مع الهالكين لها بطريقِ اللّازمِ، فما دامت مع الهالكين، فهي هالكةٌ.

قوّةُ القرابةِ مع الكفر، تؤذنُ بشدّة العذاب

بلاغةُ التّغليب في قوله: ﴿مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾:

لم يقُل: (منَ الغابرات)، مع أنّه وصفٌ لامرأة لوطٍ عليه السلام؛ لأنَّه أُريد أنَّها ممَّن بقيَ مع الرِّجالِ؛ لأنّها كانت كافرةً مواليةً لأهلِ سَدُوم، فلمّا ضُمَّ ذكرُها إلى ذكرِ الرِّجالِ جاءَ الكلامُ على تغليبِ

الرّضا بالفاحشة يشبهُ ارتكابَها

(1) ابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 9/207، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/246، والقونويّ، حاشية على تفسير البيضاويّ: 8/437.

(2) أبو حيّان: البحر المحيط: 5/102.

الذُّكورِ على الإناثِ، كما أفادَ التّغليبُ بيانَ استحقاقِها لِما يستحقُّه المباشِرون للفاحشةِ، فإنَّ مَن رضيَ بشيءٍ نُسِبَ إليه[1].

المتشابه اللّفظيّ:

متشابهُ نظمِ الآية بين الأعراف والنّمل

قوله: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾، وقوله: ﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَٰهَا مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ۝٥٧﴾ [النّمل: 57]، الجواب عن ذلك: "أنّ هذه القصّةَ في سورة النّمل نازلةٌ قبل القصّة الّتي في سورة الأعراف، وإذا بنينا على هذا، فإنّ قولَه: ﴿قَدَّرْنَٰهَا مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ۝٥٧﴾ [النّمل: 57]؛ أي: كتبنا عليها أن تكونَ منَ الباقين في القرية، الهالكين مع أهلها، فلمّا ذكرَ في الآية المنزلة أوّلًا أحالَ في الثّانية على الأولى في البيان، فقال: ﴿كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾؛ أي: في تقدير اللّه الّذي قدّره لها، وأخبر فيما قَبلُ عن حكمِه عليها"[2]، "ووجه اختصاص ﴿كَانَتْ﴾ بآية الأعراف ليناسبَ إيجازًا قوله: ﴿أَخْرِجُوهُم﴾، وقوله في النّمل: ﴿قَدَّرْنَٰهَا﴾ ليناسبَ ﴿أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ﴾ [النّمل: 56]"[3].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(امرأته) و(زوجه):

الاستقراءُ القرآنيُّ يدُلُّ على أنَّ لفظ (زوج) يشيرُ إلى التّوافق بين الزّوجين، وليس كذلك لفظ (امرأة)

جرى النّظمُ الكريمُ على استخدام لفظ (زوج)، حينما تكون امرأةُ الرّجل متوافقةً مع الرّجل توافقًا تامًّا عقديًّا ونفسيًّا ولها منه ذرّيّة، قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ۝٢١﴾ [الرّوم: 21]، وقوله: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً﴾ [النّحل: 72]، وقوله: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ﴾ [الأنبياء: 90]، ويستخدمُ لفظُ

(1) ابن جرير، جامع البيان: 12/551، والزّمخشريّ، الكشّاف: 2/126، وأبو حيّان، البحر المحيط: 5/102، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/246.

(2) الإسكافيّ، درّة التّنزيل: 2/603.

(3) الغرناطيّ، ملاك التّأويل: 1/551.

(المرأة) حينما يكون بينهما اختلافٌ من وجهٍ منَ الوجوه السّابقة، فامرأةُ عمرانَ ذكرَت بهذا الوصف بَعْدَ وفاة زوجها، قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّيٓ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝٣٥﴾ [آل عمران: 35]، والمذكورات في الآيات ذُكِرْنَ بوصف المرأة لا الزّوجة؛ للاختلاف في الاعتقاد، قال تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ۝١٠ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝١١﴾ [التّحريم: 10 - 11]، لذا استخدم القرآنُ الكريمُ في هذا السّياق الزّوجةَ بوصف المرأة، ولو وقع غير ذلك لما كان مناسبًا.

﴿وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهِم مَّطَرٗاۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ٨٤﴾

[الأعراف: 84]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

إمطارُ مطرِ العذابِ هلاكٌ يكشفُ عاقبةَ مجرمي قومِ لوطٍ المُهلَكين

لمّا أفهمَ قولُه تعالى في الآية السّابقة إهلاكَهم، بيَّنَه في هذه الآية دالًّا على نوعه بقوله: ﴿وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهِم مَّطَرٗاۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾[1]، حيث "أمطرنا عليهم حجارةً مخرّبةً، ومادتِ الأرضُ بالزّلازل من تحتهم، فانظر - يا أيّها النّبيّ - إلى عاقبة المجرمين، وكيف كانَت"[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿عَٰقِبَةُ﴾: العَقِبُ: مؤخّر الرّجل، وكلُّ شيء يعقب شيئًا فهو عقيبه، والعاقبةُ أصلُها كلُّ ما يأتي في عَقبِ الشّيء؛ أي: آخره؛ أي: هي ما يؤول إليه أمرُه، ثمّ هي تكون حسب حالِ الشّيءِ من خيرٍ أو شرٍّ، والعاقِبةُ تختصُّ بالثّواب إذا أُطلِقَت كقولِه تعالى: ﴿وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ ٨٣﴾ [القصص: 83]، وبالإضافة قد تُستعمَلُ في العقوبة، كقولِه تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ﴾ [الرّوم: 10]، والعُقُوبَةُ والمعاقبةُ والعِقابُ يختصُّ بالعذاب، وعاقبةُ المجرمين بمعنى آخرِ أمرِهم منَ الهلاكِ[3].

2) ﴿ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾: يدورُ الجَرْمُ على معنى القطعِ والصَّرم، ومنه جَرَمْتُ الثّمرةَ عنِ الشَّجر قطعتُها، وجَرَمَ بمعنى كسب؛ لأنّ الّذي يحوزه كأنّه اقتطعه. وأجرَمَ: صار ذا جُرم، والجرم والجريمة: الذَّنب، بمعنى: اقتطعَ الذّنبَ، واكتسبَه على معنى الرّغبةِ في تحصيلِه

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/457 - 458.
(2) لجنة من علماء الأزهر، المنتخب في تفسير القرآن الكريم، ص: 218.
(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (عقب).

كما يشعرُ به معنى الاقتطاع، واستُعير الجرمُ لكلّ اكتسابٍ مكروهٍ، فالمُجْرِم: مَن حمل جُرمًا كالآثم والوازر. وكلُّ مُجرِمٍ في القُرآن فالمُرادُ بِهِ الكافِرُ الّذي اقتطعَ إثمًا، واكتسبَه زيادةً على كفرِه[1].

❁ المعنى الإجْماليُّ:

التّذكير بهلاك قوم لوطٍ، وما تؤول إليه عاقبةُ المجرمين عمومًا

وأمطرنا على قومِ لوطٍ الّذين كذَّبوا لوطًا، ولم يؤمنوا به، مطرًا من حجارةٍ من سجّيلٍ أهلكناهم به، فانظرْ نظرَ اعتبارٍ إلى عاقبةِ هؤلاء الّذينَ كذَّبوا اللّه ورسولَه، واجترؤوا على معاصيه، فما كانت عاقبتُهم إلّا البَوارَ والهلاكَ[2].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ الاستعارة في لفظ الإمطار في قوله: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا﴾:

تتابعُ الاستعاراتِ لتقويةِ المعنى والمبالغة فيه

لمّا كانَ المَطرُ هو الماء المنسكب مِنَ السَّحابِ، وكان إمطارُ الحجارةِ مِنَ السَّماءِ مِنَ المجازِ[3]، دلَّ على أنّ الجملةَ فيها استعارتان: إحداهما في الفعل ﴿وَأَمْطَرْنَا﴾ الّذي يُستعمَلُ في موضعِ العذاب؛ أي: أرسلنا مِنَ السّماء ما هو كالمطر؛ ليكون استعارةً تصريحيَّةً تبعيَّةً، والثّانية في لفظ ﴿مَّطَرًا﴾[4]؛ لتشبيه الحجارةِ النّازلةِ مِنَ السَّماء بالماءِ النّازل منها بجامعِ انكبابِه مِنَ الأعلى، واستيعابِه لَمن ينزلُ عليهم، وتمكّنِه منهم، وانتفاءِ توقُّع موضعِ نزولِه، وكونِه مِنَ اللّه تعالى، ليس للبشرِ فيه أيُّ أثرٍ؛ ليكونَ الكلامُ على طريقِ الاستعارةِ أشدَّ رعبًا وترهيبًا، لما فيه مِنَ التّصوير، فقد استعار النّظمُ الكريمُ (أمطرنا) لـ(أرسلنا)، واستعار (مطرًا) لـ (حجارة)، وقد تعاونتِ الاستعارتان في الكشف عنِ الكثرة والتّتابع، مع القهر والاستعلاء.

---

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (جرم)، والكفويّ، الكلّيّات: (الميم).

(2) ابن جرير، جامع البيان: 12/551 - 553، ونخبة من أساتذة التّفسير، ص: 161.

(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، والزّمخشريّ، أساس البلاغة، وابن منظور، لسان العرب: (مطر).

(4) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاويّ: 8/438.

دلالةُ حرف الاستعلاء في جملة: ﴿عَلَيۡهِم مَّطَرٗاۖ﴾:

العلوُّ والقهرُ والاستعلاءُ معانٍ تُوحي بالإمعان في التّعذيب

التّعبيرُ بحرف الجرّ (على) يدلُّ على القهر والاستعلاء، إمعانًا في تعذيبهم، وتشديدًا في إهلاكهم، وجاء في آيات أخرى تفسيرًا لهذا المطر: ﴿وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهَا حِجَارَةٗ مِّن سِجِّيلٖ مَّنضُودٖ ٨٢ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَۖ وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٖ ٨٣﴾ [هود: 82 - 83]، وفي الآيتين استُعمِلَ الحرف (على)؛ وذلك لبشاعة الفعل، ويكفي أنّ رسولَ اللّه ﷺ قال في عقوبته: «مَن وجدتموه يعملُ عملَ قومِ لوطٍ فاقتلوا الفاعلَ والمفعولَ به»[1].

دلالةُ التّنكيرِ في لفظِ: ﴿مَّطَرٗاۖ﴾:

نزولُ الحجارةِ من السّماء عذابٌ لم يعرِفْه البشرُ من قبلُ

جاء لفظ ﴿مَّطَرٗاۖ﴾ منكَّرًا؛ لتعظيم نوعِ المطرِ النّازلِ عليهم، ولِلتَّعجيب منه، فهو نوعٌ غريبٌ لا يتعارفُه أحدٌ، وهو الحجارة، والمعنى: أمطرنا عليهم مطرًا عجيبًا من شأنِه أن يُهلِكَ القُرى[2].

الخطابُ على خلافِ مقتضى الظّاهر في قوله: ﴿فَٱنظُرۡ﴾:

ظهورُ عاقبةِ المجرمين لكلِّ مَن له نظرٌ للتّحذيرِ من أفعالِهم

جاءتِ الفاءُ هنا دالّةً على طيّ الزّمنِ بين مجيءِ العقوبة وأثرها، إلماعًا إلى شدّةِ العقوبةِ الّتي جسّدتها الاستعارةُ في الجملة الماضية، وأصلُ الخطابِ بـ ﴿فَٱنظُرۡ﴾ أن يكونَ لمعيَّن، فالخطابُ ظاهرُه للنّبيّ ﷺ، ولكنَّه قُصِدَ به كلُّ سامعٍ قصَّتَهم؛ للنّظر كيفَ كانَ مآلُ مَن أجرَمَ، والنّكتةُ من مجيءِ الخطابِ على خلافِ مقتضى الظّاهرِ تفظيعُ حالِ عاقبةِ المجرمين، وأنّه قد بلغَ من ظهورِ عاقبتِهم إلى حيثُ يمتنعُ خفاؤُها الْبَتَّةَ، فلا تختصُّ رؤيةُ راءٍ دونَ راءٍ، بل كلُّ مَن يتأتَّى منه النَّظرُ والتَّأمُّلُ، فلهُ مدخلٌ في هذا الخطابِ، تعجيبًا من حالِهم، وتحذيرًا من أفعالِهم، وازدجارًا أن تَسلُكَ هذهِ الأُمَّةُ هذا

(1) رواه أبو داود، السنن، برقم: (4462)، والتّرمذيّ، السنن، برقم: (1456)، وابن ماجه، السنن، برقم: (2561)، والحاكم في المستدرك، برقم: (8047)، وصحّحه، ووافقه الذهبي.
(2) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاويّ: 8/438، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/237.

المسلَكَ[1]، وقد خرجَ الأمرُ عن معناه الحقيقيّ إلى معنى مجازيّ، وهو التّعجيب من حالهم.

نوعُ الاستفهامِ في قوله: ﴿فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾:

اختيارُ لفظ (كيف) يُفيدُ عموم الأحوالِ ويُشيرُ إلى تهويل العذابِ والتّعجيبِ منه

لمّا علَّقَ الأمرَ بالنّظر على اسم الاستفهام ﴿كَيۡفَ﴾، دلَّ على أنَّ المرادَ الأمرُ بالاعتبار بمجموعِ الحالةِ الّتي صاروا عليها، فاقتضى الأمرُ بالنّظر إلى حالةِ العاقبة النّظرَ إلى مجموعِ صورةِ الحالِ الّتي حصلَت لقومِ لوطٍ من أوّل القصَّة، والّتي كانت سببًا في هذه العاقبة؛ لانتظام الأحوالِ كلِّها بالاستفهام بـ(كيفَ)؛ لِما يدلُّ عليه (كيف) منَ السّؤالِ عن عمومِ الأحوالِ؛ فاقتضى المقامُ تركَ التّفصيلِ إلى الإجمال مع الاحتراز عنِ التّطويلِ في ذكرِ أحوالِهم؛ لأنّه غيرُ وافٍ بحصرِها كما أنّه يورثُ الملَلَ، ولمّا كان جوابُ كيف بالصِّفات[2]، دلَّ على أنَّ المرادَ فانظر إلى جميعِ أوصافِهم الّتي صاروا عليها بعدَ إنزالِ الحجرِ عليهم؛ تعظيمًا لشدّةِ العذابِ وتهويلًا له، وتعجيبًا من حالِ المجرمين؛ ليكونَ تذكيرًا للمُخاطَبين بالقرآن، فاجتمع في ﴿كَيۡفَ﴾ معنى العمومِ وتعظيمِ شدّة العذاب وتهويلِه، والتّعجيب من حالِهم.

توجيهُ المتشابه بين الأعراف والنّمل:

السَّبقُ بالفاحشةِ جريمةٌ وإثمٌ كبيرٌ، وعقابُه عظيمٌ خطيرٌ

جاء في سورة الأعراف تعقيبُ قوله تعالى: ﴿وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهِم مَّطَرٗاۖ﴾، بقوله: ﴿فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾، وجاء في سورة النَّمل تعقيبُ قولِه: ﴿وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهِم مَّطَرٗاۖ﴾، بقوله: ﴿فَسَآءَ مَطَرُ ٱلۡمُنذَرِينَ﴾، ووجهُ المناسبةِ في كلِّ موضعٍ، هو أنَّه لمّا تقدَّم في الأعراف قولُه: ﴿مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، "أفادَ أنَّهم جمعوا إلى قبيح الفحش الاجترامَ من حيث لم يفعل تلك الفعلةَ

(1) السّكاكّي، مفتاح العلوم، ص: 180، وأبو حيّان، البحر المحيط: 5/103، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/246.

(2) السّكاكّي، مفتاح العلوم، ص: 313، والبهاء السّبكّي، عروس الأفراح: 1/449.

الشّنعاءَ مَن تقدّمهم، فأفاد السّبقُ بالفاحشة الوصفَ بالاجترام، فناسبَ تعقيبه بقوله: ﴿فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾، ولمّا تقدّم في النّمل قوله: ﴿أَتَأۡتُونَ ٱلۡفَٰحِشَةَ وَأَنتُمۡ تُبۡصِرُونَ﴾، حصل منه تعنيفٌ وإنذارٌ وشناعةُ معاينةِ بعضِهم بعضًا في ارتكابها، فناسب إنذارهم بهذا، ما أعقب به من قوله: ﴿فَسَآءَ مَطَرُ ٱلۡمُنذَرِينَ﴾، ولو أعقبَت آيةُ الأعراف بهذا أو آيةُ النّمل بما أعقبَت به آيةُ الأعراف لم يكن متناسبًا، فجاء كلٌّ على ما يجب[1].

(1) الغرناطيّ، ملاك التّأويل: 1/552.

﴿وَإِلَىٰ مَدۡيَنَ أَخَاهُمۡ شُعَيۡبٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ قَدۡ جَآءَتۡكُم بَيِّنَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡۖ فَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ وَٱلۡمِيزَانَ وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ وَلَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَاۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ٨٥﴾ [الأعراف: 85]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

ورود قصّةِ شعيب بعدَ قصّةِ لوطٍ توخّيًا للعِبرة والاتّعاظ

لَمّا انقضَت قصّةُ لوطٍ عليه السلام، أعقبها سبحانه بذكر قصّة شعيبٍ، الّتي هي أقربُ القصَصِ الشَّهيرةِ إليها في الزَّمَن؛ وذلك لتجسيد معالمِ الصّراعِ بين الأنبياء وأقوامهم، وأخذِ العِبرة من هلاك الأقوام، بعد تكذيبهم للهدى، ومعارضتهم للنّبيّ المُرسَل إليهم، وهو ما كان هلاكًا في الدّنيا، وعذابًا في الآخرة.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿بَيِّنَةٞ﴾: في الآية بمعنى علامة وحجّة منَ اللّه على صدقِ دعوته، أو بمعنى معجزة لم ينصَّ عليها في القرآن[1]، والبَيِّنَةُ: دَلالَةٌ واضِحَةٌ عَقليَّةٌ كانَت أو مَحسوسَةٌ، وسُمّيَت شَهادَةُ الشّاهِدَين بَيِّنَة؛ لقَولِه عليه السلام: «البَيِّنَةُ على المُدَّعي واليمينُ على مَن أنكَر»[2]؛ والجَمعُ (بَيِّناتٌ)[3].

2) ﴿فَأَوۡفُواْ﴾: يدورُ معنى وَفَى على إكمالٍ وإتمام، ومنه الوفاءُ: إتمامُ العهدِ وإكمالُ الشّرطِ، والوافي: الّذي بلغَ التّمام. يُقال: درهم وافٍ، وكيل وافٍ. وتَوفِيَةُ الشّيءِ: بذله تامًّا كاملًا، ووَفَى بعهده يَفِي وَفاءً، وأوفى: إذا تمّم العهدَ، ولم ينقض حفظه[4].

(1) ابن جرير، جامع البيان: 12/555، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/426.
(2) رواه الترمذي، السنن، برقم: (1341)، والدارقطني، السنن، برقم: (4381)، عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده.
(3) الزَّبيديّ، تاج العروس: 34/310.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (وفى).

3) ﴿ٱلۡكَيۡلَ﴾: الكَيلُ ما كيلَ به الطّعام ونحوه، فَيُقالُ كِلتُ لَهُ الطَّعامَ، وتَوَفِيَةُ الكيل تحرّي العدل في كلِّ ما وقع فيه أخذ ودفع[1]، ويُقال: "كال البرّ يَكيلُ كَيْلًا.

والبرُّ مكيل، ويجوز في القياس: مَكيول، ولغة بني أسد: مَكول، وهي لغةٌ رديئةٌ، ولغة أردأ: مُكال. والمِكيالُ: ما يُكالُ به. واكتَلتُ من فلان، واكتَلتُ عليه. وكِلتُه طعامًا"[2].

4) ﴿وَٱلۡمِيزَانَ﴾: وزنُ الشّيء قَدْرُهُ، والميزان: هو الآلةُ الّتي يُوزَنُ بها الأشياء، وهو معروفٌ بين النّاس[3]، ومعنى: ﴿فَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ وَٱلۡمِيزَانَ﴾، أتمُّوا للنّاس حقوقَهم بالكيل الّذي تكيلون به، وبالوزن الّذي تزنون به[4].

5) ﴿وَلَا تَبۡخَسُواْ﴾: تدورُ مادّة بخس على معنى النّقص، والبخسُ نقصُ الشّيءِ على سبيل الظّلم، يُقال: بخسه حقّه إذا نَقصه، وبَخسُ الكيل والميزان: نقصُه. وثَمَنٌ بَخسٌ: دون ما يجب، فالبخس فيه معنى الظّلم لنقصِ حقِّ صاحبِه[5]، ومعنى: ﴿وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ﴾؛ ولا تنقصوا النّاسَ حقوقَهم فتظلموهم[6].

❁ المعنى الإجْماليُّ:

بيانُ إرسال شعيب إلى مدين، ودعوتهم للتّوحيد والقسط في الميزان

وأرسلنا إلى قبيلةِ مَدْينَ أخاهم في النَّسَبِ شُعَيبًا، فقال لهم: اعبُدوا اللّهَ وحدَه؛ ليس لكم معبودٌ يستحِقُّ العبادةَ غيرُه، قد أتَتكُم حُجَّةٌ واضحةٌ مِن رَبِّكم، بحقيقةِ ما أقول، وصدق ما أدعوكم إليه، فأتمّوا للنّاس حقوقَهم بالكيل الّذي تكيلون به، وبالوزن الّذي تزنون

(1) الرّاغب، المفردات، والفيّوميّ، المصباح المنير: (كيل).
(2) الخليل، العين: (كيل).
(3) الرّاغب، المفردات، والفيّوميّ، المصباح المنير: (وزن).
(4) ابن جرير، جامع البيان: 12/555.
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (بخس).
(6) ابن جرير، جامع البيان: 12/555، والسّجستانّي، غريب القرآن، ص: 123.

به، ولا تنقُصوا النّاسَ حُقوقَهم، ولا تُفسِدوا في الأرضِ بعد أن أصلحَ اللّهُ الأرضَ ببعثِ الرّسلِ، والأمرِ بالعدلِ، هذا الّذي أُمِرتُم به مِن إخلاصِ العِبادةِ للّه، وإيفاءِ حُقوقِ النّاسِ، وتَركِ الفَسادِ في الأرضِ؛ خَيرٌ لكم إن كنتم مُؤمنينَ باللّه ومُصدِّقين بما أقول[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالةُ الوصلِ بالواو في: ﴿وَإِلَىٰ مَدۡيَنَ أَخَاهُمۡ﴾:

التّوحيدُ وفعلُ الخيراتِ وتركُ المنكَراتِ أساسُ دعوات الأنبياء جميعًا

الواو عطفتِ القصّةَ على القصّة، والتّقدير: وأرسلنا إلى مَدينَ أخاهم شعيبًا، والمناسبةُ بين هذه القصّة والّتي قبلها دعوةُ شعيبٍ قومَه إلى توحيد اللّه، وإلى فعلِ الخيراتِ، وتركِ المنكراتِ، وفي عطف القصّة على القصّة دعوةٌ للنّظر الجامع لمواضع الاعتبار، فكلما كانت مواضعُ الاعتبار أكثرَ كان النّفعُ بها في الانزجار أغزر.

بلاغةُ حذفِ الفعلِ: (أرسلنا):

تشابهُ دعواتِ الرّسل عليهم السلام، في المضمون والغايات

في قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدۡيَنَ أَخَاهُمۡ شُعَيۡبٗاۚ﴾، حُذِفَ الفعلُ (أرسلنا) بقرينة ما تقدّم؛ للإشعار بتشابه دعواتِ الرُّسلِ، فإنَّ المرسِلَ واحدٌ، والحكمةَ منَ الإرسالِ واحدةٌ، ودعوةَ المرسلين واحدةٌ، قال تعالى: ﴿۞شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحٗا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ﴾ [الشّورى: 13].

دلالة تقديم الجارّ والمجرور على المفعول:

إرسالُ الرّسلِ عنايةٌ منَ الله تعالى بالنّاس، وتحقيقٌ لمصلحتهم

في قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدۡيَنَ أَخَاهُمۡ شُعَيۡبٗاۚ﴾، قدّمَ قوله: ﴿وَإِلَىٰ مَدۡيَنَ﴾ على ﴿أَخَاهُمۡ شُعَيۡبٗاۚ﴾ لفوائدَ لغويّة وبلاغيّة، منها؛ أوّلًا: الاهتمامُ بالقومِ الّذين أُرسِلَ إليهم شعيبٌ عليه السلام؛ إيذانًا بمنَّة اللّه تعالى عليهم. ثانيًا: تخصيصُ إرسالِ شعيبٍ إليهم دونَ غيرهم. ثالثًا: الإيجازُ في تأليف الكلامِ، فَوَفَّى الضّميرُ الإيجازَ، لمّا أُريدَ

(1) ابن جرير، جامع البيان: 12/554، والبغويّ، معالم التّنزيل: 2/214.

وصفُ شعيبٍ، بأنَّه من إخوة مدين ومن صميمهم، من غير احتياجٍ إلى إعادة لفظِ مدين، ولو لم يتقدّم الجارّ والمجرور لضعُفَ تأليف الكلام، وتكرَّر لفظ مدين، بأن يُقال: (وأرسلنا شعيبًا أخا مدين إلى مدين)، وهو منَ الرّكاكةِ بمكانٍ. رابعًا: أن لا يلزمَ الإضمارُ قبلَ الذِّكر، أو عودِ الضّميرِ على متأخّرٍ لفظًا ورتبةً[1].

نكتةُ التّعبير بلفظ الأُخوّة:

قرابةُ النّسب أدعى لصدق النّصح، وابتغاء النّفع والنّجاة للمنصوح

يُشعِرُ لفظ ﴿أَخَاهُمْ﴾ في قوله سبحانه: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ بمصاحبة شعيبٍ لقومِه، وملازمتِه لهم، وقربِه منهم، وهو من جلدتهم، وما يهمّه يهمّهم، والمفترض أن يكونوا أفهمَ لكلامه، وأعرفَ بحاله في صدقه وأمانتِه، وأقربَ إلى اتّباعه.

سرُّ التّعبير بالتّابع في قوله: ﴿أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾:

تمامُ الإيضاحِ والبيانِ بالجمعِ بين البدلِ والمبدَلِ منه

لمّا كانَ ﴿شُعَيْبًا﴾ بدلًا أو عطفَ بيانٍ لقوله: ﴿أَخَاهُمْ﴾، وكان الاسمُ العلمُ أشهرَ منَ الوصفِ بـ ﴿أَخَاهُمْ﴾، دلَّ على أنَّه ذكر ﴿شُعَيْبًا﴾ للاعتناء بشأنِه؛ إذ ظهرَ بمجموعِ البدلِ والمبدلِ منه، أو بمجموعِ المعطوفِ والمعطوفِ عليه تمامُ البيانِ، والإيضاحُ في المرادِ منَ المرسَلِ، ومزيدُ اعتناءٍ بشأنِه.

مناسبةُ تقديمِ ﴿أَخَاهُمْ﴾ على ﴿شُعَيْبًا﴾:

أهمّيّةُ التّودّدِ والاستعطافِ في الدّعوةِ إلى الله، وفي النّصحِ والإرشادِ

لم يقُل: (وإلى مدين شعيبًا أخاهم)، وإنّما قُدِّمَ الوصفُ بالأخوّة على الاسم العلَم؛ للإشعارِ بأهمّيّة التّودُّدِ والاستعطافِ في الدّعوةِ إلى اللّه، وفي النّصحِ والإرشادِ.

بلاغةُ الاستئنافِ البيانيِّ في جملة: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ﴾:

جاء الاستئنافُ مبنيًّا على سؤالٍ نشأ عن حكاية إرسالِه إليهم، بعدَ ذكرِ قصّة لوطٍ وما حصلَ معهم، فصار السّامعُ مُترقِّبًا معرفةَ

(1) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاويّ: 8/427.

ما حصلَ مع شعيبٍ وقومِه، فكان ذلك مثارَ سؤالٍ في نفس السّامع، أن يقولَ: فإلامَ دعا شعيبٌ قومه، بعدَ أن أرسلَ إليهم، وبمَ أجابوه، فجاء قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓۖ﴾؛ لتشويقِ المخاطبين واستدرارِ إصغاءِ مسامعِهم، ولإغنائِهم عنِ السّؤال، ولتكثيرِ المعنى بتقليلِ اللّفظ[1].

الإطنابُ في المعنى، والإيجازُ في اللّفظ، من حسن بيان التّركيب

دلالةُ النّداءِ في قولِه: ﴿يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾:

لمّا كان النّداءُ على معنى طلبِ إقبالِ المنادى أفادَ النّداءُ تصويرَ حالةِ الاستعطاف؛ لتقريبِ شعيبٍ قومَه منه، وللإشعارِ بأنَّ شعيبًا عليه السلام دعا قومَه، وهم قريبون منه، سامعون لكلامِه، مُصغُون لدعوتِه.

النّداءُ بالقوميّة فيه استعطافُ النّاس والاقترابُ منهم وتحبيبُ الدّعوة إلى قلوبهم

بلاغةُ الاستئنافِ البيانيّ:

وردَ الاستئنافُ البيانيُّ في قوله تعالى: ﴿مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓۖ﴾، على معنى البيانِ والتّعليلِ، وبيانُه أنَّه جاء استئنافًا جاريًا مجرى البيان؛ لعبادةِ اللّه المأمور بها، وفيه معنى التّعليلِ للعبادةِ المذكورة؛ أي: فهو تعالى يستحقُّ العبادة؛ لأنَّه ليس لكم من إلهٍ غيرُه، وفيه معنى التّعليلِ للأمر بها كذلك، كأنّه قيل: أمرتُكم بعبادة اللّه وحدَه؛ إذ ليس لكم إلهٌ سواه[2].

استحقاقُ اللّه - وحدَه - العبادةَ، لأنَّه لا إلهَ للخلق غيره

بعضُ بلاغات جملة: ﴿مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓۖ﴾:

في قوله تعالى: ﴿مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓۖ﴾ تقريرُ معنى توحيدِ اللّه تعالى المناسبِ لمقامِ بيان الأمرِ بعبادة اللّه في أوفى نظم، وبيانُه ما يأتي:

بيانُ الأمرِ بعبادة اللّه في أوفى نظمٍ وأبلغِه

أوّلًا: تضمّن التّركيبُ النّفيَ والإثباتَ المقتضي لنفي الألوهيّة عن غيرِه تعالى وإثباتها له سبحانه عن طريق (ما) و(غَيْرُ).

ثانيًا: تقديم المسند (لَكُمْ) على المسند إليه (مِنْ إلهٍ)؛ لإفادة

(1) السّكاكي، مفتاح العلوم، ص: 252، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/246.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/237، والقونويّ، حاشية على تفسير البيضاويّ: 8/418.

الحصرِ والتّأكيدِ، ولمّا كان المقامُ مقامَ خطابٍ، حَسُنَ التّعبيرُ بشبه الفعليّة (لَكُمْ) ليكونَ أكثرَ تأثيرًا، مع أنَّ المعنى ما لكم، ولا لغيركم من إلهٍ غيرُه.

ثالثًا: مجيءُ النّكرة في سياق النّفي يفيدُ العمومَ؛ أي: ما لكم أيُّ إلهٍ غير اللّه تعالى.

رابعًا: اقترن حرف الجرِّ (مِنْ) بالمسند إليه النّكرة (إلهٍ)؛ لإفادة النَّصِّ على العموم وتأكيدِه وتقريرِه.

دلالةُ (مِن) في ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾:

ظهورُ المعجزة يوجبُ المبادرةَ إلى تصديقِها، والعملَ بموجبِها

زادَ من تفخيم البيّنةِ وتعظيمِها التّصريحُ بنسبتها إلى ﴿رَّبِّكُمْ﴾، فجمع بين الفخامةِ الذّاتيّة للبيّنة، والفخامةِ الإضافيّةِ بنسبتِها إلى اللّه تعالى مع دلالةِ التّشريفِ؛ لحثِّهم على المبادرة إلى تصديقِها والعمل بموجبِها، وللإشعار بأنَّ مجيءَ البيّنة نعمةٌ من ربّكم ومدبِّر أموركم، فالمعنى: جاءتكم بينةٌ عظيمةٌ ظاهرةٌ كائنةٌ من ربّكم، ومالِك أمورِكم، ففيها خيرٌ لكم[1]، وفي التّعبير بالرّبوبيّة إلاحةٌ إلى أنّ المعجزةَ نعمةٌ كبرى منَ الرّبّ؛ لأنّها تعينُ العبادَ على الإيمان، ولم يقُل: (بيّنة ربِّكم) على الإضافة؛ لدلالة (مِن) على معنى الابتداء، للإيذانِ بأنّ إرسالَها إليكم مبتدأٌ من ربّكم، ففي الكلامِ إشعارٌ بنعمةِ خصوصيَّةِ البيّنةِ لهم، للمبادرةِ إلى تعظيمِها والإيمانِ بها وبلوازمِها.

سرُّ التّعبيرِ بلفظِ ﴿بَيِّنَةٌ﴾ ودلالةُ تنكيره:

عدمُ تبيين نوعِ البيّنةِ؛ لأنّها منَ الوضوحِ بحيث تسلمُ منَ الجدالِ

يُحتملَ أن يكون المرادُ منها الحجَّةَ الّتي أقامها شعيبٌ على بطلان ما هم عليه منَ الشِّركِ وسوءِ الفعل، وعجزوا عن مجادلتِه فيها، فقامَت عليهم الحجّة، سواء أكانت معجزةً ظاهرةً خارقةً للعادة،

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/247.

كما هو الظّاهر، وإنْ لم يذكرْها القرآنُ، أو كانت بما حاججهم به منَ الكلامِ، كما يحتمل أن يكونَ المرادُ منَ البيِّنة العذابَ الّذي سيحلُّ بهم، ليفيدَ الفعلُ الماضي ﴿جَآءَتۡكُم﴾ المستقبلَ القريبَ، بمعنى: سيأتيكم قريبًا عذابٌ يحلُّ بكم، فعُبِّرَ بالماضي تنبيهًا على تحقيقِ وقوعه[1]، فذكر البيّنةَ، ولم يبيّن نوعَها؛ ليقعَ العلمُ بأنَّه كانت له حجَّةٌ وبرهانٌ على دعوتِه، وأنّها منَ الوضوح بحيث تسلمُ منَ الجدالِ، وقد أفاد التّنكيرُ تعظيمَ البيّنة وتفخيمَها؛ للإشعارِ بأنّها حجَّةٌ واضحةٌ، لامجالَ لإنكارِها، ولا الجدالِ فيها، ولمّا لم تدعُ ضرورةٌ إلى أن نعرفَها لم تذكر لنا[2].

دلالةُ الفاءِ في قوله: ﴿فَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ﴾:

الفاءُ سببيّةٌ، وللتّفريعِ على مضمون معنى بَيِّنَة، ففيها إيذانٌ بأنَّ البيّنةَ معجزةٌ شاهدةٌ على صحّةِ نبوّتِه، أي: لمّا جاءَتكم البيّنةُ، وقامَ الدّليلُ على صدقي ووجوب طاعتي، فلم يبقَ لكم فيه عذرٌ، وجبَ عليكم الإيمانُ بي، والأخذُ بما آمركم به، والانتهاءُ عمّا أنهاكم عنه، ويحتملُ أن تكونَ الفاءُ عاطفةً على الجملتين؛ أي: قوله: ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾، وقوله: ﴿قَدۡ جَآءَتۡكُم بَيِّنَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡۖ﴾، إذِ العبادةُ للّه تعالى سببٌ للإيفاء المذكور، فقوّى السّببَ مجيءُ البيّنة؛ للتّحريضِ على الامتثالِ بهما[3].

المعجزةُ قطعٌ للأعذارِ، فتوجبُ الامتثالَ لأمرِ الرّسولِ

إسنادُ الأفعال إلى ضمير الجمع:

تُشعِرُ صيغُ الجمع ﴿فَأَوۡفُواْ﴾، ﴿وَلَا تَبۡخَسُواْ﴾، ﴿وَلَا تُفۡسِدُواْ﴾، بأنّهم كانوا يتواطئون على هضمِ الغريبِ وبخسِه، ليكونَ التّواطؤُ نفسُه مَعْصيَةً أخرى، وإن كان اللّفظُ يشملُ الأمرَ والنّهيَ، للأفراد وللمجموعِ[4].

التّواطؤُ على بخسِ الغريبِ معصيةٌ أخرى منهيٌّ عنه

(1) ابن جرير، جامع البيان: 12/551، والزّمخشريّ، الكشّاف: 2/127، والفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/313، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/241.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/459.

(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/127، والقونويّ، حاشية على تفسير البيضاويّ: 8/439، ورشيد رضا، تفسير المنار: 8/468، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/242.

(4) رشيد رضا، تفسير المنار: 8/469.

دلالةُ التّعبير بلفظ (أَوْفُوا):

العدلُ في الإيفاء يقتضي انتفاءَ النّقصِ والبخسِ

لمّا كان ﴿فَأَوۡفُواْ﴾ هنا على معنى بذلِ الكيلِ والميزانِ تامًّا كاملًا، دلَّ على أنّ المرادَ منه العدلُ في الإيفاء، الّذي يقتضي انتفاءَ النّقصِ، "وقولُه: ﴿فَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ﴾ أمرٌ لهم بالاستقامة في الإعطاء، وهو - بالمعنى - في الأخذ والإعطاء، وكانت هذه المعصيةُ، قد فشَت فيهم في ذلك الزّمنِ، وفَحُشَت مع كفرهم الّذي نالَتهُمُ الرّجفةُ بسببِهِ"[1].

نكتةُ التّعبير بلفظِ ﴿ٱلۡكَيۡلَ﴾ في قوله: ﴿فَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ﴾:

تـمـامُ المكـيـلِ بتمامِ الكيلِ، والتّقدير: أوفوا كيلَ المكيال

لمّا كان ﴿ٱلۡكَيۡلَ﴾ مصدرًا بمعنى الحدثِ، والمعنى المصدريّ لا يمكن إيفاؤه؛ لأنَّ النّقصَ والإتمامَ من خواصّ الأعيان، كان الأمرُ بإيفاء المصدر على معنى المبالغة في الإتمامِ والعدلِ، فإنَّ الإيفاءَ، وهو القيامُ بمقتضى الأمر، أنسبُ بالفعلِ؛ لأنَّ تمامَ المكيلِ بتمامِ الكيلِ، وتكون (أل) عوضًا عنِ المضاف إليه، والتّقدير: أوفوا كيلَ المكيال، فيكون شعيبٌ عليه السلام، قد أمرهم بإيفاء المكيلِ مرَّةً، كما في سورة هود، وبإيفاء الكيلِ مرّة أخرى كما في سورة الأعراف هنا، وذهب بعضُ المفسّرين إلى أنَّه مَن حذف المضاف للإيجازِ لوضوح المعنى، والتّقدير: وأوفوا آلةَ الكيل، أو يكون المرادُ منَ الكيل المكيال، على طريق المجاز المُرسَل، والعلاقة هي الآليّة، ويؤيّده اقترانُ ﴿وَٱلۡمِيزَانَ﴾ به، فإنَّ المتبادرَ منه الآلة، أو سمَّى ما يُكالُ به بالكيل، كما قيل: العيش، لما يُعاشُ به[2].

دلالة اختيار مادّة البخس:

البخسُ يشملُ جـمـيـعَ أنــواعِ سلبِ الحقوقِ، وهو ظلمٌ

في قوله تعالى ﴿وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ﴾، عُبِّرَ بالبخسِ دونَ النّقصِ في النَّهي عنِ الإضرارِ بالنّاسِ في أشيائِهم؛ لأنَّ البخسَ

(1) ابن عطيّة الأندلسّي، المحرّر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: 2/426.

(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/127، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/247، والقونويّ، حاشية على تفسير البيضاويّ: 8/440.

في لسانِ العَرَبِ، هو النَّقصُ بالتَّعييبِ والتَّزهيدِ، أو المُخادَعَةِ عَنِ القيمَةِ، أو الاحتِيالِ في التَّزَيُّدِ في الكَيلِ أو النُّقصانِ مِنهُ، ففيه معنى الظّلمِ أيضًا، وشملَ جميعَ الأنواعِ سلب الحقوق[1].

معنى النّهي في جملة: ﴿وَلَا تَبۡخَسُواْ﴾:

لمّا كانَ البخسُ حدثًا يتَّصفُ به فاعلٌ، وليس صفةً للشّيء المبخوس في ذاتِه، وكان بمعنى النَّقص الّذي هو فعلُ الفاعلِ بالمفعولِ، لا النَّقصِ الّذي هو صفةُ الشَّيءِ النّاقصِ، جاء النّهيُ عن بخسِ النّاس، وليس بخسَ الأشياء، فكان النّهيُ عنِ الفعلِ الّذي يتعلَّقُ أثرُه بالنّاس، ولو كانَ البخسُ في وصفِ الأشياء في ذاتِها، فلا يصحُّ النّهي عنه.

النّهيُ يتعلَّقُ بالأفعالِ لكفِّ ضررِها على النّاس

دلالةُ التّعدِيَة بـ: ﴿ٱلنَّاسَ﴾:

لم يقُل: (وَلا تَبخَسوا أشياءَ النّاس)، وعُدِلَ في تأليف الكلام إلى قوله: ﴿وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ﴾؛ لأنَّ المقصودَ هو النّهيُ عن ظلمِ النّاس، والتّحايلِ عليهم بطريقِ البخسِ، فجاء الكلامُ على معنى النّهي عن إحداثِ فعلٍ هو البخسُ في المفعولِ الّذي هو النّاس فيما هو مُتعلِّق بهم من أمورِ حياتِهم، فيكون ﴿أَشۡيَآءَهُمۡ﴾ مفعولًا ثانيًا، بمعنى إحداثِ فعلٍ في المفعول ﴿ٱلنَّاسَ﴾، أو يُقال لمّا كانَ البخسُ وصفًا يتّصفُ به صاحب البخس على معنى إحداثِ وصفٍ - قولًا أو فعلًا - في المفعول، وكانَ فيه معنى الإجمالِ الّذي يقتضي الإيضاحَ، كان المنصوبُ في قوله: ﴿أَشۡيَآءَهُمۡ﴾ بدلَ اشتمالٍ منَ ﴿ٱلنَّاسَ﴾؛ ليكونَ البدل، والمبدل منه في مقامِ إيضاحِ المعنى وبيانِه[2].

النّهيُ عن ظلمِ النّاسِ والتّحايلِ عليهم بطريقِ البخسِ

نكتةُ التّعبيرِ بلفظ: ﴿أَشۡيَآءَهُمۡ﴾:

عُبِّرَ بـ (أشياء) في قوله سبحانه: ﴿وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ﴾

(1) أبو بكر بن العربيّ، أحكام القرآن: 2/318.

(2) أبو البقاء العكبريّ، التّبيان في إعراب القرآن: 1582، والقونويّ، حاشية على تفسير البيضاويّ: 8/440، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/243.

البخسُ يتناولُ الكمَّ والكيفَ في المعاملات

ليكونَ عامًّا في كُلِّ شَيءٍ لهم، تَنْبيهًا على أنَّهم كانوا يبخسونَ الجليلَ، والحقيرَ، والقليلَ، والكثيرَ في معاملاتِهم؛ للإشعارِ بعظيمِ ذنبِهم، وقبيحِ فعلِهم[1]، "لأنّ ذلك كان فاشيًا فيهم أكثر من سائر المعاصي، ومن ثمّ اهتمّ به كما اهتمّ لوطٌ بنهي قومه عنِ الفاحشة السُّوءَى الّتي كانت فاشيةً فيهم، فقد كانوا منَ المطفّفين الّذين إذا اكتالوا على النّاس أو وزنوا عليهم لأنفسهم ما يشترون منَ المكيلات والموزونات، يستوفون حقَّهم، أو يزيدون عليه، وإذا كالوهم أو وزنوهم ما يبيعون لهم، يُخسرون الكيلَ والميزانَ؛ أي: ينقصونه فيبخسونهم أشياءَهم وينقصونهم حقوقَهم"[2].

دلالةُ إضافة (أَشْيَاءَ) إلى الضّمير (هم):

إفـادةُ الإضـافـة معنى الملكِ

في إضافةِ الأشياءِ إلى النّاسِ دَليلٌ على مِلكِهم لها[3]، فأفادتِ الإضافةُ تعدّيهم على حقوقِ النّاس وظلمِهم، "وهو يكون بالتّعييب للسّلعة أو التّزهيد فيها، أو المخادعة لصاحبها والاحتيال عليه، وكلُّ ذلك من أكل أموالِ النّاسِ بالباطل، وظاهر قوله: ﴿أَشْيَآءَهُمْ﴾، أنّهم كانوا يبخسون النّاسَ في كلّ الأشياء، وقيل: كانوا مكّاسين يمكسون كلَّ ما دخل إلى أسواقهم، ومنه قول زهير:

أفي كُلِّ أسواقِ العِراقِ إتاوَةٌ *** وفي كُلِّ ما باعَ امرَؤٌ مَكسُ دِرهَمِ[4]

مناسبةُ التّرتيبِ في الأوامر والنّواهي:

البدءُ بالنّهي عنِ المفسدةِ الأكثرِ شيوعا وانتشارًا

لمّا كانَت عادةُ الأنبياءِ عليهم السلام، إذا رأوا قومَهم مُقبلينَ على نوعٍ من أنواعِ المفاسدِ إقبالًا أكثرَ من إقبالِهم على سائرِ أنواعِ المفاسدِ، بدؤُوا بمنعِهم عن ذلك النَّوعِ، فبدأ هنا بالأخصِّ ثمَّ الأعمِّ فالأعمِّ،

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/127، والبيضاوي، أنوار التّنزيل: 3/23.
(2) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 8/209.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/105.
(4) الشّوكانّي، فتح القدير: 2/255.

للتّدريجِ في الأمرِ والنّهي، وبيانُه: أنَّ البخسَ أعمُّ من نقصِ المكيلِ والموزونِ؛ لتعلُّقِه بالأشياءِ الّتي تشملُ المكيلَ والموزونَ وغيرَهما منَ المبيعاتِ كالمواشي، والمعدوداتِ، والمساومةِ، والغشِّ، والحيلِ الّتي تنتقصُ بها الحقوقُ المادّيَّةُ، والمعنويَّةُ كالعلوم والفضائلِ، والإفسادُ أعمُّ منهما جميعًا؛ لشمولِه الأموالَ والأعراضَ والنُّفوسَ، وكلَّ ما يُوجِبُ مفسدةً دنيويَّةً أو دينيَّةً، وأيضًا لمّا كان الأمرُ بإيفاء الكيلِ والميزانِ هو الأساس؛ لأنَّ به قيامَ العدلِ بدأ به فقال: ﴿فَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ وَٱلۡمِيزَانَ﴾، وفي إيفاء الكيل والميزان حفظُ حقوقِ المشترين؛ لأنَّ الكائلَ أو الوازنَ هو البائع، ولمّا كان الأمرُ بالإيفاءِ يتضمَّنُ النَّهيَ عنِ البخس، وفيه حفظ حقوقِ البائعِ، صرَّح به على وجهٍ يعمُّ غيره فقال: ﴿وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ﴾، ولمّا كان أخذُ أموال النّاس بغير رضاهم يُوجِبُ المُنازَعَةَ والخصومةَ، وهما يُوجبان الفَسادَ، لا جَرَمَ قال بعده: ﴿وَلَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَاۚ﴾، فأفاد النّهيُ معنى غير الّذي أفاده الأمر[1].

بلاغةُ حذفِ المفعولِ في قولِه: ﴿وَلَا تُفۡسِدُواْ﴾:

الحذفُ لإفادة عمومِ المعنى في الآية

حُذِفَ المفعولُ لإفادةِ العمومِ، فيشملُ النّهيُ أنواعَ الفساد دقيقَه وجليلَه[2]، " ولمّا نهى عنِ الفسادِ بالبخس عمَّ كلَّ فسادٍ، فقال: ﴿وَلَا تُفۡسِدُواْ﴾؛ أي: توقِعوا الفسادَ ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾، بوضع شيءٍ من حقّ الحقّ أو الخلق، في غير موضعه"[3].

نكتةُ التّعبير بالقيد: ﴿بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَاۚ﴾:

الحثُّ على إدامةِ الإصلاحِ والنّهي عنِ الإفسادِ بعدَ الإصلاحِ

عُبِّرَ بقوله: ﴿بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَاۚ﴾؛ للإيذانِ بالنّعمةِ الّتي صاروا إليها، والخيرِ الّذي هم فيه، ولِلتّذكيرِ بوجوبِ شكرِ هذه النّعمة؛ إذ

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/313، وابن عادل، اللّباب في علومِ الكتاب: 9/211، والنّيسابوريّ، غرائب القرآن: 3/285، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 7/460، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/469.

(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/426.

(3) البقاعيّ، نظم الدّرر في تناسب الآيات والسّور: 7/460.

جاؤوا بعد إصلاحِ الأرضِ، وفي الكلامِ تأكيدٌ للنّهي بما في ذلك منَ التّخويف والحثِّ على إدامةِ الإصلاحِ[1]، وفي التّعبير بهذا القيد بعد النّهي عنِ الفساد تبشيعٌ لجرمهم، وتفظيعٌ لمقترفهم، ففرقٌ بين أن تقولَ: لا تفسد، وبين أن تَقولَ: لا تُفْسِدْ بعدما أصلحتَ.

بلاغةُ المجازِ في إضافةِ المصدرِ إلى الأرض:

إصلاحُ مَن في الأرضِ إصلاحٌ لها

في قوله: ﴿إِصۡلَٰحِهَاۚ﴾، تحتملُ الإضافةُ أن تكونَ على معنى (في)؛ أي: بعدَ إصلاحٍ فيها، أو تحتملُ أن تكونَ على المجازِ بحذفِ المضاف، والتّقديرُ: بعدَ إصلاحِ أهلِها فيها، بمعنى: بعدَ إصلاحِ الرّسلِ، أو الصّالحينَ أهْلِها فيها، كما يحتملُ أن لا يكونَ حذفٌ أصلًا، وتكونَ الإضافةُ على سبيلِ المجاز العقليّ، بمعنى التّجوّز في النِّسبة الإيقاعيّة؛ لأنَّ إصلاحَ مَن في الأرضِ إصلاحٌ لها؛ للإشعارِ بأنَّ إصلاحَ الأرضِ لايكون أوّلًا بتعميرِها وشقِّ طرقِها، بل بإصلاحِ أهلِها، فأفادتِ الإضافةُ الإيجازَ في اللّفظ، والتّوسُّعَ في المعنى، وإحرازَ البلاغة بالمجاز؛ تكثيرًا للمنّة وتعظيمًا لها[2].

نكتةُ التّعبيرِ بالمصدر الصّريح في كلمة: ﴿إِصۡلَٰحِهَاۚ﴾:

الإصلاحُ يكونُ بإصلاحِ النّاس، وما يتعلَّقُ بحياتِهم

أفاد التَّعبيرُ بالمصدرِ الصَّريحِ دونَ المؤوّلِ، الإيذانَ بالقطعِ بحصولِ الإصلاحِ وظهورِه، كما عُبِّرَ بالمصدرِ الصَّريحِ؛ لأنّه ليس المقصودُ هنا بيانَ فاعلِ الإصلاحِ بل ما وقعَ عليه الإصلاحُ؛ أي: مفعولُه، ولهذا أُضيفَ المصدرُ إلى مفعولِه، وأفادَ مجيءُ المصدرِ الصّريحِ الإشعارَ بمطلقِ الإصلاحِ؛ ليشملَ النّاسَ وما يتعلَّقُ بحياتِهم[3].

بديعُ الطّباقِ بين: ﴿وَلَا تُفۡسِدُواْ﴾ و﴿إِصۡلَٰحِهَاۚ﴾:

وردَ الطّباقُ في الآية في قوله: ﴿وَلَا تُفۡسِدُواْ﴾ ﴿إِصۡلَٰحِهَاۚ﴾؛ لإفادة

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر في تناسب الآيات والسّور: 7/460.

(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/127 - 128، والبيضاوي، أنوار التّنزيل: 3/23، والآلوسي، روح المعاني: 4/414.

(3) السّامرائّي، معاني النّحو: 3/149.

المقايسةِ بين الصّلاحِ والفسادِ، وفعلِ الإصلاحِ وفعلِ الإفسادِ، ليكون الطّباقُ دافعًا لهم إلى الامتثال للنّهي، وبضدّها تتميّزُ الأشياء.

المقايسةُ بين الإصلاح والإفساد، دافعٌ إلى فعلِ الأصلحِ

نكتةُ التّعبير باسم الإشارة (ذلكم):

في قوله تعالى ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾، أفادَ التَّعبيرُ باسم الإشارةِ (ذلكم) المُخصّص في العربيّة للبعيد علوَّ مكانةِ العملِ، بإيفاءِ الكَيلِ والميزانِ، وتَركِ البخس والإفساد، وأنَّ تحصيلَه ليس بالأمرِ اليسيرِ لبعدهِم عنه، بما وقعوا فيه منَ الكفرِ، والظّلم، والإفسادِ، والمعنى: ذلكم الأمر العظيم العالي الرّتبةِ خَيْرٌ لَكُمْ[1].

العملُ بالمأمورات واجتنابُ المنهيّاتِ أمرٌ عظيمٌ عالي الرّتبةِ عند الله

دلالةُ لفظ ﴿خَيْرٌ﴾ بين الوصفِ والتّفضيلِ والتّنكيرِ:

يحتملُ لفظُ ﴿خَيْرٌ﴾ أن يكونَ وصفًا بمعنى: العمل بما أمرتكم به ونهيتكم عنه، هو خيرٌ ونافعٌ لكم؛ لأنّه لا خيرَ في عدم إيفاءِ الكيلِ والوزنِ، وفي بخس النّاسِ، وفي الفساد في الأرض أصْلاً، فما أنتم عليه منَ الأفعال ليس بخيرٍ ولا نافع، فيكون شرًّا وضرًّا، كما يُحتمَلُ أن يكونَ اسمَ تفضيل؛ أي: العملُ بما أمرتكم به، ونهيتكم عنه خيرٌ منَ التَّطفيفِ، والبَخسِ، والإفسادِ؛ لأنَّ خَيريَّةَ هَذِهِ لَكُم عاجِلَةٌ مُنقَضِيَةٌ، إذ يَقطَعُ النّاسُ مُعامَلَتَكُم ويَحذَرُونَكُم، فإذا أوفَيتُم وتَرَكتُمُ البَخسَ والإفسادَ، وعرفكم النّاسُ بالأمانة، رغِبوا في معاملتكم ووثقوا فيكم، فَيَقْصِدونَكُمْ بالتِّجاراتِ والمكاسِبِ، وتدوم التّجارةُ، والأرباحُ بالعدلِ في المعاملاتِ، والتّحلّي بالأماناتِ، فَيَكونُ ذلك أخيَرَ مِمّا كُنتُم تَفعَلونَ[2]، وبالنّسبة لدلالة التّنكير في قوله: ﴿خَيْرٌ﴾، فقد أفاد التَّنكيرُ تعظيمَ الخيرِ الّذي أمرهم به، ونهاهم عنه، وتفخيمَه.

الاشتهارُ بالأمانة والعدل في المعاملةِ، أفضلُ طريقٍ في المتاجرة

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/461.

(2) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/23، وأبو حيّان، البحر المحيط: 5/105.

مناسبةُ حذفِ مُتعلَّق الخبر ﴿خَيْرٌ﴾:

الحذفُ لإفادة عمومِ معنى الخيرِ، وانتفاعِ الفرد بالتزام المجتمع

أفاد حذفُ المتعلَّق العمومَ، ليكونَ المعنى خيرًا لكم في دينكم ودنياكم، وفي حياتكم هذه وفي آخرتكم، لأنّ فائدةَ الإنسان في عموم الخير، لا في تقييده، قال الشّعراويّ: "لا تنظرْ إلى نفسك أيّها الإنسان، وأنت بمعزلٍ عنِ المجتمع الواسعِ، فأنت لا تملكُ من مصالحك إلّا أمْرًا واحِدًا، وهذا الأمرُ الّذي تملكه أنت مِن مصالحك، يكون أقلَّ الأشياء عندك، ولكنّ الأمورَ الأخرى الّتي تحتاجُ إليها هي بيد غيرك، فإن أنت وفّيتَ الكيلَ والميزانَ فذلك خيرٌ لك؛ فالّذي يقيسُ لك القماش لا يغشّك، والّذي يزنُ لك ما ليس عندك لا يغشّك، والّذي يكيلُ لك الّذي ليس عندك لا يغشّك، إذن فأنت واحدٌ منهيٌّ عن أن تفعلَ ذلك، وجميعُ النّاس منهيّون أن يفعلوا ذلك معك، وبذلك تكون أنت الكاسب"[1].

مناسبةُ مجيءِ الجارّ والمجرور ﴿لَكُم﴾:

الإيمانُ سببٌ لاستحقاقِ الخيرِ بكلِّ أنواعِه

تفيدُ (اللّامُ) هنا الاستحقاقَ والاختصاصَ، وبيانُه: أنَّه لمّا كان أهلُ مدين حريصين على تحصيلِ المنافعِ، صرِّحَ باستحقاقِهم الخيرَ، واختصاصِهم به إن كانوا مؤمنين.

دلالةُ الشّرطِ في قوله: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾:

لاخيرَ في أيِّ عملٍ نافعٍ إنْ لم يكنِ الإيمانُ معه

لمّا كان الشّرطُ يقتضي جزاءً دلَّ على أنَّه محذوف، ويدلُّ عليه قوله: ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾، فهوفي مقام تأكيدِ الخيريّة، لِما يتضمّنهُ الكلامُ من معنى التَّكرير، والتّقديرُ: (إنْ كنتم مؤمنين فذلكم خيرٌ لكم)، فالمراد بالتّقييد نفي الخير الكامل عن تلك الأعمال الصّالحة إن لم يكن فاعلوها مؤمنين[2].

(1) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ (الخواطر): 7/1237.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/461، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/246.

مناسبةُ التّذييل بالجملة الشّرطيّة:

لا يَنفَعُ عَمَلٌ دُونَ إيمانٍ، والحياةُ دونه ضياعٌ

جاءَ الشّرطُ ﴿إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾آخرَ الكلامِ؛ لتأكيدِ اشتراطِ إيمانِهم لتحقيقِ الخيريَّةِ، فإنَّ مثلَ هذا الشَّرط، إنَّما يُجاءُ به في آخر الكلام للتَّأكيد، وهو من فنون البلاغة وبراعتِها، للحثِّ على تحصيلِ الإيمانِ والخيريّةِ وللمبادرة إليهما، والمعنى: لا يَكونُ ذَلِكَ لَكُم خَيرًا ونافِعًا عِندَ اللّه إلّا بِشَرطِ إيمانكم باللّه، وتصديقي فيما أقول لكم، وإلّا فلا يَنفَعُ عَمَلٌ دونَ إيمانٍ[1]، ولا منافاة من إرادة معنى مؤمنين باللّه، أو معنى مُصدِّقينَ لي في قولي؛ لتلازمِهما اعتقادًا وعملًا، وهو من قبيل توسُّع المعنى، وإن ذهب بعض المفسّرين إلى الأوّل، وبعضهم الآخر إلى الثّاني.

توجيه المتشابه بين: ﴿فَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ وَٱلۡمِيزَانَ﴾ و﴿وَلَا تَنقُصُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَۖ﴾:

النّهيُ عن تعمُّدِ التَّطفيفِ، ووجوبُ الإيفاءِ في الكيلِ والميزانِ

جاء في سورة الأعراف قوله: ﴿فَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ وَٱلۡمِيزَانَ﴾، وفي سورة هود بعدَ الأمر بتوحيدِ اللّه جاء قوله: ﴿وَلَا تَنقُصُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَۖ﴾ [هود: 84]، والفرقُ بين التّعبيرين أنّ الأمرَ بالإيفاء فيه ترغيبٌ إلى تحصيلِ العدلِ، وإلى الإقبال عليه، وأمّا النّهيُ عنِ النّقصِ ففيه تخويفٌ؛ للتّرهيبِ من فعلِه، فيكون شعيبٌ عليه السلام، قد دعاهم مرّةً إلى العدل، ومرّةً إلى النّهي عنِ النّقصِ، فجمع بين الأمر بالشّيء، والنّهي عن ضدّه؛ ليدلَّ هذا الجمعُ على غاية التّأكيد والمبالغة فيه، وأيضًا لمّا كان النّهيُ عن نقصِ المكيال والميزان في سورة هودٍ، قد يُتوهّمُ منه التّقريب، ذكر في سورة الأعرافِ ما يدفع هذا الوهمَ؛ للتَّنبيهِ على أنَّه لا يكفي الكفُّ عن تعمُّدِ التَّطفيفِ، بل يلزمُ السَّعيُ في الإيفاءِ في الكيلِ والميزانِ[2].

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/106، والطّيّبيّ، فتوح الغيب: 6/648، والقنّوجيّ، فتح البيان: 4/407.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/352.

﴿وَلَا تَقْعُدُواْ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ ۖ وَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾﴾ [الأعراف: 86]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الصّدُّ عن سبيلِ اللهِ أعظمُ أنواعِ الإفسادِ، والعاقبةُ لا تكون لأهلِ الفساد

لمّا كان للتَّعميم بعدَ التَّخصيص، والتَّفصيلِ بعدَ الإجمالِ له، موقعٌ في النُّفوس ما لا يخفى، وكان النَّهيُ عنِ الإفسادِ بالصَّدِّ عن سبيل اللّهِ هو المقصود بالذّاتِ؛ لأنَّه ينهى عن كلِّ فسادٍ، خصَّه بالذِّكر إشارةً إلى أنَّه زبدةُ المراد بعد التَّعميم، فقال: ﴿وَلَا تَقْعُدُواْ﴾[1]، ووجه آخر لمّا بدأ شعيبٌ عليه السلام بدعوتهم إلى عبادةِ اللّه وتوحيدِه؛ لأنَّه ركنُ الدِّينِ الأعظمُ، وثنَّى بالأوامرِ والنَّواهي المتعلِّقةِ بحالِهم الغالبةِ عليهم، جاء الأصلُ الثّالثُ من دعوتِه، فذكرَ النَّهيَ عنِ التّعرُّضِ للنّاسِ بقطعِهم الطُّرقَ، وصدِّهم النّاسَ عن دخولِ المدينةِ الّتي كان بها شعيبٌ؛ لئلّا يغشَوا مجلسَه عليه السلام، ويسمعوا دعوتَه، ويؤمنوا به، فالدَّعوةُ قد وُجِّهَت أوَّلًا إلى أقربِ النّاس إليه في بلدِه ثمَّ إلى الأقربِ فالأقرب منهم، وممَّن يزورُ أرضَهم[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَلَا تَقْعُدُواْ﴾: القعود يُقابِلُ القيامَ، ويُعبَّرُ بالقعود في المكانِ عن ملازمتِه، ومطاولةٍ في الوقتِ فيه، ومنه قواعدُ البيت أساسُه، كما يُعبَّرُ عنِ التّرصّد للشَّيء بالقعودِ له.

2) ﴿تُوعِدُونَ﴾: الوعدُ يكون في خيرٍ أو شرٍّ، يُقال: وَعَدتُهُ بنفعٍ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/461.

(2) رشيد رضا، تفسير المنار: 8/474، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/246.

وضرٍّ، والوَعِيدُ في الشّرّ خاصّة، تَوَعَّدتُهُ تَهَدَّدتُهُ، و﴿تُوعِدُونَ﴾ الآية منَ الإيعاد؛ بمعنى: تهدّدون وتُخوِّفونَ[1].

3) ﴿تَصُدُّونَ﴾: يدورُ معنى الصّدِّ على اعتراض بقَوِيٍّ أو كثيف، يَرُدُّ المقبل أو يمنعه كالجبل، وصَدَّه عنِ الأمر: مَنَعه وصَرَفه، وتصدَّى لفلان: تعرّض له، ففيه معنى الاعتراضِ والصَّرفِ والرَّدِّ.

4) ﴿سَبِيلِ﴾: يأتي السّبيلُ في الاستعمال بمعنى الطّريق المادّيّ، وبمعنى الطريق المجازيّ، ويُستعمَلُ في الخيرِ وفي الشّرِّ، بحسبِ ما يُضاف إليه، مثل: (سبيل اللّه)، و(سبيل الطّاغوت)، وإذا أُطلِقَ يختصُّ بما هو الحقُّ، والسّبيل تذكّر وتؤنّث، والأغلب والأفصح التّأنيث[2].

5) ﴿تَبْغُونَهَا﴾: بَغَى الشّيءَ يبغيه: طلبه على سبيل التّزايدِ في الطّلب والمبالغة فيه، ومنه بغي المطر، وهو شدّتُه ومعظمُه. وبغى عليهم: عَدَل عنِ الحقِّ واستطال وظلمَ، ففيه معنى التّزيّد في التّعدي، وكلُّ مجاوزةٍ وإفراطٍ على المقدار الّذي هو حدُّ الشّيءِ يُقال له بَغْى. والبغي هنا على معنى تجاوز الحقّ إلى الباطل[3].

6) ﴿عِوَجًا﴾: أصلُ الكلمة يدلُّ على عطفٍ عن حال الانتصاب، والعَوَجُ هو ميلٌ في شيءٍ ممتدٍّ كالميلِ في الحائِط، والعَوَجُ يُقال في المحسوساتِ، كاعوجاجِ الحائطِ والعودِ والعصا. والعِوَجُ يُقال في المعاني كاعوجاجٍ في الدّين والمعاشِ، والأعوَجُ يُكنَّى به عن سيّئ الخلق.

وسائرُ ما جاء من تركيبِ ﴿تَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ في القرآن للخطاب أو الغيبة؛ بمعنى: يطلبون لسبيل اللّه اعوجاجًا، بإيهامِ النّاس ذلك[4].

المعنى الإجْماليُّ:

ولا تجلسوا بكلِّ طريق تهدّدون المؤمنين بالقتل، وتخوّفونهم، وتردُّون عن طريق

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (وعد)، وابن الهائم، التّبيان في تفسير غريب القرآن، ص: 167.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (سبل).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (بغي).
(4) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (عوج).

الله، مَن صدَّق باللهِ ووحّده، وتطلبون الزّيغَ عنِ القصدِ والحقِّ، واذكروا نعمةَ اللهِ عليكم حينَ كُنتُم مُستَضعَفِينَ لِقلَّتِكُم فَصِرتُم أعِزَّةً لِكَثرَةِ عَدَدِكم، وانظروا ما نزلَ بِالأمم السّابقةِ مِنَ العَذابِ والنَّكالِ حينَ عَتَوا عن أمرِ ربِّهم، وعصَوا رسلَه، وكيف وجدوا عقبى عصيانِهم إيّاه[1].

التّحذيرُ منَ الصّدِّ عن سبيلِ اللهِ، والعِبرةُ بعاقبة أهلِ الاعوجاج والفساد

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

جملة ﴿وَلَا تَقۡعُدُواْ﴾ بين الكناية والاستعارة التّمثيليّة:

نهاهم عنِ الاقتداء بالشّيطانِ، بلفظ ﴿وَلَا تَقۡعُدُواْ﴾؛ ليكونَ كنايةً عن ملازمتهم للإفساد، ومواظبتهم عليه مواظبةً لا يَفْتُرونَ عنها، ووجهُ الكنايةِ هو أنَّ الملازمَ للمكانِ يقعدُ طلبًا للرّاحةِ، كما أنَّ مَن أراد أن يبالغَ في تكميلِ أمرٍ منَ الأمورِ، قعدَ حتَّى يصيرَ فارغَ البالِ، فيمكنهُ إتْمامَ المقصود، أو يكونُ الكلامُ على طريقِ الاستعارةِ التَّمثيليَّةِ، إذ عُبِّر بالقعود مجازًا عن ترصّدهم لِمَن آمن بالله، ومواظبتِهم عليه، إذ مثّلَ تهديدُهم وصدُّهم عن سبيل الله، وطلبُهم أن تكون زائغةً، بمَن يريدُ أن يقطعَ الطَّريقَ على السّابلةِ فيكمُن لهم من حيثُ لا يدرون، ويترصّدُ بهم من حيث لا يشعرون، كما يقعُدُ القُطّاعُ للقطع على السّابلةِ في الطّريق، والمعنى: صدُّ المؤمنين عن سبيلِ الله، وقطعُه عليهم، بما يفعلونه منَ التّهديدِ وغيرِه، كي يسلكوا سبلًا أخرى غير سبيل الحقِّ[2].

النّهيُ عن ملازمة الإفسادِ والمواظبةِ عليه

دلالةُ الباء في شبه الجملة: ﴿بِكُلِّ صِرَٰطٍ﴾:

الباءُ للإلصاقِ، والمعنى: قعودُهم ملصقٌ بكلِّ صراطٍ من مناهجِ الدّين، وأنَّ القاعدَ ملابسٌ المكانَ لا ينفكُّ عنه، ويُحتملُ أن تكونَ

تنوّعُ معنى الباء توسّعٌ في المعنى

(1) ابن جرير، جامع البيان: 12/556، والبغويّ، معالم التّنزيل: 2/214.

(2) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/212، والبيضاوي، أنوار التّنزيل: 3/7، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/219، والشّهاب، حاشية على تفسير البيضاويّ: 4/188، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/ - 246.

الباءُ للمصاحبةِ بمعنى ملازمتِهم لكلِّ صراطٍ؛ ويحتملُ كذلك أن تكونَ ظرفيّةً بمعنى (في)؛ لأنّ القاعدَ يحلُّ بمكان قعوده، وأن تكونَ بمعنى (على)؛ لاستيلاء القاعدِ على المكان، وحروفُ الجرّ تتعاقبُ في مثل هذا الموضع؛ لتقارب معانيها، مع مناسبةِ معنى كلِّ حرفٍ لسياقِه، ففي التّعبير توسُّعٌ في المعنى[1].

دلالةُ التّعبيرِ بلفظ العموم ﴿بِكُلِّ﴾:

تنوّعُ المرادِ من كلمة (صراط)، يوسّعُ المعنى ويلائمُ الواقع

في قوله تعالى ﴿بِكُلِّ صِرَٰطٍ﴾، لمّا كان لفظُ ﴿بِكُلِّ﴾ للعموم، والسّياقُ خاصٌّ بقوم شعيبٍ، دلَّ على أنَّ المرادَ العمومُ العُرفيّ؛ أي: كلِّ صِراطٍ مُبلِّغٍ إلى القريةِ، أو إلى منزلِ شُعَيبٍ[2] عليه السلام، فيكون لفظُ الصّراط على حقيقته، وقطعُ كلمة (صراط) عنِ الإضافة، يُرشِّحُ التّعبيرَ المجازيَّ، والأوّلُ مرادٌ، والثّاني أيضًا مرادٌ، وفي كلٍّ معنى بلاغيٍّ لايعارض الآخر، فالصّراطُ حقيقةٌ من وجه، ومَجازٌ من وجه، وهما متعانقان لا متعارضان.

مجازُ التّعبير في لفظ ﴿صِرَٰطٍ﴾:

المرادُ منَ الصّراط معناه المَجازيُّ

لمّا كان القعودُ ليس على معناه الحقيقيّ، كان لفظُ ﴿صِرَٰطٍ﴾ على المجاز كذلك، والمعنى: بكلِّ شريعةٍ من شرائعِ الدّين، والمعنى: "ولا تقعدوا بكلّ طريقٍ من طرق الحقّ والهداية والعمل الصّالح؛ تُهدِّدون سالكه، وبذلك تمنعون طالبي الخير منَ الوصول، وهم أهل الإيمان الّذين يؤمنون باللّه، وتريدون أنتم الطّريق المعوجّ"[3].

نكتةُ تعليقِ القعود بالصّراطِ، وتعليقِ الصّدِّ بسبيلِ الله:

مناسبةُ كلِّ فعلٍ ما تقيَّدَ به

لمّا كان الصِّراطُ هو الطَّريقَ المستقيمَ الموصِلَ إلى الحقِّ، جعلَ القعودَ له؛ لِما في القعودِ من معنى الملازمةِ والتّرصُّدِ، ولِتشبيههم

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/107، والسّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 5/376، والنّيسابوريّ، غرائب القرآن: 3/285، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/246.

(2) ابن عاشور، التّحريروالتّنوير: 8/246.

(3) لجنة من علماء الأزهر، المنتخب في تفسير القرآن الكريم، ص: 218.

بحالِ الشَّيطانِ في قعودِه الصّراطَ المستقيمَ، ولمّا كانَ سبيلُ اللّهِ هو الطَّريقَ السَّهلَ، المختصَّ بسببِ الإضافةِ الّتي أفادَت معنى التّشريفِ والتّعظيمِ كما تقدّم، جعلَ الصّدَّ له، فناسبَ كلُّ فعلٍ ما تقيّد به.

نكتةُ التّعبيرِ عن طرق الدّين المتعدّدة بالصِّراط:

الصّراطُ المستقيمُ واحدٌ وشرائعُه متعدّدة

عُبِّرَ عن طرقِ الدِّين بالصِّراطِ المقتضي تعدّدَ الصّراطِ وتشعّبَه، مع أنَّ اللّه تعالى قال: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا﴾ [الأنعام: 153]؛ للإشعارِ بأنّ كلَّ نوعٍ منها داخلٌ ضمن وحدةِ الصّراط، فأنواعُ الصّراطِ الحقِّ وشرائعُه تتعدّد[1]، ولمّا كان صراطُ الحقِّ واحدًا، وطرقُ الدِّين والتَّعبُّدِ متشعِّبَةً إلى معارفَ وحدودٍ وأحكام، أتى بلفظ ﴿بِكُلِّ﴾، على معنى بكلِّ طرقِ عبادةِ اللّهِ، أو بكلِّ طرقِ الدّينِ الّتي هي شرائع في الصّراط المستقيم[2].

من دلالات إظهار الجلالة:

تكثيرُ المعاني بمجيء الاسمِ الجليلِ الظّاهرِ، وتعظيمُ السّبيل

في قوله سبحانه: ﴿وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ جاء التّصريحُ باسم الجلالة (اللّه)، ولم يقُلْ: (وتصُدُّون عنه)، فوضع الاسمَ الجليلَ ظاهرًا، موضع المضمرِ؛ بَيانًا للصّراطِ، في قوله: ﴿بِكُلِّ صِرَٰطٖ﴾، ودلالةً على عظم ما يصدُّون عنهُ، وزيادةً في تقبيحِ ما كانوا عليه، وتذكيرًا بعظم الذّنب الّذي يرتكبونه[3]، وفي الإضافة الاختصاصُ، فهم يصدُّون عن سبيلِ اللّهِ، وليس عن سبيلِ الشّيطانِ، كما أفادتِ الإضافةُ تشريفَ هذا السَّبيلِ وتعظيمَه، وفيها إشعارٌ بالتّحذير منَ الصّدّ؛ لإضافةِ السَّبيلِ إلى الاسم الجليل الّذي يتضمّنُ معنى الألوهيّة، وقد أفادَ الحرفُ معنى المجاوزة، بمعنى: تصدُّون مَن آمنَ باللّه أو بالصّراط الحقِّ؛ لكي يتجاوزَ المؤمنُ سبيلَ اللّه ويبتعدَ عنه.

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/128، والبيضاوي، أنوار التّنزيل: 3/23، والقونويّ، حاشية على تفسير البيضاويّ: 8/441.

(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/128، والبيضاوي، أنوار التّنزيل: 3/23.

(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/128، والبيضاوي، أنوار التّنزيل: 3/23، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/247.

مناسبةُ المضارعيّة في: ﴿تُوعِدُونَ﴾ و﴿تَصُدُّونَ﴾ و﴿تَبْغُونَهَا﴾:

ذُكرت الأفعالُ في الآية الكريمة بصيغة المضارع لتكرّرِ هذه الأحوالِ منهم، وأنَّهم مستمرّون عليها، وفيه تقبيحٌ لأفعالهم إذِ اعتادوها، وجعلوها عادةً مستمرّةً، وفيه منَ الشّناعة عليهم ما فيه.

مَن تعوّد فعلَ الضّلال ماتَ إحساسُه ببشاعة المشين منَ الأفعال

مناسبةُ تقييد النّهي بالأحوال:

أفادَ النّهيُ عنِ القعودِ بتقييدِه بالأحوالِ الّتي جاءَت بصيغةِ الجملِ الفعليَّةِ، في قوله: ﴿تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾؛ الإشعارَ بما كانَت حالُهم عليه منِ ارتكابِ الأفعالِ القبيحةِ، والمعنى: (ولا تقعدوا موعدين مهدّدين وصادّين عن سبيل الله، ولا أنْ تبغوها عِوَجًا)، فنهاهم عنِ القعود بصراطِ الله، حالَ الاشتغالِ بأحدِ هذه الأفعالِ، ومن براعةِ معاني القرآن، أنَّ أحدًا لا يمكنه منعُ غيرِه من قبول مذهبٍ أو مقالةٍ، إلّا بأحد هذه الطّرق الثّلاثة[1].

الطرقُ الثّلاثةُ سبلٌ للإقناعِ بالمفاسد والانحراف عنِ السّبيل القويم

بلاغةُ حذفِ مُتعلَّقِ ﴿تُوعِدُونَ﴾:

حُذِفَ الموعَدُ به؛ للإشعارِ بعموم ما كانوا يوعِدونَ به، ولتذهَبَ النَّفسُ فيه كُلَّ مَذهَبٍ مِنَ الشَّرِّ الّذي كانوا يضمرونه[2].

الحذفُ لإفادةِ العمومِ، ولإيضاح المقصود منَ السّياق

بلاغةُ تقديمِ الجارّ والمجرور على المفعول به:

قُدِّمَ الجار والمجرور ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ على المفعول به ﴿مَنْ﴾؛ لتعظيم شأنِ الصّدّ عن سبيلِ الله، والاهتمام به؛ للإشعارِ بعظم الذّنبِ واستحقاقِ العقوبةِ بسببِه، وكأنّ الصَّدَّ عن سبيل الله هو محلُّ الإثم، ومناطُ القبح، بِغَضِّ النّظرِ عنِ المصدود.

تعظيمُ ذنبِ الصَّدِّ عن سبيل الله، واستحقاقُ العقوبةِ بسببِه

نكتةُ التّعبيرِ بالاسم الموصول وصلته:

في قوله تعالى في قوله: ﴿مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ﴾، اصطفى النّظمُ الكريمُ

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/128، والفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/315، والنّيسابوريّ، غرائب القرآن: 3/285.

(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/105، والسّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 5/376.

الاسمَ الموصولَ العامَّ المستخدمَ غالبًا في العقلاء، ليشملَ المفردَ والمثنى والجمعَ والمؤنّثَ والمذكّرَ منَ العقلاء، وفيه إيجازٌ بليغٌ، كما أنّ في ذكره بناءَ الخبرِ على مضمونِ الصّلة، فإيعادُ مَن كانوا يوعدونه، وصدُّهم له عن سبيل الله، بسبب إيمانِهم بالله ورسوله شعيبٍ عليه السلام أو بسببِ إيمانِهم بالصّراط الّذي يوصِلُ إلى الله تعالى، ولمّا كانت صلةُ الموصول معلومةَ الانتساب عندَ المخاطَبين دلَّ على أنّهم كانوا على علمٍ بالإيمانِ عارفين به وبحقوقِه.

صدُّ الكافرين إمّا لأفرادِ المؤمنين وإمّا لجماعاتِهم

بلاغةُ التّعبير بالمضيّ في جملة الصّلة ﴿مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ﴾:

يحتملُ أن تكونَ الدّلالةُ الزّمنيّةُ للفعل الماضي ﴿ءَامَنَ﴾ على ظاهرِها؛ أي: مَن آمنَ فعلًا وتحقَّقَ إيمانُه، فيكون الكلامُ على مقتضى الظّاهر، والمعنى: تصدّون المؤمنين عن طاعةِ الله وعبادتِه، ويحتملُ أن يكونَ مُستعمَلًا على خلافِ مقتضى الظّاهر، بقصدِ المستقبلِ، فيكون المرادُ مَن قصدَ الإيمانَ؛ للإيذانِ بتَحقيقِ عَزمِ القاصِدِ على الإيمانِ، فلولا أنَّهم يَصُدّونَه لكان قد آمَنَ، والمعنى: تصدّون مَن أرادَ الإيمانَ بإغوائِه ومخادعتِه[1].

التّعبيرُ بالماضي تبشيعٌ للصّدّ عمّنِ استقرَّ في الإيمان وثبتَ عليه

نكتةُ التّعبيرِ بالفعل ﴿وَتَبْغُونَهَا﴾ في سياق الآية:

عُبِّرَ بلفظ ﴿وَتَبْغُونَهَا﴾؛ لإفادة المبالغةِ في طلبِ زيغِ السّبيلِ، وتعدّيهم في هذا البغي، وإفراطِهم فيه، وأنّهم ظالمون فيه لحرصِهم على طلبِ تجاوز الحقِّ إلى الباطلِ.

دلالةُ لفظ (وتبغونها) على التّعدّي في الابتغاء والإفراطِ فيه

دلالةُ العطف على المغايرة وترابط المعاني:

جاءتِ الجملُ الفعليَّةُ المتعاطفةُ في قوله: ﴿تُوعِدُونَ﴾، ﴿وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، ﴿وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾، في موقعِ الحال منَ الضّمير في ﴿تَقْعُدُواْ﴾، ولمّا كان العطفُ على معنى المغايرةِ دلَّ على أنّهم كانوا

المغايرةُ في العطفِ تفيدُ تنوّعَ المعنى، وتعدّدَ وجوهِ الجريمةِ

(1) الماتريديّ، النّكت والعيون: 2/239، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/246.

يخوّفونَ المؤمنينَ، أو مَن يريدُ الإيمانَ، ويقطعونَ عليهم طريقَ الحقِّ حِسًّا أو معنىً، بأن لا يُمَكِّنوهُ منَ الذّهابِ إلى الرّسولِ ليسمَعَ كلامَهُ، ويطلبونَ الزَّيغَ والضَّلالَ لسبيلِ اللّه[1].

براعةُ التّعبيرِ بين الحقيقةِ والمجازِ، في جملة: ﴿مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ﴾:

يحتملُ قولُه تعالى: ﴿وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ أن يكونَ على الظّاهرِ، بمعنى: تطلبونَ الزَّيغَ والضَّلالَ لمَنْ يطلبُ الإيمانَ، بإلقاءِ الشُّبهِ على المؤمنين، أو وَصْفِ السَّبيلِ للنّاس بأنَّها معوَجَّةٌ، ويحتملُ أن يكونَ على سبيلِ المجاز تهكُّمًا بهم؛ أي: إنَّهم يطلبون لسبيلِ اللّه ما هو محالٌ؛ لأنّ طريقَ الحقِّ لا يَعوَجُّ[2].

طريقُ الحقِّ لا اعوجاجَ فيه؛ لأنّه طريقُ اللهِ المستقيمُ

مناسبةُ الحديث عن تكثير العدد:

في قوله سبحانه ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ﴾، ذكّر نبيُّ اللّه شعيبٌ عليه السلام قومه بتكثير اللّه تعالى لعددهم حيث صاروا عددًا كثيرًا في زمنٍ لا يُعهَدُ في مثلِه مصيرُ أمَّةٍ إلى عددِهم، فقابلوا نعمةَ تكثيرهم بكفرانِها لا بشكرِها؛ بالسّعي إلى تقليل المؤمنين، بمنعِهم أو بمنع مَن يريدُ الإيمانَ منَ الدّخول في دين اللّه، عن طريقِ تهديدهم وصدّهم عن سبيلِ اللّه كفرانًا منهم، ففيه تعجيبٌ من حالِهم، وزيادةٌ في تقبيحِ فعلِهم، وإشعارٌ بكفرانِهم لنعمةِ اللّه عليهم بأنْ كثّرهم، وليقابلوا هذه النّعمة باعتبار نقمته تعالى، مِنَ الّذين غضب عليهم، إذِ استأصلهم بعد أن كانوا كثيرًا، فذلك من تمايزِ الأشياء بأضدادها، فلذلك أعقبه بقوله: ﴿وَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾[3].

السّعيُ إلى تقليلِ المؤمنين معصيةٌ عظيمةٌ

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/315، والبيضاوي، أنوار التّنزيل: 3/23، والقونويّ، حاشية على تفسير البيضاويّ: 8/443.

(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/128، والفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/315، والبيضاوي، أنوار التّنزيل: 3/23.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/248.

سرُّ التّعبيرِ بـ ﴿إِذْ﴾ في قوله: ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا﴾:

التّذكيرُ بالحال الماضي، أكبرُ مُعينٍ على الاعتبار والشّكر

يحتملُ ﴿إِذْ﴾ أن يكونَ مفعولًا لـ ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ﴾، والتَّقدير: واذكروا على جهةِ الشُّكرِ وقتَ كونِكم قليلًا فَكَثَّرَكُم اللّٰه؛ ليفيدَ المبالغةَ في المعنى، للأمرِ بذكرِ وقتِ النّعمة المقتضي تعظيمَها، لأنّها حالَّةٌ فيه، ويحتملُ أن يكونَ ظرفًا، والتَّقديرُ: واذكروا النّعمةَ وقتَ كونِكم قليلًا فكثّركم اللّٰهُ، ولمّا كانَ الظّرفُ ﴿إِذْ﴾ في مثل هذا السّياقِ يدلُّ على تعظيم شأنِ ما يُذكَرُ بعدَه، ويُشعِرُ بالتّعليلِ، دلَّ على الاهتمامِ بشأنِ هذه النّعمة العظيمة الّتي كانوا يحتاجونها، وأنَّ وجودَها سببٌ لِذكرِها ووجوبِ شكرِها، فيكون المرادُ اشكروا اللّٰه بالإيمان باللّٰه والامتثال لأمر رسولِه، بفعل الطّاعاتِ والبعد عنِ المعاصي؛ لأنّكم كنتم قليلًا فكثّركم[1].

نكتةُ التّعبير بقوله: ﴿فَكَثَّرَكُمْ﴾:

تنوّعُ معنى التّكثير في مقابل تنوّع معنى التّقليل

لمّا كان قولُه: ﴿قَلِيلًا﴾ يحتملُ أن يكونَ في الكمِّ أو الكيفِ؛ أي: في العددِ أو في العدّة أو في الضّعفِ، ولا تقاطعَ بينها، دلَّ على أنَّ لفظَ ﴿فَكَثَّرَكُمْ﴾ يفيدُ تكثيرَ عددِكم بعدَ القلَّة، وتكثيرَكم بالغنى بعدَ الفقر، وتكثيرَكم بالقوّة بعدَ الضَّعف، ووجه ذلك أنّهم إذا كانوا فقراءَ أو ضعفاءَ، فهم بمنزلةِ القليلِ، في أنَّه لا يحصلُ من وجودِهم قوَّةٌ وشوكةٌ، فأمّا تكثيرُ عددِهم بعد القلَّةِ فهو بما وُلِدَ لهم حتَّى كثُرَ عددُهم، ويفيدُ طولُ أعمارِهم، تكثيرًا للنِّعَمِ وتأكيدًا لها[2].

مجازُ التّعبيرِ في قوله: ﴿وَٱنظُرُواْ﴾:

الأمرُ على معنى التّهديد والتَّخويف، ففيه تهديدٌ لهم، وتذكيرٌ

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/128، والفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/315، والبيضاوي، أنوار التّنزيل: 3/23، وأبو حيّان، البحر المحيط: 5/108، والسّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 5/387، ورشيد رضا، تفسير المنار: 8/476.

(2) الزّجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 2/355، والماتريديّ، النّكت والعيون: 2/239، وأبو حيّان، البحر المحيط: 5/109.

بعاقِبَةِ مَن أفسدَ قَبلَهم، وتمثيلٌ لهم بمَن حلَّ به العذابُ، مِن قوم نوحٍ وهودٍ وصالحٍ ولوطٍ، وكانوا قَريبي عهدٍ بما أصاب المُؤتَفِكَةَ، والمعنى: فاعتبروا بهم؛ أي: لما يفيدُه الأمرُ بالنّظر[1].

النّظرُ يحقّقُ الاعتبارِ، ويفضي إلى الإيمان والادّكار

بلاغةُ التّعبير في قوله: ﴿وَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾:

الأمرُ بالنّظر والاعتبارِ، وإن كانَ المقصودُ منه الكافرون من قوم شعيبٍ ابتداءً، ولكن فيه تذكيرٌ للمؤمنين منهم بنعمة الله، فإنَّها تشملُهم وبالاعتبار بمَن مضَوا فإنَّه ينفعُهم[2].

الأمرُ بالاعتبار للكافرين وللمؤمنين

التّعبيرُ بـ ﴿كَيۡفَ﴾ لانتظام عمومِ الأحوالِ فيه:

عبّرَ بـ ﴿كَيۡفَ﴾؛ لتركِ التَّفصيلِ دلالةً على المعنى بلفظٍ واحدٍ على سبيلِ العمومِ، احترازًا عنِ التّطويل، لأنَّه يورثُ الملَلَ، ولأنَّه غيرُ وافٍ بالحصرِ ولاختلافِ الأحوالِ باختلافِ المقامِ، فكان التّعبيرُ بلفظٍ يعمُّ جميعَ الأحوالِ أوفقَ بالمقامِ، فجاءَ الاستفهامُ المجازيُّ على سبيل التّهويلِ، والتّخويفِ، والتّعجيبِ ممّا أصابهم.

التّعبيرُ بلفظٍ يعمُّ جميعَ الأحوالِ أوفقُ بالمقامِ

سِرُّ الدّعوة إلى النّظر في عاقبة المفسدين:

في قوله تعالى: ﴿وَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾، تعريضٌ بالوعيدِ للمشركين وقتَ نزولِ القرآن، ومَن يأتي بعدَهم بسوءِ العاقبةِ، إنِ استمرّوا على شركِهم وإفسادِهم؛ ليحذروا من أن يصيبَهم مثلُ ما أصابَ الكافرين قبلَهم، وفيه تعريضٌ بالوعد للمسلمين كذلك، وبالتَّسلية لهم على ما يلاقونه من مفسدي أهلِ الشِّركِ؛ لانطباق حالِ الفريقين على حال الفريقين من قوم شعيبٍ[3] عليه السلام.

تعميمُ خطابِ اللهِ تعالى للنّاسِ جميعًا

دلالةُ التّعبير بلفظِ ﴿ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾:

لمّا كان الفسادُ منَ المعاني العامّةِ المذمومةِ، ولم يُؤْتَ لـ ﴿ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾

(1) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/23، وأبو حيّان، البحر المحيط: 5/109، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/284، والقونويّ، حاشية على تفسير البيضاويّ: 8/443.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/249.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/249.

الإفسادُ يكون في النّفوسِ، والمجتمعِ، والصّدِّ عن دينِ الله

بمتعلَّقٍ، دلَّ على أنَّ المرادَ بـ ﴿ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ عمومُ الإفسادِ، فيشمل الّذين أفسدوا أنفسَهم بعقيدة الشّرك، وبأعمال الضّلال، وأفسدوا المجتمعَ ببخسِ النّاس أشياءهم ومخالفةِ الشّرائع، وأفسدوا النّاسَ بإمدادهم بالضّلال، وصدّهم عن الهدى، ولمّا قطعَ لفظَ ﴿ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ عنِ المتعلَّق اعتُبِرَ صفةً مشبّهةً، وقُطِعَ عن مشابهةِ الفعلِ؛ ليفيدَ معنى ثباتِ وصفِ الفسادِ والإفسادِ لهم؛ أي: عرفوا بفسادِهم في أنفسِهم، وإفسادِهم غيرَهم[1]، وفي التّعبير باسم الفاعِلِ إشعارٌ بارتكابِ المنهيّ، في قوله: ﴿وَلَا تُفْسِدُواْ فِي ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا﴾، كما أنّ في التّعبير به إلاحةٌ إلى سوء العاقبة، وسببها.

بلاغةُ عطف الفعل (انظُرُوا) على (اذكُرُوا):

الحملُ على الطّاعة بطريق التّرغيب أوّلًا ثمّ التّرهيب ثانيًا

بدأ بالتّرغيب في قوله: ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ﴾، ثمّ عطفَ عليه التّرهيب بقوله: ﴿وَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾، فقُصِدَ بالأمرِ بـ ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ﴾؛ أنَّهم إذا تذكَّروا نعمَ اللّهِ عليهم انقادوا وأطاعوا، وبقوله: ﴿وَٱنظُرُواْ﴾؛ أنَّهم إذا عرفوا أنَّ عاقبةَ المفسدينَ المتمرِّدينَ ليست إلّا الخزيَ والنَّكالَ، احترزوا عنِ الفسادِ والعصيانِ، وأطاعوا فكانَ المقصودُ من هذين الكلامين حملَهم على الطّاعةِ بطريقِ التَّرغيبِ أوَّلًا، والتَّرهيبِ ثانيًا[2].

المتشابهُ اللّفظيُّ:

التّفريقُ بين قعودِ الشّيطانِ على الصّراطِ، وقعودِ الكافرين

جاء في سورةِ الأعرافِ حكايةً عنِ الشَّيطانِ قولُه تعالى: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝١٦﴾ [الأعراف: 16]، وقال هنا في دعوة شعيب لقومِه: ﴿وَلَا تَقْعُدُواْ بِكُلِّ صِرَٰطٍ﴾، وبيانه: أنّه لمّا كان الشَّيطانُ هو الشّرَّ، ويريدُ إغواءَ بني آدم كلِّهم بأنواعِ الإغواء كلِّها، تعدّى الفعلُ (قعدَ) إلى الصِّراط؛ ليفيدَ عمومَ الإغواءِ، ولمّا كان شعيبٌ عليه السلام، يريدُ نهيَ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/249.
(2) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/315.

قومِه عن مخالفاتٍ معيّنةٍ اعتادوا عليها، تعدّى الفعلُ بالباء الّتي تفيدُ الملاصقةَ والظّرفيّةَ؛ لتدلَّ الباءُ على بعضِ المخالفات.

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(سبيل) و(طريق):

السَّبيلُ فيه معنى القصد معَ الرَّغبة، والطّريقُ هو المسلكُ المطروقُ عادةً

المعنى المحوريّ للسّبيل امتدادٌ إلى أسفل مع اتّصال، كالثّياب الممتدّة إلى الأرض، والمطرُ يبدو خيوطًا ممتدّةً منَ السّحاب إلى الأرض"[1]، "والطّريق: ما بين السِّكَّتَين منَ النّخل، ومنَ الطّريق أُخِذتِ الطّريقةُ: السّيرةُ والمَذهبُ"[2]، ولم يقلْ هنا طريقَ اللّهِ، ولا صراطَ اللّهِ، لِما في لفظِ السَّبيلِ من معنى القصدِ لمَن يسلكُه، والشّروعِ فيه معَ الرَّغبة[3]، ولمّا كان السَّبيلُ بمعنى: الطّريق الّذي فيه سهولة[4]، دلَّ النّهيُ على قبحِ ما يفعلونه، مِن صدِّ مَن آمنَ حينَ يقصِدُ سلوكَ سبيلِ اللّهِ، ويشرعُ فيه على سبيلِ المحبَّة، وفي التّعبير توبيخٌ لهم إذ لم يسلكوا سبيلَ اللّه السّهلَ بل صدّوا عنه.

(تبغونها) و(تريدونها):

البغيُ ظلمٌ وعدولٌ عنِ الحقّ، والإرادةُ عزمٌ وقصدٌ ورجاءٌ

"المعنى المحوريّ للبغي: تزايدُ الشّيءِ نموًّا وقوّةً، أو توصّلًا لاكتمال حاله، وبغى عليهم عدل عنِ الحقّ واستطال"[5]، فالبغيُ طلبٌ على وجه الظّلم والتّجاوز، والعدولُ عنِ الحقّ، لذا هو المناسبُ لهذا السّياق بقرينة ما قبل الفعل وما بعده من قوله: ﴿عِوَجًا﴾، والإرادةُ عزمٌ وقصدٌ وتمنٍّ.

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (سبل).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (طرق).
(3) العسكري، الفروق اللّغويّة، ص: 298.
(4) الرّاغب، المفردات: (سبل).
(5) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (بغو، بغى).

﴿وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمۡ ءَامَنُواْ بِٱلَّذِيٓ أُرۡسِلۡتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ فَٱصۡبِرُواْ حَتَّىٰ يَحۡكُمَ ٱللَّهُ بَيۡنَنَاۚ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ٨٧﴾

[الأعراف: 87]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

إفسادُ الكافرينَ لا يستمرُّ، والله يَجْري حكمُه في مآل البشر

لمّا حذّرَ الكافرين وخامةَ الفسادِ الّذي نهاهم عنه، رجعَ إلى خطابِ جميعِ القومِ؛ لتثبيتِ المؤمنين، وليكونَ تسليةً لهم، وليبيِّنَ أنَّ إفسادَ الكافرين لا يستمرُّ، فيكون زجرًا لهم[1]، وأيضًا لمّا رغّبَهم ورهّبهم في الآية السّابقة، أكّد هذا التّرغيبَ والتّرهيبَ بالأمر بالصَّبر، حتّى يحكمَ اللّهُ قريبًا بين الجميعِ؛ ليكونَ وعدًا للمؤمنين ووعيدًا للكافرين[2].

المعنى الإجْماليُّ:

حُكْمُ اللهِ هو الفاصلُ بينَ الحقِّ والباطلِ

مفادُ الآية، أنّ اللّه يقول: وإن كان جماعةٌ منكم صدّقوا بالّذي أرسلني اللّهُ به من إفرادِه بالعبادةِ، وتركِ الفسادِ في الأرضِ، وجماعةٌ أخرى لم يصدِّقوا بذلك فانتَظِروا حُكمَ اللّهِ وقَضاءَه الفاصِلَ بيننا في هذه الدّنيا أو في الآخرة، واللّهُ خيرُ الحاكمين، فلا معقِّبَ لحكمِه ولا حيفَ فيه[3].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

نكتةُ مجيء أداة الشّرط ﴿وَإِن﴾ على خلافِ مقتضى الظّاهر:

أمرُ الإيمانِ وانتفاؤُه راجعٌ إلى اللهِ تعالى

أورد الكلامَ على سبيل الفرض والاحتمال، وهو أسلوبٌ حجاجيٌّ بيّنٌ في الغلبة، وردِّ النّفوس إلى التّعقّلِ، وقد جاءَ على خلاف الظّاهرِ

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/315.
(2) النّيسابوريّ، غرائب القرآن: 3/286.
(3) ابن جرير، جامع البيان، والفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/315.

لأنّ حقيقةَ الأمرِ أنّ طائفةً آمنَت وأخرى كفرَت، والأولى تنتظرُ الوعدَ، والأخرى تنتظرُ الوعيدَ، والنّكتةُ فيه اقتضاءُ المقامِ التّجاهل لتعليق الأمرِ على حكم اللّه تعالى، والمعنى: إشعارُ المخاطبينَ أنَّ أمرَ الإيمان وانتفاءَه راجعٌ إلى اللّه تعالى، وأنّه هو الّذي يحكم بيننا، ويؤيّده مجيءُ ﴿حَتَّىٰ﴾ الدّالّة على حصولِ حكمِ اللّه بينهم في المستقبلِ القريب. وقد جاء كذلك أيضًا؛ للإيذانِ بأنّه ﷻ قد تحقّقَ من إيمانِ مَن آمنَ من قومِه، وكفرِ مَن كفرَ، وللإشعارِ بأنَّ المعنى: تبيَّن أنَّ طائفةً منكم آمنوا، وطائفةً لم يؤمنوا، فاصبروا، ويؤوّلُ المعنى: إنْ اختلفتم في تصديقي، فسيَظهرُ الحكمُ بأنّي صادقٌ، فكأنَّه أرجعَ كلَّ طائفةٍ إلى حكم اللّه؛ ليستبينَ صدقه ﷻ فيما أُرسلَ به[1]، ولمّا كانَ الإيمانُ مُقدَّمًا على الكفرِ، قُدِّمَ ذكرُ طائفةِ المؤمنين على طائفة مَنْ لم يؤمن؛ للإيذانِ بفضلِهم، وللحثِّ على إيمانِ مَنْ لم يؤمن.

نكتةُ التّعبيرِ بلفظ ﴿طَآئِفَةٌ﴾ دون ما يُقاربُها منَ الألفاظ:

الدّلالةُ على كثرة الطّائفتين، مع تنوّعِ المقاصد

لمّا كان لفظُ طائفةٍ يُطلَقُ على جماعةِ الخيرِ وجماعةِ الشَّرِّ، وكان اللَّفظُ يُطلَقُ على جماعةٍ فيهم كثرةٌ، بحيث يتحلّقون بمَن يريدون أفاد أنَّ مَن آمن معه كان فيهم كثرة، كما أنَّ طائفةَ مَن لم يؤمن كانت كثيرةً بالنّسبة إلى الأولى[2].

مناسبةُ مجيءِ الخبرِ جملةً فعليَّةً:

تـأكـيـدُ المعنى بـطـريـقِ تقويةِ الإسنادِ

جاء الخبرُ جملة فعليّة في قوله تعالى ﴿وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُواْ﴾، لَمْ يقُل: (وإنْ آمنتْ طائفةٌ منكُم ولم تُؤمنْ طائفةٌ)؛ لأنَّ في مجيء الإسنادِ بطريق المبتدأ، وخبرُه جملةٌ فعليّةٌ، تأكيدًا للمعنى وتقريرًا له؛ لمناسبةِ تقويةِ الحكم وتربيةِ الفائدة، بمجيء المسندِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/250.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/463، والقونويّ، حاشية على تفسير البيضاويّ: 8/444.

فعلًا، فالإسنادُ على نيَّةِ التّكريرِ لاستدعاء اسم كانَ (المبتدأ في الأصلِ)، أن يُسنَدَ إليه شيءٌ، فاكتسى الحكمُ على كلِّ طائفةٍ بما أُسنِدَ إليها، منَ الإيمانِ أو عدمِه قوَّةً وثباتًا في المعنى[1].

نكتةُ ذِكْر القيد (مِنكُم):

إيمانُ طائفةٍ منَ القومِ حجَّةٌ على البقيّة

في قوله تعالى ﴿وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُواْ﴾، جاء الجار والمجرور ﴿مِّنكُمْ﴾ صفةً لـ ﴿طَآئِفَةٌ﴾، ولمّا كانت صفةُ النَّكرةِ على معنى التّخصيص، دلَّ على أنَّ المرادَ طائفةٌ منكم يعيشون معكم، وهم من نسبِكم، وليس من غيرِكم، قد آمنوا بالّذي أُرْسِلْتُ به؛ ليفيدَ التّعجيبَ من كفرِهم، والمقصودُ ليس العيبَ فيما أُرْسِلْتُ به؛ لإيمانِ طائفةٍ منكم به، بلِ العيبُ فيكم.

نكتةُ التّعبيرِ بالموصول وصلته:

شريعةُ الأنبياء واضحةٌ معلومةٌ لجميعِ النّاس

عُبِّرَ بالاسم الموصول وصلتِه في قوله: ﴿بِٱلَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ﴾؛ لبيان أنّهم اتّصفوا بالإيمانِ لإيمانِهم بالّذي أُرسِلَ به، ولمّا كانت صلةُ الموصول معلومةَ الانتساب عند المتخاطبين، دلَّ على أنَّ الطّائفتينِ كانوا عالمينَ بما أُرسِلَ به شعيب عليه السلام، من أمور التّوحيدِ، وما دعا إليه من شرائع الدّين، ففي التّعبير بالاسم الموصول إيجازٌ، ودلالةٌ على تمام البلاغ لمعرفة المبلّغين به، فالتّعبيرُ بالاسم الموصول أعمُّ وأبلغُ من أن يقولَ: (وإن كان طائفةٌ منكم آمنوا بي)[2]، لما يتضمّنه الكلامُ منَ الإيمان بالمرسِل والرّسالة المُرْسَلِ بها، ولِما يفيده الاسمُ الموصولُ وجملةُ الصّلةِ منَ المبالغةِ؛ لإحضارِه في ذهنِ السّامعِ، بوساطة جملة الصّلة المعلومة الانتساب إلى مشارٍ إليه معيّنٍ، لزيادة تقريرِ أمرِ الرّسالة وشرائعِها[3].

(1) السّكاكيّ، مفتاح العلوم، ص: 217 - 221.
(2) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاويّ: 8/444.
(3) السّكاكيّ، مفتاح العلوم، ص: 181.

نكتةُ التّعبيرِ بالفعل المبنيّ للمفعول ﴿أُرۡسِلۡتُ﴾:

التّعبيرُ بصيغة المبنيّ للمفعول؛ لظهورِ الفاعل ومعرفتِه

عُبِّرَ بصيغة المبنيّ للمفعول، في قوله تعالى: ﴿أُرۡسِلۡتُ بِهِۦ﴾؛ للإشعارِ بأنَّ الفاعلَ معروفٌ بما تقدَّم منَ السِّياقِ، وأنَّه صار بحيثُ لا يتطرَّقُ إليه شكٌّ، لِما نصبَ منَ الدّلالاتِ[1].

سرُّ التّعبير بطباق السّلب:

تمايزُ كلّ طائفة، يغري باستنطاق الحقّ وبيانه

ورد طباقُ السّلب في ﴿ءَامَنُواْ﴾ و﴿لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ﴾؛ لتنبيه المخاطَبين إلى أنَّ افتراقَ الطّائفتين، إنّما كان في الإيمانِ بالّذي أُرسِلَ به شعيبٌ عليه السلام، وليس في أمرٍ آخرَ، والطّباقُ أسلوبٌ بديعٌ في التّفريق بين المختلفات، وتمييز الأشياء بعضها عن بعض، فهما نوعان متمايزان.

بلاغةُ الإيجاز بحذف المتعلّق:

مَن لم يؤمنْ بجزءٍ من أصولِ الإيمان كان كَمَن انتُفِي عنه الإيمانُ

لمّا ذكرَ في القسم الأوّل قوله: ﴿ءَامَنُواْ بِٱلَّذِيٓ أُرۡسِلۡتُ بِهِۦ﴾ دلَّ على أنَّه عينُ المحذوف في مقابله، والتّقدير: ﴿وَطَآئِفَةٌ لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ﴾ بما أُرسِلت به، فحذَفَ المتعلّق للإيجاز، وللإشعارِ بأنَّ مَن لم يؤمن بما أُرسِلَ به حقيقٌ أن ينتفيَ عنه الإيمانُ مُطلَقًا، وكأنّه شاكل بين انتفاء إيمانهم بالرّسالة في الواقع، فبني النّظمُ على عدم وجوده أيضًا.

فِعلُ ﴿فَٱصۡبِرُواْ﴾ بين الحقيقة والمجاز:

السّياقُ يؤثّرُ في الدّلالة ويعزّزُ المعنى

لمّا كان الأمرُ بالصّبرِ هنا لِمَن آمن، ومَن لم يؤمن، دلَّ على تضمّنِ الفعلِ الحقيقةَ والمجازَ بلفظٍ واحدٍ، فأمّا الحقيقةُ فهي الأمرُ بالصّبر على الإيمان والثّبات عليه، للطّائفة المؤمنة حتّى يحكمَ اللّهُ، فيكون في الأمر معنى الوعدِ للمؤمنين، وأمّا المجازُ فهو في دلالة الأمر على قوّة الوعيدِ والتّهديدِ، للطّائفة الّتي لم تؤمن، بانتقام اللّه منهم، فليس هذا أمرًا بالمقام على الكفر للطّائفة الّتي لم تؤمنْ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/463.

بالّذي أُرسِلَ به شعيبٌ[1]، وذهب بعض المفسّرين إلى أنَّ المعنى: ليصبرِ المؤمنون على أذى الكفّار، وليصبرِ الكفّارُ على ما يسوؤهم من إيمانِ مَن آمن منهم، وذهب آخرون إلى أنَّ الخطابَ مختصٌّ بالكافرين؛ أي: فاصبروا أيّها الكافرون، وتربّصوا، فيكون وعيدًا بانتقام اللّه منهم[2].

بلاغةُ التّعريض:

التّعريضُ بالوعيدِ لِلكافرين، وبالوعدِ للمؤمنين

في قوله: ﴿فَٱصۡبِرُواْ حَتَّىٰ يَحۡكُمَ ٱللَّهُ﴾ تعريضٌ بالكافرين وقت نزول القرآن، وفي كلِّ زمانٍ ووعيدٌ لهم، وفيها وعدٌ للطّائفة المؤمنة الّتي مع سيّدنا محمّد ﷺ، وحثٌّ لهم على الصّبر على ما يلحقُهم من أذى الكافرين إلى أن يحكمَ اللّهُ قريبًا بمقتضى العدل والحكمة، وهو خيرُ الحاكمين.

دلالةُ التّعبير بـ ﴿حَتَّىٰ﴾، في قوله: ﴿حَتَّىٰ يَحۡكُمَ ٱللَّهُ﴾:

تحديدُ الغاية تحقيقٌ للوعيد والتّهديد

تفيدُ (حتَّى) انقضاءَ الوقتِ شيئًا فشيئًا، إلى حدِّ انتهاء الغاية، والمعنى على الانتظارِ، والإمهالِ في الزّمن القريب، وتحديدُ الغاية يكشفُ عن تمكّنِ المُهدِّد الموعد ممّا هدّدَ به وتَوَعّدَ.

بلاغةُ التّغليبِ في قولِه: ﴿بَيۡنَنَا﴾:

المرادُ من لفظ ﴿بَيۡنَنَا﴾ جميعُ المخاطبين، من مؤمنٍ وكافرٍ

عُبِّرَ بالضّمير (نا) على وجه تغليب ضمير المتكلّمين على المخاطبين، في قوله: ﴿بَيۡنَنَا﴾، من قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَحۡكُمَ ٱللَّهُ بَيۡنَنَا﴾، إذِ المرادُ بيننا جَميعًا من مؤمنٍ وكافرٍ[3]، ولولا التّغليبُ لاحتاج النّظمُ لزيادة (بينكم)، لكنّ التّغليبَ جاء على الإنصاف لاشتراك النّوعين في الانتظار، هذا ينتظرُ تحقيقَ الوَعد، والآخر ينتظرُ تحقيقَ الوَعيد.

---

(1) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/23، وأبو حيّان، البحر المحيط: 5/109، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 7/463، وابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 9/214، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/248.

(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/128، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/427، والفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/315.

(3) ابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 9/214.

سرُّ عدمِ ذكرِ توقيتِ وقوعِ حكم الله:

في إخفاء زمن الموعود والمهدّد به، زيادةُ تشويق، وزيادةُ تخويف

ذكرَ المُنتَظَرَ، ولم يذكر زمنَ وقوعِه ﴿حَتَّىٰ يَحۡكُمَ ٱللَّهُ بَيۡنَنَاۚ﴾، مع أنَّ الخطابَ على معنى الوعدِ للمؤمنين، والوعيدِ للكافرين، ليبقى المؤمنون متشوّقين لإظهارِ أمرِ الإيمان، ويبقى الكافرون خائفين مرهوبين من نزولِ العذابِ بهم؛ لعلمِهم بصدقِ الرّسول، والمعنى: حتّى يحكُمَ اللّهُ بيننا بنصرِ المحقّين على المبطلين، والمرادُ من وقوعِ حكمِ اللّه إعلاءُ درجاتِ المؤمنين وإظهارُ هوانِ الكافرين، وهذه الحالة قد تظهر في الدّنيا، فإنْ لم تظهرْ في الدّنيا، فلا بدَّ من ظهورها في الآخرة[1].

دلالةُ لفظ ﴿خَيۡرُ﴾ بين الوصف والتّفضيل:

الخيرُ في حكمِ اللهِ، ولا خيرَ في حكمِ غيرِه

يحتمل لفظُ ﴿خَيۡرُ﴾ في قوله: ﴿وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ﴾، أن يكونَ وصفًا، وهو الظّاهر، بمعنى: الخيرُ في حكمِ اللّهِ، ولا خيرَ في حكمِ غيرِه، فمَن وافقَ حكمُه حكمَ اللّهِ دخلَ في الخيريّة، ويحتملُ أن يكونَ اسمَ تفضيلٍ، على معنى: حكم اللّه تعالى أفضلُ ممّا يقعُ في الظّاهر من خيرٍ في حكم غير اللّه، وهو في الحقيقةِ راجعٌ إلى الأوّل.

سرُّ وقوعِ الضّميرِ العائدِ على الاسم الجليل ﴿ٱللَّهُ﴾:

خيرُ الحاكمين واحدٌ لا ثانيَ له، وهو الله سبحانه

ذكرَ المسندَ إليه بالضّمير العائد على الاسم الجليل؛ تأكيدًا أنّه لا يفصلُ في الحكم في الآخرة سواه، ولتفرّده سبحانه بهذا الوصف، ذكر بالضّمير؛ لبيان أنّه واحدٌ في هذه الصّفة، وأنَّ الاسمَ الجليلَ الجامعَ لصفاتِ الجلالِ والكمالِ، هو الّذي اقتضى أن يكونَ ﷻ خيرَ الحاكمين؛ لأنَّه يفصلُ النِّزاعَ على أتمِّ وجهٍ وأحكمِه[2].

دلالة الاسميّة، في قوله: ﴿وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ﴾:

لم يقُل: (حتّى يحكم اللّه خيرُ الحاكمين)، فيُتوهّم أنَّ الكلامَ

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/315، والبيضاوي، أنوار التّنزيل: 3/23.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/463.

التَّعبيرُ بالجملةِ الاسـميَّـةِ هنا أوفـى في تـأديـةِ المعنى وإصابـةِ محزِّ البلاغة

يكونُ أخصرَ وأوجزَ بالوصفِ؛ لأنَّ التَّعبيرَ بالجملةِ الاسميَّةِ هنا أوفى في تأديةِ المعنى وإصابةِ محزِّ البلاغة، لِما يقتضيه المقامُ، وبيانُه في مسألتين:

أوّلًا: أنّه لمّا عُبِّرَ بصيغة المضارع ﴿يَحۡكُمَ﴾ المفيد تجدّدَ ظهورِ حكمِه في كلِّ حادثةٍ متجدّدةٍ، دلَّ مجيءُ الجملةِ الاسميّةِ الدّالّةِ على ثبوتِ مضمونِها، أنّه تعالى خيرُ الحاكمين في كلِّ حادثةٍ يحكمُ بها.

ثانيًا: إذا حُمِلتِ الواو على الاستئناف تكون الجملةُ المستأنفةُ على معنى تأكيدِ ما قبلها، لصحّة مجيء المستأنفة على معنى التّأكيد.

بلاغةُ التّذييل بقوله: ﴿وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ﴾:

تـقـريـرُ المعـاني وتأكيدُها كاشفٌ عن أهمّيّتها

من فوائد بلاغةِ التّعبيرِ بالجملة الاسميّة الحاليّة كذلك، استقلالُها بفائدةٍ جديدةٍ غير منقطعةٍ في المعنى عنِ الّتي قبلها، وجاءتِ الجملةُ بطريقِ التّذييل لفوائدَ لغويّةٍ، منها؛ أوّلًا: أنّها تفيدُ معنى عامًّا كلّيًّا؛ أي: في كونِه تعالى خيرَ الحاكمين في كلِّ واقعةٍ يظهرُ حكمُه فيها، إذ لا مُعقِّبَ لحكمه، ولا حَيفَ فيه[1]. ثانيًا: أنّها تفيدُ تقريرَ ما تقدّمها منَ المعاني في الآية[2]. ثالثًا: أنّها تفيدُ الثَّناءَ على اللّهِ تعالى، بأنَّ حُكمَه عَدلٌ محضٌ، لا يَحتمِلُ الظُّلمَ عمدًا ولا خَطَأً[3]. رابعًا: أنّه لمّا كان اللّهُ تعالى خيرَ الحاكمين، دلَّ على أنَّه يخصُّ المؤمنَ التّقيَّ بالدّرجات العالية، والكافرَ الشّقيَّ بأنواع العقوبات[4].

(1) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/23.
(2) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاويّ: 8/444.
(3) السّكاكيّ، مفتاح العلوم، ص: 274، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/251.
(4) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/315.

المحتويات

الجزء الثامن 7

سورة الأعراف 9

- [الأعراف: 14 - 15] 10
- [الأعراف: 16 - 17] 18
- [الأعراف: 18] 31
- [الأعراف: 19] 37
- [الأعراف: 20] 48
- [الأعراف: 21] 57
- [الأعراف: 22] 61
- [الأعراف: 23] 74
- [الأعراف: 24] 84
- [الأعراف: 25] 95
- [الأعراف: 26] 102
- [الأعراف: 27] 119
- [الأعراف: 28] 135
- [الأعراف: 29] 147
- [الأعراف: 30] 160
- [الأعراف: 31] 169
- [الأعراف: 32] 181
- [الأعراف: 33] 198
- [الأعراف: 34] 211
- [الأعراف: 35 - 36] 222
- [الأعراف: 37] 238
- [الأعراف: 38] 254
- [الأعراف: 39] 270
- [الأعراف: 40] 278
- [الأعراف: 41] 290
- [الأعراف: 42] 297
- [الأعراف: 43] 306
- [الأعراف: 44] 321
- [الأعراف: 45] 341
- [الأعراف: 46] 353
- [الأعراف: 47] 365
- [الأعراف: 48] 374
- [الأعراف: 49] 385
- [الأعراف: 50] 396
- [الأعراف: 51] 407
- [الأعراف: 52] 422
- [الأعراف: 53] 432
- [الأعراف: 54] 452
- [الأعراف: 55] 468
- [الأعراف: 56] 478
- [الأعراف: 57] 487
- [الأعراف: 58] 508
- [الأعراف: 59] 528
- [الأعراف: 60] 539
- [الأعراف: 61] 547
- [الأعراف: 62] 554
- [الأعراف: 63] 565
- [الأعراف: 64] 577
- [الأعراف: 65] 590
- [الأعراف: 66] 595
- [الأعراف: 67] 601
- [الأعراف: 68] 605
- [الأعراف: 69] 612
- [الأعراف: 70] 627
- [الأعراف: 71] 638
- [الأعراف: 72] 650
- [الأعراف: 73] 657
- [الأعراف: 74] 671
- [الأعراف: 75 - 76] 690
- [الأعراف: 77] 705
- [الأعراف: 78 - 79] 716
- [الأعراف: 80] 731
- [الأعراف: 81] 741
- [الأعراف: 82] 749
- [الأعراف: 83] 758
- [الأعراف: 84] 764
- [الأعراف: 85] 769
- [الأعراف: 86] 784
- [الأعراف: 87] 796

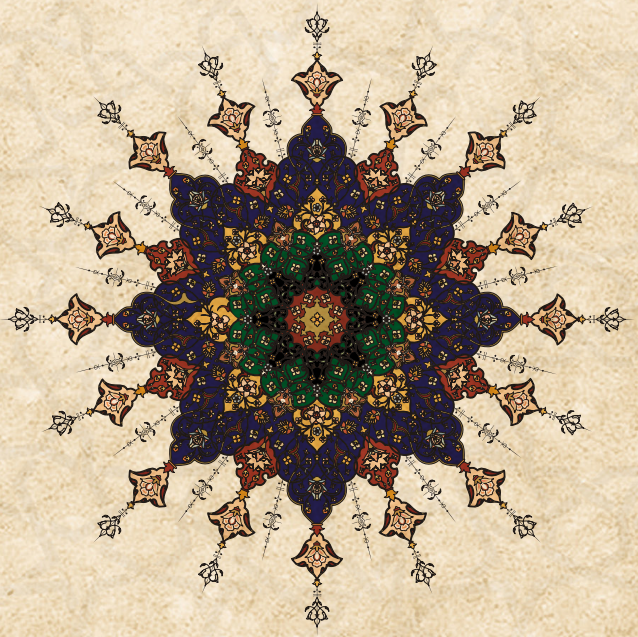

مجمع القرآن الكريم بالشارقة

موسوعة التفسير البلاغي

المُجَلَّدُ الرَّابعَ عَشَرَ

سورة الأعراف من الآية 88 إلى الآية 163

موسوعة التفسير البلاغي

Government of Sharjah حكومة الشارقة
مجمع القرآن الكريم بالشارقة
HOLY QURAN ACADEMY IN SHARJAH

موسوعة التفسير البلاغي

المُجلَّدُ الرَّابعَ عَشَرَ

سورة الأعراف من الآية 88 إلى الآية 163

نُخبَةٌ مِنْ عُلَماء مَجمَعِ القُرآنِ الكَريمِ بِالشّارِقَةِ

منشورات القاسمي
AL QASIMI PUBLICATIONS
20/24

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الرابع عشر، سورة الأعراف من الآية 88 إلى الآية 163
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الرابع عشر، سورة الأعراف من الآية 88 إلى الآية 163 [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 14 ، 800 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-10-4
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 14 : المجلد الرابع عشر، سورة الأعراف من الآية 88 إلى الآية 163.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث ج- المستغانمي، امحمد صافي

الترقيم الدولي : 978-9948-768-10-4
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-0402725 بتاريخ 2023/12/30م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الجُزْءُ التَّاسِعُ

سُورَةُ الأَعْرَافِ

﴿ قَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ لَنُخۡرِجَنَّكَ يَٰشُعَيۡبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ مِن قَرۡيَتِنَآ أَوۡ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَاۚ قَالَ أَوَلَوۡ كُنَّا كَٰرِهِينَ ٨٨ ﴾ [الأعراف: 88]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

كراهةُ الحقِّ تقودُ إلى الاستِكبارِ والتَّعالي

كانت دعوةُ شعيبٍ الهاديةَ المُرشدةَ بعد أن بيَّن لهم الحُجَّةَ الدّالَّةَ على رسالته، ولقد آمن بعضُهم، وأعرضَ غيرُهم، فلمّا قرَّر تلك الكلماتِ وما فيها منَ الحقِّ الواضحِ؛ قال: رؤساؤهمُ المُسيطرون الَّذين استكبروا، وأنِفوا من تصديقِه وقَبولِ قولِه: لا بدَّ من أحدِ أمرين: إمّا أنْ نُخرجَك، ونُخرجَ أتباعك من هذه القَرْيَة، وإمّا أن تعودَ إلى ملَّتِنا[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلۡمَلَأُ﴾: منَ المِلْءِ، أي: ما أخَذَ الإناءُ منَ الماءِ، وشابٌّ مالئُ العينِ: إذا كان فخمًا حَسَنًا، والمَلأُ: أشرافُ الناس ووجوهُهُمْ[2]. أو: همُ الجَماعةُ منَ الناس يجتمعون ليتشاوَرُوا، ويتحادثُوا[3] أو: همُ الرؤساءُ والعِلْيَةُ، ومقدَّمُو القومِ الذين يُرجعُ إلى قولهم، وسُمُّوا بذلك؛ لأنَّهم مِلاءٌ بما يُحْتاجُ إليه[4]. والمَلَأُ أيضًا التمالُؤُ، والتَّعاونُ. مالأْتُ فلانًا على الأمر، أي: كنتُ معه في مشورته[5] ساعدته عليه، وظاهرتُه، وشايعتُه[6].

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/316، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 6/2899.
(2) الأزهري، تهذيب اللغة: (ملأ).
(3) الخليل، العين: (ملأ).
(4) ابن منظور، لسان العرب: (ملأ).
(5) الخليل، العين: (ملأ)، والصاحب ابن عباد، المحيط في اللغة، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفاظ: (ملأ).
(6) جبل، المعجم الاشتقاقي: (ملأ).

والملأُ في الآية المباركةِ: كبارهُم، وأشرافُهم، ورؤساؤُهم، وعِلْيَتُهمُ الذين اجتمع رأيُهم على إنكار رسالاتِ نبيِّ اللّه شعيبٍ عليه السلام ورفضِ دعوته.

2) ﴿ٱسۡتَكۡبَرُواْ﴾: "الكاف والباء والراء أصلٌ صحيح يدلُّ على خلاف الصِّغَرِ"[1]، و"كُبْرُ كلِّ شيءٍ: عِظَمُه"[2]، وهو نموُّ حجْمِ الشَّيء، أو زيادتُه بالنِّسبة لحجمه، أو لِحَجْمِ غيرِه، ثم كلُّ كبير، فهو كِبَرُ عِظَمٍ، أو كِبَرُ رياسة[3]. والاستكبارُ: التَّعظُّمُ، والتَّجبُّرُ، وبَطَرُ الحقِّ، والامتناعُ عن قَبولِه، معاندةً، وتكبُّرًا[4]. فهو إذًا الحالةُ التي يتخصَّص بها الإنسانُ من إعجابه بنفسه، وذلك أن يرى نفسَه أكبرَ من غيره، وأعظمُهُ التكبُّرُ على اللّه بالامتناع عن قَبول الحقِّ والإذعان له بالعبادة، والاستكبارُ يقال على وجهين: أحدهما أن يَطْلُبَ الإنسانُ أن يكون كبيرًا، والثاني أن يتشبَّع، فيُظْهِرَ من نفسه ما ليس له، أو يرى نفسه أكبرَ من غيره بما أنعم اللّه عليه من مال وجاهٍ، وهذا هو المذمومُ، وعليه ما ورد في القرآن الكريم[5].

وبه وبجماعِ ما حرَّرنا من معانٍ يُفسَّرُ معنى اللَّفظة في الآية المباركة، لإعجاب كبارِ القوم، ورؤسائِهم بأنفسهم، وتعظُّمِهم عنِ الإصغاء إلى الحقِّ معاندةً وتعاليًا، وتجبُّرِهم على ضعفاء قومِهم.

3) ﴿شُعَيۡبٗ﴾: "الشّين والعين والباء أصلان مختلفان أحدُهما يدلُّ على الافتراق، والآخرُ يدلُّ على الاجتماع"[6]. وشعيبٌ: اسمُ النَّبيِّ عليه السلام، وهو تصغيرُ شَعْبٍ، أو شِعْبٍ، وشَعبٌ الذي هو مصدر لشعبْتُ الشَّيءَ[7]، أمّا الشِّعْبُ؛ فهو أكبرُ من القبيلةِ، وقيل: الحيُّ العظيمُ يتشعَّب منَ القبيلة، وقيل: هو القبيلةُ نفسُها[8]، ويكون بمعنى الانتشارِ والتَّفرُّقِ والتَّفرُّعِ[9]. والشِّعبُ: ما انفرجَ بين الجبَلَين[10]، وشَعَبْتُ بينهم بالتَّخفيف: أصلحتُ، وكلُّ ما

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (كبر).
(2) الخليل، العين: (كبر).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقي: (كبر).
(4) ابن منظور، لسان العرب: (كبر).
(5) الراغب، المفردات، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفاظ: (كبر).
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (شعب).
(7) السمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (شعب).
(8) ابن سيده، المحكم: (شعب).
(9) جبل، المعجم الاشتقاقي: (شعب).
(10) ابن سيده، المحكم: (شعب).

ورد من معاني الاجتماع، والإصلاحِ يناسبُ معنى اسمِ نبيِّ اللّه شُعَيب ﷺ، فهو المُصلح، والدّاعي قومَه إلى الاجتماعِ والانقيادِ إلى رسالات ربِّ العالمِين.

4) ﴿ءَامَنُواْ﴾: الهمزةُ والميمُ والنّون أصلان أحدُهما: التَّصديقُ[1]. فالإيمانُ: التَّصديقُ، والطمأنينةُ، وزوالُ الخوف[2]، ويرادُ به إذعانُ النَّفس والانقيادُ للحقِّ على سبيل التَّصديق[3]. ومعنى اللَّفظة في الآية المباركة يتضمَّن هذه الدِّلالاتِ من حيث إنَّ أتْباعَ شعيبٍ ﷺ آمنوا به، وصدَّقوه، وانقادوا لما جاء به منَ الحقِّ، ونَصروه، ولم يخذلوه، فصَدَقَ عليهم وصفُ المؤمنين.

5) ﴿قَرْيَتِنَآ﴾: القاف والرّاء والياء، أصلٌ يدلُّ على جمعٍ واجتماعٍ، ومن ذلك سُمّيتِ القَرْيَةُ؛ لاجتماع النّاس فيها[4]. فالقَرْيَة: اسمٌ للموضع الذي يجتمع فيه النّاس، وأصلُه من قَرْيِ الماء، أي: جمْعُه[5]. والقَرْيَة منَ المساكن والأبنية: الضّياعُ، وقد تطلقُ على المُدُن، وهي كلُّ مكان اتَّصلتْ به الأبنيةُ، واتُّخِذ قرارًا منَ المدن وغيرِها[6]. وهو المعنى المرادُ في الآية المباركة، وقريةُ شعيب ﷺ هي (الأيْكَة) وهي (تبوك)[7].

6) ﴿لَتَعُودُنَّ﴾: "العَوْدُ: تثنيةُ الأمرِ عودًا بعد بدءٍ"[8]، وهو أصلٌ فيه[9]، فهو الرُّجوعُ إلى الشَّيء بعد الانصراف عنه إمّا انصرافًا بالذّات، أو بالقولِ والعزيمة[10]، وكثيرًا ما يأتي (عادَ) بمعنى (صار)[11]. وهذا المعنى لا يستدعي الرُّجوعَ إلى حالة سابقةٍ، بل يقتضي الانتقالَ إلى حالة مستأنَفةٍ[12]. وقد يُطلق العودُ، ويراد به الابتداءُ، وفُسِّرَ به لفظُ (العَود) في الآيتين (88 و89) من سورة الأعراف التي نحن بصددها، والمعنى: (لتدخلُنَّ)

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أمن).
(2) الخليل، العين، والأزهري، التهذيب، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفاظ: (أمن).
(3) الراغب، المفردات: (أمن).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قري).
(5) الراغب، المفردات: (قرى).
(6) ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث والأثر: (قري).
(7) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/6.
(8) الخليل، العين: (عود).
(9) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عود).
(10) الراغب، المفردات: (عود).
(11) الزمخشري، الفائق في غريب الحديث والأثر: 2/186.
(12) الكفويّ، الكليات، ص: 657.

و(دخلنا) في الآيتين[1]. والمعنيان الأخيران (الصَّيرورة، والابتداء) هما الأقربُ إلى تفسير لفظ العَود في الآية المباركة، وإن كان معنى الرُّجوع قد ارتضاه بعضُ المفسِّرين على معنى التَّغليب، وأنَّ المخاطَبَ قومُهُ لا هو[2]. وفي الخطاب أماراتٌ تمنع هذا الفهمَ، ومنها عطفُهم على ذكر النبي: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ﴾. فالظاهرُ أنَّه المعنيُّ أصالةً، وهمُ المَعنيّون بالتَّبعيَّة لما أنَّهم ظاهروه، واستجابوا له.

7) ﴿كَٰرِهِينَ﴾: الكاف والرّاء والهاء: أصلٌ صحيح واحد يدلُّ على خلاف الرضا والمحبَّة، والكُرْهُ: المشَقَّةُ، والكَرْهُ: أنْ تُكلَّفَ الشيءَ، فتعملَهُ كارِهًا[3]. وتكرَّه الشَّيءَ: تسخَّطَهُ، وفعلَه على تكارُهٍ[4]. فالكَرْهُ: المشقَّةُ التي تنالُ الإنسانَ من خارجٍ فيما يُحْمَلُ عليه بإكراهٍ. والكُرْهُ: ما ينالُ من ذاته، وهو يَعافُه، وهو على نوعين: أحدهما: ما يُعافُ من حيث الطَّبعُ، والآخرُ: ما يُعافُ من حيث العقلُ أوِ الشَّرعُ؛ ولهذا يصحُّ أن يقول الإنسانُ في الشَّيء الواحد: إنّي أريدُهُ، وأكرَهُهُ، بمعنى: أني أريدُه من حيث الطَّبعُ، وأكرهُه من حيث العقلُ[5]. وكُرْهُ شعيبٍ عليه السلام - لِما دعاه قومُه إليه - كُرْهُ طبعٍ، وكرْهُ عقلٍ، وكرْهُ شرعٍ، وهذا يناسبُ مقامَ اصطفائه نبيًّا، وتكليفِه بالرِّسالة.

المعنى الإجْماليُّ:

تكذيبُ المُستكبرين من قوم شُعَيبٍ عليه السلام له وتطاولُهم عليه

هذه أوَّلُ آيات محاورةِ الكافرين ومجادلَتِهم نبيَّ اللّه شعيبًا عليه السلام، وبيانِ عجْزهم، وضَعْفِ حجَّتهم، واجترائِهم عليه، باللُّجوء إلى منطق الوعيد والتَّهديدِ، وقوَّةِ الرَّدع؛ إذ قال جماعةُ الكبراء والرُّؤساء منهم الذين تجبَّروا، وعتَوا، وتمالَؤوا على الباطل، واستكبروا على

(1) الزبيدي، تاج العروس: (عود).
(2) الزمخشري، الكشّاف: 2/219، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفاظ: (عود).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (كره).
(4) الزمخشري، أساس البلاغة: (كره).
(5) الراغب، المفردات: (كره).

أهليهم، وعنِ الإيمان باللّه والانتهاءِ إلى أمره، والتَّسليم له باتِّباع نبيِّه المُرسَل هدايةً، ورحمةً، وإنكارِ رسالته التي بُعث بها وردِّ دعوتِه - لِلنَّبيِّ شعيبٍ عليه السلام وأتباعِه: لَنَطرُدَنَّكُم، أو لنُقْصيَنَّكم من بلدتنا، أو لَتَصيرُنَّ في شِرعتنا، وتدخلُنَّ في ديانتنا. وهو جواب المفحَم عنِ الحجَّة، والصّائرِ إلى الشدَّة، المُزدهي بالقوَّة، المُزدانِ بالكِبْرِ، المُتوقِّع كثرةَ المؤمنين بالنَّبيِّ، المُتحسِّب له[1]، فرَدَّ مُنْكِرًا مُتَعَجِّبًا: أوَ تُجْبِروننا، ولو كنّا كارهين لها لبطلانها ؟ أو رافضين للإخراج، أو المصيرِ إلى ما طلبتم ؟

وتهدي الآيةُ المباركة: إلى ذمِّ العِلْيَةِ المستكبرين المنكِرين للحقِّ المُصرّين على الباطل، الرّافضين للهداية، والرَّشاد، والموعظةِ الحسنة، المُتطاولين على مَنْ جاءهم مبشِّرًا ونذيرًا، وبيانِ سُنَّةٍ بشريَّةٍ قوامُها: أنَّ الظَّلَمَةَ والمتكبِّرين يجادلون بالباطل، وإنْ أعْيَتْهُمُ البراهينُ، وأفحمتْهُمُ الحُجَجُ، وبدلَ أن يُسلِّموا بالحقِّ، ويُذعنوا إليه، فيستريحوا، ويُريحوا؛ يَفزعون إلى القوَّة بطردِ أهلِ الحقِّ ونَفْيِهم، أو إكراهِهم على قَبول الباطل بالعذاب والنَّكال[2].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ الفصلِ في الآية:

قـولُ المُتعـالي المُستكبرِ قبيحٌ فظيعٌ مُستشنَع

﴿۞قَالَ ٱلۡمَلَأُ﴾ اسْتِئْنافٌ مَبنيٌّ على سُؤالٍ يَنْساقُ إليْهِ المَقالُ، كَأنَّهُ قيلَ: فماذا قالوا لشعيبٍ عليه السلام بَعْدَما سَمِعوا مِنهُ المَواعِظَ؟ فأُجيبَ: قالَ أشْرافُ قَوْمِهِ المُسْتَكْبِرونَ مُتَطاوِلينَ عَلَيْهِ: ﴿لَنُخۡرِجَنَّكَ يَٰشُعَيۡبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ مِن قَرۡيَتِنَآ﴾؛ بُغْضًا لَكم ودَفْعًا لِفِتْنَتِكُمُ المُتَرَتِّبَةِ على المُساكَنَةِ والجِوارِ[3].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/5.
(2) أبو بكر الجزائري، أيسر التفاسير: 9/205.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/248.

وفَصَلَ جُمْلَةَ ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ﴾ عن ﴿قَالَ أَوَلَوْ﴾، ولم يعطف بالفاء، أو الواو جَرْيًا على طَريقَةٍ مُتَّبَعَةٍ في القُرْآنِ في حِكايَةِ المُحاوَراتِ بحذْفِ العاطفِ في سياقِ المُحاوَرَةِ؛ كَراهيَةَ تَكْريرِه بِتَكْريرِ أفْعالِ القَوْلِ[1].

عادةُ القرآن أنَّ سياقَ المحاورة مَدعاةٌ لفصلِ الجُمل عن بعضها

سرُّ تعريفِ الملأ:

وعرَّف ﴿ٱلْمَلَأُ﴾ بـ(أل) العهديةِ تخصيصًا لهم وتعيينًا، وتعبيرًا عن شدّة عُتوّهم، وتعنّتهم، واستعصائِهم، وفداحةِ ما هم عليه من سوء حالٍ.

في تعيينِهم بيانٌ لشدّة تعنُّتِهم واستعصائِهم

نكتةُ الوصف بالموصول:

أكَّدَ التَّعريفُ واصفًا بالمَوْصوليّة ﴿ٱلَّذِينَ﴾ لما تومئ إليه الصّلةُ من وجه صُدورِ هذا الكلام منهم، أي: إنَّ استكبارَهم هو حاملُهم على هذا الردِّ القاسي الفظِّ الغليظِ على نبيّهم، وإنَّ احتقارَهُمُ المؤمنينَ هو الذي أصّلَ عندهم رفضَهم الإيمانَ بالنّبيّ، وبرسالته.

التأكيدُ بالموصول ترسيخٌ لوجه صُدورِ القول منهم

إيثارُ الوصف بالاستكبار دون غيرِه:

إيثارُ وصْفِهِمْ بِالاستِكْبارِ دونَ الكُفْرِ، مع أنَّهُ لَمْ يُحْكَ عنهم هنا خطابُ المُسْتضعَفينَ، حَتّى يكون ذِكْرُ الاستكبارِ إشارةً إلى أنَّهم اسْتَضْعَفوا المؤْمِنينَ، كما اقْتَضَتْهُ قِصَّةُ ثَمودَ، فاخْتيرَ وصْفُ الاستكبارِ هُنا لمناسَبَةِ مُخاطَبَتِهِمْ شُعَيْبًا بالإخْراجِ أوِ الإكْراهِ على اتِّباعِ دينِهِمْ، وذَلِكَ مِن فِعْلِ الجَبّارينَ أصْحابِ القوَّةِ[2].

فعلُ الملأ في فظاظة الخطاب صنيعُ الجبابرة المُستكبرين

وجهُ إرادةِ النّبيِّ دون غيره:

إسنادُ كافِ الخطابِ إلى فعل الإخراج في مخاطبة شعيب عليه السلام، ثمّ التّصريحُ باسمه معرَّفًا بالعَلَميَّة، ومقدَّمًا على المؤمنين به، تلويحٌ بِالقَصْديَّةِ، فهو مصدرُ التأثير، والخطورةِ، بيانًا، وقوَّةَ حجةٍ، وللتّنبيه على أصالَتِهِ عليه السلام في ذَلِكَ، وتَبَعيَّتِهِمْ لَهُ فيهِ.

النّبيُّ شعيبٌ عليه السلام مكمنُ التأثير في قومه، والخطورةِ عليهم

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/401.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/5.

دلالةُ الحرف ﴿مِن﴾:

(مِنْ) في ﴿مِن قَوْمِهِۦ﴾ تبعيضيّةٌ تنفي كونَهم أغلبيةً، وتُشيرُ إلى أنّ قادةَ القوم وكبراءَهم هم الذين تصدَّوا لمهمّة المجادلة والمنافحةِ عن ملّتهم؛ بمسمعٍ منَ القوم الذين خاطبَ جميعَهم.

من يُضِلُّ القومَ ساداتُهم وكبراؤهم، وهم أصحابُ القرار

توجيهُ استعمالِ الضّمائر وعوْدِها:

الهاء العائدةُ على شعيبٍ عليه السلام في ﴿قَوْمِهِۦ﴾ تُفصِحُ عن نسبة النّاس إلى من يريدُ بهمُ الهدايةَ، والخيرَ، والرّشادَ، لا الإضلالَ، والاستعبادَ، فضلًا عن أنّ شُعيبًا عليه السلام أشرفُهم وأعلاهم نَسَبًا، فحُقَّ لهم أن يُنسبوا إليه، فبتلك النّسبةِ يُعَزُّ الرّفيعُ، ويرتفعُ الوضيعُ، وجريانُ ذلك على ألسنة الرُّسل لأقوامهم، مُتلقًّى بِالتَّجِلَّةِ والاحترامِ والإعظامِ بَلْهَ القَبولِ، يقولُ كلُّ نبيّ لقومه: (يا قوم)، ولا يُظهِرُ ياءَ الإضافة الدّالّةَ على المتكلّم تواضعًا، وغَمطًا للنّفس بالغضّ عن رؤيتها، يقابلُها نسبتُهمُ القَرْيَةَ والملّةَ إليهم بإسناد الضّميرِ (نا) في كلٍّ من: ﴿قَرْيَتِنَآ﴾، ﴿مِلَّتِنَا﴾؛ لما فيه من معنى المُمالأة على التملّك؛ لظنّهم أنّهم رؤساءُ شِرعتها الباطلةِ، ومنهجِها الدُّنيويِّ النَّفعيِّ القاصرِ، والمُتصرّفون بشؤونها، وأحوالِ أهلها.

لا بدّ للنّاس من هادٍ، وإن تَمَالَأ القومُ على الشِّرعةِ الباطلةِ

بيانُ الفصل بين القَرْيَة ومُتعلّقِها:

توسيط فاصلٍ بين القَرْيَة، وبين متعلَّقها (فعلُ الإخراج) في قوله: ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ﴾ - مع أهميتها عندهم بوصفها ميدانَ تسلّطِهم، وممارسة غَواياتهم - ترسيخٌ للعناية بالمُنذِرِ؛ لكونه مهادَ التهديدِ، ومنتهاهُ.

غاية المشركين إبعادُ شعيبٍ عن مركز التّأثيرِ ومن آمنَ به، فهمُ المقصدُ والغايةُ

نكتةُ توسيطِ النّداء بالاسم الظّاهر لنبيِّهم:

وتَوْسيطُ النِّداءِ باسْمِهِ عليه السلام بين المَعْطوفَيْنِ في قوله: ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ﴾؛ لزيادةِ التَّقريرِ والتَّهديدِ النّاشِئِ عن غايَةِ الوَقاحَةِ

والطُّغيانِ[1]، وخِطابُهم إيّاهُ بالنِّداءِ جارٍ على طَريقَةِ خِطابِ الغَضَبِ، كَما حَكى اللّه قَوْلَ آزَرَ خِطابًا لإبْراهيمَ عليه السلام: ﴿أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ﴾ [مريم: 46]. وقد أساؤوا الأدبَ معه، حيث نادَوْه باسمِه العَلَميِّ، وتهكَّموا به[2]، ففي هذا النداء وجهُ مباعدةٍ بينهم وبينه اقتضتِ النّداءَ، وفيه ما لا يُشعِرُ بالاحتشام معه، فضلًا عنِ الاحترام بَلْهَ الإكرام، وأنَّ مِن معناه: أنْ لو كانوا في رويَّةٍ منَ الفكر وأناةٍ منَ الرأي لما قالوه.

رسّخوا تهديدَهم بالتّصريح بالاسم؛ قلةَ أدبٍ منهم ووقاحةً وتماديًا في الظُّلْم

سرُّ تعْديةِ لفظِ العَوْد بـ ﴿فِي﴾:

وعُدّي (عاد) في قوله: ﴿أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ بـ (في) الظّرفية وليس بـ(اللام)، أو (إلى) مع أنه يتعدّى بهما؛ تنبيهًا على أنّ الملّةَ صارت لهم بمنزلة الوعاءِ المحيطِ بهم[3]. وهو يوائِمُ تفسيرَ فعْلِ (العَوْدِ) بالدِّخول في الملّة، والصّيرورةِ فيها.

أفادتِ الظَّرفيّةُ أنَّ ملّتَهم صارت مَوْئِلَهم الذي لا يقدِرون على الفِكاكِ منه

بلاغةُ حَشْدِ المؤكّدات:

يناسب جوَّ الإصرارِ والتّعنّتِ حَشْدُ المؤكِّداتِ المصاحبةِ للأفعال؛ إذ أكَّدوا التَّوَعُّدَ بالتَّأكيدِ القَسَميِّ، وتَرْديدِ الفعلين في حَيِّزِه؛ باستعمال لام القَسَم ونونِ التَّوْكيدِ للمُبالَغَةِ والاعْتِناءِ بالحُكْم[4]، وليوقِنَ شُعيبٌ عليه السلام بأنَّهم مُنْجِزو وعيدِهم بفعلِ أحدِ الأمرَين لا مَحالَةَ، ولذلك قرنوا العَوْدَ بالقَسَم، فقالوا: ﴿لَتَعُودُنَّ﴾، وليس (تَعودُنَّ) بغير لامٍ.

تعنّتُوا في باطلهم وسَدَرُوا في غيِّهم مُهدِّدينَ بتنفيذ الوعيدِ

نكتةُ تقديمِ القَسَم:

لَمّا كانَ المَقامُ توعّدًا وتهديدًا؛ كانَ ذِكْرُ الإخْراجِ مِن أرْضِهِمْ أهَمَّ، فلِذَلِكَ قَدَّموه مُقْسَمًا عَلَيْه، ثُمَّ أعَقَبوهُ بالمَعْطوفِ بِحَرْفِ العطف (أو) الدّالِّ على التّخيير.

(1) الآلوسي، روح المعاني: 9/2.
(2) القونوي وابن التمجيد، حاشيتان على البيضاوي: 10/173.
(3) القِنَّوْجي، فتح البيان: 4/410.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 5/4.

سرُّ حذْفِ متعلَّقِ الفعل ﴿ءَامَنُواْ﴾:

حرصُ القومِ على إيقاعِ الفُرْقةِ بين شعيبٍ عليه السلام وأتباعِه، ولو كانوا يصدّقون لآمنوا به

قَوْلُهُ: ﴿مَعَكَ﴾ مُتَعَلِّقٌ بِـ ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ﴾، ومُتَعَلَّقُ آمَنوا مَحْذوفٌ، أيْ: (بِكَ)؛ لِأنَّهم لا يعتقدون الإيمان بشُعيب عليه السلام، ولا يَصِفونَه وإيّاهم بِالإيمانِ الحَقِّ في اعْتِقادِهِمْ، ولا يرتضونَ إيمانًا بِه من أحدٍ؛ ولذلك استغنَوا بالمذكور (مع) الدّالّ على المُصاحَبَة بدلًا مِن (باء) الإلصاق الدّالّةِ على تَعَلُّقِ أحَدِ المَعْنَيَيْنِ بِالآخَرِ[1]. ويجوزُ أن يكون مردُّ عدمِ ذكر مُتعلَّق ﴿ءَامَنُواْ﴾ المُقدَّر بالجارّ والمجرور (بك) إلى تقدُّم ذِكْرِ ما دلَّ عليه، وأغنى عنه في الآية السّابقة ﴿وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُواْ بِٱلَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ﴾، فلو أرادوا التّصريحَ بالمتعلَّق لكرّروا إعادتَه من بيانه، ولو قالوا ذلك؛ لتضمَّن اعترافَهم برسالته ولوقَعوا في الحَرج.

كما أنّهم قابلوا حذفَ المُتعلَّق تنزيهًا له أنْ يُذكرَ في مقام الإنكار والاستكبار حين خاطبهم في تتمّة الآية السّابقة بقوله: ﴿وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُواْ فَٱصْبِرُواْ﴾ [الأعراف: 87] بحذف المُتعلَّق حين تحدّثوا إليه عن أتباعه، صَلَفًا، واستكبارًا، ومجاراةً للأسلوب بالمثل.

ثم أنهم حريصون على إيقاع الفُرْقة بينه وبين أتباعه، وذكرُ المُتعلَّق تصريحٌ بمتانة الصِّلة وقوّة العلاقة؛ وهذا ممّا يَغيظهم، ويستخرجُ سخائمَهم، ويُضرمُ نيرانَ حِقدهم.

بلاغةُ الاستفهام في ﴿أَوَلَوْ﴾:

تعجَّبَ شعيبٌ من قولهم مُثبتًا قوّةَ إيمانه ومعرفتَه بمقصودِهم

الاسْتِفْهامُ في قوله: ﴿قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ﴾ مُسْتَعْمَلٌ في التَّعَجُّبِ تَمْهيدًا لِبَيانِ تَصْميمِهِ عليه السلام ومَن مَعَهُ على الإيمانِ؛ وليَعْلَمَ قَوْمُهُ أنَّهُ أحاطَ خَبَرًا بِما أرادوا مِن تَخْييرِهِ والمُؤْمِنينَ مَعَهُ بَيْنَ الأمْرَيْنِ[2].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/6.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/7.

والهمزةُ فيه لإنكار الوقوع[1]، وللتّوقيف على شُنعةِ المعصية بما أقسموا عليه[2].

توجيهُ التّعريض في جملة الفاصلة:

حمْلُ المرء على الباطل بالإكراه فيما بان الحقُّ فيه اعتداءٌ

في كَلام شعيبٍ عليه السلام تَعْريضٌ[3] بِحَماقَةِ خُصومِهِ؛ إذْ يُحاوِلونَ حَمْلَهُ على مِلَّتِهِمْ بِالإكْراهِ، مَعَ أنَّ شَأْنَ المُحِقِّ أنْ يَتْرُكَ لِلحَقِّ سُلطانَهُ على النُّفوسِ، ولا يَتَوَكَّأُ على عَصا الضَّغْطِ والإكْراهِ، ولِذا قالَ اللّه تعالى: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ﴾ [البقرة: 256]؛ فإنَّ التِزامَ الدّينِ عَنْ إكْراهٍ لا يَأْتي بِالغَرَضِ المَطْلوبِ مِنَ التَّدَيُّنِ، وهو تَزْكِيَةُ النَّفْسِ وتَكْثيرُ جُنْدِ الحَقِّ والصَّلاحُ المَطْلوبُ[4].

نكتةُ التّعْبير بـ(لو) في الفاصلة:

إصرارُ المشركين على صنيعِهم يثيرُ العجبَ والغرابةَ

(لَوْ) في قوله: ﴿أَوَلَوۡ كُنَّا كَٰرِهِينَ﴾ وصْليَّةٌ تُفيدُ أنَّ شَرْطَها هو أقْصى الأحْوالِ الَّتي يَحْصُلُ مَعَها الفِعْلُ الَّذي في جَوابِها، فيَكونُ ما بَعْدَها أحْرى بِالتَّعْجيبِ، فالتَّقْديرُ: أتصيّروننا إلى مِلَّتِكم ولَوْ كُنّا كارِهينَ، والجملةُ في مَوْقِعِ الحالِ، والواوُ واوُ الحالِ، أيْ: في حال كرهنا، والحرفُ (لَوْ) لِلشَّرْطِ، وحَذْفُ جَوابِهِ لِدَلالَةِ ما قَبْلَهُ عَلَيْهِ، قصدَ المُبالَغَةِ، والوَصْلُ بالواو والرَّبطُ بها في مَقامِ التَّأْكيدِ. وقيل: إنَّ الواوَ عاطِفَةٌ على شَرْطٍ مَحْذوفٍ هو ضِدُّ الشَّرْطِ المَذْكورِ. وقيل: هي لِلاسْتِئْنافِ، وهذه المواقعُ تُؤْذِنُ بِأنَّ الشَّرْطَ الَّذي بَعْدَها شَرْطٌ مَفْروضٌ هو غايَةُ ما يُتَوَقَّعُ مَعَهُ انْتِفاءُ الحُكْمِ الَّذي قَبْلَها[5].

---

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/248.

(2) أبو حيان البحر المحيط: 4/345.

(3) التّعريض: هو اللّفظُ الدّالُّ على الشيّء من طريق المفهوم لا بالوضع الحقيقيّ ولا المجازيّ، ومعناه قريبٌ منَ الكناية، وربما التبس على كثير منَ الفضلاء. يُنظر: مطلوب، معجم المصطلحات البلاغية: 380.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/7.

(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/8، و3/306.

دلالةُ صيغةِ اسم الفاعل:

ولأنّ كارِهَ الشَّيْءِ لا يقاربُه إلّا مَغْصوبًا، عَدَلَ عنِ الصيغة الفعليّة فيه إلى اسم الفاعل؛ ليدلَّ على ثبوت صفة كراهةِ الانصياع إليهم، ودوامِها فيهم، وأنّ أمرَ الكُرْهِ بمنزلة الحاصل الثابت المستقرّ.

ثبوتُ صفة كراهةِ انصياعه إلى قومه بمنزلة الأمرِ الحاصلِ المُستقرِّ

وجهُ الاستئناف في جملة الشّرط:

وقد يجري مَوْقِعُ الشَّرْطِ في الفاصلة على اسْتِعْمالٍ محتملٍ هو أن يقعَ اسْتِئْنافًا بَيانيًّا جَوابًا لِسُؤالٍ، مُحَقَّقٍ أوْ مُقَدَّرٍ، يَتَوَهَّمُهُ المُتَكَلِّمُ مِنَ المُخاطَبِ فيُريدُ تَقْديرَهُ، فلا يَقْتَضي أنَّ شَرْطَها هو غايَةٌ لِلحُكْمِ المَذْكورِ قَبْلَهُ، بَل قَدْ يَكونُ كَذَلِكَ[1].

في الشّرط تقريرٌ لما أُطلق من كلامٍ مستغرَبٍ

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الاستكبار والاستنكاف:

الاستنكاف: تكبّرٌ في تَركه أَنَفَةٌ، وترفّعٌ، ومعناه الانقباضُ والامتناعُ عنِ الشيء حميّةً، وعزّةً[2]، وليس فيه معنى الطّلب، وإنّما يَتوهّم المُستنكِفُ النّقصَ في المستنكَفِ عنه[3]. والتّكبرُ: هوَ أن يرى المَرْء نَفسَه أكبرَ من غَيره، والاستكبارُ: طلبُ ذَلِك بالتّشبّع وهوَ التّزيّنُ بِأكْثَرَ ممّا عِنْده؛ فهو طلبُ الكِبْر بغير استحقاق له بالامتناع عن قَبول الحقّ تكبّرًا، وتعاظُمًا[4]. وكذلك كان القومُ متعالين، مُتجبّرين مُستخفّين بقومهم بغيرِ استحقاقٍ، فناسب إيثارُ لفظِ الاستكبار هذا المعنى؛ فإنَّ الكِبْرَ لا يكونُ إلا بغير الحقّ، وهو مذمومٌ بكلّ حال.

لِغَيِّهم كانوا يَرون أنفسَهم أكبرَ من غيرهم من غيرِ استحقاقٍ

القَرْيَة، والمدينة:

الفرقُ بين القرية والمدينة في القرآن الكريم هو أنَّ القريةَ تدلُّ على مجتمع متجانسٍ متّفقٍ على شيء واحد، سواء كان خيرًا أو شرًّا،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/307.
(2) الخليل، العين: (نكف).
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 2/261.
(4) الكفويّ، الكليات، ص: 28.

والمدينةُ تدلُّ على مجتمع خليطٍ من الخير والشّرّ أو الكُفر والإيمان، وهذا الفرقُ يتبيّن باختلاف السّياق والسِّباق، وزمنِ الوصف، ووجهةِ نظرِ منْ يَصِفُ. وورد لفظُ (القرية) مُنَكَّرًا، أو معرَّفًا، أو مضافًا، أو مُثَنًّى في القرآن نحوًا من سبعٍ وثلاثين مرّةً، بينما ورد لفظُ (المدينة) معرَّفًا فيه نحوًا من أربع عشرة مرّةً.

القَرْيَة: تدلُّ على مجتمع متجانسٍ، والمدينة: تدلُّ على مجتمعٍ خليطٍ

وتخصيصُ القُرى بإرسال الرّسل فيها دون البوادي، يُنبئُ أنَّ مرادَ اللّه تعالى من إرسال الرّسل هو بثُّ الصَّلاح لأصحاب الحضارةِ التي يتطرّقُ إليها الخللُ بسبب اجتماع الأصنافِ المختلفةِ، وأنَّ أهلَ البوادي لا يخلون عنِ الانحياز إلى القُرى والإيواء في حاجاتِهم المدنيّة إلى القُرى القريبة[1].

الجَمَاعَة، والمَلأ، والنَّفر، والرّهْط، والشِّرذمة، والقوم:

المَلأ: الأشرافُ الَّذين يملؤون العُيون جمالًا والقلوبَ هَيْبَة، ويجوزُ أن يكون الملأ الجَماعَةَ الَّذين يقومونَ بالأمور، من قَوْلهم: هوَ مَليء بالأمر؛ إذا كانَ قادرًا عَلَيْه. والمعنيان يَرجعان إلى أصلٍ واحِدٍ وهوَ المَلءُ. والنَّفرُ: الجَماعَةُ نَحْو العشْرَة من الرِّجال خاصَّة ينفرون لقِتال وما أشبَهه، ومنه قَوْلُه ﷻ: ﴿مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِۚ﴾ [التوبة: 38]، ثمَّ كثروا حَتَّى سُمّوا نَفرًا وإن لم ينفِروا. والرَّهطُ: الجَماعَةُ نَحْو العشْرَةِ يرجعونَ إلى أب واحِد. أمّا الشِّرذمةُ؛ فهم البَقيَّةُ منَ البَقيَّة والقطفُ مِنْهُ، قالَ اللّه ﷻ ﴿لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ۝٥٤﴾ [الشعراء: 54]، أي: قِطْعَةٌ وبَقيَّة؛ لِأنّ فِرْعَوْن أضلّ مِنْهُم الكثيرَ، فبَقيت مِنْهُم شِرذمة، أي: قِطْعَةٌ[2].

المَلأ أشرافُ القوم الَّذين يتزعّمونَهم، ويقومُونَ بأمُورِهم

والقَوْم: هوَ اسْم لجَماعَة الرِّجال؛ لأنهم القَوّامون بِأُمور النِّساء،

(1) عبد الباقي، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم: (قري، مدن)، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/16.

(2) العسكريُّ، الفروق اللغوية، ص: 280 - 281.

وهوَ مُخْتَصٌّ بِجَماعَة الرِّجال؛ لِأَنَّهُ إمّا مصدرٌ نُعِتَ بِهِ، فشاعَ في الجَمع، أو جمع (قائِم)، كَزَوْرٍ، وزائرٍ. والقَوْم: مؤنَّثَةٌ ولذَلِك تُصغَّر على قوَيمة[1]. وأوثرَ لفظُ الملأ في الآية لكون المقصودِ أشرافَهم الذين يقومون بأمورهم.

الرُّجُوْع، والعَوْد:

في معنى الصّيرورة، والابتداء نفيٌ منَ العودِ إلى ملّة الكافرين

الرُّجوعُ: العَوْدُ إلى ما كان منه البدءُ، أو تقديرُ البدء مكانًا كان أو فعلًا، أو قولًا، ومنه الرّجعةُ في الطّلاق، وفي العود إلى الدّنيا بعد الممات[2]. ورَجَعَ عَوْدُه على بَدْئِه، أي: رَجَعَ في الطَّريق الَّذي جاءَ مِنْهُ[3]. أمّا العودة: فعلى الرّغم من احتمال أحدِ معانيه الرُّجوعَ إلى الشّيء بعد الانصراف عنه[4]، إلا أنّه يحتملُ أن يجيء بمعنى الصّيرورةِ[5]، وقد يُطلقُ مرادًا به الابتداءُ[6]، فاختار السّياقُ الكريم ما يحتملُ معنى الصّيرورة والابتداء اللّذَينِ ينفيان عودةً إلى ملّة الكافرين، على ما يحتملُ العودَ إلى ما كان منه في بدءٍ.

(الدّين، والملّة، والشّريعة):

المِلَّةُ مَذْهَبُ الجماعَة، واسمٌ لجُملة الشَّريعَةِ المبلَّغةِ على لسان الأنبياء عليهم السلام

الملَّة اسْمٌ لجُملة الشَّريعَة، وقيل: المِلَّةُ مَذْهَبُ جماعَةٍ يحمي بعضُهم بَعضًا عِنْد الأُمور الحادِثَة[7]، أو هو اسمٌ لما شرع اللّه تعالى لعباده على لسان الأنبياء ليتوصّلوا به إلى جوار اللّه[8]، والدّينُ اسْمٌ لما عَلَيْهِ كلُّ واحِد من أهلها، فهوَ الطّاعَة العامَّةُ الَّتي يُجازي عَلَيْهِ بالثّواب مثل قَوْله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران: 19][9].

(1) الكفويّ، الكليات، ص: 728.
(2) الراغب، المفردات: (رجع).
(3) الكفويّ، الكليات، ص: 479.
(4) الراغب، المفردات: (عود).
(5) الزمخشري، الفائق: 2/186، والكفويّ، الكليات، ص: 657.
(6) الزّبيدي، تاج العروس: (عود).
(7) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 220.
(8) الراغب، المفردات: (ملل).
(9) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 220 - 221.

فالدّينُ ما يَذهبُ إليه الإنسانُ، ويَعْتقدُ أنه يقرّبهُ إلى اللّه وإن لم يكنْ فيهِ شرائعُ مثلُ دين أهلِ الشِّرْك.

المِلّةُ تضافُ إلى الأنبياء ولا تُضاف إلى الله، والدّينُ بخلافِه

والفرقُ بين الملّة وبين الدّين: أنّ الملّة لا تضاف إلّا إلى النّبيّ ﷺ الذي تُسندُ إليه، نحوَ: ﴿فَٱتَّبِعُواْ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ﴾ [آل عمران: 95]، ﴿وَٱتَّبَعۡتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ﴾ [يوسف: 38]، ولا تكادُ توجدُ مضافةً إلى اللّه، ولا إلى آحاد أمّة النّبيّ ﷺ، ولا تُستعملُ إلا في جملة الشّرائع دونَ آحادها، لا يقال: ملّة اللّه، ولا يقال: ملّتي وملّةُ زيدٍ، كما يقال: دينُ اللّه ودينُ زيد. وتقالُ الملّةُ اعتبارًا بالشّيء الذي شرعه اللّه، والدّينُ يقال اعتبارًا بمن يُقيمُه إذا كان معناه الطّاعة[1]، فالدّين مَنْسوبٌ إلى اللّه تعالى، والملَّةُ إلى الرَّسول، والمذهبُ إلى المُجْتَهد[2].

المِلَّةُ تُقالُ بِاعْتِبَار الدُّعَاء إِلَيْهِ، وَالدِّينُ بِاعْتِبَار الطَّاعَةِ والانقيادِ والتَّسليم

وتُقالُ الملَّةُ باعْتِبار الدُّعاء إليْهِ، والدّينُ باعْتِبار الطّاعَة والانقيادِ لَهُ، فهوَ أوسعُ مجالًا؛ إذ يُطلقُ على الحقّ والباطِل أيْضًا، ويشملُ أصولَ الشَّرائِع وفروعَها؛ لأنّه عبارَة عَن وضعٍ إلَهيٍّ سائقٍ لِذَوي العُقول باختيارهم المَحْمودِ إلى الخَيْر بالذّاتِ، قلبيًّا كانَ أو قالَبيًّا، كالاعتقاد، والعلم، والصَّلاة، وغيرِ ذلك[3].

المِلّةُ مَذْهَبُ الجماعة الذي يحقّقُ مصالحَهم ويُديمُ استكبارَهم، ورياستَهم

أمّا الشَّريعَةُ؛ فهيَ الطَّريقَةُ المَأْخوذُ فيها إلى الشَّيْء، ومن ثمَّ سُمّي الطَّريقُ إلى الماء شَريعَةً ومَشرعةً، وقيل: الشّارِعُ لِكَثْرَة الأخْذ فيهِ، والدّينُ ما يُطاع بِهِ المعبودُ، ولكُلّ واحِد منّا دين، ولَيْسَ لكلّ واحِدٍ منّا شَريعَةٌ، والشّريعةُ في هَذا المعنى نَظيرُ الملَّة إلّا أنَّها تفيدُ ما يفيدهُ الطَّريقُ المَأْخوذ ما لا تفيدُه الملَّةُ، ويُقال: شرعَ في الدّين شَريعَة، كَما يُقال: طرقَ فيهِ طَريقًا، والمِلَّةُ تفيدُ اسْتِمْرارَ أهلها

(1) الراغب، المفردات: (ملل).
(2) الكفويّ، الكليات، ص: 443.
(3) الكفويّ، الكليات، ص: 443.

عَلَيْها[1]. ولذلك ناسبَ إتيانُ لفظِ (الملّة) في سياق الآية الكريمة؛ لِما يحملُه من معنى التَّمالُئِ والتّعاضُدِ على ما اجتمعوا عليه منَ الباطل، ولكونِه مَذْهَبَ الجماعةِ الذي يستجلبُ لهمُ المصالحَ ويديمُ استكبارَهم، ورياستَهم، فلا غرابةَ منِ استمرارهم عليه، وحمايةِ بعضِهم لبَعض عِنْد الأُمور الحادِثَة، ومنها رسالةُ نبيّ الله شعيبٍ عليه السلام، وعدلَ عنِ استعمال الدّين والشّريعة إلى ملّة الكفرِ ابتداءً.

(1) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 222.

﴿قَدِ ٱفۡتَرَيۡنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنۡ عُدۡنَا فِي مِلَّتِكُم بَعۡدَ إِذۡ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنۡهَاۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَاۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمًاۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡنَاۚ رَبَّنَا ٱفۡتَحۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ قَوۡمِنَا بِٱلۡحَقِّ وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡفَٰتِحِينَ ٨٩﴾ [الأعراف: 89]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

تأكيدُ شُعيبٍ عليه السلام الثّباتَ على دينِه ومسوِّغاتِه

هذا الجواب الثّاني من شُعيبٍ عليه السلام يؤكّد لهم فيه أنّ مطلبَهمُ العودَ لن يكون أبدًا، مهما حاولوا الإيذاءَ والتَّهديدَ[1]، ويصرّحُ بأنه لا يفعل ذلك؛ لأنّه افتراءٌ على اللّه. وأصلُ الباب في النّبوّة والرّسالةِ صدقُ اللّهجة، والبراءةُ من الكذب، فالعودُ في ملَّتِهم يُبطلُ النبوَّةَ، ويزيلُ الرِّسالةَ[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱفۡتَرَيۡنَا﴾: افترى فلانٌ الكذبَ: اختلقَه. والفِريةُ: الكَذِبُ، والقَذْفُ[3]، وأصلُه من قطعِ الشّيءِ، ثمّ يُفَرَّعُ منه ما يقاربُهُ[4]، والفرْيُ: المختلَق المصنوعُ[5]، وكذلك استُعمل في القرآن الكريم بمعنى الكَذِب، والشِّرْكِ، والظّلم، وبمعنى اختلاقِ ما لا حقيقةَ له[6]، وهو معنى اللّفظة في الآية الكريمة.

2) ﴿وَسِعَ﴾: الوُسْع: أصلٌ يَدُلُّ اجتماعُ حروفه على خلاف الضّيقِ، والعُسْرِ[7]. والوُسْع: جِدةُ الرَّجُلِ، وقُدرة ذاتِ يده، وطاقتُهُ[8]،

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 6/2899.
(2) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/316.
(3) الخليل، العين: (فري).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (فرى).
(5) ابن منظور، اللسان: (فري).
(6) الراغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (فري).
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (وسع).
(8) الخليل، العين، والرّاغب، المفردات: (وسع).

والواسِعُ: من صفات اللّه تعالى الذي وسِعَ رزقُه جميعَ خلْقِه، ووسعت رحمتُه كلَّ شيءٍ، وهو المُحيطُ بكل شيء من قولهم: وسِعَ كلَّ شيء علمًا، أي: أحاط[1]. وهو تعبيرٌ عنِ الشمول التامِّ، وبه يُفسَّر معنى اللّفظة في الآية الكريمة.

3) ﴿تَوَكَّلْنَآ﴾: الواو، والكاف، واللام: أصلٌ صحيح يَدُلُّ على اعتماد غيرِك في أمرك. والتوكُّلُ منَ الوُكَلَة، والوُكَلُ: الرّجل الضّعيفُ، يقولون: هو وُكَلَةٌ تُكَلَةٌ، ومعناه: إظهارُ العجز في الأمر، والاعتمادُ على غيرك، وتجعلُه نائبًا عنك، وتصرِّفُ الأمرَ إليه، وتسلِّمُهُ وتتركُه[2]، ومنه: الوكيلُ: الحافظُ، والكفيل، والمتوكّلُ على اللّه يعلم أنه كافلٌ رزقَه، وأمرَه؛ فاطمأنَّ قلبُه على ذلك، ولم يوكِل أمرَهُ إلى غيره[3]. وجماعُ هذه المعاني توائم قصْديةِ اختيارِ هذه اللّفظة في سياق التّسليم، والإيمانِ المطلقِ لشعيبٍ عليه السلام ومن آمنَ به لِلّهِ تعالى، وتفويضِهم إيّاهُ أمرَهم.

4) ﴿ٱفۡتَحۡ﴾ ﴿ٱلۡفَٰتِحِينَ﴾: فاتحةُ كلِّ شيء: مبدؤُه، ومنه: فاتحةُ الكتاب[4]. والفتحُ: نقيضُ الإغلاق، وهو أصلٌ صحيحٌ، هذا مجملُ دلالتِه، ثم يُحملُ عليه سائرُ ما في هذا البناء. فهو: الحُكْمُ[5]، والقضاءُ، والنّصرُ، والفصلُ، والظَّفَرُ، وفتحَ عليه كذا؛ إذا أعلَمَهُ، ووقَّفَهُ عليه[6]. وإنّما قيل للقاضي: فتّاح في بعض اللَّهجات؛ لأنّه يحكمُ بين الخصوم، ويَنصرُ المظلوم[7]. وبه فُسِّر لفظُ الفتح في الآية الكريمة عند علماء التّفسير واللغويين[8]، ولا يَعْدِمُ ذلك احتمالَ المعاني الأخرى فيه.

5) ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾: الحاء، والقاف أصل واحدٌ يدلُّ على إحكام الشّيء وصحّتِه[9]، وأصلُه: المطابقةُ، والموافقةُ[10]. والحقُّ نقيضُ الباطل، وهو: إيجابُ الحكم[11]، وصدقُ الحديث،

(1) الأزهري، التهذيب: (وسع).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (وكل).
(3) الأزهري، التهذيب: (وكل).
(4) الراغب، المفردات: (فتح).
(5) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة: (فتح).
(6) الراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (فتح).
(7) السمين عمدة الحفاظ: (فتح).
(8) الخليل، العين، والأزهري، التهذيب: (فتح).
(9) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حق).
(10) الراغب، المفردات: (حق).
(11) الخليل، العين: (حق).

واليقينُ بعد الشكِّ، والإحكامُ، والتّصحيحُ[1]، والإثباتُ[2]. ومن جميل مظاهر قَصْديَّةِ الانتقاء القرآني للألفاظ أن تكون لفظةُ (الحقِّ) متضمّنةً للمعاني المُعجميّةِ التي وردتْ تَفْسيراتٌ لها.

المعنى الإجْماليُّ:

ثباتُ شعيبٍ عليه السلام ومن معه على الحقِّ واستنصارُهم بربّهم

بالغَ عليه السلام في قَطْعِ أمَلِهم، وطمَعِهم معترضًا عليهم بقوله بصيغة التّحقيق: قدِ اختلقنا ما لا حقيقةَ له على اللّه، وأعظَمْنا الفِرْيةَ عليه إن صِرْنا إلى دينكم، ودخلنا شِرعتكم بعد أنْ نجّانا اللّه، وخلَّصَنا منها بما فطرَ النّاسَ عليه من توحيده والإخلاصِ له، وبالعصمةِ عنِ الشِّرْك ولوْثَتِه، ثم بالاصطفاءِ للبلاغِ عنه رسالتَه، وأنّى يكون لنا ذلك؟ وأصلُ النّبوّة والرِّسالةِ صِدْقُ اللّهجةِ، والبراءةُ من كل كذبٍ، وما طلبتموه يُبطلُ النّبوّةَ، ويزيلُ الرِّسالةَ[3]. وعودتُنا في ملتكم لا تكونُ إلا أنْ يشاءَ اللّه ما لا نعلمُ، فهو المحيطُ بكلِّ شيء علمًا، "فردَّ الأمرَ إلى مشيئته وعلمه، فإنّ له سبحانه في خلقه علمًا محيطًا، ومشيئةً نافذةً وراء ما يعلمه الخلائقُ، فامتناعُنا منَ العَوْد فيها هو مبلغُ علومنا ومشيئتنا، وللّه علمٌ آخر ومشيئةٌ أخرى وراء علومنا ومشيئتنا؛ فلذلك ردَّ الأمرَ إليه"[4]. ويليق بأدب التّسليم والانقياد هذا الإعراضُ عنِ المعاندين، والتّوجّه إلى مناجاة ربِّ العالمين بأن يحكم بينه وبين قومه، ويقضي بما يدلُّ على أنّهم على الحقِّ، وهم على الباطلِ، فإنّه العادل الذي لا يجورُ أبدًا[5].

وترشدُ الآيةُ الكريمة إلى تمثّلِ فضائلِ الأنبياء والرّسلِ منَ الثبات على الحقِّ، والتّسليم المطلقِ للّه، والانقيادِ التّامِّ إليه،

(1) الأزهري، التهذيب: (حق).
(2) ابن سيده، المحكم: (حق).
(3) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/316.
(4) ابن القيِّم شفاء العليل: 1/412.
(5) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 3/448، والآلوسي، روح البيان: 3/203.

والاتّصافِ بأدب الخطاب معه، ولا عَجَبَ؛ فقد كان رسولُ الله ﷺ إذا ذَكرَ شعيبًا؛ قال: «ذاك خطيبُ الأنبياء»[1]؛ لحسن مراجعتِه قومَه فيما يرادُ بهم[2]، فلا يصحُّ منهم، وهم أهلُ الحقّ أن يتنكّروا، ويَقبلوا الباطلَ بدلًا عنه بعد أن أنارت أرواحَهم فيوضاتُ ألطاف الباري، ولامستْ قلوبَهم تَجَلّياتُ قدرته.

وممّا تُرشد إليه: استحبابُ الاستثناءِ في كلّ ما عزم عليه المؤمن مُسْتَقْبلًا، وإن لم يُرِدْه أو حتى يفكّر فيه، ووجوبُ التّوكل على الله عند تهديد العدوّ وتخويفِه، والمُضيّ في سبيل الحق، وتهدي أيضًا إلى مَشْروعيَّةِ الدّعاء وسؤالِ الله تعالى الحُكمَ بين أهل الحق وأهل الباطل؛ لأنّ الله تعالى يحكمُ بالحقّ، وهو خير الحاكمين[3].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

إيثارُ لفظ الافتراءِ دون غيرِه:

ثباتُ الرّسل واستحالةُ كفرهم، التّعْبيرُ بالأشدّ يدفعُ ما يستحيل وقوعُه

اسْتَأْنَفَ شعيب عليه السلام في قوله: ﴿قَدِ ٱفۡتَرَيۡنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ مُرْتَقيًا في الجَواب، مبيّنًا اسْتِحالَةَ الصّيرورة في مِلَّةِ الكُفْرِ بأنَّ العَوْدَ إلَيْها يَسْتَلزِمُ اختلاقُه كَذِبًا عَظيمًا لا يُقادَرُ قَدْرُهُ. وجَوابُ الشَّرْطِ مَحْذوفٌ لِدَلالَةِ ما قَبْلَهُ عَلَيْهِ[4]، وقيل: هو قَسَمٌ على تقدير حذف اللام، والتّقدير: والله لقدِ افترينا على الله كذبًا إنْ عُدنا[5].

علّةُ التّعْبير بضمير المُتَكَلِّم:

شدّةُ اتّباع المؤمنين له، ومشاركتِهم إياه في شؤونِهم كُلِّها

وجاءَ بِضَميرِ المُتَكَلِّم المُشارِك في كُلٍّ مِن قَوْلِه: ﴿ٱفۡتَرَيۡنَا﴾ و﴿عُدۡنَا﴾ و﴿نَجَّىٰنَا﴾ و﴿نَّعُودَ﴾ و﴿رَبُّنَا﴾ و﴿تَوَكَّلۡنَا﴾؛ دليلًا على شدّة اتّباع المؤمنين له، ومشاركتِهم إيّاه في العسر، واليسر، وهذا التّعبير يدلُّ على حكمة

(1) الحاكم، المستدرك على الصحيحين: 2/620، وسكت عنه الذهبي في "التلخيص".
(2) ابن جرير، جامع البيان: 12/567.
(3) الجزائري، أيسر التفاسير: 9/205.
(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/251، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/8.
(5) النسفي، مدارك التنزيل: 1/586.

شعيب عليه السلام وفطنته، وتواضعه ورفقه بهم، حيث يتحدَّث مع قومه بأسلوبٍ يقرِّبه منهم، ولا يستفزُّهم، أو يُغضبُهم، ويجعلهم يشعرون بأنّه منهم، وأنّ دعوته لهم ليست من أجل مصالحَ شخصيّةٍ أو غرور أو تفاخُر، بل من أجل ما فيه خيرُهم وإصلاحُ أحوالهم.

بلاغةُ مصدريّة الكذب وتنكيره:

استغرق قومُ شعيب في الكذب فمارسوا كلَّ أنواعه، وأشدَّه

إتباعُ الافتراء باللّفظ المرادف له ﴿كَذِبًا﴾ ونصبُه على المفعول المطلق المبيّن لنوعه، والحاملُ قصدُ إبعاد الوقوع فيه، وإطلاقُه مجرّدًا من أل التّعريف، والفاعل، ومنَ الزّمن، دليلُ استغراقه كلَّ أنواع الكذب؛ وليقابلَ جمْعَ المؤكِّداتِ المتضمنة في أفعال وعيدِهم، وتهديدِهم.

بلاغةُ الرَّبط بين الشّرط وجوابه:

أُنزلَ الافتراءُ منزلةَ الواقعِ المتحقّقِ مبالغةً

في قوله تعالى: ﴿قَدِ ٱفۡتَرَيۡنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنۡ عُدۡنَا فِي مِلَّتِكُم﴾ جاء الرَّبطُ بَيْنَ الشَّرْطِ وجَوابِهِ رَبْطَ التَّبْيين والانْكِشاف؛ لأنَّهُ لا يَصِحُّ تَعْليقُ حُصولِ الافْتِراءِ بِالعَوْدِ في مِلَّةِ قَوْمِهِ، فإنَّ الافْتِراءَ المَفْروضَ بِهَذا المعنى سابِقٌ مُتَحَقِّقٌ، وإنَّما يَكْشِفُهُ دخولُهم في مِلَّةِ قَوْمِهِمْ، فعند ذاك يَتَبَيَّنُ الافتراءُ على الله كَذِبًا، فالماضي في قَوْلِهِ: ﴿ٱفۡتَرَيۡنَا﴾ ماضٍ حَقيقيٌّ يقتضيه اقترانُه بـ ﴿قَدِ﴾، التي أفادت معه معنى إنزال الافتراء في حال العوْد - وذلك ما لا يكون منهم - منزلةَ الواقع المتحقّقِ[1]، أو هو ماضٍ بمعنى المستقبل؛ لأنه لم يقع لكنّه جُعِلَ كالواقعِ للمبالغة[2].

فائدةُ التّعْبير عنِ الافتراء بصيغة الافتعال وتقديمِه:

في صيغة الافتعالِ ترسيخٌ للمبالغةِ في الفعل

ويناسِبُ المبالغةَ الصوغُ بِمبْنى الافتعال لترسيخ المبالغة في الفعل، فهو من زيادة المبنى الدّالّة على زيادة المعنى، وتَقْديمُه على الشَّرْطِ؛ لِأَنَّهُ في الحالَتَيْنِ لا تَقْلِبُهُ ﴿إِنۡ﴾ لِلاسْتِقْبالِ، أمّا الماضي

(1) السمين الدر المصون: 5/381.

(2) البيضاوي، أنوار التنزيل: 3/24.

الواقِعُ شَرْطًا لِـ ﴿إِنْ﴾ في قَوْلِهِ: ﴿إِنْ عُدْنَا﴾، فهو بِمَعْنى المُسْتَقْبَلِ؛ لِأَنَّ (إِنْ) تَقْلِبُ الماضي لِلمُسْتَقْبَلِ عَكْسَ (لَمْ)[1].

بلاغةُ الكنايةِ في فعل الإنجاء:

تأكيدُ المفارقة، وإثباتُ عِظَمِ الهداية، تفظيعٌ للعَوْد

ذكرَ الإنْجاءَ في قوله: ﴿بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا﴾؛ لِدَلالَتِهِ على الاهْتِداءِ، والإعْلانِ بِأَنَّ مُفارَقَةَ الكُفْرِ نَجاةٌ، وأنّ الكفرَ هلكةٌ ومواتٌ، وعذابُ ضميرٍ، فيَكونُ في الكَلامِ إيجازُ حَذْفٍ، أوْ كِنايَةٌ[2].

إيثارُ التّعْبير بلفظ نجّى دون غيره:

الوعدُ بالإخراج يناسبُه التّمهّل، والتلبّثُ

التّعْبيرُ بلفظ (نجّى) المضعَّفِ دون (أنجى) الفعلِ المُعدّى بالهمزة في قوله: ﴿بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا﴾؛ لأنّ (نجَّى) تستعملُ للتمهّل والتلبّث في التّنجية التي قد يسبقُها ابتلاءٌ وتمحيصٌ يستحيلُ معها العودةُ إلى ما كان عليه قبلَ النجاة؛ فهو زيادةٌ في تيئيسهم منَ العَوْد الذي يدعونه إليه، ويتهدّدونه عليه إن لم يفعل، و(أنجى) للإسراع، وتهديدُهم لم يكن فيه خطورة على حياة شعيب عليه السلام ومن معه، فهو وعيدٌ بالإخراج فقط؛ فناسبه التّمهُّلُ والتلبّثُ، مع أنّه جاء بصيغة التّشديد للمبالغة في الفعل، والعنايةِ بالمُنْجين، في حين نرى التّعْبيرَ بالفعل المُعدّى بالهمزة في قصة سيّدنا إبراهيم: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [العنكبوت: 24].

وفي لفظ ﴿نَجَّىٰنَا﴾ - كذلك - براءةٌ من شعيبٍ عليه السلام، حيث يبيّنُ لقومه أنّه قد أدَّى رسالته التي أُرسل بها إلى قوم مدين، وأنه لا يتحمَّلُ ذنْبَ ما يفعلون من كفرٍ وظلمٍ وفسادٍ، وأنّ الأمرَ كلَّه بيد الله سبحانه وتعالى.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/8.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/8، والكناية: "تركُ التّصريح بذكر الشيّء على ما ذكر ما يلزمه لينتقل من المذكور الى المتروك". يُنظر: السكاكي، المفتاح: 1/402.

علّةُ التّعْبير بالبَعْديّة:

والبعديّةُ في قوله: ﴿بَعۡدَ إِذۡ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ﴾ لَيْسَتْ قَيْدًا لِـ ﴿ٱفۡتَرَيۡنَا﴾، ولا هي موجِبٌ كَوْنَ العَوْدَةِ في مِلَّتِهِمْ دالًّا على كَذِبِهِ في الرِّسالة، بَل هَذِهِ البَعْديَّةُ مُتَعَلِّقَةٌ بِـ ﴿عُدۡنَا﴾ يُقْصَدُ مِنها تَفْظيعُ هَذا العَوْدِ، وتَأْييسُ الكافِرينَ مِن عَوْدِ شُعَيْبٍ وأتْباعِهِ إلى مِلَّةِ الكُفْرِ[1].

غايةُ شُعيبٍ عليه السلام تأييسُ الكافرين من عَوده في ملّتهم

نكتةُ إتْباع ﴿بَعۡدَ﴾ بـ ﴿إِذۡ﴾:

إتْباع ﴿بَعۡدَ﴾ في قوله: ﴿بَعۡدَ إِذۡ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ﴾ بـ ﴿إِذۡ﴾ الظَّرفِ المخصّصِ للمضيّ في أصل وضعه يناسبُ سردَ الأفعال الماضية التي سبقته وتبعته؛ ولِذَلِكَ عَقَّبَهُ بِقَوْلِهِ: ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ﴾؛ لِأَنَّ ذَلِكَ لا يَقْصِدُهُ العاقِلُ، فيُلقي نَفْسَهُ في الضَّلالِ والتَّعَرُّضِ لِلعَذابِ بعد أن مسَّتْ شَغافَ قلبِهِ وروحِهِ أنوارُ الهداية[2]، واطْمَأَنَّ قلبُهُ لصفوِ الدّراية بكرامة العناية حتى لا يوكَل إلى نفسه، والمضارع هنا دالٌّ على ديمومة عدمِ المصير إلى ملّة الكفر، واستمرارِه في الحال، والاستقبال.

العاقلُ من مسَّتْ شَغافَ قلبِهِ وروحِهِ أنوارُ الهداية فلا يكابرُ

فائدةُ لامِ الجُحود:

اللام في: ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَآ﴾ هي أصْلُ لامِ الجُحودِ الَّتي في نَحْوِ: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمۡ﴾ [الأنفال: 33]، التي تفيد النّفي والإنكار، وتكونُ بمنزلة تأكيد النّفي الواقع على الفعل، وتَراكيبُ لامِ الجَحودِ كُلُّها مِن قَبيلِ قَلبِ مِثْلِ هَذا التَّرْكيبِ لِقَصْدِ المُبالَغَةِ في النَّفْيِ، بِحَيْثُ يُنْفى أنْ يَكونَ وُجودُ المُسْنَدِ إلَيْهِ مَجْعولًا لِأجْلِ فِعْلِ الكفر، أيْ: فهو بَريءٌ مِنهُ بِأصْلِ الخِلقَةِ؛ ولِذَلِكَ سُمِّيَتْ جُحودًا[3].

نفيُ الشِّرْكِ عنهم مدعاةٌ للمبالغة؛ لِعِظَمِه من ذنبٍ

سرُّ التّعْبير بالمشيئة دون غيرِها:

في قوله تعالى: ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَاۚ﴾ جميلُ أدبِ الخطاب

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/8.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/9.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/294.

القرآنيّ؛ الممثّلِ بخطاب الأنبياء والرُّسل مع ربّ العزّة وفي تَفْويضِ أمْرِهِ ومَن معَهُ إلَيْهِ سبحانه، وذلك منهجُ مَن أدّبه اللّه، وتلكم عادةُ القرآن في إظهارها، قال تعالى: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾، ولم يقل: إنك أنت الغفور الرحيم، والمعنى: إلّا أنْ يُقَدِّرَ اللّه لَنا ما لا نعلم، مع أنّ عبارته في مفتتح الآية الكريمة تَقْطعُ باستحالة ارْتِداده بَعْدَ النُّبوّة.

تَقْيِيدُ عَدَمِ العَوْدِ إلى الكُفْرِ بِمَشِيئَةِ الله، يَسْتَلزِمُ تَقْيِيدَ ما سواه بها

وتَقْييدُ عَدَمِ العَوْدِ إلى الكُفْرِ بِمَشيئَةِ اللّه يَسْتَلزِمُ تَقْييدَ الدَّوامِ على الإيمانِ بِمَشيئَتِه؛ لأنَّ عَدَمَ العَوْدِ إلى الكُفْرِ مُساوٍ لِلثَّباتِ على الإيمانِ، وهو تَقْييدٌ مَقْصودٌ مِنهُ التَّأدُّبُ وتَفْويضُ العِلمِ بِالمُسْتَقْبَلِ إلى اللّه، والكِنايَةُ عَنْ سُؤالِ الدَّوامِ على الإيمانِ مِنَ اللّه تعالى كَقَوْلِه: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾[1]، والوحدة الإسناديةُ ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا﴾ من صور الحال الدّالّة على القَصْر الذي يكون الحالُ فيها هيئةً ثابتةً في صاحبها.

فائدةُ إيثار لفظِ الرّبوبية في قوله: ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا﴾:

الربُّ هو المالك، والخالق، والمدبّر، والمُنعم، والمُتمّم[2]، والمربّي سُمّي بذلك؛ لأنّه مُصلحُ راعٍ[3]، فـ"الربُّ: المصلحُ للشّيء، واللّه جلّ ثناؤه الرّبُّ؛ لأنه مصلحُ أحوالِ خلقِه"[4]، وعلى معنى الرّعاية والإصلاح؛ فإنّه يناسبُ ورودَ اللَّفْظِ في الآية المباركة، مع أنَّ المعاني الأخرى جميعَها تصدقُ فيها؛ لأنَّ شعيبًا في حالة حوارٍ نُصحيٍّ معهم، ومعنى الإصلاح في هذا الموضعِ يُناسب غايتَه.

شعيبٌ في حالة حوارٍ نُصحيٍّ معهم، ومعنى الإصلاحِ هنا يُناسبُ غايتَه

إيثارُ لفظِ الربِّ مُضافًا:

الإتْيانُ بِوَصْفِ الرَّبِّ وإضافَتُهُ إلى ضَميرِ المُتَكَلِّمِ المُشارَكِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/9.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن الأثير، النهاية: (رب).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقي: (رب).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (رب).

(نا) إظْهارٌ لِحَضْرَةِ الإطْلاقِ، وتَعْريضٌ بِأنّهَ مَوْلى الَّذينَ آمَنوا[1]، واستحضارُه ثلاثَ مرات، إظْهارٌ في مَقامِ الإضْمارِ لِزيادَةِ إظْهارِ وصْفِهِ بِالرُّبوبيَّةِ، وتَأْكيدِ التَّعْريضِ المُتَقَدِّمِ، حَتّى يَصيرَ كالتَّصْريحِ.

الله مَولى المؤمنين، ومدبِّرُ أمورِهم

تناوبُ التّعْبير بأسماءِ الله وصفاتِه:

المبادلةُ في التّعْبير بين (الرَّبِّ) وبين الاسم الجليل (اللّه) الوارد - في الآية نفسِها - أربعَ مرّات جاءت ترسيخًا لوحدانيّته، وأنّه ملجَأُ المؤمنين الذي لا يغفلون عن ذكره في الرّخاء، والشّدّة، وقد يرادُ بقصديّة اختياره، وتخصيصِه بالتكرار قرينَ اسم اللّه الجليل التّعريضُ بهم على تكبّرهم واعتدادِهم بأنفسهم غرورًا وأنفةً بوصفِهم ساداتٍ، ورؤساءَ وأشرافًا مُطاعين في قومهم قهرًا، وتسلّطًا، والمعنى: (إن كنتم ساداتٍ مُطاعين في قومكم - بحسب دلالةِ الربّ اللّغويّة -، فنحن ربُّنا المُطاعُ اللّهُ).

الله ملجأ المؤمنين الذي لا يغفلون عن ذكرِه في الرّخاء، والشّدّةِ

بلاغةُ المَجاز في لفظ السَّعة:

السَّعَةُ في قولِه: ﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ مُستعمَلةٌ مجازًا[2] في الإحاطة بكلّ شيءٍ؛ لأنَّ الشَّيءَ الواسِعَ يكونُ أكثَرَ إحاطةً، والإحاطةُ أنسبُ لمقام الألوهيّة؛ إذ لا يخفى عليه تعالى شيءٌ، ولا يجري في الكون شأنٌ إلا بأمره، وعلْمِه، ودرايتِه.

الإحاطةُ أنسبُ لوصفِ الخالق العليم

نكتةُ انتصابِ ﴿عِلْمًا﴾ على التّمييز:

قولُه: ﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ تَفْويضٌ لِعلم اللّه، فهو أعْلَمُ بِمُراده منهم، وانتصبَ ﴿عِلْمًا﴾ على التَّمييز المُحَوَّلِ عن الفاعِلِ، وعدلَ عن هذا الأصل؛ لقصد الاتّساع والشّمول والمبالغة، وليكونَ فيه

وصفُ الله بما هو أهلٌ له على سبيل الاتّساعِ والشّمولِ والمبالغةِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/10.

(2) المجاز: "هو الكلام المفاد به خلاف ما عند المتكلّم من الحكم لضربٍ من التأويل إفادةً للخلاف لا بوساطة وضع. كقولك: أنبت الربيع البقل"، يُنظر: السكاكي، مفتاح العلوم: 1/393، وهو أيضًا: العدول باللفظ عمّا يوجبه أصل اللغة، ويقابل الحقيقة، يُنظر: مطلوب، معجم المصطلحات البلاغية، ص: 590.

إجمالٌ، ثم تفصيلٌ فيكونَ أوقعَ في النّفس؛ لأنّ الآتي بعد الطّلب أعزُّ منَ المُنساق بلا طلبٍ[1]، وفي ذلكم الاهتمامُ، ورفعُ توهّمِ الإبهام، الذي يدفعه أيضًا التّواؤمُ بين (الكليّة)، و(الوُسْع) في ﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾.

سرُّ توكيدِ التّفويض:

طلبُ الإعانةِ منَ العليم مظهرٌ للتّسليم والإيمانِ الصّادق والثّقةِ الكاملةِ بالله

أكّدَ التّفويضَ بملازمِهِ (التَّوكُّل) في قوله: ﴿عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾، وهو تسليمٌ يَقْتَضي طَلَبَ الخَيْر والإعانَةِ وتثبيتِ الإيمان به، وكفايةِ شرِّ من يتوعّدُهم به، وفيه مطلقُ التّسليم والاتّكالِ المناسب لسَعةِ العلم، والإحاطةِ بكلّ شيء، وهو يدلُّ على الإيمان الصادقِ والثّقةِ الكاملةِ بالله ﷻ، وأنَّ المؤمنَ يسلِّم أمرَه كلَّه إلى الله، ولا يشركُ به أحدًا في ربوبيّته وألوهيَّته، والتّفويضُ هو تركُ الحكم لله فيما يختاره لعبده من خير الدّنيا والآخرة، والرضا بقضائه وقَدرِه، والاستعانةُ به في كل شأنٍ من شؤونه.

نكتةُ تقديمِ الجارِّ والمَجْرُورِ:

التَّوكّلُ لا يكون إلا على الله تعالى وحْدَه، وبتركِ الحُكم لله فيما يختاره لعبده

جاء تَقْديمُ الجارِّ والمَجْرورِ ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾ على الفعل ﴿تَوَكَّلْنَا﴾؛ ليرسّخَ هذا المعنى، وليفيدَ الاخْتِصاصَ لِمَعْنى التَّوْحيدِ ونَبْذِ غَيْرِ الله، ولتقرير تقديم قصد المعبود على فعل العبادة، كالذي جاء في مبادئ وحي الله تعالى لموسى عليه السلام: ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِي﴾. وهذا التّقديمُ للمتَوَكَّلِ عليه على فعلِ التّوكّل يستلزمُه مبدأُ التسليم، والتفويض؛ لدلالته على الاختصاص، وذلك عادةُ القرآن مع فعل التّوكّل؛ لأنّ التوكّل لا يكون إلا على الله وحدَه.

علّةُ تقديمِ الفاعلِ على الفعل:

ولِعِظَمِ شأنِ التَّوكّل أكّدَ معنى التَّخصيص بصوغٍ مماثلٍ قدّمَ فيه ما يفسَّر به ضميرُ فاعلِ الفتح على فعله ﴿رَبَّنَا ٱفْتَحْ﴾، وتحويلُ

(1) فاضل السامرائي، معاني النحو: 2/317 - 319.

الجملة إلى الاسمية طلبٌ لثبوت الإجراء وتحقّقِه، وهو دعاءٌ وطلبٌ منَ اللّه تعالى، فتقديمُ الفاعل على الفعل يدلُّ على التّواضع والخضوع والإنابة إلى اللّه ﷻ، وعلى دأْبِ الأنبياء والصّالحين في التّضرّعِ إلى اللّه تعالى بأسمائه وصفاتِه، فيدلُّ على التّشريف والتّكريم للّه تعالى، والتّوجُّه إليه بأحسنِ ما يُسمَّى به.

شأنُ التّوكلِ عظيمٌ، لا يُصرَفُ إلّا في حقِّ ربِّ العالمين

فائدةُ تكرارِ الظّرف (بين):

تكرارُ الظّرف (بين) في قوله: ﴿رَبَّنَا ٱفۡتَحۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ قَوۡمِنَا بِٱلۡحَقِّ وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡفَٰتِحِينَ﴾ زيادةٌ في تأكيد التّمييز بينه وتابعيه من جهة، وبين قومه بعد أنْ أدرك عنادَهم، وإصرارَهم على الكفر من جهة أخرى، ولمباعدة الشُّقّة بين الفريقين بخلاف قوله: ﴿حَتَّىٰ يَحۡكُمَ ٱللَّهُ بَيۡنَنَاۚ﴾ [الأعراف: 87] فهو هناك ما زال في موضع المُحاورة والدّعوةِ إلى اللّه، ولم يأتِه ردُّهم.

لا بدّ منَ التّمايزِ بين النّبيّ وأتباعه، وبين القومِ الكافرين

بلاغةُ الجناس في الآية:

الجناسُ[1] غيرُ التّامِّ في (ربنا - بيننا - بين)، والجناسُ الاشتقاقيّ في (افتح - الفاتحين) أحْدَثا ميلًا للنَّفس نحوَ التّشوّقِ والإصغاء، وأكسبا التّعْبيرَ جمالًا وبهاءً وحُسنًا، بحُلْوِ النَّغمة، وتجانسِ الألفاظِ، واتّحادِ الجَرْسِ، وتناسُقِ الإيقاعِ.

التّشويقُ والإصغاءُ مدعاةٌ للتّأثير وإصلاحِ النّفوس

سرُّ ختامِ جُملة الفاصلةِ بالمصدرِ والجَمع:

ختمَ بالمصدر الدّالّ على مطلق الخيريّة، والفتح، وجمعِ المذكر السّالم الدّالِّ على إرادَةِ الحدثِ في قوله: ﴿وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡفَٰتِحِينَ﴾ هو كَقَوْلِه: ﴿وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ﴾، أيْ: وأنْتَ خَيْرُ النّاصِرينَ، وخَيْرُ الحاكِمينَ هو أفْضَلُ أهْلِ هَذا الوَصْفِ، وهو الَّذي يَتَحَقَّقُ فيه كَمالُ هَذا الوَصْفِ فيما يُقْصَدُ منهُ وفي فائِدَتِه بِحَيْثُ لا يَشْتَبِهُ عَلَيْهِ الحَقُّ بالباطِلِ، ولا تُرَوَّجُ عَلَيْهِ التُّرَّهاتُ، والحُكّامُ مَراتِبُ كَثيرَةٌ، فتَبَيَّنَ وجْهُ

تحقّقُ كَمالِ الوَصْفِ أصلٌ في عدم اشتباه الحَقّ عنده بالباطِلِ

(1) هو: "اتّفاق اللَّفْظَيْنِ في وجه من الوجوه مع اختلاف معانيهما"، يُنظر: المؤيد العلوي، الطراز: 3/196.

التَّفْضيلِ في قَوْلِه: ﴿خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ﴾، وكَذَلِكَ القياسُ في قَوْلِه: خَيْرُ النّاصِرينَ، خَيْرُ الماكِرينَ[1].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الكَذِب، والإفك، والافتراء:

الافـتراء اختلاقُ الكذبِ والإخبارُ به

الكَذِب: اسْم مَوْضوع للخَبَر الَّذي لا مُخبرَ لَهُ على ما هوَ بِهِ، وأصلُه في العَرَبيَّة التَّقْصيرُ، سَواء كانَ فاحشَ القُبْح، أو غيرَ فاحشِ القبْح.

أما الإفك: فهوَ الكَذِبُ الفاحِشُ القبْحِ، مثلُ الكَذِب على اللّه ورَسوله، أو على القُرآن، ومثلُ قذفِ المحصنة وغيرِ ذَلِك مِمّا يفحشُ قُبْحُه[2]، وأصلُه في العَرَبيَّة الصّرْفُ، وممّا جاء منه في القُرْآن ﴿أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾، أي: يُصرفون عَن الحقّ[3].

وأمّا الافتراء: فالقَطْعُ على كذبٍ والإخبارُ بِهِ، واخْتلاقُ قدرٍ كذبٍ والإخبارُ بِهِ؛ لِأن أصل افترى قطع، فالافتراء هو اختلاقُ ما لا حقيقةَ له[4]، وافتعالُ ما لا يَصحُّ أن يكون، ويُسمّى الافتراءُ تقوُّلًا؛ لِأنَّهُ قَولٌ متكلَّفٌ[5].

وبهذا التفريقِ فالافتراءُ يناسبُ سياقَ الآية؛ لأنّه اختلاقٌ لما لا حقيقةَ له، ولا أصلَ، وما لا يَصحُّ أن يكون، وما لا يَصحُّ أن يكونَ أعمُّ مِمّا لا يجوز أن يُقال وما لا يجوز أن يُفعل[6].

الوُسْع والإحاطة:

الوُسْع: إحاطةٌ تـامّـة قـدرَ مَا تسعُ من قُـوَّة، وطاقةٍ، وإمكانٍ

الوُسْع: الإحاطةُ بكل شيء علْمًا، فلا يخفى عليه منه شيءٌ ولا يضيق عليه علمُ جميع ذلك، وهو مأخوذ منَ الوُسْع، وهوَ قدرُ ما

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/12.
(2) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 45.
(3) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 46.
(4) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 47.
(5) الكفويّ، الكليات، ص: 154، و710.
(6) الكفويّ، الكليات، ص: 154.

تسعُ لَهُ القوَّةُ، والطّاقةُ، والإمكانُ[1]، والواسِعُ بِمَعْنى أنه المُحيطُ بالأشياء علمًا من قَوْله تعالى: ﴿وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾[2]. وفي الوُسْع معنى الإحاطَةِ التّامَّة؛ لأنَّ الإناءَ الواسِعَ يُحيطُ بأشْياءَ أكْثَرَ ممّا هوَ دونَهُ، أي: وسِعَ عِلمُهُ كلَّ شَيْء، بِحَيْثُ لا يضيق علمُه عَن شَيْءٍ، أي: لا يقصرُ عَنِ الاطِّلاعِ على أخْفَى الأشْياء[3]؛ وليَدُلّ على أنَّهُ عَلِمَ الماضيَ والحالَ والمُسْتَقْبَلَ، وعَلِمَ المَعْدومَ الذي لم يكُن أنَّهُ لَوْ كانَ كَيْفَ كانَ يَكونُ[4].

أما الإحاطةُ: فأصلُها منَ الإحاطة بالشّيء، أي: الإحداقُ به، بمنزلة الحائط الذي تُحاط به الدّار فتُحْدَقُ به[5]، وهيَ إدْراكُ الشَّيْء بِكَمالِهِ ظاهرًا وباطنًا، والاستدارةُ بالشَّيْء من جَميع جوانبه، والإحاطةُ بالشّيء عِلْمًا هو أن يُعلمَ وجودُه، وحسنُه، وقدرُه، وكيفيّتُه، وغرضُه المقصود به، وبإيجاده، وما يكون هو منه، وذلك ليس إلّا للّه تعالى. ومنه قوله: ﴿قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الطلاق: 12][6]. فالوُسْعُ بهذا أشملُ منَ الإحاطة، فهو الإحاطةُ التّامّةُ، ولهذا ناسبَ سياقَ خفاء تصوّرِ مآلات الأمور والمصائر، وناسبه إطلاقُ لفظِ المشيئة، والتّسليمِ المطلَق للّه في تقديره وتصرّفِه في الكون.

الفَتْح والفَصْل:

الفَتْح هوَ الفَصْل بَين الشَّيْئَيْنِ ليظْهر ما وراءهما، ومِنْه فتحُ الباب، ثمَّ اتُّسع فيهِ، فقيل: فتح إلى المعنى فتحًا؛ إذا كشفه، وسُمّيت الأمطارُ فُتوحًا، والفاتحُ الحاكِمُ، وقد فتح بَينهما، أي: حَكَم، ومِنْه

الفتحُ حكمٌ يتضمَّن إبانةً مقرونةً بظَفَرٍ، فهو أخصُّ منَ الفصل

(1) ابن جرير جامع البيان: 18/367.
(2) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 174.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/301.
(4) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/318.
(5) ابن جرير جامع البيان: 2/284.
(6) الفيروزابادي، بصائر ذوي التمييز: 2/127، والكفويّ، الكليات، ص: 56.

قَوْله تعالى: ﴿ٱفۡتَحۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ قَوۡمِنَا بِٱلۡحَقِّ﴾[1]، وقيل: هو النَّصْرُ، والظّفَر، والحكم، وإزالةُ الإغلاق، وفَتَح القَضيَّةَ فتحًا، فصلَ الأمرَ فيها، وأزال الإغلاق عنها[2]. أما الفصلُ؛ فهو إبانة أحد الشَّيئين مِنَ الآخر حتى يكونَ بينهما فُرْجةٌ، ومنه الفصلُ بين النّاس بالحكم[3]. وبذا فالفتح أخصُّ منَ الفصل، فهو حكمٌ يتضمن إبانةً مقرونةً بظَفَر ونصْرٍ، وهو ما يناسبُ سياقَ الآية المباركة المتضمّنةِ حكايةَ المبالغة في الظلم من قوم مدين، والإصرارِ عليه قولًا وفعلًا.

(1) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 150.
(2) الراغب، المفردات: (فتح).
(3) الراغب، المفردات: (فصل).

﴿وَقَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعۡتُمۡ شُعَيۡبًا إِنَّكُمۡ إِذٗا لَّخَٰسِرُونَ ٩٠﴾ [الأعراف: 90]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لمّا بيَّن عِظَمَ ضلالتهم بتكذيب شعيبٍ؛ ثنّى البيانَ بأنّهم لم يقتصروا على ذلك، حتى أضلّوا غيرَهم، ولاموهم على متابعتِه، فقال كبراؤهم لأتباعهم - تثبيطًا عنِ الإيمان -: لئن اتّبعتم شعيبًا إنكم إذًا لخاسرون[1]؛ لينتقلوا منَ التّهديد العامّ لشعيب عليه السلام ومن معه إلى تخصيص الذين اتّبعوه بتهديدٍ خاصٍّ، وواضحٌ أنه للمؤمنين الذين آمنوا باللّه تعالى استجابةً لدعوة شعيب ليستغلّوا ضعفَهم، وهمُ الكبراء، مؤكّدين خسارتَهم بسبب اتّباعِهم لشعيب[2].

الانتقالُ منَ التّهديد العامِّ لشعيب ومَن معه، إلى توجيهِ تهديدٍ خاصٍّ للذين اتّبعوه

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱتَّبَعۡتُمۡ﴾: "التاء والباء والعين أصلٌ واحدٌ لا يشذُّ عنه من البابِ شيءٌ، وهو التُّلُوُّ، والقَفْوُ. يقال: تَبِعْتُ فلانًا؛ إذا تَلَوْتُهُ، واتَّبَعْتُهُ، وأَتْبَعْتُهُ؛ إذا لَحِقْتُهُ"[3]، فالتّابعُ: التّالي. والتَّتَبُّعُ: فعلُك شيئًا بعد شيءٍ، تقول: تتّبعتُ علمَه، أي: اتّبعتُ آثاره[4]. والاتّباعُ: أن يسيرَ الرجلُ، وأنت تسيرُ وراءَهُ[5]، أي: تقتفي أثَرَهُ، ويكون تارةً بالجسم، وتارةً بالارتسام والائتمار[6]، وكثير منَ المعاني التي ذُكرت مرادةٌ في اللّفظة مناطِ الشّرح، فأصحابُ شعيبٍ، تَلَوْهُ، ولحقوه، وائْتمروا بأمْرِهِ نصرةً وتأييدًا.

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/319، وأبو حيّان، البحر المحيط: 5/115.
(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 6/2900.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (تبع).
(4) الخليل، العين: (تبع).
(5) الأزهري، التهذيب: (تبع).
(6) الراغب، المفردات: (تبع).

2) ﴿لَّخَٰسِرُونَ﴾: "الخاء والسّين والراءُ أصلٌ واحد يدلُّ على النّقص"[1]، والخُسران: النّقصانُ، والضَّلالُ، والهَلَكَةُ، والإبعادُ منَ الخير[2]، وقد يكون الخُسرانُ متعلّقًا بالمُقتنيات الدّنيويةِ والتّجارات البشريّةِ، وقد يكونُ متعلّقًا بالمقتنيات النّفسيّةِ كالصّحة، والسّلامة، والعقلِ والإيمانِ، والثّوابِ، وهو الذي جعله اللّه تعالى الخُسرانَ المُبينَ، وكلُّ خسران ذكره اللّه تعالى في القرآن الكريم؛ فهو على هذا المعنى الأخير[3]، ومنه لفظُ الآية الكريمة فخسرانُهم عقوبةٌ، وهلكةٌ لأنفسهم؛ لسوء تصرّفِهم بأنْعُم اللّه عليهم، وقد يرادُ به تهديدُهم بخسرانهم متعلّقاتِهم الدّنيويّةَ.

❁ المعنى الإجْماليُّ:

إصـــرارُ كـبراء القوم على غَيّهم بعدَ يأْسِهم من مطاوعة أتباع شعيبٍ عليه السلام لهم

بعدَ أنْ وجد قومُ شعيبٍ حُجَّتَهُ ساطعةً، ودليلَهُ دامغًا - ولم يستطيعوا مجاراتَهُ في المجادلة، وأيقنوا ثباتَ مَن حولَه معه على دينهم - أصرّوا على كفرهم وإعراضِهم بالتَّوَجُّهِ إلى خطاب عامّة الحاضرين من قومِهم، الباقين على الكفر؛ تحذيرًا لهم من اتّباع شعيبٍ عليه السلام وتنفيرًا لهم وتثبيطًا عنِ الإيمان به؛ خشيةَ أن تحيكَ في نفوسهم سلامةُ دعوته، وصدقُ رسالته، وصفاءُ نصيحتِهِ[4]، فيطاوِعوه، ويهتدوا، وفي خطابهم تهديدٌ، ووعيدٌ، استمرَؤوه ليؤكّدوا طبيعةَ الاستكبار فيهم، ويُثبتوا ضعفَ حُجَّتهم، وتهافتَ أدلتهم.

وترشدُ الآيةُ إلى ذمِّ المُصِرّينَ على كُفْرِهم، الصّامّينَ آذانَهم عن قَوْلةِ الهدايةِ والحقِّ المبين.

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (خسر).
(2) الخليل، العين، والفيروزابادي، القاموس المحيط، والزبيدي، تاج العروس: (خسر).
(3) الراغب، المفردات: (خسر).
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/12.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

سرُّ وصْلِ الآية بما قبْلَها:

انتهاءُ المحاورة قَمِنٌ بالفصل

عُطِفَتْ جُمْلَةُ ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾، ولَمْ تُفْصَل كَما فُصِلَتِ الَّتي قَبْلَها؛ لِانْتِهاءِ المُحاوَرَةِ المُقْتَضِيَةِ فصْلَ الجُمَلِ في حِكايَةِ المُحاوَرَةِ[1]، ولاختلاف الجهة المرادة بالحديث، فهم قوم المتكلّم ومشايعوه وأتباعه ودهماء العامّة الذين معه.

نكتةُ التّعريف بالموصول:

زِيادَةُ ذَمِّ المَلَأِ بِوَصْفِ الكُفْرِ مقْصدٌ يناسبُ صنيعَهم

تعريفُ المَلَأ في قوله: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ بالمَوْصولِ وصِلَتِه وصفًا دونَ أنْ يَكْتَفيَ بِحَرْفِ التَّعْريفِ العهدي المُقْتَضي التّخصيصَ والكمالَ في هذا الوصف - إيذانٌ بأنَّ المَلَأ الثّانيَ هو المَلَأُ المَذْكورُ قَبْلَهُ؛ لِقَصْدِ زيادَةِ ذَمِّ المَلَأ بِوَصْفِ الكُفْرِ، وتحقيرِهم كَما ذُمَّ فيما سَبَقَ بِوَصْفِ الاسْتِكْبارِ وحُقِّروا[2].

سِرُّ الوصفِ بالكفر دون غيرِه:

تعدُّدُ الأوصاف، للإحاطة بِسَيِّئِ الخِصالِ، وتَفْصيلِ الصّورةِ للمعتَبِر

ووَصْفُ المَلَأ بِالكُفْرِ لِمُناسَبَةِ الكَلامِ المَحْكيِّ عَنْهم، الدّالِّ على تَصَلُّبِهِمْ في كُفْرِهِمْ، كَما وُصِفوا في الآيَةِ السّابِقَةِ بِالاسْتِكْبارِ لِمُناسَبَةِ حالِ مُجادَلَتِهِمْ شُعَيْبًا، كَما تَقَدَّمَ، فحَصَلَ مِنَ الآيَتَيْنِ أنَّهم مُسْتَكْبِرونَ كافِرونَ[3].

بلاغةُ صِيغة الافتعال في فعل الاتّباع:

تهديدُ الملأِ لأتباع شعيب، وإصرارهم على زحزحتهم عن إيمانهم

المُخاطَبُ في قَوْلِهِ: ﴿لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا﴾ هُمُ الحاضِرونَ حينَ الخِطابِ لَدى المَلَأ، فحُكِيَ كَلامُ المَلَأ كَما صَدَرَ مِنهم، والسّياقُ يُفَسِّرُ المَعْنِيّينَ بِالخِطابِ، أعْني عامَّةَ قَوْمِ شُعَيْبٍ الباقينَ على الكُفْرِ[4]، ويناسبُ وعيدَهم وقوّةَ تهديدِهم، وإصرارَهم على ذلك

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/12.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/12.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/12.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/13.

الإتيانُ بالفعل متعدّيًا بالهمزة مضعَّفًا بصيغة الافتعال: ﴿ٱتَّبَعۡتُمۡ﴾؛ للمبالغة، وشدّةِ التّكلّف؛ لدلالة بعض معانيه على الاتّخاذ، والمطاوعةِ، تلميحًا إلى عدم اتّخاذِه نبيًّا، وعدمِ مطاوعتِه إلى دعوته.

بلاغةُ حشْدِ المؤكِّدات:

تحشيدُ المؤكّدات يناسبُ شدّةَ القسَم ويُمهّدُ للعقوبة

المؤكِّداتُ: اللّامُ في ﴿لَئِنۡ﴾ موطِئَةٌ لِلقَسَم، و﴿إِنَّكُمۡ إِذٗا لَّخَٰسِرُونَ﴾ جَوابُ القَسَم، وهو دَليلٌ على جَوابِ الشَّرْطِ المَحْذوفِ، كَما هو الشَّأْنُ في مِثْلِ هَذا التَّرْكيبِ، وهو جوابٌ حُشِّدتْ فيه المؤكِّدات؛ ليناسب شدّةَ القسَم، ويُمهّدَ لما سيأتي بعدها من عقوبة، وتصدّرت (إنّ) المُؤكّداتِ، ثم أُتْبعتْ بـ (إذًا)؛ لإفادة توكيدِ الوعدِ[1].

علّة التّعْبير بـ ﴿إِذٗا﴾:

رَهْنُ الخَسارَةِ بِاتِّباعِ النَّبيِّ تَلَهُّفٌ لِلغَلَبَةِ عَلَيْهِ

أُتْبع (إنّ) بـ ﴿إِذٗا﴾ الدّالّةِ على الجواب والجزاء؛ لتوكيد الوعد، وقوّتِه، وربطِ خسارتِهم بعدم الاتِّباع؛ ذلك أنّ ذكرَ ﴿إِذٗا﴾ يدلُّ على أنّ ما بعدها مشروطٌ حصولُه بحصول ما قبْلَها، وفيه إيحاءٌ بلهفتِهم للغلبة على شعيب عليه السلام، فضلًا عن أنّ مقامَ التّحدّي، وشدّةَ المواجهة تقتضي ذكرَها[2].

علّةُ التّعْبير عنِ الخسارة باسْمِ الفاعل:

من كذّبَ الرُّسلَ فخسرانُه مُتحقّقٌ لا محالةَ

وجاء بلفظ الخسارة بالصّيغةِ الاسميّةِ على هيئة اسمِ الفاعل ليدلَّ على أنّ الخسرانَ قد حصَلَ وتمَّ، وثبتَ وصفًا لهم حصولًا مستقرًّا ثابتَ الوقوع لا محالةَ، ولقَصْد الدّلالةِ على الحدوثِ في الحال[3]، ولذلك أعقبَها بالعقوبةِ مباشرةً في مُفتتح الآية بعدها دون مُهلةٍ، أوِ انتظارٍ، مؤكِّدًا إياها باللّام لمزيد دلالةٍ على تحقّقِ الخُسران، وحَتْميَّةِ وقوعه، وأنَّ هذا التّعبيرَ يدلُّ على أنّ الخسارة

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 4/279.
(2) السامرائي، التعبير القرآني، ص: 294 - 295.
(3) فاضل السامرائي، معاني الأبنية في العربية، ص: 41 - 44.

هي حالةٌ دائمةٌ ومستمرّةٌ لهؤلاء المكذّبين، فهم خاسرون في الدّنيا والآخرة.

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الكفر، والشِّرْك:

الكفر: اسمٌ جامعٌ لعديد الذّنوب، وهو يقعُ على ضروبٍ منه، والكافر الجاحدُ لأنعُم الله التي لا تُحصى، وهو على الإطلاق متعارفٌ فيمن يجحدُ الوحدانيّةَ، أوِ النّبوّةَ، أوِ الشّريعةَ، أو ثلاثتَها، وقد يقال: كفرَ لمن أخلّ بالشريعة، وترك ما لزمَه من شكْرِ الله[1]. في حين أنَّ الشِّرْك: إثباتُ شريكٍ لله، وذلك أعظمُ كُفْرٍ، أو مراعاةُ غيرِ الله في بعض الأمور فيما يُتَعبَّدُ به، أوِ التّسويةُ بين الله الخالق وبين أيِّ مَخْلوق غيرِه[2]، فهو: ضربٌ واحد منَ الذّنوب على عِظَمِ شأنه، وفداحةِ وصفِه؛ لذا فهو أخصُّ، ومن هنا فاختيارُ لفظِ الكافرين الدّالِّ على العموم يناسبُ سياقَ الآية المباركة من حيث إنّ الكافرين المُستكبرين المُتعنّتين جاحدون للوحدانيّةِ، والرِّسالةِ، والرّسولِ؛ فناسبَهمُ اللّفظُ الأعمُّ؛ إذ يصدقُ الكفرُ عليهم بجحود واحدٍ من أمور الإيمان كلّها.

الكفرُ جحدٌ للوحدانيّةِ، والرِّسالةِ، والرَّسولِ، فهو وصفٌ أعمُّ منَ الشِّرْك

(1) الراغب، المفردات: (كفر).
(2) الراغب، المفردات: (شرك).

﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دَارِهِمۡ جَٰثِمِينَ ٩١﴾ [الأعراف: 91]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

العقوبةُ نتيجةٌ طبيعيّةٌ بعد استفراغ الجُهدِ بالإبلاغ

عند مقالهم الذي تضمَّن التَّهديدَ العامَّ لشعيبٍ ومن معه، تمَّ توجيهُ تهديدٍ خاصٍّ للذين اتّبعوه، كمُلَ حالُهم في الضّلال أوّلًا، وفي الإضلال ثانيًا، فاستحقّوا الإهلاكَ (بالرَّجْفَة)، وهي الزَّلزَلَةُ الشّديدةُ المُهلكةُ[1]، فكانتِ العقوبةُ نتيجةً طبيعيّةً بعد الإبلاغ، والتّحذيرِ، والنّصحِ، والتّنبيهِ؛ ليتّعظَ المُسيءُ، ويرعويَ الزّائغُ، ويُرْشَدَ المُتّبعُ الضلالَ.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَأَخَذَتۡهُمُ﴾: الأخذ خلافُ الإعطاء، وهو التّناولُ[2]، والأصلُ في الهمزة، والخاء والذال: حوزُ الشّيء، وجمعُه، وتحصيلُه[3]، وقيل: الأصلُ: القهرُ والغلبةُ، واشتُهِرَ في الإهلاك، والاستئصالِ[4]، يقالُ: أُخِذَ فلانٌ بذَنْبِه، أي: حُبِسَ، وجوزي عليه، وعوقِبَ به[5]، وأغلبُ هذه المعاني تتضمّنُها لفظةُ الأخذ في الآية الكريمة كالقهرِ والغلَبة، والإهلاك، وكلُّها مجازاةٌ لسوء فِعالهم، ومُعاقبةٌ لهم.

2) ﴿ٱلرَّجۡفَةُ﴾: (رجف) أصلٌ يدلُّ على اضطرابٍ ومنه رَجَفَتِ الأرضُ، والقلبُ[6]، وهو: الاضطراب الشّديدُ، والحركة[7]، ومنه أعمَّ بعضُهم، فقال: الرَّجْفَة كلُّ عذاب أُنزلَ، فأخذ قومًا؛ فهو: رجفةٌ، وصيحةٌ، وصاعقةٌ[8]، وخصَّص آخرون، فقالوا: الرَّجْفَة: الزَّلزَلَةُ

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/319.
(2) الأزهري، التهذيب: (أخذ).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (أخذ).
(4) الزبيدي، تاج العروس: (أخذ).
(5) ابن الأثير، النهاية: (أخذ).
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (رجف).
(7) الراغب، المفردات: (أخذ).
(8) الخليل، العين: (أخذ).

معها الخَسْفُ[1]، وكلاهما محتمِلٌ في لفظ الرَّجْفَة الواردِ في الآية الكريمة، فهي الصواعقُ، والصَّيْحَةُ، والزّلازلُ، والأخيرةُ الأرجحُ[2].

3) ﴿جَٰثِمِينَ﴾: (جثم) أصلٌ صحيح يدلُّ على تجمُّع الشّيء، ولزومِه مكانًا لا يَبْرَحُ، وجَثَمَ بالأرضِ لَزِمَها ولَبَدَ عليها، وجثَمَ الطائرُ إذا قعَدَ، ولطئَ بالأرضِ، أي: تلبَّد بها، ولصق، وحُبِسَ فيها[3]. وقيل: هو الوقوعُ على الصّدر، والوجه[4]، وبه فُسِّرت اللّفظةُ في الآية الكريمة، قيل: بركوا في دارهم، وأصبحوا جُثثًا خامدةً ملقاةً على وجوهها[5].

المعنى الإجْماليُّ:

الـجـزاءُ من جنسِ العمل

جزاءُ المُعرضِ عنِ الهداية، المعاندِ للحقّ، أن يجازَى بذنبه، ويُعاقبَ على فِعْلِه، وتحقَّ عليه كلمةُ العذاب؛ فكانَ أنْ أخذتْهم زلزلةٌ شديدةٌ مُهلكة، أحاطتْ بهم، فأصبحوا في مواضعهم التي يسكنون بها خامدين، منْكَبّين على وجوههم؛ جزاءَ ظلمهم وطُغيانهم وكفرِهم، وصاروا هم المُخرَجين منَ القَرْيَة، وكأنّهم لم يقيموا فيها بعد أن كانوا يدعون إلى ذلك الإخراج لشعيب والمؤمنين معه؛ استكبارًا وظلمًا، فجاءَ العذابُ من جنس وعيدهم شديدًا مُهلِكًا، لا فوتَ فيه، ولا عَوْد[6].

وترشدُ الآية الكريمة إلى أنّ عقوبة الكافر المُستكبر عنِ النصح آتيةٌ لا محالةَ، لذا فالواجب قَبولُ النَّصيحة في الدّين، والإذعان لأمر ربِّ العالمين[7]، وتحقُّقِ قاعدةِ أنَّ الجزاء من جنس العمل.

(1) الأزهري، التهذيب: (أخذ).
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/13.
(3) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، وابن منظور، اللسان: (جثم).
(4) ابن منظور، اللسان: (جثم).
(5) جبل، المعجم الاشتقاقي: (جثم).
(6) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/319، والآلوسي، روح المعاني: 3/204.
(7) القاسمي، محاسن التأويل: 5/156.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالةُ الفاء في مطلع الآية:

عقَّب قولَهم بالرَّجفة دون مُهلة لشدّة كفرهم

الفاءُ في: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ﴾ للتّرتيب، والتَّعقيب، أيْ: كانَ أخْذُ الرَّجْفَة إيّاهم عَقِبَ قَوْلِهِمْ لِقَوْمِهِمْ ما قالوا دون مُهلة؛ لتناسبَ ختامَ الآية قبلها ﴿لَّخَٰسِرُونَ﴾ المتضمِّنَ الدّلالةَ على الحدوث في الحال، كما بَيَّنّا.

بلاغةُ المجاز في لفظ الأخذ:

العقوبةُ بالقَهر تناسبُ كبيرَ جُرْم الكافرين، وعظيمَ قُدْرَةِ الله

أصْلُ الأخْذِ تَناوُلُ شَيْءٍ بِاليَدِ، ويُسْتَعْمَلُ مَجازًا في مِلكِ الشَّيْءِ، بِعَلاقَةِ اللُّزومِ، ويُسْتَعْمَلُ أيْضًا في القَهْرِ[1]، وعقوبتُهم بالقهر بتصوير الأخذ على أنّه تناولٌ باليد يناسبُ عظيمَ قدرة الباري ﷻ، ومُطْلَقَ سلطانِه؛ فلا يُعجزه شيءٌ في الأرض ولا في السّماء.

توجيهُ المتشابه في التّعْبير عنِ العذاب:

تنزيلُ العقاب تأكيدٌ للسُّنن والآيات، والتّعجيلُ عظةٌ لمن يُطيلُ الأملَ

عبّرَ بـ(الرَّجْفَة) هنا وقبلُ في الآية (78)، وفي ﴿وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ﴾ [العنكبوت: 37]، في حين عبّر بـ(الصَّيْحَة) في قوله: ﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ﴾ [هود: 67، 94] ﴿وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ﴾ [الحجر: 73، 83]، و﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ﴾ [المؤمنون: 41]؛ وجَمْعُ ما بينهما بأنّ الرَّجْفَةَ - الزَّلزَلَة الشّديدة - في المبدأ، والصَّيْحَةَ في الأثناء، أو لكونها من مبادئها؛ فأسند هلاكَهم إلى السّبب القريب تارة، وإلى البعيد أخرى[2].

كان مناسبًا إسكاتُهم بالصَّيْحَة لما تهكّموا

لما تهكّموا بنبيّ الله شعيب عليه السلام بقولهم: ﴿قَالُواْ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِيٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾ [هود: 87] جاءت الصَّيْحَةُ، فأسكتتْهم[3]، ولذلك أشارَ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/227.
(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 8/448.
(3) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 3/448 - 449.

إلى عَظَمَةِ هَذِهِ الصَّيْحَة بإسْقاطِ عَلامَةِ التَّأْنيثِ منَ الفعل أخذ[1]، وقيل: لما جاءت في قصّة شعيب عليه السلام مرّةً الرَّجْفَةُ، ومرّةً الظُّلّة، ومرّةً الصَّيْحَة؛ ازداد التّأنيثُ حُسْنًا؛ لمناسبته ما بعده[2].

وجهُ تخصيص سورة هود بما وقع فيها أنه ذكر قبْلَها من مُرتكبات قومِ شعيب وسوءِ ردّهم على نبيّهم عليه السلام ما لم يردْ مثلُه في آية سورة الأعراف، والمتأمّلُ قولَهم له: ﴿مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا ۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾﴾ [هود: 91]، يوقنُ بأنَّ ردّهم هذا منَ الاستهزاء والإساءةِ وشنيعِ المقابلة لجليل وعظِه عليه السلام لهم ورأفتِه في دعائه إياهم بقوله: ﴿إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ﴾ [هود: 84]، وقوله: ﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾ [هود: 86]، وقوله: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَرَزَقَنِى مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ﴾ [هود: 88]، وقوله: ﴿وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِىٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍ ۚ﴾ [هود: 89] وقوله: ﴿وَٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾ [هود: 90]، فما أجَلَّ تلطّفَ هذا النّبيّ الكريم في دعائه إياهم، وما أشنعَ ردَّهم عليه! فلهذا عبّر عن عذابهم وأخْذهم هنا بأعمَّ ممّا ورد في غير هذه الآية، ولمّا لم يَرِدْ في غيرها مثلُ هذا في الدّعاء والجواب؛ ناسبه اللّفظُ الأخصُّ؛ رعيًا لإحراز النّظم الجَليل[3].

لمّا استهزؤوا، عبّرَ عن عذابهم وأخْذهم هنا بأعمَّ ممّا وردَ في غيرِ هذه الآية

علاقةُ إفراد الدَّار وجمعِها بنوع العذاب:

إنّ الإفرادَ والجَمع في (دارهم)، و(ديارهم) مقترنٌ بذكر الرَّجْفَة والصَّيْحَة، فحيثما ذُكِرتِ الرَّجْفَة؛ أُفردتْ معها الدّارُ، فإن

الصَّيْحَةُ من السّماء وعمّت الأرضَ والسّماءَ، فهي أبلغُ منَ الرَّجْفَة وأقوَى

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 9/325 - 326.
(2) الفيروزابادي، بصائر ذوي التمييز: 1/252.
(3) ابن الزبير، ملاك التأويل: 1/201.

كان المذكورُ الصَّيْحَةَ؛ جُمِعَتْ ولا غرابة؛ لأنّ الصَّيْحَة منَ السّماء، فهي أبلغُ منَ الرَّجْفَة، وأقوى، فكلٌّ اتَّصل بما هو لائقٌ به[1]. والصَّيْحَة أعمُّ حيث عمّتِ الأرضَ والجَوَّ، والزَّلزَلَةُ لم تكن إلا في الأرض، فذكرَ الدّيارَ هناك غيرَ أنّ هذا ضعيف؛ لأنّ الدّار والدّيار موضعُ الجثوم لا موضعُ الصَّيْحَة والرَّجْفَة، فهم ما أصبحوا جاثمين إلا في ديارهم[2]، فالصَّيْحَةُ من حيث الكُلّيَّةُ تُطْلق على ما كان منَ العذاب بالرَّجْفَة وغيرها، وإذا عبرنا بالرَّجْفَة لم يتناول لفظُها إلا ما كان عذابًا بها، فناسبَ عمومُ الصَّيْحَة جمعَ الدّيار مناسبةَ تركيب النَّظم، وناسبَ خصوصُ الرَّجْفَة إفرادَ الدّار[3].

الرَّجْفَةُ تعمُّ الدُّور فكأنّها دارٌ واحدة، والصَّيْحَةُ يُتصوَّرُ فيها عدمُ النّفاذ إلى المحصّن منَ الأبنية

وأُفرِدتِ الدّار مع الرَّجْفَة، وجُمِعَتْ مع الصَّيْحَة؛ لكون الرَّجْفَة هي للأرض، والدّورُ مقامةٌ عليها فبارتجافِ الأرضِ ترتجفُ الدّور وكلُّ من عليها إلّا من شاء الله؛ فبهذا تعمُّهم الرَّجْفَةُ، فتكونُ كالدّار الواحدة؛ إذ لا فرق وقتئذٍ بين دارٍ ودار، ولا منعَةَ من ثَمَّ للحيطان والأسوار.

أمّا الصَّيْحَة الآتية من علٍ؛ فقد يُظنُّ - ولو في الوَهْم دون العلم - أنّ القصورَ المحصّنةَ، والجُدُرَ المشيَّدةَ، والأبنيةَ المُحْكَمَةَ، ربّما لم تنفذ منها الصَّيْحَة؛ لأنّها صَوْتٌ، فهنا اقتضى البيانُ جمعَ الدّيار احترازًا من هذا التَّوهُّم ودفعًا له، وفي وقائع الأمم حضاراتٌ سادَتْ ثمّ بادَتْ، ما قوّضها ولا قضى عليها إلا نسيانُ الخالق، والكفرُ بالمعبود، والإعراضُ عن رسالات الله تعالى، فطوبى لمن سمع وأجاب.

قصديّةُ التّعْبير بلفظ الدَّار مفردًا:

في ضِيق الدَّار ومحدوديّتِها تصغيرٌ لشأن المُهلَكين مقابلَ دعواهم

التّعْبير بالدّار مفردًا ﴿دَارِهِمْ﴾ فيه قصدٌ إلى تصغير شأنهم مقابلَ ادّعائهم أنها قريتُهم؛ لما في الدّار من ضيق ومَحْدوديَّةِ سعةٍ

(1) الكرماني، البرهان في توجيه متشابه القرآن، ص: 77.
(2) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 25/56.
(3) ابن الزبير، ملاك التأويل: 1/201.

قياسًا بالقَرْيَة، ولذلك قدّمها مع حرف الجرّ (في) الظّرفيّة الدّالّةِ على الاحتواء على العقاب في الزمان، والمكان؛ لأهميّتها عندهم، ومن عادة العرب أنهم "يقدّمون الذي بيانُه أهمُّ لهم وهم ببيانه أعنى، وإن كانا جميعًا يُهِمّانِهم ويَعْنيانهم"[1]؛ لاختصاص الجثومِ في الدّار دون القَرْيَة.

وقد يُراد بالإفراد الجنسُ، أي: في دارهم، كما في [هود: 67، 94]؛ لأن الدّار جزءٌ منَ المدينة، فذكرَ الجزءَ، وأراد الكلَّ[2]، وفيه إيحاءٌ أنّ دورهم في غشيان العذاب إيّاهم فيها كلِّها سواءٌ، فهي كالدّار الواحدة قلّةَ غَناءٍ وانهيارَ مَنَعَة، ولأنها لما صارت لهم قبورًا؛ عُذِّبوا بها، فهي كالقبر الواحد، والتّعْبيرُ بالدّار موحٍ بأنّ دائرتها التي اشتُقَّ اسمُها منها عادت دائرةً عليهم، فأُتوا من حيث لم يحتسبوا، وعادتْ سواءً دورُهم وقبورُهم.

بلاغةُ الاستعارة في لفظ ﴿جَٰثِمِينَ﴾:

الجاثِمُ: المُكِبُّ على صَدْرِهِ في الأرْضِ مَعَ قَبْضِ ساقَيْهِ، كَما يَجْثو الأرْنَبُ، وهو استعارةٌ[3] للمقيمين، من قولهم: جثم الطّائر؛ إذا قعد ولطئ بالأرض[4]، ثم اشتُقّ منَ الجثومِ الإقامةُ ﴿جَٰثِمِينَ﴾ بمعنى: مقيمين على سبيل الاستعارة التّصريحيّةِ التّبعيّةِ في المشتقّ (اسم الفاعل) الدّالِّ على الدَّوام والاستمرار، وهذا التّعبيرُ يدلُّ على أنَّ أهلَ القرية الذين كذّبوا شعيبًا عليه السلام، وتمادَوا في ظلمهم وكفرهم، قد أصابهم عذابُ اللّه تعالى بالصّيحة التي أهلكتهم، وأخذتْهم بغتةً، فبقَوا في دارهم ميّتين، لا حَراك لهم ولا حياة، كأنّهم جُثثٌ مُلقاةٌ على الأرض.

جثموا مقيمين عقوبةً لهم كالطّائر اللّاطئ كأنّهم جُثثٌ ملقاةٌ على الأرض

(1) سيبويه، الكتاب: 1/34.

(2) القونوي، حاشية القونوي: 8/449.

(3) الاستعارة: هي تصييرك الشيَّءَ الشيَّءَ وليس به، وجعلك الشيَّءَ للشيء وليس له، بحيث لا يلحظ فيه معنى التّشبيه صورة ولا حكمًا، يُنظر: المؤيّد العلوي، الطراز: 1/106.

(4) الراغب، المفردات: (جثم)، والآلوسي، روح المعاني: 2/157.

وقيل: لَمّا كانَ ذَلِكَ أشَدَّ سُكونًا وانْقِطاعًا عَنِ اضْطِرابِ الأعْضاءِ؛ اسْتُعْمِلَ في الآيَةِ كِنايَةً عَنْ هُمودِ الجُثَّةِ بِالمَوْتِ، ويَجوزُ أنْ يَكونَ المُرادُ تَشْبِيهَ[1] حالَةِ وُقوعِهِمْ على وُجوهِهِمْ حينَ صُعِقوا بِحالَةِ الجاثِمِ تَفْظيعًا لِهَيْئَةِ ميتَتِهِم، والمعنى: أنَّهم أصْبَحوا جُثَثًا هامِدَةً مَيِّتَةً على أبْشَعِ مَنظَرٍ لِمَيِّتٍ[2].

وفي التركيب وجهُ كنايةٍ أو تشبيه

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الرَّجْفَة، والزَّلْزَلَة، والصَّيْحَة، والصّاعقة:

الرَّجْفَة الحركةُ الشّديدة، والاضطرابُ الشديد[3]، وهي قرينةٌ بالأرض؛ ولذلك قيل: هي الزَّلزَلَةُ معها الخسفُ[4]، ومعنى الشّدّة في الرَّجْفِ يجعلها أخصَّ منَ الزَّلزَلَة التي تَصْدُقُ على مجرّد الاهتزاز والاضطراب[5]، فقد تكون حركةً في الأرض خفيفةً. أمّا الصَّيْحَة فشيءٌ مغايرٌ؛ إذ هي الصَّوتُ الشَّديد الذي تنخلع له القلوب، ويتقطّع منه النّياطُ؛ حيث تعمُّ الأرضَ والجوَّ، والزَّلزَلَةُ لم تكن إلّا في الأرض[6]، فالصَّيْحَةُ من حيث الكُلّيَّةُ تُطلق على ما كان منَ العذاب بالرَّجْفَة وغيرِها، وإذا عبّرنا بالرَّجْفَة؛ لم يتناول لفظُها إلا ما كان عذابًا بها[7].

الرَّجْفَةُ والزَّلْزَلَة: عذابان أرضيّان، والصّاعقةُ: عذابٌ سماويٌّ، والصَّيْحَةُ بينهما

والصّاعقةُ الهدّةُ الكبيرةُ، وتأتي على ثلاثة وجوه: (الموت، والعذاب، والنار)، وهي بذا أعمُّ منَ الرَّجْفَة، والصَّيْحَة، فإنّ لنزولها صيحةً شديدةَ القوة ترجف من هولها الأفئدةُ، وتضطرب الأعصابُ، وربما اضطربتِ الأرضُ، وتصدَّع ما فيها من بنيان[8].

---

(1) التشبيه: "هو الجمع بين الشَّيئين، أو الأشياء بمعنًى ما بواسطة الكاف ونحوها"، يُنظر: المؤيّد العلوي، الطراز: 1/136.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/227.

(3) الراغب، المفردات: (رجف).

(4) الأزهري، التهذيب: (رجف).

(5) الراغب، المفردات: (رجف).

(6) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 25/56.

(7) ابن الزبير الغرناطي، ملاك التأويل: 1/201.

(8) المراغي، تفسير المراغي: 8/201.

(جثمَ)، و(جثا):

هـولُ العقوبة أحالتْهم جثثًا هامدةً

هما حالتان منَ الجلوس، بيْد أنّ الجَثْمَ لَطْءٌ بالأرض، والتصاقٌ ووقوعٌ على الصَّدْر والوجْهِ، أمّا الجَثْوُ: فهو جلوس على الرُّكَب طلبًا للخصومة[1]، أو لهول المطلع، فلا يستطيعون قيامًا[2]، وجثا الرجل؛ إذا جلس جلسةَ الذّليل الخائفِ[3] ومن عادة العَرَبِ: أنَّهم إذا كانوا في مَوْقِفِ ضَنْكٍ وأمْرٍ شَديدٍ، جَثَوْا على رُكَبِهِمْ[4].

والجثومُ يناسب سياقَ العقوبة في الآية الكريمة؛ إذ ما كان منهم جلوسُ خوف وترقّب، بل أصبحوا جثثًا هامدة، كما مرّ ذكرُهُ.

(1) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 16/174، وابن منظور، اللسان: (جثو).
(2) القاسمي، محاسن التأويل: 7/108.
(3) ابن جزي، التسهيل: 1/483.
(4) الشنقيطي، أضواء البيان: 3/475.

﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيۡبٗا كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَاۚ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيۡبٗا كَانُواْ هُمُ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٩٢﴾ [الأعراف: 92]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

تقريرُ الخسارة الحقيقيّةِ في الدّنيا والآخرة

لمّا هدَّد الرؤساءُ المتغطرِسون المؤمنين بالخسران إنِ استمرّوا على اتّباعهم لشعيبٍ عليه السلام؛ ذكر الله سبحانه أنّ أولئك المكذّبين هم الخاسرون حقًّا وصدقًا، فقد خسروا أنفسَهم، فكفروا، وضلّوا، وخسروا ديارَهم، فهُدِّمتْ، وخسروا يومَ القيامة، فكانوا حطبَ جهنَّم، وهم فيها خالدون[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَغۡنَوۡاْ﴾: الغين والنون والياء أصلان يدلُّ أحدُهما على الكفاية، ومنه: غَنيَ القومُ في دارهم: أقاموا، كأنّهم استغنَوا بها[2]، وغَنيَ القومُ في المحلّة والمكان، طالَ مُقامهم فيهما مستغْنين بهما، وتقول للشّيء إذا فني: كأن لم يَغْنَ بالأمس، أي: كأن لم يكن[3]، وفُسِّرتِ اللّفظةُ في الآية الكريمة بمعنى: لم يُقيموا فيها[4]، أي: فنَوا حتى كأنهم لم يكونوا.

المعنى الإِجْمالِيُّ:

وصفُ آثارِ عقوبةِ الكافرين

مِلاكُ هذا الوصف المجازاةُ بالعقوبة من جنس العمل، فالذين هدَّدوا شعيبًا ومَن آمن معه بالإخراج، وتوعّدوا بالخسران مَنْ يتبعُهُ من قومهم، ويميلُ إلى وِرْدِ عَذْبِ منهلِه، وظلالِ رحمة رسالتِه، كانوا كأنَّهم لم يَنْعَموا بالعيش في ديارِهم، بل كأنّهم لم يعيشوا، ولم يكونوا،

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 6/2901.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (غني).
(3) الخليل، العين، والراغب، المفردات: (غني).
(4) الأزهري، التهذيب: (غني).

ثم كُرِّر القولُ مع وصفهم بالخاسرين لتعظيم المذلّة لهم، وتفظيعِ ما يستحقون منَ الجزاء على جهلهم، وإصرارِهم على الكفر، ومعاندتِهم، ومزيدِ بيانٍ لابتلائهم بِشُؤْمِ قولتهم؛ فكنتم الخاسرين لمجدكم، وشرفِكم، ورياستِكم، وثرواتِكم وكلِّ ما فيه منفعتُكم[1].

وترشد الآيةُ الكريمة إلى أنّ جزاء الظّالم المستبدّ من جنس فِعاله، والاستبدادُ مآلُه إلى الفناء، والخسرانِ في الدنيا، وهو ظلماتٌ يوم القيامة؛ فالحذرَ الحذرَ منه.

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ الفصل في الآية:

تناسبُ المبالغةُ في الـردّ عليهم جُـرمَ تكذيبهم شعيبًا عليه السلام

جملةُ ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيۡبٗا﴾ مُسْتَأْنَفَةٌ ابْتِدائيَّةٌ؛ إذ لما فرّع كلامَه بأخذهم بطريق الاستئصال على قولِهم المُؤدّي إلى الهلاك على الوجه المذكور، لم يبقَ شيءٌ ممّا يتعلّقُ ببيان حالهم، فلا جَرَمَ كان قولُه: ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيۡبٗا﴾ كلامًا مستأنَفًا جيء به للمبالغة في الردّ عليهم بتخصيص العذاب والخسران بالمكذبين، وأنّ المُصدّقين بمعزلٍ عنه[2]، فهو استئنافٌ لبيان ابتلائِهم بشؤم قولِهم: ﴿لَنُخۡرِجَنَّكَ يَٰشُعَيۡبُ﴾، أو بتكذيبِهم شعيبًا عليه السلام، أو لبيان كيفيةِ أخْذِ الرَّجْفَة؛ إذ تعليقُ الحكم بالمشتقّ يدلُّ على علّيّةِ مأخذِ الاشتقاق، كما هو المعروفُ بالاتفاق[3].

علّةُ التّعريف بالموصول:

جـزاءُ التّكذيبِ الاضمحلالُ

التَّعْريفُ بالمَوْصوليّة للإيماءِ إلى وجْهِ بناءِ الخَبَرِ، وهو أنَّ اضْمِحْلالَهم وانْقِطاعَ دابِرِهم كانَ جَزاءً لَهم على تَكْذيبِهِمْ شعيبًا[4].

(1) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 7/252، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/252.
(2) زاده، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 4/262.
(3) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 8/449.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/13.

سرّ تقديم الموصول:

تقديم الموصول يُقوّي الحُكْمَ

تَقْديمُ الموصول على فعله ﴿كَانُواْ﴾ في قَولِه: ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيۡبٗا كَانُواْ هُمُ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ إذا اعْتُبِرَتْ ﴿كَانُواْ﴾ فِعْلًا؛ فهو تَقْديمٌ لإفادَةِ تُقَوّي الحُكْمَ، وإنِ اعْتُبِرَتْ (كانَ) بِمَنزِلَةِ الرّابِطَةِ - وهو الظّاهِرُ - فالتَّقَوّي حاصِلٌ مِن مَعْنى الثُّبوتِ الَّذي تُفيدُهُ الجُمْلَةُ الاسْمِيَّةُ[1].

بلاغةُ التّشبيه في الآية:

اسْتَأْصَلَ الله شَأْفَتَهُمْ ومحا آثارهم فكأنّهم لم يكونوا

مَعْنى ﴿كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَآۚ﴾: تَشْبيهُ حالَةِ اسْتِئْصالِهِمْ وعَفاءِ آثارِهِمْ بِحالِ مَن لَمْ تَسْبِقْ لَهم حَياةٌ، أو لَمْ تَكُنْ إقامَةٌ؛ لِلدَّلالَةِ على انْمِحاءِ آثارِهِمْ، كَما قالَ: ﴿فَجَعَلۡنَٰهَا حَصِيدٗا كَأَن لَّمۡ تَغۡنَ بِٱلۡأَمۡسِۚ﴾، وللتّشبيه جماعُ دلالاتٍ من تنبيهٍ، وإنكارٍ، وتعجّبٍ. ووجْهُ الشَّبه طبيعةُ ما أصابَهم من رجفةٍ، ولَيْسَ حالَةَ مَوْتِهِمْ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ حاصِلٌ في كُلِّ مَيِّتٍ ولا يَخْتَصُّ بِأَمْثالِ مَدْيَنَ، وهَذا مِثْلُ قَوْلِهِ - تعالى -: ﴿فَهَلۡ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٖ﴾[2].

نكتةُ تكرار جملة ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيۡبٗا﴾:

في التّكرير إيقاظٌ للقلوب، وتنبيهٌ للسّامعين؛ ليتّقوا مثيلَ شركهم وتكذيبهم

التّكرار لِقَوْلِهِ: ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيۡبٗا﴾ تكرارُ جملة، وهو أبلغُ من تكرار المفرد، وغايتُه التَّعْديدُ وإيقاظُ السّامِعينَ، وهم مُشْرِكو العَرَبِ، ليَتَّقوا عاقِبَةَ أَمْثالِهِمْ في الشِّرْك والتَّكْذيبِ على طَريقَةِ التَّعْريضِ، كَما وقَعَ التَّصْريحُ بِذَلِكَ في قَوْلِهِ - تعالى -: ﴿وَلِلۡكَٰفِرِينَ أَمۡثَٰلُهَا﴾[3]، فهذا الاستئناف، والتكريرُ مبالغةٌ في ردّ مقالة الملأ لأشياعهم، وتسفيهٌ لرأيهم، واستهزاءٌ بنصحهم لقومهم، واستعظامٌ لما جرى عليهم[4]؛ إذ من عادة العرب الاستئنافُ من غير عطف في الذمّ، والتّوبيخ، فيقولون: أخوك الذي نهبَ، أخوك الذي هتَك سترَنا[5].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/14.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/14.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/14.
(4) الزمخشري، الكشّاف: 2/131.
(5) القاسمي، محاسن التأويل: 5/155.

بلاغةُ التّعريض في الآية:

تكذيبُ شعيبٍ عليه السلام هو سببُ النّدامة والخُسران

في التّعبير بالاسم الموصول في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيۡبٗا﴾ تعريضٌ بتعظيم شأن غيرِ الخبر والإشارةِ إلى نوع الخبر، وأنّه من جنس الخسران، وذلك أنَّ شُعيبًا نبيٌّ يؤدّي تكذيبُه إلى الخيبة والخسران، لكنّ هذا الإيماءَ إلى نوع الخبر ليس مقصودًا لذاته، بل هو وسيلةٌ إلى التّعريض بتعظيم شأن غيره، وهو شعيب عليه السلام؛ لأنَّ تكذيبَه هو سببُ خسرانه، ولفظُ شعيب واقعٌ في سياق الصّلة لا في سياق الخبر، فالتّعريضُ إذًا لتعظيم شأن غيرِ الخبر، وهذا التّعريضُ أقوى في التّأثير في المخاطَب مِنَ التصريح؛ لأنه يوجِّهُ انتباهَه إلى خطورة التّكذيبِ وعاقبتِه، ويحثُّه على اتّباع الحقّ، وفي هذا القول إشارةٌ إلى قدرة الله على معرفة ما في صدور الخلْقِ وإخبارِهم به.

بديعُ التّعْبير بضمير الفصل:

إظهارٌ لسفهِ قولِ الملأ، وتهافتِ آرائهم، وتَحذيرٌ لأمثالِهِمْ مِنَ الوُقُوعِ في الضَّلال

ضَميرُ الفَصْلِ في قَوْلِهِ: ﴿هُمُ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ يُفيدُ الحصر، والقَصْرَ وهو قَصْرٌ إضافيٌّ، أيْ: دونَ الَّذينَ اتَّبَعوا شُعَيْبًا، وذَلِكَ لإظْهارِ سَفَهِ قَوْلِ المَلَأِ للعامَّة: ﴿لَئِنِ ٱتَّبَعۡتُمۡ شُعَيۡبًا إِنَّكُمۡ إِذٗا لَّخَٰسِرُونَ﴾؛ تَوْقيفًا لِلمُعْتَبِرينَ بِهِمْ على تَهافُتِ أقْوالِهِمْ وسَفاهَةِ رَأْيِهِمْ، وتَحْذيرًا لِأمْثالِهِمْ مِنَ الوُقوعِ في ذَلِكَ الضَّلالِ[1]. وبه - والحصر أعني - اكتفى عنِ التَّصريح بإنجائه عليه السلام ومن معه[2].

بلاغةُ الاستعارة في لفظ الخسران:

أرادوا نفعَ أنفسِهم في زعمِهم فألحقوا بها الضّرر

وَصَفَ جلّ شأنه فِعْلَهم بالخُسْرانِ؛ لِأنَّ حَقيقَةَ الخُسْرانِ نُقْصانُ مالِ التّاجِرِ، والتّاجِرُ قاصِدُ الرِّبْحِ، وهو الزّيادَةُ، فإذا خَسِرَ؛ فقَدْ باءَ بِعَكْسِ ما عَمِلَ لِأجْلِهِ، ولِذَلِكَ كَثُرَ في القُرْآنِ اسْتِعارَةُ الخُسْرانِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/14.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 9/7.

لِعَمَلِ مَنْ يطلبون نَفْعَ أَنْفُسِهِمْ بِالتَّخَلُّصِ مِن أَضْرارٍ في الدُّنْيا مُحْتَمَلٍ لَحاقُها بِهِمْ مِن جَرّاءِ سوء أفعالِهم، فيقعون في أَضْرارٍ مُحَقَّقَةٍ في الدُّنْيا وفي الآخِرَةِ، فالخُسْرانُ مُسْتَعارٌ لِحُصولِ الضُّرِّ مِن حَيْثُ أُرِيدَ النَّفْعُ، والمُرادُ بِهِ هُنا التَّحْذيرُ مِن أَضْرارِ ما حصل لهم في الدُّنْيا مِن جَرّاءِ غَضَبِ آلِهَتِهِمْ عَلَيْهِمْ؛ لِأَنَّ الظّاهِرَ أَنَّهم لا يَعْتَقِدونَ البَعْثَ، فإنْ كانوا يَعْتَقِدونَهُ، فالمُرادُ الخُسْرانُ الأَعَمُّ[1]، فهي استعارةٌ تصريحيّةٌ تبعيّةٌ لكونها في اسمٍ مشتقّ هو: (الخاسرون)، فالاستعارة بدءًا في المصدر (الخسران)؛ إذ شبّه خسرانَ الكافرين لدنياهم وآخرتهم المستلزمَ لعقابهم بخسران التاجر لتجارته، وقد كدَّ فيها، وأفنى رأسَ ماله عليها، بجامع (انعكاس المأمول من العمل المكدّ)، ثم اشتُقَّ منه اسمُ الفاعل (الخاسرون) على سبيل الاستعارة التّصريحيّةِ التبعيّةِ في المشتقّ.

أو في الخُسْرانِ اسْتِعارَةٌ تَخْييليَّةٌ؛ لِأَنَّ الخُسْرانَ مُتَعارَفٌ في التِّجاراتِ، وهَذا الكَلامُ ورَدَ مَوْرِدَ الإنْصاف، حَيْثُ لَمْ يُصَرِّحْ بِأَنَّهُمُ المُؤْمِنونَ بِالباطِلِ الكافِرونَ بِاللّه ﷻ، بَل أَبْرَزَهُ في مَعْرِضِ العُمومِ، ليَهْجُمَ بِهِ التَّأَمُّلُ على المَطْلوبِ[2].

دلالة لام الجنسِ في الخبر:

خسران الكفّار بلغ الغاية في ذلك

ويُستفاد عِظَمُ الخسران من تعريف الخبر بلام الجنس؛ ليدلّ على أنهم الكاملون في الخسران[3].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/113، و9/13.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/18، والاستعارة التَّخْييليَّةُ: إثباتُ لازم المشبّه به لِلمُشَبَّهِ. فهذه قرينة المكنيّة: التي هي لفظ المشبّه به المستعار في النّفس لِلمُشَبَّهِ، والمحذوف المدلول عليه بشيء من لوازمه.

(3) الطيبي، فتوح الغيب: 9/480.

﴿فَتَوَلَّىٰ عَنۡهُمۡ وَقَالَ يَٰقَوۡمِ لَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُمۡ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَنَصَحۡتُ لَكُمۡۖ فَكَيۡفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوۡمٖ كَٰفِرِينَ ٩٣﴾ [الأعراف: 93]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

مفارقةُ شعيب الدّار والعشيرةِ بعد إصرارِ قومه على الكفر

لما صارت دارُ مدين محلَّ غضبِ اللّه؛ دفع ذلك شعيبًا إلى الهجرة عنها، كما كانت عادةُ مَن قبْلَه منَ الأنبياء عليهم السلام، فقال: ﴿فَتَوَلَّىٰ عَنۡهُمۡ﴾[1]؛ لعلْمِه عليه السلام أنهم قد أصرّوا على الكفر إصرارًا، وآذَوا المؤمنين، فأعرض عنهم مع ما في كلامه من إشارة إلى محبّته لهم ابتداءً، وطلبِ الهداية لهم، ولكنهم كفروا، فلم يحزنْ عليهم[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَتَوَلَّىٰ﴾: (ولي) أصل صحيح يدلُّ على قربٍ[3]، وقد يكون بمعنى الإدبار "ولّى الرجل، أي: أدبرَ"[4]. فالتولية تكون إقبالًا، وتكون انصرافًا، وولَّى عنه، وتولّى عنه: أعرضَ، ونأى، وأدبر[5]. أي: إذا عُدّيَ اللفظُ بـ(عن) لفظًا وتقديرًا؛ اقتضى معنى الإعراض وتركِ القربِ، وهذا معناه في الآية الكريمة. وإذا عُدّي بنفسه؛ اقتضى معنى الولاية[6].

2) ﴿أَبۡلَغۡتُكُمۡ﴾: (بلغ) أصل واحدٌ يعني: الوصول إلى الشيء، تقول: بلغتُ المكان، إذا وصلتُ إليه[7]. والبلوغ والبلاغ: الانتهاءُ إلى أقصى المقْصَد، والمُنتهى مكانًا، أو زمانًا، أو أمرًا منَ الأمور

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 8/8.
(2) الطيبي، فتوح الغيب: 9/480.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ولي).
(4) الخليل، العين: (ولي).
(5) ابن منظور، اللسان: (ولي).
(6) الراغب، المفردات: (ولي).
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بلغ).

المقدَّرة[1]. وهو: ما يُتبلَّغُ، ويُتَوصَّلُ به إلى الشّيء المطلوب[2]. فبَلَغَ الشّيءُ يَبْلُغُ: وصَلَ وانتهى. فالإبلاغ: الإيصالُ[3]، وهو المعنى الذي يحتمله لفظُ الآية؛ دلالةً على إيصال الرِّسالة والانتهاء بها إلى أقصى المقصد.

3) ﴿رِسَٰلَٰتِ﴾: الإرسالُ في اللغة: التّتابع[4]، فـ" الراء والسين واللام أصلٌ واحدٌ مطّردٌ منقاس يدلُّ على الانبعاث، والامتداد"[5]. والرَّسْلُ: الذي فيه استرسال ولين، وأصلُه الانبعاثُ على التُّؤَدَةِ، ومنهُ الرسولُ المنبَعِثُ[6]. والإرسالُ: التّسخير، والتّوجيه[7]. ورسالةُ الرسولِ ما أُمر بتبليغه عنِ اللّه[8]، وهذا معنى اللّفظ الوارد في الآية الكريمة.

4) ﴿وَنَصَحۡتُ﴾: "النون والصاد والحاء، أصلٌ يدلُّ على ملاءمةٍ بين شيئين، وإصلاحٍ لهما"[9]، وقيل: هو من أحد أمرين: الإحكامِ، والإخلاصِ، من قولهم: نصحتُ له الودَّ، أي: أخلصتُه. وهو تحرّي فعلٍ، أوقَوْلٍ فيه صلاحُ صاحبه[10]. ونصحت له: أخلصتُ، وصدقت، وتوبةٌ نصوحٌ: صادقةٌ[11] بالغةٌ في النّصح، وهي أن يندمَ على الذّنْب الذي أصاب، فيعتذرَ إلى اللّه تعالى بالاستغفار، ثم لا يعودَ إليه، كما لا يعودُ الحليبُ إلى الضَّرع. والنُّصحُ نقيضُ الغشّ، ونصيحةُ المسلمين إرشادهُم إلى مصالحهم[12]، وعلى ما ذُكر معنى اللّفظة في القرآن الكريم هو بذلُ الرأي مخلصًا، والإرشاد والتّوجيه بما فيه خيرُ المنصوحين.

(1) الراغب، المفردات، والزبيدي، تاج العروس: (بلغ).
(2) ابن الأثير، النهاية: (بلغ).
(3) ابن منظور، اللسان: (بلغ).
(4) الأزهري، التهذيب: (رسل).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (رسل).
(6) الخليل، العين، والراغب، المفردات: (رسل).
(7) ابن سيده، المحكم: (رسل).
(8) مجموعة مؤلفين، المعجم الوسيط: (رسل).
(9) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نصح).
(10) الراغب، المفردات: (نصح).
(11) الأزهري، التهذيب: (نصح).
(12) ابن سيده، المحكم، وابن الأثير، النهاية: (نصح).

5) ﴿ءَاسَىٰ﴾: أسيَ: حزن[1]، فالهمزة والسّين والياء: أصلٌ دالٌّ على الحزن[2]، وحقيقتُه: إتّباعُ الفائت بالغمّ، يقال: أسيتُ عليه، وأسيتُ له[3].

❁ المعنى الإجْماليُّ:

فأعرض شعيبٌ عنهم - حينما أيقن بحلول العذاب بهم - مذكِّرًا إيّاهم بنصحِهِ وإنذارِهِ وعدمِ التّقصير معهم بإيصاله رسالاتِ التوحيد والهداية لهم، وبذلِه الوُسْعَ، والجُهدَ في النّصح والإشفاق، فلم يُصدِّقوا، وأعرضوا مصرّين، وتمرّدوا معانِدين، فلم يتركوا سبيلًا للحزن الشّديدِ عليهم[4]، وأنَّى له الحزنُ على مستحقّي العذاب؟ فالإعراضُ تسليمٌ، وتركُ الحزن رضًا وامتثال، وحريٌّ بالأنبياء هذي الخصالُ.

انقيادُ شعيب عليه السلام لأمر الله فيما أنزل بقومه، والتّسليمُ لحكمِهِ

كما ترشد الآية الكريمة إلى عدم الحزن على ما يُصيب الكافرين من عقوبات، فإنّها بمشيئة اللّه، وتقديرِه، وليس لأحدٍ الاعتراضُ على حكمه، وإلى مَشْروعيَّةِ توبيخ الظالمين بعد هلاكهم، كما فعل رسول اللّه ﷺ بأهل القَلِيب، وكما فعل صالحٌ وشعيبٌ عليهما السلام بقومهما.

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

علّةُ إيثارِ الفاء في مطلع الآية:

الفاءُ في: ﴿فَتَوَلَّىٰ﴾ تفيدُ التّرتيب، والتَّعْقيبَ، فحين هَلَكوا تولّى عنهم نبيُّهم شعيب عليه السلام؛ إذ كان إعراضُه عنهم عَقِبَ عقوبَتِهم دون مُهلةٍ.

مناطُ الامتثال الإعراضُ عن محاججة قومه فورَ إنزال العقوبة بهم

(1) الخليل، العين: (أسي).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أسي).
(3) الراغب، المفردات: (أسا).
(4) البيضاوي، أنوار التنزيل: 3/24.

دلالةُ تعديةِ فعلِ التّولّي بـ(عن) والعطفِ بالواو:

التّولّي عنهم إعراضٌ ونبذٌ للقرب منهم حسًّا ومعنًى

عُدّي فعلُ التّولّي بـ(عن)؛ ليقتضيَ معنى الإعراض، وتركِ القُرب[1]، والواو العاطفةُ للتّشريك بين التّولّي والقول.

وجهُ المجاز في لفظِ التّولّي:

فائدةُ المجاز توبيخُهم، والتّبرُّؤُ منهم

يُحْتَمَلُ أنْ يَكونَ التّولّي مَجازًا بِقَرينَةِ الخِطابِ، أيْ: فأعْرَضَ عَنِ النَّظَرِ إلى القَرْيَة بَعْدَ الرَّجْفَة، أوْ أعرض عنِ التّحسّر والحُزْنِ عَلَيْهِمْ واشْتَغَلَ بالمُؤْمِنينَ، فعَلى الوَجْهِ الأوَّلِ يَكونُ قَوْلُهُ: ﴿يَٰقَوۡمِ لَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُمۡ﴾ مُسْتَعْمَلًا في التَّوْبيخِ لَهم، وعَلى الوَجْهِ الثّاني يَكونُ مُسْتَعْمَلًا في التَّبَرُّؤِ مِنهم[2].

سِرُّ نداءِ شعيب قومه بعنوان القوميّة:

التّبرّؤُ مصيرُ كلِّ من يُكذِّب الرّسلَ، ويكفرُ برسالات ربّه

نِداءُ شُعيبٍ عليه السلام قَوْمَهُ في قوله: ﴿يَٰقَوۡمِ لَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُمۡ﴾ نِداءُ تَبَرُّؤٍ مِن عَمَلِهِمْ، وهو مِثْلُ نداء النَّبيّ[3] ﷺ بَعْدَ وقْعَةِ بَدْرٍ حينَ وقَفَ على القَليبِ الَّذي أُلقيَ فيهِ قَتْلى المُشْرِكينَ، فناداهم بِأسْماءِ صَناديدِهِمْ، ثُمَّ قالَ: "لَقَدْ وجَدْنا ما وعَدَنا رَبُّنا حَقًّا، فهَل وجَدْتُمْ ما وعَدَكم رَبُّكم حَقًّا؟"[4].

بلاغةُ الاستعارةِ في لفظ الإبلاغ:

في الإبلاغ إعلامٌ برسالاتِ ربّ العالمين

التّبليغ، والإبلاغ: جعلُ الشَّيء بالغًا، أيْ: واصِلًا إلى المَكانِ المَقصودِ، وهو هنا استِعارةٌ للإعلام بالأمرِ المَقصودِ عِلمُهُ، فكأنَّهُ يَنْقُلُهُ مِنْ مَكانٍ إلى مَكانٍ[5]، ومناطُ الإعلام هنا رِسالاتُ ربِّ العالمين إيصالًا وتفهيمًا، ونُصْحًا.

---

(1) الراغب، المفردات: (ولي).

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/15.

(3) أحمد بن حنبل، مسند الإمام أحمد بن حنبل، تح: الأرنؤوط: 8/468 - 469، انظر الأحاديث رقم: (4864)، و(4958)، و(6145)، وهو في المسند بنحوه من حديث عمر رقم: (182)، ومن حديث عائشة رقم: (26361).

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/15.

(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/193.

بلاغةُ مقابلةِ الصِّيغ:

أنبياءُ الله مبرّؤون من التّقصير في الإبلاغ

في قوله تعالى: ﴿يَٰقَوۡمِ لَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُمۡ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَنَصَحۡتُ لَكُمۡۖ فَكَيۡفَ ءَاسَىٰ﴾ قابلَ تحقُّقَ الإبلاغ المُصاغِ بهيئة الماضي المقرون بـ ﴿لَقَدۡ﴾ المتّصلة بلامِ القَسَم، وعطفِ فعل النّصح بالصّيغة نفسِها متعدّيًا باللّام المُنبِئة بخُلوصِ النَّصيحة إليهم بالاستفهام الاستنكاريِّ ﴿فَكَيۡفَ ءَاسَىٰ﴾؛ للتَّبَرُّؤِ مِنَ التَّقصيرِ في مُعالَجَةِ كُفرِهِمْ، وهو يُؤْذِنُ بدَفْعِ تَوَهُّمِ التَّقصيرِ في الإبْلاغِ والنَّصيحة لانْعِدامِ ظُهورِ آثارهما فيهم[1].

من تسليم الأنبياء لله تعالى دفعُ خاطرِ حزنِهم على الكافرين

أوْ يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ شُعَيْبٌ مُخاطِبًا نَفْسَهُ على طَريقَةِ التَّجْريدِ؛ إذْ خَطَرَ لَهُ خاطِرُ الحُزْنِ عَلَيْهِم، فدَفَعَهُ عَنْ نَفْسِهِ بأنَّهم لا يَسْتَحِقّونَ أنْ يُؤْسَفَ عَلَيْهِمْ، كقوله تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ إِن لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَسَفًا﴾، وقَوْلِهِ: ﴿فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ عَلَيۡهِمۡ حَسَرَٰتٍۚ﴾.

ويَجوزُ أنْ يَكونَ الاسْتِفْهامُ الإنْكاريُّ موَجَّهًا إلى نَفْسِهِ في الظّاهِرِ، والمَقْصودُ نَهْيُ مَن مَعَهُ مِنَ المُؤْمِنينَ عَنِ الأسَى على قَوْمِهِم الهالِكينَ، إذْ يَجوزُ أنْ يَحْصُلَ في نُفوسِهِمْ حُزْنٌ على هَلَكَى قَوْمِهِمْ وإنْ كانوا قَدِ اسْتَحَقّوا الهَلاكَ[2].

براعةُ عطفِ الأفعال، والأسماء:

بديعُ تآلفِ الألفاظ في القَصص القرآني ودقّة مناسبتِها للسّياق

عطفَ الماضي ﴿وَنَصَحۡتُ لَكُمۡ﴾ على الماضي ﴿أَبۡلَغۡتُكُمۡ﴾ هنا وفي قصة صالح، وعدلَ إلى عطف المضارع ﴿وَأَنصَحُ لَكُمۡ﴾ [الأعراف: 62] على المضارع ﴿أُبَلِّغُكُمۡ﴾ [الأعراف: 62] في قِصّة نوح، وعطف الاسمَ ﴿نَاصِحٞ﴾ [الأعراف: 68] على الاسم ﴿وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ٦٦﴾ [الأعراف: 66] في قصة هود ليقابل الماضيَ بالماضي، والمضارعَ بالمضارع، والاسمَ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/228.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/15.

بالاسم، وهو من بديع التّناسقِ اللَّفْظيِّ في القرآن الكريم، ودقيقِ تآلف لفظه، وكذلك لأنَّ قصة نوح وهود وقعت في ابتداء أدائهما الرِّسالة، فعبّر عنهما بفعل التبليغ المستقبل ﴿أُبَلِّغُكُمْ﴾، وفي قصة صالح وشعيب وقع في آخر ما قَصَّهُ اللّه عنهما منَ الرِّسالة وبعد وقوع العذاب، فعبّر عن فعل التّبليغ فيهما بالماضي ﴿أَبْلَغْتُكُمْ﴾[1].

علّةُ جمْعِ لفظ ﴿رِسَٰلَٰتِ﴾:

الجمعُ باعتبار المعاني المختلفة، أو ما أُوحي إليه وإلى الأنبياء في الأزمان المتطاولةِ

عبّر بالجمع عنِ الرِّسالة هنا ﴿رِسَٰلَٰتِ رَبِّي﴾ وفي جميع القَصص في هذه السورَةِ إلا في قِصَّةِ صالح ﷺ، فعدل إلى الإفراد في قَوْلِهِ: ﴿لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ﴾؛ فالتّعْبيرُ بالجَمع من ثلاثة أوجهٍ:

الوجهُ الأوَّلُ: باعتبار ما أوحي إلى نَبيِّ اللّه في الأزمان المتطاولة.

الوجهُ الثّاني: باعتبار المعاني المختلفة التي جاء بها شعيبٌ وغيرُه منَ الأنبياء ﷺ، منَ الأمر والنّهي والزّجر والوعظ والتّبشير والإنذار.

الوجهُ الثّالِثُ: باعتبار ما أوحي إلى نَبيِّ اللّه وإلى مَن قبْلَه منَ الأنبياء، فجميعُهم يدعون إلى توحيد اللّه وطاعته[2]، فقد حكى ﷺ عنهم بعدَ الإيمان باللّه والتّقوى أشياءَ أمَروا قَوْمَهم بها، إلا في قِصَّةِ صالح، فإنّ فيها ذكرًا للنّاقة؛ فصار كأنّها رسالة واحدة[3]، فالكلام فيها ليس على الرِّسالة الدّينيةِ السّماويّة، وإنّما على (النّاقة) المعجزةِ؛ فالمقصودُ بالرِّسالة هو التّحذيرُ من قتل النّاقة، ولذلك أفردَها ليناسب الحديثَ عنها.

توجيهُ الإضافةِ في لفظ الربّ:

النّبيُّ شعيبٌ ﷺ هو المكلَّفُ بإبلاغ الرسالات

أضاف الربَّ إلى ياء النّفس ﴿رَبِّي﴾ دون ضمير المشاركة (نا) كما في الآية (89)؛ لكونه المَعنيَّ بشأن إبلاغ الرّسالات لهم والمُكلَّفَ

(1) الكرماني، أسرار التكرار في القرآن، ص: 83.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 4/261.
(3) الكرماني، أسرار التكرار، ص: 84.

به، والكلامُ هناك للتبرّؤ منَ العَوْدِ في مِلَّتِهم، وهو شاملٌ شُعيبًا عليه السلام ومَنْ آمن به، فناسبتِ الإضافةُ إلى الضَمير في المقامَيْن.

سرُّ تعديةِ فعلِ النَّصيحة باللّامِ:

لا نصيحةَ أمحضُ وأنفعُ من نصائح الله تعالى ورسلِه

ألزَمَ فعلَ النَّصيحة اللّامَ في قوله: ﴿وَنَصَحْتُ لَكُمْ﴾؛ مبالغةً ودلالةً على إمحاض النَّصيحة، وأنها وقعتْ خالصةً للمنصوح له مقصودًا بها جانبُه لا غيرَ، فرُبَّ نصيحة ينتفع بها النّاصح، فيقصد النّفعين جميعًا، ولا نصيحةَ أمحضُ من نصيحة اللّه تعالى ورسله عليهم السلام[1]، والأصل في النَّصيحة أن تكون بأمر يعود عليه وعليك، فهذه نصيحة لك وله، ولكن حينما تقول: نصحت لك، أي: إنَّ النَّصيحة ليس فيها مسألة خاصّة بك، بل كلّ ما فيها لِصالحِ من تُبلِّغُه.

دلالةُ الفاء في مطلع الاستفهام:

الإعراضُ بعد الإبلاغ والنّصحِ سببُ غضبِ الله وبراءةِ رسوله منهم

الفاءُ في: ﴿فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ﴾ للتّعقيب، أو للسَّبَبيَّة[2]، أو"هي للتَّفريع على قَوْلِه: ﴿لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ﴾؛ إذْ فرَّعَ الاسْتِفْهامَ الإنْكاريَّ على ذَلِكَ؛ لِأنَّهُ لَمّا أبْلَغَهم، ونَصَحَ لَهم، وأعْرَضوا عَنْهُ؛ فقَدِ اسْتَحَقّوا غَضَبَ مَن يَغْضَبُ لِلَّهِ، وهو الرَّسولُ، ويَرى اسْتِحْقاقَهُمُ العِقابَ، فكَيْفَ يَحْزَنُ عَلَيْهِمْ لِما أصابَهم مِنَ العُقوبَةِ"[3]، فهؤلاء القومُ غيرُ حقيقين أن يُحزن عليهم، وأيُّ شقاءٍ وعقوبةٍ أبلغُ من أن يَصلوا إلى حالة يَتبرأُ منهم أنصحُ الخلق لهم؟

نكتةُ التّعبير عنِ الأسى بالمضارع:

تأكيدُ تحقّقِ عدمِ الأسى واسْتِمْراريَّتُهُ

الأسى: شِدَّةُ الحُزْنِ، والمُضارِعُ مُفْتَتَحٌ بِهَمْزَةِ التَّكَلُّمِ، فاجْتَمَعَ هَمْزَتانِ، وإنّما اخْتيرَ المستقبل مع الظاهر الماضي؛ لإرادةِ الاستمرارِ على عدم التآسي، ولا يبعدُ أن يكون لحكاية الحال الماضية[4]؛ ليناسب جُمّاعَ التّعْبير

(1) الزمخشري، الكشّاف: 2/115.
(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 8/450.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/15.
(4) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 8/450.

عن أفعاله بالماضي (تولّى، أبلغتكم، نصحت لكم)، ويرسّخَ تقدير معنى التّحقّق، وغرضُ الالتفات من هذه الأفعال المتعاقبة إلى الفعل المضارع لتأكيدِ تحقّق عدم الأسى، واستمراريتِه على ذلك، والدّلالةِ على ثبات موقفه الإيمانيّ من أولئك مهما كانت قرابتُهم، فإنَّ وقفَه للّه، وهو فيه أسوةٌ يُقتفى أثرُه، ويُتَّبَعُ هَدْيُه، فموقفه ثابتٌ على تجدّد ما يُذكّر بهم؛ لأنّ سيرتَه وهديَه الرّسالةُ كلّها، وهي حاضرةٌ لا تغيب.

بلاغةُ الإظْهارِ في مَقامِ الإضْمارِ:

وصفُ شعيب قومه بالكفر حَيْدةٌ عنِ الحزن عليهم

قَوْلُهُ تعالى: ﴿عَلَىٰ قَوۡمٖ كَٰفِرِينَ﴾ إظْهارٌ في مَقامِ الإضْمارِ، فعَدَلَ عن قوله: (عليهم)؛ ليَتَأتّى وصْفُهم بِالكُفْرِ زيادَةً في تَعْزِيَةِ نَفْسِهِ وتَرْكِ الحُزْنِ عَلَيْهِمْ[1].

علّةُ تنكير القوم ونسبته:

لما كذّبوا وجَحَدوا كان عقابَهم الإعراضُ والتّبرؤُ

عدمُ نسبة القوم إلى نفسه بالياء ونسبته إلى الكافرين في قَوْلِه تعالى: ﴿عَلَىٰ قَوۡمٖ كَٰفِرِينَ﴾، ومجيئه بصيغة التّنكير قصدَ التَّبرّؤ منهم، والإعراضِ عنهم فما عادوا بعد اليوم قومًا له، ولأنه لم يرضَ بكفرِهم وظلمِهم وشِرْكِهم، وكان يدعوهم إلى التّوحيد والإيمان والعدلِ، فلم يشأ أن يكون منهم أو معهم، وقد يكون ذلك؛ لأنَّ اللّه تعالى أراد أن يبيّن حالَ قوم شعيب بعد أن كذَّبوا رسولَه، وتجبّروا على طاعته، وأن يُظهرَ الفرقَ بين شعيب وقومِه، فشعيبٌ كان رسولًا أمينًا، وقومُه كانوا قومًا كافرين.

نكتةُ التّعْبير عنِ الكافرين بصِيغة اسمِ الفاعل:

صار الخُسران وصفًا ثابتًا لهم لسوءِ صنيعِهم

ناسبَ مجيءُ الكافرين جمعًا على هيئة اسم الفاعل الفاصلةَ في الآية السابقة ﴿ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾؛ ليدلَّ على الملازمةِ، والاستمرار، والحدوث حدوثًا ثابتًا مستقرًّا، وكأنه قد صار وصفًا لهم.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/15.

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّآ أَخَذۡنَآ أَهۡلَهَا بِٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمۡ يَضَّرَّعُونَ ٩٤﴾ [الأعراف: 94]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الإشـــارةُ إلى أحـــوال سـائـرِ الأمـــم مـع أنبيائِهم إجمالًا

إنّ اللّه تعالى لما عرّفنا أحوالَ هؤلاء الأنبياء، وأحوالَ ما جرى على أممهم؛ كان من الجائز أن يُظنَّ أنّه تعالى ما أنزل عذابَ الاستئصال إلّا في زمن هؤلاء الأنبياء فقط، فبيّن في هذه الآية أنَّ هذا الجنسَ منَ الهلاك قد فعله بغيرهم، وبَيَّن العِلَّة التي بها يفعل ذلك[1].

ثمّ إنّه تعالى لما ذكر ما حلَّ بالأمم السّالفة من بأسه وسطوتِه عليهم آخرَ أمْرِهم حين لا تُجدي فيهمُ الموعظةُ؛ ذكر تعالى أنّ تلك عادتُه في أقوام الأنبياء؛ إذا أصرّوا على تكذيبهم[2]. فـ" أشار تعالى إلى أحوال سائر الأمم مع أنبيائهم إجمالًا، إثرَ بيان الأمم المذكورة تفصيلًا"[3].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿نَّبِيٍّ﴾: نبا الشّيء ينبو: ارتفع. فـ (نبا) أصلٌ يدلُّ على ارتفاع الشّيء عن غيره[4]، والنّبيُّ في لغة العرب الطريقُ، والمرتفِعُ قَدْرُهُ، والمشرَّفُ على سائر الخلق[5]؛ لرفعة محلّه عن سائر الناس[6]، والنّبوّة: إذا استُعملت مرادفةً للرسالة، ولوحظ فيها معناها؛ فهي سِفارةٌ بين اللّه وبين ذوي العقول من عبادِهِ؛ لإزاحة عِللهمْ في أمرِ معادِهم، ومعاشهم. وقد يُهمزُ النّبي، فيكون أصله منَ النبأ عن اللّه

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/320.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/118.
(3) القاسمي، محاسن التأويل: 5/156.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نبو).
(5) الأزهري، التهذيب: (نبا).
(6) الراغب، المفردات: (نبى).

تعالى، أي: الإخبار؛ لكونه مُنبِئًا بما تسكن إليه العقولُ الذَّكيَّةُ، والنّبيّ بغير همزٍ أبلغُ[1]، وهو الأصلُ فيه، ومعنى اللّفظة في الآية لا يخرجُ عن دلالتِها اللّغوية منَ الارتفاع قدْرًا، وشرفًا، ومنزلةً، ومحلًّا.

2) ﴿بِٱلۡبَأۡسَآءِ﴾: من بَئِسَ، وهو أصل واحدٌ يدلّ على الشّدّة وما ضارعَها[2]. من: حربٍ، ومشقَّةٍ، وضَرَرٍ، ومكروهٍ، وضراعةٍ للفقر، والبائسُ: الرجلُ النازلُ به بَليَّةٌ، أو عُدْمٌ[3]، أو فقْرٌ، والبأساء: ضدّ النّعماء، وقيل: هي الجوع[4]، وقيل: ما يصيبُ في الأبدان من أمراض[5]، وكلُّ هذه المعاني محتملةٌ وواردةٌ في تفسير لفظة ﴿بِٱلۡبَأۡسَآءِ﴾ في الآية الكريمة؛ لأنّ بئس كلمةٌ تُستعمل في جميع المذامّ[6]، وإن كانت دلالةُ الإصابة بالبدن أقربَ؛ إذِ اتّفق عليها أغلبُ المفسّرين.

3) ﴿وَٱلضَّرَّآءِ﴾: الضَّررُ: نقصانٌ يدخلُ في الشّيء[7]، والضّاد والرّاءُ ثلاثةُ أصول، منها: خلافُ النّفع، ويُحملُ عليه كلُّ ما جانسه، أو قاربَهُ[8]، وهو منَ الضُّرّ (بالضمّ)، أو الضَّرّ (بالفتح)، فكلُّ ما كان من سوء حالٍ وفقرٍ في بدنٍ من مرض وغيره؛ فهو ضُرٌّ، وما كان ضدًّا للنفع؛ فهو ضَرٌّ[9]. ومنهم من جعلهما لغتين بمعنًى واحد يدلُّ على: سوء الحال؛ إمّا في نفسِه لِقلّةِ العلم، والفضل، والعفّة، وإمّا في بدنه لِعَدَم جارحةٍ ونقصٍ، وإمّا في حالةٍ ظاهرة من قلّة مالٍ، وجاهٍ[10]. والضَّررُ: الضّيق. والضَّرّاء: النّقص في الأموال والأنفس[11]، أي: يصيبُهم من فقرٍ وعازةٍ، وهو ما يحتمله معنى اللّفظ الوارد في الآية الكريمة فضلًا عن تضمُّنِه معنى مطلق سوءِ الحال وما يندرج تحته منِ احتمالاتِ ما هو خلافُ النّفع.

(1) الراغب، المصدر نفسه: (نبى).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بئس).
(3) الخليل، العين، والراغب، المفردات: (بأس).
(4) الأزهري، التهذيب: (بأس).
(5) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 3/449.
(6) الراغب، المفردات: (بؤس).
(7) الخليل، العين: (ضر).
(8) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ضر).
(9) الأزهري، التهذيب: (ضر).
(10) الراغب، المفردات، والزبيدي، التاج: (ضر).
(11) الأزهري، التهذيب، وابن سيده، المحكم: (ضر).

4) ﴿يَضَّرَّعُونَ﴾: (ضرع) أصل يَدُلُّ على اللّين في الشّيء[1]، وكلّ المعاني الأخرى المشتقّة منه منساقةٌ إليه، فالضَّرَعُ: النّحيف الدقيق، والتّضرُّعُ: التَّذَلُّلُ، والخضوع، والتّخشّع، والابتهال، والاستغاثة[2]، وكلُّ ذلك يحتمِلُهُ معنى اللّفظة؛ (فالتضرّع) دعوةُ اللّه بإظهار شدّةِ الفقر، والتّذللِ، والخضوعِ، والمبالغةِ في السّؤال، والرّغبةِ[3]، مُتشاركين في ذلك[4].

المعنى الإجْماليُّ:

ذِكـرُ تعذيب الأمـم المكذّبة الخالية تذكرةً وعظةً

سُنّةُ اللّه في الكَونِ أنّه ما بعثَ في قرية من نَبيٍّ مبشِّرًا ونذيرًا وداعيًا إلى دين اللّه القويم، وشِرعتِه، ومنهاجِه، فأعرضَ أهلُها وسكّانُها - إلا جازاهم اللّه ابتلاءً وعقوبةً بالشدّة، والمشقّةِ، والفَقْرِ، والبليّةِ، والجوعِ، والحاجةِ، والأمراض والأسقامِ، والضّيقِ وغيرِها؛ لكي يلجؤوا إلى اللّه أذلّاءَ خاضعين حاطّين أردية الكِبْرِ، والعزَّة، والتّعالي، ففي ذلك تنبيهٌ لهم، وتحذيرٌ؛ ليعلموا أنَّ سلبَ النّعمة عنهم أمارةٌ على غضبِ اللّه عليهم من جرّاء تكذيبِهم رسولَهم فلا يهتدون.

وترشدُ الآية الكريمة إلى وجوب الموعظة، والاعتبارِ بقصص الأمم الخاليةِ، المُنبئةِ عن أسباب هلاكهم وخُسرانهم ليتجنّبَها العقلاءُ.

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ الوصل بالواو:

في عطْف الأعمّ على الأخصّ عظةٌ، وعبرةٌ

عَطَفَتِ الواوُ جُمْلَةَ ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا﴾ على جُمْلَةِ ﴿وَإِلَىٰ مَدۡيَنَ أَخَاهُمۡ شُعَيۡبٗاۚ﴾ [الأعراف: 85] عَطْفَ الأعَمِّ على الأخَصِّ؛ لِأنَّ ما ذُكِرَ مِنَ القَصَصِ ابْتِداءً مِن قَوْلِهِ تعالى: ﴿لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ﴾ [الأعراف: 59] كُلُّهُ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ضرع).
(2) الخليل، العين، وابن منظور، اللسان: (ضرع).
(3) ابن منظور، اللسان: (ضرع).
(4) الراغب، المفردات: (ضرع).

القَصْدُ منهُ العِبْرَةُ بالأُمَمِ الخاليَةِ ومَوْعِظَةٌ لِكُفّارِ العَرَبِ، فلَمّا تَلا عَلَيْهِمْ قَصَصَ خَمْسِ أُمَمٍ، جاءَ الآنَ بِحُكْمٍ كُلِّيٍّ يَعُمُّ سائِرَ الأُمَمِ المُكَذِّبَةِ على طَريقَةِ قياسِ التَّمْثيلِ، أوْ قياسِ الاسْتِقْراءِ النّاقِصِ، وهو أشْهَرُ قياسٍ يُسْلَكُ في المَقاماتِ الخِطابيَّةِ[1].

وجهُ الاعتراض، أوِ الاستئناف في الجُمل المتعاقبةِ:

الاعتراضُ: تنبيهٌ على موقعِ الموعظةِ منَ القصصِ المذكورةِ

هَذِهِ الجُمَلُ إلى قَوْلِهِ: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ﴾ كالمُعْتَرِضَةِ بَيْنَ القَصَصِ؛ لِلتَّنْبيهِ على مَوْقِعِ المَوْعِظَةِ، وذَلِكَ هو المَقْصودُ مِن تِلكَ القَصَصِ، فهو اعْتِراضٌ لِبَيانِ المَقْصودِ مِنَ الكَلامِ، وهَذا كَثيرُ الوُقوعِ في اعْتِراضِ الكَلامِ[2].

الاستئنافُ بيانٌ لأخذِ الأممِ الماضيةِ بشُؤمِ كفرهم

كما تحتملُ هذه الجُملُ كونَها اسْتِئْنافيَّةً سيقت لبيان أخذِ الأمم الماضية بشُؤم كفرهم على وجه الإجمال، إثرَ بيانِ ما نزل على الأمم المذكورة تفصيلًا[3].

نكتةُ تعديةِ فعل الإرسال بـ ﴿فِي﴾:

إرسالُ الأنبياء يكون في القَرْيَة وإلى أهلها

عُدِيَّ أرْسَلنا بِـ ﴿فِي﴾ دونَ (إلى) أو (على)؛ لأنَّ المُرادَ بِالقَرْيَةِ حَقيقَتُها، وهي لا يُرْسَلُ إلَيْها، ولا يُرسل عليها مسلّطًا، وإنَّما يُرْسَلُ فيها إلى أهْلِها، فالتَّقْديرُ: وما أرْسَلنا في قَرْيَةٍ مِن نَبيٍّ إلى أهْلِها إلّا أخَذْنا أهْلَها، فهو كَقَوْلِهِ تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا﴾ [القصص: 59][4]. والمقصودُ به هو الظَّرفيةُ، فالتّقدير: وما أرسلنا نبيًّا في قوم من قرية، أي: لأهل قرية. وهذا مثل قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ﴾ [المائدة: 20]، أي: جعل من بينكم أنبياءَ.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/16.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/16.
(3) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 8/451.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/16.

معنى حرف الجرّ ﴿مِن﴾:

(مِن) حرفٌ مَزيدٌ لِلتَّنْصيصِ على العُمومِ المُسْتَفادِ مِن وُقوعِ النَّكِرَةِ في سياقِ النَّفْيِ. وفي سياقه إضمارٌ، والتّقدير: ما أرسلنا في قرية من نبيٍّ، فكُذّب، أو كذّبه أهلُها[1].

التَّنْصِيصُ على العُمُومِ المُسْتَفادِ مِن وُقُوعِ النَّكِرَةِ في سِياقِ النَّفْيِ

سرُّ التّعْبير بالاستثناء المُفرّغ:

الاسْتِثناءُ مُفَرَّغٌ في قوله: ﴿إِلَّآ أَخَذۡنَآ أَهۡلَهَا بِٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾ مخصَّص للتّوكيد؛ لأنّه دالٌّ على أنّ ما قبل ﴿إِلَّآ﴾ يتفرّغ للعمل فيما بعدها، ولا يشغله عنه شيءٌ، والمعنى: ما أرْسَلنا نَبيًّا في قَرْيَةٍ في حالٍ مِنَ الأحْوالِ إلّا في حالِ أنّنا أخَذْنا أهْلَها بِالبَأْساءِ، والضَّرّاء[2].

حالُ من أرسلَ اللهُ إليهم الرُّسل أخْذُهم بالبأساء، والضَّرَّاء

بلاغةُ المَجاز في لفظ الأخْذ:

والأخْذُ في قوله: ﴿إِلَّآ أَخَذۡنَآ أَهۡلَهَا﴾ مَجازٌ في التَّناوُلِ والإصابَةِ بِالمَكْروهِ الَّذي لا يُسْتَطاعُ دَفْعُهُ، وهو مَعْنى الغَلَبَةِ، كَما في قَوْلِهِ تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٖ مِّن قَبۡلِكَ فَأَخَذۡنَٰهُم بِٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمۡ يَتَضَرَّعُونَ﴾ [الأنعام: 42][3].

الأخْذُ إصابةٌ بمكروه لا يُدفع، وأذًى لا يُمنع؛ غلبةً وقهرًا

بلاغةُ الإيجاز بالحذف:

وقَعَ في الكَلام إيجازُ حَذْفٍ دَلَّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ: ﴿لَعَلَّهُمۡ يَضَّرَّعُونَ﴾؛ فإنَّهُ يَدُلُّ على أنَّهم لَمْ يَضَّرَّعوا قَبْلَ الأخْذِ بِالبَأْساءِ والضَّرّاء. فالتَّقْديرُ: وما أرْسَلنا في قَرْيَةٍ مِن نَبيٍّ إلّا كَذَّبَهُ أهْلُ القَرْيَةِ، فخَوَّفْناهم؛ لَعَلَّهم يَذِلّونَ لِلّهِ، ويَتْرُكونَ العِنادَ والمكابرة[4].

تخويفُ القُرى بإصابتهم بالمكروه وإنزالِ العقوبة سعيٌ إلى تركِ العِنادِ والمكابرة

سرُّ إتباع البأساء بالضَّرَّاء:

أردف البأساءَ بالضَّرّاء؛ ليجمعَ بين ما يحتملُه سوءُ الحال ممّا

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/16.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/17.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/17.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/17.

يصيبُهم في أبدانِهم من آفة، أو مرض، وبين ما يصيبُهم من فقر وحاجةٍ، ونقصٍ في الأموال، وقدّم ما النّفسُ أعنى به.

السّوء يصيبُ الأبدانَ، والأحوالَ، والله يختبرُ عباده بالشّدائد قبل الرَّخاء

تقديمُ البأساء على الضَّرّاء في الآية يدلُّ على أنّ البأساء أشدُّ منَ الضراء، وأنّ اللّه تعالى يختار لعباده ما هو أنفعُ لهم، وأقربُ إلى إصلاحهم؛ فالبأساء هي المصائبُ التي تصيب النّاسَ في أجسادهم وأموالهم وأولادهم، كالحروب والجوائحِ والزّلازلِ والجفاف، والضّراءُ: هي المصائبُ التي تصيبُ النّاسَ في أنفسهم وقلوبهم، كالفقر والجوع والخوفِ والحزنِ، فإذا أخذ اللّه تعالى قومًا بالبأساء، فإنَّ ذلك يكونُ دافعًا قويًّا لهم للتّوبة والإنابة إلى ربهم، وللاستغفار والدّعاء، وللاستعانة بالصّبر والصّلاة.

وقد يكون تقديمُ البأساء على الضّراء في الآية يدلُّ على أنَّ اللّه تعالى يختبرُ عبادَه بالشّدائد قبل الرّخاء، ويزيلُ عنهمُ الغفلةَ بالتّذكير، ويحثُّهم على الشّكر بالإنعام، فإذا أخذ اللّه تعالى قومًا بالضّراء؛ فإنّ ذلك يكون سببًا لهم للاستغناء باللّه عن كلّ شيءٍ، وللاقتصاد في المعيشة، وللاحتسابِ في المصائب[1].

فائدةُ التّعْبير بـ(لعلّ):

لم يكنِ الله تعالى ليأخذَهم قبل التّنبيه وهو العَدْلُ

و(لَعَلَّ) تَعْليليَّةٌ بمعنى (كي)[2]، جُعلتْ عِلَّةً لِابْتِداءِ أخْذِهِمْ بِالبَأْساءِ والضَّرّاء قَبْلَ الِاسْتِئْصالِ[3]، وفي ذلك تنبيهٌ على أنّ الأخذَ المذكورَ لم يكن في ابتداء الإرسال بل بعد التَّنْبيهِ، والإيقاظِ بالشّدائد، والإمهال[4]، وبعد تحقّقِ البلاغ وقيامِ الحجّة وانقطاعِ المعذرة وتيقّنِ العلم، كما في قوله: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّاۚ﴾ [النمل: 14].

(1) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 252/7، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 3/449.
(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 8/452.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/227.
(4) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 8/452.

بلاغةُ الكنايةِ في لفظ التَّضرّع:

مَعْنى ﴿يَضَّرَّعُونَ﴾ يَتَذَلَّلونَ؛ لِأَنَّ الضَّراعَةَ التَّذَلُّلُ والتَّخَشُّعُ، وهو هُنا كِنايَةٌ عَنِ الاعْتِرافِ بِالذَّنْبِ والتَّوْبَةِ مِنهُ[1].

التّذلّلُ إلى الله اعترافًا بالذّنب والتّوبة منه طريقُ النّجاة

توجيهُ صِيغة فعلِ التّضرّع:

جيءَ بالفعل ﴿يَضَّرَّعُونَ﴾ على مبنى المضارعة بصيغة الافتعال مُشدّدًا؛ قصدًا إلى استمرار التّخشّع منَ القوم في الحال، والاستقبال، والمبالغةِ في التّذلّل والضَّراعةِ إلى اللّطيف الخبير.

القصدُ استمرارُ التّخشُّع منَ القوم في الأحوال كلّها، والمبالغةُ في التّذلّل والضَّراعة

توجيهُ متشابهِ لفظِ الفعل:

أصل الفعل ﴿يَضَّرَّعُونَ﴾: (يَتَضَرَّعونَ)؛ قُلبتِ التاء ضادًا، وأدغمت في الضّادِ، وجيء به في [الأنعام: 42] بالفكّ ﴿فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾؛ لموافقته ما بعده ﴿فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا﴾ [الأنعام: 43]. فمستقبل (تضرّعوا) يتضرّعون[2]؛ مراعاةً للمناسبة، فالعربُ تراعي مجاورة اللّفظ فتحملُ اللّفظَ على مجاورِه للمضارعة اللّفظية[3]. وفيه ملمحٌ معنويٌّ، تحريرُه: أنَّ فكّ الإدغام جاء في سياقِ وصفِ أممٍ، فلا يتعيّن أنْ يكون ما ذُكِّروا به من محنٍ وشدائدَ، وبأساء وضرّاء بالغًا حدّ الزَّلزَلَة، كالذي ذُكر بالإدغام في الأعراف، وأيضًا فالذي في الأعراف هو ما قبل الإبادةِ والاستئصال، ليس بعده، فتعيّن أن يكون شديدًا بالغًا الغايةَ في الزّجر والتّخويف؛ وذلك من كمال نُصحهم؛ فإذا لم يَرْعَووا؛ فالاستئصالُ إذًا، أمّا الإدغام الَّذي يُعدُّ أحدَ وجوه الإيجاز؛ فجاء به في سياق الحديث عن قريةٍ، وإن كان المرادُ العمومَ[4].

الإدغام وجهُ إيجازٍ يناسبُ سياقَ الحديث عن قرية

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/227.
(2) الكرماني، البرهان، ص: 171.
(3) ابن الزبير، ملاك التأويل: 1/455 - 456.
(4) الشّري، المتشابه اللفظي في القرآن الكريم وأسراره البلاغيّة، ص: 151.

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الإرسال، والبعث:

الإرسالُ وحيٌ من اللهِ إلى الأنبياء؛ لينذروا العبادَ

البعث في اللغة: الإثارة والتّوجيه المصاحبُ لِلتَّنْبيهِ[1]، ثم " إنّه يجوزُ أن يُبعثَ الرّجلُ إلى الآخر لحاجة تخصّه دونك، ودون المبعوث إليه، كالصّبيّ تبعثُه إلى المكتب، فتقول: بعثتُه، ولا تقول: أرسلتُه؛ لأنّ الإرسال لا يكونُ إلا برسالة وما يجري مجراها"[2]. فالبعث قد يستغني عمّا تستلزمه أطراف الإرسال الثلاثة: (المُرسِل، والمُرسَل، والمرسَل إليه) من (رسالة) لَفْظيَّةً كانت أو مَعْنَويَّةً، في حين أنَّ الإرسال يتطلّبها، وإرسالُ اللّهِ الأنبياءَ إنّما هو وحيُه إليهم أن أنذروا عبادي[3]؛ ولذلك كان لفظ الإرسالِ أنسبَ لسياقِ الآية الكريمة.

الرّسول والنَّبيّ:

الرِّسَالةُ مرتبطةٌ بالرَّسُول فهو من أُوحيَ إِلَيْهِ بشرعٍ وأُمِرَ بتبليغِه

شاع في التّفريق بينهما: أنّ الرَّسولَ أخصُّ منَ النّبيّ؛ لأنّ كلَّ رسولٍ نبيٌّ، وليس كلُّ نبيٍّ رسولًا، وهناك من ذهب إلى أنّ النّبيّ هو من أوحيَ إلَيْهِ بشرع خاصٍّ به، وأمّا الرّسولُ؛ فهو من أوحيَ إليه بشرعٍ وأُمرَ بتبليغه، أو أنّ النّبي هو الذي يُبعث لمتابعة رسالةٍ سبقتْه، أو التَّهْييءِ لرسالة ستأتي بعده، ولكنّ الرِّسالة غيرُ مرتبطة به، بل مرتبطةٌ بالرَّسول الذي بُعث بها، أو سَيُبْعَثُ، ولهذا فإنّ اللّه ﷻ قدَّر ألّا تنتهي حياةُ الرُّسل إلا بعد إتمام الرِّسالة، على حين أنّ النّبيَّ قد يُقتل قبل أن تتمّ الرِّسالة أو تنتشر بين الناس، ويؤيّدُ هذا أنَّ كثيرًا من أنبياء بني إسرائيل قد قُتلوا في المراحل الأولى للدّعوة التي كانوا يقومون بها، وهذا ما تؤكّده الآياتُ القرآنيّةُ التي تصف بني إسرائيل بأنّهم قتلةُ الأنبياء بغير حق[4].

---

(1) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة: (بعث).

(2) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 268.

(3) الأزهري، التهذيب: (رسل).

(4) ابن تيمية، النبوات: 2/714، وابن أبي العز الحنفي، شرح العقيدة الطحاوية: 1/155، وعودة خليل، التطوّر الدلالي بين لغة الشعر الجاهلي ولغة القرآن دراسة دلالية مقارنة، ص: 128 - 130.

الضَّرَّاء، والبأساء:

البأساءُ تصيبُ الأبـــــدانَ، والضَّرَّاءُ تصيبُ الأحوالَ

البأساءُ ضرّاءٌ مَعها خوفٌ، وأصلها البَأْس، وهوَ الخَوْف، يُقال: لا بَأْس عَلَيْك، أي: لا خوفَ عَلَيْك، وسُمّيتِ الحَرْبُ بَأْسًا لِما فيها من الخَوْف[1]. وقيل: البأساء ما يصيب الأبدانَ من مرض، والضَّرّاءُ النّقصُ في الأموال والأنفس، وما يصيب الإِنْسانَ من فقْرٍ وحاجةٍ[2].

(1) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 198.

(2) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 3/449.

﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا۟ وَّقَالُوا۟ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩٥﴾﴾

[الأعراف: 95]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

بيانُ عادةِ اللهِ الجاريةِ في الأوّلين واللّاحقين

"لَمّا لم يتضرَّعوا صادقين من قلوبهم مُعترفين بالحقّ لأهله - كما يحقّ له - استدرجهم بإدرار النِّعم، فقال مشيرًا إلى طول مدّةِ الابتلاء واستبعادِهم لكشف ذلك البلاء: ﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا﴾"[1]، فبيَّن تعالى أنّ تدبيره في أهل القرى لا يجري على نمطٍ واحدٍ، وإنّما يدبّرهم بما يكونُ إلى الإيمان أقربَ؛ لأنّ ورودَ النّعمة في البدن والمال بعد البأساء والضَّرّاء، يدعو إلى الانقيادِ والاشتغال بالشّكر[2]، فهو بيانٌ منه تعالى لأمّة منَ الأمم؛ إذ بعث فيها نبيَّها الذي يدعوها إلى الإيمان بالله تعالى وحده، ويدعوها إلى الخير الذي يصلُحُ به حالُهم في الدّنيا والآخرة، ويَقدَمونَ على الله يوم القيامة بالعمل الصّالح، فيجزيهم جزاءَه وفقًا لما قدَّموا[3].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿بَدَّلْنَا﴾: (بدل) أصلٌ واحدٌ منَ البَدَلِ والبِدْلِ، وهو قيامُ الشّيء الذّاهب، يقال: بَدّلتُ الشَّيءَ؛ إذا غيَّرتَه عن حاله، وإنْ لم تأتِ له ببديل[4]، والبدلُ الخِلْفُ، والإبدالُ، والتّبديل، والتّبدُّلُ، والاستبدالُ: جعلُ شيءٍ مكانَ آخر[5]، وتبدُّلُ السيئة بالحسنة أن

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 8/11.
(2) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/321.
(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 6/2903.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بدل).
(5) الراغب، المفردات، وابن منظور، اللسان: (بدل).

يعمل المذنبُ أعمالًا صالحةً تُبطل ما قدّمه من إساءَةٍ، ويعفو اللّه تعالى عن سيئاته، ويحتسِبَ بحسناته[1]. ومعنى الإبدال في الآية الكريمة تغييرُ السّيئات إلى حسناتٍ، وجعلُ إحداها مكان الأخرى، والسّيئات هنا: هي ماساءَهم منَ البأساء والضَّرّاء، والحسناتُ هنا هي ما استُدرجوا به من تنعيم، وتصحيح بدنٍ، وسَعةِ رزق، وإطالةٍ في مُدَدِ الإمهال استدراجًا، مع المعافاة والبَسْطَة، حتى تبدّل حالُهم الأول، ومضوا على ذلك زمانًا.

2) ﴿ٱلسَّيِّئَةِ﴾: من سَوَءَ، والسّينُ والواو والهمزة بمعنى القُبْح، ومنه سُمّيت السّيئةُ سيّئةً، والنّار سوأى؛ لقُبح مَنْظَرِها[2]، وقُبح فِعْلَتِها. والسّوءُ: كلُّ ما يَغمُّ الإنسانَ منَ الأمور الدُّنْيَويَّةِ والأُخْرَويَّةِ، ومنَ الأحوال النَّفْسيَّةِ والبدنيّة والخارجة من فوات مالٍ وجاهٍ، وفَقْدِ حَميم، وجدْبٍ، وضيقٍ، وخيبةٍ[3]. وبِجُمّاع ما وردَ من تفسيرات بالأمور الدّنيوية يوجَّهُ معنى اللّفظة في الآية الكريمة.

3) ﴿ٱلْحَسَنَةَ﴾: المحاسنُ منَ الأعمال ضدُّ المَساوئ، وحروفُه من أصل واحد، فحواه ضدُّ القبح[4]، وضدُّ الإساءة[5]، ويُعبَّر بها عن كلّ ما يَسُرُّ من نعمةٍ تنال الإنسانَ في نفسه، وبدنه، وأحواله من خَصْبٍ، وسَعَةٍ، وظَفَرٍ، وثوابٍ[6]. وكلُّ ما جاء في القرآن منه يُفسَّرُ بالطيّب المُستحلَى، أو المستحبِّ صورةً كان، أو مُقامًا، أو قولًا، أو أداءً، أو تصرّفًا، أو معاملةً منَ الناس[7]، وبذلك يُفسَّرُ معنى اللّفظ في الآية الكريمة.

4) ﴿عَفَواْ﴾: من (عَفَوَ) وهو أصلان يدلّ أحدهما على ترك الشّيء، ومنه تركُك الشّيءَ حتى يكْثُر، ويطولَ، وينمو[8]، ومنه إعفاءُ اللِّحى بأن توفَّرَ، وتُكثَّرَ، ومنه عفتِ الرياحُ الآثارَ إذا درسَتْها، ومحتْها بأن تُتْرَكَ من غير تَعَهّدٍ حتى خفيت على مرّ الدّهر[9]. أو هو منَ القصد، فعفوتُ عنه، قصدتُ إزالةَ ذنبه صارفًا عنه، فالعَفْوُ هنا محوُ الذَّنب، وتركُ

(1) الراغب، المفردات: (بدل).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سوء).
(3) الراغب، المفردات: (سوأ).
(4) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة: (حسن).
(5) الأزهري، التهذيب: (حسن).
(6) الراغب، المفردات: (حسن).
(7) جبل، المعجم الاشتقاقي: (حسن).
(8) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عفو).
(9) الراغب، المفردات: (عفا).

العقوبة[1]. وفُسِّرَ العفوُ في الآية الكريمة بالتّركِ حتى كَثُروا، ونَمَوا، وكأنَّهم طبقةٌ تغشى وجْهَ الأرضِ[2]، ويُحتمل التّفسيرُ بِاللّازِمِ، وهو طولُ الأمد وبُعدُ العهد.

5) ﴿مَسَّ﴾: الميم والسّينُ أصل صحيح يدلُّ على جَسِّ الشّيء باليد، تقول: مَسِسْتُه، أَمَسُّهُ، ومَسَسْتُهُ، أَمُسُّه، والمَمْسوسُ من الماء، ما نالته الأيدي[3]، والمسُّ: يقالُ فيما يكون معه إدراكٌ بحاسَّة اللّمس، ومنه يُقال في كلّ ما ينالُ الإنسانَ من أذًى[4]، ثم استُعير لِلضَّرْبِ، والأخذ، والعقوبةِ، وإيقاعِ الضُّرّ، ونحوِه[5]، ومعناه في الآية الكريمة ما نالَ القومَ منَ الضَّرّاء والبأساء.

6) ﴿وَٱلسَّرَّآءُ﴾: السّين والرّاء يَجمع فروعَه خفاءُ الشّيء، وما كان من خالصِهِ، ومستقرّه[6]، فالسَّرّاء: الدّنيا الواسعةُ، والراحةُ[7]، والفَرَحُ[8]، وأرضٌ سرّاءُ، أي: طيّبةٌ[9]. والسَّرّاء: السّرور[10]، وفي مضمار ما قُدّم من معانٍ فُسّرتِ اللّفظةُ في الآية الكريمة.

7) ﴿بَغْتَةً﴾: (بغت)، أصلٌ بمعنى مفاجأةِ الشيءِ[11]، والبَغْتُ: مفاجأةُ الشّيء من حيث لا يُحتسب[12]، وتُقرنُ بشديدٍ أو مكروه[13]، وعليه فمعنى اللّفظةِ: المفاجأةُ بالأخذ.

❁ المعنى الإجْماليُّ:

لما استمروا بكفرهم؛ رددناهم إلى حالتهم الأولى من رخاءٍ وسَعة وصحّةٍ؛ امتحانًا واختبارًا وإمهالًا لهم، واستدراجًا ليزدادوا ضلالًا؛ فإذا رأوا ذلك؛ تعلّلوا لما أصابهم من البؤس والضّرّ بأنَّ ذلك التّغيّرَ الذي أصابَ آباءنا الأولين إنّما هو شأن الدهر،

(1) الأزهري، التهذيب، والراغب، المفردات: (عفا).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والزمخشري، أساس البلاغة، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (عفو).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (مس).
(4) الراغب، المفردات: (مسس).
(5) ابن الأثير، النهاية، وابن منظور، اللسان، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (مسس).
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سر).
(7) ابن الأثير، النهاية: (سرر).
(8) الخليل، العين: (سر).
(9) ابن منظور، اللسان: (سرر).
(10) أبو الحسن الهنائي، المنتخب من غريب كلام العرب، ص: 247.
(11) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بغت).
(12) الراغب، المفردات: (بغت).
(13) جبل، المعجم الاشتقاقي: (بغت).

وعارضٌ من عوارضه أن يداولَ الضَّرّاء والسَّرّاء بين الناس، وأنه قد أصاب أسلافَهم من قبلهم، ولم يَجِئْهم رُسُلٌ[1]، فكانت عاقِبَةُ ذلك أن أصابهم اللّه بعذاب مدمّر فجأة، وهم فاقدو الإحساس بما سيحلُّ بهم.

الامتحانُ بالرَّخاء بعد الشِّدّة

وتُرشد الآيةُ الكريمة إلى أنَّ الجهل بسُنن اللّه وعادتِه في خلقه؛ مفتاحٌ للغيّ والزَّيغ، وسبيلٌ للإفساد بين البشر، وإلى أنَّ الابتلاء بالشّدة قد يُصْبَر عليه، ويحتملُ مشاقَّه الكثيرون، فأمّا الابتلاء بالرّخاء؛ فقليلٌ من يصبرُ عليه.

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

وجْهُ الاستفتاح بـ ﴿ثُمَّ﴾:

استُفْتِحتِ الآيةُ بحرفِ العَطْفِ (ثمّ) الدّالِّ على التَّراخي، تحقيقًا لمعنى التَّمهّل، وعدمِ التَّعجيل، وليناسبَ المبالغةَ في التَّضرّع الذي دُعوا إليه، ودلالتِه على الاستقبال، ولتمكين الاستدراجِ أنْ يبلغ مداه، فهما مَظِنَّةُ سَعة الوقت، والإلحاحِ في الطلب.

المبالغةُ في التَّضرّع مَظِنّةُ سَعةِ الوقت، والإلحاحِ في الطّلب

إيثارُ لفظِ المكان لجرِّ السّيئة بدل الباء:

عَدَلَ عَنْ جَرِّ السَّيِّئَةِ بِالباءِ إلى لَفْظٍ يُؤَدّي مُؤَدّى باءِ البَدَليَّةِ، وهو لَفْظُ ﴿مَكَانَ﴾، فهو محل الباء، أي: بمكان السَّيِّئَةِ، وفي لفظ ﴿مَكَانَ﴾ إشعارٌ بتمكّن البأساء منهم، كأنّه صار للشّدّة عندهم مكانٌ، وأعربَها بعضُهم ظرفًا، أي: في مكان[2]، فيُنصب على الظَّرْفيَّةِ مَجازًا عَنِ الخَلَفيَّةِ، يُقالُ: خُذْ هَذا مَكانَ ذَلِكَ، أيْ: خُذْهُ خَلَفًا عَنْ ذَلِكَ؛ لِأنَّ الخَلَفَ يَحُلُّ في مَكانِ المَخْلوفِ عَنْهُ، أيْ: بَدَّلناهم حَسَنَةً في مَكانِ السَّيِّئَةِ[3].

في لفظ (مكان) إشعارٌ بتمكّن البأساء منهم؛ شدّةً، ورهْبةً

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/18 - 19.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 4/281.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/17.

بلاغةُ التّضمين في الآية:

استبدالُ السّيئةِ بالحسنةِ منحٌ وعَطاءٌ

ولفظ (بَدَّل) في قوله: ﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ﴾، مُتَضَمِّنٌ مَعْنى أعْطى النّاصِبِ لِمَفْعولَيْنِ، وهُما هُنا الضَّميرُ المَحْذوفُ والحَسَنَةُ، أيْ: أعْطَيْناهُمُ الحَسَنَةَ في مَكانِ السَّيِّئَةِ، ومَعْنى كَوْنِها في مَكانِها أنَّها بَدَلٌ مِنها؛ ذلك أنَّ ﴿مَكَانَ﴾ مَفْعولٌ بِهِ لِبَدَّلنا لا ظَرْفٌ، والمعنى: بَدَّلنا مَكانَ الحالِ السَّيِّئَةِ الحالَ الحَسَنَةَ، فالحَسَنَةُ هي المَأْخوذَةُ الحاصِلَةُ في مَكانِ السَّيِّئَةِ المَتْروكَةِ، والمَتْروكُ هو الَّذي تَصْحَبُهُ الباءُ في نَحْوِ: بَدَّلتُ زَيْدًا بِعَمْرٍو؛ فزيدٌ مأخوذ وعمرو متروك[1]، وإنّما حملها على معنى الإعطاء، وهو لازمُ معناها مع أنّه مجازٌ؛ لأنّ معنى التّبديل لا يلائمه مكانُ السّيئة؛ إذ التّبديلُ يقع على السَّيِّئَةِ دون مكانها[2].

وقد يراد جُمّاعُ المعنيين، فاستبدال السَّيِّئَةِ بالحسنةِ إعطاءٌ وعطاءٌ، وتحريرُ ذلك: أنّ استعمال الفعل (بَدَّل) في هذا الموضع فيه قصدٌ إلى معنًى معيّن لا يتأتّى من دون ذكره، إلّا أنّ تعديتَهُ بغير الحرف المستعمَلِ معه عادةً، فيه ضربٌ منَ التَّوسّع في المعنى مع غاية الإيجاز، ومُؤدّاهُ أنّ للفعل دلالةَ أصلِ معناه، وباستعمال حرف الجرّ الذي يتطلّب فعلًا آخر يصبحُ للمعادلة وجهان متكاملان؛ إذ يؤدّي الفعلُ أصلَ معناه بالتَّصريح به، ويقتضي حرفُ الجرّ معنى الفعل الذي يطلبه بالتّضمين.

وهذا التّفسير هو طريقةُ فُقَهاء أهلِ العَرَبيَّةِ؛ لأنّهم يجْعلون للفعل معنًى معَ الحَرف، ومعنًى مع غيره، فينظرون إلى الحرف وما يستدعي من الأفعال، فيُشرِبون الفعلَ المتعدّيَ به معناه، وهذه قاعدةٌ شريفةٌ جليلةُ المقدار تستدعي فطنةً ولطافةً في الذِّهْنِ[3].

(1) الشهاب، عناية القاضي: 4/193، والآلوسي، روح المعاني: 5/10.
(2) القونوي، حاشية القونوي على تفسير البيضاوي: 8/452.
(3) ابن القيم، بدائع الفوائد: 2/258.

وجهُ التّعريف في (الحسنة، والسّيّئة):

أُعْطُوا حالَةً حَسَنَةً بَطِيئَةَ النَّفْعِ لا تَبْلُغُ مَبْلَغَ البَرَكَةِ

التَّعْريفُ في (الحسنة، والسّيّئة) في قوله: ﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ﴾ تَعْريفُ الجِنْسِ، وهو مُشْعِرٌ بِأنَّهم أُعْطوا حالَةً حَسَنَةً بَطيئَةَ النَّفْعِ لا تَبْلُغُ مَبْلَغَ البَرَكَةِ. و﴿حَتَّىٰ﴾ غايَةٌ لِما يَتَضَمَّنُهُ ﴿بَدَّلْنَا﴾ مِن اسْتِمْرارِ ذَلِكَ وهي ابْتِدائيَّةٌ، والجُمْلَةُ الَّتي بَعْدَها لا مَحَلَّ لَها، و﴿عَفَواْ﴾ كَثُروا، يُقالُ: عَفا النَّباتُ، إذا كَثُرَ ونَما، وعَطَفَ ﴿وَّقَالُواْ﴾ على ﴿عَفَواْ﴾، فهو مِن بَقيَّةِ الغايَةِ[1].

إيثارُ التّعْبير بالمسّ دون الأخذ:

الضّرّاء والسّرّاء حالان تتغيّران بحسب الأزمانِ والأحوالِ

قصديّةُ التّعْبير بالمسّ في قوله: ﴿وَّقَالُواْ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا﴾ دون الأخذ في الآية؛ إذ التّعبيرُ بالمسِّ يدلُّ على أنَّ الضّرّاء والسّرّاء هما حالان تتغيران بحسب الأزمان والأحوال، ولا يستقرّان على شخصٍ أو قوم دائمًا، ولأنّه عبَّرَ أوّلًا فيما أجراه عليهم منَ البأساء والضَّرّاء ليَضَّرَّعوا بالأخذ لشدّة إيلامه وصعوبةِ وقْعه وبُعدِ غائره، ثمَّ لمّا عَفَوا بعد استدراجٍ بالسَّرّاء والكثرة والنّماء، فنسوا ما كانوا فيه قبلُ مِن ابتلاء الشّدائد والخطوب والفاقة؛ لم يبقَ في أذهانهم من الابتلاء الأول إلا بقيّتُه المُعبَّرُ عنها بالمسّ استخفافًا بها وتهوينًا لها؛ إذ طال عليهم الأمدُ فقستِ القلوب، وإنّ الإنسان كما قال اللّه تعالى: ﴿لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۝٧﴾ [العلق: 6 - 7]، فضلًا عن أنّ الأخذ لا يلائمُ السَّرّاء؛ لكونه غلبَ في مواضع المعاتبة، والمعاقبة، ويشير إلى أنَّ الضّرّاء والسّرّاء هما ابتلاءان منَ اللّه تعالى لعباده، ليمتحنَهم بين الشّكر والصّبر؛ فقد مسّ آباءَهم الضّرّاءُ في بعض الأحيان، فلم يصبروا عليه، ولم يَستغفروا ربّهم، ولم يتوبوا إليه، ومسّهم السّرّاءُ في بعضها، فلم يشكروا نعمةَ اللّه عليهم، ولم يزيدوا في طاعته، ولم يتّقوا عذابَه.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/18.

علّةُ تأخير السَّرّاء عنِ الضَّرّاء:

وافقَ النَّظمُ ترتيبَ المُصاب، وسببَ الرّخاء والعذاب

وجه تأخير السَّرّاء عنِ الضَّرّاء في قوله: ﴿وَّقَالُواْ قَدۡ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ﴾؛ للإشعار بأنها تعقُبُها، وقيل: الغايةُ الموافقةُ لما أصابهم أوّلًا من ضرّاء ثم سرّاء،[1] فقابلَ وفاق ترتيب المُصاب، ثم إنّ الابتلاء بالضَّرّاء يُرادُ به الإيقاظُ والتّنبيهُ والإفاقةُ، والإردافُ بالسَّرّاء استدراجٌ، فمن مأْمَنِه يُؤْتى الحَذِرُ.

بلاغةُ الطّباق في الآية:

في الطباق مزيدُ إيضاحٍ للمعنى

السَّرّاء ضِدُّ الضَّرّاء، والحسنةُ ضدّ السَّيئة، وهما من طباق الإيجاب الذي يجمعُ بين لفظين متقابلين في المعنى، ويُفصحُ عن دلالة الرَّبط المُؤدّي إلى مزيدِ إيضاحِ المعنى، وبيانِه، وتحقيقِ التّوازن والانسجام بين اللّفظين.

دلالةُ الفاء المصاحبة للَفْظِ الأخذ:

لم يبقَ بعد ابتلائهم إلّا أنْ يأخُذَهُم بالعذاب أشدَّ الأخذ

الفاءُ في قَوْلِهِ: ﴿فَأَخَذۡنَٰهُم﴾؛ لترتيب ما بعدها على ما قبلها، والتَّعْقيبِ عَنْ قَوْلِهِ: ﴿عَفَواْ وَّقَالُواْ﴾ باعتبار أنّهم لمّا لم يعرفوا كونَ ذلك ابتلاءً من اللّه تعالى لعباده، ولم يبقَ بعد ابتلائهم بالحسنات والسَّيِّئاتِ إلا أنْ يأخذهم بالعذاب - فأخذَهم أشدَّ الأخذ، وأفظعَه؛ لأنَّ نزول العذاب بلا شعور أشدُّ العذاب، ولا سيّما حين انتظارِ نزول أصناف النَّعماء والسَّرّاء[2].

الإخْبارُ عَنِ البَغْتَةِ بِالمَصْدَرِ:

بالغَ في تعذيبهم بالإتيان به فجأةً

البَغْتَةُ: مَصْدَرٌ فيه مَعْنى المَجيءِ عَنْ غَيْرِ إشْعارٍ ولا إعْلامٍ ولا ظُهورٍ، وهو مُنْتَصِبٌ على الحالِ؛ لصحّة تأويله ظاهرًا بِاسْمِ الفاعِلِ، والإخْبارِ بِالمَصْدَرِ لِقَصْدِ المُبالَغَةِ[3].

(1) القونوي، حاشية القونوي على تفسير البيضاوي: 8/452.
(2) القونوي، حاشية القونوي على تفسير البيضاوي: 8/453.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/190.

بديعُ التّعْبير بالجُملة الاسميّة:

عدمُ الشّعور بالعقاب المفاجئ آلَمُ، وأقسَى

جُمْلَةُ ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ حالٌ مُؤَكِّدَةٌ لِمَعْنى بَغْتَةً، واختيْرَتِ الجملةُ الاسميّةُ المُقدّمُ فيها المبتدأُ على المسند الفعليّ؛ لتقوّي الحكم، ولتأكيدِ عدم شعورهم[1]، وثبوتِ العقوبة عليهم، ويناسبه مَبْنَى المضارع الدالِّ على استمرار فعلِ عدمِ الشّعور في الحال والمستقبل، واستغنى بجملة ﴿لَا يَشْعُرُونَ﴾ عن محذوف تقديره (بنزول العذاب)[2]، فهو أبلغُ من ذكره.

براعةُ التّناسبِ بين ألفاظ الفواصل:

انسجامُ الفواصل مع أخواتها من الآيات الخالفة، والسّابقة دليلُ دقّةِ النّظم، وقصديّة التأليف

وللفواصل في الآيات (88 - 95) مجتمعةً ومتفرقةً تناسبٌ عجيبٌ بيانُه:

في آيات المحاورة والمجادلة (88 - 89) كانَ شعيب عليه السلام ومن معه كارهين لما أُجْبروا عليه، فناسبه لفظُ ﴿ٱلْفَٰتِحِينَ﴾ الدّالُّ على النّصر، والتّمكين.

وفي آيات العقوبة الخاصّة (90 - 93) جاءت الفاصلة ﴿ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ مناسبةً لـ ﴿جَٰثِمِينَ﴾ و﴿كَٰفِرِينَ﴾، فالمعطَى واحد قوامُه وصفُ العقوبة.

أما في آيات العقوبة العامّة (94 - 95) لهم ولغيرهم، فقابل نفيَ الفعل ﴿يَضَّرَّعُونَ﴾ بصيغة التّعليل طبيعةَ العقوبة المناسبة لهم ﴿لَا يَشْعُرُونَ﴾.

فما ألطفَ تناسبَ الفواصل في الآي، وأدقَّ انتظامها على رَتَلٍ واحد، توهج إحداها الأخرى، وتُنير معناها!

ثمّ إنّ كلّ فاصلة تناسبُ سياقَها: فلفظة ﴿كَٰرِهِينَ﴾ وقعت في

(1) القونوي، حاشية القونوي على تفسير البيضاوي: 8/453.
(2) البيضاوي، أنوار التنزيل: 3/25.

سياق أفعال الاستكبار، والإخراج، والعود، فهي أفعالٌ حقيقٌ بها أنْ تُكره، في حين وردت لفظة ﴿ٱلْفَٰتِحِينَ﴾ في سياق أفعال نفي الافتراء، والعود، ومقابلتها بأفعال التّصديق، النّجاة، والتّسليم، والتّوكل، والفتح، فناسبها لفظُ (الفتح)؛ لأن جزاءَ نصرِ اللّه النصرُ.

وكذلك الآيات الأُخر، فالكفرُ والإصرارُ على عدم الاتِّباع خسرانٌ، و﴿ٱلرَّجْفَةُ﴾، و﴿جَٰثِمِينَ﴾، عقوبةٌ، و﴿كَذَّبُواْ﴾، و﴿لَّمْ يَغْنَوْاْ﴾، هم ﴿ٱلْخَٰسِرِينَ﴾، و﴿رِسَٰلَٰتِ﴾، وإنكارها كُفرٌ، و(بالبأساء والضَّرّاء) قرينتان بالتضّرع، والتّدرّج منَ السيئة، فالحسنة، فالضَّرّاء، فالسَّرّاء، ثم الأخذ، والبغتة تقابلها العقوبة ﴿لَا يَشْعُرُونَ﴾ - فانطباق الفاصلة مع معنى الآي، وانسجامها مع رسيلاتها من الآيات الخالفة، والسّابقة دليلُ دقّةِ النظم، وقصديّة التأليف.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

اللّمس، والمَسّ، والجَسّ:

المسُّ إصابةٌ مدركةٌ مقصودةٌ مآلُها إلى التّأثّر

اللّمس: إدراكٌ بظاهر البَشرة فهوَ لصوقٌ بإحساس، وهو أعمّ مِمّا هوَ باليَدِ، وقد يُقال لطلب الشَّيْء وإن لم يوجد. والمسّ: الإصابة، وهو في اللُّغَةِ التقاءُ الشّيئين من غير فصل، أو الجمع بين الشّيئين على نهاية القُرْب، ويُقال فيما مَعَه إدْراكٌ بِحاسَّةِ اللّمس؛ فحقيقتُه اللّمس باليد، ونُقِلَ منَ الإحساس إلى المعاني، ليكنّى بِهِ عَن النِّكاح والجُنون، وقد يُقالُ في كلّ ما ينال الإنْسانَ من أذًى[1].

فالمسُّ اتصالُ الشّيء بالبَشرة بحيث تَتَأثَّرُ الحاسّة به، واللّمس كالطلب له؛ ولذلك يقال: ألمسُه فلا أجدُه[2]. ويقال: المسُّ أقلُّ تمكنًا منَ الإصابة، وكأنه أقلُّ درجاتها[3].

(1) الراغب، المفردات: (مسس، ولمس)، وأبو حيان، البحر المحيط: 1/231، والكفويّ، الكليات، ص: 799.
(2) البيضاوي، أنوار التنزيل: 1/90.
(3) القاسمي، محاسن التأويل: 2/396.

ومن هنا فالمسُّ واللّمس والجَسّ متقاربٌ، إلا أن الجَسّ عامٌّ في المحسوسات، والمسُّ فيما يخفى ويدِقّ، والمسّ واللّمس بظاهر البَشرة[1].

وقيل: اللّمس: لا يكون عن قصد. والمسُّ: يكون مقصودًا، أو غيرَ مقصود، تقول: (تماسّ الحجران) ولا يقال: (تلامسَ الحجران)[2].

الشّعور، والإحساس:

الشّعور إدراكُ الشّيء من وجهٍ يدِقُّ ويخفى

يرادُ بالشّعور عِلمُ الشّيءِ عِلْمَ حِسٍّ، منَ الشِّعار - وهو ما وليَ الجسدَ منَ الثياب؛ لأنه يمسُّ الشّعر الذي على البَشَرة -، ومشاعر الإنسان حواسُّه، أما الإحساس؛ فهو العِلمُ بالحواسِّ، وهو عِلمٌ لا شبهة فيه[3]. فالشّعور: إدراكُ الشّيء من وجهٍ يدقُّ، مشتقٌّ منَ الشِّعار، وهو ثوبٌ يلي الجسدَ[4]. أما الإحساسُ؛ فيراد به العلمُ المؤكَّد القاطعُ؛ لأنه مُدركٌ بِالحَواسِّ[5]. فالإحساس: التّأكّد والتّيقّن، أمّا الشّعور؛ فهو العلمُ الدّقيق الخفيّ، وهو أنسبُ للفظةِ ﴿بَغْتَةً﴾ في الآية الكريمة.

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 1/231.
(2) البسيلي، التقييد الكبير في تفسير كتاب الله المجيد، ص: 565.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (شعر)، والزمخشري، الكشّاف: 1/175، و422.
(4) أبو حيان، البحر المحيط: 1/53.
(5) محمد محمد داود، معجم الفروق الدلالية، ص: 89.

﴿وَلَوۡ أَنَّ أَهۡلَ ٱلۡقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ لَفَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَرَكَٰتٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذۡنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ٩٦﴾ [الأعراف: 96]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الانتقالُ من ذكر المكذِّبين للرّسل إلى بيان أسبابِ إغداقِ البركاتِ

لم يكن أخذُهم بغتةً فعلًا حصل دون تمهّلٍ، وكان تبصيرًا وإنذارًا، فناسبه جوُّ التّرغيبِ، والدّعوةُ، وترسيخُ مبدأ المُجازاةِ فالإنكار، والعذاب (السّرّاء - والضّرّاء، السّيّئة - الحسنة، قد مسّ آباءَنا) يُقابلُه ﴿وَلَوۡ أَنَّ أَهۡلَ ٱلۡقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ لَفَتَحۡنَا﴾ فتحٌ في العطاء لا حدَّ له.

وكذلك مناسبةُ لفظِ ﴿يَكۡسِبُونَ﴾ بصيغة المضارع الدّالِّ على تجدّدِ ارتكابِهم الموبقات لسياق الآيةِ الكريمةِ بعدَها الدّالِّ على التّحذير والتّخويف، ﴿أَفَأَمِنَ أَهۡلُ ٱلۡقُرَىٰٓ أَن يَأۡتِيَهُم﴾ البأس، والشّدّة، والغضب متى شاء، وأين شاء، وكيف شاء تعالى وعزّ، فلمّا تجدّدَ لديهم الفعلُ، واستمرّوا عليه؛ حذّرناهم، وذكّرناهم بعقابنا.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَٱتَّقَوۡاْ﴾: الواوُ والقافُ والياءُ: تدُلُّ على دَفعِ شَيءٍ عن شَيءٍ بِغَيرِهِ[1]، ويوجَّهُ عمومُ معناه إمّا على الحفظِ، وإمّا على الحذرِ، وكلاهما يعودُ الى المعنى الأصل، فوَقاهُ اللّهُ وِقايةً، أي: حفظه[2]، وصانه، وحماه، وستره. وفي التَّنزيلِ العَزيزِ: ﴿فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمِ﴾ [الإنسان: 11][3]. والاسم: التَّقوَى، وقوله تعالى: ﴿هُوَ أَهۡلُ ٱلتَّقۡوَىٰ

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (وقى).
(2) الجوهريّ، الصّحاح: (وقا).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (وقي).

﴿وَأَهۡلُ ٱلۡمَغۡفِرَةِ﴾، أي: هو أهْلٌ أن يُتَّقى عِقابُه، وأهلٌ أن يُعمَلَ بما يؤدّي إلى مغفرتِه[1]. ورجلٌ تقيٌّ، وجمعه أتقياء، معناه: أنّه موقٍ نفسه منَ العذاب والمعاصي بالعمل الصّالح[2].

فالتّقوى إذًا: جعلُ النّفس في وقايةٍ ممّا يُخافُ، وهو في تعارف الشّرعِ حفظُ النّفسِ عمّا يُؤثِمُ، وذلك بتركِ المحظور[3]، والخوف من عقاب اللّهِ إن حصل انحرافٌ[4]، وهو مقصدُ اللّفظة، ومُؤدَّى معناها.

2) ﴿بَرَكَٰتٍ﴾: أصلُ الباء والرّاء والكاف واحدٌ دالٌّ على ثباتِ الشّيءِ[5]، ومع أنّ لفظَ البركة محتملةٌ هذا المعنى من حيث إنّها: ثبوتُ الخير الإلهيِّ في الشّيء، إلّا أنّ ثمّةَ معنًى شائعًا أدّتهُ؛ وهو الزّيادةُ والنّماءُ، وانحازَت إليه جلُّ معاني اللّفظة، جاء في العين[6]: "البَرَكةُ: الزّيادة والنّماء"، وهي: الكثرةُ في كلِّ خيرٍ، والمبارك: الّذي يَأتي من قِبَله الخيرُ الكثيرُ، ومنه قَوله تعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ مُبَارَكٞ﴾ [الأنعام: 155][7]؛ تنبيهًا على ما يفيضُ عليه منَ الخيرات الإلهيّة[8]. ومعنى الإفاضة قد يكون مأخوذًا منَ البِركَة، وهي: أن يَدُرَّ لَبَنُ النّاقَةِ وهي بارِكَةٌ فتُقامَ، فتُحلَب[9]؛ أي: يفيض. وقد يُلمحُ في أصل معناها الاجتماعُ المصحوب بالزّيادة. والبَرَكاتُ: السَّعادَة، ومنه ما قيل في التَّشَهُّد: (السَّلام عليك أيّها النَّبيّ ورحمةُ اللّه وبركاتُه)؛ لأنّ مَن أسعَدَه اللّهُ بما أسعدَ بِهِ النّبيَّ ﷺ؛ فقد نالَ السَّعادَةَ المُبارَكَةَ الدّائمةَ[10]، أو المعنى: أثبتْ له وأدِمْ ما أعطيته منَ التّشريف والكرامة[11]. وكلُّ موضعٍ ذُكِرَ فيه لفظُ (تبارك) فهو تنبيهٌ على اختصاصه تعالى بالخيرات المذكورة مع ذكرِ (تبارك)[12].

(1) ابن سيده، المحكم: (وقي).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (وقي).
(3) الرّاغب، المفردات: (وقى).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (وقي).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (برك).
(6) الفراهيديّ، العين: (برك).
(7) الأزهريّ، التّهذيب: (برك).
(8) الرّاغب، المفردات: (برك).
(9) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (برك).
(10) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (برك).
(11) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (برك).
(12) الرّاغب، المفردات: (برك).

فالبركةُ إذًا: ثبوتُ الخيرِ الإلهيِّ في الشّيء واستمرارُه مع لطفٍ، والخيرُ الإلهيُّ يصدرُ من حيث لا يُحسُّ، وعلى وجهٍ لا يُحصَى، ولا يُحصَر، وبه فُسِّرَتِ اللّفظةُ في الآية الكريمة[1]، مع احتمالِها جماعَ ما وردَ فيها من معانٍ، وفاقَ مفهومِ عدم إحصاء خيراتِه وحصرها.

3) ﴿يَكْسِبُونَ﴾: مِن (كسب) الكافُ والسّينُ والباءُ أصلٌ صَحيحٌ، وهو يدُلُّ على ابتغاءٍ، وطَلَبٍ، وإصابَةٍ، فالكَسبُ مِن ذلك[2]، وهو: الطّلبُ، والسّعيُ في طلب الرّزقِ والمعيشةِ[3].

فالكسب: ما يتحرّاه الإنسانُ ممّا فيه اجتلابُ نفعٍ، وتحصيلُ حظٍّ، ككسب المال، وقد يُستعمَلُ فيما يظنُّ الإنسانُ أنّه يجلبُ منفعةً، ثمّ استُجلِبَ به مضرّةٌ، ويُقالُ فيما أخذه لنفسه، ولغيره، ولهذا قد يتعدَّى إلى مفعولين، فيُقال: كسبتُ فلانًا كذا[4]. وهو أيضًا: جَمعُ الشّيءِ وتحصيلُه شيئًا بعد شيءٍ بجُهدٍ ما آخذًا من حيث كان: كما تأخذُ الجوارحُ فرائسَها مرّةً بعد أخرى، وكما يُجمَعُ المالُ من مظانّه شيئًا بعد شيء. ومنه: الكَسب: طَلَبُ الرّزق، وتحصيلُه[5]، أو العملُ على الحصول على مرغوبٍ فيه، ومنه: الاستمتاع بشيءٍ محبوبٍ للنّفس تلذّذًا ومتعةً. ومعنى اللّفظة في الآية الكريمة ما ارتكبوه من ذنوبٍ، وما اقترفوه من آثامٍ.

❁ المعنى الإجْماليُّ:

يذكرُ اللّهُ لو أنَّ كفّارَ مكّةَ وغيرَهم من أهل القرى وما حولها، أو القرى الّتي أُرسِلَت إليها الرّسلُ، آمنوا باللّه، وصدّقوا رسلَهَ، وانقادوا لما أمرَ، وأدَّوا ما أوجبَ اللّهُ عليهم، واجتنبوا ما حرّم، وأعرضوا عمّا

التّرغيبُ بالإيمان إنذارٌ للمعرضين، وبشارةٌ للمؤمنين

(1) الرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (برك).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (كسب).
(3) الفراهيديّ، العين، وابن منظور، لسان العرب: (كسب).
(4) الرّاغب، المفردات، والجرجانّي، التّعريفات: (كسب).
(5) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (كسب).

نهى طاعةً وامتثالًا، لأغدقنا عليهم عطايا السّماءِ غيثًا، ورحماتٍ لم تُعهد، وأوسعنا عليهم هباتِ الأرض رزقًا، ومنافعَ، ومديدَ خيراتٍ لم تُشهد فضلًا منه سبحانَه، ونعمةً تتوالى وتُنمَى وتمتدُّ وتثبتُ. فيوضاتُ خالقٍ عزَّ وصفُ عطائهِ، واستحال إدراكُ آلائه. ومصداقُ ذلك إطلاقُ فعلِ الفتحِ، وتوسيعُ جهته بمُطلَقِ الأرض والسّماء من غير تقييدٍ، لكنّهم أعرضوا مُكذِّبين، وصدّوا معاندين، وتمادَوا في ضلالهم المبين، فحلَّ عليهم شديدُ العقاب استحقاقًا، وأثرًا لازمًا، لما ارتكبوا منَ المعاصي، وسوءِ الفعالِ، وحصائدِ الذّنوبِ، ومرتكباتِ الآثامِ الّتي أورثتهم إعراضًا عنِ الهداية، وإصرارًا على الكفر.

وترشدُ الآيةُ الكريمةُ: إلى أنَّ الإيمانَ قرينُ التّقوى، ومُلازمُها، وهو مُتمِّمُ القبول، وسبيلُ القربِ، وتحصُّلِ ألطافِ الرّبِّ، وفيه ترغيبٌ للّذين آمنوا بالنّبيّ محمَّد ﷺ، فهما سببُ السّعادةِ في الدّارين، وأنّ الكفّارَ قد يُبسَطُ لهم الرّزقُ، وتُمَدُّ لهم أسبابُ الخير، وأبوابُ النّعمِ على سبيل الاستدراج[1]، وفي الآية دليلٌ على أنَّ استنزالَ الرزقِ يكون بالطّاعة، وحرمانَهُ بالمعصية والإثم، ومصداقُه حديث رسول الله ﷺ: «إنّ العبدَ ليُحرمُ الرّزقَ بذنبٍ يصيبهُ»[2]، فحرمانُ البركات، وإنزالُ العقوبات هو مُؤدَّى دنيءِ فعالهم؛ كذبًا وكفرًا[3].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ الفصلِ في الآية:

جملة: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ﴾ عطفٌ على جملة: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾ [الأعراف: 94]، أي: ما أرسلنا نبيًّا في قريةٍ، فكذَّبه أهلُها إلّا نبّهناهم، واستدرجناهم، ثمّ

ما أُخذوا بالعذاب إلّا بكسب أيديهم، وسوء فعالهم

(1) طنطاويّ، التّفسير الوسيط، ص: 133.

(2) أحمد بن حنبل، المسند: 5/277، الأحاديث رقم: (280 - 282)، والكَرَجيّ القصّاب، نكت القرآن الدّالّة على البيان في أنواع العلوم والأحكام، ص: 397.

(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/281.

عاقبناهم[1]، أو: هي اعتراضٌ بين المعطوفِ والمعطوف عليه جيءَ به للمسارعة إلى بيان أنّ الأخذَ المذكورَ إنّما هو بما كسبَت أيديهم[2].

سرُّ التّعبير بـ ﴿وَلَوْ﴾:

التّكذيبُ شأنُهم، والجحودُ ديدنُهم

لمّا كان الكلامُ بما أفهمَته (لو) حرف الشّرط غير الجازم في قوّةِ أنّهم لم يؤمنوا، من حيث إنّها تفيدُ الامتناعَ؛ عبّر - في تناسقٍ بين الألفاظ وتناسبٍ - بقوله: ﴿وَلَٰكِن كَذَّبُواْ﴾، أي: كان التّكذيبُ ديدنَهم وشأنَهم؛ فلذلك لم يصدّقوا رسلَنا في شيءٍ[3].

دلالةُ اقترانِ الشّرط بـ ﴿أَنَّ﴾:

نزولُ البركاتِ قيدُ الإيمان، لو آمنوا قبلُ لفُتِحَت عليهم أبوابُ البركات

وشرط (لو) الامتناعيّة يحصلُ في الزّمن الماضي، ولمّا جاءَت جملةُ ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ﴾ مُقترنًا شرطُها بحرف (أنَّ) المفيد للتّأكيد والمصدريّةِ، وكان خبرُ (أنَّ) فعلًا ماضيًا، توافر معنى المضيّ الدّالِّ على التّحقّقِ في جملة الشّرط، والمعنى: لو حصل إيمانُهم فيما مضى؛ لفتحنا عليهم بركاتٍ[4].

نكتةُ إضافةِ ﴿أَهْلَ﴾ إلى ﴿ٱلْقُرَىٰٓ﴾:

الإضافةُ تشملُ عمومَ المُخبَر عنهم، وتعريضٌ بإنذار الكفرة، وبشارة المؤمنين

إضافة ﴿أَهْلَ﴾ إلى ﴿ٱلْقُرَىٰٓ﴾ في قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ﴾ تفيدُ عمومَه بقدر ما أُضيفَ هو إليه؛ ليشملَ جميعَ سكان القرى الّتي أُرسِلَ فيها الأنبياءُ، وليدلَّ على أنّهم كانوا مُتّحدين في الكفر والطّغيان، وهو تصريحٌ بما أفهمَهُ الإيجازُ في قوله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾ [الأعراف: 94] بحذف الأهلِ، وتعريضٌ بإنذار الّذين كذّبوا محمّدًا ﷺ من أهل مكّةَ، وتعريضٌ ببشارة أهل القرى الّذين يؤمنون كأهل المدينة[5].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/20.
(2) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 5/336.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 3/74.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/20 - 21.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/21.

دلالةُ تعريفِ الألف واللّام:

عهديّةُ اللّامِ تعني القرى السّابقةَ المُهلَكةَ، أو المُنذَرةَ من مكّةَ وما حولها

الألفُ واللّامُ في القرى عهديّةٌ إشارةً إلى (القُرَى) المُهلَكةِ الّتي دلّ عليها قولُه تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّبِيٍّ﴾ [الأعراف: 94][1]، فهي للعهد الذِّكريّ، والقرية وإن كانت مفردةً لكنّها في سياق النّفي، فتُفيد معنى الجمعِ.

ويجوزُ أن تكون اللّامُ للعهد الخارجيِّ إشارةً إلى مكّةَ وما حولها، ووجهُهُ أنَّه تعالى لمّا أخبرَ عنِ القرى الهالكةِ بتكذيب الرّسلِ، وأنّهم لو آمنوا؛ سلموا وغنموا، انتقل إلى إنذار أهلِ مكّةَ وما حولها ممّا وقع بالأمم والقرى السّابقة[2].

جنسيّةُ اللّامِ تعني عمومَ القرى، من غير تقييد

ويجوزُ أن تكونَ الألفُ واللّامُ في ﴿ٱلۡقُرَىٰٓ﴾ للجنس[3]، والمعنى: ولو أنَّ أهلَ القرى أينما كانوا، وفي أيّ بلاد سكنوا، آمنوا واتّقَوا؛ لصَبَّ اللّهُ عليهم البركاتِ صَبًّا، ولكن كذّبوا بالآيات والأنبياء، ولم يؤمنوا، ولا اتّقَوا، فأخذهم اللّهُ بالعذاب بسببِ ما كانوا يكسبون منَ الذّنوبِ الموجبةِ لعذابهم[4].

سرُّ العطفِ في الآية:

تقوى الله تعالى ظاهرًا وباطنًا قرينُ الإيمان، وبهما تُستنزلُ البركات

عطْفُ فعلِ التّقوى على فعل الإيمان بواو التّشريك في قوله: ﴿وَلَوۡ أَنَّ أَهۡلَ ٱلۡقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ﴾ دليلُ اقتران الفعلين، وتلازمهما، فالإيمانُ يخصُّ الباطنَ، والتّقوى تخصُّ الظّاهرَ، وهما - معًا - سبيلُ فتح اللّه أبوابَ الخير لهم من كلِّ وجهٍ، وإنزالِ البركات، ولا يكفي الإيمانُ وحدَه.

دلالةُ الاستعارة في لفظ الفتح:

في (فتحنا) استعارةٌ تبعيّةٌ مُستلزِمَةٌ للتّمثيليّة؛ فقد شبّه تيسيرَ

(1) النّسفيّ، مدارك التّنزيل: 1/588، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/350.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 9/10.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/133.
(4) الشّوكانّي، فتح القدير: 2/259.

البركات بفتح الأبواب، وصرَّح بالمشبّه به (الفتح)، وحذف المشبّه (اليُسر) مع وجود قرينةٍ مانعةٍ من إرادة المعنى الحقيقيّ وهو (البركات)، ووجهُ الشّبه بين المستعار منه، والمستعار له سهولةُ التّناول، ويجوزُ أن يكونَ هناك مجازٌ مُرسَلٌ، والعلاقةُ (لزومُ التّيسير)[1].

اقترانُ الإيمان بالتّقوى فتحٌ عميمٌ، يسيرُ التّناولِ، سهلُ الوصول إلى المبتغى

وقد يكون الفتحُ استعارةً للتّمكين، فتكون تعديةُ فعلِ الفتحِ إلى البركات استعارةً مكنيّةً بتشبيه البركات بالبيوت في الانتفاع بما تحتويه، أو تشبيه إنزالِ الخيراتِ بخروج النّاسِ من أبوابها أفواجًا[2]، وعمادُ هذه الاستعاراتِ تشبيهُ عطاءِ اللهِ الكثيرِ، ويُسْرِ تَناولِهِ بفتح الأبواب.

توجيهُ قراءةِ التّضعيف:

قرأ الجمهورُ ﴿لَفَتَحْنَا﴾ بالتّخفيف، وقرأه ابنُ عامر وأبو جعفر من بعض طُرقه بتشديد التّاء (لفَتَّحنا)[3]؛ للمبالغة في الفتح بكثرتِه، وزيادتِه، ومضاعفتِه[4].

مِن كرم المنّانِ المبالغةُ في الفتح

سرُّ إطلاق فعلِ الفتح دون قيد:

في إطلاق فعلِ الفتحِ في قوله: ﴿لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾، وتوسيعِ جهته، وإعمامِه بمطلق السَّماء والأرض مُصدَّرًا بـ ﴿مِّنَ﴾ الدّالّة على ابتداء الغاية المكانيّة؛ بيان لاشتمال كلِّ موضعٍ، وجانبٍ، من دون تقييد، كما قُيِّدَ في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُواْ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم﴾ [المائدة: 66] مع تضمّنها المبالغة في شرحِ السَّعَةِ والخَصب، إلّا أنّه مقيّدٌ بالظّرفين، ولذلك فُسّر ﴿مِن فَوْقِهِمْ﴾ [المائدة: 66] بنزول المطر،

نفيُ تقييدِ الفتحِ بظرفٍ سعةٌ في المنّةِ تناسبُ فعلَي الإيمان والتّقوى

(1) الخفاجيّ، عناية القاضّي وكفاية الرّاضّي: 4/330، والقاسميّ، محاسن التّأويل: 5/158، والآلوسي، روح المعاني: 9/10.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/21، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 6/2906.

(3) ابن مجاهد، السّبعة، ص: 257، وابن الجزريّ، النّشر في القراءات العشر: 2/258.

(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 3/74، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/230 - 9/21.

و﴿وَمِن تَحۡتِ أَرۡجُلِهِمۡۚ﴾ [المائدة: 66] بخروج النَّبات[1]، فامتدادُ مصدرِ الفتحِ دون قيدٍ سَعةٌ في الفضل، وكرمٌ في العطاء، يناسبان اقترانَ فعلي الإيمان والتّقوى وعلوّ شأنهما.

نكتةُ توكيد الفتح:

الفتحُ مآلٌ قرينٌ لفعلي الإيمان والتّقوى

اللّامُ في ﴿لَفَتَحۡنَا﴾ جوابُ لو الشّرطيّة أفادَت تأكيدَ الفتح بوصفه مُؤدًّى لازمًا لفعلي الإيمانِ والتّقوى، مصاحبًا لاجتماعهما في المرء، أمارةً على علوّ منزلتِه، وارتفاع شأنِه، علوًّا يناسب الإغداقَ بالبركات دون قيد؛ فتحًا مثوبةً من لدن عزيزٍ كريمٍ.

توجيهُ تعدّي الفتح بـ(على):

الإنزالُ من عَلٍ فيضُ إحسانٍ، وهبةُ منّانٍ

(على) في قوله: ﴿لَفَتَحۡنَا عَلَيۡهِم﴾؛ للاستعلاء، وأفاد تعدّي فعل الفتحِ بها معنى الإنزالِ والفيضِ، والعطاءِ الواسعِ، وسعةِ الشّيءِ المُنزَّلِ، وقوّتِه؛ فاللّهُ تعالى عالٍ على عباده، يفتحُ عليهم ما يشاءُ، من أين شاء[2]، وقد يتعدّى فعلُ الفتح باللّام ليفيدَ الاختصاص، كقوله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحۡنَا لَكَ فَتۡحٗا مُّبِينٗا﴾ [الفتح: 1]، وبالباء ليفيدَ معنى السّببيّة والمصاحبة، كقوله تعالى: ﴿فَفَتَحۡنَآ أَبۡوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٖ مُّنۡهَمِرٖ ١١﴾ [القمر: 11][3].

فائدةُ تنكيرِ البركاتِ وجمعِها:

تكثيرُ البركات مبالغةٌ في الجزاء

وأفاد ذلك الإتيانُ بالبركات مجموعةً بصيغة التّنكير الدّالّ على الكثرةِ، والعمومِ، وعدمِ التّعيين[4]، وبمَبنَى اسم المصدر؛ لتوكيد المبالغة.

من هباتِ الرّحمن تنوّعُ أصناف البركات

والمقصودُ منَ الجمع تعدّدُها، باعتبار تعدّدِ أصنافِ الأشياءِ المباركة، وجماعُ معناها هو الخيرُ الصّالحُ الّذي لا تبعةَ عليه في

(1) ابن عادل، اللّباب: 7/435.
(2) داود، القرآن الكريم وتفاعل المعاني، ص: 172 - 173.
(3) داود، القرآن الكريم وتفاعل المعاني، ص: 172.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/350.

الآخرة، فهو أحسنُ أحوالِ النّعمةِ، ولذلك عبّرَ في جانب المغضوبِ عليهم المُستدرَجين بلفظ الحسنة بصيغة الإفرادِ في قوله: ﴿مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ﴾، وفي جانب المؤمنين بالبركات مجموعةً[1].

بلاغةُ الاستثناءِ بـ ﴿وَلَٰكِن﴾:

الإهلاكُ بسبب ما كانوا يكسبونه منَ الآثام علّةُ حَجبِ البَركاتِ عنهم

قولُه: ﴿وَلَٰكِن كَذَّبُواْ﴾ استثناء نقيض المقدَّم، وهو شرطُ (لو)، فإنّ التّكذيبَ هو عدمُ الإيمان، وجملةُ: ﴿فَأَخَذْنَٰهُم﴾ مُتسبِّبةٌ على جملة: ﴿وَلَٰكِن كَذَّبُواْ﴾، وهو مثلُ نتيجةِ القياسِ؛ لأنّه مساوٍ نقيض التّالي؛ لأنّ أخْذَهم بسببِ ما كانوا يكسبونه منَ الآثام والذّنوب فيه عدمُ فتحِ البركاتِ عليهم.

إيثارُ فعلِ الأخذ:

الاستئصالُ عذابٌ يناسبُ التّكذيبَ، وجحودَ العطاء

المرادُ بالأخذ في قوله: ﴿فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ أخْذُ الاستئصالِ، والإهلاكِ الواقعِ على وجه التّحقيقِ بصيغة الماضي، غيرَ ممهلين إيّاهم جزاءَ مقابلتهم واسعَ عطائنا بالتّكذيب. فالفاء للتّرتيب والتّعقيب والسّببيّة من غير مهلةٍ، والباء للسّببيّة، و(ما) موصولٌ مُبهمٌ يناسبُ مديدَ كذبِهم.

علّةُ التّعبيرِ عنِ الأخذ بصيغة التّعظيم:

شدّةُ العذابِ بحسب عِظَمِ الذّنب، وسوءِ الكسب

لمّا كان التّكذيبُ موضعَ الجلافة والجمود الّذي هو سببٌ لعدم النَّظر في الدّليل، كان الجزاءُ شدّةَ العذابِ ﴿فَأَخَذْنَٰهُم﴾ بما لنا منَ العظمة مُؤدًّى بضمير التّعظيم (نا)؛ بسبب ما ﴿كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾، أي: بجبلّاتهم الخبيثة منَ الأعمال المناسبة لها[2].

توجيهُ اقترانِ الماضي بالمضارع:

كسبُهم كفرًا وعصيانًا حتميٌّ، مارسوه ودأبوا عليه

و﴿كَانُواْ﴾ في قوله: ﴿فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ تدلُّ على المضي والانقضاء، أي: بسبب ما كسبوه منَ الكفر والعصيان[3]،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/21 - 22.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 3/74.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/22.

واسْتِمْرارِهِمْ وتَجَدُّدِهِمْ على ذلك في الحال والاستقبال، بدلالة مَبنَى المضارعة ﴿يَكْسِبُونَ﴾.

بلاغةُ الالتفاتِ في الفاصلة:

الالْتِفاتُ من أساليب القرآنِ البلاغيّةِ الّتي تدلُّ على روعة البيانِ وتنوّعِ المعاني، ففي الالتفات منَ المُضيِّ إلى المضارع تثبيتٌ لحالهم الرّاسخِ فيه جحودُهم، المُتحقِّقِ مَعَهُ سوءُ أفعالِهم، وليناسبَ ما سُيتبعُ من تحذيراتٍ: بياتًا، وضحى، وتدبيرًا.

كسبُهم الآثام راسخٌ حذَّرهم اللهُ منه مرارًا، وتَكرارًا

بديعُ التّقابل في الآية:

ومن جميل التّقابلِ اللّفظيّ والدّلاليّ في الآية الكريمة ترتيبُه تعالى على الإيمان والتّقوى فتْحَ البركاتِ، ورتَّب على التّكذيبِ وحدَهُ، وهو المقابلُ للإيمان، الهلاكَ، ولم يذكر مقابلَ التّقوى؛ لأنّ التّكذيبَ لم ينفعْ معهُ الخيرُ، بخلاف الإيمانِ فإنّه ينفعُ، وإن لم يكن معه فعلُ الطّاعات[1]. فالإيمانُ والكذبُ تضادُّ إيجابٍ يُعوَّلُ عليه في علم البديع في توكيدِ المعاني وتقريرِها وتثبيتِها في النّفوس، زيادةً على تزيين اللّفظِ، وتحسين النّظم، وكشف القيمةِ الجماليّةِ الّتي تسهمُ في تنشيط فعلِ التّأويلِ، وتكثيف النّظرِ الذّهنيّ للوقوف على حدود المعنى العميقِ للعبارات، فبضدِّها تتميّزُ الأشياءُ.

لا نفعَ للخير مع الكذب، بخلاف الإيمان فإنّه نفعٌ مُطلَقٌ

براعةُ تناسبِ الفواصل:

ومن بديع تناسبِ فواصل الآي: ﴿يَكْسِبُونَ﴾، ﴿نَآيِمُونَ﴾، ﴿يَلْعَبُونَ﴾، ﴿لَا يَسْمَعُونَ﴾، تصويرُ المعنى: وكأنّ مِلاكَ كسبهم نومُ غفلة، ولعبٌ ولهوٌ؛ فما يُتَوقّعُ أن تكونَ النّتيجةُ غيرَ أنّهم لا يسمعون؟

مَن سَدَرَ في الغفلة واللّهو لا يسمعُ التّنبيه

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/350.

﴿أَفَأَمِنَ أَهۡلُ ٱلۡقُرَىٰٓ أَن يَأۡتِيَهُم بَأۡسُنَا بَيَٰتٗا وَهُمۡ نَآئِمُونَ ٩٧﴾

[الأعراف: 97]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

إنكارُ الله عليهم في جعلِهِمُ السّرّاءَ والضّرّاءَ سببًا للأمن من مَكرِهِ

لَمّا كانوا قد ضَلّوا ضلالًا بعيدًا في غَلَطِهِم في جَعلِهِمُ السَّرّاءَ والضَّرّاءَ سبَبًا للأمنِ مِن مَكرِ اللّه، قالَ مُنكِرًا عليهم أمنَهم، عاطِفًا لَهُ على ﴿كَذَّبُواْ﴾؛ لأنَّهُ سببُ الغَلَطِ، وهو سَبَبُ الأمنِ، فقالَ: ﴿أَفَأَمِنَ أَهۡلُ ٱلۡقُرَىٰٓ﴾[1]، فتجدُ فعلَ الإنكارِ فيهم، والجحودِ، وكفرانِ النّعمة ذَنبًا عَظيمًا يؤدّي إلى الخسران، وذلك يستلزمُ التّذكيرَ، ومزيدَ الوعظ والتّنبيه.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَفَأَمِنَ﴾: معنى التّصديقِ أصل في (الإيمان)، ونشيرُ هنا إلى معانٍ أُخر مشتقّةٍ من دلالة أصلٍ هي: الأمانةُ الّتي هي ضدُّ الخيانة، ومعناها: سكونُ القلب[2]، وسكونُ القلب نقيضُ الخوف؛ ولذلك قيل: الأمنُ ضدُّ الخوف[3]، فأصلُ الأمنِ طمأنينةُ النّفسِ وزوالُ الخوفِ بسكون القلب، ويأتي غيرَ متعدٍّ، ومعناه: صار ذا أمن[4]، وهو معنى اللّفظة في الآية الكريمة.

2) ﴿بَيَٰتٗا﴾: (بَيَتَ) الباء والياء والتّاءُ أصلٌ واحدٌ، وهو المأوى والمآبُ ومَجمَعُ الشّمل[5]. وتجنحُ هذه المعاني إلى الليل بوصفه مألَفَ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/12.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (أمن).
(3) الفراهيديّ، العين: (أمن).
(4) الرّاغب، المفردات: (أمن).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (بيت).

المآبِ، والتّجمعِ، والإيواء. وقد سُمّي البيتُ بَيْتًا؛ لأنّه يُباتُ فيهِ[1]، فأصلُ البيت: مأوى الإنسانِ في اللّيل[2]، ومن هنا ارتبطَ لفظُ (البيات) باللّيل، فالبيتوتة: الدُّخولُ في اللّيل، وبيّتوا هذا العَمَلَ بَياتًا، أي: عملوه ليلًا، تقول: بِتُّ أصنَعُ كذا؛ إذا كان باللّيل، وظَلِلتُ أصنع كذا؛ إذا كان بالنَّهار، وأتاهُم الأمرُ بَياتًا، أي: أتاهم في جَوفِ اللّيلِ[3]، وباتَ الرّجلُ؛ إذا سَهِرَ اللّيلَ كُلَّه في طاعَةٍ أو مَعصيةٍ، وكلُّ ما فُكِّر فيهِ أو خيضَ فيه بلَيل؛ فقد بُيِّتَ، ويُقال: هذا أمرٌ دُبِّر بلَيل وبُيِّتَ بلَيل بمَعنى واحِد. ومنه قَولُ اللّه جلّ وعزّ: ﴿إِذۡ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرۡضَىٰ مِنَ ٱلۡقَوۡلِۚ﴾ [النّساء: 108][4]، فالبياتُ والتّبيُّتُ: قصدُ العدوِّ ليلًا[5]، وقصدُ العذاب ليلًا هو معنى البيات في الآية الكريمة.

3) ﴿نَآئِمُونَ﴾: (نوم) النّون والواو والميم أصلٌ صحيحٌ يدلُّ على جمودٍ، وسكونِ حركةٍ[6]، ويُقال: نام الرّجلُ يَنام نَومًا فهو نائمٌ؛ إذا رَقَد[7]. وكُلُّ شَيء سَكن فقد نام[8]، واستَنامَ، أي: سكن، واطمأنّ، ونامَتِ السّوقُ: كسَدت[9]. وأُطلِقَ النّوم: على النُّعاس والاضطجاع[10]، فالنّوم: هو استرخاءُ أعصاب الدّماغ برطوبات البخار الصّاعد إليه، وقيل: هو أن يتوفّى اللّهُ النّفسَ من غير موتٍ، وقيل: النّوم موتٌ خفيفٌ، والموتُ نومٌ ثقيلٌ[11]، وكلُّ شيءٍ قد سكن فقد نام ﴿وَجَعَلۡنَا نَوۡمَكُمۡ سُبَاتٗا﴾ [النّبأ: 9]، وليس في القرآن منَ التّركيب إلّا النّومُ بمعناه المعروف[12]، وبه تُفسَّرُ اللّفظةُ في الآية الكريمة.

المعنى الإجْماليُّ:

أيظنُّ أهلُ القُرى أنّهم في منجاةٍ ومأمنٍ من عذاب اللّه؟ وفي هذا استنكارٌ، وتعجيبٌ

(1) الأزهريّ، تّهذيب اللّغة: (بيت).
(2) الرّاغب، المفردات: (بيت).
(3) الفراهيديّ، العين: (بيت).
(4) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (بيت).
(5) الرّاغب، المفردات: (بيت).
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نوم).
(7) الفراهيديّ، العين: (نوم).
(8) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (نوم).
(9) الجوهريّ، الصّحاح: (نوم).
(10) ابن منظور، لسان العرب: (نوم).
(11) الرّاغب، المفردات: (نوم).
(12) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (نوم).

بحالهم من أمْنِهِمُ العقابَ، وتقريعٌ لهم، وتوبيخٌ على اطمئنانهم منَ العذاب، وعَدَمِ اعتبارهم بما حلَّ بمَن قبلهم، وجَهْلِهِمْ، والإخْلادِ إلى الدَّعةِ، والرّاحةِ، والاستغراقِ في النّوم، من غير وازعِ خيرٍ يؤزُّ، أو خشيةٍ تُخبِتُ، أو نفسٍ لوّامةٍ توقظُ منَ الغفلة.

التّحذيرُ منَ الغفلة، والرُّكونِ إلى الدَّعة، والإصْرارِ على الإعراض

وترشدُ هذه الآيةُ الكريمةُ والّتي تعقبها: إلى حرمة الغفلةِ، والحذرِ منَ السُّدورِ في الغيِّ، والانغماسِ في اللّهو، وتهدي إلى لزوم الذّكر صباحَ مساءَ، والانسياقِ إلى عزائم الطّاعاتِ، وصَفوِ النَّفحاتِ.

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ الفصلِ بالاستفهام:

أنكر عليهم جنوحَهم إلى الدَّعَة والغفلة برغم سوء مرتكباتهم

أعادَ تعالى التّهديدَ بعذاب الاستئصالِ، فقال: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ﴾، وافتُتِحَ بالاستفهام اعتناءً؛ لأنّ له صدرَ الكلام، وهو استفهامٌ بمعنى الإنكارِ عليهم، والوعيدِ[1]، وتذكيرِهم، وتنبيهِهم، فهو استفهامُ تنديدٍ بفعلتهم، فهم غيرُ آمنين، لكن حالهم توهِم أنّهم أمِنوا، فاللّه تعالى ينبّههم إلى أنَّه أمانُ الغافل الّذي لا يعرفُ أنّه يعاندُ اللّه[2]، أو لإنكار الواقعِ واستقباحه، أو لإنكار الوقوعِ ونفيه، أو بمعنى التّوبيخ، ومدارُه أمنُ كلِّ طائفةٍ ما أتاهم منَ البأس لا أمنُ مجموعِ الأمم، ويُظهرُ هذا المعنى التّصريحَ بالمظهر ﴿أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ﴾ بدلَ إضماره[3].

تكذيبُهم النّبيَّ أمارةُ الغرور، ومدعاةٌ للعجب

(أوَ) بمعنى التّعجيبِ المترتِّبِ على حكاية تكذيبهم وأخذهم، واستفهامُ التّعجيبِ هو من غرورهم وأمنهم غضبَ القادرِ العليمِ[4]، بتصرّفٍ ليس مِن شأنه أن يقعَ منَ العاقل[5].

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/322.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 6/2908.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 9/11.
(4) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/432.
(5) رضا، تفسير المنار: 9/25.

وقد يكون الاستفهامُ على جهة التّوقيفِ والتّوبيخِ والإنكارِ والوعيدِ للكافرين المعاصرين للرّسول ﷺ أن يَنزِلَ بهم مثلُ ما نَزَلَ بأولئك[1].

يتعدّى الإنكارُ القومَ الجاحدين

دلالةُ حرفِ الفاء:

(الفاء) في قوله: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ﴾ عاطفةٌ أفادَت التّعقيبَ مع السّبب، والتّرتّبَ الذّكريَّ، فإنّه لمّا ذكرَ من أحوالِ جميعهم ما هو مثارُ التَّعجيبِ من حالهم أعقبَه بما يدلُّ عليه معطوفًا بفاء التّرتّبِ، ومحلُّ التّعجيب هو تواطؤُهم على هذا الغرور[2].

ذكرُ حالهم مستتبعٌ لا محالةَ العجب منهم

وتحتملُ الفاءُ العطفَ على محذوفٍ تقديره على الوجه الأوّل: أغرَّ أهلَ تلك القرى ما كانوا فيه من نعمةٍ حين كذَّبوا الرُّسلَ، فأمنوا أن يأتيهم بأسُنا؟ إلخ، وعلى الثّاني: أجَهِلَ أهلُ مكّةَ وغيرها منَ القرى الّتي بلغَتها الدّعوةُ - ومثلها مَنْ ستبلغُها - ما نزلَ بمَن قبلهم، وغرّهم ما هم فيه من نعمةٍ، فأمنوا أن يأتيهم عذابُنا وقتَ بياتهم - أو إتيان بيات - وهو الهجومُ على العدوّ ليلًا، وهو بائت؟[3].

وتحتملُ الفاء أيضًا الاستئنافيّة؛ ذلك أنَّ ألفَ الاستفهام دخلَت على فاء العطفِ مع منافاة العطفِ للاستئناف، فهي مُقحَمةٌ؛ لتقرير معنى الإنكارِ أو التَّقريرِ، فتدخل بين الشّرط والجزاء والمبتدأ والخبر والحال وعاملها[4]. وتوسّطُ الهمزة بين الكلامين المتعاطفين لإفادة إنكارِ جمعِ الثّاني مع الأوّل، أو وقوعه بعده متراخيًا، أو غيرَ متراخٍ[5]، ووجهُ العطف أقربُ.

توجيهُ الاعتراضِ في الآية:

قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ﴾ إلى ﴿يَكْسِبُونَ﴾ وقع اعتراضًا

المرادُ عمومُ القرى، أو مكّةُ وما حولها

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/350.
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/432.
(3) رضا، تفسير المنار: 9/25.
(4) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 6/478.
(5) السّيوطيّ، نواهد الأبكار: 3/430.

بين المعطوف والمعطوف عليه[1]، فيشمل المعنى عمومَ القُرى، وقيل: المرادُ بالقُرى: مكَّةُ وما حولها؛ لأنّهم كذّبوا النّبيَّ محمّدًا ﷺ،[2] فيكون العطفُ على الآيةِ الأقربِ في هذه الحالةِ أنسَبَ[3].

ويترجَّحُ العطفُ على الأوّل، وهو قوله: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾ [الأعراف: 91]؛ لأنّ مَساقَ ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ﴾ إلى ﴿يَكْسِبُونَ﴾ مساقُ التّكرير والتّأكيد، فهو إلى جملة الاعتراضِ أقربُ، بخلاف ما قبله، فإنّه لبيانِ حالِ القرى وقصّةِ هلاكِها قَصدًا، فالعطفُ عليه أنسبُ، وإن كان هذا أقربَ[4].

إيثارُ التّعبيرِ بلفظ ﴿بَيَٰتًا﴾:

من أشدّ العذابِ الواقع وقت الغفلة والمأمن

و﴿بَيَٰتًا﴾ نصب على الظّرف بتقدير مضاف؛ أي: وقت مبيتهم باللّيل، ويحتملُ أن يكونَ هذا في موضع الحال[5]، وذلك وقتُ الغفلةِ والنّوم، فمجيءُ العذاب في ذلك الوقت، وهو وقتُ الرّاحةِ والاجتماعِ، في غاية الصّعوبة؛ لكونه أتى وقتَ المأمنِ[6]، ويجوزُ أن يكونَ مصدرَ بَيَتَ، أو باتَ، ونصبه على أنّه مفعولٌ مُطلَقٌ لـ ﴿يَأْتِيَهُم﴾ مُبيِّنًا لنوعه، فمرادُهُ التّوكيدُ.

بلاغةُ حاليّةِ الفاصلة:

بيانُ حالهم شدّةُ الغفلة، والرّكونُ إلى الدَّعة، وكونُ أخذِهم على غِرَّة

جملة: ﴿وَهُمْ نَآئِمُونَ﴾ حالٌ من ضميرهم البارز أو المستتر في ﴿بَيَٰتًا﴾؛ لتأويله بالصّفة كما سُمِعَت، وهو حالٌ متداخلةٌ حينئذٍ (المفرد، والجملة)، أو أمن أهل القرى إنكارًا بعد إنكارٍ للمبالغة في التّوبيخ والتّشديد، ولم يقصدِ التَّرتيبَ بينهما، فلذا لم يُؤتَ بالفاء[7]،

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/134.
(2) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 7/253.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 9/12.
(4) السّيوطيّ، نواهد الأبكار: 3/430.
(5) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/432.
(6) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/351.
(7) الآلوسي، روح المعاني: 9/12، والسّيوطيّ، نواهد الأبكار: 3/430 - 431.

فقوله: ﴿وَهُمْ نَآئِمُونَ﴾ حالٌ مُبيِّنةٌ لغاية الغفلةِ وكونِ الأخذِ على غرّةٍ، كما قال فيمَن عُذِّبوا: فأخذناهم بغتةً[1].

بلاغةُ الاستعارة في الآية:

في الاستعارة بيانٌ لشدّة العذاب، وعِظَمِ العقاب

في ألفاظ (البأس، والبيات، والإتيان) استعارةٌ تحريرُها في الآتي: إذا كان المُرادُ منَ البأس الاستعارةَ لشدّة الحَربِ، كما أنّ المُرادَ منَ البيات حالةٌ من حال الحَربِ، هي أشدُّ على المغزوّ، فكان ترشيحًا للاستعارة التّمثيليّة[2].

واستُعيرَ الإتيانُ لحدوث الشَّيءِ وحصولِه بعد أن لم يكن؛ تشبيهًا لحلول الشّيءِ بوصول القادم من مكانٍ إلى مكانٍ بتنقّل خطواته[3]؛ تنقُّلًا يزيلُ معه العوائقَ، وهو معنى يتضمّنُ الفجأةَ، والمباغتةَ بشديد.

علّةُ التّعبيرِ عنِ الإتيان بالمضارع:

التّعبيرُ عنِ الحدث وكأنّه مُشاهَدٌ فيه تفكُّرٌ وعِظةٌ واستغرابٌ وتعجّبٌ من كفر أهل القرى

جاء فعلُ الإتيانِ بصيغة المضارع؛ لأنّ المرادَ حكايةُ أمنِهم الّذي مضى من إتيان بأسِ اللّه في مستقبل ذلك الوقت[4]، وفيه استغرابٌ وتعجُّبٌ من كفر أهلِ القرى رغم مشاهدتِهم لآيات اللّهِ وبعثةِ رسولِه.

بلاغةُ الإطنابِ في الآيات:

مواطنُ التّنبيهِ مظنّةُ التّكرار والتّوكيد

في قوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ إطنابٌ، غرضُهُ الموعظةُ من خلال توكيد المعنى وتثبيته في النّفس[5].

---

(1) رشيد رضا، تفسير المنار: 9/25.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/21.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/21.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/21 - 22.
(5) المراغيّ، علوم البلاغة، ص: 201.

﴿أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾﴾

[الأعراف: 98]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

تأكيدُ حلولِ العذابِ عليهم وقتَ النّشاط والحركة

لَمّا كانَ رُبَّما قالَ جاهِلٌ: لَو جاءَهم، وهم أيقاظٌ، لَأمكَنَ أن يُدافِعوا؛ قالَ: ﴿أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ﴾[1]، وفيه تأكيدُ الإنذارِ في الآية السّابقة بالتّكرارِ اللّفظيِّ؛ لثني التَّعجيب والاستنكار، والإحاطة بصوره ترهيبًا وتخويفًا.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ضُحًى﴾: (ضحى) أصلٌ صحيحٌ واحدٌ، يدلُّ على بروز الشّيءِ، وهو الوقتُ البارزُ المنكشفُ[2]. ومنه: أضحَى الشَّيءَ: أظهرَه، وأبداه[3]. والضَّحوُ: ارتفاعُ النّهار. والضُّحى: فويق ذلك. والضّحاء – ممدود – إذا امتدَّ النّهار[4]، وقيل: الضّحى: حين تطلُعُ الشّمس، وتشرقُ، فيصفو ضوؤُها، وقيل: هو إذا علتِ الشّمسُ إلى رُبع السّماء فما بعده[5]. وقيل: هي انبساطُ الشّمس وامتدادُ النّهار، وسمّي الوقتُ به[6].

وخلاصة ما قيل في الضّحى: إنَّها انكشافُ الشّمس وانبساطُ الضّوءِ انبساطًا شاملًا بلا ساتر، والّذي جاء في القرآن الكريم من هذا التّركيب كلِّه هو ضحى الشّمس الّذي ذُكِرَ، ووقتُه[7].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/13.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ضحى).
(3) ابن سيده، المحكم: (ضحو).
(4) الفراهيديّ، العين: (ضحو).
(5) ابن منظور، لسان العرب: (ضحا).
(6) الرّاغب، المفردات: (ضحى).
(7) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (ضحو - ضحى).

2) ﴿يَلْعَبُونَ﴾: (لعب) كلمتان منهما تتفرَّعُ كلماتٌ؛ إحداهُما: اللّعِبُ المعروفُ، والأخرى اللُّعابُ: ما يسيلُ من فمِ الصّبيّ[1]. واللَّعِبُ ضدُّ الجِدِّ[2]. ولعب فلانٌ: إذا كان فعلُه غيرَ قاصدٍ به مقصدًا صحيحًا[3]. وخلاصةُ معنى اللّعبِ: أنّه اضطرابٌ وتسيّبٌ في ما يصدرُ عنِ الشّيء بسبب تجمّعِ حيويّتِه أو نشاطِه، كلُعاب الصّبيِّ من غزارة حيويّة باطنه، وهو اضطرابٌ وعدمُ انضباط، ومنه أُخذَ اللَّعِبُ ضدّ الجِدّ، وهو تسيُّبٌ في الحركة، واضطرابٌ؛ أي: عدمُ استقامةٍ، أو عدمُ قصدٍ في الاتّجاه والتّصرّف، وهذا يؤكّدُ أنَّ في اللّعب معنى العبثيّة الّتي هي عدمُ القصد والجدوى، ومنه قيل: لكلِّ مَن عمل عملًا لا يجدي عليه نفعًا: إنّما أنت لاعبٌ[4].

❁ المعنى الإجْماليُّ:

تقريرُ الاستنكار، وتكرارُ التّعجيب

الآية تأكيدٌ، وتعجيبٌ مصحوبٌ بالتّقريع من أن يَشغَلَكُم اللّهو عن عظامِ النّوازلِ، والأخذِ بحبال الهدايةِ، وأسبابِ الرّشادِ والدّرايةِ؛ استخفافًا واستهزاءً، فيأتيكم العذابُ وقت غفلتِكم، وانشغالِكم بِلَهْوِكُم مع ارتفاع ضوءِ الشّمسِ نهارًا.

وقَد يكون المرادُ خوضَهم في كفرهم؛ لكونه لعبًا أيضًا يَضرُّ ولا ينفعُ[5]؛ إذ يُقال لكلّ مَن كان في شيءٍ لا يُجدي، أو في ضلالٍ: (إنّما أنت لاعبٌ)، فشرُّ قلوبِ الخلقِ هو القلبُ اللّاهي الغافلُ الجاحدُ لآلاء اللّه، المُكذِّبُ برسلِه[6] عليهم السلام.

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (لعب).
(2) ابن سيده، المحكم: (لعب).
(3) الرّاغب، المفردات: (لعب).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (لعب).
(5) الهرريّ، تفسير حدائق الرّوح والرّيحان: 10/22.
(6) شيبة الحمد، تهذيب التّفسير وتجريد التّأويل: 5/242.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ التّكرارِ في الآية:

إرادةُ التّوبيخِ الشّديدِ، ودفعٌ لتوهُّمِ إمكانِ ردِّ العذابِ، وهم أيقاظٌ

تكرّرَ لفظُ ﴿أَهۡلُ ٱلۡقُرَىٰٓ﴾ تكرارًا لفظيًّا لما في ذلك منَ التّسميعِ والإبلاغِ والتّهديدِ والوعيدِ بالسّامع ما لا يكون في الضّمير لو جاء: (أو أمنوا)؛ فإنّه متى قصدَ التّفخيمَ والتّعظيمَ والتّهويلَ جيءَ بالاسم الظّاهرِ[1]، وفيه إنكارٌ بَعدَ إنكارٍ للمبالغة في التّوبيخِ الشّديدِ، ولذلك لم يقُل: (أو ضحًى وهم يلعبون)[2]، كما قال في: ﴿وَكَم مِّن قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأۡسُنَا بَيَٰتًا أَوۡ هُمۡ قَآئِلُونَ﴾ [الأعراف: 4]، فالسّياقُ في تلك الآيات يناسبُ مقامَ التّفصيلِ؛ تفصيلِ القَصَصِ، ومضامينِها، وسياقُ مُفتتحِ الأعراف الإجمالُ، ويناسبُ التّفصيلَ التّكرارُ بالتّوكيد اللّفظيّ.

وفيه دفعُ توهّمِ مَن يدّعي - جاهلًا - أنّ البأسَ لو جاءَهم، وهم أيقاظٌ؛ لأمكَنَ أن يدافعوا، فأكّدَ مُفصِحًا عن إمكان اجتماعِ الوقتين أو انفرادِهما، فإنّه لا فرقَ عندَه في ذلك[3]، عَزَّ وَجَلَّ وتعالى عمّا يدَّعون.

مقامُ الوعيدِ يقتضي التّنبيهَ بالإعادة

والمقامُ كذلك مقامُ تهديدٍ ووعيدٍ واستثارةٍ لمخاوف أهلِ القرى، فاقتضى هذا المقامُ إعادةَ ألفاظٍ كان يمكن فهمُ معناها بِدون إعادتها؛ لأنّ هذه الإعادةَ هي بمنزلةِ الدَّقاتِ المتواليات الّتي تثيرُ الانتباهَ بسبب مخالفتِها لما يقتضيه المألوفُ في الأسماع.

توجيهُ قراءةِ العطفِ بـ(أَوَ):

في العطفِ وجهُ إباحةٍ، أو تخييرٍ، أو إضرابٍ؛ بمعنى: استواءِ ضروبِ العذابِ

قرأ عاصم وأبو عمرو وحمزة والكسائيّ: ﴿أَوَأَمِنَ﴾ بفتح الواو وإظهار الهمزتين بإدخال ألف الاستفهام على حرف العطف، وقرأ ابنُ كثير ونافع وابن عامر: (أوْ أمِنَ) بسكون الواو وإظهار الهمزتين على أنّه عطفٌ بـ(أو)، والّتي هي لأحد الشّيئين، المعنى: أفَأمِنوا هذا

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/351.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/254.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 3/74.

أو هذا، كما تقول: أجاءَ زيدٌ، أو عمرو، فيعمُّ الإباحةَ، كقوله تعالى مثلًا: ﴿وَلَا تُطِعۡ مِنۡهُمۡ ءَاثِمًا أَوۡ كَفُورًا﴾ [الإنسان: 24]، والتّخيير كقولك: جالِسِ الحسنَ، أو جالِسِ ابنَ سيرين[1]، أو تكون (أو) للإضراب عمّا قبلها من غير إرادةِ إبطالِ الأوّلِ، والمعنى: استواء هذه الضّروبِ منَ العذاب، ويكون المعنى: أفأمنوا إحدى هذه العقوبات[2].

في الجمع بين القراءتين مُؤدَّى تعاقبِ إنكارين، وتعجيبٍ من أحد الحالين

والجَمعُ بين القراءتين يؤدّي معنى العطفِ مع الإباحة بعلاقةٍ تفسيريّةٍ تتضمّنُ إنكارًا بعدَ إنكار، فالعطفُ بسكون واو (أو) عطفٌ على التّعجيب؛ أي: هو تعجيبٌ من أحد الحالين، والمعنى: أأمنوا ذلك الإتيان أو هذا؟ وهو لا يمنعُ الجمعَ بين الأمنين؛ أي: إنْ أمنتم ضربًا منها لا تأمنوا الآخر، أمّا العطفُ بالواو مقدَّمةٌ عليه همزةُ الاستفهامِ الإنكاريِّ فهو عطفُ استفهامٍ ثانٍ بالواو المفيدة للجمع، فيكون كلا الاستفهامين مدخولًا لفاء التّعقيب[3].

في عود الاستفهام قصدٌ إلى التّفخيم والتّعظيم والتّهويل

وأُعيدَ الاستفهامُ، وما يتعلَّقُ به لنكتةِ وضعِ المظهرِ موضعَ المُضمَرِ؛ إذ متى قصدَ التّفخيمَ والتّعظيمَ والتّهويلَ؛ جيءَ بالاسم الظّاهر، وفيه حمل وسطِ الكلامِ على ما قبلَه، وما بعدَه من حيث دخولُ همزةِ الاستفهامِ على الفاء لغَرَض المشاكلة، والمطابقة في اتّفاق اللّفظِ بدخول الهمزة على الكلّ، أو تكون الواو للتّقسيم؛ أي: تقسيم الاستفهامِ إلى استفهامين[4].

ولا شكَّ أنَّ تأديةَ معنيين فيه سَعَةٌ وقوّةٌ أكبرُ من تأدية معنًى واحدٍ؛ إذ في كليهما إعجازٌ قرآنيٌّ تنوعّتِ فيهِ الأساليبُ، واتّفقتِ المعاني.

(1) ابن عطيّة، المحرر الوجيز: 2/433، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 7/253 - 254.

(2) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/322.

(3) رضا، تفسير المنار: 9/25، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/23، وفاتنة السّكنيّ، تفسير القرآن بالقراءات القرآنيّة العشر، ص: 249 - 250.

(4) رضا، تفسير المنار: 9/25، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/23، وفاتنة السّكنيّ، تفسير القرآن بالقراءات القرآنيّة العشر، ص: 249 - 250.

سرُّ التّعبير باسم الفاعل، والفعل المضارع:

صبيانيّةُ العقولِ مظنّةُ الغفلةِ ودَوامِ اللّهو واللّعب

لمّا كان النّومُ شيئًا واحدًا يغمرُ الحواسَ، ويفضي إلى الاستقرار، عبَّر بالاسم الدّالّ على الثّبات فقال: ﴿وَهُمْ نَآئِمُونَ﴾، فهم من أهل النّومِ والغفلةِ، وهو وصفٌ مُلازمٌ لهم لدوامِهم عليه، ولمّا كانتِ اليقظةُ موجبةً للحركة؛ عبَّر بالمضارع في قوله: ﴿وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾؛ أي: يتجدَّدُ لعبُهم شيئًا فشيئًا في ذلك الوقتِ، وفيه تقريعٌ لهم على طريقة (الكناية) بنسبتِهم إلى أنّهم صبيانُ العُقولِ، لا التفاتَ لهم إلى غيرِ اللّعبِ[1].

فالاسمُ يقتضي الثّبوتَ؛ والنّائمُ ساكنٌ، والفعلُ يقتضي التّجدّدَ؛ واللّعبُ حركةٌ تتجدّدُ شيئًا فشيئًا[2].

جملةُ الفاصلة بين المجاز والاستعارة:

هؤلاء القوم بين لاهٍ لغفلته، أو مُشتغلٍ بما لا نفعَ فيه

يجوزُ في جملة: ﴿وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ أن يكون مجازًا مُرسَلًا؛ أي: يلهون من فرط الغفلةِ، ويحتملُ أن يكون هناك استعارةٌ؛ أي: يشتغِلون بما لا نفعَ فيه؛ كأنّهم يلعَبون[3].

بلاغةُ الطّباقِ في الآية:

لا يردُّ بأسَ اللّه تعالى قومٌ نائمون أم صاحون، لاعبون أم جادّون

خصَّصَ الإتيانَ بزمني الضّحى والبيات على طريقة الطّباق دون غيرهما؛ تعبيرًا بالبيات عن زمن سكونِهم، وهم فيه في غاية الغفلةِ، وبالضّحى عن زمن اجتماعِهم فيه؛ لأنَّهُ أوَّلُ ظهورِهم وبعدَه يتفرّقون في أشغالهم، أو هو الوقتُ الّذي يغلبُ على المرء فيه التّشاغُلُ باللّذّاتِ، أو التّشاغلُ بأمور الدّنيا، فهي لعبٌ ولهوٌ، أو التّشاغلُ بما لا ينفعُهم كأنّهم يلعبون، ويحتملُ خوضَهم في كفرهم؛ لأنّ ذلك كاللّعبِ في أنّه لا يضُرُّ ولا ينفَعُ[4]، فكلٌّ منَ الوقتين لم يقع في فكر أحدٍ منهم التّصويرُ إلى مدافعته[5].

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 3/74 - 75.

(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/237.

(3) الآلوسي، روح المعاني: 9/12.

(4) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/322، وابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/237، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/254.

(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 3/8.

وقتا البيات والضّحى، والنّوم واللّعب مظنّةٌ للدّعة، ولذا يجدُر الحَذَرُ فيهما

وقيَّد التّعجيبَ من أمنهم مجيءَ البأسِ بوقتي البيات والضّحى من بين سائر الأوقات، وبحالي النّوم واللّعب من بين سائر الأحوال؛ لأنّ الوقتين أجدرُ بأن يُحذرَ حلولُ العذابِ فيهما، لأنّهما وقتان للدّعة، فالبياتُ للنّومِ بعدَ الفراغِ منَ الشُّغل، والضُّحى للعب قبل استقبالِ الشُّغلِ، فكان شأنُ أولي النُّهى المُعرِضين عن دعوة رسلِ اللّه ألّا يأمنوا عذابَه، بخاصّةٍ في هذين الوقتين والحالين[1].

بلاغةُ التّعريض:

لا يأمننَّ مُكذِّبٌ بالنّبيّ محمّد ﷺ أن يحلَّ به ما حلَّ بأولئك الكافرين

وفي هذا التّعجيب تعريضٌ بالمشركين المُكذِّبين للنّبيّ ﷺ أن يحلَّ بهم ما حلَّ بالأمم الماضية، فكان ذكرُ وقتِ البيات، ووقتِ اللّعب، أشدَّ مناسبةً بالمعنى التّعريضيِّ؛ تهديدًا لهم بأن يصيبَهم العذابُ بأفظع أحواله؛ إذ يكون حلولُه بهم في ساعة دعتهم وساعة لهوهم نِكايةً بهم[2].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/23.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/23.

﴿أَفَأَمِنُواْ مَكۡرَ ٱللَّهِۚ فَلَا يَأۡمَنُ مَكۡرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ٩٩﴾

[الأعراف: 99]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمّا كانَ ضَلالُهم - الَّذي نَسَبوا فيه الأمرَ إلى غَيرِ أهلِه - أشنَعَ ضلالٍ؛ لِتَضمُّنِه التَّعطيلَ، وما يَجُرُّ إليه مِنَ الأباطيلِ؛ كَرَّرَ الإنكارَ عليهم على وجهٍ أشدَّ مِنَ الأوَّلِ، فقالَ مُسَبِّبًا الإنكارَ عمّا أثبَتَ هذا الكلامُ مِنَ العَظَمَةِ الَّتي لا يتمارى فيها ذو لُبٍّ: ﴿أَفَأَمِنُواْ مَكۡرَ ٱللَّهِۚ﴾.

وتكرارُ الإنكارِ إشعارٌ بِعِظَمِ الذّنبِ، وإيذانٌ بالعقوبة، وإشارةٌ إلى استحقاقها بعد إهمالِ التّنبيهاتِ، والإعراضِ عنِ التّحذيرات.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مَكۡرَ﴾: الميمُ والكافُ والرّاءُ كلمتان: إحداهما بمعنى: الاحتيال والخداع[1]، فهو احتيالٌ في خِفية بغير ما يُضمَرُ[2]، أو صَرْفُ غيره عمّا يقصِدُه بحيلةٍ، وذلك ضربان: مكرٌ محمودٌ، وذلك أن يُتحرّى بذلك فعلٌ جميلٌ، وعلى ذلك قال: ﴿وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ﴾ [آل عمران: 54]، ومذمومٌ، وهو أن يُتحرّى به فعلٌ قبيحٌ، قال تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلۡمَكۡرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهۡلِهِۦۚ﴾ [فاطر: 43]، وقال في الأمرين: ﴿وَمَكَرُواْ مَكۡرٗا وَمَكَرۡنَا مَكۡرٗا﴾ [النّمل: 50]، وقال بعضُهم: مِن مكرِ اللّه إمهالُ العبدِ وتمكينُه من أعراضِ الدّنيا[3]. فمَكرُ اللّه إيقاعُ بَلائه بأعدائِه دونَ أوليائِه، وقيلَ: هو استِدراجُ العَبدِ بالطّاعاتِ، فيَتَوَهَّمُ أنَّها مَقبولَةٌ، وهي مردودةٌ[4]، فالمَكرُ منَ اللّه: جَزاءٌ، سُمّيَ باسم مَكرِ المُجازَى، كما قال: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ فَمَنۡ عَفَا﴾ [الشّورى: 40]، فالثّانية ليست بسيّئة في الحَقيقَة، ولكنّها سُمّيت سَيِّئَةً للجَزاء، وكذلك قَولُه جلّ وعزّ: ﴿فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ﴾ [البقرة: 194]، فالأوّلُ: ظلمٌ، والثّاني:

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (مكر).
(2) الفراهيديّ، العين: (مكر).
(3) الرّاغب، المفردات: (مكر).
(4) ابن الأثير، النّهاية: (مكر).

ليسَ بظُلم، ولكنَّه سُمّيَ باسم الذَّنب؛ ليُعلَمَ أنّه عِقابٌ عليه، وجَزاءٌ به، ويَجري مَجرَى هذا قَولُ اللّه جلّ وعزّ: ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمۡ﴾ [النّساء: 142] و﴿ٱللَّهُ يَسۡتَهۡزِئُ بِهِمۡ﴾ [البقرة: 15][1]. وقيل: هو تدبيرٌ يُخفَى، ويُختَزَنُ لأحداثٍ، أو أُمور؛ لتقعَ في المستقبل على نحو ما. فاختزانُ هذه الخطوات المعَدَّةِ للمستقبل هو المكرُ، ومأخذُ هذا منَ الأصل، ويكون ذلك التّدبّرُ لخيرٍ أو لشرٍّ، ونسبتُه إلى اللّه تعالى بهذا المعنى لا تحتاجُ إلى تأويلٍ، فهو من صفات اللّه الفعليّةِ الخبريّةِ، لكنّها صفةٌ لا تكون إلّا بقيدٍ، فلا يُوصَفُ اللّهُ بها على الإطلاق إلّا مقيّدةً، وهي إذا كانَت في مقابلةِ مَن يفعلون ذلك؛ فهي كمالٌ، وإن ذُكِرَت مُطلقةً؛ فلا تصحُّ بالنّسبة للّه ﷻ، ولهذا لا يصحُّ إطلاقُ وصفِه بالماكر، أو المستهزئ، أو الخادع، بل تُقيَّدُ؛ فنقول: ماكرٌ بالماكرين، مُستهزئٌ بالمنافقين، فتقيِّدها؛ لأنّها لم تأتِ إلّا مُقَيَّدَةً[2]. وكلُّ ما في القرآن منَ التّركيب فهو بهذا المعنى[3].

فالمكرُ في الآية المباركة تدبيرُ اللّه، وجزاؤه للكافرين.

المعنى الإجْماليُّ:

تقريرُ التّحذير، وتأكيدُ الإنـذار، وعاقبتهما

لزيادة التّقرير كرَّرَ مُستفهمًا ومُتعجّبًا: أفأمن أهلُ القرى المكذّبةِ مَكرَ اللّهِ وإمهالَه لهم؛ استدراجًا لهم بما أنعم عليهم في دنياهم عقوبةً لمكرهم؟ قَصدًا إلى زيادة التّحذيرِ، والإنذارِ من أمنهم ما لا يُؤمَنُ، مُغترّينَ بالذّنوب، آنسين بالموبقات، فرحين بالسَّعةِ، والإملاءِ، والتّمكينِ، وطولِ الأمل، والإمهالِ، المورثين غفلةً، ودَعةً، واسترسالًا في المعاصي، اتّكالًا على واسع رحمتِه، ومديد مغفرتِه.

وكلُّ ذلك استدراجٌ لهم بما أنعمَ عليهم مع إقامتهم على الكفر،

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (مكر).
(2) ابن تيميّة، التّدمريّة، ص: 26، والمُناويّ، التّوقيف على مهمّات التّعاريف، ص: 673.
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (مكر).

وتذكيرٌ وعظةٌ بأنَّ ما حلَّ بأولئك القومِ من عذابِ اللّه يُماثلُ هيئةَ مكرِ الماكرِ بالمَمكورِ، فلا يحسَبوا الإمهالَ إعراضًا عنهم، وليحذَروا أن يكونَ ذلك كفعلِ الماكرِ بعدوِّهِ[1]؛ ليترتّب على ذلك خسرانَهم أنفسَهم، وفقدانَ ما فيه نفعهم في الدّنيا والآخرة.

وتهدي الآيةُ الكريمةُ إلى: أنَّ العبدَ لا ينبغي له أن يكون آمنًا على ما معه منَ الإيمان، بل لا بدَّ من وجلٍ أن يُبتلَى بسلبِ ذلكم منه؛ فقلوبُ النّاسِ بين أصبعين من أصابع الرّحمن يقلبُهما كيف شاء، وينبغي له ألّا يزالَ داعيًا بقوله: (يا مقلب القلوب ثبتْ قلبي على دينك)، ولا ينبغي له المصيرُ إلى أمن مكر اللّه تعالى؛ اغترارًا بالنّعم، فذلكم سبيل الخسران[2].

وإلى أنَّ ما يأتي منَ الوعيد لأهل الكفر جزاء جنسِ إعمالهم، يرادُ منه أيضًا تحذيرُ المسلمين ممّا يُشبهُ تلك الأعمالَ بقدرِ اقترابِ شَبَهِهِ[3].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

التّعبير بـ ﴿أَفَأَمِنُواْ مَكۡرَ ٱللَّهِۚ﴾ دون غيرها:

تكريرُ الإنكارين السّابقين قصدًا إلى زيادة التّحذير والإنذار

جاء العطفُ بالفاء وإسنادُ الفعلِ إلى الضّمير؛ لأنّ الجملةَ المعطوفةَ تكريرٌ لقوله: ﴿أَفَأَمِنَ أَهۡلُ ٱلۡقُرَىٰٓ﴾، وتأكيدٌ لمضمون ذلك، فناسبَ إعادةَ الجملةِ مصحوبةً بالفاء[4]، وهو تكريرٌ إنكاريٌّ؛ لزيادة التّقريرِ[5]؛ تقريرِ التّعجيب من غفلتهم، وتقريرِ معنى التّعريض بالسّامعين منَ المشركين، مع زيادة التّذكيرِ بأنّ ما حلَّ بأولئك من عذابِ اللّه يماثلُ هيئةَ مكرِ الماكرِ بالممكورِ، فلا يحسبوا الإمهالَ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/24.
(2) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن في تفسير كلام المنان، ص: 298.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/25.
(4) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/134، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/351.
(5) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/254.

إعراضًا عنهم، وليحذروا أن يكون ذلك كفعل الماكرِ بعدوِّهِ[1]، فالتّكريرُ في ﴿أَفَأَمِنُواْ مَكۡرَ ٱللَّهِۚ﴾ لمجموع الإنكارين السّابقين جمعًا بينَ التّفريقِ قصدًا إلى زيادة التّحذير والإنذار[2].

بلاغةُ الاستعارةِ في لفظ (المكر):

المكرُ إيذانٌ بالاستدراج المؤدّي إلى الأخذ دون شعورٍ أو تحسّبٍ، وباعثٌ على الخوف والتّرقُّب

﴿مَكۡرَ ٱللَّهِۚ﴾ مصدرٌ أُضيفَ إلى الفاعل، وهو استعارةٌ لاستدراجه العبد وأخْذه من حيث لا يحتسبُ ولا يشعرُ، فعلى العاقل أن يكون في خوفه من مكر اللّه، كالمحارب الّذي يخافُ من عدوّه الكمينَ والبياتَ والغيلةَ[3]، والمرادُ بها بيانُ إتيان بأسِه تعالى في الوقتين المذكورين، ولذلك عُطِفَ الأوّلُ والثّالثُ بالفاء، فالإنكارُ فيهما متوجِّهٌ إلى ترتُّبِ الأمنِ على الأخذ المذكور، وأمّا الثّاني فمن تتمةِ الأوّلِ[4]، أو هي استعارةٌ تمثيليّةٌ للإمهال والإنعام في حال الإمهال، شبَّهَ حالَ الإنعامِ مع الإمهالِ، وتعقيبَهُ بالانتقام بحال المَكْرِ[5].

سرُّ إضافة المكرِ إلى لفظ الجلالة:

أدّى المكرُ معنى عقوبة الذّنب

إضافةُ (المكر) إلى لفظ الجلالة (اللّه): هي إضافةُ مخلوقٍ إلى الخالق، كما تقول: ناقةُ اللّه، وبيتُ اللّه، والمرادُ فِعلٌ مُعاقبٌ به مكرَ الكفرة، وأُضيفَ إلى اللّه لمّا أدّى معنى عقوبةِ الذّنب؛ فإنَّ العربَ تُسَمّي العقوبةَ على أيِّ جهةٍ كانَت باسمِ الذّنبِ الّذي وقعَت عليه العقوبةُ[6].

نكتةُ تكرارِ لفظِ المكرِ:

وقوعُ المكرِ بهم أمرٌ محقَّقٌ

كرَّرَ المَكرَ مُضافًا إلى اللّه تحقيقًا لوقوع جزاءِ المَكرِ بهم، وتوكيدًا لذلك[7]، فالتّكرارُ توكيدٌ، وترسيخٌ للمعنى، ويدلُّ على توحيد اللّه

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/23 - 24.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 9/12.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/134.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/254.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/24.
(6) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/433، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/351.
(7) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/351.

تعالى في مكرِه وقدرتِه على إصابة مَن يشاءُ بما يشاءُ منَ العذاب والبلاء، وأن لا مانعَ له ولا مُعقِّبَ.

علّةُ التّصريحِ بالأمن منَ المكر:

المكرُ راجعٌ إلى العقوبة الآخرة، وعذابُها لا ينقطع

صرّح بالأمن منَ المكر، وليس منَ البأس؛ لأنّ المكرَ خسرانٌ، وحلولُ البأسِ بهم غيرُ متيقّنٍ منهم، مَن أمِنَهُ ليس كمَن أمِنَ المَكرَ والإمهالَ؛ ولأنّ المكرَ راجعٌ إلى العقوبة الآخرة، وعذابُها لا ينقطعُ، والمكرُ في الدّنيا، فمَن أمِنَ المكرَ؛ فهو الخاسرُ حقيقة[1].

بلاغةُ التّذييلِ في المختتم:

سببُ خسرانِ أهلِ القرى أَمْنُهم مكرَ الله

قولُه: ﴿فَلَا يَأۡمَنُ مَكۡرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ مُترتِّبٌ عن التَّعجيب ومُتفرِّعٌ منه في قوله: ﴿أَفَأَمِنُواْ مَكۡرَ ٱللَّهِۚ﴾؛ لأنّ المقصودَ منه تفريعُ أنَّ أهلَ القرى المذكورين خاسرون لثبوت أنّهم أمِنوا مكرَ اللّه، والتّقدير: أفأمنوا مكرَ اللّه فهم قومٌ خاسرون، وإنّما صيغَ هذا التّفريعُ بصيغةٍ تعمُّ المخبَرَ عنهم وغيرَهم؛ ليجري مَجرَى المثلِ، ويصيرَ تذييلًا للكلام، ويدخُلَ فيه المُعَرَّضُ بهم في هذه الموعظةِ، وهُمُ المشركون الحاضرون، والتّقديرُ: فهم قومٌ خاسرون، إذ لا يأمَنُ مكرَ اللّهِ إلّا القومُ الخاسرون[2].

فائدةُ الاستثناءِ المفرّغ:

عدمُ الأمنِ مُقتصِرٌ على الخاسرين، ومخصوصٌ بهم

أفاد الاستثناءُ المفرّغُ في قوله: ﴿فَلَا يَأۡمَنُ مَكۡرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ حصرَ عدمِ الأمنِ بالخاسرين، وقصرَه عليهم، واختصاصَه بهم، فجعلَه في قوّةِ المثبتِ، فلا يأمنُ المكرَ إلّا هم.

براعةُ نفي المضارع بـ(لا):

نفيُ الفعل المضارع ﴿يَأۡمَنُ﴾ بـ(لا) غيرَ مقيَّدٍ بزمنٍ فتحَ احتمالَ إمكانِ النّفيِّ في الحال، والاستقبالِ، وديمومتَه، والاستمرارَ عليه،

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/237.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/24.

يعزّزُه جملةُ ﴿ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ الدّالّة على حدوث الخسران، وثبوتِه وصفًا ملازمًا لهم، فهم لغفلتِهم وجهلِهم لا يعرفون ربَّهم، فلا يخافونَهُ، ومَن هذه سبيلُهُ، فهو أخسرُ الخاسرين في الدّنيا والآخرة؛ لأنّه أوقعَ نفسَه في الدّنيا في الضّررِ، وفي الآخرة في أشدِّ العذابِ[1].

مَن لا يعرفُ سبيلَ ربِّه فهو أخسرُ الخاسرين

بديعُ الاستعارة في لفظ الخسران:

الخسرانُ - هنا - هو إضاعةُ ما فيه نفعُهم بسوء اعتقادهم، شُبِّه ذلك بالخسران وهو إضاعةُ التّاجر رأسَ مالِه بسوء تصرّفِه، فهي استعارةٌ تصريحيّةٌ تبعيّةٌ لكونها في اسمٍ مشتقٍّ ﴿ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾؛ لأنّهم باطمئنانهم إلى السّلامة الحاضرة، وإعراضِهم عنِ التّفكّرِ فيما يعقبُها منَ الأخذ الشّبيه بفعل الماكر، قد خسروا الانتفاعَ بعقولهم، وخسروا أنفسَهم.

أضاعوا ما فيه نفعُهم، وخيرُهم، وهدايتُهم بسوء اعتقادهم

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

المكر والكيد:

عبّر بالمكر دون الكيد؛ لأنّ الكيدَ احتيالٌ بغير ما يُبدي، والمَكرُ: احتيالٌ بغير ما يُضمِرُ، والكيدُ في الحرب حلالٌ، والمكرُ في كلِّ حالٍ حرامٌ[2]، وقيل: الكيدُ أقوى منَ المَكرِ؛ لأنّه يتَعَدَّى بنفسِهِ، والمَكرُ يتعدّى بحرفٍ، والَّذي يتَعَدَّى بنفسِهِ أقوى[3].

فناسبَ استخدامُ لفظِ المكرِ دون الكيد في قوله تعالى: ﴿فَلَا يَأۡمَنُ مَكۡرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾؛ لكون الآية تُحذِّرُ أهلَ القرى من عذاب اللّه تعالى الّذي لا يشعرون به حتّى يأتيهم بغتةً، وأنّ هذا العذابَ هو نتيجةُ ما كانوا يكسبون من كفرٍ وطغيانٍ، ولا يصحُّ أن يستخدمَ لفظُ الكيدِ في هذا المقام؛ لأنّه لا يليقُ بجبروتِ اللّه تعالى وقهرِه.

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/322.
(2) الفراهيديّ، العين: 5/370.
(3) الكفويّ، الكلّيّات، ص: 771.

﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ ۚ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾

[الأعراف: 100]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

حصولُ العِبرةِ لجميعِ المكلَّفين في مصالحِ أديانِهم وطاعاتِهم

لمّا بيّنَ - تعالى فيما تقدّمَ منَ الآيات - حالَ الكفّارِ الّذين أهلكَهُمُ اللّهُ بالاستئصالِ مُجمَلًا ومُفصَّلًا؛ أتبعَهُ ببيانِ أنّ الغرَضَ من ذكرِ هذه القَصَصِ حُصولُ العِبرةِ لجميعِ المُكلَّفين في مصالحِ أديانِهم وطاعاتِهم[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَهْدِ﴾: (هدي) الهاءُ والدّالُ والحرفُ المعتلُّ أصلان؛ أحدُهما: التّقدُّمُ للإرشاد، والآخرُ بَعثَةُ لطفٍ. فالأوّلُ قولُهم: هديتُهُ الطّريقَ هِدايَةً؛ أي: تقدَّمتُهُ لأُرشدَهُ. ويُنشعَبُ هذا فيُقال: الهُدى: خلافُ الضّلالةِ، والأصلُ الآخرُ الهَديَّةُ: ما أهدَيتَ من لطفٍ إلى ذي مودَّةٍ[2]. فهَداه: دَلَّه على الطَّريق[3]، والهُدى: الرّشادُ والدّلالةُ، وهَدَيتُهُ الطّريقَ والبيتَ هِدايَةً؛ أي: عرَّفتُه، وهي لغةُ أهلِ الحجازِ، ويُقال: هَداهُ اللّهُ للدّين هدًى؛ فيتعدّى باللّام، وقيل: هَدَيتُهُ إلى الطّريق وإلى الدّار، فيُعدّي الفعلَ بـ(إلى)[4]، فالهدى: الصِّراطُ الّذي دَعا اللّه سبحانه إليه هو طريقُ الحقِّ[5]، والاهتداءُ يختصُّ بما يتحرّاه الإنسانُ على طريق الاختيارِ، والمهتدون: الّذين تحرّوا

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/152.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (هدي).
(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (هدى).
(4) الجوهريّ، الصّحاح: (هدى).
(5) ابن سيده، المحكم: (هدي).

هدايتَه، وقبلوها، وعملوا بها[1]، ولغةُ أهلِ الغَور: هَـدَيتُ لك؛ أي: بَيَّنتُ لك، وبها نزلت: ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ﴾ [طه: 128][2]، فهَداهُ لَهُ: دَلَّه عليه، وبَيَّنَه له[3]. وتبيّنُ الوجهة، أو تَبيينُها بالتّقدُّم أو الكشف، والدّلالة عليها، وأغلبُ ما وردَ في القرآن منَ الفعل هو بمعنى التّوجيه إلى سبيل الرّشدِ خاصّةً[4]، وبهذا فمعنى اللّفظة في الآية: أو لم يتبيّنوا، ويرشدوا.

2) ﴿يَرِثُونَ﴾: (ورث) الواو والرّاءُ المكسورةُ والثّاءُ كلمةٌ واحدةٌ، هي الورثُ، وهو أن يكونَ الشّيءُ لقومٍ، ثمّ يصيرُ إلى آخرين بنسبٍ أو سببٍ[5]؛ فالإيراث: الإبقاءُ للشّيء[6]، وأورَثَهُ مالَه؛ أي: تَركه لَهُ[7]، والوارثة والإرث: انتقالُ قُنيةٍ إليك عن غيرك من غير عقدٍ، ولا ما يجري مَجرَى العقد[8]. و(الوارِثُ) صِفةٌ من صِفات اللّه تعالى، وهو الباقي الدّائِمُ بعدَ فناءِ الخَلق؛ إذ يَفنَى مَن سِواه، فيَرجعُ ما كانَ مِلك العِبادِ إليه وحدَه لا شريكَ له[9].

وحوزُ الإنسانِ ما كان يملكُه آخرُ بعد موتِ هذا الآخر استحقاقًا بالشّرع، وسائرُ ما في القرآن منَ التّركيب عدا ما هو منَ الوراثة بمعنى: حوْزُ تركةِ الميّتِ أو قسطٍ منها، فهو بمعنى: أن يؤولَ إليه ما كان بيد غيره بخلافةٍ فيه، أو تقلّبِ حالٍ، أو بمعنى: أن تكونَ العاقبةُ له فيه؛ تشبيهًا بأيلولة الموروث إلى الوراث[10].

ومعنى اللّفظة في الآية الكريمة: يخلفون أهليهم، وتؤولُ إليهم الأرضُ.

3) ﴿نَطْبَعُ﴾: (طبع) الطّاءُ والباءُ والعينُ أصلٌ يدلُّ على نهايةٍ يَنتَهي إليها الشّيءُ حتّى

(1) الرّاغب، المفردات: (هدى).
(2) الفراهيديّ، العين: (هدي).
(3) الزّبيديّ، تاج العروس: (هدي).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (هدى).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ورث).
(6) الفراهيديّ، العين: (ورث).
(7) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (ورث).
(8) الرّاغب، المفردات: (ورث).
(9) الزّبيديّ، تاج العروس: (ورث).
(10) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (ورث).

يُختَمَ عندَها[1]، وأصلُه منَ الطَّبع: وهوَ الوسَخُ الشّديدُ، والصّدأُ يكثرُ على السَّيف[2]، ثُمَّ استُعمِل فيما يُشبِهُ ذلك مِنَ الأوزارِ والآثامِ وغَيرِهما مِنَ المَقابِحِ[3].

والطَّبعُ: الختمُ على الشّيء، وطُبِعَ على القلوب: خُتِمَ عليها[4]، وطَبَعَ اللّهُ على قلبِ الكافِر - نعوذ باللّه منه - أي: صوّرَه بصورةٍ ما، وختمَ عليه، وغشّاه، وغطّاهُ، واستوثقَ من ألّا يدخلَهُ شَيءٌ، ومنَعه ألطافَه، فلا يعي وعظًا، ولا يصلُ إليه هدًى ولا نورٌ، ولا يوَفَّقُ لخيرٍ[5].

ولفظُ الطّبعِ في الآية الكريمة من هذا الختم على القلب - والعياذ باللّه - الّذي يمنعُ الإنسانَ ألطافَه فلا يعي وعظًا، ولا يصلُ إليه هدًى ولا نورٌ، ولا يوَفَّقُ لخيرٍ.

المعنى الإجْماليُّ:

التّعجيبُ من حالِ المُمَكَّنينَ في الأرض، وتحذيرهم

الآيةُ الكريمةُ مسوقةٌ مساقَ التّعجيبِ من حال الأمّةِ الحاضرةِ بوصفها الوارثة لجميع الأمم وغيرها، ممَّن آلَت إليهم الأرضُ بعدم الاهتداءِ بما حلَّ بمَن قبلَهم منَ الأمم، والاتّعاظِ بما أصابَهم، وكيفَ غابَ عنهم، ولم يُرشدوا إلى سنن اللّهِ فيهم ؟ مع أنَّ شأنَنا فيهم كشأننا فيمَن سبقوهم، وأنَّهم خاضعون لمشيئتنا لو نشاءُ أهلكناهم بذنوبهم، ومنعناهم ألطافَنا بالختم على قلوبِهم حتّى يعلوها الرّانُ والدّنسُ، فلا يعونَ وعظًا، ولا يُبْصِرونَ هدًى أو نورًا، ولا يوَفّقون إلى خيرٍ، ولا يسمعون سماعَ انتفاعٍ، وإنّما يسمعون فقط ما تقومُ به الحجّةُ عليهم[6].

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (طبع).
(2) الفراهيديّ، العين، والأزهري، تهذيب اللّغة: (طبع).
(3) ابن الأثير، النّهاية: (طبع).
(4) الفراهيديّ، العين: (طبع).
(5) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وابن الأثير، النّهاية: (طبع).
(6) اللاّحم، عون الرّحمن: 9/226.

وتهدي الآيةُ الكريمةُ إلى: الاعتبار بقصصِ الأممِ الغابرةِ، وأخبارِهم، ومآلاتِ مصائرِهم، ففي ذلكم تثبيتٌ للمؤمنين، وتحذيرٌ ووعيدٌ للكافرين، وإلى أنَّ مَن أوضحَ اللّهُ له سُبلَ الهدى، وضربَ له الأمثالَ في الهالكين بذنوبهم، وأصرَّ على كفره، وسَدَرَ في غيِّه، ولم يرعوِ، سيطبعُ اللّهُ على قلبه، فيَنبوا سَمعَهُ عن صوت الحقِّ[1].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ الاستفهامِ في المطلَع:

عجبٌ أمرُ أمّةٍ لا تتّعظُ بحوادثِ مَن سَبَقوا

الاستفهامُ للإنكار والتّوبيخ، والتّقرير، دخلَ على واو العطف، الّتي عُطِفَت على جملة: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ﴾؛ لاشتراكِ مضمونِ الجملتين في الاستفهام التَّعجبيِّ، فانتقلَ عنِ التّعجيب من حالِ الّذين مضَوا إلى التّعجيب من حال الأمّةِ الحاضرةِ من شدّةِ ضلالتِهم؛ إذ عُدِموا الاهتداءَ والاتّعاظَ بحالِ من قبلهم منَ الأمم، ونسوا أنَّ اللّه قادرٌ على استئصالهم إذا شاءَه[2].

دلالةُ الموصولِ في الآية:

الّـذيـن يـرثـون الأرضَ هـم كـلَّ أمّـةٍ خلفَت أمَّةً قبلَها

الموصولُ بمنزلة لام التّعريف العهديّ، وقد يُقصَدُ بالّذين يرثون الأرضَ كلُّ أمّةٍ خلفَت أمّةً قبلَها، فيشمل عادًا وثَمودَ، فقد قال لكلٍّ منهم: ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ﴾ [الأعراف: 74]، ولكنّ المشركين منَ العرب يومئذٍ مقصودون في هذا ابتداءً بالموصول بمنزلة لام الجنس[3].

سرُّ إظهارِ الوصف:

لـو تـأمّـلـوا حـالَـهـم بـعـدَ البأسِ لاتّعظوا والتمسوا طريقَ الهداية

أظهرَ - مُسهِبًا في وصفهم - بدل الإضمار، ولم يقُل: (يهدِ لهم)؛ تعميمًا وتعليقًا للحكم بالوصف، وإشارةً إلى بلادتهم لعدم البحثِ

(1) مجموعة من الباحثين، التّفسير المحرّر: 6/389.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/26.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/26.

عنِ الأخبار؛ ليعلموا منها ما يضرُّ وما ينفعُ، فلا يكونوا كالبهائم، فإنّهم لو تأمّلوا أحوالَهم وأحوالَ مَن ورثوا أرضَهم وأحوالَ الأرض؛ لكفاهم ذلك في الهداية إلى سواء السّبيل[1].

نكتةُ تعدية الفعل (يهدي) باللّام:

تأكيدُ الاختصاص، وتضمينُ معنيين، وتقويةُ التّعلُّق، وإبعادُ شكِّ إثباتِ فائدةِ الهدايةِ لغير المهدِيِّ

الحكمةُ في تعدية الفعل (يهدي) إلى مفعوله (الّذين) باللّام، وليس بنفسه، أو بالحرف (إلى): أنَّ (الهداية) هي الدّلالةُ على الطّريق الموصل للغاية، وقد تعودُ فائدتُه عليك؛ أي: إنَّك قد هَدَيت غيرَك لصالحك، وقد تكون الهدايةُ، وهي الدّلالة على فعل الخير، لأمرٍ يعودُ على الّذي هَدَى وعلى المَهديّ معًا، لكن إذا كانتِ الهدايةُ لا تعودُ إلّا لك أنت - وهذا ما تؤدّيه اللّام - ففي ذلك دفعُ شبهة المصلحة، والشّكّ في النّيّات، وهي أنسبُ لليقين، ثمّ الإقناع[2]، فاللّام للاختصاص، وتؤدّي معنى تقويةِ تعلُّقِ معنى الفعلِ بالمفعول، كما في قوله تعالى: ﴿أَنِ ٱشۡكُرۡ لِي﴾ [لقمان: 14]، وقوله تعالى: ﴿فَهَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيّٗا﴾ [مريم: 5].

في التّعدية باللّام تبيينٌ، وتوضيحٌ، وإرشادٌ

وتركيبُ اللّام مع الفعل حدّدَ وجهًا دلاليًّا له بطريق المجازِ، أو التّضمينِ وهو التّبيينُ، والتّوضيحُ، والإرشادُ، والمعنى: ألم نهدِ مبيّنين، موضّحين، مرشدين، أو ألم يهدِ، ويبيّن لهم راشدين؟ واستعمالُ الهدايةِ في مطلق الإرشاد مجازٌ، أو استعارةٌ كقوله تعالى: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: 6][3].

وقيل: إنّ تعديةَ فعلِ الهدايةِ باللّام؛ إمّا لتنزيلها منزلةَ اللّام، كأنّه قيل: أغفَلوا، ولم يُفعَلِ الهدايةُ لهم؟ وإمّا لأنّها بمعنى التّبيين، والمفعولُ محذوفٌ، والفاعلُ على التّقديرين هو الجملةُ الشّرطيّةُ؛ أي: أوَلَم يُبَيَّنْ لهم مآلُ أمرِهم[4]؟

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 3/75.
(2) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 7/4262.
(3) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/25 - 26، والشّهاب، الحاشية: 4/334، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/27، وداود، القرآن الكريم وتفاعل المعاني، ص: 36.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/254.

دلالةُ الألف واللّام في لفظ ﴿ٱلۡأَرۡضَ﴾:

المقصودُ بالأرض عمومُها

الألفُ واللّامُ في الأرض للجنس؛ أي: يرثون أيَّ أرضٍ كانت منازلَ لقومٍ قبلهم، وهي بهذا المعنى اسمُ جنسٍ يصدقُ على شائعٍ متعدِّدٍ، فتعريفُه تعريفُ الجنس، والمعنى: أو لم يهدِ للّذين يرثون أرضًا من بعد أهلها؟

لفظُ (الإرث) بين الحقيقة والمجاز:

الكلامُ موجَّهٌ لأهل مكّةَ، أو المرادُ مطلقُ الخلافةِ في الأرض

يُطلَقُ الإرثُ مجازًا على مماثلة الحيّ ميّتًا في صفات كانت له من عزٍّ، أو سيادةٍ؛ لأنّه إنْ أُريدَ بالكلام أهلُ مكّةَ؛ فالإرثُ هنا بمعناه المجازيِّ، وإنْ أُريدَ أهلُ مكّةَ والقبائلُ الّتي سكنَت بلادَ الأمم الماضيةِ فهو مُستعمَلٌ لمُطلَقِ الخلافة، وهو كقوله تعالى: ﴿أَنَّ ٱلۡأَرۡضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ ١٠٥﴾ [الأنبياء: 105][1]، وظاهرُه التّسميع لمَن كان في عصر الرّسول ﷺ من مشركي قريش وغيرهم[2]؛ أي: لمّا كان إرثُهم غيرَ مُستغرِقٍ للزّمان أتى بالجارّ، فقال: ﴿مِنۢ بَعۡدِ أَهۡلِهَآ﴾[3]، فهو مُؤكِّدٌ لمعنى (الإرث)؛ إذ يُرادُ منه تذكيرُ السّامعين بما كان فيه أهلُ الأرض الموروثة من بُحبوحة العيشِ، ثمّ ما صاروا إليه منَ الهلاكِ الشّاملِ العاجلِ، تصويرًا للموعظة بأعظم صورةٍ، فهو كقوله تعالى: ﴿وَيَسۡتَخۡلِفَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرَ كَيۡفَ تَعۡمَلُونَ ١٢٩﴾ [الأعراف: 129][4].

نكتةُ التّعبير بالمصدر المُنسبك:

تحقيقُ مشيئةِ الله لا رادَّ لها إن شاءَ تعالى وأراد

و﴿أَن﴾ المصدريّة في قوله: ﴿أَن لَّوۡ نَشَآءُ﴾ تدلُّ على التّحقيق؛ لأنّها (أن) المخفّفةُ منَ الثّقيلة، واسمُها ضميرُ الشّأن محذوفٌ، وما بعدها مؤوّلٌ بمصدرٍ مُنسبكٍ من لفظ خبرِها إن كان مفردًا مُشتقًّا، أو منَ الكون إن كان خبرُها جملةً، فموقع ﴿أَن لَّوۡ نَشَآءُ أَصَبۡنَٰهُم﴾ في

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/26 - 27.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/352.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 3/75.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 26 - 9/27.

موقع فاعل ﴿يَهۡدِ﴾؛ أي: أو لم يتّضحِ للوارثين إصابتُنا إيّاهم بذنوبهم لو شئنا ذلك[1]، وفي التَّعبير بالمصدر المنسبكِ قوّةٌ في الدّلالة على الحدث وتأكيدٌ لتحقّقه، والتّقدير: في أيّ وقتٍ أردنا ﴿أَصَٰبۡنَٰهُم بِذُنُوبِهِمۡۚ﴾؛ أي: إصابةً نمحقُهم بها كما فعلْنا بمَن ورثوا أرضَهُم[2].

دلالةُ فعلِ الشّرطِ على الماضي:

﴿لَّوۡ﴾ في قوله: ﴿أَن لَّوۡ نَشَآءُ أَصَبۡنَٰهُم بِذُنُوبِهِمۡۚ﴾ حرفُ شرطٍ يفيدُ تعليقَ امتناعِ حصولِ جوابه لأجل امتناعِ حصولِ شرطه: في الماضي، أو في المستقبل، وإذ قد كان فعلُ الشّرط هنا مضارعًا كان في معنى الماضي؛ إذ لا يجوز اختلافُ زمني فعلي الشّرط والجواب، وإنّما يخالفُ بينهما في الصّورة لمجرّدِ التّفنّنِ؛ كراهةَ تكريرِ الصّورةِ الواحدةِ، وفي هذا تهديدٌ بأنَّ اللّه قد يصيبُهم بذنوبهم في المستقبل؛ إذ لا يصدُّه عن ذلك غالبٌ[3].

لا يصدَّنَّ اللهَ إن شاء عارضٌ عنِ الإصابة بالذّنوب في أيِّ زمن

دلالةُ الباءِ في لفظ ﴿بِذُنُوبِهِمۡۚ﴾:

الباءُ في ﴿بِذُنُوبِهِمۡۚ﴾ للسّببيّة، وليسَت لتعديةِ فعل ﴿أَصَبۡنَٰهُم﴾[4]، وهي تقوّي دلالةَ أنّ المشيئةَ ليسَت مشيئةَ اللّه سبحانه فقط، بل هي أيضًا مشيئةُ العباد الّذين ميّزهم بالاختيار، ولذلك لم يقُل: (لو نشاء أصبناهم لذنوبهم)؛ وذلك رحمة منه، بل جعل العقابَ بالذّنوب الّتي يختارونها هم[5].

العبادُ مخيّرون، ومشيئاتُهم سببُ عقابهم

دلالةُ الاستئناف بالمضارع:

وقوله: ﴿وَنَطۡبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ﴾ استئنافٌ من باب

(1) الصّافي، الجدول في إعراب القرآن: 5/20، ويجوز أن يكون الفاعلُ ضميرًا مستتِرًا يعود على لفظ الجلالة، ويصبح المصدرُ المؤوّلُ مفعولًا به، كما يجوز أن يكون ضميرًا يعودُ على ما يُفهَمُ من سياق الكلام، أي: أو لم يهدِ ما جرى للأمم السّابقة، والمصدرُ المؤوّلُ مفعولٌ.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 3/75.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/28.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/27.

(5) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 7/4263 - 4264.

العطفِ في الجمل، فهو معطوفٌ على مجموع الجملةِ المصدَّرةِ بأداة الاستفهام[1]؛ أي: العطفُ على أخبار الأممِ الماضيةِ والحاضرةِ، والتّقدير: وطبعْنا على قلوبهم، ولكنّه صيغ بهيئة المضارع؛ للدّلالة على استمرار هذا الطّبع وازدياده آنًا فآنًا[2].

طبعُ اللهِ على قلوبهم مستمرٌّ آنًا فآنًا ما استمرّوا على زيغهم

وقد يكون معطوفًا على فعلٍ مُقدَّرٍ دلَّ عليه معنى ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ﴾، كأنّه قيل: يغفُلون عنِ الهداية، ونطبعُ على قلوبهم، أو على جملة ﴿يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ﴾[3]، وقيل: هو عَطفٌ على المعاصي؛ إذِ المرادُ به الاستقبال[4]، أو تجعل (الواو) للاستئناف والجملةُ مستأنفةٌ؛ أي: ونحن نطبعُ على قلوبهم في المستقبل كما طبعنا عليها في الماضي، فهو استئنافٌ مُنقطِعٌ عمّا قبله؛ لأنّ قولَه: (أصبنا) ماضٍ، و﴿نَطْبَعُ﴾ مستقبل؛ إخبارًا عن وقوع الطّبعِ لا أنّه مُتوَعِّدٌ به، ويبقى التّوعُّدُ بما سبق ذكره من عذابٍ كالصّيحة، والرّجفة، والغرق ونحوه[5]، والغايةُ إثباتُ حصولِ الطّبعِ على قلوبهم؛ أي: ونحن نطبعُ على قلوبهم، ونختِمُ عليها، بسبب اختيارهم الكفرَ على الإيمان[6]. وقيل: المرادُ الإصابةُ إمّا بالإهلاك وإمّا بالطّبع؛ أي: إن لم نهلكْهم بالعقاب؛ نطبعْ على قلوبهم، فهُم لا يَسمَعونَ؛ وذلك لأنّ الإهلاكَ لا يجتمعُ مع الطّبعِ على القلب؛ فإنّه إذا أهلكَه يستحيلُ أن يطبعَ على قلبه[7]، وهذا من بديع سعةِ احتمالاتِ التّركيب القرآنيّ، ومآلاتِه في تنوّع المعاني، وتعدّدِ الدّلالات الممكنة فهمًا لسياق الآية المباركة.

حصولُ الطَّبعِ حتميُّ الوقوعِ، لا أنّه وعدٌ على وجه التّهديد

ومنعَ جَمعٌ منَ المفسرين عطفَ جملة: ﴿وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ على

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/353.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/28.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/134 - 135.
(4) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/500.
(5) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/500.
(6) الواحديّ، التّفسير الوسيط: 2/390، والزّمخشريّ، الكشّاف: 2/134 - 135، وطنطاويّ، التّفسير الوسيط: 5/338.
(7) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/152، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/353.

وجهُ منعِ العطفِ إفضاؤه إلى نفي الطّبع عنهم فَهُم لا يَسمَعونَ سماعَ تفهّمٍ واعتبارٍ

جملة ﴿أَصَبْنَٰهُم﴾؛ لأنّه في سياقه جواب ﴿لَّوْ﴾ لإفضائه إلى نفي الطّبع عنهم، فهُم لا يَسمَعونَ سماعَ تفهُّمٍ واعتبارٍ[1]، أو أنَّ هؤلاء الّذين ورثوا الأرضَ من بعد أهلِها قد طبعَ على قلوبهم، فلذلك لم تجدْ فيهم دعوةَ محمّدٍ ﷺ منذ بُعثَ إلى زمن نزولِ هذه السّورة، فلو كان جوابًا لـ ﴿لَّوْ﴾ لصار الطّبعُ على قلوبهم[2]، وجعل له بعضُهم وجهًا؛ بأنّ كونه مطبوعًا عليه إنّما يحصلُ حالَ استمراره وثباته على الكفر؛ فهو يكفر أوّلًا، ثمّ يصيرُ مطبوعًا عليه في الكفر، فلم يكن هذا منافيًا لصحّة العطف[3]، أو أنَّ الكلامَ في الّذين يرثون الأرضَ في العصر الحاليّ، أو المستقبل على الإطلاق، وليس في قومٍ معينين طبعَ اللّه على قلوبِهم بالفعل[4]، فلمّا كان هذا تخويفًا للمَوجودين بعد المُهلَكين، ومنهم قريشٌ وسائرُ العربِ الّذين يُخاطَبون بهذا القرآنِ، فكأنّ المَخوُفَ به لم يقعْ بعدُ، عَطَفَ على (أصبنا) قولَه: ﴿وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾؛ أي: بإزالة عقولِهم حتّى يكونوا كالبهائم، ولِذلك سَبَّبَ عنه قولَه: ﴿فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾؛ أي: سماعَ فهمٍ[5].

بلاغةُ المجازِ في لفظ الإصابة:

الإصابةُ بالذّنوب إهلاكٌ لهم

وقوله: ﴿أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ﴾؛ أي: بجزاء ذنوبهم، وسيّئاتهم، أو بسبب ذنوبهم، وقيل: يجوز أن يُضمّنَ أصَبناهُم معنى أهلكناهم، فلا حاجةَ إلى تقدير المضاف، وهو من مجاز الإضمارِ أو التّضمين[6]، ويكون المعنى: أصبناهم مُهلكين بذنوبهم.

سرُّ الالتفاتِ بين لفظي (الإصابة)، و(الطّبع):

سرعةُ الهلاكِ واستمرارُ الطّبعِ يناسبُ حالةَ كفرِهم

عبّر عن الإصابة بالماضي إشارةً إلى سرعة الإهلاك مع كونه

(1) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/25 - 26.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/28.
(3) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/153.
(4) رضا، تفسير المنار: 9/27.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 3/75.
(6) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/353، والآلوسي، روح المعاني: 3/207.

شيئًا واحدًا غير مُتجزئ، ثمّ التفتَ مُعبِّرًا عنِ الطّبع بالمضارع؛ للدّلالة على استمرار هذا الطّبع وازدياده، وإيماءً إلى التّجدّدِ، بحيث لا يمرُّ زمنٌ إلّا كانوا فيه في طبعٍ جديدٍ[1].

بلاغةُ الاستعارةِ في لفظ (الطّبع):

نطبعُ استعارة من طبعِ السّكةِ ونقشِها بصورةٍ، أو كتابةٍ لا تقبلُ غيرَها[2]، ولا يُستعمَلُ الطّبعُ على القلوب إلّا في الشّرّ، والمرادُ به أنّها وصلَت منَ الفساد إلى حالةٍ لا تقبلُ معها خيرًا[3]، كالطّبع الّذي يفعلُه الصّانعُ بالخاتم أو الختم على الشّيء المطبوع، والمرادُ به هنا أنَّ اللّه تعالى جعل على قلوب المكذِّبين طبعًا يمنعُهم من فهمِ الحقِّ وقَبولِه، وأنَّ هذا الطّبعَ هو نتيجةُ ما كانوا يكسبون من تكذيبٍ وإصرارٍ على الضّلال. وجملة (على قلوبهم) للاستعلاء، وكأنّه يغطّيها مُستوعِبًا إيّاها.

نُقِشَ الفسادُ على قلوبهم فلا تقبلُ معه الخيرَ والعملَ الصّالحَ

سرُّ وصلِ جملة: ﴿فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾:

جملة: ﴿فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ معطوفةٌ بالفاء على (نطبع)، مُتَفَرِّعَةً عليه[4]، وهي جوابُ ﴿لَّوْ﴾؛ أي: صاروا بسبب إصابتنا لهم بذنوبهم، والطَّبْعِ على قلوبهم لا يسمعون ما يتلوه عليهم مَن أرسلَه اللّهُ إليهم منَ الوعظ والإعذار والإنذار سماعَ تفقّهٍ وتدبّرٍ واتّعاظٍ[5].

مَن يصيبْهُ اللهُ بذنبه، ويختِمْ على قلبه؛ يُعاقَبْ بتبلُّدِ الإحساس

نكتةُ التّعبيرِ عنِ السّماع بالمضارع:

عبّر عنِ السّماع بالمضارع المنفيّ بـ (لا)؛ دلالةً على تجدّد الفعلِ فيهم مرّةً بعد مرّةٍ، وأنّ عدمَ السّمع مُستغرِقٌ الحال والاستقبال. ونفيُ السَّماع مَعْناهُ: نفيُ القبولِ والاتّعاظِ المترتِّبِ على وجود السَّماعِ، جعلَ انتفاءَ فائدتِه انتفاءً له[6].

فعلُ عدمِ السّماعِ ملازمٌ لهم، مُتجدِّدٌ فيهم كلَّ زمنٍ، وذلكم طبعُ المُكابر

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 3/76، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/29.
(2) رضا، تفسير المنار: 9/27.
(3) رضا، تفسير المنار: 9/28.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/29.
(5) الشّوكانّي، فتح القدير: 2/260.
(6) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/353.

علّةُ إيثارِ لفظ السّمع على العقل:

المرادُ بالسّمع النّافع منه وليس إطلاقَهُ

وإنّما قال: ﴿فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾، ولم يقُل: (لا يعقلون)؛ لأنّ المرادَ هنا السّمعُ النّافعُ لا مطلقُ السّمع[1]، أو المرادَ بالسّماع فهمُ مغزى المسموعات لا استكاك الآذان، بقرينةِ قوله: ﴿وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾[2]، والّذي يتأمّلُ في الآيات السّابقة يراها تحذِّر النّاسَ بأساليبَ متنوّعةٍ حكيمةٍ منَ الغفلة عنِ العظات والعِبر، وتحضُّهم على التّخلصِ منَ الأمن الكاذب، والشّهوات المُردية، والمتع الزّائلة[3].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الطّبع، والختم، والنّقش، والرّين، والإقفال:

الطّبعُ: أعمُّ منَ الختم وأخصُّ منَ النّقش[4]، والرَّينُ أيسرُ مِنَ الطَّبع، والطَّبعُ أيسرُ مِنَ الإقفال، والإقفالُ أشدُّ ذلك كلِّه[5].

القلب، والفؤاد:

إصابةُ القلبِ الرّقيقِ منتهى العذاب

القلبُ أخصُّ منَ الفؤاد في الاستعمال؛ لأنّه معنى منَ المعاني يتعلَّقُ به، ويشهدُ له قولُ النّبيِّ ﷺ: «أتاكُم أهل اليَمن، هم أرَقُّ قُلوبًا، وألْيَنُ أفئِدَةً»[6]، فوصَفَ القُلوبَ بالرّقّةِ والأفئدةَ باللّين، وكأنَّ القلبَ أخَصُّ في الاستعمال؛ ولذلك قالوا: أصبتَ حَبَّةَ قلبِه وسويداءَ قلبِه[7]، ولخصوص القلب أوثرَ في الآية.

(1) ابن عرفة تفسير ابن عرفة: 2/239.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/29.
(3) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 5/338.
(4) الرّاغب، المفردات: (طبع).
(5) ابن الأثير، النّهاية: (طبع).
(6) أحمد بن حنبل، المسند: 28/625.
(7) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: 9/143، والزّبيديّ، تاج العروس: 4/69.

﴿تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠١﴾﴾ [الأعراف: 101]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لمّا تكرّرَ ذكرُ القرى الّتي كذّب أهلُها رسلَ الله بالتّعيين وبالتّعميم صارَت للسّامعين كالحاضرة المشاهدَةِ الصّالحةِ لأن يُشارَ إليها، فجاء اسمُ الإشارة لزيادة إحضارِها في أذهان السّامعين من قوم محمّد ﷺ؛ ليعتبروا حالَهم بحال أهل القرى، فيروا أنّهم سواءٌ، فيفيئوا إلى الحقِّ[1]، ولمّا انقضى ذلك على هذا الوجه العظيم والنّظم الأبلغِ الأحكم، وكانَت هذه القرى بحيث تعرفُها العربُ ويرونها، أشارَ إليهم حثًّا على الاعتبار بهم[2].

القرى هذه معروفةٌ عند العربِ، فأشار اللهُ إليهم حثًّا على الاعتبار بحالهم

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿نَقُصُّ﴾: (قصَّ) القافُ والصّادُ أصلٌ صحيحٌ يدلُّ على تتبعِ الشّيءِ، من ذلك قولهم: اقتصصتُ الأثرَ؛ إذا تتبّعته. ومن ذلك اشتقاقُ القصاص في الجراح، وذلك أنّه يُفعلُ به مثلَ فِعلِه بالأوّل، فكأنّه اقتصّ أثرَه. ومنَ الباب القصّةُ والقصصُ، كلُّ ذلك يُتَتَبَّعُ فيُذكر[3]. فالقِصَّةُ معروفةٌ. يُقالُ: في رأسه قِصَّةٌ؛ أي: جملة منَ الكلام ونحوه[4]. وقولُه تعالى: ﴿أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾ [يوسف: 3]؛ أي: أحسنَ البَيان[5]، وهي: الأمرُ والحديثُ. وقدِ اقتَصَصتُ الحديثَ:

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/29.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 3/76.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (قصَّ).
(4) الفراهيديّ، العين: (قصَّ).
(5) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (قصَّ).

رويتُه على وجهه[1]. فالقصص: الخَبَر المقصوص[2]، والأخبارُ المتتبّعة[3]. واقتصصتُ الحديثَ: رويتُه على وجهه، فهي أحداثٌ، أو أمورٌ لها أصلٌ، وتتوالى على نحوٍ مترابطٍ إلى نهايةٍ ما، أو هي من قَصِّ الخَبَرِ؛ أي: حكايتُه متتابعةٌ بحسب ما سُمع، أو وقع، كقصص الرّسلِ مع أقوامهم، والقُرَى مع أهلها ومصائرهم ﴿يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي﴾ [الأنعام: 130]؛ أي: آياتُ اللّه في الكون: خلقُ السّموات والأرض، وتسخيرُ ما في الأرض والأفق للإنسان، وإرسالُ الرّسلِ بالبيّنات لتعريف الإنسان بربِّه، وعبادتِه إيّاه، وآدابِ عبادِ اللّه في حياتهم، وبالبعثِ والحسابِ والجزاءِ، وكلُّ تلك أمورٌ ينبغي التزامُها[4]، وهذا معنى اللّفظة في الآية الكريمة.

2) ﴿أَنۢبَآئِهَاۚ﴾: (نبأ) النّون والباء والهمزة قياسُه الإتيانُ من مكانٍ إلى مكانٍ. ومنه قيل للنّبأ: الخبر؛ لأنّه يأتي من مكانٍ إلى مكانٍ[5]. فالنّبأ: خبرٌ ذو فائدةٍ عظيمةٍ، يحصلُ به علمٌ أو غلبةُ ظنٍّ، ولا يُقالُ للخبر في الأصل: نبأٌ؛ حتّى يتضمّن هذه الأشياء الثّلاثة، وحقُّ الخبر الّذي يُقال فيه: نبأٌ؛ أن يتعرَّى عنِ الكذب، كالتّواتر، وخبرِ اللّه تعالى، وخبرِ النّبيّ ﷺ، ولتضمّنِ النَّبَأِ معنى الخبر، يُقال: أنبأتُه بكذا، كقولك: أخبرتُه بكذا، ولتضمّنه معنى العلمِ قيل: أنبأتُه كذا، كقولك: أعلمتُه كذا[6]. فالنّبأُ يُستعمَلُ في ما الأصل فيه مجهولٌ لأحد الطّرفين[7].

وكلُّ نبأٍ في القُرآن فهو الخَبَرُ إلّا قوله: ﴿فَعَمِيَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَنۢبَآءُ﴾ [القصص: 66] فإنّ المُرادَ الحجَجُ.

والنّبأ والأنباءُ لم يَرِدا في القُرآن إلّا لما لَهُ وقعٌ، وشأنٌ عَظيمٌ[8]، وبذا تفسّرُ اللّفظةُ في الآية الكريمة.

(1) الجوهريّ، الصّحاح: (قصص).
(2) ابن سيده، المحكم: (قصص).
(3) الرّاغب، المفردات: (قصص).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (قصص).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نبأ).
(6) الرّاغب، المفردات: (نبأ).
(7) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (نبأ).
(8) الكفويّ، الكلّيّات، ص: 886.

3) ﴿بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾: (بَيَنَ) الباءُ والياءُ والنّونُ أصلٌ واحدٌ، وهو بعدُ الشّيء، وانكشافُه، فالبينُ الفراقُ، وبان الشّيءُ وأبان؛ إذا اتّضحَ، وانكشفَ[1]. والبَيِّنُ منَ الرّجال: الفَصيحُ[2]. والبَيان: الفَصاحة. واستبنتُ الشَّيءَ: تأمّلتُه حتَّى تبَيَّن، وتبيّنتُ الأمر: تأمّلتُه، وتوسَّمتُه، وتثبّتُ منه[3]. وبانَ الصّبحُ: ظهرَ، وسُمّي الكلامُ بيانًا؛ لكشفه عنِ المعنى المقصود إظهاره. وسُمّي ما يُشرَحُ به المجملُ، والمبهمُ منَ الكلام بيانًا[4]. والبينُ: الفَصلُ بَين الأرضين. والبين: قَدرُ مدِّ البَصرِ مِنَ الطَّريق[5]. ومنَ الفصل والتّمييز جاء معنى الوضوح والظّهور؛ لأنّ المفصولَ المتميّزَ من غيره يلفتُ النّظرَ، وهو المعنى الّذي جاءَت به كلُّ مفرداتِ التّركيبِ القرآنيّةِ عدا الظّرف (بين)[6]. والبيّنةُ: الدّلالةُ الواضحةُ عقليّةً كانَت أو محسوسةً[7]. والبيّنات: هي الّتي أنزلها اللّهُ، وأظهرها على يدي أنبيائه، منَ الحُجَج والدّلائل، والمعجزات الظّاهرات الواضحات في نفسها، أو في كونها من عند اللّه، والّتي تقتضي التّسليمَ بلا جدال[8].

المعنى الإجْماليُّ:

الخطابُ للنّبيّ محمّد ﷺ: أنّا قصصْنا عليك وعلى أمَّتِكَ منَ الأخبار العظيمة الهائلة للقرى الغابرة عِبرةً، تَعِظُ المتَّعظينَ، وتردَعُ الكافرينَ، فقد كانَت تأتيهم الرّسلُ بالدّلائل، والبراهين، والمعجزاتِ الواضحاتِ، فكان حالُهم بعد مجيئِها كحالهم من قبلُ، حين كانوا

القَصصُ القرآنيُّ يحصلُ به عِبرةٌ للمعتبرين وازدجارٌ للظّالمين، والمآلاتُ جزاءٌ من جنس العمل

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (بين).
(2) الفراهيديّ، العين: (بين).
(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (بين).
(4) الرّاغب، المفردات: (بين).
(5) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (بين).
(6) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (بون - بين).
(7) الرّاغب، المفردات: (بين).
(8) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (بون - بين).

يتسامعون بكملة التّوحيدِ ممّن قبلَهم فيكذبونها[1]، أو فما كانوا ليؤمنوا بما سبقَ في علم اللّه يومَ أخذَ الميثاقَ أنّهم يكذّبون به، ولم يؤمنوا به؛ لاستحالة التّغيّر فيما سبق به العلمُ الأزليُّ[2]، أو فما كانوا ليؤمنوا بما جاءَتهم به الرّسلُ في حالٍ منَ الأحوال، ولا وقتٍ منَ الأوقات بما كذَّبوا به من قبل مجيئِهم، بل هم مُستمرّون على الكفر، مُتشبّثون بأذيال الطّغيانِ دائمًا[3]، مدّةَ عمرِهم بما كذّبوا به أوّلَ ورودِه عليهم حين جاءَتهم الرّسلُ لتمرّسهم بتكذيب الصّادقين، ولم تؤثِّرْ فيهم دعوتُهم المتطاولةُ والآياتُ المتتابعةُ[4]، أو فما كان ليهديهم للإيمان عقوبةً لهم على ردّهم الحقَّ أوّلَ مرّةٍ، وذلك مصداقُ الطّبع على القلب، والختم عليه؛ إذ تتحجّرُ القلوبُ، وتستوي حالتا التّبليغ والإنذار بالبيّنات أو عدمها[5].

وما أفادَتهم البيّناتُ أن يؤمنوا بشيءٍ قد بدرَ منهم تكذيبُه في ابتداء الدّعوة[6]، ليجعلَ اللّهُ حجابًا على قلوبهم وعقولهم، فيخفى عليهم طريقُ الحقِّ وينأون عنه، أو أنّهم أُخِذَ عليهم الميثاقُ، فآمنوا كرهًا، فما كانوا ليؤمنوا بعد ذلك طوعًا، فلو ردّوا إلى الدّنيا مرّةً لكفروا أيضًا، فما كانوا ليؤمنوا في الرّدِّ بما كذّبوا به أوّلًا؛ لأنّ شُؤمَ المبادرةِ إلى تكذيب الرّسلِ سببٌ للطّبع على القلوب والإبعادِ عنِ الهدى[7].

فما كانوا ليؤمنوا بعد رؤيةِ تلك المعجزات بما كذّبوا قبل رؤيتِها، يعني: أوّلَ ما جاؤوهم فاجؤوهم بالتّكذيب، فأتوا بالمعجزات، فأصرّوا على التّكذيب[8].

ومغزى الآيةِ الكريمةِ وإرشادُها تسليةُ النّبيِّ محمّد ﷺ بأنَّ ما لقيه من قومه هو سنّةُ الرّسل السّابقين، وأنّ ذلك ليس لتقصيرٍ منه، ولا لضعفِ آياته، ولكنّه للختم على قلوبِ كثيرٍ من قومه[9] وتقريرٌ للوحي، وإثباتٌ لنبوّته ﷺ؛ لأنّ تلكم القصص لا تُتلَقّى إلّا بوحي

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: 1/183.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 9/11.
(3) القنّوجيّ، فتح البيان: 4/419.
(4) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/26.
(5) طنطاويّ، التّفسير الوسيط، ص: 138.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/31.
(7) المغراويّ، التّدبّر والبيان: 11/416.
(8) الشّهاب، عناية القاضي: 4/337.
(9) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/32.

إلهيٍّ[1]، وعقوبةُ مَن ردَّ الحقَّ، أو أعرضَ عنه فلم يقبله، وأصرَّ على ذلك فإنّه يُصرفُ عنه، ويُحالُ بينه وبينه، ويقلّبُ قلبُه عنه[2].

ومن هنا فلا ينبغي ردُّ المسموع بطرًا وكبرًا ومعاندةً لعلّه يكون حقًّا، فيضعُ عنك نفعه، وتفقدُ أثرَه، وينزعُ عنك خيره، فوجودُ البيّناتِ مهما كانَت قويّةً وواضحةً غيرُ كافٍ في إيمان مَن لم يَشأِ اللّهُ هدايتَه[3].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ الفصلِ في الآية:

الآيــةُ خـلاصـةُ القَصص المحكيّة قبلها تفصيلًا وإجمالًا

جملة ﴿تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ﴾ مستأنفةٌ استئنافَ الفَذْلكة؛ أي: خلاصةُ ما فُصِّلَ قبلها، ومجمله منَ القصص من قوله: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ [الأعراف: 59]، ثمّ قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ﴾ [الأعراف: 94][4]، فقُفّي به على جملة قصصِ الرّسلِ عليهم السلام الّتي تقدَّمَت، وما عُطِفَ عليها من بيان حكمِها وفقهِها، فكانَت خلاصةً لها[5].

التَّعبيرُ بـ ﴿تِلْكَ﴾ دون غيرها:

صيغةُ البُعد؛ للتّبعيد عن ساحة عزّ القرب

ولمّا كان أهلُ تلك القُرى جديرين بالبعد عنهم والهرب منهم؛ عبّرَ عنهم بأداة البعدِ، فقال: ﴿تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ﴾؛ أي: محالُّ القبائلِ الخمسِ، وهي قرى قومِ نوحٍ وهودٍ وصالحٍ ولوطٍ وشعيبٍ، ويجوز أن يكون البعدُ لعظمة ما حصلَ لأهلها منَ العذاب، ويؤيّدُه قولُه مبيِّنًا حالها: ﴿نَقُصُّ عَلَيْكَ﴾[6]، أو إشارةً إلى بُعد هلاكها وتقادمه[7]؛ فصيغةُ البُعد للتّبعيد عن ساحة عزّ القرب[8].

(1) الجزائريّ، أيسر التّفاسير، ص: 213.
(2) ابن القيّم، بدائع التّفسير: 1/413.
(3) الجزائريّ، أيسر التّفاسير، ص: 213.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/29.
(5) رضا، تفسير المنار: 9/29.
(6) البقاعيّ، نظم الدّرر: 3/76.
(7) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/353.
(8) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 8/457.

بلاغةُ الإخبارِ بالاسم والفعل:

القصدُ الإخبارُ بالقصص، أو تعظيمُ القرية ومهلكها، والتّحسّرُ عليها عِظَةً وعِبرةً

يجوز في ﴿تِلْكَ﴾ أن تكون ابتداءً، و﴿ٱلْقُرَىٰ﴾ نعتًا، والخبر ﴿نَقُصُّ﴾ يؤيّدُه أنّ القصدَ إنّما هو الإخبارُ بالقَصص[1]، أو أنّ ﴿ٱلْقُرَىٰ﴾ هي خبرُ الابتداء ﴿تِلْكَ﴾، وفي ذلك معنى التّعظيم لها ولمهلكها، كقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ [البقرة: 2] فإنَّهُ ابتداءٌ وخبرٌ، وكأنّ في اللّفظ معنى التّحسّر على القرى المذكورة، والمعنى: نقصُّ عليك من أنباء الماضين لِتَتَبَيَّنَ العِبَرَ، وتَعْلَمَ المَثُلاتِ الّتي أوقعَها اللّهُ بالماضين، ثمّ ابتدأ الخبرَ عن جميعهم بقوله: ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ مِن قَبْلُ﴾[2]، وفيه استحضارُ القرى في الذّهن بحيث صارَت كالمُشاهَدِ للسّامعِ، فكانَتِ الإشارةُ إليها إشارةَ عِبرةٍ بحالها، وذلك مفيدٌ للمقصودِ منَ الإخبار عنها باسمها لمَن لا يجهلُ الخبرَ كقوله تعالى: ﴿هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ﴾ [التّوبة: 35]؛ أي: هذا الّذي تشاهدونه، وتُكوَونَ به هو كنزكُم، وهم قد علموا أنّه كنزُهم، وإنّما أُريدَ منَ الإخبار بأنّه كنزُهم إظهارُ خطأِ فعلِهم، ويجوزُ أن يكونَ القُرى بيانًا لاسمِ الإشارةِ[3].

دلالةُ الحاليّة في جملة القصّ:

القَصَصُ مواطنُ إثباتٍ، واستدلالٍ

وتحتملُ جملةُ: ﴿نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا﴾ الحاليّة منَ القرى، وفائدتُه الامتنانُ بذكر قَصَصها، فهو كالتّقييد بالصّفة في قولك: هو الرّجلُ الكريمُ، وللاستدلال على نبوّة محمّد ﷺ؛ إذ علَّمه اللّهُ من علم الأوّليّن ما لم يسبق له علمُه[4].

علّةُ التّعبيرِ عنِ القصّ بالمضارع:

وعبّر بالمضارع ﴿نَقُصُّ﴾ عنِ الماضي؛ أي: (تلك القرى قصصنا)،

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/433.
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/434.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/29 - 30.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/30.

والأنباءُ هنا إخبارُهم مع أنبيائهم ومآل عصيانهم[1]؛ لأنّ هذه الآيةَ نزلَت مع تلك القَصص لا بعدها[2]، وفيه وعدٌ بالزّيادة من ذلك، لما دلَّ عليه المضارعُ ﴿نَقُصُّ﴾ منَ التّجدّد والاستمرار، والتَّعريض بالمعرضينَ عنِ الاتّعاظ بأخبارها[3]، والمعنى: قد قصصنا عليك ﴿مِنْ أَنۢبَآئِهَا﴾، ونحن نقصُّ عليك أيضًا منها مفرَّقًا في السّور[4].

زيادةُ القَصصِ سبيلٌ للمواعظ، والتّخويف

بيانُ وجهِ العطفِ بجملة ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ﴾:

أتى بالجملة الثّانية ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ﴾ معطوفةً مع أنّها مفسِّرةٌ للأولى: ﴿تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ﴾؛ لأنّ القصصَ لم تقعْ بكلِّ الأشياءِ بل ببعضها، فالعطفُ دالٌّ ومُؤذِنٌ بمعطوفٍ عليه لم يُذكَر[5] إيجازًا، واقتصادًا، واكتفاءً بالمهمِّ منَ الكلام المفيد للاعتبار، والعطفُ أيضًا لمناسبة ما في كلتا الجملتين من قصد التّنظيرِ بحال المُكذِّبين بالنّبيّ محمّد[6] ﷺ.

في الكلام محذوفٌ منَ القصّة عُدِلَ عن ذكره

ولمّا كان المقامُ العجبَ منَ التّكذيبِ بعد ذلك البيانِ كان ربّما تخيّلَ متخيّلٌ أنّهم لم يُؤتوا بالبيان الشّافي؛ فشهدَ اللّهُ تعالى للرّسل عليهم السلام تصديقًا لمَن قالَ منهم: ﴿قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ﴾ [الأعراف: 105]، بقوله: ﴿وَلَقَدْ﴾؛ أي: والحالُ أنّه قد ﴿جَآءَتْهُمْ﴾؛ أي: أهل القرى؛ لأنّهم المقصودون بالذّات[7].

دلالةُ حرف الجرّ ﴿مِن﴾:

و﴿مِن﴾ تبعيضيّة، فثمّةَ أنباء غير ما ذُكِرَ هنا، وطويَ ذكرُها لعدم الحاجةِ إليها في التّبليغ[8]، وذلك أنّ العاقلَ هو مَن يكفيه أدنى

في تبعيضيّة ﴿مِن﴾ بيانٌ للاقتصاد بذكر الأنباء

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/353.
(2) رضا، تفسير المنار: 9/29.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/30.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/30.
(5) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/239.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/30.
(7) البقاعيّ، نظم الدّرر: 3/76.
(8) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/135، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/30.

شيء؛ لذا هوّل الأمرَ بأنّ أخبارَها تفوتُ الحصرَ، وأنّ ما قصَّ منها يكفي المعتبرَ، فقال: ﴿مِنۡ أَنۢبَآئِهَاۚ﴾؛ أي: أخبارِها العظيمةِ الهائلةِ المطابقةِ للواقع شيئًا بعد شيء، كما يَفعَلُ مَن يَتَتَبَّعُ الأثرَ[1].

دلالةُ الضَّميرِ ومغزى تأنيثه:

رؤيةُ القرى مدخلٌ في معرفة أخبارِ أهلِها

والمرادُ بالقرى وضمير أنبائها: أهلُها، كما دلّ عليه الضّمير في قوله: ﴿رُسُلُهُم﴾[2]، وأنَّثَ الضّميرَ؛ لأنّ لرؤية القرى أنفسِها مَدخَلًا في معرفة أخبارِ أهلِها[3].

توجيهُ تعريف البيّنات وجمعها:

إظهارُ البيّنات مصاحبٌ مع كلِّ مُرسَلٍ حجّةً وبرهانًا

جمع (البيّنات) وتعريفها باللّام العهديّة يُشيرُ إلى تكرّر البيّنات مع كلِّ رسولٍ[4]؛ ليكونَ حجّةً للرّسول على قومه، وبرهانًا على إلهيّة الرّسالة، وصدق التّكليف.

دلالةُ الفاءِ الدّاخلة على (ما):

نفى إيمانَهم مع مجيء الرّسل إليهم مبلّغين، وقبل ذلك وبعده

(الفاء) في قوله: ﴿فَمَا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُواْ﴾؛ لترتيب الإخبارِ بانتفاء إيمانِهم عنِ الإخبار بمجيء الرّسلِ إليهم بما من شأنه أن يحملَهم على الإيمان[5]، والضّميرُ في ﴿كَانُواْ﴾ وفي ﴿لِيُؤۡمِنُواْ﴾ عائدٌ على (أهل القرى)، وأنّ (الباء) في (بما) ليسَت سببيّةً؛ فالمعنى: أنّهم انتفَت عنهم قابليةُ الإيمانِ وقتَ مجيءِ الرّسلِ بالمعجزات بما كذّبوا به قبلَ مجيءِ الرّسلِ بالمعجزات، فحالُهم واحدٌ قبل ظهور المُعجزات وبعد ظهورها لم تجد عنهم شيئًا[6].

نكتةُ إسناد نفي الإيمان إلى الضّمير:

القصدُ بالضّمير أهلُ القرى باعتبار الأَغْلَبيّة

أسندَ نفيَ الإيمان إلى ضمير جميع أهلِ القرى باعتبار الغالب،

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 3/76.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/30.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 3/76.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/30.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/30.
(6) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/354.

وهو استعمالٌ كثيرٌ، وسيخرجُ المؤمنون منهم بقوله: ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍۖ وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَٰسِقِينَ﴾[1].

بلاغةُ التّعبيرِ بجملة ﴿فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ﴾:

صفةُ الإيمان تنافي التّعنّتَ والإصرارَ على الكفر

صيغةُ ﴿فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ﴾ المجموعُ فيها: الفعلُ الماضي النّاقصُ الدّالُّ على تحقّق الفعل، والمضارعُ الدّالُّ على تجدّد فعل عدم الإيمانِ منهم، ولامُ الجحود تفيدُ المُبالَغَةَ في النَّفْي، وتَأْكيدَهُ، للدّلالة على أنّهم ما صلحوا للإيمان؛ لمنافاته لحالهم منَ التَّصميم على الكفر، والتَّصلُّبِ فيه، والطَّبعِ على قلوبهم[2]، ففي الإتيان بلام الجحودِ في (ليؤمنوا)؛ للمبالغة في نفي القابِليَّةِ والوقوع، وهو أبلغُ من تسلّطِ النّفي على الفعل بغير لام[3]، والمعنى: فاستمرَّ عدمُ إيمانِهم، وتمكَّنَ منهم الكفرُ في حين كان الشّأنُ أن يقلعوا عنه[4].

علّةُ إيثارِ (ما) الموصولة:

بالغوا في الكذب وتمادَوا حتّى تعدَّوا حدودَه

(ما) في جملة: ﴿بِمَا كَذَّبُواْ﴾ موصولةٌ، والعائدُ منصوبٌ محذوفٌ؛ أي: بما كذّبوه، ويجوزُ أن تكونَ مصدريّةً[5]، ولاختيار (ما) المبهمة قصديّةٌ في سعة الكذب وعدم محدوديّته، يؤكّدُه حذفُ الضّمير، والتّقدير: (بما كذّبوه)؛ إذ جحدوا كلَّ شيءٍ، وكذّبوا بكلِّ شيء، فالحذفُ أدلُّ على الزَّجر من مُطلَقِ التَّكذيب وأوفقُ لمقصود السّورةِ[6].

فشأن (ما) الموصولة أن يُرادَ بها غيرُ العاقل، فلا يكون ما صَدَقَ (ما) هنا هو الرّسلَ، بل (ما جاءَت به الرّسلُ)، فلذلك كان فعلُ (كذّبوا) هنا مُقدَّرًا مُتعلِّقُهُ لفظُ (به)، كما هو الفرقُ بين كذّبَه

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/31.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/135، والبيضاوي، أنوار التّنزيل: 3/26.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/354.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/30 - 31.
(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/354.
(6) البقاعيّ، نظم الدّرر: 3/76.

وكَذّبَ به، قال تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ﴾ [الأعراف: 64]، وقال: ﴿وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ وَهُوَ ٱلْحَقُّ﴾ [الأنعام: 66][1].

سرُّ التّعبيرِ بالجَارّ ﴿مِن قَبْلُ﴾:

من جحودهم أنّهم كذّبوا الرّسلَ قبل مجيئهم بالآيات، وفي أثناء مجيئهم

لمّا كان تكذيبُهم غيرَ مُستغرقٍ للزّمان الماضي؛ أدخلَ الجارّ، فقال: ﴿مِن قَبْلُ﴾؛ أي: قبلَ مجيءِ الرّسلِ إليهم، أو بتكذيبِهم الواقعِ (منهم) للرّسل فيما أتَوا به عنِ اللّه من قبلِ الأخذِ بغتةً، أو من قبل مجيءِ الرّسلِ بالآيات، فإنّهم أوّلُ ما جاؤوهم فاجؤوهم بالتّكذيب، فجوزوا على تكذيب الحقِّ من غير نظرٍ في دليلٍ بالطّبع على قلوبهم، فأتَوهم بالمعجزات، فأصرّوا على ذلك التّكذيب، ووقَفوا لذلك الطّبعِ مع حظوظِهم، ومنعَتهم شماخَتُهم وشدّةُ شكائمِهم عنِ الإيمان لئلّا يُقالَ: إنّهم خافوا أوّلًا فيما وقعَ منهم منَ التّكذيب، فكانوا فيه على غيرِ بصيرةٍ، أو إنّهم خافوا ثانيًا ما قرَّعَتهم به الرّسُلُ منَ الوعيد، فدخلوا جُبنًا فيما يعلمون بُطلانَه، فكان تَزيينُ هذا لهم طبعًا على قلوبهم، فكأنّه قيل: إنّ هذا العجبَ هل يقعُ في مثل ذلك أحدٌ؟ فقيل: نَعَم، مثلَ ما طبعْنا على قلوبِهم حتّى صارَت مع الفهمِ لا تَنتَفعُ، فكأنّها لا تفهمُ، فكأنّها لا تسمعُ[2].

توجيهُ المتشابهِ اللّفظيِّ في تعدية فعلِ التّكذيب:

الاستغناءُ بالمذكور، وتجنّبُ تكرار المذكور إحرازٌ للبلاغة

وحذفَ المتعلّقَ (به) مع ﴿كَذَّبُواْ﴾، وأظهرَه في سورة يونس ﴿فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ بِهِۦ مِن قَبْلُ﴾ [يونس: 74]؛ لأنّه لمّا تقدّمَ في قوله تعالى: ﴿وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ﴾ [الأعراف: 86]، وقوله: ﴿وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُواْ بِٱلَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُواْ﴾ [الأعراف: 87]، ثمّ قال بعدُ: ﴿فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ﴾ وقع الاكتفاءُ بما تقدّمَ من قوله: ﴿بِٱلَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ﴾ [الأعراف: 87]، والّذي أُرسِلَ به هو

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/31.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 3/77.

الّذي طلبَ منهم الإيمانَ به، فحصل المقصودُ، فلو قيل أخيرًا: (به) لكان تكرارًا، فاقتضى الإيجازُ وإحْرازُ البلاغَةِ حَذْفَهُ؛ لِحُصولِهِ كَما حُذِفَ من قوله: ﴿وَطَآئِفَةٌ لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ﴾ [الأعراف: 87] مع أنّه مرادٌ، فحذفَ الموصولَ وصلتَه ورابطَها، إذِ التّقدير: وطائفة لم يؤمنوا بالّذي أُرسِلتَ به؛ لحصول ذلك ممّا تقدّم.

وأمّا قولُه في يونس: ﴿فَمَا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ بِهِۦ مِن قَبۡلُۚ﴾ [يونس: 74] فإنّه لمّا تقدّمَ هنا ما لم يَتَقَدَّمْ هناك، فلم يكن بدٌّ منَ الإتيان بالضّمير ليحصلَ ما وقع منَ التّكذيب، ولترتبطَ الصّلةُ بالموصول[1]، فحذفَ المتعلِّقَ هنا إيجازًا؛ لأنّه قد سبق ذكرُ تكذيب أهل القرى، ابتداءً من قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّآ أَخَذۡنَآ أَهۡلَهَا بِٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمۡ يَضَّرَّعُونَ﴾ [الأعراف: 94]، وقد سبق في ذلك قوله: ﴿وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذۡنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ [الأعراف: 96]، ولهذا لم يُحذَفْ مُتعلَّقُ فعل ﴿كَذَّبُواْ﴾ في سورة يونس، والمعنى: ما أفادتهُمُ البيّناتُ أن يُؤمنوا بشيءٍ كان بدرَ منهُمُ التّكذيبُ به في ابتداء الدّعوةِ، فالمضافُ المحذوفُ الّذي دلَّ عليه بناءُ ﴿قَبۡلُۚ﴾ على الضّمِّ تقديرُهُ: من قبلِ مجيءِ البيّناتِ[2].

التّعبيرُ بـ ﴿يَطۡبَعُ ٱللَّهُ﴾ دون غيره:

صرّحَ بلفظ الجلالةِ ﴿يَطۡبَعُ ٱللَّهُ﴾، وأضمرَ في سورة يونس: ﴿كَذَٰلِكَ نَطۡبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾ [يونس: 74]؛ لكونه مناسبًا، ومرتبطًا بما افتُتحَت به الآيةُ من قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثۡنَا﴾ [يونس: 74] فأخبر تعالى بإنعامه على عباده المهتدين بنعمة الرّسلِ إحسانًا وامتنانًا، ولتقومَ الحجّةُ على الخلق، وأضافَ الفعلَ إلى ضمير التّعظيم، فناسب ذلك ما بنى عليه وارتبطَ به من قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَطۡبَعُ﴾؛ مراعاةً

إظهارُ الفاعل مراعاةٌ للتّناظر والتّقابل، وتنبيهٌ على خطورة الذّنب

(1) الغرناطيّ، ملاك التّأويل: 1/212 - 213.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/31.

للتّناظر والتّقابل على خلاف آية الأعراف الخالية من هذا المَلمَح في مَطلَع الآية: في قوله: ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ مِن قَبْلُۚ﴾ فناسبَ الإظهارُ المُفتتحَ[1]؛ لما في إسناد الطّبع إلى الاسم العَلَم من صراحة التّنبيهِ على أنّه طبعٌ رهيبٌ لا يغادرُ للهدى منفذًا إلى قلوبهم كقوله تعالى: ﴿هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ﴾ [لقمان: 11] دون أن يقولَ: هذا خَلقي، ولهذا اختيرَ له الفعلُ المضارعُ الدّالُّ على استمرارِ الختمِ وتجدُّدِهِ[2].

دلالةُ فاصلةِ الآيةِ:

في الفاصلة تسليةٌ للنّبيّ محمّد ﷺ

وفي قوله: ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ إلى آخر الآية، تسليةٌ للنّبيّ محمّد ﷺ؛ بأنّ ما لقيه من قومه هو سنّةُ الرّسلِ السّابقين، وأنّ ذلك ليس لتقصيرٍ منه، ولا لضعفِ آياته، ولكنّه للختم على قلوبِ كثيرٍ من قومه[3].

بلاغةُ الالتفات منَ المتكلّم إلى الغائب:

فيه التّخويفُ والتّهديدُ، والتّشويقُ والإثارةُ، والتّوسيعُ والتّحريضُ

الالتفاتُ منَ المتكلّم ﴿نَقُصُّ عَلَيْكَ﴾ إلى الغائب ﴿يَطْبَعُ ٱللَّهُ﴾؛ للتّخويف، والتّهديد، والتّشديد على عِظَمِ فعل الطّبعِ؛ إذ لا هدايةَ تُرجى، ولا توبةَ تُؤمّل، وفيه التّشويق والإثارة: فإنّ المتكلِّمَ يشوقُ المستمعَ إلى سماع قصصِ المكذِّبين، ويثيرُ اهتمامَه بالأحداث الّتي حدثَت لهم، ويجعلُه يتساءل عن مصيرهم وسبب الطّبع على قلوبهم، وفيه التّوسيع والتّحريض: فإنّ المتكلِّمَ يوسِّعُ المعنى من قصص المكذِّبين المذكورين في سياق السّورةِ إلى قاعدةٍ عامّةٍ تشملُ كلَّ مَن كفر بالآيات والرّسول، ويحرِّضُ المستمعَ على التّفكّر في عظمة قدرةِ اللّه تعالى وشدّةِ عذابِه.

(1) الغرناطيّ، ملاك التّأويل: 1/212 - 213.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/32.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/32.

توجيهُ متشابهِ ألفاظ: (الكافرين)، و(المعتدين)، و(المجرمين):

تأكيدُ التّعريف بحال الجاحدين ممّن سبق، وشمولُهم جميعًا بالوصف

قال في الأعراف: ﴿عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾، وقال في يونس: ﴿عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ٧٤﴾ [يونس: 74]؛ لأنّ آيةَ الأعراف لمّا تقدَّمَها قصصٌ قد جرى فيها تفصيلُ ذكرِ مُكذِّبي الأمم أنبياءهم، وكيف ردّوا عليهم، وخاطبوهم به، فحصل من هذه الآيات مِنَ التّعريف بحال هؤلاء الأممِ في هذه القَصص بذكر غيرِهم ممَّن سلكَ مسلكَ مَن تقدّمَهم منَ المذكورين ما ناسبه وصفُهم بـ ﴿ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾[1]، يؤكّدُه أنّ الألفَ واللّامَ فيه للجنس، المفيد للاستغراق؛ أي: جميعُ الكافرين ممّن ذُكِرَ وغيرهم[2]، وأمّا آيةُ يونس فلم يتقدّم قبلها تفصيلٌ، ولا إفصاحٌ بمخاطبة نبيٍّ ومواجهته بمثل ما في آيات الأعراف، ولا فيه بسطُ قصّةٍ منها، بل أوجزَ معنى ما انطوَت عليه تلك القصّة موردًا إيّاها على سبيل الإجمال، فناسبه وصفُهُم بـ ﴿ٱلۡمُعۡتَدِينَ ٧٤﴾ [يونس: 74] ومن قبله في أوَّلِ السّورَةِ كَذلكَ بـ ﴿ٱلۡمُجۡرِمِينَ ١٣﴾ [يونس: 13]، وإنّما لم يقع إفصاحٌ بكفرهم مع أنّهم كفّارٌ؛ فلكونه محصَّلًا من مجمل ذكرِهم إلّا أنّ جليلَ مناسبةِ النّظمِ مُقتضٍ ما ورد عليه كلُّ ما في السّورتين، وقصَدَ إلى التَّعبير عنِ المشار إليهم منَ المُهلَكينَ بـ(الإجرام) - وهو أكبرُ وقعًا من الاعتداء -؛ ليطابقَ وصفَهم بالظّلم؛ والمرادُ به تكذيبُهم الرّسلَ وكفرُهُم بما جاؤوهم به، فلم يكن ليطابقَ ذلك الوصفَ الاعتداءُ، ولم يوصفوا أيضًا بالكفر؛ إذ لم يقع به إفصاحٌ فيما تقدَّم، فكان وصفُهم بالإجرام أنسبَ[3].

(1) الغرناطيّ، ملاك التّأويل: 1/213.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/32.
(3) الغرناطيّ، ملاك التّأويل: 1/213.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

النّبأ والخبر:

النَّبأُ: خَبَرٌ ذو فائدةٍ عظيمةٍ، يَحصُل بهِ عِلمٌ أو غلبةُ ظنٍّ، وحقُّه أن يَتَعرَّى عنِ الكَذِب، كالمُتَواتِرِ وخَبَرِ اللّه وخَبرِ الرّسولِ [1] ﷺ، وينبغي أن يقيَّدَ بالخفيِّ؛ أي: الّذي كان خفيًّا.

فالفرقُ بين النّبأ والخبر أنّ النّبأ لا يكون إلّا للإخبار بما لا يعلمه المخبَر، في حين أنّ الخبرَ يجوزُ أن يكونَ بما يعلمه وبما لا يعلمه، فيجوز أن تقولَ: تُخْبرني عمّا عندي، ولا تقول: تنبئني عمّا عندي، وبذا فهو يُستعمَلُ في ما الأصل فيه مجهول لأحد الطّرفين[2]، ولكون أخبارِ القرى المذكورة في هذه السّورة الكريمة لا يعلمُها النّبيُّ ﷺ ولا قومُه، ناسبَ الإتيانُ بلفظ "الأنباء" دون لفظ الأخبار.

المجيء، والإتيان:

المجيءُ أعمُّ منَ الإتيان؛ لأنّ الإتيانَ مجيءٌ بسهولة، والإتيانُ قد يُقال باعتبار القصدِ، وإن لم يكن منه الحصولُ، والمجيءُ يُقال اعتبارًا بالحصول، ويُقال: جاء في الأعيان والمعاني، ولما يكون مجيئُه بذاته وبأمره، ولِمَن قصد مكانًا أو عملًا أو زمانًا[3]، فعبَّر في الآية الكريمة بـ (المجيء) باعتبار ما حملته رسلُ هؤلاء الأقوام لهم منَ الهدى، والحججِ البيِّناتِ الدّالّةِ على صدقهم، فناسب إطلاقَه، دون لفظ الإتيان.

(1) الزّبيديّ، تاج العروس: 1/443.
(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 41، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (نبأ).
(3) الرّاغب، المفردات: (جاء).

﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ ۖ وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَٰسِقِينَ ١٠٢﴾ [الأعراف: 102]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لمّا كان نقضُ العهد أفظعَ شيءٍ، ولا سيّما عند العرب، قال عاطفًا على ﴿فَمَا كَانُواْ﴾: ﴿وَمَا وَجَدْنَا﴾[1]، إذ بعد خطابِ الرّسولِ الكريمِ ﷺ إيناسًا، وعِبرةً لقومه أطلعَه على الطّبائع الغالبة في البشر؛ كي لا يضيق ذرعًا بأحوال مَن أُرسِل إليهم[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَجَدْنَا﴾: (وجد) وفي لغةٍ (وَجِدَ بكسر الجيم) مضارعه يَجِدُ، وفي لغة (يَجُدُ) بضمّ الجيم[3]. والواو والجيم والدّال يدلُّ على أصلٍ واحدٍ، وهو الشَّيُّ يُلفيهِ[4]. ووجدتُ الشّيءَ: أصبتُهُ[5]. وأوجَدَهُ اللّه مطلوبهُ: أظفرَه به، ومن معانيه الإيجادُ منَ العدم[6]. ووجد المطلوبَ: أدركَه[7]، فهو وجودٌ بالحواسّ الخمس[8]، فهو تحصّلُ شيءٍ ذي بال في حَوزةٍ كانَت خاليةً منه كالمالِ والضالة والتّحقّقِ المادّيِّ عن عدمٍ، ومِن صوَرِه العثورُ على الشّيء في الحوزة دون معرفةٍ مسبقةٍ بذلك: ﴿قَالُواْ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ﴾ [يوسف: 75]، ﴿وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا﴾ [آل عمران: 37]، ففيها الفعل (وَجَدَ) تامٌّ معناه: إصابةُ ذاتِ الشّيء؛ أي: العثور عليه في الحيّز، وفي آياتٍ أخرى تكون بمعنى العلم؛ أي: وجود الشّيءِ على صفةٍ، أو حالٍ؛ أي: العلم بوجودها فيه[9]. وقد ورد الفعلُ وجد، وما تصرَّف منه في آياتٍ كثيرةٍ، والمعنى فيها قريبٌ من بعض، أمّا

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/17.
(2) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 5/340.
(3) الزّبيديّ، تاج العروس: (وجد).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (وجد).
(5) الفراهيديّ، العين: (وجد).
(6) الجوهريّ، الصّحاح: (وجد).
(7) الفيروزآباديّ، القاموس المحيط: (وجد).
(8) الرّاغب، المفردات: (وجد).
(9) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (وجد).

ما يُنسبُ إلى اللّه تعالى منَ الوجود فبمعنى العلمِ المجرّدِ؛ إذ كان اللّهُ منزّهًا عنِ الوصف بالجوارح والآلات.[1].

2) ﴿عَهۡدٖ﴾: (عَهِدَ) العينُ والهاءُ والدّالُ أصلٌ دالٌّ على معنى واحدٍ، هو الاحتفاظُ بالشّيء، وإحداثُ العهدِ به، والاحتفاظُ هو المعنى الّذي يرجعُ إليه فروعُ البابِ[2]. والعَهدُ: الوَصيَّةُ، والمَوثِقُ[3]، ورعايةُ الحُرمَة، والأمانُ، واليَمينُ يحلفُ بها الرّجلُ، والذّمّةُ[4]، ومن هنا فالعهدُ: حفظُ الشّيءِ ومراعاتُه حالًا بعد حال، وسُمّي المَوثِقُ الّذي يَلزَمُ مُراعاتُه عَهدًا. وعهدُ اللّه تارةً يكون بما رَكَزَهُ في عقولنا، وتارةً يكون بما أمرَنا به بالكتابِ، وبالسّنّةِ رُسُلُه، وتارةً بما نلتزِمُه وليس بلازمٍ في أصلِ الشّرع، كالنّذور وما يجري مجراها[5].

والعهدُ بمعنى الوصيّةِ والمَوثِقِ - وما إليهما - إلزامٌ يُؤخَذُ من تكرار وقوعِ حدثٍ، أو أمرٍ بانتظامٍ في زمنٍ، أو مكانٍ معيّنٍ؛ إذ يُؤخَذُ من ذلك ضرورةُ الوقوع (عند حلولِ الزّمن أو الظّرفِ، ثمّ يُطلَقُ) فالعهدُ هو الميثاقُ واليمينُ الّتي تستوثقُ بها ممَّن يعاهدك، وكلُّ (عَهدٍ) في القرآن فهو المَوثِقُ، أو ما عوهِدَ عليه[6].

3) ﴿لَفَٰسِقِينَ﴾: (فسق) الفاءُ والسّينُ والقافُ كلمةٌ واحدةٌ بمعنى الخروجِ عنِ الطّاعة[7]. والفِسقُ: التَّركُ لأمر اللّه، والميلُ عَنِ الطّاعةِ إلى المعصيةِ، كما فسقَ إبليسُ عن أمر ربِّه[8]؛ إذ ردَّ أمرَه، وخرَج، وجار، ومالَ عَن طاعتِه[9]، وفَجَرَ[10]. فالفسوق: الخُروجُ عَنِ الدِّين[11]. وعن حَجرِ الشّرع[12]. ومنَ المجاز فسقَتِ الرّكابُ عن قصد السّبيل: جارَت[13]. وقيل: إنّ

(1) الرّاغب، المفردات: (وجد).
(2) الفراهيديّ، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (عهد).
(3) الفراهيديّ، العين: (عهد).
(4) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، والجوهري، الصّحاح: (عهد).
(5) الرّاغب، المفردات: (عهد).
(6) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (عهد).
(7) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (فسق).
(8) الفراهيديّ، العين، والأزهري، تهذيب اللّغة: (فسق).
(9) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (فسق).
(10) الجوهريّ، الصّحاح: (فسق).
(11) ابن سيده، المحكم: (فسق).
(12) الرّاغب، المفردات: (فسق).
(13) الزّمخشريّ، أساس البلاغة: (فسق).

أصلَ الفُسوقِ الخُروجُ عَنِ الاستِقامة، والجَورُ، وبِهِ سُمّي العاصي فاسِقًا[1]؛ لانسلاخه عنِ الخير، وتركِه لأمر اللّهِ تعالى وعصيانِه وخروجِه عن طريق الحقِّ، وفجورِه[2]. والفسقُ يقعُ بالقليل منَ الذّنوب وبالكثير، لكن تُعورفَ فيما كان كثيرًا. وأكثرُ ما يُقال: الفاسقُ لِمَنِ التزمَ حكمَ الشّرعِ، وأقرَّ به، ثمّ أخلّ بجميع أحكامِه أو ببعضِه، وإذا قيل للكافر الأصليّ: فاسقٌ؛ فلأنّه أخلّ بحكم ما ألزمَه العقلُ، واقتضته الفطرةُ[3]، وخروجُ الفاسقِ عن طاعة اللّه تعالى يكون تارةً بكفرٍ، وتارةً بعصيانٍ غير الكفر، فإنّ مَن كان مؤمنًا وفسق بمعصيةٍ دون الكفر؛ فإنّه فاسقٌ بفسقه، مؤمنٌ بإيمانه؛ أي: لم يخرج بفسقه عنِ الإيمان، ولا بلغ حدَّ الكفر. وممّا وُصِفَ بأنّه فسقٌ - من تتبّع الآياتِ الّتي ذُكِرَ فيها اللّفظ -: الظّلمُ، والذَّبحُ على النُّصُب، والأكلُ ممّا لم يُذكَرِ اسمُ اللّه عليه، والاستقسامُ بالأزلام، والإتيانُ بنبأٍ كاذبٍ مثيرٍ للفتنة، والكفرُ بآيات اللّه، وعدمُ الحكمِ بما أنزل اللّه، والنّفاقُ، ورميُ المحصنات، ومُضارّةُ الكاتب والشّهيد، ومقارفةُ الذّنوب، ولا يخرجُ المرادُ بلفظ الفسق في القرآن الكريم عمّا ذُكِرَ[4].

المعنى الإجْماليُّ:

إنكارُ العهدِ أمارةُ الفساد

ما علمنا لأكثر الأمم الّتي أهلكناها من وفاءٍ، والتزامٍ بالعهدِ الّذي وصّيناهم به، منَ الإيمان باللّه ﷻ، وتوحيدِه، وتقواه، واتّباعِ رسله عليهم السلام. والعهدُ هنا يعمُّ كلَّ ما يَصْلُح له من عهدٍ فطريٍّ جُبِلوا عليه، وشرعيٍّ بُلّغوا به وأنذروا، وعرفيٍّ ممّا يَلتزِمُه النّاسُ مع بعضهم من مواثيق[5]، بل وجدنا أكثرَهم خارجين عنِ الاستقامة، منسلخين عنِ

(1) ابن الأثير، النّهاية: (فسق).
(2) الفيروزآباديّ، القاموس المحيط: (فسق).
(3) الرّاغب، المفردات: (فسق).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (فسق).
(5) رضا، تفسير المنار: 9/35.

الخير، تاركين لأمر اللّه، عاصين له، منتهكين لحرماته، مُعرِضين عن طاعته.

وتهدي الآيةُ إلى: أنّه لا ينبغي الاغترارُ بما عليه أكثرُ الخَلقِ، فالأصلُ اتّباعُ الحقِّ بدليله؛ لأنّ الأكثريةَ لا عهدَ لهم، ولا ذمّة، فلا تعجب بالباطل وإنْ كثُر متبنّيهِ، ولا تستوحشِ الحقَّ لقلّة سالكيه، فالعِبرةُ بالكيف لا الكمّ[1]، ولا ينبغي إطلاقُ التّهم، وإعمامُ الأحكام جُزافًا، بل يجب انتقاء الألفاظ المناسبة لذلك، الّتي تعطي كلَّ ذي حقٍّ حقَّه، فإن كان الأكثرون استحقّوا العذابَ لكفرهم ونقضهم لعهودهم، فإنّ هناك أقليّةً آمنَت[2].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ الوصلِ في الآية:

العربُ تمقتُ نقضَ العهد فكُرِّرَ لذلك

ولما كان نقضُ العهد أفظعَ شيءٍ، ولا سيّما عند العرب، قال عاطفًا على ﴿فَمَا كَانُواْ﴾ بجملة: ﴿وَمَا وَجَدْنَا﴾؛ أي: في عالم الشّهادةِ ﴿لِأَكْثَرِهِم﴾؛ أي: النّاس[3]، مُرسِّخًا سوءَ خصالهم، ومُؤكِّدًا إصرارَهم على الجُحود والكِبْر.

سرُّ تأكيد الاستغراق:

أكّد الاستغراقَ فقال: ﴿مِّنْ عَهْدٍۖ﴾؛ وفاقًا لما كان عند اللّه تعالى في عالم الغيبِ، وهذا إمّا إشارةٌ إلى الميثاق يوم قال لهم: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْۖ﴾ [الأعراف: 172]، وإمّا إلى ما يفعلون حالَ الشّدائدِ منَ الإقلاع عنِ المعاصي والمعاهدة على الشّكر: ﴿لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [يونس: 22][4].

الناسُ في الشدّة يلجؤون إلى الله، وفي الرّخاء ينكرون نعمتَه عليهم

(1) سليمان اللاّحم، عون الرّحمن في تفسير القرآن: 9/231.
(2) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 5/139.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 3/77.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 3/77.

بلاغةُ عطفِ الجملِ:

جملة: ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ﴾ عطفٌ على جملة: ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم﴾، وما رُتِّبَ عليها من قوله: ﴿فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ مِن قَبْلُ﴾ تنبيهٌ على رسوخ الكفرِ في نفوسهم، بحيث لم يقلعْهُ منهم لا ما شاهدوُه منَ البيّنات، ولا ما وضعَهُ اللّهُ في فطرة الإنسانِ منَ اعتقادِ وجودِ إلهٍ واحدٍ، وتصديقِ الرّسلِ الدّاعين إليه، ولا الوفاءُ بما عاهدوا عليه الرّسلَ عند الدّعوةِ: إنّهم إن أتَوهم بالبيّنات يُؤمنونَ بها[1].

ما يترتّبُ على العطف تنبيهٌ على رسوخ الكُفر في نفوسهم فلا ينزعُه مُؤثّرٌ

نكتةُ التّعديةِ باللّام:

وإنما عُدّي عدمُ وجدان الوفاء بالعهد في أكثرهم باللّام؛ للإشارة إلى إخراجِ مُؤمني كلِّ أمّةٍ من هذا الذّمّ، والمرادُ بأكثرِهم، أكثرُ كلِّ أمّةٍ منهم، لا أمّةٌ واحدةٌ قليلةٌ من بين جميعِ الأممِ[2]. فالضّميرُ في ﴿لِأَكْثَرِهِم﴾ للنّاس على الإطلاق؛ أي: وما وجدنا لأكثر النّاس من عهدٍ، يعني: أنّ أكثرَهم نقضَ عهدَ اللّه وميثاقَه في الإيمان والتّقوى، وإنّ الشّأنَ والحديثَ أنّا وجدنا أكثرَهم فاسقين، خارجين عنِ الطّاعة مارقين، والآيةُ اعتراضٌ. ويجوزُ أن يرجعَ الضّميرُ إلى الأمم المذكورين، وأنّهم كانوا إذا عاهدوا اللّه في ضرٍّ ومخافةٍ: ﴿لَئِنْ أَنجَيْتَنَا﴾ [يونس: 22]، ثمّ إذا نجّاهم؛ نكثوا، كما قال قومُ فرعونَ لموسى عليه السلام: ﴿لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ﴾، إلى قوله: ﴿إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ﴾ [الأعراف: 134 - 135][3].

مؤمنو الأممِ الماضيةِ مكرّمون عند الله

علّةُ التّعبيرِ بـ(الأكثر) دون غيره:

وإنّما حُكِمَ على الأكثر؛ لأنّ بعضَهم قد آمنَ والتزمَ كلَّ عهدٍ عاهد اللّه عليه، أو عاهده اللّهُ عليه، أو تعاهد عليه مع النّاس، ومنهم مَن

في التّغليب احتراسٌ في تحديد الحقائقِ، بما يعطي كلَّ ذي حقٍّ حقَّه

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/32.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/33.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/136.

كان يفي ببعض ذلك حتّى في حال الكفرِ؛ إذ لا يتَّفِقُ أفرادُ أمّةٍ كبيرةٍ على الشّرّ والباطلِ في كلّ شيءٍ، وهذا من دقّة القرآنِ في تحديد الحقائقِ بالصّدق الّذي لا تشوبُه شبهاتُ المبالغة بما يسلبُ أحدًا حقَّه، أو يعطي أحدًا غير حقِّه[1].

أسندَ حكمَ النّكثِ إلى أكثر أهلِ القرى

إذ أسندَ حكمَ النّكثِ إلى أكثر أهلِ القرى؛ تبيينًا لكون ضميرِ ﴿فَمَا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُواْ﴾ جرى على التّغليب، ولعلَّ نُكتةَ هذا التّصريحِ في خصوصِ هذا الحُكمِ أنّه حكمٌ مَذمّةٍ ومَسبّةٍ، فناسبَت مُحاشاةَ مَن لم تَلتصِقْ به تلك المسبّةُ[2]، وهو لونٌ منَ الاحتراس الّذي امتازَ به القرآنُ في عرضه للحقائق، فهو لا يلقي التّهمَ جزافًا، وإنّما يعطي كلَّ ذي حقٍّ حقَّه، فإن كان الأكثرون قد استحقّوا الذّمّ لكفرهم ونقضهم لعهودهم، فإنَّ هناك قلّةً آمنت، فاستحقّتِ المدحَ والثّناءَ[3].

بلاغةُ الكنايةِ في نفي الوجدان:

الإشارةُ إلى أنَّ دَيْدنَ الأممِ السّابقةِ عدمُ الوفاء بما أوصاهم اللهُ به

نفيُ الوجدانِ في الأوّل كنايةٌ عن انتفاء العهدِ بالمعنى المقصودِ؛ أي: وفائه؛ لأنّه لو كان موجودًا؛ لعَلِمَهُ مَن شَأنُه أن يعلمَه، ويبحثَ عنه عند طلبِ الوفاءِ به، ولا سيّما أنَّ المتكلّمَ بهذا هو الّذي لا تخفى عليه خافيةٌ، فمعنى: ﴿وَمَا وَجَدۡنَا لِأَكۡثَرِهِم مِّنۡ عَهۡدٖۖ﴾ ما لأكثرهم، ولأنّ أصلَ الوعد ثابتٌ موجودٌ، ولكنّه لمّا كان تحققُّه لا يظهرُ إلّا في المستقبل، وهو الوفاءُ، جعلَ انتفاءَ الوفاءِ بمنزلة انتفاءِ الوقوعِ، والمعنى على تقديرِ مضافٍ؛ أي: ما وجدنا لأكثرهم من وفاءِ عهدٍ[4]. فكلمةُ ﴿عَهۡدٖۖ﴾ في الآيةِ بمعنى (وفاء) أو (صدق)، وهي كنايةٌ عن صفة. والمرادُ بها هنا أنَّ اللّه تعالى لم يجد لأكثر أهلِ القرى الّتي أهلكها وفاءً بما أوصاهم به من توحيدِ اللّه، واتّباعِ رسلِه وطاعتِه.

(1) رشيد رضا، تفسير المنار: 9/32.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/34.
(3) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 5/340.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/32 - 33.

ومن بلاغة الكنايةِ في السّياق الكريمِ أنَّ فيه تشبيهًا بالحذف؛ فقد شبَّه اللّهُ تعالى أفعالَ المُكذِّبين بالأشياء الّتي لا توجد، فقال: ﴿وَمَا وَجَدْنَا﴾ بدلًا منَ التّعبير: بـ "ولم نر"، أو "ولم نشهد"، ونحو ذلك.

وجهُ تعريفِ العهد:

الأمـمُ السّابقةُ نقضَت كلَّ أنواعِ العهدِ المتعارف عليه

العهدُ اسمُ جنسٍ وقعَ في سياق النّفي المؤكَّدِ بـ (من)، وهو يقتضي انتفاءَهُ بجميع المعاني الّتي يصدقُ عليها[1]؛ ليعمَّ كلُّ ما يصلحُ له من عهدٍ فطريٍّ وشرعيٍّ وعُرفيٍّ ممّا يلتزمُه النّاسُ بعضهم مع بعض في تعاهدهم وتعاقدهم[2]، فـ (مِنْ) لاستغراقِ جنسِ العهدِ، ولا تجيءُ هذه إلّا بعد النّفي[3]، ولولاها؛ لجاز أن يتوهّمَ أنّه عهدٌ واحدٌ في المعنى[4].

ومن بلاغةِ التّعبيرِ القرآنيِّ أنّه دلَّ على التّصغير والتّحقير في عموم ما يتعاهَدُ عليه النّاس؛ فقد استخدمَ اللّهُ تعالى كلمةَ ﴿عَهْدٍ﴾؛ لبيان أدنى المراتب المطلوبة من هؤلاء القوم المكذِّبين، فإنَّ العهدَ هو أضعفُ مراتب الإيمان، فإذا لم يجده في أكثرهم فلا يتوقّعُ منهم شيئًا آخر.

دلالةُ الخبرِ في جملة الوجدان:

تـعـمّـدوا نـكـثَ العـهـد، وتقصدوا الكفرَ والجحدَ

جملة: ﴿وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَٰسِقِينَ﴾ إخبارٌ بأنّ عدمَ الوفاء بالعهد مِن أكثرِهم كانَ منهم عَن عَمدٍ، ولكون ذلك معنى زائدًا على ما في الجملة الّتي قبلَها عُطِفَت، ولم تُجعَلْ تأكيدًا للّتي قبلَها أو بيانًا؛ لأنّ الفسقَ هو عصيانُ الأمر، وذلك أنّهم كذّبوا فيما وعَدوا عن قصدٍ للكُفر[5]، ومبتدؤها ضميرُ الشّأن محذوفٌ؛ أي: إنَّ الشّأنَ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/33.
(2) رضا، تفسير المنار: 9/32.
(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/434.
(4) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 7/255.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/33.

وجدنا أكثرَهم لفاسقين، أو هي النّافية، واللّام في ﴿لَفَٰسِقِينَ﴾؛ بمعنى إلّا: أي: إلّا فاسقين، خارجين عنِ الطّاعة خروجًا شديدًا[1].

دلالةُ الوجودِ على العلم:

نوّه بالخبر ليعلمه مَن يسمع

الوجودُ بمعنى العلم بدليل دخول (إن) مخفّفة منَ الثّقيلة، وليستِ العاملة لمباشرتها الفعل، فزالَ اختصاصُها المُقتَضي لإعمالها، وبعدَها مبتدأٌ محذوفٌ هو ضميرُ الشّأن، والجملةُ خبرٌ عنه تنويهًا بشأن هذا الخبر ليعلمَه السّامعون، واللّام الفارقة[2].

في جعلِ إن نافية إثباتٌ لفسوق ناقضي العهود على طريق التّوكيد

ويجوزُ أن تكونَ (إن) للنّفي، واللّام بمعنى (إلّا)، والتّقديرُ عندَهم: وما وجدنا أكثرَهم إلّا فاسقين[3]، ويكون المعنى: إثباتَ الفسوق في ناقضي العهود، على طريق التّوكيد بتصدّرِ (إن)، أو الاستثناءِ المفرّغِ، وتعزّزُه اللّامُ في ﴿لَفَٰسِقِينَ﴾ الدّالّة على خروجهم عنِ الطّاعة خروجًا شديدًا[4].

بلاغةُ التّعبيرِ بـ ﴿وَمَا وَجَدۡنَا لِأَكۡثَرِهِم﴾ ﴿وَإِن وَجَدۡنَآ أَكۡثَرَهُمۡ﴾:

صوغٌ بمحاسن الكلام طردًا، وعكسًا، وجناسًا، ومقابلةً

فالطّرد والعكس باعتبار مدلول اللّفظِ، وهو أن يُؤتَى بكلامين يقرّرُ الأوّلُ بمنطوقه مفهومَ الثّاني وبالعكس، وفيه الجناسُ التّامُّ بين ﴿وَجَدۡنَا﴾ الأولى وهي بمعنى: ألفينا، والثّانية وهي بمعنى: علمنا، والمقابلةُ بين النّفي والإثبات في سلب الوجود الأوّل وإثبات الثّاني[5].

وهذا النّوعُ منَ الإطنابِ يقابلُه في الإيجاز نوعُ الاحتباك: ﴿ثُمَّ بَعَثۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِم مُّوسَىٰ﴾؛ أي: أرسلناه ﷺ بعد الرّسلِ أو بعد الأممِ[6].

---

(1) الشّوكانّي، فتح القدير: 2/262.

(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/136، وابن عادل، اللّباب: 9/243.

و(إن) المخفّفة إذا باشرتِ الفعلَ وجب إهمالُها، ولكنّ العكبريّ والزّمخشريّ أعملاها، والاسمُ عند العكبريّ ضميرُ المتكلّم، وعند الزّمخشريّ ضميرُ الشّأن.

(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/434، والبيضاوي، أنوار التّنزيل: 3/26.

(4) الشّوكاني، فتح القدير: 2/262.

(5) رضا، تفسير المنار: 9/33.

(6) الآلوسي، روح المعاني: 9/17.

وقصد إلى الختم بلفظ ﴿لَفَٰسِقِينَ﴾؛ لأنّ أوّلَ صفاتِهم أنّهم لا عهدَ لهم مع خالقهم، ولا عهدَ لهم مع النّاس، ولذلك لا يُؤمَنُ لهم أبدًا[1]، وعبّر بصيغة اسمِ الفاعلِ مُؤكَّدًا باللّام؛ ليدلَّ على ثباتِ الصّفةِ فيهم، وديمومتِها.

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

العهد والميثاق:

العهدُ ميثاقٌ مع عـدم اليـمين، ويـبـيّنُ أدنى درجات الوفاء

الميثاقُ عهدٌ مؤكَّدٌ بيمين، وعاهده: عقد معه عهدًا؛ أي: موثقًا، ولعلّ عدمَ اليمين هو الأصلُ في العهد، ثمّ أُضيفَ إليه اليمينُ - بَعدُ - توكيدًا[2]. والميثاقُ توكيدُ العهد، فهو أبلغُ منَ العهد، يرشدُ إلى ذلك قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهۡدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مِيثَٰقِهِۦ﴾ [البقرة: 27]؛ أي: من بعد توكيده. كما يُفرَّقُ بين العهدِ والميثاقِ؛ بأنَّ الميثاقَ يتعدَّى بحرفٍ، فيُقال: ميثاقٌ به، كقوله تعالى: ﴿وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِي وَاثَقَكُم بِهِۦٓ إِذۡ قُلۡتُمۡ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ﴾ [المائدة: 7]، وأنّ العهدَ يتعدَّى بنفسه، فيُقال: عهدُهُ، كقوله تعالى: ﴿أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُواْ عَهۡدٗا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٞ مِّنۡهُمۚ﴾ [البقرة: 100].

ومن بلاغة التّعبيرِ القرآنيِّ أن أطلقَ كلمةَ ﴿عَهۡدٖ﴾ في هذا السّياق؛ ليبيّنَ أدنى المراتبِ المطلوبةِ منَ الأممِ الماضيةِ المكذِّبةِ فيما جاءَتهم به رسلُهم منَ الحقِّ، فإنَّ العهدَ هو أقلُّ درجاتِ الوفاءِ من كلِّ واحدٍ منهم، وبخاصّةٍ إذا لوحِظَ أنَّ الميثاقَ يُستخدَمُ - عُرفًا - للإشارة إلى اتّفاقٍ جماعيٍّ، وأنّ العهدَ يُستخدَمُ للإشارة إلى اتّفاقٍ فرديٍّ.

(فاسقون)، و(ظالمون)، و(كافرون):

الفسقُ أعمُّ منَ الكفر، والفسقُ يقعُ بالقليل منَ الذّنوب وبالكثير، لكن تُعورِف فيما كان كثيرًا، وأكثرُ ما يُقال: الفاسقُ لِمَن التزمَ حكمَ

(1) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 1/217.
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (عهد).

الشّرعِ وأقرَّ به، ثمّ أخلَّ بجميع أحكامِه أو ببعضه، وإذا قيل للكافر الأصليّ: فاسق؛ فلأنّه أخلَّ بحكم ما ألزمَه العقلُ، واقتضتْه الفطرةُ، فالفاسقُ أعمُّ منَ الكافر، والظَّالمُ أعمُّ منَ الفاسق[1]، وأكثرُ ما يُقال: الفاسقُ لِمَنْ أقرَّ بحكْمِ الشّرعِ، ثمّ أخلَّ بجميع أحكامِه أو ببعضه، ولذلك جاء السّياقُ الكريمُ في الآية مناسبًا للفظة الفسق.

الفسقُ إقرارٌ بحكم الشّرع وإخلالٌ بأحكامه، والفاسقُ أعمُّ منَ الكافر، والظَّالمُ أعمُّ منَ الفاسق

(1) الرّاغب، المفردات: (فسق).

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَظَلَمُواْ بِهَاۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ١٠٣﴾ [الأعراف: 103]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

ذكرُ قصصِ موسى وفرعونَ وبني إسرائيل للاعتبار والاتّعاظ

لمّا قصَّ اللّهُ تعالى على نبيّه ﷺ أخبارَ الأنبياءِ السّابقين: (نوحٍ، وهودٍ، وصالحٍ، ولوطٍ، وشعيبٍ)، وما آلَ إليه أمرُ قومِهم، وكان هؤلاءِ لم يَبْقَ منهم أحدٌ، أتبَعَ ذلك بقصصِ موسى، وفرعونَ، وبني إسرائيل؛ إذ كانَت مُعجزاتُ موسى من أعظم المعجزات، وأمّتُهُ من أكثر الأُممِ تكذيبًا، وتَعَنُّتًا، واقتراحًا، وجهلًا، وكان قد بقيَ من أتباعِهِ عالَمٌ، وهم اليهودُ، فقَصَّ اللّه على رسوله ﷺ وعلينا؛ لنعتبرَ، ونتَّعِظَ، ونحذرَ التّشبّهَ بهم، وننزجِرَ عنِ اتّباع نهجهم[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿بَعَثْنَا﴾: (بعث) أصلٌ واحدٌ، وهو الإثارةُ[2]، والإرسالُ، والهيجانُ، والتّنبيهُ. ويومُ البَعثِ: يومُ القيامة[3]. وبَعَث عليهِم البلاء: أحلَّه بهم، وهو الحملُ على الشّيء، والاندفاعُ، والإيقاظُ[4].

وخلاصةُ البعث في كلام العَرَب على وجهَين: أحدهما: الإرسال، والإثارة، والآخر: الإحياء منَ اللّه للموتى[5]، والإيجادُ للأعيان، والأجناس، والأنواع[6].

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/126.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (بعث).
(3) الفراهيديّ، العين: (بعث).
(4) ابن سيده، المحكم: (بعث).
(5) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (بعث).
(6) الرّاغب، المفردات: (بعث).

وتحريرُ معاني وروده في القرآن: بَعثُ الموتى منَ القبور، وتوجيهُ رسولٍ أو نبيٍّ، أو ملكٍ، أو حَكَمٍ، أو نقيبٍ، والإثارةُ، والدّفعُ، وإنهاضٌ بعد موتٍ مؤقَّتٍ أو نومٍ أو نحوه[1].

ومعناه في الآية الكريمة: توجيهُ نبيِّ اللّه موسى عليه السلام إلى فرعونَ وقومِه.

2) ﴿فِرۡعَوۡنَ﴾: وهو عَلَمُ جنسٍ لملكِ مصرَ في القديم؛ أي: قبل أن يملكَها اليونان، وهو اسمٌ من لغة القبطِ من (فَرْعن)، وهو كلُّ عاتٍ مُتمرِّدٍ. والعتاةُ: الفراعنة. وقد تَفَرْعَنَ، وهو ذو فرعَنَةٍ؛ أي: دهاءٍ ونُكرٍ وكِبرٍ وتجبّرٍ، وفي الحديث: «أخذنا فِرْعَونَ هذه الأمّة»[2]، وقيل: الفِرعَون بلغة القبطِ التّمساح[3]، وقيل: أصله في القِبطيّة (فاراهُ)، ولعلّ الهاءَ فيه مُبدلَةٌ عنِ العين، فإنّ (رعْ) اسمُ الشّمس فمعنى (فاراه): نورُ الشّمس؛ لأنّهم كانوا يعبدون الشّمس فجعلوا مَلكَ مصرَ بمنزلة نورِ الشّمس؛ لأنّه يُصلِحُ النّاسَ، نُقِلَ هذا الاسمُ عنهم في كتب اليهودِ، وانتقلَ عنهم إلى العربيّة، ولعلّه ممّا أدخلَهُ الإسلامُ[4]، وهو: لقبُ كلِّ مَن مَلَكَ مِصرَ كالعَزيزِ لكلِّ مَن مَلَكَهُ[5]، أو هو نظيرُ (كسرى) لملكِ ملوكِ الفرسِ القُدماءِ، و(قيصر) لملكِ الرّومِ، و(نمرود) لمَلكِ كنعانَ، و(النّجاشيّ) لمَلكِ الحبشِ، و(تُبَّع) لمَلك ملوكِ اليمنِ، و(خان) لمَلك التُّرك[6].

3) ﴿ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾: (فسد) أصل يدلّ على الفساد[7]: نَقيضُ الصَّلاح[8]، وفَسَّدَ الشّيءَ: إذا أبارَه[9]. فسَد الشّيءُ: بَطَلَ واضمَحَلّ، ويكون بمعنَى تَغَيَّرَ. والفَسادُ: أخذُ المالِ ظُلمًا بِغَير حَقٍّ[10]، وخروجُ الشّيءِ عنِ الاعتدال قليلًا كان الخروجُ عنه أو كثيرًا، ويُستعمَلُ في

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (بعث).

(2) الجوهريّ، الصّحاح: (فرعن)، وورد بلفظ: «هذا فِرعَونُ هذه الأُمَّةِ» كنايةً عن أبي جهلٍ، كما روى عبدُ الله بن مسعود، قال: أتَيتُ النَّبيَّ ﷺ يومَ بَدرٍ، فقُلتُ: قَتَلتُ أبا جَهلٍ، قال: آللهِ الّذي لا إلهَ إلّا هو؟ قال: قُلتُ: آللهِ الّذي لا إلهَ إلّا هو، فرَدَّدَها ثلاثًا، قال: اللهُ أكبرُ! الحَمدُ للهِ الّذي صَدَقَ وعدَه، ونَصَرَ عبدَه، وهَزَمَ الأحزابَ وحدَه، انطلِقْ فأرِنيهِ، فانطلَقْنا فإذا به، فقال: «هذا فِرعَونُ هذه الأُمَّةِ». رواه الإمام أحمد في مسنده، الحديث رقم: (4247)، واللّفظ له، وأخرجه النّسائيّ في السّنن الكبرى، الحديث رقم: (8670)، وإسناده ضعيف.

(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (فرعن).

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/35.

(5) الزّبيديّ، تاج العروس: (فرعن).

(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/35.

(7) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (فسد).

(8) الفراهيديّ، العين: (فسد).

(9) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (فسد).

(10) الزّبيديّ، تاج العروس: (فسد).

النّفس، والبدن، والأشياء الخارجة عنِ الاستقامة[1]. وخلاصةُ القولِ في الفساد: إنَّه يشمل إهلاكَ الزّرعِ والنّسلِ؛ أي: الثّروة العامّة والأضرار الّتي تَمَسُّ النّاسَ مباشرة، أو بالغشّ والإهمالِ والارتشاءِ والمحاباةِ والخيانةِ في إدارتها، ويشملُ السّرقةَ، ونهْبَ المال العامّ، وسَفْكَ الدّماء، وبهذه المعاني كلُّ ما تصرّفَ من هذا اللّفظ في القرآن الكريم[2].

المعنى الإجْماليُّ:

خلاصةُ قصّةِ موسى عليه السلام مع فرعون: المفتتح والمآل

في الآية الكريمة انتقالٌ من أخبار الرّسالاتِ السّابقةِ إلى أخبار رسالةٍ عظيمةٍ لأمّةٍ باقيةٍ إلى وقتِ نزولِ القرآنِ، فضَّلها اللّهُ، فلم توَفِّ حقَّ الشّكر[3]، وبعثُ موسى بن عمران بمعجزاتِ اللّه كان بالدّلائل والبراهين والآيات الواضحاتِ، فظلموا أنفسَهم كفرًا بها وجحودًا، وكِبرًا؛ إذ لم يبلغ أحدٌ منَ المُكذِّبين منَ السّلطان والتّسلّط والقهر لبني إسرائيل ما بلغه فرعونُ - وملاك ذلك ادّعاؤه أنّهُ الرّبُّ الأعلى[4]، وليس بعد ذلك الكفرِ كفرٌ - وكِبرُهُ مع أشراف قومِه ورؤسائهم. فانظر - أيّها الرّسول - مُتبصِّرًا كيف فعلنا بهم، فأغرقناهم عن آخرهم بمرأى من موسى وقومِه؟ وتلك نهايةُ القوم المفسدين.

وترشدُ الآيةُ إلى النّظر في عاقبةِ المفسدين، والتّدبّرِ في مآل أحوالهم.

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ الفصلِ في الآية:

رسالةُ موسى جاءَت بأعظم شريعةٍ بين يدي الإسلام

انتقالٌ من أخبار الرّسالاتِ السّابقةِ إلى أخبار رسالةٍ عظيمةٍ لأمّةٍ باقيةٍ إلى وقت نزولِ القرآنِ، فضّلَها اللّهُ بفضله، فلم توَفِّ حقَّ

(1) الرّاغب، المفردات: (فسد).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (فسد).
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/34.
(4) شيبة الحَمْد، تهذيب التّفسير، وتجريد التّأويل: 5/244.

الشُّكرِ، وتلقَّت رسولَها بين طاعةٍ وإباءٍ وانقيادٍ ونِفارٍ، فلم يعاملْها اللّهُ بالاستئصال، ولكنّهُ أراها جزاءَ مُختلِفِ أعمالِها، جزاءً وِفاقًا، إن خيرًا فخيرٌ، وإن شرًّا فشرٌّ.

وخُصَّت قصّةُ إرسالِ موسى بالتّفضيلِ لما تحتويه منَ الحوادث العظيمةِ، والأنباء القيِّمةِ، ولأنّ رسالتَه جاءَت بأعظمِ شريعةٍ بين يدَي شريعةِ الإسلامِ، وأُرسِلَ رسولُها هاديًا وشارعًا تمهيدًا لشريعةٍ تأتي لأمّةٍ أعظمَ منها تكونُ بعدَها، فضلًا عن أنّ حالَ المُرسَلِ إليهم أشبهُ بحالِ مَن أُرسِلَ إليهم محمّدٌ ﷺ؛ فإنّهم كانوا فريقين: مؤمن، وكافر، فأهلكَ اللّهُ مَن كفرَ، ونصرَ مَن آمنَ[1].

متشابهُ التّعبيرِ عن لفظي الإرسال، والبعث حذفًا وذكرًا:

تشابهُ القَصص مدعاةٌ لاستغناء بالمذكور منها، دون إعادة فعل الإرسال

في الآية إلماحٌ إلى اختلاف نوعي الإرسال، والفرق: أنّ تلك القصصَ متشابهةٌ في تكذيب الأقوامِ فيها لرسلِهم ومعاندتِهم إيّاهم وإيذائِهم لهم، وفي عاقبة ذلك بإهلاكهم بعذاب الاستئصال، ولذلك عطفَ كلَّ واحدةٍ منهنَّ على الأولى دون إعادة ذكرِ الإرسالِ؛ للإيذان بأنّها نوعٌ واحدٌ، فقال: ﴿۞وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾ [الأعراف: 65]، ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا﴾ [الأعراف: 73]، ﴿وَلُوطًا﴾ [الأعراف: 80]، ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ [الأعراف: 85]، ثمّ أعادَ في قصّة موسى ذكرَ الإرسالِ للتّفرقة، ولكن بلفظ البعثِ، وهو أخصُّ وأبلغُ من لفظ الإرسالِ؛ لأنّه يفيدُ معنى الإثارة والإزعاج إلى الشّيء المهمّ، ولم يُذكَرْ في القرآن إلّا في بعث الموتى، وفي الرّسالة العامّة؛ أي: بعثَ عدّةً منَ الرّسل، وفي بعثة نبيّنا وموسى خاصّة، وكذا في بعث نقباء بني إسرائيل، وبعث مَنِ انتقمَ منهم، وعذَّبَهم، وسباهم حين أفسدوا في الأرض، فالتَّعبيرُ بلفظ البعثِ هنا يؤكّدُ ما أفادته إعادةُ العاملِ منَ التّفرقة

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/34.

بين نوعي الإرسال؛ أي: إنَّ لفظَه الخاصَّ مُؤكِّدٌ لمعناه العامّ[1]، ولم يأتِ لفظُ ﴿بَعَثْنَا﴾ إلّا مقيّدًا بقوله تعالى: ﴿بَعْدِهِم﴾؛ وذلك للتّبيين أنّ المبعوثَ من جنس الرّسلِ[2].

دلالةُ العطفِ بـ ﴿ثُمَّ﴾:

بيانُ المُهلةِ الزَّمنيّةِ باعتبار مجموع الأممِ الّتي ذُكِرَت قبلَ قصّة موسى

دلَّت ﴿ثُمَّ﴾ على المُهلة مع ترتيبٍ؛ لأنّ موسى عليه السلام بُعِثَ بعدَ شُعيبٍ بزمنٍ، فالمُهلةُ باعتبارِ مجموعِ الأممِ المَحكيِّ عنها قبلُ؛ لأنّ منها ما بينه وبين موسى قرونًا، مثلُ قومِ نوحٍ، ومثلُ عادٍ وثمودَ، وقومِ لوطٍ، فالمُهلةُ الزَّمنيّةُ الّتي دلَّت عليها (ثمّ) متفاوتةُ المقدارِ، مع ما يقتضيه عطفُ الجملةِ بحرف ﴿ثُمَّ﴾ منَ التّراخي الرُّتَبيِّ، وهو ملازمٌ لها إذا عُطِفَت بها الجملُ، فحرفُ (ثمّ) هنا مُستعمَلٌ في مَعنَيَي المهلةِ الحقيقيِّ والمجازيِّ[3].

نكتةُ تَقْديمِ شبه الجُملة:

المقدَّمُ مُعتنًى به، والمؤخَّر متشوَّقٌ له

تقديمُ الجارِّ والمجرور على المفعول الصّريح في قوله: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾؛ للاعتناء بالمقدَّمِ والتّشويق إلى المؤخَّر[4].

توجيهُ عود الضّمير (هم):

عودُ الضّميرِ على ذكر الأنبياء، أو ذكر القرى باعتبار أهلها

و(هم) في قوله: ﴿مِنۢ بَعْدِهِم﴾، يعودُ على ذكر الأنبياء عليهم السلام الّذين ذُكِرَت أسماؤُهم من أوّل هذه السّورةِ إلى هذا الموضع[5]، أو يعودُ على القرى باعتبار أهلها، كما عادَت عليهم الضّمائرُ في قوله: ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم﴾[6].

بلاغةُ الإيجازِ بالحذف:

قوله: ﴿بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ مُتعلِّقٌ بمحذوفٍ وقعَ في موضع الحال من موسى

(1) رضا، تفسير المنار: 9/34 - 35.
(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/239.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/34.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/257.
(5) ابن جرير، جامع البيان: 12/12.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/34 - 9/35.

مفعول ﴿بَعَثْنَا﴾، أو صفةٌ لمصدرِه؛ أي: بعثناه ﷺ مُلتبِّسًا بآياتنا، أو بعثناه بَعثًا مُلتبِّسًا بها، وهي الآياتُ التّسعُ المفصَّلات الّتي هي: العصا واليدُ البيضاء والسِّنونَ ونقصُ الثّمرات والطّوفانُ والجَرادُ والقُمّلُ والضّفادعُ والدَّمُ[1]، فالباء فيه للملابسة[2].

الاستغناءُ بالمذكور اقتصادٌ في العبارة وتكثيرٌ للمعنى بأوْجز لفظٍ

سرُّ تقديمِ الآياتِ:

صرّحَ بذكر (الآيات) مُقدِّمًا إيّاها اهتمامًا بها بوصفها الدّليل على صحّة دعوى البعث[3]. ودليلُه إسنادُه إلى ضمير التّعظيم إثباتًا لنبوّة موسى ﷺ الدّالّة على صدقه، وإشارةً إلى عظم شأنها، واختصاصها به تعالى، فلا قادرَ عليها إلّاه.

الآياتُ دليلٌ على صحّة دعوى البعث

علّةُ إيثارِ لفظ (الملأ):

قصدَ إلى اختيار (الملأ) على القوم هنا، ولم يقُل: (إلى فرعون وقومه)؛ لأنّ المَلِكَ ورجالَ الدّولة هم الّذين كانوا مُستعبدين لبني إسرائيل وبيدهم أمرُهم، فإذا خفَّ بطشُ عِلْيةِ القومِ وأشرافِهم؛ هان على العامَّة والدَّهماء الاستجابةُ لموسى ورسالته، وليس لسائر المصريين منَ الأمر شيءٌ، ولأنّ أهلَ مصرَ كانوا مُستعبَدين أيضًا، ولكنّ الظّلمَ على بني إسرائيل الغرباء كان أشدَّ[4].

أشرافُ القوم سدٌّ منيعٌ عن الخير، وهم أوّلُ المكذِّبين بالرّسل

بلاغةُ التَّضمين في قوله: ﴿فَظَلَمُواْ بِهَاۖ﴾:

أصلُ (ظلم) يتعدَّى بنفسه كقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ﴾ [آل عمران: 135]، لكنّه ضُمِّنَ هنا معنى: (كذَّبوا بها)، و(كفروا بها) على إرادة جِماع المعنيين؛ لأنّ الظُّلمَ وضعُ الشَّيءِ في غير مَوضِعِه[5]، والاعتداءُ على حقِّ الآخرِ،

ظلمَ قومُ موسى أنفسَهم وغيرَهم بكذبهم، وكفرهم

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/257.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/35.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 3/78.
(4) رضا، تفسير المنار: 9/35.
(5) ابن جرير، جامع البيان: 12/12، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/257.

وكان كفرُهم بالآيات ظلمًا حيث وضعوا الكفرَ في غير موضعِه مكان الإيمان الّذي هو من حقّها لوضوحها[1]؛ فعُدّي بالباء، والتّقديرُ: فظلموا بها كافرين مُكذِّبين؛ لأنّ الكفرَ بالآيات ظلمٌ حقيقة، والظّلمُ اعتداءٌ على الحقّ، فمَن كفرَ بالدّلائل الواضحةِ المسمّاةِ (آيات) فقد اعتدى على حقّ التّأمّلِ والنّظرِ، ويجوزُ أن يكونَ فظلموا هنا على أصل وضعِه، وتكون الباءُ للسّببيّة، وحذفَ مفعولَ ﴿فَظَلَمُواْ﴾ لقصد العموم؛ والمعنى: فظلموا كلَّ مَن له حقٌّ في الانتفاع بالآيات؛ أي: منعوا النّاسَ منَ التّصديق بها، وآذَوا الّذين آمنوا بموسى لمّا رأوا آياتِه، كما قال تعالى: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْۖ﴾ إلى قوله: ﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ﴾ [الأعراف: 123 - 124]، وظلموا أنفسَهم؛ إذ كابروا، ولم يؤمنوا، فكان الظّلمُ بسبب الآياتِ؛ أي: بسبب الاعترافِ بها، ويجوزُ أن يكونَ ضُمِّنَ ﴿فَظَلَمُواْ﴾ معنى: كَفَروا[2].

وقيل معناه: وقعوا في مثل الظّلامِ حتّى وضعوا الأشياءَ في غير مواضعها، فوضعوا الإنكارَ موضع الإقرارِ؛ بسبب رؤيتها؛ خوفًا على رئاستهم ومملكتهم الفانية أنْ تخرجَ من أيديهم[3].

دلالةُ الفاءِ في لفظ النّظر:

الفاءُ في قوله: ﴿فَٱنظُرْ﴾ لتفريع الأمرِ على هذا الإخبار؛ أي: لا تتريّثْ عندَ سماعِ خبرِ كفرِهم عن أن تُبادرَ بالتّدبُّرِ فيما سنقصُّ عليك من عاقبتِهم، والمنظورُ هو عاقبتُهُم الّتي دلَّ عليها قولُه: ﴿فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٣٦﴾﴾ [الأعراف: 136]، وهذا النّظرُ نظرُ العقل، وهو الفكرُ المُؤدّي إلى العلم، فهو من أفعالِ القلوبِ.

المبادرةُ بالتّدبّر عند سماعِ خبرِ كُفرِ قوم فرعون شأنٌ محمودٌ فلا تريّث ولا تمهّل

(1) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/26.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/35 - 36.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 3/78.

والخطابُ للنّبيِّ ﷺ، والمرادُ هو ومَن يَبْلُغُه، أو المُخاطَبُ غيرُ معيَّنٍ: وهو كُلُّ مَن يتأتّى منه النّظرُ والاعتبارُ عندَ سماعِ هذه الآياتِ، فالتّقديرُ: فانظرْ أيُّها النّاظرُ، وهذا استعمالٌ شائعٌ في كلِّ كلامٍ موجَّهٍ لغير مُعَيَّنٍ[1].

سرُّ التّعبير بـ ﴿كَيْفَ﴾:

حقيقُ السّؤالِ عن حالهم بعدَ عجيبِ ما أبدوه

لمّا كان ما آلَ إليه أمرُ فرعونَ وملئِه حالةً عجيبةً، عبّر عنه بـ ﴿كَيْفَ﴾ الموضوعة للسّؤال عنِ الحال، والاستفهامُ المستفادُ من (كيف) يقتضي تقديرَ شيء؛ أي: انظر عاقبةَ المفسدين الّتي يُسألُ عنها بـ(كيف)[2]، الّتي هي خبرُ كان، وقُدِّم على اسمها؛ لاقتضائه الصّدارةَ، والجملةُ في حيّز النّصبِ بإسقاط الخافضِ؛ أي: فانظر بعين عقلِك إلى كيفيّة ما فعلنا بهم[3].

ولأنّ من أعجبِ العجبِ أن يكونَ سببُ العدل سببًا للظّلم، ولمّا كان هذا الظّلمُ أعظمَ الفساد؛ سبّبَ عنه قوله مُعجِّبًا: ﴿فَٱنظُرْ﴾؛ أي: بعين البصيرة ﴿كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ﴾؛ أي: آخر أمر ﴿ٱلْمُفْسِدِينَ﴾، فلخَّص في هذه الآية على وجازتِها جميعَ قصّتِهم على طولها[4].

والعاقبةُ: آخرُ الأمر ونهايتُه، وجيءَ به على صيغة اسمِ المصدرِ مبالغةً.

علّةُ إيثارِ لفظِ المفسدين، وإظهاره:

الكفرُ فسادُ القلبِ، وهو أعظمُ الفساد، والتّعبيرُ بالمفسدين يشملُ الظّالمين

المرادُ بالمفسدين: فرعونُ وملؤه، فهو منَ الإظهار في مقام الإضمار تنبيهًا على أنّهم أُصيبوا بسوء العاقبة؛ لكفرهم وفسادهم، والكفرُ أعظمُ الفسادِ؛ لأنّه فسادُ القلبِ ينشأُ عنه فسادُ الأعمالِ،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/36.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/36.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/257.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 3/78.

وفي الحديث[1]: «ألا وإنّ في الجسد مُضغَةً، إذا صلحَت صَلَحَ الجسدُ كلُّهُ، وإذا فسدَت فسَدَ الجسدُ كلُّهُ، ألا وهي القلبُ»"[2].

وعبّر بـ ﴿ٱلْمُفْسِدِينَ﴾، ولم يقُل: الظّالمين؛ ليشملَهم وغيرهم ممّن تقدّمَ ذكرُه[3]. ووضعَ المفسدين موضعَ ضميرِهم؛ للإيذان بأنّ الظّلمَ مُستلزمٌ للإفساد[4].

(1) البخاريّ، الجامع الصّحيح، برقم: (52).
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/36 - 37.
(3) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/239.
(4) حقّي، روح البيان: 3/210.

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرۡعَوۡنُ إِنِّي رَسُولٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٠٤﴾ [الأعراف: 104]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

حكايتُه تعالى ما كان من أمرِ أولئك المفسدين الّذين كان مآلُهم تلكم العاقبة

لمّا لخَّص في الآية السّابقة جميعَ ما جاء في قصّة موسى عليه السلام مع فرعونَ وملَئِهِ بأسلوب التّشويق والتّنبيه؛ قصَّ تعالى ما كان من مبدأ أمرِ أولئك المفسدين الّذين كان مآلُهم تلكم العاقبة[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾: (علم) العينُ واللّامُ والميمُ أصلٌ صحيحٌ واحدٌ، يدلُّ على أثرٍ بالشّيء يتميّزُ به من غيره[2]. ومنه: العالِم وهو الَّذي يعمَلُ بما يعلمُ[3].

وكذلك العالَم: اسمٌ للفلك وما يَحويهِ منَ الجواهر والأعراض، وهو في الأصل اسمٌ لما يُعَلَّمُ به كالطّابع، والخاتمُ لما يُطبَعُ به، ويُختَمُ به، وجُعِلَ بناؤُه على هذه الصّيغة لكونه كالآلة، والعالَم آلة[4]. ومنَ الباب: العالَمون، جمع عالَم، لا واحِدَ لعالَم من لَفظه؛ لأنّ عالَمًا جَمعُ أشياءَ مُختَلفَةٍ، فإن جُعِلَ عالَمٌ لواحِدٍ منها صار جمعًا لأشياءَ متَّفقةٍ؛ وذلك أنّ كلَّ جنسٍ منَ الخلق فهو في نفسه معلَّمٌ وعَلَمٌ. وقال قومٌ: العالَمُ سُمّي لاجتماعه، قال الله تعالى: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة: 2]، فالعالَمون: الجِنّ والإنس، أو: الخلق كلّهم، وكلُّ ما خلق اللّهُ؛ أي: الخلائق أجمعون[5].

(1) رضا، تفسير المنار: 9/36 - 37.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (علم).
(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (علم).
(4) الرّاغب، المفردات: (علم).
(5) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (علم).

المعنى الإجماليّ:

تفصيلُ أحداثِ قصّةِ موسى بدايةً بالتّعريف بالنّفس، وبمهمّة التّكليف

قال موسى مُفتتحًا حوارَهُ مع فرعونَ بعبارةٍ لطيفةٍ وأسلوبٍ حسنٍ: إنّي رسولُ اللّه، اصطفاني لأجلِ رسالة الرّشاد، مُرسَلٌ إليك وإلى قومك من ربِّ العالمين، خالقِ كلِّ الموجودات، والممِدِّ لها على الدّوام بعطاءاتِ رُبوبيّتِه.

وترشدُ الآيةُ الكريمةُ إلى: أنّ مهادَ الدّعوةِ الكلمةُ الطّيّبةُ اللّيّنةُ، والموعظةُ الحسنةُ، وإلى أنَّ في الكون ربًّا واحدًا، وللعالمين إلهًا واحدًا، وهذا قوامُ الوحدانيّةِ، وإلى أنَّ في التّأكيد نفيًا للرّبوبيّة عمّن سواه[1].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ الوصلِ في الآية:

استتبعَ التّشويقَ بقصِّ حكايةِ عاقبةِ المفسدين

بعد هذا التّشويقِ والتّنبيهِ قصّ تعالى علينا ما كان من مبدأ أمرِ أولئك المفسدين الّذي انتهى إلى تلك العاقبة[2]، فقوله: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ﴾ كلامٌ مبتدأٌ مَسوقٌ لتفصيل ما أُجملَ فيما قبله من كيفيّة إظهار الآياتِ وكيفيّةِ عاقبةِ المفسدين ﴿يَٰفِرۡعَوۡنُ إِنِّي رَسُولٞ﴾؛ أي: إليك ﴿مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ على الوجه الّذي مرَّ بيانُه[3].

بيانُ تشابهِ حالِ الماضين مع حالِ الحاضرين المُكذِّبين بالنّبيّ محمّد ﷺ

وعطفَ قولَ موسى بالواو، ولم يفصل عمّا قبله، مع أنَّ جملةَ هذا القول بمنزلة البيان لجملة ﴿بَعَثۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِم مُّوسَىٰ﴾؛ لأنّه لمّا كان قولُه: ﴿بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ حالًا من موسى؛ فقد فُهِمَ أنّ المقصودَ تنظيرُ حالِ الّذين أُرسِلَ إليهم موسى بحال الأممِ الّتي مضى الإخبارُ عنها في المكابرة على التّكذيب، مع ظهورِ آياتِ الصّدق؛ ليتمَّ بذلك تشابهُ حال الماضين مع حال الحاضرين المُكذِّبين بالنّبيّ محمّد ﷺ، فجعلَت حكايةُ محاورةِ موسى مع فرعونَ وملئِه خبرًا مستقلًّا؛

(1) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 10/48.
(2) رضا، تفسير المنار: 9/36 - 37.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/257.

لأنّه لم يُحكَ فيه قولُهُ المقارنُ لإظهار الآيةِ بل ذُكِرَت الآيةُ من قبلُ، بخلاف ما حُكيَ في القَصصِ الّتي قبلَها، فإنّ حكايةَ أقوالِ الرّسلِ كانَت قبلَ ذكرِ الآيةِ؛ ولأنّ القصّةَ هنا قد حُكيَ جميعُها باختصارٍ بجُمَل: ﴿بَعَثْنَا﴾، ﴿فَظَلَمُواْ﴾، ﴿فَٱنظُرْ﴾، فصارَت جملةُ: (قال) تفصيلًا لبعض ما تقدَّمَ، فلا تكونُ مفصولةً؛ لأنّ الفصلَ إنّما يكونُ بين جملتين، لا بينَ جملةٍ وبين عدّةِ جملٍ أُخرى[1].

بيانُ متشابهِ العَطفِ، وافتراقِه:

فـي تشابه العطفِ واختلافه دقّةٌ في البلاغة تناسبُ سياقَ الآيات

عطفَ بالفاء في قصّة نوح، وعطفَ بالواو في قصّة موسى، وفصَلَ بيانيًّا في القصص الّتي بينهما بما يشبهُ الفصلَ في قصّة موسى في سورٍ أخرى، فأمّا الأوّلُ فعطفَ التّبليغَ فيه على الإرسالِ بالفاء؛ لإفادةِ التّعقيبِ وعدمِ جوازِ تأخيرِ تبليغِ الدّعوة، وأمّا الفصلُ في القَصص بعدَه؛ فلأنّه لمّا صار هذا معلومًا، وكان ما جرى من أمرِ قومِ نوحٍ عِبرةً لقوم هودٍ، وكانا معًا عِبرةً لقوم صالحٍ، وهلمَّ جرًّا؛ حسن في كلِّ قصّةٍ من هذا الفصل على أنّه جوابٌ لسؤالٍ مُقدَّرٍ، كأنّ قائلًا يقولُ في كلٍّ منها: ماذا كان من أمر هذا النّبيّ مع قومه؟ كما تقدّم بيانُه، وأمّا الأخيرُ الّذي نحن بصدده فوجهُ العطفِ فيه، وكونُه بالواو هو أنّه قد قفَّى في قصّةِ موسى هنا على ذكر إرسالِه إلى فرعونَ وملئِه بذكر نتيجةِ هذا الإرسالِ وعاقبتِه بالإجمال، وهو قوله تعالى: ﴿فَظَلَمُواْ بِهَاۖ﴾، وبُدِئَتِ القصّةُ بعدَه بتفصيل ذلك الإجمال ومقدّمات تلك النّتيجة، فكان المناسبُ أن يعطفَ عليها، لا أن يستأنفَ استئنافًا بيانيًّا لما هو ظاهرٌ منَ الاشتراك بين المقدّماتِ والنّتيجةِ، أو بين التّفصيلِ والإجمالِ، وأن يكونَ العطفُ بالواو لا بالفاء؛ لأنّ الفاءَ تدلُّ على التّعقيب والتّرتيب، وهو لا يصحُّ هنا؛ لأنّه يقتضي أن تكون المقدّماتُ مُتأخّرةً عنِ النّتيجة، وذلك باطلٌ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/37.

بالبداهة، فتعيّنَ أن يكونَ العطفُ بالواو، وهذه دقّةٌ في البلاغة لا يهتدي إلى مثلها إلّا غواصو بحرِ البيانِ[1].

نكتةُ الابتداءِ بنتيجة القصّة:

تشابهُ القصصِ مفتتحًا وغايةً سوّغ الابتداءَ بنتيجتها

وحكمةُ بدءِ القصّةِ بذكر نتيجتها، والعبرةُ المقصودةُ منها في قوله تعالى: ﴿فَظَلَمُواْ بِهَاۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ أن تكونَ متّصلةً بما يناسبُها منَ العِبرةِ في القَصص الّتي قبلَها، من حيث إهلاكُ معاندي الرّسلِ ﷺ جحودًا واستكبارًا؛ لتشابهها مبدأً وغايةً[2].

دلالةُ التّصريحِ باسم فرعون:

اللّينُ في الحوار امتثالٌ لله تعالى، وحكمةٌ في النّداء والخطاب

من معاني (فرعون) أنّه لقَبُ مدحٍ لِمَن ملك مصرَ، وصرّح به؛ ليخاطبَه بما يعجبُه امتثالًا لأمر اللّه تعالى له أن يلينَ في خطابه: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا﴾ [طه: 44][3]، فهو خطابُ إكرامٍ لأنّه ناداه بالاسم الدّالِّ على الملكِ والسّلطانِ بحسب متعارف أمّتِه، فليس هو بترفّعٍ عليه، والظّاهر أيضًا أنّ قولَ موسى هذا هو أوّلُ ما خاطبَ به فرعونَ، كما دلّت عليه سورةُ طه: ﴿ٱذۡهَبَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ٤٣﴾ [طه: 43][4].

سرُّ التّوكيدِ في حكاية كلام موسى:

توكيدُ الكلام دفعٌ لإمكان إنكاره، ولإظهار صدقِ دعوةِ موسى وثبات رسالتِه

وصوغُ حكايةِ كلام موسى بصيغة التّأكيدِ بحرف (إنَّ)؛ لأنّ المُخاطَبَ مَظِنّةُ الإنكارِ، أو التّردّدِ القويِّ في صحّة الخبر[5]. وحرف (إنَّ) يدلُّ على تحقيقِ المعنى وصدقِ رسالته؛ فقد استخدم موسى هذا الحرفَ لإظهار صدقِ دعوتِه وثباتِ رسالتِه، ولإبطال شبهاتِ فرعونَ وملئِه، ولتحذيرهم من عاقبة تكذيبِه ومخالفتِه، كما أنَّ قولَ

(1) رضا، تفسير المنار: 9/37.
(2) رضا، تفسير المنار: 9/38.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 3/78.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/37.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/38.

موسى: ﴿إِنِّي رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ يحملُ في طيّاته تأكيدًا آخر، وهو تأكيدُ أنَّ موسى لا يتكلَّمُ من تلقاء نفسه أو مِن هواه، بل يتكلّمُ بوحي منَ اللّه تعالى، الّذي هو خالقُ كلِّ شيءٍ وربُّه ومليكُه[1]، وفيه إثباتُ صحّةِ ما جاء به من آياتٍ وبراهينَ، وإقامةُ الحجّةِ على فرعونَ وقومِه، وإظهارُ عظمةِ مَن أرسلَه وأمرَه.

علّةُ إخبارِ النّبيِّ بالرّسالة:

الإخبارُ بالرّسالة تربيةٌ للمهابة وإدخالٌ للرَّوع في قلوب المخاطَبين

وجعلَ الرّسالةَ عنوانًا لكلامه بإخباره بأنّه مُرسَلٌ منَ اللّه إليه؛ لأنّ مَن كان مُرسَلًا من جهةِ ربِّ العالمين أجمعين، فهو حقيقٌ بالقبول لما جاءَ به، كما يقولُ مَن أرسلَه الملكُ في حاجةٍ إلى رعيته: أنا رسولُ المَلِك إليكم، ثمّ يحكي ما أُرسِلَ به، فإنّ في ذلك من تربية المهابةِ وإدخال الرّوعةِ ما لا يقادرُ قدرُه[2].

وجهُ إيثارِ صفة ﴿رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾:

الوصفُ بالرّبوبيّةِ إبطالٌ لاعتقاد فرعون أنّه ربُّ مصرَ وأهلِها

اختيارُ صفةِ ﴿رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ في الإعلام بالمُرسِلِ إبطالٌ لاعتقاد فرعونَ أنّه ربُّ مصرَ وأهلِها؛ فإنّه قال لهم: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النّازعات: 24]، فلمّا وصفَ موسى مُرسِلَه بأنّه ربُّ العالمينَ؛ شملَ فرعونَ وأهلَ مملكتِه، فتَبطُلُ دعوى فرعونَ أنّه إلهُ مصرَ بطريق اللُّزوم، ودَخَلَ في ذلك جميعُ البلاد والعباد الّذين لم يكن فِرعونُ يَدَّعي أنَّه إلهُهم مثلُ: الفرسِ والآشوريّين[3].

سرُّ جمعِ لفظ العالمين:

الجمعُ يشيرُ إلى إظهار عظمةِ ربِّه، وسَعةِ رحمتِه، وشمولِ قدرتِه وحكمتِه

وأمّا جمعُ ﴿ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ جمع السّلامةِ؛ فلكون النّاس في جملتهم، والإنسان إذا شاركَ غيرَه في اللّفظ؛ غلبَ حكمُه، وقيل: إنّما جمعَ هذا الجمع؛ لأنّه عُني به أصنافُ الخلائقِ منَ الملائكة والجنّ دون غيرها[4].

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 3/454.
(2) الشّوكانّي، فتح القدير: 2/263.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/38.
(4) الرّاغب، المفردات: (علم).

وفي قول موسى عليه السلام لفرعون: ﴿رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ إظهارٌ لعظمة ربِّه، وسَعةِ رحمتِه، وشمولِ قدرتِه وحكمتِه على كلِّ شيءٍ، وأنّه لا يختصُّ بجهةٍ من شرقٍ أو غربٍ، أو قبيلةٍ، أو جنسٍ، بل هو ربُّ جميعِ المخلوقات.

﴿حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّۚ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ١٠٥﴾ [الأعراف: 105]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الرّبْطُ بين إعلانِ موسَى رسالتَه لقومِه، وبيانِ تحقُّقِ مُقْتَضَاها بالبَيِّنةِ الّتي جاءَ بها

لمّا بيَّنَ موسى عليه السلام أنّه بمُقتضَى الرّسالةِ الّتي بُعِثَ بها أنَّه لا يقولُ إلّا كلمةَ الحقِّ - فملاكُ لوازمِها الحقُّ، وتمامُ تحقُّقِها الصّدقُ - صارَ نظمُ الكلامِ كأنّه قالَ: (أنا رَسولُ اللّهِ، ورسولُ اللّهِ لا يقولُ إلّا الحَقَّ)، ونتجَ عنها استِلزامُ الإتيانِ بالبيّنةِ الظّاهرةِ، والمُعجزةِ الواضحةِ، وفرَّعَ عليها تبليغَ الحُكمِ، وهو قولُهُ: ﴿فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿حَقِيقٌ﴾: مِنَ الحقِّ، وأصلُه واحدٌ يدُلُّ على إحكامِ الشّيءِ وصِحَّتِهِ[2]. وقد بيَّنّا معناها في [الأعراف: 89]، ومعنى ﴿حَقِيقٌ﴾: واجبٌ[3]، وخليقٌ، وجديرٌ[4]، و﴿حَقِيقٌ﴾ على معناه: حَريصٌ على[5]. وكلُّ هذه المعاني مُحتمَلَةٌ في الآيةِ الكريمةِ.

2) ﴿إِسْرَٰٓءِيلَ﴾: بنو إسرائيلَ اثنا عَشَرَ سِبطاً، عِدَّة بني إسرائيلَ، وهم بنو يعقوب بنِ إسحاق، لكلِّ ابنٍ منهم سِبْطٌ مِن ولدِهِ[6]، وإسرائيل: لقب يَعْقوب: وهو عَلَمٌ مُذكَّرٌ عبريٌّ، أصلُهُ "يِسْرائيل"، ومعظمُ أسماءِ التّوراةِ جاءَت بصيغةِ المضارعِ. وقيل: سُمّي بهذا الاسمِ؛ لأنّه أسرى ذاتَ ليلةٍ حين هاجرَ إلى اللّهِ؛ لأنّه انطلقَ إلى

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/155.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حق).
(3) الخليل، العين: (حق).
(4) الزّمخشريّ، أساس البلاغة: (حقق).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حق).
(6) الخليل، العين: (سبط).

حالِهِ خشيةَ أنْ يقتلَهُ أخوهُ، فكانَ يسري باللَّيلِ ويكمُنُ بالنَّهارِ. وقيل: معناها عبدُ اللّهِ، أو اللّهُ قويٌّ، وقيل: مَعناهُ عبدُ اللّهِ؛ لِأنّ (إيل) اسمٌ من أسماءِ اللّهِ بالسُّريانيَّةِ؛ أو صفوةُ اللّهِ، أو سِرُّ اللّهِ[1].

المعنى الإجْماليُّ:

تأكيدُ موسَى صِحَّةَ ما جاءَ به منَ البَيِّنةِ الواضحةِ، وطلبِ خُروجِ بني إسرائيلَ معه

بلَّغَ موسى عليه السلام فرعونَ أنّه رسولٌ مِن ربِّ العالَمينَ كلِّهم؛ أي: سيّدُهُم، ومالكُهُم، ومُدبِّرُ جميعِ أمورِهِم، وأنّه بمُقتضَى هذه الرّسالةِ لا يقولُ على اللّهِ إلّا الحقَّ؛ إذ لا يُمكِنُ أن يبعثَ اللّهُ رسولًا يَكْذِبُ عليه، فهو حقيقٌ بالصّدقِ، والتزامِ الحقِّ في التّبليغِ عن ربِّهِ، ومَعصومٌ منَ الكذبِ والخطأِ فيه، وشديدُ الحرصِ عليه بما لَهُ منَ الكسْبِ والاختيارِ، فاشتملَ كلامُهُ على عقيدةِ الوحدانيّةِ؛ وهي أنّ للعالَمين كلِّهم ربًّا واحدًا، وعقيدةِ الرّسالةِ المُؤَيِّدَةِ منه تعالى بالعِصمةِ في التّبليغِ والهدايةِ[2]، وقد جئتُكُم مِنَ اللّهِ بحجّةٍ قاطعةٍ، وببرهانٍ بيِّنٍ على صدقي فيما أدَّعي منَ الرّسالةِ، كالعصا واليدِ البيضاءِ، ثمّ إنّه عليه السلام لمّا فرَغَ مِن تبليغِ رسالتِهِ رتَّبَ على ذلك الحكم الطّلبَ إلى فرعونَ أن يُرسِلَ معهُ بني إسرائيلَ مِن أسْرِهِ وقَهْرِهِ، وأن يُخَلِّيَ سبيلَهُم لعبادةِ اللّهِ، وكانَ فرعونُ قد استعبدَ بني إسرائيلَ واستعملَهُم في الأعمالِ الشّاقّةِ[3].

وتُرشِدُ الآيةُ الكريمةُ إلى أصولِ المُحاورةِ، والجدلِ ومَسالكِ التّأثيرِ فيهما، ومنه إبرازُ صفتَي الحقِّ والصّدقِ فيما يُطرَحُ مِن شأنٍ. وأنَّ مناطَ التّبليغِ في الأمورِ العِظامِ الحجَّةُ، والدّليلُ، ودامغُ البرهانِ. وتهدي الآيةُ الكريمةُ أيضًا إلى جوازِ ثناءِ الإنسانِ على نفسِهِ إذا كانَ ذلك في مَقامِ بيانِ الحقِّ، والدّعوةِ إليه، وأنّه مُحِقٌّ بما دعا إليهِ[4].

(1) الكفويّ، الكلّيّات، ص: 115، وعبد الرّحيم، الإعلام بأصول الأعلام، ص: 38.
(2) رضا، تفسير المنار: 9/39.
(3) الخازن، لباب التّأويل: 2/232.
(4) اللاّحم، عون الرّحمن: 9/244.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دَلالةُ توجيهِ قراءةِ (على):

تَنوّعُ القراءةِ سَعةٌ في الدّلالةِ، ومَلْمَحيّةٌ بَيانيّةٌ متنوّعةٌ

اختلفَتِ القراءةُ[1] في قولِه: ﴿حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ﴾ على وجوهٍ: فقرأَهُ جماعةٌ مِن قُرّاءِ المكّيّين والمدنيّين والبصرةِ والكوفةِ: (حقيقٌ عَلَيّ أن لا أقول)، فهي ياءُ المُتكلِّم دخلَ عليها حرفُ (على)، مع تركِ التّشديدِ؛ بمعنى: أنا حقيقٌ بأن لا أقولَ على اللّهِ إلّا الحقَّ. فوجَّهوا معنى (على) إلى معنى (الباء)؛ لإفادةِ التّمكينِ، كما يُقالُ: (رميتُ بالقوسِ)[2]، يؤيِّدُ ذلك استعمالُ العَربِ (على) بمعنى (الباء) كقولِهم: (أركبُ على اسمِ اللّهِ) وقراءةِ: (حقيقٌ بأن لا أقول)[3]. وقرأ جماعةٌ من أهلِ المدينةِ: (حقيقٌ عليَّ ألّا أقولَ) مُشدَّدةً بالياءِ، والمعنى: واجبٌ عليَّ أن لا أقولَ، وحقٌّ عليَّ أن لا أقولَ[4] على اللّهِ إلّا الحقَّ، وهو أنّه لا إلهَ غيره، أي: توحيدُهُ، وتنزيهُهُ عن الشّريكِ[5]. وفي هذه القراءةِ وجوهُ تخريجٍ: منها أن تكونَ ممّا يُقلَبُ مِنَ الكلامِ لأمنِ اللَّبسِ[6]، والأصلُ: قولُ الحقِّ حقيقٌ عليَّ، فقُلِبَ إلى: أنا حقيقٌ على قولِ الحقِّ[7]. ومنها: المُلازمةُ؛ أي: أنَّ ما لزمَكَ فقد لزمتَهُ، والمعنى: فلمّا كان قولُ الحقِّ حقيقًا عليهِ كانَ هو حقيقًا على قولِ الحَقِّ؛ أي: لازمًا له، أو: أن يُضمَّنَ حَقيقٌ معنى حَريصٍ[8]، والمعنى: حقيقٌ وجديرٌ بألّا أقولَ على اللّهِ إلّا الحقَّ، وحَريصٌ على ذلك فلن أُخِلَّ بهِ[9]، أو ضُمِّنَ حقيقٌ معنى مَكينٍ، وتكونُ ﴿عَلَى﴾

(1) ابن الجزريّ، النّشر: 2/305.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 13/13 - 14.
(3) ابن هشام، مغني اللّبيب، رضا، تفسير المنار: 9/38.
(4) ابن جرير، جامع البيان: 13/13 - 14.
(5) الواحديّ، الوسيط: 2/392.
(6) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/136.
(7) السّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 5/401.
(8) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/137.
(9) رضا، تفسير المنار: 9/38.

استِعارةً للاستِعلاءِ المَجازيِّ[1]. أو للإغراقِ في وصفِ موسى عليه السلام نفسهُ بالصِّدقِ في ذلك المَقام، والمعنى: أنا حَقيقٌ على قولِ الحقِّ، أي: واجبٌ عليَّ قولُ الحقِّ أن أكونَ أنا قائلَهُ والقائمَ بهِ، ولا يَرضَى إلّا بمثلي ناطقًا به[2].

فوصفَ نفسَهُ في ذلك المَقام حتّى جعلَ نفسَه حقيقةً[3]، وهو على هذا استِعارةٌ بالكِناية: شبَّهَ قولَ الحَقِّ بالعُقلاءِ الّذينَ يَختارون مواردَهُم ومصادرَهُم، ورُمِزَ إلى المُشبّهِ بهِ بما هوَ مِن رَوادِفِه، وهو كَونُ ما يناسبُهُ مُتَعَيِّنًا عَليهِ[4].

دَلالةُ تعدُّدِ وُجوهِ القراءةِ القرآنيّة، على العُدولِ والالْتفاتِ:

يَتجلَّى في القراءةِ القرآنيّةِ الإعجازُ، المتأرجحُ بين الحقيقةِ والمجازِ

وعلى هذه القراءةِ ليسَ في ضميرِ المُتكلِّمِ مِن قولِهِ: (عليَّ) التفاتٌ، بخلافِ ما لو جُعِلَ قولُهُ: (حقيقٌ) صِفةً لـ ﴿رَسُولٌ﴾، فحينئذٍ يكونُ مُقتضَى الظّاهرِ الإتيانَ بضميرِ الغائبِ، فيقولُ: حقيقٌ عَلَيهِ، فيكونُ العُدولُ إلى التَّكلُّمِ التِفاتًا[5]. ويكون معنى الآيةِ الكريمةِ على الوصفيّةِ: (رسولٌ حقيقٌ من ربِّ العالَمين أُرْسِلْتُ على أنْ لا أقولَ على اللّهِ إلّا الحقَّ)[6].

سِرُّ إيثارِ لفْظِ ﴿حَقِيقٌ﴾ على غيرِه:

قَولُ الحقِّ واجبٌ على الرُّسُلِ، إذْ يجبُ في حقِّهم الصِّدقُ المَحْضُ

﴿حَقِيقٌ﴾ فعيلٌ بمعنى فاعِلٍ، صيغةُ مُبالغةٍ مُشتقَّةٌ من (حقَّ) بمعنى وجَبَ وثَبَتَ؛ أي: مُتَعَيِّنٌ وواجِبٌ عليَّ قولُ الحقِّ على اللّهِ[7]؛ إذ أصلُ مادّةِ الحاءِ والقافِ والقافِ في لغةِ العربِ تدُلُّ على الثّبوتِ وعدمِ الاضمحلالِ، معناه: إنّي رَسولٌ حقيقٌ؛ أي: رسالتي لا شكَّ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/39.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/137 - 138.
(3) الشّوكانّي، فتح القدير: 2/263.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/39.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/38.
(6) السّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 5/403.
(7) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/38.

فيها، وأنّي رسولٌ ثابتٌ في ديوانِ المُرسَلين، رسالتي حقٌّ لا شكَّ فيها، وأنّي رَسولٌ مبدأُ رسالتِهِ من ربِّ العالَمين[1].

سِرُّ التّعبيرِ بالمصدَرِ المُنسَبِكِ:

في المصدريّةِ توكيدٌ لمعنَى نَفْيِ قولِ غيرِ الحقِّ

﴿أَن﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ﴾ مَصدريّةٌ ناصبةٌ، و﴿لَّآ﴾ نافيةٌ للحالِ، والتّعبيرُ بالمضارعِ تجدُّدٌ استمراريٌّ لنفي قولِ غيرِ الحقِّ. والتّعبيرُ بالمَصدرِ المُنسبِكِ أقوى في الدّلالةِ على نفي قولِ غيرِ الحقِّ، وإثباتِ قولِ الحقِّ.

دَلالةُ التَّعبيرِ بلفْظِ ﴿ٱلْحَقَّ﴾:

الكلامُ الحقُّ مَقصورٌ على وَحْيِ السّماءِ إلى موسَى، بصِفتِهِ رسولًا

و(ألـ) في ﴿ٱلْحَقَّ﴾ جنسيّةٌ للمُبالغةِ والكمالِ، ويجوزُ أن يكونَ مفعولاً به؛ لأنّهُ يتضمَّنُ معنى حَمَّله، وأنْ يكونَ منصوباً على المصدرِ؛ أي: القولَ الحقَّ، والاستثناءُ مُفرَّغٌ[2]، ودلالةُ الاستثناءِ المُفرَّغِ الدّالِّ على قصرِ الكلامِ الحقِّ على قولِهِ الموحَى بهِ منَ السّماءِ إليه، وصيغةِ المصدريّةِ، توكيدٌ لقولةِ الحقِّ الّتي حَرَصَ على إطلاقِها موسى عليه السلام مُتخلِّقًا بها، ويعزّزُ هذا المعنى إتّباعُها بـ ﴿قَدْ﴾ الدّاخلةِ على الفعلِ الماضي لإفادةِ التّحقيقِ.

بَلاغةُ الاسْتِئنافِ، في قولِهِ تعالى: ﴿قَدْ جِئْتُكُم﴾:

مَقامُ الإنكارِ يَستلزِمُ مَزيدَ التّقريرِ، وعُمْقَ التّأثيرِ

و﴿قَدْ﴾ في ﴿قَدْ جِئْتُكُم﴾ لتحقيقِ وقوعِ الفعلِ الدّالِّ صوغه ماضيًا على ذلك، وجملةُ ﴿قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ استئنافٌ مُقرِّرٌ لما قبلَهُ من كونِهِ رسولاً من ربِّ العالَمين، وكونِه حَقيقاً بقولِ الحقِّ[3]؛ لأنَّ مَقامَ الإنكارِ ممّا يثيرُ سُؤالَ سائلٍ أن يقولَ: هذِهِ دَعوى غَريبةٌ تَحتاجُ إلى بَيِّنَةٍ[4].

(1) الشّنقيطيّ، العذب النَّمير: 4/66.
(2) السّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 5/406.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/258.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/39.

بَلاغةُ الإيجازِ في جُملةِ الاستئنافِ:

لم يكنْ قولُهُ عليه السلام ﴿قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾، وما بعدَهُ مِن جوابِ فِرعونَ إثرَ ما ذُكِرَ هَهُنا، بَل بعدَ ما جَرى بينَهُما مِنَ المُحاورَةِ المَحكيَّةِ بقولِهِ تعالى: ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا﴾ [طه: 49]، وقولِهِ تعالى: ﴿وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢٣﴾ [الشّعراء: 23]، وقد طَوى هَهُنا ذكرَه للإيجازِ[1]..

اسْتغنَى بالمذكورِ، ولم يُكرِّرِ اقتصادًا في الكلامِ

سِرُّ تنوُّعِ معانِي البيّنةِ، وتنكيرِها، في سِياقِ الآيةِ الحكيمِ:

البيّنةُ: الحُجَّةُ، ويجوزُ أن يكونَ المُرادُ بها البراهينَ العقليّةَ على صدقِ ما جاءَ به موسى مِنَ التّوحيدِ والهُدى، ويجوزُ أن تكونَ المُعجزةَ الدّالَّةَ على صدقِ الرّسولِ. فعلى الوجهِ الأوّلِ تكونُ الباءُ في قولِهِ: ﴿بِبَيِّنَةٍ﴾ لتعديةِ فعلِ المَجيءِ، وعلى الوجهِ الثّاني تكونُ الباءُ للمُلابسةِ، والمُرادُ بالمُلابسةِ مُلابسةُ التَّمكُّنِ من إظهارِ المُعجزةِ الّتي أظهرَها اللّهُ له كما في قوله تعالى ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ۝١٧﴾ [طه: 17]. ويَحتمِلُ المعنى الأعمُّ الشّاملُ للنّوعين على ما يَحتمِلُهُ كلامُ موسى المُترجَمُ عنهُ هُنا[2]. وتنكيرُ البيّنةِ للتّفخيمِ، والتّعظيمِ، والتّصريحِ بكونِ هذه البيّنةِ المُعجزةِ من عندِ ربِّهِم نصٌّ على أنّهم مَربوبونَ، وأنّ فرعونَ ليس ربًّا ولا إلهًا، وعلى أنّها - أي: البيّنة - ليسَت من كسبِ موسى، ولا ممّا يستقلُّ به عليه السلام، وبنى على هذا قولَهُ: ﴿فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾؛ أي: بأن تطلقَهُم مِن أسرِكَ، وتُعتِقَهُم مِن رقِّ قهرِكَ؛ ليذهبوا معي إلى دارٍ غيرِ ديارِكَ، ويعبدوا فيها ربَّهُم وربَّكَ[3].

في تَنوُّعِ المعانِي والتّنكيرِ، تَوسُّعٌ في دَلالةِ التّركيبِ ومَضامِينِه

سِرُّ التَّعبيرِ بقولِه تعالى: ﴿بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾:

عبَّرَ عليه السلام في سياقِ حِجاجِهِ فِرعونَ بقولِهِ: ﴿بِبَيِّنَةٍ﴾ عمّا جاءَ به مِنَ البراهينِ على صدقِ نبوَّتِهِ، ولم يقُلْ: بـ(آيةٍ مِن ربِّكُم)؛ لأنَّ كلمةَ

البيِّنةُ هي البُرهانُ الّذي لا يُشَكُّ فيه، والآيةُ تحتاجُ إلى تفسيرٍ وتوضيحٍ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/258.
(2) رضا، تفسير المنار: 9/39.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/39.

(بَيّنَةٍ) أشملُ مِن كلمةِ (آية)؛ إذ هي الدَّلالةُ الواضحةُ عقليّةً كانَت أو مَحسوسةً[1]، والآيةُ تحتاجُ إلى تفسيرٍ وتوضيحٍ، والبيّنةُ تكفي بذاتِها لإقامةِ الحُجّةِ، وهي كذلك أعظمُ مِن كلمةِ (آية)، فالبيّنةُ هي البرهانُ الواضحُ الّذي لا يشكُّ فيه أحدٌ، والدّليلُ المُستفادُ من نظرِ العقولِ إلى مُخالفةِ المألوفِ في حادثاتِ المَخلوقاتِ، والآيةُ هي الدّليلُ المُستفادُ من سماعِ الأخبارِ عن غيرِ مُشاهَدةٍ لها، وقد جاءَ موسى عليه السلام ببيّنةٍ من ربِّهِ، وهي المُعجزاتُ الواضحةُ الّتي أظهرَها لِفرعونَ وملئِهِ، من تغييرِ العصا الّتي تتحوَّلُ إلى ثعبانٍ، واليدِ الّتي تخرُجُ من فتحةِ قميصِ ثوبِهِ بيضاءَ من غيرِ سوءٍ، فهذه دلائلُ قاطعةٌ وبراهينُ قويّةٌ على نبوّتِهِ وصدقِ رسالتِهِ[2] عليه السلام.

دَلالةُ حرفِ الجرِّ ﴿مِّن﴾، وإضافةِ الرَّبِّ:

الحُجَّةُ القاطعةُ مِنَ اللهِ، تُؤكِّدُ وجوبَ الإيمانِ به دونَ سِواه

﴿مِّن﴾ في قولِهِ: ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾ مُتعلِّقةٌ؛ إمّا بـ ﴿جِئْتُكُم﴾ على أنّها لابتداءِ الغايةِ مَجازًا، وإمّا مُتعلِّقةٌ بمَحذوفٍ وقعَ صفةً لـ(بيّنة) مُفيدةً لفخامتِها الإضافيّةِ المُؤكِّدَةِ لِفَخامتِها الذّاتيَّةِ، المُستفادَةِ مِنَ التّنوينِ التّفخيميِّ، وإضافةُ اسمِ الرَّبِّ إلى المُخاطَبينَ بعدَ إضافتِهِ فيما قبلَهُ إلى العالَمينَ لِتأكيدِ وُجوبِ الإيمانِ بهِ[3].

دَلالةُ التّعبيرِ بالإرسالِ بينَ الحقيقةِ، والاسْتِعارةِ، والمَجازِ:

الإرسالُ إطلاقٌ وتَخليةٌ، أو إذنٌ بالخروجِ المَطلوبِ مِن فِرعونَ

واستعمالُ (الإرسالِ) في قولِهِ تعالى: ﴿فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ قد يُرادُ به حقيقة معناه؛ أي: أطْلِقْهُم وخَلِّهِم، وكانَ فِرعونُ قدِ استخدمَهُم في الأعمالِ الشّاقّةِ، مِثلِ: ضَربِ اللَّبِنِ، ونَقلِ التُّرابِ[4]، أو إنّه استِعارةٌ تَمثيليَّةٌ أو تَبَعيَّةٌ مِن إرسالِ الطّيرِ مِنَ القَفَصِ؛ إذ لا

(1) الرّاغب، المفردات: (بان).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (بين).
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/258.
(4) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/156.

يَخفَى أنّه ساقِطٌ عن وكرِ القَبولِ[1]، أو هو مَجازٌ لُغَويٌّ في الإذْنِ لبني إسرائيلَ بالخُروجِ المَطلوبِ مِن فِرعونَ[2].

عِلَّةُ التّعْبيرِ بحرف (الفاءِ) في الإرسالِ، في قوله تعالى: ﴿فَأَرْسِلْ﴾:

(الفاء) في قولِهِ: ﴿فَأَرْسِلْ﴾؛ لتَرتيبِ الإرسالِ، أو الأمرِ بهِ على ما قبلَهُ مِن رسالتِهِ[3] عليه السلام، أو لِتَفريعِ طَلَبِ تَسريحِ بني إسرائيلَ على تحقُّقِ الرّسالةِ عَن ربِّ العالَمين، والاستِعدادِ لإظهارِ البيّنةِ على ذلك، وقد بنى موسى كلامَهُ على ما يَثِقُ به مِن صدقِ دعوتِهِ مَعَ الاستعدادِ للتّبيينِ على ذلكَ الصِّدقِ بالبراهينِ أو المُعجزةِ إن طَلَبَها فِرعونُ؛ لأنّ شأنَ الرُّسُلِ أن لا يَبتَدِئوا بإظهارِ المُعجزاتِ صَونًا لمَقامِ الرّسالةِ عن تَعريضِهِ للتّكذيبِ[4].

في استحضارِ الفاءِ تنوُّعٌ في التّوجيهِ، واحتمالٌ لِعديدِ المعاني

سِرُّ تقْييدِ الإرسالِ بـ ﴿مَعِيَ﴾، وأثَرُها في المعنى:

تقييدُ الإرسالِ بـ ﴿مَعِيَ﴾؛ لأنّ المقصودَ مِن إخراجِهِم مِن مِصرَ أن يكونوا مع رسولِهِم المَبعوثِ إليهم؛ ليُرشِدَهُم ويُدَبِّرَ شؤونَهُم[5]، كما أنَّ المُرسِلَ هنا هو موسى عليه السلام فقط، ودليلُهُ أنّهُ لمّا كانَ معه هارونُ قالَ: ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَا﴾ [طه: 47][6].

غايةُ الخروجِ مَعيّةُ الرّسولِ، ومصاحبتُهُ للاسترشادِ بالهدَى والحقِّ

سِرُّ التّسْميةِ بلفظِ ﴿بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾، دونَ (بني يعقوب):

لم يُخاطَبِ اليَهودُ في القُرآنِ إلّا بـ ﴿بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ دونَ (بني يَعْقوب)؛ للإشارةِ إلى كلِّ القبائلِ الاثنتي عشْرةَ مِن أبناءِ يَعقوبَ بن إسحاقَ بن إبراهيمَ وسلالتِهِ، فقد خوطِبوا بهذه النِّسبةِ واحدًا وأربعينَ مَرَّةً، ولنكتةٍ هيَ أنَّهم خوطِبوا بِعبادةِ اللّهِ، وذُكِّروا بدينِ أسلافِهِم مَوعِظةً لَهُم وتنبيهًا مِن غفلتِهِم، فسمّوا بِالِاسمِ الَّذي فيهِ

الإشارةُ إلى كلِّ قبائِلِهِم، وما جُبِلُوا عليهِ مِنَ الأخلاقِ

(1) الآلوسي، روح المعاني: 9/19.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/39 - 40.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 9/19.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/39.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/39 - 40.
(6) بدر الدّين بن جماعة، كشف المعاني في المتشابه مِنَ المثاني، ص: 182.

تذكرةٌ بِاللّه[1]، ولأنَّ القرآنَ لم يُرِدْ أن يشيرَ إلى نَسَبِ الإسرائيلين مِن آبائِهِم - وبخاصّةٍ يعقوبُ عليه السلام الّذي هو أرومةُ شجرتِهِم الّتي يُنسَبونَ إليها، فقد وردَ اسمُهُ في القرآنِ ستَ عشْرةَ مَرَّةً، أوّلُها في سورةِ البقرةِ، وآخرُها في سورةِ ص - بل غالبًا ما أشارَ إلى صفاتِهِم، وما جُبِلوا عليهِ مِنَ الأخلاقِ.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(الآيةُ)، و(العلامةُ)، و(البيّنةُ)، و(الحُجّةُ):

عُـدِلَ إلى لفظِ (بِآيَةٍ) لأنَّ فرعون كان يريد مُعجِزةً مَحسُوسَة

الآيةُ: هي العلامةُ الثّابتةُ، مِن قولِكَ: تأيَّيْتُ بالمَكانِ إذا تحبَّسْتُ به، وتثبَّتُّ. فما بِهِ الدَّعْوَى مِن حَيثُ إفادته لِلبَيانِ يُسمّى بَيِّنَةً، ومِن حَيْثُ الْغَلَبَة بِهِ على الْخصمِ يُسمّى حُجَّةً. والعلامةُ ما يكونُ قبلَ وقوعِ الشّيءِ، تقولُ: الغيومُ والرّياحُ علاماتُ المطرِ[2]. وآياتُ اللّهِ: عَجائِبُهُ؛ فإنّه كثُرَ استعمالُهُ بمعنى العلامةِ الإعجازيّةِ، كقولِهِ تعالى: ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمۡ ءَايَةٗ﴾ [الأعراف: 73][3]، أمّا البيّنةُ فهي الدّلالةُ الواضحةُ عقليّةً كانَت أو مَحسوسةً[4].

وبذا يتبيّنُ الاستعمالُ الدّقيقُ للنّصِّ القرآنيِّ في انتقاءِ الألفاظِ المُناسبةِ لمَقامِها؛ إذ قَصَدَ إلى استعمالِ لفظِ (بيّنة) في حديثِ موسى عليه السلام، يريدُ: قد جِئْتُكُم بدلالةٍ واضحةٍ عقليّةٍ مَحسوسةٍ، لكنَّ فِرعونَ بتكبُّرِهِ ورأيِهِ المُتفرِّدِ لم يرضَ إلّا بمُعجزةٍ مَحسوسةٍ عظيمةٍ، فعَدَلَ إلى لفظِ ﴿بِـَٔايَةٖ﴾ في الآيةِ الّتي تليها؛ ليناسِبَ هذا المعنى.

(1) الكفويّ، الكلّيّات، ص: 115.
(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 71، والكفويّ، الكلّيّات، ص: 406، وابن محمّد، موسوعة الفروق القرآنيّة: 1/272.
(3) ابن منظور، لسان العرب: (أيا)، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (أيى - إي).
(4) الرّاغب، المفردات: (بان).

﴿قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ١٠٦﴾

[الأعراف: 106]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمّا قدَّمَ موسى عليه السلام دَعواه، وألقى دليلَهُ، وعرضَ الحُكمَ طولِبَ بالحُجّةِ، والدّليلِ، فاستدعى فِرعونُ منه خَرقَ العادةِ الدّالَّ على الصّدقِ[1]. فمِنَ المعلوم أنَّ مُجرَّدَ الدّعوى لا حُجّةَ فيهِ، ولكن إذا ظهرَ برهانٌ لم يبقَ غيرُ الانقيادِ لما هو الحقُّ[2].

المناسبةُ بين مَجيءِ موسَى بالبيّنةِ والحقِّ، وعِنادِ فرعونَ بطلبِه آيةً حسّيّةً مُعايَنةً

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾: الصّادُ والدّالُ والقافُ أصلٌ يدُلُّ على قوّةٍ في الشّيءِ قولًا وغيرَهُ. ومنه سُمّي الصّدقُ: خلاف الكَذِبِ؛ لقوّتِهِ في نفسِهِ؛ ولأنّ الكَذِبَ لا قوّةَ لهُ، هو باطلٌ. وأصلُ هذا مِن قولِهم شيءٌ صِدْقٌ؛ أي صُلْبٌ. ورُمْحٌ صِدْقٌ[3]. "والصَّدقُ: الكاملُ مِن كلِّ شيءٍ"[4]. والصِّدقُ: مُطابقةُ القولِ الضّميرَ، والمُخبَرَ عنهُ معًا، ومتى انخَرَمَ شرطٌ مِن ذلكَ لم يكنْ صِدقًا تامًّا، بل إمّا أنْ لا يوصَفَ بالصّدقِ؛ وإمّا أنْ يوصَفَ تارَةً بالصِّدقِ، وتارةً بالكَذِبِ على نَظَرَينِ مُختَلِفين[5]. وكلُّ تصاريف الفعلِ (صَدَق) مِنَ الصِّدْقِ ضدّ الكَذِبِ[6]. ومنه لفظُ الصّادقينَ في الآيةِ الكريمةِ.

المعنى الإجْماليُّ:

لَمّا عَرَض موسى عليه السلام رسالتَهُ على فِرعونَ، وذكرَ الدّليلَ على صدقِهِ؛

طلَبُ فِرعونَ من موسَى عليه السلام، تَقديمَ البُرهانِ، تأكيدًا على الإيقانِ

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/357.
(2) القشيريّ، لطائف الإشارات: 1/555.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (صدق).
(4) الخليل، العين: (صدق).
(5) الرّاغب، المفردات: (صدق).
(6) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (صدق).

وهو مجيئُهُ بالبيّنةِ والخارقِ المُعجزِ، استدعى فِرعونُ منه خرقَ العادةِ الدّالَّ على الصّدقِ، وهذا الاستدعاءُ يَحْتَمِلُ أن يكونَ على سبيلِ الاختبارِ، ويَحْتَمِلُ أن يكونَ على سبيلِ التّعجيزِ لِما تقرَّرَ في ذهنِ فِرعونَ أنّ موسى لا يَقدِرُ على الإتيانِ ببيّنةٍ، والمعنى: إن كُنتَ جئتَ بآيةٍ مِن ربِّكَ فأحضِرها عندي؛ لِتَصِحَّ دَعواكَ ويَثْبُتَ صِدقُكَ[1].

وتَرشِدُ الآيةُ الكريمةُ إلى أنَّ إلقاءَ الحُججِ من دونِ دليلٍ بَيِّنٍ؛ مآلُهُ إلى التّكذيبِ. فالبيّنةُ دليلُ الصّدقِ، والحُجَّةُ دليلُ الحقِّ، وهما سبيلُ الهِدايةِ، وطريقُ الدّرايةِ، وأنَّ الظّالمَ الجاحِدَ لمّا يزلْ يُشكِّكُ بالحقِّ، وإن كانَ مصدرُهُ سماويًّا.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دَلالةُ التّعْبيرِ بـ(إنْ)، دونَ (إذا):

الجهْرُ بعدَمِ اعْتقادِ فرعونَ بصِدْقِ موسَى عليه السلام، أبلغُ في النّفْيِ وأَعمُّ

معنى ﴿إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ﴾ مِنْ عند مَنْ أرسلَكَ فأتني بها، وأحضرها عندي؛ لتصحَّ دَعواكَ ويَثْبُتَ صِدقُكَ[2]. وأتى بـ ﴿إِن﴾ المُقتضيةِ للشّكِّ في مَضمونِ الجملةِ الشّرطيّةِ أو الجزم بنفيها، أو صيرورة ما دخلَ عليه في خبرِ المحالِ، بخلافِ (إذا)؛ للإيذانِ بأنّهُ ليسَ مُعتقِدًا بصدقِ موسى عليه السلام، وأنَّ وقوعَهُ عندَهُ غيرُ مُحقَّقٍ، وذلك دليلُ خبثِهِ ومَكرِهِ[3]، وليكونَ النّفيُّ بـ(إنْ) أبلغَ وأعمَّ.

دَلالةُ تنوُّعِ التّعْبيرِ بالمجيءِ مرّةً، وبالإيتاءِ أُخرَى:

في تناوُبِ الاستعمالِ، تفنُّنٌ وقَصْدٌ، إلى معنًى دقيقٍ مُرادٍ في السِّياقِ

المجيءُ أعمُّ مِنَ الإتيانِ، ويُقالُ اعتبارًا بالحصولِ، أمّا الإتيانُ فيُقالُ باعتبارِ القصدِ[4]، ولذلك عبّرَ بالمجيءِ ليناسبَ لفظَ ﴿قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ﴾ في الآيةِ السّابقةِ، فهو مجيءُ بدءٍ مُتحقِّقُ الحصولِ،

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/357.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/138.
(3) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/240، وطنطاويّ، الوسيط: 5/345.
(4) الرّاغب، المفردات: (جاء).

وإن كانَ عندَ موسى ﷺ فقط، وعبَّرَ بالإتيانِ باعتبارِ القصدِ، فهو في حالةِ طلبٍ وشكٍّ، ولا يناسبُهُ فعلٌ مُتحقِّقُ الحصولِ، وقد يكونُ فيه إظهارُ فِرعونَ في مَظهَرِ المُتشكِّكِ المُرتابِ في سريرتِهِ مِن ادّعاءِ موسى ﷺ بينَ الصّدقِ وعدمِهِ، ويناسبُ هذا المعنى قَصْدِيَّةَ اختيارِ (إن) المُقتضيةِ للشّكِّ، كما تقدَّم.

سِرُّ تَنْكيرِ لفْظِ ﴿بِـَٔايَةٍ﴾، في السِّياقِ:

في التَّنكيرِ عُمومٌ، نوَّعَ معناها، ووسَّعَ دَلالةَ سياقِ وُرودِها

تنكيرُ ﴿بِـَٔايَةٍ﴾ للتّعليلِ أو للعمومِ[1]، ويُرادُ بها المُعجزةُ، فإنّ أكثرَ مَواردِ الآيةِ في القرآنِ مُرادٌ فيهِ المُعجزةُ، وأكثرَ مَواردِ البيّنةِ مُرادٌ فيه الحُجَّةُ، ويَصدقُ على قولِ موسى ﷺ: ﴿قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾، فهي: الحُجَّةُ على إثباتِ الإلهيّةِ، وعلى أحقّيّةِ ما جاءَ به مِن إرشادٍ لقومِهِ، ففِرعونُ غيرُ مُقتنِعٍ ببرهانِ العقلِ، أو قاصرٌ عن النّظرِ فيه؛ ولذلك انتقلَ إلى طلبِ خارقٍ للعادةِ، فالمعنى: إن كُنتَ جئتَنا مُتَمَكِّنًا مِن إظهارِ المُعجزاتِ؛ لأنّ فِرعونَ قالَ ذلكَ قبلَ أن يُظهِرَ موسى ﷺ مُعجزتَهُ[2].

دَلالةُ الباءِ في قولِهِ: ﴿بِـَٔايَةٍ﴾:

اقْترانُ المجيءِ بإظْهارِ المُعجِزاتِ، وبالتّمكينِ منه بالبيِّناتِ الواضحاتِ

الباءُ في قولِهِ: ﴿بِـَٔايَةٍ﴾ لِلمَعيّةِ التّقديريَّةِ؛ أي: مُتمكِّنًا مِن آيةٍ، أو مِن إظهارِ مُعجزةٍ، أو الباءُ للمُلابسةِ، والمُلابسةُ مَعناها واسِعٌ؛ أي: لك تَمكينٌ مِن إظهارِ آيةٍ[3].

التَّعْبيرُ عنِ الإتيانِ بالمَجازِ المُرسَلِ:

الفاءُ في قولِهِ: ﴿فَأْتِ بِهَآ﴾ جوابيّةٌ؛ لتوكيدِ التّرتيبِ، والتّعقيبِ، والسّببيّةِ[4]. واستعمالُ الإتيانِ في الإظهارِ مَجازٌ مُرسَلٌ، فالباءُ في قولِهِ: ﴿بِهَآ﴾ لتعديةِ فعلِ الإتيانِ، وبذلك يَتَّضِحُ ارتباطُ الجزاءِ

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/240.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/40.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/40.
(4) قباوة، المفصّل في تفسير القرآن، ص: 585.

بالشّرطِ؛ لأنّ الإتيانَ بالآيةِ المذكورةِ في الجزاءِ هو غيرُ المجيءِ بالآيةِ المذكورةِ في الشّرطِ؛ أي: إنْ كنتَ جِئتَ مُتمَكِّنًا مِن إظهارِ الآيةِ فأظهِرْ هذه الآيةَ[1]. ولذلك نكّرَ لفظَ ﴿بِـَٔايَةٖ﴾، وفيه دليلُ تحدّي المُكابرِ الّذي لا يُقنعُهُ أيُّ دليلٍ مهما كانَ.

الإتيانُ تمكُّنٌ في إظهارِ الآياتِ، وتحدٍّ للمُكابرِ الّذي لا يُقنعُهُ دليلٌ

بَلاغةُ التَّعْبيرِ بالأخصِّ، في سِياقِ هذا النّصِّ:

قولُهُ تعالى: ﴿مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ أخصُّ مِن قولِهِ: "إن كنتَ صادقًا"؛ لكونِهِ إمّا مُعلَّقًا بقولِهِ: ﴿فَأۡتِ﴾، فيكون فيه ما يدُلُّ على أنَّ الصّدقَ يكونُ في الأقوالِ والأفعالِ، أو يكونُ قولُهُ: ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾؛ أي: في دعوى الرّسالةِ في مجيئِكَ بالآيةِ. والظّاهرُ أنَّ موسى عليه الصّلاة السّلام أتى بالمطلوبِ وزيادة؛ لأنّه إنّما طُلِبَ إليه آيةٌ واحدةٌ. وفيه أنَّ الشّيءَ يُستدَلُّ عليه بدليلين[2]. و﴿مِنَ﴾ للتّبعيضِ، وفيه دلالةُ عدمِ التّسليمِ لموسى عليه السلام بالصّدقِ المُطلَقِ، وإن جاءَ بالبيّنةِ الحقّةِ. وهذا شكٌّ آخر في صدقِهِ، بعدَ الشّكِّ في مجيئِهِ بالآيةِ[3]؛ إذ فيه إيماءٌ إلى أنّ في كلامِ فِرعونَ ما يقتضي أنّ فرضَ صدقِ موسى فرضٌ ضعيفٌ كما هو الغالبُ في شرطِ (إنْ)، مع إيهامِ أنّه جاءَ بشيءٍ مُبينٍ يُعتبَرُ صادقًا فيما دعا إليه، فبقي تحقيقُ أنّ ما سيجيءُ به موسى مُبينٌ، أو غيرُ مُبينٍ. وهذا قد استبقاه كلامُ فِرعونَ إلى ما بعدَ الوقوعِ، والنّزولِ ليتأتّى إنكاره إن احتاجَ إليه[4].

التَّعْبيرُ بالأَخصِّ تحقيقٌ للصِّدقِ قَولًا وفِعلًا

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/40.
(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/240.
(3) رضا، تفسير المنار: 9/40.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/123.

﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأعراف: 107]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

العَلاقةُ بين طلَبِ فرعونَ للآيةِ الحسّيّةِ، وإلقاءِ العصَا لِتكونَ مُعجزةً مرئيّةً

لمّا ساقَ فِرعونُ - شاكًّا - طلبَهُ بتقديمِ البيّنةِ، ناسبَ أن يفاجئَهُ تعالى بإظهارِ الآيةِ البيّنةِ دالًّا على ذلك بالفاءِ المُسبِّبةِ المُعَقِّبَةِ من غيرِ مُهلَةٍ؛ مُعبِّرًا عن فعلِ موسى عليه السلام بقولِه: ﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ﴾، وعَن فِعلِهِ هو سُبحانَه ﴿فَإِذَا هِيَ﴾؛ أي: العصا ﴿ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَأَلْقَىٰ﴾: اللّامُ والقافُ والياءُ أصولٌ ثلاثةٌ: أحدُها: طَرحُ شيءٍ. وألقَيتُهُ: نَبَذتُهُ إلقاءً[2]. وهو: طَرحُ الشّيءِ حيثُ تَلْقاه؛ أي: تَراهُ، فيُرَى، ويُؤخَذ، ثمّ صارَ في التَّعارُفِ اسمًا لكُلِّ طَرْحٍ[3].

2) ﴿عَصَاهُ﴾: العينُ والصّادُ والحرفُ المُعتَلُّ أصلان صَحيحان، إلّا أنّهما مُتَبايِنانِ يدُلُّ أحَدُهُما على التَّجمُّعِ، ويدُلُّ الآخَرُ على الفُرقَةِ. فالأوّلُ العَصا، سُمّيَت بِذلِكَ لاشتِمالِ يَدِ مُمسِكِها عَلَيها؛ أي: أنَّ اليَدَ والأصابعَ تَجتَمِعُ عَلَيها، أو هو مَأخوذٌ من قَولِ العَرَبِ: عَصوتُ القَومَ أعصوهم، إذا جمعتَهم على خيرٍ أو شَرٍّ. وتُضرَبُ العَصا مثلًا للاجتماعِ، ويُضرَبُ انشقاقُها مثلًا للافتراقِ الَّذي لا يكونُ بعدَهُ اجتِماعٌ[4]. ولعلّ استحضارَها أداةٌ فاعلةٌ في التّعبيرِ، وتوظيفَها رمزٌ مُعبِّرٌ في الاستعمالِ في هذه الآيةِ الكريمةِ؛ لأداءِ دلالةِ اجتماعِ السّحرةِ بموسى ومَن معَهُ، وافتراقِ الجميعِ عن فِرعونَ.

3) ﴿ثُعْبَانٌ﴾: الثّاءُ والعينُ والباءُ أصلٌ يدُلُّ على امتِدادِ الشّيءِ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 3/80.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (لقي).
(3) الرّاغب، المفردات: (لقي).
(4) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (عصا).

وانبساطِهِ، يَكونُ ذلكَ في ماءٍ وغيرِهِ[1]. فثَعَبْتُ الماء أَثْعَبُهُ ثَعْباً؛ أي: فجّرتُهُ فانثَعَبَ، ومنه اشتقَّ المِثْعَبُ وهو المِرْزابُ. وانثعبَ الدّمُ مِنَ الأنفِ. والثُّعبانُ: الحيّةُ الطَّويلُ الضَّخمُ[2]، سُمّي بذلك مِنَ القِياسِ، فِي انبِساطِهِ وامتِدادِهِ خَلقًا وحَرَكَةً[3].

4) ﴿مُّبِينٌ﴾: الباءُ والياءُ والنّونُ أصلٌ واحدٌ، يدُلُّ إمّا على بُعدِ الشّيءِ، وإمّا على انكشافِهِ؛ فبانَ الشّيءُ، وأبانَ إذا اتّضحَ وانكشَفَ[4]. وسُمّي ما يُشرَحُ به المُجمَلُ والمُبهَمُ مِنَ الكلامِ بَيانًا، ويُقالُ: بَيَّنتُهُ وأبَنتُهُ: إذا جعلتَ له بَيانًا تكشِفُهُ[5]. ومِنَ المعنى الأوّلِ استُنبِطَت دلالةُ الفصلِ والتّمييزِ، ويؤولُ معناه إلى الوضوحِ والظّهورِ؛ لأنّ المَفصولَ المُتميِّزَ مِن غيرِهِ يلفِتُ النّظرَ. والانكشافُ، والوضوحُ، والظّهورُ هو المعنى الّذي جاءَت به كلُّ مُفرداتِ التّركيبِ القرآنيّةِ عدا الظّرف (بين)[6]. وبه تُفسَّرُ لفظةُ ﴿مُّبِينٌ﴾ في الآيةِ المُبارَكةِ.

المعنى الإجْماليُّ:

بَـدْءُ تَـحـدِّي مـوسَى لفرعونَ ومَلئِه، بإظهارِ البيّناتِ، وإبرازِ المُعجِزاتِ

ألقى موسى عصاه الّتي كانَت بيدِهِ أمامَ فِرعونَ، فإذا هي ثعبانٌ ظاهرٌ بيّنٌ لا خفاءَ في كونِهِ ثُعبانًا حقيقيًّا كبيرًا يسعى في خِفّةٍ وسُرعَةٍ. ففي كونِ الثّعبانِ مُبينًا وُجوهٌ: الأوّلُ: أنّه تميَّزَ عمّا عملَتهُ السَّحرةُ مِنَ التّمويهِ والتّلبيسِ، وبذلك تَتَميَّزُ مُعجزاتُ الأنبياءِ عليهم الصّلاةُ والسّلامُ على تمويهِ السَّحرَةِ وتخيّلِهِم. الوجهُ الثّاني: أنّهم شاهدوا العَصا قدِ انقلَبَت حيّةً، ولم يَشتَبِه ذلكَ عليهم. الوجهُ الثّالثُ: إنّ ذلكَ الثّعبانَ لمّا كانَ مُعجزةً لموسى عليه السلام، كانَ من أعظمِ

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ثعب).
(2) الخليل، العين: (ثعب).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ثعب).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (بين).
(5) الرّاغب، المفردات: (بان).
(6) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (بون - بين).

الآياتِ الّتي أبانَت صدقَ قولِهِ في أنّهُ رسولٌ مِن ربِّ العالَمين عن قَولِ المُدَّعي الكاذِبِ[1].

وتُرشِدُ الآيةُ الكريمةُ إلى: أنَّ انقِلابَ خَشَبَةٍ لَحمًا ودَمًا مَبثوثًا بِهِ الحياةُ مِن أعظمِ الإعجازِ؛ إذ يَحصُلُ مِن انقِلابِها ثُعبانًا مِنَ التّهويلِ الّذي يتطلَّبُهُ المَوقِفُ ما لا يَحصُلُ في غيرِهِ[2]، وإلى بيانِ واسعِ قدرةِ اللّهِ، وعظيمِ تصرُّفِهِ في مَوجوداتِ الكونِ الّذي أنشأَهُ، وفيها دليلُ نصرةِ اللّهِ لرسلِهِ، والمُصطَفَيْنَ مِن عبادِهِ.

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

سِرُّ التّعْبيرِ بالإلقاءِ في قوله: ﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ﴾:

الإلقاءُ أبلغُ قصدًا في الدّلالةِ، وفيه إشارةٌ إلى شَجاعةِ مُوسَى وإقْدامِهِ

فالإلقاءُ: طَرحُ الشّيءِ حيثُ تلقاهُ؛ أي: تراهُ[3]، وبذا فهو أبلغُ في الدّلالةِ على القَصدِ مِن غيرِهِ مِنَ الأفعالِ المُشابِهةِ لهُ، مثل: طَرَح، أو رَمَى، ويشيرُ الإلقاءُ إلى أنَّ موسى عليه السلام كانَ شُجاعاً في دعوتِهِ، إذ ألقى عصاه بثقةٍ وإقدامٍ؛ فأظهرَ اللّهُ تعالى قوَّةَ موسى وضعفَ فِرعونَ في هذا المَوقِفِ.

نُكتةُ تخْصِيصِ العصَا الحِسّيّةِ، بالمُعجِزةِ الإلهيّةِ:

قلبُ الإنسانِ يَسكُنُ بمَا يألَفُهُ، ويأْنسُ لما يَعرِفُه

إنّما أظهرَ له المُعجِزةَ مِن عصاهُ لطولِ اقترانِهِ بها، ومُصاحبتِهِ إيّاها، فالإنسانُ إلى ما ألفَهُ أسْكَنُ بقلبِهِ. فلمّا رأى ما ظهَرَ في العصا مِنَ الانقِلابِ أخذَ موسى عليه السلام في الفرارِ لتحقُّقِهِ بأنّ ذلك مِن قهرِ الحقائقِ، وفي هذا إشارةٌ إلى أنّ السّكونَ إلى شيءٍ غِرَّةٌ وغَفلةٌ[4]، أو لأنّهُ أضافَها إلى نفسِهِ حين قالَ: ﴿هِيَ عَصَايَ﴾ [طه: 18]، ثمّ جَعَلَها مَحلَّ حاجاتِهِ حيث قال: ﴿وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾﴾ [طه: 18]، ففيه

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/159، والخازن، لباب التّأويل: 2/233.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/357.
(3) الرّاغب، المفردات: (لقي).
(4) القشيريّ، لطائف الإشارات: 1/555.

إشارةٌ إلى أنَّ كلَّ شيءٍ أضفتَهُ إلى نفسِكَ، ورأيتَهُ مَحلَّ حاجاتِكَ، فإنّهُ ثُعبانٌ يبتلعُكَ، ولهذا ﴿أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ ۝١٩﴾ [طه: 19]؛ يعني: أخرجها عن مهمّتها الأصليّة، ولا تتركها في يدك، ولا تتمسّكْ بها ولا تتوكّأْ عليها، كما كنت تفعل من قبل، وعلى ذلك فالأمر بإلقائها قبل تحوّلها ثعبانًا، دليلٌ على أنّه ما كانَ قادرًا على أن يجعلَها في يده ثُعبانًا، حتّى يلقها على الأرض فتتحوّل[1].

دَلالةُ التَّعْبيرِ، بقوله: ﴿فَإِذَا﴾:

الـدّلالـةُ على المُـفـاجـأةِ، بحدُوثِ الحادثِ مِن غَيْرِ تَرقُّبٍ

دلَّت ﴿فَإِذَا﴾ المُفاجِئَةُ بقرينةِ الفاءِ على سرعةِ انقلابِ العصا حيّةً، وعلى حدوثِ الحادثِ عَن غيرِ ترقُّبٍ. وهي ظرفُ مَكانٍ بمَنزِلَةِ ثمّةَ وهناك في هذا المَوضِعِ، أو: هي ظرفُ زَمانٍ في كلِّ مَوضِعٍ[2].

نُكتةُ العُدولِ إلى التّعْبيرِ باسْمِ الفاعلِ في السِّياقِ:

لـفـظُ (مُـبـين) يـــدلُّ عـلى شِـدّةِ الظُّـهورِ والوضُوحِ الّذي لا شكَّ فيه

وصفُ الثُّعبانِ - واشتقاقُهُ مِن ثعبتُ الماءَ فانثعبَ إذا فجَّرتُهُ فانفجرَ[3]، أو: هو مُشتقٌّ مِن ثَعَبَ؛ بمعنى: جرى جَريًا مُتَّسِعًا، والثَّعْبُ: المَجرَى الواسعُ، وسُمّي الثّعبانُ بذلك؛ لجريهِ بسرعةٍ مِن غيرِ رِجْلٍ، كأنّه ماءٌ سائلٌ، ولذا شُبِّهَ به الماءُ الجاري[4] - بأنّه ﴿مُّبِينٌ﴾ الّذي هو اسمُ فاعلٍ مِن (بان)؛ بمعنى: ظهرَ؛ ليدُلَّ على شدّةِ الظّهورِ من أجلِ أنَّ زيادةَ المَبنَى تدُلُّ على زيادةِ المعنى؛ أي: ظاهرٌ أمرُهُ غيرُ مُتخيَّلٍ، وواضحٌ لا لَبسَ فيهِ، لا يُشَكُّ في كونِهِ ثُعبانًا، وهو الحَيّةُ العَظيمةُ[5].

دَلالةُ الجُملةِ الاسْميّةِ بينَ الحقيقةِ والمَجازِ:

تـنـوُّعُ دَلالاتِ التّعْبيرِ، سَعةٌ في المعنى، وبيانٌ للسِّياقِ

إيثارُ الجملةِ الاسميّةِ ﴿فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ﴾؛ للدِّلالةِ على كمالِ سُرعةِ الانقلابِ، وثَباتِ وصفِ الثُّعبانيّةِ فيها، كأنّها في الأصلِ كَذلِكَ[6].

---

(1) إسماعيل حقّي، روح البيان: 3/211 (بتصرّف).

(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/436، والنّسفيّ، مدارك التّنزيل: 1/592.

(3) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 4/137.

(4) الخفاجيّ، عناية القاضي: 7/178.

(5) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/258، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/123.

(6) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/258.

وحَملُ الخبرِ ﴿ثُعۡبَانٞ﴾ على المبتدأ ﴿هِيَ﴾ العائدِ على (العصا) يكونُ على سبيلِ المواطأةِ والموافقةِ، مثل: الإنسانُ عالِمٌ، أو يكونُ على سبيلِ التّشبيهِ البليغِ الّذي حُذِفَ منه وجهُ الشَّبَهِ، وأداةُ التّشبيهِ، مثل: أبو يوسفَ، أبو حَنيفةَ[1]، والصّحيحُ أنَّ المُرادَ بها الحقيقةُ بأمارةِ الضّميرِ ﴿هِيَ﴾ في السّياقِ؛ أي: أنَّ العصا انقلبَت حيّةً حقيقةً، وبدلالةِ المَواضِعِ الأخرى مِن قصّةِ موسى عليه السلام الدّالَّةِ على التهامِ عصاهُ وابتلاعِها بقوّةٍ وسرعةٍ وبقُدرةِ اللّهِ تعالى ما ألقاهُ سَحرةُ فِرعونَ، وأوهَموا النّاسَ أنّهُ حَقٌّ وهو باطلٌ، كقولِهِ تعالى: ﴿فَأَلۡقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلۡقَفُ مَا يَأۡفِكُونَ ٤٥﴾ [الشّعراء: 45].

سِرُّ تنوُّعِ التّعبيرِ بالألفاظِ المُتقارِبةِ المعنى:

أوصَافُ العصَا مُختلِفاتٌ، تَتناقضُ في ظاهرِها، وتَتكامَلُ في حقيقتِها

عُبِّرَ عنِ الثّعبانِ في آيةٍ أخرى بالحَيَّةِ [طه: 20]، وفي آيةٍ أخرى بالجانّ [القَصص: 31]، والجانُّ: هو المائِلُ إلى الصّغرِ مِنَ الحيّاتِ، والثّعبانُ: هو المائِلُ إلى الكبرِ منها، والحَيّةُ: جنسٌ يشمَلُ الكبيرِ والصّغيرِ، وشبّهَها بالجانِّ أيضًا لخفّتِها وسرعتِها، ويَحتَمِلُ أنّه شبَّهَها بالشّيطانِ لقولِهِ تعالى: ﴿وَٱلۡجَآنَّ خَلَقۡنَٰهُ مِن قَبۡلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ٢٧﴾ [الحِجر: 27]، ويَحتَمِلُ أنّها كانَت أوّلًا صغيرةً كالجانِّ ثمّ عَظُمَت فصارَت ثُعبانًا[2]. وعَدَلَ إلى ذلك ليبيِّنَ أنّ هناك فارقًا بينَ مُختلِفاتٍ تتناقضُ في ظاهرِها، ومُختلِفاتٍ تتكاملُ في حقيقتِها، فانقلابُ العصا ثعبانًا مرّةً، وحيَّةً مرّةً ثانيةً، وجانًّا أخرى؛ فكأنَّها تمثّلَت في كلِّ مرّةٍ بمثالٍ يُرعِبُ مَن يراهُ، وفي كلِّ مرَّةٍ لها شكلٌ مَخصوصٌ؛ فهي مرّةً ثعبانٌ، ومرّةً حيّةٌ، وثالثةً جانٌّ، أو تكون ثُعبانًا عندَ مَن يخيفُهُ الثّعبانُ، وتكون حيّةً عندَ مَن تخيفُهُ الحيّةُ، وتكون جانًّا عندَ مَن يخيفُهُ الجانُّ، ليتحقَّقَ أنَّ

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 3/242.

(2) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 24/114، والشّوكاني، فتح القدير: 4/114 - 115.

إشاعةَ الإبهامِ هو عينُ البيانِ للمُبهَم[1]. قالَ الزّمخشريُّ: "فإن قلتَ: كيفَ ذُكِرَت بألفاظٍ مُختلِفةٍ: بالحيّةِ، والجانِّ، والثّعبانِ؟ قلت: أمّا الحيّةُ فاسمُ جنسٍ يقعُ على الذّكرِ والأنثى، والصّغيرِ والكبيرِ، وأمّا الثُّعبانُ والجانُّ فبينهما تنافٍ؛ لأنَّ الثّعبانَ العظيمُ مِنَ الحيّاتِ، والجانَّ الدّقيقُ. وفي ذلك وجهان:

أحدهما: أنّها كانَت وقتَ انقلابِها حَيَّةً، تنقلِبُ حيّةً صفراءَ دقيقةً، ثمّ تتورَّمُ ويتزايدُ جرمُها حتّى تصيرَ ثعبانًا، فأُريدَ بالجانِّ أوّلُ حالِها، وبالثّعبانِ مآلُها. الثّاني: أنّها كانَت في شخصِ الثّعبانِ وسرعةِ حركةِ الجانِّ. والدّليلُ عليه قولُهُ تعالى: ﴿فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ﴾ [القصص: 31]"[2].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(النّبْذُ)، و(الطّرْحُ)، و(القَذْفُ)، و(الرّمْيُ)، و(الإِلْقاءُ):

النّبذُ: إلقاءُ الشّيءِ استهانةً بهِ، وإظهارًا للاستغناءِ عنهُ، وطرحُهُ لقلّةِ الاعتدادِ بهِ، ولذلك يُقالُ: نَبَذتُهُ نبذَ النَّعْلِ الخَلَقِ[3]؛ أي: نبذًا مع إهمالٍ، والطَّرحُ: اسمٌ لجنسِ الفعلِ، وهو إلقاءُ الشّيءِ بعيدًا؛ لقلّةِ الاعتدادِ بهِ[4]. والقَذفُ: الرَّميُ البعيدُ[5] المُطلَقُ دونَ قيدٍ، والإلقاءُ: طرحُ الشّيءِ حيثُ تلقاهُ؛ أي: تراهُ[6].

لَفْظُ (الإلقاءَ) أَنْسَبُ في الاستعمالِ، وأَبْلَغُ في الدّلالةِ على المقصودِ في السِّياقِ

وبذا يتبيّنُ أنَّ الإلقاءَ أنسبُ لسياقِ الآيةِ الكريمةِ، وأبلغُ في الدّلالةِ على قصديةِ الطَّرحِ القريبِ المَرئيِّ المُشاهَدِ حيثُ تريدُهُ، وحيثُ تراهُ؛ بغيةَ التّأثيرِ.

(1) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 7/4282.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/58.
(3) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 297، والرّاغب، المفردات: (نبذ).
(4) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 297، والرّاغب، المفردات: (طرح).
(5) الرّاغب، المفردات: (قذف).
(6) الرّاغب، المفردات: (لقي).

(الثُّعبانُ)، (الحيّةُ)، (الجانُّ):

لَفْظُ الثّعبانِ أَنْسَبُ هُنا لِلسِّياقِ، لِيحقّقَ تَلقُّفَ الحيّاتِ الّتي ألقاهَا السَّحرةُ

عَبّرَ عنِ الثّعبانِ في آيةٍ أخرى بالحيّة [طه: 20]، وفي آيةٍ أخرى بالجانّ [القصص: 31]، والجانُّ: هو نوعٌ مِنَ الحيّاتِ دقيقُ الحجم، خفيفُ الحركةِ، مائلٌ إلى الصّغرِ، أو الصَّغيرُ مِنَ الْحَيّاتِ. والثُّعبانُ: هو المائلُ إلى الكبرِ، والضّخامةِ، والامتدادِ؛ فهو الحيَّةُ الضّخمُ الطَّويلُ، الذّكَرُ خاصَّةً. والحيّةُ: جنسٌ يشمَلُ الكبيرَ والصّغيرَ. وشبّهها بالجانّ أيضًا؛ لخفتِها وسرعتِها، ويَحْتَمِلُ أنّه شبَّهَها بالشّيطانِ لقولِه تعالى: ﴿وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ۝٢٧﴾ [الحجر: 27]، ويَحْتَمِلُ أنّها كانَت أوّلًا صغيرةً كالجانّ، ثمّ عَظُمَت فصارَت ثُعبانًا[1].

وقد عَرَضَ الزّمخشريُّ في تفسيرِ قولِه تعالى: ﴿فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ۝٢٠﴾ [طه: 20] لتشبيهِ عصا مَوسى مرّةً بالحيّةِ، وأخرى بالجانِّ، وثالثةً بالثّعبانِ، فقالَ: "إنّ الحيّةَ اسمُ جنسٍ يشمَلُ الذّكرَ والأنثى والصّغيرَ والكبيرَ، في حين أنّ بينَ الثّعبانِ والجانِّ تنافيًا؛ فالثّعبانُ: العظيمُ مِنَ الحيّاتِ، والجانُّ: الدّقيقُ منهما"، ثمّ وجَّهَ جمعَهُما في التّشبيهِ بأمرين: الأوّلُ: أنّها تبدأُ دقيقةً كالجانِّ، ثم تتورّمُ وتعظمُ كالثّعبانِ، والثّاني: أنّها في شخصِ الثّعبانِ، وسرعةِ حركةِ الجانِّ[2].

وأيضًا أنَّ ما قارَنَ كلَّ اسم في آيتِه يشيرُ إلى شيءٍ مِن هذا: فمع الثّعبانِ - وقد وُصِفَ بالعِظَمِ - ذُكِرَ لَفْظُ ﴿مُّبِينٌ﴾ ﴿فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ۝١٠٧﴾ [الأعراف: 107] و[الشّعراء: 32]، فالعِظَمُ أحدُ أسبابِ الوضوحِ والظّهورِ، ومع الجانِّ ذُكِرَ الاهتزازُ - الّذي هو لازمُ خفَّةِ الحركةِ - ومع الحيّةِ ذُكِرَ السّعيُ؛ أي: الجَرْيُ، وهو حركةٌ مُطَّرِدَةٌ مِن أهمِّ مَظاهرِ الحياةِ[3].

(1) ابن سيده، المحكم: 2/95، والفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 24/114، والشّوكاني، فتح القدير: 4/114 - 115، وابن منظور، لسان العرب: (ثعب)، (جنن).

(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/58.

(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (ثعب).

فلفظُ الثّعبانِ أنسبُ هنا لسياقِ الآيةِ؛ لكونِ مَشهَد تَلقُّفِ العِصي الّتي تمثلَت في هيئةِ الحيّاتِ الّتي ألقاها السّحرةُ، فملأتِ المكانَ، يناسبُ تلقُّفَها مِن لدنْ حيّةٍ عظيمةِ الخَلقِ، خفيفةِ الحركةِ، وما يصحَبُ ذلك مِن فزعِ قلوبِهم نتيجةَ رؤيتِهم لهذهِ المُعجزَةِ مُجسَّدَةً في هَيْئَةِ ثعبانٍ، ولذلك جاءَ بما خَلْقُهُ خَلْقُ الثُّعبانِ العَظيمِ؛ أي: الكَبير منَ الحيّاتِ، واهتزازُهُ، وحركتُهُ، وخِفّتُهُ كاهتزازِ الجانِّ وخِفّتِه[1].

(1) ابن سيده، المحكم: 2/96، وداود، معجم الفروق الدّلاليّة، ص: 165.

﴿وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِيَ بَيۡضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ١٠٨﴾ [الأعراف: 108]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لمّا تحولَتِ العصا حيَّةً عظيمةً ظاهرةً للعِيانِ أعقبَ المُعجزةَ بإثرِ الأولى، وأردفَ الآيةَ بالأخرى؛ لأنَّ "كَثرةَ الدّلائلِ توجِبُ القوَّةَ في اليقينِ، وزوالِ الشّكِّ مِنَ المُلحِدينَ"[1]، وكانَ موسى آدمَ اللّونِ، أسمرَ البَشرةِ، فجعلَ اللّهُ تحوُّلَ يدِهِ بيضاءَ مِن غيرِ بَرَصٍ له آيةً، وحُجّةً على صدقِ قولِهِ: ﴿إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾[2].

الرَّبْطُ بين مُعجزَتَيْ إلقاءِ العصَا ونزْعِ اليدِ، لِتأكيدِ سُرعةِ الإتيانِ، بساطِعِ البُرهانِ

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَنَزَعَ﴾: النّونُ والزّايُ والعينُ أصلٌ صحيحٌ يدُلُّ على قَلْعِ شَيءٍ[3]. ونَزَعْتُ الشّيءَ: قَلَعْتُهُ، والمِنزَعُ: الشّديدُ النّزعِ[4]. ونَزَعَ الشّيءَ: جذبَهُ مِن مَقرِّهِ كنَزعِ القوسِ عن كبدِهِ[5]. وأزالَ اتّصالَ الشّيءِ بالشّيءِ[6]. والمعنى المحوريُّ لِلَّفظَةِ اقتلاعٌ بجَذْبٍ قويٍّ للشّيءِ ممّا يلتحِمُ بهِ، أو ينغمِسُ هو فيه لاصقًا به. ومنهُ: الجذبُ إخراجًا[7] بشدّةٍ وعُسرٍ، وهو معنى اللّفظةِ في الآيةِ الكريمةِ.

المعنى الإجْماليُّ:

حكى القرآنُ مُعجزةً أخرى لموسى عليه السلام تشهَدُ بصدقِهِ: وهي إخراجُ يدِهِ مِن قميصِهِ بعد أن أدخلَها فيه، أو مِن فتحةِ قميصِهِ المفتوحةِ إلى الصَّدْرِ، أو من تحتِ إبطِهِ؛ فإذا هي بيضاءُ بياضًا

سُطوعُ اليَدِ بالبَياضِ، تتابُعٌ للدّليلِ، وإفحامٌ لِصاحبِ القلْبِ العليلِ

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/160.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 13/17.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نزع).
(4) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (نزع).
(5) الرّاغب، المفردات: (نزع).
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/40.
(7) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (نزع).

عجيبًا خارقًا للعادةِ مِن غيرِ أنْ يكونَ بها عِلّةٌ مِن مرضٍ أو غيرِه: ﴿تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾ [طه: 22] و[النّمل: 12]، ولـمّا كانَ موسى عليه السلام أسمرَ اللّونِ جاءَ البياضُ في يدِهِ مُخالِفًا لبقيةِ لونِ بشرتِهِ؛ فصارَ بياضُها لافتَ الإنارةِ، جاذبًا للأنظارِ، بضوئِهِ اللّامعِ المُشِعِّ[1].

وتُرشِدُ الآيةُ الكريمةُ إلى أنَّ المُعجزاتِ أماراتٌ على تأييدِ اللّهِ لرسلِهِ، وأوليائِهِ، وتسليةٌ لقلوبِهِم، ودفعٌ للشّكِّ، وإبعادٌ للرّيبِ عن دعوتِهِم.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

نُكتةُ إيثارِ لفْظِ النّزْعِ، في قولِه تعالى: ﴿وَنَزَعَ﴾:

تَصويرُ ظُهورِ حُجّتِهِ الثّانيةِ، بقَصْدِ إرهابِ فِرعونَ ومَلَئِه

معنى: ﴿وَنَزَعَ﴾: أزالَ اتّصالَ شيءٍ عن شيءٍ، والواو عاطفةٌ، والمعنى هنا: أنّه أخرجَ يدَهُ من جيبِ قميصِهِ بعدَ أن أدخلَها في جيبِهِ[2]، ويعني النّزعُ: إخراجَ اليدِ بعُسرٍ، وشدّةٍ؛ كأنّ هناك شيئاً يُقاومُ إخراجَ اليدِ، ومثالُ ذلك قولُهُ: ﴿تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ﴾ [آل عمران: 26][3]، وكأنّه عليه السلام أرادَ تصويرَ ظهورِ حجّتِهِ الثّانيةِ الدّالَّةِ على صِدقِ رسالتِهِ بشيءٍ مِنَ الشّدَّةِ والاقتلاعِ؛ ليُرهِبَ فِرعونَ وأشرافَ قومِهِ المُحيطينَ بهِ في مَجلسِ مُلْكِه.

بَلاغةُ التّتْميمِ، في التَّعبيرِ عن بَياضِ اليدِ بقولِهِ تعالى: ﴿بَيْضَآءُ﴾:

التّنبيهُ على عِظَمِ بَياضِ اليدِ ونُورِها، ولَمَعانِها الخارجِ عنِ العادةِ

معنى ﴿بَيْضَآءُ﴾؛ أي: بَياضًا خارجًا عنِ العادةِ يَجتمِعُ عليها النّاظرونَ، أو بَيضاءَ للنُّظّارِ لا أنّها كانَت بَيضاءَ في جِبِلَّتِها[4]، ولمّا كانَ البياضُ كالعَيبِ بَيَّنَ اللّهُ تعالى في غَيرِ هذهِ الآيةِ أنّها ﴿بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾ [النّمل: 12]؛ أي: مِن غيرِ عَيبٍ مِن بَرَصٍ أو مَرَضٍ[5]. وفي ذكرِ ﴿لِلنَّٰظِرِينَ﴾ تنبيهٌ على عِظَمِ بياضِها؛ إذ لا تكونُ بيضاءَ

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/160، والشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 7/4284.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/40.
(3) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 7/4282 - 4283.
(4) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/27.
(5) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/160.

للنّظّارةِ إلّا إذا كان بياضُها بياضًا عجيبًا خارجًا عنِ العادةِ، يَجتمِعُ النّاسُ للنّظرِ إليهِ، كما تَجتمِعُ النّظّارَةُ للعَجائِبِ[1]، ففيه تتميمٌ لمعنى البياضِ[2].

فائِدةُ التّعدّي باللّامِ، في سِياقِ الكلامِ:

تضمَّنَ قولُهُ: ﴿بَيْضَآءُ﴾ معنى الفعلِ، كأنّه قيلَ: ابيضَّت اليدُ للنّاظرينَ، واللّامُ للتّعديةِ، وهو يُريدُ به تعديةً خاصّةً لا مُطلَقَ التّعديةِ؛ أي: تَعديةَ الفعلِ القاصرِ إلى ما لا يتعدَّى لهُ بأصلِ وضعِهِ؛ ويكونُ المعنى حينئذٍ تقريبَ المُتعلِّقِ لمُتعلِّقٍ تقريبًا لا يجعلُهُ في مَعنى المفعولِ بهِ. وقيلَ: إنَّ معنى التَّعديةِ شِبهُ المِلْكِ. وقيل أيضًا: إنَّ اللّامَ بمعنى (عِندَ)، ويَكونُ مُفادُها: أنّها بيضاءُ بَياضًا مُستَقِرًّا في أنظارِ النّاظرينَ، ويكونُ الظّرفُ مُستَقِرًّا؛ يُجعَلُ حالًا مِن ضميرِ يدِهِ[3].

شِدَّةُ بَياضِ اليدِ، اسْتقرَّ في أنظارِ النّاظرينَ، بإعجازٍ وإغرابٍ

معنَى (أل) في لَفْظِ (النّاظرين):

الألفُ واللّامُ في ﴿لِلنَّٰظِرِينَ﴾ للاستغراقِ العُرْفيِّ؛ أي: لجميعِ النّاظرينَ في ذلكَ المَجلِسِ. وهذا يُفيدُ أنّ بياضَها كانَ واضحًا بيّنًا مُخالِفًا لونَ جلدِهِ بصورةٍ بعيدةٍ عن لونِ البَرَصِ[4].

تميّزُ بَياضِ اليدِ، جعلَها مَرئيّةً ومُبهِرةً، لجميعِ النّاظرينَ إليها

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(نزعَ)، و(أخرجَ):

عبّرَ بالنّزعِ دونَ الإخراجِ إشارةً إلى أنّه يُنْزِلُ نفسَه مَنزِلةَ مَن فارقَ يدَهُ لشدّةِ مُخالَفةِ لونِها للوْنِهِ[5]، فضلًا عن أنّ دلالةَ (النّزع)

عبّرَ بالنّزعِ وكأنّه فارقَ يدَهُ من شِدّةِ مُخالَفةِ لونِها للَوْنِهِ

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/160، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/358.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/40، والتّتميم، والتّمام: هو اعتراضُ كلامٍ في كلامٍ لم يتمَّ معناه. يُنظر: مطلوب، معجم المصطلحات البلاغيّة، ص: 251.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/40 - 41.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/124.
(5) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 3/242.

تعني: إخراجَ اليدِ بعُسرٍ، كأنَّ هناك شيئاً يُقاومُ إخراجَ اليدِ، ومنه - على سبيلِ الجَذْبِ المعنويِّ - قولُهُ تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلۡمُلۡكَ مِمَّن تَشَآءُ﴾ [آل عمران: 26]؛ لأنّ نزعَ المُلكِ ليس مَسألةً سهلةً؛ ففي الغالبِ يُحاوِلُ صاحبُ المُلكِ التّشبّثَ بملكِهِ، لكنّ الحقَّ ينزعُهُ مِن هذا المُلكِ[1].

(1) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 7/4282 - 4283.

﴿قَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِ فِرۡعَوۡنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٞ ١٠٩﴾ [الأعراف: 109]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

ظُهور المعجزاتِ، وإنكار حاشِيةِ فرعون، ما بأَعْيُنِهم يَرَوْنَ

لمّا أتَى بالبيانِ، وأقامَ واضحَ البرهانِ، اقتضى الحالُ السُّؤالَ عمّا أبرَزوهُ مِنَ المَقالِ في جوابِهِ، فقالَ: ﴿قَالَ ٱلۡمَلَأُ﴾، فثارَت نفوسُ بطانةِ فِرعونَ وعظماءِ قومِهِ بردِّهِ[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿لَسَٰحِرٌ﴾: السّينُ والحاءُ والرّاءُ أصولٌ ثلاثةٌ مُتباينَةٌ: أحدُها: خَدْعٌ، وشِبْهُهُ؛ أي: ما خفيَ، ولَطُفَ سببُهُ، وهو إخراجُ الباطلِ في صورةِ الحقِّ، وهو الخَديعةُ[2]، وكلُّ ما كانَ مِنَ الشّيطانِ فيه مَعونةٌ. وهو: الأُخَذَةُ الّتي تأخُذُ العينَ حَتَّى تَظُنَّ أنَّ الأمرَ كَما تَرى، وليسَ الأصلُ على ما تَرَى[3]. فالسِّحرُ: خِداعٌ وتخييلاتٌ، نحو ما يفعلُهُ المُشعبِذُ بصرفِ الأبصارِ عمّا يفعلُهُ لخفّةِ يدٍ، واستجلابِ مُعاونةِ الشّياطينِ بضربٍ مِنَ التّقرُّبِ إليهم[4]. وأصلُهُ التّخييلُ بما لا حقيقةَ له، ووسيلتُهُ خِداعُ الحواسِّ والقلبِ، وحدَّهُ الفخرُ الرّازيُّ في عُرفِ الشّرعِ بأنّه: المُختَصُّ بكلِّ أمرٍ يُخفَى سَبَبُهُ ويُتَخَيَّلُ على غيرِ حقيقتِهِ، ويجري مَجرَى التّمويهِ والخِداعِ[5]. وهو معنى اللّفظِ في الآيةِ.

المعنى الإجْماليُّ:

الإنكارُ وسيلةُ العاجزينَ عن ردِّ الحُجّةِ؛ لأنّه الأيسرُ في الاستدلالِ

قالَ الجُمهورُ والسّادةُ مِن قومِ فِرعونَ - بعدَ ما رأوا انقلابَ العصا ثُعبانًا واليدَ بيضاءَ، موافقين لقولِهِ قائلينَ مَقالتَهُ، ماضينَ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 3/80.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سحر).
(3) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللّغة: (سحر).
(4) الرّاغب، المفردات: (سحر).
(5) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (سحر).

على رأيِهِ، بعدَ ما رَجَعَ إليه رَوْعُه، واستقرَّ على عَرشِ مملَكتِهِ -: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ﴾[1]، قاصدينَ بهذا القولِ ذمَّ موسى، والحطَّ مِن قدرِهِ بوصفِهِ بالسِّحرِ، مع أنَّ السِّحرَ إذ ذاكَ كانَ في أعلى المَراتِبِ؛ إذ لم يُمكِنهُم مع ما ظهرَ على يدِهِ نسبةُ شيءٍ إليهِ غيرَ السّحرِ، وبالغوا في وصفِهِ ليثبتوا أنّهُ راسخٌ في علمِ السّحرِ، ماهرٌ فيه[2].

وترشدُ الآيةُ الكريمةُ إلى أنَّ اللّهَ إذا أرادَ هوانَ عبدٍ لا يزيدُ الحقَّ حُجّةً، إلّا ويزيدُ لذلك المُبطلِ فيه شُبهةً، فكلَّما زادَ موسى عليه السلام في إظهارِ المُعجزاتِ ازدادوا حَيْرةً في التّأويلاتِ[3].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بَلاغةُ الفَصْلِ في الآيةِ الكريمةِ:

تـوافُـقُ الـوصْـفِ بتَـكـرارِ الـكـلامِ، تصديقٌ وإذعانٌ بالطّاعةِ المُطْلَقةِ

﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ﴾ استئنافٌ جرى على طريقةِ الفصلِ بوصفها عبارة محاورةٍ جارية بينَ موسى وبينَ فِرعونَ وملئِهِ[4]. وفِرعونُ كانَ مُشارِكًا لهم فيما قالوه؛ لأنّ القرآنَ حكى عن فِرعونَ في قوله: ﴿قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ۝٣٤﴾ [سورة الشّعراء: 34]، والجمعُ بينَهما: أنَّ فِرعونَ وهُم قالوا هذا الكلامَ، فحكى هنا قولَهم وهُناك قولَهُ. أو قالَهُ ابتداءً فتلقَّنَهُ منه الملأُ، فقالوهُ لأعقابِهِم، أو قالوهُ عنه للنّاسِ على طريقِ التّبليغِ، كما يفعَلُ الملوكُ؛ يرى الواحدُ منهُمُ الرّأيَ فيُكلِّمُ به مَن يَليهِ مِنَ الخاصّةِ، ثمّ تُبلِغُهُ الخاصّةُ العامّةَ. والدّليلُ عليه أنّهم أجابوهُ في قولِهِم: ﴿أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ۝١١١ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ﴾[5]، وإعادتُهُم كلامَ فِرعونَ بلفظِهِ للموافقةِ التّامّةِ، بحيث لم يكتفوا بقولِ: نَعم، بل أعادوا كلامَ فِرعونَ ليكونَ

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 3/455.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/358.
(3) القشيريّ، لطائف الإشارات: 1/556.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/41.
(5) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/139.

قولُهم على تمامِ قولِهِ[1] تصديقًا، وتقريرًا لما قالَهُ[2]، وتخصيصُ الملأِ بالذّكرِ مع عُمومِ الرّسالةِ لهُم ولغيرِهِم؛ لأنَّ مَن عَداهم كالأتباعِ لَهم[3].

عِلّةُ التَّعْبيرِ باسْمِ الإشارةِ، فيما تَحويه الآيةُ من عِبارةٍ:

في نِسبَتِه للسّحرِ الباطلِ، تَوهُّمُهم إبطالَ مُعْجِزتِه وتَفنيدَها

كانَ السّاحرُ عندَهُم في ذلك الزّمنِ أعلى المَراتِبِ وأعظمَ الرِّجالِ، ولكن وصفَهُم موسى بالسّحرِ مع مُدافعتِهم له عنِ النّبوّةِ ذمٌّ عظيمٌ وحطٌّ[4] لقدرِهِ؛ إذ لم يُمكنهُم في ظهورِ ما ظَهَرَ على يدِهِ نسبةُ شيءٍ إليه غيرَ السِّحرِ، ورسَّخَ هذا المعنى التّعبيرَ باسمِ الإشارةِ، فأكثرُ استعمالِ لفظِ (هذا) إذا كانَ مِن كلامِ الكفّارِ في التّنقُّصِ والاستغرابِ، كما قال: ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذۡكُرُ ءَالِهَتَكُمۡ﴾ [الأنبياء: 36]، ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ۝٤١﴾ [الفرقان: 41]، وغيرها. فهُم يَعدِلونَ عن لفظِ اسمِ ذلك الشّيءِ إلى لفظِ الإشارةِ تنقُّصًا وذَمًّا.

بَلاغةُ جماعِ المُؤكِّداتِ، في سِياقِ الآيةِ الكريمةِ:

تأكيدُ الوصْفِ بالسِّحرِ، دليلٌ على العِنادِ والنُّكرِ

أكَّدوا نِسبةَ السِّحرِ إليه بدخولِ (إنَّ) و(اللّام)[5]، وبلفظِ اسمِ الفاعلِ الدّالِّ على ثبوتِ السِّحرِ عندَهُم في الفاعلِ، ورسوخِهِ فيهِ، وعزَّزَ هذا المعنى وصفَهُ بـ ﴿عَلِيمٌ﴾ صيغة فعيل الّتي تدُلُّ على الثّبوتِ، واللّزومِ. ويَحْتَمِلُ أن يكونَ صيغةَ مُبالغةٍ بمعنى: (كثيرٌ)، أو صفةً مُشبَهةً بمعنى: (دائمٌ)، والمعنى على الاثنين أنّهم يَعنونَ أنّهُ عالِمٌ بالسِّحرِ ماهرٌ فيهِ، قد أخذَ عيونَ النّاسِ بخُدعةٍ، وأظهرَ لهم ما لا عهدَ لهم بمثلِهِ مِن أعمالِ السَّحرةِ[6]. وبالَغوا في وصفِهِ بأن قالوا: ﴿عَلِيمٌ﴾؛ أي: بالِغُ الغايةِ في علمِ السِّحرِ وخُدَعِهِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/124.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/259.
(3) الشّوكانّي، فتح القدير: 2/262.
(4) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/437.
(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/358.
(6) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/139.

وخيالاتِهِ وفنونِهِ[1]؛ لينفّسوا عنهُ بعضَ ما لحقَهُ مِنَ الكربِ[2]، ولمّا كانَ ذلكَ خارجًا عمّا ألفَهُ السَّحرَةُ قالوا: ﴿عَلِيمٌ﴾؛ أي: بالِغٌ في علمِهِ إلى حدٍّ عظيمٍ.

مُتشابِهُ اللّفْظِ بينَ آيةِ الأعراف (109)، وآيةِ الشّعراء (34):

اخْتيارُ التّركيبِ في كلِّ آيةٍ، يُشيرُ إلى تناسُبِ سِياقِ القَوْلِ والجوابِ

قال تعالى في الأعراف: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ﴾، وفي الشّعراءِ: ﴿قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ﴾ [الشّعراء: 34]؛ لأنّهُ لمّا تقدَّمَ في سورةِ الأعرافِ قولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ﴾ وقعَ ذكرُ الملأِ مَبعوثًا إليهم مع فِرعونَ؛ فناسبَ ذلك أنْ يُذْكَروا في الجوابِ حتّى يكون في قوّةِ أن لو قيلَ: (بُعِثَ إليهم وخوطِبوا؛ فقالوا)، ولم يكنْ ليناسبَ (بُعِثَ إليهم وخوطبوا؛ فقالَ فِرعونُ)، كما أنّ المُقابلةَ في هذه الآيةِ وقعَت بينَ موسى مع فِرعونَ وقومِهِ، وفي الشّعراءِ وقعَت بينَ موسى عليه السلام وفِرعونَ فقط[3].

ومِنَ المُتشابِهِ أيضًا ذكرُ اسمِ (فرعون) هنا، وإضمارُهُ في الشّعراء وطه. والجوابُ: أنَّ الملأَ في السّورتين كانوا المُتولّينَ للجريمةِ مِن تكذيبِ الآيةِ، وردِّ ما جاءَ به موسى عليه السلام، ولم يجرِ ذِكرٌ لفِرعونَ، ولا فيما تَلا الآيةَ في السّورتين، ويتلوها مِنَ المحاورةِ، والمُراجعةِ بينَ المَلإِ وأتباعِهِم إلى قولِهِ: ﴿رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾، فلمّا لم يقعْ إفصاحٌ باسمِهِ في هذه الجملةِ مع أنّهُ هو القائلُ على كلِّ حالٍ: ﴿ءَامَنتُم بِهِۦ﴾ إخبارًا أو استفهامًا إنكاريًّا ناسبَ هذا أن يُفصِحَ باسمِهِ؛ ليرتفعَ الالتباسُ، وهو إمكانُ أن يكونَ القائلُ ﴿ءَامَنتُم بِهِۦ﴾ غيرَ فِرعونَ[4].

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/358.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/15.
(3) ابن الزّبير، ملاك التّأويل: 1/214 - 215، وابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 3/242.
(4) ابن الزّبير، ملاك التّأويل: 1/219.

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(السِّحرُ)، و(الشّعبذةُ)، و(التّمويهُ):

السِّحرُ هو التّمويهُ، وتخيّلُ الشّيءِ بخلافِ حقيقتِهِ مع إرادةِ تجوّزِهِ على مَن يقصدُهُ بهِ. وسواء كان ذلك في سُرعةٍ، أو بُطءٍ. وفي القرآن ﴿يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾﴾ [طه: 66]. وأمّا الشّعبذةُ فما يكونُ مِن ذلك في سرعةٍ، فكلُّ شعبذةٍ سحرٌ، وليسَ كلُّ سحرٍ شعبذةً.

السِّحْرُ اسمٌ لِمَا دَقَّ مِنَ الحِيلةِ حتّى لا تُفْطَنَ الطّريقةُ، وهو مِنَ المُوبِقاتِ

أمّا التّمويهُ فهو تغطيةُ الصّوابِ، وتصويرُ الخطأ صورته. وأصلُه طلاءُ الحديدِ، والصُّفرِ (النّحاس الأصفر) بالذّهبِ، والفضّةِ؛ ليوهِمَ أنّه ذهبٌ، وفضّةٌ. ويكونُ التّمويهُ في الكلامِ وغيرِهِ، تقولُ: كلامٌ مُمَوَّهٌ؛ إذا لم تُبيّنْ حقائقَهُ، وحَلْيٌ مُمَوَّهٌ؛ إذا لم يُعيَّنْ جنسُهُ. والسِّحرُ اسمٌ لِمّا دقَّ مِنَ الحيلةِ حتّى لا تُفْطَنَ الطّريقةُ، وقالَ بعضُهُم: التّمويهُ اسمٌ لكلِّ حيلةٍ لا تأثيرَ لها، ولا يُقالُ تمويهٌ إلّا وقد عُرِفَ معناهُ، والمَقصِدُ منه. ويُقالُ: سِحرٌ، وإن لم يُعرَفِ المَقصدُ منهُ[1]، ومِن هنا فالسِّحرُ هو أنسبُ لسياقِ الآيةِ.

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 257 - 258.

﴿يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١١٠﴾﴾ [الأعراف: 110]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

تَتْميمُ مَشهدِ اتّهامِ موسَى بإخراجِ النّاسِ مِنَ الأرضِ، والاستيلاءِ على المُلْكِ

لمّا استَشعرَت نفوسُهُم ما صارَ إليهِ أمرُهُم مِن إخراجِهِم مِن أرضِهِم، وخلوِّ مَواطِنِهِم مِنهم، وخَرابِ بيوتِهِم، فبادَروا إلى الإخبارِ بذلكَ، وكانَ الأمرُ كما استَشعَروا؛ إذ أغرقَ اللّهُ فِرعونَ وآلَهُ، وأخلى مَنازِلَهُم مِنهُم، ونَبَّهوا على هذا الوَصفِ الصَّعبِ الّذي هو مُعادِلٌ لِقَتلِ الأنفُسِ[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تَأْمُرُونَ﴾: مع أنَّ للهمزةِ والميمِ والرّاءِ أصولًا أشيعُها: الأمرُ مِنَ الأمورِ، والأمرُ ضِدُّ النّهيِ[2]، إلّا أنّ مِن معانيهِ التّشاورَ، فمُرْني؛ بمعنى: أشِرْ عليَّ. فالائتمارُ: قَبولُ الأمرِ، ويُقالُ للتّشاورِ: ائتِمارٌ لِقبولِ بَعضِهم أمرَ بَعضٍ فيما أشارَ بهِ[3]. مَلاكُ الأمرِ إذن أنَّ استعمالَ الأمرِ غلَبَ في الطّلبِ الصّادرِ مِنَ الأعلى إلى مَن دونَهُ، فإذا التُزِمَ هذا كانَ إطلاقُهُ في الآيةِ الكريمةِ على وجْهِ التّلطُّفِ مع المُخاطَبينَ، وأيًّا كانَ فالمقصودُ منهُ الطّلبُ على وجهِ الإفتاءِ والاستشارةِ؛ لأنّ أمرَهُم لا يَتَعَيَّنُ العملُ بهِ[4].

المعنى الإجْماليُّ:

اتّجاهُ أشرافِ القومِ لتحريضِ شعْبِ مِصرَ على موسَى، واتّهامِه بالسِّحرِ

وتَشاورَ الملأُ في أمرِ موسى، وماذا يَصنعونَ؟ وكيفَ تكونُ حيلتُهُم في إطفاءِ نورِهِ، وإخمادِ كلمتِهِ، وظهورِ كذبِهِم وافترائِهِم؟ وتخوّفوا مِن معرفتِهِ أن يستميلَ النّاسُ بسحرِهِ فيما يَعتقدون، أو يَفترونَ؛

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/358 - 359.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (أمر).
(3) الرّاغب، المفردات، والزّمخشريّ، أساس البلاغة: (أمر).
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/43.

فيكون ذلك سببًا لظهورِهِ عليهم، وإخراجِهِ إيّاهُم مِن أرضِهِم[1].
وفيه مِنَ التّرهيبِ، والتّخويفِ لعامّةِ القومِ ما فيه، وكأنّ لسانَ حالِهِم: ها هو موسى عليه السلام قد وجَّهَ إرادتَهُ لسلبِ مُلكِكُم مِنكُم، وإخراجِكُم مِن أرضِكُم بسحرِهِ بأنْ يَستميلَ به بني إسرائيلَ، فيتبّعوه فينتزعَ منكُم المُلكَ، ويستبدَّ به دونَكُم، ويلي ذلك إخراج المَلكِ وعظماءِ رجالِهِ مِنَ البلادِ؛ لئلّا يناوِئوهُ لاستعادةِ المُلكِ منهُ[2].

وتُرشِدُ الآيةُ الكريمةُ إلى أنَّ مِن أهمِّ أسبابِ ردِّ الحقِّ، وعدمِ قبولِهِ، التّمسُّكَ بالسّلطةِ، ونعيمِها، والمالِ، وزينتِهِ، وفيها إشارةٌ إلى أهمّيّةِ المَشورةِ، والتّأنّي في اتّخاذِ القرارِ[3]، فضلًا عنِ التّلميحِ بأهمّيّةِ أرضِ الوطنِ للإنسانِ؛ فبها خوَّفوهُم، وأرهَبوهُم.

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

بَلاغةُ التَّعْبيرِ بالمضارعِ، والمصْدَرِ المؤوّلِ:

قولُهُم ﴿يُرِيدُ﴾ مُضارعٌ يدُلُّ على تجدُّدِ الإرادةِ فيهِ، وإصرارِهِ على إنفاذِ وعدِهِ، وفاعلُهُ عائدٌ على ﴿لَسَحِرٌ﴾ في الآيةِ السّابقةِ، والتّعبيرُ بالمصدرِ المُنسبكِ ﴿أَن يُخْرِجَكُم﴾ (المفعول به) أقوى في الدّلالةِ على حدثِ الإخراجِ، وتأكيدِ تحقُّقِهِ.

تَجدُّدُ الإرادةِ، والإصْرارُ على إنفاذِ الوعْدِ بالإخراجِ، وتأْكِيدُ تحقُّقِهِ

نُكتةُ نِسْبةِ الإخراجِ والأرضِ إليهم، في السِّياقِ الحكيمِ:

نسبةُ الإخراجِ إليهم عن طريقِ كافِ الخطابِ، وعلامةُ جمعِ العُقلاءِ تخصيصٌ للتَّحذيرِ بهم؛ زيادةً في التّخويفِ والتّرهيبِ، ويُرسِّخُ ذلك نسبةَ الأرضِ إليهم ﴿مِّنْ أَرْضِكُمْ﴾ على طريقةِ التّمليكِ، فحرَّضوهُم بأنَّ هذا السّاحرَ سيُفقِدُكُم استقلالَكُم، ويجعَلُكُم مَحكومينَ ببني إسرائيلَ، كما حكمَكُم الهِكْسوسُ مِن

التَّحذيرُ مِنَ الإخراجِ، ترهيبٌ لهم، وتحريكٌ للغيرةِ على الوطنِ

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 3/456.
(2) رضا، تفسير المنار: 9/53.
(3) اللاّحم، عون الرّحمن: 9/245.

قبلُ[1]؛ قصدًا إلى التّذكيرِ بأنّها أرضُهُم الّتي استوطنوها، وصارَت لهم مَوطِنًا، وتقريبُها مِن أنفسِهِم، وإنساؤُهُم ما كانوا يَلقَوْنَ مِنَ اضطهادِ القِبطِ وإذلالِهِم، شُعورًا مِنهم بِحَراجَةِ المَوقِفِ[2].

العُدولُ عن ذِكْرِ لَفْظِ ﴿بِسِحْرِهِۦ﴾، بحذْفِه منَ السِّياقِ:

تأكيدُ بُغضِ فِرعونَ وملئِه لموسى، وتعجُّلِهم في إبرامِ الضُّرِّ لهُ

جاءَ في سورةِ الشّعراء إضافةُ لفظةِ ﴿بِسِحْرِهِۦ﴾ في سياقِ قصّةِ موسى: ﴿يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ﴾ [الشّعراء: 35] وحذفُها هنا؛ لأنَّ القصّةَ في سورةِ الأعرافِ بُنيَت على الاختصارِ فناسبَها الحذفُ[3]، وزادَها في الشّعراء؛ لأنّها مِن قولِ فِرعونَ، وهو أحنقُ عليهِ مِنَ الملأِ بجمعِهِم، وأعظمُهم بغضًا له وكراهةً لما جاءَ بهِ موسى، فهو المُتضرِّرُ الأكبرُ مِن دعوتِهِ، ويَشهَدُ على عِظَمِ حَنَقِهِ تَكرارُه وصفَ السّحرِ في سورة طه: ﴿قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ ۝٥٧﴾ [طه: 57]، فأكَّدَ بذكرِ اللّفظةِ طمعًا في الإصغاءِ لقولِهِ، والثّباتِ على مَذهَبِهِ الشّنيعِ، ورجاءَ أن يَعتقِدَ الملأُ مِن قومِهِ أنَّ آيةَ موسى عليه السلام سِحرٌ لا توقُّفَ فيها، فلم يَقنَعْ بقولِهِ لملئِهِ: أنّه لَساحرٌ عليمٌ، وأنّهُ يُريدُ إخراجَهُم مِن أرضِهِم حتّى أصرَّ على ذلك، وأكّدَهُ طمعًا في رضوخِهِم لباطلِهِ بقولِهِ: ﴿بِسِحْرِهِۦ﴾. فضلًا عن أنَّ حالَ الملأِ مِن قومِهِ لم يكُنْ كحالِهِ؛ ولذلك اكتفوا بقولِهِم لرسولِهِم، وبعضِهِم لبعضٍ: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ۝١٠٩ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ﴾، فهذا قولُ الملأِ، والّذي وردَ في سورةِ الشّعراءِ قولُ فِرعونَ وزيادة: ﴿بِسِحْرِهِۦ﴾ [الشّعراء: 35]؛ لتبيِّنَ حالَ الملأِ مِن حالِ فِرعونَ[4]؛ فقد كانوا دونَهُ خوفًا وانزعاجًا، وأقلَّ منه حرصًا على الطّعنِ في دعوةِ موسى[5]. وذَكَرَ البِقاعيُّ أنّ

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 6/2922.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/42.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/359.
(4) ابن الزّبير، ملاك التّأويل: 1/215 - 216.
(5) رضا، تفسير المنار: 9/53.

السّياقَ لمّا كانَ مُخصَّصًا لبيانِ فِسقِهم، أسقَطَ قَولَهُم ﴿بِسِحۡرِهِۦ﴾؛ إفهامًا لِعَجَلَتِهم في إبرامِ الأمرِ في ضُرِّهِ، إشارةً إلى تَغاليهِم في الفِسقِ بِعِلمِهم أنّهُ مُحِقٌّ، ولَيسَ بِساحِرٍ[1].

بيانُ تعدُّدِ الوُجوهِ في قولِه تعالى على لسانِهم: ﴿فَمَاذَا﴾:

استعاضَ باللّفظِ الأَنْسبِ اقتصادًا، واقتضاءً بيانيًّا وافيَ المقصودِ

الفاءُ في ﴿فَمَاذَا تَأۡمُرُونَ﴾ سببيّةٌ، و(ماذا) يَحْتَمِلُ أن تكونَ كُلُّها استِفهامًا، أو تكونَ مَفْعولًا ثانيًا لـ ﴿تَأۡمُرُونَ﴾ على سبيلِ التَّوسُّعِ فيه، بأن حَذَفَ منهُ حرفَ الجرِّ، وأصلُهُ: بِأيِّ شيءٍ، ويكونُ المفعولُ الأوّلُ مُستغنًى عنهُ بالمذكورِ؛ لفهمِ المعنى؛ أي: (أيُّ شيءٍ تَأمُرونَني)، ويَجوزُ أن تكونَ (ما) استِفهامًا مُبتدأً، و(ذا) بِمعنى (الّذي) خَبَرٌ عنهُ، و﴿تَأۡمُرُونَ﴾ صِلَةَ (ذا)، ويكونُ قد حُذِفَ منهُ مَفعولَي ﴿تَأۡمُرُونَ﴾: الأوّلُ: وهو ضميرُ المُتكلِّمِ، والثّاني: وهو الضّميرُ العائدُ على المَوصولِ، والتّقديرُ: (فَأيُّ شيءٍ الّذي تَأمُرونَني بِهِ)[2]، فاستعاضَ باللّفظِ الأنسبِ اقتصادًا، واقتضاءً بيانيًّا وافيَ الدّلالةِ والقَصدِ.

مَوقِعُ الفعلِ المضارعِ ﴿تَأۡمُرُونَ﴾، ودَلالتُهُ في السِّياقِ:

القولُ الموجَّهُ لفرعونَ، جدَّدَ فيه استمرارَ الكيدِ، واستِحكامَ العَداوةِ

مَجيءُ الفعلِ ﴿تَأۡمُرُونَ﴾ بصيغةِ المضارعِ الدّالِّ على الحالِ والاستقبالِ، الحاملِ دلالةَ تجدُّدِ الكيدِ واستمرارِهِ؛ إمّا أن يكونَ مُستأنَفًا مِن كلامِ فِرعونَ، ويكونَ بمعنى المشاورةِ، وإمّا أن يكونَ مِن تمامِ الحكايةِ عن قولِ الملأِ لِفرعونَ وأصحابِهِ، وإمّا له وحدَهُ؛ أي: قالوا لِفرعونَ: فبأيِّ شيءٍ تأمرُنا؟ وخاطبوهُ بما تُخاطَبُ به الجماعةُ؛ تعظيمًا له كما يُخاطبُ الرّؤساء أتباعهم[3]. فجَرَتْ ضمائرُ الخطابِ في قولِهِ: ﴿يُخۡرِجَكُم مِّنۡ أَرۡضِكُمۡۖ﴾ على صيغةِ الجمعِ، كما في قولِهِ تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱرۡجِعُونِ ٩٩﴾ [المؤمنون: 99][4].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 3/81.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/359.
(3) النّسفيّ، مدارك التّنزيل: 1/592، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/359.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/42 - 43.

سِرُّ التَّعْبيرِ بلفْظِ الأمرِ ﴿تَأْمُرُونَ﴾، في السِّياقِ الكريمِ:

تـمـامُ الـخَـيْـبـةِ استعانةُ فرعونَ المدَّعِي الألوهيّةَ بالمألُوهِين

الأمرُ حقيقتُهُ طَلَبُ الفعلِ؛ ليكونَ المعنى: (ماذا تَطلبونَ أن نفعَلَ)، ولمّا تقدَّمَ في شرحِ المُفرداتِ مِن غَلبةِ استعمالِ الأمرِ في الطّلبِ الصّادرِ مِنَ الأعلى إلى مَن هم دونَهُ؛ فيكون إطلاقُهُ هنا في قولِهِ: ﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ يُشعِرُ بأنَّ فِرعونَ قد أدركَ أنّ مكانتَهُ قدِ انحطَّت، وأنّهُ نَزَلَ عن كبريائِهِ وغطرستِهِ؛ ليَتَّبِعَ أسلوبَ التَّلطُّفِ مع المُخاطَبينَ، وتطييب قلوبِ مَن حولَهُ، بأنّه لا يَقطَعُ أمرًا إلّا بمشورتِهِم، وذلكَ مِن تمامِ الخيبةِ فيهِ؛ إذ يدَّعي الألوهيّةَ، ثمّ يَستَعينُ بأمرِ المَألوهِ![1] ولا غرابةَ، فهَوْلُ أمرِ زوالِ المُلكِ مَداعاةٌ للتَّلطُّفِ مع الأنصارِ، وإظهارِ جانبِ اللّينِ لهم، وذلك طَبعُ المَكَرَةِ اللِّئامِ متى ما شعروا بالخطرِ، وأحسّوا بالتّهديدِ.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(يُخرِجُكم)، و(يُبعِدُكم):

الإخـراجُ انتقالٌ مِـن مـكـانٍ إلى آخـرَ بـلا عَـوْدٍ، وهـو أنـسـبُ للسِّياقِ

الخُروجُ انتقالٌ، يُقالُ: (خرجتُ مِنَ البَصرَةِ إلى الكوفَةِ)، وهوَ مُتنوِّعٌ في نَفسِهِ لُغَةً؛ لأنَّهُ عبارَةٌ عَنِ الانفصالِ مِن مَكانِهِ الَّذي هوَ فيهِ إلى مَكانٍ قَصَدَه، وذَلِكَ المَكانُ تارَةً يكونُ قَريبًا، وتارَةً يكونُ بَعيدًا، فعلى هَذا السّفرُ أحدُ نَوعي الخُروجِ وضعًا ولغةً، يُقالُ: (سافرَ فلانٌ) مِن غيرِ ذكرِ الخُروجِ، فيجعلونَ الخُروجَ عينَ السّفرِ، أمّا البُعدُ فهو خلافُ القُربِ، وقد يكونُ بمعنى بُعْدِ المَنزِلةِ[2].

فالإخراجُ أنسبُ لسياقِ الآيةِ الكريمةِ؛ لكونِهِ تعبيرًا صريحًا عنِ الانتقالِ مِن مكانٍ إلى آخرَ، ولا يَحتمِلُ دلالةً أخرى قد تُلبَسُ على السّامعِ.

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/43، والشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 7/4287.

(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (بعد)، والكفويّ، الكلّيّات، ص: 432.

﴿قَالُوٓاْ أَرۡجِهۡ وَأَخَاهُ وَأَرۡسِلۡ فِي ٱلۡمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ١١١﴾ [الأعراف: 111]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

رَبْطُ التّخويفِ من أثَرِ دَعوةِ موسَى، ونُصحِ فرعونَ بإنظارِه وحَشْدِ النّاسِ عليه

لمّا باتَ الأمرُ في دائرةِ التّشاورِ، ومَسالِكِ التّحاورِ، أظهَروا خبايا سرائرِهم، وخفايا نواياهم، مُحكِمين التّدبيرَ، فقد كانَ ملأُ فِرعونَ أهلَ سياسةٍ؛ علموا أنَّ أمرَ دعوةِ موسى لا يَكادُ يَخفى. وأنَّ فِرعونَ، إنْ سجنَه أو عاندَ، تحقّقَ النّاسُ أنَّ حُجّةَ موسى غلبَتْ، فصارَ ذلك ذريعةً للشّكِّ في دينِ فِرعونَ، فرأوا أن يُلاينوا موسى، وطمعوا أن يوجدَ في سَحرةِ مِصرَ مَن يُدافِعُ آياتِ موسى، فتكون الحُجّةُ عليهِ ظاهرةً للنّاسِ[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَرۡجِهۡ﴾: أرْجَأْتُ الأمرَ وأرْجيتُهُ، إذا أخَّرتَهُ[2]. فالإرجاءُ تأخيرُ ما حَلَّ وقتُهُ، أو توُقِّعَ حلولُهُ[3]، والإرجاءُ في كلامِ العربِ التّأخيرُ. وقال آخرون: معناهُ احبسْهُ. فقولُهُ ﴿أَرۡجِهۡ﴾ في الآيةِ الكريمةِ: أخّرْهُ؛ أي: أخّرْ أمرَهُ، ولا تَعجَلْ في أمرِهِ بِحُكمٍ، فتَصيرَ عَجَلَتُكَ حُجَّةً عَليكَ، والمقصودُ أنّهُم حاولوا مُعارَضَةَ مُعجزَتِهِ بِسِحرِهِم؛ ليكونَ ذَلكَ أقوى في إبطالِ قولِ موسى[4] عليه السلام.

2) ﴿ٱلۡمَدَآئِنِ﴾: الميمُ والدّالُ والنّونُ ليس فيه إلّا مَدينةٌ، إنْ كانَت على فعيلَةٍ، ويَجمَعونَها مُدُنًا[5]، فهي المِصْرُ الجامعُ المُحصَّنُ، وميمُها أصليّةٌ وياؤُها زائدةٌ؛ لأنّها مَأخوذةٌ مِن قولِهِم: مَدَنَ بالمَكانِ يَمْدُنُ

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/360.
(2) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (رجى).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (رجو).
(4) ابن جرير، جامع البيان: 13/20 - 22، والفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/162.
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (مدن).

مُدونًا، إذا أقامَ به. ويناسبُ هذا المعنى همزَ القرّاءِ المَدائِن. والقولُ الثّاني: أنّها مَفعِلَةٌ، بمعنى المدينةِ المَملوكَةِ مِن دانَهُ يَدينُهُ. ويكونُ اسمًا للمَكانِ والأرضِ الّتي دانَهُمُ السّلطان فيها؛ أي: ساسَهُم، وقهرَهُم. والقولُ الثّالثُ: أصلُها مَديونَةٌ مِن دانَهُ إذا ملكَهُ وقَهَرَهُ[1]، والمُرادُ مِنَ الآيةِ: قرى مِصرَ وريفُها.

3) ﴿حَٰشِرِينَ﴾: الحاءُ والشّينُ والرّاءُ أصلٌ، هو السَّوْقُ، والبَعثُ، والانبِعاثُ، مِن بابِ (ضرَبَ ونصَرَ)، والحشرُ الجَمعُ مع سَوْقٍ، وكلُّ جمعٍ حَشْرٌ[2]، وهو إخراجُ الجماعةِ عَن مَقرِّهِم، وإزعاجُهُم عنهُ إلى الحَربِ ونحوِها، ولا يُقالُ الحشرُ إلّا في الجماعةِ، وهو الخُروجُ في النَّفيرِ إذا عَمَّ[3]، فالحَشرُ سَوْقٌ مِنَ المقارِّ، ويزيدُ عليه الجَمعُ؛ أي: التّضامُّ في المكانِ المَحشورِ إليه. والمقصودُ بِحَشْرِ السّحرةِ في الآيةِ الكريمةِ: جمْعُهُم مِن شتَّى بلادِ مِصرَ[4].

المعنى الإجْماليُّ:

الدّعوةُ لإرجاءِ موسَى وحَشْدِ النّاسِ عليه، بَذْلًا لجُهدِ التّأثيرِ؛ وتَنفيذًا للتّدبيرِ

قالَ الحاضرونَ مِنَ الأشرافِ، أو مَن جمعوهُم ليؤلِّبوهُم على موسى وهارونَ: أمهِلْهُ وأخاه هارونَ، وأخِّرْ أمرَهُما، واجعلْ بينَكَ وبينَهُ مَوعِدًا، ولا تَعجَلْ فيه فتصيرَ عجلتُكَ عليكَ لا لكَ. وأرسِلْ في مَدائنِ مَملكتِكَ، ومَدارسِ السِّحرِ في صعيدِ مِصرَ رجالًا مِنَ الشُّرَطِ يُحضِرون إليكَ مَن فيها مِنَ السَّحرةِ - وكانَ الرّؤساءُ السَّحرةُ بأقصى مَدائِنِ الصّعيدِ - فإنْ غلبَهُم موسى صَدّقْناهُ واتّبعْناهُ، وإن غلَبوهُ فإنّهُ ساحرٌ[5].

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/162 - 163، والسّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 5/412 - 413، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (مدن).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن سيده، المحكم: (حشر).
(3) الرّاغب، المفردات، وابن الأثير، النّهاية: (حشر).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (حشر).
(5) الخازن، لباب التّأويل: 2/234، والحَمَد، تهذيب التّفسير: 5/247.

وتُرشِدُ الآيةُ الكريمةُ إلى أنَّ النّاسَ قد يَتوهَّمون أنّهم بالتّدبيرِ، وبَذلِ الجهدِ والتّشميرِ يُغيِّرون شيئًا مِنَ التّقديرِ، ولم يَعلَموا أنّ القَضاءَ غالبٌ، وأنَّ الحُكمَ سابقٌ، وعندَ حُلولِ الحُكمِ فلا سُلطانَ للعِلمِ والفَهمِ، إنَّه أمرُ اللّهِ الواحدِ القهّارِ العلّامِ[1].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

بَلاغةُ الفصْلِ في الآيةِ الكريمةِ:

تَجريدُ الجُملة مِن حرفِ العطْفِ، بسببِ جَرَيانِها في طريقِ المُحاوَرةِ

﴿قَالُوٓاْ﴾: هو حكايةٌ لكلامِ الملأ الّذين شاورهم فرعونُ، أو لكلامِ العامَّةِ الّذين خاطبَهم الملأُ، ويضعّفُهُ أنّ الخِطابَ لفرعونَ، وأنّ المُشاورةَ ليسَت مِن وظائفِهم. وتجريدُ مُفتتَحِ الآيةِ الكريمةِ من حرفِ العطفِ لجريانِها في طَريقِ المُحاورةِ؛ أي: فأجابَ بعضُ الملأِ بإبداءِ رأيٍ لِفرعونَ فيما يَتَعَيَّنُ عليهِ اتّخاذُهُ. ويجوزُ أن تكونَ جُملةُ: ﴿قَالُوٓاْ أَرۡجِهۡ﴾ بدلًا مِن جملةِ: قالَ الملأُ مِن قومِ فِرعونَ بإعادةِ فِعلِ القولِ، وهو العاملُ في المُبدَلِ منهُ إذا كانَ فِرعونُ هو المقصودَ بقولِهم: فماذا تأمُرون[2].

نُكتةُ التّعْبيرِ بالأمْرِ في ﴿أَرۡجِهۡ﴾:

فعْلُ الأمْرِ تأكيدٌ للتَّلطُّفِ، وسُرعةُ الإجابةِ، دليلُ عِظَمِ شأْنِ الأمْرِ

و﴿أَرۡجِهۡ﴾ فعلُ أمرٍ مِنَ الإرجاءِ، وهو التّأخيرُ، والهاءُ عائدةٌ إلى فِرعونَ، وفيه تأكيدٌ للتَّخضُّعِ، والتَّلطُّفِ مِن لدنْهُ؛ إذ قَبِلَ منهم الحديثَ بهذه الصّيغةِ، وإن كانَ على سبيلِ الاستشارةِ، وهو المعروفُ بتجَبُّرِهِ. وجاءَ ردُّ القومِ المُستشارينَ مُباشرةً جوابًا مُتعجِّلَ الصّيغةِ، مُتأنّيَ التّدبيرِ لقولِهِ: ﴿فَمَاذَا تَأۡمُرُونَ﴾، فالمسألةُ ليسَت هيّنةً؛ لأنَّ فيها نقضَ ألوهيّةِ فِرعونَ، وفي هذا دكٌّ لسلطانِهِ، وإنهاءٌ لانتفاعِهم هُم مِن هذا السّلطانِ. وأوّلُ أماراتِ التّأنّي في التّدبيرِ استدعاءُ القومِ الّذين يَفهَمونَ في السّحرِ ليواجِهوهُ بما عندَهُ مِن سحرٍ، وقبولُ

(1) القشيريّ، لطائف الإشارات: 1/556.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/43.

فِرعونَ لهذهِ المَشورةِ هدمٌ لألوهيّتِهِ؛ لأنّه يدّعي أنّه إلهٌ، ويستعينُ بمألوهٍ هُمُ السَّحرَةُ، والسَّحرَةُ أتباعٌ له[1].

سِرُّ قصديّةِ اختيارِ لفظِ ﴿أَرْجِهْ﴾:

انفتاحُ الفعْلِ على أكثرِ مِنِ احتمالٍ مَعنويٍّ

مِن معاني ﴿أَرْجِهْ﴾: أخِّرْهُ ومناظرتَه لوقتِ اجتماعِ السَّحرةِ، أو احبسْهُ، وذلك مُحْتَمِلٌ؛ لأنّكَ إذا حبستَ الرَّجلَ عن حاجتِهِ فقد أخّرتَهُ. رويَ أنّ فِرعونَ أرادَ قتلَهُ، ولم يكنْ يصلُ إليهِ، فقالوا له: لا تفعلْ؛ فإنّك إن قتلتَهُ أدخلتَ على النّاسِ في أمرِهِ شُبهةً، ولكنْ أرجِئْهُ وأخاهُ إلى أن تحشرَ السَّحرةَ ليقاوموه فلا يُثبتُ له عليكَ حجّةً، ثمّ أشاروا عليهِ بإنفاذِ حاشرين يجمعونَ السَّحرةَ، ظنًّا منهم بأنّهم إذا كثروا غلَبُوهُ، وكشفوا حالَهُ، وقيل: معناه مِنَ الطَّمعِ، مِن رجا يرجو؛ أي: أطمعْهُ ودعْهُ يرجوكَ[2].

وُجوهُ تعدُّدِ القراءةِ في لفْظِ ﴿أَرْجِهْ﴾:

في التّعدُّدِ سَعةُ المعنى، وحُسْنُ البيانِ

اختلفتِ القراءة في ﴿أَرْجِهْ﴾، وأشهرُ قراءتيه[3] لأهلِ المدينةِ وبعضِ العراقيّين (نافع، وعاصم، والكسائيّ وأبو جعفر): (أرْجِهِ) بجرِ الهاءِ، والمعنى: أخّرْهُ، فسَهّلَتِ الهمزةَ فيهِ، ويَحْتَمِلُ أنّها مِنَ الرّجاءِ بمعنى: أطمعْهُ ورجّهِ ودعْهُ يرجوك، وقراءةُ بعضِ الكوفيّين: (أرجهْ) بتسكينِ الهاءِ. وقرأَهُ الباقونَ بالهمزِ ساكنًا: (أرجِئْه) على الأصل، على معنى: أخِّرِ المجادلةَ مع موسى إلى إحضارِ السَّحرةِ الّذين يُدافِعون سِحْرَهُ[4].

عِلّةُ إخفاءِ اسْمِ (هارونَ)، مع أنّه مُرسلٌ مع أخيه، ووَزيرٌ له:

الاسْتِغناءُ بالمَذكورِ، قَصدٌ إلى معنًى خاصٍّ

عدمُ التّعرضِ لذكرِ اسمِ أخيه هارونَ في سياقِ الآيةِ صريحًا؛

(1) السّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 4287 - 4288.
(2) النّحّاس، معاني القرآن: 3/63، والفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/162.
(3) الخطيب، معجم القراءات: 3/118 - 124، وفي ﴿أَرْجِهْ﴾ قراءاتٌ أُخرُ فصّلَ القولَ فيها باستيفاءٍ، يُنظر: السّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 5/409.
(4) ابن جرير، جامع البيان: 13/21 - 22، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/437.

لظهورِ كونِهِ معه بحسبِ ما بيّنتِ الآياتُ الأُخَرُ[1]. وفيهِ إشارةٌ إلى أنّهُ طويَ ذكرُهُ في أوّلِ القصّةِ، وقد ذُكِرَ في غيرِ هذه القصّةِ ابتداءً[2].

إيثارُ لَفْظِ الإرسالِ ﴿وَأَرْسِلْ﴾:

الفعلُ (أرسل) أخصُّ في بابِ الإرسالِ منَ البعثِ؛ إذ لا يُقالُ: أرسلَ إلّا فيما كانَ توجيهًا فيه معنى الانتقالِ حقيقةً أو مَجازًا، أمّا بَعَثَ فأوسعُ فإنّهُ يقعُ بمعنى الإرسالِ وبمعنى الإحياءِ، ومنه: البعثُ الأخرويُّ، ففيه اشتراكٌ، فلمّا كانَ الإرسالُ أخصَّ وقَعَ الإخبارُ بهِ أوّلًا في سورةِ الأعراف، ثمّ وقَعَ ثانيًا بالبعثِ في سورةِ الشّعراءِ على التّرتيبِ في مَوضِعِ اللّفظِ المُطّرِدِ مِنَ القرآنِ؛ تنويعًا للعبارةِ، ولا يمكنُ على ما تقرَّرَ مِن ذلك العكس، ونظيرُ هذا ممّا تقدَّمَ في سورٍ مِنَ القرآنِ الكريمِ، مثل: ﴿تَبِعَ﴾ [البقرة: 38] و﴿ٱتَّبَعَ﴾ [طه: 123]، ومثل: ﴿يُذَبِّحُونَ﴾ [البقرة: 49] و﴿يُقَتِّلُونَ﴾ [الأعراف: 141][3].

العُدولُ عنِ التَّعبيرِ بالفعْلِ (وَابْعَثْ) كما في سورةِ الشّعراءِ وَجْهٌ في الخُصوصِ

سِرُّ تَعْديةِ فعْلِ الإرسالِ بـ(في) دونَ (إلى):

عُدّيَ فِعلُ الإرسالِ بـ(في) دونَ (إلى)؛ لأنّ الفعلَ هنا غيرُ مَقصودٍ تَعديَتُهُ إلى المُرسَلِ إليهم، بل المَقصودُ منهُ المُرسَلون خاصَّةً، وهوَ المَفعولُ الأوّلُ؛ إذِ المعنى: وأرسِلْ حاشرينَ في المَدائنِ يَأتوكَ بالسّحرةِ، فعُلِمَ أنّهم مُرسَلونَ للبحثِ والجَلبِ لا لِلإبلاغِ، وهذا قَريبٌ من قولِهِ تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ [المؤمنون: 32]، فلم يُعَدَّ الفِعلُ بـ(إلى)؛ لكونِ الأمّةِ جُعِلَت مَوضِعًا لِلإرسالِ[4].

الإرسالُ للبَحْثِ عنِ السّحرةِ وجَلْبِهم للمُبارزةِ، لا لإبْلاغِ أهلِ مُدُنِ مِصرَ

نُكتةُ جمْعِ المدينةِ على ﴿ٱلْمَدَآئِنِ﴾:

قوله: ﴿فِي ٱلْمَدَآئِنِ﴾ مُتعلِّقٌ بـ(أرْسِلْ)[5]. والمَدائنُ: جمعُ مَدينةٍ،

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/259.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/43.
(3) ابن الزّبير، ملاك التّأويل: 1/216.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/43.
(5) السّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 5/412.

وهي بوزنِ فعيلةٍ، مُشتقَّة من مَدَنَ بالمكانِ إذا أقامَ؛ ولأنّ مَدائِنَ مِصرَ في ذلك الزّمنِ كثيرةٌ[1] عَدَلَ إلى الجمعِ، وقد يُرادُ شمولُ كلِّ المَدائنِ الّتي هي مَقرُّ الخبراءِ بالسِّحرِ؛ وذلكَ مِن لوازمِ شدّةِ التّحسُّبِ، وتمامِ التّدبيرِ، والتّهيّؤِ. وقولُ الحقِّ على ألسنتِهِم: ﴿وَأَرْسِلْ فِي ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ﴾ يدُلُّ على أنّ السِّحرَ كانَ مُنتشرًا في ذلكَ الزّمانِ، ومُنبثِقًا في المَدائنِ، وأنَّ السَّحرةَ كانوا كثيرين، وقد أتبعَ سُبحانَهُ هذا القولَ على لسانِ الملأِ بقولِهِ: ﴿يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ﴾، ويَحْتَمِلُ أنَّ أصحابَ هذه المَشورةِ أرادوا مَدائنَ الصَّعيدِ، وكانَت مَقرَّ العلماءِ بالسِّحرِ[2].

الإشارةُ إلى لوازمِ شِدَّةِ التَّحسُّبِ والتّدبيرِ، في إحضارِ مَهَرةِ السَّحرَةِ

التَّعْبيرُ باسْمِ الفاعلِ المَجموعِ: ﴿حَٰشِرِينَ﴾:

قولُهُ: ﴿حَٰشِرِينَ﴾ مفعولٌ بهِ، ومفعولُهُ مَحذوفٌ، اكتفى بدلالةِ الظّاهرِ مِن إظهارِهِ، والتّقديرُ: فأرسلْ في المَدائنِ حاشرينَ، يَحشرونَ السَّحرَةَ[3]. والحاشرون: هُم أصحابُ الشُّرَطِ، أو رجالٌ مِن خاصَّةِ فِرعونَ يَحشرونَ إليه ما في هذه المُدنِ مِنَ السَّحرةِ[4]. ومجيءُ اللّفظِ بصيغةِ اسمِ الفاعلِ المجموعِ جمعَ مُذكَّرٍ سالمًا يُقرِّبُ الصّفةَ مِنَ الدّلالةِ على إرادةِ الحَدَثِ، على خلافِ جمعِ التّكسيرِ الّذي يُبعِدُها عن إرادةِ الحدثِ، ويقرِّبُها مِنَ الاسميّةِ.

تَقريبٌ للصِّفةِ مِنَ الدّلالةِ، على إرادةِ ما كُلِّفُوا بهِ مِن فِرعونَ

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(الإرجاءُ)، و(الحَبسُ)، و(الإنظارُ)، و(الإملاءُ)، و(الإمهالُ):

الحبسُ: المَنعُ مِنَ الانبعاثِ، والتّحبيسُ: جَعلُ الشّيءِ مَوقوفًا على التّأبيدِ، يُقالُ: هذا حبيسٌ في سبيلِ اللّهِ، وحبْسُ الرّجلِ عن حاجتِهِ منعُهُ عنِ التَّصرُّفِ، ويكونُ لَمن تمكّنتَ منهُ[5]. والنَّظِرَةُ: الانتظارُ

أُوثِرَ لفظُ (الإرجاءِ) دونَ غيرِهِ مِنَ المفرداتِ الآنفةِ؛ لأنّ فيه معنَى حُصولِ الطّمَعِ

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/360.
(2) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/163، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/43.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 13/24، والسّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 5/412.
(4) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/163.
(5) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 144، والرّاغب، المفردات: (حبس).

قليلًا، والتّأخيرُ. والإنظارُ مَقرونٌ بمقدارِ ما يَقعُ فيه النّظرُ، وهو أيضًا تأخيرُ العبدِ ليُنظرَ في أمرِهِ[1]. والإملاءُ: الإمدادُ، والإمهالُ. ومنهُ قيلَ: للمُدَّةِ الطّويلةِ مَلاوَةٌ مِنَ الدّهرِ، ومَليٌّ مِنَ الدّهرِ[2]. والإمهالُ: عدمُ سرعةِ المُؤاخَذةِ، وتركُ الانتقامِ مع القُدرةِ، والإمهالُ مُبهَمٌ، وهو تأخيرُ الأمرِ؛ ليسهُلَ ما يتكلَّفُهُ مِن علمِهِ[3].

أمّا الإرجاءُ فتأخيرُ ما حَلَّ وقتُهُ أو توُقِّعُ حلولُهُ[4]. وهو في كلامِ العربِ التّأخيرُ أو الحَبسُ. فقولُهُ: ﴿أَرۡجِهۡ﴾ في الآيةِ الكريمةِ: أخِّرْهُ؛ أي: أخِّرْ أمرَهُ، ولا تَعجَلْ في أمرِهِ بحُكْمٍ، فتَصيرَ عَجَلَتُكَ حُجّةً عَليكَ[5].

وإنّما عُبِّرَ بلفظِ الإرجاءِ دونَ غيرِهِ؛ لأنّ في مادّةِ الإرجاءِ ما يدُلُّ على حصولِ الطّمعِ؛ لأنّ الإنسانَ لا يترجَّى إلّا ما يَطمَعُ في حصولِهِ، ولهذا قالَ الإمامُ الغزاليّ رحمه الله: إنّ الطّائعَ يترجَّى دخولَ الجنّةِ، والعاصي يتمنّى دخولَها[6]. والحبسُ، والإنظارُ، والإملاءُ، والإمهالُ نوعٌ مَنَ التّأخيرِ؛ لا يَتضَمّنُ هذا المعنى الّذي في الإرجاءِ.

(الجمعُ)، و(الحشرُ):

الحَشْرُ: الجَمْعُ بكُرْهٍ معَ السَّوْقِ، والشّاهدُ قولُهُ تعالى: ﴿وَٱبۡعَثۡ فِي ٱلۡمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ﴾؛ أي: ابعثْ مَن يجمعُ السَّحرَةَ، ويسوقُهُم إليكَ. ومنه: يومُ الحَشرِ؛ لأنّ الخلقَ يُجمَعونَ فيه ويُساقونَ على المَوقِفِ. فكُلُّ جَمْعٍ حَشْرٌ، ولا يقتضي الجَمْعُ قيدَ الإكراهِ والسَّوْقِ؛ ولذلك كانَ القصدُ إلى اختيارِ لفظِ ﴿حَٰشِرِينَ﴾؛ ليناسِبَ سَوْقَ السَّحرةِ مُكرَهينَ إلى فِرعونَ.

إيثارُ لفظِ (الحشرِ) للسَّحرَةِ دونَ (الجمعِ)؛ لأنّ الخَلْقَ يُسَاقُونَ على المَوقِفِ

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (نظر)، والعسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 202.
(2) الرّاغب، المفردات: (ملا).
(3) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 202 - 522.
(4) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (رجو).
(5) ابن جرير، جامع البيان: 13/20 - 22، والفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/162.
(6) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 3/243.

﴿يَأۡتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٖ ١١٢﴾ [الأعراف: 112]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

التّأكيدِ على إخضارِ المَهَرَةِ من السّحرة

بيّنَتِ الآيةُ الكريمةُ قصدَ الإرسالِ إلى المَدائنِ، وهو الإتيانُ بالسَّحرةِ البارعينَ؛ ولذلكَ عبّرَ في مُفتَتَحِ الآيةِ بفعلِ المُستقبَلِ ﴿يَأۡتُوكَ﴾.

المعنى الإجْماليُّ:

حَشْدُ السَّحرةِ المتمكّنِينَ منَ السّحرِ، أُولَى خُطواتِ المُواجهةِ مع موسَى

ومُهمّةُ هؤلاءِ المتعقِّبينَ جمعُ كلِّ خبيرٍ مُتمكِّنٍ من فنونِ السّحرِ؛ ليغلِبوا موسى، ويَقضوا على سحرِهِ ويُبطِلوا دعوتَهُ؛ لاعتقادِهِم أنّ موسى عليه السلام جاءَ بالسّحرِ، أو أنّهم يَعلَمون صدقَ آياتِهِ، ويُكابِرونَ.

وتُرشِدُ الآيةُ الكريمةُ إلى أنَّ السَّحرَةَ كانوا في ذلك الزّمانِ عندَهُم في غايَةِ الكَثرةِ، ويدُلُّ على أنّ في طَبعِ النّاسِ المُعارَضةَ، فمَهما أمكَنَت بَطَلَت دَعوى النُّبوَّةِ، وإذا تَعَذَّرَت صَحَّتِ الدَّعوى[1]، وتَهدي أيضًا إلى أنَّ حُجَجَ الباطلِ واهيةٌ، قِوامُها التّضليلُ، ومَلاكُها الافتراءُ، وغايتُها التّجهيلُ.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

إيثارُ الفعْلِ المجزومِ ﴿يَأۡتُوكَ﴾:

الإرسالُ مُتّصِلٌ بالإتيانِ بشدّةٍ ووثاقةٍ، اتّصالَ السّببِ بالمسَبّبِ

عبّرَ بالجزمِ ﴿يَأۡتُوكَ﴾ على جوابِ الأمرِ للدّلالةِ على شدَّةِ اتّصالِ السّببيّةِ بينَ الإرسالِ والإتيانِ، فالتّقديرُ: إنْ تُرسِلْ يَأتوكَ، وقد قيلَ: في مثلِهِ إنّه مَجزومٌ بلامِ الأمرِ مَحذوفةٍ، على أنّ الجملةَ بدلٌ مِن أرسَلَ بَدَلَ اشتمالٍ؛ أي: أرسِلْهُم آمِرًا لهم فليأتوكَ بكلِّ ساحرٍ عَليمٍ، إذ فيه مَعنى القَوْلِ، وهذا الاستعمالُ كثيرٌ في كلامِ العَربِ مع فِعلِ القولِ، نحوَ قولِهِ تعالى: ﴿قُل لِّعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [إبراهيم: 31][2].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 3/82.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/44 - 45.

دَلالةُ حرفِ (الباءِ)، في: ﴿بِكُلِّ﴾:

دَلالةِ السِّياقِ على استِجلابِ كُلِّ ساحِرٍ عليمٍ، ممّا يقتضِي توسيعَ مجالِ البحثِ

و(الباءُ) في قولِهِ: ﴿بِكُلِّ﴾، يَحْتَمِلُ أن تكونَ بمعنى (مع)؛ أي: مُصاحِبينَ لكلِّ ساحرٍ عليمٍ، ويَحْتَمِلُ أن تكونَ باءَ التّعديةِ[1]؛ أي: كلِّ ساحرٍ.

نُكتةُ التَّعْبيرِ بلفْظِ ﴿بِكُلِّ﴾ الدّالِّ على العُمومِ:

المَقصودُ عُمومُ السَّحرةِ ممّن يُظْفَرُ بِهم، أو بجمْعٍ عظيمٍ منهُم

(كلّ) اسمٌ مَوضوعٌ للعُموم، والشُّمولِ، ولاستغراقِ أفرادِ المُنكَّرِ، وهو مُستعمَلٌ في معنى الكثرةِ؛ أي: بجمعٍ عظيمٍ مِنَ السَّحرةِ، يُشْبِهُ أن يكونَ جميعَ ذَلكَ النّوعِ[2]. وقد يكونُ العُمومُ فيه عُمومًا عرفيًّا؛ أي: بكلِّ ساحرٍ تَعلمونَ خبرَهُ وتَظفَرونَ بهِ[3]، وتؤكِّدُ اللّفظةُ أنَّ السَّحرةَ كانوا في ذلك الزّمانِ عندَهُم في غايةِ الكَثرَةِ[4].

دَلالةُ لفْظِ ﴿بِكُلِّ﴾:

مُعجِزةُ كلِّ نبيٍّ من جِنْسِ ما شاعَ في زمانِهِ

وفيه إشارةٌ إلى أنّه تعالى يَجعَلُ مُعجِزةَ كلِّ نبيٍّ مِن جنسِ ما كان غالبًا على أهلِ ذلكَ الزّمانِ، فلمّا كانَ السِّحرُ غالبًا على أهلِ زمانِ موسى عليه السلام، كانَت مُعجِزتُهُ شَبيهَةً في ظاهرِها بالسِّحرِ، وإنْ كانَت مُخالِفةً للسِّحرِ في الحقيقةِ، ولمّا كانَ الطِّبُّ غالبًا على أهلِ زمانِ عيسى عليه السلام كانَت مُعجِزتُهُ مِن جنسِ طبِّ قومِهِ وزمانِهِم، ولمّا كانَتِ الفصاحةُ غالبةً على أهلِ زمانِ نبيِّنا مُحمّدٍ ﷺ كانَت مُعجِزتُهُ مِن جنسِ الفصاحةِ[5].

سِرُّ المجيءِ بصِيغةِ اسمِ الفاعلِ ﴿سَٰحِرٍ﴾ وصِفتِهِ:

ثبوتُ صِفةِ مَهارةِ السّحَرَةِ المُجْتَلَبينَ في السِّحْرِ

كانَت مَشورةُ أصحابِ الرّأي في مَجلِسِ فِرعونَ إحضارَ صنّاعِ السِّحرَ؛ أي: قدِّموا بينَ يدي فِرعونَ بالغَ العلمِ في السّحرِ؛ للدّلالةِ

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/163.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/45.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/253.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 3/83.
(5) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 4/163.

على ثبوتِ صفةِ السِّحرِ لديهم، ودوامِها فيهم، وتمرُّسِهم بها؛ ليجتمعَ كلُّ أنواعِ السِّحرِ بهذا الجَمعِ والإحضارِ؛ لتبيُّنَ سِحرَ موسى، وإلّا كانَ ساحرٌ واحدٌ كافيًا، ولكنْ أرادوا بقولِهم: ﴿بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ﴾ اجتماعَ جميعِ أنواعِ السِّحرِ عندَهُ[1]. و﴿عَلِيمٍ﴾؛ يعني: ماهرٍ بصناعةِ السّحرِ، وحُذِفَ مُتعلِّقُ ﴿عَلِيمٍ﴾؛ لأنّهُ صارَ بمَنزلَةِ أفعالِ السَّجايا، والمَقامُ يدُلُّ على أنّ المُرادَ قوّةُ علمِ السِّحرِ لهُ[2].

تَوجِيهُ تنوُّعِ القراءةِ القُرآنيّةِ، في لفْظِ ﴿سَٰحِرٍ﴾:

(السَّحَّارُ) هو العَالِمُ بالصَّنعةِ على خِلافِ (السّاحرِ)

واختلفَ القَرَأةُ في قولِهِ: ﴿سَٰحِرٍ عَلِيمٍ﴾، فقَرَأ الجمهورُ ﴿سَٰحِرٍ﴾؛ جريًا على مُناسبةِ ما تقدَّمَ ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ﴾، ومقابلته بـ ﴿بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ﴾[3]، وحجّتُهم أيضًا قولُهُ: ﴿وَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ﴾ [الأعراف: 120]، و﴿لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ﴾ [الشّعراء: 40]، فالسَّحَرَةُ جَمعُ ساحرٍ مِثلَ: كَتَبَةٍ، وكاتِبٍ، وفَجَرَةٍ، وفاجِرٍ، واحتَجّوا أيضًا بقولِهِ: ﴿سَحَرُوٓاْ أَعۡيُنَ ٱلنَّاسِ﴾ [الأعراف: 116]، فاسمُ الفاعلِ مِن سَحَروا ساحِرٌ[4].

وقرأ حَمزةُ والكِسائيُّ وخَلَفٌ (سَحّار)[5]، على المُبالغةِ في مَعرِفةِ السِّحرِ؛ أي: كثير السِّحرِ، واسعُ العلمِ بعملِهِ، والمعرفةِ بأنواعه، فيكونُ وصفُ ﴿عَلِيمٍ﴾ تأكيدًا لمعنى المُبالَغةِ؛ لكونِهِ مِن صيغِها، ليدُلَّ على تناهيهِ فيهِ، وحِذْقِهِ بهِ، فحَسُنَ لذلك أن يذكرَ بالاسمِ الدّالِّ على المُبالغةِ في السِّحرِ.[6] والعدولُ مِن "فاعلٍ" إلى "فَعّالٍ" لزيادةِ المُبالغةِ في الوصفِ لما رأوا مِن قلقِ فِرعونَ وخشيتِهِ[7]. ولمّا كانَ رسمُ الكلمةِ في المُصحَفِ الإمامِ واحدًا (سحر) بدونِ ألفٍ، احتملَتِ

(1) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنّة: 4/527.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/45.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/360.
(4) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 4/163.
(5) ابن الجزريّ، النّشر: 2/305.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/45.
(7) البقاعيّ، نظم الدّرر: 3/81.

القراءتين، ووجهُهُما: أنَّ فِرعونَ لمّا طَلَبَ كلَّ ساحرٍ في مَدائنِ البلادِ، خصَّ بالذّكرِ المَهرةَ المُتمرِّنينَ في السِّحرِ المُكثرينَ منهُ، أو أنّ بعضَ مَلئِهِ طَلَبَ هؤلاء فقط؛ لأنّهم أجدرُ بإتيانِ موسى بمثلِ ما جاءَ بهِ مِنَ الأمرِ العظيم، كما حكى اللّهُ تعالى عن فِرعونَ في سورةِ طه: ﴿قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ ۝٥٧ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ﴾ [طه: 57 - 58]، وطَلَبَ آخرونَ حَشرَ جميعِ السَّحرةِ الرّاسِخينَ في علمِهِ؛ لعلَّهُ يوجِدُ عندَ بعضِ المُقتصِدين أو المُقلّينَ مِنَ السِّحرِ ما لا يوجَدُ عندَ المُكثرين منهُ، فبيَّنَتِ القراءتان كلَّ ما قيلَ مع الإيجازِ البليغِ[1]. ثمّ إنّ السّاحرَ هو المُبتدئُ في صناعةِ السِّحرِ، فيتعلَّمُ ولا يُعلِّمُ، والسَّحّارُ هو الماهِرُ الّذي يُتعلَّمُ منه السِّحرَ، وقيلَ: السّاحرُ مَن يكون تأثيرُ سحرِهِ وقتًا دونَ وقتٍ، والسَّحّارُ الّذي يدومُ سِحرُهُ ويَعمَلُ في كلِّ وقتٍ.[2].

(1) محمد رضا، تفسير المنار: 9/55 - 54.

(2) الخازن، لباب التّأويل: 2/234.

﴿وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرۡعَوۡنَ قَالُوٓاْ إِنَّ لَنَا لَأَجۡرًا إِن كُنَّا نَحۡنُ ٱلۡغَٰلِبِينَ ١١٣﴾ [الأعراف: 113]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

طلَبُ السّحرة الأجْرَ من حُطامِ الدّنيَا الفانِي

لما تشوَّفَ السّامعُ إلى خَبرِ السَّحرةِ، قالَ مُجيبًا له استِئنافًا: ﴿قَالُوٓاْ﴾؛ أي: لفِرعونَ، وحَضَروا بينَ يديهِ مُتَوثِّقينَ لِنفعِ أنفُسِهم، مُفْهِمين أنّهم غالبونَ، لا مانِعَ لهم مِن ذلكَ إلّا عَدَمُ إنصافِهم، وهمُّهُم في هذا المَجيءِ الدُّنيا[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿لَأَجۡرًا﴾: الهمزةُ والجيمُ والرّاءُ أصلانِ يُمكِنُ الجمعُ بينَهُما بالمعنى، فالأوّلُ الكِراءُ على العملِ، والثّاني جَبْرُ العَظمِ الكَسيرِ. والمعنى الجامعُ بينَهُما أنَّ أُجْرَةَ العامِلِ كأنَّها شيءٌ يُجْبَرُ به حالُهُ فيما لَحِقَهُ مِن كَدٍّ فيما عَمِلَهُ. فالأجرُ والأُجْرةُ: ما أعطَيتَ مِنْ أجرٍ في عَمَلٍ. ويُقالُ: الأجرُ جَزاءُ العَمَلِ[2]. فالأجرةُ إذن: أثَرٌ، أو حصيلةٌ لجُهْدٍ مادّيٍّ فيه صنعةٌ، وهو ما يُحَصِّلُهُ العاملُ مِن صاحبِ العملِ لقاءَ العملِ[3]، وهو معنى اللّفظةِ في الآيةِ الكريمةِ.

2) ﴿ٱلۡغَٰلِبِينَ﴾: الغينُ واللّامُ والباءُ أصلٌ صحيحٌ يدُلُّ على قوّةٍ وقَهْرٍ وشدّةٍ[4]، وسائرُ ما في القرآنِ مِنَ التّركيبِ هو مِنَ الغَلَبِ؛ أي: القهر[5]. ومعنى اللّفظةِ في الآيةِ المباركةِ: القَهرُ، والشِّدّةُ في الغَلَبةِ.

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 3/82.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (أجر).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (أجر).
(4) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (أجر).
(5) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (غلب).

المعنى الإجمالي:

مجيءُ السَّحرةِ، وسؤالُهم عن العِوضِ المادِيِّ حالةَ الغلبةِ

لمّا اجتمعَ السَّحرةُ كانَ أوّلُ مَطالبِهم الأجرَ والمكافأةَ إذا ما غَلبوا موسى عليه السلام، وأبطلوا سحرَهُ. وتدُلُّ الآيةُ الكريمةُ على أنَّ كُلَّ الخَلقِ كانوا عالِمينَ بأنّ فِرعونَ كانَ عَبدًا ذَليلًا مَهينًا عاجزًا، وإلّا لَما احتاجَ إلى الاستعانةِ بالسَّحرةِ في دَفعِ موسى عليه السلام، وتدُلُّ أيضًا على أنَّ السَّحرَةَ ما كانوا قادرينَ على قَلبِ الأعيانِ، وإلّا لَما احتاجوا إلى طَلَبِ الأجرِ والمالِ مِن فِرعونَ؛ لأنَّهُم لو قَدَروا على قَلبِ الأعيانِ، فلِمَ لمْ يَقلِبوا التّرابَ ذَهبًا؟ ولِمَ لَمْ يَنقُلوا مُلكَ فِرعونَ إلى أنفسِهم؟ ولِمَ لمْ يَجعَلوا أنفسَهُم مُلوكَ العالَمِ، ورُؤَساءَ الدُّنيا؟[1]، ودَعاهُمُ الكِبْرُ بأنْ يظنّوا أنّهم سيغلِبونَ بما يَسحرونَ، ولم يَعلَموا أنّ تأثيرَ القُدرةِ فيهم أغلبُ مِن تأثيرِ سحرِهِم، وأنّهُ لا يَردُّ عنهُم ما زوّروهُ في أنفسِهم من فنونِ مَكرِهِم، فكادوا وكيدَ لهم، فوَجدوا أنفسَهُم مَقهورينَ[2].

وتُرشِدُ الآيةُ الكريمةُ إلى تبيينِ الفرقِ بينَ مَن يَحمِلُ المَهمّةَ عقيدةً وشأنًا مُقدَّسًا، يُفني دونَها النّفسَ، والمالَ، والأهلَ، وبينَ مَن يَحمِلُ المَهمّةَ سبيلَ تكسُّبٍ، وزيادةَ ربحٍ، ومَنفَعَةٍ؛ فإنّ مَن يعمَلُ لغيرِهِ بأجرةٍ ليسَ كمَن يكونُ عملُهُ للّه، ومَن لا يكونُ له ناصرٌ إلّا بضمانِ الجُعالةِ وبَذلِ الرّشا فعَن قريبٍ سيُخذَلُ[3].

وتهدي أيضًا إلى تجنُّبِ الثّقةِ المُطلَقةِ بالنّفسِ، وعدم تسليمِها قيادَ التَّصرُّفِ المُطلَقِ دونَ وازعٍ ورادعٍ. وأنَّ المالَ لا يمكنُ أن يكونَ بأيِّ حالٍ مِنَ الأحوالِ غايةً لعملٍ شبهةٍ، وسبيلَ حظوةٍ زائفةٍ، وقُربةٍ زائلةٍ، وفيها تنبيهُ الإنسانِ لهذهِ الدَّقائقِ، وأنْ لا يَغتَرَّ بِكَلِماتِ أهلِ الأباطيلِ والأكاذيبِ[4].

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/164.
(2) القشيريّ، لطائف الإشارات: 1/557.
(3) القشيريّ، لطائف الإشارات: 3/11.
(4) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/164.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بَلاغةُ إيجازِ الحذْفِ:

بيانٌ بالإيذانِ في المُسارَعةِ بالإرسالِ، والمُبادرةِ إلى الامْتِثالِ

الواو في ﴿وَجَآءَ﴾ عطفَت جملةَ ﴿وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ﴾ على جملةِ: ﴿قَالُوٓاْ أَرۡجِهۡ وَأَخَاهُ وَأَرۡسِلۡ فِي ٱلۡمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ١١١ يَأۡتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٖ﴾، وفي الكلامِ إيجازُ حذفٍ، وطيٌّ يقتضيهِ المعنى، والتّقديرُ: (قالوا: أرجِهِ وأخاهُ وأرسلْ إلخ، فأرسلَ فِرعونُ في المدائنِ حاشرين، فحشروا السّحرةَ، ثمّ جاءَ السّحرةُ مِنَ المدائنِ، فحضروا عندَ فِرعونَ)[1]، وحُذِفَ ذِكرُ الإرسالِ؛ لِعلمِ السّامعِ به ووضوحِهِ مِن سياقِ القصّةِ[2]، وللإيذانِ بمُسارعةِ فِرعونَ بالإرسالِ ومُبادرةِ الحاشرينَ والسَّحَرَةِ إلى الامتِثالِ[3].

دَلالةُ التَّعْبيرِ عنِ المجيءِ بالماضِي، في ﴿وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ﴾:

مَجيءُ السَّحرَةِ حَشْدٌ لِقوَى الشّرِّ، لمواجهةِ رمْزِ الهدايةِ والخيرِ

قولُهُ: ﴿وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ﴾ فعلٌ ماضٍ يدُلُّ على تحقُّقِ وقوعِ الفعلِ، وهو حضورُ السَّحَرةِ، وهو: جمعُ ساحرٍ، و(أل) فيه عهديّة؛ أي: السَّحرَةُ المذكورون، وكانَ حضورُ السَّحرَةِ عندَ فِرعونَ في اليومِ الّذي عيّنَهُ مُوسى للقاءِ السَّحرَةِ، وهو المذكورُ في سورةِ طه في قولِهِ تعالى: ﴿قَالَ مَوۡعِدُكُمۡ يَوۡمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحۡشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحٗى ٥٩﴾ [طه: 59][4].

سِرُّ إظهارِ المفعولِ بهِ ﴿فِرۡعَوۡنَ﴾ في الجُملةِ:

المقصودُ مِن مجيءِ السَّحرَةِ مُناوأةُ الحقِّ، وطمْسُ معالمِ الرّسالةِ السّماويّةِ

إظهارُ ﴿فِرۡعَوۡنَ﴾، وهو مفعولٌ به في النَّظمِ؛ للاهتمامِ والعنايةِ بهِ، ودليلٌ على أنَّه المقصودُ من مجيئِهِم، فهو المُكافِئُ لهم إن انتصروا، والمُنعِمُ عليهم إن غَلبوا.

بَلاغةُ الاسْتِئنافِ البيانيِّ:

جملة: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّ لَنَا لَأَجۡرًا﴾ ذكرٌ لقولِهِم بأسلوبِ الاستئنافِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/45.
(2) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 7/258.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 9/23.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/45.

البيانيِّ، كأنّهُ جوابُ سائلٍ: ماذا صَدَرَ مِنَ السَّحرَةِ حين مثَلوا بين يَدَي فِرعونَ؟[1] ولم يقُل: فقالوا بالفاء؛ لأنّه على تقديرِ سُؤالِ سائلٍ: ما قالوا إذ جاؤوهُ ؟ فأُجيبَ بقولِهِ: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّ لَنَا لَأَجۡرًا﴾؛ أو لأنّه أرادَ لمّا جاؤوا قالوا، فلم يَصِحَّ دخولُ الفاءِ على هذا الوجهِ، وفيها وجهٌ آخر: أنّها في محلِّ نصبٍ على الحالِ مِن فاعلِ (جاؤوا)، أي: جاؤوا قائلينَ: إنّ لنا لأجرًا[2]، ويُلمَحُ في حذفِ الفاءِ سرعة الاستجابةِ، والامتثالِ.

بيانُ سُرعةِ الاستِجابةِ والامتثالِ، واشتراطُهُمُ الأجرَ في مَطلعِ المقالِ

الاسْتِفهامُ التّقريريُّ، وتَوجِيهُ تعدُّدِ القِراءاتِ:

قَرَأ نافعٌ، وابنُ كثير، وحفص، وأبو جعفر[3] ﴿إِنَّ لَنَا لَأَجۡرًا﴾ ابتداء بحرفِ (إنّ) دونَ همزةِ استفهامٍ، وقرأَهُ الباقونَ بهمزةِ استفهامٍ مَفتوحَةٍ قبلَ (إنّ)، وعلى القراءتين؛ فالمعنى يؤولُ إلى الاستفهامِ التّقريريِّ على جهةِ الاستخبارِ؛ أي: استخبَروا فِرعونَ: هل يَجعَلُ لهم أجرًا إن غَلَبوا أو لا ؟ فلَم يَقطَعوا عليهِ بذلِكَ، إنّما استَخبَروهُ، هل يَفعَلُ ذلك؟ سائقينَ الكلامَ مَساقَ الاستفهامِ أدبًا معهُ في طلبِ الإكرامِ، فقالَ لَهم: نَعَم، لكُمُ الأجرُ والقُربُ إن غلبتُم، وهمزةُ الاستفهامِ مَحذوفةٌ تخفيفًا على القراءةِ الأولى[4]. ويجوزُ أن يكونَ المعنى أيضًا على قراءةِ: ﴿إِنَّ لَنَا لَأَجۡرًا﴾ بهمزةٍ واحدةٍ على الإخبارِ وإثباتِ الأجرِ العظيمِ، كأنّهم قالوا: لا بدَّ لنا مِن أجرٍ، أو إيجابِ الأجرِ، وإلزامِهِ، واشتراطِهِ، كأنّهُم قالوا: بشرطِ أن تَجعَلَ لنا أجرًا إنْ غَلَبْنا؛ لأنّهُم وثقوا بحصولِ الأجرِ لَهُم، حتّى صيّروهُ في حيّزِ المُخبرِ بهِ عن فِرعونَ، ويكونُ جوابُ فرعونَ بـ(نعم)؛ تقريرًا لما أخبروا بهِ عنهُ.

القراءةُ بهمزةٍ واحدةٍ على الإخبارِ، تَحملُ إيجابَ الأجرِ واشتراطَهُ وحُصولَهُ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/45.

(2) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 7/258، والنّسفيّ، مدارك التّنزيل: 1/593، والسّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 5/414.

(3) ابن الجزريّ، النّشر: 1/418 - 421، 2/305.

(4) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 7/258، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/46.

نُكتةُ تَنْكيرِ الأجْرِ، في قوله تعالى: ﴿لَأَجْرًا﴾:

التّنكيرُ أمارةُ التّعظيمِ، وإطلاقُ نوعِ الأجرِ وعدَمِ تقْييدِهِ

تنكيرُ ﴿لَأَجْرًا﴾ في طلبِهِم؛ للتّعظيمِ بقرينةِ مَقامِ المَلِكِ، وعِظَمِ العملِ[1]، وهو كقولِ العربِ: (إنّ له لإبلًا)، و(إنّ له لغنمًا)؛ يقصدونَ الكثرةَ. وإطلاقُ نوعِ الأجرِ وعدم تحديدِهِ، كأنّهُم قالوا: لا بُدَّ لنا مِن أجرٍ عظيمٍ، وتحليتُهُ باللّامِ المُزحلَقةِ المُؤكِّدةِ؛ لاختصاصِ تعلُّقِهِ بالخبرِ المَحذوفِ لـ(إنّ).

بَلاغةُ حَشْدِ المُؤكِّداتِ، واسْميّةِ الجُملةِ:

بيانُ إثباتِ أعلَميَّتِهِم في السّحرِ، ويَقينِهِم مِنَ الغلبةِ

قولُهُ: ﴿إِن كُنَّا﴾ شرطٌ جوابُه مَحذوفٌ للدّلالةِ عليه، أو جوابُه ما تقدَّمَ عندَ مَنْ يُجيزُ تقديمَ جوابِ الشّرطِ عليه، وجيءَ به لمُجرَّدِ تعيينِ مناطِ ثُبوتِ الأجرِ لا لِتردُّدِهم في الغَلَبةِ. والضّميرُ ﴿نَحْنُ﴾ تأكيدٌ للضّميرِ في ﴿كُنَّا﴾؛ إشعارًا بجدارتِهِم بالغَلَبِ، وثقتِهِم بأنّهُم أعلمُ النّاسِ بالسِّحرِ، وأنّهُم هُمُ الغالِبون حتمًا، وفي ضميرِ التّعظيمِ والتّفخيمِ (نحن) تعريضٌ بالكِبْرِ الّذي في نفوسِهِم؛ فأكَّدوا ضميرَهُم (نا) بحشدِ المُؤكِّداتِ فضلًا عن اسميّةِ الجملةِ الدّالّةِ على الثّبوتِ؛ لزيادةِ تقريرِ مَدلولِهِ، وقولُ فِرعونَ: ﴿نَعَمْ﴾ إجابةٌ عمّا استَفهَموا عنهُ، أو تقريرٌ لما توسَّموا به على الاحتمالينِ المَذكورينِ آنفًا[2].

بيانُ التّعريضِ، بالتَّخضُّعِ في كلامِ السَّحرَةِ:

جديرٌ بالعالِمِ في أيّ مجالٍ، أن يترفّعَ عنِ المُساومةِ والانتِذالِ

في ردِّ السَّحرَةِ على فِرعونَ بقولِهِم: ﴿إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ﴾ دليلٌ على استطالتِهِم عليهِ؛ لاحتياجِهِ إليهم، وهو استكمالٌ لحالِ التَّخضُّعِ الّذي مارسَهُ فِرعونُ مع مَن حولَهُ؛ خشيةً على زوالِ ملكِهِ، وفيه أيضًا تعريضٌ بما يحصُلُ لِلعالِمِ بالشّيءِ مِنَ التَّرفُّعِ على مَنْ يَحتاجُ إليهِ، وعلى مَنْ لا يَعلَمُ مثلَ علمِهِ[3].

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/46.

(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/139، والسّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 5/414، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/259، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/46.

(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/360.

فائِدةُ جمْعِ لفْظِ ﴿ٱلْغَٰلِبِينَ﴾ ودَلالتُه:

الدّلالةُ على ظنِّهم، بأنَّ غلبتَهُم حَتميّةٌ وصْفًا ثابتًا لَهُم

قصدوا إلى التّعبيرِ بـ ﴿ٱلْغَٰلِبِينَ﴾ بصيغةِ اسمِ الفاعلِ المجموعِ جمعَ مُذكّرٍ سالمًا؛ لتقريبِ الصّفةِ مِنَ الدّلالةِ على إرادةِ حَدَثِ الغَلَبةِ، واتّصافِهم بهِ، وثبوتِهِ فيهم.

تَوجِيهُ مُتشابِهِ اللّفْظِ بينَ آيةِ الأعراف (113)، وآيةِ الشّعراء (41):

المُتشابِهُ دليلٌ على تعدُّدِ أحوالِ المُخاطَبينَ وتنوُّعِهِم

وقولُهُ هنا: ﴿إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا﴾ مِن غيرِ همزةِ الاستفهامِ، وقالَ في الشّعراء: (أإنَّ لَنا لأجْراً) [الشّعراء: 41] بهمزةِ الاستفهامِ فيه إشارةٌ إلى أنَّ كلَّ ساحرٍ مِن سَحرَةِ فِرعونَ قد انفعلَ انفعالًا أدَّى به مَطلوبَهُ؛ فالّذي يَسْتَفْهِمُ مِن فِرعونَ قالَ: (أإنّ)، والشّجاع قالَ لفِرعونَ: ﴿إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا﴾. وفي القضيةِ الاستفهاميّةِ لا يَتحتمُ الأجرُ؛ لأنّه مِنَ الجائزِ أن يَردَّ الفِرعونُ قائلًا: أنْ لا أجرَ لكُم، ولكنّ في القضيةِ الخبريّةِ ﴿إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا﴾؛ أي: أنّ بعضَ السَّحرَةِ قد حكموا بضرورةِ وجودِ الأجرِ، وقد شملَتِ القراءتان هذا الاستفهامَ، وهذا الخبرَ[1].

بَراعةُ تَعالُقِ المُؤكِّدَاتِ:

بيانُ الكشْفِ عَن بُطلانِ غَايةِ السَّحرَةِ، ومقاصِدِهم الدّنيئةِ

يكشفُ مَدارُ طلبِ الأجرِ مِن لدن السَّحرَةِ والتّصريحِ به، والإلحاحِ عليه بجماعِ المُؤكِّداتِ أنّ غايةَ علومِهم الباطلةِ المُفسِدَةِ إنّما هو الكسبُ الدّنيويُّ مِن مالٍ، وقُربةٍ، وجاهٍ. وحقيقٌ بهم أن تكونَ غاياتُهم ذلكَ؛ لأنّ حقيقةَ العِلمِ المُبتغَى فيه وجهُ اللّهِ التَّرفّعُ عن رخيصِ الرّغباتِ، ودنيءِ مُغرَياتِ الحالِ، ولذلكَ عندما اتّبعوا الحقَّ، وزَهِدوا عن تِلكُمُ المُغرَياتِ، أبى اللّهُ إلّا أن يصيروا مِنَ المُقرَّبينَ عندَهُ لا عندَ فِرعونَ[2].

(1) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 7/4289.
(2) حقّيّ، روح البيان: 3/214.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(الفائزُ)، و(القادرُ)، و(الغالبُ)، و(القاهرُ):

الفوزُ: الظَّفرُ بالخيرِ مع حصولِ السّلامَةِ[1]، والقدرةُ: تكونُ على صغيرِ المَقدورِ وكبيرِهِ، والقَهرُ يدُلُّ على كِبَرِ المَقدورِ. ولهذا يُقالُ مَلِكٌ قاهرٌ إذا أُريدَ المبالغةُ في مدحِهِ بالقُدرةِ، ولا يُقالُ في هذا المعنى مَلِكٌ قادرٌ؛ لأنّ إطلاقَ قولِنا: (قادر) لا يدُلُّ على عظيمِ المَقدورِ، كما يدُلُّ عليهِ إطلاقُ قولِنا: (قاهر).

والغَلبةُ: تكونُ بفضلِ القدرةِ وبفضلِ العِلمِ، يُقالُ قاتلَهُ فغَلَبَهُ، وصارعَهُ فغلبَهُ. وذلك لفضلِ قدرتِهِ، وتقولُ: حاجَّهُ فغلَبَهُ، ولاعبَهُ فغلَبَهُ؛ بفضلِ علمِهِ وفطنتِهِ. ولا يكونُ القهرُ إلّا بفضلِ القُدرةِ، ألا ترى أنّك تقولُ: ناوأهُ فقهرَهُ، ولا تقولُ: حاجَّهُ فقهرَهُ، ولا تقولُ: قهرَهُ بفضلِ علمِهِ، كما تقولُ غلبَهُ بفضلِ علمِهِ. والغالبُ القادرُ على كسرِ حدِّ الشّيءِ عندَ مقاومتِهِ باقتدارِهِ، والقاهرُ القادرُ على المُستعصي مِنَ الأمورِ[2].

آثرَ السِّياقُ لفْظَ (الغالِبينَ)؛ لِما فيه من معنَى مُكْنَةِ التّمرُّسِ، وقُدرةِ العِلْمِ والتّفرُّسِ

(1) الرّاغب، المفردات: (فوز).

(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 105 - 106.

﴿قَالَ نَعَمۡ وَإِنَّكُمۡ لَمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ ١١٤﴾ [الأعراف: 114]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الرّبْطُ بين طمَعِ السّحرةِ في الجائزةِ، ووَعْدِ فرعونَ بجزاءِ صَولَتِهم الفائزةِ

لمّا عَلِمَ فِرعونُ بنفعيّةِ مَطالبِهم، ومادّيّةِ غاياتِهم، أغراهُم بالقُربِ، وطمّعَهُم بالدّنوِّ منهُ؛ فقالَ: مُقرِّرًا: نَعم، ثمّ ألقى - مُؤكِّدًا - مُغرَىً دنيويًّا آخرَ هو القُربُ منهُ.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلۡمُقَرَّبِينَ﴾: القافُ والرّاءُ والباءُ أصلٌ صحيحٌ يدُلُّ على خِلافِ البُعدِ[1]. والاقترابُ الدُّنوُّ، والتَّقَرُّبُ: التّدَنّي والتّواصلُ بحقٍّ أو قَرابةٍ. والقُرْبانُ: ما تَقَرَّبْتَ به إلى اللّهِ تبتغي به قُرْبًا ووَسيلةً[2]. ويُستعمَلُ ذلك في المكانِ، وفي الزّمانِ، وفي النّسبةِ، وفي الحَظوةِ، والرّعايةِ، والقُدرةِ. والتَّقرُّبُ: التّحدّي بما يَقتَضي حَظوَةً، وقُربُ اللّهِ تعالى مِنَ العبدِ: هو بالإفضالِ عليهِ والفَيضِ لا بالمكانِ[3].

وكلُّ ﴿ٱلۡمُقَرَّبُونَ﴾ [النّساء: 172] و﴿ٱلۡمُقَرَّبِينَ ٤٥﴾ [آل عمران: 45] فهي لقُربِ المَنزِلةِ عندَ اللّهِ تعالى عدا [الأعراف: 114] و[الشّعراء: 42] فهما لقُربةِ المَنزِلةِ عندَ فرعونَ[4].

المعنى الإجْماليُّ:

سُرعةُ استِجابةِ فِرعونَ، وإغرائِهم بالمَنافِعِ الزّائلةِ، والمطامعِ الآفِلَةِ

قالَ فِرعونُ مُجيبًا مَطلبَهُم - مُؤكِّدًا تَحقُّقَها - بعد أنْ أغروه بالغَلَبةِ: (نعم، وأزيدُكُم بأنْ تظفروا بنعيمِ قُربي وجِواري، فتكونوا أقربَ النّاسِ منّي مَجلِسًا، وأدناهم منّي مَنزِلةً، ولكم مِنَ الأجرِ المَنزِلةُ الرَّفيعةُ عندي)[5]، فهو يغريهم بالأجرِ المادّيِّ، ويَعِدُهُم

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (قرب).
(2) الخليل، العين: (قرب).
(3) الرّاغب، المفردات: (قرب).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (قرب).
(5) الواحديّ، الوجيز، ص: 406.

بالقُربِ المعنويِّ مِن قلبِهِ تشجيعًا لهم على الإجادةِ، وهو وهمٌ لا يعلمونَ أنّ المَوقِفَ ليس مَوقفَ الاحترافِ، والمَهارةِ، والتّضليلِ، وإنّما هو مَوقِفُ المُعجِزةِ، والرّسالةِ، والاتّصالِ بالقوّةِ الغالبةِ الّتي لا يستطيعُ الوقوفَ في وجهِها السّاحرونَ، ولا المُتجبِّرونَ، ولا غيرهم مهما بلغَ شأْوهُم[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

تَوجِيهُ صِيغةِ الجوابِ، بين مَعْنَيَي الاستفهامِ، والإخبارِ:

احتِمالُ أكثرَ من معنًى في الصِّيغةِ المُستعملةِ، دليلٌ على سَعةِ الدّلالةِ وبيانِها

وقولُ فِرعونَ ﴿نَعَمْ﴾ هو إجابةٌ عمّا استَفهَموا، أو تقريرٌ لما توسَّموا: على احتمالَي الاستفهامِ والإخبارِ المَذكورَينِ في توجيهِ قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا﴾، فحرفُ (نَعم) يُقرِّرُ مَضمونَ الكلامِ الّذي يُجابُ به، فهو تصديقٌ بعدَ الخبرِ، وإعلامٌ بعدَ الاستفهامِ، بحُصولِ الجانبِ المُستفهَمِ عنهُ، وبذا يكونُ المَعنيان مُحتملَيْنِ[2].

فائِدةُ التّعْبيرِ بالجُملةِ الاسْميّةِ، واسْمِ الفاعلِ:

بيانُ ثُبوتِ الإكرامِ، وتَقريرِ القُربِ مِن فِرعونَ في المقامِ

قولُهُ: ﴿وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾ مَعطوفٌ على مَحذوفٍ سدَّ مَسدَّهُ حرفُ الإيجابِ (نَعم)، كأنّهُ قالَ إيجابًا لقولِهم: ﴿إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا﴾: نَعم إنَّ لكُم لأجرًا، وإنّكم لمِنَ المُقرَّبينَ. وأكّدَ - مُقابِلًا توكيدَهُم - بـ(إنّ)، و(اللّام)، وبصيغةِ الجملةِ الاسميّةِ الدّالّةِ على الثّبوتِ، وبتعريفِ لفظِ ﴿ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾، وبصوغِ اسمِ الفاعلِ وجمعِ التّذكيرِ الدّالّينَ على الثّبوتِ وتقريبِ حَدثِ القُربةِ منهُ، والمعنى: إنّي لا أقتصرُ على الثّوابِ وحدَهُ، فإنَّ لكم أن تَحوزوا مع الثّوابِ ما يُستصغَرُ معهُ الثّوابُ، وهو التّقريبُ، والتّعظيمُ، والكرامةُ، والرّفعةُ، والجاهُ، والمَنزلةُ؛ لأنّ المُثابَ إنّما يتهنّأُ، ويَغتبِطُ بهِ إذا حازَ على ذلك الإكرامِ[3].

(1) طنطاويّ، الوسيط: 5/348.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/46.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/139.

عِلّةُ تَجديدِ التّكريمِ، في إجابةِ فِرعونَ للسّحرةِ المغْرُورِين:

تَثنيةُ التّكريمِ مُبالغةٌ في التّرغيبِ، وتأكيدُ العِنايةِ بأمْرِ مُقارَعةِ موسَى

في إجابةِ فِرعونَ للسَّحرَةِ: ﴿قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾ ذَكَرَ لهم أجرين؛ أحدهما مادّيٌّ، والثّاني معنويٌّ، وفيه تثنيةُ المُكافأةِ. وزيادةُ التّكريمِ: تحريضٌ، وتشجيعٌ لهم، ومبالغةٌ في التّرغيبِ[1]؛ بأنّ لكُم لأجرًا عظيمًا، وإنّكُم مع ذلك الأجرِ المادّيِّ لمِنَ المُقرَّبينَ مِن جانبِنا السّامي، فيجتمع لكم المالُ والجاهُ، وذلك مُنتهَى الدّنيا ومَجدُها، فأكَّدَ لهم نيلَ ما طلبوهُ منهُ، وزادَهُم عليهِ تأكيدًا بعدَ تأكيدٍ؛ لاهتمامِهِ بهذا الأمرِ، وعنايتِهِ بهِ، وتخوفِيهِم مِن عاقبتِهِ، فإنّهُ لو قالَ لَهم: نَعم، ولم يزِدْ عليها؛ لأفادَ إجابةَ طَلَبِهِم، ولو قالَ في مَنحِهِ القُربى: (وتكونون مِنَ المُقرَّبينَ) لكفى، ولكنّهُ عبَّرَ عنها بالجملةِ الاسميّةِ الدّالّةِ على الثّبوتِ، والمُؤكَّدةِ بـ (إنَّ)، وبتحليةِ الخبرِ باللّام المُؤكِّدَة[2].

وُجوهُ تهاوِي دَعوَى الألوهيّةِ، وبطلانِ الغَطرسةِ الفِرعونيّةِ:

إطلاقُ وعْدِ فرعون، تخضُّعٌ مُهين، وعَجزٌ أمامَ المألُوهِينَ

في مُبادرةِ فِرعونَ لهم بالوعدِ والتّقريبِ منه دليلٌ على شدّةِ اضطِرارِهِ لهم، وأنّه ينافِقُهُم أو يبالِغُ في مُجاملتِهِم تخضُّعًا، وأنّهم كانوا عالِمينَ بأنّهُ عاجِزٌ، وأنّه مُحتاجٌ إليهم في دَفعِ موسى عليه السلام. وهكذا نَجِدُ ألوهيّةَ فِرعونَ قد خارَت أمامَ المَألوهينَ السَّحرَةِ[3].

نُكتةُ التّعْريضِ في فاصِلةِ الآيةِ الكريمةِ:

تَقريبُ السَّحرَةِ المُنتفِعينَ، تَعريضٌ بفسَادِ الانْتِهازِيّين

قولُهُ: ﴿لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾ تعريضٌ بفسادِ الحُكمِ؛ لأنّهُ مادامَ حاكِمًا فعليهِ أن يكونَ كلُّ الرَّعيةِ المَحكومينَ بالنّسبةِ إليهِ سواءً، لكن إذا ما كانَ هناكَ مُقرَّبونَ يدخُلونَ تحتَ ما يُسمَّى الرّضا السّاميّ للمَلك؛ فالدّائرةُ الأولى مِنهُم تنهبُ على قدرِ قُربِها، والدّائرةُ الثّانيةُ تنهَبُ

(1) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/27، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/260.
(2) رضا، تفسير المنار: 9/56.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/360، والشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 7/4290.

أيضًا، وكذلك الثّالثةُ والرّابعةُ فتجدُ كلَّ الدّوائرِ تُمارِسُ فسادَها مادامَ النّاسُ مُصنَّفينَ عندَ الحاكمِ. ولذلكَ كانَ رسولُ اللّهِ ﷺ إذا ما جَلَسَ الصّحابةُ يَستمعونَ إليهِ يساوي النّاسَ جميعاً في نظرِهِ حتّى يظنَّ كلُّ إنسانٍ أنّه أولَى بنظرِ رسولِ اللّهِ ﷺ، ولا يُدني أحداً، أو يُقرِّبُه مِن مَجلسِهِ إلّا مَن شَهِدَ له الجميعُ بأنّهُ مُقرَّبٌ[1].

(1) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 7/4290.

﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلۡقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحۡنُ ٱلۡمُلۡقِينَ ١١٥﴾

[الأعراف: 115]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الانتقالُ من تقريرِ ضَمانِ امتيازاتِ السَّحرةِ، إلى الشّروعِ في المنازَلةِ الخَطِرةِ

لمّا فرَغَ السَّحرَةُ مِن مُحاورةِ فِرعونَ تشوَّفَ السّامِعُ إلى ما سَيقولونَهُ لموسى عليه السلام، فاستأنفَ الجوابَ حاكيًا قولَهُم: ﴿قَالُواْ﴾[1].

المعنى الإجْماليُّ:

بَدْءُ المُنازَلةِ، وطَلَبُ المُبادأةِ، لاستِكشافِ القُدُراتِ عندَ المواجَهةِ

لمّا اجتمَعَ السَّحرَةُ مع موسى عليه السلام في المَشهَدِ العظيم، خيّروهُ بإلقاءِ عصاه أوّلًا، أو إلقاءِ عصيِّهم، وقدَّموا التّخييرَ بإلقائِهِ مُعبِّرين بالفعلِ استهانةً بإلقائِهِ غُرورًا وتعصُّبًا، وليرضوا فِرعونَ بأنّهم فوقَ موسى في الحَلَبةِ عن إلقائِهم؛ لأنّهم يريدونَ أن يعرفوا ما عندَهُ مِن طاقةٍ، ويُقَدِّروا طاقتَهُم على قدرِها، وعبَّروا عن إلقائِهم هم بالجملةِ الاسميّةِ وتأكيدِها؛ وثوقًا بأنفسِهم وليثبتوا لِفرعونَ أنّهُم الغالِبونَ[2]، ويَحْتَمِلُ أنّهم قدَّموا موسى عليه السلام على أنفسِهم في الإلقاءِ مُراعاةً لحُسنِ الأدبِ، ولعلّ اللّه عز وجل لذلك عوّضَهُم حيث تأدَّبوا مع نبيّهِ موسى عليه السلام بأنْ مَنَّ عليهم بالإيمانِ، والهِدايةِ لمّا راعوا الأدبَ أوّلًا، وأظهروا ما يدُلُّ على رغبتِهِم في ذلك[3]. وتُرشِدُ الآيةُ الكريمةُ إلى جوازِ الابتداءِ بتقريرِ الشُّبهةِ لِمَنْ يثِقُ بأنّهُ قادرٌ على دَفعِها[4].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بَلاغةُ الفصْلِ في الآيةِ الكريمةِ:

﴿قَالُواْ﴾ استئنافٌ بيانيٌّ كنظائرِهِ، جوابًا عن سؤالٍ تقديرُهُ:

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 3/82.

(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 6/2924، ونخبة من العلماء، التّفسير الميّسر، ص: 164.

(3) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 7/259، والخازن، لباب التّأويل: 2/235.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/48.

فماذا فعلوا بعدَ ذلكَ؟ فقيل: قالوا مُتصدّينَ لشأنِهم مُخاطِبينَ لموسى عليه السلام: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلۡقِيَ﴾، وفُصِلَت جملةُ: ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ﴾؛ لِوقوعِها في طريقةِ المُحاورةِ بينَهُم وبينَ فِرعونَ وموسى؛ لأنّ هؤلاءِ الثّلاثةَ المذكورينَ هُم أهلُ الكلامِ في ذلك المَجمَعِ[1].

اسْتِمرارُ المُحاوَرةِ بينَ طرفَيِ التَّخاطُبِ، في ميدانِ المُبارَزةِ

دَلالةُ التّعْبيرِ بحرفِ التّفْصيلِ، ﴿إِمَّآ﴾:

﴿إِمَّآ﴾ حرفُ تفصيلٍ يدُلُّ على التّرديدِ، والتّخييرِ بينَ أحدِ شَيئينِ أو أشياءَ. وحالها: إنْ كنتَ مُشترِطًا، أو شاكًّا، أو مُخيّرًا فهي مَكسورةٌ، وإنْ كنتَ آمرًا، أو ناهيًا، أو مُخْبرًا فهي مَفتوحةٌ. ومع أنّ التَّقدُّمَ في شؤونِ الشّعوذةِ أنجحُ للبادئِ؛ لأنّ بَديهتَها تمضي في النّفوسِ، وتستقرُّ فيها، فتكونُ النّفوسُ أشدَّ تأثُّرًا بها مِن تَأثُّرِها بما يأتي بعدَها[2].

تَخييرُ موسَى بالإلقاءِ أوّلًا، مع رغْبَتِهم في العكسِ، مُبادرةٌ منهم للضّربةِ القاضيةِ

إلّا أنَّ مَن يَعْقِب ويكون عملُهُ تاليًا لمَن سَبَقَهُ، فإنَّ فعلَهُ هو الّذي سيترتَّبُ عليه الحُكمُ، ولابدَّ أنْ يكونَ قويَّ الحُجّةِ، بيّنَ التّأثيرِ، وهُم يُريدونَ أنْ يكونوا هُمُ المُعقبينَ، وأنّ موسى الّذي يبدأُ، لكنّ عزّتَهُم تفرضُ عليهم أن يبدؤوا هم أوّلًا؛ لِذلكَ جاؤوا بالعبارةِ الّتي تَحمِلُ المعنيين: ﴿إِمَّآ أَن تُلۡقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحۡنُ ٱلۡمُلۡقِينَ﴾[3].

دَلالةُ التّعريفِ بـ(أل)، للفْظِ ﴿ٱلۡمُلۡقِينَ﴾:

حقيقةُ أمرِهم تدُلُّ على أنّهُم راغبونَ في التَّقدُّمِ بإلقاءِ ما يَحملونَهُ؛ لِما جاءَ في تعبيرِهم عن أنفسِهم، بتغييرِ النّظمِ إلى ما هو أبلغُ، مُعرِّفين ﴿ٱلۡمُلۡقِينَ﴾ الواقع خبرًا، و(أل) فيه مَوصولة، وتوسيط الفصلِ، وتأكيد ضميرِهم المتَّصلِ بالمُنفَصلِ ﴿نَحۡنُ﴾[4]. والفرقُ بينَ كونِ الضّميرِ فصلًا وبينَ كونِهِ توكيدًا، بأنّ التّوكيدَ يَرفَعُ التَّجوُّزَ عنِ

التّوطئةُ بلفظِ (أن نكونَ)، والختْمُ بـ(نحن المُلْقين)، إشارةٌ للرّغبةِ في البَدْءِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/46.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/47.
(3) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 7/4290 - 4291.
(4) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/140، والبيضاوي، أنوار التّنزيل: 3/28.

المُسندِ إليه، فيلزم التّخصيصَ من تعريفِ الخبرِ؛ والمعنى: (نحن نلقي البتّةَ لا غيرنا)، والفصلُ يُخصِّصُ الإلقاءَ بهم لتخصيصِ المُسندِ بالمُسندِ إليه، فيُعرَّى عنِ التّوكيدِ[1].

سِرُّ التّخْيِير بين المتقابلات:

جَزاءُ أدبِهِم مع موسَى بتقديمِهِ عليهم، أن هُدُوا إلى الإيمانِ

في قوله تعالى: ﴿إِمَّآ أَن تُلۡقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحۡنُ ٱلۡمُلۡقِينَ﴾، يحتمِلُ المعنى أنّهم يُلْمِحونَ بتخييرِهِ هنا في البدءِ إلى مُراعاةِ الأدبِ معَهُ، كما يَفعَلُ أهلُ الصّناعاتِ إذا التقَوا كالمُتناظِرينَ، وكما يَفعَلُ المُناظرونَ قبلَ أن يتحاوروا في الجدالِ؛ فكانَ جزاءُ ذلك الأدبِ أن هُدوا إلى الإيمان، أو يكون إظهارًا للجلادَةِ بأنّ حالَهُم لا يختلِفُ قُدِّموا، أو أُخِّروا[2].

تَقديمُ موسَى عليه السلام ثقةً منهم بأنفُسِهم، واسْتِصغارًا لشأنِهِ:

إبطالُ سِحْرِ موسَى بسِحْرِ مثلِهِ، شموخٌ بالنّفوس، وتَطاوُلٌ بالرّؤوسِ

وقد يكونُ تقديمُ موسى لكونِ مَقامِهِم بحضرةِ مَلِكِهِم - الّذي يدَّعي الألوهيّةَ والرّبوبيّةَ فيهم، وما طلبوه إليهِ، وما وعدَهُم بهِ - يَقْتضي أن يَحتقِروا خصمَهُ لا أن يتأدَّبوا معهُ، كما يتأدَّبُ أهلُ الصّناعةِ الواحدةِ بعضهم مع بعضٍ، ولِذلكَ كانَ تخييرُهُم إيّاهُ تحدّيَ ثقةٍ مِن أنفسِهِم بأنّهُم غالبونَ، وإن تأخَّروا، واعتدادًا بسحرِهِم، وإرهابًا لموسى عليه السلام، وإظهارًا لعدمِ المُبالاةِ بهِ، مع العلمِ بأنّ المُتأخِّرَ يكونُ أبصرَ بما يقتضيهِ الحالُ بعدَ وقوفِهِ على مُنتَهى ما عندَ خصمِهِ.

أو أنّهم لمّا سَمعوا أنّه ألقى عصاه بحضرةِ فِرعونَ، فصارَت ثُعبانًا واضحًا للعَيانِ، استعدّوا لمقابلتِهِ بعصيٍّ وحبالٍ كثيرةٍ يُخيّلُ إليه وإلى كلِّ ناظرٍ أنّها ثعابين تَسعَى، فيُبطِلونَ سِحرَهُ بسِحرٍ مثلِهِ كما قالَ ملكُهُم: ﴿فَلَنَأۡتِيَنَّكَ بِسِحۡرٍ مِّثۡلِهِۦ﴾ [طه: 58][3].

(1) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 6/511.

(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/140، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 7/259، والبيضاوي، أنوار التّنزيل: 3/28.

(3) رضا، تفسير المنار: 9/56.

دَلالة التّقدُّمِ والتأخُّرِ في الإلقاء، على اخْتِبارِ قُدْراتِ الخصْمِ:

أرادُوا اسْتِضعافَ موسَى، لِيتقاصرَ عنِ المواجهةِ الشّرسةِ معهم

أو أرادوا أنْ يسبُروا مِقدارَ ثِقَةِ موسى بِمَعرفتِهِ ممّا يَبدو منهُ مِنَ استواءِ الأمرَينِ عندَهُ، أو مِنَ الحِرصِ على أن يكونَ هو المُقدَّمَ؛ فإنَّ لاستِضعافِ النّفسِ تأثيرًا عظيمًا في استِرهابِها وإبطالِ حيلتِها، وقد جاؤوا في جانبِهم بكلامٍ يَسترهِبُ موسى ويُهوِّلُ شأنَهُم في نفسِهِ؛ إذِ اعتَنَوا بما يدُلُّ على ذَواتِهِم بزيادةِ تقريرِ الدّلالةِ في نفسِ السّامعِ المُعبَّرِ عنها في حِكايةِ كَلامِهِم بِتأكيدِ الضّميرِ[1].

سِرُّ العُدولِ إلى المصْدَرِ المُنْسَبِكِ:

هَوْلُ المَوقِفِ، اسْتدعَى قُوّةَ التّعبيرِ، وجَزالةَ اللّفْظِ

﴿أَن﴾ في قولِهِ: ﴿إِمَّآ أَن تُلۡقِيَ﴾ في مَوضِعِ نَصبٍ؛ أي: إمّا أن تَفعَلَ الإلقاءَ، ويَحْتَمِلُ أن تكونَ في مَوضِعِ رَفعٍ؛ أي: إمّا إلقاؤُك مُقدَّمٌ، ودخلَت (أنْ)؛ لأنّهُ لا يكونُ الفعلُ وحدَهُ مفعولًا ولا مبتدأً[2]. وقد تقدَّمَ أنّ التّعبيرَ بالمصدرِ المُنسبِكِ أقوى في الدّلالةِ على الحَدثِ، ويناسبُ هولَ الحدثِ استدعاء التّعبيرِ الأقوى، واللّفظِ الأدَلِّ.

دَلالةُ الأمْرِ والخبرِ مع ﴿إِمَّآ﴾ التّفصيليّةِ:

تضمُّنُ الكلامِ معنَى الأمْرِ مع (إمَّا)، وجوازِ وعدَمِ جوازِ دخولِ (أنْ) قبلَ الفِعْلِ

قالَ مكّيّ القيسيّ: "إذا كانَ في الكلامِ مع (إمّا) معنى الأمرِ، فلا بدَّ مِن دخولِ (أنْ) بعدَها، وتقديرُهُ: اخترْ أن تُلقي، كقولِكَ للرّجلِ: (إمّا أنْ تمضي وإمّا أنْ تقعدَ)؛ فإنْ كانَ الكلامُ خبراً ليسَ فيه معنى الأمرِ، لم يجزْ دخولَ (أنْ) البتّةَ، كقولِهِ تعالى: ﴿وَءَاخَرُونَ مُرۡجَوۡنَ لِأَمۡرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمۡ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيۡهِمۡۗ﴾ [التّوبة: 106]، وكذلك ما كانَ في معنى الجَزاءِ، وهي مَكسورةٌ في كلِّ ذلكَ"[3].

فأدخلَ ﴿أَن﴾ في قولِهِ: ﴿إِمَّآ أَن تُلۡقِيَ﴾، وأسقطَها مِن قولِهِ: ﴿إِمَّا يُعَذِّبُهُمۡ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيۡهِمۡۗ﴾ [التّوبة: 106]؛ لأنّها في مَوضِعِ أمرٍ بالاختيارِ،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/47.
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/438، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/361.
(3) مكّيّ القيسّي، الهداية إلى بلوغ النّهاية: 4/2490.

وهي في مَوضِعِ نصبٍ كقولِ القائلِ: اختَرْ ذا، أو ذا، كأنَّهُم قالوا: اختَرْ أن تُلقي أو أن نُلقي، وأمّا قولُهُ تعالى: ﴿إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ﴾ فليسَ فيه أمرٌ بالتّخييرِ، ألا ترى أنَّ الأمرَ لا يَصلُحُ ها هنا، فلِذلِكَ لم يكُنْ فيهِ (أنْ).[1].

قَصْدِيّةُ اختيارِ الحرفِ (إمّا) دونَ (أو):

التّعبيرُ بـ(إمّا) يُشيرُ إلى تساوِي الإلقاءَيْن المُخيَّرِ بينَهما

اختيارُ حرفِ التّفصيلِ (إمّا) دونَ (أو) الّتي للتّخيير؛ لأنّ (إمّا) تدخُلُ على كلا الاسمين المُخيَّرِ بينَ مَدلوليهما، وتحتاجُ إلى أن تُتلَى بالواو، و(أو) لا تدخُلُ إلّا على ثاني الاسمين، ولِذلكَ كانَ التّعبيرُ عنِ التّساوي بينَ الإلقاءين المُخيَّرِ بينَهُما مع (إمّا) في قولِ السَّحرَةِ أظهرَ منهُ مع (أو)؛ لأنّ (أو) تُشعِرُ بأنّ الاسمَ المعطوفَ عليه مَقصودٌ ابتداءً.

بَلاغةُ الإيجازِ بحذْفِ المَفعولاتِ:

عادةُ القرآنِ الاستغناءُ بالمَذكورِ في السِّياقِ، إيجازًا واقْتِصادًا

وحذفَ مَفاعيلَ ﴿تُلْقِيَ﴾ ﴿ٱلْمُلْقِينَ﴾؛ استغناءً بالمذكورِ جريًا على عادةِ القرآنِ في الإيجازِ، والاقتصادِ في الكلامِ في مَواطنِهِ. والتّقديرُ: إمّا أنْ تُلْقيَ (عصاكَ، أو ما عندَك أوّلًا)، وإمّا أنْ نَكونَ نَحنُ المُلقينَ (حبالَنا وعصيَّنا، وما عندَنا مِن دونِكَ). وهذا من مُعجِزِ القرآنِ الّذي لا يأتي مِثلُهُ في كلامِ النّاسِ، ولا يَقدِرونَ عليهِ؛ إذ يأتي اللّفظُ اليَسيرُ بِجَمعِ المَعاني الكَثيرةِ[2].

فائِدةُ هَيْئةِ لفْظِ ﴿ٱلْمُلْقِينَ﴾:

الدّلالةُ على الإلقاءِ في الحالِ

جاءَ لفظُ ﴿ٱلْمُلْقِينَ﴾ في النَّظمِ على صيغةِ اسمِ الفاعلِ؛ لقصدِ الدّلالةِ على حدوثِ فعلِ الإلقاءِ في الحالِ. ولذلك ناسبَ أنْ يعقبَها مباشرةً بالأمرِ الدّالِّ على الحالِ في قولِ موسى عليه السلام ﴿أَلْقُوا۟﴾.

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/165.

(2) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 7/259، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/361.

بَلاغةُ التّشابُهِ والاختلافِ في الآيِ:

مُتشابِهُ اللّفْظِ في القصّةِ، تفنُّنٌ في التّعْبيرِ؛ قَصْدَ تأْديةِ المعنى الأثيرِ

وقالَ تعالى هنا: ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلۡقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحۡنُ ٱلۡمُلۡقِينَ﴾، وقالَ في طه: ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلۡقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنۡ أَلۡقَىٰ ٦٥﴾ [طه: 65]؛ لأنّ كلامَ السَّحرَةِ هذا كانَ في مَوطِنين، أو لعلَّهُ قد تكرَّرَ منهم، وإن كانَ في مَوطِنٍ واحدٍ، أو لعلَّ بعضَهم قالَ هذا، وآخرون قالوا غيرَه، أو لعلَّ المعنى الّذي حُكي عنهُم تؤدّيه العبارتان، فضلًا عن أنَّ كلَّ واحدةٍ مِنَ الآيتين جرَت وفاقَ فواصلِ تلك السّورةِ ورؤوسِ آياتِها، ولا يناسبُ العكسُ بوجهٍ، فوَجَبَ اختصاصُ كلِّ سورةٍ بما وردَ فيها[1]. وفي ذلك مزيدُ تفنُّنٍ في التّعبيرِ قد يَصِلُ إلى حدِّ الإعجازِ، وذلك أنّ تأديةَ دقائقِ المعنى مُكرَّرةٌ بألفاظٍ مُختلِفةٍ في مُنتَهى العُسرِ، وكثيرًا ما يكونُ مُتعذِّرًا، فلو لم يُؤكَّدِ الضّميرُ المُتصِّلُ هاهنا بالضّميرِ المُنفَصلِ لما أفادَ معنى الرّغبةِ في أوّليّةِ الإلقاءِ المُصرَّحِ به في سورة طه، وبذلك عُلِمَ أنّ مُراعاةَ الفاصلتين في المَوضِعين هو الّذي وحَّدَ بينَهُما بجعلِ كلٍّ منهُما دالًّا على رَغبةِ السَّحرَةِ في التَّقدُّمِ والأوليّةِ، فأيُّ خطيبٍ أو كاتبٍ يَقدِرُ على إفادةِ هذا المعنى بأسلوبين مُختلِفين في اللّفظِ مِن غيرِ تصريحٍ به[2]؟

(1) ابن الزّبير، ملاك التّأويل: 1/218.

(2) رضا، تفسير المنار: 9/57.

﴿قَالَ أَلۡقُواْۖ فَلَمَّآ أَلۡقَوۡاْ سَحَرُوٓاْ أَعۡيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسۡتَرۡهَبُوهُمۡ وَجَآءُو بِسِحۡرٍ عَظِيمٖ ١١٦﴾ [الأعراف: 116]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الرّبْطُ بين مُخايرةِ السَّحَرةِ لموسَى، وفطْنتِه لِتقديمِه لهم في الإلقاءِ، ثقةً بنَصْرِ الله

كانَ في جوابِ موسى إيّاهُم بقولِه: ﴿أَلۡقُواْۖ﴾ استخفافٌ بما سيلقونَهُ؛ لأنّه عبّرَ عنهُ بصيغةِ العمومِ والاستخفافِ بأمرِهم، إذ مكَّنَهُم مِن مُباداةِ إظهارِ تَخييلاتِهم وسِحرِهم؛ لأنّ اللّه قوَّى نفسَ موسى بذلك الجَوابِ لِتكونَ غَلَبَتُهُ عَلَيهم[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَٱسۡتَرۡهَبُوهُمۡ﴾: الرّاءُ والهاءُ والباءُ أصلان: أحدُهما يدُلُّ على خَوفٍ[2]، وأرهبَ الرّجلَ ورَهَّبَه: فزَّعَهُ[3]، وهو طولُ الخَوفِ، واستمرارُهُ[4]. والمَخافَةُ فيها مع تَحَرُّزٍ واضطرابٍ. ومعنى ﴿وَٱسۡتَرۡهَبُوهُمۡ﴾؛ أي: حملوهُم على أن يَرْهبوا؛ أي: أخافوهُم وأفزعوهُم[5] مدّةً طويلةً.

المعنى الإجْماليُّ:

المواجَهةُ المُباشَرةُ مع موسَى، بسِحْرِ العيونِ، واسْترهابِ النّفوسِ بالسِّحرِ الملعونِ

قالَ موسى عليه السلام للسَّحرَة: ألقوا ما أنتُم مُلقونَ، فألقَتِ السَّحرَةُ ما معَهُم مِنَ العصيِّ والحبالِ الغلاظِ، فسَحروا أعينَ النّاسِ، وصَرَفوها عَن إدراكِ حقيقةِ ما فعَلوا مِنَ التّمويهِ، والتّخييلِ، وخيَّلوا إلى أعينِهم بما أحدَثوا مِنَ الخدعِ أنّها تَسعَى، واسترهبوهُم حتّى خافوا، ظنًّا منهُم أنّها حيّاتٌ؛ إذ كانَ تخييلُهُم، وخداعُهُم سِحرًا عظيمًا[6].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/47.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (رهب).
(3) ابن سيده، المحكم: (رهب).
(4) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 242.
(5) الرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (رهب).
(6) ابن جرير، جامع البيان: 13/27.

وتهدي الآيةُ الكريمةُ إلى: بيانِ كيفَ تتجلّى أصدقُ معاني الثّقةِ باللّه، والتّسليمِ لحكمِهِ، وتدبيرِهِ، والرّكونِ إلى تقديرِهِ. وتُرشِدُ إلى تأثيرِ السِّحرِ في الأعينِ، والقلوبِ، والأبدانِ بإذنِ اللّهِ تعالى،[1] وأنَّ السِّحرَ لا يغيِّرُ حقائقَ، فلا يجعلُ العصا والحبالَ حيّاتٍ، ولكنّهُ يُؤثِّرُ في الرّائي في نفسِهِ[2].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

تَوجِيهُ العُمومِ في خِطابِ مُوسَى عليه السلام:

التّعبيرُ بصِيغةِ العُمومِ، تَسويغٌ للمُعجزةِ، وتأثيرٌ في نفوسِ المُشاهِدينَ

﴿قَالَ أَلۡقُواْۖ﴾ تعبيرُ موسى عليه السلام عنِ الإلقاءِ بصيغةِ العُمومِ بحذفِ المفعولِ تسويغٌ لهُم لما تراغبوا فيهِ مِن بدءِ الإلقاءِ استخفافًا بما سيُلقونَهُ، وبأمرِهِم، وازدراءً لشأنِهِم، وقِلّةَ مُبالاةٍ بِهِم، وثقةً بما كانَ بصددِهِ مِنَ التّأييدِ السّماويِّ، وأنّ المُعجزةَ لن يَغلِبَها سِحرٌ أبدًا[3]، وليُظهِرَ اللّهُ أمرَ نبوَّةِ موسى قوّى نفسَهُ ويقينَهُ، ووَثَقَ بالحَقِّ؛ فأعطاهُمُ التّقدُّمَ، فنَشِطوا وسُرّوا حتّى أظهَرَ اللّهُ الحقَّ وأبطَلَ سَعيَهُم[4]، وكانَ موسى عليه السلام نصحَهُم بعدمِ الدّخولِ معهُ في مَعرَكةٍ هُمُ الخاسرونَ فيها قَطعًا، فقال: ﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيۡلَكُمۡ لَا تَفۡتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا فَيُسۡحِتَكُم بِعَذَابٖۖ وَقَدۡ خَابَ مَنِ ٱفۡتَرَىٰ ٦١﴾ [طه: 61].

أو هو تهديدٌ؛ أي: ابتدِئوا بالإلقاءِ، فسَتَرَونَ ما يَحِلُّ بكُم مِنَ الافتِضاحِ[5]. والحِكمةُ الإلهيّةُ في هذا زيادةُ المُعجزةِ ظهورًا؛ ليرى النّاسُ صنيعَهُم ويتأمَّلوهُ، فإذا فرَغَ مِن بهرجِهِم، جاءَهُم الحقُّ الواضحُ الجليُّ بعدَ تَطلُّبٍ لهُ والانتِظارِ مِنهُم لِمَجيئِهِ، فيَكون أوقَعَ في النّفوسِ[6].

(1) اللاّحم، عون الرّحمن: 9/245.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 6/2924.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/140، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 7/259، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/47.
(4) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/438.
(5) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 7/259.
(6) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 3/456.

دَلالةُ الإيجازِ بالحذْفِ، في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَلۡقَوۡاْ﴾:

السِّياقُ مُؤْذِنٌ بالمحذوفِ، وحذْفِ مَفعولِ الماضي لظُهورِهِ

وقولُهُ: ﴿فَلَمَّآ أَلۡقَوۡاْ﴾ عُطِفَ على مَحذوفٍ للإيجازِ، والتّقديرُ: فألقَوْا، فلمّا ألقَوْا؛ لأنّ قولَهُ: ﴿قَالَ أَلۡقُواْۖ﴾ يُؤْذِنُ بهذا المَحذوفِ، وحُذِفَ مَفعولُ الفعلِ الماضي المَبنيِّ على الضّمِّ المُقدَّرِ على الألفِ المَحذوفةِ لالتقاءِ السّاكنين: ﴿أَلۡقَوۡاْ﴾ لظهورِهِ؛ أي: ألقَوا آلاتِ سِحرِهِم، والفاءُ عاطفةٌ على هذا المَحذوفِ و﴿فَلَمَّآ﴾ اسمُ شرطٍ غيرُ جازمٍ[1].

بَلاغةُ التَّعْبيرِ بالمَجازِ:

في المَجازِ قَصْدٌ إلى إظهارِ حقيقةِ السِّحْرِ

في قولِهِ: ﴿سَحَرُوٓاْ أَعۡيُنَ ٱلنَّاسِ﴾ نَصٌّ في أنّ لَهُم فِعلًا ما زائدًا على ما يُحَدِثونَهُ مِنَ التَّزييفِ والآثارِ في العصا وسائرِ الأجسامِ الّتي يَصرِفونَ فيها صِناعَتَهم[2]؛ أي: خَيَّلوا إلى الأبصارِ أنّ ما فعَلوهُ لهُ حَقيقةٌ في الخارجِ، والحقُّ أنّه لا حقيقةَ له، ولم يكنْ إلّا مُجرَّدَ صَنعةٍ وخَيالٍ[3]. فجَعَلوها مُتأثِّرةً حيلةً بالسِّحرِ بما ألقوا مِنَ التّخييلاتِ والشّعوذةِ. وتَعديةُ فِعلِ ﴿سَحَرُوٓاْ﴾ إلى ﴿أَعۡيُنَ﴾ مَجازٌ عَقليٌّ؛ لأنّ الأعيُنَ آلَةُ إيصالِ التّخييلاتِ إلى الإدراكِ، وهُم إنّما سَحَروا العُقولَ، ولِذلكَ لو قيلَ: سَحَروا النّاسَ لأفادَ ذَلِكَ، ولَكِن تَفوتُ نُكتةُ التّنبيهِ على أنّ السِّحرَ إنّما هوَ تَخَيُّلاتٌ مَرئيَّةٌ[4]، وفيهِ أنّ تأثيرَ سِحرِهِم لم يتعدَّ عيونَ الحاضِرينَ.

نُكتةُ ائتلافِ الجَمْعِ، والتّعريفِ بأل الجِنْسيّةِ في لفْظِ ﴿ٱلنَّاسِ﴾:

شُمولُ تأثيرِ السِّحْرِ جميعَ المُحْتَشِدينَ في المَجْمَعِ

﴿أَعۡيُنَ﴾ جَمعُ قِلّةٍ للعينِ أُريدَ به الكثرةُ؛ لإضافتِهِ إلى ﴿ٱلنَّاسِ﴾ المُعرَّفةِ بـ(أل) الجنسيّةِ للاستغراقِ العُرفيِّ؛ أي: جميع النّاسِ المُحتشِدينَ هناك[5].

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/48.
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/438.
(3) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 3/456.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/48.
(5) المحليّ والسّيوطيّ، تفسير الجلالين، ص: 587.

بَلاغةُ صِيغةِ الاسْتِفعالِ، في الفعْلِ: ﴿وَٱسۡتَرۡهَبُوهُمۡ﴾:

التّصويرُ البَديعُ في تأكيدِ النُّزوعِ، نحوَ شِدَّةِ السَّعيِّ إلى التّأثيرِ

﴿وَٱسۡتَرۡهَبُوهُمۡ﴾ أرهبوهم إرهابًا شديدًا كأنّهُم استدعَوْا رهبتَهُم بالحيلةِ الّتي هي السِّحرُ العظيمُ[1]، فالسّينُ والتّاءُ في ﴿وَٱسۡتَرۡهَبُوهُمۡ﴾ للتّأكيدِ، وأصلُ الاسترهابِ مُحاولةُ الإرهابِ وطَلَبُ وقوعِهِ بأسبابِهِ، والتّعبيرُ به مُصوِّرٌ بليغٌ، فهو يوحي بأنّهم استجاشوا وجدانَ النّاس قَسرًا، وساقوهم سَوقًا بوسائلَ مُصطنَعَةٍ لا تَستنِدُ إلى واقعٍ سَليم[2]، وأوجدوا رهبتَهُم إيجادَ راغبٍ فيها طالبٍ لها غايةَ الطّلبِ، ولمّا قيلَ ذلكَ كانَ ربّما ظنَّ أنّهُم خافوا ممّا لا يُخافُ مِن مثلِهِ، فقالَ تعالى مُبيّنًا أنّهُم مَعذورونَ في خوفِهِم: ﴿وَجَآءُو بِسِحۡرٍ عَظِيمٖ﴾[3]، والمجيءُ يُقالُ اعتبارًا بتحقُّقِ الحصولِ.

عِلّةُ تَنْكيرِ السِّحْرِ، في قوله تعالى: ﴿وَجَآءُو بِسِحۡرٍ عَظِيمٖ﴾:

هَوْلُ السِّحْرِ في النّظَرِ، وتنوّعُ أدَواتِهِ، أدْعَى للأثَرِ

و(الباء) للتّعديةِ، وتنكيرُ (سِحْرٍ) يدُلُّ على أنّ السِّحرَ كانَ مَهولًا في نظرِ المُشاهِدينَ، وأنّهُ أثارَ خوفَهُم ودهشتَهُم، فكأنّهُم لم يروا مثلَهُ مِن قبلُ، ولِذلكَ لم يقُلِ اللّهُ: (وجاؤوا بالسِّحرِ)، أو (وجاؤوا بسِحرِهِم)، ولتنوُّعِ أدواتِهِ، وآلاتِهِ مِن حبالٍ، وأخشابٍ، وعصيٍّ، وغيرِها، فعمومُهُ أدعى للتّأثيرِ والرّهبةِ.

دَلالةُ وصْفِ السِّحْرِ بالعَظَمةِ:

تعظيمُ شأنِ سِحرِهِم، وقُوّةِ تأثيرِهِ

وصَفَ السِّحرَ بـ ﴿عَظِيمٖ﴾؛ وهو الكبيرُ المظْهَرُ الضَّخْمُ في فنِّهِ بصيغةِ الصّفةِ المُشبّهةِ الّتي تفيدُ المبالغةَ؛ لقوّةِ ما خُيِّلَ في أعيُنِ النّاسِ مِن فنونِ السِّحرِ وألاعيبِهِ، أو لكثرةِ آلاتِهِ، أو لما ظهرَ مِن تأثيرِهِ في الأعضاءِ الظّاهرةِ الّتي هيَ الأعيُنُ بما لَحِقَها مِن تخييلِ العِصيِّ والحبالِ حَيّاتٍ، وفي الأعضاءِ الباطِنَةِ الّتي هي العقولُ

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/140.
(2) طنطاويّ، الوسيط: 5/349.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 3/82.

والقلوبُ بما لَحِقَها مِنَ الفَزَعِ والخَوفِ، ولمّا كانَتِ الرَّهبَةُ ناشِئَةً عَن رُؤيَةِ الأعيُنِ تَأخَّرَتِ الجُملةُ الدّالّةُ عَلَيها[1].

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(الرَّهبُ)، و(الخوفُ)، و(الرُّعبُ)، و(الهَلَعُ):

إيثارُ لفظِ (الرَّهَبِ)، باعتبارِ أنّه الخوفُ والفزعُ، المتّسِمُ بالطُّولِ والاستِمرارِ

الخوفُ: أصلٌ واحدٌ يدُلُّ على الذُّعرِ والفَزَعِ. وهو توقُّعُ مَكروهٍ عن أمارةٍ مَظنونةٍ، أو مَعلومةٍ، ويضادُّ الخوفُ الأمنَ، ويُستعمَلُ ذلك في الأمورِ الدّنيويّةِ والأخرويّةِ[2]. والفزعُ مُفاجأةُ الخوفِ عندَ هجومِ غارةٍ، أو صوتِ هَدَّةٍ، وما أشبهَ ذلك، وهوَ انزعاجُ القلبِ بتوقُّعِ مَكروهٍ عاجلٍ[3]، أو انقباضٌ ونِفارٌ يعتري الإنسانَ مِنَ الشّيءِ المُخيفِ[4]. والهَلوعُ: الَّذي يفزَعُ ويجزَعُ مَنَ الشَّرِّ[5]. والهَلَعُ، والهُلوعُ أسوأُ الجزعِ على ما فسَّرَهُ اللّهُ تعالى في قولِهِ: ﴿۞إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ١٩ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ٢٠ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلۡخَيۡرُ مَنُوعًا ٢١﴾ [المعارج: 19 - 21]، ولا يُسمَّى المرءُ هَلوعًا حتّى تجمعَ فيه هذه الخصالُ[6].

أمّا الرَّهَبُ فهو الخوفُ والفزعُ[7]، لكنّهُ خوفٌ مُتّسِمٌ بالطّولِ والاستمرارِ، ولِذلكَ يُقالُ للرّاهبِ راهبٌ؛ لأنّهُ يديمُ الخوفَ[8]، والمَخافة فيه مع تَحَرُّزٍ واضطرابٍ[9].

وبذا تكونُ اللّفظةُ أكثرَ انسجامًا مع سياقِ الآيةِ الكريمةِ، والأنسبَ مِن بين شبيهاتِها في الدّلالةِ على معناها، فمعنى ﴿وَٱسۡتَرۡهَبُوهُمۡ﴾: حملوهُم على أنْ يَرْهبوا؛ أي: أخافوهُم خوفًا شديدًا، وأفزعوهُم مُدّةً طويلةً لكثرةِ السَّحرةِ المُشتركينَ في المُنازَلةِ، وكثرةِ ما ألقَوا مِن عِصيٍّ، وغيرِها، ولذلك وُصِفَ سِحرُهُم بأنّه عظيمٌ.

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/361.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (خوف).
(3) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 242.
(4) الرّاغب، المفردات: (فزع).
(5) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (هلع).
(6) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 242.
(7) ابن سيده، المحكم: (رهب).
(8) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 242.
(9) الرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (رهب).

﴿۞وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَلۡقِ عَصَاكَۖ فَإِذَا هِيَ تَلۡقَفُ مَا يَأۡفِكُونَ ١١٧﴾ [الأعراف: 117]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الرّبْطُ بين إلقاءِ السَّحرةِ للسِّحْرِ المبينِ، ولَقْفِ عصَا موسَى ما يأفِكُونَ

ولمّا تناهى الأمرُ واشتدَّ التّشوّقُ إلى ما صَنعَ موسى عليه السلام، قالَ مُعْلِمًا عنه عاطفًا: ﴿۞وَأَوۡحَيۡنَآ﴾؛ أي: مُظهِرينَ لِعظمتِنا على رُؤوسِ الأشهادِ بما لا يَقدِرُ أحدٌ أن يُضاهيَهُ[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿۞وَأَوۡحَيۡنَآ﴾: الواوُ والحاءُ والياءُ أصلٌ يدُلُّ على إلقاءِ علمٍ في إخفاءٍ، وأصلُ الوحي: الإشارةُ السّريعةُ، ولِتضمُّنِهِ السُّرعَة قيل: أَمْرٌ وحيٌّ. فالوحيُ: السّريعُ، والإشارةُ، والكتابُ، والرّسالةُ، والصّوتُ. وكلُّ ما ألقيتَهُ إلى غيرِكَ حتّى عَلِمَهُ فهو وحيٌ كيفَ كانَ، وكلُّ ما في بابِ الوحي فراجعٌ إلى هذا الأصلِ[2]. وأوحَى اللّهُ إليه؛ أي: بعثَه. وأوحى إليه: ألْهَمَهُ[3]. ويشمَلُ الوَحْيَ بالكلامِ المُباشرِ، وبواسطةِ الرُّسُلِ، والإلهامِ، والإلقاءِ في الرّوعِ، والغرزِ في الطّبعِ. وما ورَدَ في القرآنِ مِن عمومِ أنواعِ الوحي هو مِنَ الوحي بأيٍّ مِنَ الطُّرقِ السّابقةِ، والسّياقُ يوضِحُ الطّريقةَ المُرادةَ[4]. والوحيُ في الآيةِ الكريمةِ بمعنى: الإلهامِ، والإلقاءِ في النّفسِ، والإشارةِ المُتضمِّنةِ للسُّرعةِ.

2) ﴿تَلۡقَفُ﴾: لَقِفْتُ الشّيءَ ألقَفُهُ، وتَلقَّفْتُهُ: تناولتُهُ بالحِذْقِ؛ فاللَّقِفُ: الجيّدُ الالتقافِ، سواء في ذلك تناولَهُ بالفمِ، أو اليدِ[5]

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 3/83.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (وحي).
(3) الخليل، العين: (وحي).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (وحي).
(5) ابن دريد، جمهرة اللّغة، والرّاغب، المفردات: (لقف).

فاللَّقْفُ: تناولُ شيءٍ يُرمَى بهِ إليكَ، فتأخذَهُ، وتأكلَهُ، وتبتلعَهُ[1] مِن غيرِ تمهُّلٍ. ومِن مجازِهِ تلقّفُ العلمِ؛ أي: تلقّيهِ بسرعةٍ وحِذْقٍ[2]. ومعنى ﴿تَلْقَفُ﴾ في الآيةِ الكريمةِ: تَبتلِعُ، وتَلتقِمُ التقامًا حقيقيًّا حاذِقًا جَيِّدًا شَديدًا سَريعًا جِدًّا[3].

3) ﴿يَأْفِكُونَ﴾: الهمزةُ والفاءُ والكافُ في (أفك) بفتحِ الفاءِ وكسْرِها أصلٌ واحدٌ، يدُلُّ على قلبِ الشّيءِ، وصرفِهِ عن جهتِهِ بالكذبِ والباطلِ[4]. فالإفكُ: الكذبُ، والصّرفُ، والإثمُ، والصّدُّ عنِ الحقِّ، والقلبُ[5]. فالإفكُ: كلُّ مَصروفٍ عن وجهِهِ الّذي يحقُّ أنْ يكونَ عليهِ؛ أي: يَصرِفُ عنِ الحقِّ في الاعتقادِ إلى الباطلِ، ومِنَ الصّدقِ في المَقالِ إلى الكذبِ، ومِنَ الجميلِ في الفعلِ إلى القبيحِ، ومِلاكُ ذلك الاستعمالِ: الكذبُ[6]. ويُستعمَلُ في التّلبيسِ والشّرِّ وقلبِ الحقائقِ قولًا وفِعلًا[7]. وجماعُ هذه المعاني تَحتمِلُها لفظةُ الإفكِ في الآيةِ الكريمةِ.

المعنى الإجْماليُّ:

وَحْيُ الله لموسَى بإلقاءِ العصَا، وإظهارُ عظِيمِ القُدرةِ لمن عصَى

وأوحى اللّهُ إلى رسولِهِ موسى: أنْ ألقِ عصاكَ ولا تَخفْ إنّك أنتَ الأعلى، وهو وحيُ إعلامٍ فيهِ تثبيتٌ للجأشِ، وتبشيرٌ بالنّصرِ، أو: هو وحيُ إلهامٍ أُلقيَ ذَلِكَ في روعِهِ. فألقى ما في يمينِهِ - وهي عصاهُ - فإذا هيَ تَبتلعُ كلَّ شيءٍ أتَوا بهِ مِنَ السِّحرِ، مِن حبالِهم وعصيِّهم واحدًا واحدًا، وتَلتقِمُ بسرعةٍ ما يُموِّهونَ، ويَخدَعونَ بهِ النّاسَ، ويُوهِمونَ أنّهُ حقٌّ وهوَ باطلٌ[8].

(1) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللّغة: (لقف).
(2) رضا، تفسير المنار: 9/60.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 3/83.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (أفك).
(5) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن سيده، المحكم: (أفك).
(6) الرّاغب، المفردات: (أفك).
(7) رضا، تفسير المنار: 9/59 - 60.
(8) الخازن، لباب التّأويل: 2/236، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/363.

وتُرشِدُ الآيةُ الكريمةُ إلى أنّ الباطلَ قد يَسحَرُ عيونَ النّاسِ ببريقِهِ لفترةٍ مِنَ الوقتِ، وقَد يَسترهِبُ قلوبَهُم لساعةٍ مِنَ الزّمانِ، حتّى ليخيّلُ إلى الكثيرينَ الغافلينَ أنّه غالبٌ وجارفٌ، ولكن ما إن يواجهُهُ الحقُّ الهادئُ الثّابتُ المُستقرُّ بقوّتِهِ الّتي لا تُغالَبُ؛ حتّى يزهقَ ويزولَ، وينطفئَ كشُعلَةِ الهشيمِ، وإذا بأتباعِ هذا الباطلِ يُصيبُهُم الذّلُّ والصَّغارُ، وهُم يَرونَ صروحَهُم تتهاوى، وآمالَهُم تتداعى، أمامَ نورِ الحقِّ المُبينِ، وإذا بتحدّيهِم الصّريحِ، وتطاولِهِم الأحمقِ يتحوَّلُ إلى استسلامٍ مُهينٍ، وذلٍّ مُشينٍ[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بَلاغةُ الوصْلِ في الآيةِ الكريمةِ:

جُملةُ الوحْيِ تابعةٌ لإلقاءِ السَّحرَةِ سِحْرَهُمْ

الواو في ﴿۞وَأَوۡحَيۡنَآ﴾ عاطفةٌ، وجملةُ: ﴿۞وَأَوۡحَيۡنَآ﴾ مَعطوفةٌ على الآيةِ الكريمةِ قبلَها ﴿سَحَرُوٓاْ أَعۡيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسۡتَرۡهَبُوهُمۡ وَجَآءُو بِسِحۡرٍ عَظِيمٖ﴾، فهي في حيّزِ جوابِ (لمّا)؛ أي: لمّا ألقَوا سَحَروا، وأوحَينا إلى موسى أن ألقِ لهم عَصاكَ[2].

سِرُّ إيثارِ فعْلِ الوَحْيِ ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ﴾:

التّصْريحُ بفعْلِ الوحْيِ، تَثبيتٌ لنبيِّهِ الكريمِ، وتَبشيرٌ له بالنَّصْرِ المُبِينِ

وسواء كان الوحيُ وحيَ إعلامٍ، أو وحيَ إلهامٍ أُلقيَ في روعِهِ؛ فإنَّ فيه تثبيتًا مِنَ اللّهِ في ذَلِكَ المَوقِفِ العظيمِ لجأشِ نبيّهِ الكريمِ وتبشيرًا له بالنّصرِ[3]. وضميرُ التّعظيمِ (نا) إظهارٌ لِعظمَتِهِ تعالى على رُؤوسِ الأشهادِ بما لا يَقدِرُ أحدٌ أنْ يُضاهيَهُ[4].

نُكتةُ إظهَارِ اسْمِ مُوسَى عليه السلام:

إظهارُ اسْمِ المُرسَلِ تشريفٌ، وتثنيةُ تأكيدٍ للتّبشيرِ بالوَحْيِ

﴿إِلَىٰ﴾ في قولِهِ: ﴿إِلَىٰ مُوسَىٰٓ﴾ لانتهاءِ الغايةِ المكانيّةِ، وفي التّصريحِ بموسى بعدَ ضميرِ التّعظيمِ تشريفٌ، وإظهارُ مَكانةٍ وعلوٍّ

(1) طنطاويّ، الوسيط: 5/350.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/49.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/363.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 3/83.

مَنزِلةٍ لعبدِهِ ورسولِهِ. وحُرِمَ السَّحرَةُ منها في ساحةِ المُبارزةِ؛ إذ أغفلَ تعالى ذكرَهم إهمالًا، ودنوَّ مَنزِلةٍ، وضَعَةَ شأنٍ، فلم يُصرِّحْ بِهِم في هذهِ السّاحةِ إلّا في مَوطِنِ التّشريفِ لَهُم عندَ إيمانِهِم وسجودِهِم: ﴿وَأُلۡقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ﴾.

إيثارُ الأمْرِ بقولِهِ: ﴿أَلۡقِ﴾ دونَ فعْلِ الضَّربِ:

أمرَ اللّهُ تعالى موسى في هذا المَوقِفِ بمواجهةِ السَّحرَةِ بفعلِ: ﴿أَلۡقِ﴾، ولم يأمرْهُ بفعلِ: (اضرب)؛ لأنَّ اللّه أرادَ أن يُظهِرَ لموسى ولفِرعونَ ولِلمُشاهِدينَ أنَّ العصا الّتي يُلقيها موسى ليسَت عصًا عاديّةً، وإنّما هي عصا مُبارَكةٌ، تتحوَّلُ بإذنِ اللّهِ إلى ثُعبانٍ حقيقيٍّ، يتحرَّكُ ويبتلِعُ ما صَنَعَ السَّحرَةُ مِن حبالٍ وعصيٍّ، ولو قالَ اللّهُ لموسى: (اضربْ) لظنّ النّاسُ في ذلك المَشهَدِ المَهيبِ أنَّ العصا هي الّتي تَضرِبُ بقوّةٍ وتَكسرُ ما تُصادِفُهُ مِن حبالٍ وعصيٍّ، وهذا لا يُثبتُ أنَّ العصا تحوَّلَت إلى ثُعبان، ولا يُبطِلُ كيدَ ما صَنَعَ السَّحرَةُ مِنَ السِّحرِ.

الإيحاءُ أنَّ ما حَدَثَ هو بقُدرةِ اللهِ لا بفِعْلِ بَشَرٍ

فائِدةُ التّعْبيرِ بالأمْرِ المُعتلِّ المُنسَبِكِ مع ﴿أَنۡ﴾:

﴿أَنۡ﴾ مَصدريّةٌ في مَوضِعِ نصبٍ بـ ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ﴾؛ أي: بأنْ ألقِ، فهي وما بعدَها مفعولُ الإيحاءِ، ويَحتَمِلُ أن تكونَ مُفسِّرَةً لها بِمَعنى: (أي)؛ لتقدِّمَ ما فيهِ معنى القولِ دونَ حروفِهِ وهو الإيحاءُ، فلا يكونُ لها مَوضِعٌ مِنَ الإعرابِ[1]. و﴿أَلۡقِ﴾ فعلُ أمرٍ بُنِيَ على حَذفِ حرفِ العلّةِ إيذانًا بسرعةِ الإلقاءِ الّذي يناسبُ قوّةَ الحدثِ وهَوْلَهُ، ويؤكِّدُهُ حَذفُ أحدِ التّائين مِن لفظة ﴿تَلۡقَفُ﴾ على قراءةِ التّشديدِ -كما سيأتي بيانُهُ-؛ وأصلُها تتلقَّفُ؛ ليدُلَّ على سرعةِ تلقُّفِها المَقرونِ بالشّدّةِ والمبالغةِ. ويناسبُ الفعلُ ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ﴾ مَشهَدَ سُرعةِ الحَدَثِ، لِتضمُّنِ دلالتِهِ اللّغويّةِ السُّرْعَةَ في الأمرِ.

الصِّيغةُ مِصداقٌ لسُرعةِ حَدَثِ الإلقاءِ، وقُوّتِهِ

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/439، وطنطاويّ، الوسيط: 5/350.

بَلاغةُ الاحتباكِ، وأثرُه في السِّياقِ:

الإيجازُ في اللّفظِ، والتّنوّعُ في المعاني، من بيانِ التّركيبِ القرآنيِّ

ذَكَرَ هنا وفي سورةِ طه بقولِه تعالى: ﴿وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓاْۖ إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيْدُ سَٰحِرٖۖ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ٦٩﴾ [طه: 69] أمرَهُ لموسى بالإلقاءِ، وفي سورةِ الشّعراءِ قالَ: ﴿فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ٤٥﴾ [الشّعراء: 45] أنّهُ فعَلَ الإلقاءَ الّذي أُمِرَ بهِ، ولم يَذكُرِ الأمرَ، فحَذَفَ مِن كلٍّ سورةٍ ما أثبتَ مُقابلَهُ في الأخرى، وهو مِن قبيلِ الاحتباكِ في السّورِ والاختصارِ المُؤدّي للمعاني المُتعدِّدةِ بأوجزِ عبارةٍ[1].

وقد دلَّ السّياقُ على جُملَتَينِ مَحذوفَتَينِ؛ إذِ التّقديرُ: فألقاها فدَبَّت فيها الحَياةُ، وانقلَبَت ثُعبانًا فإذا هي تَلقَفُ، دلَّ على الجُملةِ الأولى الأمرُ بالإلقاءِ، وعلى الجُملةِ الثّانيةِ التَّلقُّفُ؛ لأنّهُ مِن شأنِ الحيوانِ، والعَصا إذا دَبَّت فيها الحَياةُ صارَت ثُعبانًا بِدونِ تَبديلِ شَكلٍ[2].

دَلالةُ إضافةِ العصَا، واسْتِحضارِ الضّميرِ، في ﴿عَصَاكَ﴾:

تخصيصُ العصَا بكونِهَا لمُوسى عليه السلام، لا لغيرِهِ

إسنادُ العصا في ﴿عَصَاكَ﴾ إلى ضميرِ المُخاطَبِ وهو موسى عليه السلام، والإتيانُ بالضّميرِ ﴿هِيَ﴾ توكيدًا؛ إشارةٌ إلى أنَّ العصا المعنيّةَ هي عصاهُ لا غيرُها، فذَلِكُم أظهرُ لقوّةِ المُعجِزةِ.

دَلالةُ حرْفِ (الفاءِ)، والحذْفِ في السِّياقِ:

الإشعارُ بسُرعةِ شُروعِها بالتهامِ ما ألقاهُ السَّحَرَةُ

الفاءُ في ﴿فَإِذَا﴾ فصيحةٌ للعطفِ، والسّببيّةِ، والتّعقيبِ الدّالِّ على سُرعَةِ مُفاجأةِ شُروعِها في التَّلقُّفِ بمُجرَّدِ إلقائِها[3]؛ أي: فألقاها فصارَت حيّةً فإذا هي تلقَفُ، وإنّما حُذِفَ المُقدَّرُ (فألقاها) للإشعارِ بمُسارَعةِ موسى عليه السلام إلى الإلقاءِ، وبغايةِ سُرعةِ الانقلابِ،

(1) رضا، تفسير المنار: 9/59، والاحتباكُ: هو أن يجتمعَ في الكلامِ مُتقابلان، فيُحذَفُ مِن واحدٍ منهما مقابله، لدلالةِ الآخرِ عَلَيهِ. يُنظر: مطلوب، معجم المصطلحات البلاغيّة، ص: 36.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/49.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/49.

كأنّ لَقْفَها لِما يَأفِكونَ قد حَصَلَ مُتَّصِلًا بالأمرِ بالإلقاءِ[1]، وهذا يُناسِبُ الحذفَ المُتقدِّمَ الّذي أُشيرَ إليهِ في فعلِ الإلقاءِ.

وهذا الحَذفُ قبلَ الجُملةِ الفُجائيَّةِ صيَّرَها إخبارًا بما تَرَتَّبَ على الإلقاءِ، ولا يكونُ موحًى بها في الذِّكرِ، ومَن يَذهَبُ إلى أنّ الفاءَ في نحوِ: خَرَجتُ فإذا الأسَدُ زائِدَةٌ، يَحْتَمِلُ على قولِهِ أن تكونَ هذه الجُملةُ موحًى بها، والآيةُ الكريمةُ بمُجمَلِها مِن كلامِ اللّهِ؛ يعني داخلًا في الأمرِ فيكون مِن جملةِ الموحَى به في الذّكرِ، إلّا أنّهُ يُقدَّرُ المَحذوفُ بعدَها؛ أي: فألقاها فلَقِفَتهُ[2]. ورجّحَهُ بعضُهُم لقولِهِ تعالى: ﴿وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓاْ﴾ [طه: 69][3].

نُكتةُ تَوجيهِ القراءاتِ القرآنيّةِ، في قوله تعالى: ﴿تَلْقَفُ﴾:

تَعدُّدُ القراءةِ تنوُّعٌ في المعاني، وسَعةٌ في الدّلالةِ

قَرَأ حفص عن عاصمٍ ﴿تَلْقَفُ﴾ بسكونِ اللّامِ وتخفيفِ القافِ، على صيغةِ الفعلِ المُجرَّدِ؛ أي: تَلتَقِمُ التقامًا حَقيقيًّا شَديدًا سَريعًا جدًّا بما دَلَّ عليه حَذفُ التّاءِ[4]. وفي قراءةِ الجُمهورِ (تلَقّف) بفتحِ اللّامِ، وتشديدِ القافِ، وأصلُهُ تَتَلَقَّفُ؛ أي: تُبالِغُ وتتكلَّفُ اللَّقفَ. وحَذَفَ التّاءَ؛ ليناسبَ سرعةَ إنجازِ الأفعالِ، وتحقُّقِها في المَشهَدِ. وقَرَأ سَعيدُ بنُ جُبَيرٍ (تلقّم) بالميمِ، والتّشديدِ، أي: تَبتلِعُ كاللُّقمَةِ، ورويَ أنّ الثّعبانَ استَوفَى تلكَ الحِبالَ والعِصيَّ أكلًا، وأعدَمَها اللّهُ[5] ﷻ.

دَلالةُ صِيغةِ المُضارعِ ﴿تَلْقَفُ﴾:

اسْتِحضارُ صُورةِ تجدُّدِ اللَّقفِ، بتجدُّدِ إفْكِهِم

جاءت صيغةُ المضارعِ ﴿تَلْقَفُ﴾، وكذلك ﴿يَأْفِكُونَ﴾ للدلالةِ على التّجديدِ والتّكريرِ واستحضارِ صورةِ اللّقفِ الهائلةِ العَجيبةِ؛ أي: فإذا هي يَتَجَدَّدُ تَلَقُّفُها لِما يَتَجَدَّدُ ويَتَكَرَّرُ مِن إفكِهِم[6]. فالتّعبيرُ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/260.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/363.
(3) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/246.
(4) ابن الجزريّ، النّشر: 2/271، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 3/83.
(5) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/439، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/49.
(6) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/260، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/49.

عنِ الإفكِ بالمضارعِ دلالةُ تجدُّدِ إفكِهم، وتكرّرِه مُقابلة لشدّةِ تَلقُّفِ العصا المُنقلِبَةِ.

عِلّةُ التَّعبيرِ بـ ﴿مَا﴾ الموصولةِ، والمصْدَرِ المُنسَبِكِ:

في التَّعبيرِ إبهامٌ يَشِي بالهَولِ، وقُوّةِ الحَدَثِ

﴿مَا﴾ مَوصولةٌ للدّلالةِ على غيرِ العاقلِ لما تَحمِلُهُ مِن معنى الإبهامِ في محلِّ نصبِ مَفعولٍ بهِ لـ(تَلقف)؛ أي: تَلقَفُ الّذي يَأفِكونَ، والعائدُ مَحذوفٌ؛ أي: ما يَأفِكونَهُ ويُزوِّرونَهُ، أو مَصدريّةٌ؛ أي: تَلقَفُ إفكَهُم، تَسميةٌ لِلمفعولِ بالمَصدرِ[1]، وفي المَصدرِ المُنسبكِ قوّةُ دلالةٍ على عِظَمِ فِعلِ الحَدثِ.

إيثارُ التَّعبيرِ بالإفكِ، في فاصلةِ الآيةِ:

إثباتُ بُطلانِ سِحرِهِم، ووَسْمُ صَنيعِهِم بالافتراءِ

تسميَةُ سحرِهِم إفكًا بقولِهِ: ﴿يَأْفِكُونَ﴾، دليلٌ على أنّ السِّحرَ لا مَعمولَ لهُ، وأنّهُ مُجرَّدُ تَخييلاتٍ وتَمويهاتٍ[2]، وفيه دليلٌ على بطلانِهِ. والتّصريحُ بتلقُّفِ العصا لـ ﴿مَا يَأْفِكُونَ﴾ وقصديّة اختيارِ لفظِ الإفكِ تعبيرًا عَن سحرِهِم دونَ لفظِ عصيِّهِم إلماحٌ بأنّ صنيعَهُم كلَّهُ افتراءٌ منذُ مَجيئِهِم مِنَ المَدائنِ حتّى لحظةِ دَحضِ السِّحرِ. فالبُطلانُ لِلفعلِ برمّتِهِ، وليسَ للإلقاءِ، والسِّحرِ فقط.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(تلقَفُ)، و(تلقَمُ):

اللَّقفُ البَلعُ بالحِذقِ، واللّقمُ الالتهامُ في مُهلةٍ وكَثرةٍ، والأوّلُ أنسبُ لِسياقِ الآيةِ

التَّلقُّمُ: الالتقامُ في مُهلةٍ[3]مع كثرةٍ[4]. أمّا اللَّقفُ - بحسبِ ما فُصِّلَ في شرحِ اللّفظةِ - فالتّناولُ، والبَلعُ بالحِذْقِ، بسرعةٍ ومِن غيرِ تمهُّلٍ بالفمِ، أو اليدِ؛ أي: تلتقمُ التقامًا حقيقيًّا جيّدًا حاذِقًا شَديدًا سَريعًا جِدًّا، وبهذا فهوَ يُناسِبُ عِظمَ مَشهَدِ تلقُّفِ ما رَماهُ السَّحرَةُ مِن عصيٍّ، وغيرِها؛ لِكثرتِها مِن جهةٍ، وتنوُّعِها، وسرعةِ

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/141.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/49.
(3) الحميريّ، شمس العلوم: 9/6100.
(4) الرّاغب، المفردات: (لقم).

أحداثِ المَشهَدِ، وقوّةِ المُعجِزةِ، ممّا يحتِّمُ نوعَ ابتلاعٍ حاذقٍ شديدٍ سريعٍ: فعبَّرَ بالتَّلقُّفِ، ولمّا كانَتِ المُهلَةُ قرينةَ الالتقامِ ناسبَ مَجيؤُها مع التقامِ الحوتِ لسيّدِنا يونسَ عليه السلام، فقالَ سُبحانَهُ: ﴿فَٱلۡتَقَمَهُ ٱلۡحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٞ ١٤٢﴾ [الصّافّات: 142]، وناسبَت دلالةُ الكَثرةِ في اللّفظةِ ضخامةَ الحوتِ، وسعةَ ما يدخُلُ في فمِهِ مِن كائناتٍ.

(الإفكُ)، و(الصّرفُ)، و(الانقلابُ):

الإفكُ تغييرُ الحالِ وصرفُهُ، مَقرُونًا بالكذِبِ وسيلةً له كي يتحقّقَ، وهو ما آثرَه السّياقُ

الصَّرفُ: ردُّ الشّيءِ مِن حالةٍ إلى حالةٍ، أو إبدالُهُ بغيرِهِ. ومنهُ تَصريفُ الرّياحِ بتنوُّعِ أحوالِها وصرفِها مِن حالٍ إلى حالٍ[1]. والقَلْبُ: ردُّ شيءٍ مِن جهةٍ إلى جهةٍ، وتحويلُ الشّيءِ عن وجهِهِ، وتصريفُهُ، وصرفُهُ عن وجهٍ إلى وجهٍ، مع تغيُّرِ حالِهِ إلى عكسِ ما كانَت، كقَلبِ الثّوبِ، ومنه عبَّروا باللّفظةِ عنِ الرّجوعِ؛ أي: الانقِلاب[2]، وهو انتِقالٌ مِن حالٍ إلى حالٍ. أمّا الإفكُ فهو قَلبُ الشّيءِ وصرفُهُ عن جهتِهِ بالكَذِبِ، والباطلِ[3]. ومِن هنا يَبرزُ الفرقُ بينَ الألفاظِ الثّلاثةِ فالصَّرفُ تحويلٌ مِن غيرِ شرطٍ كليّةِ التّغييرِ؛ أي: عَكسَ ما كانَ الشّيءُ عليه كما هو الحالُ في القَلبِ. أمّا الإفكُ فتغييرُ الحالِ وصرفُهُ مَقرونًا بالكذبِ وسيلةً لتحقيقِهِ[4]. وهوَ المُناسِبُ التّعبيرِ بهِ؛ لصنيعِ السَّحرَةِ، لِكونِ سِحرِهِم بُهتانًا، وكَذِبًا خدعوا فيهِ أعيُنَ النّاسِ.

(1) الرّاغب، المفردات: (صرف).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (قلب).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (أفك).
(4) داود، معجم الفروق الدّلاليّة، ص: 162 - 164، وابن محمّد، موسوعة الفروق القرآنيّة: 1/272.

﴿فَوَقَعَ ٱلۡحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١١٨﴾ [الأعراف: 118]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

المناسَبةُ بين لَقَفِ عصَا موسَى ما يأفُكون، وبيانِ اضمِحلال الباطلِ أمامَ الحَقِّ

لمّا مَوَّهوا بسحرِهم أنّهم غَلَبوا، أدخلَ اللّهُ تعالى على تَمويهاتِهم قهرَ الحقِّ فطاشَت تلك الحيلُ، وخابَ مِنهُمُ الأملُ[1]، فظُهورُ الحقِّ استِلزامٌ حَتميٌّ لمَشهَدِ الانتصارِ المُتمثِّلِ بتمييزِ صَغارِ أعمالِ السِّحرِ مِن عِظَمِ قُدرةِ العزيزِ الجبّارِ.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَوَقَعَ﴾: الواوُ والقافُ والعينُ أصلٌ واحدٌ يَرجِعُ إليه فُروعُهُ، يَدُلُّ على سُقوطِ شَيءٍ[2]. والوقوعُ: ثبوتُ الشّيءِ وسقوطُهُ. ووقوعُ القولِ: حُصولُ مُتَضَمَّنِهِ[3]. ووقعَ الأمرُ حصلَ ووُجِدَ[4]. ووَقَعَ الحقُّ؛ أي: ظَهَرَ، وتَبيَّنَ، وثَبُتَ، وحَصَلَ[5]، وكأنّهُ سَقَطَ مِنَ السّماءِ؛ ليكونَ أوقعَ أثرًا، وأدَلَّ معنىً. ومعنى اللّفظةِ في الآيةِ الكريمةِ: الوجوبُ، والثّبوتُ، واللُّزومُ[6].

2) ﴿وَبَطَلَ﴾: الباءُ والطّاءُ واللّامُ أصلٌ واحدٌ، وهو ذَهابُ الشّيءِ وقِلَّةُ مُكثِهِ، ولُبثِهِ[7]. وأبطَلتُ: جئتُ بكَذِبٍ، وادّعيتُ غَيْرَ الحقِّ. والباطلُ: نقيضُ الحقِّ، وهو ما لا ثباتَ لهُ عندَ الفحصِ عنهُ، والإبطالُ: يُقالُ في إفسادِ الشّيءِ وإزالتِهِ، حقًّا كانَ ذلك الشّيءُ أو باطلًا[8]. وكلُّ ما ذُكِرَ في القرآنِ مِن هذا التّركيبِ فهو بمعنى المُهْدَرِ؛ لأنّهُ غيرُ صحيحٍ أو غيرُ نافعٍ[9].

(1) القشيريّ، لطائف الإشارات: 1/557.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (وقع).
(3) الرّاغب، المفردات: (وقع).
(4) الزّمخشريّ، أساس البلاغة: (وقع).
(5) ابن جرير، جامع البيان: 13/31.
(6) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (وقع).
(7) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (بطل).
(8) الخليل، العين، والرّاغب، المفردات: (بطل).
(9) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (بطل).

ومعنى بَطَلَ في الآيةِ الكريمةِ: أُهْدِرَ، ولم يُفِدْ، ولم يُنْتَفَعْ بهِ، ولم يُعْطِ الثّمرةَ الّتي رَجَوْها، وذَهَبَ ضَياعًا وخُسْرًا فهو باطلٌ.

المعنى الإجْماليُّ:

ظهورُ أمرِ اللهِ، وبُطلانُ أعمالِ السَّحرَةِ

ظَهَرَ الحقُّ، وتبيَّنَ، وثَبَتَ في نفوسِ مَن شَهِدَهُ، وحضرَهُ في أمرِ موسى عليه السلام، وأنّهُ مِنَ اللهِ رسولٌ يدعو إلى الحقِّ، وبَطَلَ ما كانوا يَعملونَ مِن إفكِ السِّحرِ وكذبِهِ، ومخايلِهِ، وحيلِهِ[1]. وذلك أنّ السَّحرَةَ قالوا: لو كانَ ما صَنَعَ موسى سِحرًا لبقيَت حبالُنا وعصيُّنا. فلمّا اختفَت، وتلاشَت في عصا موسى، عَلِموا أنَّ ذلك مِن أمرِ اللهِ، وقُدرتِهِ[2].

وتُرشِدُ الآيةُ الكريمةُ إلى أنَّ الباطلَ مهما أُعِدَّ لهُ، وزُيِّنَ، وتَرعرعَ في مَحضَنِ الكبراءِ، وحفَّتهُ المُغرياتُ، فإنّهُ إلى زوالٍ واضمحلالٍ، ولا بدَّ لرايةِ الحقِّ أنْ تعلو، ولِسلطانِهِ أنْ يَستمكِنَ.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بَلاغةُ الوصْلِ في الآيةِ الكريمةِ:

تحقيقُ صِدْقِ الكلامِ بعدَ أن كانَ خبرًا

الفاءُ في ﴿فَوَقَعَ﴾ حرفُ عَطفٍ للتّرتيبِ، والتّعقيبِ، والسّببيّةِ. وهو تفريعٌ على ﴿هِيَ تَلْقَفُ﴾. فبعدَ أن كانَ كلامًا خبريًّا يَصِحُّ أن يُصدَّقَ، ويَصِحُّ أن يُكَذَّبَ، صارَ بصدقِهِ واقعًا[3].

بَلاغةُ التَّعْبيرِ، بالوقوعِ على طريقِ الاسْتِعارةِ:

بيانُ الحقِّ الّذي كانَ عليهِ موسَى عليه السلام، وتَثْبيتُه عليه وطَمْأنتُه

حقيقةُ (الوقوع) سُقوطُ الشّيءِ مِن أعلى إلى الأرضِ، ومنه: وقَعَ الطّائرُ، إذا نَزَلَ إلى الأرضِ، واستُعيرَ الوُقوعُ لِظُهورِ أمرٍ رفيعِ القَدرِ؛ لأنّ ظُهورَهُ كانَ بتأييدٍ إلهيٍّ فشُبِّهَ بشيءٍ نَزَلَ مِن عُلوٍّ، وقد يُطلَقُ الوقوعُ على الحُصولِ؛ لأنّ الشّيءَ الحاصلَ يُشبِهُ النّازِلَ على الأرضِ، وهي استِعارةٌ شائِعةٌ قالَ تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٌ ۝٦﴾ [الذّاريات:

(1) ابن جرير، جامع البيان: 13/31.
(2) الخازن، لباب التّأويل: 2/236.
(3) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 7/4300.

6]؛ أي: حاصِلٌ وكائِنٌ، والمعنى: فظَهَرَ الحقُّ وحَصَلَ[1]، ففي التّعبيرِ بهِ تجسيمٌ لهذا الحقِّ الّذي كانَ عليه موسى، وتثبيتٌ واستقرارٌ لهُ، حتّى لكأنّهُ شيءٌ ذو ثقلٍ نَزَلَ على شيءٍ آخر خفيفِ الوزنِ فأزالَهُ[2].

سِرُّ التَّعْبيرِ عنِ ﴿ٱلۡحَقُّ﴾، مَصْدرًا مُعرَّفًا:

قوّةٌ في الدّلالةِ، ومُبالَغةٌ في كَمالِ الحقِّ

وعُبِّرَ عنِ ﴿ٱلۡحَقُّ﴾ بصيغةِ المصدرِ الأقوى في الدّلالةِ على الحَدَثِ مِنَ الفعلِ، و(أل) فيه جنسيّةٌ للمُبالغةِ والكَمالِ[3]، وتعريفُهُ لِكونِهِ حقًّا واضحًا ثابتًا موافِقًا للبرهانِ.

بلاغةُ الطِّباقِ بينَ (الحقِّ) و(الباطلِ):

الحقُّ ثابتٌ واقعٌ، والباطلُ زائفٌ زائلٌ

وجلّى (الحقَّ) ضِدّهُ (الباطلُ)؛ فمقابلَتُه مع الباطلِ الّذي جاءَ رِدْفًا لهُ مِن مُناسبةِ اللّفظةِ لرسيلتِها في النّظمِ، وهو مِن طباقِ الإيجابِ، الّذي يُفْصِحُ عن دلالةِ الرّبطِ المُؤدّي إلى مزيدِ إيضاحٍ لمعنى النّقيضين في السّياقِ، وبيانِ البونِ بينَ الحَدَثَين. والفائدةُ: شدّةُ الرّسوخِ والتّأثيرِ. فالحقُّ ثبوتٌ، وحصولٌ واقعٌ، والباطلُ إزاءَه زائلٌ[4].

شُيوعُ اسْتِعمالاتِ أصْلِ الفعْلِ، تنوّعٌ في مَعانيهِ:

بُطلانُ صَنيعِهِم ثابتٌ قبلَ إلقاءِ العِصَا، ولم يتجلَّ للنّاظرين إلّا عندَ الإلقاءِ

الواو في ﴿وَبَطَلَ﴾: عَطفَت ما بعدَها على ﴿فَوَقَعَ ٱلۡحَقُّ﴾، وهو فعلٌ ماضٍ يفيدُ معنى التَّحقُّقِ، وشاعَ هذا الإطلاقُ حتّى صارَ الباطلُ كالاسمِ الجامِدِ، فيأتي اسمُ فاعلٍ مِن بَطَلَ فهو باطِلٌ، فيُساوي المَصدَرَ في اللّفظِ، أو يكونُ مُشتَقًّا مِنَ المصدرِ وهو البُطلانُ، فيكون في الحالَين بمعنى الوصفِ، ويَصِحُّ تفسيرُهُ هنا بالمَعنَيين، فعَلى التّشبيهِ بالمصدرِ يكونُ المعنى: وانتفَت حينئذٍ آثارُ ما كانوا يَعمَلونَ، وعلى اسمِ الفاعلِ يكونُ المعنى: واتّصَفَ ما يَعمَلونَ بأنّهُ باطِلٌ، وعلى هذا الوجهِ فإنّ المُرادَ مِنَ الفعلِ مَعنى الظُّهورِ لا الحُدوثِ؛ لأنّ كَونَ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/50.
(2) طنطاويّ، الوسيط: 5/350.
(3) قباوة، المفصّل، ص: 588.
(4) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 6/512.

ما يَعمَلونَهُ باطِلًا وصفٌ ثابتٌ لهُ مِن قَبلِ أن يُلقيَ مَوسى عَصاهُ، ولَكِنْ عندَ إلقاءِ العَصا ظَهَرَ كَونُهُ باطلًا[1].

وَجْهُ الإطنابِ في الآيةِ الكريمةِ:

قولُهُ: ﴿وَبَطَلَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ زيادةٌ بعدَ قولِهِ: ﴿فَوَقَعَ ٱلۡحَقُّ﴾؛ لتقريرِ مَضمونِها، ولِتسجيلِ ذمِّ عملِهِم، ونداءٌ بخيبتِهِم، تأنيسًا لِلمُسلِمينَ، وتَهديدًا لِلمُشرِكينَ، ولِلكافرينَ أمثالُها[2].

زيادةُ التّركيبِ تقريرٌ لِلمَعنَى، وتأنيسٌ لِلمُسلِمينَ، وتهديدٌ لِلكَفرةِ الفجَرةِ

نُكتةُ التَّعْبيرِ بالموصولِ ﴿مَا﴾:

﴿مَا﴾ في قولِهِ: ﴿مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ مَوصولٌ يُفيدُ الإبهامَ، فعَملُهُم لا يُستحَقُّ أنْ يُذكَرَ، ويُفيدُ العُمومَ، وبِهِ يَعُمُّ البُطلانُ سِحرَ السَّحرَةِ وسعيَ فِرعونَ وشيعتِهِ[3].

الدّلالةُ على الإبهامِ، استخفافٌ بعمَلِهِم

بيانُ التّعْبيرِ بـ(كانَ والمضارعِ)، في سِياقِ الآيةِ:

ودلَّ التّعبيرُ بـ(كانَ)، و(يعملون) على أنّهم - مَعَ ظهورِ بُطلانِ ما كانوا مُستمرّينَ على عملِهِ - نسوا عملَهُم بِحَيثُ إنّهُ أسدلَ عليهم بابَ العملِ بعدَ أن كانَ لَهُم بِهِ مَلَكَةٌ وحِذقٌ كالجِبِلَّةِ[4]. فالّذي بَطَلَ كانَ عملًا عملوه، وكيدًا كادوهُ، وليسَ شيئًا مادّيًّا أوجدوهُ، كما عُلِمَ مِن سورةِ طه وسورةِ يونسَ؛ أي: فثَبتَ الحقُّ وفَسدَ ما كانوا يَعمَلونَ مِنَ السِّحرِ، والحيلِ، والتّخييلِ وذَهَبَ تأثيرُهُ[5].

أُفْحِمَ السّحرةُ، ودُحِضَ باطلُهم، حتّى نسُوا أنّ لدَيهِم عمَلًا

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(وقعَ)، (ظهرَ)، (بدَا)، (تبيّنَ):

الظّهورُ: كلُّ بارزٍ مُنكشِفٍ مُبْصَرٍ بالبصرِ والبَصيرةِ. وأصلُهُ

إيثار لفظِ (وَقَعَ) على غيره من الألفاظ، وهو من فعْلِ الإلقاءِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/50.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/51.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/364.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 3/83.
(5) رضا، تفسير المنار: 9/60 - 61.

مِنَ القوّةِ والظُّهورِ[1]. أمّا البروزُ فكلُّ ما ظَهَرَ بعدَ خَفاءٍ[2]؛ واقْتَرَنَ استعمالُهُ بالحروبِ والشّدّةِ. أمّا الفعلُ (بدا) فالظّهورُ ظهورٌ بيّنٌ[3]. وقد اقترنَ في القرآنِ الكريم بألفاظٍ دالّةٍ على الإخفاءِ: (أخفى، كتمَ، أسرَّ، أرى) إشارةً إلى أنّ البُدوَّ: ضدُّ الخفاءِ والكتمانِ[4]. أمّا الوقوعُ فثبوتُ الشّيءِ وسُقوطُهُ. ووَقَعَ الحقُّ: ظَهَرَ، وتبيّنَ، وثَبَتَ، وحَصَلَ، وكأنّه سَقطَ مِنَ السّماءِ.

وفي اختيارِ لفظِ (وَقَعَ) مراعاةٌ لفعلِ الإلقاءِ؛ لأنّ الشّيءَ المُلقَى يقعُ على الأرضِ فكانَ وُقوعُ العصا على الأرضِ، وظُهورُ الحقِّ مُقترنَين[5]. فقُصِدَ إلى اختيارِهِ؛ ليكونَ أوقعَ أثرًا، وأدَلَّ معنىً على قوّةِ تحقُّقِهِ، وشدّةِ أثرِهِ ممّا أدّى إلى إيمانِ السَّحَرَةِ.

(يَعملون)، (يَفعلون)، (يَصنعون):

العَملُ: إيجادُ الأثرِ في الشّيءِ. يُقالُ: فلانٌ يَعمَلُ الطّينَ خَزفًا، ويَعمَلُ الخوصَ زنبيلًا، والأديمَ سِقاءً. ولا يُقالُ: يَفعَلُ ذلك؛ لأنَّ فِعلَ الشّيءِ عبارةٌ عمّا وجَدَ في حالٍ كانَ قبلَها مَقدورًا، سواء كانَ عن سببٍ أو لا؛ لأنّ الفعلَ قد يُنسَبُ إلى الحيواناتِ الّتي يَقَعُ منها فِعلٌ بغيرِ قَصدٍ، وقد يُنسَبُ إلى الجماداتِ، والعملُ قلَّما يُنسَبُ إلى ذلك، والعَملُ يُستعمَلُ في الأعمالِ الصّالحةِ والسّيّئةِ. والفعلُ: التّأثيرُ مِن جهةِ مُؤثِّرٍ، وهو عامٌّ لمّا كانَ بإجادةٍ أو غيرِ إجادةٍ، ولمّا كانَ بعِلمٍ أو غيرِ علمٍ، وقصدٍ أو غيرِ قصدٍ، ولمّا كانَ مِنَ الإنسانِ والحيوانِ والجَماداتِ، والعَملُ مثلُهُ، والصّنعُ أخصُّ منهما؛ لكونِهِ إجادةَ الفعلِ، فكلُّ صُنعٍ فِعلٌ، وليسَ كلُّ فِعلٍ صُنعًا، ولا يُنسَبُ إلى الحيواناتِ والجَماداتِ كما يُنسَبُ إليها الفِعلُ[6].

العَمَلُ كلُّ فعْلٍ يكونُ بقصْدٍ، وهو أخصُّ منَ الفِعْلِ، والصُّنعُ أخصُّ منهما

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (ظهر).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (برز).
(3) الرّاغب، المفردات: (بدا).
(4) داود، معجم الفروق الدّلاليّة، ص: 107 - 109.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/50.
(6) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 134، والرّاغب، المفردات: (عمل)، (فعل)، (صنع).

ومِن وجوهِ التّفريقِ بينَ العَملِ والفعلِ أنّ العَملَ يُستعمَلُ لما يمتدُّ زمانُهُ، وأمّا الفعلُ فيكونُ دُفعةً واحدةً[1]. وبذا يتحقَّقُ أنَّ لفظَ ﴿يَعْمَلُونَ﴾ أنسبُ لسياقِ الآيةِ هنا لكونِ فِعلِ السَّحرَةِ كانَ بقصدٍ مِنهُم، وأوجدُ أثرًا وإنْ كان وقتيًّا، فضلًا عن كونِهِ فِعلًا مُمتدَّ الزّمنِ بدلالةِ التّعبيرِ بالفعلِ المضارعِ.

(بَطَلَ)، (دَحَضَ):

اخْـتِـيـارِ لـفْـظِ (بَـطَـلَ)، لِـكَـوْنِـهِ أقْوَى فِي الدَّلالةِ عـلى بُـطـلانِ عمَلِهِم

أصلُ الإبطالِ الإهلاكُ، ومنه سُمّي الشُّجاعُ بَطَلًا لإهلاكِه قرنَه. وأصلُ الإدحاضِ الإذلالُ، فقولك: أبطلَهُ، يفيدُ أنّهُ أهلكَهُ، وقولك: أدحضَهُ، يُفيدُ أنّه أزالَهُ. ومنه مَكانٌ دَحْضٌ إذا لم تَثْبُتْ عليه الأقدامُ. وقد دَحَضَ إذا زلَّ، ومنهُ قولُهُ تعالى: ﴿حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [الشّورى: 16][2]، ولِذلكَ قُصِدَ إلى اختيارِ لفظِ البُطلانِ؛ لِكونِ تضمُّنِهِ معنى الإهلاكِ أقوى في الدّلالةِ على بُطلانِ عملِهِم، فهو عَمَلٌ أوْرَدُهم الهَلَكَةَ، فضلًا مُقابلتُهُ مع لفظِ (الحقِّ) المُتحقِّقِ فيه طباقُ الإيجابِ، الّذي يُفْصِحُ عن دلالةِ الرّبطِ المُؤدّي إلى مزيدِ إيضاحٍ لمعنى النّقيضين في السّياقِ، وبيانِ البَونِ بينَ الحَدثَين، بحسبِ ما تمَّ بيانُهُ في الإيضاحِ البلاغيِّ.

(1) السّيوطيّ، معترك الأقران: 3/604.

(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 236.

﴿فَغُلِبُواْ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُواْ صَٰغِرِينَ ١١٩﴾ [الأعراف: 119]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

ظهورُ الحقِّ، بعْدَ أن غلبَ أهْلَ الباطلِ، وانْقلبُوا صاغِرين

ترتّبَ على وقوعِ الحقِّ تمييزُ الغالِبِ مِنَ المغلوبِ بأنْ أصابَت الهزيمةُ المُنكَرَةُ فِرعونَ، وملأَهُ، وسحرتَهُ في ذَلكَ المَجمَعِ العظيمِ، الّذي حَشَرَ النّاسَ له في يومِ عيدِهِم وزينتِهِم[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَغُلِبُواْ﴾: الغينُ واللّامُ والباءُ أصلٌ صحيحٌ يدُلُّ على قوّةٍ، وقَهرٍ، وشدّةٍ[2]. وغَلَبَ على فلانٍ الكرمُ؛ أي: هو أكثرُ خِصالِهِ[3]. ومعناهُ المحوريُّ: شدّةٌ مع عُلوٍّ ما، وعِظَمُ جِرْمٍ، وسائرُ ما في القرآنِ مِنَ التّركيبِ هوَ مِنَ الغَلَبِ؛ أي: القهر[4]. وهو معنى اللّفظةِ المُفسَّرةِ.

2) ﴿وَٱنقَلَبُواْ﴾: القافُ واللّامُ والباءُ أصلان صَحيحان: يدُلُّ أحدُهُما على ردِّ شيءٍ مِن جِهةٍ إلى جِهةٍ[5]. ومنهُ القَلْبُ: تحويلُكَ الشّيءَ، وصرفُهُ عن وجهِهِ إلى وجهٍ، كقَلبِ الثّوبِ، وقَلبِ الإنسانِ؛ أي: صرفَهُ عن طريقتِهِ. والمُنْقَلَبُ: مصيرُكَ إلى الآخرةِ[6]. فمعنى اللّفظةِ تغييرُ الحالِ وتبدّلُهُ، والأكثرُ أن يكونَ تغييرًا مِنَ الحالِ المُعتادَةِ إلى حالٍ غريبةٍ. ويُطلَقُ الانقِلابُ شائعًا على الرّجوعِ إلى المكانِ الّذي يُخرَجُ مِنهُ، ولأنّ الرّاجِعَ قد عَكَسَ حالَ خُروجِهِ. وانقلَبَ مِنَ الأفعالِ الّتي تَجيءُ بمعنى (صار)، وقد فُسِّرَت بها اللّفظةُ؛ أي:

(1) طنطاويّ، الوسيط: 5/350.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (غلب).
(3) ابن الأثير، النّهاية: (غلب).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (غلب).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (قلب).
(6) الخليل، العين، والرّاغب، المفردات: (قلب).

صاروا صاغِرينَ[1]. ولا يَمنَعُ ذلكَ مِن تحقُّقِ معنى التّغييرِ، والرّجوعِ، والتّحويلِ في لفظِ الانقِلابِ.

3) ﴿صَٰغِرِينَ﴾: الصّادُ والغينُ والرّاءُ أصلٌ صحيحٌ يدُلُّ على قِلَّةٍ وحَقارَةٍ. مِن ذَلكَ الصِّغَرُ: ضِدُّ الكِبَرِ. والصّغيرُ: خِلافُ الكَبيرِ. والصّاغِرُ: الرّاضي بالضَّيمِ[2]. وتَصاغرَت إليهِ نفسُهُ، وصَغُرَت في عيونِ النّاسِ: صارَت صغيرةَ القَدرِ والشّأنِ ذلًّا ومَهانةً[3]. والصّاغِرُ: الصّغيرُ قدرُهُ، الرّاضي بالضَّيْمِ، والذُّلِّ، والمَنزِلةِ الدّنيّةِ[4]. ومعنى اللّفظةِ في الآيةِ الكريمةِ الذّلُّ، والمَهانةُ، وتِلكَ المَذَلَّةُ هي مَذَلَّةُ ظُهورِ عَجزِهِم، ومَذَلَّةُ خَيبَةِ رجائِهِم ما أمَّلوهُ مِنَ الأجرِ والقُربِ عندَ فِرعونَ[5].

المعنى الإجْماليُّ:

صَغَارُ المَغلُوبينَ، وذلُّـهُـم بعـدَ خيْبَتِهِم

لم يُغلَبِ السَّحرَةُ فقط، بل غُلِبَ مُعسكَرُ الظّالِمينَ جميعِهِم في مَكانِ اجتماعِهِم أو في زمانِ اجتماعِهِم، وعادوا أذلَّةً بما رُزِئوا بهِ مِنَ الخِذْلانِ، والخَيبةِ[6]وعاشَ كلُّ مَن هو ضِدُّ موسى في صَغارٍ، صغار للمُستدعي لِلمُنازَلَةِ، والتّحدّي، وصغار للمُستدعَى إليهما[7]؛ جزاءً على قلبِهِم لِتلكَ الحقائقِ عن وجوهِها، ولا ذلَّ ولا صَغارَ أعظمُ في حقِّ المُبطِلِ مِن ظُهورِ بُطلانِ قولِهِ على وجهٍ لا يكونُ فيه حيلَةٌ[8].

وتُرشِدُ الآيةُ الكريمةُ إلى أنَّ الذّلّةَ، والصَّغارَ، والعارَ، والشّنارَ مَآلُ مُتّبعي الباطل، ومُناصري الظّالِمينَ، وأنّ العاقلَ مَن يتّعِظُ فلا يَغُرَّنّهُ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/51.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (صغر).
(3) الزّمخشريّ، أساس البلاغة: (صغر).
(4) الخليل، العين، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (صغر).
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/51.
(6) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/364.
(7) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 7/4300.
(8) البقاعيّ، نظم الدّرر: 3/83 - 84.

في نصرةِ الباطلِ مالٌ، أو جاهٌ، أو قُربٌ مِن سُلطانٍ؛ فإنَّ العاقبةَ لِلمُتّقينَ، المُلازمينَ طريقَ الحقِّ، وإنْ قلَّ سالِكوه، أو ضَعُفَت قواهم.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بَلاغةُ الوصْلِ في الآيةِ الكريمةِ:

سَبَّبَ تلقُّفُ العصَا لإفْكِهِم مُباشرةً، حُصولَ الغَلَبةِ بعونِ الله وتأْييدِه

الفاءُ في ﴿فَغُلِبُواْ﴾ كسابقاتِها عاطفةٌ تفيدُ التّرتيبَ، والتّعقيبَ، والسّببيّةَ، إذ عُطِفَت هذه الآيةُ الكريمةُ على ما قبلَها. وقد عُطِفَ عليها جُملةُ (فغلبوا) بالفاءِ لحُصولِ الغَلبةِ إثرَ تَلقُّفِ العَصا لإفكِهِم مُباشرةً[1]. وضميرُ الرّفعِ فيه عائدٌ على الجميعِ: من فِرعونَ، وملئِهِ، وقومِهِ، وسحرتِهِ[2].

نُكتةُ التَّعْبيرِ بصِيغةِ المبنيِّ للمَجهولِ ﴿فَغُلِبُواْ﴾:

تَضمينُ الغَلَبةِ عليهِم كَونُها بتأْييدٍ وتثْبيتٍ ونَصْرٍ مِنَ اللهِ تعالى

جيءَ بهِ بفِعلِ الغَلَبةِ على صيغةِ المبنيّ للمَجهولِ، ولم يُصرِّحْ بالغالِبِ وهو نبيُّ اللّهِ موسى ﷺ؛ لأنّ ذَلكَ لم يكنْ بكسبِهِ، وصنعِهِ وحدَهُ، بل بتأييدٍ وتثبيتٍ ونصرٍ مِنَ اللّهِ تعالى[3].

سِرُّ التَّعْبيرِ باسْمِ الإشارةِ ﴿هُنَالِكَ﴾:

الإلماحُ لِما وَقَعَ لِلسَّحرَةِ وأنصارِهِم، مِنَ الهزيمةِ والخِذلانِ

﴿هُنَالِكَ﴾ اسمُ إشارةٍ لِلمكانِ صيّرَهُ اللّام للبعدِ مُبالغةً في تفخيمِ ما وقَعَ فيهِ لَهُم مِنَ الهزيمةِ والخِذلانِ، والكافُ حرفُ خطابٍ وبُعدٍ؛ أي: غُلِبوا في المَكانِ الّذي وقَعَ فيه سِحرُهُم[4]، فهذا المكانُ الّذي تَواعدوا فيهِ لِلاجتماعِ يومَ العيدِ، حينَ يتزيَّنُ النّاسُ، ويَجتمعونَ مِن كلِّ فَجٍّ وناحيةٍ وَقتَ الضُّحى هو الّذي غُلِبوا فيه؛ فأفادَ بَداهَةَ مَغلوبيَّتِهِم وظُهورَها لكلِّ حاضرٍ[5]. ويُلمَحُ باستعمالِهِ الدّلالة على بُعدِهِم عنه تعالى، ونأيِهِم عن رحمتِهِ وتأييدِهِ.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/51.
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/440.
(3) محمد رضا، تفسير المنار: 9/61.
(4) السّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 5/418.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/51.

نُكتةُ إيثارِ لفْظِ ﴿وَٱنقَلَبُواْ﴾:

اختيارُ لفظِ ﴿وَٱنقَلَبُواْ﴾ دونَ (رجعوا) أو (صاروا)؛ لمناسبتِهِ لِلَّفظِ ﴿فَغُلِبُواْ﴾ في الصّيغةِ، ولِما يُشعِرُ بِهِ أصلُ اشتقاقِهِ مِنَ الرّجوعِ إلى حالٍ أدْوَنِ ممّا كانوا عليهِ مِن قَبلُ، فكانَ لفظُ ﴿وَٱنقَلَبُواْ﴾ أدخَلَ في الفَصاحَةِ[1].

اللّفظُ يبيِّنُ حالَهم المُتغيِّرةَ، ويُناسِبُ الفعْلَ (فغلبوا)

مَرجِعُ الضَّميرِ في ﴿وَٱنقَلَبُواْ﴾:

ضميرُ الرّفعِ في ﴿وَٱنقَلَبُواْ﴾ إنْ قدّرْنا انقِلابَ الجَمعِ قبلَ إيمانِ السَّحرَةِ، أو جعلْنا (انقلَبوا) بمعنى صاروا؛ فهُم في الضّميرِ، وإن قدّرْناهُ بعدَ إيمانِهِم فلَيسوا في الضّميرِ ولا لَحِقَهُم الصَّغارُ، وحاشا للّه أن يصفَهُم بِهِ بعدَ إيمانِهِم[2]، ورَجحانُ عدمِ شمولِ السَّحرَةِ يُناسِبُ ما بعدَهُ مِن لفظِ الإذلالِ والمَهانةِ ﴿صَٰغِرِينَ﴾ الواقع حالًا.

الانقِلابُ لِفِرعونَ ومَلئِهِ لا لِلسَّحرَةِ

عِلّةُ التَّعْبيرِ بلفْظِ ﴿صَٰغِرِينَ﴾:

الفعلُ المُصاغُ بهيئةِ اسمِ الفاعلِ ﴿صَٰغِرِينَ﴾ يُفيدُ أنَّ هذا هو حالُهُم، وأنّهُ تمَّ، وحَدَثَ في الحالِ، واستمرَّ حصولُهُ، وثَبُتَ وصفًا لهم مُستقِرَّ الدّلالةِ. وبذا لم يشمَلِ السَّحرَةَ لكونِهِم آمنوا، ويُناسِبُ مجيءَ ﴿وَٱنقَلَبُواْ﴾ بصيغةِ المُطاوعةِ؛ أي: قبول الأثرِ، والانصياع لهُ، والتّسليم بِهِ لفعلِ الصَّغارِ الدّالِّ على الإذلالِ والعَجزِ المُتضمِّنِ لمعنى الانصياعِ للأمرِ.

صَغارُ فِرعونَ ومَن مَعهُ، هو حالُهُم المُلازِمُ لَهُم

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(انقلبُوا)، (رجعُوا)، (عادُوا):

عُرِّفَ الرّجوعُ بأنّه: الرّجوعُ إلى ما كانَ منهُ البدءُ فرَجَعَ عَوْدُهُ على بدئِهِ، إذا رَجَعَ في الطّريقِ الّذي جاءَ[3]، أو الرّجوعُ بعدَ التّخلي

القلْبُ تَغييرُ الحالِ وتَبَدُّلُهُ، وقد جاء في الآيةِ بمعنَى الصّيرورةِ، ولذلك أُوثِرَ عمّا سِواه

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/51.
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/440، والسّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 5/418.
(3) ثعلب، الفصيح، ص: 312.

عنِ الأمرِ وتركِهِ. أمّا العَودُ فيعني القيامَ بالعَملِ مرّةً أخرى، وأعادَ فلانٌ الأمرَ، لا يُفيدُ إلّا إعادته مرّةً واحدةً[1]؛ فالعَودُ: تثنيةُ الأمرِ عَودًا بعدَ بَدءٍ، بدأ ثمّ عادَ، والعودةُ مرّةً واحدةً. وتقولُ: عادَ فلانٌ علينا معروفَهُ: إذا أحسنَ ثمّ زادَ[2].

فالعَودُ غيرُ الرّجوعِ، فقولُكَ: رَجعَ فلانٌ إلى بيتِهِ؛ يعني: أنّه سَلَكَ في رجوعِهِ إليه طريقَ ذهابِهِ، حتّى وصَلَ إلى ما بدأ الذّهابَ منهُ، ولا يكونُ هذا المعنى هو المُرادَ، إذا قلْنا: عادَ فلانٌ إلى بيتِهِ، بلِ المراد أنّهُ كانَ مِن قَبلُ في بيتِهِ، ثمّ صارَ فيهِ مرّةً ثانيةً[3].

وكلاهما لا يؤدّيان معنى القَلْب: الّذي تبيّنَ معناهُ في الشّرحِ اللّغويِّ بأنّه تحويلُ الشّيءِ، وصرفُهُ عن وجهِهِ إلى وجهٍ آخَر، كقَلبِ الثّوبِ، وقَلبِ الإنسانِ؛ أي: صَرفَهُ عن طريقتِهِ، فمعنى اللّفظةِ تغييرُ الحالِ وتَبَدُّلُهُ، أو أنّه جاءَ بمعنى (صار)؛ أي: صاروا صاغِرينَ[4]. وهذا المعنى مُرادٌ في الآيةِ الكريمةِ؛ لكونِ الانقلابِ ترتَّبَ عليهِ تغيّرُ حالِهِم؛ فإمّا انصرافُ صَغارٍ وذُلٍّ لا عودةَ فيه، وإمّا تحوُّلٌ إلى الإيمانِ كما هو حالُ السَّحرَةِ.

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 39، والكفويّ، الكلّيّات، ص: 478.

(2) الخليل، العين: (عود).

(3) زيدان، الفروق اللّغويّة في القرآن، ص: 239 - 240.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/51.

﴿وَأُلۡقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ١٢٠﴾ [الأعراف: 120]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لمّا كان الضّمير مُشتركًا في قولِه تعالى: ﴿فَغُلِبُواْ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُواْ صَٰغِرِينَ ١١٩﴾ [الأعراف: 119] جُرِّدَ المؤمنون، وأُفرِدوا بالذّكر[1]؛ لِعظيم ما جاؤوا به من صنيع الصّادق في فعله، الذي لا يأبهُ بالعقوبة، ولا يخشَى الانتقامَ.

العَلاقةُ بين مُعْجزةِ موسَى، وسُجودِ السّحَرةِ، بقلوبٍ وَجِلَةٍ، ووُجوهٍ نَضِرةٍ

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿سَٰجِدِينَ﴾ السّين، والجيم، والدّال أصلٌ واحد مطَّردٌ يدلُّ على تطامُنٍ وذلٍّ. يُقال سَجَدَ، إذا تطامَنَ. وسَجَدَ؛ إذا طأطأ رأسَه، وانحنى. ووضع جَبهته على الْأَرْضِ. وجعل ذلك عبارةً عنِ التّذلّل للّه، وعبادتِه. ولا خضوعَ أعظمَ منه[2]. ووفاقُ ذلك فمعنى السّجود في الآية بيّنُ الدّلالةِ.

المعنى الإجْماليُّ:

سُجودُ السّحَرةِ للّه، كان تَحوُّلًا جِذْرِيًّا مِنَ الكُفرِ إلى الإيمانِ

وأُلقي السّحرةُ عندما عاينوا من عظيمِ قُدرة اللّه، ساقطين على وجوهِهم سُجّدًا لربّهم؛ إذ لم يتمالكوا ممّا رأوْا من عظيمِ قُدرةِ اللّه تعالى فكأنّهم أُلقوا، أو أنّ اللّه تعالى ألقاهُم سُجّدًا؛ إذ سبَّبَ لهم منَ الهُدى ما وقعوا به ساجدين، أو سجدوا موافقةً لموسى وهارونَ فإنَّهما سجدا للّه شكرًا على وقوع الحقِّ فوافقوهما؛ إذ عرفوا الحقَّ فكأنّما ألقياهم[3]. أو أنّ ظهورَ بُطلان سحرِهم، وإدراكَهم بأنّ موسى على الحقِّ، قد حملَهم على السّجودِ للّه تعالى. وأنّ نورَ الحقّ قد بهرَهم وجعلَهم يُسارعون إلى الإيمان، حتى لكأنَّ

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 4/364.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، وابن سيده، المحكم، وابن الأثير، النهاية: (سجد).
(3) أبو حيان، البحر المحيط: 4/364.

أحدًا قد دفعَهم إليه دفعًا، وألقاهُم إليه إلقاءً[1]، وإنّما ألقاهُم مُلقي الخوفِ منَ اللّه والشّوقِ إلى الخضوع بين يديه والذّلّ لديه، حين عرفوا أنَّ ما فعله موسى عليه السلام أمرٌ سماويٌّ، فلمّا أيقنوا هذه الحقيقةَ لم يتأخّروا في الاستجابةِ حتى كأنهم خرّوا من غيرِ اختيارٍ ساجدين شكرًا للّه تعالى، ومَهابةً، وانسلاخاً عنِ الكفر، ودليلاً على أقصى غاياتِ الخضوع، فعلَ اللّه ذلك بهم حتى يُبْهَرَ فرعونُ، وملؤُه، وتحيّرَ عقولُهم[2].

وتُرشدُ الآيةُ الكريمةُ إلى أنَّ اللّه تعالى يهدي من يشاء بغير حساب. وقلبُ المرءِ معلّقٌ بين إصبَعين من أصابع الرحمن يقلبُه كيفما شاء، ومصداقُ ذلك أنّهم كانوا أوّلَ النّهار كفّارًا سحرةً وفي آخره شهداءَ بررةً، وإذا أراد اللّه بعبد خيرًا أحسنَ خاتمتَه، فترى المرءَ يولد في الإسلام وينشأُ بين المسلمين يبيعُ دينَه بكذا وكذا، وهؤلاء كفّارٌ نشؤوا في الكفر بذلوا أنفسَهم للّه تعالى[3].

وتَهدي أيضًا إلى فضل العلمِ، وأهمّيتِه؛ لأنّ أولئك الأقوامَ كانوا عالِمين بحقيقة السّحرِ واقفين على مُنتهاه، فلمّا كانوا كذلك ووجدوا مُعجزةَ موسى عليه السلام خارجةً عن حدِّ السّحرِ؛ علموا أنّه منَ المُعجزات الإلهيّةِ، لا من جنسِ التّمويهاتِ البشريّةِ، ولو أنّهم ما كانوا كاملين في علمِ السِّحر لَما قَدَروا على ذلك الاستدلالِ[4].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

نُكْتَةُ إطلاق فعْلِ الإلقاءِ، بصِيغةِ البناءِ للمجهولِ:

الواو في ﴿وَأُلْقِيَ﴾ عاطفةٌ، والإلقاءُ: مستعملٌ في سرعة الهويِّ إلى الأرض، من دون تريُّثٍ ولا تردّدٍ. وبُنِي فعلُ الإلقاء للمجهول لظهور

شِدّةُ الانبِهارِ، بمُشاهدةِ مُعجزةِ العَليِّ القهّارِ

(1) طنطاوي، الوسيط: 5/350.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 3/84.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/364.
(4) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/168.

الفاعلِ، وهو أنفسُهم، والتّقديرُ: وألقَوا أنفسَهم على الأرض[1]، أو أنّ سجودَهم ليس برأيهم، لكنه عمليةٌ انبهاريّةٌ ممّا حصل أمامَهم، وهو الانبهارُ بالحقّ، كأنّما ألقاهُم مُلْقٍ لشدّة خُرورِهم؛ إذ لم يتمالكوا ممّا رأوْا، والقصدُ المبالغةُ في سرعة الفعلِ وشدّتِه[2]. وفي ذلك تنبيهٌ على أنّ الحقّ بهرَهم لما رأوه من عظيم القُدرةِ وما تيقّنوا به نبوّةَ موسى آمنوا بقلوبهم، وانضافَ إلى ذلك الاستهوالُ والاستعظامُ والفزعُ من قُدرة الله تعالى[3]، فاضطرّهم ذلك إلى السّجود بحيث لم يبقَ لهم تمالكٌ، أو أنّ اللّه ألهمَهم ذلك وحملَهم عليه حتى ينكسرَ فرعونُ بالذين أراد بهم كسرَ موسى وينقلبَ الأمرُ عليه[4]، أو انّهم سجدوا موافقةً لموسى وهارونَ، فقد سجدا للّه شكرًا على وقوع الحقّ فوافقوهما؛ إذ عرفوا الحقَّ فكأنما ألقياهم[5].

بَلاغةُ الاسْتِعارةِ التّمثيليّةِ، في الآيةِ القرآنيّةِ:

في قوله تعالى: ﴿وَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ﴾ استعارةٌ تمثيليّةٌ حيث شبّه حالَهم في سرعة الخُرور وشدّتِه حين شاهدوا المعجزةَ القاهرةَ بحال من أُلْقيَ على وجهه، فعبّر عن حالهم بما يدلُّ على حالِ المشبَّه به[6].

شِـدّةُ خُـرورِهـم تُـشْـبِـهُ حـالَ مَـن أُلقيَ على وجْهِه

سِرُّ العُدولِ إلى العطْفِ بالواو، دونَ غيرِه:

قال هنا ﴿وَأُلْقِيَ﴾ بالواو، ولم يقل ﴿فَأُلْقِيَ﴾ بالفاء الدالّة على التعقيب كما في آيتي سورتي [طه: 70]، و[الشعراء: 46]؛ لأنّ ﴿وَأُلْقِيَ﴾ هنا عطفٌ على قولِه تعالى: ﴿فَغُلِبُواْ﴾ فهو يشاركه بما تُفيده فاؤه من معنى التّعقيب، وكونِه مثلَه أثرًا لبُطلان سحرِ السّحرة، ووقوعِ الحقّ

تـأكـيـدٌ لـكَـوْنِ الإلـقـاءِ بسببِ انْـجـلاءِ الـحـقِّ، وإزهاقِ الباطِلِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/52.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/141، والشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 7/4300 - 4301.
(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/440.
(4) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/28.
(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/364.
(6) حقّي، روح البيان: 3/214.

بثبوت آيةِ موسى عليه السلام، ولو عطفَ عليه بالفاء لدلَّ على كونِ السّجود أثرًا للغلبة والصَّغارِ لا لوقوعِ الحقّ، وبطلانِ كيدِ السّحر، وحينئذ يكون منافيًا لما في سورتَيْ طه والشعراء[1]. فهو إذن في حيّزِ فاء التّعقيب، أي: حصل ذلك كلُّه عقبَ تلقُّفِ العصا ما يأفِكون، أي: بدون مُهلةٍ، وتعقيبُ كلّ شيءٍ بحسَبِه، فسجودُ السّحرةِ متأخّرٌ عن مصيرهم صاغرين، ولكنّه متأخّرٌ بزمن قليلٍ، وهو زمنُ انقداح الدّليل على صدق موسى في نفوسِهم، فإنّهم كانوا أعلمَ النّاس بالسّحر، فلا يخفَى عليهم ما هو خارجٌ عنِ الأعمالِ السّحريةِ[2].

سِرُّ عَهْدِيّةِ الألفِ واللّامِ، وإظهارِ الفاعلِ:

تَخصيصُ السُّجودِ بالسّحَرةِ دونَ الحاضرِين

التّقديرُ في: ﴿ٱلسَّحَرَةُ﴾ الذين كانوا سحرةً. و(أل) عهديةٌ، فهمُ السّحرةُ المعهودون أنفسُهم في ساحة المُنازلةِ، ووقعةِ التّحدّي، وكان هذا السّجود خاصًّا بهم دون بقيّةِ الحاضرين، فلذلك جيءَ به اسمًا ظاهرًا مجرّدًا منَ الضّمير؛ لئلّا يلتبسَ بضميرِ الجماعة الذي قبْلَه في ﴿فَغُلِبُواْ﴾، و﴿وَٱنقَلَبُواْ﴾ الذي هو شاملٌ للسّحرةِ وغيرِهم[3].

نُكْتةُ الإتيانِ بالسُّجودِ على صِيغةِ اسمِ الفاعلِ ﴿سَٰجِدِينَ﴾:

سُجودُهم تَعبيرٌ عن كَمالِ هيئتِهم فيه

و﴿سَٰجِدِينَ﴾ حالٌ، والسّجودُ هيئةٌ خاصّةٌ لإلقاء المرءِ نفسَه على الأرض يقصدُ منها الإفراطَ في التّعظيم، وسجودُهم كان للّه الذي عرفوه حينئذ بظهور مُعجزةِ موسى عليه السلام، والدّاعي إليه بعنوانِ كونِه ربَّ العالمين[4].

ويُرسّخُ مجيءُ السّجود على صيغة اسمِ الفاعل مَشْهَدَ حالهم، وشِدَّةَ تحقّقِه، أي: أنّهم أصبحوا بكامل هيئتِهم، وتمامِها في حال سجود، وثبت كأنّه وصفٌ لهم؛ إذ أصبحوا من أهل السّجود. وعبّر هنا وفي

(1) رضا، تفسير المنار: 9/61.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/52.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/364، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/52.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/52.

الشعراء بـ ﴿سَٰجِدِينَ﴾ وفي طه بـ ﴿سُجَّدًا﴾ [طه: 70] مراعاةً لفواصلِ الآي؛ لأنّ آياتِ السّورتين - الأعراف والشعراء - أكثرُها على النّون[1].

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(ألقي)، (خرَّ)، (سَقط)، (هَوِي):

الإلقاءُ سُرعةُ الهُوِيّ إلى الأرض، وهو الأنسبُ للسِّياقِ مِنَ الألفاظِ الأُخرَى

معنى خرَّ سقط سقوطًا يُسمع منه خريرٌ، واستعمالُ الخرّ تنبيهٌ على اجتماع أمرين: السّقوطُ، وحصولُ الصوتِ منهم بالتّسبيح[2]. وهو الهويُّ مِنْ عُلْوٍ إِلَى سُفْلٍ سقوطًا يُسمَع مَعَه صَوْتٌ، ثمَّ كَثُرَ حَتَّى استُعمِل في مُطْلَق السُّقوط[3]. والسّقوط: طرحُ الشّيء من مكان عالٍ إلى مكان منخفضٍ كسقوط الإنسان منَ السّطحِ، ويُلمحُ فيه معنى الرّداءةِ، وقلّةِ الاعتداد به. قال الآلوسي: "وفرّق بعضُهم بين السّقوط والخُرور بأنّ الأول مطلقٌ، والثاني سقوطٌ له صوتٌ كالخرير"[4].

والهُوِيُّ: سقوط من علوٍّ إلى سفل، وأهْواهُ، أي: رفَعَهُ في الهواء وأسْقَطَهُ. أمّا الإلقاءُ فهو: طرحُ الشيءِ حيثُ تَلْقاه، أي: تَراهُ، فيُرى، ويؤخذُ، ثم صار في التَّعارف اسمًا لكُلِّ طَرْحٍ[5]. واختياره أنسبُ لسياق الآية والله أعلم؛ لكون الإلقاءِ مستعمَلًا في سرعة الهوي إلى الأرض، من دون تريّث ولا تردّد[6]، وهو يناسبُ انبهارَ السّحرة ممّا حصل أمامَهم، ممّا رأوه منّ الحقّ الذي أظهره الله على يد النّبيّ الكريم موسى عليه السلام، كأنّما ألقاهم مُلْقٍ لشدّة خُرورهم[7]، فشبّه حالَهم في سرعة الخُرور وشدّتِه حين شاهدوا المعجزةَ القاهرةَ بحال من أُلْقيَ على وجهِه[8].

(1) الكرمانّي، غرائب التّفسير: 1/417.
(2) الرّاغب، المفردات: (خر).
(3) الزبيدي، تاج العروس: (خر).
(4) الآلوسي، روح المعاني: 9/46.
(5) الراغب، المفردات: (سقط)، و(هوى)، و(لقي).
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/52.
(7) الزمخشري، الكشّاف: 2/141، والشعراويّ، تفسير الشعراوي: 7/4300 - 4301.
(8) حقي، روح البيان: 3/214.

﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٢١﴾ [الأعراف: 121]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

ولما كان النّاسُ بمعْرِضِ التّشوُّق العظيم إلى معرفة قولِ السّحرة بعد فعلِهم[1]، أعلنوها صريحةً، وجهروا بها على رؤوس الأشهاد مدوّيةً، فبان مَوقفُ السّحَرةِ بعْدَ إخْباتِهم للّه تعالى، مُعْلِنين الإيمانَ به دونَ سِواه.

المعنى الإجْماليُّ:

تَصريحُ السّحَرةِ بالإيمانِ، مُشيرٌ إلى الكُفرِ بربُوبيّةِ فرعونَ المَوهومَةِ

قالوا: آمنّا بربّ العالمين، وصدّقنا بما جاءنا به موسى، وأنّ الذي علينا عبادتُه، هو الذي يملكُ الجنَّ والإنسَ وجميعَ الأشياء، ويدبّرُ ذلك كلَّه[2]، فهو مالكُ أمرِ العالمين ومدبّرُ شؤونِهم، والمتصرّفُ فيهم[3]، ونحن مقرّون بالإيمان به، مُعلنون به أمامَ الأشهاد، مصرّحون بلفظِه، متحمّلون عواقبَه.

وقصدوا من إعلان إيمانِهم باللّه لئلّا يظنَّ النّاسُ أنهم سجدوا لفرعون، إذ كانت عادةُ القبط السّجودُ لفرعونَ، ولذلك وصفوا اللّه بأنّه رب العالمين بالعنوان الذي دعا به موسى عليه السلام، ولعلّهم لم يكونوا يعرفون اسمًا علَمًا للّه تعالى، إذ لم يكن للّه اسمٌ عندهم، وقد علمَ بذلك أنهم كفروا بإلهيّةِ فرعون[4].

وتُرشدُ الآية الكريمةُ إلى حتميّةِ الثّبات في مواقف الشّدّةِ، وتحديدِ المصير، والإقدام في مواطن التّخيير بين النّجاة بالتّمسّك بنور الهداية، ودربِ الفلاح، أو الخُسرانِ بتغليب الكِبْرِ، والجحود، والضّلالِ.

(1) البقاعيّ، نظم الدرر: 3/84.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 13/32.
(3) طنطاويّ، الوسيط: 5/351.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/53.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

التَّعبيرُ بالفعْلِ المَبنيِّ للمعلومِ، والجُملةِ الفعليّةِ:

الإقرارُ بالإيمان، اسْتِلزامٌ لشرائطِه، والتزامٌ بحَقائقِه

وقصدَ إلى الفعل ﴿قَالُوٓاْ﴾ على صيغة المعلوم لكونِ الإيمانِ يستلزمُ النّطقَ به (قولا) فضلًا عنِ التَّصديقِ القلبيِّ، وعملِ الجوارح الذي أظهروا بديعَ صورتِه عند سجودِهم. وجاء بالآيتين على صيغة الجملةِ الفعليةِ؛ لكونِ السّحرةِ في حالة هياجٍ وتأثّرٍ متجدّدٍ من هول ما شاهدوه، وعِظَم ما أبصروه. فضلًا عن كونِهم في حالِ انتقالٍ عَقَديَ من كفر الى إيمان، وهو أصعبُ حالات الانتقال؛ لكونِه تخلّصًا من أدران اعتقادٍ واعتيادٍ، وسَنن آباءٍ، وأجدادٍ، وقومٍ ألفوها منهجَ حياةٍ، وسبيلَ علمٍ باطلٍ، وأدواتِ عمل.

الدَّلالةُ الصَّوتيةُ للمدِّ، في الفعْلِ ومَعمُولِه: ﴿ءَامَنَّا﴾:

السّجودُ راحةُ قُرْبٍ، تجلَّتْ في صَوتِ المدِّ على ألْسِنتِهم

ويمنحُ المدُّ في الفعل الماضي ﴿ءَامَنَّا﴾ وتشديدُ النون إلماحًا بتحقّقِ التّصديق في فعلِ الإيمان، ورسوخِه، واستطالتِه على ألسنتهم راحةً، وطمأنينةً ترتَّبَ على سجودهم. فهم في حالٍ أقرب ما يكونون فيه إلى اللّه تعالى.

إعْلانُ الإيمانِ، بين الفعْلِ المَرئيِّ، والقَوليِّ:

الحَركةُ في المشاهِدِ المهُولةِ، تَسبقُ الكلامَ

إعلانُ إيمانهم جاء بالفعل المَرئي المُشاهَد للجميع سجودًا، ثم بالقول المسموع[1]؛ لكونِ الحركة في المَشاهِدِ المَهولة، والحوادثِ العظيمةِ تسبقُ الكلامَ في الغالب، فكان السّجودُ، الذي يمثّلُ الحركةَ المعبّرةَ طبعًا - وعادةً في تلك الحِقبةِ - عنِ الإيمان، والتّسليم، والخضوعِ، وتبعَه النّطقُ المُعلِنُ للإيمان باللّه رب العالمين، بعد ذلك.

نُكتةُ تَقْديمِ فعْلِ السُّجودِ، على فعْلِ الإيمانِ:

وهنا يبرزُ سؤالٌ يقتضيه تقديمُ فعل السّجود على فعل الإيمان،

(1) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 15/9321.

الرّاجحُ أنّهم آمنوا؛ فخرُّوا ساجدِين، ثمّ قامُوا بإعْلانِ الإيمانِ

هل كان السّجودُ قبل الإيمان؟ أم بعده؟ ومع أنَّ النصّ يَظهرُ منه أنهم آمنوا بعد السّجود، ولكن كان الأمرُ يقتضي ألّا يسجدَ أحدٌ إلا لأنّه آمن، لكنَّ الإيمانَ مزيجٌ من عمل قلبيٍّ، ونُطقٍ باللّسان، وتظهرُ آثارُه على الجوارح والأركان، والسّجود عملٌ عضَليٌّ وسلوكٌ عمليٌّ، فكلٌّ منهم آمن بقلبِه فسجدَ[1]، وبهذا يترتّب السّجودُ مع النّطق بالإيمان وإعلانِه؛ لأنّ إعلان الإيمان شيءٌ، مرحلةٌ تاليةٌ لوقْرِ الإيمان في القلب، فكأنهم آمنوا فخرّوا ساجدين، وبعد هذا قاموا بإعلان الإيمان، وكأنّ النّاس سألوهم: ما الذي جرى لكم؟ فقالوا: ﴿ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾[2].

دَلالةُ بَدلِ الاشْتمالِ ﴿قَالُوٓاْ﴾، من جُملةِ: ﴿وَأُلۡقِيَ ٱلسَّحَرَةُ﴾:

تَنوُّعُ احْتِمالاتِ الإعرابِ، اتِّساعٌ في تقديرِ المعنى

جملة: ﴿قَالُوٓاْ﴾ بدلُ اشتمال منَ الملابسة من جملة: ﴿وَأُلۡقِيَ ٱلسَّحَرَةُ﴾؛ لأنّ سجودَهم اشتمل على ذلك القول، وهم قصدوا من قولِهم ذلك الإعلانَ بإيمانهم بالله لئلّا يظنَّ النّاس أنّهم سجدوا لفرعون؛ إذ كانت عادةُ القبطِ السّجودَ لفرعون، ولذلك وصفوا الله بأنه ﴿بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ بالعنوان الذي دعا به موسى عليه السلام، ولعلّهم لم يكونوا يعرفون اسمًا علَمًا لله تعالى، إذ لم يكن لله اسمٌ عندهم، وقد علمَ بذلك أنهم كفروا بإلهيّة فرعونَ[3].

أو هي حالٌ ثانيةٌ بإضمارِ قد، أو بدونِه، ويحتملُ أن يكون استئنافًا بيانيًّا، كأنّه قيل: فما قالوا؟ فقيل: قالوا آمنا بربّ العالمين ربِّ موسى وهارون[4]، أو هو عطفٌ، وحرفُ العطف مقدّرٌ[5].

(1) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 17/10571.
(2) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 7/4301.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/53.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 19/79.
(5) الكرمانّي، غرائب التّفسير: 2/832.

تَعريفُ لفْظِ (الرّبّ)، ودلالةُ الباءِ الجارّةِ:

الباء في ﴿بِرَبِّ﴾ للإلصاق المعنويِّ، وعُرّف الرّبُّ بإضافته إلى المعرّف بـ(ال) الجنسيّةِ للاستغراق الحقيقيّ ﴿ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، وهو مجموع الجنسِ منَ الخلق.

الـلـه ربُّ الخلْقِ والكَوْنِ بـمَـوجُـوداتِـه قاطبةً

تَوجيهُ المُتشابهِ اللّفظِيّ، في قصّةِ مُوسى والسّحَرةِ:

لم يذكر في سورة طه إيمانَهم بربّ العالمين، وأخّر فيها اسمَ موسى، وقدّم اسمَ هارونَ؛ لمراعاةِ فواصلِ السّور بما لا يعارضُ غيرَه ممّا ورد في غيرها، ولا سيما وقد نزل قبلَها، فالإيمان بربِّ هارون وموسى هو الإيمانُ برب العالمين؛ لأنهما قالا لفرعون: ﴿إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٦﴾ [الشّعراء: 16] وهذه عادةُ القرآن، فهو يذكرُ منَ القصص ما يثبّتُ به الإيمانَ، ويتزكّى الوجدانُ، وتحصُل العِبرةُ، وتُؤثّر الموعظةُ، ولا بدَّ في ذلك من تَكْرار المعاني مع التّفنّن في الأسلوب، والتّنويعِ في نظم الكلامِ وفواصلِ الآيِ، وتوزيعِ الفوائد وتفريقِها، بحيث يوجدُ في كلِّ قصّةٍ ما لا يوجدُ في غيرها[1].

تَـشابُـهُ الآيـاتِ تَفنُّنٌ في القوْلِ، وقصدٌ إلى بناءٍ نَظْميٍّ مُحْكَمٍ

(1) رضا، تفسير المنار: 9/61 - 62.

﴿رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ١٢٢﴾ [الأعراف: 122]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

احتراس يزيل لُجّة الجاهلين

زادوا هذا القصدَ بيانًا بالإبدال من ﴿بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ قولَهم ﴿رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾؛ لِئَلّا يُتوهّم المبالغةُ في وصف فرعونَ بأنه ربّ جميع العالمين[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَهَٰرُونَ﴾: هو اسمٌ أعجميٌّ معرَّبٌ، ورد في القرآن الكريم عشرين مرَّةً، ولم يردْ في شيءٍ من كلام العرب، ولا اشتقاق لَهُ في اللّغة العَربيَّة، وهارونُ اسمُ النّبيِّ أخي موسى[2] عليهما السلام.

المعنى الإجْمالِيُّ:

الرّبُّ الّذي آمنَ به موسَى وهارونُ، هو المعبودُ بحقٍّ

آمنّا بربِّ موسى وهارون الذي أنزل عليهما هذه المعجزةَ العظيمةَ الدّالةَ على صدقِهما، وعلى ربوبيّتِه وحدَه[3] ﷻ، وإنّما قالوا: ربُّ موسى وهارون؛ لأنّ فرعونَ كان يدّعي الربوبيّةَ فأرادوا عزلَه[4]؛ لئلّا يَتوهَّم متوهِّمٌ من قوم فرعون المُقرّين بإلهيّته أنّ السّجود له[5].

وتُرشدُ الآية الكريمةُ إلى ضرورة تبْيين القصدِ منَ الكلام، وإيضاحِ المُرادِ منه؛ دفعًا للإيهام، ورفعًا للإلباس.

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ العُدولِ إلى التّصريحِ في السِّياقِ:

لفظُ (بِرَبِّ) رفعٌ للإلباسِ، وتبكيتٌ لِمنْ كفرَ منَ النّاسِ

عُرِّفت لفظةُ ﴿بِرَبِّ﴾ بالإضافة الى موسى وهارون عليهما السلام بالتّشريك

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/53.
(2) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، والرّاغب، المفردات: (هرن).
(3) الشّنقيطيّ، العذب النّمير: 4/88.
(4) الخازن، لباب التّأويل: 3/325.
(5) الشّوكانّي، فتح القدير: 2/265.

عن طريق واو العطف، وخُصّا بالذكر تشريفًا لهما، وتفضيلًا، أو لأنّهما القائمان بالدّعوة في تلك الحال[1]، وأحْرِ بهذا الموضع أن يُشرَّفَ المتَّبِعُ، ويُفضَّل، ويُهانَ المُبْتَدِعُ، ويُذمُّ.

وَجْهُ الاحْتراسِ والتّبكيتِ في الآيةِ:

إلـزامُ فرعونَ الحُجَّةَ، بأنّه ليس بربٍّ، وأنَّ الرّبَّ هو الله وحدَه

وتعيَّن في تعريفِ البدلِ طريقُ تعريف الإضافة؛ لأنها أخصرُ طريقٍ، وأوضحُه هنا؛ لأنهم لم يكونوا يعرفون اسمًا علَمًا على الذّات العليّة، وهذا ما يقتضيه تعليمُ اللّهِ اسمَه لموسى حين كلَّمَه فقال: ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ﴾ [طه: 14][2]، فالإضافةُ باعتبار حالِ المضاف إليه، وإلا لما تخلّصوا منَ الدّعوى؛ لأنَّ فرعون قد يقول: أنا ربُّ العالمين، الذين من ضِمْنِهم موسى وهارونُ؛ فتتضمّنُ الإضافةُ معنى الاعتقادِ أي الربَّ الذي يعتقدُ ربوبيّتَه موسى وهارونُ، ويكونُ عدمُ صدقِه على فرعونَ بزعمِه أيضًا ظاهرًا جدًّا، فهو احتراسٌ[3]؛ لأنّ فرعون كان يقول: هو ربُّهم[4]. وهو كذلك تبكيتٌ[5] لفرعون بإلزامِه الحجَّةَ بأنّه ليس بربٍّ، وأنّ الربَّ في الحقيقة هو هذا[6].

نُكتةُ عدمِ الاكتفاءِ بموسَى، وإتْباعِه بهارونَ:

دفعُ توهُّمِ إرادةِ المعنى اللُّغويّ لِلفْظةِ الرّبّ

ولم يقتصروا على موسى عليه السلام وأتْبعوه بهارون؛ لدفع توهُّمِ إرادة المعنى اللّغويّ للفظةِ الربّ، أي: التّربيةُ فهو من ربّى موسى في صِغره؛ فإنّ فرعون وإنْ ربّى موسى وهو صغيرٌ، إلا إنّه لم يربِّ هارونَ قطعًا، ولذا قدّم هارونَ في محلٍّ آخرَ ﴿فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/169، والشّوكانّي، فتح القدير: 4/115 - 116.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/53.

(3) الاحتراس، والاحتراز، والتّتميم، والاحتياط: وهو الإتيانُ بكلام لو استُمِرَّ عليه لكان فيه طعنٌ، فيأتي بما يُتحرّز من ذلك الطّعن. ينظر: مطلوب، معجم المصطلحات البلاغيّة، ص: 40.

(4) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/242، والآلوسي، روح المعاني: 9/26.

(5) التَّبكيت: التَّقْريع والتَّوبيخ، والغَلَبَةُ بالحُجَّةِ، والإلزامُ بالسَّكْت، للعَجز عَن الجَواب عَنهُ. ينظر: الزّمخشريّ، أساس البلاغة، والزّبيديّ، تاج العروس: (بكت).

(6) الشّوكانّي، فتح القدير: 4/115 - 116.

﴿سُجَّدًا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ٧٠﴾ [طه: 70]؛ لأنّه أدخلُ في دفع التوهّم[1].

بَلاغةُ التّرْديدِ في الآيةِ الكريمةِ:

مَلْمَحُ المبالغةِ في المدحِ والثّناءِ، ومُفاجأةِ السّامِعِ

اللّفظُ تردّد مرّتين، وفي كلّ مرّة تعلّقَ بلفظٍ غيرِ اللّفظ الذي تعلّق به عند تكراره، وفي ارتباط كلٍّ منهما بلفظٍ جديدٍ تخصيصٌ للمعنى الّذي جسّده اللّفظُ في أوّل آيةٍ كريمةٍ، وتقويةٌ وإحكامٌ لها؛ وليبرزَ على أثرِه نَسقًا صوتيًّا، ومظهرًا إيقاعيًّا في الآيتين قوامُه التّكرارُ المُفضي الى التّوكيد الدّالّ على المبالغة في المدح، والثّناءِ، ومفاجأةِ السّامع، وإدهاشِه، وتكثيفِ المعنى بما يُرسّخُ تغلغلَ الرّبوبيّةِ في قلوب السّحرة، وظهورِ ذلك بلزومِها ألسنتَهم.

سِرُّ إتْباعِ التّراكيبِ بعْضِها بعضًا في السِّياقِ:

تَعالُقُ التّراكيبِ على التّبعيّةِ تَوضيحٌ، ودفعٌ للتّوهُّمِ

جملةُ: ﴿رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ بدلٌ من ﴿بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، أو عطفُ بيان، ويجوزُ أن يكون نعتًا[2]؛ لأنّ فرعونَ كان يدَّعي الرّبوبيّةَ، فأرادوا أن يَعزلوه[3]؛ لدفع توهّمِ إرادةِ فرعونَ، وأنّ السّجودَ كان له حيث كان قومُه الجهلةُ يسمّونَه بذلك، ولو وقفوا على ﴿بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ لقال فرعون: أنا ربُّ العالمين إيّاي عنَوا؛ فزادوا: ﴿رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾، فهو إبدالٌ للتّوضيح، ودفعِ التّوهّم، ورفعِ الإشكال، والإشعارِ على أنّ الموجبَ لإيمانِهم ما أجراه على أيديهما منَ المعجزةِ القاهرةِ[4].

تَوجِيهُ مُتشابهِ اللّفظِ، بين هذه الآيةِ ومَثيلاتِها في مواقعَ أُخرَ:

اختلافُ التّقديمِ والتّأخيرِ في الآياتِ المُتشابهةِ، عِنايةٌ واهتمامٌ

وجهُ تقديم موسى هنا وفي [الشّعراء: 47 - 48]، وتقديم هارون في طه: ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ٧٠﴾ [طه: 70]، فضلًا عن رعاية

(1) حقّي، روح البيان: 3/214.
(2) ابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 9/265.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/313، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/440.
(4) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/28، و4/138، وحقّي، روح البيان: 6/274.

الفاصلةِ، أنَّ التّقديم وقعَ في الحكاية لا في المَحكيِّ؛ فيكونُ صدرَ منهم قولان، قدّموا في أحدِهما اسمَ هارون اعتبارًا بكبَر سِنّه، وقدّموا اسمَ موسى في القول الآخرِ اعتبارًا بفضلِه على هارونَ بالرّسالة وكلامِ اللّه تعالى، ولكون موسى هو المنسوبُ إليه العصا التي ظهرَ فيها ما ظهرَ منَ الإعجاز فهو محطُّ العناية ومناطُ الاهتمام بوصفِه المرسلَ، والمكلّفَ بالتبليغ، والحِجاجِ، وهارونُ كان مناصِرًا وعونًا لموسى في دعوته؛ لكونِه أفصحَ منه نُطقًا، فطلبَ إلى اللّه أن يرسلَه معه عونًا يصدّقُه في رسالته، ويبيّنُ لقومه ما يخاطبُهم به موسى: ﴿وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفۡصَحُ مِنِّي لِسَانٗا فَأَرۡسِلۡهُ مَعِيَ رِدۡءٗا يُصَدِّقُنِيٓ﴾ [القصص: 34]، فاختلافُ العبارتين باختلاف الاعتبارَيْن[1].

كما أنّ ذكرَ هارون في سورة طه قد تكرّر كثيرًا وجعله اللّه تعالى شريكاً لموسى في التّبليغ، وكانت جلُّ صيغِ الخطاب إليهما منَ اللّه تعالى، ومن فرعونَ بالتّثنية، على خلاف الأعراف والشّعراء، فناسبَ إشراكُهُ في التّبليغ ذِكْرَهُ مُقدَّمًا[2].

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/365، و6/242، والآلوسي، روح المعاني: 9/26، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/263.
(2) السّامرائي، برنامج لمسات بيانيّة، رابط الحلقة على الشّبكة: https://tadars.com/tdbr/eloquence/8749 .

﴿قَالَ فِرۡعَوۡنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبۡلَ أَنۡ ءَاذَنَ لَكُمۡۖ إِنَّ هَٰذَا لَمَكۡرٞ مَّكَرۡتُمُوهُ فِي ٱلۡمَدِينَةِ لِتُخۡرِجُواْ مِنۡهَآ أَهۡلَهَاۖ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ١٢٣﴾

[الأعراف: 123]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

انفعالُ المُتكبّر على مَن بدّد أوهامَه

بعد ما كان من صنيعِ السّحرة، والتّصريحِ بالإيمان كان أوّلُ ما يخطرُ في البال، ويتوجّهُ إليه السّؤال، ما فعل فرعونُ وما قال؟[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ءَاذَنَ﴾: الهمزةُ والذّال والنّون أصلان أحدُهما العلمُ، والإعلامُ. تقول العربُ: قد أذنتُ بهذا الأمر، أي: علمتُ. وآذنَني فلانٌ أعلَمني. وفعلَه بإذني، أي: بعلْمِي، وبأمري[2]. فالإذنُ في الشّيء: إعلامٌ بإجازتِه والرّخصةُ فيه، بإرادتِه وأمرِه، ولا يكادُ يُستعملُ إلّا فيما فيه مشيئةٌ به، راضيًا منه الفعلَ أم لم يرضَ[3]. ومعنى (آذن) في الآية الكريمة: آمُرَكُم وأُرَخِّصَ لكم.

المعنى الإجْماليُّ:

صُورةُ المُستبِدِّ في تعْنيفِه السّحَرةَ وتوعُّدِه إيّاهُم بالوَبالِ

قال فرعونُ للسّحرة بعدما هالَهُ فعلُهم، وأثاروا حميّتَه؛ إذْ آمنوا باللّه، وصدّقوا رسولَهُ موسى عليه السلام، لمّا عاينوا من عظيمِ قُدرة اللّه وسُلطانِه: أصدّقتم بموسى، وأقررتُم بنبوّتِه قبل أنْ آذن لكم بالإيمان به؟ إنَّ تصديقَكم إيّاه، وإقرارَكم بنبوّتِه لَخدعةٌ خدعتُم بها مَنْ في مدينتِنا؛ لتخرجوهم منها. فسوف تعلمون ما أفعلُ بكم، وما تلقَون من عقابي إيّاكم على صنيعِكم هذا[4]! فعنّفهم فرعونُ

(1) محمد رضا، تفسير المنار: 9/62.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (أذِنَ).
(3) الرّاغب، المفردات: (أذِنَ).
(4) ابن جرير، جامع البيان: 13/33.

على الإيمان قبل إذنِه، ثمّ ألزمَهم أنَّ هذا كان على اتّفاقٍ منهم،[1] وأنّهم سيُجازَوْن عليه بأشدِّ العذابِ.

وتُرشدُ الآيةُ الكريمةُ: إلى أنَّ الظَّلَمةَ، والجبابرةَ لا عهدَ لهم، فعلى من شايَعَهم الانتباهُ، ومن نصرَهم الحذرُ من أنْ ينقلبوا عليه، فمُمالأة الظّالم مآلُه الخُسران، ومعاونتُه سبيلُ النّدامة، والحسرةِ.

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

بَلاغةُ الفصْلِ في الآيةِ الكريمةِ:

وجملةُ ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ﴾ استئنافيةٌ بيانيّةٌ، وفُصِلَتْ لوقوعِها في طريق المُحاورةِ، والسّؤالِ والجوابِ حيث حكى اللّه تعالى كلامَ السَّحرة مع فرعونَ بـ(قالوا)، و(قال).

وُقوعُ الكلامِ مُحاوَرةً، دليلُ مِراءِ الكفَرةِ

سِرُّ إظهارِ الفاعلِ، لفظِ ﴿فِرْعَوْنُ﴾ في السِّياقِ:

أظهر ﴿فِرْعَوْنُ﴾؛ لأنّ موردَ الذّكر في موطن الخيبةِ والخُسران والعقوبةِ إذلالٌ، ومهانةٌ يناسبُه التّصريحُ، كما ناسبَ الإظهارُ في مواطن المدحِ التّشريفَ، والتّفضيلَ، واللّه أعلم، ولأنّه بَعُدَ عن ذكر فرعونَ بآياتٍ فصرّحَ، وقرّبَ من ذكره في سورتَي الشّعراء وطه، فأضمرَ وكنَّى[2].

قصْدُ إظهارِ الفاعلِ في مواطنِ الخَيْبةِ والخُسرانِ إذْلالٌ له

تَوجِيهُ تعدُّدِ القِراءاتِ القرآنيّةِ في السِّياقِ:

وقولُه تعالى: ﴿ءَامَنتُم﴾ قرأَهُ الجمهورُ بصيغة الاستفهام - بهمزتَيْن - فمنهم من حقّقَ الثّانيةَ، ومنهم من سهّلَها، ومنَ الفريقين من أدخل قبْلَ الثّانية مدَّةً، وقرأَهُ حفصٌ عن عاصم بهمزةٍ واحدةٍ[3]، فيجوزُ أن يكون إخبارًا، ويجوزُ أنْ تكونَ همزةُ الاستفهامِ محذوفةً مقدَّرةً، والاستفهامُ للإنكارِ التّوبيخيِّ والتّقريعِ

بين الاستفهامِ والإخْبارِ تَشنيعٌ وتَقْريعٌ

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/440.
(2) الكرمانّي، البرهان في توجيه متشابه القرآن، ص: 83.
(3) ابن الجزريّ، النّشر، ص: 417.

على إذعانِهم للحقِّ، والتّعجّبِ من صنيعِهم، والمُتولّدِ عنه معنى الإبعادِ، والتّهديدِ مجازًا مرسلًا مركّبًا، والإخبارُ مستعملٌ كذلك أيضًا، أي فعلتُم هذا الفعلَ الشّنيعَ، توبيخًا لهم وتقريعًا، لظهور أنّه لا يقصدُ حقيقةَ الاستفهام ولا حقيقةَ الإخبار؛ لأنّ المخاطَبين صرّحوا بذلك وعلِموه، والضّميرُ المجرور بالباء عائدٌ إلى موسى، أي: آمنتُم بما قاله، أو إلى ربِّ موسى[1].

سِرُّ تَعْديّةِ الإيمان بالباء ﴿بِهِۦ﴾ واللّام ﴿لَهُۥ﴾:

تخصيصُ التّصديقِ بموسَى بـ(اللّام) أكثرُ إغاظةً لفرعونَ

الباء في ﴿بِهِۦ﴾ للإلصاق المعنويِّ، ويحتملُ أن يعودَ الضّميرُ على اسم اللّه تعالى، ويحتملُ أن يعود على موسى[2] عليه السلام، وكلا الإيمانَيْن متضمّنٌ للآخر، فالإيمان باللّه يستلزمُ الإيمانَ برسوله عليه السلام، وهو يقتضي الإيمانَ بصحّةِ رسالتِه[3]، وقال في سورتي طه، والشّعراء: ﴿ءَامَنتُمْ لَهُۥ﴾ [طه: 71، الشّعراء: 49] ليختصَّ الضّمير بموسى؛ لأنّ تعديةَ الإيمان باللّام تضمينٌ يفيدُ معنى الاتّباعِ والخضوعِ المعنيّ، وآمنتم به متّبعين له إذعانًا لرسالتِه قبل أن آذنَ لكم؟ ولذلك يتعيّنُ استعمالُ هذا التّضمين في الإيمان بالرّسل، والاتّباعِ لهم كقولِه تعالى حكايةً عن فرعون: ﴿أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [المؤمنون: 47]، ومثلُه قولُه تعالى في حكايةً عن قوم نوحٍ عليه السلام: ﴿أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ ﴿١١١﴾﴾ [الشّعراء: 111] وقولُه حكايةً عن كفّار قريش: ﴿وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾﴾ [الإسراء: 90][4].

وسببُ التّنوّعِ في تعديةِ فعلِ الإيمانِ بالباء مرّة، وباللّام مرّة أخرى أنَّ موسى أغضبَ فرعونَ - كما في سياق سورتَي (الشّعراء، وطه) - في قوّة جدالِه، وإفحامِه بالحُجّة؛ فكان تخصيصُ التّصديق

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/141، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/53.
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/440.
(3) المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 1/401 - 402.
(4) رضا، تفسير المنار: 9/62 - 63.

به عن طريق (اللام) - في السّورتين - أكثرَ إغاظةً لفرعون[1].

ودليلُ هذه القصديةِ نسبةُ تعليم السّحرِ إليه في السّورتين بقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحۡرَۖ﴾ [طه: 71، الشّعراء: 49]، دون ما جاء في الأعراف من زعمِه أنَّ إيمانَ السّحرة باللّه وتصديقَهم بموسى وإقرارَهم بنبوّتِه لحيلةٍ احتالوها هم وموسى؛ ليُخرجوا أهلَ المدينة منها، ويكونوا المستأثرين بخيراتِها.

فضْلُ الكلامِ، والتَّعبيرُ بالمصدَرِ المُنْسَبكِ:

بيـانُ تـأكـيـدِ التّوبيخِ، وتَقويةُ حدَثِ التَّقْريعِ في السِّياقِ

وقولُ فرعون ﴿قَبۡلَ أَنۡ ءَاذَنَ لَكُمۡۖ﴾ تَرَقٍّ في موجب التّوبيخِ، أي: لم يكْفِكم أنكم آمنتُمْ بغيري حتى فعلتُمْ ذلك عن غير استئذانٍ، وفَصْلُها عما قبْلَها؛ لأنّها تعدادٌ للتّوبيخ[2].

وفيه دليلٌ على وهَن أمره؛ لأنّه إنّما جعل ذنْبَهم مفارقةَ الإذن ولم يجعلْه نفسَ الإيمان إلا بشرط[3].

وقصدَ إلى التَّعبير بالمصدرِ المؤوّلِ ﴿أَنۡ ءَاذَنَ﴾ بدلَ المصدرِ الصّريح (إذني)؛ لقوّةِ المُنسبك في الدّلالةِ على حدث التّقريعِ بعدمِ الإذن، وتأكيدِ تحقّقِه، ونسبَه إليهم عن طريق كافِ الخطاب وميم جمعِ العقلاء في ﴿لَكُمۡۖ﴾، واللّام فيه للتَّبليغ جرّتْ الضّميرَ العائدَ على السّحرة سامعي قَول فرعون[4].

بَلاغةُ حشْدِ التَّوكيداتِ والتَّعبيرِ باسْميّةِ الجُملةِ:

تَقريرُ ثبوتِ فعْلِ المكرِ، وتَغليظُ التّنْكيلِ

﴿إِنَّ﴾ توكيدٌ، و﴿هَٰذَا﴾ اسمُ إشارة (ها) فيه لتوكيد التّنبيه، واللام في ﴿لَمَكۡرٞ﴾ مُزحلقةً للمبالغة في التّوكيد، والحالِ، وعزّز حشدَ هذه التّوكيدات اسميّةُ الجملة، فهي تقريرٌ بثبوت فعْلِ المكرِ

(1) السامرائي، التعبير القرآني، ص: 296.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/54.
(3) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/440.
(4) لام التَّبلِيغ: هي الجارّة لاسم السّامع لقَول أو ما في معناهُ، نَحو: قلت لَهُ، وأذنت لَهُ، وفسّرت لَهُ. ينظر: المراديّ، الجنى الدّاني في حروف المعاني، ص: 99.

فيهم، والله أعلم. والغرضُ من استدعاء هذه المؤكّداتِ التّمهيدُ لتغليظِ التّنكيل بالسّحرة، وأنّ ما سيلاقونَه من عذاب إنّما هو عقوبةٌ على جُرمٍ محقّقٍ ظهر دليلُه[1].

بَديعُ الجِناسِ الاشتقاقيِّ، في سِياق الآيةِ:

المُحَسّنُ البديعيُّ يُقوّي اللّفظَ، ويُرسّخُ معناه

ورسَّخ ثبوتَ فعلِ المكرِ فيهم إردافُه بالجناسِ الاشتقاقيِّ ﴿لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ﴾؛ لِما للاشتقاق من أثرٍ في قوّة اللّفظ، وتفخيمِه، ومن ثمَّ توكيدِه؛ إذِ المصدرُ دلَّ على معنى الخديعة والغدرِ، والفعلُ دلَّ على الفعل والإجراءِ، والغرضُ من هذا الجناس هو تأكيدُ فرعونَ أنَّ ما فعله السّحرةُ كان مكرًا باطلًا.

وَجْهُ مَصدريّةِ ﴿لَمَكْرٌ﴾، وتَصدُّرِ ﴿مَّكَرْتُمُوهُ﴾ بالماضي:

تَصويرُ تحقُّقِ المكْرِ وحصولِه بقوَّةٍ، وصفٌ للصّراعِ والمُعاناةِ

التَّعبيرُ عنِ المكر بالمصدر أقوَى في الدّلالة على ثبوتِ الحدث، وآكدُ، وأردفَه بالجملة الفعليّةِ ﴿مَّكَرْتُمُوهُ﴾ المصدّرةِ بالفعل الماضي؛ للدّلالة على تحقُّق المكرِ، وحصولِه، وتجدّدِه؛ فهو ماضٍ استمراريٌّ. وجملةُ: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ﴾ خبرٌ مرادٌ به لازمُ الفائدة، أي: قد علمتُ مرادَكم؛ لأنّ المخاطَبَ لا يُخْبَرُ بشيءٍ صدرَ منه[2].

بَلاغةُ مَجازِ الظّرفِ للحرف ﴿فِي﴾ منَ الآيةِ:

قَصْدٌ إلى تَحقّقِ التَّعليلِ في المكْرِ، وبيانِ فحْواه

﴿فِي﴾ ظرفيةٌ مكانيةٌ، أي: دُبِّر المكرُ، وأُعِدَّ للحيلة، والمواطأةِ التي كانت بينهم وهم في المدينة حين كانوا بها قبلَ الحضور إلى المكان الذي وقعت فيه المحاورةُ[3]. وبذا تكونُ (ال) في المدينة عهديةً حضوريةً أي المدينةَ المعهودةَ التي جئتم منها، أو تكونُ ﴿فِي﴾: ظرفيةً مجازيةً أفادت جعلَ مكرِهم كأنّه موضوعٌ في المدينة كما يوضعُ العنصرُ المفسدُ، أي: أردتُم إضرارَ أهلها، وبذا لا تكونُ ظرفيةً

(1) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 1/401.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/53.
(3) الشّوكاني، فتح القدير: 2/267.

حقيقيةً؛ لأنّها لا جدوى لها؛ إذ معلومٌ لكلّ أحدٍ أنّ مكرَهم وقعَ في تلك المدينة. ويرجّحُ الظرفيةَ المجازيةَ التعليلُ الذي بعدها في قولِه: ﴿لِتُخۡرِجُواْ مِنۡهَآ أَهۡلَهَاۖ﴾، فاللام تعليليةٌ، وتخرجوا مضارعٌ دالٌّ على عزمِهم على تحقيق الفعلِ بدوامِهم عليه، والمرادُ: بعضُ أهلها، وهم بنو إسرائيل؛ لأنّ موسى جاء طلبًا لإخراج بني إسرائيل منها[1].

نُكتةُ تَقديمِ ﴿مِنۡهَآ﴾ على المفعول ﴿أَهۡلَهَاۖ﴾:

تَقديمُ مَوطنِ العِنايةِ، بوصفِه مَقرًّا للحُكمِ، ومَلمحًا للدّلالةِ

و(من) لابتداء الغايةِ المكانيةِ، وقدّمت شبهُ الجملة ﴿مِنۡهَآ﴾ على المفعول به ﴿أَهۡلَهَاۖ﴾؛ لكونِها محطَّ العنايةِ، والاهتمامِ، فهي مقرُّ الحكم، وزوالُها زوالُ سلطانِ فرعون وقومِه.

وقولُ فرعون هذا يحتملُ أنّه قاله موافقًا لظنّه على سبيل التّهمة لهم؛ لأنّه لم يكن له علمٌ بدقائق علْمِ السّحر حتى يفرّق بينه وبين المعجزةِ الخارقةِ للعادة، فظنّ أنها مكيدةٌ دبَّرها موسى مع السّحرة، وأنَّه لكونِه أعلمَ منهم أو مُعَلِّمَهم؛ أمرَهم فأتمروا بأمره، كما في قوله ﴿إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِي عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحۡرَۖ﴾ [طه: 71]. ويحتملُ أنّه قاله تمويهًا وبهتانًا ليصرفَ النّاس عنِ اتباع السّحرة، وعنِ التّأثّر بغلبةِ موسى إياهم فيُدخلَ عليهم شكًّا في دلالة الغلبةِ واعترافِ السّحرة بها، وأنّ ذلك مواطأةٌ بين الغالب والمغلوب لغايةٍ مقصودةٍ، وهو موافقٌ في قوله هذا، لِما كان أشار به الملأ من قومه حين قالوا: ﴿يُرِيدُ أَن يُخۡرِجَكُم مِّنۡ أَرۡضِكُم بِسِحۡرِهِۦ﴾ [الشعراء: 35]. وأيًّا ما كان الاحتمالُ في قوله فعزمُه على تعذيبهم مصيرٌ إلى الظّلم والغشْم؛ لأنّه ما كان يحقُّ له أن يأخذَهم بالتّهمة، بلْه أن يعاقبَهم على المصيرِ إلى الحجّة، ولكنّه لمّا أعجزته الحُجّةُ صار إلى الجبروت[2].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/54.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/54.

بَلاغةُ التّفْريعِ على الإنكارِ، على طريقِ المَجازِ:

في التّفْريعِ قَصْدٌ إلى الإجمالِ، والإبْهامِ، والتّهْويلِ

فرّع على الإنكارِ والتّوبيخِ الوعيدَ بقوله: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾، بصيغةِ المضارع التّجدّديِّ، والفاء فصيحةٌ للاستئناف، والسّببيّة، وإدخالُ (سوف) على الفعلِ فيه معنى التّوكيدِ في المستقبلِ، والجملةُ خبرٌ مستعملٌ في التّهديد مجازًا مرسلًا علاقتُه الإطلاقُ، والتقييدُ. وحذفَ مفعولَ تعلمون لقصدِ الإجمال في الوعيد، والإبهام في العقوبة؛ للتّهويلِ بما سيقع بهم، ولإدخال الرّعبِ في نفوسِهم، ثم بيّنه، وفصّلَه بعد ذلك بجملة: ﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ﴾[1].

التّشابُهُ اللّفظِيُّ بين آيةِ الأعراف (123)، وآيةِ الشّعراء (49):

جمْعُ اللّامِ مع حرفِ التّسْويفِ، تحقيقٌ للفعْلِ، وإدناءٌ له منَ الوُقوعِ

قوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ ابتدأتْ بالفاء وسوف، في آية الأعراف، وزاد لامَ الابتداء المؤدّيةَ معنى التّوكيد، في حرف التّسويف في سورة الشّعراء، فقال: ﴿فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [الشّعراء: 49] ولم يذكرْه هنا؛ لأنَّ هذه اللّامَ تدلُّ على تقريب ما خوّفَهم به حتى كأنّه حاضرٌ موجودٌ، فاللامُ للحال، والجمعُ بينها وبين "سوف" التي للاستقبال إنّما هو تحقيقُ الفعل وإدناؤُه منَ الوقوع، وعرضُ القصّةِ في سورة الشّعراءِ أكثرُ تداوُلًا لأحوال موسى عليه السلام في بعثِه وابتداءِ أمره، وانتهاءِ حاله مع عدوّه، فجمعت لفظَ الوعيدِ المبهمِ مع اللّفظ المُقرّبِ له المُحقّقِ وقوعَه إلى اللّفظ المُفصحِ لمعناه، ثم وقعَ الاقتصارُ في السّورة التي لم يُقصدْ بها منِ اقتصاص الحالِ ما ذكرَ في سورة الشّعراء على نقصِ ما في موضِعَيِ البسْط والشّرحِ، وهو التّعريضُ بالوعيد مع الإفصاحِ به[2].

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/365، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/54، وقباوة، المفصّل، ص: 589، والمطعنيّ، التّفسير البلاغيّ: 1/401.

(2) الإسكافيّ، درّة التّنزيل: 2/638 - 639، ومحمد رضا، تفسير المنار: 9/64.

﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾﴾ [الأعراف: 124]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

العَلاقةُ بين توبيخِ المؤمنين، وبين تهديدِهم بأقسَى عُقوباتِ المُجرمينَ

قولُه: ﴿لَأُقَطِّعَنَّ﴾، و﴿ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ﴾ تفصيلٌ لإجمال الوعيدِ في آية ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾[1]، وتفريعٌ على عموم الإنكار، والتّوبيخ، والوعيدِ المُبهم فيه[2]؛ إذ لمّا ظهرتِ الحُجّةُ عاد إلى عادة ملوكِ السّوء إذا غُلبوا من تعذيبِ مَن ناوأهم[3].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿خِلَافٍ﴾: الخاء، واللام، والفاء أصول ثلاثة: أحدها التغير[4]. ومنه الاختلاف والمخالفة: أن يأخذ كل واحد طريقًا غير طريق الآخر في حاله، أو قوله[5]. ويقال: فرَس بِهِ شِكالٌ مِنْ خِلاَفٍ؛ إذا كانَ في يَده الْيُمْنَى ورِجْلِه الْيُسْرَى: بَياضٌ[6]. ومنه جاء التضاد في القطع أي: إحداهما من جانب، والأخرى من جانب آخر. (اليمنى من اليدين مع اليسرى من الرجلين مثلًا) كما في [المائدة: 33، الأعراف: 124، طه: 71، الشعراء: 49]. ومعنى اللفظة في الآية المباركة: قطع عضوٍ مغايرٍ للآخر منهم، كاليد من الجانب الأيمن، والرجل من الجانب الأيسر، أو العكس.

2) ﴿لَأُصَلِّبَنَّكُمْ﴾: الصاد، واللام، والباء أصلان: أحدُهما يدلُّ على الشدّة والقوّةِ، والآخرُ جنسٌ منَ الوَدَك، فالصَّليبُ، هو ودَكُ

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/141.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/54 - 55.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/365.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (خلف).
(5) الرّاغب، المفردات: خلف).
(6) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (خلف).

العَظْم. أي: دَسَمُهُ، ودُهْنُه. يُقال: اصطَلَبَ الرجُلُ، إذا جَمَع العظامَ، وطَبَخَها؛ فاستخرج ودَكَها ليأْتدِم به. قالوا: وسُمّيَ المصلوبُ بذلك كأنَّ السَّمْنَ يجري على وجهه[1]. فالمعنيان الأصلُ يدلان على معنى الصّلْبِ الذي هو تعليقُ الإنسان للقِتلة المعروفةِ، بشدِّ صُلبهِ على خشبٍ منصوبٍ، أو: هو من صَلْبِ الوَدَكِ. وسائرُ ما في القرآن منَ التّركيب فهو منَ الصَّلْب بهذا المعنى[2].

❁ المعنى الإجْماليُّ:

إعْلانُ العُقوبةِ الجائرةِ، وتحديدُها وَفْقَ الهوَى والجَبروتِ

أقسم فرعونُ بالتنكيل بهم، والتّوعّد لهم بالعذاب، والتّشويهِ، والتّنكيلِ، والموتِ القاسي البطيءِ المُرعبِ؛ بأنْ يقطعَ من كلّ شقٍّ منهم عُضوًا مغايرًا للآخر، كاليد منَ الجانب الأيمن، والرِّجْل منَ الجانب الأيسر، أو العكسِ، ثم تصليبُ كلِّ واحدٍ منهم وهو على هذه الحالة المشوَّهة تشهيرًا بهم، وتنكيلًا لأمثالِهم؛ ليكونوا عبرةً لمن تحدّثُه نفسُه بالكيد له، أو بالخروج عن سلطانِه، والتّرفّعِ عنِ الخضوع لعظمتِه، وخشي أن يسريَ التّمرُّدُ عليه فشدَّد العقابَ[3].

وإنّما خُصّص القطعُ من خلاف؛ لأنّ ذلك أشدُّ على الإنسان من قطعهما من جهةٍ واحدةٍ؛ إذ قطعُهما من جهة واحدة يبقى عنده شيءٌ كاملٌ صحيحٌ، بخلاف قطعِهما من جهتين مختلفتين فإنه إفسادٌ للجانبين[4].

وتُرشدُ الآيةُ الكريمة: إلى أنَّ الصَّلب وقطعَ اليد والرِّجل من خلاف عقوبةٌ متأصّلةٌ عند الخلقِ، تلقَّفوها من شرع متقدِّم فحرَّفوها، حتى أوضحَها اللّه في ملّة الإسلام، وجعلَها أعظمَ

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (صلب).
(2) الرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (خلف).
(3) رضا، تفسير المنار: 9/63، وطنطاويّ، التّفسير الوسيط: 5/351 - 352.
(4) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 9/128.

العقوبات لأعظمِ الإجرام"[1]، يعني جريمةَ "الحِرابة". وإلى قسوةِ الجبابرةِ في الانتقام، وشدّةِ تنكيلهم بمخالفيهم، ومدى ظُلمِهم.

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ التّوكيدِ باللّامِ في لفْظِ ﴿لَأُقَطِّعَنَّ﴾:

اللّام في ﴿لَأُقَطِّعَنَّ﴾ جوابيّةٌ للتّوكيد واقعةٌ في جواب القسم المحذوف، ورُسِّخَ التّوكيدُ بالنّون الثّقيلةِ، والتّشديد، وجملةُ القسَم المحذوفةُ استئنافيّةٌ ضمْنَ مَقولِ القول للمبالغةِ في تحقيق الفعلِ[2].

المُبالغةُ في التّهديدِ بالعذابِ، والوَعيدِ بالانتقامِ الشّديدِ

سِرُّ تَقديمِ لفْظِ ﴿أَيْدِيَكُمْ﴾، وجَمْعِها:

وقدَّم الأيدي على الأرجل لقصدِ التّرتيب في القطع، وجاء بهما على صيغةِ جمْعِ القلّةِ مع إرادة التّكثير معرّفًا إيّاهما بالإضافة؛ ليكسِبَهما العمومَ فيعمَّ كلَّ يدٍ، وكلَّ رجلٍ من أيدي السَحَرة، وأرجلِهم[3]، وجملةُ ﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ﴾ بيانٌ لإجمال التّهديد بالعقوبة في الآية الكريمةِ السّابقةِ[4]، وبذا ناسبت فاصلةُ ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ اللفظةَ ﴿لَأُقَطِّعَنَّ﴾ من تخصيصٍ للعقوبة.

التّقديمُ للتّرتيبِ، وتفصيلِ الإجمالِ، وتَعْميمِ كلِّ الأيْدِي

تَعدُّدُ معاني ﴿مِّنْ﴾، في سِياق الآيةِ الكريمةِ:

و﴿مِّنْ﴾ في قولِه: ﴿مِّنْ خِلَافٍ﴾ ابتدائيةٌ، أو للمصاحبةِ، وهي ومجرورُها في حيّزِ النّصبِ على الحالية، أي: لأقطّعنَّها مُخالفاتٍ؛ لبيان موضع القطعِ بالنّسبة إلى العُضو الثّاني، كأنَّ القطعَ ابتداءٌ من مخالفةِ العُضوِ العضْوَ، فهي قيدٌ للقطع، أي: أنَّ القطعَ يبتدئُ في حال التّخالف، وقد عُلِمَ أنَّ المقطوع هو العُضو المخالفُ، فتعيَّن أنّه مخالفٌ لمقطوعٍ آخرَ وإلا لم تُتَصوّرِ المخالفةُ[5]، وتعيينُ هذه الحال؛

الإيذانُ بإيقاعِ فعْلِ القطْعِ يقينًا، وتعْيينِ كيفيّتِه المألوفةِ

(1) ابن العربيّ، أحكام القرآن: 2/320.
(2) قباوة، المفصّل، ص: 589.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/54 - 55.
(4) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/141، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/54 - 55.
(5) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/29، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/55، و6/183.

للإيذان بتحقيق الأمرِ وإيقاعِه لا محالةَ بتعيين كيفيّتِه المعهودةِ[1]، ولعلّ اختيارَها دون القطع من وفاق؛ لأنّ فيه إهلاكًا، وتفويتًا للمنفعة، أو لأنها أفظعُ[2]، أو المعنى من أجل الخلاف الذي ظهر منكم[3]. فتكونُ (من) للتّعليل، أي: بسببِ خلافكم لي.

دَلالةُ التَّعْبِيرِ بحرْفِ التّراخِي ﴿ثُمَّ﴾:

تعظيمُ الحالِ فيما عُطِفَ، وتحريكُ النُّفوسِ لاعتْبارِه

لما كان مقصودُ هذه السّورة الإنذارَ، فذكر فيها ما وقع لموسى عليه السلام والسّحرةِ على وجهٍ يهوِّلُ ذكْرَ ما كان من أمر فرعون على وجْهٍ يقرّبُ من ذلك، فعبّر بحرف التّراخي؛ لأنّ فيه - مع الإطناب الذي يكون شاغلاً لأصحابه عما أدهشَهم ممّا رأوه - تعظيماً لأمرِ الصّلب[4]، فأفاد بـ(ثم) معنى خاصًّا، وهو أنْ تكونَ للتّباين في الصّفات والأحكامِ، وغيرِ ذلك ممّا يحملُ به ما بعدها على ما قبلها من غير قصدِ مهلةٍ زمانيةٍ، بل ليُعلمَ موقعُ ما يعطفُ بها، وحالُه، وأنه لو انفرد لكان كافيًا فيما قصدَ به. ومنه قولُه تعالى: ﴿فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۝١٩ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۝٢٠﴾ [المدثر: 19 - 20]، ولم يُقصَد في شيءٍ من هذا ترتيبٌ زمانيٌّ[5].

دَلالةُ ﴿ثُمَّ﴾ على توالِي العَذابَيْن، التّقْطيعِ ثمّ التّصْليبِ:

أدّى حرفُ التّراخِي معنَى التّصاعُدِ في وَعيدِ العِقاب

وتكونُ دلالةُ ﴿ثُمَّ﴾ على الارتقاء في الوعيد بالصّلب، والمعروف أنّ الصّلبَ: هو أنْ يُقتلَ المرءُ مشدودًا على خشبة، وعلى هذا يكونُ توعَّدَهم بنوعين منَ العذاب. والوعيدُ موجّهٌ إلى جماعتهم، فعُلم أنه جعلَهم فريقين: فريقٌ يعذَّبُ بالقطع من خلافٍ، وفريقٌ يعذَّبُ بالصّلب والقتل، فعلى هذا ليس المعنى على أنه يصلبَهم بعد أن يقطعَهم، إذ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السلّيم: 6/29.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 16/231.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/365.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 3/85.
(5) ابن الزّبير، ملاك التّأويل: 1/221.

لا فائدةَ في تقييد القطعِ بكونِه من خلافٍ حينئذ. ويحتملُ أن يرادَ بالصّلب: الصّلبُ دون قتلٍ، فيكونُ أرادَ صلبَهم بعد القطع ليجعلَهم نَكالا يَنْذعِرُ بهم النّاس، كيلا يُقْدِمَ أحدٌ على عصيان أمرِه من بعد، فتكونَ ﴿ثُمَّ﴾ دالّةً على التّرتيب والمُهلةِ، ولعلَّ المهلةَ قُصد منها مدّةُ كيِّ واندمالِ موضعِ القطع، وهذا هو المناسبُ لظاهر قولِه: ﴿أَجْمَعِينَ﴾ المفيدِ أنَّ الصّلب ينالُهم كلَّهم[1]. وهذا يزيدُ من شدّةِ الإهانةِ والتّعذيب لهم، ومن إظهارِ قوةِ فرعونَ وغضبِه عليهم.

بيانُ مُتشابهِ الألفاظِ بين الآيِ:

تَعظيمُ الحالِ فيما عُطِفَ، وإثارةُ النُّفوسِ عِظَةً واعْتبارًا

وبيانُ الفرق بين قولِه تعالى هنا: ﴿ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ﴾ وقولِه: في طه، والشّعراء: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ﴾ [طه: 71، الشعراء: 49]، أنْ لا تعارُضَ بين العاطفَيْن فإنّ العطف بالواو مطلقٌ يصدُقُ بالتّعقيب الذي تدلّ عليه (الفاء)، وبالتّراخي الذي تدلُّ عليه (ثم) والغايةُ ما تقدّمَ من معانٍ خلاصتُها تعظيمُ الحال فيما عطفَ وموقعِه، ومكانتِه، وتحريكُ النّفوس لاعتباره[2]، أو لزيادة غضبِه، واحتراق قلبِه منَ الغيظ[3].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/55.
(2) ابن الزّبير، ملاك التّأويل: 1/221، ومحمد رضا، تفسير المنار: 9/65.
(3) السّامرائي، التّعبير القرآني، ص: 297.

﴿قَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ١٢٥﴾ [الأعراف: 125]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

المُناسبةُ بين الوعيدِ بالعذابِ والتّقتيلِ، والفرحِ بالمُنقلَبِ إلى الله الجليل

لما كان نوعُ العقاب غريبًا مُرعبًا تشوّقتِ النّفوسُ إلى جوابِهم، أخضوعٌ، وخشيةٌ، أم قوّةٌ، وثباتٌ، فاستأنفه بقولِه: ﴿قَالُوٓاْ﴾[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مُنقَلِبُونَ﴾: القاف، واللام، والباء أصلان صحيحان: أحدُهما يدلُّ على خالصِ شيءٍ وشريفهِ وقد تقدّم تفصيلُه في الآية (100) من سورة الأعراف لفظةِ ﴿قُلُوبِهِمۡ﴾. أمّا الأصلُ الآخرُ فهو: ردُّ شيءٍ من جهةٍ إلى جهةٍ، وتحويلُ الشّيءِ عن وجهِه، وتصريفهِ، وصرفهِ عن وجه إلى وجهٍ، أي: تَغَيُّر حالِه إلى عكسِ ما كانت، كقلب الثّوب، وقلبِ الإنسان، أي: صرفُه عن طريقته. ومنه عبّروا باللّفظة عن الرجوع، أي: الانقلاب. وما تصرّف منها فهي في القرآن بمعنى الرّجوع حقيقةً، أو مجازًا[2].

المعنى الإجْماليُّ:

بَركةُ بَشاشةِ الإيمانِ، تتجلّى في الإيقانِ بما عندَ الرّحمنِ

قالوا بجَمْعهم، ولم يرتعِد منهم إنسانٌ، ولا تزلزل عمّا منحَه اللّه به من رُتبة الإيمان بكمال التّسليم، والاتّكالِ على اللّه تعالى، والثّقة بما عنده: إنّا إلى ربّنا الذي ما زال يُحسنُ إلينا بنعمهِ الظّاهرة، والباطنةِ حتى جعل خاتمتَنا أعظمَ النِّعم، لا إلى غيرِه؛ مُنقلبون بالموت انقلاباً ثابتاً لا انفكاكَ لنا عنه إنْ صلبْتَنا، أو تركْتَنا، لا طمعَ لنا في البقاء في الدنيا، فنحن لا نُبالي بعد علْمِنا بأنا سننقلبُ إذا قُتلنا إلى من يُحسنُ إلينا، أيًّا كان حالُ انقلابنا. فإنّا راجعون إلى

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 3/85.

(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (قلب).

ثواب ربّنا يومَ الجزاء على ما نلْقاه منَ الشّدائد، أو أنّا ننقلبُ إلى لقاء ربّنا ورحمتِه وخلاصِنا منك ومن لقائك، أو إنّا ميّتون مُنقلبون إلى اللّه فلا نبالي بالموت، إذ لا تقدرُ أن تفعل بنا إلا ما لا بدَّ لنا منه[1].

وتُرشدُ الآية الكريمة: إلى أنَّ الإيمان حين يلامسُ شَغاف القلوب، ويذوقُ المؤمن حلاوتَه، ويستشعرُ نورَ الهداية، بعد ظُلمة الكفرِ؛ فإنه يأنسُ بقُرب ربّه، ويتشوّفُ الى لقائِه.

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

بَلاغةُ الفصْلِ على الاستئنافِ البيانيّ:

فُصلت جملةُ ﴿قَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾ الاستئنافيةُ البيانيةُ؛ لوقوعها في سياق المُحاورة، وهو جوابٌ عن وعيدِ فرعونَ بأنّه وعيدٌ لا يضيرهم؛ لأنّهم يعلمون أنّهم صائرون إلى اللّه ربِّ الجميعِ[2].

وقوعُ المضمونِ في سِياقِ المُحاوَرةِ، يَعكسُ حَساسيّةَ الموقفِ وحَرَجِه

دَلالةُ الجمْعِ في ﴿قَالُوٓاْ﴾ في سِياقِ الآيةِ:

يشير الجمعُ إلى أنَّ القائلين هم السَّحرةُ الذين آمنوا باللّه وبرسوله موسى عليه السلام، وذلك بعد أن شهدوا بالحقِّ وتحدَّوْا فرعونَ، وتحمَّلوا تهديدَه وتعذيبَه، فهم يعبِّرون بصوتٍ واحدٍ ثابتٍ دون تردّدٍ أو مواربةٍ عن تفويض أمرِهم إلى اللّه وثقتِهم به، ورجائِهم في رحمتِه ومغفرتِه، وهذا يدلُّ على صدْق إيمانِهم باللّه وصبْرِهم على المصائب التي تنالُهم في سبيل اللّه.

أهمّيّةُ التَّعْبير بصَوتٍ واحدٍ، عن تفويضِ أمْرِهم إلى الله

بَلاغةُ الإيجازِ في الجوابِ الصّادرِ منهم:

جاء جوابُهم موجزًا إيجازًا بديعًا دالًّا على كمال التّسليم والتّوكُّل على اللّه تعالى والثّقةِ بما عنده؛ لأنه يتضمّنُ أنّهم يرجون ثوابَ اللّه على ما ينالُهم من عذابِ فرعونَ، ويرجون منه مغفرةَ ذنوبِهم،

الإفْصَاحُ عن مَقْصدِ السّحَرةِ في التّسليمِ، والتّوكُّلِ على الله العظيمِ

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/365، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 3/85.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/55.

ويرجون العقابَ لفرعونَ على ذلك، أو أنّا ننقلب إلى لقاء ربّنا ورحمتِه وخلاصِنا منك ومن لقائك، أو أنّا ميّتون مُنقلبون إلى الله فلا نبالي بالموت إذ لا تقدرُ أن تفعلَ بنا إلا ما لا بدّ لنا منه. وإذا كان المُرادُ بالصّلب القتلَ وكان المرادُ تهديدَ جميعِ المؤمنين، كان قولُهم: إنّا إلى ربّنا منقلبون تشوُّقًا إلى حلولِ ذلك بهم محبّةً للقاءِ الله تعالى، فإنَّ الله تعالى لمّا هداهُم إلى الإيمان أكسبَهم محبّةَ لقائِه[1].

بَلاغةُ تَقديمِ الجارّ والمجرور ﴿إِلَىٰ رَبِّنَا﴾:

بيانُ أهمّيّةِ تخصيصِ العُبوديّةِ لله المَعبودِ

وفي تقديم الجارِّ والمجرور ﴿إِلَىٰ رَبِّنَا﴾ دلالةُ الاختصاص، أي أنّهم لا يؤمنون بأحدٍ إلا ربَّ العالمين، وأنّه لا انقلابَ الى غيره[2]، وفيه تبرّؤٌ من فرعونَ ومن ربوبيّتِه[3].

بَلاغةُ اتِّحادِ الضّمائرِ، في السِّياقِ الحكيمِ:

التّعريضُ بكذِبِ فرعونَ، وإيثارُ ما عندَ الله تعالى على ما عندَه

إضافةُ الرّبوبيّةِ إلى الضّمير (نا) قُربٌ، وتخصيصٌ له بهم، ونأيٌ به عن فرعونَ وملئِه، فيكونون قد عَنوا بقولهم هذا أنفسَهم وحدَها، وأرادوا أنّهم لا يُبالون ما يكونُ من قضائه فيهم وقتلِه لهم؛ لأنّهم راجعون إلى ربّهم، راجون مغفرتَه ورحمتَه بهم، وحينئذ يكونُ تعجيلُ قتلهم سببًا لقرب لقائِه، والتّمتّعِ بحُسن جزائِه، كأنّهم استطابوه شَغفًا في لقاء الله. ويجوز أن يكونوا قد عَنوا أنفسَهم وفرعونَ جميعًا، وأرادوا: إنّنا وإياك سننقلبُ إلى ربنا، فلئن قتلتَنا فما أنت بخالدٍ بعدَنا، وسيحكمُ ﷻ بعدلِه بينك وبينَنا[4]. وفيه تعريضٌ بكذبِه في دعوى الرّبوبيّةِ، وتصريحٌ وإيثارُ ما عند الله تعالى على ما عنده منَ الشّهوات الدّنيويةِ[5].

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 4/365، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/55.
(2) الإندونيسّي، الشّامل في بلاغة القرآن: 1/491.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/365.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/365، ومحمد رضا، تفسير المنار: 9/66.
(5) رضا، تفسير المنار: 9/67.

قَصْدِيّةُ التَّعْبير بالجُملةِ الاسميّةِ، واسْمِ الفاعلِ:

تَحقُّقُ الحُدوثِ، وثباتُه وصْفًا، لأنَّ إليه تعالى المُنْتهَى

يدلُّ التَّعبير بالجُملة الاسميّة ﴿إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾ على يقينِهم من رجوعِهم إلى اللّه تعالى بالموت انقلابًا ثابتًا، رسّخه التّعبيرُ باسم الفاعل ﴿مُنقَلِبُونَ﴾ الدّالِّ على الحدوث المُتَحقِّقِ، الثّابتِ وصفًا دائمًا لهم في الحال، والاستقبال.

بَلاغةُ المُتَشابِهِ اللّفْظِيّ بين آيةِ الأعراف (125)، وآيةِ الشّعراء (50):

الاسْتهانةُ بالتَّهديدِ الكبيرِ، مُستغْرِقٌ الاسْتهانةَ بما دونَه من تهديدٍ

قال تعالى هنا: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّآ﴾، وفي الشّعراء: ﴿قَالُواْ لَا ضَيۡرَۖ إِنَّآ﴾ [الشّعراء: 50]؛ لأنّ قولَه: ﴿لَا ضَيۡرَۖ﴾ مقابلٌ به ما تقدّمَ من قوله: ﴿وَقَالُواْ بِعِزَّةِ فِرۡعَوۡنَ﴾ [الشّعراء: 44] لِما اعتقده السّحرةُ أوّلا من أنَّ له عزةً ونسبوها إليه، فظنّوا أنه يقدرُ على ما يريده ويستبدُّ بفعلِه، ثمّ لمّا وضَحَ لهم الحقُّ، ورجعوا عنِ اعتقادهم وأيقنوا وعلموا أنَّ القدرةَ والعزّة للّه تعالى وحدَه، وسلّموا لخالقِهم ولم يبالوا بفرعونَ وملئِه فقالوا: ﴿لَا ضَيۡرَۖ﴾، أي: لا ضررَ ولا خوفَ من فرعونَ؛ إذِ العزّةُ للّه وحدَه، ولم يقع من قولهم في الأعراف أولًا مثلُ الواقع هنا، فلم يَجيئوا في الجواب بهذا اللفظ[1].

ويَرشَحُ عن هذا التّفصيل في التّفريق إشراقةٌ بيانيّة تحريرُها: مناسبةُ قوله ﴿لَا ضَيۡرَۖ﴾ في الشّعراء لمقام التّفصيل، والتّوسّع من ناحية[2]، ولمقام التّهديد الشّديد، والوعيد المؤكّدِ من ناحية أخرى؛ فإنّ تهديده في الشعراء أشدُّ وآكدُ ممّا في الأعراف فلو أنّهم قالوا في الأعراف (لا ضير) دون الشعراء لَظُنَّ أنّهم هابوا التّهديد الشّديدَ، فلم يَنطقوا بما يدلُّ على عدمِ الاكتراث؛ إذْ منَ المُعتاد أن يرهبَ الانسانُ التّهديدَ الكبيرَ دون الصّغير، أمّا إذا استهانوا بالتّهديدِ الكبير ولم يكترثوا به، فإنَّ ذلك يدلُّ على أنّهم أقلُّ اكتراثًا

(1) ابن الزّبير، ملاك التّأويل: 1/222.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 4/366.

بالتّهديد الأدنى، وأقلُّ رهبةً له، فناسب هذا أن يقولوه في موطن التّهديدِ الشّديد دون الأدنى[1].

بناءُ القصّةِ في (الشّعراء)، على التّفصيلِ، وفي (الأعراف) على الاخْتِصارِ:

الاسْتِغناءُ عن تَكرار (لا ضيرَ)، في أحدِ الموضِعَيْن، يُناسبُ التّفصيلَ والإيجازَ

علّةُ عدم ذكرِ (لا ضير) في الموطنين؛ لأنَّ ذكرَه في موطن التّهديدِ الكبير يُغني عن ذكره في الموطن الأدنى وذلك من باب الأولى، ثمّ إنّ ذكرَه في الموطنين مخلٌّ بالإيجاز؛ إذ إنَّ ذلك مفهومٌ منَ الموطنِ الأوّل، ثم إنّ بناءَ القصّة في الشّعراء، قائمٌ على التّفصيل، وبناءَها في الأعراف قائمٌ على الاختصار، وذلك يقتضي أن يُفصّلَ ما يقضي التّفصيل، ويُختصرَ ما هو معلوم وما لا حاجةَ لذكره[2].

(1) السّامرائي، التّعبير القرآنّي، ص: 297.
(2) السّامرائي، التّعبير القرآني، ص: 297.

﴿وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا ۚ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ١٢٦﴾ [الأعراف: 126]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لما قدّموا ختامَ مآلِهم، ومصيرِهم وهو الانقلابُ الى الله تعالى، بيّنوا أنَّ عقاب فرعونَ لا غضاضةَ عليهم منه؛ لأنّه لم يكن عن جنايةٍ تَصِمُهُم، بل كان على الإيمان بالآيات لما ظهرت لهم[1].

رَبْـطُ التّسليمِ لله، بالتّلْويحِ ببُطْلانِ التُّهمِ، واللّجُوءِ إلى الله الأعْظَمِ

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تَنقِمُ﴾: النّون والقاف والميم أصلٌ يدلُّ على إنكارِ شيءٍ وعَيبِه، ونَقَمْتُ عليه أنْقِمُ: أنكرتُ عليه فِعلَه، والنِّقْمةُ منَ العذاب والانتقام، كأنَّه أنْكَر عليه فعاقَبَه[2]، ومعنى: نَقَمتُ: بالغْتُ في كَراهة الشَّيْء[3]، ونُكرانِه إما باللسان؛ وإما بالعقوبة[4]. ومعنى اللفظة في الآية الكريمة: ما تُنْكِرُ منا، أو ما تطعنُ علينا، أو: وما تَكْرَه منا، أو: ما تعيبُ منا، أو: ما تَعُدُّ علينا ذنبًا وتؤاخذُنا به[5]. فجِماعُ هذه المعاني مُحْتَمِلَةٌ في اللَّفظة.

2) ﴿أَفْرِغْ﴾: الفاء، والراء، والغين أصلٌ صحيح يدلُّ على خُلوٍّ. ومنه الفَرْغ: مَفْرَغُ الدَّلْو الذي ينصبُّ منه الماء[6]. فالإفراغُ: الصَّبُّ، وأفرَغْتُ الماءَ: صببتُه. وافترغْتُ، إذا صببتَ الماءَ على نفسك. ومنه استعير: ﴿أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا﴾[7]. ولما كان من دلالة

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/55.
(2) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (نقم).
(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (نقم).
(4) الرّاغب، المفردات: (نقم).
(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/366.
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (فرغ).
(7) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (فرغ).

الإفراغ: السّعَةُ والسّيلان، كان المعنى في الآية المباركة: أَنْزِلْ صَبْرًا يشْتَملُ علينا[1].

3) ﴿صَبْرًا﴾: الصاد، والباء، والراء أصولٌ ثلاثة، أوّلُها: الحَبْس. يُقال صَبَرْتُ نفسي على ذلك الأمر، أي حَبَسْتُها[2]. والصَّبْرُ: نقيض الجَزَع. وهو: الإمساكُ في ضيقٍ، وحبسُ النّفس على ما يقتضيه العقلُ والشّرعُ، أو عما يقتضيان حبسَها عنه، فهو لفظٌ عامّ، وربّما خولف بين أسمائه بحسب اختلافِ مواقعِه؛ فإنْ كان حبسُ النّفس لمصيبةٍ سُمّي صبرًا لا غير[3]، والصّبرُ في المصيبة هو معنى اللّفظة في الآية الكريمة.

4) ﴿وَتَوَفَّنَا﴾: الواو، والفاء، والحرف المعتلّ: كلمةٌ تدلُّ على إكمالٍ وإتمام. ومنه توفَّيْتُ الشَّيءَ واستَوْفَيْته؛ إذا أخذتَه كُلّه حتَّى لم تتركْ منه شيئاً. ومنه يقال للميِّت: تَوفّاه اللّه[4]. وقد عبّر عنِ الموت باستيفاء الأرواح، أي: استعادةُ اللّه تعالى إياها، وعنِ النَّوم بالتّوفّي ماضيًا ومضارعًا للفاعل والمفعول وطلبًا واسمِ فاعل[5]. فهو: الإماتةُ وقبض الرّوح[6]. وهو معنى اللفظة في الآية الكريمة.

❁ المعنى الإجْماليُّ:

قُـوّةُ اليـقـينِ، وتمامُ التّسليمِ؛ سبيلُ حِجاجِ الطُّغاةِ العُتاةِ

قال مؤمنو السّحرة: ما تنكرُ منا يا فرعونُ، وما تجدُ علينا إلّا أن صدّقنا بحُجج ربنا، وبراهينِه، وأدلّتِه التي لا يقدرُ على مثلها أنت، ولا أحدٌ سوى اللّه الذي له ملكُ السّموات والأرض. فبيَّنوا أنَّ الذي كان منهم لا يوجبُ الوعيدَ، ولا إنزالَ النّقمة بهم، ولا المبالغةَ في كراهيتهم، بل يقتضي خلافَ ذلك، وهو أن يُتأسّى بهم في الإقرار

(1) ابن سيده، المحكم: (فرغ).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (صبر).
(3) الخليل، العين، والرّاغب، المفردات: (صبر).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (وفي).
(5) الرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (وفي).
(6) الكفويّ، الكليّات، ص: 313.

بالحقّ، والاحترازِ عن الباطل عند ظهور الحُجّة والدّليل، ثمّ فزعوا إلى اللّه بمسألتِه الصّبرَ على عذاب فرعونَ، وقبضِ أرواحِهم على الإسلام، فقالوا: أنزلْ علينا ما يحبسُنا عنِ الكفر بك، عند تعذيب فرعونَ إيانا، واقبضْنا إليك على الإسلام دينِ خليلِك إبراهيم ﷺ، لا على الشّركِ بك[1].

وترشدُ الآيةُ الكريمة إلى الصّبر على الشّدائد، وتَحمّل الفتن، والمصائبِ؛ فذلك من تمام صدق الإيمان، والتقرُّب منَ العزيز المنّان. وعلى المسلم أنْ يَجْأر الى ربّه في البلايا، ويلجأ إليه في عِظام الرزايا، فهو مفتاحُ الصبر، وموئلُ المصابرة.

وإلى أنَّ السحرةَ المؤمنين يلوِّحون بذلك إلى بُطلان التُّهمةِ المزوَّرة التي اتّهمهُم بها زورًا وبهتانًا؛ لمجرّد القضاءِ عليهم، والتّخلّصِ منهم، باسم حمايةِ الدّولة منَ المتآمرين عليها والكائدين لها[2].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

بَلاغةُ الوصْلِ في الآيةِ الكريمةِ:

الواو في ﴿وَمَا تَنقِمُ﴾ عاطفةٌ، و﴿وَمَا﴾ نافيةٌ للتّقريب منَ الحال، و﴿تَنقِمُ﴾ مضارعٌ يحملُ معنى تجدّدِ نقمةِ فرعونَ، واستمرارِ سخَطه؛ ليناسبَ حجمَ أذاه من صنيعِهم، وأساه من فعلِهم، وجاء قولُهم هذا على سبيل الاستهزاءِ، والتّقريع، والتّوبيخ.

تـواصُـلُ غَضبِ فرعونَ اللّعينِ، والـتّـصـدِّي له بالإيمانِ واليقينِ

بَلاغةُ التَّعْبير بالاسْتثناء المُفرَّغِ في السِّياقِ:

و(من) لابتداء الغايةِ المكانيةِ، و﴿إِلَّآ﴾ حرفُ استثناء، والمصدرُ المنسبكُ ﴿أَنْ ءَامَنَّا﴾ أقوى في الدّلالة على حدثِ الإيمان، وتأكيدِ تحقّقِه، ويجوز أن يكون في محلّ نصبٍ مفعولٍ به، أي: ما تعيبُ علينا إلا إيمانَنا، أو أنْ يكون مفعولًا من أجله، أي: ما تنالُ منا وتعذّبُنا

حَـصْـرُ النِّـقْـمةِ عـلـيـهـم بـإيـمـانِـهـم، وقَـصْـرُهـا على اعْتقادِهم بآياتِ ربِّهم

(1) جامع البيان: 13/35، والفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/170.
(2) المكيّ النّاصري، التّيسير في أحاديث التّفسير: 2/255.

لشيء منَ الأشياء إلا لإيماننا، وعلى كلٍّ من القولين فهو استثناءٌ مفرّغ[1]، أفاد حصرَ النَّقْمِ بإيمانِهم، وهو من قصْر الصّفة على الموصوف على طريق النّفيِ والاستثناء، أو هو استثناءٌ متّصلٌ؛ لأنَّ الإيمان ينقمُه فرعونُ عليهم[2].

بَلاغةُ أُسلوبِ المدْحِ بما يُشبهُ الذَّم:

الإيـمـانُ بالله فَخارٌ للمؤمنين، وحَـسْـرةٌ على الكافرين

ففي قولهم ﴿وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا﴾ تأكيدُ المدح بما يشبه الذمّ، كأنْ يقول إنسان: ماذا تكره فيّ؟ أصدْقي؟ أأمانتي؟ أجودي؟ أعِلمي؟ كأنّه يعدّد أشياءَ يعرفُ كلُّ النّاس واقعاً أنّها لا تُكره[3]، والمعنى: وما تعيبُ منّا إلا خيرَ الأعمال، وأعظمَ المناقب، وأصلَ المفاخر، وهو الإيمانُ بآيات الله تعالى. وجمالُ بلاغتِه أنَّ فرعونَ تنبّه مُتوقّعًا أمرًا يقتضي العيبَ، والذّمّ بعدَ قولهم: ﴿وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ﴾، ففوجِئَ بإثبات مدحٍ لهم، وثناءٍ لصنيعهم ليرْسَخَ فعلُ الإيمان في الذهن، ويَثْبُتَ.

دَلالةُ حرفِ (الباء) في قولِه تعالى: ﴿بِـَٔايَٰتِ﴾:

الإيمانُ تَصديقٌ، والْـتـزامٌ، وثباتُ اعْتقادٍ

الباء في ﴿بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا﴾ للإلصاق المعنويِّ، ودلالتُها ربطُ الفعل (آمن) بموضوع الإيمان ربطًا وثيقًا، كأنّه ملتصقٌ به، وهي دلالةٌ مناسبةٌ لِما في معنى الإيمان منِ التزامٍ، وثباتِ اعتقادٍ[4]، والباء هنا بما تدلُّ عليه منَ الملابسة، والمصاحَبةِ، والإلصاقِ - تخلعُ على فعل الإيمان وجودَ الأمن في ظلالِ من يؤمنُ به، ويلتمسُ الحمايةَ في صحبتِه، والطّمأنينةَ في ملابستِه[5].

(1) طنطاويّ، الوسيط: 5/352.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/56.
(3) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 7/4303 - 4304.
(4) داود، القرآن الكريم وتفاعل المعاني: 2/205.
(5) محمّد الأمين الخضريّ، من أسرار حروف الجرّ في الذّكر الحكيم، ص: 211.

دَلالةُ تعالُقِ التّعريفاتِ بالإضافةِ:

عبّر بلفظي ﴿بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا﴾ بصيغتَيْ تعريفٍ بالإضافة متعالقَيْن، بإضافة الآيات إلى (الرّبّ) المعرَّفِ بإضافته إلى ضمير التّعظيم (نا) المناسبِ للذّات الإلهيّةِ، وهو أقوى في الدّلالة على تأكيد المدحِ؛ إذ فيه من تخصيص الآيات، والرّبوبية بهم تودّدًا، وقُربًا، وسموَّ منزلةٍ ما فيه، يعزّزه قولُهم: ﴿جَآءَتۡنَاۚ﴾ بإسناد ضميرِ الآيات إليهم، وكأنّها مخصّصةٌ لهدايتهم، وشرفوا بها، وهي تناسبُ مقام الدّعاء بالصّبر، والتّثْبيتِ.

تَخصيصُ الإيمانِ، وتأكيدُ تعلُّقِه بالله تعالى

سِرُّ تَوجِيهِ التَّعْبير بـ ﴿لَمَّا﴾:

﴿لَمَّا﴾ حرفُ شرطٍ، وتسمّى حرفَ وجودٍ لوجودٍ. ومنهم من يجعلُها ظرفًا للزّمان بمعنى (حين)، وتسمى لمّا الحينيةَ، وتضافُ إلى جملة الشّرط، هذا هو المشهور. ومنهم من يرى أنها حرفٌ للرّبط، فمن جعل (لمّا) ظرفَ زمانٍ جعلَ العامل فيها ﴿مِنَّآ إِلَّآ﴾، ومن جعلها حرفًا جعل جوابَها محذوفًا لدلالة ما قبلَه عليه، أي: (لما جاءتنا آمنا). وفي كلام مؤمنِي السَّحرة هذا - فضلًا عمّا سبق - تكذيبٌ لفرعونَ في ادّعائِه الرّبوبيةَ، وانسلاخٌ منهم عنِ اعتقادهم ذلك فيه، والإيمانُ باللّه الذي هو أصلُ المفاخر والمناقبِ[1].

تَكذيبُ السّحَرةِ فرعونَ في ادّعائِه الرُّبُوبيّةَ، والنُّكوصُ عنِ تأليهِه

دَلالةُ إيثارِ فعْلِ (المجيءِ)، على (الإتيانِ):

عبّر بـ ﴿جَآءَتۡنَاۚ﴾ للآياتِ بدلًا عن (أتتنا)؛ لأنَّ المجيءَ أعمُّ وفيه شدّةٌ، وصعوبةٌ، ومشقّةٌ، والآياتُ كانت فيها منَ الشّدّة، والمشقّةِ ما تبيّن من أثرها فيهم، حتى خَرّوا سُجّدًا للّه ربِّ العالمين[2].

الآياتُ المُبصرةُ كانت شاقّةً عليهم، لِما لها من تأثيرٍ في التّغيير

نُكتةُ تَقديمِ الفاعلِ، وحذْفِ حرفِ النّداءِ:

تقديمُ الفاعل ﴿رَبِّنَا﴾ المعرَّفِ بالإضافة الى ضمير التّعظيم

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/366.
(2) السّامرائي، لمسات بيانيّة، ص: 91.

تَرسيخُ اختِصاصِ فعْلِ الإفراغِ (أَفْرِغْ) بالله تعالى

(نا) على الفعل ﴿أَفْرِغْ﴾، تخصيصٌ للفعل بالله تعالى، وحصرٌ له به سبحانه؛ فلا قادرٌ على هذا الفعل إلّاه، ولا منعمٌ به عليهم سواه، ولذلك قصدوا في دعائِهم إلى حذف حرفِ النّداء؛ دلالةً على قربِه تعالى منهم.

عِلّةُ تَقديمِ الجارِّ على المفعولِ المُطْلَقِ:

مِن وجوهِ العِنايةِ بهم، تخصيصُهم بالصّبرِ، وقصْرُه عليهم

ورسّخ هذا المعنى تقديمُ الجارّ والمجرور ﴿عَلَيْنَا﴾ - المؤلَّف من (على) للاستعلاء المعنوي، الحاملِ معنى الإنزال من فوق تضمّنًا للإحاطة، والسّكينةِ، وضميرِ التّعظيم (نا) - على المفعول المطلقِ ﴿صَبْرًا﴾؛ لتخصيص الصّبرِ بهم، وقصْرِه عليهم، وللعنايةِ بهم، فمِن مقاصدِ المُتحدّثين أنّهم يقدِّمون في كلامهم الذي بيانُه أهمُّ لهم، وهم ببيانِه أعْنَى، وإن كانا جميعًا يُهمّانِهم ويُعنيانِهم.

بَلاغةُ الالتفاتِ في الخِطابِ:

بيانُ شِدَّةِ افْتِقارِهم، وتفويضِ أمْرِهم إليه تعالى

تركوا خطابَ فرعونَ، وقطعوا الكلامَ معه، والتفتوا إلى خطاب الجنابِ العليِّ، بصيغةِ الدّعاء: ﴿أَفْرِغْ﴾ أمرًا منَ الأدنى الى الأعلى، أي: أنْزِلْ صبرًا يشْتَملُ علينا[1]. ليدلَّ على شدّة افتقارهم إليه تعالى في هذا الموقف العصيب، مُفوّضين الأمرَ إليه، طالبين إليه تعالى أن يُثبّتهم على هذه المحنة بالصّبر، مُعبِّرين عنه بأبلغ أنواعِه بمجيءِ لفظ: ﴿صَبْرًا﴾ مصدرًا منكّرًا؛ مبالغةً في طلب الصّبر، فكأنّهم طلبوا الصّبر كلَّه، بكمالِه، وتمامِه.

نُكتةُ إيثارِ فعْلِ الإفراغِ ﴿أَفْرِغْ﴾ دونَ غيرِه:

طلبُ الصّبرِ كان اسْتِعدادًا لِما سَينزلُ عليهم مِنَ عذابِ فرعونَ

عبّرَ بالإفراغِ، وهو صبُّ الماء الكثير منَ الدّلو ونحوِه، حتى يفيضَ، ويغمرَهم[2]؛ استعدادًا منهم لما سينزلُ بهم منَ العذاب من

(1) ابن سيده، المحكم: 5/505.

(2) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/171، والشّوكانّي، فتح القدير: 2/267، ومحمد رضا، تفسير المنار: 9/68.

عدوِّ اللّه، وتوطينًا لأنفسِهم على التّصلّب في الحقّ، وثبوتِ القَدمِ على الإيمان[1].

دَلالةُ الكِنايةِ، وجِماعِ الاستعاراتِ، عن شِدّةِ اضْطِرارِهم إلى الله:

تداخلُ الصّورِ، تنفسحُ به دَلالاتُ السّياقِ لمعانٍ شتَّى

ولأنّ وعيدَه مما لا تُطيقه النّفوسُ سألوا اللّه أن يجعل لنفوسهم صبرًا قويًّا، يفوقُ المتعارَفَ فقالوا: ﴿أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا﴾، أي: عُمّنا كما يعمُّ الماءُ مَن أُفرغَ عليه، وهي هنا استعارةٌ[2]؛ إما أن تكون تبعيةً و﴿صَبْرًا﴾ قرينةٌ. شبّه إنزالَ الصبر، وإكثارَه عليهم بإفراغ الماء في الفيضان، والغمرِ؛ لأنَّ إفراغَ الماء هو صبُّه بالكلّيّة منَ الإناء فيكونُ غامرًا لما يُصبُّ عليه. ثم قيل: ﴿أَفْرِغْ﴾ بدلَ (أنزلْ، وأكثرْ) على الاستعارة التّبعيّة، أو هي استعارة مكنيّة؛ إذ شبّه الصّبرَ بالماءِ في أنّه مُطهّرٌ منَ الأوزار كما أنَّ الماء مُطهّرٌ منَ الأحداث. وجعل إيقاعَ الإفراغ قرينةَ الاستعارة بالكناية؛ لأنّ الإفراغَ إنّما يُستعملُ في الماء، على طريقة الاستعارةِ المكنيّةِ، وشبّه خلقَه في نفوسِهم بإفراغ الماء منَ الإناء على طريقة التّخييلية، فإنَّ الإفراغ صبُّ جميعِ ما في الإناء، والمقصودُ من ذلك الكنايةُ عن قوّة الصّبر؛ لأنّ إفراغ الإناء يستلزمُ أنّه لم يبقَ فيه شيءٌ ممّا حواه، فاشتملت هذه الجملة على استعارة مكنيةٍ، وتخييليةٍ، وكنايةٍ[3].

أو هي استعارةٌ تمثيليةٌ؛ إذ شبّه حالَهم واللّهُ يفيضُ عليهم بالصّبر بحال الماءِ يُصبّ، ويُفرغُ على الجسم فيعمُّه كلَّه ظاهرَه، وباطنَه، فيُلقي في القلب بردًا، وسلامًا، وهدوءًا، واطمئنانًا. وعبّروا عن إلهامِهم إلى الصّبر بالإفراغ استعارةً لقوّة الصّبر، فاستعيرَ الإفراغُ هنا للكثرة مع التّعميم والإحاطةِ[4]، أي: اصببْ صبًّا ذريعًا،

(1) الشّوكانّي، فتح القدير: 2/267.
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/441.
(3) زاده، حاشيّة على البيضاويّ: 4/276، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/56.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/499.

والمعنى: هَبْ لنا صبرًا واسعًا وأكثِرْه علينا حتى يفيضَ، ويغمرَنا كما يُفرَغُ الماء إفراغًا[1].

سِرّ فاعليّةِ حذْفِ حرفِ العلّةِ:

إبرازُ دَلالةِ طَلبِ الإسراعِ في تحقُّقِ الفعْلِ

ودعوا لأنفسِهم بالوفاة حال ثبوتِهم على الإسلام، وكونِهم مسلمين غيرِ مُحرّفين ولا مبدّلين ولا مفتونين؛ إيذانا بأنّهم غيرُ راغبين في الحياة، ولا مُبالين بوعيدِ فرعونَ[2]. وعبّروا عن ذلك بحذف حرف العلّة من فعل الأمر، ﴿وَتَوَفَّنَا﴾ والاستغناءِ عن إعادة الفاعل بالمذكور طلبًا لسرعة تحقُّقِ الفعل.

بَلاغةُ التَّعْبِير بلفْظِ اسْمِ الفاعلِ، والجُملةِ الفعليّةِ:

تحقّقُ الحُدوثِ، وطلبُ التّوفّي على الإسلامِ، لضمانِ حُسْنِ المصيرِ

وذِكرُهمُ الإسلامَ في دعائِهم يدلُّ على أنَّ اللّه ألهمَهم حقيقتَه التّي كان عليها النّبيّون والصّديقون من عهد إبراهيمَ عليه السلام، فكان دعاؤهم بأنْ يتوفّاهمُ اللّه على حالتِهم، وهي الّتي يجمعُ لفظُ الإسلام تفصيلَها[3]، ولذلك عبّروا عن وصْفِهم بصيغة اسم الفاعل الدّالِّ على تحقّقِ حدوثِه فيهم، وثبوتِهم عليه، وعبّروا عنِ الدّعاء – إجمالًا – بالجُملتين الفعليتَين: ﴿أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾؛ لحاجتِهم إلى تجدّدِه كلَّ حين، ولحظةٍ؛ ليناسبَ تجدّدَ وعيدِ فرعونَ المتكرّرِ، وتهديدِه المستمرِّ لهم.

غَرَضُ صِيغةِ النّداءِ مع الأمْرِ في سِياقِ الطّلبِ منَ الله الدّعاءَ:

الدّعاءُ مبعثُ راحةٍ وطُمأنينةٍ للنّفسِ

فهذا الدّعاءُ يجري على اللّسان مجرَى المثلِ، عند وقوعِ البلاءِ، والمحنِ لِما يثيرُه في النّفس منَ الطّمأنينة التي يُحسُّ بها من هَدَأ جسمُه بماءٍ يُلقى عليه، وهذه الرّاحةُ تُشبهُها تلك الرّاحةُ النّفسيّةُ، ينالُها من مُنِحَ هِبةَ الصّبرِ الجميل[4].

(1) النّسفيّ، مدارك التّنزيل: 1/595.
(2) الشّوكاني، فتح القدير: 2/267، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/56.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/57.
(4) بدوي أحمد، من بلاغة القرآن، ص: 168.

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(الإفراغُ)، و(الهبوطُ)، و(الإنزالُ)، و(الصبُّ):

الإفـــراغُ يُـفـيـدُ سَـعـةَ الـشّيءِ، وكـــثرتَـــه، وانْصِبابَه، وهو آثـرُ في الـسّياقِ من غيرِه

الهبوطُ نزولٌ يعقبُه إقامةٌ، ومنه قولُه تعالى ﴿ٱهۡبِطُواْ مِصۡرٗا﴾ [البقرة: 61]، وقولُه تعالى ﴿قُلۡنَا ٱهۡبِطُواْ مِنۡهَا جَمِيعٗاۖ﴾ [البقرة: 38]، ومعناه انزلوا الأرضَ للإقامة فيها. ولا يقال هبط الأرضَ إلّا إذا استقرَّ فيها، ويقال نزولٌ وإنْ لم يستقرَّ[1]. والهبوط: الانحدارُ على سبيل القهر، كهبوطِ الحجر، والمنحدرِ، وإذا استعمل في الإنسان الهبوطُ فعلى سبيل الاستخفافِ بخلاف الإنزالِ، فإنّ الإنزالَ ذكرَه تعالى في الأشياء الّتي نبّه على شرفِها، كإنزال الملائكة، والقرآنِ، والمطرِ، والحديدِ، والمَنِّ والسَّلوى، وغيرِ ذلك، والهبوطُ ذكرَ حيث نبَّه على الغضِّ من الشّيءِ، نحو: ﴿ٱهۡبِطُواْ مِصۡرٗا﴾ [البقرة: 61]؛ بقول موسى عليه السلام مُستنكرًا على بني إسرائيل بطَرَهم نعمةَ اللّه، بأن يهبطوا أيَّ مدينة، فسيجدون فيها كثيرًا ممّا اشتهَوْا منَ البقول والخُضَر، والقِثّاء، والحبوبِ التي تؤكلُ، والعدسِ، والبصلِ في الحقول والأسواق.

أمّا إفراغ الإناء فهو صبُّ ما فيه بالكلّية، فكأنّهم طلبوا إلى اللّه كلَّ الصّبر لا بعضَه[2]، فالإفراغ يفيدُ سَعةَ الشّيء، وكثرتَه، وانصبابَه، وهو صبٌّ برويّةٍ، فيستغرقُ الجسمَ كلَّه، أي: صبرًا تامًّا كثيرًا، يغمرُنا كما يُفْرَغ الماءُ، وليس كالصبِّ الذي فيه قوّةٌ، وشدّةٌ[3]؛ ممّا يشيرُ إلى روعة انتقاءِ هذا اللّفظ في سياق الآية الكريمة.

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 296.
(2) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/171.
(3) الشريف الرضي، تلخيص البيان في مجازات القرآن: 1/38.

﴿وَقَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِ فِرۡعَوۡنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوۡمَهُۥ لِيُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبۡنَآءَهُمۡ وَنَسۡتَحۡيِۦ نِسَآءَهُمۡ وَإِنَّا فَوۡقَهُمۡ قَٰهِرُونَ ١٢٧﴾ [الأعراف: 127]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

رَبْطُ التّأزُّمِ بين السّحَرةِ وفرعونَ، بتحريضِ حاشيتِه له على اسْتِئصالِهم

لمّا استنكف فرعونُ أنْ يُقرَّ بعجْزِه، ويعترفَ بقصورِ قُدرته، توعَّدَ موسى وقومَه - بعد ممالأة الحاشيةِ له في الباطل - بما عكسَ اللّه عليه تدبيرَه، وغلبَ عليه تقديرَه[1]، وذلك تأثُّرًا بمعجزة موسى وموعظةِ الّذين آمنوا من قومه، وثباتِهم على الحقّ، وقوّةِ حُجّتهم[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَتَذَرُ﴾: جاء معنى اللّفظة في المُعجمات العربية بمعنى التَّرْكِ، فذَرْهُ تَرْكاً، أي اترُكْهُ[3] ويذرُ فلانٌ الشّيءَ، أي: يقذفُه لقلّة اعتدادِه به، وهو التَّرْكُ؛ إذ هو مفارقةٌ للشّيء، وانفصالٌ، أو تخلٍّ عنه[4]، وكلُّ ما في القرآن منَ التّركيب فهو بمعنى (الترك)[5] الشّديد.

2) ﴿وَنَسۡتَحۡيِۦ﴾: الحاء والياء والحرف المعتل أصلان: أحدُهما خِلافُ المَوْت، وهو الحياةُ والحَيَوان، وهو ضِدُّ الموت والمَوَتان[6]، والحَيُّ من كل شَيْء: نقيضُ المَيِّت[7]، واستحييت أسيري: تركتُه حيًّا، وفي الحديث: «اقتُلوا شيوخَ المُشْرِكينَ واسْتَحْيوا شَرْخَهم»[8]، وكلُّ

(1) القشيري، لطائف الإشارات: 1/559.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/57.
(3) الخليل، العين: (وذر).
(4) الراغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (وذر).
(5) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (وذر).
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حيي).
(7) ابن سيده، المحكم: (حيي).
(8) أبو داود، السنن، برقم: (2670)، والترمذي، السنن: برقم: (1583)، وأحمد، المسند: برقم: (20157)، وضعَّفه الألباني، ضعيف الترمذي، برقم: (1583).

ما في القرآن منَ التّركيب هو من الحياة ضدّ الموت، عدا التّحيّةَ والحياءَ. ومنه قولُهم: يستحيون النساء، أي: يستبْقونَهنَّ أحياءَ، منَ الاستحياء: إبقاءُ الشخص حيًّا أي عدمُ قتله،[1]، وهو معنى المُفردة في الآية الكريمة.

3) ﴿قَٰهِرُونَ﴾: القاف والهاء والراء كلمةٌ صحيحةٌ تدلُّ على غَلَبة وعُلوّ. يقال: قَهَرَه يَقهرُه قَهْرًا، والقاهرُ: الغالبُ، وهو من أسماء اللّه تعالى، فالغالب على الحقيقةِ هو اللّهُ وحْدَه سُبحانَه؛ فقد قهر وغلب عبادَه أجمعين، حتى إنَّ أعْتى الخَلْقِ يتضاءَلُ ويتلاشى أمامَ قَهرِ اللّهِ وجَبَروتِه، وأقْهَرَ الرَّجُل: إذا صُيِّر في حالٍ يذلُّ فيها، وقُهِر: إذا غُلِبَ[2]، وأخذَهم قَهْرًا، أي: من غير رضاهم، والقهرُ: الغلبةُ، والإذلالُ معًا والأخذُ من فوق. وأقهره: سلَّط عليه مَن يقهرُه[3]. وأمّا صِفةُ القَهرِ في الخَلقِ، فغالبًا ما تكونُ مَذمومةً؛ لقيامِها على الظُّلمِ والطُّغيانِ، والتسَلُّطِ على الضُّعَفاءِ والفُقَراءِ. ومعنى (القهر) في الآية المباركة فضلًا عمّا تقدَّم من معانٍ: غلبَه وأخذَهُ من فوْقُ، وسلّط عليه قوَّته فلم يكن عنده فُسْحَةُ الاختيار أو هوادتُه، فهو ينصاعُ راغمًا، للدّلالة على ما كان يفعل فرعونُ ببني إسرائيلَ، وأنّه متمكّنٌ منهم، وهم موضعُ قهرِه واحتقارِه فهم أقلُّ من أن يَهتمَّ بهم[4].

المعنى الإجْماليُّ:

دورُ حَاشِيةِ السُّوءِ، وبِطانةِ الفَسادِ، في تأليبِ الحاكمِ على الظّلم

وقال جماعةٌ من أشراف قوم فرعونَ له: أتدَعُ موسى وقَوْمَهُ من بني إسرائيل أحرارًا آمنين؛ ليُفْسِدوا رعيّتَك في أرض مصرَ، بدعوتِهم إلى عبادة ربّهم دونَك، وإدخالِهم في دينهم، أو جعْلِهم

(1) كما ورد في القرآن الكريم في سور: البقرة: 49، والأعراف: 127، 141، وإبراهيم: 6، والقصص: 4، وغافر: 25، ويُنظر: الراغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (حيي).

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قهر).

(3) الفراهيدي، العين، والرّاغب، المفردات: (قهر).

(4) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (قهر).

تحت سلطتِهم ورياستِهم، وتتركُه يرفضُ آلهتَك فلا يعبدُك ولا يعبدُها؟ فأجابهم فرعونُ بقوله: إنّما يتقوّى موسى بقومه، فنحن نسعَى في تقليل عدد قومِه بقتل الرجال، وإبقاءِ النّساء على قيد الحياة؛ لتقلَّ شوكتُه، ثم بيَّن فرعونُ - لحاشيته المُنتفعةِ - أنّه قادرٌ على ذلك بالقُدرة، والتسلّطِ[1]، مُسْتَعْلٍ عليهم بالغلبةِ، والسّلطانِ، قاهرٌ لهم كما كان من قبلُ، فلا يستطيعون إفسادًا في أرضنا، ولا خروجًا من حظيرة تعبيدنا[2].

وترشدُ الآيةُ الكريمة إلى أنَّ بطانةَ السّوء للملوكِ أصلُ الفساد، ومبدأُ الخراب، ببثِّ الفتنة، وتزيينِ أعمالِ ملوكهم، وتغطيتِهم عيوبَهم، وغايتُهم تنفيذُ مآربِهم، وتحقيقُ مصالحِهم، والحرصُ على منافعهم، وفيها تصويرٌ لتمادي الظّلمةِ في غيِّهم، وإصرارِهم على باطلِهم بإظهار شدّةِ بطشِهم، وعظيمِ قهرهم، حين تُصَمُّ الآذانُ عن سماع قولِ الصّدقِ، والإذعانِ الى منطق الحقِّ.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

العُدولُ عنِ الفصْلِ إلى الوصْلِ في السِّياقِ:

الإيذانُ بالخُروجِ مـنَ المُـحـاوَرة، اشتكمالًا لِما وقعَ من مُناوَرةٍ

الواو عاطفةٌ، وجملةُ: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ﴾ عطفٌ على جملة: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ﴾، أو على جملة: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ١٠٩﴾ [الأعراف: 109]، وإنما عُطفت ولم تُفصلْ؛ لأنها خارجةٌ عنِ المحاوَرة التي بين فرعونَ ومن آمن من قومِه بموسى وآياتِه؛ لأنّ أولئك لم يعرّجوا على ذكر ملأ فرعونَ، بل هي محاورة بين ملأ فرعون وبينَه في وقتٍ غيرِ وقت المحاورة التي جرت بين فرعون والسّحرةِ، فإنّهم لمّا رأوا قلّةَ اكتراث المؤمنين بوعيد فرعونَ، ورأوا نهوضَ حُجّتهم على فرعونَ وإفحامِه، وأنه لم

(1) الخازن، لباب التأويل: 2/237 - 2/238، ومحمد رضا، تفسير المنار: 9/69.
(2) رضا، تفسير المنار: 9/70.

يَحِرّ جوابًا، راموا إيقاظَ ذهنِه، وإسعارَ حميّته، فجاؤوا بهذا الكلام المثيرِ لغضب فرعونَ، ولعلّهم رأوا منه تأثّرًا بمعجزة موسى وموعظةِ الذين آمنوا من قومه، وثباتِهم على الحق، وقوّةِ حُجّتهم[1].

نُكتةُ (أل) في تعريفِ ﴿ٱلْمَلَأُ﴾:

مَنعُ الإلباسِ، والتّعريضُ بحالِهم، لِبيانِ خُطورةِ مقالِهم

(أل) في ﴿ٱلْمَلَأُ﴾ عهديَّةٌ، وأكَّد تعريفَهم بالجملة الحالية ﴿مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ﴾؛ لكي لا يلتبسَ بعموم الملأ الحاضرين، أو أنَّ منَ الملأ من صار إلى صفِّ موسى عليه السلام، وفيه تعريضٌ بحالهم: أنّهم تبعٌ للباطل.

بَلاغةُ التَّعْبير بالاستفهام، في ثنايَا الكلامِ:

فَحْوَى كلامِ الملأِ التّحريضُ على إهلاكِ موسَى وقومِه كافّةً

الاستفهامُ في قوله: ﴿أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ﴾ مستعملٌ في الإغراء، والتّحريضِ بإهلاك موسى وقومِه، والإنكارِ على الإبطاء بإتلافِهم، حتى لا يكونَ لهم خروجٌ عن دين فرعونَ، والمقصودُ بقومه مَنِ اتّبعه من بني إسرائيل، فيكونُ الاستفهامُ على هذا استفهامَ إنكارٍ، وتعجّبٍ، أو: هو استخبارٌ، والغرضُ منه أن يعلموا ما في قلبِ فرعونَ من موسى ومنْ آمن به[2]، وفيه أيضًا تعريضٌ بوجوبِ التّعقّبِ، والاستئصالِ[3].

نُكتةُ إسْنادِ فعْلِ التّركِ ﴿أَتَذَرُ﴾ واقعًا على موسَى:

الإشارةُ إلى أنّ موسَى عليه السلام، سببُ هِدايةِ قومِه وتَحرُّرِهم

وقولُه: ﴿مُوسَىٰ﴾ مفعول ﴿أَتَذَرُ﴾، أي: تتركُه للإفساد ولا تأخذُ على يده، وأسندَ فعلَ التّرك إلى موسى عليه السلام، مُظهرًا إيّاه مع أنّه لم يكن يعبدُ فرعون من قبلُ؛ لأنّه هو سببُه، والمقصودُ بذلك مَنْ كفرَ بفرعونَ، وآمن باللّه[4].

وَجْهُ ذكْرِ أشرافِ قومِ فرعونَ اسمَ (موسى) مُجَرّدًا:

تجريدُ التّسْميةِ غرضُه التَّحقيرُ والتَّنقيصُ من شأنِه

أورد أشرافُ قومِ فرعون - في سياق ما ظاهرُه النُّصحُ والمشورةُ له - اسمَ (موسى) عليه السلام مجرّدًا من أيّ لقبٍ بقصْدِ التَّحقيرِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/57.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/366، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/58.
(3) الإندونيسّي، الشامل في بلاغة القرآن: 1/419.
(4) قباوة، المفصّل، ص: 590.

والاستهزاءِ والتّنقيصِ من شأنِه ومنزلتِه، وإظهارِ الاستغناءِ عنه، وعدمِ الاعتبار له. فلم يسمّوه برسول اللّه، أو نبيِّ اللّه، أو حتى ساحرٍ أو كاذبٍ، بل ذكروه باسمه المجرّد فقط، دون أيِّ صفة تدلُّ على شرفِه أو عيبِه، وكان هذا من طريقة فرعونَ وأتباعِه في التّعاملِ مع موسى عليه السلام، فكثيرًا ما نادَوْه باسمِه فحسبُ، كما في قولِه تعالى: ﴿فَقَالَ لَهُۥ فِرۡعَوۡنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسۡحُورٗا ١٠١﴾ [الإسراء: 101]، وقوله: ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ٤٩﴾ [طه: 49]، وقوله: ﴿قَالَ أَجِئۡتَنَا لِتُخۡرِجَنَا مِنۡ أَرۡضِنَا بِسِحۡرِكَ يَٰمُوسَىٰ ٥٧﴾ [طه: 57]، ﴿لَّعَلِّيٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ٣٨﴾ [القصص: 38]، ونحوِها.

نُكتةُ التَّعْبير باللّامِ على طريقِ المَجازِ:

بالغُوا في الافْتراءِ، بجَعْلِ تركِ موسَى وقومِه لِعلّةِ الفسَادِ

قومُ موسى هم من آمن به، وأولئك هم بنو إسرائيل كلّهم ومن آمن منَ القِبط. واللام في قوله: ﴿لِيُفۡسِدُواْ﴾ لامُ التّعليل، وهو مبالغةٌ في الإنكار، إذ جعلوا تركَ موسى وقومِه مُعلّلا بالفساد، وهذه اللّام تسمّى لامَ العاقبة، وليست العاقبةُ معنىً من معاني اللام حقيقةً ولكنّها مجاز؛ شبّه الحاصلَ عقِبَ الفعل لا محالةَ بالغرض الذي يُفعلُ الفعلُ لتحصيله، واستُعيرَ لذلك المعنى حرفُ اللام عوضًا عن فاء التّعقيب كما في قوله تعالى: ﴿فَٱلۡتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرۡعَوۡنَ لِيَكُونَ لَهُمۡ عَدُوّٗا وَحَزَنًاۗ﴾ [القصص: 8]، والإفسادُ عندهم هو إبطالُ أصولِ ديانتِهم وما ينشأُ عن ذلك من تفريق الجماعةِ، وحثِّ بني إسرائيلَ على الحرية، ومغادرةِ أرض الاستعبادِ[1].

سِرُّ حذْفِ مفعولِ الإفسادِ، في قوله تعالى: ﴿لِيُفۡسِدُواْ﴾:

قد لا يُذكرُ المفعولُ به؛ للتّعميمِ أو إنزالِه مَنزلةَ اللّازمِ

والمرادُ بالإفساد ما يشملُ الدّينيَّ والدُّنيويَّ، ومفعولُ الفعل محذوفٌ للتّعميم، أو أنّه منزّلٌ منزلةَ اللّازم، أو يقدّرُ (يفسدوا): بدعائِهم النّاسَ إلى مخالفة فرعونَ وتركِ عبادتِه، أو الخوفِ من

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/58.

أن يقتلوا أبناءَ القِبط ويستحْيوا نساءَهم على سبيل المُقاصّةِ منهم، كما فعلوا هم ببني إسرائيلَ[1].

دَلالةُ (أل) التّعريفِ، في لفْظِ ﴿ٱلْأَرْضِ﴾:

(أل) في قوله: ﴿ٱلْأَرْضِ﴾ عهديّةٌ حضوريّةٌ، وهي مِصْرُ مملكةُ فرعون، وموطنُ سُكنى بني اسرائيل، ومحلُّ إقامتِهم[2]، فهي من إطلاق العامِّ المرادِ به الخصوصُ.

الأرضُ المعهودةُ، من إطلاقِ العامِّ المرادِ به الخُصوصُ

تَوجِيهُ دَلالاتِ الفعْلِ ﴿وَيَذَرَكَ﴾:

قوله: ﴿وَيَذَرَكَ﴾ عطفٌ على ﴿لِيُفْسِدُواْ﴾ فهو داخلٌ في التّعليل المجازيِّ؛ لأنّ هذا حاصلٌ في بقائِهم دون شكٍّ، ومعنى تركِهم فرعونَ، تركُهم تأليهَه وتعظيمَه، ومعنى تركِ آلهتِه نبذُهم عبادتَها ونهيُهمُ النّاسَ عن عبادتِها[3]، وهو إغراءٌ منَ الملأ لفرعونَ على موسى، وإنكارٌ أن يتركه مُقيمًا على مخالفتِه، والواوُ في قوله: ﴿وَيَذَرَكَ﴾: نائبةٌ عنِ الفاء، ونُصِبَ على جواب الاستفهامِ بالواو، والنَّصبُ بإضمار (أن) تقديره: أيكون منك تركُ موسى، ويكونُ تركُه إياك وآلهتَك[4]، أو عطفٌ على ﴿لِيُفْسِدُواْ﴾؛ لأنه إذا تركهم ولم يمنعْهم، وكان ذلك مؤدّيًا إلى ما دعوْه فسادًا وإلى تركِه وتركِ آلهته، فكأنّه تركَهم لذلك. وفيه إشارةٌ منَ الملأ إلى تخويف فرعونَ منِ انفضاضِ النّاس من حولِه، وسلْبِ مُلكِه.

أغرَى الملأُ فرعونَ، وأنكرُوا تركَ موسى على تمرُّدِه

بَلاغةُ ائْتلافِ اللّفظِ مع المعنى في التَّعْبير بالفعْلِ (يذرُ):

بَلاغةُ ائْتلافِ اللّفظِ مع المعنى[5]، منَ الصّور البلاغيّةِ المندرجة

الفعْلُ (يذر) منَ الأفعالِ القُرآنيّةِ المُفْصِحةِ عن دَلالتِها بدِقّةٍ

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/366، والآلوسي، روح المعاني: 9/28 - 29.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/58.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/58.

(4) الواحدي، التفسير الوسيط: 2/396.

(5) ائتلاف اللفظ مع المعنى، أو موافقة اللفظ للمعنى، ويسمّى النّظمَ: وهو أن تكون الألفاظ موافقةً للمعاني، ولائقةً لمقصود الكلام، فتختارُ الألفاظُ الجَزلة والعباراتُ الشديدة للفخر والحماسة، وتُختار الكلماتُ الرقيقة والعبارات اللّينة للغزل ونحوه. يُنظر: أحمد الهاشمي، جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع، ص: 319.

تحت المحسّنات المعنويّةِ، فقال هنا (يذرُ) ولم يقل (يدعُ)؛ لأنّ الأوّل يُستعملُ في مقام التّهديد والوعيد، لما فيه من معنى الدّفع والقذفِ، أمّا الثّاني فيُستعملُ في مقام الكُره والبغضِ، لما فيه من معنى التّوديع.

وَجْهُ القِراءاتِ القُرآنيّةِ في ﴿وَيَذَرَكَ﴾:

تَلوُّنُ الدَّلالةِ في هذه الجُملةِ، بتَلَوُّنِ التّأويلِ المُستفادِ

قُرئ: (ويذرُك) بالرفع عطفًا على ﴿أَتَذَرُ مُوسَىٰ﴾، بمعنى: أتذرُه، وأيذرُك، يعنى: تُطلقُ له ذلك، أو يكونُ استئنافًا، والجملةُ على تقدير الاستئناف معترضةٌ مؤكّدةٌ لمعنى ما سبق، أي: تذرُه وعادتُه تركُك، ولابدّ من تقدير (هو)، كما في احتمال الحال ليدلَّ على الدّوام، أو حالًا على معنى: أتذرُه وهو يذرُك وآلهتَك. وقُرئ: (ويذرْك) بالجزم، كأنه قيل: (يفسدوا، ويذرْك)، كقوله تعالى: ﴿فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن﴾. وقُرئ: (ونذرَك)، بالنون والنّصب، أي: يصرفُنا عن عبادتك فنذرُها[1].

دَلالةُ تَقديمِ فعْلِ ﴿لِيُفْسِدُواْ﴾ على ﴿وَيَذَرَكَ﴾:

تَغليبُ العِلَّةِ العامّةِ على الخاصَّةِ، من بيانِ هذه الآيةِ

المرادُ البدءُ بالعلّة العامّة وهي الإفسادُ، ثم أتبعوها بالخاصّة ليدلّوا على أنَّ ذلك التّركَ من فرعونَ لموسى وقومِه هو أيضًا يؤولُ إلى شيءٍ يختصُّ بفرعون، قدحوا بذلك غيظًا من موسى وقومِه، ليكونَ ذلك أبقَى عليهم؛ إذ هم الأشرافُ وبتركِ موسى وقومِه بمصر يذهبُ ملكُهم وشرفُهم[2].

نُكتةُ جمْعِ ﴿وَءَالِهَتَكَ﴾:

تَعدُّدُ الآلهةِ مَلحوظٌ، في مختلفِ العُصورِ والأقطَارِ

و(الآلهة) جمع إله، ووزنُه على (أفْعِلَة)، وكان القِبْطُ مشركين يعبدون آلهةً متنوّعةً منَ الكواكب والعناصرِ، وصوَّروا لها صورًا

(1) وهذه القراءات الثّلاث المذكورة من القراءات الشاذَّة، ولم يُقرأ في المتواتر إلاّ بالياء والنَّصب. يُنظر: ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/441، والزّمخشريّ، الكشّاف: 2/142 - 143، والآلوسي، روح المعاني: 9/29.

(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/367.

عديدةً مختلفةً باختلاف العصورِ والأقطار[1]. فقولُه: ﴿وَءَالِهَتَكَۚ﴾ معبوداتُك، والظّاهرُ أنّ فرعونَ كان له آلهةٌ يعبدُها، أو أنَّ الإضافةَ هي على معنى أنّه شرع لهم عبادةَ آلهةٍ، وجعل نفسَه الإلهَ الأعلى، فقوله على هذا: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ ٢٤﴾ [النّازعات: 24]، إنّما هو بمناسبةٍ بينَه وبين سواه منَ المعبودات[2].

دَلالةُ تَوجِيهِ القراءةِ، في قولِه تعالى: ﴿وَءَالِهَتَكَۚ﴾:

تناوُبُ المعنى بين عبادةِ النّاسِ فرعونَ، أو ما يَعبدُه فرعونُ

وقُرِئَ في الشاذِّ: (إلاهَتَكَ) أي عبادتَك، والتّذلّلَ لك[3]. وفُسِّرَ ذلك بأمرين، أحدُهما: أنَّ المعنى وعبادتَك، فيكونُ إذ ذاك مصدرًا، قال ابنُ عبّاس: "كان فرعون يُعبَدُ ولا يَعبُد"، والآخرُ: أنَّ المعنى: ومعبودَك، وهي الشَّمسُ التي كان يعبدُها، والشّمس تمسي إلاهَةً علمًا عليها ممنوعةَ الصرف[4].

سِرُّ تناوبِ استعمالِ الفعلَيْن، على طريقةِ المُشاكلةِ، والجناسِ التّامِّ:

من بديعِ نظْمِ القرآن وتناسُقِ ألفاظِه، ما يُؤكِّدُ إعجازَه

في قولِه تعالى ﴿أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوۡمَهُۥ لِيُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَۚ﴾ فنُّ المشاكلة[5]؛ إذ إنَّ استعمالَ الفعل (تذرُ) بالنّسبة لفرعون فإنّه يعني التّواني عن عقاب موسى، وأمّا استعمال الفعل (يذرَ) بالنّسبة لموسى فإنه يعني التَّخلّي عن فرعون، وآلهته ليعبُد اللّه إلهًا واحدًا[6]، وهو جناس تامّ مماثل، تطابقَ فيه اللّفظان، واختلف المعنَيان.

فائِدةُ السّين، وتشْديدِ فعْلِ القتلِ ﴿سَنُقَتِّلُ﴾:

السّين في ﴿سَنُقَتِّلُ﴾ حرفُ تسويفٍ يفيدُ توكيدَ وقوعِ الفعل، وقُرِئَ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/58.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/367.
(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/441.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/367.
(5) المشاكلة: هي أن تذكرَ الشيّءَ بلفظ غيره لوقوعه في صحبته. يُنظر: مطلوب، معجم المصطلحات البلاغيّة، ص: 621.
(6) الإندونيسّي، الشّامل في بلاغة القرآن: 1/419.

تَوكيدُ الفعْلِ، مع النُّزوعِ إلى المُبالغةِ وشِدَّةِ الإجراءِ

المضارعُ (سَنَقْتُلُ) بالتّخفيف، وهي قراءةُ المدنيين، وابنِ كثير بفتح النون، وإسكانِ القاف وضمّ التّاء من غير تشديد، وقرأ الباقون ﴿سَنُقَتِّلُ﴾ بضمّ النّون وفتح القاف وكسر التاء وتشديدِها[1] على المبالغةِ في القتل مبالغةَ كَثْرةٍ، واستيعابٍ، وتدريجٍ متجدّدٍ. والمعنى: سنستمرُّ على ما كنّا عليه من تعذيبِهم وتقطيعِهم، وتقتيلِهم ما تناسلوا[2]، ونتعقّبُهم أين ما حلّوا كما كنّا نفعلُ من قبل؛ ليُعلمَ أنّا على ما كنّا عليه منَ القهرِ والغلبةِ، ولا يُتوهّم أنّه المولودُ الذي حكمَ المنجّمون، والكهنةُ بذهاب مُلكنا على يده[3]، وليُقتلَ رهطُه الذين يقع الإفسادُ بواسِطتهم. وإنّما لم يعاجلَ موسى وقومَه بالقتال؛ لأنّه كان مُلِيءَ من موسى رُعبًا[4].

وهذه الآية الكريمة تدلُّ على أنَّ فرعونَ ذبح أولادَ بني إسرائيل تذبيحتين:

التَّذبيحةُ الأولى: التي كانت سببًا لجعْلِ أمِّ موسى موسَى في التّابوت، كما هو مفصّلٌ في سور من كتاب اللّه، حيث قال لها: ﴿فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي ٱلْيَمِّ﴾ [القصص: 7]، وخوفُها عليه، أي: من قتل فرعونَ للأولاد؛ حذرًا منه من ذلك الغلام الذي سيزول ملكُه على يديه.

وتذبيحُ الأولاد الثّاني: هو بعد أن جاءهم موسى نبيًّا من اللّه، كما صرَّح اللّه به هنا، وأوضحه في سورة غافر في قوله: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُواْ ٱقْتُلُوٓاْ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ وَٱسْتَحْيُواْ نِسَآءَهُمْۚ وَمَا كَيْدُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ ۝٢٥﴾ [غافر: 25][5].

(1) ابن الجزريّ، النّشر: 2/271.
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/441.
(3) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/29.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/367.
(5) الشّنقيطيّ، العذب النّمير: 4/99.

إيثارُ لفْظِ ﴿أَبْنَآءَهُمْ﴾ على لفْظِ (رِجَالَهُمْ):

لفْظُ (الأَبْنَاءِ) يَشملُ من كان مولودًا منَ الذّكورِ، ومن سيُولدُ منهم

المرادُ بالأبناء الرّجالُ بقرينة مقابلتِه بالنّساء، والضّميرُ المضافُ إليه عائدٌ على موسى وقومِه، فالإضافةُ على معنى (من) التّبعيضيّة[1]، والتّعبير بـ"الأبناء" فيه عمومٌ في اللفظ؛ ليشملَ من كان مولودًا منَ الذّكور، ومن سيولدُ منهم، وهو يقصدُ الإفناءَ والإبادةَ والتّطهيرَ العِرقي للنَّسْلِ الإسرائيليّ.

قال الرّازيُّ: "اتَّفَقَ المفسِّرون على أنَّ هذا التّهديدَ وقعَ في غيرِ الزَّمانِ الأوَّلِ"[2]. ويعني بالزَّمانِ الأوَّلِ: زمنَ وِلادةِ موسى عليه السلام، وإنّما عدلَ عن قتل موسى إلى قتل الأبناء؛ لعلْمِه أنّه لا يقدرُ عليه[3].

التَّعبيرُ عن فعْلِ ﴿وَنَسْتَحْيِۦ﴾، على طريقِ المبالغةِ والتّتْميمِ:

بَالغُوا في اسْتبقاءِ النّساءِ؛ للخدمةِ، وللتّسرّي بهنّ

والاستحياءُ مبالغةٌ في الإحياء، فالسّين والتّاء فيه للمبالغةِ، وإخبارُه مَلَأَهُ باستحياء النّساء تتميمٌ لا أثرَ له في إجابة مقترح مَلَئِه؛ لأنّهم اقترحوا عليه أن لا يُبقيَ موسى عليه السلام وقومَه، فأجابَهم بما عزمَ عليه في هذا الشأن، والغرضُ منِ استبقاء النّساء أن يتخذوهنّ سراريَ وخدمًا[4].

بَلاغةُ أُسلوب الطِّباقِ، والأُسلوبِ الحكيمِ:

الدَّلالةُ على ذِلّةِ بني إسرائيلَ، وعدَمِ يقينِهم بأنّ موسَى موعودٌ به

في قولِه تعالى: ﴿سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ﴾ وقولِه: ﴿وَنَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ﴾ طباقُ إيجابٍ بين (نقتّل)، و(نستحيي)، يُفصحُ عن دلالة الرّبطِ المؤدّي إلى مزيدِ إيضاحِ المعنى، وبيانِه. وقوله: ﴿سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ﴾ منَ الأسلوب الحكيم، وإن صدر منَ الأحمق؛ لأنّ الجوابَ المطابقَ للملأ عن قولهم: ﴿أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ﴾: إنّا سنقتلُه وقومَه، ونسبي ذراريَهم. ولو أتى بهذا الجواب لظهرَ عجزُه لبني

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/59.
(2) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/342.
(3) ابن الجوزيّ، زاد المسير: 2/146.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/59.

إسرائيل؛ لأنّه إذا ترك قتلَ الأبناء، وشرعَ في قتلِ الرّجال، لتوُهِّمَ أنّ ذلك للخوف منهم، وأنّ موسى عليه السلام هو الموعودُ، فلمّا صرح بالعَوْدِ إلى ما كانوا عليه منَ القهر: بإبقاءِ الرّجال، وقتلِ الأولاد، واستحياءِ النساء، دلَّ على ذلّةِ بني إسرائيل، وأنّ موسى عليه السلام غيرُ الموعودِ به. يعني: لا تلتفتوا إليه أيّها القِبطُ، وداوموا على ما كنتم عليه من قتل الأولاد، واستحياءِ النّساء، ولا تعتمدوا عليه، يا بَني إسرائيلَ، ولا تعتضدوا به، فأنتم بعدُ أذلّاءُ مقهورون[1].

مجيءُ الأفعالِ على صِيغةِ المضارع:

أدامَ عليهمُ العذابَ، بتَجدُّدِ فعْلِهم، واستمرارِ غَيِّهم

وعبّر عن أفعال العقوبةِ بالمضارع على إرادة تجديدِ الفعل، وإدامتِه، ومن ثمَّ ديمومةُ العقاب، وقدّمَ فعلَ التّقتيلِ على الاستحياءِ لأولويّتِه، وأهمّيتِه عنده بوصفِ الرّجال مصدرَ الخطورة، ومنبعَ التّهديد.

تَوجِيهُ التّذييلِ في مُختتَمِ الآيةِ:

أوهمَ فرعونُ قومَه، أنّه لم يُعاقبْ موسَى لعدَمِ خوْفِه منه

الجملةُ الاسميّةُ ﴿وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ﴾ كالتّذييل، لما قبْلَها[2]، ويُراد بها المنزلةُ والتَّمكّنُ منَ الدُّنيا، و﴿قَٰهِرُونَ﴾ يقتضي تحقيرَ أمرهم، أي: هم أقلُّ من أن أهتمَّ بهم[3]، كأنّه يوهمُ قومَه أنّه إنّما لم يحبس موسى عليه السلام ولم يمنعْه لعدمِ التفاتِه إليه، ولعدمِ خوفِه منه[4]، فغلبتُه لا أثرَ لها في مُلكنا واستيلائِنا، ولئلّا يتوهّمَ العامّةُ أنّه المولودُ الذي تحدَّث المنجّمون عنه بذهابِ مُلكنا على يده، فيُثبّطَهم ذلك عن طاعتنا ويَدعوهم إلى اتّباعِه[5].

سِرُّ التّوكيدِ في الفاصلةِ، في هذه الآيةِ:

أكّد الجملةَ بـ(إنّ) وأضافَه إلى ضميره (نا) على طريق العظمةِ،

(1) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 6/521.
(2) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 6/521.
(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/441.
(4) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/173.
(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/367.

مُلمحًا باستطاعتِه، وتمكّنِه، وأتى بفعل القهْرِ على صيغة اسم الفاعل للتّعبير عن تحقُّقِ الحدثِ، وتمثّلِه فيه وصْفًا لازمًا، ورسّخ هذا الثّبوتَ واللّزومَ صيغةُ الجملةِ الاسميّةِ؛ ليكونَ ذلك اعتذارًا منه لملَئِه عن إبطائِه باستئصال موسى وقومِه؛ بثًّا للطّمأنينة في قلوبِهم، وشفاءً لِما في صدورِهم من أحقادٍ، وضغائنَ على موسى ومن معه.

اجْتِماعُ المؤكِّداتِ، اعتذارٌ من فرعونَ عن إبطائِه باستئصالِ موسَى

بَلاغةُ الاسْتِعارةِ في الفاصلةِ:

قولُه تعالى: ﴿فَوْقَهُمْ﴾ مستعملٌ مجازًا في التّمكّنِ منَ الشّيء، فهي فوقيّةٌ مجازيةٌ وليست حقيقيةً، فهي مستعارةٌ لاستطاعةِ قهْرِهم؛ لأنَّ الاعتلاءَ على الشّيء أقوى أحوالِ التّمكّن من قهْرِه، فهي استعارةٌ تمثيليةٌ[1]، أوِ استعارةٌ تبعيّةٌ؛ إذ شبّهَ فوقيّةَ المكانةِ بفوقيّةِ المكان بجامعِ العُلوّ[2].

التَّعْبيرُ بالفَوقيّةِ عنِ الاستطاعةِ، وقُوّةِ التّسلُّطِ، والقَهْرِ

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(يذَرُ)، و(يدَعُ)، و(يترُكُ):

التّوديعُ: تركُ النّفس عنِ المجاهدة، وفلانٌ في دَعةٍ: إذا كان في خفضِ عيْشٍ، وأصلُه منَ التّرك، ومنَ الدَّعة، بحيث تركَ السّعيَ لطلب معاشِه لعناءٍ، وعُبِّر عنِ التّرك به في قوله: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ﴾ [الضّحى: 3]، كقولك: ودّعت فلانًا، نحو: خلّيتُه. وتركُ الشّيءِ: رفضُه قصدًا واختيارًا، أو قهرًا واضطرارًا[3]، ويذرُ فلانٌ الشّيءَ، أي: يَقذفُه لقلّة اعتدادِه به، وهو التَّرْكُ؛ إذ هو مفارقةٌ للشّيء، وانفصالٌ، أو تخلٍّ عنه[4]، وهو أنسبُ لكمال مفارقةِ موسى عليه السلام لفرعونَ.

يُذَرُ بمعنى يُفارقُ أو ينفصلُ أو يتخلَّى، وهو هنا آثَرُ منَ اللّفظَيْنِ الآخَرَيْنِ

يُزاد على ذلك: أنَّ (يذرُ) يُستعملُ في مقام التّهديد والوعيدِ،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/59، والمطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 1/403.
(2) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 1/403.
(3) الراغب، المفردات: (ودع)، و(ترك).
(4) الراغب، المفردات، وجبل المعجم الاشتقاقي المؤصل: (وذر).

لما فيه من معنى الدّفع والقذفِ، أمّا (يدعُ) فيُستعملُ في مقام الكُره والبُغض، لما فيه من معنى التّوديع. فتأمّل معنى الأوّل في قولِه تعالى: ﴿فَذَرۡهُمۡ حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوۡمَهُمُ ٱلَّذِي فِيهِ يُصۡعَقُونَ ٤٥﴾ [الطور: 45] وتأمّلْ معنى الثاني في قولِه تعالى: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ٣﴾ [الضحى: 3] والتّشديد فيه للمبالغة؛ لأنّ من ودّعك مفارقًا، فقد بالغ في تركك[1].

(1) أحمد الأمير جاهين، من صور البلاغة القرآنية في سورة الأعراف، بحث منشور - كلية الدراسات الإسلامية بأسوان، العدد الثاني، 2019م، ص: 163.

﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِ ٱسۡتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصۡبِرُوٓاْۖ إِنَّ ٱلۡأَرۡضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۖ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ ١٢٨﴾ [الأعراف: 128]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لما سمع قومُ موسى قولَ فرعونَ وتضجَّروا منه، قال موسى لقومه: استعينوا بالله واصبروا؛ تسكينًا لهم، وتسليةً[1]. فأوصاهم بالتَّوكّلِ والصّبرِ على البلاءِ والأذَى، لنَيْلِ عاقبةِ التّقوَى.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱسۡتَعِينُواْ﴾: العونُ: الظّهيرُ على الأمر[2]. والاستعانةُ: طلبُ العون[3]. وقد جاء من هذه الصيغة الأخيرةِ صيغةُ الطّلب، وصيغةُ المطلوب منه العَوْنُ. (المستعان): الظهيرُ؛ فهو يُقَوّي أي يُمدُّ بالقوَّة. ومنه الإعانةُ. وبهذا المعنى سائرُ ما جاء في القرآن منَ التّركيب[4].

المعنى الإجْماليُّ:

لمّا نزل ببني إسرائيل ما نزل شَكَوا إلى موسى عليه السلام ما حلَّ بهم فأوصاهُم بالاستعانة بالله على فرعونَ وقومِه فيما نزل بهم منَ البلاء؛ فإنَّ الله هو الكافي لكم، واصبروا على ما نالَكم منَ المكاره في أنفسِكم وأبنائِكم إنَّ الأرضَ كلَّها لله تعالى يورِثُها مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ. وهذا إطماعٌ من موسى عليه السلام لبني إسرائيلَ أن يُهلك اللهُ فرعونَ وقومَه ويُملّكَ بني إسرائيلَ أرضَهم وبلادَهم بعد إهلاكِهم؛ فإنَّ النّصرَ والظَّفَرَ للمتّقين على عدوّهم، أو أراد الجنّةَ يعني إنّ عاقبةَ المتّقين الصابرين الجنّةُ[5]. ومرادُه عليه السلام أنَّ العاقبة ستكونُ

التّوكّلُ والاستعانةُ بالله والصّبرُ، تَنالُ به الأمّةُ الميراثَ والتّمكينَ في الأرضِ

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 3/29.
(2) ابن سيده، المحكم: (عون).
(3) الراغب، المفردات: (عون).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (عون).
(5) الخازن، لباب التّأويل: 2/238.

لكم بوراثةِ الأرض، ولكنْ بشرطِ أن تكونوا منَ المتّقين له تعالى بإقامةِ شرعِه، والسّيرِ على سُنّته في نظام خلقِه، وليس الأمرُ كما تتوهّمون ويتوهَّم فرعونُ وقومُه من بقاء القويِّ على قوّتِه، والضّعيفِ على ضعفه، أو أنَّ الآلهةَ الباطلةَ ضَمِنت لفرعونَ بقاءَ مُلكه، على عظمتِه وجبروتِه وظلمِه[1].

وتُرشدُ الآيةُ الكريمة: إلى أنَّ اللّه تعالى هو المرجعُ عند التَّحيُّر في الأمور؛ فلْيكن رجوعُكم إليه، وتوكّلُكم عليه، وتعرّضوا لنفحات يُسره؛ فإنّه حَكَم لأهل الصّبر بجميل العُقبى[2]. فبالاستعانة به، والصّبرِ تواجَهُ المصائبُ، وتُتجاوزُ النّوائبُ، وتنقضي الابتلاءاتُ.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بَلاغةُ العُدول عنِ الوصْلِ إلى الفصْلِ:

إفادةُ شِبْه كَمالِ الاتّصال؛ بسببِ كَوْنِها واقعةً جوابًا لقَوْلِ قَومِه

أُخْليتْ جملةُ ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ﴾ عنِ الواو وأُدخلت على التي قبلَها؛ لأنّها جملةٌ مُبتدأةٌ استئنافيةٌ بيانيّةٌ، وأمّا ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ﴾ فمعطوفةٌ على ما سبقَها من قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ﴾[3]. وهي صورة من صور الفصل لشِبْه كمالِ الاتّصال؛ لكونها واقعةً جوابًا لقول قومِه: ﴿إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾ الذي أجابوا به عن وعيد فرعونَ، فكان موسى معدودًا في المُحاوَرة، ولذلك نُزِّل كلامُه الذي خاطب به قومَه منزلةَ جوابٍ منه لفرعونَ؛ لأنّه في قوّة التّصريح بقلّة الاكتراث بالوعيد، وبدفْعِ ذلك بالتوكل على اللّه.[4].

دَلالةُ مَعاني حروفِ الجرِّ، في السِّياقِ:

اللّامُ للتّبليغِ، والباءُ للاستعانةِ، وكِلاهما مُهمٌّ في الإفادةِ مع غيرِه

واللّام في ﴿لِقَوْمِهِ﴾ حرفُ جرٍّ للتّبليغ، والباء في ﴿ٱسْتَعِينُواْ بِٱللَّهِ﴾ حرف جرٍّ للاستعانة، أي: طلبُ العَونِ منَ اللّه.

(1) رضا، تفسير المنار: 9/71.
(2) القشيري، لطائف الإشارات: 1/559.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/143.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/59.

عِلّةُ عدَمِ نداءِ موسَى قَومَه، بقولِه: (يا قومِ) مُباشرةً:

إرادتُه أن يجعلَ كلامَه عامًّا لكلِّ مَن يَسمعُه

يُلحظُ في السّياق الكريم أنَّ قولَ موسى لقومه - موصيًا لهم بالاستعانة الرّبانيةِ -: ﴿ٱسۡتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصۡبِرُوٓاْۖ﴾ مباشرةً، دون أن يناديَهم بقوله: (يا قوم)، كما ورد ذلك عنه عليه السلام في عدد منَ المواقف، مثل: ﴿وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ إِنَّكُمۡ ظَلَمۡتُمۡ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلۡعِجۡلَ﴾ [البقرة: 54]، وقولِه: ﴿وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ جَعَلَ فِيكُمۡ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكٗا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمۡ يُؤۡتِ أَحَدٗا مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢٠﴾ [المائدة: 20]، وغيرِهما؛ إذ يمكنُ أن يكون السّببُ في هذا التّوجيه المباشرِ الخالي منَ النِّداء هو أنه أراد أن يجعلَ كلامَه عامًّا لكلّ من يسمعُه من المؤمنين من قومِه والكافرين من غيرِهم، وأن يبيِّنَ أنَّ هذه النّصيحةَ ليست خاصةً بقومه فحسبُ، بل هي عامةٌ لكلِّ من يريدُ الخيرَ والفلاحَ. وقد كان من دأبِ النّبيّ الكريم موسى عليه السلام أن يدعوَ قومَ فرعونَ إلى الإيمان باللّه والتّوبةِ إليه، فربّما كان يرجو أن يهدي اللّهُ بعضَهم بكلامه المباشرِ دون تخصيصِه بقومه، على حدِّ قولِ القائلِ - سَهْلِ بنِ مالكٍ الفَزاري - في المثل المشهورِ: "إيّاكِ أعني واسْمعي يا جارَة".

سِرُّ حذْفِ مفعولِ ﴿وَٱصۡبِرُوٓاْۖ﴾:

إعمامُ جميعِ المَشمولاتِ المُمكنةِ، المُدرجةِ في معنَى الصّبرِ

جملة ﴿وَٱصۡبِرُوٓاْۖ﴾ عطفٌ على قول موسى: ﴿ٱسۡتَعِينُواْ بِٱللَّهِ﴾، وحُذفَ متعلّقُه؛ ليعمَّ جميعَ مشمولاته، كانتظار فرَجِ اللّه ونصْرِه، الذي هو عبادةٌ، والصَّبرِ في المُناجزات[1].

نُكتةُ تقْديمِ ﴿ٱسۡتَعِينُواْ﴾ على ﴿وَٱصۡبِرُوٓاْۖ﴾:

تَربيّةُ النّفوسِ لِتحمُّلِ أنواعِ البلاءِ، منهجُ الأنبياءِ من غابرِ الزّمانِ

قدَّمَ فعلَ الاستعانة باللّه، وأمرَهم بها أوّلًا؛ لأنَّ من عرفَ أنه لا مدبِّرَ في العالم إلا اللّه تعالى انشرح صدرهُ بنور معرفةِ اللّه تعالى، وحينئذٍ يسهلُ عليه أنواعُ البلاء؛ ولأنّه يرى عند نزول البلاء أنّه إنّما

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/442.

حصل بقضاء اللّه تعالى، وتقديرِه، واستعدادُه عند نزول قضاءِ اللّه يخفّفُ عليه أنواعَ البلاء[1].

بَلاغةُ التّعْبيرِ عن معنَى التّوكّلِ بالأُسلوبِ الحكيمِ:

خِطابُ موسَى تَطْمينٌ لقُلوبِهم، وتبشيرٌ لهم بِنصْرِ الله إيّاهم

قوله: ﴿ٱسْتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓاْ﴾ منَ الأسلوب الحكيم، أي: ليس كما قال فرعونُ ﴿وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ﴾؛ فإنَّ القهرَ والغلبةَ لمن صبرَ، واستعان باللّه، ولمن وعدَه اللّه توريثَ الأرض[2]. وقد عبّر عنه بالتّوكّل في قوله: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ﴾ [يونس: 84]؛ لأنَّ حقيقةَ التّوكّل طلبُ نصر اللّه وتأييدِه في الأمر الذي يُرغبُ حصولُه، وذلك داخلٌ في الاستعانة وهو يستلزمُ الصّبرَ على الضُّرّ لاعتقادِ أنّه زائلٌ بإذن اللّه، وخاطبَ موسى عليه السلام قومَه بذلك تطمينًا لقلوبهم وإيناسًا، وتبشيرًا لهم بنصر اللّه إيّاهم[3].

بَلاغةُ التّعْبيرِ بالكِنايةِ:

تَرقُّبُ زوالِ اسْتِعبادِ فرعونَ لهم؛ بِشارةٌ وتَسْليةٌ

في قوله: ﴿إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾كنايةٌ تلويحيّةٌ[4] عن ترقّبِ زوالِ استعبادِ فرعونَ إيّاهم، قُصِدَ منها تسليتُهم، وصرفُ اليأس النّاشئ عن مشاهدة قوّةِ فرعونَ وسلطانِه، بأنَّ اللّه الذي خوّله ذلك السّلطانَ قادرٌ على نزعِه منه؛ لأنّ مُلك الأرض كلِّها للّه، فهو الذي يقدّرُ لمن يشاء مُلكَ شيءٍ منها وهو الذي يقدّرُ نزعَه. فالمرادُ منَ الأرض هنا الدّنيا؛ لأنه أليقُ بالتّذييل وأقوى في التّعليل، فهذا إيماءٌ إلى أنّهم خارجون من مصرَ وسيملكون أرضًا أخرى[5]. وقرأ الحسنُ ورويت عن حفصٍ – وهي قراءةٌ شاذّةٌ

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/173.
(2) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 6/521.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/59 - 60.
(4) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 6/524.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/60.

- (يوَرِّثُها) بتشديد الرّاء على المبالغة. وقُرئ (يوْرَثُها) بفتح الراء مبنياً للمفعول، والقائمُ مقامَ الفاعل هو (مَنْ يشاء)[1].

دَلالةُ (أل) التّعريفِ في لفْظِ ﴿ٱلْأَرْضَ﴾:

يجوز أن تكون (أل) للعهد ويرادُ بها أرضُ مصرَ خاصّة، كقوله: ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْأَرْضَ﴾، أو أن تكونَ للجنس بمعنى أرض الدنيا، فيتناولَ أرضَ مصر لأنّها من جنس الأرض[2]، وهو الأظهرُ بحسبِ ما مرّ في الفقرة البلاغيّة السّابقةِ، وقد يرادُ بها أرضُ الجنة[3].

الأرضُ يُرادُ بها أرضُ مصرَ، أو يرادُ بها أرضُ الدّنيا، وبها يتحدّدُ معنَى (أل)

معنَى اللّامِ في شِبْهِ الجُملة ﴿لِلَّهِ﴾:

اللّام في ﴿لِلَّهِ﴾ للمُلك؛ فالأرض ومن فيها، وما فيها مُلكٌ للّه فهو تعالى مالكُ المُلك، يتصرّف بها كيفما شاء، ويهبُ مُلكَها لمن يشاء، وينزعُه ممّن يشاء، وهو العزيز الحكيم: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾﴾ [آل عمران: 26].

اللّه تعالى مالكُ الدّنيا بمَشمُولاتِها، ولا شَيءَ يَندُّ عن سُلطانِه

عِلّةُ الفصْلِ في جُملةِ ﴿إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ﴾:

وجملةُ: ﴿إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ﴾ تذييلٌ وتعليلٌ للأمر بالاستعانة باللّه والصّبرِ، أي: افعلوا ذلك؛ لأنَّ حكمَ الظلم لا يدومُ، ولأجل هذا المعنى فُصلتِ الجملةُ[4].

التّذييلُ والتّعليلُ للأمْرِ بالاستعانةِ باللّه

بيانُ التَّعْبيرِ بالتّعريضِ:

التّعريضُ في جملة: ﴿إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ﴾؛ لترغيب العبادِ بهذه الصّفات، فبدلَ أن يقول: كونوا عبادًا مؤمنين، ومتّقين. قال: ﴿إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ﴾، فهو تعريضٌ للحرص على الإيمان والتَّقْوى والتّحلّي بهما[5].

التّرغيبُ بالصِّفاتِ المُدرَجةِ في الآيةِ، والحِرْصُ على التّحلّي بها

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/442، والسّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 5/425.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/143.
(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/442.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/60.
(5) أحمد الأمير جاهين، من صور البلاغة القرآنيّة في سورة الأعراف، ص: 166.

نُكتةُ التّعْبير بالموصول ﴿مَن﴾ في السِّياق:

يَتولّى الرّياسةَ بشرٌ

في قول اللّه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ جاءت ﴿مَن﴾ موصولًا اسميًّا مخصَّصًا للعاقل مناسبًا لفعل الرّياسة، والمُلك، بوصف متولّيهما عاقلًا.

إيثارُ المضارع في فعْلِ المشيئة ﴿يَشَآءُ﴾:

مَشيئةُ الله في إيراث الأرض دائمةٌ، لأنّه قيّومٌ في كَوْنِه

الفعل ﴿يَشَآءُ﴾ دالٌّ على الإيراث في الحال، والاستقبال؛ فناسبَه المضارعُ الدّالُّ على دوام مشيئتِه فيها؛ تمكينًا للحُكم، ونزعًا.

سِرُّ تعريفِ العِبادِ بالإضافة في ﴿عِبَادِهِۦ﴾:

نِسبةُ العِبادةِ إليه تعالى، تَشريفٌ وتَخصِيصٌ

تعريفُ ﴿عِبَادِهِۦ﴾ في قوله: ﴿يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ بإضافتِه إلى ضميره تعالى تخصيصٌ، مع تشريف مآلُه إلى الاستحقاقِ، ولذلك بَعَّضَهُ بـ﴿مِنْ﴾، وتخصيصُ التّعريف بالإضافة أقوى في الدّلالة وأبينُ. وحقَّقَ الرّبطَ في الجملة الجناسُ بين ﴿مَن﴾ الموصولةِ، و﴿مِنْ﴾ الجارّةِ.

بَلاغةُ حُصولِ الغلبة بالتّذْييلِ، والكنايةِ الرّمْزيةِ:

تَعليلٌ ثانٍ للأمرِ بالاستعانةِ والصّبرِ، وحُصولُ الغلبةِ لِموسَى ومن يتْبَعُه

وجملةُ: ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ تذييلٌ، فيجوزُ أن تكون الواو اعتراضيةً، أي: عاطفة على ما في قوله: ﴿إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ﴾ من معنى التّعليل، فيكونَ هذا تعليلًا ثانيًا للأمر بالاستعانة والصّبر، وبهذا الاعتبارِ أوثِرَ العطفُ بالواو على فصل الجملة مع أن مقتضى التّذييل أن تكون مفصولةً[1]. وقوله ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ إشارةٌ إلى ثبوت وصْفِ التّقوى فيهم. وفي الجملة كنايةٌ رمزيةٌ؛ إذ أُطلقَ اللّفظُ، وأُريدَ لازمُ معناه، وهو حصولُ الغلبة والفوزِ لموسى عليه السلام ومن يتبعُه، وهي كنايةٌ عن صفة، وفيها نوعُ خفاءٍ[2].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/60.
(2) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 6/523 - 524.

دَلالةُ التّعريفِ بـ (أَلْ) للفْظِ ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ﴾:

التّعريفُ أمارةُ حُسْنِ الانتهاءِ، بأحْسَنَ من أوّلِه

تعريفُ ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ﴾ باللام يرادُ به انتهاءُ أمرِ الشّيء بأحسنَ من أوّله، ولعلَّ التّعريفَ فيها من قبيل العِلْم بالغلبة. وذلك لأنّ كلَّ أحد يودُّ أن يكون آخرُ أحواله خيرًا من أوّلها لكراهة مفارقةِ المُلائم، أو للرّغبة في زوال المُنافرِ، فلذلك أُطلقتِ العاقبةُ معرفةً على انتهاء الحال بما يسرُّ ويُلائمُ، كما قال تعالى: ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ١٣٢﴾ [طه: 132]. فالمرادُ بالعاقبة هنا عاقبةُ أمورهم في الحياة الدّنيا ليناسبَ قولَه ﴿إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾[1]. وهي بِشارةٌ بأنّ الخاتمةَ المحمودةَ للمتّقين منهم ومنَ القِبط، وأنّ المشيئةَ متناوِلةٌ لهم.

تَوجيهُ قِراءةِ النَّصب في ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ﴾:

من بَديعِ التّقابُلِ اللّفظيِّ في التّعْبيرِ القُرآنيِّ، ما يخدمُ المعنى ويُجَلِّيه

وقُرئَ (والعاقبةَ) بالنّصب، عطفًا على الأرض[2]، و﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ خبرُها، فيكونُ قد عطفَ الاسمَ (العاقبة) على الاسم ﴿ٱلْأَرْضَ﴾، والخبرَ ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ على الخبرِ ﴿لِلَّهِ﴾، فهو مِنْ عطف الجُمل[3]، وهو من لطيفِ التّقابل اللّفظيِّ في التّعبير القرآنيِّ.

بَلاغةُ عُمومِ جُملتَيِ الفاصلةِ:

عُمومُ اللّفظِ تَذْييلٌ للكلامِ، حِرصًا على تَحقيقِ الوصْفِ

جيءَ بجُملتيْ: ﴿إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ بلفظين عامّيْن، هما: ﴿مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾، و﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾، لتكونَ الجملتان تذييلًا للكلام، وليحرصَ السّامعون على أن يكونوا منَ المتّقين. وقد عُلم من قوله: ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ أنَّ من يشاءُ اللّه أن يورثهم الأرضَ همُ المتّقون إذا كان في النّاس متّقون وغيرُهم، وأنّ تمليكَ الأرض لغيرهم إمّا عارضٌ، وإما لاستواء أهلِ الأرض في عدمِ التّقوى[4].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/60.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/143، وهي قراءة شاذة تُنسب لابن مسعود رضي الله عنه.
(3) ابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 9/272.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/60.

بَديعُ المُقابلةِ اللّفظيةِ، والمَعنويّةِ:

إيـقـاعُ أمْـرَيـن، وبِـشـارتَـين، في سِياقٍ واحدٍ

أمّا اللّذان أمرَ موسى عليه السلام بهما فالأوّلُ: الاستعانةُ باللّه تعالى، والثاني الصّبرُ على بلاء اللّه، وأمّا اللّذان بشّرَ بهما فالأوّلُ قولُه إنّ الأرض للّه يورثها من يشاء من عباده وهذا إطماعٌ من موسى عليه السلام قومَه في أنْ يورثَهم اللّهُ تعالى أرضَ فرعونَ بعد إهلاكه بما يتضمّنُه معنى (الإرث) من جعْلِ الشّيء للخَلَف بعد السَّلَف، والثّاني قولُه: ﴿وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ ويحتملُ المرادُ أمرَ الآخرة فقط، أو أمرَ الدنيا فقط: وهو الفتحُ، والظَّفَرُ، والنّصرُ على الأعداء. ويحتملُ مجموعَ الأمرين[1].

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/173.

﴿قَالُوٓاْ أُوذِينَا مِن قَبۡلِ أَن تَأۡتِيَنَا وَمِنۢ بَعۡدِ مَا جِئۡتَنَاۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُهۡلِكَ عَدُوَّكُمۡ وَيَسۡتَخۡلِفَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرَ كَيۡفَ تَعۡمَلُونَ ١٢٩﴾ [الأعراف: 129]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الرّبطُ بين وصِيّةِ موسَى لقومِه، وردِّه بأنّ ما استَبطَؤُوه من النّصرِ قريبٌ

لمّا تشوَّف السّامعُ إلى ما كان من جوابهم، أشار تعالى إلى أنَّ قلقَهم كان وصل إلى حدٍّ لا صبرَ لهم معه بقولِه مستأنفاً: ﴿قَالُوٓاْ﴾[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أُوذِينَا﴾: الهمزة، والذّال، والياء أصلٌ واحد، وهو الشّيء تتكرَّهُهُ ولا تَقِرُّ عليه. تقول: آذَيْتُ فلاناً أوذيهِ[2]، مَعْنويًا بالقول المؤلم، وحسيًّا بالضرب ونحوِه، وكلُّ ما جاء في القرآن منَ (الأذى والإيذاء) فمعناه الإيلامُ النّفسيُّ (التكرّه)، أو البدنيُّ غيرُ المُبْرح[3].

2) ﴿يُهۡلِكَ﴾: الهاء واللام والكاف: يدلُّ على كَسْرٍ وسُقوط. ومنه الهلاك: السُّقوط، ولذلك يقال للميت هَلَكَ[4]. والتَّهْلُكَةُ: كلُّ شيءٍ يصيرُ عاقبتُه إلى الهَلاكِ[5]. وهو على ثلاثة أوجهٍ: افتقادُ الشّيء عنك، وهو عند غيرك موجودٌ، وهلاكُ الشّيء باستحالةٍ وفسادٍ، والموتُ[6].

وقد استعمل القرآن لفظَ الهَلاك في الموت المُعتاد، أي: لا أخذَ عذاب، وفي معنى الإفناء مؤاخذةً[7]، وهو معنى اللّفظة في الآية المباركة.

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 3/88.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (أذي).
(3) الرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (أذي).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (هلك).
(5) الخليل، العين: (هلك).
(6) الرّاغب، المفردات: (هلك).
(7) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (هلك).

3) ﴿وَيَسْتَخْلِفَكُمْ﴾: الخاء واللام والفاء أصولٌ ثلاثة: أحدُها: أنْ يجيءَ شيءٌ بعدَ شيءٍ يقومُ مقامَه، وهو: الخَلَف، أي: ما جاء بعدُ. ويقولون: هو خَلَفُ صِدْقٍ من أبيه، وخَلَف سَوْءٍ من أبيه[1].

فخلفَ فلانٌ فلانًا، قام بالأمر عنه؛ إما معه وإما بعده. والخليفةُ: مِن استُخلف مكانَ مَنْ قبلَه، وقام مقامَه، وناب عنه إما لغيبة المنوب عنه، وإما لموتِه؛ وإما لعجزه؛ وإما لتشريف المستخْلَف. وعلى هذا الوجه الأخير استخلف اللّه أولياءَه في الأرض. وإنَّما سُمِّيت الخلافةُ خلافةً؛ لأنَّ الثّاني منَ الخلفاء يَجيءُ بَعد الأوّلِ قائماً مقامَه. والخالِفةُ: الأمّة الباقية بعد السّالفةِ[2]، وهو معنى لفظةِ الاستخلاف في الآية الكريمة.

❁ المعنى الإِجْمالِيُّ:

أثـرُ الأنـبـيـاءِ في التّثبيتِ، يَظهرُ في لحظاتِ فُتورِ الـهِـمَـم لـدَى الأُممِ

استذكر قومُ موسى ما أصابهم من الأذى على يد فرعونَ وملئِه، وهو ما لحقَهم منَ الاستعباد، وقتلِ الأولاد، وتكليفِهم الأعمالَ الشّاقةَ عليهم في خدمة فرعونَ، وما توعَّدهم به بعد بعثةِ موسى منَ الإذلال، والإبعادِ، والتّهديد بالتّقطيع والصَّلْب وقتلِ الأبناء، وكأنّهم أرادوا التَّعريض بنفادِ صبرهم، وأنَّ الأذى الذي مسّهم بعد بعثةِ موسى لم يكن بدايةَ الأذى، بل جاء بعد طولِ مدّةٍ منَ الإنهاك والتَّنكيل، فلذلك جمعوا في كلامهم ما لَحقَهم قبل بعثةِ موسى عليه السلام. ولا يدلُّ قولُهم ذلك على كراهة مجيء موسى؛ لأن ذلك يؤدّي إلى الكفر وإنّما قالوه؛ لأنّه كان وعَدَهُم بزوال المضارِّ عنهم، فظنّوا أنها ستقعُ على الفور، فقولُهم ذلك استعطافٌ لا نُفْرةٌ. فأجابهم عليه السلام بصيغة الرّجاء منَ اللّه ليقوّي قلوبَ أتباعِه،

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (خلف).
(2) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (خلف).

فيصبروا على الأذى، فإنَّ المرجوَّ من فضل ربّكم أنْ يُهلك عدوَّكم الذي سخّرَكم وآذاكم بظُلمِه، ويجعلَكم خلفاءَ في الأرض التي وعدَكم إياها، ويمنعُكم فرعونُ منَ الخروج إليها، فينظرَ سبحانه كيف تعملون بعد استخلافِه إيّاكم فيها؛ هل تشكرون النّعمةَ أم تكفرون؟ وهل تُصلحون في الأرض أم تُفسدون؟ ليجازيَكم في الدّنيا والآخرة بما تعملون[1].

وتُرشدُ الآية الكريمة: إلى أنَّ المتصرّف الأوحدَ في هذه الأرض هو اللّه تعالى، الذي بيده ملكوتُ كلِّ شيءٍ، وهو الذي يورثها مَنْ يشاء مِنْ عباده، والعاقبةُ الحسنةُ التي ينتهي إليها التّنازعُ بين الأمم للمتّقين، الذين يراعون سُنَنَه في أسباب إرثِ الأرضِ كالاتّحاد، وجمعِ الكلمة، والاعتصامِ بالحقّ، وإقامةِ العدل، والصّبرِ على المكاره، والاستعانةِ باللّه، ولا سيما عند الشّدائدِ، ونحوِ ذلك مما هدى إليه وحيُه، وأيّدتْه التّجاربُ[2]. وعلى المسلم أنْ يَستبشرَ ويتفاءلَ بعد أن وثقَ بربّه، وسلَّم إليه مقاليدَ أمره؛ لأنّه تعالى لا يأتي منه لعباده إلّا الخيرُ.

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

قَصْدِيّةُ الفصْلِ بالاستئنافِ البيانيِّ في الآيةِ الكريمةِ:

﴿قَالُوٓاْ﴾ استئنافٌ بيانيٌّ، حكايةُ جوابِ قومِ موسى إياه، فلذلك فُصلت جملةُ القول على طريقة المُحاوَرة، وهذا الخبرُ مستعملٌ في الشّكاية واسْتِثارَتِهم موسى ليدعوَ ربّه أن يفرّج كربَهم[3]، أو هو من قبيلِ شبْهِ كمالِ الاتّصال جوابًا عن سؤالٍ مقدّرٍ في الجُملة السّابقة مفادُه: ماذا قالوا؟ ولهذا فُصلتْ عمّا قبلَها.

وَجْهُ الفصْلِ على طريقِ الحكايةِ، أو شِبْهِ كمالِ الاتّصال

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/368، ومحمد رضا، تفسير المنار: 9/72، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/61.

(2) رضا، تفسير المنار: 9/71.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/61.

سِرُّ التَّعْبير بالفعْلِ المَبنيِّ للمجهول ﴿أُوذِينَا﴾:

بيانُ قـوّةِ الأذَى الّـذي أصابَهم، والـحَـيْـدَةِ عن تَعْيينِه

عبّر بالفعل المبنيّ للمجهول ﴿أُوذِينَا﴾؛ لكونِ مرجعِ الأذى ونوعِه غيرَ معيَّنٍ، وللتّعبير عن قوّة الأذى، وهو ما لحِقَهم منَ القتل والاستعباد، وتكليفِهم الأعمالَ الشّاقة عليهم في خدمة فرعونَ، وما توعَّدهم به بعدَ بعثةِ موسى من تقطيع الأيدي والأرجل من خلافٍ والصّلبِ على جذوع النَّخل، وقتلِ الأبناء وإبقاءِ النّساء أحياءَ؛ للخدمة والامتهانِ.

نُكتةُ التَّعريض بنَفادِ الصّبرِ، بعْدَ طُولِ القَهْرِ:

الدّنيا امتحانٌ لا ينفعُ معه إلّا الصّبرُ الجميلُ

وكأنّهم أرادوا التَّعريض بنفاد صبرِهم، وأنَّ الأذى الّذي مسّهم بعد بعثة موسى لم يكن بدايةَ الأذى، بل جاء بعد طول مدّة في الأذى، فلذلك جمعوا في كلامِهم ما لحقَهم قبل بعثة موسى[1].

بَديعُ التّناوُبِ في اسْتِعمالِ: (الإتيانِ)، و(والمجيءِ):

قَصْدُ الإطنابِ، والإيـمـاءُ إلى اعتبار الحُصولِ، أو قصْدِه

لمّا كان الإتيانُ هو المجيءُ بسهولة، فهو أخصُّ من مُطلق المجيءِ، فعبّروا عنه ليجريَ مجرَى التّحزّن؛ لعدم الاكتفاءِ بما كنّى لهم عليهم السلام لفرطِ ما عراهُم، وفظاعةِ ما اعتراهم، والمقامُ يقتضي الإطنابَ؛ فإنَّ شأن الحزينِ الشّاكي إطالةُ الكلام رجاءَ أن يُطفئَ بذلك بعضَ آلامه، أو هو استبطاءٌ منهم لما وعدَهم عليهم السلام منَ النّجاة والظّفرِ، والأوَّل أولَى[2].

وذكرَ المجيءَ بعد الإتيان للتّفنّن، والبعدِ عنِ التّكرار اللَّفظيِّ، وكراهةَ إعادةِ اللّفظ؛ إذ جعل الفعلَ المعبّرَ عنه حين علّق به (قبل) بصيغةِ المضارع المُقترنِ بـ (أنْ) الدّالّةِ على الاستقبال والمصدريّةِ؛ لمناسبة لفظِ (قبل) لأنّ ما يضافُ إلى (قبل) مستقبلٌ بالنّسبةِ لمدلولِها، وجعلَ حين علِّق به (بعد) بصيغة الماضي المقترن بحرف

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 3/88، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/61.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 9/30.

(ما) المصدريّةِ؛ لأنَّ (ما) المصدريّةَ لا تفيدُ الاستقبالَ ليناسبَ لفظَ (بعد)؛ لأنّ مضافَ كلمةِ (بعد) ماضٍ بالنّسبة لمدلولِها[1].

لفْظُ (المجيء) أعمُّ منَ لفْظِ (الإتيان) في السِّياقِ:

يُعبّر بالإتيان باعتبارِ القصْدِ غيرِ المُتحقّقِ، وبالمجيءِ بعكْسِ ذلك

وهذا الصّوغُ البيانيُّ يتعدَّى قصدَ التّفنّنِ، وكراهةَ التّكرار إلى قصديّةِ ائتلافِ اللّفظ، وتناسُبِهِ في سياق ورودِه بمقتضَى المعنى اللّغويِّ، ذلك أنَّ المجيءَ أعمُّ منَ الإتيان، ويقال اعتبارًا بالحصول، أما الإتيانُ فيقال باعتبار القصْدِ وإنْ لم يكن منه حصولٌ[2]؛ ولذلك عبّر بالإتيان باعتبارِ القصْدِ غيرِ المُتحقّق، وناسبَه دلالةُ الاستقبال المتحصّلةُ من صيغةِ المضارع المقترنِ بـ (أن)، وعبّر بـ (المجيءِ) لكونِ مجيءِ موسى عليه السلام قد تحقّق حصولُه، وناسبَه صيغةُ الماضي الدّالُّ على تحقّقِ وقوعِ الفعل، والمقترنِ بحرف (ما) المصدريّةِ غيرِ المفيدةِ للاستقبال، فضلًا عن أنّهم قد عانَوْا بعد مجيءِ موسى من صنوف التَّهديد، والوعيدِ بالعذابِ ما هو أشدُّ ممّا عانَوْه قبل مجيئِه، فناسبَ لفظُ (المجيءِ) شدّةَ الظّرف المُصاحبِ للتّصديق بموسى عليه السلام، والكفرِ بفرعونَ من وعيدٍ بالتّقطيع، والصّلبِ، وتقتيلِ رجالِهم، واستحياءِ نسائهم[3]، ومن ثمَّ قهرَهم، وناسبَ لفظَ الإتيانِ المترتّبَ على ما هو أخفُّ منَ العقوبات[4].

بَلاغةُ التَّعْبير بالطِّباقِ، في السِّياقِ:

تَحقّقَ به تأكيدُ عِظَمِ المُعاناة، واسْتِمراريّةِ الأذَى

قوله: ﴿مِن قَبۡلِ أَن تَأۡتِيَنَا﴾ طباقٌ مع ﴿وَمِنۢ بَعۡدِمَا جِئۡتَنَاۚ﴾[5]، تحقَّق به تأكيدُ استمراريّةِ الأذى هذا الأمدَ البعيدَ؛ إيماءً بشدّة وقعِه عليهم، وعزَّز الطّباقُ تبيينَ المعنى بصورةٍ أوضحَ وأقوَى، ورسّخ هذا المعنى ما أدّاه التّقابلُ بين كلماتِ الجُملتين في سياق

(1) الآلوسي، روح المعاني: 9/30، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/61 - 62.
(2) الرّاغب، المفردات: (أتى).
(3) وقد سرد أبو حيّان في البحر المحيط: 4/368، صنوفَ الأذى الّذي تعرَّضوا له بمزيد تفصيل وتوضيح.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/368.
(5) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 10/115.

التَّعبير من إحداثِ نوعٍ منَ التّداعي النّفسيِّ المُستدِرِّ للتعطّف، ولذلك ناسبَه تعبيرُ موسى عليه السلام بفعل الرّجاء ﴿عَسَىٰ﴾، وإسناد لفظِ الرّبِّ إليهم ﴿رَبُّكُمْ﴾ تخصيصًا، وتشريفًا، وتسليةً، فلا يدلُّ قولُهم على كراهةِ مجيءِ موسى عليه السلام، أو أنه يستدعي نفوسًا نافرةً، لسلوك بني إسرائيلَ هذه السّبيلَ في غير قصّةٍ[1]؛ لأنَّ ذلك يؤدّي إلى الكفر، وإنّما قالوه؛ لأنّه كان وعَدَهم بزوال المَضارِّ، فظنّوا أنّها ستزولُ على الفور، فقولُهم ذلك استعطافٌ لا نُفْرةٌ[2]، بل يمكنُ أنْ يكونَ قصدُهم الاعترافَ باتّصافهم بالصّبر مطلقًا، ومساواةَ حالِهم في ذلك قبل مجيئِهم كحالِهم بعد مجيئِه، فأخبروا أنّ شأنَهم وديدنَهم الصّبرُ[3].

نُكتةُ التَّعْبير بفعْلِ الرّجاءِ ﴿عَسَىٰ﴾:

التّأدُّبُ مع ذي الجلالِ، سببٌ في التّمكينِ والاستِخلافِ في كلِّ حالٍ

ساق الكلامَ مساقَ الرّجاء دون الجزم تأدّبًا مع اللّه تعالى، أو للجري على سُنن الكُرماءِ. ودونَ التّمنّي لكونِه طلبًا لفعلٍ محبوبٍ ممكنٍ مرجوِّ الحصول، ويوشكُ أن يقعَ، وليس مستحيلًا، بل هو في مثل هذا الموضع قطعٌ في إنجاز الموعودِ والفوزِ بالمطلوب، والغايةُ دفعُ الاتّكال على أعمالِهم؛ ليزدادوا منَ التّقوى والتّعرّضِ إلى رضى اللّه تعالى ونصْرِه، فضلًا عمّا تقدَّمَ من معنى إثابتِهم، وتأنيسِهم على صبرهم[4]. وفيه تحضيض لهم على العزمِ على الشّكر، عند حلول النِّعم، وزوال النِّقم[5].

فعسى للتّحقيق فهو تصريحٌ بما رمزَ إليه منَ البِشارة من قبلُ وكشفَ عنه، وهو إهلاكُ فرعونَ واستخلافُهم بعدَه في أرض

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/442.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/368.
(3) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/243.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 9/30، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/62، والشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 7/4309.
(5) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 3/460.

مصرَ، ولعلّه أتى بفعل الطّمع لعدمِ جزمِه بأنّهم المُستخلَفون بأعيانِهم أو أولادُهم[1].

بَلاغةُ إضْمارِ الفاعلِ مُقدّمًا بلفْظِ ﴿رَبُّكُمْ﴾:

تَخصيصُ القُدْرةِ على الإهلاكِ والاستخلافِ بالله وحدَه

أُضمر الفاعلُ مع فعْلَي: الإهلاكِ، والاستخلافِ، استغناءً بالمذكور مُقدَّمًا بلفظِ ﴿رَبُّكُمْ﴾؛ لتخصيص القُدرة على ذلك به وحدَهُ. وفي ذلك استتمامٌ لأدب الخطابِ النّبويِّ من موسى عليه السلام مع اللّه ﷻ الذي ابتدأه بقوله: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ﴾.

دَلالةُ التَّعْبير بالمَصدَرِ المُنْسَبِكِ:

تأكيدُ تحقُّقِ الجزاءِ، وبيانُ قُوّةِ الله في المنْعِ والعطاءِ

عبَّر عن فعل الإهلاك بالمصدرِ المُنسبكِ: ﴿أَن يُهْلِكَ﴾؛ إيماءً بكونِه في حُكم المُتحقِّق، فضلًا عن بيان قوّتِه.

سِرُّ نِسبةِ العَدوِّ إلى القومِ ﴿عَدُوَّكُمْ﴾، بصِيغةِ الجمْعِ:

بنُو إسرائيلَ همُ المُتضرّرُون منَ التّعذيبِ الفِرعونيِّ ولم يَنتصحوا

نسبَ عداوةَ فرعونَ وملَئِه إليهم بقوله: ﴿عَدُوَّكُمْ﴾، معبّرًا عنه بوصفِ الجمع (العدوّ) للتّكثير؛ لكونِهم المُتضرّرينَ الأكبرَ، استعبادًا، وإذلالًا، وتعذيبًا، وعقوباتٍ، والأهمُّ من كلِّ ذلك انحرافُ عقائدِهم بعبادة غيرِ اللّه الواحدِ الأحدِ؛ فهو الخُسرانُ الأعظمُ[2].

عِلّةُ اصْطِفاءِ لفْظِ ﴿وَيَسْتَخْلِفَكُمْ﴾:

تأكيدُ ما سوفَ يكونُ، حالةَ الطّاعةِ لله، وفيه التّسليّةُ لمن يَهتدِي

قصدَ إلى لفظِ (الاستخلاف) عنِ اللّه في مُلك الأرض، وإقامةِ الخلافة، بالسين والتّاء لتأكيد الفعلِ، أي: جعلَهم أحرارًا غالِبين ومُؤسّسين مُلكًا في الأرض المقدّسةِ[3].

وفيه تصريحٌ بما كنّى عنه، وتوكيدٌ للتّسلية على أبلغِ وجهٍ، وفيه

(1) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/30، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/368.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/62.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/62.

إدماجُ معنى من عادَى أولياءَ اللّه تعالى فقد بارزه بالمحارَبةِ[1]، وحقَّ عليه الدَّمارُ، والخسارُ[2].

بَلاغةُ التَّعْبير بالمُقابلةِ في السِّياقِ الحكيمِ:

المُقابلةُ التّركيبيّةُ من حُسْنِ النّظْمِ، وبديعِه

في قوله: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ من بديع المقابلةِ التركيبيّةِ، والتّناسُبِ مع الآية الكريمة السّابقةِ لها ما فيه؛ فقولُه: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ﴾ مناظرٌ إلى قوله: ﴿إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ﴾، وقولُه: ﴿وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ مُناظِرٌ إلى قولِه: ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾[3].

دَلالةُ التَّعْبيرِ بـ ﴿كَيْفَ﴾:

الاسْتفهامُ لطلبِ تعْيين الحالِ، أو دونَه للدّلالةِ على مُجرّدِ الكيفيّةِ

يجوزُ في ﴿كَيْفَ﴾ كونُها استفهامًا لطلبِ تعيينِ الحالِ منصوبةً على المفعول المطلق النائبِ عن مصدر، وعملُها بيانُ النّوع، والتوكيدُ، والتّقديرُ: أيَّ عملٍ تعملون. ويجوزُ كونُها مجرّدةً عن معنى الاستفهام دالّةً على مجرّد الكيفيّة، فهي مفعولٌ به لـ ﴿فَيَنظُرَ﴾، كما في قولِه تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ [آل عمران: 6]، وقولِه تعالى: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْءَايَٰتِ﴾ [المائدة: 75][4].

نُكتةُ التَّعْبير بالفعْلِ المُضارعِ:

تَجدُّدُ الحدَثِ في المستقبَلِ، تحْريضٌ على الاستكثارِ منَ الطّاعةِ

جاء بالفعلين في الآية الكريمةِ: ﴿فَيَنظُرَ﴾، و﴿تَعْمَلُونَ﴾ مضارعَيْن؛ لكونِهما ممّا يستلزمُ التّجدّدَ في الحدث مستقبلًا، والمعنى: التّحذيرُ من أن يعملوا ما لا يُرضي اللّه تعالى، والتّحريضُ على الاستكثار منَ الطّاعة ليستحقّوا وصفَ المتّقين، تذكيرًا لهم بأنّه عليمٌ بما يعملونه[5]، وهو سبحانه لا ينظرُها ليعلمَها - حاشا

(1) فيه إشارة إلى الحديث القدسّي، الذّي يقول فيه الله سبحانه: «مَن عادى لي وليًّا فقَدْ آذَنْتُهُ بالحَرْبِ». البخاريّ، الجامع الصحيح، برقم: (6502).
(2) الآلوسي، روح المعاني: 9/30.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/62.
(4) قباوة، المفصّل، ص: 591، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/62.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/62.

اللّه - فهو عالمُها، ولكنّه لا يريدُ أن يحكُمَ بعلْمِه على خلقه، ولكن يريدُ أن يحكُمَ على خلقِه بفعلِهم، وبما يظهرُ للنّاس مِنْ سابقِ علمِه، وسبحانه عالمٌ أزلاً بكلٍّ من يَهدي ومن يَضل[1].

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(ليتَ)، (عسَى):

عسَى تُفيدُ الرّجاءَ، و(ليتَ) تُفيدُ التّمنّي، والرّجاءُ أقوَى منَ التّمنّي

التّمنّي: أن تطْلُبَ أمراً مستحيلاً أو يكونَ في الحصول عليه عُسْرٌ، ولكنّك تريدُ الإشعارَ بحبّك له فقط، فأنت إذا قلتَ: ليت الشبابَ يعودُ، فهذا أمرٌ لا يكونُ، ولكنّك تعلنُ حبّك لمرحلة الشّباب، وقُصارى ما يُعطيه أسلوبُ التمنّي: أنْ يُعْلِمنا أنّك تحبُّ هذا المتمنَّى. لكن هل يتحقّقُ، أو لا يتحقّقُ، فهذه ليست واردةً.

ومعنى الرّجاء: أنَّ ما بعدها يكونُ مرجوَّ الحصول، فهو شيءٌ محبوبٌ يوشكُ أن يقع. وهكذا نعرفُ أنَّ الرجاءَ أقوى منَ التّمنّي، وأداةُ التّمنّي (ليت)، وأداةُ الرّجاء (عسى)، فإذا قلت: عسى اللّه أن يُكرمَك فهذه أقوى؛ لأنّ ربّنا لا يُعجزُه شيءٌ عن إكرام إنسانٍ، فسُبحانه من ناحية القوّة له مطلقُ القُدرة فلا شيءَ يُعطّلُه، أو يسْتَعْصي، أو يتأبّى عليه، فإذا ما قال الحقُّ عن نفسِه: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ﴾ فقد انتهتِ المسألةُ، وتقرّر الوعدُ، وتحقَّقَ، وهذا ما يُقال عنه رجاءٌ محقَّقٌ. وأقوى ألوانِ الرّجاء أنْ يَعِدَ الحقُّ بالإكرام، أو بالرّحمة. ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾[2]، فـ«عسى» من اللّه واجبٌ؛ لأنّ الكريم إذا أطمعَ في خيرٍ فهو بمنزلةِ الوعدِ منه؛ لتعلُّق النّفسِ به، و(عسى من اللّه) في القرآن تعني التَّحقيقَ؛ كما قال ابنُ عباس رضي الله عنهما: "(عسى) منَ اللّه واجبٌ"[3].

(1) الشّعراوي، تفسير الشّعراوي: 7/4310.
(2) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 7/4308 - 4309.
(3) ابن أبي حاتم، تفسير ابن أبي حاتم: 3/1018، والطّريفي، التّفسير والبيان لأحكام القرآن: 2/908.

﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ١٣٠﴾ [الأعراف: 130]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

العَلاقةُ بين ظُلْمِ آل فرعونَ، وجَريانِ سُنّةِ اللهِ باسْتِدراجِهم للهلاكِ الماحقِ

الآية شروعٌ في تفصيلِ مبادي الهلاكِ الموعودِ لفرعونَ وقومِه، وإيذانٌ بأنّه تعالى لم يُمْهِلْهم بعد ذلك، ولم يكونوا في أمنٍ ودَعَةٍ، بل رُتّبت أسبابُ هلاكِهم، فتحوّلوا من حالٍ إلى حالٍ، إلى أنْ حلَّ بهم عذابُ الاستئصالِ[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿بِٱلسِّنِينَ﴾: السَّنَةُ: العامُ القحطُ، وهو: الجَدْب، وأكثرُ ما تستعمل السَّنةُ في الحول الذي فيه الجدبُ، يقال: أسْنَتَ القومُ: أصابتهم السّنةُ، وفُسِّرتِ اللّفظةُ في الآية الكريمة بالقُحوط، والأزمةِ، والجدبِ، حَتَّى ذهبت ثمارُهم، وذهب من أهل الْبَوادي مَواشيهمْ[2].

وهذا هو اللّفظُ الوحيدُ من بين مفردات التّركيب القرآنيةِ الذي يقضي السّياقُ بكونِه بمعنى القحط، والمقصودُ ضرورةً (زمنُ القحط)؛ لأنَّ القحطَ لا يتبيّنُ إلا بمرور فصلٍ منَ العام يُخلفُ فيه المطرُ والزرعُ معتادٌ حصولهُما، فكلمة سَنة معناها (زمنُ القحط)، ثم أُطلق لفظُ سَنةٍ عن قيد القحطِ واستُعمل بمعنى الزّمن ثمّ الحولِ، وسائرُ مفرداتِ التّركيب القرآنيةِ هي السّنةُ بمعنى الحولِ، وجمعِها[3].

2) ﴿ٱلثَّمَرَٰتِ﴾: الثاء والميم والراء أصلٌ واحد، وهو شيءٌ يتولّد عن شيءٍ متجمِّعًا، ثم يُحمَلُ عليه غيرُه استعارةً. فالثَّمَر معروفٌ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/263.
(2) ابن سيده، المحكم: (تسع)، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (سنه).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (سنه).

هو: حملُ الشّجر[1]، وهو: اسمٌ لكلِّ ما يُتَطعّمُ من أحمال الشّجر، وما ينعقدُ على أطراف الشّجرِ من حَمْله إذا بلغ يَنْعَه. ويقال لكلِّ نفعٍ يصدرُ عن شيءٍ: ثمرةٌ، وليس في القرآن منَ التّركيب إلا كلماتُ (ثمرة)، (ثَمَر) (ثمرات) (أثمُر)، وكلُّها يعني بها الحَبَّ الذي يُحصدُ منَ الزرع، أو الجَنْيَ الذي يُجْنَى من شجر الفاكهةِ ونحوِه[2].

3) ﴿يَذَّكَّرُونَ﴾: الذّال والكاف والراء أصلان، أحدُهما: ذَكَرْتُ الشّيءَ، خلافُ نسيتُه، فالذِّكْرُ: الحفظُ للشَّيْء وتَذكُّرُه، ثم حُملَ عليه الذِّكْرُ باللِّسان، أي: جَرْيُ الشّيءِ على لسانك[3]. والذِّكْرُ: ما ذكرْتَه بلسانك وأظهرْتَه. والذِّكْرُ: الصَّلاةُ للّه تعالى، والدعاءُ، والثّناءُ، والذكْرُ قِراءَةُ الْقُرْآن، والذِّكْرُ: التّسبيحُ، والذِّكرُ: الشُّكْرُ، والذِّكْرُ: الطّاعَةُ[4]. ويأتي الذّكرُ بمعنى الوعظِ؛ لأنّه إذا تذكَّرَ قد يزدجرُ[5]، ويحتملُ لفظُ ﴿يَذَّكَّرُونَ﴾ جُماعَ هذه المعاني.

❁ المعنى الإجْماليُّ:

الشّروعُ في تفْصيلِ صُورةِ الهلاكِ الموعودِ، بدْءًا بالقحْطِ وقِلّةِ الثّمارِ

يخبرُ اللّهُ بأنَّه اختبرَ أتباعَ فرعونَ وامتحنَهم بالجَدْب والقحْط والجوعِ سنةً بعد سنةٍ، وضيقِ المعيشة، وانتقاصِ الثّمرات، وإتلاف الغَلّاتِ بالآفات، لعلّهم يثوبون إلى رُشدِهم ويتذكّرون ضَعْفهم أمام قوّةِ خالقِهم، ويرجعون عمّا هم فيه منَ الكفرِ والعصيانِ؛ فإنَّ الشّدائدَ من شأنِها أن ترقِّقَ القلوبَ، وتُصفّيَ النّفوسَ، وتُلجئَ إلى الضّراعةِ للّه، وتُرغِّبَ فيما عنده ﷻ منَ الخير، وتدعوَ إلى اليقظةِ والتّفكير ومحاسبةِ النّفس على الخطايا اتقاءً للبلايا.

والمرادُ بآل فرعونَ قومُه وأتباعُه، فهم مؤاخَذون بظلمِه

(1) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (ثمر).
(2) الرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (ثمر).
(3) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (ذكر).
(4) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (ذكر).
(5) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (ذكر).

وطغيانِه؛ لأنّ قوّته الماليةَ والجنديةَ منهم، وقد خلقَهمُ اللّه أحرارًا وأكرمَهم بالعقل والفطرةِ التي تكرهُ الظّلمَ والطغيانَ بالغريزة، فكان حقًّا عليهم ألّا يَقبلوا استعبادَه لهم وجعْلَهم آلةً لطغيانِه، ولا سيما بعد بعثةِ موسى عليه السلام ووصولِ دعوتِه إليهم، ورؤيتِهم لما أيَّده اللّه به منَ الآيات[1].

وتُرشدُ الآيةُ الكريمة: إلى تنبيه الأمّة للنَّظر فيما يحيطُ بها من دلائلِ غضبِ اللّه؛ فإنَّ سَلْبَ النِّعمة للمُنعَم عليهم تنبيهٌ لهم على استحقاقِهم إعراضَ اللّه تعالى عنهم[2].

وفيها أنَّ على الإنسان أن يتذكّر أنّه الخليفةُ في الأرض، وأنّه غيرُ أصيلٍ في الكون حتى يظلّ العالمُ مستقيماً، لكنِ الذي يفسدُ العالَمَ أنّ الإنسان حينما تستجيبُ له أسبابُ الحياة، وسُننُها الكونيّةُ ويحرثُ ويبذرُ ويُطلعُ الزّرعَ، ويُشعلُ النار ويستخرجُ المياه منَ الآبار ينسى أن كلَّ ذلك أسبابٌ، ولا يتذكرُ المُسبِّبَ إلا حينما تمتنعُ عليه الأسبابُ؛ لأنّها مقوّماتُ الحياة، فإذا امتنعتْ مقوّماتُ الحياة يقول الإنسانُ: يا ربّ[3].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بَلاغةُ تصْديرِ الجُملةِ بالقسَمِ:

بـيـانُ حـالـةِ العِقابِ الإلهيِّ، وإظـهـارُ خـطَـرِه بـالـقَـسَـمِ على حُصولِها

الواوُ في قولِه: ﴿وَلَقَدْ﴾ استئنافيةٌ، واللّامُ للتّوكيد، و(قد) لتحقيقِ وقوعِ الفعلِ الماضي (أخذ) المُحقَّقِ وقوعُه بصيغتِه، وفي هذا المُفتتح شروعٌ في تفصيل مبادئِ الهلاك الموعودِ به، وإيذانٌ بأنّهم لم يُمهَلوا حتّى تحوّلوا من حالٍ إلى حالٍ، إلى أنْ حلَّ بهم عذابُ

(1) الخازن، لباب التّأويل: 2/239، وطنطاويّ، التّفسير الوسيط: 5/357.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/64.
(3) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 7/4313 - 4314.

الاستئصال، وتصديرُ الجملة بالقسَم لإظهار الاعتناءِ بمضمونِها[1]، وتأكيدِه، وتعظيمِ شأنه[2].

دَلالةُ (اللّام)، وضَميرِ التّعظيمِ:

ورسّختِ اللّام التّوكيديّةُ، و﴿وَلَقَدۡ﴾ التّحقيقيّةُ، وإسنادُ فعلِ الأخذِ إلى ضمير التّعظيم، والتّفخيم (نا) هذه العنايةَ، والاهتمامَ، والتّعظيمَ.

قَوّتِ المُؤكّداتُ العِنايةَ بالمَضمُونِ الفارقِ، في تاريخِ هؤلاءِ القومِ المُفسدِين

سِرُّ التّعبير بالأخذِ على طريق المجازِ، أوِ الاستعارةِ:

الأخذ: هنا مجازٌ في القهْرِ والغلبةِ، ويصحُّ أنْ يكون هنا مجازًا في الإصابة بالشّدائدِ؛ لأنّ حقيقةَ الأخذ: تناولُ الشّيء باليدِ، وتعدّدت إطلاقاتُه، فأُطلقَ كنايةً عنِ المُلك. وأُطلقَ استعارةً تصريحيّةً تبعيّةً للقهرِ والغلبةِ، وللإهلاكِ؛ إذ استعارَ الأخذَ للابتلاء[3].

الأخذُ قَهرٌ وغلبةٌ وإصابةٌ بالشّدائدِ

دَلالةُ التّصريحِ باسمِ فرعونَ، وإضافةِ آلِه إليه:

إنَّ موردَ الذّكرِ في مواطن الخيبةِ، والخُسرانِ، والعقوبةِ إذلالٌ ومهانةٌ يناسبُه التّصريحُ بالمغلوبِ المقهورِ المُتألّهِ على اللّه تعالى بكبْرِه. والمرادُ بـ ﴿ءَالَ فِرۡعَوۡنَ﴾ أتباعُه، وإضافةُ الآل إليه وهو لا يضافُ إلّا إلى الأشراف والكبراءِ؛ لِما فيه منَ الشّرف الدّنيويِّ الظّاهرِ وإن كان في نفس الأمرِ وضيعًا[4].

وَجْهُ التَّعريض، المُفيدُ للمَهانةِ

قَصْدِيّةُ جَمْعِ لفْظِ ﴿بِٱلسِّنِينَ﴾ في السِّياقِ:

﴿بِٱلسِّنِينَ﴾ جمعُ سَنةٍ بمعنى الجَدْبِ لا بمعنى الزّمن المقدَّر منَ الدّهر؛ لأنَّ السّنةَ في كلامِ العربِ إذا عُرّفت باللّام يُراد بها سَنةُ الجَدْبِ، والقحْطِ، فتكونُ حينئذٍ علمَ جنسٍ بالغَلَبة، ومن ثمَّ اشتقّوا منها: أسْنَتَ القومُ، إذا أصابهم الجَدْبُ والقَحْطُ، وجاءت على صيغة الجمعِ بمعنى: القُحوطِ باعتبار كثرةِ مواقعِها، أي: أصابَهم

إصابتُهم بالقَحْطِ، وفي كلِّ بُلدانِهم، دليلُ غضَبِ الله عليهم

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/263، والآلوسي، روح المعاني: 9/31.
(2) رضا، تفسير المنار: 9/74.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/63.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 9/31.

القَحْطُ في جميع الأرَضين والبلدان، فالمعنى: ولقد أخذناهم بالقُحوطِ العامّةِ في كلِّ أرضٍ[1].

نُكتةُ العُدولُ عن معنَى ﴿بِٱلسِّنِينَ﴾ الحقيقيِّ على طريقِ الاستعارةِ:

وهو بذا استعارةٌ تصريحيّةٌ عُدلَ بها عنِ المعنى الحقيقيِّ للسّنة، وهو الحولُ، إلى الجدْب، والقحطِ[2]. وأكثرُ ما تُستعملُ في مقام العددِ والإحصاءِ[3].

الأخذُ بالسّنينَ جَدْبٌ مُطْبِقٌ، وجَفافٌ مُزْهِقٌ، لمن حاربَ الله ورُسُلَه الكرامَ

سِرُّ تَنكيرِ لفْظِ ﴿وَنَقْصٍ﴾، وقطْعِه عنِ الإضافةِ:

وقولُه تعالى: ﴿وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ ومعنى نقْصِ الثّمرات: قلّةُ إنتاجها قلةً غيرَ معتادةٍ لهم، أو هو نصٌّ على شدَّة الضّيق في كلّ حال، فتنوينُ ﴿وَنَقْصٍ﴾ للتّكثيرِ ولذلك نُكِّر، ولم يُضف إلى ﴿ٱلثَّمَرَٰتِ﴾؛ لئلا تفوتَ الدّلالةُ على الكثرةِ، فالقحطُ ينتابُ المزارعَ والحقولَ، ونقصُ الثّمرات ينتابُ الجنّاتِ[4].

تَحْقيقُ معنَى التّكثيرِ، للدّلالةِ على شِدَّةِ الضِّيقِ في كلِّ حالٍ

نُكتةُ التّعْبير بصِيغةِ التّرجّي، وفعْلِ المُطاوعةِ:

و(لعلّ) للرّجاء، أي: مرجوٌّ تذكّرُهم؛ لأنّ المصائبَ والأضرارَ المقارنةَ هي لتذكيرِ موسى إياهم بربّهم، وتسريحِ فرعونَ عبيدَه، أمّا اللّه تعالى فهو يعلمُ أنّهم لا يتذكّرون، ولكنّه أراد الإملاءَ لهم، وقطعَ عُذرِهم[5]، وفيه تنبيهٌ على أنَّ اللّه تعالى إنّما يقضي بالجَدْبِ، ونقصِ الثّمرات، لُطفًا منه تعالى في رجوع الخلْقِ عنِ المعصيةِ[6]. وجاء بالفعل ﴿يَذَّكَّرُونَ﴾ بصيغة المطاوعةِ؛ للدّلالة على طلبِ حصولِ الفعل بقوّةٍ، والتّرغيبِ بالعزم عليه؛ لعُسْر تحقّقِه من جهة، ولعظيم آثارِه من جهة أخرى، فهي مفتاحُ أنوار

قَطعُ عُذرِ عدَمِ التّذكُّرِ، وترغيبٌ بالعَزمِ عليه

(1) الآلوسي، روح المعاني: 9/31، و15/182، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/63.
(2) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 10/16.
(3) رضا، تفسير المنّار: 9/76.
(4) رضا، تفسير المنار: 9/76، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/64.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/64.
(6) الخلوتّي، روح البيان: 7/46.

الهدايةِ. وجملة ﴿لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ في موضع التّعليل لجملةِ ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ﴾ فلذلك فُصلتْ[1].

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(الآلُ)، و(الأهلُ):

(الآلُ) خاصّةُ الرّجُلِ من جهةِ القرابةِ، و(الأهلُ) خاصّتُه من جهةِ النّسبِ

(الأهل) يكونُ من جهة النّسب، والاختصاص، فمن جهة النّسبِ، قولُك: أهلُ الرجل، لقرابته الأدْنَيْنَ. ومن جهة الاختصاص، قولُك: أهلُ البصرة، وأهلُ العلم. فأهل الرجل: من يجمعُه وإياهم نسبٌ أو دين، أو ما يجري مجراهما من صناعةٍ وبيتٍ وبلدٍ، وأهلُ الرّجلِ في الأصل: من يجمعُه وإياهم مسكنٌ واحد، ثم تُجوِّز به، فقيل: أهلُ الرجل لمن يجمعُه وإياهم نسبٌ، وتُعورف في أسرة النّبي ﷺ مطلقًا إذا قيل: أهلُ البيت. و(الآل) خاصّةُ الرّجل من جهة القرابة، أوِ الصّحبة تقولُ: آلُ الرجل لأهله، وأصحابِه. ولا تقولُ: آلُ البصرة، وآلُ العلم. وقالوا (آل فرعون) أتباعُه وكذلك (آل لوط). وإذا صَغّرتِ العربُ (الآل) قالت: أهلُ. فيدلُّ على أنّ أصلَ (الآلِ) (الأهلُ). وقال بعضُهم: (الآلُ) عيدانُ الخيمة وأعمدتُها، وآل الرّجل مُشبَّهون بذلك؛ لأنَّهم معتمدُه[2].

فـ(آل الرّجل) أهلُ بيتِه، وأقاربُه الذين يُضافون إلى اسمه، ويؤولُ أمرُه إليهم، وهو لا يضافُ إلا إلى أعلامِ شُرفاءِ قومِهم، وكبرائِهم كالأنبياء، والملوكِ، والرّؤساءِ، ثمّ أُطلق على أهل الاختصاصِ بهم، أو جميعِ أتباعهم، ومن هنا قال بعضُ العلماء: إنّ آلّ النبي ﷺ يُطلق على جميع أتباعِه، وإنَّ هذا هو المرادُ بالصّلاة على آل النّبيّ في التّشهد وغيرِه. وخُصَّ بالإضافةِ إلى أعلامِ النّاطقين دون

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/63.

(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 281، والرّاغب، المفردات: (أهل).

النّكراتِ، ودونَ الأزمنة، والأمكنةِ. يقال: آل فلان، ولا يقال: آل رَجُلٍ، ولا آلُ زمان كذا، أو موضعِ كذا، ولا يقال: آل الخياط، بل يضاف إلى الأشرفِ الأفضلِ، يقال: آل الله وآل السّلطان، والأهلُ يضافُ إلى الكلّ، يقال: أهلُ الله وأهلُ الخياط، كما يقال: أهلُ زمنِ كذا وبلدِ كذا[1].

ولذلك كان اختيارُ لفظِ ﴿ءَالَ فِرْعَوْنَ﴾ ليشمل ملأَهُ، وشرفاءَ قومه، وكبراءَهم، وجميعَ أتباعِه ومَنْ آلَ إليه في دينٍ، أو مذهبٍ، أو نسبٍ؛ لأنّ الآل لا تُطلقُ إلّا على الأتباع كلِّهم، مع إيمانِهم بالمتبوع، واتّباعِ منهجه، وشريعتِه، وسيرتِه[2].

(1) الرّاغب، المفردات: (آل)، ومحمد رضا، تفسير المنار: 9/74 - 75.

(2) السّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: 1/140.

﴿فَإِذَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَٰذِهِۦۖ وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةٞ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمۡ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ١٣١﴾ [الأعراف: 131]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الرّبْطُ بين عِقابِ قَوْمِ فرعونَ بالقَحْطِ والنّقْصِ، وبيانِ صَلَفِهم وغُرورِهم

ابتُلوا بالجَدْب ونقص الثَّمرات؛ رجاءَ التذكير، فلم يقع المرجوُّ، وصاروا إذا أُخْصِبوا وصَحُّوا قالوا: نحن أحِقَّاءُ بذلك، وإذا أصابهم ما يسوؤُهم تشاءَمُوا بموسى، وزعموا أنَّ ذلك بسببه[1]، فبيَّن تعالى أنَّهم مع تلك المحن عليهم، والشَّدائد، لم يعتبروا بهذا الامتحان، ولم يزدادوا إلَّا تمرُّدًا وكُفْرًا[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَطَّيَّرُواْ﴾ و﴿طَٰٓئِرُهُمۡ﴾: (طير) أصلٌ واحدٌ يدلُّ على خِفَّة الشَّيء في الهواء، ثمَّ يُستعار ذلك في غيره، وقولهم: تَطيَّر مِنَ الشَّيء، اشتقاقُه مِنَ الطَّير، كالغُراب وما أشْبهه. وقَوْلهم: ﴿ٱطَّيَّرۡنَا﴾ [النّمل: 47] تَشاءَمْنا، وَقيل للشُّؤم: طَائِر وطَيْر وطِيَرة؛ لأنَّ العَرَب كان مِن شَأْنهَا عِيَافَةُ الطَّير، وزجْرُها، والتَّطَيُّر ببارحِها، وبِنَعِيق غِرْبانها، وأَخْذِها ذاتَ اليَسار إذا أَثَارُوهَا، فَسَمَّوا الشُّؤمَ طَيرًا، وطائِرًا، وطِيَرَةً؛ لِتشاؤُمِهم بهَا وبأفعالها، ومِنَ الباب: طائرُ الإنسان، وهو عملُه الذي قُلِّدَه، والطَّائر: مِنَ الزَّجْر في التَّشَؤُّم والتَّسَعُّد، والتَّطايُرُ: التَّفَرُّقُ والذَّهابُ[3]، وقيل: الشَّقاءُ، والسَّعادَةُ[4].

(1) أبو حيَّان، البحر المحيط: 4/369 - 370.
(2) القاسميُّ، محاسن التَّأويل: 5/170.
(3) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللُّغة، وابن سيده، المُحكم: (طير)، والغزنويّ، باهر البرهان: 1/527.
(4) الأزهريُّ، تهذيب اللُّغة: (طير).

و﴿طَٰٓئِرُهُمۡ﴾: حَظُّهُم مِنَ الخَيرِ والشَّر، والمعنى: إنَّ لِكُلِّ امْرِئٍ حَظًّا مِنَ الخَيرِ والشَّرِّ قد قَضَاه اللّه، فَهُوَ لازِمٌ عَنُقَه[1].

فمعنى (التَّطَيُّر): التَّشاؤم، وأُخِذَ مِن زَجْر الطَّير، أو مِن مُفارقة الشَّيء مَقَرَّه إلى الهواء، ومِنَ المفارقة إلى غير محدَّد استُعمِل في الحظِّ مِنَ الخير، أو الشَّر، أو النَّصيب غيرِ المعروف أو المُحَدَّد سَلفًا[2].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

سُوءُ تقديرِ آلِ فرعونَ لمعاني التّفاؤُلِ والتّشاؤُمِ، وتَناسِي أنّ الأمْرَ كلَّه بيَدِ الله

فَإذا جاءَتْ آلَ فرعونَ الحسنةُ مِنَ الغيثِ، والرَّخاءِ، والخِصْب، والسَّعةِ، والعافيةِ، والسَّلامة مِنَ الآفات، وغيرِ ذلك قالُوا: نحن مُستَحقُّون لها ونحنُ أهْلُها، على العادة التي جرتْ لنا في سَعة الأرْزاق، وصِحَّة الأبدان. ولم يَرَوا ذلكَ مِن فضل اللّه عليهم فيشْكُرُوه على إنعامه، وإن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ مِنَ القَحْطِ، والجَدْبِ، والمرضِ، والبلاءِ، وغيرِ ذلك، ورَأَوا ما يكرهون في أنفسهم، يتشاءَمُوا بمُوسى ومَن مَعَهُ، ويقولوا: لم يُصبْنا البلاءُ إلَّا حينَ رأيناهم، وما ذلك إلَّا بِشُؤم موسى وقومِه، وإنَّما نَصِيبُهم مِنَ الخِصْب، والجَدْبِ، والخير، والشَّرِّ كلِّه، مِنَ اللّه لا مِن غيره، ولكِنَّ أَكْثَرَ قوم فرعونَ لا يَعْلَمُون أنَّ ما أصابَهم مِنَ اللّه تعالى[3]، وليس للعباد مَدْخَلٌ في ذلك، فتراهم يُضيفون الأشياءَ إلى أسبابٍ يتوهَّمُونَها[4].

وترشدُ الآيةُ الكريمة إلى نفْي الشُّؤم، والتَّطَيُّر، وإبطالِهما؛ ليَعلمَ النَّاسُ أنَّ ما يُصيبهم من السَّيِّئات لا يُصيبهم بشُؤم أحدٍ يكون فيهم، وينبغي لمَن أصابته سيئةٌ أن يبحث عن سببها من

(1) ابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم: (طير).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصَّل: (طير).
(3) الخازن، لباب التأويل: 2/239.
(4) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 3/89.

نفسه، ولا يكتفي بإسنادها إلى شُؤم غيره ممَّن ليس له فيها عمَلٌ ولا كسْبٌ؛ لأنَّ السَّيِّئة تُصيبُ الإنسانَ - بما تقدَّم شرحُه آنفًا - مِن تقصيره، وخروجه بجهله أو هواه عن سُنَّة الله في الْتِماس المنفعة مِن أبوابها، واتِّقاء المضارِّ باتِّقاء أسبابها[1].

وأفادتِ الآيةُ أيضا ضرورةَ الاتِّعاظ بالرَّخاءِ أو بالشَّدائد، فلا ينبغي أن يَزْدادَ المرءُ بالرَّخاء، والخِصْب غُرورًا وبطرًا، وبالشَّدائد والمحن عِنادًا ومُكابرةً، فينسبَ أسبابَ البركات إلى غير المُنعِم جلَّ وعزَّ، ويُصِرَّ على ذلك مِن دون توبةٍ[2]، والمعلومُ في أحوال النَّاس أنَّهم في حال الشِّدَّة يكونون أضرعَ خُدودًا، وألينَ أعطافًا، وأرقَّ أفئدةً[3].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

سِرُّ اخْتِيارِ حروفِ الجرِّ، وتقديمِ الضَّميرِ:

قَصْدُ النَّظْمِ الخاصِّ، تَفريعُ الكلامِ، واسْتِحقاقُ الحسنةِ

الفاء في: ﴿فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ﴾ حرفُ عطفٍ، جاء لتفريع هذا الخبر على جملة: ﴿أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ﴾ [الأعراف: 130]، أي: فكان حالُهم إذا جاءتهم الحسنة... إلخ، والمعنى: فلم يتذكَّروا، ولكنَّهم زادوا كُفرًا وغُرورًا[4]، و﴿فَإِذَا﴾ شرطيَّة للتَّكرار، واللَّام في قوله: ﴿لَنَا﴾ للاستحقاق، كما تقول: السَّرجُ للفَرَس، أي: هذه الحسنة حَقٌّ لنا؛ لأنَّهم بغرورهم يحسَبون أنَّهم أحْرياءُ بالنِّعم، أي: فلا يَرون تلكَ الحسنةَ فضلًا مِنَ الله ونِعمة[5]، وأكَّد معنى ظنِّهم استحقاقَ الحسنةِ تقديمُه مع ضمير التَّعظيم المجرورِ (نا)، على اسم الإشارة ﴿هَٰذِهِۦ﴾.

(1) محمد رضا، تفسير المنار: 5/219.
(2) طنطاويّ، التَّفسير الوسيط: 5/358.
(3) الزَّمخشريُّ، الكشَّاف: 2/144.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 9/64.
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 9/65.

نُكْتَةُ التَّعْبيرِ باسْمِ الإشارةِ ﴿هَٰذِهِۦ﴾:

الإشارةُ إلماحٌ بالغفلةِ أوِ الإنكارِ، له أثرُه في توجيهِ الدّلالةِ

التَّعبير باسم الإشارة: ﴿هَٰذِهِۦ﴾ الدَّالِّ على الإبهام، إلماحٌ بإنكارهم مصدرَ هذه الحسنات، وعدم إحاطتِهم بِكُنْهِ موفورِ العطايا، وحقيقةِ هذه النِّعم على الوجه الَّذي أرادَهُ المُنْعِمُ جلَّ في عُلاه وابْتَغَاهُ، مُعدِّدًا وجوهَهُ ومظاهرَهُ.

دَلالةُ التَّعْبيرِ بالمجيء بصِيغة الماضِي، والإصَابةِ بالمضارع:

تَحقُّقُ مجيءِ الحسنةِ، وتَجَدُّدُ السَّيّئةِ، وتَعَدُّدُ مصادرِ كلٍّ منهما

عَبَّر عن مجيء الحَسَنة بالفعل الماضي: ﴿جَآءَتۡهُمُ﴾؛ دلالةً على وقُوعِها، وتَحقُّقِ مجيئها، وانقضائِها انقضاءً حقيقيًّا؛ إذ غلب أن يكون فعلُ الشَّرطِ مع (إذا) فعلًا ماضيًا؛ لكون الماضي أقربَ إلى اليقين في الحصول مِنَ المستقبل، وبنى فعلَها للمعلوم؛ لأنَّ مصْدَرَها مِنَ اللّٰه تعالى لا غير، وبنى فعلَ السَّيِّئة للمَجْهول: ﴿تُصِبۡهُمۡ﴾؛ لتعدُّد مصادرِ كَسْبها، ولاسيما النَّفْس، ومِصداق ذلك قولُه تعالى: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنۡ حَسَنَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٖ فَمِن نَّفۡسِكَۚ﴾ [النساء: 79]، وجاء بها بصيغة المضارع للدّلالة على تجدُّدها لهم؛ لإصرارهم على الغَيِّ، والكُفْران، والجُحُود، ومِصْداقُه الآيةُ الكريمة بعدَها: ﴿وَقَالُواْ مَهۡمَا تَأۡتِنَا بِهِۦ مِنۡ ءَايَةٖ لِّتَسۡحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحۡنُ لَكَ بِمُؤۡمِنِينَ﴾.

دَلالةُ التَّعْبير عنِ الحسنةِ بـ﴿جَآءَتۡهُمُ﴾، وعنِ السَّيِّئةِ بـ﴿تُصِبۡهُمۡ﴾:

مفهومُ الحسنةِ والسَّيِّئة، في نَظَرِ قوْمِ فرعَونَ السّادِرين في الغَيِّ

ورد التَّعبيرُ في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَٰذِهِۦۖ وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةٞ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓۗ﴾، بقدوم الحسنة بالمجيء، والتَّعبير بوقوع السَّيِّئة بالإصابة؛ للدّلالةِ على الفرقِ بينَ الحسنةِ والسَّيِّئة في نظر قوم فرعون، فالحسنةُ عندَهم: هي ما يتمنَّوْنَه ويطلبونَهُ ويُحبُّونَهُ، والسَّيئةُ في مفهومهم: هي ما يكرهونَهُ ويخافونَهُ ويَفرُّون منه.

كما أنَّ التَّعبير بقدوم الحسنة بفعل بالمجيء يدلُّ على أنَّ الحسنة

تأتي مِنَ اللّه تعالى بإذنه ورحمته وفضلِه، وأنَّ المؤمنين يستقبلونها بالشُّكر والحمد والرِّضا.

أمَّا التَّعبير بوقوع السَّيِّئة بفعلِ الإصابة فيدلُّ على أنَّ السَّيِّئَةَ تأتي مِنَ اللّه تعالى، كذلك بحكمته وقُدرته وعَدْله، وأنَّ المجرمين يصابون بها بسبب ذنوبهم وجرائمهم وظلمهم، وهو مصداقُ ما قرَّره اللّهُ تعالى بقوله: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ۚ﴾ [النساء: 79]؛ فما أصاب الإنسانَ مِن خير ونِعمة فهو مِنَ اللّه تعالى وحدَه، فضلًا وإحسانًا، وما أصابه مِن جَهْد وشِدَّة فبسبب أعماله السَّيِّئة، وما اقترفتْه يداه مِنَ الخطايا والسَّيِّئات.

سِرُّ تعريفِ (الحسنةِ)، وتنْكيرِ (السَّيِّئةِ):

التَّعريفُ جاءَ لإفادةِ الجِنْسِ قصْدًا إلى التَّكثير، والتَّنكيرُ لِبيانِ القِلَّةِ

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ﴾، وفيه عُرِّفَتِ ﴿ٱلْحَسَنَةُ﴾ بأل المعرِّفة لحقيقة الجنس؛ لتكونَ والنَّكرةُ سواءً، ووقوعُها ووقوعِ النكرةِ في سياق الشَّرط في هذه الآية يعمُّ كلَّ حسنة وكلَّ سيِّئة. والحسنة والسَّيِّئة هنا مُرادٌ بهما الحالةُ الحسنة والحالةُ السَّيِّئة[1]. فتعريفُ الحسنة، وتنكير السَّيِّئة فنٌّ عجيبٌ مِن فنون عِلْم المعاني؛ إذ عرَّف الحسنةَ باللَّام لإفادة الجنس قصدًا إلى التَّكثير، ونكَّر السَّيِّئة لبيان القِلَّة[2]، وللدّلالة على حالِ قوم فرعون الذين كانوا ينسُبون كلَّ خيرٍ إلى أنفسهم ويستحِقُّونه، وينسُبون كلَّ شَرٍّ إلى موسى عليه السلام وأتباعِه ويتشاءمون به، وهذا يُظهِر جحودَهم وكُفرَهم وغرورَهم بأنفسهم، وعدمَ اعترافِهم بقُدرة اللّه تعالى وحِكمته في تدبير الأمور. كما أنَّ تعريف الحسنة وتنكير السَّيِّئة يُبْرِز التَّضادَّ بينَ المؤمنين والكافرين في رؤية الأشياء، فالمؤمن يرى كلَّ شيء مِنَ اللّه تعالى، فإذا

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 9/65.

(2) جاهين، من صور البلاغة القرآنيَّة في سورة الأعراف، ص: 172.

أصابته نعمةٌ فهو يشكر الله عليها ويستخدمُها في طاعته، وإذا أصابته مصيبةٌ فهو يصبرُ عليها ويستغفرُ مِن ذنبه، ولا يقول إلَّا ما يُرضي ربَّه، أمَّا الكافر فيرى كلَّ شيء مِن نفسه، أو مِن غير الله، فإذا أصابته نعمةٌ فهو يفخر بها ويستعلي بها على خَلْق الله، وإذا أصابته مصيبةٌ فهو يَجْزَع ويَقْنَط ويَلُومُ مَن خالَفَه، ولا يقول إلَّا ما يُغضِبُ ربَّه.

دَلالةُ اقترانِ المُعرَّفِ بحرف التَّحقيقِ، واقترانِ المُنَكَّر بحرفِ الشَّكِّ:

سَعةُ إحسانِ اللهِ، إيحاءٌ بكثرةِ وقوعِ الحسناتِ، ونُدْرةِ وقوعِ السَّيِّئاتِ

في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَتهُمُ الحَسَنَةُ﴾ قُرِنَ تعريفُ الحسنة بأداة التَّحقيق ﴿فَإِذَا﴾ الشَّرطيَّة المفيدةِ للتَّكرار؛ لأنَّ الغالب في (إذا) الدّلالة على اليقين بوقوع الشَّرط، أو ما يقرب مِنَ اليقين، ووقوعُ جنسِ الحسنة كالواجب؛ لكثرته واتِّساعه، فالحسناتُ، أي: النِّعم، كثيرةُ الحصولِ، تنتابهم متواليةً؛ مِن صحَّةٍ، وخِصْبٍ، ورخاءٍ، ورفاهيَّةٍ؛ لأنَّ إحسان الله هو المعهود الواسع العامُّ لخَلْقه، والأصلُ الثَّابتُ: غلبةُ رحمةِ الله وفضلِه على سخطه وعقابه، بحيث إنَّ إحسانه لخَلْقه عامٌّ حتَّى في حال الابتلاء، ولأنَّ الحسنة أمرٌ محبوبٌ، فكلُّ أحدٍ يتمنَّاها، فيكونُ تعلُّق الإرادةِ بإحداثها بالذَّات؛ لأنَّ العنايةَ الإلهيَّة اقتضت سَبْق الرَّحمة، وعمومَ النِّعْمَة قبل حصول الأعمال.

وجِيءَ في جانب السَّيِّئة في قوله: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ﴾ بحرف الشَّك (إنْ)؛ لأنَّ الغالب أن تدلَّ (إنْ) على التَّردُّد في وقوع الشَّرط، أو على الشَّكِّ، والنُّدور؛ ولكون الشَّيءِ النَّادرِ الحصولِ غيرَ مجزومٍ بوقوعه، ومشكوكًا فيه؛ جِيءَ في شرط إصابة السَّيِّئة بحرف (إن)، لنُدْرة وقوعِ السَّيِّئات، أي: المكروهاتِ عليهم، بالنِّسبة إلى الحسنات، فلا يقع إلَّا شيءٌ منها؛ لأنَّه أمرٌ مَذْمُوم، كلُّ أحدٍ يَحْذَره، ولعدم القصد لها وتعلُّقِ الإرادة بإحداثها إلَّا بالتَّبع والعَرَض؛ فإنَّ

النِّقمة بمقتضى تلك العناية إنَّما تُستَحَقُّ بسبب الأعمال السَّيِّئة، والشَّرِ الحاصل مِنَ النَّاس[1].

بَلاغةُ التَّعريضِ في الآية:

التَّعبيرُ عن قساوةِ آلِ فرعونَ، وسُوءِ تَصرُّفهم؛ للإلماحِ إلى غَباوتِهم

في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَٰذِهِۦۖ﴾: يتضمَّن هذا التَّعبيرُ إغراقًا في وصفهم بالغباوة والقساوة، فإنَّ الشَّدائد تُرقِّق القلوب، وتُذلِّل العرائكَ، ولاسيَّما بعد مشاهدة الآيات، وهم لم تؤثِّر فيهم، بل زادوا عُتوًّا وانهماكًا في الغيِّ[2]. وفي ذلك تعريضٌ بأنَّ نِعَم اللّٰه كانت متكاثرةً لدَيهم، وأنَّهم كانوا مُعْرِضِين عنِ الشُّكر، وتعريضٌ بأنَّ إصابتهم بالسَّيِّئات نادرةٌ، وهم يعُدُّون السَّيِّئات مِن جَرَّاء موسى ومَن آمن معه، فهم في كلتا الحالتين بين كافر بالنِّعمة، وظالمٍ لموسى ومَن معه، ولهذَينِ الاعتبارَين عُرِّفتِ ﴿ٱلۡحَسَنَةُ﴾ تعريفَ الجنس المعروف في عِلْم المعاني بالعهد الذِّهنيِّ، أي: جاءتهم الحسنات؛ لأنَّ هذا الجنسَ محبوبٌ مألوفٌ كثيرُ الحصول لدَيهم، ونُكِّرَتْ ﴿سَيِّئَةٌ﴾ لنُدْرَة وقوعِها عليهم، ولأنَّها شيءٌ غيرُ مألوفٍ حلُوْلُه بهم، أي: وإنْ تُصبهم أيَّةُ سيِّئة[3].

بَلاغةُ التَّعبيرِ بالطِّباقِ والجِناسِ:

إيضاحُ المعنى وبيانُه، لمَيْلِ النَّفسِ نحوَ التَّشوُّقِ والإصْغاءِ

﴿ٱلۡحَسَنَةُ﴾ ضِدُّ ﴿سَيِّئَةٌ﴾، وهما مِن طباق الإيجاب الذي يُفصِح عن دلالة الرَّبط المؤدِّي إلى مزيدِ إيضاحِ المعنى وبيانه.

وفي ﴿يَطَّيَّرُواْ﴾ و﴿طَٰٓئِرُهُمۡ﴾ جناسٌ اشتقاقيٌّ، أحدثَ ميلًا للنَّفس نحو التَّشوُّقِ والإصغاء، فضلًا عن إكساب التَّعبير جَمالًا وحُسنًا.

(1) الزَّمخشريُّ، الكشَّاف: 2/144 - 145، والبيضاويُّ، أنوار التَّنزيل: 3/30، وأبو حيَّان، البحر المحيط: 4/370، وابن عادل، اللُّباب: 9/276، ومحمد رضا، تفسير المنار: 9/77، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 9/64 - 65، وطنطاويّ، التَّفسير الوسيط: 5/358.

(2) البيضاويُّ، أنوار التَّنزيل: 3/30.

(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 9/65.

نُكْتَةُ التَّعْبير بصِيغة التَّفعُّلِ، في قولِه: ﴿يَطَّيَّرُواْ﴾:

التَّطيّرُ ظلمٌ للواقعِ، وجَوْرٌ على الحقِّ

و﴿يَطَّيَّرُواْ﴾: أصلُه يتطيَّروا، أُدغمت التَّاءُ في الطَّاء لقُرْب مخرجِهما، واشتقاقُ التَّطَيُّر مِنَ الطَّير؛ كالغُراب وشِبْهِه، وسُمِّي الشُّؤمُ ضِدُّ اليُمْنِ طيرًا وطائرًا؛ تسميَةً للمدلول باسم ما يدلُّ عليه، فإنَّهم يجعلون الطَّير والطَّائر أَمَارةً ودليلًا على شُؤْم الأمر، وبناءُ التَّفعُّل فيه للتَّجنُّب، أي: لبُعد الفاعل عن أصله، كَتَحَوُّبٍ، أي: تَجنُّبٍ وتباعُدٍ مِنَ الحُوْبِ، وهو الإثم[1]، أو أنَّهم صاغوه على وزن التَّفعُّل، لما فيه مِن تكلُّفِ معرفةِ حَظِّ المرءِ بدلالة حركاتِ الطَّير، أو هو مُطاوعة؛ سُمِّيَ بها ما يحصل مِنَ الانفعال مِن أثر طيران الطَّير، وكان العربُ إذا خَرجُوا في سَفَرٍ لحاجةٍ، نظروا إلى ما يُلاقيهم أوَّلَ سيْرِهم مِن طائرٍ، فكانوا يزعُمون أنَّ في مُروره علاماتِ يُمْنٍ وعلاماتِ شُؤْمٍ[2].

سِرُّ تَغْلِيبِ لفْظِ (الطِّيَرة) على (التَّشاؤُمِ):

تَوَقُّعُ الضُّرِّ أَدْخَلُ في النُّفوسِ، مِن رجاءِ النَّفْعِ المأنُوسِ

غلبَ لفظُ الطِّيرةِ على التَّشاؤم خاصَّة؛ لأنَّ للأثر الحاصل مِن دلالة الطَّيران على الشُّؤم دلالةً أشدُّ على النَّفْس؛ لأنَّ توقُّعَ الضُّر أدْخَلُ في النُّفوس مِن رجاء النَّفع. والمرادُ به في الآية: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓۗ﴾ أنَّهم يتشاءمون بموسى ومَن معه، وقالوا: ما أصابَنا ما أصابَنا إلَّا بشُؤمهم ونَحْسِهم، فاستُعمل التَّطَيُّر في التَّشاؤم بدون دلالة مِنَ الطَّير؛ لأنَّ قوم فرعون لم يكونوا ممَّن يَزْجُر الطَّير، فيما علمنا مِن أحوال تاريخهم، ولكنَّهم زعموا أنَّ دَعْوَة موسى عليه السلام فيهم كانت سببَ مصائبَ حلَّت بهم، فعُبِّر عن ذلك بالتَّطيُّر على طريقة التَّعبير العربيِّ[3].

(1) حقي، روح البيان: 3/217.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 9/65.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 9/66.

الغَرَضُ مِنَ التَّعْبيرِ بالباءِ، في: ﴿بِمُوسَىٰ﴾:

التَّطَيُّرُ بالهُدَى النّاصِحِ، والوَخْيِ السّاطِحِ، سَفاهةٌ وضلالةٌ

الباءُ بعدَ فِعْلِ التَّطَيُّرِ هي باء السَّببيَّة، تدخل على مُوجِبِ التَّطَيُّر، وهو قوله: ﴿بِمُوسَىٰ﴾، وعُطِف عليه: ﴿وَمَن مَّعَهُۥٓ﴾، أي: مَن آمنوا به؛ لأنَّ قوم فرعون يَعُدُّون مُوجِبَ شُؤْم موسى هو ما جاء به مِنَ الدِّين الخارجِ عن أعرافهم وتقاليدهم؛ لأنَّه لا يُرضِي آلهتَهم ودينَهم، ولولا دِينُه لم يكن مشؤومًا، كما قالت ثمود: ﴿قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ﴾ [هود: 62][1].

سِرُّ التَّعْبيرِ بأداةِ الاسْتِفتاحِ والتَّنبيهِ:

إبرازُ كَمالِ العِنايةِ بالمضمونِ، من شأنِه إيضاحُ الدّلالةِ المُتاحَةِ

قولُه تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ﴾ استئنافٌ مَسُوقٌ مِن قِبَله تعالى؛ لردِّ مقالتِهم الباطلةِ، وخرافاتهم مِنَ التَّشاؤم بموسى ومَن معه، وإحقاقِ الحقِّ في ذلك، أي: ليس سببُ خيرِهم إلَّا عنده تعالى، وهو حُكْمُه ومَشيئتُه المُتَضمِّنةُ للحِكَم والمصالحِ، أو ليس سببُ شؤمِهم - وهو أعمالُهم السَّيِّئة - إلَّا عندَه تعالى، أي: مكتوبةٌ لدَيه، فإنَّها التي ساقت إليهم ما يسوؤهم، لا ما عداها[2]. وتصديرُه الرَّدَّ عليهم بأداة الافتتاح والتَّنبيه: ﴿أَلَآ﴾؛ للتَّنبيه والاهتمامِ بالخبر الواردِ بعدَه، وتوكيدِه، وإبرازِ كمالِ العنايةِ بمضمونِه؛ تعليمًا للأُمَّة، وتعريضًا بمشركِي العرب[3]، إذِ المرادُ بها: توجيهُ ذِهْن القارئِ لما يُلْقَى بعدَها؛ حتَّى لا يفوتُه شيءٌ منه، أي: ألَا فلْيَعْلَموا أنَّ الشُّؤمَ الذي نسبوه إلى موسى، وعَدُّوه مِن آثار وُجوده فيهم، هو عند الله تعالى، لا عند موسى ومَن معَه[4].

وناسبَ كَذِبَهم في موضعي: (مجيء الحسنة، والإصابة بالسَّيِّئة)، الاستئنافُ على وجه التَّأكيد: ﴿أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ﴾، أي: قَدَرُهم الذي سَبق في الأزل مِنَ الخير والشَّرِّ، فلا يَزداد ولا يَنقُص[5].

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 9/66.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 3/264.
(3) قباوة، المُفَصَّل، ص: 592، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 9/67.
(4) محمد رضا، تفسير المنار: 9/77.
(5) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 3/89.

بَلاغةُ المجازِ، والإظهارِ في مقامِ الإضمارِ، في قوله: ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾:

و﴿عِندَ﴾ مستعمَلةٌ في التَّصرُّف مجازًا؛ لأنَّ الشَّيء المُتَصرَّفَ فيه كالمستقرِّ في مكان، أي: سببُ شؤمِهم مُقدَّرٌ مِنَ اللّه[1]، المَلِكِ الذي لا أمرَ لغيره، وقد قَدَّر كلَّ شيء، فلا يَقْدِر على المَجِيء به غيرُه أصلاً[2]. وفي الجُملة: إظهارٌ في مقام الإضمار؛ إذ قال: ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾، ولم يَقُل: (عندي)؛ مبالغةً في ذمِّهم، بوصْفِهم أنَّهم لا يعلمون، وتعظيمًا وتَلَذُّذًا بذِكْر الاسم الشَّريف، أي: الذي له القدرةُ الكاملةُ، والعِلْمُ الشَّامل[3].

الشَّيءُ المُتَصرَّفُ فيه كالمُستقِرِّ في مكانٍ، وهو كذلك للمُبالغةِ في الذَّمِّ

وَجْهُ تَعَدُّدِ القراءاتِ، في قولِه: ﴿يَطَّيَّرُواْ﴾:

وقُرِئَ شاذًّا: (تَطَيَّرُوا) بالتَّاء وتخفيف الطَّاء، فعلًا ماضيًا، وهو جواب: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ﴾؛ ليكون فِعْلُ الشَّرط مضارعًا، وفعلُ الجزاءِ ماضيَ اللَّفظ[4]، وتُفيد صيغةُ مُضيِّه تَحقُّقَ فعلِ التَّطَيُّر بمن أُصيبَ بالسَّيِّئة، أو سيُصابُ بها، وانقضاءَه، وثبوتَه فيهم.

تَحقُّقُ وقوعِ الفعْلِ، وثُبُوتُه فيهم، دليلٌ على تأصُّلِ هذا الأمْرِ عندَهم

بَلاغةُ التَّصريحِ بلفْظِ: (الطَّائر)، على طريقِ الاستعارةِ:

الطَّائر: اسم للطَّير الذي يثار ليُتَيَمَّن به أو يُتشاءم[5]، وهو مأخوذ مِن زَجْر الطَّير، فسُمِّيَ ما عند اللّه مِنَ القَدَرِ للإنسان طائرًا؛ لمَّا كان الإنسان يعتقد أنَّ كلَّ ما يصيبه إنَّما هو بحسب ما يراه في الطَّائر، فهي استعارة[6] تصريحيَّة تبعيَّة؛ إذ عبَّر عمَّا عند اللّه تعالى بالطَّائر، تشبيهًا له بالطَّائر الذي يُستدلُّ به على الخير والشَّرِّ، أو سببُه شؤمُهم عند اللّه تعالى، وهو أعمالهم السَّيِّئةُ المكتوبةُ عنده، فإنَّها التي ساقت إليهم ما يسوؤهم لا ما عداها، فالطَّائر عبارةٌ

تسميّةُ المدلولِ باسمِ الدَّليلِ، بناءً على أنَّهم يَستدلُّون بالطَّيرِ على الشُّؤْمِ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 9/67.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 3/89.
(3) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 6/464.
(4) ابن عطيَّة، المحرّر الوجيز: 2/443، وأبو حيَّان، البحر المحيط: 4/370. وهي قراءة شاذة.
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 9/67.
(6) الشّريف الرّضّي، تلخيص البيان، ص: 76، وابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 2/443.

عنِ الشُّؤم، على طريق تسمية المدلول باسم الدَّليل؛ بناءً على أنَّهم يستدلُّون بالطَّير على الشُّؤم[1]، فاستُعير هنا للسَّبب الحقِّ؛ لحلول المصائب بهم بعلاقة المُشاكلة، لقوله: ﴿يَطَّيَّرُواْ﴾، فشُبِّه السَّببُ الحَقُّ - وهو ما استحقُّوا به العذابَ مِن غضب الله - بالطَّائر[2].

سِرُّ أُسلوبِ القَصْرِ، بالأداةِ ﴿إِنَّمَا﴾:

﴿إِنَّمَا﴾: أداةُ حصر، قَصَرَتِ الصِّفةَ على الموصوف، وجِيء بها للمبالغة في التَّوكيد، والقَصْرُ المُستفادُ منها إضافيٌّ، أي: سوءُ حالهم عِقابٌ مِنَ الله، لا مِن عندِ موسى ومَن معه، فلا ينافي أنَّ المؤمنين يعلمون أنَّ سببَ حلولِ المصائب بأهل الشِّرك المعاندين للرُّسل، هو شِركُهم وتكذيبُهمُ الرُّسلَ، فهم يعلمون ذلك بأخبار الرُّسل، أو بصدق الفِراسة وحُسْن الاستدلال. فأمَّا المشركون وأضرابُهم مِن أهل العقائد الضَّالَّة، فيُسندونَ صدورَ الضَّرر والنَّفع إلى أشياءَ تُقارِنُ حصولَ ضُرٍّ أو نفع، فيتوهَّمون تلك المقارنةَ تسبُّبًا، ولذلك تراهم يتطلَّبون معرفةَ حصولِ الخير والشَّر مِن غير أسبابها، ومِن ذلك الاستقسامُ بالأزلام[3].

سُوءُ حالِ القومِ، عِقابٌ مِنَ اللهِ العظيمِ، لا مِن عندِ موسَى الكليمِ

قَصْديَّةُ التَّعْبيرِ بالاعتراضِ، والاسْتِدراك:

جملة: ﴿أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمۡ عِندَ ٱللَّهِ﴾ معترضةٌ؛ ولذلك فُصِلَت، والاستدراكُ المُستفاد مِن ﴿وَلَٰكِنَّ﴾ عمَّا يوهمُه الاهتمامُ بالخبر الذي قبله؛ لاقترانه بأداة الاستفتاح، واشتماله على صيغة القصر: مِن كون شأنِه أن لا يجهلَه العقلاءُ، فاستدركَ بأنَّ أكثر أولئك لا يعلمون، فهو توكيدٌ لما قبله، وتحقيقٌ لما بعدَه بالحصر، فالضَّمير في قوله: ﴿أَكۡثَرَهُمۡ﴾ عائدٌ إلى الذين ﴿قَالُواْ لَنَا هَٰذِهِۦ﴾، وإنَّما نفى

تَوكيدُ (وَإِنْ تُصِبْهُم سَيِّئَةٌ يَطَّيَّروا) لما سَبَقَ، وتَحقيقٌ لما لَحِقَ

(1) حقِّي، روح البيان: 3/218.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 9/67.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 9/67.

العلمَ عن أكثرهم تنبيهًا على أنَّ قليلًا منهم يعلمون خِلاف ذلك، أي: يعلمون أنَّ ما أصابهم مِنَ الخير والشَّرِّ مِن جهة الله تعالى، أو يعلمون أنَّ ما أصابهم مِنَ المصائب والبلايا ليس إلَّا بما كسبتْ أيديهم، ولكنَّهم يُشَايعُون مقالةَ الأكثرين[1]، فلا يعملون بمقتضى عِلْمهم عِنادًا واستكبارا[2].

بَلاغةُ الإضْمارِ استغناءً بالمذكورِ عنِ المستورِ:

إطلاقُ الجَهلِ، ونَفيُ العِلْمِ بمشْمولاتِه، من بليغِ البيانِ

قولُه تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ إيجازٌ؛ بحَذْف ما دلَّ السِّياقُ عليه، والتَّقدير: ولكنَّ أكثرهم لا يعلمون أنَّ طائرَهم عند اللّٰه[3]، واستغنى بالمذكور اقتصادًا لفظيًّا، وإطلاقًا للجهل، ونفيًا للعِلْم بمشمولاته، وفي إسناد عدمِ العِلْم إلى أكثرهم؛ إشعارٌ بأنَّ قلَّةً منهم تعلم ذلك، ولكنَّها لا تعملُ بمقتضى علمها[4].

مُناسبةُ الفاصلةِ لسِياقِ الآيةِ:

مِن دَقيقِ النَّظْمِ إتمامُ الجَهلِ، وبيانُ عدَمِ العلْمِ

ناسبت فاصلةُ الآية: ﴿لَا يَعۡلَمُونَ﴾ مُفتَتَحها، بنسبة الحسنة والسَّيِّئة كذبًا وجهلًا، وناسبت أيضًا مُفتتحَ الآيةِ التي بعدَها؛ إذ حَسِبوا أنَّ ما أتى به موسى سِحرٌ، وهم بما جاء به لا يؤمنون، وذلك تمام الجهل، وعدمِ العلم.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

المَجيءُ والإصابةُ:

المجيء: الحصول والإصابة، وإنَّما عَبَّر في جانب الحسنة بالمجيء؛ لأنَّ حصولَها مرغوبٌ، فهي بحيث تُتَرقَّب كما يُتَرقَّب

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 9/67.

(2) حقّي، روح البيان: 3/218. ولابن عطيَّة ثلاثة توجيهات أخرى في لفظة: ﴿أَكۡثَرَهُمۡ﴾، استبعدها أبو حيَّان، وذكر أنَّ فيها تجوّزًا في العبارة، أعرضنا عن ذكرها لتجنّب المشتبه مِنَ التَّفسيرات، ممَّا يُثار حولَه الخلاف، يُنظر: ابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 2/443، وأبو حيَّان، البحر المحيط: 4/370.

(3) الإندونيسّي، الشَّامل: 1/421.

(4) طنطاويّ، التَّفسير الوسيط: 5/358.

الجَائِي، وعَبَّر في جانب السَّيِّئة بالإصابة؛ لأنَّها تحصُل فجأةً مِن غير رغبة ولا تَرَقُّب[1]، فالمجيءُ مع الحسنة مجيءٌ مُجرَّدٌ مِنَ العُنف والشِّدَّة، ومع السَّيِّئة إصابةٌ، تعني: البطشَ والرَّدْع[2].

المجيءُ حُصولٌ مرغوبٌ، والإصابةُ مُفاجِئةٌ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 9/64.

(2) قباوة، المفصَّل، ص: 591.

﴿وَقَالُواْ مَهۡمَا تَأۡتِنَا بِهِۦ مِنۡ ءَايَةٖ لِّتَسۡحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحۡنُ لَكَ بِمُؤۡمِنِينَ ١٣٢﴾ [الأعراف: 132]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الرَّبْطُ بين تَطيُّرِهم بالحقِّ ورسولِهِ، وإعلانِهم الكُفرَ مهما كان الدّليلُ

حَكَى اللّهُ عنهم نوعًا آخَرَ مِنَ الجَهل والضَّلالة، وهو أنَّهم لم يُميِّزُوا بينَ المعجزاتِ والسِّحْر، وجعلوا آياتِ موسى مِن باب السِّحْر، فلا يُقبلُ منها شيء[1]؛ ممَّا يعني: أنَّ الأخذ بالسِّنين، ونقصِ الثَّمرات، لم يزدهم إلَّا طغيانًا وتَشَدُّدًا في كُفْرهم وتكذيبهم[2].

المَعْنى الإجْماليُّ:

تأكيدُ طُغيانِ قومِ فرعونَ الصُّراحِ، وقَطْعِهم على أنفُسِهم بالكُفرِ البَواحِ

يخبر اللّهُ تعالى عن قومِ فرعونَ قولَهم: إنَّك إنْ تَجِئْنا بكلِّ نوعٍ مِن أنواع الآيات التي تَستَدِلُّ بها على أَحقّية دعوتِك؛ لأجل أنْ تَصْرِفَنا بها - بدِقَّة ولُطفٍ في التَّأثير - عمَّا نحن عليه مِن ديننا، ومِن تسخيرنا لقومِك في خِدمتنا، فما نحن لكَ بمصدِّقينَ، ولا لرسالتك بمتَّبِعينَ[3].

ويدلُّ منطقُهم هذا على منتهى العِناد والجُحود؛ برفضهم الدَّليل السَّاطع بنوره الواضِح، ورفضِهم كلَّ سُبلِ الإقناع؛ لأنَّهم أعلنوا الإصرارَ على التَّكذيب، حتَّى ولو أتاهم نبيُّهم بألف دليلٍ ودليل، وأخذتهم العِزَّةُ بالإثم، فأَبَوا أيَّ لونٍ مِن ألوان التَّفكير والتَّدبُّر[4].

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/177، وابن عادل، اللُّباب: 9/279.
(2) أبو حيَّان، البحر المحيط: 4/370.
(3) محمد رضا، تفسير المنار: 9/78.
(4) ابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 2/443، وطنطاويّ، التَّفسير الوسيط: 5/358 - 359.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

سِرُّ عَوْدِ الضَّمير، وعَطْفِ الجُملةِ:

الضَّمير في: ﴿وَقَالُواْ﴾ عائدٌ على آل فرعون[1]، والجُملة معطوفة على جملة: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ﴾ [الأعراف: 130]، فهم قابلوا المصائبَ - التي أصابهم اللّهُ بها ليذَّكَّرُوا - بازديادِ الغُرور، فأيسوا مِنَ التَّذكُّر بها، وعاندوا موسى حين تحدَّاهم بها، فقالوا: مهما تأتنا به مِن أعمال سِحْرِكَ العجيبةِ، فما نحنُ لكَ بمؤمنين، أي: فلا تُتْعِب نفسَكَ في السِّحْر[2].

مُقابلةُ المصائبِ بالغُرورِ، والتَّنوازلِ بالاستِكبارِ الكَفورِ

دَلالةُ تنوُّعِ المعاني وتَعدُّدِ التَّوجيهاتِ، في تَركُّبِ: ﴿مَهْمَا﴾:

في تركُّب لفظ ﴿مَهْمَا﴾، خلاف بينَ العلماء، وأشهر الآراء فيه: أوّلًا: أنَّها مُركَّبة مِن (ما) المتضمِّنة لمعنى الشَّرط والجزاء، زِيدَت عليها (ما) الثَّانية، ورُكِّبتْ معها؛ توكيدًا لمعنى الشَّرط، فهي زائدةٌ لازمة[3]، أو لزيادة معنى الإبهام[4]، وقُلِبَتْ ألفُ (ما) الأولى هاءً؛ استثقالًا لتوالي الأمثال، وتكرير المتجانِسَين، وللتَّشابه الصَّوتي بينَ الهاء والألف، مِن صفةِ همس، وتقاربٍ للمَخرج[5]. وتفيد دلالةُ هذا التَّوجيه إصرارَ آلِ فرعون على الجُحود والنُّكران، بالشَّرط المتلبِّس بالتَّوكيد.

اشْترطُوا على أنفُسِهم، تأكيدًا لعدمِ الإيمانِ؛ وإصرارًا على النُّكْرانِ

ثانيًا: أو أنَّها مكوَّنة مِن اسمِ الفعل (مَه)، رُكِّبتْ معها (ما) الشَّرطيَّة، ويكون المعنى: أُكْفُفْ ما ﴿تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾[6]، أو كُفَّ عن أن تأتينا بأيةِ آيةٍ فلن نُصدِّقك،

(1) أبو حيَّان، البحر المحيط: 4/370.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 9/68.
(3) وهو رأي الخليل، وتابعه جمهور العلماء مِن نحويين، ومفسِّرين. ينظر: سيبويه، الكتاب: 3/59 - 60، والواحديُّ، التَّفسير الوسيط: 2/398.
(4) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاوي: 8/480.
(5) رياض الخوَّام، (مهما) في الدَّرس النَّحويّ، ص: 9 - 10.
(6) الزَّجَّاج، معاني القرآن وإعرابه: 2/269، وعزاه إلى قوم لم يسمّهم؛ وبذا تكون نسبة النَّحويين الرَّأيَ إليه غير دقيقة، يُنظر: الخوّام، (مهما) في الدَّرس النَّحويّ، ص: 20 - 22.

بتضمُّن معنى الرَّدع مُزادًا على الجُحود والكُفران؛ ممَّا يعني أنَّ هناك إصرارًا وعنادًا على عدم الإيمان[1]؛ لأنَّ (مَه) كلمةٌ يُصَوِّتُ بها النَّاهي[2].

ثالثًا: أو هي اسمٌ مُضَمَّن معنى الشَّرط، وأصلُها: (ما) الموصولة، أو النَّكرةُ الدَّالَّة على العُموم، ورُكِّبتْ معها (ما) لتصييرها شرطيَّةً، وجُعلتِ الألفُ الأولى هاءً؛ استثقالًا لتكرير المتجانِسَين، ولقُرب الهاء مِنَ الألف، فصارت: ﴿مَهْمَا﴾، ومعناها: (شيءٌ ما)، وهي مُبهَمَة؛ فيؤتى بعدَها بـ﴿مِنْ﴾ التَّبيينيَّة، وعلى هذا يكون معنى الآية الكريمة: إن تأتِنا بشيء مِنَ الآيات، فما نحن لكَ بمؤمنين[3].

نُكتةُ رفْعِ ﴿مَهْمَا﴾ على الابتداءِ، أو نصْبِها على الاشتغالِ:

اسْتِغراقُ العمومِ، يأتي لِترسيخِ نَفْيِهم الإتيانَ أيًّا كان كُنْهُه

و﴿مَهْمَا﴾ اسمُ شرطٍ جازِمٌ مَبْنِيٌّ على السُّكون في محلِّ رفعٍ بالابتداء، والتَّقدير: (أيُّما شيءٍ تأتينا به)، وخَبرُه الشَّرطُ، وجوابُه: ﴿فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾، ويجوز كَونُها في محلِّ نَصْب لفعل محذوفٍ يدلُّ عليه فعلُ الشَّرط: ﴿تَأْتِنَا بِهِۦ﴾ المذكور؛ فيكون مِن باب الاشتغال، ويُقَدَّر الفعلُ متأخِّرًا عنِ اسم الشَّرط، والتَّقدير: أيُّ شيءٍ تحضرنا تأتينا به[4].

إيثارُ التَّعْبيرِ بالمضارع المجزومِ، في فعْلِ الشَّرطِ:

التَّلميحُ إلى عدمِ مُبالاتِهم، وترسيخِ إصرارِهم على الكِبْرِ والعِنادِ

﴿تَأْتِنَا﴾ عطفُ بيانٍ، أو تفسير لـ ﴿مَهْمَا﴾، ولذلك جُزِمَ بحذف حرف العلَّة[5]، وكأنَّ في الحذف إلماحًا بلا مُبالاتهم بما سيأتي به موسى، وعَدَلَ عن لفظ المجيء إلى لفظ الإتيان؛ لأنَّ المجيء يُقال باعتبار الحصول، أمَّا الإتيانُ فيُقال باعتبار القَصْد، وقد أشرنا إلى

(1) الشَّعراويُّ، تفسير الشَّعراويّ: 7/4318.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 3/264.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 9/68.
(4) الزَّمخشريُّ، الكشَّاف: 2/146، وأبو حيَّان، البحر المحيط: 4/371، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 9/68.
(5) الشِّهاب، عناية القاضي: 4/354.

ذلك آنفًا، والموضع مَظِنَّة القصد، مناسبٌ لصيغة المضارع الدالِّ على الاستقبال، أي: وإنِ استمرَّ إتيانُكَ بالآيات وتجدَّدَ؛ وذلكم مبلَغُ المكابرة والعناد.

نُكْتَةُ تذكيرِ الضَّميرِ وتأنيثِه، في قوله: ﴿بِهِۦ﴾ و﴿بِهَا﴾:

مُراعاةُ اللَّفظِ من حُسنِ النَّظمِ وبديعِه

الباء في ﴿بِهِۦ﴾ للتَّعديَة، وذَكَّر الضَّمير فيه، وأنَّثه في ﴿بِهَا﴾ رعيًا للطيفة فيه؛ وهي أنَّ الضَّمير الأوَّل لمَّا عاد إلى ﴿مَهْمَا﴾ - ولفظُه مُذَكَّر - ذُكِّر رَعيًا لجانب اللَّفظِ لإبهامه، والضَّمير الثَّاني إنَّما رجع إليه بعدَ ما بُيِّنَ بقوله تعالى: ﴿مِنْ ءَايَةٍ﴾، فأُنِّثَ بهذا الاعتبار؛ للمحافظة على جانب المعنى[1].

سِرُّ التَّعبير بحرفِ التَّبْيينِ ﴿مِنْ﴾، وأثرُه في البيانِ:

الاستهزاءُ والتَّعنُّتُ والمُكابرةُ، مع الإصرارِ على الكُفرِ، دَواعٍ للهلاكِ

﴿مِنْ﴾ التَّبيينيَّةُ و﴿ءَايَةٍ﴾، كلاهما لبيان إبهام ﴿مَهْمَا﴾، وسَمَّوا ما جاء به موسى آيةً باعتبار الغرضِ الذي تحدَّاهم به موسى حينَ الإتيانِ بها؛ لأنَّ موسى يأتيهم بها استدلالًا على صدق رسالته، وهم لا يَعُدُّونها آيةً، ولكنَّهم جارَوا موسى في التَّسميَة؛ قاصدينَ بذلك الاستهزاءَ، والتَّلهِّي، والسُّخريَة، والتَّهكُّم؛ إذ زعموا أنَّها نوعٌ مِنَ السِّحر، كما يُنبِئُ عنه قولُهم: ﴿لِّتَسْحَرَنَا بِهَا﴾، ولو قالوا ذلك اعتقادًا لم يُردفوها بقولهم: ﴿لِّتَسْحَرَنَا بِهَا﴾، وبقولهم: ﴿فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾[2]، وكلُّ هذه مقدِّماتٌ تُبْرِز الإهلاكَ الذي قال الله فيه: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ﴾ [الأعراف: 129][3].

فائِدةُ فِعليَّةِ الجُملةِ، والتَّعبيرِ بالمضارع في: ﴿لِّتَسْحَرَنَا﴾:

إظهارُ كَمالِ طُغيانِهم، وغُلُوِّهم، وإصرارِهم على الكُفْرِ

اللَّام في قوله تعالى: ﴿لِّتَسْحَرَنَا بِهَا﴾ للتَّعليل، وعَبَّروا بالمضارع للدّلالة على نسبة تجديد فعل السِّحْر إليه، وفي التَّعبير بالضَّمير

(1) الطِّيبيُّ، فتوح الغيب: 6/532، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 3/264 - 265.
(2) الزَّمخشريُّ، الكشَّاف: 2/146، والنَّيسابوريُّ، غرائب القرآن ورغائب الفرقان: 3/307، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 9/68 - 69.
(3) الشَّعراويّ، تفسير الشَّعراويّ: 7/4318، وطنطاويّ، التَّفسير الوسيط: 5/359.

- ولم يقولوا: (لتَسْحَرَ بها) - إشارةٌ إلى أنَّهم مَحطُّ قصدٍ دون غيرهم، و(الباء) للاستعانة، وتعبيرهم بالجُملة الفعليَّة ترسيخٌ لتَجَدُّد حَدَثِ سِحْرهم، بحسب ظنِّهم، وفيه إظهارٌ لكمال الطُّغيانِ، والغُلوِّ، والإصرارِ على الكُفر، وتسميَةِ الإرشاد إلى الحَقِّ بالسِّحْر تسكيرٌ للأبصار[1].

بَلاغةُ التَّعْبير بالمؤَكِّداتِ، واسميَّةِ الجُملةِ، وتقديمِ الجارّ والمجرورِ:

ثبوتُ انْتِفاءِ الإيمان، بتعليقِه بموسَى عليه السلام

الفاء في ﴿فَمَا﴾ جوابيَّة للتَّرتيب، والتَّعقيب، والسَّببيَّة، رابطةٌ لجواب الشَّرط. واللَّام في ﴿لَكَ﴾ للفَرْق بين إيمان التَّصديق، وإيمان النَّجاة[2]. وجملةُ: ﴿فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ مفيدةٌ المبالغة في القَطْع بانتفاء إيمانهم بموسى؛ لأنَّهم صَدَّروا الجُملةَ بـ ﴿نَحْنُ﴾، وجاؤوا في كلامهم بما حوته الجُملةُ الاسميَّة التي حَكَتْهُ، مِنَ الدّلالة على ثبوت هذا الانتفاء ودوامِه، وبما تُفيدُه (الباء) مِن توكيد النَّفي، وما يُفيده تقديمُ مُتعلَّق ﴿بِمُؤْمِنِينَ﴾ مِنِ اهتمامهم بموسى في تعليق الإيمان به، المنفي باسمه[3].

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/264 - 265.
(2) قباوة، المفصَّل، ص: 592.
(3) أبو حيَّان، البحر المحيط: 4/370 - 371، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 9/69.

﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾﴾ [الأعراف: 133]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

حُلولُ العقوباتِ الفادحةِ، جزاءُ جرائرِ الكَفرةِ الفاضِحةِ

حين أخبروا عن أنفسهم أنَّهم لا يؤمنون بشيء ممَّا يجيء به موسى، مِنَ الآيات التي هي في زَعْمِهم مِنَ السِّحْر، نزلت بهم مِنَ اللّه ﷻ أصنافُ العقوبات[1]. ولـمَّا جنَّسُوا فنونَ المخالفاتِ، ونوّعوا أصنافَها؛ جنَّسَ عليهم العقوباتِ، فلا إلى التَّكفير عادوا، ولا إلى التَّطهير تَصَدَّوا، وعُوقبوا بصرف قلوبهم عن شُهود الحقائق؛ وذلك أبلغ ممَّا اتَّصل بظواهرهم مِن فنون البلايا، نعوذ باللّه مِنَ السُّقوط عن عين اللّه[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلطُّوفَانَ﴾: (طوف) أصلٌ واحدٌ صحيحٌ، يدلُّ على دَوَران الشَّيء على الشَّيء، وأن يُحَفَّ به ثمَّ يُحْمَل عليه[3]، والطُّوفان: الماءُ الذي يَغْشَى كلَّ مكانٍ، ويُحيط به[4]، وقيل: الطُّوفان المَوْت[5]، ويُقَال لِشدَّة سَوادِ اللَّيْل: طُوفان[6]. والطُّوفان مِن كُلِّ شَيءٍ: ما كان كثيرًا مُطِيفًا بالجَماعة كلِّها، كالغَرَقِ الذي يَشْتمِلُ على المدُن الكَبِيرَة، والمَطر، والقتل الذَّرِيع، والموت الجارف[7]، فالطُّوفان: كلُّ حادثة تُحيط بالإنسان.

(1) الشّوكانّي، فتح القدير: 2/271.
(2) القشيريّ، لطائف الإشارات: 1/560 - 561.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (طوف).
(4) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (طوف).
(5) ابن جرير، جامع البيان: 13/51.
(6) الأزهريُّ، تهذيب اللُّغة: (طوف).
(7) الزَّجاج، معاني القرآن وإعرابه: 4/164، والنَّحاس، معاني القرآن الكريم: 5/217.

وعلى ذلك قولُه: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ﴾ [الأعراف: 133]، وصار متعارفًا في الماء المتناهي في الكَثْرة؛ لأجل أنَّ الحادثة التي نالت قومَ نوح كانت ماءً، قال تعالى: ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ﴾ [العنكبوت: 14][1]، وبه فُسِّرتِ الآيةُ الكريمة عند أغلب المفسِّرين، قال الزَّمخشريُّ: "الطُّوفان ما طاف بهم وغلبهم مِن مطرٍ أو سيل"[2].

2) ﴿وَٱلْجَرَادَ﴾: يجوز أن يُجْعَل أصلًا فيُشْتَقُّ مِن فعله: جَرَدَ الأرض، ويصحُّ أن يُقال: إنَّما سُمِّيَ لجَرْدِه الأرضَ مِنَ النَّباتِ، يقال: أرضٌ مجرودة، أي: أُكِلَ ما عليها حتَّى تجرَّدتْ[3]، والجراد يأكل خَضِرَ الأرض التي يمرُّ بها، ويتركُها جَرْداء[4].

3) ﴿وَٱلْقُمَّلَ﴾: وهو الدُّبَى الذي لا أجنحة له[5]، أو دَوَابُّ أصغَرُ مِنَ الْقَمْل[6]، أو هي الصِّغار مِنَ الجَراد الذي ليس له أَجْنِحَة، وتُسَمَّى: الجنادِب[7]، أو هي دوابُّ صغارٌ مِن جنس القِرْدان، إلَّا أنَّها أصغرُ منه[8]، أو صِغار الذَّرّ[9]، ومع اختلاف تحديد نوع هذه الحشرة، إلَّا أنَّها لا تَخرج بمجموعها عنِ الاتِّفاق على كونها حشرةً مُضِرَّةً مُؤذِيَةً، أكَلَتْ كلَّ ما كان أبقى الجرادُ[10].

4) ﴿وَٱلضَّفَادِعَ﴾: جمع ضَفْدَع، أو ضُفْدَع، أو ضُفْدُع، أو ضِفْدَع، وهي: دابَّةٌ نهريَّة[11]، أو حيوانٌ برمائِيٌّ مِنَ الفقاريَّات، دقيقُ العظام، ذو نقيق، ليس له ذيل، سريع السِّباحة (للمذكَّر والمؤنَّث)[12]، وقد أُرسِلَت على قوم فرعون الضَّفادِع تَدْخل في ثيابِهم وفي طعامِهم[13].

5) ﴿وَٱلدَّمَ﴾: الدَّمُ معروف، وأصله: دَمَيٌ، أو دَمْيٌ، أو دَمَى، أو دَمًا[14]، وهو: مائعٌ أحمرُ

(1) الرّاغب، المفردات: (طوف).
(2) الزَّمخشريُّ، الكشَّاف: 2/146.
(3) الرّاغب، المفردات: (جرد).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقيُّ المؤصَّل: (جرد).
(5) الفرَّاء، معاني القرآن: 1/392.
(6) الزَّجاج، معاني القرآن وإعرابه: 2/370.
(7) الأنباريُّ، الزَّاهر في معاني كلمات النَّاس: 1/222، والكَفويُّ، الكلِّيَّات، ص: 738.
(8) النَّحاس، معاني القرآن: 3/70.
(9) الرّاغب، المفردات: (قمل).
(10) الفرَّاء، معاني القرآن: 1/392.
(11) الفيروزاباديّ، القاموس المحيط، ص: 742.
(12) مجموعة باحثين، المعجم الوسيط: 1/541، وأحمد مختار عمر، معجم اللُّغة العربيَّة المعاصرة: 2/1365.
(13) الزَّجاج، معاني القرآن وإعرابه: 2/370.
(14) الخليل، العين: (دمي)، والزَّجاج، معاني القرآن وإعرابه: 1/165، والأزهريُّ، تهذيب اللُّغة: (دمي).

تمتلئ به أثناءُ بدنِ الحيِّ، فيتجسَّمُ الحيُّ ويتماسك، كالدَّم المعروف في أثناء البدن وعُرُوقه[1]، وهو معنى لفظةِ (الدَّم) في الآية المباركة، أي: أرسل اللّهُ عليهم (الدَّمَ)، فتحوَّلت عيونُهم وأنهارُهم دمًا[2]، أي: جعل مَاءَهم دَمًا[3]، وكانوا يجدون الدَّم في ثيابهم وشرابهم وطعامهم[4].

6) ﴿مُّفَصَّلَٰتٍ﴾: (فصل) كلمةٌ صحيحة، تدلُّ على تمييز الشَّيء مِنَ الشَّيء وإبانتِه عنه[5]، والفَصْل: إبانةُ أحدِ الشَّيئين مِنَ الآخر، حتَّى يكون بينهما فُرْجَة[6]، وتَميُّزُ الشَّيءِ مِن غيره مع تمام، وتفصيل الشَّيء: تبيينُهُ، أي: جَعْلُه فُصولًا مُتمايزةً، بتمييز أجزائه، وتوضيح جُزْئيَّاته، فيصبحُ موضَّحًا، مُزالَ الإشكال[7].

و﴿ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ﴾، أي: إنَّ بعضها منفصِل مِنْ بعض[8]، أُزيل اتِّصالها، وفُرِّق بينَها، وأُزيلَ اشتراكُها وإشكالُها، فيجيءُ مِن ذلك بيانُها، فهُنَّ مبيَّناتٌ ظاهراتٌ مُتَميِّزاتٌ وواضحاتٌ، أو هُنَّ: مُفَرَّقاتٌ بالزَّمن[9]، فُصِل بين بعضِها وبعضٍ بزمانٍ تُمْتَحَنُ فيه أحوالُهم[10].

المَعْنى الإجْماليُّ:

لـمَّا تمادَوْا في كفرهم، وصرَّحوا بعدم الإيمان، أرسل اللّهُ عليهم أنواعَ العذاب؛ مِنَ ﴿ٱلطُّوفَانَ﴾ الذي غَشَّى المكانَ كلَّه ماءً، و﴿وَٱلْجَرَادَ﴾ فأكلتْ عامَّةَ زروعِهم وثمارِهم، و﴿وَٱلْقُمَّلَ﴾ فتَتَبَّعَ ما بقيَ مِن حُروثهم وأشجارهم، و﴿وَٱلضَّفَادِعَ﴾ تدخل في طعامهم

نِقَمُ اللهِ المتلاحقةُ، الّتي توالَى إنزالُها بالآياتِ الصّاعقةِ الماحِقةِ

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (دمي).
(2) الفرّاء، معاني القرآن: 1/392.
(3) الزجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 2/370.
(4) النَّحاس، معاني القرآن: 3/70.
(5) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (فصل).
(6) الرّاغب، المفردات: (فصل).
(7) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (فصل).
(8) الزَّجاج، معاني القرآن وإعرابه: 2/370.
(9) ابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 2/444، والزَّمخشريّ، الكشّاف: 2/148، وجبل، المعجم الاشتقاقيُّ: (فصل).
(10) الزَّمخشريُّ، الكشَّاف: 2/148.

وشرابهم، و﴿وَٱلدَّمَ﴾ فسالَ النِّيلُ عليهم دمًا، وصارت مياههم كلُّها دمًا، وأرسل اللّهُ كلَّ ذلك آياتٍ ظاهراتٍ مُتميِّزاتٍ، الواحدةَ بعدَ الأُخرى، وكانوا مع كلِّ آية مِن هذه الآيات يسألونَ موسى أنْ يرفع عنهم العذابَ، معاهدينَ إيَّاه بالإيمان، فإذا رفعه اللّهُ تعالى عنهم عادُوا جاحدينَ كافرينَ مستكبرينَ عن عبادته؛ لكونهم قومًا مجرمين[1].

وتُرشِدُ الآيةُ الكريمة: إلى أنَّ ما حصلَ مع آل فرعونَ مِن نَكْثِ العُهود، والمكابرة، والجُحود، يشابهُ حالَ كثيرٍ مِنَ المشركين؛ لإيمانهم وقتَ الشِّدَّة، وكُفْرِهم في الرَّخاء[2].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

بَلاغةُ الوصْل بالفاءِ، في قوله: ﴿فَأَرْسَلْنَا﴾:

الإصابةُ بهذه العقوباتِ الشِّدادِ، نِتاجٌ للعُتوِّ والعِنادِ

الفاء عاطفةٌ للتَّرتيب، والتَّعقيب، والإشعار بسببيَّة ما قبلَه، ولتفريع إصابتهم بهذه العقوبات، على عُتوِّهم وعنادهم[3]، وهي تُفيدُ سُرعة الإرسالِ مِن غير مُهْلة؛ جزاءً لِعُتوِّهم وإصرارهم على الكُفر، فإنَّ العذاب لن يتراخى عنهم[4].

عِلَّةُ صَوْغِ الإرسال ماضيًا، وتعدِّيه بـ(على):

تحقيقُ معنَى التَّسليطِ، وتَفْريعِ العذابِ

التَّعبير بالفعل الماضي يُفيد تَحَقُّقَ وقوعِ الفعل، وعُبِّر عن فعل الإرسال بالتَّسليط مِن قَبيل عموم المجاز[5]، والإرسالُ حقيقتُه: توجيهُ رسولٍ أو رسالةٍ، فيُعَدَّى إلى المفعول الثَّاني بـ (إلى)، ويُضَمَّن معنى الإرسال مِن فوق، فيُعَدَّى إلى المفعول الثَّاني بـ (على)، فحَرْفُ (على) المؤدِّي معنى الاستعلاءِ دلَّ على أنَّ جملة:

(1) الواحديُّ، الوجيز، ص: 409.
(2) اللاَّحِم، عون الرَّحمن: 9/274.
(3) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاوي: 8/481، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 9/69.
(4) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاوي: 8/483.
(5) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاوي: 8/484.

﴿فَأَرۡسَلۡنَا﴾ مُفَرَّعَةٌ تفريعَ العقابِ، لا تفريعَ زيادةِ الآيات[1]، و(نا) ضميرُ التَّعظيم المناسب لقُدرتِه تعالى وعَظَمَتِه.

سِرُّ تقديمِ الجارِّ والمجرور على المفعولِ:

تقديم ﴿عَلَيۡهِمُ﴾ على المفعول به الصَّريح ﴿ٱلطُّوفَانَ﴾؛ إذ الأهمُّ الإرسالُ عليهم؛ ولأنَّ للمفعول به الصَّريح طُوْلَ التَّذييل[2]، بتعالق المعطوفات معه فأصبح تعَدُّدُ صنوفِ العذاب وتعالُقُها مع بعضه تراتبًا، وتظافرُها عليهم وكأنَّها وعاءُ عذابٍ واحدٍ تعدَّدت صُورُه.

كَوْنُ اللّفظِ الأهمِّ، يُعطِيه الأولويّةَ، على خلافِ رُتبتِه الأصْليّةِ

بَديعُ تنوُّعِ الصِّيغِ الصَّرفيةِ، تعبيرًا عن صنوفِ العذابِ المرئيّةِ:

فالطُّوفَان: على وَزْن (فُعْلان) جمع طُوفانَة، أو اسمُ جنسٍ مُشْتَقٌّ مِنَ الطَّواف؛ لأنَّ الماء يَطُوف ويَعُمُّ بالمنازل، أي: تتكرَّر جِرْيَتُه حولَها، أو هو مصدرٌ كنُقصان، ورُجحان فلا يُجمَع، ويقال لكلِّ شيء حادث يُحيط بالجهات ويعمُّ.

والجَراد: على وَزْن (فَعَال)، بمعنى: اسم الفاعل؛ للمُبالغة مِن مصدر: (جَرَدَ)، عُبِّرَ به عنِ اسم الذَّات لتوكيد المبالغة.

ووزنُ قُمَّلٍ: (فُعَّل) صفة مُشَبَّهة للمُبالغة، مِن مصدر: قَمِلَ، عُبِّرَ به عنِ اسم الذَّات لتوكيد المُبالغة، وهو اسمُ جنسٍ، أصلُه (قُمْمَلٌ) أُدغِمت الميمُ الأُولى في الثَّانية[3].

وعُبِّرَ بالجمع عنِ الألفاظ للدّلالة على التَّكثير، باستثناء لفظ (الطُّوفَان) على تأويل الجنسيَّة والمصدريَّة. والدَّمُ المُصاغُ اسمَ جنسٍ دالٌّ على عُموم الجنس، قليلِه وكثيرِه.

دَلالاتُ غاياتِ ألوانِ العقابِ، أشدُّ في التّعْبيرِ عن صنوفِ العذابِ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 9/69.
(2) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاوي: 8/481.
(3) الشِّهاب، عناية القاضي: 4/354، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاوي: 8/481، وقباوة، المفصّل، ص: 593.

والألفُ واللَّام في الألفاظ الخمس عهديَّةٌ، والمعهودُ: العذابُ المُفَصَّل[1]، أو هي: لتعريف حقيقة الجنس[2].

بَلاغةُ مُراعاةِ النَّظيرِ، وما لها من حُسْنٍ وتأثيرٍ:

تَراتُبِيَّةُ الألفاظِ وتناسُبُها، وحُسْنُ انْتِظامها؛ من بديعِ التّنسيقِ في السِّياقِ

ورد في الآية مِن ألوان البلاغة ما يُسَمَّى بمراعاة النَّظير[3]، وهو مِن المُحسِّنات اللُّغويَّة المعنويَّة؛ لمراعاة المحاسن المتعلِّقةِ بمفردات الألفاظ، وذلك جَليٌّ في سِرِّ استعمال لفظة: ﴿وَٱلْقُمَّلَ﴾، وهي لفظةٌ مُسْتَهْجَنَةٌ في غير القرآن، في حين وردت في الآية حَسَنَةً مُسْتَساغةً، وإنَّما حَسُنَتْ هذه اللَّفظةُ في الآية؛ لأنَّها جاءت مُتدرِّجةً في ضمن كلامٍ متناسبٍ، ولم ينقطع الكلامُ عندها.

وإذا نظرنا إلى حِكْمةِ أسرارِ الفَصاحة في القرآن الكريم، غُصْنا منه في بحرٍ عميق لا قرارَ له، فالآيةُ المُشارُ إليها قد تضمَّنت خمسةَ ألفاظٍ، وهي: ﴿ٱلطُّوفَانَ﴾، و﴿وَٱلْجَرَادَ﴾، و﴿وَٱلْقُمَّلَ﴾، و﴿وَٱلضَّفَادِعَ﴾، و﴿وَٱلدَّمَ﴾، وأَحْسَن هذه الألفاظ الخمسة هي: ﴿ٱلطُّوفَانَ﴾، و﴿وَٱلْجَرَادَ﴾، و﴿وَٱلدَّمَ﴾، فلمَّا وردت هذه الألفاظُ الخمسةُ بجملتها، قُدِّمَ منها لفظتا: ﴿ٱلطُّوفَانَ﴾ و﴿وَٱلْجَرَادَ﴾، وأُخِّرت لفظةُ: ﴿وَٱلدَّمَ﴾ آخِرًا، وجُعِلت لفظتا: ﴿وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ﴾ في الوسط؛ ليَطْرُقَ السَّمعَ أوَّلًا الحَسَنُ مِنَ الألفاظ الخمسة، وينتهي إليه آخِرًا، ثمَّ إنَّ لفظة: ﴿وَٱلدَّمَ﴾ أحْسُن مِن لفظتي: ﴿ٱلطُّوفَانَ﴾ و﴿وَٱلْجَرَادَ﴾، وأَخَفُّ في الاستعمال، ومِن أجل ذلك جِيء بها آخرًا، ومُراعاةُ مثلِ هذه الأسرار والدَّقائقِ في استعمال الألفاظ ليس مِنَ القُدْرة البشريَّة[4].

---

(1) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاوي: 8/484 - 485.

(2) قباوة، المفصّل، ص: 593.

(3) مُراعاة النَّظير: هو جمع الأُمور المُتناسبة، أو هو: الجمع في العبارة الواحدة بيَن المعاني التي بينَها تناسبٌ وائتلافٌ ما، لا على سبيل تقابلِ التَّناقض أو التَّضادّ أو التَّضايف. يُنظر: مطلوب، معجم المصطلحات البلاغيّة، ص: 614، والصَّعيديّ، بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح: 4/583.

(4) ابن الأثير، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر: 1/169، وجاهين، من صور البلاغة القرآنية، ص: 177 - 178.

سَبَبُ التَّعْبِير بلفظِ ﴿ءَايَٰتٍ﴾، ووصْفِها بأنّها ﴿مُّفَصَّلَٰتٍ﴾:

الآيـاتُ دَلائـلُ على غضَبِ الله، وبيانٌ لما سلّطَه الله على المناوِئِين

وسمَّاها اللّهُ ﴿ءَايَٰتٍ﴾؛ لأنَّها دلائلُ على صِدق موسى، لاقترانها بالتَّحدِّي، ولأنَّها دلائلُ على غضب اللّه عليهم، لتظافرها عليهم حين صمَّمُوا على الكُفْر والعِناد.

وانتصب ﴿ءَايَٰتٍ﴾ على الحال مِن ﴿ٱلطُّوفَانَ﴾ وما عُطِفَ عليه.

﴿مُّفَصَّلَٰتٍ﴾ اسم مفعول مِن (فَصَّل) المضاعفِ الدَّالِّ على قُوَّة الفَصْل[1]، وأُخْلِصَ الوصفُ ﴿مُّفَصَّلَٰتٍ﴾ ﴿ءَايَٰتٍ﴾ مِن محض التَّنكير، وفي ذلك مِنَ الإيضاح بعدَ الإبهام، ما ليس في التَّعريف بالإضافة.

التَّعْبيرُ عنِ المعنى، على طريقِ الاسْتِعارةِ التَّصريحيَّةِ:

الـدّلالـةُ على الاكْـتـمـالِ والـتَّـعـدُّدِ، معَ الظُّهورِ والتّفرُّدِ

في قوله تعالى: ﴿ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ﴾ استعارةٌ تصريحيَّةٌ، حيثُ استعار ﴿مُّفَصَّلَٰتٍ﴾ مِن معنى إزالةِ اللَّبْس والاختلاطِ؛ للظُّهور والوضوح في الآيات، فَشَبَّه ظهورَ الآياتِ ووضوحَها وقيامَ حُجَّتِها وتَعَدُّدَها بالأشياء المحدَّدة بحدودٍ وفواصلَ، ثمَّ حذف المُشَبَّهَ به، ورَمزَ له بشيءٍ مِن لوازمه، والعلاقةُ بينهما إزالةُ اللَّبْس في كلٍّ، والسِّرُّ البلاغِيُّ: هو الدّلالة على الاكتمال والتَّعدُّد مع الظُّهور والوضوح[2]. فالفصلُ حقيقتُه: التَّفرقةُ بينَ الشَّيئين، بحيث لا يختلط أحدُهما بالآخَر، ويُستَعار الفصلُ لإزالة اللَّبْس والاختلاطِ في المعاني، فـ﴿مُّفَصَّلَٰتٍ﴾ وصفٌ لـ﴿ءَايَٰتٍ﴾، فيكونُ مُرادًا منه معنى الفصلِ المجازيِّ، وهو إزالةُ اللَّبْس؛ لأنَّ ذلك هو الأنسب بالآيات والدَّلائل، أي: هي آياتٌ واضحاتٌ لا شُبهة في كونها كذلك، لـمَن نَظَرَ نَظَرَ اعتبارٍ[3].

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 9/70.
(2) جاهين، من صور البلاغة القرآنيَّة في سورة الأعراف، ص: 177 - 178.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 9/70.

أو المرادُ: أنَّها مفصولٌ بعضُها عن بعضٍ، بزمان تُمتحَنُ فيه أحوالُهم، ويُنظرُ: أَيَسْتَقيمون على ما وَعَدُوا مِن أنفسهم؟ أم ينكُثون؟ إلزامًا للحُجَّة عليهم[1].

أي: لم تحدُث كلُّها في وقت واحد، بل حدثَ بعضُها بعدَ بعض، وعلى هذا: فصِيغَةُ التَّفعيلِ للدّلالة على تراخي المدَّة بينَ الواحدة والأُخرى، ويَجِيء على هذا أنَّ العذاب كان أشدَّ وأطولَ زمنًا، كما دَلَّ عليه قولُه تعالى: ﴿وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا﴾ [الزخرف: 48]، وعلى هذا الوجه: فالأنسبُ أن يُجعَل ﴿مُّفَصَّلَتٍ﴾ حالًا ثانيةً مِنَ ﴿ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ﴾، وأن لا يُجْعَل صفةَ ﴿ءَايَٰتٍ﴾[2].

إيثارُ التّعْبير بالفاءِ السّببيةِ، والفعْلِ المزيدِ، في: ﴿فَٱسْتَكْبَرُواْ﴾:

الفسادُ طبَعَ القلوبَ، وغَمَسَ أصحابَها في الضّلالةِ والتّكبُّرِ

والفاء في قوله: ﴿فَٱسْتَكْبَرُواْ﴾ للسّببيَّة، وللتَّفريع والتَّرتُّب، أي: فتَفَرَّع على إرسال الطُّوفان وما بعدَه استكبارُهم، كما تَفرَّع على أَخْذِهم بالسِّنينَ غرورُهُم، فقالوا بأنَّ ذلك مِن شُؤم موسى ومَن معه، فعُلِمَ أنَّ مِن طَبعِ تفكيرِهم فسادَ الوضْعِ، وهو انتزاعُ المدلولاتِ مِن أضدادِ أدلَّتها، وذلك دليلٌ على انغماسهم في الضَّلالة والخِذْلان، وبُعْدِهم عنِ السَّعادة والتَّوفيق، فلا يزالونَ مورَّطين في وَحْلِ الشَّقاوة، فالاستكبارُ: شِدَّةُ التَّكبُّر، كما دلَّت عليه السِّينُ والتَّاء، أي: عَدُّ أنفسِهم كُبَراءَ، أي: تعاظمُهم عنِ التَّصديق بموسى، الذي يُؤدِّي إلى إبطالِ دينِهم؛ إذ أعرضوا عنِ التَّصديق بتلك الآياتِ المُفَصَّلات[3].

بَلاغةُ التَّعْبير بفنِّ التَّذْييلِ:

تقريرُ الدّلالةِ على ما قَبْلَ التّذْييلِ، مِنَ العذابِ المُفَصَّلِ

و﴿وَكَانُواْ﴾: فِعْلٌ مُضِيٌّ يُفيد تَحقُّقَ وُقوعِ الخبرِ، وهو وَصْفُ

(1) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 6/536.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 9/70.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 9/70 - 71.

الإجرام واستمرارُه، و﴿قَوْمًا﴾ خبرٌ مُوَطِّئٌ للوصف بعدَه، يُفيد المبالغةَ والتَّوكيد[1]، وجملةُ: ﴿وَكَانُواْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ معطوفةٌ على جُملة: ﴿فَٱسْتَكْبَرُواْ﴾، فالمعنى: فاستكبَروا عنِ الاعتراف بدلالة تلك الآياتِ وأجرموا[2]، وهي جملةٌ تذييليَّة مُقَرِّرةٌ لدلالة ما قبلَها، يعني: العذابَ المفصَّل[3].

فائِدةُ التَّعْبير عن خَبَرِ إجرامِهم بالجُملةِ الاسْميَّةِ:

ثباتُ الوصْفِ وتمكُّنُه ورُسوخُه فيهم، عِلَّةٌ للاسْتِكبارِ

وصِيغَ الخبرُ عن إجرامهم بصيغة الجُملة الاسميَّة للدّلالة على ثبات وَصْفِ الإجرام فيهم، وتَمكُّنِه منهم، ورسوخِه فيهم مِن قَبل حدوثِ الاستكبار، وفي ذلك: تنبيهٌ على أنَّ وَصْفَ الإجرامِ الرَّاسخِ فيهم هو عِلَّةٌ للاستكبار الصَّادرِ منهم، فالفعلُ (كان): دالٌّ على استمرار الخبر، وهو وَصْفُ الإجرام[4].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(فَصَلَ) و(فَرَّقَ):

الفَصْلُ في الكلام، لِما كان مُرتبِطًا مُتسلسِلًا، والفَرْقُ لِما كان بائنًا عمّا يَقترنُ معه

إنَّ الفَصْل يكون في جملة واحدة، ولهذا يقال: فَصَّل الثَّوبَ، وهذا فَصْلٌ في الكتاب؛ لأنَّ الكتاب جملة واحدة، فالفَصْل يكون ضمن كلام متسلسلٍ مرتبطٍ أوَّلُه بآخِره، غيرِ مختلفٍ عنه، ولا ببائنٍ منه، كما هو الحال في الفَرْق، ولذلك يُقال: مِفْصَلُ الرُّسْغ وغيرِه؛ لأنَّ العضو مِن جملة الجَسد، ولا يُقال في ذلك: مِفْرَق؛ لأنَّه ليس بائنًا، ويقال فرَّق بينَ الأمرين، ولا يقال: فَصَل، وقال بعضُهم: الفَصْل ما كان مِنَ الفَرْق ظاهرًا، ولهذا يقال لما تضمَّنَ جِنْسًا مِنَ الكلام: فصلٌ واحدٌ؛ لظهورِه وتجلِّيه.

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 9/71، وقباوة، المفصّل، ص: 593.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 9/71.
(3) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاوي: 8/484، والإندونيسّي، الشَّامل في بلاغة القرآن: 1/422.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 9/71.

ولـمَّا كان الفَصْل لا يكون إلَّا ظاهرًا، قالوا: فَصَّل الثَّوب، ولم يقولوا: فرَّق الثَّوب[1]، والفَصْلُ أنسب لسياق ورودِ آيات العذاب؛ لكونها جاءت مُفَصَّلاتٍ متسلسلاتٍ مترابطات، إحداها بإثْر الأُخرى، حتَّى عُبِّرَ عن جماعها بالرِّجْز، كما سيأتي في الآية التالية.

(1) العسكريُّ، الفروق اللُّغوية، ص: 149 - 150.

﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَۖ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ١٣٤﴾ [الأعراف: 134]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

المناسبةُ بين الهلاكِ بالآياتِ، والاستنجادِ بموسَى، لكَشْفِ الرِّجزِ في كلِّ مرّةٍ

وحين فاقَ وَقْعُ العذابِ تَحمُّلَهُم، وتجاوزَ طاقتَهم، أخذوا يتذلَّلون لموسى عليه السلام ويستعطفونَه[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَقَعَ﴾: فُسِّرت اللَّفظة عند تفسير (الآية: 118)، ومعنى ﴿وَقَعَ عَلَيْهِمُ﴾ في هذه الآية الكريمة بحسب المفسِّرين: حَلَّ[2]، وأصابهم ونزلَ بهم، وثَبَتَ[3].

2) ﴿ٱلرِّجْزُ﴾: (رجز) أصلٌ يدلُّ على اضطرابٍ[4]، والرِّجْز: العَذابُ، وكلُّ عذابٍ أُنزل على قومٍ فهو رِجزٌ[5]، وهو: الغضب[6]، والسُّخط[7]، والموت[8]، والطَّاعون[9]، والرَّين على القلب بزيادة الكفر[10]. والظَّاهر مِنَ الآية الكريمة أنَّ المراد بالرِّجْز: العذابُ المتقدِّم ذِكْرُه؛ مِنَ الطُّوفَان والجَراد وغيره[11]، أو المراد منه جِنْسُه،

(1) طنطاويّ، التَّفسير الوسيط: 5/360.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 13/72.
(3) الواحديُّ، التَّفسير الوسيط: 2/382، وأبو حيَّان، البحر المحيط: 4/373.
(4) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (رجز).
(5) الخليل، العين: (رجز).
(6) الفرَّاء، معاني القرآن: 1/480.
(7) الواحديّ، التَّفسير الوسيط: 2/382.
(8) الكرمانيّ، غرائب التفسير: 1/419.
(9) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/179.
(10) القرطبيُّ، الجامع لأحكام القرآن: 7/237.
(11) ابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 2/445.

وهو كلُّ عذاب تضْطرب له القلوبُ، أو يضطربُ له النَّاسُ في شؤونهم ومعايشهم، وهو يشمل كلَّ نِقمة وجائحة أنزلها الله تعالى على قوم فرعون، كالخَمْس المُبَيَّنةِ في هذا السِّياق[1].

3) ﴿ٱدۡعُ﴾: (دعو) أصلٌ واحدٌ، وهو أن تُميلَ الشَّيءَ إليك بصوتٍ وكلام يكونُ منك[2]، والدُّعاءُ (بالضَّمِّ ممدودًا): الرَّغبةُ إلى الله تعالى فيما عنده مِنَ الخير، والابتهالُ إليه بالسُّؤال[3]، وهو التَّضرُّعُ إلى الله ﷻ في طلبِ أمرٍ، وهو في القرآن كثيرٌ، وسياقاتُه واضحةٌ[4].

4) ﴿كَشَفۡتَ﴾: (كشف) أصلٌ صحيحٌ يدلُّ على سَرْوِ الشَّيء عنِ الشَّيء، كالثَّوب يُسْرَى عنِ البدن[5]، والكَشْفُ: رفعُكَ شيئًا عمَّا يُواريه ويُغَطِّيه؛ كرفع الغطاء عنِ الشَّيء[6]، فمِن تنحية الغطاء الماديِّ: ﴿وَكَشَفَتۡ عَن سَاقَيۡهَاۚ﴾ [النمل: 44]، ثمَّ استُعمل في تنحية ما يُغَشِّي معنويًّا: ﴿لَئِن كَشَفۡتَ عَنَّا ٱلرِّجۡزَ﴾[7]، وكَشَف الأمرَ يَكْشِفه كشفًا: أظْهَره[8]، وسائر ما في القرآن مِنَ التَّركيب هو مِن كشف الضُّرِّ والعذابِ والسُّوءِ والآزفةِ[9].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

لـمَّا وَقَعَ على قوم فرعونَ العذابُ المفصَّلُ، أو الطَّاعون المُرسَلُ عليهم بعدَ ذلك، أو غيره، فاضطربوا اضطراب الأَرْشِيَة[10] في البئر البعيدة القَعْر، وحاصُوا حَيْصَةَ الحُمُرِ المستنفِرة، وفزعوا إلى

اشْتِدادُ وَقْعِ الرِّجْزِ عليهم، سببٌ في اللُّجوءِ إلى الله، والتِماسِ الفرَجِ لرفْعِ الحرَجِ

(1) محمد رضا، تفسير المنار: 9/82.
(2) ابن فارس، المقاييس: (دعو).
(3) الزَّبيديّ، تاج العروس: (دعو).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (دعو).
(5) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (كشف).
(6) الخليل، العين: (كشف).
(7) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (كشف).
(8) ابن سيده، المحكم: (كشف).
(9) جبل، المعجم الاشتقاقيُّ: (كشف).
(10) جمع رشاء، والرِّشاء: حبل الدَّلو، يُنظر: الأزهريُّ، تهذيب اللُّغة: (رشا).

موسى، وقالُوا: يا مُوسَى ادْعُ لَنا رَبَّكَ بِما عَهِدَ عِنْدَكَ مِنَ النُّبوَّة والجاه، أو بدعائك إليه ووسائلك، أنْ يكشف عنّا العذاب، ويُنجّيَهُ؛ لِنُؤمنَ لكَ، ونُرْسِلَ معك بني إسرائيلَ كما طلبتَ[1].

وتُرْشِدُ الآيةُ الكريمة إلى أنَّ مِن خِذْلان الكِبَر والجحود أنَّ الكافرين إذا شعروا بالهزيمة، أو أَحسُّوا بالعذاب، همُّوا لخصومهم يسألونهم: النَّجاة والإحسان إليهم؛ لأنَّهم موقنون أنَّ خصومهم على الحقِّ، ومعترفون بأفضليَّتهم[2]، وتُفْصِح أيضا عن أنَّ لجوءَهم إلى موسى عليه السلام دليلُ اعترافِهم ببطلان ألوهيَّة فرعون، وأنَّ موسى مقبولُ الدُّعاء عند رَبِّهِ، وهذا مِن تمام أفضليَّته عندهم، وإنْ لم يَكْشِف ربُّه هذا العذابَ فسيستمرُّ ويتواصلُ عليهم، وكلُّ هذه مُقدِّماتٌ تُوجبُ الإيمانَ بالله، لا الإنكارَ[3].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بَلاغةُ التّفْصيلِ والتّكرارِ:

﴿وَلَمَّا﴾ الواو عاطفة لمطلق الجمع، و﴿وَلَمَّا﴾ شرطيَّةٌ ظرفيَّةٌ للماضي، تُفيد التَّفصيل والتَّكرار. وجملة: ﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ﴾ معترضَة مُقَرِّرة لمضمون ما قبلها، أي: العذابِ المذكور على التَّفصيل[4].

التّقريرُ لمضمونِ ما سبَقَ، إيضاحٌ يُفصّلُ ما ذُكِرَ مُتتابعًا في السّياقِ

بَلاغةُ التَّعْبير بلفْظِ: ﴿وَقَعَ﴾، على طريقِ الاستِعارةِ:

عُبِّرَ بلفظ: ﴿وَقَعَ﴾ إشارةً إلى ثِقَل الأمر النَّازل بهم وشِدَّته[5]، فالوقوعُ: حقيقتُه سقوطُ الشَّيء مِن أعلى إلى الأرض، ومنه: وقع الطَّائر، إذا نزل إلى الأرض، واستُعير الوقوعُ لظهور أمرٍ رفيعِ القَدْر؛ لأنَّ ظهورَه كان بتأييد إلهيٍّ، فَشُبِّهَ بشيءٍ نزلَ مِن عُلوٍّ، وقد

تَثبيتُ حُلولِ العذابِ وتحقُّقِه، وإصابتُهم به وأثرُه

(1) ابن عجيبة، البحر المديد: 2/252، ومحمد رضا، تفسير المنار: 9/83.
(2) حسين الحسنيّة، هدايات وألطاف مِن سورة الأعراف، ص: 136 - 137.
(3) الشَّعراوي، تفسير الشَّعراوي: 7/4321.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 9/35.
(5) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/244.

يُطلقُ الوقوع على الحصول؛ لأنَّ الشَّيء الحاصلَ يُشْبه النَّازل على الأرض، وهي استعارةٌ شائعةٌ[1].

والمعنى: أصابهم الرِّجْز وحلَّ بهم وثَبَتَ[2]، ففي التَّعبير به تجسيمٌ لهذا الرِّجْزِ الذي حلَّ بهم، وتثبيتٌ واستقرارٌ له، حتَّى لكأنَّه شيءٌ ذو ثِقَل نزل على شيء آخَر خفيفِ الوزنِ فأزاله[3]، ويرسِّخُه حرفُ الجرِّ: ﴿عَلَيْهِمُ﴾، المُتَضَمِّن معنى الاستعلاءِ المعنويِّ المسنَدِ إلى ضميرهم، فقُصِدَ إلى اختيار: ﴿ٱلرِّجْزُ﴾؛ ليكونَ أوقعَ أثرًا، وأدَلَّ معنًى على قُوَّة تَحقُّق العذابِ، وشِدَّةِ أَثَره، ممَّا أدى إلى اضطرابهم، وتنازلِهم مع كِبْرِهم، وخُضُوعِهم معَ تَعَنُّتِهم، مُسْتَنْجِدين بموسى عليه السلام.

دَلالةُ (أل) العَهديّةِ، في لفظِ ﴿ٱلرِّجْزُ﴾:

حَمْلُ اللَّفظِ على المعلومِ، أولَى مِن حَمْلِه على غَيْرِ المعلومِ

﴿ٱلرِّجْزُ﴾: يعني العذابَ المُفَصَّل المُوجبَ للاضطراب، فالتَّعريف باللَّام هنا للعَهْد، أي: العذابُ المذكور[4]، واختلف العلماء في المراد به، ورجَّحوا أنَّه الأنواعُ الخمسة المذكورة مِنَ العذاب الذي نزل وحَلَّ بهم؛ لأنَّ لفظ: ﴿ٱلرِّجْزُ﴾ لفظٌ مُفردٌ مُحلَّى بالألف واللَّام العَهْديَّة، فينصرفُ إلى المعهود السَّابق، والمعهودُ السَّابق هاهنا: الأنواعُ الخمسةُ التي تقدَّم ذِكْرُها، وأمَّا غيرُها - كالطَّاعُون مثلًا - فغيرُ مشهور، وحملُ اللَّفظ على المعلوم أولى مِن حَمْله على غيره[5].

احْتِمالاتُ معانِي: ﴿ٱلرِّجْزُ﴾:

توالِي العذابِ، ألجأهم إلى الاستِنجادِ بموسَى، والاعترافِ بآياتِ الله المُعجزةِ

لتعدُّد احتمالات معاني: ﴿ٱلرِّجْزُ﴾ استَغْنى عن ذِكْره في عِداد أنواع العذاب الخمسة، على احتمالِ كونه صنفَ عذابٍ مستقلًّا، وطوى ذِكْرَه هناك للإيجاز، وصرَّح به هنا، على تقدير: (وأرسلْنا

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 9/50.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 13/72، والواحديُّ، التَّفسير الوسيط: 2/382، وأبو حيَّان، البحر المحيط: 4/373.
(3) تمّتِ الإفادة من صَوغٍ قريبٍ من مضمون آية أخرى، يُنظر: طنطاويّ، التَّفسير الوسيط: 5/350.
(4) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 3/91.
(5) ابن عطيّة، المُحَرّر الوجيز: 2/445، والفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/179.

عليهم الرِّجز، ولمَّا وقع عليهم...)؛ تخْصِيْصًا له بالذِّكر؛ "لأنَّ له نبأً عجيبًا، فإنَّه كان مُلْجِئَهُمْ إلى التَّضرُّع بموسى عليه السلام ومُلاينته، والاعترافِ بآياته، ووجودِ ربِّه تعالى"[1].

سِرُّ التَّعْبير بالنِّداءِ، وقَصْديَّةِ إظهارِ المنادَى ﴿يَٰمُوسَى﴾:

الاسْتِعْطافُ والاسْتِغاثةُ والجَأْرُ، مَردُّها إلى تلاحُقِ العذابِ الخَطِرِ

﴿قَالُواْ يَٰمُوسَى﴾: تعبيرٌ بالنِّداء، وهو: الدُّعاءُ برفعِ الصَّوت، والغايةُ منه أن يُصغيَ مَن يُنادَى الى أمرٍ ذي بالٍ، والمنادَى هو المطلوب إقبالُه، بحرفٍ مخْصُوصٍ دلَّ على القُربُ هنا، وهو: (الياء)، بما يحملُهُ مِن توكيدٍ ومبالغةٍ؛ إذ فيه يُستثار المنادَى، ويُحرَّك، ويُنبَّهُ إلى ما يُلْقَى إليه مِن أوامرَ ونَواهٍ، فإذا أُلْقِيَ إليه الكلامُ كان مُستَعدًّا لتَقَبُّلِه، ولذلك عَدلُوا إلى التَّعبير بالنِّداءِ، وإظهارِ المُنادَى، وهو موسى عليه السلام؛ مناسبةً للاسْتِعْطافِ والاسْتِغاثَةِ، جَرَّاءَ ما حلَّ بهم، وإظهارًا لرغبَتِهم في مَطْلَبهم.

سِرُّ تقديمِ الضَّميرِ على المفعولِ به:

تخصيصُ النَّجاةِ بأنفُسهم، وتعجُّلُهم في طَلَبِها، ولَهْفَتُهم إليها

﴿ٱدْعُ﴾: فعلُ أمر مبنيٌّ على حَذْف حرف العِلَّة؛ إيماءً بتعجُّلهم طَلبَ الدُّعاء، ورغبتِهم في تعجيل موسى عليه السلام بها، والتَّعبيرُ بالجُملة الفعليَّة دليلُ اضطرابِهم، ولَهْفَتِهم إلى الخلاص، وإن كان وقتيًّا، وتَجَدُّدُ طَلَبِهم بالدَّعوة إلى حَدٍّ يزول عنهم العذاب.

وعَبَّروا بالضَّمير: (نا) مِن قوله: ﴿لَنَا﴾، مُقدَّمًا على المفعول؛ تخصيصًا لأنفسهم، وشدَّةَ عنايةٍ بها، لما أصابها مِن أذىً، وترسيخًا للتَّعجُّل بكَشْف الضُّرِّ عنهم.

سِرُّ انْتِقاءِ الضَّميرِ في الإضافةِ إلى موسَى بلفْظِ: ﴿رَبَّكَ﴾:

قولهم: ﴿رَبَّكَ﴾ بإضافة الرَّبِّ إلى موسى، نفيٌ لإقرار أنَّه ربُّهم؛ حيث لم يقولوا: ادعُ لنا ربنا[2]، ولا ينافي قولُهم هذا إيمانَهم

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 9/71.
(2) أبو حيَّان، البحر المحيط: 4/374.

بأنَّ لموسى ربًّا ورسالةً؛ لأنَّهم كانوا مشركين، وكانوا يُجوِّزون تَعَدُّد الآلهة، واختصاصَ بعضِ الأمم وبعضِ الأقطار بآلهة لهم، فهم قد خامرهم واستقرَّ في نفوسهم - مِن كَثْرة ما رأَوا مِن آيات موسى - أن يكون لموسى ربٌّ له تصرُّفٌ وقُدرة، وأنَّه أصابهم بالمصائب؛ لأنَّهم أَضرُّوا عبيدَه، فسألوا موسى أنْ يَكُفَّ عنهم ربَّه، ويكون جزاؤه على كَشْف العذابِ الإذنَ لبني إسرائيل بالخروج مِن مصر؛ ليعبدوا ربَّهم[1].

ترسيخُ الجُحودِ، والإقرارُ بالرُّبوبيَّةِ، مع اليقينِ بتصرُّفِ الله وقُدْرتِه

سِرُّ تنوُّعِ الدّلالاتِ، في تعدُّدِ معانِي (الباء):

الباء في ﴿بِمَا عَهِدَ﴾ إمَّا أن تكون للمُلابسة، أي: التَّوسُّل، مُتعلِّقة بقوله: ﴿ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ﴾، والتَّقْديرُ: ادْعُ لنا متوسِّلًا إليه بعهده عندك. وإمَّا أن تكون للقَسَم الاستعطافيِّ، كما يُقال: (بحياتك افعل كذا)، فالمراد: استعطافه عليه السلام لأن يدعوَ ربَّه، أو للقَسَم الحقيقيِّ، وجوابُها قولُه: ﴿لَنُؤۡمِنَنَّ لَكَ﴾، أي: أقْسَمنا بعهد الله عندَك لئن كشفتَ عنَّا الرِّجْزَ لَنُؤمِنَنَّ لك، وإمَّا أن تكون للإلصاق، أو السَّببيَّة[2]، وإمَّا أن تكون لِتعديَة فعلِ الدُّعاء[3]، أو للاستعانة[4].

تلوّنُ معانِي الحرفِ في السّياقِ، ثَراءً في التّركيبِ، وغِنًى في المعجمِ

التَّعْبيرُ عنِ النُّبوَّةِ بالعهْدِ:

(ما) في قوله: ﴿بِمَا عَهِدَ عِندَكَۖ﴾ مصدريَّة، والمعنى: بعهدِه عندكَ، وهو النُّبوَّة، والتَّعبير بالمصدر المنسبكِ أقوى دلالةً وآكَدُ، وسُمِّيتِ النُّبوَّةُ عهدًا؛ لأنَّ الله تعالى عَهِدَ أن يُكرم النَّبيَّ، وهو عَهْدُ أنْ يستقلَّ بأعبائها، أو لأنَّ فيها كُلفةً واختصَاصًا كما بين المُتَعاهِدَين، أو لأنَّ لها حقوقًا تُحفظ كما يُحفظ العهد، أو أنَّها بمنزلة عهد

النُّبوَّةُ عهدٌ بإكرام النَّبيِّ المرْسَلِ، بما آتاهُ الله مِن تَكرمةٍ وفضْلٍ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 9/72.
(2) الزَّمخشريُّ، الكشّاف: 2/148، والفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/179، والشّهاب، عناية القاضي: 4/356، والقونويّ، الحاشية: 8/485، والآلوسي، روح المعاني: 9/36.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 9/72 - 73.
(4) قباوة، المفصَّل، ص: 593.

ومنشور منه ﷺ، كالذي يُكتب للوُلاة، أو بالذي عَهِدَ إليك أن تدعوَهُ به فيجيبَكَ، كما أجابك في آياتك[1].

أو أن تكون (ما) موصولةً مُبهمةً، أي: ادْعُهُ بالذي علَّمكَ ربُّكَ مِن وسائل إجابة دعائك عند ربِّكِ، والجارُّ والمجرور صلةٌ لـ﴿ٱدۡعُ﴾، أو حال مِنَ الضَّمير فيه، يعني: ادع اللّٰه تعالى مُتوسِّلًا بما عهد عندَك، وهذا يقتضي أنَّهم جَوَّزوا أن يكون موسى مبعوثًا مِن ربٍّ له، بناءً على تجويزهم تَعَدُّدَ الآلهة[2].

نُكْتَةُ العُدولِ عنِ الفعلِ المضارع إلى الماضِي: ﴿كَشَفۡتَ﴾:

إبرازُ غيرِ الحاصلِ في مَعرضِ الحاصلِ؛ إظهارًا للرَّغبةِ في وقوعِه

في قوله تعالى: ﴿لَئِن كَشَفۡتَ﴾ عدولٌ عنِ المستقبل إلى الماضي؛ لإبراز غيرِ الحاصل في معرض الحاصل، إظهارًا للرَّغبة في وقوعه، فإنَّه لـمَّا كان الرِّجْزُ شديدًا مُلجِئًا لهم إلى التَّضَرُّع بموسى عليه السلام، مع عدم دخولهم في دينه، بالغَتْ في نفوسِهمُ الرَّغبةُ في كَشْف ذلك الرِّجْزِ عنهم، وكَثُر تصورُهم إيَّاه حتَّى خُيِّلَ إليهم أنَّه حاصل[3].

دَلالةُ اسْتِئنافِ جُملةِ: ﴿لَئِن كَشَفۡتَ﴾:

دُعاؤُهم مع كُفرِهم الصَّريحِ، يُثيرُ سؤالَ موسَى عنِ مقابِلِ ذلك الطَّلَبِ المُريحِ

جملة: ﴿لَئِن كَشَفۡتَ عَنَّا ٱلرِّجۡزَ﴾ مستأنفةٌ استئنافًا بيانيًّا؛ لأنَّ طلبَهم مِن موسى الدُّعاءَ بكَشْف العذابِ عنهم مع سابقيَّة كُفْرهم به، يُثير سؤالَ موسى أن يقول: فما الجزاءُ على ذلك، واللَّام مُوطِّئَةٌ للقَسَم، وجملة: ﴿لَنُؤۡمِنَنَّ﴾ جوابُ القَسَم[4].

بَديعُ حَشْدِ التَّوكِيدات في الآية:

اللَّام في قولهم: ﴿لَنُؤۡمِنَنَّ﴾، و﴿وَلَنُرۡسِلَنَّ﴾ جوابيَّةٌ للتَّوكيد، واقعةٌ

(1) النَّسفيُّ، مدارك التَّنزيل: 1/598، والسُّيوطيّ، نواهد الأبكار: 3/441، والآلوسي، روح المعاني: 9/36.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 9/36، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 9/72 - 73.
(3) الإندونيسيُّ، الشَّامل: 1/422.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 9/73.

تعاقبَتْ أصنافُ العذابِ عليهم، فألحُّوا مُؤكِّدِين على كشْفِها عنهم

في جواب قسم محذوف، تقديرُه: نُقْسِم، وجملةُ القَسَم المحذوفةِ فعليَّةٌ استئنافيَّةٌ، تُفيد المبالغة في التَّحقيق.

و﴿لَنُؤْمِنَنَّ﴾ و﴿وَلَنُرْسِلَنَّ﴾: مضارعان اتَّصل بهما النُّونُ الثَّقيلة؛ للمُبالغة في التَّوكيد، وإخراجِ مضمون الفعل عن الحال[1]، والتَّعبير بالتَّوكيد مِن مقتضيات شِدَّة الإلحاح الذي يتطلَّبُه مُصابُهم الجَلَلُ، بتعاقب أصنافِ العذاب عليهم، وفي قولهم: ﴿لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ﴾؛ دلالةٌ على أنَّه طَلَب إليهم الإيمانَ، كما أنَّه طلبَ إليهم إرسالَ بني إسرائيل معه، مِن أن يذهبوا حيث شاؤوا[2].

دَلالةُ التَّضمينِ في لفظِ الإيمان، في قوله: ﴿لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ﴾:

التَّضمينُ في انصرافِه الى إعطاءِ مَعْنَيَيْن، أقوَى من انصرافِه لإعطاءِ معنًى واحدٍ

وناسب التَّضمينُ حشدَ المؤكِّدات؛ إذ ضَمَّن الإيمانَ معنى الرِّضا، والتَّسليم، والإذعانِ، وكلُّها تتعدَّى باللَّام[3] الجارَّة للضَّمير؛ فرقًا بينَ إيمان التَّصديق، وإيمانِ النَّجاة[4]، لِتُؤدِيَ دلالة التَّضمين معنى: آمِنوا راضينَ مُسَلِّمين، مُذْعنين، وهو أقوى مِن إعطاء معنًى واحد.

بَلاغةُ تقديمِ الإيمانِ، في قوله: ﴿لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ﴾:

الإيمانُ هو المقصودُ الأسْمَى، والتَّوسُّلُ به مندوحةٌ لزوالِ العذابِ الحالِّ بهم

قَدَّموا الإيمانَ؛ لأنَّه المقصود الأعظم، النَّاشِئ منه الطَّواعيَة[5]، والإيمانُ: أصلُ الأمورِ وأساسُ الدِّين، والإرسال هو ثمرة الإيمان وشِعارُه، فلا يصحُّ الإرسالُ إلَّا بالإيمان، كما أنَّه عِلَّة بعثِ الرُّسل. ويدلُّ التَّقديمُ - كذلك - على حالةِ الخوفِ والضِّيق التي كانوا فيها، مِنَ العذابات التّي أصابتْهُم بسبب كُفْرهم وطُغيانهم، وهو مِن جانبٍ آخرَ: يُظهرُ ضَعْفَ إيمانِهم، وقلَّةَ يقينهم؛ فإنَّهم لم يؤمنوا باللّه تعالى بحقٍّ، ولم يتوبوا إليه بصدق، ولم يستقيموا على طاعته

(1) قباوة، المفصّل، ص: 543.
(2) أبو حيَّان، البحر المحيط: 4/374.
(3) الأندونيسّي، الشَّامل: 1/422.
(4) قباوة، المفصَّل، ص: 592.
(5) أبو حيَّان، البحر المحيط: 4/374.

بإخلاص، بل كانوا يرجُون أن يزولَ عنهم العذابُ الذي حلَّ بهم، ثمَّ يعودون إلى ما كانوا عليه مِنَ الشِّرك والظُّلم والعِناد.

سِرُّ قَصْديَّةِ إسْنادِ الكَشْفِ إلى موسَى عليه السلام:

في إسناد الكَشْف إلى موسى حَيْدَةٌ عن إسناده إلى الله تعالى؛ لعدم إقرارهم بذلك[1]، فلم يقولوا: (ادع لنا ربَّنا)، بل قالوا: ﴿يَٰمُوسَى ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ﴾، فهُم ما ازدادوا بزيادة تلك المحن إلَّا بُعدًا وإعراضًا عن ربِّهم[2].

في عدَمِ إسْنادِ الكَشْفِ إلى اللهِ، نفْيٌ للإقرارِ به، وجُحودٌ لكمالِ تصرُّفِه

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الرِّجْزُ والرِّجْسُ:

ممَّا تمَّ بيانُه في الشَّرح اللُّغويِّ للفظة: ﴿ٱلرِّجۡزُ﴾ أنَّ أصله مِنَ الاضطراب، والعذابِ الموسومِ بالغضب، والسَّخَط، والرَّيْن على القلب، وهو يناسب سياقَ عذابِ آلِ فرعون؛ لما يُتصَوَّرُ فيه مِنِ اضطرابٍ كالزَّلزلة؛ لسُوء ما اقترفوه مِن تَعنُّتٍ، وجُحودٍ، وإصرارٍ على الكفر.

أمَّا: (الرِّجْس) فهو كلُّ شيءٍ مُستَقْذَرٍ، ويُطلق على العذاب، لكنَّ أصله مِنَ الاختلاط المَشُوب بالقَذَر والنَّتْنِ؛ لأنَّه لَطْخٌ وخَلْطٌ[3].

الرِّجْزُ العذابُ الموسومُ بالسَّخَطِ، والرِّجْسُ، كلُّ شَيءٍ مُستَقْذَرٍ، والأوَّلُ آثَرُ في السِّياقِ

وسياقُ عذاب آل فرعون لا يناسبه هذا المعنى، فليس الحديث منصبًّا على عذاب لفعلٍ مُستَقْذَرٍ منه، كما وَصَف اللهُ المنافقين بأنَّهم رِجْسٌ، فقال تعالى: ﴿سَيَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمۡ إِذَا ٱنقَلَبۡتُمۡ إِلَيۡهِمۡ لِتُعۡرِضُواْ عَنۡهُمۡۖ فَأَعۡرِضُواْ عَنۡهُمۡۖ إِنَّهُمۡ رِجۡسٞۖ وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ٩٥﴾ [التوبة: 95]، وهو "النَّتْنُ والقَذَر، ومنه قولُه تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ فَزَادَتۡهُمۡ رِجۡسًا إِلَىٰ رِجۡسِهِمۡ﴾ [التوبة: 125]، أي: زادتهم نَتْنًا إلى نَتْنِهِمْ"[4].

---

(1) أبو حيَّان، البحر المحيط: 4/374.

(2) القشيريُّ، لطائف الإشارات: 1/561.

(3) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرّاغب، المفردات: (رجس).

(4) القرطبيُّ، الجامع لأحكام القرآن: 1/417، والدُّوريُّ، دقائق الفروق اللغوية، ص: 290، وزيدان، الفروق اللُّغوية، ص: 548 - 549.

دَلالةُ صوتِ الزَّاي، في تحقيقِ المعنَى:

الـــزَّايُ صـوتٌ مَجـهـورٌ قـويٌّ، والـسِّـين صـوتٌ مـــهـــمـــوسٌ ضعيفٌ، ولكلٍّ منهما تَميّزٌ

اختصَّ الزَّايُ بالعذاب والاضطراب؛ لما فيه مِنَ الجَهْر، والقوّة في الحرف، فهو أقوى مِنَ السِّين لهذه الصِّفة، أمَّا السِّين فَمَهْمُوسٌ، فاختَصَّ بما ليس في معناه شِدَّةٌ، وقُوَّةٌ، وهو القَذَر، النَّتْنُ، والاختِلاط[1].

(1) الدوري، دقائق الفروق اللغوية، ص: 291.

﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ١٣٥﴾

[الأعراف: 135]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

العَلاقةُ بين طَلَبِ انْكشافِ الرِّجزِ، ونَكْثِهم وغَدَهم بعدَ انْكِشافِه عنهم

جملة: ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ﴾ دالَّةٌ على أنَّ موسى دعا اللّٰهَ برفع الطَّاعون فارتَفَع[1]، إلَّا أنَّ قومَ فرعون لم يُصِبِ الحقُّ قلوبَهم، ولم يُذْعِنوا لطوارق العذاب والابتلاءات، التي حاقت بهم في كلِّ مناحي الحياة، وأعرضوا عن كلِّ الوعود التي قطعوها على أنفسهم، ونَكَثُوا القَسَم الذي أقسموه لموسى عليه السلام.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿بَٰلِغُوهُ﴾: (بلغ) أصلٌ واحدٌ، وهو الوصول إلى الشَّيء، تقول: بلغتُ المكانَ، إذا وَصَلتَ إليه[2]، وبلغ الشَّيْءُ يبلُغ بُلُوغًا: وصلَ، وانْتهى. وتبلَّغ بالشَّيْء: وصل بِهِ إلى مُرَاده[3]، فالبُلوغ والبَلاغ: الانتِهاءُ إلى أقصى المَقْصِد والمُنتَهى، مكانًا كان أو زمانًا، أو أمرًا مِنَ الأمور المُقَدَّرة[4].

وخلاصة معناه: وصولُ الشَّيء إلى غاية له: مِن مكان، أو شيءٍ، أو مَدًى مقصودٍ[5]، وهو معنى اللَّفظ في الآية الكريمة.

2) ﴿يَنكُثُونَ﴾: (نكث) أصلٌ صحيحٌ، يدلُّ على نقضِ شيءٍ[6]، ونكَثَ العهد: نقضَهُ بعد إحكامه[7]، كَمَا تُنكَثُ خيوطُ النَّسَائج بعد إبرامها[8]،

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 9/73.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بلغ).
(3) ابن سيده، المحكم: (بلغ).
(4) الرّاغب، المفردات: (بلغ).
(5) جبل، المعجم الاشتقاقيُّ: (بلغ).
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نكث).
(7) الخليل، العين: (بلغ).
(8) الأزهريُّ، تهذيب اللّغة، والرّاغب، المفردات: (بلغ).

أو تُنْقَضُ الخَلَقُ مِنَ الأخبية والأكسيَة البالية، فتُغْزَلُ ثَانِيَةً[1]. فالنَّكْثُ في اللُّغةِ: نقضُ مَا تَعْقِدُه وما تُصْلِحُه[2]، ثمَّ تُعيد إبرامَه.

وسيأتي بيان الفَرْق بينَه وبينَ النَّقْضِ، وكلُّ ما في القرآن مِنَ التَّركيب - عدا نَكْثِ الغَزْل في آية النَّحل - فهو مِن نَكْثِ الأيمان والعهود أي النَّكث المعنوي[3].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

المـوقـف الـجُـحُـوديُّ في مقابَلةِ كَشْفِ العذابِ، بالنَّكْثِ والنُّكوصِ على الأعقابِ

يخبرُ اللهُ عن قوم فرعون أنَّه لـمَّا كشفَ عنهم العذابَ مَرَّةً بعد مَرَّةٍ، إلى أجل هم مُنتهون إليه في كلِّ مَرَّة منها، وهو عَوْدُ الحال إلى ما كانت عليه، أو في مجموعها، وهو الغَرَق الذي هَلَكوا فيه، إذا هُمْ ينكثون عَهْدَهم، ويَحْنَثون في قَسَمهم في كلِّ مَرَّة؛ أي: فاجَؤُوا بالنَّكْث، وبادروا إلى الحِنْث، بلا رويَّة ولا تَرَيُّث[4]، ولذلك لم تكن إزالةُ العذاب لهم دائمةً، بل هي إلى أجلٍ محدود، فإنَّ اللهَ خبَّأ لهم في قَدَره ما هو أشدُّ وأقوى، وهو إغراقهم في البحر[5].

وترشدُ الآية الكريمة إلى سعَة رحمةِ اللهِ؛ إذِ استجاب لدُعاء نبيِّه لهم، على الرَّغْم مِن انغماسهم في غِيِّ الجُحود، وتماديهم في ضلال التَّعنُّت، وتَجَدُّد الكُفْران. وتهدي أيضا إلى قُبْح طَبْعِ النُّكْثِ، ومَذَمَّةِ مُرتكِبه، وأنَّ المروءَة في الوفاء، وبها تُسْتمطرُ أسبابُ الرِّضا.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

قُـربُ الإجـابـةِ وحـتـمـيَّـةُ تَحقُّقِها، مِن دلائـلِ رحـمـةِ الله بعبادِه ولو عَصَوْهُ

دَلالةُ الفاءِ، والتَّعبيرِ بالفعْلِ الماضِي ﴿كَشَفْنَا﴾:

﴿فَلَمَّا﴾: الفاء عاطفة تُفيد التَّرتيب والتَّعقيب بدون مُهْلة؛ ليَدُلَّ

(1) ابن سيده، المحكم: (نكث).
(2) الزَّجاج، معاني القرآن وإعرابه: 5/22.
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيُّ: (بلغ).
(4) محمد رضا، تفسير المنار: 9/83.
(5) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 6/2938.

على قُرب الإجابة بالفاء[1]، أو هي فصيحةٌ: للإفصاح عن شرط مُقدَّر، تقديره: إذا كانوا قد أقسموا ذلك القَسَم فقد نكثوا[2]، و(لَمَّا): شرطيَّةٌ ظرفيَّةٌ للماضي، تُفيد التَّفصيلَ والتَّكرارَ، وعُبِّرَ بالماضي المُسنَد إلى ضمير التَّعظيم ﴿كَشَفْنَا﴾؛ دلالةً على تحقُّقه، مُتخصِّصًا به ﷻ؛ فالقادر على إيقاع العذاب، قادر على رَفْعه وإزالته.

بَلاغةُ الاسْتِغناءِ بالمذكورِ، في قوله: ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا﴾:

الإيجازُ للكلام؛ اقْتِصادٌ وبيانٌ مُتحقِّقٌ بالمذكورِ

وقد جاء في نظم هذه الآيةِ كلماتٌ قليلة تحمل معان كثيرةً، ففي الكلام حَذْفٌ دَلَّ عليه المعنى في السِّياق، وهو: فدعا موسى ربَّه بالكشف، فكُشِف عنهم الرِّجْزُ، فالمذكور فيه إيجازٌ للكلام؛ اقتصادًا وبيانًا متحقّقًا بالمذكور، فقولُه تعالى: ﴿كَشَفْنَا﴾ يفيد بيانَ تفضُّل اللهِ ورحمتِه بهم، وقولُه: ﴿عَنْهُمُ﴾ يُفيد تخصيصَ رفعِ العذاب عنهم.

دَلالةُ إسْنادِ فعْلِ الكشْفِ، والتَّعبيرِ به على طريقِ التَّشْبيه:

إخبارُ اللهِ تعالى عن نفسه، إسنادٌ حقيقيٌّ، ومعنى تشبيهِ كشْفِ الرِّجزِ بالغُمَّة

في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا﴾ أسند الكشفَ إليه؛ لأنَّه هو الكاشف حقيقةً، فلمَّا كان مِن قولهم أَسندوه إلى موسى، وهو إسنادٌ مجازيٌّ، ولمَّا كان إخبارًا مِنَ اللّه أسندَه تعالى إليه؛ لأنَّه إسنادٌ حقيقيٌّ[3]، والتَّعبير عن زوال الرِّجز بـ ﴿كَشَفْنَا﴾ تشبيهٌ له بالغُمَّة التي تَغُمُّ عليهم، وتُكْشَف[4].

بيانُ التَّقديمِ والتَّأخيرِ، في قوله: ﴿عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ﴾:

أهمّيّةُ كَشْفِ الرِّجْزِ عنهم؛ لشدَّةِ ما لاقَوْهُ مِن أذًى وإغناتٍ

قدَّم الجارّ والمجرور ﴿عَنْهُمُ﴾ على المفعول به ﴿ٱلرِّجْزَ﴾؛ لأنَّ المهمَّ عندهم كشْفُهُ عنهم[5]، كما أنَّ تقديمَ الجار والمجرور في قوله تعالى:

(1) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 3/91.
(2) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 6/2938.
(3) أبو حيَّان، البحر المحيط: 4/374.
(4) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 6/2938.
(5) الشّهاب، عناية القاضي: 8/486.

﴿عَنۡهُمُ ٱلرِّجۡزَ﴾ دونَ أن يُقال: (الرِّجزَ عَنهُمُ) يُشيرُ إلى أنَّ الغرض مِن رفع العذاب عن قوم فرعون ليس لإغاثتهم أو تخفيفِ معاناتهم التي ضَجُّوا منها، بل لإظهار قدرةِ اللّه تعالى على إبطال دعواهم المُزَوَّرة؛ بأن لا ضارَّ إلَّا اللّه، ولا نافعَ إلَّا هو.

بَراعةُ التَّكرارِ اللَّفظيِّ للمُفْردِ والجُملةِ:

التَّصريحُ بلفظِ (الرِّجْز)، تهويلٌ وتخويفٌ، وتقريرٌ للمعنَى المقصودِ

كَرّرَ لفظ ﴿ٱلرِّجۡزَ﴾ في الآيتين من جهة، وكَرَّر جملةَ ورودِها مِن جهة أُخرى، بقوله: ﴿كَشَفۡتَ عَنَّا ٱلرِّجۡزَ﴾ في الآية السَّابقة، وفي قوله هنا: ﴿كَشَفۡنَا عَنۡهُمُ ٱلرِّجۡزَ﴾ تصريحًا وتهويلًا[1]، وتقريرًا للمعنى المقصود، وهو كَشْفُ العذابِ المُتَجدِّد هنا، المُتَحقِّق بالجُملة الفعليَّة، وكذلك لـمَّا كان الرِّجْز مِن جملة أُخرى غيرِ مقولةٍ لهم، حَسُنَ إظهارُه دونَ ضميره[2]، وهذا مِن لطيف أَمَارات رحمةِ اللّه؛ مصداقًا للحديث القُدُسي: «إنَّ رحمتي سبقت غضبي»[3].

سِرُّ التَّعْبير بـ(الأَجَل)، دونَ غيرِه:

الأجلُ إمهالٌ مُتَعدِّدُ الدّلالاتِ، مُحدَّدٌ مُقيّدٌ بموْعدٍ

وقوله تعالى: ﴿إِلَىٰٓ﴾ لانتهاء الغاية الزَّمانيَّة، ومجرورها: ﴿أَجَلٍ﴾ متعلَّقان بصفة محذوفةٍ للمصدر المُقَدَّر: (كشفًا كائنًا)، أي: محدَّدًا[4]، فجعل ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ﴾ من تمام ﴿ٱلرِّجۡزَ﴾، ومُتعلِّقًا بمحذوفٍ على أنَّه حالٌ منه، أي: فلمَّا كشفنا عنهم الرِّجْز كائنًا إلى أجل، والمعنى: أنَّ العذاب كان مؤجَّلًا. ويُقوِّي هذا التَّأويلَ كَوْنُ جوابِ ﴿فَلَمَّا﴾ جاء بـ ﴿إِذَا﴾ الفُجائيَّة، أي: فلمَّا كَشَفْنا عنهم العذابَ المقرَّرَ عليهم إلى أجل فاجَؤُوا بالنَّكْث[5]. أو المعنى: إلى حدٍّ مِنَ

(1) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 3/91.
(2) أبو حيَّان، البحر المحيط: 4/374.
(3) البخاريُّ، الجامع الصّحيح، الحديث رقم: (7453)، ومسلم، صحيح مسلم، الحديث رقم: (2751)، وأحمد، المسند: 12/467، 496.
(4) قباوة، المفصّل، ص: 593.
(5) ابن عطيَّة، المحرّر الوجيز: 2/446، وأبو حيَّان، البحر المحيط: 4/374، والسّمين الحلبيّ، الدُّر المصون: 5/436.

الزَّمن هم بالغوه لا محالةَ بضمائرهم التي تجري ظواهرُهم على حَسَبها، فمُعَذَّبون فيه ولا ينفعهم ما تقدَّم لهم مِنَ الإمهال، وكشفِ العذاب إلى حُلُوله[1].

أو أنَّ المراد بالأجل هنا وقتُ إيمانهم وإرسالهم بني إسرائيل معه، أي: عندما رجعوا إلى موسى وسألوه ما سألوه، ويكون المراد بالكَشْف: استمرارَ رفعِ الرِّجْز، كأنَّه قيل: فلمَّا تمادَوْا كَشَفنا عنهم إلى أجل[2]، لكن لا رَفعًا مُطلقًا، بل رَفعًا مُقيّدًا بغاية هي الأجل المضروب لإهلاكهم[3]، فكلُّ كشفٍ للرِّجْز له مُدَّة يعرفها الحَقُّ[4].

فائِدةُ العُدولِ عنِ الوصْفِ بالمفردِ، إلى الوصْفِ بالجُملةِ:

قولُه: ﴿هُم بَٰلِغُوهُ﴾ في محلِّ جَرٍّ صفةٌ لـ ﴿أَجَلٍ﴾، والوصف بهذه الجُملة أبلغُ مِنْ وَصْفه بالمفرد؛ لتكرُّرِ الضَّمير المُؤْذِن بالتَّفخيم[5]، فضلًا عن دلالة التَّخصيص الذي يُضْفيه الوصفُ، ويُعَزِّزُه ضميرُ الفَصْل المفيد للقَصْر، فالأَجَل مخصَّصٌ بهم، مُقتَصِرٌ عليهم.

الإيذانُ بالتَّفخيمِ، المعضُودِ بالقصْرِ، يزيدُ من رُسُوِّ المعنَى وبيانِه

نُكْتَةُ التَّعْبِير بحرفِ المفاجأةِ: ﴿إِذَا﴾:

و﴿إِذَا﴾ في قوله: ﴿إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ﴾ حرفيَّةٌ رابطةٌ لجواب الشَّرط للمُفاجَأة والحال، وهي جواب ﴿فَلَمَّا﴾ أي: فلمَّا كشَفْنا عنهم العذابَ فاجَؤُوا بنقض العهد، وبادَروه وقتَ كَشْفِ العذاب، مِن غير تأمُّلٍ ولا تَوقُّفٍ[6]، وهذا وَصْفٌ لهم بإضمار الكُفر بموسى، وإضمارِ النَّكْث لليمين[7].

نقضُ العَهدِ مِن غيرِ تريُّثٍ، يُوحِي بإضْمارِهم الكُفْرَ، ونكْثِهم اليمينَ

(1) الزَّمخشريُّ، الكشَّاف: 2/148، والبقاعيُّ، نظم الدُّرر: 3/91.
(2) السُّيوطيُّ، نواهد الأبكار: 3/441.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 9/73.
(4) الشَّعراوي، تفسير الشَّعراوي: 7/4322.
(5) السّمين الحلبيّ، الدُّر المصون: 5/436.
(6) قباوة، المفصّل، ص: 593.
(7) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 9/73.

قَصْديَّةُ تقديمِ ضميرِ الفَصْل، والتَّعْبيرِ بالفعْلِ المضارعِ:

تجدُّدُ نَكْثِهم مُكابرةٌ بيقين، وإظهارٌ واضحٌ لسَفَهِهِم المَهِين

والضَّميرُ ﴿هُم﴾ مبتدأٌ، خبرُه المضارع ﴿يَنكُثُونَ﴾، الدَّالُّ على تَجدُّد نَكْثِهم، واستمرارِ نقضِهم عهودَهم عادةً، ومُكابرةً، وجُحودًا[1]، ويدلُّ على استمرار حالةِ الغَدْر والخيانةِ التي اتَّسمَ بها قومُ فرعون، بعد أن رفعَ اللّهُ عنهم العذاباتِ التي أصابتهم؛ بسبب كُفرهم وطغيانهم، فقد وَعَدوا موسى عليه السلام أنَّهم سيؤمنون باللّه ويُسَلِّمون إليه بني إسرائيل إذا رفع عنهمُ البلاءَ، ولكنَّهم كَذَبوا وأخلفوا عهدَهم فورَ انقضاءِ المدَّةِ التي حدَّدها اللّهُ لهم.

وقُدِّمَ الضَّميرُ للقَصْر؛ تخصيصًا للفعل بهم، وإظهارًا لسَفَهِهم، وتَعَنُّتِهم، وغَدْرِهم، وللإشارة إلى أنَّ هؤلاء هم نفسُ القوم الذين وَعَدوا موسى بالإيمان، وأنَّه لا يوجد مِن بينهم مَنِ اتَّقى اللّه أو صدَقَ موسى، وللإيماء بأنَّ هؤلاءِ لا يتأخَّرون في خيانتهم وإظهار ضلالتهم، بل يفعلون ذلك حالَ رفعِ العذاب عنهم، دونَ تردُّدٍ أو تأنٍ.

بَلاغةُ التَّعْبير عن نقْضِ العهدِ، على طريقِ الاسْتِعارةِ:

النّكْثُ ممقوتٌ؛ لأنّه إفسادُ النّافعِ مِنَ العملِ، وإلغاءُ الصّالحِ مِنَ الأملِ

والنَّكْثُ: حقيقتُه: نقضُ المفتولِ مِن حَبْلٍ أو غَزْلٍ، وفَلُّ طاقاتِ الصُّوف المَغْزُول، وخيوطِ الأَكْسيَة إذا نُكِثَتْ بعدما أُبْرِمَتْ؛ لتُغْزل ثانيةً، قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا﴾ [النحل: 92]، فاستُعير النَّكْثُ لنقض العهد، وعدمِ الوفاء به بعدَ إحكامِه وإبرامه، كما استُعير الحبلُ للعَهْد في قوله تعالى: ﴿إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران: 112].

ففي قوله: ﴿يَنكُثُونَ﴾ استعارةٌ تبعيَّةٌ، وهذا مِنْ أحسن الاستعارات[2]؛ إذ كان حالُهم إفسادَ ما كان نافعًا مُحْكَمًا مِنَ العمل، وإرجاعَه إلى عدم الصَّلاح. ووجهُ الشَّبَهِ في هذه الاستعارة:

(1) محمد رضا، تفسير المنار: 9/83.

(2) السّمين الحلبيّ، الدُّر المصون: 5/437، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 9/73.

الرُّجُوع إلى الإفساد بعدَ التَّلَبُّس بمظاهر الصَّلاح ومُقدِّماته، وإن كان ادِّعاءً[1].

بيانُ ارتباطِ الفاصلةِ بما بعدَها:

ترتبط فاصلةُ هذه الآية الكريمة: ﴿إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ﴾ بالآية بعدها؛ إذ خُتِمَت بالمضارع الدَّالِّ على التَّجدُّد والاستمرار؛ فناسبَ الانتقامَ منهم، وإيقاعَ العذابِ الأليمِ بهم.

دَلالةُ المضارعِ على التَّجَدُّدِ، تناسِبُ إيقاعَ العَذابِ

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(نكثَ) و(نقضَ):

النَّقْضُ: إفساد ما أبرمتَ من حبل، أو عقد، أو بناء[2]، وانتثارُه، وهو ضِدُّ الإبْرام[3]، وهو بهذا لا يقتضي تكرارَ الإبْرام، وإنَّما إفْسادَهُ فحَسْب.

النَّكْثُ تكرارٌ للإبرامِ، والنَّقْضُ إفسادُ ما أَبْرمْتَ، ولا يقتضِي التَّكرارَ

والنِّكْثُ (بحسب ما مرَّ بيانُه): الغَزْل مِنَ الصُّوف، أو الشَّعر تُبْرَم وتُنْسَج، فإذا أَخْلَقَتْ النَّسيجةُ قُطِعَتْ قِطَعًا صغارًا، ونُكِثَتْ خيوطُها المبرومة، وخُلِطَتْ بالصُّوف الجديد، ونَشِبَتْ به، ثمَّ ضُرِبتْ بالمطارق، وغُزِلَتْ ثانيةً واستُعمِلَتْ، والذي ينكُثُها يقال له: نَكَّاث، ومن هذا نَكْثُ العهدِ، وهو نقضُه بعد إحكامه، كما تُنْكَثُ خيوطُ الصُّوف المغزول بعد إبرامه[4].

فالنِّكْثُ (بالكسر): الخيط الخَلَقُ مِن صوفٍ، أو شَعْرٍ، أو وَبَرٍ، سُمِّيَ به؛ لأنَّه يُنْقضُ ثمَّ يُعاد فتْلُه[5].

فهو تَكرارٌ للإبرام بعد نَكْثِه، كَمَا تُنْكَثُ خيوطُ النَّسَائج والأكسية

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 14/264.
(2) الخليل، العين: (نقض).
(3) الرّاغب، المفردات: (نقض).
(4) الزَّبيديُّ، تاج العروس: (نكث).
(5) ابن الأثير، النِّهاية: (نكث).

البالية لتُغْزَلَ ثَانِيَةً[1]. وقَصْديَّة اختيارِه في سياق الآية الكريمة مِن بديع وجوه النَّظم القرآنيِّ، ودقيقِ صَوْغِه؛ لكون صنيعِ آل فرعون كان تكرارًا للعهد بالإيمان، وإخراجَ بني إسرائيلَ كلَّما وقع عليهم صنفُ عذابٍ، فإذا ما كشَفَهُ تعالى عنهم عادُوا يَنْكُثون ما أبرموا مِن عَهْدٍ.

(1) الأزهريُّ، تهذيب اللُّغة، وابن سيده، المحكم، والرّاغب، المفردات: (نكث).

﴿فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ فَأَغۡرَقۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّ بِأَنَّهُمۡ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنۡهَا غَٰفِلِينَ﴾ [الأعراف: 136]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

العَلاقةُ بين النَّكْثِ بعدَ انْكِشافِ الرِّجزِ، والعقوبةِ الأليمةِ بالإغراقِ في اليمِّ

لـمَّا أخبر أنَّهم فاجَؤُوا النَّكْثَ وكرَّروه، سبَّبَ عنه قَوْلَه: ﴿فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ﴾، أي: انتقامًا ليس كذلك الذي كنَّا نؤذيهم به، بل انتقامَ إهلاكٍ، عبرةً واتِّعاظًا[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَٱنتَقَمۡنَا﴾: تقدَّم شرحُ معنى هذه اللَّفظةِ عند الحديث عن لفظة ﴿تَنقِمُ﴾ مِنَ الآية [126]، وخلاصة معناها: أنَّ معنى (نَقَمْتُ): أنكرتُ الفعلَ، والنِّقْمَةُ: مِنَ العذاب والانتقام، كأنَّه أنْكَر عليه فعاقَبَه[2]، والانتقام: هو العقوبة الشَّديدة الشَّبيهة بالنَّقْم، وهو غضبُ الحِنْق على ذنبِ اعتداءٍ على المُنتَقِم، يُنْكَر فاعِلُه ويُكْره[3].

2) ﴿فَأَغۡرَقۡنَٰهُمۡ﴾: (الغين، والرَّاء، والقاف) أصلٌ واحدٌ صحيحٌ، يدلُّ على انتهاء في شيء يبلغ أقصاه، مِن ذلك الغَرْقُ في الماء[4]، فرجلٌ غَرِقٌ وغَريقٌ: رَسَبَ في الماء، وابتُلِيَ بالدَّين والبَلْوى؛ تشبيهًا به. والتَّغريقُ: القتلُ[5]، والغَرِقُ: الذي قد غلبَهُ الماءُ[6]، وقيل: الغَرِق: الرَّاسب في الماء، والغريق: المَيِّتُ فيه[7]، والإغراق: الإلقاء في الماء

(1) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 3/91.
(2) الخليل، العين، وابن فارس، المقاييس: (نقم).
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 9/74.
(4) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (غرق).
(5) الخليل، العين، والرّاغب، المفردات: (غرق).
(6) الأزهريُّ، تهذيب اللُّغة: (غرق).
(7) ابن سيده، المحكم: (غرق).

الـمُسْتَبْحِرِ، الذي يغمُرُ الـمُلْقَى فيه، فلا يَترك له تنفُّسًا[1]. وكلُّ ما جاء في القرآن مِنَ التَّركيب هو مِنَ الغَرَق في الماء، عدا ﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرۡقٗا ١﴾ [النازعات: 1][2].

3) ﴿ٱلۡيَمِّ﴾: اليَمُّ: البَحْرُ الّذي لا يُدْرَكُ قَعْرُهُ، ولا شَطّاهُ، وَيُقَال: اليَمُّ: لُجَّتُه[3]، ولم يَرتضِ الأزهريُّ قولَ الخليل مِن أنَّ اليَمَّ: ما لا يُدْرَكُ شطَّاهُ، مُستَدِلًّا بقوله تعالى في قصَّة أُمِّ موسى عليه السلام: ﴿فَلۡيُلۡقِهِ ٱلۡيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ﴾ [طه: 39]؛ إذ جعل لَهُ ساحلًا؛ وذهب إلى أنَّه: البَحر، وأنَّ اسم (اليَمّ) يَقَعُ على ما كان مَاؤُهُ مِلْحًا زُعافًا، وعلى النَّهر الكبير العَذْبِ الماء. وأصله بالسُّريانيَّة: (يَمًا)، وعرَّبتْهُ العَرَبُ[4]، وذهب الزَّمخشريُّ إلى أنَّه عربيٌّ، واشتقاقُه مِنَ التَّيمُّم، ومعناه: البحرُ الذي لا يُدركُ قَعْرُهُ، أو هو لُجَّة البحر ومعظمُ مائِهِ[5]، أو هو من القِبْطيَّة، أو مِنَ العِبْريَّة، ولعلَّه موجود في هذه اللُّغات، ولعلَّ أصلَه عربيٌّ، وأخذَتْهُ لغاتٌ أُخرى مِنَ العربيَّة. والمراد به هنا: بحرُ القُلْزُم، الـمُسَمَّى في التَّوراة: بحرَ سُوْفٍ، وهو البحر الأحمر، وقد أُطلق (اليَمُّ) على نهر النِّيل في قوله تعالى: ﴿أَنِ ٱقۡذِفِيهِ فِي ٱلتَّابُوتِ فَٱقۡذِفِيهِ فِي ٱلۡيَمِّ﴾ [طه: 39] وقوله: ﴿فَإِذَا خِفۡتِ عَلَيۡهِ فَأَلۡقِيهِ فِي ٱلۡيَمِّ﴾ [القصص: 7][6].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

يخبر اللّهُ أنَّه لـمَّا كشف عن قومِ فرعونَ العذابَ مرَّات فلم يؤمنوا ولم يرجعوا عن كُفْرهم، فلمَّا بلغوا الأجل الذي أَجَّلَ لهم، انتقمَ منهم بأن أهلكَهم بالغَرَق في بحر لا يُدرَك قُعْرُه؛ بسبب أنَّهم

الانتقامُ مِنَ النّاكثِين بإهلاكِهم إغراقًا، وجَزائِهم على تكذيبِهم جَزاءً وِفاقًا

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 9/75.
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيُّ: (غرق).
(3) الخليل، العين: (يم).
(4) الأزهريُّ، تهذيب اللُّغة: (يم).
(5) الزَّمخشريُّ، الكشَّاف: 2/148.
(6) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 9/75.

كذَّبوا بآيات اللّه الدَّالَّة على وحدانيَّته وصِدقِ نبيِّه ورسالتِه، وكانوا عن آيات اللّه تعالى غافِلِينَ، ومُعْرِضين عمَّا تقتضيه وتستلْزِمُه مِن عذاب الدُّنيا والآخرة، أو غافلين على حلول النِّقمة بهم[1].

ولذلك عاملهم معاملةَ مَن ينتقم ممَّن أعلن الحربَ على اللّه ورسوله موسى عليه السلام؛ لأنَّه تعالى اختبرهم ثمَّ كشف عنهم ما اختبرهم به؛ رجاءَ أن يتذكَّروا ويعتبروا ويتَّعظوا، فما زادوا إلَّا ظُلمًا، واستكبارًا، وعُتُوًّا، وفسادًا، فليس لهم إلَّا أن يَنزِل بهم العذابُ الأكبر، الذي يكون استئصالًا وإهلاكًا بالغرق؛ وذلك بسبب تكذيبِهم بالآياتِ التي توالتْ لهم آيةً بعد آيةٍ، وغفْلَتِهم عن مغزاها ومعناها، مع أنَّها كانت لهم بمرأى العين والحسِّ، ولكنَّهم غَفَلوا عنها، واستهْواهُم الشَّيطان فَضَلُّوا[2].

وترشدُ الآيةُ الكريمة: إلى أنَّه تعالى لا يُهلك إلَّا بعد أنْ يُقدِّم العِللَ، ويُوجِّه الآيات، وأنَّ ما أصابهم كان عقوبةً وجزاءً على فعلهم، وتَهدي أيضًا إلى قُبْح الاعتراض على آيات اللّه، ووجوبِ النَّظر والتَّفكُّر وعدمِ الغفلة عن آياته في الرَّخاء والشِّدَّة[3].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

سِرُّ التَّعْبير عنِ الانتقامِ بصِيغةِ الافتعالِ ﴿فَٱنتَقَمۡنَا﴾:

الفاء في: ﴿فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ فَأَغۡرَقۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّ﴾ للتَّرتيب، والتَّعْقيب، والسَّببية. والانتقامُ: افتعالٌ دالٌّ على شدَّة العقوبة، وأصلُ صيغة الافتعال أنْ تكون لمطاوعة فعلِ المتعدِّي، بحيث يكون فاعلُ المطاوعة هو مفعول الفعل المجرَّد، وهو مِن لطيف استعمالات القرآن؛ إذ لم يُسمَع أنْ قالوا: نَقَمَهُ فانتَقَم، أي: أحْفَظَهُ وأغْضَبَهُ فعاقَبَ، فهذه

في الصِّيغة دَلالةٌ على شِدَّةِ العقوبةِ، وهوْلِ مَشهدِ الهلاكِ

(1) الخازن، لباب التَّأويل: 2/242، ومحمد رضا، تفسير المنار: 9/84.
(2) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 6/2939.
(3) القاسميُّ، محاسن التَّأويل: 5/173.

المطاوعة أُميتَ فِعْلُها المجرَّد، وعُدِّيَ إلى المعاقَب بـ (مِن) الابتدائيَّة؛ للدّلالة على أنَّه مَنْشَأُ العقوبة وسببُها، وأنَّه مستوجبُها[1].

سِرُّ قَصْديَّةِ التَّعْبير بالإغراقِ دونَ غيرِه:

بيانٌ للانتقامِ، وتفصيلٌ لِمُجمَلِه بالعطْفِ

الإغراق: الإلقاء في الماء المستَبْحِرِ الذي يغمُر المُلْقى، فلا يترك له تنفُّسًا، وهو بيانٌ للانتقام وتفصيلٌ لمجمله، فالفاء في قوله: ﴿فَأَغْرَقْنَٰهُمْ﴾ للتَّرتيب الذِّكْريِّ، وهو عطفُ مفَصَّلٍ على مُجْمَلٍ، كما في قوله تعالى: ﴿فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ [البقرة: 54]، وحَمْلُ الفعلِ المعطوف عليه هنا على معنى العَزم، فيكون المعنى: فأردنا الانتقامَ منهم؛ فأغرقناهم[2].

بَلاغةُ التَّعْبير بالمجازِ المُرسَلِ:

أُطلِقَ اسمُ المسبَّبِ على السَّببِ؛ تنبيهًا بعدَمِ انفِكاكِ الانتقامِ عنِ الإرادةِ

وذلك في قوله: ﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾؛ إذ أَطلق الفعلَ، والمراد إرادتُه، أي: فأردنا الانتقامَ منهم فأغرقناهم[3]، والفاء في ﴿فَأَغْرَقْنَٰهُمْ﴾ للتَّعقيب، والسَّببيَّة، وأُريدَ بالانتقام نتيجتُه، وهو الإهلاك؛ لأنَّ التَّشفِّي في حَقِّه تعالى محالٌ.

والانتقامُ: العقابُ الواقع على مجازاة السَّيِّئة بالسَّيِّئة، وإنَّما أَسندَ الانتقام إلى ذاته؛ لأنَّ الأنبياء وكُلَّ الأولياء كانوا فانينَ عمَّا سوى الله، باقينَ بالله، فكان اللهُ خليفتَهم في أخذ الانتقام مِن أعدائهم، والمعنى: فأردنا الانتقامَ منهم، أي: مِن فرعونَ وقومِه لـمَّا وَلَغوا في المعاصي والجرائم، فإنَّ قوله تعالى: ﴿فَأَغْرَقْنَٰهُمْ﴾ عينُ الانتقام منهم؛ وأُطلِقَ اسمُ المسبَّب على السَّبب، تنبيهًا على أنَّ الانتقام لم ينفكَ عنِ الإرادة، ويجوز أن يكون المراد مطلقَ الانتقام، والفاءُ تفسيريَّةً كما في قوله تعالى: ﴿فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓاْ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 9/74.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 9/75.
(3) الإندونيسيُّ، الشَّامل: 1/422.

أَنفُسَكُمْ﴾ [البقرة: 54]، ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ﴾ [هود: 45][1]، وعلى كون الإغراق بيانًا للانتقام وتفصيلًا لمُجْمَله، تكون الفاء في قوله: ﴿فَأَغْرَقْنَٰهُمْ﴾ للتَّرتيب الذِّكْريِّ، وهو عطفُ مفصَّلٍ على مجمَلٍ، بحسب ما مرَّ[2].

دَلالةُ تفريعِ الانتقامِ بالإغراقِ، في: ﴿فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ﴾:

تَفريعُ النَّتيجةِ على المقدِّماتِ والفَذْلَكَةِ، هو محلُّ العِبرةِ مِنَ القِصَّةِ

قوله تعالى: ﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ﴾ مُفرَّعٌ على ما تقدَّم مِن أحداث، تفريعَ النَّتيجة على المقدِّمات، والفَذْلَكَةِ على القِصَّة، فإنَّه بعد أن وصف عنادَ فرعونَ ومَلَئِه وتكذيبَهم رسالةَ موسى، واقتراحَهم على موسى أن يجيء بآية، ومشاهدتَهم آيةَ انقلابِ العصا ثعبانًا، وتغييرَ لونِ يده، ورميَهم موسى بالسِّحْر وسُوءِ المقصِد، ومعارضةَ السَّحَرَةِ معجزةَ موسى، وتغلُّبَ موسى عليهم، وكيف أخذ اللّٰهُ آلَ فرعونَ بمصائب جعلها آياتٍ على صِدْق موسى، وكيف كابروا وعاندوا، حتَّى أُلْجِئوا إلى أنْ وعدوا موسى بالإيمان وتسريحِ بني إسرائيل معه، فلمَّا كَشَف عنهم الرِّجْزَ نَكَثوا، فأخبر اللّٰهُ بأنَّ ذلك تَرتَّبَ عليه استئصالُ المستكبرين المعاندين، وتحريرُ المؤمنين الذين كانوا مستَضعَفين، وذلك محلُّ العِبرة، فلذلك كان الموقعُ في عطفه بالفاء التَّرتيبَ والتَّسبُّب، وقد اتَّبعَ في هذا الختام الأسلوبَ الّذي اختُتِمت به القصصُ الّتي قبل هذه، وفيه تنبيه للسَّامعين إلى الانتقال مِنَ القصَّة إلى العِبرة[3].

سِرُّ العُدولِ عنِ الإطنابِ، إلى الإيجازِ والإجمالِ:

المقامُ هنا مَقامُ الأخْذِ الحاسِمِ، بعدَ الإمهالِ الطَّويلِ

يسوقُ القرآنُ هنا حادثَ إغراقِ فرعونَ ومَلَئِه بصورة مجملة، فلا يُفَصِّل خطواتِه وأحداثَه كما فصَّلها في مواطنَ أُخرى؛ وذلك

(1) الطِّيبيُّ، فتوح الغيب: 6/538، والسُّيوطيُّ، نواهد الأبكار: 3/442، حقِّي، روح البيان: 3/223.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 9/75.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 9/74، 76.

لأنَّ المقام هنا هو مقام الأخذ الحاسم بعد الإمهال الطَّويل، فلا داعيَ إذن إلى طول العرض والتَّفصيل.

والأسلوب الذي جاءت به سورة الأعرفِ من سرعة القضاء أوقعُ في النَّفس، وأرهبُ للحِسِّ، وأزجرُ للقلب، وأدْعَى إلى العِظَة والاعتبار.

نُكْتَةُ اخْتِيارِ لفْظِ ﴿ٱلۡيَمِّ﴾، دونَ غيرِه:

اليمُّ: مشتقٌّ - في رأيٍ - مِنَ التيمُّم؛ لأنَّ المُستنفعين به يقصدونه بأنَّهم كذَّبوا بآياتنا، أي: كان إغراقُهم بسبب تكذيبهم بالآيات، وغفلتهم عنها، وقلَّة فكرهم فيها[1]، والتَّعريف فيه للعهد الذِّهنيِّ عند علماء المعاني، المعروفِ بتعريف الجنس عند النُّحاة؛ إذ ليستِ العبرةُ العنايةَ ببحرٍ مخصوصٍ، ولكن بفردٍ من هذا النّوع[2]، وسيأتي بيانُ الفرْقِ بينَه وبينَ البحر.

اليمُّ مَقصودٌ بوصْفِه بحرًا مخصوصًا، وفيه كان الإغراقُ بالاتّفاقِ

دَلالةُ الباءِ والمصْدرِ في قوله: ﴿بِأَنَّهُمۡ كَذَّبُواْ﴾:

الباء في قوله: ﴿بِأَنَّهُمۡ﴾ باءُ التَّسبيب[3]، أي: كان إغراقهم بسبب تكذيبهم بالآيات، وغفلتهم عنها، وقلَّة فِكْرهم فيها[4]، أو هي للإلصاق المعنويِّ، بإضافة الإغراق إلى الكذب، أي: التصقَ إغراقُهُم بكَذِبهم، فهو إلصاقٌ مجازيٌّ، و(أنَّ) حرف مصدريٌّ، وانسبكَ مع فعله الماضي ﴿كَذَّبُواْ﴾؛ ليكون أقوى في الدّلالة على كَذِبهم مِنَ المصدر الصَّريح، أو إفرادِ الكذب، وعَبَّر عنِ (الآيات) التّي هي المعجزاتُ بالجمع لتَعدُّدها، ونَسَبَها إلى ضمير العَظَمَة تصريحًا، بنسبتها إليه وحدَه، فهو سبحانَه مُرسلُها ومُظهرُها على يد موسى عليه السلام.

التّكذيبُ بآياتِ اللهِ تعالى، رفضٌ للمنهج، ونأيٌ عنِ الهدايةِ والرّشادِ

(1) الزَّمخشريُّ، الكشَّاف: 2/148.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 9/75.
(3) ابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 2/446.
(4) النَّسفي، مدارك التَّنزيل: 1/599.

نُكْتَة التَّعْبِير بالجُملتَيْن: الاسْميَّةِ والفعليَّةِ:

ثباتُ إعْراضِ فرعونَ وآلِه، وتَجَدُّدُ تكْذيبِهم بالوحْيِ والمعجزاتِ

وقد صِيغَ الإخبار عن إعراضهم ونَكْثِهم في الآية الكريمة السَّابقة بصيغة الجُملة الاسميَّة: ﴿إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ﴾؛ للدّلالة على أنَّ هذا الإعراضَ ثابتٌ لهم، وراسخٌ فيهم، وأنَّه هو علَّة التَّكذيبِ المصوغُ خبره بصيغة الجُملة الفعليَّة - في هذه الآية - لإفادة تَجدُّدِه عند تَجدُّد الآيات[1]، وناسبَ ذلك إردافُها بالجملة الفعليَّة المؤكِّدَة: ﴿وَكَانُواْ عَنْهَا غَٰفِلِينَ﴾؛ لتجدُّد تكذيبِهم برسوخ إعراضهم واستمراره.

دَلالةُ عَوْدِ الضَّميرِ في ﴿عَنْهَا﴾، إلى الآياتِ المُدرَجاتِ في السِّياقِ:

الغَفْلةُ التّي بمعنَى الإعراضِ، هي سَببُ التَّكذيبِ والانْتقاضِ

الظَّاهر عَوْدُ الضَّمير في ﴿عَنْهَا﴾ إلى الآيات، أي: غَفَلوا عمَّا تضمَّنته الآياتُ مِنَ الهدى والنَّجاة وما فكَّروا فيها، وتلك الغفلة هي سبب التَّكذيب، وقيل: يعود الضَّمير على النِّقمة الدَّالِّ عليها: ﴿فَٱنتَقَمْنَا﴾، أي: كانوا عنِ النِّقمة وحلولِها بهم غافلين، والغفلة في القول الأوَّل: عُنِيَ به الإعراضُ عنِ الآيات وعدمُ الالتفات إليها؛ لأنَّ الغفلةَ عنه والتَّكذيبَ لا يجتمعانِ، مِن حيثُ إنَّ الغفلة تستدعي عدمَ الشُّعور بالشَّيء، والتَّكذيبَ به يستدعي معرفتَه، ولأنَّه لو أُريدَ صفةُ الغفلة لكانوا معذورين؛ لأنَّ تلك ليست باختيار العبد[2].

بَراعةُ التَّعْبير بلفظِ ﴿غَٰفِلِينَ﴾، على طريقِ المجازِ:

الدّلالةُ على الإعراضِ عنِ التَّفكّرِ عمْدًا، والغايةُ التَّعريضُ بمُشركي العربِ

وَوَصْفُ الكُفَّار بالغفلة - وهم قد كَذَّبوا وردُّوا في صدر الآيات - مِن حيث إنَّهم غَفَلوا عمَّا تتضمَّنُه الآياتُ مِنَ الهدى والنَّجاة[3]، والغفلة: ذُهول الذِّهْن عن تَذَكُّر شيءٍ، وأُريدَ بها هنا التَّغافلُ عن عَمْدٍ، وهو الإعراض عنِ التَّفكُّر في الآيات، وإبانةُ النَّظر في دلالتها على صِدق موسى.

---

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 9/76.

(2) أبو حيَّان، البحر المحيط: 4/375.

(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/446.

وإطلاق الغفلة على هذا مجاز[1]، يعني: أنَّ الغفلة مجازٌ عن عدم الفِكْر، وعن غير المبالاة؛ إذ المكذِّبُ بأمرٍ لا يكون غافلًا عنه لتنافيهما، وفيه إشارة إلى أنَّ مَن شاهد مثلَها لا ينبغي له أن يُكَذِّب بها مع علمه بها[2]، وفي ذلك تعريضٌ بمشركي العرب، في إعراضهم عنِ التَّفكر في صدق الرَّسول ﷺ، ودلالةِ معجزةِ القرآن؛ فلذلك أُعيدَ التَّصريحُ بتسبُّب إعراضِهم في غرقهم، مع استفادته مِنَ التَّفريع بالفاء، في قوله: ﴿فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ فَأَغۡرَقۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّ﴾؛ تنبيهًا للسَّامعين، للانتقال مِنَ القصَّة إلى العِبْرة[3].

عِلَّةُ تقديمِ شِبْهِ الجُملةِ على الخبرِ، والتَّعْبيرُ باسْمِ الفاعلِ ﴿غَٰفِلِينَ﴾:

قَدَّم الجَارَّ والضَّميرَ العائدَ ﴿عَنۡهَا﴾ على الآيات، على خبر (كان) وهو ﴿غَٰفِلِينَ﴾؛ عنايةً بالآيات، لوضوحها وعِظَمِها، فضلًا عن تخصيص التَّكذيب بها، وعبَّر عن غفلتهم بصيغة اسم الفاعل؛ ليَدلَّ على ثُبوت صفة الغفلة فيهم، ودوامِها لدَيهم، وأنَّ شأنها حاصلٌ ثابتٌ مستقِرٌّ، ويُؤكِّدُه التَّعبير بالفعل: ﴿وَكَانُواْ﴾، الدَّالِّ على تَحَقُّق الحَدَث، والصَّوغُ بالجُملة الفعليَّة الدَّالَّة على تجدُّده، واستمراره فيهم.

الآياتُ مَوطنُ عِنايةٍ، وتَخصيصُ التَّكذيبِ بها دليلُ أهمِّيَّتِها وقَداستِها

ودلَّ سبحانَه بقوله: ﴿وَكَانُواْ عَنۡهَا غَٰفِلِينَ﴾ على أنَّهم كذَّبوا بغير شُبهة عَرضت لهم، بل: عِنادًا، أي: جِبلَّة وطبعًا؛ ليكون حالُهم بعدَها كحالهم قبلَها، فكأنَّها لم تأتهم أصلًا، فاستحقُّوا الأخذَ؛ لِتَحقُّق علمِهم بأنَّ الآياتِ لا تُفيدُهم[4].

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 9/75.
(2) الشِّهاب، عناية القاضي: 4/357.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 9/76.
(4) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 3/91.

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

البَحْرُ واليَمُّ:

اليَمُّ لُجّةُ البحرِ الّذي لا يُدْرَكُ قَعْرُهُ، وصِفتُه تلاطُمُ الأمواجِ، وهما من مُفرداتِ القرآنِ

ورد استعمال (البحر) في القرآن الكريم في سياق النِّعمة وفي سياق العذاب، وفي غير ذلك، والغالبُ استعمالُه في سياق النِّعمة، ومِن ذلك قولُه تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا﴾ [النحل: 14]، وقولُه: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ﴾ [الجاثية: 12]، وغيرُهما، وقد يتَّصِفُ البحرُ بالسُّكون، وقد يتَّصِف بالهِياج والاضطراب، بمعنى: أنَّه ليس متَّصِفًا بصفة واحدة تَسِمُهُ بالثَّبات.

وبان في الشَّرح اللُّغويِّ لـ (اليَمّ) بأنَّه: البَحْرُ الّذي لا يُدْرَكُ قَعْرُهُ، أو هو لُجَّتُه، ويقعُ على ما كان ماؤُهُ مِلْحًا زُعافًا، وعلى النَّهر الكبير العَذْب الماء، فاليَمُّ يعني: لُجَّة البحر، وهو بالضَّمِّ: الماء الكثير الذي لا يُرَى طرفاهُ، ولا يُدرَك قَعْرُه، وهو: تَردُّد أمواجِه، واخْتلاطُها، وكثرتُها، وتلاطُمُها، وفي الحديث: «مَن ركبَ البَحْرَ إذا ارْتَجَّ، فقد بَرِئَتْ مِنْهُ الذِّمَّة»، وَفي روايةٍ أُخرى: «فَلَا يَلُومن إلا نَفسَه»[1].

وورد لفظُه في بعض معاجم العربيَّة: «إذا الْتَجَّ»، والْتجَّ الموجُ: إذا عَظُم واختلط، والْتَجَّ البحرُ: تلاطمت أمواجُه، وعظُمَت لُجَّتُه وتموَّج[2].

والقرآنُ الكريمُ يُفسِّرُ بنفسه معنى اللُّجِّيِّ في قوله تعالى: ﴿فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ﴾ [النّور: 40]، فاللُّجِّيُّ: الواسع الكبير، العظيمُ اللُّجَّةِ، الكثيرُ الماءِ، العميق الذي يبعُد عمْقُه، ويعلوه موجٌ[3] يتبع بعضُه بعضًا، حتَّى كأنَّ بعضَه فوقَ بعضٍ، وهو أخوفُ

(1) ينظر الحديث مع اختلاف في الرواية في: أحمد، المسند، الحديث رقم: (22333)، والبخاري، الأدب المفرد، الحديث رقم: (1194)، والبيهقي شعب الإيمان، الحديث رقم: (4725)، وابن حجر العسقلاني، فتح الباري: 6/103.

(2) الزبيديُّ، تاج العروس: (لجج).

(3) الواحديُّ، التَّفسير الوسيط: 3/322.

ما يكون، إذا توالى مَوجُه وتقارب[1]؛ إذ يركبُ بعضُه بعضًا لشِدَّة تعاقُبِه[2]، وتلاطُم أمواجِه[3].

وبهذا يظهر اتِّصافُ اليَمِّ بالعُمْق، وتَردُّدِ الأمواج، وكَثْرتِها، وتلاطُمِها، وتَمَوُّج مياهِها، وهو يناسب تمامًا العِقابَ إغراقًا، لجمعٍ كبيرٍ مِنَ النَّاس، فالعُمْقُ استيعابٌ لهم، وتلاطُمُ الأمواجِ واصطخابُها عَوْنٌ على ابتلاعهم، في مشهد رُعْبٍ، وإظهارٍ للشِّدَّة، وإلباسٍ في العذاب، فكأنَّها تغوص بهم إلى قَعْرٍ لا خَلَاصَ منه، وتخلطُهم، وتلطمُهم، فلا حَراكَ لهم مِن ثَمَّ، ولا مُقاومة.

وَصْفُ اليَمِّ يُناسبُ العِقابَ إغراقًا وهلاكًا، لمن عُوقِبَ بالإغراقِ

ولذلك نجد كلَّ مَواطنِ ورودِ اليمِّ في القرآن قد رافقت مشاهدَ الانتقام والعقابِ إغراقًا، باستثناء مشهدِ الإغراق في سورة البقرة، قوله تعالى: ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَٰكُمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ۝٥٠﴾ [البقرة: 50] الذي جمع فيه ذِكْرَ قوم موسى عليه السلام وآلِ فرعونَ؛ إذ عَدَلَ إلى استعمال البحر بدلَ اليمِّ؛ مُراعاةً لهم، وحَيْدةً مِن نسبة العقوبة إليهم، لكونه ممَّا يُعبَّر به عن مواطن النِّعَمِ والخيرات، والله أعلم.

عبَّرَ باليَمِّ في حكاية أُمِّ موسى عليه السلام، في قوله تعالى: ﴿أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ﴾ [طه: 78]، مع عدم وجود العقوبة؛ لأنَّ اليَمَّ يناسبُ الإلقاء في الآية الكريمة؛ لكون تَردُّدِ الأمواج وتَموُّجِها هو الذي يدفع التَّابوت إلى السَّاحل، لا سكونه[4].

سِرّ التَّعْبير باليَمِّ في حكايةِ أُمِّ موسَى عليه السلام، مع عدَمِ وجودِ العقوبةِ

ولـمَّا كان الخوف على موسى بإلقائه فيما فيه موتُه لا محالةَ، مِنَ الأمور العجيبة التي أراد الله زيادتَها عجبًا؛ لتكون البُشرى

(1) القرطبيُّ، الجامع لأحكام القرآن: 12/284.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/255.
(3) الشَّعراويُّ، تفسير الشَّعراويُّ: 17/10287.
(4) زيدان، الفروق اللُّغوية، ص: 265.

أعظمَ وأفخمَ؛ ناسبَهُ أنْ يكون إلقاؤه فيما اشتدَّ قَعْرُه، واتَّسَع حجْمُه، وتلاطمت أمواجُه؛ لـمَّا كان الأمر كذلك ناسبه ذِكْرُ ﴿ٱلْيَمِّ﴾[1].

وعلى ذلك فإنَّ اليمَّ لم يُستعمَل في القرآن إلَّا في مقام الخوف، أو العذابِ والعقوبةِ، ولم يُستعمَل في مقام النَّجاة، أمَّا البحرُ فعامٌّ، يُستعمَل في مقام الخوف والعقوبة والنِّعم، وذلك مِن خصوصيَّة الاستعمال القُرآنيِّ[2].

نـاسـبَ إلـقـاءَ مـوسَى فـيـما اشـتـدَّ قَـعْـرُهُ، وتـلاطَـمَـتْ أمواجُهُ؛ لتكونَ البُشْرَى أَفْخمَ

(1) سعد، موسوعة الفروق القرآنيَّة: 1/438.

(2) هبيان، من روائع البيان في سور القرآن، ص: 183 - 184.

﴿وَأَوۡرَثۡنَا ٱلۡقَوۡمَ ٱلَّذِينَ كَانُواْ يُسۡتَضۡعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلۡأَرۡضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَاۖ وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلۡحُسۡنَىٰ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُواْۖ وَدَمَّرۡنَا مَا كَانَ يَصۡنَعُ فِرۡعَوۡنُ وَقَوۡمُهُۥ وَمَا كَانُواْ يَعۡرِشُونَ ١٣٧﴾ [الأعراف: 137]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

المناسبةُ بين إغراقِ فرعونَ وآلِه، وبين تمكينِ المستضْعَفِين، جرّاءَ دمارِ الظّلمةِ الباغِينَ

بعد أن بيَّن سبحانَه ما حَلَّ بفرعونَ وقومِه مِنَ الغرق؛ عقوبةً لهم على تكذيبهم بموسى بعد وجود البراهينِ والأدلَّة، الآيةِ تلو الآيةِ الدَّالَّةِ على صِدْقه، ذَكَر هنا ما فعله ببني إسرائيلَ مِنَ الخيرات[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يُسۡتَضۡعَفُونَ﴾: (الضَّاد، والعين، والفاء) أصلانِ متبايناني، يدلُّ أحدُهما على خلاف القُوَّة، وهو: الضَّعْفُ والضُّعْفُ[2]، ويقال: الضَّعْفُ في العقل والرَّأي، والضُّعْفُ في الجسد، ويقال: هما لغتانِ جائزتان في كُلِّ وجه، ويقال: كلَّما فتحتَ بالكلام فتحتَ بالضَّعف، تقول: رأيتُ به ضَعْفًا، وأنَّ به ضَعْفًا، فإذا رفعتَ أو خفضتَ فالضَّمُّ أحسنُ، تقول: به ضُعْفٌ شديدٌ، وفَعَلَ ذاكَ مِن ضُعْفٍ شديد[3]، والضَّعْفُ قد يكون في النَّفس وفي البدن وفي الحال، وقيل: الضَّعْفُ والضُّعْفُ لُغتان[4]. وكلُّ ما في القرآن مِنَ الفعل (ضَعُف) ومشتقاتِه، مِنَ الضَّعْف: هو عدم القُوَّة[5]، ومعنى ﴿يُسۡتَضۡعَفُونَ﴾ في الآية الكريمة: يُسْتَعْبَدونَ ويُهَانون[6].

(1) المراغي، تفسير المراغي: 9/47 - 48.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (ضعف).
(3) الخليل، العين: (ضعف)، والعسكريُّ، الفروق اللُّغوية، ص: 116.
(4) الرّاغب، المفردات: (ضعف).
(5) جبل، المعجم الاشتقاقيُّ: (ضعف).
(6) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 9/76.

2) ﴿مَشَٰرِقَ﴾: (الشِّين، والرَّاء، والقاف) أصلٌ واحدٌ، يدلُّ على إضاءةٍ وفتحٍ، مِن ذلك: شَرَقتِ الشَّمْسُ، إذا طلعت، وأشرقت: إذا أضاءت، والشُّروق: طُلُوعها[1]، واسمُ المَوْضِع: المَشْرِق[2]. والمشرق والمغرب: إذا قيلا بالإفراد فإشارةٌ إلى ناحيَتَي الشَّرق والغَرْب، وإذا قيلا بلفظ التَّثنيَة: فإشارةٌ إلى مَطْلِعَي ومَغْرِبَي الشِّتاءِ والصَّيف، وإذا قيلا بلفظ الجمع: فاعتبارٌ بمطلع كلِّ يومٍ ومَغْرِبه، أو بمطلع كلِّ فَصْلٍ ومَغْرِبه[3]. وكلُّ ما جاء في القرآن مِنَ التَّركيب هو من معنى طُلُوعِ الشَّمس ولوازِمِه، وما إليه، فمِن ذلك: (المشْرِق) أصلُه المكان الذي تَشْرُق منه الشَّمسُ، ويُستعمَل للجِهَة التي تَكْنُف ذلك المكانَ مهما امتدَّتْ في جانبيه[4]. وهو المراد بمعنى اللَّفظة في الآية الكريمة.

3) ﴿وَمَغَٰرِبَهَا﴾: (الغين، والرَّاء، والباء) أصلٌ صحيحٌ، معناه: حَدُّ الشَّيء، والغُرْبة: البُعْدُ، ومنه: البُعْدُ عنِ الوطن، ومن هذا الباب: غُروبُ الشَّمس، كأنَّه بُعْدُها عن وجه الأرض[5]، والغَرْب: خِلافُ الشَّرْق، وهو المغرب، وجُمِعَ هو والمشْرِقُ؛ لأنَّه أُرِيدَ أنَّها تُشْرِق كلَّ يَوْم مِن مَوضِع، وتَغْرُب في مَوضِع، إلى انْتِهَاء السَّنَة[6]، والغَرْبُ: غيبوبةُ الشَّمس؛ بانصبابها مِنَ الأُفق وغيابها في أدناه، يقال: غَرَبَتْ تَغْرُبُ غَرْبًا وغُرُوبًا، والمغْرب: جِهَةُ الغُروب[7]، وهو المراد بمعنى اللَّفظة في الآية الكريمة.

4) ﴿وَتَمَّتْ﴾: (التَّاء، والميم) أصلٌ واحدٌ منقاسٌ، وهو دليلُ الكمال، يقالُ: تمَّ الشَّيءُ، إذا كَمُل[8]، وتَتِمَّةُ كلِّ شَيْء: ما يكون تَمامَ غَايَتِه[9]، وتمامُ الشَّيء: انتهاؤُه إلى حَدٍّ لا يحتاج إلى شيء خارجٍ عنه، والنَّاقِصُ: ما يحتاج إلى شيءٍ خارجٍ عنه[10]، وكلُّ ما في القرآن مِنَ التَّركيب هو بمعنى استيفاءِ الشَّيء حَجْمَه أو كَمَالَه، بحسب ما ذُكِرَ[11]، ومعنى (تمَّ):

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (شرق).
(2) ابن سيده، المحكم: (شرق).
(3) الرّاغب، المُفردات: (شرق).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقيُّ: (شرق).
(5) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (شرق).
(6) ابن سيده، المحكم: (شرق).
(7) الرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيُّ: (غرب).
(8) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (تم).
(9) الأزهريُّ، تهذيب اللُّغة: (تم).
(10) الرّاغب، المفردات: (تم).
(11) جبل، المعجم الاشتقاقيُّ: (تمم).

وُفِّيَ وَعْدُ اللّهِ الذي وَعَدَ بني إسرائيل بتمامه على ما وَعَدَهم، ونَفَذَ قضاؤُه وحَقَّ أمرُه، أي: وفَّتْ كلمةُ اللّه[1].

5) ﴿كَلِمَتُ﴾: (الكاف، واللَّام، والميم) أصلان: أحدُهما يدلُّ على نُطْقٍ مُفْهِم، وهو: الكلام، ثمَّ يتَّسِعُون فيُسَمُّونَ الحرفَ الواحدَ مِن حُرُوف الهجاء، واللَّفظةَ الواحدةَ المُفْهِمَةَ كلمةً، والقِصَّةَ كلمةً، والقصيدةَ بطُولها كلمةً[2]، أي: قد تُطلَق مُرادًا بها عندَهم ما يقعُ على الألفاظ المنظومةِ، وعلى المعاني التي تحتها مجموعةً، أو على الجُزء مِنَ الكلام، اسمًا كان، أو فعلًا، أو أداةً، وتُطلَق في الاصطلاح على القول المُفْرد، والقولُ: هو اللَّفظُ الدَّالُّ على معنى[3].

ومعنى الكلمة في الآية الكريمة: ما وعدَهم اللّهُ به مِن إهلاك عَدوِّهِمْ، واستخلافِهِمْ في الأرض[4]، أو أقضيتُه وعِدَاتُه لأوليائه في أعدائه، ومواعيدُه التي لا خُلْفَ فيها[5]، أو أمْرُه ونهْيُه، ووعدُه ووعيدُه[6]، ووعدُه تعالى إيَّاهم بالنَّصر والتَّمْكين، أو هي القولُ واللَّفظُ الذي وَعدَ اللّهُ بني إسرائيل على لسان موسى، أو على لسان إبراهيم عليهما السلام. ويَحْتَمِلُ أنَّها إرادةُ اللّهِ في إطلاقهم مِن استعباد القِبْط، وإرادتُه تمليكَهُم الأرضَ المُقَدَّسَة[7]. وإنَّما عَبَّر عنه بالكلمة؛ لأنَّها الأصلُ في الاتِّصاف بالصِّدق والعدلِ، وبها تَظْهَر الآثارُ مِنَ الحِكَم[8].

6) ﴿وَدَمَّرْنَا﴾: الدَّمارُ: استئصالُ الهلاك، يقال: دَمَرَ القومُ يَدْمُرُون دَمارًا، أي: هَلَكوا[9]، والتَّدمير: إدخالُ الهلاكِ على الشَّيء[10]، فالدَّمَارُ: بمعنى الهلاكِ المستأصِلِ، وهو المراد باللَّفظة في الآية الكريمة، وليس في القرآن مِنَ التَّركيب إلَّا (التَّدمير) بهذا المعنى[11].

---

(1) البغويُّ، معالم التَّنزيل: 3/273.
(2) الأزهريُّ، تهذيب اللُّغة، وابن فارس، مقاييس اللُّغة: (كلم).
(3) الرّاغب، المفردات: (كلم).
(4) الزَّجاج، معاني القرآن وإعرابه: 2/371.
(5) الواحديُّ، الوجيز، ص: 372، 410.
(6) البغويُّ، معالم التَّنزيل: 3/181.
(7) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 9/77.
(8) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 3/178.
(9) الخليل، العين: (دمر).
(10) الرّاغب، المفردات: (دمر).
(11) جبل، المعجم الاشتقاقيُّ: (دم).

7) ﴿يَصْنَعُ﴾: (الصَّادُ، وَالنُّونُ، والعَيْنُ) أصلٌ صحيحٌ واحدٌ، وهو عملُ الشَّيءِ صُنْعًا، مع حِذْقٍ في صِنَاعَتِه[1]، فالصُّنْعُ: إجادةُ الفِعْل، ولذلك يُقالُ للحاذِقِ المُجيد: صَنَعٌ؛ لإجادَتِه عَمَلَه، ولا يُنْسَبُ إلى الحيَوانات والجَمادات، كما يُنْسَبُ إليها الفعل، والاصطناع: المُبالَغَةُ في صُنْعِ الشَّيء[2]، فالصُّنْعُ: جَمْعٌ أو تَحْصِيلٌ في هَيْئَةٍ جَدِيدةٍ، بتدبيرٍ واحتيال أو إحكام، ومنه الآية المباركة: ﴿وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ﴾، ففيه تدبيرٌ واحْتيالٌ[3]؛ لأنَّ قِوَام صنيعهم الخِدَاعُ والتَّضليلُ والشَّعوَذَة، وكانوا ماهرين فيه مُجيدين.

8) ﴿يَعْرِشُونَ﴾: (العَيْن، والرَّاء، والشِّين) أصلٌ صحيح واحد، مِن عَرَشَ يَعْرِشُ ويَعْرُشُ، ويدلُّ على ارتفاعٍ في شيء مبنيٍّ، ثمَّ يُستعارُ في غير ذلك، ومِنَ الباب: تَعْرِيش الكَرْم: رَفْعُهُ والتَّوثُّق منه، والعريشُ: بناءٌ مِن قُضبانٍ، يُرفَع ويُوثَّق حتَّى يُظلِّل، وعَرْشٌ، وعريش: بناءٌ يُستَظَلَّ به[4]. ويَعْرِشُون: يبنون[5]، والعَرَب تُسَمِّي المَظَالَّ التي تُسَوَّى مِن جريد النَّخل ويُطرَح فوقَها الثُّمامُ: عُروشًا، والواحد مِنْهَا عريشٌ[6].

ومعنى اللَّفظةِ في الآية الكريمة: ما يُنْشِؤون مِنَ الجنَّات ذاتِ العرائش، أو ما كانوا يرفعونه مِنَ البُنيان كَصَرْحٍ، أو ما يُرْفَع مِن دَوالي الكُروم، ويُطلق أيضا على النَّخْلَات العديدة، تُرَبَّى في أصل واحد[7].

المَعْنى الإِجْمالِيُّ:

بيَّنَ سبحانَه مظاهرَ فضْلِه وكرَمِه على بني إسرائيلَ بعد أن بيَّن نهايةَ فرعونَ وآلِه، فبيَّن كيفيَّةَ تمكين القوم الذين كانوا يُستضعَفون في مصرَ مِن فرعونَ ومَلَئِه بالاستعباد وقَتْلِ الأبناء، وسُوءِ العذاب، عن طريق الاستخلاف في مشارق الأرض ومغاربها، التي بارك اللّه فيها بالخصوبة وسَعة الأرزاق، وبكونها مساكنَ الأنبياء والصَّالحين؛ ليكونَ

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (صنع).
(2) الرّاغب، المفردات: (صنع).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيُّ: (صنع).
(4) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (عرش).
(5) أبو عُبيدة، مجاز القرآن: 1/227.
(6) الأزهريُّ، تهذيب اللُّغة: (عرش).
(7) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 3/267، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 9/78.

ذلك امتحانًا لهم، واختبارًا لنفوسِهم، وبذلك نَفذتْ كلمةُ اللّهِ الحُسنى، ومضتْ عليهم تامَّةً كاملةً، حيثُ رزقهم سبحانَه النَّصرَ على أعدائهم، والتَّمكينَ في الأرض؛ بسبب صَبْرهم على ظُلْم فرعونَ ومَلَئِه، ودمَّر ما كان يصنع فرعونُ وقومُه، مِن بناء القصور الشَّاهقة والمنازل القويَّة، وما كانوا يرفعونه مِنَ البساتين والصُّروح المُشَيَّدة؛ كَصَرْح هامان وغيره[1].

جَزاءُ الصَّابرين، وِراثـــةُ الأرضِ والـتّـمـكـينُ، وجَـزاءُ الـكَـفرةِ الهلاكُ والعذابُ المُهِينُ

وممَّا تُرشد إليه الآية الكريمة: ما نُقِل عنِ الحسن البصريِّ أنَّه احتجَّ بقوله: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ إلى آخر الآية، على أنَّه لا ينبغي أن يُخْرَج على مُلوك السُّوء، وإنَّما ينبغي أن يُصْبَر عليهم؛ فإنَّ اللّه تعالى يُدَمِّرهم. ورُوِيَ عنه أيضًا مِن هداياتها: أنَّ النَّاس إذا قابلوا البلاءَ بمثله وكَلَهم اللّهُ إليه، وإذا قابلوه بالصَّبر وانتظار الفَرَج، أتَى اللّهُ بالفَرَج[2].

وكفى بهذه الآية حاثَّةً على الصَّبر، وضامنةً على كلِّ حائزٍ للأجر بالتَّفريج عنِ المظلوم ونَصْرِه، وإهْلاكِ الظَّلُوم وقَهْرِه[3]؛ فإنَّ مَن صبرَ على مُقاساة الذُّلِّ في اللّه، وضعَ اللّهُ على رأسه قَلَنْسُوَةَ العِرْفان، فهو العزيزُ سبحانَه، لا يُشَمِّتُ بأوليائه أعداءَهم، ولا يُضيِّعُ مِن جميلِ عَهْدِه جزاءَهم[4].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

عِلَّةُ إيثارِ التَّعْبير بالإيراث ﴿وَأَوْرَثْنَا﴾، وكونِه بصِيغةِ الماضِي:

الواو حرفُ عطفٍ وَصَلَ بها - رابطًا بالعطف - جملةَ: ﴿وَأَوْرَثْنَا﴾ على جملة ﴿فَأَغْرَقْنَٰهُمْ﴾، وسمَّاهُ ميراثًا ولم يُسَمِّه إعطاءً؛ لأنَّهم قالوه بعد موت القِبْط، وكذلك هو الميراثُ، ولأنَّهم نالوه بغير سبب

الإرثُ مماثلةُ الحيِّ ميِّتًا في صفاتٍ كانتْ له، أوِ انتقالُ الحِيازةِ من ميِّتٍ إلى حيٍّ

(1) طنطاويّ، التَّفسير الوسيط: 5/362 - 363.
(2) ابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 2/447.
(3) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 3/92.
(4) القشيريُّ، لطائف الإشارات: 1/561.

لهم ولا للقِبْط فيه، خِلافَ الإعطاءِ؛ فإنَّهم ينالون ما أُخِذَ بسببٍ وما أُخذ مِن غير سبب[1].

ويُطلَق الإرثُ أيضا مجازًا على مماثلة الحيِّ ميِّتًا في صفات كانت له، مِن عزٍّ أو سيادة[2]، وهذا الإطلاقُ دلَّ على نعمة الله على بني إسرائيلَ بأن أورثَهم أرضَ مِصرَ والشَّام، التي هي مِن أفضل بقاع الأرض في الخِصب والبركة، وعبَّر عن فعل الإيراث بالماضي للدّلالة على تَحَقُّقِه، وأُضيفَ إلى ضمير التَّعظيم (نا) لتخصيص الفعل به، فهو القادر على نَزْع الملك وإيراثه لمَن يشاء مِن عباده، وليس ذلك عليه بعزيز.

سِرُّ التَّعْبِير بلفظِ ﴿ٱلْقَوْمَ﴾، عن بنِي إسرائيلَ:

إظهارُ كمالِ لُطْفِه تعالى بهم، وعَظيمِ إحْسَانِه إليهم

(أل) في ﴿ٱلْقَوْمَ﴾ عَهْديَّة ذِهنيَّة، والمقصودُ بهم: بنو إسرائيلَ، ومعناها: أنَّه كانت فيهم قوَّةٌ وكثرةٌ وشِدَّةُ عزم على ما يحاولونه ويقومون به[3]، فذُكِروا بهذا العُنوانِ إظهارًا لكمالِ لُطفه تعالى بهم، وعظيمِ إحسانِه إليهم، في رفعهم مِن حضيض المَذَلَّةِ إلى أَوْج العِزَّة[4]، ورسَّخ هذا المعنى الوصفُ بالموصول: ﴿ٱلَّذِينَ﴾، بحسب ما سيأتي.

فائِدةُ الوصْفِ بالاسْمِ الموصولِ: ﴿ٱلَّذِينَ﴾:

الإيماءُ إلى عِلَّةِ الخبرِ، والتَّعريضُ ببِشارةِ المؤمنين بمحمَّدٍ ﷺ

في الوصف بالموصول: ﴿ٱلَّذِينَ﴾ دون غيره، نُكْتَتان: أولاهما: الإيماءُ إلى علَّة الخبر، أي: أنَّ الله مَلَّكَهُم الأرضَ وجعلهم أُمَّة حاكمةً؛ جزاءً لهم على ما صبروا على الاستعباد، غَيْرَةً مِنَ الله على عبيده. الثَّانية: التَّعريضُ ببشارةِ المؤمنين بمحمَّد ﷺ، بأنَّهم ستكون لهم عاقبة السُّلطان كما كانت لبني إسرائيل؛ جزاءً لصَبْرهم على الأذى في الله، وإنذارَ المشركين بزوال سُلطان دينهم[5].

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/245.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 9/26 - 27.
(3) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 3/91.
(4) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 3/266.
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 9/76.

ففي الوصف به زيادةُ تقريرٍ للغَرَض المَسُوق له الكلامُ، وزيادةٌ في تقرير وقوعه لما في صلة الموصول مِن ظلال دلالاتٍ تُوحي بوقوع حَدَثِ الاستضعاف، فضلًا عمَّا تحملُه مِن معانٍ تتضمَّنُها صلةُ الموصول، بعضُها يُشْعِر بالحَثِّ على الرَّحمة والمعونة والنُّصْرة للمُستضعَفين.

عِلَّةُ بناءِ فعْلِ الاسْتِضعاف: ﴿يُسْتَضْعَفُونَ﴾ للمجهولِ:

وُقوعُ مُسَبِّباتِ الضَّعفِ أعمُّ في الدّلالةِ على الضَّعفِ والاحتقارِ

الاستضعاف: طَلَبُ الضَّعيف بالقَهْر، ثمَّ كَثُر استعمالُه حتَّى قيل: استضعفه، أي: وجدَه ضعيفًا[1]، فالسِّينُ والتَّاء في: ﴿يُسْتَضْعَفُونَ﴾ للحُسْبان، مثل: (استنجَبَ)، أو للمُبالغة كما في (استجاب)[2]. إذا قلنا: فلانٌ ضعيفٌ؛ فهو ضعيف في نفسه، وإذا قلنا: فلان مُتضعَّفٌ؛ أي: مُحْتَقَر، فهو أعمُّ مِن أن يكون في نفسه ضعيفًا، أو قويًّا[3]، بمعنى: وقع عليه أنواعٌ مِن مُسبِّبات الضَّعف. وعَبَّر بالماضي النَّاقص للدّلالة على تَحقُّق وقوعه، ورسَّخَهُ مَجيؤُه بالمضارع؛ دلالةً على تجدُّده عليهم، واستمرارِه، فـ "الجمعُ بينَ صيغتي الماضي والمستقبلِ للدّلالةِ على استمرار الاستضعافِ وتجدُّده"[4].

دَلالةُ وجهَي المجازِ والحقيقةِ، في التَّعْبيرِ عن تمليكِ أطْرافِ الأرضِ:

تمليكُ أبناءِ المُستضعَفِين مِن بني إسرائيلَ، مشارقَ الأرضِ ومغاربَها، نِعمةٌ غامرةٌ

قوله تعالى: ﴿مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا﴾، أي: جانبيها الشَّرقيَّ والغربيَّ، وهذا يتَّجه إمَّا على المجاز؛ لأنَّه مَلَّكَهم بلادًا كثيرة، وإمَّا على الحقيقة في أنَّه مَلَّكَ ذُرِّيتَهم، وهو سليمانُ بن داود عليهما السلام، ولكنَّ الّذي يليق بمعنى الآية ورُوِيَ فيها، هو أنَّه ملَّكَ أبناءَ المُستضعَفين بأعيانهم مشارقَ الأرضِ ومغاربَها، يُؤكِّدُه وَصْفُه الأرضَ بأنَّها التي بارك فيها[5].

(1) أبو حيَّان، البحر المحيط: 4/375.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 9/76.
(3) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/245.
(4) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 3/266.
(5) ابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 2/446.

دَلالةُ تقديمِ المَشارقِ على المَغاربِ:

بدأتِ الآيةُ بتقديم (المشارق) على (المغارب) دلالةً على التَّفاؤل والبِشارة، بأنَّ بني إسرائيلَ سيستولون أوَّلًا على أرضِ فرعونَ وقومِه مِن جهة المشرق، حيث كانت تطلُعُ عليهم الشَّمس، فالمشارق تدلُّ على أوَّل الأمور وأفضلها، وفي التَّقديم إفادةُ التَّشبيه والتَّضادِّ بينَ حال بني إسرائيلَ قبلَ وبعدَ نَصْرِ اللهِ لهم؛ فقد كانوا - قبل إهلاك اللهِ فرعونَ وقومَه - في ظُلمات العبوديَّةِ والذِّلَّة، ثمَّ أخرجهم اللهُ إلى نور الحريَّة والعِزَّة، فكأنَّ شروقَ الشَّمس يدلُّ على تحوُّل حياتهم مِنَ الظَّلام إلى النُّور، ومِنَ الضِّيق إلى الفَرَج.

الدّلالةُ على التَّفاؤُلِ والبِشارةِ، بتحوُّلِ الحياةِ إلى الرّفاهِ والنّضارةِ

السِّرُّ في جمْعِ (المشارقِ) و(المغاربِ):

قوله تعالى: ﴿مَشَٰرِقَ ٱلۡأَرۡضِ وَمَغَٰرِبَهَا﴾، وفيها وَرَدَ لفظا (المشارق والمغارب)، وهي جمعٌ باعتبار تعدُّد الجهات؛ لأنَّ الجهة أمرٌ نسبيٌّ، تتعدَّد بتعدُّد الأمكنة المفروضة، والمرادُ بهما إحاطةُ الأمكنة[1]. فالحقُّ تعالى جاء بـ (المشرق والمغرب) بصيغة الجمع؛ ليدلَّ على أنَّ لكلِّ مكانٍ مَشْرِقًا، ولكلِّ مكانٍ مَغْرِبًا، فإذا غربتِ الشَّمس في مكانٍ فهي تُشرق في مكان آخر[2]. وفيه طباق إيجاب بينَ المشارق، والمغارب[3]، أدَّى وظيفةَ الرَّبطِ بين عناصر الآية الكريمة، المؤدِّي إلى مزيد إيضاحٍ وبيانٍ للمعنى.

جمْعُ لفظَي (المشارقِ والمغاربِ) للإحاطةِ بالأمكنةِ؛ باعتبارِ أنّ لكلِّ مكانٍ مَشْرِقًا ومَغْرِبًا

نُكْتَةُ إيثارِ صِيغةِ: (فاعَلَ)، في ﴿بَٰرَكۡنَا﴾:

﴿بَٰرَكۡنَا﴾ جعلنا الخيرَ فيها دائمًا ثابتًا[4]، مستقرًّا كثيرًا، أدَّاهُ التَّعبير بالماضي على وزن (فاعَلَ) الدَّالِّ على المبالغة والتَّكثير في هذا الموضع، والمضافُ إلى ضمير التَّعظيم تخصيصًا؛ لإنزال

ذِكْرُ الأرضِ المباركِ فيها، تَنويهٌ بقَداسةِ ما قدّسه الله وباركَ فيه

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 9/77.
(2) الشَّعراويُّ، تفسير الشَّعراويُّ: 7/4327.
(3) الأندونيسّي، الشَّامل: 1/423.
(4) أبو حيَّان، البحر المحيط: 4/375.

البركة به، و﴿ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا﴾ نعتٌ للأرض، أو للمشارق والمغارب في قوله: ﴿مَشَٰرِقَ ٱلۡأَرۡضِ وَمَغَٰرِبَهَا﴾، والثَّاني أولى؛ لتَجَنُّب الفَصْل بالمعطوف بين الصِّفة والموصوف[1]، والوَصْفُ بالجُملة أقوى في الدّلالة مِنَ المفرد.

بَراعةُ التَّعبير بالتَّمامِ على طريقِ الاستِعارةِ، في قوله: ﴿وَتَمَّتۡ﴾:

الاستِعارةُ إرادةٌ لإنجازِ الوعْدِ؛ الّـذي بـه تـمامُ النِّعمةِ، وكمالُ المُتَوقَّعِ

الواو في: ﴿وَتَمَّتۡ﴾ عاطفةٌ، ومعنى (تمَّت): مضَت واستمرَّت ﴿عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُواْۖ﴾، أي: بسبب صَبْرِهم على الشَّدائد التي كابدوها مِن جهة فرعونَ وقومِه[2].

ووجه الاستعارة في: ﴿وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ عدمُ وجود نقصٍ يحتاج إلى التَّمام، وإنَّما المراد: إنجازُ الوعد المتقدِّم لبني إسرائيلَ؛ بإهلاك عدوِّهم وإعلاءِ أمرهم، وإنَّما سُمِّي الإنجازُ تمامًا؛ لأنَّ به تمامَ النِّعمة، وكمالَ المتوقَّع[3]، ولأنَّ الوعد بالشَّيء يبقى كالشَّيء المعلَّق، فإذا حصلَ الموعُود به فقد تمَّ لك الوعدُ وكَمُل[4]، فتمامُ الكلمة تحقُّق وَعْدِها، شَبَّهَ تحقُّقَها بالشَّيء إذا استوفى أجزاءَه. ويَحْتَمِلُ أنَّها كلمةُ اللّه في عِلْمه وقُدْرَته، وهي إرادةُ اللّه إطلاقَهم مِن استعباد القِبْط، وإرادتُه تمليكَهمُ الأرضَ المُقَدَّسَة، كقوله: ﴿وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ﴾ [النساء: 171]، وتمامُ الكلمة بهذا المعنى: ظهورُ تعلُّقِها التَّنجيْزيِّ في الخارج، على نحو قول موسى: ﴿يَٰقَوۡمِ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡأَرۡضَ ٱلۡمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِي كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمۡ﴾ [المائدة: 21][5].

نُكْتَةُ تَعدِيَة فعْلِ التَّمامِ بـ﴿عَلَىٰ﴾ تَضمينًا:

وعُدِّيَ فعلُ التَّمام بـ﴿عَلَىٰ﴾ للإشارة إلى تضمين ﴿وَتَمَّتۡ﴾ معنى:

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 3/266.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 3/266.
(3) الشَّريف الرَّضّي، تلخيص البيان، ص: 76.
(4) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/181.
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 9/78 - 77.

الإنعام، أو معنى: حقَّتْ[1]؛ ليعطيَ جماعَ دلالة الفِعلَين، أي: تمَّتْ نعمةً، وتمَّتْ مُسْتَحَقَّةً لهم، وهو أقوى مِن إعطاء معنًى واحد، وتحرير ذلك: أنَّ استعمال الفعل (تمَّ) في هذا الموضع فيه قصدٌ إلى معنًى معيَّن، لا يتأتَّى مِن دون ذِكْره، إلَّا أنَّ تعديتَهُ بالحرف على غير عادة استعماله، فيه ضربٌ مِنَ التَّوسُّع في المعنى مع غاية الإيجاز، ومُؤدَّاهُ أنَّ للفعل دلالةَ أصلِ معناه، وباستعمال حرف الجرِّ الذي يتطلَّب فعلًا آخَر، يصبح للمعادَلة وجهان متكاملان؛ إذ يُؤدِّي الفعلُ أصلَ معناه بالتَّصريح به، ويقتضي حرفُ الجرِّ معنى الفعل الذي يطلبُه بالتَّضمين. وقد تقدَّم الحديثُ عن هذا المُعْطى البلاغيِّ عند تفسير الآية [95] مِن سورة الأعراف.

إعطاءُ جِماعِ دَلالةِ الفِعْلَين، ضَربٌ مِنَ التَّوسُّعِ في المعنَى مع غايةِ الإيجازِ

تَوجيهُ القراءةِ القرآنيّةِ، بقولِه: ﴿كَلِمَتُ﴾ بصِيغةِ الجمْعِ:

قوله تعالى: ﴿كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ بالإفراد على قراءة جمهور القُرَّاء، أي: وَعْدُه تعالى إيَّاهم بالنَّصر والتَّمكين، كما يُنبئ عنه قوله تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝٥﴾ [القصص: 5] أو هي القول، وهو هنا: يحتمل أن يكون المرادُ به اللَّفظَ الذي وَعَدَ اللهُ بني إسرائيلَ على لسان موسى في قوله: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف: 129]، أو على لسان إبراهيمَ، وهي وَعْدُ تمليكهمُ الأرضَ المقدَّسَة.

تعدُّدُ وعودِه تعالى للصّابرين، بالنَّصرِ والتَّمْكينِ

وقَرَأ الحَسَنُ البَصريُّ: (كَلِماتُ) عَلى الجَمْعِ[2]؛ لتَعدُّد المواعيدِ[3]، ونظيرُه قولُه تعالى: ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ۝١٨﴾ [النجم: 18]، فيكونُ مِن وَصْف الجمع بالمفرد المُؤنَّث، وكونُه نعتًا لمفردٍ مؤنثٍ غيرِ مجموع أبلغُ في الوصف[4].

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 9/78.

(2) وهي قراءة شاذة، رُوِيت في غير المتواتر عن عاصم، وعن أبي عمرو. يُنظر: أبو حيَّان، البحر المحيط: 4/376، وعبد اللطيف الخطيب، معجم القراءات: 3/144.

(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 3/266، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 9/77.

(4) أبو حيَّان، البحر المحيط: 4/376.

بَلاغةُ الوصْفِ بلفظِ: ﴿ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾:

الحُسْنَى: تأنيثُ الأحسن، صفةٌ للكلمة[1]، ووَصَفَها بالحُسْنى لأنَّه وَعْدٌ بمحبوب[2]؛ لأنَّها صفةُ تشْريفٍ، كما يُقال: الأسماءُ الحُسْنى، أي: كلمةُ ربِّك المُنزَّهة عنِ الخُلْف. ويَحْتَمِلُ أن يكون المرادُ حُسْنَها لبني إسرائيلَ، وإن كانت سيِّئةً على فرعون وقومه؛ لأنَّ العَدْل حَسَنٌ وإنْ كان فيه إضرارٌ بالمحكوم عليه[3].

الحُسْنَى وَعْدٌ بمحبوبٍ؛ لكوْنِها صفةَ تَشريفٍ وتَكريمٍ

الالتفات في قوله: ﴿رَبِّكَ﴾:

والخطاب في قوله: ﴿رَبِّكَ﴾ للنَّبيِّ ﷺ، أُدْمِجَ في ذِكْر القِصَّة تخصيصًا لها بالخطاب، على الالتفات الحاصل مِنَ الغيبة إلى الخطاب[4]؛ لتحقيق معنى: أنَّ الذي حَقَّق نصرَ موسى وأُمَّتِه على عدوِّهم هو ربُّك، فَسَيَنصُرك وأمَّتَك على عَدوِّكُم؛ لأنَّه ذلك الرَّبُّ الذي نصرَ المؤمنين السَّابقين، وتلك سُنَّتُه وصُنْعُه[5].

الآيةُ بِشارةُ نَصْرِه ﷺ وأُمَّتِه على عَدُوِّهم

سِرُّ العُدُول عنِ التَّذْييلِ إلى العطْفِ:

جملة: ﴿وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ عطفٌ على جملة: ﴿وَأَوۡرَثۡنَا ٱلۡقَوۡمَ ٱلَّذِينَ كَانُواْ يُسۡتَضۡعَفُونَ﴾، والمقصود مِن هذا الخبر هو قولُه: ﴿بِمَا صَبَرُواْۖ﴾؛ تنويهًا بفضيلة الصَّبر وحُسْنِ عاقبته، وبذلك الاعتبار: عُطِفَت هذه الجُملة على التي قبلها، وإلَّا فإنَّ كلمة اللّٰه الحُسْنى على بني إسرائيلَ تَشْمَل إيراثَهمُ الأرضَ التي بارك اللّٰه فيها، فتتنزل مِن جملة: ﴿وَأَوۡرَثۡنَا ٱلۡقَوۡمَ ٱلَّذِينَ كَانُواْ يُسۡتَضۡعَفُونَ﴾ إلى آخرها منزلةَ التَّذييل الذي لا يُعْطَف، فكان مقتضى العَطْفِ هو قوله: ﴿بِمَا صَبَرُواْۖ﴾[6].

الاعتبارُ بفضيلةِ الصَّبرِ، وحُسْنِ عاقبتِه، في العاجلِ والآجلِ

(1) الزَّمخشريُّ، الكشَّاف: 2/149.
(2) الكرمانّي، غرائب التَّفسير وعجائب التَّأويل: 1/420.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 9/78.
(4) الطِّيبيّ، فتوح الغيب: 6/539.
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 9/78، ونفى ابنُ عاشور أن يكون في الخطاب التفاتٌ مِنَ الغيبة إلى الخطاب؛ لاختلاف المُراد مِنَ الضَّمائر.
(6) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 9/77.

سِرُّ التَّعْبِير بالباءِ السَّببيَّةِ والمصْدرِ في: ﴿بِمَا صَبَرُواْ﴾:

التّعبيرُ عن شدَّةِ صَبْرهم، وبيانِ فائِدةِ الصَّبرِ، والحثِّ عليه

الباء في: ﴿بِمَا صَبَرُواْ﴾ للسَّببيَّة، و(ما) مصدريَّة، أي: بِصَبْرهم على الأذى في ذات الإله، وفي ذلك تنبيهٌ على فائدة الصَّبر، وأنَّ الصَّابرَ صائرٌ إلى النَّصْرِ وتحقيقِ الأَمَل[1]، وحسبُكَ به حاثًّا على الصَّبر، ودالًّا على أنَّ مَنْ قَابلَ البلاءَ بالجَزع وَكَلَهُ اللهُ إليه، ومَن قابلَهُ بالصَّبر وانتظارِ النَّصر ضَمِنَ اللهُ له الفَرَجَ[2]، لذا كان التَّعبيرُ بالمصدر المُنسَبِكِ أدلَّ في هذا الموضع؛ لبيان قُوَّة صَبْرهم. وللإلماحات السَّابقة بتَضَجُّرهم، استُغْرِبَ وَصْفُهم بالصَّبر، وأُجيبَ عنه بوجهين: إمَّا أنَّ ذلك في أوَّل أمرِهم ثمَّ صَبَرُوا، وإمَّا أنَّ التَّضَجُّر مِن عوامِّهم، والصَّبرَ مِن خواصِّهم، فبِبَركة صَبْرِهم غُفِرَ لعوامِّهم، وصار الجميعُ كأنَّهم صبروا، وحُكْمُ العَوامِّ لحكْمِهم[3].

فائِدةُ التَّعْبيرِ بالتَّدْميرِ عنِ الإهلاكِ:

إطْلاقُ التَّدْمِيرِ على إهلاكِ المصنوعِ مَجازيٌّ، علاقتُه الإطلاقُ

وقولُه تعالى: ﴿وَدَمَّرْنَا﴾، التَّدميرُ: تخريب قصورِهم وأبنيتِهم بالهلاك[4]، فهو التَّخريبُ الشَّديد، وهو مصدرُ (دمَّر الشَّيء)، إذا جعلَه دامِرًا للتَّعديَة، مُتَصَرِّفٌ مِنَ الدَّمار - بفتح الدَّال - بمعنى: الإهلاك جميعًا. وجاء به على صيغة الماضي المُضَعَّف (فعَّل)؛ للدّلالة على التَّكثير والمبالغة، وإطلاقُ التَّدمير على إهلاك المصنوع مجازيٌّ، علاقتُه الإطلاقُ؛ لأنَّ الظَّاهر أنَّ التَّدميرَ حقيقتُه إهلاكُ الإنسان[5].

بَلاغةُ تقديمِ الصُّنْعِ، وإظهارِ فاعِلِيْه:

الأهمُّ بالنِّسبةِ إلى التَّدْمِيرِ الصُّنْعُ، وهو مَلمحٌ للمُبالغةِ في الذَّمِّ

ومعنى: ﴿وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ﴾، أي: ودَمَّرنا الذي كان فرعونُ يَصْنَعُه، على أنَّ ﴿فِرْعَوْنُ﴾ اسمُ كان، و﴿يَصْنَعُ﴾ خبرٌ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتَّنوير: 9/78.
(2) الزَّمخشريُّ، الكشَّاف: 2/149.
(3) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/245 - 246.
(4) أبو حيَّان، البحر المحيط: 4/376.
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 9/78.

مُقَدَّمٌ، وقَدَّمَهُ لكون الأهمَّ بالنِّسبة إلى التَّدمير الصُّنْعُ[1]، وأظْهَرَ الصَّانِعينَ وصَرَّح بهم - وهم فرعونُ وقومُه - زيادةً في الذَّمِّ؛ لأنَّ مَوْرِد الذِّكْر في مواطن الخيبة والخُسران والعذابِ والعقوباتِ إذلالٌ ومهانةٌ، يناسِبُهُ التَّصريحُ، وعَطَفَ مُصَرِّحًا بقوْمِهِ إلماحًا باستحقاقهم العقوبةَ معه؛ لكونهم مشاركِين في صنائعِ الاستبداد والظُّلم والباطل.

بَراعةُ التَّقابُلِ التَّركيبيِّ الاسْتِلزامِيِّ، بينَ الإيراثِ والتَّدْميرِ:

إيـــراثُ بـنِـي إسرائيلَ الأرضَ، يقتضِي إذهـابَ ما صَنَعَ فرعونُ ومَـلَـؤُه، وعـدمَ بقائِه

قولُه تعالى: ﴿وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ﴾ يقتضي ذهابَ كلِّ ما صنعوا، وعدمَ بقائه، وقولُه تعالى: ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟﴾، يقتضي البقاءَ[2]، فالجامع بينَهما خياليٌّ، أو هو عقليٌّ؛ لما بينَهما مِن تضايف، فإنَّ إيراثَ القوم المُسْتَضعَفين علَّةٌ - بحسب الظَّاهر - لتدمير ما يَصْنعُه المستكبِرون[3].

دَلالةُ التَّعْبيرِ بالمضارعِ ﴿يَعْرِشُونَ﴾، بين التَّشبيهِ والاسْتِعارةِ:

الصُّورةُ البيانيّةُ في الآيـةِ، تُجَلِّي المعنَى في جمالٍ واتِّساقٍ

﴿يَعْرِشُونَ﴾ ما كان يبنونَ مِنَ الجنَّات، أو يرفعونَ مِنَ الأبنيَة المُشَيَّدةِ في السَّماء؛ كَصَرْح هامانَ وفرعونَ، ومباني الأهرامِ والهياكل[4]، وهو المناسب لفِعْل ﴿وَدَمَّرْنَا﴾، شَبَّه البناءَ المرفوعَ بالعَرْش.

ويجوز أن يكون ﴿يَعْرِشُونَ﴾ استعارةً لقُوَّة الملك والدَّولة، ويكون ﴿وَدَمَّرْنَا﴾ ترشيحًا للاستعارة[5].

وقوله: ﴿يَعْرِشُونَ﴾ قرأَهُ ابنُ عامر وأبو بكر عن عاصم: ﴿يَعْرُشُونَ﴾ بضَمِّ الرَّاء، والباقون بالكسر، وهما لغتان: عَرَش الكَرمَ يَعْرِشُه ويَعْرُشُه، والكَسْرُ لغةُ الحجاز، قال اليزيديُّ: "وهي أفصحُ".

(1) القونويّ، حاشيَته على تفسير البيضاوي: 8/488.
(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/245.
(3) القونويّ، حاشيَته على تفسير البيضاوي: 8/488.
(4) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/181.
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 9/79.

وقُرِئ شاذًا بالغَيْن المُعْجَمة والسِّين المهْمَلة، مِن غَرْس الأشجار، قال السَّمين: "وما أَظُنُّه إلَّا تصحيفًا"[1].

وقرأ إبراهيمُ بنُ أبي عَبْلَة: (يُعَرِّشون) بضَمِّ الياء وفتحةِ العين وراءٍ مُشَدَّدةٍ مكسورة[2]، والتَّضعيفُ دلالةُ الشِّدَّة والمبالغة والتَّكثير.

دَلالةُ الجمْعِ بينَ الماضي والمضارعِ، والعُدولِ في الخبَرِ إلى المضارعِ:

بيانُ التَّعبيرِ عنِ الاستمرارِ والتَّكرُّرِ، واستحضارُ الصُّورةِ في ذِهْنِ المُخَاطَبِ

عبَّرَ بالفعل: ﴿كَانَ﴾ في الصِّلَتين للدّلالة على التَّحَقُّق، وأنَّ ذلك دأْبُه، أي: ما عُني به من الصَّنائع (يَصْنَعُونَ)، والجَّنات ﴿يَعْرِشُونَ﴾. وأردفه بخبري (كان) على صيغة المضارع؛ للدّلالة على التَّجدُّد والتَّكَرُّر[3]، فجمع بين صيغتي الماضي والمضارع؛ للدّلالة على الاستمرار في الأزمنة الماضية، فالجمعُ بين صيغتي الماضي والمستقبلِ للدّلالةِ على الاستمرار والتَّجدُّد، فضلًا عن أنَّ عدولَه في خبر كان مِنَ الماضي إلى المضارع جاء لاستحضار الصُّورة في ذِهْن المخاطَب، والأصلُ: ما صَنَعُوا، وما عَرَشُوا[4].

آخِرُ ما قصَّ اللهُ مِن نبأِ فرعونَ والقِبطِ، في ذلك الزّمانِ البعيدِ:

حُسْنُ بَراعةِ الختامِ، انْتقاءٌ لِما بِه يُختمُ الكلامُ

قال الزَّمخشريُّ بعد قوله تعالى: ﴿يَعْرِشُونَ﴾: "وهذا آخِر ما اقتصَّ اللهُ مِن نَبأ فرعونَ والقِبْطِ، وتكذيبِهم بآيات الله، وظُلْمِهم، ومعاصيهم"[5]، وعلَّق السُّيوطِيُّ: "وهو مِن براعة الختام؛ إذ ختم بما آذَنَ بالانتهاء مِنَ الإهلاك، والإغراقِ، والتَّدمير، والميراثِ، وتمامِ الكلمة، وكلُّ لفظةٍ مِن هذه كافيةٌ في حُسْن براعةِ الخِتام"[6].

(1) السَّمين الحلبيّ، الدُّر المصون: 5/441.
(2) ابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 2/447، وهي قراءة شاذَّة.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 9/79.
(4) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 3/266 - 267، والأندونيسّي، الشَّامل: 1/423.
(5) الزَّمخشريُّ، الكشَّاف: 2/149.
(6) السُّيوطيُّ، قطفُ الأزهار في كشف الأسرار، ص: 1048.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الميراثُ والإعطاءُ:

سُمِّي مِيراثًا؛ لأنَّهم نالُوه بغير سَببٍ لهم، بلِ انتقلَ إليهم عن غيرِهم

وسمَّاه ميراثًا ولم يُسَمِّه إعطاءً؛ لأنَّهم نالوهُ بعد موت القِبط، وكذلك هو الميراث، ولأنَّهم نالوه بغير سببٍ لهم ولا للقِبط فيه، خِلافَ الإعطاء، فإنَّهم ينالون ما أُخِذ بسبب، وما أُخِذ مِن غير سبب[1]، ويُطلَق الإرث أيضا مجازًا على مماثلة الحَيِّ ميِّتًا في صفات كانت له، مِن عزٍّ أو سيادة[2].

التَّمامُ والكمالُ:

التَّكميلُ اسْتيعابُ الأجزاءِ، والتَّتْميمُ قد يكونُ بما وراءَ الأجزاءِ مِن زياداتٍ

تَمَّ الشَّيءُ: إذا اكتمل، ومِن ذلك التَّميمَة، كأنَّهم يريدون أنَّها تمامُ الدَّواءِ والشِّفاءِ المطلوب[3]، فالتَّمامُ: هو الشَّيء الذي به يتمُّ الشَّيء ويكتَمل، ولهذا قال أصحاب النَّظم: القافيةُ تمامُ البيتِ، ولا يُقال: كمالُ البيت، ويقولون: البيتُ بكماله، أي: باجتماعه، ويُقال: هذا تمامُ حَقِّكَ، للبعض الذي يتمُّ به الحَقُّ، ولا يُقال: كمالُ حَقِّك[4].

فتمامُ الشَّيءِ: انتهاؤُه إلى حَدٍّ لا يحتاج إلى شيء خارجٍ عنه، والنَّاقص ما يحتاج إلى شيء خارجٍ عنه[5].

والكَمالُ: التَّمام الذي يُجزَّأُ منه أجزاؤُه، تقول: لكَ نِصْفُه وبعضُه وكَمالُه، وأكملْتُ الشَّيءَ: أجملْتُه وأَتممتُه[6]، وهو في اللُّغة: حصولُ ما فيه الغَرَضُ والغايَةُ مِنَ الشَّيء[7].

والتَّكميل: استيعابُ الأجزاء التي لا تُوجد الماهيَّةُ المركَّبة إلَّا بها، والتَّتميم: قد يكونُ بما وراءَ الأجزاءِ مِن زياداتٍ، يتأكَّدُ بها ذلك

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/245.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 9/26 - 27.
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (تم).
(4) العسكريُّ، الفروق اللُّغويَّة، ص: 263.
(5) الرّاغب، المفردات: (تمم).
(6) الخليل، العين: (كمل).
(7) الرّاغب، المفردات: (كمل).

الشَّيءُ الكامل، ويُسْتأْنَسُ لذلك بقوله تعالى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي﴾ [المائدة: 3]، لـمَّا كانت أركانُ الدِّين وُجِدَ منها الجزءُ الأخيرُ إذ ذاكَ، استُعْمل فيه لفظُ الكمالِ، ولـمَّا كانت نِعَمُ اللّهِ حاصلةً للمؤمنين قبل ذلك اليوم غيرَ ناقصةٍ، استُعمل فيها الإتمامُ؛ لأنَّه زيادةٌ على نِعَم اللّه التي كانت قبلَ ذلك كاملةً، فإنْ تمَّ هذا، ظهرَ وَجْهُ تسميَةِ الأوَّل بالتَّكميل؛ لأنَّه يَدفع إيهامَ غيرِ المراد، وذلك كالجزء مِنَ المراد؛ لأنَّ الكلام إذا أوْهَم خِلافَ الـمُراد، كان كالّذي دلالته ناقصة، بخلاف التَّتميم[1].

التَّمامُ الإتْيانُ بِمَا نَقَصَ، والكَمالُ تَمامٌ وزِيادَةٌ، فَهُوَ أَخَصُّ

والتَّمام يَسْتَدْعِي سَبْقَ نَقْصٍ، بِخِلاف الكَمال، ولذلك عُبِّر به عنِ الإتْيان بِمَا نَقَص مِنَ النَّاقِص، والكَمالُ: الزِّيادةُ على التَّمامِ، فَلَا يَفْهَمُ السَّامِعُ - عربيًّا أو غَيرَه - مِن رَجُلٍ تامِّ الخَلْقِ إلَّا أنَّه لا نَقْصَ في أَعْضائه، ويَفْهَمُ مِن (كاملٍ) مَعْنًى زائدٍ على التَّمامِ، كالحُسْنِ والفَضْلِ، فالكَمال تَمامٌ وزِيادَة، فهو أخصُّ[2].

فالتَّمامُ هو الجزءُ الأخيرُ الذي به يتمُّ الشَّيءُ، فتتمُّ به أجزاؤُه، فيُصبحُ كاملًا[3]، والتَّمامُ يأتي لنَفْي النَّقْص، والكمالُ يأتي لنَفْي العيْب بأنواعه، والنَّقصُ نوعٌ مِنَ العيْبِ[4].

وبهذا ناسبَ لفظُ التَّمام سياقَ الآية الكريمة؛ لكونه إتمامًا لوَعْد اللّهِ بإيراث بني إسرائيلَ الأرضَ، وقُصِدَ إلى استعمال الإتمام؛ لأنَّه زيادةٌ على نِعَم اللّه التي كانت قبلَ ذلك كاملةً، وانتهاؤه إلى حَدٍّ لا يحتاج إلى شيء خارج عنه.

(1) بهاء الدِّين السُّبكّي، عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح: 1/614 - 615.
(2) الزَّبيديُّ، تاج العروس: (تمم).
(3) زيدان، الفروق اللُّغوية، ص: 66.
(4) داود، معجم الفروق الدّلاليَّة، ص: 160.

﴿وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ فَأَتَوۡاْ عَلَىٰ قَوۡمٖ يَعۡكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصۡنَامٖ لَّهُمۡۚ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞۚ قَالَ إِنَّكُمۡ قَوۡمٞ تَجۡهَلُونَ ١٣٨﴾ [الأعراف: 138]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

نجاةُ بني إسرائيلَ وهلاكُ أعدائِهم، وطلبُهم اتّخاذَ إلهٍ شريكٍ، بمجرّدِ مُجاوَزةِ البحرِ

تَذكرُ هذه الآيةُ الكريمةُ وما بعدَها ما أحدثَه بنو إسرائيلَ مِنَ الأمورِ الشَّنيعةِ بعدَ أن مَنَّ اللّهُ عليهم بالنِّعَمِ الجِسام، وأراهُم مِنَ الآياتِ العِظَام[1]، بأنْ أهلَكَ عدوَّهُم، وأورثَهم أرضَهم وديارَهم؛ أتبعَ ذلك بالنِّعْمَة العظمى، وهي أن جاوزَ بهم البَحْرَ مع السَّلَامة[2]، وهي شروعٌ في قصَّةِ موسى عليه السلام مع قَومِهِ معطوفةً على قصَّتهِ مع فرعونَ وقومِه على أكملِ وجوهِ العِبْرةِ، مع السَّلَامةِ من لغوِ القَصَصِ والتَّاريخِ[3].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَجَٰوَزۡنَا﴾: (جوز) أصلان: أحدهما قطعُ الشَّيءِ، وجُزْتُ الموضِعَ، والمكان: سِرْتُ فِيهِ، وأَجَزْتُه: خَلَّفْتُه، وقَطَعْتُه، وأَنْفَذْتُه[4]، وجاوزَه جِوازًا، بالكسرِ: سارَ فيه وسلَكه[5]، وَتجَاوَزَ بهم الطَّرِيقَ، وجاوزه جِوازًا، وجاوزَ به: خَلَّفَهُ[6]، وهو عُبُورٌ، أو نفاذٌ من طَرَفٍ إلى طَرَفٍ، والطَّريقُ إذا قَطَعْتَهُ من أحد جانبَيهِ إلى الآخرِ، وسلوكُ الطريق نفاذٌ فيه، ومنه جاوزْتُ الموضعَ بمعنى: جُزْتُهُ، وبِهِ فُسِّرَتِ

(1) البيضاويّ، أنوار التنزيل: 3/32.
(2) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/181.
(3) محمد رضا، تفسير المنار: 9/91.
(4) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (جوز).
(5) الزبيدي، تاج العروس: (جوز).
(6) ابن سيده، المحكم، والزبيدي، تاج العروس: (جوز).

الآيةُ الكريمةُ، وكلُّ ما في القرآنِ منَ التَّرْكِيْبِ؛ فهو من هذا الجوازِ[1]، وقيل: المعنى: قَطَعْناهُ بِهم، وجُزْناهُ[2]، وتخطَّيناه[3]. ويبدو - واللّه أعلمُ - أنَّ معاني: خَلَّفْناهُم، وجُزنَاه بهم، وقطعْناهُ بهم، أنْفذْناهُم منه، وتخَطَّينَاه كلُّها محتَمِلَةٌ، ومرادةٌ.

2) ﴿يَعْكُفُونَ﴾: (عكف) أصلٌ صحيحٌ يدلُّ على مقابلةٍ وحَبْسٍ[4]، يقالُ: عَكَفَ يَعْكِفُ ويَعْكُفُ عكْفًا وعُكُوفًا: بإقبالِكَ على الشَّيءِ، لا تصرفُ عنه وجهَكَ[5]. والاعتكافُ في الشَّرع: هو الاحتِباسُ وملازمةُ المسجدِ على سبيل القُربةِ، والعكوفُ: الملازَمةُ بنيَّةِ العِبَادَة[6]، وهو إقبالُكَ على الشَّيء والإكبابُ عليه وملازمتُه؛ مواظِبًا لا تصرِفُ عنه وجهَكَ إلى غيرِهِ على سبيل التَّعظيمِ لَه[7]، وكذلك معناهُ في الآيةِ الكريمة[8].

3) ﴿أَصْنَامٍ﴾: (صنم) كلمةٌ واحدة لا فرعَ لها، وهي الصَّنَم، وهو الشَّيءُ يُتَّخذُ من خشبٍ أو فضَّةٍ أو نحاسٍ فيُعبَدُ[9] باتِّخاذهِ إلهًا من دونِ اللّهِ تعالى، وقيل: هو ما كانَ لَهُ جِسمٌ أو صورةٌ، فإن لم يكن لهُ جِسمٌ أو صورةٌ؛ فهو وَثَنٌ، وسيأتي تفصيلُ الفَرْقِ بينهما في الفروقِ المعجميَّة - إن شاءَ اللّهُ[10] - ، أو كانوا يعبدونهُ متقرِّبين بهِ إلى اللّهِ تعالى، وجمعُه: أصنامٌ، وقيل: كلُّ ما عُبِدَ مِن دونِ اللّهِ، بل كلُّ ما يَشْغلُ عن اللّهِ تعالى يقالُ له: صنمٌ[11]. فالصَّنَم: ما اتُّخِذ إلهًا من دونِ اللّهِ، يُنْحَت من خَشَبٍ، وغيره، ويُصاغُ من فضَّةٍ ونحاس، فلعلَّهُ سُمِّي كذلك لمّا تَوهَّم فيه عابدوهُ مِن قوًى خفيَّةٍ ليس لها ظواهرُ تدلُّ عليها[12].

وهو في الآيةِ الكريمةِ ما اتَّخذه القومُ لهم مِن تماثيلَ للبقر بحسبِ ما وردَ في كُتب التَّفسيرِ.

---

(1) جبل، المعجم الاشتقاقي: (جوز).
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/447.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/172.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عكف).
(5) الخليل، العين: (عكف).
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/80.
(7) الرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (عكف).
(8) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/447، والنّسفيّ، مدارك التّنزيل: 1/600.
(9) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (صنم).
(10) ابن الأثير، النّهاية: (صنم).
(11) الرّاغب، المفردات: (صنم).
(12) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (صنم).

4) ﴿تَجْهَلُونَ﴾: (جهل) أصلان: أحدُهما خلافُ العِلم، ونقيضُه[1]. وعُدَّ الجَهْلُ ضِدَّ العلم؛ لأنَّ الجَاهِلَ خالي الذِّهنِ مِنَ المعلومات[2]. وخلاصةُ معنى الجَهْلِ ثلاثةُ أضرُبٍ: الأوَّل: وهو خلوُّ النَّفسِ مِنَ العلم، هذا هو الأصلُ. والثاني: اعتقادُ الشَّيء بخلاف ما هو عليه. والثالث: فعلُ الشَّيء بخلافِ ما حقُّه أن يفعلَ، سواءٌ اعتقدَ فيه اعتقادًا صحيحًا أو فاسدًا، كمن يتركُ الصَّلَاةَ متعمِّدًا، والأكثرُ في القرآن أن يُذكرَ على سبيل الذَّمِّ[3]. وكلُّ هذه المعاني محتَمِلَةٌ في لفظ ﴿تَجْهَلُونَ﴾ في الآية الكريمة.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

مُجاوَزةُ موسَى وقومِه البحْرَ، وطلبُهم معبودًا على شاكلةِ عَبَدةِ الأصنامِ الّذين لاقَوْهُم

والمعنى: وقطعْنا ببني إسرائيلَ البَحْرَ بعدَ الآياتِ الَّتي أريناهموها، والعِبَرِ التي عاينوها على يدَي نبيِّ اللّه موسى، فلم تزجرْهم تلك الآياتُ، ولم تعظْهم تلك العِبَرُ والبيِّنات؛ حتى قالوا بعد أن مرُّوا بقومٍ يُقيمون، ويُواظبون على عبادةِ أصنامٍ لهم: اجعلْ لنا مثالًا نعبدُه، وصنمًا نتَّخِذُه إلهًا، كما لهؤلاء القومِ أصنامٌ يعبدونها. فأنكرَ موسى عليه السلام ذلك عليهم، ونعتَهم بجهْلِهم عظَمَةَ اللّهِ، ووجوبَ حقِّهِ عليهم، وأنَّكم لا تعلمون أنَّ العبادةَ لا تنبغي إلَّا للّهِ الواحد الأحد[4].

وترشدُ الآيةُ الكريمةُ إلى أنَّ مَنْ لم يُخْلِصْ قلبَهُ لحقائقِ التَّوحيد تتوقُ نفسُه لنَبْذِ عوالقِ الشِّركِ، والرِّيبة[5]. وفيها تسليةٌ لرسولِ اللّهِ ﷺ وإيقاظٌ للمؤمنين حتَّى لا يغفُلوا عن محاسبةِ أنفسِهم ومراقبةِ أحوالِهم[6]. ويُؤخَذُ مِنَ الآيةِ أنَّ تغييرَ المنكر خاصٌّ بمن أُرسِلَ إليه

(1) الخليل، العين، ومقاييس اللّغة: (جهل).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (جهل).
(3) الرّاغب، المفردات: (جهل).
(4) ابن جرير، جامع البيان: 13/80.
(5) القشيريّ، لطائف الإشارات: 1/562.
(6) البيضاويّ، أنوار التنزيل: 3/32، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/267.

المُغيِّر؛ لأنَّ موسى عليه السلام لم يغيِّرْ قومَه بالقوَّة[1]. وتهدي أيضًا إلى أنَّ مِن خِسَّةِ العقول، وانحطاطِ مستوى تفكيرِها عَدَّ القبيحِ حَسنًا، واتِّخاذَ المظاهرِ المزيَّفة قُدْوةً، فتنخَلِعُ عن كمالها في اتِّباع نقائِصِ غيرها[2].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

سِرُّ العُدولِ بالفعْلِ (جازَ) إلى (جاوَزَ):

صِيغةُ المفاعَلةِ (وجاوزنا)، كانتْ تعظيمًا لِما كان من مُعجزةِ فَرْقِ البَحْرِ

الفعلُ (جَاوَزَ) في ﴿وَجَٰوَزۡنَا﴾ بمعنى: جَازَ، فَاعَلَ، بمعنى: فَعَلَ[3]، وساقَهُ على طريقِ المفاعلةِ؛ تعظيمًا له[4]، بزيادةِ الألفِ، وذلك مبالغةٌ لِما كان من معجزةِ فَرْقِ البَحْرِ، بارتفاع بعضِ أراضيهِ لعبورِهم، وانخسافِ مائِه، وغَرَقِ فرْعونَ وقومِه فيه[5]، وهو من باب (فَاعَل) بمعنى (فَعَّل)؛ لأن أصل (فَعَّل) إنَّما يقتضي تكليفَ الفعل؛ وصعوبتَهُ[6].

دَلالةُ (الباءِ)، في قولِه: ﴿بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾:

تَنوُّعُ معنَى الجُملةِ بين الحاليَّةِ والتَّعْدِيةِ، دليلُ أهمّيّةِ حرفِ المعنَى في السّياقِ

الفعلُ (جاوز) متعدٍّ إلى واحدٍ بنفسِه، وإلى المفعول الثاني بالباء، فإذا قلتَ: جِزْتُ به، فأصلُ معناهُ: أنَّك جزتَهُ مصاحِبًا في الجَوازِ به للمجرور بالباء ﴿بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾، فالباءُ حاليَّةٌ، والمعنى: جاوزنا البَحْرَ مُلتَبِسًا ببني إسرائيلَ، أو جاوزناهُ، وهم فيه، ثم استُعيرَتِ الباء للتَّعديةِ، يقال: جُزْتُ به الطَّريقَ؛ إذا سهَّلتَ له ذلك، وإن لم تَسِرْ معه، فهو بمعنى: أجزتَه، ويكونُ التقدير: جاوزناهم البَحْرَ، بأن جعلناهُ يَبَسًا لهم، وحفِظناهم حتى بلغوا الشَّطَّ، أي: قدَّرنا لهم جوازَه، ويسَّرناهُ لهم[7].

---

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/247.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/81.
(3) السّمين الحلبيّ، الدُّرُّ المصون: 5/442.
(4) البقاعيّ، نظم الدُّرَر: 3/103.
(5) قباوة، المفصّل، ص: 594.
(6) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/247.
(7) السّمين الحلبيّ، الدُّرُّ المصون: 1/349: 5/441: 1/349، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/267، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/79 - 80.

دَلالةُ ضَميرِ التَّعْظيمِ في قولِه: ﴿وَجَٰوَزۡنَا﴾:

منْحُ النّاجينَ شَرَفَ المعيَّةِ الرَّبَّانيَّةِ، إشارةٌ إلى إحاطَتِهم بالعِنايةِ الإلهيّةِ

في قوله: ﴿وَجَٰوَزۡنَا﴾ يُحدِّثُ اللّهُ ﷻ عن نفسِهِ بضميرِ المتكلِّم العظيم، فيُبيِّنُ لنا أنَّه كان مُصاحبًا بني إسرائيلَ بمعيَّتِه العظيمةِ الجليَّلَةِ، حين أمَرهم بعبورِ البَحْرِ حتى جعلَهم يجاوزونَ مكانَ الفَلْقِ مِنَ البَحْر، ويصلون إلى البَرِّ بعيدًا عن ساحِلِهِ، وهذا الإسنادُ منهُ ﷻ صيَّر السَّيرَ محفوفًا بالعنايةِ، والحفظِ، والمعونةِ الإلهيَّةِ، وهذا التَّعْبِيْرُ البديعُ دلَّ على أنَّ اللّه ﷻ منحَ بني إسرائيلَ - بقيادةِ موسى ووزيره هارون عليهما السلام حين عبورِ الطَّريقِ في البَحْر - شرفَ المعيَّةِ الرَّبَّانيَّةِ لهم، مُعْتَنِيًا بهم، وحافظًا لهم، ومُعِيْنًا. وكان تثبيتُ اللّهِ لنبيِّهِ الكريمِ سابقًا هذا الحدثَ، بعد أن قال أصحابُ موسى - حينَ رأى كلُّ واحدٍ من الفريقين الآخرَ -: إنَّ جَمْعَ فرعونَ مُدْرِكُنا ومُهلِكُنا، فردَّ عليهم نبيُّ اللّه بثقةٍ واطمئنانٍ وثبات: كَلَّا ليس الأمرُ كما ذكرْتُم فلن تُدْرَكوا؛ إنَّ معيَ ربِّي بالنَّصرِ والمعونة والتَّأييد، سيهديني لما فيهِ نجاتي ونجاتِكم: ﴿قَالَ كَلَّآۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهۡدِينِ ٦٢﴾ [الشعراء: 62].

وَجْهُ القراءةِ بالتَّشْديدِ، في قوله تعالى: ﴿وَجَٰوَزۡنَا﴾:

اللّفظُ هنا مِنَ التَّجْويزِ المرادِفِ لـلـمُـجـاوَزةِ، وهو من فَصيحِ الألفاظِ

قُرِئَ في الشّاذّ: (وجَوّزنا) بالتَّشديد، وهو ممَّا جاءَ فِيهِ (فَعَّلَ) بِمَعْنى (فَعَلَ) المُجَرَّدِ، نَحْوُ: قَدَّرَ وقَدَرَ، وليس التَّضعيفُ للتعديةِ[1].

وهو من التَّجويزِ المرادفِ للمجاوزةِ لا ممَّا هو بمعنى التَّنفيذِ، وإلَّا لقيل: وجوَّزنا بني إسرائيلَ في البَحْرِ، ولخلا النَّظمُ الكريمُ عن الإيذانِ بانفصالهم عنِ البَحْر، وبمقارنةِ العنايةِ الإلهيَّةِ لهم عند الجَوازِ كما هو المشهورُ في الفرقِ بين أذهبَهُ، وذهَبَ بِهِ[2].

(1) وهي قراءة الحسن، وإبراهيم وأبي رجاء ويعقوب، يُنظر: أبو حيَّان، البَحر المحيط: 4/376، والسّمين الحلبيّ، الدُّرُّ المصون: 5/442.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/267.

دَلالةُ (أل) في لفظِ ﴿ٱلۡبَحۡرَ﴾:

و﴿ٱلۡبَحۡرَ﴾ هو المرادُ باليمِّ في الآية السّابقة: ﴿فَأَغۡرَقۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّ﴾، فالتَّعْرِيْفُ للعهدِ الحضوريِّ، أي: البَحْرُ المذكورُ، كما هو شأنُ المعرفةِ؛ إذا أُعيدَت معرفةً، واختلافُ اللَّفظِ تفنُّنٌ، وتجنُّبٌ للإعادةِ، والمعنى: أنَّهم قطعوا البَحْرَ، وهو بحرُ القُلْزُم، وهو الاسم الَّذي كان يُطلَقُ على البحرِ الأحمرِ قديمًا، وخرجوا على شاطئِه الشَّرقيِّ[1].

المرادُ بالبحْرِ، بحرُ القُلْزُم، وهو الاسْمُ الَّذي أُطلقَ على البحرِ الأحمرِ قديمًا

نُكتةُ العُدولِ مِن لفْظِ (اليمِّ)، إلى لفْظِ ﴿ٱلۡبَحۡرَ﴾:

عدَلَ السِّياقُ إلى لفظِ ﴿ٱلۡبَحۡرَ﴾، بدلًا مِنَ (اليَمِّ)؛ تفنُّنًا في العبارةِ، وسبقتِ الإشارةُ إلى اقتران لفظ ﴿ٱلۡبَحۡرَ﴾ ببني إسرائيلَ؛ لكونه ممَّا يُعَبَّرُ بهِ عَن مواطِن النِّعَمِ، والخيرات، والنَّجاةِ، واقترانِ لفظُ (اليَمّ) بآل فرعون لمصاحَبَتِهِ معنى الانتقامِ، والعقاب، والخوف.

تَنويعُ الألفاظِ لونٌ منَ التّفنّنِ، مع دَلالةِ (البَحْرِ) على النَّجاةِ، و(اليمِّ)، على العُقوبةِ

سِرُّ العطْفِ على أوَّلِ القِصَّةِ:

قال عاطفًا على قَوْله: ﴿فَأَغۡرَقۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّ﴾، أو قَوْله: ﴿ثُمَّ بَعَثۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِم مُّوسَىٰ﴾ [الأعراف: 103]، وإنَّما جعله السّياقُ معطوفًا على أوَّل القِصَّةِ؛ لأنَّ هذه القصصَ كُلَّها بيانٌ، وفي النَّاس السَّيِّئُ الجَوهرِ الّذي لا تغنيهِ الآياتُ[2].

القَصصُ بيانٌ، وفي النَّاسِ منْ لا تُغنِيهِ الآياتُ، ولا تَردَعُه البيّناتُ

دَلالةُ تعْدِيةِ فعْلِ الإتيانِ بـ﴿عَلَىٰ﴾، على طريقِ التَّضْمين:

الفاءُ في: ﴿فَأَتَوۡاْ﴾ عاطفةٌ للتَّرتيب، والتَّعقيبِ، ولمَّا ضُمِّن ﴿فَأَتَوۡاْ﴾ معنى (مرُّوا) عُدِّيَ بـ﴿عَلَىٰ﴾ المفيدةِ للاستعلاءِ المجازيِّ؛ لأنَّهم لم يقصدوا الإقامةَ في القومِ، ولكنَّهم أَلْفَوْهُم في طريقِهم، والقومُ: هم الكنعانيُّون، ويقال لهم عند العربِ: العمالقةُ، ويُعرَفون عند متأخِّري المؤرِّخين بالفينيقيِّين[3].

الإتيانُ المرورُ على القومِ دونَ الإقامةِ عندَهم، وهو مُستعمَلٌ بدَقّةٍ في السِّياقِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/80.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرَر: 3/103.
(3) البقاعيّ، نظم الدُّرَر: 3/103، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/80.

تَعْدِيةُ فعلِ العُكوفِ بـ﴿عَلَىٰٓ﴾ على طريقِ التَّضْمِين:

تعديةُ العكوفِ بحرفِ الجرِّ ﴿عَلَىٰٓ﴾ الدالِّ على الاستعلاء المجازيِّ؛ لما فيه من معنى النُّزول، وتمكُّنه كقَوْله: ﴿قَالُواْ لَن نَّبۡرَحَ عَلَيۡهِ عَٰكِفِينَ﴾ [طه: 91][1]، وكأنَّ المعنى منكبُّون عليها، مواظبون على عبادتها.

العُكوفُ فيهِ شَيءٌ من معنَى النُّزولِ، والانْكِبابِ على أصْنامِهم

سِرُّ التَّعْبِير بالمُضَارِع ﴿يَعۡكُفُونَ﴾:

عبَّر عن فعل الاعتكاف بالمُضَارِع الدَّالِّ على اتِّصافهم بالفعل في الحال، وتجدُّدِه فيهم، وأخلصَ النَّكِرةَ ﴿قَوۡمٍ﴾ من محضِ التَّنْكِيرِ الوصفُ بالجُمْلَة الفعليَّةِ ﴿يَعۡكُفُونَ﴾ الدالُّ على استمرارهم عليه، وفي ذلك من الإيضاح بعد الإبهامِ ما ليس في التَّعْرِيف بالإضافة.

اتِّصافُهم بالفعْلِ في الحالِ، مع مَلْمَحِ تجدُّدِ الإقامةِ حوْلَ أصنامِهم

نُكْتةُ تنكيرِ لفْظِ ﴿أَصۡنَامٍ﴾:

اختِيرَ طريقُ التَّنْكِيرِ في﴿أَصۡنَامٍ﴾، ووُصِفَتْ بأنَّها ﴿لَّهُمۡ﴾، أي: (للقوم) دونَ طريق الإضافة؛ ليُتَوسَّل به إلى إرادةِ تحقيرِ الأصْنَام، وأنَّها مجهولةٌ؛ لأنَّ التَّنْكِيرَ يستلزمُ خَفاءَ المعرفةِ[2].

أهمّيّةُ دَلالةِ هذا اللّفظِ، بأنّ الأصْنَامَ المنكَّرةَ، مُبتذَلةٌ مُحقَّرةٌ

سِرُّ وصْفِ الأصْنَامِ بأنَّها ﴿لَّهُمۡ﴾:

إنَّما وُصِفَتِ الأصْنَامُ بأنَّها﴿لَّهُمۡ﴾، ولم يقتصِر على قَوْلِه: ﴿أَصۡنَامٍ﴾؛ لزيادة التَّشنيعِ بهم والتَّنبيهِ على جَهلِهم وغَوايتهم في أنَّهم يعبدونَ ما هو مُلْكٌ لهم، فيجعلونَ مملوكَهُمْ إلهَهُم[3].

زيادةُ التَّشنيعِ بهم، والتَّنبيهِ على جَهْلِهم وغَوايتِهم

عِلَّةُ العُدولِ إلى الفصْلِ، في ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَى﴾:

لما أخبرَ سبحانه بنجاتِهم، ومجاوزتِهم البَحْرَ؛ عَلِمَ السَّامعُ أنَّهم بين أمرين: إمَّا شُكْرٌ، وإمَّا كُفْرٌ، فتشوَّفَ إلى ما كان منهم في حال الرَّخاءِ هل شكروا؟ فأجابَ اللّه سؤالَه بقَوْله: ﴿قَالُواْ﴾، أي: لم يلْبَثْ ذِكْرُهُمْ لمّا أراهم سبحانه من عظمتِه، وشكْرُهُمْ لمّا

تَشوُّفُ النَّفْسِ إلى معرفةِ فِعْلِهم حالَ الرَّخاءِ، وأنّهم أشركُوا وما شَكَرُوا

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/80.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/80.
(3) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/247، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/80.

أفاضَ عليهم من نعمتِه إلَّا رَيْثما أَمِنُوا من عدوِّهم بمجاوزَتِهم البَحْرَ، حتَّى طلبوا إلهًا غيرَهُ بقَوْلهم: ﴿يَٰمُوسَى ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞۚ﴾[1]. ولمَّا كانت العبارة افتتاحَ مُحاورة، والشّأنُ أنْ تكونَ جُملُها مفصولةً شاعَ فصْلُها. ففُصِلَتْ أيضًا، ولم تُعْطَفْ بالفاء؛ ولو عُطِفت، لجازَ أيضًا[2].

بَراعةُ تَوظيفِ النِّداءِ ﴿يَٰمُوسَى﴾ في الخِطابِ:

النِّداءُ فيه طَلَبٌ للإصغاءِ لما يقولونَه، إظهارًا لرغْبَتِهم فيما سيطلُبونَ

ونداؤهم نبيَّهم بقَوْلِهم: ﴿يَٰمُوسَى﴾ مع أنَّه معهم مستعملٌ في طلب الإصغاء لما يقولونَه؛ إظهارًا لرغبَتِهم فيما سيطلبون[3]. ووُظِّفَ النِّداءُ بوصفِه دُعاءً برفعِ الصَّوتِ، غايتُهُ أنْ يُصغيَ من يُنادَى إلى أمرٍ ذي بالٍ، فيُستثارُ بحرف النِّداء، ويُحرَّك، ويُنبَّهُ؛ توكيدًا، ومبالغةً، فإذا أُلقي إليهِ الكلامُ؛ كان مُستعِدًّا لتَقَبُّلِه.

التَّصْريحُ بالمنادَى ﴿يَٰمُوسَى﴾، جَفاءٌ وغِلْظةٌ، وقلَّةُ تأدُّبٍ:

مُراعاةُ القرآنِ لمقتضَى الواقعِ، جعَلَ الألفاظَ عاكسةً للفُوظِهم

وسَمُّوْهُ باسْمِهِ جفاءً وغِلْظَةً؛ اعتمادًا على ما عمَّهُمْ من برِّهِ وحِلْمِهِ غيرَ متأدِّبينَ بما بَهَرَهُمْ من جلالةِ حظِّهِ مِنَ اللّٰهِ[4]، فدعَوه كما ينادي بعضُهم بعضًا، فلم يقولوا له: يا نبيَّ اللّٰهِ، أو: يا كليمَ اللّٰهِ.

بَلاغةُ التَّشْبيهِ في قَوْله: ﴿كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞۚ﴾:

حَضُّهُمْ موسَى على الاستجابةِ لهم، وانتِهاجُهُمْ بما رأَوْا مِنَ القوْمِ الَّذين حَلُّوا بينَهُم

والتَّشبيهُ في قَوْله: ﴿كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞۚ﴾ أرادوا به حضَّ موسى عليه السلام على إجابةِ سؤالِهم، وتحقيقِ مطلبهم، والابتهاجَ بما رأوا من حال القومِ الَّذين حلُّوا بين ظهرانَيْهم، وهم منقطِعون إلى ما يعبدون مِن أصنامٍ، وكفى بهم خِسَّةَ عُقُولٍ عَدُّهم القبيحَ حَسَنًا، واتِّخاذُهم المظاهرَ المُزيَّنَة قُدْوَةً، وانخلاعُهم عن كَمالهم في اتِّباع نقائص

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرَر: 3/104.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 9/81.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 9/81.
(4) البقاعي، نظم الدُّرَر: 3/104.

غيرهم[1]! ويجوز أنْ تكونَ الكافُ اسمًا في محلِّ نصبٍ صفةً لإلهٍ، أي: إلهًا مُماثِلًا لإلهِهم[2].

دَلالةُ تعدُّدِ وُجوهِ احْتمالاتِ إعرابِ (ما)، في قوله: ﴿كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾:

الـتّـنـوُّعُ في المعاني، والسّعةُ في الـدّلالاتِ، مَلْمحٌ يُميّزُ بيانَ الآياتِ

احتمالاتُ توجيهِ (ما): أن تكونَ كافَّةً لكافِ التَّشبيه عنِ العملِ؛ فإنَّها حرفُ جرٍّ، ولذلك وقعت الجُمْلَةُ بعدَها[3]، والتَّقدير: كآلهتِهم، ويجوز أن تكونَ مصدريَّةً، أي: كما ثبتَ لهم آلهةٌ، فآلهةٌ فاعل بـ(ثبت) المقدَّرِ، ويجوز أن تكونَ موصولةً، وفي قَوْلهم: ﴿لَّهُمْ﴾ ضميرٌ يعودُ إليه، و﴿ءَالِهَةٌ﴾ بدلٌ مِن ذلك الضَّميرِ، تقديرهُ: كالذي هو لهم آلهةٌ[4].

نُكتةُ العُدولِ إلى الفصْلِ:

الاسْـتِـئـنـافُ تَـشـوُّفٌ إلى ردِّ مـوسَى المتَّصِفِ بـالـشِّـدَّةِ، والـغِـلْـظـةِ؛ مُناسبةً لحالِهم

ولمّا كان قَوْلهم: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾، قولَ مَن لا يَعُدُّ الإلهَ الّذي فعلَ معهم هذه الأفاعيلَ شيئًا، ولا يستحضرهُ بوجهٍ، ولما كان هذا منهم عظيمًا؛ استأنفَ جوابَ مَن تشوَّف إلى قولِ موسى عليه السلام لهم ما هم، بقَوْله: ﴿قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾[5]. وفُصِلت، ولم تُوصَل لوقوعِها في جوابِ المحاورة، أي: أجابَ موسى كلامَهم، وكان جوابُه متَّصِفًا بالشِّدَّة والغلظة؛ لأنَّ ذلك هو المناسبُ لحالِهم[6].

سِرُّ التَّعْبِيرِ بالمُضارِعِ ﴿تَجْهَلُونَ﴾:

الإشـعـارُ بـأنَّ الـجـهْـلَ منهم كـالـطَّـبْـعِ والـغـريـزةِ، يُعْرَفُون به، ولا ينفكُّ عنهم

جاءَ بالفعلِ ﴿تَجْهَلُونَ﴾ مضارعًا، ولم يقل: (جهلتم)؛ إشعارًا بأنَّ ذلك منهم كالطَّبع والغريزةِ، لا ينتقلون عنه في ماضٍ ولا حاضرٍ، ولا

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 9/81.
(2) السّمين الحلبيّ، الدُّرُّ المصون: 5/4424.
(3) الزَّمخشريّ، الكشَّاف: 2/150.
(4) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/182، وأبو حيَّان، البَحْر المحيط: 4/377، والسّمين الحلبيّ، الدُّرُّ المصون: 5/4424 - 43.
(5) البقاعيّ، نظم الدُّرَر: 3/104.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/81.

مستقبلٍ، فهي خَلَّةٌ متجدِّدةٌ فيهم[1]. والمُضَارِع ﴿تَجْهَلُونَ﴾ في محلِّ رفعٍ صفةٌ لقومٍ، وهو خبرٌ موطِّئٌ للصِّفةِ يفيدُ المبالغةَ، والتَّوكيدَ[2].

سِرُّ الوَصْفِ بالجَهْلِ المُطْلَقِ، على طريقِ التَّوكيدِ بـ(إنَّ):

تـوجَّـهَ الـذَّمُّ عـلـيـهـم، لِمـا أبْـــدَوْا مـنَ السّفهِ الذّميمِ، والجهلِ العميمِ

وتوجَّهَ الذَّمُّ عليهم؛ لأنَّ العِبَادَة نهايةُ التَّعْظيمِ سواءٌ اعتُقِد في المعبودِ أنَّه إلهٌ، أو اعتُقِد فيه أنَّه مقرَّبٌ مِن اللهِ، ونهايةُ التَّعظيمِ لا تليقُ إلَّا بمن يَصْدرُ عنه نهايةُ الإنعامِ، ولهذا قالَ لهم موسى عليه السلام: ﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾[3]؛ مُتَعجِّبًا مِن قَوْلهم، وموبِّخًا إيَّاهم على أثرِ ما رأوا من الآيةِ العظمى والمعجزةِ الكبرى، فوصفَهم بالجَهْلِ المطلقِ وأكَّدَه بـ"إنَّ"؛ لأنَّه لا جهلَ أعظمُ ممَّا رأى منهم، ولا أشنع[4]. فقد بَعُدَ صنيعُهُم عن العقلِ، فلا يوجدُ أشْنَع ممَّا فعلوه، بعد ما رأَوا من الآياتِ الكبرى[5]، ولذلك فهمْ قومٌ ملأَ الجَهْلُ قلوبَهم، وغطَّى على عقُوْلِهم، فصاروا لا يُفرِّقون بين ما عليه هؤلاءِ من ضَلالٍ مُبينٍ، وبين ما تستحقُّه الألوهيَّةُ من صفاتٍ وتعظيم[6].

فائِدةُ التَّعْبِيرِ بالجُمْلَةِ الاسميَّةِ: ﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾:

تَرسيخُ جهْلِهِم المطْلقِ، بكونه صفةً ثابتةً في نفُوسِهم

كان وصفُ موسى عليه السلام إيَّاهم بالجَهَالة ﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾، مؤكَّدًا بالجُمْلَةِ الاسميَّة، ولفظةِ (إنَّ)، وصيغةِ المُضَارِع، المفيدةِ للاستمرار التَّجدُّدي؛ ترسيخًا لمطلق جهالتِهم بتحقيقِ كونِ الجَهَالةِ صفةً ثابتةً فيهم، وراسخةً من نفوسِهم، ولولا ذلك؛ لكان لهم في بادئِ النَّظر زاجرٌ عن مثل هذا السُّؤال، ورادعٌ عن التَّفكير فيه بَلْهَ طَلَبِهِ، وفيه تَشْديدٌ في العتابِ[7].

(1) أبو حيَّان، البَحر المحيط: 4/377، والبقاعيّ، نظم الدُّرَر: 3/104.
(2) قباوة، المفصّل، ص: 595.
(3) النيسابوريّ، غرائب القرآن: 3/310.
(4) الزَّمخشريّ، الكشَّاف: 2/150، وأبو حيان، البحر المحيط: 4/377، وطنطاويّ، التّفسير الوسيط: 5/366.
(5) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/32.
(6) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 5/366.
(7) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاوي: 8/489، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/81.

دَلالةُ صِيغةِ الإخبارِ عنِ الجَهْلِ، بين التَّصْريحِ والكِنايةِ:

الانْدِهاشُ من قَوْلِهم وفِعْلِهم، والتَّعجُّبُ من فداحةِ جَهْلِهم

الخبرُ في ﴿تَجْهَلُونَ﴾ مستعملٌ في معنييهِ: الصَّريحِ اندهاشًا مِن قَوْلهم الذي يدلُّ على جهلِهم بمعنى عدمِ معرفتهم، أو قصورِ عِلْمِهم. والكنايةِ، مكنًّى به عن التَّعجُّب من فداحةِ جَهلِهم[1]. الذي يصلُ إلى حدِّ الحماقةِ التي هي ضدُّ العقلِ، فما ينبعثُ مثلُ هذا القولِ إلا من الجَهَالةِ والحُمقِ إلى أبعدِ الحدود، الَّذي يتناول فَقْدَ العلم، وسَفَهَ النَّفسِ، وفسادَ العقل، وسوءَ التَّقدير[2].

سِرُّ الالتفاتِ منَ الغَيبةِ إلى الخطابِ:

خصَّصَ الجَهْلَ بالقومِ العاكفِين على الأصْنَامِ، واستثْنَى قومَه منه

التفتَ من الغيبةِ في: ﴿قَالَ﴾ إلى الخطاب في: ﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾؛ لأنَّ المُخبَرَ عنهم هم المُخاطَبون، وفي ذلك زجرٌ، وتوجيه[3]. وفيه قصدٌ معنويٌّ أبلغ - واللّه أعلم - وهو أنَّ في عدم الالتفات، أي: التَّعْبِيْرُ بالغَيبة: (إنهم قوم يجهلون) تَخصيصًا للجَهْلِ بالقومِ العاكفين على الأصْنَام، واستثناءً لقومهِ مِنَ الجَهْلِ، وكأنَّ المعنى - واللّه أعلم -: إنَّهم قومٌ يجهلون، فلا تكونوا مثلَهم، وهو تعبيرٌ لا يناسب سَفَهَ مطلبِهم، وفداحةَ صنيعِهم.

دَلالةُ التَّعْبِيرِ بلفظِ ﴿قَوْمٌ﴾:

التَّنبيهُ على أنَّ وصْفَهُم بالجَهَالةِ كالمُتَحَقِّقِ المعلومِ

في الإتيانِ بلفظ ﴿قَوْمٌ﴾ وجعْلِ ما هو مقصودٌ بالإخبارِ وصفًا لقومٍ، تنبيهٌ على أنَّ وصْفَهُم بالجَهَالةِ كالمُتَحَقِّقِ المعلومِ الداخل في تقويم قوميَّتهم؛ لأنَّ الخبرَ لظهورِ أمرهِ وقيامِ الدَّليل عليهِ، كأنَّه معلومٌ مُتَحقِّقٌ، فيفيدُ تأكيدَه وتقريرَهُ، ولولاه لم يكن لتوسيطِ الموصوفِ وجهٌ من البلاغة[4]. ولذلك كان إسنادُ الجَهْلِ إلى القومِ أبلغَ من إسنادهِ إلى ضميرِ المخاطَبين[5].

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/81.

(2) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 5/366.

(3) قباوة، المفصّل، ص: 595.

(4) الشهاب، عناية القاضي: 4/359، والآلوسي، روح المعاني: 9/41، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 9/81.

(5) محمد رضا، تفسير المنار: 9/97.

نُكتةُ تنكيرِ ﴿قَوْمٌ﴾:

الحُكْمُ بالجَهَالةِ على القومِ كلِّهم، تأكيدٌ للتّعجُّبِ مِن حالِهم

وتنكيرُ ﴿قَوْمٌ﴾ حكمٌ بالجَهَالة على القوم كلِّهم، وفيه تأكيدٌ للتعجُّب مِن حالِ جَهالتِهم، وعمومِها فيهم، بحيثُ لا يُوجَدُ فيهم مَن يشذُّ عن هذا الوصفِ مع كثرتِهم، ولأجل هذه الغرابةِ أكَّد الحكمَ بـ(إنَّ)؛ لأنَّ شأنَهُ أنْ يتردَّدَ في ثبوتهِ السَّامعُ[1]، وهذا يدفعُ ما ذهبَ إليه بعضُ المفسِّرين من أنَّ طلبَ جعلِ الآلهةِ لم يصدرْ مِن مشاهيرِ بني إسرائيلَ وعظمائِهم كالسَّبعين المختارين، ولكنَّه صَدرَ عن عوامِّهم وجهلتِهم[2].

بَلاغةُ الحذْفِ لمفعولِ ﴿تَجْهَلُونَ﴾، وتنزيلُ الفعْلِ مَنزلةَ اللَّازمِ:

يَدلُّ الحذْفُ على العُمومِ، ولِوصْفِهم بالجَهْلِ على أتمِّ صُورةٍ

لمّا تعجَّب ﷺ مِن قَوْلهم هذا بعد ما شاهدوهُ مِنَ الآيةِ الكبرى والبيِّنة العظمى، وغَضِبَ ﷺ غضبةَ رسولِ ربِّ العالمين، لربِّ العالمين غَيْرةً على ألوهيَّته أن يُشْرِكَ بها قومُه؛ وصفَهم بالجَهْلِ على أتمِّ وجْهٍ، حيثُ لم يذكرْ لهُ متعلَّقًا ومفعولًا، فلم يقُلْ: تجهلون ماذا؟ لتنزيلِهِ منزلةَ اللَّازم، أو لأنَّ حذْفَهُ يدلُّ على عمومِهِ، أي: تجهلونَ كلَّ شيءٍ، فيدخلُ فيهِ الجَهْلُ بالرُّبوبيَّةِ بالطَّريق الأولى[3].

وليشيرَ إلى أنَّ العلمَ والتَّعقُّل يقودُ كلاهُما إلى اللّهِ الواحدِ، وأنَّه ما مِن عِلْمٍ ولا عَقْلٍ يقودُ إلى غيرِ هذا الطَّريق.

سِرُّ العُدولِ عن لفْظِ (لَا تَعلَمُونَ) إلى ﴿تَجْهَلُونَ﴾:

بيانُ الفرقِ بين عدَمِ العلْمِ بالشَّيءِ، وبين الجَهْلِ بالشَّيء

لم يَقُلْ لهم: (لَا تَعلَمُونَ)، بل قال: ﴿تَجْهَلُونَ﴾؛ لأنَّ هناك فارقًا بين عدمِ العلم بالشَّيء، وبين الجَهْلِ بالشَّيء، فعدمُ العلْمِ، يعني: أنَّ الذِّهن قد يكونُ خاليًا من أيِّ قَضيَّةٍ، أمَّا (الجَهْل)؛ فهو يعني: أن تعلم مناقضًا للقَضيَّةِ، إذًا فهناك قَضيَّةٌ يعتقدُها الجاهلُ، ولكنَّها

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 9/81.
(2) النيسابوري، غرائب القرآن: 3/310.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 9/41.

غيرُ واقعيَّةٍ، أمَّا الَّذي لا يعلمُ، فليسَ في ذهنهِ قَضِيَّةٌ، وحين تأتي له القَضِيَّةُ يقتنعُ بها، ولا يحتاجُ ذلك إلى عمليَّةٍ عقليَّةٍ واحدةٍ، مثل الأُمِّي مثلًا الذي لا يعلمُ؛ لأنَّ ذهنَهُ خَالٍ مِن قَضِيَّةٍ، أمَّا الذي يعلمُ قَضِيَّةً مخالِفَةً؛ فهو يحتاجُ مِنَ الرَّسولِ إلى عمليَّتَينِ عقليَّتين: الأولى: أن يُخرِجَ ما في نفسِه من قَضِيَّة الجَهْلِ، والثَّانية: أن يُعطيَ له القَضِيَّةَ الجديدةَ. إنَّ الذي يُرهِقُ العالمَ همُ الجُهَلاءُ لا الأمِّيُّون؛ لأنَّ الأمِّيَّ حين تُخْبِرُهُ بمعلومةٍ؛ فليس عندَهُ ما يُناقِضُها، لكنَّ الجاهِلَ عندَهُ ما يُناقِضُها ويخالِفُ الواقِعَ[1].

حقيقةُ شَكِّ بنِي إسرائيلَ، بوَحدانيَّةِ اللهِ الجليلِ:

وُصِفُوا بالجَهْلِ، ولم يُوصَفُوا بالشِّركِ، لِسفاهةِ أحلامِهم، وقلّةِ وعْيِهم بالحقائقِ

ذهبَ البغويُّ إلى أنَّ طلبَ بني إسرائيلَ لم يكن شَكًّا منهم في وحدانيَّةِ اللهِ تعالى وإنَّما معناه: (اجعلْ لنا شيئًا نعظِّمُهُ، ونتقرَّبُ إلى اللهِ بتعظيمِه)، وظنُّوا أنَّ ذلك لا يضرُّ الدِّيانةَ، وكان ذلك لخِفَّةِ عقْلِهم وشِدَّة جَهْلِهم؛ ولذلك وصفَهم موسى عليه السلام بالجَهْل تعجُّبًا من قَوْلِهم على إثرِ ما رأوا مِنَ الآياتِ[2]. ولم يصِفْهم بالشِّرك، وبدأ حَشْدَ عباراتِ العِظَةِ والهدايةِ والإرشادِ، والتَّذكيرِ بعظيمِ فضلِ اللهِ عليهم - فيما سيأتي من آياتٍ مباركاتٍ - بما أوتيَ مِن بلاغةِ الأنبياءِ، وحُسْنِ أدبِهم، وذلكم أسلوبُ الحوارِ مع الجَاهلِ بخلاف أسلوبِ خِطاب المُشْرك، ومُجادَلته.

سِرُّ تعاقُبِ القَصَصِ القُرآنيِّ في السّورةِ:

ليستِ القَصصُ للتَّكريرِ، فإنَّ كلَّ سياقٍ منها لمشْهدٍ لم يَسْبِقْ ذكرُهُ من قبْلُ

إنَّ سياقَ كلِّ قصةٍ هو لأمرٍ لم يَسْبِقْ مثلُهُ، فلا تكريرَ في هذه القصصِ، والمقصودُ مِن قصَّةِ موسى عليه السلام وفرعونَ هذا الاستدلالُ الوجوديُّ على قَوْله: ﴿وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَٰسِقِينَ ١٠٢﴾ [الأعراف: 102]. فبعدَ الخلاصِ مِن عدوِّهم، بيَّنَ السّياق الحكيم إسراعَهم في

(1) الشَّعراويّ، تفسير الشَّعراويّ: 7/4330.

(2) البغويّ، معالم التّنزيل: 3/274، والمظهريّ، التّفسير المظهريّ: 3/401.

الكُفْرِ، ونقضَهُم للعُهودِ، واستمرَّ سبحانه في هذا الاستدلالِ إلى آخرِ السُّوْرَةِ[1].

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الصَّنَمُ، والتِّمثالُ، والوَثَنُ:

التِّمثالُ لا بدَّ أن يكون مثالًا لشيءٍ، وأنَّه قد يكون للعبادةِ، وحينئذٍ يسمَّى صنمًا، وقد يكون للزِّينة، كالذي نراه على جدرانِ بعض القصورِ المشيدةِ أو أبوابها أو في حدائقِها، وقد يكون للتَّعظيم والتكريم غيرِ الديني كالتَّماثيل التي تُنصَبُ لبعض الزُّعماء، والشَّخصيَّاتِ[2].

التِّمثالُ مُقيَّدٌ بالعِبَادَةِ والزِّينةِ، والصَّنَمُ مُخصَّصٌ بما له جِسمٌ وصورةٌ، والوَثَنُ أعمُّ

والصَّنَمُ: هو ما كانَ له جِسْمٌ أو صورةٌ، فإن لم يكن له جِسْمٌ أو صورةٌ، فهو وَثَنٌ[3]، وقيل: إنَّ الصَّنَمَ هو المعمولُ مِنَ الخَشَبِ، أو الذَّهَبِ، والفِضَّةِ أو غيرِها مِن جواهرِ الأرضِ، أمَّا الوَثَنُ؛ فهو المصنوعُ مِنَ الحِجارةِ، وقيل: ما كان له جِسْمٌ أو صورةٌ فصَنَمٌ، فإن لم يكن له جِسْمٌ أو صورةٌ؛ فهوَ وَثَنٌ، وقد يُطلَقُ الوَثَنُ على الصَّليبِ، وعلى كلِّ ما يَشْغَلُ عنِ اللهِ تعالى[4]، وقيل غيرُ ذلك. وقيل: إنَّ الصَّنَم مصوَّرٌ، فهذا أدْعَى إلى توهُّم سِرٍّ فيه، كما أنَّ اعتبارَ اللَّفظ المصاقبِ للصَّنم، وهو السَّنامُ، يُرجِّحُ أنه جثَّةٌ منصوبةٌ، أمَّا الوَثَنُ؛ فإنَّ احتواءَ الكلمةِ على الفصلِ المعبِّرِ عنِ التَّكْثيرِ يرجِّحُ أنَّ المُعتَبَرَ فيه أنَّه شريكٌ، أو ثانٍ (أي: تعدُّدُ المعبودِ) تعالى اللهُ عن ذلكَ. فمَلْحظُ الوَثَنِ أنَّه شَريكٌ، ومَلْحَظُ الصَّنَمِ أنَّهُ جثَّةٌ مصوَّرةٌ منصوبةٌ، وبهِ يكونُ الوَثَنُ أعمَّ من الصَّنَم[5]. وبذا يكون اختيارُ لفظِ الصَّنَم أنسبَ لسياقِ الآيةِ الكريمة؛ لكونهِ يُناسبُ - ما حُكِي - أنَّها كانت تماثيلَ بقرٍ.

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرَر: 3/104.
(2) محمد رضا، تفسير المنار: 9/92.
(3) ابن الأثير، النهاية: (صنم).
(4) الزّبيدي، تاج العروس: (صنم).
(5) جبل، المعجم الاشتقاقي: (صنم).

جعلَ، وخلقَ، وصنعَ، وعمِلَ، وفعلَ، وأنشأَ:

الجَعْلُ: تَغْييرٌ بإيجادِ الْأَثرِ في الشَّيء، وبغَيْر ذَلك، أَلا ترى أَنَّك تَقول: جعلَ الطِّينَ خزفًا، وَجعلَ السَّاكِنَ متحرِّكًا، وَتقول: عَمِلَ الطِّينَ خزفًا، وَلَا تَقول: عَمِلَ السَّاكِنَ متحرِّكًا؛ لِأَنَّ الْحَرَكَةَ لَيست بأثرٍ يُؤثِّر بِهِ في الشَّيء، والجَعْلُ أَيْضًا يكون بِمَعْنى الإحداث[1] والتَّوجُّهِ والشُّرُوعِ في الشَّيء والاشتغالِ بِهِ، وتَبَيِّن في شرح المعنى اللُّغوي للَّفظة أنَّ تَصَرُّفَها في القرآنِ ورد بمعنى: التَّحويلِ والتَّهْيئةِ على وَضْعٍ، أو التَّحويلِ للهيئةِ بإنشاء هَيْئَةٍ جَديدة، فهو إيجادٌ يتأتَّى منه النَّصْبُ (الإقامة)[2].

الجَعْلُ لفظٌ عامٌّ في الأفعالِ كلِّها، وهو إيجادٌ، أو تغييرٌ، مصحوبٌ بأثَرٍ أو بغيرِه

يُستَعْمَل الخَلْقُ في إبداعِ الشَّيء من غيرِ أصلٍ ولا احتذاء، أي: من غيرِ مثالٍ سابقٍ، ولا يكون إلَّا للّهِ تعالى وأمَّا الَّذي يكونُ بالاستحالةِ، فقد جعلَهُ اللّهُ تعالى لغيرِهِ في بعضِ الأحوالِ كعيسى[3] عليه السلام وفرَّقَ الزمخشريُّ بين الجَعْل، والخَلْقِ بالقول: "إنَّ الخَلْقَ فيه معنى التَّقديرِ، وفي الجَعْلِ معنى التَّضمين، كإنشاءِ شيءٍ من شيءٍ، أو تصييرِ شيءٍ شيئًا، أو نقلِه من مكانٍ إلى مكانٍ"[4]. فالخَلْقُ معناهُ الإنْشاءُ والإيجادُ الابتدائيُّ مِنَ العدَمِ مِن غيرِ مِثالٍ سابقٍ، أمَّا الجَعْلُ؛ فيتضمَّنُ معنى تكوينِ شيءٍ من شيءٍ، أو مِن أشياءَ، أي: كونُهُ محصَّلًا مِن آخرَ كأنَّه في ضِمْنِه[5].

في الجَعْلِ معنَى التَّضمينِ والتَّحصيلِ، وفي الخَلْقِ معنَى التَّقديرِ والأوَّليَّةِ

وهنا يتبيَّنُ قَصْديَّةُ اختيارِ الجَعْلِ دونَ الخَلْقِ في الآية المباركةِ، فطلبُهُم بجعلِ إلهٍ لهم، إنَّما هو فعلٌ محصَّلٌ ممَّا شاهدوهُ مِنَ الآلهةِ الَّتي كانت تُعبَدُ أمامَهم، فهو إنشاءٌ مِن مثالٍ سابقٍ، وليس إبداعًا مِن غيرِ أصلٍ كما في الخَلْقِ.

(1) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 136.
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (جعل).
(3) الرّاغب، المفردات: (خلق).
(4) الزَّمخشريّ، الكشَّاف: 2/3.
(5) الآلوسي، روح المعاني: 7/82، وطنطاويّ، التّفسير الوسيط: 5/29.

العَمَلُ إيجادُ الأثَرِ في الشَّيءِ من غيرِ اقتضاءِ العِلْمِ بِهِ، والجَعْلُ تغييرٌ بأثَرٍ أو بغيرِه

فرَّقَ أبو هلالٍ العسكريِّ بَينَ العَمَلِ والجَعْلِ، فذهبَ إلى أنَّ العَمَلَ: هُوَ إيجادُ الأثرِ في الشَّيءِ من غيرِ علم، والجَعْلُ تَغْيِيرٌ بإيجادِ الْأَثرِ فِيهِ وبِغَيْرِ ذَلِك. فالعَمَلُ لَا يَقْتَضِي الْعلمَ بما يعمل لَهُ، والعَمَلُ يكون بمعنى الإحداثِ[1]؛ لأنَّه: إيجادُ الأثرِ في الشَّيءِ مِن غيرِ إحاطةٍ شاملةٍ، أو عِلْمٍ وافٍ بما سيؤولُ إليهِ حالُه مِنْ بَعْدُ. فهو: كلُّ فعلٍ يكونُ مِنَ الحيوانِ بقصدٍ، دونَ ما كان مِنَ الجمادِ، فهو أخصُّ مِنَ الفعلِ؛ لأنَّ الفعلَ قد يُنسبُ إلى الحيواناتِ الَّتي يقع منها فعلٌ بغيرِ قصدٍ، وقد يُنسب إلى الجماداتِ، والعَمَلُ قلَّما يُنسَبُ إلى ذلك[2].

ولمّا كان قَصْدُ بني إسرائيل إحداثَ إلهٍ من الموجوداتِ سواءٌ كانت حجرًا، أو معدنًا بأنواعِه، وتغييرُها بإيجادِ أثرٍ لها عن علمٍ بما سيؤولُ إليهِ حالُها فيما بعدُ بوصفِها ستُعْبَدُ مِن دونِ اللّهِ، كان العدولُ إلى اختيارِهِ في سياقِ الآيةِ أنسبَ من لفظِ: (اعْمَلْ) الَّذي يحملُ مدلولَ عدمِ العلمِ، أو الإحاطةِ بما سَيؤولُ إليهِ الشَّيءُ قبلَ فِعلِه.

شَرْطُ الصَّنْعِ الإجادةُ، وليس في الجَعْلِ ذلك

الصَّنْعُ: إجادةُ الفعلِ، ولا يُنسَبُ إلى الحيوانات والجمادات، كما يُنْسَبُ إليها الفعلُ، ولذلك يقالُ للحاذقِ المجيد: صَنَعٌ؛ لإجادتهِ[3]، فهو مضمَّنٌ بالجَودَةِ، وهو: تَرْتِيبُ العَمَلِ وإحكامُهُ على مَا تقدَّمَ مِن علمٍ بِهِ[4].

والعدولُ عَنِ اختيارِهِ في الآيةِ الكريمةِ لكونِ موسى عليه السلام ليس ممَّن يُجيدُ صُنْعَ ما طلبوهُ منه حاشاهُ من ذلك، فضلًا عن أنَّهم إنَّما كان همُّهم لحظتها تقليدَ فعلِ القومِ العابدينَ للآلهةِ بأنْ يجعلَ لهم إلهًا شبيهًا بآلهتِهم مِن غيرِ تفكيرٍ بإجادةِ صُنعهِ، فذلك مَطلبٌ يُعرقِل غايتَهم.

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 135.
(2) الرّاغب، المفردات: (عمل).
(3) الرّاغب، المفردات: (صنع).
(4) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 135.

الفعلُ: هو التَّأثيرُ من جهةِ مؤثِّرٍ، وهو عامٌّ لِمَا كان بإجادةٍ أو غيرِ إجادةٍ، ولِمَا كان بعلم أو غيرِ علم، وقَصْدٍ أو غيرِ قَصْدٍ، ولِمَا كان مِنَ الإنسان والحيوان والجَمادات[1].

الفعلُ لفظٌ عامٌّ، وفي طلَبِهم قَصْدٌ، وخُصوصِيَّةٌ

وعُمُومُهُ يُخْرِجُهُ مِنْ قصديَّةِ التَّعْبِيْرِ بهِ عن طلبِ بني إسرائيلَ وخصوصيَّةِ طلبهم، فضلًا عن عدم تضمُّنِه معنى الإيجادِ، والتَّنْشِئَةِ، والإقامةِ (النَّصب) التي يتضمَّنُهما لفظُ الجَعْلِ.

الإنشاءُ: إحداثُ الشَّيءِ وإيجادُهُ وتربيتُهُ[2] شيئًا فشيئًا، حتّى يستويَ على سُوقِهِ، فملاكُ معناهُ التَّدرُّجُ بَدْءًا، وانتهاءً، وهو معنًى غيرُ واردٍ في شأن إقامةِ الإلهِ الَّذي طلبَهُ بنو إسرائيلَ، ولذلك عُدِلَ عنْهُ.

مِلاكُ أمْرِ الإنشاءِ التَّدرُّجُ، وليس ذلك في الجَعْلِ

نَخْلُصُ إذًا ممَّا تقدَّمَ عَرْضُهُ مِن مَعانٍ للألفاظ المشابِهَةِ للفظةِ الجَعْلِ إلى قَصْديَّةِ اختيارها في الآية الكريمة، والعدولِ عن مُشابِهَاتها بوصفِ الجَعْل إحداثًا، أو تَغْييرًا بإيجادِ الْأَثَرِ في الشَّيء وبِغَيْر ذَلِك، وإنشاءَ هَيْئَةٍ جَديدةٍ، فهو إيجادٌ يتأتَّى منه النَّصْبُ (الإقامة)، وهو مطابقٌ لمرادِ بني إسرائيلَ مِن عملِ الإلهِ.

(1) الرّاغب، المفردات: (فعل).
(2) الرّاغب، المفردات: (عمل).

﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٞ مَّا هُمۡ فِيهِ وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٣٩﴾ [الأعراف: 139]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

بعدَ أنْ بدأ موسى عليه السلام جوابَه لقومِه بإثبات فَرْطِ جَهالاتِهم بربِّهم، وسَفَاهةِ أنفسِهم، ثنَّى ببيانِ فسادِ ما طلبوهُ في ذاتِه، وكونِه عُرضةً للتَّبارِ والزَّوال، وباطلًا في نفسِه على كلِّ حالٍ، عسَى أنْ تستعدَّ عقولُهم لفهمِه، واستبانَةِ قُبْحِه[1].

اتِّباعُ موسَى أُسلوبَ الاستئنافِ المفيدِ للتَّعليل، في التَّذكير ببُطلانِ عبادةِ غيرِ الله

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مُتَبَّرٞ﴾ (تبر) أصلان متباعَدٌ ما بينهما: أحدُهما الهلاكُ[2]، وَالْآخَرُ جَوْهَرٌ مِنْ جَوَاهِرِ الْأَرْضِ، وهو التِّبْرُ، وَهُوَ مَا كَانَ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ غَيْرَ مَصُوغٍ، فالتَّبارُ: الهلاكُ والفَناءُ[3]. يُقالُ تَبَرَ الشَّيْءُ - كَضَرَبَ وتَعِبَ وقَتَلَ - وتَبَّرَهُ تَضْعِيفٌ لِلتَّعْدِيَةِ، أيْ: أهْلَكَهُ، والتَّتْبِيرُ التَّدْميرُ، وكلُّ شَيْءٍ كَسَرْتَهُ، وفتَّتَّهُ، فقد تَبَّرْتَهُ، وَمن هَذَا قيل لِمُكَسَّرِ الزُّجاج: التِّبْرُ[4]. فالتِّبْرُ: الكسرُ والإهلاكُ[5]، وما في القرآنِ مِنَ التَّرْكِيب، كلُّه مِنَ التَّبارِ بالمعنى الذي ذُكِرَ[6]. وقيل: في ﴿مُتَبَّرٞ﴾ ثلاثةُ أوجهٍ: أحدُها: باطلٌ، والثاني: مُضَلَّلٌ، والثَّالث: مُهْلَكٌ، وفي تسميّتِه بذلك قولانِ: أحدهما: لأنَّ موسى يُهْلِكُهُ. والثَّاني: لكسْرِه، وكلُّ إناءٍ مكسورٍ متبَّرٌ[7]. وقيلَ: هو الرَّدِيءُ السَّيِّئُ العاقبةِ[8]. ومع احتمالِ هذه المعاني إلا أنَّ: الإهلاكَ، والإفناءَ، والتَّدميرَ أظْهرُ.

(1) محمد رضا، تفسير المنار: 9/97 - 99، وطنطاويّ، التّفسير الوسيط: 5/366.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (تبر).
(3) الخليل، العين: (تبر).
(4) الأزهري، تهذيب اللغة: (تبر).
(5) الرّاغب، المفردات: (تبر).
(6) جبل، المعجم الاشتقاقي: (تبر).
(7) الماوردي، النكت والعيون: 2/255.
(8) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/377.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

هلاكُ الصَّنيعِ الوضيعِ، وبطلانُ العمَلِ الخسيسِ، المبنيِّ على غيرِ تأسيسٍ

هذا خبرٌ مِنَ اللّهِ - تعالى ذكرُه - عن قيلِ موسى لقومِهِ من بني إسرائيل: إنَّ هؤلاءِ العُكوفَ على هذه الأصْنَامِ، اللّهُ مُهْلِكٌ ما هم فيه مِنَ العملِ وفاسدِهِ، ومُثْبِتٌ العذابَ المهينَ عليهم، ومُبْطِلٌ صنيعَهم، من عبادتِهم إيَّاها، واضمحلالَهُ؛ لأنَّهُ غيرُ نافعِهم عند مجيءِ أمرِ اللّهِ وحلولِهِ بساحتِهم، ولا مدافِعٌ عنهم بأسَ اللّهِ إذا نزلَ بهم، ولا منقذُهم من عذابِهِ؛ إذا عذَّبهم في القيامة[1].

وترشدُ الآيةُ الكريمةُ إلى تحقيقِ المقصودِ من العِبَادَة وهو: أن تصيرَ المواظبةُ على تلك الأعمالِ سببًا لاستحكامِ ذكرِ اللّهِ تعالى في القلبِ، حتى تصيرَ تلكَ الرُّوحُ سعيدةً بحصولِ تلكَ المعرفة فيها، فإذا اشتغلَ الإنسانُ بعبادةِ غيرِ اللّهِ تعالى تعلَّقَ قلبُهُ بغيرِ اللّه، ويصيرُ ذلك التَّعلُّقُ سببًا لإعراض القلبِ عن ذكرِ اللّهِ تعالى وإذا ظهرَ هذا التَّحقيقُ؛ ظهرَ أنَّ الاشتغالَ بعبادةِ غيرِ اللّهِ فانٍ، وهالكٌ، وضائعٌ؛ لكونِهَا تُزيلُ معرفةَ اللّهِ عنِ القَلْبِ، فكانَ هذا ضدًّا للغرضِ ونقيضًا للمطلوب[2].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

سِرُّ العُدولِ الى أُسلوب الفصْلِ في السِّياقِ:

الاستئنافُ تعليلٌ لمضمونِ الجُمْلَةِ، وتجليّةٌ لمدلولِها

وبعدَ أن ذكَّرهم نبيُّ اللّهِ موسى عليه السلام بسوءِ حالِهم من جهلِهم وسفاهةِ أنفسِهم، قال بأسلوب الاستئنافِ المفيدِ للتَّعليلِ والدليل: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمۡ فِيهِ وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾؛ إذ بَيَّنَ لهم فسادَ ما طلبوهُ في نفسِه، عسى أن تستعدَّ عقَوْلُهُم لفهمِهِ، واستبانةِ قبحِهِ[3]. وجملةُ ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٞ مَّا هُمۡ فِيهِ﴾ بمعنى التَّعليلِ لمضمونِ جملة ﴿إِنَّكُمۡ قَوۡمٞ تَجۡهَلُونَ﴾ فلذلك فُصِلَت عنها[4].

(1) ابن جرير، جامع البيان: 13/83.
(2) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/183.
(3) محمد رضا، تفسير المنار: 9/97.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/82.

سِرُّ التَّعْرِيْفِ باسْمِ الإشارةِ، في قوله: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾:

تَمييزُهم بتلكَ الحالةِ البائسةِ التي كانوا مُتلبِّسينَ بها، أكْملَ تَمْييزٍ

الإشارة بـ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ إلى العاكفين على عبادةِ الأصْنَام[1]، وفي تعريفِ المُسْنَدِ إليه بالإشارةِ، وتخصيصِه بالذِّكر دلالةٌ على أنَّ أولئكَ القومِ محْقُوقُونَ بالدَّمارِ؛ لأجل اتِّصافهم بالعُكوفِ على عبادةِ الأصْنَام[2]، ولتمييزِهم بتلك الحالةِ التي هم متلبِّسونَ بها أكملَ تمييزٍ، وللتَّنبيهِ على أنَّهم جديرونَ بما يردُ بعدَ اسمِ الإشارةِ مِنَ الأوصاف، وهي كونُهم مُتَبَّرًا أمرُهُم، وباطلًا عملُهُم[3]. ورسَّخ هذا المعنى توكيدُ مضمونِ الجُمْلَةِ بـ(إنَّ)[4]. وهو من حيثُ كونُه ممَّا يُشارُ إليهِ إلى البعيدِ يفيدُ التَّحقيرَ، وجعْلَ تمييزِ المشارِ إليه ذريعةً إلى تحقيرِه أبلغَ في التَّحقيرِ[5].

بَلاغةُ التَّعْبِير بالتَّتْبِيرِ، عَلى صِيغةِ التَّفعيلِ:

المبالغةُ في التَّعْبِيْرِ عنِ الفعْلِ، يناسِبُ قُبْحَ صَنِيعِهم

﴿مُتَبَّرٌ﴾: اسمُ مفعولٍ من بابِ التَّفعيلِ يقالُ: تبَّرَهُ تتْبيرًا، أي: كسَّرهُ وأهلَكهُ، والمعنى: مُكَسَّر ومُهْلَكٌ[6]. وتبَّرَهُ بالتَّشديدِ: أهلَكَهُ ودمَّرَه[7]. فهو مبالغةٌ في التَّعْبِيْرِ عن الفعل ليناسِبَ قُبحَ صنيعِهم، وتفيدُ المبالغةَ في المعنى، وتُستخدمُ للتَّعبيرِ عَن حالاتِ الشِّدَّةِ والغَلَبَةِ.

دَلالةُ تقديم المرجِّحِ المعنويِّ على المرجِّحِ اللَّفْظِيِّ:

اقتضاءُ المقامِ الحَصْرَ المستفادَ منَ التَّقديمِ، في السِّياقِ الحكيمِ

في إعرابِ قولِه تعالى: ﴿مُتَبَّرٌ﴾ وجهانِ، أحدهما: أن يكونَ خبرًا لـ ﴿إِنَّ﴾، والثَّاني: أن يكونَ الموصولُ مبتدأً، و﴿مُتَبَّرٌ﴾ خبرهُ قُدِّمَ عليه، والجُمْلَةُ خبرٌ لـ ﴿إِنَّ﴾ وهو توجيهُ الزَّمخشريِّ، وخالفَهُ أبو

(1) أبو حيَّان، البحر المحيط: 4/377.
(2) الطِّيبيّ، فتوح الغيب: 6/543.
(3) الشّهاب، عناية القاضي: 4/360، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/82.
(4) الطِّيبيّ، فتوح الغيب: 6/543.
(5) زاده، حاشية شيخ زاده: 4/285.
(6) حقّي، روح البيان: 3/225.
(7) محمد رضا، تفسير المنار: 9/97.

حيَّان[1]. ورُجِّحَ ما ذكرَهُ الزمخشريُّ من جهةِ المعنى؛ لكونِ الأمرِ إذا دارَ بينَ مرجِّحٍ لفظِيٍّ ومُرجِّحٍ معنويٍّ، فاعتبارُ المعنويِّ أوْلى، وذلك لاقتضاءِ المقامِ الحصرَ المستفادَ مِنَ التَّقديم، أي: ﴿مُتَبَّرٌ﴾ لا ثابتٌ، و﴿وَبَاطِلٌ﴾: لا حقٌّ[2]، وعلى ذلك فللتَّقديم قَصْدٌ.

عِلَّةُ تقديمِ الخبرِ ﴿مُتَبَّرٌ﴾ على المُبْتَدَأ:

قدَّمَ الخبرَ ﴿مُتَبَّرٌ﴾ على المُبتدأ ﴿مَّا هُمْ فِيهِ﴾؛ ليفيدَ تخصيصَهُ بالمُبتدأ؛ إذ فيه وَسْمٌ لعَبَدةِ الأصْنَام، وعَلامةٌ شَنِيْعةٌ لاصِقةٌ بهم، كالكَيِّ على الدَّابَّةِ بأنَّهم هُم المُعرَّضُون للتَّبار، وأنَّه لا يَعْدُوهم البتَّة، وأنَّه لهم ضربةُ لازبٍ؛ ليحذِّرَهُم عاقبةَ ما طَلَبُوا، ويُبغِضَ إليهم ما أحَبُّوا[3]. فقَوْلُهُ: ﴿مَّا هُمْ فِيهِ﴾ يعمُّ جميعَ أحوالِهم[4].

المُعَرَّضون للهلاكِ، ليسُوا على شيءٍ البتَّةَ، لأنَّ مصيرَهم. لا مَحالةَ. إلى النَّارِ

وفائدةُ تقديمِ الخَبَرِ الإيذانُ بأنَّهم لا يتجاوزون عنِ الدَّمار إلى ما يُضادُّهُ مِنَ الفَوْزِ والنَّجاة على القَصْرِ القَلْبيِّ[5]. ولذلك فهم ليْسُوا على شيءٍ البتَّة، وأنَّ مصيرَهم إلى النَّارِ لا محالةَ[6]. وليكونَ التَّبار لاحِقًا بأصحابِه لفظًا، وبأعمالِهم معنًى[7].

التَّعْبِيرُ بالاشْتقاقِ المضعَّفِ ﴿مُتَبَّرٌ﴾، على طريقِ الاسْتِعارةِ التَّبعيَّةِ:

تَبَرَ الشَّيءُ، أي: أهْلَكَهُ، والتَّتْبِيْرُ مستعارٌ هنا لفسادِ الحالِ؛ إذ أطلقَ التَّتْبِيْرَ على الإهلاكِ على طريقةِ الاستعارةِ التَّبعيَّةِ، فيبقى اسمُ المفعولِ على حقيقتِهِ في أنَّهُ وصفٌ للموصوفِ بهِ في زمنِ الحالِ، ويجوزُ أن يكونَ التَّتْبِيْرُ مستعارًا لسوءِ العاقبة، شبَّهَ حالَهم المُزَخْرَفَ

بيانُ فسادِ حالِهم، وسُوءِ عاقبتِهم، لانْحرافِهم عن نَهْجِ الله الحقِّ

(1) الزَّمخشريّ، الكشَّاف: 2/150، وأبو حيَّان، البحر المحيط: 4/378، والسّمين الحلبيّ، الدُّرُّ المصون: 5/444.

(2) الشهاب، عناية القاضي: 4/360، والسّيوطيّ، نواهد الأبكار: 3/442.

(3) الزَّمخشريّ، الكشَّاف: 2/150، والطِّيبيّ، فتوح الغيب: 6/543، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/82.

(4) الثّعالبي، الجواهر الحسان في تفسير القرآن: 3/73.

(5) الطيّبي، فتوح الغيب: 6/543.

(6) النّيسابوريّ، غرائب القرآن: 3/310.

(7) الإندونيسّي، الشّامل في بلاغة: 1/424.

ظاهِرُهُ بحالِ الشَّيءِ البهيجِ الآيلِ إلى الدَّمارِ والكَسْرِ، فيكونُ اسمُ المفعولِ مجازًا في الاستقبالِ، أي: صائرٌ إلى السُّوْءِ[1].

بَلاغةُ التَّعْرِيْف بالموصولِ ﴿مَّا﴾:

الصِّلةُ تُحيطُ بأحوالِهِم الَّتي لا يُحيطُ بها المتكلِّمُ، ولا المخاطَبون

قولهُ: ﴿مَّا هُمْ فِيهِ﴾ هو حالُهم، وهو عبادةُ الأصْنَام، وما تقتضيه منَ الضَّلالاتِ والسَّيِّئات، ولذلك اختيرَ في تعريفها طريق الموْصُوليَّة؛ لأنَّ الصِّلة تُحيطُ بأحوالهم التي لا يُحيطُ بها المتكلِّمُ ولا المخاطَبون، والظَّرْفيَّة مجازيَّةٌ مستعارةٌ للمُلابسةِ، تشبيهًا للتلبُّسِ باحتواءِ الظَّرف على المظْرُوْفِ[2].

دَلالةُ الضَّميرِ ﴿هُمْ﴾ في الآيةِ:

إفادةُ المبتدأِ تَقَوِّي الحُكمِ، لإبرازِ الفَحْوَى

وليس ﴿هُمْ﴾ من قوله تعالى في التَّرْكِيْبِ: ﴿مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ﴾ للفصلِ؛ إذ لا موجبَ، لأن يُقال: (إنَّهم متبَّرون) دونَ غيرِهم، بل هو مبتدأٌ؛ فيفيدُ تقوِّي الحكمِ[3].

جوازُ الوَجْهَين الإعْرابيَّين، في قوله: ﴿وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ﴾:

المبالغةُ في الكلامِ بالإخبارِ، عمَّا هُم فيه منَ البُطلانِ والتَّبَارِ

قَوْلهُ: ﴿وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ﴾، كقَوْلِهِ: ﴿مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ﴾ من جواز الوجهين الإعرابيَّين، وما ذُكِر فيهما[4]. وفي تقديم المُسْنَد: وهو ﴿وَبَٰطِلٌ﴾، على المُسْنَد إليه: وهو ﴿مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾، ما في نظيره من قَوْله: ﴿مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ﴾[5]. وفي هذا الكلام مبالغةٌ بالإخبارِ عمَّا هُم فيه بالتَّبار، وعمَّا فعلُوا بالبُطْلان، وتقديمُ الخبرَين في الجَملتَين الواقعتَين خبرًا؛ للتَّنبيه على أنَّ الدَّمارَ لاحقٌ لما هُمْ فيه لا محالةَ، وأنَّ الإحباطَ الكلِّيَّ لازمٌ لما مضى عنهم؛ تنفيرًا وتحذيرًا عن طلبِهم[6].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/82 - 83، و19/29.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/83.
(3) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 6/543.
(4) السّمين الحلبيّ، الدُّرُّ المصون: 5/445.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/83.
(6) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/32.

إفادةُ تقديمِ الخبرِ القَصْرَ على ما هُم فيه منَ الهلاكِ المُحقَّقِ:

إيرادُ التّتْبير والبُطلانِ، تعليلًا لإثباتِ الجَهْلِ المؤكَّدِ للقَوْمِ

بتقديمِ الخبرِ على المبتدأ، فإنَّه يُفيدُ القَصْرَ المَذْكُورَ، معَ قَطْعِ النَّظَرِ عَنِ جَعْلِ هؤلاءِ اسم ﴿إِنَّ﴾ من حيثُ الإشارةُ بها إلى قوم موصوفينَ بالعُكوف على أصنام لهم، فيدلُّ عليه الوصف للمسند، ويفيد القصرَ ولو أُخِّرَ خَبَرُ المبتدأ[1]. وموجِبُ هذه المبالغاتِ إيقاعُ جملةِ ﴿مُتَبَّرٌ﴾ ﴿وَبَاطِلٌ﴾ تعليلًا لإثباتِ الجهلِ المؤكَّدِ للقَوْمِ؛ لاقتراحِهم أنْ يجعلَ لهم موسى إلهًا، وأبلغُ مِن ذلك أنَّ المذكورَ ليس جوابًا لَهُ، بل مقدِّمةٌ، وتمهيدٌ له، وإنَّما الجوابُ قَوْلُهُ: ﴿أَغَيْرَ ٱللَّهِ﴾، وقَوْلُه: ﴿وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم﴾[2]. ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾.

بَلاغةُ التَّعْبيرِ بالجُمْلَةِ الاسْميَّةِ: ﴿وَبَاطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾:

الإشارةُ إلى أنَّ الهلاكَ في الدّارين، وإنْ حسِبَ القومُ خِلافَهُ

ولَمَّا كانَ الشَّيءُ قد يُهْلَكُ في الدُّنيا، أو في الآخرةِ، وهو حَقٌّ، أعلمَهم بأنَّ هذا الهلاكَ إنَّما هو الهلاكُ عندَ اللهِ أعمُّ من كونِهِ في الدُّنيا، أو في الآخرة؛ لبطلانِ ما هم فيه، معبِّرًا بالجُمْلَة الاسميَّة إشارةً إلى أنَّه الآنَ كذلك، وإنْ رُئِيَ بخلافِهِ[3].

إفادةُ الاسْمِ الموصولِ ﴿مَّا﴾ الإبهامَ والعُمومَ:

الجزاءُ عندَ الله، نِتاجُ العمَلِ الصّالحِ أوِ الطّالحِ

وقولهُ: ﴿مَّا﴾ في الموضعين: ﴿مَّا هُمْ فِيهِ﴾ وفي ﴿مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ موصولٌ يفيدُ الإبهامَ، فعملُهم لا يستحقُّ أنْ يُذْكَرَ، ويفيدُ كذلك العمومَ، ليعمَّ جميعَ حالهم الموصوفِ[4]. فبالموصولِ في الموضعين يعمُّ البُطلانُ القَوْمَ العاكفينَ على أصنامِهم، وقومَ موسى عليه السلام.

نُكتةُ التَّعْبيرِ بلفظِ ﴿وَبَاطِلٌ﴾، عَلى هيْئةِ اسْمِ الفاعلِ:

الباطلُ اسمٌ لضدِّ الحَقّ، فالإخبارُ بِهِ كالإخبار بالمَصْدَرِ الأقوى

(1) الخفاجي، عنايه القاضي: 4/359.
(2) الطيّبي، فتوح الغيب: 6/544.
(3) البقاعيّ، نظم الدُّرَر: 3/105.
(4) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/448.

في الدَّلالة على الحدث مِنَ الفعلِ؛ لإفادةِ المبالغةِ في بطلانه؛ لأنَّ المقامَ مقامُ التَّوبيخ، والمبالغةِ في الإنكارِ[1]. وشاعَ هذا الإطْلاقُ حتى صَارَ الباطِلُ كالاسمِ الجَامد، فيأتي اسمَ فاعلٍ من بَطَلَ، فهو باطِلٌ، فيساوي المَصْدَرَ في اللَّفظ، أو يكونَ مشتقًّا من المَصْدَر وهو البُطْلان، فيكون في الحالين بمعنى الوَصْفِ، ويكون المعنى على اسمِ الفاعل: واتَّصف ما يعملونه بأنَّه باطلٌ وصفًا ثابتًا[2]. فالتَّعْبِيْرُ باسم الفاعل دلالةٌ على حدوث البُطْلانِ، وثبوتِه وصفًا ملازمًا لهم، وهو يناسِبُ لفظَ ﴿يَعْكُفُونَ﴾ في الآية السابقة، والذي يعني: الانقطاعَ إلى الأصْنَامِ التي يعبدونها مِن دونِ اللهِ، وملازمتُهم لها قوَّةُ عبادةٍ، وشدَّةُ اتِّصالٍ، ومبالغةٌ في الاتِّكال، ولذلك عَدَلَ إلى هذه الصِّيغةِ ها هنا بدلَ صيغةِ الفعل المَاضِي في قَوْلِه تعالى: ﴿فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾﴾ [الأعراف: 118]، التي تعني: تحقُّقَ الفعلِ، ووقوعَهُ دونَ معنى ملازمةِ الوصف.

التَّعْبِيرُ باسم الفاعلِ دلالةٌ على حُدوثِ البُطلانِ، وثُبوتِه وصْفًا مُلازمًا لهم

سِرُّ الجمْعِ بين المَاضِي والمُضَارِع:

وعبَّرَ بالفعل (كان) في الصِّلة للدَّلالةِ على التَّحقُّق، وأنَّ ذلك دأْبُهُم، أي: ﴿يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْۚ﴾. وأردفَهُ بخبر (كان) على صيغةِ المُضَارِع للدَّلالة على التَّجدُّدِ والتَّكرُّرِ، وجمع بين صيغتي المَاضِي، والمُضَارِع في قَوْلِه: ﴿مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ للدَّلالةِ على الاستمرارِ في الأزمنة المَاضِية، فالجمعُ بين صيغتي المَاضِي والمستقبلِ للدَّلالةِ على الاستمرارِ والتَّجدُّد، فضلًا عن أنَّ عدولَه في خبر كان من المَاضِي إلى المُضَارِع جاء لاسْتِحْضَارِ الصُّورة في ذِهْنِ المُخاطَبِ، والأصلُ: ما فعلوا[3].

التَّعْبِيرُ عن الاستِمرارِ والتَّجدُّدِ، باستِحضارِ الصُّورةِ في ذِهنِ المخاطَبِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/83.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/50.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/2662 - 67، والإندونيسّي، الشَّامل في بلاغة القرآن: 1/423.

ويُفسِّرُ هذا التَّأصيلُ ما حُرِّر من قصْدِيَّةِ اختيارِ لفظِ البُطلانِ بصيغة اسم الفاعل ﴿وَبَٰطِلٌ﴾، ومناسبتُه لما بعدَهُ؛ تحقيقًا لثبوتِه وصفًا، وملازمتِه إيَّاهم.

دَلالةُ زيادةِ التَّزكِيبِ في الآيةِ:

تقريرُ مضمونِ الآيةِ، مع التوبيخِ والتهديدِ، وتسجيلِ خَيْبتِهم الكُبرَى

قَوْلُهُ: ﴿وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ زيادةٌ بعد قَوْلِه: ﴿مُتَبَّرٞ مَّا هُمۡ فِيهِ﴾؛ لتقريرِ مضمونِها، ولتسجيلِ ذمِّ عملِهم، ونِداءً بخيبتهم، تأنيسًا للمسْلمين، وتهديدًا للمُشْركين، وللكافِرين أمثالها[1].وفيه إشارةٌ إلى أنَّ العِبَادَة لا تنبغي إلَّا للباقي سبحانه الذي لا يجوزُ عليه التَّغيُّرُ، فإذا كان كذلك، كان العملُ له أيضًا ثابتًا باقيًا لا يجوزُ عليه البُطلانُ، وفي تعقيبها لتَدْميرِ آلِ فرعونَ إشارةٌ إلى مُوجب ذلك، وأنَّ كلَّ من كان على مثلِ حالهم من عبادةِ غيرِ اللهِ كانت عاقبتُهُ الدَّمارَ[2].

وَجْهُ التَّعْبِيرِ عن إبطالِ فِعْلِهم بالمُطابقةِ واللُّزومِ:

تَدْميرُ فعْلِهم، تَدْميرٌ لهم، وسَحْقٌ لتأثيرِهم

قال ابنُ عرفةَ: "دلَّتِ الآيةُ على إبطال فِعلِهم، وهَلاكِه بالمطابقةِ، وعلى إبطالِ الفعل، وهَلاكِه باللُّزوم؛ لأنَّه إذا دمَّرَ فعْلَهُم؛ فقد دمَّرَهُم"[3].

اعتبارُ تناسُبِ الفاصِلَتَينِ:

التزامُ اللَّامِ قبلَ الواوِ، مِن مَواطنِ جَمالِ النَّظْمِ

وفي الفاصلةِ ﴿يَعۡمَلُونَ﴾ هنا، وفاصلةِ الآية الكريمة قبلَها ﴿تَجۡهَلُونَ﴾ التُزِمَت في هاتين الفاصلتين اللَّامُ قبل الواوِ[4]، وعُدَّ هذا الالتزامُ عند البلاغيين من محاسنِ الكلام؛ إذ خلا مِنَ التَّكلُّفِ المرهق، أو الإقحام المصطنع، والقرآن في أوج البلاغة، فلا يكون سياقه إلّا منسجمًا في ألفاظه وتراكيبه، وفي توزيعاته الصّوتيّة، وموسيقاهُ الدّاخليّة البديعة.

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/51.

(2) البقاعيّ، نظم الدُّرَر: 3/105.

(3) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/247.

(4) الإندونيسي، الشامل في بلاغة القرآن: 1/423 - 424، ومطلوب، معجم المصطلحات البلاغية، ص: 575 - 576.

﴿قَالَ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَبۡغِيكُمۡ إِلَٰهٗا وَهُوَ فَضَّلَكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٤٠﴾

[الأعراف: 140]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

العلاقةُ بين التّثبيرِ والبُطلانِ، وبين استِنكارِ موسَى طلبَ عِبادَةِ لغيرِ الرّحمانِ

الآيةُ الكريمةُ شروعٌ في بيانِ شؤونِ اللهِ تعالى الموجبةِ لتخصيصِ العِبَادَة بهِ تعالى بعد بيانِ أنَّ ما طلبوا عبادتَهُ ممَّا لا يمكن طلبُهُ أصلًا؛ لكونهِ هالكًا باطلًا،[1] فلمَّا أبلَغَهُم موسى عليه السلام أنَّ الأصْنَامَ الَّتي مرُّوا عليها لا تصلُح لأنْ تُعْبَدَ، كان ذلك غيرَ كافٍ لهم لِمَا تقرَّرَ من جهْلِهِم، فربَّما ظنُّوا أنَّ غيرَها ممَّا سوى اللهِ تجوزُ عبادتُه، فكأنَّ ما قال لا يكفي جوابًا لمثلِ هؤلاءِ، فاستدركَ مُنكِرًا متعجِّبًا مِن أنْ يتألَّهَ غيرُهُ بقَوْلِهِ: ﴿أَغَيۡرَ ٱللَّهِ﴾[2]، مذكِّرًا إيَّاهم بانفرادِهِ سبحانه بإنشائِهِم وإبداعِهم[3].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَبۡغِيكُمۡ﴾: (بغي) أصلان: أحدُهما: طلبُ الشَّيءِ، ومنهُ: بغيتُ الشَّيءَ أبغيهِ؛ إذا طلبْتُه، ويقال: بغيتُك الشَّيءَ؛ إذا طلبتُه لك، وأبغيْتُك الشَّيء؛ إذا أعنْتُك على طَلَبِهِ[4]، ومَن قَالَ: أَبْغني كَذَا وَكَذَا، فمعناهُ أَعِنِّي عَلَى بُغائِهِ، واطلبْهُ معي[5].

وبغيتَ الشَّيء؛ إذا طلبتَ أكثرَ ما يجبُ[6]؛ لأنَّ محورَ معناهُ: تزايدُ الشَّيءِ نموًّا وقوَّةً، أو توصُّلًا لاكتمالِ حالِهِ، ومن التَّزايدِ اتِّجاهًا

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/268.
(2) البقاعي، نظم الدُّرَر: 3/105.
(3) القشيري، لطائف الإشارات: 1/562.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن سيده، المحكم: (بغي).
(5) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (بغي).
(6) الرّاغب، المفردات: (بغي).

وتهيُّؤًا لاكتمالِ الحالِ جاء معنى الطَّلب؛ لأنَّه ازدياد[1]. وبذا فمعنى اللَّفظةِ في الآيةِ الكريمة: أُعينكم عَلَى طلبِ إلهٍ، وأطلبُهُ معكم، وقد فُسِّر بـ: أَسوَى اللهِ ألتمسُكم إلهًا، وأجعلُ لكم معبودًا تعبدونَه[2]؟

❁ المَعْنى الإِجْمالِيُّ:

دَعـــوةُ مـوسَى قومَهُ إلى عبادةِ المُنْعِمِ المُتَفضِّلِ، لأنّـه لا معبودَ سِواه يُؤَمَّلُ

قال موسى عليه السلام لقومه: أَسِوَى اللهِ المستحقِّ للعبادةِ ألتَمِسُكم إلهًا، وأطلبُ لكم معبودًا تعبدونَه؟ وهو خالقكم، ومختصُّكم بالنِّعَم، والآيات البَاهرة التي لم يُعْطِها أحدًا غيركم، ومفضِّلُكم على عالَمِي دهْرِكم وزمانِكم بما جدَّد فيكم مِنَ التَّوحيد وهداية الدِّين، على ملَّة إبراهيمَ، وسنَّةِ المرسلين إنَّ هذا منكم لجهلٌ![3] فليس الإلهُ شيئًا يُطلبُ، ويُلتمسُ، ويُتَخيَّرُ، بل الإلهُ هو القادرُ على الإنعام والإفضالِ، فهو الذي يستحقُّ أن يُعبدَ، ويُطاعَ لا غيرُهُ[4].

وترشِدُ الآيةُ الكريمةُ إلى التَّنبيهِ على سوءِ معاملةِ مَنْ يقابلُ تخصيصَ اللهِ إيَّاه مِن أمثالِهِ بالفَضْلِ بأنْ يَقْصِدَ أنْ يُشْرِكَ بهِ أخسَّ شيءٍ مِن مخلوقاتِهِ[5]. وذلك مِن أماراتِ الجَهل، وانخرامِ عُرى المروءةِ بكفرانِ فَضلِ المُنْعِم، وجحودِ نِعَمِ الجوادِ، وإنكارِ إحسانِ المُنقِذِ مِنَ الزَّيغِ، والضَّلالِ.

وفيها إظهارٌ لغَضب موسى عليه السلام للّه، إذ كيف نسِيَ قومُه نعمةَ اللهِ عليهم، وهي حاضِرةٌ يُعاينونها، وعلى ذلك ينبغي أن تكون غَيْرَةُ العَبْدِ على رَبِّهِ، وخالقِهِ، والمتصرِّفِ بأحوالِهِ.

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (بغي).
(2) ابن جرير، جامع البيان: 13/84.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 13/84.
(4) الخازن، لباب التّأويل: 2/243.
(5) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/32.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

سِرُّ تَكْرارِ فِعْلِ القَوْلِ، مَع ترْكِ العَطْفِ:

ما بَيْن المقالَتَيْن بَونٌ، والغايةُ الاهتمامُ بالخبرِ، إيذانًا بتَغيُّرِ الخِطابِ

أعادَ لفظَ ﴿قَالَ﴾ مستأنِفًا في حكاية تكْمِلَةِ جواب موسى عليه السلام بقَوْله: ﴿قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا﴾ بعد قَوْله: ﴿قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾؛ لما بين المقالتَين مِنَ البَوْنِ والاختلافِ، فالأوَّلُ: راجِعٌ إلى مجرَّدِ الإخبارِ ببُطلان عبادةِ الأصْنَام في ذاته، والثَّاني: راجِعٌ إلى الاسْتِدْلال على بُطْلانه[1]. فتوجيهُ إعادةِ فِعْلِ القَوْلِ، وكونِه مستأنفًا: إنَّه استئنافٌ ابتدائيٌّ للاهتمام بالخبرِ؛ إيذانًا بتغيُّر الخطاب بأنْ يكون بين الخِطابَين تخالفٌ ما[2]. وحدَّدَ في هذه الآيةِ مَنِ المطلوبُ منهُ جَعْلُ الإلهِ لهم، وهو: موسى عليه السلام بقَوْله: ﴿أَبْغِيكُمْ﴾، والمطلوبُ لأجلِه هذا الجَعْل، وهو اللهُ تعالى وهو قَوْله: ﴿إِلَٰهًا﴾ وموسى على الحَقِّ، واللهُ تعالى هو الحَقُّ، وهو الَّذي يحقُّ الحَقَّ، وبين هذين الحَقَّيْن وذَيْنَكَ البَاطِلَيْن غايةُ المباينَةِ، فلذلك كان هذا جوابًا مستقلًّا مباينًا لما قبلَهُ، بحيثُ لا ينبغي أنْ يُعطَفَ عليه عطفًا، ولا أنْ يُعَدَّ معه عَدًّا، ولهذا أعادَ فيهِ كلمةَ: ﴿قَالَ﴾[3]. والآيةُ الكريمةُ شروعٌ في بيانِ شؤونِ اللهِ تعالى الموجبةِ لتخصيصِ العِبَادَةِ بهِ تعالى بعدَ بيانِ أن ما طلبوا عبادتَهُ مما لا يمكنُ طلبُهُ أصلًا؛ لكونه هالكًا باطلًا، ولذلك وسَّط بينَهما: ﴿قَالَ﴾ مع كونِ كلٍّ منهما كلامَ موسى عليه الصَّلَاة والسَّلَام[4].

إذا طالَ المقُولُ، أُعيدَ فعْلُ القولِ، في حكايةِ الأقوالِ:

الانتقالُ مِنَ التَّوبيخِ على سؤالِهم، إلى التَّذْكيرِ بنِعْمةِ اللهِ عليهم

يُعادُ فِعلُ القَوْلِ ﴿قَالَ﴾ في حكاية الأقوالِ إذا طالَ المقُول، أو لأنَّهُ

(1) وهذا التوجيه نقله محمد الطاهر بن عاشور عن ابن عرفة التونسي في (إملاءات التفسير) التي كان يلقيها على طلابه، وهو في تفسيره: 2/247، مع اختلاف في النقل. ينظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير: 8ب/69.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 8ب/70.

(3) محمد رضا، تفسير المنار: 9/100.

(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/268.

انتقالٌ مِن غرضِ التَّوبيخِ على سؤالهم إلى غرضِ التَّذكيرِ بنعمةِ اللّه عليهم، وأنَّ شكرَ النِّعْمَةِ يقتضي زجْرَهُم عن محاولة عبادةِ غيرِ المنعِم، وهو مِنَ الارتقاءِ في الاستدلال على طريقةِ التَّسليمِ الجدلي، أي: لو لم تكن تلك الآلهةُ باطلًا؛ لكان في اشتغالِكم بعبادتِهَا، والإعراضِ عن الإله الذي أنعمَ عليكم كفرانٌ للنِّعمةِ، ونداءٌ على الحماقةِ، وتنزُّهٌ عن أنْ يُشاركَهم في حماقتِهم[1].

نُكتةُ الإيغالِ في التَّنْكِيرِ والتَّعْرِيفِ:

نَفْيُ الألوهيَّةِ عن كلِّ ما في الوجودِ، إلّا ذاتَ اللهِ الواجبَ الوُجودِ

﴿أَغَيْرَ﴾ وصفيَّةٌ للمغايرةِ، وهي مِنَ الأسماءِ الموغلةِ في التَّنْكِيْر، وفي استعمالها قصدٌ إلى استغراقِ جميعِ موجوداتِ الكونِ، وتعريفُها بالعَلَم المتفرِّد في اللَّفظِ والتَّعْرِيْف: ﴿ٱللَّهِ﴾ نفيٌ للألوهيَّةِ عن كلِّ ما في الوجود إلَّا ذاتُه ﷻ فهو الموصوفُ المتفرِّدُ بهذه الصِّفةِ، والتَّعْبِيْرُ باللَّفظ الموغلِ في التَّنْكِيْر في مقامِ الذَّاتِ الإلهيَّة، لا يناسِبُه إلَّا التَّعْرِيْفُ بأبينِ لفظٍ، وأبْلَغِه دلالةً على العَلَمِيَّةِ على الإطْلاق.

ولفظُ الجلالةِ ﴿ٱللَّهِ﴾ اسمٌ عَلَمٌ للمعبودِ بحقٍّ، والواجبِ الوجود المستحقِّ للألوهيَّةِ، والتَّوحيد، ولجميعِ المحامدِ بذاتِه، وصفاتِه، وأفعالِه[2]. "فغيرُ اللّهِ أعمُّ الألفاظِ الدَّالَّةِ على المحدَثات، فهو يشمَلُ أخسَّ المخلوقاتِ، وأعْجَزها عنِ النَّفع والضُّرِّ كالأصْنَام، ويشمَلُ أفضلَها وأكملَها كالملائكة والنَّبيِّين عليهم السلام ليثبت أنَّه لا يوجدُ مخلوقٌ يستحقُّ العِبَادَةَ مع اللّهِ تعالى وإن علا قدْرُهُ، وعظُمَ أمرُهُ"[3].

غَرَضُ الاسْتِفهامِ في الآيةِ الكريمةِ:

إنكارُ طلَبِهم أنْ يجعلَ لهم إلهًا غيرَ اللهِ، وهم مغمُورُون في نِعَمِهِ وعَطاياه

قَوْلُه: ﴿أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا﴾ استفهامُ إنكارٍ، وتوْبيخٍ[4]،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8ب/70.
(2) قباوة، المفصّل، ص: 595.
(3) محمد رضا، تفسير المنار: 9/100.
(4) الواحديّ، التفسير الوسيط: 2/404، والقاسميّ، محاسن التّأويل: 5/176 - 177.

وتعجيبٍ من طِلْبَتِهِمْ - مع كونِهم مغمورين في نعمةِ اللّه - عبادَةَ غيرِ اللّهِ[1]، فأنكرَ متعجِّبًا أن يُتألَّهَ غيرُه[2]؛ إنَّ هذا أمرٌ شنيعٌ مُستنكَرٌ.

والخلاصةُ: أنَّ معنى الاستفهامِ أصَالةً في الآية الكريمة الإنكارُ، ويتولَّدُ عنه ما يُناسبُه من معانٍ ثانيةٍ مثلِ: التَّعْجيبِ، والتَّفْريعِ، والتَّجْهيلِ، فكان الاستئنافُ بالقول تفخيمًا لشأن الإنكارِ فيها، وهو استقباحُ اتِّخاذ غيرِ اللّهِ معبودًا مع اللّهِ، أو مخصوصًا بالعِبَادَة[3]، مُشْرَبًا بالمعاني الأُخَرِ تعجُّبًا مِن ابتغائهم معبودًا سوى اللّهِ - تعالى - الذي غمرَهم بنِعَمِهِ، وأحاطَهم بألوانِ إحسانه[4].

بَلاغةُ تقديمِ المفعولِ، وإنكارِهِ بالهمْزةِ:

تقديمُ ﴿أَغَيْرَ ٱللَّهِ﴾ على ﴿أَبْغِيكُمْ﴾؛ لكونه جوابًا عن ندائِهم لموسى عليه السلام إلى عبادة آلهتِهم[5]، مِنَ الاختصاصِ بالنِّعْمَةِ الَّتي لم يُعْطِها أحدًا غيرَكم، لتختصُّوه بالعِبَادَة، ولا تشركوا به غيرَهُ[6]. وفيه نوعانِ مِنَ الاختصاص: أحدُهما: بأنَّه هو مَنْ فَعَلَ بكم ما فَعَلَ دونَ غيرِه، وهو مستفادٌ مِن تقديمِ الفاعلِ المعنوي ﴿وَهُوَ﴾ على الفعل في قَوْله: ﴿وَهُوَ فَضَّلَكُمْ﴾، والآخرُ: بتقديم المفعولِ الثَّاني وإنكارِه بالهمزةِ؛ لاختصاصِه بالعِبَادَة[7].

سَبَبُ الاخْتِصاصِ بالنِّعْمَةِ، تَخْصيصُه بالعِبَادَةِ، دونَ شِرْكٍ

وفي ذلك مبالغةٌ في الإنكارِ، أي: اختصاصُ الإنكارِ بابتغاءِ غَيْرِ اللّهِ إلهًا[8]. ومأخَذُ الاختصاصِ في الحالتين من قَصْرِ الصِّفَةِ على الموصوف بتقديمِ ما حقُّه التَّأخيرُ، من فاعل معنويٍّ، أو مفعولٍ.

(1) الزَّمخشريّ، الكشَّاف: 2/150.
(2) البقاعيّ، نَظْم الدُّرَر: 3/105.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/83، والمطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 1/404.
(4) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 5/367.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/157.
(6) الزَّمخشريّ، الكشَّاف: 2/150.
(7) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 6/545.
(8) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/83.

سِرُّ تأْخِيرِ لفْظِ ﴿أَبْغِيكُمْ﴾، في السِياقِ:

إعلامُ بني إسرائيلَ، أنَّ طلبَ هذا الأمْرِ، هو الإمْرُ

بعد أن قدَّم المقصودَ بالذَّاتِ منَ الإنكار، وهو جعلُ غيرِ اللّه إلهًا، ذكرَ من أرادوا أن يكونَ الواسطةَ في هذا الجَعْل الذي دعا إليه ذلك الجَهْلُ، وهو نفسُه عليه السلام بقَوْله: ﴿أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا﴾؛ ليُعْلِمَهُم أنَّ طلبَ هذا الأمْرِ: الإمْرُ[1].

سِرُّ التّدرّجِ في مراحلِ الجوابِ، عن قَوْلهم: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا﴾:

من وصَفَ وأنْكرَ وذَكّرَ، فقد أفادَ وأخبرَ، ثمّ أعْذرَ وأنْذرَ

ما أحسنَ ما خاطبَهم موسى عليه السلام وأجابهم! إذ بدأ: بالحُكم عليهم بالجَهْل، ثمَّ بالخُسْرانِ والهلاك، ثم بِبُطلان عملِهم، ثم بالاستفهامِ الدَّالِّ على الإنكارِ والتَّوبيخِ، والقَصْدُ: أنَّ الإلهَ ليس شيئًا يُطلب، ويُتَّخذ، ويُلتَمسُ، بل الإلهُ هو اللّهُ الَّذي يكون قادرًا على الإنعام بالإيجادِ وإعطاء الحياة، وجميع النِّعَم، فهذا هو الذي يجبُ على الخلقِ عبادتُه، فكيفَ يجوزُ العُدُولُ عن عبادتِهِ إلى عبادَةِ غيرِه[2]؟ وختَمَها بالتَّذكيرِ بإنقاذِهم مِن بلاءِ استعباد فرعونَ وآلِهِ في الآيةِ الآتيةِ.

معنَى اخْتِصاصِهم المعنويِّ بالتّفضيلِ في: ﴿فَضَّلَكُمْ﴾:

التَّنْبيهُ على سُوءِ مُعاملَتِهم؛ في مُقابلةِ تفضُّلِ اللّهِ عليهم، بعِبادتِهم سِواه

وفي اختصاصِ اللّهِ لبني إسرائيلَ بنِعَمٍ لم يُعْطِهَا غَيْرَهُم في قَوْل موسى لهم: ﴿وَهُوَ فَضَّلَكُمْ﴾ تنبيهٌ على سوء معاملتِهم؛ إذ قابلُوا تخْصيصَ اللّهِ إيَّاهم عن أمثالِهم بما لم يستحِقُّوهُ تفضُّلًا بأنْ قصدُوا أنْ يُشْركوا بهِ أخسَّ شيءٍ من مخلوقاتِه[3]، وهو الجَمادُ الَّذي لا حياةَ له، ولا عَقْلَ، ولا فؤادَ[4].

---

(1) محمد رضا، تفسير المنار: 9/100.

(2) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/183، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/378، وابن عادل، اللّباب: 9/296.

(3) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/32.

(4) القونويّ، حاشيَته على تفسير البيضاوي: 8/491.

دَلالةُ التَّعْبيرِ بالجُمْلَةِ الحاليَّةِ:

جملةُ: ﴿وَهُوَ فَضَّلَكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ في موضعِ الحال، وهي مقرِّرةٌ لوجهِ الإنكارِ، أي: والحالُ أنَّه تعالى خَصَّكم بِنِعَمٍ لم يُعطِها غيرَكم، وحين كان عاملُها محلَّ إنكارٍ باعتبارِ معمولِه، كانتِ الحالُ أيضًا داخلةً في حيِّزِ الإنكارِ، ومقرِّرةً لجهتِه، وظاهرُ صَوْغِ الكلامِ على هذا الأسلوبِ أنَّ تفضيلَهم على العالمين كان معلومًا عندهم؛ لأنَّ ذلك هو المناسبُ للإنكارِ، ويحتملُ أنَّه أراد إعلامهم بذلك، وأنَّه أمرٌ محقَّقٌ[1].

إنَّ تَفضِيلَهم كان معلومًا عندَهم، وهو المناسِبُ للإنكارِ

بَلاغةُ تقديمِ الضَّميرِ(هو)، والتَّخصيصُ بالفعْلِ الماضِي:

وحصرَ الأمرَ فيه، ثمَّ بيَّنَهُ بقَوْلِه: ﴿وَهُوَ﴾، أي: والحالُ أنَّه: هو وحدَهُ فضَّلَكم ﴿عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ دونَ غيرِكم ممَّن هو في زمانِكم أو قبلَه، أي: لو لم يكن لوجوبِ اختصاصِهم له بالعِبَادَة سَبَبٌ سوى اختصاصِه لهم بالتَّفضيلِ على سائرِ عبادِهِ الّذين بلَغَهُم عِلْمُهم، ممَّن هو أقوى منهم حالًا وأكثرُ عددًا وأمولًا؛ لكان كافيًا[2].

التَّفضيلُ منَ اللهِ، عَطاءٌ لا حدَّ لِمنْتهاه

ومجيءُ المسندِ فعليًّا؛ ليفيدَ تقديمُ المسندِ إليه ﴿وَهُوَ﴾، عليه تخصيصَه بذلك الخبرِ الفعليِّ، أي: ﴿وَهُوَ فَضَّلَكُمۡ﴾، ولم تفضِّلْكُمُ الأصْنَامُ، فكان الإنكارُ عليهم تَحْميقًا لهم في أنَّهم مغمورون في نعمةِ اللّهِ، ويطلبونَ عبادةَ ما لا يُنعِم[3].

ودلَّ التَّعبيرُ بالفعل الماضي ﴿فَضَّلَكُمۡ﴾ على تأكيدِ أنَّ اللّهَ - تعالى، - قد أنعمَ على بني إسرائيلَ بفضلٍ عظيمٍ، وأنَّ هذا الفضلَ قد حصلَ لهم بالفعل، وليس مجرَّدَ وعدٍ أو توقُّعٍ، والغرضُ من هذا التَّعبيرِ إثارةُ حسِّ الشُّكر والامتنان في قلوبِهم، ولتذكيرِهم بنعَمِهِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/84.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرَر: 3/105.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/84.

عليهم، ولحثِّهم على الطَّاعة والإيمانِ.ومناطُ التَّنبيهِ على سوءِ ما صنعوا؛ إذ قابلوا تخصيصَ اللّهِ تعالى إيَّاهم من بين أمثالِهم بما لم يستحقُّوه تفضُّلًا بالتَّفضيل؛ بأنْ قَصَدُوا أن يُشْرِكوا بهِ أحطَّ شَيءٍ من مخلوقاتِه، وأخسَّه؛ فجعلوهُ شريكًا لهُ تعالى[1]. وليسَ هذا فحسبُ، بل لأنَّ العِبَادَة لا يصحُّ أن تكونَ لغيرِ اللّهِ تعالى البتَّة، مهما يكنْ غيرُهُ مكرَّمًا عنده، ومفضَّلًا على كثيرٍ مِن خَلْقِه، على أنَّ طَلَبَ عبادةِ الأخسِّ دليلٌ على منتهى الخِسَّةِ والجَهْل؛ إذ لا شبهةَ تُوهِمُ قدرَتَه على الإثابةِ، أو التَّقريبِ مِنَ اللّهِ[2] ﷻ.

نُكْتَةُ اخْتِيارِ لفْظِ ﴿ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، في السّياقِ:

لفظُ العالَمِ يُرادُ بـه تخصيصُ زمانِهم، وتفضيلُهم على أُممِ عَصْرِهم

﴿ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ لفظٌ عامٌّ يُرادُ به تخصيصُ عالَمِ زمانِهم؛ لأنَّ أمَّةَ محمَّدٍ ﷺ أفضلُ منهم بإجماعٍ، ولقَوْلِه تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: 110]. اللّهمَّ إلا أنْ يُرادَ بالفضل كثرةُ الأنبياءِ منهم؛ فإنَّهم فُضِّلوا في ذلك على العالمينَ بالإطلاقِ[3].

وتفضيلُهم على أممِ عصرِهم؛ بأنَّهم ذُرِّيَّة رسولٍ، وأنبياء، وبأنَّ منهم رُسُلًا وأنبياءَ، وبأنَّ اللّه هداهُم إلى التَّوحيد، والخلاصُ من دينِ فرعونَ بعد أن تخبَّطوا فيه، وبأنَّه جعلَهم أحرارًا بعدَ أن كانوا عبيدًا، وساقَهم إلى امتلاكِ أرضٍ مباركةٍ، وأيَّدَهم بنصرِهِ وآياتِه، وبعثَ فيهم رسولًا؛ ليُقيمَ لهم الشَّريعةَ، وهذه الفضائلُ لم تَجْتَمِعْ لأمَّةٍ غيرِهم يومئذٍ، وإن كان غيرُهم فضَلَهم بسائرِ الخِصَال[4]. ويَحْتَمِلُ إرادةُ تفضيلِهم على العالمين مطلقًا، بكثرةِ الأنبياء والمرسلين منهم، والأوَّلُ أظْهرُ؛ لأنَّه ﷺ احتجَّ عليهم بما عرفوا، فيَبْعُدُ أن يُرادَ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/268، وابن عجيبة، البحر المديد: 2/254، والآلوسي، روح المعاني: 9/42.

(2) محمد رضا، تفسير المنار: 9/100.

(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/448.

(4) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/183، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 9/84.

به تفضيلُهم على القرونِ الأولى، وأقوامِ رسُلِهم وعلى مَن سيأتي بعدَهم، وحالُ كلٍّ منهما مجهولٌ عنده وعندَهم، فقد سَألَ فرعونُ موسى عن القرونِ الأولى، فقال: ﴿عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي﴾ [طه: 52]، والقرونُ الآخرةُ أولى بذلك، والدَّليلُ على أنَّ المرادَ بتفضيلِهم على العالمين ما ذكرنا أنَّه عَطَفَ عليهِ أعظمَ مظاهِرِه الحديثةِ العَهْد، بقَوْله: ﴿وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾[1].

سِرُّ التَّعْبِيرِ عَنِ العالَمِينَ بالكِنايةِ:

ومِن جملةِ العالمين: هؤلاءِ القومُ الذين أتَوْا عليهم، وذلك كنايةٌ عن إنكارِ طَلَبِهم اتِّخاذَ أصنامٍ مثلِهم؛ لأنَّ شأنَ الفاضلِ ألَّا يُقلِّد المفضولَ؛ ولأنَّ اقتباسَ أحوالِ غيرِه يتضمَّنُ اعترافًا منهُ بأنَّ غيرَه أرجحُ رأيًا، وأحسنُ حالًا في تلك النَّاحيةِ[2].

شأنُ الفاضِلِ ألَّا يُقلِّدَ المفضولَ، إذْ لا يَستويانِ مثلًا

(1) محمد رضا، تفسير المنار: 9/101.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 9/84.

﴿وَإِذۡ أَنجَيۡنَٰكُم مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ يَسُومُونَكُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبۡنَآءَكُمۡ وَيَسۡتَحۡيُونَ نِسَآءَكُمۡۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَظِيمٞ ١٤١﴾ [الأعراف: 141]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

رَبْطُ نِعمةِ اللهِ في التّفضيل، بإنْجائِهم مِنَ العذابِ والتّنكيلِ والتّقتيلِ

أرادَ تعالى أن يذكِّرَهم بقمَّةِ التَّفضيلِ عليهم[1]، بذكرِ مظاهِرِه الحَديثةِ العَهْدِ، وهو الإنجاءُ منَ البَلاءِ العظيمِ[2]. فذكرَ معنى النَّجاةِ مُفصِّلًا كيفيَّتَهُ تعدادًا لنعمةِ النَّجاة التي هي تلْوُ رحمةِ الإنعامِ الَّتي هي تِلْوُ رفعةِ التَّقدُّمِ بالعهدِ، وذلك منتهى الخِطاب في المعنى، يعني: فلمَّا قرَّرهم تعالى على ما اقترفوهُ قبلَ موسى عليه السلام حين أصابَهم مِن آل فرعونَ ما أصابَهم؛ استجدَّ لهم تذكيرًا بنعمةِ نجاةٍ مِن عقوبةِ مُتقدِّمِ أعمالِهم[3].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَسُومُونَكُمۡ﴾ (سوم) أصلٌ يدلُّ على طلبِ الشَّيءِ.[4] والسَّوْمُ: أنْ تُجَشِّمَ إنسانًا مَشَقَّةً، أو شَرًّا[5]، أَو سوءًا، أَو ظُلْمًا، قَالَ أهلُ اللُّغَة: مَعْنَى ﴿يَسُومُونَكُمۡ﴾: يُولُونَكم سُوءَ الْعَذَابِ، أَي: شديدَ العذَابِ، ويريدُونكم بِهِ[6]. وسامَهُ ذُلًّا: أذاقَهُ[7]. وأكثرُ ما يُسْتَعْمل في العَذَابِ، والشَّرِّ، والظُّلْمِ[8]. أو أنَّ معناها مُشتقٌّ مِنَ السَّومِ، يُقَالُ:

(1) الشَّعراوي، تفسير الشَّعراوي: 7/4333.
(2) محمد رضا، تفسير المنار: 9/101.
(3) البقاعي، نظم الدُّرَر: 1/130.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سوي).
(5) الخليل، العين: (سوي).
(6) الأزهري، تهذيب اللغة: (سوي).
(7) جبل، المعجم الاشتقاقي: (سوي).
(8) ابن سيده، المحكم: (سوي).

سُمْتُ فلانًا سِلْعَتي سَوْمًا: إذا قلتَ: أتأخُذُها بكَذا منَ الثَّمن؟ إذا كنتَ أَنْت تذكرُ ثمَنهَا[1]. أو مِن سومِ الإبلِ؛ إذا ذهبت، ومِن جِماعِ الدِّلالتَين يكونُ معنى السَّومِ: الذَّهابَ في ابتغاءِ الشَّيءِ، فهو لفظٌ لمعنًى مركَّبٍ مِنَ الذَّهابِ والابتغاء[2].

ومِن هنا يحتَمِلُ معنى اللَّفظةِ الاستغراقَ في ابتغاءِ الأذى، وذكرَ المفسِّرونَ معاني أخرى للَّفظةِ لا تخرجُ عن دائرة تأسيسِ اللُّغويين، من ذلك قَوْلهُم: "﴿يَسُومُونَكُمْ﴾ معناه: يحمِّلونَكم، ويكلِّفونَكم"[3]. و"يبغُونَكم أشَدَّ العذابِ وأفظعَه"[4]. وكلُّ ما وردَ مِن معانٍ للَّفظةِ عند اللُّغويِّين والمفسِّرين محتملةٌ في دلالتِها.

2) ﴿بَلَآءٌ﴾ أصلُهُ مِن بليَ الثَّوبُ، أي: خَلِقَ، ومنه قيل: بلوْتُهُ: اختبرْتُهُ كأنِّي أخلقْتُهُ مِن كثرةِ اختبارِي له[5]. وبُلِيَ الإنسانُ، وابْتُلي؛ إذا امْتُحِنَ، والبَلاءُ، في الخَيْرِ والشَّرِّ، والبَلْوَى: التَّجْربة[6]. وكأنَّما اختبرَت صبرَهُ، وتحمُّلَهُ الاحتباسَ والبقاءَ على وضعٍ شديدٍ[7]. والامتحانُ، والاختبارُ، والتَّجرِبَةُ بالخَيْرِ والشَّرِّ كلُّها معانٍ مرادةٌ في الآيةِ الكريمةِ.

المَعْنى الإجْماليُّ:

الآيةُ تذكيرٌ بنعمةِ اللهِ على بني إسرائيلَ، مِن إنقاذِهم مِن أسرِ فرعونَ وقَهْرِه، وما كانوا فيهِ مِن الهَوانِ والذِّلَّةِ، وما صاروا إليه مِنَ العزَّةِ والاشتفاءِ من عدوِّهِم، والنَّظرِ إليه في حال هوانِهِ وهلاكِهِ،

الإنجاءُ مِمّا سلّطَه عليهم آلُ فرعونَ من سُوءِ العذابِ، وألوانِ الاستئصالِ والإرهابِ

(1) الأزهري، تهذيب اللغة: (سوم).
(2) الرّاغب، المفردات: (سام).
(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/448.
(4) حقّي، روح البيان: 3/226.
(5) الرّاغب، المفردات: (بلى).
(6) الخليل، العين: (بلو).
(7) جبل، المعجم الاشتقاقي: (بلي).

وغرقِهِ، ودمارِهِ[1]. فاذْكُروا يا بني إسرائيلَ لتعتَبِروا، وتتَّعِظوا، وتشكروا اللّه على نعمِهِ، وقت أنْ أنجيناكم مِن آلِ فرعونَ الذين كانوا يعذِّبونكم أشقَّ العذابِ وأصعبَهُ، حيثُ كانوا يزهقونَ أرواحَ ذكورِكم، ويستبْقُون نفوسَ نسائِكم ليستخْدِمُوهنَّ، ويستذِلُّوهنَّ، وفي ذلِكم العذابُ، وفي النِّجاةِ منه امتحانٌ لكم؛ لتشكروا اللّه على نِعَمِهِ، ولتُقْلِعوا عن السَّيِّئاتِ الَّتي تؤدِّي بِكم إلى الإذلالِ في الدُّنيا، والعذابِ في الأخرى[2].

وتنبِّهُ الآيةُ الكريمةُ على أنَّ ما يُصيبُ العبدَ من خيرٍ أو شرٍّ في السرَّاءِ والضرَّاءِ من قبيلِ اختبارِ اللّهِ تعالى فعليهِ أن يشكرَ اللّه على المسارِّ، والصَّبرُ على المضارِّ، ليكونَ مِن خيرِ المختَبرين[3]. وترشدُ إلى فائدةِ التَّذكيرِ في مثل هذا الموضعِ بأنَّ مَن أنعمَ اللّهُ عليه بالنِّعَمِ العظيمةِ الظَّاهرةِ، وخصَّهُ بالأفضالِ المتعدِّدَةِ لا يَلِيقُ به الاشتغالُ بعبادةِ غيرِهِ[4].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

بَلاغةُ تَكرارِ الآيةِ، والتَّذكيرُ بالعذابِ دونَ النِّعْمَةِ:

التَّذكيرُ بالعذابِ، أوقعُ في النَّفْسِ، مِنَ التَّذْكيرِ بما أَنْعمَ الله

ثمَّ عدَّدَ عليهم النِّعَمَ الَّتي يجبُ مِن أجلِها ألَّا يكفروا بهِ، ولا يرغبوا عبادةَ غيرِهِ[5]، وذكَّرهم سبحانه بنعمةِ إنجائِهم مِنَ العذابِ والتَّنكيلِ[6]. فالآيةُ وردت سابقًا في سورةِ البقرةِ، والفائدةُ في ذكرها في هذا الموضعِ كذلك: أنَّه تعالى هو الذي أنعمَ عليكم بهذه النِّعْمَةِ العظيمةِ، فكيف يَلِيقُ بِكم الاشتغالُ بعبادةِ غيرِهِ تعالى[7]. وذكَّرَهم

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 3/468.
(2) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 5/368.
(3) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 1/79، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 1/100.
(4) الخازن، لباب التّأويل: 2/244.
(5) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/448.
(6) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 5/367.
(7) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/184.

بالعذابِ والإنقاذِ منه، دونَ نعمةِ الإيمانِ، والإيراثِ؛ لأنَّ التَّذكيرَ بالعذابِ أوقعُ في النَّفس منَ التَّذكيرِ بالنِّعْمَة؛ لما لها مِن آثارٍ نفسيَّةٍ طويلةِ الأمدِ يصعُب نسيانُها، وعليه يكون الإنجاءُ منهُ أشَدَّ وقعًا على النَّفسِ، مِنَ الإنعامِ غيرِ المترتِّب على تلكمُ المقدِّماتِ.

نُكتةُ التَّعْبيرِ باسْمِ الزَّمانِ (إذ) مع تقْديرِ الفعْلِ:

تَذكيرُ الله تعالى بنِعْمتِهِ الباهرة، وحِكْمتِهِ القاهرةِ

و﴿وَإِذْ﴾ اسمُ زمانٍ، وهو مفعولٌ به لفعلٍ محذوفٍ ملاحظٌ في الكلامِ، تقديرهُ: اذكروا، أي: اذكروا وقتَ أن أنجيناكم من آلِ فرعونَ، كما هو في قَوْلِهِ تعالى: ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ﴾ [الأعراف: 86]، فهو هنا اسمُ زمانٍ غيرُ ظرفٍ لفعلٍ، ولمَّا غلبَت إضافةُ أسماء الزَّمانِ إلى الجُمل، وكان معنى الجُمْلَةِ بعدَها في معنى المَصْدَر، كان التَّقديرُ: اذكروا وقتَ إنجائِنا إيَّاكم[1].

والمرادُ مِنَ التَّذكيرِ بالوقت تذكيرُهم بما وقعَ فيه مِن أحداثٍ[2]، أي: اذكروا صنيعَنا معكم في ذلك الوقتِ، وهو تذكيرٌ مِن جهتهِ تعالى بنعمته العظيمةِ[3].

فائِدةُ العُدولِ عنِ الإتيانِ بالمَصْدَرِ الصَّريحِ، إلى الإتيانِ بالفعْلِ:

الإتيانُ بـ(إذْ) المقتضيةِ للجُملةِ استحضارٌ للتَّكوين العَجيبِ المستفادِ من هيئةِ الفعْلِ

مجيءُ (إذ) المقتضيةِ للجملةِ استحضارٌ للتَّكوين العَجيبِ المستفادِ مِن هيئةِ الفعل؛ لأنَّ الذِّهْنَ إذا تصوَّرَ المَصْدَرَ لم يتصوَّرْ إلَّا معنى الحدثِ، وإذا سَمِعَ الجُمْلَةَ الدَّالةَ عليهِ؛ تصوَّرَ حدوثَ الفعلِ وفاعِلَهُ ومفعولَهُ ومتعلَّقاتِه دُفعةً واحدةً، فنشأتْ مِن ذلك صورةٌ عجيبةٌ، فَوِزانُ الإتيانِ بالمَصْدَر وِزَانُ الاستعارةِ المفردةِ، ووِزَانُ الإتيانِ بالفعل وِزَانُ الاستعارةِ التَّمثيليَّةِ[4].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/489، و9/84.
(2) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 5/367.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 9/42.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/489.

سِرُّ تعلُّقِ الإنْجاءِ بالمخاطَبين، ودَلالةُ المَجازِ العَقْليِّ:

ما يَثْبُتُ مِنَ الفَضائِلِ لآباءِ القبيلةِ، يَثْبُتُ لمن يَلِيهم مِنَ الذُّرِّيَّةِ

أَصلُ الإنجاءِ والنَّجاةِ الإلقاءُ على نَجْوَةٍ مِنَ الأرضِ، وهي المُرتفعُ مِنها لِيَسْلَمَ مِنَ الآفاتِ، ثمَّ أُطلِقَ الإنجاءُ على كلِّ فائزٍ وخارجٍ من ضيقٍ إلى سَعَةٍ، وإن لم يُلْقَ على نَجْوة[1]. والمجازُ العقليُّ بالإخبار عن الجماعةِ بما يخصُّ بعضَهم، حيثُ نجا مِن فرعونَ أسلافُهم[2].

وتعلَّقَ الإنجاءُ بالمخاطَبين؛ لأنَّ إنجاءَ سلفِهم إنجاءٌ لهم، فإنَّه لو أبقَى سلفَهم هنالك لَلَحِقَ المخاطَبين سوءُ العذابِ وتذبيحُ الأبناء، أو هو على حذْفِ مضافٍ، أي: أنجينا آباءَكم، أو هو تعبيرٌ عنِ الغائبِ بضميرِ الخِطاب، إمَّا لنكتةِ استحضارِ حالِه، وإمَّا لكونِ المخاطَبين مثالَهم وصورتَهم؛ فإنَّ ما يثبتُ مِنَ الفضائل لآباء القبيلةِ؛ يثبُتُ لأعقابهم، فالإتيانُ بضميرِ المخاطَب على خلاف مقتضى الظَّاهر على حدِّ ما يُقالُ في قَوْلِه تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ﴿١١﴾﴾ [الحاقة: 11]، فالخِطاب ليس بالْتفاتٍ؛ لأنَّ اعتبارَ أحوالِ القبائلِ يُعتَبر للخَلَف ما ثبَتَ منه للسَّلَف[3].

"فلذلك كانت منَّةُ النَّتيجةِ مِنَّتَين: منَّةً على السَّلف، ومنَّةً على الخلفِ، فوجبَ شكرُها على كلِّ جيلٍ منهم"[4]. فجازَ تعديةُ فِعلِ التَّنْجِيَة إلى المخاطَبين؛ لأنَّهم نجَوا بنجاة آبائِهم[5].

نُكْتَةُ العُدولِ مِن لفْظِ (نَجَّيناكُم)، إلى ﴿أَنجَيْنَٰكُم﴾:

الإنجاءُ التَّدارُكُ قبلَ وُقوعِ الهلاكِ، والتَّنْجيةُ التَّدارُكُ بعدَ وُقُوعِه

كلا اللَّفظين بمعنى التَّخليص مِنَ المهْلَكَة، لكن: معنى أَنْجَاهُ: أخلَصَهُ قبلَ وُقُوعِه في المهْلَكَة؛ ونجَّاه: أخلَصَهُ بعدَ الْوُقُوعِ[6]. والتَّعبيرُ الغالبُ في القرآنِ في مقامِ الامتنانِ على بني إسرائيلَ

(1) السّمين الحلبيّ، الدُّرُّ المصون: 1/341.
(2) الإندونيسّي، الشّامل في بلاغة القرآن: 1/32.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/493 - 494.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/489.
(5) الرّوينيّ، من غريب بلاغة القرآن، ص: 237.
(6) الكفويّ، الكليّات، ص: 201.

بتخليصِهم مِن بطْشِ فرعونَ هو لفظ: ﴿أَنجَيْنَٰكُم﴾، وجاءَ التَّعبيرُ بالفعلِ المضعَّفِ في موضعٍ واحدٍ هو قولهُ تعالى: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ [البقرة: 49].

وقرأ ابنُ عامر هنا في الأعراف: ﴿أَنجَىٰكُم﴾ - بألِفٍ بعد الجيم مِنْ غير ياءٍ، ولَا نُونٍ، وكذلك هُوَ في مَصَاحِفِ أَهْلِ الشَّام - ؛ على أنَّهُ من تتمَّةِ كلامِ موسى ﷺ كما يقتضيهِ السِّياقُ، والمعنى: آبتغي لكم إلهًا غيرَ اللّهِ في حالِ أنَّه فضَّلكم على العالمين، وفي زمانٍ أنجاكم فيه من آل فرعونَ بواسطتي؟ فابتغاءُ إلهٍ غيرِهِ كفرانٌ لنعمتِهِ، وضميرُ المتكلِّمِ المشاركُ (نا) على قراءةِ جمهورِ القرَّاءِ - بياءٍ ونون وألفٍ بعدها، وكذلك هو في مصاحفهم - يعودُ إلى اللّهِ وموسى، ومعادهُ يدلُّ عليه قَوْلُهُ: ﴿أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ﴾[1]، ويكونُ ملمَحُ التَّشريفِ لموسى ﷺ فيه ظاهرًا. ويجوزُ أن يكونَ هذا امتنانًا مِنَ اللّهِ اعترضَه بين القصَّةِ ووعدِ اللّهِ تعالى لموسى ﷺ انتقالًا مِنَ الخبرِ والعِبرةِ إلى النِّعْمَةِ والمنَّةِ، فيكونُ الضَّميرُ ضميرَ تعظيمٍ[2].

بيانُ المتشابِهِ اللَّفْظِيِّ، بين آيةِ الأعراف (141)، وآيةِ البقرة (49):

في الأعـــرافِ تفصيلٌ للصّراعِ مع آلِ فرعونَ، وفي الـبـقـرةِ إجـمـالٌ وتركيزٌ لوجوهِ الإنعامِ

جاء الفعل في الأعراف: ﴿أَنجَيْنَٰكُم﴾ غيرَ مضاعفٍ، لبيان تفصيل المواجهة والصّراع وأنواع العذاب الّتي سلّطها آل فرعون على بني إسرائيل وفي سورةِ البقرةِ لم يذكرْ سبحانه شيئًا مفصَّلًا مِن أحوالِ بني إسرائيلَ مع فرعونَ وآله، سوى الآيةِ المذكورةِ والَّتي تليها: ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَٰكُمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ۝﴾ [البقرة: 50]؛ لذا استعملَ في سورة البقرة (نجَّى) للتلبُّثِ والتمهُّل في التَّنجيةِ، وأمَّا سورةُ الأعرافِ ففيها تفصيلٌ في بيانِ معاناتِهم وأوضاعِهم، وحالاتِهم مع فرعونَ وقومِه ابتداءً مِنَ الآيةِ

(1) ابن الجزريّ، النّشر في القراءات العشر: 2/271، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/84 - 85.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/85.

الرَّابعةِ بعدَ المئةِ إلى الآيةِ الحاديةِ والأربعين، فقد ذكرَ مزيدًا من معاناةِ بني إسرائيلَ، وذكرَ حالةَ التوتُّر، والقلق، والأذى الذي استمرَّ واقعًا عليهم حتى قال بنو إسرائيل لموسى كما حكى القرآن عنهم: ﴿قَالُوٓاْ أُوذِينَا مِن قَبۡلِ أَن تَأۡتِيَنَا وَمِنۢ بَعۡدِ مَا جِئۡتَنَاۚ﴾ [الأعراف: 129].

إنَّ إطباقَ تلكَ الحالةِ الشَّديدةِ مِنَ الأذى والمعاناةِ مع تعنُّتِ فرعونَ، وآلهِ وجبروتِهم؛ كان أدعى في الإسراعِ في إنجاءِ بني إسرائيلَ؛ لذا جاءت صيغة الفعل في سورة الأعراف: (أنجى)، دونَ (نجَّى)[1].

وقد وردَ الفعلُ في سورة البقرةِ ﴿وَإِذۡ نَجَّيۡنَٰكُم مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ﴾ [البقرة: 49] مضعَّفًا، وعلى هذا جرى خِطابُ بني إسرائيلَ في سورة البقرة في أوَّلِ خطابٍ خُوطِبوا به، ودُعوا إلى عبادة اللّٰهِ وتصديقِ مَن قدَّم لهم في أمرِه، وأخذَ عَليهم العهدَ بالإيمانِ بهِ، فقالَ تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ﴾ [البقرة: 40] فأجملَ - النّظمُ القرآنيُّ - ثمَّ فصَّل، فذكرَ نجاتَهم مِن آل فرعونَ، وفَرْقَ البحرِ بهم، ونجاتَهم، وهلاكَ عدوِّهم بالغرقِ، ثم ذكرَ عفْوَهُ عنهم في عبادةِ العِجْل، وتوبتَه عليهم، وبعْثَهم من موتِهم عندَ طَلَبِهم الرُّؤيا، وتَظْليلَهُم بالغَمامِ إلى ما ذكرَ تعالى بعدَ هذا[2]. وناسبَ موضعَ البقرةِ التَّضعيفُ؛ لإثباتِه بالكثرةِ، ولو قيل هنا: ﴿وَإِذۡ أَنجَيۡنَٰكُم﴾، لما أنبأ بذلك، ولا ناسبَ المقصودَ ممَّا ذُكِرَ، وأيضًا فإنَّ التَّضعيفَ في: ﴿نَجَّيۡنَٰكُم﴾ يناسِبُ التَّضعيفَ الواردَ بعدَهُ في السُّورةِ نفسِها في قَوْله: ﴿يُذَبِّحُونَ﴾، ولم يكن لفظُ ﴿أَنجَيۡنَٰكُم﴾ مضاعفًا ليناسب[3].

دلالة كلمتي (نجّى) و(أنجى):

سَعةُ دلالةِ الألفاظِ، دَليلٌ على غِنَى المضمونِ القُرآنيِّ

ويحتملُ أيضًا من بابِ سَعة دلالةِ الألفاظِ ومعانيها أن تكونَ كلمةُ (نَجَّى) وقتَ نزولِ العذابِ، وكلمةُ (أنجى) يمنعُ عنهم العذابَ،

(1) الرّويني، من غريب بلاغة القرآن، ص: 238.
(2) ابن الزّبير، ملاك التّأويل: 1/33.
(3) ابن الزّبير، ملاك التّأويل: 1/33.

فالأولى للتَّخليص مِنَ العذابِ، والثَّانية يُبعِدُ عنهم عذابَ فرعونَ نهائيًّا، فَفَضْلُ اللّهِ عليهم كان على مرحلتَين: مرحلةِ أنَّه خلَّصهم من عذابٍ واقعٍ عليهم، والمرحلةِ الثَّانيةِ أنَّه أبعدَهم عن آلِ فرعونَ، فمنعَ عنهم العذابَ[1].

استعمال كلمتي (نجّى) و(أنجى):

يرِدُ كثيرًا في القرآنِ الكريم استعمالُ (نجَّى) للتلبُّث والتمهُّل في التَّنجيةِ، ويُستعملُ (أنجى) للإسراعِ فيها، فإنَّ (أنجى) أسرع من (نجَّى) في التَّخلُّص من الشِّدَّة والكربِ، والبناءُ اللُّغويُّ لكلٍّ منهما يدلُّ على ذلك، والفرقُ بين استعمال اللَّفظين في الآيتينِ الكريمتين أنَّه لمَّا كانت النَّجاةُ من البَحْر لم تستغرقْ وقتًا طويلًا ولا مكثًا؛ استعمل (أنجى)، بخلاف البقاءِ مع آل فرعونَ، فإنَّه استغرق وقتًا طويلًا ومُكثًا، فاستعملَ لَهُ (نجَّى)[2].

النّجاةُ منَ البحْرِ كانت سريعةً، ومن آلِ فرعونَ طالتْ بطُولِ المحنَةِ

دَلالةُ الالتفاتِ في تَعدُّدِ القراءاتِ:

قرأَ الجمهور: ﴿أَنجَيْنَٰكُم﴾ بياءٍ ونون وألف بعدها، وقرأه ابن عامر[3]: ﴿أَنجَىٰكُم﴾ بألفٍ بعد الجيم من غير ياء ولا نون، على إعادةِ الضَّمير إلى اللّهِ في قَوْله: ﴿أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا﴾ [الأعراف: 140]، فيكونُ مِن كلامِ موسى عليه السلام وقال بعضهم: إنَّه على قراءةِ الجمهورِ أيضا كذلك على أنَّ ضميرَ ﴿أَنجَيْنَٰكُم﴾ لموسى وأخيه هارون عليهما السلام أوْ لَهُمَا ولِمَنْ مَعهما، أو له وحدَهُ عليه السلام مشيرًا بالتَّعظيم إلى تعظيم أمرِ الإنجاءِ، أو إنَّه من كلامِ اللّهِ تعالى تتميمًا لكلام موسى عليه السلام كما في قَوْلِه تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا﴾ [طه: 53] بعد قَوْلِه سبحانه: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا﴾ [طه: 53]، وهو كالتَّفسيرِ لقَوْلِه سبحانه: ﴿وَهُوَ

احْتِمالاتُ الالْتِفاتِ بقدْرِ تلوُّنِ الضّمائرِ، وتنوُّعِ الصِّيغِ الصَّرفيّةِ

(1) الشَّعراويّ، تفسير الشَّعراويّ: 1/325.
(2) السّامرائي، بلاغة الكلمة في التّعبير القرآنّي، ص: 74.
(3) ابن الجزري، النشر: 2/306، ونقل ابن عطية في المحرر الوجيز: 2/448، رواية عن ابن عباس أنه قرأ: (وإذ أنجاكم)، وذكر أيضًا أنَّ ثمة فرقة قرأت: (نجيناكم).

﴿فَضَّلَكُمْ﴾[1]. ولهذا الالتفاتِ نظائرُ في التَّنزيلِ وفي كلام بُلغاءِ العرب، ومنه قَوْلُه تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ۝٥٣﴾ [طه: 53]، فأوَّلُ الآيةِ مِن قولِ موسى في جوابِ فرعونَ، وقَوْلُهُ: ﴿فَأَخْرَجْنَا﴾ التفاتٌ عن الحكايةِ، وانتقالٌ إلى كلامِه تعالى عن نفسِه خاطَبَ به من أنزلَ إليهم هذا الوحي من خلقِه، تنبيهًا لهم بتلوين الكلامِ، وبما في مخاطبةِ الرَّبِّ لهم كفاحًا مِن التَّأثير الخاصِّ إلى كونِه هو المُسْدِي لهذا الإنعام، ويَحْتَمِل أنَّ قراءةَ الالتفاتِ من جملةِ الحكايةِ عن موسى عليه السلام أسندَ الإنجاءَ فيها إلى اللّهِ تعالى مع حذْفِ القولِ للعلم بهِ مِنَ القرينةِ، أو بدونِه، أو إلى نفسِه وحدَهُ أو مع أخيهِ؛ للإشارة إلى جعلِه تعالى هذا الإنجاءَ بسببِ رسالتِهما وتأييدِهِ تعالى لهما بتلكَ الآياتِ[2].

الجمْعُ بين القراءَتَين إيجازٍ يظهر فيه الإعجاز:

الغَرَضُ مِن تذكيرِ النَّبيِّ محمَّدٍ ﷺ قومَ موسَى في زمنِهِ

ذُكِرَ أنَّ هذهِ الآيةَ خاطَبَ بها موسى من حضَرَهُ من بني إسرائيلَ، ويرى الطَّبريُّ أنَّ هذهِ الآيةَ خوطِبَ بِهَا اليهودُ الموجودونَ في زَمَنِ النَّبيِّ محمَّدٍ ﷺ تقريعًا لهم بما فعلَ بأوائِلِهم وبما جازوا بهِ[3]. فأفادتْ قراءةُ: ﴿أَنجَىٰكُم﴾ أنَّ موسى قالَها لقومه في ذلك الوقتِ، وأفادت قراءةُ الآخرين أنَّ محمدًا ﷺ ذكَّر بها قومَ موسى عليه السلام في زمنه، كما في سورة البقرة الآية [49]، وهذه فائدةُ الجمعِ بينَ القراءتَين، وهي مِن إعجازِ إيجازِ القرآنِ[4]، وذلك لِتَحْذيرِهم مِن معاندَتِهِ ﷺ والكفرِ به، ورفْضِ اتِّباعِ ما أنزلَ اللّهُ عليه، فهم أكثرُ

(1) الآلوسي، روح المعاني: 9/42.

(2) محمد رضا، تفسير المنار: 9/101، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 9/84.

(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/448.

(4) محمد رضا، تفسير المنار: 9/101. وذهب محمّد الطّاهر بن عاشور إلى أنَّ التّعريض بتذكير المشركين من العرب قد انتهى عند قوله: ﴿وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٤٠﴾ [الأعراف: 140]، وسورة الأعراف مكّيَّة، ولم يكن في المكّي من القرآن ما هو مجادلة مع اليهود، يُنظر: ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/84.

النَّاسِ معرفةً بسلطانِ اللّه وجبروتِه، وإمهالِه لعبادِه الجاحدين، ثمّ بطشِه بهم، فقد سُطِّر في كُتُبِهم ماضي قومِهم، وكيف نصرَهم اللّهُ ونبيّهم موسى عليه السلام وأهلكَ فرعون، وجنودَهُ.

عِلَّةُ نِسبةِ الإنجاءِ، في قوله: ﴿مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾:

التَّنبيهُ على أنَّ بِطانةَ فرعونَ، كانت عونًا له على عذابِ القومِ وإذْلالِهم

﴿مِّنْ﴾ لابتداء الغايةِ المكانيَّةِ، وأصلُ ﴿ءَالِ﴾ أهلٌ؛ لأنَّ تصغيرَهُ على "أُهَيْل"، وآلُ الرَّجل: أهلُه وخاصَّتُهُ وأتباعُه، وخصَّ بالإضافة إلى أولي الخَطَرِ كالأنبياء والملوكِ، وفرعونُ لقبٌ لمن مَلَكَ العمالقة، ككسرى وقيصر لِمَلِكَي الفرسِ والرُّوم[1].

وجُعِلتِ النَّجاةُ هنا من آل فرعونَ، ولم تُجْعَل منه، مع أنَّه هو الآمرُ بتعذيب بني إسرائيل، للتَّنبيه على أنَّ حاشيتَه وبطانتَهُ كانت عونًا له على إذاقتِهم سوءَ العذابِ، وفي إنزال ألوان الإذلالِ بهم[2]. ولتولِّيهم ذلك بأنفسِهم، وليُعْلِمَ تعالى أنَّ أعوانَ الظَّالمين مأخوذون بظلمِهم، وعونِهم للظَّالمين، وبأفعالِهم في المظلومين[3].

بَلاغةُ الاسْتِعارةِ في الآيةِ الكريمةِ:

المبالغةُ في شِدَّةِ العَذابِ باعتبارِه مُلازِمًا لهم

﴿يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾، أي: يلزمونهم بهِ، وهو التّوجيه الأوّل لمعنى الاستعارة، مِنَ السَّوْم في البيع، والشِّراء[4]. بإثباتِ معنى الإلزامِ غيرِ المتعارف عليه للفظِ ﴿يَسُومُونَكُمْ﴾، وتُوُصِّلَ إليه عن طريق الدَّلالة الإيحائيَّةِ للَّفظِ الّتي استُخْلِصت مِن طريق حركةِ الألفاظ، واستبدالُ ألفاظٍ بها أبلغُ وأكثرُ دلالةً على التَّعْبيرِ ضِمنَ الأسلوبِ الاستعاري، وغايةُ ذلك المبالغةُ في شدَّة العذابِ، بكونهِ ملازمًا لهم. والتّوجيه الثّاني، أنّ وجهَ الاستعارةِ الآخَرَ، يُلحظُ فيه الدَّوامُ، فسامَهُ ذُلًّا: أذاقَه. وهو مِن مجازِ الرَّعي، لمداومةِ الغنمِ

(1) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 1/79، وطنطاويّ، التّفسير الوسيط: 5/367.
(2) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 5/368.
(3) الرّويني، من غريب بلاغة القرآن، ص: 238.
(4) ابن جزيّ، التّسهيل لعلوم التنزيل: 1/83.

الرَّعيَ، فينبغي أنْ يُلحظ فيه الدَّوامُ كأنَّه غذاءٌ[1]، وكأنَّ العذابَ غِذاءٌ دائمٌ يُطْعِمُه فرعونُ وآلُه لبني إسرائيلَ[2].

تضمين اسْتِعمال الفعل (سَامَ) في معنى الإعطاء:

استعمال اللّفظ في معاني مختلفة، دليل على ثراء اللّفظ القرآنيّ وغناه الدّلاليّ

جملة: ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ حالٌ مِن آل فرعونَ يحصل بها بيانُ ما وقعَ الإنجاءُ منه، وهو العذابُ الشَّديد الّذي كان بنو إسرائيلَ يلاقونه من معاملةِ القِبطِ لهم، ومعنى ﴿يَسُومُونَكُمْ﴾ يعاملونكم معاملةَ المحقوقِ بما عُومِل به، يقال: سامَهُ خَسْفًا إذا أذلَّه، واحتقرَه، فاستعمل سامَ في معنى أنال، وأعْطى، ولذلك يُعدَّى إلى مفعولين ليس أصلُهما المبتدأَ والخبرَ[3].

وَجْهُ التَّضْمينِ في قولِه: ﴿يَسُومُونَكُمْ﴾:

المعنَى يطلُبونَكم مُكلِّفِينَكم سُوءَ العذابِ، وهو فعْلٌ عن ترصُّدٍ وقصْدٍ

فُسِّرت لفظةُ ﴿يَسُومُونَكُمْ﴾ بمعنى: يطلبونكم، لكنَّ الطَّلب متعدٍّ إلى واحد، فلا بُدَّ من تضمينِ فعل يتعدَّى إلى اثنين، وهو التَّكليف، أي: يطلبونكم مكلِّفين إيَّاكم سوءَ العذابِ[4].

دَلالةُ تَكرارِ حرفِ السِّين:

مُناسبةُ السّين لمقامِ التَّذكيرِ، والمؤاخذةِ بعد النِّعْمَةِ

تكرَّرَ حرفُ السِّين في قَوْلِه تعالى: ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾، وقَوْله: ﴿وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ﴾ أربعَ مرَّاتٍ، وحرفُ السِّينِ مِنَ الحروفِ الصَّامتةِ، والمستفلةِ، والمرقَّقة، وهو صوتٌ مهموسٌ وفيه صفيرٌ، ونلحظ تناسبًا لتكرارِه مع مقام التَّذكير، والمؤاخذةِ بعد النِّعْمَة، وتحديدًا في شأن استحياءِ النِّسَاء لما فيهِ مِن استثارةِ لغَيْرَة الرِّجَال، فعبَّر عنه بالصَّوتِ المرقَّقِ، المهموس مراعاةً لمشاعر النِّسَاء، ورجالهم، وإن كان تَكرارًا لقول فرعونَ في الآية [127].

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (سوم).
(2) الرّوينيّ، من غريب بلاغة القرآن، ص: 242.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/492.
(4) زاده، حاشية شيخ زاده: 4/286.

بَلاغةُ التَّعْبيرِ بالسُّوْءِ، على صِيغةِ التَّنْكيرِ والمصْدريَّةِ:

﴿سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ﴾ أشَدُّهُ وأفظَعُهُ، وهو عذاب التَّسخيرِ، والجَلْد، والإرهاق، والعملُ بالأشغال الشَّاقَّةِ، وتسليطُ العقاب الشَّديدِ بتذبيح الأبناءِ وسَبْيِ النِّسَاء، والمعنى: يذَبِّحون أبناءَ آبائِكم، ويستحيونَ نِساءَ قومِكم الأوَّلين[1]. فالسُّوْءُ كلُّ ما يُحْزِن الإنسان، ويغمُّه مِنَ الأمورِ الدُّنيويَّةِ، أو الأخروية[2]. ولذلك عبَّر عنهُ بالتَّنْكِيْرِ لِيَسْتَغْرِقَ كلَّ ذلك، وغيرَهُ - واللهُ أعلمُ - وهو صفةٌ أضافَها إلى موصوفِها العذابِ للمبالغة، ورسَّخ المبالغةَ، وأكَّدها مجيءُ هذ الصِّفة بصيغةِ مصدرٍ بمعنى الصِّفةِ المشبَّهةِ[3]، فالمَصْدَرُ أقوى في الدَّلالةِ على الحدثِ مِنَ الفِعلِ، ويناسِبُ ذلك مشهدُ التَّعذيبِ.

اسْتِغراقُ عُمومِ العذابِ، وتوكيدُ المبالغةِ في السِّياقِ

دَلالةُ أُسلوبِ الفصْلِ، في بيانِ أصنافِ العذابِ:

قولهُ: ﴿يُقَتِّلُونَ أَبۡنَآءَكُمۡ﴾ بيانٌ، جاء لإيضاح الجملة السّابقة، وهي قوله تعالى: ﴿يَسُومُونَكُمۡ﴾، ولذا تركَ العاطفَ[4]، وهو مصداقٌ للحُكم بحتميَّةِ الفَصلِ في حال كانتِ الجُمْلَةُ التاليةُ معطوفةً على الجُمْلَةِ السَّابقة عطفَ بيانٍ، فجملةُ: ﴿يُقَتِّلُونَ أَبۡنَآءَكُمۡ﴾ والَّتي بعدَها عطفُ بيانٍ لجملة: ﴿يَسُومُونَكُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ﴾، وهذا يكونُ حينما تكونُ الجُمْلَةُ السَّابقةُ ممَّا يُثير في نفسِ المتلقِّي سُؤالًا مقدَّرًا ذهنًا يتردَّدُ في نفسِه، وإنْ كان غيرَ مصرَّحٍ بهِ في اللَّفظ، فتأتي الجُمْلَةُ التاليةُ لتجيبَ عن هذا السُّؤالِ، وتأتي دونَ أن تُعطفَ بالواو، وعلى أسلوبِ الاستئنافِ.

جُملةُ (يُقَتِّلونَ أَبْناءَكُم) بيانٌ لسابقتِها، وبين الجملتَين شِبْهُ كمالِ الاتِّصالِ

دَلالةُ فعْلِ ﴿يُقَتِّلُونَ﴾ بالتَّشْديدِ، على معنى المبالغَةِ وشِدَّةِ الإجراءِ:

قرأ نافعٌ قولَه: ﴿يَقْتُلُونَ﴾ بفتحِ الياء، وإسكانِ القاف، وضمِّ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/492، والشَّعراويّ، تفسير الشَّعراويّ: 1/325.
(2) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 5/367.
(3) قباوة، المفصّل، ص: 596.
(4) النّسفيّ، مدارك التّنزيل: 1/88.

التَّاء من غيرِ تشديدٍ، وقرأ الباقون بضمِّ الياء، وفتحِ القاف، وكسرِ التَّاء مشدَّدةً[1]، على المبالغةِ في القتْلِ، وهي مبالغةُ كَثْرةٍ، واستيعابٍ، وتدريج، وتكرار متجدِّد، والمعنى: استمرارُهم على التَّعذيب، والتَّقطيع، والتَّقتيل ما تناسلوا[2]. أمَّا قراءةُ ﴿يَقْتُلُونَ﴾ بالتَّخفيف؛ ففيها إشارةٌ إلى سهولةِ تناولِ الفعل ومعالجتهِ دونَ مقاومةٍ من الذين وقع عليهم القتْلُ؛ لبَطْش آلِ فرعونَ، ولضَعْفِ بني إسرائيل[3].

المبالغةُ في القتْلِ مبالغةُ كَثْرةٍ واستيعابٍ، وتَدريجٍ وتجدُّدٍ

وبين القراءتين تَكامُلٌ في الدَّلالةِ عَلى الواقعِ، حيث إنّهم في أوَّلِ الأمرِ كانوا ﴿يُقَتِّلُونَ﴾ بشدَّةٍ وعُنفٍ، ثم برَدَتِ الحدَّةُ شيئًا فشيئًا، فصاروا ﴿يَقْتُلُونَ﴾، دون شدَّةٍ ولا عُنفٍ.

التَّعْبيرُ عنِ القتْلِ على طريقِ المجازِ المرسَلِ:

﴿يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ﴾ مجازٌ مُرْسَلٌ علاقتُه العمومُ؛ إذ إنَّهم قتلوا بعضَ الأبناءِ فقط، فهم لم يقتلوا الأصاغرَ، أو الأكابرَ[4]، على خلافٍ بحسَبِ ما سيأْتي.

القتلُ شمَلَ بعضَ الأبناءِ فقط، وليس شموليًّا

نُكتةُ التَّعْبيرِ بصِيغةِ الاسْتِفْعَالِ في: ﴿وَيَسْتَحْيُونَ﴾:

عبَّر عنِ الاستحياءِ بالمُضَارِع ﴿وَيَسْتَحْيُونَ﴾ على إرادةِ تجديدِ الفعل، وإدامتهِ، ومن ثمَّ ديمومةُ العقابِ، فالاستحياءُ: مبالغةٌ في الإحياء، فالسِّين والتَّاء فيه للمبالغةِ، وإخبارُهُ ملأَهُ باستحياء النِّسَاء، والغرضُ مِن استبقاءِ النِّسَاء على قيد الحياةِ أن يتَّخذوهُنَّ سراريَ وخدمًا[5].

إدامةُ الفِعْلِ، والمبالغةُ في الإحياءِ، عقوبةٌ لبنِي إسرائيلَ

فيكونُ فعلُ استحياءِ النِّسَاء عقوبةً لبني إسرائيل - مع أنَّه في ظاهرِهِ نِعْمةٌ لهم - لأنَّ إبقاءَ النِّسَاء أحياءً والتَّخلُّصَ مِنَ الرِّجال

(1) ابن الجزريّ، النّشر: 2/306.
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/441.
(3) الرّوينيّ، من غريب بلاغة القرآن، ص: 241.
(4) الإندونيسّي، الشّامل في بلاغة القرآن: 1/32.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/59.

كان المقصودُ منه الاعتداءَ على أعراضِهن، واستعمالهنَّ في شتَّى أنواع الخدمةِ والامتهانِ، وإذلالهنَّ بالاسترقاقِ، فبقاؤهُنَّ كذلك بقاءٌ ذليلٌ وعذابٌ أليمٌ، تأْباهُ النُّفوسُ الكريمةُ، والطِّباعُ الحُرَّةُ الأبيَّةُ[1].

سِرُّ تَقديمِ ﴿يُقَتِّلُونَ﴾ على ﴿وَيَسْتَحْيُونَ﴾، وتخصيصُه بالذُّكُورِ:

وقدَّمَ فعلَ التَّقْتيلِ على الاستحياءِ لأولويَّتِهِ، وأهمِّيَّتِهِ عندَ فرعونَ وقومِهِ بوصف الذُّكورِ مصدرَ الخطورةِ، ومنبعَ التَّهديدِ، ولذلك عدلَ إلى تخصيصِهم بالقتلِ وتقديمِهِ على استحياء النِّسَاءِ، فلذَبْحِ الذُّكُورِ دونَ الإناثِ مضرَّةٌ على بني إسرائيلَ من وجوهٍ؛ أوَّلُها: أنَّ ذَبْحَ الأبناءِ يقتضي فناءَ الرِّجَال، وذلك يقتضي انقطاعَ النَّسلِ؛ لأنَّ النِّسَاء إذا انفردْنَ؛ فلا تأثيرَ لهُنَّ ألبتَّةَ في ذلك، وذلك يفضي في آخِرِ الأمرِ إلى هلاكِ الرِّجَال والنِّسَاء. وثانيها: أنَّ هلاكَ الرِّجَال يقتضي فسادَ مصالحِ النِّسَاء في أمرِ المعيشةِ. وثالثها: أنَّ قتْلَ الولدِ عقيبَ الحمل الطَّويلِ، وتحمُّلِ الكدِّ، والرجاءِ القويِّ في الانتفاع بالمولودِ من أعظمِ العذابِ. ورابعُها: أنَّ الأبناءَ أحبُّ إلى الوالدين منَ البناتِ، ولذلك قال تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ۝٥٨ يَتَوَارَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ﴾ [النّحل: 58 - 59]. وخامسُها: أنَّ بقاءَ النِّسوان بدونِ الذُّكرانِ، يُوجِبُ صيرورتَهُنَّ مُسْتَفْرَشاتِ الأعداءِ، وذلك نهايةُ الذُّلِّ، والهوان[2]. ولذلك كان مِن أصْعب الأمورِ، وأشقِّها أنْ يُقْتَلَ الولدُ أمام أبويهِ اللَّذينِ كانا يتأمَّلان النَّسلَ منهُ[3]، زِدْ عليه أنَّ القتلَ كان شديدًا، ولذلك عُبِّرَ عنهُ في البقرةِ، بقَوْله: ﴿يُذَبِّحُونَ﴾، وذلكم أدعى إلى الأذى، والحزنِ.

الذُّكورُ مصدرُ خُطورةٍ على فرعونَ، فرأى أنّ منفعةَ قتْلِهم أظْهرُ

سِرُّ التَّعْبيرِ بلفْظِ (الأبْناءِ) دونَ (الرِّجَال):

رجَّحَ المفسِّرونَ أنَّ المرادَ بالأبناءِ هنا الأطفالُ لا البالغونَ؛ لأنَّ

(1) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 5/368.
(2) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 3/64، والقمَّاش، جامع لطائف التّفسير: 1/3613.
(3) الرّوينّي، من غريب بلاغة القرآن، ص: 237.

اللَّفظ من حيثُ وضعُه يفيدُ ذلك، ولأنَّ قتْلَ الرِّجَالِ لا يفيدُ فرعونَ وقومَه؛ إذ إنَّهم كانوا يستعملونَهم في الأعمال الشَّاقَّةِ والحَقِيرة، ولأنَّه لو كان المقصودُ بالذَّبْحِ الرِّجَالَ لمّا قامت أمُّ موسى بإلقائهِ في اليمِّ، وهو طفلٌ صغيرٌ لتنجِّيه مِنَ الذَّبْحِ. ويرى مفسِّرون آخرون أنَّ المرادَ بالأبناء الرِّجَالُ، لا الأطفال؛ لأنَّ لفظَ الأبناءِ هنا جُعِلَ في مقابَلةِ النِّسَاء، والنِّسَاءُ هن البالغاتُ، والرَّاجح - واللّٰه أعلم - القولُ الأوَّل لما ذُكِرَ، ولأنَّه أتمُّ في إظهارِ نعمةِ الإنجاءِ، حيثُ كان آلُ فرعونَ يُقَتِّلون الصِّغارَ قطعًا للنَّسلِ، ويسترقُّون الأمَّهاتِ استعبادًا لهن، ويبقون الرِّجَال للخدمة حتى ينقرضوا على سبيل التَّدرُّجِ، وبقاءُ الرِّجَال على هذه الحالة أشَدُّ عليهم مِنَ الموتِ[1].

لفظُ (الأبناءِ) أتمُّ في إظهارِ نِعْمةِ الإنجاءِ، ولأنَّ قتْلَهم يمنعُ من سيقتلُ فرعونَ من الفُرصةِ

بَلاغةُ المجازِ المرسَلِ:

إطلاقُ كلمةِ (النِّسَاء) في قَوْله: ﴿وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْۚ﴾ على المواليدِ مِنَ البَنَاتِ، هو مِنَ المجاز المرسلِ، باعتبار المآلِ، أو ما سيكونُنَّ عليه؛ فهو من إطلاق الشَّيءِ باعتبارِ ما سيؤولُ إليه[2].

مآلُ المواليدِ مِنَ البناتِ أن يَكنَّ نساءً

بيانُ مُتشابَهِ العطْفِ ومختَلَفِهِ، في السِّياقِ:

عُطِفَتِ جملة ﴿وَيُذَبِّحُونَ﴾ على جملة ﴿يَسُومُونَكُمْ﴾ في سورة [إبراهيم: 6] خلاف البقرة والأعراف؛ إذ فُصِلَت كلٌّ من جملة: ﴿يُذَبِّحُونَ﴾ في سورةِ البقرة، وجملة: ﴿يُقَتِّلُونَ﴾ في سورةِ الأعرافِ بدونِ عطفٍ بالواو، على أنَّهما بدلُ اشتمالٍ من جملة: ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ في كلٍّ مِنَ السُّورَتين، فكانَ مضمونُ جملة: ﴿وَيُذَبِّحُونَ﴾ في سورةِ إبراهيمَ بعطفِها بالواوِ مقصودًا بتَعدادِ صنوفِ العذابِ، كأنَّه صِنفٌ آخرُ مِنَ العذاب، وضربٌ آخرُ مِن المكارهِ غيرُ سوءِ العذابِ؛ اهتمامًا بشأنِه، فعَطْفُه مِن عطْفِ الخاصِّ على العامِّ.

مضمونُ (وَيُذَبِّحونَ) هنا، كأنَّه صِنفٌ آخرُ مِنَ العذابِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/492، وطنطاويّ، التّفسير الوسيط: 5/368.
(2) الرّويني، من غريب بلاغة القرآن، ص: 238.

والأصلُ في العطفِ أنَّه يقتضي المغايرةَ، وعلى كلا النَّظْمَين - في السُّورِ الثَّلاث - قد حصل الاهتمامُ بهذا العذابِ المخصوصِ بالذِّكر، فالقرآنُ حكى مرادَ كلام موسى عليه السلام مِن ذكرِ العذابِ الأعمِّ، وذكْرِ الأخصِّ للاهتمامِ به، وهو حاصلٌ على كلا النَّظْمَين، وإنَّما حكاهُ القرآنُ في كل موضعٍ من هذهِ السُّوَرِ الكريمةِ بطريقةٍ؛ تفنُّنًا في إعادة القِصَّةِ بحصول اختلافٍ في صورة النَّظم مع الحفاظِ على المعنى المحكيِّ، وهو ذكرُ ﴿سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ﴾ مُجملًا، وذكرُ أفظعِ أنواعهِ مُبَيَّنًا[1].وشبيه بهذا، ما ورد في قولِهِ تعالى في سورةِ إبراهيمَ: ﴿وَذَكِّرۡهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ﴾ [إبراهيم: 5]، وهي أوقاتُ عقوباتٍ، إلى أن قال: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٖ﴾ [إبراهيم: 5] واللَّائِق في السِّياقِ أن يعدِّدَ امتحانَهم تعديدًا، يؤذِنُ بِصِدْقِ الجمعِ عليهِ لتكثيرِ المنَّةِ، فعلَّةُ عدَمِ العطفِ بالواوِ في سورتَي البقرةِ، والأعرافِ كونُ المحكيِّ مِن كلامِ اللهِ -تعالى-، فلم يُرِد تَعدادَ المِحَنِ عليهم؛ رحمةً بِهِم ورأفةً، والَّذي في سورةِ إبراهيمَ مِن كلامِ موسى عليه السلام فعدَّدَ المِحَنَ عليهِم، لكونهِ مأمورًا بذلِكَ في قَوْلِهِ: ﴿وَذَكِّرۡهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِۚ﴾ [إبراهيم: 5][2].

وعليه فالإتيانُ بالعاطِفِ الظَّاهرِ في: ﴿وَيُذَبِّحُونَ﴾؛ ليؤذِنَ بأنَّ إسامتَهم العذابَ مغايرٌ لتذبيحِ الأبناءِ، وسبيِ النِّسَاء، وهو ما كانوا عليه من التَّسخير، بخلافِ المذكورِ في البقرةِ، والأعراف؛ فإنَّ ما بعدَ ﴿يَسُومُونَكُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ﴾ تفسيرٌ له، فلم يعطِفْ عليه بالواو[3]. فالتَّعذيبُ حاصلٌ عليهم بالذَّبحِ وبغير الذَّبح، أمَّا قَوْلُه: ﴿وَيُذَبِّحُونَ أَبۡنَآءَكُمۡ﴾، فهو جنسٌ آخرُ مِنَ العذابِ لا تفسيرٌ لما قبلَه[4].

نُكتةُ العُدولِ إلى الوصْلِ، في جُملةِ ﴿وَيَسۡتَحۡيُونَ نِسَآءَكُمۡۚ﴾:

والاستحياءُ استفعالٌ يدلُّ على الطَّلَبِ لِلحياةِ، أي: يبقونهنَّ أحياءً، أو يطلبونَ حياتَهنَّ، ووجْه ذكْرِه هنا في معرِض التَّذكيرِ بما نالهم مِنَ المصائِب أنَّ هذا الاستحياءَ للإناثِ، كان - ولك أن تجعلَ الجُمْلَةَ في موضعِ بدلِ بعضٍ مِن كلٍّ - تخصيصًا لأعظم أحوالِ سوءِ العذابِ بالذِّكر، وهذا هو الَّذي يطابِقُ آيةَ [إبراهيم: 6] الَّتي ذكرَ فيها ﴿وَيُذَبِّحُونَ أَبۡنَآءَكُمۡ﴾

(1) الخطيب الإسكافيّ، درّة التّنزيل: 1/224، وابن الزّبير، ملاك التّأويل: 1/35، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/1911.
(2) الخطيب الإسكافيّ، درّة التّنزيل: 1/226، والكرمانيّ، أسرار التّكرار في القرآن، ص: 27.
(3) الزّركشّي، البرهان في علوم القرآن: 1/120.
(4) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 1/267.

الكلامُ مُستأنَفٌ مِن جُملةِ البيانِ أوِ البدلِ، للعَذابِ

بالعطفِ بالواو على ﴿سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ﴾، وليس قَوْلُه: ﴿وَيَسۡتَحۡيُونَ﴾ مستأنفًا لإتمام تفصيلِ صنيعِ فرعونَ، بل هو من جملةِ البيان، أو البدلِ للعذابِ، ويدلُّ على ذلك قَوْلهُ تعالى مُخبِرًا عن صنيع فرعونَ: ﴿يُذَبِّحُ أَبۡنَآءَهُمۡ وَيَسۡتَحۡيِۦ نِسَآءَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ٤﴾ [القصص: 4]، فعقَّب فِعْلَي التَّذبيح والاستحياءِ بقَوْله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ٤﴾ [القصص: 4][1]. فعطْفُ جملةِ ﴿وَيَسۡتَحۡيُونَ نِسَآءَكُمۡۚ﴾ في آياتِ البقرةِ، والأعراف، وإبراهيمَ؛ لكونِ مضمونِهَا باستقلالِه لا يَصْلُحُ لبيانِ سوءِ العذابِ؛ لأنَّ استحياءَ النِّسَاء في ذاتِه نعمةٌ، ولكنَّه يصيرُ مِن العذابِ عندَ اقترانِه بتذبيحِ الأبناء، إذ يَعلمُ أنَّ مقصودَهم مِن استحياءِ النِّسَاء استرقاقُهنَّ وإهانَتُهنَّ، فصار الاستحياءُ بذلك القصدِ تهيئةً لتعذيبهنَّ، ولذلك سُمِّي جميعُ ما وقعَ عليهم بلاءً[2].

وَجْهُ التَّعْبيرِ عنِ القتْلِ والإحياءِ، عن طريقِ الطِّباقِ:

الإفصاحُ عن دَلالةِ الرَّبْطِ المؤدِّي إلى مَزيدِ إيضاحِ المعنَى

في قَوْلِه تعالى: ﴿يُقَتِّلُونَ أَبۡنَآءَكُمۡ﴾، وقَوْله: ﴿وَيَسۡتَحۡيُونَ نِسَآءَكُمۡۚ﴾ طباقُ إيجابٍ بينَ نقتِّلُ، ونستحيي، يُفصحُ عن دلالةِ الرَّبْطِ المؤدِّي إلى مزيدِ إيضاحٍ في المعنى وبيانِه، وقَوْلُه: ﴿سَنُقَتِّلُ أَبۡنَآءَهُمۡ وَنَسۡتَحۡيِۦ نِسَآءَهُمۡ﴾ بيَّنًا في الآية [127] من الأعرافِ أنَّه من الأسلوبِ الحكيم[3].

سِرُّ العُدولِ عَنِ المَاضِي إلى المُضَارِعِ، في فِعْلَيِ القَتْلِ والاسْتِحياءِ:

اسْتِشعارُ المنَّةِ العظيمةِ على بني إسرائيلَ، بما منّ عليهم منَ النّجاةِ

الفعلانِ: ﴿يُقَتِّلُونَ﴾، و﴿وَيَسۡتَحۡيُونَ﴾ قد وقعا وانتهيَا قبلَ نزولِ الآيةِ الكريمةِ مِن زَمَنٍ، والسِّرُّ في العدول إلى المُضَارِع فيهما؛ لتصوير تلك الوقائعِ والأحداثِ أمامَ المخاطَبين مِن بني إسرائيلَ، وكأنَّها تحدث الآن استشعارًا بالمنَّة العظيمةِ عليهم[4].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/4924 - 93.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/192.
(3) الطيبّي، فتوح الغيب: 6/521.
(4) الرّوينيّ، من غريب بلاغة القرآن، ص: 238.

دَلالةُ التَّعْبِيرِ باسْمِ الإشارةِ، في قولِهِ: ﴿ذَٰلِكُم﴾:

الإشارةُ إلى أنَّ البلاءَ أصْبحَ بَعيدًا عنهم، وأصبحُوا بمنأًى عنه تأنيسًا لهم

الواوُ مِن قولِه: ﴿وَفِي ذَٰلِكُم﴾ للحال والاقتران، و﴿وَفِي﴾ للظرفيَّةِ المكانيَّة، و(ذا) اسمُ إشارةٍ مبنيٌّ على السُّكونِ في محلِّ جرٍّ، حُذِفت ألفُه في الرَّسم اصطلاحًا، واللَّام: حرفٌ زائدٌ لتوكيدِ البُعْدِ مبالغةً في التَّفخيم، ودفعًا لِتَوَهُّمِ الإضافةِ، والكافُ: حرفُ خِطابٍ معَ البُعْدِ، والميمُ: حرفٌ لجمْعِ الذُّكُورِ يفيدُ التَّعظيمَ[1].

فأشارَ بأداة البُعْد مقرونةً بالكاف، والميم[2] إلى ما نزل بالمخاطَبين من سوءِ العذابِ (تقتيلًا، واستحياءً)، ويحتملُ أن يشيرَ بهِ إلى التَّنجية، فكأنَّه قال: وفي تنجيتِكم امتحانٌ لكم واختبارٌ، فهل يكونُ منكم وفاءٌ بحسب النِّعْمَة؟[3] أو الاثنين - العذابِ الواقع ونعمةِ الإنجاء - معًا، ويحتملُ التَّعْبِيْرُ باسم الإشارةِ الدَّالِّ على البُعْد، والمقرونِ بإشاراتِ التَّفخيم، والتَّعظيم أن يكونَ لعِظَم هذا البلاء، وأنَّه أصبح بعيدًا عنهم حقيقةً إذ ولَّى زمانُه، وأصبحوا بمنأًى عنه مجازًا بعدم تكرارِه، واستبدالِ بهِ النِّعَمِ تأنيسًا لهم، وبثًّا للطُّمأنينةِ في نفوسهم.

بَلاغةُ اخْتِيارِ لفْظِ (البلاء):

البلاءُ مَجازٌ مألوفٌ، وحقيقتُهُ المماثِلةُ ببلاءِ الثَّواب

يُطْلَقُ البلاءُ على كلٍّ مِنَ النِّعْمَة، أو المحنة[4]، وعلى الاختبارِ بالخيرِ والشَّرِّ؛ قال تعالى: ﴿وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [الأعراف: 168] وهو مجازٌ مشهورٌ حقيقتهُ بلاءُ الثَّواب - بفتح الباءِ مع المدِّ وبكسرِها مع القصر - وهو تخلُّقُه وترهُّلُه، ولمَّا كانَ الاختبارُ يُوجِبُ الضَّجرَ والتَّعب؛ سُمِّيَ بلاءً، كأنَّه يخلقُ النَّفس، ثم شاعَ في اختبار الشَّرِّ؛ لأنه أكثرُ إعْنَاتًا للنَّفْس، وأشهرُ استعمالِهِ إذا أُطلِقَ أن يكونَ

(1) قباوة، المفصّل، ص: 596.
(2) البقاعي، نظم الدُّرَر: 1/130.
(3) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/448.
(4) الزَّمخشري، الكشَّاف: 2/151.

للشَّرِّ، فإذا أرادوا بهِ الخيرَ؛ احتاجوا معَهُ إلى قرينةٍ، أو تصريحٍ كقولِ زُهيرٍ[1]:

جَزَى اللّهُ بِالإحْسَانِ مَا فَعَلا بِكُمْ *** فَأَبْلاَهُمَا خَيْرَ الْبَلاءِ الَّذي يَبْلُو

فيُطلق غالبًا على المصيبةِ التي تحلُّ بالعبدِ؛ لأنَّ بها يُختبَرُ مقدارُ الصَّبرِ والأناة، والمرادُ هنا المصيبةُ بدليلِ قَوْلِه: ﴿عَظِيمٌ﴾، وقيل: أرادَ بهِ الإنجاءَ والبلاءَ بمعنى: اختبارِ الشُّكْرِ[2].

بَلاغةُ الاسْتِعارة، في قَوْلِهِ: ﴿بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾:

ابتلاءُ الله اختبارٌ كاشفٌ للخبايَا الّتي لا يطّلِعُ عليها أحدٌ سِواه

إذ إنَّ أصلَ الابتلاء أنْ يُجرِّبَ المُبْتَلِي المُختَبَرَ؛ لِيَظْهَرَ خَيْرُهُ وشَرُّهُ للمُبتلِي، واللّه تعالى عالمٌ بكلِّ شيءٍ لا يحتاج إلى تجربتِه، ولكنَّه لمّا شابَهَتْ معاملتُه العبيدَ بالخيرِ، والشَّرِّ معاملَةَ مَن يختبِرُ غيرَهُ بالضَّرِّ، والنَّفع؛ استعارَ الابتلاءَ لهذهِ المعاملةِ[3].

بَلاغةُ أُسلوبِ اللّفِّ والنّشْرِ في السِّياقِ:

العذابُ والنّجاةُ، مُرتبِطان بقدَرِ الله وأحكامِه، في الإنعامِ والانْتقامِ

فإنَّ البلاءَ: النِّعْمَةُ على تقدير أنْ تكونَ الإشارةُ إلى الإنجاءِ، والمحنةُ على تقديرِ أنْ تكونَ الإشارةُ إلى العذاب[4].

دَلالةُ التَّعْبِيرِ بلفْظِ ﴿رَّبِّكُمْ﴾، مُضافًا إلى المخاطَبِ:

التَّعْبِيرُ بوصْفِ الرُّبوبيَّةِ، إيقاظٌ للأملِ في نفوسِ المُبْتَلِينَ

أضافَ الرَّبَّ إلى المخاطَب، والأصلُ إضافتُه إلى المتكلِّم، فيقال: ربي، أو ربنا؛ ليكون تشريفًا بنسبة ذلك العنوان العالي إليهم[5]، بما يشمَلَه مِن مَعْنى الكَلَأ، والرِّعايةِ، والحفظ، والحماية، والتَّدبير، لقد أرادَ اللّهُ تعالى أن يلقي في حسِّهم وحسِّ كلِّ من يلاقي شدَّةً أنَّ إصابةَ العِباد بالشِّدَّةِ هي امتحانٌ وبلاءٌ، واختبارٌ وفتنةٌ، وأنَّ

(1) ديوان زهير بن أبي سلمى، تح: علي حسين فاعور، ص: 86.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/493.
(3) الإندونيسّي، الشّامل في بلاغة القرآن: 1/32.
(4) زاده، حاشية شيخ زاده: 4/2862 - 87، واللّف والنّشر: "هو أن تلفَّ شيئين ثم ترمي بتفسيرهما جملةً ثقة بأنّ السامع يردُّ كل واحد منهما ما لَه" مطلوب، معجم المصطلحات البلاغيّة، ص: 526.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8ب/173.

الذي ينتبهُ لتلك الحَقيقةِ يفيدُ مِنَ الشِّدَّة، ويستنشقُ عبيرَ المِنْحَةِ في المِحْنَةِ، فيكونُ في التَّعْبِيْر بوصف الرُّبوبيَّةِ في هذا المقامِ إيقاظٌ للأمل في نفوسِ البائسين والمبتلين[1].

بَلاغةُ تَنْكيرِ لفْظَيْ ﴿بَلَآءٌ﴾، و﴿عَظِيمٌ﴾:

قولهُ: ﴿عَظِيمٌ﴾ صفةٌ لبلاءٍ، وتنكيرُ اللَّفظين دالٌّ على التَّفخيم، والتَّهْويلِ[2]، والعِظَم بالنِّسبةِ للمخاطَب والسَّامع، لا بالنِّسبةِ إليه ﷻ لأنَّه العظيمُ الذي لا يَستعظِم شيئًا[3]. وفيه إشعارٌ باستحقاقِهم ذلك، واستصلاحِهم بشدَّتِه دون ما هو أيْسرُ منه، وقَرْنُه بالعِظَم لشَياعِه في الأجسام والأنفسِ والأرواح[4].

التَّنكيرُ تفخيمٌ، وتهويلٌ، لِعِظَمِ العقابِ وقَسْوتِه

التَّعْبِيرُ عن حِجاجِ بنِي إسرائيلَ، بجِماعِ الحكْمةِ، وحُلَلِ البلاغةِ:

وبهذا تكونُ الآياتُ الكريمةُ قد ردَّت على بني إسرائيلَ - فيما طلبوا - أبلغَ ردٍّ وأحكمَهُ، ووصفتْهُم بما هم أهلُه مِن سوءِ تدبيرٍ، وسفاهَةِ تفكيرٍ، فقد بدأَت بإثباتِ جهلِهم بربِّهم وبأنفسِهم، حيث طلبوا إلى نبيِّهم أنْ يجعلَ لهم إلهًا، كما لغيرِهم آلهةٌ، ثم ثنَّتْ بإظهارِ فساد ما طلبوهُ في ذاتِه؛ لأنَّ مصيرَهُ إلى الزَّوال والهلاك، وما كان كذلك لا يصلحُ أن يكونَ إلهًا، ثمَّ بيَّنت بعد ذلك بأنَّ العِبَادَة لغيرِ اللّٰه لا تجوزُ بأيِّ حالٍ؛ لأنَّه هو وحدَهُ صاحبُ الخَلْقِ والأمر، ثم ذكَّرتهم في ختامِها بوجوهِ النِّعم الَّتي أسبغَها اللّٰهُ عليهم، لتُشْعِرَهُم بأنَّ ما طلبوه إلى نبيِّهم، هو من قبيل مقابَلةِ الإحسان بالجحودِ والنُّكرانِ، ولِتَحْمِلَهُم على أنْ يتدبَّرُوا أمرَهم، ويراجعوا أنفسَهم، ويتوبوا إلى خالقِهم توبةً صادقةً نصوحًا، إنْ كانوا ممَّن ينتفعُ بالعِظات، ويعتَبِرُ بالمَثُلات[5].

مـا طـلـبـوهُ من نَـبـيِّـهـم، هو مقابلةٌ للإحْسانِ بالنُّكرانِ

(1) الرّويني، من غريب بلاغة القرآن، ص: 242.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 1/100.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 1/254.
(4) البقاعيّ، نظم الدُّرَر: 1/130.
(5) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 5/368.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(يُذبِّح) و(يُقتِّل):

إحـــرازُ الإيـجـازِ في الـكـلِّ، وورَدَ عـلى مـا يـجـبُ ويُناسِبُ

وردت الأولى في سورة البقرة [49]، والثانية في سورة الأعراف [141]، والذَّبح مُنْبِئٌ عن صفةِ القتلِ وإزهاقِ الرُّوح، وأمَّا اسمُ القتلِ؛ فلا يُفهَمُ منه إلَّا إعدامُ الحياة، وقد يتناول غيرَ المقتولِ من بابِ التَّوسُّع في الإطلاق، فعبَّر أوَّلًا بما يوفي المقصودَ مِنَ الإخبار بصفةِ القتلِ مع إحرازِ الإيجازِ، إذ لو ذكر مطلقَ القتْلِ، وأتْبع الصِّفةَ لما كان إيجازًا، فعدلَ إلى ما يحصُلُ عنه المقصودُ مع إيجازٍ، فقالَ: ﴿يُذَبِّحُونَ﴾، وعبَّرَ في سورةِ الأعرافِ بالقَتْلِ؛ لأنَّه أوجزُ مِن لفظِ ﴿يُذَبِّحُونَ﴾ لأجل التَّضعيفِ؛ إذ لفظُ ﴿يُذَبِّحُونَ﴾ أثقلُ لتضعيفه، وقد حصلَت صِفةُ القتلِ في سورة البقرة، فأحرزَ الإيجازُ في الكلِّ، وجاءَ على ما يجبُ ويناسِبُ، واللّه أعلم[1]. وقيل: ليطابِقَ بينَ قولِه هنا: ﴿يُقَتِّلُونَ﴾، وقَوْلِه تعالى السَّابق في: ﴿سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ﴾ [الأعراف: 127][2].

(1) ابن الزّبير، ملاك التّأويل: 1/33.

(2) الزّركشّي، البرهان في علوم القرآن: 1/120.

﴿۞وَوَٰعَدۡنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيۡلَةٗ وَأَتۡمَمۡنَٰهَا بِعَشۡرٖ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرۡبَعِينَ لَيۡلَةٗۚ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخۡلُفۡنِي فِي قَوۡمِي وَأَصۡلِحۡ وَلَا تَتَّبِعۡ سَبِيلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ١٤٢﴾ [الأعراف: 142]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

العَلاقةُ بين الإنجاءِ مِنَ العذابِ والاستئصال، وظروفِ المواعَدةِ في الميقاتِ

في الآية الكريمة عودٌ إلى بقيَّة حوادثِ بني إسرائيل، بعد مجاوزتِهم البحرَ[1]، قال السَّعدي: "ولمَّا أتمَّ اللّه نعمتَهُ عليهم بالنَّجاة من عدوِّهم، وتمكينهِم في الأرض؛ أرادَ ﷻ أنْ يُتمَّ نعمته عليهم، بإنزال الكتاب الذي فيه الأحكامُ الشَّرعية، والعقائدُ المرضيَّة، فواعَدَ موسى عليه السلام"[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَوَٰعَدۡنَا﴾: (وعد) كَلِمَةٌ صَحِيحَةٌ تَدُلُّ عَلَى تَرْجِيَةٍ بِقَوْلٍ، يُقَالُ: وَعَدْتُهُ أَعِدُهُ وَعْدًا، وَيَكُونُ ذَلِكَ بِخَيْرٍ وَشَرٍّ[3]. وواعَدتَ زيدًا إذا وَعدك ووعدتَه، ووعدتَ زيدًا؛ إذا كَانَ الوَعْدُ مِنْك خاصَّةً، والمَوْعِد: العَهْد[4]. فـ ﴿وَوَٰعَدۡنَا﴾ يحتمل أن تكون بمعنى (وَعدْنا) من واحد، وأن تكونَ من اثنين على أصل المفاعَلة، ويكون قِسْطُ موسى في هذا الوعدِ بالمجيءِ للميقاتِ، أو القَبولِ، أو معاهدَتِه اللّهَ[5]، وواعدَ: كان أكثر وعدًا منه[6]، ولأنَّ العهدَ من معاني الوعد، قيل: معنى واعَده: عاهَدَهُ على أن يُوافيَه في موضعٍ، أو في وقت معيَّنٍ[7]، وهو معنى اللفظة في الآية الكريمة.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/85.
(2) السّعدي، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 302.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (وعد).
(4) الأزهري، تهذيب اللغة: (وعد).
(5) جبل، المعجم الاشتقاقي: (وعد).
(6) ابن منظور، لسان العرب: (وعد).
(7) أحمد مختار عمر، معجم اللغة العربية المعاصرة: (وعد).

2) ﴿مِيقَٰتُ﴾: (وقت) أَصْلٌ يَدُلُّ عَلَى حَدٍّ شَيْءٍ وَكُنْهِهِ فِي زَمَانٍ وَغَيْرِهِ[1]، ومِنْهُ الْوَقْتُ: وهو مقدارٌ من الزَّمَانِ معلومٌ، وكلُّ ما قدَّرت له غايةً، أو حينًا؛ فهو مُوَقَّتٌ، ووَقَتَ لَهُ كَذَا وَوَقَّتَهُ، أَيْ: حَدَّدَهُ. والمِيْقَات: مصدرُ الوقت، أو الْمَصِيرُ لِلْوَقْتِ، أو الوقتُ المضروب للشيء، والوعدُ الذي جُعِل له وقتٌ، وقد يقال للمكان الذي يُجعَل وقتًا للشيء، كميقات الحج[2]. والمِيْقَاتُ: ما قُدِّر لعمل، فهو أخصُّ من الوقت[3]. ومعنى المِيْقَات في الآية الكريمة: ما وقَّته له من الوقت لأداء عملٍ.

3) ﴿ٱخۡلُفۡنِي﴾: (خلف) أُصُولٌ ثَلَاثَةٌ: أَحَدُهَا أَنْ يَجِيءَ شَيْءٌ بَعْدَ شَيْءٍ يَقُومُ مَقَامَهُ، وَإِنَّمَا سُمِّيَتْ خِلَافَةً؛ لِأَنَّ الثَّانِي يَجِيءُ بَعْدَ الْأَوَّلِ قَائِمًا مَقَامَهُ[4]. ويُقالُ لِمَنْ خَلَفَ آخرَ، فَسَدَّ مَسَدَّهُ، وقام بالأمر عنه: خَلَفَ، والخِلافةُ النِّيابَةُ عن الآخرِ، إمَّا لغيبةِ المنُوبِ عنه، وإمَّا لموته؛ وإمَّا لعجزه؛ وإمَّا لتشريف المُسْتَخْلَفِ، وعلى هذا الوجه الأخير استخلفَ اللّٰهُ أولياءَه في الأرض[5]. وعليه أيضًا أخْلَفَ موسى هارونَ عليهما السلام وأنابَهُ مكانَهُ في غيبته، ووكَّل إليه ما وكَّلَ مِن مَهَامٍ[6].

المَعْنى الإِجْمالِيُّ:

أخبر تعالى بامتنانه على بني إسرائيلَ، بما حصل لهم من الهداية، بتكليمهِ موسى عليه السلام، وإعطائه التوراةَ، وفيها أحكامُ شرعه وتفاصيله، ويذكر تعالى أنَّه واعده ثلاثين لَيْلَةً، فصامها، فلمَّا تمَّ المِيْقَاتُ؛ استاك بلحاء شجرة، فأمره اللّٰه تعالى أن يكمِلَ بعشرٍ أربعين ليلةً[7].

مُواعدةُ اللهِ موسَى واستخلافُ هارونَ، لمناجاتِه وعوْدَتِه بالألواحِ التّي تضمّنتْ شريعَتَه

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (وقت).
(2) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات: (وقت).
(3) محمد رضا، تفسير المنار: 9/105.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (خلف).
(5) الرّاغب، المفردات: (خلف).
(6) تم تناول مادّة هذه اللّفظة في الآية الكريمة رقم: (129)، وعند شرح مفردة (الاستخلاف)، وأُعيد شرحها هنا بإيجاز لاختلاف صيغة اللّفظتين.
(7) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 3/468.

و لمَّا أراد الذَّهاب لميقات ربِّه؛ استخلفَ عليهم أخاه الكبير هارونَ عليه السلام للحُكم بينهم والإصلاحِ فيهم؛ إذ كانت الرِّياسةُ فيهم لموسى، وكان هارونُ وزيرَهُ ونصيرَهُ ومساعدَهُ، كما سألَ ربَّه بقَوْله: ﴿وَٱجۡعَل لِّي وَزِيرٗا مِّنۡ أَهۡلِي ٢٩ هَٰرُونَ أَخِي ٣٠ ٱشۡدُدۡ بِهِۦٓ أَزۡرِي ٣١ وَأَشۡرِكۡهُ فِيٓ أَمۡرِي ٣٢﴾ [طه: 29 - 32]، وأوصاه بالإصلاح فيهم وفيما بينهم، ونهاه عنِ اتِّباع سبيل المُفْسِدين في الأرض، الذي يشمَلُ مشاركتَهم في أعمالهم، ومساعدتَهم عليها، ومعاشرتَهم والإقامةَ معهم في حال اقترافها، ولو بعد العجز[1].

وترشدُ الآيةُ الكريمة إلى جواز النَّهي عن شيءٍ يعلمُ أنَّه لا يفعلُه، ويأمرُه بما يعلمُ أنَّه سيفعلُه، عظةً له، واعتبارًا لغيره، وتأكيدًا ومصلحةً للجميع[2].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

سِرُّ الوصْلِ دونَ الفصْل، في السِّياقِ الحكيم:

الواو عاطفةٌ لمطلق الجمع، والجُمْلَةُ عطفٌ على جملة: ﴿وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ﴾[3]؛ لأنَّه عودٌ إلى بقيَّة حوادث بني إسرائيل، بعد مجاوزتهم البَحْرَ.

العَوْدُ إلى بقيَّةِ حوادثِ بني إسرائيلَ، بعْدَ مُجاوزَتِهم البحْرَ

نُكْتَةُ التَّعْبيرِ بلفظِ ﴿وَوَٰعَدۡنَا﴾:

والزِّيادة في الفعل بصيغة فاعَلَ للمبالغة في المواعدة[4]، قال الزجَّاجُ: "وواعدنا هنا جيدٌ بالغٌ؛ لأنَّ الطَّاعةَ في القَبول بمنزلةِ المواعدة، فهو من الله ﷻ وعدٌ ومن موسى قَبول واتِّبَاعٌ، فجرى مجرى المواعدة"[5]، وعبَّر عنه بصيغة المَاضِي للدلالة على تحقُّقِ وقُوعِهِ.

ما هو منَ اللَّه ﷻ وَعْدٌ، هو من موسَى قَبولٌ واتِّبَاعٌ

(1) محمد رضا، تفسير المنار: 9/106.
(2) القاسميّ، محاسن التّأويل: 5/178.
(3) محمد رضا، تفسير المنار: 9/105.
(4) قباوة، المفصّل، ص: 596.
(5) الزّجاج، معاني القرآن وإعرابه: 1/133.

دلالة تَعدُّدِ وُجوهِ القراءةِ، في قوله: ﴿وَوَاعَدْنَا﴾:

المواعدةُ مُفاعَلةٌ، ولابدَّ من طرفَيْنِ لِحُصولِها

قرأ الجمهور: ﴿وَوَاعَدْنَا﴾ بألف بعد الواو، وقرأ أبو عمرو، ويعقوب: ﴿وَوَعَدْنَا﴾ بحذف الألف، فأمَّا القراءةُ بغير ألفٍ فوجهُهُ ظاهرٌ؛ لأنَّ الوعدَ كان من الله تعالى، والمواعدةُ مفاعَلةٌ، ولابدَّ من اثنين. وأمَّا بالألف؛ فله وجوهٌ؛ أحدها: أنَّ الوعدَ وإن كان من الله تعالى فقَبولُه كان من موسى عليه السلام، وقَبولُ الوعد يَشبَهُ الوعدَ؛ لأنَّ القابل للوعد لابَّد وأن يقول: أفعل ذلكَ. وثانيها: لا يبعد أن يكون الآدميُّ يَعِدُ اللهَ، ويكون معناه يعاهدُ اللهَ. وثالثها: أنه أمرٌ جرى بين اثنين فجاز أنْ يُقالَ: واعدنا. ورابعها: - وهو الأقوى - أنَّ الله تعالى قد وعدَ موسى الوحيَ، ويكون موسى وَعَدَ اللهَ المجيءَ للميقاتِ[1].

رجَّح بعضُهم قراءة ﴿وَوَعَدْنَا﴾؛ لكون المواعدة لا تكونُ إلَّا من البشر، فأمَّا من الله؛ فإنَّما هو التَّفرُّد بالوعد، وأكثر ما تكون المواعدة من المخلوقين المتكافئين، كلُّ واحد منهما يَعِدُ صاحبه[2]. وإنما قالوا هكذا نظرًا إلى أصل المفاعَلة أنَّها تفيد الاشتراكَ في أصل الفعل، وتكون من كلِّ واحد من المتواعدين ونحوهما، لكنَّها قد تأتي للواحد في كلام العرب، كما في قَوْلهم: داويتُ العليلَ، وعاقبتُ اللِّصَّ[3]. فهي مفاعلةٌ على غير بابها، فضلًا عن أنَّ قبول موسى لوعد الله والتزامه، وارتقابَهُ يشبه المواعدةَ[4]، فيكون من باب الموافاة، وليس هو من الوعد والوعيد في شيء[5].

(وَعَـدَ) تُطْلَقُ عن غيرِ طَلَبٍ، و(واعَدَ) فتُطْلَقُ عن طَلَبٍ

وفي لفظ المواعدة طلبٌ من الله لموسى عليه السلام بذلك، وقد ضربَ الله تعالى لموسى عليه السلام موعدًا لمكالمته، وإعطائه الألواحَ المشتمِلة على

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 3/69، وأبو حيّان، البحر المحيط: 1/356.
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 1/142، وأبو حيّان، البحر المحيط: 1/356.
(3) الشّوكانّي، فتح القدير: 1/100.
(4) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 1/142.
(5) الشّوكانيّ، فتح القدير: 1/100.

أصول الشَّريعة فقَبِل ذلك، ثم صَعِد جبل سيناء في أوَّل الموعد، وهبط في آخره، وفَرْقٌ بين الاتفاق على الشَّيء بين اثنين أو أكثر كالتلاقي في مكانٍ معيَّن أو زمان معين، وبين الوعدِ به من واحد لآخر لا يطلب منه شيء لأجل الوفاء، كقولك لآخر: سأدعو الله لك في البيتِ الحرام مثلًا، فهذا وعدٌ مَحْضٌ، وذاك يحتمل الأمرين باعتبارين كعبارة الآية[1]. إذ يدلُّ هذا الإجراء على أنَّ الله ﷻ وعَدَ موسى أوَّلًا، وبعد ذلك أكَّدَ له هذا الوعد، وأعلن موسى عليه السلام طاعته لتنفيذ الحضور في المِيْقَات المحَدَّد، فكانت بينه وبين ربِّهِ مواعدةٌ، حدَّد فيها المِيْقَات الزمانيَّ والمِيْقَات المكانيَّ، فجاءت القراءتان للدَّلالة على الحالتين: الوعدِ من الله أولًا، والوعدِ التأكيديِّ المقرون بإعلان موسى طاعته أنْ يحضر.

نُكتةُ حذْفِ الموعودِ به:

حُذِفَ الموعودُ به لمّا تبيَّنت القرينةُ إيجازًا، واستغناءً بالمذكور، و﴿ثَلَٰثِينَ﴾ منصوبٌ على النِّيابة عن الظرف؛ لأنَّ تمييزَه ظرفٌ للمواعَدِ به، وهو الحضور لتلقِّي الشريعة، ودلَّ عليه ﴿وَوَٰعَدْنَا﴾؛ لأنَّ المواعدةَ للقاءِ، فالعاملُ ﴿وَوَٰعَدْنَا﴾ باعتبار المقدَّر، أي: حضورًا مُدَّةَ ثلاثين لَيْلَة[2].

حـذْفُ المـوعـودِ به يَعتمِدُ على القرينةِ، في قَوْله (ثَلاثينَ لَيْلَةً)

سِرُّ التَّعْبِيرِ بلفْظِ الإتمامِ مع التّفْريقِ:

ورد التَّعْبِيْرُ بلفظ الإتمام المزيد بالهمزة متعدِّيًا بالباء في هذا الموطنِ فقط من القرآن، والباءُ فيه لبيان نوع الإتمام، وأنَّه من جنس ما سبقه، فدلَّ التَّعْبِيْرُ على الإتمام، ووسيلته[3]. ولا يصحُّ أنْ تكون هنا للاستعانةِ تأدُّبًا، وسُمِّيتْ زيادة الليالي العَشْر (إتمامًا) إشارةً إلى

حـكـمـةُ الـعَـدِدِ الاسـتـئـنـاسُ، أو لِـتـكـونَ تلك الـعَـشْـرُ عِـبـادةً أخـرَى فيتكرَّرُ الثَّوابُ

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 1/356، ومحمد رضا، تفسير المنار: 9/105.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 9/85.
(3) داود، القرآن الكريم وتفاعل المعاني: 2/476.

أنَّ اللّه تعالى أراد أنْ تكونَ مناجاةُ موسى أربعين لَيْلَةً، ولكنَّه لما أمره بها أمره بها مفرَّقةً، إما لحكمة الاستئناس، وإما لتكونَ تلك العَشْرُ عبادةً أخرى، فيتكرَّر الثَّوابُ[1]، أو ليستعدَّ موسى عليه السلام ويتهيَّأ لوعد اللّه، ويكون لنزول التّوراة موقعٌ كبير لديهم، وتشوُّقٌ إلى إنزالها[2]. وهو من التَّفصيلِ بعدَ الإجمالِ، لرفع احتمال أن تكونَ تلك العَشْرةُ من غير مواعَدةٍ، وفائدةُ الوعد بثلاثين أولًا، ثم بعَشْر ليتجدَّد له قربُ انقضاء المواعدة، ويكون فيه متأهِّبًا مُجتمِعَ الرّأي حاضر الذّهن؛ لأنَّه لو وعد بالأربعين أوَّلًا كانت متساويةً، فلمَّا فُصِلت؛ استشعرت النَّفس قربَ التَّمَام، وتجدَّد بذلك عزمٌ لم يتقدَّم[3].

التَّعْبِيرُ بقولِه: ﴿وَأَتْمَمْنَٰهَا﴾، استيفاءٌ لما نقصَ منَ الأربعين:

عَلاقةُ اسْتيفاءِ اللّيالي العشْرِ، لمعنى التّمامِ في مُدّةِ المناجاةِ

التَّمَامُ يَسْتَدْعِي سَبْقَ نَقْصٍ بِخِلاف الكَمال، ولذلك عُبِّر به عن: الإتيانِ بِمَا نَقَص من النّاقِص[4]. وتمامُ الشَّيء انتهاؤُه إلى حدٍّ لا يحتاج إلى شيء خارجٍ عنه[5]، ولذلك كان التَّعْبِيْر ﴿وَأَتْمَمْنَٰهَا﴾ في هذا الموضع، وتكرارُه بـ﴿فَتَمَّ﴾ مناسبًا بدقَّة لنقص اللّيالي العشر ابتداءً، واستيفائها من ثَـمَّ.

عِلَّةُ تخصيصِ الثّلاثينَ والعشْرِ بالانفصال:

الثَّلاثون عَـددُ شَهْرٍ، ففُصِلتْ لمكان الشَّهْرِ من قياسِ الزّمنِ

ذكَرَ الثّلاثين وأتمَّها بالعشر، والأربعون قد تكْمُلُ بعشرين وعشرين، أو خمسةٍ وعشرين وخمسةَ عشرَ؛ لأنَّ الثَّلاثين كانت عددَ شهر، فذُكِرتِ الثلاثون منفصِلةً لمكان الشَّهر، وأنَّها ذو القعدة وأتممناها بعشرٍ من ذي الحجَّة، ولهذه القِصَّةِ خُصَّت العشرُ والثَّلاثون بالانفصال[6].

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 9/86.
(2) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 302.
(3) السّيوطي، الإتقان: 3/243.
(4) الزّبيديّ، تاج العروس: (تمم).
(5) الرّاغب، المفردات: (تمم).
(6) الفرّاء، معاني القرآن: 1/36.

ونقل الرازيُّ عن الحسن البصري: بأنَّه ليس المراد أنَّ وعْدَه كان ثلاثين لَيْلَةً، ثم بعد ذلك وعدَهُ بعَشْرٍ، لكنَّه وعدَهُ أربعين لَيْلَةً جميعًا، وهو كقَوْله: ﴿ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِي ٱلۡحَجِّ وَسَبۡعَةٍ إِذَا رَجَعۡتُمۡۗ تِلۡكَ عَشَرَةٞ كَامِلَةٞۗ﴾ [البقرة: 196][1].

دَلالةُ قراءةِ (وتمّمْناها):

الـدَّلالـةُ على الـدَّوامِ في فعْلِ التّمامِ

وفي مصحف أُبيٍّ رضي الله عنه (وَتمَّمنَهَا) مشدَّدًا[2]. عَدَّاه بالتَّضعيف[3]. وأصلُه تمَّ مشدَّدًا من غير ألف[4]. والفعلُ المجرَّدُ (تمَّمَ) المضعَّف المتعدِّي بالباء فيه دلالةُ الدّوامِ وسببُهُ[5].

سِرُّ التَّكرارِ بجُملةِ إتمامِ الأربعينَ:

التَّكرارُ تأكيدٌ، وإيضاحٌ، وفذلكةٌ، وكلُّها مفيدٌ في البيانِ

الفاءُ في ﴿فَتَمَّ﴾ للتفريع، ثم كرَّر الأمر بقَوْله: ﴿فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرۡبَعِينَ لَيۡلَةٗۚ﴾، بعد قوله: ﴿وَأَتۡمَمۡنَٰهَا﴾؛ ليبيِّنَ أن (العَشْر) لم تكن ساعاتٍ؛ فالفائدة: إزالةُ توهُّم معنى: أتممناها بعَشْر ساعات[6]، وكرَّر الجُمْلَة تأكيدًا وإيضاحًا[7]؛ لكونها إجمالًا بعد تفصيلٍ لدفع التوهُّم، وهي أيضًا فذلكةُ الحساب، كما في قَوْله: ﴿ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِي ٱلۡحَجِّ وَسَبۡعَةٍ إِذَا رَجَعۡتُمۡۗ تِلۡكَ عَشَرَةٞ كَامِلَةٞۗ﴾ [البقرة: 196]. والغايةُ من مجموعها: إزالةُ وهم من يتوهَّمُ أنَّ المِيْقَات كان عَشْرين، ثم أتمَّه بعَشْرٍ، فصار ثلاثين[8]، فأزال هذا الإيهامَ بقَوْله: ﴿أَرۡبَعِينَ لَيۡلَةٗۚ﴾[9]،

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 3/70.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/379.
(3) السّمين الحلبيّ، الدُّرُّ المصون: 5/446.
(4) الخطيب، معجم القراءات: 3/149.
(5) داود، القرآن الكريم وتفاعل المعاني: 2/474، 476.
(6) ذكر السَّمين الحلبيّ أنّ الجملة في هذه الحالة تكون للتّأسيس على احتمالِ أنْ يتوهَّمَ متوهِّم بعَشْر ساعات أو غير ذلك. واعترَضَ على ذلك قائلا: "وهو بعيدٌ جداً". يُنظر: السّمين الحلبي، الدُّرُّ المصون: 5/448.
(7) الماورديّ، النّكت والعيون: 2/256، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/450، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/379.
(8) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/86.
(9) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/185، والنّيسابوريّ، غرائب القرآن: 3/314، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/86 - 87.

مبيِّنًا أنّ العَشْر ليست من الثَّلاثين[1]، فنفى تمام الثَّلاثين بالعَشْر أن يكونَ من جملة الثَّلاثين؛ لأنَّ تمام الشَّيءِ بعضٌ منه[2].

بَلاغةُ التَّعْبِيرِ بالفَذْلَكَةِ، وأثرُها في السِّياقِ:

الفَذْلَكَةُ إعلامٌ بالعدَدِ مُفصَّلًا، ثـمّ الإعـلامُ به جُملةً

العربُ تكرِّرُ الشَّيء تريد به التَّوكيد، وفائدةُ ذلك الفَذْلَكَةُ في علم الحساب، وهو أن يُعلم العددُ مفصَّلًا، ثمَّ يُعلمه جملةً؛ ليحتاط به من جهتين، وذلك أنَّ العرب لما كانوا لا يعلمون الحساب، وكانوا يحتاجون إلى زيادة بيانٍ وإيضاح؛ فلذلك قال: ﴿تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ﴾ [البقرة: 196]، وقيل: لفظُه خبرٌ، ومعناه أمرٌ، أي: أكملوها، ولا تنقصوها ذلك[3].

وفذلكةُ الحساب، أي: جامعتُهُ، فالحاسبُ إذا ذَكَرَ عددَين فصَاعِدًا؛ قالَ عند إرادة جمْعِ الأعداد: فذْلَك، أي: المعدود كذا، فصِيْغَتْ لهذا القولِ صيغةُ نَحْتٍ مثلَ: بسْمَل؛ إذا قال: باسم اللّه، وحوقَلَ؛ إذا قال: لا حولَ ولا قوَّة إلَّا باللّه، فحروفٌ فذلكةٌ: متجمِّعةٌ من حروفٍ. لذا غلب إطلاقُ اسم الفَذْلَكَة على خُلاصة جمعِ الأعداد، وإنْ كان اللَّفظُ المحكيُّ جرى بغير كلمة (ذلك)، كما نقول في قَوْله: ﴿تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ﴾ إذ استُبْدلَ به لفظُ (تلك)[4].

دلالةُ الفَذْلَكَةِ في الآيةِ:

توزيعُ العَددِ في إبْلاغِـه مُنجَّمًا إلى موسَى عليه السلام، بغرَضِ التّيْسيرِ والإيناسِ

وفي وجهِ الحاجةِ إلى الفَذْلَكَة في الآية، فضلًا عن دفع الإيهام، التّوكيدُ المفيدُ تقريرَ الحكم في الذّهن، كما تقول: كتبتُ بيدي، وفي قَوْله تعالى: ﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾، دلَّ على أنَّه أراد من موسى عليه السلام، مناجاة أربعين لَيْلَة، ولكنّه أبلغها إليه موزَّعة تيسيرًا[5].

(1) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 7/275.
(2) الماورديّ، النّكت والعيون: 2/256.
(3) الخازن، لباب التّأويل: 1/12712 - 8.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/228.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/228.

دَلالةُ الإطنابِ بالإيضاحِ بعْدَ الإبهامِ:

مَلْمَحُ الإطنابِ في رُؤيةِ المعنَى في صُورتَيْنِ مختلفتَيْنِ، أو تَمكُّنِه في النَّفْسِ تَمكُّنًا زائدًا

وجهُ كونِ الجُمْلَة إيضاحًا بعد إبهامٍ أنَّها فَصَّلتْ، ثم أجْمَلتْ، قال أهل البيان: إذا أردت أن تُبهِمَ، ثم توضِّح، فإنَّك تُطنِبُ، وفائدته إمَّا رؤية المعنى في صورتين مختلفتين: الإبهام، والإيضاح، أو لتمكُّن المعنى في النَّفس تمكُّنًا زائدًا لوقوعه بعد الطلب، فإنه أعزُّ من المنساق بلا تعبٍ، أو لتكمل لذَّة العلم به، فإنَّ الشَّيء إذا عُلم من وجهٍ ما؛ تشوَّقت النَّفس للعلم به من باقي وجوهه، وتألَّمت، فإذا حصل العلمُ من بقية الوجوه؛ كانت لذَّتُه أشَدَّ من علمه من جميع وجوهه دفعةً واحدة[1].

فائِدةُ الإجْمالِ بعْدَ التَّفصيلِ:

إفادةُ أنّ جميعَ العدَدِ المنصوصِ عليه، مُرادٌ كلُّه للمُواعدةِ، لا أجزاؤُه فقط

بإعادة لفظ أربعين مع كونه معلومًا مِن الثَّلاثين والعَشْر، أنَّها أربعون، لنفي اللَّبس؛ لأنَّ العَشْر لما أتتْ بَعْدَ الثَّلاثين التّي هي نصٌّ في المواعدة؛ دخلها الاحتمالُ أنْ تكونَ من غير المواعدة، فأعادَ ذكر الأربعين نفيًا لهذا الاحتمال، وليُعْلِم أنَّ جميعَ العدد للمواعدة[2].

سِرُّ التّدقيقِ في ضَبْطِ العدَدِ في الآية:

مُدَّةُ الثَّلاثينَ ليلةً، بدون زيادةِ العَشْرِ، لا تبلغُ الكمالَ المتُوخَّى

إنَّ معنى قَوْله: ﴿فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ﴾ بلَغَ، وثَبَتَ، ووقَعَ، واستقرَّ؛ فهو إشارةٌ إلى أنَّ موسى فعلَه، ووفَّى به؛ لأنَّ الكلامَ كان محتمِلًا هل وفَّى بالعهد أم لَا؟[3] فالتَّمَام هنا مستعملٌ في معنى النَّماء، والتفوُّق، فكان ميقاتًا أكملَ وأفضلَ، كقَوْله تعالى: ﴿تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ﴾ [الأنعام: 154] إلى قَوْله: ﴿وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى﴾ [المائدة: 3]، إشارةً إلى أنَّ زيادة العَشْر كانتْ لحكمةٍ عظيمةٍ، تكون مُدَّةُ الثَّلاثين بدونها غيرَ بالغةٍ أقصى الكمال، وأنَّ الله قدَّر المناجاةَ أربعين لَيْلَة، ولكنَّه أبرز

(1) السّيوطي، الإتقان: 3/242.
(2) الزّركشّي، البرهان في علوم القرآن: 2/478.
(3) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة النّسخة الكاملة: 2/248.

الأمر لموسى مفرَّقًا؛ تيسيرًا عليه، ليكون إقبالُه على إتمام الأربعين باشتياق وقوَّةٍ[1].

بلاغة تضمينٌ (تمّ) معنى (بلغَ):

إذ ضُمِّنَ (تمَّ) معنى: (بلغ)، والمعنى: بلغ ميقاتُ ربِّه تامًّا، وهو أبلغُ في الدِّلالة من تضمين معنى فعل واحد، فكلُّ ما بَلَغَ بأمْرِ اللّه التّمامَ، استوَى لِينتفِعَ به الأنامُ.

سِرُّ حذْفِ تمييزِ لفْظِ ﴿بِعَشْرٍ﴾ في السِّياقِ:

الإيجازُ يكونُ في السِّياقِ، لِدلالةِ الكلامِ عليه، ولانْتِفاءِ اللَّبْسِ به

حُذِفَتِ الهاء من ﴿بِعَشْرٍ﴾؛ لأنَّ المعدودَ مؤنَّثٌ[2]، وحُذِف تمييزُها لدَلالة الكلام عليه، أي: وأَتْمَمْناها بعَشْر ليالٍ[3]، فعدل عن تَكرار المعدود ﴿لَيْلَةً﴾ إيجازًا؛ لوضوحِه، وانتفاء اللَّبس في تحديده، والتَّكرارُ في غير موضعه يورث السَّآمةَ والملل.

نُكْتَةُ العُدولِ منَ الإجمالِ إلى التَّفْصيلِ:

الأربعونَ، والثّلاثونَ والعَشْرةُ قولٌ واحدٌ، ليس بمُختلِفٍ على تفصيلٍ وتأْليفٍ

أجمل تعالى ذكرَ الأربعين في سورة البقرة، وفصَّلها هاهنا[4]. فالأربعون، والثلاثون والعَشْرة قولٌ واحد ليس بمختلفٍ، وإنَّما قال القولين على تفصيلٍ، وتأليفٍ، قال: أربعين في قولٍ مؤلَّفٍ، وقال: ثلاثين مفصَّلًا، يعني: شهرًا متتابعًا وعَشْرًا، وكلُّ ذلك أربعون، وهذا جائزٌ في كلام العرب[5]؛ إذ هناك أسلوبان في مسألة الأعدادِ، الأوَّلُ: إجماليٌّ، والثاني: تفصيليٌّ، فإنِ اتَّفقَ التَّفصيلُ مع الإجمالِ، فلا توجد شبهةٌ، أو إشكالٌ[6]، وسورة الأعراف مكيَّة، والبقرة مدنية، فهي متأخِّرَة عنها في النُّزول[7]. والحكمةُ فيه أنَّ موسى عليه السلام

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/87.
(2) القرطبيّ، الجَامع لأحكام القرآن: 7/275.
(3) السّمين الحلبيّ، الدُّرُّ المصون: 5/446.
(4) الزَّمخشريّ، الكشَّاف: 2/151.
(5) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 7/275.
(6) الشَّعراويّ، تفسير الشَّعراويّ: 7/4334 - 4335.
(7) محمد رضا، تفسير المنار: 9/105.

ما إنْ ذهب لميقات ربِّه، حتىّ عبد قومُه العِجْل في مُدَّة الثَّلاثين لَيْلَةً. ولم يشأِ اللّهُ أنْ يتركَ موسى عليه السلام ليعود لقومه بعد الثَّلاثين لَيْلَةً، بل أتمَّها بعَشْر أُخَرَ، حتّى لا يعودَ موسى، ويرى ما فعلَهُ قومُه، فكأنَّ العَشْرَ زادتْ على الثَّلاثين لَيْلَةً، ليعطيك الصَّورة الأخيرة الموجودةَ في سورة البقرة، فالمسألةُ في منتهى الدّقَّة[1]. أو أنَّ قومه تأخَّروا عنه في الأجل الأوَّل، فزاده اللّه لتأخُّرِهم عنه أجلًا ثانيًا ليحضروا، أو: لأنَّ قومَه عبدوا العِجْل بعده، فزاده اللّه أجلًا ثانيًا؛ عقوبة لهم، أو: أنَّ اللّه فعل ذلك به اختبارًا لقومِه؛ ليتميَّز به المؤمنُ مِنَ المنافِقِ، ويُعرف به المُتيقِّنُ من المُرتاب[2].

فائِدةُ التَّعْبِير بالمِيْقَاتِ دونَ الوقتِ:

و﴿مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ﴾ ما وقَّته له من الوَقْتِ وضربه له[3]. والفَرْقُ بين (المِيْقَات، والوَقْتِ) وإن كانا من جنس واحدٍ أنَّ المِيْقَاتَ ما قُدِّر لعمل، والوَقْتُ قد لا يتقدَّرُ لعملٍ[4]. فالمِيْقَاتُ: هو الوَقْتُ الذي قُدِّرَ أن يُعْمَلَ فيه عملٌ من الأعمالِ، ولهذا قيل: مواقيتُ الحجِّ[5].

ذِكرُ الوقتِ الّذي قُـدِّرَ أنْ يُعْمـلَ فيـه عَـمـلٌ مِـنَ الأعمالِ

والوَقْتُ: وقتٌ للشَّيءِ من غير تقديرِ عمل أو تقريره[6]. وكلُّ عملٍ وحدث يتطلَّب أمرين يُظْرَف فيهما، أي: يكونان ظرفًا له؛ فلا بدَّ له من مكانٍ يحدث فيه، ومن زمانٍ يحدث فيه كذلك، واسمُهما ظرفُ الزمان، وظرف المكان، إلا أنَّ ظرفَ الزَّمان غيرُ قارٍّ، أي: غيرُ ثابتٍ، فقد يأتي الصُّبحُ، ويذهب ويأتي بعده، الظُّهر، والعصر، والمغرب، والعشاء، لكنَّ ظرف المكان قارٌّ وثابتٌ[7]. فالمِيْقَات أخصُّ

(1) الشَّعراويّ، تفسير الشَّعراويّ: 18/110961 - 1097.
(2) الماورديّ، النّكت والعيون: 2/256.
(3) الزَّمخشريّ، الكشَّاف: 2/151.
(4) الماورديّ، النّكت والعيون: 2/257.
(5) الخازن، لباب التّأويل: 2/244.
(6) السّمين الحلبيّ، الدُّرُّ المصون: 5/446 - 447.
(7) الشَّعراويّ، تفسير الشَّعراويّ: 7/4338.

من الوَقْتِ[1]؛ لأنَّه يتضمَّن الزمانَ مُقدَّرًا بعمل، أو مقرَّرًا له، متضمِّنًا المكانَ.

نُكتةُ العُدولِ إلى التَّصْريح بلفظِ ﴿رَبِّهِۦ﴾، وإضافةِ موسَى عليه السلام إليه:

في إظْهارِ هذا الاسْمِ الشَّريفِ، اعترافٌ بربُوبيَّةِ اللهِ له وإصْلاحِهِ له

جاء بلفظ ﴿رَبِّهِۦ﴾ في إتمامِ الميقات، ولم يُجْره على لفظ ﴿وَوَٰعَدْنَا﴾، كأن يكون التَّرْكِيْبُ: (فتمَّ ميقاتنا)؛ لأنَّ لفظ ﴿رَبِّهِۦ﴾ دالٌّ على أنَّه مُصْلِحُهُ وناظرٌ في أمره، ومالكهُ، والمتصرِّف فيه[2]، ففي إظهار هذا الاسم الشريف اعترافٌ بربوبيَّة اللّه له وإصلاحه له[3].وبسبب حُمْقِ بعض قومه حين تأخَّر مغيبُ موسى عليه السلام عنهم، في مناجاة اللّهِ بعد الثَّلاثين، فزعموا أنَّ موسى هلك في الجبل[4].

سِرُّ التَّعْبيرِ باللّيالِي دونَ الأيَّامِ:

اللّيالِي غُرَرُ الشُّهورِ، وتشمَلُ اللَّيلَ والنَّهارَ، وهي مَنوطةٌ بالأهلَّةِ

خصَّ الليالي بالذِّكر؛ لأنَّ العَامَ بها، والأيَّام تابعةٌ لها، والمرادُ أربعين لَيْلَةً بأيامها[5]؛ ولأنَّها غرَرُ الشُّهورِ[6]. والمراد بها ما يشمَلُ اللَّيل والنَّهار في عرف العربِ عند الإطلاق[7]. فالغالب في الكلام العربي التوقيت بالليالي، ويريدون أنَّها بأيامها؛ لأنَّ الأشهرَ العربية تبتدئ بالليالي؛ إذ هي منوطةٌ بظهور الأهلَّة[8]، فشهور العرب وُضِعَت على سير القمر، والهلالُ إنَّما يهلُّ باللَّيل[9].

وهذا سرُّ التَّعْبِيْر الدَّائم بالليالي لعدم القدرة على تحديدِ الزَّمن بدقَّةٍ بالنَّهار، فالشَّمس تشرق وتغربُ، ثم تعود لتشرقَ، فإذا نظرت إلى قرص الشمس، لا يمكن أن تحدِّدَ في أيِّ وقت من الشَّهر

(1) محمد رضا، تفسير المنار: 9/105.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/379.
(3) السّمين الحلبيّ، الدُّرُّ المصون: 5/448.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتنّوير: 9/87.
(5) ابن جزي، التّسهيل لعلوم التّنزيل: 1/84.
(6) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/269، والآلوسي، روح المعاني: 9/43.
(7) محمد رضا، تفسير المنار: 9/105.
(8) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/86.
(9) البغويّ، معالم التّنزيل: 1/81 - 82.

نحن؟ هل في أوَّله أو في وسطه أو في آخرِه، ويتحقَّق ذلك بمجيء اللَّيل مِن خلال النظر إلى القمر، فإذا كان القمر هلالًا، فنحن في أوائل الشَّهر، وإذا كان بدرًا فنحن في وسطه وهكذا[1]. وقيل: لأنَّ الظُّلمةَ أقدمُ من الضَّوء، وخلقَ الليل قبل النَّهار قال الله تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيۡلُ نَسۡلَخُ مِنۡهُ ٱلنَّهَارَ﴾ [يس: 37][2].وخَصَّ اللّيالي بالذِّكرِ في الآية الكريمة؛ لكون اللَّيْلَةِ أقدمَ من اليوم، وقبلَه في الرُّتبة، ولذلك وقع بها التّاريخُ، وفي ذلك إشارةٌ إلى صلة الصّوم؛ لأنَّه لو ذكر الأيّام؛ لأَمْكَن أن يعتقد أنّه كان يفطر باللّيل، فلمَّا نصَّ على اللّيالي، اقتضت قوَّةُ الكلام أنَّه ﷺ، واصل أربعين لَيْلَة بأيامها[3].

سِرُّ مُواعدةِ اللهِ تعالى لموسَى عليه السلام، فُرصةً للاصطفاءِ والقُرْبِ والكلامِ:

مواعدةُ اللهِ موسى كانت لأجل الانقطاع للعبادة وتلقِّي المناجاة، والنَّفْسُ في الليل أكثر تجرُّدًا للكمالات النفسانية، منها في النَّهار؛ إذ قد اعتادتِ النُّفوس بحسب أصل التَّكوين الاستيناس بنورِ الشمس والنشاطِ به للشُّغل، فلا يفارقها في النَّهار الاشتغالُ بالدُّنيا، ولو بالتفكُّر وبمشاهدة الموجودات، وذلك ينحطُّ في الليل والظُّلمة، وتنعكس تفكُّرات النَّفس إلى داخلها، ولذلك لم تزل الشَّريعةُ تحرِّضُ على قيام الليل، وعلى الابتهالِ فيه إلى الله تعالى، على أنَّ الغالبَ في الكلام العربي التَّوقيت بالليالي، ويريدون أنَّها بأيَّامها؛ لأنَّ الأشهرَ العربية تبتدِئ بالليالي؛ إذ هي منوطةٌ بظهور الأهلَّةِ[4].

النَّفْسُ في اللّيلِ أكثرُ تجرُّدًا للكمالاتِ النّفسانيّةِ

وَجْهُ التَّعْبِيرِ عنِ الإصلاحِ بالأمرِ ﴿وَأَصۡلِحۡ﴾، مع إضْمارِ مفعولِهِ:

﴿وَأَصۡلِحۡ﴾: أمرٌ بالإصلاح، ومفعوله مقدَّر بـ (أصلحْ ما يجب أن يصلُحَ من أمورِ بني إسرائيل)[5]، أي: ارفق بهم، وأصلحْ أمرهم،

المرادُ بالإصلاحِ، إصلاحُ أمورِ الدّينِ لا أمورِ الدّنيا

(1) الشَّعراويّ، تفسير الشَّعراويّ: 1/332.
(2) البغويّ، معالم التّنزيل: 1/81 - 82.
(3) الثّعالبيّ، الجواهر الحسان: 1/237.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/86.
(5) الزَّمخشريّ، الكشَّاف: 2/151.

وأصلحْ نفسك، أي: كُنْ مُصلِحًا[1]. وفيه إشارةٌ إلى أنَّ المرادَ إصلاحُ أمور دينهم لا دنياهم، أو هو منزَّلٌ منزلةَ اللازم من غير تقدير مفعول، وهو يفيد التَّعميمَ، أو معناه: ليكن منك إصلاحٌ، وليس المراد به أيَّ إصلاحٍ كان، بل إصلاح تامٌّ عامٌّ؛ لأنَّه نكرةٌ في سياق النّفي، وقيل: إنَّه لا يناسِب المقامَ[2].

نُكتةُ التَّعْبير بعدَمِ الاتِّباعِ، بالفعْلِ ﴿وَلَا تَتَّبِعۡ﴾ تأكيدًا للمطلوبِ:

بيانُ نهْيِه بلفْظِ النّهْيِ الصّريحِ، عنِ اتِّباعِ سبيلِ المُفسدِينَ

﴿وَلَا﴾ طلبيَّةٌ جازمةٌ أفادتِ النَّهيَ، والإرشادَ، وخلَّصت ﴿وَلَا﴾ دلالةَ الفعل إلى الاستقبال، ومجيءُ الفعل على صيغة المُضَارِع المشدَّد للمبالغة في النَّهي، ومعنى قَوْله: ﴿وَلَا تَتَّبِعۡ﴾ لا تُطِعْ، وتَتَّبِعْ من دعاك منهم إلى الإفساد[3]، ولا تسلكْ سبيلَ العاصين، ولا تكنْ عونًا للظَّالمين[4]، وفيه إشارةٌ إلى أنَّه جعل الإفساد كالطريق المسلوكِ لهم، كما يقال: هذه طريقةُ فلان، والتقدير: لا تُطِعْ مَن دعاك إليه، كالتَّفسير له، أو لبيان أنَّ موسى نهى أخاه هارون عن اتِّباع المفسدين بدعوةٍ وبدونها[5]. والمقصودُ من هذا الأمر التَّأكيدُ؛ لأنَّ هارونَ - عليه الصَّلَاة والسَّلَام - لم يكن ممَّن يتَّبع سبيلَ المُفْسِدين، فهو كقَوْله: ﴿وَلَٰكِن لِّيَطۡمَئِنَّ قَلۡبِيۖ﴾ [البقرة: 260]، وكقولك للقاعد: اقعد، بمعنى: دُمْ على ما أنت عليهِ مِنَ القعودِ[6].

دَلالةُ النَّهْيِ، في قَوْله: ﴿وَلَا تَتَّبِعۡ سَبِيلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾:

بيانُ التّحْذيرِ مِنَ الفسادِ، بأبْلَغِ صِيغةٍ، وأبينَ إرشادٍ

وكان جامعًا للنَّهي عن ثلاثِ مراتبَ من مراتب الإفضاءِ إلى الفساد، وهي: العملُ المعروف بالانتساب إلى المُفْسِد، وعملُ المُفْسِد

(1) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 7/277.
(2) الشّهاب، عناية القاضي: 4/212.
(3) الزَّمخشريّ، الكشَّاف: 2/151.
(4) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 7/277.
(5) الشّهاب، عناية القاضي: 4/212.
(6) الخازن، لباب التّأويل: 2/244.

وإن لم يكن ممَّا اعتادَه، وتجنُّبُ الاقتراب من المُفْسِد ومخالطته[1].

وهي بذلك تتعدَّى مجرَّدَ التأكيد لمضمون جملة ﴿وَأَصۡلِحۡ﴾؛ تأكيدًا للشَّيء بنفي ضدِّه، مثل قَوْله: ﴿أَمۡوَٰتٌ غَيۡرُ أَحۡيَآءٖ﴾ [النحل: 21]؛ لأنَّها لو كان ذلك هو المقصد منها لجُرِّدت من حرف العطف، واقتصرَ على النَّهي عن الإفساد، فقيل: وأصلحْ لا تفسد[2]. فالأمر لهارون عليه السلام بعدم الاتِّباع، جامعٌ لما يتعيَّن عليه عمله من أعمالهِ في سياسة الأمَّة، وقَوْله: ﴿وَلَا تَتَّبِعۡ سَبِيلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ تحذيرٌ مِنَ الفساد بأبلغ صيغة؛ لأنَّها جامعةٌ بين نهْيٍ - والنَّهيُ عن فعل تنصرفُ صيغتُه أوَّل وهلةٍ إلى فساد المنهيِّ عنه - وبين تعليقِ النَّهي باتِّباع سبيل المُفْسِدين[3].

بَلاغةُ التَّعْبِيرِ بـ(الاتِّباعِ)، على طريقِ الاسْتِعارةِ:

الطَّريقُ مُستعارٌ للعمَلِ المؤدِّي إلى الفسَادِ

الاتِّباعُ هنا مُستعارٌ للمشاركة في عمل المُفْسِد، فإنَّ الطَّريقَ مُستعارٌ للعمل المؤدِّي إلى الفساد، والمُفْسِدُ من كان الفساد صفتَهُ، فلمَّا تعلَّق النَّهيُ بسلوك طريق المُفْسِدين؛ كان تحذيرًا من كلِّ ما يستروح منه مآلٌ إلى فساد؛ لأنَّ المُفْسِدين قد يعملون عملًا لا فساد فيه، فنهى عن المشاركة في عمل من عُرِفَ بالفساد؛ لأنَّ صدورَهُ عن المعروف بالفساد، كافٍ في توقُّع إفضائه إلى فساد، ففي هذا النّهي سدُّ ذريعة الفساد، وسدُّ ذرائع الفساد من أصول الإسلام[4].

دَلالةُ الجمْعِ بين الأمرِ والنَّهْيِ:

كـلُّ تَـكـالـيـفِ الشّرعِ محصورةٌ في (افْعَلْ)، و(لا تَفْعَلْ)

وفي الآية أمرٌ ونهيٌ: فـ﴿وَأَصۡلِحۡ﴾ أمْرٌ، و﴿وَلَا تَتَّبِعۡ﴾ نهْيٌ، ونعرف أن كلَّ تكاليفِ الحَقِّ سبحانه وتعالى محصورةٌ في "افعل كذا"، و"لا تفعل كذا"، ولا يقول الحَقُّ للمكلَّفين: (افعلوا كذا) إلا إذا كانوا صالحين للفعل ولعدم الفعل، وإن قال لهم: "لا تفعلوا"، فلا بدَّ أن يكونوا

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/88.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/89.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/88.
(4) الشّهاب، عناية القاضي: 4/212، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/88.

صالحين للفعل، ولعدم الفعل[1]. وأمْرُهُ إيَّاه بالصَّلاح ونهْيُهُ عن اتِّباع سبيل المُفْسِدين، هو على سبيل التَّأْكِيد، لا لتوهُّم أنَّه يقع منه خلافُ الإصلاح واتباعُ تلك السَّبيل؛ لأنَّ منصِبَ النبوَّةِ منزَّهٌ عن ذلك[2].

دَلالةُ التَّصْريحِ باسْمِ هارونَ عليه السلام، والتّمهيدِ له بلفْظِ أخيه:

صرَّحَ تَشريفًا، وتَحنُّنًا، وتذكيرًا بصِلةِ الأخوَّةِ قبْلَ صِلةِ الرِّسالةِ

والتَّصْريحُ بالاسم في مواطن الإنعام تشريفٌ، وإعلاء مكانة، وتعبيرُ الباري عن حيثيَّةِ الأخوّة مقدَّمة على وصايا الاستخلاف بقَوْله: ﴿لِأَخِيهِ هَٰرُونَ﴾ تعطُّفٌ، وتحنُّن، أي: أنّني لي بك صلةُ قرابةٍ ورحِم، قبل أن تكون شريكًا لي في الرِّسالة، فأنا أخٌ لك، وأنت أخٌ لي، ومن حقِّي عليك أن تسمعَ كلامي وتَخْلُفَني، فأخوَّةُ النَّسب مقرونةٌ بأنَّك شريكٌ معي في الرِّسالة[3]. وفي التَّعْبِيْر بلطفِ العبارة، وإشاراتِ القرب دافعًا في تحقيق المهام على التَّمَام، وهارون عطفُ بيانٍ لأخيه، وقُرِئَ بالضَّم على النِّداء[4]. وفي تقدير النِّداء معنى: قرب المنادَى.

سِرُّ إضافةِ الاسْتِخلافِ عن طريقِ الياءِ ﴿ٱخْلُفْنِى﴾:

دفْعُ توهُّمِ الاسْتِخلافِ المطلَقِ لهارونَ عليه السلام

أي: كن خليفتي فيهم[5]. ونسبَ موسى استخلافَ أخيه هارون عليه السلام إليه بإضافته إلى ياءِ المتكلِّم: ﴿ٱخْلُفْنِى﴾، ولم يقل: (كن خليفةً في قومي)؛ لدفع توهُّم استخلافهِ المطلق؛ إذ لا يصحُّ خليفتان في وقتٍ واحد، وإنَّما هو استخلافٌ لغاية محدَّدة.

نُكتةُ تأكيدِ موسَى عليه السلام، نِسبةَ قومِهِ إليه: ﴿قَوْمِى﴾:

بيانُ التَّصريحِ بقُربِهم منه، ومكانتِهم لدَيْه

أكَّد موسى عليه السلام نسبةَ قومه إليه عن طريق ياء المتكلِّم: ﴿قَوْمِى﴾ مصرِّحًا بقربهم منه، ومكانتهم لديه، وأنَّه لا يريد بهم إلا الخيرَ

(1) الشَّعراويّ، تفسير الشَّعراويّ: 7/4337.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/379.
(3) الشَّعراويّ، تفسير الشَّعراويّ: 7/4337.
(4) الزَّمخشريّ، الكشَّاف: 2/151. وهي قراءة شاذة لم تُنسب إلى من قرأ بها، ولعلّ الزّمخشريَّ أولُ من ذكرها، وتبعه عليها الرّازيّ في تفسيره، والنّيسابوريّ في التّفسير.
(5) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 2/151.

الذي يريدُه لنفسه، فإذا جاءكم بأمرٍ؛ فاعلموا أنَّه لصالحكم، وإذا نهاكم نهيًا؛ فاعلموا أنَّ موسى هو أوَّل من يطبِّقه على نفسه[1].

عِلَّةُ اسْتِخلافِ هارونَ عليه السلام، وعدَمِ اصْطحابِه:

المحبَّةُ تُوجبُ التّجرُّدَ والانفرادَ

حين ذهب موسى عليه السلام إلى فرعون سأل اللّه تعالى أن يصحب أخاه معه ﴿وَٱجۡعَل لِّي وَزِيرٗا مِّنۡ أَهۡلِي ٢٩ هَٰرُونَ أَخِي ٣٠ ٱشۡدُدۡ بِهِۦٓ أَزۡرِي ٣١ وَأَشۡرِكۡهُ فِيٓ أَمۡرِي ٣٢﴾ [طه: 29 - 32]، ولما ذهب لسماع كلامِ اللّه كان بمفرده؛ لأنَّ الذهابَ إلى الخلق يوجب الوحشةَ، فطلب إلى أخيه صحبته ليخفِّف عنه كُلْفةَ المشقَّةِ، ويقال: إنَّ المحبةَ توجبُ التجرُّدَ والانفراد وألَّا يكون للآخرين مع المحبِّ مساغٌ، ففي ذَهابه إلى فرعون استصحبَ أخاه، ولما كان الذهابُ إلى المِيْقَات، لم يكن للآخرين سبيلٌ إلى صحبته، إذ كان المقصودُ من ذهابه أن يكونَ مخصوصًا بحاله[2].

سِرُّ التَّعْبيرِ عنِ الاسْتِخلافِ بِحُسْنِ النَّسَقِ:

تضَمُّنُ لمرْسُومِ تعيينٍ من ثلاثِ موادَّ مُتلاحِمةٍ متفاصِلَةٍ

وهو من العناصر الجماليَّة المعنويَّة التي تتعلَّق بتتابُعِ المفردات والجمل في الكلام الواحد. فمن البديع في الجمل المتتاليةِ الَّتي جاء بعضُها معطوفًا على بعضٍ أن تكون فيما بينها متلاحمةً تلاحمًا سليمًا مستحسنًا، وأن تكون كلُّ واحدة منها قابلةً لأن تستقلَّ بنفسها لو أُفْرِدَتْ[3]. وفي قَوْله: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخۡلُفۡنِي فِي قَوۡمِي وَأَصۡلِحۡ وَلَا تَتَّبِعۡ سَبِيلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾. جُمَلٌ ثَلاثٌ قالها موسى لأخيه هارون، تتضَمَّنُ مَرْسومَ تعيين من ثلاث موادَّ متلاحمةٍ متفاصلةٍ:

المادَّة الأُولى: ﴿ٱخۡلُفۡنِي فِي قَوۡمِي﴾.

المادَّة الثَّانية: ﴿وَأَصۡلِحۡ﴾، (أي: في إدارتك وخلافَتِكَ لي).

(1) الشَّعراويّ، تفسير الشَّعراويّ: 7/4337.
(2) القشيريّ، لطائف الإشارات: 2/454.
(3) القشيريّ، لطائف الإشارات، ص: 813.

المادَّة الثَّالثة: ﴿وَلَا تَتَّبِعۡ سَبِيلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾، (أي: مَهْما كانت كثرتهم، فاحْزِمْ أمْرَك، ولا تتَّبِعْهُمْ مداريًا لهم). وفي ذلك تنبيهٌ وتذكيرٌ، وإلّا فهارون عليه السلام نبيٌّ شريفٌ كريمٌ على اللّه، له وجَاهَةٌ وجلالةٌ، صلوات اللّه وسلامه عليه، وعلى سائر الأنبياء[1]. ولا شكَّ في أنَّه لا يخفى عليه ذلك.وقد جمعَ موسى في وصيَّته له مِلاكَ السَّياسة بقَوْله: ﴿وَأَصۡلِحۡ وَلَا تَتَّبِعۡ سَبِيلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾؛ فإنَّ سياسة الأمَّةِ تدور حول محور الإصلاح، وهو جعْلُ الشَّيء صالحًا، فجميع تصرُّفات الأمَّة وأحوالها يجب أن تكونَ صالحةً، وذلك بأن تكون الأعمالُ عائدةً بالخير، والصَّلاح لفاعلها ولغيره[2].

دَلالةُ تعريفِ النَّكرةِ بالإضافةِ، والتَّعْبِيرِ باسْمِ الفاعلِ مَجموعًا:

ثـبـاتُ الـصِّـفـةِ أدْعَــى لـلـحـذَرِ مـنَ المُفسدِين وسبيلِهم

﴿سَبِيلَ﴾ نكرةٌ، عرَّفها بالمعرَّف بأل الجنسيَّة للاستغراق العرفيِّ ﴿ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾، والتَّعْرِيْف به أبْلغ من التَّعْرِيْفِ بغيره، وجاء به على هيئة اسم الفاعل؛ للدلالة على ثبات الصِّفة فيهم وديمومتها، وهو أدعى للحذر منهم، وتجنُّب اتِّباعهم.

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 3/468.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/87.

﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكّٗا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقٗاۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٤٣﴾ [الأعراف 143]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الرّبْطُ بين المواعَدةِ وإتمامِ الميقات، وبين نفَحاتِ الوحْيِ والمُناجاةِ في طُورِ سَيناءَ

ولما ذكر سبحانه مواعدةَ موسى واحتياطَه عليه السلام في إصلاح قومه، شرحَ أمْرَهَ حال المواعدة وحالهم بعد غيبتهِ، فقال: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا﴾[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَكَلَّمَهُۥ﴾[2]: (كلم) أصلان: أحدهما: يدلُّ على نطق مُفهِم، وهو: الكلام[3] المُدرَك بحاسَّةِ السَّمْعِ، فالكلام يقع على الألفاظ المنظومة، وعلى المعاني التي تحتها مجموعة[4]. وتكلَّم: تحدَّث[5]. والكلام: القولُ، وكلَّمته: أَوصلتَ إليه ما في نفسي بالصَّوت[6]. وبذا يكون معنى اللَّفظة بَيِّنًا في تكليم اللّهِ موسى، مع لِحَاظِ صدوره بكيفيَّةٍ يشاؤها اللّه تعالى، ويعلمها وحده؛ إذ كلامُ اللّهِ صِفةٌ ذاتيَّةٌ باعتبارِ أصلِ التكلُّم، وفِعليَّةٌ باعتبارِ آحادِه، مثل هذه الواقعةِ.

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرَر: 3/108.
(2) تم تناول مادة هذه اللّفظة في الآية الكريمة [137] مفردة (كَلِمَة)، وأُعيد شرحها هنا بإيجاز لاختلاف صيغة اللفظين.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (كلم).
(4) الرّاغب، المفردات: (كلم).
(5) الفيروزاباديّ، القاموس المحيط: (كلم).
(6) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (كلم).

2) ﴿أَرِنِيٓ﴾: (رأي) أَصْلٌ يَدُلُّ على نظر وإبصار بِعَيْنٍ أو بَصِيرَةٍ[1]. ورأيتُه رَأي العَيْن، أَي: حَيث يَقَع البَصَرُ عَلَيْهِ[2]. وتراءى لي الشَّيء، أي: ظَهَرَ حتَّى رأيتُه[3]. والرُّؤْيَة: إدْراكُ المَرْئي، وذلكَ أَضْرُبٌ بحَسَبِ قُوَى النَّفْس: أوَّلها: (النَّظَرُ بالعَيْنِ) الَّتِي هِيَ الحاسَّة وَمَا يَجْرِي مجْراها، والثاني: بالوهم والتخيُّل، والثالث: بالتفكر، والرابع: بالعقل[4]. وبالرُّؤْيَة البصرية جاء جمهور ما في القرآن من التَّرْكِيب[5]. وعليه فالرُّؤْيَة المرادة في الآية الكريمة من إبصار العين، وإدراك المرئيِّ.

3) ﴿ٱسْتَقَرَّ﴾: (قرر) أَصْلَانِ صَحِيحَانِ، يَدُلُّ أَحَدُهُمَا عَلَى بَرْدٍ، أي: قَرٍّ، وَالْآخَرُ عَلَى تَمَكُّنٍ[6]. وقرَّ في مكانه يَقِرُّ قرارًا، إذا ثبت ثبوتًا جامدًا، وأصلهُ من القُرِّ، وهو البَرْد، لكونه يقتضي السُّكونَ، والحَرُّ يقتضي الحركة[7]. ومن الأصل الآخر وهو: التَّمَكُّنُ، يُقَالُ: قَرَّ، وَاسْتَقَرَّ[8]. وَصَارَ الْأَمر إِلَى قراره ومستقرِّه: تناهى وَثَبت[9]. وبمعنى الثَّبات هذا (استقرَّ). وكلُّ (مستقرٍّ) بفتح القاف مصدرًا أو مكان استقرار، وبكسرها اتِّصافًا بالاستقرار[10]. وهو معنى اللَّفظة في الآية الكريمة.

4) ﴿تَجَلَّىٰ﴾: (جلي) أَصْلٌ وَاحِدٌ، وَقِيَاسٌ مُطَّرِدٌ، وَهُوَ انْكِشَافُ الشَّيء وَبُرُوزُهُ[11]. فأصلُ الجَلْوِ: الكشفُ الظاهر، يقال: أجليْتُ القومَ عن منازلهم، فجلَوا عنها، أي: أبرزْتُهم عنها، ويقال: جلاه، وأمرٌ جليٌّ: واضحٌ. وتقول: أَجْلِ لنا هذا الأمرَ، أي: أوضِحْهُ[12]. وقول الله ﷻ: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ﴾. أي: ظَهَرَ، وبَانَ، وقال الحسن: تجلَّى، أي: بدا للجبل نُورُ

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (رأي).
(2) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (رأي).
(3) ابن الأثير، النّهاية: (رأى).
(4) الرّاغب، المفردات، والزّبيديّ، تاج العروس: (رأى).
(5) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (رأى).
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (قرّ).
(7) الرّاغب، المفردات: (قرر).
(8) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (قر).
(9) ابن سيده، المحكم: (قرر).
(10) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (قرر).
(11) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (جلو).
(12) الخليل، العين: (جلو).

العَرش[1]. جلا الشَّيءُ، والأمرُ وانجلى وتجلَّى بنفسه أو بغيره وجلاه فتجلَّى؛ إذا انكشف وظهر ووضح بعد خفاء في نفسه ذاتيٍّ أو إضافي أو خفاءٍ على مجتليه وطالبِه[2].

5) ﴿دَكًّا﴾: (دكّ) أَصْلَانِ: أَحَدُهُمَا يَدُلُّ عَلَى تَطَامُنٍ وَانْسِطَاحٍ، وَمِنْهُ الْأَرْضُ الدَّكَّاءُ: وَهِيَ الْأَرْضُ الْعَرِيضَةُ الْمُسْتَوِيَةُ، وَمِنْهُ النَّاقَةُ الدَّكَّاءُ، وَهِيَ الَّتِي لَا سَنَامَ لَهَا[3]. والدَّكُّ: كَسرُ الْحَائِط والجبل[4] وهدْمُهما، ودكَّ الأَرْض دكًّا: سوَّى صعودَها وهبوطَها، ودكَّ التُّرَابَ: كبسه وسوَّاه[5]. والدَّكُّ: الأرضُ اللَّينة السَّهلةُ، ودُكَّتِ الأرضُ، أي: جُعلت بمنزلة الأرض اللَّينة[6]. فالدَّكُّ هو الضَّغطُ الشَّديد على شيءٍ متماسك من أعلى حتى يتداخل غائرًا ويستوي سطحُه بما حوله وبأسفل منه[7]. وبه تُفَسَّرُ اللَّفظة في الآية الكريمة.

6) ﴿وَخَرَّ﴾: (خرّ) أَصْلٌ وَاحِدٌ، وَهُوَ اضْطِرَابٌ وَسُقُوطٌ مَعَ صَوْتٍ[8]. فأَصلُه سُقُوطٌ يُسمَع مَعَه خريرٌ، والخريرُ يقال لصوت الماء والرِّيح وغير ذلك ممَّا يَسقط من علوٍّ[9]. ثمَّ كَثُرَ حَتَّى استُعمِل في مُطْلَقِ السُّقُوط[10]. فخَرَّ: سقط، ووَقع، وهوى من علوٍّ إِلَى سفلٍ، وقيل: خَرَّ: مَاتَ، وَذَلِكَ لِأَنَّ الرَّجل إِذا مَاتَ خَرَّ[11]. ودلالتهُ على لفظة ﴿وَخَرَّ﴾ في الآية الكريمة بعيدٌ - واللّه أعلم - والمعنى الأنسبُ ما ذُكر قبلُ من معنى السُّقوط المصاحب للصَّوتِ سقوطًا بقُوَّةٍ واسترسال، وتكرارٍ في الإلقاء لتسيُّبِ أثنائه[12].

7) ﴿صَعِقًا﴾: (صعق) أَصْلٌ وَاحِدٌ يَدُلُّ عَلَى صَعْقَةٍ وَشِدَّةِ صَوْتٍ[13]. والصَّعِقُ: المغْشِيُّ عليه. صَعِق صَعقًا: غُشِي عليه من صَوْتٍ يسمعه أو حِسٍّ أو نحوه[14]. وقيل: صَعِقَ، إِذَا مَاتَ،

(1) الرّاغب، المفردات: (جلو).
(2) محمد رضا، تفسير المنار: 9/108.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (دك).
(4) الخليل، العين: (دك).
(5) ابن سيده، المحكم: (دكك).
(6) الرّاغب، المفردات: (دكك).
(7) الشَّعراويّ، تفسير الشَّعراويّ: 7/4344، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (دكك).
(8) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (خر).
(9) الرّاغب، المفردات: (خر).
(10) الزّبيدي، تاج العروس: (خر).
(11) ابن سيده، المحكم: (خر).
(12) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (خر).
(13) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (صعق).
(14) الخليل، العين: (صعق).

كَأَنَّهُ أَصَابَتْهُ صَاعِقَةٌ[1]، واستُبعِد هذا المعنى في قَوْله تَعَالَى: ﴿وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾ فَإِنَّمَا هُوَ غشْيٌ لَا موت، لقَوْله تَعَالَى بعد هَذَا: ﴿فَلَمَّآ أَفَاقَ﴾ وَلم يقل: فَلَمَّا نُشِرَ؛ لأنَّه يُقَال للَّذي غُشِي عَلَيْهِ وَالَّذِي يذهب عقلهُ: قد أَفَاق[2]، ومن هنا فمعنى ﴿صَعِقًا﴾ في الآية الكريمة مغشيًّا عليهِ، وهو يناسب لفظَ الإفاقة كما ذُكِرَ.

8) ﴿أَفَاقَ﴾: (أفق) أَصْلٌ وَاحِدٌ عَلَى بُلُوغِ النِّهَايَةِ[3]. والإفاقة بلوغ نهاية المغشيِّ عليه؛ فكلُّ مغشيٍّ عليه إذا انجلى عنه عارض غيبوبته؛ أفاق واستفاق[4]. والاستفاقةُ: استفعالٌ، من أفاق إذا رجع إلى ما كان قد شَغَلَ عنه، وعاد إلى نفسه، ومنه: إفاقةُ المريض، والمجنون، والمُغْشَى عليه، والنائم[5]. فالإفاقةُ رجوعُ العقلِ والفهم إلى الإنسان بعد ذهابِهما بسببٍ من الأسباب[6]. فيصحو، وينجلي العارضُ عنه[7].

9) ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾: التَّسْبِيحُ: تنْزيهُ اللّه تعالى عمَّا لا يَليق به، أي: أُنَزِّهُك يَا ربُّ من كلِّ سُوءٍ وأُبرِّئُك، وأصْلُه: المَرُّ السَّريعُ في الماء، وفي الهَواء، وفي عبادة اللّه تعالى، ثم جعل التسبيح عامًّا في العِبَاداتِ قولًا كان، أو فِعْلًا، أو نِيَّة[8]. وغالبُ ما في القرآن من التَّرْكِيب تُفسَّر فيه (سَبَّحَ)، وتصْريفُها: بالتَّنْزيهِ والبَراءَة من أنْ يُنسَب إليه تعالى ما لا يَلِيْقُ به: كالشَّريك، أو الولَد، أو نحوه، وأنْ يَخْلقَ شَيئًا بَاطِلًا، وأن يُرَى بالبَصَرِ، وأنْ تَعْلَمَ ملائكتُهُ مَا لَمْ يُعَلِّمْهُمْ إيَّاه، وأن يَخْفَى عَلَيْهِ مَكْرُ شَرٍّ، وأنْ يَتَخَلَّفَ وَعْدُه[9].

المَعْنى الإجْماليُّ:

لما جاء موسى عليه السلام لميقات اللّه تعالى، في الوقت المحَدَّدِ وهو تمام أربعين ليلة، ونال فضيلةَ تكليمِ اللّه تعالى له بدون واسطة، فسمع ما لم يكن يسمَعُ قبل ذلك، من وَحْيِ اللّهِ

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (صعق).
(2) الأزهريّ، التّهذيب، وابن سيده، المحكم: (صعق)، ومحمد رضا، تفسير المنار: 9/110.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (أفق).
(4) الخليل، العين: (فوق).
(5) ابن الأثير، النّهاية: (فوق).
(6) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/270.
(7) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (فوق).
(8) الرّاغب، المفردات، والزّبيديّ، تاج العروس: (سبح).
(9) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (سبح).

وأمره ونهيه، استشرفَ لرؤيةِ ذات ليس كمثلها شيءٌ من الذَّوات، ولا في صفاتهِ التي منها كلامُه ﷻ شيءٌ من الصِّفات، طلب إلى الله تعالى أن يمنحَهُ شرفَ رؤيته، ولكنَّ الله تعالى أعلمه بعدم إمكان ذلك، بقوله: لن تراني، أي: لن تقدرَ على رؤيتي في الدُّنيا، ولكي يخفِّفَ عليه ألمَ الردِّ - وهو كليمُه الذي قال له في أوَّل العهد بالوحي إليه: ﴿وَٱصۡطَنَعۡتُكَ لِنَفۡسِي ٤١﴾ [طه: 41] - أراه بعينيه ومجموعِ إدراكه من تجلِّيه للجبل بما لا يَعْلَمُهُ سواه أنَّ المانعَ من جهته هو، لا من الجود الرَّبَّاني، طلب إليه أنِ انظر إلى الجبل، فإن استقرَّ مكانه إذا تجلَّيتُ له؛ فسوف تراني، فلمَّا تجلَّى ربُّه للجبل؛ جعله مستويًا بالأرض، وسقط موسى مغشيًّا عليه، فلما أفاق من غَشْيته؛ نزَّه الله وسبَّحه وتاب إليه من هذا الطلب، وأقرَّ بأنَّه أولُ المؤمنين بالله من قومه[1].

حُضورُ موسَى المِيقَاتِ، وحُظوتُه بالتَّكْلِيمِ، دونَ النَّظرِ إلى العزيزِ الحكيمِ

وترشدُ الآية الكريمة إلى أنَّه لا يمتنع على نبيٍّ عدمُ العلم بتفاصيل الشؤون الإلهيَّة قبل أنْ يُعلمها اللهُ إيَّاه، وقد قال الله لرسوله محمد ﷺ ﴿وَقُل رَّبِّ زِدۡنِي عِلۡمٗا ١١٤﴾ [طه: 114][2]. وتهدي الآيةُ الكريمة أيضًا إلى أنَّ من الإصلاح الأخذَ بالحزم أحيانًا، والأخذَ بالرِّفق، والتَّسامحِ أحيانًا أخرى، ومن الإصلاح عقابُ مستحقِّي العقابِ، ومكافأةِ مستحقِّي الثَّواب، وإكرام مستحقِّي الإكرام.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دَلالةُ الحرفِ (لمّا) على جعْلِ المجيء شَرطًا للتَّكْلِيمِ:

﴿وَلَمَّا﴾ اسميَّةٌ شرطيَّةٌ ظرفيَّةٌ للماضي، وجعل مجيءَ موسى للميقات، وتكليمُ اللهِ إيَّاه شرطًا لحرف ﴿وَلَمَّا﴾؛ لأنَّه كالمعلوم، وجعل الإخبارَ متعلِّقًا بما بعد ذلك، وهو اعتبارٌ بعظمةِ الله وجلاله، فكان الكلامُ ضربًا مِن الإيجاز بحذف الخبرِ عن جملتين؛ استغناءً عنهما

مجيءُ موسَى في وقتِه، أمرٌ حاصلٌ غيرُ مُحتاجٍ للإخبارِ عنه

(1) محمد رضا، تفسير المنار: 9/111، ونُخْبة من أساتذة التَّفسير، التّفسير الميسّر، ص: 167.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/91.

بأنَّهما جُعلتا شرطًا لـ﴿وَلَمَّا﴾؛ لأنَّه جعلَ مجيءَ موسى في الوقت المعيَّن أمرًا حاصلًا غيرَ محتاجٍ للإخبارِ عنه، للعلم بأنَّ موسى لا يتأخَّر ولا يتركُ ذلك، وجعل تكليمَ الله إيَّاه في خلال ذلك المِيْقَات أيضًا حاصلًا غير محتاج للإخبار عن حلوله، لظهور أنَّ المواعدةَ المتضمِّنةَ للملاقاة تتضمَّن الكلام؛ لأنَّ ملاقاةَ اللهِ بالمعنى الحَقيقيِّ غيرُ ممكنةٍ، فليس يحصلُ من شؤون المواعدةِ إلا الكلامُ الصَّادر عن الله تعالى وإرادته وقدرته[1].

عِلَّةُ وُرودِ الفعْلِ (جاءَ) وليس (أتَى):

بيانُ المشقَّةِ الّتي واجَهها موسَى عليه السلام في رِحلَتِهِ إلى جبلِ الطّورِ

سببُ استخدامِ الفعل (جاء) وليس (أتى) في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ﴾؛ أنَّ الفعلَ (جاء) دالٌّ على المشقَّة والصعوبة التي واجهها موسى عليه السلام في رحلته إلى جبل طور، حيث كان يسير في الظَّلام والبَرْد، ولا يدري ما مصيرُه، ولا يعرف مكانَ النار التي رآها: ﴿إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ﴿١٠﴾﴾ [طه: 10]، ويشير إلى المفاجأةِ والدَّهشة التي شعر بها موسى عندما سمع صوتَ ربِّه يخاطبُه من شجرة في الجبل، وأخبره بأنَّه اختاره نبيًّا ورسولًا: ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ مِن شَٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِي ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٠﴾﴾ [القصص: 30]، أمَّا الفعل (أتى)؛ فيدلُّ على السُّهولة واليسر في المجيء إلى شيء أو شخص، ولا يحمل معاني المشقَّة والدَّهشة التي تتطابق مع حالة موسى.

كما أنَّ استخدام الفعل (جاء) يوافق السّياقَ القرآنيَّ الّذي يصف حالةَ موسى بعد أن كلَّمه ربه، وطلب موسى عليه السلام إلى ربِّه أن يراه، فأجابه ربُّه بأنَّه لا يستطيع أن يراه، وأمره بأن ينظرَ إلى الجبل، فإذا استقرَّ مكانه؛ فسيراهُ، فلمَّا تجلَّى ربُّه للجبل؛ جعله دكًّا، وخرَّ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/89.

موسى صَعِقًا، فهذا يدلُّ على عظمة الله تعالى وقدرته وجبروته، وعلى ضعف موسى وحاجته، فالفعلُ (جاء) يتناسَبُ مع هذا المعنى، ويعبِّر عن حالة المشقَّة والصّعوبة التّي واجَهت موسى عليه السلام.

نُكتةُ تَوجيهِ معنَى اللّامِ، في قَوْله: ﴿لِمِيقَٰتِنَا﴾:

تنوّعُ معاني الحروفِ، يدلُّ على سَعةِ اللّغةِ، وحِكمةِ بيانِ التّركيبِ

اللّام في قَوْله: ﴿لِمِيقَٰتِنَا﴾ للاختصاص، فكأنَّه قيل: واختصَّ مجيئُه بميقاتنا، كما تقول: أتيتُه لعشرٍ خلوْنَ من الشَّهرِ[1]. وجعلها ابن هشام بمعنى عند، وجعل ذلك من معاني اللّام، وهو أظهر، والمعنى: فلمَّا جاء موسى مجيئًا خاصًّا بالمِيْقَات، أي: حاصلًا عنده لا تأخيرَ فيه، كقَوْله تعالى: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ﴾ [الإسراء: 78]، وفي الحديث سُئِل رسولُ الله ﷺ أيُّ الأعمال أفضل؟ فقال: «الصَّلَاةُ لوقتها»[2]، أي: عند وقتها، ويجوز جعْلُ اللّام للأجل والعلَّة، أي: جاء لأجل ميقاتنا، وذلك لتضمُّن المِيْقَاتِ معنى الملاقاة والمناجاة، أي: جَاء لأجْلِ مُناجاتنا[3]. وحكمةُ البيانِ الّذي تؤدِّيه لام الاختصاص هنا، على تقدير: (واختصَّ مجيئُه بميقاتنا)، تبيانُ كمال انقياد موسى عليه السلام، بحيثُ لا يتقدَّم مجيئُه على ذلك الوقتِ، ولو مُدَّة يسيرةً، ولا يتأخَّر[4].

دَلالةُ ضَميرِ المتكلِّمِ المعظِّمِ نفْسَه:

إشعارٌ بقيمةِ مُناجاةِ موسَى ربَّه، حيثُ كلّمَه تكليمًا

يتحدَّثُ الله ﷻ عن نفسِه بضمير المتكلِّم العظيم، إشعارًا بقيمة هذه المقابلة الجلَيْلَة التي كرَّم الله بها موسى عليه السلام فكلَّمه فيها تكليمًا مباشرةً دونَ واسطةِ رسولٍ من الملائكة ينقل له كلامَ رَبِّه.

بَلاغةُ الالْتفاتِ في قَوْله: ﴿لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ﴾:

التفتَ من المتكلِّم إلى الغائب بيانًا لمقام الإكرام، والتَّشريف

(1) الزَّمخشريّ، الكشَّاف: 2/151.
(2) البخاريّ، الجامع الصحيح، برقم: (2782)، ومسلم، الصحيح، برقم: (85).
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/90.
(4) القونويّ، حاشيَته على تفسير البيضاوي: 8/494.

بيانُ مَقامِ الإكرامِ والتَّشريفِ، في ذلك القُرْبِ السَّنِيِّ اللّطيفِ

بالتَّكْلِيم من غير واسطةٍ، وصوغُه بلفظ المَاضِي للدَّلالَة على تحقُّق وقوعه، ورسَّخ هذا الإكرامَ التعقيبُ بقَوْله: ﴿رَبُّهُۥ﴾ أي: المحسن إليه بأنواع الإحسان، المتفضِّلُ على قومه بأنواع الامتنان[1].

دَلالةُ التَّعْبِيرِ بلفْظِ التَّكْلِيمِ على طريقِ المجازِ:

تناسُبُ كيفيَّتِهِ إرادتَه تعالى، وعِلْمَه، وحِكْمَتَه

إسنادُ التَّكْلِيم إلى الله مجازٌ مستعملٌ في الدَّلالَة على مراد الله تعالى بألفاظٍ من لغة المخاطَب به بكيفيَّة يوقِن المخاطَبُ به أن ذلك الكلامَ من أثَر قدرةِ الله على وَفْقِ الإرادة ووفق العلم، والحكمة، ونسبتُه إلى الله أنَّه صادر بكيفيَّةٍ غيرِ معتادةٍ لا تكون إلَّا بإرادة الله أنْ يخالفَ به المعتادَ تَشْريفًا له[2].

سِرُّ العُدولِ من أُسلوبِ الوصْلِ إلى أُسلوبِ الفصْلِ:

مجيءُ الكلامِ على طريقِ المحاوَرةِ العَطِرَةِ

قَوْلُه: ﴿قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ﴾ هو جوابُ ﴿وَلَمَّا﴾ على الأظهرِ، فإن قدَّرنا الواوَ في قَوْله: ﴿وَكَلَّمَهُۥ﴾ زائدةً في جواب ﴿وَلَمَّا﴾ كان قَوْلُه: ﴿قَالَ﴾ واقعًا في طريق المحاورةِ، فلذلك فصلَ[3]. وفَصَل أيضًا في قَوْله: ﴿قَالَ لَن تَرَىٰنِي﴾؛ لأنَّه واقعٌ في طريق المحاورةِ أيضًا[4]، فهي مستأنَفَةٌ استئنافًا بيانيًّا، كأنَّه قيل: فماذا قال الله تعالى حين قال موسى ذلك، فكان الجوابُ: ﴿قَالَ لَن تَرَىٰنِي﴾، أي: لن تُطيقَ رؤيتي، وأنتَ في هذه النَّشأة، وعلى الحالة التي أنتَ عليها في هذه الدنيا، فنفيُ الرُّؤْيَة منصَبٌّ على الحالة الدُّنيوية[5].

سِرُّ جَعْلِ ﴿وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ﴾، شَرطًا للأداة ﴿وَلَمَّا﴾:

الإيذانُ بأنَّ التَّكْلِيمَ هو الّذي أطْمعَ موسَى في حُصولِ الرُّؤْيَةِ

لما كلّمه وخصَّهُ بهذه المرتبة؛ طمَحَتْ هِمَّتُه عليه السلام إلى رُتبةِ الرُّؤْيَة وتشوَّق إلى ذلك، فسألَ ربَّه أن يريَهُ نفسَه[6]. وسؤالُه رؤيةَ الله تعالى

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرَر: 3/108.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/90.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/91.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/92.
(5) الشَّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 7/4345.
(6) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/450.

تطلُّعٌ إلى زيادة المعرفة بالجلال الإلهيِّ؛ لأنَّه لما كانتِ المواعدةُ تتضمَّنُ الملاقاةَ، وكانتِ الملاقاةُ تعتمدُ رؤيةَ الذَّات وسماع الحديث، وحصل لموسى عليه السلام أحدُ ركني الملاقاة وهو التَّكْليمُ، أطمَعه ذلك في الرُّكن الثاني، وهو المشاهدة، وممَّا يؤذن بأنَّ التَّكْليم هو الذي أطمعَ موسى في حصول الرُّؤْيَة؛ جعْلُ جملة ﴿وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ﴾ شرطًا لحرف ﴿وَلَمَّا﴾؛ لأنَّ ﴿وَلَمَّا﴾ تدلُّ على شدَّةِ الارتباط بين شرطِها وجوابِهَا، فلذلك يكثر أن يكون علَّةً في حصول جوابها، هذا على جعل ﴿وَكَلَّمَهُۥ﴾ عطفًا على شرطِ لمَّا، وليس جوابَ لمَّا[1].

نُكتةُ العُدولِ عنِ الإضْمارِ إلى الإظْهارِ:

التَّكْليمُ يتعلَّقُ بخصائصِ صِفاتِ رُبوبيَّةِ اللهِ لِعبادِهِ

جاء في قَوْله: ﴿رَبُّهُۥ﴾ وضْعُ الاسم الظَّاهرِ (ربّ) موضعَ الضَّمير، وعدَلَ عنه، ولم يقل: (وكلَّمناه)؛ للدَّلالَة على أن هذا التَّكْليم يتعلَّق بخصائص صفات ربوبيَّةِ اللّه لعباده، التي تستدعي أن يعبدوه وحْدَه إلهًا لا شَريكَ له، في حدود شرائعِه، وأحكامه، ووصاياه، وبياناتهِ التي نزَّلها إليهم. والإظهارُ فيه الإكرامُ بالتعقيبِ بقَوْله: ﴿رَبُّهُۥ﴾ أي: المحسن إليه بأنواع الإحسان، المتفضِّلُ على قومه بأنواع الامتنان[2].

بَلاغةُ الحذْفِ في ﴿رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ﴾:

المحذوفاتُ فيها إشارةٌ إلى لَهْفَةِ موسَى، وشِدَّةِ تَشوُّقِه للقاءِ ربِّه

وأوَّلُ المحذوفات: حرفُ النِّداء (يا) الدالِّ على القُرب، وحذفهُ دلالةٌ على مدى شعور موسى عليه السلام من قُرب اللّه تعالى منه، فـ"أشار بحذف أداة النِّداء إلى غاية القُرب بالإحسان"[3]. وثانيها: الياء من ربِّ تخفيفًا، وثالثها: الحرف المعتلُّ (الياء) من فعل الأمرِ المجزوم الدالِّ على الدُّعاء ﴿أَرِنِيٓ﴾، ورابعها: ضميرَا المخاطَب (أنت)

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/91.
(2) البقاعي، نظم الدُّرَر: 3/108.
(3) البقاعي، نظم الدُّرَر: 3/108.

المستترانِ الفاعلانِ في ﴿أَرِنِيٓ﴾ و﴿أَنظُرۡ﴾. وخامسها: مفعولُ أرني الثاني المحذوفُ لدَلالَة الضمير المجرور عليه في قَوْله: ﴿إِلَيۡكَۚ﴾. وفي حشْدِ هذا الكمِّ من العناصر المحذوفة إشارةٌ إلى لهفةِ موسى، وشدَّةِ تشوُّقِه للقاءِ ربِّه، فاقتصد في الكلام، وأوجز توقًا إلى لُقْياهُ جلَّ في علاه.

دَلالةُ حذْفِ المفعولِ الثّاني من ﴿أَرِنِيٓ﴾:

المحذوفُ معلومٌ، والاستغناءُ بالمذكورِ عنه زيادةٌ في التأدُّبِ مع الله سُبحانَه

تقديرُ الحذف: أرني ذاتك أنظُرْ إليك، يعني مكِّنِّي من رؤيتِك بأن تتجلَّى لي حتى أراك[1]. أو: أرني نَفسَكَ، وإنَّما حذفَ مبالغةً في الأدب، حيثُ لم يواجِهْهُ بالتَّصْريح بالمفعول[2].كأنَّه يعلمُ أنَّه بطبيعةِ تكوينهِ يعرف أنَّه لا يمكن أن يرى اللّه، لكن إن أراه اللّه، فهذا أمرٌ بمشيئة الحَقِّ، وقدَّم موسى الطَّلبَ معلَّقًا بمشيئةِ اللّه وإرادته؛ لأنَّه يعلم أنَّه غيرُ مُعَدٍّ لاستقبال رؤيةِ اللّهِ؛ لأنَّ تكوينَهُ لا يقوى على ذلك[3]. ولذلك حذفَ المفعولَ الثاني، ولم يصرِّحْ به؛ لأنَّه معلومٌ، وزيادةٌ في التأدُّب مع الخالق (ﷻ)[4].

دَلالةُ جُملةِ ﴿رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ﴾:

كمالُ أدبِ موسَى عليه السلام في طلبه الرُّؤْيَةَ الّتي تَليقُ بذاتِ الله تعالى

ولا شكَّ في أنَّ موسى عليه السلام قد سأل رؤيةً تليق بذات اللّه تعالى، بما اتَّصَفَ به من آداب النّبوَّةِ التّي رفعته إلى هذا المقام، وهي مثل الرُّؤْيَة الموعود بها في الآخرة، فكان موسى عليه السلام يحسَبُ أنَّ مثلها ممكنٌ في الدّنيا، حتى أعلمَهُ اللّهُ تعالى بأنَّ ذلك غيرُ واقعٍ في الدّنيا، ولا يمتنع على نبيٍّ عدمُ العلم بتفاصيل الشّؤون الإلهيّة قبل أن يُعلمها اللّهُ إيَّاه، وقد قال اللّه لرسوله محمَّد ﷺ: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدۡنِي عِلۡمٗا ١١٤﴾ [طه: 114][5].

(1) النّسفيّ، مدارك التنزيل: 1/602.
(2) ابن عادل، اللّباب: 9/301.
(3) الشّعراويّ، تفسير الشَّعراويّ: 7/4342.
(4) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 5/371.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/91.

بَلاغةُ تقْديمِ ﴿رَبِّ﴾ على فعْلِ الرُّؤْيَةِ:

في تقديم لفظ ﴿رَبِّ﴾ على قَوْله: ﴿أَرِنِيٓ﴾ تأدُّبٌ في الخطاب معتادٌ من أنبياء الله - عليهم الصَّلَاة والسَّلَام - إذ بدا بذكره باللَّفظ الدَّالِّ على صفات الرُّبوبيَّةِ، المشتملة على التربية، والرعاية، والرحمة، والعطف[1].

تـــأدُّبٌ في الـخـطـابِ، وتـعـطُّـفٌ في الـعِـتـابِ، بـالـسّـمـاحِ بـالـكـلامِ دونَ الرُّؤْيَةِ

دَلالةُ تَكرارِ الرَّاءِ، في ﴿رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ﴾:

حرفُ الرَّاء صوتٌ لثويٌّ مكرَّر مجهور، ويُنطقُ بتكرير ضربات اللّسان على اللّثة تكرارًا سريعًا؛ ولذلك سُمِّي حرف الرَّاء بالصّوت المكرَّر، وتَكرارهُ في هذه الجُمْلَة ثلاثَ مرَّاتٍ، في كلِّ لفظ منها مرَّةٌ واحدة يرسِّخ ما تقرَّر من قَصْديَّة حَشْدِ جَمْعِ المحذوفاتِ في الجُمْلَة من تعجُّل موسى عليه السلام ولهفته للقاء الله تعالى. يُزاد عليه أنَّ حرف الرَّاء شبيهٌ بالحركات، فعند النُّطق به يوجد نوعٌ من حريَّةِ الهواء بسبب الاتِّصال، والانفصال المكرَّرين، ويُحدثُ هذا لِصَوْتِ الرَّاء نوعًا من الوضوحِ السَّمعي، أقوى ممَّا يُحدث مع بقيَّة الأصوات الصَّامتة الأخرى، وممَّا يعزِّز هذا كونُه صوتًا جهوريًّا، ووضوحُ اللفظ وشدَّةُ بيانه بتكرار حرفٍ يحمل هذه الصفاتِ فيه أنسبُ لمقام التَّكْليم مع عظيم الشأن جلَّ وتعالى وتبارك.

نُـطـقُ الـرَّاءِ بتَكريرٍ، تعزيزٌ لـلـتّـشـوُّقِ والـلَّـهْـفـةِ، وأَنْـسـبُ لمقامِ التَّكْليمِ معه سُبحانَه

دَلالةُ حرفِ الجرِّ المضافِ إلى كافِ الخطابِ:

أشار إلى عظمته سبحانه، وعلوُّ شأنِه علوُّ العظمة لا المسافةِ بالتَّعدية بحرف انتهاء الغاية ﴿إِلَيۡكَ﴾ بعد أنْ أشار بحذف أداة النِّداء إلى غاية القُرب بالإحسان، فقال: ﴿إِلَيۡكَ﴾، أي: فأراك[2].

بـيـانُ عـظـمَـتِـه سُبحانَه، وعُلوُّ شـأنِـه عُـلـوُّ العَظَمةِ

دَلالةُ أداةِ النَّصْبِ ﴿لَن﴾:

يستعمل ﴿لَن﴾ لتأبيدِ النَّفْي، ولتأكيد النَّفْي في المستقبل،

(1) الإندونيسّي، الشّامل في بلاغة القرآن: 1/425.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرَر: 3/108.

وهما متقاربانِ، وقد اعتُرِضَ على كونها للتَّأبيد، فتنفي الرُّؤْيَةَ مطلقًا، ووجِّهَ على تعلُّقِ ذلك كلِّه بهذه الحياة المُعبَّر عنها بالأبد، فنفت ﴿لَن﴾ رؤية موسى ربَّه نفيًا لا طمعَ بعده للسائل في الإلحاح والمراجعة، بحيث يَعْلَم أنَّ طِلْبَتَهُ مُتعذِّرةُ الحصول في الحياة الدنيا، فلا دلالة في هذا النَّفْي على استمراره في الدار الآخرة[1]. وقيل: إنَّ تأبيدها إضافيٌّ، أي: بالنسبة للدنيا، وفيها تعليلٌ لعدم قدرة موسى على الرُّؤْيَة[2].

نَفْيُ رُؤْيةِ موسَى ربَّه، نفيًا لا طَمَعَ بعدَهُ للسَّائلِ في الإلحاحِ والمراجَعةِ

عَلَّةُ التَّعْبِيرِ بلفظِ ﴿لَن تَرَىٰنِي﴾:

قال: ﴿لَن تَرَىٰنِي﴾، ولم يقل: (لن تنظر إليَّ) فيكون مطابقًا لقَوْله: ﴿أَنظُرْ إِلَيْكَ﴾؛ لأنَّ النظر لما كان مقدِّمةً للرُّؤية؛ كان المقصودُ هو الرُّؤْيَةَ لا النظر الذي لا رؤية معه[3]، فنفى الرُّؤْيَة لا مقدمتها، وهو (النظر)، الذي هو: التحديق بالعين[4]. وقَوْله: ﴿أَرِنِيٓ﴾ بمعنى: اجعلني متمكِّنًا من الرُّؤْيَة التي هي الإدراكُ علم أنَّ الطِّلْبة هي الرُّؤْيَة لا النظر الذي لا إدراك معه، فقال: ﴿لَن تَرَىٰنِي﴾ ولم يقل: لن تنظر إلي[5].

النَّظرُ مقدِّمةٌ للرُّؤيةِ، والمقصودُ هو الرُّؤْيَةُ ذاتُها، لِتَضمُّنِها الإدراكَ

بَلاغةُ الاسْتِدراكِ بلفْظِ: ﴿وَلَٰكِنِ﴾:

الاستدراكُ المُستفادُ من ﴿وَلَٰكِنِ﴾ في قَوْله: ﴿وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ﴾؛ لرفع توهُّم المخاطبِ الاقتصارَ على نفي الرُّؤْيَة بدون تعليلٍ ولا إقناع، أو أنْ يتوهَّم أنَّ هذا المنعَ لغضبٍ على السَّائل ولمنقصةٍ فيه، فلذلك يعلم من حرف الاستدراك أنَّ بعض ما يتوهَّمه، سيُرفع، وذلك أنَّه أمرَهُ بالنَّظر إلى الجَبَل الذي هو فيه هل يثبُت في مكانه، وهذا يُعْلَم منه أنَّ الجَبَل سيتوجَّه إليه شيء من شأن

رفعُ توهُّمِ الاقتِصارِ على نفْيِ الرُّؤْيَةِ، بدونِ تعليلٍ ولا إقناعٍ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/92.
(2) الشّعراويّ، تفسير الشَّعراويّ: 7/4343.
(3) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/191.
(4) البقاعيّ، نظم الدُّرَر: 3/108.
(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/381.

الجلالِ الإلهي، وأنَّ قُوَّة الجَبَل لا تستقرُّ عند ذلك التَّوجُّهِ العظيم، فيعلم موسى أنَّه أحرى بتضاؤل قواه الفانية، لو تجلَّى له شيءٌ من سُبُحات الله تعالى[1].

عَلَّةُ اتّصالِ الاسْتِدراكِ بما قبْلَه:

اسْتِعْظامُ الإقْدامِ على طلبِ الرُّؤْيَةِ في الحياةِ الدّنيا

لتعظيم أمر الرُّؤْيَة، وأنَّ أحَدًا لا يقوى على رؤية الله تعالى إلَّا إذَا قوَّاه اللهُ بمعونته وتأييده؛ ألا ترى أنَّهُ لَمَّا ظهر أثرُ التَّجلِّي والرُّؤْيَة للجبل اندكَّ؛ فدلَّ ذلك على تعظيمِ أمرِ الرُّؤْيَة[2]، والمعنى: لا تطلب النَّظرَ إلى مُمتَنَعٍ، ولكن عليك بنظر آخر: وهو أن تنظر إلى الجبل الذي يرجِفُ بك وبمن طلبت الرُّؤْيَةَ لأجلهم، كيف أفعل به وكيف أجعله دكًّا بسبب طلبك الرُّؤْيَة؟ لتستعظمَ ما أقدمت عليه بما أريك من عِظَم أثره[3].وفي هذا الاستدراك تسليةٌ لموسى عليه السلام وتلطُّفٌ معه في الخطاب، وتكريمٌ له[4].

وَجْهُ تعليقِ الشَّرطِ، بالحرفِ المشبَّهِ بالفعْلِ (إنْ):

عنْدَ نُدْرةِ وُقوعِ الشَّرطِ، أو تَعذُّرِه، تُستعملُ (إنْ)

علَّق الشَّرطَ بإنْ في قَوْله: ﴿فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى﴾؛ لأنَّ الغالبَ استعمالُها في مقام ندرةِ وقوع الشَّرط أو التَّعريض بتعذُّره، ولَمَّا كان استقرارُ الجَبَل في مكانهِ معلومًا لله انتفاؤهُ؛ صحَّ تعليق الأمر المراد تعذُّر وقوعه عليه بقطْعِ النظر عن دليل الانتفاء[5].

نُكْتَةُ التَّعْبِيرِ بأُسلوبِ التّعريضِ:

بيانُ لَونٍ منَ الكلامِ، نُظِمَ على أُسلوبٍ عجيبٍ

في قوله: ﴿فَسَوْفَ تَرَىٰنِى﴾ تعريضٌ لتحقُّقِ الرُّؤْيَة؛ لوجود ما لا يكونُ من استقرارِ الجَبَل مكانه حتى يدكَّهُ دكًّا، ويسوِّيه بالأرض، وهذا كلامٌ أُدمجَ بعضُه في بعض، ونُظِمَ على أسلوبٍ عجيبٍ، وصوْغٍ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/92.
(2) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/191.
(3) الزَّمخشريّ، الكشَّاف: 2/154.
(4) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 5/371.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/92.

بديعٍ، مِلاكه: التخلُّصُ من النَّظر إلى النظر بكلمة الاستدراك، وتثنية الوعيد بالرجفة الكائنة بسبب طلب النَّظرِ على الشَّريطة في وجود الرُّؤْيَة، أي: قَوْله: ﴿فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى﴾[1]. وذلك إيذانٌ بأنَّ المقصودَ من نظرهِ إلى الجَبَل، أن يرى بيقينٍ عجزَ القُوَّةِ البشريَّة عن رؤيته تعالى.وليس قَوْله: ﴿فَسَوْفَ تَرَىٰنِى﴾ وعدًا بالرُّؤْيَة على الفرض؛ لأن سبقه بقَوْله: ﴿لَن تَرَىٰنِى﴾ أزال طمَعَ السّائل في الرُّؤْيَة، ولكنَّه إيذانٌ بأنَّ المقصود من نظره إلى الجَبَل أن يرى رأيَ اليقين، عجز القُوَّة البشريّة عن رؤية اللّه تعالى بالأحرى، من عدم ثبات قُوَّة الجَبَل، فصارت قُوَّة الكلام: أنَّ الجَبَل لا يستقرُّ مكانه من التَّجلِّي الّذي يحصل عليه، فلست أنت بالذي تراني؛ لأنَّك لا تستطيع ذلك، فمنزلةُ الشَّرط هنا منزلةُ الشرط الامتناعي الحاصل بحرف (لو) بدلالة قرينة السابق[2]، ولذلك عدل عنِ استعمال السِّين للتَّعبير عن بُعد الرُّؤْيَة باللفظ الدالِّ على البُعْد ﴿فَسَوْفَ﴾[3].

سِرُّ التَّعْبِيرِ بصِيغة التَّجلِّي، دون غيره:

يكون التَّجلِّي، والانكشاف، والظّهور بالذّات، وبغير الذّات من صفةٍ، أو فعل يزول به اللَّبْس والخفاء، وفي صيغة التَّجلِّي ما ليس في صيغة الجلاء، والانجلاء من معنى التَّدريج والكثرةِ النّوعيّة أو الشّخصيّة، قال تعالى: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ۝١ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۝٢﴾ [اللّيل: 1 - 2] فاللَّيلُ يغشى النَّهارَ، ويستره، ثمّ يتجلَّى النّهار، ويظهر بالتّدريج، وفي الأحاديث أنَّ للرّبِّ تعالى تجلِّياتٍ مختلفةً[4].

الصّيغة المنتقاة، ذات دلالة تربط المعنى، بمدد النّور، وفيوضات التّجليّات

وَجْهُ التَّعْبِيرِ عنِ التَّجلِّي على طريقِ المجازِ:

التَّجلِّي حقيقةُ الظُّهور وإزالة الحجاب، وهو هنا مجازٌ، ولعلَّه

(1) الزَّمخشريّ، الكشَّاف: 2/155، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/3813 - 82.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/93.
(3) البقاعيّ، نظم الدُّرَر: 3/109.
(4) محمد رضا، تفسير المنار: 9/108.

أريدَ به إزالةُ الحوائلِ المعتادة التي جعلها اللّه حجابًا بين الموجودات الأرضية، وبين قوى الجبروت التي استأثرَ اللّهُ تعالى بتصريفها على مقاديرَ مضبوطةٍ ومتدرِّجة في عوالم مترتِّبة ترتيبًا يعلمه، وتلك الإزالةُ هي التي استعير لها التَّجلِّي المسندُ إلى اللّه تعالى تقريبًا للأفهام، فلمَّا اتَّصلتْ قُوَّةٌ ربانيَّة بالجَبَل تماثلُ اتَّصال الرُّؤْيَة؛ اندكَّ الجَبَل[1]، ولذلك صُعِقَ موسى من انْدكَاكِ الجَبَل لِعِلْمِهِ عليه السلام أنَّه لو توجَّه ذلك التَّجَلِّي إليه؛ لانْتَثَرَ جسمُه فضاضًا[2].

التَّجلِّي إزالةُ الحوائلِ الّتي جعلَها اللهُ حِجابًا بين الموجوداتِ الأرضيَّةِ

دَلالةُ اللّامِ في ﴿لِلْجَبَلِ﴾:

اللَّام في قَوْله: ﴿لِلْجَبَلِ﴾ للاختصاص، وبيَّن بها خصوصيَّتَهُ، وأنَّه تجلَّى قربُه، ولو عبَّر بـ(على) مثلًا؛ لكان أمرًا آخرَ، أي: بأنْ كشفَ للجَبل عمَّا شاء مِن حُجُبِ عظمَتِهِ[3].

القُرْبُ والخصوصيَّةُ، يُحدِّدان مدَى التّجلِّي ودَلالتِه

نُكتةُ الإخبارِ عنِ الجَبَلِ بلفْظِ الدَّكِّ:

الدَّكُّ مصدرٌ، وهو الهدُّ وتفرُّق الأجزاء، كقَوْله ﴿وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ۝٩٠﴾ [مريم: 90]، وقد أخبرَ عن الجَبَل بأنَّه جُعِل دكًّا بصيغةِ التَّشديد للمبالغة في الهدِّ، وتفرُّقِ الأجزاء، والمراد أنَّه مدكوك أي: مدقوق مهدوم[4]. فضلًا عن أنَّ قُوَّةَ الجبلِ وشدَّةَ ثباتِه تُحتِّمان انتقاءَ لفظٍ يناسبُ ذلك شدَّةً، وقُوَّةَ تأثيرٍ، قال الرَّاغب: "فلانٌ جبلٌ لا يتزحزح تصوُّرًا لمعنى الثَّبات فيه"[5]. فصِفةُ الجبلِ الثَّباتُ، والاستقرارُ، والرُّكودُ.

المبالغةُ في الهدِّ، وتفرُّقِ الأجزاءِ، دليلٌ على شِدّةِ الفِعْلِ وهَوْلِه

بَلاغةُ التّشبيهِ البليغِ، في تَوْجيهِ قراءةِ ﴿دَكَّآءَ﴾:

قرأَ الجمهورُ ﴿دَكًّا﴾ بالتَّنوين، وقرأ الكسائيُّ، وحمزة، وخلف: ﴿دَكَّآءَ﴾ بمدٍّ بعد الكاف وتشديد الكاف[6]، والدَّكَّاءُ: الناقةُ التي لا

بين قراءتَيْ (دكًّا) و(دكّاءَ)، تفنُّنٌ في الأداءِ البيانيِّ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/93.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/93.
(3) البقاعيّ، نظم الدُّرَر: 3/109.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/93.
(5) الرّاغب، المفردات: (جبل).
(6) ابن الجزريّ، النّشر في القراءات العشر: 2/271.

سَنام لها، والأرض المستوية، فهو تشبيهٌ بليغٌ، أي: صارَ مكانُ الجبلِ كناقةٍ لا سَنام لها، والظَّاهرُ أنَّ ذلك الذي اندكَّ منه لم يرجع، ولعلَّ آثارَ ذلك الدَّكِّ ظاهرةٌ فيه إلى الآن[1]، فبين القراءتين تفنُّنٌ في الأداء البيانيِّ.

سِرُّ التَّعْبيرِ بالمَاضِي المشدَّدِ، والصِّفةِ المشبَّهةِ:

المبالغةُ في بيانِ حالِ موسَى عليه السلام إعظامًا لأمْرِ اللهِ

﴿وَخَرَّ﴾ فعلٌ ماضٍ مشدَّدٌ دالٌّ على شدَّة السُّقوط على الأرض، ﴿صَعِقًا﴾ مشتقٌّ من اسم الصاعقة، صفةٌ مشبَّهةٌ دالَّةٌ على الهيجان، وعدم الثُّبوت، وعلى ما يُكره أمرُه مِن الشَّدائد، والمُعْسِرات، والأمورُ العارضة في الغالب الَّتي تحصل ويَسْرُعُ زوالها، وعُبِّر بها للمبالغة في بيان حال موسى عليه السلام عند النَّظر إلى الجَبَل، ورسَّخ معنى الهيجانِ، والاضطرابِ، والشِّدَّةِ التي انتابته مجيءُ الجُمْلَة فعليَّةً؛ لتدلَّ على عدم الثَّبات، والاستقرارِ، وفي ذلك قصْدٌ إلى إظهار إعظامهِ تعالى أمرَ الرُّؤْيَة، بإرْجَافِ الجَبَل بطالبيها وجعْلِه دكًّا، وصعقهم، مبالغةً في إعظام الأمر، وكيف سبَّح ربَّه ملتجِئًا إليه، وتاب من إجراء تلك الكلمةِ على لسانهِ، وقال: ﴿وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[2].

إيثارُ التَّعْبِيرِ بالفعْلِ: ﴿وَخَرَّ﴾:

الخرُّ سُقوطٌ مصحوبٌ بصوتِ التَّسبيحِ، ولله تَخِرُّ كلُّ الموجوداتِ

معنى خرَّ: سقط سقوطًا يُسمع منه خريرٌ، واستعمالُ الخرِّ تنبيهٌ على اجتماع أمرين: السقوط، وحصولُ الصَّوتِ منهُ بالتسبيحِ[3]. ولذلك فهو اللَّفظ المناسب لسياق الآية الكريمة بنصِّ الإشارة الى تسبيح موسى عليه السلام وكأنَّ التَّسبيح لازمَه لحظةَ تجلِّي اللهِ عز وجل.

دَلالةُ إظهارِ الحرفِ، وحذْفِه في السِّياقِ:

سُرعةُ الاعتذارِ والتَّوْبَةِ، من أسبابِ القَبولِ، ودواعِي الوصولِ

الفاء في ﴿فَلَمَّآ﴾ حرفُ عطفٍ يفيد التَّرتيبَ، والتَّعقيب، والعَطف

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/93.
(2) الزَّمخشريّ، الكشَّاف: 2/156، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/384.
(3) الرّاغب، المفردات: (خرّ).

من دون مهلةٍ. والإفاقةُ: رجوعُ الإدراك بعد زواله[1]. وعبَّرَ عن سرعة الاعتذار، والتَّوْبَة بحذف الحرف مع قَوْله: ﴿قَالَ﴾.

نُكتةُ التَّعْبِيرِ بالمفعولِ المطلَقِ:

دلالةُ لفظِ التّسبيحِ، على التَّنزيهِ البليغِ لله تعالى، والنِّسبةِ إليه

لفظ ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾ يعني: البراءة والتَّنزيهُ من مطلق السُّوْء، وهو منصوب على المَصْدَر، أَي: على المَفْعوليَّة المُطْلَقة، ونَصْبُه بفِعْلٍ مُضْمَر متروكٍ إظهارُه، تقديرُه: أُسبِّحُ اللّهَ سُبْحَانَه تَسْبِيحًا، ونُزِّلَ سُبْحَانَ مَنْزلةَ الفِعْل، وسَدَّ مَسدَّه، فجعل: السُّبحان، في موضع: التَّسبيح، كما قالوا: كفَّرتُ عن يميني تكْفيرًا، ثم جعل: الكُفْران، في موضع: التَّكفير، وفي ذلك دلالةٌ على التَّنزيه البليغ من جَميع ما لا يليقُ به ممَّا يُنْسَبُ إليه تَعَالَى اللّهُ عن ذلك[2]؛ وذلك أنَّ المَفْعُولَ المُطْلق أقْوى في الدَّلالة على الحَدَثِ من الفعل، وأبلغُ في بيانِ شدَّتِه.

إنْشاءُ الثَّناءِ على الله، والتَّنزيهُ عمَّا لا يليقُ به، دَيْدنُ النّبِيئينَ:

تَنزيهُ اللهِ تعالى من أن تَقْدِرَ أبصارُنا عليه؛ لأنّه تعالى، لا تُدركُه الأبصارُ

وجاء ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾ عوضًا عن فعله، أي: أسبِّحك، لبيان النوعِ، والتَّوْكيدِ، والتعجُّبِ، والاستغفارِ، وإنشاءِ ثناءٍ على اللّه، وتنزيهٍ عمَّا لا يليق به، لمناسبة سؤاله منه ما تبيَّن له أنَّه لا يليق به سؤاله دون استئذانه، وتحقُّق إمكانه، كما قال تعالى لنوح: ﴿فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌۖ﴾ [هود: 46][3]. وكلمة ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾ يُراد بها التنزيهُ للّهِ من حدث رؤيتهِ تعالى، أي: تنزيهًا لك يا ربِّ أن يراك مخلوقُك؛ لأنَّ الرُّؤْيَةَ قدرةٌ بصرٍ على مرئيٍّ، ومعنى: (رأيت الشَّيء)، أي: إنَّ عين البشر قد قدرت على الشَّيء، ولو أنَّنا نحن - المخلوقين - رأينا اللّه بقانون الضَّوء، فهذا يعني: أنَّ أبصارنا

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/94.

(2) سيبويه، الكتاب: 1/353، والأخفش الأوسط، معاني القرآن: 1/207، والزجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 1/499، وابن الأنباري، الزاهر: 1/51، والزّبيديّ، تاج العروس: (سبح).

(3) ابن عاشور، التحرير والتّنوير: 9/94.

تقدِر على ربِّنا وهذا لا يمكن أبدًا؛ لأنَّ المقدورَ لا ينقلب قادرًا، والقادر لا ينقلب مقدورًا[1].

بَلاغةُ التَّعْبيرِ عنِ التَّوْبَةِ بالفعْلِ الماَضِي:

المبالغةُ في تحقُّقِ التَّوْبَةِ، وصِدْقِ وقوعِها

قَوْله: ﴿تُبْتُ إِلَيْكَ﴾ إنشاءٌ لتوْبةٍ من العَوْدِ إلى مثل ذلك دون إذن من الله، وهذا كقول نوح عليه السلام: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِۦ عِلْمٌۖ﴾ [هود: 47]، وصيغة المَاضِي من قَوْله: ﴿تُبْتُ﴾ مستعملة في الإنشاء، فهي مستعملة في زمن الحال مثل صيغ العقود في قَوْلهم: بعتُ وزوَّجتُ؛ للمبالغة في تحقق التَّوْبَة، وصدق وقوعها[2].

وَجْهُ تخصيصِ التَّوْبَةِ بالله تعالى، وحذْفِ مُتعلِّقِها:

في التّوبةِ مزيدُ خُضوعٍ، وتذلُّلٍ، وتأكيدُ صدْقِها، وعُمومِها

وخصَّصَ التَّوْبَةَ به تعالى دون غيره بإتْباع فعل التَّوْبَة بلفظة ﴿إِلَيْكَ﴾ مزيدَ خضوعٍ، وتذلُّلٍ، وتأكيد صدقها، ولذلك أضمرَ متعلَّق التَّوْبَة فتعمُّ، وتستغرق صنوفها، مع أنَّه قد قيل: إنَّه تاب عن إجرائه تلك المقالة العظيمة من غير إذن فيه من الله تعالى[3]، أو من الجراءة والإقدامِ على السؤال بغير إذن[4]، فلفظُ التَّوْبَة يحتمل الإطلاقَ، وهو أنسب في مقام الاستغفار، وطلب الصَّفح، والرِّضا.

دَلالةُ التَّعْبيرِ عن أوَّليَّةِ الإيمانِ على طريقِ المجازِ كنايةً:

التَّعبيرُ عن قُوَّةِ إيمانِه، والمبالغةِ في وصْفِه

وقَوْلهُ: ﴿وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أطلق الأول على المُبَادِر إلى الإيمان، وإطلاقه بهذا النظم مجازٌ شائع مساوٍ للحقيقة، والمراد به هنا وفي نظائره: الكنايةُ عن قُوَّة إيمانه، وشدَّة يقينه، حتى إنَّه يُبادرُ إليه حين تردَّدَ غيرُه فيه، مبالغةً في وصف نفسه عليه السلام.

نُكتةُ التَّعْبيرِ بلفْظِ: ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾:

في قوله: ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ دلالَةٌ على ثبات الصِّفة فيه، وديمومتها،

(1) الشَّعراويّ، تفسير الشَّعراويّ: 7/4345.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/94.
(3) الزَّمخشريّ، الكشَّاف: 2/155.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/270.

وكأنَّ الإيمان صار وصفَه، ولَقبَه، أي: الإيمان باللّه وصفاته، كما يليق به، ولذلك شبَّه الوصف بأفعال السجايا، فلم يذكر له متعلَّقًا[1]. ورسَّخ هذا المعنى صوغُها بالجُمْلَة الاسميَّة الدالَّةِ على الثبوت والرسوخ، وافتتاحُ الجُمْلَة بضمير المتكلم﴿وَأَنَا۠﴾ تأكيدٌ لتوبته، وصدقِ مراده من تعبيره بأوَّليَّة الإيمان.

صارَ الإيمانُ وصْفًا له ﷺ، ولَقبًا

مُناسبةُ التَّعْبِيرِ بلفْظِ الإيمانِ لما قبْلَهُ:

التَّعبير بالإيمان في غاية المناسبة لعدم الرُّؤْيَة؛ لأنَّ شرط الإيمان أنْ يكون بالغيب، وكلُّ هذا تبكيتٌ على قومه، وتبكيتٌ لهم في عبادتهم العِجْل وردعٌ لهم عن ذلك، وتنبيهٌ لهم على أنَّ الإلهيَّةَ مقرونةٌ بالعظمة والكِبَر، وهي بعيدة جدًّا عن ذواتِ الجِسَام لما يعلمُ سبحانه من أنَّهم سيكرِّرون عبادة الأصْنَام[2].

شَرطُ الإيمانِ أن يكونَ بالغيبِ، وهو أنسبُ لعدمِ الرُّؤْيَةِ

وَجْهُ إظْهارِ لفْظِ موسَى ﷺ، وتَكْرارِهِ:

عُدِلَ بلفظ موسى إلى الإظهار في الآيتين الكريمتين، وتكرَّر أربع مرَّات؛ لما في مقام المواعدة، والتَّكْلِيم من تشريفٍ لا يُطاول، ولا يتأتَّى لأيِّ بشر، إلَّا من اصطفاه اللّهُ تعالى من نبيٍّ، أو رسولٍ، ولا شكَّ في أنَّ الإظهارَ المصحوبَ بالتكرار أنسبُ في مقام التَّشريف، والرِّفعة، والسُّموِّ.

الإظهارُ، والتّكرارُ أنسبُ في مقامِ التَّشريفِ، والرِّفعةِ، والسُّموِّ

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الدَّكُّ والدَّقُّ:

ذهب أغلبُ المفسِّرين إلى أنَّ الـ"الدَّكَّ والدَّقَّ أخوانِ"[3]، "والدَّكُّ والدَّقُّ واحدٌ، وهو تفتيت الشَّيء وَسَحْقُهُ، وقيل: تسويتُه بالأرض"[4].

الدَّكُّ تَسويةٌ وانعدامٌ للأثرِ، وهو أدَلُّ على شِدَّةِ الهدْمِ، والدَّقُّ تهشيمٌ، وبقاءٌ لِفُتاتِه

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/94.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرَر: 3/109.
(3) الزَّمخشريّ، الكشَّاف: 2/155.
(4) ابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 9/302.

إلا أنَّ بينهما فرقًا، تحريره في الآتي: الدَّقُّ: كلُّ شيءٍ كسرته قطعةً قطعةً، والدِّقاقُ: فُتات كلِّ شيءٍ دُقَّ[1]. فالدَّقُّ: الكسر والرضُّ في كل وَجه. وَقيل: هُوَ أَن تضرب الشَّيءَ بالشَّيء حَتَّى تهشِّمَه[2]. ويلزم الدَّقَّ والضغطَ الشديدَ دِقةُ سُمك الشَّيء أو تفتته أجرامًا دقيقة، أي بالغة الصِّغر، وكذلك يترتب على الضَّغط تفصِّي الحَبِّ من السَّنابل ونحوها[3]، وقد تقدَّم أنَّ معنى الدَّكِّ: جعْلُ الشَّيء مستويًا، فقَوْلهم: دكَّ التُّرَاب: كبسه وسوَّاه[4]. وهو الضَّغطُ الشَّديد على شيءٍ متماسك من أعلى حتى يتداخلَ غائرًا، ويستوي سطحُه بما حوله وبأسفل منه[5]. وبذا يكون الفارقُ بين اللَّفظين بقاءَ الأثر من انعدامِه، فالدَّقُّ يبقي أثرَ الشَّيء؛ لكونه يحيله بالضغط الشديد والطرق إلى فُتات، فليس شرطًا فيه استواء مادَّته، أمَّا الدَّكُّ فينعدم معه أثرُ الشَّيء بوصفه أصبح مستويًا متداخلًا سطحه مع ما حوله، وأسفل منه.

وجاء في تفسير المنار: إنَّ الفرق بين الدَّقِّ والدَّكِّ: أنَّ الدَّقَّ ما يخبط به الشَّيء ليتفتَّت، ويكون أجزاءً دقيقة، ومنه الدَّقِيقُ، وكان القمح في عصور البداوة الأولى يُدَقُّ بالحجارة، فيكون دقيقًا، ثم اهتدوا إلى الأرْحِيَةِ التي تسحقُه وتطحنُه، وأما الدَّكُّ؛ فهو الهَدْم والخَبْط الذي يكون به الشَّيء المدكوك مستويًا، يقال: أرضٌ مدكوكة، وطريق مدكوكة، ودَكَّ الحفرة والرَّكيَّةَ (أي: البئرُ غيرُ المطويَّةِ) دفنها وطمَّها[6].

وبذا فاختيارُ الدَّكِّ دون الدَّقِّ أنسبُ للمقام؛ لكون الجبل استوى بالأرض، وصار مساويًا لما حولَهُ من الأرضِ المنبسطةِ، وهو أدلُّ على شدَّة الهدم، والزَّوالِ الذي أصابَ الجبلَ، وقُوَّةِ الحدث الذي لم يتحمَّلْهُ نبيُّ اللّه موسى عليه السلام فخرَّ مغشيًّا عليه من هول المشهد.

(1) الخليل، العين: (دق).
(2) ابن سيده، المحكم: (دقق).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (دقق).
(4) ابن سيده، المحكم: (دكك).
(5) الشَّعراويّ، تفسير الشَّعراويّ: 7/4344، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (دكك).
(6) محمد رضا، تفسير المنار: 9/109.

﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي فَخُذۡ مَآ ءَاتَيۡتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ١٤٤﴾ [الأعراف: 144]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

المناسبةُ بين المنعِ منَ الرُّؤيةِ، وبيانِ رحْمةِ اللهِ بمُوسَى، وتَعْدادِ نِعمِهِ عليهِ

هذه الآياتُ نَزَلَتْ في بيانِ بدْءِ وحْيِ الشَّريعَةِ لموسى[1] عليه السلام، فعندما منعَهُ الرُّؤيةَ بعدَ طلبِهِ إيّاها، وقابلَ ذلكَ بمَحاسِنِ الأفعالِ والأقوالِ تَنْزيهًا، وتَسبيحًا، وتوبةً، تشوَّفَ السَّامعُ إلَى ما قوبِلَ بهِ مَنَ الإكرامِ، فاستأنفَ سُبحَانَه الإخبارَ بأنْ عدَّدَ عليهِ مِن وجوهِ نِعمِهِ العظيمةِ، وأمرَهُ أنْ يَشتغِلَ بِشُكرِها، وهذه تسليةٌ منه تعالَى له، عمّا مَنعَهُ[2]، فهوَ خطابٌ لِتدارُكِ قلبِ موسى عليه السلام بغايةِ الرِّفقِ، كأنّه قالَ: يا موسى، إنّي منعتُكَ شيئًا واحدًا وهو الرُّؤيةُ، ولكنّي خَصَصْتُكَ بكثيرٍ مِنَ الفَضَائلِ؛ إذِ اصطَفَيتُكَ بالرِّسَالةِ، وأكرمتُكَ بشرفِ الحالةِ، فاشْكُرْ هذه الجُملَةَ، واعرفْ هذه النِّعمَةَ، وكُنْ منَ الشَّاكِرين، ولا تتعرّضْ لمقامِ الشَّكوَى[3].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱصۡطَفَيۡتُكَ﴾: الصَّادُ والفاءُ والحَرفُ المُعتَلُّ أَصلٌ واحِدٌ يَدُلُّ عَلَى خُلُوصٍ مِن كُلِّ شَوْبٍ، مِن ذَلِكَ الصَّفَاءُ، وهوَ ضِدُّ الكَدَرِ، وصَفوَةُ كُلِّ شيءٍ خالصُه وخَيْرُه. والاصطِفَاءُ: الاختيارُ، افتِعالٌ مِنَ الصَّفْوةِ، ومنه: النّبيُّ المُصطَفَى، والأنبياءُ المُصْطَفُونَ بضمّ الفاءِ: إذا اختاروا، وَمُحَمَّدٌ صَفوَةُ اللّهِ تعالى وخيرَتُهُ مِن خَلقِهِ، ومُصطَفَاهُ صلَّى اللّهُ عليهِ وآلِهِ وسلَّمَ[4]، فاصطِفَاءُ اللّهِ بعضَ عبادِهِ قد يكونُ

(1) محمد رضا، تفسير المنار: 9/104.

(2) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/359، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/385، والبقاعيّ، نظم الدُّرر: 3/109.

(3) القشيريّ، لطائف الإشارات: 1/568.

(4) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (صفو).

بإيجادِهِ تعالى إيّاه صافيًا عنِ الشّوْبِ الموجودِ في غيرِهِ، وقد يكونُ باختيارِهِ وبحُكمِهِ، وإن لم يتعرَّ ذلك مِنَ الأوَّلِ[1]. واختياره كأنَّه أخذَهُ؛ لأنَّه أصفَى جِنسِهِ أو أجودُهُ، وبمعنى: (اصطَفَى) المذكورِ كلُّ (اصْطَفَى) ومضارعُها واسْمُ المفعولِ منها في القرآن[2]، وبها فُسِّرتِ اللّفظةُ في الآيةِ الكريمةِ فَضلًا عن معاني الاجتباءِ والاختيارِ[3].

2) ﴿ٱلشَّٰكِرِينَ﴾: الشُّكرُ: الثَّنَاءُ على الإنسَانِ بِمَعروفٍ يُولِيكَهُ، وَحَقِيقَةُ الشُّكرِ الرِّضَا بِاليَسيرِ. يَقولونَ: فَرَسٌ شَكورٌ، إذَا كَفَاهُ لِسِمَنِهِ العَلَفُ القَلِيلُ[4]. والشُّكرُ: عِرفانُ الإحسانِ، ونشْرُه وحمدُ مُوليهِ[5]. وهو أيضًا: تصوّرُ النِّعَمةِ وإظهارُها، ويضادُّهُ الكُفْرُ، وهو: نِسيانُ النِّعَمةِ وسَترُهَا، وهو الاعترافُ بنِعمَةِ المُنعِمِ على وَجهِ الخُضُوعِ[6]. وهو أيضًا الثَّناءُ على المُحسِنِ بذِكرِ إحسانِه، وَقيلَ: هُوَ عُكُوفُ القَلبِ على مَحَبَّةِ المُنعِمِ، والجَوَارِحِ على طاعَتِه، وجَرَيَانُ اللّسَانِ بذِكرِه والثَّنَاءِ عليهِ، وهو مُشاهَدَةُ المِنَّةِ وحِفظُ الحُرمَةِ[7]، وهو عِرفانُ الإحسانِ لصاحبِهِ ونَشرُهُ (إظهارُه)؛ إذ هو تعبيرٌ عنِ امتلاءِ النّفسِ ورضاها بما قُدِّمَ لها مِن خيرٍ، ونجوعِ هذا الخيرِ فيها[8]، والشُّكرُ ثلاثةُ أضْرُبٍ: شُكرُ القلبِ، وهو تصوّرُ النِّعَمةِ، وشُكرُ اللّسانِ، وهو الثّناءُ على المُنعِمِ، وشُكرُ سائرِ الجوارحِ، وهو مُكافأةُ النِّعمةِ بقَدرِ استِحقاقِهِ[9]، ومَبنَاهُ على خَمسِ قَوَاعِدَ: خُضُوعُ الشّاكِرِ للمَشكُورِ، وحُبُّهُ لَهُ، واعترافُهُ بنِعمتِهِ، والثَّنَاءُ عليهِ بها، وأَن لَا يَستَعمِلَها فيمَا يكرَهُ، هذه الخَمسَةُ هِيَ أَساسُ الشُّكرِ، وبناؤُهُ عليهَا، فإن عَدِمَ مِنهَا واحدَةً اختَلَّت قاعدةٌ مِن قواعِدِ الشُّكرِ، وكلُّ مَن تَكَلَّمَ في الشُّكرِ فإنّ كلامَهُ إليها يَرجِعُ، وعليهَا يَدورُ[10]، وكلُّ ما في القرآنِ مِنَ التّركيبِ هو مِن شُكرِ النِّعمةِ[11].

---

(1) الرّاغب، المفردات: (صفو).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (صفو).
(3) الخازن، لباب التّأويل: 2/247.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (شكر).
(5) الخليل، العين: (شكر).
(6) الرّاغب، المفردات: (شكر).
(7) الزّبيديّ، تاج العروس: (شكر).
(8) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (شكر).
(9) الرّاغب، المفردات: (شكر).
(10) الزّبيديّ، تاج العروس: (شكر).
(11) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (شكر).

المَعْنى الإجْماليُّ:

نِعمةُ اصْطِفَاءِ الله لموسَى عليه السلام، وحثِّه على الشُّكْرِ على الرِّسالةِ والتّكليمِ

يعني أنّ اللّه تعالى قالَ لمُوسى عليه السلام: إنّي اخترْتُكَ، واتَّخذتُكَ صَفوةً، وفضَّلتُكَ، واجتبيتُكَ على النَّاسِ جزاءَ مُقابلتِكَ منعَ الرُّؤيةِ حينَ طلبتَها بمَحاسنِ الأفعالِ والأقوالِ تنزيهًا، وتسبيحًا، وتوبةً؛ فعدَّدَ تعالى عليه نِعَمَهُ الّتي أنعمَ بها عليه، وأمَرَهُ أن يَشتَغِلَ بشُكرِها، كأنَّه قالَ له: إنْ كنتَ مُنِعتَ مِنَ الرُّؤيةِ الّتي طلبتَ فقَد أعطيتُكَ مِنَ النِّعَمِ العظيمةِ كذا وكذا، فلا يضيقَنَّ صدرُك بسببِ مَنعِ الرُّؤيةِ، وانظرْ إلى سائرِ أنواعِ النِّعَمِ الّتي خصَصتُكَ بها، وهي الاصطِفَاءُ على النَّاسِ برِسَالاتي وبكلامي مِن غيرِ واسطةٍ؛ لأنّ غيرَهُ مِنَ الرُّسُلِ مُنِعَ كلامَ اللّهِ تعالى إلّا بواسطةِ المَلَكِ[1]، وخُذْ ما أعطيتُكَ مِن شرفِ الاصطِفَاءِ والنُّبوَّةِ والمُناجاةِ، وكُنْ مِنَ الرّاسخينَ في الشُّكرِ على ما أنعمتُ بهِ عليكَ، فأنتَ أُسوةٌ، وقُدوةٌ لأهلِ زمانِكَ[2].

وتُرشِدُ الآيَةُ الكريمةُ إلى أنّه يجبُ على الإنسانِ المُؤمنِ حين يتلقَّى قضاءَ اللّهِ فيه أنْ يَنْظرَ دائمًا إلى ما بَقِيَ له مِنَ النِّعَمِ لا إلى ما سُلِبَ منها[3].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

سِرُّ العُدولِ عَنِ الوَصْلِ إلى الفَصْلِ:

وُقوعُ القَولِ في مجالِ المُحاوَرةِ والمجاوبةِ، من فَصيحِ البَيانِ

جملةُ: ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ﴾ استئنافيّةٌ بيانيّةٌ؛ إذِ استأنفَ سُبحَانَه الإخبارَ بما منحَهُ إيّاهُ تسليةً له عمَّا منعَهَ، وأمرًا بشُكرِه، مُذكِّرًا إيّاه بنعمِهِ عليه في سِياقٍ دالٍّ على عظيمِ قَدرِهَا، وإيجابِ شُكرِها[4]. وفُصِلَت، ولم تُعطفْ؛ لِوقوعِ القَولِ في طريقِ المُحاورةِ والمُجاوبةِ[5]،

(1) الخازن، لباب التّأويل: 2/247.
(2) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 5/373.
(3) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 7/446.
(4) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 3/109.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/95.

فالآيَةُ الكريمةُ مَسُوقةٌ لتسليتِهِ ﷺ عمّا أصابَهُ مِن عدمِ الرُّؤيةِ، فكأنَّه سُبحَانَهُ يقولُ لهُ: إنّ منعتُكَ الرُّؤيةَ فقد أعطيتُكَ مِنَ النِّعَمِ العظامِ ما أعطيتُكَ فاغتنِمْها، ودُمْ على شُكري[1].

نُكتَةُ التَّعْبيرِ بالنِّدَاءِ مع إظْهارِ المُنادَى:

مُناسبتُهُ مَقامَ التَّسليةِ، وإزالةَ الـرّوعِ، ورفْـعَ الشّأنِ

﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ﴾ تعبيرٌ بالنِّدَاء، وهو: الدُّعَاءُ برفعِ الصّوتِ، والغايةُ منه أنْ يُصغِيَ مَن يُنادَى إلى أمرٍ ذي بَالٍ، والمُنَادَى هو المطلوبُ إقبالُهُ بحرفٍ مخصُوصٍ دلَّ على القُربِ هنا، وهو: (الياء) بما يحملُهُ مِن توكيدٍ ومُبالغةٍ؛ إذ فيه يُستثارُ المُنَادَى، ويُحرَّكُ، ويُنبَّهُ إلى ما يُلْقى إليه مِن أوامرَ ونواهٍ، فإذا أُلْقِيَ إليه الكلامُ كانَ مُستعِدًّا لتَقَبُّلِه، ولذلكَ عَدَلَ إلى التَّعبيرِ بالنِّدَاءِ. وإظهَارُ المُنَادَى وهو مُوسى ﷺ أنسَبُ لمقامِ العنايةِ بهِ، والتَّسليةِ، والتّأنيسِ وإزالةِ الرّوعِ، وفيه مزيدُ تَشريفٍ أنْ يناديَهُ الخالقُ جَلَّ في عُلاهُ باسمِهِ[2].

بَلاغةُ المَجازِ المُرسَلِ في النِّدَاء:

نِـداءُ الكليمِ في مقامِ التّكليمِ، تَكليفٌ وتَشريفٌ

ولأنّ النِّدَاءَ هو الكلامُ الدّالُّ على طلبِ الإقبالِ، وأصلُهُ: جَهرُ الصَّوتِ لإسماعِ مَن يُنادَى، أطلقَ على طَلَبِ إقبالِ أحدٍ مَجازًا مُرْسَلًا، ومنهُ هذا النِّدَاءُ ﴿يَٰمُوسَىٰٓ﴾ من خلالِ الكلامِ المُوجَّهِ إليهِ ﷺ مِن جانبِ اللّهِ تعالى[3].

تَوْجيهُ التّوكيدِ بالحرفِ المُؤكِّدِ (إنّ):

المبالغةُ بالعِنايةِ بـالمـرسَـلِ، والاهتمامِ بحالِهِ وتَميُّزِه

وتأكيدُ الخبرِ في قولِهِ: ﴿إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ﴾ بجملةٍ فعليّةٍ متضمّنةٍ ضَميرَ المُتَكلِّمِ؛ للاعتناءِ بشأنِهِ، وللاهتمامِ بموسى ﷺ بعد أنْ راعَهُ مَشهَدُ الدَّكِّ؛ إذ ليسَ مَحَلًّا للإنكارِ، ولِيستحثَّهُ تعالى على المطلوبِ

(1) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 5/373.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/95.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/127 - 128.

منهُ[1]؛ أي: اخترتُكَ اختيارًا بَالِغًا كما يُختارُ ما يُصَفَّى مِنَ الشَّيءِ عَن كُلِّ دَنَسٍ[2].

سِرُّ العُدولِ عنِ التَّعْبيرِ بضَميرِ التَّعْظيمِ:

وعَدَلَ عَنِ التَّعبيرِ عَن نفسِهِ بمَظهَرِ العَظَمَةِ بضَميرِ التَّعظيمِ (إنَّا) إلى ياءِ المُتَكَلِّمِ؛ تأنيسًا لهُ، ورفقًا بهِ، ومزيدَ دلالةٍ على القُربِ منهُ، والتّشريفِ لهُ، فقالَ: ﴿إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ﴾[3].

المبالغةُ في القُرْبِ، تأنيسًا ورِفقًا، بهذا الرّسولِ المُكَرَّمِ

سِرُّ اختيارِ لفْظِ ﴿ٱصۡطَفَيۡتُكَ﴾ دونَ سِواه:

لفظُ (اصْطَفَى) أصلُهُ: اصتَفَى وهو افتَعَلَ مِن صَفَا يَصفُو انقَلَبَتِ التّاءُ طاءً لمكانِ الصّادِ، ومعناه: تَخَيَّرتُكَ وخَصَصتُكَ، ولا تُستعمَلُ إلّا في الخيرِ والمِنَنِ، لايُقالُ: اصطَفَاهُ لِشَرٍّ[4]. فالاصطِفَاء صيغةُ مُبالَغةٍ في الإصفاءِ، وهو مُشتَقٌّ مِنَ الصَّفْوِ، وهو الخُلُوصُ ممّا يُكَدِّرُ[5].

لا يُستعمَلُ الاصْطفاءُ إلّا في الخَيرِ والامْتنانِ، دونَ الأذَى والهَوانِ

تَوجيهُ تَعْدِيةِ الاصْطِفَاء بحرفِ الجرِّ ﴿عَلَى﴾:

الفعل (اصطفى) يتعدَّى بـ(من) نحو: (اصطَفَيتُك مِنَ النَّاس)، لكنّه ضُمِّنَ معنى (التّفضيلِ، والإيثارِ)، فعُدِّيَ بـ﴿عَلَى﴾؛ أي: فَضَّلتُكَ وآثرتُكَ بالاصطِفَاءِ أو اصطَفَيتُكَ مُفَضِّلًا، ومُوثِرًا إيّاكَ على النَّاسِ مِن أهلِ زمانِكَ بالرِّسَالةِ[6]، فدلَّ على إرادةِ جِماعِ المَعَنيينَ، وتحريرُ ذلك: أنّ استعمالَ الفعلِ (اصطَفَى) في هذا المَوضِعِ فيه قصدٌ إلى معنىً مُعيَّنٍ لا يتأتّى مِن دونِ ذكرِهِ. إلّا أنّ تعديتَهُ بغيرِ الحرفِ المُستعمَلِ معهُ فيهِ ضربٌ مِنَ التّوسُّعِ في المعنى مع غايةِ الإيجازِ، ومُؤَدَّاهُ أنّ للفعلِ دلالةَ أصلِ معناه، وباستعمالِ حرفِ الجرِّ الّذي

في الاصْطفاءِ تفضيلٌ مُلمَحٌ، وثناءٌ مُفصِحٌ

(1) الآلوسي، روح المعاني: 9/55، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/95.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 3/109.
(3) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 3/109.
(4) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/452.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/95.
(6) السّمين الحلبيّ، الدُّرُّ المصون: 3/128، ومحمد رضا، تفسير المنار: 9/111، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/95.

يتطلَّبُ فعلًا آخرَ يصبحُ للمُعادلةِ وجهان مُتكامِلان؛ إذ يؤدّي الفعلُ أصلَ مَعناهُ بالتّصريحِ بهِ، ويقتضي حرفُ الجرِّ معنى الفعلِ الّذي يطلبُهُ بالتّضمينِ، وهذه قاعدةٌ شريفةٌ جليلةُ المِقدَارِ تستدْعي فِطْنَةً، ولَطَافَةً في الذّهنِ[1].

دِقّةُ التَّعبيرِ بلفْظِ ﴿ٱلنَّاسِ﴾، دونَ غيرِهِ:

في لفْظِ النّاسِ، رَفعُ توهُّمِ إرادةِ الاصْطِفَاءِ، على غيرِهِم

والتَّعبيرُ بلفظِ ﴿ٱلنَّاسِ﴾ فيه دِقّةٌ، وبيانٌ، فلم يَقُلْ: على الخَلْقِ، ولا اصطَفَيتُكَ فقط؛ لأنّه لو قالَ ذلكَ فقد يُفهَمُ الاصطِفَاءُ على الملائكةِ أيضًا؛ لأنَّ الملائكةَ تَسمَعُ كلامَ اللّهِ مِن غيرِ واسِطَةٍ، فَضْلًا عن أنّه أرسلَهُ وأرسلَ غيرَهُ، ولكنّ الاصطِفَاءَ هنا مُحدَّدٌ في دائرةِ الاصطِفَاءِ البشريِّ، وعلى النَّاسِ المُرسَلِ إليهم[2].

دَلالةُ العُمومِ مع إرادةِ الخُصوصِ، في لفْظِ ﴿ٱلنَّاسِ﴾:

تفضيلُ موسَى بالرِّسَالةِ مع الكلامِ بغيرِ وَاسِطةٍ، من أَعْظمِ التّكريمِ

وقولُهُ: ﴿عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ لفظٌ عامٌّ فيمَن شارَكَ موسى في الإرسَالِ، فإنَّ الأنبياءَ المُرْسَلينَ كلَّهُم مُشاركونَ لهُ بكونِهِم رُسُلًا، فـ(أل) فيه جنسيّةٌ للاستغراقِ العُرفيِّ؛ أي: هو مُفضَّلٌ على النَّاسِ يومئذٍ؛ لأنّه رَسُولٌ، ولِتفضيلِهِ بمزيّةِ التَّكليمِ، لكنّ معناه الخُصُوصُ؛ أي: على أهلِ زمانِكَ، أو يَبقى على عُمُومِهِ المُطلَقِ؛ ويعني: أنَّهُ خصَّهُ من دونِ النَّاسِ بمَجموعِ الأَمرَينِ: وهو الرِّسَالةُ مع الكلامِ بغيرِ وَاسِطةٍ، وهذا المَجموعُ لم يحصلْ لغيرِهِ. ويُحمَلُ ذلك على وقوعِ الكلامِ في الأرضِ؛ إذ ثَبَتَ أنَّ آدَمَ نَبِيٌّ مُكَلَّمٌ، وتُؤُوِّلَ على أنّ ذلكَ في الجنَّةِ وكذلك رسُولُنا مُحمّدٌ ﷺ؛ إذ يَظهَرُ من حديثِ الإسراءِ أنّهُ كلَّمَهُ اللّهُ تعالى[3].

---

(1) ابن القيّم، بدائع الفوائد: 2/258.

(2) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/359، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 7/280، والشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 7/4345 - 4346.

(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/452، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/385، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/95.

سِرُّ التّفريقِ بينَ اصْطفاءِ مُوسَى عليه السلام، واصطِفَاءِ غيرِهِ:

زيادةُ شرفِ الكلامِ، من بابِ اصْطفاءِ الاصْطفاءِ

إنَّ الحَقَّ ﷻ قد اصطَفَى غيرَهُ أيضًا مِنَ الرُّسُلِ، كما قالَ سبحانَهُ: ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحٗا وَءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمۡرَٰنَ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ٣٣﴾ [آل عمران: 33]، فهناك فَرقٌ بينَ اصطِفَاءِ رسالةٍ مُنفرِدَةٍ، وبينَ اصطِفَاءٍ في رسالةٍ، ومعَها شيءٌ زائدٌ، فالاصطِفَاءُ هنا لمُوسى بالرِّسَالةِ كما اصطَفَى غيرَهُ مِنَ الرُّسُلِ علاوةً على شرفِ الكلامِ: ﴿ٱصۡطَفَيۡتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي﴾[1].

نُكتَةُ تقديمِ (الرّسالاتِ)، على (الكلامِ):

مُراعاةُ التّرتيبِ، والتّرقّي إلى الأشْرفِ، مَقامًا واصْطفاءً

وقدَّمَ ﴿بِرِسَٰلَٰتِي﴾ على ﴿وَبِكَلَٰمِي﴾؛ لأنّ الرِّسَالةَ أسبَقُ في الزّمانِ، أو لأنّه انتقلَ من شريفٍ إلى أشرفَ[2]؛ أي: ليترقَّى إلى الأشرفِ[3].

تَوْجيهُ قراءَتَي الجمْعِ والإفرادِ، للفْظِ ﴿بِرِسَٰلَٰتِي﴾:

الجمْعُ وحْيٌ إليه مَرَّةً بعدَ أُخرى، والإفرادُ على إجْرائِه مَجرَى المَصْدَرِ

وقَرَأَ[4] أبو عمرو وابنُ عامرٍ وعاصمٌ وحمزةُ والكسائيُّ ﴿بِرِسَٰلَٰتِي﴾ على الجمعِ؛ إذِ الّذي أُرسِلَ به ضروبٌ، وذلك أنّهُ تعالى أوحى إليه مَرَّةً بعدَ أخرى، فَصَحَّ جمعُ المَصدَرِ لاختلافِ أنواعِهِ. وقرأَ ابنُ كثيرٍ ونافعٌ وغيرُهُما ﴿بِرِسَالَتِي﴾ على الإفرادِ[5] الّذي يُرادُ به الجَمعُ، وتجري الرِّسَالةُ هاهنا مَجرَى المَصدَرِ الّذي هو الإرسَالُ، فيجوزُ إفرادُها في مَوضِعِ الجمعِ[6]، ودلَّ هذا على أنّ قومَهُ لم يُشارِكوهُ في التَّكليمِ ولا وَاحِدٌ مِنَ السَّبعِينَ[7]، أو يكونُ على حَذفِ مُضافٍ؛ أي: بِتبليغِ رِسالَتي؛ لأنّ مَدلولَ الرِّسَالةِ غيرُ مَدلولِ

(1) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 7/4345 - 4346.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/385.
(3) ابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 9/304.
(4) ابن مجاهد، السّبعة، ص: 293، وابن الجزريّ، النّشر: 2/306.
(5) هي قراءة نافع وابن كثير وأبي جعفر وروح، ومثبتة الألف في مصاحف المكيين. يُنظر: الدّانّي، التّيسير، ص: 113، وابن الجزريّ، النّشر: 2/372.
(6) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/452، والفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/192.
(7) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 7/280.

المَصدَرِ[1]. وقولُهُ: ﴿بِرِسَٰلَٰتِي﴾ هي في مَجموعِها رسالةٌ واحدةٌ، ولكنّ الرِّسَالةَ مع سيدِنا رسولِ اللّه ﷺ استمرَّت جزئيّاتُها ثلاثًا وعشرينَ سنةً في النّزولِ، فكأنّ كلَّ نجمٍ رسالةٌ، أو كلَّ بابٍ مِن أبوابِ الخيرِ رسالةٌ، فهي رِسَالاتٌ مُتعدِّدةٌ، أو أنّ رِسَالَتَهُ جَمَعَتْ رِسَالاتِ السّابِقينَ[2]، أو أنّ المُرادَ أوقاتُ التّبليغِ بأنواعِ الأحكامِ، أو أسفارِ التَّوراةِ[3]، فالجمعُ باعتبارِ تعدُّدِ ما أُرسِلَ بهِ مِنَ العقائدِ، والعباداتِ، والتّكاليفِ، والإرشاداتِ، والأحكامِ السّياسيّةِ، والحربيّةِ، والمدنيّةِ، والشّخصيّةِ[4]. ووجهُ الإفرادِ الإرسَالُ مَرَّةً واحدةً، أمّا الجمعُ فعلى المُطابَقةِ، والحُجَّةُ لمَن وَحَّدَ أنَّ اللّه تعالى إنّما أرسلَهُ مَرَّةً واحدةً بكلامٍ كثيرٍ، والحُجَّةُ لمَن جَمَعَ أنّه طابَقَ بينَ اللّفظينِ لتكونَ رِسَالاتي مُطابِقةً لكلامِي[5].

سِرُّ تَكْرارِ حرفِ الجرِّ (الباء) في لفْظِ ﴿وَبِكَلَٰمِي﴾:

وكرَّرَ حرفَ الجرِّ توكيدًا، وتنبيهًا على مُغايرةِ الاصطِفَاءِ للتَّكليمِ عنِ الاصطِفَاءِ للرِّسَالاتِ[6]. وللتَّنبيهِ على أنّ التَّكليمَ كانَ مِن دونِ وَاسطةٍ[7].

التَّكرارُ للمُغايَرةِ، وللتّنْبيهِ على أنّ التَّكليمَ كانَ مِن دونِ وَاسطةٍ

بَلاغةُ التَّعْبيرِ بفعْلِ الأمرِ ﴿وَكُن﴾:

وأمَرَهُ تعالى أن يَأخُذَ مَا آتاهُ مِنَ النُّبوَّةِ؛ لأنَّ في الأمرِ بالأخذِ مَزيدَ تَأكيدٍ وحُصُولَ أجرٍ بالامتثالِ، والمعنى: خُذْ ما آتيتُكَ باجتِهادٍ في تبليغِهِ وجِدَّ في النَّفعِ بهِ[8]، وكذلك الأمرُ مع الفعلِ ﴿وَكُن﴾؛ أي: مِنَ

إيثارُ الأمرِ لتّأكيدِ الامْتِثالِ، مع مَزيدٍ مِنَ التّأديبِ، والتّقْنيعِ له

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/385.
(2) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 7/4346.
(3) ابن عجيبة، البحر المديد: 2/259. وقد ضعّفَهُ الشّيخ رشيد رضا؛ لأنّ التّوراةَ ما أوحاهُ مِنَ الشّريعةِ إلى موسى، وهو موضوعُ رسالتِهِ، وتسميةُ الأسفارِ الخمسةِ بالتّوراةِ اصطلاحيّةٌ، وقد يُطلِقونَها على جميعِ كتبِ أنبياءِ بني إسرائيلَ قبلَ عيسى ﷺ. يُنظر: رضا، تفسير المنار: 9/111.
(4) محمد رضا، تفسير المنار: 9/111، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/95.
(5) ابن خالويه، الحجّة في القراءات السّبع، ص: 163.
(6) ابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 9/304.
(7) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 3/109.
(8) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/385.

المُظهرين لإحساني إليكَ وفَضلِي عليكَ[1]. ولمّا كانَ الشَّاكرُ مُستَجلبًا بشكرِهِ للمزيدِ مِنَ النِّعَم، كما قالَ تعالى: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: 7][2]، أصبحَ ذلكَ نوعًا مِن زيادةِ التّأديبِ، والتَّقنيعِ له، وحملًا على جادَّةِ السَّلامةِ، ومثالًا لكلِّ أحدٍ في حالِهِ، فإنَّ جميعَ النِّعَمِ مِن عندِ اللهِ سُبحَانَهُ بمقدارٍ، وكُلُّ الأمورِ بِمَرأًى منهُ تعالى ومَسمَعٍ[3].

سِرُّ تخْصيصِ الفعْلَين به عليه السلام:

ولمّا كانَ الاصطِفَاءُ مُقتَضيًا لِغايةِ الإقبالِ والنّشاطِ، سبَّبَ عنهُ قولَهُ: ﴿فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ﴾؛ أي: مُخصِّصًا لَكَ بهِ[4]، على تقديرِ الضَّميرِ المُستترِ (أنت) فاعلًا لفعلَي الأمر.

ظاهرةُ الجمْعِ بين الرّسالةِ والتّكليمِ، خرقٌ للمألوفِ مع الرُّسُلِ

دَلالةُ الجمْعِ بينَ الماضي والأمرِ:

ظاهرُ قولِهِ: ﴿فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ﴾ يُنتِجُ تحصيلَ الحاصلِ؛ لكونِ الاصطِفَاءِ والتَّكليمِ قد أوتِيَهُمَا، وأخَذَهُما فكيف يقولُ: خذْ ما آتيتُكَ؟ والجوابُ مِن وجهين: إمّا بالتَّجوُّزِ في لفظِ ﴿فَخُذْ﴾؛ فيكون بمعنى: (اقنَعْ بما آتيتُكَ، ولا تَطلُبْ أكثرَ منه)، وإمّا أنْ تكونَ ﴿ءَاتَيْتُكَ﴾، مَاضيًا بمعنى المُستقبَلِ؛ أي: (ما يأتيكَ مِنَ الوحْيِ)[5].

الجمعُ تجوُّزٌ في اللّفْظِ، أو يكونُ المُضيُّ بمعنَى المُستقبَلِ

بَلاغةُ الاسْتِعارةِ في قولِهِ: ﴿فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ﴾:

استعارَ الأخذَ للرّضى، وحقيقةُ الأخذِ التّناولُ باليَد؛ أي: ارْضَ بما آتيتُكَ[6].

دِقّةُ الاسْتِعمالِ، تدلُّ على ما في ألفاظِ القرآنِ من كمالٍ

بَلاغةُ التَّعْبيرِ عنِ الإيتاءِ، بينَ المَجازِ المُرسَلِ والحقيقةِ:

﴿مَآ ءَاتَيْتُكَ﴾ قيلَ هو الشَّريعَةُ والرِّسَالةُ، فالإيتاءُ مَجازٌ أُطلِقَ

(1) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 7/280.
(2) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 7/280.
(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/452، والثّعالبيّ، الجواهر الحسّان: 3/76، وابن عجيبة، البحر المديد: 2/259.
(4) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 3/110.
(5) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/251.
(6) الأندونيسّي، الشّامل في بلاغة القرآن: 1/425.

على التّعليم والإرشادِ، والأخذُ مَجازٌ في التَّلقّي والحِفظِ، والأظهَرُ أن يَكونَ ما آتيتُكَ إعطاءَ الألواحِ بقرينةِ قولِه: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ﴾، وقد فُسِّرَ بذلكَ، فالإيتاءُ حَقيقةٌ، والأخذُ كذلِكَ، وهذا أليَقُ بِنَظمِ الكَلامِ مع قولِهِ: ﴿فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ﴾، ويَحصُلُ به أخذُ الرِّسَالةِ والكلامِ وزِيادةٌ[1].

الإيتاءُ تعليمٌ وإرشادٌ، أو إعطاءٌ على وجهِ الحقيقةِ

دَلالةُ حذْفِ المفعولِ الثَّاني، مِن قولِهِ: ﴿ءَاتَيْتُكَ﴾:

استغنى بالمفعولِ الأوّلِ مِن قولِهِ: ﴿ءَاتَيْتُكَ﴾، وهو الكافُ مِنَ الفعلِ المُعدَّى بالألفِ (آتيت)، ولم يُعَدِّهِ إلى مفعولِهِ الثّاني، وهو الضَّميرُ العائدُ على الاسمِ الموصولِ (ما) لإعمامِ ما آتاهُ، واستغراقِ أنواعِهِ تفَضُّلًا ومِنَّةً، يُؤكِّدُ ذلك التَّعبيرُ بالاسمِ الموصولِ (ما) الدّالِّ على العُمُومِ.

في عمومِ الإيتاءِ تفضُّلٌ غامِرٌ، يَنِمُّ عن أسمَى المآثِرِ

بَلاغةُ التَّعْبيرِ عنِ الشُّكْرِ، بصيغةِ اسْمِ الفاعلِ:

وقولُهُ: ﴿وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾؛ أي: كُنْ مِنَ العَريقِينَ في صفةِ الشُّكرِ المَجبُولِينَ عليها[2]، مَعدودًا في عِدادِ الشَّاكِرِينَ بأن يكونَ لك إسهامٌ كاملٌ فيهم، وحاصِلُهُ: كُنْ بَليغَ الشُّكرِ؛ فإنَّ ما أنعَمتُ بهِ عليكَ مِن أجَلِّ النِّعَمِ[3]، فالإخبارُ عَن (كُنْ) بقولِهِ: ﴿مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ أبلَغُ مِن أن يُقالَ: كُنْ شَاكِرًا[4].

صيغَةُ الصِّفَةِ مِنهُ، تَدُلُّ على التَّمَكُّنِ مِنهُ، والرُّسُوخِ فيه

دَلالةُ حذْفِ مُتعلِّقِ الشُّكْرِ، في قولِه: ﴿مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾:

قولُهُ تعالى: ﴿وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾؛ أي: "في الشُّكرِ لِنعمَتي بها عليكَ وعلى قَومِكَ، وذَلِكَ بإقامَتِها بقُوَّةٍ وعَزيمَةٍ، والعَمَلِ بها، وكَذا لِسائِرِ نِعَمِي، فَإنَّ حَذفَ مُتَعَلِّقِ الشُّكرِ يَدُلُّ على عُمُومِهِ"[5].

في الحذْفِ دلالةٌ على عُمومِ الشُّكْرانِ، لِعَطاءاتِ الرّحمنِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/95.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 3/110.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 9/56.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/95، ومحمد رضا، تفسير المنار: 9/112.
(5) محمد رضا، تفسير المنار: 9/112.

جَمالُ الإجْمالِ والتَّفْريعِ في الآيةِ:

فرَّعَ على قولِهِ: ﴿بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي﴾ بقولِهِ: ﴿فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾، والأوّلُ: تَفريعٌ على الإرسَالِ والتَّكليمِ، والثّاني: تَفريعٌ على الامتِنانِ، وما صَدَقَ عليهِ[1]. وفي قولِهِ سُبحَانَه: ﴿وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ إشارةٌ لطيفةٌ، كأنّه قالَ: لا تكُنْ مِنَ الشَّاكينَ؛ أي: إنْ منعْتُكَ عن سُؤْلِكَ، ولم أُعْطِكَ مَطلُوبَكَ فلا تشكِ إذا انصرفتَ[2].

مَلْمَحُ التّفنُّنِ في التَّعْبيرِ، والتّناسُبِ في النَّظْمِ

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الاصْطِفَاءُ، والاخْتِيَارُ، والإيثارُ، والاجْتِباءُ، والاسْتِخلاصُ، والتّفْضيلُ[3]:

الاصطِفَاءُ: مِن صَفَوَ: وهو أَصلٌ وَاحِدٌ يَدُلُّ عَلَى خُلُوصٍ مِن كُلِّ شَوْبٍ وكَدَرٍ[4]. والاصطِفَاءُ تَنَاولُ صفْوِ الشَّيءِ، كما أنّ الاختيارَ تَنَاولُ خيْرِهِ، والاجتباءَ: تَنَاولُ جبايتِهِ[5]. فهو أَخذُ مَا يَصفُو مِنَ الشَّيءِ[6]؛ لِخُلُوِّهِ مِن كُلِّ شَوْبٍ وكَدَرٍ؛ كاصطِفَاءِ آدمَ، ونوحٍ، وآلِ إبرَاهِيمَ، ومُوسَى وَهَارُونَ، ورسولِنا مُحَمَّدٍ، صلّى اللّه عليهم وسلّم وبارك، فهُم صَفوةُ الخَلقِ، وخيارُهُم[7].

الاصْطِفَاءُ أَخذُ صَفْوِ الشَّيءِ، لخُلُوصٍ مِن كُلِّ شَوْبٍ وكَدَرٍ، وهو آثَرُ في السِّياقِ

والاختِيَارُ أخذُكَ خيرَ مَا في الشَّيءِ في الحَقِيقَةِ أَو خَيرَهُ عندَكَ[8]، والمُختارُ هُو المريدُ لخيرِ الشَّيئَينِ في الحقيقَةِ أو خيرِ الشَّيئَينِ عِندَ نَفسِهِ[9]، كَأَنّ المُختَارَ يَنظرُ إِلَى طَرفَينِ، ويميلُ إِلَى أَحدِهمَا[10].

والإيثارُ: هُوَ الاختِيَارُ المُقدَّمُ، فهو تفضيلٌ وتخصيصٌ مع تقديمٍ،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/95.
(2) القشيريّ، لطائف الإشارات: 1/568.
(3) سعد، موسوعة الفروق القرآنيّة: 1/183 - 187.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (صفو).
(5) الرّاغب، المفردات: (صفو).
(6) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 285.
(7) الكفويّ، الكلّيّات، ص: 130.
(8) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 285.
(9) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 124.
(10) الكفويّ، الكلّيّات، ص: 62.

وَلذَا يُقَالُ: آثرتُكَ بِهَذَا الثَّوبِ، وَلَا يُقَالُ: اختَرتُك بِهِ، وإِنَّمَا يُقَالُ: اختَرتُك لهَذَا الأَمرِ[1].

والاجتباءُ: الجمعُ على طريقِ الاصطِفَاءِ[2]، وهو أيضًا: تنَاولُ جابتِهِ؛ أَي: وَسطهُ، وَهُوَ المُختَارُ[3].

والاستخلاصُ: الخَاءُ واللَّامُ والصَّادُ أَصلٌ وَاحِدٌ مُطَّرِدٌ، وَهُوَ تَنقِيَةُ الشَّيءِ وَتَهذيبُهُ[4]، والخالِصُ كالصّافِي إلّا أنّ الخالِصَ هو ما زالَ عنهُ شَوبُهُ بعدَ أنْ كانَ فيهِ[5].

والتّفضيلُ: الفاءُ والضَّادُ واللَّامُ أَصلٌ صَحِيحٌ يَدُلُّ على زِيادَةٍ في شَيءٍ. مِنْ ذَلِكَ الفَضلُ: الزِّيَادَةُ والخَيرُ[6]، فالفضلُ: الزّيادةُ عنِ الاقتصادِ[7]، وفَضَّلَهُ على غيرِهِ: إذا شَهِدَ لهُ بالفضلِ عليهِ، وفضَّلَهُ عليه في العطاءِ؛ أي: زادَهُ، وفاضَلَ بينَ الشّيئينِ مُفاضَلَةً وفضالًا؛ أي: حكَمَ بالفَضلِ لأحدِهما[8]، وكُلُّ عَطِيَّةٍ لَا تلْزمُ مَن يُعطي يُقَالُ لَهَا فَضْلٌ[9].

وعليه، فالاصطِفَاءُ هو أنسبُ الألفاظِ في الدّلالةِ على المُرادِ مِنَ الآيَةِ؛ لكونِهِ اصطِفَاءً لنبيٍّ مُرسَلٍ لا تشوبُ اسمَهُ وسيرتَهُ شائبةٌ، فهو الصَّفوةُ.

الحمدُ والشُّكرُ:

الحمدُ مُختَصٌّ بالصّفاتِ الذّاتيّةِ، ويأتي ابتداءً، والشُّكرُ مُختَصٌّ بالنِّعَمِ، ويأتي اختِتامًا

الشُّكرُ: تصوُّرُ النِّعمةِ وإظهارُها[10]، والشُّكرُ لا يُقالُ إلّا في مُقابلةِ

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّ، ص: 124 - 125.
(2) الرّاغب، المفردات: (جبى).
(3) الكفويّ، الكلّيّات، ص: 130.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (خلص).
(5) الرّاغب، المفردات: (خلص).
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (فضل).
(7) الرّاغب، المفردات: (فضل).
(8) الحميريّ، شمس العلوم: 8/5209.
(9) الكفويّ، الكلّيّات، ص: 675.
(10) الرّاغب، المفردات: (شكر).

نعمةٍ، فكلُّ شُكرٍ حَمدٌ، وليسَ كلُّ حَمدٍ شُكرًا، فالحمدُ للّهِ الثّناءُ عليهِ بالفضيلةِ، وهو أعمُّ مِنَ الشُّكرِ[1]؛ لأنّه يكونُ عَن يَدٍ وَعَن غيرِ يَدٍ، وَالشُّكْرُ لَا يكونُ إِلَّا عَن يَدٍ[2].

والشُّكرُ أَعمُّ من جِهَةِ أَنواعِهِ وأَسبابِهِ، وأَخَصُّ من جِهَةِ مُتَعلَّقاتِهِ، فالحَمدُ أَعَمُّ مِن جِهَةِ المُتَعَلِّقاتِ، وأَخَصُّ مِن جِهَةِ الأَسبابِ؛ لأَنّك تَحمَدُ الإنسانَ على صِفَاتِهِ الذَّاتيَّةِ وعلى عَطَائِهِ، ولَا تَشكُرُهُ على صِفَاتِهِ، فلَا يُقَالُ: شَكَرْنا اللّهَ على حَيَاتِه وسَمعِهِ وبَصرِهِ وعِلمِهِ، وَهُوَ المَحمُودُ بهَا، كَمَا هو مَحمودٌ على إِحسانِهِ وعَدْلِهِ. والشُّكرُ يكونُ بالقَلبِ خُضُوعًا واستكانَةً، وباللِّسانِ ثَنَاءً واعترافًا، وبالجوارِحِ طاعَةً وانقِيادًا، فهو إِظهارُ النِّعَمةِ والإِشادةُ بِهَا، ويكونُ على الإِحسانِ والنِّعَمِ، فكلُّ مَا يَتَعَلَّقُ بِهِ الشُّكرُ يَتَعَلَّقُ بِهِ الحَمدُ، مِن غَيرِ عَكْسٍ، وكُلُّ مَا يَقَعُ بِهِ الحَمدُ يَقعُ بِهِ الشُّكرُ، مِن غيرِ عكْسٍ، فإِنّ الشُّكرَ يَقَعُ بالجَوَارِحِ، والحَمْدَ بِاللِّسَانِ[3].

وممّا يَلفتُ النّظرَ أنّ الحمدَ في القرآنِ يأتي بَدْءًا، أمّا الشُّكرُ فيأتي بعدَ ذكرِ النِّعَمِ مُختَتَمًا بِهِ الآياتُ الكريمةُ، ممّا يدُلُّ على أنّ الحمدَ لِمُطلَقِ الثّناءِ، وأنّ الشُّكرَ يكونُ مُكافأةً لِمَن أولاكَ مَعرُوفًا[4].

ومِن هنا كانَ اختيارُ الشُّكرِ مَقصودًا في مُختتَمِ الآيَةِ الكريمةِ بلفظِ ﴿ٱلشَّٰكِرِينَ﴾؛ لكونِهِ جاءَ بعدَ تَعدادِ نِعَمِهِ تعالى على رسولِهِ مُوسى عليه السلام بالاصطِفَاءِ، والتَّكليمِ، والرِّسَالاتِ.

(1) الرّاغب، المفردات: (حمد).
(2) ابن سيده، المحكم: (حمد) و(شكر).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (حمد)، والزّبيديّ، تاج العروس: (شكر).
(4) الدّوريّ، دقائق الفروق اللّغويّة، ص: 198.

﴿وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا ۚ سَأُورِيكُمْ دَارَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴿١٤٥﴾﴾ [الأعراف: 145]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

بيانُ بعضِ مَظاهرِ تشْريفِ مُوسَى الكليمِ بالرّسالةِ، بعدَ ذِكْرِ اصْطفائِهِ

ولمّا انقضى ما آنسه سُبحَانَه به، لَفَتَ مُوضِّحًا عظيمَ ما آتاهُ مِن مَظاهرِ التّشريفِ والعظمةِ، مُبيِّنًا تلكَ الرِّسَالةَ، ومُفصِّلًا بعضَ ما كانَ مِنَ النِّعَمِ[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلْأَلْوَاحِ﴾: اللَّامُ والواوُ والحاءُ أَصلٌ صَحيحٌ، مُعظَمُهُ مُقَارَبَةُ بَابِ اللَّمَعَانِ. يُقَالُ: لَاحَ الشَّيءُ يَلُوحُ، إِذَا لَمَحَ وَلَمَعَ، وَالمَصدَرُ اللَّوحُ، وهو: الوَاحِدُ مِن أَلوَاحِ السَّفينَةِ؛ وَهُوَ أيضًا كُلُّ عَظم عَريضٍ. وَسُمِّيَ لَوْحًا لِأَنَّهُ يَلُوحُ[2]. المعنى المحوريُّ عِرَضُ ظاهرِ الشَّيءِ واستواؤُهُ مع جفافٍ أو صَلابةٍ. وعِرَضُ الظّاهرِ واستواؤُهُ يَلزمُهُ زيادةُ ظهورِهِ ولمعانِهِ[3]. وهذا بيانُ علاقةِ اللّفظِ بأصلِهِ. فاللّوْحُ: كلُّ صحيفةٍ عَريضةٍ مِن صفائحِ الخشبِ والعظمِ، ونحوهما[4]، وبذا يكونُ معنى الأَلوَاحِ في الآيَةِ الكريمةِ جَمعَ لَوحٍ بِفتحِ اللّامِ، وهو قِطعَةٌ مُرَبَّعَةٌ مِنَ الخشبِ، يُكتَبُ عليها[5].

2) ﴿مَّوْعِظَةً﴾: الوَاوُ والعَينُ والظَّاءُ كَلِمَةٌ وَاحِدَةٌ. فَالوَعظُ: التَّخويفُ. والعِظَةُ المَوعظةُ الاسمُ مِنهُ، وهو تذكيرُكَ إيّاهُ الخيرَ

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 3/110.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (لوح).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (لوح).
(4) الخليل، العين، والرّاغب، المفردات، والزّبيديّ، تاج العروس: (لوح).
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/96.

ونحوَهُ ممّا يرقُّ له قلبُهُ، ويلينُ مِن ثَوَابٍ وعِقابٍ[1]. والوَعظُ: النُّصحُ والتّذكيرُ بالعَواقبِ[2]، وهوَ أيضًا: زَجرٌ مُقترِنٌ بتخويفٍ[3]. ومِن معانيه أنْ لا تُنشئَ حُكمًا للسّامعِ، بل تَعظه بتنفيذِ ما عُلِمَ له مِن قبل[4]. والموعظةُ على هذا (كلامٌ أو عملٌ) يُنَبَّهُ به الإنسانُ إلى عواقبِ ما يفعلُهُ، أو ما هو مُقْدِمٌ عليه (لِيتوقَّفَ عنه)، كما هو واضحٌ في معنى الوعظِ. وقَيْدُ التَّوقُّفِ يُؤخَذُ مِنَ التّذكيرِ بالعَواقبِ، وكأنّ الأصلَ في معنى التّركيبِ أنَّه خاصٌّ بالزّجْرِ عمَّا له عواقبُ سيّئةٌ حسْب، ثمّ عُمِّمَ في الحضِّ على ما له ثوابٌ[5].

3) ﴿بِقُوَّةٍ﴾: القَافُ والوَاوُ واليَاءُ أَصلَانِ مُتَبَايِنَانِ، يدُلُّ أَحَدُهُما على شِدَّةٍ وخِلَافِ ضَعفٍ، وهو القُوَّةُ، وَالقَوِيُّ: خِلَافُ الضَّعيفِ. وأَصلُ ذَلِكَ مِنَ القُوَى، وَهِيَ جَمعُ قُوَّةٍ مِن قُوَى الحَبلِ[6]. وتُستعمَلُ تارةً في مَعنى القُدرةِ نحو قولِه تعالى: ﴿خُذُواْ مَآ ءَاتَيۡنَٰكُم بِقُوَّةٖ﴾ [البقرة: 63]، وتارةً للتَّهيُّؤِ المَوجودِ في الشّيءِ، ويُستعمَلُ ذلكَ في البدَنِ تارةً، وفي القلبِ أُخرَى، وفي المُعاوِنِ مِن خارجٍ تارةً، وفي القُدرةِ الإلهيّةِ تارةً[7]، وما في القرآنِ مِن تركيبِ (القوّة) بمعنى شِدّةِ البدنِ والتئامِ الأثناءِ، وهو ضدُّ الضّعفِ[8]؛ أي: بجدٍّ وصحّةٍ وعزيمةٍ[9].

المَعْنى الإجْماليُّ:

معنى الآيةِ أنَّنا أعطيْنا مُوسى عليه السلام ألواحًا، كتبْنا له فيها مِن كلِّ

كِتابةُ الألْواحِ مَوعظةٌ وتفصيلٌ، والأمْرُ بأخْذِها بقوّةٍ وقُدْوةٍ

(1) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن سيده، المحكم: (وعظ).
(2) الجوهريّ، الصّحاح: (وعظ).
(3) الرّاغب، المفردات: (وعظ).
(4) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 7/4348.
(5) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (وعظ).
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (قوي).
(7) الرّاغب، المفردات: (قوى).
(8) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (قوو).
(9) الواحديّ، الوجيز، ص: 412.

نوعٍ مِن أنواعِ الهِدايةِ، يحتاجُ إليها في أمرِ دينِه، مَوعظةً مِن شأنِها أن تُؤثِّرَ في القلوبِ ترغيبًا، وترهيبًا، وتفصيلًا لكلِّ نوعٍ مِن أصولِ التّشريعِ، وهي أصولُ العقائدِ والآدابِ، وتفصيلُ أحكامِ الحلالِ والحرامِ والحدودِ، وأمرناهُ بأخذِها بجدٍّ، وصحّة عزيمة، واجتهادٍ، وقوَّةِ قلبٍ، وأن يَأمُرَ قومَهُ أن يأخذوا بأحسنِها - وكلُّها حسنٌ -، بأنْ يحلُّوا حلالَها، ويُحرِّموا حرامَها، ويتدبَّروا أمثالَها، ويَعملوا بمُحكمِها، ويقفوا عندَ مُتشابِهِها، أو يأخذوا بأحسنِ الأمرين منها في كلِّ شيءٍ.

سأريكُم جهنَّمَ، ولْتكنْ على ذكرٍ مِنكُم لِتحذروا أن تكونوا منهُم، أو أريكُم مَنازِلَ القرونِ الماضيةِ في الشّامِ الّذين خالَفُوا أمرَ اللّهِ لِتعتبروا بها. وقِيل: أرادَ دارَ فِرعونَ وقومِهِ، وهي مِصرُ، وقِيلَ: مَصارِعُ الكفّارِ، أو: ما مرُّوا عليهِ إذا سافروا مِن مَنازِلِ عادٍ وثمودَ والقرونِ الّذين أهلكوا[1].

وتُرشِدُ الآيَةُ الكريمةُ إلى أنَّ الكتابَ الإلهيَّ وتشريعاتِهِ يجبُ أخذُها بقوَّةٍ وإرادةٍ وجدٍّ وعزيمةٍ؛ لِتنفيذِ ما هدَتْ إليها مِنَ الإصلاحِ[2].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بَلاغةُ الوصْلِ:

العُدولُ إلى العطفِ صلةٌ

عُطِفَ على جملةِ ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ﴾؛ لأنَّ فيها: ﴿فَخُذۡ مَآ ءَاتَيۡتُكَ﴾، والّذي آتاهُ هو ألواحُ الشَّريعَةِ، أو هو المَقصودُ مِن قولِهِ: ﴿مَآ ءَاتَيۡتُكَ﴾[3].

التَّعبير بالماضِي في ﴿وَكَتَبۡنَا﴾، وإضافتُه إلى نفْسِهِ:

دلالة على وقوعِ الفعْلِ بصِيغةِ التّشْريفِ

التَّعبيرُ بالماضي دلالةٌ على تحقُّقِ وقوعِ الفعلِ، وأضافَ الكتابةَ

(1) الواحديّ، الوجيز، ص: 412، والبغويّ، معالم التّنزيل: 3/281 - 282، ومحمد رضا، تفسير المنار: 9/163.

(2) محمد رضا، تفسير المنار: 9/167.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/96.

إلى نفسِهِ على جهةِ التّشريفِ؛ إذ هي مَكتوبةٌ بأمرِهِ ووحْيِهِ سواءً كانَ الكاتبُ لها مُوسى أو كتبَها جِبريلُ عليه السلام بالقلمِ الّذي كَتَبَ به الذِّكرَ[1]، أو بمعنى: أنّ ذلكَ كانَ بمحضِ قُدرةِ اللّهِ تعالى، وصُنعِهِ مِن غيرِ فعلِ إنسانٍ، فلا كَسبَ لأحدٍ فيهِ[2].

نُكتَةُ الالْتفاتِ إلى ضَمِيرِ التَّعظيمِ، في: ﴿وَكَتَبْنَا﴾:

شأنُ كِتابةِ الألْوَاحِ عظيمٌ، وكتابتُها كانت بِعَظمتِهِ تعالى

لمّا كانَ قوامُ أمرِ الآيَةِ السَّابقةِ مَبنيًّا على إظهارِ عطاياه تعالى على مُوسى عليه السلام مَحفوفةً بالتَّشريفِ، والتّأنيسِ، والتَّسليةِ عمّا أصابَهُ مِن عدمِ الرُّؤيةِ، وإزالةِ ما راعَهُ مِن مَشهَدِ الرُّؤيةِ كانَ مُناسبًا أن يأتي بضَميرِ الإفرادِ (تاء الفاعل لِلمُتكلِّم، وياء المُتَكَلِّم)؛ للدّلالةِ على القُربِ، وحينَ انتقلَ إلى مَشهَدِ كتابةِ الأَلوَاحِ الّذي لا يُشارِكُهُ في كتابتِها أحدٌ، ولِعظَمِ شأنِها بوصْفِها شرائعَ دينٍ، وأحكامَ مِلّةٍ، وقوانينَ حياةٍ، ناسبَ ذلك التَّعبيرُ بضَميرِ التَّعظيمِ (نا)، أو كتبْنا الأَلوَاحَ بعَظَمَتِنا[3].

نُكتةُ تعريفِ ﴿ٱلْأَلْوَاحِ﴾:

التَّنبيهُ على عَظَمتِها واخْتصَاصِها بهذا الاسْمِ

عرّفَ ﴿ٱلْأَلْوَاحِ﴾؛ لعظمتِها، وتنبيهًا على أنَّها لِجَلالةِ ما اختُصَّت بهِ، كأنَّها المُختَصَّةُ بهذا الاسمِ، وأعظَمُ مِن هذا، جَعَلَ قَلبَ النَّبيِّ الأُمِّيِّ لَوحًا قابلًا لما يُلقَى إليهِ، جامعًا لِعُلُومِ الأوَّلينَ والآخرينَ[4]. والتَّعريفُ في ﴿ٱلْأَلْوَاحِ﴾ يجوزُ أن يكونَ تعريفَ العهدِ، إنْ كانَ ما آتيتُكَ مُرادًا بهِ ﴿ٱلْأَلْوَاحِ﴾ الّتي أُعطِيَها مُوسى في المُناجاةِ، فَساغَ أنْ تُعَرَّفَ تَعريفَ العَهدِ، كأنَّهُ قيلَ: فخُذْ ألواحًا آتَيتُكَهَا، ثمّ قيلَ: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِي ٱلْأَلْوَاحِ﴾، وإذا كانَ ما آتيتُكَ مُرادًا بهِ الرِّسَالةُ والكلامُ كانَ التَّعْريفُ في الأَلوَاحِ تعريفَ الذّهنيِّ (تعريف الماهيَّة)؛ أي: وكتبْنا

(1) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 7/281، ومحمد رضا، تفسير المنار: 9/164.
(2) محمد رضا، تفسير المنار: 9/164، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/96.
(3) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 3/110.
(4) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 3/110.

لهُ في ألواحٍ مُعيَّنةٍ مِن جنسِ ﴿ٱلْأَلْوَاحِ﴾[1]، وذَهَبَ ابنُ عطيّةَ إلى أنَّها عِوَضٌ مِنَ الضَّميرِ الّذي يُقَدَّرُ وصْلُهُ بينَ الأَلواحِ وموسى عليه السلام، تَقديرُهُ: في ألواحِهِ، وهذا كقولِهِ تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ۝٣٩﴾ [النّازعات: 39]؛ أي: مَأواهُ[2].

دَلالةُ ﴿مِن﴾ بينَ التّبعيضِ والاسْميّةِ:

بيانُ أنَّ المكتوبَ أشياءُ مِن كلِّ شيءٍ، لاسْتيعابِ مَطلوباتِ النّاسِ

و﴿مِن﴾ الّتي في قولِهِ: مِن كلِّ شيءٍ تبعيضيّةٌ؛ أي: كتبْنا له أشياءَ مِن كلِّ شيءٍ، مُتعلِّقةٌ بـ ﴿وَكَتَبْنَا﴾ ومفعولُهُ مَحذوفٌ دلَّ عليهِ فِعلُ كتبْنا؛ أي: مَكتُوبًا، ويَجوزُ جَعلُ ﴿مِن﴾ اسمًا بمعنى بَعضٍ، فيكونُ مَنصُوبًا على المفعولِ بهِ بِكَتَبنا؛ أي: كتبْنا لهُ بَعضًا مِن كلِّ شيءٍ، وهذا كقولِهِ تعالى: ﴿وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ﴾ [النّمل: 16][3].

دَلالةُ العُمومِ في: ﴿كُلِّ شَىْءٍ﴾:

الاقْتِصارُ على ما يَحتاجونَهُ في دينِهِم، يجعلُه عُمومًا عُرفيًّا، ولَيسَ مُطلَقَ عمومٍ

﴿كُلِّ شَىْءٍ﴾ عامٌّ عُمُومًا عُرفيًّا؛ أي: كلُّ ما يحتاجُ إليه مُوسى وقومُهُ في دينِهِم مِنَ الحلالِ والحرامِ والمَحاسِنِ والمَقابِحِ[4] على طريقةِ قولِهِ تعالى: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ﴾ [الأنعام: 138] على أحَدِ تَأويلَينِ في أنَّ المُرادَ مِنَ الكتابِ القُرآنُ، وعلى طريقةِ قولِهِ تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة: 3]؛ أي: أُصُولَهُ[5]. وقِيلَ: مِنَ التّذكيرِ والتّنبيهِ على عظمةِ اللّهِ وعزِّ سُلطانِهِ[6]، ومِنَ الأحكامِ والوعظِ[7].

سِرُّ الجمْعِ بينَ المَوعِظةِ والتّفصيلِ:

قولُهُ: ﴿مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ كالبيانِ للجملةِ الّتي

(1) السّمين الحلبيّ، الدُّرُّ المصون: 5/452، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/96.
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/452، وعارضَهُ السّمين الحلبيّ بأنَّه لا ضرورةَ في هذه الآيةِ تدعو إلى هذا التّوجيه. ينظر: الدُّرُّ المصون: 5/452.
(3) السّمين الحلبيّ، الدُّرُّ المصون: 5/453، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/97.
(4) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/193.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/97.
(6) ابن جرير، جامع البيان: 13/106.
(7) ابن عجيبة، البحر المديد: 2/259.

قدَّمَها بقولِه: ﴿مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾؛ وذلك لأنَّه تعالى قسَّمَهُ إلى ضَربَين: أحدُهُما: ﴿مَّوْعِظَةً﴾، والآخرُ: ﴿وَتَفْصِيلًا﴾ لِما يَجِبُ أن يُعلَمَ مِنَ الأحكام، فَيَدخُلُ في المَوعِظةِ كُلُّ ما ذكرَهُ اللّه تعالى مِنَ الأمورِ الّتي تُوجِبُ الرّغبةَ في الطّاعَةِ والنَّفرَةَ عنِ المَعصيةِ، وذلكَ بذكرِ الوعدِ والوعيدِ، ولَمّا قرَّرَ ذَلكَ أوّلًا أتبَعَهُ بِشَرحِ أقسامِ الأحكامِ وتَفصيلِ الحلالِ والحرامِ فقالَ: ﴿وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾[1]؛ أي: أنَّ الكلامَ لم يأتِ مُجمَلاً، بل يأتي بالتّفصيلِ[2]. والمَوعِظةُ نُصحٌ بإرشادٍ مَشُوبٍ بتحذيرٍ من لَحاقِ ضُرٍّ في العاقبةِ أو بتحريضٍ على جَلْبِ نَفعٍ، مَغفُولٍ عنهُ[3]، وعبَّرَ عنهما بصيغةِ اسمِ المَصدَرِ (المَوعظة)؛ لتعني الإتيانَ بالخبرِ على أحسنِ وجهٍ، وأتمِّهِ نَفعًا وبيانًا، وبالمَصدَرِ (التّفصيل) لِمَا في ذلك مِن قوَّةٍ في التَّعبيرِ عنِ الحدثِ، وشدّةٍ في إرادتِهما.

قرَّرَ ما يُوجِبُ الرّغبةَ بالطّاعةِ، ثمّ أتبعَهُ بتفصيلِ الحَلالِ والحَرامِ

فائِدةُ تقْديمِ المَوعظةِ على التَّفْصيلِ:

قولُهُ تعالى: ﴿مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ أخذوا منه أنّه ينبغي للرّسولِ أن يُقدِّمَ المَوعظةَ والتّذكيرَ على التّكليفِ بالشّرائعِ والأحكام[4]؛ لكونِها الأولى في طريقِ التّبليغ، وللإيذانِ بأنّ الاهتمامَ بها أشدُّ والعنايةَ بها أتمُّ، ولكونِها كذلكَ كَثُرَ مَدحُ النّبيِّ ﷺ بالبشيرِ النّذيرِ، وإشعارٌ بأنّ الموعظَةَ ممّا يَجِبُ أن يُرجَعَ إليه في كلِّ أمرٍ يُذكَرُ بهِ، ألَا يَرى إلى أنَّ أكثَرَ الفواصلِ التّنزيليّةِ والرُّدُودِ على هذا النّمطِ نحوِ: (أفلا تتّقون) (أفلا تتذكّرون)، وإلى سورةِ الرّحمنِ كيفَ أُعيدَ فيها ما أُعيدَ؛ وذَلِكَ لِيَستأنِفَ السّامِعُ بهِ ادِّكارًا واتِّعاظًا، ويُجَدَّدَ تَنبيهًا واستيقاظًا[5].

المَوعظةُ أولَى في طريقِ التّبليغِ، والعنايةُ بها أشدُّ

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/193.
(2) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 7/4348.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/98.
(4) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/252.
(5) الآلوسي، روح المعاني: 9/57.

بَلاغةُ التَّعْبيرِ بلفْظِ ﴿فَخُذْهَا﴾، على طريقِ المَجازِ:

أخذُ موسَى عليه السلام، إشارةٌ إلى معنَى التّلقّي والحِفْظِ

لم يُعَدَّ فِعلُ الأخذِ بالباءِ في قولِهِ: ﴿فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ﴾؛ أي: لم يقُل: (خُذْ بها بقوّةٍ)؛ لأنَّه هنا مَجازٌ في التّلقّي والحفظِ؛ وهو أهَمُّ مِنَ الأخذِ بمعنى التَّمسُّكِ والعَمَلِ، فإنَّ الأوّلَ حَظُّ وليِّ الأمرِ والثّاني حَظُّ جَميعِ الأُمَّةِ. والباءُ في قولِهِ: ﴿بِقُوَّةٍ﴾ للمُصاحَبةِ[1]. ﴿فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ﴾؛ فيه إشارةٌ إلى أنَّ الأخذَ يشيرُ إلى غايةِ القُربِ، والمُرادُ هاهنا صفاءُ الحالِ؛ لأنَّ قُرْبَ المكانِ لا يَصِحُّ على اللهِ سُبحَانَه[2].

نُكْتةُ الحذْفِ، في قولِهِ: ﴿فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ﴾:

إيجازٌ، لِدلالةِ الكلامِ على المحذوفِ

في الكلامِ حذفٌ؛ أي: فقلْنا له: خذْها بقوّةٍ؛ أي: بجدٍّ ونشاطٍ.[3]، واستُغني بالمذكورِ إيجازًا لدلالةِ الكلامِ عليهِ.

سِرُّ التَّعْبيرِ بلفْظِ (القوّةِ)، دونَ غيرِهِ:

القوّةُ كلُّ ما يتأتى به عمل ما يَشقُّ، والعزْمُ عليه بمُنتهَى الجِدِّ والحِرْصِ

القُوّةُ حَقيقتُها حالَةٌ في الجِسمِ يَتَأتَّى لهُ بها أن يَعمَلَ ما يَشُقُّ عَملُهُ في المُعتادِ فَتكونُ في الأعضاءِ الظّاهِرَةِ مِثلَ قُوَّةِ اليَدَينِ على الصُّنعِ الشّديدِ، والرِّجلَينِ على المَشيِ الطّويلِ، والعَينَينِ على النّظرِ لِلمَرئيّاتِ الدّقيقةِ، وتكونُ في الأعضاءِ الباطِنةِ مِثلَ قُوَّةِ الدِّماغِ على التّفكيرِ الّذي لا يَستطيعُهُ غالِبُ النَّاسِ، وعلى حِفظِ ما يَعجِزُ عَن حِفظِهِ غالِبُ النَّاسِ، ومنهُ قولُهم: قُوّةُ العقلِ. والقُوَّةُ هنا في قولِهِ: ﴿فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ﴾ تمثيلٌ لحالةِ العزمِ على العملِ بما في ﴿ٱلْأَلْوَاحِ﴾، بمُنتهى الجِدِّ والحِرصِ دونَ تأخيرٍ ولا تَساهُلٍ ولا انقطاعٍ عندَ المَشَقَّةِ ولا مَلَلٍ، بِحالةِ القَويِّ الّذي لا يَستعصِي عليهِ عَمَلٌ يُريدُهُ، ومنهُ قولُهُ تعالى: ﴿يَٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ بِقُوَّةٖۖ﴾ في سورة [مريم: 12][4].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/99 - 100.
(2) القشيريّ، لطائف الإشارات: 1/568.
(3) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 7/281.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/99 - 100.

بَلاغةُ الالْتِفاتِ إلى خِطابِ مُوسَى عليه السلام:

الموعِظةُ والتّفصيلُ - على وجازتِهما - بما كانتا سببًا ﴿لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾؛ أي: لأنّهما - مع كونِهما أُمَّهاتٍ وجَوامِعَ - مفصَّلتان، تَرجِعُ إليهما بُحورُ العلم، وتَنشَقُّ منهما يَنابيعُها. ولمَّا كانَ هذا هَكذَا تَسبَّبَ عنهُ حَتمًا قولُهُ تعالى التِفاتًا إلى خِطابِ مُوسى عليه السلام بخِطابِ التّأنيسِ إشارةً إلى أنَّ التزامَ التّكاليفِ صَعبٌ[1].

المـوعِـظـةُ والتّفصيلُ سَببٌ لـكـلِّ شَيءٍ، انْـبـثـقَ عنـه خِطابُ التّأنِيسِ

دَلالةُ أفعالِ الأمْرِ، على نزْعِ الإنسان ممّا ألِفَ واعْتادَ:

ولأنَّ الإنسانَ حينَ يُؤمَرُ أمرًا قد يكونُ الأمرُ مُخالِفًا لرتابةِ مَا أَلِفَ، وحين يُنهَى نهيًا قد يكونُ هذا النّهيُ مُخالِفًا لرتابةِ ما أَلِفَ، وبذلكَ ينزعُ هذا النّهيُ أو ذلك الأمرُ الإنسانَ ممّا أَلِفَ، ويأخذُهُ ويخرِجُهُ عمّا اعتادَ.

بـيـانُ مُـواجَـهـةِ إلْـفِ الـنّـفسِ، بِمُتَطّلباتِ المنْهجِ المُنْزَّلِ

إنَّ الإنسانَ في هذه الحالةِ يحتاجُ إلى قوّةِ نفْسٍ تتغلَبُ على الشّهوةِ الرّتيبةِ الّتي تَخلقُها العادةُ، ولذلكَ فمَن يريدُ أن يُقبِلَ على مَنهجِ اللهِ فعليهِ أن يعرفَ أنّ المَنهجَ سوف يخرِجُهُ ممّا أَلِفَ، ولابدّ أن يُقبِلَ على المَنهجِ بقوَّةٍ وعزمٍ؛ ليواجهَ إلفَ النّفسِ؛ لأنَّ إلفَ النّفسِ قد يقولُ للإنسانِ: لا تفعلْ، والمَنهجُ يقولُ لهُ: افعلْ. فعلى المُؤمنِ أن يأخذَ التّكاليفَ بقوّةٍ؛ لأنَّ شهواتِ النَّفسِ تُحقِّقُ متعَ الدّنيا الزّائلةَ، والمنهجُ يعطي متعةً طويلةَ الأجَلِ[2].

جَمالُ الالْتفاتِ، منَ الغَيْبةِ إلى الخِطابِ في السِّياقِ:

مَوضِعُ الالتفاتِ قولُهُ بصيغةِ الخطابِ ﴿فَخُذْهَا﴾، بعدَ أن كانَ الحديثُ بصيغةِ الغائبِ (له)؛ لينقُلَ الحدثَ إلى جوِّ الأمرِ مُباشرةً من دونِ مُقدِّماتٍ؛ ليدُلَّ على وجوبِ الالتزامِ بما أُوتِي، وكُلِّفَ بتبليغِهِ قومَه، ولِذلكَ أعقبَهُ بلفظِ القوّةِ الدّالِّ على الجدِّ، والحزمِ، والعزمِ.

تـأكـيـدُ وُجـوبِ الْتزامِ الأمْرِ، لأنّه مَعْقِدُ النَّجاةِ

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 3/110.

(2) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 7/4348 - 4349.

بَلاغةُ اخْتِيارِ (الفاءِ)، وتَكرارِ لفْظِ (الأخذِ):

الأخذُ بقوّةٍ، يَشتمِلُ عليه الأخْذُ المُطلَقُ، وفي الإعادةِ زيادةٌ

قولُهُ: ﴿فَخُذْهَا﴾ يتعيَّنُ أنَّ الفاءَ دالّةٌ على شيءٍ مِن معنى ما خاطبَ اللّهُ به موسى، ولمَّا لم يقعْ فيما وَلِيته ما يصلحُ لأنْ يتفرَّعَ عنه الأمرُ بأخذِها بقوّةٍ تعيَّنَ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿فَخُذْهَا﴾ بدلًا مِن قولِهِ: ﴿فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ﴾ بدلَ اشتمالٍ؛ لأنَّ الأخذَ بقوّةٍ يشتمِلُ عليه الأخذُ المُطلَقُ، وقدِ اقتضاهُ العوْدُ إلى ما خاطَبَ اللّهُ به مُوسى إثرَ صَعْقتِهِ؛ إتمامًا لذلك الخطاب، فأُعيدَ مضمونُ ما سبقَ ليتَّصلَ ببقيتِهِ، فيكونُ بمَنزِلةِ أن يقولَ: (فخُذْ ما آتيتُكَ بقوّةٍ، وكُنْ مِنَ الشَّاكِرين)، ويكونُ ما بينَهما بمَنزِلةِ اعتراضٍ، ولولا إعادةُ ﴿فَخُذْهَا﴾ لكانَ ما بينَ قولِهِ: ﴿وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ وقولِهِ: ﴿وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُواْ﴾ اعتراضًا على بابِهِ، ولمَّا اقتضى المقامُ هذا الفصلَ، وإعادةَ الأمرِ بالأخذِ، اقتضى حُسنُ ذلك أنْ يكونَ في الإعادةِ زيادةٌ، فأخَّرَ مُقيّدَ الأخذِ، وهو كونُهُ بقوّةٍ، عنِ التَّعلُّقِ بالأمرِ الأوَّلِ، وعلَّقَ بالأمرِ الثّاني الرّابطِ للأمرِ الأوَّلِ، فليسَ قولُهُ: ﴿فَخُذْهَا﴾ بتأكيدٍ، وعلى هذا الوجهِ يكونُ نظمُ حكايةِ الخطابِ لموسى على هذا الأسلوبِ مِن نَظْمِ القرآنِ.

دَلالةُ الفاء واحْتِمالِ التَّكرارِ للتّوكيد اللّفْظيّ:

من دِقّةِ البيانِ تنوّعُ احتِمالاتِ الدّلالةِ في السِّياقِ

ويَجُوزُ أن يكونَ في أصلِ الخِطابِ المَحكيِّ إعادةُ ما يدلُّ على الأمرِ بالأخذِ لِقَصدِ تأكيدِ هذا الأخذِ، فَيكونُ توكيدًا لفظيًّا، والفاءُ مُؤكَّدةٌ، ويكونُ تَأخيرُ القيدِ تَحسينًا للتّوكيدِ اللّفظيِّ؛ ليكونَ مَعَهُ زيادةُ فائدةٍ، وَيكونَ الاعتراضُ قَد وَقَعَ بينَ التّوكيدِ والمُؤكَّدِ، وعلى هذا الوَجهِ يكونُ نظمُ الخطابِ على هذا الأسلوبِ مِن نَظمِ الكلامِ الّذي كلَّمَ اللّهُ بهِ مُوسى حُكِيَ في القرآنِ على أسلوبِهِ الصَّادرِ بهِ[1]، والضَّميرُ المؤنّثُ في قولِهِ: ﴿فَخُذْهَا﴾ عائدٌ إلى ﴿ٱلْأَلْوَاحَ﴾ باعتبارِ تقدُّمِ ذكرِها في قولِهِ: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ﴾. والمَقُولُ لموسى هو مَرجِعُ الضَّميرِ، وفي هذا

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/98 - 99.

الضَّميرِ تَفسيرٌ للإجمالِ في قولِه: ﴿مَآ ءَاتَيۡتُكَ﴾، وفي هذا تَرجيحُ كَونِ ماصَدَقَ ﴿مَآ ءَاتَيۡتُكَ﴾ هو ﴿ٱلۡأَلۡوَاحِ﴾، ومَن جَعَلُوا ماصَدَقَ ﴿مَآ ءَاتَيۡتُكَ﴾ الرِّسَالةَ والكلامَ جَعَلُوا الفاءَ عاطفةً لقولٍ مَحذوفٍ على جملةِ ﴿وَكَتَبۡنَا﴾، والتّقديرُ عندَهُم: وَكَتَبْنا فَقُلْنا خُذْها بقوّةٍ[1].

نُكتةُ ذِكْرِ القُوَّةِ مع الأخْذِ في هذه الآيَةِ[2]:

الآيَةُ السّابقةُ إجمالٌ في الإيتاءِ، وهذه تفصيلٌ في الإيتاءِ والتّبليغِ

قالَ في الآيَةِ السّابقةِ: ﴿فَخُذۡ مَآ ءَاتَيۡتُكَ﴾ بدونِ لفظِ القوَّةِ، وقالَ هنا: ﴿فَخُذۡهَا بِقُوَّةٖ﴾؛ لأنّ الآيَةَ هناك مُنحصِرةٌ في الإيتاءِ فقط، والآيةُ هنا في الإيتاءِ والتّبليغِ؛ فقد أَمَرَ اللّهُ تعالى مُوسى عليه السلام بأن يأخذَ ما آتاهُ بقوّةٍ، ويُبلِّغَ قومَهُ، والتّبليغُ يحتاجُ إلى قوّةٍ، وجهدٍ، وعزيمةٍ.

كما أنّه في الآيَةِ السّابقةِ إجمالٌ في الأمرِ، وفي الثّانية تفصيلٌ فيه؛ فلمَّا أجملَ في الأمرِ أجملَ في الأخذِ، ولمَّا فصّلَ في الأمرِ فصّلَ في الأمرِ بالأخذِ؛ فناسبَ الإجمالُ الإجمالَ، وناسبَ التّفصيلُ التّفصيلَ، مع ملاحظة أنّ الآيَةَ السّابقةَ جاءَتْ عقبَ إفاقةِ موسى عليه السلام بعدَ ما خرَّ صَعِقًا، والصّعقُ وَهنُ القُوى، فناسبَهُ عدمُ الأخذِ بقوّةٍ.

فائِدةُ التّفريقِ بينَ أخْذِ موسَى عليه السلام، وأخْذِ قَومِهِ:

التّكليفُ كانَ على موسَى عليه السلام أشدَّ؛ لأنّه كلَّفَهُ بالبَلاغِ والأداءِ معًا

وقالَ لموسى: ﴿فَخُذۡهَا بِقُوَّةٖ﴾؛ أي: بعزيمةٍ قويّةٍ ونيَّةٍ صادِقةٍ، ثمّ أَمَرَهُ اللّهُ تعالى أن يَأمُرَ قومَهُ بأن يأخذُوا بأحسَنِها، وظاهِرُ ذلكَ أنّ بينَ التّكليفَينِ فَرقًا؛ لِيكونَ في هذا التّفصيلِ فَائدةٌ؛ بكونِ التّكليفِ كانَ على مُوسى عليه السلام أشدَّ؛ لأنَّه تعالى لَم يُرَخِّصْ لهُ ما رَخَّصَ لِغيرِهِ، وقِيلَ: بل خصَّهُ مِن حيثُ كَلَّفَهُ البلاغَ والأداءَ، وإنْ كانَ مُشارِكًا لِقومِهِ فيما عَداهُ. وفي قولِهِ: ﴿وَأۡمُرۡ قَوۡمَكَ يَأۡخُذُواْ بِأَحۡسَنِهَاۚ﴾[3]، فَضْلًا عن

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/99.
(2) يُنظر في وجوهِ إجابةِ النّكتةِ: هبيان، من روائع البيان: 5/194.
(3) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/193.

أنّ الأخذَ بالأحسنِ أقوَى مِن عُمومِ الأخذِ؛ فناسبَ أخذهُم بالأحسنِ، أخْذَه عليه السلام بقوَّةٍ[1].

نُكتةُ الفرقِ بين ﴿فَخُذْهَا﴾، وبين ﴿يَأْخُذُواْ﴾:

أخْذُهُ عليه السلام، دلالةُ قُرْبةٍ، وأخْذُهُم دَلالةُ طَاعةٍ

فَرَّقَ أيضًا بينَ ما أمرَ به موسى مِنَ الأخذِ، وبينَ ما أمرَهُ أن يأمرَ به قومَهُ مِنَ الأخذِ، بأنّ أخذَ موسى عليه السلام، مِنَ الحقِّ على وجهٍ من تحقيقِ الزُّلفةِ، وتأكيدِ الوَصلةِ، وأخذَهم أخذُ قَبولٍ مِن حيثُ التزامُ الطّاعةِ[2].

سِرُّ تَعْدِيةِ (أخْذِ القومِ) بالباءِ، والتَّعْبيرِ عنه بالمَجازِ:

الإشارةُ إلى معنَى التَّمسُّكِ والعملِ، للأخْذِ بالهَدْيِ المُكتمِلِ

قولُهُ: ﴿وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُواْ بِأَحْسَنِهَاۚ﴾ تعريجٌ على ما هو حظُّ عموم الأمّةِ مِنَ الشَّريعَةِ وهو التَّمسُّكُ بها، فهذا الأخذُ مَجازٌ في التَّمسُّكِ والعملِ، وفي ذلك بيانٌ لسرِّ تعديةِ الأخذِ بالباءِ؛ وذلك لدلالتِها على اللّصوقِ، يُقالُ: أخذَ بكذا إذا تَمسَّكَ به، وقبضَ عليه، كقولِه: ﴿وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ﴾ [الأعراف: 150]، وقولِه: ﴿لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِيٓۖ﴾ [طه: 94].

دَلالةُ (الباءِ) في قوله: ﴿بِأَحْسَنِهَاۚ﴾:

الباءُ في الحالتَيْنِ، مُبْرِزةٌ إمّا للحُسْنِ، وإمّا للأخْذِ

تَحتمِلُ الباءُ معنى التّوكيدِ؛ أي: أحسنُها، كما في قولِه:

سودُ المَحاجِرِ لا يقرَأنَ بالسُّوَرِ[3].

ويُحتمَلُ أن تكونَ الباءُ للإلصاقِ المعنويِّ، وحينئذٍ فهي: إمّا مُتعلِّقةٌ بـ﴿يَأْخُذُواْ﴾ بتَضمينِه معنى (يعملوا)، وإمّا هو مِنَ الأخذِ بمعنى السِّيرةِ، ومنهُ أخذُهُم؛ أي: سارَ سيرتَهُم وتخلَّقَ بها[4].

فائِدةُ جزْمِ الفعْلِ ﴿يَأْخُذُواْ﴾:

تحقيقُ حُصولِ الامْتِثالِ المذكورِ، عندَ الأمْرِ المَبْرورِ

وجُزِمَ ﴿يَأْخُذُواْ﴾ جوابًا لقولِه: ﴿وَأْمُرْ﴾ تحقيقًا لِحُصُولِ امتثالِهم

(1) هبيان، من روائع البيان: 5/194.
(2) القشيريّ، لطائف الإشارات: 1/568.
(3) هو الرّاعي. وصدر البيت: هُنَّ الحَرائِرُ ربّات أخمِرَةٍ.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 9/58 - 60.

عندَما يأمُرُهُم[1]، ففيهِ مُطلَقُ التّسليمِ، ومُنتهَى الإذعانِ لأمرِ مَن بيدِهِ الأمرُ كلُّهُ.

وُجُوهُ التَّعْبِيرِ بلفْظِ ﴿بِأَحْسَنِهَا﴾:

قولُهُ: ﴿بِأَحْسَنِهَا﴾؛ أي: البالِغُ في الحُسنِ مُطلَقًا لا بالإضافةِ، وهو المَأمُورُ بهِ كقولِهِم: الصَّيفُ أحرُّ مِنَ الشِّتاءِ[2]، فهو وصفٌ مَسلوبُ المُفاضَلةِ مَقصُودٌ به المبالَغَةُ في الحُسنِ. فإضافَتُها إلى ضَميرِ الأَلوَاحِ على معنى اللّامِ؛ أي: بالأحسَنِ الّذي هوَ لَها، وهوَ جَميعُ مَا فيها، فكلُّ ما فيها حَسنٌ؛ لِظُهُورِ أنّ ما فيها مِنَ الشّرائعِ ليسَ بينَهُ تَفاضُلٌ بينَ أحسَنَ ودُونَ الأحسَنِ، بل كُلُّهُ مَرتَبَةٌ وَاحِدةٌ فيما عُيِّنَ لهُ، ولِظُهُورِ أنَّهم لا يُؤمنون بالأخذِ ببعضِ الشَّريعَةِ وتَركِ بعضِها؛ ولأنَّ الشَّريعَةَ مُفَصَّلٌ فيها مَراتِبُ الأعمالِ، فلو أنّ بعضَ الأعمالِ كانَ عندَها أفضَلَ مِن بعضٍ، كالمَندوبِ بالنّسبةِ إلى المُباحِ، وكالرُّخصَةِ بالنّسبةِ إلى العَزيمةِ، كانَ التَّرغيبُ في العَملِ بالأفضلِ مَذكورًا في الشَّريعَةِ، فكانَ ذَلِكَ مِن جملةِ الأخذِ بها، فَقرائنُ سَلبِ صِيغةِ التّفضيلِ عنِ المفاضلةِ قائمةٌ واضِحةٌ، وهذه الآيَةُ نظيرُ قولِهِ تعالى: ﴿وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحۡسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُم﴾ [الزُّمر: 55]. والمعنى: وأمُرْ قومَكَ يَأخُذُوا بما فيها لِحُسنِها[3].

سلبُ دَلالةِ صِيغةِ التّفضيلِ، مُبالَغةٌ في الحُسْنِ

دَلالةُ ﴿بِأَحْسَنِهَا﴾، على الأخْذِ بالأحْسَنِ والامتناع عنِ الأقْبحِ:

ويَحتمِلُ التّفضيلُ اعتراضَ مُباحَين؛ فيأخذونَ الأحسنَ منهما ممّا أجرُه أكثرُ من غيرِهِ، كالصّبرِ والعفوِ والقِصاصِ، والصّبرِ والانتصارِ على طريقةِ النَّدبِ، والحثِّ على الأفضلِ، كقولِهِ تعالى: ﴿وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحۡسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُم﴾ [الزُّمر: 55]، أو بواجباتِها، فإنَّ الواجبَ

الأخذُ بالأحْسَنِ، مَأمورٌ اللهُ، لإنقاذِ القومِ منَ الضّلالِ والفِسْقِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/101.
(2) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/34.
(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/453، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/271، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/101.

أحسَنُ مِن المُباحِ، والمندوبِ، وغيرِهما[1]. قد يُرادُ بالأحسَنِ المأمورُ به فَضْلًا عنِ المَنهيِّ عنهُ؛ لأنَّه أحسَنُ منهُ، وكذلكَ النَّاسخُ بالإضافةِ إلى المنسوخِ ونَحوِ هَذا[2]، وقَيَّدَهُم بالأحسنِ لِيكونَ الحَسَنُ جِدًّا مَانِعًا لَهم مِنَ الوصولِ إلى القَبيحِ، وذلك كالاقتِصاصِ والعفوِ والانتصارِ والصّبرِ. ولمّا كانَ كأنَّهُ قِيلَ: وهَل يَترُكُ الأحسَنَ أحَدٌ؟ فقِيلَ: نَعم، الفاسِقُ يَترُكُهُ، بَل ويَتَجاوَزُ الحَسَنَ إلى القبيحِ، بَل وإلى أقبحِ القَبيحِ، ومَن تَرَكَهُ أهلَكتُهُ، وإن جلَّ آلُهُ، وعَظُمَت جنودُهُ وأموالُهُ[3].

عِلّةُ التَّعْبيرِ بقولِهِ: ﴿سَأُوْرِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾:

في الجُملَةِ بِشارةٌ وإنْذارٌ، لِتَوخِّي الالتزامِ، ومُجانَفةِ الفِسْقِ

الكلامُ مُوَجَّهٌ إلى موسى عليه السلام فيجوزُ أن يكونَ مُنفصِلًا عَنِ الكلامِ الّذي قبلَهُ، فيكونُ استِئنافًا ابتِدائيًّا: هو وعدٌ لَهُ بدخولِهِمُ الأرضَ المَوعودةَ، ويجوزُ أن تكونَ الجُملَةُ مُتَّصلةً بما قبلَها، فتكُونُ مِن تمامِ جملةِ ﴿وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُواْ بِأَحْسَنِهَاۚ﴾ على أنَّها تَحذيرٌ مِنَ التَّفريطِ في شيءٍ ممّا كُتِبَ لهُ في الألْوَاحِ، والمعنى: سأُبيِّنُ لَكُم عِقابَ الّذين لا يَأخُذُونَ بها[4]، والبشارةُ بإتمامِ الوَعدِ بِنُصرتِهِم عليهم بطاعَتِهِم، والنّذارةُ على تقديرِ مَعصيتِهِم، فكأنَّه قِيلَ: إن أخَذُوا بالأحسنِ أرَيتُهم دارَ الفَاسِقين، وأتمَمتُ عليهمُ النِّعمَةَ ما دامُوا على الشُّكرِ، وإنْ لم يأخُذُوا أهلكتُهم، كَمَا أُهلِكُ الفَاسِقينَ مِن بينِ يديهم، فَحَذَّرَهُم لِئلَّا يَفعَلُوا أفعالَهم إذا استقرَّت بِهِم الدّارُ، وزالَت عنهُمُ الأكدارُ[5].

بَلاغةُ التَّعْبيرِ عن وعْدِ الرُّؤْيةِ، على طريقِ الالْتِفاتِ:

﴿سَأُوْرِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ تَلوينٌ للخِطابِ وتَوجيهٌ له إلى قومِهِ

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/453، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/34، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/270 - 271، والشّوكانيّ، فتح القدير: 2/278.

(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/453.

(3) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 3/110 - 111.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/101.

(5) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 3/111.

عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ بطريقِ الالتفاتِ مِنَ الغيبةِ إلى التَّكلُّمِ حمْلاً لهم على الجِدِّ في الامتِثالِ بما أُمِرُوا بهِ، ومُبالغةً للحثِّ على الطّاعةِ؛ إمّا على نهجِ الوعيدِ والتّرهيبِ على أنّ المُرادَ بـ﴿دَارَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ أرضُ مِصرَ، وديارُ عادٍ وثمودَ؛ فإنّ رُؤيتَهَا خاويةً على عروشِها، خاليةً مِن أهلِها، مُوجِبةٌ للاعتبارِ والانزجارِ عن مِثلِ أعمالِ أهلِها؛ كيلا يَحِلَّ بِهِم ما حَلَّ بأولئكَ، وإمَّا على نهجِ الوعدِ والتّرغيبِ للمُبالَغةِ بحضِّهِم على سلوكِ نهجِ الصّالحينَ. على أنَّ المرادَ ﴿دَارَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ إمّا أرضُ مِصرَ خاصّةً، وإمّا مع أرضِ الجَبابرةِ والعَمالِقةِ بالشّامِ، فإنّها أيضًا ممّا أُتيحَ لِبني إسرائيلَ، وكُتِبَ لهم بحسبِ قولِهِ تعالى: ﴿يَٰقَوۡمِ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡأَرۡضَ ٱلۡمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِي كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمۡ﴾ [المائدة: 21][1].

الـحَـمْـلُ على الـجِـدِّ في الامْتِثالِ، بالحثِّ على الطّاعةِ، بأحْسَنِ الفِعالِ

وُجوهُ التَّعْبيرِ بفعْلِ الرُّؤيةِ ﴿سَأُوْرِيكُمۡ﴾:

والفعلُ مِن (رأى) البصريّة؛ لأنّها عُدِّيَت إلى مَفعولَين فقط[2]، ويجوزُ أن يكونَ سأُريكُم خطابًا لقومِ موسى، فيكون فعلُ أُريكم كنايةً عنِ الحُلُولِ في دارِ الفاسِقينَ؛ والحُلُولُ في ديارِ قَومٍ لا يكونُ إلّا لِلفتحِ والغَلَبَةِ، فالإراءةُ رَمزٌ إلى الوعدِ بفتحِ بلادِ الفاسِقينَ، والمُرادُ بالفاسِقينَ المُشركونَ، فالكلامُ وعدٌ لمُوسى وقومِهِ بأن يَفتَحُوا ديارَ الأممِ الحالَّةِ بالأرضِ المُقدَّسَةِ الّتي وَعَدَهُم اللّهُ بها، ولا يَخفى حُسنُ مُناسبةِ التَّعبيرِ عن أولئكَ الأقوامِ بالفَاسِقينَ على هذا الوَجهِ[3]. وقِيلَ المُرادُ بـ﴿دَارَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ ديارُ الأممِ الخاليةِ مِثلَ ديارِ ثَمودَ

الرُّؤيةُ كِنايةٌ عنِ الوعْدِ بفتْحِ بلادِ الفَاسِقينَ، وعنِ الدّيارِ الخاليةِ بعْدَ هلاكِهم

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/271، والهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 10/157.

(2) ولو كانَ مِن رؤيةِ القلبِ لتعدّى بالهمزةِ إلى ثلاثةِ مفاعيلَ، وهو مَنقولٌ عن ابن زيدٍ وغيره، والمعنى: سأُعْلِمُكُمْ سَيْرَ الأوّلين، وما حَلَّ بهم مِنَ النَّكالِ: وقيل: ﴿دَارَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ ما دَارَ إليه أمرهم، وذلك لا يُعْلَمُ إلّا بالإخبارِ والإعلامِ.قال ابنُ عطيَّة - مُعترِضًا على هذا الوجه -: ولَوْ كَانَ مِن رؤيةِ القلبِ لتعدَّى بالهمزةِ إلى ثلاثةِ مَفاعيل.ولو قالَ قائلُكَ: المفعولُ الثّالثُ يتضمّنُه المعنى، فهو مُقَدَّرٌ؛ أي: مذمومة أو خربة أو مُسَعَّرة - على قولِ مَن قالَ: إنَّهَا جهنّمُ - قِيلَ له: لا يَجُوزُ حذفُ هذا المفعولِ، ولا الاقتصارُ دُونَهُ؛ لأنَّهَا داخلةٌ على الابتداءِ والخبرِ، ولو جُوِّزَ لكانَ على قبحٍ في اللّسان، لا يليقُ بكتابِ اللهِ تعالى. انتهى من ابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 9/308.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/102.

وقَوم لُوطٍ الّذين أهلَكَهُم اللّهُ لِكفرِهِم؛ أي: سَتَمُرُّونَ عليهم؛ فَتَرَونَ ديارَهُم؛ فَتتَّعِظونَ بسُوءِ عاقبتِهِم لِفسقِهِم، وفيه بُعْدٌ؛ لأنَّ بني إسرائيلَ لم يَمُرُّوا مع موسى على هذهِ البلادِ[1].

بَديعُ إيثارِ فعْلِ الرُّؤيةِ، على فعْلِ الإدْخالِ:

أُوثِرَ فِعلُ: ﴿سَأُوْرِيكُمْ﴾ دونَ نحوِ: (سَأُدخِلُكم)؛ لأنَّ اللّهَ مَنَعَ مُعظَمَ القومِ الّذين كانُوا مع مُوسى مِن دُخُولِ الأرضِ المُقدَّسَةِ لَمّا امتَنَعُوا مِن قِتالِ الكَنعانيِّينَ كَما تَقدَّمَ في قولِهِ تعالى: ﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [المائدة: 26][2].

نُكتةُ اخْتِيارِ لفْظِ الدّارِ، في قوله: ﴿دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾:

الدّارُ: المكانُ الّذي تسكُنُهُ العائلةُ، كما في قولِهِ تعالى: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ﴾ [القَصص: 81]، والمكانُ الّذي يَحُلُّهُ الجماعةُ مِن حَيٍّ أو قبيلةٍ كما قالَ تعالى: ﴿فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ۝٩١﴾ [الأعراف: 91]. وتُطلَقُ الدّارُ على ما يكُونُ عليه النَّاسُ أو المَرءُ مِن حالةٍ مُستمَرَّةٍ، ومنهُ قولُهُ تعالى: ﴿فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ۝٢٤﴾ [الرّعد: 24]، وقد يُرادُ بها مَآلُ المرءِ ومَصيرُهُ؛ لأنّهُ بمَنزِلةِ الدّارِ يأوي إليهِ في شَأنِهِ[3]. وذَكَرَ الدّارَ لئلّا تَغُرَّهُم مَنعَتُها إذا استَقرُّوا بها فَيَظُنُّوا أنْ لا غالِبَ لهم فيها بوعُورةِ أرضِها وشُهُوقِ جبالِها وإحكامِ أسوارِها[4]. كما أنَّ في إيثارِ لفظِ ﴿دَارَ﴾ وإضافتِها إلى ﴿ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ إشارةً إلى ما دارَ إليه أمرُهُم مِنَ الهلاكِ بسببِ فِسقِهِم، والدّائرةُ الدّاهيّةُ، تُحيطُ بمَن نزلَت بهم.

دَلالةُ إدْخالِ سينِ الاسْتقبالِ، في: ﴿سَأُوْرِيكُمْ﴾:

السّينُ في ﴿سَأُوْرِيكُمْ﴾ حرفُ تسويفٍ يفيدُ توكيدَ تحقُّقِ الفعلِ في المُستقبلِ[5].

دُخولُ الأرضِ المُقدَّسةِ لم يَشمَلِ الجميعَ، بل شملَ غيرَ المُعاقَبِين بالتِّيهِ

تُطلَقُ الدّارُ على ما يكونُ عليه أحوالُ النَّاسِ، ومآلاتُهم ومَصائِرُهم

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/103.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/102.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/101.
(4) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 3/111.
(5) الجلالان، المفصّل، ص: 599.

سِرُّ انْتِقاءِ لفْظِ ﴿ٱلْفَٰسِقِينَ﴾، دونَ غيرِهِ:

التّنبيهُ على أنَّ العاقبةَ مُسبَّبةٌ، عنِ الشِّرْكِ وفاسِدِ الأعمالِ

اختيارُ وَصْفِ ﴿ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ دونَ المُشرِكينَ والظّالِمينَ الشّائعِ في التَّعبيرِ عنِ الشّركِ في القرآنِ؛ للتَّنبيهِ على أنَّ عاقبتَهُمُ السُّوأى تَسَبَّبَت على الشّركِ وفاسِدِ الأفعالِ معًا[1].

وأصلُ الفِسقِ: خروجُ الشّيءِ مِن مكانِهِ ومحلِّهِ، ومنه: اشتقاقُ الفاسِقِ مِن بني آدمَ؛ لأنّه يَخرُجُ عنِ الشّرعِ، ولمَّا كانَ همُّ كلِّ خارجٍ مِن مُحيطٍ أن يأوي إلى مكانٍ حصينٍ أُوثِرَ لفظتا ﴿دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾؛ أي: مَأوَى الخارجينَ عن طاعةِ اللّهِ وشرعِهِ، ولكنَّهم صاروا كالمُستَجيرِ مِنَ الرّمضاءِ بالنَّارِ، فهُم يَمشونَ إلى هلاكِهِم بأقدامِهِم، فكانَ حالُهم كحالِ القائلِ[2]:

إلَى حتفي مَشَت قَدمي *** أرى قَدمي أراقَ دَمي

وإذا أرادَ اللّهُ إهلاكَ عبدٍ أهلكَهُ بيدِهِ، حتّى يخرجَ على نفسِهِ.

نُكتةُ العُدولِ عن تَسميّةِ الأممِ بأسمائِهِم إلى ذكرِ صفاتِهم:

تَركُ التّسميّةِ أجمعُ وأوجزُ

العُدولُ عن تسميةِ الأممِ بأسمائِهِم إلى التَّعبيرِ عنهُم بوَصفِ ﴿ٱلْفَٰسِقِينَ﴾؛ أدَلُّ على تَسبُّبِ الوصْفِ في المصيرِ الّذي صاروا إليه؛ ولأنَّه أجمعُ وأوجزُ[3].

عِلَّةُ المُخاطَبةِ بضَميرِ الجمْعِ في: ﴿سَأُوْرِيكُمْ﴾:

الخطابُ شاملٌ لموسَى عليه السلام ومَن معَهُ، باعتبارِهِ الرَّمْزَ

وخُوطِبَ بضَميرِ الجمعِ باعتبارِ مَن معَهُ مِن أصحابِهِ شُيوخِ بَني إسرائيلَ، أو باعتبارِ جَماعةِ قومِهِ، فالخِطابُ شاملٌ لمُوسى ومَن معَهُ[4].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

القوّةُ، والقُدرةُ، والشّدّةُ:

إنّ القويَّ هُوَ الَّذي يَقدِرُ على الشَّيءِ، وعلى مَا هُوَ أكثرُ مِنهُ، ولهَذا

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/103.
(2) البيت من مجزوءِ الوافرِ، وهو لأبي الفتح البستيّ، في شرح عقود الجمان: 2/141.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/103.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/101 - 102.

لَا يجوزُ أَنْ يُقَالَ للَّذي استفرغَ قُدرتَهُ في الشَّيءِ: إنَّه قويَ عَلَيه، وإنَّما يُقَالُ لَهُ: إنّه قويَ عَلَيه إذا كَانَ في قُدرتِه فضلٌ لغيرِه، قَالَ بَعضُهُم: القويُّ القَادرُ العَظيمُ الشَّأنِ في مَا يَقدرُ عَلَيه[1].

والشّدَّةُ: في الأَصلِ هِيَ مُبَالَغَةٌ في وصْفِ الشَّيءِ في صلابةٍ، ولَيسَ هُوَ مِن قَبيلِ القُدرَةِ، ولِهَذَا لا يُقَالُ للّه: شَديدٌ[2]، فالشِّدَّةُ تُستعمَلُ في العَقدِ، وفي البَدنِ، وفي قُوى النّفسِ، وفي العَذابِ، ووُصِفَت بها الملائكةُ[3]، وقد تقدَّمَ في شرحِ الألفاظِ أنّ مَعنى (القوّة) شِدّةُ البَدنِ والتئامُ الأثناءِ، وهو ضدُّ الضّعفِ؛ أي: بجدٍّ، وصحّةٍ، وعزيمةٍ، وهي تُناسِبُ مَقامَ التّبليغِ؛ لأنّه يحتاجُ إلى همّةٍ، وعزيمةٍ، وجُهدٍ، وجدٍّ، ويَصدُقُ على كلِّ ذلك لفظُ القوّةِ وليسَ الصّلابةَ.

القوّةُ تُساوِي القُدرةَ وزيادةً، وهي تمثيلٌ لحالة العَزْمِ للعمَلِ بِما في الألواح، والشِّدّةُ غيرُ ذلك

والقوَّةُ حَقيقَتُها حالَةٌ في الجسمِ يَتَأتَّى لهُ بِها أن يَعملَ ما يَشُقُّ عَمَلُهُ في المُعتادِ، فَتكونُ في الأعضاءِ الظّاهرةِ مِثلَ: قُوَّةِ اليَدينِ على الصُّنعِ الشّديدِ، والرِّجلَينِ على المَشيِ الطّويلِ، والعَينَينِ على النّظرِ لِلمَرئيّاتِ الدّقيقةِ، وتَكونُ في الأعضاءِ الباطنةِ، مِثلَ: قُوّةِ الدّماغِ على التّفكيرِ الّذي لا يَستطيعُهُ غَالبُ النَّاسِ، وعلى حِفظِ ما يَعجزُ عن حِفظِهِ غالبُ النَّاسِ، ومنه قولُهُم: قُوّةُ العَقلِ. والقُوَّةُ هنا في قولِهِ: ﴿فَخُذۡهَا بِقُوَّةٖ﴾ تمثيلٌ لحالةِ العَزمِ على العملِ بِما في ﴿ٱلۡأَلۡوَاحِ﴾، بِمُنتَهى الجدِّ والحِرصِ دونَ تَأخيرٍ ولا تَساهُلٍ ولا انقطاعٍ عندَ المَشقَّةِ ولا مَلَلٍ، بِحالةِ القَويِّ الّذي لا يَستَعصي عَلَيهِ عَمَلٌ يُريدُهُ. ومنهُ قولُهُ تعالى: ﴿يَٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ بِقُوَّةٖۖ﴾ في سورة [مريم: 12][4].

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 106.
(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 107.
(3) الرّاغب، المفردات: (شدَّ).
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/99 - 100.

﴿سَأَصۡرِفُ عَنۡ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَإِن يَرَوۡاْ كُلَّ ءَايَةٖ لَّا يُؤۡمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلرُّشۡدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗاۖ وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلۡغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗاۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنۡهَا غَٰفِلِينَ ١٤٦﴾ [الأعراف: 146]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لمّا ذَكَرَ﴿سَأُوْرِيكُمۡ دَارَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ ذَكَرَ ما يَفعَلُ بهم تعالى مِن صَرفِهِ إيّاهُم عن آياتِهِ لفِسْقِهِم وخُرُوجِهِم عن طَورِهِم إلى وَصْفٍ ليسَ لَهُم، ثمّ ذَكَرَ تعالى مِن أحوالِهِم ما استحقُّوا بِهِ اسْمَ الفِسقِ[1]، كأنَّه قِيلَ: وكيفَ يَختارُ عاقِلٌ ذلكَ؟ فكيفَ بمَن رأى الآياتِ، وشاهَدَ المُعجِزاتِ؟ فَقالَ: ﴿سَأَصۡرِفُ عَنۡ ءَايَٰتِيَ﴾؛ أي: المَسمُوعَةِ والمَرئيَّةِ على عَظَمَتِها بما أشارَت إليهِ الإضافَةُ بالصّرفِ عَن فَهمِها واتِّباعِها، والقُدرَةِ على الطّعنِ فيها بما يُؤَثِّرُ في إبطالِها[2].

بعدَما تَوعَّدَ اللهُ الفاسقينَ، ذَكَرَ مِن أحوالِهِم في الغَيِّ، ما استحقُّوا به وصْفَ الفِسْقِ

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿سَأَصۡرِفُ﴾: الصَّادُ والرَّاءُ والفَاءُ مُعظَمُ بَابِهِ يَدُلُّ على رَجْعِ الشَّيءِ[3]، وردِّهِ عن وَجهِهِ[4]، أو ردِّهِ مِن حالةٍ إلى حالةٍ، أو إبدالِهِ بغيرِهِ[5]، ومِن فَحوَى ما تقدَّمَ مِن مَعانٍ ذَهَبَ المُفسِّرونَ إلى أنَّ معنى الصّرفِ في قولِهِ تعالى: ﴿سَأَصۡرِفُ عَنۡ ءَايَٰتِيَ﴾؛ أَجعَلُ جَزاءَهُمُ الإضلالَ عَن هِدايَةِ آياتِي[6]، والمنعَ، والصّدَّ، والدّفعَ عن تعطيلِها، وإبطالِها[7].

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/388.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 3/111.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (صرف).
(4) ابن سيده، المحكم: (صرف).
(5) الرّاغب، المفردات: (صرف).
(6) الزَّجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 2/376، والأزهريّ، تهذيب اللّغة: (صرف).
(7) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/454، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/103.

فمعنى صَرفِهِم عَنها مَنعُهم بالطّبعِ على قُلُوبِهِم؛ فلا يَكادُونَ يَتَفَكَّرُونَ فِيها، ولا يَعتَبِرونَ بها؛ لإصرارِهِم على ما هُم عَلَيه مِنَ التَّكبُّرِ والتَّجبُّرِ[1].

2) ﴿ٱلرُّشۡدِ﴾: الرَّاءُ والشِّينُ والدَّالُ أَصلٌ واحِدٌ يدُلُّ على استِقَامَةِ الطَّرِيقِ[2]، ورشدَ فلانٌ: إذا أصابَ وجهَ الأمرِ والطّريق، فالإرشادُ: الدّلالةُ والهِدايةُ، وهو نقيضُ الغيِّ، والضّلالِ، والخيبةِ[3]. والرُّشْدُ، بالضّمِّ: الاستِقامَةُ على طَريقِ الحَقِّ مَعَ تَصَلُّبٍ فِيهِ[4].

ومِن أسماءِ اللّهِ تعالى (الرّشيد) هو الّذي أَرشَدَ الخَلقَ إلى مَصالِحِهم؛ أي: هداهُم ودلَّهُم عليها، وأحسَنَ تَقديرَهُ فِيمَا قَدَّرَ. وقِيلَ: هو الَّذِي تَنسَاقُ تَدبيراتُهُ إلى غَاياتِها على سَبيلِ السَّدادِ مِن غيرِ إشارةِ مُشيرٍ ولَا تَسديدِ مُسدِّدٍ[5]، فهوَ الهادي إلى سواءِ الصّراطِ، والّذي حَسُنَ تقديرُهُ فيما قَدَّرَ[6]، ولا تَخرُجُ دلالةُ لفظةِ ﴿ٱلرُّشۡدِ﴾ في الآيَةِ الكريمةِ عن ما عُرِضَ مِن مَعانٍ.

3) ﴿ٱلۡغَيِّ﴾: الغَينُ والوَاوُ واليَاءُ أَصلَانِ: أَحَدُهُمَا يدُلُّ على خِلَافِ الرُّشدِ وإظلَامِ الأَمرِ، والآخَرُ على فَسَادٍ في شَيءٍ، فالأَوَّلُ الغَيُّ، وهو خِلَافُ الرُّشدِ، والجَهلُ بالأَمرِ، والانهِمَاكُ في البَاطِلِ، والأَصلُ الآخَرُ: قَولُهُم: غَوِيَ الفَصِيلُ، إذَا أَكثَرَ مِن شُربِ اللَّبَنِ فَفَسَدَ جَوفُهُ[7]، وعَقَّبَ ابنُ فارسٍ بأَنَّ الأصلَ الأَوَّلَ عندَهُ مُشتَقٌّ مِنَ الغَيَايَةِ، وَهِيَ الغُبرَةُ وَالظُّلمَةُ تَغشَيَانِ، كأَنَّ ذَا الغَيِّ قَد غَشِيَهُ مَا لا يَرَى مَعَهُ سَبِيلَ حَقٍّ[8]، وأكَّدَ هذا المعنى عندَ تناوِلِهِ معنى لفظِ الغيِّ في بابٍ سابقٍ بقولِهِ: "الغَينُ، واليَاءُ المُشَدَّدَةُ أوِ المُضَاعَفَةُ أَصلٌ صَحِيحٌ يدُلُّ عَلَى إِظلَالِ الشَّيءِ لِغَيرِهِ"[9]، فالغيُّ: الفسادُ، والضَّلالُ، والخيبةُ، والانهِماكُ في الباطِلِ[10].

(1) الآلوسي، روح المعاني: 9/60.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (رشد).
(3) الخليل، العين، والرّاغب، المفردات: (رشد)، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 7/283.
(4) الفيروزباديّ، القاموس المحيط، والزّبيديّ، تاج العروس: (رشد).
(5) ابن الأثير، النّهاية، والزّبيديّ، تاج العروس: (رشد).
(6) الفيروزباديّ، القاموس المحيط: (رشد).
(7) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (غوي).
(8) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (غوي).
(9) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (غي).
(10) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، والجوهريّ، الصّحاح: (غوي)، وابن الأثير، النّهاية: (غوا).

وهو أيضًا جَهْلٌ مِن اعتِقادٍ فَاسِدٍ، وذلكَ أنَّ الجَهْلَ قد يكونُ مِن غَيرِ اعتِقادٍ[1]، ومَن غَوِيَ حُجِبَ عنِ الرَّشَدِ، وضلالُه مُسبَّبٌ عن هوًى، أو ما هوَ من بابِهِ، وفيه معنى الانجذابِ إلى ما يَترتَّبُ عليهِ الفسادُ فكأنّ فيه درجةً مِنَ التَّعمُّدِ[2].

وعليهِ فسبيلُ الغيِّ في الآيَةِ هو سبيلُ الضّلالِ[3]، ويَحتمِلُ أيضًا معانيَ الفسادِ، والخيبةِ، والانهماكِ في الباطِلِ.

4) ﴿غَٰفِلِينَ﴾: الغَينُ والفاءُ واللّامُ أَصلٌ صَحِيحٌ يَدُلُّ على تَركِ الشَّيءِ سَهوًا، ورُبَّمَا كانَ عَن عَمْدٍ[4]. وأَغفَلْتَ الشَّيءَ: تركتَهُ غُفْلًا، وأنتَ له ذاكِرٌ. والمُغَفَّلُ: مَن لا فِطنةَ ولا إربَ لَهُ[5]. الغَفلةُ: هي سَهْوٌ يَعْتَري الإنسانَ مِن قِلَّةِ التَّحَفُّظِ والتَّيَقُّظِ[6]، وفَقْدِ الشُّعورِ بِمَا حَقُّه أَن يُشعَرَ بِهِ، بالذُّهولِ عَنِ الشَّيءِ[7]، والغَفلَةُ انصِرافُ العقلِ والذّهنِ عن تذكُّرِ شيءٍ بقصدٍ أو بغيرِ قَصدٍ، وأكثرُ استِعمالِهِ في القرآنِ فيما كانَ عن قَصدٍ بإعراضٍ وتَشاغُلٍ، والمَذمُومُ منها ما كانَ عَن قَصدٍ، وهوَ مَناطُ التّكليفِ والمُؤاخَذَةِ، فأمّا الغَفلةُ عن غيرِ قصدٍ فلا مُؤاخَذَةَ عليها، وهيَ المَقصودُ مِن قولِ عُلماءِ أصولِ الفقهِ: يُمتَنَعُ تَكليفُ الغَافِلِ[8]، وقولُهُ تعالى: ﴿وَكَانُواْ عَنۡهَا غَٰفِلِينَ﴾ يَصلحُ أَن يكونَ: وَاللّه اعْلَم: كَانُوا في تَركِهِمُ الإيمَانَ باللّه، والنَّظَرَ فِيهِ، وَالتَّدبيرَ لَهُ، بِمَنزِلَةِ الغافِلينَ، وَيجوزُ أَن يكونَ: وَكَانُوا عَمَّا يُرَادُ بهم مِنَ الإثابةِ عليهِ غَافِلين[9]، وكلُّ ما في القرآنِ مِنَ التّركيبِ هو مِنَ الغَفلةِ؛ بمعنى عدمِ التّنبُّهِ وما إليه[10].

المَعْنى الإجْمالِيُّ:

سأحرِمُ المُتكبِّرينَ الّذين يَتطاوَلون في الأرضِ بالباطلِ، ويَرونَ أنفسَهُم أعلَى شأنًا مِن

(1) الرّاغب، المفردات: (غوى).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (غوى).
(3) الزَّجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 2/376.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (غفل).
(5) الخليل، العين: (غفل).
(6) الرّاغب، المفردات: (غفل).
(7) الزّبيديّ، تاج العروس: (غفل).
(8) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/107.
(9) ابن سيده، المحكم: (غفل).
(10) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (غفل).

موضوعُ الآيَةِ صَرفُ الآياتِ عن كلِّ مُتكبِّرٍ كذَّابٍ، وغافِلٍ مُرتَابٍ

غيرِهم، مع أنَّهم أجهلُ النَّاسِ عقلًا، وأتعسُهم حالًا، بركاتِ الاتّباعِ بمنْعِهم فَهْمَ كتابي، وصدِّهم عنِ الإيمانِ بهِ وعن نفعِهِ، وعنِ التَّفكُّرِ في خلقِ السّمواتِ والأرضِ وما فيهما مِنَ الآياتِ والعِبرِ، وعن دلائلِ قُدرتِي القائمةِ في الأنفُسِ والآفاقِ؛ فيتركونَ كلَّ علامةٍ تهدِي إلى طريقِ الحقِّ، والرّشادِ، والصَّلاحِ، ويتَّبعونَ سبيلَ الغيِّ، والضّلالِ، والفَسادِ؛ لِتكذيبِهم بالآياتِ، وغفْلتِهم عنِ الاهتداءِ بها[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بَلاغةُ الفصْلِ في الآيةِ الكريمةِ:

الآيةُ اسْتِئنافٌ بيانيٌّ مُصَرَّحٌ بهِ، مَسُوقٌ للتّحذيرِ، أو جوابُ سُؤالٍ مُقدَّرٍ

﴿سَأَصۡرِفُ عَنۡ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾، استئنافٌ بيانيٌّ مَسوقٌ لتحذيرِ قومِ مُوسى عليه السلام عن إدامتِهم العنادَ والإعراضَ عنِ الإيمانِ، والتَّكبُّرَ المُوجِبَ لعدمِ التَّفكُّرِ في الآياتِ الّتي هي مَا كَتَبَ في ألواحِ التَّوراةِ مِنَ المَواعِظِ والأحكامِ أو ما يعمُّها وغيرَها مِنَ الآياتِ التّكوينيّةِ الّتي مِن جُملتِها ما وَعَدَ إراءَتُهُ مِن دارِ الفَاسِقينَ[2]، فالآيَةُ تَكملةٌ لِما خاطَبَ اللّهُ به مُوسى وقومَهُ؛ لأنَّ بني إسرائيلَ كانُوا يَهابُونَ أُولئِكَ الأقوامَ ويَخشَونَهُم[3]، وسِيقَت لبيانِ أنَّ أعداءَ دُعاةِ الحقِّ هُمُ المُستكبِرونَ؛ لأنّ مِن شأنِ التَّكبُّرِ أن يَصرِفَ أهلَهُ عَنِ النّظرِ والاستدلالِ على وجوهِ الخيرِ[4]، أو هو جوابُ سؤالٍ مُقدَّرٍ ناشِئٍ مِنَ الوعدِ بإدخالِ أرضِ الجَبابرةِ والعَمالقةِ على أنّ المُرادَ بالآياتِ ما تُلِيَ آنفًا، ونظائِرُهُ، وبالصَّرفِ عنها إزالَةُ المُتكبِّرينَ عن مَقامِ مُعارَضَتِها ومُمانَعَتِها لِوُقُوعِ أخبارِها وظهورِ أحكامِها وآثارِها بإهلاكِهم على يدِ مُوسى عليه السلام، فكأنّهُم تَساءَلوا كيفَ تُرِينا دارَهُم وتَعِدُنا بها؟ وهل لا

(1) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 7/283، وطنطاويّ، التّفسير الوسيط: 5/376.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/271، والآلوسي، روح المعاني: 9/60، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/104.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/103.

(4) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 5/376.

نهلكُ قبلَ الحُلولِ بها ؟ فقيلَ لهم: سَأُهلِكُهُم[1]، أو تكونُ الجُملَةُ جوابًا لسؤالٍ آخرَ لَمن يقولُ: إذا دخلْنا أرضَ العَدُوِّ فلعلَّهُم يُؤمنونَ بهدينا، ويَتَّبعونَ دِينَنا، فلا نحتاجُ إلى قتالِهم، فأُجيبُوا بأنّ اللّه يَصرِفُهُم عنِ اتّباعِ آياتِهِ؛ لأنّهُم جُبِلُوا على التَّكبُّرِ في الأرضِ، والإعراضِ عنِ الآياتِ، فالصَّرفُ هنا صَرفٌ تَكوينِيٌّ في نفوسِ الأقوامِ[2].

دَلالةُ الفعْلِ ﴿سَأَصْرِفُ﴾، على حِمايةِ الله لآياتِه ولأَوْلِيائِه:

مِن عِناية اللهِ بموسَى وقومِهِ، صرفُ الأذَى عنهم، وتهيئَةُ أسبابِ النّصْرِ لَهم

وَعَدَ اللّهُ تعالى مُوسى عليه السلام بإهلاكِ أعدائِهِ، فمعنى صرْفِهم إهلاكُهم، فلا يَقدِرونَ على منعِ موسى مِن تبليغِها، ولا على مَنعِ المؤمنينَ مِنَ الإيمانِ بها، وهو شبيهٌ بقولِهِ: ﴿بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ﴾ [المائدة: 67]، فأرادَ تعالى أن يَمنعَ أعداءَ مُوسى عليه السلام مِن إيذائِهِ، ومنْعِهِ مِنَ القيامِ بما يلزمُهُ في تبليغِ النّبوَّةِ والرِّسالةِ[3]؛ أي: سأتَوَلّى دَفعَهُم عنكم، فالصَّرفُ على هذا الوجهِ عِنايةٌ مِنَ اللّهِ بمُوسى وقومِهِ بما يُهيئُ لَهم مِن أسبابِ النَّصرِ على أُولئكَ الأقوامِ الأقوياءِ، كإلقاءِ الرُّعبِ في قلوبِهِم، وتَشتيتِ كَلِمَتِهِم، وإيجادِ الحَوادثِ الّتي تَفُتُّ في ساعِدِ عُدَّتِهِم[4].

سِرُّ قَصِّ الآيَةِ الكريمةِ، على طريقِ التَّعريضِ:

حالُ مُشركِي العربِ الكَفرةِ، كحالِ أُولئكَ الفَاسِقينَ الفَجَرةِ

ويجوزُ أن تكونَ جملةُ ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ﴾ مِن خطابِ اللّهِ تعالى لرسولِهِ مُحمّدٍ ﷺ، فتكونُ الجُملَةُ مُعترِضةً في أثناءِ قصّةِ بني إسرائيلَ بمُناسبةِ قولِهِ: ﴿سَأُوْرِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾؛ تعريضًا بأنَّ حالَ مُشرِكِي العربِ كحالِ أُولئكَ الفاسِقينَ[5]، فالكلامُ مع قومِ

(1) الآلوسي، روح المعاني: 9/61، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/103.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/103 - 104.
(3) القاسميّ، محاسن التّأويل: 5/183.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/103 - 104.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/104.

رسولِ اللهِ ﷺ مُتَّصِلٌ بما سبقَ مِن قصصِهم، وهو﴿أَوَلَمۡ يَهۡدِ﴾ [الأعراف: 100]، وإيرادُ قصّةِ مُوسى وفِرعونَ للاعتبارِ[1]. وفي قَصِّ اللهِ تعالى هذا الكلامَ على مُحمّدٍ ﷺ تَعريضٌ بكفّارِ العَربِ بأنَّ اللهَ دافِعُهُم عن تَعطيلِ آياتِهِ، وبأنَّه مانِعٌ كثيرًا مِنهُم عنِ الإيمانِ بها لَمَا ذكرْناهُ آنِفًا[2].

عِلّةُ اقْتِرانِ فعْلِ الصَّرفِ بالسِّينِ:

هو حرفُ استقبالٍ وتسويفٍ يُفيدُ توكيدَ تحقُّقِ الفعلِ في المُستقبَلِ[3]، واقترانُ الفعلِ ﴿سَأَصۡرِفُ﴾ بسينِ الاستقبالِ القريبِ تنبيهٌ على أنَّ اللهَ يُعجِّلُ ذَلكَ الصَّرفَ[4].

إنّ اللهَ تعالى يُحقِّقُ الصَّرفَ، ويُعجِّلُ فيه بمشيئتِهِ الغالبةِ

بَلاغةُ تقديمِ الجارِّ والمجرورِ على المفعولِ به:

وتقديمُ شبْهِ جملةِ ﴿عَنۡ ءَايَٰتِيَ﴾ على مَفعولِ الصّريحِ ﴿سَأَصۡرِفُ﴾؛ لإظهارِ الاعتناءِ بالمُقدَّمِ والتَّشويقِ إلى المُؤخَّرِ، مع أنّ في المُؤخَّرِ نوعَ طولٍ يُخِلُّ تقديمُهُ بتَجاوُبِ أطرافِ النّظمِ الجَليلِ[5]، ولِلاهتمامِ بالآياتِ؛ ولأنّ ذكرَهُ أحسنُ عَقبَ الفعلِ المُتعلِّقِ هو بِهِ[6].

آياتُ اللهِ مُقدَّمةٌ، باعتبارِ العِنايةِ والاهتمامِ والتَّشْويقِ

نُكتةُ تَعْريفِ المصْروفِين، بالاسْمِ الموصولِ:

تَعريفُ المَصرُوفِينَ عنِ الآياتِ بطريقِ الموصوليّةِ ﴿ٱلَّذِينَ﴾؛ للإيماءِ بالصّلةِ إلى علّةِ الصَّرفِ، وهي مَا تَضمَّنَتهُ الصِّلاتُ المَذكورَةُ؛ لأنّ مَن صَارَت تلكَ الصّفاتُ حالاتٍ لهُ لن يَنصُرَهُ اللهُ؛ أو لأنّهُ إذا صارَ ذلك حالَهُ رِينَ على قلبِهِ، فصُرِفَ قلبُهُ عَن إدراكِ دَلالةِ الآياتِ، وزالَت منهُ الأهليَّةُ لِذلِكَ الفَهمِ الشَّريفِ،

مَنْ تخلَّقَ بِرَديءِ الصِّفاتِ، رِيْنَ على قلبِهِ، ومُنِعَ النَّصْرَ

(1) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 6/577 - 578، والآلوسي، روح المعاني: 9/60.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/104.
(3) الجلالان، المفصّل، ص: 599.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/104.
(5) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/271، والآلوسي، روح المعاني: 9/61.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/104.

والأوصافُ الّتي تضمَّنَتها الصِّلاتُ في الآيَةِ تَنطَبِقُ على مُشرِكي أهلِ مَكّةَ أتَمَّ الانطِباقِ[1].

لَطيفةُ التَّعْبيرِ عنِ التَّكبُّرِ، بصِيغةِ التَّفعُّلِ:

التَّكبُّرُ الاتّصافُ بالكِبْرِ، وقد صِيغَ لهُ الصِّيغةُ الدّالّةُ على التَّكلُّفِ، والتَّعمُّلِ، والتَّكثُّرِ مِنَ الكبرِ، والمعنى: أنّهُم يُعجَبُونَ بأنفُسِهِم، ويَعُدُّونَ أنفُسَهُم عُظماءَ، ويَجتهدونَ في التَّكبُّرِ عِنادًا وكُفرًا؛ فلا يَأتَمِرونَ لِآمِرٍ، ولا يَنتَصِحُونَ لِناصِحٍ، وذَلِكَ شأنُ مَن يَرَى أنَّه أكبرُ مِن أن يخضعَ لحقٍّ، أو يُساوِيَ نفسَهُ بشخصٍ، فالتَّكبُّرُ: غمْطُ الحقِّ بعدمِ الخضوعِ له، واحتقارُ النَّاسِ[2].

كونُهم تكلَّفُوا الكِبْرَ، وما هُم بِكِبارٍ حقًّا، مِنَ السَّفَهِ والضَّعَةِ

ومِن لطائفِ اللّغةِ العربيّةِ أنّ مادّةَ الاتّصافِ بالكبرِ لم تجئْ منها إلّا بصيغةِ الاستفعالِ، أوِ التَّفعُّلِ إشارةً إلى أنّ صاحبَ صفةِ الكِبرِ لا يكونُ إلّا مُتطلِّبًا الكِبرَ، أو مُتكلِّفًا له، وما هو بكبيرٍ حقًّا[3].

سِرُّ التَّعْبيرِ عنِ التَّكبُّرِ بصِيغةِ المضارعِ:

قوله: ﴿يَتَكَبَّرُونَ﴾ مَجيئُهُ بصِيغةِ المضارعِ أمارةُ استمرارِهِم عليهِ، وتَكرارِهِم إيّاهُ. معناه: أنّ ما وَرَدَ في الآياتِ نتيجةَ هذا الاستكبارِ قد لا يَختصُّ به فِرعونُ وقومُهُ فحسْبُ، وإنّما هو مُوجَّهٌ إلى كُلِّ مَنِ اتّصفَ بهذهِ الصّفةِ المذمومةِ إلى يومِ الدّينِ[4].

تَوْجِيهُ الكلامِ إلى كلِّ مُتكبِّرٍ من دونِ تَحديدٍ

بَلاغةُ الإطنابِ، بزيادةِ: ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾:

أي: ليسَ هوَ خفيًّا مُقتَصِرًا على أنفسِهِم، بل هُوَ مَبثُوثٌ في الأرضِ؛ أي: مَبثوثٌ أثَرُهُ، فهو تَكبُّرٌ شائعٌ في بِقاعِ الأرضِ كقولِهِ: ﴿يَبۡغُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۚ﴾ [يونس: 23]، وقولِهِ: ﴿وَيُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ٢٧﴾ [البقرة: 27]، وقولِهِ: ﴿وَلَا تَمۡشِ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًاۖ﴾ [الإسراء: 37][5].

فضْحُ تكبُّرِهِم، والتَّشهيرُ بهم بأنَّ كِبرَهُم مَظرُوفٌ في الأرضِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/104.
(2) محمد رضا، تفسير المنار: 9/170، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/104.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/425.
(4) الحسنيّة، هدايات وألطاف من سورة الأعراف، ص: 145.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/104 - 105.

دَلالةُ الباءِ، في قولِه: ﴿بِغَيۡرِ﴾:

التَلبُّسُ بالباطلِ وبغيرِ الحقِّ، دَيْدنُ مَن لا يَعرفُ لله وَقارًا

الباءُ للمُلابسةِ؛ والمعنى: أنَّهم يَتكبَّرونَ حالةَ كونِهم مُتلبِّسينَ بغيرِ الحقِّ؛ أي: مُنغمِسينَ في الباطلِ، غيرَ مُستحقِّينَ للحقِّ[1].

وُجوهُ التَّعْبيرِ بقولِهِ: ﴿بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ﴾:

التّشنيعُ على المُتكبِّرِ؛ بذِكرِ ما هو صِفةٌ لازِمةٌ لَهُ، أو كَوْنُ غيرِ الحقِّ قيدًا للتَّكبُّرِ

وقولُهُ: ﴿بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ﴾ زيادةٌ لِتشنيعِ التَّكبُّرِ بِذِكرِ ما هو صِفةٌ لازِمةٌ لَهُ، وهو مُغايَرَةُ الحقِّ؛ أي: دِينُهُم الباطلُ وظلمُهُم المُفرِطُ، وهي حالٌ لازِمةٌ للتَّكبُّرِ، كاشِفَةٌ لوصْفِهِ؛ إذِ التَّكبُّرُ لا يكونُ بحقٍّ في جانبِ الخَلْقِ، وإنّما هو وصفٌ للهِ بحقٍّ؛ لأنَّه العظيمُ على كُلِّ مَوجودٍ، كما في الحديثِ القُدسيِّ: «الكِبرياءُ رِدائي، والعَظَمَةُ إزاري، فمَن نازَعَني واحدًا منهما قَذَفتُهُ في النَّارِ»[2]. وقد يكونُ قولُهُ: ﴿بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ﴾ قيدًا للتَّكبُّرِ؛ لأنّ إظهارَ الكِبرِ على الغيرِ قد يكونُ بالحقِّ، فإنَّ لِلمُحِقِّ أن يتكبَّرَ على المُبطِلِ، وكذلِكَ التَّكبُّرُ على المُتَكَبِّرِ[3]، بتصوّرِ تكلُّفِ إعلاءِ نفسِهِ على غيرِهِ أو إكثارِهِ مِنَ الاستعلاءِ عليه بحقٍّ كالتَّرفُّعِ عنِ المُبطِلينَ، وإهانةِ الجبّارينَ، واحتقارِ المُحارِبينَ[4].

دَلالةُ الوصْلِ، والتَّعْبيرِ بالجُملَةِ الفعْليّةِ:

تجدُّدُ الجُحودِ، بتجدُّدِ الرُّؤيةِ من كلِّ غاوٍ كَنُودِ

وقولُهُ: ﴿وَإِن يَرَوۡاْ كُلَّ ءَايَةٖ لَّا يُؤۡمِنُواْ بِهَا﴾ عُطِفَ على قولِهِ: ﴿يَتَكَبَّرُونَ﴾، فهو في حُكمِ الصّلةِ، والقَولُ فيه كالقَولِ في قولِهِ: ﴿لَا يُؤۡمِنُونَ ۝٩٦ وَلَوۡ جَآءَتۡهُمۡ كُلُّ ءَايَةٍ﴾ [يونس: 96 - 97][5]، وصِيغَتْ بالجُملَةِ

(1) محمد رضا، تفسير المنار: 9/170.

(2) الآلوسي، روح المعاني: 9/61، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/105، والحديث أخرجه أبو داود، سنن أبي داود، الحديث رقم: (4090) عن أبي هريرة، باب ما جاء في الكِبرِ: 4/102، ورواه ابنُ عبّاس، كما في سننِ ابن ماجه بلفظِ: ((ألقيتهُ في النّار)): بابُ البراءَةِ مِنَ الكِبرِ والتّواضع، الحديث رقم: (4175): 2/1397.

(3) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 15/4، والآلوسي، روح المعاني: 9/61.

(4) محمّد رضا، تفسير المنار: 9/170.

(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/105.

الفعليّةِ؛ للدَّلالةِ على تَكرارِ الجحودِ وعدمِ الإيمانِ، وتجدُّدِهما بتجدُّدِ رؤيةِ الآياتِ وتَكرارِهما عليهم.

دَلالةُ جزْمِ فعْلَيِ الشّرطِ وجَزائِه:

جزمُ الفعلينِ المُضارعينِ ﴿يَرَوْاْ﴾ فعلًا للشّرط "إن"، و﴿يُؤْمِنُواْ﴾ جوابًا لها، وتوسيطُ ﴿كُلَّ﴾ الدَّالّةِ على العموم والكثرةِ نفيٌ للإيمانِ، وتأكيدٌ لصفةِ الكِبرِ الّتي تلبَّسُوا بها، وترسيخٌ لشدّةِ المُعارَضةِ، والنُّفورِ عنِ التَّفكُّرِ في آياتِه تعالى مهما تكرَّرَت عليهم، وأُعيدَ أُنموذجُها.

جـزْمُ الفِعلَينِ نفيٌ للإيمانِ، وتأكيدٌ للصَّلَفِ، وترسيخٌ للكُفرانِ

دَلالةُ لفْظِ ﴿كُلَّ﴾ بينَ المَجازِ والحقيقةِ:

﴿كُلَّ﴾: لاستغراقِ أفرادِ النّكرةِ، وهي في قولِه: ﴿وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُواْ بِهَا﴾ مُستعمَلةٌ في معنى الكَثرةِ، والمُرادُ بـ﴿كُلَّ ءَايَةٍ﴾ آياتٌ مُتكاثرةٌ، وفُسِّرَت بالحُجّةِ والدَّليلِ. وإطلاقُ لفظِ ﴿كُلَّ﴾ على الكَثرةِ شائعٌ في كلامِ العربِ، وأصلُهُ مَجازٌ لجعْلِ الكثيرِ مِن أفرادِ شيءٍ مُشابهًا لمجموعِ عُمومِ أفرادِه، ثمّ كَثُرَ ذلك حتَّى ساوى الحقيقةَ، فصارَ معنى مِن معاني كلٍّ لا يحتاجُ استعمالُهُ إلى قرينةٍ، ولا إلى اعتبارِ تشبيهِ العددِ الكثيرِ مِن أفرادِ الجنسِ بعُمومِ جميعِ أفرادِه حتَّى إنَّه يَردُ فيما لا يُتصوَّرُ فيه عمومُ أفرادٍ، مثل قولِه هنا: بـ﴿كُلَّ ءَايَةٍ﴾؛ فإنّ الآياتِ لا يُتصوَّرُ لها عددٌ يُحاطُ به[1].

الـدّلالـةُ على الـكَـثْرةِ بـكَـوْنِ الآيـاتِ، لا يُتصوَّرُ لها عددٌ يُحاطُ بِهِ

بَلاغةُ الاسْتِعارةِ، بألفاظِ السَّبيلِ، والرُّؤيةِ، والاتّخاذِ:

لمّا نَفَى عنهمُ الإيمانَ، وهو مِن أفعالِ القَلبِ، استَعارَ للرُّشدِ والغَيِّ سَبيلَين، فَذَكَرَ أنّهم تاركُو سبيلَ الرُّشد، سالكُو سبيلَ الغَيِّ[2]، فالسّبيلُ مُستعَارٌ لوسيلةِ الشَّيءِ بقرينةِ إضافتِه إلى الرُّشدِ وإلى الغَيِّ، والرُّؤيةُ مُستَعارةٌ لِلإدراكِ، والاتّخاذُ حَقيقتُهُ مُطاوِعُ أخَّذَهُ بالتّشديدِ، إذا جَعَلَهُ آخِذًا، ثمّ أُطلِقَ على أخذِ الشَّيءِ ولَو لَم يُعطِه

تَـعـالُـقُ الاسْـتِـعـاراتِ، بـراعـةٌ في التّصْويرِ الفَنّيِّ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/35 - 36: 9/105.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/389.

إيّاهُ غَيرُهُ، وهو هنا مُستعارٌ لِلمُلازَمَةِ؛ أي: لا يُلازِمُونَ طَريقَ الرُّشدِ، ويُلازِمونَ طريقَ الغَيِّ[1]، والمُرادُ بهذه الاستعاراتِ النُّفورُ عنِ اتّباعِ الرُّشدِ باتّباعِ الغَيِّ، وليسَ هناك على الحقيقةِ طريقٌ يُقصَدُ، ولا فَجٌّ يُسلَكُ[2].

بَديعُ تَراتُبِ النَّظْمِ، وتَسلسُلِ النّقائضِ في السِّياقِ:

إظهارٌ لمبدأِ تَلازُمِ الأفعالِ، ومُؤدَّى بعْضِها إلى بعضٍ

ذَكَرَ مُوجِبَ الإيمانِ، وهو الآياتُ، وتَرتَّبَ نقيضُهُ عليهِ، وأَتبَعَ ذَلِكَ بمُوجِبِ الرُّشدِ، وتَرَتَّبَ نقيضُهُ عليهِ، ثمّ جاءَتِ الجُملَةُ بعدَها مُصَرِّحَةً بسلوكِهِم سبيلَ الغَيِّ ومُؤكَّدةً لِمفهومِ الجُملَةِ الشّرطيّةِ قبلَها؛ لأنَّه يَلزَمُ مِن تَركِ سبيلِ الرُّشدِ سُلُوكُ سَبيلِ الغَيِّ؛ لأنَّهما إمَّا هُدًى وإمّا ضَلالٌ، فَهُما نَقيضانِ إذا انتَفَى أحَدُهُما ثَبَتَ الآخَرُ[3]، وذلكَ مِن بديعِ نظْمِ القرآنِ في تلازمِ الأفعالِ وتسلْسُلِ عرضِها بالابتداءِ بالأولَى، وما يترتَّبُ عليه، ثمّ التّصريحُ بنقيضِهما في مَشهَدٍ مُترابِطِ المعنى، مُنسَجِمِ اللّفظِ، مُنسبِكِ التّركيبِ يُصوِّرُ - بدقّةٍ - الحالَ والمآلَ، ذلك أنّه تَعَالَى لمّا أَخبَرَ بتكبُّرِهِم في الحالِ عَطَفَ عليه فِعلَهُم في المآلِ مِن عدمِ إيمانِهِم بالآياتِ مهما كثُرَت، وعدمِ سلوكِ سبيلِ الرُّشدِ بقصْدٍ منهم، ونَظَرٍ، وتَعمُّدٍ، بل إنْ سَلَكوهُ فعَن غيرِ قصدٍ، وإصرارُهُم على سلوكِ سَبيلِ الغَيِّ بغَايةِ الشّهوَةِ، والتَّعمُّدِ، والاعتِمالِ لِسُلُوكِهِ[4].

بَلاغةُ طِباقِ الإيجابِ والسّلْبِ:

بيانُ المعنَى، ومَزيدُ إيضاحِهِ في ثنايَا الطِّباقِ المُدْرَجِ في السِّياقِ

﴿سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ﴾ عبارةٌ عن سبيلِ الهُدى والدّينِ الحقِّ والصّوابِ في العلمِ والعملِ، و﴿سَبِيلَ ٱلْغَيِّ﴾ ما يكونُ مُضادًّا لذلك[5]، فالرُّشدُ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/105.
(2) الشّريف الرّضي، تلخيص البيان، ص: 77.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/389.
(4) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 3/112.
(5) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 15/5.

والغَيُّ مِن طباقِ الإيجابِ، ولا يتّخِذُوهُ، ويتّخذُوهُ مِن طباقِ السَّلبِ بالإثباتِ والنَّفي، فالرُّشدُ الصّلاحُ وفعلُ النّافعِ، والمُرادُ به هنا: الشَّيءُ الصّالحُ كلُّهُ مِنَ الإيمانِ والأعمالِ الصّالحةِ، والغَيُّ الفسادُ والضّلالُ، وهو ضدُّ الرُّشدِ بهذا المعنى.

فالمعنى: إنْ يُدرِكُوا الشَّيءَ الصّالحَ لَم يَعمَلُوا بهِ لِغلَبةِ الهوى على قلوبِهِم، وإنْ يُدرِكُوا الفَسادَ عَمِلُوا بهِ لِغلَبةِ الهَوى، فالعَمَلُ بهِ حَملٌ للنّفسِ على كُلفَةٍ، وذَلِكَ تَأبَاهُ الأنفُسُ الّتي نشأَت على مُتابعةِ مَرغُوبِها[1]، وفي هذين الطِّباقَين إفصاحٌ عَن دلالةِ الرَّبطِ في الجملتَيْن المؤدِّي إلى مَزيدِ إيضَاحٍ لِلمعنى، وبيانِهِ؛ بما يُسبّبُهُ مِن شدٍّ وجَذْبٍ على النّفسِ المُتلقّيَةِ له قراءةً وتَدبُّرًا، وفي ذَلكَ تعزيزٌ للوظيفةِ الإبلاغيّةِ للطّباقِ بالوظيفةِ التّأثيريّةِ الّتي يَترسَّخُ من خلالِها المَنهجُ الفِطريُّ السّليمُ للنّفسِ البشريّةِ باتّباعِ سبيلِ الرُّشدِ، ونبْذِ نقيضِهِ، وزادَ تَعالُقُ الطّباقَين مِن ترسيخِ هذهِ.

سِرُّ تَكْرارِ ألفاظِ (الرُّؤيةِ)، و(السَّبيلِ)، و(الاتّخاذِ):

في التَّكرارِ اعتبارٌ، واستِئنافُ التّنبيهِ، وتجدُّدُهُ، وإيذانٌ بالاختلافِ

لمّا كانَ الكلامُ - في وجهِ تفسيرٍ تقدَّمَ ذكرُهُ - مُوجَّهًا لقومِ النَّبيِّ مُحمّدٍ ﷺ تنبيهًا لهم مِن سِنَةِ الغفلةِ، وشَحْذًا لقلوبِهِم بتجدُّدِ الموعظةِ، كانَ تَكرارُ ألفاظِ الرُّؤيةِ، والسّبيلِ، والاتّخاذِ - بمحمولاتِها الدَّلاليّةِ الحقيقيّةِ والمَجازيّةِ المَطروحةِ على طريقِ الاستعارةِ - مِن لوازمِ الاعتبارِ، واستئنافِ التَّنبيهِ، وتجديدِهِ لِئلَّا يقعوا فيه تعمُّدًا، أو سهوًا وغَفلةً. فرؤيةُ الآياتِ - لِسعةِ دلالتِها - إجمالٌ، أمارتُهُ التَّعبيرُ بلفظِ ﴿كُلَّ﴾ الدّالِّ على العُمومِ. وطريقُ الرُّشدِ وطريقُ الغَيِّ مُتضادّان مُتناقِضان، والتَّكرارُ مُؤذِنٌ بالاختلافِ، دالٌّ عليه، مُؤكِّدٌ له؛ والمعنى: هذه آياتي الكثيرةُ، وهذا طريقُ الرُّشدِ، وهذا طريقُ الغَيِّ. وتَركُ الرُّشدِ، واتِّباعُ الغَيِّ دليلُ مُناقضةِ الفِطرةِ السّليمةِ.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/105 - 106.

فائدةُ التَّعبيرِ بالأفعالِ المُضارِعةِ:

تجدُّدُ أفعالِ الصدِّ عن الرُّشدِ، والعزمُ على الاستمرارِ على الغيِّ

التَّعبيرُ في الصِّلاتِ الأربعِ بالأفعالِ المُضارَعَةِ: ﴿يَرَوْاْ﴾ ثلاثَ مرَّاتٍ، و﴿يَتَّخِذُوهُ﴾ مرّتين بالنَّفْيِ والإثباتِ وبصيغةِ الجُملِ الفعليّةِ المُكرَّرةِ بألفاظِها: ﴿وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ﴾، و﴿لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾، و﴿يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾؛ أفادَت تجدُّدَ أفعالِ الانتهاءِ عنِ الرُّشدِ، والعزمِ على الغيِّ لدَيْهم، واستمرارَهُم عليها، ورسَّخَت مِن ثمَّ صفاتِ الكِبرِ، والجُحودِ، والتّكذيبِ عندَهُم، فالجُملُ الأربعُ يُؤكِّدُ بعضُها بعضًا، فيكون في تَكرارِها بالغُ النّهايةِ في التَّحقيقِ[1].

العُدولُ بالكلامِ إلى الفصْلِ:

التَّكذيبُ صورةُ الكِبْرِ، ومُسبِّبٌ عنه

وجملةُ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ مُستأنَفةٌ استئنافًا بيانيًّا؛ لأنَّ تَوسيمَهُم بتلكَ الصِّلاتِ يُثيرُ سُؤالًا[2]، والمقامُ هنا مَقامُ التَّعليلِ المُضَمَّنِ التَّحذيرَ والتَّقريعَ، فالتّكذيبُ صورةُ الكِبرِ، ومُسبِّبٌ عنه؛ وهو أدعى إلى الفَصلِ.

سِرُّ التَّعبيرِ باسْمِ الإشارةِ ﴿ذَٰلِكَ﴾:

فائدةُ الإشارةِ، تأويلُ المُشارِ إليه بالمذكورِ

استُعمِلَ له اسمُ إشارَةِ المُفرَدِ لِتأويلِ المُشارِ إليهِ بالمذكورِ كقولِهِ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾﴾ [الفرقان: 68]؛ أي: مَن يَفعَلِ المَذكورَ، وهَذا الاستعمالُ كثيرٌ في اسمِ الإشارةِ، وأُلحِقَ بِهِ الضَّميرُ كما تقدَّمَ في قولِهِ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: 61][3].

سِرُّ التَّعبيرِ بالباءِ السَّببيّةِ، في: ﴿بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ﴾:

أفادَتِ الجُملَةُ بيانَ سببِ الكِبْرِ، وجَعْلِه سببًا لِلسَّببِ

الباءُ في قولِهِ: ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ سببيّةٌ؛ أي: كِبرُهُم، وعَدَمُ إيمانِهِم، واتِّباعُهم ﴿سَبِيلَ ٱلْغَيِّ﴾، وإعراضُهُم عن ﴿سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ﴾ سَبَبُهُ

(1) الجلالان، المفصّل، ص: 600، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/106.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/106.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/106.

تَكذِيبُهُم بالآياتِ، فأفادَتِ الجُمْلَةُ بيانَ سببِ الكِبْرِ، والإعلامَ بأنّ ذلك الصَّرفَ سببُهُ التّكذيبُ، وما عُطِفَ عليهِ مِنَ الأوصافِ الّتي هي سَبَبُ صَرفِهِم عنِ الآياتِ، فكانَ ذلكَ سَبَبَ السّبَبِ، وهذا أَحسَنُ مِن إرجاعِ الإشارةِ إلى الصّرفِ المأخوذِ مِن ﴿سَأَصْرِفُ﴾؛ لأنّ هذا المَحمَلَ يَجعَلُ التّكذيبَ سببًا ثانيًا لِلصَّرفِ، وجَعلُهُ سَببًا لِلسّببِ أرشَقُ[1].

وفي قولِهِ تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ إشعارٌ بأنَّ الصّرفَ سببُهُ هذا التَّكبُّرُ، وفي قولِهِ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ﴾ إعلامٌ بأنّ ذلكَ الصّرفَ سَبَبُهُ التَّكذيبُ، والجَمعُ بينَهُما أنّ التَّكبُّرَ سَبَبٌ أوَّلُ نَشَأَ عنهُ التّكذيبُ، فَنِسبةُ الصَّرفِ إلى السَّببِ الأوّلِ وإلى ما تَسَبَّبَ عنهُ[2].

عِلّةُ التّعْبيرِ بالجارِّ والمجرورِ ﴿بِأَنَّهُمْ﴾:

واجتُلِبَت (أنّ) في قولِهِ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ﴾ الدَّالّةُ على المَصدَريّةِ والتّوكيدِ؛ لتحقيقِ سببِ الكِبرِ، وسببِ الصّرفِ وتأكيدِهِ[3]، فالتَّعبيرُ بالمَصدَرِ المُنسبِكِ أقوى في الدَّلالةِ على الحَدَثِ مِنَ الفعلِ، وهو يُناسِبُ معنى التَّحذيرِ والتّقريعِ الّذي تتضمَّنُهُ الآيَةُ الكريمةُ.

تَحقيقُ التّسبيبِ، وتأكيدُهُ في السِّياقِ

التَّعْبيرُ عن فعْلِ الكذِبِ، بصِيغةِ الماضِي:

جُعِلَ المُسندُ فِعلًا ماضيًا ﴿كَذَّبُواْ﴾؛ لإفادةِ أنَّ وصفَ التَّكذيبِ قَديمٌ راسِخٌ فيهم، فكانَ رُسُوخُ ذلك فيهم سَبَبًا في أنْ خَلَقَ الطّبعَ والخَتمَ على قُلُوبِهِم فلا يَشعُرُونَ بنقائِصِهِم، ولا يُصلِحُونَ أنفُسَهم، فلا يَزالُونَ مُتَكَبِّرينَ مُعرِضينَ غاوينَ[4].

إفادةُ أنَّ وصْفَ التَّكْذيبِ، قديمٌ راسِخٌ فيهم، والتَّعبيرُ بهِ على الابتداءِ لا الإخْبارِ

ومعنى: ﴿كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ أنَّهم ابتدأوا بالتّكذيبِ، ولم يَنتظِرُوا، ولم يَهتَمُّوا بالتَّأمُّلِ في الآياتِ فَدامُوا على الكِبرِ وما معَهُ، فَصَرَفَ

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/389، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/106.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/389.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/106.
(4) بن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/107.

اللّهُ قلوبَهُم عَنِ الانتفاعِ بالآياتِ، وليسَ المُرادُ الإخبارَ بأنَّهم حَصَلَ مِنهُم التّكذيبُ؛ لأنَّ ذَلِكَ قد عُلِمَ مِن قولِهِ: ﴿وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُواْ بِهَا﴾[1].

دَلالةُ جُملتَيِ الإخبارِ، في سِياقِ الآيةِ:

التَّنبيهُ على صَيْرورةِ الكذبِ لهم دَيْدنًا، وأنَّ غفلتَهم عن قَصْدٍ

صِيغَت جُملتا التَّكذيبِ والغَفلةِ؛ للدَّلالةِ على أنّ ذلكَ الصّرفَ عنِ الآياتِ هو سببُ تكذيبِهم بها، وغَفلتِهم عنِ النَّظرِ فيها، والتَّفكُّرِ في دلالتِها، والمعنى: أنَّهم وَقَعَ كَذبُهُم، واستمرَّ وصارَ لهم ذلك دَأبًا وديدنًا، وأنّ مِن شأنِهِم الغَفلةَ عنِ الآياتِ وعن تدبُّرِها، حتّى صارَت لا تَخطُرُ لَهم ببالٍ، فحصلَتِ الغَفلةُ عنها والنّسيانُ لها، حتّى كانُوا لا يَذكُرُونَها، ولا شَيئًا منها[2]، وإنّما كانَت كَذلِكَ إذا كانُوا قدِ التزمُوها (والغفلةَ أعني)، وتقصّدُوا فِعلَها، ولو كانَت عن غيرِ قَصدٍ؛ فإنّها قد تَعتَرِيهِم، وقد تُفارِقُهُم[3].

بَلاغةُ التّقديمِ، والتَّعْبيرِ باسْمِ الفاعلِ في السِّياقِ:

الآياتُ مَقصَدُ العِنايةِ، بوصْفِها مَقصَدَ الغَفلةِ

قُدِّمَ الجارُّ ومجرورُهُ: ﴿عَنْهَا غَٰفِلِينَ﴾ للعنايةِ بالآياتِ، وبيان كونِها هي مَقصَدُ الغَفلةِ، وصِيغَ الخبرُ باسْمِ الفاعلِ تَرسيخًا لمعنى الغَفلةِ عنِ الآياتِ فيهم؛ أي: أنَّهم وَاظبُوا على الإعراضِ عنها، وتجذّرَ ذلك فيهم، حتّى صاروا بِمَنزِلَةِ الغافلِ عنها[4].

عِلّةُ التّبايُنِ في نِسبةِ الآياتِ إليه تعالى:

تناسُبُ سِياقِ الآياتِ، يَعكِسُ مُستوَى البيانِ السّامِي

افتتحَ تعالى الآيَةَ بنسبةِ الآياتِ إليهِ تعالى بضَميرِ المُتَكلِّمِ ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ﴾، وخَتَمَ الآيَةَ بنسبتِها إليه بضَميرِ التَّعظيمِ﴿كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾، والعُدولُ عن ضَميرِ التَّعظيمِ في المُفتَتَحِ ليناسبَ التَّعبيرَ في الآيَةِ السّابقةِ لها بصيغةِ المُتَكلِّمِ ﴿سَأُوْرِيكُمْ﴾،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/107.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/389، وابن عادل، اللّباب: 9/314.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/107.
(4) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 15/5.

وقَصَدَ إلى ضَميرِ التَّعظيمِ في الختامِ لِيناسِبَ الآيَةَ الّتي بعدَها: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾.

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الغَيُّ، والضّلالُ، والفسادُ:

إنّ كلَّ غيٍّ قَبيحٌ، وَيجوزُ أَن يكونَ الفَسَادُ لَيسَ بقبيحٍ، كفسادِ التّفاحةِ بتعفُّنِها، وإذا قُلْنَا: فلانٌ فَاسدٌ اقتَضى ذَلك أَنّه فَاجِرٌ، وَإذا قُلْتَ: إنَّه غاوٍ اقتَضى فَسَادَ المَذهَبِ والاعتقادِ[1]. ففي الغَيِّ معنى الانجذابِ إلى ما يترتَّبُ عليه الفسادُ، فكأنّ فيه درجةً مِنَ التَّعمُّدِ[2]، ولذلك أُوثِرَ استعمالُهُ على الفسادِ لِتعمُّدِهم إيّاهُ فِعلًا. أمّا الضَّلالُ فمع كونِهِ عنِ الدّينِ، فهو أبلغُ مِنَ الغَيِّ فيه، إلّا أنّه يُستعمَلُ للابتعادِ عنِ الدِّينِ، وعنِ الطّريقِ، وَلَا يُستعمَلُ الغَيُّ إلَّا في الدّينِ خَاصَّةً، فَضْلًا عنِ اختصاصِ استِعمالِ الغَيِّ في الخيبةِ، يُقَالُ: غوى الرَّجُلُ إذا خَابَ في مَطلَبِهِ[3]. وتخصيصُ الاستعمالِ في الدِّينِ، مع مَلمَحِ الخيبةِ يُناسبان سياقَ الآيَةِ الكريمةِ الّتي يدورُ الحديثُ فيها عن آياتِ اللّهِ الخاصّةِ بشريعتِهِ، وأحكامِ دينِهِ. وسُلوكُهم سَبيلَ الغَيِّ مع وضوحِ طريقِ الرُّشدِ مُنتَهى الخيبةِ.

في الغَيِّ معنَى التَّعمُّدِ والخَيبةِ، والانْجذابِ إلى ما يترتَّبُ عليه الفسَادُ

غَفلَ، وذَهلَ، وسَهَوَ، ونَسيَ:

غَفَلَ: الغَينُ والفاءُ واللّامُ أَصلٌ صَحِيحٌ يدُلُّ على تَركِ الشَّيءِ سَهوًا، وربَّمَا كانَ عَن عَمدٍ[4]. الغَفلةُ: سَهوٌ يَعتري مِن قِلَّةِ التَّحَفُّظِ والتَّيَقُّظِ؛ وقِيلَ: مُتابَعَةُ النَّفسِ على ما تَشتَهِيهِ. والغَفلَةُ: عدمُ إدرَاكِ الشَّيءِ مَعَ وُجودِ مَا يَقتَضِيهِ، وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلۡخَلۡقِ غَٰفِلِينَ ١٧﴾ [المؤمنون: 17]؛ أي: مُهمِلِينَ أَمرَهُم. ولمَّا كانَتِ الآيَةُ الكريمةُ ابتدأَت

الغَفلةُ عدَمُ إدْرَاكِ الشَّيءِ، لِقِلَّةِ التَّحَفُّظِ والتَّيَقُّظِ، وهي المُؤثَرَةُ في الآيةِ الكريمةِ

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 214.
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (غوى).
(3) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 215.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (غفل).

بـالصَّرفِ الّذي يعني المَنعَ، والصَّرفَ، والإبعادَ، ناسبَهُ أنْ تُختَمَ بقولِهِ: ﴿غَٰفِلِينَ﴾؛ لأنّ مَن منعَهُ اللّهُ ألطافَهُ، وصدَّهُ عن آياتِهِ كانَ في غَفلَةٍ تامَّةٍ لا تيقُّظَ معها، ولا إدراكَ.

والذَّهْلُ: تَرْكُكَ الشَّيءَ تَتناساه على عَمْدٍ، أو يشغَلُكَ عنه شاغلٌ، ويَدُلُّ عَلَى شُغلٍ عَن شَيءٍ بِذُعرٍ أَو غَيرِهِ، فَهُوَ عدمُ استثباتِ الإدرَاكِ حَيرةً ودهشةً، وهو: شُغلٌ يُورِثُ حُزنًا ونِسيَانًا[1]. ولمَّا كانَ سياقُ ورودِ اللّفظةِ في مَشهَدِ الآخرةِ العظيم ناسبَهُ قولُهُ تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ﴾ [الحجّ: 2]؛ لأنَّه يَجعلُها تَنشَغلُ عن رضيعِها مَذعورةً مَحزونةً مِن هولِ المَنظَرِ[2]. والنّسيَانُ إنَّمَا يكونُ عَمَّا كَانَ، والسّهوُ يكونُ عَمَّا لم يَكُنْ، تَقول: نَسيتُ مَا عَرفتُهُ، وَلَا يُقَالُ: سَهَوْتُ عَمَّا عَرفتُهُ. وإنّما تَقولُ: سَهَوْتَ عَنِ السُّجُودِ في الصَّلَاةِ، فتجعلُ السَّهْوَ بَدَلًا عَنِ السُّجُودِ الَّذي لم يكُنْ، فالنِّسيَانُ يكونُ لِمَا غابَ بعدَ حُضُورِهِ، والسَّهوُ يكونُ لِمَا عَلِمَهُ الإنسَانُ، وَلِمَا لَا يعلمُهُ. فالإنسَانُ إنَّمَا يَنسَى مَا كانَ ذاكرًا لَهُ، والسّهوُ يكونُ عَن ذِكرٍ، وَعَن غيرِ ذِكرٍ؛ لأَنَّهُ خَفَاءُ المَعنى بِمَا يمتَنعُ بِهِ إدرَاكُهُ. ويُعبَّرُ عن تَركِهِ عَن غَيرِ علمٍ: (بالسَّهوِ فيهِ)، ويُعبَّرُ عن تَركِهِ مَعَ العِلمِ: (بالسَّهوِ عَنهُ)[3]، ومِنهُ قَولُهُ تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ هُمۡ عَن صَلَاتِهِمۡ سَاهُونَ ۝٥﴾ [الماعون: 5].

والسَّهوُ: خطأٌ عَن غَفلَةٍ، أو هو غَفلَةٌ يَسيرَةٌ عَنِ الحافِظَةِ يَتَنَبَّهُ بأَدنى تَنبيهٍ، والنِّسيانُ زَوَالُهُ عَنهَا كُلِّيَّةً، بِحيثُ يحتَاجُ إِلَى تَحصِيلٍ جَدِيدٍ. وَلذَا عَدَّهُ الأطبَّاءُ مِن الأَمراضِ دُونَه. فالنِّسيانُ: هُوَ تَركُ ضَبطِ مَا استُودِعَ إمَّا لضعْفِ قَلبِهِ، وإمَّا عَن غَفلَةٍ، وإمّا عَن قَصْدٍ حَتَّى يَنحَذِفَ عَنِ القَلبِ. ومن هنا فرَّقُوا بينَ (السَّاهِي والنَّاسي)؛ بأنَّ النَّاسي إذا ذُكِّرَ تَذَكَّرَ، والسَّاهِي بخِلافِه[4].

(1) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (ذهل)، والكفويّ، الكلّيّات، ص: 506.
(2) سعد بن عبد العظيم، موسوعة الفروق القرآنيّة: 1/566.
(3) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 97، والكفويّ، الكلّيّات، ص: 506، وابن منظور، لسان العرب: (سها).
(4) الرّاغب، المفردات: (نسي)، والكفويّ، الكلّيّات، ص: 506، والفيروزباديّ، تاج العروس: (سهو).

﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلۡأٓخِرَةِ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡۚ هَلۡ يُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٤٧﴾ [الأعراف: 147]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

نَفاذُ السُّنَنِ الإلهيَّةِ في الضّالِّينَ، وحُبُوطِ أعمالِهِم بسَبَبِ التّكذيبِ وسُوءِ الأعمالِ

لمّا بيّنَ اللّهُ تعالى سُنَنَهُ في ضلالِ البشرِ بعدَ مجيءِ البيّناتِ في كلِّ زمانٍ، ولمّا ذَكَرَ ما لأجلِهِ صَرَفَ المُتكبِّرينَ عَن آياتِهِ بكذبِهِم وغفلتِهِم، بيّنَ حالَ أُولئكَ المُكذِّبينَ فَقَد كانَ يَجُوزُ أن يُظَنَّ أنّهم يَختلِفون في بابِ العِقابِ؛ لأنَّ فِيهم مَن يَعمَلُ بعضَ أعمالِ البرِّ، فَقَد يَحسَبُ السَّامِعُ أنَّ أعمالَهُم ستنفَعُهُم؛ أُزِيلَ هذا التَّوَهُّمُ بِبيانِ حالِ جميعِهِم سَواءٌ كانَ مُتَكبِّرًا، أو مُتَواضِعًا، أو كانَ قَليلَ الإحسانِ، أو كانَ كثيرَهُ بأنَّ أعمالَهُم لا تنفَعُهُم مَعَ التّكذيبِ بآياتِ اللّهِ، ولقاءِ الآخِرةِ[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَلِقَآءِ﴾: اللّامُ والقافُ والياءُ أُصُولٌ ثَلاثَةٌ: أَحَدُهَا تَوَافي شَيئَينِ. وهو: اللِّقَاءُ: المُلاقَاةُ وَتَوَافي الاثنَينِ مُتَقَابِلَينِ[2]، وكلُّ شيءٍ استقبلَ شَيئًا أَو صادفَهُ فقد لقيهُ[3]. واللّقاءُ: مُقابلَةُ الشَّيءِ ومُصادَفَتُه مَعًا، ويُعبَّرُ بِهِ عَن كلٍّ مِنهُمَا، ويُقالُ ذلكَ في الإدراكِ بالحِسِّ، والبَصَرِ، وبالبَصيرةِ. ومُلاقاةُ اللّهِ ﷻ عبارةٌ عنِ القيامةِ، وعنِ المَصيرِ إليه. وسُمِّيَ بـ﴿يَوۡمَ ٱلتَّلَاقِ ١٥﴾ [غافر: 15]، وتخصيصُه بذلك لالتقاءِ مَن تقدَّمَ ومَن تأخَّرَ، والتِقَاءِ أهلِ السَّماءِ والأرضِ، ومُلَاقاةِ كلِّ أحدٍ بعمَلِهِ الّذي قدَّمَهُ[4]، وهو معنى اللّفظةِ في الآيَةِ الكريمةِ.

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 15/5، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/107.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (لقي).
(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (لقا).
(4) الرّاغب، المفردات: (لقي).

2) ﴿ٱلۡأٓخِرَةِ﴾: الهَمزَةُ والخَاءُ والرَّاءُ أَصلٌ واحِدٌ إليهِ تَرجِعُ فُرُوعُهُ، وَهُوَ خِلَافُ التَّقَدُّمِ. والآخِرُ، والآخِرةُ نَقِيضُ المُتَقَدِّمِ والمُتَقَدِّمَةِ[1]، ويُعَبَّرُ بالدّارِ الآخرةِ عنِ النّشأةِ الثّانيةِ، كما يُعَبَّرُ بالدّارِ الدّنيا عنِ النّشأةِ الأولى[2]. فـ﴿ٱلۡأٓخِرَةِ﴾: صفةٌ غالبةٌ للدّارِ أوِ الحياةِ الّتي بعدَ دارِ الدّنيا، وهي في كلِّ القرآنِ بهذا المعنى عدا ﴿ٱلۡمِلَّةِ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ [ص: 7][3].

3) ﴿حَبِطَتۡ﴾: الحَاءُ والبَاءُ والطَّاءُ أَصلٌ وَاحِدٌ يدُلُّ على بُطلَانٍ أَو أَلَمٍ. يُقَالُ: أَحبَطَ اللّهُ عَمَلَ الكَافِرِ؛ أَي: أَبطَلَهُ[4]، وحَبِطَ عَمَلُه: فَسَدَ[5]، والإحباطُ هُوَ إبطَالُ عملِ البرِّ مِنَ الحَسَنَاتِ بالسّيّئاتِ، وَهُوَ مِن قَوْلِكَ: حَبِطَ بطنُهُ إذا فَسدَ بالمأكلِ الرَّدِيِّ[6].

وحَبْطُ العَمَلِ على أضرُبٍ: أحدُها: أن تكونَ الأعمالُ دُنيَويّةً فلا تُغني في القيامةِ غِنَاءً، والثّاني: أن تكونَ أعمالًا أُخرَويَّةً، لكنْ لم يَقصِدْ بها صاحبُها وَجهَ اللّهِ تعالى. والثّالثُ: أن تكونَ أعمالًا صَالِحةً، ولكنْ بإزائِها سيّئاتٌ تُوفي عَليها[7]، ومعنى ﴿حَبِطَتۡ﴾ في الآيَةِ الكريمةِ ما ارتكبُوهُ مِن كِبْرٍ وكَذبٍ، فأبطلُوا عملَهُم، هو مِنَ الوجهِ الأوَّلِ.

4) ﴿يُجۡزَوۡنَ﴾: الجِيمُ والزَّايُ واليَاءُ: قِيَامُ الشَّيءِ مَقَامَ غَيرِهِ ومُكَافَأَتُهُ إيَّاهُ[8]، وجزى يجزي جزاءً؛ أي: كافأَ بالإحسانِ وبالإساءةِ[9]. فالجزاءُ يكونُ ثَوابًا، ويكونُ عِقابًا[10]، وهو: الغِناءُ والكِفَايةُ، وهُوَ مَا فِيهِ الكِفايَةُ إنْ خَيرًا فخَيرٌ وَإنْ شرًّا فَشَرٌّ. وهو: تحصيلُ شيءٍ مَقصودٍ مِن تناوُلِ شيءٍ أو معالجتِهِ[11]. وكلُّ ما في القرآنِ مِنَ التَّركيبِ فهو مِنَ الجزاءِ بمعنى المكافأةِ على الشَّيءِ في الخيرِ والشّرِّ، ويَصدقُ في الثّوابِ والعِقابِ. ومنه جَزَيْتُهُ حقَّهُ: قضيتُه. ومعنى اللّفظِ المَشروحِ مكافأةُ المُكذِّبينَ بما كانُوا يَعمَلُون.

(1) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (أخر).
(2) الرّاغب، المفردات: (آخر).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (أخر).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حبط).
(5) الخليل، العين: (حبط).
(6) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 236.
(7) الرّاغب، المفردات: (حبط).
(8) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (جزي).
(9) الخليل، العين: (جزي).
(10) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (جزى).
(11) الرّاغب، المفردات: (جزاء).

المَعْنى الإجْماليُّ:

بيانُ جَزاءِ المُستَكبِرينَ المُكذِّبينَ، مقابِلَ أعمالِهم بيومِ الدّينِ

الّذينَ كذّبُوا بآياتِنا المُنزَّلَةِ بالحقِّ والهُدى على رُسُلِنا، فلم يُؤمِنوا لَهم، ولا اهتدوا بها، وكَذّبُوا بلقاءِ الآخرةِ، وما يكونُ فيها مِنَ الجزاءِ على الأعمالِ - على الخيرِ بالثّوابِ، وعلى الشّرِّ بالعقابِ - فاتّبعُوا أهواءَهُم، لا يُجزون هنالك إلّا ما كانَ مِن تأثيرِ أعمالِهم، فإنْ كانَ حقًّا وخيرًا زكَّاهُ وأصلحَهُ، وإنْ كانَ باطلًا وشرًّا دسّاهُ وأفسدَهُ؛ فإنَّ اللّهَ لا يَظلِمُ النَّاسَ في الجزاءِ مِثقالَ ذرّةٍ[1]، وتُرشِدُ الآيَةُ الكريمةُ إلى أنّ الجاحدَ للحقِّ مع علمِهِ به أقبحُ حالةً مِنَ الجاهلِ بهِ المُقصِّرِ في تعريفِهِ[2]. وهذه الآياتُ أعظمُ زاجرٍ عنِ التَّكبُّرِ، فإنّها بيّنَت أنَّ التَّكبُّرَ يُوجِبُ الكُفْرَ والإصرارَ عليهِ والوَهنَ في جميعِ الأمورِ، وهي ممَّا يَتعجَبُ المُوفَّقُ مِن ارتكابِهِ[3].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

بَلاغةُ الوصْلِ ووُجُوهِها:

دَفعٌ لتوهُّمِ أنَّهم ستنفَعُهُم أعمالُهُم، مع تكْذيبِهِم بآياتِ اللهِ

يَجوزُ أن يكونَ قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ مَعطوفًا على جملةِ: ﴿سَأَصۡرِفُ عَنۡ ءَايَٰتِيَ﴾، أو على جملةِ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ في الآيَةِ السّابقةِ، ويجوزُ أن تكونَ تَذييلًا مُعترِضًا بينَ القِصّتَينِ، وتكونُ الواو اعتراضيّةً، وأيًّا ما كانَ فَهي لإزالةِ تَوهُّمِ أنَّهم ستنفعُهُم أعمالُهُم مع تكذيبِهِم بآياتِ اللّهِ، ولقاءِ الآخرةِ[4]، أو هي استِئنافٌ مُرتَّبٌ على جملةِ ما تقدّمه منها، بيّنَ اللّهُ فيه جزاءَهُم على تكذيبِهِم وكفرِهِم[5].

(1) محمد رضا، تفسير المنار: 9/172.
(2) القشيريّ، لطائف الإشارات: 1/570.
(3) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 3/112.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/107.
(5) محمد رضا، تفسير المنار: 9/169.

بَلاغةُ العُدولِ، مِنَ الإضْمارِ إلى التّعريفِ بالمُوصُوليّةِ:

الإشارةُ إلى أنّ أعمالَهُم حبطَتْ، بسَببِ التَّكذيبِ

وأُشِيرَ بالمَوصولِ ﴿وَٱلَّذِينَ﴾ على طريقِ التَّعليلِ أو الإيماءِ إلى أنّ التّكذيبَ هو سببُ خُسرانِهم، وحَبَطِ أعمالِهم بتعريفِهم بطريقِ المَوصوليّةِ، دونَ الإضمارِ، مَعَ تَقَدُّمِ ذِكرِهم المُقتَضي بِحَسَبِ الظّاهرِ الإضمارَ، فخُولِفَ مُقتَضى الظّاهِرِ لِذَلكَ[1].

دَلالةُ التَّعْبيرِ عنِ اللّقاءِ، بالمَصْدَرِ:

تَخصِيصُ اللّقاءِ بيومِ القيامةِ، إبرازٌ لأهمّيّتِه وجَلالتِه

اللّقاءُ مصدرُ لقي الشَّيءَ أو الشّخصَ، ولاقاهُ كالمُلاقاةِ إذا صادفَهُ، أو قابلَهُ، أوِ انتهى إليه[2]، وفي التَّعبيرِ عنه بالمَصدَرِ، وتعريفِهِ بالإضافةِ تخصيصٌ له، وبيانٌ في كونِهِ يومَ القيامةِ.

سِرُّ إضافةِ ﴿وَلِقَآءِ﴾ إلى ﴿ٱلْأَخِرَةِ﴾:

المعنى لقاءُ وعْدِهِ فيها، وفيه تَنْبيهٌ على مَحلِّ افْتِضاحِهِم

وإضافة ﴿وَلِقَآءِ﴾ إلى ﴿ٱلْأَخِرَةِ﴾ يجوزُ أن يكونَ مِن إضافةِ المَصدَرِ إلى المفعولِ بهِ؛ أي: ولقائِهِمُ الآخرةَ، ومُشاهَدَتِهِم أحوالَها، ومِن إضافةِ المَصدَرِ إلى ظرفِ المكانِ بمعنى (في): ولقاءِ ما وَعَدَ اللّهُ في الآخرةِ ووعيده[3]، وجملةُ ﴿وَلِقَآءِ ٱلْأَخِرَةِ﴾ لَفظٌ يَتَضَمَّنُ تَهديدًا؛ أي: هُنالِكَ يُفتَضَحُ لَهُم حالُهم[4]، فنَبَّهَ بها على مَحَلِّ افتضاحِهِم وجزائِهِم؛ وعيدًا لَهُم، وأنّها كائِنةٌ لا مَحالَةَ[5].

بَلاغةُ التَّعْبيرِ بالفعْلِ (حَبِطَ)، على طريقِ التّشْبيهِ:

التّحذيرُ مِنَ التّكذيبِ بآياتِ اللهِ، ولقاءِ الآخِرةِ

معنى ﴿حَبِطَتْ﴾: سَقَطَت، وفَسَدَت، وأصلُ الحَبَطِ فَسادُ شيءٍ كانَ صالحًا، قد يُستَعمَلُ في الّذي كانَ أوّلَ مَرَّةٍ فاسدًا؛ إذ مَآلُ العامِلِين واحدٌ، وساغَ أن يُستعمَلَ حَبِطَتْ هنا؛ إذ كانَت أعمالُهُم في مُعتَقَداتِهِم جارِيَةً في طَريقِ صَلاحٍ، فكأنّ الحَبَطَ فيها إنَّما هو

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/108.
(2) محمد رضا، تفسير المنار: 9/172.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/159، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/389.
(4) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/454.
(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/389.

بِحَسَبِ مُعتَقَداتِهِم، وأمَّا بِحَسَبِ ما هي عليهِ في أنفُسِها ففاسدةٌ منذُ أوَّلِ أمرِها[1]. وفيه تشبيهٌ لضياعِ الأعمالِ الصّالحةِ بفسادِ الذّواتِ النّافعةِ، ووجهُ الشّبهِ عدمُ انتفاعِ مُكتَسِبِها منها. والمُرادُ ضياعُ ثوابِها، وما يترقّبُهُ العاملُ مِنَ الجزاءِ عليها والفوزِ بها. والمُرادُ التَّحذيرُ مِنَ التَّكذيبِ بآياتِ اللّهِ ولقاءِ الآخرةِ، لِيعلمَ المُشرِكونَ أنّهم لا تنفعُهُم أعمالُهُم[2].

فائِدةُ العُدولِ إلى الفصْلِ:

يُعدُّ الفصْلُ جوابًا لسُؤالٍ ناشِئٍ عن حُبوطِ العَملِ

وجملةُ: ﴿هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ مُستأنَفَةٌ استئنافًا بيانيًّا، جوابًا عن سُؤالٍ يَنشَأُ عن قولِهِ: ﴿حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْۚ﴾؛ إذ قد يقُولُ سائِلٌ: كيفَ تَحبَطُ أعمالُهُم الصّالِحةُ؟ فَأُجيبُ بأنّهُم جُوزُوا كَما كانُوا يَعمَلُون؛ أي: بإبطالِ أعمالِهِم، وإنْ عملُوا كلَّ حسنٍ سوى الإيمانِ؛ بسببِ أنّهم أبطلُوا الآياتِ والآخرةَ بتكذيبِهِم بها، فإنَّهم لمّا كذَّبُوا بآياتِ اللّهِ كانُوا قد أحالُوا الرِّسَالةَ والتّبليغَ عنِ اللّهِ، فَمِن أينَ جاءَهُمُ العِلمُ بِأنَّ لهم على أعمالِهِمُ الصّالِحةِ جزاءً حَسَنًا؛ لأنَّ ذَلكَ لا يُعرَفُ إلّا بإخبارٍ مِنَ اللّهِ تعالى، وهُم قد عَطَّلُوا طريقَ الإخبارِ وهو الرِّسَالةُ، ولأنَّ الجَزاءَ إنّما يَظهَرُ في الآخرةِ، وهُم قد كذَّبُوا بلقاءِ الآخِرةِ، فَقَد قَطَعُوا الصِّلَةَ بينَهُم وبينَ الجَزاءِ، فكانَ حَبَطُ أعمالِهِمُ الصّالِحةِ وِفاقًا لاعتقادِهِم، فالجزاءُ مِن جنسِ العملِ[3].

بَلاغةُ التَّعْبِيرِ بالاسْتِفهامِ:

أُدرِجَ الاستِفهامُ، لتَقريرِ العُقوبةِ وإثباتِها

قولُهُ: ﴿هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ استفهامٌ تقريريٌّ؛ يعني: أنَّهُم لا يُجزون إلَّا بما يَستحقُّونَ مِنَ العقابِ، أو يَستَوجِبُونَ بسُوءِ فعلِهِم العُقُوبَةَ، وهي قولُهُ: ﴿إِلَّا مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾؛ أي: إلَّا بما كانُوا،

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/454.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 6/125.
(3) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 3/112، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/108.

أو على ما كانُوا يَعملون[1]، أو هو استفهامٌ بمعنى النَّفي، ولِذلِكَ دخلَت ﴿إِلَّا﴾، ويبدو أنَّه أرجحُ؛ ولأنّ الاستفهامَ التَّقريريَّ مُوجِبٌ مِن حيثُ المعنى فَيَبعُدُ دُخُولُ إلَّا عَليه[2]، ويَحتمِلُ الاستفهامُ هنا بنوعيهِ معانيَ التّخويفِ، والتّشنيعِ، والتّنبيهِ، والإنكارِ.

نُكتةُ الاسْتِفهامِ بالأداةِ ﴿هَلْ﴾:

مِن معاني (هل) النّفيُ مَشوبًا به الاسْتِفهامُ، بقرينةِ الاسْتِثناءِ

قولُهُ: ﴿هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾، الاستفهامُ بـ﴿هَلْ﴾ مُشْرَبٌ معنى النَّفي بقرينةِ الاستثناءِ[3]، فقد يُرادُ بالاستفهام بـ﴿هَلْ﴾ النّفْيُ، ولذلكَ تدخُلُ ﴿إِلَّا﴾ على الخبرِ بعدَها، نحو: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ۝٦٠﴾ [الرّحمن: 60][4].

بَلاغةُ حذْفِ المُضافِ المقدَّرِ في السِّياقِ:

الجزاءُ لا يكونُ نفسَ المَجْزِيِّ عليه

و﴿مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ مُقدَّرٌ فيه مُضافٌ، والتّقديرُ: مُكافِئُ ما كانُوا يَعمَلُونَ بقرينةِ قولِهِ: يُجزَونَ؛ لأنَّ الجزاءَ لا يكونُ نَفسَ المَجزِيِّ عليه، فإنَّ فِعلَ (جزى) يَتَعَدَّى إلى العِوَضِ المَجعُولِ جَزاءً بنفسِهِ، ويَتَعَدَّى إلى العملِ المَجزِيِّ عَلَيهِ بِالباءِ، كما قالَ تعالى: ﴿وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُواْ جَنَّةً وَحَرِيرًا ۝١٢﴾ [الإنسان: 12]، ونَظيرُ هذه الآيَةِ قولُهُ: ﴿سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ﴾ [الأنعام: 139][5].

نُكتةُ التَّعْبِيرِ بلفْظِ ﴿يَعْمَلُونَ﴾:

آثارُ الاعْتِقادِ، تَظهَرُ في أقوالِ المُعتقِدِ وأفعالِهِ

والمُرادُ بـ﴿مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ ما كانوا يَعتقِدونَ، فَأُطلِقَ فِعلُ (يَعمَلونَ) على التَّكذيبِ بالآياتِ، وبلقاءِ الآخرةِ؛ لأنّ آثارَ الاعتقادِ تَظهَرُ في أقوالِ المُعتَقِدِ وأفعالِهِ، وهي مِن أعمالِهِ[6].

---

(1) الواحديّ، التّفسير الوسيط: 2/410، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/454، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/389.

(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/389.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/108.

(4) ابن هشام، مغني اللّبيب، ص: 459، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/54.

(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/108.

(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/108.

بَلاغةُ التَّعْبِيرِ بالاحْتِباكِ:

الآيَةُ الكريمةُ مِنَ الاحتباكِ: فإثباتُ الغَفلةِ أوَّلًا يدُلُّ على إرادتِها ثانيًا، واللّقاءُ ثانيًا يدُلُّ على إرادتِهِ أوّلًا[1]، وفي ذلك إحكامٌ للنَّظمِ إحكامًا يمنعُ عنه الخَلَلَ مع تحسينِ أثرِهِ جمالًا ورونقًا.

إحْكامُ النّظْمِ بما يَمنعُ عنه الخَلَلَ، ويُؤدِّي دَلالتَه بدِقّةٍ

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الإبطالُ، والإدْحاضُ، والإحباطُ:

أصلُ الإبطَالِ هو الإهلاكُ، وَمِنهُ سُمِّي الشّجاعُ بطلًا لإهلاكِهِ قَرينَهُ، وأصلُ الإدحاضِ الإزالةُ، فقولُكَ أبطلَهُ يُفيدُ أنّه أهلكَهُ، وقولُكَ: أدْحضَهُ يُفيدُ أنّه إزالةٌ. وَمِنهُ: مَكَانٌ دَحض إذا لم تثبتْ عَلَيهِ الأَقدَامُ، وَقد دَحَضَ إذا زَلَّ. أمّا الإحباطُ فهوَ إبطَالُ عملِ البرِّ مِنَ الحَسَنَاتِ بالسّيّئاتِ[2]، وهو أنسبُ لسياقِ الآيَةِ الكريمةِ؛ لكونِها إبطالًا لكلِّ أعمالِهِم واستبدالها بالسّيّئاتِ.

الإحْباطُ إبطَالُ عمَلِ البِرِّ مِنَ الحَسَنَاتِ بالسّيّئاتِ، وهو المُستعمَلُ في سِياقِ الآيةِ

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 3/112.

(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 236.

﴿وَٱتَّخَذَ قَوۡمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِنۡ حُلِيِّهِمۡ عِجۡلٗا جَسَدٗا لَّهُۥ خُوَارٌۚ أَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمۡ وَلَا يَهۡدِيهِمۡ سَبِيلًا ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُواْ ظَٰلِمِينَ ١٤٨﴾ [الأعراف: 148]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

بعدَما تكلَّمَ عن قِصّةِ مُناجاةِ مُوسَى، انْتقلَ إلى ما كانَ مِن ضَلالِ قَوْمِهِ في فِترةِ المُناجاةِ

عُطِفَ على جملةِ: ﴿*وَوَٰعَدۡنَا مُوسَىٰ﴾ [الأعراف: 142] عَطفَ قصّةٍ على قصّةٍ، فذَكَرَ فيما تقدَّمَ قصّةَ المُناجاةِ، وما حَصَلَ فيها مِنَ الآياتِ والعِبرِ، وذَكَرَ في هذه الآيَةِ ما كانَ مِن قومِ موسى، في مُدَّةِ مَغيبِهِ في المُناجاةِ، مِنَ الإشراكِ[1]، لمّا كانَ رسّخَ في قلوبِهِم مِن فخامةِ مَظاهرِ الوثنيّةِ الفرعونيّةِ في مِصرَ، ذُكِرَت هذه القصّةُ هنا مَعطوفةً على ما قبلَها مِن خبرِ المُناجاةِ وألواحِ الشَّرِيْعَةِ لمَا بينَ السّياقَين مِنَ العلاقةِ والاشتراكِ في الزّمنِ[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَٱتَّخَذَ﴾: الهَمزَةُ والخَاءُ والذَّالُ أَصلٌ وَاحِدٌ تَتَفَرَّعُ مِنهُ فُرُوعٌ مُتَقَارِبَةٌ في المَعنَى. والأَصلُ حَوزُ الشَّيءِ وَجَبْيُهُ وَجَمعُهُ[3]. الأخذُ: حوزُ الشَّيءِ وتحصيلُهُ، وذلك تارةً بالتّناولِ، وتارةً بالقهرِ، والاتِّخاذُ افتِعالٌ منه؛ بمعنى: كَسَبْتُهُ، أُلزِمَتِ التَّاءُ كأنَّها أصليَّةٌ. ويُعَدَّى إلى مَفعُولَين، ويَجري مَجرَى الجَعْلِ[4]. ومعنى: ﴿وَٱتَّخَذَ﴾ في الآيَةِ الكريمةِ: وصَاغَ وعَمِلَ[5]، فَضْلًا عن معنى الجعلِ والتّصييرِ الّذي بيّن بهما المُفسِّرونَ معنى اللّفظةِ.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/109.
(2) محمد رضا، تفسير المنار: 9/173.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (أخذ).
(4) الخليل، العين: (أخذ)، والرّاغب، المفردات: (أخذ).
(5) الآلوسي، روح المعاني: 9/63.

2) ﴿حُلِيِّهِمْ﴾: الحَاءُ وَاللَّامُ وَمَا بَعْدَهَا مُعْتَلٌّ، ثَلَاثَةُ أُصُولٍ: فَالأَوَّلُ طِيبُ الشَّيْءِ فِي مَيْلٍ مِنَ النَّفْسِ إِلَيْهِ، وَالثَّانِي تَحْسِينُ الشَّيْءِ، وَالثَّالِثُ - وَهُوَ مَهْمُوزٌ -: تَنْحِيَةُ الشَّيْءِ، فمنَ الثَّاني: حُلِيُّ المَرْأَةِ[1]، والحَلْيُ: كلُّ حِلْيةٍ حَلَيت به بها امرأةً أو سيفًا أو ونحوَهُ، والجميعُ: حُلِيٌّ، فهو اسمٌ لِما يُحَسَّنُ بهِ مِنَ الذّهبِ والفِضّةِ[2]. ومعنى الحُليّ في الآيَةِ الكريمةِ ما يُزيَّنُ بهِ مِن مَصُوغِ الحجارةِ والمعدنيّاتِ وما إلى ذلك[3].

3) ﴿عِجْلًا﴾: العَينُ والجيمُ واللَّامُ أَصلَانِ صَحِيحَانِ، يَدُلُّ أَحَدُهُمَا عَلَى الإِسرَاعِ، والآخَرُ عَلَى بَعضِ الحَيَوَانِ[4]، وهو العِجْلُ: وَلَدُ البَقَرَةِ؛ وسُمِّي بذلكَ لِتصَوُّرِ عَجَلَتِها الّتي تَعدِمُ منه إذا صارَ ثورًا[5]، أو لولادتِهِ قبلَ بُلوغِ الوقتِ الّذي أَلِفُوا أن تَلِدَ النّوقُ بعدَهُ، وهو اثنا عشرَ إلى خمسةَ عشرَ شهرًا، والبقرُ تَلِدُ لتسعةِ أشهرٍ[6]، وقِيلَ: العِجْلُ: ولدُ البَقَرَةِ الأَهليَّةِ خَاصَّةً، وَلَا يُقَالُ لولدِ الوحشيّةِ عِجلٌ[7]، وكلُّ عِجلٍ في القرآنِ الكريمِ فالمُرادُ به ولدُ البقرةِ.

4) ﴿جَسَدًا﴾: الجيمُ والسِّينُ والدَّالُ يدُلُّ عَلَى تَجَمُّعِ الشَّيءِ أيضًا واشتِدَادِهِ. مِن ذَلِكَ جَسَدُ الإِنسَانِ[8]. ولا يُقالُ لغيرِ الإنسانِ جَسَدٌ مِن خلقِ الأرضِ. وكلُّ خلقٍ لا يأكلُ ولا يَشربُ مِن نحو الملائكةِ والجنِّ ممّا يَعقِلُ فهو جَسَدٌ[9]. والجَسَدُ: البدنُ[10]، وهو كالجسمِ لكنّه أخصُّ[11]. وكان عِجلُ بني إسرائيلَ جَسَدًا لا يأكلُ ولا يَشربُ ويصيحُ[12]؛ أي: كتلةٌ لا روحَ فيها[13].

(1) الخليل، العين: (حلي)، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (حلو).
(2) الزَّجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 2/377.
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (حلو - حلى).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عجل).
(5) الرّاغب، المفردات: (عجل).
(6) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (عجل).
(7) ابن دريد، جمهرة اللّغة: (عجل).
(8) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (جسد).
(9) الخليل، العين: (جسد).
(10) الجوهريّ، الصّحاح: (جسد).
(11) الرّاغب، المفردات: (جسد).
(12) الخليل، العين: (جسد).
(13) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (جسد).

5) ﴿خُوَارٌ﴾: الخَاءُ والوَاوُ والرَّاءُ أَصلَانِ: أَحَدُهُمَا يدُلُّ على صَوتٍ، ومنهُ قَولُهُم خَارَ الثَّورُ يَخُورُ، وذَلِكَ صَوتُهُ. فالخُوارُ: ما اشتدَّ مِن صوتِ البقرةِ والعِجلِ، وصياحِهِ[1]. والخُوَارُ: صوتُ البهائمِ. وذَكَرَ الرّاغبُ أنّه مُختَصٌّ بالبقرِ، ثمّ تَوَسَّعُوا فِيهِ، فأَطْلَقُوهُ على صِياحِ جَمِيعِ البَهَائِمَ[2]. كصَوتِ البعيرِ والغَنَمِ والظِّبَاءِ والسِّهَامِ[3]. وقولُهُم: خارَ السّهمُ، تشبيهٌ بخُوارِ البقرِ والثّورِ في إحداثِ الصّوتِ. أمّا الخُوارُ مِن أصواتِ البقرِ والغنمِ والظّباءِ فهي تُنبِئُ عن فراغٍ كبيرٍ أو تخلخلٍ في البناءِ تمرُّ فيه الرّيحُ[4]، وهي حِيلَةُ السّامريِّ في العِجْلِ الّذي صاغَهُ؛ لتحويلِ الرّيحِ الدّاخلةِ جوفَهُ إلى صوتٍ أشبهَ بخُوارِ البقرِ.

❁ المَعْنى الإِجْمالِيُّ:

مُنْتهَى الضّلالِ والزَّيغِ عنِ الحقِّ، اتّخاذُ العِجْلِ منَ الحَلْيِّ الذّهبيِّ إلهًا

بعدَ ما فارقَهُم مُوسى عليه السلام مَاضيًا إلى مناجاةِ ربِّهِ، ووفاءً للوعدِ الّذي كانَ ربُّهُ وعدَهُ اتّخذَ بنو إسرائيلَ: ﴿مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ﴾، على هيئةِ ولدِ البقرةِ، له صوتٌ يشبهُ صوتَهُ ممّا تُفنِّنَ فيه مِن سرِّ الصّناعةِ بإمرارِ الرّيحِ فيه؛ لِيحدثَ هذا الصّوتُ، وعكفوا عليه يعبدونَهُ، جهلًا منهم وجحودًا، وذلكم مُنتَهى الضّلال؛ لأنّ الرّبَّ عزّ وجلّ الّذي له مُلكُ السّمواتِ والأرضِ، ومُدبِّرُ تصريفِ الكونِ، لا يَجوزُ أن يكونَ جسدًا له خوارٌ، لا يكلِّمُ أحدًا ولا يُرشِدُ إلى خيرٍ، بل صفتُه أنّه يُكلِّمُ أنبياءَهُ ورسلَهُ، ويُرشِدُ خلقَهُ إلى سبيلِ الخيرِ، ويَنهاهُم عن سبيلِ المَهالِكِ والرّدَى[5].

وتُرشِدُ الآيَةُ الكريمةُ إلى صحّةِ الحِجاجِ في الدّينِ، وأنّهُ تعالى

(1) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والجوهريّ، الصّحاح: (خور).
(2) الرّاغب، المفردات: (خوار).
(3) الزّبيديّ، تاج العروس: (خور).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (خور).
(5) ابن جرير، جامع البيان: 13/117 - 118.

دَلَّهُم، في بُطلانِ اتّخاذِ العِجْلِ إلهًا، بأنَّه لا يَتَكلَّمُ ولا يَهدِي، وإنّما ذَكَرَ الكَلامَ؛ لأنَّ الخُوارَ تَنفَدُ فِيهِ الحِيلةُ، ولا تَنفَدُ في الكَلامِ، وتدُلُّ على أنّ إزالةَ الشُّبَهِ في الدِّينِ وَاجبٌ، كما أزالَها اللّهُ تعالى[1].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

عِلّةُ العُدولِ مِنَ الفصْلِ إلى الوصْلِ:

عُطِفَ على جملةِ: ﴿وَوَٰعَدۡنَا مُوسَىٰ﴾ [الأعراف: 142] عَطفَ قِصَّةٍ على قِصّةٍ، فذُكِرَ فيما تقدَّمَ قِصّةُ المُناجاةِ، وما حَصَلَ فيها مِنَ الآياتِ والعِبرِ، وذُكِرَ في هذه الآيَةِ ما كانَ مِن قومِ مُوسى، في مُدّةِ مَغِيبِهِ في المُناجاةِ، مِنَ الإشراكِ[2]. ولمَّا كانَ رسّخَ في قلوبِهِم مِن فخامةِ مظاهرِ الوثنيّةِ الفِرعونيّةِ في مِصرَ، ذُكِرَت هذه القصّةُ هنا معطوفةً على ما قبلَها مِن خبرِ المُناجاةِ وألواحِ الشَّريعَةِ لِمَا بينَ السّياقين مِنَ العلاقةِ والاشتراكِ في الزّمنِ[3].

سِياقَا طَلَبِ القَومِ جعْلَ إلهٍ، وطلَبِهم اتّخاذَ العِجْلِ، مُشتركان في الغايةِ

بَلاغةُ التَّعْبِيرِ بفعْلِ الاتّخاذِ:

﴿وَٱتَّخَذَ﴾ أصلُهُ (ايتَخَذَ)، على وزن (افتَعَلَ) مِن: (تَخِذَ)، ويَخرجُ لمعانٍ منها: المُشارَكة، وهو المعنى المُناسِبُ علّةً لاختيارِهِ بأمارةِ إضافتِهِ إلى قومِ مُوسى، وتعقيبِهِ بما يدُلُّ على المشاركةِ بإسهامِهِم في الصّناعةِ بحُليِّهِم، فَضلًا عن إمكانِ تضمُّنِ أصلَيْ معاني (افتعل)؛ وهما: المطاوعةُ، والاتّخاذُ الّذي يعني هنا التَّصنُّعَ على خِلافِ الحقِّ، أو طبيعةِ الأمرِ السَّويِّ.

في الفِعلِ معنَى المُشاركةِ، والتَّصنُّعِ على خِلافِ الحقِّ

بَلاغةُ المَجازِ العَقليِّ، في نِسبةِ الاتّخاذِ إلى قومِ مُوسَى:

نَسَبَ الاتّخاذَ إلى قومِ موسى كلِّهِم على طريقةِ المجازِ العقليِّ؛ لأنّهُم الآمَرونَ باتّخاذِهِ والحَريصون عليهِ، والمُريدُونَ لاتّخاذِهِ،

مِن مجازِ الصُّورةِ في (اتّخَذُوا عِجْلًا)، بمعنى صُورةَ عِجْلٍ

(1) القاسميّ، محاسن التّأويل: 5/185.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/109.
(3) محمد رضا، تفسير المنار: 9/173.

الرّاضونَ بهِ، والمُشارِكونَ في صناعتِهِ، فكأنَّهُم بإجماعِهِم على ذلك: فَعَلُوهُ. وهذا مَجازٌ شائعٌ في كلامِ العَربِ، ومعنى اتّخَذُوا عِجلًا صُورةَ عِجلٍ، وهَذا مِن مَجازِ الصّورةِ، وهُو شائعٌ في الكَلامِ[1]، ونَسَبَ الفعلَ إليهم؛ لأنّ رجُلًا منهُم باشرَهُ، ووُجِدَ فيما بينَ ظهرانيهِم، كما يُقالُ: بنو فلانٍ قالُوا كذا، وفَعَلُوا كذا، والقائلُ والفاعلُ واحِدٌ مِنهُم[2]. ويَجوزُ أن يكونَ المُرادُ بالاتّخاذِ تصييرَهُم إيّاهُ إلهًا مَعبُودًا لا صُنعَهُ وإحداثَهُ[3]، ويصحّحُ ذلك نسبةُ الاتِّخاذِ إلى القومِ، ولا تَجوُّزَ حينئذٍ في الكلامِ؛ لأنَّ العبادةَ لهُ وقعَت منهم جميعًا إلّا هارونَ[4].

سِرُّ العُدولِ عن لفْظِ الإخراجِ، في سُورةِ طهَ:

ورودُ لفْظِ الإخراجِ في سِياقِ التَّبرِّي مِن أن يكونَ إخراجُ العِجْلِ لأجْلِهِم

لمّا كانَ الحديثُ هنا في سِياقِ ذمِّ المُتكبِّرينَ، والمُكذِّبينَ، والجاحِدينَ لآياتِ اللّهِ ناسَبَ التّذكيرَ باتّخاذِ قومِ مُوسى عليه السلام عِجلًا لِيعبدُوهُ مِن دونِ اللّهِ بعدَ ذهابِهِ إلى مُناجاةِ ربِّهِ، وناسبَ ذلك المعنى اختيارَ الفعلِ ﴿وَٱتَّخَذَ﴾. ولمّا كانَ الحديثُ في سورةِ [طه: 86] عن غضبِ موسى عليه السلام، وأسفِهِ ممّا فعلُوهُ، وعتبِهِ لَهُم على سُوءِ صنيعِهِم بقولِهِ: ﴿فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ غَضۡبَٰنَ أَسِفٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَلَمۡ يَعِدۡكُمۡ رَبُّكُمۡ وَعۡدًا حَسَنًاۚ أَفَطَالَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡعَهۡدُ أَمۡ أَرَدتُّمۡ أَن يَحِلَّ عَلَيۡكُمۡ غَضَبٞ مِّن رَّبِّكُمۡ فَأَخۡلَفۡتُم مَّوۡعِدِي﴾، وكان سياقُ الحديثِ حوارًا بينَهُ عليه السلام وبينَ المُتَكلِّمينَ معهُ، وكونُهم ممّن لم يَعتقدْ بإلهيّةِ العِجلِ، ولكنَّهم صانعُوا دهماءَ القومِ، كان مِن تمامِ المَعذرةِ الّتي اعتذرَ بها المُجيبون لمُوسى عليه السلام التَّعبيرُ بلفظِ الإخراجِ، بقولهم: ﴿قَالُواْ مَآ أَخۡلَفۡنَا مَوۡعِدَكَ بِمَلۡكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلۡنَآ أَوۡزَارٗا مِّن زِينَةِ ٱلۡقَوۡمِ فَقَذَفۡنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلۡقَى ٱلسَّامِرِيُّ ٨٧ فَأَخۡرَجَ لَهُمۡ عِجۡلٗا جَسَدٗا لَّهُۥ خُوَارٞ﴾ [طه: 87 - 88]،

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/159، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/390، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/109.

(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/159.

(3) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/35، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/273.

(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/389، والآلوسي، روح المعاني: 9/64.

ويكون ضَميرُ ﴿فَأَخْرَجَ﴾ [طه: 88] لهم التِفاتًا قصدَ القائلون به التّبرّي مِن أن يكونَ إخراجُ العِجلِ لأجلِهم؛ أي: أخرجَهُ لمَن رَغِبُوا في ذلك، فالتَّعبيرُ بالإخراجِ - وهو إظهارُ ما كانَ مَحجُوبًا - إشارةٌ إلى أنّه صَنَعَهُ بحيلةٍ مَستورةٍ عنهم حتّى أتمَّهُ[1].

نُكتةُ تعْريفِ القومِ بالإضافةِ:

بيانٌ بتجْهيلِهم، بإنْكارِهم فضلَ مـوسَى عليه السلام، ورِسالتِه

وعرَّفَ القومَ بالإضافةِ إلى مُوسى عليه السلام تجهيلًا لهم، بكونِهم قومَ النَّبيِّ الّذي أخرجَهُم مِنَ الضّلالِ إلى عبادةِ اللّهِ الوَاحدِ، وأنقذَهُم مِن ذُلِّ فِرعونَ ومَلَئِهِ، وكُفْرُهم - ما إنْ غابَ عنهُم - غايةٌ في التَّنكُّرِ له، والجحُودِ بفضلِه.

فائِدةُ التَّعْبيرِ بـ﴿مِنۢ﴾، في قولِه: ﴿مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾:

مُفادُ البَعديّةِ، أنّ الاتّخاذَ تمَّ مِن أوّلِ زمانِ المُغادرةِ

معنى ﴿مِنۢ﴾ في الآيَةِ الكريمةِ لابتداءِ الغايةِ، وفائدةُ ذكرِهَا الإشارةُ إلى أنّهُم اتّخذُوا العِجلَ مِن أوّلِ زمانِ مُغادرةِ مُوسى عليه السلام، وهو دليلُ إسراعِهم، ورغبتِهم، وهي حالةٌ غريبةٌ؛ لأنَّ شأنَ التّغيُّرِ عنِ العهدِ أنْ يكونَ بعدَ طولِ المَغيبِ على أنَّه ضعفٌ في العهدِ، كما قالَ الحارثُ بن كِلدَةَ:

فَما أَدرِي أَغَيَّــرَهمُ تنــاءٍ *** وطُولُ العَهدِ أم مالٌ أصابُوا[2]

دَلالةُ التَّعْبيرِ بالبَعديّةِ في قولِه: ﴿مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾:

التّعريضُ بهم وتَوبيخُهُم، لنُكوصِهم على أعقابِهم، بمجرّدِ غَيْبَةِ نَبيِّهم

والضَّميرُ في ﴿بَعْدِهِۦ﴾ عائدٌ على مُوسى؛ أي: بعدَ مُضيِّهِ إلى المُناجاةِ[3] في قولِه: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا﴾ [الأعراف: 143]، وفي قولِه: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى﴾ [الأعراف: 142]، وفي التَّعبيرِ بـ﴿مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ تَعريضٌ بقِلّةِ وفائِهم في حفظِ عهدِ مُوسى[4] عليه السلام.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/285 - 286.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 3/112، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/499 - 500.
(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/454 - 455.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/500.

وفي الجُملَةِ زيادةُ تقريعِهِم، والتَّشنيعِ بهم بأنَّهم كانُوا جَديرينَ بانتظارِهِم التَّوراةَ الّتي ذَهَبَ مُوسى عليه السلام لمُلاقاةِ ربِّهِ ومُناجاتِهِ مِن أجلِها، والّتي ستزيدُهُم هدًى لا بالنّكوصِ على أعقابِهِم عمّا كانُوا عليهِ مِنَ التَّوحيدِ والانغماسِ في نعمِ اللّه تعالى، وبأنّهُم كانُوا جَديرينَ بالوفاءِ لنبيِّهِم فلا يَنقَلِبوا على مَا دَعاهُم إليهِ مِنَ التّوحيدِ، ولا يُحدِثُوا ما أحدَثُوهُ في مَغيبِهِ بعدَ أنْ رأَوا مُعجزَاتِهِ، وبعدَ أنْ نَهاهُم عن عبادةِ غيرِ اللّهِ.

سِرُّ التَّعْبيرِ بلفْظِ الحُلِيِّ:

عُبِّرَ بالحُلِيِّ عنِ اسمِ الذّاتِ، لتوكيدِ المبالغةِ في السِّياقِ

والحُلِيُّ بضمِّ الحاءِ وكسرِ اللّامِ وتشديدِ الياءِ جمعُ حَلْيٍ، بفتحِ الحاءِ وسُكُونِ اللّامِ وتخفيفِ الياءِ، ووَزنُ هذا الجَمعِ فُعُولٌ[1]. وحَلْيٌ وزنُهُ: فَعْلٌ، مصدرٌ بمعنى اسمِ المفعولِ لِلمُبالغةِ؛ أي: ما يُحلَّى به، فعلُه: حُلِيَ، عُبِّرَ به عنِ اسمِ الذّاتِ لتوكيدِ المُبالغةِ[2].

دَلالةُ ﴿مِنْ﴾، في قولِهِ: ﴿مِنْ حُلِيِّهِمْ﴾:

تنوُّعُ معنَى (مِن)، دليلُ بَلاغةِ السِّياقِ، وانْفِساحِه لمعانٍ شتَّى

(من) لِلتّبعيضِ؛ والمعنى: مِن بعضِ الحُلِيِّ، أو: للابتداءِ؛ أي: ابتدؤُوها بِحُليِّهِم[3]، أو لِلبيانِ[4]؛ يعني: أنّ الصّورةَ كانَت مادّتُها والأجزاءُ الّتي صُنِعَت منها مِنَ الحُلِيِّ، كما أنّ القصورَ مادّتُها مِن سُهولِ الأرضِ[5].

سِرُّ إضَافةِ الحُلِيِّ إلى القومِ:

الحُلِيُّ كانَتْ في أيديهِم، أو ملكُوهَا بعدَ هلاكِ قومِ فِرعونَ

وقالَ: ﴿مِنْ حُلِيِّهِمْ﴾، فأضافَها إليهم، ولم تكنْ لَهُم؛ لأنّها كانَت مُستعارةً في أيديهِم. والإضافةُ تكونُ بأدنى مُلابسةٍ، وكفى بها مُلابسةً - على أنّهُم قد مَلَكُوهَا بعدَ المُهلَكينَ كما مَلَكُوا غيرَها مِن

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/109.
(2) الجلالان، المفصّل، ص: 601.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 9/62.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/273.
(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/332.

أملاكِهم - كونُها مُستعارةً في أيديهم؛ لقولِه تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ۝٥٧ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ۝٥٨ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ۝٥٩﴾ [الشّعراء: 57 - 59][1]. وتَحتمِلُ إضافةُ الحُليِّ إلى بني إسرائيلَ مِن حيثُ تَصَرَّفَت أيديهم فيها بعدَ غَزوِ آلِ فِرعونَ[2]. فإضافتُها إليهم؛ لأنَّها كانَت في أيديهِم أو مَلكُوها بعدَ هلاكِ قومِ فِرعونَ[3].

المَلمَحُ البيانيُّ في الإضافةِ، في: ﴿مِنْ حُلِيِّهِمْ﴾:

إيثارُ ذكرِ الجارِّ والمجرورِ ﴿مِنْ حُلِيِّهِمْ﴾ ضربٌ مِن أضْرُبِ تسفيهِهم، وتحميقِهم، وتجهيلِهم؛ إذِ اتّخذُوا إلهًا صنعُوهُ مِن مادّةٍ مَاثلةٍ بينَ أيديهِم، فهو إلهٌ مُحدَثٌ همُ الّذين صنعُوهُ، فكيفَ يتقرَّبونَ إليهِ ويَعبدونَهُ، ويَلتمسونَ عندَهُ جَلبَ المَنافِعِ، ودفعَ المَضارِّ؟![4].

التّصريحُ بالمجرورِ، ضَرْبٌ مِن أضْرُبِ تسْفِيهِهِم

سِرُّ تقديمِ شِبْهِ الجُملَةِ على المفعولِ:

قدَّمَ شبْهَي الجُملَةِ: ﴿مِنْ بَعْدِهِۦ﴾، و﴿مِنْ حُلِيِّهِمْ﴾ على العِجلِ؛ لترسيخِ ما تقدَّمَ مِن معاني التّعجيلِ باتّخاذِ العِجلِ بعدَ غيابِ مُوسى مُباشرةً، وبيانِ شدّةِ رغبتِهِم في ذلك سُرعةً وتَشارُكًا في الاتّخاذِ مِن خلالِ الإسهامِ في عملِهِ، وهذا الصّنيعُ هو مَحِلُّ العنايةِ، ومَحطُّ التّعجيبِ؛ لِمَا يتضمَّنُهُ مِن جَهلٍ، وسَفاهةٍ، وحُمقٍ، وجُحودٍ؛ ولذلكَ قُدِّمَ لِتَبرُزَ هذه المعاني.

صَنيعُهُم مَحطُّ العِنايةِ، ومَدْعاةُ التّعجيبِ

بَلاغةُ الاحتراسِ، في إتْباعِ (العِجْلِ) بلفْظِ (الجسَدِ):

والجَسدُ هو الّذي لا يَعقِلُ ولا يُمَيِّزُ، إنَّما مَعنى (الجَسَدُ) معنى (الجثَّةُ) فَقَط[5]؛ أي: أخرجَ لَهُم صورةَ عجلٍ مُجسَّدةً بشكلِهِ وقوائمِهِ وجوانبِهِ، وليسَ مُجرَّدَ صورةٍ مَنقوشةٍ على طَبَقٍ مِن فضّةٍ أو ذَهَبٍ[6].

دفْعُ تَوهُّمِ غيرِ المُرادِ، من بليغِ البيانِ المستفادِ

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/159.
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/455.
(3) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/35.
(4) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 1/406.
(5) الزّجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 2/377.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/286.

وفي إعراب ﴿جَسَدًا﴾ ثلاثةُ أوجهٍ: أحدُها: أنّه نعتٌ. الثّاني: أنّهُ عطفُ بيانٍ. الثّالث: أنّهُ بَدَلٌ، وإنّما قال: ﴿جَسَدًا﴾ لِئلّا يُتَوَهَّمَ أنّه كانَ مَخطوطًا أو مَرْقومًا في حائطٍ أو حَجَرٍ أو غيرِ ذلك، كالتّماثيلِ المُصوَّرَةِ بِالرَّقمِ والخَطِّ والدِّهانِ والنَّقشِ، فَبَيَّنَ تعالى أنّهُ ذُو جَسَدٍ[1]. فهو احتراسٌ رائعٌ لِدفعِ تَوهُّمِ غيرِ المُرادِ[2]. فلمّا كانَ العِجلُ اسمًا لولدِ البقرِ بيَّنَ أنّه إنّما يُشبهُ صورتَهُ فقط، فقالَ مُبدِلًا منه، أو وَاصِفًا: ﴿جَسَدًا﴾، ثمّ إنّ إتّباعَ لفظِ ﴿عِجْلًا﴾ بلفظِ ﴿جَسَدًا﴾ نوعٌ مِن تسفيههِم؛ فالعَجبُ كلُّ العَجبِ مِن كونِ العِجلِ المُنكَّسِ التّكوينِ إلهًا لِمَن كرّمَهُ اللّهُ تعالى خَلْقًا، وصوَّرَهُ في أحسنِ تقويمٍ، وأودعَ فيه عقلًا يميّزُ بهِ بينَ الصّوابِ والخطأِ، والحقِّ والباطلِ، والحقيقةِ والوَهمِ؟[3].

دَلالةُ قولِه: ﴿لَّهُۥ خُوَارٌ﴾، وأثَرُها في السِّياقِ:

وَصْفُ العِجْلِ بأنّ له خُوارًا، تَرسيخٌ لفَرْطِ جَهالَتِهِم

لَمَّا كانَ الإخبارُ بالجَسدِ مُفهِمًا أنّهُ خالٍ، ممّا يُشبِهُ النّاشِئَ عنِ الأرحامِ، قال: ﴿لَّهُۥ خُوَارٌ﴾؛ أي: صَوتٌ كصوتِ البقرِ؛ والمعنى: أنّهُ لا أضَلَّ ولا أعمى مِن قومٍ كانَ مَعَهم حُلِيٌّ أخذُوها ممّن كانُوا يَستَعبِدُونَهُم ويُؤذُونَهُم، وهُمْ مَعَ ذَلِكَ أكفَرُ الكَفَرَةِ فَكانَ جَديرًا بالبُغضِ؛ لكونِهِ مِن آثارِ الظّالِمينَ الأعداءِ فاعتَقَدُوا أنَّهُ بالصَّوغِ صارَ إلَهًا، وبَالَغُوا في حبِّهِ والعُبُوديَّةِ لهُ، وهو جَسَدٌ يَرونَهُ ويَلمِسُونَهُ، ونَبيُّهُمُ الّذي هَداهُمُ اللّهُ بهِ واصطَفاهُ لِكلامِهِ يَسألُ رُؤيةَ اللّهِ فلا يَصِلُ إليها[4]، والخوار بالخاءِ المُعجمةِ صوتُ البقرِ، وقرأَ عَلِيٌّ رضي الله عنه، وأبو السَّمَّالِ وغيرُهُم (جُؤَار)[5] بالجيمِ والهَمزِ مِن جَأرَ إذا صاحَ،

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/391، والسّمين الحلبيّ، الدُّرُّ المصون: 5/460.
(2) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 1/407.
(3) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 1/407.
(4) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 3/113.
(5) هي قراءةٌ شاذّةٌ، يُنظر: ابن خالويه، المختصر، ص: 46، والزّمخشريّ، الكشّاف: 1/577.

وهو الصّوتُ الشّديدُ[1]، وإنَّما أضافَ الصّوتَ إليه؛ لأنَّه كانَ مَحَلَّهُ عِندَ دُخُولِ الرّيحِ جَوفَهُ[2]، فقد جوَّفُوهُ لِيمرَّ الهواءُ فيه. وفي العبارةِ ترسيخٌ لفرطِ جهالتِهم بأن أَحدَثوا في العِجلِ آلةَ صوتٍ لا فائدةَ منها؛ إذ لا تُكلِّمُهُم إلّا بإحداثِ صوتِ خُوارٍ، أو جُؤارٍ مُصطَنعٍ بحِيلةٍ أوجدُوها فيه. ولفظُ ﴿لَّهُۥ خُوَارٌ﴾ يدفعُ كونَ العِجلِ قد بُعِثَ فيه الدّمُ واللّحمُ؛ إذ لو صَحَّ لكانَ الخُوارُ لازمًا لهُ، ولا يَحتاجُ إلى ذِكرٍ.

بَلاغةُ العُدولِ إلى الفصْلِ:

اسْتِئنافٌ ابتدائيٌّ مَسوقٌ، لبيانِ فسَادِ اعْتِقادِهِم

جملةُ: ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ﴾ استئنافٌ ابتدائيٌّ مَسوقٌ لبيانِ فسادِ نظرِهم في اعتقادِهم، ولتقريعِهم وتشنيعِهم وتركيكِ عقولِهم وتسفيهِهم فيما أقدَمُوا عليهِ مِنَ المُنكَرِ، الّذي هو اتِّخاذُهُ إلهًا؛ أي: ألم يرَوا أنّهُ ليسَ فيه شَيءٌ مِن أحكامِ الألوهيّةِ حيثُ لا يُكَلِّمُهُم[3]. فالصّامِتُ الجمادُ لا يتَّصِفُ بالإلهيَّةِ، والّذي لا يُرشِدُ إلى خيرٍ، ولا يَكشِفُ غمًّا كَذلِكَ[4].

تَوْجِيهُ الاسْتِفهامِ في قولِهِ: ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟﴾:

إنْكارُ الإلهِ المُصطَنَعِ، الّذي لا يُكلّمُ عابِدِيه، ولا يَهْدِيهِم سَبيلًا

الاستفهامُ لتقريرِ فسادِ اعتقادِهم، ولِلتّعجيبِ مِن حالِهم، ولِذلكَ جُعِلَ الاستفهامُ عن نَفيِ الرُّؤيةِ؛ لأنّ نَفيَ الرُّؤيةِ هو غيرُ الواقِعِ مِن حالِهم في نفسِ الأمرِ، ولَكنّ حالَهُم يُشبِهُ حالَ مَن لا يَرونَ عدمَ تَكليمِهِ، فَوَقَعَ الاستفهامُ عنهُ لعلَّهُم لم يَرَوا ذلكَ، مُبالَغةً، وهو للتّعجيبِ، وليسَ للإنكارِ، إذ لا يُنكَرُ ما ليسَ بِمَوجودٍ، وبهذا يُعلَمُ أنّ مَعنى كَونِهِ في هذا المَقامِ بِمَنزِلَةِ النّفيِ لِلنَّفيِ إنّما نَشَأَ مِن تنزيلِ المَسئُولِ عنهُم مَنزِلَةَ مَن لا يَرى، وقد تَقدَّمَ بَيانُ ذلكَ عندَ قولِهِ تعالى: ﴿۞أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ﴾ [البقرة: 243][5].

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 15/7، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/390.
(2) القاسميّ، محاسن التّأويل: 5/184.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/273، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/110.
(4) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/455.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/110.

والاستفهامُ تكريرٌ لضروبِ التَّسفيهِ، والتّحميقِ، والتّقريعِ لهم على فَرطِ ضلالِهم وإخلالِهم بالنّظرِ؛ أي: ألَم يَرَوا أنّه لا يَقدِرُ على ما يَقدِرُ عليهِ آحادُ البشرِ مِنَ الكلامِ وإرشادِ السّبيلِ بوجهٍ مِنَ الوجوهِ، فهو جمادٌ لا يَنفعُ ولا يَضرُّ، ولا يَردُّ عليهم إذا دَعَوهُ، ولا يَهديهم إذا استهدُوهُ، فكيفَ عَدَلُوهُ بخالقِ الأجسامِ، والقُوى، والأقدارِ؟[1].

تجليّ بَلاغة المَذهبِ الكَلامِيّ بالاحْتِجاجِ النّظريِّ:

انْتِفاءُ وصْفَيِ العلْمِ والقُدرةِ، عَنِ الإلَهِ العِجْلِ، يَستلْزمان انْتِفاءَ باقِي الأوصَافِ

وهذا استِفهامُ إنكارٍ؛ حيثُ عَبَدُوا جمادًا أو حيوانًا عاجِزًا، عليه آثارُ الصَّنعةِ، لا يُمكنُ أن يَتكَلَّمَ ولا يَهدِيَ، وقد رَكَزَ في العُقولِ أنّ مَن كانَ بهذهِ المَثابةِ، استَحالَ أن يكونَ إلهًا، وهذا نَوعٌ مِن أنواعِ البلاغةِ، يُسمّى الاحتِجاجَ النّظريَّ، وبعضُهم يُسمِّيهِ المَذهبَ الكَلامِيَّ، والظّاهرُ أنّ يَرَوا بمعنى: يَعلَموا، وسَلَبَ تعالى عنهُ هَذينِ الوَصفَينِ: ﴿لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ﴾ دُونَ باقي أوصافِ الإلهيّةِ؛ لأنّ انتفاء التّكليم يستلزمُ انتفاءَ العلْمِ وانتفاءَ الهدايةِ إلى سبيل يستلزمُ انتفاءَ القدرة، وانتِفاءُ هَذَينِ الوَصفَينِ؛ وهُما العِلمُ والقُدرةُ يَستَلزِمانِ باقيَ الأوصافِ، فَلذلكَ خُصَّ هذان الوَصفانِ بانتِفائِهِما[2].

دَلالةُ التَّعْبِيرِ بفعْلِ الرُّؤيةِ ﴿يَرَوْا﴾:

عَدَمُ تكْليمِ العِجْلِ إيّاهُم مُشَاهَدٌ لَهُم

قالَ السّمينُ: "و﴿يَرَوْا﴾ يجوزُ أن تكونَ العِلميَّةَ، وهو الظّاهرُ، وأن تكونَ البصَريّةَ، وهو بعيدٌ"[3]، وذَهَبَ ابنُ عاشور إلى أنّ الرُّؤيةَ بصريّةٌ؛ لأنّ عَدَمَ تكليم العِجلِ إيّاهُم مُشَاهَدٌ لَهم؛ لأنّ عدمَ الكلامِ يُرَى مِن حالِ الشَّيءِ الّذي لا يَتَكَلَّمُ، بانعدامِ آلةِ التَّكَلُّمِ، وهو الفَمُ الصّالحُ للكلامِ، وبتكَرُّرِ دعائِهم إيّاهُ، وهو لا يُجيبُ. وقد سَفِهَ رأيُ الّذين اتَّخذُوا العِجْلَ إلهًا، بأنّهُم يُشاهِدُون أنّهُ لا يُكَلِّمُهم ولا يَهدِيهِم

(1) الآلوسي، روح المعاني: 9/64، والمطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 1/407.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/391.
(3) السّمين الحلبيّ، الدُّرُّ المصون: 5/460.

سَبيلًا، ووجهُ الاستدلالِ بذلكَ على سَفَهِ رَأيِهم هو أنّهُم لا شُبهةَ لَهم في اتِّخاذِهِ إلهًا بأنَّ خَصائِصَهُ خَصائصُ العَجماواتِ، فَجسمُهُ جِسمُ عِجلٍ، وهو مِن نوعٍ ليسَ أرقى أنواعِ المَوجُوداتِ المَعروفةِ، وصَوتُهُ صَوتُ البَقَرِ، وهو صَوتٌ لا يُفيدُ سَامِعَهُ، ولا يُبيِّنُ خطابًا، وليسَ هوَ بالّذي يَهدِيهِم إلى أمرٍ يَتَّبعُونَهُ حَتّى تُغنِيَ هِدايَتُهُم عن كلامِهِ، فهُو مِنَ المَوجوداتِ المُنحَطَّةِ عَنهُم، وهذا كَقولِ إبراهيمَ: ﴿فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ ۝٦٣﴾ [الأنبياء: 63]، فماذا رَأوا مِنهُ ممّا يَستأهِلُ الإلهيَّةَ، فَضلًا عن أن تَرتقيَ بِهِم إلى الصّفاتِ الّتي يَستَحِقُّها الإلَهُ الحَقُّ، والّذينَ عَبَدُوهُ أشرَفُ منهُ حالًا وأهدى، وليسَ المَقصُودُ مِن هذا الاستدلالَ على الأُلوهيَّةِ بالتَّكليمِ والهِدايةِ، وإلّا لَلَزِمَ إثباتُ الإلهيّةِ لِحُكَماءِ البَشَرِ[1].

مناسبةُ التَّعبيرِ بـ(أنّ) الثّقيلةِ والخفيفةِ بينَ آياتَي الأعرافِ، وطهَ:

مُراعاةُ الفرقِ بينَ سِياقِ الآيتَيْن، ولِتناسُبِ مَقامِ التّبكيتِ في الأعْرافِ

جاءَ هنا في الأعرافِ بأنّ الثّقيلةِ ﴿أَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ﴾، وجاءَ في [طه: 89] بأنْ الخفيفةِ ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا﴾؛ وذلك لِتباينِ السّياقَين. فآياتُ الأعرافِ تَذكرُ قصّةَ بني إسرائيلَ، وعصيانَهم ربَّهُم، ومخالفتَهُم موسى عليه السلام، بخلافِ سورةِ طه، فسِياقُ آياتِها في نجاةِ بني إسرائيلَ مِن فِرعونَ؛ لذا جاءَت (أنّ) ثقيلةً في الأعرافِ، وخفيفةً في طه؛ لِتناسُبِ ذلك مع مَقامِ التّبكيتِ في الأعرافِ[2].

نُكتةُ تَكرارِ فعْلِ الاتِّخاذِ، على طريقِ الفصْلِ:

إفادةُ التّوكيدِ، وما يترتَّبُ عليه، في ثنايَا السِّياقِ

ولَمَّا كانَ هذا أمرًا عظيمًا جِدًّا، مُستَبعَدَ الوقوعِ، ولا سيّما مِن قَومٍ نَبيُّهُم بينَهُم، ولاسيَّما وقَد أراهُم مِنَ النِّعَمِ والآياتِ ما مَلَأت أنوارُهُ الآفاقَ، كان جَديرًا بالتّأكيدِ، فقالَ تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوهُ﴾؛ أي: بِغايةِ الجِدِّ، والنّشاطِ، والشَّهوَةِ[3].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/110: 9/111.
(2) هبيان، من روائع البيان: 5/199 - 200.
(3) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 3/113.

وجملةُ: ﴿ٱتَّخَذُوهُ﴾ مُؤكِّدَةٌ لِجملةِ: ﴿وَٱتَّخَذَ قَوۡمُ مُوسَىٰ﴾، فَلِذلكَ فُصِلَت؛ والغرضُ مِنَ التّوكيدِ في مِثلِ هذا المَقامِ، هو التَّكريرُ لأجلِ التّعجيبِ والذّمِّ، كما يُقالُ: نَعَم اتَّخَذُوهُ، أو اتَّخَذوهُ إلهًا، ولِتُبنَى عليه جُملةُ ﴿وَكَانُواْ ظَٰلِمِينَ﴾، فَيَظهرُ أنَّها مُتعلِّقَةٌ بِاتِّخاذِ العِجلِ، وذَلِكَ لِبُعدِ جُملةِ: ﴿وَٱتَّخَذَ قَوۡمُ مُوسَىٰ﴾، بِما ولِيَها مِنَ الجُملَةِ، وهَذا كقولِهِ: ﴿وَلۡيَكۡتُب بَّيۡنَكُمۡ كَاتِبُۢ بِٱلۡعَدۡلِۚ﴾ إلى قولِهِ: ﴿فَلۡيَكۡتُبۡ﴾ [البقرة: 282]، أُعِيدَ ﴿فَلۡيَكۡتُبۡ﴾ لِتُبنَى عليه جُملةُ: ﴿وَلۡيُمۡلِلِ ٱلَّذِي عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ﴾ [البقرة: 282]، وهذا التّكريرُ يُفيدُ مَعَ ذَلكَ التّوكيدَ، وما يَترتَّبُ على التّوكيدِ[1]، وهو استئنافٌ للانتقالِ مِن تجهيلِهِم باتّخاذِ العِجلَ إلهًا إلى تجهيلِهِم بما ظلمُوا به أنفسَهُم مِن قبلُ، وإعلامٌ بأنّ هذا الاتّخاذَ ليسَ أوّلَ حماقاتِهِم، فهُم غارقونَ فيها مِن قبلُ، ومِن بعدُ[2]، وتَعالُقُ ضروبِ التّجهيلِ، وتَكرارُها مُتنوّعةَ العبارةِ والصّوغِ يُناسبُ استئنافَ التّجهيلِ.

بَلاغةُ الكنايةِ في ﴿ٱتَّخَذُوهُ﴾:

وتَكرارُ ﴿ٱتَّخَذُوهُ﴾ تَكرارٌ لجميعِ ما سَلَفَ مِنَ الاتِّخاذِ، على الوجهِ المَخصوصِ المُشتمِلِ على الذّمِّ، وهو مِن بابِ الكنايةِ على أسلوبِ: أنْ يَرى مُبصِرٌ ويَسمَعَ واعٍ؛ أي: أقدَمُوا على ما أقدَمُوا عليهِ مِنَ الأمرِ المُنكَرِ[3].

الاتّخاذُ في هذه الجُملة، مَحلُّ ذمٍّ واستِنكارٍ وشَجْبٍ

وُجُوهُ التَّعْبِيرِ بجُملةِ: ﴿وَكَانُواْ ظَٰلِمِينَ﴾:

وجملةُ: ﴿وَكَانُواْ ظَٰلِمِينَ﴾؛ أي: واضِعينَ الأشياءَ في غيرِ مَواضِعِها. والجُملَةُ إمّا استئنافيّةٌ، وإمّا اعتراضٌ تذييليٌّ؛ للإخبارِ بأنّ ذلكَ دَأبُهُم وعادَتُهم قبلَ ذلكَ، ودَيْدَنُهُم وشأنُهُم في كلِّ شيءٍ؛ أي: في جميعِ أحوالِهِم ماضيًا وحاضرًا ومُستقبَلًا، فلا يُنكَرُ منهم

تَتراوحُ الجُملةُ بين الاستِئناف، أوِ الاعتِراضِ التّذْيِيليِّ، أوِ الحاليّةِ أوِ التّشْبيهِ

(1) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/35، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/111.
(2) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 1/407.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 9/64.

اتِّخاذُهُم العِجلَ؛ لأنّه من جملةِ ذلك، أو حاليّةٌ؛ أي: اتّخذُوهُ في هذهِ الحالةِ المُستقِرَّةِ لَهُم[1]، والوجهُ الأوّلُ أبلغُ في الذّمِّ، وهو الإخبارُ عن وصفِهِم بالظّلم، وأنّ شأنَهُم ذَلِكَ، فلا يَتَقَيَّدُ ظُلمُهُم بهذِهِ الفعلَةِ الفاضِحةِ[2]، ويُعزِّزُهُ التَّعبيرُ بصيغةِ اسْمِ الفاعلِ الدّالِّ على ترسيخِ كونِ الظّلمِ مِن عاداتِهِم المُتجذِّرةِ بهم، وحالًا مُستقِرَّةً لهم. وقد يُرادُ بها التّشبيهُ، حيث شبّهَ حالَهُم بقولِهِ: ﴿ظَٰلِمِينَ﴾، بحالِ مَن يَمشِي في الظّلامِ، أو أنَّ المَقصودَ - كما أُشِيرَ - أنَّ الظّلمَ وصْفٌ لهم لازمٌ، فلا بِدَعَ إذا فَعَلُوا أمثالَ ذَلِكَ[3].

الغَرَضُ مِنِ اسْتِحضارِ فعْلِ الكَيْنونةِ الماضِي: ﴿وَكَانُواْ﴾:

وفي التَّعبيرِ عن ظلْمِهِم بلفظِ ﴿وَكَانُواْ﴾ المفيدِ للدّوامِ والاستمرارِ، إشعارٌ بأنّ هذا الظّلمَ جِبلّةٌ لهم، وطبعٌ، وهو دأبُهُم، وعادتُهُم قبلَ هذا الاتّخاذِ، وأنَّ ما صَدَرَ عنهُم ليسَ بدَعًا منهم، ولا أوّلَ ما أحدثُوهُ مِنَ المناكيرِ، فقَد سَبَقَ لهم أن قالوا لنبيِّهِم بمُجرَّدِ أن أتَوا على قومٍ يَعكفونَ على أصنامٍ لَهُم: ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞۚ﴾[4]، فلَم يكُنْ هذا أوّلَ مُنكَرٍ فَعَلُوهُ، ويرسّخُهُ تكريرُ اتَّخذوهُ لِتَثنيةِ التّشنيعِ وتَرتيبِ الاعتِراضِ عليهِ[5].

الإشعارُ بأنّ الظّلمَ دَأْبُ القومِ، وعادتُهُم، ودَيدَنُهُم

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الجسدُ، والجسمُ، والبدنُ:

الجَسدُ كالجسمِ لكنّه أخصُّ. وخصَّصَهُ الخليلُ بالإنسانِ، وبكلِّ خَلقٍ لا يأكلُ ولا يَشربُ مِن نحو الملائكةِ والجنِّ ممّا يَعقِلُ، وأطلَقَهُ

الجسدُ ما لارُوحَ له، وهو خَلْقُ الله، وحياتُه في سَرَيانِ الرُّوحِ فيه

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/455، والسّمين الحلبيّ، الدُّرُّ المصون: 5/461، والقاسميّ، محاسن التّأويل: 5/185.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/391.
(3) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 3/113.
(4) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 5/380.
(5) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/273.

على الدّم اليابسِ[1]، وكأنّه أرادَ بيَبَسِ الدّمِ أنّهُ تِمثالٌ جامِدٌ، وهو فَهمٌ شاعَ في التّراثِ الخَالِفِ لَهُ؛ فـالجَسدُ "تَجَمُّعُ الشَّيءِ أيضًا واشتِدَادُهُ، والجَسَدُ مِنَ الدَّمِ: مَا يَبِسَ"[2]. ونَقَلَ ابنُ الجوزيِّ عن ابنِ الأنباريِّ أنَّ ذِكرَ الجسدِ دلالةٌ على عدمِ الرّوحِ منهُ، وأنّ شخصَهُ شَخصٌ مِثالٌ وصُورَةٌ، غَيرُ مُنْضَمٍّ إليهما رُوحٌ ولا نَفسٌ[3]. وذَكَرَ ابنُ عاشور أنّ الجَسدَ هُو الجسمُ الّذي لا حياةَ فيهِ، وهوَ يُرادِفُ الجثّةَ، وعزاه إلى أبي إسحاق الزّجّاج، وعلى هذا التّأويلِ يكونُ المُرادُ بالجَسدِ الصّنمَ؛ لأنَّه صورةٌ بلا رُوحٍ[4].

والجَسدُ ما لهُ لونٌ، والجِسمُ يُقالُ لِمَا لا يَبِينُ له لونٌ، كالمَاءِ والهواءِ[5]. فالجِسمُ: ما لَهُ طُولٌ، وعَرضٌ، وعُمقٌ، ولا تَخرُجُ أجزاءُ الجسمِ عن كونِها أجسامًا، وإنْ قُطِعَ ما قُطِعَ، وجُزِّئَ ما قد جُزِّئَ[6]. فهو مُعتَبَرٌ فيه مُطلَقُ الحدثِ، فيُقالُ: جسُمَ جَسامةً للتّعبيرِ عن عِظَمِ الأجرامِ سواءٌ البدن بأجمعِهِ، أو الأعضاء مِنَ النَّاسِ، والإبلِ، والدّوابِّ[7]. ويُلمَحُ فيه معنى العمومِ.

ومِن هنا ناسبَ اختيارُ لفظِ الجسدِ في سياقِ الآيَةِ حقيقةَ العِجلِ المُتّخَذِ على هيئةِ صنمٍ له لونُ الحُليِّ الّتي صِيغَ منها.

والبَدنُ: الجَسدُ، لكِنِ البدَنُ يُقالُ اعتبارًا بعظَمِ الجثّةِ، وسُمِّيَت البَدَنَةُ بذلكَ لِسمَنِهَا، يُقالُ: بَدَنَ إذا سَمِنَ. والجَسدُ يُقالُ اعتبارًا باللَّونِ، ومنهُ قِيلَ: ثوبٌ مُجَسَّدٌ[8]. وسِمَنُ العِجْلِ المُتّخَذِ وعِظَمُ جُثَّتِهِ لم يكنْ مَقصودًا من بني إسرائيلَ؛ لكونِهِ مَظنّةَ الإسرافِ؛ فمادّةُ عملِهِ الحُليُّ.

(1) الخليل، العين: (جسد).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (جسد).
(3) ابن الجوزيّ، زاد المسير: 2/155.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/19، 23/261، وهو قريبٌ من قولِ الزّجّاج في معاني القرآن وإعرابه: 3/372.
(5) الرّاغب، المفردات: (جسد).
(6) الرّاغب، المفردات: (جسم).
(7) الخليل، العين: (جسم).
(8) الرّاغب، المفردات: (بدن).

﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِيٓ أَيۡدِيهِمۡ وَرَأَوۡاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ ضَلُّواْ قَالُواْ لَئِن لَّمۡ يَرۡحَمۡنَا رَبُّنَا وَيَغۡفِرۡ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ١٤٩﴾ [الأعراف: 149]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

بَعْدَ توقُّعِ هلاكِهِم بسَببِ تكْذيبِهِم، أخْبرَ عن رفْعِ العذابِ عنهُم لِنَدمِهِم

لمّا كانَ هذا في سياقِ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنۡهَا غَٰفِلِينَ﴾؛ فأنتجَ أنّ مَن كَذَبَ على هذهِ الصّفةِ أُهلِكَ، فانتَظَرَ السَّامِعُ الإخبارَ بتعجيلِ هَلاكِهِم، أخبَرَ بأنّهُ مَنَعَهم مِن ذَلِكَ، وحَرَمَهُم المُبادرةَ بالتّوبةِ، ولمّا اشتدَّ مِن تَشَوُّفِ السّامعِ إليه، قَدَّمَهُ على سَبَبِهِ، وهو رُجوعُ مُوسى عليه السلام إليهِم وإنكارُهُ عَليهِم[1]، فحينَ تحقَّقُوا بقُبحِ صنيعِهِم تجرَّعُوا كاساتِ الأسفِ ندمًا، واعترفُوا بأنّهم خَسِرُوا إن لم يتدارَكْهُم مِنَ اللّهِ جميلُ لطفِهِ[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿سُقِطَ﴾: السِّينُ والقَافُ والطَّاءُ أَصلٌ واحِدٌ يدُلُّ عَلَى الوُقُوعِ[3]، السُّقوطُ: طَرحُ الشَّيءِ؛ إمّا مِن مكانٍ عالٍ إلى مكانٍ مُنخفضٍ كسُقُوطِ الإنسانِ مِنَ السّطحِ، وقولُهُ: ﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِيٓ أَيۡدِيهِمۡ﴾؛ يعني: النَّدَمَ[4] والحَيرةَ، وليسَ في القرآنِ مِن هذا التّركيبِ إلّا السّقوطُ المادّيُّ، والمعنويُّ[5].

2) ﴿ضَلُّواْ﴾: الضَّادُ واللَّامُ أَصلٌ صَحِيحٌ يدُلُّ على مَعنًى واحِدٍ، وهو ضَيَاعُ الشَّيءِ وذَهَابُهُ في غَيرِ حَقِّهِ[6]، وضَلَّ إذا جارَ عنِ القَصدِ،

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 3/113 - 114.
(2) القشيريّ، لطائف الإشارات: 1/572.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سقط).
(4) الرّاغب، المفردات: (سقط).
(5) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (سقط).
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ضلّ).

وهَلَكَ[1]، والضّلالُ ضدُّ الهُدى، وضلَّ في الأَرضِ ضلالًا إذا لم يهتدِ لِلسّبيلِ[2]، وضللتَ: إذا أخطأتَ مَوضِعَ الشَّيءِ الثَّابتِ[3].

والضّلالُ: هو العُدُولُ عَنِ الطريقِ المُستَقيمِ، ويُضَادُّه الهِدَايةُ، وهو: كُلُّ عُدُولٍ عَنِ المنهجِ والحَقِّ، عَمدًا كانَ أَو سَهْوًا، يَسيرًا كانَ أَو كثيرًا، وهو ضَربَانِ: ضَلاَلٌ في العُلُومِ النَّظَرِيَّةِ، كالضَّلالِ في معرفَةِ وَحدَانِيَّتِه تعالى، ومعرفَةِ النُّبُوَّةِ، ونحوِهما، وضَلاَلٌ في العُلُومِ العَمَلِيَّةِ، كَمعرفَةِ الأَحكامِ الشَّرعِيَّةِ، الَّتِي هِيَ العِبادَاتُ[4]، والضّلالُ في الآيَةِ الكريمةِ مِنَ الضّربِ الأوّلِ؛ لكونِ بني إسرائيلَ اتّخذُوا عِجلًا إلهًا مِن دونِ اللّهِ.

3) ﴿يَرْحَمْنَا﴾: الرَّاءُ والحَاءُ والميمُ أَصلٌ وَاحِدٌ يدُلُّ على الرِّقَّةِ والعَطفِ والرَّأفَةِ، يُقَالُ مِن ذَلِكَ: رَحِمَهُ يَرحَمُهُ، إذَا رَقَّ لَهُ وَتَعَطَّفَ عليه[5]. الرَّحمةُ: رِقَّةٌ تَقتَضِي الإحسَانَ إلَى المَرحُومِ، وَقد تُستَعمَلُ تارَةً في الرِّقَّةِ المُجرَّدَةِ وتَارَةً في الإحسَانِ المُجَرَّدِ عَنِ الرِّقَّةِ، نَحو: رَحِمَ اللّهُ فُلانًا. وَإذا وُصِفَ بِهِ البَاري فَلَيسَ يُرَادُ بِهِ إلَّا الإحسَانُ المُجَرَّدُ دُونَ الرِّقَّةِ، وعَلى هَذَا رُوِيَ أنّ الرَّحمةَ مِنَ اللّهِ إنعامٌ وإفضالٌ، وَمِنَ الآدَمِيّينَ رِقَّةٌ وتَعَطُّفٌ[6]، وهي مِنَ اللّهِ ﷻ كلُّ ما يناسِبُ البَلالَ والرِّقَّةَ مِن إحسانٍ ورزقٍ وحَنانٍ ومَغفرةٍ لعبادِه، وهُمْ في حَوزتِه تعالى، وجلُّ ما في القرآنِ مِنَ التَّركيبِ فهو بمعنى الرّحمةِ هذا[7]، ومِن هنا فمعنى اللّفظِ في الآيَةِ الكريمةِ ظاهرٌ في دَلالتِه على طلبِ الإنعامِ، والتّفضُّلِ، والإحسانِ، والرّأفةِ بحالِهم.

4) ﴿وَيَغْفِرْ﴾: الغَينُ والفَاءُ والرَّاءُ أصلٌ بمعنى السَّترِ والتَّغطيةِ، وَغفرَ اللّهُ ذنوبَهُ؛ أَي: سَترَها، وَلم يَفضَحْهُ بهَا على رُؤُوسِ المَلأِ، وكلُّ شَيءٍ سترتَهُ فقد غَفَرتَهُ[8]. والغُفرانُ والمَغفِرَةُ مِنَ اللّهِ هو أن يَصُونَ العبدَ مِن أن يَمَسَّهُ العذابُ[9]. وإلباسُ اللّهِ تعالى العفوَ

(1) الخليل، العين: (ضَلّ)، والجوهريّ، الصّحاح: (ضلل).
(2) ابن دريد، جمهرة اللّغة: (ضلل).
(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (ضل).
(4) الرّاغب، المفردات: (ضل)، والزّبيديّ، تاج العروس: (ضلل).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (رحم).
(6) الرّاغب، المفردات: (رحم).
(7) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (رحم).
(8) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (غفر).
(9) الرّاغب، المفردات: (غفر).

للمُذّنبينَ[1]. والغُفرانُ يَقتَضِي إسقَاطَ العقَابِ، وإسقَاطُ العقَابِ هُوَ إيجَابُ الثَّوَابِ[2]، وكلُّ ما جاءَ في القرآنِ مِنَ التَّركيبِ هو مِن مَغفِرَةِ الذُّنُوبِ[3].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

يُخبرُ اللّه تعالى أنَّهم لمَّا اشتدَّ ندمُهُم وحسرتُهُم على ما فَعلُوه رأوا أنّهم قد ضلُّوا؛ أي: وعَلِمُوا أنَّهم قد ضَلُّوا بعبادةِ العِجلِ، أو تبيَّنَ لهم ضلالُهُم بهِ، وتحقَّقَ بما قالَهُ وفعلَهُ موسى عليه السلام حتّى كأنّهُم رَأوهُ رأيَ العينِ: ﴿قَالُواْ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا﴾؛ أي: أقسموا إنَّه لا يسعُهُم بعدَ هذا الذّنبِ إلّا رحمةُ ربِّهم الّتي وَسِعَت كلَّ شيءٍ، قائلين: ﴿لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا﴾ بقَبولِ توبتِنا والتَّجاوزِ عن جريمتِنا ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ لسعادةِ الدّنيا؛ وهي الحريَّةُ والاستقلالُ في أرضِ المَوعِدِ، ولسعادةِ الآخرةِ؛ وهي دارُ الكرامةِ والرّضوانِ[4].

وتُرشِدُ الآيَةُ الكريمةُ إلى أنّ الذّنْبَ مهما عَظُمَ فإنّ بابَ التّوبةِ مَفتوحٌ، ويدَ اللّهِ ممدودةٌ، فلا ييأسَنَّ أحدٌ مِن ذنبِهِ، ولا يقنطَنَّ مِن مَعاصيهِ ومُرتَكباتِهِ.

تبيّنَ القومُ ما فعلُوا من ضلالٍ، وطَلَبُوا الرّحمةَ والغُفرانَ من ذِي الجلالِ

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

عِلّةُ تقْديمِ آيةِ النّدامةِ على آيةِ الرّجوعِ:

كانَ مُقتَضى الظّاهرِ في ترتيبِ حكايةِ الحوادثِ أن يتأخَّرَ قولُهُ: ﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِيٓ أَيْدِيهِمْ﴾ عنِ الآيَةِ الّتي تليها: ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا﴾؛ لأنّهُم ما سَقَطَ في أيديهم إلّا بعدَ أن رَجعَ مُوسى، ورأوا فَرطَ غضبِهِ، وسَمعُوا توبيخَهُ أخاهُ وإيّاهُم، وإنَّما

تَشوُّقُ السّامِعِ إلى خَبرِ عُقوبَتِهِم، من دِقّةِ البيانِ ودَلالتِه على مُؤدّاه

(1) ابن الأثير، النّهاية: (غفر).
(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 235.
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (غفر).
(4) محمد رضا، تفسير المنار: 9/175.

خُولِفَ مُقتَضى التّرتيبِ؛ لأنّهُ لمَّا كانَ الكلامُ في سياقِ قولِهِ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَٰفِلِينَ﴾، فأنتَجَ أنَّ مَن كذَّبَ على هذه الصّفةِ أُهلِكَ، فانتَظَرَ السَّامِعُ الإخبارَ بتعجيلِ هَلاكِهم، فَأخبَرَ بأنَّه مَنعَهُم مِن ذلكَ، وحَرَمَهُم المبادَرَةَ بالتّوبةِ، ولمَّا اشتدَّ مِن تَشَوُّفِ السّامِعِ إليهِ، قَدَّمَهُ على سَببِهِ، وهوَ رُجُوعُ مُوسى عليه السلام إليهم، وإنكارُهُ عليهم[1]. وأُريدَ بتقديمِهِ عليه أيضًا حِكايةُ ما صَدَرَ عَنهُم مِنَ القَولِ والفِعلِ في مَوضِعٍ واحدٍ[2]، وتعجيلًا بِذكرِ ما كانَ لاتِّخاذِهِمُ العِجلَ مِن عاقبةِ النّدامةِ وتَبيينِ الضّلالةِ مَوعِظةً للسّامِعينَ؛ لِكيلَا يَعجَلُوا في التَّحَوُّلِ عَن سُنَّتِهِم، حتّى يَتَبَيَّنُوا عَواقِبَ ما هُم مُتَحوِّلُونَ إليهِ[3].

الاسْتِعارةِ التّمثيليّةِ، أوِ الكنايةِ، أوِ التّشْبيهِ في: ﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِيٓ أَيۡدِيهِمۡ﴾:

لا خلافَ في أنّ المُرادَ مِن قولِهِ: ﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِيٓ أَيۡدِيهِمۡ﴾، أنّهُ اشتدَّ ندمُهُم على عبادةِ العِجلِ، وتحيَّرُوا. واختلفُوا في الوجهِ الّذي لأجلِهِ حَسُنَت[4] هذه الفنونُ البلاغيّةُ: والمعنى: ولمّا سَقَطَ النّدَمُ في أَيديهِم، كَما تقولُ للّذي يَحصُلُ على شيءٍ - وَإِنْ كَانَ ممّا لا يكونُ في اليدِ - قَد حَصَلَ في يدِهِ مِن هذا مَكرُوهٌ، تُشَبِّهُ ما يَحصُلُ في القلبِ، وفي النّفسِ، بما يقعُ في اليدِ[5]. فجَعَلَ ذلكَ مِن بابِ الاستعارةِ التّمثيليّةِ حيث شبّهَ حالَ النّدمِ في النّفسِ بحالِ الشَّيءِ في اليدِ في التّحقيقِ والظُّهورِ، ثمّ عبَّرَ عنهُ بالسُّقوطِ في اليدِ[6].

إنَّ الأمرَ المَخُوفَ حَصَلَ في أيديهِم، مِن مَجْنيِّ ثَمَرةِ مَعاصِيهِم

وذَهَبَ الشّريفُ الرّضيُّ إلى أنّ في ﴿سُقِطَ﴾ استعارةً؛ "وذلك عندما يُصيبُ الإنسانَ مِنَ الإبلاسِ لِطروقِ البلاءِ، وغَلبةِ الأعداءِ،

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 3/113 - 114.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/273 - 274.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/111.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/273، وقد أجملها الرّازيّ في ستّةِ وجوهٍ، ينظر: الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 15/8 - 9.
(5) الزَّجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 2/378.
(6) الآلوسي، روح المعاني: 9/65.

وربَّما قِيلَ ذلكَ للنّادمِ على فِعلِ الشَّيءِ، إذا وَجَدَ غَبَّ مَضرّتِهِ، ووخيمَ عاقبتِهِ؛ والمعنى: أنّ الأمرَ المخوفَ حَصَلَ في أيديهِم مِن مَجْنيِّ ثمَرَةِ مَعاصيهِم فوجدُوهُ وجدانَ مَن هو في يدِهِ إذ كانَت أيديهِم في مَكروهةٍ"[1].

معنَى ﴿سُقِطَ فِيٓ أَيۡدِيهِمۡ﴾ مِنَ الاسْتِئسارِ:

قيل: إنّ أصلَهُ مِنَ الاستئسارِ، وذلك أن يضربَ الرّجلُ الرّجلَ أو يصرعَهُ، فيرميَ به مِن يديهِ إلى الأرضِ ليأسرَهُ، فيكتفَه. فالمَرميُّ به مَسقوطٌ في يديّ السّاقطِ به. ومنهُ قِيلَ لكلِّ عاجزٍ عن شيءٍ، وضارعٍ لعجزِهِ، مُتندِّمٍ على ما قالَهُ: (سَقَطَ في يديه)، و(أسقطَ)[2]؛ أي: عدمَ الحيلةِ في دفعِ ما هو بصددِهِ مِن أمرٍ.

كلُّ عديمِ الحيلةِ في دفْعِ ما هو بصدَدِهِ مِن أمرٍ، فقد (أُسْقِطَ في يَدَيْه)

وَجْهُ الكنايةِ في العاضِّ يدَهُ بفَمِه غمًّا:

أو أنّه يُقالُ لِمَن اشتدَّ ندمُهُ سُقِطَ في يدِهِ؛ لأنَّ مِن شأنِ مَن اشتدَّ ندمُهُ وحسرتُهُ أن يَعَضَّ يدَهُ غَمًّا، فتصيرَ يدُهُ مَسقوطًا فيها؛ لأنَّ فاهُ قد وَقَعَ فِيها. وجُعِلَ هذا المعنى مِن بابِ الكنايةِ عن شدّةِ النَّدمِ[3] لا المجازِ لعدمِ المانعِ عنِ الحقيقةِ[4]. فاستعمالُ الآيَةِ في معنى النَّدمِ وتبيُّنِ الخطأِ لَهُم، فالمعنى: أنَّهُم تبيَّنَ لَهُم خَطَؤُهُم وسُوءُ مُعامَلَتِهِم ربَّهُم ونبيَّهُم، فالنَّدامةُ هي مَعنى التّركيبِ كلِّهِ، وأمّا الكنايةُ فهي في بعضِ أجزاءِ المُرَكَّبِ، وهو سُقِطَ في اليدِ[5].

(سُقِطَ في أَيْديهِم)، في معنَى ندَمِ قومِ موسَى، وتبيُّنِهم للخطأِ

وَجْهٌ آخرُ للكِنايةِ في سُقُوطِهُم، بسَببِ ثِقَلِ الأغلالِ في أيْدِيهِم:

هي كنايةٌ عن ندمِهِم، وشدّةِ خوفِهِم، ووجهُها أنّ الّذي يسقطُ في أيدي المُجرِمينَ بسرعةٍ وعنفٍ؛ هي الأغلالُ، والأصفادُ، والقيودُ الّتي

ندمُ بني إسرائيلَ لِفعْلَتِهِم، بعد غَيبةِ موسَى عليه السلام، ولاتَ حينَ مَنْدَمٍ

(1) الشّريف الرّضي، تلخيص البيان، ص: 77.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 13/118 - 119.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/160، والنّسفيّ، مدارك التّنزيل: 1/606.
(4) السّيوطيّ، نواهد الأبكار: 3/444.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/112.

يُساقُونَ بها لمعاقبتِهم، وحينَ تكونُ هذهِ مِنَ الحديدِ الثّقيلِ فإنّها قد تُسْقِطُهُم إلى الأرضِ، فيكونون بذلك نادِمِينَ سَاكِنين، لا يَملِكونَ إلّا الاعترافَ بجرمِهم.

دلالة ﴿سُقِطَ فِيٓ أَيۡدِيهِمۡ﴾:

إنّ السُّقُوطَ عِبارةٌ عن نُزُولِ الشَّيءِ مِن أعلى إلى أسفل، ولهذا قالُوا سَقَطَ المطرُ، فمَن أقدَمَ على عَمَلٍ، فهو إنّما يَقدِمُ عليهِ لاعتقادِهِ أنّ ذلك العملَ خيرٌ وصوابٌ، وأنّ ذلك العملَ يُورِثُهُ شَرَفًا ورفعةً، فإذا بانَ لهُ أنّ ذلك العملَ كانَ باطِلاً فاسِدًا، فكأنّه قدِ انحطَّ مِنَ الأعلى إلى الأسفلِ، وسَقَطَ مِن فوقٍ إلى تحتٍ؛ فلهذا السّببِ يُقالُ للرّجُلِ إذا أخطأَ: كانَ ذلك منهُ سَقطَةً، شَبَّهُوا ذَلِكَ بالسَّقطَةِ على الأرضِ[1]. ومِن هُنا قِيلَ هو مِنَ السِّقاطِ؛ أي: كَثرةُ الخطأِ، والخاطِئُ يَندمُ على فِعلِهِ[2]، أو هو مَأخوذٌ مِنَ السَّقيطِ، وهوَ ما يُغَشِّي الأرضَ مِنَ الجَلِيدِ: وهو يُشبِهُ الثَّلجَ. يُقالُ منهُ: سَقَطَتِ الأرضُ، كما يُقَالُ مِنَ الثّلجِ: ثَلَجَت، والسَّقْطُ والسَّقِيطُ يذُوبُ بأدْنَى حَرارةٍ ولا يَبقى. ومَنْ وَقَعَ في يدِهِ السَّقِيطُ لَمْ يَحصُلْ مِن بغيتِهِ على طائلٍ قَطُّ. فَصارَ هذا مَثَلًا لكلِّ مَن خَسِرَ في عاقبتِهِ، ولم يَحصُلْ مِن سَعيِهِ على طائلٍ، وكانَتِ النّدامةُ آخِرَ أمرِهِ[3].

يُقالُ للرّجُلِ إذا أخطأَ، كانَ ذلك منهُ سَقْطَةً، كأنّه سقَطَ على الأرضِ

جواز أن يكون ﴿فِيٓ أَيۡدِيهِمۡ﴾ بمعنَى: (على أيدِيهِم):

يُقالُ لهُ: سُقِطَ في يدِهِ؛ لأنّه يَتَحَيَّرُ في أمرِهِ، ويَعجَزُ عن أعمالِهِ، والآلةُ الأصليّةُ في الأعمالِ في أكثرِ الأمرِ هِي اليدُ، والعَاجِزُ في حُكمِ السَّاقِطِ، فَلمّا قُرِنَ السُّقوطُ بالأيدي عُلِمَ أنّ السُّقُوطَ في اليَدِ إنّما حَصَلَ بِسَبَبِ العَجزِ التّامِّ، ويُقالُ في العُرفِ لِمَن لا يَهتَدِي

لِلمُتحيِّرِ العاجزِ وصفًا، أو تصويرًا تمثيليًا

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 15/8.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/391.
(3) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 15/8.

لِما يَصنَعُ: ضَلَّت يدُهُ ورِجلُهُ، وهو يؤولُ إلى الرّأيِ الثّاني[1]. ثمّ إنّ مِنْ عادةِ النّادمِ أن يُطَأطِئَ رأسَهُ، ويضعَ ذَقَنَهُ على يدِهِ مُعتمِدًا عليها، ويصيرَ على هيئةٍ لو نُزِعَت يدُهُ لَسَقَطَ على وجهِهِ، فكأنّ اليدَ مَسقُوطٌ فيها؛ لِتَمَكُّنِ السُّقُوطِ فِيها، ويكونُ قولُهُ: سُقِطَ في أيديهِم؛ بمعنى: سُقِطَ على أيديهِم، كقولِهِ: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾ [طه: 71]؛ أي: عليها[2].

فائِدةُ ذِكْرِ اليدِ في الآيَةِ:

الفائدةُ في ذكرِ اليدِ، والنّدمُ يكونُ في القلبِ؛ وذلك لِوجهين:

الوجهُ الأوّلُ: لأنّ اليدَ هي الآلةُ الّتي بها يَقدِرُ الإنسانُ على الأخذِ، والضّبطِ، والحِفظِ. فالنّادمُ كأنّهُ يَتَدارَكُ الحالةَ الّتي لأجلِها حَصَلَ لَهُ النّدمُ، ويَشتَغِلُ بتَلافِيها، فكأنّهُ قد سَقَطَ في يدِ نفسِهِ مِن حيثُ إنّهُ بعدَ حُصُولِ ذلكَ النّدمِ اشتَغَلَ بالتَّدارُكِ والتَّلافي[3]. وخُصَّتِ اليدُ بالذِّكرِ؛ لأنَّ مباشرةَ الأشياءِ والذّنوبِ في الغَالِبِ تكونُ بها، فاللّائِمَةُ تَرجِعُ عليها؛ لأنّها هي الجارحةُ العُظمى، فيُسنَدُ إليها ما لم تُباشِرْ، كقولِهِ: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ﴾ [الحج: 10]، وكثيرٌ مِنَ الذّنوبِ لم تقدِّمْهُ اليدُ.

اليدُ تُباشِرُ الأعمالَ، وبها يُعَبَّرُ عن صُوَرِ النّدامةِ والحَيرَةِ

الوجهُ الثّاني: أنَّ النّدمَ حَدَثٌ يحصُلُ في القلبِ، وأثرُهُ يَظهَرُ في اليدِ؛ لأنّ النّادِمَ يَعَضُّ يدَهُ، ويَضرِبُ إحدى يديهِ على الأخرى، كقولِهِ: ﴿فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ﴾ [الكهف: 42]، فتَقليبُ الكَفِّ عبارةٌ عَنِ النّدمِ، وكقولِهِ: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ﴾ [الفرقان: 27]. فلمَّا كانَ أثرُ النَّدمِ يحصُلُ في اليدِ مِنَ الوجهِ الّذي ذكرْنَاهُ أُضيفَ سُقُوطُ النّدمِ إلى اليدِ؛ لأنّ الّذي يَظهَرُ للعيونِ مِن فِعلِ النّادمِ هو تقليبُ

(1) ابن جرير، جامع البيان: 13/118 - 119، والفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 15/8.
(2) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 15/9.
(3) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 15/8.

الكفِّ وعَضُّ الأناملِ واليدِ، كما أنّ السُّرورَ معنى في القلبِ يَستشعرُهُ الإنسانُ، والّذي يَظهَرُ مِن حالةِ الاهتزازِ والحركةِ والضّحكِ، وما يجري مَجرَاهُ[1].

بَلاغةُ الكِنايةِ والاسْتِعارةِ، في التَّعْبِيرِ باليدِ:

اليدُ مَناطُ القُوّةِ، وآلةُ القُدْرةِ لدَى الإنسانِ

اليدُ تُستعارُ للقوّةِ والنُّصرَةِ؛ إذ بها يُضرَبُ بالسّيفِ والرُّمحِ، ولِذلِكَ حينَ يَدعُونَ على أنفسِهِم بالسُّوءِ يَقُولُونَ: (شُلَّت مِن يديَّ الأناملُ)، وهي آلةُ القُدرةِ، قالَ تعالى: ﴿ذَا ٱلۡأَيۡدِۖ﴾ [ص: 17]، ويُقالُ: ما لي بِذلكَ يَدٌ، أو مَا لي بِذلكَ يَدانِ؛ أي: لا أستَطِيعُهُ، والمَرءُ إذا حَصَلَ لَهُ شَلَلٌ في عَضُدٍ، ولم يَستَطِعْ تَحريكَهُ، يَحسُنُ أن يُقالَ: سُقِطَ في يدِهِ ساقِطٌ؛ أي: نَزَلَ بِهِ نَازِلٌ[2].

بَراعةُ التَّعْبِيرِ بالفعْلِ المبنيِّ للمَجهولِ ﴿سُقِطَ﴾:

في اللّفْظِ إيجازٌ بالحذْفِ، وكنايةٌ عنِ المفاجأةِ، أو كنايةٌ عنِ الخوفِ والعجْزِ

الفعل ﴿سُقِطَ﴾ مَبنيٌّ للمَجهولِ، وهو كَلِمةٌ أجراها القُرآنُ مَجرى المَثَلِ إذِ انتظمَت على إيجازٍ بديعٍ، وكنايةٍ، تحريرُهما: أنّه لمّا كانَ ذِكرُ فاعِلِ السُّقُوطِ المَجهولِ لا يَزيدُ على كونِهِ مُشتَقًّا مِن فِعلِهِ، سَاغَ أن يُبنَى فِعلُهُ للمَجهولِ؛ فمعنى: (سُقِطَ في يدِهِ): (سَقَطَ في يدِهِ سَاقِطٌ؛ فأبطَلَ حَرَكَةَ يدِهِ)؛ إذِ المقصودُ أنّ حركةَ يدِهِ تعطّلَت بِسَبَبٍ غيرِ مَعلومٍ، إلّا بأنّهُ شَيءٌ دَخَلَ في يدِهِ، فَصَيَّرَها عاجِزةً عَنِ العملِ، وذَلِكَ كنايةٌ عن كونِهِ قد فَاجأَهُ ما أوجَبَ حَيرَتَهُ في أمرِهِ، كما يُقالُ: فَتَّ في ساعِدِهِ[3]. ويُلمَحُ فيه أيضًا كأنّ السُّقُوطَ بغيرِ اختيارٍ مِنهُم لِما غَلَبَ فيهِ مِنَ الوَجْدِ والأسَفِ الّذي أزالَ تأمُّلَهُم، ولِذلِكَ بَناهُ للمَفعولِ[4]. وفيها أيضًا وجهُ كنايةٍ عن شدّةِ خوفِهِم، وأصلُ هذه الكنايةِ أنّ المُجرِمَ إذا أدرَكَهُ الجنودُ أسرعوا، فأسقَطُوا بعُنفٍ

(1) السّمين الحلبيّ، الدُّرُّ المصون: 5/463.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/111 - 112.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/112.
(4) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 3/114.

في يَدَيهِ القَيدَ الحديديَّ حتَّى لا يَفِرَّ، فإذا فعلُوا بهِ ذلكَ ارتخَت أعصابُهُ، ووهَنَتْ عزائمُهُ، وأيقَنَ أنّهُ مَسُوقٌ للعقابِ، وهؤلاء الّذين اتّخذُوا العِجلَ الذّهبيَّ الّذي عَبَدُوهُ أحسُّوا بمثلِ هذا لمَّا رَأَوْا مِن بعيدٍ مُوسَى عليه السلام راجعًا إليهم ومعهُ الأَلواحُ، كأنّه قد حَصَل سُقوطُ قيدٍ حَديديٍّ في أيديهِم، وسَيُلاقُونَ عقابَهُم، هذه الكنايةُ أُرِيدَ منها لازِمُها؛ وهو الشّعورُ بالخوفِ مِنَ العقابِ مع العَجزِ عنِ الفِرارِ، فَضْلًا عنِ النّدمِ، وهي كنايةٌ ذاتُ إبداعٍ فنّيٍّ رائعٍ، وهي مِنَ الكناياتِ الخفيّةِ مع عدمِ وجودِ وسائطَ بينَ المُكنَّى به والمُكنَّى عنه.

الغَرَضُ مِنَ الإيجازِ هنا، والإسْهابِ في سُورةِ طه:

فائِدةُ الإيجازِ ليُبنَى عليهِ أنَّ ضلالَهُم، لم يَلبَثْ أنِ انْكشَفَ لَهُم

وفصّلَ في سورةِ طه، فَذَكَرَ رجوعَ مُوسى إليهم وتهديدَهُ إيّاهُم وإحراقَهُ العِجْلَ، وأُوجِزَ هنا إذ مِنَ المعلومِ أنّهُم ما سَقَطَ في أيديهِم، ورَأوا أنّهُم ضَلُّوا بعدَ تَصميمِهِم وتَصَلُّبِهِم في عبادةِ العِجلِ، وقَولِهِم: ﴿لَن نَّبۡرَحَ عَلَيۡهِ عَٰكِفِينَ﴾ [طه: 91]، إلّا بسببِ حادثٍ حَدَثَ يَنكَشِفُ لَهُم بِسَبَبِهِ ضلالُهُم، فَطَيُّ ذَلكَ مِن قبيلِ الإيجازِ لِيُبنَى عليهِ أنّ ضلالَهُم لم يَلبَثْ أنِ انكَشَفَ لَهُم، ولِذلكَ قُرِنَ بِهَذَا حِكايةُ اتِّخاذِهِمُ العِجلَ لِلمُبادَرَةِ ببيَانِ انكِشافِ ضلالِهِم تَنهيَةً لِقصَّةِ ضَلالِهِم، وكأنّهُ قِيلَ: فَسُقِطَ في أيديهِم، ورَأوا أنّهُم قد ضَلُّوا، ثمّ قِيلَ: ولَمّا سُقِطَ أيديهِم قَالُوا[1].

عِلّةُ تقْديمِ النّدَمِ على الرُّؤيةِ:

تقديمُ النّدمِ لِلمُسارَعةِ إلى بيانِهِ، والإشعارِ بِذَلكَ

﴿وَرَأَوۡاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ ضَلُّواْ﴾ باتّخاذِ العِجلِ؛ أي: تبيَّنُوا بحيثُ تَيَقَّنُوا بذلكَ حتّى كأنّهُم رَأَوْهُ بأعينِهِم، وتقديمُ ذِكرِ ندمِهِم على هذهِ الرُّؤيةِ مَعَ كونِهِ مُتَأَخِّرًا عنهَا لِلمُسارَعَةِ إلى بَيانِهِ والإشعارِ بغايةِ سُرعَتِهِ، كأنّهُ سابِقٌ على الرُّؤيَةِ[2].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/112 - 113.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/273، والآلوسي، روح المعاني: 9/65.

نُكتةُ تقْديمِ النّدَمِ على تبيُّنِ الضّلالِ:

الانْتِقالُ مِنَ الجزْمِ بأَحَقّيّةِ الأمْرِ، إلى استِبانةِ الجزْمِ بنقيضِهِ، لا يكونُ دُفعةً واحدةً

قَدَّمَ النّدمَ في الذّكرِ على تبيُّنِ الضّلالةِ، مع أنّ المَعروفَ في العادةِ أن يَندَمَ الإنسانُ على ما عَلِمَ مِن ذنبِهِ؛ لأنّ الانتقالَ مِنَ الجزمِ بأنَّ هذا الأمرَ حقٌّ إلى استبانةِ الجزمِ بضدِّهِ أو نقيضِهِ لا يكونُ دُفعةً واحدةً في الأغلبِ، بلِ الأغلبُ أنَّهُ يَنتقِلُ مِنَ الجزمِ بصحّتِهِ أو حقيقتِهِ إلى الشَّكِّ فيها، ثمَّ إلى الظّنِّ بالضّدِّ أو النّقيضِ، ثمّ إلى الجزمِ بهِ، ثمّ إلى تبيُّنِهِ، واليقينِ فيهِ الّذي يُعبَّرُ عنهُ بالرُّؤيةِ، والقومُ كانُوا جَازِمينَ بأنّ ما فَعَلُوهُ صَوابٌ، والنَّدمُ عليهِ رُبَّما وَقَعَ لَهُم حالَ الشّكِّ فيهِ؛ فيكونُ تبيُّنُ الضّلالِ مُتأخِّرًا عنِ النّدمِ[1].

كانَ ندمَهُم من رَهبةِ مُوسَى، لا عن يَقِينهم بضَلالِهم:

عِلمُهمُ القطعيُّ بضَلالِهم، حَصَلَ بعدَ تحريقِ مُوسَى العجْلَ، ونسْفِهِ في اليمِّ

عندَ تصريحِ مُوسى بأنَّهم ضلُّوا، ورؤيتِهم ما كانَ مِن غضبِهِ وإلقائِهِ بالألواحِ حتّى تكسَّرَت، وأخذِهِ برأسِ أخيهِ هارونَ ولحيتِهِ، وجرِّهِ إليهِ، نَدِمُوا على ما فَعَلُوا، فإن كانَ هذا النّدمُ عن تقليدٍ وطاعةٍ لمُوسى لا عن علمٍ يقينيٍّ بأنَّ عملَهُم ضلالٌ، فالرّاجحُ أن يكونَ العِلمُ القطعيُّ المُعبَّرُ عنهُ بقولِهِ: ﴿وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا﴾ قد حَصَلَ بعدَ تحريقِ مُوسى لِلعجلِ، ونسْفِهِ في اليمِّ[2].

تَقْديمُ النّدَمِ لِلمُبالغةِ في اسْتِشعارِهِم اسْتِحقاقَ العِقابِ:

مَنْ رأَى أنّه قد ضَلَّ، ولم يَتدارَكْ شأنَه، فقد عرَّضَ نفسَه للهلاكِ

إنّ مِن قواعدِ علمِ المعاني أنّ ما لا يجبُ التّرتيبُ فيه بزمانٍ ولا رُتبةٍ أن يُقدَّمَ في سردِهِ، وفي نسقِهِ الأهمِّ، فإن لم يكنْ تقديمُ النّدمِ هنا لسبقِهِ في الزّمنِ، فالأظهرُ أنَّهُ لِلمُبالغةِ في استشعارِهِم استحقاقَ العقابِ، كأنَّهُ يقولُ: إنَّهم على ندمِهِم وتوبتِهِم الّتي مِن شأنِها مَحوُ الذّنبِ وتركُ العقابِ، وعلى كونِهِم

(1) الآلوسي، روح المعاني: 9/65، ومحمد رضا، تفسير المنار: 9/176.
(2) محمد رضا، تفسير المنار: 9/176.

صارُوا على علمٍ يقينيٍّ ببُطلانِ عبادةِ العِجلِ، ووجوبِ تخصيصِ الرَّبِّ بالعبادةِ[1].

دَلالةُ أُسلوبِ الشّرْطِ في ربْطِ الخُسرانِ بعد ضمِّ الغُفرانِ:

قالوا ذَلِكَ القَولَ الدَّالَّ على أنَّ مجموعَ الأمرينِ لا يكفي لاستحقاقِ المغفرةِ إلّا برحمةِ اللّهِ تعالى، ومِنَ المعلومِ أنّ العِلمَ بالضّلالِ وحدَهُ لا يقتضي العفوَ والمغفرةَ إلَّا إذا ترتَّبَ عليه العملُ بمقتضاه وهو التّوبةُ، والرّجوعُ إلى اللّهِ تعالى بالعملِ، فإنَّ الّذين ضَلُّوا على علمٍ ولم يتوبوا أشدُّ النَّاسِ عِقابًا، فَعَلِمَ بذلك أنَّ تقديمَ النّدمِ أهمُّ مِنَ العلمِ بالضّلالِ[2].

العِلمُ بالضَّلالِ، لا يقتضِي العَفوَ والمَغفرةَ، ما لم تصْحَبْه التّوبةُ

سِرُّ التَّعْبِيرُ بالفعلَيْن الماضيَيْن ﴿وَرَأَوْاْ﴾، و﴿ضَلُّواْ﴾:

يُرَسِّخُ هذا الوقوعَ، وحتميَّةَ تحقُّقِهِ، توسُّطُ حرفِ التّوكيدِ المَصدَريِّ (أنّ)، واقترانُ أحدِهما، وهو الضّلالُ بـ﴿قَدْ﴾ الدّالَّةِ على التّحقيقِ، فَضلًا عن مجيئِهِ مُؤوَّلًا بالمَصدَرِ؛ أي: رَأوا ضلالَهُم. والتَّعبيرُ بالمصدَرِ المُنسبِكِ أقوى في الدّلالةِ على الحَدَثِ مِنَ الفعلِ.

المُضيُّ تحقُّقٌ لِوقوعِ الأفعالِ، وظرْفٌ لورودِه بيقينٍ

بَلاغةُ حَشْدِ المؤكِّداتِ في الآيةِ:

قولُهُم: ﴿لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ تَوبَةٌ وإنَابَةٌ، وقَد عَلِمُوا أنَّهم أخطَؤُوا خَطِيئةً عَظيمَةً، ولذلكَ أكَّدُوا التّعليقَ الشّرطِيَّ بِالقَسَمِ الّذي وطّأتهُ اللّامُ[3]، مُبالغةً في طلبِ الرّحمةِ، والمَغفرةِ، مُعزِّزينَ ذلك بالتَّعبيرِ بأسلوبِ الجزمِ، والتّوكيدِ بالنّونِ الثّقيلةِ.

شِدّةُ طلَبِهِم للرّحمةِ والمغفرةِ، وخَشْيتِهم مِنَ الخُسرانِ، سبيلٌ لرحمةِ الرّحمنِ

غرَضُ صَوْغِ فِعلَي الرّحمةِ والمغفرةِ بالمضارعِ المَنفيِّ:

قولُهُم: ﴿لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا﴾، أدّى التَّعبيرُ عن فعْلَي

(1) محمد رضا، تفسير المنار: 9/176.
(2) محمد رضا، تفسير المنار: 9/176.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/113.

الدّلالةُ على إرادةِ تحقُّقِ الفعلَيْن مِنَ الزّمنِ الماضِي

(الرّحمةِ، والمغفرةِ) بصيغةِ المضارعِ المجزومِ بـ(لم) معنى طَلَبِهم تحقُّقَ هذين الفعلَين في الزّمنِ الماضي المُطلَقِ لِفداحةِ صنيعِهم؛ أي: إنْ لم ترحمْنا على ما فعلْناهُ، وتغفرْهُ لنا لَنكُونَنَّ مِنَ الخاسِرينَ.

سِرُّ الإتْيانِ باللّفظَيْن ﴿رَبُّنَا﴾، و﴿لَنَا﴾:

إظهارُ الخضُوعِ، وتَخصيصُ المغفرةِ والرّحمةِ بِهِم

أُورِدَ بلفظِ (الرّبّ) مُضافًا إلى ضَميرِهِ المُشارِكينَ (نا) المُتضمِّنِ معنى المُرَبِّي لإصلاحِهِ رعيتَه، والّذي يُناسِبُ مَقامَ طَلَبِهِم الرّحمةَ والمغفرةَ، وفي ذلك إظهارٌ للتَّودُّدِ، والخضوعِ، ومزيدِ اللُّجوءِ إليهِ. أمّا شبهُ الجُملَةِ ﴿لَنَا﴾ ففيهِ تخصيصٌ لِلمَغفرةِ بِهِم، وتأكيدٌ لِتخصيصِ الرّحمةِ بِهِم مِن قبلُ بإضافتِهِ إلى ضَميرِ المُتَكَلِّمينَ (نا).

بَلاغةُ التَّعْبيرِ بـ﴿مِنَ﴾، على طريقِ الكِنايةِ:

إثباتُ الخسارةِ بالإفادةِ بأنّهُمْ خاسِرونَ، بطريقةٍ تُشبهُ الاستدلالَ

مَجيءُ خَبَرِ كانَ مُقترِنًا بحرفِ ﴿مِنَ﴾ التّبعيضيّةِ؛ لأنّ ذلكَ أقوى في إثباتِ الخَسارةِ مِن (لَنَكُونَنَّ خاسِرينَ)، كما تَقدَّمَ في قولِهِ تعالى: ﴿قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ۝٥٦﴾ [الأنعام: 56][1]؛ لأنّ المقصودَ نفيُ الجُملَةِ الّتي خبرُها ﴿مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾، فإنّ التّعريفَ في (الخاسرين) تعريفُ الجنسِ، فإخبارُ المُتَكَلِّمينَ عن أنفسِهِم بأنّهُم مِنَ الخاسِرينَ يُفيدُ أنّهُم فِئَةٌ مِنَ المَعروفينَ عندَ النّاسِ بالخاسِرينَ، فَأَفادُوا بأنّهُم خاسرونَ إفادةً بطريقةٍ تُشبهُ طريقةَ الاستدلالِ، فهو مِن قبيلِ الكنايةِ الّتي هي إثباتُ الشَّيءِ بإثباتِ مَلزومِهِ، وهي أبلغُ مِنَ التّصريحِ. وقد جاءَ في (الكشّاف) في قولِهِ تعالى: ﴿قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ ۝١٦٨﴾ [الشّعراء: 168]: قولُكَ: فلانٌ مِنَ العلماءِ أبلغُ مِن قولِكَ: فلانٌ عالِمٌ، لأنّكَ تَشهَدُ لهُ بكونِهِ مَعدُودًا في زمرتِهِم، ومعروفةً مُساهمتُهُ لَهُم في العلمِ[2].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/113.

(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/331، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/263.

تَوجِيهُ قراءةِ تاءِ الخطابِ (ترحمنا ربَّنا وتغفر لنا):

كلامُ التّائِبين إقرارٌ بيقينٍ، لطَلَبِ العَفْوِ من ربِّ العالمينَ

وقَرَأَهُ الجمهورُ ﴿يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا﴾ بياءِ الغيبةِ، في أوَّلِ الفعلَين، وبرفعِ كلمة ﴿رَبُّنَا﴾، وقَرَأَ حَمزةُ والكِسائيُّ وَخَلَفٌ وغيرُهُم: (ترحمنا ربَّنا وتغفر لنا) بتاءِ الخطابِ في أوّلِ الفعلَين، ونصبِ كلمة (ربَّنا)[1] على أنَّهُ مُنادى، وهذا كلامُ التّائِبينَ، كما قالَ آدمُ وحواءُ عليهما السلام: ﴿وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا﴾ [الأعراف: 23][2]. ويجوزُ أن يكونَ هذا الكلامُ صَدَرَ مِن جميعِهِم على التَّعاقُبِ، أو هذا مِن طائفةٍ وهذا مِن طائفةٍ، فَمَنْ غَلَبَ عليه الخوفُ، وقَوِيَ على المُواجهةِ، خَاطَبَ مُستَقيلًا مِن ذنبِهِ، ومَنْ غَلَبَ عليه الحياءُ أخرجَ كلامَهُ مُخْرَجَ المُستَحيي مِنَ الخطابِ، فأَسندَ الفعلَ إلى الغائبِ[3]. وفيه معنى الاستِغاثةِ والتَّضرُّعِ والابتهالِ في السّؤالِ والدُّعَاءِ، وهو أيضًا أبلغُ في الدُّعَاءِ والخضوعِ. فالقراءةُ بالتّاءِ والدّعاء أبلغُ في الاستكانةِ والتَّضرُّعِ[4].

عِلَّةُ تَقْديمِ الرّحمةِ على المغفرةِ:

المُسارَعةُ إلى المقصودِ الأصْليِّ، وحُصول الرّحمةِ مُفْضٍ إلى حُصولِ المغفرة

وتقديمُ الرّحمةِ على المغفرةِ في قوله: ﴿لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا﴾ - مع أنّ التّخليةَ حقُّها أن تُقدَّمَ على التّحليَةِ - إمَّا لِلمُسارعةِ إلى ما هو المَقصُودُ الأصليُّ، وإمّا لأنّ المُرادَ بالرّحمةِ مُطلَقُ إرادةِ الخيرِ بِهِم، وهو مبدأٌ لإنزالِ التّوبةِ المُكفِّرَةِ لِذنوبِهِم[5]. ووجهُ تقديمِ ذكرِ الرّحمةِ على ذكرِ المغفرةِ، وهو أنَّها سببُها، فإنَّ التّوبةَ ومَعرفةَ الحقِّ لا يَكفيانِ لِلمَغفرةِ بدونِها، ولا غروَ فقد وَرَدَ في الصّحيحين عن أبي هُريرةَ قال: سمعْتُ رسولَ اللّهِ ﷺ يقولُ: «لن يُدخِلَ أحدًا عملُهُ الجنَّةَ. قالوا: ولا أنت يا رسولَ اللّهِ؟ قال: ولا أنا إلّا أن يتغمَّدَني

(1) ابن مجاهد، السّبعة، ص: 294، وابن الجزريّ، النّشر: 2/272.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/160.
(3) السّمين الحلبيّ، الدُّرُّ المصون: 5/465.
(4) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 7/286.
(5) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/273.

اللّهُ بفضلٍ ورحمةٍ فسَدِّدُوا وقارِبُوا»[1]. فقدّمُوا الرّحمةَ على المغفرةِ؛ لأنّها سببُها؛ فإنَّ التَّوبَةَ ومَعرِفَةَ الحَقِّ لا يَكفِيَانِ لِلمَغفِرَةِ بِدُونِهَا[2].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الرّحمةُ، والغفرانُ، والعفوُ، والصّفحُ:

الغُفرانُ إسْقاطٌ للعِقابِ، مع إيجابِ الثّوابِ، ويكونُ منَ الله للعِبادِ

تقدَّمَ أنّ الرَّحمةَ رِقَّةٌ تَقتَضِي الإحسَانَ إلى المَرحُوم، وهذا ظاهر في دلالتِهِ على طلبِ الإنعام، والتَّفضُّلِ، والإحسانِ، والرّأفةِ بحالِهِم. أَمّا غفرانُ الذّنوبِ فسَتْرُهَا وعدمُ الفضيحةِ على رُؤُوسِ المَلأ. وكلُّ شَيءٍ سترتَهُ فقد غفرتَهُ، فالغفرانُ يَقتَضِي إسقَاطَ العقَابِ، وإسقَاطُ العقَابِ هُو إيجَابُ الثَّوَابِ فَلَا يستَحِقُّ الغفرانَ إلَّا المُؤمِنُ المُستَحقُّ للثَّوابِ، وَالعَفوُ يَقتَضِي إزَالَةَ شَيءٍ عَنهُ، وإسقَاطَ اللَّومِ والذّمِّ، ولَا يَقتَضِي إيجَابَ الثَّوَابِ، فالغفرانُ أخصُّ، وهُوَ يَقتَضِي إيجَابَ الثَّوَابِ. والصّفحُ التّجاوزُ عَنِ الذَّنبِ، وَقِيلَ: هُوَ تركُ مُؤَاخذَةِ المُذنِبِ[3].

ولِذلِكَ فالجمعُ بينَ الرّحمةِ والغفرانِ في خطابِ بني إسرائيلَ في الآيَةِ الكريمةِ جنوحٌ نحوَ حتْميّةِ القَبولِ، والرّغبةِ في التَّوبةِ بطَلبِ الإحسانِ بِهِم، والرّأفةِ أوّلًا، ثمَّ سَتْرِ ذنوبِهِم بإسقاطِ العقابِ، وإيجابِ الثّوابِ، وذلك أنسبُ اعتذارٍ لفداحةِ صنيعِهِم؛ باتّخاذِهِم صنمًا عِجلًا مَعبودًا مِن دونِ اللّهِ، مِنَ الاقتصارِ على أحدِ الفعلَين، أو اختيارِ غيرِهما.

(1) محمد رضا، تفسير المنار: 9/176. والحديث أخرجه البخاري، الجامع الصحيح، بَابُ: تَمَنِّي المَرِيضِ المَوْتَ، الحديث رقم: (5673).

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/113.

(3) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 235 - 236.

﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ غَضۡبَٰنَ أَسِفٗا قَالَ بِئۡسَمَا خَلَفۡتُمُونِي مِنۢ بَعۡدِيٓۖ أَعَجِلۡتُمۡ أَمۡرَ رَبِّكُمۡۖ وَأَلۡقَى ٱلۡأَلۡوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأۡسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيۡهِۚ قَالَ ٱبۡنَ أُمَّ إِنَّ ٱلۡقَوۡمَ ٱسۡتَضۡعَفُونِي وَكَادُواْ يَقۡتُلُونَنِي فَلَا تُشۡمِتۡ بِيَ ٱلۡأَعۡدَآءَ وَلَا تَجۡعَلۡنِي مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٥٠﴾ [الأعراف: 150]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

حالةُ مُوسى عندَ مُشاهَدتِهِ عبادةَ قومِهِ العِجْلَ، وغضبُه من هارونَ أخِيه

لمّا كانَ السِّياقُ في سَردِ رجوعِ مُوسى عليه السلام إلى قومِهِ، وإنكارِه عليهِم، وذكرِ إسراعِهم في الفِسقِ؛ لم يذكُرْ قَبولَ تَوبتِهم، كما في سورة البقرة؛ ولأنّ مِنَ المعلُومِ أنّهم تبيَّنَ لهُم عَن قُربٍ سُوءُ مُرتَكَبِهم؛ لكونِ نبيِّهِم فيهِم عبَّرَ بما كانَ مِن ذَلِكَ[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿رَجَعَ﴾: الرَّاءُ وَالجِيمُ وَالعَينُ أَصلٌ كَبِيرٌ مُطَّرِدٌ مُنقَاسٌ، يَدُلُّ عَلَى رَدٍّ وَتَكرَارٍ. ورَجَعَ بمعنى عَادَ[2]. والرُّجوعُ: العَودُ إلى ما كانَ منه البَدءُ، أو تقديرُ البدءِ مَكانًا كانَ أو فِعلًا، أو قَولًا، وبذاتِهِ كانَ رُجُوعُهُ، أو بجُزءٍ مِن أجزائِهِ، أو بفعلٍ مِن أفعالِهِ[3]. وكلُّ ما في القرآنِ مِنَ اللّفظِ فهو بمعنى الرُّجُوعِ والعَوْدِ مع اختلافِ الصّورِ أحيانًا[4]. ومنهُ اللّفظةُ في الآيةِ الكريمةِ.

2) ﴿غَضۡبَٰنَ﴾: الغَينُ والضَّادُ والبَاءُ أَصلٌ صَحِيحٌ يدُلُّ عَلَى شِدَّةٍ وَقُوَّةٍ. يُقَالُ: إِنَّ الغَضْبَةَ: الصَّخرَةُ الصُّلبَةُ. قَالُوا: ومِنهُ اشتُقَّ

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 3/114.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (رجع).
(3) الرّاغب، المفردات: (رجع).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (رجع).

الغَضَبُ؛ لأَنَّهُ اشتِدَادُ السُّخطِ[1]. وثَوَرانُ دَمِ القلبِ إرادةَ الانتِقامِ، وغليانُهُ بسببِ حُصولِ ما يؤلِمُ[2]، فهو انفِعالٌ ينشأُ عنهُ كراهيةُ المغضُوبِ عليه، وإبعادُه، وإضرارُه[3]. وامتلاءُ النَّفسِ بالحِدَّةِ والجَفاءِ له، وكلُّ ما في القرآنِ مِنَ التَّركيبِ؛ فهو مِنَ الغَضَبِ بهذا المعنى[4]. ومنهُ مَحمودٌ ومَذمُومٌ، فالمَحمُودُ ما كانَ في جانبِ الدِّينِ والحَقِّ، والمَذمُومُ ما كانَ في خلافِهِ[5]. ومِنَ الأوّلِ صنيعُ مُوسى عليه السلام.

3) ﴿أَسِفًا﴾: الأَسَفُ: أشدُّ الحزنِ، وأشدُّ الغضبِ والتَّغيُّظِ، أو هو مَنزِلَةٌ وراءَ الغضبِ[6]؛ لكونِهِ حُزنًا في حالٍ، وغَضَبًا في حالٍ، فإذا جاءَكَ أمرٌ مِمَّنْ هو دونَكَ؛ فأنت أَسِفٌ، أي: غضبان، وإذا جاءَكَ ممّن فوقَكَ، أو مِن مثلِكَ؛ فأنتَ أَسِفٌ، أي: حزينٌ[7]. فالأسفُ: الحُزنُ والغَضبُ معًا، وقد يُقالُ لكلِّ واحدٍ منهما على الانفرادِ[8]. ومعنى الأسفِ في الآيةِ الكريمةِ تراتَبَ فيه الغضبُ الشَّديدُ والحُزنُ[9].

4) ﴿أَعَجِلْتُمْ﴾: العَينُ والجيمُ واللَّامُ أَصلَانِ صَحِيحَانِ، يَدُلُّ أَحَدُهُما على الإِسرَاعِ، وهو العَجَلَةُ في الأَمرِ[10]، وهي: طلبُ الشَّيءِ وتحرّيه قبلَ أوانِهِ، وهو مِن مُقتضَى الشَّهوةِ، فلِذَلِكَ صارَت مَذمومةً في عامّةِ القرآنِ، ووَرَدَ في الحديثِ: «العَجَلةُ مِنَ الشّيطانِ»[11]؛ وهي: السُّرعةُ خِلَافُ البُطءِ[12]، والسَّبقُ إلى تحصيلِ الشّيءِ قبلَ وقتِهِ[13]. ومعنى اللّفظةِ في الآيةِ الكريمةِ: أَسَبَقتُم أمرَ ربِّكُم[14].

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (غضب).
(2) الرّاغب، المفردات: (غضب)، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/392.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8ب/210.
(4) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (غضب).
(5) ابن الأثير، النّهاية: (غضب).
(6) ابن جرير، جامع البيان: 13/120، والجوهريّ، الصّحاح: (أسف).
(7) الخليل، العين: (أسف).
(8) الرّاغب، المفردات: (أسف).
(9) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/456.
(10) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عجل).
(11) الترمذي، السنن، الحديث رقم: (2012)، والبيهقيّ، السّنن الكبرى، الحديث رقم: (20270)؛ وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد، برقم: (12652)، وقال: رواه أبو يعلى، ورجاله رجال الصحيح.
(12) ابن منظور، لسان العرب: (عجل).
(13) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (عجل).
(14) زاده، حاشية محيي الدّين شيخ زاده: 4/300.

5) ﴿يَجُرُّوهُ﴾: الجيمُ والرَّاءُ أَصلٌ وَاحِدٌ، وهوَ مَدُّ الشَّيءِ وَسَحبُهُ. يُقَالُ: جَرَرتُ الحَبلَ وَغَيرَهُ[1]، والجَرُّ: الجَذبُ، وانجَرَّ الشَّيءُ: انجَذَبَ[2]. والمعنى المحوريُّ له: سَحبُ الجِرمِ المُتجمِّعِ باسترسالٍ وامتدادٍ. ومعنى ﴿يَجُرُّوهُ إِلَيْهِ﴾ في الآيةِ الكريمةِ: يسحبُهُ خلفَهُ[3].

6) ﴿تُشْمِتْ﴾: الشِّينُ والميمُ والتَّاءُ أَصلٌ صَحِيحٌ، من شَمِتَ يَشمَتُ، والشَّماتةُ: وهي فَرحُ العدُوِّ ببَلِيَّةٍ تَنزِلُ بمُعاديهِ[4]، وسُرُورُ النَّفسِ بما يُصيبُ غيرَها مِنَ الأضرارِ، وإنَّما تَحصُلُ مِنَ العداوةِ والحَسَدِ[5]. وشماتةُ الأعداءِ: فَرَحُهم ببليَّةٍ تُصيبُ أعداءَهُم، وبمَكروهٍ يُصيبُهُم مع سلامتِهِم هُمْ مِن تلكَ البَلِيَّةِ، فهوَ إحساسٌ بالقوّةِ خفيٌّ لإصابةِ الأعداءِ مع سلامتِهِم هُم[6]. وهو معنى قول هارونَ لأخيهِ مُوسى عليهما السلام: ﴿فَلَا تُشْمِتْ﴾، أي: لا تجعلْهُم يُسَرُّونَ بصنيعِكَ معي.

المَعْنى الإِجْمالِيُّ:

رُجوعُ مُوسَى غاضبًا أسِفًا، وتقريعُه لهارونَ لعدمِ تَصدِّيه للضّلالِ بحزْمٍ

لمّا رَجَعَ مُوسى مِنَ الطُّورِ إلى قومِهِ غضبانَ على أخيهِ هارون؛ إذ رأى أنَّه ضَعُفَ في سياستِهِ لَهم، ولم يكُنْ ذا عزيمةٍ في خلافتِهِ فيهِم، حزينًا على ما وَقَعَ مِن قومِهِ مِن كفرِ الشّركِ، وإغضابِ اللّهِ عزّ وجلّ، وقد أخبرَهُ اللّهُ أنّهُ قد فَتَنَ قومَهُ، وأنّ السّامريَّ قد أضلَّهُم، قالَ لَهم: بئسَ خلافة خلَفْتُمُونيها مِن بعد ذَهابي عنكُم إلى مناجاةِ اللّهِ تعالى، من بعدِ ما كانَ مِن شأني معَكُم أنْ لقَّنْتُكم التَّوحيدَ، وكَفَفْتُكم عنِ الشِّركِ، وبيّنتُ لكم فسَادَهُ وبطلانَهُ، وسُوءَ عاقبةِ أمرِهِ، حين رأيتُم القومَ الّذينَ يَعكفونَ على أصنامٍ لهم، فكانَ الواجبُ عليكم أنْ

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (جرّ).
(2) ابن سيده، المحكم: (جرّ)، وابن منظور، لسان العرب: (جرر).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (جرر).
(4) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (شمت).
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/117 - 118.
(6) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل، ومجموعة باحثين، المعجم الوسيط: (شمت).

تخلُفُوني باقتِفاءِ سِيرتي، ولكنَّكُم خَلفتُموني بضدِّها؛ إذ صنعتُم لكم صنمًا كأصنامِ أولئكَ، أعجِلتُم أَمْرَ ربِّكُم؟ أي: استعجلتُم مَجيئي إليكُم، وهُوَ مُقدَّرٌ مِنَ اللّهِ تعالى؟ وألقى مُوسى ألواحَ التّوراةِ غضبًا على قومِهِ الّذين عَبَدُوا العِجلَ، وغضبًا على أخيهِ هارونَ، وأمسكَ برأسِ أخيهِ يجرُّهُ إليهِ، قالَ هارونُ مُستعطِفًا: يابنَ أمِّي: إنَّ القومَ استذلُّوني، وعدُّوني ضعيفًا، وقاربُوا أن يقتلُوني، فلا تَسُرَّ الأعداءَ بما تفعلُ بي، ولا تجعلْني في غضبِكَ مع القومِ الّذين خَالَفوا أمرَكَ، وعبدُوا العجلَ[1].

وتُرشِدُ الآيةُ الكريمةُ إلى أنَّ الخطأَ في الاجتهادِ مع وُضُوحِ الأدلّةِ غيرُ مَعذُورٍ فيهِ صاحِبُهُ في إجراءِ الأحكامِ عليهِ، وهُوَ ما يُسَمِّيهِ الفُقهاءُ بالتّأويلِ البَعيدِ، فلا يُظَنُّ بأنَّ مُوسى عَاقَبَ هارُونَ قبلَ تحقُّقِ التَّقصيرِ[2].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

وَجْهُ الإخبارِ عنِ الرّجوعِ بالأسلُوبِ المُبَيِّنِ:

الغضبُ والأسفُ مُقترنان بالرُّجوعِ

جُعِلَ رُجُوعُ مُوسى عليه السلام إلى قَومِهِ غَضبانَ كالأمرِ الّذي وقَعَ الإخبارُ عنه مِن قَبلُ على الأسلوبِ المُبيَّنِ في قولِهِ: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا﴾ [الأعراف: 143]، وقولِهِ: ﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِيٓ أَيۡدِيهِمۡ﴾ [الأعراف: 149]. فَرُجُوعُ مُوسى مَعلُومٌ مِن تَحَقُّقِ انقضاءِ المُدّةِ المَوعُودِ بها، وكَونُهُ رَجَعَ في حالةِ غَضَبٍ مُشعِرٌ بأنّ اللّهَ أَوحَى إليهِ، فأعلَمَهُ بما صَنَعَ قومُهُ في مَغيبِهِ، وقد صرَّحَ بذلكَ في سورةِ طه: ﴿قَالَ فَإِنَّا قَدۡ فَتَنَّا قَوۡمَكَ مِنۢ بَعۡدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ﴾ [طه: 85]، فـ﴿غَضۡبَٰنَ أَسِفٗا﴾ حالان مِن مُوسى، فهما قَيدانِ لـ﴿رَجَعَ﴾، فَعُلِمَ أنَّ الغضبَ والأسفَ مُقارِنان لِلرُّجُوعِ[3].

(1) محمد رضا، تفسير المنار: 9/178، ونُخبة من أساتذة التّفسير، التّفسير الميّسر، ص: 169.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/116.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/113.

بَلاغةُ التَّعْبيرِ بصِيغةِ المُبالَغةِ:

بيانُ الحُدوثِ والامتلاءِ، بالوَصْفِ إلى الحدِّ الأقصَى

صيغة (غضبان) مِن صفاتِ المُبالَغةِ[1]، ويدُلُّ هذا البِناءُ على الحدوثِ والامتلاءِ بالوصفِ إلى الحدِّ الأقصى، وحرارةِ الباطنِ؛ لأنَّ الغضبَ حرارةٌ تكونُ في جوفِهِ، وعلى مُبالَغةٍ في كثرةِ الشّيءِ مع عدمِ الدَّوامِ، وبُطءِ الزَّوالِ، فالغضبانُ هو المُمتلِئُ غَضَبًا، مع حرارةِ جوفِهِ واندفاع كأنَّ في جوفِهِ مِرجَلًا يؤزُّهُ، ولِذلكَ لمّا وَصَفَ هدوءَ غضبِهِ؛ قال: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ﴾ [الأعراف: 154] كأنَّ الغضبَ كان له أزيزٌ، ويصيحُ بمُوسى ويهيِّجُهُ ويُلْهِبُهُ[2].

عِلّةُ المُبالَغةِ في ﴿غَضْبَـٰنَ﴾:

شِدّةُ الغضبِ، تدلُّ على حدّةِ طبْعِ موسَى، وسُرعةِ انْفعالِه

نقلَ ابنُ القيّمِ عنِ السّهيليّ: أنَّ غضبانَ مِن أبنيةِ المُبالغةِ، وإنّما دخَلَهُ معنى المُبالغةِ من حيث كانَ في آخرِهِ ألفٌ ونونٌ كالتّثنيةِ، فإنّ التّثنيةَ في الحَقيقةِ تَضعيفٌ، فكذلِكَ هذه الصِّفة، فكأنَّ غضبانَ حاملٌ لِضعفَين مِنَ الغضبِ، فكانَ اللّفظُ مُضارِعًا للفظِ التّثنيةِ؛ لأنّ التّثنيةَ ضِعفانِ في الحَقيقةِ[3].

دَلالةُ صِيغةِ المبالغةِ ﴿أَسِفًا﴾:

حُزنُ موسَى عليه السلام لضياعِ مَعالِمِ الدِّينِ، والانْسلاخِ من هَدْيِه المُبِينِ

والأَسِفُ بدونِ مَدٍّ صيغةُ مُبالَغةٍ لِلآسِفِ بِالمَدِّ الّذي هو اسمُ فاعلٍ للّذي حلَّ بهِ الأَسَفُ، وهو الحُزنُ الشَّديدُ؛ أي: رَجَعَ غضبانَ مِن عِصيانِ قومِهِ، حَزينًا على فَسادِ أحوالِهِم، ممّا يدُلُّ على أنَّ الحُزنَ قدِ اشتدَّ عليه، وتمكَّنَ منهُ[4]. وتدُلُّ الصِّيغةُ على أنّه كَثُرَ منهُ الفعلُ مَصحوبًا بهيجانٍ، وخفّةٍ، واندفاعٍ، وشدَّةٍ حتّى صارَ لهُ الفعلُ كالعادةِ، مع كونِ مَعناهُ عارِضًا للذّاتِ غيرِ راسِخٍ ولا مُستقرٍّ فيها[5].

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/392.
(2) السّامرائي، معاني الأبنية، ص: 89 - 94.
(3) ابن القيّم، بدائع الفوائد: 1/23.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/114، والشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 7/4364.
(5) السّامرائي، معاني الأبنية، ص: 81 - 82 - 117.

عِلّةُ تقديمِ الغضَبِ على الأسَفِ:

قُدِّمَ الغضبُ؛ لأنّهُ رَسُولٌ له منهجُهُ، ولا يكفي في مثلِ هذا الأمرِ الحُزن فقط، بل لابدَّ أن يكونَ هناك الغضبُ نتيجةَ هياجِ الجَوارحِ[1]. وهِياجُ الجَوارحِ ما لا يملِكُ زمامَهُ المرءُ ولذلك يَسبِقُ، وذِكرُ صفةِ الغضبِ مُقدَّمةً أنسبُ لِمَقامِ الغَيرةِ على الدِّينِ، ومَسِّ وحدانيّةِ اللّهِ تعالى، ولزومِ عبادتِهِ مِن غيرِ شريكٍ، فهي أدعى إلى ردَّةِ الفعلِ المُناسبةِ؛ لجَسامةِ الحدثِ مِنَ الحُزنِ.

ما اقترفَهُ قومُ مُوسَى مِن صُدودٍ، كانَ مُوغلًا في الكُفرِ بلا حدودٍ

دَلالةُ التَّعبيرِ بفعلِ الذَّمِّ ﴿بِئۡسَمَا﴾:

و﴿بِئۡسَمَا﴾ فِعلُ ذمٍّ ضِدُّ نِعمَّا، وقولُهُ: ﴿بِئۡسَمَا خَلَفۡتُمُونِي﴾ اعتراضٌ ناشِئٌ عن قولِهِ: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخۡلُفۡنِي فِي قَوۡمِي﴾ [الأعراف: 142][2]. والفاعلُ مُضمَرٌ يُفسِّرُهُ قولُهُ: ﴿بِئۡسَمَا خَلَفۡتُمُونِي﴾، والمَخصوصُ بالذّمِّ مَحذوفٌ تقديرُهُ: بئسَ خِلافةٌ خَلَفتُمُونِيها مِن بَعدِي خِلافَتكم[3]، و(مَا) نَكِرَةٌ مَوصُوفَةٌ مُفسِّرَةٌ لفاعلِ (بئسَ) المُستَكِنِّ فيه[4]. والذَّمُّ فيما إذا كانَ الخِطابُ لهارونَ عليه السلام ومَن معَهُ مِنَ المُؤمِنينَ، ليسَ لِلخلافَةِ نفسِها، بل لِعَدَمِ الجَرْيِ على مُقتَضاها، وأمَّا إذا كانَ للسّامريِّ وأشياعِهِ؛ فالأمرُ ظاهرٌ ﴿أَعَجِلۡتُمۡ أَمۡرَ رَبِّكُمۡۖ﴾؛ أي: أعَجِلتُم عمّا أمَرَكُم بِهِ رَبُّكم، وهو: انتِظارُ مُوسى عليه السلام حالَ كونِهِم حَافِظِينَ لِعهدِهِ، وما وصَّاهُم بِهِ، فَبَنَيتُم الأمرَ على أنَّ المِيعادَ قَد بَلَغَ آخِرَهُ، ولَم أرجِعْ إلَيكُم، فَحَدَّثتُم أنفسَكُم بِمَوتِي، فَغَيَّرتُم[5].

ذَمَّهُمُ اللهُ لخيانةِ نَبيِّهم في الاستِخلافِ، وما وقعَ مع هارونَ من خلافٍ

اسْتِعمالُ فعْلِ الاسْتِخلافِ بينَ الحَقيقةِ والمَجازِ:

وهذا خطابٌ لِهارونَ ووجوهِ القومِ؛ لأنّهم خلفاءُ مُوسى عليه السلام في قومِهِم، فيكون قولُهُ: ﴿خَلَفۡتُمُونِي﴾ مُستعمَلًا في حقيقتِهِ، كما يُنبِئُ

المَعْنِيّونَ بالخطابِ هُم هارونُ وسَراةُ القومِ، أو هُم القومُ قاطبةً

(1) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 7/4363.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/611: 9/114.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/161.
(4) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/35.
(5) الآلوسي، روح المعاني: 9/66.

عنه قولُهُ تعالى: ﴿قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذۡ رَأَيۡتَهُمۡ ضَلُّوٓاْ ۝٩٢ أَلَّا تَتَّبِعَنِۖ أَفَعَصَيۡتَ أَمۡرِي ۝٩٣﴾ [طه: 92 - 93]. ويجوزُ أن يعمَّ الخِطابُ جميعَ القوم، فيكونُ التّوبيخُ عامًّا، وفيه تعرُّضٌ خاصٌّ بهارونَ عليه السلام؛ لأنّهُ جعلَهُ خليفتَهُ فيهم كما تَقدَّمَ، فلم يُحسنِ الخِلافةَ بسياسةِ الأُمّةِ كما كانَ يَسُوسُها مُوسى، وأمّا القومُ؛ فَلأنّهُم عَبَدُوا العِجلَ بعدَ غَيبةِ مُوسى، ومِن لَوازمِ الخِلافةِ فِعلُ ما كانَ يَفعلُهُ المخلوفُ عنه، فهُم لَمّا تركُوا ما كانَ يَفعَلُهُ مُوسى مِن عبادةِ اللّهِ، وصارُوا إلى عِبادةِ العِجلِ، فقدِ انحَرَفُوا عن سيرتِهِ، فَلَم يَخلُفُوهُ في سِيرتِهِ، وإطلاقُ الخلافةِ على هذا المَعنى مَجازٌ، فَيكونُ فِعلُ ﴿خَلَفۡتُمُونِي﴾ مُستَعمَلًا في حقيقتِهِ ومَجازِهِ[1].

بَلاغةُ الإطنابِ في قولِهِ: ﴿مِنۢ بَعۡدِيٓۖ﴾:

تصويرُ فظاعةِ التّزييفِ، وشُؤْمِ التّحريفِ، في المُستخلَفِين من قومِ موسَى

زيادةُ ﴿مِنۢ بَعۡدِيٓۖ﴾ عَقِبَ ﴿خَلَفۡتُمُونِي﴾ إطنابٌ بزيادةِ الجارِّ والمجرورِ؛ لِلتّذكيرِ بالبَونِ الشّاسعِ بينَ حالِ الخَلَفِ وحالِ المَخلُوفِ عنهُ؛ تصويرًا لِفَظاعةِ ما خَلَفُوهُ بهِ؛ أي: بعدَ ما سَمِعتُم مِنّي التَّحذيرَ مِنَ الإشراكِ وزَجرِكُم عن تقليدِ المُشركينَ حينَ قُلتُم: ﴿ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞۚ﴾ [الأعراف: 138]، فَيَكونُ قَيدُ ﴿مِنۢ بَعۡدِيٓۖ﴾ للكشفِ، وتَصويرِ الحالةِ، والتّأكيدِ مِن بابِ: (رأيتُه بعيني)؛ وفائدتُهُ: تصويرُ نيابةِ المُستخلَفِ ومزاولةِ سيرتِهِ، وسلوكِ هديِهِ، كما أنَّ هنالكَ تصويرًا للرّؤيةِ، وما يتّصِلُ بها، وهو كقولِهِ تعالى: ﴿فَخَرَّ عَلَيۡهِمُ ٱلسَّقۡفُ مِن فَوۡقِهِمۡ﴾ [النّحل: 26]، ومَعلومٌ أنّ السَّقفَ لا يكونُ إلّا مِن فوقٍ، ولكنّهُ ذُكِرَ لتصويرِ حالةِ الخرورِ وتَهويلِها[2].

الإطنابُ رَفعٌ لِتَوهُّمِ أنّ فعْلَهُم قد يكونُ بحُضورِهِ:

غيابُ الرّسولِ المُوحَى إليه، لا يُسَوِّغُ التّصرّفَ بما يخالِفُ المَنهجَ الإلهيَّ

ولَمّا كانَ هذا رُبَّما أَوهَمَ أنّهُم فَعَلُوا ما فَعَلُوهُ مِن اتِّخاذٍ لِلعِجلِ مِن

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/274، والقونويّ، حاشيَته على تفسير البيضاوي: 8/507 - 508، ومحمد رضا، تفسير المنار: 9/179، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/114.

(2) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 6/586، والآلوسي، روح المعاني: 9/66، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/114، والمستغانميّ، تصريف القول، ص: 62.

ورائِهِ وهو حاضرٌ، قال: ﴿مِنۢ بَعۡدِيٓۖ﴾؛ أي: مِن بعدِ مُضيي[1]. وفي الإطناب إشارةٌ إلى أنَّ قيادةَ مُوسى عليه السلام لَهُم وهو بينَهُم قد كانَت هي السَّببَ في ضبطِهِم عنِ الانحرافِ والتّغييرِ في الدِّينِ، وهذا يدُلُّ على أنّهُم لَم يَصِلوا بعدُ إلى مُستوى تركِهِم لأنفسِهِم يُقيمونَ دينَ اللّهِ، فالإيمانُ الحَقُّ لَمَّا يَدخُلْ في قلوبِهِم، إنّما هُمْ كقطيعٍ يَتبعُ راعيًا ضابِطًا حازِمًا قَويًّا يَرهَبُونَهُ.

دَلالةُ الاسْتِفهامِ:

لا يخلُو الاستفهامُ للأقوامِ من إنكارٍ وتَوبيخٍ وتسْفيهٍ

لمّا كانَ موسى عليه السلام قد أمرَهُمْ بألّا يُحدِثُوا بعدَهُ حَدَثًا حتّى يَعُودَ إليهم؛ أنكَرَ عَلَيهِم عَدَمَ انتِظارِهِ بقولِهِ: ﴿أَعَجِلۡتُمۡ أَمۡرَ رَبِّكُمۡۖ﴾[2]، فالاستفهامُ هنا للإنكارِ أصالةً، وتتولَّدُ عنه مَعانٍ أُخرى يَستدعيها المَقامُ كالتَّوبيخِ، والتَّقريعِ، والتَّسفيهِ[3].

نُكتةُ التَّعْبيرِ بفعْلِ التّعْجيلِ على طريقِ التّضْمينِ:

يَتضمَّنُ السَّبقُ معنَى التّغْيِيرِ، بما يُفيدُه التّعْبِيرُ

أصلُ العبارةِ: (أعجلتُم عن أمرِ ربِّكُم) إلّا أنّه أسقطَ الخافضَ، وعدَّى الفعلَ بنفسِهِ على سبيلِ الاتّساعِ، وتضمينِ الفعلِ مَعنى ما يتعدَّى بنفسِهِ. كأنّه قِيلَ: أسبقتُم أمرَ ربِّكُم غير مُتمِّي إيّاهُ بأنْ فعلتُم ما بَدَا لَكُم[4]؛ والمعنى: أعجلتُم عن أمرِ ربِّكُم، وهو انتِظارُ مُوسى حَافِظينَ لعهدِهِ وما وصَّاكُم بِهِ، فَبَنَيتُم الأمرَ على أنَّ المِيعادَ قد بَلَغَ آخِرَهُ، ولم أرجِعْ إليكُم، فحدَّثتُم أنفسَكُم بِمَوتي، فَغَيَّرْتُم، كما غيّرت الأمم بعدَ أنبيائِهِم[5].

بَلاغةُ الكِنايةِ، فيما تضمَّنَه السّبْقُ من معنَى التَّركِ:

قد يكونُ معنَى العَجَلِ التّركَ على الحقيقةِ، من غيرِ لُجوءٍ إلى التّضْمينِ

ومعنى: عَجِلَ عنِ الأمرِ؛ إذا تركَهُ غَيرَ تامٍّ، ونَقيضُهُ تمَّ عَليهِ،

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 3/114.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 3/114.
(3) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 1/408.
(4) زاده، حاشية محي الدّين شيخ زاده: 4/300.
(5) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/161.

وأعجَلَهُ عنهُ غيرُهُ. وضمَّنُوهُ هُنا مَعنى السّبقِ، وهوَ كِنايةٌ عَنِ التَّركِ، فَتَعَدَّى تَعدِيَتَهُ، ولَم يُضمَّنِ ابتِداءً مَعنى التَّركِ؛ لِخفاءِ المُناسبةِ بينَهُما وعَدَمِ حُسنِها، وقِيلَ: إنّ السَّبقَ مَعنًى حقيقيٌّ لهُ مِن غيرِ تَضمينٍ[1].

بَلاغةُ الاسْتِعارةِ في وجْهِ التَّعْبيرِ عن تعجِيلِهِمُ الأمرَ:

تشبيهُ الهَرَعِ إلَى أَسبَابِ الغَضَبِ وَالسُّخطِ، بِسَبْقِ السَّابقِ المَسبُوقِ

"الأمرُ يكونُ بمعنى التّكليفِ، وهوَ ما أمرَهُمُ اللّهُ بهِ مِنَ المُحافظةِ على الشّريعةِ، وانتظارِ رُجوعِهِ، فَلَم يُتمُّوا ذَلِكَ، واستَعجَلُوا، فَبَدَّلُوا وغَيَّرُوا، ويَجوزُ أن يكونَ بمعنى سَبَقَ؛ أي: بادَرْتُم، فَيَكونُ الأمرُ بمعنى الشّأنِ؛ أي: الغضبِ والسُّخطِ، كقولِهِ: ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ﴾ [النّحل: 1]، وقولِهِ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ﴾ [هود: 40]، فَالأَمرُ هُوَ الوَعِيدُ، فَإِنَّ اللّهَ حَذَّرَهُم مِن عِبَادَةِ الأَصنَامِ، وتَوَعَّدَهُم، فَكَانَ الظَّنُّ بِهِم إِنْ وَقَعَ مِنهُم ذَلِكَ أَن يَقَعَ بعدَ طُولِ المُدَّةِ، فَلَمَّا فَعَلُوا ما نُهُوا عَنهُ بِحِدثَانِ عَهدِ النَّهيِ؛ جُعِلُوا سَابِقِينَ لَهُ عَلَى طَرِيقَةِ الاستِعارةِ: شُبِّهُوا في مُبَادَرَتِهِم إلى أَسبَابِ الغَضَبِ وَالسُّخطِ بِسَبقِ السَّابقِ المَسبُوقَ، وهذا هو المَعنَى الأَوضَحُ، ويُوَضِّحُهُ قَولُهُ، في نَظِيرِ هَذِهِ القِصَّةِ في سورةِ طه، حِكايةً عَن مُوسَى: ﴿فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ غَضۡبَٰنَ أَسِفٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَلَمۡ يَعِدۡكُمۡ رَبُّكُمۡ وَعۡدًا حَسَنًاۚ أَفَطَالَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡعَهۡدُ أَمۡ أَرَدتُّمۡ أَن يَحِلَّ عَلَيۡكُمۡ غَضَبٞ مِّن رَّبِّكُمۡ فَأَخۡلَفۡتُم مَّوۡعِدِي ٨٦﴾ [طه: 86]"[2].

بَلاغةُ العُدولِ مِنَ التَّعريفِ بـ(أل) إلى التَّعريفِ بالإضافةِ:

بالتّمادِي استحقَّ قومُ موسَى التّشنيعَ على جُحودِهِم

في إضافةِ ﴿أَمۡرَ﴾ إلى ﴿رَبِّكُمۡ﴾، مُضافًا إلى (الكاف)، ضميرِ المُخاطَبينَ زيادةُ تَشنيعٍ، وتقريعٍ عليهم بالجحودِ، وكفرِ النِّعمةِ مع كفرِهِم بالمُنعِمِ بها[3].

(1) الآلوسي، روح المعاني: 9/66.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/115.
(3) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 1/409.

سِرُّ العُدولِ إلى اسْتِعمالِ فعْلِ الإلقاءِ ﴿وَأَلْقَى﴾:

في الإلقاءِ معنَى الطَّرْحِ، حيث تُرَى وتُؤْخَذُ، وهو أنسبُ في السّياقِ

واستُعمِلَ فعلُ الإلقاءِ مع الألواحِ دونَ غيرِهِ مِنَ الأفعالِ كالرَّمي، والطَّرحِ، والنَّبذِ وغيرِها؛ لأنّ الإلقاءَ أنْ تطْرحَ الشَّيءَ حيثُ تراهُ، وتلقَاهُ، لتأْخُذَهُ[1]، وهو أنسَبُ لتمسُّكِهِ بها، والدَّليلُ: أنَّهُ عندما سكتَ عنهُ الغضبُ عادَ لِيأخذَها، فضلًا عمّا فيهِ مِن دلالةِ شدّةِ غضبِ مُوسى عليه السلام مِن ارتدادِ قومِهِ، وبَلادَةِ طبعِهِم[2].

عَلّةُ التَّعْبيرِ بإلقاءِ الألواحِ:

إظهارُ الغضَبِ أثرٌ من آثارِ فَوَرانِهِ وانْفِعالِه العاصفِ

وإلقاؤُهُ الألواحَ يُؤذِنُ بأنَّه لمّا نَزَلَ مِنَ المُناجاةِ؛ كانَتِ الألواحُ في يدِهِ، ثمّ إنَّ إلقاءَهُ إيّاها إنّما كانَ إظهارًا لِلغَضبِ، أو أثرًا مِن آثارِ فَوَرَانِ الغَضبِ لَمّا شاهَدَهُم على تلكَ الحَالةِ، ومَا ذَكَرَ القرآنُ ذَلكَ الإلقاءَ إلّا لِلدّلالةِ على هذا المعنى؛ إذ ليسَ فيهِ مِن فَوائِدِ العِبرَةِ في القِصّةِ إلّا ذَلِكَ، فلا يَستَقيمُ قَولُ مَن فَسَّرَها بأنَّ الإلقاءَ لأجلِ إشغالِ يدِهِ بجرِّ رأسِ أخيهِ؛ لأنّ ذِكرَ ذَلِكَ لا جُرُورَ فيهِ، ولأنّهُ لو كانَ كَذَلِكَ؛ لَعُطِفَ ﴿وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ﴾ بالفاءِ[3].

نُكتةُ تَنْزيلِ الإلقاءِ مَنزِلَةَ الإلقاءِ الاختياريِّ:

إلقاءُ الألواحِ تَشنيعٌ لصَنيعِ قومِهِ، وليس تأديبًا لَهُم

قِيلَ: إنّهُ عليه السلام لِفَرطِ حميَّتِهِ الدِّينيّةِ وشدّةِ غضبِهِ للّهِ تعالى لَم يَتَمَالَكْ، ولَم يَتَمَاسَكْ أنْ وقَعَتِ الألواحُ مِن يدِهِ بدونِ اختيارٍ، فَنُزِّلَ ذَلِكَ مَنزِلَةَ الإلقاءِ الاختياريِّ، فَعُبِّرَ بِهِ تَغليظًا[4] عليه السلام. وقد رُوِيَ أنَّ مُوسى عليه السلام كانَ في خُلُقِهِ ضِيقٌ، وكانَ شديدًا عندَ الغضبِ؛ ولِفظاعةِ الفعلِ الّذي شاهدَهُ مِن قومِهِ، ألقى الألواحَ تَفظيعًا لِفعلِ قومِهِ، وتشنيعًا عليهم، وليسَ تَأديبًا لَهُم؛ لأنّهُ لا يكونُ تَأديبُهُم بإلقاءِ ألواحٍ

(1) الرّاغب، المفردات: (لقي).
(2) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 1/409.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/115.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 9/67.

كُتِبَ فيها مَا يُصلِحُهُم، ولأنّ ذَلِكَ لا يُناسِبُ تَصَرُّفَ النُّبوَّةِ[1]، وفيه إشارةٌ إلى شدّةِ غَيرتِهِ مِنَ الشّركِ بربِّ العالَمينَ وفَرطِ حميَّتِهِ على الدِّينِ، وليسَ في ذلِكَ ما يُتَوَهَّمُ منهُ نوعُ إهانةٍ لكتابِ اللّهِ تعالى بوجهٍ مِنَ الوجوهِ[2].

بَلاغةُ التَّعْبيرِ بالمَجازِ المُرسَلِ عن أخْذِ الرّأسِ:

وأخْذُهُ بِرأسِ أخيهِ هارونَ يجُرُّهُ إليهِ؛ أي: إمساكُهُ بشعرِ رأسِهِ، وهو مَجازٌ مُرسَلٌ علاقتُهُ الكلّيّةُ، حيث أطلَقَ الكلَّ وهو الرّأسُ، وأرادَ الجزءَ وهو شعرُ الرّأسِ، وذلك يُؤلِمُهُ، فذَلِكَ تَأنيبٌ لِهارُونَ على عَدَمِ أخذِهِ بالشِّدَّةِ عَلى عَبَدَةِ العِجلِ، واقتِصارِهِ على تَغييرِ ذلك عليهم بالقَولِ، وذَلِكَ دَليلٌ على أنّهُ غَيرُ مَعذُورٍ في اجتهادِهِ الّذي أفصَحَ عنهُ بقولِهِ: ﴿إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [طه: 94][3].

تأنيبُ هارُونَ على عَدَمِ صرامَتِهِ مع عَبَدَةِ العِجْلِ المُفسِدين

بَلاغةُ التّعْبيرِ بالكِنايةِ عنِ اشْتِدادِ غضَبِهِ:

فقد رسمَت عبارةُ: ﴿وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ﴾ صورةً حيّةً لآثارِ غضبِ مُوسى عليه السلام، وجسَّدَت تشديدَ قبضتِهِ على أخيهِ هارونَ عليه السلام، وهو يسحبُهُ على الأرضِ، وهارون يَسترحمُهُ، ويَستعطفُهُ[4].

رَسْمُ صُورةِ الغضَبِ والانفعالِ، بأوضحِ لفظٍ، وأفصحِ مَقالٍ

سِرُّ الاسْتِعارةِ التّبعيّةِ في الفعْلِ ﴿وَأَخَذَ﴾:

في ﴿وَأَخَذَ﴾ استعارةٌ تبعيّةٌ؛ حيث شبّهَ الإمساكَ بالأخذِ، وسرُّها أنّ المُمسِكَ بشيءٍ قد يبقيهِ في مكانِهِ، أمَّا الآخذُ بهِ؛ فقَد يزيلُهُ عن مكانِهِ، وهو الّذي حَدَثَ هنا، فقد أمسكَ مُوسى برأسِ أخيهِ سَاحِبًا له على الأرضِ، وبهذا تَظهَرُ بلاغةُ الاستعارةِ على المعنى الحَقيقيِّ لو قِيلَ: (وأمسكَ برأسِ أخيهِ). "وقد يُظنُّ أنَّ المَقامَ مُستَغنٍ عنِ الفعلِ ﴿وَأَخَذَ﴾؛ لأنَّ النّقلَ مِن مكانٍ إلى مكانٍ مَفهومٌ مِنَ الفعلِ ﴿يَجُرُّهُۥٓ

الأخذُ الإزالةُ عنِ المكانِ، ومُؤدّاهُ التَّعْبيرُ عنِ السّحْبِ بطريقَيْنِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/115.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 9/67.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/116.
(4) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 1/409.

إِلَيۡهِۚ﴾، فالجوابُ: لو لم يُستَعَرْ ﴿وَأَخَذَ﴾ للإمساكِ؛ لَكانَ السَّحبُ مَدلولًا عليه بـ﴿يَجُرُّهُۥ﴾ مرّةً واحدةً، ولكنْ لمّا استُعِيرَ ﴿وَأَخَذَ﴾ لأَمسكَ؛ صارَ السَّحبُ مَدلولًا عليهِ بطريقين، وهذا أبلغُ ممّا لو دُلَّ عليهِ بطريقٍ واحدةٍ"[1].

سِرُّ العُدولِ بلفْظِ الأُخوَّةِ عن لفْظِ العَلَمِيّةِ:

في إيثارِ الصّفةِ ﴿أَخِيهِ﴾ على العلميّةِ (هارون) إظهارٌ لقوّةِ الغضبِ وشدّتِهِ الّتي سيطرَت على موسى عليه السلام؛ غَيْرَةً على الدِّينِ حتّى كادَ يَبْطشُ بـ﴿أَخِيهِ﴾، والأخوةُ تقتضي الرّأفةَ والرِّفقَ. ولو قِيلَ: (هارون) بدلَ ﴿أَخِيهِ﴾؛ لَفاتَ هذا المعنى[2]. كما أنَّ التّعبيرَ بلفظِ الأخوةِ يقتضي قيامَ هارونَ عليه السلام بحقِّ الاستخلافِ حقَّ القيامِ؛ لكونِهِ أخًا شقيقًا لمُوسى، ووزيرًا وردءًا مُناصِرًا يشدُّ أزرَهُ، وقائمًا مَقامَهُ في غيبتِهِ.

في لفظِ الأُخوَّةِ اقتضاءٌ لِلرّأفةِ، وهو ما يَقتضِي قيامَ هارونَ بواجبِهِ كاملًا

نُكتَةُ التَّعْبيرِ بالفعلِ المضارعِ:

في ﴿يَجُرُّهُۥٓ إِلَيۡهِۚ﴾ إيثارٌ لصيغةِ المضارعِ على الماضي تصويرًا للمَشهَدِ، وكأنّهُ يَحدثُ الآنَ، ويَتجدَّدُ، ولإفادةِ طولِ (الجرِّ)، وحدوثِهِ مُكرَّرًا مرّةً بعدَ مرّةٍ. ولو قِيلَ: (فجرّه)؛ لأُفهِمَ أنّ الجرَّ حَدَثَ مرَّةً واحدةً[3].

إفادةُ طُولِ الجرِّ، وتَكرارِ حُدوثِهِ، لغلبةِ الغضَبِ الّذي يُشبهُ الإغلاقَ

بَلاغةُ الفصْلِ في سِياقِ الآيةِ الكريمةِ:

فُصِلَت جملةُ ﴿قَالَ ٱبۡنَ أُمَّ﴾؛ لِوقوعِها جوابًا لحوارٍ مُقدَّرٍ دلَّ عليه قولُهُ: ﴿وَأَخَذَ بِرَأۡسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيۡهِۚ﴾؛ لأنّ الشّأنَ أنّ ذَلِكَ لا يقعُ إلّا مع كلامِ تَوبيخٍ، وهُوَ ما حُكِيَ في سورةِ طه بقولِهِ: ﴿قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذۡ رَأَيۡتَهُمۡ ضَلُّوٓاْ ۝٩٢ أَلَّا تَتَّبِعَنِۖ أَفَعَصَيۡتَ﴾ [طه: 92 - 93] على عَادةِ القرآنِ في

الآيةُ اسْترفاقٌ مِن هارونَ عليه السلام، واسترحامٌ لأخيه الضّائلِ عليه

(1) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 1/409.
(2) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 1/409.
(3) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 1/409.

توزيعِ القِصَّةِ، واقتِصَارًا على مَوقِعِ العِبرَةِ؛ لِيُخالِفَ أُسلُوبُ قَصَصِهِ الّذي قُصِدَ مِنهُ المَوعِظةُ أساليبَ القَصّاصِينَ الّذين يَقصِدُونَ الخَبَرَ بكلِّ ما حَدَثَ[1]. وفي قولِ هارونَ عليه السلام: ﴿قَالَ ٱبۡنَ أُمَّ﴾ استِلطافٌ لِلخطابِ، واسترحامٌ، وطَلَبٌ لِلرّفقِ، يريدُ بهذا أنّه قد تَوالَتِ المِحنُ عليهِ، فطَلَبَ أنْ يذرهُ وما هُوَ فيه، ولا يَزِدْ في بلائِهِ، ولسانُ حالِهِ عليه السلام: قد خلفتُكَ فيهِم، فلَم يَستنصحوني، وتلك عليَّ شديدةٌ، ولَقيتُ في عتابي وجرِّ رأسي، وكنتُ أودُّ منكَ تَسلِيتي وتعزِيَتي؛ فَرِفقًا بي، ولا تُشمِتْ بي الأعداءَ، ولا تُضاعِفْ عليَّ البلاءَ[2].

سِرُّ حذْفِ حرفِ النّداءِ والياءِ في: ﴿قَالَ ٱبۡنَ أُمَّ﴾:

في الحذْفِ إظهارٌ لِخَوْفِ هارونَ عليه السلام وارتباكِهِ

خُفِّفَ بحذفِ أداةِ النّداءِ وياءِ الإضافةِ[3]؛ لِمَا يَقتَضِيهِ الحالُ مِنَ الإيجازِ[4]. فـ﴿ٱبۡنَ أُمَّ﴾ مُنادى بحذفِ حرفِ النّداءِ، والنّداءُ بهذا الوصفِ للتّرقيقِ والاستِشفاعِ، وحُذِفَ حرفُ النّداءِ لإظهارِ ما صاحَبَ هَارونُ مِنَ الرُّعبِ والاضطرابِ، أو لأنّ كلامَهُ هذا وَقَعَ بعدَ كلامٍ سَبَقَهُ فيه حرفُ النّداءِ، وهو المَحكيُّ في سورة [طه: 94] أنْ ﴿يَبۡنَؤُمَّ لَا تَأۡخُذۡ بِلِحۡيَتِي﴾[5].

سِرُّ الحذفُ في ﴿أُمَّ﴾:

إضافةُ (ابْنَ أُمَّ)، وجهُ إيجازٍ يُعزِّزُ مَذهَبَ التَّعجُّلِ في الكلامِ

قَرَأَ ابنُ عامرٍ وحمزةُ والكِسائيُّ وخَلَفٌ وأبو بكرٍ عن عاصم ﴿ٱبۡنَ أُمَّ﴾ بكسرِ الميمِ[6]، وفي (طه) مِثلُهُ على تقديرِ: أُمِّي، فَحَذَفَ ياءَ الإضافةِ؛ لأنّ مَبنَى النّداءِ على الحَذفِ، وبَقِيَ الكَسرُ على الميمِ لِيدُلَّ على الإضافةِ، كقولِهِ: ﴿فَبَشِّرۡ عِبَادِ ١٧﴾ [الزمر: 17]. وقَرَأَ البَاقونَ بفتحِ الميمِ في السُّورتَين، وفيه قَولانِ: أحَدُهُما: أنّهُما جُعِلا اسمًا

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/116.
(2) القشيريّ، لطائف الإشارات: 1/573.
(3) القاسميّ، محاسن التّأويل: 5/188.
(4) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 3/115.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/116.
(6) ابن الجزريّ، النّشر: 2/307.

واحدًا، وبُنِي لكثرةِ مُصاحبةِ هَذَينِ الحَرفَينِ، فَصارَ بمَنزِلَةِ اسمٍ وَاحدٍ، نَحوَ: حَضرَمَوتَ، وخَمسَةَ عَشَرَ. وثانيهما: أنّهُ على حَذفِ الألفِ المُبدَلَةِ مِن ياءِ الإضافةِ، وأصلُهُ: يا ابنَ أُمَّا[1]. والحذفُ في كلتا القراءتَين ترسيخٌ لشدِّةِ انفعال هارونَ عليه السلام، وفي الإضافةِ وجهُ إيجازٍ يُعزِّزُ مَذهَبَ الاضطرابِ والتَّعجُّل في الكلامِ.

سِرُّ العُدولِ إلى التَّعبيرِ بإضافةِ بدَلِ العَلَميّةِ:

آصرةُ قرابةِ الأمِّ قويَّةٌ، والتَّذكيرُ بها له تأثيرٌ في حالتَي الغضبِ والرِّضَا

إنَّ مُوسى عليه السلام لمّا أَخَذَ برأسِ أخيهِ يجرُّهُ إليهِ؛ استلطفَهُ هَارونُ في الخطابِ، قالَ: يا ﴿ٱبۡنَ أُمَّ﴾، واختيارُ التَّعريفِ بالإضافةِ لِتضمُّنِ المُضافِ إليهِ مَعنى التَّذكيرِ بصلةِ الرَّحمِ؛ لأنّ إخوَةَ الأمِّ أشدُّ أواصِرِ القَرَابَةِ؛ لاشتراكِ الأخَوينِ في الإلْفِ مِن وقتِ الصِّبا والرَّضاعِ، فذكَرَ الأمَّ هنا لِلاسترفاقِ والاسترحامِ[2].

دَلالةُ ذكْرِ لفْظِ (الأمّ):

إبرازُ إيمانِ الأمِّ، ومُعاناتِها وتذكيرُهُ بحقِّها

وفيهِ إشارةٌ إلى أنّهما مِن بَطنٍ وَاحدٍ، وفي ذلك استلطافٌ برحمِ الأمِّ؛ إذ هَو ألصَقُ القَرابَاتِ، وذلك أعظمُ للحقِّ الوَاجبِ، فضلًا عنِ العطفِ والرّقّةِ؛ ولأنَّ الأمَّ كانَت مُؤمِنةً فاعتدَّ بنسبِها، ولأنّها هي الّتي قاسَت فيهِ المَخاوفَ والشّدائدَ، فذكَّرَهُ بحقِّها[3].

سِرُّ التّكامُلِ بين حِدّةِ موسَى، ورِقّةِ هارونَ عليهما السلام:

طبْعُ هارونَ عليه السلام، أن يَلْهجَ بعباراتِ الرَّحمَةِ

إنَّ هَارونَ عليه السلام كانَت آثارُ الجَمالِ والرَّحمَةِ فيهِ ظاهرَة، كما يُنبِئُ عنهُ قولُهُ تعالى: ﴿وَوَهَبۡنَا لَهُۥ مِن رَّحۡمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيّٗا ٥٣﴾ [مريم: 53]، وكانَ مَوردُهُ ومَصدَرُهُ ذلك؛ ولذا كانَ يَلهَجُ بِذِكرِ ما يدُلُّ على الرَّحمَةِ، ألَا تَرى كيفَ تلطَّفَ بالقومِ لمّا قَدِمُوا على ما قَدِمُوا، فقالَ: ﴿يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ [طه: 90] ومِن هُنا ذَكَرَ الأمَّ،

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 15/11.
(2) القشيريّ، لطائف الإشارات: 1/573، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/117.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/161، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/457.

ونَسَبَ إليها؛ لأنّ الرَّحمَةَ فيها أتَمُّ، ولَولَاها ما قَدَرَت على تَربيةِ الوَلَدِ وتَحَمُّلِ المَشاقِّ فيها[1].

سِرُّ العُدولِ مِن عِبارةِ (ابن أب) إلى عبارةِ: ﴿ٱبۡنَ أُمَّ﴾:

طُوِيَ ذكرُ أبي مُوسى وهارونَ عليهما السلام، ولم يَظهرْ عنه أيُّ خبرٍ، والعلمُ جاءَنا عن أمِّه؛ لأنّها هي الّتي قابلَتِ المَشقّاتِ في أمرِ حياتِه، لذلكَ جاءَ لنا بالقدرِ المُشتركِ البارزِ في حياتِهما، ولأنّ الأمومةَ مُستقرُّ الأرحامِ؛ ولأنّ في أخوَةِ الأمِّ حنانًا ظاهرًا، ويَقلُّ الحنانُ بينَ الأخوةِ مِنَ الأبِ. وجاءَ الحَقُّ هنا بالقَدرِ المُشتركِ بينهما، وهو أخوةُ الأمِّ، وله وُجودٌ مُستحضَرٌ في تاريخِهم، أمّا الأبُ؛ فلا يُعرَفُ عنه شيءٌ، وكلُّ الآياتِ الّتي جاءَت عن مُوسى مُتعلِّقةٌ بأمِّه، لذلك نجدُهُ يُكلِّمُهُ بالأسلوبِ الّذي يُحنِّنُهُ[2].

ففي أُخوَّة الأُمّ حنانٌ ظاهرٌ، يَقِلُّ بين الأُخوَّة لأب

عِلّةُ تأكيدِ الخبرِ بـ﴿إِنَّ﴾:

تَأكِيدُ الخَبَرِ بـ﴿إِنَّ﴾ وإيرادُ الجملةِ الاسميّةِ؛ لتَحقيقِه لَدَى مُوسَى[3] عليه السلام. وفيه إزالةٌ لِمَا عساهُ أن يكونَ قد عَلِقَ بمشاعرِ مُوسى عليه السلام مِن تواطُؤِ أخيهِ مع قومِهِ، أو تراخيهِ في زجرِهم والإنكارِ عليهم.

تأكيدُ تحقُّقِ الخبرِ بوصْفِهِ مُحتملًا للتَّردُّدِ

سِرُّ تعْبيرِ هارونَ بـ﴿ٱلۡقَوۡمَ﴾:

وفيه أنّ سببَ تعبيرِ هارونَ بقولِ: ﴿ٱلۡقَوۡمَ﴾، في قولِه تعالى: ﴿قَالَ ٱبۡنَ أُمَّ إِنَّ ٱلۡقَوۡمَ﴾، ولم يقُلْ: (قومي) في ردِّهِ على مُوسى، يدُلُّ على بُعدِ المسافةِ والبراءةِ الّتي يَشعرُ بها هارونُ مِن قومِهِ الّذين ارتكبُوا الشِّركَ والضَّلالةَ، ولا يريدُ أن ينسِبَ نفسَهُ إلى هؤلاءِ المُفسِدينَ، كما يدُلُّ على التّحذيرِ والتّخويفِ الّذي يريدُ أن يبيّنَهُ لأخيهِ مُوسى مِن خطورةِ حالِ قومِهِ، وأنّهُ لم يَستَطعْ أن يصلحَهُم، أو يثبّتَهُم على

الإشارةُ إلى البراءةِ الّتي يَشعرُ بها هارونُ مِن قومِهِ الّذين ارتكبُوا الشِّركَ

(1) الآلوسي، روح المعاني: 9/68.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/394، والشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 7/4364 - 4365.
(3) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاوي: 8/509، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/117.

دينِ الحقِّ. أمّا التّعبيرُ بـ(قومي)؛ فيدُلُّ على المَودَّةِ والانتسابِ لهم الّتي لا تتناسبُ مع حالِ هَارونَ في ذلكَ المَوقِفِ، فإنّهُ لا يودُّ أن يكونَ مِن قومٍ ضلُّوا عن سبيلِ اللّهِ، ولا يحبُّ أن يُظهِرَ لأخيهِ مَحبّةً لهؤلاءِ المُشرِكين.

كما أنَّ استخدامَ هَارونَ للفظِ (القوم) يُوافِقُ السِّياقَ القرآنيَّ الّذي يَصِفُ حالَ قومِ مُوسى بعدَ عبادةِ العِجلِ بالاسمِ الموصولِ ﴿ٱلَّذِينَ﴾، حيثُ قالَ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ ٱلۡعِجۡلَ سَيَنَالُهُمۡ غَضَبٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَذِلَّةٞ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُفۡتَرِينَ ١٥٢﴾ [الأعراف: 152]، فهنا نرى أنَّ اللّهَ تعالى ينسِبُ عبادةَ العِجلِ إلى قومِ مُوسى، بعبارةِ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ المُوحيةِ بالوصفِ غيرِ المُحبَّبِ، ويَعِدُهم بالغضبِ والذِّلّةِ في الدّنيا، ويصفُهم بأنّهم مُفتَرينَ على اللّهِ، فالتّعبيرُ بـ (القوم) يَتناسَبُ مع هذا المعنى، ويُعبِّرُ عن حالةِ بُعدِ المسافةِ والبراءةِ الّتي يَشعرُ بها هارونُ مِن قومِهِ.

فائِدةُ تقديمِ فعْلِ الاسْتِضعافِ على إرادةِ القتْلِ:

الاسْتِضعافُ مُقدِّمةٌ لسلْبِ الإرادةِ في الدِّفاعِ عنِ النّفسِ

في قولِهِ: ﴿ٱسۡتَضۡعَفُونِي وَكَادُواْ يَقۡتُلُونَنِي﴾، قَدَّمَ الاستضعافَ على إرادةِ القتلِ؛ لأنَّ الاستضعافَ مُقدِّمةٌ لسلبِ الإرادةِ في الدِّفاعِ عنِ النّفسِ، فضلًا عن كونِها مِن تقديمِ الأسبابِ على مُسبِّباتِها[1].

نُكتَةُ الزّيادةِ في ﴿ٱسۡتَضۡعَفُونِي﴾:

التَمالُؤُ على عبادةِ العِجلِ باسْتِضعافِ هَارونَ، قِلّةُ مُروءةٍ

السّينُ والتّاءُ في ﴿ٱسۡتَضۡعَفُونِي﴾ لِلجعل ولِلحُسبانِ؛ أي: جعلُوني، وحَسِبُوني ضَعيفًا لا نَاصرَ لي، واعتقدوا ذلك؛ لأنّهم تَمالؤوا على عبادةِ العِجلِ، ولم يُخالِفْهم إلّا هارونُ في شِرذِمَةٍ قَليلَةٍ، فالاستفعالُ هنا بمعنى الإفعالِ[2].

(1) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 1/410.
(2) القونويّ، حاشيَته على تفسير البيضاوي: 8/509، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/117.

سِرُّ التَّعْبيرِ بالفعْلِ (كاد):

وقولُهُ: ﴿وَكَادُواْ يَقْتُلُونَنِي﴾ يدُلُّ على مُعارَضَةِ هَارونَ لهم مُعارَضَةً شَديدَةً، وأنّه لم يألُ جهدًا في كفِّهم بالوعظِ والإنذارِ، وبما بلغَتهُ طاقتُهُ البشريّةُ مِن بذلِ القُوّةِ في مُضادتِهم حتّى قَهرُوهُ واستضعفُوهُ، ولم يبقَ لَهُم إلّا أن يقتلُوهُ، وقاربُوا مِن ذَلِكَ، ولم يَفعلُوا[1]، ويدُلُّ على مَدَى تجرّئِهم على باطلِهم، وتماديِهم في غيِّهم، وقناعتِهم بوجهتِهم.

أثبتُوا شِدّةَ المُعارضةِ، ومدَى التَّجرُّؤِ على فعْلِ ما لا يَنبغِي

نُكتةُ تخفيفِ فعْلِ الشّماتةِ في قوله: ﴿فَلَا تُشْمِتْ﴾:

في إيثارِ هارونَ عليه السلام المُخفَّف مِنَ الفعل ﴿تُشْمِتْ﴾ على المُشدّدِ (لا تُشمِّتْ)، قَصْدٌ إلى تجنيبِهِ عليه السلام أدنى مَقاديرِ الشّماتةِ فضلًا عن أغلظِها وأشدِّها[2].

لم يكنْ موسَى عليه السلام قاصِدًا أدنَى الشَّماتةِ في لَوْمِه وغضَبِه

دلالةُ تعديةِ فعْلِ الشّماتةِ بالباءِ، والتَّعْبيرِ بهِ على طريقِ المَثَلِ:

قولُهُ: ﴿فَلَا تُشْمِتْ﴾، مِنَ الشَّماتةِ؛ وهي: سُرُورُ النّفسِ بما يُصيبُ غيرَها مِنَ الأضرارِ، وإنّما تَحصُلُ هذهِ الحالةُ النَّفسيّةُ مِنَ العَداوةِ والحَسدِ. وفِعلُها قاصرٌ كَفَرِحَ، ومَصدرُهَا مُخالِفٌ لِلقياسِ، ويَتعدَّى الفِعلُ إلى المَفعولِ بالباءِ، يُقالُ: شَمِت به؛ أي: كانَ شامتًا بِسَببِهِ، وأشمَتَهُ بهِ جَعَلَهُ شَامتًا به، وأرادَ بالأعداءِ الّذين دَعَوا إلى عبادةِ العِجلِ؛ لأنّ هَارونَ أنكرَهُ عليهم، فَكَرِهُوهُ لِذلِكَ، ويَجوزُ أن تكونَ شَماتَةُ الأعداءِ كَلِمَةً جَرَت مَجرَى المَثلِ في الشّيءِ الّذي يُلحِقُ بالمَرءِ سُوءًا شَديدًا، سَواءٌ كانَ لِلمرءِ أعداءٌ أو لم يَكونوا، جَريًا على غالِبِ العُرفِ[3].

في لفْظِ الشَّماتةِ بيانٌ لِمَا لحِقَ بهارونَ مِن حَرَجٍ وأذاةٍ

بَلاغةُ الكِنايةِ في قولِه: ﴿فَلَا تُشْمِتْ﴾:

قولُهُ: ﴿فَلَا تُشْمِتْ﴾ كنايةٌ عن نهيٍ سببُهُ المُؤدِّي إليه، إذِ الظّاهرُ أنَّ مَعنى (لا تُشمت): لا تجعلِ الأعداءَ شُمَّاتًا بي، ولا قدرةَ لنا

في الكِنايةِ طلَبُ الإعراضِ عن عقوبَتِهِ

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/161، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/117.
(2) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 1/410.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/117 - 118.

بالكفِّ عن سببِهِ[1]. والفاءُ للتّفريعِ، وللسّببيّةِ فيما بعدَها، والتّفريعُ فيه تفريعٌ على تَبَيُّنِ عُذرِهِ في إقرارِهِم على ذلك، فَطَلَبَ إلى أخيهِ الكَفَّ عن عقابِهِ الّذي يَشمَتُ بهِ الأعداءُ لأجلِهِ، ويَجعلُهُ مَعَ عِدادِ الظّالِمينَ، فَطَلَبُ ذلك كنايةٌ عن طَلَبِ الإعراضِ عنِ العِقابِ[2]، ولو قِيلَ: معنى (لا تُشمت): لا تفعلْ ما يكونُ سببًا للشّماتةِ مِن غيرِ كنايةٍ؛ لا يبعد[3].

إيثارُ لفْظِ ﴿ٱلْأَعْدَآءَ﴾ على غيرِه:

لَفظُ العَداوةِ مُسفرٌ عن سُوءِ العلاقةِ بين المُبلِّغِ والمُبلَّغِ

وفي إيثارِ لفظِ ﴿ٱلْأَعْدَآءَ﴾ على الاسمِ الصَّريحِ (بني إسرائيلَ)؛ للنَّصِّ على علّةِ النَّهي صراحةً، ولإفادةِ العُمومِ في معنى العَداوةِ أيًّا كانَت[4].

نُكتةُ تَقْديمِ فعْلِ النَّهْيِ عنِ الشّماتةِ على فعْلِ التَّركِ:

في الطّلَبِ مِنَ الأدنَى الخاصِّ إلى العامِّ، تدرُّجٌ وتلطُّفٌ

النّهيُ في ﴿فَلَا تُشْمِتْ﴾ و﴿وَلَا تَجْعَلْنِي﴾ لِلالتماسِ، وتقديمُ فعلِ تركِ الشَّماتةِ على فِعلِ تركِ الجعلِ مع القومِ الظّالِمينَ تدرُّجٌ وتلطُّفٌ في الطّلبِ مِنَ الأدنى الخاصِّ (الشّماتة) إلى العامِّ (الجعل مع الظّالِمين): ﴿وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[5]. وهو مِن تمامِ أدبِ خطابِ الأنبياءِ عليهم السلام.

وُجوهُ التَّعْبيرِ بالفعْلِ (جَعَلَ):

احتمالُ دَلالةِ الظّنِّ، أو دَلالةِ الفعْلِ الحَقيقيِّ

معنى قوله: ﴿وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾؛ لَا تَحسَبني واحدًا مِنهُم، فـ (جَعَلَ) بمعنى ظنَّ، كقولِهِ تعالى: ﴿وَجَعَلُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا﴾ [الزّخرف: 19]. والقومُ الظّالِمونَ هُم الّذينَ أَشرَكُوا باللّهِ عبادَةَ العِجلِ، ويَجوزُ أن يكونَ المعنى: ولا تَجعلني في العُقُوبَةِ

(1) القونويّ، حاشيَته على تفسير البيضاوي: 8/509.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/117.
(3) القونويّ، حاشيَته على تفسير البيضاوي: 8/509.
(4) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 1/410.
(5) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 1/410.

مَعَهم؛ لأنَّ مُوسى قَد أمَرَ بقتلِ الّذين عَبَدُوا العِجلَ، فـ(جَعَلَ) على أصلِها[1]، وكأنَّه يقولُ لِمُوسى ﷺ: إنّك إنْ آخذتَني هذه المُؤاخذةَ في حالةِ غضبِكَ، ربَّما ظُنَّ بي أنّني كنتُ معَهُم، أو سلكتُ مَسلَكَهُم في اتّخاذِ العِجل وعبادتِه[2]. وقالَ ابنُ عرفة: "هذا نفيٌ أعمُّ، ولو قالَ: مِنَ القومِ الظّالِمين؛ لكان نفيًا أخصّ"[3].

عِلّةُ تعريفِ القومِ ووصْفِهِم بالظّالِمين:

صِفةُ الظّلمِ ثابتةٌ ودائمةٌ في المَوصُوفِينَ

(أل) في القومِ عهديّةٌ ذهنيّةٌ، ووَصفُهم بالظّالِمين عبرَ صيغةِ اسمِ الفاعلِ مَجموعًا جمعَ مُذّكرٍ سالِمًا؛ لِلدّلالةِ على ثبوتِ صفةِ الظّلمِ فيهم، ودوامِها في المَوصُوفِينَ بها، بوصفِ أمرِ الظُّلمِ بمَنزلَةِ الحاصِلِ الثّابتِ المُستقرِّ، وهو أدعى لِتجنُّبِه، واستبعادِ الوقوعِ فيه مِن مثلِه، ولِزيادةِ استعطافِ مُوسى ﷺ مِن أنْ يَرتضي لأخيهِ ووزيرِهِ ومُسانِدِهِ هذا المآلَ.

بَلاغةُ كنايةٍ اقترنَ فيها الدّليلُ بالدّعْوَى في السِّياقِ:

تعيينُ الظّالمين منهم دون غيرِهم، وتبشيعُ الظّلمِ على العُمومِ

وإيثارُ جملةِ ﴿ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، فاصلةً للآيةِ المُباركةِ على جملةِ (بني إسرائيلَ) "كنايةٌ اقتَرَنَ فيها الدَّليلُ بالدَّعوى؛ أي: لا تجعلْني في عدادِ الظّالِمين الّذين اتّخذوا العِجلَ، ولهذه الكنايةِ نُكتَةٌ أخرى، هي الاحترازُ مِنَ العزلِ عمَّن هو صالحٌ مِن بني إسرائيلَ، وإدخال مَن هو ظالمٌ من غيرِ بني إسرائيلَ"[4].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الرُّجُوعُ والإيابُ:

الرُّجُوعُ: "العَودُ إلَى ما كانَ مِنهُ البدءُ مَكانًا أَو صفةً أَو حَالًا"[5].

الرُّجُوعُ العَوْدُ إلى ما كان منهُ البَدءُ، والأوْبُ ضربٌ منه، والرُّجوعُ أعمُّ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/118.
(2) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 7/4365.
(3) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/257.
(4) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 1/410.
(5) الرّاغب، المفردات: (رجع)، والكفويّ، الكلّيّات، ص: 478.

والأوبُ: ضربٌ مِنَ الرُّجوعِ، وذلكَ أنّهُ لا يُقالُ إلّا في الحَيَوانِ الّذي له إرادةٌ، والرُّجُوعُ يُقالُ فيه، وفي غيرِهِ، فالرُّجُوعُ أعمُّ[1]. والإيَابُ: هُو الرُّجُوعُ إلى مُنتَهى المَقصَدِ، والرُّجُوعُ يكونُ لذَلِكَ ولغيرِهِ، أَلَا ترى أنّهُ يُقَالُ: رَجَعَ إلَى بعضِ الطَّرِيقِ، ولَا يُقالُ: آبَ إلى بعضِ الطَّرِيقِ، ولهذا قالَ تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيۡنَآ إِيَابَهُمۡ ٢٥﴾ [الغاشية: 25]، كَأَنّ القِيَامَةَ مُنتَهى قصدِهِم؛ لأَنّهُم لَا مَنزِلَةَ بعدَهَا. الرُّجُوعُ هو المصيرُ إلى المَوضِعِ الَّذِي قد كانَ فِيهِ قبلُ[2]. ومِن هنا فدلالةُ الرُّجوعِ تناسبُ سياقَ الآيةِ بوصفِ رجوعِ مُوسى عليه السلام عودٌ إلى مكانِهِ بعدَ أن غادَرَ قومَهُ لِلمُناجاةِ، وليس رجوعهُ هذا مُنتهَى قصدِهِ عليه السلام، فلا يصلحُ أن يُطلَقَ عليه إيابًا.

الأسفُ، والغضبُ، والحزنُ:

الأَسَفُ: الحُزنُ والغَضبُ معًا، وقد يُقالُ لكلٍّ واحدٍ مِنهما على الانفرادِ، فالقَولان مُتقارِبان؛ لأنّ الغَضَبَ مِنَ الحُزنِ، والحُزنَ مِنَ الغَضَبِ، فإذا جاءَكَ ما تَكرَهُ مِمَّن هو دُونَكَ؛ غَضِبتَ، وإذا جاءَكَ مِمّن هو فَوقَكَ؛ حَزِنتَ. فَتُسَمَّى إحدى هاتَينِ الحالَتينِ حُزنًا والأخرى غَضَبًا[3]. والأَسَفُ: هو الحُزنُ لفعلٍ يُخالِفُهُ مع عدمِ القُدرةِ على الانتقامِ، والغضبُ: مِمَّن يَقدِرُ عليه[4]. والأَسَفُ: حسرةٌ مَعهَا غَضبٌ أَو غَيظٌ، والآسِفُ: الغضبانُ المُتلَهِّفُ على الشَّيءِ[5]. والفرقُ بينَ اللّفظَين ظاهرٌ، واجتماعُهما في سياقٍ واحدٍ بيانٌ لحالِ مُوسى عليه السلام باجتماعِ شدّةِ الغضبِ عليه، والحُزنِ، والغيظِ، وقُدرةٍ على المُحاسبةِ، وتلهُّفٍ لها، وصبرٍ وتريّثٍ فيها، وما كان للّفظِ واحدٌ دونَ رسيلتِها مِن أن تُؤدّي هذا المعنى، فضلًا عن دلالةِ صِيغتيهما اللّتينِ وُضِّحَتا في الشّرحِ البلاغيِّ.

الغَضَبُ مِنَ الحُزنِ، والحُزنُ مِنَ الغَضَبِ، والأَسَفُ الحُزنُ والغَضبُ معًا

(1) الرّاغب، المفردات: (أوب)، والكفويّ، الكلّيّات، ص: 208.
(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 303.
(3) الخليل، العين، والرّاغب، المفردات: (أسف)، والفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 15/371.
(4) الخفاجيّ، عناية القاضي: 6/75.
(5) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 267.

العَجلةُ والسُّرعةُ:

ذكرَ الواحديُّ: أنَّ معنى العَجَلَةِ التَّقدُّمُ بالشَّيءِ قبلَ وقتِهِ؛ ولِذلِكَ صارَت مَذمُومَةً، والسُّرعةُ غير مَذمومةٍ؛ لأنَّ معناها عملُ الشَّيءِ في أوّلِ أوقاتِهِ[1]. فالعَجلةُ: السَّبقُ إلى تحصيلِ الشّيءِ قبلَ وقتِهِ[2]. وكذلك كان أمرُ القومِ بفعلِ ما بدا لَهُم مِن اتّخاذِ العِجل قبلَ أن يَعوا حقيقةَ الإيمانِ والتّوحيدِ، أو ينتظروا عودةَ نبيِّهِم مِن مِيقاتِهِ، وقد غادرَهُم لأخذِ الألواحِ الّتي فيها هُداهُم ونَفعُهُم.

العَجلةُ التَّقدُّمُ بالشَّيءِ قبلَ وقتِهِ، والسُّرعةُ عملُ الشَّيءِ في أوّلِ أوقاتِهِ

(1) الواحديّ، البسيط: 9/368، وابن عادل، اللّباب: 9/323.

(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (عجل).

﴿قَالَ رَبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَلِأَخِي وَأَدۡخِلۡنَا فِي رَحۡمَتِكَۖ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ١٥١﴾ [الأعراف: 151]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

العلاقةُ بين غضْبةِ موسَى، وبراءةِ ساحةِ هارونَ مِنَ التّقْصيرِ

لَمّا اعتذَرَ إليهِ أخوهُ استَغفرَ لِنفسِهِ ولَهُ على ما أغلظَ عليهِ مِن قولٍ وفعلٍ؛ فقولُهُ أثرٌ مِن آثارِ الاستعطافِ في قلبِ مُوسى (1) عليه السلام؛ لأنّهُ تبيّنَ لِمُوسى ما هو اللّائقُ بِمَنصبِ أخيهِ الشَّريفِ مِن أنّهُ لم يُقَصِّرْ في دُعائِهِ إلى اللّه، ولم يتوانَ في نهيِهِم عنِ الضّلالِ، ورأى أنّ مَا ظَهَرَ مِنَ الغضبِ مُرهِبٌ لِقومِهِ، وَازِعٌ لهم عمّا ارتكَبُوا، دُعاءٌ لهُ ولنفسِهِ مع الاعترافِ بالعَجزِ، وأنّهُ لا يَسَعُ أحدًا إلّا العَفوُ(2).

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَأَدۡخِلۡنَا﴾: الدَّالُ والخَاءُ واللَّامُ أَصلٌ مُطَّرِدٌ مُنقَاسٌ، وَهُوَ الوُلُوجُ(3). والدّخولُ: نَقيضُ الخروجِ، ويُستعمَلُ في المكانِ، والزّمانِ، والأعمالِ(4). وهو: وُلوجُ الشّيءِ، أو تغلغلُهُ في أثناءِ شيءٍ، وداخلُ كلِّ شيءٍ: باطنُهُ. وكلُّ ما في القرآنِ مِنَ التّركيبِ هو مِنَ الدّخولِ المذكورِ عدا ما في [النّساء: 23](5).

المَعْنى الإجْماليُّ:

قَبولُ اعتذارِ هارونَ عليه السلام، والجَأْرُ إلى اللهِ بطلَبِ المغفرةِ

قالَ مُوسى عليه السلام - لمّا تبيّنَ لهُ عذرُ أخيهِ، وعَلِمَ أنّهُ لم يُفرِّطْ في الواجبِ الّذي كانَ عليهِ مِن أمرِ اللّهِ في ارتكابِ مَا فعلَهُ الجَهلةُ مِن عَبَدَةِ العِجلِ -: ﴿رَبِّ ٱغۡفِرۡ لِي﴾، مُستغفِرًا مِن فعلِهِ بأخيهِ، ولأخيهِ

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/395، ومحمد رضا، تفسير المنار: 9/180.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 3/115.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (دخل).
(4) الرّاغب، المفردات: (دخل).
(5) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (دخل).

مِن سالفٍ سلفَ له بينَهُ وبينَ اللّهِ، وطَلَبَ أن يَدخُلا في رحمتِهِ الواسعةِ بوصفِهِ أرحمَ بعبادِهِ مِن كلِّ مَن رَحِمَ شيئًا[1].

وترشدُ الآيةُ الكريمةُ إلى وُجوبِ الاستغفارِ على العبدِ في عمومِ الأحوالِ[2].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

عِلّةُ الفصْلِ في الآيةِ الكريمةِ:

الخطابُ جوابٌ عن كلامِ هارونَ

﴿قَالَ﴾ استِئنافٌ مَبنِيٌّ على سؤالٍ نشأَ مِن حكايةِ الاعتذارِ، كأنّهُ قِيلَ: فماذا قالَ مُوسى عليه السلام عندَ اعتذارِ أخيهِ؟ فَقيلَ: قالَ: ﴿رَبِّ ٱغۡفِرۡ لِي﴾ ما فعلتُ بأخي قبلَ جَليَّةِ الحالِ - فحسناتُ الأبرارِ سَيِّئاتُ المُقرَّبِينَ - ﴿وَلِأَخِي﴾ إن كانَ اتّصَفَ بما يُعَدُّ ذَنبًا[3]. فجملةُ: ﴿قَالَ رَبِّ ٱغۡفِرۡ لِي﴾ جوابٌ عن كلامِ هَارونَ عليه السلام، فلذلكَ فُصِلَت[4]. وقولُهُ: ﴿رَبِّ ٱغۡفِرۡ لِي﴾ أمرٌ يُرادُ به الدّعاءُ[5].

سِرُّ تقديمِ مَغفرتِهِ على مَغفرةِ أخيهِ:

التّأدُّبُ مع اللهِ سبحانَهُ، خُلُقُ الأنبياءِ قاطِبةً

ابتدأَ مُوسى دعاءَهُ فَطَلَبَ المَغفرةَ لِنفسِهِ تأدُّبًا مَعَ اللّهِ فيما ظَهَرَ عَلَيهِ مِنَ الغَضَبِ، ثمّ طَلَبَ المَغفرةَ لأخيهِ فِيما عَسى أن يَكونَ قَد ظَهَرَ مِنهُ مِن تَفريطٍ أو تَساهُلٍ في رَدعِ عَبَدَةِ العِجلِ عَن ذَلِكَ[6]، أو لِيُرضي أخاه، ويُظهِرَ للشّامِتينَ رِضاهُ عنهُ؛ لِئلّا تَتِمَّ شَماتَتُهم بِهارونَ[7].

سِرُّ تقديمِ (المَغفرةِ) على (الرَّحمَةِ):

تأخيرُ الرَّحمَةِ لِلمُطابقةِ، يُفيدُ الدّعاءَ بها مرّتَين

قَدَّمَ المَغفرةَ على الرَّحمَةِ، مع أنَّ الرَّحمَةَ سَببٌ في المَغفرةِ؛ لأنَّ تقديمَ الرَّحمَةِ باللُّزومِ وتأخيرَها بالمُطابَقةِ؛ فيفيد الدّعاء

(1) ابن جرير، جامع البيان: 13/133.
(2) القشيريّ، لطائف الإشارات: 1/573.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 9/68.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/118.
(5) الإندونيسّي، الشّامل في بلاغة القرآن: 1/427.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/118.
(7) الآلوسي، روح المعاني: 9/69.

بها مرّتين[1]. فلمّا دعا بمَحوِ التّقصيرِ أتبعَهُ طلبُ الإكرام، فقالَ: ﴿وَأَدۡخِلۡنَا﴾؛ أي: أنا وأخي، وكلُّ مَنِ انتظَمَ مَعَنا: ﴿فِي رَحۡمَتِكَۖ﴾؛ لِتكونَ غامِرةً لنا مُحيطَةً بنا[2].

دَلالةُ ذكْرِ هارونَ عليه السلام بلفْظِ الأُخوّةِ:

في لفظِ الأُخوّةِ زيادةُ الاستِعطافِ والاستِرحامِ

ضمَّ مُوسى أخاه هارونَ عليه السلام إلى نفسِهِ في الاستغفارِ؛ تَرضيةً له ودَفعًا للشّماتةِ عنهُ بإظهارِ رِضاه[3]. وذِكرُ وصفِ الإخوةِ هُناكَ زيادةٌ في الاستِعطافِ عَسى اللّهُ أن يُكرِمَ رسولَهُ بالمَغفرةِ لأخيهِ، كقولِ نُوحٍ: ﴿رَبِّ إِنَّ ٱبۡنِي مِنۡ أَهۡلِي﴾ [هود: 45][4].

جَمالُ التَّعْبيرِ بفعْلِ الإدخالِ ﴿وَأَدۡخِلۡنَا﴾:

الثّناءُ دالٌّ على مَزيدِ الثِّقةِ في الرَّجاءِ

وقولُهُ: ﴿وَأَدۡخِلۡنَا﴾؛ أي: جميعًا في رحمتِكَ الّتي وسعَت كلَّ شيءٍ بمزيدِ الإنعامِ علينا بجعلِها شاملةً لنا، واجعلْنا مَغمُورينَ فيها، وهو أبلغُ مِن أن يَقولَ: (وارحمْنا وأنت أرحمُ الرَّاحِمين)، إذ دعاؤُهُ هذا ثناءٌ؛ يدُلُّ على مَزيدِ الثّقةِ في الرّجاءِ، والدّعاءُ في جملتِهِ أقوى في استعتابِ هَارونَ مِنَ الاعتذارِ لهُ، وأدلُّ على تخييبِ أملِ الأعداءِ في شيءٍ ممّا يثيرُ حفيظتَهُم بالشّماتةِ[5].

بَلاغةُ الاستِعارةِ في الآيةِ الكريمة:

في الدّخولِ شُمولٌ للرَّحمَةِ لهما في جميعِ الأحوالِ

وقولُهُ: ﴿وَأَدۡخِلۡنَا فِي رَحۡمَتِكَۖ﴾ دالٌّ على أنَّ الإدخالَ في الرَّحمَةِ استعارةٌ لشمولِ الرَّحمَةِ لهما في سائرِ أحوالِهما، بحيثُ يَكونانِ مِن رحمةِ اللّهِ، كالمُستَقِرِّ في بَيتٍ أو نَحوِهِ ممَّا يَحوِي، فالإدخالُ استعارةٌ أصليّةٌ، وحَرفُ ﴿فِي﴾ استِعارةٌ تَبَعِيَّةٌ، أَوقَعَ حَرفُهُ الظّرفيّةَ مَوقِعَ باءِ المُلابسةِ[6].

---

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/258.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 3/115.
(3) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/35 - 36، والآلوسي، روح المعاني: 9/69.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/118.
(5) الآلوسي، روح المعاني: 9/69، ومحمد رضا، تفسير المنار: 9/180.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/118.

بَلاغةُ ردِّ العَجُزِ على الصَّدْرِ:

تنويعُ الأساليبِ، من كمالِ نظْمِ القرآنِ وبراعَتِه

مِن براعةِ النّظم في قولِه: ﴿وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ ردُّ العَجُزِ على الصَّدرِ، حيث وافقَت لفظةُ ﴿ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ - وهي آخرُ كلمةٍ في الكلامِ - آخرَ لفظٍ في صدرِهِ؛ وهي لفظةُ ﴿رَحْمَتِكَ﴾[1].

التَّعبيرُ بجُملةِ الاعْتراضِ التّذييليِّ في السِّياقِ:

تقريرُ مَضْمونِ طلَبِ الإدخالِ في الرَّحمَةِ

قولُهُ تعالى: ﴿وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾، جملةُ اعتراضٍ تذييليٍّ مُقرِّرٍ لِمَضمونِ ما قبلَهُ مِن طَلَبِ الإدخالِ في رحمتِهِ جلَّ في عُلاهُ، والمعنى: فلا غَروَ في انتظامِنا في سِلكِ رحمتِكَ الواسِعَةِ في الدّنيا والآخرةِ[2]. والواو لِلحالِ أو اعتِراضيّةٌ، ومعنى ﴿أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ الأشدُّ رَحمةً مِن كلِّ رَاحمٍ[3].

(1) الإندونيسي، الشّامل في بلاغة القرآن: 1/428.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 9/69.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/118.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ ٱلۡعِجۡلَ سَيَنَالُهُمۡ غَضَبٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَذِلَّةٞ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُفۡتَرِينَ ١٥٢﴾ [الأعراف: 152]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

المُناسبةُ بين اسْتِغفار موسَى لـه ولأخيه، وغضَبِ الله على عَبَدةِ العِجْلِ

ولَمّا صحَّت براءةُ خليفةِ مُوسى، وأُشِيرَ إلى أنّهُ مع ذلكَ فقيرٌ إلى المَغفرَةِ؛ التَفَتَتِ النَّفسُ إلى حالِ المُفسِدينَ، فقالَ مُخبِرًا عن ذَلِكَ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ ٱلۡعِجۡلَ﴾[1]. وهذا القولُ إلى قَولِهِ: ﴿ٱلدُّنۡيَاۚ﴾ مِن تَمَامِ كَلامِ مُوسَى، فَبَعدَ أن دَعَا لِأَخيهِ بِالمَغفِرَةِ أَخبَرَ أَنَّ اللّهَ غَضِبَ على الَّذِينَ عَبَدُوا العِجلَ، وأَنَّهُ سَيُظهِرُ أثرَ غَضَبِهِ عليهِم، وسَتَنالُهم ذِلَّةٌ في الدُّنيا، وذَلِكَ بوَحيٍ تَلَقَّاهُ[2]، وفي ذلك إجابةٌ عن أسئلةٍ قد تُطْرَحُ مفادُهَا: إلى ماذا يصيرُ أمرُ القومِ وتوبتُهُم واستغفارُ نبيِّ اللّهِ تعالى؟ وهل قَبِلَ اللّهُ تعالى توبتَهُم[3]؟

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿سَيَنَالُهُمۡ﴾: النُّونُ والوَاوُ واللَّامُ أَصلٌ صَحِيحٌ يدُلُّ على إعطَاءٍ. ونَوَّلتُهُ: أَعطَيتُهُ. والنَّوَالُ: العَطَاءُ[4]. ومِن هذا الأصلِ جاءَ النَّيْلُ بمعنى الإصابةِ، فالنَّيْلُ: ما يَنالُهُ الإنسانُ بيدِهِ[5]. ونالَ الشّيءَ؛ إذا أصابَهُ[6]؛ أي: حازَهُ وأخذَ منهُ. وسائرُ ما في القرآنِ مِن التّركيبِ فهو بمعنى حوز شيءٍ؛ أي: إصابتُهُ، وتحصيلُهُ خيرًا أو شرًّا[7]. ومعنى اللّفظةِ في الآيةِ الكريمةِ الإصابةُ في الشّرِّ.

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 3/116.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/118 - 119.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 9/69.
(4) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (نول).
(5) الرّاغب، المفردات: (نيل).
(6) ابن الأثير، النّهاية: (نيل).
(7) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (نول - نيل).

2) ﴿وَذِلَّةٌ﴾: الذَّالُ وَاللَّامُ في التَّضعِيفِ والمُطَابَقَةِ أَصلٌ وَاحِدٌ يدُلُّ عَلَى الخُضُوعِ، والاستِكَانَةِ، وَاللِّينِ. فالذُّلُّ: ضِدُّ العِزِّ[1]. وهو مَصدرُ الذَّلُولِ؛ أي: المُنقادُ مِنَ الدّوابِّ[2]. ومِن أسماءِ اللّهِ تعالى (المُذِلّ)، وهو الّذي يُلحِقُ الذُّلَّ بمَن يشاءُ مِن عبادِهِ، وينفي عنهُ أنواعَ العزِّ جميعها[3]. وقد يأتي الذُّلُّ بضدِّ الصُّعوبةِ: بمعنى الرِّفقِ، والرَّحمَةِ، وخفضِ الجناحِ، ولينِ الجانبِ. فإنْ كانَ عن عجزٍ، ووقوعٍ تحتَ قَهرٍ لا فَكاك منه، فهو ذَهابُ الشُّموخِ، وهو ضَعفٌ، وذُلٌّ انخفاضٍ، وعجزٌ عنِ التَّماسُكِ. وضدُّهُ العِزُّ. وسائرُ ما في القرآنِ مِنَ التّركيبِ فهو بهذا المعنى الأخير[4]. فالذِّلَّةُ: خُضُوعٌ في النَّفسِ وَاستِكَانَةٌ مِن جَرَّاءِ العَجزِ عَنِ الدَّفعِ[5].

3) ﴿ٱلْحَيَوٰةِ﴾: الحَاءُ واليَاءُ والحَرفُ المُعتَلُّ أَصلَانِ: أَحَدُهُمَا خِلَافُ المَوتِ، وهو الحَياةُ والحَيَوانُ[6]، وكلُّ ما في القرآنِ مِنَ التّركيبِ هو مِنَ الحياةِ ضدّ الموتِ عدا التّحيّة والحَياء[7]. وقد تَقدَّمَ تفسيرُ اللّفظةِ.

4) ﴿ٱلدُّنْيَا﴾: الدَّالُ والنُّونُ والحَرفُ المُعتَلُّ أَصلٌ وَاحِدٌ يُقَاسُ بَعضُهُ عَلَى بَعضٍ، وهُوَ القُربُ[8]. والدُّنيا فُعْلَى مَنَ الدُّنوِّ، وهي اسمٌ لهذهِ الحَياةِ لبُعدِ الآخِرةِ عنها؛ أي: دَنَتْ وتأخَّرَتِ الآخِرةُ. والسَّماءُ الدُّنيا؛ لقُربِها مِن ساكني الأرضِ[9]. والدُّنوُّ: القُربُ بالذّاتِ، أو بالحُكمِ، ويُستعمَلُ في المكانِ، والزَّمانِ، والمَنزِلَةِ[10]. وكلمةُ (الدُّنيا) مِن أشيعِ مُفرداتِ القرآنِ، وكلُّ ما فيه مِنَ التّركيبِ هو مِنَ الدُّنوِّ: القُرْبِ، لكن هناك صُوَر خاصَّة له[11].

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ذلَّ).
(2) الخليل، العين: (ذلَّ).
(3) ابن الأثير، النّهاية: (ذلل).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (ذلل).
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/119.
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حَيَّ).
(7) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (حيي).
(8) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (دنى).
(9) الخليل، العين: (دنأ، دنو)، وابن الأثير، النّهاية: (دنا).
(10) الرّاغب، المفردات: (دنا).
(11) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (دنو).

❁ المَعْنى الإجْمالِيُّ:

التَّوعُّدُ بالغضَبِ والذِّلَّةِ في الدّنيا، وهـو جـزاءُ كـلِّ مُفتَرٍ على الله

يُخبِرُ اللّهُ تعالى مُبيِّنًا حالَ أهلِ العِجلِ الّذين عَبدُوهُ: أنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا العِجلَ سَيَنالُهُم غَضَبٌ، وهو ما أمَرَهُم مِن قَتلِ أنفُسِهِم، أو الطّاعون الّذي سُلِّطَ عليهم، وَذِلَّةٌ في الحَياةِ الدُّنْيا؛ وهي ضَربُ الجَزيةِ والهَوانِ إلى يومِ القيامةِ، وكَذلِكَ نَجزِي المُفتَرِينَ على اللّهِ، ولا فرية أعظمُ مِن فريتِهِم، فَقالُوا: هذا إلهُكُم وَإلهُ مُوسى، ولعلَّهُ لم يفترِ أحدٌ مثلها قبلَهُم؛ حيث جَعَلُوا البَقَرَ إلهَهُم وإلهَ رسولِهِم، نسألُ اللّه الحِفظَ[1].

وتُرشِدُ الآيةُ الكريمةُ: إلى أنّه لا ينبغي لِمَن يُذْنب، ثمّ لا يُؤاخَذُ في الحَالِ أن يَغترَّ بالإمهالِ[2]. وما مِن مُبتَدِعٍ إلّا وتجدُ فوقَ رأسِهِ ذلَّةً[3]، ويُؤخَذُ مِن هذهِ الآيةِ الكريمةِ أيضًا أنَّ الكَذَّابَ يُرمَى بِالمَذَلَّةِ[4].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

بَلاغةُ التّوكيدِ في مُفتتَحِ الآيةِ:

تَرسِيخُ حتْميّةِ العذابِ لانْحرافِ الـقـومِ عـنِ الصّوابِ

افتُتِحَتِ الآيةُ الكريمةُ بـ﴿إِنَّ﴾ المُؤكِّدةِ المُرسِّخةِ لدلالةِ حتميّةِ تحقُّقِ ما سينالُهُم مِن عذابٍ، وعزَّزَ ذلك تَكرارُ الفعلِ بصيغةِ الافتعالِ الدّالّةِ - بحسب ما مرَّ آنفًا - على التَّصنُّعِ على خلافِ الحَقِّ، أو طبيعةِ الأمرِ السَّويِّ، والإصرار على الفعلِ مِن خلالِ سعةِ المُشارَكةِ في إنجازِهِ.

دَلالةُ الاسْتِئنافِ البيانيِّ في الآيةِ:

خطابٌ مِنَ اللهِ تعالى، لبيانِ ما استحقَّهُ القومُ مِـنَ الـجـزاءِ الوِفاقِ

في هذهِ الآيةِ وجهان؛ أحدُهُما: أنّها كلامٌ مُستأنَفٌ لبيانِ ما استحقَّهُ القومُ مِنَ الجزاءِ على اتّخاذِ العِجلِ، قَفَّى بهِ على ما كانَ مِن شأنِ مُوسى مع هارونَ عليهما السلام في أمرِهِم؛ لأنّ مَن سَمِعَ ذاك أو

(1) ابن عجيبة، البحر المديد: 2/263.
(2) القشيريّ، لطائف الإشارات: 1/573.
(3) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 7/292.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/120.

قَرَأَهُ؛ تستشرفُ نفسُهُ لمعرفةِ هذا، فهو إذًا[1] خِطَابٌ مِنَ اللّهِ لِمُوسَى إخبارًا عمَّا يَنالُ عُبّادَ العِجلِ، وجَوَابًا عَن دُعَائِهِ لأَخِيهِ بِالمَغفِرَةِ بِتَقديرِ فِعلِ قَولٍ مَحذُوفٍ؛ أَي: قُلنَا: إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا العِجلَ إِلى آخِرِهِ، مِثلُ مَا حَكَى اللّهُ تعالى عَن إِبرَاهِيمَ عليه السلام في قَولِهِ تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا﴾ [البقرة: 126][2]. والآخر: هُو مِن تَمَامِ كَلامِ مُوسَى، فَبَعدَ أَن دَعَا لأَخِيهِ بالمَغفِرَةِ أَخبَرَ أَنَّ اللّهَ غَضِبَ على الَّذِينَ عَبَدُوا العِجلَ، وأَنَّهُ سَيُظهِرُ أثرَ غضبِهِ عليهِم، وسَتَنَالُهُم ذِلَّةٌ في الدُّنيَا، وذَلِكَ بِوَحيٍ تَلَقَّاهُ، وانتَهَى كَلَامُ مُوسَى عِندَ قَولِهِ: ﴿فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ﴾. والأَوَّلُ أظهرُ، ودليلُهُ قولُهُ: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ﴾؛ ليجريَ الكلامُ على نَسَقٍ وَاحدٍ مع الكلامِ قبلَهُ[3].

دَلالةُ الاعتراضِ في الآيةِ:

خطابٌ لرسُولِنا ﷺ؛ لإنذارِ مُجاوِرِيهِ مِن يهودِ المدينةِ

وهو الوجهُ الثّاني: بأنَّه كلامٌ مُعترِضٌ في القصّةِ، خاطبَ اللّهُ به خاتمَ رُسلِهِ؛ لإنذارِ المُجاوِرِينَ لهُ مِن يهودِ المدينةِ ما سيكونُ مِن سوءِ عاقبتِهِم في افترائِهِم على اللّهِ وعداوتِهِم لِرسولِهِ، وإنكارِهِم ما في كتبِهِم مِنَ البِشارةِ بِهِ، ووصفِهِم باتّخاذِ العِجلِ لِشبهِهِم بِهِم وكونِهِم خَلفًا لَهُم في افتراءِ كلٍّ منهما على اللّهِ في عهدِ ظهورِ حُجّتِهِ على لسانِ رسولِهِ، كما عيَّرَهُم في آياتٍ أُخرى بِقَتلِ النّبيّينَ بغيرِ الحَقِّ وغيرِ ذلك مِن جرائمِ سَلفِهِم، فالمُرادُ سينالُ أولادُ الّذين عَبَدُوا العِجلَ، وهُم الّذين كانوا على عهدِ رسولِ اللّهِ ﷺ؛ فإنَّ العَربَ تُعيِّرُ الأبناءَ بقبائحِ أفعالِ الآباءِ كما تَفعَلُ ذلك في المَناقِبِ، يَقولُونَ للأبناءِ: فَعَلتُم كَذا وكَذا، وإنَّمَا فَعَلَ ذلكَ

(1) محمد رضا، تفسير المنار: 9/182.

(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/395، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/119.

(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/395، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/118 - 119.

أسلافَهُم، أو سَيَنالُ أولادُ الّذين باشرُوا فِعلَ الاتّخاذِ، ثمّ حَذَفَ المُضافَ لدلالةِ الكلامِ عليهِ[1].

بَراعةُ التَّعريفِ بالموَصوليّةِ بلفْظِ: ﴿ٱلَّذِينَ﴾:

وتَعريفُهُم بِطَريقِ المَوصُوليَّةِ بقولِهِ: ﴿ٱلَّذِينَ﴾؛ لأنَّها أَخصَرُ طَريقٍ في استِحضَارِهِم بِصِفَةٍ عُرِفُوا بِها، ولأنَّهُ يُؤذِنُ بِسَبَبِيَّةِ ما نَالَهُم مِنَ العِقَابِ[2].

أوجزُ طُرقِ اسْتِحضارِ صِفةِ المتّخذين العجْلَ الذّهبيَّ

سِرُّ حذْفِ المفعولِ الثّاني مِنَ الفعْلِ (اتّخذَ):

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ ٱلْعِجْلَ﴾ المعنى: اتَّخذُوا العِجلَ إلهًا[3]، حُذِفَ المفعولُ الثّاني لِعلمِ السّامعِ[4]؛ لأنّ الاتِّخاذَ دليلٌ عليهِ[5]، أو حُذِفَ اختِصارًا[6].

الإيجازُ بالحذْفِ؛ لعلْمِ السّامعِ به من فصيحِ البيانِ

عِلّةُ التَّعْبيرِ بسِينِ الاسْتقبالِ ﴿سَيَنَالُهُمْ﴾:

السّينُ في ﴿سَيَنَالُهُمْ﴾ من قوله تعالى: ﴿سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ حرفُ تسويفٍ يفيدُ توكيدَ حدوثِ الفعلِ في المُستقبَلِ، و﴿سَيَنَالُهُمْ﴾ في مُستقبَلِ أحوالِهِم جزاءُ أعمالِهِم، ومَن لا يضرُّهُ عصيانُ العاصِينَ؛ لا يبالي بتأخيرِ العقوبةِ عنِ الحالِ، وفرقٌ بينَ الإمهالِ والإهمالِ، والحَقُّ سُبحانَهُ يُمهِلُ، ولكنّهُ لا يُهمِلُ[7].

توكيدُ حُدوثِ الفعْلِ في المُستقبَلِ على سبيلِ الوعيدِ

دَلالةُ السّينِ لِتغليبِ المُجاوِرينَ للنّبيِّ ﷺ مِن يهودِ المدينةِ:

ودلالةُ السّينِ في قوله تعالى: ﴿سَيَنَالُهُمْ﴾ لِتغليبِ مُعاصِري النُّبوَّةِ ومَن بعدَهُم على أجدادِهِم المَاضين كما مرَّ ذكرُهُ[8]، أو المرادُ:

توعّدُ اليهودِ بسُوءِ المصيرِ، مُستمرٌّ بتجدُّدِ ظُلْمِهِم وافْترائِهِم

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 15/12، وابن عادل، اللّباب: 9/328، ومحمد رضا، تفسير المنار: 9/183.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/119.
(3) الزّجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 2/379.
(4) النّحّاس، معاني القرآن: 3/84.
(5) ابن سيده، المحكم: (تخذ).
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/119، والمستغانميّ، تصريف القول، ص: 49.
(7) القشيريّ، لطائف الإشارات: 1/573، وقباوة، المفصّل، ص: 604.
(8) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 15/12، وقباوة، المفصّل، ص: 604.

سينالُهُم غضبٌ في الآخرةِ وذِلَّةٌ في الحياةِ الدّنيا، فعذابُ الآخرةِ مُقدَّرٌ في الكلامِ، دلَّ عليه ذكرُ الدّنيا، على ما عَلِمَ مِن اطّرادِهِ بنصوصٍ أخرى[1].

سِرُّ النّعْتِ المَحذوفِ، والتّنوينِ في لفْظِ ﴿غَضَبٌ﴾:

تأكيدُ الغضبِ بيقينِ كونِهِ وَاقِعًا في الآخِرةِ

قولُهُ: ﴿غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾؛ أي: مَالِكِهِم، مُتَعَلِّقٌ بمَحذوفٍ تقديرُهُ (كائنٌ) هو نعتٌ لغَضبٍ مُؤكِّدٌ لِمَا أفادَهُ التّنوينُ مِنَ الفَخامَةِ الذّاتيَّةِ بالفَخامَةِ الإضافيَّةِ؛ أي: كائِنٌ مِن ربِّهِم[2]، فعذابُ الآخرةِ مُقدَّرٌ في الكلامِ دلَّ عليه - فضلًا عنِ المَحذوفِ - ذكرُ الدّنيا، على ما عُلِمَ مِن اطّرادِهِ بنصوصٍ أخرى[3].

بَلاغةُ الاسْتِعارةِ في: ﴿سَيَنَالُهُمْ﴾:

النَّيلُ إصابةٌ وتلبُّسٌ، لا مفرَّ منه، ولا مَناصَ عنه

قوله تعالى: ﴿سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ "النَّولُ وَالنَّيلُ: الأَخذُ وهُوَ هُنا استِعارَةٌ للإِصَابَةِ والتَّلَبُّسِ، كما في قَولِهِ تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [الأعراف: 37] في هذِهِ السُّورَةِ"[4].

نُكتَةُ تَنكِيرِ (الغَضبِ) و(الذِّلَّةِ):

إعمامُ المعنَى، وتعدُّدُ احتِمالاتِ دَلالةِ الغضبِ والذِّلَّةِ

في قوله تعالى: ﴿غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ﴾ المُرَادُ بالغَضَبِ ظُهُورُ أَثَرِهِ مِنَ الخِذلَانِ ومَنعِ العِنَايَةِ، وأَمَّا نَفسُ الغَضَبِ؛ فهو حَاصِلٌ في الحَالِ. وَغَضَبُ اللّهِ تعالى إِرَادَتُهُ السُّوءَ بِعَبدِهِ وعِقَابُهُ في الدُّنيَا والآخِرَةِ أَو في إِحدَاهُمَا[5]، أو هو ما أمرَهُم بهِ مِن قتلِ أنفسِهِم. والذِّلَّةُ في الحياةِ الدّنيا هي خروجُهُم مِن ديارِهِم؛ لأنّ ذلَّ الغُربةِ مَثَلٌ مَضروبٌ، لِيعيشوا ذِلَّةَ الاغترَابِ والمَسكنةِ؛ إذ حَرَمَهُمُ اللّهُ

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/395، ومحمد رضا، تفسير المنار: 9/183.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/275.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/395، ومحمد رضا، تفسير المنار: 9/183.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/119.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/119.

مُلكَ الأَرضِ المُقَدَّسَةِ، فَكانُوا بِلا وَطَنٍ طَوالَ حَياتِهِم حتَّى انقَرَضَ ذَلِكَ الجِيلُ كُلُّهُ، وقِيل: الجزية، أو ما يَشعرُونَ بهِ مِن هَوانِهِم على النّاسِ وظنِّهِم عندَ لقاءِ كلِّ أحدٍ أنّهُ يَتذكَّرُ برؤيتِهِم ما كانَ مِنهُم، فيحتقرهم، أو يَكُون بِتَسليطِ العَدُوِّ عَلَيهِم، أو بِسَلبِ الشّجَاعَةِ مِن نُفُوسِهِم، بِحَيثُ يَكُونُونَ خَائِفِينَ العَدُوَّ، ولَو لَم يُسَلَّطْ عَلَيهِم، أو أنَّ هذه الذِّلّةَ خاصّةٌ بالسّامريِّ، وهي ما حَكَمَ به مُوسى عليهِ مِنَ الانفرادِ عنِ النّاسِ، مِنَ القَطيعةِ عنهُم واجتنابِهِم بقولِ مُوسى عليه السلام له: ﴿فَٱذۡهَبۡ فَإِنَّ لَكَ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَۖ﴾ [طه: 97]، أي: لا أَمسُّ أحدًا، ولا يمسُّني أحدٌ[1].

سِرُّ التّقديمِ والتّأخيرِ:

في قوله تعالى: ﴿سَيَنَالُهُمۡ غَضَبٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَذِلَّةٞ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ﴾ مَواضِعُ للتّقديمِ والتّأخيرِ؛ أوّلُها: تأخيرُ الفاعلِ (الغضب) على مفعولِهِ (هم) في قولِهِ: ﴿سَيَنَالُهُمۡ﴾؛ وذلك لأنّهم مناطُ العنايةِ بوصفِهِم المُعذَّبينَ، والعَربُ إنّما يُقدِّمون الذي بيانُه أهمُّ لهم، وهم ببيانه أَعْنى، وإن كانا جميعًا يُهمَّانهم، ويعنيانهم، كما يقولُ سيبويه[2].

في التّقديمِ مَوطِنُ عِنايةٍ بما قُدّمَ في السّياقِ

نُكتةُ قَصْرِ (الغضبِ) على الله دونَ (الذِّلَّةِ):

ثمّ قدَّمَ الغضبَ على الذِّلّةِ لكونِهِ غضبًا عظيمًا لا يُقادَرُ قَدرُهُ، مُستَتبِعٌ لِفُنُونِ العُقُوباتِ، لِما أنَّ جَريمتَهُم أعظَمُ الجَرائمِ وأقبَحُ الجَرائرِ[3]، ولأنَّ المُرادَ أنّهُم سَينالُهُم غَضبٌ في الآخرةِ، وذِلّةٌ في الحياةِ الدّنيا؛ قَصَرَ تعالى الغضبَ عليهِ بقولِهِ: ﴿مِّن رَّبِّهِمۡ﴾، ولم يقيّدِ الذِّلَّةَ بهذا القيدِ؛ لِكونِ الشّأنِ في الآخرةِ مُقتَصِرًا عليهِ، لا يشاركُهُ

تقديمُ الغضبِ على الذِّلّةِ، لِعِظَمِهِ وحُصولِهِ في الآخِرةِ

(1) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/36، ومحمد رضا، تفسير المنار: 9/182 - 183، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/119.

(2) سيبويه، الكتاب: 1/34.

(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/275.

فيهِ أحدٌ إلّا مَن يأذن تعالى له، أمَّا في الدّنيا؛ فإنّ الإذلالَ قد يكونُ مِنَ اللّهِ، وقد يَصدرُ مِنَ البشرِ، وإن كان بعلمِ اللّهِ، ودرايتِهِ، وإرادتِهِ.

سِرُّ الجمْعِ بينَ لفْظَيِ: ﴿ٱلْحَيَوٰةِ﴾ و﴿ٱلدُّنْيَا﴾:

تصويرُ مصيرِ مُتّخذِي العِجْلِ في هذه الدّنيا الغَرُورِ

فرَّقَ القرآنُ الكريمُ بينَ كلمةِ ﴿ٱلدُّنْيَا﴾ عندما ترِدُ وحدَها، وبينَ كلمةِ ﴿ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾، فـ﴿ٱلدُّنْيَا﴾ عندما تَرِدُ وحدَها تقابِلُ في السّياقِ القرآنيِّ كلمةَ ﴿ٱلْآخِرَةِ﴾، وتَرِدُ مِنَ الحديثِ عنِ الدّنيا فقط، ولا يَتعرَضُ لعملِ الإنسانِ وصفاتِهِ وآثارِهِ ونتائجِهِ، وهذا يدُلُّ على أنّ ﴿ٱلدُّنْيَا﴾ بهذا الاستعمالِ هي عَلَمٌ على هذه الحياةِ الّتي نحياها قبلَ المَوتِ. أمّا تعبيرُ ﴿ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ فيَرِدُ عندما يريدُ اللّهُ ﷻ أن يصوِّرَ استغراقَ الإنسانِ في هذهِ الحياةِ، وعدمَ اهتمامِهِ بما بعدَها، واغترارَهُ بأهوائِها وشهواتِها؛ ظنًّا منهُ بأنَّها هي الحياةُ المُطلَقةُ، ولا حياةَ حقّةً فُضلَى بعدَها، ويدُلُّ على ذلك وصفُها بكونِها مَتاعَ الغرورِ، وأنَّ الّذي يغترُّ بها هالكٌ[1]، ولا فعلَ أشنعُ مِن اتّخاذِ إلهٍ غيرِ اللّهِ مَعبُودًا يُصوِّرُ استغراقَ القومِ في هذهِ الحياةِ، واغترارَهُم بمَلَذاتِها.

نُكتةُ التَّعْبير بفعْلِ الافْتِراءِ:

الافتراءُ افتعالٌ لِمَا لا يَصِحُّ أن يكونَ

الافتراءُ هو اختِلاقُ ما لا حقيقةَ لهُ[2]، وافتعالُ واختلاقُ ما لا يَصِحُّ أن يكون[3]. بذا فالافتراءُ يُناسبُ سياقَ الآيةِ؛ لأنَّ المُرَادَ بالافتِرَاءِ الاختِلَاقُ في أُصُولِ الدِّين بِوَضعِ عَقَائِدَ لَا تَستَنِدُ إلى دَلِيلٍ صَحِيحٍ مِن دَلَالَةِ العَقلِ أَو مِن دَلَالَةِ الوَحيِ، فإنَّ مُوسَى عليه السلام كَانَ حَذَّرَهُم مِن عِبادَةِ الأصنَامِ - في الآياتِ الثَّلَاثِ المُتَقَدِّمَةِ آنِفًا [الأعراف: 138 - 140] - فَجَعَلَ اللّهُ جَزَاءَهُم على الافتِرَاءِ الغَضَبَ والذِّلَّةَ[4].

(1) أبو عودة، التّطور الدّلاليّ بين لغة الشّعر الجاهليّ ولغة القرآن، ص: 349 - 350.
(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 47.
(3) الكفويّ، الكلّيّات، ص: 154 - 710.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/120.

بَلاغةُ الاعتراضِ والتّذييلِ في الآيةِ:

في الاعتراضِ إخبارٌ عن كيفيّةِ مُجازاةِ المُفتَرِي

فالجُملَةُ خِطَابٌ مِن جَانِبِ اللّهِ في القرآنِ، فهي اعتِرَاضٌ، والوَاوُ اعتِرَاضِيَّةٌ ذَيَّلَ اللّهُ بهذا الاعتِرَاضِ حِكايَةَ كَلامِ مُوسَى، فَأَخبَرَ بأَنَّهُ يُجَازِي كُلَّ مُفتَرٍ بِمِثلِ ما أَخبَرَ بِهِ مُوسَى عَن مُفتَرِي قَومِهِ[1].

سِرُّ تأخيرِ المُشَارِ إِلَيهِ ﴿كَذَٰلِكَ﴾:

التّأخيرُ استِعمالٌ بَلِيغٌ فِي مَقامِ التَّشوِيقِ

والقَولُ في اسمِ الإشارَةِ: إنَّ المُشارَ إِلَيهِ مأخُوذٌ مِن كَلامٍ مُتَأَخِّرٍ عَنِ اسمِ الإشارَةِ، وتأخِيرُ المُشَارِ إِلَيهِ عَنِ الإشارَةِ استِعمالٌ بَلِيغٌ في مَقامِ التَّشوِيقِ، أو مِن كَلامٍ مُتَقَدِّمٍ عَنِ اسمِ الإشارَةِ؛ أَي: وَمِثلَ ذَلِكَ الجَزَاءِ العَظِيمِ نَجزِي المُفتَرِينَ[2].

دَلالةُ التَّعبيرِ باسمِ الفاعلِ ﴿ٱلۡمُفۡتَرِينَ﴾:

تَكرارُ الجزاءِ، وشُمولُ عُمومِ المُفتَرِينَ

فالمعنى: أنَّ كلَّ مُفتَرٍ في دينِ اللّهِ فَجَزاؤُهُ غَضَبُ اللّهِ والذِّلَّةُ في الدّنيا[3]، فـ﴿ٱلۡمُفۡتَرِينَ﴾ عامٌّ في كلِّ مُفتَرٍ[4] إلى يوم الدِّين، فهو جَزاءٌ مُتكرِّرٌ كلّما تكرّرَت جريمةُ الافتراءِ على اللّهِ، ويُرسِّخُ هذا المعنى صيغةُ المُضارعِ ﴿نَجۡزِي﴾ الدّالِّ على التَّجدُّدِ والاستمرارِ.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/119.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/117 - 120.
(3) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 15/13.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/396.

﴿وَٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِهَا وَءَامَنُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ١٥٣﴾ [الأعراف: 153]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الـعـلاقـةُ بين عقابِ مُتَّخِذِي العِجْلِ، وفَتْحِ بابِ القَبولِ منَ الغفورِ الرّحيمِ

الآيةُ الكريمةُ جَرَتْ على عادَةِ القُرآنِ مِن تَعقيبِ التَّهديدِ بالتَّرغيبِ، والمَغفِرَةُ تَرجِعُ إلى عَدَمِ مُؤاخَذَتِهم بِذُنُوبِهم في عِقابِ الآخِرَةِ، وإلى ارتِفاعِ غَضَبِ اللّهِ عَنهُم في المُستَقبَلِ[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿لَغَفُورٞ﴾: أصلُ الغَفْرِ: السَّترُ والتّغطيةُ، وَغَفَرَ اللّهُ ذنوبَهُ؛ أَي: سَتَرَها، وَلم يَفضَحْهُ بهَا على رُؤُوسِ المَلأ. وكلُّ شَيءٍ سترتَهُ بقصدِ الحمايةِ وما إليها فقد غفرتَهُ[2]. والغَفرُ: إلباسُ ما يَصونُهُ عن الدّنَسِ، والغُفرَانُ والمَغفِرةُ مِنَ اللّهِ هو أن يَصُونَ العَبدَ مِن أن يمسَّهُ العَذابُ[3]. والغفورُ، والغفّار: مِن صِفَاتِهِ جلَّ ثَنَاؤُهُ وتقدّسَت أسماؤُهُ[4]. وكلُّ ما جاءَ في القرآنِ مِنَ التّركيبِ هو مِن مَغفِرةِ الذّنوبِ[5].

المَعْنى الإجْمالِيُّ:

وَعْدُ اللهِ للتّائبِ مِنَ السَّيِّئاتِ أنْ يَغفرَ له ما فَرّطَ من عَثراتٍ

هذا خبرٌ مِنَ اللّهِ تعالى بأنّهُ قابلٌ مِن كلِّ تائبٍ إليهِ مِن ذنبٍ أتاهُ، صغيرةً كانت معصيتُهُ أو كبيرةً، كفرًا كانت أو غيرَ كُفرٍ، كما قَبِلَ مِن عَبَدَةِ العِجلِ توبتَهُم بعدَ كُفرِهِم بهِ بعبادتِهِم العِجلَ وارتدادِهِم عن دينِهِم. فمَن عملَ سيّئةً، ثمّ رجعَ إلى طلبِ رِضَا اللّهِ بإنابتِهِ إلى ما يُحِبُّ ممّا يكرهُ، وإلى ما يَرضَى ممّا يَسخطُ، مِن بعدِ سيِّءِ أعمالِهِ،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/120.
(2) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (غفر).
(3) الرّاغب، المفردات: (غفر).
(4) ابن سيده، المحكم: (غفر).
(5) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (غفر).

وصدَّقَ بأنَّ اللّهَ قابِلٌ توبةَ المُذْنبينَ، وتائبٌ على المُنيبينَ، بإخلاصِ قلبِهِ، ويقينٍ منهُ بذلك، لغفور لهم، ساتر عليهم أعمالَهُم السَّيِّئَةَ، وغير فاضِحِهِم بها، رحيم بهِم، وبكلِّ مَن كانَ مثلَهم مِنَ التّائبينَ[1].

وتُرشِدُ الآيةُ الكريمةُ: إلى أنَّ العبدَ ينبغي ألَّا يقنطَ مِن ذنبٍ ارتكبَهُ، ولا ييأسَ مِن خطيئةٍ اقترفَها، فرحمةُ اللّهِ لا يَسعُها حدٌّ، ولا يُحيطُ بها مَدٌّ، فإنَّ الذّنوبَ وإنْ جلَّت وعَظُمَت؛ فإنَّ عفوَهُ وكرمَهُ أعظمُ وأجلُّ، ولكن لا بُدَّ مِن حِفظِ الشّريطةِ، وهي وجوبُ التَّوبةِ والإنابةِ[2].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دَلالةُ التَّعْبيرِ بجُملةِ الاعتراضِ:

تكتملُ الفائدةُ بتعقيبِ التّهديدِ بالتّرغيبِ

المُرادُ بالسَّيِّئَاتِ: مَا يَشمَلُ الكُفرَ، وهوَ أَعظَمُ السَّيِّئَاتِ. والتَّوبَةُ منهُ هِيَ الإيمَانُ. وقَولُهُ: ﴿وَٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُواْ﴾ اعتِرَاضٌ بأَنَّهُم إن تَابُوا وآمَنُوا يَغفِرِ اللّهُ لَهُم، على عادَةِ القُرآنِ مِن تَعقِيبِ التَّهدِيدِ بالتَّرغِيبِ، والمَغفِرَةُ تَرجِعُ إلى عَدَمِ مُؤاخَذَتِهِم بِذُنُوبِهِم في عِقَابِ الآخِرَةِ، وإلى ارتِفاعِ غَضَبِ اللّهِ عَنهُم في المُستَقبَلِ[3]. وتكون الجُملَةُ إلى نهايتِها تَكمِلَةً لِلفائِدَةِ بِبَيانِ حَالَةِ أَضدادِ المُتَحَدَّثِ عَنهُم وعَن أَمثَالِهِم[4].

سِرُّ العُدولِ عنِ التَّعْبيرِ بعبارةِ (والّذين أساؤوا):

التَّعبيرُ بالأخصِّ، يَستلزمُ الأعمَّ

وعُدِلَ بالتَّعبيرِ بـ ﴿وَٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ عن أن يُقالَ مثلًا: (والّذين أساؤوا)، كما قالَ تعالى: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَاۗ﴾ [فُصّلت: 46، الجاثية: 15]، أو كأن يقول: (مَن عَمِلَ صالحًا فلنفسِهِ ومَن عَمِلَ سيّئًا فعَلَيها)؛ لأنّ التّقبيحَ تارةً يرجعُ إلى المَفعولِ،

(1) ابن جرير، جامع البيان: 13/136 - 137.
(2) محمد رضا، تفسير المنار: 9/184.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/120.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/119.

كما تقولُ: تأكلُ مالَ اليتيمِ ظُلمًا، وتارةً يَرجعُ إلى الفعلِ، كما تقولُ: كيف تأكلُ بشمالِكَ؟ وتقبيحُ المَفعولِ يَستلزمُ تقبيحَ الفعلِ، ولا يَنعَكِسُ، فقولُهُ تعالى: ﴿وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا﴾ [فُصّلت: 6] تعيينُ الأعمِّ، فيتناول الأخصَّ من بابٍ أحرَى؛ لأنّه إذا كانَ عليها مُطلَقُ إساءةٍ؛ فأحرى ما فوقَها، وهنا عبَّرَ بالأخصِّ، فيستلزمُ الأعمَّ؛ لأنّه إذا كان غفورًا رحيمًا لِمَن ماتَ بعدَ اتّصافِهِ بأخصِّ القبيحِ؛ فأحرى أن يَغفرَ لِمَن تابَ بعدَ اتّصافِهِ بما دونَهُ في القبيحِ[1].

دَلالةُ ﴿مِنۢ﴾ ونُكتَةُ الحذْفِ في ﴿مِنۢ بَعۡدِهَا﴾:

الحذفُ لظُهورِ المَعنى شائعٌ في كلامِ العربِ

وفَائِدَةُ ذِكرِ ﴿مِنۢ﴾ للإشارَةِ إلى أنّ الاتِّخاذَ ابتدَأ مِن أوَّلِ أزمانِ التّوبةِ. وفي قَولِهِ: ﴿مِنۢ بَعۡدِهَا﴾ في المَوضِعَينِ حَذفُ مُضافٍ قَبلَ مَا أُضِيفَت إلَيهِ (بَعدُ) - وَقَد شَاعَ حَذفُهُ - دَلَّ عليهِ ﴿عَمِلُواْ﴾؛ أَي: مِن بَعدِ عَمَلِهَا؛ أي: (عمل التّوبةِ). وحذفُ المُضافِ، وتَقديرُهُ مَعَ (بَعدِ) المُضافِ إلى اسمِ المُتَحَدَّثِ عَنهُ شائِعٌ في كَلامِ العَرَبِ لِظُهُورِهِ بِحَسَبِ المَقامِ[2].

جَمالُ التَّعبيرِ بحرفِ العطْفِ ﴿ثُمَّ﴾:

امتدادُ زمنِ قَبولِ التّوبةِ

وَحَرفُ ﴿ثُمَّ﴾ هَنَا مُفيدٌ للتَّرَاخِي، وذَلِكَ إلجاءٌ إلى قَبُولِ التَّوبَةِ، ولو بَعدَ زَمانٍ طَوِيلٍ مَملُوءٍ بِفِعلِ السَّيِّئَاتِ[3].

سِرُّ التّوكيدِ اللَّفْظيِّ في ﴿مِنۢ بَعۡدِهَا﴾:

تعريضٌ للمُشركين بالغفران، إنْ بادرُوا بالإيمانِ

وقَولُهُ: ﴿مِنۢ بَعۡدِهَا﴾ تَأكِيدٌ لِمفَادِ المُهلَةِ الَّتي أَفَادَها حَرفُ ﴿ثُمَّ﴾، وهذا تَعرِيضٌ للمُشرِكِينَ، بأَنَّهُم إنْ آمَنُوا يُغْفَرْ لَهُم، ولَو طَالَ أَمَدُ الشِّركِ عليهِم[4].

---

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/258.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/499 - 500 و9/120.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/121.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/121.

تحقيقَ الأمرِ، ورَفْعَ المَجازِ في ﴿مِنۢ بَعۡدِهَا﴾:

فائدةُ التَّعْبيرِ وصفُهم بأخصِّ المَغفرةِ

وحقَّقَ بقولِهِ: ﴿مِنۢ بَعۡدِهَا﴾ الأمرَ، ونَفَى المَجازَ، ورفعَهُ؛ لأنّه يحتملُ أن يكونَ تابوا بعدَما عملُوا، أو سَعَوا وهَمُّوا بفعلِها[1]. وأفادَ التَّعبيرُ اتّصافَهُم بأخصِّ المَغفرةِ، كقولِكَ: فلانٌ يَتَنَفَّلُ إذا عَسعَسَ اللّيلُ، فإنّه أخصُّ مِن قولِكَ: فلانٌ يَتَنَفَّلُ[2].

تَوجِيهُ عَوْدِ الضّميرِ في ﴿مِنۢ بَعۡدِهَا﴾:

في عَوْدِ الضَّميرِ مُبَالَغَةٌ في الامتِنَانِ بِقَبُولِ تَوبَتِهِم

يحتملُ أن يكونَ الضّميرُ عائدًا على التّوبة؛ أي: ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ مِن بعدِ توبتِهِم، فَيعودُ على المَصدرِ المَفهومِ مِن قولِهِ: ﴿ثُمَّ تَابُواْ﴾، وهو أَولَى مِن عودتِهِ على ﴿ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾؛ للاحتياجِ إلى حَذفِ مُضافٍ وحَذفِ مَعطوفٍ؛ إذ يَصِيرُ التّقديرُ: مِن بعدِ عَمَلِ السّيّئاتِ والتَّوبةِ مِنها، وخبرُ ﴿وَٱلَّذِينَ﴾ قولُهُ: ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ وما بعدَهُ، والرّابطُ مَحذوفٌ؛ أي: لَغفورٌ رَحيمٌ لَهُم[3]. وضَميرُ ﴿مِنۢ بَعۡدِهَا﴾ الثّاني مُبَالَغَةٌ في الامتِنَانِ بِقَبُولِ تَوبَتِهِم بَعدَ التَّمَلِّي مِنَ السَّيِّئَاتِ[4].

سِرُّ التَّعْبيرِ بالماضِي والجمْعِ:

تحقُّقُ وقوعِ الفعْلِ بالمُضيّ، والدّلالةُ على واسعِ قُدْرةِ الله بالجمْعِ

ولأنّ فعلي التّوبة والإيمان لازِمُهُمَا العزمُ، والثَّباتُ عليهما، عبَّرَ عنهما بصيغةِ الماضي للدَّلالةِ على وقوعِهما، وحتميَّةِ تحقُّقِهما. وجَمَعَ في فِعلي التّوبة والإيمان؛ إعلامًا بأنّه لا يَتعاظَمُهُ ذَنبٌ، وإن عَظُمَ وكَثُرَ، وإن طالَ زمانُهُ، ولِذلِكَ عَطَفَ بأداةِ البُعدِ، فَقالَ: ﴿ثُمَّ تَابُواْ﴾[5].

براعةُ عطْفِ (الإيمانِ) على (التّوبةِ):

الإيمانُ أَصلُ الأَعمالِ الصَّالِحَةِ، والتّوبةُ مُنجيَةٌ لِمَن تمسّكَ بها

وعُطِفَ الإيمانُ على التَّوبَةِ، مَعَ أَنَّ التَّوبَةَ تَشمَلُهُ مِن حَيثُ إِنَّ الإيمانَ تَوبَةٌ مِنَ الكُفرِ، للاهتِمَامِ بِهِ؛ لأَنَّهُ أَصلُ الاعتِدَادِ بالأَعمَالِ

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/258، والبقاعيّ، نظم الدُّرر: 3/116.
(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/259.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/396.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/121.
(5) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 3/116.

الصَّالِحَةِ عِندَ اللّٰهِ تعالى كَقَولِهِ: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡعَقَبَةُ ١٢ فَكُّ رَقَبَةٍ﴾ إلى قَولِهِ: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [البلد: 12- 17]، ولِئَلَّا يُظَنَّ أَنَّ الإشرَاكَ لِخُطُورَتِهِ لَا تُنجِي مِنهُ التَّوبَةُ[1]. ورَتَّبَ الإيمانَ بعدَ التّوبةِ؛ لإرادةِ معنى: أنَّهُم آمنوا أنَّ التّوبةَ نافِعةٌ لَهُم مُنجِيَةٌ، فتمَسَّكوا بها، فهذا إيمانٌ خاصٌّ بعدَ الإيمانِ على الإطلاقِ، ويُحتمَلُ أن يُريدَ بقولِهِ: ﴿وَءَامَنُواْ﴾؛ أي: وعَمِلُوا عَمَلَ المُؤمِنينَ حتّى وافَوا على ذَلِكَ، ويُحتمَلُ أن يُريدَ التّأكيدَ، فَذَكَرَ التّوبةَ والإيمانَ إذ هُما مُتلازِمَانِ، إلّا أنَّ التَّوبةَ على هذا تَكُونُ مِن كُفرٍ، ولابُدَّ فَيَجِيءُ (تابُوا وآمَنُوا) بمعنًى واحدٍ، وهذا لا يَتَرَتَّبُ في تَوبَةِ المَعاصِي، فإنَّ الإيمانَ مُتقدِّمٌ لِتلكَ، ولابُدَّ، وهو وتَوبةُ الكفرِ مُتلَازِمانِ[2].

كمالُ التَّعريفِ بالإضافةِ، والوصفِ بالرُّبوبيّةِ:

تـوسُّـلٌ إلى تشريفِ المُضافِ إليه

والخِطَابُ في قَولِهِ: ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ لِمُحمّدٍ ﷺ على الوَجهِ الأَظهَرِ، أَو لِمُوسَى عليه السلام على جَعلِ قَولِهِ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ ٱلۡعِجۡلَ﴾ مَقُولًا مِنَ اللّٰهِ لِمُوسَى عليه السلام. وفي تَعريفِ المُسنَدِ إلَيهِ بالإضَافَةِ تَوَسُّلٌ إلى تَشريفِ المُضَافِ إلَيهِ بأَنَّهُ مَربُوبٌ لِلّٰهِ تعالى، وفي ذِكرِ وَصفِ الرُّبُوبِيَّةِ هُنَا تَمهِيدٌ لِوَصفِ الرَّحمَةِ[3]؛ بما يتضمَّنُهُ اللّفظُ مِن معنى التّربيةِ، والرّعايةِ، والإحسانِ.

بَلاغةُ التّوكيدِ بحشدِ المؤكِّداتِ:

زيـادةُ الاهتمامِ والـتّرغـيـبِ للعُصاةِ بالتّوبةِ

وتَأكِيدُ الخَبَرِ بـ﴿إِنَّ﴾ ولَامِ التَّوكِيدِ وصِيغَتَي المُبالغَةِ في ﴿لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ لِمَزِيدِ الاهتِمَامِ بِهِ تَرغِيبٌ لِلعُصَاةِ في التَّوبَةِ، وطَردًا لِلقُنُوطِ مِن نُفُوسِهِم، وإنْ عَظُمَت ذُنُوبُهُم، فَلا يَحسَبُوا تَحدِيدَ التَّوبَةِ بِحَدٍّ إذَا تَجَاوَزَتهُ الذُّنُوبُ بِالكَثرَةِ أوِ العِظَمِ لَم تُقبَلْ مِنهُ تَوبَةٌ[4].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/121.
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/458.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/121.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/121.

دَلالةُ التَّعْبير بصِيغتَي المُبالَغةِ (فَعُولٌ)، و(فَعِيلٌ):

صـفـاتُ الـلـه دَالّـةٌ على كمالِ قَيّوميّتِه ورحْمتِه في مَلكُوتِه

وأَردفَ التّوبة والإيمان تعظيم رحمتِهِ؛ ليعلمَ أنَّ الذُّنوبَ وإنْ جلَّت وعَظُمَت فإنّ عفوَهُ، وكرمَهُ، ورحمتَهُ أعظمُ وأجلُّ، ولكن لا بدَّ مِن حفظِ الشّريطةِ: وهي وُجوبُ التّوبةِ، والإنابةِ[1]. وعَزَّزَ هذا المعنى التَّعبيرَ باللّفظِ (غَفُور) على وزنِ (فَعولٌ) الدَّالِّ على مَنْ كانَ قويًّا على الفعلِ، قادرًا، دائبًا عليه؛ أي: مُداومًا على امحاءِ ذُنوبِ التّائبينَ عينًا وأثَرًا، وإن عَظُمَتْ وكثُرَتْ. و(رحيم) على وزنِ (فَعيل) الدَّالِّ على ثبوتِ الوصفِ في صاحبِهِ طبيعةً وسجيّةً؛ أي: فاعِلٌ بِهِم فِعلَ الرَّحيمِ مِنَ البرِّ والإكرامِ واللُّطفِ والإنعامِ[2].

حذْفُ مُتعلِّقِ الجارِّ والمجرورِ:

ظهورُ المعنَى في السِّياقِ الحكيمِ

وحَذفُ مُتَعَلِّقِ ﴿لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ لِظُهُورِهِ مِنَ السِّياقِ، والتَّقديرُ: لَغَفُورٌ رَحِيمٌ لَهُم، أَو لِكُلِّ مَن عَمِلَ سَيِّئَةً، وتَابَ مِنهَا[3].

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/162.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 3/116.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/121.

﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ ۖ وَفِى نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٤﴾﴾ [الأعراف: 154]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

المناسبةُ بين توبة الله وغُفرانِه، وصنيعِ مُوسَى بعدَ أنْ هدأَ غضبُه

الآيةُ الكريمةُ شروعٌ في بيانِ بقيّةِ الحكايةِ إثرَ ما بيَّنَ مِن تحزُّبِ القَومِ إلى مُصِرٍّ وتائبٍ، والإشارةُ إلى مآلِ كُلٍّ مِنهُما إجمالًا[1]، بإهلاكِ المُصرِّ وتوبةِ الباقي، وظُهورِ براءةِ أخيهِ، وبقائِهِ على رتبتِهِ مِنَ الأمرِ بالمَعروفِ، والنّهيِ عنِ المُنكَرِ، والاجتهادِ في أمرِ اللّهِ، زال مُوجِبُ الغضبِ، فأخبرَ سبحانَهُ عمّا يَعقُبُهُ، فقالَ: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ﴾[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿سَكَتَ﴾: السِّينُ والكافُ والتَّاءُ أصلٌ يدُلُّ على خِلَافِ الكَلامِ والنُّطقِ[3]. وسَكَتَ عنه الغضب سُكُوتًا، وسَكَنَ بمعناه؛ إذا رأيته صَمتَ، لا ينطِقُ، ولا يتكلَّمُ[4]. فالسُّكوتُ مُختَصٌّ بتركِ الكَلامِ[5]، إلّا أنّهُ استُعمِلَ في هذه الآيةِ مَجازًا بِمَعْنَى السّكونِ وذهابِ فَوْرةِ الغضبِ[6].

2) ﴿نُسْخَتِهَا﴾: النُّونُ والسِّينُ وَالخَاءُ أَصلٌ وَاحِدٌ، إِلَّا أَنَّهُ مُختَلَفٌ في قِيَاسِهِ، ومنه: أنْ تُحَوِّلَ مَا في الخَلِيَّةِ مِنَ العَسَلِ وَالنَّحلِ في أُخرَى. ومِنهُ نَسخُ الكِتَابِ[7]؛ أي: نقلُ صُورتِهِ المُجرَّدةِ إلى كتابٍ آخرَ، واكتتابك كتابًا عن كتابٍ حرفًا بحرفٍ. وذلك لا يقتضي إزالةَ الصّورةِ الأولى

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/276.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 3/117.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن سيده، المحكم: (سكت).
(4) الخليل، العين: (سكت).
(5) الرّاغب، المفردات: (سكت).
(6) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (سكت).
(7) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نسخ).

بل يقتضي إثباتَ مثلها في مادَّةٍ أخرى، كاتِّخاذ نقشِ الخَاتمِ في شُمُوعٍ كثيرةٍ[1]. وَمَعْنَى الآيةِ: وفِيما كُتِبَ لَهُ فِيها هُدًى ورَحمَةٌ.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

سُكونُ فَورةِ غضبِ مُوسَى، وأَخْذُ الألواحِ

يخبرُ اللّهُ أنَّه لمّا سَكَنَ غضبُ مُوسى باعتذارِ أخيهِ، ولجوئِهِ إلى دعاءِ ربِّهِ بالرّحمة والمَغفرة، عادَ إلى الألواحِ الّتي أَلقاها فَأَخذَها، وفيما نُسِخَ وكُتِبَ منها هدًى وإرشادٌ مِنَ الخالقِ سبحانَهُ للّذين يَخافُونَ ربَّهُم، ويَخشَونَ عقابَهُ بالفعلِ، أو بالاستِعدادِ، أو يَخافونَ ربَّهُم مِنَ الشِّركِ والمَعاصِي[2].

وتُرشِدُ الآيةُ الكريمةُ: إلى أنَّ الإنسانَ أو المُؤمِنَ لابدَّ مِن أنْ يَستحضِرَ رهبتَهُ لربِّهِ وخوفَهُ منه سبحانَهُ؛ ليكونَ المنهجُ هدًى ورحمةً لهُ، ويكونَ مِنَ الّذين يَرهبونَ ربَّهُم[3].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دَلالةُ الوصْلِ في الآيةِ الكريمةِ:

عطفٌ على الرّجوعِ، وأخذٌ للألواحِ بعدَ إلقائِها من قبلُ

هَذِهِ الجُملَةُ عَطفٌ عَلَى جُملَةِ ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ﴾[4]. ونَظمُها مِثلُ نَظمِ قَولِهِ: ﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِيٓ أَيۡدِيهِمۡ﴾ [الأعراف: 149]، وقولِهِ: ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ غَضۡبَٰنَ أَسِفٗا﴾؛ أي: ثُمَّ سَكَتَ عَن مُوسَى الغَضَبُ، ولَمَّا سَكَتَ عَنهُ؛ أَخَذَ الأَلواحَ[5].

وَجْهُ التَّعْبيرِ بلفْظِ ﴿سَكَتَ﴾ على طريقِ التّضْمينِ:

إعطاءُ معانٍ مُتعدّدةٍ، خيرٌ مِن إعطاءِ معنًى واحدٍ

تضمَّنَ الفِعلُ الماضي ﴿سَكَتَ﴾ مَعْنَى: انفكَّ أو كفَّ أو انصرفَ؛ لكونِ جميعها تتعدَّى بـ﴿عَن﴾[6]، فيرادُ جِماعُ المعاني، فاستعمالُ

(1) الرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (نسخ).
(2) محمد رضا، تفسير المنار: 9/185.
(3) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 7/4372.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/122.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/121.
(6) الإندونيسّي، الشّامل في بلاغة القرآن: 1/482.

الفعلِ ﴿سَكَتَ﴾ في هذا المَوضِعِ فيه قَصدٌ إلى معنًى مُعيَّنٍ لا يَتأتَّى مِن دونِ ذكرِهِ، إلّا أنَّ تعديتَهُ بغيرِ الحرفِ المُستعمَلِ معهُ عادةً فيه ضربٌ مِنَ التَّوسُّعِ في المعنى مع غايةِ الإيجازِ، ومُؤدَّاهُ أنَّ لِلفعلِ دلالةَ أصلِ مَعناه، وباستِعمالِ حرفِ الجرِّ الّذي يَتطلَّبُ فِعلًا آخرَ يُصبحُ لِلمُعادلةِ وَجهان مُتكامِلَان؛ إذ يؤدّي الفعلُ أصلَ مَعناهُ بالتّصريحِ بهِ، ويَقتَضي حرف الجرِّ مَعْنَى الفعلِ الّذي يطلبُهُ بالتّضمينِ، فيكونُ المَعْنَى: انفكَّ، أو كفَّ، أو انصرَفَ ساكِتًا.

كمالُ الاستِعاراتِ وتنوُّعُها في لفْظةِ (السّكوتِ):

اجتماعُ استِعارَتينِ تصريحيّةٍ مُقارَنةٍ بالتّخييليّةِ من فصيحِ البيانِ

وَالسُّكُوتُ مُستَعَارٌ لِذَهَابِ الغَضَبِ عَنهُ، وهذه مِن جليّاتِ الاستعارةِ؛ لأنّ الغضبَ لا يُوصَفُ بالسُّكوتِ، وإنّما المعنى لمّا فَتَرَ عن مُوسى الغضبُ، وخَبَتَتْ جمرتُهُ، وإنّما قِيلَ: سَكَتَ؛ لأنّ الغضبانَ أبدًا يَكثُرُ خصامُهُ، ويعلو كلامُهُ، وإذا سَكَنَ غضبُهُ؛ زالَ عنهُ كلُّ ذاك[1]؛ أي: شُبِّهَ ثَوَرَانُ الغَضَبِ في نَفسِ مُوسَى المُنشِئُ خَوَاطِرَ العُقُوبَةِ لأَخيهِ ولِقَومِهِ، وإلقَاءُ الأَلوَاحِ حَتَّى انكَسَرَت، بِكَلَامِ شَخصٍ يُغرِيهِ بِذَلِكَ، وَحَسَّنَ هَذَا التَّشبِيهَ أَنَّ الغَضبَانَ يَجِيشُ في نَفسِهِ حَدِيثٌ لِلنَّفسِ يَدفَعُهُ إلى أَفعَالٍ يُطفِئُ بِها ثَوَرَانَ غَضَبِهِ، فَإِذَا سَكَنَ غَضَبُهُ، وَهَدَأَتْ نَفسُهُ، كَانَ ذَلِكَ بِمَنزِلَةِ سُكُوتِ المُغرِي، فَلِذَلِكَ أُطلِقَ عَلَيهِ السُّكُوتُ، وهذا يَستَلزِمُ تَشبِيهَ الغَضَبِ بِالنَّاطِقِ المُغرِي عَلَى طَرِيقَةِ المَكنِيَّةِ، فَاجتَمَعَ استِعَارَتَانِ: مَكنِيَّةٌ مُقارنة بالتّخييليّة[2]، فكأنّ الغضبَ كانَ يُقَوِّيهِ على ما فَعَلَ، ويُغرِيهِ، ويَقولُ لهُ: قُلْ: لِقومِكَ كذا وكذا، وألقِ الألواحَ، وخُذْ برأسِ أخيكَ إليكَ، فلمَّا زالَ الغضبُ؛ قَطَعَ الإغراءَ، وتَرَكَ الكلامَ، فَسَكَتَ[3]. وقِيل: الغضبُ استعارةٌ بالكنايةِ

(1) الشّريف الرّضي، تلخيص البيان، ص: 77، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/459.
(2) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 6/595، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/122.
(3) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 15/13.

عنِ الشَّخصِ النَّاطقِ، والسّكوتُ استِعارةٌ تصريحيَّةٌ لِسكونِ هيجانِه وغليانِه، فيكونُ في الكلامِ مَكنيَّةٌ، قَرينَتُها تَصريحيَّةٌ لا تَخييليَّةٌ، وأيًا مَا كانَ فَفي الكلامِ مُبالَغةٌ وبَلاغةٌ لا يَخفى عُلُوُّ شأنِهما[1]. أَو هي استِعَارَةٌ تَمثِيلِيَّةٌ مَكنِيَّةٌ؛ لأَنَّهُ لَم تُذكَرِ الهَيئَةُ المُشَبَّهُ بِهَا، ورُمِزَ إليها بِذِكرِ شَيءٍ مِن رَوَادِفِهَا وَهُوَ السُّكُوتُ، وفي هذا ما يُؤَيِّدُ أنَّ إلقاءَ الألواحِ كانَ أثرًا لِلغَضَبِ[2].

أو أنّ السُّكُوتَ هنا استِعارةٌ تَبعيَّةٌ

وقِيلَ: إنَّ فيه استعارةً تبعيّةً، حيث شبَّهَ سُكونَ الغضبِ وذهابَ حدَّتِه بسُكونِ الآمرِ النّاهي، والغضبُ قرينتُها[3].

أو أنّ السُّكُوتَ استِعارةٌ على مَعنَى القَلْبِ

وقِيلَ: إنَّ في المعنى قَلبًا، والمُرادُ: (ولَمّا سَكَتَ مُوسى عَنِ الغَضبِ) فهُو مِن بابِ أدخَلتُ فَمِي في الحَجَرِ، وأدخَلتُ القَلَنسُوةَ في رَأسِي، وفي هذا أيضًا استِعارةٌ، إذِ الغَضبُ ليسَ يَتَكَلَّمُ فَيُوصَفُ بالسُّكُوتِ[4]، فهو مِن نمطِ قلبِ الحَقيقةِ إلى المَجازِ؛ اتِّكالًا على أنَّ فِطنةَ السّامعِ سترُدُّ كلَّ شيءٍ إلى أصلِه، كما في خَرَقَ الثَّوبَ المِسمارُ. ووُجوهُ الاستعارةِ الأولى أشرفُ وأفصحُ مِن هذا الوَجهِ؛ لِمَا فيها مِنَ المَعنى البليغِ، وهو أنَّ الغَضبَ كانَ مُتمَكِّنًا مِن مُوسى، حتّى كأنَّهُ كانَ يَصرِفُهُ في أوامرِه. ومِثلُ هذهِ النُّكتَةِ الحَسناءِ، لا تُلفَى في (خَرَقَ الثّوبَ المِسمارُ)[5].

أو أنّ السُّكُوتَ فيها وجهُ كِنايةٍ

بوَصفِ كلمةِ ﴿سَكَتَ﴾ كنايةً عن أنّ الغضبَ زالَ وانتهى[6].

براعةُ الاستِعاراتِ على اختلافِ أنْواعِها:

إفصاحٌ عن مُبالَغةٍ يَعْظُمُ شأنُ بلاغتِها

في سكونِ غضبِ مُوسى عليه السلام باعتذارِ هارونَ أو بتوبتِهم مُبالَغةٌ وبَلاغةٌ مِن حيثُ إنَّه جعلَ الغضبَ الحاملَ له على ما فَعَلَ، كالآمرِ به

(1) الآلوسي، روح المعاني: 9/71.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/122.
(3) زاده، حاشية محي الدّين شيخ زاده: 4/303، والخفاجيّ، عناية القاضي: 4/378.
(4) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/459.
(5) القاسميّ، محاسن التّأويل: 5/190، والشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 7/4370.
(6) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 7/4370.

والمُغري عليهِ حتّى عبَّرَ عن سُكونِهِ بالسُّكوتِ[1]؛ لأنَّ السُّكوتَ فيه دلالةُ القَطعِ والحَسمِ بوصفِهِ تركًا للكلامِ، وإنهاءً لهُ على خلافِ السُّكونِ والخمودِ اللّذين يَقتضيان دلالةَ التَّدرُّجِ في الاستقرارِ. ودَيدنُ أهلِ الحَقِّ، حين يتبيّنُ لَهُم وجهُهُ، وتُزالُ عنهُم شبهتُهُ، المُسارعةُ إليهِ، والقَطعُ بلزومِهِ.

تَوجِيهُ القِراءاتِ في لفْظةِ ﴿سَكَتَ﴾:

قراءةُ جمهورِ القُرّاءِ ﴿سَكَتَ﴾ بصيغةِ الماضي الثّلاثيِّ، وهي القراءةُ المُتواترةُ، وقَرَأَ سعيدُ بنُ جبيرٍ ويَحْيَى بن يَعمَر وعاصمُ الجحدريُّ: (ولمّا سُكِّتَ) بالتّشديد، وقُرِئَ: (أُسكِت)؛ أي: أسكَتَهُ اللّهُ، أو أخوهُ باعتذارِهِ إليه وتنصُّلِهِ؛ والمعنى: ولمّا طُفِئَ غَضَبُهُ أَخَذَ الأَلواحَ الّتي أَلقَاهَا[2]. فَلشدّةِ غضبِهِ، وحميّتِهِ على دينِ اللّهِ تطلَّبت التَّهدئَةُ قوّةً خارجةً تُمكِّنُهُ مِن إخمادِ فَورتِهِ.

تَطلَّبَت تهدِئةُ مُوسَى قوّةً خارجةً تُمكِّنُهُ مِن إخمادِ فَوْرتِهِ

دَلالةُ (أَلْ) التَّعريفِ في لفْظِ ﴿ٱلْأَلْوَاحَ﴾:

والتَّعريفُ في ﴿ٱلْأَلْوَاحَ﴾ للعَهدِ؛ أي: الأَلوَاحَ الَّتي أَلقَاهَا، وإنَّمَا أَخَذَها حِفظًا لَها للعَمَلِ بها؛ لأَنَّ انكسارَها لا يُضيعُ ما فيها مِنَ الكِتابَةِ[3].

الألواحُ هيَ الصُّحفُ الّتي ألقاها موسَى عليه السلام، عندَ الغضَبِ

وَجْهُ التَّعْبيرِ عن نُسخةِ ﴿ٱلْأَلْوَاحَ﴾ على طريقِ الإيجازِ:

(النّسخةُ) فُعلَةٌ بمعنى مَفعُول[4]. فالنُّسخَةُ بِمَعنَى المَنسُوخِ، والنَّسخُ هُوَ نَقلُ مِثلِ المَكتُوبِ في لَوحٍ أَو صَحِيفَةٍ أُخرَى؛ أي: أُخِذَ مِنَ الأصلِ إلى الصُّورةِ. وهَذَا يَقتَضِي أَنَّ هَذِهِ الأَلوَاحَ أُخِذَتْ مِنهَا نُسخَةٌ؛ لأَنَّ النُّسخَةَ أُضِيفَت إلى ضَمِيرِ الأَلوَاحِ، وهَذَا مِنَ الإيجازِ، إذِ التَّقديرُ: أَخَذَ الأَلوَاحَ، فَجُعِلَتْ مِنهَا نُسخَةٌ، وفِي نُسخَتِهَا هُدًى

إشارةٌ إلى أنّ اللّوحَينِ الأصليَّينِ، عُوِّضَا بِنُسخَةٍ لَهُمَا

(1) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/36.
(2) وهما قراءتان شاذّتان، وابن خالويه، المُختصر، ص: 46، والزّجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 2/379، والزّمخشريّ، الكشّاف: 2/163، وأبو حيّان، والبحر المحيط: 4/396.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/122.
(4) القاسميّ، محاسن التّأويل: 5/189.

وَرَحمَةٌ، والإضافةُ في ﴿نُسْخَتِهَا﴾ بيانيّةٌ، أو بمعنى (في). فَوَصفُ النُّسخَةِ بِأَنَّ فِيهَا هُدًى ورَحمَةً يَستَلزِمُ الأَصلَ المُنتَسَخَ بِذَلِكَ؛ لأَنَّ ما في النُّسخَةِ نَظِيرُ ما في الأَصلِ، وإِنَّما ذُكِرَ لَفظُ النُّسخَةِ هُنا إِشارَةً إِلى أَنّ اللَّوحَينِ الأَصلِيَّينِ عُوِّضَا بِنُسخَةٍ لَهُمَا[1].

وفي معنى: ﴿نُسْخَتِهَا﴾ ثلاثةُ أقوالٍ؛ الأوّلُ: أي فِيما نُسِخَ مِنَ الألواحِ المُتَكَسِّرَةِ، ونُقِلَ إلى الألواحِ الجَدِيدَةِ هُدًى ورَحمَةٌ. الثّاني: وفِيما نُسِخَ لَهُ مِنها؛ أي: مِنَ اللَّوحِ المَحفُوظِ. الثّالث: وفِيما كُتِبَ لَهُ فِيها هُدًى ورَحمَةٌ، فَلا يَحتاجُ إلى أصلٍ يُنقَلُ عَنهُ، وهَذا كما يُقالُ: انسَخْ ما يَقُولُ فُلانٌ؛ أي: أثبِتْهُ في كِتابِكَ، والنُّسخَةُ فُعلَةٌ، بِمَعنى مَفعُولَةٍ كالخُطبَةِ[2].

النّسْخُ بينَ الحَقيقةِ والمَجازِ:

أصلُ النَّسخِ النّقلُ والتَّحويلُ؛ فإذا كَتَبَ كتابٌ عن كتابٍ حرفًا بعدَ حرفٍ، قِيلَ: نُسِخَ ذلك الكتابُ بنقلِ ما في الأصلِ إلى الكتابِ الثّاني. فإطلاقُ النَّسخِ على الكتابةِ استعارةٌ باعتبارِ الأصلِ وحقيقةٌ بحسبِ الاصطلاحِ[3].

اسْتِعارةٌ باعتبارِ الأصلِ، وحقيقةٌ بحسَبِ الاصْطلاحِ

بَلاغةُ التّضْمينِ في فاصلةِ الآيةِ:

في قولِه: ﴿لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾ ضَمَّنَ الرَّهبةَ مَعنَى الخُضُوعِ؛ ولِهذا عدَّاها باللّامِ[4].

دَلالةُ اللّامَيْن في الآيةِ:

اللّامُ في ﴿لِّلَّذِينَ﴾ مُتعلِّقةٌ بِمَحذوفٍ هو صِفَةٌ لرحمةٍ؛ أي: كائِنَةٌ

الفاصِلةُ تُضفي على المعنَى دلالةً، وعلى الإيقاعِ الصّوتيِّ هالةً

(1) الآلوسي، روح المعاني: 9/71، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/122.
(2) ابن الجوزيّ، زاد المسير: 2/158، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 7/293، والشّوكانّي، فتح القدير: 2/285.
(3) القونويّ، حاشيَته على تفسير البيضاوي: 8/512.
(4) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 3/478.

لَهُم، أو هي لامُ التّعليلِ؛ أي: هدًى ورحمةٌ لِأجلِهِم[1]. واللّامُ في قَولِهِ: ﴿لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾ لَامُ التَّقويَةِ؛ أي: تقويةٌ لوصولِ الفعلِ إلى مَفعولِهِ المُتقدِّم، دَخَلَتْ على المَفعُولِ لِضَعفِ العَامِلِ[2]؛ وذلك لِتقدُّمِ المَفعولِ؛ لأنَّ تأخُّرَ الفعلِ عن مَفعولِهِ يكسبُهُ ضَعفًا؛ يعني: أنّها دخلَت جابرةً للضّعفِ العَارضِ لِلفعلِ بسببِ تأخُّرِهِ عن مَفعولِهِ، ونحوه قوله: ﴿لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [يوسف: 43]، وتقولُ: لكَ ضربتُ[3]. وبذا فهي زِيدَتْ للتّوكيدِ، كقولِهِ: ﴿رَدِفَ لَكُم﴾ [النمل: 72]، وقد يُزادُ حرفُ الجرِّ تَوكيدًا، وإنْ كانَ مُستغنًى عنهُ، يُقالُ: ألقى يدَهُ، وبيدِهِ[4]. وفيها أوجهٌ[5]؛ أحدُها: الفعلُ مَحمُولٌ على المَصدرِ؛ أي: لربِّهِم رهبتُهُم. والثّاني: لمّا تَقدَّمَ المفعولُ؛ ضَعُفَ عملُ الفعلِ، فعُدِّيَ باللّام. والثّالث: أي: لأجلِ ربِّهِم، والمفعولُ مَحذوفٌ[6]، فهي لامُ العلّةِ أو التّعليلِ، والتّقدير: يَرهبونَ مَعاصي اللّهِ لربِّهِم لا للرِّياءِ والسُّمعَةِ[7].

لَامـا التّعليلِ والتَّقويَةِ زِيدتا للتّوكيدِ، ولكلٍّ منهما أثرٌ

سِرُّ تقديمِ (الهُدَى) على (الرَّحمَةِ):

هِدايةُ النّاسِ ابتداءً، ودخولُهم تحتَ أنوارِ آياتِهِ تعالى، وظلالِ شرائطِ هداياتِهِ، سببُ إنزالِ فيوضاتِ رحماتِهِ، ومدادِ بركاتِهِ، كما أنَّ الإنكارَ والجُحودَ سَببٌ في مَنعِ الرَّحمَةِ، فضلًا عن أنَّ الأصلَ في تبليغِ الأديانِ تقديمُ أحكامِها، وقوانينِها، وسُننِها، ونواميسِها؛ ليكونَ النّاسُ على بيّنةٍ، فَيهتدُوا أو يضلُّوا.

الـهُـدَى بيانُ الـحَـقِّ في الاعـتـقـادِ، والرَّحمَةُ الإرشادُ إلى الـخيرِ مِنَ الأعمالِ

الرَّحمَةُ مَجازٌ في الإرشادِ بطريقِ ذكرِ اسمِ المُسبَّبِ وإرادةِ السَّببِ؛ إذِ الإرشادُ سَبَبٌ لِنَجاةِ الخَلقِ عن ظُلماتِ الجهلِ والضّلالِ إلى نورِ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/276.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/122.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/163، والآلوسي، روح البيان: 3/249.
(4) الواحديّ، التّفسير الوسيط: 2/414.
(5) ضعّفَ أبو حيّان الوجهَ الأوّلَ؛ لأنّ فيه حذفَ المصدرِ وإبقاءَ معمولِهِ، وهو لا يجوزُ عندَ البصريّين إلاّ في الشّعر. وأيضًا فهذا التّقديرُ يُخرِجُ الكلامَ عنِ الفصاحةِ. ينظر: أبو حيّان، البحر المحيط: 4/396.
(6) الكرمانّي، غرائب التّفسير: 1/424.
(7) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/36، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/276.

العلم والإيمانِ. وبذا يَحملُ الهُدَى على بيانِ الحَقِّ في الاعتقاداتِ، والرَّحمَة على الإرشادِ إلى الخيرِ مِنَ العملياتِ[1]. وبيانُ حقِّ الاعتقاداتِ مُقدَّمٌ على خيراتِ الأعمالِ؛ لكونِها دليلها، وسبيل سَلامةِ سُلوكِها.

نُكتَةُ تقديمِ المفعولِ في: ﴿لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾:

اختصاصُ الرَّهْبةِ منهُ تعالى وحدَهُ؛ لأنّه لا ضارَّ ولا نافعَ إلّا هو

وتقديمُ المفعولِ في ﴿لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾، يحملُ مَعْنَى الاختصاصِ والقَصرِ مثلَما قالَ الحَقُّ في فاتحةِ الكتابِ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ [الفاتحة: 5]؛ أي: خَصَصناكَ بالعبادةِ، وقَصَرنَاها عليكَ سُبحانَكَ، فلا تتعدَّى إلى غيرِكَ. فالتَّخصيصُ في الآيةِ يدُلُّ على أنَّ العبدَ لا يَرْهبُ أحدًا غيرَ اللهِ، وأنَّ الرَّهبةَ خالِصةٌ للهِ، وليسَت رياءً، ولا سُمعةً، ولا لقصدِ الثَّناءِ[2].

فائِدةُ الضّميرِ ﴿هُمْ﴾ في قولِه: ﴿هُمْ لِرَبِّهِمْ﴾:

وأفادَ الضَّميرُ ﴿هُمْ﴾ دلالةَ قَصرِ الرَّهبةِ عليهِم في الآيةِ، فَضلًا عَن مَلمَحِ التَّوكيدِ الّذي خَرَجَ إليهِ، وأفَادَهُ.

عِلّةُ تخْصيصِ أهلِ الرّهْبةِ بالذّكرِ، والتَّعبيرُ بالمُضارعِ:

يُقصدُ بأهلِ الرّهْبةِ المُنْتَفعونَ بآياتِ الكتابِ

وإنّما خُصَّ أهلُ الرَّهبةِ بالذِّكرِ؛ لأنّهُم هُمُ المُنتَفِعونَ بآياتِ الكتابِ، فالعبدُ إذا رَغبَ إلى اللهِ بصدقِ الطَّلبِ، وإلى الجَنّةِ بحُسنِ العملِ، ورَهَبَ مِن أليمِ عذابِ فرقتِهِ والانقطاعِ ومِن دخولِ النّارِ؛ فقد أخذَ بالخوفِ والرّجاءِ ووَصَلَ بهما إلى ما هوى، فالخشيةُ إنّما تنشأُ عنِ العلمِ بصفاتِ الحَقِّ سبحانَهُ، وعَلامَةُ خشيةِ اللهِ تعالى تركُ الدُّنيا، والخَلقِ، ومُحاربةُ النَّفسِ والشَّيطانِ، قالوا: رهبوتٌ خيرٌ مِن رحموتٍ؛ أي: لأن تُرهَبَ خيرٌ مِن أنْ تُرحَمَ؛ وذلك لأنَّ التّخليةَ قبلَ التّحليةِ[3]. وعبَّرَ عنهُم بصيغةِ المُضارعِ للدّلالةِ على تجدُّدِ فِعلِ الرَّهبةِ منهُم لِربِّهِم، واستمرارِهِم عليها.

---

(1) القونويّ، حاشيَته على تفسير البيضاوي: 8/512.

(2) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 7/4372.

(3) الآلوسي، روح البيان: 3/249.

﴿وَٱخۡتَارَ مُوسَىٰ قَوۡمَهُۥ سَبۡعِينَ رَجُلٗا لِّمِيقَٰتِنَاۖ فَلَمَّآ أَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ قَالَ رَبِّ لَوۡ شِئۡتَ أَهۡلَكۡتَهُم مِّن قَبۡلُ وَإِيَّٰيَۖ أَتُهۡلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآۖ إِنۡ هِيَ إِلَّا فِتۡنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهۡدِي مَن تَشَآءُۖ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَاۖ وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡغَٰفِرِينَ ١٥٥﴾ [الأعراف: 155]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

المناسبةُ بين أخذِ الألواح، واختيارِ النّقباءِ، ثمّ الاحتماءِ من الرّجفةِ بالتّوبةِ

الآيةُ المُبارَكةُ تَتمَّةٌ لِشرحِ أحوالِ بني إسرائيلَ، وهي شُرُوعٌ في بيانِ كيفيَّةِ استدعاءِ التَّوبةِ، وكيفيَّةِ وُقُوعِها[1]. فلمّا فَرَغَ سُبحانَهُ من ذكرِ الوَعدِ بالميقاتِ المَقصُودِ به سَعيُ الكَليم عليه السلام فيما يَهدِيهم إلى صراطِ اللّهِ، وذَكَرَ سَعيَهُم فيما أضَلَّهم عنِ الطَّريقِ باتّخاذِهم العِجلَ، وكانَ خِتامُ ذلكَ مَا بَدَا من مُوسى عليه السلام مِنَ الشَّفقةِ على أخيهِ، ثمّ على الكافَّةِ بأخذِ الألواحِ عندَ الفَراغِ ممّا يَجِبُ مِنَ الغضبِ للّهِ، رَدَّ الكَلامَ على ذِكرِ شيءٍ فَعَلَهُ في الميقاتِ، مُرادٌ به عِصمتهُم في صراطِ اللّهِ بنَقلِهم من علمِ اليَقينِ إلى عَينِ اليَقينِ، بل حَقِّ اليقينِ شَفَقَةً عَلَيهم وَرَحمَةً لَهُم؛ لِيكونَ إخبارُهُم عمَّا رَأوا مُؤَيِّدًا لِمَا يُخبِرُ به، فَيَكونُ ذَلِكَ سَبَبًا لِحفظِهم من مِثلِ مَا وَقَعُوا فيهِ من عِبَادَةِ العِجلِ[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَٱخۡتَارَ﴾: الخَاءُ واليَاءُ والرَّاءُ، أَصلُهُ العَطفُ والمَيلُ، ثمَّ يُحمَلُ عَلَيهِ. فَالخَيرُ: خِلَافُ الشَّرِّ؛ لأَنَّ كُلَّ واحدٍ يَميلُ إِلَيهِ، وَيَعطِفُ على صَاحِبِهِ[3]. والخَيرُ: ما يَرغَبُ فيهِ الكلُّ، مِنَ الشَّيءِ النَّافِعِ،

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/276، والآلوسي، روح المعاني: 9/71.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 3/120.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (خير).

وضِدُّهُ: الشَّرُّ. والاختيارُ أخذُ ما يُرَى أنّه خَيرٌ[1]؛ بوصفِهِ تَمييزًا للمَرغُوبِ مِن بَينِ ما هُوَ مَخلُوطٌ، مِن مَرغُوبٍ وضِدِّهِ[2]. وهو معنى اللّفظةِ في الآيةِ الكريمةِ.

2) ﴿ٱلسُّفَهَآءُ﴾: السِّينُ والفَاءُ والهَاءُ، أَصلٌ واحِدٌ، يدُلُّ عَلَى خِفَّةٍ، وحَرَكةٍ، وسَخَافَةٍ، ونَزَقٍ، واضطرابٍ، وخُسرانٍ، وجَهلٍ، وطَيشٍ، وعدمِ استقامةٍ. وهو قِيَاسٌ مُطَّرِدٌ. يُقَالُ: ثَوبٌ سَفِيهٌ؛ أَي: رَدِيءُ النَّسجِ. ويُقَالُ: تَسَفَّهَتِ الرِّيحُ؛ إِذَا مَالَتْ[3]. ومعنى السَّفيه: الخفيفُ العَقل. فالسَّفَهُ: نقيضُ الحِلمِ، وهو: أَن تَجهَلَ الحَقَّ، فلا تَرَاهُ حَقًّا، وسَفِهَ حلمُهُ، ورأيُهُ، ونفسُهُ؛ إذا حملَهَا على أمرٍ خَطَأ[4]، ويُستَعمَلُ في خِفَّةِ النّفسِ بسببِ نُقصَانِ العَقلِ، وفي الأمورِ الدُّنيويّةِ والأخرويّةِ[5]. وليسَ في القرآنِ مِنَ التّركيبِ إلَّا مَا هو بمعنى خفّةِ العقلِ أو ضعفِهِ[6]. وخفّةُ العقلِ وَصفٌ شَاملٌ لكلِّ ما وَرَدَ في أصلِ مَعْنَى اللّفظةِ.

3) ﴿فِتْنَتُكَ﴾: الفَاءُ والتَّاءُ والنُّونُ أَصلٌ صَحِيحٌ يدُلُّ على الابتلاءِ، والامتِحَانِ، والاختِبَارِ، وهو جِمَاعُ مَعْنَى الفِتنَةِ في كَلامِ العَرَبِ. وأَصلهَا مأخُوذٌ مِن قَولِكَ: فَتَنْتُ الفِضّةَ والذَّهَبَ إذا أذبتَهُما بالنَّارِ؛ لِيتميّزَ الرَّدِيءُ مِنَ الجَيِّدِ، ولِتنظرَ مَا جودتهُ[7]. واستُعمِلَ في إدخالِ الإنسانِ النَّارَ. فَأُطْلِقَ تارةً على ما يحصُلُ عنهُ العَذابُ فَيُستَعملُ فيهِ، وتارةً في الاختبارِ، وجُعِلَتِ الفِتنةُ كالبَلاءِ في أنَّهما يُستَعمَلانِ فيما يُدفَعُ إليهِ الإنسانُ مِن شِدَّةٍ ورَخاءٍ، وهُما في الشِّدَّةِ أظهَرُ مَعنًى، وأكثَرُ استِعمالًا[8]. ومِن هُنا فمعنى ﴿فِتْنَتُكَ﴾ في الآيةِ الكريمةِ: اختبارُكَ وابتلاؤُكَ[9].

المَعْنى الإجْماليُّ:

يُخبرُ اللّهُ في الآيةِ أَنَّ مُوسى عليه السلام اختارَ مِن خيارِ قومِهِ سَبعينَ رَجُلًا؛ لِيَذهَبَ بهم إلى مَوضِعِ عبادةٍ وابتهالٍ ودُعاءٍ، فيكون منهُ ومنهُم اعتِذارٌ إلى اللّهِ سبحانَهُ مِن خطأِ

(1) الرّاغب، المفردات: (خير).
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/123.
(3) ابن دريد، جمهرة اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن الأثير، النّهاية: (سفه).
(4) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة: (سفه).
(5) الرّاغب، المفردات: (سفه).
(6) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (سفه).
(7) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، والجوهريّ، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (فتن).
(8) الرّاغب، المفردات: (فتن).
(9) الواحديّ، الوسيط: 2/415.

بني إسرائيلَ في عبادةِ العِجلِ، وهناك أخذَتهُم الرّجفةُ؛ لأنَّهُم لم يُفارِقوا قومَهُم حينَها، ولم ينهوهُم عن هذا المُنكَرِ، أو لأنّهُم قالُوا: يا مُوسى، أَرِنَا اللّهَ جَهرَةً، فَتَجرؤوا على اللّهِ جراءَةً كبيرةً، وأساؤوا الأدبَ معَهُ، ولمّا رأى مُوسى عليه السلام ذلك دعا ربَّهُ استعطافًا أن يكونَ إهلاكُهُم قبلَ ذلك؛ لكي لا يُتَّهمَ في قتلِهِم، وألَّا يُهلِكَهُم بفعلِ الجهّالِ خفيفي العَقلِ. فما محنةُ عَبَدَةِ العِجلِ إلّا فتنةٌ منكَ تُضِلُّ بها مَن سَلَكُوا طريقَ الشّرِّ، وتَهدي مَن شاءَ هِدايتَهُ، أنت وليُّنا وناصرُنا، فاغفرْ ذنوبَنا، وارحمْنا برحمتِكَ، وأنتَ خيرُ مَن صَفَحَ عَن جُرْمٍ، وسَترَ عَن ذَنبٍ[1].

اعـتـذارُ مـوسَى والـنُّـقـبـاءِ إلى اللهِ تعالى، عمَّا فعلَهُ السّفهاءُ، وطـلـبُ أمـانِـه وغُفرانِه

مَوضِعُ العِبرَةِ في هذهِ القِصَّةِ هُوَ التَّوَقِّي مِن غَضَبِ اللّهِ، وخَوفُ بَطشِهِ، وبيانُ مَقَامِ الرُّسُلِ مِنَ الخَشيَةِ[2].

وتُرشِدُ الآيةُ الكريمةُ إلى أنَّ كلَّ سلوكٍ يُنافي الشّرعَ فهو مِنَ السَّفهِ المَذموم، وصاحبُهُ يُوصَفُ بأنّهُ سَفيهٌ، وأنَّ الهِدايةَ والإضلالَ كليهما بيدِ اللّهِ تعالى، فَعَلَى العبدِ أن يَطلبَ الهِدايةَ مِنَ اللّهِ تعالى، ويسألَهُ ألَّا يُضلَّهُ.

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

العُدولُ إلى الوصْلِ في الآيةِ الكريمةِ:

عَـطـفُ قِـصَّـةِ المَوعظةِ والعِبرةِ على مَثيلَتِها

عُطِفَتْ جُملَةُ: ﴿وَٱخۡتَارَ مُوسَىٰ﴾، على جُملَةِ: ﴿وَٱتَّخَذَ قَوۡمُ مُوسَىٰ﴾ [الأعراف: 148] عَطْفَ القِصَّةِ على القِصَّةِ؛ لأَنَّ هذه القِصَّةَ أَيضًا مِن مَوَاقِعِ المَوعِظَةِ والعِبرَةِ بَينَ العِبَرِ المَأْخُوذَةِ مِن قِصَّةِ مُوسَى مع بني إسرائيلَ، فإنَّ في هذه عِبرَةً بِعَظَمَةِ اللّهِ تعالى ورَحمَتِه، ودُعَاءُ مُوسَى بِما فيهِ جُمَّاعُ الخَيرَاتِ، والبِشارةُ بِمُحَمّدٍ ﷺ ومِلَاكُ شَرِيعَتِهِ[3].

(1) الثّعالبيّ، الجواهر الحسّان: 3/81، ولجنة من علماء الأزهر، المنتخب منَ التّفسير، ص: 231.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/125.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/123.

دَلالةُ فعْلِ ﴿وَٱخۡتَارَ﴾ في الآيةِ:

بناءُ الافْتِعالِ للتّمْييزِ، وماضِيه يُفيدُ وقوعَه وتحقُّقَه

(اختارَ) هو زِنَةُ افتَعَل، صيغةُ تَكلُّفٍ مِن لفظِ الخَيرِ؛ أي: اجتَهدَ في أخذِ الخيارِ. يُقالُ: اختارَ الشّيءَ؛ أي: أخذَ خيرَهُ، وخيارَهُ، وعليهِ يكونُ بناءُ الافتِعالِ في مُفتَتَحِ الآيةِ الكريمةِ للتّمييزِ كانتخبَ، واصطَفى[1]. والتَّعبيرُ عنهُ بصيغةِ الماضي دلالةٌ على وقوعِهِ وتحقُّقِهِ.

بَلاغةُ التّضْمينِ في الفعْلِ: ﴿وَٱخۡتَارَ﴾:

إعطاءُ مَعنَى إخراجِ الشّيءِ مِنَ الشّيءِ، كأنّهُ نَخَلَ قومَهُ ومَيّزَهُم

الفعلُ ﴿وَٱخۡتَارَ﴾ أصلُهُ أن يَتعدَّى بحرفِ الجرِّ؛ لأنّهُ يتضمَّنُ إخراجَ شيءٍ مِن شيءٍ، وجاءَ مَحذوفًا في هذهِ الآيةِ الكريمةِ؛ لِتضمُّنِ الفعلِ مَعنى فعلٍ غيرِ مُتعدٍّ، كأنّهُ نَخَلَ قومَهُ، وميَّزَهُم، وسَبَرَهُم، فمِن هَهُنا أسقطَ حرفَ الجرِّ كما سَقَطَ مِن: "أمرتُكَ الخيرَ"؛ أي: ألزمتُكَ، وكلَّفتُكَ؛ لأنّ الأمرَ إلزامٌ وتكليفٌ. ومنه: تَمرونَ الدّيّارَ؛ أي: تَعدُونها، وتُجاوزونها. ومنه: رَحِبَتْكَ الدِّيارُ؛ أي: وَسِعَتكَ[2].

دَلالةُ التّعْديةِ للفعلِ ﴿وَٱخۡتَارَ﴾ إلى مفعولَيْن:

في تَعْديةِ (اختارَ) بالحرفِ مَجازٌ بنقْلِ حُكمِ القومِ الأصْليِّ إلى حُكمٍ ليسَ لَها

يَتَعَدَّى الفعلُ ﴿وَٱخۡتَارَ﴾ إلى مَفعولَين؛ أوّلُهُما: ﴿سَبۡعِينَ﴾، وثانيهما: المجرورُ بـ"مِن"، المَحذوفةِ هنا في الآيةِ، وأَوصَلَ الفعلَ بالمَفعولِ الثّاني دونَ حرفِ الجرِّ؛ والأصلُ: "مِن قومِهِ"[3]، وهو مَجازٌ؛ حيث نُقِلَ حُكمُ كلمةِ ﴿قَوۡمَهُۥ﴾ الّذي كانَ لها، وهو الجَرُّ، إلى حُكمٍ ليسَت هي بحقيقةٍ فيهِ. فالأصلُ: واختارَ مُوسى مِن قومِهِ، فالحُكمُ الّذي يَجِبُ لِقومِهِ في الأصلِ هوَ الجَرُّ، والنَّصبُ فيه مَجازٌ[4].

سِرُّ حذْفِ حرفِ الجرِّ في السِّياقِ:

السَّبعونَ رَجُلًا، كانُوا بمَنزِلَةِ القومِ أجْمعِهِم

نُصِبَ ﴿قَوۡمَهُۥ﴾ على حَذفِ حَرفِ الجَرِّ، والتَّقديرُ: واختَارَ مِن

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 15/14، والبقاعيّ، نظم الدُّرر: 3/121، والقونويّ، حاشيَته على تفسير البيضاوي: 8/513، ومحمد رضا، تفسير المنار: 9/185، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/123.

(2) ابن القيّم، بدائع الفوائد: 2/291، والإندونيسّي، الشّامل في بلاغة القرآن: 1/429.

(3) القونويّ، حاشيَته على تفسير البيضاوي: 8/513، والآلوسي، روح المعاني: 9/71.

(4) الإندونيسّي، الشّامل في بلاغة القرآن: 1/429.

قَومِهِ، وحَذفُ الجَارِّ مِنَ المُتَعَلِّقِ الَّذي هو في رُتبَةِ المَفعُولِ الثَّاني شَائِعٌ في ثلاثةِ أفعالٍ؛ هي: اختَارَ، واستَغفَرَ، وأَمَرَ، ومِنهُ: أَمَرتُكَ الخَيرَ. ويَجوزُ إعرابُ ﴿سَبْعِينَ﴾ بدلًا مِن ﴿قَوْمَهُۥ﴾ بدلَ بعضٍ من كلٍّ[1]. ويجوزُ أن يكونَ التّقديرُ: واختارَ مُوسى قومَهُ لِميقاتِنا، وأرادَ بـ ﴿قَوْمَهُۥ﴾ السّبعينَ المُعتَبرِينَ مِنهُم؛ إطلاقًا لاسمِ الجِنسِ على ما هُو المَقصودُ منهُم، وقولُهُ: ﴿سَبْعِينَ رَجُلًا﴾ عَطفُ بَيانٍ[2]؛ أي: إنَّ السَّبعينَ رَجلًا إنّما كانُوا مُمثِّلِينَ لِقومِ مُوسى عليه السلام، فكانُوا بمَنزِلَةِ القومِ أجمعِهِم، ويَجوزُ على هذا أنْ يكونَ ﴿سَبْعِينَ﴾ بدلَ اشتِمالٍ[3]، مع لحاظِ أنَّ وجهَ البدليّةِ ضعّفَهُ عددٌ مِنَ العلماءِ.

عِلَّةُ طرْحِ حرفِ الجرِّ جوازُ الإضافةِ مع بقاءِ المَعنى:

حذْفُ حرفِ الجرِّ فيه دليلٌ على مَزيدِ مُبالَغةٍ

يرى الأزهريُّ أنَّ (مِنْ) طُرِحَتْ؛ لأنَّهُ مَأخوذٌ مِن قَولِكَ: هَؤُلَاءِ خَيرُ القَومِ، وخَيرٌ مِنَ القَومِ. فلمَّا جازَتِ الإضَافَةُ مَكانَ (مِنْ)، ولم يتغَيَّرِ المعنَى، استجَازُوا أَن يَقُولُوا: اخترتُكُم رَجُلًا، واخترتُ مِنكُم رَجُلًا[4]. وذَكَرَ الزَّركشيُّ أنَّ حذفَ (مِن) إنّما يَحسُنُ إذا كانَ فيهِ زيادةُ مُبالَغةٍ. والمَحذوفاتُ في القرآنِ على هذا النَّمَطِ[5]، وكأنَّهُ باختيارِهِ السَّبعينَ رَجُلًا اختارَ قومَهُ كلَّهُم.

فائِدةُ تقديمِ المجرورِ، وتأخيرِ المَفعولِ:

دفْعُ تَوهُّمِ كونِ المَجرورِ في مَوضِعِ النّعتِ للسَّبعينَ

قَدَّمَ المجرورَ أصلًا ﴿قَوْمَهُۥ﴾ على المَفعولِ الصَّريحِ: ﴿سَبْعِينَ﴾؛ لأنّ الاختيارَ في بابِ فعلِ الاختيارِ تقديمُ المجرورِ، وتأخيرُ المفعولِ المُجرَّدِ عن حرفِ الجرِّ، فتقول: (اخترتُ مِنَ الرِّجالِ زيدًا)، ويَجوزُ فيه التّأخيرُ، فإذا أسقطتَ الحرفَ لَم يحسنْ تأخيرُ ما كانَ مَجرورًا

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/123.
(2) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 15/15، وابن عادل، اللّباب: 9/332.
(3) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 1/415.
(4) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (خور - خير).
(5) الزّركشّي، البرهان: 2/274.

بهِ في الأصلِ، فيقبح أن تقولَ: (اخترتُ زيدًا الرِّجال)، و(اخترتُ سبعينَ الرِّجال)؛ أي: مِنَ الرِّجالِ؛ لِما يُوهِمُ مِن كونِ المَجرورِ في مَوضِعِ النَّعتِ لِلسّبعينَ، وأنّهُ ليسَ في مَوضِعِ المفعولِ الثّاني[1].

قُدِّمَ المَجرورُ المُعرَّفُ بالإضافةِ ﴿قَوْمَهُۥ﴾ أيضًا لِلاهتمامِ بهِ، بوصفِهِ المُخبر عنهُ، كما لَزِمَ في تقديمِ المجرورِ الّذي هو خبرٌ عنِ النّكرةِ مِن قولِكَ: في الدّارِ رَجلٌ؛ لِكونِ المَجرورِ مَعرفة، وكأنّه المُخبرُ عنهُ، فإذا حذفتَ حرفَ الجرِّ لم يكنْ بدٌّ مِنَ التّقديمِ للاسمِ الّذي كانَ مَجرُورًا، نحو: اخترتُ الرِّجالَ عشرةً؛ والحكمةُ في ذلكَ: أنَّ المَعْنَى الدَّاعي الّذي مِن أجلِهِ حُذِفَ حرفُ الجرِّ هو مَعنى غير لفظٍ، فلم يَقوَ على حذفِ حرفِ الجرِّ إلّا مع اتّصالِهِ بهِ وقُرْبِهِ منهُ[2].

ولأنّ القليلَ الّذي اختِيرَ مِنَ الكثيرِ إذا كانَ ممّا يُتَبَعَّضُ، ثمّ وَلِيَ الفعلَ الّذي هو اخترتُ، تُوهِّمَ أنّهُ مُختارٌ منهُ أيضًا؛ لأنَّ كلَّ ما يُتَبَعّضُ يَجوزُ فيه أن يُختارَ وأن يُختارَ منهُ، فألزمُوهُ التّأخيرَ، وقدَّمُوا الاسمَ المُختارَ منهُ، وكانَ أولى بذلِكَ لِمَا سَبَقَ مِنَ القولِ، فإنْ كانَ ممّا لا يُتَبَعّضُ، نحو: زيد وعمرو، فربَّما جازَ على قلّةٍ في الكلامِ[3].

دَلالةُ الحذْفِ الّذي اقتَضَاهُ حَالُ الإيجازِ في الحِكايَةِ:

بِنَاءُ نَظمِ الكَلامِ على ذِكرِ المَفعولِ الثّاني (القَوم) ابتِداءً دُونَ الاقتِصارِ على المَفعولِ الأوّلِ: ﴿سَبْعِينَ﴾ اقتَضَاهُ حَالُ الإيجازِ في الحِكايَةِ، وهو مِن مَقاصِدِ القُرآنِ[4]؛ بتأخيرِ المَفعولِ الأوّلِ إيجازًا لطولِ ذيلِهِ؛ أي: ﴿رَجُلًا﴾، فضلًا عَنِ الاعتناءِ بالمَفعولِ الثّاني المُقدَّمِ ﴿قَوْمَهُۥ﴾، والاهتمامِ بهِ كما ذُكِرَ، والتّشويقِ إلى المُؤخَّرِ[5].

الاقْتِصارُ على ما يُفيدُ ويُغني عن غيرِه، من مقاصدِ الأُسلوبِ القرآنيِّ

(1) ابن القيّم، بدائع الفوائد: 2/291.
(2) ابن القيّم، بدائع الفوائد: 2/291.
(3) ابن القيّم، بدائع الفوائد: 2/291 - 292.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/123.
(5) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/276، والقونويّ، حاشيَته على تفسير البيضاوي: 8/513.

الغايةُ مِنَ التَّعْبيرِ بلفْظِ (الميقَاتِ)، والفَرقُ بينَهُ وبينَ (الوقتِ):

قُصِدَ إلى اختيارِ الميقاتِ المُبالَغةِ، ولِكونِهِ أخصَّ منَ الوقتِ

و﴿لِّمِيقَٰتِنَا﴾ وزنُهُ مِفعَال مَصدرٌ ميميٌّ، عُبِّرَ بهِ عنِ اسمِ الذّاتِ للمُبالَغةِ[1]، ومعناهُ في الآيةِ: ما وقَّتَهُ لهُ مِنَ الوَقتِ وضَرَبَهُ لهُ[2]. وقد مَضَى الحديثُ في [الأعراف: 143] عن لفظِ الميقَات، والفرقُ بينَهُ وبينَ الوَقتِ مع كونِهما مِن جنسٍ واحدٍ، وخلاصتُهُ: أنَّ الميقَاتَ ما قُدِّرَ لِعملٍ، والوَقتُ قَد لا يَتقدَّرُ لِعملٍ[3]. فالميقَاتُ أخصُّ مِنَ الوَقتِ[4]؛ لأنَّهُ يَتضمَّنُ الزّمانَ مُقدَّرًا بعملٍ، أو مُقرَّرًا لهُ، مُتضمِّنًا المكانَ.

تَوجيهُ معنى اللّامِ في قَولِهِ: ﴿لِّمِيقَٰتِنَا﴾:

اللّامُ للاختصاصِ، أو بمعنى عندَ، أوِ التّعليلِ

مَضَى الحديثُ عن معنى اللّام في قَولِهِ: ﴿لِمِيقَٰتِنَا﴾ [الأعراف: 143]، ودلالةُ ورودِهِ هناك تُشابِهُ دلالتَهُ هنا، فَمَعْنَى اللّام يَحتملُ الاختصاصَ، فكأنَّهُ قِيلَ: واختصَّ اختيارُهُ لميقاتِنا، أو اختارَهُم مُخصِّصًا بهم الميقاتَ، كقولِكَ: اختيرَ لكَ هذا. ويجوزُ أن تكونَ بمعنى عند؛ والمعنى: فلمَّا اختارَ مُوسى سَبعينَ رجُلًا اختيارًا خاصًّا بالميقَات؛ أي: حاصِلًا عندَهُ لا تأخيرَ فيهِ، ويَجوزُ جَعلُ اللّامِ للأَجلِ والعلَّةِ؛ أي: جاءَ لأجلِ ميقاتِنا[5].

عِلّةُ العُدولِ مِنَ الوصْلِ إلى الفصْلِ:

مَجيءُ الكلامِ على طريقِ المُحاوَرةِ، يُثْري السّياقَ، ويُرقّي الدّلالةَ

عَدَلَ إلى الفصلِ في قَولِهِ: ﴿قَالَ رَبِّ﴾ جوابًا لـ ﴿فَلَمَّآ﴾ لوقوعِهِ في طريقِ المُحاورةِ، وجوابُهُ في الآية [156]: ﴿قَالَ عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنۡ أَشَآءُۖ وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖۚ﴾.

بَلاغةُ النّظْمِ في: ﴿فَلَمَّآ أَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ﴾:

صِيغَ نَظمُ الكلامِ فيها على نَحوِ ما صِيغَ عليهِ قَولُهُ: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ

(1) قباوة، المفصّل، ص: 605.
(2) الزَّمخشريّ، الكشَّاف: 2/151.
(3) الماورديّ، النّكت والعيون: 2/257.
(4) محمد رضا، تفسير المنار: 9/105.
(5) السّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 5/475.

لِمِيقَٰتِنَا﴾ [الأعراف: 143]، وقولُهُ: ﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِيٓ أَيۡدِيهِمۡ﴾ [الأعراف: 149]، وقولُهُ: ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ غَضۡبَٰنَ أَسِفٗا﴾ [الأعراف: 150]؛ إذ جَعَلَ أَخْذَهُمُ الرّجفةَ كالأمرِ الّذي وَقَعَ الإخبارُ عنهُ على طريقِ الأسلوبِ المُبينِ[1].

التّعبيرُ عنِ الرّجفةِ على طريقِ الأُسلوبِ المُبينِ

بَلاغةُ المَجازِ اللُّغويِّ والعقليِّ في: ﴿أَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ﴾:

فالأَخذُ مَجازٌ لغويٌّ في الإصابَةِ الشَّديدَةِ المُتَمَكِّنَةِ تَمَكُّنَ الآخِذِ مِنَ المَأخُوذِ؛ أي: أَخْذَ قَهرٍ وغَلَبةٍ[2]؛ حيثُ استُعيرَ الأخذُ للإصابةِ الشّديدةِ، أو الإهلاكِ، والجامعُ الاستيلاءُ، فآخِذُ الشّيءِ يُسيطرُ عليه، ويُواريهِ عنِ الأنظارِ، فلا يُرَى له وُجُودٌ[3].

الآخِذُ هو اللهُ حقيقةً، والرَّجفةُ سَببٌ يقضِي به الله إذا شاءَ

وهو مَجازٌ عقليٌّ بإسنادِ الأخذِ - بِمَعْنى الإهلاكِ - إلى الرَّجفةِ بعلاقةِ السَّببيَّةِ؛ لأنّ الآخذَ هو اللّهُ حقيقةً، والرَّجفةُ سَببٌ، والغايةُ تهويلُ شأنِ الرّجفةِ وتعظيمِها حتّى لكأنّها هي الّتي بَطَشَت بِهِم[4].

وعَبَّرَ الشّريفُ الرّضيُّ عن هذا المَجازِ بالاستعارةِ، قالَ: "والمُرادُ استعارةُ إهلاكِهِم بالرّجفةِ، كما يُقالُ: (أخذَهُ اللّهُ مِن مَأمنِه)؛ بمعنى: عاقبَهُ اللّهُ وأهلكَهُ؛ وذلك أنَّ المُعاقَبَ في الشّاهدِ يكونُ مَأخوذًا مُدفَعًا، ومُزلَزَلًا مُتعتَعًا"[5].

دَلالةُ الضَّميرِ في قولِهِ: ﴿أَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ﴾:

الضَّميرُ في: ﴿أَخَذَتۡهُمُ﴾ للسَّبعِين. فالظَّاهِرُ أَنَّ المُرادَ في هذه الآيَةِ هو حِكايَةُ حَالِ مِيقَاتِ المُناجَاةِ الثَّانيةِ الَّتي وَقَعَ فيها الاستِغفَارُ لِقَومِهِ، وأَنَّ الرَّجفَةَ المَحكِيَّةَ هنَا رَجفَةٌ أَخَذَتهُم مِثلُ الرَّجفَةِ الّتي أَخَذَتهُم في المُنَاجاةِ الأُولَى؛ لأَنَّ الرَّجفَةَ تَكُونُ مِن تَجَلِّي أَثَرٍ عَظِيمٍ مِن آثَارِ الصِّفاتِ الإلهيَّةِ، فإنَّ قَولَ مُوسى: ﴿أَتُهۡلِكُنَا بِمَا فَعَلَ

الضّميرُ عائدٌ للسّبعينَ، والمُرادُ حِكايَةُ حَالِ مِيقَاتِ المُناجَاةِ الثَّانيَةِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/113 - 125.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 3/121، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/125.
(3) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 1/415.
(4) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 1/415 - 416.
(5) الشّريف الرّضّي، تلخيص البيان، ص: 74.

﴿ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآۖ﴾ يُؤْذِنُ بأَنَّهُ يَعني بِهِ عِبَادَتَهُمُ العِجلَ، وحُضُورَهُم ذَلِكَ، وسُكُوتَهُم، وَهِي المَعنِيُّ بِقَولِهِ: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ﴾، وقد خَشِيَ مُوسَى أَنَّ تِلكَ الرَّجفَةَ مُقَدِّمَةُ عَذَابٍ، كَما كانَ مُحَمَّدٌ ﷺ يَخشَى الرِّيحَ أَن يَكُونَ مَبدَأَ عَذَابٍ[1]. ويَجوزُ أَن يَكونَ ذَلِكَ في المُناجاةِ الأُولَى: وأَنَّ قَولَهُ: ﴿بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآۖ﴾ يَعنِي بِهِ ما صَدَرَ مِن بني إسرائيلَ مِنَ التَّصَلُّبِ قَبلَ المُنَاجاةِ، كَقَولِهِم: ﴿لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ﴾ [البقرة: 61]، وسُؤَالِهِم رُؤيَةَ اللّٰهِ تعالى، لكِنَّ الظَّاهِرَ أَنَّ مِثلَ ذَلِكَ لا يُطلَقُ عليهِ (فَعَلَ)[2] في قَولِهِ: ﴿بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآۖ﴾[3].

سِرُّ التَّعبيرِ بلفْظِ الرّبِّ في السِّياقِ:

في صِفةِ الرُّبوبيّةِ معاني التّربيةِ والإنعامِ، وتنزيهُه أن يُؤمرَ كما يُؤمرُ الأنامُ

وقَصَدَ إلى لفظِ ﴿رَبِّ﴾ لِلدّلالةِ على أنّهُ المُحسِنُ إليهِ بأنواعِ الإحسانِ، المُتفضِّلُ عليهِ بأنواعِ الامتنانِ[4]، المُنعِمِ عليهِ بلُطفِ الرّعايةِ اصطفاءً وتكليمًا، وغيرِ ذلك، وهو ما يَقتضيهِ مَقامُ التّضرُّعِ والاستعطافِ، طَمَعًا في المَغفرةِ والرَّحمَةِ[5]. وقال الكَرمانيُّ: "كَثُرَ حذفُ (يا) في القرآنِ مِنَ الرَّبِّ تَنزيهًا وتَعظيمًا؛ لأنّ في النّداءِ طَرَفًا مِنَ الأمرِ، إذا قلتَ: يا زيدُ افعَلْ واصنَعْ"[6].

بَلاغةُ الحذْفِ في لفْظةِ ﴿رَبِّ﴾:

إشارةٌ إلى لَهْفةِ مُوسَى إلى غُفرانِ اللهِ ورحمتِهِ

وحذَفَ حرفَ النِّداءِ (يا) الدَّالّ على القُربِ، وحذفُهُ دلالةٌ على مَدى شعورِ مُوسى عليه السلام مِن قربِ اللّٰهِ تعالى منهُ، فحذفُ أداةِ النِّداءِ إشارةٌ إلى غايةِ القُربِ بالإحسانِ[7]. وحذَفَ الياءَ أيضًا مِن (ربّ) تخفيفًا، وفيه إشارةٌ إلى لَهفةِ مُوسى إلى غفرانِ ربِّهِ ورحمتِهِ.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/124.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/124.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/125.
(4) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 3/108.
(5) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 1/417.
(6) الكرمانّي، غرائب التّفسير: 1/400، والسّيوطيّ، الإتقان: 3/212.
(7) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 3/108.

تَوجِيهُ ﴿لَوْ﴾ ومعانِيها في الآيةِ الكريمةِ:

(لَوْ) تُستعملُ مَجازًا في التَّمَنِّي، أو على أصلِها حرفَ امتناعٍ لامتناعٍ

﴿لَوْ﴾ في قَولِه: ﴿لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم﴾ يَجُوزُ أَن تَكونَ مُستَعمَلَةً في التَّمَنِّي، وهو مَعنًى مَجازيٌّ ناشِئٌ من مَعنَى الامتِنَاعِ الَّذي هُوَ مَعنَى ﴿لَوْ﴾ الأَصليُّ، ومِنهُ قَولُ المَثَلِ: (لَو ذَاتُ سِوَارٍ لَطَمَتني)، إذ تَقديرُ الجَوابِ: لَو لَطَمَتني لكانَ أَهوَنَ عليَّ، وقد صُرِّحَ بالجَوابِ في الآيةِ؛ وهو: ﴿شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم﴾؛ أي: لَيتَكَ أَرَدتَ إهلاكَهُم؛ أي: السَّبعينَ الَّذينَ معَهُ. فَجُملَةُ ﴿أَهْلَكْتَهُم﴾ بَدَلُ اشتِمالٍ من جُملَةِ ﴿شِئْتَ﴾ من قِبَلِ خَطِيئَةِ القَومِ الَّتي تَسَبَّبَ عَنها الرُّجوعُ إلى المُناجاةِ. وعلى هذا التَّقديرِ في ﴿لَوْ﴾ لا يَكونُ في قَولِه: ﴿أَهْلَكْتَهُم﴾ حَذفُ اللَّامِ الَّتي مِن شَأنِهَا أَن تَقتَرِنَ بجوابِ ﴿لَوْ﴾[1]. ويَجوزُ أَن يَكُونَ حَرفُ ﴿لَوْ﴾ مُستَعمَلًا في مَعنَاهُ الأَصليِّ: مِنَ امتِنَاعِ جَوَابِه لامتِنَاعِ شَرطِه[2]. وفي كلا التَّوجيهين يبرزُ في قولِه: ﴿لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّـٰىَ﴾ مَلمَحُ شدَّةِ اللّجوءِ إلى اللّهِ من هولِ مَا حَصَلَ، فضلًا عَنِ التَّجرُّدِ من حولِ مُوسى عليه السلام وقوَّتِه إلى حَولِ اللّهِ وقُوَّتِه، وتمهيد لِمَعرفةِ حكمةِ اللّهِ فيما حَدَثَ لِلسّبعينَ المُختارينَ[3].

مُوجِبُ حَذْفِ اللَّامِ مِن جَوابِ ﴿لَوْ﴾:

الإهلاكُ مِن فِعْلِ اللَّهِ وَحدَهُ، ومُؤدَّاهُ الاعترافُ بالعفوِ، والتَّعريضُ بالطَّلبِ

فلَم يَقُلْ: (لَأَهْلَكتَهُم) باللّام، مع أَنَّ الغَالِبَ في جَوابِها الماضِي المُثبَتِ أَن يَقتَرِنَ باللَّام، نحوَ قولِه تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٣﴾﴾ [البقرة: 103]، فَحَذفُ اللَّام هُنا لِنُكتَةِ أَنَّ التَّلَازُمَ بَينَ شَرطِ لَو وجَوَابِها هُنا قَوِيٌّ لِظُهُورِ أَنَّ الإِهلاكَ من فِعلِ اللّهِ وَحدَهُ، فهو كقولِه تعالى: ﴿لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَـٰهُ أُجَاجًا﴾ [الواقعة: 70]. ويَكونُ المَعنَى اعترَافًا بِمنّةِ العَفوِ عَنهُم فيمَا سَبَقَ،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/125.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/126.
(3) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 1/416.

وتَمهيدًا لِلتَّعريضِ بِطَلَبِ العَفوِ عَنهُمُ الآنَ، وهو المَقصودُ مِن قَولِه: ﴿أَتُهۡلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ﴾؛ أي: إنَّكَ لَم تَشَأْ إهلاكَهُم حِينَ تَلَبَّسُوا بِعِبَادَةِ العِجلِ، فَلا تُهلِكهُمُ الآنَ[1].

بَلاغةُ التَّعبيرِ بـ﴿مِن﴾ و﴿قَبۡلُ﴾:

و﴿مِن﴾ لابتداءِ الغايةِ الزّمانيّةِ حرفُ جرٍّ، و﴿قَبۡلُ﴾ ظرفٌ مَقطوعٌ عنِ الإضافةِ؛ ولِذلِكَ بُنِيَ على الضّمِّ. ومعنى ﴿مِّن قَبۡلُ﴾؛ أي: قبلَ الاختيارِ، وأخذِ الرَّجفةِ[2]. ويبدو - واللّه أعلم - أنَّ القَصدَ مِن قطعِهِ عنِ الإضافةِ، وحَذفِ مُتعلِّقِه، كثرةُ مُخالفاتِهم فيما سَبَقَ، وإصرارِهم عليها، وكلُّها تَستحِقُّ الإهلاكَ. مع أنّ أغلبَ المُفسِّرينَ حَصَرَ الأمرَ باتّخاذِ العِجلِ، كما مرَّ ذكرُهُ.

اسْتِحقاقُهمُ الإهلاكَ، لكثرةِ مُخالفاتِهم، فيما سَبَقَ، وإصرارِهم فيما لَحِقَ

سِرُّ تفريقِ مُوسَى عليه السلام في الإهلاكِ بينَهُ وبينَهُم:

وإنَّما قالَ: ﴿أَهۡلَكۡتَهُم مِّن قَبۡلُ وَإِيَّـٰيَۖ﴾، ولَم يَقُل: (أَهۡلَكۡتَنَا)؛ لأنّ مَقصودَهُ عليه السلام التَّنصيصُ على هلاكِ كُلٍّ على حِدَتِه تعظيمًا لِلأمرِ، ففرَّقَ بينَ الإهلاكَينِ، وأيضًا فإنَّ مُوسى لم يَتعاطَ ما يَقتضي إهلاكَهُ بخلافِ قومِه، فإنَّ إهلاكَ السَّبعينَ لِأَجلِ سُكُوتِهم على عِبادَةِ العِجلِ، وإهلاكَهُ عليه السلام حينَ طَلَبَ منهُ تعالى الرّؤيةَ، أو قد يَكُونُ لِأجلِ أَلَّا يَشهَدَ هَلَاكَ القَومِ، قالَ تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا هُودًا﴾ [هود: 58] وَنَظَائِرُهَا كثيرَةٌ، وإنّما قالَ ذَلِكَ تَسليمًا منهُ لربِّهِ، فعطَفَ ضميرَهُ تنبيهًا على ذَلِكَ[3].

التَّفرقةُ بينَ الإهلاكَينِ باختلافِ الفِعلَيْن

أرادَ به عليه السلام التّذكيرَ بالعفوِ السّابقِ لاستجلابِ العفوِ اللّاحقِ؛ فإنَّ الاعترافَ بالذّنبِ والشُّكرَ على النِّعمةِ ممّا يَربِطُ العَتيدَ، ويَستَجلِبُ المَزيدَ؛ يعني: إنْ كنّا مُستَحِقِّينَ لِلإهلاكِ، ولم يكُنْ مِن مَوانعِهِ إلّا

وهو مِن بابِ التّذكيرِ بالعَفوِ السّابقِ، لاستِجلابِ العَفوِ اللّاحِقِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/126.
(2) ابن عادل، اللّباب: 9/335.
(3) السّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 5/475، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/125.

عَدَمُ مَشيئَتِكَ إيّاهُ، فَحَيثُ لَطَفْتَ بنا، وعَفَوتَ عنّا تِلكَ المُخالَفاتِ، فلا غروَ في أنْ تعفُوَ عنّا هذهِ المُخالَفةَ أيضًا[1].

وهو لِتسليتِهم، ولِلمبالَغةِ في وُقوعِ إهلاكِهم

وفيه تَنبيهٌ على أنَّ ذكرَهُ نفسهُ ﷻ إلى جنبِ إهلاكِهم لِتسليتِهم، ولِلمبالَغةِ في وُقوعِ إهلاكِهم لو سَبَقَ المَشيئةَ لَهُم، بخلافِ التَّمنِّي، فإنَّ تمنّيَ إهلاكِهِ قبلَ أن يَرَى ما رَأى فلهُ وَجهٌ؛ ولِذلِكَ ذكرَهُ في صورةِ الحَملِ على التَّمنِّي[2].

وهو تسليمٌ مِنهُ ﷻ لأمرِ اللهِ وقضائِهِ

وقولُهُ: ﴿وَإِيَّٰيَ﴾ مَعطوفٌ على الضَّميرِ في ﴿أَهۡلَكۡتَهُم﴾، وقد قالَ مُوسى ذلك تَسليمًا منهُ لأمرِ اللهِ وقضائِهِ، وتَواضُعًا، وإنْ كانَ لم يَسبقْ منهُ ما يُوجِبُ هلاكَهُ، بل الّذي سَبَقَ منهُ إنّما هوَ الطّاعةُ الكاملةُ للهِ ربِّ العالَمينَ[3].

بَلاغةُ الاستِفهامِ في: ﴿أَتُهۡلِكُنَا﴾:

استفهمَ للاستِعطافِ، أو على تأويلِ النَّفيِ والاستِبعادِ

نَقَلَ الواحديُّ عَنِ المُبرِّدِ أنّ الهمزةَ في قَولِهِ: ﴿أَتُهۡلِكُنَا﴾ لِلاستِعطافِ؛ أي: الدّعاء، والمعنى: لا تهلكْنا[4]. ونَقَلَ عن ابنِ الأنباريِّ أنّهُ استفهامٌ على تأويلِ الجحدِ (النّفي)، أرادَ: لستَ تفعلُ ذلك؛ أي: لا تهلكْنا بمَا فَعَلَ عبدةُ العِجلِ[5]، وقولُهُ يَحتملُ أيضا مَعنى الاستعطافِ، وإنْ كانَ بِمَعْنَى النّفي؛ أي: ألجأُ إليكَ يا مَولانا، ألّا تُهلِكَنا بذنْبِ غيرِنا[6]. ونَقَلَ العماديُّ عنِ المُبرِّدِ ما تقدَّمَ بتمامِهِ، ونَقَلَ عنِ ابنِ الأنباريِّ: أنَّ الهمزةَ لإنكارِ وُقُوعِ الإهلاكِ ثِقَةً بِلُطفِ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/277، والقونويّ، حاشيَته على تفسير البيضاوي: 8/514.

(2) القونويّ، حاشيَته على تفسير البيضاوي: 8/514.

(3) الآلوسي، روح المعاني: 9/74، وطنطاويّ، التّفسير الوسيط: 5/388.

(4) نَقَلَ القرطبيُّ عنِ المُبرِّدِ: أنّ المُرادَ بالاستفهامِ استفهامُ (استعظامٍ)، كأنّه يقولُ: لا تهلكْنا، وقد عَلِمَ مُوسى أنَّ اللهَ لا يُهلكُ أحدًا بذنبِ غيرِهِ، ولكنّه كقولِ عيسى: ﴿إِن تُعَذِّبۡهُمۡ فَإِنَّهُمۡ عِبَادُكَۖ﴾ [المائدة: 118].
يُنظر: القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 7/295.
ويبدو أنّه وَهْمٌ وَقَعَ فيه المُحقّقُ الفاضلُ، فأبدلَ الاستعطافَ بالاستعظامِ؛ لأنّ مَبنَى طلبِ عيسى على الاستعطاف وطلبِ المغفرة لهم بمنتهى التّأدُّبِ في خطابِ اللهِ تعالى، ودليلُ ذلك تتمَّتُها: ﴿وَإِن تَغۡفِرۡ لَهُمۡ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾، فضلًا عن إجماعِ النّقلِ عنه في كتبِ التّفسيرِ بلفظِ: (الاستعطاف).

(5) الواحديّ، الوسيط: 2/415.

(6) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 5/388.

اللّهِ[1] ﷺ، واستِبعادًا مِن أنْ يأخُذَ اللّهُ البريءَ بإثمِ الآثمِ[2]. وَذَكَرَ أبو حيّان: أنّهُ استفهامٌ على سبيلِ الإدلاءِ بالحُجّةِ في صيغةِ استعطافٍ وتذلُّلٍ[3]، وهو رَاجِعٌ إلى قولِ المُبرِّدِ.

اسْتَفهمَ لإظهارِ معنَى التَّفَجُّعِ

وهو مُستعمَلٌ في التَّفَجُّعِ؛ أَي: خشيةَ أَن يَشمَلَ عَذابُ اللّهِ مع القَومِ الّذين استَحَقُّوا العَذابَ مَن كَانَ مَعَ القَومِ المُستَحِقِّينَ، وإنْ لَم يُشَارِكْهُم في سَبَبِ العَذَابِ، كَما قالَ: ﴿وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً﴾ [الأنفال: 25]، وقَد خَشِيَ مُوسَى سُوءَ الظِّنَّةِ لِنَفسِهِ ولأَخِيهِ ولِلبراءِ مِن قَومِهِ أَن يَظُنَّهُمُ الأُمَمُ الَّتي يَبلُغُها خَبَرُهُم أَنَّهُم مُجرِمُونَ[4].

وهـو اسْتِفهامُ استعلامٍ عنِ الجَوازِ الحُكْمِيِّ

الاستفهامُ هنا: استعلامٌ أَتْبَعَ إهلاكَ المُختارِينَ، وهُم خيرُ بني إسرائيلَ، بما فَعَلَ غيرُهُم؛ إذ مِنَ الجائزِ في العقلِ ذلك، ألَا ترى إلى قولِهِ تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً﴾ [الأنفال: 25]، وقولِهِ ﷺ، وقد قِيلَ لهُ: «أنهلكُ وفينا الصّالِحونَ؟ قالَ: نَعم، إذا كَثُرَ الخَبثُ»[5]. ويُؤكِّدُهُ ابنُ عرفة بقولِهِ: "ليسَ هناك استفهامٌ عنِ الإهلاكِ؛ لأنّهُ قد وَقَعَ، والوَاقِعُ لا يُسألُ عنهُ؛ وإنَّما هو استفهامٌ عنِ الجَوازِ الحُكمِيِّ؛ معناه: أيَجوزُ في حكمِكَ أن تُهلكَ البريءَ بما فَعَلَ العاصي؟ وهذا جائزٌ عندَ أهلِ السُّنَّةِ، فإنّهُ يجوزُ عندَهُم أن يُعذِّبَ اللّهُ الطّائعَ، ويُعذِّبَ العاصي، وأفعالُ اللّهِ غيرُ مُعلَّلةٍ، وكلُّها بالنّسبةِ إليه حَسَنٌ"[6].

بيانُ جمْعِ الضَّميرِ في: ﴿أَتُهْلِكُنَا﴾:

اخْتلافُ أسبابِ الإهلاكِ

لأَنَّ هذا الإهلاكَ هُوَ الإهلاكُ المُتَوَقَّعُ مِن استِمرَارِ الرَّجفَةِ،

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/277.
(2) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 1/416.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/399.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/126.
(5) البخاريّ، الجامع الصّحيح، برقم: (7059)، ومُسلم، الصحيح، برقم: (2880)، وغيرهما.
(6) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/259.

وتَوَقُّعُهُ واحِدٌ في زَمَنٍ واحِدٍ، بِخِلافِ الإهلاكِ المُتَقَدِّمِ ذِكرُهُ، فَسَبَبُهُ مُختَلِفٌ، فَناسَبَ تَوزِيعَ مَفعُولِهِ[1].

دَلالةُ الاسْتِئنافِ في: ﴿أَتُهْلِكُنَا﴾:

تصويرُ كلامِ الحزينِ، الوَجِلِ، الطّامِعِ بالاسْتجابةِ

جُملَةُ: ﴿أَتُهْلِكُنَا﴾ مُستَأنَفَةٌ على طَرِيقَةِ تَقطِيعِ كَلامِ الحَزِينِ، الخَائِفِ، الوَجِلِ، السَّائِلِ؛ طَمَعًا بالاستجابةِ، وكَذلِكَ الحالُ في جُملَتَي: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ﴾ و﴿أَنتَ وَلِيُّنَا﴾[2].

إيثارُ لفْظِ ﴿ٱلسُّفَهَآءُ﴾، والتَّعْبيرُ بِهِ:

الطّلبُ في تخصيصِ الإهلاكِ بالسُّفهاءِ؛ إظهارًا لخِسَّةِ عُقولِهِم

وقد خَشِيَ مُوسَى أَنَّ اللَّهَ يُهلِكُ جَمِيعَ القَومِ بِتِلكَ الرَّجفَةِ؛ لأَنَّ سَائِرَ القَومِ أَجدَرُ بالإهلاكِ مِنَ السَّبعِينَ، وقد خَشِيَ مُوسَى أَن تَكُونَ تِلكَ الرَّجفَةُ أَمَارَةَ غَضَبٍ ومُقَدِّمَةَ إهلاكٍ، عُقُوبَةً على عِبادَتِهِمُ العِجلَ، فلِذَلِكَ قالَ: ﴿أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ﴾، فالسُّفَهاءُ هُمُ الَّذِينَ عَبَدُوا العِجلَ، وسُمِّيَ شِركُهُم سَفَهًا؛ لأَنَّهُ شِركٌ مَشُوبٌ بِخِسَّةِ عَقلٍ؛ إذ جَعَلُوا صُورَةً صَنَعوها بأَنفُسِهِم إلهًا لَهُم[3].

بيانُ عَوْدِ الضّميرِ ﴿هِيَ﴾:

الضّميرُ رَاجِعٌ إلى ما فَعَلَ السُّفَهاءُ مِنَ الفِتنةِ

وضَمِيرُ ﴿إِنْ هِيَ﴾ راجِعٌ إلى ما فَعَلَ السُّفَهَاءُ؛ لأَنَّ مَا صَدَقَ مِن فعلِ السُّفَهاءِ هُو الفِتنَةُ، والتّقديرُ: لَيسَتِ الفِتنَةُ الحَاصِلَةُ بِعِبادَةِ العِجلِ إلَّا فِتنَةً مِنكَ؛ أَي: مِن تَقدِيرِكَ، وخَلقِ أَسبَابِ حُدُوثِها، مِثلَ: سَخافَةِ عُقُولِ القَومِ، وإعجَابِهِم بأصنامِ الكَنعانيِّينَ، وطلبِهِم مَثِيلَهُ، وغَيبةِ مُوسى، ولِينِ هارونَ عليهما السلام، وغَيرِ ذَلِكَ ممَّا يَعلَمُهُ اللَّهُ، وأَيقَنَ مُوسى بِهِ إيقانًا إجماليًّا[4].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/126.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/126.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/125.
(4) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 15/17، وابن عادل، اللّباب: 9/326، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/126، والمستغانميّ، تصريف القول، ص: 147.

بَلاغةُ الاستِئنافِ والاعْتِذارِ في جُملةِ الاستِئنافِ:

تقريرُ ما قبلَها، والاعتذارُ عن صنيعِهم

في جُملةِ: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ﴾ استِئنافٌ مُقرِّرٌ لِمَا قبلَهُ، واعتذارٌ عمّا صنعُوا ببيانِ مَنشأِ غَلَطِهم؛ أي: ما الفتنةُ الّتي وَقَعَ فيها السُّفهاءُ مِنَ القومِ، وقالُوا بسببِها ما قالُوا، إلّا فِتنَتُكَ، ومِحنَتُكَ، وابتِلاؤُكَ؛ حيثُ أسمَعتَهُم كَلامَكَ، فافتَتَنُوا بِذلِكَ، ولَم يَتَثَبَّتُوا؛ فَطَمِعُوا فيما فَوقَ ذَلِكَ تَابِعِينَ لِلقياسِ الفَاسِدِ[1].

بَلاغةُ القَصْرِ باسْتِعمالِ الخبرِ والتَّعْبيرِ بِهِ:

في الخبرِ تمجيدٌ بِسَعَةِ العِلْمِ والقُدرَةِ، وتعريضٌ بطلبِ هدايتِهم

والخَبَرُ في قَولِهِ: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ﴾ مُستَعمَلٌ في إنشَاءِ التَّمجيدِ بِسَعَةِ العِلمِ والقُدرَةِ، والتَّعريضِ بِطَلَبِ استِبقائِهِم وهِدايَتِهِم، ولَيسَ مُستَعمَلًا في الاعتِذارِ لِقَومِهِ بِقَرِينَةِ قَولِهِ: ﴿تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ﴾ الَّذي هُوَ في مَوضِعِ الحَالِ مِن ﴿فِتْنَتُكَ﴾، فالإِضلالُ بِها حالٌ مِن أَحوَالِها[2].

في الخبرِ قَصْرٌ حقيقيٌّ على كونِهِ اختبارًا مِنَ اللهِ

وفيها قَصرٌ بأداةِ النّفيِ ﴿إِنْ﴾ والاستثناءِ بـ﴿إِلَّا﴾[3]، حيثُ قَصَرَ مُوسى عليه السلام الواقعةَ الّتي حصلَت لِلسّبعينَ المُختارِينَ مِن قومِهِ على كونِهِ اختِبارًا، وامتِحانًا، وابتِلاءً (فتنة) مِنَ اللّهِ تعالى، وهو قَصرٌ حَقيقيٌّ[4].

نُكتَةُ التّعريضِ بطلَبِ الهِدايةِ لَهُم:

بيانُ أدبِ خطابِ الأنبياءِ، مع ربِّهِم عليهم السلام

عَرَّضَ بِطَلَبِ الهِدَايَةِ لَهُم بِقَولِهِ: ﴿وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ﴾[5]، وهو مِن أدبِ الخطابِ القرآنيِّ في كلامِ الأنبياءِ عندَ مُخاطبتِهِم ربَّهُم، فإنَّ "الأدبَ مَعَ اللّهِ حسنُ الصّحبةِ معهُ بإيقاعِ الحركاتِ الظّاهرةِ والباطِنةِ على مُقتَضى التّعظيمِ والإجلالِ والحَياءِ"[6].

---

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/277.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/126 - 127.

(3) المستغانميّ، تصريف القول، ص: 147.

(4) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 1/415 - 416، والحسناويّ محمّد جليل، الموسوعة البلاغيّة للقرآن الكريم: 4/500.

(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/127.

(6) ابن القيّم، مدارج السّالكين: 2/377.

فائدةُ التَّعْبيرِ بالباءِ:

الفِتنَةُ لا تَكُونُ سَبَبَ هِدَايَةٍ

والمَجرُورُ في قَولِهِ: ﴿بِهَا﴾ مُتَعَلِّقٌ بِفِعلِ (تُضِلُّ) وَحدَهُ، ولا يَتَنَازَعُهُ معهُ فِعلُ ﴿وَتَهْدِى﴾؛ لأَنَّ الفِتنَةَ لا تَكونُ سَبَبَ هِدَايَةٍ بقَرِينَةِ تَسمِيَتِهَا فِتنَةً. والباءُ: إمَّا للمُلَابَسَةِ؛ أَي: تُضِلُّ مَن تَشَاءُ مُلَابِسًا لَها، وإمَّا للسَّبَبِيَّةِ؛ أَي: تُضِلُّ بِسَبَبِ تِلكَ الفِتنَةِ، فَهِيَ مِن جِهَةٍ فِتنَةٌ، ومِن جِهَةٍ سَبَبُ ضَلالٍ[1].

بَلاغةُ الطِّباقِ في ﴿تُضِلُّ﴾، ﴿وَتَهْدِى﴾:

إفصاحٌ عن دَلالةِ الرّبْطِ في الآيةِ الكريمةِ

وفي هذا الطِّباقِ إفصاحٌ عن دلالةِ الرّبطِ في الآيةِ الكريمةِ المُؤدِّي إلى مَزيدِ إيضَاحٍ للمَعنى وبيانِهِ، وترسيخِ دلالةِ مَبناهُ؛ بما يُسبِّبُهُ مِن شدٍّ وجَذبٍ على النّفسِ المُتلقِّيةِ له قراءةً وتدبُّرًا. وفي ذلك تعزيزٌ للوظيفةِ الإبلاغيّةِ للطِّباقِ بالوظيفةِ التّأثيريّةِ الّتي يترسَّخُ مِن خلالِها المَنهجُ الفطريُّ السّليمُ للنّفسِ البشريّةِ باتّباعِ الهدايةِ، ونَبذِ الضّلالِ.

نُكتةُ التَّعْبيرِ بجُملةِ: ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا﴾:

الاعترافُ بالانقطاعِ لِلعِبَادَةِ، تَمهيدٌ لِمَطلَبِ المَغفِرَةِ والرَّحمَةِ

والقَصدُ مِنَ التَّعبيرِ بالجُملَةِ الاعترافُ بالانقطاعِ لِعِبَادَةِ اللّهِ تعالى؛ تَمهيدًا لِمَطلَبِ المَغفِرَةِ والرَّحمَةِ؛ لأَنَّ شَأنَ الوَلِيِّ أَنْ يَرحَمَ مَولَاهُ، ويَنصُرَهُ[2]، فهو ثناءٌ، وتَضرُّعٌ استعملَ فيهما الأسلوبَ الخبريَّ على سبيلِ المَجازِ المُرسَلِ[3].

بَلاغةُ القصْرِ والتّقديمِ في: ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا﴾:

اقْتِضاؤُهُ عَدَمَ الانتِصارِ بغَيرِ اللّهِ

وقولُهُ: ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا﴾ يفيدُ الحَصرَ والقَصرَ؛ أي: لا وَليَّ لنا، ولا نَاصرَ، ولا هاديَ إلَّا أنتَ، وهذا مِن تمامِ ما تقدَّمَ مِن قولِهِ: ﴿تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ﴾[4]. فالولايةُ غيرُ قابلةٍ لِلتَّعدُّدِ؛ لأَنَّ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/127.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/127.
(3) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 1/416.
(4) ابن عادل، اللّباب: 9/336.

المَرءَ لا يَتَولَّى غَيرَ مَواليهِ، لِذلِكَ كانَ قَولُهُ: ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا﴾ مُقتَضِيًا عَدَمَ الانتِصَارِ بغَيرِ اللّهِ، وفي صَرِيحِهِ صِيغَةُ قَصرٍ[1]، وتقديمُهُ تَوطِئَةٌ بعدَ الإقرارِ بالولايةِ لِطلَبِ المَغفِرةِ والرَّحمَةِ[2].

دَلالةُ التّفريعِ في: ﴿فَٱغۡفِرۡ لَنَا﴾:

والتَّفريعُ عَنِ الوِلايَةِ في قَولِهِ: ﴿فَٱغۡفِرۡ لَنَا﴾ تَفريعُ كلامٍ على كلامٍ، ولَيسَ المُرادُ أنَّ الوَليَّ يَتَعَيَّنُ عليهِ الغُفرَانُ[3].

في التّفريعِ نفيُ تعيُّنِ الغُفرانِ

عِلّةُ تقديمِ (المَغفِرَة) على (الرَّحمَةِ):

قَدَّمَ المَغفِرَةَ على الرَّحمَةِ مع أنَّ الرَّحمَةَ سَبَبٌ في المَغفِرَةِ؛ لأنَّ المُرادَ تكريرُ الدُّعاءِ بها؛ لِتكونَ المَغفرةُ مُتقدِّمَةً ومُتأخِّرةً[4]، ولأنَّ المَغفِرَةَ سَبَبٌ لِرَحَماتٍ كَثيرَةٍ، وألطَافٍ عَميمةٍ؛ فإنَّ المَغفِرَةَ تَنهيةٌ لِغَضَبِ اللّهِ المُترَتِّبِ على الذَّنبِ، فإذا انتَهَى الغَضَبُ تَسَنَّى أن يَخلُفَهُ الرِّضَا، والرِّضَا يَقتَضِي الإحسَانَ[5].

تَكريرُ الدُّعاءِ، ولأنّ المَغفِرَةَ سَبَبٌ لِرَحَماتٍ كَثيرَةٍ

ولمّا أثبتَ جلَّ في عُلاهُ أنَّهُ الفعَّالُ لِمَا يَشاءُ، وأنّهُ لا وَلِيَّ لَهُم غَيرُهُ، وكانَ مِن شأنِ الوَليِّ جَلبُ النَّفعِ ودَفعُ الضُّرِّ، ابتدَأَ بِدفعِ الضَّرَرِ: ﴿فَٱغۡفِرۡ لَنَا﴾؛ أي: امحُ ذُنُوبَنا، ﴿وَٱرۡحَمۡنَاۖ﴾؛ أي: ارفَعْنا[6]. فالأصلُ تقديمُ درءِ المَفسدَةِ أوّلًا؛ لأنّ دَرأَها مُقدَّمٌ على جَلبِ المَصلَحةِ، فقَدَّمَ مُوسى عليه السلام طلبَ مَغفرةِ الذّنبِ، ثمّ دعا ربَّهُ أن يرحمَهُم، وهذا جَلبُ مَنفعَةٍ. ومثلُهُ قولُهُ تعالى: ﴿فَمَن زُحۡزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ﴾ [آل عمران: 185]، وهو دَرءُ مَفسَدةٍ بالإبعادِ عنِ النّارِ، أَعقَبَهُ بـ﴿وَأُدۡخِلَ ٱلۡجَنَّةَ﴾ [آل عمران: 185]، وهو جَلبُ مَنفعَةٍ ومَصلَحةٍ[7]. وهو

دَرءُ المَفاسِدِ، مُقدَّمٌ على جلْبِ المَصالِحِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/127.
(2) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 1/415 - 416.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/127.
(4) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/259.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/127.
(6) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 3/122.
(7) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 7/4377.

أيضًا مِن بابِ تقديمِ التّخليةِ (محو الذُّنوبِ) على التّحليةِ (حلول رحمةِ اللّهِ) بالدَّاعِينَ[1].

العَطْفُ للتَّوسُّطِ بينَ الكَمالَيْنِ

وُصِلَت جملةُ ﴿وَٱرۡحَمۡنَاۖ﴾ بالواو عَطفًا على جُملةِ ﴿فَٱغۡفِرۡ لَنَا﴾؛ لِمَا بينَ الجُملَتينِ مِنَ التَّوسُّطِ بينَ الكمالَين؛ لاتِّفاقِهما في الإنشائيّةِ لفظًا ومعنًى[2].

دَلالةُ الخطابِ بضميرِ الجمْعِ (نا):

إدخالُ موسَى عليه السلام نفسَهُ مع قومِهِ مِن بابِ الاسْتِعطافِ

سَألَ مُوسى ربَّهُ الغُفرانَ لهُ ولَهُم والرَّحمَةَ؛ لِمَا كانَ قَد اندَرَجَ قومُهُ في قولِهِ: ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا﴾، وفي سُؤالِ المَغفرةِ والرَّحمَةِ لهُ ولهُم. والدَّعاءُ هنا لنفسِهِ مع قومِهِ بضميرِ الجمعِ (نا) قد اقتضاهُ مَقامُ المُناجاةِ والمَعرفةِ الكاملةِ، ومَن كانَ أعرف باللّهِ وأكمل استِحضارًا لعظمتِهِ، كانَ أشدّ شعورًا بالحاجةِ إلى مَغفرتِهِ ورَحمتِهِ، وإن كانَ ما يَستغفرُ منهُ تقصيرًا صغيرًا بالنّسبةِ إلى ذُنوبِ الغافِلينَ والجاهِلينَ، أو مِن بابِ (حَسناتُ الأبرارِ سَيّئاتُ المُقرَّبين)، فإدخالُ نفسِهِ معَهُم مِن بابِ الاستِعطافِ؛ إذ لم يُنقَلْ عنهُ ما يُعَدُّ مِن ذُنوبِ الأنبياءِ عليهم السلام، لكنَّ قومَه كانُوا أصحابَ ذُنوبٍ وخَطايا، ولِذلِكَ انتظَمَ معَهُم في الدُّعاءِ مُؤكِّدًا استِعطافَ ربِّهِ تعالى في غُفرانِ تلك الذُّنوبِ، ومُنبِّهًا بقولِهِ: ﴿وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡغَٰفِرِينَ﴾[3].

سِرُّ قولِ: ﴿وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡغَٰفِرِينَ﴾:

الخبرُ طَلَبُ المَغفِرَةِ، والزِّيادَةُ في المَغفِرَةِ مِن آثارِ الرَّحمَةِ

عَطَفَ جُملَةَ: ﴿وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡغَٰفِرِينَ﴾؛ لأَنَّهُ خَبَرٌ في مَعنَى طَلَبِ المَغفِرَةِ العَظيمَةِ، فَعُطِفَ على الدُّعاءِ، كأَنَّهُ قِيلَ: فَاغْفِرْ لَنا، وارْحَمْنا، واغْفِرْ لَنا جَميعَ ذُنُوبِنا؛ لأَنَّ الزِّيادَةَ في المَغفِرَةِ مِن آثارِ الرَّحمةِ[4]، وعزَّزَهُ فاءُ ترتيبِ الدُّعاءِ على مَا قبلَهُ مِنَ الولايةِ، كأنّهُ

(1) الآلوسي، روح المعاني: 9/75، والمطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 1/415 - 416.
(2) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 1/416 - 417.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/399، ومحمد رضا، تفسير المنار: 9/190 - 189.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/128.

قِيلَ: مِن شأنِ مَن يَلِي الأمورَ، ويقومُ بها، دفعُ الضُّرِّ وجَلبُ النّفعِ بالمَغفرةِ والرَّحمَةِ[1].

بَلاغةُ ردِّ العَجُزِ على الصَّدْرِ في الفاصلةِ:

فَقَد وَافقَت لفظةُ: ﴿ٱلۡغَٰفِرِينَ﴾ - وهي آخرُ كلمةٍ في الجُملة - أوَّلَ لفظةٍ في صدرِهَا؛ وهي ﴿فَٱغۡفِرۡ﴾[2]، وفي ذلك تَرسيخٌ لِطلبِ عظيمِ المَغفرةِ، وواسعِهَا.

ربْطُ الكلامِ بعضِه ببعضٍ من جميلِ البيانِ وأرْقاه

بَراعَةُ الاكتفاءِ بذكْرِ المَغفِرةِ في ختْمِ الآيةِ:

وَ﴿خَيۡرُ ٱلۡغَٰفِرِينَ﴾ الَّذي يَغفرُ كَثيرًا[3]. والجملةُ اعتراضٌ تذييليٌّ مُقرِّرٌ لَمَا قبلَهُ مِنَ الدّعاءِ، وتَخصيصُ المَغفِرَةِ بالذِّكرِ؛ لأنّها الأهمُّ، ومَوطِنُ العنايةِ بِحَسَبِ المَقامِ[4]. ولِذلِكَ حَذَفَ ذِكرَ الرَّحمَةِ استغناءً عنهُ بذكرِ المَغفِرَةِ، فإنّ ترتيبَ التّذييلِ في الثّناءِ عليهِ تعالى على طَلَبِ مَغفرتِهِ ورحمتِهِ معًا يَقتضي أن يكونَ هذا الثّناءُ بهما معًا، لكنّه اكتفى بذكرِ المَغفرةِ لدلالتِها على الرَّحمَةِ قَطعًا، فهو مِنَ الإيجازِ المُسمَّى في علمِ البديعِ بالاكتفاءِ؛ إذِ اكتفى بذكرِ المَغفِرةِ؛ لأنّها الأهمُّ، ولم يكتفِ بذكرِ الرَّحمَةِ؛ لأنّها أعمُّ، ولأنّها قد تَستلزِمُ المَغفرةَ دونَ العكسِ، فإنّ مَعنَى المَغفرةِ سَلبيٌّ؛ وهو عدمُ المُؤاخذةِ على الذّنبِ، والرَّحمَةُ فوقَ ذَلِكَ، فهي إحسانٌ إلى المُذنِبِ، مُقدَّمَة على التّحليةِ[5].

اكْتفَى بذكْرِ المَغفرةِ؛ لأنّها الأهمُّ، دون الرَّحمَةِ؛ لأنّها أعمُّ

تَوجِيهُ الاختلافِ بينَ فاصلَتَي الآيتَيْن: [151] و[155]:

في الآيةِ [151] جَعَلَ خاتمةَ الآيةِ رحمةً، فقالَ: ﴿وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾، وفي الآيةِ [155] جَعَلَ خاتمةَ الآيةِ مَغفِرةً، فقالَ:

المُحدِّدُ وجودُ الذَّنْبِ مِن عَدمِهِ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/277، والآلوسي، روح المعاني: 9/75.
(2) الإندونيسّي، الشّامل في بلاغة القرآن: 1/429.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/128.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/277.
(5) محمد رضا، تفسير المنار: 9/189.

﴿وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡغَٰفِرِينَ﴾؛ وذلك أنّهُ إذا ذَكَرَ ذَنبًا؛ عقَّبَ بالمَغفرةِ، وإذا لم يَذْكُرْ ذَنبًا؛ عقَّبَ بالرَّحمَةِ[1].

وأيضًا في الآيةِ الأولى: فإنَّ مُوسى عليه السلام طَلَبَ إلى ربِّهِ أن يُدخلَهُ وأخاه في رحمتِهِ، وأن يَجعلَ رحمتَهُ تُحيطُ بهما مِن كلِّ جانبٍ، فإنّها حِصنٌ حَصينٌ، مِن جميعِ الشّرورِ، وذلكَ بعدَ ندمِهِ ممَّا اسْتَعْجَلَ، وصُنعِهِ بأخيه مِن جرِّ رأسِهِ قبلَ أن يعلمَ براءتَهُ، ممَّا ظنَّهُ فيهِ مِنَ التّقصيرِ، فأجابَهُ اللّهُ بأنّهُ أرحمُ الرّاحمينَ، وهذا يشيرُ إلى قبولِ دعائِهِ وإجابةِ طلبِهِ.

أمَّا الآيةُ الثّانيةُ: فكانَ مُوسى عليه السلام قدِ اختارَ مِن قومِهِ سبعينَ رَجُلًا لِيلقَى بهم ربَّهُ، فَطَلَبَ إلى ربِّهِ أن يغفرَ لهُ ولقومِهِ ما فعلُوا مِن سفاهةٍ في طلبِ رؤيةِ اللّهِ جَهرةً، فأخذَتهُم الرّجفةُ، فطَلَبَ مِن ربِّهِ أن يَغفرَ لَهُم ذنبَهُم، ويُزيلَ عنهُم عقوبتَهُ.

وبذا يَظهَرُ تناسبُ خَتْمِ كلٍّ مِنَ الآيتين بصفة الرَّحمة والمَغفرة وإبداعُهما.

(1) هبيان، من روائع البيان: 5/210 - 211.

﴿۞وَٱكۡتُبۡ لَنَا فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِنَّا هُدۡنَآ إِلَيۡكَۚ قَالَ عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنۡ أَشَآءُۖ وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖۚ فَسَأَكۡتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤۡمِنُونَ ١٥٦﴾ [الأعراف: 156]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

جَمْعُ موسَى والنّقباءِ بين دُعاءِ العُبوديَّةِ، ودُعاءِ المَسألةِ

لَمَّا ذكرَ اللّٰهُ تعالى في الآيةِ السَّابقةِ بعضَ دُعاءِ موسى عليه السلام بدفعِ الضُّرِّ عند مشاهدةِ الرَّجْفَةِ[1]، حيثُ بدأَ دُعاءَهُ عليه السلام بإقرارِ الولايةِ للّٰهِ بقولِه: ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَاۖ﴾، ثمَّ أتبعَهُ في هذهِ الآيةِ برجاءِ تحصيلِ المنافعِ بقولِه: ﴿۞وَٱكۡتُبۡ لَنَا فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ﴾، ليكونَ دعاؤُهُ جامعًا مُشتمِلًا على ثَناءِ العبوديَّةِ، ثمَّ السُّؤالِ بدفْعِ الشَّرِّ وقِسْمةِ الخيرِ، فجَمَعَ بين دُعاءِ العُبوديَّةِ بالثَّناءِ عَلَى اللّٰهِ، ودُعاءِ المسألةِ بعرضِ الحاجةِ وابتغاءِ العطاءِ.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَٱكۡتُبۡ﴾: مِنَ الكَتْبِ والكِتابَةِ، وأصلُهُ: إلصاقُ بدِقَّةٍ وقُوَّةٍ، ومِن ذَلِكَ: الإلصاقُ الحاصِلُ بالإلزامِ والفَرْضِ[2]، كقولِه: ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾ [البقرة: 183]، والمرادُ هنا: اقضِ، وأوجِبْ، واقسِمْ لنا نَصيبًا ثابتًا مستمِرًّا كالشَّيءِ المكتوبِ الَّذي يستقِرُّ، ويستمِرُّ بكِتابتِه.

2) ﴿هُدۡنَآ﴾: مِنَ الهَوْدِ، وهو: الرُّجوعُ بِرِفقٍ، ومنه: الهَوَادَةُ: الحالُ تُرجَى معها السَّلَامَةُ، واليَهودُ مِن هَادَ يَهُودُ؛ إذا تاب هَوْدًا،

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 15/378.
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (كتب).

وسُمُّوًا به؛ لأنَّهم تابوا عن عبادةِ العِجلِ[1]، والمرادُ بـ﴿إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ﴾، أي: تُبْنَا؛ إذ في التَّوبةِ هَوَادَةُ حالٍ وسلامةٌ، والهُودُ جمعُ هائِدٍ، وهو التَّائِب[2].

3) ﴿أُصِيبُ﴾: يُقال: صَابَهُ وأصابَهُ، وجُعِلَ الصَّوبُ لنزولِ المطرِ؛ إذا كان بقدَرِ ما ينفعُ، وإلى هذا القدَرِ منَ المطرِ أشارَ بقوله: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ﴾ [المؤمنون: 18]، وأصابَ السَّهمُ؛ إذا وصل إلى المَرمَى بالصَّواب، والمصيبةُ: أصلُها في الرَّميةِ، ثمَّ اختُصَّت بالنَّائِبة، نحو: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ﴾ [آل عمران: 166]، وأصابَ: جاءَ في الخيرِ والشَّرِّ[3].

4) ﴿وَرَحْمَتِي﴾: الرَّحمَةُ رقَّةٌ تقتضي الإحسانَ إلى المرحومِ، وقد تُستعمَل تارةً في الرِّقَّةِ المجرَّدةِ، وتارةً في الإحسانِ المجرَّدِ عنِ الرِّقَّةِ، نحو: رحِمَ اللّٰهُ فلانًا، وإذا وُصِفَ به الباري - ﷻ - فليس يُرادُ به إلَّا الإحسانُ المجرَّدُ دون الرِّقَّةِ[4]، وعلى هذا؛ فالرَّحمةُ مِنَ اللّٰه إنعامٌ وإفضالٌ، ومنَ الآدميِّين رِقَّةٌ وتعطُّفٌ.

5) ﴿وَسِعَتْ﴾: السَّعةُ تُقال في الأمكنةِ، وفي الحالِ، وفي الفعلِ، كالقُدرةِ والجودِ، ونحو ذلك، والوُسعُ مِنَ القدرةِ ما يفضلُ عن قدَرِ المُكلَّفِ، قال تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: 286]، ومعناهُ: يكلِّفه ما يُثمِرُ له السَّعةَ، أي: الجنَّةَ ﴿عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾ [آل عمران: 133]، وقوله: ﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [طه: 98] وصفٌ له سبحانه كما قال: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمًا﴾ [النساء: 130] والمرادُ: سَعةُ قدرتِهِ وعلمِهِ ورحمتِه وإفضالِه[5].

---

(1) تعددت أسباب تسمية اليهود بهذا الاسم؛ فقيل في ذلك أقوال منها؛ أولاً: أنهم سمُّوا يهودًا نسبة إلى يهوذا بن يعقوب، الذي ينتمي إليه بنو إسرائيل الذين بعث فيهم موسى ﷺ فقلبت العرب الذال دالًا. ثانيًا: نسبة إلى الهَوَد: وهو التوبة، والرجوع، وذلك نسبة إلى قول موسى ﷺ لربه: ﴿إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ﴾، أي: تبنا ورجعنا إليك يا ربنا. قال ابن منظور: الهود: التوبة، هادَ يهود هودًا، وتهوَّد: تاب ورجع إلى الحقِّ؛ فهو هائدٌ، وقومٌ هُوْد مثل حائك وحُوك، وبازل وبُزْل. يُنظر: ابن منظور، لسان العرب: (هود). ثالثًا: نسبة إلى التقرُّب والعمل الصالح، قال زهير بن أبي سلمى:

سوى رَبَعٍ لم يأتِ فيه مخافةً *** ولا رهقًا من عابد متهوِّد

فالمتهوِّد: المتقرب، والتهوُّد: العمل الصالح. رابعًا: من الهوادة، وهي المودّة، فكأنَّهم سمُّوا بذلك؛ لمودَّة بعضهم بعضًا. يُنظر: محمد الحمد، رسائل في الأديان والفرق، ص: 63، 64.

(2) ابن دريد، الجمهرة: 2/689، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والزّمخشريّ، أساس البلاغة: (هود)، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: 4/264.

(3) الرّاغب، المفردات: (صوب).

(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (رحم).

(5) الرّاغب، المفردات: (وسع).

المَعْنى الإجْماليُّ:

بيَّنَ اللّهُ تعالى في هذهِ الآيةِ أنَّ موسى عليه السلام واصلَ دُعاءَهُ، فقال: واقسِمْ لنا - ياربُّ - في الدُّنيا ما يَحسُنُ منَ الأحوالِ والأعمالِ والعواقبِ، وفي الآخرةِ المثوبةَ الحسنى بالجنَّةِ والنَّجاةَ مِنَ النَّارِ، إنَّا رَجَعْنا تائِبين إليكَ، قال اللّهُ تعالى لموسى: عَذابي أُصيبُ بهِ مَن أشاءُ مِن خَلقي، كَما أصبْتُ هؤلاءِ الَّذين أصبْتُهم من قَومِك، ورَحْمتي وسِعتْ خَلقي كُلَّهم، فَسأكتُبُها للذين يخافُونَ اللّه، ويخشونَ عِقابَهُ، فيؤدُّونَ فَرائضَهُ، ويجتَنِبونَ معاصيَهُ، والَّذين هم بدلائلِ التَّوحيدِ وبراهينِهِ يصدِّقونَ[1].

دُعاءُ موسى وابتهالُهُ، وإجابةُ رَبِّهِ لَه بما يَزدَعُ العاصِين، ويَنْفَعُ الطَّائعين

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دَلالةُ الواوِ، في قولِه تعالى: ﴿وَٱكۡتُبۡ لَنَا﴾:

الواو عاطفةٌ مدخولَها على أوَّلِ الدُّعاءِ قبلَها؛ استتمامًا لهُ، ونسَقٌ عليه، ودلالتُها هاهنا: الجَمْعُ بينَ آحادِ الحوائجِ المسؤولَةِ في الإجابةِ والحصولِ؛ للدَّلالَةِ على أنَّ أحدَها لا يَتِمُّ مِن غيرِ الآخَرِ، فهي لوازمُ لا تَنفَصِمُ، وكلُّ حاجةٍ منها يُسلِمُ لتحقيقِ ما بعدَها، وفائدةُ الجَمْعِ المذكورِ: إيقاعُ الأدعيةِ على نحوٍ جامعٍ في المباني والمعاني والمقاصد، وفيهِ أيضًا: أنَّ المخلوقَ لا يَسعدُ إلَّا باجتماعِ الأحوالِ التَّامَّةِ له في الدُّنيا والآخرة.

الجَمْعُ بَينَ الثَّناءِ على اللهِ، وسُؤالِ الحاجاتِ اللّازمةِ

سِرُّ عدَمِ ذكْرِ لفْظِ (ربّنا) والاكتفاءِ بالمدْعُوِّ به فقط:

السُّؤالُ هنا من موسى عليه السلام وقد ذكرَ قبل ذلك قولَهُ: ﴿قَالَ رَبِّ لَوۡ شِئۡتَ أَهۡلَكۡتَهُم مِّن قَبۡلُ وَإِيَّٰيَۖ﴾، فجاء قوله: ﴿۞وَٱكۡتُبۡ لَنَا فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ عقيبَ وعيدٍ وجنايةٍ في قوله: ﴿أَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ﴾ [الأعراف: 155]، وقوله: ﴿لَوۡ شِئۡتَ أَهۡلَكۡتَهُم مِّن قَبۡلُ﴾

عدَمُ توقيرِ قومِهِ رُبوبيَّةَ اللهِ وإحسانَهُ، هلاكٌ وخَيْبةٌ

(1) مجموعة من المؤلفين، المنتخب في تفسير القرآن الكريم، ص: 231، ونُخْبة من أساتذة التَّفسير، التفسير الميسّر، ص: 170.

[الأعراف: 155]، وقوله: ﴿أَتُهۡلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآۖ﴾ [الأعراف: 155]، فالمقامُ مقامُ ترهيبٍ لا ترغيبٍ، ومقامُ استغفارٍ واعتذارٍ، ولذا توسَّلَ بالعملِ اعتذارًا، فقال: ﴿إِنَّا هُدۡنَآ إِلَيۡكَۚ﴾، ولم يذكرْ لفظَ﴿رَبَّنَآ﴾؛ لأنَّ قومَه لم يوقِّروا ربوبيَّةَ اللّهِ عليهم بإحسانِه السَّابقِ عليهم، فأخذتْهُم الرَّجفةُ.

دَلالةُ الطَّلَبِ، في قولِهِ: ﴿وَٱكۡتُبۡ لَنَا﴾:

إثباتُ المطلوبِ وتحقيقُهُ، مَقصودٌ في السِّياقِ

قولُهُ: ﴿۞وَٱكۡتُبۡ لَنَا﴾ أي: عَيِّنْ لنا، وقيل: أوجِبْ وحقِّقْ وأثبِتْ[1]، فهو يدلُّ على الطَّمَعِ وحُسْنِ الرَّجاءِ بعدَ الاستغاثَةِ والإشفاقِ الوَارِدَينِ في قوله: ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَاۖ﴾، وحُسْنُ الرَّجاءِ باشتِمالِ الدُّعاءِ على سؤالِ الحُسْنى، فهوَ أدبٌ حسَنٌ، وفقهٌ في المقاصِدِ بعيدٌ، وفي الطَّلبِ إشفاقٌ من عاقبةِ مفهومِهِ المُقابِلِ، أي: إن لم تكتبْ لنا الحسنى؛ ضِعْنا في الدُّنيا، وخَسِرْنا في الآخِرَةِ، فاجتَمعَ في التَّركيبِ حُسْنُ الرَّجاءِ مع الخوفِ الشَّديدِ.

سِرُّ التَّعْبيرِ بالكِتابةِ دونَ الإيتاءِ:

لَفْظُ الكِتابةِ مُستعارٌ لمعنَى العطاءِ المُحقَّقِ حصُولُهُ، المُجَدَّدِ مرَّةً بعد مرَّةٍ

اصطفاءُ لفظِ الكتابةِ في قوله: ﴿وَٱكۡتُبۡ لَنَا﴾ هو تعبيرٌ بلفظٍ يفيدُ الضَّمانَ والوثوقيَّةَ، والتَّعبيرُ بالكتابةِ كنايةٌ عنِ الإجابَةِ أو كَيْفِيَّتِها؛ لأنَّه متى أجابَ؛ فقد كَتَبها، لكنَّ الكتابةَ تفيدُ معنًى زائدًا عنِ الإجابةِ، وهي أن يقعَ هذا الجوابُ على كَيْفِيَّةِ الشَّيءِ المكتوبِ منَ الثُّبوتِ وعدمِ الانقطاعِ، وسببُ هذا الاصطفاءِ خوفُ الفواتِ، أو ظنُّ عدمِ الاستحقاقِ، وكلاهما حاصلٌ من عِلمِ موسى بمقدارِ قومِهِ. وفي هذا المعنى يقولُ ابن عاشور: "﴿وَٱكۡتُبۡ﴾ مُستعارٌ لمعنى العطاءِ المُحقَّقِ حصُولُهُ، المُجَدَّدِ مرَّةً بعد مرَّةٍ؛ لأنَّ الَّذي يريدُ تحقيقَ عقدٍ أو عِدَةٍ أو عطاءٍ وتجَدُّدَهُ في المستقبل، يكتبُه في صَحيفةٍ، وفيه

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السّليم: 3/278.

إشارةٌ إلى حصولِه مرَّةً بعد مرَّةٍ؛ لأنَّه لو كان لمرَّةٍ واحدةٍ لا يحتاجُ إلى الكتابَةِ[1]".

دَلالةُ تقديمِ ﴿لَنَا﴾، في قولِه: ﴿وَٱكۡتُبۡ لَنَا فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا﴾:

تقديمُ ﴿لَنَا﴾ في قولِه تعالى: ﴿وَٱكۡتُبۡ لَنَا﴾ لإفادةِ التَّخصيصِ، وذلك أنَّ موسى عليه السلام طلبَ الغُفرانَ والرَّحْمَةَ والحَسَنَةَ في الدَّارين لِنَفْسِه ولأمَّتِه خاصَّةً بقولِه: ﴿۞وَٱكۡتُبۡ لَنَا﴾[2].كما أنَّ في التَّقديم دلالَةً على الاهتمامِ وإظهارِ العنايةِ بذاتِ المدعُوِّ؛ لأنَّه محلُّ الانتفاعِ بالدُّعاءِ دونَ النَّظرِ إلى ظرف الإجابةِ في أيِّ زمانٍ أو مكانٍ، ولذا فالتَّقييدُ بالظَّرفِ: ﴿ٱلدُّنۡيَا﴾، و﴿ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ ليس مقصودًا أصالةً في الدُّعاء، بل هو جارٍ مَجْرَى العادةِ في ارتباط الأحداثِ بظروفِها المُتعدِّدَةِ، فيُذكرُ كلُّ ظرفٍ منها على جهةٍ بألَّا تتباينَ أحوالُهُ فيهما بتبايُنِها، وغرضُ الاهتمامِ مُطابِقٌ للحالِ؛ لأنَّ الدَّاعي قد أهمَّتْهُ نفسُهُ، فلا جرمَ أنِ اهتمَّ بها في التَّقديمِ، وتقديمُ ضميرِ الذَّواتِ على المفعولِ ﴿حَسَنَةً﴾؛ لتأخُّرِ الأعراضِ عن جواهرِ الذَّواتِ وجودًا، فلا جرمَ تَأَخُّرُها عنها في لفظِ المسألةِ، ولأنَّ الذَّواتَ آلةُ اكتسابِ الحسناتِ، فلا جرمَ قدَّمَ مَن لهُ السَّبقُ في الكَون.

الغَرضُ مِنَ الدُّعاءِ نفعُ النَّفسِ، ودَرْءُ الضَّررِ عَنها

دَلالةُ التَّعْبيرِ بنُونِ الجماعَةِ ﴿لَنَا﴾:

التَّعبيرُ بنونِ الجماعةِ في قولِه: ﴿۞وَٱكۡتُبۡ لَنَا﴾ دالٌّ على سببِه، وهو أنَّ النَّبيَّ إمامُ قومِه، فكما كان إمامَهُم في الاختيارِ منهم: ﴿وَٱخۡتَارَ مُوسَىٰ قَوۡمَهُۥ﴾ [الأعراف: 155]، فهو أيضًا إمامُهُم في الاستغفارِ عَنهم، ولذا اطَّرَدَ ضميرُ المتكلِّمين في كافَّةِ دُعائِه: ﴿وَلِيُّنَا﴾ ﴿فَٱغۡفِرۡ لَنَا﴾ ﴿وَٱرۡحَمۡنَا﴾ ﴿۞وَٱكۡتُبۡ لَنَا﴾ ﴿إِنَّا هُدۡنَآ﴾، وهو دالٌّ على أنَّ الأنبياءَ أرحمُ النَّاسِ بالنَّاس، وفيه: أنَّهم شفعاءُ الأممِ عندَ اللهِ.

نيابةُ الأنبياءِ عن أقوامِهم في الدُّعاءِ والاستِغفارِ، بركَةٌ وقَبولٌ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 128/9.

(2) الطيبي، فتوح الغيب: 6/604.

دَلالةُ التَّعْبيرِ بالظَّرفيَّةِ: ﴿فِي﴾:

الظَّرفيَّةُ مجازِيَّةٌ، والأداةُ (في)، لها معانٍ شتَّى

ظرفيَّةُ (في) هنا مَجازيَّةٌ، ومعناها: يدلُّ على الوعاءِ والاشتِمالِ، ويفيدُ التَّمكُّنَ وشدَّةَ الالتصاقِ، والإغراقَ، والمبالغةَ في التَّعمُّق، والمقصودُ: أن تكونَ الحسنةُ الَّتي سألها موسى عليه السلام مُتمكِّنةً في الدُّنيا، مشمولةً فيها، حتَّى يُغرِقَها حُسْنُ الحسنةِ، وتتعمَّقَ في جوانبها جميعًا؛ لتنصلحَ لهم بها، فكأنَّ دنياهم وعاءٌ قد أُغلِق على الحسنةِ الَّتي سألوها، فلازَمتها، ولم تنفكَّ عنها، وهم مُتلبِّسون بها، مُتَّصِفونَ بِحُسْنِها[1].

سِرُّ الإشارةِ بـ ﴿هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا﴾:

الإشارةُ للتَّهْوينِ مِنها، والنَّعْيِ عليها

(أل) إذا وقعَتْ بعدَ اسمِ الإشارةِ؛ فَهي للعَهدِ الحضوريِّ، واسمُ الإشارةِ ﴿هَٰذِهِ﴾ مُستعمَلٌ في المؤنَّثِ القريبِ، والإشارةُ إمَّا تفيدُ المدحَ وما في معناه، أو تفيدُ الذَّمَّ وما في معناه، فقوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ يَهۡدِي لِلَّتِي هِيَ أَقۡوَمُ﴾ [الإسراء: 9] للتَّنويه بقُرب هدايتِه مع تعظيمِه، وقد تُستعمَلُ بغرضِ الذَّمِّ أو التَّقليلِ من ذات الشَّيءِ كقوله: ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِي بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا﴾ [الفرقان: 41]، و﴿هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا﴾ من هذا القبيلِ، فقد أشارَ إليها بـ(هذه) للقريب، ودخلت عليها (أل) الَّتي أفادتِ العهدَ الحضوريَّ، مع استحضارِ معنى وصفِها بالدُّنيا[2]، فأفادتِ الإشارةَ إلى التَّهوين منها والنَّعي عليها، فالإشارةُ إليها إشارةُ القريبِ، مع تضمُّنِها وصفًا نازلًا في الرُّتبةِ، وهو الدُّنوُّ، مع إفادة (الـ) فيها إلى حضورِها قرائِنَ متماسِكةً على أنَّ الإشارةَ لغرض استحضارِ زوالِها وسرعةِ انقلابِها بأهلها، أي: هذه الدُّنيا الَّتي هي أدنى وأقربُ للفَوْتِ والتَّلاشي[3].

---

(1) الخضريّ، من أسرار حروف الجرّ في الذّكر الحكيم، ص: 124.

(2) فلفظُ الدُّنيا باقٍ على الوصفيَّة، فهو اسمُ جنسٍ مقرونٌ بأل المعرفة، وإن جُعِلَ علمًا على الأوقات أو على المرحلةِ المؤقَّتةِ، فأل فيه لِلَمْحِ الأصل.

(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/104.

سِرُّ الاكْتِفاءِ بـ﴿ٱلدُّنۡيَا﴾ دونَ ذِكْرِ (الحياة الدُّنيا):

تَجيءُ (الدُّنيا) في سياقِ الدُّعاءِ، مُجرَّدةً عن وصْفِ (الحياة)

يُؤتَى بالمركّب الإضافيّ: (الحياة الدُّنيا) حينما تكونُ على مراد النَّاسِ منها، وأمَّا مرادُ اللهِ فيها، فيُعبَّرُ بلفظ ﴿ٱلدُّنۡيَا﴾ فقط، ولذا تجيءُ في تراكيبِ الدُّعاءِ مُجرَّدةً عنِ الحياة؛ لأنَّ الدُّعاءَ موصولٌ بمرادِ اللهِ، وكأنَّ الدُّنيا لمّا كانَت عاجلةً ومتاعَ غرورٍ ودارَ ابتلاءٍ لم تكن حياتُها حياةً حقيقيَّةً، ولذلك فقولهُ تعالى: ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞ﴾ [الحديد: 20]، فسمَّاها حياةً بحسبِ مرادِ النَّاسِ منها، ثمَّ أخبرهم أنَّها ليست حياةً، بل هي اللَّعِبُ واللَّهوُ والزِّينةُ والتَّفاخرُ والتَّكاثرُ ومتاعُ الغرور، وحين يقولُ مؤمنُ آلِ فرعونَ: ﴿إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا مَتَٰعٞ﴾ [غافر: 39] فوصفَها بالحياة، ليقرِّرَ مرادَهم وظنَّهم فيها، ثمَّ يدفعُه بوصفِها متاعًا زائلًا، بطريق القصرِ والتَّحقيق، فبهذا التَّأسيسِ تُخرَّجُ الآياتُ الَّتي جُرِّدَت فيها الدُّنيا عنِ الحياة، أو اقترنَت بها، مع مُراعاةِ كلِّ سياقٍ، ولَمحِ هذا الأصلِ فيه.

ويضافُ إلى ذلك، أنَّ وصفَ الحياةِ الدُّنيا يأتي غالبًا في سياق الذَّمِّ، والآياتُ الشَّاهدةُ على هذا كثيرةٌ، منها قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞۚ﴾ [محمد: 36]، وقوله: ﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا﴾ [البقرة: 212] بخلاف لفظ ﴿ٱلدُّنۡيَا﴾، فيأتي غالبًا في سياق أهلِ الإيمانِ الَّذين يعرفون حقيقتَها، فلا يعطونها أكثرَ من قدرِها، يؤكِّد ذلك ما وردَ في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ حَسَنَةٗ وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ٢٠١﴾ [البقرة: 201].

سِرُّ تَقْديمِ الدُّنيا على الآخِرةِ:

مَجيءُ الخطابِ وَفْقَ زمانِ الملابسةِ، ضَرورةٌ تقتضِيها مراعاةُ مُقتَضَى الأحوالِ

الأصلُ الغالبُ أنَّ الدُّنيا مُقدَّمةٌ على الآخرةِ وجودًا وذِكرًا، والثَّاني لازمٌ عنِ الأوَّل، والأصلُ في الخطاب أن يقعَ ترتيبُهُ بحسب الحاضرِ ثمَّ المستقبلِ، فمجيءُ الخطاب وَفْقَ زمانِ الملابسةِ هو ضرورةٌ تقتضيها مراعاةُ مُقْتَضَى الأحوال، وأمَّا مجيئُها بعدَ الآخرة، كقوله:

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْأَخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا﴾ [الشّورى: 20]؛ فالمقدَّمُ على الحقيقة هو المُريدُ، وليس المرادَ، فالاعتبارُ في التَّقديم والتَّأخير لمُريدِهما أصالةً، وهما مقصودان تبَعًا، ولذا جاء الكلامُ على الاستعارة التَّصريحيَّة في تشبيه عملِ العاملِ، وما يرتجيه من عائدِه وثمرتِه، بالحرثِ، حَذَفَ المشبَّهَ: وهو العملُ، وأبْقَى المشبَّهَ به: وهو الحرثُ، بجامع ابتغاءِ العائدِ والجزاءِ في كلٍّ، فالآيةُ مَسوقةٌ للمقابلة في الجزاءات والعوائدِ، ولذا جاءَت بصيغة الشَّرطِ والجزاء، والمقابلةُ في الجزاء تكونُ لغرض المفاضلةِ ومايزةِ الجزاءِ الأعلى على الأدنى، ولذا كان منَ البديهيِّ أن يتقدَّمَ مُريدُ الآخرةِ وعملُه وجزاؤهُ على مريدِ الدُّنيا وعملِه وجزائِه[1].

سِرُّ التَّعبير بلفْظِ ﴿ٱلدُّنْيَا﴾ دونَ ﴿ٱلْعَاجِلَةَ﴾:

الدُّنيا تأتِي مع الآخِرةِ على اعتبارَيْن للمقابلةِ المُطلَقةِ، أو للتَّقابُلِ التَّفاضُليِّ

الضَّابطُ: أنَّ الدُّنيا تأتي على اعتبارين، الاعتبارُ الأوَّلُ: مقابلتُها مع الآخرةِ لمُطلَقِ اقترانهما جريًا على عادة اقتران النَّظيرين المتقابلين المتلازِمَين، وهذا سياقُه سياقُ قصدِ الإخبارِ عنهما في حيِّزهما الواردَين فيه من غير اعتبارِ مدحٍ ولا ذمٍّ. الثَّاني: الاقترانُ بقصدِ التَّقابلِ التَّفاضليِّ في الحقيقة والجزاء، فحينما يُرادُ بالدُّنيا الأوَّلُ: تأتي بلفظ الدُّنيا لغرض المرورِ عليها كمرحلةٍ مُوجزةٍ، وتُوضعُ الآخرةُ في مقابِلِها لمجرَّدِ استحضارها كمرحلةٍ باقيةٍ، وهذا هو الحاصلُ هنا، فالغرضُ هو إرادةُ أن تكونَ الدُّنيا والآخرةُ بالنِّسبة للدَّاعي محلَّيْن سالمَين له، وسالمًا فيهما، فالمقامُ يقتضي إيرادَهما بالوصف الَّذي غلبتْ تسميَتُهما به، لا بالأوصاف الفرعيَّةِ الَّتي تُساق لغرض المفاضلةِ في الحقيقةِ والجزاءِ، ويُلمَحُ فيها وفي سياقها قصدُ لوازمها الدِّلاليَّة منَ التَّرغيبِ والتَّرهيبِ، والمدحِ والذَّمِّ، والتَّهوينِ

(1) أجاز مجمع اللغة العربية بقاء الياء في النسب إلى (فَعِيلَة).

والتَّهويلِ، والتَّقليلِ والتَّكثيرِ، وكافَّة الأضداد الَّتي تجري عليهما معًا، ومن هذا: التَّعبيرُ بالعاجلة، ولم يردِ الوصفُ بها إلَّا في ثلاثةِ مواضعَ: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡعَاجِلَةَ﴾ [الإسراء: 18]، ﴿يُحِبُّونَ ٱلۡعَاجِلَةَ﴾ [الإنسان: 27]، ﴿تُحِبُّونَ ٱلۡعَاجِلَةَ ٢٠﴾ [القيامة: 20]، والسِّياقُ شديدُ الظُّهورِ في ذمِّ من يجعلها محلَّ الهِمَّةِ والمحبَّةِ، ثمَّ بالغ في توبيخ هذا المريد المُحِبِّ، بأن وصفَها بالعاجلة، وهو نعيٌ على عقلِ مَن يتعلَّقُ بعاجلٍ لا يستمرُّ، ولا يستقرُّ، أنَّى له أن يفعلَ ذلك، وهو عاقلٌ!

سِرُّ الإفرادِ في لفْظِ ﴿ٱلدُّنۡيَا﴾:

عدمُ جمعِ (الدُّنيا) مع صحَّتِه لُغةً، لاعتبارِ حقيقتِها الموحَّدةِ لا الموزَّعةِ

الدُّنيا (فُعلى) تأنيثُ أفعلَ (أدنى)، وجمعهُا (فُعَل)، ككُبرى كُبَر[1]، وعدمُ جمعِها مع صحَّتِه لغةً، لاعتبار حقيقتها الموحَّدةِ لا الموزَّعةِ، والحقيقةُ الموحَّدة بحسب تكوينها الموحَّدِ، وبحسَب كلِّ واحدٍ بذاته، فهي دنيا واحدةٌ، ومرحلةٌ واحدةٌ بالنِّسبةِ لخالقِها - ﷻ - مهما تمتدُّ، ولذلك لم تُجمَعْ لفظةُ ﴿حَيَوٰةِ﴾ في القرآن، لاعتبار أصلِها التَّكوينيِّ والحقيقيِّ بالنِّسبة لله، وإن تعدَّدَت مُتعلَّقاتُها وتوزَّعَت، ولذلك قال الله: ﴿مَّا خَلۡقُكُمۡ وَلَا بَعۡثُكُمۡ إِلَّا كَنَفۡسٖ وَٰحِدَةٍۗ﴾ [لقمان: 28]، وليسَت تُجمَع باعتبار توزُّعِها وإضافتها المُتعدِّدةِ للأفراد.

دَلالةُ صِيغةِ وزنِ (فُعلى) للدُّنيا:

معاني الآفاتِ والنَّقصِ، والمكروهِ والتَّوجُّعِ، لَصِيقةٌ بالدُّنيا

الدُّنيا بضمِّ الدَّالِّ على وزن (فُعلى) مؤنَّثُ الأدنى، بِمَعْنَى الأقربِ، وهي اسمٌ لهذه الحياة، لِبُعدها عنِ الآخرة، ودنيا: انقلبتِ الواو فيها ياءً؛ لأنَّ (فُعلى) إذا كانت اسمًا من ذواتِ الياءِ؛ انقلبَت واوها ياءً، كما أُبدِلَتِ الواوُ مكانَ الياء في (فُعلى)، وَوزانُ (فُعلى) دالٌّ على الآفاتِ والنَّقصِ والمكروهِ والتَّوجُّعِ[2]، وهذه الدِّلالاتُ لَصيقةٌ بتلك الدَّار، بل نصَّ عليها القرآنُ، فقال تعالى: ﴿وَلَنَبۡلُوَنَّكُم بِشَيۡءٖ

(1) الزّمخشريّ، أساس البلاغة: (دنو)، وابن منظور، لسان العرب: (دنا).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (دنا)، وفاضل السّامرائي، معاني الأبنية العربيّة، ص: 140.

مِّنَ ٱلۡخَوۡفِ وَٱلۡجُوعِ﴾ [البقرة: 155]، ﴿مَّثَلُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَآءٍ أَنزَلۡنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخۡتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلۡأَرۡضِ فَأَصۡبَحَ هَشِيمٗا﴾ [الكهف: 45]، وارتبطَ بها الفناءُ والهلاكُ، فقال: ﴿كُلُّ مَنۡ عَلَيۡهَا فَانٖ ٢٦﴾ [الرّحمن: 26] ﴿كُلُّ شَيۡءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجۡهَهُۥۚ﴾ [القصص: 88].

سِرُّ اخْتِيارِ الدُّعاءِ بـ﴿حَسَنَةٗ﴾ دونَ غيرِها:

دَلالةُ الحُسْنِ على الإطلاقِ، فكانتْ أحسنَ ما يُصطَفَى للدُّعاءِ

قوله تعالى: ﴿فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ﴾، نجد مادَّةَ (حسن) تحملُ مَعْنَى المبالغةِ في إظهارِ حُسنِ الشَّيءِ، فهو حُسنٌ ظاهرٌ وباطنٌ[1]، وقد استُعملَت هذه المادَّةُ ومشتقَّاتُها في نطاقٍ واسعٍ جدًّا، فشمَلَتِ القولَ والعملَ والجزاءَ والجنَّةَ، ومنها المرتبةُ العليا في المعاملةِ مع اللّهِ: وهي الإحسانُ، وهو بابٌ يطولُ في تشريح مواقعِها ودلالتِها.

والخلاصةُ: أنَّ الدُّعاء بـ﴿حَسَنَةٗ﴾ أُوثِرَ هاهنا لأمورٍ: **أولها:** لدلالتها في ذاتها، وأصلُ صيغتِها على أحسن ما يكونُ في كلِّ شيءٍ، والأحسنُ يُؤثَر، ولايُؤثَر عليه، **ثانيها:** لدلالتها على مُطلَقِ الصِّفةِ، فهي لا تُستعمَلُ فيما هو نسبيٌّ، فدلالتُها مُطلَقةٌ لا نسبيَّةٌ، ولذا تعلَّقَت بتركيبِ الدُّعاءِ للدَّلالة على هذا العمومِ والإطلاقِ، فلو قال مثلًا: واكتبْ لنا في الدُّنيا خيرًا، لم يدلَّ على العمومِ بمادَّته؛ لأنَّ الخيرَ وصفٌ نسبيٌّ قد لا يعبِّرُ عنِ الحقيقة المُطلَقةِ، ولذلك جاءَ في سياق الذَّمِّ، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلۡخَيۡرِ لَشَدِيدٌ ٨﴾ [العاديات: 8]، وقوله: ﴿أَشِحَّةً عَلَى ٱلۡخَيۡرِۚ﴾ [الأحزاب: 19]، ﴿إِنِّيٓ أَحۡبَبۡتُ حُبَّ ٱلۡخَيۡرِ﴾ [ص: 32]، وأمَّا الحُسنُ؛ فهو مُطلَقٌ، فكان أحسنَ ما يُصطَفَى في مَواقعِ الدُّعاء؛ لأنَّه مقامُ التماسِ الأحسنِ، وهو مقامٌ يُبتغَى فيه المُطلَقُ العامُّ، لا النِّسبيُّ المُحتمَلُ[2].

(1) كلُّ ما جاء في القرآن من هذا التَّركيب فأصلُه مِنَ النَّقاء الظَّاهريِّ والباطنيِّ، ويُفسَّرُ بالطَّيِّب المستحلي أو المستحب صورةً كان أو مُقامًا أو قولًا أو عملًا أو أداءً أو تصرُّفًا ومعاملةً مع النَّاس. يُنظر: جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (حسن).

(2) الرّاغب، المفردات، ص: 235 - 300، وابن الجوزيّ، نزهة الأعين، ص: 259.

ويُضاف إلى ذلك في سرِّ التَّعبيرِ بها: أنَّها تجمعُ خيرَي الدُّنيا والآخرة، فالمرادُ بها الحالةُ الحسنةُ، وهي مُرضِيَةٌ للنَّاس في الدُّنيا، وفي الآخرة حالةُ كمال[1].

دَلالةُ التَّنكيرِ في قولِه: ﴿حَسَنَةً﴾:

التَّنكيرُ يفيدُ العمومَ؛ لأنَّ النَّكِرةَ في سياق الدُّعاءِ تعمُّ[2]، والمرادُ استغراقُ كلِّ حالةٍ حسنةٍ، فهو جمعٌ بين خيرَي الدُّنيا والدِّين والعاجل والآجل.

النَّكِرةُ في سِياقِ الدُّعاءِ تَعمُّ، ولهذا تُؤثَرُ في الدّعاءِ العامِّ غالبًا

دَلالةُ عدَمِ ذكْرِ الفعْلِ ﴿وَٱكۡتُبۡ﴾ مع ﴿ٱلۡأٓخِرَةِ﴾:

لم يُذكرْ لِعدمِ موجبِه، فحذْفُهُ في الثَّاني مدلولٌ عليه بذِكرِه الأوَّل، ولذلك عُطِفَا؛ لأنَّ العطفَ يُغني عن إعادةِ ذِكْرِ العاملِ، وأيضًا: تكرارُ الفعلِ يدلُّ على قصديَّةِ استقلالِه بالعناية أو المغايرة، بمعنى: أنَّ القائلَ يقصدُ التَّنبيهَ على مزيد عنايته بالآخرة، أو يقصِدُ مطلوبًا في الآخرة ليس من جنس مطلوبِه الأوَّلِ في الدُّنيا، ولذا يُكرِّرُ العاملَ لإرادة التَّباينِ وعدمِ التَّشريكِ في القصد والحكم، وتلك القصديَّةُ في التَّفريق غيرُ مُرادةٍ في دعاء الدَّاعي؛ لأنَّ الدُّنيا جزءٌ منَ الآخرة، ولا انفصالَ بين العملِ والجزاءِ عليه، فإرادةُ الكَتْبِ حاصلةٌ على السَّواء فيهما، وإعادةُ فِعلِه إخلالٌ بِمُقتَضىَ الإيجازِ وداعيهِ في النَّظم، ويؤكِّدعدَمَ بلاغةِ التَّكرارِ هنا حذْفُ المفعولِ ﴿حَسَنَةً﴾ منَ الآخرة.

العَطْفُ يُغنِي عن إعادة ذِكْرِ العاملِ

دَلالةُ (الواو) في: ﴿وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ﴾:

الواو تدلُّ على الجمعِ وقَصْدِ التَّشريكِ في مضمون الطَّلبِ، أي: اجمعْ لنا حسنةَ الدُّنيا مع حسنةِ الآخرة كذلك، واجعلْهما معًا في كتابةِ ذلك وثبوتِه.

الجَمْعُ بين حَسَنةِ الدُّنيا وحَسَنةِ الآخرة، جَمْعٌ بين الحسنَتَيْن

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/128.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/128.

سِرُّ تَكرارِ الظَّرفيَّةِ بـ﴿فِي﴾ مع الآخرةِ:

رفْعُ تَوهُّمِ اختِصاصِ الدُّنيا بالظَّرفيَّةِ دونَ الآخِرةِ

كُرِّرَتِ الظَّرفيَّةُ لإثبات أنَّ الحسنةَ مطلوبةٌ في كلِّ الأحوال، فلو زال الحرفُ (في) مع لفظ الآخرة؛ لاحتملَ اختصاصُ الدُّنيا بمعنى الظَّرفيَّة المذكورِ دونَ الآخرة، ولأنَّ حصولَ مَعْنى الظَّرفيَّة في الدُّنيا لا يلزمُ عنه حصولُه في الآخرة، فثبتَ - ضرورةً - لحوقُ حرفِ الوعاءِ بالآخرةِ، بلْ وأولويَّةُ لُحُوقِهِ؛ لِأَنَّ دخولَه في مقامِ الجزاءِ أولى وأجدَرُ.

سِرُّ عدَمِ تَكرارِ لفْظِ ﴿حَسَنَةً﴾ مع الآخِرةِ:

طَوَى الحسنةَ الأُخرَى في الذِّكرِ، كما هي مَطويَّةٌ في الغيْبِ

اكتفى بحسنَةِ الدُّنيا اكتفاءً منهم بوسيلة العملِ، وأمَّا الجزاءُ عليه؛ فمطويٌّ عنهم فطُوِيَ في كلامهم: لدلالة الحسنةِ الأولى عليها ﴿فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ﴾ اكتفاءً بدلالة السَّابق، وللإيذان باختلاف نوعَي الحسنتَين[1]، فحسنةُ الدُّنيا غيرُ حسنةِ الآخرةِ، قال تعالى: ﴿وَلَلۡأٓخِرَةُ أَكۡبَرُ دَرَجَٰتٖ وَأَكۡبَرُ تَفۡضِيلٗا﴾ [الإسراء: 21]، ولأنَّ حسنةَ الآخرة ليسَتْ عملًا، بل هي جزاءٌ على حسنةِ الدُّنيا، فاكتفى بالحسنة المشهودةِ، وَطوىَ الحسنةَ الأخرى في الذِّكرِ، كما هي مَطويَّةٌ في الغيب، وإنَّما طُويَتْ في هذا الموضعِ؛ لأنَّهم توسَّلوا بالعمل، وجعلُوه عِلَّةً للدُّعاء في قوله: ﴿إِنَّا هُدۡنَآ إِلَيۡكَۚ﴾، فاكتفى بحسنةِ الدُّنيا؛ لمناسبتها وسيلةَ العملِ والحالِ المذكورة، ويصِحُّ أنَّ حذْفَ المعمولِ مع ﴿ٱلۡأٓخِرَةِ﴾؛ لاحتمالِ عدَمِ توفُّرِ عنايةِ الدَّاعي به عنايتَه بحسنة الدُّنيا؛ لقوَّة حضورِ سببِ الأخير ومعاينتِه بحدوث الرَّجفةِ، فسألَ حصولَ ما يندفعُ به البلاءُ الحاضرُ الَّذي أحوجَهُ للانشغال والهمِّ به من غيره، ولكون حصولِ حسنةِ الدُّنيا بعد هذا الموقف أمارةً على حصول حسنةِ الآخرةِ، فاكتفى بذكْرِ حصولِ الملزومِ (الأمارة) عن حصول لازمِها (حسنة الآخرة)، أو أنَّ ضِيقَ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/220.

المقام أحوجَ الدَّاعيَ موسى عليه السلام لحذْف المعمولِ مِنْ ﴿وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ﴾؛ لِكونِ دُعائهِ بعد توجُّعٍ وتفجُّعٍ.

سِرُّ الاكْتِفاءِ بالصِّفةِ دونَ الموصوفِ:

رعايةُ حُسْنِ المقابَلةِ من مَواقعِ البديعِ

في قوله: ﴿ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ اكتفى بالصِّفة دون الموصوف، فلم يقُل: (الدَّار الآخرة) رعايةً لِحُسنِ المقابلةِ، فكما اكتفى بالدُّنيا، ولم يقُل: الحياة الدُّنيا، اكتفى بها عنِ الموصوف كذلك، وأيضًا: التَّعبيرُ بالموصوف (الدَّار) يأتي في سياقات التَّنبيهِ على المفاضلةِ بينها وبين الدُّنيا، ولتقرير أنَّها القرارُ، وهو ما ليس مقصودًا في هذا الموضع.

سِرُّ تأْخِيرِ طلَبِ كتابةِ الحَسنةِ في الدُّعاءِ:

دَرْءُ الضَّررِ، مُقدَّمٌ على تحصيلِ المنفعةِ

بدأ دعاءَهُ عليه السلام بإقرار الولايةِ للّه بقوله: ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا﴾، والوليُّ النَّاصرُ المُعينُ المؤمِّلُ في دفْعِ الضَّررِ وتحقيقِ المنفعةِ، ودرْءُ الضَّرر مُقدَّمٌ؛ فلذلك ثَنَّى بقوله: ﴿فَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَاۖ﴾، ثمَّ أتبعَهُ برجاءِ تحصيلِ المنافعِ، فثلَّثَ بقوله: ﴿۞وَٱكۡتُبۡ لَنَا فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ﴾؛ ليكونَ دعاؤُه جامعًا مُشتمِلًا على ثناء العبوديَّةِ، ثمَّ السُّؤال بدفعِ الشَّرِّ وقِسمةِ الخيرِ، وهو سرُّ تأخيرِ طلَبِ كتابة الحسنةِ في الدُّعاء.

القِيمةُ البلاغيَّةُ للمقابَلةِ بين الدُّنيا والآخِرة:

المقابَلةُ تقعُ في المعاني والمباني معًا

تظهرُ قيمةُ المقابلةِ في التَّسوية بين دارِ العملِ ودارِ الجزاءِ في رجائِهما معًا، إذِ اللَّازِمُ لا ينفكُّ عن ملزومِه، ولا يكونُ إلَّا بهِ، وفيه: الإلفاتُ إلى أنَّ حسنةَ الدُّنيا ليسَت مطلوبةً لذاتِها، بل هي تتقابلُ مع جزائِها في الآخرة، وفي المقابلة إيذانٌ بأنَّ صلاحَ الدُّنيا صلاحٌ للآخرة، وفي الآية إشارةٌ إلى أنَّ المقابلةَ في أصلها تقعُ على المعاني والألفاظ؛ إذ لو وقعَت على اللَّفظ فقط لم يحصلِ الإيجازُ في أحد طرفيها بناءً على ذِكرِه في مُقابله السَّابقِ عليه.

دَلالةُ فصْلِ قولِه: ﴿إِنَّا هُدۡنَآ إِلَيۡكَۚ﴾ عمَّا قبْلَه:

فُصِلَتْ هذه الجملةُ؛ لأنَّها استئنافيَّةٌ واقعةٌ موقعَ التَّعليل لِمَا

إرادةُ الاستئنافِ وقصْدُ التَّعليلِ، يُغنيانِ عنِ الرَّبْطِ بالعطْفِ

قبلَها منَ الدُّعاء والاستجابة، وأيضًا: لوقوعِ حرفِ التَّأكيدِ في أوَّلها موقعَ الاهتمامِ، فيفيدُ التَّعليلَ والرَّبطَ، ويغني عن فاء السَّببيَّةِ، وورودِ العاطف[1].

دَلالةُ التَّأكيدِ بقولِهِ: ﴿إِنَّا﴾:

إظهارُ كمالِ إقبالِهم، وتحقُّقِ عزْمِهم في التَّوبةِ

دلَّ التَّأكيدُ بـ(إنَّ) على إظهار كمالِ إقبالِهم، وتحقُّقِ عزمِهم في التَّوبة، وحرصِهم على استنزالِ التَّوبةِ منَ اللّه لهم، والمعنى: "إنَّا تُبنا، ورجعنا عمَّا صنَعنَا منَ المعصيةِ العظيمةِ الَّتي جئناك للاعتذار عنها، وعمَّا وقعَ ههنا من طلب الرُّؤيةِ، فبعيدٌ من لطفِك وفضلِكَ ألَّا تَقْبلَ توبةَ التَّائبين"[2].

سِرُّ التَّعْبيرِ بنُون الجمْعِ في: ﴿إِنَّا هُدْنَآ﴾:

إمامةُ موسَى عليه السلام في الدُّعاء لقَوْمِهِ، بابُ القَبولِ لهم

الدُّعاءُ واردٌ من موسى عليه السلام على سبيل النِّيابةِ عن جماعةٍ، وهم قومُه، فجمع الضَّميرَ، باعتبار أنَّ النَّبيَّ إمامُ قومِه، فكما كان إمامَهُم في الاختيار منهم ﴿وَٱخۡتَارَ مُوسَىٰ قَوۡمَهُۥ﴾، فهو أيضا إمامُهم في الاستغفار عنهم، ولذا اطَّردَ ضميرُ المتكلِّمين في كافَّة دعائِه: ﴿وَلِيُّنَا﴾ ﴿فَٱغۡفِرۡ لَنَا﴾ ﴿وَٱرۡحَمۡنَاۖ﴾ ﴿۞وَٱكۡتُبۡ لَنَا﴾ ﴿إِنَّا هُدۡنَآ﴾، وهو دالٌّ على أنَّ الأنبياءَ أرحمُ النَّاسِ بالنَّاس، وفيه أنَّهم شفعاءُ الأمم عندَ اللّهِ، وهو دالٌّ على الاختصاص أيضًا، أي: اكتب لنا خاصَّةً؛ لأنَّه كان يدعو لنفسِهِ ولأمَّتِه فقط.

سِرُّ التَّعْبيرِ بقولِهِ: ﴿هُدْنَآ﴾، دونَ غيره:

التَّعبيرُ بهذا اللَّفظِ يُناسبُ حالةَ العِصيانِ الَّتي اقترفُوها

التَّعبيرُ عنِ التَّوبة بلفظ ﴿هُدۡنَآ﴾ مِنَ الهَوْد، وهو رجوعُ الباطنِ عمَّا بَدَر في الظَّاهرِ برفْقٍ وتُؤَدَةٍ، فهو رجوعٌ خاصٌّ، يتعيَّنُ في الباطن ويشملُه، والتَّعبيرُ بهذا اللَّفظ يناسبُ، ويقابلُ حالةَ العصيان الجهريَّةَ والجماعيَّةَ الَّتي اقترفوها، فكأنَّهم يقولون: إذا كنَّا عصيناك جهرًا

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/128.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/278.

بطلب ما لا يليقُ بك - سبحانَك - منَ الرُّؤية، فبواطنُنا قد تشرَّبتْ بالتَّوبة، وامتلأَتْ بالضَّراعة، "فعبَّر بهذا اللَّفظ أو ما يدلُّ على معناه؛ تنبيهًا لهم على أنَّ اسمَهم يدلُّ على التَّوبةِ والرُّجوع إلى الحقِّ والصَّيرورةِ إلى الصَّلاحِ واللِّينِ والضَّعفِ في الصَّوتِ والاستكانةِ في الكلام والسُّكوتِ عمَّا لا يليقُ، وأنَّ يَهودَا الَّذي أُخِذَ اسمُه من ذلك، إنَّما سُمُّوا به، ونُسِبوا إليه تفاؤلًا لهم؛ ليتبادروا إلى التَّوبة"[1].

دَلالةُ التَّعْبيرِ بالماضِي ﴿هُدْنَآ﴾:

التَّعْبيرُ بالماضِي لإفادةِ التَّحقُّقِ، ومُباشَرةِ التَّلبُّسِ بالفعْلِ، فوْرَ حُصولِ مُوجِبِه

عبَّرَ بالفعل الماضي ﴿هُدْنَآ﴾ لإفادةِ التَّحقُّقِ منَ التَّوبةِ، وأنَّهم لم يُناجوه بالاستغفار والدُّعاء إلَّا وهم مُتلبِّسون بصلاح الباطنِ، ولإفادةِ الفوريَّةِ، بمعنى: أنَّهم بمُجرَّدِ تورُّطِهم في العصيان سارعوا بالتَّوبة، ولم يتمهَّلوا فيها، أي: تُبنا فوْرَ معصيتِنا، ومن قَبلِ توجُّهِنا بالدُّعاء إليك.

سِرُّ اخْتِيارِ ﴿إِلَيْكَ﴾ دونَ (لك)، في قوله: ﴿هُدْنَآ إِلَيْكَ﴾:

تَحديدُ الغايةِ في مَقامِ العُبوديَّةِ، هو سَبيلُ الوُصولِ إلى المعبودِ

الفعلُ المُعَدَّى بالحروفِ المُتعدِّدةِ، لَه مع كلِّ حرفٍ مَعْنىً زائدٌ[2]، فإذا تَعَدّىَ الفعل بـ(إلى) أفادَ النَّصَّ على الغايةِ في الكلام؛ لأنَّ (إلى) حرفُ انتهاءِ الغاية، والسِّياقُ في مقامِ الدُّعاءِ، والفعلُ ﴿هُدْنَآ﴾ فعلُ التَّوبةِ، فهو مَقامُ عبوديَّةٍ، فنَاسَبَ أن يقولَ: ﴿هُدْنَآ إِلَيْكَ﴾؛ ليُحدِّدَ الغايةَ في مقامِ عبوديَّتِه؛ لأنَّ القَصدَ القلبيَّ والتَّوجُّهَ في هذا المقام مرتبطٌ بهذه الغايةِ الَّتي هي اللهُ ﷻ فعبَّر بحرفِ الانتهاء؛ ليدلَّ على مَعْنَى السَّعيِ المتواصِلِ في طلَبِ الغايةِ، أي: الاستمرارُ على فِعلِ التَّوبةِ حتَّى تَتَحقَّقَ الغايةُ، وينتهي الفعلُ إلى آخرِ وقتِه، والتَّعبيرُ بـ﴿هُدْنَآ إِلَيْكَ﴾ يُفيدُ انتظارَهم للقبولِ وعدمَ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/104.

(2) ابن القيّم، بدائع الفوائد: 2/20، وابن هشام، مغني اللّبيب، ص: 104، والخضريّ، من أسرار حروف الجرّ في الذّكر الحكيم، ص: 263.

ضمانتِهم له، واستمرارَهم على خُلُقِ التَّوبةِ، فَتَعدِيةُ الفعلِ بحرفِ الانتهاءِ أَلْيَقُ في هذا السِّياقِ، وأبلَغُ في التَّأدُّبِ مع اللهِ ﷻ إذ كانَ الدُّعاءُ واردًا على لسانِ موسى عليه السلام بعدَ جناياتِ قومِهِ المُتَتابِعة، ولذا لم يُناسِبْ أن يقولَ: (هُدْنَا لَك)؛ لأنَّ اللَّامَ حرفُ اختصاصٍ وتعليلٍ وتَعدِيَة، فيكونُ معناهُ جَعْلَ الفِعْلِ مُختَصًّا بالمعمول وخالِصًا له، وهو لا يُناسِبُ المقامَ هنا أبدًا، فأينَ تلك الخصوصيَّةُ، وهذا الخُلُوص بعدَ ارتكابِ الجناياتِ الَّتي تقتضِي الاستغراقَ في مُزاوَلَةِ التَّوبةِ في إشفاقٍ ورهبَة؟ فيكون التَّعبيرُ حينئذٍ بـ(هُدْنَا لَك) فيه تَقريبٌ منَ التَّوفيق والقبولِ بغيرِ مَا يَقتَضِيهِ الموقِفُ والحال، فيكونُ نُزولًا في رُتبَةِ التَّخشُّعِ بينَ يدي اللهِ، وهو ما يَتَنَزَّهُ عنه فِقهُ الأنبياءِ عليهم السلام بمواقِعِ الكلام ومناسَبَاتِ المقام.

سِرُّ التَّعْبيرِ بالإضْمارِ في ﴿إِلَيْكَ﴾:

الإضمارُ بكاف الخطابِ مراعاةٌ لمقامِ الدُّعاءِ، فالدُّعاءُ محلُّ خطابِ الرَّبِّ، والخطابُ أليقُ بحال النَّجوى بين العبد وربِّه، ولو قال: (إنَّا هدنا إلى اللهِ)؛ لكانَ خروجًا عن هذا المقام، وفصلًا للوسيلةِ عن بدايةِ المطْلَبِ؛ لأنَّه ساقَ دعاءَه بالخطابِ ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا﴾، والوسيلةُ ختْمٌ لدعائِهِ، فيجري الختْمُ على أسلوبِ البدْءِ؛ ليتطابقَ المطلعُ والختامُ.

الدُّعاءُ مَحلُّ خطابِ الرَّبِّ، والخطابُ أَلْيقُ بحالِ النَّجْوَى بينَه وبين عبْدِه

دَلالةُ تأْخِيرِ: ﴿إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ﴾ عن طلَبِ الدُّعاءِ:

دلَّ تأخيرُ جملةِ: ﴿إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ﴾ عن طلبِ الدُّعاءِ على جواز الاستعطافِ بالوسيلة بعدَ الدُّعاء؛ لأنَّ الجملةَ تعليليَّةٌ لمَا قبلَها، والوسائلُ تلحقُ المطلوبَ، ولا تتقدَّمُ عليه؛ لأنَّ تقدُّمَ الوسيلةِ على السُّؤالِ نزولٌ في رتبةِ الأدبِ من جهة كونهِ احتجاجًا على المسؤول بها قبلَ السُّؤالِ، فتأخيرُها هو الأدبُ العالي؛ لأنَّ فيه اعتبارَ مقامِ الكريمِ وآثارَ صفاتِه الحسنى مِن بسطِ العطاءِ وسبقِ الرَّحمةِ، قبلَ

تَقدُّمُ الوسِيلةِ على السُّؤالِ، نزولٌ في رُتْبةِ الأدَبِ

اعتبارِ كسْبِ الدَّاعي مِنَ العمل، واعتبارُ مقامِ المَلِك أولى في المقام مِن اعتبارِ مقامِ العبدِ، فقُدِّمَ ما للّهِ، وأُخِّرَ ما للعبدِ، "وإنَّما ذكرَ هذا السَّببَ أيضًا؛ لأنَّ السَّببَ الَّذي يقتضي حُسنَ طلَبِ هذه الأشياء ليس إلَّا مجموعَ هذين الأمرين: كونه إلهًا وربًّا ووليًّا، وقد توسَّلَ به في قوله: ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا﴾، وكوننا عبيدًا له تائبين خاضعين خاشعين، فالأوَّلُ: عهدُ عِزَّةِ الرُّبوبيَّةِ. والثَّاني: عهدُ ذِلَّةِ العبوديَّةِ، فإذا حصلَا، واجتمعَا، فلا سببَ أقوى منهما"[1].

دَلالةُ فصْلِ قولِه: ﴿قَالَ عَذَابِيٓ﴾ عمَّا قبلَه:

فُصِلَت هذه الجملةُ عمَّا قبلَها؛ لأنَّها في موقعِ الاستئنافِ البيانيِّ، كأنَّه قيل: فماذا قال اللّه تعالى له بعدَ دُعائِه؟ فقيل: ﴿قَالَ عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنۡ أَشَآءُۖ﴾[2]، ودلالةُ الفصل بالاستئناف: إنشاءُ حكمٍ عامٍّ يقعُ على النَّاس جميعًا، ولا يتعلَّقُ بخصوص الدُّعاءِ الَّذي دعا به موسى ربَّه[3]، ففيه التفاتٌ عنِ الخاصِّ بتقرير العامِّ الَّذي يقعُ تحتَ حكمِه، فوكَلَ شأنَهم الخاصَّ لحكمِه العامِّ.

إيجادُ حُكْمٍ عامٍّ، يقعُ على النَّاسِ جميعًا

وفيه إيذانٌ بقَبول توبتِهم بحسب الحكمِ العامِّ لا بحسب تخصيصِهم بالتَّوبة، وممَّا يُذكرُ في سبب الفصلِ: جريانُ السِّياق على طريقة المحاورةِ[4]، وهذا واضحٌ في سياق الآياتِ الواردةِ في هذا المشهدِ، بَدْءًا من قوله: ﴿فَلَمَّآ أَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ قَالَ رَبِّ لَوۡ شِئۡتَ﴾ الآيات.

سِرُّ التَّعْبيرِ بالعذابِ في ﴿قَالَ عَذَابِيٓ﴾، دونَ الهَلاكِ:

عبَّرَ بالعذابِ دونَ الهلاكِ؛ لوجودِ فرقٍ بينهما، فالهلاكُ فناءٌ عامٌّ في العقوبةِ وغيرِ العقوبةِ، في الإنسانِ والحيوانِ والجمادِ، ويفيدُ زوالَ الشَّيءِ وقطْعَ أثرِه، فليس شرطًا أن يأتيَ في العقوبة، وأمَّا

هنالك فرقٌ بين قصْدِ التَّخويفِ والتَّأديبِ، وبين قَصْدِ الإزالةِ

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 15/379.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 5/72.
(3) الخطيب، التّفسير القرآنّي للقرآن: 5/492.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/129.

العذابُ؛ فإيجاعُ الشَّيءِ وإيلامُه حتَّى تزولَ عنه عذوبةُ العصيان والهوى، ولا يأتي إلَّا في العقوبة، ويقعُ في الدُّنيا والآخرة، ولم يُستعمَلِ الهلاكُ في القرآن في الآخرة، وقد لا يُقصَدُ بالعذاب الاستئصالُ والفناءُ، وعبَّر هنا بالعذاب لقصْدِ تخويفهم وتأديبهم لا زوالهم.

والفائدةُ هاهنا جعْلُ العذابِ محاذاةَ الإهلاكِ الَّذي فهِمَه موسى عليه السلام بقوله: ﴿أَتُهۡلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّاۖ﴾، فجاءَت تلك الجملةُ في حكمِ الجوابِ عليها، وهي قوله: ﴿عَذَابِيٓ﴾، أي: ذلك عذابٌ، وليس إهلاكًا، وهو كأسلوبِ الحكيمِ في الجواب.

دَلالةُ الإضَافةِ في قولِه: ﴿عَذَابِيٓ﴾:

تهويلُ العذابِ والتَّخويفُ منه، مَنهجٌ لعِلاجِ البَشَرِ

الإضافةُ إلى ضمير الجلالةِ تفيدُ تعريفَ العذابِ وتعيينَه، والتَّعريفُ للعهد، أي: عذابُ اللّٰه الكائنُ منه وحدَه، فإنَّ الإضافةَ للمعرفة تُفيدُ التَّعريفَ، والإضافةَ للنَّكرة تفيدُ التَّخصيصَ، والقصدُ في التَّعريف إفادةُ العهدِ أو الجنس، والقصدُ في التَّخصيص تقليلُ الاشتراكِ[1]، أي: هو عذابٌ منَ اللّٰه وحدَه لا يشتركُ في إحداث مثلِه أو إحداثِه أحدٌ سواه، ففي إضافة العذابِ للّٰه تهويلٌ للعذاب وتفجيعٌ منه، وتحضيضٌ على أن يُنسبَ العذابُ الواقعُ لهُ سبحانه لئلَّا يُغفَل عن كونهِ منهُ، فيغفُلُوا عن مسارعةِ التَّوبةِ إليه، وفي إضافةِ العذابِ للّٰهِ تقريرٌ بأنَّ العذابَ حقٌّ لا ظلمٌ؛ لأنَّه مِنَ اللّٰه الحقِّ، ولا يظلم ربُّك أحدًا.

سِرُّ التَّعْبيرِ بالإصابةِ، في قولِه: ﴿أُصِيبُ بِهِۦ﴾:

الدَّلالةُ على أنَّ التَّعذيبَ واقعٌ بحقٍّ وعدْلٍ

التَّعبيرُ بالإصابةِ في قوله: ﴿أُصِيبُ بِهِۦ﴾ دونَ التَّعذيبِ؛ ليدلَّ على أنَّه واقعٌ بحقٍّ وعدلٍ لا جَوْرَ فيه، لاشتمالِ الإصابةِ على مَعْنَى القصدِ[2]؛ الَّذي لا يتعدَّى لغير الجاني، ولا يزيدُ على ما ارتكبَه الجاني، فنَفَى عن عذابِه بهذا التَّعبير شيئين: الخطأَ والظُّلمَ، وفي

(1) فاضل السّامرائي، معاني النّحو: 3/134.
(2) ابن منظور، لسان العرب: (صوب).

التَّعبير بالإصابةِ مَلمَحٌ آخر: وهو إيقاعُ العذابِ على جهةِ التَّخفيفِ مشمولًا بلطفِه وعِظَتِه، ولو قال: أعذِّبُ به مَن أشاء؛ لدلَّ على شِدَّة الملابسةِ وإطباق العقوبةِ وإحاطة العذابِ، وفيه إشارةٌ إلى أنَّ لفظَ الإصابة ليس مُتمحِّضًا في العذابِ، فهو يأتي في الخيرِ والشَّرِّ بخلاف العذابِ، فهو مُتمحِّضٌ في إيقاع العذابِ.

دَلالةُ التَّعْبيرِ بالمضارع، في قوله: ﴿أُصِيبُ﴾:

التَّعبيرُ بالمضارع ﴿أُصِيبُ﴾؛ ليدلَّ على حصوله بمقتضاه الحادثِ، وهو تجدُّدُ المعاصي منَ الخلقِ، وليفيدَ أنَّ العذابَ ليس أصلًا في الإرادة، بل هو يحدثُ بحدوثِ سببِه، وليس صفةً من صفاتِ اللهِ الأزليَّةِ كالرَّحمة، بل من أفعالِه المتَرَتِّبةِ على صفة العدلِ[1]، وفيه إشارةٌ إلى تخويفِ العاصين، وذلك بتجدُّدِ العذابِ كلَّما تجدَّدتِ المعاصي.

العذابُ حاصلٌ بمُقتضَى عِصيانِ الخَلْقِ، لا بمُقتضَى رُبوبيَّتِه

دَلالةُ التَّعْبيرِ بالإضْمار ﴿بِهِۦ﴾:

﴿قَالَ عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ﴾، ولم يقُل: (بالعذاب)؛ للاستغناء عنه بالظَّاهر السَّابقِ، ولاسيَّما وهو قريبٌ، وليس بينهما فاصلٌ يقتضي الإظهارَ، وفي الإضمار طَيٌّ لِذِكرِ العذابِ إعراضًا عن تكرار لفظه؛ ليُعرِضَ العبادُ عنِ اقترافِ أسبابِه، وفيه أنَّ العذابَ غيرُ مرغوبٍ فيه ذِكرًا وواقِعًا.

في الإضْمارِ طَيٌّ لِذِكْرِ العذابِ، إعْراضًا عن تَكرار لفْظِه

سِرُّ اخْتِيارِ ﴿مَنْ﴾ الموصولةِ، في قولِه: ﴿مَنْ أَشَآءُ﴾:

عبَّرَ هنا بـ﴿مَنْ﴾ الَّتي تفيدُ عمومَ الأفرادِ بخلاف (الَّذي)؛ فهو موصولٌ خاصٌّ[2]؛ من حيثُ الاستعمالُ، ومن حيث الدَّلالةُ، فهو يفيدُ الإظهارَ والتَّحديدَ، وأمَّا ﴿مَنْ﴾؛ فموصولٌ مُشتركٌ في الاستعمال والدَّلالة، فيفيد السِّترَ والإبهامَ، ويكأنَّ اللهَ لا يريدُ التَّشنيعَ على مَن

رحمةُ اللهِ سَبقَت غضبَه، ووسِعَتْ كلَّ شيءٍ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/278، ومحمد رضا، تفسير المنار: 9/192.
(2) فاضل السّامرائي، معاني النّحو: 1/123.

يعصي تشنيعًا يخلو منَ الإعذارِ وسبقِ المرحمةِ، بل يريدُ له السَّترَ الَّذي يجعلُه في مُهلةٍ من أمره.

سِرُّ التَّعْبيرِ بالمشيئةِ دونَ الإرادةِ، في قولِه: ﴿مَنْ أَشَآءُ﴾:

الإرادةُ أعمُّ منَ المشيئةِ من حيثُ التَّحقُّقُ والنَّفاذُ، فالإرادةُ قد يُرَادُ بها التَّحقُّقُ فيجب أن تقعَ، كقوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ سُوٓءٗا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ﴾ [الرّعد: 11]، وقد يُرادُ بها الإنشاءُ مع احتمالِ عدم وقوعِها، كقوله: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ﴾ [البقرة: 185]، ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمۡ﴾ [النساء: 28]، فهي إرادةٌ ناشئةٌ، لكن لا يلزمُ إنفاذُها، وأمَّا المشيئةُ؛ فهي أخصُّ، وهي جاريةٌ في الواقع النَّافذِ، ولذا عُلِّقَتْ عليها مشيئاتُ الخلقِ، قال: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الإنسان: 30]، وقولُه ﷺ: «ماشاء اللّهُ كان»، أي: وقعَ وحصلَ وجوبًا، وعليه: فإنَّ التَّعبيرَ الأنسبَ هاهنا المشيئةُ دونَ الإرادة؛ لأنَّ الإرادةَ احتماليَّةٌ، والمشيئةَ قطعيَّةٌ، ولو قال هنا: عذابي أُصِيبُ به مَن أريد؛ لكان غيرَ مناسبٍ لقوله: ﴿أُصِيبُ بِهِۦ﴾؛ لأنَّ الإصابةَ هي وقوعُ العذابِ، فعلَّقه على ما يفيدُ الوقوعَ قطعًا، وهي فِعلُ المشيئةِ.

الإرادةُ احتِماليَّةٌ، والمشيئةُ قطعيَّةٌ، واللـه يفعلُ ما يشاءُ ويريدُ

سِرُّ التَّعْبيرِ بقوله: ﴿مَنْ أَشَآءُ﴾:

علَّقَ العذابَ على مشيئتِه لا على إساءة العبدِ، فقال: أشاءُ، لا: أساء[1]، أوَّلًا: لِيُفهَم أنَّ المغفرةَ جائزةٌ عقلًا، ولو من غير توبةٍ؛ للتَّعليق على مشيئةِ الخالقِ لا عملِ المخلوقِ. وثانيًا: ليكون استدراكًا على قوله: ﴿إِنَّا هُدۡنَآ إِلَيۡكَ﴾، أي: عذابي ورحمتي تعلَّقَا بمشيئتي لا بكسبِ الأعمال[2]. ثالثًا - وهو النُّكتةُ هاهنا -: أنَّ تعليقَ العذابِ بالمشيئة إيذانٌ بقُربِ المسامحةِ والعفو منَ العذاب؛ لأنَّ مشيئةَ اللّهِ أنهضُ على العفو، وأفسحُ للتَّجاوز من أعمال الخَلقِ الَّتي قد تضيقُ عنهم.

تعليقُ العذابِ بالمشيئةِ دونَ الأعمالِ، مُسامحةٌ وعفوٌ من ذِي الجلالِ

(1) وهي قراءةٌ لا تصحّ. يُنظر: ابن جنيّ، المحتسب: 1/261.
(2) القشيريّ، لطائف الإشارات: 1/576.

سِرُّ عدَمِ التَّصريحِ بالمشيئةِ مع الرَّحمةِ:

تعظيمُ أمرِ الرَّحمةِ، دليلٌ على عِظَمِ شأنِها، وجَلالةِ نفعِها

طوى ذِكرَ المشيئةِ في الرَّحمة تعظيمًا لأمرها، وفي عدم تقييدها بالمشيئة نكتةٌ بديعةٌ: وهو أنَّ وسْعَ الرَّحمةِ المذكورَ وتعلُّقَه بـ﴿كُلَّ شَيْءٍ﴾ يدلُّ على أنَّ المرادَ هو الرَّحمةُ العامَّةُ - بدليل العموم - وتلك الرَّحمةُ تسعُ كلَّ شيءٍ قطعًا، وملازمةُ المشيئةِ لذلك أمرٌ أزليٌّ قد فُرِغ منه، فلا حاجةَ لتقديره، بخلاف العذابِ والإصابةِ به، فغيرُ مُتحقَّقٍ فيه هذا اللُّزوم، ولعلَّ هذا ما أراد أن يرمي إليه القشيريُّ بقوله: "لمّا انتهى إلى الرَّحمة لم يعلِّقْها بالمشيئة؛ لأنَّها نفسُ المشيئة، ولأنَّها قديمةٌ، والإرادةُ لا تتعلَّقُ بالقديم، فلمَّا كان العذابُ من صفات الفعلِ علَّقَه بالمشيئة، بعكس الرَّحمة؛ لأنَّها من صفات الذَّات"[1].

وممَّا يُذكَرُ في ذلك ما ذكره أبو السُّعود بقوله: "والمشيئةُ مُعتَبَرَةٌ في جانب الرَّحمةِ - أيضًا. وعدمُ التَّصريحِ بها للإشعار بغاية الظُّهورِ، يؤكِّدُ ذلك قوله تعالى: ﴿فَسَأَكْتُبُهَا﴾، أي: أُثبتُها وأعيِّنُها، فإنَّه مُتفرِّعٌ على اعتبار المشيئةِ، كأنَّه قيل: فإذا كان الأمرُ كذلك، أي: كما ذُكِرَ من إصابةِ عذابي وسَعَةِ رحمتي لكلِّ مَن أشاءُ، فسأكتبُها كَتْبَةً كائنةً، كما دعوْتَ بقولك: ﴿۞وَٱكْتُبْ لَنَا﴾[2].

دَلالةُ حَذْفِ مفعولِ المشيئةِ للفعْلِ ﴿أَشَآءُ﴾:

مَلْمحُ الإعْظامِ والإجلالِ لذاتِ اللهِ

حُذِفَ مفعولُ المشيئةِ؛ لأنَّه معلومٌ منَ السِّياق قبلَهُ، أي: أشاء إصابتَه أو تعذيبَه، أو أشاء إيَّاه، وفيه دلالةٌ معنويَّةٌ، مفادُها عدمُ العنايةِ بالمفعول، لا من حيثُ إرادةُ إهماله أو النَّعيُ عليه، بل من حيث قصديَّةُ عدم الإطنابِ في ذِكرِ مُتعلِّقاتِ العذابِ والتَّفصيلِ فيها وإظهارِها، وأيضًا في تجريدِ المشيئةِ عنِ اقتران مفعولِ التَّعذيبِ بها إعظامٌ وإجلالٌ لذاتِ اللهِ، ولاسيَّما في هذا السِّياقِ الَّذي هو

(1) القشيريّ، لطائف الإشارات: 1/576.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/278.

جوابٌ على دعاءِ كليمِ اللّهِ ومصطفاه ﷺ فَطَيُّ المفعولِ في الذِّكر بابٌ من إكرامِ اللّهِ لنجوى نبيِّه معهُ، وفيه إشعارٌ بأنَّ مبدأَ العذابِ عارضٌ مُوجَزٌ، فلا ينبغي التَّعرُّضُ لأسبابهِ والخوضُ فيها بالتَّعمُّقِ والزَّلل، وقد "جاء الكلامُ على طريقةٍ مُجملَةٍ شأنَ كلامِ مَن لا يُسألُ عمَّا يَفْعَلُ"[1].

دَلالةُ تَقْديمِ ذِكْرِ العذابِ على الرَّحمةِ:

التَّخويفُ بالعذابِ بابٌ من أبوابِ النَّجاةِ

قوله تعالى: ﴿عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنۡ أَشَآءُۖ وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖۚ﴾، قدَّمَ اللّهُ تعالى ذكرَ العذابِ على الرَّحمة؛ لأنَّه يكون لمخالفِ الفطرةِ السَّليمةِ، وللتَّحذير من فعلِ الشَّرِّ؛ ليختارَ المُكلَّفُ فعلَ الخير[2].ومِمَّا يُذكَر في هذا قول الآلوسيِّ: "ولعلَّ تقديمَ وصفِ العذابِ دونَ وصفِ الرَّحمةِ؛ ليفْرُغَ ذهنُ موسى ﷺ ممَّا يخافُ منه، مع أنَّ في عكسِ هذا التَّرتيبِ ما يُوجِبُ انتشارَ النَّظمِ الكريمِ، ووصْفُ أخلاقِ بني إسرائيلَ بما وُصِفوا به لاستنهاضِ هِمَمِهم إلى الاتِّصاف بما يمكن اتِّصافُهم به منه أو إلى الثَّبات عليه"[3].

دَلالةُ الإتْيانِ بجُملةِ: ﴿وَرَحۡمَتِي﴾ عقِبَ: ﴿قَالَ عَذَابِيٓ﴾:

تقريرُ عُمومِ رحمةِ اللهِ، بعدَ تقريرِ خُصوصِ العذَابِ

أتى بهذه الجملةِ عقبَ ما قبلَها للدَّلالةِ على عموم رحمةِ اللّهِ بعدَ تقريرِ خصوصِ عذابِه، فالرَّحمةُ تعمُّ، والعذابُ يخصُّ، ولو كان العذابُ عامًّا ما تَرَكَ على ظهرِها مِن دابَّةٍ.

وأيضًا؛ لأنَّ قولَه: ﴿وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖۚ﴾ معطوفٌ على جملةِ مقولِ القولِ[4]: ﴿قَالَ عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنۡ أَشَآءُۖ﴾.

دَلالةُ الواوِ، في قولِه: ﴿وَرَحۡمَتِي﴾:

الجمْعُ بين التَّرهيبِ والتَّرغيبِ في السِّياقِ

دلَّتِ الواوُ على الجمْعِ بين التَّرهيبِ والتَّرغيبِ؛ لأنَّ في العطف

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/129.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 6/2966.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 9/78.
(4) محمود الصّافي، الجدول: 9/93.

محاذاةً ومقابلةً مع "قول موسى: ﴿فَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَاۖ﴾، وهو وعدُ تعريضٍ بحصول الرَّحمةِ المسؤولةِ له، ولِمَن معه منَ المختارين"[1].

سِرُّ التَّعْبيرِ بالرَّحمة دونَ الحسنةِ:

الرَّحمةُ في هذا السِّياق أعمُّ، والحسنةُ آثرُ منها وأتمُّ

قوله تعالى: ﴿۞وَٱكۡتُبۡ لَنَا فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ﴾، الرَّحمةُ فيه صفةٌ أزليَّةٌ أبديَّةٌ للذَّات العليَّةِ، والحسنةُ ما هي إلَّا أثرٌ من آثار تلك الرَّحمة، وفردٌ من أفرادها، فلو قال: (وحسَنَتِي وَسِعَت كلَّ شيءٍ) لم يصحَّ؛ لأنَّ الحسنةَ أثرُ وُسْعِ الرَّحمة، وليست هي الَّتي وسِعَتْ، ولو عبَّرَ بالحسنةِ؛ لاقتضى عدمَ العمومِ المقصودِ من وسعِ الرَّحمةِ، ولكانَت خاصَّةً مثل العذابِ المذكورِ، ولو كان ذلك كذلك؛ لحاذَتِ المغفرةُ العذابَ؛ لأنَّه لا غلبةَ، ولا سبقَ للحسنةِ على العذابِ كما سبقَتْ رحمتُه، وغلَبَتْ، فضلًا عنِ التَّعبير بالحسنة - كما طلبوا في سؤالهم - لا يصحُّ من حيثُ المعنى؛ لأنَّ المقصودَ بالحسنةِ في سؤالهم العملُ والجزاءُ عليه، وهو مُنفَكٌّ عنِ المَعْنَى المقصود من: ﴿وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ﴾، ولا يشمَلُهُ، بل هو مشمولٌ في تعبير الرَّحمة.

دَلالةُ الإضافةِ في قولِه: ﴿وَرَحۡمَتِي﴾:

تعريفُ الرَّحمةِ وتَعظيمُها، في التَّناوُلِ القرآنيِّ

الإضافةُ إلى ضمير الجلالةِ تُفيدُ تعريفَ الرَّحمةِ وتعظيمَها، والتَّعريفُ للعهد، أي: رحمةُ اللهِ الكائنةُ منَ الواحدِ المتعالِ، وإضافتُها لضمير الذَّاتِ العليَّةِ مع قرينةِ وصفِها بالوسعِ والشُّموليَّةِ يفيدُ ذاتيَّتها، وأنَّها أصلٌ في الإرادة والمشيئةِ وسابقةٌ فيهما.

سِرُّ التَّعْبيرِ بلفْظِ ﴿وَسِعَتۡ﴾:

رحمةُ اللهِ عمَّتْ كلَّ شيءٍ، وشملَتْ كلَّ الوُجودِ بلا حُدودٍ

التَّعبيرُ بالوسع؛ لعدم غائيَّةِ الإحاطةِ فيه، فلا يُلمَحُ فيه الحدودُ، ولذا قرنَهُ بالعموم بعدَهُ، فهو لفظٌ "مُستعمَلٌ مجازًا في الإحاطة بكلِّ شيءٍ؛ لأنَّ الشَّيءَ الواسعَ يكون أكثرَ إحاطةً"[2]، ولسَعةِ هذا اللَّفظ في

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/129.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/11.

مصاديقِه، فهو يُقال في "الأمكنة، وفي الحال، وفي الفعل"[1]، وهو لفظٌ واسعٌ كذلك في أدائه الصَّوتيِّ، وهو يدلُّ على انفتاحٍ وانشراحٍ حسِّيٍّ ومعنويٍّ، وفيه بشارةٌ لموسى ومَن معه بقَبول دعاءِ اللّهِ منهم.

سِرُّ التَّعْبيرِ بالماضي ﴿وَسِعَتْ﴾:

مَلمحُ المفاضَلةِ بين الرَّحمةِ والعذابِ، بدلالةِ الإسنادِ إلى مُتغايرَيْن في الصِّيغةِ

عبَّر بالماضي ﴿وَسِعَتْ﴾ للدَّلالة على أنَّ سعةَ رحمةِ اللّهِ أمرٌ مُقدَّرٌ أزليٌّ، وفيه إيذانٌ بأنَّ الرَّحمةَ مُقتضى ذاتِ اللّهِ سبحانه[2]؛ وفي ذلك إيماءٌ إلى المفاضلة والمفارقة بينها وبين العذاب الَّذي عبَّر عنه بالمضارع ﴿أُصِيبُ بِهِۦ﴾، وقد سبقَ في مَوضِعِه.

دَلالةُ اخْتِيارِ ﴿كُلَّ﴾ دونَ (جميع):

دَلالةُ (كلّ) على الاسْتِغراقِ الحَصْريِّ، و(جميع) على العُمومِ الإحاطيِّ

قوله تعالى: ﴿وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾، آثرَ التَّعبيرَ فيه بـ﴿كُلَّ﴾ دون (جميع)؛ لدلالة ﴿كُلَّ﴾ على الاستغراقِ الفرديِّ أو التَّفصيليِّ، ودلالةِ (جميع) على الاستغراقِ الجمعيِّ أو التَّوزيعيِّ.

فـ(كلٌّ) [3] "تدلُّ على كلِّ فردٍ بطريق النُّصوصيَّة، بخلاف (جميع) فإنَّه يدلُّ على (جميع) الأفرادِ، وهو الَّذي يُرادُ من قولهم، وإنَّ (جميع) للعموم الإحاطيِّ"[4]، فلو قال: وَسِعَتْ رحمتي جميعَ الأشياء؛ لكانتِ الرَّحمةُ مُستغرِقةً لمجموعهم مُوزَّعةً على مجموعهم بانقسامها عليهم، فلو قال مثلًا أميرٌ لجنده: (كلُّ مَن دخلَ هذا الحصنَ أوَّلًا؛ فله ألفُ دينارٍ)، فدخله واحدٌ؛ استحقَّ الألفَ، وإن دخلوه جميعًا؛ استحقَّ كلُّ واحدٍ منهم ألفًا. وإذا قال لهم: (جميعُ مَن دخلَ هذا الحصنَ أوَّلًا؛ فله

(1) الرّاغب، المفردات: (وسع).
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/278.
(3) كلمة (كلّ) إذا دخلَت على النّكرة أوجبَت عمومَ أفرادها على سبيل الشّمول دون التّكرار، وأمّا كلمةُ (الجميع)؛ فإنّه مُتعرِّضٌ لصفة الاجتماع، فـ (كلّ) عامٌّ بمعناها دونَ صيغتها فتحيط على سبيل الإفرادِ، و(جميع) منَ العامِّ معنًى، فتوجب إحاطةَ الأفرادِ على سبيل الاجتماعِ دون الانفراد. يُنظر: الكفويّ، الكلّيّات: 1/600.
(4) فاضل السّامرائي، معاني النّحو: 4/145.

ألفُ دينار)، فدخله واحدٌ؛ استحقَّ الألفَ، وإن دخلَهُ جماعةٌ؛ استحقُّوا ألفًا، فقُسِّم بينهم[1].

دَلالةُ التَّعْبير بـ﴿شَيْءٍ﴾:

آثرَ التَّعبيرَ بـ﴿شَيْءٍ﴾؛ ليشمَل الأشياءَ والأشخاصَ، فيكون عامًّا في الذَّواتِ والأعراضِ والجماداتِ والحيواناتِ، فـ﴿شَيْءٍ﴾ نكرةٌ منوَّنةٌ تفيدُ العمومَ، أي: شيءٌ مِنَ الأشياء[2]، فاصطفاءُ اللَّفظِ يفيدُ عمومَ الرَّحمةِ على الأشياء والأشخاص حتَّى استغرقَتِ الذَّرَّاتِ، كما استغرقَتِ المجَرَّاتِ.

وُسْعُ الرَّحمةِ وعُمومُها، دالٌّ على أنَّها استغرقَتِ الذَّرَّاتِ، كما استغرقَتِ المجرَّاتِ

دَلالةُ الإفرادِ في قولِه: ﴿شَيْءٍ﴾:

عبَّر بالمفرد دونَ الجمعِ (أشياء)؛ لإفادة التَّنصيصِ على مَعْنَى استقلالِ كلِّ فردٍ بنصيبِهِ الثَّابت في الرَّحمة، ولو قال: (وَسِعَتْ كلَّ الأشياء)؛ لاَقْتَضى العمومَ مع إفادة الإخبارِ بالاجتماع في الحدث، وأمَّا الإفرادُ؛ فمعناه أنَّ كلَّ واحدٍ قامَ به على انفراد[3]، وهذا أبلغُ؛ لتصوير وِسْعِ الرَّحمةِ قائمًا بكلِّ شيءٍ على حِدَةٍ من غير تقييده باجتماعهم، وثمرةُ هذا التَّعبير: إفادةُ الدَّلالة على الرَّحمة الخاصَّةِ والعامَّة، والدَّلالةِ على أنَّ كلَّ فردٍ قامَ به وسعُ الرَّحمةِ كاملًا.

تصويرُ وُسْعِ الرَّحمةِ، قائمٌ بكلِّ شيءٍ على حِدَتِه، من غيرِ تقييدِه باجْتِماعِهم

دَلالةُ الجمْعِ بين ﴿كُلَّ﴾ و﴿شَيْءٍ﴾ في الآيةِ:

﴿كُلَّ﴾ تدلُّ على العموم الشُّموليِّ، و﴿شَيْءٍ﴾: "اسمٌ مُتوغِّلٌ في التَّنكير دالٌّ على نوعٍ ما يصلحُ له سياقُ الكلام"[4]، وهو هنا نكرةٌ في سياق الإثباتِ، والمقامُ مقامُ امتنانٍ[5]، وهي تدلُّ على العموم البدليِّ الَّذي يفيدُ الشُّيوعَ من غيرِ تعيينٍ، ولكنَّ مجيئَها بعد كلٍّ جعلَها

إفادةُ تمامِ الاسْتِغراقِ، وكمالِ سَعةِ الرَّحمةِ، لكلِّ الأجناسِ

(1) البزدويّ، كنز الوصول: 2/9.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 6/2966.
(3) ابن القيّم، بدائع الفوائد: 1/215.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/141.
(5) الكفويّ، الكلّيّات، ص: 601.

صادقةً على جميع أفرادها بالتَّعيينِ والاستغراقِ، وهذا الاقترانُ بين العمومين (الاستغراقيِّ والإطلاقيِّ) يفيدُ تمامَ الاستغراقِ وكمالَهُ لغرض المبالغةِ في استحواذِ سَعةِ الرَّحمةِ على كلِّ الأجناسِ بأفرادِها المتعيِّنةِ، فلا يخرجُ منها شيءٌ.

دَلالةُ الفاءِ في قولِه: ﴿فَسَأَكْتُبُهَا﴾:

التَّفريعُ على سَعة الرَّحمةِ، لتخصيصِ ما يُكتبُ منها في المستقبَلِ

دلالةُ تلك الفاءِ التَّفريعُ على سَعة الرَّحمةِ؛ لأنَّها لمّا وسعَت كلَّ شيءٍ، خُصَّ منها ما يُكتَب، أي: يُعطَى في المستقبل[1]، وهي عاطفةٌ لِرَبط المُسبَّب بالسَّبب[2]، فهي فاءُ التَّسبيب، أو هي استئنافيَّةٌ مَسوقةٌ للتَّعريض بقوم موسى[3].

سِرُّ اخْتِيارِ السِّين دونَ (سوف)، في قولِه: ﴿فَسَأَكْتُبُهَا﴾:

السِّينُ أسرعُ من سَوْفَ، وتدلُّ على اسْتِيفاءِ الاسْتحقاقِ، فورَ تحقُّقِ شَرطِهِ

آثرَ اختيارَ السِّينِ؛ للدَّلالة على التَّعجيلِ بفعل الكتابةِ، وأنَّه قريبٌ منَ المُتحقِّقِ بشرطهِ قربَ الرَّحمة ممَّن استحقَّها باقترابهِ منَ المُتَّصفِ بها ﷻ فالسِّينُ أسرعُ في الاستقبال من سوف، وهي دلالةٌ على استيفاء الاستحقاقِ فورَ تحقُّقِ شرطِهِ، هذا والسِّينُ قد تكون للتَّوكيد وليس للاستقبال[4]، أي: (فأكتبها) على جهةِ الوعد المؤكَّدِ، و(سوف) لا تحتملُ توكيدًا، بل هي للاستقبال فحسْبُ، فأتى بالسِّين ليكونَ جاريًا على المعنيَين.

سِرُّ التَّعْبيرِ بالكتابة دونَ الإعطاءِ أوِ المنْحِ:

أهميّةُ تقاطُعِ الجوابِ مع السُّؤالِ، في مضمونِهِ ومنطوقِهِ

ليكونَ الجوابُ من جنس السُّؤالِ في المحاذاة والاقتباس، فمِنَ البلاغة أن يتقاطعَ الجوابُ مع السُّؤال في مضمونهِ ومنطوقه، فتُجيبَ منَ السُّؤال على السُّؤال، وهذا من حُسن الجوابِ، فلمَّا قال موسى: ﴿وَٱكْتُبْ لَنَا﴾؛ كان الجوابُ مُرَاعىً فيه قصدُ السَّائلِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/130.
(2) صافي، الجدول: 9/93.
(3) درويش، إعراب القرآن: 3/468.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 5/75.

ومرادُه، فأخذ مرادَه من لفظِه، وأجابَ به عليه، يؤكِّد ذلك ما ذكره أبو السُّعود بقولِه: "فسأكتبها كتبةً كائنةً كما دعوتَ بقولك: ﴿وَٱكۡتُبۡ لَنَا﴾"[1].

دَلالةُ عدَمِ ذكْرِ فاعلِ كتابةِ الرَّحمةِ:

اطِّرادُ الكلامِ على أُسلُوب التَّكلُّمِ، أبلغُ مِنَ الالْتفاتِ للغَيبةِ

الكلامُ جارٍ على أسلوب التَّكلُّم: ﴿وَرَحۡمَتِي﴾.. ﴿فَسَأَكۡتُبُهَا﴾، فلم يكن يصحُّ ذكرُ الفاعلِ إلَّا على وجه الالتفاتِ للغَيبة فسيكتبُها اللهُ، مع عدَم لزومِه أيضا إذا أُضمِر؛ لأنَّه مقامُ إضمارٍ، واطِّرادُ الكلام على أسلوب التَّكلُّم أبلغُ منَ الالتفات للغيبةِ؛ لأنَّ كتابةَ الشَّيء فرعٌ عن مقامِه، فإذا كان الشَّيءُ شريفًا كانت كتابتُه شريفةً، فكذلك هنا: لمّا أضاف الرَّحمةَ لنفسه تعظيمًا وإجلالًا، فقال: ﴿وَرَحۡمَتِي﴾ بضمير المتكلِّم، ولم يقُل: ورحمتُهُ، اقتضى ذلك أنْ يُسنِدَ الكتابةَ أيضا لضمير المتكلِّم، فقال: سأكتبُها؛ لأنَّ الكتابةَ تأخذُ مقامَ المكتوبِ ورتبَتَهُ.

سِرُّ التَّعْبيرِ عنِ كتابة الرَّحمةِ بالإضمارِ، دونَ الإظْهارِ:

إعادةُ الرَّحمةِ بلفْظِها دونَ ضميرِها، خلافُ الأصلِ، لِعدَمِ ما يقتضِي الإظهارَ

عبَّرَ عنِ الرَّحمة بالضَّمير في قوله: ﴿فَسَأَكۡتُبُهَا﴾؛ لدلالةِ السَّابقِ عليه بما يُغني عن إعادته بلفظه؛ لأنَّ في إعادة الرَّحمةِ بلفظها دونَ ضميرها خلافًا للأصلِ لعدم ما يقتضي الإظهارَ، ولأنَّه قد لا يُقصَدُ جنسُ الرَّحمةِ، بل يَكتب قسطًا منها أو فردًا منها، لجواز عود الضَّميرِ على بعضِ مرجِعِه.

دَلالةُ اخْتِيارِ اسْمِ الموصولِ ﴿لِلَّذِينَ﴾ دونَ (مَنْ):

دَلالةُ الموصولِ الخاصِّ على النَّصِّ، والاخْتِصاصِ بالشَّأنِ والمقامِ

مَن كُتِبَت له الرَّحمةُ؛ فهو حقيقٌ بالنَّصِّ والاختصاصِ والتَّنبيهِ على الشَّأن والمقام، وهذا مقابلُ استعمال ﴿مَنۡ﴾ في ﴿مَنۡ أَشَآءُۖ﴾، وليس المرادُ تعيينَ ذواتهم، بل تعيينَهم بالصِّفة، كأنَّما أنزَلَهُم مَنزلةَ المتَعَيَّنِ.

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/278.

سِرُّ التَّعْبيرِ بالتَّقوَى، في قولِه: ﴿لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾:

التَّقوَى غايةُ العملِ، ورحمةُ اللهِ غايةُ الأمَلِ

لأنَّ مقاصدَ الشَّرعِ مُتعيِّنةٌ في التَّخلُّقِ بها حتَّى جعلَها اللهُ غايةَ الغاياتِ، فالعبادةُ هي غايةُ الخلقِ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾ [الذّاريات: 56]، والتَّقوى هي غايةُ العبادةِ: ﴿ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ۝٢١﴾ [البقرة: 21]، فإذا كانت هي غايةَ العملِ؛ فإنَّ رحمةَ اللهِ هي غايةُ الجزاءِ، فجعل الرَّحمةَ مشروطةً بالتَّقوى.

وممَّا يُذكَرُ في سرِّ التَّعبيرِ بالتَّقوى أنَّها تشيرُ إلى اتِّقاءِ الكفرِ والمعاصي، إمَّا ابتداءً أو بعدَ مُلابستِهما، وفيه تعريضٌ بقومِ موسى، كأنَّه قيل له عليه السلام: لا لقومِك؛ لأنَّهم غيرُ مُتَّقِين، فيكفيهم ما قُدِّرَ لهم منَ الرَّحمةِ وإن كانت مُقارِنَةً للعذابِ الدُّنيويِّ[1].

دَلالةُ التَّعْبيرِ بالمضارعِ: ﴿يَتَّقُونَ﴾:

كثرةُ وُقوعِ الفعلِ منهم، وإفادةُ صَلاحِ الظَّاهرِ

في التَّعبيرِ بالمضارعِ المُتجَدِّدِ إفادةُ كَثْرةِ وقوعِ الفعلِ مِنهم، وإفادةُ صلاحِ الظَّاهرِ وحُسْنِ السَّمْتِ بالتَّقوى؛ لأنَّ معنى تجديدِ الفعلِ وحدوثِه تصويرٌ لِتَكرارِ فعلِ التَّقوى منهم، فهو يقعُ مرَّةً بعد مرَّةٍ، وللدَّلالةِ على أنَّ التَّقوى تتحقَّقُ بتجديدِ العملِ وعدمِ التَّواني في شأنِ اعتيادِه بالتَّكرارِ والإعادةِ.

دَلالةُ (الواوِ)، في: ﴿وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾:

ترتيبُ (الزَّكاةِ) بعدَ (التَّقوَى)، يدلُّ على أنَّ التَّزكيةَ لا تحصُلُ إلَّا بالاتِّقاءِ والتَّرْكِ

الجملةُ نَسَقٌ على ما قبلَها، وهو قولُه: ﴿يَتَّقُونَ﴾، أي: سأكتبُ الرَّحمةَ للموصوفينَ بهذين الفعلينِ: ﴿يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ﴾، وفي الجمعِ بينهما دون غيرِهما تعريضٌ بقومِ موسى عليه السلام فالتَّقوى دواءٌ لِقسوةِ قلوبِهم وعدمِ تَناهِيهم عنِ المنكراتِ، وإيتاءُ الزَّكاةِ علاجٌ لِجمودِهم على المادَّةِ وإطلاقِ أيديهم بالحرامِ فيها، وإمساكِهم لها عنِ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/278.

الإقراض الحسنِ وبذلِ المعروفِ وأخْذِ المالِ بحقِّه، وإنفاقه بحقِّه، وكلُّ ذلك دواؤهُ الانقيادُ للهِ في الظَّاهر والباطنِ؛ لأنَّ التَّزكيةَ لا تحصلُ إلَّا بالاتِّقاءِ والتَّرك.

سِرُّ اخْتِيارِ ﴿وَيُؤْتُونَ﴾ في الزَّكاة:

الإيتاءُ لم يُسنَدْ إلَّا للشَّيءِ العظيمِ، ذي الشَّأنِ الفَخيمِ

وردَ الإيتاءُ في الزَّكاة دون الإعطاءِ لثلاثة اعتباراتٍ: الأوَّل: يتعلَّقُ بالفاعل(المؤتِي)، فهو يدفعُ الزَّكاةَ عن طيب نفسٍ لا عن إكراهٍ، ولو قال: (يُعطُون)؛ لاحتملَ كُرْهَ النَّفسِ، كما قال في الجزية: ﴿حَتَّىٰ يُعْطُواْ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ۝٢٩﴾ [التَّوبة: 29]، فجعلَ الإعطاءَ فيما كان عن غلبةٍ وقهرٍ، والثَّاني: يتعلَّقُ بـ(المؤتَى)، وهو الشَّيءُ المبذولُ، فإنَّ الإيتاءَ يكونُ في الشَّيءِ عزيزَ القيمةِ كثيرَ المَنفَعَةِ عظيمَ القدرِ، ولو قال: (يُعطون) لاحتملَ إعطاءَ البخْسِ والقليلِ، كما أسندَ العطاءَ للقليل في قوله: ﴿وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ ۝٣٤﴾ [النَّجم: 34]، وأمَّا الإيتاءُ؛ فلم يُسنَد إلَّا للعظيم والكثير: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ﴾ [ص: 20] ﴿ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ۝٩٩﴾ [طه: 99] ﴿وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ۝٥٤﴾ [النِّساء: 54]، فإسنادُ الإتيانِ للزَّكاة إعظامٌ لشأن الفريضةِ وإجلالٌ لمكانها في الشَّرع، فالإيتاءُ للكثير، والإعطاءُ للكثير والقليل بحسب قرينةِ السِّياق، ولذا كان الإعطاءُ فيما يُنتقَلُ عنه إلى ما هو أعلى منه، ولذا قال: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ﴾ [الكوثر: 1]؛ لانتقاله منَ الكوثر إلى ما هو أعلى منه، وهو الجنَّةُ ومزايا النَّعيم الأحسن[1]، والثَّالث: يتعلَّقُ بـ(المؤتَى إليه)، وهو آخِذُ الزَّكاة، من حيثُ إنَّ إيتاءَه الزَّكاة لا يتوقَّفُ على قبولِه وموافقته، فهو حقيقٌ بها من غير اعتبار موقفِه، ولذا كان فعلُ الإيتاء أقوى منَ الإعطاء، ومِن ثَمَّ كان فِعلُ الإيتاءِ لا مُطاوعَ له من لفظِه، كما في الإعطاءِ، "يُقال: آتاني فأخذْتُه، وفي الإعطاء يُقال: أعطاني فعطوْتُ، وما له مطاوعٌ أضعفُ في إثبات

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 86.

مفعولهِ ممَّا لا مطاوعَ له"[1]، ولو قال: (ويُعطون الزَّكاة)؛ لاحتملَ توقُّفَهُ على القَبول، كما قال: ﴿حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ﴾ [التَّوبة: 29]، فإنَّ عطاءَهم الجِزيةَ مُتوقِّفٌ على القَبول مِنَّا، ودلالةُ ذلك هنا: التَّنبيهُ على كون الزَّكاةِ حقًّا للّه خالصًا، والغنيُّ والفقيرُ ما هما إلَّا وكِيلان في مُداولَة هذا الحقِّ بينهما، فلا الغنيُّ يستكثرُ على الفقيرِ، فيمُنُّ بزكاتهِ، ولا الفقيرُ يستنكرُ على الغنيِّ، فيُعرِضُ، أو يرفضُ، أو يتحرَّج.

دَلالةُ المضارعِ في قوله: ﴿وَيُؤۡتُونَ﴾:

دلَّ التَّعبيرُ بالمضارع ﴿وَيُؤۡتُونَ﴾ على المواظبةِ وتكرارِ الفِعل، كلَّما حضرَ وقتُ أداءِ الزَّكاة وتحقَّق شرطُه، فصيغةُ المضارع لنفي المَرَّة ولثبوت التَّكرار.

المواظبةُ على إيتاءِ الزَّكاة، من أسبابِ السُّموِّ والتَّراحُمِ

سِرُّ انفِرادِ إيتاءِ الزَّكاة عنِ الصَّلاة:

أفردَ الحديث عن إيتاء الزَّكاةِ دون الصَّلاةِ؛ لأنَّها داخلةٌ في أفعال التَّقوى؛ إذِ التَّقوى تُروكٌ وأفعالٌ، ولم يُفصح عنها باستقلالٍ لغرض التَّنبيهِ على ما يُناسِبُ ما تمكَّنوا فيه منَ المحاذير، فاحتاجوا لبيانِ ما هو خلاصةُ دَوَاهم بأنسبِ سببٍ لمقتضى حالهم، و"لأنَّ فتنةَ حبِّ المالِ تقتضي بنظر العقلِ والاختبارِ بالفعل أن يكونَ المانعون للزَّكاة أكثرَ منَ التَّاركين لغيرها منَ الفرائض، وفيه إشارةٌ إلى شدَّة حبِّ اليهود للدُّنيا، وافتتانهم بجمع المالِ، ومنْعِ بذلِه في سبيل اللّه"[2]، ولعلَّ الصَّلاةَ إنَّما لم تُذكَر مع إنافتها على سائر العبادات، وكونِها عمادَ الدِّين، اكتفاءً منها بالاتِّقاء الَّذي هو عبارةٌ عن فعل الواجباتِ بأسرها، وترك المنهيَّاتِ عن آخرها[3].

التّقوَى جِماعُ كلِّ خيرٍ، ومَوئِلُ كلِّ مَبرّةٍ وعِصمةٍ

(1) الكفويّ، الكلّيّات، ص: 212.
(2) محمد رضا، تفسير المنار: 9/193، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/279.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 5/73.

سِرُّ التَّعْبيرِ بالزَّكاة دونَ الصَّدقة:

قوله تعالى: ﴿وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾، عبَّرَ فيه بالزَّكاة دونَ الصَّدقة؛ للدَّلالة على أنَّها من تشريعِ اللهِ لبني إسرائيل على لسان موسى عليه السلام وهذا ظاهرٌ في آياتٍ كثيرةٍ منَ القرآن، ولا يُقال: إنَّ الزَّكاةَ هي زكاةُ النُّفوسِ بسببِ مكِّيَّةِ السُّورة؛ لأنَّ زكاةَ النُّفوسِ لا يُعبَّرُ عنها بِفعلِ الإيتاء، ولانفكاك الجهةِ بين المكِّيَّةِ وإيتاءِ الزَّكاة هنا؛ إذِ الكلامُ واردٌ في حيِّزِ الجوابِ على دعاءِ موسى عليه السلام وقد كانتِ الزَّكاةُ شرعًا لهم قبل بعثةِ الرَّسولِ محمَّد ﷺ فالكلامُ جارٍ على ما كان لهم قبلَ البَعثَة.

الزَّكاةُ من شريعةِ بني إسرائيلَ، ومأمورُ كلِّ الشَّرائعِ السَّماويَّةِ

سِرُّ البَدْءِ بقولِه: ﴿لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾:

بدأ بقوله: ﴿لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾، قبْلَ قوله: ﴿وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾؛ لأنَّ التَّقوى هي أصلُ قَبولِ التَّكاليفِ مِنَ اللهِ، وأصلُ الاستعدادِ لها منَ العبد، فلا يقبَلُ اللهُ إلَّا مِنَ المتَّقين: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ۝٢٧﴾ [المائدة: 27]، ولا يأْتمرُ العبدُ للتَّكليفِ مِن غير نيَّةِ التَّقوى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ۝١٧﴾ [محمد: 17] ليتقوَّوا بها على امتثال التَّكاليف.

التَّقوَى هي اضطلاعٌ بالتَّكليف، والتَّكليفُ تحقيقُ التَّقوَى

دَلالةُ (الواوِ) في قولِه: ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾:

العطْفُ للمغايرة بين ما في حيِّز الموصولين مِنَ الصِّلة، فالَّذين يتَّقون ويؤتونَ الزَّكاةَ غير الَّذين هم بآيتنا يؤمنون، مغايرةً في الصِّفاتِ لا في الذَّوات، للتَّنبيهِ على الفرقِ بين مفهومِ التَّقوى وإيتاءِ الزَّكاة ومفهومِ الإيمان.

تقريرُ الفرْقِ بين مفهومِ التَّقوَى، وإيتاءِ الزَّكاة، ومفهومِ الإيمانِ

سِرُّ إعادةِ اسْمِ الموصولِ ﴿وَٱلَّذِينَ﴾:

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾، فـ"نكتةُ إعادةِ الموصول ﴿وَٱلَّذِينَ﴾ مع الضَّمير ﴿هُم﴾؛ إمَّا جَعْلُ الموصول الأوَّل عامًّا لقومه الَّذين دعا لهم، ممَّن استمرُّوا على التزام التَّقوى وأداء الزَّكاة منهم، وجعْلُ الثَّاني خاصًّا بمَن يدركون بعثةَ خاتمِ الرُّسلِ عليهم السلام ويتَّبعونه - كما يُعلَمُ ممَّا بعده، وإمَّا لبيان الفصلِ بين مفهومِ

إعادةُ الموصولِ قد يُفيدُ المغايَرةَ، بين ما في حيِّزِهما مِنَ الصِّلةِ

الإسلامِ ومفهومِ الإيمانِ، والتَّعريضِ بأنَّ الَّذين طلبوا من موسى أن يجعلَ لهم آلهةً والَّذين عبدوا العجل، والَّذين قالوا: ﴿لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهۡرَةً﴾ [البقرة: 55] لم يكونوا مؤمنين بآياتِ اللّهِ العامَّة ولا الخاصَّة الَّتي جاء بها نبيُّهم.

وممَّا يؤكِّد ذلك ما ذكره أبو السُّعود بقوله: "وتكريرُ الموصولِ مع أنَّ المرادَ به عينُ ما أُريد بالموصول الأوَّل، دون أن يُقال: (ويؤمنون بآياتنا) عطفًا على ﴿يُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾، كما عُطِف (هو) على (يتَّقون) لمّا أُشير إليه منَ القصْرِ بتقديم الجارِّ والمجرور، أي: هم بجميع آياتنا يؤمنون لا ببعضِها دونَ بعضٍ[1].

دَلالةُ الإتْيانِ بضَميرِ الفصْلِ ﴿هُم﴾:

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤۡمِنُونَ﴾، يتضمّن ضمير الفصل، وفائدةُ ضميرِ الفصلِ: الحصرُ والتَّوكيدُ، وفصلُ الخبر عنِ الصِّفة بتعيُّن الخبرِ، أي: سأكتبُ الرَّحمةَ للمؤمنين لا لغيرهم قصرًا عليهم واختصاصًا بهم، والقصرُ هنا حقيقيٌّ، ويفيدُ التَّوكيدَ، أي: الَّذين هم يؤمنون حقًّا وقطعًا مؤكَّدًا، فالتَّوكيد لإفادةِ الكمالِ، ويفيدُ أنَّ ﴿يُؤۡمِنُونَ﴾ خبرٌ للموصول لا صفةٌ. وفيه إشارةٌ للتَّعظيم من شأن المؤمنين وشأنِ الآياتِ وشأن الإيمانِ، وهو مُتوجِّهٌ (أصالةً) لأصحاب الضَّمير، (وتَبَعًا) لموضوعِ الإيمان (الآيات)، وفعلِ الإيمان ذاته.

ضَميرُ الفصْلِ يُفيدُ الحصْرَ والتَّوكيدَ، وفصْلَ الخبرِ عنِ الصِّفةِ

سِرُّ التَّعْبيرِ بالآياتِ في قولِه: ﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾:

لإفادة عموم المُسمَّى، لتنتظمَ فيها الآياتُ المتلوَّةُ والآياتُ المشهودةُ. وقد عبَّرَ بالجمع لإفادة الشُّمولِ؛ للإيمان بجميع الآياتِ، ولو أفردَ؛ لساغ الإيمانُ بآحادِ الآياتِ دون مجموعِها، وهذا غيرُ مرادٍ.

التَّعْبيرُ بالجمْعِ (بآياتنا) دونَ الإفْراد، مُبيِّنٌ للغايةِ والمُرادِ

دَلالةُ الإضافةِ إلى نونِ العظمةِ، في: ﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾:

الإضافةُ إلى نون العظمةِ التفاتٌ منَ التَّكلُّم الإفراديِّ إلى

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/279.

الجمعيِّ، والإسنادُ لضميرِ العظمةِ جارٍ على أسلوب المُتكلّم في ﴿عَذَابِيٓ﴾، ﴿وَرَحۡمَتِي﴾، ﴿فَسَأَكۡتُبُهَا﴾، فكما أُسنِدَ فيها للضَّمير؛ أُسنِدت الآياتُ للضَّمير، وجاءَ بالنُّون تعظيمًا لآياته، ونونُ العظمةِ أعرفُ منَ الإسنادِ لظاهرٍ، والمقامُ مقامُ ترهيبٍ وترغيبٍ، فناسَبَ تعريفَ الآياتِ بأعرفِ المعارف.

الإضافةُ إشارةٌ إلى عِظَمِ الآيات ومَنزلتِها، وزيادةُ ترغيبٍ وترهيبٍ

دَلالةُ تقديمِ الجارِّ والمجرور في قولِه: ﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾:

وتقديمُ الجارِّ والمجرور يفيدُ الحصرَ، أي: بكلِّ آياتنا، وفي هذا تعريضٌ ببني إسرائيلَ في عدم إيمانِهم بالنَّبيِّ ﷺ وما أُنزِلَ عليه منَ الآيات.

تَبريزُ الآياتِ، تَعريضٌ بكُفرِ أهلِ الكتابِ

سِرُّ التَّعْبيرِ بقولِه: ﴿يُؤۡمِنُونَ﴾:

لأنَّ المقصودَ الحقيقةُ الشَّرعيَّةُ للإيمان اعتقادًا وقولًا وعملًا، ولو قال: (يصدِّقون)؛ لكان أخصَّ، ولا يستلزمُ مقتضياتِ الإيمانِ منَ الإذعانِ والقبول، فقد يصدِّقُ، ولا يعملُ، وقد يصدِّقُ، ولا يَنْقادُ، والإيمانُ جامعٌ لتلك الشَّرائط جميعًا.

الإيمانُ أعمُّ مِنَ الصِّدقِ، لاقتضائِه عَمَلَ الباطنِ والظَّاهرِ معًا

دَلالةُ التَّعْبيرِ بالمضارع: ﴿يُؤۡمِنُونَ﴾:

يدلُّ على توقُّعِ الإيمانِ وتكراره وتمامِ الجاهزيَّة له، فكلَّما ظهرَت آيةٌ؛ حدثَ لها إيمان، وكلَّما جدَّتْ عزيمةٌ؛ أحدثوا لها إيمانًا، والصِّيغةُ إشارةٌ إلى الاستمرار على عهد الإيمانِ من غير إخلالٍ به.

صِيغةُ المضارعِ تُفيدُ المُطاوعةَ، والانْفِعالَ المتَكرِّرَ

بَلاغةُ ردِّ العَجُزِ على الصَّدْرِ في الآيةِ:

استهلالُ الآيةِ بالدُّعاء: ﴿وَٱكۡتُبۡ لَنَا﴾، وختمُها بالإيمان ﴿بِـَٔايَٰتِنَا يُؤۡمِنُونَ﴾ هو ختامٌ لُوحِظ فيه مَطلَعُه، فالختْمُ مردودٌ على المَطْلَع ردَّ النَّتيجةِ على المقدِّمة بأنسبِ صيغةٍ لفظًا ومعنًى، فكأنَّه قيل: شرطُ استجابةِ الدُّعاء الإيمانُ، فمَن يؤمِنْ؛ يُستَجبْ له، وتعليقُ الإيمانِ بالآيات له موقعُه أيضًا، في البَدْءِ، فإنَّ الاستجابةَ هي إراءةُ الدَّاعي آياتِ تحقيقِ سؤالِه، فكأنَّه قيل: لن تشهدوا آياتِ تحقيق

فاصلةُ الآيةِ، ودَورُها في الإبانةِ عنِ المُرادِ في السِّياقِ

الدُّعاءِ، حتَّى تؤمنوا بآياتي الَّتي أوحيتُها لرسلي، فهذا من ذاك، فاستجيبوا له؛ يُستجَبْ لكم.

سِرُّ خِتامِ الآيةِ بصِفةِ الإيمانِ:

الإيمانُ أعمُّ منَ التَّقوَى، واستعمالُ كلٍّ منهما في موْضعِه، من فصيحِ البيانِ

قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤۡمِنُونَ﴾ بعد قوله: ﴿يَتَّقُونَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾، من بابِ ذِكرِ العامِّ بعد الخاصِّ، وهو وجْهٌ من وجوه الإطنابِ، فالإيمانُ أعمُّ منَ التَّقوى وإيتاءِ الزَّكاة، وفائدةُ ذلك التَّنصيصُ على شرطِ صِحَّةِ التَّقوى وإيتاءِ الزَّكاة، وأنَّها لا تَصِحُّ إلَّا بالإيمان، ليستوفيَ بذكرِه جميعَ أنواع التَّكليفاتِ الظَّاهرةِ والباطنة، فـ﴿يَتَّقُونَ﴾ عبارةٌ عنِ (التُّرُوك)، وهو ما يَجِبُ على الإنسانِ تركُه، و﴿وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ عبارةٌ عنِ (الأفعالِ الَّتي تتوجَّه للآخرين بإخراج المالِ)، و﴿يُؤۡمِنُونَ﴾ عبارةٌ عنِ (الأفعالِ الَّتي تتوجَّه للنَّفس، وتجِبُ عليها) اعتقادًا ومعرفةً بالقلبِ، وعمَلًا باللِّسانِ والأركان[1].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

العذابُ والعقابُ:

العقابُ لا يكون إلَّا بسببٍ، ولا يُشترطُ فيه الإيلامُ

العذابُ والعقابُ كلاهما مُستعمَلٌ في المجازاة، إلَّا أنَّ العذابَ يكون بسببٍ أو من غير سببٍ، والعقابُ لا يكونُ إلَّا بسببٍ؛ لأنَّه يأتي عَقِبَ ذنبٍ أو سببٍ يوجبهُ، وفارقٌ دقيقٌ أيضًا بينهما: هو أنَّ العذابَ مُشتمِلٌ على الإيجاعِ والإيلامِ، والعقابُ لا يلزمُ فيه وجعٌ وألمٌ، ولأجلِ هذا لم يجئْ العذابُ في القرآن مضافًا لياء الملكيَّة غيرَ اللهِ، كقوله هنا: ﴿عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ﴾، ﴿إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٞ ۝٧﴾ [إبراهيم: 7]، ﴿عَذَابِي هُوَ ٱلۡعَذَابُ ٱلۡأَلِيمُ ۝٥٠﴾ [الحجر: 50]، وأمَّا العقابُ؛ فأُضيفَ لفاعلٍ غيرِ اللهِ: ﴿وَإِنۡ عَاقَبۡتُمۡ فَعَاقِبُواْ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبۡتُم بِهِۦ﴾ [النّحل: 126]، وتلك الآياتُ شاهِدَةٌ كذلك على أنَّ العقابَ لا يُشترطُ فيه الألمُ والإيجاعُ

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 15/379.

خلاف العذاب، ومن شواهد أنَّ العذابَ يكون بغير سببٍ قوله تعالى: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ [البقرة: 49]، وقوله: ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ﴾ [طه: 47]، فلم يكن ذلك عنِ استحقاقٍ[1].

وعليه: فبينَ العذابِ والعقابِ عمومٌ وخصوصٌ وجهيٌّ، فالعذابُ أعمُّ من جهةِ السَّببيَّةِ والاستحقاقِ: فهو يكونُ بسببٍ أو من غير سببٍ، والعقابُ لا يكونُ إلَّا بسببٍ واستحقاقٍ، ومن جهة الأثرِ والكيفِ: فالعقابُ أعمُّ مِنَ العذاب؛ إذِ العقابُ يكون يسيرًا أو عظيمًا، ويكون مُوجِعًا مُؤلمًا، وقد لا يكون كذلك، وأمَّا العذابُ؛ فهو إزالةُ عذوبةِ البدنِ والنَّفسِ بالإيجاعِ والألمِ الشَّديدَين، فهو أخصُّ.

ونكتةُ استعمالِ العذابِ هنا في الآية، فقال: ﴿عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ﴾، ولم يقُل: (عقابي)؛ لقصد التَّرهيب، فإنَّ التَّرهيبَ في العذاب أشدُّ، وبسببِ أنَّه علَّقَ العذابَ على المشيئة، ولم يعلِّقْهُ على الأسباب والأعمال، فناسبَ العذابَ دونَ العقابِ، ولاستحضار الجانبِ الحِسِّيِّ في العذاب الَّذي يناسبُ طبيعةَ بني إسرائيلَ المادِّيَّةَ الَّتي حملتْهم على العصيان الحسِّيِّ بطلبهم رؤيةَ اللّٰهِ جهرةً عيانًا، فرهَّبهم بما هو جنسٌ من معصيتهم، وهو العذابُ الَّذي يوجعُهم، ويفسدُ حواسَّهم بالألم والإتلاف.

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 239، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (عذب).

﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلۡأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكۡتُوبًا عِندَهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ يَأۡمُرُهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَىٰهُمۡ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنۡهُمۡ إِصۡرَهُمۡ وَٱلۡأَغۡلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتۡ عَلَيۡهِمۡۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ١٥٧﴾ [الأعراف: 157]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

بيانُ أهليَّةِ أمَّةِ الإسلامِ الخاتمِ، لرحمة الله، بعد عَرْضِ صفاتِ مَن تُكتبُ له الرَّحمةُ

لمّا بيَّن اللهُ تعالى في الآية السَّابقةِ صفةَ مَنْ تُكتَبُ له الرَّحمة في الدُّنيا والآخرة، همُ الموصوفون بالتَّقوى وإيتاءِ الزَّكاةِ والإيمانِ بالآيات[1]؛ أعقبَ ذلك بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلۡأُمِّيَّ﴾ ليُبيِّنَ أنَّ الَّذين وَعَد موسى ﷺ أن يَكتب لهم الرَّحمةَ الَّتي وصفَها جلَّ ثناؤه بقوله: ﴿وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖۚ﴾، هم أمَّةُ محمَّدٍ ﷺ؛ لأنَّه لا يُعلَم للهِ رسولٌ وُصِفَ بهذه الصِّفة "الأمِّيِّ" غيرُ نبيِّنا محمَّدٍ ﷺ[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَتَّبِعُونَ﴾: من الجذرِ اللُّغوي: (تبع)، وَهُوَ التُّلُوُّ وَالْقَفْوُ، يُقَالُ: تَبِعْتُ فُلَانًا؛ إِذَا تَلَوْتُهُ، وَأَتْبَعْتُهُ إِذَا لَحِقْتُهُ، وَالْأَصْلُ وَاحِدٌ[3]، وهو: "لحُوق الشَّيءِ بمتقدِّمٍ أو سابقٍ بلا فصل مع رقَّةٍ ولينٍ"[4]، ومعنى يتَّبعون: يقتدون به تعبُّدًا.

2) ﴿ٱلۡأُمِّيَّ﴾: مِن الجذر اللُّغوي: (أمم)، وأصله من الأمِّ،

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 15/380.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 13/161.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (تبع).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (تبع).

و"الأُمِّيُّ: الذي لا يكتب "نسبوه إلى "ما عليه جَبَلَتْهُ أمُّه "يقصدون النِّسبة إلى الأُمِّ، والدقيق أن يُنسَب إلى عِلَّة تسميةِ الأم: أنَّها الأصل الجامع، أي: هو على أصلِ فطرتهِ، كما أنَّه يمكن أن يُلحَظَ في الأمِّيِّ الذي لا يَكتُبُ أنَّه مجُتمِعُ القلبِ، لم تَغزُ قلبَه (أي: لم تَشْقُقْهُ وتَدخلْهُ) رموزُ الكتابة وغيرها من العلوم - التي تُكتَسب بالتعلُّم المتعارف، كما لم تتوزَّع قلبَه المذاهبُ المختلفة، فبقيت نفسُه ملتئمةَ الشَّمل، وبهذا يكون صفةَ كمالٍ، نظرًا لاجتماع النَّفس وكمال الفطرة وصفائها ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلۡأُمِّيِّ﴾[1] والمرادُ به الرَّسولُ ﷺ ووصفُه بالأمِّيَّة فضيلةٌ له؛ لاستغنائهِ بِحِفْظِهِ واعتمادهِ على ضمانِ الله له بقولهِ: ﴿سَنُقۡرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ﴾ [الأعلى: 6][2].

3) ﴿ٱلۡخَبَٰٓئِثَ﴾: مِنَ الجذرِ اللُّغوي (خبث)، يدلُّ على خِلَافِ الطَّيِّب، يُقَالُ: خَبِيثٌ، أَيْ: لَيْسَ بِطَيِّبٍ[3]، ما يُستخبثُ حِسًّا، كالدَّم، والميتةِ، ولحم الخنزير، أو ما يُستخبَثُ حُكمًا، كالرِّبا، والرَّشوة، ونحوهما[4].

4) ﴿وَيَضَعُ﴾: من الجذر اللُّغوي (وضع)، وهو أَصْلٌ وَاحِدٌ يَدُلُّ عَلَى الْخَفْضِ لِلشَّيْءِ وَحَطِّهِ[5]، يُزيل، ويُسقِط، ويُبطِل، وقوله: ﴿وَيَضَعُ عَنۡهُمۡ إِصۡرَهُمۡ﴾ يحطُّ عنهم أثقالَ التَّكليف[6].

5) ﴿إِصۡرَهُمۡ﴾: مِنَ الجذر اللُّغوي (أصر)، وهو أَصْلٌ وَاحِدٌ يَتَفَرَّعُ مِنْهُ أَشْيَاءُ مُتَقَارِبَةٌ، فَالْأَصْرُ الْحَبْسُ وَالْعَطْفُ وَمَا فِي مَعْنَاهُمَا، والإِصرُ: العهدُ المؤكَّدُ الَّذي يُثَبِّطُ ناقضَه عن الخيراتِ والثَّواب[7]، ويُعَبَّرُ به عن الثِّقْل الَّذي يأصِرُ صاحبَه، أي: يحبِسُه عن الحراك لِثقلِهِ، والمرادُ: التَّكاليفُ الصَّعبةُ، كقتْلِ النَّفسِ في توبتِهم[8].

6) ﴿وَٱلۡأَغۡلَٰلَ﴾: جمع غُلٍّ - بضم الغين - وهو إطارٌ من حديد، من الجذر اللُّغوي (غلل)، أَصْلٌ صَحِيحٌ يَدُلُّ عَلَى تَخَلُّلِ شَيْءٍ، وَثَبَاتِ شَيْءٍ، كَالشَّيْءِ يُغْرَزُ، مِنْ ذَلِكَ قَوْلُ

(1) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤَصَّل: (أمم).
(2) الرّاغب، المفردات: (أمَّ).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (خبث).
(4) النّسفيّ، مدارك التّنزيل: 1/610.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (وضع).
(6) السّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: 1/94.
(7) الرّاغب، المفردات: (أصر).
(8) النّسفيّ، مدارك التّنزيل: 1/610.

الْعَرَبِ: غَلَلْتُ الشَّيْءَ فِي الشَّيْءِ؛ إِذَا أَثْبَتُّهُ فِيهِ[1]، ومنه الغُلُّ يُجعَلُ في رقبة الأسيرِ والجاني، ويُمسكُ بسيرٍ من جلدٍ أو سلسلةٍ من حديد بيدِ المُوكَلِ بحراسة الأسيرِ، ويُستعارُ الغلُّ للتَّكليف والعمل الَّذي يؤلِمُ، ولا يُطاق[2].

7) ﴿وَعَزَّرُوهُ﴾: من الجذر اللُّغوي (عزر)، الْعَيْنُ وَالزَّاءُ وَالرَّاءُ كَلِمَتَانِ: إِحْدَاهُمَا التَّعْظِيمُ وَالنَّصْرُ، وَالْكَلِمَةُ الْأُخْرَى جِنْسٌ مِنَ الضَّرْبِ، فَالْأُولَى: النَّصْرُ وَالتَّوْقِيرُ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ﴾ [الفتح: 9]، وَالْأَصْلُ الْآخَرُ التَّعْزِيرُ، وَهُوَ الضَّرْبُ دُونَ الْحَدِّ[3]، ويمكن ردُّه إلى الأصل الأوَّل؛ حيث إنَّه نَصْرٌ للدِّين وتعظيمٌ لأمره[4]، والتَّعزيرُ: النُّصرةُ مع التَّعظيم.

8) ﴿وَنَصَرُوهُ﴾: من الجذر اللُّغوي (نصر)، أَصْلٌ صَحِيحٌ يَدُلُّ عَلَى إِتْيَانِ خَيْرٍ وَإِيتَائِهِ[5]، ومنه النَّواصرُ: مجاري الماء إلى الأوْديةِ، والنَّاصِرُ يجيءُ من مكان بعيدٍ - مِيلٍ أو نحوه - ثم تَمُجُّ النَّواصرُ في التِّلاع (مجامع المياه)[6]، "والنَّصر والنُّصرة: الإعانةُ والمنعةُ"[7]، ومعنى ﴿وَنَصَرُوهُ﴾: أعانوهُ على نَيل الظَّفَرِ والغلبةِ والتَّمكينِ، ومنعوهُ من أن يُنال من عدوِّه.

❁ المَعْنى الإِجْمالِيُّ:

بيَّن اللهُ تعالى في هذه الآية بقيَّةَ صفاتِ الَّذين وسعَتهم الرَّحمةُ، وهم الَّذين يتَّبعون الرَّسولَ النَّبيَّ الأمِّيَّ الَّذي لا يقرأُ، ولا يكتبُ، وهو محمَّد ﷺ الَّذي يجدون وصفَه مكتوبًا عندهم في التَّوراة والإنجيلِ،

اتِّباعُ الرَّسولِ ﷺ، سبيلُ رحمةِ اللهِ وهدايتِه، والفلاحِ في الدُّنيا والآخِرةِ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (غلّ).
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/137.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عزر).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤَصَّل: (عزر).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نصر).
(6) ابن منظور، لسان العرب: (نصر).
(7) السّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: 4/183.

يأمرُهم بكلِّ خيرٍ، وينهاهم عن كلِّ شرٍّ، ويحلُّ لهم الأشياءَ الَّتي يستطيبُها الطَّبعُ منَ المطاعمِ والمشاربِ والمناكحِ، ويُحرِّمُ عليهم الأشياءَ الَّتي يستخبثُها الطَّبعُ كالدَّم والميتة، ويزيلُ عنهم الأثقالَ والشَّدائدَ الَّتي كانت عليهم، فالَّذين صدَّقوا برسالتهِ، وآزروهُ، وأيَّدوه، ونصروه على أعدائه، واتَّبعوا القرآنَ الَّذي أُنزِلَ معه هم الفائزون دونَ غيرِهم ممَّن لم يؤمنوا بهِ.

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

دَلالةُ فصْلِ هذه الآيةِ عمَّا قبْلَها:

كمالُ الاتِّصالِ بين مَطْلعِ الآيةِ، والفاصِلةِ قبْلَه

فُصِلَ الاسمُ الموصولُ هنا؛ لأنَّه بيانٌ مُستأنفٌ للموصول الأخير أو للموصولين اللَّذين قبلَه معًا، وهم الَّذين يتَّقون، ويؤتون الزَّكاةَ، والَّذين يؤمنون بالآيات"[1]، ولو وصلَهُ بالعطفِ؛ لكان مغايرًا لهما في المصادقِ لا في المفهومِ، فَمَعْنَى الفصلِ اتِّحادُ الموصولاتِ الثَّلاثةِ في المفهوم والمصادَق جميعًا.

وممَّا يؤكِّدُ ذلك أنَّ بين قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ﴾، وما قبلَهُ، كمالَ اتِّصالٍ؛ إذ هو نعتٌ له أو بدلٌ منه كلٌّ أو بعضٌ على حذفِ العائدِ، أي: الَّذين يتَّبعون منهم، أو مفعولٌ لعامل محذوفٍ على المدحِ.

سِرُّ تَكرارِ اسْمِ الموصولِ ﴿ٱلَّذِينَ﴾:

تَكرارُ الموصولِ، زيادةُ تقريرٍ وإيضاحٍ، وإفادةٌ للاستِقلالِ في الوصْفِ

تكرارُ الموصول لإفادةِ أمرين: زيادةِ التَّقريرِ والإيضاحِ، وإفادةِ الاستقلال في الوصف، ذلك أنَّ قولَه: ﴿لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ تعلَّقَ بعملِ بني إسرائيل بتكاليف الشَّرعِ زمنَ موسى عليه السلام وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ أفادَ عملَ بني إسرائيل بآياتِ الوحي كافَّةً، فلا يؤمنون ببعض الكتابِ، ويكفرون ببعضٍ، وقولُه: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ﴾ واردٌ فيما يجبُ على بني إسرائيلَ مِن اتِّباع الرُّسل

(1) محمد رضا، المنار: 9/193.

كافَّةً، فلا يفرِّقون بين أحدٍ مِن رسلِه، فمَن أدركَ بعثةَ الرَّسول منَ اليهود والنَّصارى؛ وجبَ عليه الإيمانُ بهِ واتِّباعُه، لكون اتِّباعِه مُقتضى إيمانِهم بكتابِهم الَّذي بَشَّر بهِ، فاتِّباعُه فرعٌ عنِ اتِّباعهم لكتابِهم والعكسُ، ومَن لم يدركْه اعتقدَ الإيمانَ به لورود الخبرِ بمجيئِه.

سِرُّ اخْتِيارِ الفعْلِ ﴿يَتَّبِعُونَ﴾:

الإيمانُ القلبيُّ لا بدَّ من تأييدِهِ بالإيمانِ العَمليِّ

أوثرَ لفظُ الاتِّباعِ هنا، وفي غيرهِ الطاعةِ؛ لما في الاتِّباع من مَعْنى الطَّاعة وزيادة، فهو لحُوق الشيءِ بمتقدِّمٍ أو سابق بلا فصلٍ (مع رقَّة ولينٍ)[1]، ففيه دلالةٌ على مدْحِ التَّابعِ والمتبوع معًا، وفيه إشارةٌ إلى أنَّ الإيمانَ القلبيَّ لا بدَّ من تأييدِهِ بالإيمان العمليِّ، فلا يكفي الاعتقادُ المجرَّدُ، ولو قال: يطيعون، فلا يَلزم منه المحاكاةُ والمحاذاةُ للرَّسول تعبُّدًا؛ لأنَّ الاتِّباع يشتركُ مع الطَّاعة في إفادةِ الانقيادِ، ويزيدُ عليها في أنَّه ينفي اتِّباعَ الهوى مع الطَّاعة، والطَّاعةُ لا يلزمُ عنها ذلك، ولو قال: (يصدِّقون)؛ لكان نصًّا في الدَّلالة على فِعل القلبِ مِنَ التَّصديق، وهذا لا يلزمُ منه إفادةُ الاتِّباعِ والطَّاعة.

سِرُّ البَدْءِ بوصْفِ الرَّسولِ، بالرّسالةِ والنّبوّةِ والأميّةِ:

البَدْءُ بوصفِ الاتِّباعِ، تصديقٌ لـه وتثبيتٌ، وتعريضٌ بأهْلِ الكتابِ

قوله تعالى: ﴿يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلۡأُمِّيَّ﴾، وفيه أنَّ البَدءَ بذلك هو بَدءٌ بالوصف الأخصِّ؛ لإفادة استقلالِ الرَّسول ﷺ بكتابٍ مُرسَلٍ يَنسخُ ما قبلَهُ، ويُصدِّقُ عليه، وتسجيلٌ على أهل الكتابِ بالتَّحريف، حيث حذفوا هذا الوصفَ؛ ليصيرَ كلامُ التَّوراةِ صادقًا بمَن أتى بعدَ موسى من أنبياءِ بني إسرائيل[2].

ويُضاف إلى ذلك في سرِّ تقديمِ وصفِ الرَّسول، أنَّه قُدِّم لشرفِهِ ولتقديم إرسالِ اللّٰهِ له على تبليغه.

(1) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤَصَّل: (تبع).
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/133.

سِرُّ الجمْعِ بين وصْفَي ﴿ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ﴾:

تعليلُ اتِّباعِ الرَّسولِ بأجمعِ الأسبابِ، وأدْعَى المقْتَضياتِ إليه

الجمعُ بين وصفي الرَّسول والنَّبيِّ لِغَرَضَين: الأوَّل: ليقعَ الاتِّباعُ المذكورُ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ﴾ منوطًا بأجمع الأسبابِ وأَدْعَى المقتضيات إليه، بالجمْعِ بين الملزومِ ولازِمِه، والتَّنصيصِ عليهما معًا، وعدمِ الاكتفاء بأحدهما، فَاسْتَوْفَى الأوصافَ ليقطع الرِّيبةَ والظَّنَّ في شأن اتِّباعه، فيكون اتِّباعًا مقطوعًا به محمولًا على دواعيه الوافية وأسبابه الكاملة[1].

الثَّاني: لِتَتَحقَّقَ به الوُصْلَةُ بين اللّهِ والخلْق، فـ"﴿ٱلرَّسُولَ﴾ هو الَّذي أرسلهُ اللّهُ تعالى لِتبليغِ الأحكام، و﴿ٱلنَّبِيَّ﴾ هو الَّذي أنْبَأَ الخلْقَ عنِ اللّهِ، فالأوَّل تُعتبَر فيهِ الإضافةُ إلى اللّهِ، والثَّاني تُعتبرُ فيه الإضافةُ إلى الخلْقِ، وقدَّمَ الأوَّلَ عليه لشَرَفِه، ولتَقَدُّمِ إرسالِ اللّهِ له على تَبليغِه"[2].

وممَّا يُذكَرُ في سرِّ الجمعِ بينهما أنَّ كلَّ لفظٍ منهما لهُ دلالتُهُ: فالنَّبيُّ هو الَّذي يُنْبِئُ الخلقَ عنِ اللّه تعالى والرَّسولُ هو الَّذي أرسلَهُ اللّهُ لتبليغ الأحكامِ؛ فالنُّبوَّةُ تُعتبَرُ فيها الإضافةُ إلى الخلقِ، والرِّسالةُ تُعتبَرُ فيها الإضافةُ إلى اللّه تعالى[3] ومنه أيضًا الرَّدُّ على اليهود الَّذين بدَّلوا وصفَ الرَّسول، وعبَّروا عنه بالنَّبيِّ لِيصدُقَ على أنبياءِ بني إسرائيل[4].

سِرُّ الوصْفِ بلفْظِ: ﴿ٱلْأُمِّيَّ﴾:

الوصْفُ بالأمِّيِّ شاهِدٌ على صِحَّةِ رِسالتِه ونُبوَّتِه

قوله تعالى: ﴿ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ﴾، الوصفُ فيه بالأمِّيِّ مَسوقٌ مساقَ الحجَّةِ لِلوَصفَينِ قبلهُ، أي: مَنْ يرتابُ في كونهِ رسولًا نبيًّا،

(1) الآلوسي، روح المعاني: 5/75، والقاسميّ، محاسن التّأويل: 5/194.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 5/75.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 9/79.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/132.

فشأنُ أمِّيَّته ثابتٌ واقِعًا وخبرًا في كتاب بني إسرائيلَ، فلا يمتارون فيه، ومَن كان أمِّيًّا لا يقرأ ولا يكتب، فأنَّى له بآياتٍ يسوقُها، وقرآنٍ يتلوه إلَّا أن يكونَ رسولًا نبيًّا يُوحَى إليه[1].

وفيه إشارةٌ إلى أنَّ كمالَ علمهِ مع أمِّيَّته إحدى معجزاتهِ؛ لأنَّ الأُمِّيَّةَ بالنِّسبة للرَّسول ﷺ صفةُ مدحٍ، ولغيرهِ صفةُ ذمٍّ؛ كصفة التَّكبُّرِ للهِ مدحٌ ولغيره ذمٌّ[2].

وممَّا يؤكِّدُ ذلك أيضًا ما ذكره ابنُ عاشورٍ بقوله: "والأمِّيَّةُ وصفٌ خصَّ اللهُ به مِن رُسله محمَّدًا ﷺ إتمامًا للإعجاز العلميِّ العقليِّ الَّذي أيَّدَه اللهُ به؛ فجعلَ الأمِّيَّةَ وصفًا ذاتيًّا له؛ ليتمَّ بها وصفَهُ الذَّاتيَّ، وهو الرِّسالةُ، ليظهرَ أنَّ كمالَه النَّفسانيَّ كمالٌ لدنيٌّ إلهيٌّ لا واسطةَ فيه للأسبابِ المتعارفةِ للكمالات[3].

دَلالةُ تأخيرِ وصْفِ ﴿ٱلْأُمِّيَّ﴾ على الرِّسالةِ والنُّبوَّةِ:

قوله تعالى: ﴿ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ﴾، وفيه أخَّر الوصفَ بـ﴿ٱلْأُمِّيَّ﴾ لتعلُّقِ الاتِّباع بكونه رسولًا نبيًّا، لا بكونه أمِّيًّا، وهو تعقيبٌ بما يدفعُ الوهمَ، فقد يُقال: إنَّ وصفَ الرِّسالةِ والنُّبوَّة حاصلٌ له من كسبٍ ذاتيٍّ، فعقَّب بوصفِ الأمِّيِّ ليدلَّ على أنَّهما محضُ مدَدٍ سماويٍّ، وأنَّ اجتماعَهما له مع الأمِّيَّة من خوارقِ العاداتِ، كالجمْع بين الضِّدَّين[4].

الأمِّيَّةُ في النَّبيِّ آيـةٌ مُـعـجِـزَةٌ، وفي سائرِ البشرِ مَذمَّةٌ ومَنقصةٌ

وفيه إشارةٌ إلى بقاء صفةِ الأمِّيَّةِ في حقِّهِ ﷺ وأنَّها لم تتغيَّر، وفي ذلك ردٌّ على الَّذين يقولون بزوال الأمِّيَّة عنه ﷺ لأنَّ الأمِّيَّةَ فيه آيةٌ مُعجِزَةٌ.

(1) القشيريّ، لطائف الإشارات: 1/577.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 9/79.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/133.
(4) النّيسابوريّ، غرائب القرآن: 3/329.

سِرُّ الاقْتِصارِ على هذه الصِّفات، دونَ غيرِها:

شُهرةُ الرَّسولِ عند أهلِ الكتابِ بهذه النُّعوتِ

ذِكْرُ النَّبيِّ ﷺ بهذه الأوصاف الثَّلاثة: ﴿ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ﴾ - ولم تجتمِعْ هذه الصِّفاتُ في القرآن إلَّا في تلك الآية والَّتي بعدها - مع قوله بعده: ﴿ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ﴾ تدلُّ على أنَّه - صلَّى الله عليه وآله وسلَّم - كان مذكورًا فيهما مشهورًا عندَهم بهذه الأوصافِ الثَّلاثةِ، ولولا أنَّ الغرضَ من توصيفهِ بهذه الثَّلاثةِ هو تعريفُه بما كانوا يعرفونَهُ به منَ النُّعوت المذكورةِ له في التَّوراة والإنجيل؛ لَمَا كان لِذِكر الثَّلاثة: ﴿ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ﴾ فائدةٌ.

ويُذكَرُ في ذلك أيضا أنَّه لم يُرسِل نبيًّا أُمِّيًّا إلَّا نبيَّنا ﷺ فصار الجمعُ بين النُّبوَّة والأمِّيَّة كاللَّقبِ له اشتُهِرَ بها.

دَلالةُ ذكْرِ اسمِ الموصولِ، في قولِه: ﴿ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ﴾:

دَلالةُ الموصولِ على التَّشْخيصِ والتَّعْيينِ

التَّصريحُ بالموصول فيه إيماءٌ إلى العِلَّةِ الباعثةِ لهم على اتِّباعه، أي: يتَّبعونَه؛ لأنَّه الَّذي يجدونه مكتوبًا.. والموصولُ يفيدُ "وصفَه لهم مُشخَّصًا، وحين يَصِفُه مُشخَّصًا، فهذا أوضحُ منَ الخبر عنه بكلام"[1]، ليجتمعَ بذكرِ الموصولِ الوصفُ بما يفيدُ حضورَهُ بشخصهِ ذاتًا وحضورَه بوصفهِ خبرًا.

دَلالةُ اصْطِفاءِ الفعْلِ ﴿يَجِدُونَهُۥ﴾:

التَّعْبيرُ عن أقومِ البشاراتِ، بأنْسَبِ العِباراتِ

أصلُ مادَّةِ (وجد): إصابةُ ذاتِ الشَّيءِ، والعثورُ عليه في الحيِّز[2]، فالتَّعبيرُ بـ(وَجَدَ) يدلُّ على ثلاثة أشياء: العثورُ والتَّحصُّلُ، الحَيِّزُ، شيءٌ ذو بالٍ، فالأوَّلُ: الحدَثُ، والثَّاني: الظَّرف، والثَّالث: المفعولُ، ومعاني هذا التَّركيب مُتحقِّقةٌ في هذا السِّياق، فأهلُ الكتاب يتحصَّلون، ويعثرون على النَّبيِّ ﷺ بوصفهِ المطابق - وهو شيءٌ

(1) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 7/4382.
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (وجد).

ذو بالٍ وشأن - في توراتهم وإنجيلهم اللَّذين هما حيِّزٌ وحِرزٌ لتلك البشارةِ بهِ، فعبَّرَ عن أقوم البشاراتِ بأنسبِ العباراتِ.

وممَّا يُذكَرُ أيضًا، أنَّ الفعلَ ﴿يَجِدُونَهُۥ﴾ يؤدِّي وظيفةً لا يؤدِّيها غيرُه، وذلك لأنَّه يتعلَّقُ بوجدان صفاتِه ونعوتِه الَّتي لا يشبَهُهُ فيها غيرُهُ، والموجودُ هو النَّعتُ والصِّفةُ ﴿مَكْتُوبًا﴾، فإنَّ الذَّاتَ لا تُكتب[1].

دَلالةُ التَّعْبيرِ باسْمِ المفعولِ: ﴿مَكْتُوبًا﴾:

صِيغةُ المفعولِ تَدلُّ على تَزامُنِ الثُّبوتِ مع الحُدوثِ

لإفادةِ الثُّبوت بعدَ الحدوثِ، أي: الوصفُ المذكورُ ثابتٌ مُتحقِّقٌ لازمٌ، لا ينفكُّ عن كونهِ مكتوبًا مُستقرًّا، وجاريًا مُستَمِرًّا، فالتَّعبيرُ بصيغةِ المفعول يفيدُ الحدوثَ في الماضي، والثُّبوتَ في الحاضر، والاستمرارَ في المستقبل[2]، وفي هذا إشارةٌ إلى أنَّ صفاتِه ونعوتَه ﷻ كتبها ربُّ العزَّةِ في اللَّوحِ المحفوظِ.

دَلالةُ الفصْلِ بجُملةِ: ﴿ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ﴾:

ليس المُباشِرُ المُعايِنُ، كالمُخبَرِ السَّامِعِ

الفصلُ غرضُه التَّسجيلُ عليهم بإسنادِ ﴿يَجِدُونَهُۥ﴾ إليهم، وهو ما يقتضي مُباشرتَهم لسببِ المعرفةِ واليقينِ بذواتِهم، وليس من طريق غيرِهم، أي: هم يباشرون معرفةَ ذلك، ويجدونه بأنفسِهم. وممَّا يُذكَرُ أيضًا في دلالةِ الفصلِ الرَّدُّ على أهل الكتابِ في محاولةِ طمسِ الحقيقةِ، وتغييرِ المكتوبِ، فكأنَّ قولَه: ﴿ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ﴾ المقصودُ به أهل الكتاب دون غيرهم منَ العربِ الَّذين لا علمَ لهم بنبوَّتِه ﷺ سابقًا.

فائِدةُ التَّعْبيرِ بالظَّرفيَّةِ، في قولِه: ﴿عِندَهُمْ﴾ دونَ (فيه):

إقامةُ تَسْجيلِ الحجَّةِ عليهم، من مقاصِدِ السِّياقِ وبَيانِه

التَّعبيرُ بالظَّرفيَّةِ يفيدُ الحضورَ والاستقرارَ وعدمَ الغيابِ والبعدِ[3]، وهو بِناءٌ على قوله: ﴿يَجِدُونَهُۥ﴾؛ لتأكيدِ مَعْنَى المباشرةِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/132.
(2) فاضل السّامرائي، معاني الأبنية، ص: 52.
(3) ابن هشام، مغني اللّبيب، ص: 206.

المفهومِ منهُ، أي: يجدونه بأنفسِهم حالَ كونهِ حاضرًا ومُستقرًّا عندهم، ملتصقًا بهم، والعنديَّةُ هنا محسوسةٌ ومعقولةٌ؛ لأنَّ الكتابةَ مشهودةٌ بحروفها، معقولةٌ بمعانيها، فتحقَّقَ فيها العينُ والمعنى.

سِرُّ التَّعْبيرِ بالضَّمير (هم) عن أهْلِ الكتابِ:

دَلالـةُ الإتْيـانِ بـالـتَّـوراةِ والإنجيلِ، ولم يَكْتفِ بالكلامِ على أتْباعِهما

عبَّرَ بالضَّميرِ (هم) عن أهل الكتابِ في قوله تعالى: ﴿عِندَهُمْ﴾، ولم يقُل عند أهل الكتابِ؛ لأنَّهم بتحريفِهم لصفاتهِ ﷺ المذكورةِ عندهم في كتابِهم لا يستحقُّون أن يوصفوا بأنَّهم أهلُ كتابٍ، لذا عبَّرَ عنهم بضمير الغَيبة لتغييبهم حقيقةَ نبوَّته ﷺ فكان التَّعبيرُ بضمير الغَيبة جزاءً وفاقًا على ما فعلوا. كما أنّه ذكر التَّوراة والإنجيل، ولم يكتفِ بالكلام على أتباعِهما في قوله تعالى: ﴿عِندَهُمْ﴾؛ بل قال: ﴿ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ﴾:

تعيينًا لمتعلَّقِ العنديَّةِ وموضِعِها، ونصًّا على حيِّزِ المكتوبِ وَمكانِهِ.

دَلالةُ الجمْعِ بين التَّوراةِ والإنجيلِ:

تقريرُ البُرهانِ العقليِّ، على إمْكانيَّةِ الوحْيِ وحُدوثِهِ

جريًا على عادة البشيرِ في تنزيل الإخبارِ بالبُشرى الَّتي لم تقع منزلةَ الواقعِ الحاصلِ، لجزْمِه المُتحقِّقِ زمنَ الإخبارِ بها، فنزَّل الجزْمَ بها منزلةَ وقوعِها، فالإنجيلُ هو بُشرى التَّوراة، كما أنَّ القرآنَ والرُّسولَ هما بُشرى التَّوراة والإنجيل، ولتقريرِ أنَّ الإنجيلَ كما يكون مُصدِّقًا لمَا بين يديه منَ التَّوراة، ومكمِّلًا لها، ويحصُلُ قَبولُهم بذلك، فليس بِدَعًا أن يأتي الرُّسولُ النَّبيُّ الأمِّيُّ مُبشِّرًا به فيهما، ومُصدِّقًا ومُكمِّلًا لهما، فليس غريبًا في مُقْتَضَى العدلِ والحكمةِ أن يأتيَ الوحيُ يُصدِّقُ بعضُه بعضًا، ويبشِّرَ بعضُه ببعضٍ، ويتلو بعضُه بعضًا، وفيهِ تعريضٌ بانفصامِهم في المعيار، وغلوِّهم في الظَّنِّ والتَّناقضِ، والبغي والاستكبار.

ومن دلالاتِ الجمعِ بين التَّوراةِ والإنجيلِ مع الاقتصارِ عليهما

ذِكرُ ما " يَعتدُّ بهما بنو إسرائيل سابقًا ولاحقًا، وكأنَّه لهذا المعنى اقتصر عليهما، وإلَّا فهو - صلَّى اللّٰه تعالى عليه وسلَّم - مكتوبٌ في الزَّبور أيضًا"[1].

وفيه إشارةٌ إلى وحدةِ الدِّين السَّماويِّ في الإخبار عن نبوَّتِه ﷺ وأنَّ ما وقع منَ اليهودِ والنَّصارى هو من بابِ تحريفِ القولِ عن مواضعِه.

سِرُّ العُدولِ عنِ التَّعبيرِ بأهْلِ الكتابِ، إلى ذِكْرِ الكتابِ:

لم يذكرْ أهلَ الكتابِ، وذكرَ كتابيهما: ﴿ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ﴾؛ لأنَّ الكتابَ هو محلُّ الكتابةِ المقصودةِ، ولأنَّ الكتابَ أكثرُ وثاقةً من أهله؛ لأنَّهم إذا كتموا، ولم يبيِّنوا؛ ظلَّ الكتابُ مُشتمِلًا على البيان بالمكتوبِ فيه، ولأنَّ الآيةَ مَسوقةٌ في حيِّز الجوابِ على موسى عليه السلام ولمَّا يرثوا علمَ التَّوراة، فضلًا عن أنَّ الإنجيلَ لم يكن بعدُ، فلم يكن وصفُ أهلِ الكتاب حاصلًا لهم، فرُوعِي المقامُ في ذلك، ورُوعِي القصدُ من ذكر الكتابِ لكونهِ موضعَ الكتابةِ، وليس أهلُ الكتاب بموضعٍ لها.

الكتابُ أشدُّ وَثاقةً من صاحِبِهِ؛ لأنّه وحْيُ الله المنزَّلُ إلى كافّةِ البشرِ

وفيه إشارةٌ إلى أنَّ بعضَ علماءِ أهلِ الكتابِ ليسوا أُمناءَ على كتاب اللّٰهِ المقدَّسِ، لِمَا وقعَ منهم من تحريفٍ وتبديلٍ وإنكارٍ، أمَّا شأنُ الكتبِ السَّماويَّةِ؛ فهي على براءتِها الأصليَّةِ من إثباتِ نبوَّتِه ﷺ.

دَلالةُ فصْلِ جُملةِ: ﴿يَأۡمُرُهُم﴾ عمَّا قبْلَها:

الانتقال في قوله: ﴿يَأۡمُرُهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَىٰهُمۡ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ﴾ جاء للدَّلالةِ على الرَّسول ﷺ بشريعتِه، بعد ما دلَّ سبحانه عليه ﷺ بأوصافه في نفسه وفي الكتب الإلهيَّة[2]، أو الفصل " لتفصيل بعض أحكام الرَّحمةِ الَّتي وعد فيما سبق بكتْبِها إجمالًا"[3]، "فالكلامُ مُستأنفٌ لا محلَّ له من الإعراب"[4]، ويصحُّ أن تكونَ الجملةُ تفسيرًا

بَلاغةُ النَّظْمِ في تحوُّلاتِه، ودَلالةُ عناصرِه على مُؤدّاهُ العامِّ

(1) الآلوسي، روح المعاني: 5/76.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/117.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 5/76.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/279.

وبيانًا للمكتوب في قوله: مكتوبًا، أي: ماكُتِب كذا وكذا، فالَّذي "يجدونه مكتوبًا عندهم؛ أنَّه يأمرُهم بالمعروف"[1].

سِرُّ العُدولِ عنِ الاسميَّةِ إلى الفعليَّةِ:

في قوله تعالى: ﴿يَأۡمُرُهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَىٰهُمۡ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ﴾ عدلَ عن الاسميَّة إلى الفعليَّة لأمور:

الـدَّلالـةُ على الخيْرِ، والتَّحذيرُ مِـنَ الـشَّـرِّ، أمرٌ مُتجدِّدٌ باطِّرادٍ

أوَّلًا: الأمرُ بالمعروف والنَّهيُ عنِ المنكر صِفةُ مزاولةٍ بحسب المقتضى، والحالُ الأصليَّةُ للإنسان أنَّه منفكٌّ عن ملابسةِ الأمرِ بالمعروف والنَّهي عنِ المنكر، فمزاولةُ الأمرِ والنَّهي طارئةٌ يُحدِثُها الإنسانُ بسببٍ عارضٍ ومقتضًى، وهو وصفٌ مُتعدٍّ للآخر، ولآخرُ متباينٌ ومُتنوِّعٌ، فهي صفةٌ منْتَقِلةٌ ومتباينةٌ بحسب تباينِ مُتعلَّقِها ودواعيها، وهذا يقتضي التَّجدُّدَ والحدوثَ، فكان الأنسبُ الفعلَ دون الاسم.

ثانيًا: مُحدِّداتُ الأمرِ بالمعروف والنَّهي عنِ المنكَر مُتحقِّقةٌ بالوحي والتَّنزيل، وإعلامُ الوحي بذلك مُتجدِّدٌ يحصلُ شيئًا فشيئًا، ومرَّةً بعدَ مرَّةٍ، فكان التَّعبيرُ بالفعل أليقَ؛ إذ كيف يكونُ معنى الوصف ثابتًا له في كلِّ حالٍ وزمانٍ، وهو لا يأمرُ، ولا ينهى إلَّا بعد إعلام الوحي له بما يأمرُ، وينهى، وما ينطقُ عنِ الهوى إن هو إلَّا وحيٌ يُوحى؟ فإذا كان ذلك كذلك، فكيف يكون ذلك وصفًا ثابتًا، وهو مرتبطٌ بطروءِ الوحي إليه؟ واسم الفاعل وإن كان يدلُّ على الاستقبال كالفعل المضارع المستعمل هنا، إلَّا أنَّ "الفرقَ بينه وبين استعمالِ المضارعِ هو أنَّ الأمرَ في اسم الفاعل كأنَّه قد تمَّ، وثبَتَ وصفًا لصاحبِهِ"[2].

ثالثًا: النَّبيُّ ﷺ في موضع القدوةِ لقومِهِ الموصوفين في أوَّلِ الآيةِ

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 15/381.

(2) فاضل السّامرائي، معاني الأبنية، ص: 45.

باتِّباعه، ومن ذلك أن يتَّبعوه في الأمر بالمعروفِ، والنَّهي عنِ المنكَر، وليس مرادًا منهم أن يكونَ الوصفُ قائمًا بهم راسخًا فيهم، ولو مدَّةً منَ الزَّمن، بل المقصود أن يكونَ الوصفُ صادرًا عنهم، ولو لم يتحقَّقوا بحقيقتهِ، ليحصلَ القدرُ الضَّروريُّ الواجبُ في التَّناصحِ والدَّلالةِ على الخير والتَّحذيرِ منَ الشَّرِّ، ولو عبَّرَ بالاسميَّة هاهنا؛ لَمَا صحَّ لأحدٍ من أتباع الرَّسولِ أن يزاولَ الأمرَ بالمعروف والنَّهي عنِ المنكَر إلَّا أن يكونَ مُتحقِّقًا بما يأمر، أو ينهى قبلَ مزاولتِه ظاهرًا.

قالَ الرَّازيُّ: "الاسمُ له دلالةٌ على الحقيقةِ دونَ زمانِهَا، فإذا قلت: زيدٌ مُنطلِقٌ، لم يُفِدْ إلَّا إسنادَ الانطلاقِ إلى زيدٍ، وأمَّا الفعلُ؛ فله دلالةٌ على الحقيقةِ وزمانها، فإذا قلت: انطلقَ زيدٌ؛ أفادَ ثبوتَ الانطلاق في زمان معيَّنٍ لزيد، وكلُّ ما كان زمانيًّا؛ فهو مُتغيِّرٌ، والتَّغيُّرُ مُشعِرٌ بالتَّجدُّدِ، فإذًا الإخبارُ بالفعلِ وراءَ أصل الثُّبوتِ كونَ الثَّابتِ في التَّجدُّدِ، والاسمُ لا يفيدُ ذلك"[1].

سِرُّ اخْتِيارِ قولِه: ﴿يَأْمُرُهُم﴾ دون (يدعوهم):

الإشارةُ إلى وُجوبِ الأمرِ بالمعروفِ، والنَّهْيِ عنِ المنكَرِ

أوثِرَ استعمالُ لفظِ الأمرِ للدَّلالة صراحةً على وجوبِ الأمرِ بالمعروفِ والنَّهي عن المنكر، ولبيان مكانتهِ في هذه الأمَّة، حيث إنَّه من خصائصِها ومميِّزاتها.

ولم يُستعمل لفظُ الدَّعوة هنا لدَفْع توهُّم التَّخييرِ أو الإباحةِ في شأن المعروفِ والمنكَر، ولتعيين الإيجابِ والحظرِ في تعاطي كُلٍّ، فاستعمالُ لفظِ الدَّعوةِ أجنبيٌّ بدلالتِه العامَّةِ أن يقترنَ بالمعروف؛ لأنَّ الدَّعوةَ في أصلها لا تقتضي إيجابًا إلَّا بقرينةٍ، بل أصلُها مُستعمَلٌ للنَّدب والتَّحضيض من غير إلزامٍ.

سِرُّ التَّعْبيرِ بالفعلَيْن: ﴿يَأْمُرُهُم﴾ و﴿وَيَنْهَىٰهُمْ﴾:

يدلُّ على دخول أهلِ الكتابِ في موقع خطابِ الرَّسولِ ودعوتِه،

(1) الفخر الرّازيّ، نهاية الإيجاز، ص: 80.

فهو وإن كان مبعوثًا للنَّاس كافَّةً إلَّا أنَّهم مقصودون بدعوتهِ ﷺ باعتبارهم أهلَ الكتابِ الَّذي بشَّرَ بهِ، وجاءَ هو مُصدِّقًا لهُ.

دُخولُ أهلِ الكتابِ في مواقِعِ خِطابِ القرآن، ودلالَتِه

سِرُّ اخْتِيار لفْظِ ﴿بِٱلْمَعْرُوفِ﴾:

المعروفُ أعمُّ منَ العُرف، من حيث إنَّ الأخيرَ دالٌّ على الحالة الظَّاهرةِ والجليَّةِ في الوصف، وأمَّا المعروفُ؛ فليس كلُّه كذلك، بل قد يكتنفُ المعروفَ وجهٌ من وجوهِ الخفاءِ، فلا يدركُهُ كلُّ أحدٍ استقلالًا، بخلاف العُرف، ولذا جاءَ الأمرُ بالمعروف مقترنًا بالنَّهي عن المنكرِ في كلِّ القرآن: ﴿يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾؛ لأنَّ الأمرَ بالمعروف مُتعلِّقٌ بالتَّفصيل والتَّشريع والدَّلالة على الأحكامِ، وهذا ممَّا يكتنفُه الإبهامُ والخفاءُ في بعض أفرادهِ وآحادهِ، ولذا قد يقعُ الخلافُ في تقريرِ فروعِه، ويفتقرُ إلى بيانهِ وتجديدِ الأمرِ والتَّواصي به؛ لأنَّه قد يُنسَى، ويُختلطُ أمرُه، ولو كان كلُّ معروفٍ ظاهرًا بحيثُ لا يلتبِسُ في شيءٍ من وجوهِه ومجالاتِه؛ لَمَا كان لكثرةِ ذكرِه في القرآنِ فائدةٌ، فما أكثرَ الأمرَ بالمعروف والنَّهيَ عنِ المنكَرِ في القرآن! وتلك هي النُّكتةُ من ذكرِ الأمرِ ﴿بِٱلْعُرْفِ﴾ مرَّةً واحدةً، وذِكْرِ ﴿بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ كثيرًا؛ لأنَّ العُرفَ لمّا كان في الظَّاهر الَّذي لا يلتبِسُ في شيءٍ من أفراده، لم يذكره إلَّا مرَّةً واحدةً، وأكثَرَ مِن المعروف وتكريرِه في الذِّكرِ؛ لحاجتِه إلى التَّكرار في مزاولته والتَّواصي به، للتَّفاوت المذكورِ بينه وبين العُرف[1].

لفْظُ المعروفِ أعمُّ منَ العُرْفِ، وأنسبُ في مقابَلةِ المُنْكَرِ

دَلالةُ التَّعْبيرِ بقولِه: ﴿وَيَنْهَىٰهُمْ﴾:

والتَّعبيرُ بالنَّهي هو الأنسبُ، لمناسبتِه وظيفةَ البلاغ، فهو طلبٌ بالكفِّ عنِ الشَّيء؛ لأنَّه إخبارٌ بنهايةِ الحدِّ أو الموضعِ الَّذي ينتهي

عِصْيانُ النَّهْيِ، يَستوجِبُ العقابَ عليه

(1) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (عرف)، والنّيسابوريّ، غرائب القرآن: 3/370، والآلوسي، روح المعاني: 5/145، وفاضل السّامرائي، معاني الأبنية، ص: 59 - 64.

المُكلَّفُ عن تناوله وتَعاطِيه، ولأنَّ النَّهيَ هو إسنادُ الانتهاءِ ونهايةِ الشَّيءِ إلى اختيارِ المُكلَّفِ وعمَلِه، ولأنَّ النَّهيَ عنِ المنكَرِ ليس مُعتبَرًا فيه شخصُ الرَّسولِ ﷺ وحدَه، بل أتباعُه، فلو أسندَ الزَّجرَ والمنعَ إلى المُنكِر؛ لساغَ لأتباعِه أن يمنعوا، ويزجروا كذلك، ولأنَّ النَّهيَ بيانٌ عن عدم الفعلِ بالاختيار، وأمَّا الزَّجرُ؛ فبيانٌ عن عدم الفعلِ بالقهرِ، ولأنَّ الزَّجرَ والمنعَ مُشتملانِ على مَعْنَى النُّكْرِ والكراهيةِ، فإسنادُهما لقصدِ إزالةِ المنكَرِ تناقضٌ، وفيه دفعُ الشَّيء بمثلِه، أي: إنكارُ المنكَر بالمنكر، ففيه إخلالٌ بمجموع المقاصدِ والمحامدِ[1]، ولأنَّ المنعَ والزَّجرَ هو أثرُ النَّهي المُترتِّبِ عليه شرعًا، فالنَّهيُ للامتناع، وعصيانُ النَّهي يستوجبُ الزَّجرَ عليه، والتَّكليفُ يحصلُ بالشَّيء لا بأثرِه، وأيضًا: لو قال: يزجرُهم؛ لكان النَّبيُّ ﷺ زاجِرًا، والزَّجرُ لا يليقُ به ﷺ لأنَّ الزَّجرَ انتهارٌ وعنفٌ وقسوةٌ.

دَلالةُ الفعلِ المضارعِ: ﴿وَيَنْهَىٰهُمْ﴾:

الحِفاظُ على الأخلاقِ، يَدومُ بدَوامِ النَّهْيِ عنِ المنكَرِ

عبَّرَ بالفعل المضارع الَّذي يفيدُ التَّجدُّدَ والحدوثَ للدِّلالة على أنَّ النَّفسَ البشريَّةَ تحتاج دائمًا إلى صيانتها وتطهيرها بالبُعد عن ارتكاب الرَّذائلِ، ولا يتأتَّى ذلك إلَّا بمداومة النَّهي عن تفشِّي المنكَرِ في المجتمع، وهذا ظاهرٌ في تعبيرِ القرآنِ الكريمِ بالفعل المضارع الَّذي يحرسُ الفطرةَ البشريَّةَ مِن استمراءِ الوقوعِ في المنكَر.

سِرُّ التَّعْبيرِ بالإضْمار عن أهلِ الكتابِ:

العُدولُ عن وصْفِ أهلِ الكتابِ، لتزكِيهم الأمرَ بالمعروف، والنَّهيَ عنِ المنكَرِ

قَولُه تعالى: ﴿يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾، عبَّر بالضَّمير عن أهل الكتابِ في الأمر بالمعروف، والنَّهي عنِ المنكَرِ في قوله: ﴿يَأْمُرُهُم﴾، ﴿وَيَنْهَىٰهُمْ﴾ دون أن يصرِّحَ بهم؛ لأنَّهم تمرَّدوا على الأمر بالمعروف والنَّهي عنِ المنكَر؛ فما عادوا يأمرونَ بمعروفٍ، ولا

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (زجر)، والمناويّ، التّوقيف، ص: 101، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (زجر).

ينهونَ عن منكَرٍ، وهذا مخالفٌ لوصفهم بأهل الكتاب الَّذي ينبغي أن يكونَ زاجرًا لهم في ارتكابِ المنكَرِ، قال تعالى: ﴿كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُۚ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ٧٩﴾ [المائدة: 79].

سِرُّ التَّعْبيرِ بالمنكَرِ، في قولِه: ﴿وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾:

الإخبارُ بالأجناسِ، أوْفى وأجمَعُ وأمنَعُ من غيرِه

المنكَرُ: اسمٌ عامٌّ منَ الأجناس العاليةِ ذاتِ العموم الكثير، فهو شاملٌ لكلِّ ما يتعلَّقُ به الإنكارُ والكراهيةُ وعدمُ القَبول، في الأديانِ والأبدانِ والعاداتِ والأدبيَّاتِ، وكافَّة المحاذيرِ والمكروهاتِ، شمولًا مُستغرِقًا، والتَّعريفُ فيه لإرادة العموم، ولذا عبَّرَ بهِ دونَ غيره، والإخبارُ بالأجناس أوفى وأجمعُ وأمنعُ من غيرِه، وسرُّ التَّعبير به دَفْعُ إيهامِ التَّفريطِ في بلاغ الرَّسول أو الوحي، فلم يَفُتْهُ شيءٌ منَ المعروفِ أو شيءٌ منَ المنكَرِ، والإيذانُ بكمالِ الأخلاقِ والتَّشريعِ، وفيه أنَّ رسالةَ الرَّسولِ تنسخُ الرِّسالاتِ قبلَها، وتكمِّلُها بما لم يكنْ فيها، ولا ينسخُها غيرُها لكمالِ عمومِها وتمامِها[1].

بَلاغةُ المقابلةِ في الآيةِ:

أثَرُ ألوانِ البديعِ، في تَرسيّةِ المعنَى وجَمالِه، أكيدٌ وبيِّنٌ

من صور البلاغةِ في هذه الآيةِ المقابلةُ بين قولِه تعالى: ﴿يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾، وهو منَ المحسِّناتِ البديعيَّة.

سِرُّ الإتْيانِ بالتّحليلِ والتّحريمِ، مقابِلَ الأمْرِ بالمعروفِ، والنّهْيِ عن المنكَرِ:

الامْتِنانُ ببعضِ وظَائفِ الرَّسولِ الإبلاغيَّةِ والتَّشريعيَّةِ على النَّاسِ

لمّا أخبرَ عن وصفِ الرَّسولِ بقوله: ﴿ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ﴾ تلاهُ ببيانِ مقتضاهُ من وظيفة البلاغِ ﴿يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾، ثمَّ تلاهُ بمقتضى بلاغِه، وهو التَّشريعُ بقوله: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ﴾، ودَمَجَهُ بمعنى الامتنانِ عليهم في قوله: ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْۚ﴾؛ لبيان

(1) ابن منظور، لسان العرب: (نكر)، والكفويّ، الكلّيّات، ص: 804، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (نكر).

موضعِ المِنَّةِ في تشريعِه[1]. ودلالةُ الواو في قوله تعالى: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ﴾ تفريعٌ على ما قبلَها، وتفصيلٌ لإجماله، وهي للدَّلالة على جمْع الرَّسولِ النَّبيِّ بين تلك الوظائف المذكورة.

دَلالةُ التَّعْبيرِ بالفعْلِ: ﴿وَيُحِلُّ﴾:

(الإباحةُ و(الإذْنُ) لا يلزمُ عنهما دَلالةٌ على سَبْقِ التَّحريمِ

التَّعبيرُ بالحِلِّ لاقتضاءِ سبْقِ الحرمَةِ؛ لأنَّ الحِلَّ معناه: فكُّ عُقدةِ الحظْرِ، وقبلَ الحِلِّ كان مُحرَّمًا عليهم في التَّوراة لحومُ الإبلِ وشحومُ الأنعام، وأمَّا الإباحةُ والإذنُ؛ فلا يلزمُ عنهما دلالةٌ على سبْقِ التَّحريم، فالإباحةُ مُطلَقُ الوُسْعِ في تناولِ الشَّيء، والإذْنُ مُطلَقُ العِلمِ بالشَّيءِ[2].

سِرُّ تقديمِ ﴿لَهُمُ﴾، في قوله: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾:

ما أحلَّهُ اللهُ تعالى، هو في مَصلحةِ الإنسانِ ونَفْعِه

قدَّمَ الجارَّ والمجرورَ لإفادةِ تخصيصِهم بالفعلِ؛ لأنَّهم المقصودونَ بالتَّشريع.

دَلالةُ التَّعْبيرِ بلفْظِ: ﴿ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ عنِ الحلالِ:

إيقاعُ الفعلِ على مفعولٍ من لفظِه تكرارٌ وعدمُ فائدة، فلو قال: (ويحلُّ لهم الحلالَ)؛ لكان كمَن قال: قام القائمُ، وقعد القاعدُ، فيكون خاليًا منَ المعنى المفيدِ، وإنَّما عبَّرَ بالطَّيِّبات؛ ليفيدَ أنَّ الحلالَ كان طيِّبًا قبلَ حِلِّه، وأنَّ الخبيثَ كان خبيثًا قبلَ تحريمِه، ولم يكنِ التَّحليلُ والتَّحريمُ سببًا في أن يصبحَ الشَّيءُ طيِّبًا أو خبيثًا، فلو كان وصفُ الطيِّبِ والخبيثِ مُستَفادًا منَ التَّحريم والتَّحليل لم يكن في ذلك دليلٌ، فإنَّه بمنزلة أن يُقال: يُحِلُّ لهم ما يَحِلُّ، ويُحَرِّمُ عليهم ما يَحرُم، وهذا باطلٌ؛ لانعدامِ الفائدةِ منه، فثبتَ أنَّه أحلَّ ما هو طيِّبٌ في نفسِه قبلَ الحِلِّ، فَكَسَاهُ بإحلالِهِ طِيبًا آخر، فصار منشأُ طِيبه منَ الوجهين معًا[3].

إيقاعُ الفعْلِ على مفعولٍ من لفْظِهِ، تَكرارٌ وعدمُ فائِدةٍ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/117.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 5/77، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (أذن - بوح).
(3) ابن القيّم، التّفسير القيّم، ص: 289.

دَلالةُ التَّعْبير بالجمْعِ في ﴿ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾:

(المفرَدُ) أضْعفُ في عُمومِه منَ (الجَمْع)

إفادةُ الكثرةِ والعددِ، ولو قال: (الطَّيِّب)؛ لكان في عمومِه أضعفُ منَ ﴿ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾؛ لأنَّ (الـ) الجنسيَّةَ إذا دخلَت على المفرد؛ أفادَت الحقيقةَ والعمومَ، وأمَّا إذا دخلَت على الجمع؛ دلَّت على الحقيقةِ والعمومِ والكثرةِ العدديَّةِ، وفي التَّعبير بالجمع دون المفرد إيذانٌ بأنَّ مُتعلِّقاتِ التَّحليل والتَّحريم منَ الطَّيِّبات والخبائث كثيرةُ الأنواع مُتعدِّدةُ الأبواب، وأنَّ في كثرةِ الطَّيِّب ما يُغني عن تعاطي الخبائث[1].

سِرُّ تَقديمِ الحِلِّ للطَّيِّبات، على تحريمِ الخبائثِ:

مُباشرةُ الحلالِ أعْونُ وأنهضُ، على تَرْكِ المحرَّماتِ

تقديمُ حِلِّ الطَّيِّبات إيناسًا للنُّفوسِ بابتدائِها بسَعةِ المباحاتِ قبل تقييدها بالمحرَّمات، وافتتاحًا افتتاحٌ للتَّشريع بالحلال، حتَّى لا تستوحشَ الحرام، وإيذانًا إيذانٌ بأنَّ مباشرةَ الحلال أعونُ وأنهضُ على ترك المحرَّمات.

سِرُّ الوصْفِ بلفْظِ ﴿ٱلْخَبَٰٓئِثَ﴾، دونَ غيرِه:

زيادةُ التَّنْفِيرِ منَ الخُبْثِ واجتنابِه؛ فالخُبثُ واقعٌ في ذاتِه قبلَ تحريمِه

﴿ٱلْخَبَٰٓئِثَ﴾: جمعُ خبيثةٍ، مؤنَّثُ خبيثٍ (فَعِيل) صفةٌ مشبَّهةٌ من فَعُلَ (خَبُثَ)[2]، وهذا البناءُ يدلُّ على الطَّبائع وعلى التَّحوُّل في الصِّفات، أي: ما كانت صِفةُ الخُبثِ لازِمَةً فيه، أو كان الشَّيءُ قد تَحوَّل إلى الخُبْثِ بما يُقاربُ الغريزةَ والخِلْقةَ، فهو دالٌّ على التَّمكُّنِ والإغراقِ في الصِّفة، وهذا يفيدُ ما سبق تأكيدُه؛ مِنْ أنَّ الخبيثَ لم يكتسبْ وصْفَهُ منَ التَّحريمِ الشَّرعيِّ، بل هو خبيثٌ بطبْعِه وذاتِه من قبل التَّحريم، فأجدرُ أن يكونَ تحريمُه أنهضَ على اجتنابِه؛ لاجتماع علَّةِ الأصلِ، وعِلَّة الشَّرعِ في نَفيِه وإنكارِه[3].

---

(1) الكفويّ، الكلّيّات، ص: 336.

(2) صافي، الجدول: 9/96.

(3) ابن القيّم، بدائع الفوائد: 2/88، وفاضل السّامرائي، معاني الأبنية، ص: 84.

دَلالةُ التَّعْبيرِ بالغَيبةِ ﴿وَيُحِلُّ﴾ ﴿وَيُحَرِّمُ﴾ دونَ الخطابِ:

الأصْلُ في النَّظْمِ أن يَطَّرِدَ أسلوبُه، وَفْقَ جَرَيانِهِ السَّابِقِ في السِّياقِ

قولهُ تعالى: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ﴾، نجد السِّياق جارٍ في الحديث عن قومِ موسى من بني إسرائيلَ، ومخاطَبٌ به مَن أدركَ البَعثةَ من بني إسرائيل كذلك، ولو جرى على الخطاب؛ لاحتَمَلَ إحْدىَ الطَّائفتين دون الأخرى، بل الطائفةِ المعاصِرَةِ منهما وقتَ النُّزول، فضلًا عن أنَّ الكلامَ جارٍ منَ البدايةِ على طريقةِ الغيبةِ، فاطِّرادُهُ على هذا النَّحوِ هو الأصل.

سِرُّ الإتْيانِ بجُملةِ: ﴿وَيَضَعُ عَنۡهُمۡ إِصۡرَهُمۡ﴾، بعدَ الجُملةِ السَّابقةِ:

اقْتِرانُ التَّكليفِ بما يقتضِي التَّخفيفَ دَأْبُ السِّياقِ القرآنيِّ

التَّعقيبُ بجملة: ﴿وَيَضَعُ عَنۡهُمۡ إِصۡرَهُمۡ﴾ موصولةً بالواو مع ما قبلَها؛ لاستتمامِ صفاتِ الرَّسول العمليَّةِ بعد البلاغِ العامِّ بقوله: ﴿يَأۡمُرُهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَىٰهُمۡ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ﴾، والتَّشريعِ الخاصِّ بقوله: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ﴾، فلمَّا كان ذلك مُشتمِلًا على معنى التَّكليف؛ أتبعَهُ بما يفيدُ التَّخفيفَ، فقال: ﴿وَيَضَعُ عَنۡهُمۡ إِصۡرَهُمۡ﴾، بُغيةَ أن تزولَ عنهم مشقَّةُ التَّكليفِ بلذَّة التَّخفيفِ، وختَمَ به مهمَّاتِ الرَّسول، ليكونَ آخرُ عهدِ المُخاطَبِ منَ الكلام رِفْقًا ومَرحَمَةً، فيستعينَ بالتَّخفيف على عزائم التَّكاليفِ إغراءً له وتنشيطًا عليه.

دَلالةُ اخْتِيارِ الواوِ، في قولِه: ﴿وَيَضَعُ﴾:

جَمَعَ اللهُ للرّسولِ وظائفَ شتَّى، وأخلاقًا جمّةً

عُطِفَ قوله: ﴿وَيَضَعُ﴾ بالواو على ما قبلَه، إيذانًا بأنَّه منه، ومضمومٌ إليه، وداخِلٌ في حيِّز تعديدِ ما اجتمعَ للرَّسولِ من وظائفَ وأعمالٍ.

بَلاغةُ الاسْتِعارةِ، في قولِه: ﴿وَيَضَعُ عَنۡهُمۡ﴾:

حقيقةُ الوضعِ الحطُّ من علوٍّ إلى سُفْل، وهو هنا مجازٌ في إبطال التَّكليفِ بالأعمال الشَّاقَّةِ، وهو في الأصل يتعدَّى إلى المفعول الثَّاني

بـ(في) الظَّرفيَّة، فإذا تَعدَّى إليه بـ(عن) دلَّ على النَّقْل والتَّحوُّل (وضعتُ الشَّيءَ عنه: إذا نقلتُه وحوَّلتُه)، وإذا عُدِّيَ بـ (على) دلَّ على الحطِّ (وضعتُ الشَّيءَ على الشَّيءِ: حطَطتُه عليه)، فاستُعير ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ﴾ هنا إلى إزالة التَّكليفاتِ الَّتي هي كالإصرِ والأغلالِ، فَيَشمَلُ الوضعُ معنى النَّسخِ وغَيرَهُ، أو تكونُ جملةُ ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ﴾ تَمثيليَّةً، بتشبيهِ حالِ المُزالِ عَنهُ ما يُحرِجُهُ مِنَ التَّكاليفِ بحالِ مَن كان مُحَمَّلًا بِثِقَلٍ، فَأُزيلَ عَن ظَهرِهِ ثِقَلُهُ، كما في قوله تعالى: ﴿يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ﴾ [الأنعام: 31]، وإنْ لم يَكُنْ كذلك؛ كان الإصرُ استِعارَةً مَكنِيَّةً، و(يَضَعُ) تَخييلًا، وهو أيضًا استِعارَةٌ تَبَعِيَّةٌ للإزالَةِ[1].

لفتُ الانتباهِ إلى عظمةِ الشَّريعةِ، في إبطالِ التَّكليفِ بالأعمالِ الشَّاقَّةِ

دَلالةُ التَّعْبيرِ بالمضارعِ، في قولِه: ﴿وَيَضَعُ﴾:

عبَّرَ بالمضارع في قوله تعالى: ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ﴾ للدَّلالةِ على أنَّ سمةَ اليُسْرِ والتَّيسير في شرعِ اللهِ مُتجدِّدةٌ ومُستمرَّةٌ، فكلَّما حلَّ بالأمَّة أمرٌ فيه مشقَّةٌ وصعوبةٌ في الأداء؛ كان شرعُ اللهِ مُتَّجهًا إلى التَّخفيف والتَّيسير عن كاهل الإنسان عمومًا، والمسلم خصوصًا.

شَرْعُ الله مُتَّسِمٌ بالتَّخفيفِ والتَّيسيرِ عنِ الإنسانِ

دَلالةُ التَّعْبيرِ بالجارِّ والمجرورِ ﴿عَنْهُمْ﴾ دونَ (لهم):

قوله تعالى: ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ﴾، آثرَ التَّعبيرَ فيه بلفظ ﴿عَنْهُمْ﴾ لإفادة وضعِ الإصرِ، وتحوُّلِه عنهم وتحوُّلِهم عنه، ولو قال: (ويضع لهم)؛ لأدخلَ الاحتمالَ في مَعْنى الوضع أن يكون تثبيتًا لا إزالةً، فإنَّ (وضع) يأتي في المعنى الموجبِ، كما قال تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ۝١٠﴾ [الرَّحمن: 10]، أي: جعلَها وثبَّتها لهم، ولَخَلَا عن معنى الانتقالِ المذكورِ.

البراعةُ في اصْطِفاءِ حروفِ المعاني، يَنفِي الاحتمالَ والالتباسَ في النَّظْمِ

دَلالةُ الضَّميرِ، في قولِه: ﴿إِصْرَهُمْ﴾:

الضَّميرُ المجرورُ المُقدَّمُ يفيدُ اختصاصَهم بالتَّخفيفِ، أي: يضعُ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/136.

عنهم وضعًا مُختصًّا بهم، ولذا لم يقُل: ويضعُ إصرَهم عنهم، والضَّمير الثَّاني، وهو المضافُ إليه (الإصر) يفيدُ إزالةَ عموم المشَقَّاتِ الَّتي كانَت عليهم؛ لأنَّ النَّكرةَ المضافةَ للمعرفة ﴿إِصۡرَهُمۡ﴾ في سياق الامتنانِ تفيدُ العمومَ.

النَّكرةُ المُضافةُ للمعرفةِ، في سِياقِ الامْتنانِ، تُفيدُ العمومَ

سِرُّ التَّعْبيرِ باللّفْظِ ﴿إِصۡرَهُمۡ﴾ بَدلًا منَ (الوِزر):

الإِصرُ: هو الثِّقْلُ الحاصلُ بتقييدٍ خارجيٍّ، والوِزرُ هو الثِّقلُ الحاصلُ بقيدٍ ذاتيٍّ، ولذا لم يُستَعْمَلِ الوِزرُ في القرآن إلَّا في الجنايات والسَّيِّئات الَّتي يقترفُها الإنسانُ، فهو خارجٌ منه، وأمَّا الإصرُ؛ فتقييدٌ بما يُثقِل، ويُقعِد، فالقيدُ إليه لا منه، ولذا استَعملَ الإصرَ في المواثيقِ المعقودةِ على التَّكاليفِ الشَّاقَّةِ لثِقل الإلزام فيها[1].

دَلالةُ (الإصْرِ) على الثِّقْلِ الحاصلِ، بسببِ قيْدٍ خارجيٍّ

دَلالةُ الإفرادِ والجمْعِ، في القراءةِ المتواترةِ: ﴿إِصۡرَهُمۡ﴾:

قَرَأ ابنُ عامرٍ (آصارَهُمْ) بفتح الهمزة والمدّ والصّادِ وألِفٍ بعدَها على الجَمعِ، وقَرَأ الباقونَ بِكَسرِ الهَمزَةِ والقَصرِ، وإسكانِ الصّادِ مِن غير ألِفٍ على الإفرادِ[2]، وقراءة الجمع فيها إفادةُ الكثرةِ بالعددِ المفهومِ من لفظِ الجمعِ، وهو مُؤذِنٌ بتأكيدِ المِنَّة عليهم بجمعِ مُتعلَّقِها، أي: خلَّصناهم من جميعِ أنواعِ المشقَّاتِ، ومَن أفردَ؛ فلأنَّه اسمُ جنسٍ يندرجُ تحتَهُ أنواعٌ كثيرةٌ[3].

قراءةُ الجمْعِ تُفيدُ المبالغةَ في الامْتنانِ

سِرُّ التَّعْبيرِ بـ﴿وَٱلۡأَغۡلَٰلَ﴾:

التَّعبيرُ بالأغلالِ مُفعَمٌ بمظاهر القهرِ والإذلالِ، فاصطفاءُ هذه المفردة يُصوِّرُ المقابلةَ بين حالهم مع مشقَّةِ التَّكليفِ، وحالهم بعدَ التَّخفيف، تصويرًا حسِّيًّا يُجلِّي في المقام معنى الإشفاق والتَّعزيةِ من حالِ الأسيرِ؛ إذا أتاهُ نبأُ التَّحريرِ، فقرَّبَ بتلك اللَّفظةِ ذلك

اصْطِفاءُ مُفردةِ (والأَغْلال) تصويرٌ المقابَلةِ بين حالَيْنِ، تصويرًا حسِّيًّا

(1) وضِعَ الوِزرُ للقوَّة؛ لأنَّه منَ الإزار، وهو ما يُقَوِّي الإنسانَ، ومنه الوزير، لكنْ غلَبَ استعمالُه لِعَمَلِ الشَّرِّ باعتبارِ أنَّ صاحبَ الوِزْرِ يَتقوَّى ولا يَلِينُ للحقِّ. ينظر: الكفويّ، الكلّيّات، ص: 40 - 131.

(2) ابن مجاهد، السبعة، ص: 295، وابن الجزريّ، النّشر: 2/272.

(3) السّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 5/481.

الشُّعورَ الأسيفَ منَ النُّفوسِ والأفئدةِ، إيذانًا بأنَّ رفْعَ ذلك عنهم لم يكن نِعمةً عامَّةً جاريةً على عادةِ سائرِ النِّعم، بل نعمةً خاصَّةً عظيمةً بمنزلَةِ تخليصٍ وتحريرٍ، كما يُحرَّرُ الأسيرُ من حَبْسِه وأغلالِه.

بَلاغةُ الاسْتِعارةِ، في قولِه: ﴿وَٱلْأَغْلَٰلَ﴾:

الأغلالُ مُستعَارةٌ للتَّكليف والعمل الَّذي يُؤلِمُ، ولا يُطاقُ تشبيهًا للمعقولِ بالمحسوس، ويصحُّ أن يكونَ التَّعبيرُ بـ﴿وَٱلْأَغْلَٰلَ﴾ تمثيلًا بتشبيهِ حالِ المحرَّرِ منَ الذُّلِّ والإهانةِ بحالِ مَن أُطلِقَ منَ الأسر، أو بتشبيهِ أحكامِ التَّوراةِ بما يُغَلُّ به الإنسان، فلا يقدِرُ على العملِ لِثِقَلِها.

الوَضعُ والإصْرُ والأغلالُ كلٌّ منها اسْتِعارةٌ للتَّكاليفِ الشَّاقَّةِ

ومناسبةُ استعارةِ الأغلالِ للذِّلَّةِ أوضحُ؛ لأنَّ الأغلالَ من شعارِ الإذلالِ في الأسرِ والقَودِ ونحوهما، والأحسنُ: أن يكونَ الوضعُ والإصرُ والأغلالُ في كلٍّ منها استعارةً للتَّكاليفِ الشَّاقَّةِ، ويصحُّ جعْلُ بعضِها استعارةً والآخَرِ ترشيحًا، والمجموعُ استعارةٌ تمثيليَّةٌ[1]، وقيل: كانَت بنو إسرائيل إذا قامَتْ إلى الصَّلاةِ؛ لبِسوا المُسُوحَ، وغَلُّوا أيديَهم إلى أعناقِهم تواضعًا للّه تعالى فعلى هذا القولِ؛ فالأغلالُ غيرُ مُستعارةٍ[2].

دَلالةُ التَّعْبيرِ بالموصولِ ﴿ٱلَّتِي﴾:

قوله تعالى: ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾، ورد هذان الوصفانِ الإصرُ والأغلالُ لهما مزيدُ اختصاصٍ باليهود، المتحدَّثِ عنهم في خطاب اللّه تعالى لموسى، ولا يتحقَّقَان في غيرهم ممَّن آمنَ بمحمَّد ﷺ؛ لأنَّ اليهودَ قد كان لهم شرعٌ، وكان فيه تكاليفُ شاقَّةٌ، بخلاف غيرِ اليهودِ منَ العرب والفرس وغيرهم، ولذلكَ أضافَ اللّهُ الإصرَ إلى ضميرِهم، ووصَفَ الأغلالَ بما فيهِ ضميرُهم[3].

إيقاعُ الوَصْفِ بالمجازِ على أَخصِّ أحوالِ الموصُوفِ، من فَصيحِ البيانِ

(1) الطِّيبيّ، فتوح الغيب: 6/608، والشّهاب، حاشيه الشّهاب: 4/225، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاوي: 8/519، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/137.

(2) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 15/382.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/137.

دَلالةُ (كان) في قولِهِ: ﴿ٱلَّتِي كَانَتۡ عَلَيۡهِمۡۚ﴾:

التَّعْبيرُ بالكونِ الماضي بعد موصولِ الأغلالِ، يفيدُ عراقتَهم في هذا البلاءِ الشَّاقِّ، وطُولَ أمَدِهم فيه، حتَّى كأنَّه صارَ ببشرى مَبعثِ الرَّسول كَوْنًا ماضيًا وحدثًا مُنقضيًا، فكأنَّه زالَ بمجرَّدِ البُشرى والإخبار، فكيفَ إذ هم آمنوا بخبَرِهِ غَيْبًا؟ وكيف لو أدركوه واستجابوا ؟ وفيه إغراءٌ لهم على الإيمان، وإعلاءٌ مِن شأنهِ ﷺ في الإخبارِ عنه فضلًا عن معاينتِه وإدراكِ ذاتِه الشَّريفةِ.

التَّعْبيرُ بالكَونِ الماضِي، يُفيدُ طُولَ الأمَدِ في الوصْفِ

سِرُّ التَّعبيرِ بقوله: ﴿عَلَيۡهِمۡۚ﴾ دونَ (فوقهم):

عبَّرَ بقوله: ﴿عَلَيۡهِمُ﴾ دونَ فوقِهم - مع اشتراكِهم في العلوِّ - لإفادة الثِّقل الناتج عن استعلاء الأغلالِ على نفوسِهم، كما أنَّ (على) تشيرُ إلى أنَّ هذه الأغلالَ كانت بسبب معصيتِهم ممَّا أدَّى إلى وجودِ تكاليفَ شاقَّةٍ عليهم، مصدرُها تشريعٌ سماويٌّ، شدَّدَ اللهُ بها عليهم لقمعِهم عنِ الشَّهوات، وعدلَ عن الفوقيَّةِ، لما فيها من معنى القهرِ والغلبةِ؛ حتَّى لايظنَّ بأنَّهم مظلومون، بل هم الظَّالمون لأنفسِهم بمعاصيهم وجرائمِهم.

إفادةُ الحرفِ (على) أنّهم ظالمونَ لا مظلومونَ

دَلالةُ الفاءِ، في قولِهِ: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ﴾:

الفاءُ في قولِه: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ﴾ فصيحةٌ تَعْطِفُ مَدخولَها على محذوفٍ مُقَدَّرٍ قبلها، والتَّقدير: إذا كان هذا النَّبيُّ الأمِّيُّ سببًا في رَفْعِ الآصارِ والأغلالِ عنكم؛ فعزِّروه، أي: فوقِّروه وأيِّدوه، وانصُروه على مَن يعادونَهُ؛ لأنَّكم تعْلَمونه من بشَارةِ التَّوراة والإنجيلِ بِصِفَتِه وصِفةِ شَرعِه[1].

الفاءُ الفصيحةُ تَعْطِفُ مَدْخولَها على محذوفٍ مُقَدَّرٍ

سِرُّ تَكرارِ ﴿فَٱلَّذِينَ﴾، في سِياقِ الآيةِ:

قَولُهُ تعالى: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ﴾، فيه تكرارُ الاسمِ الموصولِ

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 6/273.

لإدخالِ أوصافٍ جديدةٍ في حيِّز الصِّلةِ؛ لاستيعابِ أصنافِ المؤمنين وتكميلِ نعوتِهم، وترتيبِ اللَّاحق منها على السَّابق، ولتجديدِ عهدِهم بالإيمانِ بتكرارِ الوصفِ المحمودِ، ولإفادة قوَّةِ تعلُّقِ صفةِ الإيمانِ بالمذكورين على جوازِ أنَّ المقصودين واحدٌ.

تَكرارُ الموصولِ يُضِيفُ مَعنىً جديدًا في حيِّزِ الصِّلَةِ

دَلالةُ الإضْمارِ في قولِه: ﴿بِهِۦ﴾، بَدلًا منَ الإظْهارِ:

عبَّرَ بالضَّمير في قوله: ﴿بِهِۦ﴾ لاستغنائه عنِ الإظهارِ؛ لِعراقته في العرفان، فلا يزيدُ الإظهارُ في تعريفهِ شيئًا، فكان الإيجازُ أولى وأخصرَ.

عَراقَةُ الموصُوفِ في العِرفانِ والاشتِهارِ، من مُقتضيَاتِ إضْمارِه في الكلامِ

سِرُّ اصْطِفاءِ التَّعْبيرِ بالفعْلِ: ﴿وَعَزَّرُوهُ﴾ بَدلًا من (وأيَّدوه):

قوله تعالى: ﴿وَعَزَّرُوهُ﴾: التَّعزيرُ في القرآنِ لم يردْ إلَّا في حقِّ الأتباع تجاه الرُّسلِ، ذلك أنَّه مشتمِلٌ على معنى التَّعظيمِ الَّذي يُوجِبُ المؤازرةَ والنُّصرةَ والشِّدَّة في الحقِّ، فهو واردٌ منَ الأدنى للأعلى، وأمَّا التَّأييدُ؛ فلم يردْ في القرآن إلَّا منَ اللّٰه على أنبيائه وأصفيائه، فهو واردٌ منَ الأعلى للأدنى، ولا يُقال: إنَّ التَّأييد اقترنَ بالمؤمنين في قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾﴾ [الأنفال: 62]؛ لأنَّ فعلَ التَّأييدِ هنا صادرٌ منَ اللّٰهِ بهم، وليس صادرًا منهم، فمعناهُ: أيَّدكَ بالمؤمنين فيعزِّروك؛ ذلك أنَّ التَّأييدَ مُشتمِلٌ على معنى الحفظِ والقوَّة، وهما حاصلان بالفوقيَّةِ والقهر، وحقيقةُ ذلك لا تكون إلَّا من عزيزٍ غالبٍ على أمرِه، فاستُعمِل هنا التَّعزيرُ؛ لأنَّه بالمخلوقِ أليقُ[1].

التَّعْزيرُ يكونُ مِنَ الأدنَى للأعلَى، والتَّأييدُ يكونُ منَ الأعلَى للأدنَى

سِرُّ التَّرتيبِ في أوصافِ: الإيمانِ والتَّعزيرِ والنَّصْرِ واتِّباعِ التَّنْزيلِ:

التَّرتيب في أوصاف: ﴿ءَامَنُواْ بِهِۦ﴾، ﴿وَعَزَّرُوهُ﴾، ﴿وَنَصَرُوهُ﴾، ﴿وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ﴾، نجد تَقديمَ الإيمانِ والوصفِ بهِ ظاهرٌ، إذْ هو مناطُ الخطابِ أصلًا، والتَّثنيةُ بالتَّعزير؛ لأنَّه تعظيمٌ لمناط الإيمانِ،

مَعونةُ النَّصْرِ حاصلةٌ بِشدَّةِ التَّعزيرِ، والتَّعزيرُ تعظيمٌ لمَناطِ الإيمانِ

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (عزر)، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (عزر - أيد).

وهو مقامُ اللّهِ ورسلِه، ففيهِ تعبُّدٌ، والتَّعبُّدُ تعظيمٌ، وهو أثرُ الإيمانِ بالعمل والفعل، وثلَّث بالنَّصر؛ لأنَّه من قبيلِ جلبِ المصالحِ بعدَ دَرْءِ المفاسدِ، ولأنَّ معونةَ النَّصرِ حاصلةٌ بشدَّة التَّعزيرِ؛ ليكونَ النَّصرُ مُثمِرًا للغلبة، والختمُ باتِّباع التَّنزيل: ﴿ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ﴾؛ ليكونَ الاتِّباعُ شاملًا حياتَه ﷺ وبعد حياتِه، فذَكَرَ واجبَهم معه في حياتِه بالإيمان به وتعزيرِه، ونصرِه، وواجبَهم معه بعدَ انتقالِه ﷺ بأن يَستمرُّوا على اتِّباع كتابِه.

بَلاغةُ التَّعْبيرِ بلفْظِ ﴿ٱلنُّورَ﴾، عنِ القرآنِ:

أبلَغُ التَّمْثيلِ ما كان صالحًا لاعتبارِ التَّشْبيهاتِ المفردَةِ في أجْزائِه

تشبيهُ القرآنِ بالنُّورِ استعارةٌ؛ لأنَّ حقيقةَ النُّورِ ما كان ظاهرًا بنفسِه مُظهِرًا لغيرِه، والقرآنُ ظاهِرٌ بنفسِه لإعجازِه، ومُظهِرٌ لغيرِه منَ العقائدِ والأحكامِ، ويَهدي مِنَ الضَّلال المعنويِّ، كما أنَّ النُّورَ يهدي منَ الضَّلال الحسِّيِّ، واتِّباعُ النُّورِ تمثيلٌ للاقتداء بما جاء بهِ القرآن، بتشبيهِ حالِ المقتدِي بالقرآنِ بحالِ الماشي في الظَّلام، إذا رأى نورًا يَلوحُ له اتَّبعَه، فأجزاءُ هذا التَّركيبِ استعاراتٌ، فالاتِّباعُ يَصلحُ مُستعارًا للاقتداء، وهو مجازٌ شائعٌ فيه، والنُّورُ يَصلحُ مُستعارًا للقرآنِ؛ لأنَّ الشَّيءَ الَّذي يُعلِّمُ الحقَّ والرُّشدَ يُشبَّهُ بالنُّور، وأحسنُ التَّمثيلِ ما كان صالحًا لاعتبارِ التَّشبيهاتِ المفردَةِ في أجزائِه[1].

دَلالةُ الموصولِ ﴿ٱلَّذِىٓ﴾ في قولِه: ﴿ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ﴾:

تَسميَةُ القرآنِ بالنُّورِ، مُشعِرَةٌ بِعِلَّةِ اتِّباعِه

التَّنويهُ بمقامِ القرآنِ في محلِّ الاتِّباع، بزيادةِ تعيينِه بالوصفِ بالموصولِ، بعدتسميَتِه بالنُّورِ، والإخبارُ عنه في جملةِ الصِّلةِ بلفظِ الإنزالِ إيذانٌ بعلِّيَّةِ اتِّباعِه.

(1) الشّهاب، حاشية الشّهاب: 4/225، والصّاويّ، حاشية الصّاويّ على الجلالين: 2/90، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/138.

سِرُّ التَّعْبيرِ بالإنزالِ، في قولِه: ﴿أُنزِلَ مَعَهُۥٓ﴾:

التَّعبيرُ بالإنزالِ يفيدُ أمرين: الأوَّل: التَّنبيهُ على عصمةِ مصدرِه، وأنَّه من لدنْ حكيمٍ عليم، فالمتَّبِعون له على حقٍّ ونورٍ، الثَّاني: نفيُ التُّهمةِ عنِ النَّبيِّ ﷺ أن يكونَ مُتقوِّلًا فيهِ بشيء، فالإنزالُ يَنفي بلازمِ معناهُ أن يكونَ مُفْتَرًى على اللّه.

اقْتِرانُ القرآنِ بِفِعْلِ (الإنزالِ)، يَنفي بلازمِ مَعناهُ، أن يكونَ مُفتَرًى على اللهِ

سِرُّ التَّعْبيرِ بالمعيَّةِ في ﴿أُنزِلَ مَعَهُۥٓ﴾:

الكلامُ على تقديرِ حذفِ مُضافٍ، أي: النُّورُ الَّذي أُنزِلَ مع نبوَّتِه؛ لأنَّ نُبُوَّتَه كانت مصحوبةً بالقرآن مشفوعةً بها، فالمعيَّةُ لتعيينِ زمانِ إرسالِه الحاصلِ فيه التَّنزيلُ، والمعيَّةُ مُتعلِّقةٌ بـ﴿أُنزِلَ﴾، أو المعيَّة مُتعلِّقَةٌ بـ﴿وَٱتَّبَعُواْ﴾، أي: اتَّبَعوا النُّورَ مَعَه، أي: شارَكوا النَّبيَّ في اتِّباعِ النُّور، أو التَّقديرُ: اتَّبَعوا النُّورَ الَّذي أُنزِلَ مع اتِّباعِ النَّبيِّ، ففيهِ: إلزامٌ باتِّباعِ سُنَّتِه ﷺ [1].

اقْتِرانُ القرآنِ بمعيَّةِ الرَّسولِ، شهادةٌ له ﷺ بحُسْنِ صُحبَتِه للوحْيِ والتَّنْزيلِ

سِرُّ اختِلافِ التَّعبيرِ بالاتِّباعِ، في أمْرِ الرَّسولِ ﷺ؛ وفي أمْرِ القرآنِ:

قوله: ﴿وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ﴾، من باب طلبِ البرهانِ على ادِّعاء ما لا تَظهرُ صحَّتُه إلَّا بإقامةِ الدَّليلِ عليه، فالإيمانُ مُستعمَلٌ في الاعتقاد في رسوليَّته، والاتِّباعُ مُستعمَلٌ في إقامة ذلك عملًا في الظَّاهر، فضلًا عن أنَّ النَّبيَّ ﷺ مشمولٌ أيضًا في الاتِّباع، بقرينةِ قولِه: ﴿مَعَهُۥٓ﴾.

طلَبُ البُرهانِ على ادِّعاءِ ما لا تَظهرُ صِحَّتُه إلَّا بإقامةِ الدَّليلِ عليه

بَلاغةُ التَّركيبِ، في قولِه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾:

الإشارةُ في قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ للتَّنويهِ بشأنِهم، إيذانًا بأنَّ المشارَ إليهم صاروا بتلك الأعمالِ أحِقَّاءَ بما يُخبَر به عنهم بعد اسم الإشارة، وفي الإشارةِ إشارةٌ إلى عِلِّيَّةِ تلك الصِّفاتِ للفلاح المُستَحَقِّ، وكافُ البُعد للإيذان ببُعد المنزلةِ وعلوِّ الدَّرجةِ في الفضل والشَّرفِ،

الوصْفُ بالفلاحِ يدلُّ على بقاءِ العاقِبةِ، وعدَمِ التَّحوُّلِ عنها

(1) السّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 5/482، والشّهاب، حاشية الشّهاب: 4/225.

وضميرُ الفصل ﴿هُمُ﴾ لتأكيدِ اختصاصِهم بالفلاح، واصطفاءُ لفظ (الفلاح)؛ لِيدلَّ على أنَّ ظَفَرَهم للفوزِ، ودَرَكَهم للمنازِل كان بالأعمال الصَّالحةِ الَّتي شَقُّوا بها طريقَهم للوصول، واستَبقوا بها عاقبةَ الظَّفَر، ولذا ختَمَ الأعمالَ المذكورةَ بالفلاح لدلالته عليها، ولاقتضائه للبقاءِ وعدمِ التَّحوُّل[1].

سِرُّ التَّعْبيرِ بالفلاحِ ﴿ٱلْمُفْلِحُونَ﴾:

النَّجاحُ يُستعملُ في الظَّفَرِ الدُّنيويِّ، والفلاحُ يَجمعُ بين الظَّفَرِ بأمورِ الدُّنيا والآخِرةِ

آثرَ التَّعبيرُ القرآنيُّ (الفلاحَ) دون النَّجاح، وإن كان بينهما قربٌ في المعنى، إلَّا أنَّ الفلاحَ يختلفُ عنِ النَّجاح في الدلالة، فالفلاحُ يُستعمَلُ في الفوز والنَّجاة والخير والبقاء، بخلاف النَّجاحِ فإنَّه يختصُّ بإدراك الأشياءِ، وهو يُستعمَلُ في النَّجاح الدُّنيويِّ، أمَّا الفلاحُ يجمعُ بين الظَّفر بأمور الدُّنيا والآخرة؛ فهو ثمرةٌ للنَّجاح في الدُّنيا، ولذلك استخدمَه القرآنُ الكريمُ في مواطنَ عديدةٍ بعدَ بذلِ الجهدِ للوصول إليه، وهذا واضحٌ في الآياتِ الأولى في صدرِ سورةِ البقرةِ الَّتي تحدَّثَت عن صفاتِ المتَّقين، وانتهى أمرُ التزامِهم وتقواهم إلى الفلاح بقوله: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾، وهذا ما ينطبقُ على سياق الآياتِ الَّتي معنا بَدءًا من قوله تعالى: ﴿فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ إلى قوله: ﴿وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الوضْعُ والحطُّ:

الوضْعُ يقتضِي خفْضَ الشَّيءِ بتعطُّفٍ ورِفْقٍ، والحطُّ يَقتضِي خفْضَهُ بعجَلَةٍ وحِدَّةٍ

الَّذي أعانَ على هذا التَّوجيهِ الدَّلالةُ المعنويَّةُ والصَّوتيَّةُ للَفظِ (الحَطِّ)، فهو "انضغاطُ الجرم بثِقَلٍ إلى أسفلَ أو إلى الدَّاخلِ، فلا يَنْتَبِر" - يرتفع - وصوتيًّا: "الحاءُ تُعبِّرُ عنِ احتكاكٍ بعَرضٍ

(1) الآلوسي، روح المعاني: 5/78، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/138، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (فلح)، والكفويّ، الكلّيّات، ص: 697، والعسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 211.

وجَفافٍ، و(الطَّاء) تُعبِّرُ عنِ الضَّغْط العريضِ مع الغِلَظ، والفصْل منهما يعبِّرُ عن ضغطٍ بقوَّةٍ إلى أسفلَ، كما في حطِّ الجلد"، والحَطُّ: وضْع الأحمالِ عنِ الدَّوابِّ ونحو ذلك، إذ هو إهباطٌ لارتفاعِها بنقلِ جِرمِها مِن أعلى إلى أسفل مطاوعةً لضَغطِ ثِقَلِها[1]، وأمَّا الوضْعُ؛ فهو أعمُّ مِنَ الحطِّ، وإذا تعدَّى بـ(على) كان بمعنى التَّحميل، وإذا تعدَّى بـ(عن) كان بِمَعْنَى الإزَالة، ويُقال ذلك في الحَملِ والحِمل[2]، وحَيثِيَّةُ عمومِه: أنَّه كـ(الحَطِّ) في الهُوِيِّ بالشَّيء إلى مقرٍّ منخفضٍ يَثبُتُ فيه (عن حيِّزٍ عالٍ كان فيه)[3]، لكنَّ الوضعَ يتناولُ المنبوذَ، فيُزال، وغيرَ المنبوذِ، فيُثَبَّت، بخلافِ الحطِّ فهو في غير المَرضِيِّ، فمِنَ المَنْبُوذِ في الوضع: ﴿وَيَضَعُ عَنۡهُمۡ إِصۡرَهُمۡ﴾، ومِنَ غير المنبوذِ: ﴿وَوُضِعَ ٱلۡكِتَٰبُ﴾ [الكهف: 49]، ﴿قَالَتۡ رَبِّ إِنِّي وَضَعۡتُهَآ أُنثَىٰ﴾ [آل عمران: 36]، وأمَّا الحَطُّ؛ فهو في غيرِ المرضِيّ: ﴿وَقُولُواْ حِطَّةٞ﴾ [البقرة: 58]، فإن قيل: حَطُّ الرِّحالِ أحمالَها، كيف يكون غيرَ مَرضِيٍّ؟ فالجواب: أنَّ الأحمالَ الَّتي تُحَطُّ مِن على الرَّحلِ مُستَثقَلَةٌ غيرُ مَرضيَّةٍ في عِبْئِها؛ ولذلك تُحطُّ[4]، ويُستعمَل كلاهما في المحسوساتِ والمعقولات، والحقيقةِ والمجاز.

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (حطط - حطحط).

(2) الرّاغب، المفردات: (وضع)، والكفويّ، الكلّيّات، ص: 934، وعضيمة، دراسات لأسلوب القرآن: 5/230.

(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (وضع).

(4) الخليل، العين: 3/18، وابن الجوزيّ، نزهة الأعين، ص: 611.

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِي لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلْأُمِّيِّ ٱلَّذِي يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾﴾ [الأعراف: 158]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

تَحقيقُ الرِّسالةِ المحمَّديَّةِ إلى الخلْقِ بالكلِّيَّةِ، بعدَ بيانِ حُصولِ رحمةِ اللهِ لمنِ اتَّبع رسولَه

لمّا ذكرَ اللّٰهُ تعالى في الآيةِ السَّابقةِ أنَّه سيكتبُ رحمتَه للَّذين يتَّقون، ويؤتون الزَّكاةَ، ثمَّ بيَّنَ تعالى أنَّ من شرطِ حصولِ الرَّحمة لأولئك المتّقين، كونهم مُتَّبعين للرَّسول الأمِّيِّ، حقَّقَ في هذه الآية رسالَته إلى الخلقِ بالكلِّيَّة بقوله: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾[1].

ومن أوجهِ المناسبةِ أن يُقال: لمَّا ذكرَ اللّٰهُ تعالى في الآيةِ السَّابقةِ لموسى عليه السلام صفةَ سيِّدِنا محمَّد ﷺ وأخبرَ أنَّ مَن أدركَه، وآمنَ به أفلحَ، أمرَ اللّٰهُ تعالى نبيَّهُ ﷺ في هذه الآية بإشهارِ دعوتِه ورسالتِه إلى النَّاس كافَّةً، والدُّعاء إلى الإيمانِ باللّٰهِ ورسولِه وكلماتِه.

لمَّا ذكرَ اللّٰهُ تعالى في الآية السَّابقةِ مَن وُصفوا بالفلاح من أهلِ التَّوراةِ والإنجيلِ، أتى بهذه الآيةِ دفْعًا لِمَا يُتوهَّمُ أنَّ الفلاحَ مخصوصٌ بِمن تَبِعَه منهم، فأفاد أنَّ هذا الوعدَ ليس قاصِرًا عليهم، بل هو عامٌّ في كلِّ النَّاسِ[2]، فالآيةُ عامٌّ بعدَ خاصٍّ.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَكَلِمَٰتِهِۦ﴾: الكلمات: جمع كَلِمَة، وجذرها (كلم) يَدُلُّ عَلَى نُطقٍ مُفهِمٍ، وهي اللَّفظَةُ الواحِدَةُ المُفهِمَة، وتأتي بمعنى الجمْعِ:

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 8/27.
(2) الصّاويّ، حاشية الصّاويّ على الجلالين: 2/90.

(الكَلامُ) والكلامُ يقع على الألفاظِ المنظومةِ، وعلى المعاني الَّتي تحتها مجموعةٌ، وعند النَّحويِّين يقعُ على الجزء منه، اسمًا كان أو فعلًا أو أداةً، وعند كثيرٍ منَ المُتكلِّمين لا يقعُ إلَّا على الجمل المُركَّبةِ المفيدةِ، وهو أخصُّ منَ القول، والمرادُ هنا: كلامُ اللّٰه بمعنى كُتُبِه المُنزَّلَة، أو معجزاتِه الحاصلةِ بكلمةِ (كُنْ)[1].

2) ﴿تَهْتَدُونَ﴾: مضارعٌ مِنَ الجذر اللُّغوي (هدي) وأصل الهداية: دلالَةٌ وإرشادٌ بلُطفٍ، لكنَّها تتصرَّف على أربعة وُجوهٍ، الأوَّل: الهدايةُ الَّتي عمَّ بجنسها كلُّ مُكلَّفٍ منَ العقلِ والفطنةِ والمعارفِ الضَّروريَّةِ، قال تعالى: ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَىۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ۝٥٠﴾ [طه: 50].

الثَّاني: الهدايةُ الَّتي جعل للنَّاس بدعائهِ إيَّاهم على ألسنةِ الأنبياءِ وإنزالِ القرآنِ، قال تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا مِنۡهُمۡ أَئِمَّةً يَهۡدُونَ بِأَمۡرِنَا﴾ [السجدة: 24].

الثَّالث: التَّوفيقُ الَّذي يختصُّ به منِ اهتدى، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ زَادَهُمۡ هُدًى﴾ [محمد: 17].

الرَّابع: الهدايةُ في الآخرة إلى الجنَّة، قال تعالى: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا﴾ [الأعراف: 43]، وهذه الهداياتُ مُترتِّبةٌ على بعضها[2].

المَعْنى الإِجْماليُّ:

أمَـرَ اللـهُ نبيَّه ﷺ بنشرِ دعْوتِهِ للنَّاس كـافَّـةً، بتوحيدِه تعالى

قل - أيُّها الرَّسولُ ﷺ - للنَّاسِ كلِّهم: إنِّي رسولُ اللّٰهِ إليكم جميعًا لا إلى بعضِكم دون بعضٍ، الَّذي له ملكُ السَّمواتِ والأرضِ وما فيهما، لا ينبغي أن تكونَ الألوهيَّةُ والعبادةُ إلَّا له جلَّ ثناؤه، القادرُ على إيجادِ الخلْقِ وإفنائِه وبعثِه، فصدِّقوا باللّٰهِ، وأقرُّوا بوحدانيَّتِه، وصدِّقوا برسوله محمَّد ﷺ النَّبيِّ الأمِّيِّ الَّذي يؤمنُ باللّٰهِ، وما أُنزل

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (كلم).
(2) الرّاغب، المفردات: (هدى).

إليهِ من ربِّهِ، وما أُنزل على النَّبيِّين مِن قبلِه، واتَّبِعوا هذا الرَّسولَ، والتزِموا العملَ بما أمركم به من طاعةِ اللّهِ؛ رجاءَ أن توفَّقُوا إلى الطَّريقِ المستقيم[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دَلالةُ ﴿قُلْ﴾ في قولِه: ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾:

افْتِتاحُ الخَبَرِ بـ(قُل)، برهانٌ صريحٌ على وَثاقةِ النَّصِّ القرآنيِّ

دلالةُ التَّصدير بـ﴿قُلْ﴾ برهنةٌ على ما سبق من صفاتِ الرَّسولِ النَّبيِّ مِن جهةِ كونِهِ ﷺ يُخبِرُ عن مصدرٍ، ولا يُخبِرُ مِنْ عِنده؛ إذ مَنْ يُخبِر من عند نفسِهِ لا يجعلُ في كلامِه ما يدلُّ على أنَّه مأمورٌ بقولِ ما يقول، وفي التَّصدير بفعل القولِ دلالةٌ زائدةٌ على ما سبقَ، وهو كونهُ ﷺ يُخبِرُ بالخبرِ عنِ اللّهِ من غير تَصرُّفٍ فيه لا بزيادة ولا نقصان.وفيه إشارةٌ للرَّسول ﷺ، أن يُصرِّحَ بما تقدَّمَ التَّلويحُ به، ويصرِّحَ بما أُخذَ ميثاقُ الرُّسلِ عليه؛ تحقيقًا لعموم رسالتِهِ وشمول دعوته، فقال: ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾[2].

دَلالةُ جُملةِ النِّداءِ ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾:

إفادةُ عُمومِ المنادَى المُعلَّلِ بعُمومِ رسالتِه ﷺ

دلَّت جملةُ النِّداءِ على لفتِ انتباه المَدْعوّين إلى ما يقولُه الدَّاعي وإيقاظِهم منَ الغفلةِ الَّتي تراكمَت على بني إسرائيلَ خصوصًا، والنَّاس عمومًا في عدم الوفاءِ بالعهد المأخوذِ عليهم بالإيمان بالرِّسالةِ المحمَّديَّةِ الخاتمةِ.

دَلالةُ لفْظِ ﴿ٱلنَّاسُ﴾، دونَ (يا أيُّها الَّذين آمنوا):

عُمومُ البلاغِ، شامِلٌ للبشرِ كلِّهم، باعتبارِه رسالةَ اللهِ للعالَمين

آثرَ التَّعبيرُ القرآنيُّ لفظَ ﴿ٱلنَّاسُ﴾ في قوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ دون (يا أيُّها الَّذين آمنوا)؛ لإفادةِ عمومِ المنادى المُعلَّل بعموم رسالتِه ﷺ وشمولِ بلاغِه، ليدخلَ فيه أهلُ الكتابِ والأمِّيُّون منَ العربِ وغيرِهم.

(1) مجموعة من العلماء، الميسّر في التفسير: 170/1.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 3/134.

سِرُّ اخْتِيارِ لفْظِ ﴿ٱلنَّاسُ﴾ دونَ (البَشَرِ):

اعتبارًا لمعنى الإنسانيَّةِ في مَقامِ الخطابِ، وهو وجودُ العقلِ والذِّكر وسائرِ القُوى المنوطِ بها التَّكليف، أَي: كلُّ مَن وُجِد فيه معنى الإنسانيَّةِ المُقْتَضِي لأهليَّةِ التَّكليفِ والخطاب، أيَّ إنسانٍ كان، ولذا عبَّر بالنَّاسِ لقصد النَّصِّ على هذا المعنى[1]، وسيأتي لاحقًا في الفروقِ الدَّلاليَّة ما يفيدُ عدمَ مناسبةِ التَّعبيرِ هنا بغيرِ لَفظ ﴿ٱلنَّاسُ﴾.

معنَى الإنسانيَّةِ يقتضِي أهليَّةَ التَّكليفِ، والخطابِ بالشَّرعِ

دَلالةُ التَّأكيدِ بـ﴿إِنِّي﴾ في قولِه: ﴿إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ﴾:

تأكيدُ الخبر بـ(إنَّ) باعتبار أنَّ في جملةِ المخاطَبين مُنكِرين ومُتردِّدين، فجاء التَّأكيدُ بـ(إنَّ) للدَّلالة على الاستقصاء في إبلاغ الدَّعوة إليهم[2].

دخولُ المؤكِّدِ على الخبَرِ، يُفيدُ المبالغةَ في تَحقيقِ مضمُونِه واسْتِقصائِه

اخْتِيارُ التَّعْبيرِ، بقولِه: ﴿رَسُولُ ٱللَّهِ﴾، دونَ (نبيِّ الله):

آثرَ القرآنُ التَّعبيرَ بوصف الرِّسالةِ دونَ النُّبوَّة في قوله تعالى: ﴿إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ﴾؛ لإيجابِ اتِّباع الرَّسول ﷺ في كلِّ تشريعاتِه الَّتي أنزلها اللهُ تعالى على رسولِه ﷺ سواءٌ كانت ناسخةً للشَّرائع السَّابقة، أو بتعديلها وتصويبها، أو كان بشرعٍ جديدٍ لم يكن من قبلُ؛ فَعَلَى الجميع الامتثالُ، ولا سيَّما أهلُ الكتاب.

المبالغةُ في إيجابِ الامْتثالِ، من مَهامِّ البلاغِ والإرسالِ

سِرُّ الاكْتفاءِ بوصْفِ ﴿ٱلرَّسُولَ﴾، دونَ بقيَّةِ الصِّفاتِ:

قوله: ﴿ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلۡأُمِّيَّ﴾، فيه موافَقَة لغرضِ الإيذانِ بماهيَّةِ الرَّسولِ اللَّازمةِ في الاعتقاد - وهي كونُهُ رسولًا - وإغناءَ هذا الوصفِ عن غيرِه في مقامِ الاعتقاد دون قيامِ غيرِه عنه؛ أنبَأَ بما هو كافٍ وشاملٌ في الغرضِ المقصود.

مِنَ البلاغةِ، حكايةُ الغرَضِ المقصودِ، بجوامِعِ الكَلِمِ

دَلالةُ الإضافةِ في قوله: ﴿رَسُولُ ٱللَّهِ﴾:

أُضيفَ لفظُ ﴿رَسُولُ﴾ إلى الذَّاتِ الإلهيَّةِ الَّتي جمعَت كلَّ صفاتِ

(1) الرّاغب، المفردات: (نوس).

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/139.

الكمالِ والجلالِ، وهي دالَّةٌ على عمومِ دعوتِه وشمولِ رسالتِه لجميع الخلقِ؛ لأنَّه الإلهُ الواحدُ الَّذي لا يعارِضُه معارِضٌ.

إرسالُ اللهِ للرّسولِ تَكرمةٌ وتفضيلٌ وخُصوصيّةٌ

دَلالةُ اخْتِيارِ ﴿إِلَيْكُمْ﴾، دونَ (لكم):

آثرَ التَّعبيرَ بقوله: ﴿إِلَيْكُمْ﴾ دون (لكم)؛ لوجود فرقٍ بينهما في المعنى: فاللَّام تفيدُ الاستحقاقَ والاختصاصَ، وهذا المعنى غيرُ مرادٍ هنا؛ بخلاف (إلى) الَّتي تفيدُ انتهاءَ الغاية، وهي هدفٌ مقصودٌ يسعى إليه كلُّ الأنبياءِ والرُّسل في دعوةِ الخَلقِ لتوحيدِ اللهِ تعالى ورسولُنا ﷺ إمامُ الأنبياءِ والرُّسلِ في ذلك.

دعوةُ الخلْقِ غايةُ الرُّسُلِ جميعًا عليهم السلام

سِرُّ التَّعْبيرِ بقولِه تعالى: ﴿جَمِيعًا﴾:

قوله: ﴿إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾، تأكيدُ ضميرِ المُخاطَبين بوصفِ ﴿جَمِيعًا﴾ الدَّالِّ نصًّا على العموم؛ لرفع احتمالِ تخصيصِ رسالتِه بغيرِ بني إسرائيل، فإنَّ مِنَ اليهود فريقًا كانوا يزعمون أنَّ محمَّدًا ﷺ نبيُّ العربِ خاصَّةً؛ لِأنَّ اليهودَ فريقان: فريقٌ يزعمون: أنَّ شريعةَ موسى لا تُنسَخ بغيرها، وفريقٌ يزعمون: أنَّها لا تُنْسَخ عن بني إسرائيل، ويجوزُ أن يُبْعثَ رسولٌ لغيرِ بني إسرائيل، فَدَفَع بوصفِ ﴿جَمِيعًا﴾ هذا الزَّعمَ والإيهامَ تنصيصًا على العموم[1].

لفْظُ (جميعًا) مِنَ الصِّيَغِ الَّتي تُفيدُ العُمومَ بذاتِها

ويُضاف إلى ذلك؛ الإشارةُ إلى أنَّه لا فرقَ في أمر الدَّعوةِ والإيمانِ بالرَّسول بمَن أدركَ زمنَهُ، ومَن تأخَّرَ عنه إلى يوم القيامة، فهو رسولُهم، مطالبون بالإيمانِ به.

سِرُّ اخْتِصاصِ سورة الأعرافِ بقولِه: ﴿جَمِيعًا﴾:

لَمَّا كانَت سورةُ الأعرافِ مكِّيَّةً، ويتوهَّم بعضُ أهلِ الكتابِ أنَّ الخطابَ للعرب فقط، جاء هذا التَّعبيرُ في هذه السُّورة بهذا الأسلوب، في قوله تعالى: ﴿إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾، ليقولَ

مُناسبةُ لفْظِ (جميعًا) الفترةَ المكيَّةَ، وفي سورة الصَّفِّ (بني إسرائيل) الفترةَ المدنيّةَ

(1) الشّهاب، حاشية الشّهاب: 4/225، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/139.

لبني إسرائيلَ: إنِّي رسولُ اللّه إليكم جميعًا يا بني إسرائيل، وسياقُ الآياتِ يؤكِّد ذلك؛ لأنَّ الجماعةَ إذا كانَت محصورةً بمقامِ الخطابِ وبالعلَميَّة الَّتي تفيدُ تَسميَةَ قومٍ معيَّنِين بـ(بني إسرائيل)؛ فلا حاجةَ للتَّنصِيصِ على قصدِ استغراقِهم بصيغِ العمومِ لعدم الالتباسِ في إرادةِ غيرهم معهم.

عَلاقةُ قوله: ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ بما قبْلَه:

الـدَّلالـةُ عَـلى الثَّـناءِ وإظْـهـارِ التَّمجيدِ لله

لَمَّا أمرَ اللّهُ تعالى رسولَه ﷺ في الآيةِ السَّابقة بأن يقولَ للنَّاس كلِّهم: إنِّي رسولُ اللّه إليكم؛ أردفَه بما يدلُّ على صحَّة هذه الدَّعوة، وذلك من خلال إثباتِ أنَّ للعالم إلهًا حيًّا قادرًا، وهذا المعنى دلَّ عليه قوله: ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[1].

دَلالةُ ذِكْرِ اسْمِ الموصولِ ﴿ٱلَّذِى﴾، في هذه الجُملةِ:

تعليلُ الرِّسالةِ، بكونِها موهِبَةَ الـلـهِ، وطَـلاقَـةَ قُـدْرتِه، وسَعَةَ مُلْكِه

تعظيمُ الذَّاتِ الإلهيَّةِ بما هو في حيِّز الموصول من جملةِ الصِّلةِ؛ استحضارًا لجلالها وسُلطانها، وإيرادُه بعد قوله: ﴿إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ في حكم العِلَّةِ للخبر، أي: رسولُ اللّهِ إليكم بِهِبَةِ مالكِ السَّمواتِ والأرض.

سِرُّ تَقديمِ الجارِّ والمجرورِ ﴿لَهُۥ﴾:

تَـوارُدُ القَصْرِ الإضـافيِّ والحقيقيِّ، على التَّركيبِ الواحدِ، بحسَبِ التَّوجيهِ

قولُه تعالى: ﴿لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، فيه تقديمُ المجرورِ للقصر، أي: مُلكُ السَّموات والأرض كائنٌ له، لا لغيرِه ممَّا يعبدُه المشركون، وعليه: فالقصرُ إضافيٌّ بالنِّسبةِ لِما يَدَّعِيه المشركون، فَسِيقَ ردًّا عليهم، وجملةُ لا إله إلا هو: حالٌ مِن اسم الجلالةِ في قوَّةِ مَعنى: مُتَفَرِّدًا بالألوهيَّةِ، وهذا قصرٌ حقيقيٌّ؛ لتحقيقِ صفةِ الوحدانيَّةِ، لا لقصد الرَّدِّ على المشركين[2].

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 8/29.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/140.

سِرُّ اخْتِصاصِ هذا الموضعِ، بإثْباتِ ملكيَّةِ السَّمواتِ والأرض:

إعلانُ الرِّسالةِ للنَّاس جميعًا، تعريضٌ بأهْلِ الكتابِ، وتوبيخٌ للمشركين

قوله: ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، وفيه اختصَّ هذا الموضعُ بإثبات ملكيَّةِ السَّموات والأرض على خلاف بعضِ المواطنِ الأخرى الَّتي يكون الأسلوبُ فيها ﴿لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾؛ ليكونَ مناسبًا للسِّياق في أمرِ إعلانِ الرِّسالةِ للنَّاس جميعًا، فهذا الوصفُ يقتضي الإذعانَ والانقيادَ لَمن أرسلَهُ اللهُ للنَّاس جميعًا؛ لأنَّه المالكُ؛ فهو المُتصرِّفُ بما يريد، وفي هذا تعريضٌ بأهل الكتابِ الَّذين لم يؤمنوا، وتوبيخٌ للمشركين في عبادتهم للأصنام الَّتي لا تملكُ موتًا ولا حياةً ولا نشورًا.

دلالةُ تقديمِ مِلْكيَّةِ السَّمواتِ، على مِلْكيَّة الأرض:

المالكُ في الكون للأعظمِ، قادرٌ على مُلْكِ العظيمِ

قدَّمَ ملكيَّةَ السَّموات على ملكيَّة الأرضِ؛ لاتِّساعها، ولعظيم قدرةِ اللهِ فيها، ولشرف سكَّانها؛ فالمالكُ للأعظم قادرٌ على ملك العظيم؛ فإذا كان اللهُ مالكًا للسَّموات وما فيها، فمن بابٍ أولى يملكُ الأرضَ وما تحتها.

دَلالةُ موقعِ جملةِ: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾، ممَّا قبْلَها:

مَنْ مَلَكَ العالَمَ، كان هو الإلهُ لا غيرُه

قوله: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾ بيانٌ لِما قَبْلَهُ، وهو في حكْمِ التَّعليلِ له، فإنَّ مَنْ مَلَكَ العالَم كان هو الإله لا غيرُهُ[1].

ويُضاف إلى ذلك: أنَّ جملةَ ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾ تدلُّ على حصْرِ الألوهيَّةِ له ﷻ ونفي الشُّركاء عنه؛ لأنَّ مَن كان مالكًا للسَّموات والأرض لا يمكنُ أن يشاركَهُ أحدٌ من خلقِهِ، فهو المُتفرِّدُ بالألوهيَّةِ.

سِرُّ الإتْيانِ بصِفةِ الإحياءِ والإماتةِ:

اختصاصُ اللهِ بالإحياءِ والإماتةِ، دونَ غيرِه

في قوله: ﴿يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾ اختُصَّ ﷻ بالإحياءِ والإماتة؛ لأنَّهما من أفعالِهِ ﷻ فلا يقدرُ عليهما غيره، وفيه إشارةٌ إلى قدرته المُطلَقة

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/281.

في إيجاد الأشياءِ وفي إفنائها، ولذلك جاءَت هذه الجملة بعد قوله: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ الَّتي تدلُّ على اختصاصهِ بالألوهيَّة، ومن لوازمها أنَّه لا يقدرُ على الإحياءِ والإماتة غيره.

وفيه إشارةٌ أيضا إلى أنَّه ﷻ يحيي شريعةً ويميت أخرى، وإحياءُ الشَّريعة إيجادُها بعد أن لم تكن؛ لأنَّ الإحياءَ حقيقتُه إيجادُ الحياةِ في الموجودِ، ثمَّ يحصلُ من هذه الصِّفات إبطالُ عقيدةِ المشركين في إنكار الحشرِ[1].

سِرُّ تَرتيبِ صفاتِ الجلال في الآية:

الغرضُ من تَعديدِ صفاتِ الجلالِ في الجُمَلِ الثَّلاثِ في قوله: ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ﴾، بعدَ تقريرِ عموم رسالةِ الرَّسول: إزالةُ الوَحشَةِ والاستغرابِ مِن نَفسِ مَن يَستَبعِدُ عمومَ رسالتِه ﷺ للنَّاسِ كافَّة، وأنَّها حاكِمَةٌ على ما قبلَها منَ الرِّسالات، والتَّسجيلُ على بني إسرائيل بما يَدحضُ عدمَ اعترافِهم بعموم رسالتِه المُقتضِي لعدم إلزامِهم بالاعتقادِ فيها، ومَحلُّ ذلك: أنَّ الَّذي له مُلك السَّموات والأرضِ، هو الواحدُ الأحد، الَّذي لا يُنازِعه في ألوهيَّته أحدٌ، ويتصرَّفُ بما يشاءُ فيما لا يَقدِرُ عليه إلَّا هو مِنَ الإيجادِ والإماتةِ والإحياءِ والإعادةِ، فمَن كان له كلُّ ذلك، فكيف يُستَهجَنُ عليه أن يُوحِيَ للَّذي يشاء، يَختَصُّهُ بالكتابِ المُهَيمِن، والنُّبوَّةِ الخاتِمَة، وأن يجعلَ الإيمانَ به شرطًا لازِمًا في صِحَّةِ إيمانِ النَّاسِ جميعًا وأعمالِهم، فمَنْ كان له ذلك منَ الصِّفات العظيمة؛ فهو يَسيرٌ عليهِ أن يَقضِيَ بما أرادَ منَ التَّكليفاتِ والإلزامات، "ثمَّ يحصُل من هذه الصِّفاتِ إبطالُ عقيدةِ المشركين بتعدُّدِ الآلهةِ وبإنكار الحشرِ"[2].

مَنِ استحقَّ صفاتِ العظَمَةِ والجلالِ، قَضَى بما شاءَ منَ التَّشريعِ والحُكْمِ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 140/9.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/140.

النُّكتةُ في تَخصيصِ تلك الصِّفاتِ بالذِّكرِ:

إدمَاجُ دَعْوى الرِّسالةِ، في أركانِ الدِّينِ وأصولِ العقيدةِ

خصَّ القرآنُ هذه الصِّفاتِ بالذِّكر؛ لاشتمالِ تلك الجُمَل في مضمونِها، على أصولِ العقائدِ المُقرَّرةِ في الأديانِ جميعًا، فقوله: ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾، ﴿يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾ اشتَمَلَ على مفهومِ التَّوحيدِ بقسمَيهِ: توحيدِ الرُّبوبيَّةِ بالإيمان، وتوحيدِ الألوهيَّةِ بالإيمانِ والعملِ، أي: عبادةُ اللّٰه وحدَه، وهما أصلُ الدِّينِ أساسُهُ، والرُّكنُ الأوَّلُ لعقائدِه، وقد اقترنَ برسالةِ الرَّسول ﷺ ﴿إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ وهي الرُّكنُ الثَّاني، وأمَّا وصفُهُ تعالى بالإحياءِ والإماتةِ، وهو بعضُ تصرُّفِ الرَّبِّ في خلقِه، فيتضمَّنُ عقيدةَ البعثِ بعد الموتِ الَّتي هي الرُّكنُ الثَّالثُ من أركانِ الإيمان، فقد أُدمِجَت في دَعْوى الرِّسالةِ أركانُ الدِّينِ الثلاثةُ، وهو مِن إيجازِ القرآنِ وبيانِهِ العالي العجيب[1].

دَلالةُ التَّعْبيرِ بالفعْلِ المضارعِ في قوله: ﴿يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾:

الفِعليَّةُ تُفيدُ التَّجدُّدَ والحُدوثَ

آثرَ التَّعبيرَ بالفعل المضارع ﴿يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾؛ لأنَّهما من صفاتِ الأفعالِ؛ بخلاف الاسميَّة فهي من صفات الذَّاتِ، والمقامُ هنا يناسبُه التَّعْبيرُ بالفعليَّة للتَّدليل على وحدانيَّته سبحانه ولأنَّ الأمرَ يتعلَّقُ ببني إسرائيل، وفيهم أجرى اللّٰهُ أمرَ الإحياء والإماتة، والشَّواهدُ على ذلك في القرآنِ كثيرةٌ.

دَلالةُ الفاءِ، في قولِهِ: ﴿فَـَٔامِنُواْ﴾:

تَوفُّرُ النَّظْمِ على العِنايةِ بمقامِ النُّبوَّةِ، فأقرَّها ثمَّ كلَّفَ بإقرارِها

قولُهُ تعالى: ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ﴾ جاءتِ الفاءُ للتَّفريعِ على الأصولِ والأركانِ المُقرَّرةِ قبلَها، أي: إذا كان ذلك كذلك ممَّا عَلِمْتُم، ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ﴾، والمقصودُ طلبُ الإيمانِ بالنَّبيِّ الأمِّيِّ؛ لأنَّه الَّذي سِيق الكلامُ لأجلِه[2].

(1) محمد رضا، المنار: 9/256.

(2) محمد رضا، المنار: 9/257، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/140.

سِرُّ ذِكْرِ الإيمانِ بالله أوَّلًا:

في قولِه تعالى: ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلۡأُمِّيِّ﴾ ذكرَ الإيمانَ باللهِ أوَّلًا مع أنَّ المقامَ هنا لطلب الإيمانِ بالرَّسول؛ لأنَّ الإيمانَ باللهِ هو الأصلُ، ويتفرَّعُ عنه الإيمانُ بالرَّسول ﷺ.

الإيمانُ بالرَّسولِ، إنَّما هو لأجلِ الإيمانِ بالله

دَلالةُ الجمْعِ بين الإيمانِ باللهِ، والإيمانِ بالنَّبيِّ الأمِّيِّ:

في قولِه: ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلۡأُمِّيِّ﴾ جاء الجَمعُ بين الإيمانِ باللهِ والإيمانِ بالنَّبيِّ الأمِّيِّ في طلبٍ واحدٍ، ليكونَ هذا الطَّلبُ مُتوجِّهًا للفِرَقِ كلِّها، ليجمعوا في إيمانِهم بين الإيمانِ باللهِ والنَّبيِّ الأمِّيِّ، مع قضاءِ حقِّ التَّأدُّبِ مع اللهِ بجعلِ الإيمانِ بهِ مُقَدَّمًا على طلَبِ الإيمانِ بالرَّسول ﷺ؛ للإشارةِ إلى أنَّ الإيمانَ بالرَّسولِ إنَّما هو لأجلِ الإيمانِ باللهِ، وهذا الأسلوبُ مِن بابِ تعليلِ المطلوبِ بذِكرِ أصلِه، فمعرفةُ أصلِ الشَّيءِ ومصدرِه تُعينُ على القيام به كما ينبغي، مع اشتمالِه على التَّعريضِ بمَن يُفرِّقون بين اللهِ ورسلِه، وقد رُوعِيَتْ نظائرُ هذا الأسلوب في غير مَوضِعٍ[1].

تَوجِيهُ الخطابِ للجميعِ، والتَّعريضُ بمَن يُفرِّقون بين اللهِ ورسُلِه

سِرُّ الالْتفاتِ في قوله: ﴿وَرَسُولِهِ﴾:

لم يقُلْ: فآمنوا باللهِ وبي، بعد قوله: ﴿إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا﴾ لِتَجْرِيَ عليه الصِّفاتُ الَّتي صُرِّح بها، ولِما في الالتفاتِ من مزيَّة البلاغةِ، وليُعلِمَ أنَّ الَّذي قد وجَبَ الإيمانُ به هو هذا الشَّخصُ الموصوفُ بأنَّه النَّبيُّ الأمِّيُّ الَّذي يؤمنُ باللهِ وكلماتِه كائنًا مَنْ كان، أنا أو غيري، إظهارًا للنَّصَفَة، وتَنَزُّهًا منَ العصبيَّةِ لنفسِه أن يقول: (آمِنوا باللهِ وبي)، ولِمَا في إظهارِ الصِّفاتِ وإجرائِها عليه - بالعدولِ إلى الغيبةِ - مِنَ التَّوسُّلِ بذلك إلى الإعانةِ على الإيمانِ به والاتِّباعِ له[2]، ومَنِ اعتبَر أنَّ المتكلِّمَ اللهُ، وليسَ الرَّسول، فلا التِفاتَ، على

المبالغةُ في إيجابِ الامْتثالِ بأمرِه ﷺ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/140.

(2) البيضاويّ، أسرار التّنزيل: 3/38، والنّسفيّ، مدارك التّنزيل: 1/611.

وجهِ أنَّ الكلامَ مبدوءٌ بـ﴿قُلْ﴾، والآمِرُ اللّهُ، فيكونُ ما بعدَ ﴿قُلْ﴾ مِن كلامِ الآمِرِ لا مِن كلامِ المأمورِ الرَّسولِ ﷺ[1].

وفيه إشارةٌ إلى تنبيههم إلى استحقاقِهِ الاتِّباع بما اتَّصف به منَ الصِّفات المذكورةِ والخصائص المتلوَّة[2].

سَرُّ اخْتِيارِ وصْفِ الرِّسالة، في قولِهِ: ﴿وَرَسُولِهِ﴾:

ربْطُ أعظَمِ المطالِبِ، بأعْظَمِ الصِّفاتِ

لَمَّا قَرَنَ طَلبَ الإيمانِ باللّهِ بأعظمِ صفاتِه، وهي الألوهيَّةُ المتضَمِّنُ إيَّاها اسمُ الذَّات ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ﴾، ربَطَ الإيمانَ بالرَّسولِ بأخصِّ صفاتِه، وهي الرِّسالة، وذلك مَعلومٌ من تعليقِ الإيمانِ بوصفِ الرَّسولِ دون اسمِهِ العَلَم[3]، فربطَ أعظَمَ المطالِبِ بأعظمِ الصِّفات.

سِرُّ إعادةِ وصْفِه ﷺ، بقولِه: ﴿ٱلنَّبِيِّ ٱلْأُمِّيِّ﴾:

أُعيدَ وصْفُه بالنَّبيِّ الأمِّي، لإعلامِ النّاسِ بكمالِ علْمِهِ، إغراءً على الإيمانِ به

أُعِيدَ ذِكرُ الوصفِ مُراعاةً لتقريرِ النَّظيرِ في السِّياقِ الخاصِّ والعامِّ؛ لاتِّحاد السِّياقينِ في نفسِ الغايةِ، إنْ تبايَنا في الخصوص والعموم، فكَما أوردَهُ في سياق الاحتجاجِ على بني إسرائيلَ ليُؤمنوا به في قوله: ﴿ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ﴾، ناسَبَ أن يُعيدَه هُنا في الخطابِ العامِّ للنَّاسِ؛ ليُؤمنوا به على الوصفِ الكامِلِ التَّامِّ، فكما اتَّحدَ السِّياقانِ في غرضِ تقريرِ نفسِ القضيَّة، اتَّحدا كذلك في استيفاءِ موضوعِها منَ الأوصافِ، لاجتماعِ فائدةِ ذلك فيهما معًا، وهو الإشارةُ إلى كمالِ علمِه؛ لأنَّه مع عدمِ مطالعتِه للكتابِ، أو مصاحبتِه لمعلِّمٍ، قد جاءَ بالنُّورِ المُعجِز، والتَّنزيلِ الحكيم، وهو إغراءٌ على الإيمانِ وبرهانٌ عليه يحتاجُ إليه الخاصُّ والعامُّ[4].

(1) السّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 5/484.
(2) السّيوطيّ، قطف الأزهار: 2/1060.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/141.
(4) طنطاويّ، الوسيط: 5/396.

وأُعيدَ ذكرُ الوصف ﴿ٱلنَّبِيِّ ٱلۡأُمِّيِّ﴾ لمدحه ﷺ بهما، ولزيادة تقريرِ أمرهِ وتحقيق أنَّه المكتوبُ في الكتابين[1].

وللإشارة إلى أنَّه على الفطرةِ السَّليمة الَّتي لم يخالطْها هوًى، ولم يدنِّسْها حظٌّ ولا شهوةٌ، بحيث يُقْصَد للاقتداءِ به بما حوى من علوم الدُّنيا والآخرة[2].

دَلالةُ ذكْرِ اسْمِ الموصولِ ﴿ٱلَّذِى﴾ في الآيةِ:

إفادةُ الاسْمِ الموصولِ لِعِلِّيَّةِ الحُكْمِ، مُفيدٌ في إيضاحِ البيانِ

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى يُؤۡمِنُ﴾، وفيه إيقاعُ الاسمِ الموصولِ في موقعِ النَّعتِ للنَّبيِّ الأمِّيِّ؛ للإيماءِ إلى وجهِ الأمرِ وعِلَّتِه بالإيمانِ بالرَّسول، وأنَّه لا معذرةَ لَمن لا يؤمنُ به من أهلِ الكتابِ؛ لأنَّ هذا الرَّسولَ يؤمنُ باللّٰه وبكلماتِ اللّٰه، فقد اندرجَ في الإيمانِ به الإيمانُ بسائرِ الأديان الإلهيَّةِ الحقَّة، وقد رُوعِيَ نظيرُ ذلك في قوله تعالى في تفضيل المسلمين: ﴿وَتُؤۡمِنُونَ بِٱلۡكِتَٰبِ كُلِّهِۦ﴾ [آل عمران: 119][3]. ويُضاف إلى ذلك الدَّلالةُ على إيمانه ﷺ بما أُنزِل إليه وإلى سائر الرُّسلِ عليهم السلام من كُتُب اللّٰهِ ووحيهِ لحمْلِ أهل الكتابين على الامتثالِ بما أُمروا به[4].

دَلالةُ التَّصريحِ بإيمانهِ باللهِ، في قوله: ﴿ٱلَّذِى يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ﴾:

كمالُ الإيمانِ، هو مطلوبُ اللهِ مِنَ الرُّسُلِ، ومِنَ النَّاسِ

صرَّحَ بالإيمانِ باللّٰهِ للتَّنبيه على أنَّ الإيمانَ به سبحانه لا ينفكُّ عنِ الإيمانِ بكلماتِه، ولا يتحقَّق إلَّا به.

سِرُّ التَّعْبيرِ عنِ الإيمانِ بالقرآن، بلفْظِ ﴿وَكَلِمَٰتِهِۦ﴾:

اصْطِفاءُ (الكلماتِ)، أفادَ التَّعريضَ والتَّسْجيلَ على المُخالِفِين

أُوثِرَ هنا التَّعبيرُ بكلماتِه، دونَ كتُبِه؛ لإفادةِ عمومِ إيمانِ الرَّسول، فهو يؤمنُ بجميع ما كانَ منَ اللّٰه بكلماتِه التَّشريعيَّةِ المسطورةِ في كُتُبِه، ويؤمنُ بكلماتِه التَّكوينيَّة الَّتي كانتْ بكلمةِ ﴿كُن﴾ فيدخل

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/281.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 3/136.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/141.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 281/3.

فيها كلُّ آياتِه ومُعجزاتِه، ويدخلُ فيها دخولًا أوَّليًّا الإيمانُ بكونِ عيسى عليه السلام كَلِمةَ اللّهِ ألقاها إلى مريمَ روحًا منه: ﴿خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٥٩﴾ [آل عمران: 59]، فاقتضَى أنَّ الرَّسولَ ﷺ يؤمنُ بعيسى، وبكونِهِ رسولًا منَ اللّه، وفيه تعريضٌ يقطَعُ معاذيرَ النَّصارى في التَّرَدُّدِ في الإيمان بمحمَّد ﷺ، مع اقتضائِه كونَ الرَّسولِ يؤمنُ بأنَّ عيسى كلمةُ اللّه، وليس ابنَ اللّه، وفي ذلك بيانٌ للإيمانِ الحقِّ، وردٌّ على اليهودِ فيما نسبوهُ إليهِ، وردٌّ على النَّصارى فيما غَلَوا فيه[1]، ففي التَّعبيرِ بالكلماتِ تعريضٌ بهما، وتسجيلٌ للبرهانِ عليهما.

سِرُّ التَّعْبيرِ بالمضارع ﴿يُؤْمِنُ﴾:

تَجديدُ الإيمانِ، بحيث لا تَعتريهِ غفلةٌ، ولا يُخالِطُه سَهْوٌ ولا فتورٌ

عبَّرَ بالمضارع ﴿يُؤْمِنُ﴾ في قوله: ﴿ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ﴾؛ لأجل ما يقتضيه ذاتُهُ سبحانه منَ التَّعبُّدِ له لما له منَ العظمةِ، فكلَّما تجدَّدَ له علمٌ من علوم الذَّات بحسب ترقِّيه في رُتَبِ الكمالِ من رتبةٍ كاملةٍ إلى أكمل منها إلى مالا نهاية له؛ جدَّدَ له إيمانًا بحسبهِ لا تعتريه غفلةٌ، ولا يخالطه سهوٌ ولا شائبةُ فتورٍ[2].

سِرُّ ذِكْرِ فعْلِ ﴿يُؤْمِنُ﴾ مع الكلماتِ:

الإيمانُ باللهِ هو أصْلُ الأصولِ، وأساسُ الوُصولِ

قوله تعالى: ﴿يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ﴾، ورد لإفادةِ أنَّ الإيمانَ بالكلماتِ راجعٌ للإيمانِ باللّه، فهو مجموعٌ معهُ انجماعَ الفرعِ إلى أصلِه، ولِكونِه ليس مستقِلًّا عنه لم يَفصلْهُ عنهُ بإعادةِ العامِل.

سِرُّ اخْتِيارِ صِيغةِ الجمْعِ ﴿وَكَلِمَٰتِهِۦ﴾:

﴿وَكَلِمَٰتِهِۦ﴾ جمعٌ سالمٌ، والجمعُ السّالمُ يدلُّ على الحدَثِ، فهو يُقرِّبُ الصِّفةَ منَ الفِعليَّة، و(الكلام) اسمُ مصدرٍ، واسمُ المصدر نصٌّ في الاسميَّة المجرَّدةِ عنِ الزَّمن، فهو لا يفيدُ الفِعليَّةَ، فصيغتُه

(1) محمد رضا، المنار: 9/257، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/141.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 3/136.

مَقصودٌ منها استحضارُ المعنى الثَّابتِ للشَّيء، وتتأكَّدُ تلك الدَّلالةُ هنا بإفادة لفظ (الكلام) لِمَعْنى الجنسيَّة الدَّالِّ على الماهِيَّةِ والحقيقةِ؛ إذ هو اسمُ جنسٍ يقعُ على القليلِ والكثيرِ[1]، وجمعُ السَّالم مقصودٌ منه استحضارُ صورةِ الحدوثِ في اللَّفظ، والحدوثُ الزَّمنيُّ يدلُّ على التَّبايُن، والتَّجدُّد، والتَّعدُّد، وهنا عبَّر بجمع السَّالم (كلمات)، ولم يقُل: (كلامه)؛ لإرادة الحدَثِ في الوصفِ لا الاسميَّةِ المجرَّدة، ودلالةُ ذلك على أمرين: الأوَّل: أن يدلَّ بتلك الصِّيغةِ على كلَماتِه التَّكوينيَّة الَّتي تَحدثُ بقوَّةِ القدرةِ على الإيجاد، وهي الحاصلةُ بِفعل﴿كُن﴾، وهي الحوادثُ المُعجزةُ الَّتي إذا أرادَ شيئًا منها: ﴿قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٥٩﴾ [آل عمران: 59]، وهذه الكلماتُ مرتبطةٌ بالحَدَثِ والفِعلِ دومًا، فعبَّر بما يدلُّ على ذلك. الثَّاني: أن يدلَّ بتلك الصِّيغةِ على إمكانيَّةِ الرِّسالَةِ بإنزالِ كتابٍ خاتَم، وهو القرآنُ، وأنَّه لا مانعَ من تعدُّدِ الكتُبِ؛ لأنَّ تنزيلَها مُتجدِّدٌ ومُتكرِّرٌ، فكما نزَلتِ التَّوراةُ نزَلَ الإنجيلُ، فلا مانعَ باصطفاء الرَّسولِ بتنزيلٍ آخَرَ سِواهما، فهو يشيرُ بتلك الصِّيغة إلى فِعلِ التَّنزيلِ وتَجدُّدِه، ليجدِّدوا إيمانَهم بكلِّ نازِلٍ، وإرادةُ الفعليَّةِ في وحي الكُتُبِ قد جاءتْ في قول اللّه: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ﴾ [الأنبياء: 2]، وقد أراد ذلك هنا كذلك في: ﴿يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ﴾؛ لِيُوقِعَ - بمنطوق الصِّيغة - التَّسجيلَ على اليهود والنَّصارى، والتَّعريضَ بهم والاحتجاجَ عليهم من خلال دلالتها على الحدثِ في مَدلولَيها المُرادَين معًا: كلماتِ التَّكوين وكلماتِ التَّنزيل.

اسـمُ المـصْـدرِ يُفيدُ الاسميَّةَ المـجَـرَّدةَ عـنِ الزَّمنِ، والجمْعُ السَّالِمُ يُقرِّبُ الـصِّـفـةَ مـنَ الفِعليَّةِ

دَلالةُ حذْفِ مُتعلَّقِ الاتِّباعِ:

لم يَقُلْ: وَٱتَّبِعُوهُ في كذا، بتعيينِ المتعلَّق، لِعدمِ تقييدِ اتِّباعِ الرَّسولِ بمتعلَّقٍ، أو حصرِه في مجَالٍ، لِيدلَّ على إرادةِ عمومِ اتِّباعِه، أي:

حـذْفُ المُتعلَّقِ لغرَضِ التَّعميمِ والاخْتِصارِ

(1) الجوهريّ، الصّحاح: (كلم)، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: 3/423، ودرويش، إعراب القرآن: 1/87، وفاضل، معاني النّحو: 3/164.

اتَّبِعوه في كلِّ شيءٍ ممَّا يأتي، ويذر في أمور الدِّين، فكلَّما اتَّبَعتُموه؛ اهتديتُم، وهذا كما يؤذِن بأفضليَّة الرَّسول ﷺ فهو مُؤذنٌ كذلك بأفضليَّةِ أمَّته الَّذين هم أتباعهُ؛ لأنَّ اتِّباعَهم له على هذا النَّحوِ من غير قَيْدٍ حُجَّةٌ على الأُمَمِ الَّتي جادلَتْ أنبياءها، وشاقَقَتْ رسُلَها، وأقربُهم في هذا السِّياقِ قومُ موسى عليه السلام خاصَّةً، وبنو إسرائيل عامَّةً، ومن جهةٍ أخرى، فإنَّ الأمَّةَ الَّتي تتَّبِعُ نبيَّها ﷺ من غير شرطٍ ولاقيد هي أمَّةٌ مرحومةٌ من غير حسابٍ ولا قَيد، فكان في هذا وجهٌ آخر لأفضليَّتِها المُفْصحَ عنها حذْفُ مُتعلَّقِ الاتِّباع.

بَلاغةُ موقعِ فاصلةِ الآيةِ: ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾:

طريقُ الهدايةِ مَشروطٌ، باتِّباعِ الرَّسولِ ﷺ

في الفاصلةِ ترتيبُ رجاءِ الاهتداءِ على ما قبلَهُ، تنبيهًا على أنَّ مَن صدَّقه، ولم يتابِعْه بالتزامِ شرعِه؛ فهو يُعَدُّ في خُطَطِ الضَّلالِة، مُنتظِمٌ في سِلكِ أهلِها، ومعزولٌ عن سبيل الهُدى والرَّشاد[1].

دَلالةُ التَّعْبيرِ بالفعْلِ المضارعِ ﴿تَهْتَدُونَ﴾:

آفةُ المُخالِفين في اتِّباعِ الهوَى وعدَمِ الهُدَى

في التَّعبيرِ بفعلِ الهدايةِ تسجيلٌ على بني إسرائيلَ، وتعريضٌ بهم بضدِّه، وهو كونُ مُعضِلَتِهم في اتِّباع الهوى والضَّلال وعدمِ الهدى، فكأنَّ الهدايةَ لم تتعلَّقْ بمحلِّ الرَّجاءِ المجازيِّ في ﴿لَعَلَّكُمْ﴾ إلَّا لكونهم ضَلُّوا، وأضلُّوا، فكانوا أوْلَى مَن يُرجَى له الهدى.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

النَّاسُ والبشرُ والأنامُ:

النَّاسُ اسْمٌ يدلُّ على النّسيانِ والأُنس، والبَشرُ على الانْتِشارِ، والأنامُ أعمُّ منهما

النَّاس: لفظُ النَّاسِ في أصلِه يدلُّ على شيئين: الأوَّل: الحركةُ والاضطرابُ والتَّذبذُب، على اعتبار أنَّ اشتقاقَه من (نَاسَ يَنُوس نَوْسًا) إذا اضطرب. الثَّاني: النِّسيان على اعتبارِ أنَّه قُلِبَ من نَسِيَ، وأصله: إنْسِيانٌ على إفْعِلان، وبين المعنيين تلازمٌ، فإنَّ

(1) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/38.

النِّسيانَ يورِثُ الاضطرابَ وعدمَ الثَّباتِ، والنَّاس هم الإِنسُ خَاصَّة[1]، وقد يكون من (الأُنس)، وهو اسم جمع للإنسانِ كقومٍ ورهطٍ، وأصلُه: (أُناسٌ) حُذِفت همزتُه بعد دخولِ (الـ) عليها لكثرة الاستعمال، ثم استمرَّ الحذفُ بعد حذف (الـ)، و(الأُنْس والأُلفة) كونُ الشَّيء في وَسَطٍ مجانسٍ أو مُشاكِلٍ له (يظهر منه): كإنسان العينِ في وَسَطها يُرَى[2].

والتَّعبيرُ بالنَّاس هو الأصلُ في مقام الخطابَاتِ العامِّ والخاصِّ، سواءٌ الخطابُ بالتَّكاليف والتَّشريع، وما يتفرَّعُ عنهما منَ التَّرغيب والتَّرهيب أو بغير ذلك، وخطاباتُ الوحي ارتبطتْ لِما فيها من تَذكيرٍ يُعالِجُ في النَّاسِ وازِعَ النِّسيان، ولما فيها من هُدًى يُعالجُ فيهم وازِعَ الاضطرابِ والتَّذبذبِ بالتَّثبيت والاطمئنان، ولذا عبَّر بالنَّاس هنا دون غيره في قوله: ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾، ونظائرُه كثيرةٌ جدًّا.

البشرُ: مادَّة (بشر) أَصلٌ واحدٌ يدلُّ على ظهورِ الشَّيءِ مَعَ حُسنٍ وجَمالٍ، فَالبَشَرَةُ ظاهِرُ جِلدِ الإِنسانِ، وعند الرَّاغب أنَّه سُمِّي كذلك "لظهورِ جلدِه - أي: خلوُّهُ - مِنَ الشَّعر، بخلاف الحيوانات الَّتي عليها الصُّوف أو الشَّعر أو الوَبر"[3]. وخصَّ في القرآن كلَّ موضعٍ اعتُبِرَ منَ الإنسانِ جثَّتُه وظاهرُه بلفظ البَشر، فالتَّعبير بالبشَر، يُقصَد منه الدِّلالةُ على حُسنِ الهيئةِ أو ظهورِ الشَّأن[4].

والبَشرُ اسمُ جنسٍ[5]، يُذْكر للدِّلالة على انتشارٍ واسعٍ على ظاهرِ الشَّيء[6]؛ لأنَّه سلالةٌ انبثَّت من آدمَ وانتشروا، حتى صاروا أكثرَ ما على الأرض أو من أكثر ما عليها، قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ۝٢٠﴾ [الروم: 20].

الأنامُ: كلُّ ما ظهرَ على الأرضِ مِن جميعِ الخلق: ﴿وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ﴾ [الرحمن: 10]، وتركيبُ الأنامِ يعبِّرُ عن كلِّ ما يَنمو مِن إنسانٍ، وجانٍّ، وحيوانٍ، ونبات، ولكنَّه ينطبِقُ

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (نوس)، والعسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 274.
(2) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤَصَّل: (أنس).
(3) الرّاغب، المفردات: (بشر).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (بشر)، والعسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 276.
(5) السمين الحلبي، الدرّ المصون: 10/348.
(6) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤَصَّل: (بشر).

أكثرَ على الإنسانِ، والجانِّ، والحيوانِ؛ لزيادةِ الحركةِ، وظهورِ الامتدادِ والنُّموِّ، ثمَّ يقتضي الخطابُ تخصيصَ مَنْ يَتأتَّى خطابُه، أي: الإنسُ والجِنُّ[1]، وعليه: فالأنامُ عامٌّ في المخلوقاتِ النَّاميةِ جميعًا، وهو أعمُّ من لفظَي (النَّاس)، و(البَشر) اللَّذينِ يختصَّان بالآدميِّين.

(1) ابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (أنم).

﴿وَمِن قَوۡمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٞ يَهۡدُونَ بِٱلۡحَقِّ وَبِهِۦ يَعۡدِلُونَ ١٥٩﴾ [الأعراف: 159]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الثَّناءُ على فريقٍ من قومِ موسى، بعدَ ذكْرِ المرتابين، وما كان منهم تُجاهَ نَبيِّهم

لمّا أجابَ اللّهُ سؤالَ موسى عليه السلام في كتابةِ الحسنةِ لقومهِ بكتابتها لأمَّةِ سيِّدنا محمَّد ﷺ وأثنى عليهم، جبَرَ ما فاتَهُ منَ الجواب المُرضيِّ له بالثَّناء على قومهِ بأنَّ منهم هداةً للحقِّ وعدولًا[1]. ولمَّا ذَكَرَ الَّذين تَزلْزَلُوا مِن قومِ موسى عليه السلام في الدِّينِ، وارتابوا، ذكَر أنَّ منهم أمَّةً مُوقنين ثابتين يَهدون النَّاسَ بكلمةِ الحقِّ، ويدلُّونهم على الاستقامةِ، ويرشدونهم[2]، بعد أن وسَّطَ بينَ هؤلاءِ وهؤلاءِ صِفاتِ أهلِ الإيمان والاتِّباع؛ لِتكونَ حدًّا فاصِلًا بين السُّفهاء والعقلاء في الذِّكرِ والحقيقة.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أُمَّةٞ﴾: مِنَ الجذرِ اللُّغوي (أمم)، والأَمُّ: القَصْدُ، والأمَّةُ: الجماعةُ منَ النَّاسِ يجمعُهم أمرٌ ما، دينٌ أو زمانٌ أو مكانٌ واحدٌ، سَواءٌ كانَ ذَلِكَ الأَمرُ الجامِعُ تَسخِيرًا أوِ اختِيارًا، والجمعُ أُمَمٌ، وعُبِّر عنِ الجماعةِ بالأمَّةِ؛ لأنَّهم يَجتمعون على قَصدِ شيءٍ واحدٍ، فرُوعِيَ معنى القصدِ، وتُطلَقُ الأمَّةُ على الجماعة الَّذين يتخيَّرون العلمَ والعملَ الصَّالحَ؛ ليكونوا أسوةً لغيرهم[3].

2) ﴿يَعۡدِلُونَ﴾: مِنَ الجذرِ اللُّغوي (عدل)، والعَدْل: لفظٌ يقتضي معنى المساواة، وأصلهُ يدلُّ على: مُوازنةِ ثِقْلٍ في جانبٍ بثِقْلٍ في جانبٍ آخر حتَّى يتَّزِنا، والمرادُ هنا: يَعدِلُونَ بَينَهم في الحُكمِ لا يَجورُونَ[4]،

(1) السّيوطيّ، قطف الأزهار: 2/1060.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/167، وأبو حيّان، البحر المحيط: 5/198.
(3) ابن منظور، لسان العرب: (أمم)، والرّاغب، المفردات: (أم)، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (أمم).
(4) الرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (عدل)، والنّسفيّ، مدارك التّنزيل: 1/611.

والعَدلُ والعِدلُ يتقاربان؛ لكنَّ العَدلَ يُستعمَلُ فيما يُدرَكُ بالبصيرةِ كالأحكام، والعِدلُ والعديل فيما يُدرَكُ بالحاسَّة، كالموزونات والمعدودات والمكيلات، وعلى ذلك فالعَدْلُ هو المساواةُ في المكافأةِ إن خيرًا فخيرٌ، وإن شرًّا فشرٌّ[1].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

بعضُ قومِ موسَى هداةٌ صالحونَ، ومؤمنونَ صادقونَ

بيَّن اللّهُ تعالى في هذه الآية أنَّ مِن قومِ موسى جماعةً عظيمةً يهدون النَّاسَ بالحقِّ الَّذي جاءَهم به من عندِ اللّه، وبالحقِّ أيضا يسيرون في أحكامهم، فلا يجورون، ولا يرتشون، وإنَّما يعدلون في كلِّ شؤونِهم، فهم جماعةٌ على خيرٍ وصلاحٍ في عهد موسى عليه السلام مخالفين لأولئك السُّفهاء من قومِه[2].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دَلالةُ الواو، في قولِه: ﴿وَمِن قَوۡمِ مُوسَىٰٓ﴾:

ورودُ الاسْتِئنافِ النَّحويِّ، لِغَرضِ الاخْتِراسِ

استئنافٌ نحويٌّ غرضُه دفْعُ ما قد يُوهِمُهُ تخصيصُ كَتْبِ الرَّحمةِ بمتَّبِعي رسولِ اللّه ﷺ بحرمانِ قومِ موسى من ذلك، ببيانِ أنَّ كلَّهم ليسوا كما حُكِيَتْ أحوالهُم منَ المثالبِ بلْ مِنهم: ﴿أُمَّةٞ يَهۡدُونَ﴾[3]، فقُصِدَ منه الاحتراسُ من دخول قومِه جميعًا في عموم الحرمانِ، وللتَّنبيه على دفعِ هذا التَّوهُّم قدَّم: ﴿وَمِن قَوۡمِ﴾ على مُتعلَّقه، أو الواو عاطفةٌ ذلك على ضدِّه، وهو قوله: ﴿وَٱتَّخَذَ قَوۡمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِنۡ حُلِيِّهِمۡ عِجۡلٗا جَسَدٗا﴾ [الأعراف: 148] تَخصيصًا لِظاهِرِ العُمومِ فيه، ولذا صدَّر الكلامَ بـ﴿وَمِن﴾ التَّبعيضيَّة[4].

دَلالةُ التَّعْبيرِ بالحرفِ (مِن) التَّبعيضيَّةِ:

إنصافُ القرآنِ لقومِ موسَى عليه السلام، لكونِ القرآنِ مُنَزَّلًا منَ الله

عبَّرَ القرآنُ الكريمُ بـ﴿وَمِن﴾ التَّبعيضيَّة في قوله: ﴿وَمِن قَوۡمِ

(1) الرّاغب، المفردات: (عدل).
(2) طنطاويّ، الوسيط: 5/396.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/281.
(4) السّيوطيّ، قطف الأزهار، ص: 1060، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/142.

مُوسَىٰٓ﴾؛ لإنصاف جماعةٍ منهم يسيرون على النَّهجِ الصَّحيحِ في الهداية بالحقِّ وإقامةِ العدلِ، وليس هذا مبدأً عامًّا في قوم موسى؛ فهمُ الَّذين خرجوا على المنهج بالظُّلمِ والجورِ وقتلِ الأنبياءِ، ومنهجُ القرآن الإنصافُ ولو كان مع خصومه.

دَلالةُ التَّعْبيرِ بـ﴿قَوْمِ مُوسَىٰٓ﴾، دونَ (بني إسرائيل)، أو (أهل الكتابِ):

(قَومُ موسى) إطلاقٌ على أتباعِه قبلَ بلُوغِ الإسلامِ

لِيدلَّ به على أنَّ المقصودَ بهم أتباعُ موسى عليه السلام قبل بعثةِ محمَّدٍ ﷺ، فمَن بقي متمسِّكًا بدين موسى، بعدَ بلوغِ دعوةِ الإسلام، فليس من قومِ موسى، ولكن يُقال: هو من بني إسرائيلَ أو منَ اليهود؛ لأنَّ الإضافةَ في ﴿قَوْمِ مُوسَىٰٓ﴾ تؤذِنُ بأنَّهم مُتَّبِعو دينِه الَّذي من جملةِ أصولِه ترقُّبُ مجيءِ الرَّسول الأمِّيِّ ﷺ[1].

سِرُّ اخْتِيارِ لفْظِ ﴿أُمَّةٌ﴾، دونَ (طائفةٍ) أو (جماعةٍ):

لفظُ (الأمَّة)، يدلُّ على المكانةِ العظيمةِ، وعلى اتِّحادِ القَصْدِ

لِمُراعاةِ معنى القصْدِ، والائتمام، فهم جماعةٌ اتَّفقوا على قصدِ أمرٍ واحدٍ، وهو الاهتداءُ بالحقِّ والحكم به، فهم يأتمُّون بموسى عليه السلام ويأتمُّ بهم غيرُهم في مسلكِهم وسبيلهم، فالتَّعبيرُ عنهم بلفظ الأمَّةِ دالٌّ على مكانتِهم وتَمَكُّنهم، وينفي عنهم ما قد يُتَوَهَّم عنهم أنَّهم ضعفاءُ أو مُهمَلُون.

سِرُّ اخْتِيارِ ﴿يَهْدُونَ﴾ دونَ (يدعون):

بَلاغةُ التَّعْبيرِ عنِ القيامِ بالبلاغِ، بِفِعْلِ الهدايةِ

قوله تعالى: ﴿يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ﴾، فيه تأكيدٌ على مدلول التَّعبير عنهم بلفظ ﴿أُمَّةٌ﴾ السَّابق، ومحلُّ التَّأكيد: أنَّهم يُزاوِلُونَ الهدايةَ بين النَّاس في البلاغِ، فعبَّر عن تبليغِهم الحقَّ بِفِعلِ غايتِه، وهي الهدايةُ، وفيه إلفاتٌ إلى تمكُّنِهم منَ الهُدى في أنفسِهم حتَّى ظهر في أفعالهم، كما تظهرُ السَّجايا والطَّبائعُ على أفعال النَّاس.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/142.

دَلالةُ التَّعْبيرِ بالفعْلِ المضارعِ ﴿يَهْدُونَ﴾:

القيامُ بالهدايةِ، صفةُ مدْحٍ لفاعلِها

عبَّرَ بالفعل المضارع الَّذي يفيدُ التَّجدُّدَ والاستمرارَ في الهدايةِ بالحقِّ وإقامةِ العدلِ؛ لبيان أنَّ هذه الطَّائفةَ من قوم موسى يحرصون على ذلك كلَّما وجدوا الفرصةَ سانحةً لهداية الضَّالِّين وإقامةِ العدلِ بين المتخاصمين.

دَلالةُ حذْفِ مُتعلَّقِ ﴿يَهْدُونَ﴾:

حذْفُ المعمولِ لعدَمِ الاكتراثِ به، من فصيحِ الإبانةِ عنِ المُرادِ

في حذْفِ المُتعلَّقِ نُكتةٌ نافِعَةٌ، وهي عدمُ الاكتراثِ بمفعولِ البلاغِ (المُبَلَّغ)، فهم يَهدونَ بالحقِّ غيرَ مُكترثِينَ بِرُدُودِ أفعالِ الخلقِ، أقبَلوا عليهم أم أدبروا عنهم، فهم يَهدون غيرَهم بالحقِّ إيمانًا واحتسابًا، فالمُتعلَّقُ عندهم غيرُ مَلحوظٍ، فأخفاهُ منَ الكلام.

سِرُّ تَكرارِ الجارِّ والمجرور ﴿وَبِهِۦ﴾ في السِّياقِ:

غرَضُ حرْفِ الجرِّ في إزالةِ الإيهامِ، وتَثْبيتِ المعنَى في النَّظْمِ

لتأكيد أنَّ الحقَّ عُدَّتهم في كلا الأمرين: الهدى والعدل، فأفادَ بإعادةِ الجارِّ مُلابسَةَ الحقِّ لهم، وهم يَعدِلُون، كما تلَبَّسوا بهم، وهم يَهدون، فالباءُ للملابسة، ولو قال: (يهدون بالحقِّ ويعدلون)؛ لاحتمَلَ أنَّ إصابَةَ الحقِّ قد تفوتُهم في بعض أحكامهم، فلمَّا قال: (وبه يعدلون) أفاد عدمَ الفواتِ المذكور، ودلَّ على التزامِهم الحقَّ والعِلْمَ في كلِّ ما يحكمون فيه.

سِرُّ خِتامِ الآيةِ بالعدْلِ، في قوله: ﴿يَعْدِلُونَ﴾:

الختْمُ بصِفةِ العدَالة، مُؤْذِنٌ بإقامَتِه في شَهادَتِهم على نُبوَّةِ الرَّسولِ في التَّوراةِ والإنجيلِ

في ختامِ الآيةِ بالعدلِ نُكتةٌ بديعةٌ تَلتَحِمُ مع السِّياقِ السَّابِقِ عليه، وتشهدُ له، ففي الختمِ بالعدلِ، وإجرائِه عليهم بصيغة المضارعِ المؤذِنةِ بكثرةِ مُزاولتهم له، وتجدُّده منهم، بما يدلُّ على أنَّه صار دَيْدَنَهم وعادةً لهم، وفي الخَتم بهذه الصِّفة تعريضٌ بالسُّفهاء من قومِ موسى الَّذين كتمُوا الحقَّ، وألبسوا الحقَّ بالباطل، وحرَّفوا الكلِمَ عن مواضعه، ولم يحكموا بما أنزلَ اللّه، وأكلوا أموالَ النَّاسِ

بالباطل، وجاروا، ولم يَعدلوا فطَمَسُوا صفةَ الرَّسولِ النَّبيِّ الأمِّيِّ من كُتُبهم الَّتي شَهِدتْ به، فَلم يحكموا بالعدل، ولم يقوموا بالقسط، فاحتِيجَ أن يَختِمَ لهولاء المُهتدين من قوم موسى بما هو كالفُرقانِ بينهم وبينَ نظرائهم السُّفهاء من قوم موسى، وهي صفةُ القيام بالعدل، فأخبرَ بأنَّهم على خلافٍ منهم في ذلك، وقرَّرَ كونَهم عُدولًا مُقسطين في عقائدهم وأعمالهم، وهو مُؤذِنٌ بقيامِهم بالعدل على ما شهِدتْ به التَّوراة منَ البشارة بالنَّبيِّ ﷺ.

التّشابُهُ اللّفظِيُّ:

سِرُّ اختِلافِ البَدْءِ في الآيتين مع الاتِّفاقِ في الفاصلةِ

قوله تعالى: ﴿وَمِن قَوۡمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٞ يَهۡدُونَ بِٱلۡحَقِّ﴾ [الأعراف: 159] وقوله تعالى: ﴿وَمِمَّنۡ خَلَقۡنَآ أُمَّةٞ يَهۡدُونَ بِٱلۡحَقِّ﴾ [الأعراف: 181]، اختلفَ صدرُ الآية الأُولى عن صدر الآيةِ الثَّانيةِ؛ لأنَّها وردَت في ثنايا الحديث عن قصَّةِ موسى عليه السلام مع بني إسرائيل، والصِّفاتُ المذكورةُ في ختام الآيةِ لم تتحقَّق إلَّا في بعضٍ من قوم موسى، لذلك ناسبَ التَّبعيضَ بقوله: ﴿وَمِن قَوۡمِ مُوسَىٰٓ﴾، أمَّا الآيةُ الأخرى؛ فقد وردَت بعد قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ ذَرَأۡنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ﴾ [الأعراف: 179]، ولمّا كانتِ الآيةُ إشارةً إلى خلق الجنِّ والإنس؛ ناسبَهُ قوله: ﴿وَمِمَّنۡ خَلَقۡنَآ أُمَّةٞ يَهۡدُونَ بِٱلۡحَقِّ وَبِهِۦ يَعۡدِلُونَ﴾ [الأعراف: 181]، وفي هذا تفضيلٌ لمؤمني أمَّةِ الرَّسولِ ﷺ بإسناد الفعلِ (خَلَقَ) إلى ضمير العظمة (نا) بقوله: ﴿وَمِمَّنۡ خَلَقۡنَآ﴾ [الأعراف: 181]، وذلك ما لم يردْ مثلُه في الآية الأولى.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الأمَّةُ، والجماعةُ، والطَّائفةُ، والفريقُ:

الأمَّةُ هي الجماعةُ القاصِدَةُ لأمرٍ واحدٍ، يَشتركون فيه، وهي المؤثَرةُ في هذه الآيةِ

الكلماتُ الأربعُ تشتركُ في أصلِ دلالتها على معنى الجَمعيَّة، وتختصُّ كلٌّ منها بمزيَّةٍ تَفرِقُها عن أختِها، فالأمَّة: هي الجماعةُ القاصِدَةُ لأمرٍ واحدٍ يشتركون فيه، كقوله تعالى: ﴿وَمِن قَوۡمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٞ يَهۡدُونَ بِٱلۡحَقِّ﴾، فقد قصَدوا الدِّينَ الحقَّ، واجتمعوا عليه.

والجماعةُ: همُ الكَثْرةُ المُجتَمِعة، فهي تدلُّ على مجرَّدِ تَضَامِّ النَّاسِ بعضِهم لبعض، ومنها: يوم الجُمُعةِ لقيامِ النَّاسِ فيها جماعة. والطَّائفة: هي في الأَصلِ الجَمَاعَةُ الَّتي مِن شَأنها الطَّوفُ في البِلاد للسَّفر، وهي القطعةُ منَ الشَّيء، كأنَّها جانبٌ من حواشِيه أو ممَّا يحيطُ به، فهي جماعةٌ مُقتَطَعةٌ من جَمْعٍ آخر، فصارَتْ كالحلقَةِ الدَّائرةِ في انفصالها، فكُثرَ بذلك طوافُها ودورانُها حول مُرادِها، ولذا فهي تدلُّ على الجماعةِ الَّتي تَتَحَلَّقُ حول موقِفٍ أو مناسبة، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٢﴾ [النور: 2]، فقد تُصُوِّرَ فيهم تَحَلُّقُهم ودورانُهم حول الموقِفِ المذكور، فعبَّر عنهم بالطَّائفة. والفريق: الجماعةُ المتفرِّقةُ عن آخرين، ومنه: الفِرْقَةُ للجماعة المُتفرِّدةِ منَ النَّاس، فالفريق هو الجماعةُ الَّتي تفرَّقتْ، وانفصلتْ عن غيرِها لسببٍ دَعَا لانفرادها[1]، كقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا﴾ [المؤمنون: 109]، فعبَّر عنهم بالفريقِ؛ لانفصالهم بالإيمان وانفرادهم عن غيرِهم بالعبوديَّة للّهِ.

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 278، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (جمع)، والرّاغب، المفردات، ص: 632، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (طوف - طيف).

﴿وَقَطَّعۡنَٰهُمُ ٱثۡنَتَيۡ عَشۡرَةَ أَسۡبَاطًا أُمَمٗاۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسۡتَسۡقَىٰهُ قَوۡمُهُۥٓ أَنِ ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡحَجَرَۖ فَٱنۢبَجَسَتۡ مِنۡهُ ٱثۡنَتَا عَشۡرَةَ عَيۡنٗاۖ قَدۡ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٖ مَّشۡرَبَهُمۡۚ وَظَلَّلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلۡغَمَٰمَ وَأَنزَلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰۖ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ١٦٠﴾ [الأعراف: 160]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الرّبْطُ بين هدايةِ قومِ موسَى، وما أُوتِيَ ظلَمَتُهم، من مُعجزاتٍ وطيّباتٍ

بعد أن أثنى عليهم بقوله جلّ شأنه: ﴿وَمِن قَوۡمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٞ يَهۡدُونَ بِٱلۡحَقِّ وَبِهِۦ يَعۡدِلُونَ﴾، "شرع يذكّرهم شيئًا ممّا أسبغَ عليهم منَ النِّعم لأجل هؤلاء المهتدين منَ التّكثير بعد القلّة، والإعزاز بعد الذّلّة بجعلهم ممّن يُؤَمّ؛ استعطافًا لغيرهم، ويذكرُ بعضَ عقوباتهم ترهيبًا فقال: ﴿وَقَطَّعۡنَٰهُمُ﴾"[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَقَطَّعۡنَٰهُمُ﴾: "(قطع) قطعتُه قطعًا، ومقطعًا، فانقطع، وقطعتُ النّهرَ قطوعًا. والطّيرُ تقطعُ في طيرانها قُطوعًا، وهنّ قَواطِعُ؛ أي: ذواهبُ ورواجِعُ. وقطع بفلان: انقطع رجاؤه"[2]. وأصل (قطع) يدلُّ على صَرْمٍ وإبانةِ شيءٍ من شيء، القَطْعُ: إبانةُ بَعضِ أَجزاء الجِرْمِ مِن بعضٍ فَصْلًا، وقوله تعالى: ﴿وَقَطَّعۡنَٰهُمُ﴾؛ أي: قسَّمناهم وفَرَّقناهم وصاروا أحزابًا وفِرَقًا مختلفةً[3].

2) ﴿أَسۡبَاطًا﴾: (سبط) أصلٌ يدلُّ عَلَى امتداد شيءٍ، وانبساطٍ في سهولة. رجل سَبْطُ الكفّين: ممتدّهما، والسِّبْطُ واحدُ الأَسباط:

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/132.
(2) الخليل بن أحمد، العين: (قطع).
(3) الجوهريّ، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (قطع).

وَلد الوَلَد، كأنّه امتدادُ الفروع، ويكون وَلَدَ الابنِ والابنَةِ. قال تعالى: ﴿وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ﴾؛ أي: قبائل كلِّ قبيلة من نِسْل رجلٍ، والأسباط من بني إسرائيل كالقبائل منَ العرب[1]. وقال تعالى: ﴿وَقَطَّعۡنَٰهُمُ ٱثۡنَتَيۡ عَشۡرَةَ أَسۡبَاطًا أُمَمٗاۚ﴾، هم القبائلُ، وكانوا اثنتي عشرةَ قبيلةً من اثني عشرَ ولدًا من ولدِ يعقوبَ عليه السلام، وكانَ كلُّ سِبْطٍ أمةً عظيمةً، والسِّبْطُ في ولدِ إسحاقَ كالقبيلةِ في ولدِ إسماعيل[2].

3) ﴿أُمَمٗاۚ﴾: (أمم) الأمّ: الأَصلُ والمَرجِعُ والجَماعةُ والدِّينُ، كلُّ شيءٍ يَضمُّ إليه سائرَ ما يليه، فإنّ العربَ تُسمِّي ذلك الشَّيءَ أُمًّا، ومِن ذلكَ أُمُّ الرَّأسِ وهو الدِّماغُ. وأُمّ النّجوم: المَجَرّة؛ لأنّها مُجتَمَعُ النّجوم. والأُمّة: كلُّ جماعة يجمعُهم أمرٌ ما؛ إمّا دينٌ واحدٌ، أو زمانٌ واحدٌ، أو مكانٌ واحدٌ، وجمعها: أُمَم[3].

4) ﴿ٱسۡتَسۡقَىٰهُ﴾: (سقى، سقي)، أصلٌ يدلُّ على إشراب الشّيءِ الماءَ وما أشبهَهُ، والاستِسقاءُ: طلبُ السَّقْيِ، واستَسقَيتُ فُلَانًا إذا طَلَبتَ منه أَن يَسقِيَك، قال تعالى: ﴿۞وَإِذِ ٱسۡتَسۡقَىٰ مُوسَىٰ﴾[4]. والاستسقاءُ استفعالٌ من طلب السُّقيا؛ أي: إنزالُ الغيث عَلَى البلاد والعباد، يُقال: استسقى، وَسقَى اللّه عبادَه الغيثَ وأسقاهم، والاسم السُّقيا بالضّمّ[5]، وشرعًا: طلبُ إنزالِ المطرِ منَ اللّه تعالى، عند حول حُلولِ الجَدْبِ على وجهٍ مخصوصٍ،[6]. و(أسقاه) سقَاهُ، وفي التَّنزيل العَزيز: ﴿وَأَسۡقَيۡنَٰكُم مَّآءٗ فُرَاتٗا﴾ [المرسلات: 27]، وجعل لَهُ مَاءً أَو سقيا[7]، قال الشّاعر لَبيد بن ربيعة العامريّ:

سَقَى قَومِي بَنِي مَجدٍ وأَسقَى *** نُمَيرًا والقَبائِلَ مِن هِلالِ[8]

5) ﴿فَٱنۢبَجَسَتۡ﴾: (بجس) أصلٌ يدلُّ على تفتُّح الشّيءِ بالماء خاصّة. البَجْسُ: انشِقَاقٌ في قِربةٍ أو حَجَرٍ أو أَرض يَنبُعُ مِنهُ الماءُ، فإن لَم يَنبُعْ فليسَ بانبِجاسٍ، يُقال: بَجَسَ الماء

(1) الجوهريّ، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (سبط).
(2) العليميّ، فتح الرّحمن: 3/47.
(3) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (أمّ - أمم).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (سقى - سقي).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (سقى - سقي).
(6) سعدي أبو حبيب، القاموس الفقهيّ: (سقى).
(7) مجمع اللّغة العربيّة بالقاهرة، المعجم الوسيط: (سقى).
(8) الجوهريّ، الصّحاح: (سقى).

وانبَجَسَ: انفجر، لكنّ الانبجاسَ أكثر ما يُقال فيما يخرجُ من شيءٍ ضيّقٍ، والانفجارُ يُستعملُ فيه، وفيما يخرجُ من شيءٍ واسعٍ[1].

6) ﴿مَّشْرَبَهُمْ﴾: الشُّربُ: تناولُ كلِّ مائعٍ، ماءً كان أو غيرَه، والمَشرَبُ المصدرُ، واسمُ زمان الشُّرب، ومكانُه، قال تعالى: ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ﴾[2]، ويتعيّنُ في الآية كونه اسمَ مكان، بدليل تقسيمه إلى اثنتي عشرةَ عينًا، ولو كانت عينًا واحدًا لكان اسمَ زمان؛ أي: عرفوا زمانَ شُربهم، أمّا في الآية فالمرادُ مكانُ الشّرب.

7) ﴿ٱلْغَمَـٰمَ﴾: (غمّ، غمم) أَصلٌ يَدُلُّ على تَغطِيَةٍ وإطباقٍ. والغَمُّ: سَتْرُ الشّيء، ومنه: الغَمَامُ؛ لكونه ساترًا لضوء الشّمس، والغَمامة: السَّحَابَةُ، والجَمعُ غَمام وغَمائم، والغَمام الغَيم الأَبيض، وإنّما سُمِّي غمامًا؛ لأنّه يَغُمُّ السّماء؛ أي: يسترها.

والغَمامُ وردَ على ثلاثة أَوجه: الأَوّل: غَمامُ النّعمةِ: ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ﴾ [البقرة: 57]، والثّاني: غمامُ المحنةِ والعقوبةِ: ﴿فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ﴾ [البقرة: 210]، والثّالث: غمامُ العظمةِ والهيبةِ: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَـٰمِ﴾ [الفرقان: 25][3].

8) ﴿ٱلْمَنَّ﴾: (منّ، منن) أَصلٌ يَدُلُّ على اصطناعِ خَيرٍ، مَنَّ يَمُنُّ مَنًّا، إذا صَنَعَ صُنعًا جميلًا، ومَعْنَى المَنّ: ما مَنّ اللّهُ به على الإنسان من غيرِ تَعَبٍ منه. والمنّ في قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ﴾: شيءٌ كالطّلّ فيه حلاوة، ينزلُ على شَجَرٍ أو حجرٍ، ويَنعَقِدُ عَسَلًا، ويَجِفُّ جَفافَ الصَّمغِ، كان يَسقطُ على بَنِي إسرائيل منَ السّماء، إذ هم في التِّيه، وسمَّاهُ مَنًّا، بحيث إنّه امتنَّ به عليهم[4].

9) ﴿وَٱلسَّلْوَىٰ﴾: (سلا، سلو) أَصلٌ يَدُلُّ على خَفْضٍ وطِيبِ عَيْشٍ. والسَّلْوى أصلُها ما يُسَلِّي الإنسانَ، ومنه: السُّلْوَانُ والتَّسَلِّي. وفي قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ﴾: طائرٌ يشبهُ السُّمَانَى، ولا واحد له، وسمّاهُ سلوى من حيث إنّه كان لهم به التّسلّي[5]، وقيل:

(1) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (بجس).
(2) الجوهريّ، الصّحاح، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (شرب).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، والفيروزباديّ، بصائر ذوي التّمييز: (غم، غمم).
(4) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، والفيروزباديّ، القاموس: (منّ، منن).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبيّ، العمدة: (سلا، سلو، سَلْوَى).

طائر مثل السُّمَانَى، وقيل: هو السُّمَانَى، واحدُه وجمعُه سواء[1]. وسُئِلَ ابن عبَّاس عَنِ السّلوى، فَقَالَ: "هُوَ الْمُرَعَةُ"؛ وهو طَائِرٌ أَبيض، حسنُ اللَّون، طويلُ الرِّجلين، بِقَدْرِ السُّمَانَى، يقعُ في المطر منَ السّماء[2].

10) ﴿طَيِّبَٰتِ﴾: (طيب) أصلٌ يدلُّ على خلاف الخبيث، وهو وأصلُ الطَّيِّبِ: ما تَستلِذُّه الحواسُّ، وما تستلذُّه النّفسُ، يُقال: أرضٌ طيّبةٌ للّتي تصلحُ للنّبات؛ وريحٌ طيّبةٌ إذا كانت ليِّنةً ليسَت بشديدة؛ وطُعمةٌ طيّبةٌ: إذا كانت حلالًا، والطّعامُ الطَّيِّبُ في الشّرع: ما كان متناوَلًا من حيث ما يجوز، ومنَ المكان الّذي يجوز، فإنّه متى كان كذلك كان طَيِّبًا عاجلًا وآجلًا، وعلى ذلك قوله: ﴿كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡۚ﴾[3].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

بَيانُ مَظاهِرِ الإنْعامِ والإغْداقِ على قومِ موسَى، وتَوزيعُهم أسْباطًا

يخبرُ اللّهُ تعالى في هذه الآية عن إنعامه على بني إسرائيل، يقول: لمَّا أخرجناهم من أرض مصرَ، وأدخلناهم البرَّ، جعلناهم اثنتي عشرةَ قبيلةً؛ ليكون أمرُ كلِّ سبطٍ متصرِّفًا من جهةِ رئيسهم، فيخفَّ الأمرُ على موسى، فيما يحتاجُ إليه من تعريف أحوالهم، ويَسهلُ عليه جمعُهم، إذا أراد جمعَهم، ويَعلمُ كلُّ فريقٍ مرجعَهم في أمورهم. وأنّه لمّا استسقوا موسى ضربَ الحجرَ، فانبجسَ منه اثنتا عشرة عينًا، بقَدْرِ عددِ الأسباطِ، وأنّه ظلَّلَ عليهم السّحابَ، وأنزلَ عليهم المنَّ والسّلوى، فكَرِهوا ذلك ومَلُّوه، من طول المداومةِ عليه، وقالوا: لن نصبرَ على طعامٍ واحدٍ، وطلبوا استبدالَ الّذي هو أدنى بالّذي هو خير. وما ظلمونا حين لم يشكروا للّه، ولم يقوموا بما أوجب اللّهُ عليهم، ولكن كانوا أنفسَهم يظلمون[4].

(1) نشوان بن سعيد، شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم: (السَّلوَى).
(2) ابن الجوزيّ، غريب الحديث: 2/352، وابن الأثير، النّهاية في غريب الحديث والأثر: (مرع).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (طيب).
(4) النّسفيّ، التّيسير في التّفسير: 7/36، والمراغيّ، تفسير المراغيّ: 9/88، ونُخْبة من أساتذة التَّفسير، التّفسير الميسّر: 1/171.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بَلاغةُ العطْفِ في الآيةِ، ومناسبتُه لما تقدّمَ:

الإنْعامُ بالتّفريقِ أسْباطًا، وقعَ للأمّةِ الهادِيةِ

قولُه جلّ شأنه: ﴿وَقَطَّعْنَٰهُمُ ٱثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًاۚ﴾ معطوفٌ على قوله تعالى: ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ﴾ [الأعراف: 159]؛ للدّلالة على أنّ الإنعامَ بالتّقطيع المذكور "وقع في الأمّة الّذين يهدون بالحقّ"[1]، وليس المرادُ أنّ التّقطيعَ واقعٌ بالمهديّين وحسب، بل بالقوم كلِّهم، "ذلك أنّ بني إسرائيل قطعةٌ جماعيّةٌ واحدةٌ، فَرَّقها اللّهُ تعالى أقسامًا، ليُعنى كلُّ قسم بنفسه، ويندمج من بعد ذلك في المجموع بالتّأليف، فإنّ الجماعاتِ لا تصلحُ بمجموعها ابتداء، إنّما تصلحُ بأجزائها أوّلًا، ثمّ تنضمُّ الجماعاتُ الصّغيرةُ أو الأجزاءُ بعضها إلى بعض، وتتآلفُ صالحةً متعاونةً عَلَى البرّ والتّقوى"[2].

نُكتةُ المجازِ في قولِه: ﴿وَقَطَّعْنَٰهُمُ﴾:

غَرَضُ التّقْسِيمِ والتّمْييزِ إلى قبائلَ، تَنظيمًا لهم وإنْعامًا عليهم

قوله جلّ شأنه: ﴿وَقَطَّعْنَٰهُمُ ٱثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًاۚ﴾، ذَكَرَ الإنعامَ على بني إسرائيل بتقطيعهم إلى اثنتي عشرة قبيلةً، والتّقطيعُ شدّةٌ في القطع، وهو التّفريق، والمرادُ به التّقسيم، فَشَبَّه التَّقسيمَ بالتّقطيع بجامع التّفريق على سبيل الاستعارة التّصريحيّة، وليس منَ التّقطيع العقابُ؛ لأنّ ذلك التّقطيعَ مِنّةٌ منَ اللّه، فالانقسامُ إلى اثنتي عشرة أمّةً وقعَ قبلَ الاستسقاء، حتّى لا يقعُ منَ التّزاحم على الماء، ما يفضي إلى الضّرّ بهم"[3].

دَلالةُ عَوْدِ ضَميرِ ﴿وَقَطَّعْنَٰهُمُ﴾:

التّقطيعُ شامِلٌ لكلِّ القَوْمِ، لا للأمّةِ المهديّةِ وحسْبُ

قوله جلّ شأنُه: ﴿وَقَطَّعْنَٰهُمُ ٱثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًاۚ﴾، يعودُ الضّميرُ إلى قوم موسى جميعًا؛ "أي: قوم موسى عليه السلام لا الأمّة

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/142.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 6/2980.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/142 - 143.

المذكورة كما يوهمه القُرب"[1]. في قوله تعالى: ﴿وَمِن قَوۡمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٞ يَهۡدُونَ بِٱلۡحَقِّ وَبِهِۦ يَعۡدِلُونَ﴾ [الأعراف: 159] فالّذين قُطِّعوا ليس الأمّةَ المهديّةَ وحَسْب، بلِ القومُ كلُّهُمْ".

دَلالةُ التّأنيثِ في العددِ ﴿ٱثۡنَتَيۡ عَشۡرَةَ﴾:

في قوله تعالى: ﴿ٱثۡنَتَيۡ عَشۡرَةَ أَسۡبَاطًا أُمَمٗاۚ﴾، جاء العددُ ﴿ٱثۡنَتَيۡ عَشۡرَةَ﴾ مؤنّثًا، والمعدودُ ﴿أَسۡبَاطًا﴾ مذكّرٌ؛ لأنّ السِّبطَ هنا "بمعنى الفِرقةِ أو الأمّةِ، كما قال: ثلاثةُ أنفُسٍ؛ يعني رجالًا وعَشَرَ أبطنٍ بالنّظر إلى القبيلة"[2]؛ وإنّما كان حملُ الأسباط هنا على مَعْنى الأمّة؛ لأنّه قال بعده: ﴿أُمَمٗاۚ﴾؛ وذلك لبيان أنّ تلك الأمم تعودُ للأسباط الاثني عشر[3].

الأَسْباطُ لفْظُهُ مُذكّرٌ، ولكن يُحمَلُ على معنَى الأمّةِ والقبيلةِ

دَلالةُ التّعْبيرِ عن فُروعِهم بلفْظِ (الأسباط):

في قوله تعالى: ﴿ٱثۡنَتَيۡ عَشۡرَةَ أَسۡبَاطًا أُمَمٗاۚ﴾ عبّر عن قبائلهم بالأسباط، دون لفظ القبائل؛ لما في ذلك من إشعارٍ بالمدح والتّفضيل؛ "لأنّ الأسباطَ أسباطُ إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام"[4]، ففي ذكرهم بكونهم من ذلك الأصل تمييزٌ لهم، وهو مناسبٌ لمقام الإنعام الّذي تدلُّ عليه الآية.

ذِكْرُهُم بِمَزِيَّةِ عُلوِّ النّسبِ في سِياقِ تقسِيمِهم؛ هو حِفظٌ لهذا التّفضيلِ

دَلالةُ الموقعِ النَّحويِّ لقولِه: ﴿أَسۡبَاطًا﴾:

اختلف أئمّةُ التّفسيرِ في موضع ﴿أَسۡبَاطًا﴾ الإعرابيِّ، ولكنّهم متّفقون، على أنّه ليس تمييزًا للعدد؛ إذ "لا يجوزُ أن يكون ﴿أَسۡبَاطًا﴾ تمييزًا؛ لأنّ التّمييزَ لا يكون إلّا مُفردًا نكرةً"[5]، فجائزٌ أن يكون بدلًا

حذْفُ التّمْييزِ الّذي يُبيّنُ العددَ، بتقديرِ (وَقَطَّعْناهُمُ اثْنَتَي عَشرَةَ فرقةً)

(1) الآلوسي، روح المعاني: 5/82، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/282، والنّسفيّ، التّيسير في التّفسير: 7/36.

(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/199.

(3) الواحديّ، البسيط: 9/404، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 6/2981.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/143.

(5) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/465.

عن ﴿ٱثۡنَتَيۡ﴾، والتّمييزُ الّذي يبيّنُ العددَ محذوفٌ، تقديره: قِطعة أو فِرقة، والتّقدير: قطّعناهم اثنتي عشرةَ فِرقةً أسباطًا؛ لأنّ الأسباطَ معلومٌ أنّهم اثنا عشرَ[1]؛ والمعنى: أنّا قطّعنا هؤلاء القوم إلى اثنتي عشرةَ فرقةً على أصول قبائلهم.

وجائز أن يكون حالًا، والتّقدير: "وقطّعناهم أسباطًا أممًا، اثنتي عشرة قطعةً، و(قطعةً) مُضمَرةٌ"[2]، فكان التّقطيعُ في حالة كونهم قبائلَ متميّزةً بعضها عن بعض، نظرًا لكونهم من نَسْلِ الأسباط الاثني عشر.

نُكتةُ تَنكيرِ ﴿أَسۡبَاطًا﴾:

في قوله تعالى: ﴿وَقَطَّعۡنَٰهُمُ ٱثۡنَتَيۡ عَشۡرَةَ أَسۡبَاطًا أُمَمٗاۚ﴾، ذكرَ الأسباطَ بصيغة التّنكير؛ تعظيمًا لذِكْرِهم، وتفخيمًا لشأنهم، والتّعظيمُ مناسبٌ لِذِكْرِهم في سياق الإنعام على ذراريِّهم بالتّقسيم إلى قبائل، " والمرادُ بالأسباط هنا همُ الذريَّةُ الّتي وُلِدَت لأبناء يعقوب الاثني عشر، الّذين دخلوا مصرَ في عهد أخيهم يوسف، والّذين كان منهم بنو إسرائيل، الّذين أخرجهم موسى من مصر"[3].

التّلْمِيحُ إلى تفْضيلِ الأُمَمِ الأَسْباطِ، بعُلوِّ نسَبِ الأَسْباطِ

الموقعُ النّحويُّ لقولِه ﴿أُمَمٗاۚ﴾:

في قوله تعالى: ﴿ٱثۡنَتَيۡ عَشۡرَةَ أَسۡبَاطًا أُمَمٗاۚ﴾ نُصِب ﴿أُمَمٗاۚ﴾؛ لأنّه بدلٌ من ﴿ٱثۡنَتَيۡ عَشۡرَةَ﴾، أو من ﴿أَسۡبَاطًا﴾، "بمعنى: وقطّعناهم أممًا؛ لأنّ كلَّ أسباطٍ كانَت أمّةً عظيمةً وجماعةً كثيفةَ العددِ، وكلَّ واحدةٍ كانت تؤُمُّ خلافَ ما تؤُمُّهُ الأخرى"[4]. ولم يكن (الأسباط، والأمم) تمييزًا للعدد المذكور؛ "تنبيهًا على قصد المِنَّة بكونهم أممًا من آباءٍ إخوةٍ، وأنّ كلَّ سبطٍ مِن أولئك قد صار أمّةً"[5].

بيانُ نَوْعِ العددِ الّذي قُطّعُوا إليه، ودلالتُه في السِّياقِ

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/465.
(2) النّسفيّ، التّيسير في التّفسير: 7/36.
(3) عبد الكريم الخطيب، التّفسير القرآنّي للقرآن: 7/36.
(4) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/169، والفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 15/388.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/143.

نُكتةُ تنكيرِ ﴿أُمَمًا﴾:

معنَى أممٍ؛ أنّها عظيمةٌ، كثيرةُ الانْتِشارِ والتّأثيرِ

قوله تعالى: ﴿ٱثۡنَتَيۡ عَشۡرَةَ أَسۡبَاطًا أُمَمٗاۚ﴾، دلّ التّنكيرُ في قوله تعالى: ﴿أُمَمًا﴾ على التّكثير؛ وذلك لبيان عَظَمتِهم، وكثرةِ انتشارِهم وتَشعُّبِهم، فهم أهلٌ لأن يَقْصِدَهمُ النّاسُ؛ لما لهم منَ الكثرةِ والقوّةِ والدّينِ[1]. والمعنى: "وفرَّقْنا قومَ موسى الّذين كان منهم أمّة، يهدون بالحقّ، وبه يعدلون، ومنهم الظّالمون والفاسقون، فجعلناهم اثنتي عشرة فرقةً، تُسمّى أسباطًا؛ أي: أممًا وجماعات، يمتاز كلٌّ منهم بنظامٍ خاصٍّ، في معيشته وبعض شؤونه"[2].

دَلالةُ العطْفِ بالواو في: ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ﴾:

معنى عطفِ نِعْمةِ الرّزقِ، على نِعمةِ التّكثيرِ في السِّياقِ

قولُه جلّ شأنُه: ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسۡتَسۡقَىٰهُ قَوۡمُهُۥٓ﴾ معطوفٌ على قوله تعالى: ﴿وَقَطَّعۡنَٰهُمُ ٱثۡنَتَيۡ عَشۡرَةَ أَسۡبَاطًا أُمَمٗاۚ﴾، فلمّا وصفهم بالكثرة بالتّقسيم عطف عليه "مظهَرًا من مظاهر حكمةِ تقسيمهم إلَى اثني عشر سبطًا، ولم يعطف هذا الخبر بالفاء لإفادة أنّه منّةٌ مستقلّةٌ"[3].

دَلالةُ دُخولِ (إذ) ومعناها، في قوله: ﴿إِذِ ٱسۡتَسۡقَىٰهُ﴾:

إظهارُ النِّعمةِ وقْتَ الحاجةِ إليها، أدْعَى لمعرفةِ حقِّ المُنعِمِ

إذِ الظّرفيّةُ في قوله جلّ شأنُه: ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسۡتَسۡقَىٰهُ قَوۡمُهُۥٓ﴾؛ للدّلالة على زمان الوحي بضَرْبِ الحجر، فهو كان في وقت عطشِهم وحاجتِهم للماء، والتّقدير: "حين استولى عليهم العطشُ في التِّيهِ الّذي وقعوا فيه بسوء صنيعِهم"[4]، فجعل سُقياهم مُتعلِّقًا بوقت طلبهم الماء؛ لأنّ اللّه تعالى أرادَ "أن يبرزَ لهم نِعَمَه وقت الحاجة، فقد تركهم إلى أن عَطِشوا لِيَسْتسقوا وليشعروا بنعمة الرَّيّ"[5].

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/132.
(2) أحمد مصطفى المراغيّ، تفسير المراغيّ: 9/88.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/143، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 8/133.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/282.
(5) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 7/4391.

فائِدةُ دُخولِ: ﴿إِذِ ٱسۡتَسۡقَىٰهُ﴾ بين فعْلِ الإيحاءِ ومضْمونِه:

جاءَت جملةُ الاستسقاء في قَوْلِهِ جلّ شأنُه: ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسۡتَسۡقَىٰهُ قَوۡمُهُۥٓ أَنِ ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡحَجَرَۖ﴾ بين الوحي والموحَى به؛ للدّلالة على أنّ الوحيَ بضرب الحجر، جاء عقبَ سؤالهم إيّاه بعد استيلاءِ العطشِ عليهم، إشارةً إلى أنّ اللّه تعالى يلبّي حاجةَ عباده إذا سألوه، ولجؤُوا إليه، ولو قال: (وأوحينا إلى موسى أنِ اضرب بعصاك الحجر) لما فُهِمَ الدّاعي إلى ذلك.

اللّهُ تعالى يُجيبُ المضطرَّ إذا دعاهُ، ويكشفُ كُربتَه

مَعْنى ﴿ٱسۡتَسۡقَىٰهُ قَوۡمُهُۥٓ﴾:

فعلُ الاستسقاء في قوله جلّ شأنُه: ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسۡتَسۡقَىٰهُ قَوۡمُهُۥٓ﴾، يدلُّ عَلَى طلب السُّقيا؛ ويدلُّ ذلك على أنّهم عطشوا، واشتدّت حاجتُهم إِلَى الماء[1]، فطلبوا من موسى عليه السلام أن يستسقي لهم؛ لأنّ زيادةَ الأحرف الثّلاثة (است)، تدلُّ عَلَى الطّلب، وهذا من براعة بنية الألفاظ في العربيّة لمَا تحقّقه مِن إيجازٍ في التّعبير.

دَلالةُ الاسْتِسقاء على طلَبِ السُّقْيَا، ودواعِي الحاجةِ إلى ذلك

نُكتةُ حذْفِ مَفعولِ ﴿ٱسۡتَسۡقَىٰهُ﴾ الثّاني:

حذف المفعولَ به في قوله تعالى: ﴿إِذِ ٱسۡتَسۡقَىٰهُ قَوۡمُهُۥٓ﴾، إذ لم يبيّن ماذا طلبوا، اعتمادًا عَلَى العلم به وشهرته؛ لأنّ الإسقاءَ هو التَّعرُّضُ للماء[2]، فلا يخفى أنّهم طلبوا أن يَسقِيَهم ماءً، ودلّ على ذلك الحالُ والسّياقُ، وكذلك دلالةُ لفظِ السُّقيا، مع ما في ذلك من إيجازٍ في التّعبير. والإنعامُ بالسُّقيا "جامعٌ لنِعَمِ الدّنيا والدّين: أمّا في الدّنيا فلأنّه أزالَ عنهم الحاجةَ الشّديدةَ إِلَى الماء، ولولاه لهلكوا في التِّيهِ، وهذا أبلغُ منَ الماء المعتاد في الإنعام؛ لأنّهم في مفازةٍ منقطعةٍ. وأمّا في الدّين فلأنّه من أظهرِ الدّلائل على وجودِ

إيجازُ العِبارةِ بحذْفِ المعلومِ بالضّرورةِ

(1) ابن كمال باشا، تفسير ابن كمال باشا: 1/194، وأبو حيّان، البحر المحيط: 1/353.
(2) ابن كمال باشا، تفسير ابن كمال باشا: 1/194.

الصّانع وقدرتِه وعلمِه، وعلى صدق موسى عليه السلام. والاستسقاءُ طلبُ الماء، عند عدمه وقلّته"[1].

نُكتةُ تَقْديمِ المفعولِ على الفاعلِ في ﴿ٱسْتَسْقَىٰهُ﴾:

عِلَّةُ تَقْديمِ المسؤولِ وتأخيرِ السّائلِ؛ تَفاديًا لعودةِ الضَّميرِ على المتأخِّرِ

في قوله جلّ شأنه: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ﴾، جاء المفعولُ به مُقدَّمًا، وهو الضّميرُ العائدُ على موسى عليه السلام، وأخّر الفاعلَ وهو ﴿قَوْمُهُۥٓ﴾؛ لئلّا يعودَ الضّميرُ العائدُ على متأخّرٍ لفظًا ورتبةً، ولإبراز مدى حاجتهم إلى نبيّهم، في كلّ شؤونهم، فقدّمَ المسؤولَ وأخّرَ السّائلَ.

فائِدةُ إضافةِ القَوْمِ إلى الضَّميرِ العائدِ ﴿قَوْمُهُۥٓ﴾:

نِسبةُ القومِ إلى موسَى عليه السلام، والنِّسبةُ إلى الشّريفِ تَشريفٌ للمَنسوبِ

في قوله جلّ شأنُه: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ﴾، أضافَ القومَ إلى الضّمير العائد على موسى عليه السلام، إشارةً إلى أنّ سببَ إكرامهم لأنّهم قومُ موسى عليه السلام وليس لذاتهم. كما أنّ فيه دلالةً على تشريفهم بنسبتهم إليه، فإنّ تعريفَ قومٍ بواحدٍ منهم، فيه دليل على علوّ منزلته، كما أنّه يُرادُ إفادتهم من تلك المنزلة الرّفيعة بتشريفهم، فضلًا عن دلالته على حرصه على قومه، حتّى بات منسوبًا إليهم.

إيثارُ التّعْبير بلفْظِ ﴿قَوْمُهُۥٓ﴾:

كان حَريًّا بهم الصّبرُ تأسّيًا بموسَى، ولكنّهم قومٌ يَستعْجِلون

قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ﴾، وفيه عبّر عنهم بـ (قوم)؛ تنويهًا بكونهم جماعةً شديدةَ الشّكيمة، فهم يقومون قومةً واحدةً، فالتّعبيرُ" بالقوم إشارةٌ إلى تبكيتِهم، بكونهم أهلَ قُوّةٍ، ولم يتأسَّوا بموسى عليه السلام في الصّبرِ إلى أن يأتيَ اللّهُ الّذي أمرَهم بهذا المَسيرِ بالفَرَجِ، بل طلبُوا منه ذلك على الوجهِ المذكورِ في البقرة من إظهارِ القلقِ والدّمدَمةِ"[2]. ويُضاف إلى ذلك أنّ طلبَ

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 1/365.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/133.

السُّقيا كان من جميعهم؛ لأنّ حاجتَهم للماء لم تكن لفردٍ واحدٍ، بل عَطِشوا جميعًا، وفي ذلك إظهارٌ لعِظَم تلك النّعمة عليهم.

دَلالةُ الجُملةِ الواقعةِ تفسيرًا للفعْلِ ﴿وَأَوْحَيْنَآ﴾:

جاء قولُه جلّ شأنُه: ﴿أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ﴾ تفسيرًا لفعل الإيحاء، في قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ﴾؛ لأنّ (أنِ) تفسيريّةٌ؛ بمعنى: (أي)[1]، فالجملة جاءَت مفسِّرةً للإيحاء؛ لأنّ في فعل الإيحاء معنى القول دون حروفه[2]، ويجوز أن تكونَ مصدريّةً، "و﴿بِّعَصَاكَ﴾ جارّ ومجرور، مُتعلِّقان بـ﴿ٱضْرِب﴾، و﴿ٱلْحَجَرَ﴾ مفعول به"[3].

الأمرُ بالضّربِ بالعصَا، وَحْيُ اللهِ ومُعجزةُ السّماءِ

معنَى الباء، في قوله: ﴿بِّعَصَاكَ﴾:

في قوله جلّ شأنُه: ﴿أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ﴾، دخل حرفُ الباء على (العصا)؛ للدّلالة على أنّ العصا هي آلةُ الضّرب، فالباءُ للاستعانة.

العصَا آلةُ الضَّربِ الّتي ضَربَ بها الحَجرَ، بأَمْرِ ربِّ البَشرِ

فائِدةُ إضافةِ العصَا إلى الضّميرِ، بقوله: ﴿بِّعَصَاكَ﴾:

أضاف العصا في قوله جلَّ شأنُه: ﴿أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ﴾ إلى ضمير موسى عليه السلام، إشارةً إلى أنّها العصا ذاتها "الّتي جعلناها لك آيةً، وضربتَ بها البحرَ فانفلق"[4]، وهي الّتي سأله عنها، بقوله تعالى: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ [طه: 17].

العصَا ذاتُها كانَتْ بها المعجزةُ، من قبلُ ومن بعدُ

سِرُّ تَقْديم شِبْه الجُملةِ على المفعولِ به:

في قوله جلَّ شأنُه: ﴿أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ﴾، جاء المفعولُ به مؤخَّرًا، وقُدِّم عليه شبهُ الجملة، وأصلُ الكلام: (اضرب الحجرَ بعصاك)، إشارةً إلى أنّ المعجزةَ كائنةٌ في العصا دون الحجر، كما أنّ فلقَ البحر حدث بها وهي أيضًا آيةُ إبْطالِ سِحْرِ

المعجزةُ كائنةٌ في العصَا لا في الحجَرِ، وذلك سِرُّ المؤثِّرِ لا الأثَرِ

(1) الآلوسي، روح المعاني: 5/82، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/282.
(2) درويش، إعراب القرآن الكريم وبيانه: 3/474، والسّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 5/487.
(3) محيي الدّين درويش، إعراب القرآن وبيانه: 3/475.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/133.

السَّحَرَةِ، وإيمانهم برسالة موسى عليه السلام، فهي آلةُ ظهورِ المعجزاتِ بإذن الله تعالى.

معنَى (ال) الجنس في: ﴿ٱلۡحَجَرَۖ﴾:

لا فَرْقَ بين الأحجارِ، في إظهارِ آياتِ الله الكِبارِ

المرادُ بالحَجَر في قوله جلَّ شأنُه: ﴿أَنِ ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡحَجَرَۖ﴾ جنسُ الحجر، فـ(ال) لتعريف الجنس، فلم "يكن حجرًا معيَّنًا، بل أيُّ حجرٍ ضُرِبَ انْفَجَر منه الماء، وهذا أبلغُ في الإعجاز"[1]؛ أي: اضرِبْ أيَّ حجرٍ من جنس الأحجار، فآياتُ اللهِ تعالى لا تتعلَّقُ بشيءٍ بعينه، فليس هناك فرقٌ بين حجرٍ وحجرٍ، ولكنّ الفرقَ يحدثُ بتسليط الضّربِ بالعصا عليه، ولذا كان قد قدّمَ الجارَّ والمجرورَ ﴿بِّعَصَاكَ﴾؛ لأنّ آلةَ الإعجازِ العصا، وليس الحجر.

معنَى (الفاء) في قوله: ﴿فَٱنۢبَجَسَتۡ﴾:

أفْصَحتِ الفاءُ عنِ الفعْلِ المعطوفِ عليه المحذوفِ

الفاءُ في قوله جلَّ شأنُه: ﴿فَٱنۢبَجَسَتۡ مِنۡهُ ٱثۡنَتَا عَشۡرَةَ عَيۡنٗاۖ﴾، هي الفاءُ الفصيحةُ الّتي تُفصِحُ عن محذوفٍ، قال الشّهاب: "هذه الفاءُ فصيحةٌ، وحذفُ المعطوفِ عليه لعدم الإلباس، وللإشارة إلى سرعةِ الامتثالِ، حتّى كأنّ الإيحاءَ وضربَه أمرٌ واحدٌ، وأنّ الانبجاسَ وهو انفجارُ الماء بأمر الله، حتّى كأنّ فعلَ موسى عليه الصلاة والسلام، لا دخل له فيه"[2].

وفائدةُ العطفِ بالفاء دون الواو أيضا لما تدلُّ عليه الفاءُ منَ التّعقيب؛ للدّلالة على سرعةِ امتثالِ موسى عليه السلام، وسرعةِ الإنعامِ عليهم منَ الله تعالى عليهم بظهور الماء.

بَلاغةُ الإيجازِ بالحذْفِ:

الانْتِقالُ منَ الأمْرِ بالضّرْبِ إلى أثَرِه، إيجازًا لذِكْرِ الضَّربِ

في قوله تعالى: ﴿أَنِ ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡحَجَرَۖ فَٱنۢبَجَسَتۡ﴾ إيجازٌ بالحذف؛ إذِ التّقدير: ضربَ فانبجسَت، "ونكتةُ الحذف الدّلالةُ على

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 1/366.
(2) الشّهاب، عناية القاضي: 4/227، والطِّيبِيّ، فتوح الغيب: 6/623، والآلوسي، روح المعاني: 5/83.

سرعة الامتثال، وظهور الأثر في الحال، وعلى أنّ المقصودَ بالأمر أثرُ الضّربِ، لا الضّربُ نفسُه، والإشارةُ إلى أنّ ترتُّبَ الانبجاسِ وإن كان في الظّاهر على ضرب موسى عليه السلام، ولكنّه في الحقيقة على أمر اللّه تعالى، وبتعليقه عليه"[1].

كما أنّ فيه مبالغةً على شدّة الامتثال لدى موسى عليه السلام؛ إذ هو "لم يتوقّف عنِ اتّباع الأمر، وأنّه منِ انتفاء الشّكّ عنه بحيث لا حاجةَ إلى الإفصاح به"[2].

بَلاغةُ التّعْبيرِ في ﴿فَٱنۢبَجَسَتۡ﴾:

لفظُ (انْبَجس) بمعنى سالَ الماءُ قليلًا، ثمّ انْفَجرَ بقوّةٍ

الانبجاسُ في قوله جلّ شأنُه: ﴿فَٱنۢبَجَسَتۡ مِنۡهُ ٱثۡنَتَا عَشۡرَةَ عَيۡنٗاۖ﴾ يدلُّ على الانفجار، غير أنّه أخفُّ، فهو يخرجُ كالعَرَقِ ثمّ يسيل[3]، فالانبجاسُ هو خروجُ الماء بقلّة[4]، ومجيئُه على صيغة الانفعال للدّلالة على المطاوعة - فالعيون الاثنتا عشرةَ كلُّها سالَت استجابةً للضّرب الّذي وقع على الحجر بتلك العصا.

معنَى (مِن)، في قولِه: ﴿فَٱنۢبَجَسَتۡ مِنۡهُ﴾:

خُروجُ الماءِ منَ الحَجَرِ الّذي ضُربَ، لا من مكانٍ غيرِه

ذَكَر أنّ الانبجاسَ في قوله تعالى: ﴿فَٱنۢبَجَسَتۡ مِنۡهُ ٱثۡنَتَا عَشۡرَةَ عَيۡنٗاۖ﴾ وقعَ منَ الحجر، "و(مِن) هنا لابتداء الغاية، والضّميرُ عائدٌ على الحجر المضروب، فانفجارُ الماء كان منَ الحجر لا منَ المكان، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنَ ٱلۡحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنۡهُ ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ﴾ [البقرة: 74]"[5]؛ وذلك للدّلالة على أنّ خروجَ الماءِ كان منَ الحجر الّذي ضُرب، لا منَ الأرض، وهذا أبلغُ في الإعجاز، إذ إنّ "خروجَ الماء منَ الأرض السّهلةِ كثيرٌ معهود، ولكنّ خروجَه منَ الحجر هو أمرٌ خارقٌ للعادة"[6].

(1) ابن كمال باشا، تفسير ابن كمال باشا: 1/195.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/169.
(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/466، وابن عادل، اللّباب: 9/352.
(4) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 15/388.
(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 1/369.
(6) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 6/2981.

نُكتةُ تَقْديمِ شِبْه الجُملةِ على الفاعلِ:

بُدِئَ بخروجِ الماءِ منَ الحجرِ؛ لأنّه أخطرُ شأنًا من عددِ العُيونِ

قُدِّمَ شبهُ الجملة ﴿مِنْهُ﴾ على الفاعل ﴿ٱثْنَتَا عَشْرَةَ﴾، في قوله تعالى: ﴿فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًاۖ﴾، ولم يقُل: (انبجست اثنتا عشرةَ عينًا منه)، فقدَّم الجارَّ والمجرور المتضمِّنَ ضميرَ الحجرِ على العيون؛ لأنّ شأنَ الإعجاز هو في خروج الماء منَ الحجر، لا في كون العيون اثنتي عشرةَ عينًا.

الموقعُ النّحويُّ للفظِ ﴿عَيْنًاۖ﴾:

العُيونُ الغُرَرُ، بيانٌ لِما تفجّرَ وانْبَجسَ منَ الحَجرِ

في قوله تعالى: ﴿فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًاۖ﴾، نُصِبَت ﴿عَيْنًاۖ﴾ على التّمييز؛ لبيان العدد المذكور، فالّذي انبجسَ من ذلك الحجر كان عيونًا، فقيَّدها بكونها كذلك؛ للدّلالة على أنّها لم تكن مختلطةً، ولا ماءً واحدًا، "فإن قيل: إذا كانتِ العينُ لفظًا مشتركًا بين حقائقَ، فكيف وقعَت هنا تمييزًا؟ فالجواب: أنّ قولَه: ﴿۞وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ﴾، وقولَه: ﴿فَٱنفَجَرَتْ﴾، وقولَه: ﴿مَّشْرَبَهُمْۚ﴾ دليلٌ على إرادة عين الماء، فاللّفظُ مع القرينة مميَّزٌ، والعَينُ منَ الماء شبيهةٌ بالعين منَ الحيوان؛ لخروج الماءِ منها، كخروج الدَّمعِ من عينِ الحيوان"[1].

الموقعُ البَيانيُّ لجُملةِ: ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْۚ﴾:

فصلُ الجملةِ عن سابقتِها، استئنافٌ بيانيٌّ بليغٌ

الجملةُ في قوله تعالى: ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْۚ﴾، جاءَت لبيانِ شدّة تمايُزِ تلك العيون[2]، فهي "جملةُ استئنافٍ تدلُّ على أنّ كلَّ سبطٍ منهم قد صار له مشربٌ يعرِفُه، فلا يتعدّاه لمشربِ غيرِه، وكأنّه تفسيرٌ لحكمة الانقسام إلى اثنتي عشرةَ عينًا، وتنبيهٌ عليها"[3]. وفصلُ الجملة عن سابقتها؛ لأنّها جاءَت جوابًا عن سؤالٍ مُقدَّرٍ: (هل عَلِمَ كلُّ قومٍ مشربَهم من هذه العيون؟)، فهي استئنافٌ بيانيٌّ أو ما يُسمّى بشبهِ كَمَالِ الاتّصال.

(1) ابن عادل، اللّباب: 2/108.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/133.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 1/370 - 371.

فائِدةُ دُخولِ ﴿قَدۡ﴾:

مَكانُ شُرْبِ كلِّ قبيلةٍ منهم معروفٌ لدَيْهم ابْتِداءً

في قوله تعالى: ﴿قَدۡ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٖ مَّشۡرَبَهُمۡۚ﴾، افتتح الجملةَ بـ (قد) الدّالّة على التحقيق؛ للدّلالة على تحقّق العلم بمكان الشُّربِ، وأنّ معرفتَهم بمشربهم كانت سابقةً لانبجاسه، وذلك رحمة بهم؛ حتّى لا يقع بينهم منَ التّعدّي والتّباغضِ، مع "ما فيه منِ استقرار أمورِهم، واطمئنان نفوسِهم، وعدم تعدِّي بعضهم على بعض"[1].

نُكتةُ تنكيرِ ﴿أُنَاسٖ﴾:

كلُّ سِبْطٍ منهم كان أمّةً كبيرةً، كثيرةَ العددِ، ممّا يُوحِي به التّنكيرُ

في قوله تعالى: ﴿قَدۡ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٖ مَّشۡرَبَهُمۡۚ﴾، جاء لفظ (أُناسٍ) نكرةً، إفادةً للتّكثير، والمرادُ بهم الأسباط، والتّعبيرُ عنهم بذلك "إيذانًا بكثرة كلّ واحدٍ منَ الأسباط"[2]، ويَؤولُ ذلك إلى عظيم الإنعام عليهم، بتقطيعِهم وتقسيمِهم على حسب الأسباط، فهم - على كثرتهم - لا يختلِطُ عليهم مكانُ شُربِهم، ولا يتدافعون دونه.

معنَى ﴿مَّشۡرَبَهُمۡۚ﴾ وبناؤُها الصّرفيُّ:

عُيّنَ لكلِّ سِبْطٍ منهم مكانٌ لشُربِهم، فلا يتجاوزُه لغيرِه

قوله: ﴿قَدۡ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٖ مَّشۡرَبَهُمۡۚ﴾ جاء قوله: ﴿مَّشۡرَبَهُمۡۖ﴾ في قوله تعالى: ﴿قَدۡ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٖ مَّشۡرَبَهُمۡۚ﴾ على وزن (مَفعَل) منَ الشّراب، وهذا الوزنُ يَصلحُ أن يكونَ للمصدر والزّمان والمكان[3]، وفي هذا الموضع يُرادُ به اسمُ المكان بمعنى "موضع الشّرب، والعلمُ بموضع الشّرب كنايةٌ عن عدم التّجاوزِ عنه، كما يُقال: فلانٌ يعرفُ حدَّه؛ أي: لا يتجاوز عنه، ففي الكلام إيجازٌ بليغٌ؛ حيث دلَّ على سبق التّعيين والتّخصيص"[4].

فائِدةُ إضافةِ المشرَبِ إليهم:

في قوله جلّ شأنُه: ﴿قَدۡ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٖ مَّشۡرَبَهُمۡۚ﴾، أضاف المَشربَ

(1) طنطاويّ، الوسيط: 5/399.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/282، والطِّيبِيّ، فتوح الغيب: 6/624.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 1/354.
(4) ابن كمال باشا، تفسير ابن كمال باشا: 1/196.

غَرَضُ اختصاصِ كلِّ قبيلةٍ بمَشرَبٍ خاصٍّ بهم

إليهم؛ دلالةً على أنّهم علموا عينَهم الخاصّةَ بهم[1]، فلمّا "أباحَ لكلّ سبطٍ منَ الأسباط ذلك الماء الّذي ظهر من ذلك الشّقّ الّذي يليه، صار ذلك كالمِلْكِ لهم، وجازت إضافتُه إليهم"[2]، وفي هذا دلالةٌ على مدى إنعام اللّه تعالى عليهم.

دَلالةُ عطْفِ ﴿وَظَلَّلْنَا﴾ على ﴿فَٱنۢبَجَسَتۡ﴾:

معنَى الإنعامِ عليهم بالظّلالِ، بعدَ الإنعامِ عليهم بسُقْيا الماءِ

قوله جلّ شأنُه: ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَٰمَ﴾ عطفَ الإنعامَ عليهم بالتّظليل بالغمام على انبجاس الماء، إذ عَطِشوا وطلبوا السُّقيا من موسى عليه السلام، فلمّا ذكرَ "تبريدَ الأكبادِ بالماء، أتبعَهُ تبريدَها بالظِّلِّ فقال: ﴿وَظَلَّلْنَا﴾؛ أي: في التِّيهِ، ﴿عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَٰمَ﴾؛ أي: لئلّا يتأذَّوا بالشّمس"[3].

فائِدةُ تَعْديةِ الفعْلِ ﴿وَظَلَّلْنَا﴾ بـ(على):

الغَمامُ لا يتعلّقُ بالمكان، بل يتعلّقُ بهم، يتحرّكُ بحركتِهم، كمُعجزةٍ ظاهرةٍ

في قوله جلّ شأنه: ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَٰمَ﴾، جاء فعلُ التّظليل متعدّيًا بالحرف (على)؛ ليدلَّ على التّمكُّنِ في الاستعلاء عليهم؛ "أي: جعلنا ذلك بحيث يُلقِي عليهم ظِلَّهُ لِيقيَهم من حرِّ الشّمسِ، وكان يسيرُ بِسَيْرِهم، ويسكُنُ بإقامتِهم"[4]، فهو ظلٌّ مستقرٌّ عليهم، جُعِلَ فوقهم لا يفارقهم، فالغمامُ لا يتعلّقُ بالمكان، بل تعلّقَ بهم، يتحرّكُ بحركتهم. ويمكن أن يكون الفعلُ ﴿وَظَلَّلْنَا﴾ مُضَمَّنًا الفعلَ (أنعمنا) الّذي يتعدّى بـ(على)، فتكون بلاغةُ التّضمين في قوّة الفعلَيْن؛ أي: أنعمنا عليهم الغمامَ مُظَلِّلًا لهم.

نُكتةُ تَقْديمِ شِبْه الجُملةِ على المفعولِ:

كونُ الغمامِ الّذي يُظلّلُهم، نِعمةً اختَصّهمُ اللهُ تعالى بها

قدّم الجارَّ والمجرورَ في قوله جلّ شأنه: ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَٰمَ﴾ على المفعول به، ولم يَقُلْ: (وظلّلنا الغمام عليهم)؛ اهتمامًا بشأنهم،

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/282.
(2) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 3/530.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/134.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 5/83.

وتخصيصًا لهذا الغمام بهم، فهو عليهم وحَسْب، ولا يصلُ إلى غيرهم، وفي هذا تسجيلٌ عليهم بالامتنان.

معنَى (أل) في ﴿ٱلْغَمَٰمَ﴾:

غَرَضُ جعْلِ جِنْسِ الغمامِ ظِلًّا لهم في السِّياقِ

في قوله جلّ شأنه: ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَٰمَ﴾، دخلتِ اللّامُ على الغمام للدّلالة على جنس الغمام، فليس المرادُ أنّ ما ظلّلَهُم هو غَمامةٌ معهودةٌ، بل نوعُ الغمام وجنسُه، صار ظلًّا لهم، فكأنّ وظيفةَ الغمام تغيّرَت، وأُضِيفَ إليها أن يكون ظلًّا لهؤلاء القوم، وهذا يُسْفِرُ عن عظيمِ آلاء الله تعالى عليهم؛ إذ جَعلَ الغمامَ ظِلًّا لهم، والأصل به أن يأتي بالسُّقيا! وجعلَ الحَجرَ المُصْمَتَ مصدرًا لرِيِّهم وسَقْيِهم، والأصلُ أن يُبنَى منه ما يُظِلُّهم، ولم يجعلِ الغمامَ هو ما يأتيهم بالماء؛ لأنّ المطرَ لم يكن ليسقيهم؛ ثَمّ إذ لا تمسكه الرّمال.

فائِدةُ العطْفِ بالواو، في: ﴿وَأَنزَلْنَا﴾:

جمَعَ لهم منَ النِّعَمِ ما يَحفظُ وُجودَهم، وقايةً منَ الشّمسِ، ووفْرةً للزّادِ

عطفَ الجملةَ في قوله جلّ شأنُه: ﴿وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ﴾ على قوله تعالى: ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَٰمَ﴾، فَعطَفَ الإنعامَ عليهم بالطّعام، على الإنعام عليهم بتظليلِهم بالغَمام؛ إذ كلاهما منَ النِّعمِ العظيمةِ الّتي لولاها لهلك بنو إسرائيل في تلك الأرض، ولم يَعطف بالفاء؛ لأنّ ترتيبَ إيجادِ النّعم ليس مرادًا هنا، بل مُطلَق ذِكْرِها وجمعِها.

نُكتةُ تَعْديةِ فعْلِ ﴿وَأَنزَلْنَا﴾ بـ (على):

أنعمَ عليهم بالمنِّ والسّلْوَى، على وجهِ الوَفْرةِ والكِفايةِ

في قوله جلّ شأنُه: ﴿وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ﴾، جعل فعلَ الإنزال متعدّيًا بـ (على)، ولم يقُل: (أنزلنا لهم)؛ للدّلالة على الإنعام بذلك التّنزيل، فكأنّه تضمّن معنى (أنعمنا). كما أنّه يدلُّ على تمكّن هذه النّعمة منهم، بحيث إنّها وافرةٌ كافيةٌ.

بَلاغةُ تَقْديمِ ﴿عَلَيْهِمُ﴾ على المفعولِ:

قدّم الجارَّ والمجرورَ في قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ

وَٱلسَّلۡوَىٰۖ﴾ على المفعول به، وهو قوله: ﴿ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰۖ﴾، ولم يقُل: (وأنزلنا المنّ والسّلوى عليهم)؛ لأنّ هذا الطّعامَ كان خاصًّا بهم، دون غيرهم، واهتمامًا بشأنهم.

اختَصّهمُ الله تعالى بهذا الغِذاء المتميِّز؛ وهو (المنُّ والسّلْوَى)

نُكتةُ تَقْديمِ ﴿ٱلۡمَنَّ﴾ على ﴿ٱلسَّلۡوَىٰۖ﴾:

في قوله جلّ شأنُه: ﴿ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰۖ﴾، قُدّم ذكرُ المّنّ على السّلوى؛ لأنّ الامتنانَ به أكثرُ منَ السّلوى؛ لِما أنّه ينزلُ منَ السّماء، ويجدونه صالحًا للأكل بلا عملٍ منهم لإنضاجه، والسّلوى طائرٌ يحوجُهم العملُ لإنضاجه.

المِنّةُ بالمَنّ أظْهرُ، فكان بالتّقديمِ أجْدرَ

دَلالةُ فعْلِ الأمْرِ ﴿كُلُواْ﴾ في الآيةِ:

جاء فعلُ الأمر في قوله جلّ شأنُه: ﴿كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡۚ﴾ دالًّا على الإباحة والإذن[1]. ويُضاف إلى ذلك أنّ الأكلَ منَ الضّروريّات، فلا يحتاجُ فيه إلى الإذن والإباحة، ولكن جاء فعلُ الأمرِ الدّالّ على الإباحة؛ للإشعار بهذه النّعمة والتّذكير بها، وإظهار الامتنان عليهم.

إباحةُ الأكلِ وهو مُباحٌ؛ للإشعارِ بالنِّعمةِ في الغُدوِّ والرَّواحِ

معنَى (مِن) في: ﴿مِن طَيِّبَٰتِ﴾:

في قوله جلّ شأنه: ﴿كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡۚ﴾، جاءَت (مِن) للدّلالة على التّبعيض؛ لأنّ المنَّ والسّلوى مِن بعض الطّيّبات[2]، ويجوز أن تكونَ بيانيّةً، والمعنى "كُلُوا طيّبات ما رزقناكم، والمغزى وصفُها، بأنّها طيّبةٌ كلّها، و(مِن) البيانيّة دالّة على كمال طيبها، وكمال الإنعام بها"[3].

المباحُ لهم أكْلُه، هو ما كان منَ الطّيّباتِ

معنَى ﴿طَيِّبَٰتِ﴾ ودلالةُ جمْعِها وإضافَتِها:

قولُه جلّ شأنُه: ﴿طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡۚ﴾ وصف ما أباحه لهم أكله

نِعَمُ الله جمْعًا وإفرادًا، لا نهايةَ لعطائِه بها

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 1/346.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 1/347.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 6/2982.

بأنّه طيّبٌ؛ أي: المستلذّ منَ الأكل[1]، وفيه إشارةٌ إلى أنّ الحرامَ ليس طيّبًا. وجَمَعَها للدّلالة على أنّ الحالَ الطّيّبَ كثيرٌ وفيرٌ، وأنّ فيه غِنًى، وأضافها إلى الرّزق إشارة إلى أنّ الطّيّبَ يُشترطُ أن يكون حلالًا ممّا رزقكم اللّه، وليس ممّا يُؤخَذُ بالتّعدّي والسّرقة والغصب.

معنَى (ما)، في: ﴿مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾:

قولُه جلّ شأنُه: ﴿طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾: يَحْتَمِلُ أن تكونَ (ما) مصدريّةً، بمعنى: طيّبات رزقكم، ويَحتمِلُ أن تكونَ موصولةً، بمعنى: من طيّبات الّذي رُزقتم به، وهي في كلتا الحالين تدلُّ على المنِّ والسَّلوى[2]، والتّعبيرُ عن ذلك بهذا الأسلوب دون أن يقولَ: (كلوا منه) تصريحًا بكونه رزقًا منَ اللّه تعالى.

كلُّ رِزْقٍ منَ الطّيّباتِ مأمورٌ بأكْلِه في كلِّ الحالاتِ

سِرُّ التّعْبيرِ بصِيغةِ التّعظيمِ، في: ﴿رَزَقْنَٰكُمْ﴾:

قولُه جلّ شأنُه: ﴿طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾، أسند الرّزقَ إلى ضمير الجمع الدّالِّ على التّعظيم؛ أي: رزقناكم إيّاه "بصفة العظمةِ القاهرةِ، لِمَا نريد ممّا لم تعالجوه نوع معالجة"[3].

والتّعبيرُ عن ذلك بهذا الأسلوب دون أن يقولَ: (كلوا ممّا رُزقتم)؛ تصريحًا بكونه رزقًا منَ اللّه تعالى أتاكم، بما لنا منَ العظمة، فهو رزقٌ عظيمُ الشّأن، وكان كذلك، لأنّهم لم يبذلوا عليه جهدًا، فهو رزقٌ عظيمٌ.

اللّهُ وحدَه رَزَقَهم ذلك الرِّزقَ العظيمَ؛ لأنّه خارجٌ عنِ المعُهودِ

بَلاغةُ تَرتيبِ ذكْرِ النِّعَمِ:

جاءتِ النّعمُ مذكورةً بهذا التّرتيب: فذَكر أوّلًا نعمةَ الماء؛ لتعلُّقِها بما جاء في أوّل الآيةِ منَ التّقطيع المذكور، فمن فوائد التّقسيم أن لا يقعَ بينهم خلافٌ؛ لأنّ الماءَ يأخذونه من مكانٍ محدّدٍ، بخلاف المنّ

رُتِّبتِ النِّعمُ المذكورةُ حسبَ الأهميَّةِ والأولويّةِ في حياةِ النّاسِ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/282.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/282.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/134.

والسّلوى فهو لا يتعلَّقُ بحجرٍ، ثمّ ذكر تبريدَهم من حرارة الشّمس؛ لتعلّقه بالماء والحرّ، ثمّ أتبعه بالطّعام، وهو يأتي بعدَ العطش، في قدرة الإنسانِ على البقاء حيًّا أطول زمان دونه.

دَلالةُ واوِ العطْفِ، في: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا﴾:

كُفرانُ النِّعمةِ ظُلْمٌ يَعودُ على صاحبِه، ولا يَطالُ المُنْعِمَ

قولُه جلّ شأنُه: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾، عَطفَ بالواو الفصيحة؛ الّتي تُفصحُ عن وجودِ محذوفٍ، فالمعطوفُ عليه مُقدَّرٌ؛ "أي: فظَلَموا بِكُفْرانهم هذه النِّعم، وما ظلمونا، فالواو فصيحة"[1]. ويمكن أن تكون واوًا للحال على معنى: فَظَلَموا بِكُفْرانهم هذه النّعم أنفسَهم فقط، والحال أنّهم ما ظلمونا.

دَلالةُ (ما) على ضميرِ العظَمةِ، ونفْيِ وُقوعِ الظّلْمِ:

عَظَمةُ الله أعلَى وأجلُّ من ظلْمِ الظّالمين

في قولِهِ جلّ شأنُه: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا﴾، عُبِّرَ بـ (ما) النّافية؛ للدّلالة على أنّهم لم يظلموا المتّصفَ بالعظمة، والتّعبيرُ بصيغة التّعظيم في النّفي يدلُّ على انتفاء قدرتِهم على إيقاع الظّلم على العظيم ﷻ، فإنّ عظمتَه لا يمكن أن يَضرَّها شيءٌ من ظُلمِكم، كما أنّ أعمالَ الصّالحين لا تنفعُه ﷻ، فهو الغنيُّ عن عباده.

معنَى الواوِ في قوله: ﴿وَلَٰكِن﴾:

الغَرَضُ من عطْفِ حُكمٍ مُثبَتٍ، على حُكْمٍ مَنفيٍّ

قولُه جلّ شأنُه: ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾ معطوفٌ على قوله تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا﴾[2]، فعطفَت الآيةُ حكمًا مثبتًا على حكمٍ منفيٍّ؛ وذلك لأنّ الواو جاءَت مع (لكن) الاستدراكيّة، الّتي تقع بين نقيضين. ويمكن أيضًا أن تكونَ واوًا للحال كما تقدّم.

معنَى الحرفِ ﴿وَلَٰكِن﴾، في الآيةِ:

قولُه جلّ شأنُه: ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾، جاءَت هذه الجملةُ بعد الجملة الّتي نفى فيها وقوعَ الظّلم، فَتَشَوَّفَتِ النّفسُ إلى

(1) ابن كمال باشا، تفسير ابن كمال باشا: 1/189.
(2) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 1/437.

ذكر مَن وقع به الظّلم، واتّصل به ضررُه، فاستدرك على الجملة المنفيّةِ، بإثبات وقوع الظّلمِ على أنفسهم[1]، فوقعَت (لكن) هنا موقعًا على أحسن ما يكون؛ "لأنّه تقدّم قبلها نفيٌ، وجاء بعدها إيجابٌ.. لأنّ الاستدراكَ الحاصلَ بها، إنّما يكون يدلُّ عليه ما قبلها بوجهٍ ما، وذلك أنّه لمّا تقرّر أنّه قد وقع منهم ظلمٌ، فلمّا نُفي ذلك الظّلم أن يصلَ إلى الله تعالى، بقيتِ النّفسُ متشوِّفةً ومتطلِّعةً إلى ذِكر مَن وقع به الظّلم، فاستدرك بأنّ ذلك الظّلمَ الحاصلَ منهم، إنّما كان واقعًا بهم"[2].

إثباتُ وُقوعِ الظّلمِ على الجهةِ الّتي صَدرَ منها الظّلْمُ

نُكتةُ دُخولِ ﴿كَانُوٓاْ﴾، في الآيةِ:

عبّر في قوله جلّ شأنه: ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾ عن ظُلمِهِمْ أنفسَهم مصدَّرًا بالفعل (كان)؛ للدّلالة على رسوخ ذلك الظّلم فيهم، فهو جِبِلَّةٌ وطبعٌ فيهم[3]، فقوله: ﴿كَانُوٓاْ﴾ مُشعِرٌ "بأنّ ذلك من شأنهم ومن طريقتهم، ولأنّها أيضًا تكون في كثير منَ المواضع تُستعمَلُ حيث يكون المسنَدُ لا ينقطعُ عنِ المسنَدِ إليه، نحو قوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٗا﴾ [الأحزاب: 40]؛ فكان المعنى: ولكن لم يزالوا ظالمي أنفسِهم بكثرة ما يصدرُ منهم منَ المخالفات"[4].

الظُّلْمُ جِبِلَّةٌ فيهم، وطبعٌ لايُفارِقُهم، رَغْمَ نِعَمِ الله عليهم

فائِدةُ تَقديمِ المفعولِ على عامِلِه:

قدَّم المفعولَ به في قوله جلّ شأنه: ﴿كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾، ولم يَقُل: (وكانُوا يظلمُونَ أنفُسَهُم)؛ لأنّ أثرَ ظُلْمِهم لا يتخطّاهم[5]، فتقديمُ المفعولِ به هنا أفادَ تخصيصَ الظّلم بأنفسِهم، ومعنى الآية: "وما رَجَع إلينا ضَررُ ظُلمِهم بِكُفْرانِهِمُ النِّعَمَ، ولكن كانوا يَضرُّون

مَن ظَلَمَ بكُفْرانِ نِعَمِ الله لديه، رَجَعَ وَبالُ ظُلْمِهِ عليه

(1) ابن كمال باشا، تفسير ابن كمال باشا: 1/189.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 1/348.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/134.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 1/348.
(5) الشّهاب، عناية القاضي: 4/227.

أنفسَهم، ويرجِعُ وبالُ ظُلْمِهم إليهم"[1]. وفيه اهتمامٌ بمَن وقع عليه أثرُ الظّلم، ولا سيّما وقد سبق ذِكرُ الظّلمِ في الآية.

فائِدةُ مجيءِ ﴿يَظْلِمُونَ﴾:

سِرُّ التّعبيرِ بالظّلْمِ دَلالةٌ على الإصْرارِ، وعلى الاستمْرارِ

قولُه جلّ شأنُه: ﴿كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾، عبَّر بالظّلم الّذي هو أصلٌ لكلّ الذّنوب صغيرِها وكبيرِها، وجَمَعَ بين الفعل الماضي والفعل المضارع "للدّلالة على تماديهم فيما هم فيه منَ الظّلم والكفر"[2]، فالظّلمُ خُلُقٌ مستقرٌّ فيهم. وفيه إشارةٌ على إصرارهم على المعاصي، ومع الدّلالة على الاستمرار، فإنّ فيه دلالةً على حكاية الحال الماضية، تصويرًا لِظُلْمِهم.

بَلاغةُ المتشابِهِ اللّفظيّ بين آيةِ الأعرافِ: (160) وآيتَي البقرةِ: (57)، و(60):

التّعبيرُ بالانْبِجاسِ هنا وبالانْفِجارِ هناك، والاخْتِلافُ بِضَميرَيِ الغَيْبَةِ والخِطابِ

قوله جلّ شأنه: ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسۡتَسۡقَىٰهُ قَوۡمُهُۥٓ أَنِ ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡحَجَرَۖ فَٱنۢبَجَسَتۡ مِنۡهُ ٱثۡنَتَا عَشۡرَةَ عَيۡنٗاۖ قَدۡ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٖ مَّشۡرَبَهُمۡۚ وَظَلَّلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلۡغَمَٰمَ وَأَنزَلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰۖ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾ يشابه الآيتين في سورة البقرة: ﴿وَظَلَّلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡغَمَامَ وَأَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰۖ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾ [البقرة: 57]، وقوله تعالى: ﴿۞وَإِذِ ٱسۡتَسۡقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦ فَقُلۡنَا ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡحَجَرَۖ فَٱنفَجَرَتۡ مِنۡهُ ٱثۡنَتَا عَشۡرَةَ عَيۡنٗاۖ قَدۡ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٖ مَّشۡرَبَهُمۡۖ كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ مِن رِّزۡقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ﴾ [البقرة: 60]، إلّا أنّ بينهما اختلافين:

الأوّل: عبَّر بالانبجاس هنا، وفي البقرة بالانفجار: فالانفجارُ الانشقاقُ، والانبجاسُ اسمٌ للشَّقّ الضَّيِّق، فهما مختلفان اختلافَ العامِّ والخاصِّ، ولعلّه انبجس أوّلًا، ثمّ انفجر ثانيًا، وكذا العيون:

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/169.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/283.

يظهر الماءُ منها قليلًا، ثمّ يكثرُ لدوام خروجه[1]. وعبّر بالانفجار في سورة البقرة لأنّه في سياق الذّمّ والتّوبيخ، فكان ذكرُ الإنعام المبالَغ أوقعَ مع التّوبيخ، وقد يكون في كلّ سورةٍ تصويرٌ لمرحلةٍ منَ المراحل، فالأمر بدأ أوّلًا بالانبجاس، ثمّ الانفجار.

والثّاني: الاختلافُ بِضَميرَي الغَيْبة والخِطاب، فقد جاء بضمير الغَيْبةِ في الأعراف: ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ﴾، وضمير الخطابِ في البقرة: ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ﴾ [البقرة: 57]؛ لأنّ ما في سورة البقرة، قصد به التَّوبيخَ، فكان الخطابُ أليقَ به[2].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

قطّعْناهُم ومزّقنَاهُم:

التّمزيقُ أدلُّ على العقوبةِ؛ لأنّه لا يُؤدّي إلّا إلى التّفْتيتِ والتّخرُّقِ

القَطعُ: إبانةُ بَعضِ أجزاء الجِرْم مِن بعضٍ فَصْلًا، أمّا التّمزيق فهو من (مَزَقَ)، وأصلُه يدلُّ على تَخَرُّقٍ في شَيءٍ. فالتّمزيقُ أدلُّ على العقوبة؛ لأنّه لا يؤدّي إلى التّنظيم، بل إلى التّفتيت والتَّخرُّق، كما في قوله تعالى: ﴿فَقَالُواْ رَبَّنَا بَٰعِدۡ بَيۡنَ أَسۡفَارِنَا وَظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَحَادِيثَ وَمَزَّقۡنَٰهُمۡ كُلَّ مُمَزَّقٍۚ﴾ [سبأ: 19]؛ أي: قطَّعناهُم ومزَّقناهُم في البلاد بعد اجتماعهم، فتمزيقُهم يدلُّ على تَفَرُّقِهِمْ وتَشَتُّتِهِمْ، وزَوالِ مُلكِهِم، وقَطعِ دَابِرِهِم[3].

وقد وردَ التّمزيقُ في القرآن الكريم أربعَ مرّاتٍ في آيتين، وهما قولُه تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هَلۡ نَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ رَجُلٖ يُنَبِّئُكُمۡ إِذَا مُزِّقۡتُمۡ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمۡ لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدٍ﴾ [سبأ: 7]، وقولُه جلّ شأنه: ﴿فَقَالُواْ رَبَّنَا بَٰعِدۡ بَيۡنَ أَسۡفَارِنَا وَظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَحَادِيثَ وَمَزَّقۡنَٰهُمۡ كُلَّ مُمَزَّقٍۚ﴾ [سبأ: 19]، أمّا التّقطيعُ في الآية فهو نعمةٌ أنعمها اللّهُ تعالى عليهم؛ إذ يُسهِّلُ رعايةَ أمرِهم بتقسيمِهم إلى قبائلَ.

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 3/529.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/144.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (مزق).

انْبَجست وانْفَجرت:

الانْبِجاسُ أَخفُّ مِنَ الانْفِجارِ، فكلُّ انْبِجاسٍ انفِجارٌ، لا العكسُ

يُقال: بَجَسَ الماء وانبَجَسَ: انفجر، لكنّ الانبجاسَ أكثرُ ما يُقال فيما يخرجُ من شيءٍ ضَيّقٍ، والانفجارُ يُستعملُ في الضَّيِّق والواسع، فالانبجاسُ أخفُّ منَ الانفجار[1]، فكلُّ انبجاسٍ انفجارٌ من غير عكس[2]. فالانبجاس: خروجُ الماء الجاري بقلّةٍ، والانفجارُ: خروجُه بكثرة، والجمعُ بينهما أنّ الماءَ ابتدأ بالخروج قليلًا، ثمَّ صار كثيرًا[3].

ولذلك ورد قولُه تعالى: ﴿فَٱنۢبَجَسَتۡ مِنۡهُ ٱثۡنَتَا عَشۡرَةَ عَيۡنٗاۖ﴾، وفي البقرة ورد قولُه جلّ شأنه: ﴿فَٱنفَجَرَتۡ﴾ [البقرة: 60]، فعبّر في سورة الأعراف بالانبجاس؛ لأنّه كافٍ في تعنيفهم وذَمِّهم على كُفْرِهم بعد المنّ به، أمّا في سورة البقرة فعبّر بالانفجار؛ لأنّ السّياقَ في بيان إسراعهم في المُرُوقِ، والانفجارُ أنسبُ له، ليكون التّعنيفُ حينئذٍ أشدَّ[4].

الغَمامُ والسَّحابُ:

يُلاحَظُ في الغَيْمِ السَّتْرُ، وفي السّحابِ الحركةُ وانْسِحابُه بالهواءِ

الغَمامُ من (غمّ، أو غمم)، وأَصلُه يَدُلُّ على تَغطِيَةٍ، والغَمُّ: سَتْرُ الشّيء، ومنه: الغَمامُ لكونه ساترًا لضوء الشّمس[5].

أمّا السّحابُ فهو منَ الجذر (سَحَبَ)، وأصلُه يدلُّ على جَرِّ شَيءٍ مَبسوطٍ ومَدِّهِ، تقولُ: سَحَبتُ ذَيلِي بالأَرضِ سَحبًا. وسُمِّي السَّحابُ سَحابًا؛ إمّا لجرِّ الرّيح له، أو لجرّه الماء، أو لانجراره في مَرِّه[6]، فَيُلاحَظ في الغيم السّترُ، وفي السّحاب الحركةُ وانسحابُه بالهواء.

ولا شكَّ أنّ بني إسرائيل إذ كانوا في التِّيهِ، فإنّهم أحوجُ للسَّتْرِ، فكان الغمامُ نعمةً في حقّهم لا السّحاب.

---

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/466.
(2) ابن عادل، اللّباب: 9/352.
(3) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 15/388، والنّسفيّ، التّيسير في التّفسير: 7/36.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/133.
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (غم، غمم).
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (سحب).

وقد ورد الغمامُ في القرآن أربعَ مرّات، وهي قولُه تعالى: ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ﴾ [البقرة: 57]، وقولُه: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ﴾ [البقرة: 210]، وقولُه: ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَـٰمَ﴾ [الأعراف: 160]، وقولُه: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَـٰمِ﴾ [الفرقان: 25]، فيُلاحظُ أنّه في ثلاثٍ منها اقترن بالظِّلِّ، فالغمامُ والظّلُّ مترابطان، والرّابعة في سياق تشقّق السّماء يوم القيامة، ولا يناسبُه ذكر النّعمة بالسّحاب.

الأولادُ والأسباطُ:

يُفيدُ استِعمالُ السِّبْطِ الدّلالةَ على الامْتِدادِ؛ واستُعمِلَ في أولادِ يعقوبَ

قال العسكريّ: "الفرق بين السِّبط والوَلد: أنّ أكثرَ ما يُستعمَلُ السِّبطُ في ولد البنتِ، ومنه قيل للحسن والحسين رضي الله عنهما سِبْطا رسولِ الله ﷺ، وقد يُقال للولد سبطٌ، إلّا أنّه يفيدُ خلافَ ما يفيده؛ لأنّ قولَنا: سِبطٌ يفيدُ أنّه يمتدُّ ويطولُ. وأصلُ الكلمة منَ السُّبوط، وهو الطّولُ والامتدادُ، ومنه قيل: السَّاباط لامتداده بين الدّارين، والسَّبَطانة، ما يُرمى فيها البُنْدُق من ذلك، والسّبطُ شجرٌ سُمِّي بذلك لامتداده وطوله"[1].

فالسِّبْط كولد الولد؛ إلّا أنّه استُعمِلَ في اللّغة للدّلالة على ولد البنت عُرْفًا[2]، ويفيدُ استعمالُ السّبط الدّلالةَ على الامتداد؛ ولذا استُعمِلَ في الآية للدّلالة على أولاد يعقوبَ من إسحقَ عليهما السلام.

(1) العسكريّ، الفروق، ص: 271.
(2) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 10/174.

﴿وَإِذۡ قِيلَ لَهُمُ ٱسۡكُنُواْ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةَ وَكُلُواْ مِنۡهَا حَيۡثُ شِئۡتُمۡ وَقُولُواْ حِطَّةٞ وَٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ سُجَّدٗا نَّغۡفِرۡ لَكُمۡ خَطِيٓـَٰٔتِكُمۡۚ سَنَزِيدُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٦١ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡ قَوۡلًا غَيۡرَ ٱلَّذِي قِيلَ لَهُمۡ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِجۡزٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَظۡلِمُونَ ١٦٢﴾ [الأعراف: 161 - 162]

مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لما قَبْلَهُما:

تَبْديلُ بَنِي إسرائيلَ وظُلْمُهُمْ، زَعْمَ الإنعامِ في تِيهِ القَفارِ، وما في القريةِ من قَرارٍ

مناسبةُ هذه الآية لمَا قبلها أنّها قصّةٌ بعدَ قصّةٍ من قصص بني إسرائيل الّتي تبيّن إنعامَ اللّه تعالى عليهم، فلمّا "ذكر ما حَباهُم في القَفَار، أَتبعَه إنعامَه عليهم عندَ الوصول إلى الدّار"[1]، فقال: ﴿وَإِذۡ قِيلَ لَهُمُ ٱسۡكُنُواْ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةَ﴾، فبعد أن أنعمَ عليهم بالزّاد الوفير في التّيه، أنعمَ عليهم بالإيواء إلى قرية فيها السَّكَنُ مع الزّاد والماء، تفضّلًا منه، وتمهيدًا لحكايةِ جنايةٍ أخرى من جناياتهم.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلۡقَرۡيَةَ﴾: "القرية معروفة، والجمع القُرى على غير قياس؛ لأنّ ما كان على فَعلة بفتح الفاء منَ المعتلّ فجمعه ممدود، مثل ركوة وركاء، وظبية وظباء. وجاء القرى مخالفًا لبابه لا يُقاس عليه. ويُقال: قرية لغة يمانيّة"[2]. و(قرى، قري) أَصلٌ يدُلُّ على جُمَعٍ واجتِماعٍ. يُقال: قَرَيتُ الماء في الحوض؛ أي: جمعتُه، مِن ذَلِكَ القَرِيَةُ الْمِصْرُ الجامع، وكلُّ موضع يجتمعُ فيه ناس، والنّاس المجتمعون أيضًا، سُمِّيَت قَرِيَةً لاجتِماعِ النَّاسِ فِيها[3].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/135.
(2) الجوهريّ، الصّحاح: (قرا).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، والفيروزباديّ، بصائر ذوي التمييز: (قرى، قري).

2) ﴿حِطَّةٌ﴾: (حطّ، حطط) أَصلٌ يدلُّ على إنزَالِ الشَّيءِ مِن عُلُوٍّ، الحَطُّ: الوَضعُ، حطَّه يَحُطُّه حَطًّا فانحَطَّ، وهو وضعُ الأَحمالِ عَنِ الدَّوابِّ. وحطَّ اللّهُ عنهُ وِزرَه، في الدُّعاءِ: وضَعَه، مَثَلٌ بِذَلِكَ؛ أي: خفَّفَ اللّهُ عَن ظَهرِكَ ما أَثقَلَه مِنَ الوِزْر.

وقوله تعالى: ﴿وَقُولُواْ حِطَّةٌ﴾ كلمةٌ أُمِرَ بها بنو إسرائيل، ومعناه: اللَّهُمَّ حُطَّ عَنَّا أَوزارَنا[1]، "وقال الفرّاء: في قوله: ﴿وَقُولُواْ حِطَّةٌ﴾ [البقرة: 58]، يُقال: وقولوا ما أُمرتم به: حطّة؛ أي: هي حطّة، فخالَفوا إلى كلام بالنّبطيّة، فذلك قوله: ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوۡلًا غَيۡرَ ٱلَّذِي قِيلَ لَهُمۡ﴾ [البقرة: 59]"[2].

3) ﴿خَطِيٓـَٰٔتِكُمۡۚ﴾: (خطأ) أصلٌ يدلُّ على تَعَدِّي الشَّيءِ، والذَّهَابِ عنه، يُقالُ خَطَوتُ أَخطُو خُطوَةً، والخَطَأ مِن هَذا؛ لأَنَّهُ مُجاوَزَةُ حَدِّ الصَّوابِ، يُقالُ أَخطَأَ إذا تَعَدَّى الصَّوابَ، وخَطِئَ يَخطَأُ، إذا أَذنَبَ؛ لأَنَّهُ يَترُكُ الوَجهَ الخَيرَ. والخطيئة: الإثم، وهو ضدّ الصّواب، وفيه لغتان: القصر وهو الجيد، والمدّ وهو قليلٌ[3].

4) ﴿فَبَدَّلَ﴾: (بدل) أصلٌ يدلُّ على قيام الشّيء مقامَ الشّيءِ الذّاهبِ. يُقالُ: هذا بَدَلُ الشّيءِ وبَدِيلُهُ، بِدْل الشَّيءِ وبَدَله وبَدِيلُه: الخَلَف منه، الإبدالُ والتّبديلُ: جعلُ شيءٍ مكانَ آخر، والأَصلُ في التَّبدِيل تَغيِيرُ الشَّيءِ عَن حَالِهِ، والأَصلُ في الإبدال جَعلُ شَيءٍ مَكانَ شَيءٍ آخَرَ[4]، و"البَدَلُ: خَلَفٌ منَ الشّيء، والتّبديل: التّغيير، واستبدلتُ ثوبًا مكانَ ثوب، وأخًا مكان أخ، ونحو ذلك المبادلة"[5].

5) ﴿رِجۡزًا﴾: (رَجَزَ) أَصلٌ يدُلُّ على اضطِرابٍ. الرَّجَزُ: دَاءٌ يُصِيبُ الإبلَ في أَعجازها؛ بأن تَضطَرِبَ رِجلُ البَعِيرِ أو فَخِذَاهُ إذا أراد القِيامَ أو ثارَ ساعَةً ثُمَّ تَنبَسِطَ. الرِّجْزُ: القَذَرُ، مثل الرِّجْسِ. والرِّجْزُ: العَذَابُ[6]، ومنه قوله تعالى: ﴿فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِجۡزًا﴾؛ "والرِّجْزُ إنّما يُطلَقُ على العذاب الموجبِ للاضطراب، يُقال ارتجز إذا ارتعش"[7].

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (حطّ، حطط).
(2) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (حط).
(3) الجوهريّ، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والسّمين الحلبيّ، العمدة: (خطأ).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (بدل).
(5) الخليل بن أحمد، العين: (بدل).
(6) الجوهريّ، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (خطأ).
(7) ابن كمال باشا، تفسير ابن كمال باشا: 1/193.

وقيل: "إنّ معاذًا أصابه الطّاعون، فقال عمرو بن العاص: لا أراه إلّا رِجْزًا أو طُوفانًا، فقال معاذ: ليس بِرِجْزٍ ولا طُوفانٍ. قد جاء ذكرُ الرّجْزِ مكرّرًا في غير مَوضِعٍ، وهو بكسر الرّاء: العذاب والإثم والذَّنْب. ورِجْزُ الشّيطان: وَساوِسُه"[1].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

الأمرُ بسُكنَى إيليَا والتّمتُّعِ والسُّجودِ، وما نزلَ من رِجْزٍ بسببِ تبديلِ العهودِ

يخبرُ اللّهُ تعالى عن قِصّةٍ من قَصص بني إسرائيل، إذ قال اللّهُ لهم: ادخلوا هذه القريةَ الّتي قيل: إنّها (إيلياء)، وهي قريةٌ كثيرةُ الأشجار، غزيرةُ الثّمار، رغيدةُ العيش، وكلوا من ثمارها من أيِّ مكانٍ، وفي أيِّ وقتٍ شئتم، وقولوا: يا ربَّنا، حُطَّ عنا خطايانا، وادخلوا البابَ خاضعين لربّكم، مستكينين لعزّته، شاكرين لنعمته. فأمرهم بالخضوعِ، وسؤالِ المغفرة، ووَعَدَهُم على ذلك مغفرةَ ذنوبِهم، والثّوابَ العاجلَ والآجلَ، فلم يمتثلوا هذا الأمرَ الإلهيَّ، بل عَصَوا اللّه، واستهانوا بأمره، فغَيَّر الظالمون منهم القولَ الّذي أُمِرُوا به، فقالوا: حَبَّة في شعيرة، عِوَضًا عمّا أُمِرُوا به من طلب المغفرةِ، وغيّروا الفعلَ الّذي أُمِرُوا به، فدخلوا يزحفون على أدبارهم بدلًا منَ الدّخول خاضعين للّه، فأرسلنا عليهم عذابًا منَ السّماء، وما ظلمهم اللّه بعقابه؛ إنّما كان ذلك بسبب خروجهم من طاعة اللّه إلى معصيته، من غير ضرورةٍ ألجأتهم، ولا داعٍ دعاهم سوى الخُبث والشّرّ الّذي كان كامنًا في نفوسهم[2].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دَلالةُ الواوِ في قوله: ﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ﴾:

غَرَضُ (الواو) في الآيةِ، عطْفُ القِصّةِ على القِصّةِ

قوله جلّ شأنه: ﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ٱسْكُنُواْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ﴾: افتتح بالواو

(1) ابن الأثير، النّهاية في غريب الحديث والأثر: 2/200.

(2) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 306، وجماعة منَ العلماء، المختصر في تفسير القرآن الكريم: 1/171.

الاستئنافيّة[1]؛ للشّروع في قصّةٍ جديدةٍ عن أسلافهم، فلمّا ذكرَ إنعامَه عليهم، وهم في البَرِّ والقَفَارِ، أتبعَه بإنعامه عليهم بِدُخولِهِمُ الحواضرَ؛ ليكون دليلًا على صدقِه، إذ يخبرُهم بما لم يكن حاضرَهُ ولا أخذَه عنهم[2]، فهو "تذكيرٌ بنعمةٍ أخرى مُكّنوا منها، فما أَحسنوا قَبولَها ولا رَعَوْها حَقَّ رِعايتها"[3]، فهذه الواو هي من باب عطفِ القصّةِ على القصّة.

معنَى (إذْ) وموقِعُها الإعرابيُّ، في قوله: ﴿وَإِذۡ قِيلَ لَهُمُ﴾:

في قوله جلّ شأنُه: ﴿وَإِذۡ قِيلَ لَهُمُ ٱسۡكُنُواْ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةَ﴾، عبّر عن زمان القصّة بالظّرف (إذْ) الدّالِّ على الزّمان الماضي، وهو منصوبٌ بفعلٍ مُضمَرٍ، خُوطب به النّبيُّ ﷺ؛ أي: اذكُر لهم وقتَ قولِه تعالى لأسلافهم اسكنوا[4]؛ المعنى: واذكر "إذ قيل لهم"[5].

الزَّمنُ في القِصّةِ القُرآنيّةِ تتعلَّقُ بـه الأحـداثُ، وحـركـةُ الشَّخصيّاتِ

نُكتةُ بناءِ الفعْلِ ﴿قِيلَ﴾ لِما لم يُسَمَّ فاعِلُه:

جاء الفعلُ ﴿قِيلَ﴾، في قوله جلّ شأنُه: ﴿وَإِذۡ قِيلَ لَهُمُ ٱسۡكُنُواْ﴾، مبنيًّا للمفعول، وحُذِفَ الفاعلُ، فلم يقُل: (قلنا)، كما في سورة البقرة؛ لأنّ الفاعلَ معلومٌ[6]، فأوجزَ العبارةَ بحذفه. وإيراد الفعل "مبنيًّا للمفعول جَرْيًا على سَنَنِ الكبرياء، مع الإيذان بأنّ الفاعلَ غنيٌّ عنِ التّصريح"[7].كما أنّ فيه إعراضًا عن إكرامهم بخطاب اللّهِ تعالى لهم؛ لأنّ "السّياقَ للغضبِ عليهم تساقطهم في الكفر، وإعراضهم عنِ الشّكر، من أيّ قائلٍ كان، وبأيِّ صيغةٍ وردَ القولُ، وعلى أيِّ حالةٍ كان"[8].

غَـرَضُ السِّياقِ بيـانُ السُّقوطِ في الـكُـفْـرِ، والإعـراضِ عنِ الشُّكْرِ

(1) الدّرّة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه: 3/648.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/135.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/512.
(4) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/466، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/283، والهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 10/210.
(5) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/466.
(6) ابن كمال باشا، تفسير ابن كمال باشا: 4/173.
(7) الآلوسي، روح المعاني: 5/83.
(8) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/135.

معنَى اللّامِ في ﴿لَهُمُ﴾:

غَرَضُ السِّياقِ تَحديدُ الجِهةِ المقصودةِ بالأمرِ في الآيةِ الكريمةِ

في قوله جلّ شأنُه: ﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ٱسْكُنُواْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ﴾، جاء الفعلُ (قال) مُتعلِّقًا باللّام؛ للدّلالة على التّعليل في إيصال القولِ لهم؛ لبيان أنّهم هم المقصودُون بالقول، وأنّه قولٌ اختصَّهم به، فأفادتِ اللّامُ أنّ القولَ هذا مُخصّصٌ لجهةٍ معيّنةٍ، كما أنّه مُشعِرٌ بتأكيد مضمونِ المقولِ.

دَلالةُ عَوْدِ الضَّميرِ ﴿لَهُمُ﴾:

المُتَحَدَّثُ عنهم أسلافُ اليهودِ الّذين شَهِدُوا التِّيهَ

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ٱسْكُنُواْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ﴾، وفيه أنّ المرادَ بالضّمير الغائب في قوله جلّ شأنُه: ﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ﴾، اليهودُ الّذين عاشوا في التّيه، وهم أسلافُ المعاصرين للنّبيّ ﷺ؛ "أي: اذكر لهم وقتَ قولنا لأسلافهم"[1].

فائِدةُ التّصْريحِ بالمقُولِ له:

التَّصريحُ بأنّ القولَ قد وُجِّهَ إليهم، وقد بلَغهم، فكان حُجّةً عليهم

في قوله: ﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ٱسْكُنُواْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ صرّح بالمقول له، ولم يقُل: (وإذ قيل اسكنوا هذه القرية)؛ تأكيدًا لوصول القول إليهم، وأنّهم قد سمعوا القولَ، فانتفَت أسبابُ عدمِ استجابتِهم، كما أنّه يدلُّ على أنّهم هم المقصودُ بالمقول، وأنّ القائلَ قد واجههم بهذا المقول، وفيه إشارةٌ إلى أنّ مثلَ هذا القول، لم يُقَلْ لغيرهم، وهو التّصريحُ لهم بالإذن في السّكن في القرية.

فائِدةُ التّعْبيرِ بفعْلِ الأمْرِ ﴿ٱسْكُنُواْ﴾:

أمرُهم بالاستِقرارِ في القَريةِ، هو رِفقٌ منَ الله، وتَلطّفٌ بهم

عبّر في قوله جلّ شأنُه: ﴿قِيلَ لَهُمُ ٱسْكُنُواْ﴾ عن أمرهم بالدّخول إلى الأرض المقدّسةِ بفعل الأمر الدّالّ على الوجوب﴿ٱسْكُنُواْ﴾؛ للدّلالة على أنّ المطلوبَ منهم ليس مجرّدَ الدّخول، بل الإقامةَ في هذه الأرض، واتّخاذها سكنًا؛ "أي: ادخلوا مُطمئنِّينَ على وجه

(1) الآلوسي، روح المعاني: 5/83.

الإقامة، ولا يُسمّى ساكنًا إلّا بعد التّوطُّنِ، بخلاف الدّخول، فإنّه يكون بمجرّد الولوجِ في الشّيء على أيّ وجهٍ كان"[1].

نُكتةُ التَّعْبيرِ باسْمِ الإشارةِ المؤنّثِ القريبِ ﴿هَٰذِهِ﴾:

الإشارةُ دَلالةٌ على القُرْبِ والتّعظيمِ، والقُدسُ جديرةٌ بذلك

جاء اسمُ الإشارة في قوله جلّ شأنه: ﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ٱسْكُنُواْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ﴾، بصيغة المؤنّث القريب؛ للدّلالة على أنّ القريةَ كانت قريبةً منهم، وضمن قدرتهم لدخولها، والقريةُ المشارُ إليها هنا بيتُ المَقدِسِ[2].

معنَى (أل) في لفْظِ ﴿ٱلْقَرْيَةَ﴾:

الأمرُ بسُكنَى القريةِ، دَعوةٌ للتّحضُّرِ والتّطوُّرِ

جاء في الآية لفظُ ﴿ٱلْقَرْيَةَ﴾ معرَّفًا بالألف واللّام، والمرادُ بها قريةٌ معروفةٌ لهم، حاضرةٌ في أذهانهم، "وهي بيتُ المقدِس، وقيل: أريحا، وهي قريةُ الجبّارين"[3]، فهي لام العهد، والمعنى: أنّه "دعاهم اللّهُ سبحانه أن يدخلوا القريةَ، وأن يسكنوها، حتّى ينتقلوا منَ الصّحراء الجديب، إلى حياة الاستقرار والسّكن، وأن يَنْعَموا بما تُخرِجُ أرضُها من جنّاتٍ وزروعٍ"[4].

دَلالةُ العطْفِ في فعْلِ الأمْرِ، من: ﴿ٱسْكُنُواْ﴾ ﴿وَكُلُواْ مِنْهَا﴾:

الأكْلُ والسُّكنَى مُقترنان في زمنٍ واحدٍ، للتّلازمِ بينَهما عادةً

قولُه جلّ شأنُه: ﴿وَكُلُواْ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ﴾ معطوفٌ على قوله تعالى: ﴿ٱسْكُنُواْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ﴾؛ لاشتراكهما في زمانٍ واحدٍ، وإنّما عطف "(كلوا) على (اسكنوا) بالواو؛ لمقارنتهما زمانًا، بخلاف الدّخولِ، فإنّه مُقدَّمٌ على الأكل"[5]. والسَّكَنُ هو الاستقرارُ والمكوثُ في المكان بنيَّة العُمْران، ممّا يقتضي الأكلَ من ثمرات المكانِ، وجهد الإنسانِ، وعطاء الرّحمنِ، وبالتّالي فإنّ العطفَ بين الأمر بالسّكن،

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/135.
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/466.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/283.
(4) عبد الكريم الخطيب، التّفسير القرآنّي للقرآن: 5/501.
(5) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/283.

والأمر بالأكل، ممّا تتطلّبه الفطرةُ، ومستلزماتُ الحياة، وضروراتُ الواقع المعيش.

دَلالةُ الأمْرِ، في قوله: ﴿وَكُلُواْ﴾:

قوله جلّ شأنه: ﴿وَكُلُواْ مِنۡهَا حَيۡثُ شِئۡتُمۡ﴾، جاء الفعلُ بصيغة الأمر للإباحة؛ أي: "أبحنا لكم، ووسّعنا عليكم"[1]؛ لأنّ الإنعامَ بالشّيء على وجه الإباحةِ أقربُ إلى رضى النّفس، ومتى تحوّل إلى كونه واجبًا، كان على النّفس ثقيلًا، وشيكًا أن يؤولَ إلى الملل.

صرّحَ بالإذْنِ إرضاءً لنفوسِهم، الّتي تَتوقُ إلى هذا الأمْرِ

معنَى (من) في قولِه: ﴿وَكُلُواْ مِنۡهَا﴾:

جاء حرفُ الجرّ (مِنْ)، في قوله جلّ شأنُه: ﴿وَكُلُواْ مِنۡهَا حَيۡثُ شِئۡتُمۡ﴾، صالحًا لأن يكونَ دالًّا على التّبعيض أو البيان؛ أي: كلوا "مِن مطاعمِها وثمارِها، على أنّ (من) تبعيضيَّةٌ، أو (منها) على أنّها ابتدائيَّةٌ"[2]، وفي شبه الجملة ﴿مِنۡهَا﴾ تنبيهٌ على عِظم الإنعام؛ فهذه القريةُ ليست صالحةً للسّكن وحسب، بل فيها وفرةٌ منَ الطّعام والغذاء بما يكفي، ولو قال: (اسكُنُوا هذه القريةَ وكُلُوا حيثُ شئتُم) لم يكن هناك دليلٌ على أنّ المّأكولَ كائنٌ منها، ولو قال: (كُلُوا فِيهَا) لدلّ على أنّ المأكولَ ليس من ثمارها، وكلُّ ذلك إشارةٌ إلى جودةِ هذه القرية، ووفرةِ الخير فيها.

التّنبيهُ على عِظَمِ الإنْعامِ، بكَوْنِ المأكولِ منها، وليس مَجلوبًا إليها

فائِدةُ الإظهارِ في مَوضعِ الإضْمارِ:

قوله جلّ شأنُه: ﴿ٱسۡكُنُواْ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةَ وَكُلُواْ مِنۡهَا حَيۡثُ شِئۡتُمۡ﴾، ذكر القريةَ مرتين، وذلك بإعادة ذكر الضمير في شبه الجملة، ولو قال: (وكُلُوا حَيثُ شِئتُم) لصحَّ المعنى؛ ولكنّه أراد التّصريحَ بأنّ القريةَ فيها منَ الخير الوفير ما يكفيهم، فالمأكولُ فيه هو القريةُ، والمأكولُ منه هو القريةُ ذاتُها، وهي نفسُها مكان سكناهم، فدلّ ذلك على عظيم النّعمة بهذا المكان الّذي أُذِنَ لهم بأن يسكنوا فيه.

اخْتِيارُ الله لمكانِ السّكنِ، فيه مطلَقُ النِّعمة والهناءةِ

(1) ابن كمال باشا، تفسير ابن كمال باشا: 1/190.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/283.

فائِدةُ تَقديمِ شِبْهِ الجملة ﴿مِنْهَا﴾:

في قوله جلّ شأنه: ﴿وَكُلُواْ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ﴾، قَدَّم شبهَ الجملة ﴿مِنْهَا﴾؛ اهتمامًا بكون المأكول ناشئًا في هذه القرية، فقدَّمَه اهتمامًا به، إشارة إلى حُسن هذه القريةِ وجودتها؛ لاحتوائها على الغذاء الوافي لساكنها، وهذا مُشعِرٌ بعِظَمِ الإنعامِ فقدّمه على قوله: ﴿حَيْثُ شِئْتُمْ﴾، المُشعِرِ بالرَّغَد والراحة؛ لأنّه مِن أسبابه؛ إذ لن يتحقّقَ الأكلُ حيث شاؤوا ما لم تتحقّقِ الوفرة.

الخيرُ في القريةِ نِعمةٌ، مُقدَّمةٌ على الأكْلِ، تَقدُّمَ السّببِ على النّتيجةِ

معنَى قولِه: ﴿حَيْثُ﴾:

في قوله جلّ شأنُه: ﴿وَكُلُواْ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ﴾، عبّر عن تمكينهم من هذه القرية بإباحة الأكل منها أوّلًا، ثمّ بإباحة الاختيار بالأكل في كلّ مكان فيها؛ والمعنى: "أيّ مكانٍ للنّبت شئتم، ممّا تُنبتُ الأرضُ، من طعامٍ مختلف ألوانُه"[1]، فـ (حيث) تدلُّ على المكان، فيكون المباحُ لهم جميعَ أماكن القرية، وفي ذلك إشعارٌ بمزيدِ الإكرامِ، وعظيمِ الإنعامِ.

كلُّ مكانٍ في القريةِ مُتاحٌ لكم، والمشيئةُ مَفتوحةٌ على الاخْتِيارِ

فائِدةُ قولِه: ﴿حَيْثُ شِئْتُمْ﴾، دَلالةً وغايةً:

أفادَ التّعبيرُ في قوله جلّ شأنُه: ﴿حَيْثُ شِئْتُمْ﴾ الدّلالةَ على سعة الإباحة؛ أي: هي ونِعَمُها مباحةٌ لكم[2]، "من غير أن يزاحمَكم فيها أحدٌ؛ فإنّ الأكلَ المستمرَّ على هذا الوجه، لا يكون إلّا رغدًا واسعًا"[3]، فإباحةُ الأكل بتعليقه بمشيئتهم، وإنْ كان مثلُ ذلك لا يحتاجُ إلى إذنٍ، هو من قبيل التّنبيهِ لهم على هذه النّعم الجليلة.

إباحةُ المكانِ على حسبِ مَشيئتِهم، فيه تَنبيهٌ لهم على جليلِ هذه النِّعَمِ

دَلالةُ العطْفِ، في قولِه: ﴿وَقُولُواْ حِطَّةٌ﴾:

قولُه جلّ شأنُه: ﴿وَقُولُواْ حِطَّةٌ وَٱدْخُلُواْ ٱلْبَابَ سُجَّدًا﴾ معطوفٌ

شُكرُ النِّعمةِ، يَبدأُ بطلَبِ المغفرةِ منَ المُنعِمِ

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 6/2983.
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/466.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/283.

على قوله تعالى: ﴿ٱسۡكُنُواْ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةَ﴾[1]، فعطف الدّعاءَ بالمغفرة على إباحة السّكن والأكل؛ لأنّه أوّلُ مراتبِ الشّكرِ لهذه النّعم.

دَلالةُ الأمْرِ في: ﴿وَقُولُواْ﴾:

أَوجبَ عليهمُ الاستغفارَ؛ إشعارًا بأنّ إنعامَه ليس استِحقاقًا لهم

جاء فعلُ الأمر في قوله جلّ شأنُه: ﴿وَقُولُواْ حِطَّةٞ وَٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ سُجَّدٗا﴾، دالًّا على الوجوب؛ لكونه مُتعلِّقًا بأمر العبادة والشّكر، فطلبُ المغفرة واجبٌ، على كلّ مؤمنٍ، فَدَلَّ الفعلُ على وجوب أن يقولوا ما لقَّنهم به، وإنّما ذكره دون غيره منَ الأوامر الّتي أوجبها عليهم؛ لأنّه يعدّدُ عليهم ما عصوا اللّه تعالى به، وهو المنعمُ عليهم بتلك النّعم الجليلة، وليس السّياقُ في استقراء كلِّ ما أمرهم به، وما أوجبه عليهم، بل هو تذكيرٌ لمعاصري النّبيّ ﷺ، بما فعل أسلافُهم.

نُكتةُ حذْفِ مُتَعَلِّقِ ﴿وَقُولُواْ حِطَّةٞ﴾:

مَقولُ القَوْلِ تَضمّنَ الدّعاءَ بالمغفرةِ، وهو لا يُوجَّهُ إلّا لله

في قولِهِ جلّ شأنه: ﴿وَقُولُواْ حِطَّةٞ﴾ جاء فعلُ القول مُطلَقًا، لا أن يكون موجّهًا لمقولٍ له؛ لأنّه ظاهرٌ منَ السّياق أنّ المقولَ له هو اللّه تعالى، إذ تضمّنَ مقولُ القولِ الدّعاءَ بمغفرة الذّنوب، ولا يكون ذلك إلّا للّه تعالى، فالقولُ هنا تلقينٌ لهم، بأن يقولوا مضمونَه في دعائهم؛ تعليمًا لهم، ووقفًا لهم على وجوب الامتثال، وترويضًا لهم، فالحذفُ للإيجاز.

بَلاغةُ التّعْبيرِ بـ﴿حِطَّةٞ﴾:

في لفْظِ (حطّة) دَلالةٌ على ثِقلِ الذّنوبِ وعِبئِها

في قوله جلّ شأنُه: ﴿وَقُولُواْ حِطَّةٞ﴾، عبّر عنِ الاستغفار بقوله: ﴿حِطَّةٞ﴾، وهي على وزن "فِعلة منَ الحَطّ كالجِلسة"[2]، والمعنى: "حُطَّ ذنوبَنا وامْحُها بعفوك عنّا"[3]، وفي التّعبير بالحِطَّة إشعارٌ بأنّ الذّنوبَ تُثْقِل صاحبَها، والتّوجهُ إلى اللّه تعالى، بأن يحطَّ هذه الذّنوب، هو إقرارٌ بها أوّلًا، ثمّ بيانٌ للنّدم ثانيًا؛ إذ ثقلُها دليلٌ على

(1) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 10/211.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/283.
(3) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 10/191.

لوم النّفس على المعاصي، واعترافٌ بعظمةِ اللّه تعالى وإعلانُ الخوفِ منه، فجاءَت هذه اللّفظةُ غاية في البلاغة.

دَلالةُ إعرابِ لَفْظِ ﴿حِطَّةٌ﴾:

الإيجازُ بذِكْرِ اللّفظِ مكانَ الجُملةِ، من آثَرِ البلاغةِ وأرْوَعِها

قوله جلّ شأنُه: ﴿وَقُولُواْ حِطَّةٌ﴾، يدلُّ على أنّ مقولَ القول لفظةٌ واحدةٌ، وهي في تقدير جملةٍ اسميّةٍ، حُذفَ منها المسندُ إليه، فهي "خبرٌ لمبتدأ محذوف تقديره: مسألتُنا حطّة"[1]، وفي ذلك منَ الإيجازِ البليغِ ما لا يخفى.

بَلاغةُ الإيجازِ في قولِه: ﴿حِطَّةٌ﴾:

طلَبُ الحِطّةِ إيجازٌ بليغٌ، في الاسْتِغفارِ المُناسبِ لمقامِ التّعليمِ

قولُه جلّ شأنه: ﴿حِطَّةٌ﴾ تعبيرٌ عن جملةٍ اسميّةٍ، ومهما كان التّقديرُ فإنّ في التّعبير عن ذلك بلفظةٍ واحدةٍ براعةً في الإيجاز، والإيجازُ في هذا السّياق حسنُ الموقعِ؛ إذ إنّه جاء في مقام الدّعاءِ بالاستغفار، تعبيرًا عنِ السّرعة في الطّلب، وتركيزًا على المعنى المرادِ منَ الاستغفار، وهو حطّ الذّنوبِ، وناسب ذلك؛ لأنّه جاء تعليمًا لهم، فَدَلَّهم على الغاية الأساس منَ الاستغفار.

نُكتةُ تَنكيرِ ﴿حِطَّةٌ﴾:

اللهُ تعالى، لا تختلفُ عليه اللّغاتُ، ويَقبلُ من عبادِه كلَّ العباراتِ

قوله تعالى: ﴿وَقُولُواْ حِطَّةٌ﴾، جاءَ التّعبيرُ فيه عن طلب المغفرةِ بقوله جلّ شأنه: ﴿حِطَّةٌ﴾ منكَّرةً؛ للدّلالة على التّكثير أو التّعظيم، فهم يريدون الإكثارَ مِن حطّ الذّنوب عنهم مهما بلغت، على أنّهم كُلِّفُوا أن يقولوا لفظةً ما معناها: حطّة، أو أنّهم كُلِّفُوا أن يقولوا قولًا حسنًا، يتضمّنُ الإيمانَ وشكرَ اللّه؛ ليكونَ حِطَّةً لذنوبهم[2]، وفي ذلك توسيعٌ عليهم بأن يقولوا أيَّ لفظٍ يدلُّ على طلبهم حطَّ الذّنوب عنهم، بما يُحسنون منَ التّعبير، وكلٌّ على قدرتِه ومعرفتِه.

(1) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 10/211.
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/466.

دَلالةُ العطْفِ، في قولِه: ﴿وَٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ﴾:

أوامرُ اللهِ عُبوديّةٌ وحِكمةٌ، وإن غابَتْ عنِ المأمورِ العلّةُ

جاءَ قولُه جلّ شأنُه: ﴿وَٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ سُجَّدٗا﴾، معطوفًا على قوله تعالى: ﴿ٱسۡكُنُواْ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةَ﴾[1]، لكونهما فعلَيْ أمرٍ لمخاطَبٍ بعينه، فطلب منهم السّكنَ في هذه القرية، ثمّ طلب منهم الدّخولَ بكيفيّةٍ معيّنةٍ.

دَلالةُ الأمْرِ في قولِه: ﴿وَٱدۡخُلُواْ﴾:

وُجوبُ دخولِ القريةِ مُقترِنًا بالشُّكران، تَعبيرًا عن عوارفِ الإيمانِ

دلّ الأمرُ في قوله تعالى: ﴿وَٱدۡخُلُواْ﴾ على الوجوب؛ لأنّه دخولٌ مقترنٌ بالسّجود، فهو أمرٌ بالعبادة والشّكر على هذه النّعمة، ولمّا كان دخولُهم هذه القرية أوّلَ مرّةٍ ولن يتكرّر؛ دلَّ ذلك على وجوبه فورًا عليهم.

نُكتةُ تأخِيرِ الدُّخولِ على لفْظِ ﴿حِطَّةٞ﴾:

نُكتةُ إردافِ القَولِ بالعملِ، في ترتيبِ الفعْلِ، بعد قولِه (قُولُوا)

جاءَ قولُه تعالى: ﴿وَٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ سُجَّدٗا﴾، بعد قوله عزّ مقامُه: ﴿وَقُولُواْ حِطَّةٞ﴾؛ لأنّهم "لمّا أُمروا بالحِطَّة قولًا، أُمروا أن يَشفعوها بفعل؛ لِتُحَطَّ عنهم ذنوبُهم"[2]، فالدّخولُ المقترِنُ بالسّجود ذُكِرَ عقبَ تعليمهمُ الاستغفارَ، تعليمًا لهم ماذا يقولون أثناء دخولِهم وخشوعِهم، وهو أن يطلبوا أن يمحو اللهُ تعالى عنهم تقصيرَهم، إعلانًا بأنّهم دون استحقاق هذه النّعم على الوجوب، بل على محضِ الإكرام والتّفضّل منه ﷻ.

معنَى (أل) في لفْظِ ﴿ٱلۡبَابَ﴾:

الدّلالةُ ضِمْنًا على دُخولِ البابِ، بدخولِ القريةِ، والمرادُ بابُها

جاءُ البابُ في قوله جلّ شأنُه: ﴿وَٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ﴾، مُعرَّفًا بالألف واللّام؛ لأنّ البابَ مدلولٌ عليه ضمنًا عن ذكر القرية، فعُلِم أنّ المرادَ هو بابُ القرية، فهو منَ العهدِ الذِّكْرِيِّ باعتبار أنّ البابَ جزءٌ منَ القرية.

(1) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 10/211.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/136.

بَلاغةُ التّعْبير بـ﴿سُجَّدًا﴾، ودلالتُها على الحالِ:

دلالةُ الدُّخولِ سُجّدًا، على الإخباتِ والخشوعِ، أو على السُّجودِ الحقيقيِّ

قيّدَ الدّخول في قوله جلّ شأنُه: ﴿وَٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ سُجَّدٗا﴾ بالسّجود؛ للدّلالة على إقران دخولِهم بالإخبات والخشوع والشّكر[1]، فأُمِروا "بالسّجود عندَ الانتهاءِ إلى الباب شكرًا للّه تعالى وتواضعًا، وقيل: أُمِرُوا بالدّخول بخشوعٍ وإخباتٍ"[2]، فيَحتمِلُ أنّه أراد السّجودَ بمعناه الاصطلاحيّ فيسجدون عند الدّخول، أو بمعناه اللّغويّ فيدخلون خاشعين متواضعين.

وعلى اعتبار أنّ دخولَهم، يجب أن يكون في حالة السّجود، فقوله جلّ شأنه: ﴿سُجَّدٗا﴾ حالٌ؛ أي: ادخلوا "بابَ بيت المقدسِ حالَ كونكم ﴿سُجَّدٗا﴾"[3]، وهذه الحالُ مفارقةٌ ليسَت لازمةً.

الموقعُ النَّحويُّ لقولِه: ﴿نَّغۡفِرۡ لَكُمۡ خَطِيٓـَٰٔتِكُمۡۚ﴾:

دَلالةُ المغفرةِ بعدَ السّجودِ، على أنّها وعدٌ مَجزومٌ بوقوعِه جوابًا للطّلَبِ

لمّا أمرهم تعالى بالدّخول في حالة السّجود، في قوله تعالى: ﴿وَٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ سُجَّدٗا﴾؛ أعقب ذلك بالجواب عنِ الأمر بما يتعلّقُ به، فقال جلّ شأنُه: ﴿نَّغۡفِرۡ لَكُمۡ خَطِيٓـَٰٔتِكُمۡۚ﴾، فهو "جوابُ الأمر، مترتّبٌ على دخول البابِ بقيد السّجود"[4]، فجاء ذكرُ المغفرة بعد السّجود على أنّه وعدٌ بها، فهو مجزومٌ لوقوعه جوابًا للطّلب المعبَّرِ عنه بفعل الأمر.

نُكتةُ مجيء المضارعِ، في قولِه: ﴿نَّغۡفِرۡ﴾:

قابلَ السِّياقُ الحكيمُ دوامَ ذُنوبِ العاصِين، بدَوامِ مغفرتِه

جاءَ الفعلُ في جواب الطّلب، في قوله جلّ شأنه: ﴿نَّغۡفِرۡ لَكُمۡ خَطِيٓـَٰٔتِكُمۡۚ﴾ مضارعًا؛ للدّلالة على تجدّدِ مغفرتِه واستمرارِها، وذلك يناسبُ النّاسَ لما جُبلوا عليه منِ ارتكاب الخطأ، واجتراحِ الذّنوب، فقابلَ دوامَ ذنوبِهم بدوام مغفرته ﷻ.

---

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/283.

(2) ابن كمال باشا، تفسير ابن كمال باشا: 1/190.

(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/136.

(4) ابن كمال باشا، تفسير ابن كمال باشا: 1/191، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 6/2984.

معنَى (اللّام) في قولِه: ﴿لَكُمۡ﴾:

قوله جلّ شأنه: ﴿نَّغۡفِرۡ لَكُمۡ خَطِيٓـَٔتِكُمۡۚ﴾، اللّام هنا للتّعليل، والمعنى: نغفرُ لأجلكم؛ فهم مقصودون بهذه المغفرة، وهذا التّعبيرُ أبلغُ في العفو عنهم والمغفرة لهم، منَ التّعبير بالمغفرة المُطلَقة.

الوعْدُ بالمغفرةِ المعيَّنةِ، إذْ جعَلَ لهم مَغفرةً خاصّةً بهم

فائِدةُ تَقديمِ ﴿لَكُمۡ﴾ على المفعولِ به:

في قوله تعالى: ﴿نَّغۡفِرۡ لَكُمۡ خَطِيٓـَٔتِكُمۡۚ﴾، قدّم شبهَ الجملة على المفعول به، فلم يقُل: (نَغفِرْ ذُنُوبَكُم لَكُم)؛ اهتمامًا بهم، وإشارةً إلى أنّ المغفرةَ تتعلَّقُ بهم، وفيه دلالةٌ على مزيدٍ منَ الإكرام للمستغفر والتّائب لربّه، كما أنّ تأخيرَ الذّنوبِ في مقام الاستغفار والوعد بالمغفرة أبلغُ من تقديمها، لما يدلّ عليه التّأخيرُ منَ الإهمال والتّغاضي.

تَأخِيرُ الخطايَا في مَقامِ الاستِغفار أبلغُ؛ لِدَلالتِه على الإهْمالِ والتّغاضِي

نُكتةُ جمْعِ لفْظِ ﴿خَطِيٓـَٔتِكُمۡۚ﴾:

جاء لفظُ الخطيئةِ في قوله جلّ شأنه: ﴿نَّغۡفِرۡ لَكُمۡ خَطِيٓـَٔتِكُمۡۚ﴾، مجموعًا دالًّا على الكثرة، "إشارةً إلى أنّها قليلٌ في جنب عفوه تعالى"[1]، والتّعبيرُ عن كثرة الذّنوبِ في سياق الوعدِ بالمغفرة، من حُسنِ البلاغةِ، لمَا فيه منَ المبالغة بسعةِ عفوه، وعظيم مِنَّته على عباده؛ إذ يتجاوزُ عنِ الكثير، بمجرّدِ التّوجّهِ له بحطِّ هذه الذّنوب.

وَسعَتْ رحمةُ اللهِ السّمواتِ والأرضَ؛ فإن يَغفرْ فإنّه يَغفرُ جَمًّا

بَلاغةُ تَوجِيهِ القراءاتِ القرآنيّةِ، في ﴿نَّغۡفِرۡ لَكُمۡ﴾:

قرأ ابنُ كثير، وعاصم، وحمزة، والكسّائيّ، وقرأ أبو عمرو: ﴿نَّغۡفِرۡ﴾، وقرأ نافع: (تُغْفَر)، فمَن قرأ بالنّون، فكأنّه قيل: ادخلوا نغفر؛ أي: إن دخلتُم غفرْنا، أمّا قراءةُ نافع بالتّاء فلأنّه أسند إليها ﴿خَطِيٓـَٔتِكُمۡۚ﴾ وهو مؤنّث، فأنّث الفعلَ بالتّاء، وأمّا بناؤه للمجهول في قراءة نافع فبالنّظر لما قبله: ﴿وَإِذۡ قِيلَ لَهُمُ﴾ بالبناء للمجهول، فناسب أن يأتي به مبنيًّا للمجهول هنا[2].

اختِلافُ القراءةِ سَعةٌ في المعنَى، وتلوُّنٌ في الدّلالةِ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/136.
(2) الفارسّي، الحجّة: 3/65 - 66.

بَلاغةُ تَوجِيهِ القراءاتِ القرآنيّةِ، في لفْظِ ﴿خَطِيٓـَٰٔتِكُمۡۚ﴾:

قُرِئَ قوله تعالى: ﴿خَطِيٓـَٰٔتِكُمۡۚ﴾ - من حيث أنواع الجمع والإفراد - على ثلاثة وجوه: بجمع الكثرة (خطيئاتكم)، وبجمع التكسير (خطاياكم)، والإفراد (خطيئتكم)، أمّا القراءةُ بجمع الكثرة، فلمّا كان السّياقُ لبيان إسراعهم في الكفر، ناسبَ ذلك جمعُ الكثرة؛ إشعارًا بكثرة ذنوبهم، أمّا القراءةُ بصيغة الإفراد، وجمع القلّة، فللإشارة إلى أنّ ذنوبَهم قليلةٌ، في جنب عفوه ﷻ[1]، ويمكن أن تكونَ قراءةُ الإفراد، على اعتبار أنّ الخطيئة اسمُ جنس، تشملُ الخطايا كلَّها، "قال الشّيرازيّ: إنّ فائدةَ الاختلافِ بين قراءتي الإفراد والجمع للخطيئة؛ أنّ هذه الذّنوبَ تُغفَرُ لهم إذا فعلوا ما أُمِرُوا به من قولٍ وفعلٍ، سواء كانت قليلةً كواحدة أو كثيرةً"[2].

التّعبيرُ عنِ الخطايَا بالكثْرةِ يُناسبُ ذمَّهم، وتَقْليلُها يُناسبُ ذِكْرَ المغفرةِ

نُكتةُ ترْكِ العطْفِ، في قوله: ﴿سَنَزِيدُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾:

جاءَ قولُه جلّ شأنُه: ﴿سَنَزِيدُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ بلا عطفٍ استئنافًا بيانيًّا؛ لأنّه "استئنافٌ مرتَّبٌ على تقدير قول القائل: وماذا بعد الغفران؟ فقيل له: سنزيدُ المحسنين"[3]، فلمّا أخبرَ بالمغفرة بعد الاستغفار نشأ سؤالٌ، كأنّه قيل: وماذا لهم بعد ذلك؟ فجاء الجوابُ بالوعد؛ بأنّ اللّه تعالى سيزيدُ المحسنين ممّا يشاء، وأفاد الاستئنافُ أنّ هذا الوعدَ "تفضّلٌ محضٌ، ليس في مقابلة ما أُمِروا به"[4].

وَعدَ اللهُ تعالى عبادَه المحسنين، بمزيدٍ منْ إحسانِه وتفضُّلِه

فائِدةُ دُخولِ حرفِ التّنفيسِ في ﴿سَنَزِيدُ﴾:

اقترن الفعلُ المضارع في قوله جلَّ شأنُه: ﴿سَنَزِيدُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ بالسّين الدّالّة على المستقبل، للدّلالة على أنّه وعدٌ منجَزٌ عن قريب، وهو وعدٌ مؤكَّدٌ لا يُخلف[5]، وقوله: "﴿سَنَزِيدُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾: عِدَةٌ

وَعْدُ الله تعالى مُنجَزٌ مُؤكَّدٌ، لا يَتطرّقُ إليه خُلْفٌ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/136.
(2) محمد رضا، تفسير المنار: 9/314.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/170، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/146.
(4) ابن كمال باشا، تفسير ابن كمال باشا: 4/173.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/136، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 6/2984.

بشيئين، بالمغفرة وبالزّيادة، وطرحُ الواو هاهنا لا يُخِلُّ بذلك؛ لأنّه استئنافٌ مُرَتَّبٌ على تقدير سؤالٍ، نشأ منَ الإخبار بالغفران، كأنّه قيلَ: فماذا لهم بعد الغفرانِ؟ فقيل: ﴿سَنَزِيدُ﴾"[1].

فائِدةُ صِيغةِ المضارعِ، في قولِه: ﴿سَنَزِيدُ﴾:

جاءَ التّعبيرُ عنِ الوعد بالزّيادة في قوله عزّ ذِكرُه: ﴿سَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ بالفعل المضارع؛ للدّلالة على أنّ تفضّلَه بزيادة الخير والجزاء لا تنقطع، فعطاءُ الكريم لا يليقُ به، إلّا أن يكون دائمًا مستمرًّا.

تَفضّلُه بالزّيادةِ مُستمرٌّ لا يَنقطعُ، ودائمٌ لا يَزولُ

بَلاغةُ حذْفِ مُتَعَلِّقِ ﴿سَنَزِيدُ﴾:

جاءَ التّعبيرُ عنِ الزّيادة في قوله جلّ شأنُه: ﴿سَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ مطلَقًا؛ من غير أن يبيّنَ نوعَ الزّيادة، فالمفعول به في "﴿سَنَزِيدُ﴾ محذوفٌ، تقديره: ثوابًا"[2]، فالزّيادة أُطلقَت منَ القيود إشعارًا بالتّعميم، فتشمل الزّيادةُ كلَّ ما ينتظره المحسنُ من ربّه ﷻ، وتفخيمًا لتلك الزّيادة بإيرادها مبهَمَةً، فعُلِم بذلك أنّ تَرْكَ القيدِ هنا أبلغُ منَ التّعبير بنوع الزّيادة.

الزّيادةُ شاملةٌ لكلِّ ما يُتوَقَّعُ، من ربٍّ غفورٍ رحيمٍ لعبادِه أجْمَعَ

معنَى (أل) في لفْظِ ﴿ٱلْمُحْسِنِينَ﴾:

في قوله جلّ شأنه: ﴿سَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾، جاء لفظُ (المُحسنين) مُعرَّفًا بالألف واللّام؛ للدّلالة على قوّة الصّفة بهم، فهم منَ الفئة الّتي عُرِفَت وشُهِرَت بكونها مُحسِنةً، فصار لفظُ (المُحسنين) عَلَمًا عليهم، فلفظ ﴿ٱلْمُحْسِنِينَ﴾؛ "أي: العريقين في هذا الوصف"[3]، فهي جنسيّةٌ استغراقيّةٌ، تشملُ كلَّ مَن وُصِفَ بالإحسان.

مَن عُهِدَ منهمُ الإحسانُ، فهمُ المحسِنون عندَ الله والنّاسِ

بَلاغةُ تَرتيبِ الأوامرِ:

في الآية جاءتِ الأوامرُ لهم بهذا التّرتيب: ﴿ٱسْكُنُواْ﴾، ﴿وَكُلُواْ﴾

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم إلى مزايا الكتاب الكريم: 3/283.
(2) الشّهاب، عناية القاضي: 4/227، وابن كمال باشا، تفسير ابن كمال باشا: 1/191.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/136.

﴿وَقُولُواْ حِطَّةٌ﴾ ﴿وَٱدۡخُلُواْ﴾ ﴿سُجَّدٗا﴾؛ وهذا ترتيبٌ يتطابقُ مع الواقع، فالأمرُ بالسّكن يتوجّهُ للقرية تمهيدًا للأمر بدخولها، فبدأ به، والأكلُ متعلِّقٌ بالسّكن، فذَكَرهُ بعده، والأمرُ بالاستغفار تعليمٌ لما سيقولون في عبادتهم، وشكرُهم لله تعالى النِّعمَ المذكورةَ والأمرُ بالدّخول جاء تاليًا لتلك الممهِّدات، ولكونه أثقلَ ما كُلِّفُوا به، فجاء به آخرًا تفخيمًا لشأنه، وإيماءً لشدّته عليهم.

كلُّ حُكْمٍ قضَاه اللـه، مَوضوعٌ في مَوضعِه؛ ليُؤدّيَ فحواهُ

معنَى (الفاء) في قولِ: ﴿فَبَدَّلَ﴾:

عُطِفَ قولُه جلّ شأنُه: ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡ قَوۡلًا غَيۡرَ ٱلَّذِي قِيلَ لَهُمۡ﴾ على قوله تعالى: ﴿وَقُولُواْ حِطَّةٌ﴾ بالفاء؛ للدّلالة على سرعة معصيتِهم، وأنّ هذا التّبديلَ وقع عَقِبَ أمرِهم بالاستغفار، حيث لم يكونوا قد نَسوا الأمر، أو غَفَلوا عنه سهوًا، إشارةً إلى سوء طويَّتِهم.

التَّبْديلُ أعقَبَ الأمرَ، ولم يكُنْ بينَهما زمانٌ طويلٌ

نُكتةُ التَّعْبير بالفعْلِ ﴿فَبَدَّلَ﴾:

عبّر القُرآنُ عن معصيتهم بامتناع بعضِهم عن أداء القولِ الّذي أُمِرُوا به، فقال ﷻ: ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡ قَوۡلًا غَيۡرَ ٱلَّذِي قِيلَ لَهُمۡ﴾، فأعرضوا عمّا أُمِرُوا به، ووضعوا موضعَه قولًا آخر[1]. والإشارةُ بالقول إلى قول بني إسرائيلَ: حبّةٌ في شَعرَةٍ أو حِنطَةٌ في شَعِيرَةٍ"[2]، فجاؤوا بلفظٍ مشابهٍ لمَا أُمِرُوا به، ولا يدلُّ على المراد منهم؛ حيث "بَدّلُوا بما أُمِروا به منَ التّوبة والاستغفار، طلبَ ما يشتهون من أغراض الدّنيا"[3].

مَن بدّلَ أوامرَ اللـه ووَحْيَه، نالَهُ غضَبُ الله وسَخَطُه

فائِدةُ مجيءِ الاسْمِ الموصولِ ﴿ٱلَّذِينَ﴾:

في قوله جلّ شأنه: ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾، عبّر عنهم بالموصول دون الضّمير، فلم يقُل: (فبدّلوا)؛ إظهارًا لعلّةِ فعلهم ذلك، بما

سَببُ المُسارعةِ إلى التّبْديل، ما فيهم من ظُلْمٍ قلَّ له مثيلٌ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/283.
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/467.
(3) الشّهاب، عناية القاضي: 4/227.

عبّرت عنه صلةُ الموصول، فوضعَ " المُظهَرَ موضعَ المُضمَرِ؛ ليدلَّ على أنّ التّبديلَ ظلمٌ، أو مسبَّبٌ عن ظلمهم وعادتهم في وضع الأشياء غيرَ مواضعها، وأنّ المبدِّلين بعضُهم لا كلُّهم"[1]؛ إذ لو قال: (فبَدَّلوا) لَدَلَّ على أنّ التّبديلَ وقع مِنْهُم كلِّهم، وفي ذلك إشارةٌ إلى أنّهم "كانوا صنفين؛ ظالمًا وعادلًا، فبدّل الظّالمُ، ولم يبدِّلِ العادلُ"[2].

نُكتةُ مجيءِ جُملةِ صِلةِ الموصولِ: ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾:

جاءَت صلةُ الموصول في قوله جلّ شأنُه: ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ بالفعل الماضي؛ إشارةً إلى رسوخ صفة الظّلم فيهم، فهم قومٌ قد سبق منهم الظّلم، واشتُهروا به، فلا عجبَ أن يتجاوزُوا حدَّهُم مرّةً أخرى، بالتّعدّي على أمر اللّه تعالى، كما أنّه يدلُّ على أنّ ما قاموا به من تبديل المقولِ، إنّما كان ظلمًا بوضع الأمورِ في غير مَواضِعِها.

الظّلمُ طبْعٌ راسخٌ فيهم، وقد صارَ مميِّزًا لهم عن سِواهُم

معنَى (مِنْ) في قولِه: ﴿مِنْهُمْ﴾:

جاء في قوله تعالى: ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ﴾ قيدٌ بشبه الجملة ﴿مِنْهُمْ﴾؛ للدّلالة على أنّ المبدِّلين كانوا بعضًا منهم، لا كلّهم[3]، وهذا يجري على عادة القرآنِ الثّابتة في الإنصاف؛ حيث لم يعمّمِ الوصفَ السَّيِّئَ على غير مَن قام به، عدالةً وإنصافًا وحفظًا للحقوق.

القُرآنُ مُنصِفٌ في عدَمِ التّعْميمِ، حيث خصَّ منهم مَنْ بدّلَ

عَوْدُ الضَّميرِ في شِبْهِ الجُملة: ﴿مِنْهُمْ﴾:

يعود الضّميرُ في شبه الجملة في قوله تعالى: ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ﴾، على الّذين أُمِروا بدخول القرية، وما بعده منَ الأوامر؛ "لزيادة البيان؛ أي: بدّل الّذي ظلموا مِن هؤلاء"[4]، وفي هذا الضّمير إحالةٌ على مَن تلقَّوا تلك النِّعمَ والأوامرَ؛ إعلامًا بأنّ الّذين بدّلوا كانوا قد عَلِموا تلك النِّعمَ، وسمعوا ما طُلِبَ منهم، فإذا لم يأتوا بما

الإشارةُ إلى سَببِ نِسْبةِ الظّلْمِ إليهم، بتَبْديلِ القَولِ عن عِلْمٍ وإصرارٍ

(1) ابن كمال باشا، تفسير ابن كمال باشا: 1/193.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 6/2985.
(3) ابن كمال باشا، تفسير ابن كمال باشا: 1/193.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 5/84.

طُلِبَ منهم، فإنّهم جديرون بأن يُوصَفوا بالظّلم، فالضّميرُ يشيرُ إلى سبب نسبةِ الظّلمِ إليهم؛ حيث إنّهم كان ينبغي أن يقابلوا تلك النّعمَ بالشّكر، من خلال طاعتِهم واستجابتِهم، ولكنّهم أعرضوا، وبدّلوا ما طُلِبَ منهم.

سِرُّ مجيءِ ﴿مِنْهُمْ﴾ وتقديمِها على المفعولِ:

قيّد الظّالمين في قوله جلّ شأنه: ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ﴾ بشبه الجملة ﴿مِنْهُمْ﴾؛ "لئلّا يُتوهَّم أنّهم منَ الدّخلاء فيهم"[1]، ففي ذلك زيادةُ بيانٍ وإيضاحٍ.

وقدّم شبهَ الجملة ﴿مِنْهُمْ﴾ لتعلُّقِها بالفاعل، فأوفى الفاعلَ مُتعلِّقاتِه وأوصافَه، ليأتي البيانُ على أتمِّه وأفصحِه، كما أنّه لو أخّره وجاء بعدَ المفعول به؛ لاختلّ المعنى، وصار التّركيبُ ركيكًا بعيدًا عنِ الفصاحة.

عِلّةُ تأخيرِ الفاعلِ ترتبطُ بمُراعاةِ البيانِ، وتَلافِي اختِلالِ المعنَى

نُكتةُ تَنكيرِ لفْظِ ﴿قَوْلًا﴾:

عَبَّرَ عنِ القول بصيغة التّنكير: ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ﴾؛ تحقيرًا وتقليلًا لشأن مقولِهم، حيث أعرضوا عمّا أُمِرُوا به، "ووضعوا موضعَه قولًا آخر ممّا لا خيرَ فيه"[2]، فالتّنكيرُ دلّ على أنّ ما جاؤوا به إنّما هو قولٌ لا يُؤْبَهُ له تحقيرًا له.

ما قالوُه عِوَضًا عمّا أُمِرُوا به، مَقولٌ لا خَيْرَ فيه، ولا قِيمةَ له

مَوقعُ ﴿غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ﴾ منَ البلاغةِ والإعرابِ:

الجملةُ في قوله جلّ شأنُه: ﴿غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ﴾ صفةٌ لـ﴿قَوْلًا﴾، وصرّح بهذه الصّفة مع أنّ التّبديلَ يدلُّ على التّغيير؛ إذ لو اكتفى بقوله تعالى: ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ﴾ لَدلَّ على أنّهم جاؤوا بلفظٍ آخرَ مغايرٍ، فإنّما صرّح بالمغايرة؛ "تحقيقًا للمخالفة، وتنصيصًا على المغايرة من كلّ وجهٍ"[3]. ويُضافُ إلى ذلك أنّه نصَّ على أنّ

ما قالُوه مُغايِرٌ لما سَمِعوه البتّةَ، لكونِهم بَدّلُوه، وهم ظالمونَ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/137.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/283.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/284، والآلوسي، روح المعاني: 5/84.

التّغييرَ وَقَعَ بالقول، وفيه إشارةٌ إلى أنّ مَن جَرُؤَ على الإعراض عن أداء قولٍ لا يُكلِّفُ جُهدًا، كان أَجْرَأَ على الإعراضِ عن سائرِ الأفعال والعبادات الأخرى.

فائِدةُ التّعْبيرِ بالاسْمِ الموصولِ وصِلَتِه، في: ﴿ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ﴾:

حين أعرضُوا عمّا قيل لهم، كانوا مُصِرّينَ غيرَ جاهلينَ

في قوله تعالى: ﴿غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ﴾، عَبَّر بالاسم الموصول (الّذي) مع صلتِه المتضمِّنة فعلَ القول؛ للدّلالة على مقولٍ معهودٍ، وللإشارة إلى قوله: ﴿وَقُولُواْ حِطَّةٌ﴾؛ إعلامًا بأنّهم غيرُ جاهلين لما طُلِبَ منهم، فهو قولٌ يعرفونه، ويَكشفُ هذا إصرارَهم على اجتراح هذا المنكَرِ.

نُكتةُ مجيء ﴿قِيلَ﴾ مَبنيَّةً لِما لم يُسَمَّ فاعلُه:

لمّا عُلِمَ القائلُ استغنَى عن ذكْرِه للإيجازِ في التّعْبيرِ

جاء الفعلُ في قوله جلّ شأنُه: ﴿ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ﴾، مبنيًّا للمجهول للعلم بالفاعل؛ إذ إنّه "من المعلوم أنّ القائلَ مَن لهُ إلزامُهُم"[1]. كما أنّ فيه إيجازًا بليغًا، إذ لو جاء مبنيًّا للمعلوم لَقالَ: (غير الّذي قاله اللّه لهم).

معنَى اللّامِ في قولِه: ﴿لَهُمْ﴾:

القولُ قد بَلَغهم، وقيل لهم، مُواجَهةً ومُشافَهةً

عَبَّر عنِ القول بأنّه قد وَصَلَهم في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ﴾، فاللّام للتّعليل، وجاءَت تأكيدًا لمعرفتهم بهذا القول، فهو قد بلغهم، وأنّهم كانوا مقصودين به، وهذا يدلُّ على تأكيد مضمونِ القولِ، إذ إنّه قيل لمعيّن قصدًا لإبلاغه به، وليس قولًا عَرَضًا ولا عامًّا، قد اختصّهم بأن يقولَه لهم، دلالةً على أهميَّتِه، وتأكيدًا لبلوغه لهم.

معنَى (الفاء) في قولِه: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ﴾:

جاءَهُمُ العذابُ بعْدَ ارْتِكابِ المعاصِي، سَريعًا بلا مُهلةٍ

عُطِفَ قولُه جلّ شأنه: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ على قوله تعالى: ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ﴾ بالفاء؛ للدّلالة على أنّهم قد أُرْسِلَ الرِّجْزُ عليهم "إثرَ ما فعلُوا من

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/137.

غير تأخيرٍ"[1]، فكما أنّهم أسرعوا فبَدَّلوا القولَ إثرَ ما قيل لهم، فكذلك جاءهم العقابُ سريعًا إثرَ عصيانِهم.

سِرُّ التّعْبيرِ بضَميرِ الجمْعِ (نا)، في قولِه: ﴿فَأَرْسَلْنَا﴾:

العذابُ المُرسَلُ إليهم مُهلِكٌ؛ لأنّه صَادِرٌ منَ الله العظيمِ ﷻ

جاء الفعلُ (أرسل) في قوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ مُسْنَدًا إلى ضمير الجمع؛ تعظيمًا لذلك الإرسال؛ أي: أرسلنا عليهم ذلك العذاب، بما لنا منَ العظمة؛ تفخيمًا للعذاب، وتهويلًا له.

نُكتةُ تَعْدِيةِ الإرسالِ بـ(على):

الرِّجْزُ نزلَ عليهم منَ حيث لا يَحتسبون، فأذاقَهم عَذابَ الهُونِ

جاءَ الفعلُ (أرسل) في قوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾، متعدّيًا بالحرف (على)؛ لأنّ إرسالَ العذابِ منَ الأعلى، و"الإرسالُ مِن فوقٍ، فَيَكُونُ كالإنزالِ"[2]، فالإرسالُ تضمّنَ الإنزالَ؛ لأنّ الرّجزَ نزل عليهم منَ السّماء، ففي التّضمين تظهرُ قوّةُ الفعلَيْنِ: الإرسال والإنزال.

سِرُّ التَّعْبيرِ عنهم بالضَّميرِ، في قولِه: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ﴾:

تهويلُ العَذابِ، بجعْلِه مُحْتَمِلًا للعُمومِ

في قوله جلّ شأنُه: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾، عبّر عنهم بالضّمير، من غير أن يكرّرَ الموصولَ، فلم يقُل: (فأرسلنا على الّذين ظلموا منهم) إيجازًا، ولأنّ الضّميرَ يحتملُ أن يُرادَ به القومُ جميعًا، وهذا الاحتمالُ يدلُّ على عموم العذابِ، وفي ذلك تهويلٌ لِمَا نزل بهم منَ الرِّجْزِ[3].

غَرَضُ تَقديمِ شِبْهِ الجُملةِ ﴿عَلَيْهِمْ﴾، على المفعولِ:

الرِّجْزُ أُنزِلَ عليهم على وجْهِ الخُصوص لا يَتعَدّاهُم

قدّمَ شبهَ الجملة في قوله جلّ شأنُه: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ على المفعول به، فلم يقُل: (فأرسلنا رجزًا عليهم)؛

(1) الآلوسي، روح المعاني: 5/84.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/284.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/137.

تخصيصًا لهم بهذا الرّجزِ، فهو عذابٌ خاصٌّ بهم، لا يتعدّاهم إلى غيرهم.

نُكتةُ تَنْكيرِ ﴿رِجْزًا﴾، في: ﴿رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾:

الرِّجْزُ الّذي أنزله اللهُ تعالى عليهم رِجْزٌ عظيمٌ

في قوله عزّ ذِكرُه: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾، جاء لفظُ الرِّجْزِ نكرةً؛ تهويلًا له، وتفخيمًا لشأنه، فإنّ الإبهامَ يدلُّ على تعظيمِ الأمرِ وتفخيمِه، والتّنكيرُ الدّالُّ على التّهويلِ والتّفخيمِ مناسِبٌ للتّعظيم المعبَّر عنه بضمير الجمع في (أرسلنا)، والآيةُ بُنيَت كلُّها على التّعظيم والتّفخيم.

معنَى (مِنْ) في قولِه: ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾:

الرِّجْزُ عظيمٌ، لأنّه نزلَ عليهم وارِدًا منَ السّماءِ

أفادَ الحرفُ (مِن) في قوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾، على ابتداء ورودِ هذا العذاب، فهو واردٌ منَ السّماء، وهذا يدلُّ على مزيدٍ منَ التّفخيمِ والتّهويلِ، فما كان واردًا منَ السّماء، فإنّه يأتي بالعظمة والعلوّ والقوّة، والمُنزَل: ﴿رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾؛ أي: عذابًا شديدًا، إمّا الطّاعون وإمّا غيره منَ العقوبات السّماويّة.

فائِدةُ مجيءِ شِبْهِ الجُملةِ ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾:

ما كان وارِدًا منَ السّماءِ، فهو جليلُ الشّأنِ، حَتْمِيُّ الوُقوعِ

وُصِفَ الرِّجْزُ بأنّه: ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾؛ أي: أنّه عذابٌ "في غاية الاشتداد، خارجًا عن حدّ المعتاد، فإنّ النّسبةَ إلى السّماء للإشارة إلى هذا المعنى"[1]، ووصفُه بذلك تصريحٌ بأنّه لا يُرَدّ، وأنّه واقعٌ بهم على الحَتْم.

معنَى (أل) في لفْظِ ﴿ٱلسَّمَآءِ﴾:

ما يَنزلُ منَ السّماءِ إلّا مُعجِزٌ مُدْهِشٌ

عرّفَ السّماءَ في قوله جلّ شأنُه: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ بالألف واللّام الدّالّة على العهد، زيادةً في بيان جهةِ نزولِ العذابِ، فهو نازلٌ منَ السّماء الّتي لا يأتي منها إلّا شيء يتّصفُ بالغرابةِ والعظمةِ.

(1) ابن كمال باشا، تفسير ابن كمال باشا: 1/193.

معنَى الباء، في قولِه: ﴿بِمَا كَانُواْ يَظۡلِمُونَ﴾:

عقّب على إرسال الرِّجْزِ عليهم، بقوله جلّ شأنُه: ﴿بِمَا كَانُواْ يَظۡلِمُونَ﴾، مُصدَّرًا بالباء الدّالّة على السّببيّة؛ للدّلالة على أنّ ما نالهم إنّما كان بسبب ظلمِهم، وأنّ اللّه تعالى لا يعذّبُ أحدًا من عباده، إلّا بموجِبٍ يستحقُّ به ذلك العذاب.

الرِّجْزُ إنّما نَزلَ عليهم بسبَبِ ظُلْمِهم، وما كان اللهُ لِيَظلِمَهم

معنَى (ما) بين المصدريّةِ والموصوليّةِ:

في قوله جلّ شأنه: ﴿بِمَا كَانُواْ يَظۡلِمُونَ﴾، عبّر بـ (ما) المصدريّة في الجملة المسوقةِ لتعليل العذابِ الّذي نزل عليهم؛ أي: "بسبب ظلمهم المستمرِّ السّابق"[1]؛ تقويّةً لمضمون الجملة، فإنّ التّعبيرَ بالمصدر المؤوَّل باسمٍ، يدلُّ على ثباتِ المعنى وتأكيدِه. ويمكن أن تكون موصولةً بمعنى: (بالّذي كانوا يظلمون أنفسَهم فيه).

إنّ اللهَ ليُمْلِي للظّالِمِ، حتّى إذا أخَذَه لم يُفْلِتْهُ

سِرُّ وُجودِ (كانوا) مع الخبَرِ ﴿يَظۡلِمُونَ﴾:

أدخل (كان) في قوله تعالى: ﴿بِمَا كَانُواْ يَظۡلِمُونَ﴾، ولم يقُل: (بما يظلمون)؛ إشارةً إلى أنّهم عريقون بالظّلم، متّصفون به، بحيث لا يَنفكّون عنه، فهو دائمٌ بهم، كما أنّ فيه دلالةً على الإصرار عليه.

الظُّلْمُ طبْعٌ راسخٌ فيهم، وهم لا يَنفَكّون عنه بَتاتًا

بَلاغةُ التّعْبيرِ بلفْظِ ﴿يَظۡلِمُونَ﴾:

عَبَّر عن ظلمهم بالفعل المضارع، فقال جلّ شأنه: ﴿بِمَا كَانُواْ يَظۡلِمُونَ﴾؛ أي: بسبب "ظلمهم المستمرِّ السّابقِ واللّاحقِ حسبما يفيدُه الجمعُ، بينَ صيغتي المَاضِي والمستقبلِ، لا بسبب التّبديلِ فقط"[2]، فهم يزاولون الظّلمَ، ولا ينفكّون عنه، يجدّدونه كلَّ حين.

الظّلْمُ مُتجدّدٌ مُستمرٌّ، راسخٌ في طبْعِهم، وفسادِ أهوائِهم

بَلاغةُ المتشابِهِ اللّفظِيِّ بين آيتَي الأعراف (161 - 162)، وآيتي البقرة (58 - 59):

قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَإِذۡ قِيلَ لَهُمُ ٱسۡكُنُواْ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةَ وَكُلُواْ مِنۡهَا حَيۡثُ شِئۡتُمۡ وَقُولُواْ حِطَّةٞ وَٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ سُجَّدٗا نَّغۡفِرۡ لَكُمۡ خَطِيٓـَٰتِكُمۡۚ سَنَزِيدُ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/284.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/284.

بين الآيات المتشابهة فُروقٌ في التَّعبير، اقْتَضَتْها مُناسبةُ السِّياقِ

ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٦١﴾ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَظْلِمُونَ﴾ [الأعراف: 161 - 162] يشابهُ قولَه تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُواْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُواْ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُواْ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُواْ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ ۚ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ﴾ [البقرة: 58 - 59].

ويلاحظ أنّ بينهما تفاوتًا من وجوهٍ:

الأوّل: أنَّهُ عيَّن القائلَ في سورة البقرة، فقال: ﴿وَإِذْ قُلْنَا﴾، وهنا أبهمه فقال: ﴿وَإِذْ قِيلَ﴾؛ فعبّر بالمبنيّ للمجهول؛ "إعلامًا للسَّامع بأنّ هذا القائلَ هو ذاك"[1]، فحذف الفاعلَ للعلم به؛ لأنّ هذا القولَ لا يصدرُ إلّا منَ الله تعالى[2].

الثّاني: قال في سورة البقرة: ﴿ٱدْخُلُواْ﴾، وقال هنا: ﴿ٱسْكُنُواْ﴾؛ والسّكنى تأتي بعدَ الدّخول، "فأُمِرُوا هناك بالمبدأ وهنا بما تسبَّب عنه"[3]، وكلا القولين قِيلا لهم، "ففرَّق ذلك على القصّتين على عادة القرآن في تغيير أسلوبِ القَصصِ؛ استجدادًا لنشاط السّامع"[4].

والثّالث: قال في سورة البقرة: ﴿فَكُلُواْ﴾ بالفاء، وههنا: ﴿وَكُلُواْ﴾ بالواو، "فجاء العطفُ هناك بالفاء؛ لأنّ بَدْءَ الأكل يكون عقبَ الدّخول، كأكل الثّمرات والفواكه الّتي تكون في كلّ ناحيةٍ منَ القرية، أمّا السّكنى فأمرٌ ممتدٌّ يكون الأكلُ في أثنائه لا عقبه"[5]، وتعجيلُ

(1) ابن عادل، اللّباب: 9/354.
(2) ابن كمال باشا، تفسير ابن كمال باشا: 4/173، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/144.
(3) تفسير ابن كمال باشا: 4/173، والمراغيّ، تفسير المراغيّ: 9/90 - 91.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/144.
(5) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 9/90 - 91، والطِّيبيّ، فتوح الغيب: 6/626، وابن كمال باشا، تفسير ابن كمال باشا: 4/173.

الانتفاعِ الدّالّ عليه العطفُ بالفاء، يدلُّ على شدّة الامتنان، وهذا أنسبُ للقصّة في سورة البقرة؛ لأنّها جاءَت للتّوبيخ[1].

والرّابع: قال في البقرة: ﴿رَغَدًا﴾، ولم يذكرها هنا؛ لأنّ الأمرَ في البقرة كان بالدّخول لا بالسّكن، فأثبت ﴿رَغَدًا﴾ "بعدَ الأمر بالدّخول؛ لأنّها حالةُ قدوم، فالأكلُ فيها ألذُّ، بخلاف السّكنى المذكور هنا، فإنّها حالةُ استقرارٍ واطمئنانٍ، فليس الأكلُ فيها كالأكل عند الدّخول"[2]، وفي ذلك مزيدٌ منَ الامتنان، وهو أنسبُ في التّوبيخ هناك[3].

والخامس: قَدَّم في سورة البقرة قوله تعالى: ﴿وَٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ سُجَّدٗا﴾ على قوله جلّ شأنه: ﴿وَقُولُواْ حِطَّةٞ﴾، وفي الأعراف على العكس؛ ولا تفاوتَ في ذلك؛ لأنّ العطفَ بينهما جاء بحرف الواو الدّالّة على الجمع دون التّرتيب[4]، "فالاختلافُ في التّعبير دالٌّ على عدم الفرقِ بين تقديمِ هذا وتأخيرِ ذاك، وبين عكسه، إذ لا فارقَ بين أن يدعوا بقولهم: ﴿حِطَّةٞ﴾. في حال التّلبّس بالتّواضع والخضوع، وتنكيس الرّؤوس، شكرًا للّه على نعمه، عند دخول القرية – وبين أن يبدؤُوا بتنكيسِ الرّؤوسِ والخضوع والتّواضع، ثمّ يدعوا بقولهم: ﴿حِطَّةٞ﴾"[5].

والسّادس: قال في البقرة: ﴿خَطَٰيَٰكُمۡۚ﴾[البقرة: 58]، وهنا قال: ﴿خَطِيٓـَٰٔتِكُمۡۚ﴾؛ وذلك إشارةٌ "إلى أنّ هذه الذّنوبَ سواءٌ كانت قليلةً أو كثيرةً؛ فهي مغفورةٌ عند الإتيانِ بهذا الدّعاء والتّضرع"[6].

والسّابع: قال في البقرة: ﴿وَسَنَزِيدُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [البقرة: 58] بالواو، وفي الأعراف بحذفها؛ فأخرج العبارةَ في الأعراف "مخرجَ الاستئناف؛ للدّلالة على أنّه تفضّلٌ محضٌ، ليس في مقابلةِ ما أُمِرُوا به"[7]، فتركُ الواو يدلُّ على أنّ الزّيادةَ مِنَّةٌ منَ اللّه تعالى، وليست سببًا لما سبق ذِكرُه منَ الخضوعِ والسّجودِ والاستغفارِ[8].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/145.
(2) ابن كمال باشا، تفسير ابن كمال باشا: 4/173.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/146.
(4) العُليميّ، فتح الرّحمن: 3/48، وابن كمال باشا، تفسير ابن كمال باشا: 4/173.
(5) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 9/90 - 91.
(6) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 15/390، والآلوسي، روح المعاني: 5/83.
(7) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/39، وابن عادل، اللّباب: 9/355.
(8) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 9/90 - 91.

والثّامن: قال في البقرة: ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوۡلًا﴾ [البقرة: 59]، وهنا قال: ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡ قَوۡلًا﴾ بزيادة ﴿مِّنۡهُمۡ﴾؛ للتّصريح بأنّ "تبديلَ القول لم يصدرْ من جميعِهم، وأَجْمَلَ ذلك في سورة البقرة؛ لأنّ آيةَ البقرة لمّا سِيقَت مَساقَ التّوبيخِ ناسبَ إرهابُهم بما يُوهمُ أنّ الّذين فعلُوا ذلك هم جميعُ القومِ؛ لأنّ تبعاتِ بعضِ القبيلةِ تُحمَلُ على جماعتها"[1].

والتّاسع: قال في البقرة: ﴿فَأَنزَلۡنَا﴾ [البقرة: 59]، وهنا قال: ﴿فَأَرۡسَلۡنَا﴾؛ وذلك لأنّ "الإنزالَ لا يُشعرُ بالكثرة، والإرسالَ يُشعِرُ بها، فكأنّه تعالى بدأ بإنزالِ العذابِ القليلِ، ثمّ جعلَه كثيرًا"[2].

والعاشر: في البقرة أعاد الموصولَ: ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ [البقرة: 59]، وهنا بالضّمير ﴿فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ﴾؛ "لأنّ القصدَ في آية البقرة بيانُ سببِ إنزالِ العذابِ عليهم مرّتين، أُشيرَ إلى أولاهُما بما يُومِئُ إليه المَوصولُ من علّةِ الحُكمِ، وإلى الثّانيةِ بحرف السّببيّةِ، واقتصرَ هنا على الثّاني"[3]، فقال: ﴿بِمَا كَانُواْ يَظۡلِمُونَ﴾.

والحادي عشر: قال في البقرة: ﴿بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ﴾ [البقرة: 59]، وقال هنا: ﴿بِمَا كَانُواْ يَظۡلِمُونَ﴾؛ "لأنّه لمّا اقتضى الحالُ في القِصّتين تأكيدَ وصفهم بالظّلم، وأُدِّيَ ذلك في البقرة بقوله: ﴿فَأَنزَلۡنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ [البقرة: 59]، استُثقِلَتْ إعادةُ لفظِ الظّلم هُنالكَ ثالثةً، فَعُدِلَ عنهُ إلى ما يُفيدُ مَفادَهُ، وهو الفِسقُ، وهو أيضًا أعمُّ، فهو أنسبُ بتذييلِ التّوبيخِ، وجِيءَ هنا بلفظِ ﴿يَظۡلِمُونَ﴾؛ لئلّا يفُوتَ تسجيلُ الظّلم عليهم مرّةً ثالثةً، فكانَ تذييلُ آيةِ البقرةِ أنسبَ بالتّغليط في ذمِّهم؛ لأنّ مقامَ التّوبيخِ يَقتضِيهِ"[4].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الخطايَا والذُّنوبُ والآثامُ:

الخطيئةُ من (خطأ)، وأصلُه يدلُّ على تَعَدِّي الشَّيءِ، والذَّهَابِ عَنهُ. والخَطأُ مُجاوَزَةُ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/145.
(2) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 15/390.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/145.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/145.

حَدِّ الصَّوابِ. يُقالُ أَخطَأَ إذا تَعَدَّى الصَّوابَ، وخَطِئَ يَخطَأُ، إذا أَذنَبَ؛ لأنَّهُ يَترُكُ الوَجهَ الخَيرَ. وهو ضدُّ الصّواب[1].

الخطيئةُ تَدلُّ على التّعدِّي والتّجاوُزِ على الحدِّ الموضوعِ، وفيها قصدٌ وإرادةٌ

والإثمُ من (أَثِمَ)، وأصلُه يدلُّ على البُطءِ والتَّأَخُّرِ، يُقالُ: ناقَةٌ آثِمَةٌ؛ أَي: مُتَأَخِّرَةٌ، والإثمُ مُشتَقٌّ مِن ذَلِكَ، لأنّ ذا الإثمِ بَطِيءٌ عَنِ الخيرِ، مُتَأَخِّرٌ عنه. فالإثمُ: الذَّنْبُ، وهو اسمٌ للأفعالِ البطيئةِ عنِ الخيراتِ لتضمُّنِه معنى البطءِ[2].

والذّنبُ من (ذنب)، وأصله يدلُّ على مُؤَخَّرِ الشَّيءِ، ومنه ذَنَبُ الدّابّة، ويعبَّرُ به عنِ المتأخِّر والرَّذْلِ، والذَّنْبُ في الأصل: الأَخْذُ بِذَنَبِ الشّيءِ، وسُمِّي الذَّنْبُ اعتبارًا لما يَحْصُلُ من عاقبتِهِ[3].

فيُلاحظُ أنّ فرقَ الخطيئةِ؛ أنّها تدلُّ على التّعدي والتّجاوز على الحدّ الموضوع، وفيها قصدٌ وإرادةٌ، لمَا في الجذر من دلالةٍ على الامتداد والاندفاع، منَ التّأخّر والتّثاقل، عن فعلِ الطّاعةِ. والذّنْبُ الفعلُ السَّيِّئُ باعتبارِ مآلِه وعاقبتِه، فإنّ الخطيئةَ منَ التّقدُّم والتَّجاوُز، وهي الإثمُ الّذي فيه مجاوزة الصّواب، وتعدّي الحدّ.

وفي قوله تعالى: ﴿نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيٓـَٰٔتِكُمْ﴾ يناسب ذكرَ المغفرة، فهي تشمل حتّى الأفعال الّتي وقعت منهم، وفيها مجاوزةُ الحدّ والتّعدّي.

أرسلْنا وبعثْنا:

إرسالُ العَذابِ يكونُ منَ الأعلَى، ويتضمّنُ معنَى الإنْزالِ عادةً

البعثُ أعمُّ منَ الإرسال؛ لأنّه "يجوز أن يبعثَ الرّجل إلى الآخر؛ لحاجةٍ تخصّه دونَك ودون المبعوث إليه، كالصّبي تبعثُه إلى المكتب، فتقول: بعثْتُه، ولا تقول: أرسلتُه؛ لأنّ الإرسالَ لا يكونُ إلّا برسالةٍ وما يجري مجراها"[4]. وفي قوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا

(1) الجوهريّ، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والسّمين الحلبيّ، العمدة: (خطأ).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والسّمين الحلبيّ، العمدة: (أثم).
(3) الرّاغب، المفردات: (ذنب).
(4) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 289.

﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ آثر التّعبيرَ بالإرسال؛ لأنّه يتضمّنُ العذابَ المعبَّرَ عنه بالرِّجز، ولذا جاء مُتعدِّيًا بالحرف (على)؛ لأنّ إرسالَ العذابِ منَ الأعلى، و"الإرسالُ مِن فَوقُ، فيكُونُ كالإنزال"[1]، فالإرسالُ تضمّنَ الإنزالَ؛ لأنّ الرِّجزَ نزلَ عليهم منَ السّماء.

الظّلمُ والفِسقُ:

عبَّرَ بالظّلمِ لأنّهم بدّلوا القولَ، فتركُوا الأمرَ ووضَعُوا قولَهم في موضِعِه

الفِسْقُ من (فسق)، وأصله من قولهم: فَسَقَ الرُّطَبُ، إذا خرج عن قشره، وهو الخُروجُ عَنِ الطَّاعَةِ. فَسَقَ فلانٌ: خَرج عن حَجْرِ الشّرعِ، وهو أعمُّ منَ الكفر، والفِسقُ يقعُ بالقليل منَ الذّنوب وبالكثير، لكن تُعُورِف فيما كان كثيرًا.وأكثرُ ما يُقال الفَاسِقُ لمَن التزم حكمَ الشّرع، وأقرّ به، ثمّ أخلّ بجميع أحكامه أو ببعضه، فالفاسقُ أعمُّ منَ الكافر، والظّالمُ أعمُّ منَ الفاسق[2].

أمّا الظّلمُ فهو وَضعُ الشّيءِ في غير موضعه المختصّ به، إمّا بنقصان أو بزيادة، وإمّا بعدولٍ عن وقته أو مكانه، ومن هذا يُقال: ظَلَمتُ السِّقَاءَ: إذا تناولتَه في غير وقته[3]. وفي قوله تعالى: ﴿بِمَا كَانُواْ يَظۡلِمُونَ﴾ عبّر بالظّلم؛ لأنّهم بدّلوا القولَ، فتركوا ما أُمِرُوا به، ووضعوا قولًا آخرَ في موضعِه.

الرِّجزُ والصّاعقةُ:

عبَّرَ عن عذابِهم بالرِّجزِ؛ إذ لم يكنْ عذابُ أهْلِ القريةِ بصَوْتٍ أو صَيْحةٍ

الرّجزُ من (رَجَزَ)، وأَصله يَدُلُّ على اضطِراب، وهو داءٌ يُصِيبُ الإبلَ في أَعجازها، بأن تَضطَرِبَ رِجلُ البَعِيرِ أو فَخِذاهُ، إذا أَراد القِيامَ، أو ثارَ ساعَةً، ثُمَّ تَنْبَسِطَ. والرِّجزُ: القَذَرُ، مثل الرِّجسِ. والرِّجزُ: العَذَابُ[4]، ويُطلَقُ على العذابِ الموجبِ للاضطراب[5].

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/284.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (فسق).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (ظلم).
(4) الجوهريّ، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (خطأ).
(5) ابن كمال باشا، تفسير ابن كمال باشا: 1/193.

والصّاعقةُ من (صعق)، وأصلهُ يدلُّ على شدّةِ صوتٍ، من ذلك الصّعق، وهو الصّوتُ الشّديدُ، يُقال: حمارٌ صَعِقُ الصّوتِ إذا كان شديدَهُ، ومنه الصّاعقة، وهي الوقعُ الشّديدُ منَ الرّعد، ثمّ يكون منها نارٌ فقط، أو عذابٌ، أو موتٌ، وهي في ذاتها شيءٌ واحدٌ، وهذه الأشياءُ تأثيراتٌ منها.

فمنِ استعمالها بمعنى العذاب، قوله تعالى: ﴿أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ [فصّلت: 13]، وقوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ عَبَّر عن عذابهم بالرِّجْزِ؛ إذ لم يكن عذابُ أهلِ القريةِ بصوتٍ أو صيحةٍ، فعبّر عنه بما يدلُّ على العذاب الموجبِ للاضطراب، وهو عذابٌ شديدُ الفظاعةِ والوقعِ؛ بأن مَسَخَهم.

﴿وَسۡـَٔلۡهُمۡ عَنِ ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلَّتِي كَانَتۡ حَاضِرَةَ ٱلۡبَحۡرِ إِذۡ يَعۡدُونَ فِي ٱلسَّبۡتِ إِذۡ تَأۡتِيهِمۡ حِيتَانُهُمۡ يَوۡمَ سَبۡتِهِمۡ شُرَّعٗا وَيَوۡمَ لَا يَسۡبِتُونَ لَا تَأۡتِيهِمۡۚ كَذَٰلِكَ نَبۡلُوهُم بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ ١٦٣﴾ [الأعراف: 163]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

انْتِقالٌ مِنَ الحَدِيثِ عن قريةٍ ظالمةٍ، إلى أُخرَى، كانت تعدُو في السّبْتِ

مناسبةُ الآيةِ لما قبلها أنّه انتقلَ من قصّةِ قريةٍ من قرى بني إسرائيل إلى الحديث عن قريةٍ أخرى[1]، فلمّا "فرغَ مِن هَتكِ أستارِهم فيما عملُوه أيّام موسى عليه السلام وما يليها، أتبعه خِزيًا آخرَ أشدَّ ممّا قبلَه"[2]، ولمّا أخبر أنّه أباحَ لهم ما شاء منَ الطَّيِّبات بقوله جلّ ذكره: ﴿كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡۚ﴾، ودَلَّ على أنّهم قابلوا الإحسانَ بالظّلم، بَيَّن أنّهم عَدَلوا عنِ الطّيّباتِ المأذونِ فيها، وأكلوا ممّا حُرِّمَ عليهم بالاصطياد يوم السّبت[3].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿حَاضِرَةَ﴾: (حَضَرَ) أصلٌ، هو إيرَادُ الشَّيءِ، ووُرودُهُ ومُشاهَدَتُهُ. وحَضرَةُ الرّجل: قُربه وفِناؤه، ويُقال: كَلَّمتُه بَحَضرَةِ فلانٍ وبِمَحْضَرٍ من فلان؛ أي: بمشهدٍ منه. الحُضورُ: نَقِيضُ المَغيب والغَيبةِ، والحاضِرةُ: خلاف البادية، وهي المدن والقرى والرّيف. وقال تعالى: ﴿مَّا عَمِلَتۡ مِنۡ خَيۡرٖ مُّحۡضَرٗا﴾ [آل عمران: 30]؛ أي: مُشاهَدًا مُعايَنًا في حكم الحاضر عنده[4].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/147.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/137.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/134.
(4) الجوهريّ، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (حضر).

وقوله ﷻ: ﴿وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ﴾؛ أي: قُرْبَه، قريبةً منه راكبةً لشاطئه[1].

2) ﴿يَعْدُونَ﴾: (عَدَوَ) أصلٌ يَدُلُّ على تَجاوُزٍ في الشَّيءِ، وتَقَدُّمٍ لِمَا يَنبَغِي أَن يُقتَصَرَ عليه. والاعتداء والتّعدّي والعُدْوان: خروجٌ عمّا حُدَّ ورُسِمَ، وقوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ﴾؛ أي: ولا مُتجاوِزٍ ما حُدَّ له[2]. والتّعدّي: مجاوزةُ الشّيء إلى غيره، يُقال: عدَّيْتُه فتَعَدّى؛ أي: تجاوَزَ. وقوله: ﴿فَلَا تَعْتَدُوهَا﴾ [البقرة: 229]؛ أي: لا تُجاوِزوها إلى غيرها، وكذلك قوله: ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ﴾ [الطّلاق: 1]؛ أي: يُجاوِزها. وقوله ﷻ: ﴿فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ﴾ [المؤمنون: 7]؛ أي: المجاوزون ما حُدَّ لهم وأُمِرُوا به[3]. وقوله تعالى: ﴿إِذْ يَعْدُونَ فِي ٱلسَّبْتِ﴾؛ أي: أنّهم "يتعدَّوْنَ حَدَّ الشّرعِ في دينهم، مِن تَرْكِ الاصطيادِ في يوم السّبتِ"[4].

3) ﴿ٱلسَّبْتِ﴾: (سَبَتَ) أَصلٌ يدلُّ على راحةٍ وسكونٍ. أصلُ السَّبت: القَطْعُ، والسُّباتُ: النَّومُ، وأَصلُه الرّاحةُ، تقولُ منه: سَبَتَ يَسبُتُ، قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا﴾؛ فكأنّه إذا نامَ، فَقَدِ انقَطَعَ عَنِ النَّاسِ. ومن سَبَتَ السَّيْرَ: قَطَعَهُ. وسَبَتَ شعرَه: حَلَقَه. والسَّبتُ: مِن أَيّام الأُسبوع، وإنّما سُمِّيَ السّابعُ مِن أَيّام الأُسبوع سَبْتًا؛ لأَنّ اللّه تعالى ابتدأَ الخَلقَ فيه، وقَطَعَ فيه بعضَ خَلقِ الأَرضِ، وأَمَرَ بَني إسرائيلَ بِقَطْعِ الأعمالِ وتَرْكِها فيهِ، وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ سَبْتِهِمْ﴾؛ أي: يوم قَطْعِهم للعمل[5].

4) ﴿حِيتَانُهُمْ﴾: الحوتُ: معروفٌ وهو ماعَظُمَ منَ السّمك، والجمعُ حيتانٌ وأحواتٌ، وقال قومٌ: بل السّمكُ كلُّه حيتان[6]، وهو مذكّر، وفي التّنزيل ﴿فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ﴾ [الصّافّات: 142][7]. ولفظ (حوت) أَصلٌ وهو مِنَ الاضطِرابِ والرَّوَغانِ، حاوتَك فلانٌ إذا راوَغَك. والمُحاوَتةُ: المُراوَغَة. وحاتَ الطّائرُ على الشَّيءِ يَحُوتُ؛ أَي: حامَ حَوله. والحوتُ:

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/170.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (عدو).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (عدو).
(4) النّسفيّ، التّيسير في التّفسير: 7/39.
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (سبت).
(6) ابن دريد الأزديّ، جمهرة اللّغة: (حوت).
(7) الفيّوميّ، المصباح المنير في غريب الشّرح الكبير: (حوت).

العَظِيمُ مِنَ السَّمَكِ، وهو مُضطَرِبٌ أَبَدًا غَيرُ مُستَقِرٍّ، والجَمعُ أَحواتٌ، وحِيتانٌ[1].

5) ﴿شُرَّعًا﴾: (شَرَعَ) أَصلٌ، وهو شَيءٌ يُفتَحُ في امتِدَادٍ يَكونُ فيهِ. شرع: شَرَعَ الواردُ يَشرَعُ شَرعًا وشُروعًا: تَنَاوَلَ الماءَ بفِيه. وشَرَعَتِ الدّوابُّ في المَاءِ: دَخلَتْ. وحِيتانٌ شُرُوعٌ: رافعةٌ رُؤُوسَها. وقَولُهُ تعالى: ﴿تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا﴾، جمعُ شارعٍ؛ أي: باديةً خراطيمَها لكلّ أحدٍ، وذلك أنّ اللّه تعالى ابتَلى اليهودَ بتحريم الصّيد يومَ السّبتِ وبإلهام السّمكة بذلك، فكانَت تظهرُ إلى أن يكاد الإنسانُ يقبِضُها[2]؛ أي: قريبةً مشرفةً لهم ظاهرةً على وجه الماء بكثرةٍ، فكانت تدنو منَ القرية بحيث يُمكنُهم صيدُها[3].

6) ﴿يَسْبِتُونَ﴾: (سبت)، وقد سَبَتُوا يَسبِتُون ويَسبُتون، وأَسبَتُوا: دخَلُوا في السَّبتِ. وسَبَتَ فلانٌ: صارَ في السّبت. والإِسباتُ: الدّخولُ في السَّبتِ. والسَّبتُ: قيامُ اليَهُودِ بأَمر سُنَّتِها. قَالَ تعالى: ﴿وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ﴾[4]، وقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ﴾؛ أي: لا يَقْطَعون الشّغلَ[5].

❁ المَعْنى الإِجْمالِيُّ:

بيانُ قِصّةِ القريةِ البَحريّةِ الّتي امتُحِنَت بحيتانٍ تأتي شُرَّعًا يومَ السّبتِ دونَ سِواه

يخبرُ اللّهُ تعالى عن قِصّةٍ أخرى من قَصص بني إسرائيل، وقد ذُكِرَت هذه القصّة في سورة البقرة إجمالًا، وهاهنا ذُكرت تفصيلًا، فيُخاطِبُ اللّهُ تعالى النبيَّ ﷺ أن يسألَ معاصريه، من بني إسرائيل، عمّا فعل أسلافُهم منَ الّذين كانوا في القرية الّتي كانت

(1) الجوهريّ، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (حوت).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفاظ: (شرع).
(3) الواحديّ، البسيط: 9/410، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 8/138.
(4) الرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (سبت).
(5) العليميّ، فتح الرّحمن: 3/50.

على ساحل البحر، حالَ تعدّيهم، وعقابِ اللّهِ إيّاهم، فقد أمرهم اللّهُ تعالى أن يُعظِّموا يومَ السّبت بانقطاعهم للعبادة، وتركِ العمل، ولا يصيدوا فيه صيدًا، فابتلاهم اللّه وامتَحَنَهم، فكانتِ الحيتانُ تأتيهم ﴿يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا﴾ كثيرةً طافيةً على وجه البحر، وإذا ذهبَ يومُ السّبت تذهبُ الحيتانُ في البحر، فلا يرون منها شيئًا، ابتلاءً لهم بذلك، حيث إنّ فسقَهم هو الّذي أَوْجَبَ أن يَبتلِيَهم اللّهُ، وأن تكونَ لهم هذه المحنةُ، وإلّا فلو لم يَفْسُقوا لعافاهم اللّه، ولَمَا عَرَّضَهُم للبلاءِ والشّرِّ[1].

والمرادُ من هذه القصّة تقريرُ ما كانوا قد أقدموا عليه منَ الاعتداء والفِسْق في الماضي، ليُعْلَم أنّ لهم سابقةً في ذلك، وليس كفرُهم بمحمّد ﷺ أوّلَ مناكيرهم[2].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دَلالةُ العطْفِ ومعناه، في قولِه: ﴿وَسْـَٔلْهُمْ﴾:

عطف الفعل ﴿وَسْـَٔلْهُمْ﴾ في قوله جلّ شأنه: ﴿وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ﴾ على الفعل المحذوف في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ٱسْكُنُواْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ﴾، وتقديره: وذَكِّرْهم، فهي عاطفةٌ قصّةً على قصّةٍ[3]، فالآيةُ تتناولُ قصّةً أخرى من قَصص أسلاف بني إسرائيل.

عَطْفُ قِصَّةِ أصْحابِ السّبْتِ، على قِصّةِ أصحابِ القريةِ

سِرُّ العُدولِ منَ الإخْبارِ إلى السّؤالِ:

في قوله جلّ شأنه: ﴿وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ﴾، عَدَلَ عنِ الإخبار إلى السّؤال، فلم يقُل: (وإذ تعدو القرية الّتي..)؛ لأنّ السّؤالَ يدلُّ على التّقريع، ولأنّه أبلغُ في التّوبيخ، كما أنّ فيه إشارةً إلى شدّة كراهتهم

السُّؤالُ أوْقعُ في التّقريعِ منَ الإخبارِ، وأبْلَغُ في الدّلالةِ عنِ المُرادِ

(1) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 306، والمراغيّ، تفسير المراغيّ: 9/93.
(2) النّيسابوريّ، غرائب القرآن: 3/337.
(3) الطِّيبيّ، فتوح الغيب: 6/628، والهَرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 10/212.

للاطّلاعِ على هذه الفضيحةِ، أشدَّ ممّا مضى[1]؛ لأنّ السّؤالَ يجعلُ المخاطَبَ يشاركُ في فضح نفسه، إمّا بالتّقرير وإمّا بالإفحام، واضطراره أن يكون مشاركًا في تأكيد الحكاية.

دَلالةُ عَوْدِ الضّمائرِ في قولِه: ﴿وَسۡـَٔلۡهُمۡ﴾:

فَضْحُ يهودِ المدينةِ بسَوابقِ أسلافِهم، بيانٌ لرُسوخِهم في الفِسْقِ

الضّميرُ في قوله جلّ شأنه: ﴿وَسۡـَٔلۡهُمۡ عَنِ ٱلۡقَرۡيَةِ﴾ لليهود الّذين هم بحضرة النبيّ ﷺ، والّذين هم من نسل أصحابِ القِصّةِ[2]، والخطاب "للنّبيّ ﷺ مأمورًا بأن يسألَ اليهودَ الّذين عاصروه عليهم السلام عمّا كان من أسلافهم"[3]، وفي ذلك فَضْحٌ لهم بسوابق أسلافهم، ودفعٌ للتّعجب مِن كُفْرِهم بالإسلام بذِكْرِ جرائمِ أجدادِهم؛ لبيان أنّهم قومٌ راسخون في الفِسْقِ والظّلم.

الدّلالةُ على الأمرِ، في قولِه: ﴿وَسۡـَٔلۡهُمۡ عَنِ ٱلۡقَرۡيَةِ﴾:

غَرَضُ سُؤالِهم التّوبيخُ والتّقريعُ لهم، بما فعَلَ أسلافُهم

دَلَّ السّؤالُ في قوله جلّ شأنه: ﴿وَسۡـَٔلۡهُمۡ عَنِ ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلَّتِي كَانَتۡ حَاضِرَةَ ٱلۡبَحۡرِ﴾ دلالةً مجازيّةً على التّعريض بالمعاصرين منهم للنبيِّ ﷺ، من خلال التّذكير بمعاصي أجدادهم، إذ ليس المرادُ استخبارَهم عن تلك القرية؛ فإنّ النّبيّ ﷺ قد عَلِمَها عن طريقِ الوحي، وتوجيهُ السّؤالِ إليهم إنّما هو توبيخٌ لهم[4]؛ أي: اسألهم مُوبِّخًا لهم، عمّا كان من أجدادهم في أمر القرية منَ الخطيئة. والسّؤالُ قد يكون للتّقرير والتّوبيخ، كما أنّ همزةَ الاستفهام تأتي للتّقرير، كقولك: أعدوتُم في السّبت، فكما أنّ معنى الهمزة هنا التّقريرُ والتّقريعُ، كذلك السّؤال[5].

(1) الطِّيبِيّ، فتوح الغيب: 6/628، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 8/137.
(2) الشّهاب، عناية القاضي: 4/227.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 6/2986.
(4) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/467.
(5) الواحديّ، البسيط: 9/407، والطِّيبِيّ، فتوح الغيب: 6/627.

بَلاغةُ حذْفِ مُتَعَلِّقِ ﴿وَسْـَٔلْهُمْ﴾:

جاء الأمرُ بالسّؤال في قوله جلّ شأنه: ﴿وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ﴾ مطلَقًا، فحَذَفَ مُتعلِّقَ المسؤول عنه، والقريةُ ليست هي المقصود بالسّؤال، بل عنِ الحدث الّذي وقع بها؛ أي: اسألْهم عن حالِها وخبرِها وما جرى على أهلها[1]، وعدمُ التّصريح بذلك تشويقٌ للسّامع، فيتطلَّعُ إلى سماعِ هذا الخبر الّذي يدلُّ أسلوبُ إيراده على أنّه من خطورة الشّأن بمكان.

حَـذْفُ المسؤولِ عـنـه، يُـشـوِّقُ السّامِعَ لمعرفةِ الخبَرِ

معنى (أل) في ﴿ٱلْقَرْيَةِ﴾، والمُرادُ بها:

في قوله تعالى: ﴿وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ﴾، جاء لفظُ القرية معرَّفًا بالألف واللّام الدّالّة على العهد، فالمرادُ سؤالُهم عن قرية بعينها، لا عَنْ جنسِ القُرى، والقريةُ هنا "(أيلةُ) وهي المسمّاةُ اليومَ (العَقَبَةَ)، وهي مدينةٌ على ساحل البحرِ الأحمرِ قُربَ شبهِ جزيرةِ طُورِ سينا، وهي مبدأُ أرضِ الشّامِ من جهةِ مصرَ، وكانت من مملكةِ إسرائيلَ في زمانِ داودَ عليه السلام"[2].

الـقَـريـةُ المُـرادةُ خلَّدَها القرآنُ، بذِكْرِ قِصَّتِها في كتابِهِ الخالدِ

بَلاغةُ التّعْبيرِ في السّؤال، في قولِه: ﴿وَسْـَٔلْهُمْ﴾:

افتتح القُرآنُ القصّةَ عن هذه القرية بقوله جلّ شأنه: ﴿وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ﴾، فطَلَبَ منَ النّبيّ ﷺ أن يسألَهم عنها، ولم يأتِ ذلك عن طريق الإخبار، لمَا في السّؤال من تقريرٍ وتقريعٍ، وهذا أبلغُ من طريقة الإخبار، " هذه القصّة ليست ممّا كُتِبَ في توراةِ اليهودِ ولا في كتبِ أنبيائِهم، ولكنّها ممّا كانَ مرويًّا عن أحبارِهم، ولذلك افتُتِحَتْ بالأمرِ بسؤالِهم عنها؛ لإشعارِ يهودِ العصرِ النّبويِّ بأنّ اللّه أَطْلَعَ نبيَّهُ ﷺ عليها، وهم كانوا يكتمُونها"[3]، وفي ذلك إشارةٌ إلى عراقتِهم في المعاصي، فكُفْرُهم بك ليس ممّا يُستغربُ منهم.

قِـــدَمُ هـذه الـقِـصّةِ، دليلٌ عـلى عَـراقـةِ الـيـهـودِ في المعاصِي

(1) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/39، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/284.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/147. والعَقَبَةُ الآن: إحدى مُدُنِ الأُردنّ.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/146.

بَلاغةُ الإيجازِ بالحذْفِ:

غَرَضُ السُّؤالِ عن قِصّةِ القريةِ وعن أهْلِها

في قوله تعالى: ﴿وَسۡـَٔلۡهُمۡ عَنِ ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلَّتِي كَانَتۡ حَاضِرَةَ ٱلۡبَحۡرِ﴾ السّؤالُ جاء عنِ القرية، ولكنّ المرادَ أن يسألَ "أهلَها، كأنّه قيل: واسألهم عن أهلِ القريةِ وقتَ عدوانهم في السّبت، وهو من بدل الاشتمال"[1]، فالقريةُ مشتمِلةٌ عليهم، فهو في علم البيان مجازٌ مُرسَلٌ؛ لأنّه أَطْلَقَ المحلَّ، وأرادَ الحالَّ فيه[2]، فحَذَفَ المضاف، وأقامَ المضافَ إليه مقامَهُ.

سِرُّ وصْفِ القريةِ بأنّها ﴿حَاضِرَةَ ٱلۡبَحۡرِ﴾:

القريةُ قريبةٌ منَ البحرِ، حيث كانت تأتي حِيتانُهم شُرَّعًا

وصفَ الخِطَابُ القريةَ في قوله جلّ شأنه: ﴿ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلَّتِي كَانَتۡ حَاضِرَةَ ٱلۡبَحۡرِ﴾، بأنّها حاضرةُ البحر، والمرادُ من ذلك أنّها قريبةٌ منَ البحر[3]، فالحضورُ "نقيضُ الغَيبة؛ أي: الّتي هي مجاورة البحر، وبقربه، وعلى شاطئه، كقوله: ﴿ذَٰلِكَ لِمَن لَّمۡ يَكُنۡ أَهۡلُهُۥ حَاضِرِي ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۚ﴾ [البقرة: 196]"[4]، وإنّما ذكر هذه الصّفةَ دون غيرها منَ الصّفات تمهيدًا للقصّة، إذ إنّ القصّةَ المرويّةَ عنها مُتعلِّقةٌ بالبحر، فذكر البحرَ في وصفها تهيئةً وتمهيدًا لما سيأتي.

معنَى (أل) في لفْظِ ﴿ٱلۡبَحۡرِ﴾:

تأكيدُ ارْتباطِ القريةِ بالبَحْرِ، وأنّ الامْتحانَ كان في حِيتانِه

(الْ) في قوله جلّ شأنه: ﴿وَسۡـَٔلۡهُمۡ عَنِ ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلَّتِي كَانَتۡ حَاضِرَةَ ٱلۡبَحۡرِ﴾، تَدلُّ على الجنس، فالمرادُ الإخبارُ عن هذه القرية، أنّها كائنةٌ على البحر، من غير بيانِ أيِّ بحرٍ كان؛ لأنّ المرادَ أنّهم كانوا يعيشون على خيرات البحر، وفي ذلك وَقَعَ الابتلاءُ، وهو يقعُ بأيّ بحرٍ كان، وعند مَن يرى أنّ القريةَ هي أيلة، فـ(أل) عهديّة، والمرادُ بها البحر الأحمر.

---

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/171.
(2) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 10/224.
(3) الشّهاب، عناية القاضي: 4/228.
(4) الواحديّ، البسيط: 9/408، والزّمخشريّ، الكشّاف: 2/170.

نُكتةُ التّعْبِيرِ بالاسْمِ الموصولِ وصِلتِه:

كانتِ القريةُ في الماضِي حاضِرةً، وانْمحَى خَبرُها عنِ النّاسِ، فكَشَفَهُ الوحْيُ

في قوله جلّ شأنه: ﴿ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ﴾، عَبَّر عن وصفها بالموصول؛ للدّلالة على الزّمن الماضي المعبَّرِ عنه في الصّلة، إشارةً إلى أنّها اليوم ليست حاضرةً؛ إذ إنّها قد فَنِيَتْ وانمَّحى خبرُها، وكَتَمَه اليهودُ؛ فلذا كان السّؤالُ عنها إظهارًا لليهود بأنّ النّبيَّ ﷺ، إنّما علمَ بِذَلك عن طريق الوحي.

الموقعُ النّحويُّ والبيانيُّ لجُملةِ: ﴿إِذْ يَعْدُونَ فِي ٱلسَّبْتِ﴾:

تَقريرُ اعْتِدائِهم هو المقصودُ بالسُّؤالِ

لمّا قال تعالى: ﴿وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ﴾ كان السّامعُ ينتظرُ أن يبيّنَ عن أيّ شيءٍ يسألهم، فبيّنَ أنّ السّؤالَ عن اعتدائهم، فقال جلّ شأنه: ﴿إِذْ يَعْدُونَ فِي ٱلسَّبْتِ﴾، ومحلُّ هذه العبارة "مجرورٌ بدلًا عنِ القرية، بدل الاشتمال؛ أي: واسألهم عن وقت عدوانهم"[1]؛ لأنّ المقصودَ بالسّؤال هو الاعتداء، وتقديرُ الكلام: واسألهم إذ يعدو أهلُ القرية في السّبت[2]، فترك العطفَ على هذا لكمال الاتّصال، وقد يكون للاستئناف البيانيّ جوابًا عن سؤالٍ مُقدَّرٍ: ما شأنهم؟ أو ماذا فعلوا؟.

معنَى ﴿إِذْ﴾ في سِياقِ الآيةِ:

اسْمُ الزّمانِ يُحدّدُ أوانَ العُدْوانِ في السّبْتِ

افتتح قوله جلّ شأنُه: ﴿إِذْ يَعْدُونَ فِي ٱلسَّبْتِ﴾ بـ(إذْ)، وهو "اسمُ زمانٍ للماضي، وليست ظرفًا"[3]، فـ(إذْ) مسؤولٌ عنه، وليس مسؤولًا فيه، فهو ليس ظرفًا للسّؤال، والمقصودُ به وقتُ العدوان[4].

سِرُّ التّعْبِيرِ بالفعْلِ المضارعِ: ﴿يَعْدُونَ﴾:

كلُّ انْتِهاكٍ لِمَا حرّمَ اللهُ، عُدوانٌ على شَرْعِه وهُداه

عبّر ﷻ عنِ ارتكابهم المحرّم في شريعتهم بالاعتداء، فقال جلّ شأنه: ﴿إِذْ يَعْدُونَ فِي ٱلسَّبْتِ﴾، والعدوانُ هو التّجاوزُ عنِ الحدّ، فلمّا

(1) النّيسابوريّ، غرائب القرآن: 3/337.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/148.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/148.
(4) النّيسابوريّ، غرائب القرآن: 3/337.

خالفوا الحقَّ، وانتهكوا ما حُرِّمَ عليهم؛ كان ذلك منهم عدوانًا، وهو اشتغالُهم بصيد الحيتان يومَ السّبت، وعبّر عن ذلك بالفعل المضارع؛ للدّلالة على تكرّر ذلك منهم[1]، أو لاستحضار صورتِهم أمام القارئ والسّامع، ولا مانعَ هنا من اجتماع الغرضين.

معنَى ﴿ٱلسَّبۡتِ﴾ ودَلالةُ الحرفِ ﴿فِي﴾:

تَعظيمُ الله للزَّمنِ، يَجعلُ له حُرمةً وقَداسةً

في قوله جلّ شأنُه: ﴿إِذۡ يَعۡدُونَ فِي ٱلسَّبۡتِ﴾، السّبت هو اسمُ اليوم الّذي بعدَ يوم الجمعة، ولـمَّا كان الاعتداءُ معبَّرًا عنه بالفعل المضارع الدّالّ على التّجدّد، دَلَّ ذلك على تَكرارِ الاعتداءِ كلَّ سبتٍ، ودلالة ﴿فِي﴾ الظّرفيّة، تنصّ على أنّ ذلك الاعتداءَ وقعَ في شأن نقصِ حرمةِ السّبت[2].

دَلالةُ تَقييدِ قولِه: ﴿يَعۡدُونَ فِي ٱلسَّبۡتِ﴾:

حِيلَتُهم بنَصْبِ الشِّباك قبْلَ السّبتِ، اعْتِداءٌ على تحريمِ العَمَلِ في السّبْتِ

في قوله جلّ شأنه: ﴿إِذۡ يَعۡدُونَ فِي ٱلسَّبۡتِ﴾، قيّد اعتداءَهم بأنّه كائنٌ يوم السّبت، وفائدةُ هذا التّقييد الإشارةُ إلى مَزِيَّةٍ يختصُّ بها يومُ السّبت؛ إذ إنّ "ذِكْرَ وقت العدوان لا يتعلَّقُ به غرضُ البليغ، ما لم يكنْ لذلك الوقتِ مزيدُ اختصاصٍ بالفعل، فيُعلَمُ أنّ الاعتداءَ كان مَنُوطًا بحقٍّ خاصٍّ بيومِ السّبتِ، وذلك هو حقُّ عدمِ العملِ فيه؛ إذ ليسَ لِيومِ السّبتِ حقٌّ في شريعة موسى، سوى أنّه يَحْرُمُ العملُ فيه، وهذا العملُ هو الصَّيدُ، كما تدُلُّ عليه بقيَّةُ القصَّةِ"[3].

الموقعُ النّحويُّ والبيانيُّ لإتْيانِ الحيتانِ:

وقتُ اعْتِدائِهم هو وقتُ مجيءِ الحيتانِ يومَ السّبْتِ

جاء قولُه تعالى: ﴿إِذۡ تَأۡتِيهِمۡ حِيتَانُهُمۡ﴾؛ لبيانِ وقتِ اعتدائهم؛ أي: اسألهم عن اعتدائهم وقتَ الإتيان[4]، وأجاز أئمّةُ التّفسيرِ أن يكون ظرفًا لـ﴿يَعۡدُونَ﴾، أو أن يكون بدلًا عن ﴿إِذۡ يَعۡدُونَ﴾، وكونه ظرفًا

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/467، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/148.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/148.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/148.
(4) الواحديّ، البسيط: 9/409.

أرجح للمعنى؛ "لأنّ السّؤالَ عن عداوتهم أدخلُ في التّقريع"[1]، ويمكن أن يكونَ استئنافًا بيانيًّا، جوابًا عن سؤالٍ: كيف عَدَوا في السّبت؟

نُكتةُ إضافةِ الحيتانِ إليهم:

مِنْ كَرمِ اللهِ أنّه تعالى يَخلُقُ، ويَنسِبُ إلى عبادِه

جاء لفظُ الحيتان في قوله جلّ شأنه: ﴿إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ﴾ مضافةً إليهم، إشارةً إلى أنّ "المرادَ الحيتانُ الكائنةُ في تلك النّاحية الّتي هم فيها"[2]، وفيه تبكيتٌ لهم باعتدائهم؛ إذ إنّها "مخلوقةٌ لهم، فلو صبروا نالوها، وهم مطيعون"[3].

دَلالةُ إضَافةِ السّبْتِ إليهم:

الحيتانُ تأتِيهم يومَ حُرمةِ الصّيدِ عليهم، وانْصرافِهم للعبادةِ

في قوله جلّ شأنه: ﴿إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ﴾، أضاف السّبت إليهم، وهو يومٌ لكلّ النّاس، لا يختصُّ بأحدٍ ما، ولكنّ اليهودَ اختُصّوا بأحكامٍ في شريعتهم في هذا اليوم؛ لما للسّبت من مكانةٍ وقدسيّةٍ لدى اليهود، فهم يعظّمونه بترك العملِ فيه[4]، فجعله ظرفًا لمجيء الحيتان ابتغاءَ فتنتهم وابتلائهم، فأضافهم إلى السّبت؛ للدّلالة على مجيء الحيتان في اليوم الّذي ينقطعون فيه للعبادة، ويحرُمُ فيه العمل عليهم، والمعنى: "إنّهم إذا حفظوا حرمةَ السّبت، فأمسكوا عنِ الصّيد في يوم السّبت، جاءتِ الحيتانُ يومئذٍ شُرّعًا آمنةً، وإذا بعثهم الطّمعُ في وفرة الصّيد، فأعدّوا له آلاته، وعزموا على الصّيد لم تأتهم"[5].

نُكتةُ التّعْبيرِ بـ﴿شُرَّعًا﴾:

الحيتانُ تأتِي يومَ السّبتِ وافرةً مُكتظّةً قريبةً مِنَ التّناوُلِ

عبّر عن كيفيّة مجيءِ الحيتانِ إليهم يومَ السّبت بقوله جلّ شأنه: ﴿إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا﴾، فهي تجيءُ مقبلةً إليهم،

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/284.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 5/84.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/138.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/138، والمراغيّ، تفسير المراغيّ: 9/92.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/149.

مصطفّةً؛ للدّلالة على القُرْب والكثرة، مع ظهورها على سطح الماء[1]، و"ذلك وصفٌ مِن: شرعَتِ الإبلُ نحو الماء؛ أي: دخلَت لتشرَبَ، وهي إذا رعاها الرُّعاةُ تسابقَت إلى الماءِ، فاكتظَّت، وتراكمَت، ورُبَّما دخلَت فيهِ، فمُثِّلَت هيئةُ الحيتان، في كثرتها في الماء بالنَّعَمِ الشّارعَةِ إلى الماء، وحَسَّنَ ذلك وجودُ الماءِ في الحالتين"[2].

بَلاغةُ الكِنايةِ، في قولِه: ﴿شُرَّعًا﴾:

بَيَّنَ في قوله جلّ شأنه: ﴿تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا﴾ حالَ مجيء الحيتان إليهم يوم السّبت، فهي تأتي ظاهرةً قريبةً منَ الشّاطئ، وكانت تدنو منَ القرية، بحيث يسهلُ تناولُها باليد وصيدُها، وفي ذلك كنايةٌ عن كونها كثيرة، في ورودها يوم السّبت[3].

لفظُ (شُرَّعًا)، يعني كثيرةً ظاهرةً، سَهلةَ المُتَناوَلِ

معنَى الواوِ، في قولِه: ﴿وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ﴾:

افتتحَ قوله جلّ شأنه: ﴿وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ﴾ بالواو الدّالّة على الاستئناف؛ لأنّ "الإخبارَ بإتيانها يوم سبتهم، مَظِنّةُ أن يُقال: فماذا حالهم يوم لا يسبتون؟ فقيل: يوم لا يسبتُون لا تأتِيهم[4].

اخْتِبارُ القومِ بوَفرةِ الحِيتانِ يومَ المَنْعِ، قياسٌ للإيمانِ والامْتِثالِ

دَلالاتُ قولِه: ﴿لَا يَسْبِتُونَ﴾:

جاء النّظمُ في قوله جلّ شأنه: ﴿وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ﴾، متّسعَ الدّلالة، فذكر أئمّةُ التّفسير أنّه يَحتمِلُ أن يُرادَ بها الأيامُ السّتّةُ غير السّبت، ويحتملُ أن يُرادَ بها أيّامُ السّبت الّتي انتهكوا فيها حرمتَه، وفي ذلك جاءَ في التّحرير والتّنوير: "يجوز في قوله: ﴿وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ﴾ أن يكونَ المعنى: والأيّامُ الّتي لا يَحرُمُ العملُ فيها، أي: أيّامَ الأسبوع، لا تأتي فيها الحيتانُ. وأن يكونَ المعنى: وأيّامَ السُّبُوتِ الّتي استحلُّوها فلم يكُفُّوا عنِ الصّيدِ فيها؛ ينقطعُ فيها إتيانُ الحيتانِ. ولا يخفى أنّ

اتِّساعُ الدَّلالةِ يُعطِي بَدائلَ في المعنَى، تُثْرِي دَلالةَ التّركيبِ

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/467، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 8/138.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/148 - 149.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/148، والفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 15/391.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/285.

لإيثار هذاالأسلوبِ في التّعبير عنِ السّبت؛ خُصوصِيَّةً بلاغِيَّةً ترمي إلى إرادةِ كلا المعنَيين"[1]. وعلى إرادة المعنى الثّاني، وهو أيّامُ السّبت الّتي استحلُّوها، يكون انتفاءُ مجيء الحيتان شاملًا أيّامَ الأسبوع كلّها، مع السّبت الّذي استحلّوه، ويكون المعنى أنّهم ارتكبوا معصيةَ الاستحلالِ بلا فائدة. وفيه إشارةٌ إلى إصراراهم؛ إذ لمّا انقطعَت عنهم في أيّام السّبت الّذي ينتهكون حرمتَه، فكان ينبغي عليهم أن ينبذوا هذه المعصيةَ، ويثوبوا إلى ربّهم، ولكنّهم أصرّوا على ذلك.

نُكتةُ إضَافةِ لفْظِ (اليوم)، إلى ﴿لَا يَسْبِتُونَ﴾:

أضاف النّظمُ الكريمُ لفظَ (اليوم)، في قوله جلّ شأنه: ﴿وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ﴾ إلى الجملة الفعليّة المنفيّة؛ للدّلالة على أنّ انتفاءَ مجيء الحيتان كائنٌ في كلّ يوم ليس سبتًا، والمعنى: "والأيّام الّتي لايَحْرُمُ العملُ فيها، أي: أيّامَ الأسبوع، لا تأتي فيها الحيتانُ"[2]. أو يكون المعنى على الاحتمال الثّاني: كلّ يوم لا ينقطعون فيه للعبادة، "ولعلّه عبّر بهذا إشارةً إلى أنّهم لو عظّموا الأحدَ، على أنّه سبتٌ جاءتهم فيه، وهو من: سبتِ اليهود، إذا عظّمت سبتها"[3]، فيكون مجيءُ الحيتان إليهم متعلّقًا بعبادتهم.

السِّرُّ في تَعظيمِ ما عظّمَ الله، واجْتِنابِ ما حرّمَه وأبَاه

دَلالةُ التّعْبيرِ بالمضارعِ ﴿يَسْبِتُونَ﴾:

في قوله جلّ شأنه: ﴿وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ﴾، عبّر عن كينونتهم خارجَ يوم السّبت بقوله: ﴿لَا يَسْبِتُونَ﴾؛ أي: "لا يكون سبت"[4]، وإنّما عبّر عن ذلك بالفعل المضارع؛ للدّلالة على استمرار ذلك زمانًا تجدّدَ فيه هذا الحدث، ودخل النّفيُ على المضارع؛ للدّلالة على استمرار النّفي، لا نفي الاستمرار، والمعنى: تَكرارُ الأيّام الّتي لا ينقطعون فيها

معنَى (يَسْبِتُونَ) يَدخُلونَ السّبْتَ، ويَنقطِعونَ عنِ الاشْتغالِ بغيرِ العبادةِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/149، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/284.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/149.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/138.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/138.

للعبادة وتجدّدها؛ تمهيدًا للتّعبير عن نفي مجيئها بتلك الأيّام على وجه الاستمرار. ولا يخفى أنّ التّعبيرَ بالأفعال المضارعة عنِ الأخبارِ الماضويّةِ، فيه استحضارٌ للصّورة أمام القارئ والسّامع.

مَوقعُ قولِه: ﴿لَا تَأْتِيهِمْ﴾، ومعنَى النّفْيِ في هذا السِّياقِ:

الدّلالةُ على أنّ مجيءَ الحيتان مُرتبِطٌ بسبتِهم وُجودًا وعدَمًا

أصلُ النّظمِ في قوله جلّ شأنه: ﴿وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ﴾ أن يقولَ: (تأتيهم حيتانُهم يوم سبتهم، ولا تأتيهم يوم لا يسبتون)، ولكنّه غيّر النّظمَ بتقديم الظّرف: ﴿وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ﴾؛ لأنّ "الإتيانَ يومَ سبتِهم مَظِنّةٌ، كَما قِيل لأن يُقالَ: فماذا حالُها يومَ لا يَسبِتُون؟ فقِيلَ: يومَ لا يَسبِتُونَ لا تأتِيهم"[1]. كما أنّ فيه اهتمامًا بعلّة عدمِ مجيءِ الحيتان، فهو إشارةٌ إلى أنّ انتفاءَ المجيء، إنّما هو بسببِ أنّهم لا يسبتون؛ أي: يوم لا ينقطعون للعبادة لا تأتي الحيتان.

ونفيُ الإتيانِ بصيغة الفعل المضارع؛ للدّلالة على استمرار النّفي، والمعنى: أنّها لا تأتي في أيّام الأسبوع كلِّها إلّا يومَ السّبتِ، فانقطاعها عنِ المجيء مُتكرِّرٌ في كلّ أسبوع.

الموقعُ البيانيُّ لجُملةِ: ﴿نَبْلُوهُم بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ﴾:

الاستِئنافُ إشارةٌ إلى عِلّةِ ذلك الابتلاءِ

الجملةُ في قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ﴾ استئنافيّةٌ، وقعَت جوابًا لسؤالٍ عن القصّةِ، كأنّه يقول: "ما فائدةُ هذه الآية، مع علم الله بأنّهم لا يَرْعَوُونَ عنِ انتهاك حرمةِ السّبتِ"[2]؟ أي: أنّ الابتلاءَ المشارَ إليه جاءَ تعليلًا لأحداث تلك القصّة، فامتناعُ الحيتان عنِ المجيء كان اختبارًا شديدًا لهم.

معنَى (الكاف) في ﴿كَذَٰلِكَ﴾ ودَلالتُها على التّشْبِيه:

شبَّهَ اللهُ ابتِلاءَهم بأمْرِ الحيتانِ، بالابتِلاءِ العظيمِ الّذي يَبتَلِي به عِبادَه

افتتحَ الجملةَ الاستئنافيّةَ بكاف التّشبيه، في قوله جلّ شأنه: ﴿كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ﴾؛ لتشبيه ما وقع لهم بما جرَت

(1) الآلوسي، روح المعاني: 5/85.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/150، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 8/138.

به عادةُ المولى ﷻ، في ابتلاء عبادِه اختبارًا أو عقابًا لهم، "أي: مثلَ هذا الابتلاءِ العظيمِ نبلُوهم"[1].

دَلالةُ التّعْبيرِ باسْمِ الإشارةِ للبعيدِ ﴿كَذَٰلِكَ﴾:

جاء اسمُ الإشارة في قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَبۡلُوهُم﴾ دالًّا على البعد؛ إشارةً إلى عِظم البلاءِ وشدّته، أي: "مثلَ ذلك البلاءِ العجيبِ الفظيعِ"[2]، وأشدُّ ما يقع للنّاس منَ البلاء ما تعلَّقَ بأمنهم وقُوْتهم.

كانَ ذلك البلاءُ عظيمًا شَديدًا، جَديرًا بأن يُشارَ له بالبُعْدِ

سِرُّ التّعْبيرِ بالمضارعِ: ﴿نَبۡلُوهُم﴾:

عَبَّر عنِ الابتلاء في قوله جلّ شأنه: ﴿كَذَٰلِكَ نَبۡلُوهُم﴾، بصيغة الفعلِ المضارعِ الدّالِّ على التّجدّد والاستمرار؛ إعلامًا بتجدّد الاختبار؛ لأنّه كان مُتكرِّرًا كلَّ سبت، كما أنّ في التّعبير بالمضارع يحكي "الحالَ الماضيةَ لاستحضارِ صورتِها والتّعجيبِ منها"[3]، فيحيلُ تلك القصّةَ إلى مشهدٍ متخيَّلٍ في ذهن السّامع.

الابْتِلاءُ مُتَجدِّدٌ يَتكرّرُ كلَّ سبْتٍ، ولا يَنقطعُ

معنَى الباءِ في قوله: ﴿بِمَا كَانُواْ﴾:

دلّتِ الباءُ في قوله جلّ شأنه: ﴿نَبۡلُوهُم بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ﴾ على السّببيّة؛ أي: بسبب فِسْقِهم ابتليناهم ذلك الابتلاءَ العجيبَ، وفي ذلك إشارةٌ إلى أنّ اللّه تعالى لا يظلمُ أحدًا من عباده؛ لئلّا يتطرّقَ الوهمُ لأحدٍ أنّ اللّه تعالى إنّما قصدَ إهلاكَهم، بل هم كانوا فاسقين خارجين عنِ اتّباع ما أُوحِي إليهم.

تَقرّرَ ذلك الابْتِلاءُ عليهم وتَكرَّرَ، بسبَبِ فِسْقِهم المتُكرِّرِ

دَلالةُ (ما) على المصدريّةِ:

دلّ قولُه جلّ شأنه: ﴿بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ﴾ على سبب ابتلائهم، وذلك بسبب فسقهم، فـ (ما) مصدريّة؛ أي: نبلوهم بسبب فسقِهم، فَتَوغُّلُهم في العصيان أضرَّهم على الزّيادةِ منهُ[4]. ولا يصلح أن

الفِسْقُ هو السّببُ في ابْتِلائِهم ذلك الابْتِلاءَ العظيمَ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/150.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/285، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/150.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 5/85.
(4) ابن عادل، اللّباب: 9/359.

تكون موصولةً بمعنى (الّذي)؛ لتكلُّفِ حذفِ العائد، وما كان بلا تأويلِ محذوفٍ فهو أولى[1].

سِرُّ دُخولِ لفْظِ (كانوا)، في جُملةِ الوصْفِ بالفِسْقِ:

الفِسْقُ خُلُقٌ راسخٌ فيهم، دَأَبُوا عليه واعتادُوه

قوله تعالى: ﴿نَبۡلُوهُم بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ﴾؛ دخل الفعلُ (كان) في جملة الوصف بالفسق للتّعبير عن عَراقتِهم بالفسق ورسوخِهم فيه، وأنّهم قد دأبوا عليه زمانًا طويلًا، وأنّ فِسْقَهم ليس حادثًا مع هذه القصّة، بل هو نهجٌ قديمٌ لهم.

نُكتةُ التَّعْبيرِ بالفعْلِ المضارعِ ﴿يَفۡسُقُونَ﴾:

اعْتِيادُ الفِسْقِ يَصيرُ لهم سَجِيّةً، لا فِكاكَ لهم عنه

عَبَّر عن فِسْقِهم في قوله جلّ شأنُه: ﴿بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ﴾ الدّالّ على خروجهم عن تعاليمِ اللّه تعالى، وانتهاكِهم المحرّماتِ بالفعل المضارع؛ للدّلالة على أنّ فسقَهم مستمرٌّ متجدِّدٌ، والجمع بين الفعل الماضي ﴿كَانُواْ﴾، والمضارع ﴿يَفۡسُقُونَ﴾؛ للدّلالة على إصرارهم على الفسق. ودلّ هذا التّجدُّدُ والاستمرارُ على أنّ الفسقَ لا يكون سببًا للبلوى، بل بسبب كونهم اعتادوا الخروجَ عنِ الطّاعة في كلِّ أفعالهم[2].

عِلّةُ الفَرْقِ بين الفاصلَتَيْن، وتَخصيصُ كلِّ فاصلةٍ بما ذُكِرَ فيها:

تناسُبُ مُفرداتِ السِّياقِ، بالمقابَلةِ بين الرِّجْزِ والظُّلْمِ، والابتلاءِ والفِسْقِ

جاءتِ الفاصلةُ في قوله تعالى: ﴿فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِجۡزٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَظۡلِمُونَ﴾ مختومةً بالظّلم، والفاصلةُ في قوله جلّ شأنُه: ﴿كَذَٰلِكَ نَبۡلُوهُم بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ﴾ مختومةً بالفسق؛ لأنّ العذابَ بالرّجز أشدُّ منَ الابتلاء؛ فتكون علّتُه أشدَّ من علّة الابتلاء، ومعلومٌ أنّ الظّلمَ أشدُّ منَ الفسق، "ولفظُ الظّلم في قوله: ﴿بِمَا كَانُواْ يَظۡلِمُونَ﴾ بما يقتضيه مِن أنّهم لا ينفكّون عنِ الكون في الظّلم،

(1) ابن عادل، اللّباب: 9/359، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/150.
(2) ابن كمال باشا، تفسير ابن كمال باشا: 1/193.

إمّا مطلقًا، وإمّا مع تجديد فعلِ مَن هو فيه أهولُ من لفظ الفسق، المقتضي لتجديد الخروجِ، ممّا ينبغي الاستقرار فيه"[1].

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

العَدْوُ والبغيُ والظُّلمُ:

الاعتداء: أصلُه يدُلُّ على تَجاوُزٍ في الشَّيءِ، وتَقَدُّمٍ لِمَا يَنبَغِي أَن يُقتَصَرَ عليه، وهو خروجٌ عمّا حُدَّ ورُسِمَ[2]. والعَداوَةُ: "إرادَةُ السُّوءِ لِمَا تُعادِيه، وأَصلُهُ المَيلُ، ومِنهُ عُدْوَةُ الوادِي، وهي جانِبُهُ، ويَجوزُ أَن يَكونَ أَصلُهُ البُعدَ، ومِنهُ عُدَواءُ الدَّارِ؛ أَي: بُعدُهَا، وعَدا الشَّيءَ يَعدُوهُ إذا تَجاوَزَهُ، كأَنَّهُ بَعُدَ عَنِ التَّوَسُّطِ"[3]. "العَدْوُ هو التَّعَدِّي في الأُمورِ، وتَجاوُزُ ما يَنبَغِي يُقْتَصَرَ عليه"[4]. والبَغيُ: "شدَّةُ الطّلبِ لما لَيسَ بِحَقٍّ، وبَغَى الجُرْحُ يَبغِي: إذا ترامى إلى فَسَادٍ. يرجعُ إلى ذَلِك البغاء وهو الزِّنَا"[5].

العَدْوُ تَعبيرٌ دقيقٌ عن تجاوُزِ حَدِّ الشَّرعِ، دونَ غيرِها مِنَ الألفاظِ

والظّلم: أصلُه نقصان الحقِّ، ونقيضُ الظُّلمِ الإنصافُ، وهو إعطاءُ الحقِّ على التّمام[6].

وقوله تعالى: ﴿إِذۡ يَعۡدُونَ فِي ٱلسَّبۡتِ﴾؛ أي: أنّهم "يتعدَّون حدَّ الشّرع في دينهم، مِن تركِ الاصطيادِ في يوم السّبت"[7]، فعبّر عن جريمتهم بالاعتداء؛ لأنّهم تجاوزوا حدَّ الشّرع، فانتهَكوا الممنوعَ، وهذا منَ الاعتداء، لا منَ الظّلم ولا البغي.

البلاءُ والفتنةُ والمحنةُ:

البلاءُ في الأَصل: التّكليفُ بالأمر الشّاق، ولا يكون إلَّا بتَحْمِيل

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/137.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (عدو).
(3) العسكريّ، الفروق، ص: 131.
(4) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 5/193.
(5) العسكريّ، الفروق، ص: 232.
(6) العسكريّ، الفروق، ص: 172.
(7) النّسفيّ، التّيسير في التّفسير: 7/39.

المكاره[1]، والفتنةُ ما يتَبَيَّنُ بهَا حَالُ الإنسانِ منَ الخَير والشَّرِّ، يُقال: فَتنتُ الذَّهَب بالنَّار، لتعلمَ أَنّه خَالصٌ أَو مشوبٌ، فهي أشدُّ الاختبار؛ لأنّها مشتقّةٌ منَ الحرق بالنّار[2]. والمِحنَةُ: واحدة المِحَنِ الّتي يُمتَحَنُ بها الإنسانُ من بليَّةٍ. ومَحَنتُهُ وامتَحَنْتُهُ؛ أي: اختبرته، والاسم المِحنَةُ، مَحَنَهُ سَوطًا: ضَرَبَهُ[3].

آثَرَ السِّياقُ لفْظَ البلاءِ؛ لأنّه ليسَ فيه معنَى التّعذيبِ، ولا الاضْطِرابِ

وإنّما آثرَ أن يعبّرَ عنِ الاختبار بالابتلاء في هذا الموضِعِ؛ لأنّه ليس فيه معنى التّعذيب، ولا يؤدّي إلى الاضطراب، بل المرادُ منه التّشديدُ، وهو مقتضى الابتلاء دون الفتنة، فإذا كانتِ الفتنةُ منَ الحرق، فإنّ الامتحانَ منَ الضّرب، والغايةُ منه الكشفُ.وأمّا الابتلاءُ فالمرادُ منه الشّدّةُ والتّشديدُ والمشقّةُ، وهي الّتي تناسبُ الآيةَ ﴿وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْۚ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ﴾؛ إذ إنّ الابتلاءَ بالمعاش، بامتناع مجيءِ الحيتان إليهم، مشقّةٌ وشدّةٌ في العيش.

(1) العسكريّ، الفروق، ص: 216، والكفويّ، الكلّيّات، ص: 34.
(2) العسكريّ، الفروق، ص: 217، والكفويّ، الكلّيّات، ص: 692.
(3) الجوهريّ، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (محن).

المحتويات

الجزء التاسع	**7**	- [الأعراف: 118]	238
		- [الأعراف: 119]	244
سورة الأعراف	**9**	- [الأعراف: 120]	249
		- [الأعراف: 121]	254
- [الأعراف: 88]	10	- [الأعراف: 122]	258
- [الأعراف: 89]	25	- [الأعراف: 123]	262
- [الأعراف: 90]	39	- [الأعراف: 124]	269
- [الأعراف: 91]	44	- [الأعراف: 125]	274
- [الأعراف: 92]	52	- [الأعراف: 126]	279
- [الأعراف: 93]	57	- [الأعراف: 127]	288
- [الأعراف: 94]	65	- [الأعراف: 128]	301
- [الأعراف: 95]	74	- [الأعراف: 129]	309
- [الأعراف: 96]	84	- [الأعراف: 130]	318
- [الأعراف: 97]	94	- [الأعراف: 131]	325
- [الأعراف: 98]	100	- [الأعراف: 132]	338
- [الأعراف: 99]	106	- [الأعراف: 133]	343
- [الأعراف: 100]	112	- [الأعراف: 134]	353
- [الأعراف: 101]	123	- [الأعراف: 135]	363
- [الأعراف: 102]	137	- [الأعراف: 136]	371
- [الأعراف: 103]	147	- [الأعراف: 137]	382
- [الأعراف: 104]	156	- [الأعراف: 138]	398
- [الأعراف: 105]	162	- [الأعراف: 139]	415
- [الأعراف: 106]	171	- [الأعراف: 140]	423
- [الأعراف: 107]	175	- [الأعراف: 141]	432
- [الأعراف: 108]	183	- [الأعراف: 142]	453
- [الأعراف: 109]	187	- [الأعراف 143]	471
- [الأعراف: 110]	192	- [الأعراف: 144]	491
- [الأعراف: 111]	197	- [الأعراف: 145]	504
- [الأعراف: 112]	204	- [الأعراف: 146]	521
- [الأعراف: 113]	208	- [الأعراف: 147]	537
- [الأعراف: 114]	215	- [الأعراف: 148]	544
- [الأعراف: 115]	219	- [الأعراف: 149]	559
- [الأعراف: 116]	225	- [الأعراف: 150]	573
- [الأعراف: 117]	230	- [الأعراف: 151]	594

- [الأعراف: 152] 598
- [الأعراف: 153] 607
- [الأعراف: 154] 613
- [الأعراف: 155] 621
- [الأعراف: 156] 641
- [الأعراف: 157] 676
- [الأعراف: 158] 704
- [الأعراف: 159] 721
- [الأعراف: 160] 727
- [الأعراف: 161 - 162] 752
- [الأعراف: 163] 780

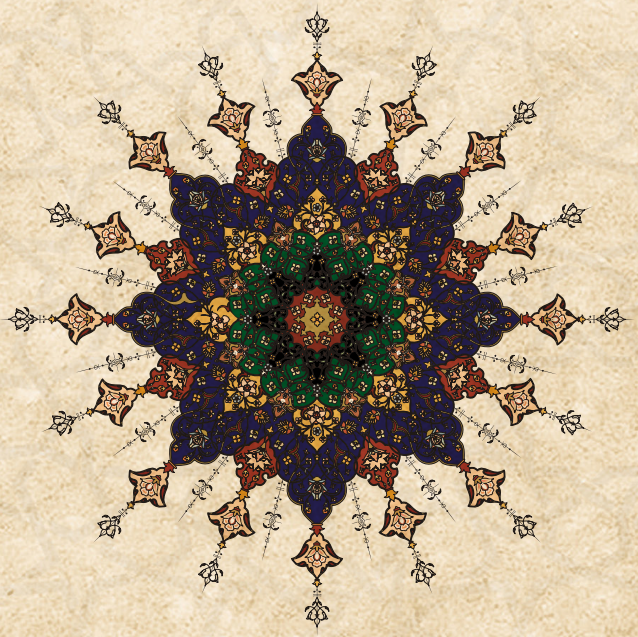

مجمع القرآن الكريم بالشارقة

موسوعة التفسير البلاغي

المُجَلَّدُ الخَامِسَ عَشَرَ

سورة الأعراف من الآية 164 إلى سورة الأنفال الآية 26

موسوعة التفسير البلاغي

Government of Sharjah حكومة الشارقة
مجمع القرآن الكريم بالشارقة
HOLY QURAN ACADEMY IN SHARJAH

موسوعة التفسير البلاغي

المُجَلَّدُ الخَامِسَ عَشَرَ

سورة الأعراف من الآية 164 إلى سورة الأنفال الآية 26

نُخْبَةٌ مِنْ عُلَماء مَجْمَعِ القُرْآنِ الكَرِيمِ بِالشّارِقَةِ

منشورات القاسمي
AL QASIMI PUBLICATIONS
20/24

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الخامس عشر، سورة الأعراف من الآية 164 إلى سورة الأنفال الآية 26
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الخامس عشر، سورة الأعراف من الآية 164 إلى سورة الأنفال الآية 26
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 15 ، 812 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-11-1
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 15 : المجلد الخامس عشر، سورة الأعراف من الآية 164 إلى سورة الأنفال الآية 26.
-1القرآن - تفاسير نحوية -2 القرآن، بديع -3 القرآن، بلاغة -4 القرآن - سور وآيات -5 القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث ج- المستغانمي، امحمد صافي

الترقيم الدولي : 978-9948-768-11-1
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-7668393 بتاريخ 2024/01/16م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الجُزْءُ التَّاسِعُ

سُورَةُ الأَعْرَافِ

﴿وَإِذۡ قَالَتۡ أُمَّةٞ مِّنۡهُمۡ لِمَ تَعِظُونَ قَوۡمًا ٱللَّهُ مُهۡلِكُهُمۡ أَوۡ مُعَذِّبُهُمۡ عَذَابٗا شَدِيدٗاۖ قَالُواْ مَعۡذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمۡ وَلَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ ١٦٤﴾ [الأعراف: 164]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الشروعُ في تفصيل طوائف أهل القرية

هذه الآية من قصّة القرية حاضرة البحر معطوفةٌ على الآيات الّتي سبقتها عَطْفَ القصّةِ على القصّة، وهي تمثّل جانبًا من الأحداث الّتي جرت مع أصحاب القرية وانقسامهم إلى فِرَقٍ مختلفةٍ، لذا قال المفسّرون عن هذه الآية إنّها معطوفة على قوله ﴿إِذۡ يَعۡدُونَ فِي ٱلسَّبۡتِ﴾ [الأعراف: 163][1]، وفيها بيانُ طوائفِ هذه القرية وحالِ كلِّ طائفة.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أُمَّةٞ﴾: أصلها (أمّ)، والأُمّة: كلُّ قوم في دينهم من أُمّتهم، وكلُّ من كان على دينٍ واحدٍ مخالفاً لسائر الأديان فهو أمّة على حدةٍ، والأُمَّة: كُلُّ جَماعَةٍ يَجمَعُهُم أَمرٌ ما، إمّا دينٌ واحدٌ أو زمانٌ واحدٌ، أو مكانٌ واحدٌ، سواءٌ كان ذلك الأمر الجامع تسخيرًا أو اختيارًا[2]. وتُطلَقُ الأُمَّةُ على عالِمٍ دَهْرِهِ المُنفَرِدِ بِعِلمِهِ، وكان إبراهيم عليه السلام أمّة[3]. ومِن مَعانيها: الشِّرْعَةُ والدّينُ، يُقالُ: فُلانٌ لا أُمَّةَ له، أيْ: لا دينَ لَهُ، وكذلك كُلُّ مَن كان على دينٍ حقٍّ مُخالِفٍ لِسائِرِ الأديانِ فهو أمَّة، ويُقال لِكُلِّ جيلٍ مِنَ النّاسِ والحَيوانِ: أُمَّةٌ. والجَمعُ: أُمَمٌ[4]. والمعنى في الآية: جماعة منهم.

2) ﴿تَعِظُونَ﴾: العِظَةُ: الموعظة. وأَصْلُه: التَّخْويفُ والإِنْذارُ، وَعَظْتُ الرّجلَ أَعِظُهُ عِظَةً وموعظة: واتَّعَظَ: تقبّل العِظَةَ، وهو

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 161/2.
(2) الرّاغب، المفردات: (أمم).
(3) الخليل، العين: (أمم).
(4) ابن سيده، المحكم، وابن الأثير، النّهاية: (أمم).

تذكيرُك إيّاه الخيرَ ونحوَه ممّا يرقُّ له قلبُهُ. ومن أمثالِهم المعروفة: لا تَعِظيني وتَعَظْعَظي، أي: اتَّعِظي أنتِ ودَعي موعظتي[1]، والواعِظُ: النَّذيرُ، ومِن مَعانيه أيضًا: النُّصْحُ والإرْشادُ والتَّحْذير[2]. وعرّفه الراغبُ بأنّه: زجرٌ مقترِنٌ بتخويفٍ[3].

3) ﴿مَعْذِرَةً﴾: قال الفراهيدي: عذر: عَذَرْتُه عَذْراً ومَعْذِرَةً. وأَصْل العُذْرِ: إزالَةُ الشَّيْءِ عن جِهَتِهِ، والعُذْرُ اسمٌ، عذرتُه بما صنع عَذْراً ومَعْذِرة وعَذَرْتُه من فلانٍ، أي: لُمْتُ فلاناً ولم أَلُمْهُ[4]. والعُذْرُ: تحرّي الإنسانِ ما يمحو به ذنوبَه، العُذْرُ: الحُجَّةُ التي يُعْتَذَرُ بها، وكُلُّ ما يَرْفَعُ اللَّوْمَ فهو عُذْرٌ، يُقال: اعْتَذَرَ عن فِعْلِهِ، أيْ: أَظْهَرَ عُذْرَهُ. والمعذرة الاسم، ولي في هذا الأَمْرِ عُذْرٌ، أيْ: خُروجٌ مِن الذَّنْبِ. والجَمْعُ: أعْذارٌ[5].

المَعْنى الإجْماليُّ:

بيانُ حالِ فِرْقَةِ اللّائمينَ للنّاصِحينَ لِيأْسِها من صلاحِ المعتدينَ في السبتِ

واذكُر أيها الرسول ﷺ حين قالت جماعةٌ مِن أهلِ تلك القريةِ الّتي اعتَدَتْ يومَ السّبت؛ للآمرينَ بالمعروف والنّاهينَ لهم عن هذا المنكَر: لمَ تزجرون أولئكَ المعتدينَ، اللّهُ مُهْلِكُهم في الدنيا بمعصيتهم إياه، أو معذِّبُهم عذابًا شديدًا في الآخرة؟ فأجابوهم: نفعلُ ذلك مَعذِرةً إلى رَبِّكم في قيامنا بركنِ الأمرِ بالمعروف والنّهيِ عن المنكر، عَلَّهُم يعودون عن عَدْوِهم ويتّقون اللّه تعالى في أمرهم، فيخافونه، ويتوبون من معصيتِهم ربَّهم وتعدّيهم على ما حرَّم عليهم.

(1) الخليل، العين: (وعظ).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (وعظ).
(3) الرّاغب، المفردات: (وعظ).
(4) الخليل، العين: (عذر).
(5) الرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (عذر).

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ العطفِ في الآية ومحلُّه:

عطف القصّة على القصّة لدخولها في حكمها

الواو عاطفة، والظرف في قوله: ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ﴾ معطوف على قوله: ﴿إِذْ يَعْدُونَ فِي ٱلسَّبْتِ﴾ [الأعراف: 163] داخلٌ في حكمه؛ أي: واسأَلْهُم يا رسول الله عن حال أهل تلك القرية، حين قالت جماعة منهم؛ لأقوام آخرين من الصُّلحاء الذين لم يُقْلِعوا عن وعظِ الصيادين، ولم يتركوه رجاءً للنَّفْعِ، وطَمعًا في فائدة الإنذار: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا﴾؛ أي: لم تستمرون في وعظ قوم ﴿ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ﴾؛ أي: مخزيهم في الدنيا بعذاب الاستئصال ﴿أَوْ مُعَذِّبُهُمْ﴾ في الآخرة ﴿عَذَابًا شَدِيدًا﴾ موجعًا؛ لعدم إقلاعهم عما كانوا عليه من الفسق والاصطياد[1].

نُكتةُ التّعبيرِ بـ(إذ) في القصّة ودلالاتُها وإعرابها:

تصويرُ المشاهد القصصيّة واستحضارُها أمام القارئ

إذ: اسمٌ أو ظرفٌ للزمان للماضي، وتُعْرَبُ على أنّها مفعولٌ فيه مبني على السكون في محلِّ نصبٍ، أو مفعولٌ به لفعلٍ محذوفٍ تقديرُه: اذْكُر، ويَكثُر ورودُها في القَصص القرآنيِّ؛ لأنَّ أغلب ما يأتي بعدها هو مَشاهدُ قَصصيّةٌ يُراد للسامع أن يستحضرها مَشاهدَ حيّةً تجري أمامه، لذلك توالت هنا عدَّة مرّات في سياق تذكير بني إسرائيل بصنائع أجدادهم السابقين، وتاريخهم الطويل في التمرُّد والعصيان. وفائدتُها ظاهرةٌ في تصوير المشاهد الفنّيّة على أنّها مشاهدُ حيّةٌ يراها القارىء أمامه من خلال هذه الحروف والألفاظ الّتي أَخذتْ على عاتقها تصويرَ هذه المشاهد.

فائدة تنكير لفظ ﴿أُمَّةٌ﴾:

التقليل أو التحقير؛ إذ تعطيل عمل المصلحين في المجتمع مذمومٌ في شرع الله

تنكيرُ ﴿أُمَّةٌ﴾ هنا قد يفيد التّقليلَ على اعتبار أنَّ هذه الفئةَ الأصلُ فيها أن تكون قليلةً في المجتمع؛ حتّى لا يتعطّل الركنُ

(1) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 196/10.

الأكبر والقطبُ الأعظم وهو الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر. أو التّحقير على اعتبار أنّها فئة مذمومة مرذولة لتعطيلها دورَ المصلحين في المجتمع.

معنى (من) في ﴿مِّنْهُمْ﴾ وعود الضمير فيها:

(من) هنا للتبعيض؛ لأنَّ من قام بهذا جماعة منهم وليس جميعَهم، والضمير في ﴿مِّنْهُمْ﴾ عند ابن عاشور عائد إلى ما عاد إليه ضمير ﴿وَسْـَٔلْهُمْ﴾ [الأعراف: 163]، وليس عائدًا إلى أهل القرية؛ لأنَّ المقصود توبيخُ بني إسرائيل كلِّهم، فإن كان هذا القول حصل في تلك القرية كما ذكره المفسرون كان غيرَ منظور إلى حصوله في تلك القرية، بل منظورًا إليه بأنَّه مظهرٌ آخر من مظاهر عصيانهم وعتوِّهم وقلَّة جدوى الموعظة فيهم، وأنَّ ذلك شأن معلوم منهم عند علمائهم وصلحائهم، ولذلك لمّا عُطفت هذه القصة أُعيد معها لفظُ اسمِ الزَّمان فقيل: وإذ قالت أمَّة، ولم يقل: وقالت أمَّة[1].

المثبِّطون لعملِ المصلحين هم فئةٌ من المجتمعات ولا يمثِّلون حالَ الجميع

معنى اللّام و(ما) في ﴿لِمَ﴾:

اللّام في ﴿لِمَ تَعِظُونَ﴾ للتَّعليل[2]، و(ما) اسم استفهام، حُذفتْ ألفُه لدخول حرف الجر عليه، والمستفهَم عنه من نوع العِلَل.

بلاغةُ الاستفهامِ الإنكاريِّ وغَرَضُه:

في قوله ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا﴾ الاستفهام إنكاريّ تعجيبيّ، ويمكن حملهُ على التَّيئيس من استجابة القوم، فعندئذٍ يَحملُ هذا الاستفهام في جوانحه معانيَ التَّهكُّم والسُّخريةِ، فالاستفهام إنكاريٌّ في معنى النّفي، فيدلُّ على انتفاء جميع العِلَلِ الّتي من شأنها أن يوعَظَ لتحصيلها، وذلك يُفضي إلى اليأس من حصول اتّعاظهم[3].

الاستفهامُ الإنكاريُّ دلَّ هنا على معاني التّعجيب والتيئيس

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 150/9 - 151.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 151/9.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 151/9.

دلالاتُ التّعبير بـ﴿تَعِظُونَ﴾:

توجيهُ المذنبينَ والعصاةِ وإرشادُهم ينبغي أن يكون مستمرًّا لاينقطعُ

المعنى المحوريُّ لمادّة (وعظ) تقوم على كلامٍ أو عملٍ يُنَبَّه به الإنسانُ إلى عواقب ما يفعله أو ما هو مُقْدِمٌ عليه ليتوقَّفَ عنه، وقَيْدُ التَّوقُّفِ يُؤخَذُ من التَّذكير بالعواقب. وكأنَّ الأصل في معنى التَّركيب أنّه خاصٌّ بالزّجر عمّا له عواقبُ سيِّئةٌ فحسب، ثم عُمِّم في الحضِّ على ما له ثواب[1]. وتبيّن من المعنى الاصطلاحيِّ للوعظ أنّه يقوم على الأمر بفعل الخير وتركِ الشَّر بطريقةٍ فيها تخويفٌ وترقيقٌ يَحمِلان على الامتثال، وعلى هذا كان التّعبير بهذه اللّفظة في هذا الموضع على لسان المثبِّطين للآمرين بالمعروف والنّاهين عن المنكر هو الأنسبُ، ودلَّ التّعبيرُ بالمضارع على تجدُّدِ واستمرارِ هذه الفريضة عند القائمين بها، وأنّهم يقومون بهذا الأمر والنّهي في كلِّ ما تسنَّى لهم من الأوقات.

نكتة تنكير ﴿قَوْمًا﴾:

أفاد التّنكير معاني التّكثير والتّحقير

تنكير لفظة ﴿قَوْمًا﴾ أفاد معنى التّكثير لهذه الفئة المُعتدية، كما يُفهم من قوله: ﴿إِذْ يَعْدُونَ فِي ٱلسَّبْتِ﴾، فأَسنَدَ العدوانَ لأهل القرية جميعًا تجوُّزًا لكثرتهم كما يبدو، ثمّ إنَّ تاريخَ بني إسرائيل الطويلَ المليءَ بالمعاصي مع أنبيائهم يساعد على معنى التّكثير. كما يفيد التّنكيرُ أيضًا معنى التَّحقير، كما يدلُّ عليه مقامُ اقترافِهم للاعتداء في اليوم المعظَّمِ عند اليهود، وهو السّبت.

غرضُ مجيء أوصاف الإهلاك أو العذاب:

تحقّقُ وعيدِ اللهِ على المعتدينَ

يقول ابن عاشور: "ووصْفُ القوم بأنَّ الله مُهْلِكُهم: مبنيٌّ على أنَّهم تحقَّقت فيهم الحال الَّتي أخبرَ الله بأنَّه يُهلِكُ أو يعذِّبُ مَن تحقَّقتْ فيه، وقد أَيقنَ القائلون بأنَّها قد تحقَّقت فيهم، وأيقنَ المقولُ

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (وعظ).

لهم بذلك؛ حتَّى جاز أن يصفَهم القائلون للمُخاطَبين بهذا الوصف الكاشف لهم بأنَّهم موصوفون بالمصير إلى أحدِ الوعيدَيْن[1]".

نُكتةُ التّعبيرِ باسم الفاعلِ:

التيقّن من إهلاك الله تعالى للظالمين

يدلُّ التّعبير باسم الفاعل في ﴿مُهۡلِكُهُمۡ﴾ و﴿مُعَذِّبُهُمۡ﴾ على الاستقبال من ناحيَةٍ، ويدلُّ على تمكُّن الفعل بصاحبِه حتّى باتَ اسمًا له من ناحيةٍ أخرى، يقول أبو السعود: "وإيثارُ صيغةِ اسمِ الفاعل مع أنَّ كلًّا من الإهلاك والتَّعذيب مترقَّبٌ؛ للدَّلالة على تحقُّقِهما وتقرُّرِهما البتَّةَ كأنَّهما واقعانِ، وإنَّما قالوه مُبالغةً في أنَّ الوعظَ لايَنْجَعُ فيهم، أو ترهيباً للقوم، أو سؤالاً عن حكمة الوعظِ ونفعِه، ولعلهم إنَّما قالوه بمحضَرٍ من القوم؛ حثًّا لهم على الاتِّعاظ، فإنَّ بتَّ القولِ بهلاكهم وعذابهم بما يُلقي في قلوبهم الخوفَ والخشية[2]".

غرضُ ذكرِ لفظِ الجلالة في وصْفِ (القوم):

ذِكْرُ اسم الجلالة يفيد هنا تربيةَ المَهابَةِ وتوكيدَ الحُكْمِ

ذِكْرُ لفظِ الجلالة في قوله تعالى: ﴿قَوۡمًا ٱللَّهُ مُهۡلِكُهُمۡ أَوۡ مُعَذِّبُهُمۡ﴾ من شأنه أن يولِّدَ في النّفس تربية للمَهابةِ، ولا سيِّما وأنَّ خبره هنا اسم فاعل، فأفاد ذلك مزيدًا من التّخصيص أو التّقرير في وقوع الهلاك أو العذاب فيهم لا مَحالة.

بلاغةُ مجيءِ الأوصافِ بالجُمَل الاسميّةِ التي أخبارُها أوصافٌ مشتقَّة:

أفادت أسماءُ الفاعل الخبريّة معانيَ التّخصيص

من المقرّر في علم المعاني أنَّ الخبر الفعليَّ يُفيد تقويةَ الحكم وتوكيدَه، وقد يُفيد التّخصيصَ بالقرائن، ولا مانع هنا من حمْلِه على التّخصيص على معنى أنَّ اللّه وحده تعالى هو من يتولّى - دون غيره - إهلاكَهم في الدنيا أو عذابَهم في الآخرة، والقرينةُ الدافعةُ للتّخصيص أنّه جاء على لسان المثبِّطين للدعاة في دعوتهم، فكأنّهم

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 151/9.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 44/3 - 45.

يقولون لهم: دَعُوكُم من بذل الجُهْدِ في سبيل ردِّهم عن الباطل؛ فاللّهُ وحده هو من يتولّى جزاءهم في الدّارَيْن دون غيره.

نُكتةُ التّعبير عن القوم بالضمائر:

الإضمارُ بعد الإظهارِ بابٌ من بلاغة الإيجاز

الضمائر في قوله تَعالى: ﴿مُهْلِكُهُمْ﴾ و﴿مُعَذِّبُهُمْ﴾ و﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ تعود على الفئة الباغية الّتي اعتَدَتْ في السّبت، وعدَلَ القرآن عن التّصريح بذِكْرِهم إيجازًا؛ لأنّه تقدّم ذكرُهم من ناحية، وإمّا لأنّه جاء على لسان هذه الفئة التي وقفت تتفرّج دون أن تحاول تغيير المنكر، بل إنّها قامت بدورٍ سلبيٍّ أكبر من خلال معاتبةِ الفئةِ المنكِرةِ لهذا الفعل، فيمكن أن يكون هذا الإضمار ناشئًا عن خوفهم من التّصريح باسمهم أو وَصْفِهم، أو يكون ناشئًا عن تحقيرهم لهم بحيث إنّهم لا يستحقّون أن يُذكَروا باسْمِهم.

نكتةُ تقديمِ الإهلاك على العذاب:

تقديمُ العقوبةِ الأشدِّ أو المقدَّمةِ في الزَّمنِ له أثرُه في توهين عزيمةِ الواعِظينَ

تقديمُ الإهلاكِ على التَّعذيبِ في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًاۖ﴾ من باب تقديم الأشدِّ، وهو المصيرُ الذي يستحقُّه مَن يرتكبُ هذه المعصيةَ؛ فالإهلاكُ أشدُّ من عذابهم في الدّنيا، وربّما يكون سببُ التّقديم له من باب التأخّر الزمني لعذاب الآخرة عن إهلاك الدّنيا، وربّما لأنّه جاء على لسان هذه الفئة المثبِّطة للفئة الآمرة بالمعروف والنّاهية عن المنكر، فقدَّموا ذِكْرَ المصيرِ الأشنعِ الذي يمكن أن ينتظرَهم على معصيتِهم حتّى يكونَ هذا أقوى في توهين همّة هذه الفئة المنكِرة؛ فَطالَما أنَّ اللّه قادرٌ على إهلاكِهم فما نَفْعُ دعوتِهم ونُصْحِهم!!.

أفادت (أو) التّنويعَ في وقوعِ إحدى العقوبتين أو اجتماعهما عليهم

معنى ﴿أَوْ﴾ ودلالتُها:

﴿أَوْ﴾ في قوله تعالى: ﴿مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ﴾ ليست للإضراب، بل هي عاطفةٌ تفيد التّنويعَ، على معنى: إمّا مُهلِكُهم بالاستئصال أو بعذابٍ شديدٍ دون الاستئصال، أو مُهلكُهم في الدُّنيا ومعذِّبُهم في

الآخرة؛ وأيًّا ما كان المراد في ﴿أَوۡ﴾ هنا هي المانعة للخلوِّ من وقوع أحدِ الجزاءَيْن، لا المانعة لجمعهما، فهي لا تنفي اجتماعهما[1].

دلالةُ عطفِ ﴿مُعَذِّبُهُمۡ﴾ على ﴿مُهۡلِكُهُمۡ﴾:

عطفُ الأقل على الأشدِّ، أو رُوعِيَ في العطف الترتيبُ الزَّمنيُّ

أفاد عطفُ العذابِ على الإهلاك في قوله: ﴿مُهۡلِكُهُمۡ أَوۡ مُعَذِّبُهُمۡ﴾ عَطْفَ العقوبة الأقلّ على الأشدّ، وإن كان كلاهما شديدًا، لأنّه أكّد أنّ هذا العذاب شديدٌ، أو رُوعِيَ في العطف الترتيبُ الزمنيُّ من حيثُ ظرفُ العقوبةِ في الدنيا أو في الآخرة، ولكن لن يخلو الأمر من حصول أحد الأمرين أو كليهما معًا، وفي هذا دعوةٌ للواعظين للتوقّف عن وعْظِهم بسبب توقّع حصولهما.

غرضُ تأكيد العذاب بالمفعول المطلق ووصفه بالشدّة دون الإهلاك:

الذَّنْبُ العظيمُ يستوجب عذابًا أليمًا

النّظم الكريم قال: ﴿مُعَذِّبُهُمۡ عَذَابٗا شَدِيدٗاۖ﴾ فأكّد العذاب بالمفعول المطلق ﴿عَذَابٗا﴾ ووَصَفَه بالشدّة، بخلاف الإهلاك فلم يأتِ معه هذه المؤكِّدات، وربّما كان ذلك لأنّ العذاب إن كان دنيويًّا فهو متفاوتٌ في اللّين والشدّة بحسب المُعَذِّب أو نوع الذَّنْب، فأرادوا أن يؤكِّدوا للنّاصحين لهم أنّهم يعرفون أنّ ذنْبَ المعتدين كبيرٌ جدًّا ولكنّهم يعرفون أنّ عذاب الله شديدٌ جدًّا. وقد يكون لأنّ الإهلاك يقع مرّة واحدة ويموت مستحقّوه، بينما العذاب الأخرويّ فهو دائم وشديد، وفي هذا وعيدٌ ما بعده وعيدٌ، وتعريضٌ بهم بأنّ ما أصابهم في الدّنيا ليس بشيء إزاءَ ما ينتظرهم في الآخرة؛ فإنَّ نجاتكم من الإهلاك لا تعني أنّ ما يأتي بعده أيسرُ منه!

الموقعُ البيانيُّ لقوله: ﴿قَالُواْ مَعۡذِرَةً﴾:

ترْكُ العطف يقع كثيرًا في أسلوب المحاورات

الجملةُ غيرُ معطوفةٍ على ما تقدَّمها، وهذا التَّركُ للعطف يقع كثيرًا في أثناء أسلوب المحاورات[2]، وعطْفُها على الكلام السابق

(1) محمد رضا، تفسير المنار: 376/9.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 152/9.

سيوهِمُ أنّه من بقيّة كلام الفئة المثبِّطة، والأمرُ ليس كذلك، والمعنى: إنَّما نَعِظُهم لنُعْذَرَ عند الله تعالى، بقيامِنا بواجب الوعظ والإرشاد.

بلاغةُ المتشابِه اللّفظيّ في وصف العذاب:

التَّغايرُ في ذكر أوصاف العذاب لتتلاءم مع السياق الذي جاءت فيه

وردت مادّة (عذب) ومشتقّاتها في القرآن الكريم ما يزيد على (370) مرّة، وجاء هذا العذاب موصوفًا بصفات كثيرة بعضها أكثر ورودًا من بعض، ومن هذه الصفات: العذاب العظيم، الأليم، الشَّديد، المهين، القريب، المقيم، النُّكر، وغيرُها، ومن حيث المبدأ يمكن أن نَّقول: إنَّ كلَّ صفة من هذه الصفات تُغايِرُ أختَها، فلا ترادُفَ بينها ألبتّة، ولا تَسدُّ صفةٌ منها مَسَدَّ أختِها، وليس التغايرُ في ذكرها تلوينًا في الخطاب، ولا افتنانًا في الكلام، إنّما تأتي كلُّ صفة منها متلائمةً مع السياق الذي جاءت:

فمثلًا جاء وصف العذاب بأنّه (مُهين) في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٥٧﴾﴾ [الأحزاب: 57] في سياق الحديث عمّن اجترؤوا فيه على الله ورسوله، فَظنُّوا أنّهم من العظمة والكِبْر بحيث يَقدرون على فَعلَتِهم هذه، فجاء العذابُ من جنس العمل، ووُصِفَ بأنّه عذابٌ مُهينٌ؛ لينزعَ عنهم كلَّ ذرّة من كِبْر وخُيَلاء.

وجاء وصفُ العذابِ بالعِظَم في مواضع استوجَبتْ ذلك من مِثْل قوله تعالى في شأن قصّة الإفك حول أمّ المؤمنين عائشةَ رضي الله عنها: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾ إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾﴾ [النور: 14 - 16].

فالبُهتانُ العظيم شأنُه عند الله عظيمٌ، لذا استوجَبَ هذا العذابَ.

وجاء وَصْفُه بالشدّة في سياقاتٍ استوجبتْ هذا الوصفَ من مِثْلِ قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِي ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِمَا ٱسۡتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمۡ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمۡ وَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ وَلَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٌ ١٦﴾ [الشورى: 16].

فمِثْلُ هذه المحاجَّةِ بعد أن استُجيبَ له تستوجبُ عذابًا يوسَمُ بالشدّة، وفي آية الأعراف هنا استوجب العذاب وصفه بالشدّة؛ لأنّهم جمعوا بين الاعتداء في يوم السبت على حرمات اللّه، حيث أمرهم أن يعظِّموا يوم السبت ولا يصيدوا فيه سمكًا، وبين الاحتيال على حبس السَّمك في يوم السبت في حفائرَ، ويصطادونها بعده، وضَمُّوا إلى ذلك عدمَ الاستجابة للوعظ.

وكذلك الحال في وصْفِه بـ(أليم) من مِثْلِ: ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلۡسِنَتُكُمُ ٱلۡكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٞ وَهَٰذَا حَرَامٞ لِّتَفۡتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ لَا يُفۡلِحُونَ ١١٦ مَتَٰعٞ قَلِيلٞ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ١١٧﴾ [النحل: 116 - 117]، فإنّك مهما تأملت وصفًا للعذاب يفوق كونه أليمًا لهذه المواضع فلن تجد.

وكذلك الحال في وصفه بالقرب كقوله تعالى: ﴿يَوۡمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ صَفّٗاۖ لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنۡ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَقَالَ صَوَابٗا ٣٨ ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمُ ٱلۡحَقُّۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا ٣٩ إِنَّآ أَنذَرۡنَٰكُمۡ عَذَابٗا قَرِيبٗا يَوۡمَ يَنظُرُ ٱلۡمَرۡءُ مَا قَدَّمَتۡ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلۡكَافِرُ يَٰلَيۡتَنِي كُنتُ تُرَٰبَۢا ٤٠﴾ [النبأ: 38 - 40] فالتّذكير بمشاهدِ الآخرةِ في سياق إبراز النّدم على ما فات من الأعمال في يوم لا ينفع فيه مثل هذا النّدم - يناسبه وَصْفُ العذاب بالقُرْب؛ لتنزجرَ النّفوس ولا تغترَّ بالمتاع سريعِ الانقضاء.

التَّوجيه البلاغيّ والنَّحويّ للقراءات المتواترة في ﴿مَعۡذِرَةً﴾:

تتكامل القراءتان المتواترتان في إبراز حرص الفئة الواعظة على نصح الفئة المعتديّة

في قوله: ﴿مَعۡذِرَةً﴾، قراءتان: القراءة الأولى: قرأ حفصٌ وحدَه بالنَّصب ﴿مَعۡذِرَةً﴾. القراءة الثّانية: قرأ الباقون بالرفع (مَعذِرَةٌ)[1]،

(1) ابن مجاهد، السَّبعة في القراءات، ص: 296، وابن خالويه، الحجَّة في القراءات السّبع، ص: 166، وابن الجزريّ، النَّشر في القراءات العشر: 1/272.

والتّوجيه النَّحْويّ للوجه الأوّل بالنَّصب على المصدر، إذ يفيد معنى التّوكيد كأنّهم يقولون: نعظهم اعتذارًا، ويجوز كونها مفعولًا لأجله، أي نعظهم لأجل الإعذار وإقامة الحجّة.

وتوجيه قراءة الرّفع على أنَّه خبر لمبتدأ محذوف دلَّ عليه الكلام مثل قولهم: موعظتُنا معذرةٌ لهم[1].

بلاغة التّعبير بـ﴿مَعْذِرَةً﴾:

بذلَ الوعّاظ جُهْدَهم واستفرغوا وُسْعَهم في نُصح قومهم

ورد في أصل مادّة (عذر) قولهم: اعتذر الرجل وتَعَذّر نَشَأ له ما يعوقه عن عمل ما واقعًا ثم إخبارًا، وكذلك يقال: أعذر: ثَبَتَ له عذر، وأحْدَثَ عُذْرًا، وأَبْدَى عذرًا، وكَثُرت ذنوبه وعيوبه[2]، والمعذرة مصدر ميمي للفعل (اعتذر) على(مَفْعَلة)، وأُقيم مقام الاعتذار، والمصدر الميمي في دلالته على الحدث أقوى من دلالة المصدر العام، فالتعبيرُ بالمصدرِ الميمي يصوِّرُ المعنى المصدري واقعًا قائمًا متحقِّقًا في الوجود، أما المصدرُ الصريحُ فيصوِّرُ الحدثَ مجردًا عن الواقع، والتّعبير بالمصدر المؤوَّل يدلُّ على شدّة رغبتهم في استفراغ الوُسْعِ في الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر.

نُكتةُ التّعبير بالربوبيّة وإضافته إليهم:

الإضافة إلى لفظ الربوبيّة فيها تشريف للمضافين وقد يكون فيها نوعٌ من التّعريض

في ذكر كلمة الربّ تسريةٌ وتسليةٌ على لسان المصلحين؛ إذ من شأن الربِّ أن يرعى عباده وأن يُصلِحَهم، وأنّه يستحقُّ منكم أن تقوموا بما يُصلِحُ حالَ قومِكم، وفي إضافة الربِّ إلى ضمير المخاطَبين تشريفٌ لهم، وتعريضٌ بهذه الفئة المثبِّطة على عدمِ قيامهم بواجب الوعظ مثلهم، ونكوصِهم عن قيامهم بركن الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر[3].

(1) قمحاويّ، طلائع البشر في توجيه القراءات العشر، ص: 79.
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (عذر).
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 45/3.

غرضُ تعدية المعذرة بـ(إلى):

بلاغة التّضمين تكمن في الجمع بين قوّة المُضمَّن والمضمَّن فيه

تتعدّى المعذرة بـ(إلى) في العادة ﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ﴾ [التوبة: 94]، لكنَّ الآلوسيَّ يرى أنّ المعذرة تعدّت هنا بـ(إلى) لتضمُّنِ المعذرة معنى الإنهاء والإبلاغ[1]، والتّضمين أقوى من القول بتناوب الحروف في أنّه يجمع قوّة الفعلَيْن أو الاسمَيْن المُضمَّنَيْن، فالمُراد: فعلنا ما فعلنا معذرةً تبلغُ بنا إلى ربّكم.

بلاغةُ الإيجاز في التّعبير عن انقسام أهل القرية إلى ثلاثِ فِرَقٍ:

صوّرت ألفاظُ الآيةِ القليلةُ بضربٍ من الإيجاز انقسامَ أهل القرية إلى فِرَقٍ ثلاث

أوجزتِ الآيةُ أحوالَ أهلِ تلك القرية وأنّهم انقسموا إلى ثلاث فرقٍ: فرقة العادين الّذين اعتَدَوْا في السّبت، المتجاوزين حدودَ اللّه عن تعمُّد وإصرار، وفرقة الواعظين الّذين أمروا بالمعروف ونَهوا عن المنكر، الناصحين لهم بالانتهاء عن تعدِّيهم وفسوقِهم، وفرقة المثبِّطين اللائمين للناصحين ليَأْسِهم من صلاح العادين في السبت، الذين قالوا: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ﴾ وبيّنت بألفاظها القليلة حال تلك الفرق الثلاث، وهذا ضربٌ من الإيجاز عظيم.

نُكتةُ العطفِ ودلالاتُه في ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾:

الجمع بين النّفع الدنيويّ والأُخرويّ، وبين رضا الخالق ونَفْعِ المخلوق

ذكر الواعظون العلّة الثانية التي جعلتهم يُنكرون على الفئة المعتديّة، فكانت العلّة الأولى تقوم على الإعذار إلى اللّه من خلال تطبيق فَرْضِيّته في الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر، والعلّة الثانية تتعلّق بالمدعوِّين من قومهم خوفًا عليهم ورفقًا بحالهم؛ رجاءَ أن يكونوا من المتّقين، وبذلك يكونون قد جمعوا بين ثمرة العملَيْن: الدنيويِّ والأخرويِّ، وجمعوا بين الركنَيْن الماديّ والمعنويّ في الدعوة، من منع قومهم من الاستمرار في المعصية، ومن إرضاء اللّه تعالى،

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 392/15، والآلوسيّ، روح المعاني: 86/5، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 151/9.

وجمعوا كذلك بين رضا الخالق والحرص على المخلوق، فكان هذا العطف بين العلَّتَيْن محقِّقًا لهذا كلّه.

فائدةُ العُدولِ في قراءة ﴿مَعْذِرَةً﴾ بالنّصب:

العدولُ عن الظّاهر ضربٌ بلاغيّ له مسوِّغاتُه البيانيّةُ والنّفسيّةُ

على قراءة النّصب لـ ﴿مَعْذِرَةً﴾ يقع هنالك عدولٌ حيث تكون الجملة: ﴿مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾ فعليّة قد عُطف عليها جملةٌ اسميّة، وهي قولهم: ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾، وفائدة العدول حينئذٍ من الفعليّة إلى الاسميّة الإشارة إلى رغبتهم الدائمة باتّقاء قومهم والحرص عليهم، ويكون خبر هذه الجملة الاسميّة ﴿يَتَّقُونَ﴾؛ للإشعار بضرورة اتّقائهم في كلِّ حين.

وهناك نوعٌ آخر من العُدول في نظم الجملتيْن السابقتيْن، ففي الجملة الأولى كان الكلام موجَّهًا لضمير المخاطَب، وهم الفئة المثبِّطة، وفي الجملة الثَّانية إلى ضمير الغَيْبة العائد على المعتدين، وفائدةُ هذا العدول في الضمائر التّعريضُ بالمخاطَبين في قول الواعظين لهم: ﴿مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾، أي: ينبغي أن تفعلوا فِعلَنا وأن تحذوا حَذْوَنا، وفي العلّة الثانية المعطوفة عاد ضمير الغَيْبة إلى المعتدين؛ لأنّهم ليسوا حاضرين في هذا المشهد الحواريّ، فكان الأليقُ بهذا المقام وقوع هذه الضمائر على ما وقعت عليه.

نُكْتَة مجيء حرفِ الرَّجاء (لعلّ):

المصلحون يرجون دائمًا هداية أقوامهم

مجيء حرف الرَّجاء (لعل) في الجملة الكريمة يدلُّ على رغبة الواعظين بهداية قومهم وتمنّيهم له، وأنّهم لم يقطعوا الرّجاء بعدُ في هدايتهم وانصرافهم عن عدوانهم، فحرف(لعل) يدلُّ على الرّجاء في أصله. وقد يُستعمل في التمنّي كما هو مقرّرٌ في علم المعاني؛ لإبراز المُتمنَّى بصورة الأمر صعب الوقوع أو محاله، كقول فرعون: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾ [غافر: 36 - 37] وحملها هنا على

الرجاء أولى لأنّها مُشعرة بأنَّهم يرون أنَّ الرَّجاء لم ينقطع بعدُ، بل ما زال بعض رجاء باستجابة بعضهم، وأنَّ العُصاة لم يَصِلوا من وجهة نظرهم إلى مرحلة اليأس الكامل.

بلاغة التّعبير بـ﴿يَتَّقُونَ﴾:

المعنى المحوري الذي تقوم عليه مادّة (وقي) يقوم على حفظٍ من الأذى أو الضرر باتخاذ حاجز دونه[1]، والتّعبير بالمضارع هنا يدلُّ على ضرورة استمرار عمليّة الاتّقاء عند كلِّ طارىء ومُنْعَطَفٍ يمرّون به في حياتهم.

محور الكلمة يدلُّ على الحفظ، ومضارعها دلَّ على التجدّد الاستمراريّ

نكتة حذف مفعول التّقوى:

يمكن أن يكون تقدير الكلام هنا: لعلّهم يتّقون محارمَ اللّه من الاعتداء في السبت أو غيره، ويمكن أن يكون التّقدير: يتّقون غضبَ اللّه من خلال اجتناب موجباته، أو يتّقون عذابَه أو هلاكَه، فحذفُ المفعول للتّعميم هنا هو الأولى؛ ليشمل هذا كلّه، إذ لا تعارض بينه كلّه.

حذف المفعول هنا للتّعميم

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

العظة والنّصيحة والوصيّة:

تقدَّم في شرح المفردات أنَّ العظة: هي الزّجر المقترن بالتّخويف، أو التّذكير بالخير فيما يرقّق القلوب، والنّصح هو تحرّي فعلٍ أو قولٍ فيه صلاحُ صاحبه، وهو من قولهم: نَصَحْتُ له الودَّ أي أخلَصْتُهُ، وناصِحُ العسل خالصُه، والنّاصحُ الخيّاط، فأصل النّصيحة من الإخلاص أو الإحكام[2]، وقد ذكر القرآن الكريم على لسان نوح عليه السلام: ﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِيٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْۚ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [هود: 34] فالموعظةُ نصيحةٌ،

النّصيحة تعمُّ العِظَةَ والوصيّةَ؛ فالعِظَةُ زجر المقترِن بوعد أو وعيد، والوصيّة نصيحة مؤكّدة

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (وقي).
(2) الرّاغب، المفردات: (نصح).

ولكنّها تحوي ترغيبًا أو ترهيبًا، فكلُّ موعظة نصيحة، وليست كلّ نصيحةٍ موعظةً، فالنّصيحة أعمّ والموعظة أخصّ.

وأمّا الوصيّة فهي التقدُّم إلى الغير بما يعمَلُ به مقترنًا بوعظٍ[1]، ويظهر من الاستعمال القرآنيّ لـ(وصّى) و(أوصى) أنّها تأتي بمعنى النّصيحة المؤكّدة قال تعالى: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبۡرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعۡقُوبُ يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ١٣٢﴾ [البقرة: 132] وقال: ﴿۞شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحٗا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ كَبُرَ عَلَى ٱلۡمُشۡرِكِينَ مَا تَدۡعُوهُمۡ إِلَيۡهِۚ ٱللَّهُ يَجۡتَبِيٓ إِلَيۡهِ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَن يُنِيبُ ١٣﴾ [الشورى: 13].

(1) الرّاغب، المفردات: (وصى).

﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦٓ أَنجَيۡنَا ٱلَّذِينَ يَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذۡنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ بِعَذَابِۭ بَـِٔيسِۭ بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ ١٦٥ فَلَمَّا عَتَوۡاْ عَن مَّا نُهُواْ عَنۡهُ قُلۡنَا لَهُمۡ كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ١٦٦﴾ [الأعراف: 165 - 166]

مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لما قَبْلَهُما:

نتيجةُ الحوار الجدليّ بين الفِرقتين

بعد أن عرضتِ الآياتُ السابقةُ انقسامَ أهل هذه القرية إلى فرقٍ ثلاث، وتناولتِ الحوارَ الجدليَّ بين فرقتيْن منهم حول معصيتهم، جاءت هاتان الآيتان الكريمتان لِتُجْمِلا ما حَلَّ بأهل هذه القرية جميعًا، وبيان مصير كلّ فِرقة منهم.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿نَسُواْ﴾: ذكر ابن فارس أنّ النّون والسِّين والياء أصلان صحيحان يدلُّ أحدُهما على إغفال الشيء، والثاني على ترك الشيء[1]، ولعلّ الأصليْن يعودان إلى أصلٍ واحدٍ؛ فإنَّ تركَ الشيء ثمرةُ إغفاله. "والنِّسيانُ: تركُ الإنسان ضبطَ ما استُودِعَ إمّا لضعفِ قلبِه، وإمّا عن غفلةٍ، وإمّا عن قصدٍ، حتّى يَنْحَذِفَ عن القلب ذِكْرُه"[2]. والنِّسيانُ: جَهْلُ الإنْسانِ بِما كانَ يَعْلَمُهُ ضَرورَةً مع عِلْمِه بِأُمورٍ كَثيرَةٍ، لا بِآفَةٍ. أو هو عدمُ ذِكر ما قد كان مذكورًا؛ وهو ضِدُّ الذِّكْرِ. وَمن مَعانيه: الغَفْلَةُ والسَّهْوُ والتَّرْكُ[3].

2) ﴿بَـِٔيسِۭ﴾: أي: شَديدٍ، فمادة (بأس) تدلُّ على الشدَّة[4]، والبُؤْسُ والبَأْسُ والبَأْساءُ: الشدَّةُ والمَكروهُ، إلّا أنَّ البُؤسَ في الفَقرِ والحَربِ أكثَرُ، والبأسُ والبأساءُ في النِّكايةِ[5].

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نسي).
(2) الرّاغب، المفردات: (نسي).
(3) الخليل، العين، وابن دريد، جمهرة اللّغة، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، والجوهريّ، الصّحاح: (نسي).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (بأس).
(5) الرّاغب، المفردات: (بأس).

3) ﴿عَتَوۡاْ﴾: العين والتاء والواو أصلها يدلُّ على الاستكبار[1]، والعُتُوُّ: النُّبُوُّ عن الطاعة[2]، والعُتوُّ: التَّجَبُّرُ والتَّكَبُّرُ، وأَصْلُ العُتوِّ: مُجاوَزَةُ الحَدِّ، وكُلُّ مَن جاوَزَ الحَدَّ في كِبْرٍ أو فَسادٍ أو كُفْرٍ فهو عاتٍ، والجَمْعُ: عُتاةٌ. ويأْتي العُتوُّ بِمعنى العِصْيانِ. ويُطْلَق على التَّمَرُّدِ وشِدَّةِ الإفْسادِ. والعاتي: الشَّديدُ الفَسادِ المُتَمَرِّدُ الذي لا يَقْبَلُ الحَقَّ. ومِن مَعانيه أيضًا: البَغْيُ، والطُّغْيانُ، والعِنادُ[3].

4) ﴿خَٰسِـِٔينَ﴾: أصل (خسأ) يدلُّ على الإبعاد[4]، والخُسوءُ: الزَّجْرُ باستهانةٍ، يقال: خَسَأْتُ الكَلبَ فَخَسَأَ، أي: زَجَرتُه مستهينًا به فانزجَرَ[5]. ومعنى الآية: صاغِرينَ ذليلينَ.

❁ المَعْنى الإجْمالِيُّ:

عـاقـبـةُ كـلٍّ مـن الـفِـرقـة النَّاهية والفِرقة العاصية

بيّنتِ الآيتان الكريمتان أنَّه بعد أن استمرَّ أهلُ العصيان في عصيانهم، وتناسَوا ما ذُكّروا به من الواعظين لهم، أنجى اللّه الذين ينهون عن المنكر من العذاب، وأخذ الذين ظلموا باعتدائهم بعذابٍ شديدٍ بسبب خروجهم عن طاعة اللّه وإصرارهم على المعصية.

فلمّا تمرَّدتِ الطائفةُ العاصيةُ، وتجاوزت ما نهاها اللّه عنه وتجاوزوا الحدَّ في عصيان اللّه، ولم يتَّعظوا ولم يعودوا عن غيِّهم، قلنا لهم: كونوا قِردَة أذلّاء مُبْعَدينَ من كل خيرٍ، فكانوا كذلك؛ فتمَّ مُرادُ اللّه.

وترشد الآية إلى ثمرة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وبركتِه؛ فقد نجَّى اللّهُ تعالى الناهينَ عن المنكر، وأهلكَ الذين باشروه ولم

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عتو).
(2) الرّاغب، المفردات: (عتا).
(3) ابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس: (عتو)، والكَفَويّ، الكلّيّات، ص: 598.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (خسأ).
(5) الرّاغب، المفردات: (خسأ).

ينتهوا عنه، وأنَّ إطلاقَ لفظِ السوء على المعصية مُؤْذِنٌ بأنَّ المعصيةَ مهما كانت صغيرةً تُحدِث السوءَ في نفس فاعلها.

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

معنى الفاء ودلالتُها في العطف:

(الفاء) هنا عَطَفَتْ ما بعدَها على ما تقدَّمها، وتعطي الفاءُ معانيَ التّعقيبِ السريعِ، فبمجرَّد أن تناسَوْا تذكيرَ الواعظين واستمرُّوا بمعصيتِهم حتّى استمرؤوها؛ وقعتِ العقوبةُ على المعتدين، والنّجاةُ للمؤمنين. ولا يخفى أيضًا أنَّ الفاء فيها معنى الإفصاح وتطوي وراءها أحداثًا كثيرة من محاولات الواعظين واستكبار المعتدين، وحوارات المتثاقلين مع الواعظين.

تعجيلُ اللهِ عقوبةَ المعتدين، وإنجاءُ المؤمنين

معنى (لمّا) ودلالتُها في الاستعمال اللّغويّ والقرآنيّ:

(لمّا)، تدخل على الفعل الماضي، فتَقتضي جملتيْن وُجِدت ثانيتُهما عند وجودِ أولاهما، فهي حرف وجوب لوجوب، أو وجود لوجود، أي: وجوبُ وجودِ الجملة الثانية لوجودِ الأولى. ورأى بعض النّحاة أنّها ظرفٌ بمعنى (حين)[1] تضمَّن معنى الشَّرط، ويكون قوله: ﴿نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦٓ﴾ جملةً لا محلَّ لها من الإعراب، أو في محلِّ جرّ بإضافة (لـمّا) إليها، والعاملُ فيها جوابها، وهو قوله: ﴿أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ﴾، وهي جملةٌ لا محلَّ لها مِن الإعراب؛ لأنَّها جوابُ شرط غير جازم[2]، وبهذا فقد تحقَّق الفعلان في الزمن الماضي، وكان وقوع الفعل الثاني مترتِّبًا على وقوع النّسيان.

ارتبطت العقوبة في الآية الكريمة بالأسباب التي دعت إليها

بلاغة استعمال أسلوب الشرط في الآية:

أسلوب الشّرط قويٌّ في إثبات مفعولِه، إذ يربط جوابَه بتحقُّقِ فعلِه، فتكون النتيجة مرتبطةً تمامًا بالسبب، وفي هذه الآية جاء

سنّةُ اللهِ في إهلاكِ الظالمين وحفظِ المؤمنين لا تتخلَّفُ ألبتّةَ

(1) ابن هشام، مغني اللّبيب، ص: 309.
(2) الدرويش، إعراب القرآن الكريم وبيانه: 67/3 - 68.

هذا الأسلوبُ الشرطيُّ ليبيِّنَ سنَّةً من سُنن اللّه التي لا تقبلُ التغييرَ والتّبديلَ في استئصالِ الظالمين المداوِمين على ظُلمِهم عند انقطاع الأمل في رجوعهم للحقّ، شأنُها في ذلك شأنُ كثيرٍ من سنن اللّه الكونية والاجتماعيّة التي وردت في القرآن الكريم على هذا الأسلوب الشرطيّ، كقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ﴾ [الرعد: 11] وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ ٧﴾ [محمد: 7]، ثمّ جاء جواب الشرط ليشملَ أمرين معطوفيْن: الإنجاءُ أولًا للمؤمنين، والأخذُ للمعتدين، فحوى الجواب وعدًا ووعيدًا.

بلاغة المجاز في قوله: ﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦٓ﴾:

شبّهتِ الآيةُ الكريمة تركَ ما أُمروا به بنسيانهم له بجامع غير المبالاة وعدم الاهتمام

في الآية استعارةٌ تصريحيّة تبعيّة، حيث شبّه التَّرك بالنِّسيان بجامع عدم المبالاة وحَذف المشبَّهَ وأبقى المشبّهَ به، والقرينةُ المانعة من إرادة المعنى الحقيقيِّ أنَّ الإعذارَ من النِّسيان معقولٌ ومقبول، ولكنَّ المؤاخذةَ عليه تبيّن أنّه لم يكن مجرَّد نسيان، فسُمِّي نسيانًا مُبالغةً؛ إذ أقوى منازل التَّرك أن يُنسى المتروكُ[1]. ويجوز أن يكون مجازًا مُرسَلًا لعلاقة السَّببيَّة[2].

عَوْدُ الضَّمير في ﴿نَسُواْ﴾:

الضَّمير في ﴿نَسُواْ﴾ عائدٌ إلى ﴿قَوۡمًا﴾ أي: المعتدين الذين تركوا ما ذكَّرهم به الصّالحون[3]، وهذا إيجازٌ بديع في إضمار ما تمَّ إظهارُه.

غرضُ التّعبير بالاسم الموصول ﴿مَا﴾:

دلَّ نظمُ الآية الكريمة على أنّ عدم الانتفاع بالتّذكير مُؤْذِنٌ بوقوع العذاب

﴿مَا﴾ في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦٓ﴾: موصولةٌ، قال ابن عطيَّة: "ويَحتمِلُ أن يُرادَ به الذِّكْرُ نفسُه، ويَحتمِل أن يرادَ به

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 469/2.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 135/9.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 208/5.

ما كان فيه الذِّكر[1]"، إضافة إلى أنّ (ما) تدلّ على العموم، بمعنى أنّهم تناسَوا كلَّ شيء يمكن أن يفيدَهم إذا تذكّروه، فيفيد نسيانَهم للمنزل عليهم، ونسيانَهم لتذكير قومهم لهم.

نُكتةُ مجيء جملةِ صلة الموصول بالفعليّة المبنيَّةِ لما لم يُسَمَّ فاعلُه:

نظمُ الجملةِ الكريمة يدعو المعتدين للانشغال بمضامين الدعوة دون وسائلها

جاءت جملةُ صلة الموصول ﴿ذُكِّرُواْ بِهِۦٓ﴾ مبنيَّةً لما لم يُسَمَّ فاعله إيجازًا من ناحية وذلك للعلم بالفاعل، ودفعًا لهم للانشغال بمضمون فعل التّذكير نفسه دون النّظر إلى فاعله من ناحية أخرى.

معنى الباء في ﴿بِهِۦٓ﴾:

الباء للسببيّة أو للتعدية أو للمصاحَبة

يمكن أن تكون الباء هنا سببيّةً بمعنى: فلمّا نسوا ما ذُكّروا به من عدم التّعدّي بسبب موعظة الواعظين، أو تكون الباء للتعدية على معنى: فلمّا نسوا التّذكرةَ لهم، أو يمكن أن تدلَّ الباء على معنى المصاحبة والملابسة، بمعنى أنَّ الدُّعاة النّاصحين ما انفكّوا عنهم بالنّصيحة والموعظة التي لابَسَتْهم في كلّ أوقاتهم، وكلُّ هذه المعاني سائغةٌ رائقةٌ ولها وَجاهَتُها المعقولة.

الموقع النَّحويّ والبيانيّ لقوله: ﴿أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ﴾:

دلَّت جملة جواب الشرط على تحقّق الوعد والوعيد

الجملة هنا وقعت جوابًا للشرط غير الجازم، ولا محلَّ لها من الإعراب، وجاءت بالفعل الماضي لما تقدَّم من أنَّ (لمّا) إذا دخلت على الفعل الماضي كان جوابها ماضيًا أيضًا، وجاء جواب(لمّا) هنا دون اقترانه بالفاء التي تربط جواب الشَّرط بمحذوفٍ، وذلك حتّى تبيِّن أنّه بمجرد حدوث فعل الشَّرط تحقَّق جوابه على الجميع دون حاجة إلى تقدير محذوفات.

نكتة مجيء الاسم الموصول وصلته ﴿ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ﴾:

دلَّ الاسم الموصول هنا على التّعظيم لهذه الفئة التي أَمرت

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 469/2.

بالمعروف ونَهت عن المنكر، وقامت بحقِّ اللّهِ في الوعظ والنّصح للفئة المعتدية، ومن شأن الاسم الموصول أن يأتي فيه التّعريف على دُفعتيْن؛ لأنَّ الاسم الموصول مبهَمٌ ويحتاج إلى جملة صلة الموصول لإزالة إبهامه، وجملة صلة الموصول جاءت بالفعل المضارع الدّالِّ على استحضار صورة هذه الفئة الإيجابيّة أمام القارىء وهي تمارس مهمة الوعظ من ناحية، ودالّة أيضًا على ضرورة التجدّد الاستمراريّ لهذا الركن العظيم حتّى لا يعمُّ العذابُ جميعَ الأمّة.

عظَّم القرآن شأن الفئة الآمرةِ بالمعروف والنّاهيةِ عن المنكر

بلاغةُ الحذفِ أو الذكرِ لجزاء الفريق الثالث القائل: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا﴾:

يُفهم من صريحِ العبارات ومفهومِ الإشارات من هذه الآيات التي تناولتْ قِصّةَ القريةِ حاضرة البحر، أنَّ أهلها انقسموا ثلاثَ فِرَقٍ: فرقة عَصَتْ وصادَتْ، وفرقة نَهتْ وجاهَرتْ وتكلَّمت واعتزَلَتْ، وفرقة اعتزلَتْ ولم تعصِ ولم تَنْهَ، وأنّ هذه الفرقةَ لمّا رأت مجاهرةَ النّاهيةِ وطغيانَ العاصيةِ وعُتوَّها قالت للنّاهية: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا﴾! ثمّ اختُلفَ بعد ذلك في مصير هذه الفرقة الثالثة، فقيل إنّها هلكت مع العاصية عقوبةً على ترك النّهي، ويدلُّ على ذلك ظواهرُ النّصوص والأحاديث الكثيرة. وقال أكثرهم: بل نجت مع الفرقة النّاهية لأنّها لم تعصِ ولا رضيت[1]. ومالَ بعضُ المفسّرين إلى أنّ القرآن الكريم قد سكتَ عن مصير الفرقة الثالثة؛ تَبكِيتًا لهم وتقليلًا من شأنهم لأنّهم سكتوا عن الحقّ.

انقسم أهل القرية ثلاثَ فِرَقٍ معتدية، واعظة، ومثبّطة، فصرَّحَ القرآنُ بجزاء أوّل فرقتيْن، ولم يُصرِّحْ بمصيرِ الثالثة لتذهبَ النّفس فيه كلَّ مَذْهبٍ

معنى أل في ﴿ٱلسُّوٓءِ﴾:

يمكن أن يُراد بالسّوء هنا اعتداؤهم في يوم السّبت، فتكون (أل) عهديّةً، على اعتبار حديث القرآن عن أهل هذه القرية على وجه الخصوص. ويمكن أن تكون (أل) جنسيّة يُراد بها كلُّ المعاصي والذنوب؛ لأنَّ هذه المعاصي على عمومها تستوجب أمريْن: إنكارها،

العبرةُ بعموم اللّفظ لا بخصوصِ السَّبب

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 754/2.

وترتّب العقوبة عليها، ويكون المعنى هنا أنّ اللّه تعالى ينجّي الذين ينهون عن المعاصي والذنوب في كلّ زمان ومكان؛ فالعبرة بعموم اللّفظ لا بخصوص السبب.

نُكْتَةُ تقديم الإنجاء على الأخذ:

تقديمُ الوعد على الوعيد قد يكون من باب إكرام المؤمنين، وترهيب الكافرين

تقديم الإنجاء هنا هو للعناية بشأن فرق الواعظين النّاهين عن المنكر؛ فبدأ بهم إكرامًا لهم لفضيلة عملهم، وقد ساعد على هذا التّقديم سياق السورة الكريمة في ذكر النّعم التي أنعم اللّه بها على بني إسرائيل عبر تاريخهم الطّويل، وما تقدّمها من قوله: ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ﴾ [الأعراف: 159]، ثمّ ثنّى بجزاء المعتدين؛ لأنّه أَطْنَبَ فيه ورتَّبَ عليه بعد ذلك أحكامًا كثيرة.

بلاغة العطف في ﴿وَأَخَذْنَا﴾:

عطفُ ذكرِ المعتدين بعد ذكرِ نجاةِ الواعظين

هذا النّوع من العطف يَحسُنُ بين المتقابلات، وهي في الآية: ﴿أَنجَيْنَا﴾ و﴿وَأَخَذْنَا﴾؛ لأنّ العطف يقع بين حالَيْن متقابلَيْن: التَّغاير والتَّشريك، فالعطف هنا للتّشريك بين الجزاءَيْن، فالأوّل للمؤمنين، والثّاني للمعتدين، وحَسُنَ العطفُ للتَّغايُرِ بين حالَيْهما بين وعدٍ ووعيدٍ.

نُكْتَةُ التّعبير عن الإهلاك بالأخذ:

عبّر القرآن عن إهلاكهم بالأخذ بجامع الزوال

الأخذُ كنايةٌ عن عذابِ الاستئصالِ الذي أصابهم، فلا قرينةَ صارفةٌ من إرادة المعنى الحقيقيِّ للأخذ، وقد يكون من باب الاستعارةِ التَّصريحيّة التَّبعيّة بأن شَبَّه إهلاكَهم بأخذِهم؛ بجامعِ الزوالِ.

فائدةُ العدولِ في الأفعال من المضارعيّة إلى الماضويّة:

في العدول تلوينٌ للخطاب وتجديدٌ في أسلوب الكلام

كان الظاهرُ أن يُقال لو كان في غير القرآن: (أنجينا الذين ينهون عن السوء وأخذنا الذين يظلمون)؛ لتحصل المقابلة بين جملتيْ صلة الموصول: ﴿يَنْهَوْنَ﴾ و(يظلمون)، لكنّ القرآن الكريم عَدَلَ إلى الفعل

الماضي في ﴿ظَلَمُواْ﴾؛ ليبيِّنَ تَحقُّقَ الظّلمِ فيهم وتَمكُّنَه من نّواصيهم حتّى بات قديمًا متأصِّلًا فيهم.

نُكتةُ التّعبيرِ بالاسم الموصول في ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾:

عـبّر عـن الفئة المعتدية بالاسم الموصول ذمًّا لها

دلَّ الاسم الموصول هنا على الذَّمّ والتّحقير لهذه الفئة التي اعتدت في السَّبت، ولم تستجب لِنُصْحِ الواعظين، ومن شأن الاسم الموصول أن يأتيَ فيه التّعريف على دفعتيْن؛ لأنّ الاسم الموصول مُبْهَمٌ ويحتاج إلى جملة صلة الموصول لإزالة إبهامه، وجملةُ صلة الموصول جاءت بالفعل الماضي الدّالّ على تَمكُّنِ هذا الظلم فيهم حتّى بات وصفًا قديمًا لهم.

غرضُ التّعبير عن معصية الاعتداء بوصفها ظلمًا:

الـظّـلـمُ هـو الـشـجـرةُ الـخـبـيـثـةُ الـتـي انبثقتْ منها كلُّ تـلـك الـذنـوب والمعاصي

يعرّف الرَّاغبُ الظّلمَ تعريفًا دقيقًا جامعًا مانعًا لم يُضِفْ عليه أحدٌ من العلماء بعده شيئًا جديدًا، بل قد أفادوا منه كثيرًا، يقول: "والظُّلمُ عند أهلِ اللغةِ وكثيرٍ من العلماء: وَضْعُ الشَّيءِ في غير مَوْضِعِهِ المخْتَصِّ به، إمّا بِنُقْصانٍ أو بزيادةٍ، وإمّا بِعُدولٍ عن وقْتِهِ أو مكانِه...، والظلمُ يُقالُ في مجاوزةِ الحقِّ الذي يَجري مَجْرى نقطةِ الدائرةِ، ويُقالُ فيما يَكْثُر وفيما يَقِلُّ من التَّجاوزِ، ولهذا يُسْتَعْمَلُ في الذَّنْبِ الكبيرِ وفي الذَّنْبِ الصغيرِ"[1].

وجاء الظلم في القرآن الكريم وصفًا لبعض الأقوام السابقة كقوم نوحٍ، وعادٍ، وثمودَ، وأصحابِ الأَيْكةِ، وقومِ فرعونَ، ولأهلِ الكتاب وغيرِهم. وجاء وصفاً للشياطين كما في قوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ إِذۡ قَالَ لِلۡإِنسَٰنِ ٱكۡفُرۡ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّنكَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٦ فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِي ٱلنَّارِ خَٰلِدَيۡنِ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٧﴾ [الحشر: 16 - 17]. وجاء كذلك وصفاً لأعمال

(1) الرّاغب، المفردات: (ظلم).

الشِّرك والكفرِ والفسقِ والنِّفاقِ والمعاصي في مواضعَ كثيرةٍ من القرآن الكريم.

فالظّلمُ هو الشجرةُ الخبيثةُ التي انبثقتْ منها كلُّ تلك الأغصانِ المنتنةِ؛ فالتعدّي هنا سمّاه القرآن الكريم ظُلْمًا؛ فـ "العَدْوُ: التجاوزُ ومنافاةُ الالتئامِ، فتارةً يُعتَبَرُ بالقلب فيُقال له: العَداوَةُ والمُعاداةُ، وتارة بالمشْي فيقال له: العَدْوُ، وتارة في الإخلال بالعدالة في المعاملة فيقال له: العُدْوان والعَدْو. وتارة بأجزاء المَقَرِّ فيُقال له: العُدَواءُ. والعَدُوُّ ضَرْبان: أحدُهما: بِقَصْدٍ من المُعادي نحو قوله ﴿فَإِنْ كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ﴾ [النساء: 92]. والثَّاني: لا بِقَصْدِهِ بل تَعْرِضُ له حالةٌ يتَأَذّى بها كما يَتأَذّى مما يكون من العِدَى نحوُ قولِه: ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: 77]. والاعْتِداءُ: مُجاوَزَةُ الحقِّ، وقد تكون على سبيلِ الابْتِداءِ وعلى سبيل المجازاة"[1].

وعلى هذا فقد عبّر القرآن الكريم عن هذا التّعدّي بكونه ظُلْمًا؛ لما فيه من ظلمِ النّفس أولًا، والانحرافِ عن الجادّة ثانيًا.

معنى الباء في ﴿بِعَذَابٍ﴾، وفائدة التَّنكير:

الباء في قوله تعالى: ﴿بِعَذَابٍ بَئِيسٍ﴾، للتَّعدية، وهي باءُ النّقل، ويمكن أن تكون للمُصاحَبَة، وفيها دلالةٌ على مصاحبة العذاب لهم، كقول القائل لمن أساء: (أخذناه بالعقاب)، وتنكير عذاب للتّفخيم والتّهويل[2]. وعليه يكون معنى قوله تعالى: ﴿وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾، أي: أخذناهم من مراقِدِهِم مصحوبينَ بعذاب شديد[3].

عـــذاب الـلـه تعالى إذا أصاب الـظـالـمين فـإنّـه لا ينفكُّ عنهم حتّى يُهْلِكَهم

معاني القراءات في ﴿بَئِيسٍ﴾:

تعددتِ القراءاتُ القرآنيّة المتواترةُ لقوله: ﴿بَئِيسٍ﴾ فقد

(1) الرّاغب، المفردات: (عدا).
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 136/9.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 2991/6.

تتكامل القراءات القرآنيّة المتواترة في وصـف هـذا العذاب بالشدّة

قرأها نافع وأبو جعفر: بعذابٍ (بيْسٍ)، بكسر الباء من غير همز وتنوين السِّين، وقرأها ابن عامر (بِئْسٍ) بكسر الباء وهمزة ساكنة بعدها وتنوين السِّين، وقرأها أبو بكر عن عاصمٍ - في أحد وَجْهَيْهِ - (بَيْئَسٍ) بفتح الباء وهمزة مفتوحة بعد الياء الساكنة وتنوين السِّين، وقرأها الباقون ﴿بَئِيسٍ﴾ بفتح الباء وهمزة مكسورة بعدها ياء ساكنة وتنوين السِّين[1].

وجاءتْ جميعُها مع اختلاف لغاتِ العرب ولهجاتِها على أنَّها صفةٌ مُشبَّهةٌ تعني العذاب الشَّديد المهلِكَ الموجِعَ.

غرضُ وصفِ العذاب بالبئيسِ وتنكير الصفة:

قوله: ﴿بَئِيسٍ﴾ مشتقٌّ من البأس، وهو الشِّدة والقوَّة، وهو على وزن (فَعيل) إمّا وصفًا مشبّهًا أو مصدرًا، جاء الوصف به للمبالغة في الشدّة[2].

معنى الباء في قوله: ﴿بِمَا﴾:

الباء للسببيّة، وهي عند الآلوسيِّ مُتعلِّقَةٌ بِـ ﴿وَأَخَذْنَا﴾ كالباء الأولى، ولا ضير فيه؛ لاختلافهما معنًى، أي: أخَذناهم بما ذُكِرَ مِنَ العذاب؛ بسبب فِسقهم المستمرِّ، ولا مانعَ مِن أنْ يكون ذلكَ سببًا للأخذ كما كان سببًا للابتداءِ، وكذا لا مانعَ مِن تَعْليله بما ذُكِرَ بعدَ تعليلِه بالظُّلْم الَّذي في حيِّز الصِّلة؛ لِأنَّ ذلك ظُلْمٌ أيضًا، ولَم يَكْتَفِ بالأوَّل لِما لا يَخْفى[3].

معنى (ما) بين المصدريّة والموصولة:

ارتبـط الـعذاب بالفسق ارتباطَ السبب بالنّتيجة

(ما) في مثل هذه الحالات إمّا أن تكون مصدريّة تُؤوَّل مع ما يأتي بعدها على معنى: أخذنا الذين ظلموا بعذابٍ بئيسٍ بكونهم

(1) الأزهريّ، معاني القراءات: 427/1 - 428، وابن الجزريّ، تحبير التّيسير، ص: 380.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 136/9.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 136/9 - 137.

يفسقون، أو موصولة على معنى: بسبب الذي كانوا يفسقونه. ولا شكَّ أنّه على كونِهِ موصولةً أفاد الاسمُ الموصولُ ذمًّا ونعيًا عليهم؛ لكونه جاء التّعريف به بعدُ على مرحلتيْن: إبهامٌ ثمّ إعلامٌ.

نُكْتَةُ دخول (كان) على الجملة التَّعليليّة:

شدّةُ ملازمتهم للمعاصي استوجبت شِدّةَ العذاب

دلَّ دخول (كان) على جملة تعليل العذاب على أنَّ كلَّ معاصيهم التي استوجبتَ العذابَ أصبحت الآن خبرًا ماضيًا مضى وانقضى؛ إذ دلَّلَ دخولُ (كان) على انقضاء المعاصي وفواتها عند وقوع العذاب، حتّى كأنّها لم تغنَ بالأمس، وكذلك يدلّل دخولها على أنَّ العصيان هو شأنهم الذي كانوا عليه فلم يفارقهم قِيدَ أُنملة، بل كان ملازمًا لهم لا ينفكّون عنه.

بلاغة التّعبير بـ﴿يَفْسُقُونَ﴾ مادّة وصيغة:

تُصوِّرُ الألفاظُ القرآنيّةُ الأحداثَ الماضيةَ تصويرًا حيًّا أمام قارىء القرآن

المعنى المحوري الذي تدور حوله مادّة (فسق) هو: خروج الشيء عن حَدِّه أو حَيِّزه لحِدّةٍ أو فساد: كحال تلك الفَواسق في طبائعها، وما يصدر عنها، كالفأر يفسد المأكولات ويَقْرِض غيرها، وقد حملوا تسمية الخمسة المذكورة في السنّة (فَواسِقَ) على معنى الخُبْث المعنوي[1]، وهي: قوله ﷺ: «خَمْسُ فَواسِقُ، يُقْتَلْنَ في الحِلِّ والحَرَمِ: الحَيَّةُ، والغُرابُ الأبْقَعُ، والفَأْرَةُ، والكَلْبُ العَقورُ، والحُدَيّا»[2].

فَمادَّةُ (فسق) تدور حول الخروج بسبب الفساد، وأمّا صيغتُها المضارعيّة في التّعبير عن حدثٍ مضى وانتهى فإنّما تدلُّ على استحضارِ صورة تَعَدّيهم حُدودَهم أمام القارىء كأنّها تقع الآن، فضلًا عن كون المضارع يفيد دائمًا معاني التجدّد الاستمراريّ، الذي يفيد هنا تجدُّدَ العذاب بتجدُّدِ موجباته.

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (فسق).

(2) البخاري، الجامع الصّحيح، برقم: (3314)، ومسلم، الصّحيح، برقم: (1198)، واللّفظ له، وغيرهما.

نُكتةُ تَغايُرِ وصفِ معصيتِهم بينَ العَدْوِ والظُّلمِ والفِسْقِ:

وَصَفَ القرآنُ فَعْلَتَهُم الشَّنيعةَ عُدوانًا وظُلمًا وفِسقًا؛ لأنّها خروجٌ عن الجادّة وتَعَدٍّ على حرمة السّبت، وظُلمًا لأنفسِهم قبل كلّ شيء

ممّا تقدَّم ذِكره في معاني العَدْو والظّلم والفسق يتبيّن لنا أنّه لا تَرادُفَ ألبتّةَ بين هذه الألفاظ، وأنّ كلَّ لفظة تأتي في موضعها الأليق بها، والذي يترتّب منه على تبديلها بغيرها إمّا ذَهابُ الرَّوْنق الذي يكون معه سقوطُ البلاغة، وإمّا فساد المعنى الذي يكون منه فسادُ الكلام[1]، فقد سمّى القرآن فَعْلَتَهم ابتداءً على أنّها كانت عُدوانًا من هذه الفرقة من أهل القرية؛ لأنّهم تجاوزوا حَدَّهم وخالفوا أوامرَ ربّهم في حُرْمةِ الصّيد في يوم السّبت، دون غيرهم من أهل القرية الذين التزموا النّهي عن الصّيد.

ثمّ سمّاها ظلمًا في معرِض الحديث عن أخذهم؛ لأنَّ القرآن الكريم بيّن في آياتٍ كثيرةٍ سنّته الثابتةَ في أخذ القرى الظّالمة واستئصال شَأْفَتِها، وبيَّنَ أنّ الظُّلمَ مُؤذِنٌ بزوال العُمْران، فالظّلم هو المعنى الأشمل الذي يضمّ عدوانهم وغيره. ثمّ جاء التّعبير عن فَعلتِهم بوصفها فسقًا في معرِض التّعليل الدقيق لسبب أخذهم بالعذاب البئيس، فقد خرجوا عن الجادّة بفِسْقِهم، فاعتدَوْا بصيدهم، فوقعوا في الظّلم بمعناه العامّ.

معنى الفاء في ﴿فَلَمَّا﴾:

ترتيبُ عقوبة جديدة متفرِّعة على الذَّنْب السابق

الفاء عاطفةٌ لترتيبِ ما بعدها على ما قبلها، وهي تُفيد التّرتيبَ والتّعقيبَ السريع، حيث رتّبت الفاء عقوبة جديدة لم تتأخّر على ذنْبٍ آخرَ تفرّع عن الذنب السابق.

نكتة التّعبير عن الشَّرط بـ(لمّا):

(لمّا)، تدخل على الفعل الماضي، فتقتضي جملتيْن وجدت ثانيتهما عند وجود أولاهما، فهي حرفُ وجوبٍ لوجوب، أو وجودٍ لوجود، أي: وُجوبُ وُجودِ الجملة الثّانية لوجود الأولى، ورأى بعض

(1) الخطّابيّ، البيان في إعجاز القرآن، ص: 26.

النّحاة أنّها ظرفٌ بمعنى (حين)[1] تضمَّن معنى الشَّرط، ويكون قولهُ: ﴿عَتَوۡاْ عَن مَّا نُهُواْ عَنۡهُ﴾ جملةً لا محل لها من الإعراب، أو في محلِّ جرّ بإضافة (لـمّا) إليها، والعامل فيها جوابها، وهو قوله: ﴿قُلۡنَا لَهُمۡ كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ﴾، وهي جملة لا محلّ لها مِن الإعراب؛ لأنَّها جواب شرط غير جازم[2]، وبهذا فقد تحقّق الفعلان في الزمن الماضي، وكان وقوع الفعل الثاني مترتّبٌ على وقوع العتوّ.

تحقُّقُ الفعلين في الزَّمن الماضي، ووقـوعُ الفعل الـثـاني مـترتِّـبٌ على وقوع العُتوّ

بلاغة استعمال أسلوب الشرط في الآية:

أسلوب الشّرط يربط جوابه بتحقّق فعله، فتكون النتيجة مرتبطة تمامًا بالسبب، وفي هذه الآية جاء هذا الأسلوب الشَّرْطيُّ ليبيّن جزاءَ اللّه للظالمين المداومين على ظلمهم، وتكبّرهم وعدم رجوعهم للحقّ، شأنها في ذلك شأن كثيرٍ من سنن اللّه الكونية والاجتماعيّة التي وردت في القرآن الكريم على هذا الأسلوب الشرطيِّ كقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ﴾ [الرعد: 11].

سـنّـة الـلـه في إهـلاك الظالمين لا تتخلَّف ألبتّةَ

غرض التَّعبير عن النِّسيان بالعُتُوّ:

المعنى المحوريُّ للعُتوِّ هو امتدادُ الشيء مادّة، أو بقاءٌ في صلابة، أو تماسكٌ دقيق، وبقاء ذلك الشيء حتَّى عتا امتدادًا وتماسُكًا وصَلابة، كأن لم تُؤثر فيه السُّنون الطوال[3]، وقوله: ﴿فَلَمَّا عَتَوۡاْ﴾ إمّا بمنزلة التَّأكيد لقوله: ﴿فَلَمَّا نَسُواْ﴾؛ صيغ بهذا الأسلوب لتهويل النسيانِ والعتوِّ، ويكون المعنى: أنَّ النسيان، وهو الإعراض، وقع مقارنًا للعُتوِّ[4]. ويمكن أن تكون هذه عقوبةً أخرى، حيث عاقبهم أولًا بالبؤس والشقاء في المعيشة، ولكنَّ هؤلاء القوم لم يَزِدْهُم البؤسُ والسوءُ إلا عتوًّا وإصرارًا على الفسق والظّلم، فَدَمْدَمَ عليهم ربُّهم

الـــدَّوامُ على فعـل المعصية يستوجب عقوبةً أشدّ

(1) ابن هشام الأنصاريّ، مغني اللّبيب، ص: 309.
(2) الدرويش، إعراب القرآن الكريم وبيانه: 67/3 - 68.
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (عتو).
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 153/9.

بذَنْبهم، ومَسَخَهم مَسْخَ خَلْقٍ وبَدَنٍ، فكانوا قِردةً بالفعل، أو مَسْخَ خُلُقٍ ونَفْسٍ فكانوا كالقردة في طَيْشها وشرِّها وإفسادها لما تَصِلُ إليه أيديها[1].

معنى ﴿مَّا﴾ في ﴿مَّا نُهُواْ عَنۡهُ﴾:

أوامر الله ونواهيه عظيمةٌ

(ما) اسم موصول بمعنى (الذي)، والتّقدير: عن الأمر الذي نُهوا عنه، والتّعبير بالاسم الموصول هنا يفيد تعظيمه ورفع شأنه.

نُكْتَةُ مجيء جملة صلة الموصول بالفعليّة لما لم يُسمّ فاعله:

الحذف للإيجاز وللانشغال بالفعل عن الفاعل

جملة ﴿نُهُواْ﴾ صلةُ الموصولِ لا محلَّ لها من الإعراب، وقد جاءت مبنيَّةً لما لم يُسَمَّ فاعلُه؛ لأنّ الفاعل معلومٌ مقرّرٌ في عقول المخاطَبين، فحَذْفُه جاء إيجازًا من ناحية، ودعوةً لهم للانشغال بمضمون النّهي دون الانشغال بالنّاهي.

نُكتةُ العُدولِ عن ذكرِ ذَنْبِهم على وجه التّعيين:

حرمة الخروج عن طاعة الله مهما كانت صوره وأشكاله

لم يَقُل النّصُّ الحكيم: (فلمّا عتوا عن اعتدائهم)، أو: (حرمة اصطيادهم في يوم السّبت)، وإنّما قال: ﴿عَن مَّا نُهُواْ عَنۡهُ﴾؛ ليبيّن أنّه لا يَهُمُّ نوعُ المعصية وشكلُها بقَدْر كونها خروجًا عن طاعة الله فيما نهى عنه، فمناطُ الأمر أنّهم ما التزموا بما نهوا عنه بغضّ النّظر عن طبيعته وماهيّته.

بلاغة الإطناب في وَصْف ما وقعوا به:

من صوَر البلاغة إعادة ذكر أمرٍ تقدَّمَ بصورةٍ جديدةٍ لزيادة رسوخ مدلوله في نُفوس السّامعين

أعادت هذه الآية وَصْفَ اعتدائهم بصورة أخرى عند من يرى أنّه نفس الذَّنْب الأوّل، وعلى هذا الرأي تكون الإعادة من باب الإطناب في الوصف؛ يقول ابن عاشور حول هذه الصورة الفنّيّة: "تَكْريرٌ لِنَظيرِهِ الَّذي تَقَدَّمَ آنِفًا لِزيادَةِ رُسوخِ مَدْلولِهِ في نُفوسِ السّامِعينَ اهْتِمامًا بِما تَضَمَّنَهُ لِكَوْنِهِ مَعْنًى لَمْ يَسْبِقْ سَماعُهُ لِلْمُخاطَبينَ فَلَمْ

(1) محمد رضا، تفسير المنار: 370/9.

يَقْتَنِعْ فيهِ بِمَرَّةٍ واحِدَةٍ، وَمِثْلُ هَذا التَّكْريرِ واردٌ في كَلامِ العَرَبِ، قالَ لَبيدٌ:

فَتَنازَعا سَبِطًا يَطيرُ ظِلالُهُ *** كَدُخانِ مُشْعَلَةٍ يُشَبُّ ضِرامُها

مَشْمولَةٍ غُلِثَتْ بِنابِتِ عَرْفَجٍ *** كَدُخانِ نارٍ ساطِعٍ أَسْنامُها[1]

فَإِنَّهُ لَمّا شَبَّهَ الغُبارَ المُتَطايِرَ بِالنّارِ المَشْبوبَةِ واسْتَطْرَدَ بِوَصْفِ النّارِ بِأَنَّها هَبَّتْ عَلَيْها ريحُ الشَّمالِ وَزادَتْها دُخانًا وَأَوْقَدَتْ بِالعَرْفَجِ الرَّطيبِ لِكَثْرَةِ دُخانِهِ، أَعادَ التَّشْبيهَ ثانيًا لِأَنَّهُ غَريبٌ مبتكر"[2]، والحقيقة أنّهم اقترفوا ذنبيْن: فعل المعصية، ونسيان ما ذُكّروا به وتجاهله.

الموقع النحويُّ والبيانيُّ لقوله: ﴿قُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ﴾:

الجملة هنا وقعت جوابًا للشرط غير الجازم، ولا محلَّ لها من الإعراب، وجاءت بالفعل الماضي لما تقدّم من أنّ (لمّا) إذا دخلت على الفعل الماضي كان جوابها ماضيًا أيضًا، وجاء جواب(لمّا) هنا دون اقترانه بالفاء التي تربط جواب الشّرط بمحذوف، وذلك حتّى تبيّن أنّه بمجرَّدِ حدوثِ فعل الشّرط تحقّق جوابُه على الجميع دون حاجة إلى تقدير محذوفات.

دلّ جواب (لمّا) على تعجيل وقوع عذاب الله وتحقّقه فيهم

معنى اللّام في ﴿لَهُمْ﴾:

اللّام هنا لام التّخصيص؛ فالعقوبةُ وقعت عليهم دون غيرهم، والقول وُجّه لهم دون غيرهم.

نكتة تقديم شبه الجملة: ﴿لَهُمْ﴾:

تقديم شبه الجملة هنا أفاد معنى التّخصيص أيضًا؛ لأنَّ العقوبة وقعت عليهم دون غيرهم، ويمكن أن يكون التّقديم أيضًا من باب تعجيل ذكر المضرّة.

استحقّتِ الفِرقةُ المعتدية عقوبةً لم تكن لغيرها

(1) لبيد بن ربيعة العامريّ، ديوان لبيد، الأبيات: 7 - 8.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 748/1.

دلالة الأمر بـ﴿كُونُواْ﴾:

تخرج صيغ الأمر عن الوجوب إلى أغراض مجازيّة أخرى، وهنا دلّت على التّكوين وسرعة التحقّق

الأمر هنا ليس على ظاهره لأنّه لا يُعقل أن يكون أمرُ المسخِ مَنوطًا بإرادتهم وضمن مقدورهم، وإنّما يُحمل على دلالات مجازيّة، فقيل: إنّه للتّسخير[1]، على معنى التّكوين، لذا قال ابن عاشور: "كونوا: أمر تكوين، وتكوينهم قردة يَحتمِلُ أن يكون بتصيير أجسامهم أجسامَ قردةٍ مع بقاء الإدراك الإنساني - وهذا قول جمهور العلماء والمفسرين - ويَحتمِل أن يكون بتصيير عقولهم كعقول القردة مع بقاء الهيكل الإنساني، وهذا قول مجاهد. والعِبرة حاصلة على كلا الاعتبارين، والأوّل أظهر في العِبرة؛ لأنَّ فيه اعتبارهم بأنفسهم واعتبار النّاس بهم، بخلاف الثّاني. والثّاني أقرب للتّاريخ"[2]، ويمكن أن يكون هذا الأمر دالًّا على سرعة تحقّق عقوبة الله فيهم، فكأنّه أمرٌ قد وُجّه إليهم فبادروا جميعًا إلى تحقيقه دُفعة واحدة.

نكتة تنكير ﴿قِرَدَةً﴾:

أفاد تنكير قردة هنا معنى التّحقير لهم، فسواء أكان هذا المسخ حقيقيًّا أو معنويًّا، ففيه من التّحقير لهم والتّقليل من شأنهم؛ لفظاعة ما ارتكبوا وتَكرار عصيانهم.

غرض الوصف بـ﴿خَٰسِـِٔينَ﴾:

استحقّوا الوصف بالذلّ والإبعاد لتمرُّدِهم على شريعة الله وإبعادِهم المصلحين عن تحقيق دورٍ فاعلٍ فيهم

المعنى المحوريّ لـ(خسأ) هو إبعادُ ما هو دقيق القدر عن الحَوْزة أو الأثناء، كما في طَرد الكلب والخنزير من الحَوزة، وكمنعه من الدنوّ منها كذلك. ومن الصُّور الماديّة لهذا المعنى أيضًا: تخاسأ القومُ بالحجارة: ترامَوا بها، فهذا التَّرامي دفع بقوّة للحجارة، يُراد به إبعادُ المرمى لكن بإصابتِه.

وقوله تعالى: ﴿قُلۡنَا لَهُمۡ كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ﴾ أي مُبْعَدين، ويكون

(1) القزوينيّ، تلخيص المفتاح، ص: 105.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 544/1.

الخاسئُ بمعنى الصاغرِ القميء، والمعنى الثاني: لازمٌ للأول فالمعنيان تتأتّى إرادتهما معًا[1]. فيلاحظ من المعنى المحوريّ لهذه الكلمة أنّ وَصْفَهم بهذا الوصف المنطوي على معنى الإبعاد متّسقٌ مع جريمتهم في إبعاد شريعة الله عنهم، وإبعادِ الواعظين عن تحقيق دورٍ تأثيريٍّ في حياتهم.

بلاغة المتشابه اللّفظيّ في قصّة أصحاب السّبت:

وردت الإشارة إلى هذه القِصّة من قِصَصِ بني إسرائيل في عدّة سورٍ من القرآن الكريم، ومن عادات القرآن الكريم الإجمالُ ثمّ البيان، لذا أَجْمَلت سورةُ البقرة ما جرى مع أهل هذه القرية إجمالًا تناسَبَ مع السياق الذي جاءت فيه؛ فقد استعرضت سورةُ البقرة جانبًا طويلًا من تاريخ بني إسرائيل مع أنبيائهم، وما جرى معهم من أحداثٍ وتحدّياتٍ في مرحلة التّيه، وذلك في سياق بيان طبيعة هذه الشخصيّة المتمرِّدة التي وَضعتِ المعوّقاتِ الكثيرةَ في طريق أنبيائهم من أجل صدِّهم عن تحقيق الخلافة التي أوكلت إليهم في الأرض المقدّسة، فكتب الله عليهم التّيهَ في الصّحراء جرّاء أفعالهم ونَقْضِهمُ العهودَ والمواثيقَ التي أُخذت عليهم.

لذا جاءتِ الإشارةُ إلى قِصّة القرية التي كانت حاضرةَ البحرِ في سورة البقرة بشكلٍ موجزٍ يتلائم مع المقام الذي جاءت فيه في كشف نقضِهمُ العهودَ والمواثيقَ، فقال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۖ فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْاْ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿٦٥﴾ فَجَعَلْنَٰهَا نَكَٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٦٦﴾﴾ [البقرة: 63 - 66].

وجاءت الإشارة إلى هذه القِصّة في موضعيْن آخريْن من سورة النّساء بما يتلائم والسّياق الذي جاءتا فيه، فقال تعالى: ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَٰعِنَا لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَٱسْمَعْ وَٱنظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٤٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ ءَامِنُواْ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (خسأ).

وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدۡبَارِهَآ أَوۡ نَلۡعَنَهُمۡ كَمَا لَعَنَّآ أَصۡحَٰبَ ٱلسَّبۡتِۚ وَكَانَ أَمۡرُ ٱللَّهِ مَفۡعُولًا ﴿٤٧﴾

[النساء: 46 - 47]

فكانتِ الإشارةُ إلى أصحاب السّبت من باب الوعيد لأهل الكتاب بتذكيرهم بما جرى لأسلافهم الذين عَصَوْا أنبياءهم ولم يلتزموا بما هو مقرّرٌ عليهم في شريعتهم، وشأنُ هؤلاء المخاطَبينَ في زمن النّبيّ محمّدٍ ﷺ سيكون كشأن أولئك السابقين إن لم يلتزموا القرآنَ الذي جاء مصدِّقًا لما معهم في توراتهم وشريعتهم.

فجاءت الإشارة إلى السّبت على أنّه اسمٌ لليوم الذي نَقض فيه أجدادُهمُ الميثاقَ الذي أُخذ عليهم بأن لا يصطادوا فيه، لكنّهم ما التزموا بهذا الميثاق الغليظ الذي أُخذ عليهم، ولم يشكروا هذه النّعم التي قُدّمت إليهم فوقعوا في العصيان.

ثمّ جاءت أخيرًا وفي سورة مكيَّةٍ إشارة مجملة ليوم السّبت في سورة النّحل في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ أَنِ ٱتَّبِعۡ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿١٢٣﴾ إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبۡتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِۚ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ﴿١٢٤﴾﴾ [النحل: 123 - 124] في سياق الحديث عن إبراهيم عليه السلام بكونه إمامًا في الخير، طائعًا خاضعًا لله، ثمّ بعد ذلك أوصى القرآنُ النّبيَّ ﷺ أن يتّبع دين إبراهيم عليه السلام، وذكّر المؤمنين باختلاف أهل الكتاب في شأن يوم السّبت سواءً أكان هذا الاختلاف بشأن تعيينه عيدًا لهم دون يوم الجمعة مخالفة للمسلمين، أم بسبب افتراقهم إلى فئاتٍ ثلاث في حرمة الاصطياد فيه[1]؛ فإنَّ التّذكير هنا منصبٌّ أيضًا على المؤمنين لتحذيرهم من هذه الاختلافات حتّى لا يصيبهم ما أصابهم.

وهكذا نرى أنّ السّورة الوحيدة التي فَصَّلتْ ما جرى في يوم السّبت إنّما كانت سورةَ الأعراف التي تجلّى فيها استعراضُ رحلةِ هذا الدّين الطويلةِ عبر كوكبةِ الأنبياء المصطفَيْن بدءًا من آدم عليه السلام وانتهاءً بسيّدنا محمّدٍ ﷺ، وما جرى معهم من أحداثٍ وتحدّياتٍ شاقّة استطاعوا أن يجتازوها وأن يصبروا عليها.

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 612/4.

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الظُّلم والشرك والكفر والنّفاق والجَور والهضم والطّغيان:

الظّلمُ أعمُّ من الجور والهضم؛ لأنّه يشمل أيَّ عدولٍ أو انحرافٍ عن الجادّة المستقيمة

تقدّم الحديث عن أنّ لفظة الظّلم تعمُّ لتشمل كلّ الذّنوب والمعاصي صغيرها وكبيرها، فقد سمّى القرآنُ الشِّركَ والكفرَ: ظُلمًا؛ فقال على لسان لقمان: ﴿إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ ١٣﴾ [لقمان: 13]، وقال عن الكفر: ﴿وَٱلۡكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٢٥٤﴾ [البقرة: 254]، وكذلك النّفاق وسائر المعاصي فإنّه من خلال العَوْد لدلالاتها المعجميّة والاصطلاحيّة واستعمالاتها القرآنيّة - نجد أنَّ لفظة الظّلم تعمُّها جميعًا.

أمّا في التّفريق بين الجَوْر والهَضْم والظُّلم فيقول صاحب الفروق اللغوية: "الجَوْر خلافُ الاستقامةِ في الحُكْم، وفي السيرة السلطانية، تقول: جارَ الحاكم في حُكْمِه والسلطانُ في سيرته؛ إذا فارقَ الاستقامةَ في ذلك، والظلم ضررٌ لا يستحق ولا يُعقب عِوضاً، سواءً أكان هذا من سلطان أم حاكم أو غيرهما، ألا ترى أنَّ خيانةَ الدَّانِق والدرهم تُسمّى ظلماً ولا تُسمّى جَوْراً، فإن أُخِذ ذلك على وجه القَهْر أو المَيْلِ سمِّيَ جَوْرًا، وهذا واضح.

وأصلُ الظّلم نقصانُ الحق، والجَوْر: العدولُ عن الحق، من قولنا: جارَ عن الطريق، إذا عَدل عنه. وخُولِفَ بين النقيضين فقيل في نقيض الظلم: الإنصاف؛ وهو إعطاء الحقّ على التَّمام، وفي نقيض الجَوْر: العدل؛ وهو العدول بالفعل إلى الحق"[1].

وقد استعمل القرآن الكريم كلمة الجَوْرِ في قوله: ﴿وَٱلۡخَيۡلَ وَٱلۡبِغَالَ وَٱلۡحَمِيرَ لِتَرۡكَبُوهَا وَزِينَةٗۚ وَيَخۡلُقُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ٨ وَعَلَى ٱللَّهِ قَصۡدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنۡهَا جَآئِرٞۚ وَلَوۡ شَآءَ لَهَدَىٰكُمۡ أَجۡمَعِينَ ٩﴾ [النحل: 8 - 9]؛

(1) العسكريّ، الفروق، ص: 226.

فجاءت وصفًا للسبيل المائل. وبهذا يتبيّن أنّ لفظة الظّلم أعمّ في الدّلالة وفي الاستعمال من لفظة الجَوْر.

أمّا الهَضْم: فقد عرّفه الراغب فقال: "هو شَدْخُ ما فيه رَخاوةٌ...، واستُعير الهَضْمُ للظُّلم"[1]، وقال السَّمين الحلبي: "الهضمُ: النقصُ، ويقال: هَضَمْتُه، واهتَضَمْتُه، وتهضَّمْتُه: أي نقصتُه حقَّه، وقيل: الظّلم والهضم متقاربان"[2]، ولكن هل هما حقاً كذلك؟ يفرّق بينهما صاحب الفروق قائلًا: "الهضْمُ: نقصانُ بعضِ الحقّ، ولا يُقال لمن أُخِذ جميعُ حقِّه هضم، والظُّلم يكون في البعض وفي الكل"[3]. وعلى هذا فالظّلم أعمُّ من الهضم، فكلُّ هضمٍ ظلمٌ، وليس العكس، ولم ترد لفظة (الهضم) إلّا في موضع واحد في القرآن الكريم مع لفظة الظّلم: ﴿وَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَا يَخَافُ ظُلۡمٗا وَلَا هَضۡمٗا ١١٢﴾ [طه: 112]. وأمّا الطغيانُ فهو: "تجاوزُ الحَدِّ بالعِصيان"[4]، أو هو: "مجاوزَةُ الحدِّ في المكروه مع غَلَبةٍ وقَهْر"[5].

وقد اجتمعت كلمتا الظّلم والطّغيان في قوله تعالى: ﴿وَقَوۡمَ نُوحٖ مِّن قَبۡلُۖ إِنَّهُمۡ كَانُواْ هُمۡ أَظۡلَمَ وَأَطۡغَىٰ ٥٢﴾ [النجم: 52]، فَدَلَّ ذلك على أنَّ الطّغيان ظلمٌ مخصوصٌ؛ لأنَّ فيه تجاوزًا وغلبةً وقهرًا.

العُتوّ والعُثوّ:

يشترك العُتُوُّ والعُثُوُّ في تحقُّقِ الفساد في كليهما

تقدّم سابقًا أنّ المعنى المحوريّ لـ(عتوًا) هو امتدادُ الشيء مادّة، أو بقاءٌ في صلابةٍ أو تماسك دقيق، وبقاء ذلك الشيء حتّى عتا امتدادًا وتماسُكًا وصَلابة، كأن لم تُؤثر فيه السنون الطِّوال[6]. والعثوّ

(1) الرّاغب، المفردات: (هضم).
(2) السّمين الحلبي، عمدة الحفاظ: 293/4.
(3) العسكريّ، الفروق، ص: 226.
(4) الرّاغب، المفردات: (طغى).
(5) العسكريّ، الفروق، ص: 224، والفيروابادي، بصائر ذوي التمييز: 508/3.
(6) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (عتو).

في الفساد الذي يُدرك حسًّا أو حكمًا[1]، وقد وردت في خمسة مواضع في القرآن الكريم على نظمٍ واحدٍ: ﴿وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ٦٠﴾ [البقرة: 60، الأعراف: 74، هود: 85، الشّعراء: 183، العنكبوت: 36].

فتشترك الكلمتان في تحقّق الفساد فيهما، ولكنّه يكون مع (عتت) فيه امتدادٌ مع صلابة وتماسك.

(1) الرّاغب، المفردات: (عثى).

﴿وَإِذۡ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبۡعَثَنَّ عَلَيۡهِمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَن يَسُومُهُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلۡعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ١٦٧﴾

[الأعراف: 167]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

تتابعُ عقوباتِ الله على يهود

أجمل الإمام الرّازيّ المناسبة لهذه الآية مع ما تقدّمها فقال: "اعلَمْ أنّه تعالى لمّا شرح ها هنا بعضَ مصالح أعمال اليهود وقبائح أفعالهم، ذكر في هذه الآية أنّه تعالى حكم عليهم بالذلّ والصَّغار إلى يوم القيامة[1]".

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تَأَذَّنَ﴾: يقول ابن فارس"الهمزة والذّال والنّون أصلان متقاربان في المعنى متباعدان في اللّفظ، أحدهما: أُذُنُ كلّ ذي أُذُن، والآخر: العِلم، وعنهما يتفرّع الباب كلّه"[2]. ولا شكّ أنّ هنالك تقاربًا بين الأصلَيْن فبِالأُذُنِ يقعُ العِلْمُ ولا سيّما علم المسموعات، لكن بين العلم والإِذْن فرقٌ؛ فإنّ الإِذْنَ أخصُّ ولا يكاد يُستعمل إلّا فيما فيه مشيئةٌ به، راضيًا منه الفعلَ أم لم يرضَ؛ فإنّ قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفۡسٍ أَن تُؤۡمِنَ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ﴾ [يونس: 100] فمعلومٌ أنّ فيه مشيئتَه وأمرَهُ[3]، والإِذْنُ في كلام العرب يأتي إمّا على معنى الأمر على غير وجه الإلزام، ومنها التّخليةُ بين المأذونِ له والمُخلّى بينه وبينه، ومنها العلم بالشيء[4]، وهو المراد هنا، وجاء على صيغة (تفعَّل)؛ للدَّلالة على المطاوعة في معنى قوّة حصول العلم.

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 34/8.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (أذن).
(3) الرّاغب، المفردات: (أذن).
(4) ابن جرير، جامع البيان: 449/2.

2) ﴿يَسُومُهُمْ﴾: السِّين والواو والميم أصلٌ يدلُّ على طلب الشيء، يُقالُ: سامَ الشَّيءَ يَسومُهُ سَوْمًا، أَيْ: ذَهَبَ لِطَلَبِهِ، وَمِنْهُ سَوْمُ الماشيَةِ، أَي: رَعْيُها وَطَلَبُها الحَشيشَ. وَقيلَ أَصْلُ المُساوَمَةِ مِنَ التَّسْويمِ، وَهوَ تَمْييزُ الشَّيْءِ بِعَلاَمَةٍ، يُقالُ: سَوَّمَ الشَّيْءَ يُسَوِّمُهُ، أَيْ: مَيَّزَهُ بِعَلامَةٍ[1]. ومجرى الابتغاء في قوله ﴿يَسُومُهُمْ﴾ كذا، أي يطلب لهم سوء العذاب. وفي هذا الفعل معنى القَسَم: كعَلِمَ اللّه[2]، وشَهِدَ اللّه، لتأكُّدِ إذاقةِ اللّه بني إسرائيل الإهانةَ.

المَعْنى الإِجْمالِيُّ:

توعُّد الله اليهودَ بالعقوبات لكُفْرِهِم وفُسوقِهِم وإفسادِهِم في الأرض

واذكُرْ يا رسولَ اللّه وقْتَ أن أَعلَم اللّه تعالى هؤلاء اليهودَ وأسلافَهم إعلامًا صريحًا بأنّهم إن غيَّروا وبدّلوا ولم يؤمنوا بأنبيائهم، لَيُسلِّطنَّ عليهم إلى يوم القيامة من يُذيقُهم سوءَ العذاب، ويُذلهُّم ويُهينهم في حياتهم الدنيا إلى يوم القيامة - كضَرْبِ الجزيةِ عليهم، وغير ذلك من صنوف العذاب، إنَّ ربّك لسريعُ العقابِ لمن أقام على الكفر، وجانَبَ طريقَ الحقّ، وإنّه لغفورٌ رحيمٌ لمن تاب وآمن وعمل صالحًا[3].

وتُرشد الآيةُ الكريمةُ إلى تأكيد اللّهِ إذاقةَ بني إسرائيل الذِّلةَ والإهانة باطِّرادٍ، وإن بدا للنّاس أنَّهم يُسيِّرون دفَّةَ الأمور في أرض النَّاس، ويتحكَّمون في مال الدنيا وخيراتها، وهم قد اقتطَعوا من أرض المسلمين قطعةً طاهرة مقدسة، إلَّا أنها فترة قصيرة في حُكم الزَّمن وتعاقب الدُّول، وعَرَضٌ من أعراض الحياة الدُّنيا، وسيبقَوْن الأذلّاءَ دومًا وإن بدَوْا في غَطْرسةٍ واستكبارٍ.

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (سوم).
(2) الشّوكاني، فتح القدير: 296/2.
(3) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 414/4.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغة العطف للآية على ما تقدّمها:

عطفُ القِصَّةِ على القصَّةِ من شأنه أن يَجمع أطرافَ الخبر من كافّة نواحيه

قوله: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ﴾ عطفٌ على جملَة: ﴿وَسْـَٔلْهُمْ﴾ [الأعراف: 163] متعلِّقةٌ بمحذوفٍ تقديرُه: اذْكُر، أي: اذكر أيَّها النَّبي ذلك الوقتَ حين تَأَذَّنَ ربُّك لَيبعثنَّ عليهم[1]، وهي من عطف القِصّةِ على القصّةِ؛ لأنّها تتناول مشاهدَ متنوّعةً من هذه القصة، فالحديثُ فيها عن اليهود المقصودين بقوله تعالى: ﴿وَسْـَٔلْهُمْ﴾، وهم المعاصِرون للنبيِّ ﷺ، فهذه العقوبة المقرَّرةُ هنا ليست حِكْرًا على أصحاب القرية المذكورين، بل هي لأحفادِهم ممَّن اقتفَوْا آثارهم بنقض العهود والتّمرُّد على الشرائع.

نكتة تَكْرارِ مجيء (إذ) ودلالتها:

كثرةُ (إذ) في القِصص القرآنيِّ؛ لأنَّ أغلبَ ما يأتي بعدها مشاهِدُ حَيَّةٌ يُراد للسامع استحضارُها

إذ: اسمٌ أو ظرفٌ للزَّمان للماضي، وتعرب على أنّها مفعولٌ فيه مبني على السُّكون في محل نصبٍ، أو مفعولٌ به لفعلٍ محذوفٍ تقديرُه: اذكُرْ، ويشير ابنُ هشام إلى استعمالاتها بأنَّها قد تأتي ظرفًا وهو الغالب، نحو: ﴿فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ [التوبة: 40]، قال: "والغالبُ على المذكور في أوائل القِصص في التَّنزيل أن تكون مفعولاً به بتقدير: اذكر"[2].

ويرى ابن قيِّم الجَوزيَّةِ أنَّ هذه طريقة بديعة عجيبة في القرآن هي من باب "الاكتفاء عن غير الأهمِّ بذكر الأهمِّ لدلالته عليه، فأحدهما مذكور صريحًا والآخر ضمنًا، ولذلك أمثلة في القرآن يُحذف منها الشَّيءُ للعلم بموضعه، فمنها قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا﴾ [البقرة: 34] ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم﴾ [البقرة: 49] ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا﴾ [البقرة: 50] ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا﴾ [البقرة: 125]، وهو كثير جدًّا بواو العطف من غير ذكر

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 154/9.
(2) ابن هشام، مغني اللّبيب، ص: 94.

عامل يعمل في "إذ"؛ لأنَّ الكلام في سياق تَعْداد النِّعم وتَكرار الأقاصيص، فيشير بالواو العاطفة إليها، كأنَّها مذكورة في اللفظ لعِلْمِ المخاطَب بالمراد"[1].

ويَكْثُر ورودُها في القِصص القرآنيّ لأنّ أغلب ما يأتي بعدها هو مشاهدُ قصصيّةٌ يُراد للسَّامع أن يستحضرَها مشاهدَ حيَّةً تجري أمامه، لذلك توالت هنا عدّة مرّات في سياق تذكير بني إسرائيل بصنائعِ أجدادِهم السَّابقين، وتاريخِهم الطَّويل في التمرّد والعصيان. وفائدتُها ظاهرةٌ في تصوير المشاهد الفنّيَّةِ على أنّها مشاهدُ حيَّةٌ يراها القارئُ أمامه من خلال هذه الحروف والألفاظ الّتي أَخذتْ على عاتقها تصويرَ هذه المشاهد.

بلاغة التَّعبير بـ﴿تَأَذَّنَ﴾:

يرى ابنُ عطية: بِنية ﴿تَأَذَّنَ﴾ هي التي تقتضي التكسّب، من (أَذِنَ) أي: عَلِمَ، وآذَنَ أي: أَعْلَمَ، إلّا أنّ (تَعلَّمَ) وما جرى مجرى هذا الفعل إذا كان مسنَدًا إلى اسم اللّه ﷻ لم يَلحقْه معنى التكسُّبِ الذي يلحق المُحدَثين، فإنّما يترتّب بمعنى (عَلِمَ) صفة لا بتكسّب، بل هي قائمة بالذّات، فمعنى هذه الآية: وإذ أعلَمَ اللّهُ ليبعثنَّ عليهم، وتقتضي قوّةُ الكلام أنّ ذلك العِلْمَ منه مقترنٌ بإنفاذٍ وإمضاءٍ، كما تقولُ في أمرٍ قد عزمتَ عليه غايةَ العزمِ: عَلِمَ اللّهُ لأَفعلَنَّ كذا[2].

تدلّ مادّة (تَأَذَّنَ) وبِنيتُها على أنّ اللّه تعالى أعلَمَهُم بهذا الوعيد وحذَّرهم منه، وهو متضمِّنٌ معنى القَسَمِ

وفي هذا الفعل معنى القَسَمِ: كعَلِمَ اللّهُ، وشَهِدَ اللّهُ، ولذلك أُجيب بما يُجاب به القَسَمُ حيث قال: ﴿لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ﴾، أي: (ليُرسِلَنَّ عليهم ويُسَلِّطَنَّ)، كقوله: ﴿بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ [الإسراء: 5][3].

(1) ابن القيم، بدائع الفوائد: 360/1.
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز، ص: 756.
(3) الشّوكانيّ، فتح القدير: 296/2.

بلاغةُ الالتفات في قوله: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ﴾:

إخبارُ النّبيّ ﷺ عمّا جرى مع عصاة بني إسرائيل بضمائر الغَيْبة تهوينًا وتحقيرًا لهم

في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ﴾ التفاتٌ من ضمير التكلُّم في ﴿قُلْنَا لَهُمْ﴾ إلى الغَيْبةِ، وغرضُ الالتفات العامّ هو تلوينُ الخطابِ وجذْبُ الاهتمامِ، ويختصّ بكلّ موضعٍ بِنكاتٍ بيانيّةٍ دقيقةٍ، ولعلّ النُّكتةَ فيه هنا النّعيُ عليهم بالإعراض عن مخاطبتِهم مباشرةً إلى الإخبار عنهم إخبارًا، على أنّ الأمر بدهيٌّ ومُسلَّمٌ وقد تقرّر وانقضى في علم الله ﷻ، وأنّه ممّا لاجِدالَ فيه.

نُكْتَة مجيء وصف الرُّبوبيّة وإضافته إلى ضميره ﷺ:

في ذكر الرّبوبيّة مضافة إلى ضميره ﷺ تسريةٌ وتلطيفٌ وتشريفٌ

في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ﴾ في ذِكْر وصف الرّبوبيّة تسريةٌ وتسليةٌ لقلب النّبيّ ﷺ؛ لأنّ المربّي هو الذي يعتني بمن يربّيه ولا يتركه لحظةً، وفي إضافة لفظ الربوبيّة إلى ضميره عليه الصَّلاة والسَّلام تكريمٌ وتشريف له.

بلاغةُ توالي المؤكِّداتِ في ﴿لَيَبْعَثَنَّ﴾:

تضمّن التّوكيد وعيدًا للمعتدين وطمأنةً للمؤمنين

اللّام هنا هي الواقعة في جواب القَسَم، والنّون هي نون التّوكيد الثَّقيلة؛ وذلك لأنَّ التَّأَذُّنَ في قوله: ﴿تَأَذَّنَ رَبُّكَ﴾ تضمّن معنى القَسَم[1]؛ لأنّه من شأن هذه المؤكِّداتِ أن تَفُتَّ من عَضُدِ اليهود وأن تزيدَ من ترهيبِهم وزَجْرِهم عن معاصيهم الكبيرة من ناحية. ومن شأنها كذلك أن تَرفعَ من يقين المؤمنين وتزيدَ من استبشارهم بنصر الله.

معنى البعث وغرض تعديته بـ(على):

معنى البعث أقوى في الدَّلالةِ، وتضمَّن معانيَ التقييض والإلهام والتّسليط

البعث هو إثارةُ الشيء وتوجيهُه[2]، وهو هنا مجازٌ في التَّقييض والإلهام، وهو يُؤذِنُ بأنَّ ذلك في أوقات مختلفة، وليس ذلك يومًا فيومًا؛ ولذلك اختِير فعلُ ﴿لَيَبْعَثَنَّ﴾ دون نحو: لَيُلزِمنَّهم، وضُمِّن

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 34/8.
(2) الرّاغب، المفردات: (بعث).

معنى التَّسليط فَعُدِّيَ بـ (على) كقوله: ﴿بَعَثۡنَا عَلَيۡكُمۡ عِبَادٗا لَّنَآ﴾ [الإسراء: 5]، وقوله: ﴿فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلطُّوفَانَ﴾ [الأعراف: 133][1]، وفي التّضمين بلاغةٌ لا تجدُها في غيرها، حيث يقتضي التّضمينُ قوّةَ الفعلَيْن معًا، فكأنّه يقول: أَرسَلْنا مُسلِّطينَ عليهم مَن يَسومُهُم سوءَ العذاب.

ودلالةُ الفعل ﴿لَيَبۡعَثَنَّ﴾ على معنى الإثارة والتوجيه أقوى من مجرَّدِ الإرسال، فلذلك عَدَلَ عن التَّعبير بـ (ليُرسِلَنَّ)؛ لما تضمَّنَه البعثُ من معانٍ ليست في الثَّاني، فاللّه تعالى يُخبِر بأنَّه سَيَبعثُ على بني إسرائيل مَن يعذِّبُهم ويُؤذِيهم مدَّةَ بقائهم في هذه الحياة الدنيا. وأنَّ هؤلاء الذين سيقومون بإهانتِهم وإذلالهم ليسوا موجودين في الأصل، بل سيَخلُقُهم اللّه ويحييهم لهذا الغرض في كلِّ موقف وحادثة تَسْتَدعي تعذيبَهم. وهذا يزيد في رُعْبِ اليهود وإغاظتِهم، ويُظهِر قدرةَ اللّه وحكمتَه في تدبير أمور خلْقِه.

فائدة مجيء القيد ﴿إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾:

فائدة مجيء القيد بقوله: ﴿إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾؛ غايةٌ لما في القَسَم من معنى الاستقبال، وهي غاية مقصود منها جعلُ أزمنة المستقبل كلّه ظرفًا للبعث؛ لإخراج ما بعد الغاية. وهذا الاستغراق لأزمنة البعث، أي: أنَّ اللّه يُسلِّط عليهم مَن يعذِّبُهم ويؤذيهم مدَّةَ بقائهم في خلال المستقبل كلِّه، والبعث مُطلَق لا عامٌّ[2].

تسليط من يعذبهم ويؤذيهم مدة بقائهم في الدنيا غير مغيّا بوقتٍ محدّدٍ

وجهُ تقديم ﴿إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ على فعل السَّوم:

وتقديمُ شبهِ الجملةِ على فعل إذاقتِهمُ العذابَ يدلُّ على تمكُّن ظرفيَّةِ وقوعِ الخسفِ بهم على مدى الأوقات، "إلا أنهم يَرُدُّ اللّه لهم الكَرَّةَ حتى يجتمعوا ويكونوا أمةً؛ لأنهم لو بَقوا مُقَطَّعين في الأرض لن تقوم لهم قائمة - كما قال: ﴿وَقَطَّعۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أُمَمٗاۖ﴾

من عَادَةِ اللَّهِ أن يَردَّ لهمُ الكَرَّةَ ويجعلَهم أُمّةً؛ ليكونَ العذابُ واقعًا موقعه

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 155/9.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 155/9.

[الأعراف: 188] – ولم يكن العذابُ والهلاكُ، ولم يجد موقعًا يقع عليه، فصار من عادة الله أن يردَّ لهم الكَرَّةَ ويجعلَهم أمة حتى يكونوا أمة فيُسلِّطُ عليهم مَن يُعذِّبهم؛ ليكونَ العذابُ واقعًا مَوقِعَه، والله ﷻ أصدقُ من يقول"[1].

معنى ﴿مَن﴾ في ﴿مَن يَسُومُهُمْ﴾:

﴿مَن﴾ اسمٌ موصولٌ بمعنى (الذي)، وهو مفعول ﴿لَيَبْعَثَنَّ﴾، وجملة ﴿يَسُومُهُمْ﴾ صِلةُ الموصولِ لا محلَّ لها من الإعراب[2].

بلاغة التّعبير بالسَّوْمِ مادَّة وصيغةً:

تقدَّم أنّ المعنى المحوريَّ للسَّوْم هو امتدادُ بقاءٍ، أو مرورٌ وذَهابٌ في حيِّزٍ بلا حدّ[3]، يُقال سامَهُ الأمرَ، أي: كلَّفه إيّاه، وأَولاه إيّاه، أو حمَّله إيّاه. والسَّوْمُ يأتي بمعنى أن تُجشِّمَ إنسانًا مَشقَّةً، أو سوءًا، أو ظُلمًا، أي: تُحمِّلَه ذلك وهو عاجزٌ عن المخالفة. وحقيقةُ السَّوْم أنَّه تقديرُ العِوَضِ الَّذي يُستبدَلُ به الشَّيءُ[4]، ويدلُّ السَّوْمُ على طلب الشيء، ومنه السَّوْمُ في الشراء والبيع[5].

التعبير بالسَّوْمِ يُنبِئُ عن تطلُّبٍ لهؤلاء القوم وترصُّدِهم، والمضارعُ فيه استحضارُ الصورة أمام القارئ

فالتَّعبيرُ بالسَّوْم يُنبِئُ عن تطلُّبٍ لهؤلاء القوم وترصُّدِهم، وعدم خلوِّهم عمَّن يتابع تقلُّبَهم في البلدان، كما هو الحال في الأسواق المفتوحة من سَوْم السِّلع، وهو حالة من الإذلالِ والخضوعِ والانكسارِ تحت سَطْوةِ العذاب، لا يستطيع المجرمُ التحرُّرَ منها أبدًا. وأفاد التّعبيرُ بالمضارعيّة استحضارَ الصورة أمام القارئ.

بلاغة الاستعارة في التّعبير عن معاملتهم بالسَّوْم:

تشبيهُ حالهم بمن يَسومُهُم بضاعتَهم من المكرِ والخديعةِ ونقضِ العهود ليُعاوِضَهم الخِزْيَ والهوانَ

استُعملَ السَّوْمُ مجازًا في المعاملة اللّازمة بتشبيهها بالسَّوْمِ

(1) الشَّنقيطيّ، العذب النّمير: 292/4.
(2) الدّرويش، إعراب القرآن الكريم وبيانه: 69/3.
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (سوم).
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 156/9.
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سوم).

المقدَّر للشَّيء[1]، حيث شبّه القرآنُ الكريم إصابةَ العذابِ لهم وتَذوُّقَهم له بحالِ من يَسومُهُم بِضاعَتَهم ليستبدِلَها منهم بجامِع المراوحةِ والمناورةِ، على سبيل الاستعارة التَّصريحيّة التَّبعيّة.

نُكْتَةُ إضافةِ السُّوءِ إلى العذابِ:

المبالغةُ في وصفِ شدّة العذابِ الواقعِ عليهم

أضافَ السوءَ إلى العذابِ في قوله: ﴿سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِۖ﴾؛ لأنَّ العذابَ كلَّه سوءٌ، فَسُوؤُهُ الأشدُّ فيه[2]، وأصلُها العذابُ السُّوءُ، فتقدَّمَتْ فيه الصِّفةُ على موصوفِها وأُضِيفَتْ إليه مبالغةً في وصفِ شدّة العذاب؛ فَسوؤُهُ ثابتٌ مقرَّرٌ حتّى بات مضافًا إليه.

معنى اللّام في ﴿ٱلۡعَذَابِۖ﴾:

(أل) هنا جِنسيَّةٌ استغراقيّةٌ؛ لتشملَ كلَّ أنواع العذاب المادّيّ والمعنويّ الذي يوقِع النِّكايةَ في اليهود.

الموقع البيانيّ لعبارة التذييل:

الجملة التَّعليليّة وقعت جوابًا عن سؤالٍ مقدَّرٍ

فُصِلَ قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلۡعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ عمّا سبقه ولم يُعطَفْ عليه؛ إمّا لكمالِ اتّصاله؛ لأنّه مؤكِّد لمضمون ما سبقه مِن بعثِ مَن يتسلَّطُ عليهم بسوءِ العذابِ، وإمّا أن يكون استئنافًا بيانيًّا عن سؤالٍ مقدَّرٍ، وكأنَّ سائلًا قال: (لمَ يُفعل هذا بهم؟)، فجاءت الجملةُ تعليليّةً جوابًا عن سؤالٍ تقدَّمَها - ولو تقديرًا - وهو الأقرب.

غرضُ تتابُعِ المؤكِّداتِ في فاصلةِ الآية:

تتابعتِ المؤكِّداتُ في الفاصلة الكريمة لتُقرِّرَ مضامينَ الوعد والوعيد، فأمّا مجيءُ هذه المؤكِّدات من: إنّ، والجمل الاسميّة، واللّام المزحْلَقة، مع المعتدين العصاة - فظاهرٌ بيِّنٌ؛ لأنّ المؤكِّداتِ تتبايَنُ كثرةً وقِلَّةً بحسب أحوالٍ تقتضيها. وهؤلاء المعتدون

تتابعتِ المؤكِّداتُ في بابَي الوعْدِ والوعيدِ لِتَطْمينِهم ودعوتِهم لإعلانِ التوبةِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 155/9 - 156.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 156/9.

يحتاجون لهذه المؤكِّداتِ لإزالةِ شكوكِهم وطُعونِهم، وظَنِّهم بأنّ عذابَ الله لن يُصيبَهم.

أمّا توالي هذه المؤكِّدات في صِفَتَي المغفرة والرّحمة؛ فإنّما جاءت تطميعًا لهم، وتأليفًا لقلوبهم، ودفعًا لهم لإعلان التّوبة من معاصيهم، والالتحاقِ بصفوف المؤمنين.

سِرُّ دخول لفظ الرَّبّ وإضافته:

في لفظ الرّبّ تسريةٌ وتسليةٌ لقلبِ الحبيب عليه الصّلاة والسّلام، وفي إضافتِها لضميرِه عليه أَزكى السلام؛ تشريفٌ ما بعده تشريف.

معنى أل في ﴿ٱلۡعِقَابِ﴾:

المناسبُ أن تكون (أل) هنا جِنسيّةً استغراقيّةً، تشملُ ألوانَ العقابِ جميعَها، عاجلَها وآجلَها، صغيرَها وكبيرَها، المادّيَّ منها والمعنويَّ.

نُكتةُ وصفِ العقاب بالسُّرعة:

شَبَّهتِ الآيةُ القدرةَ على عقابهم والتمكُّنَ منهم بالأمر السريع

الأصلُ أنَّ أمر الله نافذٌ سريعٌ لا يحتاج إلى تأويل، ورأى بعضُهم أنّ السُّرعة استُعيرت لعدم التَّردد ولتمام المقدرة على العِقاب، بجامعِ عدمِ التأخُّرِ، وقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلۡعِقَابِ﴾ أي لهم، والسرعة تقتضي التحقّق، أي إنَّ عقابَه واقعٌ وغيرُ متأخِّرٍ؛ لأنَّ التأخُّرَ تقليلٌ في التحقّق، إذ التأخُّرُ استمرارُ العدم مدّة ما[1].

غرضُ تقديمِ الوعيد على الوعد:

اقتضى السّياقُ العامُّ والخاصُّ تقديمَ الوعيد على الوعد

تقدَّم في الآية قوله: ﴿لَيَبۡعَثَنَّ عَلَيۡهِمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَن يَسُومُهُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِۗ﴾ فاقتضى هذا أن يتقدَّم الوعيد على الوعد في فاصلة الآية؛ ليحصل التَّطابق والموافقة في الجنس الواحد، ولإشعار اليهود بأنَّهم مقصودون بالتَّهديد والوعيد على تَكَرُّرِ شَناعةِ ما صنعوه،

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 156/9.

وعلى سوء فِعالهم السابقةِ، فضلًا عن أنَّ الآيات سِيقتْ في بيان حالِ الفئةِ التي اعْتَدتْ من بني إسرائيل، وتجاوزتْ حُرْمةَ الصّيد في يوم السّبت.

نكتة الإضمار بعد الإظهار في ﴿وَإِنَّهُۥ﴾:

الإضمارُ للفظ الربوبيّة هنا من باب الإيجاز لتقدُّم ذِكْرِها في الوعيد، والتّقدير: (وإنّ ربّك لغفورٌ رحيمٌ). ومن العادات المعروفة في القرآن أنّه حيث أمكن الإيجازُ دون إخلالٍ بالمعنى عُمِدَ إليه، فيختار القرآنُ أسلوب الإضمارِ بعد الإظهارِ لِتَقدُّمِ العلم به، إلّا إذا دَعَتْ حاجةٌ للإظهار في موضع الإضمار.

الإيجازُ من العادات المعروفة في القرآن، والإضمار هنا بعد الإظهار لتقدُّم العلم به

غرضُ تتابُعِ وصفَيْن في سياق الوعد إزاءَ وصفٍ واحدٍ في سياق الوعيد:

من لطائفِ النَّظمِ العزيزِ الاقتصارُ في سياق الوعيد ﴿لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ﴾ على صفة واحدة هي سرعةُ العقاب، بينما في سياق الوعد ذَكَر صفتين اثنتيْن هما المغفرةُ والرحمةُ في: ﴿لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾؛ لترغيبِ العصاة من اليهود وغيرِهم في التَّوبة، وحَثِّهم عليها لِيُبادِروا إليها حتّى لو عَظُمتْ ذنوبُهم، ثمّ حتّى تحصل الطمأنينة في النّفوس بعد تقديم ذِكْر سرعةِ العقاب على المغفرة والرّحمة.

أكَّدَتِ الآيةُ الكريمةُ سَعةَ رحمةِ اللهِ تعالى التي سَبقت عذابَهُ بذِكْرِ صفتَيْن عظيمتَيْن دالَّتَيْنِ عليها

دلالةُ المبالغة في ذِكْرِ صفاتِ الله سبحانه:

اقتَضَى مقامُ الوعد والوعيد في هذه الآية الكريمة ذِكْرَ هذه الصفاتِ الواردةِ فيها (سريع، غفور، رحيم)، بصيغِ المبالغة على وَزْنَي (فَعِيلٍ) و(فَعُولٍ)؛ لتستقرَّ معاني هذه الصفات في النّفوس ويتحقّق أثرُها فيها.

ترسُّخُ الآثارِ الجليلة لأسماء الله الحسنى في النّفوس

بلاغةُ الإيجازِ بالحذفِ:

أفاد الإيجازُ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ إلى انقسامَ أحوال النّاس إلى فِرقٍ مختلفةٍ: فريق العصاة، وهؤلاء استحقّوا سرعة العقاب، وتعجيلَ جزائهم لهوانهم على اللّه.

وفريق المؤمنين الذين امتثلوا لأوامر الله، ولكنْ قد تَزِلُّ أقدامهم. وفريق العصاة التائبين من عصيانهم، فهذان الفريقان الأخيران استحقّا صفتَي المغفرة والرَّحمة؛ لكرم الله وجميل سَتْره وتجاوزه، فكلُّ هذه التّفصيلات قد طُوِيَتْ في الآية الكريمة لوجود ما يدلّ عليها.

أشارت الألفاظُ المذكورة في الآية إلى تفصيلاتٍ استُغني عن ذِكْرِها بوجود ما يدلّ عليها

بلاغة المحسِّنات البَديعيَّة في الآية:

في فاصلة الآية طِباقُ إيجابٍ من خلال ذكر أسماء الله الحسنى في الوعد والوعيد، وهناك مقابلات بين أساليب التّوكيد بينها، وكذلك في تنكيرها.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الإرسال والبعث:

ذكر د.محمد الهلال في تفسيره بعضَ الفروق بين هاتيْن اللّفظتيْن فقال: الإرسال؛ **أولًا**: يكون بإرسال شيء جديد؛ أي: برسالة جديدة، أو منهج جديد، أو تغيير، أو تعديل في المنهج السابق، حسب الزمان والمكان. **ثانيًا**: الإرسال: لا يصاحبه إثارةٌ ولا تهييجٌ، ولا حثٌّ كما في البعث. ثالثًا: الإرسال: من مكان إلى مكان، أو إلى مكان جديد. رابعًا: الإرسال: هو أقل شدةً، وقوةً، ومَشقَّةً مقارنة بالبعث.

البعثُ فيه إثارة وجَلَبةٌ، وتَخالَطَتْه الشدَّةُ والقوّةُ بخلاف الإرسال

أمّا البعث؛ أولًا: البعثُ: هو إحياءُ منهجٍ كان موجوداً سابقاً، وغفَل عنه النّاس، فإذا أراد الله ﷻ إحياء المنهج نفسه، الذي غَفَل عنه النّاس، بعث الله رسولاً، أو نبيًّا، لإحياء معالم ذلك المنهج السابق، الذي اندثر؛ أي باختصار: بعثُ شيءٍ قديم، وليس هناك من جديد. ثانيًا: البعث: يصاحبه إثارةٌ، وحَضٌّ، وتهييجٌ على القيام بالعمل وحَثٌّ عليه. ثالثًا: البعث: يكون إلى المكان نفسه، أو القرية، أو المدينة. رابعًا: البعث: إرسال، وفيه شدة، ومشقة، وقوة، وعمل؛ أشد من الإرسال[1].

(1) محمد الهلال، تفسير القرآن الثّري الجامع: 126/1.

من هنا يتبيّن أنّ مجيء كلمة ﴿لَيَبْعَثَنَّ﴾ هي الأليق في المقام الذي جاءت فيه؛ لما يُصاحِبُ البعثَ من إثارةٍ وجَلَبةٍ، ولمخالطَتِه الشدّة والقوّة، ولأنّه سيكون لنفس المُرسَل إليهم، وفي ذات أماكنهم.

﴿وَقَطَّعْنَٰهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ أُمَمًا ۖ مِّنْهُمُ ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ١٦٨﴾ [الأعراف: 168]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

كتابةُ اللهِ على المعاندين من بني إسرائيل الذِّلَّةَ والتَّفَرُّقَ

عطفُ قِصَّةٍ على قصّةٍ، وهو عَوْدٌ إلى قِصص الإخبار عن أحوالهم، فيجوزُ أن يكون الكلام هنا يتحدَّثُ عن تفرُّقِهم بعد اجتماعِهم على أنّه من النِّعم، كما تَقطَّعوا اثنتي عشرة أسباطًا أُممًا. ويمكن أن يكون معطوفًا على العقوبات السَّابقة فيكون التّفرُّقُ هنا مذمومًا[1]، كأنَّه قيل: وَقَطَّعْناهُمْ أي: بسبَبِ ما حصل لهم مِن السَّبي المترتِّبِ على العذابِ تقطيعًا كثيرًا، بأنْ أكثَرْنا تَفريقَهم[2]. والظاهرُ أنّ المعنى الثاني هو المرادُ هنا.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَقَطَّعْنَٰهُمْ﴾: أَصْلُ القَطْعِ: فَصْلٌ وإبانَةُ الشَّيءِ عن شَيْءٍ آخَرَ، يُقالُ: قَطَعْتُ الشَّيْءَ أَقْطَعُهُ قَطْعًا وَقَطيعَةً، أَي: فَصَلْتُهُ، وضِدُّهُ الوَصْلُ، والقِطْعَةُ: الحِصَّةُ المَفْصولَةُ مِنْ شَيْءٍ. وَيَأْتي القَطْعُ بِمَعْنَى: الهَجْرِ والتَّفْريقِ، والتَّقاطُعُ: التَّهاجُرُ، وَمِنْ مَعاني القَطْعِ أَيْضًا: البَتُّ والقَصُّ والعُبورُ[3]. والمعنى هنا: وفرَّقنا بني إسرائيل.

2) ﴿أُمَمًا﴾: الأُمَّةُ: كُلُّ جَماعَةٍ يَجمَعُهُم أَمرٌ ما، وقيل: جَماعَةٌ مِن النّاسِ أُرْسِلَ إِلَيْهِم رَسولٌ، سواءٌ آمَنوا أو كَفَروا. وتُطلَقُ الأُمَّةُ على كُلِّ مَن كان على دينٍ حقٍّ مُخالِفٍ لِسائِرِ الأديانِ فهو أُمَّة، وعلى عالِمِ دَهْرِهِ المُنفَرِدِ بِعِلمِهِ. ومِن مَعانيها: الشِّرْعَةُ والدِّينُ، يُقالُ: فُلانٌ لا

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 157/9.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 145/8.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (قطع).

أُمَّةَ له، أيْ: لا دينَ لَهُ، وكذلك البرهةُ من الزَّمن، ويُقال لِكُلِّ جيلٍ مِنَ النّاسِ والحَيوانِ: أُمَّةٌ. والجَمعُ: أُمَمٌ[1].

والمعنى في الآية: جماعاتٍ متفرقةً.

3) ﴿وَبَلَوْنَٰهُم﴾: يُقال: بَلِيَ الثَّوبُ بِلًى وبَلاءً، أي: خَلِقَ، وبَلَوْتُهُ: اختبرتُه كأنِّي أَخْلَقْتُه من كثرةِ اختباري له، وسُمِّيَ الغمُّ بلاءً من حيث إنه يُبلي الجسمَ، ويكون البلاءُ في الخير والشَّر. واللّه تعالى يُبلي العبدَ بلاءً حسنًا وبلاءً سيّئًا، وهو يرجع إلى هذا؛ لأنَّ بذلك يُخْتَبَر في صبرِه وشكرِه[2].

❁ المَعْنى الإِجْمالِيُّ:

إجـــراءُ اللـه العادةَ بتفريقِه اليهودَ في أقطار الدنيا لحكمةٍ يَعلمُها

يُخبِرُ اللّه تعالى بأنَّ هؤلاء اليهودَ قد مَزَّقهم في الأرض شرَّ مُمزَّقٍ؛ بسبب عصيانِهم وفُسوقِهم، وصيَّرَهُم فِرَقًا متقطِّعةَ الأوصالِ، مشتَّتةَ الأهواءِ، بعد أن كانوا مجتمعينَ. ومن هؤلاء اليهود قِلّةٌ آمنت باللّه وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وهم الصالحون القائمون بحقوق اللّه وحقوق عباده، فَصَلُحَ حالُها، وحَسُنَتْ عاقبتُها، ومنهم كثرةٌ منحطَّةٌ عن رتبة أولئك المؤمنين الصالحين، منهم المقتصِدون، ومنهم المسرِفون على أنفسهم بالمعاصي، وعاملناهم معاملة المبتَلَى الممتَحَنِ تارةً بالنِّعم الكثيرة كالصّحة والخِصْب وسَعةِ الأرزاقِ، وتارةً بالنِّقَمِ المتنوِّعةِ كالجَدْبِ والأمراضِ والشَّدائدِ؛ رجاءَ أن يَرجِعوا فَيُنيبوا عند أحدِ الابتلاءَيْنِ عمَّا هم فيه إلى طاعة ربهم، ويَتركوا ما نُهوا عنه من المعاصي والسيئات[3].

وتُرشِد الآيةُ إلى أنَّ أنواعَ العقوباتِ التي نزلتْ باليهود في مختلِف العصور والأمم، هو أنَّ اليهود هم المسؤولون عن كلِّ اضطهادٍ وقع

(1) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن سيده، المحكم، وابن الأثير، النّهاية: (أمم).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (بلوي، بلى).
(3) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 414/5 - 415.

بهم، وأنهم مُستَحِقُّونَ لهذه العقوباتِ: بسبب أنانيَّتِهم وأطماعِهم التي لا حدودَ لها، وبسببِ غرورِهم وتعاليهِم، فاليهود يَعتبرون أنفسَهم أبناءَ اللّه وأحِبّاءَهُ، وشعبَه المختارَ. ومن قديمِ الزمن وهم يَقسِمونَ العالمَ إلى قسمَيْنِ متقابلَيْنِ: قسمُ إسرائيلَ وهم صفوةُ الخلق وأصحابُ الحَظْوة عند اللّه، وقسمٌ آخر يسمونه الأمم (الجوييم)، أي: غير اليهود، ومعنى (جوييم) عندهم، وَثَنيُّونَ وكَفَرةٌ وبهائمُ وأنجاسٌ.

وكذلك بسببِ عُزْلَتِهم وعصبيَّتِهم وخيانتِهم للبلاد التي آوَتْهُم، فهم متعصِّبون متحزِّبون، لا يَجمَعُهم حبُّ بعضِهم لبعضٍ، ولكن تجمعُهم كراهيةُ من ليس على مِلَّتِهم، كما يجمعُهم الحقدُ على العالم بأَسْره[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغة عطف الآية على ما تقدّمها:

الواو للعطف في قوله تعالى: ﴿وَقَطَّعْنَٰهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾، وهي من عطفِ القِصَّة على القِصَّة، وهو عَوْدٌ إلى قِصص الإخبار عن أحوالهم[2].

بلاغة الاستعارة في قوله ﴿وَقَطَّعْنَٰهُمْ﴾:

المُرادُ بالتَّقطيع هنا التَّفريقُ، وجاء الفعل الماضي مضعّفًا للمبالغة في شدَّة التّقطيع، وقد نقل الطبريُّ عن جماعة من المفسرين: "ما في الأرض بقعةٌ إلَّا وفيها معشر من اليهود"[3]، وهي استعارة تصريحيّة تبعيّة، شبَّه فيها تفريقَهم بالتَّقطيع بجامعِ الانفكاكِ بعد الاجتماعِ، والقَطْعُ موضوعٌ لإزالة الاتصالِ بين الأجسام التي بعضها ملتصق ببعض؛ فالجامعُ بينهما إزالةُ الاجتماعِ التي هي داخلة في مفهومها،

شبّه تفريقَهم بتقطيعِهم على سبيل الاستعارة التَّصريحيّة

(1) طنطاوي، التفسير الوسيط: 414/5 - 415.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 157/9.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 533/10.

وهي في القطْع أشد[1]. فاللّه تعالى فَرَّق بين بني إسرائيل في البلاد والأقطار، فجعل منهم أُمَمًا متفرِّقةً في مواطنها وحدودها.

بلاغةُ الالتفات مِنَ الغَيْبة إلى التَّكَلُّم:

عَوْدُ ضَمير الفاعل في: ﴿وَقَطَّعْنَٰهُمْ﴾ على الذّاتِ العَلِيَّة، وأمّا ضميرُ المفعول فيعود على الفئة المعتديّة من بني إسرائيل. وفي صَدْر هذه الآية التفاتٌ بالضمائر من الغَيْبة إلى التكلّم: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٧﴾ وَقَطَّعْنَٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أُمَمًا ۖ﴾ [الأعراف: 167 - 168].

تعرَّض بنو إسرائيل عبر تاريخهم الطَّويل إلى نكباتٍ وويلاتٍ وأَسْرٍ وقَتْلٍ بسبب عصيانهم وجحودهم

وغرضُ هذا الالتفات هنا إظهارُ أنَّ هذه العقوبةَ من الشدّة بمكان، بحيث استَحقَّتْ أَنْ تُسنَد إلى الذّات العليَّةِ مباشرةً بضميرِ التكلُّم، وذلك لأنّها تركتْ آثارًا ملموسةً في حياة بني إسرائيل، سجّلها التاريخ وحَفِظها لهم، فقد أدّى هذا التفرُّقُ لهم أن سَلَّط اللّه عليهم مَن مَزَّق ممالَكهم، ودَمَّر حُكْمَهم وسَباهم لقرونٍ طويلة.

معنى ﴿فِى﴾ في قوله ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾:

(في) ظرفيّة مجازيّة، شبَّهتْ قوّةَ ملابسةِ التّقطيع إيّاهم على الأرض بإحاطتها فيهم إحاطةَ الظّرف بالمظروف.

معنى (أل) في ﴿ٱلْأَرْضِ﴾:

يَحتمل أن يكون التّعريف للعهد أو الجنس

اللّام في ﴿ٱلْأَرْضِ﴾ يمكن أن تكون لامَ العهد، أي: الأرض المباركة التي أقاموا فيها، ويمكن أن تكون لامَ الجنس، والمراد من الأرض الجنس، أي: في أقطار الأرض[2]. على اعتبار كثرة ما أصابهم من تقطيعٍ في أقطار الأرض المختلفة، وهو الأظهرُ وعليه جماهير المفسِّرين؛ إذ إنَّ اليهودَ مُبَدَّدون في شرق الأرض وغربها وجنوبها وشمالها.

(1) الصعيدي، بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح: 493/3.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 157/9.

فائدةُ ذِكْرِ شبهِ الجملة الظرفيّة وتقديمها على المفعول:

ذِكْرُ ظرفيّة الأرض مُشعِرٌ بشدّة تفرُّقهم فيها، ومُشعِرٌ بانقلابها إلى نِقْمةٍ عليهم

معلومٌ أنَّ هذا التّقطيعَ لهم لم يكن إلّا في الأرض، سواءٌ أكانت أرضًا محدَّدة أم في سائرِ أنحاء الأرض، ولكنْ في ذِكْر هذا القيد ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ وفي تقديمه على المفعول الثاني ﴿أُمَمٗا﴾ لـ﴿وَقَطَّعۡنَٰهُمۡ﴾ على اعتبار أنّها مضمَّنةٌ معنى (صيَّرناهُم)، أو على كونها ﴿أُمَمٗا﴾ حال[1]، ما يُشعر بشدّة هذا التّقطيع، وبأنّه ملموسٌ مشاهَدٌ لا تزال آثارُه في هذه الأرض، وبأنّهم بَدَلًا من أن تكون هذه الأرض محلَّ عمارةٍ لهم، وموضعَ تسخيرٍ لهم، صارت محلَّ تفريقٍ وتمزيقٍ وذهابٍ لبأسهم عليها.

نكتةُ تنكيرِ ﴿أُمَمٗا﴾:

تنكيرُها قد يفيد التّكثيرَ أو التّعظيمَ لكثرتها وقوّتها، ويمكن من بابٍ آخر أن يفيد التّحقيرَ لهم لشدّة ضَعْفِهم بعد تَمزُّقِهم، وهو الأظهرُ.

الموقع البيانيُّ والنَّحويُّ لقوله: ﴿مِّنۡهُمُ ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنۡهُمۡ دُونَ ذَٰلِكَۖ﴾:

الجملةُ مُستأنَفةٌ من مبتدأٍ وخبرٍ، ولم تُعطف على قوله ﴿أُمَمٗا﴾ لكمال اتّصالها بها، أو لشبْهِ كمالِ هذا الاتّصال؛ فقولُه تعالى: ﴿مِّنۡهُمُ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ صفةٌ أو بدلٌ من ﴿أُمَمٗا﴾، ومعروفٌ ومقرّرٌ أنّه لا عاطَف بين التّابع والمتبوع. وإمّا أن يكون سببُ فَصْلِها أنّها جاءت جوابًا عن سؤالٍ مقدَّرٍ: كيف كان حالُ هذه الأمم؟ فجاء الجوابُ أنّهم الصالحون الذين آمنوا بالمدينة ونظراؤهم، على قولٍ. ﴿وَمِنۡهُمۡ دُونَ ذَٰلِكَۖ﴾ أي: مُنحَطُّون عن الصَّلاح، وهم كَفَرتُهم وفَسَقَتُهم، أي: ومنهم قومٌ دون أهل الصَّلاح.

الجملة لم تُعطف على سابقتِها لكمالِ اتّصالها بها أو لكونها استئنافًا بيانيًّا

وهذه الجملةُ الكريمةُ تدلُّ على أنَّ القرآن الكريم يستعملُ

(1) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 40/3.

الإنصافَ والعدالةَ وتقريرَ الحقائق مع أعدائه وأتباعه على السَّواء، فهو يمدحُ مَن يستحقُّ المديحَ، ويَذمُّ مَن هو أهل الذَّمِّ، وما أحوجَ النّاسَ في كلِّ زمان ومكان إلى التَّخلُّقِ بهذه الأخلاق[1].

معنى (من) في: ﴿مِّنۡهُمۡ﴾:

تأتي (من) لمعانٍ جليلة تتعلّق بأحوال أصحابها

(من) إمّا أن تكون هنا بيانيَّةً؛ لأنّها توضّح وتبيِّنُ حالَ ما تقدَّمها، أو ابتدائيّةً، أو تبعيضيّةً؛ لأنّها تبيّن أحوالَهم على التفصيل.

غرضُ تقديم شبه الجملة: ﴿مِّنۡهُمۡ﴾:

تشوَّقتِ النّفوسُ بعد أشباهِ هذه الجُملِ المسنَدَة إلى معرفة المسنَدِ إليه

الغرضُ من تقديم قوله: ﴿مِّنۡهُمۡ﴾ في الموضعيْن؛ التشويقُ للمسنَدِ إليه الذي يأتي بعدهما في تسمية أهلِ الصلاح منهم، أو المسرِفين على أنفسهم بالمعاصي والسيئات.

معنى (ال) في ﴿ٱلصَّٰلِحُونَ﴾:

يَحتمِلُ التّعريفُ العهدَ والجنسَ

(أل) هنا جِنسيَّةٌ تستغرِقُ كلّ مِن اتّصف بالصلاح واستَحقَّ أن يكون اسمًا له، ويمكن أن تكون عهديّةً والمُراد به من تَمسّكَ بشريعة نبيّهم موسى عليه السلام ومن جاء بعده من أنبيائهم.

سرّ المقابلة بين ﴿ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ و﴿دُونَ ذَٰلِكَۖ﴾:

قسَّمتِ الآيةُ أحوالَهم من حيث العلْويَّةُ أوِ الدُّونيَّةُ

قابَلَ القرآنُ بين الصّالحين وبين غيرِهم بوَسْم غيرِهم بالدّونيَّةِ، دون أن يقول: الفاسدون أو المُسيؤونَ أو غير ذلك؛ للإشارة إلى أنَّ الصّالحين هم أصحابُ المنزلة العليا، وأنَّ غيرَ الصّالحين في المنزلة الدُّنيا، مهما كانت أحوالُهم في أسباب المادّة والقوّة، فَهُمْ في مرتبة الدونيَّةِ في مقابل المرتبة العلويّة.

دلالة تقديم ﴿ٱلصَّٰلِحُونَ﴾:

الثّناءُ على الصّالحين من بني إسرائيل وإنصافُهم

تقدَّم ذِكْرُ ﴿ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ في الآية من باب تحفيزِهم على العمل الصّالح، وللإشارة إلى إنصافِهم بتقديم ذكْرِ أصحاب الفضل

(1) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 415/5.

والمنزلة؛ بكونهم أهلَ الصلاح فيهم ممّن تمسَّك بشريعة موسى والمصدِّقين للأنبياء المبعوثين من بعده، وليتَّفِقَ كذلك مع تقديم البلاء بالحسنات على البلاء بالسّيئات.

الموقع النحويُّ لقوله: ﴿دُونَ ذَٰلِكَۖ﴾:

انتصب ﴿دُونَ ذَٰلِكَۖ﴾ على الظَّرفية؛ وصفًا لمحذوفٍ دلَّ عليه قوله: ﴿وَمِنۡهُمُ﴾ أي: (ومنهم فريقٌ منحطٌّ عن الصالحين)[1].

نُكْتَة التّعبير باسم الإشارة للبعيد ﴿ذَٰلِكَۖ﴾:

المشارُ إليه هنا هم الصالحون، والمعنى: ومنهم فريقٌ دون الصّالحين، فأفاد اسمُ الإشارة المستعمَلُ للبعيد تنزيلَ البُعْدِ المعنويِّ في الدّرجة منزلةَ البُعدِ الحسّيِّ؛ لتفخيمِ شأن الصّالحين ورفْعِ منزلتِهم عن غيرهم.

الإشارة للصّالحين باسم الإشارة للبعيد يأتي لعلوِّ منزلتهم عن غيرهم

معنى الواو في ﴿وَبَلَوۡنَٰهُم﴾ ودلالتها:

الواو عاطفةٌ، عَطَفتْ قولَه: ﴿وَبَلَوۡنَٰهُم﴾ على ﴿وَقَطَّعۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾، ويفيد هذا العطفُ اشتراكَ العاطفِ والمعطوفِ في كونِهما من النِّعَم أو النِّقم لبني إسرائيل، وذلك بحسب مفهومِ التّقطيعِ لهم، وعلى كلِّ الأحوال فهو عطفُ حالةٍ على حالة أخرى من أحوالهم. ويصبح المعنى: أي عاملناهم معاملَةَ المبتَلَى الممتحَن تارةً بالنِّعم الكثيرة كالصحة والخِصْب وسَعة الأرزاق، وتارةً بالنِّقَم المتنوعة كالجَدْبِ والأمراض والشدائد؛ لعلَّهم يَرجِعون إلى طاعة ربهم، ويَتركون ما نُهوا عنه من المعاصي والسيئات[2].

صوَّرَتِ الآيةُ أحوالَ بني إسرائيل المختلفةَ

معنى الباء في ﴿بِٱلۡحَسَنَٰتِ﴾:

الباءُ للسَّببيَّة؛ فقد تحقَّقَ البلاءُ فيهم، وظَهَرتْ مختلِفُ أحوالِهم بسبب الحسنات والسّيئات[3].

(1) الدّرويش، إعراب القرآن الكريم وبيانه: 70/3.
(2) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 414/5.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 158/9.

معنى (ال) في: ﴿بِٱلۡحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾:

مظاهر البلاء في الخير وفي الشرّ كثيرة لا تنتهي

(أل) جنسيّةٌ استغراقيّةٌ تَعمُّ كلَّ ما يَصلح أن يكون حسنةً أو سيّئةً؛ إذ إنَّ الحسنات والسّيئات هي تفصيلٌ للبلوى التي عامَلَهُم بها، وهي غيرُ محدودةٍ بحدٍّ، فتشملُ البلاءَ بالنِّعَم التي لا تُحصى ولا تُعدّ، وتشملُ كذلك البلاءَ بالنِّقَم وهو لا نهايةَ له.

نكتةُ تقديمِ البلاءِ بالحسنات على السّيئات:

يقتضي المقامُ تقدُّمَ أحدِهما على الآخر مع مَنْعِ خلوِّ الأمرِ من أحدِهما أو كلَيْهِما

تقدَّمَ البلاءُ بالحسنات على البلاء بالسَّيِّئاتِ في هذا الموضع؛ لأنّه جاء في سياق الحديث عن النِّعَم التي أنعمَها اللّه تعالى على بني إسرائيل، وجُلُّ هذه النِّعَم كان بالحسنات، فَضْلًا عن أنّه تقدَّمها قوله ﴿مِّنۡهُمُ ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنۡهُمۡ دُونَ ذَٰلِكَۖ﴾، فتناسبا في تقديم ما تتشوَّقُ إليه النّفسُ. لكنّه في موضعٍ آخَر قدَّم البلاءَ بالشرِّ على البلاء بالخير؛ وذلك حتّى تكتملَ صورةُ البلاء في القرآن، فقد يَسبِقُ أحدُ البلاءَيْن الآخَرَ، ولكنَّ الأمرَ لا يخلو من أحدِهما، فطبيعةُ البلاءِ مانعٌ من خلوِّ أحدِهما عن الظّهور أو اجتماعهما معًا - فقال تعالى في سورة الأنبياء: ﴿كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۗ وَنَبۡلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلۡخَيۡرِ فِتۡنَةٗۖ وَإِلَيۡنَا تُرۡجَعُونَ ٣٥﴾ [الأنبياء: 35]، ولا يخفَى هنا أنّ ذِكْرَ الموتِ استَلْزَم تقديمَ الشرِّ لما جُبِلَتْ عليه أغلبُ النّفوسِ من كراهيةٍ لذِكْرِ الموتِ، ورغبةٍ في الخلود.

نكتةُ فَصْلِ ﴿لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ﴾ عن سابقتها:

استئنافٌ بيانيٌّ جوابًا عن سؤالٍ مقدَّرٍ

جملةُ: ﴿لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ﴾ جملةٌ تعليليَّةٌ وقعتِ استئنافًا بيانيًّا، جوابًا عن سؤالٍ مقدَّرٍ: لِمَ فُعِل بهم ما فُعل؟ أي: رجاء أن يتوبوا، أي: حين يذكرون مدَّة الحسنات والسَّيئات، أو حين يرون حُسْنَ حالِ الصّالحين وسوءَ حالِ مَن هم دون ذلك؛ على حسب الوجهيْن المتقدّميْن[1].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 158/9.

غرض التّعبير بالحرف الدّالّ على الرّجاء:

لا يخلو حرفُ (لعلّ) من بقاء معنى الرّجاء فيه

عبَّر القرآن بـ(لعلّ) وهي حرفٌ مشبّهٌ بالفعل مفيدٌ للتوقُّع وللتَّرجّي أو الإشفاقِ، مع أنّ الأمر المقترِن بحرف التَّرجِّي الذي يقول عنه القرآن مُحقَّقُ الوقوعِ لا يَتخلَّفُ عن مراد اللّه تعالى؛ لأنَّ (لعلَّ) من اللّه واجبٌ، وذلك لأنّ حرفَ الرجاء يحمل في طيّاتِه دعوةً لهم مشوبةً بالرّجاء أن يمتثلوا ويعودوا إلى الجادّة، فحرفُ الرّجاءِ يَجعل الأمر ظنّيًّا ويترك لهم حرّيةَ الاختيار وإطلاقَ المشيئةِ.وقد يكون (لعل) هنا مستعملٌ في التّمنّي لإبراز المتمنّى على أنّه مرجوُّ الوقوع.

غرض التّعبير بـ﴿يَرْجِعُونَ﴾:

دعـــوةَ بـني إسرائيل لمراجعةِ حالهم والتّحوّلِ عـن مسـارِهـم إلى الامتثال لأمر الله تعالى

المعنى المحوريُّ لـ(رجع) تدور حول: تحوّلٍ عن الاتّجاه أو الحال إلى عكسه - كما يتردّد الماء في الغدير؛ لأنّه محتَبِسٌ فيه لا يَسترسِلُ بعيدًا، وكما يتحوّل الماء الصافي العذب المُرْوِيُّ إلى عَرَقٍ كريهِ الريح[1]. والمرادُ هنا تحوُّلُهم عن المعاصي ونقضِ العهود إلى التّوبة والامتثال والصّلاح، والتّعبيرُ بصيغة المضارعة تُفيد تجدُّدَ هذه الدّعوة لهم عند كلّ معصية قد يُقْدِمون عليها، وفي كلّ وقتٍ يمكن أن يفتحوا فيه قلوبَهم وآذانَهم لسماعِ الحقّ.

نُكتةُ حذفِ متعلّق ﴿يَرْجِعُونَ﴾:

الحذف لتعميم ما يمكن أن يتعلّق به

لم تبيّن الآية الكريمة مُتَعَلِّقَ ﴿يَرْجِعُونَ﴾ أَهُوَ الرّجوعُ عن المعاصي عمومًا، أم الرّجوعُ عن التَّحايل في الاصطياد في يوم السّبت، أم الرّجوعُ إلى اللّه عن غيره بالتَّوبة والصَّلاح، ولا شكَّ أنّ حذف المتعلِّقِ يعمُّ ذلك كلّه، وهو الأولى.

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (رجع).

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

التَّفريق والتَّقطيع والتَّمزيق والتَّشييع:

بَيَّن صاحبُ "الفروق اللغوية" أنَّ التّفريقَ هو جعلُ الشيء مُفارِقًا لغيرِه، حتّى كأنّه جعل بينهما فَرْقًا بعد فَرْقٍ حتّى تَفارَقا[1]. وتقدَّم أنَّ التَّقطيعَ موضوعٌ لإزالة الاجتماع في الأشياء المتماسكة، الحسّيّة والمعنويّة، وإزالة الاجتماع في التَّقطيع أشدُّ وأقوى من التَّفريق. أمّا التَّمْزيقُ فهو في الأصل قَطْعُ الثّوبِ وتخريقُه[2]. أمَّا التَّشييع فهي أن يَنتسِبَ الرَّجلُ إلى جماعةٍ يميل إليها مَحبَّةً وتَعصُّبًا، وأصلُها من الشّياع وهي الحَطَبُ الدِّقاقُ الَّتي تُجعل مع الجَزْل في النّار؛ لتشتعلَ كأنَّه يجعلها تابعًا للحطب الجَزْل لتشرق[3].

لفظةُ التّقطيعِ كانتِ الأنسبَ في وصف ما جرى مع بني إسرائيل في هذا الموضع

وكلُّ مفردةٍ من هذه المفردات تأتي في موضعها الأخصِّ بها في القرآن لا تُشاركُها فيه غيرُها من الألفاظ المقارِبة، فالتَّقطيعُ تفرّقٌ مخصوصٌ يكون في الأشياء الصُّلبة، واستُعير هنا لتشبيه تفرُّقِهم به فيصعب اجتماعُهم بعدها، والتّمزيق نوعٌ مخصوصٌ من التّقطيع، وكان عقوبة لسبأ: ﴿فَقَالُواْ رَبَّنَا بَٰعِدۡ بَيۡنَ أَسۡفَارِنَا وَظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَحَادِيثَ وَمَزَّقۡنَٰهُمۡ كُلَّ مُمَزَّقٍۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٍ ١٩﴾ [سبأ: 19] فهو تقطيعٌ إلى أشلاء وخروقات صغيرة، فهو أشدّ من التّقطيع، ولذا ناسَبَ وَصْفُ بني إسرائيل هنا بلفظة التّقطيع دون غيرها لاحتمال أن يكون هذا التّقطيع إلى أسباطٍ نعمةً أخرى مضافةً إلى نِعَمِهم السابقةِ.

الابتلاء والاختبار والفتنة:

الابـــتـــلاء هـو الأنسبُ في المقام هنا؛ لأنّه أعمُّ في الدّلالة وكائنٌ في الخير وفي الشرّ

تقدَّمَ سابقًا معنى الابتلاء، وأمّا الفتنةُ فأصلُها من إدخال الذّهب بالنّار لتظهرَ جودتُه من رداءتِه، وجُعلتِ الفتنةُ كالبلاء في

(1) العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 170.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (مزق).
(3) العسكريّ، معجم الفروق اللّغوية، ص: 312.

أنّهما يُستعملان فيما يُدفع إليه الإنسان من شدّةٍ ورخاء[1]. قال أبو هلال العسكريُّ في التفريق بين الفتنة والاختبار، هو: "أنَّ الفتنة أشدُّ الاختبار وأبلغُه، وأصله عَرْضُ الذَّهب على النّار لتبيِّن صلاحَه من فسادِه، ومنه قوله تعالى: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ ﴿١٣﴾﴾ [الذاريات: 13]. ويكون في الخير والشّرّ، ألا تسمع قوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [التغابن: 15]. وقال تعالى: ﴿لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ [الجن: 16 - 17]؛ فجَعَلَ النّعمةَ فتنةً لأنّه قَصَدَ بها المبالغةَ في اختبارِ المنعَم عليه بها، كالذّهب إذا أُريد المبالغةُ في تعرّف حالِهِ أُدْخِل النّار، واللّه تعالى لا يَختبر العبدَ لتغييرِ حالِهِ في الخير والشّرّ، وإنّما المراد بذلك شدّة التّكليف.

أمّا الفرقُ بين الاختبار والابتلاء: فهو أنَّ الابتلاء لا يكون إلّا بتحمُّلِ المكارهِ والمشاقِّ.

والاختبار: يكون بذلك وبفعل المحبوب، ألا ترى أنّه يُقال: اختبَرَهُ بالإنعام عليه، ولا تقول: ابتلاهُ بذلك، ولا هو مُبْتَلى بالنّعمة، كما قد يقال إنّه مُختبَرٌ بها.

ويجوز أن يقال: إنَّ الابتلاءَ يقتضي استخراجَ ما عند المبتَلَى من الطّاعة والمعصية، والاختبارَ يقتضي وقوعَ الخبر بحاله في ذلك، والخبر: العلمُ الَّذي يقع بِكُنْهِ الشّيء وحقيقتِه، فالفرقُ بينهما بيِّنٌ"[2]. فلفظةُ الابتلاءِ هي الأنسبُ في المقام هنا؛ لأنّها أعمُّ في الدّلالة على سَعةِ الابتلاءِ، وأنّه كائنٌ في الخير وفي الشرّ.

(1) الرّاغب، المفردات: (فتن).

(2) العسكريّ، معجم الفروق اللّغوية، ص: 10، و12، و396.

﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٞ وَرِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ يَأۡخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلۡأَدۡنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغۡفَرُ لَنَا وَإِن يَأۡتِهِمۡ عَرَضٞ مِّثۡلُهُۥ يَأۡخُذُوهُۚ أَلَمۡ يُؤۡخَذۡ عَلَيۡهِم مِّيثَٰقُ ٱلۡكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّ وَدَرَسُواْ مَا فِيهِۗ وَٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ١٦٩﴾ [الأعراف 169]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

طولُ عهدِ بني إسرائيل بينهم وبين موسى عليه السلام أدّى إلى قسوةِ قلوبِ أكثرِهم

ولمّا كانَ العَذابُ الَّذي وقَعَ التَّأذُّنُ بِسَبَبِهِ [مُمْتَدًّا] إلى يَوْمِ القِيامَةِ، تَسَبَّبَ عَنْهُ قَوْلُهُ: ﴿فَخَلَفَ﴾ أيْ: نَشَأ، ولمّا كانُوا غَيْرَ مُسْتَغْرِقِينَ لِزَمانِ البُعْدِ، أتى بِالجارِّ فَقالَ: ﴿مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٞ﴾ أيْ: قَوْمٌ هم أسْوَأُ حالًا مِنهم[1]. والآيَةُ تَفْرِيعٌ عَلَى قَوْلِه تعالى في الآية السابقة: ﴿وَقَطَّعۡنَٰهُمۡ﴾ إنْ كانَ المُرادُ تَقْطِيعَهُمْ في بِلادِ أعْدائِهِمْ وَإخْراجَهُمْ مِنْ مَمْلَكَتِهِمْ، فَتَكونُ الآيَةُ مُشيرَةً إلى عَوْدَةِ بَني إسْرائيلَ إلى بِلادِهِمْ وبناء بَيْتِ المَقْدِسِ بَعْدَ خَرابِهِ. وَإنْ كانَ المُرادُ مِنْ تَقْطِيعِهِمْ في الأرْضِ أُمَمًا تَكْثِيرَهُمْ والامْتِنانَ عَلَيْهِمْ، كانَ قَوْلُهُ: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٞ﴾ تَفْرِيعًا عَلَى جَمِيعِ القِصَصِ المُتَقَدِّمَةِ الَّتي هيَ قِصَصُ أسْلافِهِمْ[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَخَلَفَ﴾: الخاء واللّام والفاء أصولٌ ثلاثة: أحدُها: أن يجيءَ شيءٌ بعد شيءٍ يقوم مقامه، والثاني: خلافُ قُدّام، والثالث: التغيُّرُ، ويقولون: هو خَلَفُ صدقٍ من أبيه، وَخِلْفُ سَوءٍ من أبيه، فإذا لم يذكروا صدقًا ولا سَوْءاً قالوا للجيّد: خَلَفٌ، وللرَّديء: خَلْفٌ[3].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 145/8.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 159/9.
(3) ابن فارس، مقاييس في اللّغة: (خلف).

وأضاف الراغب الأصفهاني: "وخَلَفَ ضدُّ تقدّم وسَلَفَ، والمتأخّرُ لقُصورِ منزلتِهِ يُقال له: خَلْفٌ، ولهذا قيل: الخَلْفُ الرديءُ، والمتأخّرُ لا لقصور منزلته يقال له: خَلْفٌ، قال تعالى ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ﴾"[1].

ويظهر من كلام الرّاغب أنّ (خَلْفٌ) تُقال في كلتا الحالَيْن: قصور المنزلة أو التَّأخّر، وبهذا يظهر أنَّ المُعوَّلَ عليه في التّفريق بينهما هو السياق، فعلى معنى الذَّمّ قال تعالى: ﴿۞فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا ٥٩﴾ [مريم: 59]. وبعضُ العلماءِ مَن جعل (الخَلَف) في الصّالحين، و(الخَلْف) في الرديئين واستدلّوا بقول لبيد:

ذَهَبَ الّذينَ يُعاشُ في أكنافِهِمْ *** وبَقيتُ في خَلْفٍ كجِلدِ الأجرَبِ[2]

2) ﴿وَرِثُواْ﴾: الإرْثُ: وهو أن يكون الشيءُ لقوم، ثمّ يصير إلى آخرين بنسبٍ أو سببٍ[3]، أو هو: ما يُخَلِّفُهُ المَيِّتُ بعد مَوْتِهِ مِن مالٍ ونَحْوِهِ، ويُسَمّى أيْضاً: الوِرْثُ، والتُّراثُ، والميراثُ، والمَوروثُ، يُقالُ: وَرِثَ أَباهُ، يَرِثُه، إرْثاً، فهو وريثٌ، أيْ: صارَ إلَيْه مُلْكُهُ بعد مَوْتِهِ، ومِن مَعانيه: أَصْلُ الشَّيْءِ، وبَقيَّتُهُ، والأَمْرُ القَديمُ[4]. والمعنى هنا: أخذوا التَّوراة.

3) ﴿عَرَضَ هَٰذَا ٱلۡأَدۡنَىٰ﴾ العَرْض: خلافُ الطُّولِ، وأصلُه أن يُقال في الأجسام، ثمّ يُستعمل في غيرها، والعَرْضُ خُصّ بالجانب، وعَرَضَ الشيءُ بدا عرضُه. والعَرَضُ: ما لايكون له ثباتٌ، ومنه استعار المتكلِّمون العَرَضَ لِما لا ثَباتَ لهُ إلّا بالجَوْهَر كاللّون والطّعم، وقيل: الدّنيا عَرَضٌ حاضِرٌ؛ تنبيهًا على أن لا ثباتَ لها[5]. والمراد هنا: ما يَعرِضُ لهم مِنَ الدُّنيا ممّا لايكونُ له ثباتٌ، والأَدْنَى: الأمرُ الأقربُ، وهي الدُّنيا[6].

4) ﴿وَدَرَسُواْ﴾: دَرَسَ الدّارُ معناه بقيَ أثرُها، وبقاءُ الأثرِ يقتضي انْمِحاءَهُ في نفسه، فلذلك فُسِّرَ الدُّروسُ بالانْمِحاءِ، ودَرَسْتُ العلمَ: تناولتُ أثرَه بالحِفْظ، ولَمّا كان تناوُلُ ذلك بمداومةِ القِراءةِ، عبَّرَ عن إدامةِ القِراءةِ بالدَّرسِ[7].

(1) الرّاغب، المفردات: (خلف).
(2) لبيد بن أبي ربيعة، ديوان لبيد، ص: 24.
(3) ابن فارس، مقاييس في اللّغة: (ورث).
(4) الخليل، العين، وابن سيده، المحكم، والزَّبيديّ، تاج العروس: (ورث).
(5) الرّاغب، المفردات: (عرض).
(6) الكفويّ، الكلّيّات، ص: 659.
(7) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (درس).

المَعْنى الإجْماليُّ:

سوءُ وراثةِ التَّوراةِ وجعلُها بضاعَةً للبيع والشِّراء، حسب مقتضياتِ الأغراض والأهواء

فَخَلَفَ من بعد أولئك القومِ الذين قَطَّعناهُم في الأرض أُممًا خَلْفُ سوءٍ، وَرِثوا كتابَ اللّه وهو التوراة فقرؤوهُ وتعلَّموه، ووَقَفوا على ما فيه من تحليلٍ وتحريمٍ وأمرٍ ونَهْيٍ، ولكنّهم لم يتأثّروا به بل خالَفوا أحكامَه، واستَحَلُّوا محارمَه مع علمهم بها، فَهُم يتهافَتون على حُطام الدنيا ومتاعها، ويتقبّلون المالَ الحرامَ بشراهةِ نفسٍ، ويأكلون السُّحْتَ أكلًا كثيرًا، ويقولون وهم والِغونَ في المعاصي ومُصِرُّونِ على الذُّنوب: إنّ اللّه سيَغفرُ لنا ذُنوبَنا ولا يؤاخذنا بما أكلنا من أموال، لأنّنا من نَسْلِ أنبيائِه، فنحنُ شعبُه الذي اصطفاه من سائر البشر، إلى غير ذلك من الأقاويل التي يفترونها على اللّه وهم يعلمون[1].

وإن يأتِ هؤلاء اليهودَ متاعٌ زائلٌ من أنواع الحرام يأخذوه ويستحلُّوه، مصرِّين على ذنوبِهم وتَناوُلِهم الحرامَ، ألَمْ يُؤخَذْ على هؤلاءِ العهودُ بإقامةِ التَّوراةِ والعملِ بما فيها، وألَّا يقولوا على اللّه إلا الحقَّ، وألَّا يكذبوا عليه، وعَلِموا ما في الكتاب فَضَيَّعوه، وترَكوا العملَ به، وخالَفوا عهدَ اللّه إليهم في ذلك؟! والدَّارُ الآخرةُ خيرٌ للذين يتَّقون اللّه، فيمتثلون أوامرَه، ويجتنبون نواهِيَه، أفلا يَعقل هؤلاء الذين يأخذون دنيءَ المكاسب أن ما عند اللّه خيرٌ وأبقى للمُتَّقين؟[2].

وتُرشِدُ الآيةُ الكريمةُ إلى شناعةِ مَن فَهِمَ كتابَ اللّه ولم يكن عنده فيه إشكال، وكان في أمرِه مُسْتَبصِرًا، ثم يَعمد إلى مخالفةِ أمرِه واتباعِ هواه وشهواتِه؛ فهذا السُّلوك أعظمُ للذَّنْب، وأشدُّ لِلَّوم، وأفظَعُ للعقوبة.

(1) طنطاوي، التَّفسير الوسيط: 425/5 - 426.
(2) نُخْبة من أساتذة التَّفسير، التَّفسير الميسّر، ص: 172.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

معنى الفاء في ﴿فَخَلَفَ﴾ ودلالتُها:

الفاء للعطف والتَّعقيب والتَّرتيب السريع؛ لبيان أنّ أَمْرَ مَن جاء بعدهم لم يَطُلْ كثيرًا في التّحوّل والتبدّل.

فائدةُ مجيءِ القَيْد ﴿مِنۢ بَعۡدِهِمۡ﴾ ومعنى ﴿مِنۢ﴾:

(من) ابتدائيّة، والمقصودُ بمن بعدهم أي: مَن جاء مَن أصلابِهم وذُرّياتِهم بعد ذلك، والمقصود: من ذرّية من اعتدَوْا في السّبت، ومن وَقَعتْ عليهم عقوبةُ التّقطيعِ والتّقسيمِ في الأرض، وقد يكون اليهودُ المعاصِرون للنبيّ ﷺ هم المقصودون بذلك[1].

فائدة تقديم شبه الجملة الظرفيّة على الفاعل:

تقديمُ شبهِ الجملة الظّرفيّة غَرَضانِ، أحدُهما: يتعلّق بالمعنى؛ فالمقصود هنا أنّ هذه الذّريّةَ التي تتحدّث عنها الآيةُ هم من أصلابِ أولئك الذين اعتَدَوا في السّبت، وليسوا من أصلابِ غيرِهم، ولذلك قال: ﴿مِنۢ بَعۡدِهِمۡ﴾، أي: من بعد مُضيِّهم وهلاكِهم جاء مِن نَسْلِهم مَن فَعَل مثلَ فَعْلَتِهم. وفي هذا التّقديم أيضًا تعريضٌ باليهود المعاصِرين للنَّبيّ ﷺ، فقد يكونون هم المقصودين أو أجدادَهم القريبين.

تقديمُ شبهِ الجملة الظرفيّة له مسوِّغاتُه اللّفظيّةُ والمعنويّةُ

وأمّا الغرضُ الآخَرُ: فهو يتعلَّقُ بالرَّوْنقِ وجَرْسِ الكلام، فقد توسَّطَتْ شبهُ الجملةِ الظرفيّة بين الفعل والفاعل المشتقَّيْن من أصلٍ واحدٍ؛ تجنُّبًا للتَّكرار في قولنا: (فخلف خلفٌ من بعدهم).

نُكتةُ تنكيرِ ﴿خَلۡفٌ﴾:

التّنكيرُ هنا أفاد معنى التّحقيرِ والذّمِّ لما ذكَرَتْه الآيةُ من صفاتِهم، إذ هؤلاء الخَلْفُ قد خالَفوا أسلافَهم الصالحينَ في اتِّباعِ ما أنزله الله في التوراة، وأخذوا ما يُناسبُ أهواءَهم وشهواتِهم،

التّحقيرُ والذّمُّ لصفاتِهم، وأنهم ليسوا أهلًا لوراثة الكتاب

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 159/9.

وتَركوا ما يُقَرِّبُهم إلى الله من الطَّاعة والإخلاص. ويَدلُّ التنكيرُ هنا على أنَّهم ليسوا بأهلٍ لوراثةِ الكتابِ، بل حالُهم خلافُ ما يجبُ أن يكونوا عليه من التَّقوى والأمانةِ والنَّزاهةِ والعِفَّةِ.

الموقع النّحويُّ والبيانيُّ لقوله: ﴿وَرِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾:

مقرَّرٌ في علم النّحو أنَّ الجُمل بعد النّكراتِ صِفاتٌ، وموقعُ الجملةِ هنا صفةٌ مرفوعةٌ لـ ﴿خَلۡفٌ﴾، وأفادتْ هذه الصِّفةُ أنَّ هذا الخَلْف قد وَصَلَهُمُ البيانُ؛ بأنْ قرؤوا التوراةَ وعَلِمُوها، وصاروا مرجِعًا فيها لأقوامهم ومعاصريهم، فأُقِيمَتْ عليهمُ الحُجّةُ؛ لأنَّ الكتابَ قد انتقلَ إليهم إرْثًا، فالحجَّةُ قائمةٌ عليهم.

الجملةُ في موقعِ رفعٍ صفةٌ للخَلْف، ودَلَّتْ على إقامةِ الحُجّةِ عليهم

بلاغة الاستعارة في التّعبير بالإرْثِ:

يقول ابن عاشور: يُطلق الإرْثُ مجازًا على مصير شيءٍ إلى حدٍّ بدون عِوَضٍ ولا غَصْبٍ؛ تشبيهًا بإرْثِ الميّت، فقوله: ﴿وَرِثُواْ﴾ مجازٌ في القيام مقامَ الغير، والمعنى: فخَلَفَ من بعدهم خَلْفٌ في إرْثِ الكتاب[1]. والمقصود بقوله: مجاز أنّها استعارةٌ تصريحيّةٌ تبعيَّةٌ شبَّه فيها معرفةَ الخَلْفِ بالوحي بالإرْثِ، بجامعِ التمكُّن في كليهما.

شبّهت الآية حمل الكتاب والتّمكّن منه بالإرث له

معنى (أل) في ﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾:

(أل) عهديَّةٌ تشير إلى التَّوراة؛ لأنّها تتحدَّث عن بني إسرائيل، ولا مانعَ من إرادة الجنس لأنَّ الكُتبَ السماويّةَ يُصدِّق بعضُها بعضًا، فالتّكذيبُ لأحدِها تكذيبٌ لها جميعًا. والصوابُ الأولُ؛ لأنَّ المقامَ تقريرٌ لهم وتبكيتٌ على إضاعةِ ما تحمَّلوه من كتابهم المكلَّفينَ بالعملِ به وتعليمِ الناس وإفتائِهم منه - وهو التوراة -، وجماهيرُ المفسرين على أنَّ الكتاب هنا هو كتابُ موسى[2] عليه السلام. كما أنَّ المقامَ

عهديَّة تُشير إلى التَّوراة، والسياقُ في تَبكيتِهم على إضاعةِ ما تحمَّلوه

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8ب/134، و160/9.

(2) ابن جرير، جامع البيان: 534/10، والفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 395/15، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 498/3، والسَّعديّ، تيسير الكريم الرحمن، ص: 307، والشَّنقيطيّ، العذب النمير: 296/4 - 297.

في الآية الكريمة ليس مقامَ إيمانٍ وكفرٍ بالكتبِ المنزَّلةِ، بل مقامُ تحمُّلٍ واتباعٍ وتبليغٍ.

الموقع النّحويّ والبيانيّ لقوله: ﴿يَأۡخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلۡأَدۡنَىٰ﴾:

الجملة نَحْويًا صفةٌ أو حالٌ، وبيانيًّا فهي استئنافٌ

من النّاحية النّحْويّة قد تكون صفةً ثانيةً لـ﴿خَلۡفٌ﴾، وقد تكون حالًا من ضميرِ ﴿وَرِثُواْ﴾[1]، ومن النّاحيّة البيانيّة فالجملةُ لم تُعطف على سابقتِها وجاءتْ مُستَأْنَفَةً بيانيًّا جوابًا عن سؤالٍ مقدَّرٍ: كيف خالَفوا الكتابَ؟ فجاءَ الجوابُ بأنّهم يُقدِّمونَ متاعَ الدنيا الزائلَ على ما عند اللّه.

نُكتةُ التّعبيرِ بالمضارع في ﴿يَأۡخُذُونَ﴾:

أفادَ المضارعُ التجدُّدَ الاستمراريَّ واستحضارَ الصورةِ

التعبيرُ بصيغةِ المضارعِ في قوله: ﴿يَأۡخُذُونَ﴾؛ تفيدُ الحدوثَ والتَّجَدُّدَ؛ لأنَّ هذا الوصْفَ لا يخلو منه زمانٌ من الأزمنة، فَضْلًا عن إرادةِ استحضارِ تلك الصّورةِ القبيحةِ من الإفتاءِ والحُكْمِ بالباطلِ، وتَفَشّي الرِّشوةِ فيهم، وغيرِ ذلك من صورِ انتفاعِهم من مناصِبِهم الدينيةِ.

نُكتةُ التّعبيرِ بالأخذِ بين الحقيقةِ والمجازِ:

الأخذُ على حقيقتِه إنْ أُريدَ بالعَرَضِ الأدنى الأمورُ المحسوسةُ، أو على المجازِ إنْ أُريدَ الذّنوبُ

يقول ابن عاشور: "إنّ التَّعبير بلفظ (الأخذ) في الآية الكريمة معناه الملابسةُ والاستعمالُ فهو مجاز، أي: يُلابِسونَهُ، ويجوز كونُه حقيقةً، فيَصْدُقُ بالتَّناولِ باليدِ وبغيرِ ذلك، فهو من عُمومِ المجاز"[2]. وعلى المعنى المجازيّ تكون استعارةً تصريحيَّةً بتشبيهِ ملابَستِهم وتعامُلِهم مع العَرَضِ الزائلِ بالأخذِ؛ بجامعِ الانتفاعِ والتملُّك له. أو بتشبيهِ ملابَستِهم للذُّنوبِ والمعاصي بالأخذِ؛ بجامعِ وُقوعِها في حسابِهم. وأمّا إذا كان المرادُ بعَرَضِ هذا الأدنى الرِّشا وغيرَها من الأموال المحرَّمةِ فيكون الأخذُ على حقيقتِه.

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 160/9، والدرويش، إعراب القرآن وبيانه: 70/3.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 160/9، و161.

فائدةُ التّعبيرِ باسم الإشارةِ للقريب ﴿هَٰذَا﴾:

التَّعبيرُ باسم الإشارةِ الدَّالِّ على القريبِ فيه إيماءٌ إلى تحقيرِ هذا العَرَضِ الَّذي رَغِبوا فيه[1].

فائدةُ مجيءِ الوصفِ ﴿ٱلْأَدْنَىٰ﴾:

الأدنى صفةٌ لموصوفٍ محذوفٍ، تَقْديرُهُ: (الشيءُ الأدنى)، والمرادُ به الدّنيا، وهو من الدُّنوِّ للقُرْبِ بالنّسبة إلى الآخرةِ، وهو مُذَكَّرُ دُنيا[2]، وحَذْفُه هنا أفادَ التّحقيرَ له.

نكتةُ العطفِ في ﴿وَيَقُولُونَ﴾:

قوله: ﴿وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا﴾ معطوفةٌ على جُملةِ ﴿يَأْخُذُونَ﴾؛ لأنَّ كِلا الخَبَرَيْنِ يُوجِبُ الذَّمَّ، واجتماعُهما أشَدُّ في ذلك[3].

دلالةُ التعبيرِ بالمضارعِ:

التّعبيرُ بالمضارع يفيدُ التجدُّدَ الاستمراريَّ لقولهم، ويُفيدُ مع ذلك استحضارَ هذه الصّورةِ البشعةِ لمقولتِهم تلك، ويرى ابن عاشور أنّ القولَ يَحْتَمِل أن يكون باللّسانِ، وهو الظّاهرُ بدلالةِ ما يأتي بعده، ويمكن أن يكون كلامًا نفسيًّا؛ لأنّه فرعٌ عنه، فهم يُعلِّلونَ به أنفسَهم حين يَجيشُ فيها نازعُ النّهي[4].

استحضارُ الصّورةِ البشعةِ لمقولتِهم والتجدُّدِ فيها

نكتةُ مجيءِ حرفِ التَّنْفيسِ في ﴿سَيُغْفَرُ﴾:

السّين: حرفُ تنفيسٍ للاستقبال، وهو مختصٌّ بالمضارع ويُخلِّصُه للاستقبالِ، وليس مُقْتَطَعًا من (سوف) كما يزعمُ بعضُ الكوفيين، ولا مُدَّةُ الاستقبالِ معه أَضْيَقُ منها مع سَوْفَ خِلافًا للبصريين[5]، والمعنى هنا: يقولون بعد أن يأخذوه: سيُغفَرُ

لِفَزَعِ ثقةِ بني إسرائيل بأنفسِهم يَظُنُّونَ أنّ الله سيَغْفِر لهم ذنوبَهم في المستقبل

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 161/9.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 141/6.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 162/9.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 161/9.
(5) ابن هشام، مغني اللّبيب، ص: 158.

لنا أفعالُنا السيئةُ؛ لِفَرْطِ ثِقَتِهِم بأنفسِهم، وبأنّهم قريبونَ من ربّهم.

سِرُّ بناءِ الفعلِ ﴿سَيُغْفَرُ﴾ لما لم يُسَمَّ فاعلُه:

لـلإيـجـازِ، ولـلاهـتـمـامِ بـالـفـعـلِ دونَ النّظَرِ إلى الفاعل

يقول ابن عاشور: "بُني فعل (يُغْفَر) في الآية الكريمة على صيغة المجهول؛ لأنَّ الفاعل معروف، وهو الله تعالى، إذ لا يصدر هذا الفِعل إلّا عنه ﷻ، وللدَّلالة على أنَّهم يقولون ذلك على وجه العموم لا في خصوصِ الذَّنْبِ الَّذي أُنْكِرَ عليهم، أو الذي تَلَبَّسوا بهِ حينَ القولِ"[1]. فالحذفُ هنا للإيجازِ، وفيه إشارةٌ أخرى أنّهم ركَّزوا على وقوعِ المغفرةِ لهم بغضِّ النّظرِ عن فاعلِها.

بلاغةُ حذفِ نائبِ الفاعل:

حُـذِفَ نـائـبُ الـفـاعـلِ إيجازًا لأنّـه مـعـلـومٌ مـن الـسِّـيـاق، وتقديرُه ذنوبنا

نائبُ الفاعلِ محذوفٌ لِعِلْمِه من السياق، والتقديرُ: (سيُغفر لنا ذلك، أو ذُنوبُنا)؛ لأنَّهم يحسبون أنَّ ذنوبَهم كلَّها مغفورةٌ، ﴿وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾ [البقرة: 80]، أي: يُغفر لنا بدون سببِ المغفرةِ، وهو التَّوبة كما يُعلم مِن السّياق، وهو جَزْمُهم بذلك عَقِبَ ذِكْرِ الذَّنْبِ دون ذكرِ كفّارةٍ أو نحوِها[2].

معنى اللّام في ﴿لَنَا﴾:

تَـحْـتَـمِـلُ الـلّام مـعـانٍ متنوّعة يُسَوِّغُها السِّياق

اللّامُ في ﴿لَنَا﴾ قد تكون للتَّعديةِ، أو للاستحقاقِ على اعتبار أنّهم يَظنّون استحقاقَهم للمغفرةِ، ويمكن أن يكونوا قَصَدوا بها التّخصيصِ بِظَنِّهم أنَّ المغفرةَ لا تكون إلّا لهم. ويمكن على معنى آخر أن تكون لامَ التّعليل؛ فالمغفرةُ كانت بظنِّهم لأجلِ مَنْفعتِهم، فهذا كلُّه معقولٌ مُتَخيَّلٌ في حَقِّهم.

دَلالةُ الواو في قوله: ﴿وَإِن يَأْتِهِمْ﴾:

الـعـطـف أو الحال

الجملةُ الكريمةُ معطوفةٌ على الَّتي قبلها، وفائدةُ العطفِ هنا

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 161/9.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 161/9.

كشفُ حالِهم وتصويرُ موقفِهم لِلقارئِ المتدبِّرِ، ويمكن أن تكونَ الواو حاليّةً من ضميرِ ﴿وَيَقُولُونَ﴾.

نكتة التّعبير بـ(إن) دون (إذا):

(إنْ) و(إذا) حرفا شَرْط، وإن كان الأوّلُ منهما جازمًا دون الآخر من النّاحية النّحْويّة، أمّا من النّاحية البيانيّة، فإنّنا نأتي بـ(إنْ) للأمرِ المشكوكِ به أو لمن نُنزِّلُه هذه المنزلةَ لأغراضٍ بلاغيّةٍ، بخلافِ (إذا) تمامًا؛ فإنّنا نأتي بها للأمرِ المحَقَّقِ أو لمن ننزِّلُه هذه المنزلةَ خروجًا عن مقتضى الظاهر دون مقتضى الحال.

عبّر بـ(إنْ) لقلّةِ الوقوعِ أو لكشفِ إصرارِهم على المعصية

والتّعبيرُ بـ(إنْ) هنا قد يكون على ظاهرِه، والمرادُ به إبرازُ نُدْرَةِ وقِلَّةِ تَدافُعِ المنافعِ والمتاعِ نحوَهم مع وجودِ كُفْرِهم. أو يكون خروجًا عن مقتضى الظّاهر بإنزال إتيانِ العَرَضِ المماثلِ لهم منزلةَ نادرِ الوقوعِ؛ للدّلالةِ على أنّه لا ينبغي أن يكون موقفُهم كذلك، بل هو في حُكْمِ نادرِ الوقوعِ لأنّه إصرارٌ على المعصية.

بلاغة التّعبير بالجملة الشرطيّة:

التّعبيرُ بالجُمَلِ الشرطيَّةِ أقوى في تحقيق المعنى من الجُمَلِ غيرِ الشرطيّةِ؛ لأنّ الجملةَ الشرطيّةَ تُرتِّبُ نتيجةً على سببٍ، فجوابُ شرطِها مرهونٌ بتحقُّقِ فعلِه، وهنا عَلَّقتِ الجملةُ الشرطيَّةُ فِعْلَ الأخذِ بإتيانِهِمُ العَرَضَ.

الجُمَلُ الشَّرْطيّة أقوى في ربطِ السببِ بالنّتيجة

نكتةُ تنكيرِ ﴿عَرَضٌ﴾:

من المعلوم أنَّ النَّكِرَةَ في سياقِ الشَّرْطِ تَعُمُّ؛ فهيَ هنا شاملةٌ لكلِّ عَرَضٍ، سَواءٌ كان حسيًّا أو معنويًّا.

نُكتةُ المجازِ في ﴿يَأْتِهِمْ عَرَضٌ﴾:

يقول ابن عاشور: "واستُعِيرَ إتيانُ العَرَضِ لبذلِه لهم إنْ كان المرادُ بالعَرَضِ المالَ، وقد يُراد به خُطورُ شَهْوَتِه في نفوسِهم إنْ كان المرادُ بالعَرَضِ جميعَ الشهواتِ والمَلاذِّ المحَرَّمةِ، واستعمالُ الإتيانِ

إسنادُ الإتيانِ إلى العَرَضِ من باب الاستعارةِ التَّصريحيّة أو المجازِ العقليّ

في الذَّواتِ أنسبُ من استعمالِه في خُطورِ الأعراضِ والأمورِ المعنويةِ؛ لِقُرْبِ المشابهةِ في الأوَّلِ دون الثّاني"[1]، فَعَلى الاستعارةِ يكونُ قد شَبَّهَ بَذْلَهم للمنافعِ المادّيّةِ وانتفاعَهُم بها بالإتيانِ بجامعِ التَّمَكُّنِ منها وقُرْبِها. وقد يكونُ في إسنادِ الإتيانِ إلى العَرَضِ مجازٌ عقليٌّ؛ لأنَّ العَرَضَ لا يأتي وإنّما يُؤْتَى به.

الموقعُ البيانيُّ لقولِه: ﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم﴾:

الجملةُ استئنافٌ بيانيٌّ عن سؤالٍ مُقَدَّرٍ بماذا ردَّ عليهم ربُّهم لمّا قالوا (سَيُغْفَرُ لَنا)؟

يقول ابن عاشور: -الجملة الكريمة- "جوابٌ عن قولهم: ﴿سَيُغْفَرُ لَنَا﴾ إبطالًا لمضمونِه؛ لأنَّ قولهم: ﴿سَيُغْفَرُ لَنَا﴾ يتضمَّنُ أنَّهم يزعمونَ أنَّ اللّه وَعَدَهُم بالمغفرةِ على ذلك، والجملةُ معترِضَةٌ في أثناء الإخبارِ عن الصّالحين وغيرِهم. والمقصودُ من هذه الجملةِ إعلامُ النَّبي ﷺ لِيَحُجَّهُم بها، فَهُمُ المقصودُ بالكلام، كما تشهدُ به قراءةُ: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ بتاء الخِطاب"[2].

بلاغةُ الاستعارةِ في التّعبير بالميثاق:

شَبَّهَ العهدَ بالميثاقِ لأكثر من جامعٍ بينهما

أصلُ الميثاقِ: حبلٌ أو قَيْدٌ يُشَدُّ به الأسيرُ أو الدّابَّةُ، والميثاقُ عَقْدٌ مُؤَكَّدٌ بيمينٍ وعهدٍ[3]. وهو مستعارٌ في قوله ﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ لتعاليمِ التَّوراةِ وأحكامِها وعُهودِها عليهم، فَحَذَفَ المستعارَ له وهو المشبَّه وتَرَكَ المستعارَ منه وهو المشبَّهُ به بجامعِ حُصولِ النَّجاةِ بهما، أو بإيصالِهما إلى بَرِّ الأمانِ، أو لِقوَّتِهما وكثرةِ فُروعِهما، أو لإمكانيّةِ نَقْضِهما، وذلك على سبيلِ الاستعارةِ التّصريحيَّةِ التَّبَعيَّةِ.

غرضُ الاستفهامِ ونوعُه:

الاستفهامُ تقريريٌّ توبيخيٌّ

الاستفهامُ في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم﴾ للتَّقريرِ، والمقصودُ منه التَّوبيخُ، وهذا التَّقريرُ لا يَسَعُهُم إلّا الاعترافُ به؛ لأنَّه صريحُ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 162/9.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 162/9.
(3) الرّاغب، المفردات: (وثق).

كتابِهم[1]. ولا شكّ أنَّ الاستفهامَ التّقريريَّ أبلغُ في نفس السَّامع من مجرَّدِ الإخبارِ؛ لأنّ الاستفهام فيه - وإنْ كان ممّا لا يُحتاجُ معه إلى جوابٍ؛ لأنّه معلومٌ مقرَّرٌ - له نكهة الاستفهام تبقى قائمةً فيه؛ لكونه بمنزلةِ المثيرِ الذي يَحتاج إلى استجابة، فيدفعُ هذا الاستفهامُ التّقريريُّ المخاطَبَ فيه إلى إنعامِ النّظرِ والتّفكُّرِ بهذا السؤالِ في داخلِهِ، والبحثِ عن أجوبةٍ في نفسه له.

سرُّ بناءِ فعلِ الأخذِ لما لم يُسَمَّ فاعلُه:

بناءُ الفعل للمجهول من باب الإيجازِ، وللانشغالِ بالعهدِ نفسِه عن معرفة صاحبه

في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ جاء بناءُ فعلِ الأخذِ لما لم يُسَمَّ فاعلُه للإيجازِ للعلم به، فاللّه تعالى هو الذي أخذ عليهم هذا العهدَ، فَضْلًا عن نكتةٍ أخرى في حذفِ الفاعلِ وهي دعوتُهم للانشغالِ بالعهدِ نفسِه وضرورةِ الوفاء به، دون الانشغال عن ذلك بمعرفة مَن أخذه على وجه الخصوص.

فائدة تعدية فعل الأخذ بـ(على):

تضمَّن الفعل ﴿يُؤْخَذْ﴾ معنى الفعل (يُفرض) الذي تعدّى بـ(على)، فتكون قيمة التّضمين في قوّة الفعلَيْن: يُؤخذ ويُفرض، فيكون المعنى: أَلَم يُفرض عليهم العهودُ بإقامة التوراة والعمل بما فيها، حتّى كان حقًّا مأخوذًا منهم، إضافةً إلى معنى الاستعلاء في(على) وهي تُشعِر بهذه الفوقيّة من اللّه تعالى في أخذِهِ ميثاقَ الكتابِ منهم.

تضمَّنَ فعلُ الأخذِ معنى الفَرْضِ فتعدّى بـ(على) التي أعطتْ معنى الفوقيّة والاستعلاء

نكتةُ تقديمِ شبهِ الجملةِ ﴿عَلَيْهِم﴾:

قدَّمَ شبْهَ الجملةِ على نائب الفاعل ﴿مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ﴾؛ لأنَّ مدارَ الحديث والعناية كانت منصبَّةً عليهم في استعراضِ تاريخِهِم الطّويل، وما جرى معهم من أحداثٍ وعقوباتٍ.

الحديثُ كان عن بني إسرائيل وعمَّا جرى معهم من أحداث

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 162/9.

نكتةُ إضافةِ الميثاقِ إلى الكتاب:

يقول ابن عاشور: "إضافةُ الميثاقِ إلى الكتاب على معنى (في) أو على معنى اللّام، أي: الميثاق المعروف به، والكتاب هو توراة موسى"[1]. فهو من إضافةِ المصدرِ إلى فاعلِه؛ لأنَّ الميثاقَ هو العهدُ، وهو وصيةُ موسى عليه السلام التي بَلَّغَها إليهم عن الله تعالى في مواضع كثيرة: أن لا يشركوا بالله شيئًا، وأن يتبعوا رسولَه محمدًا ﷺ إذا جاءهم.

المـيـثـاق هـو الـعـهـد، وهـو وصـيـة مـوسى التي بلغها إلى بني إسرائيل عن الله

وفيها إيماءةٌ إلى بني إسرائيل الذين خالَفوا عهدَ الله وكتابَه، وقالوا على الله ما لايَحِقُّ، وتركوا دراسة ما في كتابه من المعاني والأحكام. فالآيةُ دالَّةٌ على أَنَّ بني إسرائيل كانوا مُلزَمين بالامتثالِ لأوامرِ الله والإقرارِ بحقِّ رسولِه، ولا يجوز لهم أن يقولوا على الله إلا الحق.

معنى (أل) في ﴿ٱلۡكِتَٰبِ﴾ والمراد به:

الألفُ واللامُ في الكتاب للعهدِ، أي: الكتابُ المعهودُ، والمرادُ به التَّوراةُ، ولامانعَ من حَمْلِها على الجنسيّةِ لتشملَ الكُتبَ السماويّةَ كلَّها لأنّها يُصدِّقُ بعضُها بعضًا.

الموقعُ النّحويُّ والبيانيُّ لقولِهِ: ﴿أَن لَّا يَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّ﴾:

يرى الآلوسيُّ أنَّ هذه الجملةَ عطفُ بيانٍ للميثاقِ، وقيل: بدلٌ منه، وقيل: إنّه مفعولٌ لأَجْلِه، وقيل: إنّه مُتَعَلِّقٌ بميثاقٍ، بتقديرِ حرف الجرِّ، أي: (بأنْ لا يقولوا)، وجُوِّزَ في (أنْ) أن تكونَ مصدريّةً، وأن تكون مُفَسِّرةً لميثاقٍ؛ لأنّه بمعنى القول، وفي (لا) أن تكون ناهيةً وأن تكون نافيةً[2]. فَفَصْلُ هذه الجملةِ عن سابقتِها هو لِكَمالِ اتِّصالِها بها، أو لِشِبْهِ كمالِ اتّصالِها بها بأن تكونَ جوابًا عن سؤالٍ مُقَدَّرٍ حولَ ما تضمَّنَه هذا الكتابُ. وفي كلّ الأحوالِ تَضَمَّنتْ هذه الجملةُ إيجازًا

تَـحْـتَـمِـلُ هـذه الجملةُ مواضعَ نَحْويّةً وبيانيّةً متنوِّعةً تُكْسِبُها ثـراءً في المعنى وغِنىً في الدّلالة

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 162/9 - 163.

(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 142/6.

بليغًا في الحَذْفِ في الدّلالاتِ المحتَمَلَةِ لكلِّ حرفٍ من حروفِها، وفي كلّ توجيهٍ من توجيهاتِ موقِعِها.

نوعُ القَصْرِ في الجملة وغَرَضُه وطريقتُه:

في قولِه تعالى: ﴿أَن لَّا يَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ﴾ قَصْرُ موصوفٍ على صفةٍ، وهو قصرٌ إضافيٌّ، وجاء بأسلوبِ الاستثناءِ بعد النَّفْيِ الذي يأتي في مواضعِ الجَلْجَلةِ، ورَفْعِ الصّوتِ، ومُغالَبَةِ المنكَر، أو ما يُنَزَّلُ منزلتَه، وغرضُ هذا القَصْرِ أن يكون وصفُ قولِهم فيه لا في غيرِه.

القَصْرُ هنا من قَصْرِ الموصوفِ على الصِّفَةِ، وهو قَصْرٌ إضافيٌّ

فائدةُ تقديمِ شبهِ الجملةِ: ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾:

تقديمُ شبهِ الجملةِ هنا مفيدٌ للتّخصيصِ، إذ لا يجوزُ أن يكون قولُهم عن الذّاتِ العليَّةِ على وجه الخصوصِ إلّا حقًّا.

معنى (أل) في ﴿ٱلْحَقَّ﴾:

(أل) هنا استغراقيَّةٌ تَعمُّ قولَ الحقِّ فيما يتعلَّقُ باللّه تعالى؛ من صحةِ الاعتقادِ به في صفاتِه وأفعالِه كلِّها، وما وَصّاهُم به نبيُّه ﷺ من أصولٍ وتشريعاتٍ وأحكامٍ وآدابٍ وتعاملاتٍ وأخلاقٍ.

بلاغةُ عطفِ ﴿وَدَرَسُواْ مَا فِيهِۗ﴾ على ما تَقدَّمَها:

في قولِه تعالى: ﴿وَدَرَسُواْ مَا فِيهِۗ﴾ عَطَفَ الفعلَ الماضي ﴿وَدَرَسُواْ﴾ على الفعلِ المضارعِ ﴿يُؤْخَذْ﴾؛ لما في الفعل المضارعِ ﴿يُؤْخَذْ﴾ من معنى المضِيِّ؛ لأنَّ (لم) قَلَبتْ معناه ماضيًا. والمعنى: أنَّهم قد أُخِذَ عليهمُ العهودُ بأن لا يقولوا على اللّه إلَّا الحقَّ، وهُمْ عالِمونَ بذلكَ الميثاقِ المؤكَّدِ؛ لأنهم دَرَسوا ما في الكتابِ؛ فَبِمَجموعِ الأَمرَيْنِ قامَتْ عليهمُ الحُجَّةُ[1]. ولا إشْكالَ هنا في عَطْفِ الخَبَريَّةِ ﴿وَدَرَسُواْ مَا فِيهِۗ﴾ على الإنْشائيّةِ ﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ﴾؛ لأنّ مضمونَ الإنشائيّةِ هو الإخبارُ، فهي إنشاءٌ لفظًا خبرٌ معنًى.

عطفُ الماضَوِيّةِ على المضارِعيَّةِ لاشتراكِهما في معنى المضيّ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 163/9.

وقيلَ: إنّ قولَه ﴿وَدَرَسُواْ مَا فِيهِۗ﴾ حاليَّةٌ من ضميرِ ﴿يَقُولُواْ﴾، فالواو للحالِ على معنى: أُخِذَ عَليهِمُ الميثاقُ بأن لا يقولوا على اللّهِ إلّا الحقَّ الذي تَضَمَّنَه كتابُهم في حالِ دِراسَتِهم ما فيه وتذكُّرِهم له، وفيهِ بُعْدٌ[1].

غرضُ التّعبيرِ بقولِه: ﴿وَدَرَسُواْ مَا فِيهِۗ﴾:

المقصودُ من هذا التّعبيرِ المبالغةُ في إقامةِ الحُجّةِ عليهم، فالمعنى: أنّهم قد أُخِذَ عليهمُ الميثاقُ بأن لا يقولوا على اللّه إلّا الحقّ، وهم يَعرفون ذلك الميثاقَ؛ لأنّهم دَرَسوا ما في الكتاب؛ إذ لم يكن تركُهُم للعملِ بالكتابِ عن جهلٍ، بل كان على عِلْمٍ، فقد قرؤوا ما فيه وعَلِمُوهُ، فَذَنْبُهُمْ أشدُّ ممن لم يَدرسْ ويَعلمْ، فبِمَجْموعِ الأمرَيْنِ قامَتْ عليهمُ الحُجّةُ[2].

لم يكن تركُهُمْ للعملِ بالكتابِ عن جهلٍ؛ فقد قرؤوا ما فيه وعَلِمُوهُ، فَذَنْبُهم أشدُّ ممن لم يَدرسْ ويعلمْ

معنى ﴿مَا﴾ في قوله ﴿مَا فِيهِۗ﴾:

﴿مَا﴾ هنا موصولةٌ، والمعنى: دَرَسوا الذي فيه، فشِبْهُ الجملةِ هي صِلتُه أو مُتَعَلِّقةٌ بمحذوفٍ تقديرُه: كائنٌ أو موجودٌ هو صلتُه، والاسمُ الموصولُ يعودُ على أحكامِ الكتابِ وعهودِه.

الموقع البيانيُّ لجملة ﴿وَٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ﴾:

الجملةُ الكريمةُ: ﴿وَٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَۚ﴾ حاليَّةٌ من ضميرِ يأخذونَ، أي: يأخذون ذلك ويَكذِبونَ على اللّه ويُصِرُّونَ على الذَّنْب، ويَنبِذونَ ميثاقَ الكتابِ على عِلم، في حال أنَّ الدّار الآخرَة خيرٌ ممّا تَعَجلّوه تَعَجُّلوه. وفي جعلِ الجُملةِ في موضعِ الحالِ تعريضٌ بأنَّهم يعلمون ذلك أيضًا، فَهُمْ قد قدَّموا عليه عَرَضَ الدُّنيا قَصْدًا، وليس ذلك عن غفلةٍ صادَفَتْهم فَحَرَمَتْهم من خيرِ الآخرةِ، بل هم قد حَرَموا أنفسَهم، وقرينةُ ذلك قوله: ﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ بالاستفهامِ

بيانُ حالِهم من ضميرِ (يَأْخُذونَ) للتّعريضِ بهم بأنّهم نُزِّلوا في اختيارِهمُ الدّنيا بمنزلةِ من لا عقولَ لهم

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 143/6.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 163/9.

الإنكاريِّ التوبيخِيِّ، وقد نُزِّلوا في اختيارِهم عَرَضَ الحياةِ الدّنيا بمنزلةِ من لا عقولَ لهم[1].

نكتةُ وصفِ الدَّارِ بالآخِرَةِ:

غرضُ وصفِ الدّار هنا بأنّها الآخرةُ، هو التّعريضُ بدارِ الدّنيا التي انْشَغَلوا بعَرَضِها، والذي سَوَّغَ وَصْفَها بالآخرةِ هنا أنّه قالَ في حقِّ دارِ الدّنيا ﴿يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ﴾. وفيه تبكيتٌ لبني إسرائيلَ بعد أَخْذِ اللّهِ العهودَ والمواثيقَ عليهم ألَّا يقولوا على اللّه إلَّا الحقَّ دونَ تحريفٍ أو تبديلٍ، وهم أيضًا قد عَلِموا ما في الكتاب من الأحكامِ والشرائعِ، فمَنْ هذه صفتُه ينبغي أن يكون ممَّن يرجو بدراستِه وعلمِه وعملِه وتعليمِه وأحكامِه وجْهَ اللّه والدارَ الآخرةَ، ولا يكون ممَّن ضَيَّعَ عهدَ اللّه وتركَ العملَ به، وخالَفَ ما عَهِدَ اللّهُ إليه في ذلك.

التّعريضُ بالدّنيا التي ركَضَ بنو إسرائيل إليها، وتبكيتٌ لهم بعُدولِهم عن الصِّفَةِ التي ينبغي أن يكونوا عليها

سِرُّ تنكيرِ ﴿خَيْرٌ﴾ وموقعُها النَّحْويُّ:

﴿خَيْرٌ﴾ خبرٌ لـ﴿وَٱلدَّارُ﴾ وتنكيرُها يُفيدُ التّعظيمَ، وقد يُفيدُ التّنويعَ على أنّها ليستْ من جنسِ ما يُدرِكونَ كُنْهَهُ ونوعَه.

بلاغةُ الكنايةِ ودلالتُها:

يقول ابن عاشور: "وفي قوله: ﴿وَٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ كنايةٌ عَن كَونِهم خَسِروا خيرَ الآخرةِ بأخذِهم عَرَضَ الدُّنيا بتلك الكيفيَّةِ؛ لأنَّ كَونَ الدّارِ الآخرةِ خَيرًا مِمّا أخَذوه، يستلزِمُ أن يكونَ ما أخَذوه قد أفات عليهم خَيرَ الآخرةِ.

دَلَّتِ الكِنايةُ على أنّهم خَسِروا الآخرةَ، وعلى أنَّهم ليسُوا من المتَّقينَ

وفي جَعْلِ الآخرةِ خيرًا للمُتَّقينَ كنايةٌ عن كَونِ الَّذين أخَذوا عَرَضَ الدُّنيا بتلك الكيفيَّةِ لم يكونوا مِن المتَّقينَ؛ لأنَّ الكنايةَ عَن خُسرانِهم خَيْرَ الآخرةِ، مع إثباتِ كَونِ خَيرِ الآخرةِ للمُتَّقينَ، تَسْتلزِمُ أنَّ الذينَ أضاعوا خيرَ الآخرةِ لَيْسُوا من المتَّقينَ"[2].

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 163/9.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 163/9 - 164.

معنى اللّام في ﴿لِّلَّذِينَ﴾:

اللامُ في قوله: ﴿خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَۚ﴾ للاسْتِحقاقِ على اعتبارِ أنَّ المتّقين استَحَقُّوا هذا الإكرامَ، ولامانعَ من حمْلِها على معنى الاختصاصِ؛ لأنّ هذه الخيريّةَ لهم لا تتعدّاهُم لغيرِهم.

الـلّامُ للاستحقاقِ أو التّخصيصِ

غرضُ التّعبيرِ بالاسم الموصول:

التّعبيرُ بالاسمِ الموصولِ هنا يُفيدُ التّعظيمَ.

نكتةُ مجيءِ جملةِ صلةِ الموصولِ فعليّةً:

التّعبيرُ بالجملةِ الفعليّةِ أفادَ هنا التجدُّدَ الاستمراريَّ في الدّعوة للتّقوى، فَضْلًا عن إفادةِ استحضارِ صورةِ مَن يتوقّى في أقوالِهِ وأفعالِهِ للقارِئِ الكريم.

التّجدُّدُ الاستمراريُّ واستحضارُ صورةِ المتّقين

بلاغةُ حذفِ مفعولَي ﴿يَتَّقُونَۚ﴾ و﴿تَعْقِلُونَ﴾:

الحذفُ هنا للتّعميم بإنزالِ الفعلِ المتعدّي منزلةَ الفعلِ اللّازمِ؛ ليشملَ كلَّ ما يُمكِنُ اتِّقاؤُهُ من محارمِ اللّه، أو غضبِه أو عذابِه، والتّقديرُ مع ﴿تَعْقِلُونَ﴾ أي: شيئًا على الإطلاقِ.

الحذفُ هنا للتّعميم

موقعُ الجملةِ الاستفهاميّةِ ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾:

جاء ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ مَفْصولًا عمّا تَقدَّمَه؛ لأنَّهُ استفهامٌ، وما تَقَدَّمَهُ من قولِه ﴿وَٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ﴾ خبرٌ، فالفَصْلُ لكمالِ الانقطاعِ بينهما لاختلافِ الخبريّةِ والإنْشائيَّة، فلا يَجوزُ عَطْفُ الجملةِ الإنشائيّةِ على الخبريّةِ أو العكسُ إلّا إذا أُوِّلَتْ إحداهُما على معنى الأُخرى.

الجملةُ غيرُ معطوفةٍ على ما تَقَدَّمَها لكمالِ الانقطاعِ لاختلافِ الخبريّةِ والإنشائيّةِ

نوعُ الاستفهامِ وغَرَضُه البيانيُّ:

الاستفهامُ إنكاريٌّ تَوبيخيٌّ لبني إسرائيلَ، وتوبيخٌ لهم على عدمِ التَّفكيرِ في عَواقبِ أمورِهم. والقصْدُ: أَفَلا يكونُ لكمْ عُقولٌ تُوازِنُ بينَ ما يَنبغي إيثارُهُ، وما يَنبغي الإيثارُ عليه، وما هوَ أَوْلى بالسَّعيِ إليه، والتَّقديمِ له على غيرِه، فَخاصِّيَّةُ العقلِ النَّظَرُ في العَواقبِ[1].

(1) السَّعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 172.

نكتةُ حذفِ الجملةِ المقدَّرَةِ بين همزةِ الاستفهامِ وحرفِ العطفِ:

الفاءُ هنا عاطِفةٌ مُعقِّبةٌ، وأُخِّرتْ عن همزةِ الاستفهامِ؛ ليسَ فقطْ لأنَّ همزةَ الاستفهامِ لها الصَّدارَةُ، وإنّما هو - كما يُقرِّرونَ - لوجودِ جملةٍ محذوفةٍ بينها وبينَ همزةِ الاستفهامِ، تُقَدَّرُ بحسبِ السياقِ، والمعنى هنا: أَجَهِلْتُم فلا تَعْقِلون؟ أو: أَبَقِيتُم على ضَلالاتِكُم فَلا تَعقِلون؟ ومِن هنا تَظهرُ بلاغةُ الحذفِ بينَ همزةِ الاستفهامِ وحرفِ العطفِ الذي يَليها.

حذفُ الجملةِ المقدَّرَةِ هنا كان للإيجازِ، ولِتَذهَبَ النَّفسُ فيه كلَّ مذهبٍ

فائدةُ الالتفاتِ في قولِه: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾:

الالتفات في هذه الكلمةِ بحسبِ أحدِ وَجْهَي القراءةِ المتواترةِ: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ جاء خِطاباً لبني إسرائيلَ المعاصرينَ لنزولِ القرآن فَمَن بعدَهم، مما يُثيرُ فنّ التَّنويعِ في العبارةِ لفتًا لانْتباه المتلَقّي، وبَعثًا لنشاطِه، ويفيد كذلك الإيجاز في التَّعبيرِ، لأنّ المقام مقامُ أن يقول: (وأنتم يا بني إسرائيلَ ما زِلْتُم على طريقةِ أَسْلافِكُمْ، أَفَلا تَعْقِلونَ؟) فاقْتَصَرَ النَّصُّ على: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾؛ مُسْتَغْنيًا بأُسْلوبِ الالتفاتِ، للدَّلالة على ما يُمْكِن فَهْمُه ذِهْناً، إذِ اعتَبَرَهُمُ النَّصُّ داخِلينَ في عُمومِ خِطابِ الغائبينَ السّالِفينَ، إذْ هُمْ موافقونَ على ما كانوا يفعلون، أو يفعلون مثلَهم.

الالتفاتُ من الغَيْبةِ إلى الخِطابِ تَفْريعٌ لليهودِ المعاصِرينَ للنَّبيِّ ﷺ

نكتةُ التّعبيرِ بـ﴿تَعْقِلُونَ﴾:

الفعل ﴿تَعْقِلُونَ﴾: مشتقٌّ من (عَقَل)، والمعنى المحوريُّ الذي تدورُ حولَه هذه المادّةُ اللُّغويَّةُ هو: حَوْزٌ في جوفٍ حَصينٍ حَبْسًا، بحيثُ لا يَذهَبُ أو يَضيعُ - كالدُّرّة في صَدَفِها، وكما يَحوزُ الحِصنُ والملجأُ مَن يَحتمي به[1].

فالمعاني اللّغويّةُ للعقلِ تدورُ حولَ الحَجْرِ والمنْعِ للشَّيءِ الثمينِ،

ضرورةُ تجدُّدِ التعقُّلِ لديهم، وحَصْرِ تصرُّفاتِهم وأقوالِهم على ما يُرضي اللهَ ويوافقُ كتابَهم

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (عقل).

ومجيءُ هذا الفعلِ بصيغةِ المضارَعةِ هنا في سياقِ الاستفهامِ الإنكاريِّ التَّوبيخيِّ؛ لِيَدُلَّ على ضرورةِ تجدُّدِ التَّعقُّلِ لديهم، وحَصْرِ تصرُّفاتِهم وأقوالِهم على ما يُرضي اللّه ويوافقُ كتابَهم.

بلاغةُ توجيهِ القراءتين في ﴿تَعْقِلُونَ﴾:

تتكاملُ القراءتانِ المتواترتانِ في توجيهِ التّوبيخِ والإنكارِ للسابقينَ والمعاصِرينَ من بني إسرائيل على أفعالهم

قرأَ نافعٌ، وابنُ عامر، وحفصٌ عن عاصم، ويعقوبُ، وأبو جعفر بتاءِ الخِطاب، وقرأَ بقيّةُ القُرّاءِ العشرةِ بياءِ الغَيْبة، فيكونُ توبيخُهم تعريضًا[1]. وقد تقدّم توجيهُ الالتفاتِ على قراءةِ تاءِ الخطابِ في أنّه يمكن أن يكونَ توبيخًا للسابِقينَ منهم، أو المعاصِرينَ للنَّبيّ ﷺ؛ ليكونَ أوقَعَ في توجيهِ التَّوبيخِ إليهم مُواجهةً. أمّا على قراءةِ ياءِ الغَيْبةِ فيكونُ التّوبيخُ للسابقين منهم، وبذلكَ تتساوَقُ جميعُ الضمائرِ في الآية في الحديثِ عنهم.

بلاغةُ المتشابهِ اللَّفظيِّ في الحديثِ عن صفاتِ (الخَلْف):

جاء في هذه السورة قولُه تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٞ وَرِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ يَأۡخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلۡأَدۡنَىٰ﴾ [الأعراف: 169]، وجاءَ في سورةِ مريمَ قولُهُ تعالى: ﴿۞فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ﴾ [مريم: 59].

فَخُصَّتْ كلُّ آيةٍ منهما بوصفٍ دون الأخرى: فآيةُ الأعرافِ تتحدَّثُ عن خَلْفٍ قد وَرِثوا الكتابَ عن الصّالحين، لكنَّهم انْشَغَلوا باللّذاتِ العاجلةِ عن الآجلَةِ، وأَصَرُّوا على معاصِيهم، فناسَبَهُ قوله: ﴿وَرِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ يَأۡخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلۡأَدۡنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغۡفَرُ لَنَا﴾.

أمّا آيةُ مريم فَيَسْبِقُها قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنۡ حَمَلۡنَا مَعَ نُوحٖ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنۡ هَدَيۡنَا وَٱجۡتَبَيۡنَآۚ إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُ ٱلرَّحۡمَٰنِ خَرُّواْ سُجَّدٗا

(1) ابن مجاهد، السّبعة في القراءات، ص: 256، وابن الجزري، النّشر في القراءات العشر: 257/2، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 163/9.

﴿وَبُكِيًّا﴾ [مريم: 58]؛ فلما كانتْ أبرزُ صفاتِ هؤلاء: اجتباءَ اللّه لهم للرسالة والنبُوَّة، وهدايتَهم لطريقِهِ المستقيم، والخشوعَ والخضوعَ للّه بالمحافظةِ على الصَّلاةِ وإدامةِ السَّجودِ له، وكثرةَ البكاءِ من أثَرِ سماعِ آياتِ اللّه الدالَّةِ على شدَّةِ الخوفِ من اللّه الموجبةِ لعدمِ اتباع الشهواتِ - ناسَبَهُ وصفُ الخَلْفِ بأنهم: ﴿أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا ۝٥٩﴾ [مريم: 59].

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

العَرَض والمتاع:

العَرَضُ كما تقدّم في شرح المفردات هو الأمرُ الَّذي يزولُ ولا يَدومُ؛ ويُراد به المال، ويُراد به أيضًا ما يَعرِضُ للمرء مِن الشَّهواتِ والمنافعِ. والمتاعُ النَّفعُ الَّذي تتعجَّلُ به اللَّذَّةُ؛ وذلك إمّا لوجود اللَّذَّة، وإمّا بما يكون معه اللَّذَّة[1]. فالعَرَضُ هو وسيلةٌ لتحصيلِ المتاعِ.

العَرَض هو وسيلةٌ لتحصيلِ المتاع

الأدنى والأقرب:

فرَّقَ بينهما أبو هلالٍ العَسْكريُّ بقوله: "إنَّ الدُّنُوَّ لا يكونُ إلّا في المسافةِ بين شيئَيْنِ، تقول: دارُهُ دانيةٌ ومزارُهُ دانٍ، والقُرْبُ عامٌّ في ذلك وفي غيرِه، تقول: قلوبُنا تتقارَبُ، ولا تقولُ تَتَدانى، وتقول: هو قريبٌ بقلْبِه، ولا يُقال دانٍ بقَلْبِه إلّا على بُعْدٍ"[2].

كلّ دنوٍّ قُرْبٌ؛ لأنّ القُرْبَ أعمُّ من الدنوِّ

القراءة والدراسة:

فَرَّقَ بينهما ابنُ عاشور بأنَّ الدِّراسةَ قراءةٌ بإعادةٍ وتَكرير؛ لأنَّ مادَّة (دَرَسَ) في كلامِ العربِ تَحوُم حولَ معاني التَّأثُّرِ من تَكرُّرِ عملٍ يُعمل في أمثاله، فمنه قولُهم: دَرَستِ الرِّيحُ رسمَ الدّارِ إذا عَفَتْهُ وأَبْلَتْهُ، فهو دارِسٌ، يُقال: منزلٌ دارِسٌ، والطَّريقُ الدّارِسُ

الدراسةُ أخصُّ من القراءةِ؛ لأنّها قراءةٌ بإعادةٍ وتَكْرارٍ

(1) العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 222.
(2) العسكريّ، معجم الفروق اللّغوية، ص: 343.

العافي الَّذي لا يَتَبيَّن. وثَوْبٌ دارِسٌ: خَلَقٌ، وقالوا: دَرَسَ الكتابَ إذا قرأَهُ بِتَمَهُّلٍ لحِفْظِه، أو للتَّدبُّرِ - فَعُلِم أنَّ الدِّراسةَ أخصُّ من القراءةِ. ومادة (دَرَسَ) تستلزِمُ التَّمَكُّنَ من المفعولِ؛ فلذلك صارَ: دَرَسَ الكتابَ مجازًا في فَهْمِهِ وإتقانِه[1].

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 295/3.

﴿وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلۡكِتَٰبِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُصۡلِحِينَ ١٧٠﴾ [الأعراف: 170]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

بيانُ طريقِ الفلاحِ للسَّيرِ عليه

ولـمّا بَيَّنَ ما للمُفسِدينَ من كَوْنِهم قالوا على اللّه غيرَ الحقِّ فلا يَغفر لهم، بَيَّن ما للصّالحينَ المذكورينَ في قوله: ﴿وَمِن قَوۡمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٞ يَهۡدُونَ بِٱلۡحَقِّ وَبِهِۦ يَعۡدِلُونَ ١٥٩﴾ [الأعراف: 159]، فقال عاطِفًا على تقديرِه: أولئك حَبِطَتْ أعمالُهم فيما دَرَسوا من الكتابِ، ولا يُغفر لهم ما أَتَوا من الفساد: ﴿وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلۡكِتَٰبِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُصۡلِحِينَ﴾[1].

ووَقَعتِ الآيةُ إلى آخرها عَقِبَ الَّتي قبلها؛ لأنَّ مَضْمُونَها مقابِلُ حُكْمِ الَّتي قَبْلَها إذ حَصَل من الَّتي قبلَها أنَّ هؤلاءِ الخَلْفَ الَّذين أَخذوا عَرَضَ الأَدْنى قد فرَّطُوا في ميثاقِ الكتابِ، ولم يكونوا من المتَّقينَ، فَعَقَّبَ ذلك ببشارَةِ مَن كانوا ضِدَّ أعمالِهم، وهمُ الآخِذونَ بميثاقِ الكتابِ والعاملونَ ببشارتِه بالرُّسلِ، وآمَنوا بمحمَّدٍ ﷺ، فأولئكَ يَستكْمِلونَ أَجْرَهُم لأنَّهم مُصْلِحونَ[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يُمَسِّكُونَ﴾: المَسْكُ أصلٌ صحيحٌ يدلُّ على حَبْسِ الشَّيءِ أو تَحَبُّسِه[3]، وإمساكُ الشَّيءِ التَّعَلُّقُ به وحِفْظُه[4]، والإمْساكُ: القَبْضُ، يُقالُ: أَمْسَكْتُ الشَّيْءَ بيَدي، إمْساكاً، أيْ: قَبَضْتُهُ، وأَصْلُه: حَبْسُ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 146/3.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 164/9.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (مسك).
(4) الرّاغب، المفردات: (مسك).

النَّفْسِ عن الفعْلِ، وضِدُّهُ: الإِطْلاقُ والإِرْسالُ[1]. التَّمسّكُ بالكتابِ: التَّعلُّقُ بهِ وحِفْظُهُ، كالقابِضِ على الشَّيءِ الَّذي يَرجو النَّجاةَ مِن قِبَلِه والفَوْزَ مِن جَهَتِه.

2) ﴿ٱلْمُصْلِحِينَ﴾: الصَّلاحُ: ضِدُّ الفَسادِ، وهما مختصّانِ في أكثرِ الاستعمالِ بالأفعالِ[2]، والصّلاحُ: الاسْتِقامَةُ والاعْتِدالُ، يُقالُ: صَلَحَ، وصَلُحَ يَصْلُحُ، صَلاحاً، وصُلوحاً، أيْ: اسْتَقامَ واعْتَدَلَ، وأَصْلَحَ الشَّيْءَ بَعْدَ فَسادِهِ: أَقامَهُ وعَدَّلَهُ، ويأْتي بِمَعْنَى الخَيْرِ والنَّفْعِ، ومِنْ مَعاني الصَّلاحِ: السَّلامَةُ، والصِّحَّةُ والصَّوابُ والكَمالُ[3].

❁ المَعْنى الإِجْمالِيُّ:

الصَّلاحُ والإصلاح ثمرةُ التمسُّك بالكتاب

والذينَ يَسْتَمْسِكونَ بأوامرِ الكتابِ الذي أَنْزَلَهُ اللّهُ، ويَعْتَصِمونَ بحبْلِهِ في جميعِ شُؤونِهِم، إنّا لا نُضيعُ أجرَهم؛ لأنّهم قد أَصْلَحوا دينَهُم ودُنْياهُم، واللّهُ لا يُضيعُ أجرَ مَن أَحْسَنَ عَملًا[4].

وتُرشِدُ الآيةُ إلى أنَّ اللّه بَعثَ رُسُلَه - عليهمُ الصلاةُ والسلامُ - بالصَّلاحِ لا بالفَسادِ، وبالمنافعِ لا بالمضارِّ، وأنَّهم بُعِثوا بِصَلاحِ الدَّارَيْنِ، فَكُلُّ مَن كان أَصْلَحَ، كان أقربَ إلى اتِّباعِهِم[5]، وإلى أنَّ التَّمَسُّكَ بكتابِ اللّه والدِّينِ يحتاجُ إلى الملازَمَةِ والتَّكْريرِ[6].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

معنى الواو ودلالتها في الآية:

الواو عاطفةٌ على الآيةِ السابقةِ لأنّهما حالَيْنِ مُتقابِلَيْنِ

الظّاهرُ أنَّ الواو عاطفةٌ على الآيةِ السابقةِ، وقد ذَكَر الزَّمَخْشَريُّ

(1) ابن سيده، المحكم، والجوهريّ، الصّحاح، وابن منظور، لسان العرب: (مسك).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (صلح).
(3) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن سيده، المحكم، وابن منظور، لسان العرب: (صلح).
(4) طنطاويّ، التَّفسير الوسيط: 428/5.
(5) السَّعديّ، تيسير الكريم الرحمن، ص: 172.
(6) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 374/9.

وَجْهَيْنِ لِوضْعِ الآيةِ النّحْويِّ مع ما سَبَقَها: الوجهُ الأولُ: أن يكونَ قولُه ﴿وَٱلَّذِينَ﴾ مبتدأً وخبرُه ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ﴾؛ لأنَّ ﴿ٱلْمُصْلِحِينَ﴾ في معنى الذين يُمَسِّكونَ بالكتابِ، والثاني: أن يكون مجرورًا عَطْفًا على قولِه ﴿وَٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾، ويكون قولُه ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ﴾ اعتراضًا[1]، ورَجَّحَ أبو حيّان الوجهَ الأولَ، فقال: "استئنافُ إخبارٍ؛ لَمّا ذَكَرَ حالَ من لم يَتَمَسَّكْ بالكتابِ ذَكَرَ حالَ مَنِ اسْتَمْسَكَ بِهِ؛ فيكونُ ﴿وَٱلَّذِينَ﴾ على هذا مرفوعًا بالابتداء وخبرُه الجملةَ بعدَه. وأَجازَ الزمخشريُّ أن يكون ﴿وَٱلَّذِينَ﴾ في مَوْضِعِ جَرٍّ عَطْفًا على ﴿لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾، والاستِئْنافُ هو الظّاهرُ"[2].

نكتةُ التّعبيرِ بالاسم الموصول:

تعظيمُ حالِ مَن آمَن مِن اليهود بالكتابِ الذي أُنزِلَ عليهم، والثَّناءُ عليهم

أَفادَ الاسمُ الموصولُ هنا معاني التّعظيم والثَّناءِ والمدحِ لمن آمَن مِن اليهود بالكتاب الذي أُنزل عليهم، وتَمسَّكوا بأحكامِه ولم يُبَدِّلوها. وفي الآية ثناءٌ عليهم بأنَّهم الفائزونَ في الآخرة، وتَبْشيرٌ لهم بأنَّهم لا يَسْلُكون بكتابِهِم مَسْلَكَ عمومِ اليهود بكتاب اللّه.

سرُّ مجيءِ جملةِ صِلَةِ الموصولِ بمادَّتِها وصيغتِها:

دَلَّتْ مادَّةُ (مسك) وصيغتُها على شدّة المبالغة في العناية بالكتاب وتجدُّدِ رعايَتِهِ والعملِ به

أفادتِ المادّةُ اللّغويّةُ هنا معاني الحفظِ والرّعايةِ والصّيانةِ للكتابِ، كما أفادَ تضعيفُ السِّينِ في الفعلِ تَضْعيفَ العملِ، والمبالغةَ فيه. وأَفادَتْ صيغةُ المضارعيّةِ التَّجديدَ الاستمراريَّ في التمسُّكِ بالكتابِ في كلّ حين، فَضْلًا عن إفادَتِها استحضارَ صورتِهم أمامَ القارئ.

بلاغةُ المجازِ في قوله: ﴿يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ﴾:

شَبَّهتِ الآيةُ عملَ المؤمنينَ من بني إسرائيل بما في الكتابِ بحالِ مَن يتَمسَّكُ به بجامعِ الملابسةِ والملازمةِ، وعدمِ التّفريطِ فيه على سبيلِ الاستعارةِ التّصريحيّةِ التبعيّةِ، ويمكن أن تُجرى الاستعارةُ

(1) الزمخشريّ، الكشّاف: 165/2.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 212/5.

على المكْنِيّةُ أيضًا بأن شَبَّهَ الكتابَ بالشيءِ المحبوبِ الذي مِن شَأْنِه أن يُتَمسَّكَ به، فَحَذَفَ المشبَّهَ به وأَسْنَدَ شيئًا من لوازِمِه وهو التَّمسُّكُ إلى الكتابِ على سبيلِ الاستعارةِ المكْنِيّةِ، كما يُمكن حَملُها على الكنايةِ أيضًا؛ إذ قد لا يُوجَد قرينةٌ مانِعةٌ من إرادةِ المعنى الحقيقيِّ في حمْلِهِمُ الكتابَ والقبضِ عليه بشدّة.

في تشبيهِ العملِ بالكتابِ بحالِ المتَمَسِّك به استعارةٌ بديعةٌ أو كنايةٌ جميلةٌ

التوجيهُ البلاغيُّ للقراءاتِ في ﴿يُمَسِّكُونَ﴾:

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ﴾ قرأَ شعبةُ بسكونِ الميم وتخفيفِ السِّين ﴿يُمْسِكُونَ﴾، وقرأ الباقون بفتحِ الميمِ وتشديدُ السّين ﴿يُمَسِّكُونَ﴾[1].

وقراءةُ التَّشديدِ أفادَتْ معنى الحِرْصِ والمبالغةَ في العملِ بالتوراةِ والحرصِ عليها، وفيها معنى التَّكريرِ والتكثيرِ لِلتَّمَسُّكِ بكتابِ اللّه تعالى وبدِينِه، فبذلك يُمْدَحونَ[2].

معنى الباء في ﴿بِٱلْكِتَٰبِ﴾:

الباءُ في ﴿بِٱلْكِتَٰبِ﴾ قد تكونُ للسَّبَبِيَّةِ، على معنى أنّهم يتمسَّكونَ في دينِهم بسببِ هذا الكتاب، أو تكون الباءُ للمُصاحَبَةِ والملابسةِ على اعتبارِ أنّهم لا يَنْفَكُّونَ عنه. ويمكُن حملُها من ناحيةٍ أُخرى على معنى الاستعانةِ، وفي كَوْنِها للاستعانةِ ما يُشْعِر بأنّ الكتابَ كأنّه آلةٌ يَستعينونَ بها على أمرِهم، لذا فَحَمْلُها على الملابَسَةِ والملاصَقَةِ قد يكونُ هو الأَوْلى.

تَحتمِلُ الباءُ مَعانيَ عديدةً ترتبطُ بالمعاني التي تُحمَل عليها

معنى (أل) في ﴿بِٱلْكِتَٰبِ﴾:

الأظهرُ أن تكون (أل) عَهْديّةً، ويُرادُ بالكتابِ التوراةُ؛ لأنّ الآيةَ تتحدَّثُ عن بني إسرائيل، ولايوجَدُ ما يَمنعُ من ناحيةٍ أُخرى من أنْ تكونَ جِنسيَّةً استغراقيّةً يُراد بها مُطْلَقُ الكتبِ السَّماويّةِ لأنّ بعضَها مُصَدِّقٌ لبعضِها الآخر، وهذا الأظهرُ.

(أل) هنا يمكن حملُها على العَهْد أو الجنسِ

(1) ابن النّاظم، شرح طيبة النَّشر في القراءات العشر، ص: 239.
(2) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 374/9.

المرادُ بـ﴿بِٱلۡكِتَٰبِ﴾:

المرادُ بالكتابِ التَّوراةُ أوِ القرآنُ أو جِنْسُ الكتبِ السَّماويةِ عُمومًا[1].

نكتةُ عطفِ ﴿وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ على ما تَقدَّمَها:

تعظيمُ شأنِ الصَّلاةِ؛ لأنّها عمادُ الدّين

العَطْفُ في الآية من عطفِ الخاصِّ على العامِّ؛ فالتَّمَسُّكُ بالكتابِ يَشْمَل كلَّ عبادةٍ ومنها الصَّلاة، ولكن خَصَّها بالعطفِ تعظيمًا لشأنها لأنّها عمادُ الدّين[2]، وهذا يَدلُّ على أنّ تاركَ الصلاةِ من (الخَلْفِ).

غرضُ التَّغايُرِ بين الجُمَلِ المعطوفةِ:

الفعلُ المضارعُ دَلَّ على تجدُّدِ التمسُّكِ، والماضي دَلَّ على رسوخِ قَدَمِهم في العبادات

عُطِفَ قولُه ﴿وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ على قولِه ﴿يُمَسِّكُونَ﴾ مع أنّه فعلٌ مضارعٌ؛ يقول البِقاعِيُّ: "ولَمّا كان مِن تَمسُّكِهم بالكتابِ عند نُزولِ هذا الكلامِ انتقالَهم عن دينِهم إلى الإسلامِ؛ كما وَقَعَ الأمرُ به في المواضِعِ التّي تقدَّم بيانُها، عَبَّرَ عن إقامةِ الصَّلاةِ المعهودةِ لهم بلَفظِ الماضي دونَ المُضارعِ؛ لِئلّا يَجعلوه حُجَّةً في الثَّباتِ على دينِهم، فيُفيدَ ضِدَّ المرادِ"[3]. فالفعلُ الماضي دلَّ على قِدَمِ رُسوخِهم في الطاعاتِ من صلاةٍ وغيرِها.

سِرُّ الاقتصارِ على إقامةِ الصلاةِ دونَ غيرِها من الأعمال:

خُصَّتْ بالذِّكْرِ لِفَضْلِها، وشرفِها، وكونِها ميزانَ الإيمان، وإقامتُها داعيةً لإقامةِ غيرِها من العبادات

قوله تعالى: ﴿وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾؛ إنَّما خُصَّتِ ﴿ٱلصَّلَوٰةَ﴾ مع دخولها في التَّمسُّكِ بالكتاب؛ تنبيهًا على عِظَمِ قَدْرِها، وأنّها من أعظمِ العباداتِ بعد الإيمانِ باللّه ورسوله[4]، وأنَّها من أَوْكَدِ الأمورِ التي يجبُ المحافظةُ عليها؛ ولكونِها عمادَ الدِّين وناهيةً عن الفحشاءِ والمنكَرِ[5]. وهي مِن أعظمِ ما يجبُ التَّمَسُّكُ به من المأموراتِ، ظاهرًا

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 212/5.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 212/5.
(3) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 146/3.
(4) الهرريّ، حدائق الروح والريحان: 204/10.
(5) طنطاويّ، التفسير الوسيط: 428/5.

وباطنًا، ولهذا خَصَّها الله بالذِّكْرِ لِفَضْلِها، وشرفِها، وكونِها ميزانَ الإيمانِ، وإقامتُها داعيةً لإقامةِ غيرِها من العبادات[1].

سِرُّ التّعبيرِ عن الصَّلاة بإقامَتِها دونَ أدائِها:

معاني إقامةِ الصلاةِ من القيامِ بأركانِها والعملِ بمقتضاها غيرُ مُستَوعَبَةٍ في الأداء

يُورِد القرآنُ ألفاظاً وتعابيرَ دقيقةً ومناسبةً لما يُراد من معانٍ وأحكامٍ ومَقاصِدَ، ودائمًا ما يأمرُ بإقامةِ الصّلاةِ دونَ أن يأمرَ بأدائِها؛ لأنَّ إقامتَها تشملُ أداءَها وإقامةَ أركانِها والعملَ بمقتضاها في النّهي عن الفحشاء والمنكر.

والتعبيرُ بالفعلِ (أقاموا) في القرآن يعني أكثَرَ من مُجَرَّدِ (أدَّوْا)؛ لكون الإقامَةِ تشملُ الإخلاصَ والإحسانَ والاتِّباعَ والإتقانَ في أداءِ الصلاة، بخلافِ مجرَّدِ القيامِ بها دون تَفَكُّرٍ أو تَدبُّرٍ أو خُشوعٍ. وتعني كذلك أن يقومَ المصلِّي بالصَّلاةِ في أوقاتِها المحدَّدَةِ، وأن يؤدِّيَها بشروطِها وأركانِها وواجباتِها وسُنَنِها، وأن يَخشَعَ قلبُه لربِّه في كلِّ حال.

فالإقامةُ تُعبِّرُ عن استِمْراريَّةٍ وثباتٍ في هذه العبادةِ، بخلافِ مجرَّد القيامِ بها مرَّةً أو أدائِها أحيانًا وتَركِها أخرى؛ فالإقامةُ تعني أن يُؤدِّيَ المصلِّي بالصلاة بصفةٍ دائمةٍ ومستمرَّةٍ، بِغَضِّ النَّظرِ عن الظُّروفِ أو العوائقِ التي تَطْرأُ عليه سَفَرًا وحَضَرًا، سِلْمًا وحَرْبًا، صِحَّةً ومَرَضًا، وأنْ يَتَقيَّدَ بأحكامِها وآدابِها وحُدودِها، وأن يبتغيَ بها وجهَ الله تعالى ورِضاهُ.

الموقعُ النّحويُّ والبيانيُّ لقوله ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ﴾:

الجملةُ لها محلٌّ من الإعرابِ وقعت خبرًا مؤكِّدا للمبتدأ (والّذين يُمَسِّكونَ بالكِتابِ)

يقول ابن عاشور: "جملةُ: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ﴾ خبرٌ عن ﴿وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ﴾، والمصلحون هم، والتَّقديرُ: إنّا لانُضيعُ أَجْرَهُم؛ لأنَّهم مُصْلِحونَ، فَطُوِيَ ذِكْرُهم اكتفاءً بشمولِ الوصفِ

(1) السعديّ، تيسير الكريم الرحمن، ص: 172.

لهم، وثناءً عليهم على طريقةِ الإيجازِ البديعِ"[1]. وجاء هذا الخبرُ على هيئةِ جملةٍ اسميَّةٍ مؤكَّدةٍ للعنايةِ بهم ورفْعِ شَأْنِهم. ويمكنُ أن يكونَ الخبرُ محذوفًا تقديرُه: مَأْجورونَ أو مُثابونَ، وتكون هذه الجملةُ اعتراضيَّةً، أو هي استئنافٌ بيانيٌّ جوابًا عن سؤالٍ مقدَّرٍ حولَ ثوابِهم عندَ اللّهِ[2].

بلاغةُ تتابُعِ المؤكِّدات في فاصِلَةِ الآية:

بثُّ الطمأنينةِ في قلوبِ المتمسِّكينَ بكتابِ اللهِ، وحَثُّهُم على الاستقامةِ على أمر الله

أُكِّدَتِ الجملةُ بأكثرِ من مؤكِّدٍ: (إنّ)، والجملةُ الاسميّةُ، وإعادةُ ذِكْرِ المسنَدِ إليه، مرَّة بكونِه مبتدأً، ومرّةً بكونِه فاعلًا؛ وذلك لتقريرِ قيمةِ الإصلاحِ والتمسُّكِ بالكتابِ.

فإذا كان الخطابُ مُوجَّهًا أساسًا لبني إسرائيلَ وأحفادِهم؛ فإنّ التّوكيدَ على ظاهرِه لأنّهم يحتاجونَ إليه في حَثِّهم على الاستقامَةِ.

أمّا إنْ كان الخطابُ للمُسْلِمينَ منهم ومن غيرِهم، فالخروجُ عن الظَّاهِرِ في استعمالِ هذه المؤكِّداتِ إنّما هو لبيانِ أنَّ ظواهرَ الأعمالِ لا تكفي لحصولِ الثَّوابِ، بل لا بدَّ من العنايةِ ببَواطِنِها؛ لذا جاءَ قولُه ﴿يُمَسِّكُونَ﴾ مُضَعَّفًا مُبالَغًا فيه، وجاءَ الأمرُ بإقامةِ الصَّلاةِ دونَ أدائِها، وجاءَ الوعدُ لِلمُصْلِحينَ دونَ الصّالحين.

فائدةُ تَوَسُّطِ النّفيِ بين المسنَدِ إليه والمسنَد:

توكيدُ الحكمِ وتقريرُه

تَوسَّطَ النّفيُ بـ(لا) بين المسنَدِ إليه والمسنَدِ الفعليِّ ﴿نُضِيعُ﴾؛ لتوكيدِ الحُكْمِ وتقريرِه عند أهل المعاني، ولا يوجدُ قرينةٌ من حَمْلِه على التّخصيصِ في هذا الموضع.

فائدةُ التّعبير بـ﴿نُضِيعُ﴾ مادّة وصيغة:

تدلُّ مادّةُ (ضاع) على الفقْدانِ والخسارةِ، والتّعبيرُ بها هنا مفيدٌ أنَّ أَجْرَ هذه الأعمالِ لا يذهُب سُدىً، وآثَر التعبيرُ القرآنيُّ استعمالَ

تدلُّ مادَّةُ (ضاع) على الفِقْدانِ والخسارةِ، ودَلَّتْ صيغتُها على التجدُّدِ الاستمراريِّ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 164/9.
(2) السّمين الحلبيّ، الدُّر المصون: 585/5.

الفعلِ المضارعِ ﴿نُضِيعُ﴾ الذي يدلُّ على التجدُّدِ والاستمرارِ؛ لِيَدُلَّ على أنَّ اللّٰه ﷻ لن يُضيع عملَ المُصْلِحينَ المتمسِّكينَ بكتابِه الكريمِ، سواءٌ كان هذا العملُ صغيرًا أو كبيرًا.

غرضُ إضافةِ الأجرِ إلى ﴿ٱلْمُصْلِحِينَ﴾:

إضافةُ الأجرِ إلى ﴿ٱلْمُصْلِحِينَ﴾ من باب العنايةِ بهم ورَفْعِ شأنِهم؛ لأنّهم لم يَكتَفُوا بأنْ يكونوا صالحينَ بل تَعَدَّوا ذلكَ إلى إصلاحِ غيرِهم، وأَمْرِهم بالمعروفِ ونَهْيِهم عن المنكَرِ، ولا سيّما أنَّ هذه الآيةَ جاءتْ بعد استعراضِ قِصَّةِ القريةِ حاضرةِ البحرِ، وما جَرى فيها بين المُصْلِحينَ والمثبِّطينَ.

الإضافة للعناية بفئة المصلحين والإشادة بجهودهم

معنى (أل) في ﴿ٱلْمُصْلِحِينَ﴾:

(أل) الأفضلُ هنا أن تكونَ جِنسيَّةً استِغْراقيّةً لِتَعُمَّ كلَّ المصلِحينَ والدّعاةِ في كلّ زمانٍ ومكانٍ، من أهلِ الكتابِ ومن غيرِهم، لذا حُذِفَ متعلِّقُها لِيَعُمَّ ذلك كلَّه؛ فلم يَقُل: المُصْلِحينَ أَنْفُسَهم أو أهليهم أو أقوامَهم.

وجهُ الإظهارِ في ﴿ٱلْمُصْلِحِينَ﴾ في مقامِ الإضمارِ:

جاء الإظهارُ في موضعِ الإضْمارِ، فلم يَقُل: (إنا لا نُضيعُ أجرَهم)، بل صَرَّحَ بِوَصْفِهم دونَ إضمارٍ، بقوله تعالى: ﴿ٱلْمُصْلِحِينَ﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّ ذلكَ شَأْنٌ من شُؤونِ اللّٰهِ العَلِيِّ الأعلى، وللإشارة إلى السَّببِ في الجزاءِ وهو الإصْلاحُ، أي كونُهم مُصْلِحينَ[1]، وليؤكِّدَ أنَّ الصَّلاحَ والإصلاحَ هو ثمرةُ التَّمَسُّكِ بالكتابِ.

الصَّلاحُ والإصلاحُ هوَ ثمرةُ التَّمَسُّكِ بالكتابِ

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 3000/6.

﴿۞وَإِذۡ نَتَقۡنَا ٱلۡجَبَلَ فَوۡقَهُمۡ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٞ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُۥ وَاقِعُۢ بِهِمۡ خُذُواْ مَآ ءَاتَيۡنَٰكُم بِقُوَّةٖ وَٱذۡكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ١٧١﴾

[الأعراف: 171]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

ذِكْرُ مَنْ أخذَ بالكتابِ رهبةً، بعد ذِكْرِ مَنْ تَمَسَّكَ بِهِ رغبةً

لَمَّا ذكرَ النَّظمُ الكريمُ أنَّه رهَّب بني إسرائيل من مُخالفةِ الكتاب، ورغَّبهم في مُؤالفتهِ، وكان عذابُ الآخرة مُستقبلًا وغائبًا، ذكَّرهم بترهيبٍ دُنْيَويٍّ مضى إيقاعُهُ بهم، ليأخذوا مواثيقَ الكتاب لغاية الجدِّ، فقال: ﴿۞وَإِذۡ نَتَقۡنَا ٱلۡجَبَلَ فَوۡقَهُمۡ﴾[1]، كما أنَّه لَمَّا ذَكَرَ حال من تَمَسَّك بالكتابِ، واعتصم به طَوْعًا في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ﴾ [الأعراف: 170]، ذَكَرَ من تَمسَّك به كُرْهًا من أسلاف اليهودِ[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿نَتَقۡنَا﴾: أي: زَعْزَعْناهُ، واقتلعناهُ من أصلِه، من نَتَقَ الشَّيءَ يَنْتِقُهُ ويَنْتُقُهُ نَتْقًا؛ إذا جذبهُ واقتلعَهُ[3]، وأصلُ نتقَ يدلُّ على جَذْبِ شَيْءٍ وَزَعْزَعَتِهِ وَقَلْعِهِ مِنْ أَصْلِهِ[4]، يُقال: نتقْتُ السِّقاءَ؛ إذا نفضْتَهُ لِتَقلَعَ منه زُبْدَته[5]، والنَّتْقُ أيضًا: الرَّفعُ[6]: والمعنى هُنا: إذ اقتلعنا الجبلَ، فرفعناهُ فوقَ بني إسرائيل[7]، وفي لسانِ العربِ: "وكان نَتْقُ الجبلِ، أنَّه قُطِعَ منه شيءٌ، على قدر عسكر موسى، فأظلَّ عليهم، قال لهم موسى: إمَّا أن تقبلوا التَّوراة، وإمَّا أن يسقطَ عليكم"[8].

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 149/8.
(2) النيسابوريّ، غرائب القرآن: 340/3، وابن عجيبة، البحر المديد: 277/2.
(3) ابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم، وابن منظور، لسان العرب: (نتق).
(4) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (نتق).
(5) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 174.
(6) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (نتق).
(7) ابن جرير، جامع البيان: 217/13.
(8) ابن منظور، لسان العرب: (نتق).

2) ﴿ظُلَّةٌ﴾: الظُّلَّة قطعةٌ من السَّحابِ؛ لأنَّها تُظِلُّ من تحتها[1]، وجَمْعُها ظُلَلٌ، وتُطلق الظُّلَّةُ عند العرب على أَوَّلِ سَحَابَةٍ[2]، وأكثرُ مَا تُقالُ فِيمَا يُسْتَوْخَمُ ويُكْرَهُ[3]، وأصلُ (ظَلَلَ) يدلُّ على سَترِ شَيءٍ لِشيءٍ[4]، فكلُّ مَا غطَّى، وستَرَ؛ فقد أظلَّ[5]، والمعنى هُنا: كأنَّهُ لِارتِفاعِهِ سَحابَةٌ تُظِلُّ[6]، وقيل: عذابُ يوم الظُّلَّة؛ لأنَّ اللّٰه جلَّ وعزَّ، بعثَ غمامةً حارَّةً، فأطبقت عليهم، وهلكوا تحتها، وكلُّ ما أطبقَ عليك فهو ظُلَّةٌ، وكذلك كلُّ ما أظلَّكَ[7].

3) ﴿وَظَنُّوٓاْ﴾: أيقنوا، يُقال: ظَنَنْتُ ظَنًّا، أَيْ: أَيْقَنْتُ، والظَّنُّ في العربيَّة على وجهين: شَكٌّ، ويقين، فربَّما عبَّروا عن اليقين بالظَّنِّ، وقد جاء في القرآنِ كذلك[8]، وأصلُ (ظنَّ) يَدُلُّ عَلَى معنَيينِ مُختلِفينِ: يقينٍ وشكٍّ[9]، فالمعنى هُنا: أيقنوا أنَّ الجبلَ واقعٌ بهم[10].

❁ المَعْنى الإِجْمالِيُّ:

ذِكْرُ ما وقعَ من تهديدِهم بنتقِ الجبلِ، وأَمْرُهُم بالالتزامِ وتقوى اللهِ

واذكرْ - أيُّها الرَّسول - إذ اقتلعْنا الجبل، فرفعناهُ فوق بني إسرائيل، لَمَّا امتنعوا من قَبول ما في التَّوراةِ، فصارَ الجَبَلُ كأنَّه سحابةٌ، تُظِلُّ رؤوسَهم، وأيقنوا أنَّه ساقطٌ عليهم، وقيل لهم: خذوا ما أعطيناكم من هدًى في التَّوراة بِجِدٍّ وعزمٍ على الطَّاعةِ، واذكروا ما في كتابِنا من العهودِ والمواثيقِ والأحكامِ الَّتي شرعَها

(1) السَّمين الحلبيُّ، عُمدة الحفَّاظ: (ظلل).
(2) الجوهريُّ، الصِّحاح: (ظلل).
(3) الرّاغب، المفردات، والزّبيديّ، تاج العروس: (ظلل).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ظلّ).
(5) الهائم، التبيان، ص: 126، والسَّجستاني، غريب القرآن، ص: 325.
(6) القرطبيُّ، الجامع لأحكام القرآن: 313/7.
(7) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: 258/14.
(8) الجوهريُّ، الصِّحاح، والصَّاحب ابن عبّاد، المحيط في اللّغة: (يقن).
(9) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: 462/3.
(10) العليميّ، فتح الرّحمن في تفسير القرآن: 276/6، والماتريديّ، تأويلات أهل السّنة: 81/5.

اللّه لكم، ولا تنسوه رجاءَ أن تتَّقوا اللّه؛ إذا قمتُم بذلك، فتنجوا من عقابِهِ[1].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالةُ العطفِ بالواوِ في قولِهِ: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ﴾:

التَّذكيرُ والعبرةُ بذكرِ قصصِ بني إسرائيلَ، وفضائحِ سلفِهم وخلفِهم

الآيةُ الكريمةُ معطوفةٌ على ما سبقَ من أحوال بني إسرائيلَ[2]، حيثُ عادَ السِّياق إلى العبرةِ بذكرِ قصصِ بني إسرائيلَ مع موسى عليه السلام لأنَّ قصَّةَ رفْعِ الطُّور عليهم من أمَّهات قصصهم، وضمائرُ الجمع في الآية كلُّها يُرادُ بها بنو إسرائيلَ الَّذين كانوا مع موسى بِقَرِينَةِ المقَام[3]، وقد ذُكِرَتْ هذه القصَّةُ بعد قصَّةِ قريةِ الَّذين اعتدوا في السَّبت، وخبرِ إيذان بني إسرائيلَ بمن يسومهم سوءَ العذابِ، فحَسُنَ العطفُ بذكرِ قصَّة فضيحةِ أسلافِهم، تذكيرًا ببعض رذائلِ اليهودِ وفضائحهم المتنوِّعةِ منذ الزَّمنِ الأوَّل، وكونهم مشتركينَ متشابهين فيها.

دلالةُ القيدِ بلفظِ (إذ) الظَّرفيَّةِ:

إلزامُ اليهودِ امتثالَ أوامرِ اللهِ، واتِّباعَ دينِهِ

(إذْ) في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ﴾، ظرفيَّةٌ حينيَّةٌ مُتعلِّقةٌ بالفعل المقدَّر (اذكر)[4]، أي: واذكر - يا محمَّدُ - وذَكِّر بني إسرائيلَ المعاصرين لك وقتَ أن رفعْنا الجبلَ فوقَ آبائِهم الَّذين كانوا في عهد موسى[5]، حيثُ ذكرت هذه الآية طرفًا من رذائل اليهود، فلمَّا قرأ عليهم موسى التَّوراةَ، أو لمَّا أخبرهم بالوصايا والتَّعاليم الَّتي في الألواحِ؛ بادروا نبيَّهم بأنَّ ما فيها لا يتحمَّلونه؛ لأنَّه إصرٌ وحِمْلٌ

(1) لجنة من عُلماءِ الأزهر، المنتخَبُ في تفسير القرآنِ الكريم، ص: 234، ونُخْبة من أساتذة التَّفسير، التَّفسير المُيَسَّر، ص: 173، وجماعَةٌ من علماء التَّفسير، المُخْتَصَر في تفسير القرآن الكريم، ص: 173.

(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 92/5، وطنطاويّ، التَّفسير الوسيط: 428/5.

(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 165/9.

(4) أحمد عبيد الدّعّاس، إعراب القرآن الكريم: 406/1.

(5) الآلوسيّ، روح المعاني: 92/5، وابن عاشور، التَّحرير والتّنوير: 165/9، وطنطاويّ، التَّفسير الوسيط: 428/5.

ثقيلٌ عليهم لا يطيقونه، وكان هذا منهم عِنَادًا، فحملهم اللّهُ على العملِ بما في التَّوراةِ، بأن نتقَ الجبلَ فوقَهم، ورفعَهُ رفعًا حقيقيًّا، كأنَّه ظُلَّةٌ[1]، والغرضُ من هذا التَّذكيرِ، إلزامُ اليهودِ والرَّدُّ عليهم في قولهم: إنَّ بني إسرائيلَ لم يصدر منهم مخالفةٌ في الحقِّ[2].

سِرُّ اصطفاءِ الفعلِ ﴿نَتَقْنَا﴾:

بيانُ شُمولِ الفعلِ (نَتَقَ) لمعاني الشِّدَّةِ والقوَّةِ في القلعِ والرَّفعِ

عند التَّحقيقِ نجدُ اختلافًا بين (نتق) و(رفع)؛ لأنَّ الجبلَ راسٍ في الأَرض، وممسوكٌ كالوتد، وقد أرسى ربُّنا الجبال، وجعلها في الأرض أوتادًا، والوَتد - كما نعلم - ممسوكٌ من الموتود، والمثْبت فيه، لذلك يحتاجُ قبل أن يُرفعَ إلى عمليَّةِ نزعٍ واقتلاعٍ من الأرض، ثُمَّ يأتي من بعد ذلك الرَّفعُ، و﴿نَتَقْنَا﴾ تعني: نزعْنا الجبلَ من مكان إرسائهِ، حتَّى نرفعَهُ، يدلُّ عليه قولُهُ بعدها: ﴿فَوْقَهُمْ﴾ باعتبارِ تضمُّنِهِ لمعنى رفعنا، كأنَّهُ قيل: رفعْنا الجبلَ فوق بني إسرائيلَ بنتقهِ وقلعهِ من مكانه، فالنَّتقُ من مُقدِّمات الرَّفع، وسببٌ لحصوله[3]، وقد رفعَهُ اللّهُ ليجعل منه ظُلَّةً عليهم، أي: هناكَ ثلاثُ عمليَّاتٍ: نَتْقٌ، أي: نزْعٌ وخلْعٌ، ثمَّ رفْعٌ، ثُمَّ جَعْلُهُ سبحانه ظُلَّةً لهم، وهذا يحتاج إلى اتِّجاهٍ في المرفوع إلى جهةٍ مَا[4]، فلفظ ﴿نَتَقْنَا﴾ فيه معنى الرَّفعِ وزيادة، فإنَّها لا تكون إلَّا في رفع الثَّقيلِ الَّذي لا يستطيعهُ إلَّا الأقويَاءُ، فمِنَ الألفاظ العربيَّة ألفاظٌ تحملُ في نفسها الشِّدَّة والقوَّة في دلالتها، فلا نقولُ: نتقتُ العصا، أو نتقتُ السَّيف، ولكن نقول: نتقتُ الجبلَ، أو نتقتُ أطنانَ الحديدِ[5].

دلالةُ انتخابِ نونِ العظمةِ في التَّعبيرِ ﴿نَتَقْنَا﴾:

الزِّيادةُ في التَّرهيبِ المُفضي إلى الإجلالِ والامتثالِ

قَولُ اللّهِ تعالى: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ﴾، أتى بنونِ العَظَمةِ

(1) عبد الله شحاتة، تفسير القرآن: 1623/9.
(2) القنوجيّ، فتح البيان: 610/2.
(3) البروسويُّ، روح البيان: 271/3.
(4) الشَّعراويُّ، تفسير الشَّعراويّ: 4431/7.
(5) محمَّد أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 3001/7.

وضميرِ الكبرياء في نَتَقْنَا لزيادةِ التَّرهيبِ[1]، فضميرُ العظمةِ يكونُ للدَّلالة على التَّعظيم والإجلالِ، واللّه سبحانه هو المستحقُّ لكمال العظمة والجلال؛ فالنَّاتقُ لهذا الجبلِ العظيم، هو رَبُّ العِزَّةِ والجلال الَّذي ذَلَّت لجبروتِهِ الصِّعاب، ولانت لقُدرتِهِ الشَّدائد الصِّلاب.

دلالةُ اللَّامِ في لفظةِ ﴿ٱلۡجَبَلَ﴾:

لفظُ ﴿نَتَقۡنَا﴾ يُرادُ به الرَّفع بقرينة ﴿كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٞ﴾ وذِكْرِهِ مُصرَّحًا في موضعٍ آخر، وهو قولهُ تعالى: ﴿وَرَفَعۡنَا فَوۡقَكُمُ ٱلطُّورَ﴾ [البقرة: 63] الآية؛ فَعُلِمَ منه أنَّ الجبلَ هو الطُّورُ، فاللَّامُ للعهد الذِّهني[2]، فعَرَّفَ الْجَبَلَ لمَعرِفَتِهم به[3]، فهو معلومٌ لدى بني إسرائيل؛ فالتَّعريفُ للجبل حَدَّد الكلمةَ وعَيَّنها، وهذا من دلالةِ التَّعريفِ في العربيَّة.

تحديدُ اللَّفظةِ وتعيينُها للطُّورِ المذكورِ والمعهودِ في أذهانِهم

نُكتةُ استعمالِ كلمةِ ﴿ٱلۡجَبَلَ﴾ في هذا الموضعِ و(الطُّور) في غيرِه:

وردَ ذكرُ هذه الحادثةِ الواقعة لبني إسرائيل، في البقرةِ والنِّساء والأعراف، فَذُكِر الجبل بلفظ الطُّور في قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَكُمۡ وَرَفَعۡنَا فَوۡقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُواْ مَآ ءَاتَيۡنَٰكُم بِقُوَّةٖ وَٱذۡكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ٦٣﴾ [البقرة: 63]، وفي قوله في سورة النِّساء، ﴿وَرَفَعۡنَا فَوۡقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَٰقِهِمۡ وَقُلۡنَا لَهُمُ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ سُجَّدٗا وَقُلۡنَا لَهُمۡ لَا تَعۡدُواْ فِي ٱلسَّبۡتِ وَأَخَذۡنَا مِنۡهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظٗا ١٥٤﴾ [النِّساء: 154]. وفي موضع الأعرافِ جاءَ بلفظ الجبل ﴿۞وَإِذۡ نَتَقۡنَا ٱلۡجَبَلَ﴾، والجبلُ هو اسمٌ لما طالَ، وعظُم من أوتادِ الأرض، وعادة ما تُذكر الجبالُ في القرآن في موقع التَّهويل والتَّعظيم، فعبَّرَ به لدَلالةِ لفْظِهِ على الصُّعوبةِ والشِّدَّة، دونَ (الطُّورِ)؛ لأنَّ السِّياقَ لبيانِ نَكَدِهم بإسراعِهم في المعاصي الدَّالَّةِ على غِلظِ القَلبِ[4]، ولم يقلِ: الطُّورَ؛ فالنَّتقُ والجبل أشدُّ

التَّعبيرُ بالجبلِ للدَّلالةِ على الشِّدَّة والتَّخويفِ، المُناسب للتَّعظيم والتَّهويلِ

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 150/8.
(2) القونويّ، حاشيَته على تفسير البيضاوي: 541/8.
(3) البقاعي، نظم الدُّرر: 150/8.
(4) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 150/8.

تهديدًا وتهويلًا، كما أنَّه ذكر أنَّه رفعَهُ فوقهم ﴿كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ﴾، وذَكَرَ ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُۥ وَاقِعُۢ بِهِمۡ﴾، وفي حمل الشَّيءِ والتَّهديد للرَّمي به من الإخافة والتَّهديد، ما ليس في ذِكْرِ مُجَرَّد الرَّفع للطُّور في سورتي البقرة أو النِّساء.

سِرُّ التَّعبيرِ بالفوقيَّةِ في ﴿نَتَقۡنَا﴾:

تخصيصُ الرَّفعِ بجهةِ العُلوِّ الخاصَّةِ بمعسكرِهم

﴿فَوۡقَهُمۡ﴾ ظَرْف لـ﴿نَتَقۡنَا﴾، أو حال مقدَّرةٌ من الجبلِ، والعامل فيها محذوفٌ، تقديره (كائنًا فوقهم)؛ إذ كانت حالةُ النَّتق لم تُقارن الفوقيَّة، لكنَّه صار فوقهم[1]، فهي مخصَّصةٌ للرَّفع ببعض جهات العلوِّ[2]، كما أنَّ في ذكر هذا الظَّرف بيانًا لقهرهم وإذلالهم.

دلالةُ حذفِ الجَارِّ (مِنْ) في قوله: ﴿فَوۡقَهُمۡ﴾:

بيانُ استغراقِ الجبلِ لجميعِ الجهةِ الموازيةِ لمعسكرِهم

قولهُ تعالى: ﴿فَوۡقَهُمۡ﴾ أي: رفع اللّهُ الطُّورَ على رُؤوسِهم، مِقدارَ عسكرهم، وكان فرسخًا في فرسخ[3]، فانقلع الجبلُ من أصلهِ حتَّى قامَ على رؤوسهم، بحيثُ حاذى مُعسكرهم جميعًا، ولم يبقَ منهم أحدٌ إلَّا والجبلُ فوقَهُ، فلمَّا كان مُستغرقًا لجميع الجهة الموازيَةِ لعساكرهم، حَذَف الجَارَّ، فقال: ﴿فَوۡقَهُمۡ﴾[4]؛ لأنَّ حرف الجرِّ (من) لو ذُكِرَ هنا لأَوْهَمَ معناهُ أن يكون النَّتقُ ابتداءً من العلوِّ، ولايشمل الجهاتِ الأخرى حينئذٍ، والتَّشبيهُ اللَّاحق قد تولَّى بيانَ كلِّ الجهات من جهة العلوِّ، وهو تعبيرٌ عن إحاطةِ القهر.

الدَّلالةُ البلاغيَّةُ لموقعِ ﴿كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ﴾ بعد ﴿فَوۡقَهُمۡ﴾:

بيانُ كونِ الجبلِ قد أظلَّهم ووسعَهم مرفوعًا فوقهم

﴿كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ﴾ أي: سقفٌ، فبَيَّن أنَّه كان أكبر مِنْهُم[5]، والمعنى: كأنَّه حالة ارتفاعهِ عليهم ظُلَّةٌ من الغمام[6]، "قال مجاهدٌ: أُخرِجَ

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 217/5.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 92/5، والعكبريُّ، التّبيان في إعراب القرآن، ص: 173.
(3) الزَّمخشريُّ، الكشَّاف: 175/2.
(4) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 150/8.
(5) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 150/8.
(6) أبو حيّان، البحر المحيط: 217/5.

الجبلُ من الأرض، ورُفِعَ فوقهم كالظُّلَّة، فقيل لهم: لَتُؤْمِنُنَّ، أو لَيَقَعَنَّ عليكم، قال قتادة: نزلوا في أصل جبلٍ، فرُفع فوقَهم، فقال: لَتأخُذُنَّ أمري، أو لَأرمينَّكُم به"[1].

بلاغةُ الصُّورةِ التَّشبيهيَّةِ في قوله: ﴿كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ﴾:

بيانُ الخصوصيَّةِ في كونِ الظُّلَّةِ ليست على عَمَدٍ، وأنَّها عذابٌ لا رحمةٌ

(الكاف) من كَأَنَّهُ، في موضعِ نصبٍ على الحال، أي: نَتَقْناهُ مُشْبِهًا الظُّلَّةَ، أي: في هذه الحال[2]، وينبغي أن يُحمَل التَّشبيهُ على أنَّه بِظُلَّةٍ مخصوصةٍ؛ لأنَّه إذا كان كلُّ ما أظلَّ يُسمَّى ظُلَّةً، فالجبلُ فوقهم صار ظُلَّةً، وإذا صار ظُلَّةً؛ فكيف يُشَبَّهُ بظلَّةٍ؟ فلو لم يكن المُرادُ بالظُّلة الفردَ الخاصَّ؛ لزمَ تَشبيهُ الشَّيءِ بِنَفْسه[3]، فالمعنى: كأنَّه حالةَ ارتفاعِهِ عليهم ظُلَّةٌ من الغمام، وهي الظُّلَّةُ الَّتي ليست تحتها عَمَدٌ، بل إمساكها بالقدرةِ الإلهيَّة، وإن كانت أجرامًا، بخلاف الظُّلَّةِ الأرضيَّةِ، فإنَّها لا تكونُ إلَّا على عَمَدٍ، فلمَّا كانت هذه الظُّلَّةُ الأرضيَّةُ فوقَهم بلا عَمَدٍ، شُبِّهت بِظُلَّة الغمام الَّتي ليست بلا عَمَدٍ[4]، فإن قيل: إذا كان الجبلُ ظُلَّةً حقيقةً، فما معنى: كأنَّه؟ فالجوابُ: أنَّ البشرَ إنَّما اعتادوا هذه الأجرامَ الأرضيَّةَ ظُلَلًا، إذا كانت على عَمَدٍ، فلمَّا كان الجبلُ على غيرِ عمدٍ، قيل: كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ، أي: كأنَّه على عَمَدٍ[5]، وثمَّةَ معنًى آخر لهذه الصُّورَةِ التَّشبيهيَّةِ، وهي أنَّ تظليلَ الغَمامِ كان رحمةً لهم من قَبْلُ، وصار الجبلُ ظُلَّةَ عذابٍ عليهم في هذا الموقع[6].

دلالةُ الواوِ في ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُۥ وَاقِعُۢ بِهِمۡ﴾:

تنويعُ المعاني بحسبِ دلالتِها ووجوهِها الإعرابيِّ

قوله: ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُۥ وَاقِعُۢ بِهِمۡ﴾، أي: ووقع في نفوسِهم أنَّ الجبلَ ساقطٌ عليهم، إذا لم يستجيبوا لما أمرهم به نبيُّهم عليه السلام، وجملة

(1) ابن الجوزيّ، زاد المسير: 166/2.
(2) مكّي، الهداية إلى بلوغ النّهاية : 4/2619.
(3) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاوي: 541/8.
(4) أبو حيَّان، البحر المحيط: 217/5.
(5) ابن عطيَّة الأندلسيّ، المحرَّر الوجيز: 474/2.
(6) الشَّعراويّ، تفسير الشَّعراويّ: 4431/7.

﴿وَظَنُّوٓاْ﴾، فيها أوجهٌ: أحدُها: أنَّه في محلِّ جَرٍّ، نسقًا على ﴿نَتَقْنَا﴾، المخفوضِ بالظَّرف تقديرًا، فيكون المعنى: رَجَّحُوا، أَو أَيقنوا الآن رَفْعَهُ على أَن يقع عليهم، إِنْ لم يقبلوا التَّوراة ﴿أَنَّهُۥ وَاقِعُۢ بِهِمْ﴾، والثَّاني: أنَّه حالٌ بتقدير (قد)، وصاحب الحال الجَبل، أي: كأنَّه ظلَّةٌ في حال كونهِ مَظْنونًا وُقوعُهُ بهم، والثَّالث: أنَّه مُستأنفٌ فلا محلَّ له[1]، فتكون الجملةُ مُستأنفةً لا محلَّ لها، و(أنَّ) وما في حيِّزها سدَّتْ مسدَّ مفعولي ظنَّ[2]، وعلى كلِّ وجهٍ من الوجوهِ الثَّلاثةِ معنًى، والمعاني الَّتي تنتجُها وجوهُ الإعراب ليست متعاندةً، بل هي متعانقةٌ، والرَّسم واحدٌ، وهذا وجهٌ من وجوه الإيجازِ والإعجازِ؛ فعلى النَّسقِ على ﴿نَتَقْنَا﴾ يكون ارتباطُ تيقُّنهم بوقوعهِ عليهم، مقارنًا للنَّتق، وعلى كونِ الجملة حالًا من الجبل يكون توجيهُ المعنى إلى محلِّ الخوفِ والرُّعب، وعلى الاستئنافِ يكونُ معنًى بعد حدوث النَّتقِ، فكلُّها معانٍ متعانقةٌ.

بلاغةُ التَّعبيرِ بفعلِ الظَّنِّ في: ﴿وَظَنُّوٓاْ﴾:

يُستعمَل الظَّنُّ في اليقين، متى كان ذلك المتيقَّنُ لم يخرج إلى الحواسِّ

قولهُ تعالى: ﴿وَظَنُّوٓاْ﴾، قيل معناها: تيقَّنوا أَنَّهُ ساقطٌ عليهم؛ لأنَّ الجَبَلَ لا يثبُت في الجوِّ؛ لأنَّهم كانوا يُوعَدون به، وإطلاقُ الظَّنِّ في الحكاية لعدمِ وقوعِ متعلَّقِهِ، وذلك أنَّهم أبوا أن يقبلوا أحكامَ التَّوراة لثِقلها، فرفع اللّٰه تعالى عليهم الطُّورَ، وقيل لهم: إن قبِلتم ما فيها، وإلَّا لَيقعَنَّ عليكم[3]، فتيقَّنوه لمَّا عاينوا من ارتفاعه عليهم[4]، فعبَّر بالتَّيقُّن للتَّرويج، ولأنَّ مثل هذا حَقُّهُ اليقينُ والتَّخلُّفُ؛ وعدمُ وقوعِ مُتَعَلَّقِهِ لُطْفٌ من اللّٰه تعالى[5]، وقيل: إنَّ الظَّنَّ هُنا على أصله؛ إذ

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 93/5، وطنطاويّ، التَّفسير الوسيط: 428/5.
(2) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 491/3.
(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 289/3.
(4) الماورديّ، النُّكت والعيون: 276/2، والآلوسيّ، روح المعاني: 92/5.
(5) القونويّ، حاشيَته على تفسير البيضاوي: 541/8.

الموضع مَوْضِعُ غلبةِ الظَّنِّ مع بقاء الرَّجاء، وكيف يوقنونَ بوقوعه وموسى عليه السلام يقول: إنَّ الرَّميَ به، إنَّما هو بشرط ألَّا يقبلوا التَّوراةَ؟ والظَّنُّ إنَّما يقعُ ويُستعمل في اليقين متى كان ذلك المتيقَّن لم يخرج إلى الحواسِّ[1]، فقويَ في نفوسهم أنَّه واقعٌ بهم إن خالفوه، وهذا هو الأظهرُ في معنى الظَّنِّ[2]، كما أنَّ هذا الظَّنَّ كان بعد أن أدنى اللّهُ الجبلَ من رؤُوسهم، إذ هم قبلَ ذلك وحين كان مُرتَقًا كالسَّحابة، توهَّموا أنَّ رفْعَ الجبل فوقهم لمجرَّد التَّخويف، فقالوا: ﴿سَمِعۡنَا وَعَصَيۡنَا﴾ [البقرة: 93].

مرجعُ الضَّميرِ في ﴿ظَنُّواْ﴾ و﴿بِهِمۡ﴾:

بيانُ فظائعِ بني إسرائيلَ، ومخالفاتِهم نَبيَّهم في مراحلِ الدَّعوةِ

جاءَ بيانُ هذا الحدثِ بأسلوبِ الحديثِ عن الغائب، ضمن حكاية طائفةٍ من قصصِ بني إسرائيلَ وأحداثِهم؛ وفي التَّعبيرِ بالغائبِ إحالةٌ إلى ما مضى في السُّورةِ من فظائعِهم وقبائحهم؛ إذ الضَّميرُ بطبعهِ يُحيل على ما مضى، من أوَّل قوله تعالى: ﴿تِلۡكَ ٱلۡقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيۡكَ مِنۡ أَنۢبَآئِهَاۚ وَلَقَدۡ جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ مِن قَبۡلُۚ كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ١٠١﴾ [الأعراف: 101]، وما تلاها من الآياتِ الكاشفات عن مفاسدِهم بما لم تجمعْهُ سورةٌ أخرى، اتِّساقًا مع سورةِ الأعرافِ الَّتي مقصودُها الإنذار والتَّذكيرُ، إلى هذه الآيةِ حتَّى "رفع اللّهُ فوقَ محلَّتهم النَّازلين بها في سيناء جبل الطُّور، لرفضِهم إعطاءَ العهدِ على الالتزام بشريعةِ اللّهِ، وقال لهم موسى عليه السلام بلاغًا عن ربِّهِ: (خذوا ما آتاكم اللّهُ من وصايا وأحكام في كتابه بقوَّةٍ، وعاهِدوا على العمل بما جاء فيه، أو يلقي اللّهُ هذا الجبلَ عليكم، فيهلكَكم)، عندئذٍ ذهبت عنهم أوهامُ ميوعةِ الدَّلالِ، وتكشَّفت لهم حقيقةُ

(1) ابن عطيَّة، المحرّر الوجيز: 474/2.
(2) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 397/15.

جبروتِ الرَّبِّ، وسطوةِ انتقامِهِ؛ فمَن لم يَنْقَدْ إلى اللّهِ بمُلاطفةِ الإحسان؛ قُيِّدَ إليه بسلاسلِ الامتحانِ[1].

دلالةُ التَّوكيدِ بالأداةِ (أنَّ)، واسميَّة الجملةِ:

ترسيخُ مضمونِ الجملةِ في ذهنِ السَّامعِ، ودفعُ التَّوهُّمِ

قولهُ تعالى: ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُۥ وَاقِعُۢ بِهِمۡ﴾، أي: وظنُّوا ظنًّا قويًّا - إذ دنا الجبلُ من رؤوسِهم - أنَّه واقع عليهم، ومختلطٌ عند وُقُوعِهِ بأجسادهم، مُهْلِكًا ساحقًا، فأُكِّدت هذه الجملة بـ(أنَّ) لترسيخِ مضمونها في ذهنِ السَّامع، ودَفْعِ توهُّم عدمِ وقوع الجبل عليهم، إن لم يمتثلوا أمر ربِّهم.

سِرُّ التَّعبيرِ بـ﴿وَاقِعُۢ﴾ على القول (سيقع):

الخوفُ كان مُستوليًا عليهم أوَّلَ الأمرِ عند نتقِ الجبلِ

قوله تعالى: ﴿وَاقِعُۢ بِهِمۡ﴾: أشارَ إلى أنَّ (واقعًا) بمعنى المُستقبل بقرينةِ الفعلِ ﴿وَظَنُّوٓاْ﴾، وإنْ كان الأصلُ كونَ اسم الفاعل بمعنى الماضي[2]، يشيرُ إلى شعورِ الخوف الَّذي كان مُستوليًا عليهم أوَّلَ الأمر، من هذا الجبلِ الَّذي قامَ فوقهم، وأنَّه إذا وقعَ لم يقع عليهم وحسب، بل إنَّه سيحملُهم معه، ويهوي بهم إلى الأرضِ[3].

سِرُّ التَّعبيرِ بحرفِ الباءِ في ﴿بِهِمۡ﴾:

الإشارةُ إلى اللُّصوقِ بهم، وقربِهِ من رؤوسِهم

في قَولِه: ﴿وَاقِعُۢ بِهِمۡ﴾، عُدِّيَ وَاقِعٌ بالباءِ؛ للدَّلالةِ على أنَّهم كانوا مستقرِّينَ في الجبلِ؛ فهو إذا ارتفَعَ وقَعَ ملابسًا لهم، ففتَّتَهم، فهم يرَونَ أعلاهُ فوقَهم، وهم في سَفْحِه، وهذا وجهُ الجمعِ بين قولِه: ﴿فَوۡقَهُمۡ﴾، وبين باءِ المُلابسةِ[4]، فلمَّا كان ما تقدَّم قد حقَّق العُلُوَّ؛ لم يحتج إلى حرف الاستعلاءِ، فقال مشيرًا إلى السُّرعةِ واللُّصوقِ: ﴿بِهِمۡ﴾[5].

(1) ابن عجيبة، البحر المديد: 412/2.
(2) القونويّ، حاشيَته على تفسير البيضاوي: 541/8.
(3) عبد الكريم الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 513/5.
(4) وقيل: إنَّ الباءَ بِمَعنى على، كما في قوله: ﴿إِن تَأۡمَنۡهُ بِقِنطَارٖ﴾ وهو أحد معانيها. ينظر: ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 165/9.
(5) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 150/8.

موقعُ جملةِ ﴿خُذُواْ مَآ ءَاتَيۡنَٰكُم بِقُوَّةٖ﴾ ممَّا قبلَهُ، وبلاغتُهُ:

جملةُ ﴿خُذُواْ مَآ ءَاتَيۡنَٰكُم بِقُوَّةٖ﴾ مقولةٌ لقولٍ محذوف، يدلُّ عليه نظمُ الكلام، وحذفُ القول في مثله شائعٌ كثيرٌ[1]، وقد وقعتِ الجملةُ من سابقتِها موقعَ التَّعليلِ، وعِظمُ الحدثِ دالٌّ على جليلِ ما أُحدِثَ من أجلِه، وهو الائتمارُ بأمرِ اللّهِ، واجتنابُ نواهيه، فقالَ مُشيرًا إلى عظمتِهِ ليشتَّد إقبالُهم عليهِ، إشارةً إلى أنَّه عِلَّةُ رفْعِ الجبلِ: ﴿خُذُواْ مَآ ءَاتَيۡنَٰكُم﴾ أي: بعظمتنا، فهو جديرٌ بالإقبالِ عليه، وأن يُعتقدَ فيه الكمال[2]، ولم يكنْ هذا الأمرُ من قبيلِ الإكراهِ على الدِّين؛ إذ هم مؤمنونَ، فهو تهديدٌ بالعقابِ على العصيان، بعد الإيمانِ وإعلانِ الإسلام، فإذا رفضوا إعلانَ الالتزامِ بالطَّاعةِ؛ كان القتلُ عقابًا عادلًا لهم، بالحدِّ الشَّرعيِّ، كسائر عقوبات الحدودِ الشَّرعيَّة[3]، وفي الآيةِ تعريضٌ بأنَّهم إذا كانت حالهم في مبدأِ أمرِهم مخالفةً كتابَهُم؛ فلا عجبَ إذا آلَ أمرُهم إلى تركِ العملِ بهِ، بعدَ طولِ الأمد، وقساوةِ القلوب، والأنس بالمعاصي والذُّنوب[4].

عِظَمُ الحدثِ لا يكونُ إلَّا لعلَّةٍ كبرى، وأعظمها تنفيذُ أوامرِ اللهِ

دلالةُ اسمِ الموصولِ ﴿مَآ﴾ في قوله: ﴿مَآ ءَاتَيۡنَٰكُم﴾:

جاءَ التَّعبيرُ بالاسمِ الموصول الأعمِّ، إيجازًا لكلِّ ما أخبرَ عنه القرآنُ، ممَّا أوتيهُ اليهودُ من الأوامرِ والنَّواهي؛ وقد تنوَّعت أقوالُ المفسِّرين في المرادِ بالاسمِ الموصولِ، "وَلَا مَانِعَ مِنْ حَمْلِهِ عَلَى جَمِيعِ ذَلِكَ[5]، والتَّعبيرُ بضميرِ الخطابِ للتَّأكيدِ أنَّهم المقصودونَ بالرِّسالةِ.

بيانُ حَمْلِ ما أُوتوا على جميعِ الفرائضِ والأحكامِ والأخبارِ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 165/9.
(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 150/8.
(3) البقاعي، نظم الدُّرر: 150/8.
(4) الهرريُّ، حدائق الرَّوح والرّيحان: 205/10.
(5) الشَّوكانيُّ، فتح القدير: 87/1.

بلاغةُ التَّعبيرِ بالقيدِ ﴿بِقُوَّةٍ﴾، وموقعهُ من الأمرِ:

تأكيدُ الأمرِ بأخذِ الشَّريعةِ بعزيمةٍ وتَصَبُّرٍ

القوَّةُ: الجدُّ والعزيمة[1]، والجارُّ والمجرور ﴿بِقُوَّةٍ﴾ متعلِّقٌ بمحذوفٍ، وقع حالًا من الواو، والمراد خذوا ذلك مجدِّين[2]، فأكَّدَ الأمرَ السَّابقَ ﴿خُذُواْ﴾ بقولهِ: ﴿بِقُوَّةٍ﴾ أي: عزمٍ عظيمٍ على احتمالِ مشاقِّهِ[3].

سِرُّ العطفِ بالأمرِ بالذِّكرِ:

تنبيهُ مَنْ أخذَ الأمرَ بجدٍّ وقوَّةٍ على التَّذكُّرِ، لطُروءِ النِّسيانِ على الإنسانِ

تتنوَّعُ المعاني للفعل في قولهِ تعالى: ﴿وَٱذۡكُرُواْ مَا فِيهِ﴾، منها: ضعوا في ذاكراتِكم ما جاءَ في الكتابِ من وصايا وأوامرَ، تستذكرونها، وتستدعونها عند مناسباتِها للعملِ بها؛ فِعْلًا فيما يجب فِعْلُهُ، وتركًا فيما يجب تركُهُ، أو: من الأوامرِ والنَّواهي وغيرهما، فلا تنسوه[4]، واعملوا بما فيهِ من الأحكامِ؛ والذِّكرُ يحتمل أن يرادَ به الذِّكرُ اللِّسانيُّ والقلبيُّ، والأعمُّ منهما، وما يكونُ كاللَّازم لهما، والمقصود منهما، وهو العملُ[5]؛ لذا جاء الأمرُ بالذِّكرِ عقيبَ الأمرِ، بأخذ ما أوتوا بقوَّةٍ.

بلاغةُ الختمِ بجملةِ الإنشاءِ غيرِ الطَّلبيِّ في قولهِ: ﴿لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾:

(لعلَّ) جاءت بمعنى التَّعليلِ، ولم يغادرْها معنى الرَّجاءِ

(لعلَّ) في قولهِ: ﴿لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾: إمَّا للتَّعليلِ، فيكون استخدامُها في هذا المعنى مجازًا، وفي التَّعبير بالتَّرجِّي مكانَ التَّعليلِ إلماعٌ إلى أنَّ الأخْذَ بالأسبابِ يجبُ أن يكونَ سالكهُ معلِّقًا قلبه بالرَّجاءِ من ربِّ العالمين، فكأنَّ (لعلَّ) جاءت بمعنى التَّعليلِ، ولم يغادرْها معنى الرَّجاء، فلو وقعت (كيْ) موقعها هنا ما حَسُن، ويمكنُ أن تكونَ (لعلَّ) خرجت من رجاءِ المتكلِّم إلى رجاءِ المخاطب، ويكونُ المعنى: افعلوا ذلك راجين التَّقوى، وهذا خلاصةُ كلامِ المفسِّرين،

(1) الشَّوكانيُّ، فتح القدير: 298/2.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 93/5.
(3) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 150/8.
(4) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 151/8.
(5) الآلوسيّ، روح المعاني: 281/1.

فكلمةُ (لعلَّ) متعلِّقةٌ - بخذوا، واذكروا - إمَّا مجازًا يؤول معناهُ بعد الاستعارةِ إلى تعليل ذي الغايةِ بغايتهِ، أي: لتتَّقوا بذلك قبائحَ الأعمالِ، ورذائلَ الأخلاق، أو حقيقة لترجية المخاطَبِ[1]، أي: راجين أن تنتظِموا في سلكِ المتَّقين[2]، وهذان المعنيانِ (التَّعليل والتَّرجية)، في (لعلَّ) لا يجتمعانِ في غيرِها من أدواتِ الرَّجاءِ؛ ففي (لعلَّ) مزيدُ تأكيدٍ في حفظِ التَّقوى والتَّهمُّم بأمرِها، وتحصيلِ أسبابها[3].

براعةُ التَّناسبِ في الختمِ بالتَّقوى:

قولهُ تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾، أي: ليكونَ حالُكم حالَ من يُرجى تقواهُ، فدلَّ سبحانه بهذا على تأكيدِ المواثيقِ عليهم في أخذِ جميعِ ما في الكتابِ، وتذكُّرِ ما فيه، ليكونَ تذكُّركم لها باعثًا للعمل بمقتضاها؛ لأنَّ رجاءَ تحقُّق العملِ بمقتضاها، مع هذا الباعثِ أكثرُ منه دونَهُ؛ إذ الإهمالُ والتَّرك والنِّسيان لتعليمات الواجباتِ والمحرَّمات الدِّينيَّة يهوِّن على الإنسان معصيتَها[4]، فلمَّا كان تحقيقُ التَّقوى يكون بامتثالِ الأوامرِ واجتنابِ النَّواهي، حسن الختم لهذه الآيةِ الكريمةِ بالتَّرجيةِ في تحقيقها بعد ذِكر أسبابها؛ إذ قد سَبَقَ الأمرُ بالأخذ بما في الكتاب، وتَذكُّر ما فيه.

تحقُّقُ العملِ بمقتضى باعثِ التَّقوى أرجى في التَّحقُّقِ من دونِها

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(نتقنا) و(رفعنا):

النَّتقُ: الزَّعْزَعَةُ وَالهزُّ والجَذْب والنَّفْضُ، ونَتَقَ الشَّيءَ؛ إذا جَذَبَهُ، وَاقْتَلَعَهُ، ويُطلق على الرَّفعِ أيضًا[5]، ويكون رفعًا بِشِدَّةٍ وقوَّة،

النَّتْقُ رَفْعٌ بِشدَّةٍ وقُوَّةٍ، وفيه معنى التَّهديدِ والتَّهويلِ

(1) إنشاء التَّرجي أو الإشفاق في مثل لعلَّ، هذا في استعمال العباد إيَّاه، وأمَّا ما وقع في كلام الله تعالى فهو يكون للتَّرجية أو التَّخويف؛ لأنَّ الترجِّي والإشفاق مُحالان في حقِّه. ينظر: السَّمينُ الحَلَبيُّ، الدُّرُّ المَصون: 388/2، وزاده، حاشية زاده على تفسير البَيضاويِّ: 516/2، وإسْماعيل حَقِّي، روحُ البَيانِ: 332/1. وقد سبق ذكر ذلك بالتفصيل في تفسير الصفحة 34 من المصحف الشّريف فليرجع إليه.

(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 289/3، والآلوسيّ، روح المعاني: 282/1.

(3) ابن عطيَّة، المحرِّر الوجيز: 474/2.

(4) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 151/8.

(5) ابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس: (نتق)، والكفويّ، الكليَّات، ص: 914.

أمَّا الرَّفع: فهو خلاف الوضعِ والخفض[1]، ومعناه: جَذْبُ الشَّيءِ أو دَفْعُهُ مسافةً إلى أعلى[2]؛ يُقال: ارْتَفَعَ الشَّيءُ ارْتِفاعًا؛ إذا عَلا[3]، فالنَّتقُ رَفْعٌ بِشِدَّةٍ وقوَّة، وفيه إخافةٌ وتهديدٌ كبيرانِ؛ فالنَّتقُ أشدُّ تهديدًا وتهويلًا، لذا كانَ هو الأبَرَّ بالسِّياقِ.

(آتينا) و(أعطينا):

الإيتاءُ أقوى دلالةً مِنَ الإعطاءِ

لا يكادُ أهلُ اللُّغةِ يفرِّقون بين الإيتاء والإعطاء، لكن نجدُ في الاستعمال القرآنيِّ بعضَ الفروق الدَّقيقةِ الَّتي تُوحي ببلاغةِ القرآن وعظمته، وذلك من حيثُ إنَّ الإيتاءَ أقوى من الإعطاء في إثبات مفعوله؛ لأنَّ الإعطاءَ له فعلٌ مطاوعٌ، تقول: أعطاني، فعطوتُ، ولا يقالُ في الإيتاءِ: آتاني، فأتيتُ، وإنَّما يُقال: آتاني، فأخذْتُ، والفعلُ الَّذي له فعلٌ مطاوعٌ، أضعفُ في إثبات مفعولهِ من الَّذي لا مطاوعَ له[4]، فالإيتاءُ أقوى من الإعطاءِ، قال تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ مَن تَشَآءُ﴾ [آلُ عِمرانَ: 26]، لأنَّ المُلك شيءٌ عظيمٌ، لا يُعطاهُ إلَّا من له قوَّة، وكذا قوله: ﴿خُذُواْ مَآ ءَاتَيۡنَٰكُم بِقُوَّةٖ﴾ [الأعراف: 171] لعظَمِ الكتابِ وشأنِهِ[5].

الوقوع والسُّقوط:

الوقوعُ أخصُّ من السُّقوطِ، وفيه معنى الشِّدَّةِ والعذابِ

السُّقوط: نزولُ الشَّيءِ من أعلى إلى أسفل، ووُقوعُهُ على الأرْضِ[6]، قالَ تعالى: ﴿وَمَا تَسۡقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعۡلَمُهَا﴾ [الأنعام: 59]، ثمَّ اتُّسِعَ فِيهِ كقوله: ﴿أَلَا فِي ٱلۡفِتۡنَةِ سَقَطُواْۗ﴾ [التَّوبة: 49]، فاستعمل السُّقوطُ هُنا استعمالًا مجازيًّا، والمعنى: أنَّهم حصلَ لهم ذلك فجأةً، فهم

(1) حسن المصطفويّ، التَّحقيق في كلمات القرآن: 183/4.
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (نتق).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (رفع).
(4) السُّيوطِيُّ، الإتقان: 367/2.
(5) الكفويّ، الكُلِّياتُ، ص: 212.
(6) الزبيدي، تاج العروس: (سقط).

كالسَّاقط في هُوَّة، على حينِ ظَنَّ أنَّه آمِنٌ[1]. ومن معاني السُّقوط في القرآن الكريم النَّدمُ، وذلك في قول: ﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِيٓ أَيۡدِيهِمۡ﴾ [الأعراف: 149]، أي: اشتدَّ ندمهم وحسرتهم، كأنَّ النَّدمَ سقطَ في أيديهم، كنايةً عن حصولهِ في قلوبهم[2]، أمَّا الوقوعُ؛ فهو هُوِيٌّ أو غُؤورٌ، مع صَدْم أو غِلَظٍ وشِدَّة، في جِرْم عَريض[3]، وقد استُعْمِلَ في القرآن الكريم بدلالاتٍ مُتعدِّدةٍ: منها سقوطُ الشَّدائدِ والعذاب، وهو أكثرُ ما جاء في القرآن من الوقوع، ومن ذلك قول اللّه: ﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلۡوَاقِعَةُ ۝١ لَيۡسَ لِوَقۡعَتِهَا كَاذِبَةٌ ۝٢﴾ [الواقعة: 1 - 2]، وقوله: ﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٖ وَاقِعٖ ۝١﴾ [المعارج: 1]، فالوقوع هُنا: نزولُ الشِّدَّةِ وحدوثها، والواقعة لا تقال إلَّا في الشِّدَّة والمكروه[4]؛ فمَلْمَحُ الشِّدَّة في الوقوع هو الَّذي سوَّغ استعماله في معاني نزول الشَّدائدِ والحوادث، ووجوبِ العذاب، فيتلخَّصُ أنَّ الوقوعَ أخصُّ من السُّقوط وأشدُّ[5]، لذا كان استخدامُهُ هنا هو الملائمَ للسِّياق.

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 221/10.
(2) الزَّمخشريُّ، الكشّاف: 160/2، والكفويّ، الكليّات، ص: 521.
(3) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (وقع).
(4) الرّاغب، المفردات، ص: 530.
(5) محمّد داود، معجم الفروق الدّلالية، ص: 296.

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْۖ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدْنَآۚ أَن تَقُولُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ١٧٢﴾ [الأعراف: 172]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

تقفيةُ ذِكْرِ هدايةِ اللهِ بإرسالِ رُسُلِهِ لهدايتِهِ إيَّاهم في أصل فِطْرَتِهم وخَلْقِهم

لَمَّا ذكر ﷻ هدايتَهُ للبشرِ بإرسال الرُّسل، وإنزال الكتبِ في قصَّة بني إسرائيل؛ قَفَّى على ذلك بذكرِ هدايتِهِ إيَّاهم بما أودعَ في فطرتهم، وركَّب في عُقولهم من الاستعداد للإيمان به، وتوحيدِهِ وشكره، منذ النَّشأةِ الأولى، فهو سبحانه بعد أن أظهرَ تمادي هؤلاء اليهود في الغيِّ، بعد أخذِ الميثاق الخاصِّ الَّذي دلَّ عليه قوله: ﴿۞وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ﴾، وقوله: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ﴾ [البقرة: 63] وذكر هُنا أنَّهم نقضوا أيضًا الميثاق العامَّ الَّذي أخذه على بني آدم جميعًا - وهم في صُلب آدمَ[1] عليه السلام. ووجهٌ آخرُ أنَّه لَمَّا شرح قصَّة مُوسى عليه السلام مع توابعها، على أقصى الوجوهِ؛ ذكرَ في هذه الآيةِ ما يجري مجرى تقريرِ الحُجَّةِ على جميع المكلَّفين[2]، فبيَّنَ اللهُ هُنا هداية بني آدمَ، بنصب الأدلَّةِ في الكائنات، بعد أن بيَّنها عن طريقِ الرُّسلِ والكتبِ[3].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ظُهُورِهِمْ﴾: أَصْلابُهم؛ والظَّهرُ الجارحةُ المعروفة، وأصل (ظهر) يَدُلُّ على قوَّةٍ وبُروز[4]، والمعنى هُنا: أخرجَ من أصلابِهم

(1) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 102/9، والهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 190/10.
(2) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 397/15.
(3) لجنة من عُلماءِ الأزهر، المنتخَبُ في تفسير القرآنِ الكريم، ص: 235.
(4) الرّاغب، المفردات، وابن فارس، مقاييس اللُّغة: (ظهر).

ذُرِّيَّتَهم للعهد والميثاق[1]، ونؤكِّدُ " أنَّ للّه تعالى ميثاقين مع بني آدم، أحدهما: يهتدي إليه العقلُ من نصب الأدلَّةِ الباعثةِ على الاعترافِ الحالي، وثانيهما: المقاليُّ الَّذي لا يهتدي إليه العقلُ، بل يتوقَّف على أخبارِ الأنبياء، فأراد النَّبيُّ أن يخبرَ الأمَّةَ عمَّا لا تهتدي إليه عقولهُم، من ميثاقٍ آخرَ أزليٍّ، فقال ما قال"[2].

2) ﴿ذُرِّيَّتَهُمْ﴾: الذُّرِّيَّة: الأولادُ وأولادهم، والذُّرِّيَّة: أصلُها الصِّغارُ من الأولادِ وإن كانَ قد يقعُ على الصِّغار والكبار[3]، و(ذُرِّيَّة) مأخوذةٌ مِن (ذَرَأَ)، أي: خَلَق؛ لأنَّ الذُّرِّيَّة خَلْقُ اللّهِ، يُقال: ذَرَأ اللّهُ الخَلْقَ، أي: خَلَقَهم، فهو يَذْرَؤُهم، وتُرِكتِ الهَمزةُ فيها؛ لكثرةِ ما يُتكلَّم بِها[4].

3) ﴿وَأَشْهَدَهُمْ﴾: من (شهد)، والشَّهادةُ: خبرٌ قاطعٌ، تقولُ منه: شهدَ الرَّجل على كذا، وربَّما قالوا: شهدَ الرَّجلُ، بسكونِ الهاءِ للتَّخفيفِ، عن الأخفشِ، وقولهم: اشهدْ بكذا، أي: احلف[5]، جعلَهم يشهدونَ، يُقَالُ: أَشْهَدَه على الشَّيء، يُشْهِدُه إشهادًا فَشَهِدَ[6]، أي: صارَ شاهدًا، وأصل (شهد)، يَدُلُّ عَلَى حُضُورٍ وَعِلْمٍ وَإِعْلَامٍ[7]، والمعنى هُنا: أَوْجَدَهُم شاهدين بذَلِكَ، قائلينَ له حالًا ومقالًا[8].

المَعْنى الإجْماليُّ:

بيانُ إشهادِ اللهِ لبني آدمَ بالرُّبوبيَّةِ لَهُ؛ لِئَلَّا يُنكروا هذا يومَ القيامةِ

واذكر -أَيُّها الرَّسول- إذ أخرجَ ربُّك أولادَ آدمَ مِن أصلابِ

(1) الفيروزاباديّ، بصائر ذوي التَّمييز: 548/3، وابن سعدي، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 308.
(2) الكفويّ، الكليّات، ص: 110.
(3) الرّاغب، المفردات، ص: 178، والفيروزباديّ، بصائر ذوي التَّمييز: 7/3.
(4) الرّاغب، المفردات: (ذرأ)، والسّجستاني، غريب القرآن: 230/1، وابن فارس، مقاييس اللغة: 352/2، وابن الأثير، النِّهاية: 157/2، وابن الهائم، التبيان، ص: 92.
(5) الجوهريّ، الصّحاح: 494/2.
(6) نشوان الحميريّ، شمس العلوم: 3571/6.
(7) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (شهد).
(8) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 506/3.

آبائِهم، وقرَّرهم بإثباتِ رُبوبيَّتِه، بما رَكَزَهُ في فِطَرِهِمْ من الإقرارِ، بأنَّهُ خالقُهم وربُّهم قائلًا لهم: ألستُ بربِّكم؟ قالوا جميعًا: بلى أنت ربُّنا؛ وإنَّما فعلنا هذا حتَّى لا تُنكروا يوم القيامةِ حُجَّةَ اللّٰهِ عليكم، وتقولوا: إنَّه لا علمَ لكم بذلكَ[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالةُ العطفِ، وموقع مفتتح الآية بما قبلها:

بيانُ تمادي اليهودِ ومَن شابهَهُم في نقضِ الميثاقِ الخاصِّ والعامِّ

في قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ أي: واذكر - أيُّها الرَّسولُ - للنَّاسِ كافَّةً ما أخذهُ اللّٰهُ من ميثاقِ الفطرةِ على البشر عامَّةً[2]، وهو معطوفٌ على ما قبلُ، مسوقٌ لإلزام اليهودِ بمقتضى الميثاقِ العامِّ، فإنَّ منهم مَن أشركَ، فقالَ: عُزيزٌ ابن اللّٰهِ -عزَّ اسمُه- بعد إلزامِهم بالميثاقِ المخصوص بهم، والاحتجاجِ عليهم بالحُجَجِ السَّمعيَّة والعقليَّة ومنعهم عن التَّقليدِ، فالحكمةُ في تخصيصِ بني إسرائيلَ بهذه القصَّة الزِّيادةُ في إقامة الحُجَّة عليهم، حيثُ أعلمَهم اللّٰهُ، بأنَّه أعلمَ نبيَّهُ بمبدأ العالم، فضلًا عن وقائعِه، فيكونُ هذا من قبيلِ عطفِ قصَّةٍ على قصَّةٍ. وبعضُهم جوَّز أن يكونَ تذييلًا؛ تعميمًا بعد التَّخصيصِ؛ حيثُ ذكرَ شؤونَ البشر العامَّةِ المتعلَّقةِ بهداية اللّٰهِ لهم، بما أودعَ في فطرتهم، وركَّبَ في عقولهم من الاستعدادِ للإيمان به، وتوحيده وشُكره، في إثر بيان هدايتِه لهم بإرسال الرُّسل وإنزالِ الكتبِ في قصَّة بني إسرائيل، إظهارًا لتمادي هؤلاء اليهودِ في الغيِّ بعد أخذِ الميثاقِ الخاصِّ المدلولِ عليه بقوله سبحانه: ﴿۞وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ﴾[3]؛ فالمناسبةُ بين هذا وما قبلَهُ ظاهرةٌ، ولذلك عطَفَ عليه عطْفَ جملةٍ على جملة، أو سياقٍ على سياق[4].

---

(1) لجنة من عُلماءِ الأزهر، المنتخَبُ في تفسير القرآنِ الكريم، ص: 234، ونُخْبة من أساتذة التَّفسير، التَّفسير المُيَسَّر، ص: 173، وجماعَةٌ من علماء التَّفسير، المخْتَصَر في تفسير القرآن الكريم، ص: 173.

(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 151/8، والمراغيّ، تفسير المراغيّ: 103/9.

(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 93/5، والهرريّ، حدائق الرَّوح والرَّيحان: 206/10.

(4) محمّد رشيد رضا، تفسير المنار: 386/9.

سِرُّ الانتقالِ من مُخاطبةِ بني إسرائيلَ إلى غيرِهم من مُشركي العربِ:

التَّذكيرُ بمقصودِ السُّورةِ الكريمةِ في مُحاجَّةِ المشركين والرَّدِّ عليهم

قولُهُ تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ﴾: هذا انتقالٌ بالكلامِ إلى محاجَّةِ المشركين من العربِ، وهو المقصودُ من السُّورةِ ابتداءً ونهايةً، فكان هذا الانتقالُ بِمنزلة رَدِّ العَجُزِ على الصَّدر، حيثُ جاءَ هذا الانتقال بمناسبةِ ذِكرِ العهدِ الَّذي أخذَ اللهُ على بني إسرائيلَ في وصيَّةِ موسى، وهو ميثاقُ الكتاب، وفي يومِ رفع الطُّورِ، وهو عهدٌ حصلَ بالخطابِ التَّكوينيِّ، أي: بجعل معناهُ في جِبِلَّةِ كلِّ نَسَمَةٍ وفِطْرتِها[1].

سرُّ المجازِ في قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ﴾:

مناسبةُ ما تضمَّنتْهُ الآيةُ مِن الميثاقِ، والإيذانُ بالاعتناءِ بشأنِ المأخوذِ

في قَولِه: ﴿أَخَذَ رَبُّكَ﴾: الأَخْذُ انتزاعُ الشَّيءِ وتناولُهُ من مقرِّهِ، وهو هنا مجازٌ في الإخراجِ بجامعِ الانتزاع، وفي إيثار الأخذِ على الإخراجِ مناسبةٌ لما تضمَّنتْه الآيةُ مِن الميثاقِ، فإنَّ الذي يناسبُهُ هو الأخذُ دونَ الإخراجِ[2]، وفيه أيضًا إيذانٌ بالاعتناءِ بِشَأنِ المأخوذِ.

سِرُّ التَّعبيرِ بالرُّبوبيَّةِ في مقام أخْذِ الميثاقِ:

بيانُ آثارِ الرُّبوبيَّةِ في الاجتباءِ، والاصطفاءِ بهذا الأخْذِ، وما يتبعُهُ

قولُهُ تعالى: ﴿رَبُّكَ﴾، أي: المحسنُ إليكَ بالتَّمهيدِ لرسالتك[3]، والتَّعبيرُ بالرَّبِّ في هذا المقامِ، لما يَظْهر في الأخذِ باعتبار ما يتبعُهُ من آثارِ الرُّبوبيَّة من الاجتباءِ والاصطفاء[4]، حيثُ أمرهُ أن يذكرَ لهم أنَّه ركَّبَ لهم في عمومِ هذا النَّوعِ الآدميِّ من العقولِ، ونصبَ من الأدلَّة السّارية على مقتضى التّكوين، وجريان الأقدار، ما لو عُذِّب تاركُه، والمتهاونُ به، لكانَ تعذيبُه جاريًا على المناهج، مُلائمًا للعقول، ولكنَّهُ سبحانه لسبقِ رحمتِهِ وغلبةِ رأفته، لم يؤاخِذْ بذلك، حتَّى ضمَّ إليه الرُّسل، وأنزل معهم الكُتب، وأكثرَ فيها من

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 166/9.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 94/5.
(3) البقاعي، نظم الدُّرر: 151/8.
(4) إرشاد العقل السّليم: 289/3، والآلوسيّ، روح المعاني: 93/5.

المواثيقِ، وزاد في الكشفِ والبيان، وإلى كلِّ ذلك جاءتِ الإشارةُ باسم الرَّبِّ[1].

نكتةُ إضافةِ كلمةِ الرَّبِّ إلى ضميرِ الخطابِ ﴿رَبُّكَ﴾:

الرَّسولُ الأكرمُ ﷺ تجلّتْ فيه معاني العبوديَّةِ لكمال الرُّبوبيَّةِ

إضافةُ كلمةِ الرَّبِّ إلى ضميره ﷺ، للتَّشريفِ والتَّكرمةِ والتَّنويهِ بمحلِّهِ وفضيلته[2]، فهو المربِّي له بفضلهِ وإنعامهِ، وهو الَّذي اجتباهُ واصطفاهُ، مبلِّغًا ومذكِّرًا بما أوحاهُ، فعبَّر عن ذي الجلالةِ بـ(ربّك)، بالإشارةِ إلى معنى الرُّبوبيَّةِ الَّتي تملأ نفسَ النَّبيِّ ﷺ، وقد أدركها قبل النُّبوَّةِ بالفطرة الإنسانيَّةِ الكاملةِ، فنفرَ من عبادة الأوثان، وعبدَ اللّهَ (تعالى) وحده، وقال: إنَّه الدَّيَّانُ وحدَهُ[3].

سِرُّ التَّعبيرِ بعبارةِ ﴿بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ للذّكور:

بيانٌ لنوعٍ من أخذَ من ذرِّيّتهم عهدَهُ وميثاقَهُ

لمَّا كانَ السِّياق في قوله: ﴿وَإِذۡ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ لأخذ المواثيق، والأخذِ بقوَّةٍ؛ ذكرَ أخْذَ الذُّرِّيَّةِ من أقوى نوعَي الآدميِّ، وهم الذُّكورُ، فقالَ: ﴿مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ﴾[4]؛ إذِ الأخذُ والاستخراجُ يكون من مُستقرِّ أصلابِ الذُّكور، للذُّرِّيَّةِ الإنسانيَّةِ كلِّها؛ وفي هذا بيانٌ لنوعِ مَن أُخِذَ من ذرِّيَّتهم، وهم بنو آدم[5]؛ و﴿مِنۢ﴾ ابتدائيَّةٌ، أي: ابتداءً من بني آدم.

بلاغةُ التَّعبيرِ بالبدلِ ﴿مِن ظُهُورِهِمۡ﴾:

تقريرٌ بالبيانِ بعد الإبهامِ وتفصيلٌ بعد الإجمالِ

وقولُه تعالى: ﴿مِن ظُهُورِهِمۡ﴾ بدلٌ من ﴿بَنِيٓ ءَادَمَ﴾، بدلَ البَعضِ بتكريرِ الجارِّ، وفيه مزيدُ تقريرٍ؛ لابتنائه على البيانِ بعد الإبهامِ، والتَّفصيلِ بعد الإجمالِ[6]، كما أعيدَ حرفُ الجرِّ مع البدل للتَّأكيد، كما في قولهِ تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّخۡلِ مِن طَلۡعِهَا قِنۡوَانٞ دَانِيَةٞ﴾ [الأنعام: 99][7].

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 151/8.
(2) إرشاد العقل السّليم: 289/3، والقنوجيّ، فتح البيان: 611/2.
(3) محمّد أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 3003/6.
(4) البقاعي، نظم الدُّرر: 152/8.
(5) محمّد أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 3003/6.
(6) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 289/3.
(7) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 168/9.

سرُّ تأخيرِ المفعولِ بهِ:

﴿ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ مفعول ﴿أَخَذَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾، وقد أُخِّر عن المفعولِ بواسطةِ الجارِّ، لاشتمالهِ على ضميرٍ راجعٍ إليه، فيلزمُ بالتَّقديم رجوعُ الضَّمير إلى متأخِّرٍ لفظًا ورُتبةً، وهو لا يجوز إلَّا في مواضعَ ليس هذا منها، وأُخِّر أيضًا لمراعاةِ أصالتهِ ومنشئيَّته، ولقصد التَّشويق إلى المؤخَّر[1].

مُراعاةُ كونِ الذُّرِّيَّةِ من بني آدمَ، مع التَّشويقِ إلى المؤخَّرِ

دلالةُ لفظِ ﴿ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ في هذا السِّياق:

فعل ﴿أَخَذَ﴾ يتعلَّقُ بهِ ﴿مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ﴾، وهو معدًّى إلى ذرِّيَّاتهم، فتعيَّن أن يكون المعنى: أخذَ ربُّك كلَّ فردٍ من أفرادِ الذُّرِّيَّة، من كلِّ فردٍ من أفرادِ بني آدم، فيحصلُ من ذلك أنَّ كُلَّ فردٍ من أفرادِ بني آدمَ، أقرَّ على نفسِهِ بالمربوبيَّةِ للَّهِ تعالى[2]، وفيه إشارةٌ إلى أنَّه أكَّد عليهم المواثيقَ، وشدَّدها لهم، وأمرَهُم بالقوَّةِ في أمرِها، وأعطاهم من القوَّةِ في التَّركيبِ والمزاج ما يكونون به مُطيعينَ لذلك، فهو تكليفٌ بما في الوسْعِ[3].

بيانُ أنَّ العهدَ مأخوذٌ على كلِّ فردٍ من الذُّرِّيَّةِ أخذًا قويًّا مُؤكَّدًا

تنوُّعُ القراءةِ القرآنيَّةِ وأثرهُ في المعنى:

قرأَ أبو عمرٍو وابن عامر ونافع: ﴿ذُرِّيَّتِهِمْ﴾ بالجمع، وقرأ باقي السَّبعةِ ﴿ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ بالإفراد، وهي تقعُ على الواحدِ والجمعِ[4]، والذُّرِّيَّات جمع ذرِّيَّةٍ، والذُّرِّيَّة: اسمُ جمعٍ لما يتولَّد من الإنسانِ، وجمعه هُنا للتَّنصيصِ على العموم، فجُمِعَ لتُخْلَصَ الكلمةُ إلى معناها المقصودِ إليه لا يشركها فيه شيءٌ، وهو الجمعُ؛ لأنَّ ظهورَ

الجمعُ للتَّنصيصِ على العمومِ، واسمُ الجمعِ لدخولِ أبناءِ آدمَ من صلبِهِ

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 94/5.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 168/9.
(3) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 152/8.
(4) ابن الجزريّ، النّشر في القراءات العشر: 273/2.

بني آدمَ استخرجَ منها ذُرِّيَّاتٍ كثيرةً مُتناسبةً، أعقابًا بعد أعقابٍ، لا يعلم عددَهم إلَّا اللّهُ، فجمعَ لهذا المعنى[1]، كما أنَّ أَخْذَ العهد على الذُّرِّيَّة المُخْرجين من ظهورِ بني آدم، يقتضي أخذَ العهدِ على الذُّرِّيَّة الَّذين في ظهرِ آدم، بدلالةِ الفحوى، وإلَّا لكان أبناء آدمَ الأَدْنَوْنَ ليسوا مأخوذًا عليهم العهدُ، مع أنَّهم أولى بأخذ العهدِ عليهم، في ظهر آدم[2]، فلم يذكرْ ظهرَ آدمَ، وإنَّما أُخرجوا جميعًا من ظهرِهِ لأنَّ اللّهَ تعالى أخرج ذريَّة آدمَ بعضَهم من ظهورِ بعضٍ، على نحو ما يتوالدُهُ الأبناءُ من الآباء، فاستُغني عن ذكرِ آدم، لما عُلِمَ أنَّهم كُلُّهم بنوه، وأُخْرجوا من ظهره[3]، وكذا من آدمَ، فالأخذُ منه لازمٌ للأخذِ منهم؛ لأنَّ الأخذَ منهم بعدَ الأخذِ منهُ، ففي الآيةِ الاكتفاءُ باللَّازمِ عن الملزوم[4].

معنى الإشهادِ، وبلاغةُ التَّعبيرِ بهِ: ﴿وَأَشْهَدَهُمْ﴾:

تقريرُهم بإثباتِ الرُّبوبيَّةِ بما نصَّبهُ لهم من دلائلِها

قولهُ تعالى: ﴿وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾: قرَّرهم بإثباتِ ربوبيَّتِهِ، بما أودعَهُ في فطرهم من الإقرارِ بأنَّهُ ربُّهم وخالقُهم ومليكُهم[5]، فأوضحَ لهم من البراهينِ من الإنعامِ بالعقولِ، مع خلقِ السَّموات والأرضِ وما فيهما على هذا المُنوالِ الشَّاهد له بالوحدانيَّةِ، وتمامِ العلم والقُدرةِ، ومن إرسالِ الرُّسل المؤيَّدين بالمعجزاتِ، ما كانوا كالشُّهودِ بأنَّه لا ربَّ غيره[6]، والشَّهادةُ على النَّفسِ لونٌ من الإقرارِ، والإقرارُ سيِّدُ الأدلَّةِ، "فنصبَ لهم دلائلَ ربوبيَّتِهِ، وركَّبَ في عقولهم ما يدعوهُم إلى الإقرارِ بها[7]، وقيلَ: إنَّ المعنى هنا على سبيل

(1) القرطبيُّ، الجامع لأحكام القرآن: 317/7.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 168/9.
(3) الواحديّ، الوسيط في التَّفسير: 424/2.
(4) القنوجيّ، فتح البيان: 611/2.
(5) السَّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 308، والصّاويّ، حاشيّة الصَّاويّ على الجلالين: 570/1.
(6) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 152/8.
(7) الشَّعراويّ، تفسير الشَّعراويّ: 4441/7.

التَّمثيل[1]، إذ الإشهادُ على الأنفسِ يُطلقُ على ما يُساوي الإقرارَ، أو الحملَ عليهِ، وهو هُنا الحملُ على الإقرارِ، واستعيرَ لحالةٍ مُغيَّبةٍ تتضمَّنُ هذا الإقرارَ، يعلمُها اللّهُ، لاستقرارِ معنى هذا الاعترافِ في فطرتِهم[2]؛ فالمقصودُ من الجملةِ الاحتجاجُ على المشركينَ بمعرفتِهم ربوبيَّتَهُ تعالى معرفةً فطريَّةً لازمةً لهم لزومَ الإقرارِ منهم والشَّهادة، قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ﴾ [الروم: 30]، والفطرةُ هي معرفةُ ربوبيَّتِهِ سبحانه[3].

مرجعُ الضَّميرِ في قولِهِ: ﴿وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾:

الضَّميرُ في ﴿وَأَشْهَدَهُمْ﴾ عائدٌ على الذُّرِّيَّة، باعتبارِ معناهُ؛ لأنَّهُ اسمٌ يدلُّ على جمع[4]، وفي قراءةِ ﴿ذُرِّيَّتِهِمْ﴾ يكون عائدًا على لفظِهِ؛ وطريقةُ العربيَّةِ في الحملِ على اللَّفظ والحمل على المعنى جاريةٌ؛ فالإفرادُ لاتِّحاد الصِّفةِ، والنَّسلُ لمراعاةِ التَّناسل، وفي هذا إيجازٌ، وإذا أُشْبِعَ المعنى فالإيجازُ هو البلاغة.

عودُ الضَّميرِ على الذُّرِّيَّةِ، باعتبارِ معناهُ، وعلى الذُّرِّيَّاتِ باعتبارِ لفظِهِ

دلالةُ الحذفِ في ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾:

جملةُ ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾، مقولٌ لقولٍ محذوفٍ، أي: قائلًا هذا، فهو على إرادةِ القَوْلِ يُخاطِبُ فيه اللّهُ ﷻ جميعَ خلقِهِ، ويجيبهُ

بيانُ كمالِ قدرةِ اللهِ تعالى على مخاطبةِ مخلوقاتِهِ، بما يشاءُ، وكيفَ يشاءُ

(1) وبهذا المعنى قال كثير من المفسِّرين في تنزيل تمكينهم من العلم بها وتمكُّنهم منه منزلة الإشهادِ والاعتراف بطريق التَّخييل والاستعارة التَّمثيليَّة، وتصوير المعنى، فقالوا: إنَّهُ شبَّه الهيئة المنتزعة من هذه الأمور العديدة، بالهيئة المنتزعة من الإشهاد والإقرار، لكنَّ الأمور المشبَّهة بها مخيَّلةٌ موهومةٌ غير محقَّقةٍ، فلا قول ولا إقرار حقيقة. ينظر: أبو حيّان، البحر المحيط: 218/5، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 543/8.

والصَّواب إثباتُ هذه المعاني على وجه الحقيقة وإمرارها كما جاءت، وقد فصَّل الشَّيخ صدِّيق حسن خان القِنَّوجيُّ القول في هذه المسألة؛ وأنَّه بمعناه؛ إذ إخراج الذُّرِّيَّة من الظُّهور قبل الخلق والظُّهور، وأخذ الميثاق والعهود، ممَّا يقتضي التَّرغيب والتَّرهيب، وهذا على سبيل التَّحقيق دون التَّخييل والتَّقدير. ينظر، القنّوجيّ، فتح البيان: 611/2.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 168/9.

(3) طنطاويّ، التَّفسير الوسيط: 431/5.

(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 168/9.

جميعُ خلقهِ، وقد ذهبَ كثيرٌ من المفسِّرين إلى أنَّ القولَ هُنا قولُ إرادةٍ وتكوينٍ، لا قولَ وحيٍ وتلقين: ﴿أَلَسۡتُ بِرَبِّكُمۡۖ﴾، فقالوا كذلك بلغةِ الاستعدادِ، ولسانِ الحال، لا بلسانِ المقالِ: (بلى أنت ربُّنا، والمستحقُّ وحدَهُ لعبادتنا)؛ فهو من قبيلِ قولهِ تعالى بعد ذكرِ خَلْقِ السَّماءِ: ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلۡأَرۡضِ ٱئۡتِيَا طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهًا قَالَتَآ أَتَيۡنَا طَآئِعِينَ ١١﴾ [فصلت: 11]، وهو مَبنيٌّ على القولِ الأوَّلِ في الإشهادِ ومعناه[1]، ويكفي أنَّ ربَّنا الخالقَ القادرَ، قد أبلغنا أنَّه قد خاطبَ الذَّرَّات قائلًا: (ألست بربِّكم؟)، وقد يقول قائلٌ: أكانَ لهذهِ الذُّرِّيَّةِ القدرةُ على النُّطقِ، وهي ذرِّيَّةٌ تنتظرُ التَّكوين الآخرَ في أرحام الأمُّهات؟ فجوابهُ أنَّ مخاطبةَ ربِّنا لهم ليس بالأمرِ الصَّعبِ؛ فربُّنا يقدرُ أن يُعدِّدَ وسائل الأداء لمخلوقاته؛ قال تعالى: ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ﴾ [سبأ: 10] فهو قادرٌ على أن يخاطبَ أيًّا من مخلوقاته؛ وهو القائلُ سبحانه: ﴿وَسَخَّرۡنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلۡجِبَالَ يُسَبِّحۡنَ وَٱلطَّيۡرَۚ﴾ [الأنبياء: 79]... فإذا قرأنا: أنَّ الحقَّ قال لذرِّيَّةِ آدمَ: (ألستُ بربِّكم؟) فهذا يعني: أنَّهُ قالها لهم باللُّغة الَّتي يفهمونها، ولقد تكلَّمتِ النَّملةُ، وفَهِمَ سليمانُ كلامَها، ولو لم يُعلِّم اللّٰهُ سليمانَ كيف يفهَمُ كلامَها، لما عرفنا أنَّها تكلَّمت: ﴿قَالَتۡ نَمۡلَةٞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ﴾ [النَّمل: 18][2].

إيثارُ الاستفهامِ التَّقريريِّ على التَّقريرِ المباشرِ:

إفـادةُ التَّقريرِ بإثباتِ الرُّبوبيَّةِ، والمُبـالـغـةِ في إثباتِها

في قوله: ﴿أَلَسۡتُ بِرَبِّكُمۡۖ﴾ الهمزةُ للاستفهام، والاستفهامُ هنا للتَّقريرِ، والمعنى: أنَّا ربُّكم الحقُّ، وجيء بذلك النَّحوِ من القولِ لتأكيدِ الإيجاب، كأنَّه سألَهم، وأجابوا بالإثبات، أي: بإثباتِ الرُّبوبيَّة، وقد أجابوا على هذا السُّؤالِ، مُثبتينَ موجبَ نفي النَّفي، فقالوا: بلى[3]،

(1) محمد رشيد رضا، تفسير المنار: 386/9.
(2) الشَّعراويّ، تفسير الشَّعراويّ: 4441/7.
(3) محمَّد أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 3003/6.

فالهمزةُ: همزةُ إنكارٍ، دخلت على المنفيِّ، فرجعَ إلى معنى التَّقريرِ والمُبالغةِ في الإثبات[1].

بلاغةُ التَّعبيرِ بالرُّبوبيَّةِ في تعيينِ المقرَّرِ بهِ ﴿بِرَبِّكُمۡۖ﴾:

التَّذكيرُ بعوائدِ الإحسانِ، لتكونَ سببًا في الإقرارِ

قولهُ: ﴿أَلَسۡتُ بِرَبِّكُمۡۖ﴾، أي: المحسنُ إليكم بالخلقِ، والتَّربيةِ بالرِّزقِ[2]، ومالكُ أمركم، ومُربِّيكم على الإطلاقِ من غير أن يكونَ لأحدٍ مَدخلٌ في شأنٍ من شؤونكم[3]؛ فذكَّرهم بعوائدِ إحسانِهِ، وتربيتِهم بفضلهِ وامتنانهِ، ليكونَ سببًا في إقرارِهم بتوحيدِهِ، وتعظيمِ شأنهِ.

دلالةُ جوابِ التَّقريرِ ﴿قَالُواْ بَلَىٰ﴾، وبلاغتُهُ بين الحالِ والمقالِ:

مفادُ القولِ على وَفْقِ السُّؤالِ الَّذي استفسرَ عن تربيتِهم، لا عن إلههم

قوله تعالى: ﴿قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدۡنَآۚ﴾، أي: على أنفسِنا بأنَّك ربُّنا، واختلفوا في الإجابةِ هذه كيف كانت؟ هل كانوا أحياءً؟ فأجابوا بلسانِ المقال، أو أجابوهُ بلسانِ الحال، وأنَّ المُراد إقرارُ نفوسهم، لا إقرارُ ألسنتِهم، فإنَّهم انقسموا في إقرارِ الألسنةِ؟[4]، والظَّاهرُ الأوَّلُ، ونَكِلُ كيفيَّتها إلى الله سبحانه، وكان هذا القولُ على وَفْقِ السُّؤالِ؛ لأنَّه تعالى سألهم عن تربيتِهم، ولم يسألْهُم عن إلههم، فقالوا: بلى، فلمَّا انتهوا إلى زمانِ التَّكليفِ، وظَهَرَ ما قضى اللهُ في سابقِ علمهِ، لكلِّ أحدٍ؛ منهم مَن وافقَ ومنهم مَن خالَفَ.

(1) أبو حيَّان الغرناطي، النَّهر المادّ: 885/1، وبهجت عبد الواحد، الإعراب المفصّل لكتاب الله المرتّل: 127/4.

(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 152/8.

(3) إسماعيل حقّي، روح البيان: 273/3.

(4) وهذا منسحب على القول بأنَّ الكلام جارٍ مجرى التَّمثيل أيضًا، وقد ذكر الشَّيخ محمَّد دروزة أقوال من قال بذلك من المفسِّرين، وأطال النَّفس في مناقشة أقوالهم، ثمَّ خلص إلى قوله: وطريقة السَّلف الَّتي أخذ بها الطَّبري في الأسلوب الَّذي أخذ اللَّه به العهد من بني آدم أسلم؛ ففي القرآن عبارات كثيرة، مثل هذه لا يمكن معرفة مراد اللَّهِ تعالى بها معرفةً ذاتيَّة ولا يكون هناك حديث نبويٌّ ثابتٌ في تفسيرها، ففي مثل هذه الحالة تكون تلك الطَّريقة أسلم، ويكتفى بشرح مدلول الآيات الَّتي فيها العبارة شرحًا عامًّا، على أنَّ هذا لا يمنعنا من القول: إنَّنا نرى وجاهةً وسدادًا في الأقوال والتأويلات الأخرى. ينظر: محمّد عزّة دروزة، التّفسير الحديث: 529/2.

سرُّ اصطفاءِ الجوابِ ﴿بَلَىٰ﴾:

(بلى) تفيدُ إبطالَ النَّفي وتقريرَ المنفي، بخلافِ (نعم) الَّتي تحتملُ الأمرين

﴿بَلَىٰ﴾ حرفُ جوابٍ لكلامٍ فيه معنى النَّفي، فيقتضي إبطالَ النَّفي وتقريرَ المنفيِّ، ولذلك كان الجوابُ بها بعد النَّفي، أصرحَ من الجوابِ بحرفِ (نعم)؛ لأنَّ (نعم) تحتملُ تقريرَ النَّفي، وتقرير المنفيِّ، وهذا معنى ما نُقل عن ابنِ عبَّاس (رضي الله عنهما) في هذه الآية أنَّه قال: (لَوْ قَالوا: نعم، لكفروا)، أي: لكان جوابُهم مُحتمِلًا للكفر، ولمَّا كان المقامُ مقامَ إقرارٍ؛ كان الاحتمالُ فيه تفصِّيًا من الاعتراف[1].

موقعُ فصلِ جملةِ ﴿قَالُواْ بَلَىٰ﴾ عمَّا قبلَها، وقوَّةُ الجوابِ فيها:

الميثاقُ الَّذي شهدتهُ الأرواحُ دونَ الأشباحِ، إقرارٌ سابقٌ بالولاءِ للَّهِ

قوله تعالى: ﴿قَالُواْ بَلَىٰ﴾ استئنافٌ بيانيٌّ، كأنَّه قيل: فماذا قالوا، فقيل: قالوا: ﴿بَلَىٰ شَهِدۡنَآۚ﴾[2]، فبينها وبين الجملةِ الَّتي قبلها شبهُ كمالِ اتِّصالٍ، وقد فُصِلَت هذه الجملةُ عمَّا قبلَها؛ لأنَّها جاءتْ على طريقةِ المحاورةِ، كما في قولهِ تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا﴾ [البقرة: 30][3]، بعد محاورةِ اللّٰه تعالى لملائكتهِ الكرامِ، وهذه الجملةُ جوابٌ عن الاستفهامِ التَّقريريِّ، أي: شهدنا على أنفسِنا عن عقيدةٍ وإقناعٍ، علمًا شهوديًّا، بأنَّك أنت ربُّنا وخالقنا، ولا ربَّ لنا سواك؛ فإنَّ آثارَ رحمتِكَ، وعجائبَ خَلْقك، ومظاهرَ قدرتك، تجعلُنا لا نتردَّدُ في هذه الشَّهادةِ[4]؛ وذلك لأنَّهم وصلوا بعد البيانِ إلى حدٍّ لا يكون فيه الجوابُ إلَّا ذلك، فكأنَّهم قالوه، فهو من وادي قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسۡجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا وَظِلَٰلُهُم بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ ۩ ﴿١٥﴾﴾ [الرَّعد: 15] الآية، و﴿وَلِلَّهِ يَسۡجُدُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن دَآبَّةٖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [النَّحل: 49][5]. وليس بعجيبٍ أن يكون بيننا وبَيْنَ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 169/9.
(2) إسماعيل حقّي، روح البيان: 273/3.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 169/9.
(4) طنطاويّ، التَّفسير الوسيط: 431/5.
(5) البقاعي، نظم الدُّرر: 153/8.

اللّهِ سبحانه هذا الموقفُ الَّذي شهدتْهُ أرواحُنا، ولم تشهدْهُ أجسادُنا، كما شَهِدَتْهُ المخلوقاتُ جميعًا؛ من حيٍّ وغير حيٍّ، وهذهِ الشَّهادةُ إقرارٌ سابقٌ بولائنا جميعًا للّهِ، وإيماننا بوحدانيَّتهِ؛ وإنَّ من شأنِ هذا الإقرارِ أن يُقيم وجوهنا إلى اللّه، بعد أن نلبسَ هذه الأجسادَ الَّتي نعيش فيها، فهذا الإقرارُ رصيدٌ من الإيمان نستقبلُ به الحياةَ، ونتلاقى بهِ على طريقِ الإيمانِ مع دعوةِ العقلِ الَّذي أوجدَهُ اللّهُ فينا، ومع دعوةِ الرُّسلِ الَّذين أرسلَهُم اللّهُ إلينا[1].

بلاغةُ كمالِ الاتِّصالِ أو الاستئنافِ بين حكايةِ قولِ البشرِ أو الملائكةِ:

تأكيدُ الإقرارِ السَّابقِ مع بيانِ حُسْنِ الوقفِ على (بلى) من عَدَمِهِ

قوله: ﴿شَهِدۡنَآۚ﴾، يحتملُ أن يكونَ من قولِ بني آدمَ، حين أشهدَ اللّهُ بعضَهم على بعضٍ، فقالوا: بلى شهدْنا، فلا يحسنُ الوقفُ على قولهِ: بَلَىٰ، ويكون قولهم: ﴿شَهِدۡنَآۚ﴾ تأكيدًا لمضمونِ ﴿بَلَىٰ﴾، والشَّهادةُ هُنا أيضًا بمعنى: الإقرار[2]، ويحتملُ أن يكونَ قولُهُ: شَهِدْنَا من قول الملائكةِ، فيحسنُ الوقفُ على قولهِ: بَلَىٰ[3]، واستئنافُ الكلام بعده، ويكون في الكلام حذفٌ تقديره (لمَّا قالت الذُّرِّيَّةُ: بلى؛ قال اللّهُ تعالى للملائكة: اشهدوا، قالوا: شهدنا)[4]، أي: عليكم بالإقرارِ بالرُّبوبيَّةِ[5].

بلاغةُ حذفِ حرفِ التَّعليلِ في: ﴿أَن تَقُولُواْ﴾:

بيانُ تعليلِ فعلِ الأخذِ والإشهادِ السَّابقِ، وتعليلِ نفي اللَّاحقِ

وقع قوله: ﴿أَن تَقُولُواْ﴾ في موقع التَّعليلِ، لفعل الأخذِ والإشهادِ؛ فهو على تقديرِ لامِ التَّعليل الجارَّة (لئلَّا)، وحذْفُها مع (أن) جارٍ على المُطَّردِ الشَّائعِ، والمقصودُ التَّعليلُ بنفي أن يقولوا: ﴿إِنَّا كُنَّا عَنۡ هَٰذَا غَٰفِلِينَ﴾ لا بإيقاعِ القولِ، فحَذْفُ حرف النَّفي جرْيٌ على شيوع حذفهِ مع القولِ، أو هو تعليلٌ بأنَّهم يقولونَ ذلك إن لم يقعْ إشهادُهم

(1) عبد الكريم الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 514/5.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 169/9.
(3) عبد الرَّحمن الثَّعالبيّ، تفسير الثّعالبيّ: 92/3.
(4) محمَّد ثناء الله المظهريّ، التَّفسير المظهريّ: 427/3.
(5) محمّد الدّرة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 662/3.

على أنفسِهم؛ كما جاءَ في قولهِ تعالى: ﴿أَن تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلۡكِتَٰبُ﴾ [الأنعام: 156][1].

دلالةُ تلوينِ الخطابِ في قوله: ﴿أَن تَقُولُواْ﴾:

تشديدُ تذكيرِ المخاطبينَ بالعهدِ السَّابقِ، والاحتجاجِ عليهم بهِ

معنى ﴿أَن تَقُولُواْ﴾: لئلَّا تقولوا يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ، كما قال تعالى: ﴿وَأَلۡقَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمۡ﴾، ويجوزُ أن يكون التَّقديرُ: شهدْنا كراهيةَ أن تقولوا، وقرأ أبو عمرٍو بالياء (يقولوا)؛ لأنَّ الَّذي تقدَّم من الياءِ على الغيبةِ، وكِلا الوجهين حسنٌ؛ لأنَّ الغُيَّبَ هم المخاطبون في المعنى[2]، وقرأ الجمهورُ: أن تقولوا بتاء الخطاب[3]، فيه تحويلٌ مِن خِطابِ الرَّسولِ في قَولِه: ﴿وَإِذۡ أَخَذَ رَبُّكَ﴾، إلى خطابِ قَومِه ومعاصريه من اليهود، تشديدًا في الإلزام إليهم، وإلى متقدِّميهم بطريقِ التَّغليبِ، وتصريحًا بأنَّ المقصودَ مِن قِصَّةِ أخْذِ العَهدِ تذكيرُ المُشركينَ بما أودَعَ اللّٰهُ في الفِطرةِ مِن التَّوحيدِ، وهذا الأسلوبُ هو مِن تَحويلِ الخِطابِ عن مخاطَبٍ إلى غيرِه، وليس مِن الالتفاتِ؛ لاختلافِ المُخاطبينَ[4]، وهذه الآيةُ تذكيرٌ بما أخذ على جميع المكلَّفينَ من الميثاق، واحتجاجٌ عليهم لئلَّا يقولَ الكفَّارُ: إنَّا كنَّا عن هذا الميثاقِ غافلين، لم نحفظْهُ، ولم نذكرْهُ[5].

بلاغةُ القيدِ بالظَّرفِ في: ﴿يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾:

بيانُ تجلِّي الأمرِ ووضوحِهِ يومَ القيامة، حيثُ الجزاءُ والحسابُ

يومُ القيَامَةِ ظرفُ جزاءِ الأعمال، وهو يومُ إدانةِ الخلائق ومحاسبتهم، ومجازاتهم بأعمالهم؛ إن خيرًا فخيرٌ، وإن شرًّا فشرٌّ، وهو اليوم الَّذي يسألُ فيه عن الرُّبوبيَّة والتَّوحيدِ[6]، فإن قيل: إنَّ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 169/9.
(2) الواحدي، الوسيط في التَّفسير: 424/2، والثَّعالبيّ، تفسير الثّعالبيّ: 92/3.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 169/9.
(4) الآلوسيّ، روح المعاني: 93/5، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 169/9.
(5) الواحديّ، الوسيط في التَّفسير: 424/2.
(6) القاسميّ، محاسن التَّأويل: 216/5.

ذلك الميثاقَ لا يذكرهُ أحدٌ اليومَ، فكيفَ يكون حجَّةً عليهم اليوم، أو فكيف يذكرونَهُ يومَ القيامة، حتَّى يحتجَّ عليهم به؟ فجوابه: أنَّ اللّه تعالى لمَّا أخرجَ الذُّرِّيَّة من صلب آدمَ، ركَّبَ فيهم العقولَ، وأخذَ عليهم الميثاقَ، فلمَّا أُعيدوا إلى صلبِ آدمَ؛ بَطَلَ ما رُكِّبَ فيهم، فتوالدوا ناسين لذلك الميثاقِ، لاقتضاءِ الحكمةِ الإلهيَّةِ نسيانهم له، ثُمَّ ابتدأَهُم بالخطاب على ألسنة الرُّسلِ (عليهم الصَّلاة والسَّلام) وأصحابِ الشَّرائعِ، فقامَ ذلك مَقامَ الذِّكر؛ إذ الدَّارُ دارُ تكليفٍ وامتحانٍ، ولو لم ينسوهُ لانتفتِ المحنةُ والابتلاءُ والتَّكليف، فقامت الحُجَّةُ عليهم، لإمدادهم بالرُّسل، وإعلامِهم بجريان أخذِ الميثاق عليهم، وبذلك قامتِ الحُجَّةُ عليهم أيضًا يوم القيامة، لإخبارِ الرُّسل إيَّاهم بذلك الميثاقِ في الدُّنيا؛ فمن أنكرَهُ كان مُعاندًا ناقضًا للعهد، ولَزمتهم الحجَّةُ، ولم تسقط عنهم بنسيانِهم، وعدمِ حفظهم بعد إخبارِ الصَّادق[1]، فيحاسَبونَ يَوْمَ القيامة عند ظهورِ الأمر[2].

سِرُّ اصطفاءِ اسم (القيامة) في قولِهِ: ﴿أَن تَقُولُواْ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾:

﴿يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ سُمِّي بهذا الاسم؛ لأنَّه يومُ قيامِ النَّاس من قبورِهم، وقيامِ الأشهادِ من الرُّسل والأنبياء، والصَّالحين والملائكةِ، ويومُ قيامِ العدل الحقيقيِّ بين النَّاسِ؛ فلا يستطيعُ منكرٌ إنكارَ ما عاهدَ عليهِ من الميثاقِ، لقيامِ العهدِ عليهِ بقيامِ الأشهادِ.

قيامُ العدلِ على من أنكرَ الميثاقَ بقيامِ الأشهادِ عليه

بلاغةُ التَّعبيرِ بمقولِ جملةٍ اسميَّةٍ مؤكَّدةٍ:

قولهم: ﴿إِنَّا كُنَّا عَنۡ هَٰذَا غَٰفِلِينَ﴾، أي: وحدانيَّتك وربوبيَّتك، ﴿غَٰفِلِينَ﴾؛ إذ لم ينبِّهْنا إليه منبِّهٌ، أولعدم الأدلَّة، فلذلكَ أشركْنا[3]، فأكَّدوا جهلَهم بلفظِ (إنَّ) واسميَّة الجملةِ، ظنًّا منهم أنَّ ذلك

التَّنبيهُ على أنَّ تأكيدَ جهلِهم، لايعذَرونَ بهِ في ذلك اليومِ

(1) الخازن، تفسير الخازن: 266/2.
(2) إسماعيل حقّي، روح البيان: 273/3.
(3) البقاعي، نظم الدُّرر: 153/8.

ينفعُهم، وأنَّهم معذورون بجهلِهم وغفلتِهم؛ ومآلُ هذا أنَّهُ لا يقبلُ منهم الاعتذارَ بالجهلِ؛ لأنَّهم نُبِّهوا بنصبِ الأدلَّةِ[1].

سِرُّ التَّعبيرِ باسمِ الإشارةِ (هذا) في: ﴿عَنۡ هَٰذَا غَٰفِلِينَ﴾:

بيانُ توجُّهِ الإشارةِ إلى العهدِ والإقرارِ، أو إلى أصلِ المعرفةِ الفطريَّةِ

الإشارةُ في ﴿عَنۡ هَٰذَا﴾ تتَّجهُ إلى أمرين: أحدهما: أنَّهُ إشارةٌ إلى الميثاقِ والإقرارِ، والثَّاني: أنَّه إشارةٌ إلى معرفةِ أنَّه الخالقُ[2]، أي: إلى مضمونِ الاستفهامِ وجوابِهِ، وهو الاعترافُ بالرُّبوبيَّةِ للّٰه تعالى[3]، والتَّعبيرُ باسم الإشارةِ فيه تمييزٌ أكملُ تمييزٍ؛ إذ المعهودُ في الإشارة أن تكون لمحسوسٍ.

سِرُّ التَّعبيرِ بالغفلةِ بدلَ النِّسيانِ:

دفعُ الاعتذارِ يومَ الدِّينِ بذكرِ الغفلةِ الَّتي تَدُلُّ على نسيانٍ سابقٍ لها

الغفلةُ: عنِ الشَّيءِ، هي انصرافُ الذِّهنِ عن ملاحظتِهِ، ومُراقبتِهِ، مع وجودِهِ في مجال الإدراك، أو وجودِ أدلَّتِهِ، وإمكانِ إدراكه بها، لولا وجودُ الصَّارف، أو السَّهو الَّذي هو بمنزلة إطباقِ الجفنين على العينين، مع إمكانِ الرُّؤيةِ؛ فهي تركٌ باختيارِ الغافلِ، والنِّسيانُ غيبَةُ الشَّيْءِ عَن الْقلب بِحَيْثُ يحْتَاج إِلَى تَحْصِيل جَدِيد[4]، فهو تركٌ بغيرِ اختياره، ففي النَّاس فطرةٌ تدعوهم إلى الإيمانِ باللّٰهِ، حيثُ يتهدَّون بهذهِ الفطرةِ إلى التَّعرُّفِ على اللّٰهِ، وإفراده بالألوهيَّةِ، ولكنَّ هذه الفطرةَ تتعرَّضُ لآفاتٍ كثيرة، فيصيبُها الفسادُ والعطب، فتتعطَّلُ منها القوى المدركةُ لآلاءِ اللّٰهِ، القادرةُ على الاتِّصالِ بهِ، فيكونُ الضَّلالُ والتِّيهُ في عوالم الشِّركِ والكفر[5]، فذِكرُ الغفلةِ كأنَّه اعتذارٌ بقرينة ما جاءَ بعد ذلك من الاعتذارِ بتقليدِ الآباء، فجاءَ القرآنُ بدفعِ العُذرَين مسبقًا.

(1) المراغي، تفسير المراغي: 103/9، ومحمّد الحجازيّ، التَّفسير الواضح: 783/1.
(2) ابن الجوزيّ، زاد المسير: 167/2.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 169/9.
(4) الكَفَوِيُّ، الكُلِّياتُ، ص: 506.
(5) عبد الكريم الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 514/5.

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الشَّهادة والإقرار:

الإقرارُ تكلُّمٌ بالحقِّ اللَّازم على النَّفس، وهو أخصُّ من الشَّهادةِ

الشَّهادةُ إخبارٌ عن عِيانٍ بلفظ الشَّهادة[1]، وهي في الأصلِ إدراكُ الشَّيءِ من جهة سمعٍ أو رؤيةٍ[2]، وقد شاهدتُ الشَّيءَ رأيتُه، ولهذا سُمِّيَ ما يُدرَك بالحواسِّ، ويُعْلَمُ ضرورةً شاهدًا[3]، أمَّا الإقرارُ؛ فهو التَّكلُّم بالحقِّ اللَّازم على النَّفس، مع توطينِ النَّفس على الانقياد والإذعان[4]، ويشهد له قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾﴾ [البقرة: 84]، والإخبارات ثلاثةٌ: إمَّا بحقٍّ للآخرِ على آخرَ؛ وهو الشَّهادة، وإمَّا بحقٍّ للمُخْبِرِ على آخر؛ وهو الدَّعْوى، أو بالعكس؛ فهو الإقرار[5]، كما أنَّ الإقرارَ يكون بالقلبِ أو اللِّسان أو بهما[6]، فالإقْرَار بِالتَّوحيد وَما يجْرِي مجْراه لا يُغني بِاللِّسَانِ مَا لم يُضامَّهُ الإقرارُ بِالقَلبِ[7]، فاستخدم الإقرار هاهنا؛ لأنَّه الأبرُّ بالسِّياقِ.

النِّسيان والغفلة:

الغفلةُ تركٌ باختيارِ الغافلِ، والنِّسيانُ تركٌ بغيرِ اختيارِهِ

الغفلةُ: عبارةٌ عن عدمِ التَّفطُّنِ للشَّيءِ، وعدمِ حضورِهِ في البالِ بالفعلِ، سواء بقيت صُورَتُه أو معناه في الخيال، أو الذِّكرِ، أو انمحت عن أَحَدِهِمَا؛ فهي تركٌ باختيار الغافلِ، والنِّسيان غَيبَة الشَّيْء عَن الْقلب، بِحَيْثُ يحْتَاج إِلَى تَحْصِيل جَدِيد[8]، فهو تركٌ بغير اختيارِهِ، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٢٠٥﴾﴾ [الأعراف: 205]، ولم يقل:

(1) الجرجانيّ، التّعريفات، ص: 129.
(2) أبو هلال العسكريّ، الفروق اللُّغويَّة، ص: 291.
(3) أبو هلال العسكريّ، الفروق اللُّغويَّة، ص: 305.
(4) أبو هلال العسكريّ، الفروق اللُّغويَّة، ص: 64.
(5) الجرجانيّ، التَّعريفات، ص: 129.
(6) المناويّ، التّوقيف على مهمّات التّعاريف، ص: 58.
(7) الكفويّ، الكليَّات، ص: 160.
(8) الكفويّ، الكليَّات، ص: 506.

ولا تكن من النَّاسينَ، فإنَّ النِّسيانَ لا يدخل تحتَ التَّكليفِ، فَلا يُنْهَى عَنْهُ[1]، فالغفلةُ أعمُّ من النِّسيانِ؛ لأنَّ النِّسيانَ يَحْتاج صاحبه إلى تَجَشُّمِ كَسْبٍ جديد، وَكُلْفَةٍ في تحصيله ثانيًا[2]، فكلُّ نِسْيَانٍ غَفْلَةٌ، وليس كُلُّ غَفْلَةٍ نِسْيَانًا.

(1) ابن قيِّم الجوزيَّة، مدارج السَّالكين: 405/2.

(2) أبو هلال العسكريّ، الفُروق اللُّغويَّة، ص: 389.

﴿أَوۡ تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أَشۡرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبۡلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةٗ مِّنۢ بَعۡدِهِمۡۖ أَفَتُهۡلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ ١٧٣﴾ [الأعراف: 173]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

قطعُ الحُجَّةِ في نقضِ الميثاقِ بسببِ تقليدِ الآباءِ بعد تفنيدِ حُجَّتِهم الباطلةِ

لَمَّا ذَكَّر اللّٰه تعالى عبادَهُ بما أخذ على جميع المكلَّفين من الميثاقِ، والاحتجاجِ عليهم، لئلَّا يقول الكفَّار: إنَّا كُنَّا عن هذا الميثاق غافلين، لم نحفظْهُ، ولم نَذْكُرْهُ؛ قَطَعَ عُذرَهم بقوله: ﴿أَوۡ تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أَشۡرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبۡلُ﴾، فلا يستطيعُ أحدٌ من الذُّرِّيَّة الكافرةِ أن يقولَ يومَ القيامة: إنَّما أشركَ آباؤنا من قبلنا، ونقضوا العهدَ، ﴿وَكُنَّا ذُرِّيَّةٗ مِّنۢ بَعۡدِهِمۡۖ﴾ فاقتدينا بهم[1]، فقد قطعَ اللّٰهُ حجَّتَهم الثَّانية، بعد قطعِ حُجَّتِهم الأولى، ليزولَ اعتذارُهم بمثل هذه الأعذارِ الواهيةِ[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَفَتُهۡلِكُنَا﴾: تُعاقبُنا بالإهلاكِ، يقال: هَلَكَ يهلِك هُلْكًا وهَلَكًا وهَلاكًا، فَهُوَ هَالكٌ، وأهلكه اللّٰهُ إهلاكًا[3]، ويطلقُ الهلاكُ على افْتِقادِ الشَّيء، واستحالَتِه وفسادِه، وعلى المَوْتِ، ومنه يُقالُ لِلْعَذابِ والخَوْفِ والفقْرِ هلاكٌ[4]، وأصلُ هَلَكَ يدلُّ على كَسْرٍ وَسُقُوطٍ[5]، "وهلكوا مهلكًا واحدًا، وفلانٌ هالكٌ في الهوالكِ، واهتلك فلانٌ: ألقى نفسه في التَّهلكة[6]، قال اليزيديُّ: التَّهلكة من نوادرِ المصادرِ، ليست ممَّا يجري على القياس، وأهلكه غيرُهُ

(1) الواحدي، التَّفسير الوسيط: 426/2.
(2) الزُّحيلي، التَّفسير الوسيط: 750/1.
(3) ابن دريد الأزدي، جمهرة اللُّغة: (هلك).
(4) الفيروزابادي، بصائر ذوي التَّمييز: 338/5.
(5) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: 62/6.
(6) الزّمخشريّ، أساس البلاغة: (هلك).

واستهلَكَهُ، والمَهْلكةُ والمُهلكةُ: المفازةُ[1]، والمعنى في الآية هنا: أفتعذِّبُنا بجنايةِ آبائنا المبطلين[2]؟

2) ﴿ٱلْمُبْطِلُونَ﴾: الآخِذونَ بالباطِلِ، والبَاطِلُ: نقيضُ الحقِّ، يقال: بَطَلَ الشَّيءُ يَبطُلُ بُطْلًا: ذهب باطلًا[3]، ذَهَبَ ضَياعًا وخُسْرًا[4]، وأصلُ (بطل): ذهابُ الشَّيءِ، وقلَّةُ مُكثِه ولُبثِه[5]، فالباطلُ: الشَّيءُ الزَّائل، وما لا ثباتَ له عند الفَحصِ عنه[6]، والمبطلُ من يقولُ شيئًا لا حقيقةَ له[7]، والمعنى هُنا: الذين أبطلوا في دعواهم إلهًا غير اللّٰه[8]، وفي لسان العربِ المبطلونَ هم الكافرونَ، والمعنى: "تبيَّن لهم خسرانُهم، لما رأوا العذابَ، وإلَّا فهم كانوا خاسرينَ في كلِّ وقتٍ، والتَّخسيرُ: الإهلاكُ، والخناسير: الهلَّاكُ، ولا واحدَ له[9].

❁ المَعْنى الإجْمالِيُّ:

بيانُ مَغبَّةِ تقليدِ الآباءِ المبطلينَ؛ لكونِ الفطرةِ تنادي بالإيمانِ المبينِ

المعنى: أُخِذَ عليكم الإقرارُ، وأنتم ذرِّيَّةٌ ليتبيَّن أنَّ فطرتَكم تناديكم بالإيمان، فلا تعتذروا بأنَّ آباءكم كانوا مشركين، وأنتم اتَّبعتموهم، فإنْ أُوخذتم، فإنَّما تُؤاخذون بشركِهم، ولكن أُخِذَ عليكم من قبلهم بالإيمان، فأنتم مسؤولونَ عن عهدِكم الَّذي عاهدْتُم اللّٰه تعالى عليه أوَّلًا، لَا عن تقليدِكم لآبائِكُم، وإنَّه لَا يصحُّ هذا التَّقليدُ، وفيكم فطرةُ الإيمان[10].

(1) الجوهريّ، الصّحاح: (هلك).
(2) البغوي، تفسير البغوي: 248/2، والعليمي، فتح الرَّحمن في تفسير القرآن: 59/3.
(3) الخليل، العين، باب: (الطَّاء واللَّام والباء).
(4) ابن منظور، لسان العرب: (بطل).
(5) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: 258/1.
(6) الرّاغب، المفردات، والسَّمين الحلبي، عُمدة الحفَّاظ: (بطل).
(7) السَّمين الحلبي، عُمدة الحفَّاظ: (بطل).
(8) ابن جرير، جامع البيان: 565/10.
(9) ابن منظور، لسان العرب: (بطل).
(10) محمّد أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 3005/6، ويُنظر: لجنة من عُلماءِ الأزهر، المنتخَبُ في تفسير القرآنِ الكريم، ص: 234، ونُخْبة من أساتذة التَّفسير، التَّفسير المُيَسَّر، ص: 173، وجماعَةٌ من علماء التَّفسير، المُختَصَر في تفسير القرآن الكريم، ص: 173.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

سِرُّ تقديمِ الاعتذارِ بالغفلةِ على الاعتذارِ بتقليدِ الآباءِ:

تقديمُ إبطالِ المؤثِّرِ الدَّاخليِّ على المُؤثِّرِ الخارجيِّ

وعُطِفَ عليهِ الاعتذارُ بالغفلةِ، بأن يقولوا: إنَّنا اتَّبعنا آباءنا، فاقتدينا بهم، وما ظننَّا الإشراكَ إلَّا حقًّا، فلمَّا كانَ في أصلِ الفطرةِ العلم بوحدانيَّةِ اللّٰهِ بطل الاعتذارُ بالغفلةِ وبالجهل به، وكان الإشراكُ إمَّا عن عمدٍ وإمَّا عن تقصيرٍ، وكلاهما لا ينهضُ عُذرًا[1]؛ لأنَّ نصبَ الأدلَّةِ على التَّوحيد - وما نُبِّهوا عليه - قائمٌ معهم، فلا عذرَ لهم في الإعراضِ عنه، والإقبالِ على التَّقليد والاقتداءِ بالآباءِ؛ كما لا عذرَ لآبائهم في الشِّرْك، وأدلَّةُ التَّوحيد منصوبةٌ لهم[2]، كما أنَّ الغفلةَ قد لا يسبقها كفرٌ أو معصيةٌ، ويقلِّدُها النَّاس الَّذين يأتون من بعد ذلك، والمثال الواضح أنَّ سيِّدنا آدمَ عليه السلام قد أبلغَ أولادَهُ المنهجَ السَّويَّ المستقيمَ، لكنَّهم غفلوا عنه، ولم يعد من اللَّائقِ أن يقولَ واحدٌ منهم: إنَّ أباهُ قد أشركَ، ولكن جاءَ هذا الأمرُ من الغفلة، ثمَّ جاءَ إشراكُ الآباءِ في المرحلة الثَّانية؛ لأنَّ كلَّ واحدٍ لو قلَّد أباهُ في الإشراكِ؛ لانتهى الشِّركُ إلى آدمَ، وآدمُ لم يكن مشركًا، لكنَّ الغفلةَ عن منهجِ اللّٰه المستقيمِ حدثت من بعضِ بني آدمَ[3].

دلالةُ ﴿أَوۡ﴾ في: ﴿أَوۡ تَقُولُوٓاْ﴾:

إفادةُ منعِ الخلوِّ دونَ منعِ الجمعِ بخطابِ اليهودِ والمُشركين جميعًا

﴿أَوۡ تَقُولُوٓاْ﴾ عُطِفَ فعلُ القول على نظيره ﴿أَن تَقُولُواْ﴾[4]، و(أو) لمنع الخُلوِّ، أي: خُلُوُّ أحدِ القولين منهم دونَ منعِ الجمع، فقد يعتذرونَ بمجموعِ الأمرين، وهو أيضًا مفعولٌ لهُ لما قبلَهُ من الأخذِ والإشهادِ بالمعنى المذكور[5]، وقد قيل: إنَّ العطفَ هُنا إنَّما يصلحُ

(1) التّحرير والتّنوير: 170/9.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 177/2.
(3) تفسير الشّعراويّ: 4450/7.
(4) البيضاويّ، أنوار التّنزيل وأسرار التّأويل: 41/3.
(5) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 290/3، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاوي: 544/8.

لخطابِ المشركين دونَ بني إسرائيلَ، والدَّليلُ على ذلك قوله: ﴿إِنَّمَآ أَشۡرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبۡلُ﴾، وقيلَ بصلاحيَّة الخطابِ لليهود، والدَّليلُ على أنَّها في اليهود: الآياتُ الَّتي عُطِفَتْ عليها هي والَّتي عُطفت عليها، وهي على نمطِها وأسلوبِها، وذلك قوله: ﴿وَسۡـَٔلۡهُمۡ عَنِ ٱلۡقَرۡيَةِ﴾ [الأعراف: 163]، ﴿وَإِذۡ قَالَتۡ أُمَّةٞ مِّنۡهُمۡ لِمَ تَعِظُونَ﴾ [الأعراف: 164]، ﴿وَإِذۡ تَأَذَّنَ رَبُّكَ﴾ [الأعراف: 167]، ﴿۞وَإِذۡ نَتَقۡنَا ٱلۡجَبَلَ فَوۡقَهُمۡ﴾، ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا﴾[1].

سِرُّ التَّعبيرِ بأسلوبِ القصرِ في: ﴿إِنَّمَآ أَشۡرَكَ ءَابَآؤُنَا﴾:

قَصْرُ تأسيسِ الشِّركِ على الآباءِ مُبالغةٌ في التَّخلُّصِ من التُّهمةِ

قوله: ﴿إِنَّمَآ أَشۡرَكَ ءَابَآؤُنَا﴾، أي: مِن قبلنا، ونقضوا العهدَ والميثاقَ، وكُنَّا نحن الذُّريَّة من بعدهم فقلَّدناهم، واقتدينا بهم، وكُنَّا في غفلةٍ عن هذا الميثاقِ، فلا ذنبَ لنا[2]، فقد خرجنا إلى هذا الوجود، فوجدنا آباءَنا قد أشركوا، فلم يكن أمامَنا خيارٌ، ولا كان وسيلةٌ لمعرفة التَّوحيدِ، ولا لتشرُّبِهِ والاطِّلاع على محاسنه، إنَّما ضَلَّ آباؤنا، فضلَلْنا على إثرِهم، واتَّبعْنا سبيلَهم في الغوايةِ، فهم المسْؤُولونَ وحدَهم، وليس لنا أيُّ مسؤوليَّةٍ، ولا علينا تبعةٌ في هذا المضمارِ، فكانَ لهم السَّبقُ المانعُ من تأثيرِ اللَّاحقِ، فقصروا صفةَ تأسيسِ الإشراكِ، على موصوفٍ - وهم الآباء - قصرًا ادِّعائيًّا مُبالغةً في الاعتذارِ والتَّنصُّلِ من التُّهمةِ[3].

سِرُّ اصطفاء أداةِ القصرِ ﴿إِنَّمَآ﴾ على النَّفي والاستثناءِ:

إفادةُ نفي ابتداءِ الشِّركِ وتأسيسِهِ، لا نَفي وقوعِهِ منهم مُطلقًا

جاء القصرُ هُنا بلفظِ ﴿إِنَّمَآ﴾، دونَ النَّفي والاستثناء؛ لأنَّ النَّفيَ والاستثناءَ ينفي عنهم الشِّركَ مُطلقًا، والأبناءُ وقعوا في الشِّرك حقيقةً، وشاركوا آباءهم في الوقوعِ فيه، فهم لم ينفوا وقوعهم في

(1) أبو حيّان الأندلسيّ، البحر المحيط: 219/5.
(2) الخازن، لباب التّأويل في معاني التّنزيل: 269/2.
(3) الإيجيّ، جامع البيان في تفسير القرآن: 669/1، وأبو حيّان، النّهر المادّ من البحر المحيط: 886/1، والهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 209/10.

الشِّرك مُطلَقًا، بل أخبروا أنَّهم تَبَعٌ لآبائِهم في شركهم، فاختيرَ القصرُ بلفظ (إنَّما)؛ لأنَّها تختصُّ بقصرِ القلب؛ لأنَّهم أرادوا نفيَ التُّهمةِ عن أنفسِهم، بأنَّ إشراكَهم وقع تبعًا لإشراكِ غيرِهم، وليس أصالةً، فكأنَّهم قالوا: إنَّ آباءنا أشركوا من قبلِنا، ونحن خَلفٌ لهم، نجهلُ بطلانَ شركِهم، وقد قلَّدناهم في أعمالِهم واعتقادِهم، مع حسنِ الظِّنِّ بهم، ولم نهتدِ إلى التَّوحيد، فكان الذَّنبُ لأسلافِنا، فكيف تُعذِّبنا على هذا الشِّرك، مع أنَّا حينئذٍ لم نكن من أصحاب الرَّأي والتَّمييز[1]؟

وتُستخدمُ (إنَّما) فيما لا يجهلُهُ المخاطبُ، ولاينكرُهُ، على العكس من النَّفي والاستثناءِ؛ إذ هو فيما ينكرُهُ المخاطبُ.

دلالةُ التَّعبيرِ بالظَّرفِ:

بيانُ تباعدِ الزَّمنِ الَّذي وقعَ فيهِ الشِّركُ عن زمنِهم

﴿مِن قَبْلُ﴾ أي: قَبْلَ أن نوجد[2]، فقد اخترعوا الإشراكَ، وسنُّوهُ من قبلِ زماننا[3]، ونحن خلفٌ لهم، والمعنى: وَرِثنا عنهم عقائدَهُم بتأثيرِ البيئة، وسلطانِ مواريثها، وكان ذلك من قبلُ عندما أشركَ آباؤنا، ولم نكن من أهلِ التَّكليفِ آنئذٍ، والظَّرفُ لم يكن يعطينا خَيارًا آخر، وهي حجَّةٌ واهيَةٌ، للتَّهرُّبِ من مسؤوليَّةِ التَّلبُّس بما نُهوا عنه، ونُهي عنه سابقوهم، وكان نهيُهم عنه مع وجودِ وسائلِ الإدراك عندهم، وقدرتهم على التَّمييزِ بين ما يصحُّ، وما لا يصحُّ، فغلبت عليهم شقوتُهم، وكان ما كان.

دلالةُ الإيجازِ في قولِهِ: ﴿وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعۡدِهِمۡۖ﴾:

إقامةُ التَّعليلِ موقعَ المُعَلَّلِ في الآيةِ الكريمةِ

قولُهم: ﴿وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعۡدِهِمۡۖ﴾، أي: كُنَّا على دينهم تبعًا لهم؛

(1) حسن بن محمد نظام الأعرج، تفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان: 345/3، ووهبة الزّحيليّ، التّفسير المنير: 157/9.

(2) الشّربينيّ، السّراج المنير: 613/1.

(3) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 105/9، وإسماعيل حقّي البروسويّ، تفسير روح البيان: 273/3، وجمال الدّين القاسميّ، محاسن التّأويل: 218/5.

لأنَّنا ذُرِّيَّةٌ لهم لا نهتدي إلى السَّبيل، ولا نقدرُ على الاستدلالِ بالدَّليل[1]، وشأنُ الذُّرِّيَّةِ الاقتداءُ بالآباءِ، وإقامةُ عوائدهم، فوقع إيجازٌ في الكلامِ، وأقيمَ التَّعليلُ مقامَ المُعَلَّلِ[2].

بلاغةُ التَّعبيرِ بالماضي (كنّا):

بيانُ اعتقادِهم أنَّ كونَهم ذرِّيَّةً لمشركينَ يرفعُ عنهم التَّبعةَ واللَّومَ

في قولِه: ﴿وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعۡدِهِمۡۖ﴾ عبَّروا في الاعتذارِ بوقوعِ الشِّركِ منهم، بكونِهم (كانوا) ذرِّيَّةً لآباءٍ مشركين، اعتقادًا منهم بأنَّ هذا الوقوعَ الكائنَ في الزَّمنِ الماضي السَّابق، لاعتذارِهم يصلحُ أن يكونَ عذرًا، فيُجاب عليهم بأنَّ هذا العُذرَ أيضًا غيرُ مقبولٍ منكم، فلا يَحمِلُ عنكم تبعةَ شركِكم باللّٰهِ، شِركُ آبائِكم من قبلكم؛ إذ كنتم ومعكم فطرتُكم، وكنتم ومعكم عقولُكم، ثُمَّ كنتم ومعكم دعوةُ الرُّسلِ الَّذين يدعونكم إلى اللّٰهِ[3].

دلالةُ التَّعبيرِ بالظَّرفِ:

بيانُ توهُّمِهم أنَّ شرِكَهم كانَ بالوراثةِ، وهم لا عذرَ لهم فيهِ

الظَّرفيَّةُ في ﴿بَعۡدِهِمۡۖ﴾، فيها ما يُوهمُ أنَّ شِرْكَهُم كان بالوراثةِ، وأنَّهم لهم تبعٌ، فكما ورَّثوهم في أجسامِهم ونسبهم، فقد ورَّثوهم في اعتقادِهم[4]، و﴿مِّنۢ بَعۡدِهِمۡۖ﴾ نعتٌ لذُرِّيَّةٍ لما تُؤذنُ به ذرِّيَّةٌ من الخلفيَّةِ والقيام في مَقامِهم[5].

بديعُ الطِّباقِ بينَ ما ذُكرَ في جانبِ آبائِهم، وما ذُكرَ في جانبِهم:

إيضاحُ الصُّورةِ البديعةِ المُقارِنَةِ بين شِرْكِ الآباءِ وتقليدِ الأبناءِ

أعطى الطِّباقَ بين لفظتَي (قبل) و(بعد) صورةً بديعةً لِتلكَ المُقارنةِ بين شركِ الآباءِ وتقليدِ الأبناء، فأولئك ابتدعوهُ، وأسَّسوهُ، وهؤلاء اتَّبعوهُ، ومارسوهُ، فهم شركاءُ في الإثمِ، وكلٌّ مؤاخذٌ لا محالةَ عن ضلالِه، ولا يُعذرُ طرفٌ بإلقاءِ التَّبعة واللَّومِ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 290/3.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 170/9.
(3) عبد الكريم الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقران: 516/5.
(4) محمّد أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 3005/6.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 170/9.

على الطَّرف الآخرِ، وهو السِّرُّ في وجودِ الطِّباق (القبل والبعد)، لتوافرِ الحالينِ في الآيةِ.

فائدةُ الإضافةِ إلى الضَّمير العائدِ على آبائهم ﴿بَعۡدِهِمۡۖ﴾:

نسبوا أنفسَهم لآبائِهم ابتداءً، فقال: ﴿إِنَّمَآ أَشۡرَكَ ءَابَآؤُنَا﴾، فلم نعرفْ لنا مربِّيًا غيرَهم، فلا ريبَ أن يُضيفوا أفعالَهُم إليهم تبعيَّةً وانتهاءً، ﴿مِّنۢ بَعۡدِهِمۡۖ﴾، أي: فكنَّا لهم تبعًا، فشغلنا اتِّباعهم عن النَّظرِ، ولم يأتِنا رسولٌ مُنَبِّهٌ[1].

إضافةُ أفعالِهم إلى الآباءِ، لكونِهم تبعًا لهم في الانتسابِ والاقتداءِ

علاقةُ جملةِ الاستفهامِ ﴿أَفَتُهۡلِكُنَا﴾ بما قبلَها:

الفاءُ في ﴿أَفَتُهۡلِكُنَا﴾ لترتيبِ ما بعدَها على ما قبلَها، وهيَ مُؤخَّرةٌ عن تقديمٍ؛ لأنَّ الاستفهامَ له الصَّدارةُ، وهم يُنكرون مُؤاخذتَهم، وإنَّما المؤاخذةُ على من سبقوهم، فاللهُ تعالى بمقتضى سياق الآياتِ الكريمةِ، يبيِّنُ أنَّهم مَسؤولونَ ومؤاخذونَ، وهم يقولونَ: إنَّا تبعٌ لمن سبقونا، ولا نؤاخذُ بفعلِهم، وقد سِرْنا مسارَهُم، فاللهُ سبحانه يُبَيِّنُ لهم أنَّهم مُؤاخذونَ بمقتضى الفطرةِ[2].

ترتيبُ هذه الجملةِ على ما قبلَها، لِتَعَلُّقِها بها لفظًا ومعنًى

بلاغةُ الاستفهامِ في: ﴿أَفَتُهۡلِكُنَا﴾:

الاستفهامُ هُنا للاستعطافِ، وفيه معنى الإنكارِ[3]، أي: أنت - يا ربَّنا - حكيمٌ وعادلٌ، فهل تؤاخذُنا بما فعلَ آباؤنا من الشِّركِ، وما أسَّسوا من الباطلِ، أو بفعلِ آبائنا الذين أبطلوا تأثير العقول وأقوال الرُّسل؟ إنَّك - يا ربَّنا - قد وعدتَ أنَّك لا تأخذُ الأبناءَ بفعل الآباءِ، ونحن قد سَلَكْنا طريقَهم، والحجَّةُ عليهم بما شرعوا لنا من الباطلِ، فكيف تؤاخذُنا؟ والجواب على ذلك: أنَّ الإقرارَ بالرُّبوبيَّةِ والتَّوحيد هو في أصل فطرتِكم، فلِمَ لم ترجعوا إليه عندما دعاكم رسولنا الكريم

بيانُ استعطافِهم وطلبِهم النَّجاةَ، تخلُّصًا من التَّبعةِ

(1) الشّربينيّ، السّراج المنير: 613/1.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 3005/6.
(3) الهرريّ، حدائق الرَّوح والرَّيحان: 209/10.

إلى وحدانيَّةِ اللّهِ، ونبذ الشُّركاءِ، فإنَّ انقيادَكم للآباءِ بعد أن وهبَكم اللّهُ العقولَ المفكِّرة، وأرسلَ إليكم الرُّسلَ المبشِّرة والمنذرةَ، لن يعفيَكم من المسؤوليَّةِ، ولن ينقذَكم من العذابِ يومَ الحسابِ[1].

إيثارُ التَّعبيرِ بالإهلاكِ مكانَ العذابِ:

الإهلاكُ هُنا مُستعارٌ للعذابِ[2]؛ لأنَّ الإهلاكَ والجزاءَ على الإشراكِ في ذلك اليومِ يكون بالعذابِ وشدَّته، أي: أفتجعلُ عذابَنا كعذابِهم، مع عُذرِنا بتحسينِ الظَّنِّ بِهِم؟[3].

الإهلاكُ والجزاءُ عن الإشراكِ، يكونُ بالعذابِ الأليمِ في ذلك اليومِ

دلالةُ التَّعبيرِ بلفظِ ﴿ٱلْمُبْطِلُونَ﴾:

قولهُ: ﴿بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾، أي: بالإشراكِ الَّذي أسَّسه لنا، واخترعه آباؤنا الملتبِسون بالباطلِ، الَّذي هو الإشراكُ[4]، والَّذين أبطلوا العهدَ والميثاقَ السَّابقَ في دعواهم إلهًا غير اللّهِ[5]، والَّذين أبطلوا تأثيرَ العقولِ وأقوالَ الرُّسلِ[6]، فالمبطلونَ الآخذون بالباطل، وهو يشملُ الإشراكَ وإبطالَ العقولِ ودعوةَ الرَّسولِ[7]، فمعنى الإبطالِ أوسعُ وأشملُ من الإشراكِ، لذلك اختيرَ التَّعبيرُ به في هذا المقامِ.

اشتمالُ الإبطالِ على معاني نقضِ الميثاقِ، بالإشراكِ ونبذِ الرِّسالات

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الإهلاك والعذاب:

الهلاكُ في اللُّغة يُطلق على عدَّة معانٍ: كالموتِ والخسران، والضَّلال والفسادِ والعذاب[8]، وهو عامٌّ يستعملُ في الإنسانِ وغير الإنسانِ، وفي الأموالِ، وفي كلِّ شيءٍ، فهلاكُ المالِ إفناؤه، كما في قولهِ تعالى: ﴿يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا ۝٦﴾ [البلد: 6]، وهلاكُ السُّلطانِ ذهابهُ كقوله تعالى: ﴿هَلَكَ

العذابُ إيلامٌ ومشقَّةٌ، ويكونُ للعاقلِ؛ والإهلاكُ أعمُّ

(1) طنطاويّ، التّفسير الوسيط للقرآن الكريم: 5: 434.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 170/9.
(3) المراغي، تفسير المراغي: 105/9.
(4) الهرريّ، حدائق الرَّوح والرَّيحان: 209/10.
(5) ابن جرير، جامع البيان: 81/9.
(6) القاسميّ، محاسن التأويل: 218/5.
(7) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 170/9.
(8) الفيروزباديّ، بصائر ذوي التّمييز: 338/5.

عَنِّي سُلۡطَٰنِيَهۡ ﴿٢٩﴾﴾ [الحاقّة: 29]، والهلاكُ ليس بالضَّرُورة أن يكونَ عقوبةً، فقد يكون مُجرَّدَ الموتِ، كقولهِ تعالى: ﴿إِنِ ٱمۡرُؤٌاْ هَلَكَ لَيۡسَ لَهُۥ وَلَدٞ﴾ [النِّساء: 167]، يعني: مات[1]، أمَّا العذابُ؛ فهو الإيجاعُ الشَّديد، والألَم الثَّقيل[2]، والنَّكَالُ والعُقُوبة، يُقَالُ: عَذَّبْتُه تَعْذِيبًا وعَذَابًا[3]، وعذَّبتهُ تعذيبًا: عاقبتُهُ أَو أَطلتُ حبسَهُ في العذاب؛ فكلُّ مؤلم للنَّفس يسمَّى عذابًا، واشتقاقُهُ من عذبِ الشَّيءِ؛ إذا استمرَّ وجرى، فالألَمُ يستمرُّ في النَّفسِ، ويتغلغلُ فيها[4].

الفعل والعمل:

الفعلُ كونُ الشَّيء مُؤَثِّرًا في غيره[5]، ولفظُ الفعلِ أعمُّ من معنى سائرِ أخواتِهِ، نحو: العملِ، والصُّنعِ، والإبداعِ، والإحداثِ، والخلقِ، والكسبِ[6]، أمَّا العملُ؛ فهو كلُّ فعلٍ صادرٍ من الحيوان بقصدٍ؛ فالعمل لا يُقال إلَّا لِما كان من الحيوان دونَ ما كان من الجمادِ، ولِما كان بقصدٍ وعلم دون ما لم يكن عن قصدٍ وعلم[7]، فهو أخصُّ من الفعل[8]، والعملُ لا يُقالُ إلَّا ما كان عن فِكْرٍ ورويَّة، ولهذا قُرن بالعلم، فقيل: عِلْمٌ وعَمَلٌ، حتَّى قال بعضُ الأدباء: قُلِبَ لَفْظُ العمل عن لفظ العلمِ تنبيهًا أنَّهُ من مقتضاه[9]، فالفعلُ لفظٌ عامٌّ، يُقال لما كان بإجادة وبدونها، ولِما كان بعلمٍ أو بغيرِ علمٍ، وقَصْدٍ أو غير قَصْدٍ، ولِما كان من الإنسان والحيوان والجماد[10]، والعملُ أخصُّ منه؛ فاستُخدِمَ العامُّ ليكون أشملَ في الإمالةِ والاستعطافِ.

العملُ فِعْلٌ صادرٌ من حيوانٍ بقصدٍ، والفعلُ أعمُّ منهُ

(1) ابن دريد، جمهرة اللّغة: 983/2، والفيروزباديّ، بصائر ذوي التّمييز: 338/5.
(2) الكفوي، الكلّيات، ص: 654، والفيروزباديّ، بصائر ذوي التّمييز: 35/4.
(3) ابن منظور، لسان العرب: 585/1.
(4) المناوي، التوقيف على مهمات التعاريف، ص: 239.
(5) الشّريف الجرجانيّ، التّعريفات، ص: 168.
(6) الشّريف الجرجانيّ، التّعريفات، ص: 168.
(7) المناوي، التوقيف على مهمات التعاريف، ص: 247، والرّاغب، المفردات، ص: 348.
(8) الرّاغب، المفردات، والسَّمين الحلبي، عمدة الحفّاظ: 124/3.
(9) الرّاغب، تفسير الرّاغب الأصفهاني: 119/1.
(10) أبو هلال العسكريّ، الفروق اللُّغويَّة، ص: 322.

﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ وَلَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ١٧٤﴾ [الأعراف: 174]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

ذكرُ بيانِ الآياتِ الَّتي تُرشدُ، وتُذَكِّرُ بالميثاقِ السَّابقِ

لَمَّا بَيَّن اللهُ ﷻ لعبادِهِ في أخذِ الميثاق؛ بَيَّن هنا الآياتِ ليتدبَّرَها العبادُ، فيرجعوا إلى مَدْلولها، ويعملوا بموجبها، وهو بمعنى قوله: ﴿وَلَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ﴾، أي: ولكي يرجعوا عمَّا هُم عليه من الكفرِ إلى التَّوحيدِ[1] الَّذي هو أصلُ فطرتِهم، وبهِ أُخِذَ الميثاقُ عليهم.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿نُفَصِّلُ﴾: الفصلُ: الحقُّ من القولِ، وبه فُسِّرَ قولُهُ تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلٞ فَصۡلٞ ١٣﴾ [الطّارق: 13]، أي: حقٌّ، وقيل: فاصلٌ قاطعٌ، قال اللَّيثُ: الفصلُ من الجسد: موضعُ المفصَلِ، وبين كلِّ فصلينِ وصلٌ، والتَّفصيلُ: التَّبيين، ومنه قوله تعالى: ﴿ءَايَٰتٖ مُّفَصَّلَٰتٖ﴾ [الأعراف: 133]، وقوله تعالى: ﴿وَكُلَّ شَيۡءٖ فَصَّلۡنَٰهُ تَفۡصِيلٗا ١٢﴾ [الإسراء: 12]، وقوله تعالى: ﴿أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ﴾ [هود: 1]، وقيل في قوله تعالى: ﴿ءَايَٰتٖ مُّفَصَّلَٰتٖ﴾ [الأعراف: 133]، أي: بين كلِّ اثنتين فصلٌ، تمضي هذه، وتأتي هذه؛ بين كلِّ اثنتين مهلةٌ، وقوله تعالى: ﴿بِكِتَٰبٖ فَصَّلۡنَٰهُ﴾ [الأعراف: 52]، أي: بَيَّنَّاهُ[2].

2) ﴿يَرۡجِعُونَ﴾: يعودونَ، تقول: رجعَ يرجعُ رجوعًا؛ إذا عادَ، والرُّجوعُ: العودُ إلى ما كان منه البدء، وأصلُ (رجع) يَدُلُّ على رَدٍّ وتَكْرار[3]، والمعنى هُنا: يعودون من الضَّلالِ والكفرِ إلى التَّوحيدِ[4].

(1) التّفسير الوسيط للواحديّ: 426/2.
(2) الزَّبيديّ، تاج العروس: (فصل).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: 490/2.
(4) العليمي، فتح الرّحمن في تفسير القرآن: 59/3.

المَعْنى الإجْماليُّ:

ومثلُ ذلك التَّفصيلِ لقصصِ السَّابقين، والاعتبارِ بهم وبمآلاتِهم، نفصِّلُ لكم الآياتِ، إقامةً للحجَّةِ عليكم؛ لأنَّ الحجَّةَ كلَّما كانت مفصَّلةً كانت أقطعَ للعذر.

بيانُ الآياتِ الدَّالَّاتِ، ليرجعَ المبطلونَ إلى ربِّ الأرضِ والسَّمواتِ

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

تَنَوُّعُ دلالةِ الواوِ، وأثَرُها في المعنى:

جملة: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ﴾: مُعترِضةٌ بين القصَّتين، والواو اعتراضيَّةٌ، وتُسمَّى واو الاستئناف[1]، أي: مثلُ هذا التَّفصيلِ نُفصِّلُ آياتِ القرآن[2]؛ فهذه الآيةُ هي بمنزلةِ فاصلٍ يكشفُ إحدى وظائفِ القرآنِ البيانيَّةِ، للتوقُّفِ قليلًا عنده، قبل المتابعةِ، لاستكمال عناصرِ السُّورةِ الموزَّعةِ على خطوطها، وقيل: إنَّ الواوَ عاطفةٌ، وتقديرُ الكلام: وكما فعلنا هذه الأمورَ، وأنفذْنا هذه المقاديرَ، فكذلك نفصِّلُ الآياتِ، ونُبيِّنُها لمن عاصرَكَ، وبُعِثْت إليه[3].

كشفُ وظيفةِ التَّفصيلِ والتِّبيانِ الَّتي تَمَيَّزَ بها القرآنُ

بَلاغةُ أسلوبِ التَّشبيهِ في قولِهِ: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ﴾:

قوله﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أي: ومثلُ ذلك التَّفصيلِ البليغِ البديعِ، الجليلِ الرَّفيعِ، حيثُ دخلت الكافُ على اسمِ الإشارةِ، لتُفيدَ أنَّ هذا التَّفصيلَ الَّذي فصَّلناهُ في الآياتِ السَّابقةِ نُفَصِّلُه في الآياتِ اللَّاحقة؛ إذ الكلُّ على نمطٍ واحدٍ في التَّفصيل والتَّوضيح، لأدلَّةِ التَّوحيدِ وبَراهينِه[4].

بيانُ تشابهِ آياتِ القرآنِ في رفعةِ وبديعِ البيانِ

دلالةُ اسمِ الإشارةِ المحلَّى بالكافِ:

في قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ إشارةٌ إلى مَصْدر الفعلِ المذكورِ بعدَهُ، وما

الإيذانُ بعلوِّ شأنِ التَّفصيلِ والبيانِ القُرآنيِّ

(1) العلوان، إعراب القرآن الكريم: 779/2، وبهجت، الإعراب المفصّل لكتاب الله المرتّل: 130/4.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 170/9.
(3) ابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 476/2، والسّمرقنديّ، تفسير السّمرقنديّ: 566/1.
(4) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 156/8، والزّمخشريّ، الكشّاف: 177/2، وأبو حيّان الأندلسيّ، البحر المحيط في التّفسير: 220/5.

فيه من معنى البُعدِ للإيذانِ بعلوِّ شأنِ المُشار إليه وبُعدِ منزلتِه؛ والكافُ مُؤكِّدةٌ لما أفادَهُ اسمُ الإشارةِ من الفخامةِ[1].

بلاغةُ الإيجازِ في أسلوبِ التَّشبيهِ:

بيانُ وضوحِ الآياتِ في نَفْسِها، مع كشفِها لمعاني الإيمانِ في القلوبِ

حصلَ بهذا التَّركيبِ ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ﴾، إيجازٌ عجيبٌ، فالمعنى: أنَّ مثلَ ما فصَّلنا، وبيَّنا في هذه الآيةِ خَبَرَ الميثاق، بَيَّنَا سائرَ الآياتِ ليتدبَّروها[2]، فتكشفُ للنَّاس بهذا التَّفصيل عن ذخائرِ الإيمانِ المطموسةِ في كيانهم، والَّتي أهملوها، وغفلوا عنها، وعن المقصودِ منها[3].

إيثارُ التَّعبيرِ بالتَّفصيلِ بَدَل البيانِ:

التَّفصيلُ تمييزٌ بين وجوهِ الدَّلالاتِ، يُفضي إلى التَّبيينِ والتَّوضيحِ

في قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ﴾ أُوثِر التَّعبير بالتَّفصيل بدلَ البيان، والتَّفصيلُ: التَّبيينُ والتَّوضيحُ، مُشتقٌّ من الفصل، وهو تَفرُّق الشَّيءِ عن الشَّيءِ، ولمَّا كانت الأشياءُ المُختلطةُ إذا فُصِّلَت يتبيَّنُ بعضُها من بعض؛ أُطلق التَّفصيلُ على التَّبيينِ بعلاقة اللُّزوم، وشاعَ ذلك حتَّى صارَ حقيقةً، ومن هذا القبيلِ أيضًا تسميَةُ الإيضاحِ تبيينًا وإبانةً؛ فتفصيلُها بيانُها وتجريدها من الالتباسِ[4]، بتمييزِ بعضِها من بعضٍ، ليتمكَّنوا من الاستدلالِ بكلٍّ واحدةٍ منها على جِهتها، وليتبيَّنَ بذلك مَدلولُ كلٍّ منها، ولا تختلط وجوهُ دلالتها.

سِرُّ تقديمِ اسمِ الإشارةِ على الفعلِ:

إفادةُ قصرِ التَّفصيلِ على الآياتِ المذكورةِ

في قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ﴾ قدِّم اسمُ الإشارة على الفعلِ لإفادةِ القَصْرِ، ومحلُّه النَّصبُ على المصدريَّةِ، أي: ذلك التَّفصيلَ البليغَ المستتبِعَ للمنافع الجليلة ﴿نُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ﴾ المذكورة، لا غيرَ ذلك[5].

---

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 291/3.
(2) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 403/15.
(3) شحاتة، تفسير القرآن الكريم: 1926/9، والجاوي، مراح لبيد لكشف معنى القرآن المجيد: 407/1.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 260/7.
(5) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 291/3.

دلالةُ عطفِ الإنشاءِ على الخبرِ:

تَضَمُّنُ الجملةِ الثَّانيةِ لمعنى تعليلِ الأولى

قوله: ﴿وَلَعَلَّهُمْ﴾، عَطْفٌ على مُقَدَّر، والتَّقديرُ: لغاياتٍ عاليةٍ كذا وكذا ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ من الباطلِ إلى الحقِّ، وسوَّغَ عطفَ الإنشاءِ على الخبر تضمُّنُهُ للتَّعليلِ، كأنَّهُ قال: لِذَلِكَ، نُفَصِّل الآياتِ لرجوعِهم، أو ليقفوا على ما فيها من المرغِّبات والزَّواجرِ، أو ليظهر الحقُّ، ولعلَّهم يرجعون[1].

بلاغةُ التَّعبيرِ بأسلوبِ التَّرجّي:

بيانُ كونِهم غيرَ ميؤوسٍ من رجوعِهم إلى الحقِّ بعدَ معرفتِهِ

قوله: ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾، ليكونَ حالهُم حالَ من يُرجى رجوعُهُ عن الضَّلال إلى ما تدعو إليه الهُداة من الكمالِ عن قربٍ إنْ حصلت غفلةٌ فواقعوها[2]، ففي الجملةِ تَرجيةٌ[3]، وفيها أيضًا معنى التَّعليل[4]، أي: ولكي يرجعوا عمَّا هُم عليه من الكفرِ والضَّلالةِ إلى التَّوحيدِ والطَّاعة، وقيل: إلى ما أخذَ عليهم من الميثاقِ في التَّوحيدِ؛ والرُّجوعُ إلى ذلك الميثاقِ رجوعٌ إلى التَّوحيد[5]، فالقومُ وإن أخرجَتْهُم أهواؤهم عن الصِّراط المستقيمِ بجهلِهم أو غفلاتهم، لكنَّهم غيرُ ميؤوسٍ من رجوعِهم إلى الصِّراط المستقيمِ؛ فهؤلاءِ نفصِّل لهم الآياتِ، رغبةً في أن يعلموا ويؤوبوا.

بلاغةُ المجازِ بالاستعارةِ في التَّعبيرِ بالفعل ﴿يَرْجِعُونَ﴾:

تصويرُ حالةِ الإشراكِ بمنزلِ الغُربةِ وحالِ التَّوحيد بمنزلِ القرارِ

﴿وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ أي: عمَّا هُم عليهِ من الإصرارِ على الباطل إلى الحقِّ والميثاقِ الأوَّل[6]، فيذكرونه، ويعملونَ بمقتضاهُ[7]؛ فشَبَّه الإقلاعَ عن الحالةِ الَّتي هم متلبِّسونَ بها بِتَركِ مَن حَلَّ في غيرِ

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 102/5.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 156/8.
(3) سبق بيان التّرجية والفرق بينها وبين التَّرجي في مقدِّمة هذه الصفحة.
(4) وقد سبق بيان ذلك في معاني (لعلَّ).
(5) النَّيسابوري، التَّفسير البسيط: 459/9.
(6) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 291/3.
(7) الآلوسيّ، روح المعاني: 102/5.

مَقَرِّه، الموضِعَ الَّذي هو بهِ؛ ليرجِعَ إلى مَقَرِّه، وهذا التَّشبيهُ يقتضي تشبيهَ حالِ الإشراكِ بمَوضِعِ الغُربةِ؛ لأنَّ الشِّركَ ليس مِن مُقتضى الفِطرةِ؛ فالتلبُّسُ به خروجٌ عن أصلِ الخِلقةِ، كخُروجِ المُسافِرِ عن مَوطِنِه، ويقتضي أيضًا تشبيهَ حالِ التَّوحيدِ بمحَلِّ المَرءِ وحَيِّه الَّذي يأوِي إليهِ، ففي هذه الصُّورةِ التَّشبيهيَّةِ استعارةٌ تصريحيَّةٌ تبعيَّةٌ، وفيها أيضًا تعريضٌ بالعَرَبِ؛ لأنَّهم المُشركونَ مِن عَقِبِ إبراهيمَ[1]، فلمَّا كان ركوبُ مركبِ الباطلِ والضَّلالِ، خروجًا عن بواعثِ الفطرةِ في النَّفسِ البشريَّةِ، وموازين العقولِ الفطريَّةِ؛ كان تركُ الباطل والضَّلال، والتزامُ الحقِّ والهدى، رجوعًا إلى جذورِ الفطرةِ؛ وهذا من الدِّقَّةِ في البيان، لملاءمةِ الواقعِ النَّفسيِّ الفطريِّ.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

التَّفصيل والبيان:

التَّفصيلُ تمييزُ الشَّيءِ من الشَّيءِ وإبانتُهُ عنه، والبيانُ هو الإيضاحُ

التَّفصيلُ: جمعُ الشَّيءِ فصولًا متمايزةً، ومنه المُفصَّلُ سمِّيَ به لكثرةِ فصولِه، أي: سُوَرِه[2]؛ يُطلق، ويُرادُ به التَّبْيينُ[3]، ويُطلقُ على تمييز الشَّيءِ مِنَ الشَّيءِ وإبانته عنه[4]، وهذا الأصلُ، ومنه الفاصلُ، وهو الحاجزُ بين الشَّيئين، قال تعالى: ﴿نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ﴾، أي: نأتي بها مُتَفَرِّقَةً شيئًا بعد شيء[5]، وكقوله تعالى: ﴿ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ﴾ [الأعراف: 133]، أَي: بَين كلِّ اثنتين فَصْلٌ، تمْضِي هَذِه وتأْتي هَذِه، بينَ كلِّ اثنتين مُهْلَةٌ[6]، بينما يطلق التَّبيينُ على توضيحِ أمرٍ واحدٍ كتبيُّنِ الكلمة الواحدة، أو تبيُّن المسألةِ الواحدةِ، كقوله تعالى: ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 171/9.
(2) المناوي، التَّوقيف، ص: 104.
(3) الجوهريّ، الصِّحاح: (فصل).
(4) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (فصل).
(5) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 154.
(6) الزّبيديّ، تاج العروس: (فصل).

ٱبۡنُ مَرۡيَمَ إِلَّا رَسُولٞ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٞۖ كَانَا يَأۡكُلَانِ ٱلطَّعَامَۗ ٱنظُرۡ كَيۡفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرۡ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ٧٥﴾ [المائدة: 75]، فاستعمل ﴿نُبَيِّنُ﴾، أي: نوضِّح، فالتَّفصيل أعمُّ، والتَّبيين أخصُّ.

﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا فَأَتۡبَعَهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ١٧٥﴾ [الأعراف: 175]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

ذِكْرُ حالِ مَنْ كفرَ ونَقَضَ الميثاقَ بعدَ الأخذِ بِهِ

لَمَّا كان تعالى قد ذكر أَخْذَ الميثاقِ على توحيدِهِ تعالى وتقرير رُبوبيَّتِهِ، وذَكَرَ إقرارَهم بذلك، وإشهادَهم على أنفسِهم - ذَكَرَ حالَ مَنْ آمنَ بِهِ، ثُمَّ بعد ذلك مَنْ كَفَرَ، كمَثَلِ الَّذي آتاهُ اللّٰهُ آياتِه، فانسلخَ منها[1]، فذكرَ ما وقع له في نبذِ العهدِ والانسلاخِ من الميثاق، بعد أن كانَ قد أُعطيَ الآياتِ، وأُفرغَ عليه من الرَّوْح[2]؛ فأشارتْ هذه الآيةُ للَّتي قبلَها أنَّها إشارةٌ للعبرةِ من حالِ أحدِ الَّذين أخذَ اللّٰهُ عليهم العهدَ بالتَّوحيدِ والامتثالِ لأمرِ اللّٰهِ، وأمدَّه اللّٰه بعلمٍ يعينهُ على الوفاءِ بما عاهدَ اللّٰه عليهِ، وما أودعَ في فطرتِهِ، ثم لَمْ ينفعْهُ ذلك كلُّه، حين لم يُقَدِّر اللّٰهُ له الهُدى المُسْتَمِرَّ[3].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿نَبَأَ﴾: النَّبأُ: خَبَرٌ له شَأْنٌ، وفائدةٌ عظيمةٌ، يقال: نَبَأ ونَبَّأ، أي: أخبر، ومنه أُخذ النَّبيءُ؛ لأنَّهُ أَنْبَأَ عن اللّٰه تعالى[4]، يحصُلُ به عِلمٌ أو غَلَبةُ ظَنٍّ، وأصلُ (نَبَأَ): الإتيانُ مِن مكانٍ إلى مكانٍ[5]، والمعنى هُنا: أي: خبر الَّذي أعطيناهُ آياتِنا، وعلَّمناه حُجَجَ التَّوحيد، وفَهَّمناه أدلَّته[6].

(1) أبو حيَّان، البحر المحيط: 220/5 - 221.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 156/8.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 173/9.
(4) أبو بكر الأنباريّ، الزَّاهر في معاني كلمات النَّاس: 169/2.
(5) الرّاغب، المفردات، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (نبأ)، وابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 142، والسّجستانيّ، غريب القرآن، ص: 461، وص: 788، وابن الهائم، التّبيان، ص: 157، والكفويّ، الكليّات، ص: 200.
(6) السَّمرقنديّ، بحر العلوم: 566/1، والواحديّ، التَّفسير الوسيط: 427/2.

2) ﴿ٱنسَلَخَ﴾: أي: خرَجَ مِن العَمَلِ بها، وأصلُ (سلخ): إخراجُ الشَّيءِ عَن جِلدِه[1]، والسَّلْخُ: كَشْطُ الإهابِ عن بَدَنِه[2]، وانسلخَ الشَّيءُ: مُطاوع سلَخَ، أي: نُزِع جِلْده، انقطعَ، وانفصلَ، وقوله: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا﴾: نزعَ نفسَه منها بأنْ كفرَ بها، وخرجَ عنها[3]، والمعنى هُنا: خَرَجَ منها كما ينسلخُ الإنسانُ من ثوبِه[4].

3) ﴿فَأَتْبَعَهُ﴾: أدرَكَه ولَحِقَه[5]؛ والإتباعُ: اقتفاءُ الأثر[6]، يُقال: أتبعتُ القَومَ: إذا لحِقتُهم، وأتبَعْتُه، وتَبِعْتُه: لحقتهُ وسرتُ خلفه[7]، وَأصل (تبع): يدلُّ على التُّلُوِّ والقَفْوِ[8]، والمعنى هُنا: لَحِقَهُ، وأدركه، وصيَّره لنفسه تابعًا في معصيةِ الله تعالى[9].

4) ﴿ٱلْغَاوِينَ﴾: أي: الضَّالِّينَ الهالِكينَ، يُقال: غَوَى يَغْوِي غَيًّا[10]، والغَيُّ: الضَّلالُ والانْهِمَاكُ فِي الباطِل[11]، والجهلُ من اعتقادٍ فاسد[12]، وأصلُ (غوي): يدلُّ على خِلافِ الرُّشدِ[13]، والتَّغاوي هو التَّجمُّع والتَّعاون على الشَّرِّ، وأصلهُ: من الغواية أو الغيِّ، يبيِّن ذلك شعرٌ لأخت المنذر بن عمرو، قالتهُ في أخيها:

تَغَاوَتْ عَلَيْهِ ذِئَابُ الحِجَازِ *** بَنُو بَهْثَةٍ وَبَنُو جَعْفَرِ[14]

والمعنى هُنا في الآية: فكانَ من الهالكينَ، لضلالهِ وخلافهِ أمرَ ربِّهِ[15].

---

(1) الرّاغب، المفردات، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (سلخ)، وابن الجوزي، تذكرة الأريب، ص: 121.
(2) الخليل، العين: (سلخ).
(3) أحمد مختار عمر، معجم اللّغة العربيّة المعاصرة: (سلخ).
(4) السّجستانيّ، غريب القرآن، ص: 104.
(5) الزبيدي، تاج العروس: (تبع).
(6) السّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: 255/1.
(7) السّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: 255/1، والنيسابوري، إيجاز البيان عن معاني القرآن: 348/1، وباهر البرهان فى معانى مشكلات القرآن: 543/1.
(8) ابن فارس، مقاييس اللّغة: 362/1، والرّاغب، المفردات، ص: 162، وابن الجوزيّ، تذكرة الأريب، ص: 121.
(9) الشربيني، السّراج المنير: 535/1.
(10) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (غوى).
(11) ابن الأثير، النّهاية في غريب الحديث والأثر: 397/3.
(12) الفيروزابادي، بصائر ذوي التّمييز: 155/4.
(13) ابن جرير، جامع البيان: 576/10، والرّاغب، المفردات، ص: 620، وابن الجوزيّ، تذكرة الأريب، ص: 121.
(14) ابن جرير، جامع البيان: 576/10، والرّاغب، المفردات، ص: 620، وابن الجوزيّ، تذكرة الأريب، ص: 121.
(15) ابن جرير، جامع البيان: 261/13.

❁ المَعْنى الإجْمالِيُّ:

ذِكْرُ قصَّةِ الرَّجلِ الَّذي ترك آياتِ الرَّحمنِ، واتَّبع الشَّيطانَ فضلَّ عن السَّبيلِ

واقرأ - أيُّها الرَّسول - على أُمَّتِك خبرَ رجلٍ من بني إسرائيلَ، أعطيناهُ حُجَجَنا وأدلَّتنا، فَعَلِمَهَا، وفَهِمَ الحقَّ الَّذي دلَّت عليه، ولكنَّه لم يعملْ بها، بل تركَها، وانخلعَ منها، فلحقَهُ الشَّيْطان، وصار قرينًا له، فأصبحَ من الضَّالِّين الهالكين، بسبب مُخالفتِهِ أمرَ ربِّ العالمين، وطاعتِهِ الشَّيطانَ اللَّعين[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالةُ الواوِ في قولِهِ: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ﴾:

العطفُ على القريبِ في هذهِ الآيةِ، وعلى البعيدِ في قِصَّةِ أصحابِ السَّبتِ

قولُهُ تعالى: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ﴾ عطفٌ على المضمرِ العاملِ في ﴿وَإِذۡ أَخَذَ﴾، واردٌ على نمط الإنباءِ عن الحَورِ بعد الكَورِ، أي: واقرأْ على اليهودِ أو على قومك ﴿نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا﴾، أي: خبرهُ الَّذي له شأنٌ وخطرٌ[2]، ويحتمل أن يكون عطفًا على ﴿وَسۡـَٔلۡهُمۡ﴾ [الأعراف: 163] عَطْفَ قصَّةٍ على قصَّة[3].

سِرُّ التَّعبيرِ بالفعلِ ﴿وَٱتۡلُ﴾:

في التِّلاوةِ معنى التَّكرارِ الدَّاعي إلى التَّذكُّرِ والاعتبارِ

﴿وَٱتۡلُ﴾: أي: اقرأ شيئًا بعد شيءٍ، فعلُ أمرٍ مُوجَّهٌ إلى الرَّسولِ محمَّدٍ ﷺ[4] - يقالُ: تلاهُ يتلوهُ تُلوًّا وتلاوةً، أي: تبعَهُ، والتِّلاوةُ القراءةُ، وإلقاءُ الكلام الَّذي يُعاد، ويكرَّرُ للاعتبارِ بِهِ[5]، وعبَّر في هذه القصَّة بقولِهِ: ﴿وَٱتۡلُ﴾ دون ﴿وَسۡـَٔلۡهُمۡ عَنِ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَسۡـَٔلۡهُمۡ عَنِ ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلَّتِي كَانَتۡ حَاضِرَةَ ٱلۡبَحۡرِ﴾ [الأعراف: 163] نحو ما مضى في القريةِ؛ لأنَّ هذا الخبرَ ممَّا يُحبِّون ذِكرَهُ؛ لأنَّ سَلْخَهُ من

(1) لجنة من عُلماءِ الأزهر، المنتخَبُ في تفسير القرآنِ الكريم، ص: 235، ونُخْبة من أساتذة التَّفسير، التَّفسير المُيَسَّر، ص: 173، وجماعَةٌ من علماء التَّفسير، المُخْتَصَر في تفسير القرآن الكريم، ص: 173.

(2) الخازن، لباب التَّأويل في معاني التَّنزيل: 269/2، والآلوسيّ، روح المعاني: 103/5.

(3) الصّاوي، حاشية الصّاوي على تفسير الجلالين: 573/11.

(4) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 156/8.

(5) محمّد رشيد رضا، تفسير المنار: 405/9.

الآيات كانَ لأجلِهم، فهو شرفٌ لهم، فلو سألهم عنه؛ لبادروا إلى الإخبارِ بهِ، ولم يتلَعْثَموا، فلا تكونُ تلاوتهُ ﷺ بعد ذلك لَمَا أُنزلَ في شأنهِ، واقعًا موقعَ ما لو أخبرَهُم به قبلُ[1].

إيثارُ التَّعبيرِ بالنَّبأِ دونَ الخبرِ:

تعظيمُ الخبرِ إغراءٌ بالعنايةِ بهِ، وإيضاحٌ لمدلولِهِ

في قولهِ: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا﴾ أُوثِر التَّعبير بالنَّبأ دونَ الخبر، والنَّبأُ في نفسِهِ: الخبرُ البارزُ الظَّاهر ذو الأهمِّيَّة الَّذي يلفتُ إليه أنظارَ أولي الألبابِ، ويمكن أن يُنتفعَ بهِ، وليسَ مطلقَ خبرٍ؛ لذا استخدمَهُ هنا، ولم يستخدمْ لفظَ الخبرِ، ولذلك يقولُ ﷻ عن اليوم الآخر[2]: ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ۝١ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلۡعَظِيمِ ۝٢﴾ [النَّبأ: 1 - 2] والمقصودُ من تلاوة هذا الخبرِ تحذيرُهم وتقريعُهم، وتشبيهُهم بالمنسلخِ من آياتِ اللهِ؛ لكونِهم عرفوا الكتابَ والعلمَ الأوَّلَ، فانسلخوا من ذلك، وكفروا بمحمَّدٍ ﷺ بُغضًا وحسدًا له[3].

دلالةُ مرجعِ الضَّميرِ في ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾:

تَنَوُّعُ مَرجعِ الضَّميرِ بحسبِ سياقِ القِصَّةِ ومعناها ومغزاها

﴿عَلَيۡهِمۡ﴾ أي: على اليهود[4]، وقيل: ضميرُ ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾ راجعٌ إلى المشركين الذين وُجِّهت إليهم العِبَرُ والمواعظُ من أوَّلِ هذه السُّورة، وقُصَّت عليهم قصصُ الأمم مع رُسلِهم، فشأنُ القصصِ المفتتحةِ بقولهِ: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ﴾ أن يُقْصَدَ منها وعظُ المشركين بصاحبِ القصَّةِ بقرينةِ قولهِ: ﴿ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ﴾، على أنَّ توجيهَ ضمائرِ الغيبةِ إليهم أسلوبٌ مُتَّبَعٌ في مواقعَ كثيرةٍ من القرآن، ويحصل به تعليمٌ واعتبار مثل قوله: ﴿۞وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ نُوحٍ﴾ [يونس: 71] ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ إِبۡرَٰهِيمَ ۝٦٩﴾ [الشعراء: 69] وقوله: ﴿نَتۡلُواْ عَلَيۡكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 158/8.
(2) الشّعراوي، تفسير الشّعراويّ: 4454/7.
(3) عبد الرّزاق، رموز الكنوز في تفسير الكتاب العزيز: 302/2.
(4) البيضاويّ، أنوار التّنزيل وأسرار التّأويل: 42/3.

﴿وَفِرۡعَوۡنَ بِٱلۡحَقِّ﴾ [القصص: 3]، فهو من قبيلِ ردِّ العَجُز على الصَّدرِ[1]، وقيل: إنَّ الضَّميرَ عائدٌ على حاضري محمَّد ﷺ من الكفَّارِ وغيرهم؛ على من كان حاضرًا من كفَّار اليهود وغيرهِم[2]، والظَّاهرُ أنَّ الضَّميرَ في ﴿عَلَيۡهِم﴾ صالحٌ لأن يُرادَ به كلُّ من يصلح؛ لأنْ يُتلى عليه القرآنُ من مؤمنٍ وغيره، بل إنَّ المؤمنين أولى من غيرِهم، بأن يتلى عليهم هذا النَصُّ العظيم من السُّورةِ، إذ يتحدَّث عن قصص الَّذين أتتهم آياتُ اللّٰهِ فآمنوا بها، ولبسوهَا كجلودِهم، ولكنْ لم يلبثوا حتَّى انسلخوا منها.

مُناسبةُ فعلِ التِّلاوة مع سياقِ قَصِّ القصَّةِ وسَرْدِها:

تبليغُ التَّعليم للعربِ الأمِّيِّين، بما يُساوون فيه أهلَ الكتابِ

ومُناسبةُ فعلِ التِّلاوة لهم أنَّهم كانوا قومًا تغلبُ عليهم الأمِّيَّة، فأراد اللّٰهُ أن يُبلِّغَ إليهم من التَّعليم ما يُساوون به حالَ أهلِ الكتابِ في التِّلاوةِ، فالضَّميرُ المجرورُ بالحرف (على)، عائدٌ إلى معلومٍ من السِّياق، وهم المشركونَ؛ وكثيرًا ما يجيءُ ضميرُ جمع الغائبِ في القرآن، مرادًا بهِ المشركونَ، كقولهِ: ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ۝١﴾ [النَّبأ: 1][3].

سِرُّ التَّعبيرِ بالاسمِ الموصولِ الخاصِّ (الَّذِي):

الدَّلالةُ على أنَّ صاحبَ القِصَّةِ واحدٌ مُعيَّنٌ، معلومٌ صفةً واسمًا

وظاهرُ اسمِ الموصولِ المفردِ أنَّ صاحبَ الصِّلةِ واحدٌ معيَّن، وأنَّ مضمونَ الصِّلةِ حالٌ من أحوالهِ الَّتي عُرف بها[4]، وهو بلعام بن باعور للسِّباقِ واللَّحاق[5]، وقيل غيرُه؛ وأيًّا كان؛ فهو واحدٌ من النَّاس هذه قِصَّتُه وحاله، وعُبِّرَ بالاسم الموصولِ لتنبنيَ عليه جملةُ الصِّلةِ الَّتي بها اشتُهِر وعُرِفَ.

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتنوير: 174/9.
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 476/2، وأبو حيَّان، البحر المحيط: 220/5.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتّنوير: 174/9.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتّنوير: 174/9.
(5) البقاعي، نظم الدُّرر: 157/8.

بلاغةُ إسنادِ الفعلِ إلى نونِ العظمةِ في قولِهِ: ﴿ءَاتَيۡنَٰهُ﴾:

تعظيمُ لَفْظِ الإيتاءِ، بعد تعظيمِ خبرِه بلَفْظِ الإنباءِ

قولُهُ تعالى: ﴿ءَاتَيۡنَٰهُ﴾ علَّمناهُ حُجَجَ التَّوحيدِ، وأفهمناهُ أدلَّتَهُ حتَّى صارَ عالمًا بها[1]، وجيءَ بالفعلِ (آتى) مُسْنَدًا إلى ضميرِ العَظَمَةِ وضميرِ الكبرياء؛ لتعظيم ما آتاه اللّهُ من العلم فأخبَرَ سبحانه أنَّه هو الَّذي آتاهُ آياتِه، فإنَّها نعمةٌ، واللّهُ هو الَّذي أنعَمَ بها عليه، وأضافَها إلى نفسِه، فعظَّمَ ما أعطاهُ بمَظهرِ العَظَمةِ، بالإضافةِ إلى لَفْظِ الإيتاءِ، بعد ما عَظَّمَ خَبَرَه بلَفْظِ الإنباءِ[2].

بلاغةُ الاستعارةِ في قولِهِ: ﴿فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا﴾:

تصويرُ العملِ القبيحِ يبشِّعُهُ إلى النُّفوس، ويستحقُّ صاحبُهُ أشدَّ العذابِ

قَولُه تعالى: ﴿فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا﴾ أي: خرجَ منها، كما تنسَلِخُ الحيَّةُ مِن جِلْدِها، وفارَقَها فِراقَ الجِلدِ ينسَلِخُ عن اللَّحمِ[3]، والانسلاخُ حقيقتُهُ خروجُ جسدِ الحيوانِ من جلدِه، حينما يسلخُ عنه جلدُهُ، والسَّلخُ إزالةُ جلدِ الحيوانِ الميِّت عن جسدِه، واستُعيرَ في الآيةِ للانفصالِ المعنويِّ، وهو ترْكُ التَّلبُّس بالشَّيء أو عدم العملِ بهِ، بطريقِ الاستعارة التَّصريحيَّةِ التَّبعيَّة؛ ومعنى الانسلاخ عن الآيات، الإقلاعُ عن العملِ بما تقتضيهِ[4]؛ لأنَّ الانسلاخَ يدلُّ على أنَّ الشَّيءَ كان موجودًا فيه ثمَّ خرجَ منه، لا على أنَّهُ لم يوجد فيه أصلًا، وأيضًا ثبت بالأخبار: أنَّ الآيةَ نزلت في إنسانٍ كان عارفًا بدينِ اللّهِ، ثمَّ خرجَ من المعرفةِ إلى الكفرِ والغواية[5]، وفيه مبالغةٌ في التَّبرِّي منها والبعد، أي: لم يعمل بما اقتضتهُ نعمتنا عليه من إتيانِهِ آياتنا، جُعِلَ كأنَّهُ كان متلبِّسًا بها كالثَّوب، فانسلخَ منها،

(1) السّمرقنديّ، بحر العلوم: 566/1، والمراغي، تفسير المراغي: 107/9.
(2) نظم الدّرر للبقاعي: 156/8، وهو الّذي عليه جمهور المفسّرين، يُنظَر: ابن قيّم الجوزيَّة، إعلام الموقعين: 129/1.
(3) البغويّ، معالم التّنزيل في تفسير القرآن: 224/8، والسّمرقنديّ، تفسير السّمرقنديّ: 566/1، وابن قيّم الجوزيّة، تفسير القرآن الكريم، ص: 290.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 176/9.
(5) نظام الأعرج، تفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان: 345/3.

وهذا من إجراءِ المعنى مجرى الجزم[1]، فالاستعارةُ جسَّدت مدى تمكُّنِهِ من العلم بالآياتِ، حتَّى صارَ تركها انسلاخًا، ممَّا يجعلُ تركها بعد التَّمكُّن من العلم بها أقبحَ القبائحِ، فاستحقَّ أسوأَ عقوبةٍ وأشدَّها، كما أنَّ التَّعبيرَ بالانسلاخِ المُستعمَلِ عند العَرَبِ في خروجِ الحَيَّاتِ والثَّعابينِ أحيانًا مِن جُلودِها؛ يدلُّ على أنَّه كان متمَكِّنًا منها ظاهرًا، لا باطنًا[2]، وفي هذه العبارة أيضًا استعارةٌ بديعةٌ أخرى، قائمةٌ على تشبيهِ الإيمانِ بآياتِ اللّهِ، والعمل بها، كالمحتمي بجلدٍ ملتصقٍ بلحمِ بدنه، أو شبَّه الآياتِ النَّيِّرةَ الدَّالَّةَ، بالثِّياب السَّابغة الَّتي تلازمُ الشَّخص، ولا تَنْفكُّ عنه حتَّى يخلعها[3]، فمن تركَها تعرَّى كما تتعرَّى الشَّاة[4]، وفي هذا دليلٌ على أنَّ الآياتِ محيطةٌ بالإنسانِ إحاطةً قويَّة، لدرجة أنَّها تحتاجُ جبروتَ معصيةٍ لينسلخ الإنسان منها؛ لأنَّ الأصل في السَّلخِ إزاحةُ جلدِ الشَّاة عنها، فكأنَّ ربَّنا يوضِّح أنَّه ﷻ أعطى الإنسانَ الآياتِ، فانسلخَ منها، وهذا يعني: أنَّ الآياتِ تحيطُ بالإنسان، كما يحيط الجلدُ بالجسمِ ليحفظَ الكيانَ العامَّ للإنسانِ[5].

إيثارُ التَّعبيرِ بالانسلاخِ على الانقطاعِ:

﴿فَٱنسَلَخَ﴾، أي: فارقها بالكلِّيَّةِ كما تَنسلخُ الحيَّة من قشرها[6]، ولم يَقُلْ: (انقطع) عنها؛ لأنَّ الانسلاخَ أبلغُ، كانسلاخِ الجلدِ من الجسدِ، فلا يَرْجِعُ إليهِ أصلًا؛ بخلافِ الانقطاع[7]، إذ انسلاخهُ منها تجرُّدُه وانسلالُه منها، وتركُهُ إيَّاها بحيثُ لا يلتفتُ إليها

بيانُ أنَّ الانسلاخَ أبلغُ في تركِ الحقِّ، وعدمِ الرُّجوعِ إليه

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 220/5.
(2) محمد رضا، تفسير المنار: 340/9، والمراغيّ، تفسير المراغيّ: 107/9.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 3007/6.
(4) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 3007/6.
(5) تفسير الشّعراويّ: 4455/7.
(6) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 157/8.
(7) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 266/2.

لاهتداءٍ ولا اعتبارٍ ولا عملٍ[1]، كما أنَّه لم يقُلْ: (فَسَلَخْنَاهُ مِنْهَا)؛ لأنَّه هو الَّذي تسبَّبَ في انسلاخِه منها باتِّباعِ هواه[2]، ففي التَّعبيرِ بهِ ما لا يخفى من المبالغةِ، واستأنسَ بعضُهم بهذه الآية؛ لأنَّ العلمَ لا يُنزع من الرِّجال، حيثُ قالَ ﷻ: ﴿فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا﴾، ولم يَقُلْ ﷻ: (فانسلخَتْ منه)[3].

بلاغةُ التَّعبيرِ بالفعلِ ﴿فَأَتۡبَعَهُ﴾:

المبالغةُ في اللُّحوقِ بالشَّيطانِ ومسابقتِهِ، تصيِّرُهُ إمامًا للشَّيطان

قولهُ: ﴿فَأَتۡبَعَهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾، فَأَتْبَعَهُ مِن (أتبع) رُباعيًّا، أي: لَحِقَهُ، وصارَ معه، وصيَّره تابعًا[4]، وهي مُبالغةٌ في حقِّه؛ إذ جُعِلَ كأنَّه هو إمامٌ للشَّيطانِ يَتْبَعُه، وكذلك قولُه تعالى: ﴿فَأَتۡبَعَهُۥ شِهَابٞ ثَاقِبٞ ١٠﴾ [الصّافات: 10][5]، وأتبع: فعلٌ ماضٍ رباعيٌّ يتعدَّى لواحد، فيكون بمعنى: أَدركه، ولَحِقَهُ غير مُفْلِتٍ، ويتعدَّى لاثنين، فتكون الهاءُ المفعولَ بهِ الأوَّلَ، والمفعولُ بهِ الثَّاني محذوفٌ، تقديره: فَأَتْبَعه الشَّيطانُ خطواتِهِ، أي: جعلهُ تابعًا لها، وتسلَّط عليه، حين خرجَ من الحصنِ الحصينِ، وصارَ إلى أسفلِ سافلين[6]، فبعدَ أنِ انسلخ من الآياتِ باختيارِهِ، لَحِقَهُ الشَّيطان، فأدركَهُ، وتمكَّنَ من الوسوسة لهُ؛ إذ لم يبقَ لديهِ من نور البصيرةِ، ولا أماراتِ الهِداية ما يحولُ بينهُ وبينَ قَبولِ وسوستهِ وسلوكِ فهمهِ، فصارَ من الضَّالِّين المُفسدين[7]، فهذه مُبالغةٌ في ذمِّ هذا الإنسانِ وتحقيرِهِ؛ حيث جُعِلَ كأنَّه إمامٌ للشَّيطان، والشَّيطانُ يتبعه، فهو على حدِّ قولِ القائلِ:

(1) رشيد رضا، تفسير المنار: 405/9.
(2) ابن قيّم الجوزيَّة، إعلام الموقّعين: 129/1، وابن قيم الجوزيّة، تفسير القرآن الكريم، ص: 290.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 104/5.
(4) الثّعالبيّ، تفسير الثّعالبيّ: 93/3.
(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 222/5.
(6) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 476/2، ودرويش، إعراب القرآن الكريم وبيانه: 495/3.
(7) أحمد مصطفى المراغيّ، تفسير المراغيّ: 107/9.

وكُنْتُ امْرَءًا مِنْ جُنْدِ إبْلِيسَ فَارْتَقَى ***

بِيَ الحَالُ حَتَّى صَارَ إبْلِيسُ مِنْ جُنْدِي[1].

وهو من الذَّمِّ بمكان[2].

ترتيبُ أفعالِ الانسلاخِ والاتِّباعِ والكونِ من الغاوين بفاء العطف:

مجيءُ تَرتيبِها مُتعاقِبَةً بِحَسَبِ ترتيبِها في الحصولِ

رُتِّبت أفعالُ الانسلاخِ والاتِّباع والكونِ من الغاوين بفاءِ العطفِ، على حَسَبِ ترتيبها في الحصول، فإنَّه لمَّا عاندَ، ولم يعمل بما هداهُ اللهُ إليه؛ حصلت في نفسهِ ظُلْمةٌ شيطانيَّة، مكَّنت الشَّيطانَ من استخدامهِ وإدامةِ إضلالهِ، فالانسلاخُ عن الآيات أَثَرٌ من وسوسةِ الشَّيطانِ، وإذا أطاعَ المرءُ الوسوسةَ؛ تمكَّن الشَّيطانُ من مَقادِهِ، فَسخَّرَهُ، وأدامَ إضلالَهُ؛ وهو المعبَّر عنه بلفظ (أَتْبَعَهُ)، فصار بذلك في زمرةِ الغُواة المتمكِّنين من الغوايةِ[3].

بلاغةُ التَّعبيرِ بالفعلِ الماضي: ﴿فَكَانَ﴾:

التَّنبيهُ على استعدادِهِ السَّابقِ للغوايةِ، وَوُقُوعِهِ اللَّاحقِ فيها

يحتمل أنَّ (كان) في قوله: ﴿فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾، باقيةُ الدَّلالةِ على مَضمون الجملة واقعًا في الزَّمان الماضي، والتَّعبيرُ بـ(كان) للإشارةِ إلى تمكُّنِهِ في الغواية، ويحتمل أن تكونَ (كان) بمعنى (صار)، أي: صار من الضَّالِّين[4]، أي: صار من زُمرةِ الضَّالين الرَّاسخين في الغِواية بعد أن كان مُهْتَدِيًا[5]، فَنَبَّهَ بهذا الفعلِ على استعدادهِ السَّابقِ للغوايةِ وَوُقُوعِهِ وتمكُّنِهِ اللَّاحق فيها.

---

(1) وهو الظَّاهر من حاله بعد انسلاخه، كما ذكره كثير من المفسّرين، بعد أن قام هذا الرَّجل ليدعوَ على نبي الله موسى ﷺ، ومن معه من المؤمنين، وخاب سعيه في عدم استطاعته الدُّعاء: فقال لقومه: قَدْ ذَهَبَتْ منِّي الآن الدُّنيا والآخرة، فلم يبقَ إلَّا المكر والخديعة والحيلة، وسأمكر لكم، فإنِّي أرى أن تُخرجوا إليهم فتياتكم، فإنَّ الله يبغض الزِّنى، فإن وقعوا فيه هلكوا؛ ففعلوا فوقع بنو إسرائيل في الزِّنى، فأرسل اللهُ عليهم الطَّاعونَ، فماتَ منهم سبعونَ ألفًا. يُنظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 319/7.

(2) طنطاويّ، التَّفسير الوسيط: 435/5، وعبد القادر ملا حويش، تفسير القرآن العظيم: 453/1.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 176/9.

(4) أبو حيّان الأندلسيّ، البحر المحيط: 220/5.

(5) الآلوسيّ، روح المعاني: 103/5.

سِرُّ التَّعبيرِ بقولِهِ: ﴿مِنَ ٱلۡغَاوِينَ﴾:

المبالغةُ في الوصفِ المقتضي للرُّسوخِ في الغوايةِ والمبالغةِ فيها

﴿مِنَ ٱلۡغَاوِينَ﴾ أي: من زمرةِ الضَّالِّين الفاسدين الرَّاسخين في الغواية والفساد[1]، وقد أكَّدَ النَّظمُ الكريمُ الغوايةَ لهذا الرَّجلِ، بوصفِهِ ﴿مِنَ ٱلۡغَاوِينَ﴾، فأَظْهَرَ الوصف المقتضي للإيغال في الغوايةِ، أي: كان في عِدادهم، فإنَّ التَّعريفَ في الغاوين تعريفُ الجنسِ، والإخبارُ عنه أنَّه من الغاوين، يُفيد أنَّه واحدٌ من الفئة الَّتي تُعرف عند النَّاسِ بفئةِ الغاوين فيُفيد أنَّه غاوٍ إفادةً بطريقةٍ تُشبهُ طريقةَ الاستدلالِ، فهو من قبيلِ الكنايةِ الَّتي هي إثباتُ الشَّيء بإثباتِ ملزومِهِ، وهي أبلغُ من التَّصريحِ؛ لأنَّ قولَك: فلانٌ من الغاوين، أبلغُ في الوصفِ من قولِ: فلان غاوٍ؛ لأنَّك تشهدُ له بكونهِ معدودًا في زُمرتهم ومعروفةٌ مساهمته لهم في الغواية؛ فهو أشدُّ مبالغةً في الاتِّصاف بالغوايةِ من أن يقالَ: وَغَوى أو كان غاويًا[2].

دلالاتُ التَّعقيبِ بذمِّ عَالمِ السُّوء ووصفِ حالِهِ:

العالمُ المنسلخُ من الهدايةِ، ينقلبُ علمُهُ إلى شؤمٍ وفسادٍ وغوايةٍ

ضربَ اللهُ تعالى هَذَا المَثَلَ لعَالمِ السُّوءِ الَّذي يعمَلُ بخِلافِ عِلْمِه، وقد تضمَّنَت هذه الآيةُ ذَمَّهُ مِن عِدَّة وجوهٍ: أحدُها: أنَّه ضلَّ بعد العِلمِ، واختار الكُفرَ على الإيمانِ، عَمْدًا لا جَهلًا. ثانيها: أنَّه فارقَ الإيمانَ مُفارقةَ مَن لا يعودُ إليه أبدًا، فإنَّه انسلخَ مِن الآياتِ بالجُملةِ، كما تنسلِخُ الحيَّةُ مِن قِشرِها، ولو بَقِيَ معه منها شيءٌ لم ينسلِخْ منها. ثالثُها: أنَّ الشَّيطانَ أدرَكَه ولَحِقَه بحيثُ ظفِرَ به وافترَسَه؛ ولهذا قال: فَأَتۡبَعَهُ الشَّيۡطَانُ، ولم يقُلْ: تَبِعَه؛ فإنَّ في معنى أتبَعَه: أدرَكَه ولَحِقَه، وهو أبلَغُ مِن تَبِعَه لفظًا ومعنًى. رابعُها: أنَّه غَوى بعد الرُّشدِ، والغَيُّ: الضَّلالُ في العِلمِ والقَصدِ، وهو أخَصُّ بفسادِ القَصدِ والعَمَلِ، كما أنَّ الضَّلالَ أخَصُّ بفسادِ

(1) البيضاويّ، أنوار التّنزيل وأسرار التّأويل: 42/3، والآلوسيّ، روح المعاني: 103/5، ورشيد رضا، تفسير المنار: 405/9.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 176/9.

العِلم والاعتقادِ، فإذا أُفرِدَ أحدُهما؛ دخل فيه الآخَرُ، وإن اقتَرَنا؛ فالفَرْقُ ما ذُكِرَ[1].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الخبر والنَّبأ:

النَّبأ: الخبرُ الَّذي له شأنٌ عظيمٌ[2]، ومنه اشتقاقُ النُّبوَّةِ؛ لأنَّ النَّبيَّ ﷺ، مُخبِرٌ عن اللّٰه تعالى، ويَدُلُّ عليه قوله تعالى: ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ۝١ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ ۝٢﴾ [النَّبأ: 1 - 2] فوصْفُهُ بالعظمةِ، وصفٌ كاشِفٌ عن حقيقته، ولا يُقالُ للخبر: نبأٌ، حتَّى يَتَضَمَّنَ هذه الأشياء، والصِّيغة الفعليَّة للنَّبأ (أنبأ) أقوى أيضًا منها للخبر (أَخْبَرَ)، ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ۝١٠٣﴾ [الكهف: 103][3].

النَّبأُ خبرٌ ذو شأنٍ عظيمٍ، والخبرُ أعمُّ

الشَّيطان، والجنّ، وإبليس:

لفظةُ الجنِّ بالنَّظر إلى أصل معناها تدلُّ على الاستتارِ والخفاء عن الأبصار، ولهذا سُمِّيتِ الجنُّ بذلك لاستجنانهم واستتارِهم عن العيون، وهم أجسامٌ هوائيَّةٌ قادرةٌ على التَّشكُّل بأشكال مختلفة، لها عقولٌ وإفهام[4]، والمشهورُ أنَّ جميعَ الجنِّ من ذريَّة إبليس[5]، ومن تبعَهُ منهم يُقال له: شيطانٌ، فالجنُّ هم ولدُ إبليسَ، كما أنَّ الإنسَ ولدُ آدمَ، ومن هؤلاءِ وهؤلاءِ مُؤمنون وكافرون، فمن كانَ من هؤلاءِ وهؤلاءِ مُؤمنًا فهو وليُّ اللّٰه، ومن كان من هؤلاءِ وهؤلاءِ كافرًا فهو شيطان[6]، فالشَّيطانُ اسمٌ لأتباع إبليسَ سواءٌ كانوا من الجنِّ أو الإنس، قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ

الشَّيطانُ اسمٌ جامعٌ لأتباع إبليسَ، سواءٌ كانوا من الجنِّ أم مِنَ الإنسِ

(1) ابن قيّم الجوزيّة، الفوائد، ص: 101، 102.
(2) الرّاغب، المفردات، ص: 481.
(3) أبو هلال العسكريّ، الفروق اللُّغويَّة، ص: 529.
(4) محمّد بن عبد الله الشّبليّ، آكام المرجان في أحكام الجانّ، ص: 23، وإسماعيل حقّي، روح البيان: 280/3.
(5) الدَّميريّ، حياة الحيوان الكبرى: 300/1.
(6) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 5/19.

﴿وَٱلۡجِنِّ يُوحِي بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ زُخۡرُفَ ٱلۡقَوۡلِ غُرُورٗا﴾ [الأنعام: 112]؛ بل إنَّ العربَ تُسمِّي كُلَّ مُتمرِّدٍ شيطانًا، ولو كان من غير الجنِّ والإنس، قال الجوهريُّ: "كلُّ عاتٍ مُتمرِّدٍ من الجنِّ والإنس والدَّوابِّ شيطانٌ، والعرب تُسمِّي الحيَّة: شيطانًا[1]، والخلاصةُ: أنَّ إبليسَ اسمُ علمٍ، يطلق على الشَّيطان، وهو مشتقٌّ من الإبلاس، وهو الإبعادُ من الخير، أو اليأسُ من رحمة الله، والشَّيطان بعيدٌ عن الخيرِ وعن رحمةِ اللهِ، فاصطفى النَّظمُ الكريمُ الأنسبَ بالسِّياق زيادةَ تقبيحٍ لمن أكرمه اللهُ بالعلم، فانسلخَ منهُ.

الغاوين والضَّالّين:

الضَّلالُ: فقدانُ ما يُوصِلُ إلى المطلوب، وقيل: هو سلوكُ طريقٍ لا يُوصلُ إلى المطلوبِ[2]، وكلُّ عدُولٍ عَن النَّهجِ عمدًا أَو سَهوًا قَليلًا كَانَ أَو كثيرًا[3]، فَهُوَ ضلالٌ، وفي بابِ الحقِّ والباطلِ يكون الضَّلالُ عدولًا عن الطَّريق المستقيم[4]، وقد يكونُ عن قصدٍ أو عنْ غير قَصْدٍ، ﴿وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلۡمٖ﴾ [الجاثية: 23]، وقال: ﴿ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعۡيُهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ يُحۡسِنُونَ صُنۡعًا ١٠٤﴾ [الكهف: 104]، أمَّا الغوايةُ؛ فهي جهلٌ من اعتقادٍ فاسد[5]، فلَا يكونُ للغاوي مَقْصِدٌ إلى الطَّريق المُسْتَقِيم[6]، والغواية إمعانٌ في الضَّلال. كما أنَّ الضَّلالَ عامٌّ[7]، يكون للعاقل وغيرِه، فيُقال: ضلَّتِ الدَّابَّةُ، ولا يُقال: غوتِ الدَّابَّةُ، أمَّا الغوايةُ؛ فهي للعاقل المُكلَّف. والضَّلالُ نقيضُ الهُدى، قال الله تعالى: ﴿يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۖ﴾ [فاطر: 8] وقال: ﴿وَأَضَلَّ فِرۡعَوۡنُ قَوۡمَهُۥ

الضَّلالُ فقدانُ الطَّريقِ الموصل، والغوايةُ العدولُ عن الصِّراطِ تَقَصُّدًا

(1) الجوهريّ، الصّحاح: 2144/5.
(2) الشّريف الجرجاني، التَّعريفات، ص: 138.
(3) الكفويُّ، الكليّات، ص: 567.
(4) المناويُّ، التّوقيف، ص: 223.
(5) الرّاغب، المفردات: (غوى).
(6) الكفويُّ، الكليّات، ص: 576.
(7) النَّيسابوريُّ، غرائب القرآن: 199/6.

وَمَا هَدَىٰ ﴿٧٩﴾ [طه: 79]، والغِوايَةُ نقيض الرُّشْدِ قال تعالى: ﴿وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًاۚ﴾ [الأعراف: 146]، وقال: ﴿قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّۚ﴾ [البقرة: 256]. فالنَّاس ثلاثةٌ: راشدٌ، وغاوٍ، وضالٌّ، فالرَّاشدُ: عَرَفَ الحقَّ، واتَّبَعُهُ، والغاوي: عَرَفَه، ولم يتَّبعْه، والضَّالُّ: لم يعرفْهُ بالكلِّيَّة[1]، وقدِ اجتمع نفيُ الضَّلالِ والغواية في قوله تعالى: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾﴾ [النَّجم: 2]، فأثنى عليه بكمالِ العِلْم والعمل[2]، فالضَّلالُ أعمُّ، وهو ألَّا يَجِدَ السَّالكُ إلى مقصدهِ طريقًا أصلًا، والغِوايةُ ألَّا يكونَ لهُ إلى المَقْصَدِ طريقٌ مستقيم[3]، فاصطفى النَّظمُ لفظَ الغاوين؛ لأنَّهُ الألصقُ بالسِّياقِ.

(1) ابن رجب، جامع العلوم والحكم: 126/2.

(2) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 411/7.

(3) النَّيسابوريُّ، غرائب القرآن: 199/6، والتَّهانوي، كشَّاف اصطلاحات الفنون: 1119/2.

﴿وَلَوۡ شِئۡنَا لَرَفَعۡنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخۡلَدَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلۡكَلۡبِ إِن تَحۡمِلۡ عَلَيۡهِ يَلۡهَثۡ أَوۡ تَتۡرُكۡهُ يَلۡهَثۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۚ فَٱقۡصُصِ ٱلۡقَصَصَ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ١٧٦﴾ [الأعراف: 176]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا كان قَولُهُ تعالى: ﴿فَأَتۡبَعَهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ﴾ مُوهمًا لِمَن لم ترسخْ قَدَمُه في الإيمانِ أنَّ الشيطانَ له تأثيرٌ مُستقلٌّ في الإغواءِ؛ نفى ذلك غيرةً على هذا المقامِ في مَظهَرِ العظمةِ، فقال: ﴿وَلَوۡ شِئۡنَا لَرَفَعۡنَٰهُ بِهَا﴾[1]، ولكنَّهُ "ينحرفُ عن الهدى ليتَّبعَ الهوى، فلاحقَهُ الشَّيطانُ، وتسلَّطَ عليه بإغوائِهِ، فصارَ في زُمرةِ الضَّالِّين"[2].

نفيُ استقلالِ الشَّيطانِ بالإغواءِ دونَ هوى النَّفسِ الأمَّارةِ بالسُّوءِ

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿لَرَفَعۡنَٰهُ﴾: شرَّفناهُ، ورَفَعَ الشَّيء يرفعهُ رَفْعًا، يقال للأَجسام الموضوعة؛ إذا أَعْلَيْتَها عن مَقرِّها، وتارةً في البناءِ؛ إذا طوَّلتَهُ، وتارة في الذِّكر؛ إذا نوَّهتَهُ[3]، وتارةً في المنزلةِ؛ إذا شرَّفتَها[4]، وأصل (رفع) يدُلُّ على خِلافِ الوَضعِ[5]، كالتَّرفيع والارتفاع، والمعنى هُنا: فَضَّلْناهُ، وشرَّفناه، ورفعنا منزلته بالآيات[6].

2) ﴿أَخۡلَدَ﴾: اطمأنَّ إليها، ولَزِمَها أطالَ بها الإقامة[7]، أو ركَن إلى الدُّنيا، وسكَنَ؛ ظانًّا أنَّه يخلدُ فيها، وأصلُ (خلد): يدلُّ على

(1) نظم الدّرر للبقاعيّ: 159/8.
(2) لجنة من علماء الأزهر، المنتخب في تفسير القرآن الكريم، ص: 235.
(3) الفيروزباديّ، بصائر ذوي التّمييز: 92/3.
(4) الرّاغب، المفردات، ص: 200، وحسن المصطفوي، التحقيق في كلمات القرآن: 184/4.
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (رفع).
(6) الثّعلبي، الكشف والبيان: 308/4.
(7) الزمخشري، أساس البلاغة: 261/1.

الثَّباتِ والمُلازمةِ[1]، والمعنى هُنا: اطْمَأَنَّ إِلَيْهَا، ولَزِمَها، وتقاعَس[2]، وقيل: "أخلدَ إلى الأرضِ إخلادًا؛ إذا ألصقَ بها نفسه، هكذا فسَّرَ أبو عبيدةَ قولَهُ ﷻ: ﴿أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾؛ إذا لَصِقَ بها"[3].

3) ﴿تَحْمِلْ﴾: تَزجُرْهُ، أو تَطرُدْه، يُقَالُ: يقالُ: حَمَلَ فلانٌ على القومِ حملَةً شعواءَ أوحملةً منكرةً، فهو مُشتَقٌّ مِنَ الحَملِ الَّذي هو الهجومُ على أحدٍ لقِتالِه، وأَصلُ (حمل): يَدُلُّ عَلَى إِقْلَالِ الشَّيْءِ[4]، والمعنى هنا: إنْ تُطارِدْه وتُهاجِمْه[5].

4) ﴿يَلْهَثْ﴾، أي: يُخرجْ لِسانَه من حرٍّ أو عطَشٍ، يُقال: لَهَثَ الكلبُ لهثًا ولُهاثًا؛ إذا دلِع لسانُه من شِدَّةِ العَطَشِ[6]، واللَّهَثُ يُقال للإعياءِ وللعَطشِ جميعًا[7]، والمعنى هُنا: كمثلِ الكلبِ الَّذي هذه حالتهُ؛ لأنَّك إذا حَملت على الكلب؛ نَبَح وولَّى هاربًا، وإنْ تركته؛ شَدَّ عليك ونَبَحَ، فيُتْعِبُ نفسَه مُقبِلًا عليك ومدبرًا عنك، فيعتريه عند ذلك ما يعتريه عند العطش من إخراج اللِّسان[8].

5) ﴿فَٱقْصُصِ﴾: أعلِمْ وأخبِرْ، يُقال: قصَّ عليْهِ الخَبَرَ قَصًّا وقَصَصًا: أَعْلَمَه بِهِ، وأَخْبَرَه، وَمِنْه: قَصَّ الرُّؤْيَا[9]، وأصل (قصَّ) يدلُّ على تَتَبُّعِ الشَّيءِ، ومن ذلك قولهم: اقتصصتُ الأثرَ؛ إذا تَتَبَّعْتَهُ، ومن هذا البابِ القِصَّةُ والقصصُ، كلُّ ذلك يُتَتَبَّعُ، فيذكرُ[10]، والمعنى هُنا: اقرأ عليهم القرآنَ، وأعلِمْهم بما فيه من ضربِ الأمثالِ والعبر، فإذا تفكَّروا؛ عَلِمُوا، وإذا عَلِمُوا؛ عَمِلوا[11].

---

(1) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 174، والسّجستانيّ، غريب القرآن، ص: 60، وابن فارس، مقاييس اللّغة: 207/2، والرّاغب، المفردات، ص: 292، وابن الجوزيّ، تذكرة الأريب، ص: 121، والتّبيان لابن الهائم، ص: 212، والكليّات للكفويّ، ص: 65.

(2) السّجستانيّ، غريب القرآن، ص: 60.

(3) ابن دريد، جمهرة اللّغة: (خلد).

(4) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 175، وابن فارس، مقاييس اللغة: 106/2، وابن الجوزيّ، تذكرة الأريب، ص: 121.

(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 178/9.

(6) نشوان الحميري، شمس العلوم: (لهث)، وابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم: 298/4.

(7) السّجستانيّ، غريب القرآن، ص: 508، وابن فارس، مقاييس اللّغة: 214/5، والرّاغب، المفردات، ص: 748، والتّبيان لابن الهائم، ص: 213، والكليّات للكفويّ، ص: 994.

(8) القرطبي، جامع البيان: 322/7، والشوكاني، فتح القدير: 303/2.

(9) الزّبيديّ، تاج العروس: 98/18.

(10) ابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم: 101/6، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (قص).

(11) السّمرقنديّ، بحر العلوم: 568/1، والسّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 309.

المَعْنى الإجْماليُّ:

ولو شِئْنا أن نرفعَ قَدرَهُ إلى منازلِ الأبرارِ، بما آتيناهُ من الآياتِ؛ لفعلنا، ولكنَّه تَعَلَّق بالأرض، ورَكَنَ إلى الدُّنيا، واتَّبع هواهُ، وآثر لَذَّاتِه وشهواتِه على الآخرةِ؛ فمَثَلُهُ في شدَّة الحِرص على الدُّنيا كمثَلِ الكلبِ، لا يزالُ لاهثًا في كلِّ حالٍ، إن كان رابضًا لَهَثَ، وإن طُرِدَ لَهَثَ، ذلك المثلُ المذكور مَثَلُ القوم الضَّالينَ بتكذيبهم بآياتنا، فاقصصْ - أيُّها الرَّسول - أخبارَ الأممِ الماضيةِ عليهم، رجاء أن يتفكَّروا، فينزجروا عمَّا هُمْ فيه من التَّكذيبِ والضَّلالِ[1].

العبرةُ في تمثيلِ الحريصِ على الدُّنيا وشهواتِها كالكلبِ في لهثِهِ الدَّائِمِ

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالةُ الواوِ في قولِهِ: ﴿وَلَوْ شِئْنَا﴾:

الواو في ﴿وَلَوْ شِئْنَا﴾ حرفُ استئنافٍ، كلامٌ مُستأنفٌ مسوقٌ لبيانِ مناطِ ما ذُكِرَ من انسلاخِهِ من الآياتِ، ووقوعِهِ في مهاوي الغِوايةِ، والضَّمير في قوله: ﴿لَرَفَعْنَاهُ﴾ يعودُ إلى الشَّخْصِ المعبَّرِ عنه بالاسمِ الموصول الَّذي[2].

بيانُ مناطِ ما ذُكِرَ من انسلاخِهِ من الآياتِ، ووقوعِهِ في مهاوي الغِوايات

دلالةُ حذفِ مفعولِ المشيئةِ في قولِهِ: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا﴾:

ومفعولُ المشيئةِ محذوفٌ، أي: ولو شِئْنا رفعه ﴿لَرَفَعْنَاهُ﴾ إلى منازلِ الأبرار، بسببِ تلك الآياتِ والعمل بما فيها[3]، وقدِ اصطفى النَّظمُ هذا السَّنَنَ اللُّغويَّ اتِّساقًا مع عدمِ حصول الرَّفعِ في الواقع، فعبَّر بما يَجيءُ كذلك غائبًا من النَّصِّ تلاؤمًا مع الغيابِ من الواقعِ.

وقوعُ المشيئةِ شرطًا وكَوْنُ مفعولِها مضمونَ الجزاءِ

(1) لجنة من عُلماءِ الأزهر، المنتخَبُ في تفسير القرآنِ الكريم، ص: 236، ونُخْبة من أساتذة التَّفسير، التَّفسير المُيَسَّر، ص: 173، وجماعَةٌ من علماء التَّفسير، المُخْتَصَر في تفسير القرآن الكريم، ص: 173.

(2) الدّرة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 667/3، والآلوسيّ، روح المعاني: 106/5، والطَّنطاوي، التَّفسير الوسيط: 436/5.

(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 292/3، والآلوسيّ، روح المعاني: 106/5، والصّاوي، حاشيته على تفسير الجلالين: 574/1.

دلالةُ (لو) الشَّرطيَّةِ في: ﴿وَلَوْ شِئْنَا﴾:

من يرفعِ اللهُ؛ فلا خافضَ له، ومن يخفضْ؛ فلا رافعَ لهُ

كلمةُ (لو) تدلُّ على انتفاءِ الشَّيءِ لانتفاءِ غيرِه، وأفادَ الكلام: إنَّا ما رفعْنا درجَتَهُ لعدم ملازمتِه العملَ، بمقتضى الآياتِ؛ وملازمةُ العملِ لمّا كانت مسبَّبةً عن المشيئةِ؛ كان عدمُ الملازمةِ دليلًا على انتفاءِ سببِه الَّذي هو المشيئةُ، فلزمَ أن يكونَ انتفاءُ الرَّفعِ لانتفاءِ المشيئةِ[1].

سِرُّ التَّعبيرِ بالإضافةِ إلى ضميرِ العظمةِ والكبرياءِ في ﴿شِئْنَا﴾ و﴿لَرَفَعْنَٰهُ﴾:

تعظيمٌ للمشيئةِ وتعليمٌ للأدبِ معهُ ﷻ

قولهُ: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ﴾، أي: على ما لنا من العظمةِ تعظيمًا لمشيئتِه سبحانه ورفعتِه، فلو شاءَ اللّٰهُ لهُ التَّوفيقَ، وعصمَهُ من كيدِ الشَّيطانِ وفتنته، فلم ينسلخْ عنها؛ وهذه عِبْرةٌ للموفَّقين ليعلموا فضلَ اللّٰهِ عليهم في توفيقِهم، فالمعنى: ولو شئْنا؛ لزادَ في العملِ بما آتيناهُ من الآيات، فلرفعَهُ اللّٰهُ بعلمِه[2]؛ وفي هذا التَّعبيرِ تَعليمٌ للأدَبِ في إسنادِ الخَيرِ إلى اللّٰهِ، والشَّرِّ إلى غَيرِه، وإن كان الكُلُّ خَلْقَهُ[3].

دلالةُ التَّعبيرِ بفعلِ المشيئةِ في قولِه: ﴿وَلَوْ شِئْنَا﴾:

بيانُ أنَّ من قصمتْهُ السَّوابقُ؛ لم تُنعِشْهُ اللَّواحِقُ

علَّق ربُّنا ﷻ الأمرَ بالمشيئةِ، تنبيهًا على أنَّها هي السَّببُ الحقيقيُّ، وأنَّ ما لم يَشأْهُ سبحانه لا يكونُ، وكان التَّقديرُ: ولكنَّا لم نشأ ذلك، وشِئْنا له الكفرَ؛ ومشيئتُه سبحانه مُطلقةٌ، ولا رادَّ لمشيئته، ولا معقِّبَ لحكمِه[4]، وبمقتضى مشيئتِه يُعَذِّبُ المُذْنِبَ بعدله، ويُثيبُ الطَّائعَ بفضلِه، وله سبحانه مُطلقُ الإرادةِ، فهو عزيزٌ، وحكيمٌ في كلِّ فِعْلٍ[5]، فمَن ساعدته المشيئةُ بالسَّعادةِ الأزليَّة، لم تلحقْهُ الشَّقاوة الأبديَّة، ولكن من قَصَمَتْهُ السَّوابق، لم تُنْعِشْهُ اللَّواحِقُ[6].

---

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 404/15، وزاده، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 332/4.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 176/9.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 159/8.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 152/3.
(5) الشّعراويّ، تفسير الشّعراوي: 4457/7.
(6) القشيريّ، لطائف الإشارات: 587/1.

بلاغةُ الاستعارةِ في جوابِ الشَّرطِ ﴿لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا﴾:

تصويرُ كمالِ النَّفسِ بالتَّرقِّي والارتفاعِ، مبالغةٌ في الوصفِ

الرِّفعةُ في قوله: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا﴾، مُستعارةٌ لكمالِ النَّفسِ وزكائها؛ لأنَّ الصِّفاتِ الحميدةَ، تُخَيِّل صاحبها مرتفعًا على من دونِه، بطريقِ الاستعارةِ التَّصريحيَّةِ التَّبعيَّة، أي: لو شئنا؛ لاكتسبَ بعملِه بالآياتِ فَضْلًا وزكاءً وتميُّزًا بالفضلِ، فمعنى لرفعناه: ليسَّرنا له العملَ بها الَّذي يشرفُ به[1]، وقد حوَّلتِ الاستعارةُ المعنى المعقولَ محسوسًا.

دلالةُ الباءِ في قولِه: ﴿لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا﴾:

الإشارةُ إلى العملِ بالآياتِ، وأنَّه سببُ الرِّفعةِ

والباءُ في ﴿بِهَا﴾ بالعملِ بها[2]، والرِّفعةُ عند اللّٰهِ تعالى ليست بمجَرَّدِ العِلمِ - فإنَّ هذا كان مِن العُلَماءِ - وإنَّما هي باتِّباعِ الحَقِّ وإيثارِه، وقَصدِ مرضاةِ اللّٰهِ تعالى، فإنَّ هذا كان مِن أعلمِ أهلِ زَمانِه، ولم يرفَعْهُ اللّٰهُ بعِلمِه، ولم ينفَعْهُ بِه، وفي الآيةِ أنَّه هو سبحانه الَّذي يرفَعُ عَبْدَه - إذا شاء - بما آتاهُ اللّٰهُ مِن العِلمِ، وإنْ لم يرفَعْهُ اللّٰهُ، فهو موضوعٌ لا يرفَعُ أحدٌ به رأسًا، فإنَّه سبحانه هو الخافِضُ الرَّافِعُ، وقد خَفَضَه اللّٰهُ سبحانه ولم يَرْفَعْهُ[3].

بلاغةُ الاستعارةِ التَّمثيليَّة: ﴿أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾:

تمثيلٌ لحالِ المتلَبِّسِ بالخلودِ إلى الأرضِ بالسَّاقِطِ من علوٍّ إلى سفولٍ

قولُه تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾، فيه تمثيلٌ لحالِ المتلَبِّسِ بالنَّقائصِ والكُفرِ، بعد الإيمانِ والتَّقوى بحالِ مَن كان مُرتفعًا عن الأرضِ، فنزَلَ من اعتلاءٍ إلى أسفَلَ، ونزَل بطبعِه إليها، فكانت نفسُه أرضيَّةً سفليَّةً، لا سماويَّةً علويَّةً، وبحسبِ ما يخلدُ العبدُ إلى الأرضِ يهبطُ مِن السَّماءِ[4]، فبِذِكرِ ﴿ٱلْأَرْضِ﴾ عُلِمَ أنَّ الإخلادَ هُنا ركونٌ إلى

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 176/9.
(2) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 321/7، والفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 404/15، ومحمد جمال الدّين القاسميّ، محاسن التأويل: 222/5.
(3) ابن القيم، إعلام الموقّعين: 129/1.
(4) ابن القيم، روضة المحبّين، ص: 194.

السَّفَلِ، أي: تلبُّسٌ بالنَّقائِصِ والمفاسِدِ[1]. وهذه الآيةُ مِن أشَدِّ الآيِ على أصحابِ العِلمِ، وذلك أنَّ اللّٰه تعالى أخبَرَ أنَّه آتاهُ آياتِه، فاستوجَبَ بالسُّكونِ إلى الدُّنيا واتِّباعِ الهوى، تغييرَ النِّعمةِ عليه، والانسلاخَ عنها؛ ومَنِ الَّذي سَلِمَ من هاتينِ الخلَّتينِ، إلَّا مَن عَصَمَهُ اللّٰهُ[2].

دلالةُ الاستدراكِ بعد المشيئةِ في قوله: ﴿وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخۡلَدَ﴾:

التَّنبيهُ على أنَّ المشيئةَ سَبَبٌ لفعلهِ الرَّافعِ، وأنَّ عدمَهُ دليلُ عَدَمِها

قوله: ﴿وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخۡلَدَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُۚ﴾ علَّق ﴿لَرَفَعۡنَٰهُ﴾ بمشيئةِ اللّٰهِ تعالى ثُمَّ استدرك عنه بفعل العبدِ، تنبيهًا على أنَّ المشيئةَ سَبَبٌ لفعلهِ الموجِبِ لِرَفْعِه، وأنَّ عدمَهُ دليلُ عَدَمِها دلالة انتفاءِ المُسَبَّبِ على انتفاءِ سَبَبِه، وأنَّ السَّببَ الحقيقيَّ هو المشيئةُ، وأنَّ ما نُشاهِدُهُ من الأسبابِ وسائطُ معتبرةٌ في حصولِ المسبَّبِ من حيثُ إنَّ المشيئةَ تعلَّقت به كذلك، وكان من حقِّهِ أن يقولَ، ولكنَّهُ أعرضَ عنها، فأوقعَ موقعَهُ ﴿أَخۡلَدَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ﴾، فجاءَ الاستدراكُ هُنا تَنبيهًا على السَّببِ الَّذي لأجْلِه، لم يُرفَعْ، ولم يُشرَّفْ، كما فُعِل بغيرِه ممَّن أُوتِي الهُدَى فآثَرَه واتَّبعَه[3]، فلا يغتَرَّ أحدٌ بما أوتِيَ من المعارِفِ، وما حازَ من المفاخِرِ واللَّطائِفِ، فإنَّ العِبرةَ بالخواتيمِ[4].

دلالةُ المذهبِ الكلاميِّ في قوله: ﴿وَلَوۡ شِئۡنَا لَرَفَعۡنَٰهُ بِهَا﴾:

المقدِّماتُ الصَّحيحةُ تُفضي إلى نتائجَ قاطعةٍ لباطلِ كلِّ لجوجٍ

المذهبُ الكلاميُّ[5] هو احتجاجُ المتكلِّمِ على ما يريدُ إثباتَهُ،

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 177/9.
(2) الواحدي، التَّفسير البسيط: 468/9.
(3) أبو حيَّان، البحر المحيط: 223/5.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 160/8.
(5) المذهب الكلاميّ: "هو أن يورد المتكلِّم على صحَّةِ دعواه حُجَّة قاطعة مسلَّمة عند المخاطب، بأن تكون المقدمات بعد تسليمها مستلزمة للمطلوب، كقوله تعالى: ﴿لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ﴾ [الأنبياء: 22]، واللَّازم وهو الفسادُ باطل، فكذا الملزوم وهو تعدُّد الآلهة باطلٌ، وليس أدلُّ على ذلك من الحقيقة والواقع، وكقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٖ﴾ [الحجّ: 5]، ونحو قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهۡوَنُ عَلَيۡهِۚ﴾ [الروم: 27]، أي: وكلُّ ما هو أهون عليه، فهو وأدخل تحت الإمكان، فالإعادةُ ممكنةٌ، وسُمِّيَ هذا النَّوع (بالمذهب الكلاميِّ)؛ لأنَّه جاء على طريقة (علم الكلام والتّوحيد)، وهو عبارة عن إثباتِ (أصول الدّين) بالبراهين العقليَّة القاطعة. يُنظر: الهاشميّ، جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع، ص: 305.

بحجَّةٍ تقطعُ المعاندَ، وتفلُّ سلاحَ المكابرِ المتعنِّت، على طريقةِ علماءِ الكلامِ، ومنه منطقيٌّ تُستنتج فيه النَّتائجُ من المقدِّمات الصَّادقة، والآيةُ المقصودةُ بهذا الفنِّ هنا، هي قولهُ تعالى: ﴿وَلَوۡ شِئۡنَا لَرَفَعۡنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخۡلَدَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُۚ﴾، وترتيبُ المقدِّمتين في هذه الكلماتِ، والنَّتيجةُ أنَّا نقول: (ما شاء اللّٰهُ كان، وما لم يشأْ؛ لم يكن، ولو شاءَ اللّٰهُ؛ رفع (بلعام بن باعوراء) المقصودَ بهذه الآيةِ؛ فقد بعثَهُ اللّٰهُ إلى ملكِ مدين؛ ليدعوهُ إلى الإيمانِ، فأعطاهُ، وأقطعَهُ، فاتَّبع دينَهُ، وتركَ دين موسى)، ففيهِ نزلت هذهِ الآيةُ وما بعدها[1]، وهي تبيِّن عن انسلاخٍ عقائديٍّ، كان فيه هذا الموصوف، قد أضلَّهُ اللّٰهُ على علمٍ، فانسلخَ من الهدى، وأتبعهُ الشَّيطان، وأطاع الهوى حين غوى، فكان عاقبةُ أمرهِ خسرًا.

دلالةُ التَّعبيرِ بالفعلِ الماضي في ﴿وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُۚ﴾:

الإشـــارةُ إلى المبالغةِ في اتِّباعِ الهوى الحاملِ على البعدِ عن الحقِّ

قولهُ: ﴿وَٱتَّبَعَ﴾ أي: اتِّباعًا شديدًا[2] في إيثار الدُّنيا واسترضاء قومِه[3]؛ مُبالغةً وتنبيهًا على ما حَمَله عليه، وأنَّ حُبَّ الدُّنيا رأسُ كلِّ خطيئةٍ[4]، وهو لم يَسْمُ بعلمهِ وتقواهُ، "ولكنَّهُ آثرَ الدُّنيا الدَّنيَّةَ على المنازل السَّنيِّة، أو الضَّعةَ والسَّفالةَ على الرِّفعة والجلالة، ﴿وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُۚ﴾، مُعرِضًا عن تلك الآياتِ الجليلةِ، فانحطَّ أبلغَ انحطاطٍ، وارتدَّ أسفلَ سافلين"[5].

وقيل: إنَّ ابن المعتز قال: لا أعلم ذلك في القرآن، أعني: المذهب الكلامي، وليس عدم علمه مانعًا عِلْمَ غيره، ورد في إعراب القرآن وبيانه: "المذهب الكلامي: هذه التسمية كما ذكر ابن المعتز في كتابه وزعم الجاحظ أنَّه لا يوجد منه شيء في القرآن، والكتاب الكريم مشحون به". ينظر: درويش، إعراب القرآن وبيانه: 497/3، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 160/8.

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 496/3.

(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 159/8.

(3) البيضاوي، أنوار التنزيل: 42/3.

(4) البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل: 42/3.

(5) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 293/3.

بلاغةُ الاستعارةِ في: ﴿وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾:

تصويرُ حالةِ ميلهِ واختيارهِ الباطلَ، بمن اتَّبعَ شيئًا ولزمَهُ

واتِّباعُ الهوى ترجيحُ ما يحسُن لدى النَّفسِ من النَّقائصِ المحبوبةِ على ما يدعو إليه الحقُّ والرُّشد، فالاتِّباع مُستعارٌ للاختيار والميل، والهوى شاعَ في المحبَّة المذمومةِ الخاسرة عاقبتها، وقد تفرَّع على هذهِ الحالةِ تمثيلُهُ بالكلبِ اللَّاهث؛ لأنَّ اتِّصافَهُ بالحالةِ الَّتي صيَّرته شبيهًا بحال الكلب اللَّاهثِ تَفَرَّعَ على إخلادهِ إلى الأرضِ واتِّباعِ هواهُ، بطريقِ الاستعارةِ التَّصريحيَّةِ التَّبعيَّة، فالكلامُ في قوَّةِ أن يُقالَ: ولكنَّه أخلدَ إلى الأرضِ، فصار في شقاءٍ وعنادٍ، كمثلِ الكلب[1].

بَلاغَةُ التَّشبيهِ التَّمثيليِّ في: ﴿فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ﴾:

حينما يكونُ القبحُ عادةً، لا يزجرُ عنهُ علمٌ بِهِ

قولُ اللّهِ تعالى: ﴿فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ﴾، المرادُ بهذا المثلِ: أنَّ من لم يزجرْهُ علمُهُ عن القَبيحِ، صارَ القبيحُ عادةً له، ولم يؤثِّرْ فيه علمُهُ شيئًا، فيصيرُ حالُهُ كحال الكلبِ اللَّاهث، فإنَّهُ إن طُرِدَ؛ لهثَ، وإن تُركَ؛ لهث، فالحالتان عنده سواءٌ، وهذا أخسُّ أحوالِ الكلبِ وأبشعها، فكذلكَ من يرتكبُ القبائحَ مع جهلهِ ومع علمهِ، فلا يؤثِّر علمُهُ شيئًا، وكذلك مثل من لا يرتدعُ عن القبيحِ بوعظٍ ولا زجرٍ ولا غيره، فإنَّ فعلَ القبيح يصيرُ عادةً، ولا ينزجرُ عنه بوعظ ولا تأديب ولا تعليم، بل هو متَّبِعٌ للهوى على كلِّ حالٍ، فهذا حالُ كلِّ من اتَّبع هواهُ، ولم ينزجر عنهُ بوعظٍ ولا غيرِهِ، وسواءٌ كان الهوى المتَّبع داعيًا إلى شهوةٍ حسِّيَّةٍ، كالزِّنى والسَّرقةِ وشربِ الخمرِ، أو إلى غضبٍ وحقدٍ وكبرٍ وحسدٍ، أو إلى شبهةٍ مضلَّةٍ في الدِّين، وأشدُّ ذلك: حالُ من اتَّبع هواهُ في شبهةٍ مُضلَّةٍ، ثُمَّ من اتَّبع هواهُ في غضبٍ وكِبْرٍ وحقدٍ وحسدٍ، ثُمَّ مَن اتَّبع هواهُ في شهوةٍ حسّيَّةٍ[2]، وقد "شبَّهَ الهيئةَ المنتزعةَ ممَّا لحقَهُ بعد الانسلاخِ من سوءِ الحالِ، واضطرابِ القلبِ، ودوامِ القلقِ، بالهيئةِ المنتزعةِ ممَّا

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 177/9.
(2) تفسير ابن رجب الحنبليّ: 88/1، 89.

بيَّنَ من حالِ الكلبِ في عدم الاستراحةِ في حالٍ من الأحوالِ، أو في مطلقِ الحالةِ الجنسيَّةِ ووجهُ الشَّبهِ فيه منتزعٌ من عدَّةِ أمورٍ"[1]، وفي تَشبيهِ مَن آثَر الدُّنيا وعاجِلَها على اللهِ والدَّارِ الآخرةِ - مع وُفورِ علمِه - بالكَلْبِ في لَهَثِهِ؛ سِرٌّ بديعٌ، وهو: أنَّ الَّذي حالُه ما ذَكَرَه اللهُ من انسلاخِه من آياتِه، واتِّباعِه هواه - إنَّما كان لشِدَّةِ لَهَفِه على الدُّنيا؛ لانقطاعِ قَلْبِه عن اللهِ والدَّارِ الآخرةِ، فهو شديدُ اللَّهَفِ عليها، ولهَفُهُ نظيرُ لَهَثِ الكَلْبِ الدَّائمِ في حالِ إزعاجِه وتَرْكِه[2].

سرُّ التَّعبيرِ عن وصفِ سفالةِ المكذِّبِ بتشبيهِهِ بالكلبِ:

نقْلُ المعقولِ من أحـوالِ المكـذِّبِ إلى المحسوسِ يجعلُهُ صورةً بعدَ معنًى

بَيَّن النَّظمُ الكريمُ حالَ المكذِّبِ بآياتِ اللهِ، والمتَّبعِ لهواهُ، بالإيجازِ المعجزِ من عدَّةِ وجوهٍ: أوَّلًا: أنَّهُ سبحانه أخبَرَ عن خِسَّةِ همَّتِه، وأنَّه اختارَ الأسفَلَ الأدنى على الأشرَفِ الأعلى. ثانيًا: أنَّ اختيارَهُ للأدنى لم يكُنْ عن خاطرٍ وحديثِ نَفْسٍ، ولكنَّه كانَ عن إخلادٍ إلى الأرضِ، ومَيلٍ بكُلِّيَّتِه إلى ما هناك، وأصلُ الإخلادِ اللُّزومُ على الدَّوامِ، وعبَّرَ عن مَيلِه إلى الدُّنيا بإخلادِه إلى الأرضِ؛ لأنَّ الدُّنيا هي الأرضُ وما فيها، وما يُستخرَجُ منها من الزِّينةِ والمَتاعِ. ثالثًا: أنَّه رغِبَ عن هُداه، واتَّبَع هواه، فجَعلَ هواهُ إمامًا له، يقتَدي به ويتَّبِعُه. رابعًا: أنَّه شبَّهَه بالكَلبِ الَّذي هو أخَسُّ الحيواناتِ همَّةً، وأسقَطُها نَفْسًا وأبخَلُها، وأشَدُّها كَلَبًا، ولهذا سُمِّيَ كَلْبًا. خامسًا: أنَّه شَبَّه لهَثَه على الدُّنيا وعدَمَ صَبْرِه عنها، وجَزَعَهُ لفَقْدِها وحِرصَه على تحصيلِها، بلَهَثِ الكَلْبِ في حالتَي ترْكِه، والحَمْلِ عليه بالطَّردِ، وهكذا هذا، إن تُرِكَ؛ فهو لَهْثانُ على الدُّنيا، وإن وُعِظَ وزُجِرَ؛ فهو كذلك؛ فاللَّهَثُ لا يُفارِقُه في كلِّ حالٍ، كلَهَثِ الكَلْبِ، وهذا التَّمثيلُ لم يقَعْ بكلِّ كَلْبٍ، وإنَّما وقعَ بالكَلْبِ اللَّاهِثِ، وذلك أخَسُّ ما يكونُ وأشنَعُه[3].

(1) القونويّ، حاشية القونويّ علي البيضاويّ: 549/8.
(2) ابن القيم، إعلام الموقّعين: 128/1.
(3) ابن القيم، الفوائد، ص: 101، 102.

معنى اجتماعِ الكافِ مع لفظِ (مثل) في: ﴿فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ﴾:

المبالغةُ في ذمِّ المكذِّبين بإدخالِ أداةِ التَّشبيهِ على مايدلُّ على العجبِ والغرابةِ

الكافُ في هذا الموضع هي أداةُ تشبيهٍ، أمَّا لفظ المثلِ؛ فهو الأمرُ الغريبُ العجيبُ، فحينما دخلت الكافُ على لفظ (مَثَل) بتحريك الثَّاءِ المثلَّثةِ، أبانت عن أنَّ المرادَ تشبيهُ حالةٍ غريبةٍ عجيبةٍ بحالةٍ غريبةٍ عجيبةٍ، لذا اجتمعت الكافُ مع (مثل)، فكأنَّ حالَ المتلبِّس بالحقِّ المنسلخِ عنه يدعو للعجبِ والغرابةِ، فهو في هذا الفعلِ العجيبِ الغريبِ، يشبهُ في الغرابةِ حالَ ذلك الكلبِ اللَّاهثِ على الدَّوامِ؛ فهذا تشبيهُ قصَّةٍ بقصَّةٍ.

دلالةُ الفاءِ في قولِهِ: ﴿فَمَثَلُهُۥ﴾:

الإفصاحُ عن دوامِ اتِّصافه بهذهِ الحالِ الخسيسةِ، واستمرارهُ عليها

الفاءُ في قولِه: ﴿فَمَثَلُهُۥ﴾ فصيحةٌ، تفصحُ عن حالِ هذا المتَّبع لهواهُ ومثالِه، وإيثارُ الجملة الاسميَّة بدل الفعليَّةِ في هذا المثالِ، بأن يُقالَ: (فصار مثله كمثل.. إلخ)، للإيذانِ بدوامِ اتِّصافه بتلك الحالةِ الخسيسةِ، وكمالِ استمرارهِ عليها[1].

تقييدُ حالِ الكلبِ بجملةٍ شَرطيَّةٍ ﴿إِن تَحۡمِلۡ﴾، ودلالةُ الحملِ عليهِ:

التَّقييدُ بأقبحِ الأوصافِ يمحِّضُ الأسلوبَ للتَّقبيحِ، تطلُّبًا لسرعةِ الإقلاعِ عنها

جملةُ: ﴿إِن تَحۡمِلۡ﴾ شرطيَّةٌ في موضع الحالِ، والمعنى: (لاهثًا) في الحالين، ذليلًا دائمَ الذِّلَّةِ[2]، وقد ضربَ اللهُ ﷻ هذا المثلَ للكافرِ الَّذي إن وُعِظَ وزُجِرَ؛ نفرَ وكفرَ، وإن تُرِكَ أو رُفِقَ به؛ استكبرَ وكفر، فهو مع العظةِ والتَّذكرةِ ضالٌّ معرضٌ، ومع التَّركِ ضالٌّ معرض، وكذلك الكلب حالهُ تخالفُ سائر الحيوانِ؛ لأنَّ كلَّ ما يلهث من الحيوانِ، فإنَّما يلهث لمرض وتعبٍ، وكلالٍ وعارضٍ، يزولُ اللَّهثُ بزوالِه، والكلبُ يلهثُ في جميع حالتِه؛ في صحَّتِه ومرضِه وراحتِه وكلالِه وريِّهِ وعطشِه، فلا مثالَ لمن ذكرَ اللهُ حالَهُ من الكفَّارِ من

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 292/3.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 178/2، والمظهريّ، التَّفسير المظهريّ: 433/3.

جميعِ الحيوان إلَّا الكلبُ[1]، فليس لشيءٍ من الحيوانِ حالةٌ تصلحُ للتَّشبيه بها في الحالتين غيرَ حالةِ الكلب اللَّاهث؛ لأنَّهُ يلهثُ؛ إذا أُتعب، وإذا كان في دعةٍ، فاللَّهثُ في أصلِ خلقتهِ[2].

دلالةُ الخطابِ في فِعلَي الشَّرْط (تحمل) (تترك):

المَثَلُ صالحٌ لكلِّ من لَهُ حَظٌّ مِنَ الخطابِ، ممَّن شابَهَ حال هذا الرَّجلِ

الخطابُ في فِعْلَي الشَّرط لكلِّ أحدٍ ممَّن له حَظٌّ من الخطاب، فإنَّه أَدْخَلُ في إشاعةِ فظاعة حالهِ، وهُما تفصيلٌ لما أجملَ في المثال، وتفسيرٌ لما أبهمَ[3]، " وصغارُ الهممِ، تراهم كاللَّاهثِ من الإعياءِ والتَّعبِ، وإن كان ما يعنونَ به، ويحملونَ همَّه حقيرًا لا يتعب، ولا يعيي، ولا ترى أحدًا منهم راضيًا بما أصابَهُ من شهواتِهِ وأهوائِهِ، بل يزيدُ طمعًا وتعبًا، كلَّما أصابَ سَعةً، وقضى أربًا"[4].

دلالةُ تقديمِ الحملِ على التَّركِ:

تقديمُ الحالِ المعهودةِ للَهثِ الحيوانِ، وذلك عند تحريكِهِ وتهيُّجِهِ

في قوله تعالى: ﴿إِن تَحۡمِلۡ عَلَيۡهِ يَلۡهَثۡ أَوۡ تَتۡرُكۡهُ يَلۡهَثۚ﴾ قُدِّمَ الحمْلُ على التَّرك، والحملُ على الشَّيءِ: قصده على وجهِ الطَّردِ[5]، وقُدِّم الحَمْلُ؛ لأنَّ سائرَ الحيوانِ لا يكونُ منه اللَّهثُ إلَّا إذا حُرِّكَ، وهُيِّجَ وطُرد، فإنْ لهثَ ظُنَّ أنَّ لهثَهُ لما حاول من ذلك التَّعب، فقُدِّمت الحال المعهودة[6]، وأُخِّر الأغربُ، وهو التَّرك الَّذي يجعلُ الكلبَ بها مباينًا لكلِّ الحيواناتِ.

بلاغةُ كمالِ الاتِّصال بين الآيتين:

بيانُ ما سبقَ في تشبيهِ المُكذِّبِ بالكلبِ وأحوالِهِ

قوله: ﴿ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۚ﴾، جملةٌ مُبَيِّنةٌ لقوله: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا﴾، أي: ذلك التَّمثيلُ مَثَلٌ للمُشركينَ المُكَذِّبينَ بالقُرآنِ، وهو تَشبيهٌ بليغٌ؛ لأنَّ حالةَ الكَلبِ المُشبَّهِ

(1) الباقلاني، الانتصار للقرآن: 750/2.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 177/9.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 106/5.
(4) محمد رضا، تفسير المنار: 342/9.
(5) الجرجانيّ، درج الدّرر في تفسير القرآن العظيم: 710/1.
(6) النّسفيّ، مدارك التّنزيل وحقائق التّأويل: 124/2.

شَبيهةٌ بحالِ المُكَذِّبين، وليستْ عَينَها[1]، وفيه تعميمٌ بعد تخصيصٍ، وهو تأكيدٌ لكونِهِ مثلًا سائرًا في كلِّ حالةٍ تشبه هذه الحالةَ المذكورةَ، وفي هذا توسيعٌ لآفاق إطلاق المثلِ زمانًا ومكانًا وحالًا، فتلك الصِّفةُ الخسيسةُ الدَّنيئةُ، المذكورةُ في المنسلخِ عن آياتِنا، صفةٌ ليست خاصَّةً به، بل هي صفةٌ عامَّةٌ قائمةٌ بجميع القوم الَّذين كذَّبوا بآياتِنا من اليهودِ والمشركين وغيرهم، بعد أن علِموا بها، وعرفوها، فحرَّفوا، وبدَّلوا، وكتموا صفةَ محمَّدٍ ﷺ، وكذَّبوا بها، فعمَّ هذا المثلُ جميعَ من كذَّبَ بآياتِ اللّهِ تعالى وجحدَها؛ فوجهُ التَّمثيلِ بينَهم وبينَ الكلبِ اللَّاهِثِ: أنَّهم إذا جاءتهمُ الرُّسل ليهدوهم؛ لم يهتدوا، وإن تركوهم؛ لم يهتدوا أيضًا، بل هم ضُلَّالٌ في كلِّ حالٍ[2]، وفي كمال الاتِّصال هنا إيجازٌ وإعجازٌ، واكتفاءٌ بمثلٍ واحدٍ للجميعِ.

دلالةُ التَّعبيرِ باسمِ الإشارةِ ﴿ذَّٰلِكَ﴾:

الإشارةُ في قولِه: ﴿ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ﴾ إلى وصفِ الكلبِ، أو إلى المنسلخِ من الآياتِ، أي: ذلك المثلُ البعيدُ الشَّأن في الغرابةِ، مثل القومِ الَّذين كذَّبوا بآياتِنا من الجاحدينَ المستكبرينَ المنسلخينَ عن الهُدى، بعد أن كانَ في حوزَتِهم[3]، فاستخدَمَ اسمَ الإشارةِ الدَّالَّ على البُعدِ، دلالةً على غرابةِ المشارِ إليهِ.

الإشـارةُ إلى أنَّ مـثـلَ المُـكـذِّبـينَ الجاحدينَ مثلٌ بعيدُ الشَّأنِ في الغرابةِ

دلالةُ الفاءِ في قولِه: ﴿فَٱقۡصُصِ﴾:

الفاءُ في قولِه: ﴿فَٱقۡصُصِ﴾ فصيحةٌ، وهي لترتيبِ ما بعدَها على ما قبلَها، أي: إذا تحقَّقت أنَّ المثلَ المذكور مثلُ هؤلاءِ المكذِّبين، فاقصصْهُ عليهم[4]، والقصصُ مصدرٌ بمعنى اسم المفعولِ، واللَّام فيه للعهدِ، أي: قصصَ ذلك الرَّجلُ الَّذي تُشبهُ حالُهُ حالَ المكذِّبين

تـعـظـيـمُ شَـأنِ ضَربِ الأمثالِ في مأثورِ الكَلامِ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 179/9.
(2) الهرريّ، حدائق الرَّوح والرَّيحان: 233/10.
(3) طنطاوي، التَّفسير الوسيط: 436/5.
(4) درويش، إعراب القرآن الكريم وبيانه: 495/3.

بآياتنا أو القصص المذكورةِ على اليهودِ، فإنَّها نحو قصصِهم[1]، وهذا يدلُّ على تعظيمِ شَأنِ ضَربِ الأمثالِ في تأثيرِ الكَلامِ وفي الإقناعِ، وكونِه أقوى مِن سَوقِ الدَّلائلِ والحُجَجِ المجَرَّدةِ[2].

دلالةُ قولِه: ﴿فَٱقۡصُصِ ٱلۡقَصَصَ﴾:

قولُه: ﴿فَٱقۡصُصِ ٱلۡقَصَصَ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ﴾، تنويهٌ بالقِصَّةِ المُمَثَّلِ بها، يشمَلُها وغَيرَها مِن القَصَصِ الَّتي في القُرآنِ، فإنَّ في القَصَصِ تفكُّرًا ومَوعظةً، فيُرجى منه تفكُّرُهم ومَوعِظَتُهم، لأنَّ للأمثالِ واستحضارِ النَّظائرِ شأنًا عظيمًا في اهتداءِ النُّفوسِ بها، وتقريبِ الأحوالِ الخفيَّةِ إلى النُّفوسِ الذَّاهلةِ أو المتغافلةِ[3].

القَصَصُ وضربُ الأمثالِ، لهما أثرٌ كبيرٌ على التَّفكُّرِ والموعظةِ

إيثارُ التَّعبيرِ بـ﴿لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ﴾:

﴿لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ﴾، أي: رجاء أن يتفكَّروا فيه، فيحملُهم سوءُ حالِهم، وقُبْحُ مثَلِهم على إطالةِ التَّأمُّلِ، والتَّفكُّرِ في المخلصِ ممَّا هم فيه، والنَّظرِ في الآياتِ بعينِ البصيرةِ لا بعينِ الهوى والعداوةِ، وفيها إشارةٌ إلى تعظيمِ شأنِ التَّفكُّرِ، وأنَّه مبدأُ العلمِ، والسَّبيلُ للوصولِ إلى الحقِّ، ومن ثمَّ حثَّ اللهُ عليه في مواضعَ كثيرةٍ من كتابِه[4]، وأسلوبُ التَّرجِّي هنا ليس على بابِه، وإنَّما خرجَ من التَّرجِّي إلى التَّعليلِ، ليجعلَ سوقَ القصصِ علَّةً للتَّفكُّرِ المؤدِّي إلى الهدايةِ على سبيلِ الرَّجاءِ، أو إلماعًا إلى أنَّ سَوقَ القصصِ مُوصلٌ إلى العبرةِ، أو يكونُ المعنى: ليكونَ حالُهم حالَ من يُرجى تفكُّرُه.

إشارةٌ إلى تعظيمِ شأنِ التَّفكُّرِ، وأنَّه مبدأُ العلمِ وسبيلُ الوصولِ إلى الحقِّ

بلاغةُ أسلوبِ التَّذييلِ في: ﴿لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ﴾:

وقعتِ الجملةُ ممَّا قبلَها موقعَ التَّذييلِ المُلفت إلى العبرةِ من

الغرضُ من سوقِ القصصِ وضربِ الأمثالِ إثارةُ التَّفكُّرِ

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 178/2، وطنطاويّ، التَّفسير الوسيط: 436/5، ومحمّد ثناء الله المظهريّ، التَّفسير المظهريّ: 433/3.

(2) رشيد رضا، تفسير المنار: 342/9، والمراغيّ، تفسير المراغيّ: 107/9.

(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 179/9.

(4) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 107/9، ويُنظَر: رشيد رضا، تفسير المنار: 342/9.

سياقِ القصَّةِ السَّابقةِ، وكلُّ قصَّةٍ في القرآنِ الكريمِ، لبيانِ الغرضِ من سوقِ القصصِ وضربِ الأمثال، وقد جاء التَّذييلُ بمنزلةِ التَّعليل لما سبقَ، كشفًا عن المنهاجِ القرآنيِّ في الخطابِ الدَّاعي إلى التَّفكُّرِ، كما أنَّ فيه كشفًا أنَّ للأمثال في استحضارِ النَّظائرِ شأنًا عظيمًا في اهتداءِ النُّفوسِ بها، وتقريب الأحوالِ الخفيَّةِ، لما في التَّنظير بالقصَّة المخصوصةِ من تذكُّر مشاهدةِ الحالةِ بالحواسِّ، بخلافِ التَّذكيرِ المجَرَّدِ.

مرجعُ الضَّميرِ ودلالته في ﴿لَعَلَّهُمْ﴾:

تنوُّعُ المرجعِ ثراءٌ في المعنى، وقوَّةٌ في الدَّلالَةِ

الضَّميرُ في ﴿لَعَلَّهُمْ﴾ يمكنُ أن يكونَ مخصوصًا، ويكونُ المرادُ به أهلَ مكَّةَ، أو المراد به اليهود الحاضرين في عهدِ رسولِ الله ﷺ، ويمكنُ أن يكون عامًّا لكلِّ من يأتي منه التَّفكُّرُ؛ وهذا التَّنوُّعُ في المرجع يُخصب الدَّلالة ويُثريها، ولا يمنعُ الجمعَ بين الرَّأيين، فيكونُ خطابًا خاصًّا حالَ الخطابِ به، ويكون عامًّا في كلِّ حالٍ مشابهٍ.

دلالةُ التَّعبير بجملةٍ فعلُها مضارعٌ في خبرِ (لعلَّ):

التَّفكُّرُ الدَّائمُ المتجدِّدُ، خيرُ عونٍ على الوصولِ إلى الرُّشْدِ

وقعَ خبرُ (لعلَّ) جملةً فعليَّةً فعلُها مضارعٌ، وهو: ﴿يَتَفَكَّرُونَ﴾؛ للتَّأكيد على ما في ضرْبِ الأمثال وسوق القصصِ من الإعانةِ على تجدُّدِ التَّفكُّرِ وإعادة التَّفكيرِ؛ هديًا للرَّشادِ، وإعانةً على الإرشادِ، وزجرًا عن الغوايةِ والضَّلالِ، كما أنَّ الختمَ بالتَّفكُّرِ هو الأنسبُ، والأبرُّ بسياقِ ضرب الأمثال، وسوقِ القصصِ.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

يَتَفَكَّرُونَ ويَتَذَكَّرُونَ:

التَّفكُّرُ تَصَرُّفُ القلبِ بالنَّظرِ في الدَّلائلِ، ومعاني الأشياءِ لِدَرْكِ المطلوبِ[1]، وهو سراجُ القلبِ يرى به خيرَهُ وشرَّهُ، ومنافعَهُ ومضارَّهُ،

(1) الشّريف الجرجانيّ، التّعريفات، ص: 63، وأبو هلال العسكريّ، الفروق اللُّغويَّة، ص: 121.

وكلُّ قلبٍ لا تفكُّرَ فيه فهو في ظلماتٍ يتخبَّطُ[1]، وفي القرآنِ الكريمِ يأتي طلبُ التَّفكُّرِ إمَّا بضربِ مَثَلٍ حتَّى يتأمَّل الإنسانُ هذا المثلَ، وإمَّا يكون جوابًا عن سؤالٍ حتَّى يتفكَّرَ في الإجابةِ عنهُ، قال تعالى: ﴿لَوۡ أَنزَلۡنَا هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ عَلَىٰ جَبَلٖ لَّرَأَيۡتَهُۥ خَٰشِعٗا مُّتَصَدِّعٗا مِّنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِۚ وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ٢١﴾ [الحشر: 21]، أمَّا التَّذَكُّر؛ فهُوَ محاولةُ النَّفسِ استرجاعَ مَا زَالَ من المعلومات[2]، ويكونُ التَّذكُّر للاتِّعاظ، وأخذ العبرةِ، قال تعالى: ﴿۞وَلَقَدۡ وَصَّلۡنَا لَهُمُ ٱلۡقَوۡلَ لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ ٥١﴾ [القصص: 51]، والتَّفكُّر والتَّذكُّر أصلا الهُدى والفلاح، وهُما قُطْبا السَّعادة، إذ التَّفكُّرُ: طلبُ القلبِ ما ليس حاصلًا من العلم، والتَّذكُّر: استرجاعُ مازالَ عن القلبِ، والمتفكِّرُ ينتقلُ من المقدِّمات والمبادئ الَّتي عنده إلى المطلوبِ الَّذي يريدُه، فإذا ظفر به؛ تحصَّل له تَذَكُّرٌ به، وأبصر مواقعَ الفعلِ والتَّركِ، وما ينبغي اجتنابُهُ، فحينها يكون التَّذكُّرُ؛ فالتَّذكُّر هو مقصودُ التَّفكُّرِ وثمرَتُهُ، فإذَا فَكَّرَ القلبُ؛ تَبَصَّر، وإذا تبصَّرَ؛ تَذكَّر[3].

الـتَّـذكُّـر ثـمـرةُ التَّفكُّرِ، فإذَا فَكَّرَ القلبُ؛ تَبَصَّر، وإذا تبصَّرَ؛ تَذكَّر

(1) الشّريف الجرجانيّ، التّعريفات، ص: 63.
(2) الكفويّ، الكليّات، ص: 67.
(3) ابن القيّم، مفتاح دار السّعادة: 214/1.

﴿سَآءَ مَثَلًا ٱلۡقَوۡمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَأَنفُسَهُمۡ كَانُواْ يَظۡلِمُونَ ١٧٧﴾ [الأعراف: 177]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

تأكيدُ زجرِ المكذِّبينَ وذمِّهم بعد ضربِ أشنعِ الأمثالِ لمن كانَ على شاكلتِهم

لَمَّا ظهرَ بالمثلِ السَّابقِ أنَّ مثلَ الكلبِ الَّذي اكتسبَ من ممثولِهِ من السُّوءِ والقذارةِ ما لا يعلمه حَقَّ عِلْمِهِ إلَّا اللّهُ تعالى مثل المكذِّبين بالآياتِ، أنتجَ ذلك قولهُ: ﴿سَآءَ مَثَلًا ٱلۡقَوۡمُ﴾ تأكيدًا لذمِّهم وزجرِهم[1]، والمعنى: بئس مثلًا مثلُ القوم المكذِّبين بآياتِ اللّهِ ﴿وَأَنفُسَهُمۡ كَانُواْ يَظۡلِمُونَ﴾، أي: وما ظلموا بالتَّكذيبِ إلَّا أنفسهم، فإنَّ وبالَه لا يتعدَّاها، وسيعودُ عليهم بسوءِ الحالِ، وخيبةِ المآلِ.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿سَآءَ﴾: أي: قَبُحَ، والسُّوءُ نعتٌ لكلِّ شيءٍ رديءٍ، ساء يَسُوءُ سوءًا، يقالُ: ساء الشَّيءُ: قَبُح، فهو سيِّئٌ[2]، وأصلُ السُّوءِ: اسمٌ جامعٌ للآفاتِ والدَّاء[3]، ثُمَّ استُعمِلَ في كلِّ ما يُستقبَحُ[4]، وهو أيضًا كلُّ ما يغمُّ الإنسان[5]، والمعنى هنا، أي: بئسَ مَثَلًا مَثَلُ القوم[6]، "وقال اللَّيثُ: يقالُ: ساءَ ما فعل صنيعًا يسوءُ، أي: قبح صنيعُهُ صنيعًا، قال: والسَّيِّئُ والسَّيِّئَة: عملانِ قبيحانِ، يصيرُ السَّيِّئُ نعتًا للذَّكرِ من الأعمالِ... قال: والسُّوءى بوزن فُعلى: اسمٌ للفعلةِ

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 161/8.
(2) الخليل، العين: (باب اللّفيف من السّين سيء)، والزَّبيدي، تاج العروس: (سوأ).
(3) الأزهري، تهذيب اللّغة: (سوي).
(4) ابن الهائم، التبيان في تفسير غريب القرآن، ص: 73.
(5) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 123، وابن فارس، مقاييس اللغة: 113/3، والرّاغب، المفردات: 441/1.
(6) أبو حيَّان، البحر المحيط: 226/5، والعليمي، فتح الرّحمن في تفسير القرآن: 62/3.

السَّيِّئَةِ، بمنزلة الحُسنى للحسنةِ، محمولةً على جهة النَّعتِ في حدِّ أفعلَ وفُعلى، كالأسوَأِ والسُّوءى"[1].

2) ﴿مَثَلًا﴾: نَظيرًا وشَبَهًا في الوصف، يُقال: مَثَّلَ الشَّيْءَ بِالشَّيْءِ: سوَّاه وشبَّهَهُ بِهِ وَجَعَلَهُ مِثْلَهُ، وَعَلَى مِثالِهِ وصفتِه[2]، وأصلُ (مثل) يدلُّ على مُناظرةِ الشَّيء للشَّيءِ[3]، وهذا مِثْلُ هذا، أي: نَظيرهُ، وَالمثَلُ المَضروبُ مأخوذٌ من هذا، والمعنى هنا: قبحتْ صفةُ أولئكَ القومِ في الصِّفات، وساء مثلُهم في الأمثالِ حيثُ شُبِّهوا بالكلاب[4].

3) ﴿ٱلْقَوْمُ﴾: الْقَوْمُ عند جمعٍ من علماء العربيَّةِ: اسْمٌ يشمَلُ الرِّجَالَ وَالنِّسَاء[5]، وخصَّهُ آخرونَ بالرِّجَالِ؛ إذْ لفظُ (القَوْم) في الأصل: مَصْدَرٌ وُصِفَ به، ثم غلب على الرِّجالِ دونَ النِّساءِ؛ لكونهم قوَّامِينَ عليهِنَّ بالأمور الَّتي ليس لهنَّ أن يقُمْنَ بها[6]، ويُؤَيِّدُ هذا أنَّ لفظَ (القوم) يُقابَلُ بلفظ (النِّساءِ)، كما في قولهِ تعالى: ﴿لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ﴾ [الحجرات: 11]، وفي قول زُهيرٍ:

وَمَا أَدْرِي، وَسَوْفَ إِخَالُ أَدْرِي *** أَقَوْمٌ آلُ حِصْنٍ أَمْ نِسَاءُ؟

وإذا ذُكِرَ القومُ على جهةِ الانفرادِ؛ دخل النِّساءُ فِيهِ ليسَ بمقتضى الوضع، وإنَّما على سبيل التَّبَع، كما في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ﴾ [البقرة: 54]؛ إذْ قَوْمُ كلِّ نبيٍّ: رجالٌ ونساءٌ[7]، وهو المرادُ هنا.

❁ المَعْنى الإِجْماليُّ:

قَبُحَتْ حالُ هؤلاءِ الَّذين جَحَدوا بحُجَجِنا وبراهيننا، ولم يصدِّقوا بها، وهم

(1) الأزهريّ، تهذيب اللغة: (سوأ).
(2) الجوهريّ، الصِّحاح، وابن منظور، لسان العرب: (مثل).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: 296/5.
(4) القاسميّ، محاسن التّأويل: 223/5، والمراغيّ، تفسير المراغيّ: 110/9.
(5) ابن دُريد، جمهرة اللُّغة: (قوم).
(6) ابن الأثير، النِّهاية في غريب الحديث والأثر: (قوم).
(7) الجوهري، الصّحاح: (قوم).

قُبْحُ حالِ المكذِّبين بآياتِ اللهِ، الظَّالمين لأنفسهم بجُحودِها والكفرِ بها

بذلك يظلمون أنفسَهم بإيرادِها مواردَ الهلاك[1]، و"يستمرُّون على ظلمِها باستمرارِهم على تكذيبِ آياتِ اللهِ الهاديةِ المرشدةِ، وانسلاخِهم عنها"[2].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ الجملةِ الاستئنافيَّةِ:

بيانُ كمالِ قُبحِهم بعد البيانِ السَّابقِ

قولهُ: ﴿سَآءَ مَثَلًا﴾: أي: قَبُحتْ أشدَّ القُبْحِ صفةُ المُعرضين عن النَّظرِ في آياتِ الله أن شُبِّهوا بالكلابِ الَّتي لا همَّ لها إلَّا تحصيلُ أُكلةٍ أو شهوةٍ[3]، فهذه الجُملةُ تأكيدٌ للجُملةِ السَّابقةِ، وهي جملةٌ مُستأنفةٌ؛ لأنَّها جُعِلَت إنشاءَ ذَمٍّ لهم، بأنْ كانوا في حالةٍ شَنيعةٍ، وظُلْمٍ لأنفُسِهم[4]، فلمَّا ظهرَ بالمثلِ السَّابقِ أنَّ مثلَ الكلبِ - الَّذي اكتسبَ من مَمْثُولِه من السُّوء والقذارةِ ما لا يعلمُهُ حقَّ علمِه إلَّا اللهُ تعالى - مَثَلُ المكذِّبين بالآيات؛ أنتجَ ذلك قولهُ: ﴿سَآءَ مَثَلًا﴾ تأكيدٌ لذَّمِهم وزجرهم، فلو لم يكن عليهم دَرَكٌ في فعلِهم ألَّا يُنَزَّل هذا المثل عليهم؛ لكان أعظمَ زاجرٍ لمن لَهُ أدنى مروءةٍ[5]، فهو استئنافٌ مَسُوقٌ لبيانِ حالِ هؤلاءِ القومِ البالغةِ في القُبحِ بعد البيان السَّابق[6]، وهي مع ذلك تعقيبٌ على تلك القصَّةِ، وربطٌ لرؤوسِ القوم كلِّهم إلى هذا الكلبِ المربوط، فكلُّهم مكذِّبٌ بآياتِ اللهِ، وكُلُّهم هذا الرَّجلُ العنيدُ المكابر المشؤوم[7].

بلاغةُ التَّعبيرِ بأسلوبِ الإنشاءِ غيرِ الطَّلبيِّ:

في قوله تعالى: ﴿سَآءَ مَثَلًا﴾ جُعلت (سَاءَ) لإنشاء ذمٍّ لهم على

(1) لجنة من عُلماءِ الأزهر، المنتخَبُ في تفسير القرآنِ الكريم، ص: 236، ونُخْبة من أساتذة التَّفسير، التَّفسير المُيَسَّر، ص: 173، وجماعَةٌ من علماء التَّفسير، المُختَصَر في تفسير القرآن الكريم، ص: 173.

(2) محمّد أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 3010/6.

(3) وهبة الزّحيليّ، التّفسير المنير: 164/9.

(4) ابن عاشور، التحرير والتّنوير: 179/9 - 180.

(5) البقاعي، نظم الدُّرر: 161/8.

(6) طنطاوي، التَّفسير الوسيط: 438/5.

(7) عبد الكريم الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 525/5، والقنّوجي، فتح البيان: 619/2.

سبيل المبالغة؛ لأنَّها تعني: (بئس) بأن كانوا في حالة شنيعةٍ، وظلموا أنفسَهم[1]، "و(ساء) تُستعملُ أحيانًا بمعنى التَّعجُّب، فيكونُ المعنى: (ما أسوأه مثلًا هذه الحال)، وتكون ﴿مَثَلًا﴾ تمييزًا، وهو يدلُّ على المتعجَّب منهُ، أي: إنَّ حالهم بلغت أقصى أحوالِ السُّوءِ في الضَّلالِ، ومجافاةِ الحقِّ، وجعلهم النُّور ظلامًا، والهدى ضلالةً"[2].

إنشاءُ الذَّمِّ على سبيلِ المُبالغةِ في سياقِ الآي

سِرُّ الحذفِ والتَّقديمِ في قوله: ﴿مَثَلًا ٱلْقَوْمُ﴾:

التَّقديرُ في قوله: ﴿مَثَلًا ٱلْقَوْمُ﴾: (ساء مثلًا مثلُ القومِ)؛ لأنَّ الذي بعد (بِئس) و(نِعم) إنَّما يتفسَّر من نوعهِ، كما تقولُ: بئس رجلًا زيدٌ، ولمّا انحذَف (مَثَلُ)؛ أقيمَ القومُ مَقامَهُ، والرَّفع في ذلك بالابتداءِ، والخبرُ فيما تَقَدَّم[3]، فـ﴿سَآءَ﴾ بمعنى (بئسَ) وفاعلها مُضمرٌ فيها، و﴿مَثَلًا﴾ مُمَيِّزٌ لذلك المضمرِ مُفَسِّرٌ له، وقد تقرَّرَ أنَّ المخصوص بالذَّمِّ لا يكون إلَّا من جنس التَّمييز، والتَّمييز مفسِّرٌ للفاعل، فهو هو، فيجبُ أن يصدقَ الفاعلُ والتَّمييزُ والمخصوصُ على شيء واحد، والقوم هاهُنا غيرُ صادقٍ على التَّمييز والفاعل، فلذلك قُدِّرَ المضافُ المحذوف، وهو المخصوصُ، وجعل تقدير الكلامِ (سَاءَ مَثَلًا مَثَلُ القوم) حُذف المضاف، وأقيمَ المضافُ إليه مقامه[4]، وهذا السُّوءُ إنَّما يرجع إلى فعلِهم لا إلى نفس المَثَلِ، كأنَّه قال: ساءَ فِعْلُهُمُ الَّذي جلبَ إليهم الوصفَ القبيحَ، فأمَّا المثلُ؛ فهو من اللهِ حُكْمٌ وصواب[5]، فوجب أن يكونَ الموصوفُ بالسُّوء ما أفادَهُ المثل من تكذيبهم بآياتِ اللّه تعالى، وإعراضهم عنها، حتَّى صاروا في التَّمثيل

بيـانُ سـوءِ فعلِهم الجالبِ إليـهـم هـذا الوصفَ القبيحَ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 179/9، وبهجت صالح، الإعراب المفصّل لكتاب الله المرتّل: 133/4.
(2) محمّد أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 3010/6.
(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 478/2.
(4) شيخ زاده، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 334/4، ودرويش، إعراب القرآن وبيانه: 497/3.
(5) إسماعيل حقّي، تفسير روح البيان: 279/3.

بذلك بمنزلةِ الكلبِ اللَّاهث[1]، وقبَّحَ عملهم الَّذي أضحى كالمثل في الغرابة[2].

فائدةُ ذكرِ لفظةِ ﴿ٱلۡقَوۡمُ﴾ موصوفًا بالموصولِ:

الإيذانُ بأنَّ مدارَ السُّوءِ ما في حيِّزِ الصِّلةِ وربطِهِ بما بعدَهُ

إعادةُ ﴿ٱلۡقَوۡمُ﴾ موصوفًا بالموصولِ مع كفايةِ الضَّميرِ، بأنْ يُقال: (ساء مثلًا مَثَلُهُمْ) للإيذانِ بأنَّ مدارَ السُّوء ما في حيِّز الصِّلة، ولربطِ قولِه تعالى: ﴿وَأَنفُسَهُمۡ كَانُواْ يَظۡلِمُونَ﴾ به[3].

بلاغةُ عطفِ الصِّلةِ بالجمعِ بين التَّكذيبِ وظُلمِ النَّفسِ:

الجمعُ بين تكذيبِ الآياتِ وظلمِ النَّفسِ حمقٌ وهلاكٌ

قوله: ﴿كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَأَنفُسَهُمۡ﴾ بمعنى: الَّذين جمعوا بين تكذيبِ الآيات، وظُلْمِهِمْ أنفسَهم، وهو "معطوفٌ على ﴿كَذَّبُواْ﴾ داخلٌ معه في حكم الصِّلةِ، بمعنى: أنَّهم جمعوا بين أمرين قبيحين: التَّكذيبِ وظلمِهم أنفسَهم، أو منقطعٌ عنه، بمعنى: وما ظلموا إلَّا أنفسَهم وحدَها، بارتكابِهم تلك الموبقاتِ والخطيئاتِ، فإنَّ العقوبةَ لا تقعُ إلَّا عليهم لا على غيرِهم"[4]، وهذا الجمعُ متحقِّقٌ بالعطف أوَّلًا؛ إذ التَّكذيبُ لا يُفارقُ الظُّلمَ؛ فغايةُ الأمرِ أنَّ في العطف تصريحًا بالجمعِ، وهو أدخلُ في الذَّمِّ والتَّشنيع[5].

دلالة (الواو) في قوله: ﴿وَأَنفُسَهُمۡ﴾، وتنوُّعِ المعطوفِ عليهِ:

حملُ الكلامِ على ما قبلَهُ عَطْفًا أو تذييلًا أو تأكيدًا لما سبقَ

قولُهُ: ﴿وَأَنفُسَهُمۡ﴾: إمَّا أن يكون معطوفًا على ﴿كَذَّبُواْ﴾، فيدخلَ في حيِّزِ الصِّلَةِ بمعنى: الَّذين جمعوا بين التَّكذيبِ بآياتِ اللهِ، وظلمِ أنفسِهم، باعتبارِ أنَّهم معروفونَ بمضمونِ هذه الجملةِ عند النَّبيِّ والمسلمين، وهو الظَّاهرُ الرَّاجح؛ إذ الأصلُ في الواوِ العطفُ، مع وجود الجامعِ الخياليِّ أو العقليِّ؛ إذ التَّكذيبُ علَّةٌ لظلمِهم أنفسَهم، وإمَّا أن

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 406/15.
(2) محمد محمود الحجازي، التفسير الواضح: 786/1.
(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 294/3.
(4) طنطاويّ، التّفسير الوسيط للقرآن الكريم: 438/5.
(5) القونويّ، حاشيَته على تفسير البيضاوي: 552/8.

يكونَ كلامًا مُنقطعًا بمعنى: (وَما ظلموا إلَّا أنفسَهم بالتَّكذيب)[1]، فيكون استئنافًا جاءَ إخبارًا عنهم بأنَّهم في تكذيبِهم، ما ظلموا إلَّا أنفسَهم[2]، ويجوز أن تكونَ معطوفةً على جملةِ: ﴿سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ﴾، فتكونَ تذييلًا للجملةِ الَّتي قبلَها، وتأكيدًا للجملة الَّتي قبلها[3].

بلاغةُ القصرِ بتقديمِ المفعولِ بِهِ: ﴿وَأَنفُسَهُمْ﴾:

بيانُ اختصاصِ ظلمِهم بِهم، وأنَّه لا يتعدَّى إلى غيرِهم

قوله: ﴿وَأَنفُسَهُمْ كَانُواْ يَظْلِمُونَ﴾ أي: خاصَّة؛ وفيه تقديمُ المَفعولِ ﴿وَأَنفُسَهُمْ﴾ للاختصاصِ، كأنَّه قِيل: وخَصُّوا أنفُسَهم بالظُّلم، وما تَعدَّى أثرُ ذلك الظُّلمِ عنهم إلى غيرِهم، وفيه إزالةُ تبجُّحِهم بأنَّهم لم يتَّبعوا محمَّدًا ﷺ، ظنًّا منهم أنَّ ذلك يغيظهُ، ويغيظُ المسلمين، وإنَّما يضرُّون أنفسَهم[4]، فقدَّمَ المفعولَ على الفعلِ، لإفادةِ الحصرِ[5].

بلاغةُ الاحتراسِ في القصرِ السَّابقِ: ﴿وَأَنفُسَهُمْ كَانُواْ﴾:

بيانُ أنَّ حالَ تكذيبِهم أيضًا راجعٌ إليهم

في قولِهِ تعالى: ﴿وَأَنفُسَهُمْ كَانُواْ يَظْلِمُونَ﴾ أيضًا احتراسٌ؛ لأنَّه لمَّا تكرَّر ذمُّهم في الآية بوصف التَّكذيب، وأنَّهم صدُّوا غيرهم؛ احترسَ من ذلك بأنَّ حالَ تكذيبِهم راجعٌ عليهم[6]؛ لأنَّ تكذيبَهم لم يضرَّ اللّهَ شيئًا، وإنَّما عرَّضهم لعقوبةِ اللّهِ في عذابٍ خالدٍ يوم الدِّين، وربَّما عرَّضهم لإهلاكٍ بعذابٍ في الحياة الدُّنيا، إذًا تكذيبهم بآياتِ اللّهِ لن يضيرَ أبدًا في أيِّ شيءٍ، والخيبةُ إنَّما تقعُ عليهم، وإن كان التَّكذيبُ في الآياتِ المعجزاتِ، فقد بقيَ ذكرُ المعجزاتِ إلى الآن، وهم الَّذين خابوا، وإن كانوا قد كذَّبوا بآياتِ

(1) البيضاويّ، أنوار التّنزيل وأسرار التّأويل: 42/3، وحسن نظام الأعرج، غرائب القرآن ورغائب الفرقان: 348/3.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 180/9.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 108/5.
(4) الزّمخشريّ، الكشَّاف: 179/2، والرّازي، مفاتيح الغيب: 406/15، والبقاعيّ، نظم الدُّرر: 162/8، والنيسابوري، تفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان: 348/3.
(5) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 552/8.
(6) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 266/2.

المنهجِ، فهم أيضًا الَّذين خسروا، ولم يُصِب الآياتِ الإعجازيَّةَ أو القرآنيَّةَ أيُّ شيءٍ[1].

بلاغةُ التَّعبيرِ بالماضي في: ﴿كَانُواْ﴾:

بيانُ طَبعهِم القائمِ على التَّكذيبِ والجحودِ

﴿كَانُواْ﴾: أي: كان ذلكَ في طبعِهم جِبلَّةً لهم، لا يقدرُ غيرُ اللّهِ على تَغييرهِ[2]، والقومُ المكذِّبُون بآياتِ اللّهِ، والظَّالمُون لأنفسِهم هنا، هم قريشٌ، وخاصَّةً أصحاب الكلمة فيها، كالوليدِ بن المغيرة، ومن على شاكلتهِ منهم، ممَّن كانت له مكانةٌ أثيرةٌ، وحكمةٌ بصيرةٌ، يمكنه بها أن يهتديَ إلى الحقِّ، ولكنَّه غلبت عليه شقوتُهُ، فأبى النُّورَ، وسارَ في كلِّ ديجورٍ.. وفي نفس المهاوي والضَّلالات سارَ من كانَ على طريقِ هؤلاءِ القومِ المكذِّبين بآياتِ اللّهِ، والواقعُ أنَّ كينونةَ التَّكذيبِ، وملمحيَّةَ الظُّلمِ المنجرِّ عنه، لم تكن بدعًا من الحال، ولكنَّها كانت طبعًا مركوزًا في أنفسِهم، لا ينفكُّ عنهم بالكليَّةِ.

بلاغةُ التَّعبيرِ بالمضارعِ:

بيانُ استمرارِهم في الظُّلمِ باستمرارِ التَّكذيبِ

قوله: ﴿يَظْلِمُونَ﴾، أي: يَستمرُّون على ظلمِها، باستمرارِهم على تكذيبِ آياتِ اللّهِ الهاديةِ المرشدة، وانسلاخِهم عنها[3]، فقولُه: ﴿يَظْلِمُونَ﴾ أقْوَى في إفادةِ وَصْفِهم بالظُّلمِ، مِن أن يُقالَ: وظَلموا أنفُسَهم[4]، وفي ﴿يَظْلِمُونَ﴾ لمحٌ إلى أنَّ تكذيبَهُم بالآياتِ مُتَضمِّنٌ للظُّلمِ، وأنَّ ذلك أيضًا مُعتبرٌ في القصرِ السَّابق[5].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(ساء) و(بئس):

(بئس): الفعلُ يدلُّ على المعنى اللُّغويِّ، ويزادُ على المعنى الخاصِّ

(1) الشّعراوي، تفسير الشّعراويّ: 446/7.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 162/8، والشّربينيّ، السّراج المنير: 615/1.
(3) محمّد أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 3010/6.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 180/9.
(5) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 294/3.

للفعلِ معنى الذَّمِّ، وإفادة معنى التَّعجُّب في حال الذَّمِّ، أمَّا مايجري مجرى بئس، فليس كمثلِهِ، فلا تعميمَ ولاشمولَ ولاخلوَّ من التَّعجُّب في الأفعالِ الجاريةِ مجرى بئس، وهذا هو الفرقُ بين ما كانَ أصلًا، وما كان فرعًا عن الأصلِ، أو محمولًا على الأصلِ، فمقامُ استخدام (ساءَ) غيرُ مقامِ استخدامِ بئسَ، وقد ذكرَ بعضُ أهلِ العلم أنَّ دلالةَ الذَّمِّ في (ساء)، إنَّما جاءت من معنى الفعلِ اللُّغويِّ، وحقيقةُ الأمرِ أنَّ السِّياقَ أصلٌ في تحديد دلالةِ الأفعال المحوَّلة؛ وأسلوبُ المدحِ والذَّمِّ، وإن كانت صورتُهما صورةَ الفعلِ الماضي، إلَّا أنَّهما خاليان من الزَّمنِ، وإنَّما معناهما الإفصاح عن تأثُّرٍ وانفعالٍ دعا إلى المدحِ والذَّمِّ، والسِّياق المتحدِّر هنا دالٌّ على الذَّمِّ؛ ممَّا اقتضى اصطفاء (ساء) على (بئس)[1].

السِّياقُ هنا دالٌّ على الـذَّمِّ، ممَّا اقتضى اصطفاءَ لفظ (ساء) على (بئس)

(1) عبّاس حسن، النّحو الوافي: 385/3، 384، وإبراهيم السّامرائيّ، من أساليب القرآن، ص: 97، وتمّام حسّان، اللّغة العربيّة معناها ومبناها، ص: 115، وإبراهيم الهدهد، أسلوب المدح والذّم في الذكر الحكيم، ص: 20/23 بتصرف.

﴿مَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِۖ وَمَن يُضۡلِلۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ١٧٨﴾ [الأعراف: 178]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

بيانُ أنَّ الهدايةَ من الرَّحمن بعدَ ذكرِ المكذِّبينَ وضربِ الأمثالِ لهم

لَمَّا وصَفَ اللّٰهُ تعالى الضَّالِّينَ بالوَصفِ المذكورِ فيما تقَدَّمَ مِن الآياتِ، وعرَّفَ حالَهم بالمَثَلِ المذكورِ؛ بيَّنَ في هذه الآيةِ أنَّ الهِدايةَ مِن اللّٰهِ تعالى وأنَّ الإضْلالَ مِن اللّٰهِ تعالى[1]، فقال: ﴿مَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِۖ وَمَن يُضۡلِلۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَهۡدِ﴾: الْهَاءُ والدَّالُ والحرفُ المعتلُّ، تدلُّ كثيرٌ من تصريفاتِهَا على معنَى التَّقدُّمِ للإرشادِ، ومِنْهُ قولُهم: هَدَيْتُهُ الطَّريقَ، أي: تقدَّمْتُهُ لأُرْشِدَهُ، ومِنْهُ الهُدَى: ضدُّ الضَّلالَةِ[2].

2) ﴿يُضۡلِلۡ﴾: الضَّاد واللَّام: تَدلُّ تصاريفُهُما على ضَياعِ الشَّيْءِ وذهابِه في غير حقِّهِ[3]، ومِنْهُ يُقال: لِمَنْ جَارَ عَنِ القَصْدِ: ضالٌّ[4]؛ لضياعِ سَعْيِهِ، ويرى بعضُ أئمَّةِ العربيَّةِ أنَّ أصلَ الضَّلالِ: الغَيْبُوبَةُ[5]، وَالضَّلَال: ضدُّ الهُدَى، يُقال: ضَلَّ في الْأَرْضِ؛ إذَا لَم يَهْتَدِ للسَّبيلِ[6]، ومِنْهُ قولُ اللّٰه تعالى حِكَايَةً عَنِ الكُفَّارِ أنَّهُم قالوا: ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلۡنَا فِي ٱلۡأَرۡضِ أَءِنَّا لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدِۭۚ﴾ [السَّجدة: 10]، أي: اخْتَفَيْنَا في الأرضِ بالدَّفْنِ، وصِرْنَا ترابًا وعظامًا، فلَمْ يَتَبيَّنْ شيءٌ من خَلْقِنَا[7].

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 407/15.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (هدي).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ضلّ).
(4) ابن فارس، مجمل اللّغة: (ضلّ).
(5) الخطابيّ، غريب الحديث: 484/1.
(6) ابن دُرَيْد، جمهرة اللُّغَة: (ضلل).
(7) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (ضلّ).

3) ﴿ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾: أي: الهالكونَ والمغبونونَ؛ والخاء والسِّين والرَّاء أصلٌ يدلُّ على النَّقص[1]، والخُسرُ والخُسرانُ: انتقاصُ رأسِ المالِ، ويستعمَلُ في نُقصان العقل والإيمان، والثَّواب، وأصلُ (خسر) يدلُّ على النَّقصِ[2]، وجعلَه ابنُ دُرَيْدٍ وغيرُهُ دالًّا على الضَّلالِ، ثُمَّ استُعْمِلَ في غيرِهِ، كَخُسْرَان التَّاجر[3]، ويُطْلَقُ الخُسرانُ على الْهَلَاكِ[4]؛ لأنَّ في الهلاكِ نَقْصًا مَا.

المَعْنى الإِجْماليُّ:

من يُوفِّقْهُ اللّٰهُ لسلوكِ سبيلِ الحقِّ، فهو المهتدي حقًّا، الفائزُ بسعادةِ الدَّارينِ، ومن يُبْعِدْهُ عن الصِّراطِ المستقيمِ، فأولئكَ هم المنقِصون أنفسَهم حُظوظَها حقًّا، الَّذين خسروا أنفسهم وأهليهم يومَ القيامةِ[5].

الهدايةُ من اللهِ تعالى؛ فمن شاء هداهُ فأفلحَ، ومن شاءَ أضلَّهُ فخابَ وخسرَ

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

موقعُ الجملةِ الاستئنافيَّةِ ودلالته:

قولهُ: ﴿وَلَوۡ شِئۡنَا لَرَفَعۡنَٰهُ بِهَا﴾ ﴿فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِيۖ﴾: تذييلٌ للقصَّةِ والمَثَلِ وما أُعقِبا به من وَصْفِ حالِ المُشركين، فإنَّ هذه الجُملةَ تُحصِّلُ ذلك كُلَّه، وتجري مجرى المَثَلِ، وذلك أعلى أنواعِ التَّذييلِ[6]، والآيةُ من فذلكة ما مضى[7]، فهي تذييلٌ، وتأكيدٌ لِما تضمَّنَتْهُ القصَّةُ السَّابقة[8]، فلمَّا كان ما سبق محلَّ عجبٍ ممَّن يميل عن المنهجِ بعد

تذييلٌ وتأكيدٌ لِما تضمَّنَتْهُ القصَّةُ السَّابقةُ

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (خسر).
(2) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 30، وابن فارس، مقاييس اللغة: 182/2، والرّاغب، المفردات، ص: 281 - 282، وابن الهائم، التبيان، ص: 73.
(3) ابن دُريد، جمهرة اللُّغة، وابن سِيدَه، المحكم والمحيط الأعظم: (خسر).
(4) الجوهريّ، الصحاح: (خسر).
(5) لجنة من عُلماءِ الأزهر، المنتخَبُ في تفسير القرآنِ الكريم، ص: 236، ونُخْبة من أساتذة التَّفسير، التَّفسير المُيَسَّر، ص: 173، وجماعةٌ من علماء التَّفسير، المُخْتَصَر في تفسير القرآن الكريم، ص: 173.
(6) ابن عاشور، التحرير والتّنوير: 180/9.
(7) البقاعي، نظم الدُّرر: 162/8.
(8) الآلوسيّ، روح المعاني: 110/5.

إيضاحِهِ هذا الإيضاحَ الشَّافي، قال جوابًا لمن كأنَّه قال: فما لهم لا يؤمنون؟ مُفصِّلًا لقوله: ﴿وَلَوۡ شِئۡنَا لَرَفَعۡنَٰهُ بِهَا﴾ [الأعراف: 176]: ﴿مَن يَهۡدِ ٱللَّهُ﴾[1].

بيانُ كونِ الهدايةِ إرشادًا من الله تعالى وحدَهُ، وهو الموفِّقُ من شاء لها

بلاغةُ التَّعبيرِ بأسلوبِ الشَّرطِ ﴿مَن﴾:

الختمُ بأسلوبِ التَّعليق كاشفٌ عن عدم هدايتهم، إذ عدمُ هدايتهم في علمِ اللّه مستحيلةٌ، لما جُبِلت عليه طينتُهم من الضَّلال وحبِّه؛ وفي أسلوبِ التَّعليق بشارةٌ للمؤمنين، وإخبارٌ لهم بأنَّ هدايتهم سبقت عندَ اللّهِ، وقد جاء التَّذييلُ للقصَّةِ بأسلوب التَّعليقِ ليسيرَ مسيرَ الأمثال، و(مَنْ) اسم شرط، أي: (الذَّي يهديه اللّهُ تعالى فهو المهتدي وحدَه)، وليس معنى ذلك أنَّه ليس مُختارًا في سلوكِ طريق الهداية، فإنَّ اللّه عَدْلٌ، لا يظلم أحدًا، إنَّما يكون بين يديهِ طريقُ الرُّشد، وطريق الغيِّ، فيختار طريقَ الغيِّ، فيصلُ إلى نتيجَتِهِ[2]، وهدايةُ اللّهِ لعبادِهِ قسمان: فالهدايةُ العامَّة: هي مجرَّدُ الإلهام والإعلام بطريقِ الحقِّ، والخاصَّة: هي الإعلامُ بها، والحملُ على سُلوكِها بالفعل، كما يقولُ الشَّخص: هذه طريقُ الحقِّ، وهذه طريقُ الباطلِ، وتارةً يقول له: هذه طريقُ الحقِّ فاسلُكْها؛ وتجعلهُ سالكًا فيها بالفعل، فالعموميَّةُ هي قولهُ تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيۡنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرٗا وَإِمَّا كَفُورًا ٣﴾ [الإنسان: 3]، والأخصيَّةُ: ﴿وَٱللَّهُ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٤٦﴾ [النُّور: 46][3].

التَّنويهُ بشأنِ الهدايةِ والمُهتَدينَ

بديعُ الجناسِ الاشتقاقيِّ بين ﴿مَن يَهۡدِ﴾ و﴿ٱلۡمُهۡتَدِۖ﴾:

قال تعالى: ﴿مَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِۖ﴾ فيه جناسُ اشتقاقٍ في لفظةِ الاهتداء، بين الفعليَّةِ والاسميَّة، وفي هذا الجناسِ البديعِ

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 162/8.
(2) محمّد أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 3010/6.
(3) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 266/2.

تنويهٌ بشأنِ المُهتَدينَ[1]، فحالُ المهتدين صورةٌ لفظًا ومعنًى لما ثبت عند اللّه بشأنهم في اللَّوح المحفوظِ.

بلاغةُ إسنادِ الفعلِ إلى اسمِ الجلالةِ (الله):

كونُ الهدايةِ منه ﷻ، وأنَّها لا تُطلب إلَّا منهُ

نلمحُ في نسبةِ الهدايةِ إلى اللّهِ - لكونِها منه ابتداءً - إرشادًا وتوفيقًا[2]، وفيها تلقينٌ للمُسلمينَ؛ للتَّوجُّهِ إلى اللّهِ تعالى بطَلَبِ الهِدايةِ منه، والعِصمةِ مِن مَزالِقِ الضَّلالِ[3]، وفيها أيضًا تشنيعٌ على القوم الضَّالين، وكبتٌ لهم، بطردهم من هذا المقام الكريم، وأنَّهم ليسوا أهلًا لأنْ يهديَهم اللّهُ، بل هم أهلٌ لهذا الضَّلالِ الَّذي أغرقَهم اللّهُ فيه[4].

بلاغةُ التَّعبيرِ بأسلوبِ القصرِ:

تعظيمُ شأنِ الاهتداءِ، وتَنبيهٌ على أنَّه في نفسِه كمالٌ جَسيمٌ

قَولُ اللّهِ تعالى: ﴿مَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِۖ﴾، اقتصارٌ في الإخبارِ عَمَّن هَدى اللّهُ بالمهتدي، وفيه تعظيمٌ لشَأنِ الاهتداءِ، وتَنبيهٌ على أنَّه في نفسِه كمالٌ جَسيمٌ، ونَفعٌ عَظيمٌ، لو لم يحصُلْ له غيرُه لَكَفاه، وأنَّه المُستلزِمُ للفوزِ بالنِّعَمِ الآجِلةِ، والعنوان له[5]، والقَصرُ المُستفادُ مِن تعريفِ جُزأيِ الجُملةِ ﴿فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِۖ﴾ قَصرٌ حقيقيٌّ باعتبارِ الكَمالِ، واستمرارِ الاهتداءِ إلى وفاةِ صاحِبِه[6]، وفي القصرِ قوَّةٌ في الدَّلالةِ على كمال الهداية.

دلالةُ العطفِ بحرفِ (الواو) في قوله: ﴿وَمَن يُضۡلِلۡ﴾:

عطفُ جملةٍ على جملةٍ، تتميمٌ لمعنى الأولى

قوله: ﴿وَمَن يُضۡلِلۡ﴾ عطفٌ على الجملةِ السَّابقة[7]، أي: ومن يخذلْهُ، ويحرمْهُ التَّوفيقَ، فيتبع شيطانَهُ وهواه، ويتركُ استعمالَ

(1) ابن تيمية، درء تعارض العقل والنّقل: 30/9، وابن عاشور، التحرير والتّنوير: 180/9.
(2) البرّاك، شرح العقيدة الطَّحاويَّة، ص: 79.
(3) ابن تيمية، درء تعارض العقل والنّقل: 30/9، وابن عاشور، التحرير والتّنوير: 180/9.
(4) عبد الكريم الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 525/5.
(5) الشّربيني، السّراج المنير: 537/1، وابن عجيبة، البحر المديد في تفسير القرآن المجيد: 415/2.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 182/9.
(7) درويش، إعراب القرآن الكريم وبيانه: 499/3.

عقلِهِ وحواسِّهِ في فقهِ آياتِه، وشكر ما أنعمَ به عليهِ ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾، أي: فهو الكفورُ الضَّالُّ الَّذي خسِرَ سعادةَ الدُّنيا، وسعادةَ الآخرة؛ إذ هو قد خسر تلك المواهبَ الَّتي كان بها إنسانًا مُسْتَعِدًّا للسَّعادتين الدُّنيويَّة والأخرويَّة، أي: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ الموصوفونَ بالضَّلالة ﴿هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾[1]، فمن شاءَ له الضَّلالَ زادَهُ ضلالًا، وقد بيَّن أنَّ من شاء هدايتَهُ يهتدي، وهذه معونةٌ من اللهِ، والكافرُ لا يهتدي، وكذلك الظَّالم والفاسق؛ لأنَّه سبحانه قد تركَ كلَّ واحدٍ منهم لاختيارِهِ، وهكذا يمنعُ ﷻ عنهم هدايةَ المعونةِ[2].

بلاغةُ التَّعبيرِ باسمِ الإشارةِ للبعدِ ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾:

قولهُ: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ أي: البُعَداء البُغَضاء[3]، فجيءَ باسمِ الإشارة، لبيانِ بُعدِهم عن الفوز، ووقوعهم في الخسران، ولما كان المهتدي قريبًا إلى اللهِ، مستحقًّا للفوز والنَّجاحِ، أتى النَّظمُ الكريمُ بالضَّميرِ الدَّالِّ على القُربِ، وفي الثَّاني باسم الإشارة[4].

الإشارةُ إلى قُربِ المهتدين وربحهم، وبيانُ بُعدِ الضَّالين عن الفوزِ

ورودُ ضميرِ الفصلِ ﴿هُمُ﴾ ودلالتُهُ على التَّأكيد:

﴿هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ تفيدُ تأكيدَ الخسارةِ وتأكيدَ قصرِها عليهم، وذلك لضميرِ الفصلِ (هم)، وخسارتهم في أنَّهم خسروا نعيمَ الآخرةِ، وخسروا بضلالهم وفقدهم التَّمييز بين الحقِّ والباطلِ، والضَّلالِ والهدايةِ، وخسارتِهم بترْكِهم نعمةَ اللهِ تعالى في آياته[5].

تأكيدُ الخسارةِ وتأكيدُ قصرِها عليهم

بلاغةُ أسلوبِ القصرِ بطريقِ تعريفِ الطَّرفين:

كما سبقَ القولُ في قوله: ﴿فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِيۖ﴾، فالقَولُ في ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ كذلك تفيدُ تأكيدَ الخسارةِ وقصرِها عليهم[6]،

تأكيدُ زيادةِ الاهتمامِ بتمييزِهم بعنوانِ الخسرانِ

(1) الهرريّ، حدائق الرَّوح والرَّيحان: 238/10.
(2) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 4469/7.
(3) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 162/8.
(4) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 266/2.
(5) محمّد أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 3010/6.
(6) محمّد أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 3010/6.

أي: فأولئك هم الكاملونَ في الخسرانِ لا غير[1]، وزِيدَ في جانبِ الخاسرينَ هنا الفَصلُ باسمِ الإشارةِ ﴿فَأُوْلَـٰٓئِكَ﴾؛ لزيادةِ الاهتمامِ بتَمييزِهم بعنوانِ الخُسرانِ تحذيرًا منه، فالقَصرُ فيه مؤكَّدٌ[2].

بلاغةُ مجيءِ الآيةِ بأسلوبِ الطِّباق ﴿مَن يَهۡدِ ٱللَّهُ﴾ ﴿وَمَن يُضۡلِلۡ﴾:

تصويرُ فضلِ الهدايةِ وفضيلةِ المهتدي، وإيحاشِ الضَّلالةِ وخسرانِ صاحبها

جيءَ بهذا الطِّباقِ العجيبِ بين ذكرِ لفظتَي الهدايةِ والضَّلالِ لتصويرِ فضلِ الأولى ﴿يَهۡدِ﴾، ورفعةِ مكانتها، وفضيلةِ تحصيلِها وربحِ صاحبها، وتشنيعِ الثَّانية ﴿يُضۡلِلۡ﴾، وبيانِ خِسَّةِ وخسارةِ صاحبها المتلبِّسِ بها.

بلاغةُ حذفِ التَّقابلِ في المغايرةِ بين فعلِ الشَّرطِ وجوابِهِ:

الإشارةُ إلى ربحِ المهتدي بطريقِ الإيجازِ

قوله: ﴿وَمَن يُضۡلِلۡ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَـٰسِرُونَ﴾، تُلمَحُ فيه بلاغةُ حذفِ التَّقابلِ في المغايرةِ بين فعلِ الشَّرطِ، وجوابه، وقد كان مقتضى الظَّاهرِ: (ومن يضلل؛ فهو الضَّالُّ)، عبَّر في الأولى بالمَلزوم: وهي الهدايةُ، وفي الثَّاني باللَّازم: وهو الخسرانُ، ففيه حذفُ التَّقابل، أي: مَنْ يَهْدِ اللهُ؛ فهو المهتدي الرَّابحُ، ومن يضلل؛ فهو الضَّالُّ الخاسر[3]، فعُلِمَ مِن مُقابلةِ الهدايةِ بالإضلالِ ومُقابلةِ المهتدي بالخاسِرِ: أنَّ المُهتديَ فائزٌ رابحٌ، فحُذِفَ ذِكرُ ربحِهِ إيجازًا[4].

بلاغةُ الاستعارةِ في لفظِ ﴿ٱلۡخَـٰسِرُونَ﴾:

تصويرُ الضَّالِّ بمن خسرَ الخُسرانَ المبينَ، وهو يظنُّ نفسَه رابحًا

سبقَ بيانُ أنَّ قولَهُ: ﴿فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَـٰسِرُونَ﴾ قصرُ قلبٍ؛ لأنَّهم ظَنُّوا أنفسَهم رابحينَ، فيكونُ الخسرانُ هُنا تخييلًا يُرادُ منه الاستعارةُ في ذاتِهِ استعارةً مكنيَّةً تمثيليَّةً؛ حيثُ شبَّهَ هذا الضَّالَّ بالتَّاجرِ الَّذي يعقدُ الصَّفقةَ، فيخسرُها، وذكرَ صفةً من صفاتِهِ، وهو الخسرانُ، فاستُعيرَ الخسرانُ لتحصيلِ ضدِّ المقصودِ من العمل، كما يُستعارُ الرِّبحُ لحصولِ الخيرِ[5].

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 294/3.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 182/9.
(3) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 266/2.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 182/9.
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 181/9.

بلاغةُ التَّعبيرِ بالجمعِ مُقابلِ المفردِ ﴿ٱلۡمُهۡتَدِيۖ﴾ و﴿ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾:

تكريمُ كلّ فردٍ من أفرادِ المهتدينَ، ونبذُ جماعةِ الضَّالِّين وطرقِهم المتشعِّبةِ

جاء الإفرادُ في الأوَّلِ ﴿فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِيۖ﴾، والجَمعُ في الثَّاني: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ باعتبارِ اللَّفظِ والمعنى لـ﴿مَن﴾، فـ﴿فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِيۖ﴾ حملٌ على اللَّفظ، تنبيهًا على أنَّ المُهتَدينَ كواحدٍ، لاتِّحادِ طَريقتِهم، بخلافِ الضَّالِّينَ[1]، فقوله سبحانه: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾، حمل على المعنى، وكلمة ﴿مَن﴾ هذه تطلقُ على الواحدِ، فأكثر، وقد يُراعى لفظُهُ المفرد، فيعادُ الضَّمير عليه بالإفراد، كما في الجملة الأولى، وقد يُراعى معناه الدَّالُّ على الجمع، فيعاد الضَّميرُ عليه بالجمع، كما في الجملةِ الثَّانية، والتَّنويعُ في الجملتين تفنُّنٌ في البيان، فلمَّا كان أكثرُ الخلق هالكًا بالفسقِ، ونقض العهد؛ وحَّدَ ﴿ٱلۡمُهۡتَدِيۖ﴾ نظرًا إلى لفظ ﴿مَن﴾، وجمعَ الضَّالَّ نظرًا إلى معناها، فقال: ﴿وَمَن يُضۡلِلۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾[2]، ويُفهم من الإفرادِ في الجملةِ الأولى تكريمُ كلِّ فردٍ من أفرادِ المهتدين بأنَّهُ يحمل من ربِّهِ شهادة ﴿ٱلۡمُهۡتَدِيۖ﴾ بعد فصلِ القضاءِ يوم الدِّين، أمَّا الضَّالُّون؛ فإنَّهم يُجمعونَ معًا في زُمَرٍ ذواتِ راياتٍ مهيناتٍ، أو علاماتٍ يُعرفونَ بها أنَّهم الخاسرونَ المنبوذونَ.

حسنُ التَّذييلِ والختامِ بذكرِ خسرانِ الضَّالِّينَ:

في وعظِ من ترك الآخرةَ بإقبالِهِ على منافعِ الدُّنيا

وما أحسنَ ختْمَها بالخسرانِ! في وعظِ من تركَ الآخرةَ بإقبالِهِ على أرباحِ الدُّنيا وأعراضها الفانية، ثمَّ تعقيبها بذرْءِ جهنَّمَ الَّذين لا أخسرَ منهم[3]، فمنِ استندَ على هدايةِ اللّهِ ومعونتِهِ، وأقبلَ اللّهُ عليه، فهداهُ؛ نالَ الحفظَ والحمايةَ والعطاءَ في الدُّنيا والآخرةِ، لكن إذا انصرفتْ عن العبدِ حمايةُ اللّهِ ورعايته؛ "فعلى العبدِ أن يواجهَ حركةَ الحياةِ وحدَهُ، بدونِ مددٍ من خالقه؛ ويعيشُ وحالتُهُ كربٌ،

(1) الشّربينيّ، السّراج المنير: 537/1.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 162/8.
(3) البقاعي، نظم الدُّرر: 162/8.

سواءٌ كان في يسرٍ ماديٍّ أو في عسرٍ، هذا إن اعتبرَ أنَّ الدُّنيا هي كلُّ شيءٍ، فإذا أضيفَ إلى ذلك غفلتُهُ عن أنَّ الدُّنيا معبرٌ للآخرة، فالخسارةُ تكون كبيرةً حقًّا"[1].

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(يُضلل) و(يُغوي):

الضَّلالُ الانحرافُ عن الحقِّ والهُدى، والغوايةُ الانزلاقُ عن الرُّشدِ

المعنى المحوريُّ لـ(ضلّ): غيابُ الشَّيءِ في أثناء شيءٍ، حتَّى لايتميَّزَ هذا من ذاك، ويأتي بمعنى: تنسى، كما في قوله تعالى: ﴿أَن تَضِلَّ إِحۡدَىٰهُمَا﴾ [البقرة: 282]، وبمعنى: لايفوته شيءٌ ﴿لَّا يَضِلُّ رَبِّي﴾ [طه: 52]، وبمعنى: خَفينا وغِبْنا ﴿أَءِذَا ضَلَلۡنَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [السجدة: 10][2]، واستُخدمَ هنا في مقابلِ الهُدى، أمَّا المعنى المحوريُّ لـ(غوى)؛ فهو الانجذابُ إلى الشَّيءِ مع تغشٍّ وفسادٍ، كالجراد الَّذي يغشى الأرضَ بكثافةٍ ليأكلَ زرعَها؛ والغيُّ ضدُّ الرُّشدِ، لذا لم يكنْ ذكرهُ مناسبًا للسِّياق[3].

(1) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 162/8.
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: 78/2.
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: 235/2.

﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾﴾

[الأعراف: 179]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

المناسبةُ بين المنْسَلِخِ وغُواةِ الجنِّ والإنسِ، لبيانِ أنّ مآلَهم الخُسرانُ والنّارُ

لمّا أجملَ سبحانه في الآيةِ السّالفةِ بما يُعدُّ تذْييلًا خُتمتْ به قصةُ الذي انتقلَ من صُورةِ الهُدى إلى الضَّلالِ[1]؛ بقولِه تعالى: ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِىۖ وَمَن يُضْلِلْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [الأعراف: 178] وأنّه هو الهادِي وهو المُضلُّ، أعْقبَه بذكْرِ المُستحِقّين للخُسرانِ والنّارِ[2]، مُقرِّرًا بذلك مضمونَ الآيةِ، ومُبيِّنًا أنّهُ ذرأَ لجهنمَّ كثيرًا منَ الثّقلَيْن: الجِنِّ والإنْسِ؛ لأنَّهم أفسدُوا فِطْرتَهم بإهمالِ مواهبِهم منَ العقلِ والحواسِّ، وأصرُّوا على الكفرِ في علْمِه[3] ﷻ، فكأنهُ جاءَ بما يُعدُّ استكمالًا للحديثِ عنِ المَثَلِ المنحرفِ عنِ الميثاقِ الكونيِّ بالتّوحيدِ.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ذَرَأْنَا﴾: ذَرَأَ: الذّال والرّاء والهمزة أصلانِ؛ أحدُهما: لونٌ إلى البياضِ، والآخرُ كالشّيءِ يُبذرُ ويُزرعُ، ومن هذا الأصلِ: ذرأَ اللّه الخلقَ: خلَقَهم، أي: أنْشأَهم ونشَرَهم في الأرض بتَناسُلِهم. يقالُ: ذرأ اللّه الخلْقَ، أي: أوجدَ أشخاصَهم، وذرأَ الشَّيءَ: كثَّره، قيل: ومنه الذُّرِّيّةُ، وهو اسْمٌ لنَسْلِ الثّقلَيْن، فالذَّرءُ في أصل اللّغةِ: بثٌّ

(1) وهو أمية بن أبي الصَّلْت، يُنظر: ابن جرير، جامع البيان: 255/13.

(2) أبو حيان، البحر المحيط: 227/5.

(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 295/3، والآلوسيّ، روح المعاني: 110/5.

الأشياءِ ونشرُها وبَذرُها وتفريقُها وتكثيرُها[1]، والذَّرْءُ: إظهارُ اللّه تعالى ما أبداه. ومعنى ذرأَهم في الآيةِ مُوافقٌ لهذا المعنَى اللُّغويِّ[2].

2) ﴿قُلُوبٌ﴾: جمع قَلْبٍ، والْقَافُ واللّام والباء أصلانِ صحيحانِ: أحدُهما يَدُلُّ على خالِصِ شيءٍ وشَرِيفِهِ، والآخرُ على رَدِّ شَيءٍ من جِهةٍ إلى جِهةٍ؛ فالمعنى المحوريُّ له هو باطنُ الشّيءِ ولُبُّه، ومن ذلك: القلبُ المُضغةُ المعروفةُ؛ لأنّها أهمُّ ما في الباطنِ وأقواهُ، وقلبُ الإنسان سُمّيَ به لكثرةِ تقلُّبِهِ، وهذا الأصلُ يسمحُ بإطلاقِها على القُوّةِ الباطنةِ، وهي العقْلُ[3].

وأكثرُ ما في القرآن الكريم من كلمةِ (قلب) وجمْعِها يتعلَّق الكلامُ فيها بما أسنَدهُ القرآنُ إلى القلبِ من وظائفِ الفقْهِ والتّدبُّرِ والإيمانِ وضِدِّهِ وما إلى ذلك، وقد يُستعمَلُ في المعنيَيْنِ معًا، أي: بمعنى العقلِ وبمعنى الوِجدانِ الرُّوحيِّ الذي يُسمُّونه أحيانًا بـ(الضّمير)، وهو محلُّ الحُكم في أنواعِ المُدرَكات والشّعورِ الوِجدانيِّ، ومنه هذه الآيةُ: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾؛ فإنَّ فقهَ القلوبِ هنا لا يحصلُ إلَّا بنَوْعٍ منَ الإدراك يصحبُه وِجدانٌ يبعثُ على العمل[4].

3) ﴿يَفْقَهُونَ﴾: الفقهُ: العلمُ بالشّيءِ والفهمُ له، والفِطنةُ، وفسَّره الراغب: بالتَّوصُّلِ إلى علمٍ غائبٍ بعلْمٍ شاهدٍ؛ والفقهُ بالشّيء: هو معرفةُ الوُصولِ إلى أعماقِه، فمَن لا يعرفُ منَ الأمورِ إلا ظواهرَها لا يُسمَّى فقيهًا، فهو أخصُّ من مُطلَقِ العلمِ، ثمّ اختصَّ بذلك علْمُ الشّريعةِ؛ فقيلَ لكلِّ عالمٍ بالحلالِ والحرامِ: فقيهٌ[5].

وقدِ استعملهُ القرآنُ في مواضعَ كثيرةٍ بمعنى دِقّةِ الفهمِ والتّعمُّقِ في العلْمِ ليترتّبَ عليه أثرُهُ، وهو الانتفاعُ به؛ وهذا المعنَى هو المرادُ هنا[6].

4) ﴿ٱلْغَٰفِلُونَ﴾: الغين والفاء واللّام أصلٌ صحيحٌ يدلُّ على تركِ الشّيءِ سَهْوًا، وربَّما

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات: (ذرأ)، والفيروزاباديّ، بصائر ذوي التمييز: (ذرأ)، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (ذرأ).

(2) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 513/3، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 182/9.

(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (قلب).

(4) رشيد رضا، تفسير المنار: 419/9، والزحيلي، التفسير المنير: 166/9.

(5) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (فقه).

(6) رشيد رضا، تفسير المنار: 420/9، والمراغي، تفسير المراغي: 112/9.

كان عن عمْدٍ؛ غفَلتُ عنِ الشّيءِ غَفْلةً وغُفولًا وذلك إذا تركتَهُ سَاهيًا، وأغفلتُه إذا تركتَهُ على ذكْرٍ منكَ لهُ، والغفلةُ: سهوٌ يعتري الإنسانَ من قلّةِ التّحفُّظِ والتيقُّظِ. والغفلةُ عنِ الشّيء: انصرافُ الذِّهنِ عن ملاحظتهِ، وعن إدراكهِ ومُراقبتهِ، مع وجودِه أو وجودِ أدلّتهِ في مجالِ الإدراكِ المُستطاعِ للمخلوقِ[1].

ومعنَى الغفلةِ هنا: سَهْوُهم عن آيات اللّه وحُجَجِه، وتركُهم تدبُّرَها والاعتبارَ بها والاستدلالَ على ما دلّتْ عليه من توحيدِ ربّها[2].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

النّارُ مَصيرُ كلِّ من كفَرَ باللهِ وأعْرضَ عن آياتِه ولم يتدبَّرْها

يُقسمُ اللّه أنّه تعالى بقُدْرتهِ وعظَمتهِ قد خلقَ خلْقًا كثيرًا منَ الجِنِّ والإنسِ، حقّتْ عليهم الكلمةُ الأزليّةُ بالشّقاوةِ منهُ سبحانهُ لا بطريقِ الجبْرِ، بل لعلْمِه سُبحانه بأنّهم لا يَصرفون اخْتيارَهم نحوَ الحقِّ أبدًا، بل يُصرُّون على الباطلِ؛ لم ينتفِعُوا بمداركِهم، وعاشُوا كالأنعامِ التي لا تَفْقَهُ ما يقالُ لها، ولا تفهمُ ما تُبصرُه، ولا تعقلُ بقلوبها الخيرَ والشّرَّ فتُميّزُ بينهما، بل كانوا أضلَّ؛ لأنّ البهائمَ تُبصرُ منافعَها ومضارّها وتتّبَعُ راعِيَها، وهم بخلاف ذلك رُغْمَ أنَّ دلائلَ الإيمانِ والهُدى حاضرةٌ في الوجودِ وفي الرِّسالاتِ، تُدركُها القلوبُ المفتوحةُ والبصائرُ المكشوفةُ، وهم لم يفتحُوا أعينَهم ليُبصِرُوا آياتِ اللّهِ الكونيّةَ، ولم يفتحوا آذانَهم لِيسمعُوا آياتِ اللّهِ المتلُوَّةَ، حتى استحقُّوا قصْرَ الغَفلةِ عليهم، فكانوا بذلك ذرءَ جهنّمَ المستعرةِ الهاويةِ التي لا يُدرَكُ قعرُها، ترصدُهم وتحيطُ بهم، وتكونُ لهم بئسَ المِهادِ[3].

وترشدُ الآيةُ إلى أنَّ المقصودَ ليس نفْيَ السّمعِ والبصَرِ عنهم

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (غفل).
(2) ابن جرير، جامع البيان: 281/13.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 111/5، وحجازي، التفسير الواضح: 787/1، وطنطاوي، التفسير الوسيط للقرآن الكريم: 441/5.

جُملةً، وإنّما المعنَى نفْيُها عمَّا ينفعُ في الدِّين، وأنَّ بعضَ بنِي آدم أضلُّ منَ الأنعام؛ لأنّهم لا يَهتدون إلى ثوابٍ؛ فهِمَّتُهم أرذلُ منَ الأنعامِ، لكوْنِهم قصَروها على التّمتُّعِ والأكلِ والشُّربِ.

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

دَلالةُ الواوِ في قولِه: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا﴾:

تحتملُ الواوُ في قولِه تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا﴾ وجهَيْن:

أحدُهما: أن تكونَ عاطفةً[1]، والمعطوفُ عليه هو قولُه تعالى قبلُ: ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِىۖ وَمَن يُضْلِلْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ١٧٨﴾ [الأعراف: 178]؛ لِيتساوقَ كلامُ اللّه تعالى في وصْفِهم ووصْفِ مآلِهم[2]، والآخرُ: أن تكونَ الواوُ استئنافيةً؛ فلا يكونُ للجُملة ارتباطٌ بجُملةٍ بعيْنِها ممّا تقدّمَ، ولكنّها ناشئةٌ عن جميع الكلامِ السّابقِ؛ وذلك أنّ اللّه لما ذكرَ في الآياتِ السّابقةِ قِصّةَ الذي انتقلَ من صُورةِ الهُدى إلى الضَّلالِ ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا﴾ [الأعراف: 177]؛ وذيّلَها بقولِه: ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِىۖ وَمَن يُضْلِلْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ١٧٨﴾ [الأعراف: 178] أعقب ذلك ببيانِ عاقبةِ المُصرِّين على الكُفرِ من الجِنِّ والإنسِ، قال الآلوسيّ: "كلامٌ مُستأنفٌ مقرِّرٌ لمضمونِ ما قبْلَه بطريق التّذييل"[3].

الـهـادِي هو الـلـه تـعـالى، والـتّـعـقـيـبُ بالمُصرِّين على الكُفرِ، تأكيدٌ لما مضَى

بَلاغةُ اسْتِخدامِ الإنشاءِ غيرِ الطّلَبيِّ، في القسَمِ المسُوقِ:

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ﴾، أفادَ القَسَمُ في الآيةِ تحقيقَ المخبَر عنه؛ لأنَّ غرابتَه تُنزِّلُ سامعَه خاليَ الذِّهن منه مَنزلةَ المتردِّدِ في تأويلِه، ولأنَّ الّذين نزلتْ في ذمِّهم الآيةُ - وهمُ المشركون - كانوا يَحسَبون أنّهم يُحسنون صُنعًا، وأنّهم أصحابُ أحلامٍ وأفهامٍ[4]؛ لأنّه

غيرُ المُهتدِي أضلُّ منَ البهائمِ

(1) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآي والسور: 172/8.
(2) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 499/3.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 110/5.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 182/9.

لا يكادُ يُصدَّقُ أنَّ الإنسانَ يكونُ أضلَّ منَ البهائم[1]، فجاء القسَمُ ليُزيلَ أدنَى شكٍّ في الخبرِ الواردِ، ويُقرِّرُ أنّه حقٌّ.

وَجْهُ اخْتِيار فعْلِ ﴿ذَرَأْنَا﴾ دون غيره:

يأتي الفعْلُ ﴿ذَرَأْنَا﴾ في الآيةِ الكريمةِ بمعنى (خلَقْنا)، ولكنّه يحملُ دلالاتٍ أعمقَ وأغنَى؛ إذِ الذَّرءُ في أصلِ اللّغةِ يعني إظهارَ اللّه تعالى ما أبْدَاه، يقال: ذرأ اللّهُ الخلقَ، أي: أوجدَ أشْخاصَهم[2]، فعندما يُعبِّرُ اللّه تعالى بقوله: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾؛ فإنَّ هذا يُشيرُ إلى أنَّ حقيقةَ هؤلاء الأشخاصِ قد خُلقُوا بطبيعتِهم التي تجعلُهم مُؤهَّلِين لجهنّمَ، الذين عَلِم اللّهُ منهم أزلًا اختيارَهم الكُفرَ، فشاءَه منهم، وخلَقَه فيهم، وجعل مصيرَهم النّارَ لذلك[3].

هـــــؤلاءِ الأشخاصُ عَلِمَ اللّهُ منهم أزلًا اختِيارَهم الكُفرَ

وفي هذا التّعبيرِ يكمُنُ دليلٌ على حِكمةِ اللّه وعدْلِه، حيث يُظهرُ أنَّ هؤلاء الأشخاصَ ليسُوا في جهنّمَ بسببِ قدَرٍ سابقٍ، بل بسببِ اختياراتِهم وأفعالِهم التي جعلَتْهُم مؤهَّلِين لذلك.

وفي الوقتِ نفْسِه، يُشير التّعبيرُ بـ﴿ذَرَأْنَا﴾ إلى عَظمةِ خَلْقِ اللّه وقُدْرَتِه على إحداثِ كلِّ شَيءٍ منَ العدمِ.

نُكتةُ التّعبيرِ بصِيغةِ الماضِي في ﴿ذَرَأْنَا﴾:

التَّعبيرُ بالماضِي يَصدُقُ على ما ذرأهُ اللّهُ في الماضي فعْلًا، وأمّا ما يكونُ ذرْؤهُ لمن كفرَ في زمنِ التّنزيلِ وما بعدهُ إلى قيامِ الساعةِ، فالتَّعبيرُ به بالماضِي لإفادةِ تحقُّقِ الوقوعِ في المستقبَلِ، وكأنّه وقعَ حتى صحَّ أن يُخبرَ عنه أنّه قد حصلَ؛ وهذا كثيرٌ في كلامِ اللّه عن أحداثِ السّاعةِ.

تـحـقّـقُ وُقـــوعِ التَّهديدِ بجهنّمَ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 172/8.

(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (ذرأ)، والفيروزباديّ، بصائر ذوي التّمييز: 7/2، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (ذرأ).

(3) طنطاويّ، التفّسير الوسيط للقرآن الكريم: 441/5.

بَلاغةُ إسْنادِ الفعْلِ إلى ضميرِ العَظَمةِ في قوله: ﴿ذَرَأْنَا﴾:

الضّميرُ العائدُ على اسْمِ العَظَمةِ، إدخالٌ للمَهابةِ تَخويفًا

جاء الضّميرُ في ﴿ذَرَأْنَا﴾ بنونِ العظَمةِ ليُشعرَ بعظَمةِ رُبوبيّةِ الخالقِ، وتأكيدِ إثباتِ المضمونِ؛ كأنّه يقول: (ولقد ذرأنا بعَظَمَتِنا لجهنّمَ...)، كما أفاد هذا الإسنادُ تحقُّقَ الموعودِ، وهو إهلاكُ كثيرٍ منَ الجنِّ والإنسِ.

دَلالةُ (اللّام)، في قولِه: ﴿لِجَهَنَّمَ﴾:

التَّعليلُ يدفعُ اعتقادَ الجَبْرِ في الله

اللّامُ للصَّيْرورةِ والعاقبةِ، كقولِه تعالى: ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ [القصص: 8] أو للعلّةِ، أي: لأجْلِ الأفعالِ المُفضِيةِ لجهنّمَ عن طريقِ المجازِ المرسَلِ؛ أي: استعملَ (جهنَّم) وأراد المُسبِّبَ لدُخولِها[1]، والمرادُ بالكثيرِ: الذين حقّتْ عليهمُ الكلمةُ الأزليّةُ بالشّقاوةِ، لِعلْمِه ﷻ بأنّهم لا يَصْرِفون اخْتِيارَهم نحو الحقِّ أبدًا، بل يُصِرُّون على الباطلِ من غيرِ صارفٍ يَلْوِيهم، ولا عاطفٍ يَثْنِيهم عنِ الآياتِ والنُّذُرِ.

بَلاغةُ اسْتِخدام المجازِ المرسَلِ، في قولِه: ﴿لِجَهَنَّمَ﴾:

ذكرُ المُسبِّبِ أَشدُّ تخويفًا من ذكْرِ السّببِ

ذكرَ المسبِّبَ وهو (جهنَّم) وأراد السَّبَبَ؛ فـ "جهنّمُ مُستعمَلةٌ هنا في الأفعالِ المُوجبةِ لها بعلاقةِ المسبّبيّةِ؛ لأنّهم خُلقُوا لأعمالِ الضّلالةِ المُفضيةِ إلى الكَوْنِ في جهنّمَ، ولم يُخلَقُوا لأجْلِ جهنَّمَ؛ لأنّ جهنّمَ لا يُقصدُ إيجادُ خلْقٍ لِتعميرِها"[2]؛ بناءً على قولِ مَنِ اعتبرَ اللّامَ هنا للتّعليلِ لا للعاقبةِ.

سِرُّ اخْتِيارِ (جهنّمَ)، في قولِه: ﴿لِجَهَنَّمَ﴾:

أهلُ الضَّلالِ يَستحقُّونَ أَسْوأَ الأماكنِ

اُسْتُعملت كلمةُ (جهنَّمَ) في قولِه تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ﴾ دون غيرِها كالنّارِ أوِ الجحيمِ؛ لأنها اسْمُ عَلَمٍ على النّارِ، تشملُ كلَّ ما وُصفت به النّارُ في القرآنِ الكريمِ، وهي أكثرُ الأسماءِ ورودًا في

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 182/9.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 182/9.

القرآن، فقد وردت سبعًا وسبعين مرّةً، فهي الهاويةُ التي لا يُدرَكُ قعرُها، قال ﷺ: «يهوِي بها في جهنَّمَ سبعين خريفًا»[1]، والمسْتعرةُ: ﴿وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ۝٥٥﴾ [النساء: 55]، والمرصادُ: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ۝٢١﴾ [النبأ: 21]، والمحيطةُ بالكافرين: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ۝٤٩﴾ [التوبة: 49]، وبئسَ المِهادُ: ﴿وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ۝١٢﴾ [آل عمران: 12]؛ أي: بئسَ المُستقرُّ. وكلمةُ جهنّمَ – من النّاحيةِ الصّوتيّةِ– أخوفُ وأشدُّ وقْعًا على النّفْس؛ فإنَّ الجيمَ تُعبّرُ عن هَيكلٍ غيرِ مُصْمَتٍ، والهاءَ عن فراغِ جوْفِه، والنونَ عنِ امتدادِ ذلك الفراغِ في الباطنِ، والميمَ عن تضَامِّها واستوائِها على ذلك بقيامِ هيكلِها هكذا، أو بأنَّ عُمقَها الشديدَ جدًّا يُبْرِزُ تَضامَّ ظاهرِها على جوْفِها، أو على ما يُلْقَى فيها"[2].

بَلاغةُ تقديمِ المجرو على المفعولِ:

تَقْديمُ المخوَّفِ به أولَى بمقامِ التّرهِيبِ

في قولِه تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا﴾ قدم المجرور ﴿لِجَهَنَّمَ﴾ على المفعول ﴿كَثِيرًا﴾؛ ليَظْهرَ تعلُّقُه بـ﴿ذَرَأْنَا﴾، ولِما في توابعِ الفعْلِ (ذرأ) من نوعِ طُولٍ يُؤدّي توسيطُهُ ﴿لِجَهَنَّمَ﴾ بينهما وتأخيرُه عنها إلى الإخلالِ بجزالة النَّظْمِ الكريم[3].

دَلالةُ اخْتِيارِ كلمةِ ﴿كَثِيرًا﴾، وتَنكيرِها دونَ غيرِها:

كثرةُ أهْلِ النّارِ لا تَستلزمُ قِلّةَ أهْلِ الجنّةِ

التّعبيرُ بكلمةِ ﴿كَثِيرًا﴾، فلم يقل: (ذرأنا لجهنّم الكثيرَ)، إمّا أن تُشيرَ إلى أنّ المُستحقِّين للنّار أكثرُ منَ المستحقِّين للجنَّة[4]، ويُقوِّيه قولُ النّبيِّ ﷺ: «قال اللّه لآدم: أخرج بعْثَ النّار؛ فأخرجْ من كلّ

(1) ابن ماجه، سنن ابن ماجه، كتاب الفتن، باب كف اللسان في الفتنة، الحديث رقم: (3970)، والترمذي، السنن، الحديث رقم: (2314)، وأصل الحديث في صحيحي البخاري، الحديث رقم: (6477)، ومسلم، الحديث رقم: (2988).

(2) جبل، المعجم الاشتقاقي: (جهنم).

(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 295/3.

(4) ابن عطية، المحرر الوجيز: 479/2.

ألفٍ تسعةً وتسعينَ وتِسعمائة»[1]، وإمَّا أنَّ التّنكيرَ لا يُشْعرُ بالأكثرِ ولا يُوحِي به، ولكنْ يدلُّ عليه الحديثُ المذكورُ[2]؛ فـ"كلمةُ كثيرٍ لا تعني أنّ المقابلَ قليلٌ، فقد يكونُ الشّيءُ كثيرًا ومُقابلُه أيضًا كثيرٌ، والحقُّ ﷻ يقول في كتابه الكريم: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ﴾ [الحج: 18]"[3].

سِرُّ حذْفِ الموصوفِ وإقامةِ الصِّفةِ مَقامَه:

العِنايةُ بالعَددِ تَكثيرٌ وتَفخيمٌ

تَقْديرُ الجُملةِ: (ولقد ذرأنا خلقًا كثيرًا)؛ لأنّ المذكورَ بعدَ الوصْفِ ﴿مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ﴾ دالٌّ على الموصوفِ (خلقًا)، فكان في الحذْفِ منَ الإيجازِ من جهةٍ، ومنَ التّكثيرِ من جهةٍ أُخرَى ما رجّحَ الحذْفَ على الذِّكْرِ.

دَلالةُ ﴿مِّنَ﴾ في قولِه: ﴿مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ﴾:

بيانُ الأنواعِ تهويلٌ للكَثْرةِ

﴿مِّنَ﴾ في قولِه تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ﴾ بيانيّةٌ؛ يُبيّنُ ما بعدَها جنْسَ ما قبْلَها، إذ إنّها سُبقت بنكرةٍ ﴿كَثِيرًا﴾ فتحتاجُ إلى بيانٍ، كما قيل: "النّكرةُ في أوّلِ وضْعِها مُحتاجةٌ لإبهامِها إلى وصْفِها"[4].

بَلاغةُ تَقْديمِ ﴿ٱلْجِنِّ﴾ على ﴿وَٱلْإِنسِ ۖ﴾:

الجِنُّ أقدمُ خَلْقًا، وأكثرُ غَوايةً

قُدِّم ذكرُ الجنّ على الإنس؛ لأنَّ الجنَّ أقدمُ خَلْقًا، وأكثرُ عددًا، وأسبقُ غَوايةً، كما أنَّ في التّقْديم تناسُبًا مع السّياق، قال تعالى: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ۖ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾﴾ [الأعراف: 12]، وتناسبًا كذلك مع كون بدْءِ إبليسَ

(1) البخاري، الجامع الصحيح، الحديث رقم: (3170).
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 228/5.
(3) الشعراوي، تفسير الشّعراوي: 4474/7، وأبو حيان، البحر المحيط: 4474/7.
(4) ابن جني، المحتسب: 289/2، وقد ذكر المعربون على سبيل التقريب أنّ الجُملَ بعد المعارف أحوالٌ وبعد النّكراتِ صفاتٌ.

بالمعصيةِ، وكونِه سببَ الغَوايةِ، وتوعُّدِه بإغواءِ آدمَ، وقيامِه بذلك هو وذرِّيتُه[1].

وفي تقديم الجِنِّ على الإنسِ مناسبةُ ترتيبٍ لمفردةِ ﴿ذَرَأْنَا﴾ أي: خلقْنا وكثَّرنا، ومناسبةٌ لحالِ الجاهليّةِ من تعْظيمِهم الجِنَّ واستعاذتِهم بهم وعبادتِهم، قال تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ۝٦﴾ [الجن: 6]، فناسبَ البدءُ بعِقابِهم توبيخًا لعابِدِيهم[2]، ولِعادةِ القرآنِ، حيثُ قُدّمتِ الجِنُّ على الإنسِ في كلِّ القرآنِ باسْتِثناءِ سورةِ الأنعامِ في قولِه تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ۝١١٢﴾ [الأنعام: 122]؛ لكوْنِ عداوتِهم أشدَّ من عداوة الجنِّ، وسورةِ الإسراء في قوله: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ۝٨٨﴾ [الإسراء: 88]؛ مراعاةً فيها لسِياقِ الحديثِ عن إعجازِ القرآنِ البلاغيِّ؛ فالإنسُ أفصحُ.

بَلاغةُ موقعِ الجُملةِ ممّا قبلَها في ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ﴾:

فُصِلَ قولُه تعالى: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ﴾ عمّا قبله؛ لوقوعِه اسْتِئنافًا بيانيًّا، فبيْنَ هذه الجُملةِ وما قبْلَها شِبْهُ كمالِ الاتّصالِ، وذلك أنّ قولَه تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ﴾ يبعثُ في نفْسِ السّامعين سُؤالاً، هو: ما لَهم رضُوا لأنفُسِهم بطريقِ جهنّم؟ قيل: ﴿لَهُمْ﴾[3].

التّعليلُ للمصائرِ يُبيّنُ العدْلَ الإلهيَّ

بَلاغةُ تقديمِ (القلوبِ) على (الأعيُنِ) و(الآذانِ):

في قوله تعالى: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ﴾ قدّمَ ذكْرَ القلوبِ على الأعيُنِ والآذانِ؛

القلوبُ مَجمعُ المُدْرَكاتِ، وبها يمتازُ الإنسانُ عنِ الأنعامِ

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 296/3.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 173/8.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 173/8.

مُراعاةً لمناسبةِ السّياقِ القريبِ الذي هو التّفكُّرُ والاعتبارُ بقصْدِ الانتفاعِ، ولذا بدأَ بالقلوبِ، ولأنّها الأنسبُ مع مُفردةِ ﴿يَفۡقَهُونَ﴾، فإنَّ غفْلةَ القلوبِ أخطرُ وأعظمُ، ولو تنبَّهتِ القلوبُ لتنبَّهتِ الأعيُنُ والآذانُ، وخاصّةً أنَّ السّورةَ تتحدّثُ عن أثَرِ الغفْلةِ على الحياةِ البشريّةِ، تَدلِّيًا منَ الأعلَى إلى الأدنَى؛ أي من أشرفِ ما خلَقَه اللّه في الإنسان وهو قلبُه مقَرُّ مُدركاتِه، الذي هو محلُّ نظَرِ اللّه سُبحانَه، ثمّ إلى آلاتِ الإدراكِ وهيَ الأعينُ والآذانُ[1].

سِرُّ تَقْديم (الأعيُنِ) على (الآذانِ):

البصرُ أعمُّ منَ السّمعِ، في مجالِ الإدراكِ والإستيعاب

في قوله تعالى: ﴿وَلَهُمۡ أَعۡيُنٞ لَّا يُبۡصِرُونَ بِهَا وَلَهُمۡ ءَاذَانٞ لَّا يَسۡمَعُونَ بِهَآۚ﴾ قدّمَ البصرَ على السّمْعِ؛ لأنّ البصرَ أعمُّ منَ السّمْعِ، إذ ينتفعُ به الصّغيرُ الذي قد يسمعُ القولَ ولا يَفهمُه، وكذا كلُّ مَنْ في حكمِه، وليس الخبرُ كالمُعاينةِ، وخاصّةً أنّ السّياقَ هنا للتّفكُّرِ؛ أي: في مجالِ الانتفاعِ[2]؛ وليس في تقديمِ الأعيُنِ على الآذانِ مُخالفةٌ لما جرَى عليه اصطلاحُ القرآنِ من تقديمِ السّمْعِ على البصَرِ لتشريفِ السّمْعِ، كما في قولِه تعالى: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞۖ﴾ [البقرة: 7][3] كما أتى بالفعلِ في حيّزِ النّفْيِ وهو يعمُّ مثلَ النّكرةِ، فهذا عامٌّ أُريدَ به الخصوصُ للمبالغةِ؛ أي: عدَّ غيرَه عدَمًا؛ لأنه لم ينفعْهُمُ النّفعَ المقصودَ في الحقيقةِ.

وَجْهُ حذْفِ المفعول به، في مَقامِ الفِقهِ والبَصرِ والسَّمْعِ:

العُمومُ يُفْصحُ عن كُنْهِ حالِهم، والتّخصيصُ يُخلُّ بالإفصَاحِ

ذِكرُ المفعول به يُؤدّي إلى تخصيصِهم بأمْرٍ واحدٍ؛ من عدمِ فقْهِ الحقِّ أو عدمِ إبصَارِ الآياتِ التّكوينيّةِ أو عدَمِ سماعِ الآياتِ التّنزيليّةِ، وهذا مُخِلٌّ بالإفصاحِ عن كُنْهِ حالِهم؛ لذا حُذفَ المفعولُ في قوله

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 184/9.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 173/8.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 184/9.

تعالى: ﴿لَّا يَفۡقَهُونَ بِهَا﴾، ﴿لَّا يُبۡصِرُونَ بِهَا﴾، ﴿لَّا يَسۡمَعُونَ بِهَآۚ﴾؛ إذ هم لا يفقهون ولا يُبصرون ولا يسمعون شيئًا سمعَ تدبُّرٍ واتِّعاظٍ، فيكونُ المعنى: لهم قلوبٌ ليس من شأنِها أن يَفْقهُوا بها شيئًا ممّا من شأنِه أن يُفْقَهَ، فيَدخلُ فيه ما يليقُ بالمقام منَ الحقِّ ودلائلِه دُخولًا أوَّليًّا، وكذلك لهم أعينٌ لا يُبصرون بها شيئًا منَ المُبصراتِ، فيندرجُ فيه الشّواهدُ التَّكوينيّةُ الدّالّةُ على الحقِّ اندراجًا أوَّليًّا، ولهم آذانٌ لا يسمعون بها أيَّ شَيءٍ منَ المسموعاتِ، فيتناولُ الآياتِ التّنزيليّةَ تناوُلًا أوليًّا[1].

نُكتةُ الإطنابِ بإعادةِ الخبر (لهم)، مع القلوبِ والأعيُنِ والآذانِ:

تثبيتٌ وتقريرٌ للمعنى، لإعراضِهم عنِ التّدبُّرِ والاتِّعاظِ

يصحُّ الكلامُ بأن يقال: (وأعين لا يبصرون بها وآذان لا يسمعون بها)، ولكنَّ البيانَ الإلهيَّ عدلَ عن هذا النّظْم، وأعادَ الخبرَ في الجُملتيْن المعطوفتَيْن، فقال: ﴿وَلَهُمۡ أَعۡيُنٞ لَّا يُبۡصِرُونَ بِهَا وَلَهُمۡ ءَاذَانٞ لَّا يَسۡمَعُونَ بِهَآۚ﴾، وحِكمةُ ذلك: تقريرُ سُوءِ حالِهم؛ فإنَّ الجُملةَ الاسميّةَ تُفيدُ الثُّبوتَ والدَّوامَ، فهو إعراضٌ دائمٌ عنِ التّدبُّرِ والاتّعاظِ، لا شكَّ فيه ولا انقطاعَ له[2].

بَلاغةُ الإطنابِ بإثباتِ آلاتِ الإدراك ونفْيِها:

امْتلاكُ الحواسِّ وعدمُ إعمالِها، إعدامٌ لوجودِها

يصحُّ أن يقال: (ليس لهم قلوب يفقهون بها ولا أعين يبصرون بها ولا آذان يسمعون بها)، ولكنَّه عدلَ عن ذلك فقال تعالى: ﴿لَهُمۡ قُلُوبٞ لَّا يَفۡقَهُونَ بِهَا وَلَهُمۡ أَعۡيُنٞ لَّا يُبۡصِرُونَ بِهَا وَلَهُمۡ ءَاذَانٞ لَّا يَسۡمَعُونَ بِهَآۚ﴾؛ ليُثبتَ لهم أدواتِ المشاعرِ الثلاثِ (القلبِ والعينِ والأذنِ)، وليصفَها بعدمِ الشُّعورِ، دون سلْبِها عنهم ابتداءً، لما في ذلك منَ الشَّهادةِ بكمالِ رُسوخِهم في الجهلِ والغَوايةِ[3].

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 295/3.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 295/3.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 295/3، والآلوسيّ، روح المعاني: 112/5.

دَلالةُ التَّعْبيرِ بآلاتِ التَّفكيرِ ثمّ نَفْيِها:

كُفران النِّعمِ الكِبارِ، يجعلُهم بمنزلةٍ أضَلَّ منَ الأنعامِ

عبّرَ البيانُ الإلهيُّ بآلاتِ الإدراكِ، فقال: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ﴾، ولم يقل: (كثيرا من الجن والإنس لا يفقهون ولا يبصرون ولا يسمعون)؛ لمناسبة اشْتراكِهم بهذه الآلاتِ مع الأنعامِ التي شُبِّهُوا بها في الغَفْلةِ.

ولِيدلَّ هذا النّظْمُ الشّريفُ الذي صرّح بنِعمِ آلاتِ التَّفكيرِ والتّدبُّرِ منَ القلوبِ والأعيُنِ والآذانِ، وبتعطِيلِهم لها على تأكيدِ كُفرانِ هذه النِّعمِ الكبارِ.

دَقيقةُ تعْبيرِه بالقلوبِ، بدَلَ الأفئِدةِ:

مُفردةُ القلوبِ أنسبُ لحالِ الغافلين أشْباهِ الأنعامِ

عبّرَ القرآنُ بالقلبِ دونَ الفؤادِ مناسبةً لحالِ الغافلِينَ المُصرّينَ على الكُفرِ؛ لأنَّ من معاني القلْبِ التّقلُّبَ بالأفكارِ والعُزومِ، بخلافِ الفؤادِ فإنَّ من معانيه الإعدادَ والتّوقّدَ والإنضاجَ بالرأيِ والفكرةِ والاتّجاهِ والمشاعِرِ، كما أنَّ القلْبَ يُطلقُ على المُضغةِ التي في الصّدرِ ويُطلقُ على العقْلِ، فلمَّا لم يَفقهُوا بقلوبِهم اقتصرتْ قلوبُهم على كونِها مُضغةً كقلوبِ الأنعامِ التي شُبّهوا بها، ومُناسبةً للسّياقِ الذي يُشبِّهُهم بالأنعامِ التي لم يَرِدْ في القرآنِ أن نُسبَ لها فؤادٌ.

وَجْهُ التّعْبيرِ بالقلوبِ بَدلَ العقولِ:

فقهُ القلوبِ هو إدراكٌ يَصْحبُه وِجدانٌ يَبعثُ على العمَلِ

استعملَ كلمةَ (القلوب) بدلَ (العقول) في قولِه تعالى: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾؛ لأنَّ القلْبَ يُستعملُ في أحدِ معانيه بمعنى العقْلِ، وهو في الوقتِ ذاتِه سببُ إمدادِ العقلِ بقوّةِ الإدراكِ، وذلك بما يراه الإنسانُ منِ انقباضٍ أوِ انشراحٍ حينَ الخوفِ والاشمئزازِ، أو حينَ السّرورِ والابتهاجِ، وقد اشتملَ لفْظُ القلْبِ في هذه الآيةِ على المعنيَيْنِ معًا؛ معنَى العقْلِ ومعنَى الوِجْدانِ الرُّوحيِّ الذي يسمّونَه أحيانًا (بالضّمير)، وهو محلُّ الحكْمِ

في أنواعِ المُدرَكاتِ والشّعورِ الوِجدانيِّ[1]، أمّا كلمةُ (العقل) فلا تُعطِي إلّا معنَى الإدراكِ.

معنَى الباءِ في عَوْدتِها على أدوات الإدراكِ الثّلاثِ:

تُحملُ الباءُ في قولِه تعالى: ﴿لَّا يَفۡقَهُونَ بِهَا﴾ ﴿لَّا يُبۡصِرُونَ بِهَا﴾ ﴿لَّا يَسۡمَعُونَ بِهَآۚ﴾ على أشهرِ معانيها، وهو الإلصاقُ والاسْتِعانةُ، بحيث يكونُ المعنى: لهم قلوبٌ ولهم أعينٌ ولهم آذانٌ مُلتصِقةٌ بهم لا تنفكُّ عنهم، ولكنّهم لم يَستعينُوا بها على الفهمِ والتأمّلِ والتّفكُّرِ، ولم يجعلُوها سببًا لهدايتِهم، والمرادُ من ذلك تأكيدُ أنّهم ليسُوا أهلًا للاهتداءِ على الرُّغمِ منِ التصاقِ الآلاتِ المحقِّقةِ للوصولِ إلى الهدايةِ بالدّلائلِ الكونيّةِ، والدّلائلِ السّماويّةِ بالكُتبِ المنزّلةِ وطريقُها السّمعُ، والدّلائلِ الإرشاديّةِ وطريقُها الرُّسُلُ، إلَّا أنّهم ليسوا أهلًا لهدايةِ الاسْتجابةِ.

تأكيدُ عدَمِ الانتفاعِ بهذه الأدواتِ رَغْمَ التّمكينِ والإنعامِ المُغْدَقِ

عِلَّةُ التَّعبيرِ بالفعْلِ المضارعِ، في مَقامِ الإدراك:

تفيدُ صِيغةُ المضارعِ في قوله تعالى: ﴿لَّا يَفۡقَهُونَ﴾ ﴿لَّا يُبۡصِرُونَ﴾ ﴿لَّا يَسۡمَعُونَ﴾ استمرارَ إصْرارِهم على الباطلِ، وعدمِ انْتفاعِهم بمداركِهم، باسْتِمرارِ تعطِيلِهم لآلاتِ التَّفكيرِ والتَّدبُّرِ منَ القلوبِ والأعيُنِ والآذانِ، وتَجدُّدَ هذا الإعراضُ والتّعطيلُ كلّما دعاهُم داعِي الحقِّ. والملحوظُ أنَّ الصِّيغةَ جاءت في مُهمّةِ الآلات بالمضارعِ؛ لما فيه منَ التَّجدُّدِ والاسْتِمرارِ، وكلُّ ذلك بيانٌ عن تجدُّدِ عدَمِ هدايتِهم.

استمراريةُ تعطِيلِهم لآلاتِ التَّفكيرِ والتّدبُّرِ، المُنْعَمِ بها عليهم

سِرُّ اخْتِيار (الإبصار) دونَ النَّظرِ أوِ الرُّؤيةِ:

استخدمَ القرآنُ البصرَ في قولِه: ﴿وَلَهُمۡ أَعۡيُنٞ لَّا يُبۡصِرُونَ بِهَا﴾، دونَ النّظرِ والرّؤيةِ البَصريّةِ؛ لأنَّ المعنى الذي يحمِلُه تعبيرُ (البصر) لا يقفُ عند ما تراه العينُ فقط، بل يمتدُّ ليَشملَ معانيَ

امْتلاكُ الأداةِ ليس دَليلَ الاهتِداءِ

(1) رشيد رضا، تفسير المنار: 420/9.

أبعدَ من ذلك وأعمقَ؛ منها وضوحُ الشّيءِ والعلمُ به، حتى ليقالُ للضّريرِ بصيرٌ لما له من قوّةِ بصيرةِ القلبِ[1]، فنجدُ أنَّ وظيفةَ العينِ المُقتصِرَةَ على النّظرِ والرُّؤيةِ سليمةٌ لقوله: ﴿وَلَهُمْ أَعْيُنٌ﴾، ولكنَّ اسْتِخدامَ هذه الأعيُنِ للتّأمّلِ والتّفكُّرِ والتّدبُّرِ، ومن ثَمّ الإيمانِ لم يحصُلْ عندهم؛ لأنّهم كما وصَفَهم اللّه: ﴿لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا﴾ الحقَّ.

نُكتةُ اخْتِيارِ آلاتِ الإدراك الثّلاثِ، دونَ بقيّةِ الأعضاءِ:

إذا فسَدتْ آلاتُ الإدراكِ، فلا خَيْرَ في سائرِ الأعضاءِ

اختارَ القرآنُ القلوبَ والأعينَ والآذانَ دونَ بقيّةِ الأعضاءِ؛ لأنّها آلاتُ الإدراكِ والعلمِ وَالْعِرْفَانِ، وَطُرُقُ الْهُدَى وَالْإِيمَانِ، وبها تتحصّلُ المنافعُ وتُدفعُ المضارُّ.

دقيقةُ التّعبيرِ باسْمِ الإشارةِ الدّالِّ على البُعدِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾:

الإشارةُ بالبعيدِ للتَّنبيهِ على تسفُّلِهم، واسْتغراقِهم في الغَفلةِ

استعملَ القرآنُ هنا اسْمَ الإشارة ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ في قولِه تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلۡأَنۡعَٰمِ﴾ وقولِه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ﴾؛ لإفادتِه التَّنبيهَ على زيادةِ تَمييزِهم بتلك الصّفاتِ، والتّقديرُ: (أولئك المنعوتون بتلك الصفات)[2]، واختارَ ما يُشارُ به إلى البعيدِ للدّلالةِ على بُعْدِ دَرْكتِهم في التَّسفُّلِ ومنزلَتِهم في الضَّلالِ، سواءً في تسويتِهم بالأنعامِ، أو جعْلِهم أضلَّ منَ الأنعامِ، أو اسْتِغراقِهم في الغفلةِ الكاملةِ.

بَلاغةُ موقعِ الجُملةِ الاسميّةِ ممّا قبْلَها:

الاسْتِئنافُ تأسيسُ معنًى جديدٍ، يُقوّي المعنَى السّابقَ

قولُه تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلۡأَنۡعَٰمِ﴾، نجد فيه ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ كلمةٌ مُستأنفةٌ، وابتدأ بها الكلامُ لتصويرِ فظاعةِ حالِهم ولتكونَ أدْعَى للسَّامعين[3]، إذِ الجُملةُ الاسميّةُ أقوَى وأثْبتُ منَ الفعليّةِ، وتكونُ كالتّأكيدِ له؛ إذ إنَّ وجْهَ الشَّبهِ مُدرَكٌ ممّا قبْلَه[4]، كما أنَّ من عواملِ اسْتِحقاقِ وجودِ المشبَّه به هنا ما يمهِّدُ له في الآية، وأنت ترى في هذا

(1) الفيروزباديّ، بصائر ذوي التمييز: 222/2.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 296/3.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 183/9.
(4) الآلوسيّ، روح المعاني: 112/5.

التّشبيهِ كيف مُهِّدَ له التّمهيدَ الصّالحَ؛ فجعلَ لهم قلوبًا لا يفقهون بها، وأعينًا لا يُبصرون بها، وآذانًا لا يَسمعون بها؛ ألا ترى نفسَك بعدئذٍ مَسوقًا إلى إنزالِهم منزلةَ البهائم[1]؟

بَراعةُ التّشبيهِ المُجمَلِ، في قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلۡأَنۡعَٰمِ﴾:

عدَمُ التّمْييزِ بين الحقِّ والباطلِ، يَجعلُهم في صُورةِ الأنعامِ العجْماءِ

أظهرَ التّشبيهُ المُجْملُ تصويرًا بالتَّجسيم؛ إذ شُبّهَ أهلُ النّارِ في صورةِ الأنعامِ من جهةِ عدمِ انتفاعِها بما ينتفعُ به العقلاءُ، فكأنَّ قلوبَهم وأعينَهم وآذانَهم قلوبُ الأنعامِ وأعينُها وآذانُها في أنّها لا تقيسُ الأشياءَ على أمثالها، ولا تنتفعُ ببعضِ الدّلائلِ العقليّةِ؛ فلا تعرفُ كثيرًا مما يُفضِي بها إلى سُوءِ العاقبةِ[2]، وقد مُهِّدَ لهذا التَّجسيمِ في الآيةِ حتى صار مُتوقَّعًا لدَى السّامعِ، وذلك بوصْفِ الكافرين بصفاتِ البهائمِ في عدمِ التّمْييزِ بين الحقِّ والباطلِ، وعدمِ الرّؤيةِ التي تميّزُ بين المَرئياتِ، وعدَمِ السّمعِ الذي يستجيبُ للحقِّ، فصار السّامعُ يرى من هذه الصِّفاتِ أشخاصًا في صورةِ بهائمَ، بل أضلَّ منها؛ إذ مُنِحُوا حواسَّ سليمةً، ولكنّهم عطَّلوها وأفسدوها[3].

معنَى (بل) في قوله: ﴿بَلۡ هُمۡ أَضَلُّۚ﴾:

من أُعطِيَ شيئًا من أدواتِ الإدراكِ، ولم ينتفعْ به، قد ضلَّ ضلالًا مبينًا

﴿بَلۡ﴾ حرفُ إضرابٍ، وهو هنا إضرابٌ انتقاليٌّ، يُفيدُ الانتقالَ والتّرقِّيَ في التّشبيه في الضَّلالِ وعدمِ الانتفاعِ بما يمكنُ الانتفاعُ به؛ ولما كان وجْهُ الشّبهِ المستفادُ من قولِه تعالى: ﴿كَٱلۡأَنۡعَٰمِ﴾ يؤولُ إلى معنَى الضَّلال، كان الارتقاءُ في التَّشبيه بطريقة اسْمِ التّفضيلِ في الضّلالِ. ووَجْهُ كونِهم أضلَّ منَ الأنعام: أنَّ الأنعامَ لا يبلغُ بها ضلالُها إلى إيقاعِها في مهاوِي الشّقاءِ الأبديِّ؛ لأنَّ لها إلهامًا غريزيًّا تتَّقِي به المهالكَ كالتّردِّي منَ الجبالِ، واجتنابِ أكْلِ ما فيه ضررُها،

(1) ياسوف، جماليات المفردة القرآنية، ص: 137.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 184/9.
(3) الزحيلي، التفسير المنير: 166/9.

وأنَّه قد خُلِقَ إدراكُها محدودًا لا يتجاوزُ ما خُلقتْ لأجلِه؛ فنقصانُ انتفاعِها بمشاعرِها ليس عن تقصيرٍ منها، فلا تكونُ بمحلِّ الملامةِ، وأمّا أهلُ الضّلالةِ فإنّهم حَجَروا أنفُسَهم عن مُدرَكاتِهم، بتقصيرٍ منهم وإعراضٍ عنِ النّظرِ والاستدلالِ؛ فهم أضلُّ سبيلًا منَ الأنعام[1]، ولأنّ الأنعامَ قد تستجيبُ مع ذلك لراعِيها إذا أبسَّ بها، وإن لم تفقَهْ كلامَه، بخلافِ هؤلاء المُعرضين غايةَ الإعراضِ، ولأنّها تفْقَهُ ما خُلقَت لهُ إمّا بطبْعِها وإمّا بتسخيرِها، بخلافِ الكافرِ، فإنّه إنّما خُلقَ ليعبدَ اللّه ويُوحّدَه، فكفرَ باللّه وأشركَ به[2].

فائِدةُ عدَمِ ذِكْرِ العاطفِ بين اسْمَي الإشارةِ:

الغَفلةُ بيانٌ لوجْهِ الضَّلالِ، ومسلكٌ للهَلكةِ والتِّيهِ

أفادَ عدَمُ ذكْرِ العاطفِ بين الجُملتَين من قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّۚ﴾، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ﴾ أنَّ الثّانيةَ جرتْ مجرَى التّوكيدِ أو عطْفِ البيانِ للأُولَى، "وجعل بعضُهم هذه الجُملةَ كالبيانِ للجُملةِ قبْلَها، لذا فُصِلت عنها"[3]، أي: "إنّهما متّفقان؛ لأنَّ التّسجيلَ عليهم بالغَفلةِ، وتشبيهَهم بالبهائمِ شيءٌ واحدٌ، فكانتِ الجُملةُ الثّانيةُ مُقرِّرةً لما في الأُولى"[4].

وجْهُ القصْرِ بأُسلوبِ تعريفِ طرفَيِ الجُملةِ، وضميرِ الفصْلِ ﴿هُمُ﴾:

الكَمالُ في الغَفلةِ أشدُّ الضَّلالِ

غرضُ القصْرِ في قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ﴾، توكيدُ الحُكمِ عليهم بالغَفلةِ، وإفادةُ الحصْرِ والاختصاصِ؛ فهمُ "الغافلون الكاملون في الغَفلةِ المستحِقُّون لأَنْ يُخصَّ بهم الاسْمُ ولا يُطلقَ على غيرِهم، كيف لا؟! وأنّهم لا يَعرفون من شُؤونِ اللّه ﷻ ولا من شُؤونِ ما سِواه شيئًا"[5] فيُشركون به سُبحانَه أصنامَهم التي لا تضرّ ولا تنفع!

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 184/9.
(2) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 514/3، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 3013/6.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 112/5.
(4) الزمخشري، الكشاف: 146/1.
(5) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 296/3.

نوعُ (ال) في كلمةِ ﴿ٱلۡغَٰفِلُونَ﴾:

تعمُّ كلَّ أنواعِ الغَفلةِ التي اتّصفُوا بها

تُفيدُ (أل) الاستغراقَ، وتُعرفُ عند المفسّرين بأل الكماليّةِ، أيْ: قد شملتِ الغَفلةُ كلَّ مداركهم: قلوبهم، وعقولِهم، وأبصارِهم، وأسماعِهم، واستبدَّت بهم كلُّ أنواعِ الغَفلةِ.

سِرُّ التّعبيرِ باسْمِ الفاعلِ ﴿ٱلۡغَٰفِلُونَ﴾:

الدّلالةُ على أنّهم همُ الكامِلون الدّائمُون المستمِرُّون في الغفْلةِ

عبّرَ باسْمِ الفاعلِ دون الفعْلِ (غَفَلوا)؛ للدّلالةِ على الثُّبوتِ والدَّوامِ والاستمرارِ في الغالبِ، وبدخول (أل) الكماليّةِ عليه تفيدُ العمومَ، أمّا التّعبيرُ بالماضي فلا يدلُّ على هذه المعاني، إذ إنّه يدلُّ على وقوعِ الحدَثِ قبل زمانِ التَّكَلُّمِ أو حدوثِه مُطلقًا.

سِرُّ التّعبيرِ بلفْظِ ﴿ٱلۡغَٰفِلُونَ﴾ دونَ (الضّالّون):

وضوحُ دلائلِ الإيمانِ مع الانصرافِ عن ملاحظتِها وإدراكِها هو عينُ الغَفْلةِ

عبّرَ البيانُ القرآنيُّ بالغفلةِ دونَ الضّلالِ في قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ﴾؛ لما فيها من زيادةِ معنًى يتناسبُ مع حال المُستحقِّين للنّارِ، وهو الانصرافُ عن ملاحظةِ الحقِّ وإدراكِهِ ومراقبتِهِ مع وضوحِ أدلّتِه في مجال الإدراكِ المستطاعِ للمخلوق[1]، أي: هي عدمُ الشّعورِ بما يحقُّ الشّعورُ به؛ فالإيمان أمرٌ بيّنٌ واضحٌ، يُعدُّ عدمُ الشّعورِ به غفلةً، وخاصّةً مع توافرِ آلاتِ الإدراك منَ القلوبِ والأعينِ والآذانِ[2]، أمَّا الضّلالُ فيقتصرُ على العُدولِ عن طريق الحقِّ، كما أنَّ ذكْرَ لفظِ الغفلةِ في الآية بعد ذكْرِ لفظِ (أضلّ) فيه تفنّنٌ في الفصاحةِ، وبُعدٌ عن التَّكرارِ فيما لو قال: (بل هم أضلُّ، أولئك هم الضّالون).

بَلاغةُ التَّذْييلِ التّعليليِّ، في خِتامِ الآيةِ:

الغفلةُ تَهوِي بكرامةِ الإنسانِ، منَ الإكرامِ، إلى ما دونَ منزلةِ الأنعامِ

ذيّلَ البيانُ الإلهيُّ بهذه الجملةِ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ﴾؛ ليزدادَ بها المعنَى اتِّضاحًا، وهو تأكيدُ تشْبيهِهم بالأنعامِ ووصْفِهم بأنهم

(1) الرّاغب، المفردات: (غفل).
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 185/9.

أضلُّ، وتعليلُ كونِهم أضلَّ منَ الأنعام ببلوغِهم حدَّ النّهايةِ في الغفلةِ، وذلك أنَّه قد يُظنُّ أنَّ ضلالَهم ربّما يكونُ سببُه عدمَ وجودِ مَنهجٍ أو نذيرٍ أو بشيرٍ، فجاء هذا التَّذييلُ التَّعليليُّ ليُبيِّنَ أنَّ ضلالَهم كان غفلةً منهم؛ إذِ الغفلةُ تكونُ عندما يكونُ الأمرُ بيِّنًا واضحًا، ويُغفَلُ عنه[1].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الذَرْءُ والخلْقُ:

الذَّرْءُ: أصلُ الذّرءِ هو الإظهارُ، وذرءُ الأشياءِ: خلْقُها وإظهارُها، وبثُّها ونشرُها وبذرُها وتفريقُها وتكثيرُها، وذَرَأَ الشّيءَ: كثّره، قيل: ومنه الذّرّيةُ[2].

الـــذَّرءُ هـو الإظهارُ والخلْقُ والنَّثرُ والتّفريقُ والـتّـكـثـيرُ، والخلْقُ الإبداعُ والتّقديرُ

وأمّا الخلقُ: فهو التّقديرُ؛ أي: إيجادُ الأشياءِ بتقديرٍ ونظامٍ لا جُزافًا[3]، ويُستعملُ في إبداعِ الشّيءِ من غيرِ أصلٍ ولا احْتذاءٍ، قال تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ [الأنعام: 1]، أي: أبدَعَهما، وليس الخلْقُ بمعنى الإبداعِ إلَّا للّه تعالى[4].

إذن: الذّرءُ والخلْقُ يشتركان في معنى الإظهارِ والإيجادِ، إلَّا أنَّ الذَّرءَ يتميّزُ عنِ الخلقِ بمعانٍ إضافيّةٍ هي البثُّ والنّشرُ والتّفريقُ والتّكثيرُ.

وسِرُّ اصطفاء ﴿ذَرَأْنَا﴾ دون (خلقنا) في السّياقِ هو أنَّ: الذَّرءَ نثرٌ وتفريقٌ، وهو أولَى بأهل جهنّمَ، والخلقُ إبداعٌ وليسُوا أهلًا له؛ إذ إنَّ الذَّرءَ عُبِّر به عن خلْقِ كثيرٍ منَ الجنّ والإنس لجهنَّم؛ لما فيه من فضْحِهم ونشْرِهم وبثِّهم ونثْرِهم وتفريقِهم بما يناسبُ إهانتَهم

(1) الشعراوي، تفسير الشّعراوي: 4480/7.

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (ذرأ)، والعسكري، الفروق اللغوية، ص: 138، والرّاغب، المفردات: (ذرأ)، والفيروزابادي، بصائر ذوي التمييز: 779/1.

(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (خلق)، والعسكري، الفروق اللغوية، ص: 136، والرّاغب، المفردات: (خلق).

(4) الفيروزابادي، بصائر ذوي التمييز: 566/2.

وإلقاءَهم في جهنّمَ، وهي نارٌ بعيدةُ القعرِ، وفي ذلك منَ العذابِ الحسّيِّ والنَّفسيِّ ما فيه. أمَّا الخلْقُ فهو تقديرُ الشّيءِ، وتهيئةُ مادّتِه ليكونَ كائنًا سويًّا[1]. فلم يَستخدِمْها القرآنُ إلَّا في كلِّ خلْقٍ فيه تكريمٌ: كقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ﴾ [الحشر: 24]، وقولِه: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١﴾ [العلق: 1]، ولذا استخدمَها في الآية الآتية: ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ﴾ في سياق الحديثِ عن تكريم البشريةِ بخلق أمّةِ الإجابةِ.

القلبُ والفؤادُ:

القلبُ مُضغةٌ في الصّدرِ، ومحلُّ المدرَكاتِ، والفؤادُ محلُّ إنضاجِ الرّأيِ أوِ الفِكرةِ أوِ الاتجّاهِ

القلبُ: خالصُ الشّيء وشريفُه (باطنُ الشيءِ ولُبُّه)، أو هو رَدُّ شَيءٍ من جِهةٍ إلى جِهةٍ، ومن ذلك: الجارحةُ، وهي المُضغةُ المعروفةُ التي في الصّدرِ؛ لأنها أهمُّ ما في الباطنِ وأقواهُ، ولأنّها تتقلّبُ بالأفكارِ والعُزومِ، وتُطلقُ على القوّةِ الباطنةِ وهي العقلُ؛ وهو محلُّ الحُكمِ في أنواعِ المُدرَكاتِ والشّعورِ الوِجدانيِّ والرّأيِ والتّفكيرِ[2]. وأمّا الفؤادُ: فمشتقٌّ من فَأَدَ، وهذا الأصلُ يدلُّ على حُمَّى وشِدّةِ حرارةٍ، واستعمالاتُ تركيبِه فيها معنى الإعدادِ والتّهيئةِ، والإنضاجِ، والتّحرّقِ والتّوقّدِ، وقيل: الفؤاد سُمّي بذلك لحرارتِه[3] و"القلبُ مُضغةٌ منَ الفؤاد معلّقةٌ بالنّياطِ، وبهذا جزمَ الواحديُّ وغيرُه، وقيل: الفؤادُ وعاءُ القلبِ أو داخلُه أو غشاؤُه، والقلبُ حبّتُه...وقيل: القلبُ أخصُّ منَ الفؤاد لحديث: «أتاكم أهل اليمن هم أرقُّ قلوبًا وألينُ أفئدةً»[4]، فوصفَ القلوبَ بالرّقّةِ والأفئدةَ باللِّينِ"[5].

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (خلق).

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قلب)، والعسكري، الفروق، ص: 161، والرّاغب، المفردات: (قلب)، والفيروزباديّ، بصائر ذوي التمييز: 288/4، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (قلب).

(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (فأد)، والفيروزباديّ، بصائر ذوي التمييز: 218/4، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (فأَد).

(4) البخاري، الجامع الصّحيح: (4388)، ومسلم، صحيح مسلم: (52)، وغيرهما، وينظر: الفيروزباديّ، بصائر ذوي التمييز: 218/4.

(5) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (فأد)، وينظر: الفيروزباديّ، بصائر ذوي التمييز: 288/4.

الفِقهُ والفهمُ:

الفقه: هو العلْمُ بالشّيء والفهمُ له والفطنةُ، والتّوصُّلُ إلى علْم غائبٍ بعلْم شاهدٍ، فهو أخصُّ من مُطلقِ العلْم، فمن لا يعرفُ منَ الأمور إلَّا ظواهرَها لا يُسمّى فقيهًا[1].

الفقهُ علْمٌ وفِطنةٌ، والفهمُ علْمٌ بالشّيءِ، وكلاهما إدراكٌ ومَعرفةٌ واستِنارةٌ

وأمّا الفهمُ: فمعرفةُ الشّيءِ والعلْمُ به، وقيل: الفهمُ هيْئةٌ للنّفسِ بها يتحقّقُ معانيَ ما يُحسنُ[2].إذن: الفقهُ يتميّزُ عنِ الفهم بدلالتِه على الفطنةِ بالإضافة إلى العلْم بالشّيء، فالفقهُ ليس مجرّدَ العلْم بالشّيء، بل فيه معنى الفِطنةِ وطولِ النّظرِ والتّأمّلِ وعمْقِ الاستيعابِ للجوانبِ الخفيّةِ والغامضةِ واستنباطِ المعاني والأدلّة[3]. وسِرُّ اختيارِ (الفقه) دونَ الفهمِ أوِ العلمِ فى قوله تعالى: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ أنَّ الفقهَ فيه معاني الفِطنةِ ودِقّةِ الفهمِ والتّعمّقِ في العلمِ، وقياسِ الغائبِ على الحاضرِ، والتّريّثِ والنّظرِ والتّأمُّلِ، وعمْقِ الاستيعابِ للجوانبِ الخفيّةِ والغامضةِ، واستنباطِ المعاني، فلا يقالُ للرّجلِ فقيهٌ حتى يبلغَ مبلغًا عظيمًا منَ العِلْمِ بالأحكامِ الشّرعيّةِ وطُرقِ استنباطِها والإحاطةِ الشّاملةِ بذلك مع فِطنةٍ وقُدرةٍ على التّأمّلِ وطُولِ النّظرِ[4]، والقرآنُ لم ينْفِ عنهم صِفةَ الفهْمِ، بل نفَى عنهمُ الفقهَ؛ لأنّهم أصحابُ عقولٍ وإدراكٍ إلا أنَّ أهواءَهم أعْمَتْهم عنِ الحقِّ وأضلَّتْهُم.

الغفلةُ والضَّلالُ:

الغافلون: من (غَفَل) وهو تركُ الشّيءِ سَهوًا أو عمْدًا، ويكونُ مِن انصرافِ الذِّهْن عن ملاحظتِه وعن إدراكِه ومراقبتِه، مع وجودِه أو

(1) ابن فارس، المقاييس، والرّاغب، المفردات: (فقه)، والفِيروزابادي، بصائر ذوي التمييز: 210/4، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (فقه).

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (فهم)، والفِيروزابادي، بصائر ذوي التّمييز: 222/4، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (فهم).

(3) الفِيروزابادي، بصائر ذوي التمييز: 210/4.

(4) ابن فارس، مقاييس اللغة، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (فقه)، (فهم).

وجودِ أدلّتهِ في مجال الإدراكِ المُستطاعِ للمخلوقِ، ومن قلّةِ التَّحفُّظِ والتّيقّظِ. والتّغافلُ والتّغفّلُ: تعمّدُ الغفلةِ.

الغفلةُ انصرافٌ عـنِ الـحـقّ مع وضـوحِ أدلّـتِـه، والضَّلالُ عُدولٌ عــنِ الـطّـريـقِ المستقيمِ

والضّالّون: من (ضلّ) وأصلُه ضَياعُ الشّيءِ وذَهابُه في غيرِ حقِّه، والضّلالُ ضدُّ الهُدَى، وهو العُدولُ عنِ الطريقِ المستقيم عمْدًا كان أو سهْوًا، يسيرًا كان أو كثيرًا، وصحَّ أن يُستعملَ لفظُ الضَّلالِ فيمن يكونُ منه خطأٌ ما، ولذلك نُسب الضَّلالُ إلى الأنبياء وإلى الكفار وإن كان بين الضّلالَيْن بَونٌ بعيدٌ[1].

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات: (غفل)، والفيروزباديّ، بصائر ذوي التمييز: 481/3 - 482، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (غفل).

﴿وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ فَٱدۡعُوهُ بِهَاۖ وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ أَسۡمَٰٓئِهِۦۚ سَيُجۡزَوۡنَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٨٠﴾ [الأعراف: 180]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

"لمّا وصفَ سُبحانَه المخلوقين لجهنَّمَ بقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ﴾ أمَرَ بعده بذكرِ الله تعالى فقال: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ فَٱدۡعُوهُ بِهَاۖ﴾، وهذا كالتّنبيهِ على أنّ المُوجبَ لدخولِ جهنَّم هو الغفلةُ عن ذكرِ الله، والمُخَلّصَ عن عذاب جهنّم هو ذكرُ الله تعالى"[1]، ولمّا ذكرَ سُبحانهُ أنّه ذرأَ كثيرًا منَ الجنِّ والإنس للنّار ذكرَ نوعًا منهم، وهم ﴿يُلۡحِدُونَ فِيٓ أَسۡمَٰٓئِهِۦۚ﴾ وهم أشدُّ الكفّارِ عتيًّا[2]. فلمّا بيّنَ الله أنّ أفظعَ أحوالِ المعدودين لِجهنّم هو حالُ إشراكِهم بالله غيرَه، وإبطالُهم لأخصِّ الصّفاتِ الإلهيّةِ، وهي صفةُ الوحدانيّةِ، عقبَ بتنبيه المسلمين للإقبالِ على دعاءِ الله بأسمائِه الدّالّةِ على عظيم صفاتِ الإلهيّةِ، والدّوامِ على ذلك، وأن يُعرِضُوا عن شَغَبِ المشركين المُلحِدين وجدالِهم في أسماء الله تعالى[3].

ذِكْرُ الله ودعاؤُه بأسمائِهِ الحُسنَى، سببُ الخلاصِ منَ الغفلة والعذابِ الأكبرِ والأدْنَى

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾: الحاء والسّين والنّون أصلٌ واحدٌ، فالحُسنُ ضدُّ القُبحِ، والحُسنى: مؤنّثُ الأحسن، أفعلُ تفضيلٍ، وهي التي تفضُلُ سِواها في الحُسنِ[4]، والمعنى أنَّ أسماءَ الله تعالى هي أحسنُ الأسماءِ وأجلُّها؛ لإنبائِها عن أحسنِ المعاني وأشرفِها، وقد بلغتْ أقصَى درجاتِ الحُسنِ والكمالِ؛ لأنّها صفاتُ المتّصفِ بكلِّ كمالٍ[5].

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 412/15، وأبو حيان، البحر المحيط: 230/5.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 230/5.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 185/9.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (حسن).
(5) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 296/3، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 3014/6.

2) ﴿فَٱدۡعُوهُ﴾: الدّال والعين والحرف المعتلُّ أصلٌ واحدٌ، وهو أن تُميلَ الشّيءَ إليك بصوتٍ وكلامٍ يكونُ منك، تقولُ دعوتُ أدعو دُعاءً، ودعاءُ اللّه يعني التّضرُّعَ إلى اللّه في طلبِ أمْرٍ، والدّعاءُ: العبادةُ؛ لأنَّ العبادةَ تقرُّبٌ إلى المعبودِ[1]، ومعنى ﴿فَٱدۡعُوهُ بِهَاۖ﴾ أي: سمُّوه ونادُوه بأسمائِه الحُسنى للثّناء عليه، أو للسّؤالِ وطلبِ الحاجاتِ؛ أي: اطلبُوا إليه بأسمائِه، كقولك: "يا اللّه" "يا رحمن" "يا مالك" وما أشْبهَ ذلك[2].

3) ﴿وَذَرُواْ﴾: وَذَرَ، يَذَرُ، والأمرُ منه: ذَرْ، وَذَرُوا: فعلُ أمرٍ لم يَردْ في اللّغة استعمالُ ماضِيه، ولا مصْدرِه، ولا يُستعملُ منه سوى المضارعِ والأمرِ، وهو بمعنى التّركِ والإهمالِ، تقول: ذَرْهُ؛ أي: دَعَهُ واتْرُكْه، ويقالُ: فلان يَذَرُ الشَّيءَ؛ أي: يقذِفُه لقلّةِ اعتدادِه به، وفيه معنى التّهديدِ والوعيدِ[3]، ومعنى ﴿وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ﴾؛ أي: اتْركوهم فلا تقيمُوا لقولِهم وزنًا، ولا تتّبعُوا ما يقولونَ، ولا تحاجُّوهم ولا تَعْرِضُوا لهم، ولا تُغلّبُوا أنفُسَكم في مجادلتِهم؛ وكلُّ ما في القرآن من هذا التّركيب فهو بمعنى التّرك[4].

4) ﴿يُلۡحِدُونَ﴾: اللام والحاء والدّال أصلٌ يدلّ على مَيْلٍ عنِ استقامةٍ، ولحدَ وألحدَ بمعنًى واحدٍ، يقال: ألحدَ الرَّجلُ إذا مال عن طريقة الحقِّ والإيمان، والإلحادُ: الميلُ عنِ الوسطِ حِسًّا أو معنًى، والأوّلُ هو الأصلُ فيه، والإلحادُ ضربان: إلحادٌ إلى الشّركِ باللّه، وإلحادٌ إلى الشّركِ بالأسبابِ، فالأوّلُ يُنافي الإيمانَ ويُبطِلُه، والثاني يُوهنُ عُراه ولا يُبطِلُه[5]، ومعنى إلحادِهم في أسمائه جعْلُها مَظهرًا من مظاهرِ الكُفرِ، وذلك بإنكارِ تسْميَتِه تعالى بالأسماءِ الدّالّةِ على صفاتٍ ثابتةٍ له، واشْتقاقِهم اسْمَ اللّاتِ منِ اسْم اللّه، واسْمَ العُزَّى منِ اسمِ العزيز، واسْمَ مَناةٍ منَ المنَّانِ، ونحوِ ذلك[6].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

خطابٌ للمسلمين يُرشدُهم لمنهجٍ قويمٍ في مواجهةِ الإلحادِ في دين اللّه؛ وهو الانحرافُ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (دعو).
(2) ابن العربي، أحكام القرآن: 351/2، والمراغي، تفسير المراغي: 116/9.
(3) الرّاغب، المفردات، والرازي، مختار الصحاح، ومجمع اللغة العربية، معجم ألفاظ القرآن، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (وذر).
(4) أبو حيان، البحر المحيط: 232/5، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 189/9، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 3015/6.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (لحد).
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 189/9، والشنقيطي، أضواء البيان: 45/2.

والتَّحريفُ المستمرُّ المتجدّدُ والذي أخذَ ويأخذُ صُورًا كثيرةً، أوّلُها وأفظعُها: إشراكُهم باللّه غيرَه؛ لأنَّ في ذلك إبطالًا لأخصِّ الصّفاتِ الإلهيّةِ وهي الوِحدانيّةُ، ومن ركائزِ هذا المنهجِ العلمُ بجلالِ صاحبِ هذا المنهجِ الذي له دون غيرِه الأسماءُ الحُسنى الدّالّةُ على كمالِ عظمَتِه، وكلُّ أسمائِه حُسْنَى وله الصّفاتُ العُلَى، والاستعانةُ بها ثناءً ودُعاءً وعبادةً؛ فإنّ أهمَّ ما يحمِيهم منَ الغفلةِ هو الدّوامُ على ذكْرِ اللّه بأسمائه الحُسنى، فإنَّ القلبَ إذا غفلَ عن ذكْرِ اللّه أقبلَ على الدُّنيا وشهواتِها، وإذا أقبلَ على الذِّكرِ تخلّصَ من نيرانِ الآفاتِ، ورِقِّ الشّهواتِ. والإعراضُ عن شَغَبِ المُنحرِفين المُحرِّفين، الذين يُغيِّرون في أسمائه بالزّيادةِ أوِ النُّقصانِ أوِ التّحريفِ، كأن يُسمَّى بها من لا يَستحقُّها، كتسميّةِ المشركين بها آلهتَهم، أو أن يجعلَ لها معنًى لم يُردْه اللّه ولا رسولُه، فلا تأبَهوا لما هم فيه منَ الإلحادِ، فإنَّ اللّه قد وعدَهم بأنَّه كافِيهم، وسوف يُجزَوْن جزاءً على أعمالِهم السّيئةِ التي كانوا يعملونَها في الدّنيا منَ الكفرِ باللّه، والإلحادِ في أسمائه[1].

أثَرُ الأسماءِ الحُسنى في النّأيِ عنِ الغفلةِ، وبيانِ منْهجِ الرّشادِ في مُواجهةِ الإلحادِ

وتُرشدُ الآيةُ إلى أدبِ دُعاءِ اللّه تعالى، فيُدْعى في كلِّ مطلوبٍ من أنواعِ أسماءِ اللّه بما يناسبُ ذلك المطلوبَ، فيقولُ الداعي - عند طلبِه المغفرةَ والتّوبةَ - مثلًا: اللّهم اغْفرِ لي وارحمْنِي، إنّك أنت الغفورُ الرّحيمُ، وتبْ عَلَيَّ يا توّابُ، ويقول - عند طلبِه الرّزقَ -: وارزقْنِي يا رزّاقُ، ونحوَ ذلك مما يناسبُ من أسماءِ اللّه مَقامَ دعائِه وموضُوعَه.

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

فائِدةُ القصْرِ بتقديمِ ما حقُّه التّأخيرُ، في مُفتتَحِ الآيةِ:

جاء القصْرُ في قولِه تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ بتقديمِ المُسنَد (للّه) على المُسنَد إليه ﴿ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾، مُثبتًا حصْرَ هذه

الأسماءُ الحُسنى، علاجٌ للقلوب، ووَصْلٌ بعلّامِ الغُيوبِ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 185/9، والمراغي، تفسيره: 117/9.

الأسماءِ باللّه سُبحانَه واختصاصَه بها، وتأكيدَ استحقاقِه إيّاها، الذي يُستفادُ كذلك منَ اللّام وهي لامُ الاستحقاقِ، والمعنى أنَّ اتِّسامَه بها أمرٌ ثابتٌ، فإذا أُطلقتِ الأسماءُ الحُسنى، فلا يُرادُ بها إلَّا اللّه؛ أي: لا يوجدُ لغيرِ اللّه اسمٌ يُوصفُ بأنّه منَ الحُسنى[1]، ففي التّقديمِ تأكيدٌ لاستحقاقِ الأسماءِ.

معنَى (الواوِ) في قولِه: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾:

بيانُ المزيدِ من أحوالِ المشركين

الواو عاطفةٌ، عطفتْ هذه الآيةَ على التي قبْلَها عطْفَ الأخبارِ عن أحوالِ المشركين وضَلالِهم[2].

دَلالةُ التّعبيرِ بالاسْمِ الأعْظَمِ:

ترسيخُ معنَى ارتباطِ الأسماءِ الحُسنَى بالذّاتِ الإلهيّةِ، ونَفْيِ العقائدِ الضّلاليّةِ

ناسبَ أن يجيءَ التَّعبيرُ القرآنيُّ بلفظِ الجلالةِ في قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ دونَ الضّميرِ، بخلافِ قولِه تعالى: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدۡعُواْ ٱلرَّحۡمَٰنَۖ أَيّٗا مَّا تَدۡعُواْ فَلَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ﴾ [الإسراء: 110]، وقولِه تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ ٨﴾ [طه: 8]، وقولِه تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلۡخَٰلِقُ ٱلۡبَارِئُ ٱلۡمُصَوِّرُۖ لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ﴾ [الحشر: 24]؛ لاسْتِحضارِ المهابةِ في النّفسِ وتمكينِ معنَى الإحسانِ في عبادةِ اللّه تعالى، وإفرادِه في العبادةِ، والتّوصُّلِ بأسمائِه ﷻ إلى حقيقةِ الإيمان وتحقُّقِ الإحسانِ، وجاء تخصيصُ هذا الأُسلوبِ في سورةِ الأعرافِ دونَ غيرِها منَ السُّورِ مُتناسبًا مع ما قرّرتْه السّورةُ من معاني التَّوحيدِ، وبثِّ مهابةِ اللّه تعالى في النّفوسِ، ومواجهةِ الإلحادِ في دينِ اللّه تعالى.

سِرُّ التَّعبيرِ بالأسماءِ الحُسنَى دونَ الصِّفاتِ:

عبّرَ القرآنُ بالأسماءِ الحُسنَى دونَ الصّفاتِ؛ لأنَّ الاسْمَ يدلُّ على أمرَيْن، والصّفةَ تدلُّ على أمْرٍ واحدٍ؛ فالأسماءُ الحُسنى هي

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 186/9.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 186/9.

كلُّ ما دلَّ على ذاتِ اللّه بالتّخصيصِ أو بالغلبةِ مع صِفاتِ الكمالِ القائمةِ به، مثل: الحكيمِ والعليمِ والسّميعِ، فهي تدلُّ على ذاتِ اللّه، وما قام به منَ الحِكمةِ والعلْمِ والسّمعِ والبصَرِ، وأمّا الصّفاتُ فهي نعوتُ الكمالِ القائمةِ بذاتِ اللّه تعالى، كالحِكمةِ والعلْمِ والسّمعِ والبصَرِ، ولا سَبيلَ إلى مَعرفةِ اللّهِ إلَّا بمعرفةِ أسمائِه، والتفقُّهِ في فَهمِ مَعانيها، ومعرفةِ صِفاتِه، وقد اشتَمَل القُرآنُ من ذلك على ما لم يَشتَمِلْ عليه غيرُه، من تفاصيلِ ذلك، وتوضيحِها والتعَرُّفِ بها إلى عبادِه، وتعريفِهم لنَفْسِه؛ كي يَعرِفوه، فقد خَلَق اللّهُ الخَلْقَ لِيَعبُدوه ويَعرِفوه، فهذا هو الغايةُ المطلوبةُ منهم، فالاشتغالُ بذلك اشتغالٌ بما خُلِقَ له العَبدُ، وتَرْكُه وتضييعُه إهمالٌ لِما خُلِقَ له[1].

اتِّساعُ دَلالةِ (الأسماء الحُسنَى) لِما لا تتّسعُ له دَلالةُ (الصّفاتِ)

دَلالةُ لامِ الاسْتِحقاقِ، في قولِه: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ﴾:

استعمالُ لامِ الاسْتِحقاقِ - وهو معناها العامُّ؛ وهي الواقعةُ بين معنًى وذاتٍ - في قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ﴾ إشعارٌ بقصْرِ تلك الأسماءِ على اللّه ﷻ، وخاصّةً أنّه جاء مع تقديمِ الاسْمِ الجليلِ "اللّه".

اللّهُ وحده له الأسماءُ الكاملةُ في الحُسنِ، المعبّرةُ عنِ الجلالِ والجمالِ

معنَى (أل) الاستغراقيّةِ في ﴿ٱلۡأَسۡمَآءُ﴾:

تعريفُ الأسماء بـ: "أل" الجنسيّةِ الاستغراقيّةِ مُشعرٌ باختصاصِ اللّه ﷻ، بكل اسْمٍ كريمٍ، سمَّى به نفْسَه أو سمّاه به رسولُه صلّى اللّه عليه وعلى آله وسلّم، فالبابُ غيبيٌّ توقيفيٌّ، لا دخْلَ للعقلِ فيه إلَّا الاتِّباعُ والتّسليمُ، إذ كيف تدركُ العقولُ كُنهَ صفةِ الرّبِ ﷻ؛ فله منَ الكمالِ أعلاه، فلا يَشركُه فيه سِواه.

اللّهُ لهُ منَ الكمالِ أعلاهُ، فلا يَشركُه فيه أحدٌ سواه

سِرُّ اخْتِيارِ كلمةِ ﴿ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾:

قوله تعالى: ﴿ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ مؤنَّث (الأحْسن)، وهي صِيغةُ تفضيلٍ مُحلّاةٌ بـ: "أل" فهي مَظِنّةُ التّخصيصِ، فله وحدَه الأسماءُ الحُسنى، التي بلغتْ غايةَ الحُسنِ، إذِ التّفضيلُ مَظِنّةُ العهْدِ، فـ: "أل" في هذا

اللّه مُتّصفٌ بالحُسنِ الكاملِ في ذاتِه، وأسماؤُه مُنبئةٌ عن أحْسنِ المعاني

(1) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 35.

السّياقِ عهديّةٌ تشيرُ إلى أسماءٍ بعينِها اختصَّ بها مُسمًّى بعينِه فلا يَشركُه في كمالِها أحدٌ، كما قرّرَ البلاغيّون، فهي أحسنُ الأسماءِ وأجلُّها، ولإنبائِها عن أحْسنِ المعاني وأشرفِها في صلاحيّةِ الألوهيّةِ لها، وصلاحيّتِها للألوهيّةِ، لذا "كان اتِّصافُ المخلوقِ بها مَنشَأَ فسادٍ في الأرضِ، وكان اتّصافُ الخالقِ بها منشأَ صَلاحٍ؛ لأنّها مصدرُ العدالةِ والجزاءِ القِسْطِ"[1]، كما أنَّ من أسبابِ وصْفِها بالحُسنى موافقَتَها للسّياقِ الذي هو التّفكّرُ والتّدبّرُ، وأكثرُ ما وردَ (الحُسنى) في القرآن للمُستحْسنِ بالبصيرةِ[2]. فاللّهُ له الأسماءُ الحسنى، أي: له كلُّ اسْمٍ حسنٍ، وضابطُه: أنّه كلُّ اسْم دالٍّ على صفةِ كمالٍ عظيمةٍ، وبذلك كانت حُسنَى، فإنها لو دلَّت على غير صِفةٍ، بل كانت عَلَمًا محْضًا لم تكنْ حُسنى، وكذلك لو دلَّتْ على صفةٍ ليست بصِفةِ كمالٍ، بل إمّا صِفةُ نقصٍ أو صفةٌ مُنقسمةٌ إلى المدْحِ والقدْحِ، لم تكنْ حُسنى كذلك، فكلُّ اسْم من أسمائِه تعالى دالٌّ على جميع الصّفةِ التي اشتُقَّ منها، مستغرقٌ لجميعِ معناهَا[3].

معنَى (الفاءِ)، في قولِه: ﴿فَٱدۡعُوهُ بِهَاۖ﴾:

الفاءُ التّفريعيّةُ تفصِّلُ ما قبْلَها من كلامٍ مُجمَلٍ، وهي في قوله تعالى: ﴿فَٱدۡعُوهُ بِهَاۖ﴾ تفريعيّةٌ، أي: المعنى تفريعٌ عن كونِها أسماءَ له، وعن كونِها حُسنى، أي: فلا حرجَ في دعائِه بها؛ لأنّها أسماءٌ متعدّدةٌ لمسمًّى واحدٍ، لا كما يزعمُ المشركون، ولأنّها حُسنى فلا ضيْرَ في دعاءِ اللّه تعالى بها، وذلك يشيرُ إلى أنَّ اللّه يُدعَى بكلِّ ما دلَّ على صفاتِه وعلى أفعالِه[4].

هي أسماءٌ حُسنى، فادعوا اللّه بكلِّ ما دلَّ على صفاتِه وعلى أفعالِه

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 187/9.
(2) السمين الحلبي، عمدة الحفاظ: 410/1، 15/2، 14، 13.
(3) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 174.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 187/9، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 3015/6.

دَلالةُ الأمْرِ في قولِه: ﴿فَٱدۡعُوهُ بِهَاۖ﴾:

مقامُ العظَمةِ يَستدعِي أن يكونَ الفعْلُ أمْرًا

عبَّرَ بفعلِ الأمرِ دون غيرِه هنا؛ لأنَّ مقامَ العظَمةِ الذي تجلَّتْ به الآياتُ يَستدعِي ذلك، والأمرُ هنا حقيقيٌّ على بابِه، وهو طلبُ حُصولِ الشّيءِ على وجْهِ الاستعلاءِ، أي: منَ الأعلَى إلى الأدنَى.

وجْهُ اختِيارِ (الواوِ)، في قوله: ﴿وَذَرُواْ﴾:

من كَمالِ تَوْحيدِ اللهِ والْتزامِ منْهجِه، الإعراضُ عن شَغَبِ المنْحرِفين المحَرِّفين

عبَّرَ البيانُ الإلهيُّ هنا بحرفِ العطْفِ الواو دونَ غيرِها من حروفِ العطْفِ؛ لِما لهذا العطْفِ من توْجيهِ المعنَى، وهو أنّه في الوقتِ الذي تدْعونَ اللّه بأسمائِه الحُسنى تَذَرون الذين يُلحِدون في أسمائه، الذين يميلون عنِ الحقّ في هذه الأسماءِ بجعْلِها لغيرِ اللّه، أو نفْيِها عنه، أو تحريفِ معناها أو تشبيهِ غيرِه بها، فأنتم تدَعُونَهم دون أيِّ تأخيرٍ أو ترتيبٍ. وأنّه لا يمكنُ أن ينْفكَّ دعاؤكم اللّه عن تركِكُم وتجنُّبِكم وعدمِ اكتراثِكم بإلحادِ الملحِدين.

بَلاغةُ الاسْتعارةِ في قولِه: ﴿يُلۡحِدُونَ﴾:

تشبيهُ الكافرين بمَن يَميلُونَ ويَنْحرِفونَ

شبّه الكفرَ والإفسادَ بالإلحادِ، والإلحادُ هو: الميلُ عن وسَطِ الشّيءِ إلى جانبِه، ولمّا كان وسَطُ الشّيءِ يُشبّهُ به الحقُّ والصّوابُ، أُطلِقَ الإلحادُ على الكُفرِ والإفسادِ، وعُدّي بـ(في) لتنزيلِ المجرورِ بها منزلةَ المكانِ للإلحادِ[1]. فالاستعارةُ في هذا السّياقِ تُشيرُ إلى أولئك الذين يَنحرِفون عنِ استخدامِ أسماءِ اللّه بالطريقةِ المناسِبةِ، مثل إطلاقِ اسْمَي (اللّات) و(العُزَّى) على أصنامِ المشركين، وهي أسماءٌ مشتقّةٌ من أسماءِ اللّه تعالى: (اللّه) و(العزيز).

سِرُّ التّعبيرِ بالموصولِ ﴿ٱلَّذِينَ﴾:

جُملةُ الصِّلةِ كاشفةٌ عن سببِ الأمْرِ (وَذَرُوا)

المرادُ بالموصولِ في قولِه سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ أَسۡمَٰٓئِهِۦۚ﴾ قومٌ معهودون، وهمُ المذكورون في قولِه تعالى: ﴿وَلَقَدۡ ذَرَأۡنَا لِجَهَنَّمَ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 189/9.

كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾، ولم يقل النّظْمُ: (الملحدين في أسمائه)، بل عرَّفه بالاسْمِ الموصولِ: ﴿ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ﴾؛ للإيماءِ إلى وجْهِ استحقاقِهم للنّبذِ والتّركِ والإعراضِ عنهم، وهو الإلحادُ في دينِ اللّه، فتحريفُهم دليلٌ أكيدٌ على أنّهم لم يَستمعُوا سماعَ طالبٍ للحقِّ، كما أنّها تشيرُ إلى أنَّ أدنَى إلحادٍ في دِين اللّه ينطبقُ عليه حكمُ الآيةِ، وليس بالضّرورةِ أن يكونَ راسخًا في الإلحادِ، وهذا المعنى لايتأتَّى إلا بذكْرِ جملةِ الصّلةِ.

نُكتةُ جمْعِ صِلةِ الموصول، في قولِه: ﴿ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ﴾:

المستحقُّون للنّارِ فريقٌ اتّفقَ على الإلحادِ، ومُنابذةِ الإسلامِ

في إيرادِ الاسْمِ الموصولِ جمعًا: ﴿ٱلَّذِينَ﴾ إشارةٌ إلى أنّهم فريقٌ اجتمعَ على الإلحادِ في دينِ اللّه، واتّفقَ على ذلك، وزيّنَ بعضُهم لبعضِهم الآخرِ ذلك، وقد بيَّنتِ الآياتُ السّابقةُ اجتماعَهم على الغفلةِ والضّلالِ والباطلِ: ﴿ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴿١٧٧﴾﴾ [الأعراف: 176، 177] و﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾﴾ [الأعراف: 179].

سِرُّ التّعبيرِ بالمضارعِ، في قولِه: ﴿يُلْحِدُونَ﴾:

استمراريّةُ الانحرافِ عنِ الحقّ وتجدُّدِه

تُفيدُ صِيغةُ المضارعِ استمرارَ الإلحادِ في دينِ اللّه، وتجدُّدَ صُوَرِه في كلِّ زمانٍ ومكانٍ، وأنّها لا تقتصرُ على الصّورةِ التي كانت في زمانِه ﷺ منَ الإلحادِ في أسماءِ اللّه بتحريفِها اللّفظيِّ إلى الآلهةِ المُدَّعاةِ، وإنّما تنسحبُ على الذين يُلحدون؛ أي: يُحرّفون أو يَنحرِفون في تصَوُّرِهم لحقيقةِ الألوهيّةِ على الإطلاقِ، كالذين

يدَّعُون له الولدَ، وكالذين يدَّعون أنّ مشيئَته سبحانه مُقيَّدةٌ بنواميسِ الطّبيعةِ الكونيّةِ! وكذلك مَن يدّعُون أنه سبحانه إلهٌ في السّماء؛ أي: في تصريفِ نظامِ الكوْنِ، ولكنَّه ليس إلهًا في الأرضِ، ولا في حياةِ النّاسِ، إنَّما النَّاسُ همُ الذين يُشرّعون لأنفُسِهم بعقولِهم وتجاربِهم ومصالِحِهم؛ وكلُّه إلحادٌ في اللّه وأسمائِه وصفاتِه وخصائصِ ألوهيّتِه.

بَلاغةُ اسْتِعمالِ حرْفِ الظّرفيّةِ ﴿فِيٓ﴾:

حرفُ الوعاءِ ﴿فِيٓ﴾، من قولِه تعالى ﴿يُلۡحِدُونَ فِيٓ أَسۡمَٰٓئِهِۦۚ﴾ إمّا أن يدلَّ على الظّرفيّةِ كما هو شأنُه، ويكونُ المرادُ أنّهم مُنغمسون في الإلحاد تفصيلًا في أسمائِه الحُسنى وصفاتِه العُلَى، وليسُوا مُنكرين وجودَ اللّه فحسْبُ، وإمّا أن تكونَ ﴿فِيٓ﴾ فيها معنى السّببيةِ كما في قوله ﷺ: «عُذّبت امرأةٌ في هِرّةٍ سَجَنَتْها حتى ماتت»[1]، أي: بسببِ حبْسِ هرّةٍ، والدّلالتان غيرُ متعارضتين، فالوجهُ الأوّلُ لبيان صُورةِ الإلحادِ، والوجْهُ الثّاني لبيانِ أثرِه فيهم.

الكُفّارُ مُنغمِسون في إلحادِهم في دينِ الله، وهو سببُ دُخولِهم النّارَ

عِلَّةُ الإظْهارِ في قوله: ﴿فِيٓ أَسۡمَٰٓئِهِۦۚ﴾:

أظهرَ ﴿فِيٓ أَسۡمَٰٓئِهِۦۚ﴾ - وإن كان المقامُ مقامَ الإضْمارِ - بدلًا منَ الإضْمارِ بأن يقال: (يلحدون فيها)؛ لأنّه سبقَ ذكْرُ الأسماءِ؛ للإيذان بأنَّ إلحادَهم في نفْسِ الأسماءِ من غيرِ اعْتبارِ الوصْفِ[2]، والحكمةُ منَ الإظهارِ هنا مزيدُ التَّشنيعِ من فعْلِهم؛ إذ لا يَتصوّرُ عاقلٌ أن يُلحَدَ في أسماء اللّه، وبناءً على ذلك لا يكونُ المرادُ بالتّرك حينئذٍ: ﴿وَذَرُواْ﴾ الاجتنابَ عن ذلك؛ إذ لا يُتوهَّمُ صُدورُ مثلِ هذا الإلحادِ عنِ المؤمنين ليُؤمَرُوا بترْكِه، بل هو الإعراضُ عنهم وعدمُ المبالاةِ بما

التَّشنيعُ على الكفّارِ، يقتضِي إظْهارَ المُشنَّعِ به عليهم

(1) البخاري، الجامع الصحيح، الحديث رقم: (2365، 3482)، ومسلم، صحيح مسلم، الحديث رقم: (2242).

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 296/3.

فعلُوا؛ ترقُّبًا لنزولِ العقوبةِ بهم عن قريبٍ، كما هو المتبادَرُ من قولِه تعالى ﴿سَيُجۡزَوۡنَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾[1].

عِلَّةُ التَّعبيرِ بحرفِ (السّين):

تأكيدُ قُربِ وُقوعِ الوعيدِ، أنسبُ لِسياقِ التَّهديدِ

تُفيدُ السّينُ في قوله تعالى: ﴿سَيُجۡزَوۡنَ﴾ تأكيدَ وقوعِ حسابِه للمُلحِدين في دينِ اللّه في المستقبَلِ القريبِ، بما يُفيدُ تهديدًا لهم، فقد "هدَّد تعالى في هذه الآيةِ الذين يُلحِدون في أسمائِه بتهديدَيْن:... والثّاني: في قولِه: ﴿سَيُجۡزَوۡنَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾"[2].

بَلاغةُ التّعبيرِ بـ﴿مَا﴾:

التّعميمُ في المجزيِّ عليه، تخويفٌ للمُسيئينَ من عواقبِ السُّوءِ

استعملَ ﴿مَا﴾ في قولِه تعالى: ﴿سَيُجۡزَوۡنَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾، وهي موصولةٌ عامّةٌ؛ أي: سيُجزَون بجميعِ ما يعمَلونَه منَ الكُفرِ، ومن جملةِ ذلك: إلحادُهم في أسمائِه، واستخدمَ أعمَّ الموصولات وأدْخلَها في الإبهامِ، فلا تُغادرُ صغيرةً ولاكبيرةً، أدْخلُ في التّرهيبِ والوعيدِ.

بَلاغةُ حذْفِ الباءِ في الآيةِ:

عدْلُ اللّه مع العُصاةِ المُلحِدينَ، أنْ يُجازِيَهم بما كانوا يعملون

قولُه تعالى: ﴿سَيُجۡزَوۡنَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾، الأصلُ فيه، أن يقول: (سيجزون بما كانوا يعملون)[3]، ولكن حُذفتِ الباءُ لإشارةٍ بيانيّةٍ، وهيَ توافقُ الجزاءِ مع العملِ، حتى لكأنَّ الجزاءَ هو العمَلُ ذاتُه، لاتّحادِ السّببِ والمسَبّبِ، فكان جزاءً وِفَاقًا للعملِ لا يزيدُ عليه، قال تعالى: ﴿جَزَآءً وِفَاقًا ۝٢٦﴾ [عم: 26]، بل يغفرُ ﷻ برحمتِه[4]، لمن تابَ عن إلحادِه وأصلَحَ. وحِكمةُ هذا التّعبيرِ في سِياقِ الحديثِ عن أسمائِه ﷻ واضحةٌ فتأمَّلْ، فهو عدْلٌ حتى مع العُصاةِ المُلحِدين.

سِرُّ التّعبيرِ بقوله: ﴿مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾:

وردَ السّياقُ الكريمُ بصِيغةِ الماضِي في قوله: ﴿كَانُواْ﴾، وهي تدلُّ

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 296/3.
(2) الشنقيطي، أضواء البيان: 45/2.
(3) ثبتت الباء في القرآن في حوالي خمسين آية.
(4) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 3015/6.

على وقوعِ ذلك منهم وتحقُّقِه، دون أن يقالَ: (ما عملوا أو ما يعملون)، كما تدلُّ صِيغةُ المضارع في النَّظْمِ من قولِه: (يعملون) على أنّ كُفْرَهم باللّه وبآياته بألْسنتِهم وجوارحِهم، كان سُنّةً لهم مُتجدّدةً منهم، وعلى أنَّ جزاءَ اللّه على هذا الكُفرِ مُستمِرٌّ لا انقطاعَ له.

جزاءُ اللّه لا يَغفلُ عن كُفرِهم الّذي كان سُنّةً لهم ومُتجدِّدًا منهم

بَلاغةُ حذْفِ مفعولِ ﴿يَعْمَلُونَ﴾:

حذفَ البيانُ الإلهيُّ المفعولَ به؛ لدَلالةِ كثْرةِ إلحادِهم في دينِ اللّه بأعمالِهم السّيئةِ بقلوبِهم وألسنتِهم وجوارحِهم، والنّفْسُ تذهبُ في المحذوفِ كلَّ مذهبٍ في سُوءِ صنيعِهم وقُبحِ أعمالِهم، فهو أوسعُ دَلالةً منَ التّصريحِ به.

جزاءُ اللّه لهم عادلٌ مُنصفٌ، لكثرةِ إلحادِهم في دينِ اللّه قولًا وفعلًا

التَّذْييلُ التَّعليليُّ في خِتامِ الآيةِ:

يتنزّلُ قولُه تعالى: ﴿سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ في ختامِ الآيةِ الكريمةِ منزلةَ التّعليلِ للأمرِ بتَرْكِ الملْحِدين؛ أي: لا تهتمُّوا بإلحادِهم ولا تحزنُوا له؛ لأنَّ اللّه سيَجْزِيهم بسُوءِ صنيعِهم، يقول الآلوسيّ: "إنّه استئنافٌ وقعَ جوابًا عن سؤالٍ مقدَّرٍ، كأنه قيلَ: لِمَ لا نبالي؟ فقيل: لأنّه سيُنزلُ بهم عقوبةً وتَشْتَفُون عن قريبٍ"[1].

مُفادُ الخطابِ للمؤمنين أنْ لا يهتمُّوا بإلحادِهم ولا يحزنُوا له، فاللّهُ حسِيبُهم

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(ادعوه) و(نادوه):

الدّعاء: معناه المحوريُّ: جذبُ الشّيءِ أو محاولةُ ضمِّه إلى حيّزٍ أو أمرٍ، كجذْبِ النّاس إلى الوليمةِ والاجتماعِ، والسَّوقِ إلى الأمير، ومنه الدّعاءُ بمعنى التّضرّعِ إلى اللّه ﷻ في طلَبِ أمْرٍ. والدّعاءُ: العبادةُ؛ لأنَّ العبادةَ تقرّبٌ إلى المعبودِ واعتزاءٌ إليه، واستِكفاءٌ به، فهي منَ الجذْبِ والانجذابِ، ويأتي بمعنى النّداءِ استلفاتًا أوِ استحضارًا أوِ استنهاضًا[2].

الدّعاءُ بمعنى التّضرّعِ إلى اللّه تعالى في الطّلبِ، والنّداءُ دعاءُ الشّخصِ ليلتفتَ أو ليحضُرَ

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 116/5.

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (دعو).

وأمّا النّداءُ: فأصلُه يدلُّ على تجمُّعٍ، ومنه النّادِي والنّديّ: المجلسُ يندُو القومُ حوالَيْه، ومنه دارُ النّدوةِ بمكّةَ؛ لأنّهم كانوا ينْدُون فيها أي يجتمعون، ونادَى: رفعَ الصّوتَ صياحًا، وتأتي بمعنى دعاءِ الشّخص ليلتفتَ أو ليحضرَ عند المنادي، والتّنادِي: نداءُ بعضِهم بعضًا[1].

والفرقُ بين الدّعاء والنّداء في أنّ: النّداءَ قد يقالُ: بيا أو أيا ونحوِ ذلك من أدوات النّداء من غيرِ أن يُضمَّ إليه الاسْمُ، وأمّا الدّعاءُ فلا يكادُ يقالُ إلّا إذا كان معه الاسْمُ، وأيضًا: النّداءُ يكونُ برفعِ الصّوت، بينما الدّعاءُ يكونُ برفعِ الصّوت وخفْضِه، يقال: دعوتُه من بعيدٍ، ودعوتُ اللّه بنفسِي[2].

(ذَرُوا) و(اتْركُوا):

الذَّرْوُ: معناه التّركُ والإهمالُ، ولا يُستعملُ منه سوى المضارعِ والأمرِ، تقول: ذَرْهُ؛ أي: دَعْهُ واتْرُكْه، ويقالُ: فلان يَذَرُ الشَّيءَ؛ أي: يقذِفُه لقلّةِ اعتدادِه به، وفيه معنى التّهديدِ والوعيدِ[3].

الـذَّرْوُ معناه التّركُ والإهمالُ، والـتّركُ مفارقةُ الـشّيءِ، والانفصالُ عنه

والتّركُ: مفارقةُ الشّيءِ ما كان يعلقُ به، وانفصالُ عنه، ويُطلقُ على التَّخلِّي عنِ الشّيء وعدمِ التّعلُّقِ به، وعلى إبقائِه على حاله دون مَساسٍ به[4]، وتركَ الشّيءَ: رفضَه قصْدًا واختيارًا أو قهرًا واضطرارًا، ومنه تَركةُ فلانٍ: ما يُخلّفُه بعدَ موتِه[5].

وعلى الرُّغم من تقارُبِ معنيَيْهما إلّا أن الذَّروَ يتميّزُ بمعنى الإهمالِ وقلّةِ الاعتدادِ بالشّيءِ، وفيه معنَى التّهديدِ والوعيدِ بحسَبِ سِياقِه، بينما يتميّزُ التّركُ بمعنى المفارقةِ، وإبقاءِ الشّيءِ على حاله.

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (ندى).

(2) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 38، والرّاغب، المفردات، ص: 226 - 227، والفيروزباديّ، بصائر ذوي التمييز: 600/2.

(3) الرّاغب، المفردات، والرّازي، مختار الصحاح، ومجمع اللغة العربية، معجم ألفاظ القرآن، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (وذر).

(4) ابن فارس، مقاييس اللغة، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (ترك).

(5) الرّاغب، المفردات: (ترك)، والفيروزباديّ، بصائر ذوي التمييز: 298/2، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (ترك).

والسّرُّ في اصطفاءِ (ذروا) هنا أنَّ مادّةَ الفعلِ تتضمّنُ معنى الازدِراء؛ إذ إنَّ من معاني (ذَرُوا) اللّغويّةِ قذفَ الشّيء لقلّةِ اعتدادِه به، أي: "اتركُوا هؤلاء على حالةٍ ذرّيّةٍ"[1]، أمّا صِيغةُ الكلمةِ فقد جاءت بصِيغةِ الأمرِ الذي يحملُ معنى التّهديد للمُلحِدين في دين اللّه، كقوله: ﴿ذَرۡنِي وَمَنۡ خَلَقۡتُ وَحِيدٗا ١١﴾ [المدثر: 11]، وفيه معنى: ألّا ينقطعَ المؤمنون عن إهمال شأنِ الذين يُلحِدون في أسماء اللّه، وعن عدمِ القلقِ من كيدِهم وعدمِ المبالاة بما فعلوا؛ ترقّبًا لنزول العقوبةِ فيهم، فاللّه كافِيهم عن قريبٍ، وكذا لا ينقطعُ عنِ اجتنابِهم حتى لا يصيبَه ما يُصيبُهم، وهذا المعنى من كوْنِ الأمر عند بعضِ الأصوليّين يقتضِي التَّكرارَ.

يعملون ويفعلون:

العملُ: جُهدٌ ماديٌّ يؤدِّي إلى إحداثِ شيءٍ، ويعمُّ أفعالَ القلوبِ والجوارحِ، والعملُ إيجادُ الأثر في الشّيء، يقال: فلانٌ يعملُ الطّين خزفًا، ولا يقالُ يعملُ ذلك، إلَّا في ما كان عن فكرٍ ورويّةٍ، ولهذا قُرن بالعلم، فالعملُ: كلُّ فعلٍ مقصودٍ، فهو أخصُّ منَ الفعل؛ لأنّ الفعلَ قد يقعُ بغير قصْدٍ[2]، والفعلُ: التأثيرُ من جهةِ مُؤثِّرٍ، وهو عامٌّ يكونُ في الخير والشّرِّ، بعلمٍ أو بغير علم، بقصْدٍ أو بغيره، من عاقلٍ وغيرِ عاقلٍ؛ فالعملُ أخصُّ منه، ويُستعملُ الفعلُ في العمليّةِ التي تتطلّبُ قوّةً زائدةً، وفي الأحداثِ العنيفةِ، كقوله تعالى: ﴿وَفَعَلۡتَ فَعۡلَتَكَ ٱلَّتِي فَعَلۡتَ﴾ [الشعراء: 19][3].

العملُ كلُّ فعلٍ مقصودٍ، والفعلُ قد يقعُ بغير قصْدٍ؛ فالعملُ أخصُّ منَ الفعلِ

فالعملُ أخصُّ منَ الفعلِ فلا يكونُ إلَّا بقصْدٍ وعن فكرٍ ورويّةٍ، أي: لا يكون إلَّا من عاقلٍ.

(1) البقاعي، نظم الدرر: 176/8.

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عمل)، والعسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 134، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (عمل).

(3) الرّاغب، المفردات: (فعل)، والفيروزباديّ، بصائر ذوي التمييز: 101/4، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (فعل).

وأمَّا الفعلُ: فهو عامٌّ فقد يكونُ بقصْدٍ؛ أو بغير قصدٍ من عاقلٍ وغيرِ عاقلٍ؛ بعلم أو بغيرِ علمٍ.

واستخدامُ (يعملون) أنسبُ في بيان المرادِ من (يفعلون)؛ لأنَّ (العمل) هو اسْمٌ للحدَثِ من أيِّ جارحةٍ؛ فنُطْقُ اللّسانِ عملٌ، وشَمُّ الأنفِ عملٌ، ونعلمُ أنَّ هناك ما يُسمَّى بـ(قول وفعل)، و(الفعل) عملُ الجوارح ما عدا اللّسانَ؛ و(القول) عملُ اللّسان، والاثنان يُطلقُ عليهما عملٌ، وقد قابل القولُ الفعلَ في قوله تعالى: ﴿لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٢﴾ [الصف: 2] إذن سيُجازِيهم اللّه على أقوالهم وأفعالهم - لأنَّ كِليْهما عملٌ - لا على أفعالهم فقط، "وسمَّى إلحادَهم عملاً؛ لأنّه من أعمال قلوبِهم وألْسنتِهم"[1].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 190/9.

﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ١٨١﴾ [الأعراف: 181]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

المناسبةُ بين جلالِ أسماءِ الله، وأنّ الكَونَ لا يخلُو من هُداةٍ للحقِّ والعدْلِ

لما ذكرَ اللّه منْ ذَرَأَ للنّار ذكرَ مُقابِلَهم من أهل الهدايةِ والاهتداءِ[1]، ووجهٌ آخرُ: أنَّ اللّه لمّا ذكر الذين يُلحِدون في أسمائِه مُحذّرًا منهم ﴿وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ﴾ عقّبَ بذكْرِ الذين يَدعُون النّاسَ إلى الحقِّ وبه يعملون، بما يُطَمْئِنُ أهلَ مَنهجِ اللّه بأنَّ كونَ اللّهِ لا يخلُو من هُداةٍ مَهديّين[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أُمَّةٌ﴾: من أَمَّ، الهمزةُ والميم أصلٌ واحدٌ يتفرّعُ منه أربعةُ أبوابٍ، وهي الأصلُ، والمرجعُ، والجماعةُ، والدِّينُ، وهذه الأربعةُ متقارِبةٌ، والأمّةُ: الجيلُ منَ الناس، جماعةٌ كبيرةٌ متّحدُو الجنسِ أو زمنِ الوجود معًا[3]، والمقصودُ بأمّةٍ في الآية: جماعةٌ[4].

2) ﴿يَهْدُونَ﴾: الهُدى، خلافُ الضّلالةِ، وهو تبْيينُ الوجهةِ، الهاء والدّال والحرفُ المعتَلُّ أصلان أحدُهما التّقدُّمُ للإرشاد، والآخرُ بعثةٌ لَطَفٍ، فالأوّلُ قولُهم: هديتُه الطّريقَ هدايةً أي: تقدّمتُه لأُرشدَه، وكلُّ متقدِّمٍ لذلك هادٍ، ومنَ الأصل الآخرِ: الهديّةُ[5]، ومعنى ﴿يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ﴾ يعودُ للأصل الأوّل أي: يدعُون، ويُرشِدون إلى الحقّ، ويَسيرون عليه[6].

---

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 417/15، وأبو حيان، البحر المحيط: 232/5، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 190/9.

(2) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 4486/7.

(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات: (أمم)، وابن الجوزي، نزهة الأعين النواظر، ص: 143، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (أمم).

(4) ابن جرير، جامع البيان: 285/13.

(5) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (هدى).

(6) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 516/3.

3) ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾: الحاء والقاف أصلٌ واحدٌ يدلُّ على إحكام الشّيء وصِحَّتِه، وحقَّ الشيءُ ثبتَ ووجبَ، والحقُّ: نقيضُ الباطل (الشّيءُ الثّابتُ الرّاسخُ المتمكّنُ بشريعةٍ صحيحةٍ، أو عُرْفٍ عامٍّ مسلَّم)، والحقُّ: الصّدقُ والصّوابُ، وهو منَ المطابقةِ والموافقةِ، ومعنى "بالحق" هنا ضِدُّ الباطلِ الزائفِ؛ أي: يهدون بالصَّوابِ المطابِقِ للشّريعة ولحُكمِ اللّه تعالى[1].

4) ﴿يَعۡدِلُونَ﴾: العدلُ: العين والدَّال واللَّام أصلانِ صحيحانِ، لكنَّهما متقابلان كالمتَضادَّين: أحدُهما يدلُّ على استواءٍ، والآخرُ يدلُّ على اعوجاجٍ، فمنَ الأوّل مُوازنةُ ثِقلٍ في جانبٍ بثقَلٍ في جانبٍ آخرَ حتى يتَّزِنا، ومنه أُخِذَ معنى الاستواءِ أوِ التّسويّةِ؛ والعَدْلُ نقيضُ الجَورِ[2]. ومعنى يَعدلون هنا يعودُ للمعنى الأول؛ أي: يجعلون الأمورَ مُتعادلةً، لا زيادةَ في شيءٍ منها على ما ينبغِي ولا نقصَ، فهم يقضُون ويُنصفون النّاسَ ويحكمُون بالحقِّ ولا يَجورُون[3].

❁ المَعْنى الإجْمالِيُّ:

أمّـةُ المسلمِين أمّـةُ هِـدايـةٍ وعـدْلٍ، خلقَها اللـه لـلـدّعـوةِ والبذْلِ

من رحمة اللّه تعالى بعباده أنَّ الوجودَ لا يخلُو منَ الأخيارِ الهادِين المهدِيّين، الذين خلقَهمُ اللّه في مُقابِلِ من ذرأ لجهنّمَ؛ أمةٌ لم تُفْسِدْ فِطرتَها، بلِ التزمتْ منهجَ ربّها؛ إخلاصًا في عبادتِه والتِجاءً إليه وثقةً بنصره، أمّةٌ متميِّزةٌ في هَديِها واهتدائِها، فاضلةٌ كاملةٌ في نفسِها، مكمّلةٌ لغيرها، يَهدون أنفُسَهم وغيرَهم بالحقّ الذي يَجمعُهم، ولا يُفرّقُهم، فيعلمون الحقَّ، ويعملون به، ويعلِّمونَه، ويدعون إليه، وإلى العمل به، هذه هي صفةُ أمّةِ الإجابةِ، الأمّةِ المحمديّةِ[4].

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (حقق).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (عدل).
(3) ابن جرير، جامع البيان: 286/13، والبقاعيّ، نظم الدرر: 178/8.
(4) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 3013/6، وحجازي، التفسير الواضح: 790/1.

وتُرشدُ الآيةُ إلى أنَّ اللّه ﷻ لا يُخلِي الدّنيا في وقت منَ الأوقات من داعٍ يدعُو إلى الحقِّ، وإلى أنَّ الإجماعَ حُجّةٌ في كلِّ عصْرٍ، وعلى أنه لا يخلُو عصرٌ من مجتهدٍ إلى قيامِ السّاعةِ[1].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

عطْفُ المقابلةِ بجُملتِه وزُبدتِه، بين الآيةِ وما قبلَها:

التّأكيدُ على بقاءَ أمّةِ الحقِّ، والتّنويهُ بهَدْيِها واهتِدائِها

جاء العطْفُ في الآيةِ في قوله تعالى: ﴿وَمِمَّنْ﴾ على جملة ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا﴾، إذ قابلَ حالَ المشركين في ضلالهم بحال المسلمين؛ فكما ذرأ لجهنّمَ كثيرًا منَ الجنِّ والإنس خلَقَ للجنّةِ كثيرًا من أهل الهدايةِ والعدْلِ؛ لأنه أراد أن يُطمئِنَ أهلَ منهجِ اللّه بأنَّ هناك أمّةً مأمونةً على صيانةِ منهجِ اللّه إلى قيامِ السّاعةِ؛ وفي هذه المقابلةِ تنويهٌ بهذه الأمّةِ في هدْيِها واهتدائِها، كما تشيرُ المقابلةُ إلى أنَّ المسلمين ليسوا قلّةً، وهذه المقابلةُ: "ليبيِّنَ أيضًا أنَّ كثيرًا منهم مخلوقون للجنّة"[2]، فالأمّةُ لا تُعبّر عن قلّةٍ، كما أنَّ قوله في الآيةِ السّابقةِ ﴿كَثِيرًا﴾ لا يعني أنَّ المؤمنين قلّةٌ بدليلِ قوله تعالى: ﴿وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ﴾ [الحج: 18]؛ أي: كثيرٌ منَ النّاس يَسجُدون للّه، وكثيرٌ حقَّ عليهم عذابُ اللّه، كما تشيرُ هذه المقابلةُ إلى معنًى جميلٍ، وهو أنّه لولا أنَّ النّاسَ يُضارّون بالشّرّ؛ لما تنبّهُوا إلى حَلاوةِ الخيرِ، ولو أنَّ الإنسانَ لم يُصَبْ من أصحابِ الباطلِ بسُوءٍ؛ ما تحمَّسَ للحقِّ أحدٌ، ولا عرف النّاسُ ضرورةَ أن يتأصّلَ الحقُّ في الوجودِ، فللشّرِّ إذن رسالتُه في الوجودِ وهي أن يُهَيِّجَ إلى الخيرِ[3].

بلاغةُ اللَّفِّ والنَّشرِ غيرِ المرَتَّبِ، في تصويرِ المعنى:

أتتِ الآيتانِ: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ

(1) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 397/9، وطنطاويّ، التفسير الوسيط: 443/5.
(2) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 417/15.
(3) الشعراوي، تفسير الشّعراوي: 4474/7.

تشويقُ النّفسِ إلى كلِّ ما يُذكَرُ بعدَ النَّشْرِ العائدِ إلى اللّفِّ

لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ﴾ كالنَّشْرِ لقوله عزَّ شأنُه: ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِىۖ وَمَن يُضْلِلْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ١٧٨﴾ [الأعراف: 178] عند جمْعٍ منَ المحقّقين على ما ظهرَ للعلامةِ الطِّيْبي[1]، وكونُ هذا اللّفِ والنّشرِ غيرَ مرتّبٍ؛ لأنّه قد ذَكَرَ في اللَّفِّ الهدايةَ قبل الضلالِ، وذكَرَ في النَّشرِ حُكمَ مَن ضلَّ، فكان أضلَّ منَ الأنعام قَبلَ حُكْمِ مَنِ اهتدى ويَهدي بالحقِّ، وبلاغتُه هنا تظهرُ من خلال تشويقِ النّفس وإثارتِها وإيقاظِها وتهيئتِها إلى كلِّ ما ذُكرَ بعد النّشرِ العائدِ إلى اللّفِّ من هلاكِ منْ أفسدَ فطرتَه وفلاحِ منِ اهتدى بالحقِّ.

نُكتةُ التّعبيرِ بصِيغةِ الماضِي المعلومِ، في قولِه: ﴿خَلَقْنَآ﴾:

وجودُ أمّةِ الهدايةِ والحقِّ والعدلِ، أمرٌ محقَّقٌ لا شكَّ فيه

عبَّرَ بالفعل الماضي: ﴿خَلَقْنَآ﴾؛ للدّلالةِ على تحقُّقِ وجودِ هذه الأمّةِ الهاديةِ المهديّةِ، وأنّها الموجودةُ المنتصرةُ مهما شكَّك المشَكِّكون، ومهما ضاقتِ الأحوالُ، ولم يأتِ بالفعل (خُلِق) للمجهول؛ لأنَّ المقامَ مقامُ تكريمٍ ومقامُ مدْحٍ كقوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ٤﴾ [التين: 4]، وقولِه تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِءَادَمَ﴾ [الأعراف: 11][2]، بخلاف ما يكونُ المقامُ مَقامَ إخبارٍ مجرّدٍ عنِ التّكريم أوِ المدحِ، ولم يُحتَجْ فيه إلى إبراز الفاعلِ، أو ليس مهمًّا إظهارُه في السّياقِ، كقوله تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ٢٨﴾ [النّساء: 28]، وقولِه: ﴿۞إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ١٩﴾ [المعارج: 19].

بَلاغةُ إسنادِ الفعلِ إلى ضميرِ العظَمةِ: ﴿خَلَقْنَآ﴾:

تأكيدُ إثباتِ المضمُونِ، بعظَمتِه سُبحانَه وخلْقِه لعُمّارِ الكَونِ

عبّرَ بنون العظَمةِ في قوله: ﴿خَلَقْنَآ﴾؛ إشعارًا بعظَمةِ الرّبوبيّةِ، وتأكيدًا لعدَمِ خُلوِّ الكوْنِ من هُداةٍ مهديّين؛ كأنه يقول: (خلقنا بعظمتنا للجنة أمَّةَ الحقِّ...).

(1) الطِّيبي، فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب: 682/6.
(2) السامرائي، لمسات بيانية، ص: 154.

سِرُّ عدمِ التَّصريحِ بأنّ المرادَ بالأمّةِ، الأمّةُ الخاتمةُ:

قال أكثرُ المفسّرين: إنّها أمّةُ سيّدنا محمدٍ ﷺ؛ لما ثبتَ عنِ النّبيِّ ﷺ، ولكنّه "أبهمَ الأمرَ بعد تعيين قومِ موسَى عليه السلام تعظيمًا لهم"[1].

أبهمَ الأمّةَ تفخيمًا لها، وإعلاءً لشأنِها

عِلّةُ التّعبيرِ بالفعْلِ المضارعِ، في: ﴿يَهْدُونَ﴾، ﴿يَعْدِلُونَ﴾:

تُفيدُ صِيغةُ المضارع الاسْتِمرارَ؛ أي: من أمّةِ الإجابةِ الثّباتُ على الحقِّ، وقد "دلّتِ الآيةُ على أنَّ اللّه ﷻ لا يُخلِي الدّنيا في وقتٍ منَ الأوقاتِ من داعٍ يدعُو إلى الحقِّ"[2].

خَيريّةُ هذه الأمّةِ تكمنُ في ثباتِها، واسْتِمرارِها في الدّعوةِ وإقامةِ العدْلِ

بَلاغةُ العُدولِ في التّعبيرِ إلى ﴿يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ﴾:

اقتصرَ على نعْتِهم بهداية النّاسِ بالفعل ﴿يَهْدُونَ﴾، دونَ التّصريحِ باهتدائِهم، كأن يقال: (يهتدون ويهدون بالحقّ)؛ للإيذان بأنّ اهتداءَهم في أنفُسِهم أمرٌ محقَّقٌ، غنيٌّ عنِ التّصريحِ به[3].

اهْتداؤُهم في أنفُسِهم أمرٌ محقَّقٌ

بديعُ التّناسُبِ بين تذْييلِ الآيتيْنِ المتعاطفتَيْن:

هاتان الآيتانِ الكريمتانِ: ﴿يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ﴾ و﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾ بينَهما عطْفُ مقابلةٍ، ولو نظرْنا إلى تذْييل كلٍّ منهما لوجدْنا تناسُبًا يتمثّلُ في أنَّ أهلَ الجنّةِ قد حكَمُوا بالعدْلِ بجميع درجاتِه، فجعلُوا الأمورَ متعادِلةً، لا زيادةَ في شيءٍ منها على ما ينبغِي ولا نقْصَ، ذلك لأنَّ اللّه وفَّقهم فكشَفَ عن بصائرِهم حجابَ الغَفلةِ التي ألزمَها أهلَ النّارِ بسببِ ضلالِهم وتعطيلِهم مدارِكَهُم.

الحُكمُ بالحقِّ يحمِي الإنسانَ من حِجابِ الغَفلةِ

وَجْهُ التّعبيرِ بالضّميرِ مَوضعَ الظّاهرِ:

عبّرَ بضمير الهاءِ في قوله تعالى: ﴿وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ﴾ أي: بالحقِّ، ولم يصرِّحْ بكلمة الحقِّ لأنَّه سبق ذكرُه، فلا داعِيَ للتّصريح به، وإشارةً إلى أنّه واحدٌ لا يتعدّدُ، وكونُ الأمّةِ تهتدِي بهذا الحقِّ

الحقُّ في هذه الأمّةِ واحدٌ لا يتعدّدُ، والعدلُ فيها راسخٌ لا يتبدّدُ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 178/8.
(2) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 329/7.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 297/3.

الواحدِ، وبه تعدلُ في كلِّ شؤون حياتِها، فهذا يشيرُ إلى أنّها أمّةٌ متّحدةٌ لا تعرفُ الفُرقةَ والشِّقاقَ؛ اتّجاهُها واحدٌ ومنهجُها وسبيلُها واحدٌ، كما جاء في الأثر: (هذه أمّتي، بالحقّ يَحكمون ويَقضُون، ويأخذون ويُعطون)[1]، وقد استنبط العلماءُ من هذه الآيةِ الدّلالةَ على صحّةِ الإجماعِ[2].

ضـرورةُ تلبُّسِ الأمّـةِ بالحقِّ، واستعانَتِها به هِدايةً وتطبيقًا

بَلاغةُ معنى (الباء) في قوله: ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾: و﴿وَبِهِۦ﴾:

أشهرُ معاني الباءِ هو الإلصاقُ، وهو تعلُّقُ أحدِ المعنَيَيْن بالآخَرِ، ومن معانِيها الاستعانةُ، وهي دخولُ الباء على آلة الفعل، والمعنيانِ جائزانِ هنا: "يَهدون النّاس مُلتبِسين بالحقّ أو يَهدونَهم بكلمةِ الحقِّ"[3]، ومن معانِيها المصاحبةُ، أي هدايةٌ مصحوبةٌ بالحقّ، وَبِهِ يَعۡدِلُونَ أي بالحقّ وحده يَعدلون؛ في كلِّ أمورِهم في حياتِهم عدلٌ بالحقّ، وفي شؤونهم العامّة والخاصّةِ عدلٌ بالحقّ، وفي كلِّ ما يُباشرون من أعمالٍ يَبتغون الحقَّ ولا يريدون سِواه، فحياتُهم كلُّها عدلٌ وحقٌّ[4]. وهذه المعاني تتعانقُ وتتظاهرُ على بيان المرادِ، وهو نمطٌ جليلٌ منَ الإيجازِ.

لا يقومُ العدْلُ إلّا بإقامةِ الحقِّ في كلِّ مُستوياتِه

فائِدةُ القصْرِ بأُسلوبِ تقديمِ ما حقُّه التّأخيرُ:

وردَ تقديمُ الجارِّ والمجرور في قولِه تعالى: ﴿وَبِهِۦ يَعۡدِلُونَ﴾، والتّقديمُ يفيدُ القصْرَ: "(وبه يعدلون) أي: بالحقّ خاصّةً"[5]، ومن فوائدِ هذا التّقديمِ كذلك: مزيدُ اهتمامٍ بالحقِّ، والتّفنّنُ في الفصاحةِ وإخراجُ الكلام على عدّةِ أساليبَ؛ إذ إنّه أخّرَ (الباء الجارَّة) في قولِه: ﴿يَهۡدُونَ بِٱلۡحَقِّ﴾، وقدَّمَها في تتمّةِ الآيةِ: ﴿وَبِهِۦ

(1) ذكره الطبري عن ابن جريج، يُنظر: ابن جرير، جامع البيان: 286/13.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 297/3.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 297/3.
(4) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 3016/6.
(5) البقاعي، نظم الدّرر: 177/8، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 3016/6.

﴿يَعۡدِلُونَ﴾، ومُراعاةُ أحكامِ اللّفظِ في الفاصلةِ، في قوله: (يعدلون)؛ ليؤدِّيَ وظيفةَ التّطريبِ بنَغمِها الموافِقِ لفواصلِ الآياتِ التي قبْلَها وبعدَها (الغافلون، يعملون)؛ أي: لقصْدِ البَدْءِ والختْمِ بالعمل في الهدايةِ والعدلِ للاعتناءِ بشأنِه.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

أمّةٌ وطائفةٌ:

كلمةُ (أمّة) تدلُّ على أنَّ صفاتِ الكمالِ، تحتاجُ إلى الجميعِ، وذلك أنسَبُ للسِّياقِ

أُمَّةٌ: من معانيها: الأصلُ، والمرجعُ، والجماعةُ، والدِّينُ، وهذه الأربعةُ مُتقارِبةٌ، والأمّةُ: الجيلُ من النّاسِ (جماعةٌ كبيرةٌ مُتّحِدُو الجنْسِ أو زمنِ الوجودِ معًا)[1].

والطّائفةُ منَ الشّيءِ: القطعةُ منه، والطّائفةُ منَ النّاس: كالفِرْقةِ والقطعةِ منهم، وطائفةٌ: جماعةٌ تطيفُ بالواحدِ أو بالشّيءِ، ولا تكاد العربُ تحدُّها بعددٍ معلوم، قيل: إنّ الواحدَ طائفةٌ، وقيل أربعةٌ فما فوقَها، وقيل هي الثّلاثةُ، وقيل غيرُ ذلك[2]. وآثرَ النّظمُ الكريمُ كلمةَ: ﴿أُمَّةٌ﴾ للدّلالةِ على أنَّ صفاتِ الكمال المنهجيّةَ أكثرُ من أن يُحيطَ بها واحدٌ لِينفّذَها كلَّها، فكلُّ واحدٍ له جُزءٌ يقومُ به، وهكذا تبقَى الأسوةُ في مجموعِ الصّفات الحسنةِ، وللدّلالةِ على أنَّ قيامَ الحقّ والدّعوةَ إليه والحُكمَ به لا يتحقَّقُ تحقّقًا صحيحًا إلّا بالجماعةِ التي تدينُ بعقيدةٍ واحدةٍ، وتتجمّعُ على آصرتِها الثّابتةِ على الحقِّ العاملةِ به في كلّ حينٍ، الحارسةِ لأمانة اللّه في الأرضِ، الشّاهدةِ بعهْدِه على النّاس، فهذه الّتي تحظَى بتأييدِ اللّه ومددِه، قال ﷺ: «يدُ اللّه مع الجماعة»[3]، يقول البِقاعيّ: "﴿أُمَّةٌ﴾ أي:

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (أمم)، وابن الجوزي، نزهة الأعين النواظر، ص: 143.

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (طوف).

(3) الترمذي، سنن الترمذي، أبواب الفتن، باب ما جاء في لزوم الجماعة، الحديث رقم: (2166)، والحاكم، المستدرك، الحديث رقم: (398)، من حديث عبد الله ابن عبّاس رضي الله عنهما.

جماعةٌ عرفتْ من هو أهلٌ لأنْ يُؤمَّ ويُهتدى بهِ، فقصدتهُ فاقتبستْ من أنوارهِ فصارتْ هي أهلًا لأنْ تُقصدَ ويُؤتمَّ بها"[1].

كما أنَّ استعمال كلمة (الأمة) دون (الطائفة) أنسب للسّياق، فالأمة في جميع معانيها اللُّغوية تدلُّ على الكثرة والاجتماع والوحدة فهي: (الرّجُلُ الجامعُ للخير، والإمامُ، وجماعةٌ أُرسل إليهم رَسُولٌ، والجيلُ من كلِّ حيٍّ، ومتّحدُو الجنسِ أوِ الدّين...)[2]، وفيها معنى الخيريّةِ، بخلاف (الطّائفةِ) إذ هي القطعةُ منَ الشّيء، وقد تُطلقُ على الرّجل والرَّجلين، أي لا تدلُّ على الكثرة، قال الزّمخشريُّ: "الطّائفةُ الجماعةُ القليلةُ"[3]، وكذا (الجماعةُ) التّي قد تكونُ قليلةً، وقد تكون كثيرةً؛ والكلمتان لا تشملان المعانيَ السّابقةَ، فاصطفَى النّظمُ الكريمُ ما يناسِبُ السِّياقَ.

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 177/8.

(2) الفيروزباديّ، بصائر ذوي التّمييز: 79/2.

(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 221/2.

﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَنَسۡتَدۡرِجُهُم مِّنۡ حَيۡثُ لَا يَعۡلَمُونَ ١٨٢﴾

[الأعراف: 182]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

المناسبةُ بين أهل الهدايةِ والحقِّ، وبين المتمادِين في التّكذيبِ والعِصيانِ

بعدَ أنْ بيَّنَ الحقُّ سبحانهُ حالَ الهادينَ المَهديِّينَ وأنّه تعالى أعلَى أمرَهم وطيّبَ ذكرَهم، أتبعَه بقيّةَ الحديث عنِ المكذّبين بآيات اللّه تعالى، وما عليهم منَ الوعيد[1]، أي: أتى بما يقابلُ الهادينَ العادلينَ؛ لأنَّ مجيءَ الشّيءِ بمقابلِه أدْعَى إلى أن يَتمكَّنَ منَ النَّفْسِ[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿سَنَسۡتَدۡرِجُهُم﴾: أصلُ (درج) يدلُّ على مُضيِّ الشَّيءِ، والمُضيِّ في الشَّيءِ، وسَنَسْتَدْرِجُهُمْ: سنأخُذُهم قليلًا قليلًا، درجةً فدرجةً، فلا نُباغِتُهم؛ والاستدراجُ: استفعالٌ من دَرَجَ إمّا بمعنى (صَعِدَ)، ثم استُعملَ في كلِّ نقْلٍ تدريجيٍّ سواءً كان بطريق الصّعودِ أوِ الهبوطِ أوِ الاستقامةِ، أو بمعنى (مضَى مشيًا ضعيفًا) أو بمعنى (طَوى)،[3]، والمعنى الأوّلُ هو الأنسبُ بالمعنى المرادِ هنا وهو النّقلُ إلى أعلَى درجاتِ المهالك بأن نَدَعَهُم يتمادَون رُغمَ أوزارِهم ولا نأخذَهم بها أوّلًا بأوّلَ، وبأن نُمدَّهم بالنِّعم رُغم ذنوبِهم حتى يُطوَوْا في شرٍّ عاقبةٍ[4].

المَعْنى الإِجْماليُّ:

تهديدُ المُعرِضين عن منْهجِ الله، المكذِّبين بآياتِه ودَلائِلِه

حكمُ اللّه بالنّسبةِ للمكذّبين بآياتِه الكونيّةِ وبمعجزاتِ صدْقِ النّبوةِ وبآيات القرآن التي هي مِعيارُ الحقِّ ومِصداقُ الصّدقِ

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 418/15، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 178/8.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 298/3، والشّعراويّ، تفسير الشّعراوي: 4489/7.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (درج).
(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 297/3.

- والعدلُ هو حكمٌ عامٌّ مُحقّقٌ مؤكَّدٌ - بأنّه يدعُهم في الضّلال تائهِين، ويقرّبُهم قليلًا قليلًا إلى ما يُهلِكُهم، ويُضاعفُ عقابَهم من حيث لا يعلمون، ولا يتفطّنون لِما يُرادُ بهم، وذلك بأن يُواتِرَ اللّهُ نِعمَه عليهم مع انْهماكِهم في الغَيِّ، فكلّما جدَّدَ عليهم نِعمةً ازدادُوا بَطرًا وجدّدوا معصيةً[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دَلالةُ العطْفِ في الآيةِ الكريمةِ:

العطْفُ في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾، من باب عطْفِ الشّيءِ على مُقابِله، فقد عطف المكذِّبين على المهتَدين، وجمعَ بينهما بالعطْفِ جمْعَ الضّدِّ مع الضدِّ، وهو أعونُ على البيانِ والتّمييزِ.

الّذين حقَّ عليهم الشّقاءُ، همُ المذكورون في هذه السّورةِ إجمالًا وتفصيلًا

عَلّةُ التّعبيرِ بالاسْمِ الموصولِ ﴿وَٱلَّذِينَ﴾:

لم يقلْ سبحانه: (والمكذِّبُونَ بآيَاتِنَا)، وإنما عرَّفه بالاسم الموصول ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ﴾؛ للإيماء إلى وجْهِ استحقاقِهم لحُكم استدراجِ اللّه لهم، وهو التّكذيبُ بالآياتِ، فتكذيبُهم بآياتِ اللّه المتلوَّةِ والكونيّةِ وبمعجزاتِ صدْقِ النّبوةِ دليلٌ أكيدٌ أنّهم لم يستمعُوا الحقَّ، ولم ينطقُوا بالخير، ولو كان منهم سماعٌ حقيقيٌّ؛ لآمنوا بالآياتِ عُمومًا، وللإشارةِ إلى أنَّ أدنَى مكذِّبٍ بالآياتِ يَنطبقُ عليه حُكمُ الآية، وليس بالضّرورةِ أن يكونَ راسخًا في التّكذيبِ.

أدنَى مُكذِّبٍ بالآياتِ، محكومٌ بسُنَّةِ الاسْتِدراجِ

نُكتةُ جمْعِ صِلةِ الموصولِ ﴿وَٱلَّذِينَ﴾:

في إيراد الاسم الموصول جمعًا من قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ﴾، إشارةٌ إلى أنّهم فريقٌ اجتمع على التّكذيب بآياتِه الكونيّةِ وبمعجزاتِ صدقِ النّبوّةِ وبآيات القرآن، واتّفق عليه، وقد بيّنت الآياتُ السّابقة اجتماعهم على الغفلة والضّلال والإلحاد في دين اللّه.

المكذِّبون بآياتِ اللّه اجتمعُوا على محاربةِ اللّه، رَغْمَ الإمْهالِ والنِّعمِ

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 418/15، وأبو حيان، البحر المحيط: 233/5، وحجازي، التفسير الواضح: 791/1.

وَجْهُ تَعديّةِ فعْلِ التّكذيبِ بالباءِ ﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾:

أفادت تَعديةُ الفعْلِ ﴿كَذَّبُواْ﴾ بحرف الجرّ الباءِ في قوله تعالى: ﴿كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾، وهو فعْلٌ متعدٍّ بنفسِه تأكيدَ لُصوقِ معنى الفعْلِ بمفعوله، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ﴾ [المائدة: 6]، فلذلك يدلُّ فعْلُ التّكذيبِ إذا عُدّيَ بالباء على معنى الإنكارِ، أي: التَّكذيبُ القويُّ[1].

الْتَصقَ فعلُ التّكذيبِ بهم، فدلَّ على شِدّةِ الإنكارِ

بَلاغةُ إسْنادِ الاسْمِ إلى ضَميرِ العظَمةِ ﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾:

إضافةُ الآياتِ إلى ضميرِ العظَمةِ في قوله تعالى: ﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾؛ لتَشريفِها واسْتِعظامِ الإقدامِ على تكذيبِها[2].

تأكيدُ إثْباتِ التّشريفِ واسْتِعظامُ تكذيبِ الآياتِ بعظَمَتِه

نُكتةُ التّعْبيرِ بالجُملةِ الاسميّةِ دونَ الفعليّةِ:

قولُه تعالى: ﴿سَنَسۡتَدۡرِجُهُم﴾ جملةٌ فعليةٌ، وهي خبرٌ للمبتدأ ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ﴾، وهذا يفيدُ التَّحقيقَ والتَّخصيصَ، وذلك لأنَّ أصْلَ الكلامِ: (سنستدرج الذين كذبوا بآياتنا)، فقُدِّمَ الضّميرُ (هم) وكُرِّرَ، فحصرَ هذا الاستدراجَ في الذين كذّبوا بآيات الله، لبيان مُحقَّقٍ مؤكَّدٍ.

الاسْتِدراجُ سُنّةٌ إلهيّةٌ ثابتةٌ مُحقَّقةٌ، لا تتبدَّلُ

كما أنَّ التَّعبيرَ بالجُملةِ الاسميّةِ ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ﴾ يُفيدُ الثُّبوتَ والدَّوامَ لهذا الاستدراجِ فهو سُنَّةٌ إلهيّةٌ مع المكذِّبين.

سِرُّ التّعْبيرِ بكلمةِ: ﴿سَنَسۡتَدۡرِجُهُم﴾:

انظرْ إلى كلمةِ ﴿سَنَسۡتَدۡرِجُهُم﴾ كيف أنَّها تُقدّمُ لك معنًى في تلافيفِ حُروفِها قبْلَ أن تُقدِّمَه في معناها اللُّغويِّ المحفوظِ، وكأنَّ القارئَ يَشَمُّ منها رائحةَ المعنى المطلوبِ، ويَلْحظُ فيها إشراقًا يصوّرُ المعنى أمامَ العين، وفي الوقت نفسِه تراها مُنسجِمةً مع ما بعدَها منَ الألفاظ: ﴿وَأُمۡلِي لَهُمۡۚ﴾.

لفْظُ الاسْتِدراجِ قِمّةٌ في الفصَاحةِ؛ إذْ تحملُ المعنَى في تلافِيفِ حُروفِها

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 191/9.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 297/3، والآلوسيّ، روح المعاني: 118/5.

ويُلاحظُ في هذه الصّيغةِ القرآنيةِ تناسبُها واتِّفاقُها مع مدلولِ الاستدراجِ ومعناه، فطولُ الكلمةِ وكثرةُ حروفها - تسعة حروف -، وطولُ فترةِ نطْقِها لوجودِ السّكونِ في السّينِ والدّالِ، كُلُّ ذلك يتناسبُ مع معنى الاستدراجِ، وهو الإمهالُ والإنظارُ للكافرين، ويُوحِي بطُولِ مدّةِ عدَمِ انْصياعِهم، وخصوصًا في صِيغة (استفعل) ففيها تَصْييرٌ لهم، وحركةٌ جَعْليّةٌ متَمَهِّلَةٌ، وهذا ما يُوحِي به توالي المقاطعِ وتعدّدُها مما يُجسِّمُ طولَ فترةِ الغفلةِ التي يكونُ فيها الكافرون.

بَلاغةُ الاسْتِعارةِ التّمثيليّةِ:

قولُه تعالى: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ۝١٨٢ وَأُمْلِي لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾، فيه شبَّهَ الحالَ التي يَستدرجُ اللّه بها المكذِّبين مع تأخيرِ العذابِ عنهم إلى أَمَدٍ هُم بالغُوه، بحالِ من يُهيِّئ أخذًا لعدوِّه بأنْ يطلب منه أن ينزلَ من درجة إلى أخرى، بحيث ينتهي إلى المكان الذي لا يستطيعُ الوصولَ إليه بدون ذلك، مع إظهارِ المُصانعةِ والمحاسَنَةِ؛ ليزيدَ عدوَّه غُرورًا، وليكونَ وقوعُ ضُرِّ الأخْذِ به أشَدَّ، وأبعدَ عن الاستعداد لتلَقِّيه، فهو تمثيلٌ بديعٌ يشتملُ على تشبيهاتٍ كثيرةٍ، فإنّه مبنيٌّ على تشبيهِ حُسْنِ الحالِ برفعةِ المكانِ، وضدِّه بسَفالةِ المكانِ.

تصويرُ المعنى للقارئِ، كأنَّه يَنظرُ إلى مشْهدٍ تمثيليٍّ رائعٍ

بَلاغةُ حذْفِ مفعولِ ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾:

حذفَ البيانُ الإلهيُّ المفعولَ به؛ لدَلالةِ الاستدراجِ عليه، والتّقديرُ: (لا يعلمون تدرجه)، وللتّنبيهِ إلى أنّه اسْتِدراجٌ عظيمٌ لا يُظنُّ بالمفعولِ به أن يُتَفَطَّنَ له[1].

بيانُ الاستدراجِ العظيمِ الّذي لا يُتفطّنُ له

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

يَعلمُون ويَشعُرُون:

العلْمُ: أصلُ المادّة يدلُّ على أثَرٍ بالشّيء يتميّزُ به عن غيرِه،

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 191/9.

والعلْمُ إدراكُ الشّيءِ بحقيقتِه، وهو ضدُّ الجهلِ، وعلِمْتُ بالشّيءِ شعرتُ به، ويُستعملُ بمعنى المعرفةِ، وما يتكوّنُ في القلبِ من حُكْمٍ على الشّيءِ، والعلْمُ: الاعتقادُ الجازمُ الثّابتُ المطابِقُ للواقعِ[1].

العلْمُ اعتقادٌ جازمٌ مُطابِقٌ للواقعِ، والشّعورُ يُدرَكُ بالحواسِّ

الشُّعورُ: تدورُ مادّةُ شَعَرَ حول معنى العلْمِ بالشّيء علمًا لطيفًا، وهو إدراكٌ يُوصَلُ إليه من وجْهٍ دقيقٍ يُدركُ بالمشاعرِ وهي الحواسُّ، أي علمُ الشّيء علْمَ حسٍّ، ومشاعرُ الإنسانِ حواسُّه، وقوله: (لا تشعرون) معناه: لا تدركونَه بالحواسِّ[2].

إذن: العلمُ والشّعورُ يشتركان في معنى الإدراكِ، إلّا أنَّ الشّعورَ هو إدراكٌ من وجْهٍ دقيقٍ عن طريق المشاعرِ وهي الحواسُّ، بينما العلمُ اعتقادٌ جازمٌ مطابِقٌ للواقعِ، وقد يكون معقولًا ولا يكون محسُوسًا[3].

وقد عبّرَ البيانُ الإلهيُّ بـ﴿يَعْلَمُونَ﴾، دون (يشعرون)؛ لأنّ الشّعورَ هو إدراكٌ بالحواسِّ، ولما كانت حواسُّهم قد عطّلُوها عن وظائفِها، لم يناسبْ أن يُعبّر بـ(يشعرون)، إذْ إنّ كثيرًا مما لا يكونُ محسوسًا قد يكون معقولًا[4]، كما أنَّ من معاني الشّعورِ ابتداءَ الإدراكِ بالشّيءِ من جهةِ المشاعرِ، أمّا العلمُ فهو غايةُ الإدراكِ، وبالتّالي كان التّعبيرُ بـ﴿يَعْلَمُونَ﴾ يُبيّنُ أنّه سُبحانَه اسْتَدرجَهم إلى أبعدِ غايةٍ في الإدراكِ وهي العلمُ، إضافةً إلى ذلك فإنّ عظَمةَ المستدرَجِ لهم سبحانه يُناسبُها أن يكونَ الاستدراجُ ﴿مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ لا من حيث لا يشعرون؛ إذ قد يكونُ الاستدراجُ من حيث لا يُشْعِرُ المستدرِجُ به أيَّ أحد، ولا يشعر المُستدرَج بأيّ خطب، ولو أراد أن يَعلَمَ لم يعلَمْ.

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (علم).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (شعر).
(3) الفيروزاباديّ، بصائر ذوي التمييز: 125/2.
(4) الفيروزاباديّ، بصائر ذوي التمييز: 125/2.

﴿وَأُمۡلِي لَهُمۡۚ إِنَّ كَيۡدِي مَتِينٌ ١٨٣﴾ [الأعراف: 183]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

تدبيرُ اللهِ المحكمُ، يَستلزمُ اقترانَ الإمهالِ، قبلَ إنزالِ العقوبةِ في المآلِ

بعد أن ذكرَ اللّه حُكمَه وسُنّتَه في المكذِّبين بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَنَسۡتَدۡرِجُهُم مِّنۡ حَيۡثُ لَا يَعۡلَمُونَ﴾، أتْبعَه بما يقترنُ به وهو الإملاءُ والتّأخيرُ وإطالةُ العمُرِ، حتّى تزدادَ حريّةُ حركتِهم في الحياة، لإقامةِ الحُجّةِ الدّامغةِ عليهم.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَأُمۡلِي﴾: من (ملي) الميمُ واللّام والحرفُ المعتلّ كلمةٌ واحدةٌ وهي الزّمنُ الطّويلُ، وأقام مَلِيًّا: أي دهرًا طويلًا، والملاوَةُ بالكسر والفتح والضَّمّ منَ الدَّهر وهي الحينُ، والإملاءُ: الإمهالُ والتّأخيرُ وإطالةُ العمُرِ[1].

ومعنى ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَنَسۡتَدۡرِجُهُم مِّنۡ حَيۡثُ لَا يَعۡلَمُونَ﴾: أؤخِّرُهم وأُمهِلُهم؛ فلا يأخذُهم سُبحانَه مرّةً واحدةً، بل يمدُّ لهم في الزّمن ويُدنِيهم منَ العذاب شيئًا فشيئًا[2].

2) ﴿كَيۡدِي﴾: أصلُ (كَيْد) يدلُّ على معالجةٍ لِشَيءٍ بِشِدَّةٍ، والكيدُ: ضربٌ منَ الاحتيالِ، وقد يكونُ مَذمومًا وقد يكون ممدوحًا، وإن كان يُستعمَلُ في المذموم أكثَرَ، والكيدُ: التّدبيرُ المحكَمُ الشّديدُ وتنفيذُه، ويُسمّون المكرَ كيدًا[3].

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (ملي).
(2) ابن جرير الطبري، تفسير الطبري جامع البيان: 288/13، والمراغيّ، تفسير المراغي: 120/9.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (كيد)، ولا تُنسب صفةُ (الكيد) إلى الله على وجه الإطلاق وإنما تُقيد بما هو كيدٌ بحقٍّ؛ وهو الكيدُ بالكافرين والكيد بالظالمين والكيدُ بالماكرين ونحوهم، فهي صفةُ كمالٍ إذا كانت في مقابلة من يفعلون ذلك. يراجع: ابن عثيمين، شرح العقيدة الواسطية، ص: 217 - 218.

والمعنى هنا: (إنَّ مَكْرِي وأخْذي لهم شديدٌ)، وسمّاه كيْدًا؛ لأنَّ ظاهرَه إحسانٌ وباطنَه خِذلانٌ، فهو أخذٌ شديدٌ على غِرّةٍ[1].

3) ﴿مَتِينٌ﴾: يقال: مَتُنَ يَمْتُنُ مَتانةً، أي: قَوِيَ، وأصلُ (متن) يدلُّ على صلابةٍ في الشَّيءِ مع امتدادٍ وطولٍ، ومنه المَتْنُ، وهو الوسَطُ؛ لأنّه أقوى ما في الحيوان[2].

ومعنى ﴿مَتِينٌ﴾ هنا: قويٌّ شديدٌ، لا يُمكن لأحدٍ قطعُه، ولا انفلاتَ منه للمكيدِ[3].

المَعْنى الإجْماليُّ:

إمْهالُ اللهِ للمكذِّبين ظاهرُه إحسانٌ، وباطنُه خِذْلان

من سُنّةِ الله أنه لا يأخذُ المكذِّبين بآياته بمجرّدِ تكْذيبِهم - فهم لا يفوتونَه ولا يُعجزونه -، بل يُمهلُهم ويُطيلُ لهم مُدّةَ عُمُرِهم ليَختبرَهم بالآياتِ الدّالّةِ عليه، فيُزيّنُ لهم سُوءَ عملِهم، ويُغدقُ عليهم الرّزقَ، حتى إذا تمادَوْا في شرِّهم ومعاصِيهم، وبلغُوا الغايةَ التي كُتِبَتْ لهم منَ الإمهالِ، ولم تَهدهِمُ النّعمةُ، ولم يَحُسّوا بشُكرِها أخذَهم اللّهُ تعالى من حيثُ لا يحتسِبون؛ وذلك من تمامِ استدراجِ الله إياهم[4].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

معنَى (الواو) في الآيةِ:

في العطْفِ تهديدٌ، وفي الاسْتِئنافِ تقريرٌ

الواوُ في قوله تعالى: ﴿وَأُمْلِي لَهُمْۚ﴾ إمّا أن تكونَ حرفَ عطْفٍ: عطفتِ الآيةَ على قوله: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم﴾، فشاركتْها في الدّخول تحت حُكْمِ الاستقبال، أي: وسأُملِي لهم[5].

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 43/3، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 298/3.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (متن).
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 192/9، والبقاعيّ، نظم الدرر: 179/8.
(4) ابن جرير، جامع البيان: 287/13، والفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 419/15.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 192/9.

أو أنَّها عطفٌ ولكنْ غيرُ داخلٍ في حكْمِ السّين؛ لِمَا أنَّ الإملاءَ الّذي هو عبارةٌ عنِ الإمهالِ والإطالةِ، ليس منَ الأمورِ التّدريجيّةِ كالاسْتدراجِ الحاصلِ في نفسِه شيئًا فشيئًا، بل هو فعلٌ يحصلُ دُفعةً[1]، ويُلوّحُ بذلك تغييرُ التّعبيرِ بتوحيدِ الضّميرِ، أي لم يقلْ: (سنُملي لهم)[2]، أو أنّ الواوَ للاستئناف، أي: (وأنا أملي لهم)[3].

بَلاغةُ الالْتفاتِ من ضميرِ التّكلُّمِ بالجمْعِ، إلى ضميرِ التّكلُّمِ بالمفردِ:

التّلوينُ في الخطابِ، منَ البيانِ المُفصِحِ الجذّابِ

خرج السِّياقُ من ضميرِ التّكلُّم بنون العظَمةِ ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم﴾ إلى ضميرِ التّكلّمِ بالمفردِ ﴿وَأُمْلِي لَهُمْ﴾؛ تلوينًا في الخطاب، أي: تَفنّنًا في الفصاحةِ وتنويعًا في الكلام، وبعضُ المفسّرين عدَّه شبيهًا بالالتفاتِ؛ لأنّ جهةَ الكلام، وهي التكلُّمُ لم تتغيّرْ، والالتفاتُ يكونُ من جهة لأخرَى من جهاتِ الكلامِ الثّلاثِ[4]، والرّاجحُ هو التّفنّنُ؛ فبابه أوسعُ منَ الالتفات، "والمغايرةُ بين فعْلَيْ (نستدرج) و(أملي) في كون ثانيهما بهمزةِ المتكلِّم، وأوّلِهما بنون العظمةِ مُغايرةٌ اقتضتْها الفصاحةُ من جهةِ ثقَلِ الهمزة بين حرفيْن متماثلَيْن في النُّطقِ في ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم﴾، وللتّفنّنِ والاكتفاءِ بحصولِ معنى التّعظيم الأوّلِ"[5]، وهذا التّفنّنُ يُنبئُ عن مزيدِ الاعتناءِ بمضمونِ الكلامِ لابتنائه على تجديدِ القصّةِ والعزيمةِ، وجعَلَه غيرُ واحدٍ داخلًا في حُكمِها[6]، و"لأنَّ الاستِدراجَ يَكونُ بواسطَةٍ وبغيرِها، فَكَأنَّهُ قالَ: سَأسْتَدرجُهم بنَفسِي مِن غيرِ واسطةٍ تارَةً، وبِمَن أُتيحَ لَهُمُ النِّعَمُ على يَدِهِ مِن عَبيدِي وجُنُودِي أُخرى؛ وأمّا الإملاءُ وهو تطويلُ الأجلِ فَلا يُتصَوَّرُ أنْ يَكونَ إلّا مِنَ اللّهِ تعالى"[7].

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/298.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 5/118.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 5/118.
(4) الآلوسيّ، روح المعاني: 5/118.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 9/192.
(6) الآلوسيّ، روح المعاني: 5/118.
(7) البقاعي، نظم الدرر: 8/179.

بَلاغةُ التّذْيِيلِ التّعليليّ التّأكيديّ في ختامِ الآيةِ:

كيدُ الله القويُّ تدبيرٌ خفيٌّ، لا يملكُ المَكورُ به دفعَه ولا توقِّيَه

ذيّلَ البيانُ الإلهيُّ بهذه الجُملةِ: ﴿إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ﴾؛ ليزدادَ بها المعنى اتّضاحًا، تأكيدًا وتعليلًا؛ فمن معاني (إنَّ) التأكيدُ والتّعليلُ، وقولُه تعالى: ﴿إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ﴾ جملةٌ مُقرِّرةٌ لما قبْلَها منَ الاسْتدراج والإملاءِ، ومُؤكِّدةٌ له؛ فهو سُنّةُ اللّه التي لا تتخلَّفُ[1]، وهي كذلك في موضِعِ العِلَّةِ للجُملَتينِ قبْلَها: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم﴾، ﴿وَأُمْلِى لَهُمْ﴾؛ لأنَّ الاستدراجَ والإملاءَ ضَربٌ مِن الكَيدِ، وكيدُ اللّه متين، أي: قويٌّ لا انفلاتَ منه للمكيدِ، فيفيدُ أنّه استدراجٌ إلى ما يكرهونَه، وتأجيلٌ لهم إلى حلولِ ما يكرهونَه، والمعنى: يكون ذلك الاستدراجُ وذلك الإملاءُ بالغَيْن ما أردْناه بهم؛ لأنّ كيدِي قويٌّ[2].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الإملاءُ والإمْهالُ:

الإملاءُ يدلُّ على الامْتِدادِ دهْرًا طويلًا، والإمْهالُ إنظارٌ برِفْقٍ

أمْلِي: من (مَلِيَ) وتدلُّ على امتدادٍ في شيءٍ زمانٍ أو غيرِه، أقام مَلِيًّا: أي دهرًا طويلًا، والملاوَةُ بالكسر والفتح والضَّمِّ منَ الدّهر؛ وهي الحينُ، والإملاءُ: الإمهالُ والتّأخيرُ وإطالةُ العُمُرِ[3].

الإمهالُ: من المهْلِ: التُّؤَدةُ والسُّكونُ والامتدادُ؛ ويؤخذُ من هذه المعاني معنَى التّراخِي والتّباطُؤِ، وأمْهَله: أنْظَره ورفَقَ به، ولم يَعْجَلْ عليه[4] والإملاءُ والإمهالُ متقاربان دَلاليًّا؛ يشتركان في معنى: الامتدادِ والتّأخيرِ والإطالةِ، ويتميّزُ الإملاءُ بالدّلالةِ على الدّهرِ الطّويلِ أي: (إطالةُ المدّة)، ويتميّزُ الإمهالُ بالتُّؤَدةِ وعدمِ العَجلةِ والإنظارِ برِفْقٍ.

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 298/3.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 192/9.
(3) ابن فارس، المقاييس: (ملي)، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (ملي).
(4) ابن فارس، المقاييس: (مهل)، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (مهل).

وقدِ اختارَ النَّظمُ الكريمُ لفظةَ ﴿وَأُمْلِي﴾؛ لأنّها تدلُّ على الزّمنِ الطّويلِ، يقال: وأقام مَلِيًّا: أي دهرًا طويلًا، والملاوَةُ منَ الدّهرِ وهي الحينُ، والإملاءُ: الإمهالُ والتّأخيرُ وإطالةُ العُمرِ[1]، كما أنّها بذلك أنسبُ لِسُنّةِ الاستدراجِ التي تقومُ على الزّمن الطّويلِ، أمّا الإمهالُ فإنّه وإن كان فيه التّراخِي إلا أنَّ الزّمنَ قد يكونُ طويلًا أو قصيرًا، كما أنّ فيه إنظارًا برِفْقٍ، وهذا لا يتناسبُ مع السّياقِ الذي هو سِياقُ تهديدٍ للمُصرِّين على الكُفْرِ الملْحِدين في أسماء اللّه.

(1) ابن فارس، المقاييس: (ملي)، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (ملي).

﴿أَوَلَمۡ يَتَفَكَّرُواْۗ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍۚ إِنۡ هُوَ إِلَّا نَذِيرٞ مُّبِينٌ ١٨٤﴾

[الأعراف: 184]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الرّبْطُ بين إملاءِ اللهِ وإمهالِه للمُشركين، وإنكارِه عدمَ تفكُّرِهم بحالِ الرّسولِ الأمينِ

لَمَّا بالغَ ﷻ في تهديدِ المُعرِضينَ عن آياتِه، الغافلينَ عنِ التَّأمُّلِ في دلائلِه وآلائِه، وختمَ الأمرَ باسْتدراجِهم، وكانوا قد واقعُوا منَ المعاصي ما لا يَجْترِئُ عليه إلَّا مطموسُ البصيرةِ، وخاصَّةً في عبادتِهم للحجرِ، ومُنابَذتِهم لأكملِ البشرِ، ووصفِه بالجنونِ والسِّحرِ وغيرِ ذلك، وهو تعالى مع ذلك يُوالي عليهمُ النِّعمَ، ويدفعُ عنهمُ النِّقمَ، وهم بهذا السُّوءِ يُنكِرُ عليهم عدمَ تفكُّرِهم برسولِه ﷺ الذي طالتْ خبرتُهم به، بمتانةِ عقلِه، وفضلِ شمائلِه، أنَّه لا يمكنُ أنْ يكونَ كما وَهِموا أنَّ به أيَّ حالةٍ من حالاتِ الجنونِ؛ بل هو حَصْرًا بالغٌ في نذارتِه، موضّحٌ لهم طريقَ الحقِّ بجميعِ بيِّناتِه وأدلَّتِه[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَتَفَكَّرُواْۗ﴾: الفِكْرةُ: قوَّةٌ مُطْرِقةٌ للعلمِ إلى المعلومِ، والتَّفكُّرُ: جَوَلانُ تلكَ القوَّةِ بحسَبِ نَظرِ العقلِ، وذلكَ للإنسانِ دونَ الحيوانِ، ولا يُقالُ إلَّا فيما يمكنُ أن يحصلَ له صورةٌ في القلبِ، قالَ تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَتَفَكَّرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۗ﴾ [الرُّوم: 8]، والتَّفكُّرُ: التَّأمُّلُ، والاسْمُ: الفِكرُ والفِكرةُ، والمصدرُ: الفَكْرُ بالفتحِ، ورجلٌ فَكيرٌ: كثيرُ الفِكرةِ، والفَكْرُ مقلوبٌ عنِ الفَرْكِ، لكن يُستعمَلُ الفكرُ في المعاني، وهو فرْكُ الأمورِ وبحثُها طلبًا للوصولِ إلى حقيقتِها[2]، وقولُه تعالى هنا: ﴿يَتَفَكَّرُواْۗ﴾

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 419/15، والبقاعي، نظم الدُّرر: 179/8 - 180.
(2) الرّاغب، المفردات، والرّازي، مختار الصّحاح: (فكر).

أي: يُعمِلُوا أفكارَهم ويُمعِنوا في ترتيبِ المقدِّماتِ؛ ليعلموا أنَّه لا يتوجَّه لهم طعنٌ يُورِثُ شُبهةً بوجهٍ منَ الوُجوه[1].

2) ﴿جِنَّةٍۚ﴾ أصلُ الجِنِّ: سَترُ الشَّيءِ عنِ الحاسَّةِ، يُقالُ: جنَّهُ اللَّيلُ وأَجَنَّهُ وجنَّ عليه، فَجَنَّهُ: سَتَره، وأَجَنَّه: جعلَ له ما يَجِنُّه، أي: يَستُرُه، والجِنَّةُ: جماعةُ الجنِّ، قالَ تعالى: ﴿مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ٦﴾ [النَّاس: 6]، والجِنَّةُ: الجنونُ، وقالَ تعالى: ﴿مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍۚ﴾ [سبأ: 46]، أي: جُنون، والجنونُ: حائلٌ بين النَّفسِ والعقلِ[2]، وفي قولِه تعالى هنا: ﴿مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍۚ﴾ أي: جنونٌ؛ بل هو رسولُ اللّه حقًّا[3].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

الـدّعـوةُ إلى التّفكُّر في أمْرِ الرَّسولِ المبلِّغِ عن ربِّه، ودَفْعُ تُهمةِ الجنونِ عنه

يُنكِر اللّهُ تعالى على أولئك الكَفَرةِ من قُريشٍ مع التَّعجيبِ من حالِهم؛ فيقولُ: أَوَ لم يُعمِلوا أفكارَهم، وينظرُوا: هل في صاحبِهمُ الذي يَدْعونَه بالأمينِ، والَّذي يعرفونَه ولا يَخفى عليهم من حالِه شيءٌ، هل به جُنونٌ؟! فَلْينظُروا في أخلاقِه وهَدْيِه، وعَدْلِه وصفاتِه، وينظُرُوا فيما دَعا إليه، فلا يَجدون فيه منَ الصِّفاتِ إلَّا أكملَها، ولا مِنَ الأخلاقِ إلَّا أتمَّها، ولا من العقلِ والرَّأيِ إلَّا ما فاقَ به العالمين، ولا يدعو إلَّا لكلِّ خيرٍ، ولا يَنهى إلَّا عن كلِّ شرٍّ، لقد جاءَ نذيرًا لكم وللعالَمين، ومحذِّرًا لكم منَ العذابِ الأليمِ، وناصحًا لكم وقائدًا إلى جنَّاتِ النَّعيمِ[4].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

مَوقعُ ﴿أَوَلَمۡ يَتَفَكَّرُواْۚ﴾ ممَّا قبْلَه ودَلالتُه:

التّنْبيه وإقامةُ الحُجَّةِ

الجُملةُ في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَتَفَكَّرُواْۚ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍۚ﴾

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 180/8.

(2) الرّاغب، المفردات، والرَّازي، مختار الصِّحاح: (جنن).

(3) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 249/2.

(4) ابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 483/2، والسَّعدي، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 264.

مُستأنفَةٌ، وهي ابتداءُ كلام في مُحَاجَّتِهم وتَنْبيهِهم بعدَ الإخبارِ عنهم بأنَّهم مُستدرَجونَ ومُمْلًى لهم[1].

بَلاغةُ الاسْتفهامِ في قولِه: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟﴾:

جاءتْ همزةُ الاسْتفهامِ تسوقُ معها ثلاثةَ جُنودٍ ضَرِسَة: الإنكارُ والتَّعجيبُ والتَّوبيخُ من حالِهم المُقذِعِ في ادِّعائهم ذاك، وهو ﷺ الملقَّبُ عندَهم بالصَّادقِ الأمين، وتوبيخٌ لهم عمَّا جنَتْه أفكارُهم وأوهامُهم المُتهافتةُ من اتِّهاماتٍ باطلةٍ وأكاذيبَ مُضلِّلةٍ[2].

الإنكارُ والتَّوبيخُ للكافرين، تعريضٌ بإهمالِهم نِعمةَ العقْلِ

نُكتةُ حذْفِ المعطوفِ عليه في ﴿أَوَلَمْ﴾:

الواوُ في قولِه تعالى: ﴿أَوَلَمْ﴾ للعطْفِ على محذوفٍ مُقدَّرٍ يَسْتدعِيه سِياقُ النَّظْمِ الكريمِ وسِياقُه، وتقديرُه: (أغَفَلوا وَلم يتفكَّرُوا، أو أجُنّوا ولم يتفكَّروا)؟، "أو يكونُ تقديرُ الكلام: (أوَلم يتفكَّروا في قولِهم به جِنَّة)؟[3].

تَظهرُ هذه البلاغةُ في سِياقِ النَّظْمِ الكريمِ سِباقِه ولِحاقِه

دَلالةُ اسْتخدامِ الفعلِ المضارعِ ﴿يَتَفَكَّرُوا۟﴾:

الفعلُ المضارعُ يقتضِي التَّجدُّدَ والاسْتمرارَ، والفعلُ من هذا القبيلِ، فهو باعثٌ لهم على ضرورةِ اسْتصحابِ التَّفكُّرِ في شأنِ رسولِ اللّه ﷺ وانْتفاءِ الجِنَّةِ عنه الَّتي يدَّعونَها زورًا وبُهتانًا، وتحريضٌ لهم كذلك على اسْتمرارِ التَّأمُّلِ في حالِهم وموقفِهم من دعوتِه، وحالِ ما كانوا عليه قبلَ دعوتِه من عبادةِ أصنامٍ لا تضرُّ ولا تنفعُ، هم صنعُوها واتَّخذوها آلهةً! والتَّفكُّرُ من أعمالِ القلوبِ، فهو بمعنَى التَّأمُّلِ والتَّدبُّرِ، فلا يمكنُ لمن أَمْعَنَ في التَّفكُّرِ وإعمالِ العقلِ أنْ يصفَ رسولَ اللّه ﷺ بأيِّ وصْفٍ يُخالفُ حقيقةَ ما علِموهُ هم عنه وعايَنُوه منه عن قُربٍ وصُحبةٍ[4].

دَيْدَنُهم عدَمُ التَّفكُّرِ، في صدْقِ رسولِ الله ﷺ وأحقّيّةِ دعْوتِه

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السليم: 441/2، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 193/9.
(2) أبو حيَّان، البحر المحيط: 234/5، والسَّمين الحلبي، الدُّرُّ المصون: 525/5.
(3) أبو حيَّان، البحر المحيط: 234/5، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السليم: 441/2.
(4) أبو حيَّان، البحر المحيط: 234/5، والسَّمين الحلبي، الدُّرُّ المصون: 525/5.

سِرُّ تعليقِ الفعْلِ ﴿يَتَفَكَّرُوا۟﴾، ودَلالتُه في السِّياقِ:

تَعليقُ الفعْلِ ضربٌ من ضروبِ الإيجازِ البليغِ

قولُه تعالى: ﴿يَتَفَكَّرُوا۟﴾ فعلٌ منزَّلٌ منزلةَ اللَّازمِ؛ فلا يقدَّرُ له متعلَّقٌ للاسْتغناءِ عن ذلك بما دلَّ عليه النَّفيُ في قولِه تعالى: ﴿مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ﴾، أي: أَلَمْ يكونُوا منَ المفكِّرين أَهْلِ النَّظرِ؟!

والفعلُ المعلَّقُ عنِ العملِ لا يُقدَّرُ له مفعولٌ ولا مُتعلَّقٌ، والمقصودُ من تعليقِ الفعلِ هو الانْتقالُ من علْمِ الظَّانِّ إلى تحقيقِ الخبرِ المظنونِ وجَعْلِه قضيَّةً مُستقلَّةً، فيصيرُ الكلامُ بمنزلةِ خَبَرَيْن: خبرٍ من جانبِ الظَّانِّ ونحوِه، وخَبرٍ من جانبِ المتكلِّم دخَلَ في قسْمِ الواقعاتِ، فَنحوُ قولِه تعالى: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [الأنبياء: 65] هو في قوَّةِ أن يُقالَ: لقد علمتَ لا يَنطِقون، ما هؤلاء يَنطِقون، أي: ذلكَ علمُكَ وهذا عِلْمي، وقولُه هنا: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ﴾ في قوَّةِ: (أَوَلَمْ يتفكَّروا صاحبُهم غيرُ مجنون، ما بصاحبِهم من جِنَّة)؟ فتعليقُ أفعالِ القلبِ ضربٌ من ضروبِ الإيجازِ، وهو غرَضٌ من أغراضِ أُسلوبِ التَّعليق؛ وهو من خصائصِ البلاغةِ العربيَّةِ الضَّافية[1].

بَلاغةُ الحذْفِ، في قولِه: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟﴾:

انْتفاءُ وصْفِهم الخبيثِ لرسولِ اللهِ ﷺ لا محالةَ؛ لأنَّه مُكمَّلٌ معصومٌ

الحذفُ في قوله: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟﴾ إمّا أن يكونَ مجرورًا لتعليق الفعْلِ، والمعنَى: أَوَلم يتأمَّلُوا ويتدبَّروا في انتفاءِ هذا الوصفِ عنِ الرَّسول ﷺ؛ فإنَّه مُنتَفٍ لا محالةَ، ولا يمكنُ لمن أَنْعمَ الفكرَ في نسبةِ ذلك إليه، وإمَّا أن يكونَ المحذوف فعلًا مُضمَرًا، أي: فيعلمُوا ما بصاحبِهم من جِنَّة[2]، والمعنيانِ مُرادان، ولو ذكرَ لاقتصرَ على واحدٍ منهما دونَ الآخر، ففي الحذْفِ توسيعٌ للمعنى، ويمكنُ أن يكونَ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 194/9.

(2) أبو حيَّان، البحر المحيط: 234/5، وذكر أنَّ هناك من يرى أنَّ ﴿يَتَفَكَّرُوا۟﴾ لا تُعلَّق؛ لأنَّه لا يدخُل على الجمل، ودلَّ التَّفكُّرُ على العلم.

الكلامُ تمَّ عند قولِه: ﴿يَتَفَكَّرُواْ﴾؛ إنكارًا لعدمِ تفكُّرِهم في شأنه، ثمَّ اسْتأنَفَ إخْبارًا بانْتفاءِ الجِنَّةِ وإثباتِ النَّذارَة؛[1] تعجيبًا وتبكيتًا لهم.

معنَى ﴿مَا﴾ بين الاسْتفهامِ والنَّفْيِ، ودَلالةُ ﴿مَا بِصَاحِبِهِم﴾:

الاسْتِفهامُ الإنكاريُّ التّوبيخيُّ، إلجاءٌ للخصْمِ إلى تكذيبِ نفْسِه

يجوزُ في ﴿مَا﴾ من قولِه تعالى: ﴿مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍۚ﴾ وجهانِ:

أحدُهما: أن تكونَ اسْتفهاميَّةً في محلِّ رفعٍ بالابْتداء، والخبرُ﴿بِصَاحِبِهِم﴾، أي: أيُّ شَيءٍ استقرَّ بصاحبِهم منَ الجنون؟! والاستفهامُ يكونُ إنكاريًّا توبيخيًّا، وإنّما جاء في صورةِ الاستفهامِ حتى يوضعُوا بمعرضِ الصّادقين، فيطالَبون ببيان نوعِ الجنونِ، فيبحثون فلا يجدونَ شيئًا، فيرتدِعُون ويعيَوْن بالجوابِ.

والثَّاني: أنَّ ﴿مَا﴾ نافيةٌ، وبهذا الوجْهِ يكونُ ﴿مِّن جِنَّةٍۚ﴾ مبتدأً، و﴿مِّن﴾ مزيدةً فيه، و﴿بِصَاحِبِهِم﴾ خبرَه، أي: ما جِنَّةٌ بصاحبِهم[2]، والجملةُ المنفيّةُ تكونُ خبرًا ثابتًا جاء في ثوْبِ الجُملةِ الاسميّةِ؛ لبيان أنَّ نفْيَ هذا الوصْف عنه حقيقةٌ ثابتةٌ مقرّرةٌ، والمعنى: لو فكّروا لانتهَوْا إلى هذه الحقيقةِ الثّابتةِ.

عَلاقةُ الجُملةِ بما قبْلَها على الاسْتفهامِ والنّفْيِ في ﴿مَا﴾:

الاسْتِفهامُ بيانٌ لتناقُضِ التُّهمةِ مع واقعِ الحالِ، والنّفْيُ لانْتِفائِها

المعنَى على الاسْتفهامِ: أَوَلَمْ يتفكَّروا أيَّ شيءٍ بصاحبِهم منَ الجنونِ مع انتظامِ أقوالِه وأفعالِه؟[3]، فتكونُ جملةُ الاستفهامِ من تمامِ معنى ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُواْۚ﴾، ويكونُ النّصبُ على نزعِ الخافضِ، ويكونُ المعنَى على النّفْيِ ابتداءَ كلامٍ مستأنفٍ، تقديرُه: أولَمْ يتأمَّلُوا ويتدبَّروا في انتفاءِ هذا الوصْفِ عنِ الرَّسولِ ﷺ فإنَّه مُنْتفٍ لا

(1) أبو حيَّان، البحر المحيط: 234/5، والسَّمين الحلبي، الدُّرُّ المصون: 525/5.

(2) العكبريّ، التّبيان في إعراب القرآن: 289/1، وأبو حيَّان، البحر المحيط: 234/5، والسَّمين الحلبيّ، الدُّرُّ المصون: 525/5.

(3) العكبري، التبيان في إعراب القرآن: 289/1، وأبو حيَّان، البحر المحيط: 234/5، والسَّمين الحلبي، الدُّرُّ المصون: 525/5.

محالةَ، ولا يُمكنُ لمن أنْعَمَ الفكْرَ في نسَبِ ذلك إليه[1]، فتكونُ الجُملةُ المنفيّةُ بمنزلةِ التّعليلِ للإنكارِ التّوبيخيِّ في ﴿أَوَلَمۡ يَتَفَكَّرُواْۗ﴾، والمعنيانِ مُتعانقانِ.

سِرُّ التّعْبيرِ بالصّحبةِ في قولِه: ﴿بِصَاحِبِهِم﴾:

تأكيدٌ للنَّكيرِ عليهم؛ لطُولِ ملازمَتِهم له، وسبْرِهم غوْرَه قبْلَ النُّبوّةِ

التَّعبيرُ عنه ﷺ ﴿بِصَاحِبِهِم﴾؛ للإيذانِ بأنَّ طُولَ مُصاحبتِهم له ﷺ عن شائبةِ ما ذُكرَ في حقِّه ﷺ منَ الوصْفِ القبيحِ تأكيدٌ للنَّكيرِ وتشديدٌ له، والتَّعرّضُ لنفْيِ الجنونِ عنه ﷺ مع وضوحِ اسْتحالةِ ثُبوتِه له ﷺ؛ لما أنَّ التَّكلُّمَ بما هو خارقٌ لقضيَّةِ العُقولِ والعاداتِ، لا يصدُرُ إلَّا عمَّن به مسُّ الجُنونِ كيفَما اتَّفقَ، من غيرِ أن يكونَ له أصلٌ ومعنَى، أو عمَّن له تأييدٌ إلهيٌّ يُخبرُ به عنِ الأمورِ الغيبيَّةِ، وإذ ليس به ﷺ شائبةُ الأوَّلِ تعيَّنَ أنَّه ﷺ مؤيَّدٌ من عندِ اللّه تعالى، والتَّعبيرُ عنه ﷺ ﴿بِصَاحِبِهِم﴾ كذلكَ هو واردٌ على شاكلةِ كلامِهم، مع ما فيه منَ النُّكتةِ المذكورةِ آنفًا[2]، وكذلكَ فإنَّ وصفَ رسولِ اللّه ﷺ بأنَّه صاحبُ الَّذين كذَّبوا بالآياتِ، هو بمعنَى الَّذين اشْتغلوا بشأنِه ولَزِموا الخَوْضَ في أمرِه، وقد تكرَّرَ ذلكَ في القرآنِ، كقولِه تعالى: ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجۡنُونٖ ٢٢﴾ [التَّكوير: 22][3].

دَلالةُ التَّأكيدِ بـ﴿مِّن﴾ الدَّاخلةِ على نَكرةٍ منفية:

تأكيدُ نفْيِ أيِّ جُنونٍ به ﷺ، وإبطالِ وصْمِه بهذه الشُّبهةِ

النَّكرةُ في سياقِ النَّفْيِ تُفيدُ عمومَ ما سيقتْ لأجلِ نَفْيِه، وهنا جاءَ اسْتخدامُ ﴿مِّن﴾ قبلَ ﴿جِنَّةٖۚ﴾؛ لتأكيدِ نفْيِ وجودِ أيِّ نوعٍ من أنواعِ الجنونِ، أو أيِّ لَوثةٍ منه، وجاءتْ ﴿مَا﴾ قبلَ ﴿مِّن﴾؛ لتفيدَ نفيَ هذا الاتِّهامِ الَّذي أَلْصقوهُ بالرَّسولِ ﷺ، فـ﴿مِّن﴾ هنا لإفادةِ التَّأكيدِ، وكأنَّ بيانَ اللّهِ قالَ: ما جِنَّةٌ بصاحبِهم[4]، وقد أكَّدَ انتفاءَ

(1) ابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 483/2، وأبو حيَّان، البحر المحيط: 234/5.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 442/2.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 194/9.
(4) السَّمين الحلبيّ، الدُّرُّ المصون: 526/5، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 442/2.

ذلك بحرفِ الباءِ الدَّالِّ على الملابَسة، أي: مُلابسَةِ أيِّ جِنَّة، أي: ما بجِنَّةٍ مُلابِسةٍ له[1]، فلم يلابسْه قطُّ أيُّ نوعٍ منَ الجنون ولا أيُّ قَدْرٍ منه.

دَلالةُ التَّنكيرِ في لفظِ ﴿جِنَّةٍۚ﴾:

دلَّ تنكيرُ كلمةِ ﴿جِنَّةٍۚ﴾ على أنَّه ﷺ ليس به أيُّ مَسٍّ جِنَّةٍ أو تخبيطِ جِنَّةٍ، ويمكنُ أن تكونَ بمعنَى هَيْئَةٍ، كالجِلْسةِ والرِّكْبَة، أُريدَ بها المصدَرُ، أي: ما بصاحبِهم من جُنون، أي: نفيُ الجنونِ مُطلقًا عنه ﷺ[2].

الرّسولُ المعصومُ، منُزَّهٌ عن هذا الوصْفِ قليلِه وكثيرِه

بَلاغةُ الخَتْمِ بجُملةِ القَصْرِ:

جاءَ القَصْرُ خاتمةً للآيةِ الكريمةِ بقولِه تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ قَصْرًا مُستفادًا منَ النَّفْيِ والاسْتثناء، قَصْرَ موصوفٍ على صفة، وهو يقتضِي انْحصارَ مهمّةِ الرَّسولِ ﷺ في النِّذارَةِ والبيانِ، وذلكَ قَصرٌ إضافيٌّ، هو قَصْرُ قَلْبٍ، أي: هو نذيرٌ مبينٌ لا مجنونٌ كما يَزعمُون، وفي هذا اسْتغباءٌ أو تسفيهٌ لهم بأنَّ حالَه لا يَلْتبِسُ بحالِ المجنونِ لِلْبَوْنِ الواضحِ بين حالِ النِّذارَةِ البيِّنةِ وحالِ هَذَيانِ المجنون، فَدَعْواهم جُنونَه: إمَّا غباوَةٌ منهم بحيث الْتبسَتْ عليهمُ الحقائقُ المُتمايزةُ، وإمَّا مكابرَةٌ وعِنادٌ وافْتراءٌ على الرَّسولِ ﷺ[3].

مُهمّة الرَّسولِ ﷺ مُنحصِرةٌ في النِّذارَةِ والبَيانِ

إيثارُ اصْطفاءِ النَّفْيِ والاستثناءِ طريقًا للقَصْرِ على (إنَّما):

القصْرُ بطريقِ النَّفْيِ والاستثناءِ، في قوله: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ يُقوِّي المعنى ويُؤكِّدُه، وفيه تخفيفٌ عنِ النَّبيِّ ﷺ ببيانِ مُهمّتِه وتحديدِها بأُسلوبٍ لا يُدخلُ ما يُطالبونَه به منَ المعجزاتِ والخوارقِ، كما جاء في سورة الإسراء: ﴿وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ﴾، فخاطبَهمُ القرآنُ

خطابُ المنْكِرِ يقتضِي استخدامَ أقوَى الأساليبِ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 195/9.
(2) أبو حيَّان، البحر المحيط: 234/5، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 442/2.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 195/9 - 196.

خطابَ المنكرين لهذه المهمّةِ بدليلِ مُطالبتِهم إياه بغيرها، وطريقُ النّفْيِ والاستثناء يأتِي في مواجهةِ المنكرِ، ولا يلائمُه أسلوبُ (إنّما) الذي يأتِي فيما لا يُنكرُه المخاطَبُ.

عَلاقةُ جُملةِ القَصْرِ بما قبْلَها:

قولُه تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ جُملةٌ مُقرِّرةٌ لمضمونِ ما قبْلَها، ومُبيِّنةٌ لحقيقةِ حالِه ﷺ، وهو قولُه: ﴿مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ﴾، فَفُصِلتْ لكمالِ الاتِّصالِ بينَهما المُغْني عنِ العَطْف[1].

تحديدُ المهمّةِ، تَقويةٌ لنفْيِ التُّهمةِ

دَلالةُ التَّنكيرِ في وصْفِ النّبيِّ المرسَلِ، بأنّه ﴿نَذِيرٌ﴾:

دلَّ تنكيرُ ﴿نَذِيرٌ﴾ على المبالغةِ في الإنْذار، وإظهارِه غايةَ الإظْهارِ؛ إبرازًا لكمالِ الرَّأفةِ، ومبالغةً في الإعْذار إلى ربِّه[2].

قيامُ الرّسولِ بالإنذارِ، إعذارٌ إلى ربّه، وقِيامٌ بما أُنِيطَ به

دَلالةُ الصِّفةِ في لفْظِ ﴿مُّبِينٌ﴾:

الغرَضُ من إتْباعِ (النَّذير) بوصفِ (المبين) التَّعريضُ بالَّذينَ لم يَنْصاعُوا لِنَذارتِه، ولم يأخُذوا حِذرَهم منها، وذلكَ يقطعُ عُذرَهم[3].

إبانةُ خطابِ الدّعوةِ، تحقيقٌ للإنذارِ، وهو أبْلَغُ إعْذارٍ

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 442/2، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 195/9.

(2) إرشاد العقل السّليم: 442/2.

(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 195/9.

﴿أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْۖ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ١٨٥﴾ [الأعراف: 185]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

رَبْطُ نفْيِ تُهمةِ الجنونِ على النّبيِّ المأمونِ، بالدّعوةِ إلى النّظرِ والاسْتِدلالِ العَقْليِّ

لَمَّا كانَ النَّظرُ في أمرِ النُّبوَّةِ مُفرَّعًا على تقريرِ أدلَّةِ التَّوحيدِ، وكانَ المقصودُ منَ الإنذارِ بقولِه فيما تقدَّم: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ الرُّجوعَ عنِ الإلحادِ، قالَ مُنْكِرًا عليهم عَدَمَ النَّظرِ في دلائلِ التَّوحيدِ الرَّادِّ عن كلِّ حالٍ سيِّئٍ: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُواْ﴾ نظرَ تأمُّلٍ واعْتبارٍ، نظرَ بَصيرةٍ لا بَصَرٍ، إشارةً إلى كلِّ ذرَّةٍ فيها دَلائلُ جَمَّةٌ في ملكوتِ السَّماواتِ والأرضِ على وجودِ اللّهِ ووَحدانيَّتِه وكمالِه وجمالِه وجلالِه، ويَنظُروا كذلك نظرَ إشفاقٍ وخوْفٍ من أنَّه مُمكنٌ وخليقٌ أنْ يكونَ قدْ دَنا أجَلُهم دُنُوًّا عظيمًا، فيجتهِدُوا في الاسْتعدادِ لذلكَ اليومِ والخَلاصِ من سُوءِ عاقبتِهم، فدعاهم القرآن إلى النّظرِ والاسْتِدلالِ العقليِّ[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مَلَكُوتِ﴾: مَلَكَهُ يَملِكُه بالكسرِ (مِلْكًا) بكسر الميم، وبفتحِ الميم (مَلْكًا)، وبضمها، والفتحُ أفْصحُ، والمَلَكوتُ: من المُلك، مختصٌّ بملكِ اللّهِ، وهو مَصدرُ مَلَكَ، أُدْخِلَتْ فيه التَّاءُ للمبالغة، نحو: رَحَموتٌ ورَهَبوت، قالَ تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأنعام: 75][2]، وقولُه تعالى هنا: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: فيما خلقَ اللّهُ، فإنَّ في كلِّ مخلوقاتِه

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 420/15 - 421، والبقاعي، نظم الدُّرر: 181/8 - 183.
(2) الرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (ملك).

عِبرةً للمُعتَبِرين، ومَوْعظةً للمُتفكِّرين، وأخَصُّها ما كانَ من جلائلِ مصنوعاتِه كمَلكُوتِ السَّماواتِ والأرض[1].

2) ﴿أَجَلُهُمۡۖ﴾: الأَجَلُ: المدَّةُ المضروبةُ للشَّيء، قالَ تعالى: ﴿وَلِتَبۡلُغُوٓاْ أَجَلٗا مُّسَمّٗى﴾ [غافر: 67]، ويُقالُ: دَيْنُه مُؤجَّلٌ، وقد أجَّلْتُه: جعلتُ له أجلًا، ويُقالُ للمدَّةِ المضروبةِ لحياةِ الإنسانِ: أَجَلٌ، فيُقالُ: دَنَا أَجَلُه، عبارةٌ عن دُنُوِّ الموت، وأصلُه: اسْتيفاءُ الأَجَل، أي: مُدَّةُ الحياة[2]، وقولُه تعالى هنا: ﴿قَدِ ٱقۡتَرَبَ أَجَلُهُمۡۖ﴾، أي: حدُّ الموتِ، فيموتونَ من قَريب[3]، يجوزُ أن يكونَ المرادُ بالأجلِ في الآية مجيءَ السَّاعة، وانْقراضَ هذا العالَم، فهو أجلُهم وأجلُ غيرِهم منَ النَّاس، واقترابُ الأجلِ اقترابُ السَّاعةِ، ويكونُ هذا الكلامُ تخويفًا لهم من يومِ الجزاء، لعلَّهم يعودون إلى الرُّشدِ وإلى الصِّراط المستقيم[4]، ويجوزُ أنْ يُرادَ بالأجلِ الموتُ، فكلُّ من ماتَ انْقَضى أجلُه، وحلَّتْ ساعتُه، وفي ذلك تخويفٌ وإنذارٌ شديدٌ لهم[5].

3) ﴿حَدِيثٖ﴾: حَدَثَ: الحاءُ والدَّالُ والثَّاءُ أصلٌ واحدٌ، وهو كونُ الشَّيءِ بعدَ أنْ لم يكُنْ، عَرَضًا كانَ أو جَوْهرًا، وإحداثُه: إيجادُه، والحديثُ من هذا؛ لأنَّه كلامٌ يحدُثُ منه الشَّيءُ بعدَ الشَّيء، وكلُّ كلامٍ يبلُغُ الإنسانَ من جهةِ السَّمْعِ أوِ الوَحْي في يَقظتِه أو منامِه يُقالُ له: حَديثٌ، قالَ ﷻ: ﴿وَإِذۡ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعۡضِ أَزۡوَٰجِهِۦ حَدِيثٗا﴾ [التَّحريم: 3]، وقالَ تعالى: ﴿وَعَلَّمۡتَنِي مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِۚ﴾ [يوسف: 101]، أي: ما يُحدِّثُ به الإنسانُ في نومِه، وسمَّى اللّٰهُ كتابَه حديثًا، فقالَ: ﴿فَلۡيَأۡتُواْ بِحَدِيثٖ مِّثۡلِهِۦٓ﴾ [الطُّور: 34]، وقالَ تعالى: ﴿وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثٗا ٨٧﴾ [النِّساء: 87][6]، وقولُه تعالى هنا: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٖ بَعۡدَهُۥ يُؤۡمِنُونَ﴾ أي: بأيِّ حديثٍ أحقُّ من حديثِ الإيمانِ بالقرآنِ قبلَ اقْترابِ أجلِهم وفَوْتِ حياتِهم يُريدونَ أنْ يُؤمنوا[7]؟!

المَعْنى الإجْماليُّ:

يُخاطبُ اللّٰهُ تعالى الكافرينَ فيقول: أَوَلم ينظرْ هؤلاءِ المكذِّبونَ بآياتِنا في مُلكِ اللّٰهِ

(1) الشَّوكاني، فتح القدير: 388/2.
(2) الرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (أجل).
(3) الرّاغب، المفردات: (أجل)، والشّوكاني، فتح القدير: 388/2.
(4) الزَّمخشري، الكشَّاف: 133/2، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 198/9.
(5) أبو حيَّان، البحر المحيط: 235/5، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السليم: 443/2.
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (حدث).
(7) الزَّمخشريّ، الكشَّاف: 134/2.

وسُلطانِه في السَّماواتِ والأرض، وفيما خلقَ من شيءٍ فيهما، فيتدبَّروا ذلكَ ويَعتبِرُوا به، ويَعلَموا أنَّ ذلكَ لمن لا نَظيرَ له ولا شَبيهَ، ومِنْ فعلِ مَنْ لا يَنبغي أنْ تكونَ العبادةُ والدِّينُ الخالصُ إلَّا له فيُؤمِنُوا به ويُصدِّقوا رسولَه، ويُنيبُوا إلى طاعتِه، ويَخلعُوا الأنْدادَ والأوثان، ويَحذَروا أن تكونَ آجالُهم قدِ اقْتربتْ فيَهلِكوا على كُفرِهم ويَصيروا إلى عذابِ اللهِ وأليمِ عقابِه، فبأيِّ تخويفٍ وتحذيرٍ وترهيبٍ بعدَ تحذيرِ محمَّدٍ ﷺ وترهيبِه، الَّذي أتاهم به من عندِ اللهِ في أيِّ كتابِه يُصدِّقون، إنْ لم يُصدِّقوا بهذا الحديثِ الَّذي جاءهم به محمَّدٌ ﷺ من عندِ اللهِ ﷻ؟[1].

تَوبيخُ المشركين على عدمِ التَّأمّلِ في الكون، وعدَمِ الحذرِ منَ الأجلِ وسُوءِ المصيرِ

وتُرشدُ الآيةُ الكريمةُ إلى ضرورة النّظرِ إلى الموت، وإلى أنَّ الأجلَ الذي أُقِّتَ لحياة هؤلاء المشركين انتهَى، وهذا التّذكير فيه فوائدُ:

أُولاها: أنَّ غرورَ الحياة يدفعُ الإنْسانَ إلى الطّغيان فيها، فيَنْهوِي إلى ضَلالها، فإذا ذُكّرَ بالموت علمَ أنّها فانيةٌ فيقلُّ طغيانُه وغرورُه بها، وتلك نافذةُ الإيمان.

ثانيها: أنَّ تذكُّرَ الموتِ يدفعُ إلى التّفكير في قيمةِ الحياةِ، فإذا عرفَ الإنْسانُ قيمتَها عرفَ قيمةَ الدّنيا؛ ولذلك كان بعضُ الصّالحين إذا عزّى في وفاةٍ قال: (اللّهم انفعْنا بالموت)؛ لأنّه عِبرةٌ وفيه إنذارٌ بالنّهايةِ، فإنْ لم يؤمن باليوم الآخِر، فالحياةُ تكونُ لغيرِ غايةٍ.

ثالثُها: أنَّ التّفكيرَ في الموتِ والنَّظَرَ فيه يدفعُ الإنْسانَ إلى الإيمان باليوم الآخِر، وأنَّ حياتَه ليست عبثًا، كما قال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾﴾ [المؤمنون: 115][2].

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 249/2.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 3021/6.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دَلالةُ الجُملةِ على التَّرقِّي في الإنكارِ والتَّعجيبِ من حالِهم:

المبالغةُ في الإنكارِ والتّعجيبِ، منَ الأوضحِ بعدَ الواضحِ

الجملةُ تَرَقٍّ في الإنكارِ والتَّعجيبِ من حالِهم في إعراضِهم عنِ النَّظرِ في حالِ رسولِهم إلى الإنكارِ والتَّعجيبِ من إعراضِهم عنِ النَّظرِ فيما هو أوضحُ من ذلكَ وأعمُّ، وهو مَلَكوتُ السَّماواتِ والأرض، وما خَلَقَ اللّٰهُ من شيءٍ ممَّا هو آياتٌ من آياتِ وَحدانيَّةِ اللّٰهِ تعالى الَّتي دعاهمُ الرَّسولُ ﷺ إلى الإيمانِ بها[1].

دَلالةُ الاستفهامِ ومعناه، في قولِه: ﴿أَوَلَمۡ يَنظُرُواْ﴾:

الاستفهامُ لِتَوبيخِهم، عن عدمِ تأمُّلِهم في آياتِ الله

ساقَ اللّٰهُ قولَه ﷻ: ﴿أَوَلَمۡ يَنظُرُواْ﴾ بصيغةِ الاستفهامِ الإنكاريِّ التَّوبيخيِّ؛ بإخلالِهم بالتَّأمُّلِ في الآياتِ التَّكوينيَّةِ المنصوبةِ في الآفاقِ والأنفُسِ الشَّاهدةِ بصحَّةِ مضمونِ الآياتِ المنزَّلَةِ، إثْرَ ما نَعَى عليهم إخلالَهم بالتَّفكُّرِ في شأنِه ﷺ - كما تقدَّم آنفًا - [2]، فأتْبعَ غفْلتَهم عنِ التّفكّرِ في أمرِ رسولِهم، بالإنكارِ عليهم في الغَفلة عنِ التّفكّرِ فيما هو أوضحُ منَ الاهتداءِ بالدّلالةِ الكونيّةِ على وجودِ الخالقِ وتفرُّدِه.

بَلاغةُ حذْفِ المعطوفِ عليه:

الغفلةُ عنِ التّفكّرِ، دَيْدَنُ كلِّ مُنكِرٍ كفورٍ

الواوُ في قولِه: ﴿أَوَلَمۡ﴾ للعطفِ على المقدَّرِ المذكورِ، أو على الجُملةِ المنفيَّةِ بـ(لم)، مؤكِّدًا تكذيبَهم، والمكذِّبُ لا يتفكَّرُ ولا يَنظرُ نظرَ تأمُّلٍ، أي: كذَّبوا بها أوْ لم يتفكَّروا فيما ذُكرَ، ولم ينظُروا نظرَ تأمُّلٍ فيما تدلُّ عليه السَّماواتُ والأرضُ من عِظَمِ المُلكِ وكمالِ القُدرة[3]، ويمكنُ أن يكونَ تقديرُ المحذوفِ بالاستهداءِ بما بعده فيكونَ المعنى: أعَمُوا ولم ينظرُوا؛ إلماعًا إلى أنّ عدمَ الانتفاعِ بنِعمةِ النّظرِ في تدبُّرِ آياتِ اللّٰه في كَونِه يُشبهُ فُقدانَ البصَرِ.

---

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 196/9.

(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 443/2.

(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 443/2.

دَلالةُ التَّعبيرِ بالفعلِ المضارعِ، وتَعْدِيَتِهِ بحرفِ الجرِّ ﴿فِي﴾:

التَّفكُّرُ في الخلْقِ الرَّبانيِّ، يَهدي إلى المسارِ الإيمانيِّ

الفعلُ المضارعُ يفيدُ التَّجدُّدَ والاسْتمرارَ، وقولُه في الآيةِ الكريمةِ: ﴿يَنظُرُواْ﴾ يُفيدُ الدَّعوةَ لوجوبِ اسْتمرارِ النَّظرِ بتأملٍ وتدبُّرٍ في ملكوتِ السَّماواتِ والأرض، وما فيهما من آياتِ دلائلِ وَحدانيَّةِ اللّٰهِ وعظيمِ قُدرتِه في خَلْقِه، ولذلكَ عُدِّيَ الفعلُ المضارع ﴿يَنظُرُواْ﴾ إلى مُتعلَّقِه بحرفِ الظَّرفيَّةِ ﴿فِي﴾؛ ليُفيدَ دَيْمومَةَ النَّظرِ بتفكُّرٍ عميقٍ مُتغَلْغِلٍ في أصنافِ الموجوداتِ، وهي ظرفيَّةٌ مجازيَّةٌ[1].

وَجْهُ كَوْنِ المسنَدِ إليه ضَميرًا:

الكفّارُ يُعينُ بعضُهم بعضًا على الغفْلةِ وعدَمِ الاعْتبارِ

جاءَ إسنادُ الفعلَيْنِ المضارعَين في قولِه تعالى: ﴿يَنظُرُواْ﴾ ومن قبْلِه ﴿يَتَفَكَّرُواْ﴾ إلى الواوِ (واوِ الجماعة)؛ تعبيرًا عن جماعةِ الكافرينَ المشركينَ بصِيغةِ الاستفهامِ الإنكاريِّ التَّعجّبيِّ التَّقريعيِّ؛ بإخْلالِهم بالتَّأمُّلِ في آياتِ اللّٰهِ التَّكوينيَّةِ تفكُّرًا ونظرًا متدبِّرًا، إثْرَ ما نَعَى عليهم إخْلالَهم بالتَّفكُّرِ في شأنِه ﷺ[2]، وفي الإسناد إلى ضمير الجماعةِ دلالةٌ على إعانةِ بعضِهم بعضًا على الضَّلالِ والغفلةِ، فالفكرةُ إذا اجتمع عليها جمعٌ ظنُّوا أنّهم على الحقِّ.

إيثارُ اسْتخدامِ (المَلَكوتِ) على (المِلْك):

اتّساعُ المَلَكوتُ، دليلٌ على قوّةِ مُلْكِ الحيِّ الّذي لا يموتُ

المَلَكوتُ: مصدرٌ كالرَّحَموتِ والرَّهَبوتِ والجَبَروت، والواوُ والتَّاءُ فيه للمبالغةِ، وظاهرُه أنَّ معناه المِلْك - بكسر الميم - لأنَّ مصدرَ مَلَكَ: المِلْك - بكسر الميم - ولَمَّا كان فيه زيادةٌ تُفيدُ المبالغةَ، كانَ معناهُ: المِلْكَ الوسيعَ الفسيحَ الدّالَّ على قوّةِ الملك المالك، ومُلْكُ اللّٰهِ ومَلَكوتُه: سُلْطانُه، ولِفلانٍ مَلكوتُ العراقِ، أي: سُلطانُه ومِلْكُه، وهذا يقتضي أنَّه مرادفٌ للمُلْك - بضمِّ الميم -[3]، "والمَلَكوتُ يُطلقُ مصدرًا

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 196/9.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 443/2.
(3) الرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (ملك).

للمبالغةِ في المُلك، وأنَّ المُلكَ - بالضمِّ - لَمَّا كانَ مِلْكًا - بالكسر - عظيمًا يُطلَقُ عليه أيضًا الملَكوتُ"[1].

البيانُ النّاصعُ، يُقوِّي المعنَى ويُوضِّحُه ويُعضِّدُه

نُكتةُ الإضافةِ في قولِه: ﴿مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾:

إضافةُ الملكوتِ إلى ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ إضافةٌ بيانيَّة، تبيِّنُ أنَّ المُلْكَ هو مُلْكُ السَّماواتِ والأرض، أي: مُلكُ اللّهِ لهما[2]، ومُلْكُ اللّه تعالى محيطٌ بكلِّ ما في الكون من خَلْقٍ وَأمر. وقد ذكرَ اللّه تعالى في سورة الأنعام أنه أرى إبراهيمَ عليه السلام ملكوتَ السّماواتِ والأرضِ؛ ليتيقَّنَ بِوَحْدانيَّةِ اللّه وعظَمةِ خلْقِه وحِكْمتِه: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ ٧٥﴾ [الأنعام: 75].

السّمواتُ سبْعٌ مُستقِلّاتٌ، والأرضُ طبقاتٌ مُلْتصِقاتٌ

دَلالةُ جمْعِ السَّماواتِ، وإفرادِ الأرضِ:

دلَّ الجمْعُ في قولِه تعالى: ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ على أنَّ كلَّ سماءٍ مستقلّةٌ عن غيرها مُنفصلةٌ عنها، ودلَّ إفرادُ الأرض في السّياقِ الكريمِ على أنَّ الأرضَ طبقاتٌ مُلتصقةٌ، فمايزَ الحقُّ بينهما لبيانِ هذا الحال، كما قال: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ وَمِنَ ٱلۡأَرۡضِ مِثۡلَهُنَّۖ يَتَنَزَّلُ ٱلۡأَمۡرُ بَيۡنَهُنَّ لِتَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عِلۡمَۢا ١٢﴾ [الطَّلاق: 12][3].

اللّه تعالى، يملكُ السّمواتِ والأرضَ، وما فيهنَّ

معنَى العطْفِ بالواوِ، في قولِه: ﴿وَمَا خَلَقَ﴾:

دلَّ العطفُ في قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٖ﴾ بالواوِ، على أنَّه عطفٌ على ﴿مَلَكُوتِ﴾، أي: وفيما خَلقَ اللّهُ فيهما، أي: في مَلَكُوت السَّموات والأرضِ، وتخصيصُه بهما لكمالِ ظُهورِ عِظَمِ المُلْكِ فيهما، أوْ في مَلَكُوتِ ما خَلَقَ على أنَّه عطفٌ على السَّماواتِ والأرض[4].

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 316/7.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 196/9.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 196/9.
(4) أبو السُّعود، إرشاد العقل السليم: 443/2، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 196/9.

دَلالةُ الاسمِ الموصولِ (مَا):

الإحاطةُ بكلِّ ما يَصدُقُ عليه اسمُ الشَّيءِ

(ما) في قولِه تعالى: ﴿وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٖ﴾ أي: فيما خلقَ اللّٰهُ من شيءٍ، أي: في الَّذي خلقَه اللّٰهُ ممَّا يقعُ عليهم اسْمُ الشَّيءِ من أجناسٍ لا يَحصُرُها العددُ، ولا يُحيطُ بها الوصْفُ، فهو لفظٌ يعمُّ جميعَ ما يُنظَرُ فيه نظرَ تفكُّرٍ وتأمُّلٍ وتدبُّرٍ[1]، و(ما) هي أعمُّ الموصولاتِ وأدْخلُها في الإبهامِ؛ لذا اصْطُفيتْ على الاسْمِ الموصولِ المخصوصِ.

سِرُّ اسْتخدامِ الصِّلةِ، جُملةً فعليَّةً فعلُها ماضٍ ﴿وَمَا خَلَقَ﴾:

خلقُ اللهِ للمخلوقاتِ، مُستمرٌّ لاينقطِعُ

جاءتْ جملةُ الصِّلةِ مُصدَّرةً بـ﴿خَلَقَ﴾ وهو فعلٌ ماضٍ؛ دَلالةً على أنَّ خَلْقَ اللّٰهِ قائمٌ في كلِّ شيءٍ، وما يزالُ لم ينقطعْ، وهو مَبْثوثٌ يرونَه بأمِّ أعيُنِهم، يُستدَلُّ به منَ الصَّنعةِ الدَّالَّةِ على الصَّانعِ، ومن نَفْسِ الإنسِ وحواسِّه ومواضعِ رزقِه، وبإسباغِ نِعمِه على الكائناتِ جميعِها بعِظَمِ خلْقِه وواسعِ جُودِه ورحمتِه بهم، وتمامِ عَجْزِ غيرِه عن كلِّ شيءٍ وتناهِي جهْلِه بكلِّ شيءٍ[2].

دَلالةُ اسْتِخدامِ الفاعلِ اسْمِ الجِلالة ﴿ٱللَّهُ﴾:

التّفرّدُ بالخلْقِ، ألوهيّةٌ تَستوجِبُ العُبوديّةَ

اللّٰهُ هو الحقيقُ بالإلهيَّةِ دونَ غيرِه، والنَّظرُ إلى المخلوقاتِ دليلٌ على عِظَمِ قدْرتِه تعالى، وأنَّه المتفرِّدُ بالصُّنعِ فهو الحقيقُ بالإلهيَّةِ، فلو نَظروا في ذلكَ نظرَ اعْتبارٍ؛ لَعَلِموا أنَّ خالقَ ذلكَ كلِّه ليس إلَّا إلهٌ واحدٌ، ولَزالَ إنكارُهم دعوةَ رسولِ اللّٰهِ ﷺ إلى إبطالِ الشِّرك[3].

نُكتةُ حذْفِ الجارِّ والمجرورِ في المعنَى (فيهما):

الخلْقُ يَعمُّ كلَّ شيءٍ، واللهُ خالقُ كلِّ شيءٍ

دلَّ حذفُ الجارِّ (فيهما) المقتضِي ارتباطَه بضميرٍ لو ذُكرَ لعاد للسّموات والأرض وما فيهنّ، فدلَّ بحذْفِه على أن خَلْقَ اللّٰهِ أَوْسعُ من خَلْقِ السَّماواتِ والأرضِ وما فيهما، دلَّ على ذلك قولُه:

---

(1) الزَّمخشريّ، الكشَّاف: 133/2، وابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 483/2، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 443/2.

(2) ابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 483/2، والبقاعي، نظم الدُّرر: 182/8 - 183.

(3) الفخر الرَّازي، مفاتيح الغيب: 420/15 - 421، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 196/9 - 197.

﴿شَيْءٍ﴾، واسْمُ الشَّيءُ يصدُقُ على كلِّ ما هو أشملُ وأعمُّ منَ السَّماواتِ والأرض، فالعلمُ بوَحدانيَّةِ اللّهِ تعالى وبسائرِ شؤونِه في خَلْقِه والَّتي يَنطقُ بها آياتُ اللّهِ المبثوثةُ في كونِه وسُنَنِه الخَلْقيَّةِ، وما يضمُّه هذا الكونُ الفسيحُ من جلائلِ المصنوعاتِ ودقائقِها في خلْقِ الملائكةِ والإنسِ والجانِّ وجميعِ آياتِ اللّهِ في الآفاقِ والأَنْفُسِ ممَّا لا يحيطُ الوصفُ به، وممَّا لا يُعدُّ ولا يُحصَى، كلُّ ذلكَ يقعُ تحتَ اسْمِ (الشَّيء)، وإلَّا فإنَّ (فيهما) تُحجِّرُ واسعًا وتُضيِّقُ رَحبًا، فكلُّ فردٍ من أفرادِ الأكوانِ ممَّا عزَّ وهانَ دليلٌ لائحٌ على الصَّانعِ المجيدِ، وسبيلٌ واضحٌ إلى عالمِ التَّوحيد[1]. قالَ ﷻ: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ فَٱعۡبُدُوهُۚ﴾ [الأنعام: 102].

دَلالةُ التَّأكيدِ بـ﴿مِن﴾ الدَّاخلةِ على النَّكِرة:

تأكيدُ أنَّ كلَّ ما يصْدُقُ عليه اسْمُ (شيء)، داخلٌ في الخلْقِ

في قولِه تعالى ﴿مِن شَيۡءٖ﴾ دخلتْ (مِنْ) على ﴿شَيۡءٖ﴾، وهي نكرةٌ فأفادتْ عدمَ اخْتصاصِ الدَّلالةِ المذكورةِ بجلائلِ المصنوعاتِ دونَ دقائقِها، ليسَ في السَّماواتِ والأرضِ فَحَسبُ؛ بل لتؤكِّدَ النَّظَرَ والتَّدبُّرَ في كلِّ ما ينطلقُ وينطبقُ عليه اسْمُ الشَّيء[2].

معنَى العطْفِ في قولِه: ﴿وَأَنۡ عَسَىٰٓ﴾:

النَّظرُ في الملكوتِ، يقتضِي النَّظرَ في احتمالِ قُرْبِ الأجلِ

قولُه تعالى: ﴿وَأَنۡ عَسَىٰٓ﴾ معطوفٌ على قولِه: ﴿وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٖ﴾، وهذا العطفُ مُتَّصلُ البيانِ في سِلْسلةِ مجيئِه في السِّياقِ، حيث وُبِّخُوا على انْتفاءِ نظرِهم في مَلَكُوتِ السَّماواتِ الأرضِ - وهي أعظمُ المصنوعاتِ - وأدلَّتِها على عظَمةِ الصَّانع، ثمَّ عطفَ عليه شيئًا عامًّا وهو قولُه: ﴿وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٖ﴾، فانْدرجَتِ السَّماواتُ والأرضُ فيما خلقَ، ثمَّ عطفَ عليه شيئًا يخصُّ أنفُسَهم

(1) الفخر الرَّازي، مفاتيح الغيب: 420/15 - 421، والبقاعي، نظم الدُّرر: 235/5، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 443/2.

(2) ابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 483/2، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السليم: 443/2.

وهو انْتفاءُ نظرِهم وتفكُّرِهم في أنَّ أجلَهم قدِ اقْتربَ فيُبادِرُهمُ الموتُ على حالةِ الغَفْلةِ عنِ النَّظرِ فيما ذَكرَ، فيؤولُ أمرُهم إلى الخَسارةِ وعذابِ النَّار، فنبَّهَهم على التَّفكُّرِ في اقْترابِ الأَجَلِ لعلَّهم يُبادِرونَ إليه، وإلى طلبِ الحقِّ فيخلِّصُهم من عذابِ اللّهِ قبلَ مُقايضةِ الأجلِ وحُلولِ الموت[1].

بَلاغةُ التَّرتيبِ في المنظورِ فيه، من خلْقِ الله البديعِ:

البدْءُ بالأعْظَمِ ثـمَّ مـا يَلِيـه، للتّذكيرِ بالرّحيلِ عنِ الدُّنيَا

وردَ في السِّياقِ القرآنيِّ لهذه الآيةِ الكريمةِ التَّدرُّجُ منَ النَّظرِ والتَّفكُّرِ في السَّماواتِ والأرض، ثمَّ فيما خلقَ اللّه، (السَّماوات، الأرض، المخلوقات، اقترابُ أجلِهم)، فقد بدأَ معهم بيانُ اللّهِ تعالى بالأكبرِ والأَعْظمِ ثمَّ ما دونَه، كما قالَ تعالى: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾ [غافر: 57]، وهذا التّرتيبُ في المنظور يُفْضِي بهم إلى إعدادِ العُدَّةِ اللَّازمةِ لِتَدارُكِ ما فاتَهم من خيرٍ، وندمِهم عمَّا قدَّموه من شرٍّ قبلَ أنْ يأتيَهمُ أجلُهم وهم في غَفْلةٍ سَاهون، وعن حقائقِ خلقِهم وحكمةِ وجودِهم مُعرِضون[2].

حذْفُ اسْمِ (أنْ) ودَلالتُه:

اسْمُ (أن) محذوف، وهو ضميرُ الشَّأن المقدَّر - كما تقدَّم آنفًا - وهو حثٌّ على النَّظرِ بطريقِ الاسْتفهامِ الإنكاريِّ التَّعجُّبيِّ التَّقريعيِّ، والمعنَى: أَوَلَمْ ينظُروا في أنَّ الشَّأنَ عَسَى أنْ يكونَ الشَّأنُ قدِ اقْتربَ أجلُهم[3].

اسْمُ (أنْ) ضميرُ الشَّأن، وهو أنْ يكونَ قدِ اقترَبَ المـوتُ وهُـم في غفْلةٍ

وَجْهُ تقديمِ خَبرِ ﴿يَكُونَ﴾ على اسْمِها:

قولُه تعالى: ﴿قَدِ ٱقْتَرَبَ﴾ هو خبرُ ﴿يَكُونَ﴾ و﴿أَجَلُهُمْ﴾ اسمُها، وقد تقدَّمَ الخبرُ على الاسْمِ هنا تقدُّمًا في الحُكم، ويَضعُفُ تقديمُ اسْمِ ﴿يَكُونَ﴾، على تقدير: يكونُ أجلُهم قدِ اقترب؛ لأنَّ الخبرَ

(1) أبو حيَّان، البحر المحيط: 235/5.
(2) الفخر الرَّازي، مفاتيح الغيب: 421/15، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 197/9.
(3) الزَّمخشري، الكشَّاف: 133/2، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 443/2.

المعوَّلُ عليه قُربُ الآجالِ قبلَ وقوعِها؛ لأنّ الموتَ يأتي بغتةً

لا يتقدّمُ في نحوِ قولِ: زيدٌ قام؛ حيث إنَّ مَناطَ الإنكارِ والتَّوبيخِ تأخيرُهم للنَّظرِ والتَّأمُّل، أي: لعلَّهم يموتون عمَّا قريبٍ، فمالَهم لا يُسارعونَ إلى التَّدبُّرِ في الآياتِ التَّكوينيَّةِ الشَّاهدةِ بما كذَّبوه منَ الآياتِ القرآنيَّةِ، فالمعوَّلُ عليه هو اقْترابُ الأجَلِ قبلَ حُلولِه تفاديًا لموتِهم وهُم في غَفْلَتِهم[1].

دَلالةُ استخدامِ ﴿قَدِ﴾ ودخولِها على الماضِي، وصلتُها بما بعدَها:

قُربُ الأجلِ مُحقّقٌ مُقرَّرٌ، وإذا حضَرَ الأجلُ فلا مَفرَّ

أفادَ قولُه: ﴿قَدِ﴾ قبلَ ﴿ٱقۡتَرَبَ أَجَلُهُمۡۖ﴾ إلى تحقّقِ قُرْبِ أجلِهم، والمعنَى: أَلَمْ ينظُروا في توقُّعِ قُربِ أجلِهم، وصِيغَ الكلامُ على هذا النَّظمِ لإفادةِ تهويلِ الأمرِ عليهم وتخويفِهم، بجعلِ مُتعلَّقِ النَّظرِ من معنَى الإخبارِ بأمرٍ متوقَّعِ الحدوثِ، وذلكَ للدَّلالةِ على أنَّه أمرٌ من شأنِه أن يخطُرَ في النُّفوسِ، وأن يتحدَّث به النَّاسُ، وأنَّه قد صارَ حديثًا وخبرًا، فكأنَّه أمرٌ مُسَلَّمٌ مُقرَّرٌ[2].

معنَى الأجلِ ودَلالةُ اقْترابِه:

الأجلُ إمَّا يومُ القيامةِ أو الموتُ، وكلٌّ منهما تَخويفٌ وتَرهيبٌ

يجوزُ أن يكونَ المرادُ بالأجلِ مجيءَ السَّاعةِ، وانْقراضَ هذا العالَمِ، فهو أجلُهم وأجلُ غيرِهم منَ النَّاسِ، واقترابُ الأجلِ اقترابُ السَّاعةِ، ويكونُ هذا الكلامُ تخويفًا لهم من يومِ الجزاءِ لعلَّهم يعودون إلى الرُّشدِ وإلى الصِّراطِ المستقيمِ[3]، ويجوزُ أنْ يُرادَ بالأجلِ الموتُ، فكلُّ من ماتَ انْقَضى أجلُه، وحلَّتْ ساعتُه، وفي ذلك تخويفٌ وإنذارٌ شديدٌ لهم[4].

دَلالةُ إضافةِ الأَجَلِ للكافرينَ، في قولِه: ﴿أَجَلُهُمۡۖ﴾:

إسنادُ الأجلِ لهم؛ لأنَّهم مُلابِسون للسَّاعةِ مع إنكارِهم لوُقوعِها

الإضافةُ إلى ضميرِ (هم) في قولِه: ﴿أَجَلُهُمۡۖ﴾ لملابَسَتِهم للسَّاعةِ من جهةِ إنكارِهم لها وبَحْثِهم عنها[5].

---

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 443/2، والشَّوكاني، فتح القدير: 388/2.
(2) أبو حيَّان، البحر المحيط: 236/5، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 197/9.
(3) الزَّمخشري، الكشَّاف: 133/2، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 198/9.
(4) أبو حيَّان، البحر المحيط: 235/5، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 443/2.
(5) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 443/2.

معنى (الفاءِ)، في قوله: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ﴾:

إفادةُ السّياقِ التَّأييسَ من إيمانِ الكافرين، الّذين أصرُّوا على الكُفرِ

الفاءُ في قولِه تعالى: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ﴾، هي الفصيحةُ الَّتي تُفصِحُ عن محذوف، وأفادتْ مع ما بعدَها هنا التَّأييسَ والتَّعجيبَ من حالهم، والتَّقديرُ: فإذا لم ينظُروا بتفكُّرٍ وتدبُّرٍ في آياتِ اللّهِ البيِّناتِ ولم يُبادِروا إلى الإيمانِ بالقرآن، فبأيِّ حديثٍ أحقّ منه يُريدونَ أنْ يُؤمنوا فإنَّهم لنْ يُؤمنوا[1].

معنى الباءِ في قوله: ﴿فَبِأَيِّ﴾ بين التَّعْدِيةِ، والسَّببيَّةِ:

الباءُ متعلّقةٌ بفعلِ (يؤمنون)، وبحمْلِ الحديثِ على الحقيقةِ أوِ المجازِ

الباءُ في قولِه تعالى: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ﴾ باءُ التَّعديةِ، لتعْديةِ فعلِ ﴿يُؤْمِنُونَ﴾، وذلكَ في حَمْلِ الحديثِ على حقيقتِه ويُرادُ به القرآنُ، كما في قولِه تعالى: ﴿فَلْيَأْتُواْ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ﴾ [الطُّور: 34]، ويمكنُ أنْ يرادَ به دَعْوى محمَّدٍ ﷺ الرِّسالةَ من عندِ اللّهِ - وسيأتي بيانُه في عَوْدِ الضَّميرِ في ﴿بَعْدَهُۥ﴾ - وفي كلا الاحْتمالين يُناسبُ قولَه تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُواْ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ﴾ [الأعراف: 184].

والباءُ يمكنُ أنْ تكونَ للسَّببيَّةِ متعلِّقةً بـ﴿يُؤْمِنُونَ﴾، وذلكَ إنْ حُمِلَ الحديثُ على المجازِ فيشملُ القرآنَ وغيرَه من دلائلِ آياتِ اللّه، كما في قولِه تعالى: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ ۝٦﴾ [الجاثية: 6]، ويكونُ المعنَى: فبأيِّ شيءٍ يُستدَلُّ عليهم غيرَ ما ذُكِرَ بعدَ أنْ ينتفعوا بدَلالةِ ما ذُكرَ، ولم يُؤمنوا له فلا يُرجَى منهم إيمانٌ بعدَ ذلك[2].

دَلالةُ الاسْتفهامِ بالأداةِ (أيِّ):

الاسْتفهامُ الإنكاريُّ التّعجُّبيُّ، ذو أثَرٍ في السِّياقِ

(أيِّ) في قولِه تعالى: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ﴾ اسْتفهاميَّةٌ سيقتْ للإنكارِ وللتعجُّب، أي: إذا لم يؤمنُوا بهذا الحديثِ فكيفَ يُؤمنونَ بغيرِه؟! أي: لا يُؤمنونَ بشيءٍ منَ الحديثِ بعدَ هذا الحديثِ[3].

---

(1) الزَّمخشريّ، الكشَّاف: 134/2، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 330/25، والدَّعاس، إعراب القرآن: 410/1.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 198/9 - 199.

(3) السَّمين الحلبي، الدُّرُّ المصون: 527/5، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 198/9.

معنَى لفْظِ ﴿حَدِيثٍ﴾ بين الحقيقةِ والمجازِ:

الحديثُ حقيقةً الخبرُ الحادثُ، ومجازًا أيُّ أمْرٍ من شأْنِه أن يصيرَ حديثًا

حقيقةُ الحديثِ أنَّه الخبرُ والقصَّةُ الحادثةُ، كما في قولِه تعالى: ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيۡفِ إِبۡرَٰهِيمَ﴾ [الذَّاريات: 24].

ويُطلقُ مجازًا على الأمرِ الَّذي من شأنِه أنْ يصيرَ حديثًا، وهو أعمُّ منَ المعنَى الحقيقيِّ[1].

دَلالةُ تنكيرِ لفْظِ ﴿حَدِيثٍ﴾:

التّنكيرُ دالٌّ على عُمومِ أيِّ حديثٍ يُقالُ، أو يخطُرُ على البالِ

أفادَ تنكيرُ قولِه: ﴿حَدِيثٍ﴾ على عُمومِ ما يصْدُقُ عليه لفظُ ﴿حَدِيثٍ﴾ من حيث الحقيقةُ والمجازُ، فيُرادُ في الأوَّلِ: القرآنُ أو دَعْوى رسالةِ محمَّد ﷺ، وفي الثَّاني: ما تقدَّمَ في الأوَّلِ وجميعُ آياتِ اللّهِ تعالى في خَلْقِه وكونِه في الآفاقِ والأَنْفُس، فإنَّ ذلكَ كلَّه من شأنِه أن يُسمَّى حديثًا[2].

معنى الظَّرفِ بلفْظِ (بَعْد):

إفادةُ التّرتيبِ مع المغايرةِ، وحملُها على معنى (غير) ظاهرةٌ

و(بعدَ) - في قولِه تعالى: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعۡدَهُۥ﴾ - مُستعارةٌ لمعنَى (غيرَ)؛ لأنَّ الظُّروفَ الدَّالَّةَ على المُباعَدةِ والمُفارقةِ تُستعمَلُ اسْتعمالَ المغايرِ، كما في قولِه تعالى: ﴿فَمَن يَهۡدِيهِ مِنۢ بَعۡدِ ٱللَّهِۚ﴾ [الجاثية: 23]، وحملُ (بَعدَ) على حقيقتِها هنا يُحوِجُ إلى تأويلٍ، ويُخرِجُ الكلامَ عن سواءِ السَّبيلِ[3].

مرجع الضمير في ﴿بَعۡدَهُۥ﴾ ودلالته:

تعودُ الهاءُ على القرآنِ أوِ الرَّسولِ ﷺ، أوِ الأَجَلِ

الهاءُ في ﴿بَعۡدَهُۥ﴾ تحتملُ العَوْدَ على القرآنِ، أي: لعلَّ أَجَلَهم قدِ اقْتربَ فمالَهم لا يُبادِرونَ إلى الإيمانِ بالقرآنِ قبلَ الفَوْتِ وما ينتظرونَ بعدَ وضوحِ الحقّ، وبأيِّ حديثٍ أَحَقّ منه يريدونَ أو يُؤمنوا؟![4].

---

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 198/9.

(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 444/2، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 199/9.

(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 199/9.

(4) الزَّمخشري، الكشَّاف: 134/2، والعكبريّ، التبيان في إعراب القرآن: 290/1.

وتحتملُ العَوْدَ على الرَّسول، ويكونُ الكلامُ على حَذْفِ مضاف، أي: بعدَ خبرِه وقصَّته، أي: فبأيِّ حديثٍ بعدَ حديثِ الرسولِ يُؤمنونَ وهو أصدقُ النَّاس، وتحتملُ العَوْدَ على ﴿أَجَلُهُمْ﴾، أي: إنَّهم إذا ماتوا وانْقضَى أجلُهم فكيفَ يُؤمنونَ بعدَ انْقضاءِ أجلِهم؟![1].

دَلالةُ تقديمِ الظَّرفِ ﴿بَعْدَهُۥ﴾ في السّياقِ:

تقدّمَ الظَّرفُ ﴿بَعْدَهُۥ﴾ على الفعلِ ﴿يُؤْمِنُونَ﴾؛ لأنَّ الإيمانَ لا يكونُ إلَّا بعدَ وجودِ سَببِه، وما يدعو إليه كالقرآنِ والرَّسولِ ﷺ أو مخوِّفٍ يُخشَى منه الفَوْتُ كالأجَل، وهذا كلُّه سائقٌ للإيمانِ ومُقدَّمٌ عليه[2].

تقدُّمُ الظَّرفِ يدلُّ على أهميَّةِ ما يكونُ سببًا لحصولِ الإيمانِ

نُكتةُ اسْتخدامِ الفعلِ المضارعِ ﴿يُؤْمِنُونَ﴾:

الفعلُ المضارعُ ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ يُفيدُ تجدُّدَ الإيمانِ واسْتمرارَه في قلوبِ أصحابِه، لكنَّه جاءَ في سياقِ الإنكارِ والتَّوبيخِ لأولئك المكذِّبينَ الَّذين لا يُؤمنونَ معَ وضوحِ دَلالاتِ الآياتِ الكونيَّةِ المشاهَدةِ على وَحدانيَّةِ اللهِ وشُمولِ قُدرتِه لكلِّ شيءٍ وواسعِ علمِه بكلِّ شيء، والتَّعجيبِ كذلكَ من حالِهم في إنكارِ دعوةِ الرَّسولِ ﷺ، فكأنَّ بيانَ اللهِ يُومِئُ باسْتمرارِ عِنادِهم وتَجدُّدِ تكذيبِهم، وكأنَّه يقولُ لهم: إنَّه ليس من طباعِكمُ التَّصديقُ بما فيه خَلاصُكم ونجاتُكم من عذابِ اللهِ[3].

الفعلُ - مع الإنكارِ والتَّعجيبِ - يدلُّ على اسْتمرارِهم في عدمِ الإيمانِ المريبِ

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

مَلَكُوت ومُلك:

المُلْكُ بالضَّمّ: ما يُدرَكُ بالحسِّ، ويُقالُ له: عالَمُ الشَّهادة، والمَلَكوتُ: ما لم يُدرَكْ به، وهو عالَمُ الغَيب، وعالَم الأمْر، ولكونِ عالَمِ الشَّهادةِ بالنِّسبةِ إلى عالَمِ الغيبِ كالقَطْرةِ منَ البحر، يُسمَّى الأوَّلُ:

المَلَكُوتُ أوسعُ من المُلْكِ، وهو مُختصٌّ بمُلْكِ اللهِ تعالى

(1) أبو حيَّان، البحر المحيط: 236/5، والسَّمين الحلبي، الدُّرُّ المصون: 527/5.
(2) أبو حيَّان، البحر المحيط: 236/5، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السليم: 444/2.
(3) أبو حيَّان، البحر المحيط: 236/5، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السليم: 444/2.

مُلْكًا والثَّاني مَلَكوتًا؛ لما تقرَّرَ من أنَّ زيادةَ المباني تدلُّ على زيادةِ المعاني، والمُلكُ: ضبطُ الشَّيءِ المُتَصَرَّفِ فيه بالحُكْم، والمُلكُ: الحقُّ الدَّائمُ للهِ تعالى، فلذلكَ قالَ سُبحانه: ﴿لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ﴾ [التَّغابن: 1]، والملَكوتُ: مُختَصٌّ بمُلْكِ اللهِ تعالى: وهو مصدرُ مَلكَ، أُدخِلتْ فيه التَّاء، نحو: رَحَموت ورَهَبوت للمبالغةِ[1].

حديثٌ وقُرآنٌ وقَوْلٌ وخَبرٌ:

الحديثُ: هو الإخبارُ عن عِدَّة أشياءَ، مع التَّحديثِ بها، ومنها حديثُ الإيمانِ وحديثُ القرآن، والحديثُ في الأصلِ هو ما تُخبِرُ به عن نفسِكَ من غيرِ أن تُسندَه إلى غيرِك، وسُمِّيَ حديثًا لأنَّه لا تقدُّمَ له، وإنَّما هو شيءٌ حدثَ لكَ فحدَّثتَ به.

الحديثُ ما تُخبِرُ به عن نفسِكَ، من غيرِ إسنادِه إلى غيرِك، وهو الآثرُ في السِّياق

الخبرُ: هو القولُ الَّذي يصحُّ وصفُه بالصِّدقِ والكَذِب، ويكونُ الإخبارُ به عن نفسِك وعن غيرِك، والأصلُ أنْ يكونَ به الإخبارُ عن غيرِك، وإنْ سألَ سائلٌ؛ فيقولُ: أَخْبروني، ولا يقولُ: حدِّثوني؛ لأنَّ السُّؤالَ اسْتخبارٌ والمُجيبُ مُخْبِرٌ، ويجوزُ أن يُقالَ: إنَّ الحديثَ ما كانَ خَبَرَيْنِ فصاعدًا، إذا كان كلُّ واحدٍ منهما مُتعلِّقًا بالآخَر، فقولُنا: رأيتُ زيدًا، خبرٌ، ورأيتُ زيدًا مُنطلقًا، حديثٌ[2].

ثمَّ كَثُرَ اسْتعمالُ اللَّفظَيْنِ حتَّى سُمِّيَ كلُّ واحدٍ منهما باسْمِ الآخَر، فقيلَ للحديثِ: خَبرٌ، وللخَبرِ: حديثٌ.

القرآنُ: هو مصدرٌ بمعنى الجَمْعِ، يُقالُ: قَرأَ، أي: جَمَعَ، ولذلكَ يُفيدُ جمعَ السُّوَرِ وضمَّ بعضِها إلى بعضٍ، ومنه القراءةُ: وهي ضمُّ الحروفِ والكلماتِ بعضِها إلى بعضٍ في التَّرتيل، وخُصَّ القرآنُ بالكتابِ المنزَّلِ على رسولِ اللهِ محمَّدٍ ﷺ، فصارَ له كالعَلَم،

(1) العسكري، الفروق اللّغويّة، ص: 511 - 512، والرّاغب، المفردات: (ملك)، والجرجانيّ، التَّعريفات، ص: 246، وهنري لامنس، الفرائد، ص: 380.

(2) العسكريّ، الفروق، ص: 210 - 211، 437، والرّاغب، المفردات: (خبر)، والجرجانيّ، التَّعريفات، ص: 181، 189، وهنري لامنس، الفرائد، ص: 215، 299.

وسُمِّيَ هذا الكتابُ قرآنًا من بين سائِر الكتُبِ؛ لكونِه جامعًا لثمرةِ كُتُبِه، بل لجمْعِه ثمرةَ جميعِ العلومِ.

القولُ: يدلُّ على الحكايةِ، ويَقْتضِي المقولَ بعيْنِه مُفرَدًا كانَ أو جُملةً أو ما يقومُ مقامَ ذلك، ولذلكَ تعدَّى تعدِّيًا مُطلقًا، ولم يتعدَّ إلى غيرِ المَقول.

﴿مَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُۥۚ وَيَذَرُهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ١٨٦﴾

[الأعراف: 186]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

المناسبةُ بين التّعجُّبِ من عدمِ الاهتداءِ، وأنّ من ضلَّ وطغى، أضلَّه اللهُ وتَرَكَهُ في غَيِّهِ

عادَ بيانُ اللهِ تعالى في هذه الآيةِ مرَّةً أُخرى، إلى نعتِ أحوالِ الضَّالِّين المكذِّبين، ولَمَّا كانَ حالُهم من عدمِ نظرِهم وتفكُّرِهم بآياتِ ودلائلِ وَحدانيَّةِ اللهِ - مع توافُرِ وجودِها أمامَ أنظارِهم - من أعجَبِ العَجَب، كانت فَذْلكتُه قطْعًا تعليلًا لما قبلَه من إعراضِهم عمَّا لا يَنبغي الإعراضُ عنه؛ دليلًا على أنَّ الأمرَ ليس إلَّا بيدِ مُنزِّلِه سُبحانه، فمَن يُضِلُّهُ اللهُ فلا هاديَ له بوجْهٍ منَ الوجوه، وجميعُهم في قبضتِه تعالى؛ فإنَّ اللهَ تعالى يتركُهم على حالةٍ قبيحة[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿طُغۡيَٰنِهِمۡ﴾: طَغَى: الطَّاءُ والغَيْنُ والحرفُ المعتلُّ أصلٌ صحيحٌ مُنقاسٌ، يُقالُ هو طاغٍ، وطَغى السَّيْلُ: إذا جاءَ بماءٍ كثير، قالَ اللهُ تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلۡمَآءُ﴾ [الحاقَّة: 11]، يُريدُ خروجَه عنِ المقدارِ، وطَغى البحرُ: هاجَتْ أمواجُه، والطُّغيان: مجاوزةُ الحدِّ في العِصيانِ، وهو معناه في قولِه هنا: ﴿وَيَذَرُهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ﴾، وأشدُّ الطُغيانِ مجاوزةُ الحدِّ في الكفرِ[2].

2) ﴿يَعۡمَهُونَ﴾: عَمِهَ: العَيْنُ والميمُ والهاءُ أصلٌ صحيحٌ واحدٌ، يدلُّ على حَيْرَةٍ وقِلَّةِ اهْتداء، وعَمِهَ الرَّجلُ عَمَهًا، وذلكَ إذا تردَّدَ أين يتوجَّهُ، كما في قولِه تعالى: ﴿وَيَذَرُهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ﴾[3]، أي: يتحيَّرونَ ويتردَّدون[4].

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 422/15، والبقاعي، نظم الدُّرر: 185/8.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (طغى)، والجرجاني، التَّعريفات، ص: 141.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (عَمه).
(4) الزَّجاج، معاني القرآن: 393/2، والشَّوكاني، فتح القدير: 389/2.

المَعْنى الإجْماليُّ:

يُقرِّرُ اللّهُ تعالى حقيقةً ربَّانيَّةً، فيقولُ: من كتبَ اللّهُ تعالى عليه الضَّلالَةَ فإنَّه لا يهديهِ أحدٌ، ولو نظرَ لنفسِه فيما نظرَ فإنَّه لا يجزي عنه شيئًا، كما قالَ تعالى: ﴿وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ [المائدة: 41]، ويتركُ اللّهُ تعالى أولئكَ في ضَلالِهم وتجاوُزِهم في الكُفرِ والعِصيانِ يتحيَّرونَ ويتردَّدون، فلا يَخرُجونَ من طُغيانِهم ذاكَ ولا يهتدونَ إلى حقٍّ[1].

من ضلَّ عنِ الهدايةِ، زلّتْ به القَدمُ، في مزالقِ الغَوايةِ

وتُرشدُ الآيةُ الكريمةُ إلى أنَّ من لا يتّعِظُ بالقرآن وبما فيه منَ الزَّواجرِ، والعِظات والعبَرِ، لا يتّعظُ بغيره، ومن أعرضَ عن كتاب اللّه مُكَذِّبًا بما فيه منَ الهُدى فَضلَّ، فإنَّه لا تُرْجَى له هدايةٌ أبدًا.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

مَوقعُ الجُملةِ ممَّا قبلَها، ودلالتُه في السِّياقِ:

قولُه تعالى: ﴿مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ﴾ اسْتئنافٌ مقرِّرٌ لما قبلَه، مُنبِئٌ عنِ الطَّبْعِ على قلوبِهم، وهو تعليلٌ للإنكارِ السَّابقِ في قولِه تعالى: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ﴾[2].

الجملةُ اسْتئنافيَّةٌ مُقرِّرةٌ لما قبلَها، وهي تعليلٌ لما سبَقَ

بَلاغةُ اسْتخدام أُسلوبِ الشَّرطِ بالأداةِ (مَنْ):

أفادَ أسلوبُ الشَّرطِ بأداتِه ﴿مَن﴾ وفعلِه ﴿يُضْلِلِ﴾ وجوابِه ﴿فَلَا هَادِىَ لَهُۥ﴾ أنَّ ضَلالَهم أمرٌ قدَّر اللّهُ دوامَه، فلا طَمعَ لأحدٍ في هَدْيِهم، وهذا مصداقُ قولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٦ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝٧﴾ [البقرة: 6 - 7][3].

دلَّ أُسلوبُ الشّرطِ على تحقُّقِ ضَلالِهم واسْتِمرارِهم عليه

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 249/2، والسَّعدي، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 264.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السليم: 444/2، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 199/9.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 199/9.

دَلالةُ إسْنادِ الفعْلِ إلى اسْمِ الجلالةِ ﴿ٱللَّهُ﴾:

دلَّ هذا الإسْنادُ على أنَّ الإضْلالَ ودوامَه بقدَرِ اللهِ وأمْرِه

في قولِه تعالى: ﴿مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ﴾ أُسْنِدَ فعْلُ الإضلالِ إلى اللهِ ﷻ؛ لأنَّ الإضْلالَ بقدَرِ اللهِ وأمْرِه كما الهدايةُ كذلك، كما قالَ تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾﴾ [الأنعام: 125]، فضلالُ أولئكَ ودوامُه بقدَرِ اللهِ، لا أحدَ يردُّه، أو يقدِرُ على هدايتِهم، ولَمَّا كان هذا الحكمُ حاقًّا على من اتَّصفَ بالتَّكذيبِ، وعدمِ التَّفكُّرِ في حالِ الرَّسولِ ﷺ، وعدمِ النَّظرِ في مَلَكوتِ السَّماواتِ والأرضِ وما خلقَ اللهُ، وفي توقُّعِ اقْترابِ اسْتئصالِهم، كانَ المحكومُ عليهم بعدمِ الاهْتداءِ فريقًا غيرَ معروفٍ للنَّاس، وإنَّما ينفردُ اللهُ بعلْمِه ويُطلِعُ عليه رسولَه ﷺ، وينكشفُ بعضُ ذلكَ عندَ موتِ بعضِهم على الشِّرك[1].

نُكتةُ وُقوعِ جوابِ الشَّرْطِ جُملةً اسْميَّةً:

الضّلالُ شأنُهم وهُم له مُلازمون

قولُه تعالى: ﴿فَلَا هَادِىَ لَهُۥ﴾ جوابُ الشَّرطِ، ووقوعُ جوابِ الشَّرطِ جملةً اسْميَّةً وخاصَّةً مع النَّفْيِ المصدَّرِ بالفاءِ يُقوِّي تحقُّقَ جوابِ الشَّرطِ، وهنا في هذا المقامِ يَدُلُّ على اسْتمرارِ ثباتِ عدمِ الهدايةِ لمن يُضلُّه اللهُ، فالمرادُ أنَّ هذا قد نزلَ بهم وأنَّهم مَثالٌ لهذا، فلا مفرَّ منه[2].

دَلالةُ اسْتِخدامِ لا النَّافيةِ للجِنْسِ في جوابِ الشَّرْطِ:

دلَّتْ (لا) على النَّفْيِ العامِّ لهدايةِ مَنْ أضلَّه الله

جاءَ اسْتخدامُ البيانِ الإلهيِّ لـ(لا) النَّافيةِ للجِنْسِ قبلَ ﴿هَادِىَ﴾؛ للدَّلالةِ على النَّفْيِ العامِّ أنْ يكونَ هاديًا لمن أضلَّه اللهُ، فهي مُضمَّنةٌ اليأسَ منهم والمقْتَ لهم[3].

---

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 422/15، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 199/9.

(2) ابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 483/2، وأبو حيَّان، البحر المحيط: 236/5، والدَّعاس، إعراب القرآن: 410/1.

(3) ابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 483/2، وأبو حيَّان، البحر المحيط: 236/5.

وَجْهُ حذْفِ خبرِ (لا):

في قولِه تعالى: ﴿فَلَا هَادِيَ لَهُۥۚ﴾ خبرُ (لا) النَّافيةِ للجِنْس محذوفٌ، تقديرُه: (فلا هاديَ قائمٌ أو مُتوجِّهٌ لهدايتِه)، وهذا يدلُّ على التَّأْييسِ من هدايتِهم أو تدخُّلِ أحدٍ أو قُدرةِ أحدٍ على هِدايَتِهِمْ[1].

التَّأْيِيسُ مِن هِدايةِ مَنْ أضلَّه الله

معنَى اللَّامِ في ﴿لَهُۥۚ﴾ منَ الآيةِ الكريمةِ:

﴿لَهُۥۚ﴾ في قولِه تعالى: ﴿فَلَا هَادِيَ لَهُۥۚ﴾ جارٌّ ومجرورٌ متعلِّقانِ بمحذوفٍ هو خبرُ ﴿فَلَا﴾، واللّامُ في ﴿لَهُۥۚ﴾ أفادتِ النَّفيَ العامَّ لهدايةِ من أرادَ اللّهُ إضلالَه، أي: فلا هدايةَ قائمةٌ أو كائنةٌ لأيِّ فردٍ أضلَّه اللّه، أو فلا هادٍ - أيًّا كان - لمن أضلَّه اللّه[2].

النَّفيُ التَّامُّ لهدايةِ منْ أضلَّه اللهُ، واسْتمرارُه على الضَّلالةِ

دَلالةُ العطفِ بالواوِ في ﴿وَيَذَرُهُمْ﴾:

جاءَ قولُه تعالى: ﴿وَيَذَرُهُمْ﴾ عطفًا على جُملة: ﴿مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُۥۚ﴾؛ للإشارةِ إلى اسْتمرارِ ضَلالِهم وانْتفاءِ هَدْيِهم في المستقبلِ كما وقعَ في الماضِي[3].

أفادَ العطْفُ اسْتمرارَ ضَلالِهم وانْتفاءَ هَدْيِهم

بلاغةُ الالْتفاتِ على قراءةِ ﴿وَيَذَرُهُمْ﴾ بالنّون:

في قولِه تعالى: ﴿وَيَذَرُهُمْ﴾ ثلاثُ قراءاتٍ مُتواترةٌ: الأولى: قراءةُ عاصمٍ ويعقوبَ ﴿وَيَذَرُهُمْ﴾ بالياءِ التَّحتيَّة والرَّفعِ على الاسْتئناف، أي: وهو يَذرُهم، والثَّانيةُ: قراءةُ حمزةَ والكسائيِّ وخلَفٍ (ويَذَرْهُمْ) بالياءِ التَّحتيَّةِ والجَزْم، على أنَّه عطفٌ على موضع ﴿فَلَا هَادِيَ لَهُۥۚ﴾ وهو جوابُ الشَّرط، كأنَّه قيل: (مَنْ يُضلِلِ اللّهُ لا يَهدِهِ أحدٌ ويَذَرْهم)، والثَّالثةُ: قراءةُ المَدَنيَّيْن، وابن كثير وأبي عَمْرٍو وابن عامر ﴿وَنَذَرُهُمْ﴾ بالنُّونِ والرَّفع، على أنَّه عطفُ جُملةٍ على جملةٍ:

أَظْهرَ الالْتفاتُ عظَمةَ المُتكَلِّم، وأنَّ تركَهم في الضَّلالِ بأمْرِه ﷻ

(1) ابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 483/2، وأبو حيَّان، البحر المحيط: 236/5.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 199/9.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 199/9.

﴿مَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ﴾ على طريقةِ الالْتفاتِ منَ الغَيْبةِ إلى التَّكلُّم[1]، بنون العَظَمةِ، أي: (ونحنُ نذرُهم).

فالَّذي يتركُهُمْ على ما هم عليه منَ الضَّلالِ والتَّخبُّطِ والحَيْرَةِ هو اللّهُ الَّذي بيدِه مصيرُهم، وهذا تقريرٌ وافٍ بأنَّهم تحتَ مَغبَّةِ سَخَطِ اللّهِ ومَقْتِه، وأنَّهم صائرونَ إلى عذابِه لا مَحَالةَ[2].

غَرَضُ تقديمِ الجارِّ والمجرورِ ﴿فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ﴾:

الطّغيانُ سببُ العَمَهِ والضَّلالةِ

تقدَّمَ الجارُّ والمجرورُ ﴿فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ﴾ على قولِه: ﴿يَعۡمَهُونَ﴾؛ لبيانِ السَّبَبِ قبلَ المُسَبَّب، ولتخصيصِ العِلَّةِ بالذِّكرِ قبلَ مَعلولِها، فإنَّ الطُّغيانَ - وهو الإفراطُ في الشَّرِّ والكِبْرِ - سببٌ وعِلَّةٌ للضَّلالةِ والتِّيهِ والوقوعِ في المهالكِ.

لطيفةُ الاسْتِعارةِ في الحرفِ ﴿فِي﴾:

الإشارةُ إلى إحاطةِ حُكمِ اللهِ بهم

اسْتعارَ بيانُ اللّهِ الحرفَ ﴿فِي﴾ منَ المعنَى الحقيقيِّ له للمعنَى المجازيِّ للدُّخولِ في (الطُّغيان) الَّذي هو تجاوزُهم للحدودِ، فعبَّرَ بذلك بالظَّرفِ ﴿فِي﴾؛ إشارةً إلى إحاطةِ حُكمِه ﷻ بهم، وإنْفاذِ أمرِه فيهم[3].

فائدةُ الإضافةِ في ﴿طُغۡيَٰنِهِمۡ﴾:

بيانُ رُسوخِهم في الطُّغيانِ واخْتِصاصِهم به

في إضافةِ ﴿طُغۡيَٰنِهِمۡ﴾ إلى أهلِ الضَّلالةِ تعبيرٌ عن دخولِهم في الطُّغيانِ واسْتمرارِه فيهم، وتزايُدِه بالرُّسوخِ في حياتهم وجميعِ أحوالِهم، وفيه كذلكَ إشارةٌ إلى تَفْظيعِ شأنِ هذا الطُّغيانِ وغرابَتِه في بابه، وأنَّهمُ اخْتُصُّوا به حتَّى صارَ يُعرَفُ بإضافتِه إليهم[4].

دَلالةُ اسْتخدامِ الفعلِ المضارعِ ﴿يَعۡمَهُونَ﴾:

تجدُّدُ العَمَهِ فيهم، واسْتمرارُهم عليه

الفعلُ المضارعُ ﴿يَعۡمَهُونَ﴾ جملةٌ حاليَّةٌ دلَّتْ بفعلِها المضارعِ على

(1) ابن الجزري، النَّشر في القراءات العشر: 205/2، والعكبري، التبيان في إعراب القرآن: 290/1، والنَّسفي، مدارك التَّنزيل: 622/1.

(2) السَّمين الحلبي، الدُّرُّ المصون: 528/5، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السليم: 444/2.

(3) البقاعي، نظم الدُّرر: 185/8.

(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 296/1 - 297.

تجدُّدِ العَمَهِ فيهم ومُزاوَلتِهم له، وأثرِه الكبيرِ في ضَلالتِهم حتَّى أصبحَ سِمَتَهم، ومستمرًّا في حياتهم، ودليلًا على أحوالِهم[1].

نُكتةُ توحيدِ الضَّميرِ ﴿لَهُۥ﴾، وجمعِه في ﴿يَعۡمَهُونَ﴾:

وردَ قولُه تعالى: ﴿يَعۡمَهُونَ﴾ في حيِّزِ النَّفْيِ وسياقِ قولِه: ﴿فَلَا هَادِيَ لَهُۥۚ﴾ مع توحيدِ الضَّميرِ، وذلكَ نظرًا إلى لفظِ ﴿مَن﴾ المتقدِّمِ في قولِه تعالى: ﴿مَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ﴾، وجاءَ كذلكَ جمْعًا في حيِّزِ الإثباتِ، وفي كُلٍّ من توحيدِ الضَّميرِ وجمْعِه رُوعِيَ في معنَى ﴿يَعۡمَهُونَ﴾ التَّنصيصُ على شُمولِ النَّفْيِ والإثْباتِ للكلِّ بأنَّ مَنْ أضلَّه اللهُ فلا هاديَ له، ويذرُه في طُغيانِه يتخبَّطُ ويتردَّدُ، ويتردَّى في مَهاوِي الهلاكِ[2].

التَّنصيصُ على شُمولِ النَّفْيِ والإثباتِ للجميعِ

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

يَذَرُهم ويَتْرُكُهم:

التَّركُ: تخليفُ الشَّيءِ وإبقاؤه في المكانِ الَّذي هو فيه والانصرافُ عنه، ولهذا يُسمُّونَ بيضةَ النَّعامةِ إذا خرجَ فرخُها تَريكةً؛ لأنَّ النَّعامةَ تنصرفُ عنها[3].

(يَذَرُهم) يُفيدُ تَرْكَ الشَّيءِ وعدَمَ الاعْتدادِ به، وفيه معنَى التَّرْكِ

وذَرَ: يُقالُ: فلانٌ يَذرُ الشَّيء، أي: يقْذِفُه ويَدَعُه لقلَّةِ اعْتدادِه به، ولم يُستعمَلْ ماضِيه، قالَ تعالى: ﴿وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَۚ﴾ [الأعراف: 127]، وقالَ هنا: ﴿وَيَذَرُهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ﴾.

وهذا يدلُّ على عدمِ الاعْتدادِ بهم، ولذلكَ يُقالُ الوَذَرَةُ لقطعةٍ منَ اللَّحم، وتَسْمِيَتُها بذلكَ لقلَّةِ الاعْتدادِ بها[4].

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السليم: 444/2.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السليم: 444/2.
(3) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 124، والجرجاني، التَّعريفات، ص: 56.
(4) الرّاغب، المفردات، والرَّازي، مختار الصِّحاح: (وذر).

طُغيانُهم وظُلمُهم:

الطُّغيانُ: مُجاوزةُ الحدِّ في المكروهِ مع غَلَبةٍ وقَهْرٍ، ويُقالُ: طَغَى: إذا جاوزَ الحدَّ في الظُّلْمِ[1] فهو مبالغةٌ في الظّلْمِ.

الطُّغيانُ مُجاوزةُ الحدِّ في الظُّلْمِ، فهو ظُلْمٌ وزيادةٌ

الظُّلمُ: وضعُ الشَّيءِ في غيرِ موضعِه المختصِّ به، إمَّا بنقصانٍ أو بزيادةٍ، وإما بعُدولٍ عن وقتِه أو مكانِه، والظُّلمُ: مجاوزةُ الحدِّ، ويُقالُ فيما يكثُرُ وفيما يقِلُّ منَ التَّجاوُزِ، ولهذا يُستعمَلُ في الذَّنْبِ الكبيرِ، وفي الذَّنْبِ الصَّغيرِ[2].

(يَعْمَهون) و(يَعْمَون):

العَمَهُ: التَّردُّدُ في الأمرِ منَ التَّحيُّرِ، يُقالُ: عَمِهَ فهو عَمِهٌ وعَامِهٌ، وجمعُه: عُمَّهٌ، وهو معنَى قولِه تعالى: ﴿فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ وهو المناسبُ لسِياقِ الآيةِ.

العَمَهُ التَّردُّدُ والتَّحيُّرُ، وهو المناسِبُ لسِياقِ الآيةِ

العَمَى: يُقالُ في افْتقادِ البَصَرِ والبَصيرةِ، ويُقالُ في الأوَّلِ: أَعْمَى، وفي الثَّاني: أَعْمَى وعَمٍ، قالَ تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾ [الحج: 46][3].

(1) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 337، والجرجاني، التَّعريفات، ص: 141.
(2) الرّاغب، المفردات: (ظلم)، والجرجاني، التَّعريفات، ص: 144.
(3) الرّاغب، المفردات، والفيروزباديّ، القاموس: (عمه) و(عمي).

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾﴾ [الأعراف: 187]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

المناسبةُ بين مَغبّةِ تركِ الهدايةِ، وبين حُلولِ السّاعةِ بأحوالِها وأهوالِها

لَمَّا بيَّن اللهُ ﷻ لعبادِه فيما تقدَّمَ التَّوحيدَ والنُّبوَّةَ والقضاءَ والقَدَرَ، وجميعُها من أركانِ الإيمانِ ثمَّ عرَّجَ على ضرورةِ التَّفكُّرِ، والنَّظرِ بتدبُّرٍ في آياتِ اللهِ في مَلَكوتِ السّماواتِ والأرضِ، وفي حالِ رسولِ اللهِ ﷺ ودعوتِه قبلَ أنْ يأتيَ أجلُهم، وهذه كلُّها مُنبِّهةٌ للإيمانِ وداعيةٌ إليه وإلى التَّوبةِ والإصلاحِ، أتبعَ ذلكَ كلَّه هنا بالمَعَادِ لِتكملَ المطالبُ الأربعةُ مع الثَّلاثةِ الَّتي تقدَّمتْها، والَّتي هي أُمَّهاتُ مطالبِ القرآنِ، مُبيِّنًا ﷻ ما اشْتمَلَ عليه هذا الكلامُ من تبلُّدِ الكافرينَ في العَمَهِ وتَلدُّدِهم في إشْراكِ الشُّبَه بقولِه تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا﴾، ولعلَّ ذلك يحملُهم وغيرَهم منَ المكلَّفينَ على المسارعةِ إلى التَّوبةِ وأداءِ الواجباتِ وخاصَّةً أنَّ وقتَ السَّاعةِ مكتومٌ عنِ الخلْقِ محجوبٌ عن علمِهم[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلسَّاعَةِ﴾: السَّاعةُ: جُزءٌ من أجزاءِ الزَّمانِ، وتُطلقُ على الوقتِ الحاضرِ، ويُعبَّرُ بها عنِ القيامةِ، قالَ تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ﴾ [القمر: 1]، وجُمع هذان المعْنَيانِ في قولِه تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍ﴾ [الرُّوم: 55]، فالأُولى: هي القيامةُ، والثَّانيةُ:

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 422/15 - 423، والبقاعي، نظم الدُّرر: 185/8.

الوقتُ القليلُ منَ الزَّمان[1]، وقولُه هنا: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ﴾ أي: القيامةِ، وهي منَ الأسماءِ الغالبةِ، وإطلاقُها على القيامةِ لوقوعها بغتةً أو لسُرعةِ حِسابِها[2].

2) ﴿مُرْسَىٰهَا﴾: يقالُ: رَسَا الشَّيءُ يَرْسُو: ثَبتَ، وأَرْساهُ غيرُه، قالَ تعالى: ﴿رَوَاسِيَ شَٰمِخَٰتٍ﴾ [المرسلات: 27]، أي: جبالًا ثابتاتٍ.

والمُرْسَى يُقالُ للمصدرِ والمكانِ والزَّمانِ والمفعول، وقولُه هنا: ﴿أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا﴾، أي: زمانِ ثُبوتِها[3].

3) ﴿يُجَلِّيهَا﴾: جَلَوَ: الجيمُ واللَّامُ والحرفُ المعتلُّ أصلٌ واحدٌ، وقياسٌ مُطَّرِدٌ، وهو انْكشافُ الشَّيءِ وبُروزُه، يُقالُ: جَلَوْتُ السَّيفَ جَلاءً، ويُقالُ: السَّماءُ جَلْواءُ، أي: مُصْحِيةٌ، ويُقالُ تجلَّى الشَّيءُ، إذا انْكشفَ[4]، وقولُه تعالى هنا: ﴿لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ﴾، أي: لا يُظهِرُها لوقتِها، ولا يَكشِفُ عنها، ولا يعلمُ جَليَّةَ أمرِها ومتَى يكونُ على التَّحديدِ إلَّا اللهُ[5] ﷻ.

4) ﴿ثَقُلَتْ﴾: ثَقُلَ: الثَّاءُ والقافُ اللَّامُ أصلٌ واحدٌ يتفرَّعُ منه كلماتٌ متقاربةٌ، وهو ضدُّ الخِفَّةِ، ولذلك سُمِّيَ الجنُّ والإنْسُ الثَّقلَيْن؛ لِكَثْرةِ العددِ، قالَ تعالى: ﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ﴾ [النَّحل: 7]، أي: الأثْقال: جَمْعُ ثِقْلٍ، وهو مَتاعُ المُسافِر.

ويُقالُ: رحَلَ القومُ بِثَقْلَتِهم، أي: بأَمْتِعتِهم[6]، وقولُه تعالى هنا: ﴿ثَقُلَتْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، أي: ثَقُلَ وُقوعُها على أهلِ السَّماواتِ والأرض، أو أنَّه لَمَّا خَفيَ علْمُها على أهلِ السَّماواتِ والأرضِ كانتْ ثقيلةً؛ لأنَّ كلَّ ما خفيَ علْمُه ثقيلٌ على القلوب[7].

5) ﴿بَغْتَةً﴾: بَغَتَ: الباءُ والغَيْنُ والتَّاءُ أصلٌ واحدٌ، لا يُقاسُ عليه، منه البَغْتُ، وهو أنْ يفجَأَ الشَّيءُ. وبَغتَهُ، أي: فَاجَأَه، ولقيَهُ بغتةً، أي: فَجْأَةً، والمباغتةُ: المفاجأةُ[8]، وقولُه تعالى: ﴿لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً﴾، أي: إلَّا فجْأة، أو على غَفْلَةٍ[9].

(1) الرّاغب، المفردات، والرَّازي، مختار الصِّحاح: (سوع).
(2) الشَّوكاني، فتح القدير: 390/2.
(3) الرّاغب، المفردات: (رسا)، والشَّوكاني، فتح القدير: 390/2.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (جلو).
(5) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 250/2، والشَّوكاني، فتح القدير: 390/2.
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة، والفيروزباديّ، القاموس: (ثقل).
(7) الزَّجاج، معاني القرآن: 393/2، وابن جرير، جامع البيان: 294/13، والشَّوكاني، فتح القدير: 390/2.
(8) ابن فارس، مقاييس اللغة، والفيروزباديّ، القاموس: (بغت).
(9) الزَّجَّاج، معاني القرآن: 393/2، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 250/2.

6) ﴿حَفِيٌّ﴾: الإحْفاءُ في السُّؤال: التَّتَرُّعُ، أي: التَّسرُّعُ في الإلْحاحِ في المُطالَبة، أو في البحثِ عن تعرُّفِ الحال، وعلى الوجهِ الأوَّل، يُقالُ: أَحْفيْتُ السُّؤالَ، وأَحْفَيْتُ فلانًا في السُّؤال، قالَ تعالى: ﴿إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُواْ﴾ [محمَّد: 37]، وأصلُ ذلك من أَحْفيْتُ الدَّابَّة: جعلتُها حافيا، وقدْ حَفِيَ حَفًا وحَفْوَةً، والحَفِيُّ: البَرُّ اللَّطيفُ في قولِه ﷻ: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴿٤٧﴾﴾ [مريم: 47]، ويُقالُ: حَفِيتُ به - بالكسر - حَفاوَةً وتَحفَّيْتُ به: إذا عَنِيتُ بإكْرامِه، والحَفِيُّ: العالمُ بالشَّيء[1]، وقولُه تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَاۖ﴾ أي: يسألونَكَ عنها كأنَّكَ فَرِحٌ بسؤالِهم، يُقالُ: تَحفَّيْتُ بفلانٍ في المسألةِ إذا سألتُ سؤالًا أَظْهَرْتُ فيه المحبَّةَ والبِرَّ به، ويمكنُ أن يُرادَ: كأنَّكَ أكثَرْتَ المسألةَ عنها حتَّى علمتَ وقتَها، أو كأنَّكَ عالمٌ بها، أو كأنَّ بينَك وبينَهم مودَّةً، كأنَّكَ صديقٌ لهم[2].

المَعْنى الإجْماليُّ:

تَأكيدُ اليقينِ في قُربِ حُلولِ السّاعةِ، الّتي لا يعلمُ مَوعدَها إلّا الله

يقولُ اللّهُ تعالى لرسولِه محمَّدٍ ﷺ: يسألُكَ المكذِّبونَ لكَ المتعنِّتونَ متى وقتُ السَّاعةِ الَّذي تجيءُ به؟ قُلْ لهم: إنَّه تعالى هو المُختصُّ بعلْمِها، لا يُظهِرُها لوقتِها الَّذي قدَّرَ وقوعَها فيه إلَّا هو سُبحانه، لقد خَفِيَ علْمُها على أهلِ السَّماواتِ والأرض، واشْتدَّ أمرُها أيضًا عليهم، فهم منَ السَّاعةِ مُشْفِقون، فهي لا تأتيكُم إلَّا فَجْأةً من حيث لا تَشعرون، وأنتم لم تستعدُّوا لها، إنَّهم يسألونَكَ كأنَّكَ مُكثِرٌ من السُّؤالِ عنها، ولم يعلموا أنَّكَ - لكمالِ علمكَ بربِّك - غيرُ مُبالٍ بالسُّؤالِ الخالي منَ المصلحةِ، فإنَّه لا يعلمُها نبيٌّ مُرسَلٌ، ولا مَلَكٌ مقرَّبٌ، وهي منَ الأمورِ الَّتي أَخْفاها اللّهُ عنِ الخَلْقِ؛ لكمالِ حِكْمتِه، وسَعةِ علْمِه، ولكنَّ أكثرَ النَّاس يَترُكون

(1) الرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (حفى).
(2) الزَّجّاج، معاني القرآن: 393/2 - 394، وابن جرير، جامع البيان: 140/9 - 141.

السُّؤالَ عنِ الأهمِّ، ويَدَعُون ما يجبُ عليهم منَ العلْمِ، ثمَّ يذهبون للسُّؤالِ عمَّا هم غيرُ مُطالَبين بعلْمِه[1].

وتُرشدُ الآيةُ إلى أنَّ مَردَّ علْمِ السّاعة إلى اللّه وحده، فكلُّ مسؤول عنها غير اللّه ليس أعلَمَ منَ السّائل، وأنَّ للساعة أشراطًا، بعضُها في الكتابِ وبعضُها في السُّنة، وليس معنى ذلك أنّه تحديدٌ لوقتها، وإنّما هي مُقدِّماتٌ تدلُّ على قُربِها وأنَّ اللّه استأثرَ بعلْمِ الغيْبِ فلا يعلَمُ الغيبَ إلَّا اللّه، ومَن علَّمه اللّهُ شَيئًا منه عَلِمَه، كما عَلَّم نبيَّه ﷺ بعضَ المغَيَّباتِ، والمعلَّمُ بالشّيء لا يقال إنَّه يعلمُ الغيبَ، وإنما يقال علَّمه ربُّه غيبَ كذا وكذا فعَلِمَه[2].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

معنَى الاسْتئنافِ في قولِه: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ﴾:

يُفيدُ الاسْتئنافُ تَـوقُّـعَ اقْـترابِ أجَلِهم

قولُه تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ﴾ استئنافٌ ابْتدائيٌّ يُذكَرُ به شيءٌ من ضَلالِهم ومُحاولةِ تعجيزِهمُ النَّبيَّ ﷺ بتعيينِ وقتِ السَّاعةِ، ومُناسبةُ هذا الاسْتئنافِ هي التَّعرُّضُ لتوقُّعِ اقْترابِ أَجَلِهم في قولِه تعالى: ﴿وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْۖ﴾ [الأعراف: 185]، سواءٌ أكانَ أجلَ اسْتئصالِهم أمْ كانَ قيامَ السَّاعةِ، فإنَّ الكلامَ على السَّاعة دليلٌ لكلا الأجَلَيْن[3].

دَلالةُ اسْتخدامِ الفعلِ المضارعِ ﴿يَسْـَٔلُونَكَ﴾:

صِيغةُ المضارعِ دالَّـــةٌ عـلى تجدُّدِ سُؤالِهم واسْتمرارِه في موضوعِ السّاعةِ

الفعلُ المضارعُ ﴿يَسْـَٔلُونَكَ﴾ يدلُّ على تجدُّدِ سُؤالِهم واسْتمرارِهم في سُؤالِ رسولِ اللّهِ ﷺ عنِ السَّاعة، وقد أوردَ القرآنُ الكريمُ في مواطنَ كثيرةٍ منه سؤالَهمُ النَّبيَّ ﷺ عنِ السَّاعةِ ووقتِها تعجيزًا له، وهم لها مُنكِرون، قالَ تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هَلۡ نَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 250/2، والسّعدي، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 264.
(2) الجزائري، أيسر التفاسير: 272/2.
(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السليم: 444/2 - 445، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 200/9.

رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ۝٧ أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ﴾ [سبأ: 7 - 8]، وقالَ سُبحانه: ﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِۚ﴾ [الأحزاب: 63]، وقالَ ﷻ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُۖ﴾ [سبأ: 3][1].

دَلالةُ التّعبيرِ بالمسنَدِ إليه بواو الجماعةِ:

يعودُ الضَّميرُ على المشركينَ الَّذين سبقَ بيانُ تكْذِيبِهم بآياتِ الله

ضميرُ الواو في قولِه تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ﴾ يعودُ على المشركين، فالسُّؤال يعودُ إليهم - كما تقدَّم آنفًا في دَأْبِهم على هذا السُّؤال - فالضَّميرُ يعودُ إلى الَّذين كذَّبوا بآياتِ اللّه، ولم يتفكَّروا بحالِ رسولِ اللّهِ ﷺ وصِدْقِ دعوتِه، ولم ينظرُوا في مَلَكُوتِ السَّماواتِ والأرض[2]، والتّعبيرُ بالمسنَد إليه ضَميرُ جمْعٍ يدلُّ على الاهتمامِ الجمْعيِّ، كما يُنبئُ عن أهمّيةِ المسؤولِ عنه.

بَلاغةُ التّعبيرِ بالمفعولِ به:

سؤالُ المشركين التّعجيزيُّ لرسولِ اللهِ ﷺ؛ توهُّمًا منهم أنَّه يعلمُ وقتَ السّاعةِ

مفعولُ الخطابِ في قولِه تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ﴾ هو الكافُ المتَّصلةُ بالفعلِ المضارع، وهي تدلُّ على أنَّ سؤالَهم مُوجَّهٌ لرسول اللّه ﷺ، وهذا السُّؤالُ منهم ليس سؤالَ اسْتخبارٍ واسْتعلامٍ من مُتعلِّمٍ، وإنَّما هو سؤالُ تعجيزٍ، وذلك لتوهُّمِهم أنَّه لما أخبرَهم بأمرِها فهو يدَّعي العلمَ بوقتِها، قالَ تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٢٩ قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ۝٣٠﴾ [سبأ: 29 - 30][3].

غَرَضُ اسْتِخدامِ كلمةِ ﴿ٱلسَّاعَةِ﴾:

السَّاعةُ تناسبُ زمنَ الوقوعِ، وهو المسؤولُ عنه

السَّاعةُ تدلُّ على الوقتِ والزَّمن، وسُمِّيتِ القيامةُ بالسَّاعةِ مُراعاةً للزَّمنِ الَّذي تقعُ فيه: إمَّا لوقوعِها في وقتٍ ما بغتةً تَفْجأُ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 200/9 - 201.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 423/15، وأبو حيَّان، البحر المحيط: 237/5.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 200/9.

الخَلْقَ، وإمَّا لأنَّ حسابَ الخَلْقِ يُقْضَى بزمنٍ ما مِقدارُه ساعةٌ واحدةٌ، وإمَّا لأنَّها عندَ اللهِ على طولِها كساعةٍ منَ السَّاعاتِ عندَ الخَلْقِ[1].

مَوقعُ جُملةِ ﴿أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا﴾ ودَلالتُه:

الإجمالُ والتفصيلُ يَكشفانِ عن أهميّةِ المسؤولِ عنه

قولُه تعالى: ﴿أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا﴾ جملةٌ اسْتفهاميَّةٌ في موضعِ نَصْبٍ بقولٍ محذوفٍ دلَّ عليه فعلُ ﴿يَسْـَٔلُونَكَ﴾، والتَّقديرُ: (يقولونَ: أيَّانَ مُرساها)، وهو حكايةٌ لقولِهم بالمعنَى، ولذلكَ كانتِ الجملةُ في معنَى البدَلِ عن جملةِ: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ﴾، والبَدَلُ هنا على نيَّةِ تَكرارِ العاملِ، وذلكَ لأنَّ العاملَ مُعلَّقٌ عنِ العمل؛ لأنَّ الجملةَ فيها اسْتفهامٌ، ولَمَّا عُلِّقَ الفعلُ وهو يتعدَّى بـ (عن)، صارتِ الجملةُ في موضعِ نَصْبٍ على إسْقاطِ حرفِ الجرّ، فهو بدلٌ في الجملةِ على موضعِ منَ السَّاعة؛ لأنَّ موضعَ المجرور نَصْبٌ، ونظيرُه في البدَلِ قولُهم: عرفتُ زيدًا أبو من هو؟ على أحسنِ المذاهبِ في تخريجِ هذه المسألة، أي: في كونِ الجملةِ الاسْتفهاميَّةِ تكونُ في موضعِ البدَلِ[2]، وهذا الموقعُ يدلُّ على ترتيبِ الانشغالِ العامِّ بِالسَّاعَةِ والانشغال الخاصِّ بزمن وقوعِها، وكان يجبُ عليهمُ الانشغالُ بالعمل لها والاستعدادِ لملاقاتِها، فالتّعبيرُ كاشفٌ عن غفلتِهم عمّا يجبُ الانشغالُ به بالانشغال بغيره، وهو المناسِبُ للتّعبيرِ السّابقِ عنهم بالضّلالِ في الآيةِ السّابقةِ على الآيةِ الكريمةِ.

بَلاغةُ اسْتخدامِ اسْمِ الاسْتفهامِ ﴿أَيَّانَ﴾:

السُّؤالُ عنِ الزَّمانِ المتَعيَّنِ يُنبئُ عن أهميّةِ المسؤولِ عنه

﴿أَيَّانَ﴾ معناهُ: متى، وهو سؤالٌ عن زمانٍ، ولتضمُّنِها الوقتَ بُنيتْ، وهو جامدٌ غيرُ متصرِّفٍ، مُركَّبٌ من (أيٍّ) الاسْتفهاميَّة، و(آنَ) وهو الوقتُ، ثمَّ خُفِّفتْ (أيٌّ) وقُلبتْ همزةُ (آن) ياءً لِيَتأتَّى الإدغامُ، فصارتْ (أيَّانَ) بمعنَى: أيُّ زمانٍ، ويتعيَّنُ الزَّمانُ المسؤولُ

(1) الزَّمخشري، الكشَّاف: 134/2، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 423/15.
(2) أبو حيَّان، البحر المحيط: 237/5، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 201/9.

عنه بما بعدَ ﴿أَيَّانَ﴾، ولذلكَ يتعيَّنُ أنْ يكونَ اسْمَ معنًى لا اسْمَ ذاتٍ، إذْ لا يُخبَرُ بالزَّمانِ عنِ الذَّات[1]، و﴿أَيَّانَ﴾ هنا اصطُفِيت دون (متى)؛ لأنّها سؤالٌ عن أوانِ الوقوعِ تحديدًا وتعْيينًا.

عِلَّةُ تأْخيرِ المسنَدِ إليه ﴿مُرْسَىٰهَا﴾:

المقصَدُ الأساسُ معرفةُ السَّاعةِ باعْتبارِ حُلولِ وقْتِها

في قولِه تعالى: ﴿أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا﴾ تقدَّمَ الخبرُ ﴿أَيَّانَ﴾ على المبتدأ ﴿مُرْسَىٰهَا﴾ على خلافِ الأصلِ في الجُملةِ الاسْميَّةِ، لكنَّ الجملةَ هنا اسْتفهاميَّةٌ، و﴿أَيَّانَ﴾ اسْمُ اسْتفهامٍ عنِ الوقتِ وله الصَّدارةُ، فلا يصحُّ أنْ يكونَ خبرًا عنِ الوقتِ إلَّا بمجازٍ؛ لأنَّه يكونُ التَّقديرُ: في أيِّ وقتٍ وقتُ إرسائِها.

والمقصَدُ الأصليُّ منَ السُّؤالِ نفسُ السَّاعةِ باعْتبارِ حُلولِها في وقتِها المعيَّنِ لا باعْتبارِ كونِه محلًّا لها، فأضيفَ العلْمُ المطلوبُ بالسُّؤالِ إلى ضميرِها الهاءِ في ﴿مُرْسَىٰهَا﴾، مُخبرًا باخْتصاصِه به ﷻ دونَ غيرِه، بقولِه ﷻ: ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا﴾ أي: علمُها بالاعْتبارِ المذكورِ ﴿عِندَ رَبِّي﴾[2] والتّقديمُ كاشفٌ عنِ الاهتمامِ بالأوانِ والوقتِ.

بَلاغةُ الاسْتِعارةِ في ﴿مُرْسَىٰهَا﴾:

شُبِّهَ وقوعُ أَمْرِ السَّاعةِ بوصُولِ السَّائرِ إلى المكانِ الَّذي يَقْصِدُه

أَطْلَقَ بيانُ اللّهِ الإرساءَ هنا في قولِه تعالى: ﴿مُرْسَىٰهَا﴾ اسْتعارةً للوقوعِ؛ تَشْبيهًا لوقوعِ الأمْرِ الَّذي كانَ مُترَقَّبًا أو مُتردَّدًا فيه بوصولِ السَّائرِ في البَرِّ أوِ البحرِ إلى المكانِ الَّذي يريدُه[3]، وفيه تصويرٌ لحركةِ السّاعةِ الدّائبةِ للوصولِ إلى المَرْسَى.

براعةُ ورودِ الجوابِ بمقابلةِ سُؤالِ التَّهكُّمِ بالمعنَى المُلْقَى بـ ﴿قُلْ﴾:

جاءَ سؤالُ المشركينَ عنِ السَّاعةِ وهو يحملُ في طيَّاته التَّهكُّمَ

(1) أبو حيَّان، البحر المحيط: 237/5، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 201/9.

(2) أبو حيَّان، البحر المحيط: 237/5، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السليم: 445/2، والشَّوكاني، فتح القدير: 390/2.

(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 202/9.

والازْدراءَ وسُوءَ القَصْدِ، لكنَّ بيانَ اللّهِ تعالى المترفِّعَ دائمًا عن سفاهتِهم وسُوءِ نيَّتِهم يأمرُ رسولَ اللّهِ تعالى بجوابِهم جوابَ جِدٍّ وإغضاءٍ عن سُوءِ قَصْدِهم مُصدَّرًا بـ﴿قُلْ﴾؛ إظهارًا لنَفْيِ الوَصْمِ عن وصْفِ النُّبوَّةِ من جَرَّاءِ عدمِ العلْمِ بوقتِ السَّاعة، وتعليمًا للذَّين يترقَّبونَ أنْ يحصُلَ من جوابِ الرَّسولِ ﷺ عن سؤالِ المشركينَ علمٌ للجميعِ بتعْيينِ وقتِ السَّاعةِ، فإذا أمْرُ السَّاعةِ ممَّا تتوجَّهُ النُّفوسُ إلى تطلُّبه وتحرِصُ على مَعْرفتِه[1].

اخْتصَّ اللهُ بعلْمٍ لم يُطلِعْه لأحدٍ من العالمين ولا لمقام النبيّ الأمين

فائِدةُ الجوابِ بأُسلوبِ القَصْرِ:

الحَصْرُ في قولِه تعالى: ﴿إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي﴾ حقيقيٌّ؛ لأنَّه الأصلُ، ولِمَا دلَّ عليه التَّوكيدُ بعدُ في قولِه تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ﴾، والقَصرُ الحقيقيُّ يشتمِلُ على معنَى الإضافيِّ وزيادَةٍ؛ لأنَّ علْمَ السَّاعةِ بالتَّحديدِ مقصورٌ على اللّهِ تعالى وحده،[2]، واستخدامُ أُسلوبِ القصْرِ بطريق ﴿إِنَّمَا﴾ دالٌّ على أنَّ قصْرَ علْمِ السّاعةِ على اللّه وحده حقيقةٌ مُطلقةٌ؛ لأنّ ﴿إِنَّمَا﴾ تُستخدمُ فيما لا يجهلُه المخاطَبُ ولايُنكرُه، وفي ذلك تعريضٌ بغباوةِ المشركين.

تعريضٌ بغَباوةِ المشركين

بَلاغةُ التَّعْبيرِ بالجُملةِ الاسْميَّةِ:

قولُه تعالى: ﴿عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي﴾ جملةٌ اسْميَّةٌ أفادتْ ثباتَ علْمِ السّاعةِ عندَ اللّهِ واسْتئثارَه سُبحانه بعلْمِ وقتِها دونَ سواه، ولم يُخبرْ به أحدًا من ملَكٍ مقرَّبٍ ولا نبيٍّ مُرسَلٍ؛ ليكونَ ذلكَ أَدْعَى إلى دوامِ الطَّاعةِ وأَزْجَرَ عنِ المعصيةِ[3].

اسْتئثارُه سُبْحانَهُ بوقْتِ وقوعِها، حقيقةٌ مُطلقةٌ

دَلالةُ التَّعْبيرِ بـ﴿عِلْمُهَا﴾ بدلَ وقتِها:

المرادُ بعلْمِ السَّاعةِ هو علْمُ تحديدِ وقتِها، كما يُنْبئُ عنه السُّؤالُ،

المرادُ علْمُ وقتِها المَسْؤولِ عنه

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 202/9.
(2) الزَّجّاج، معاني القرآن: 394/2، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 202/9.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 423/15، والنَّسفي، مدارك التَّنزيل: 622/1، والشَّوكاني، فتح القدير: 390/2.

فإضافةُ علْم إلى ضميرِ السَّاعةِ على تقديرِ مضافٍ بينَهما، أي: علْمُ وقتِها[1]، وعبَّر بالعلمِ لِيشملَ وقتَ الوقوعِ وما يكونُ قبْلَه منَ الأحداثِ، وما يكونُ فيه منَ الأحداثِ، وما يكونُ بعدَه كذلك.

بَلاغةُ لفْظِ ﴿عِندَ﴾ ودَلالتُه:

﴿عِندَ﴾ في قولِه تعالى: ﴿عِندَ رَبِّيۖ﴾ ظرفيَّةٌ مَجازيَّةٌ اسْتُعمِلتْ في تحقيقِ تعلُّقِ علْمِ اللّهِ بوقتِها[2].

لَطيفةُ التَّعريفِ باسْمِ الرَّبِّ مُضافًا ﴿عِندَ رَبِّيۖ﴾:

الجـوابُ يكونُ تَرْبِيَةً وإرشادًا للسّائلِ

التَّعريفُ بوصْفِ الرَّبِّ وإضافتِه إلى ضميرِ المتكلِّمِ إيْماءٌ إلى الاسْتدلالِ على اسْتئثارِ اللّهِ تعالى بعلْمِ وقتِ السَّاعةِ دونَ الرَّسولِ المسؤولِ، ففيه إيْماءٌ إلى خَطَئِهم وإلى شُبهةِ خَطَئِهم، وفي التَّعرُّضِ لعنوانِ الرُّبوبيَّةِ مع إضافتِه إلى ضميرِه ﷺ إيْذانٌ بأنَّ توفيقَه ﷺ للجوابِ المذكورِ من بابِ التَّربيةِ والإرشادِ[3].

وَجْهُ كَمالِ الاتِّصالِ بين قولِه: ﴿لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَۚ﴾ وما قبْلَه:

اتِّصالٌ بين عدَمِ علْمِ وقوعِها من أحدٍ، وإظهارِها لأحدٍ

في قولِه تعالى: ﴿لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَۚ﴾ بيانٌ لاسْتمرارِ تلكَ الحالةِ إلى حينِ وقتِها، وإقْناطٌ كلِّيٌّ عن إظْهارِ أمرِها بطريقِ الإخبارِ من جهتِه تعالى أوْ من جهةِ غيرِه؛ فإنَّ هذه التَّجليةَ وذاك العلْمَ بوقتِ وقوعِها كلاهما مَنْفيُّ الإسنادِ عن غيرِ اللّهِ تعالى، فهو الَّذي يعلمُ وقتَها، وهو الَّذي يُظهِرُها إذا أراد، فإذا أَظْهرَها فقد جلَّاها، والمعنَى: لا يكشِفُ وقتَ وقوعِها ولا يُظْهِرُ للنَّاسِ أمرَها الَّذي تسألونَني عنه إلَّا هو ﷻ، من غيرِ أنْ يَشعُرَ به أحدٌ منَ المخلوقينَ فيتوسَّطَ في إظهارِه، لا بأن يُخبرَهم بوقتِها قبلَ مجيئِه، كما هو المسؤولُ؛ بل بأن يُقيمَها فيشاهدُوها عِيانًا، كما يُفصِحُ عنه التَّجليةُ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 202/9.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 202/9.
(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السليم: 445/2، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 202/9.

المنْبِئةُ عنِ الكشفِ التَّامِّ المُزيلِ للإبهامِ بالكليَّةِ، وذلكَ كلُّه لاقْتضاءِ الحِكمةِ التَّشريعيَّةِ إيَّاه، فإنَّه أَدْعَى إلى الطَّاعةِ وأَزْجَرُ عنِ المعصية، كما أنَّ إخفاءَ الأجلِ الخاصِّ بالإنسانِ كذلك[1].

بَلاغةُ أُسلوبِ القَصْرِ:

الـقَـصْـرُ تـابـعٌ ومُؤكِّدٌ للجُملةِ قبْلَها، وتتابُعُه أفحمُ في الـرَّدِّ والتَّبكيتِ

في قولِه تعالى: ﴿لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَۚ﴾ قَصْرٌ حقيقيٌّ؛ لأنَّها تتنزَّلُ منَ الجُملةِ الَّتي قبلَها: ﴿إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّيۖ﴾ منزلةَ التَّأكيدِ والتَّقريرِ لها، فكما أنَّ تلكَ ضمَّتْ في جَنَباتِها القَصْرَ الحقيقيَّ فكذلك هذه[2]، وهذا تأكيدٌ بعد تأكيدٍ؛ لأنّ جُملةَ القصْرِ بقوة جُملتَيْن: إثباتٌ ونفيٌ، فهما جُملتا قَصْرٍ متعاقبتان، وتَتابُعُ أسلُوبي قَصْرٍ - في السِّياق الواحدِ - أفحمُ في الردِّ عليهم وتبكيتِهم.

معنَى اللَّامِ في شِبْه الجُملةِ ﴿لِوَقْتِهَآ﴾:

اللَّامُ للتَّوقيتِ؛ واللهُ وحدَه العالِمُ بوقْتِ وُقوعِها وكفَى

جاءتِ اللَّامُ في قولِه تعالى: ﴿لِوَقْتِهَآ﴾ للتَّوقيتِ، كالَّتي في قولِه تعالى: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ﴾ [الإسراء: 78]، ومعنَى التَّوقيتِ قريبٌ من معنَى (عندَ)، والتَّحقيقُ: أنَّ معناهُ ناشئٌ عن معنَى لامِ الاخْتصاص، ومعنَى اللَّامِ هنا يُناسبُ أحدَ مَعْنيَي الإجْلاء، وهو الإظْهارُ؛ لأنَّه الَّذي إذا حصلَ تمَّ كشْفُ أمرِها، وتحقَّقَ النَّاسُ أنَّ القادرَ على إجلائِها وحدَه كان عالمًا بوقتِ حُلولِها[3].

دَلالةُ تَقديمِ ﴿لِوَقْتِهَآ﴾ على فاعلِ الفعْلِ ﴿يُجَلِّيهَا﴾:

التَّقديمُ تنبيهٌ على أنَّ تجليّةَ أمرِها، تكونُ وقتَ وقوعِها

في قولِه تعالى: ﴿لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَۚ﴾ قُدِّمَ الجارُّ والمجرورُ وهو ﴿لِوَقْتِهَآ﴾ على فاعلِ ﴿يُجَلِّيهَا﴾ الواقعِ اسْتثناءً مُفرَّغًا؛ للاهْتمامِ به تنبيهًا على أنَّ تجليةَ أمرِها يكون وقتَ حُلولِها؛ لأنَّها تأتي بغتةً[4].

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السليم: 446/2، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 202/9.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 202/9 - 203.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 202/9 - 203.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 203/9.

غَرَضُ الاسْتِعارةِ في قولِه: ﴿ثَقُلَتْ﴾:

التَّعْبيرُ بالثِّقَلِ تصويرٌ للمَشقّةِ

الثِّقَلُ في قولِه تعالى: ﴿ثَقُلَتْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ﴾ مُستعارٌ للمشقَّةِ، كما يُستعارُ العِظَمُ والكِبَر؛ لأنَّ شِدَّةَ وقْعِ الشَّيءِ في النُّفوسِ ومَشَقَّتِه عليها تُخيِّلُ لمن خَلَتْ به أنَّه حاملٌ شيئًا ثقيلًا، ومنه قولُه تعالى: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۝٥﴾ [المزمل: 5]، أي: شديدًا تَلَقِّيه، وهو القرآنُ[1].

بَديعُ التَّعْدِيةِ بحرفِ الجرِّ ﴿فِي﴾ بدلَ (على):

التَّعْدِيةُ دالَّةٌ على عُمومِ ما يقعُ عليه الثِّقَلُ في السَّماواتِ والأرضِ

في قولِه تعالى: ﴿ثَقُلَتْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ﴾ تعدَّى فعلُ ﴿ثَقُلَتْ﴾ بحرفِ الظَّرفيَّةِ ﴿فِي﴾ الدَّالِّ على مكانِ حُلولِ الفعل، وحُذِفَ ما حقُّه أنْ يَتعدَّى بِهِ وهو حرفُ (على)، الَّذي يدلُّ على ما يقعُ عليه الفعلُ؛ لِيعُمَّ كلَّ ما تحويهِ السَّماواتُ والأرضُ ممَّا يقعُ عليه عمليَّةُ الثِّقَلِ بمعنى الشِّدَّةِ، وهذا من بديعِ الإيجازِ البلاغيِّ ودِقَّةِ مَدْلولِه[2].

دَلالةُ التَّعْبيرِ بالقَيْدِ ﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ﴾:

شِدَّةُ السَّاعةِ وعُمومُ ما يحدُثُ فيها محلُّه السَّماواتُ والأرضُ

دلَّ قولُه تعالى: ﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ﴾ بالقيدِ فيهما مع اسْتخدامِ ﴿فِي﴾ - كما تقدَّم آنفًا - ليدلَّ على شدَّةِ وعِظَمِ السَّاعةِ وعُمُومِ ما يحدثُ فيها منَ الحوادثِ المهُولَةِ، ممَّا يقعُ في السَّماواتِ والأرضِ، فهما محلُّ هذه الحوادثِ من تصادمِ الكواكبِ وانْخرامِ سَيْرِها في السَّماوات، ومن زلازلِ الأرضِ وفَيَضانِ البراكينِ والبحارِ، ونحوِ ذلك ممَّا ينشأُ عنِ اخْتلالِ النِّظامِ الَّذي كان عليه سيرُ العالَمِ[3].

بَلاغةُ الاعْتراضِ في الآيةِ:

لقصْدِ بيانِ هوْلِ السّاعةِ، وحكْمةِ إخفائِها

جُملةُ: ﴿ثَقُلَتْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ﴾ معترضةٌ لقصْدِ الإفادةِ بهَوْلِ السّاعة وأحداثِها، والإيْماءِ إلى حِكمةِ إخْفائِها.

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 203/9.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 204/9.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 203/9.

فائدةُ الكِنايةِ عن شِدَّةِ السَّاعةِ بقولِه: ﴿ثَقُلَتْ﴾:

وقوعُ السّاعة ذو أحداثٍ شديدةٍ ومَهولةٍ

التَّعبيرُ كلُّه كنايةٌ عن شدّةِ السّاعةِ، وإسنادُ الثِّقلِ إلى السّاعةِ مجازٌ عقليٌّ باعتبارها وعاءَ الحوادثِ والشّدائدِ، والقرينةُ واضحةٌ، وهي كونُ الثِّقَلِ بمعنَى الشِّدَّةِ لا يكونُ وصْفًا للزَّمان، ولكنَّه وصفٌ للأحداثِ، فإذا أُسنِدَ إلى الزَّمان، فإسنادُه إليه إنَّما هو باعْتبارِه ظرْفًا للأحداثِ، كقولِه تعالى حكايةً عن لوطٍ عليه السلام: ﴿وَقَالَ هَٰذَا يَوۡمٌ عَصِيبٞ ٧٧﴾ [هود: 77][1].

مَوقعُ جُملةِ: ﴿لَا تَأۡتِيكُمۡ إِلَّا بَغۡتَةٗۗ﴾ ودَلالتُه على التّأكيدِ:

تقريرُ المضامِين يُثبّتُ المرادَ ويُحقِّقُه

جُملةُ: ﴿لَا تَأۡتِيكُمۡ إِلَّا بَغۡتَةٗۗ﴾ مُستأنَفةٌ جاءتْ تكملةً للإخبارِ عن وقتِ حُلولِ السَّاعة؛ لأنَّ الإتيانَ بغتةً يُحقِّقُ ويؤكِّدُ مضمونَ الإخْبارِ عن وقتِها بأنَّه غيرُ معلومٍ إلَّا للّه تعالى، حيث قال: ﴿لَا يُجَلِّيهَا لِوَقۡتِهَآ إِلَّا هُوَۚ﴾، وبأنَّ اللّه غيرُ مُظهِرِه لأحدٍ، فدلَّ قولُه تعالى: ﴿لَا تَأۡتِيكُمۡ إِلَّا بَغۡتَةٗۗ﴾ على أنَّ انْتفاءَ إظْهارِ وقتِها انْتفاءٌ مُتوغِّلٌ في نوعِه، بحيث لا يحصُلُ العلْمُ لأحدٍ بحُلُولِها بالكُنْهِ ولا بالإجمال[2].

نُكتةُ التَّعْبيرِ بأسلُوبِ القَصْرِ:

حُلولِ السَّاعةِ مُفاجأةٌ بدونِ تهيُّؤٍ له

في قوله تعالى: ﴿لَا تَأۡتِيكُمۡ إِلَّا بَغۡتَةٗۗ﴾ دلَّ مجيءُ ﴿إِلَّا﴾ بعد النَّفي على أنَّ ﴿إِلَّا﴾ أداةُ حَصْرٍ أُكِّدَ فيها هذا الحَصْرُ بالإخْبارِ بالمصدرِ ﴿بَغۡتَةٗۗ﴾ لقصْدِ المبالغة، فاجتمعا معًا للدَّلالةِ على أنَّ السَّاعةَ مقصورٌ حُلولُها فجأةً من غيرِ ترقُّبٍ ولا إعلامٍ ولا إشْعار[3].

كمالُ الاتِّصالِ بين قولِه: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنۡهَاۖ﴾، وقولِه: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ﴾:

جُملةُ ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنۡهَاۖ﴾ مؤكِّدةٌ لجُملةِ ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 203/9.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السليم: 446/2، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 204/9.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 204/9.

عَنِ ٱلسَّاعَةِ﴾، ومُبيِّنةٌ لكيفيَّةِ سؤالِهم فَلذَيْنِك فُصِلت، وحُذفَ متعلَّقُ السُّؤالِ لعلْمِه منَ الجُملةِ الأولى، ويُعدُّ كذلكَ قولُه تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَاۖ﴾ اسْتئنافًا مُشوِّقًا لبيانِ خَطئِهم في توجيهِ السُّؤالِ إلى رسولِ اللهِ ﷺ من أصلِه، إذْ عُلِمَ بناءً على زعمِهم أنَّه ﷺ عالمٌ بالمسؤولِ عنه، أو أنَّ العلمَ بذلكَ من مَواجبِ الرِّسالةِ إثْرَ بيانِ خطئِهم في أصْلِ السُّؤالِ بإعْلامِ شأنِ المسؤولِ عنه[1].

الاستئنافُ بينَ القولَيْنِ دليلٌ على خِطَّتِهم في توجيهِ السُّؤالِ للرّسولِ ﷺ

بَلاغةُ جُملةِ التَّشبيهِ ﴿يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَاۖ﴾:

مَبنَى التَّركيبِ في التَّشبيهِ هنا في قوله تعالى: ﴿كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَاۖ﴾ قائمٌ على المبالغةِ والاسْتقصاءِ، فهم يسألونَكَ كأنَّكَ عالمٌ بها، وحقيقتُه كأنَّكَ بليغٌ في السُّؤال عنها؛ لأنَّ من بالغَ في السُّؤالِ عنِ الشَّيءِ والتّنقيرِ عنه اسْتحكَمَ علْمُه فيه[2]؛ فقد شُبِّه حالُ الرَّسولِ ﷺ في سؤالهم إيَّاه بحالِ من هو مُبالِغٌ في العلْمِ بها، وجملةُ ﴿يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَاۖ﴾ جملةٌ تشبيهيَّةٌ في محلِّ النَّصبِ على أنَّها حالٌ منَ (الكاف) في ﴿يَسْـَٔلُونَكَ﴾ جيءَ بها على هذه الشَّاكلةِ بيانًا لما يَدْعوهم إلى السُّؤالِ على زعمِهم، وإشعارًا بخطئِهم في ذلك؛ أي: يسألونَكَ مُشبَّهًا حالُكَ عندَهم بحالِ مَنْ هو حفيٌّ عنها، أي: مُبالِغٌ في العلْمِ بها[3].

تركيبُ التَّشبيهِ في الجُملةِ، قائمٌ على المبالغةِ والاستقصاءِ

دَلالةُ تأخيرِ ﴿عَنْهَاۖ﴾، عمَّا يتعلَّقُ به:

﴿عَنْهَاۖ﴾ متعلِّقةٌ بـ﴿يَسْـَٔلُونَكَ﴾ وحُذِفَ مُتَعَلَّقُ ﴿حَفِيٌّ﴾ لظهورِه فيما يتناسبُ معَ السِّياق، فأصلُ التَّرتيب: يسألونَك عنها كأنَّكَ حَفيٌّ، ولذلكَ جاءَ تأخيرُ ﴿عَنْهَاۖ﴾ للإيْفاءِ بجميعِ الاعْتباراتِ المتعلِّقةِ بمعنى ﴿حَفِيٌّ﴾، وهذه الاعْتباراتُ هي وجوهٌ منَ المعاني أفاضَ بها

التّأخيرُ للإيفاءِ بما يتعلَّقُ به معنَى (حَفِيّ)، من وجوهِ المعاني المختلفةِ

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السليم: 301/3، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 204/9.
(2) الزَّمخشري، الكشَّاف: 134/2، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السليم: 447/2.
(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السليم: 447/2.

قولُه تعالى: ﴿حَفِيٌّ﴾، وهي مُفصَّلةٌ في الوجهِ البلاغيِّ القادمِ في إثْرِ هذا البيان[1].

تنوُّعُ معنَى ﴿حَفِيٌّ﴾ في هذا السِّياقِ وأثَرُه في المعنَى:

ضمُّ معانٍ عديدة، ولكلٍّ منها تقديرٌ مناسِبٌ للسِّياقِ

حَفِيٌّ: فَعِيلٌ، ويَعْتورُهُ عديدٌ منَ المعاني، ولكلِّ واحدٍ منها أَثَرٌ في تكْييفِ المعنَى بما يتناسبُ مع السِّياق، وهي كما يلي:

الأوَّلُ: بمعنَى فاعلٍ، مُشتقًّا من حَفيَ به، مِثْلُ غَنِيَ، فَهُوَ غَنِيٌّ، إذا أَكْثرَ السُّؤالَ عن حالِه تلطُّفًا، ويكونُ المعنَى: كأنَّكَ أَكْرَرْتَ السُّؤالَ عن وقتِ الساعة حتَّى علِمْتَه، فيكونُ وصفُ حفيٍّ كنايةً عنِ العالِم بالشَّيء؛ لأنَّ كثرةَ السُّؤالِ تَقْتضِي حصولَ العلْمِ بالمسؤولِ عنه.

الثَّاني: أنْ يكونَ مُشتقًّا من أَحْفاه، إذا أَلَحَّ عليه في فعْلٍ، فيكونُ فعيلًا بمعنَى مُفْعِلٍ، مِثْل حَكيم، أي: كأنَّكَ مُلِحٌّ على اللهِ في تعيينِ وقتِ السَّاعة، كقولِه تعالى: ﴿إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُواْ﴾ [محمَّد: 37].

الثَّالثُ: أنْ يكونَ حفيٌّ مُشتقًّا من حَفيٍّ به، كرضيٍّ، بمعنَى مُحبٍّ ومُحْتَفٍ ومُحتَفِلٍ به، ومُبالغ في الإكرام، فيكونُ مُستعمَلًا في صريحِ معناه، والتَّقديرُ: كأنَّكَ حفيٌّ بهم، أي: مُكرِمٌ لهم ومحبٌّ ومُلاطفٌ، فيكونُ تهكُّمًا بالمشركين، أي: يُظهِرونَ لكَ أنَّكَ كذلكَ لِيستنزِلوكَ للخَوْضِ معهم في تعيينِ السَّاعة.

الرَّابعُ: بمعنَى مُعْجَبٍ، أي: كأنَّكَ يُعجبُكَ سؤالُهم عنها.

الخامسُ: بمعنَى مجتهِدٍ، أي: مجتهدٌ في السُّؤالِ مُبالِغٌ في الإقْبالِ على ما تُسألُ عنه.

السَّادسُ: بمعنى طالبٍ، أي: كأنَّكَ طالبٌ علْمَها.

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 205/9.

السَّابعُ: بمعنى كارِه، أي: كأنَّكَ تكرهُ السُّؤالَ عنها؛ لأنَّها من علْمِ الغيبِ الَّذي اسْتأثَرَ اللّهُ به ولم يُؤتِه أحدًا[1].

بَلاغةُ كمالِ الاتِّصالِ: بين قولِه: ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ﴾، وقولِه: ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّىۖ﴾:

الاتِّصالُ بين القولَيْن فيه تأكيدُ الثَّاني للأوَّلِ، في الحُكْمِ والمضمُونِ

في قولِه تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ أمرٌ من اللّهِ ﷻ لنبيِّه ﷺ بإعادةِ الجوابِ الأوَّلِ في قولِه تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّىۖ﴾؛ تأكيدًا للحُكمِ الأوَّلِ، وتقريرًا له، وإشْعارًا بِعِلِّيَّتِه على الطريقةِ البُرهانيَّةِ بإيرادِ اسْمِ الذَّاتِ المُنْبِئِ عن اسْتِتْباعِها لصفاتِ الكمالِ الَّتي من جُملتِها العلمُ، وتمهيدًا للتَّعريضِ بهم في قولِه تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[2].

بَراعةُ أُسلوبِ القَصْرِ:

الحصْرُ هنا حقيقيٌّ؛ لإبطالِ معرفةِ الرُّسُلِ وقتَ حُلولِ السَّاعةِ

سبقَ بيانُ أنَّ الحَصْرَ المشتملَ عليه قولُه تعالى: ﴿إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّىۖ﴾ حَصْرٌ حقيقيٌّ، ثمَّ عُطِفَ على جملةِ الجوابِ اسْتدراكٌ عنِ الحَصْرِ في قولِه تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ تأكيدًا لكونِه حصرًا حقيقيًّا، وإبطالًا لظنِّ الَّذينَ يَحسَبونَ أنَّ شأنَ الرُّسُلِ أنْ يكونوا عالمينَ بكلِّ مجهولٍ، ومن ذلكَ وقتُ السَّاعةِ بالنِّسبةِ إلى أوقاتِهم يستطيعونَ إعلامَ النَّاسِ، فيستدلُّونَ بعدمِ علْمِ السَّاعةِ على عدمِ صِدْقِ مُدَّعِي الرِّسالةِ، وهذا الاعْتقادُ ضَلالةٌ مُلازِمَةٌ للعقولِ الأَفِنَةِ، فإنَّها تتوهَّمُ الحقائقَ على غيرِ ما هيَ عليه، وتُوقِنُ بما يُخيَّلُ إليها، وتجعلُه أصولًا تَبْني عليها معارِفَها ومُعاملاتِها، وتجعلُها حُكْمًا في الأمورِ إثْباتًا ونَفْيًا، وهذا فَرْطُ ضلالةٍ، وإنَّه لَضِغْثٌ على إبَّالةٍ[3].

(1) ابن جرير، جامع البيان: 140/9 - 141، والزَّمخشري، الكشَّاف: 134/2 - 135، وأبو حيَّان، البحر المحيط: 239/5.

(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السليم: 447/2، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 205/9.

(3) أبو حيَّان، البحر المحيط: 239/5، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السليم: 447/2، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 206/9.

دَلالةُ المغايَرةِ في المقصُورِ عليه ﴿عِندَ رَبِّيۖ﴾، ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾:

الأوَّلُ جوابٌ عن وقْتِ السَّاعةِ، والثَّاني بيانُ كُنْهِ ثِقَلِها ومهابَتِها

غايرَ النّظمُ الكريمُ في الموضعين: ﴿عِندَ رَبِّيۖ﴾، وفي جوابِ السُّؤالِ الثَّاني: ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾، ولا بدَّ من نُكتةٍ بلاغيَّةٍ في هذه المغايَرة، فقولُه تعالى: ﴿عِندَ رَبِّيۖ﴾ وقع جوابًا عن قولِه: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَاۖ﴾، فهو سؤالٌ عن وقتِ قيامِ السَّاعةِ، وقولُه تعالى: ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ وقع جوابًا عن قولِه تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَاۖ﴾، فهو سؤالٌ عن كُنْهِ ثِقَلِ السَّاعة ومقدارِ شِدَّتِها ومَهَابتِها، وأعظمُ أسماءِ اللّهِ مهابةً وعَظَمةً هو قولُه عندَ السُّؤالِ عن مقدارِ شِدَّةِ القيامةِ الاسْمُ الدَّالُّ على غايةِ المهابة، وهو قولُنا: اللّه، ﷻ وعزَّتْ عظَمتُه وتعالى كبرياؤه[1].

غَرَضُ تأكيدِ انْحِصارِ علْمِ السَّاعةِ باللهِ:

تقريرٌ بأنَّ علْمَ السّاعةِ للهِ وحدَه، لا لأحدٍ سِواه

وقوعُ أسلُوبِ القصْرِ أربعَ مرّاتٍ في آيةٍ واحدةٍ تأكيدٌ لانْحِصارِ العلْمِ بوقوعِ السّاعةِ عند اللّه وحدَه؛ فقد ورد في: ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّيۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَۚ﴾... ﴿لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةًۗ﴾ ... ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ﴾، وفيه تقريرٌ بأنَّ علْمَ وقوعِها ليس ممكنًا لأيِّ مخلوقٍ سوى اللّه الخالقِ الجليلِ، وهذا من فرائدِ السّورةِ الكريمةِ؛ لأنّها سورةٌ مقصودُها الإنذارُ والتّذكيرُ، كما يُعلنُ عنه أوّلُها: ﴿لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ۝٢﴾ [الأعراف: 2].

معنى الواوِ في ﴿وَلَٰكِنَّ﴾:

الحاليَّةُ في الجُملةِ كاشفةٌ عن كثرةِ السُّؤالِ وسبَبِه

في قولِه تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ الواوُ في ﴿وَلَٰكِنَّ﴾ واوُ الحال، أي: والحالُ أنَّ أكثرَ النَّاسِ لا يعلمونَ أنَّ حُجَّةَ اللّهِ واضحةٌ في أمرِ السَّاعةِ وإخفاءِ زَمنِ وقوعِها وكُنهِ ثِقَلِها وشدَّتِها ومن أنَّها من مكنوناتِ وخَصائصِ علْمِ اللّهِ وحدَه، ولكنَّ الَّذينَ يُنكِرونَ ذلكَ لا يعلمونَ الأمرَ على حقيقتِه، فيتَّخذونَ جَهْلَهم

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 425/15، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السليم: 447/2.

بالشَّيءِ حُكْمًا وأَصْلًا يَبْنونَ عليه عقيدتَهم ومعارفَهم، فيَتيهون في ضلالتِهم ويَزْدادونَ غَيًّا فوق غَيِّهم[1].

دَلالةُ التَّعْبيرِ بأفْعِل التَّفضيلِ اسْمًا لـ ﴿وَلَٰكِنَّ﴾ على الإنْصافِ:

جاءَ قولُه تعالى: ﴿أَكْثَرَ﴾ اسْمًا لـ ﴿وَلَٰكِنَّ﴾، وهو من أَفْعِل التَّفضيلِ؛ لبيانِ أنَّ الَّذينَ غلبتْ عليهم صفةُ الاضْطرابِ وهمُ الأكثرُ ليسُوا من أهلِ العلْمِ، فهم بالسُّؤالِ عنها يَسْتهزئون، ولو كانوا من أهلِه ما كذَّبوكَ، فوقَعوا بما لا يَعنيهم منَ السُّؤالِ عنها وغيرِه من أنواعِ التَّعنُّت، وتركوا ما يُنْجيهم ويُغْنيهم منَ المبادَرةِ إلى الإيمانِ بهذا القرآنِ خَوْفَ انْخرامِ الآجالِ، وهم يَهيمُونَ في أوْديةِ الضَّلالِ[2].

الَّذين غلبَ عليهمُ الاضْطرابُ، مُتَخبِّطونَ في أمرِ السَّاعةِ وسؤالِهم عنها

نُكتةُ إضافةِ الأكثريَّةِ إلى ﴿ٱلنَّاسِ﴾:

في قولِه تعالى: ﴿أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ﴾ أُضيفتِ الأكثريَّةُ إلى النَّاسِ في عدمِ العلْمِ، أي: لا يعلمونَ أنَّ هذا الأمرَ في شأنِ زمنِ وقوعِ السَّاعةِ وكُنْهِها لا يعلمُه إلَّا اللّٰه؛ بل يظنُّ أكثرُهم أنَّه ممَّا يعلمُه البشرُ، وهذه الإضافةُ على حقيقتِها، أي: أكثرُ النَّاسِ هم كذلك، والقِلَّةُ منهم مُستَثْنَوْن، وهمُ المؤمنونَ الواقفونَ على جَليَّةِ أمرِ السَّاعة، وأنَّها ممَّا اخْتصَّ اللّٰهُ بعلْمِه دونَ سِواه[3]، والإضافةُ دالَّةٌ على عمومِ البشرِ، وهو المناسِبُ لنفْيِ العلْمِ عنِ الأكثرِ.

الإضافةُ إلى أكثريَّةِ النَّاسِ تعميمٌ لعُمومِ البشرِ

دَلالةُ التَّعْبيرِ بالفعْلِ المضارعِ مَنْفيًّا:

قولُه تعالى: ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ نفيٌ لعلْمِهم بصِيغةِ المضارعِ الَّتي تدلُّ على اسْتمرارِهم في عَدَمِ علْمِهم بحقيقةِ أمرِ السَّاعةِ، وبأنَّها ممَّا اختصَّ اللّٰهُ بعلْمِه، وليس لرسولِ اللّٰهِ ﷺ ولا لنبيٍّ أو مَلَكٍ أيُّ علْمٍ بشأنِ زمنِ وُقوعِها، فهم في واقعِ الحالِ ليسُوا من أهلِ العلْمِ، وهذا

استمرارُهم في عَدَمِ عِلْمِهم، بأنَّها ممَّا استأثرَ اللّٰهُ بعلْمِه

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 206/9، ومحيي الدين درويش، إعراب القرآن: 501/8.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 187/8.
(3) أبو حيَّان، البحر المحيط: 239/5، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السليم: 447/2.

يدلُّ كذلكَ على اسْتمرارِهم في السُّؤالِ عمَّا لا يَعْنيهم، وترْكِ ما يُنجيهم ويُغْنِيهم ويَنْفعُهم في دُنياهم ودينِهم[1].

بَلاغةُ الخَتْمِ بقولِه: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾:

أُسلوبُ الإنصافِ في الحُكْمِ، عُلوٌّ في المقامِ

جاءَ خَتْمُ الآيةِ بقولِه تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾؛ لبيانِ أنَّ المستَثْنَى ممَّن يجمعُهم عدمُ العلْمِ بما ذُكِرَ من اخْتصاصِ علْمِ اللهِ تعالى بوقتِ وقوعِ السَّاعةِ وكُنْهِ ثِقَلِها وشدَّتِها، همُ الواقفونَ على جَليَّةِ الحالِ منَ المؤمنينَ الصَّادقينَ، ولكنَّ الأكثرَ: إمَّا أنَّهم يُنكرونَ وقوعَ السَّاعةِ رأسًا، فلا يعلمونَ شيئًا ممَّا ذُكِرَ قَطْعًا، وإمَّا أنَّ بعضَهم يدَّعونَ أنَّكَ واقفٌ على وقتِ وقوعِها فيسألونَكَ عنه جَهْلًا، وإمَّا أنَّ بعضَهم يدَّعونَ أنَّ العلْمَ بذلكَ من مَواجبِ الرِّسالة، فيتَّخذونَ السُّؤالَ عنه ذريعةً إلى القَدْحِ في رسالتِك، وإمَّا أنَّ بعضَهم لا يعلمونَ السَّببَ الَّذي لأَجْلِه أُخْفيَتْ معرفةَ وقتِها، وإمَّا أنَّ السَّائلين عنها منَ اليهودِ بطريقِ الامْتحانِ فهم مُنتظِمونَ في سِلْكِ الجاهلين حيث لم يعمَلوا بعلْمِهم[2].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

السَّاعةُ والقِيامةُ:

السَّاعةُ تعبيرٌ عنِ القيامةِ، لوقوعِها بغتةً في زمنٍ يسيرٍ

السَّاعةُ: جُزءٌ منَ الزَّمان، ويُعبَّرُ بها عنِ القِيامة، وإطلاقُها على القيامةِ لوقوعِها بغتةً بزمنٍ يسيرٍ، ولسُرعةِ حسابِها[3]، قالَ تعالى: ﴿أَوۡ تَأۡتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغۡتَةً﴾ [يوسف: 107].

القيامةُ: عبارةٌ عن قيامِ السَّاعةِ المذكورِ في قولِه تعالى: ﴿وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ﴾ [الرُّوم: 12]، وقولِه تعالى: ﴿يَوۡمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 187/8.

(2) ابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 485/2، وأبو حيَّان، البحر المحيط: 239/5، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السليم: 447/2.

(3) الرّاغب، المفردات، والفيروزباديّ، القاموس: (سوع).

﴿٦﴾ [المطففين: 6]، والقيامةُ أصلُها ما يكونُ منَ الإنسانِ منَ القيامِ دُفْعَةً واحدةً، أُدْخلتْ فيها الهاءُ تنبيهًا على وقوعِها دُفعةً[1].

(تأتي) و(تَجيء):

الإتيانُ: مجيءٌ بسُهولةٍ، ويُقالُ للمجيءِ بالذَّاتِ وبالأمرِ وبالتَّدبيرِ، ويُقالُ في الخيرِ وفي الشَّرِّ وفي الأعْيانِ والأَعْراضِ، قالَ تعالى: ﴿إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ﴾ [الأنعام: 40]، وقال سُبحانه: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ [النَّحل: 1][2].

الإتيانُ المجيءُ بسُهولةٍ، والسَّاعةُ تأتي كذلكَ بسُهولةٍ، فأمرُها يَسيرٌ على الله

والمجيءُ: كالإتْيان، لكنَّ المجيءَ أعمُّ؛ لأنَّ الإتيانَ - كما تقدَّمَ آنفًا - مجيءٌ بسُهولةٍ، والإتْيانُ قد يُقالُ باعْتبارِ القَصْدِ وإن لم يكنْ منه الحصولُ، والمجيءُ يقالُ اعْتبارًا بالحصولِ، ويقالُ: (جاءَ) في الأعيانِ والمعاني، ولِمَا يكونُ مجيئُه بذاتِه وبأمرِه، ولمن قصدَ مكانًا أو عملًا أو زمانًا، قالَ اللهُ ﷻ: ﴿وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ﴾ [يس: 20]، وقالَ ﷻ: ﴿فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ﴾ [الأحزاب: 19][3].

البَغْتةُ والغَفْلَةُ:

البَغْتةُ: الفَجْأَةُ، وبَغَتَهُ: فاجأَه، والمُباغتةُ: المفاجَأَة، والبَغْتُ: مفاجأةُ الشَّيءِ من حيثُ لا يَحْتسِبُ[4].

البَغْتةُ مُفاجأةٌ من غيرِ تهيُّؤٍ ولا تَحسُّبٍ، وهذا حالُ وُقوعِ السَّاعةِ

والغَفْلَةُ: عَدَمُ حضورِ الشَّيءِ في البالِ بالفعلِ، وهي عبارةٌ عن عَدَمِ التَّفطُّنِ للشَّيءِ وعَدَمِ عقليَّتِه بالفعلِ، سواءً أَبقيتْ صورة الغفلة أو معناها في الخيال، أوِ صورة الذِّكر، أم انْمحتْ عن أحدِهما، والغَفْلَةُ تكونُ عمَّا يكونُ، تقولُ: غَفَلْتُ عن هذا الشَّيءِ حتَّى كان[5].

---

(1) الرّاغب، المفردات، والفيروزابادي، القاموس: (قوم).

(2) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 63، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (أَتَىَ).

(3) الرّاغب، المفرادت: (جاء)، والفيروزابادي، بصائر ذوي التمييز: 412/1.

(4) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات: (بغت).

(5) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 388، والجرجاني، التَّعريفات، ص: 168، والكفوي، الكُلِّيَّات: 25/3.

النَّاسُ والبَشَرُ:

البَشرُ، يقْتضي حُسْنَ الهَيْئَةِ، وذلكَ أنَّه مشتقٌّ منَ البِشارة، وهي حُسْنُ الهَيْئة، يُقالُ: رَجُلٌ بَشيرٌ، إذا كان حسنَ الهيْئَةِ، وامْرأةٌ بَشيرةٌ، وسُمِّي النَّاسُ بَشَرًا؛ لأنَّهم أحسنُ الحيوانِ هَيْئَةً، ويجوزُ أنْ يُقالَ: إنَّ قولَنا بَشَرٌ يقتضِي الظُّهورَ، وسُمُّوا بَشَرًا لظُهورِ شَأنِهم، ومنه قيلَ لظاهرِ الجِلْدِ: بَشَرَة، وتقولُ: محمَّدٌ خيرُ البَشَرِ ﷺ، يَعْنُونَ النَّاسَ كُلَّهم، ويُثنَّى البَشَرُ، فيُقالُ: بَشَران، وفي القرآن: ﴿لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا﴾ [المؤمنون: 47] ولم يُسمعْ أنَّه يُجمَعُ[1].

البَشَرُ يقتضي حُسْنَ الهَيْئَةِ، والنَّاسُ جَمْعٌ

النَّاس، يقْتضِي النَّوْسَ، وهو الحَرَكةُ، والنَّاسُ جَمْعٌ، والبَشَرُ واحدٌ وجَمْعٌ، وفي القرآن: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ [المؤمنون: 33]، وأصلُ النَّاسِ أُنَاسٌ، فحُذِفتْ فاؤه لَمَّا أُدخِلَ عليه الألفُ واللَّام، وقيل: قُلِبَ من نَسِيَ، وقيل: أصلُه من: نَاسَ يَنُوسُ: إذا اضْطرَب، والنَّاسُ قد يُذكّر، ويُعتَبرُ به معنَى الإنسانيَّة، وهو وجودُ العقل، والذِّكْر، وسائرِ الأخلاقِ الحميدةِ، والمعاني المختصَّةِ به، كما قالَ تعالى: ﴿ءَامِنُواْ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ﴾ [البقرة: 13]، باعْتبارِ معنَى الإنسانيَّةِ، ولم يُقصدْ بالإنسانِ عَيْنٌ واحد؛ بل قُصدَ المعنَى.

البَشَرُ تعني النَّاسَ كُلَّهم، والنَّاسُ هُمُ الخلْقُ من بنِي آدمَ إلى نهايةِ الدّنيا

(1) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 101 - 102، والرّاغب، المفردات: (بشر).

﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ١٨٨﴾ [الأعراف: 188]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

بعد أن بَيَّن اللهُ تعالى أَمْرَ السَّاعةِ، وكانت السَّاعةُ أدقَّ علمِ الغيبِ، وأنَّ عِلْمَها عند الله وحده؛ أمرَ النَّبيَّ ﷺ أن يُبَيِّنَ لهم أنَّه بشرٌ رسولٌ، وأنَّه لَا يملك لهم أن يأتي بها قَبْلَ أن يُقدِّر اللهُ تعالى وُقوعها؛ لأنَّه لَا يملكُ لنفسِه نفعًا يجلبُه ولا ضرًّا يدفعُه، بل إنَّه يجري عليه ما يجري على البَشَرِ، فلا يملكُ أَنْ يُغَيِّرَ في أمرِ السَّاعة شيئًا، فليس لهم أن يسألوهُ عنها، ويطلبوا منهُ ميقاتَها[1]، كما أنَّه لمَّا أمرَ خاتم رُسُلِه بأن يجيبَ السَّائلين عن السَّاعة: بأنَّ عِلْمَهَا عند الله تعالى وحده؛ قَفَّى على ذلك بأمرِ رسولِه ﷺ أن يُبَيِّنَ للنَّاس أنَّ كُلَّ الأمورِ بيدِه سبحانه وحدَهُ، وأنَّ عِلْمَ الغيبِ كُلَّهُ عندَه[2].

موعدُ السَّاعةِ غَيبٌ مَحْضٌ، والرَّسولُ لا يملكُ لنفسِهِ ولا لغيرِهِ نفعًا ولا ضَرًّا

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿نَفۡعٗا﴾: مشتقٌّ من النَّفَعَة، وهي العصا، يُتَّكَأ عليها، والنَّفْعُ ما يُستعانُ به في الوصول إلى الخيراتِ، يُقال: نَفَعَهُ ينفَعُهُ نَفْعًا، ونَفَعْتُهُ بكذا فانْتَفَعَ به، ومن هذا الأصل: الإفادة والتَّقوية جاء النَّفْعُ بمعنى ضد الضَّرِّ في القرآن كلِّه، وذلك في كلِّ شيء بحسْبه، ﴿وَأَنزَلۡنَا ٱلۡحَدِيدَ فِيهِ بَأۡسٞ شَدِيدٞ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ [الحديد: 25]، ﴿وَٱلۡأَنۡعَٰمَ خَلَقَهَاۖ لَكُمۡ فِيهَا دِفۡءٞ وَمَنَٰفِعُ﴾ [النحل: 5][3]، والمعنى هنا: لا أقدِرُ على جلْبِ خيرٍ لنفسي.

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 187/8، ومحمَّد أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 3026/6.

(2) الهرري، حدائق الرَّوح والرَّيحان: 230/10.

(3) الجوهري، الصحاح، والرّاغب، المفردات: (نفع)، والمناوي، التَّوقيف، ص: 328، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (نفع).

2) ﴿ضَرًّا﴾: الضَّرُّ: ضِدُّ النَّفْعِ، وَيُقَالُ: ضَرَّهُ يَضُرُّهُ ضَرًّا، ثُمَّ يُحْمَلُ عَلَى هَذَا كُلُّ مَا جَانَسَهُ أَوْ قَارَبَهُ، فَالضُّرُّ: الْهُزَالُ، والضَّرُّ: النَّقْصُ وسوءُ الحال، إمَّا في النَّفس لقلَّةِ العلم والفضلِ والعفَّةِ، وإمَّا في البدن لفقدانِ جارحةٍ، وإمَّا في حالةٍ ظاهرةٍ من قلَّةِ مالٍ وجاهٍ،[1]، والمعنى في سياق الآية: لا أقدِرُ على دَفْعِ شَرٍّ يحلُّ بنفسي.

3) ﴿لَٱسْتَكْثَرْتُ﴾: الهمزة والسِّين والتَّاء لطلب الفعل، والاستكثار من الكَثْرة، والكَافُ وَالثَّاءُ وَالرَّاءُ أَصْلٌ صَحِيحٌ يَدُلُّ خِلَافَ الْقِلَّةِ، مِنْ ذَلِكَ الشَّيْءُ الْكَثِيرُ، وَقَدْ كَثُرَ، والمعنى المحوريُّ: زيادة عدد أفراد الشَّيء بِالنِّسْبَةِ للمعتاد أو المتوقَّع[2]، ومعنى قوله: ﴿لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ﴾: لأعددتُ الكثير من الخير[3].

4) ﴿ٱلسُّوٓءُ﴾: ساءَهُ يَسُوؤه سَوْءًا وسُوءًا: فَعَلَ بِهِ مَا يَكْرَهُ، نَقِيضُ سَرَّه، والسُّوء: اسمٌ جامع للآفات والداء، وكلُّ (سُوء) بضم السين؛ فهو القبيح بحَسْبه اسمًا أو صفة، وكلُّ (سَوء) بفتح السين؛ فهو مصدر لإيقاع السُّوء بالضم[4]. ومعنى قوله: ﴿وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُ﴾: لاجتنبتُ ما يكون من الشرِّ واتَّقيته[5].

❁ المَعْنى الإِجْمالِيُّ:

بيانُ بَشَرِيَّةِ الرَّسولِ ﷺ وعَدَمِ معرفتِهِ بالغَيبِ إلَّا فيما أعلمَهُ اللهُ بِهِ

قل - أيُّها الرَّسول -: لا أقدرُ على جَلْبِ خيرٍ لنفسي، ولا دَفْعِ شرٍّ يحلُّ بها إلَّا ما شاء اللّه، وإنَّما ذلك إلى اللّهِ سبحانه وحدَهُ، ولا أعلمُ إلا ما علَّمني، فلا أعلمُ الغيبَ، ولو كُنتُ أعلمُ ما غابَ عنِّي كما تَظنُّون، لفعلتُ الأسبابَ الَّتي أعلمُ أنَّها تُكثِّر لي المصالح والمنافع،

(1) ابن الأثير الشَّيبانيُّ، النِّهاية في غريب الحديث، والكرجاتي، مجمع بحار الأنوار، والرّاغب، المفردات، والسَّمين الحلبيُّ، عمدة الحُفَّاظ، وابن فارس، مقاييس اللُّغة، والزّبيديّ، تاج العروس: (ضرر).

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (كثر).

(3) ابن جرير، جامع البيان: 302/13.

(4) ابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (سوء).

(5) ابن جرير، جامع البيان: 302/13.

وتدفعُ عنِّيَ المفاسدَ؛ ولاتَّقيتُ ما يكون منَ الشَّرِّ قبل أن يقعَ، لِعلمي بالأشياءِ قبلَ كَوْنِهَا، وعلمي لما تؤولُ إليه، فما أنا إلَّا رسولُ اللّهِ أرسلني إليكم، أخَوِّفُ من عقابهِ الأليمِ، وأبَشِّرُ بثوابهِ الكريمِ قومًا يُصَدِّقون بأنِّي رسولُ اللّهِ، ويعملونَ بشرعهِ[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

علَّةُ فصلِ الآيةِ عَمَّا قبلَها:

بيانُ أنَّ كلَّ الأمورِ بيدِ اللهِ تعالى وأنَّ عِلْمَ الغيبِ كُلَّهُ مرجعُهُ إليه

قولهُ تعالى: ﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي﴾ استئنافٌ ابتدائيٌّ، قُصِدَ منه الاهتمامُ بمضمونهِ؛ كي تتوجَّهَ الأسماعُ إليه[2]، جاء جوابًا على ذلك السُّؤالِ الذي تقدَّمَ في الآية السَّابقةِ، ظَنًّا منهم أنَّ النَّبيَّ ﷺ ليسَ بشرًا، وأنَّه يَمْلِكُ من قِوى الغيبِ ما يجعلُهُ عالمًا بكلِّ شيءٍ، قادرًا على كلِّ شيءٍ[3]، فخرج هذا الكلامُ مخرجَ الجوابِ عَن سُؤالِهم[4]، فَهُوَ شروعٌ في الجواب عنِ السُّؤال ببيانِ عَجْزِهِ عن علمِ السَّاعةِ إثرَ بيانِ عجْزِ الكُلِّ عنهُ، وإبطالِ زعمهم الذي بَنوا عليه سؤالَهم من كونهِ ﷺ مِمَّن يعلمُها[5]، ففُصِلَتِ الآيةُ لاتِّصالها بما قبلَها من حيثُ نفيُ علمِ السَّاعة[6]، فالجملةُ مستأنفةٌ مسوقةٌ لحسم أطماعِهم بعد إعلانِ نفضِ يدهِ منهم، والكلامُ مسوقٌ لإثبات عدمِ إحاطتهِ ﷺ بعلمِ الغيب[7].

نكتةُ تكريرِ الفِعلِ ﴿قُل﴾:

إظهارُ كمالِ العنايةِ بشأنِ الجوابِ والتَّنبيهِ على بيانِ عَجْزِ المخلوقِ عن علمِ السَّاعةِ

كُرِّرَ الأمرُ بالقولِ مع تَقَدُّمهِ مرَّتينِ في قولهِ: ﴿قُلۡ إِنَّمَا عِلۡمُهَا عِندَ

(1) لجنة من عُلماءِ الأزهر، المنتخَبُ في تفسير القرآنِ الكريم، ص: 238، ونُخْبة من أساتذة التَّفسير، التَّفسير المُيَسَّر، ص: 173، وجماعَةٌ من علماء التَّفسير، المُخْتَصَر في تفسير القرآن الكريم، ص: 173.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 207/9.
(3) عبد الكريم الخطيب، التَّفسير القرآني للقرآن: 533/5.
(4) الخازن، لباب التأويل في معاني التنزيل: 279/2.
(5) أبو السُّعود، إرشاد العقل السليم: 302/3.
(6) الجرجانيّ، درج الدُّرر: 714/1.
(7) درويش إعراب القرآن الكريم وبيانه: 505/3، والآلوسيّ، روح المعاني: 125/5.

﴿رَبِّيٓ﴾ و﴿قُلۡ إِنَّمَا عِلۡمُهَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [الأعراف: 187] لإظهارِ كمالِ العنايةِ بشأنِ الجوابِ والتَّنبيهِ على استقلالِه ومغايرتِه للأوَّل، والتَّعرُّضِ لبيانِ عجزِه عمَّا ذُكِرَ مِنَ النَّفعِ والضَّرِّ لإثبات عجْزِه عن علمِها بالطَّريق البرهانيِّ[1].

دلالةُ فعلِ الأمرِ ﴿قُل﴾:

المبالغةُ في إظهارِ كمالِ العبوديَّةِ للهِ والتَّبرُّؤ من ادِّعاء علم الغيبِ

قولُه تعالى: ﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ﴾، أي: قل أيُّها الرَّسولُ للنَّاس: إنِّي لا أملكُ لنفسي ولا لغيري جلْبَ أيِّ نفعٍ، ولا أستطيعُ دَفْعَ أيِّ ضررٍ عنِّي ولا عن غيري، إلا بمشيئةِ اللهِ وقُدْرَتِه، فيُلْهِمُني إيَّاه، ويوفِّقُني لهُ، وهذا يدلُّ على إظهار العبوديَّةِ، والتَّبرِّي مِن ادِّعاء العلم بالغيوبِ[2]، ففي هذا أمرٌ لهُ ﷺ في أن يُبالِغَ في الاستسلام، ويتجرَّدَ من المشاركة في قدرةِ اللهِ وغيبِه، وأن يَصِفَ نفسَهُ لهؤلاء السَّائلين بصفةِ مَنْ كان بها، فهو حريٌّ ألَّا يعلمَ غيبًا، ولا يدَّعيه[3]، فلمَّا كان مِلْكُ الضُّرِّ والنَّفع بهذا الإطلاقِ خاصًّا بربِّ العبادِ وخالقِهم، وكان طلبُ النَّفعِ أو كشْفُ الضُّرِّ عبادةً لا يجوز أن تُوجَّهَ إلى غيره من عباده، أمرَ اللهُ تعالى رسولَهُ ﷺ أن يُصرِّح بالبلاغ عنه أنَّه لا يملكُ لنفسهِ ولا لغيره نفعًا ولا ضَرًّا، وقد تكرَّر هذا الأمرُ له في القرآنِ مُبالغةً في تقريرِه وتوكيدِه[4].

دلالةُ تخصيصِ المقولِ بذكرِ حالِ الرَّسولِ ﷺ:

دفْعُ توهُّمِ ملازمةِ معرفةِ الغيبِ لصفةِ النُّبوَّةِ

خصَّ النَّظمُ الكريمُ هذا المقولَ بالإخبارِ عن حالِ الرَّسولِ ﷺ نحو معرفة الغيبِ ليقلَعَ مِن عقولِ المشركين تَوَهُّمَ ملازمةِ معرفةِ الغيبِ لصفة النُّبوَّةِ، إعلانًا للمشركين بالتزامِ أنَّه لا يعلمُ الغيبَ، وأنَّ ذلك ليس بطاعنٍ في نبوَّتِه حتَّى يستيئِسوا من تحدِّيه بذلِكَ،

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 302/3، والآلوسيّ، روح المعاني: 125/5، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 207/9.
(2) وهبة الزُّحيليُّ، التَّفسير الوسيط: 761/1.
(3) ابن عطية الأندلسي، المحرَّر الوجيز: 485/2.
(4) محمد رضا، تفسير المنار: 507/9.

وإعلامًا للمسلمين بالتَّمييز بينَ ما تقتضيهِ النُّبوَّةُ وما لا تقتضيهِ، ولذلك نفى عن نفسهِ معرفة أحوالهِ المغيَّبةِ، فضلًا على معرفةِ المغيَّبات من أحوالِ غيرهِ إلَّا ما شاءَ اللّٰه[1].

دلالةُ النَّفي في قولهِ: ﴿لَآ أَمۡلِكُ﴾:

تأكيدُ عدمِ علمِ الرَّسولِ بالسَّاعة أيَّان تكونُ ومتى تقعُ

قولهُ تعالى: ﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ﴾، أي: في أيِّ وقتٍ مِنَ الأوقاتِ أصلًا[2]، فلا أقدِرُ لنفسي أن أسوقَ إليها خيرًا، أو أدفعَ عنها ضرًّا حين ينزلُ بي، فكيف أملكُ علمَ السَّاعة[3]؟ فَمَن لا يعلمُ أَنَّ نفعَه في أيِّ الأشياءِ ومضرَّتَهُ في أيٍّ منها، كيف يعلمُ وقتَ قيام السَّاعةِ[4]؟ فالجملةُ متضمِّنةٌ لتأكيد ما تقدَّمَ مِن عدمِ علمهِ بالسَّاعةِ أيَّانَ تكونُ، ومتى تقعُ[5]؟

سِرُّ ذِكْرِ مِلْكِ النَّفعِ والضُّرِّ:

المُبالغةُ في الاستسلامِ بإظهارِ العبوديَّةِ وانتفاءِ ما يختصُّ بالرُّبوبيَّة مِن مِلْكِ النَّفعِ والضُّرِّ

مِلْكُ الشَّيءِ: القُدرةُ على التَّصرُّف فيه على وَفقِ ما جزمَتْ به الإرادةُ، ومالكُ الشَّيء: هو القادرُ على التَّصرُّفِ فيه بحسب إرادتهِ، وبما أنَّ الكونَ كلَّهُ خاضعٌ لسلطانِ اللّٰهِ تعالى وإرادتهِ الحكيمةِ، بكلِّ كبيرٍ وصغيرٍ فيه، فإنَّ أحدًا في الوجودِ لا يملكُ أن يتصرَّفَ بشيءٍ فيه، إلَّا إذا منحَهُ اللّٰهُ ﷻ القدرةَ على التَّصرُّف، في حدود ما منحَهُ مِن ذلك، حتَّى أَكرَمَ الخلقِ عند اللّٰهِ وأقرَبَهُم إليه، لا يملك لنفسهِ جلْبَ نفعٍ، أو دفْعَ ضُرٍّ، إلَّا إذا شاء اللّٰهُ ذلك، فضلًا عن أن يملكَ شيئًا من ذلك لغيرهِ مِن خلقِ اللّٰهِ إلَّا بمشيئةِ اللّٰهِ، وفي نفي المِلك عنه عليه السلام إظهارٌ للعبوديَّة وانتفاء عن ما يختصُّ بالرُّبوبيَّة من القُدرةِ وعلمِ الغيبِ ومُبالَغَةٌ في الاستسلام[6].

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 207/9.
(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 187/8.
(3) السَّمرقندي، تفسير السمرقندي: 573/1.
(4) البروسوي، روح البيان: 292/3.
(5) القنوجي، فتح البيان في مقاصد القرآن: 95/5.
(6) أبو حيَّان، البحر المحيط: 240/5.

فائدةُ تقديم الجارِّ والمجرور على المفعول به:

خيرُ الخلْق لا يملك لنفسه شيئًا، فاللهُ وحدَه الذي يملك النَّفْعَ والضَّرَّ

تقديم قوله: ﴿لِنَفْسِي﴾ على قوله: ﴿نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾ لدَفع ما يُتَوهَّم أنَّ له أدنى علمٍ بالغيب، فينفعهم بالخير، أو يصرف عنهم الشَّرَّ، فنفى عن نفسه مِلْك شيءٍ من النَّفع أو الضَّرِّ، وهو مبالغة في نفي امتلاكه ذلك لغيره من باب أولى.

كما أنَّ تقديم الجارِّ والمجرور هنا أنسب للسِّياقِ؛ إذ إنَّه حُجَّةٌ عليهم واضحة، فما بقي شيء من منافع الدِّينِ والدُّنْيا إلّا وقد دخل تحت هذه الآية؛ ما أراهم إلا يكابرون عقولهم[1].

وفيه إشارةٌ إلى الاهتمام بِالْمُقَدَّم والتَّشْويقِ إلى المؤخَّر، فإنَّ ما حقُّه التَّقْديمُ إذا أُخِّر تبقى النَّفْسُ مُتَرَقِّبَةً له فعند ورودِه يتمكَّن عندها فضلَ تمكّنٍ[2].

معنى اللَّام في ﴿لِنَفْسِي﴾:

نفيُ مِلْكِ النَّفعِ والضُّرِّ على النَّفسِ نفيٌ لملكِهِ للآخَرِ بطريقِ الأولى

اللَّامُ في قوله: ﴿لِنَفْسِي﴾ للتَّعليل، وهي إمَّا متعلِّقةٌ بالفعلِ ﴿أَمْلِكُ﴾ أو بمحذوفٍ وقعَ حالًا من ﴿نَفْعًا﴾، أي: لا أقدِرُ لأجل نفسي على جلْبِ نفعٍ ما، ولا على دَفْعِ ضُرٍّ ما[3]، وإذا كنتُ لا أَملِكُ ذلك لنفسي؛ فلا أملِكه لِغَيري بالأولى[4].

نكتةُ تقديمِ النَّفعِ على الضُّرِّ:

بيانُ كونِ النَّفعِ أحَبَّ للنَّفسِ، مع مُراعاة تقديم ذكرِ الهداية فيما سَبَقَ

وقدَّمَ النَّفعَ؛ لأنَّه أحبُّ إلى النَّفس، وليس في السِّياق ما يُوجِبُ تأخيرَهُ[5]، وإذا كان المقصودُ بالنَّفْع والضُّرِّ الهدى والضَّلالَ، كما فسَّره بعض المحقِّقين[6]، فإنَّ نُكتةَ التَّقديم تكون أقوى[7]؛ لأنَّه تقدَّم

(1) القصَّاب، النكت الدَّالَّةُ على البيان في أنواع العلوم والأحكام: 454/1.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 9/4.
(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 302/3، وطنطاوي، التَّفسير الوسيط للقرآن الكريم: 450/5.
(4) محمد رضا، تفسير المنار: 507/9.
(5) البقاعي، نظم الدُّرر: 187/8، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 207/9.
(6) ابن جرير، جامع البيان: 302/13، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 336/7.
(7) الآلوسيّ، روح المعاني: 125/5.

﴿مَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِۖ وَمَن يُضۡلِلۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ١٧٨﴾ [الأعراف: 178] فَقدَّم الهدايةَ على الضَّلال[1].

توجيهُ المتشابِهِ اللَّفْظيِّ في تقديمِ النَّفعِ على الضُّرِّ وتأخيرِه:

دلالاتُ سياقِ الألفاظِ على ما سبقَها من المعاني مع تناسُقِ المباني تقديمًا وتأخيرًا

أكثرُ ما جاءَ في القرآن - حين يُؤتى بالضُّرِّ والنَّفعِ معًا - تقديمُ لفظِ الضّرِّ على النَّفع، وهو الأصلُ؛ لأنَّ العابدَ إنَّما يعبدُ معبودَه خوفًا من عقابِهِ أوَّلًا، ثُمَّ يعبدُه طمعًا في ثوابِهِ ثانيًا، كما يُشير إلى ذلك قولُهُ تعالى: ﴿يَدۡعُونَ رَبَّهُمۡ خَوۡفٗا وَطَمَعٗا﴾ [السَّجدة: 16]، وحيث تقدَّم النَّفعُ على الضُّرِّ، كان ذلك لسبقِ لَفْظٍ تضمَّنَ معنى نفْعٍ، كما في هذه السُّورةِ حيثُ تقدَّم آنفًا لفظُ الهدايةِ على الضَّلال في قولِهِ تعالى: ﴿مَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِۖ وَمَن يُضۡلِلۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ١٧٨﴾ [الأعراف: 178]، وفي الرَّعد تقدَّمَ ذكرُ الطَّوعِ في قولِهِ سبحانه: ﴿طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا﴾ [الرَّعد: 15]، وهو نفْعٌ، وفي الفرقانِ وفاطر تقدَّمَ ذِكْرُ (العَذْبِ) في قوله ﷻ: ﴿هَٰذَا عَذۡبٞ فُرَاتٞ﴾ [الفرقان: 53، وفاطر: 12]، وهو نَفْعٌ، وفي سبأٍ تقدَّمَ (البَسْط) في قولِهِ تبارك اسمه: ﴿رَبِّي يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُ﴾ [سبأ: 36]، ولِيَقِسْ على هذا غيرَه[2].

كما أنَّ اللهَ تعالى قال هُنا في سورة الأعراف: ﴿قُلۡ إِنَّمَا عِلۡمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ١٨٧ قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ وقال في سورة يونس: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٤٨ قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي ضَرًّا وَلَا نَفۡعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۗ﴾ [يونس: 48 - 49]، فقدَّم النَّفعَ على الضُّرِّ في الأُولى، وأخَّرَهُ عنه في الأخرى، وذلك لمُناسبة حسنةٍ؛ أنَّه هُنا في الأعراف لمَّا تقدَّم سؤالُ المشركين عن السَّاعة، وتكرَّر في قوله: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنۡهَاۖ﴾ [الأعراف: 187]، وكان ظاهرُ السِّياق يُشيرُ إلى أنَّهم كانوا يظنُّون

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/240.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 5/125.

أنَّه ﷻ يَعْلَمُها، فطلبوا تعريفَهم بها، وأن يَخُصَّهم بذلك، ولا شكَّ أنَّ العِلمَ بالشَّيءِ نفعٌ لصاحبه، فعرَّفهم أنَّه لا يملكُ لنفسِه نفعًا ولا ضَرًّا، فتقدَّم ذِكْرُ النَّفع؛ لأنَّه مشيرٌ إلى ما ظنُّوه أنَّه عنده من عِلْمِها، فأعلمَهم أنَّه سبحانه استأثرَ بعلمِها، وأنَّه ﷻ لا يملكُ من ذلك شيئًا إلَّا ما شاءَ اللّٰهُ له ممَّا عدا علمَ السَّاعة؛ لانفرادِه سبحانه عن خلقِه بعلمِها، ﴿لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَۚ﴾ [الأعراف: 187]، ثُمَّ تأكَّد هذا الغرضُ بقولِه تعالى على لسان نبيِّه ﷺ: ﴿وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ﴾ [الأعراف: 188]، وهذا كلُّهُ بَيِّنُ التَّناسُب.

وأمَّا الآيةُ في سورةِ يونسَ؛ فإنَّها فيما كان يستعجلُهُ الكُفَّارُ من عذابِ اللّٰهِ تعالى وقبلَها: ﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ﴿٤٦﴾﴾ [يونس: 46]، ويقول الكفَّار: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾﴾ [يونس: 48] قل: لا أملكُ ما وعدَكم اللّٰهُ مِن هذا العذابِ، ولا أن أدفعَ عنكم سوءَ العقابِ، كما لا أملكُ لنفسي ضُرًّا ولا نفعًا إلا ما شاء اللّٰهُ أن يُمَلِّكَنِيه منهما، فتقديم (الضُّرِّ) على (النَّفع) في هذه الآية؛ لخروجِها عن ذِكْرِ العذابِ الَّذي قال اللّٰه تعالى فيه بعدها: ﴿أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓۚ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٥١﴾﴾ [يونس: 51][1].

وأيضًا، في يونسَ موافقةُ ما قبلَها، ففيها ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾ [يونس: 18]، وهذا النَّوعُ من لطائفِ القرآنِ العظيم وساطعِ براهينِه[2].

فائدةُ تنكيرِ (النَّفْعِ) و(الضَّرِّ):

قولُهُ: ﴿نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾، أي: شيئًا من جلب النَّفعِ قليلًا كان أو كثيرًا في وقت ما، ولا دفْعَ ضررٍ قليلًا كان أو كثيرًا في وقت ما؛ فإنَّ

نـفـيُ عـمـومِ الـفـعـلِ يقتضي نـفـيَ عـمـومِ أوقاتِهِ

(1) الإسكافي، دُرَّة التَّنزيل وغُرَّة التأويل: 682/2 - 685، وأبو جعفر الغرناطي، ملاك التَّأويل: 222/1 - 223.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 240/5.

قدرتي قاصرةٌ، وعلمي قليلٌ، وكلُّ مَن كان عبدًا؛ كان كذلك[1]، فوقوعُ كلمتَي النَّفعِ والضُّرِّ نكرتين منفيَّتين يفيدُ العمومَ حسبَ القاعدةِ المعروفةِ، ونفيُ عمومِ الفعلِ يقتضي نفيَ عمومِ الأوقاتِ لهُ[2].

المُطابقةُ بينَ النَّفعِ والضُّرِّ:

تعميمُ الأحوالِ وتنويعُها بحسبِ ما يعتري الإنسانَ

إنَّما طابقَ بذكرِ الضُّرِّ في قوله: ﴿وَلَا ضَرًّا﴾ مع أنَّ المرءَ لا يتطلَّبُ إضرارَ نفسِهِ؛ لأنَّ المقصودَ تعميمُ الأحوالِ؛ إذ لا تعدو أحوالُ الإنسانِ عن نافعٍ وضارٍّ، فصارَ ذكرُ هذين الضِّدَّين بطريقِ المطابقةِ مِثلَ ذِكْرِ المَساءِ والصَّباحِ، وذكرِ اللَّيلِ والنَّهارِ، والشَّرِّ والخيرِ[3].

دلالةُ العطفِ بذكرِ الضُّرِّ بعد ذكرِ النَّفعِ:

المبالغةُ في وصفِ الإنسانِ بالعجزِ ولو كان نبيًّا

في عطفِ الضُّرِّ على النَّفعِ إشارةٌ إلى أنَّ النَّبيَّ ﷺ لا يملكُ لنفسِهِ أيَّ شيءٍ، ولو كان من السَّلبيَّات، بمعنى: أنَّه لو صحَّ منهُ العزمُ على أن يَضُرَّ نفسَه ما استطاع أن يصِلَ إلى شيءٍ من ذلك، إلا ما شاءَ اللَّهُ له، وهذا أبلغُ في وصفِ الإنسانِ - ولو كان نبيًّا - بالعَجْزِ وقُصورِ يده عن أن يَبْلُغَ أيَّ شيءٍ إلَّا ما قدَّر اللَّهُ له، ولو كان ذلك الشَّيءُ ممَّا يَحسِبُ الإنسان أنَّه مُلْكٌ خاصٌّ له، لا ينازِعُه فيه أحدٌ، ممَّا لا تنزِعُ إليه النُّفوسُ، ولا ترغبُ فيه، كطلبِ ما يضرُّ مِنَ الأمورِ، وهو شيءٌ مقدورٌ عليه بأيسرِ جهدٍ، بل بلا جهدٍ أصلًا[4].

نكتةُ الجمعِ بين نفي الأمرَيْن معًا:

عمومُ نفي سائرِ أنواعِ المِلْكِ وسائرِ أنواعِ النَّفْعِ والضَّرِّ

جَعَلَ نفْيَ أن يَمْلِكَ لنفسِهِ نفْعًا أو ضَرًّا مُقدِّمَةً لنفي العلم بالغَيبِ؛ لأنَّ غايةَ النَّاسِ مِن التَّطلُّعِ إلى معرفة الغيبِ هو الإسراعُ إلى الخيرات المستقبلةِ بتهيئة أسبابِها وتقريبِها، وإلى التَّجنُّبِ لمواقِعِ الأضرارِ، فَنَفْيُ أن يملِكَ لنفسِهِ نفعًا ولا ضَرًّا، يَعُمُّ سائرَ أنواعِ المُلْك

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 187/8.
(2) محمد رشيد رضا، تفسير المنار: 507/9.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 207/9.
(4) عبد الكريم الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 533/5.

وسائِرَ أنواعِ النَّفْعِ والضَّرِّ، ومن جملة ذلك العمومِ ما يكونُ منه في المستقبلِ، وهو مِنَ الغَيبِ[1].

تكرارُ (لا) بعد العطفِ:

تـأكـيـدُ الـنَّـفـي وتقويتُهُ

قولهُ: ﴿وَلَا ضَرًّا﴾، أي: لا أملكُ أمرَ الضَّرِّ، فأدفعهُ إذا جاء[2]، ومجيء (لا) هُنا: يفيد توكيد النفي، وفصْلَ النَّفع عن الضَّرِّ، فاستقلَّ كلٌّ منهما بنفسِ قوَّةِ النَّفي، ولو قال: لا أملكُ لنفسي ضرًّا ونفعًا؛ لكان التَّعبيرُ مُوهِمًا أنَّه ﷺ لا يملكُ الجمعَ بينهما، ولكنَّه يستطيع أنْ ينفعَ، أو يضرَّ نفسَه إذا توجَّهت إرادتُه إلى واحدٍ منهما، وهذا الفهم خطأٌ، فتكريرُ (لا) النَّافيَةِ ليس للتَّأكيدِ فقط، وإنَّما لدفع الالتباس في فهمِ المعنى المرادِ، وهو نفيُ أن ينفعَ نفسَه على انفرادٍ، ونفيُ أن يضرَّ نفسَه على انفرادٍ، ومِن بابِ أولى نفيُ حدوثِ الفِعلين معًا.

دلالةُ الاستثناءِ نوعُهُ في قولِهِ: ﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ﴾:

إظهارُ تمامِ عجزِ العبدِ مع إثباتِ قدرةٍ له بتقديرِ اللهِ

لَمَّا كانَ مِنَ المعلوم بل من المُشاهدِ أنَّ كُلَّ حيوانٍ يَضُرُّ، ويَنْفَعُ؛ أَعْلَمَ النَّظمُ الكريمُ أنَّ ذلك إنَّما هو باللهِ، فقال: ﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ أي: الَّذي له الأمرُ كلُّه، ولا أمرَ لأحدٍ سواه[3].

والاستثناءُ من مجموعِ النَّفعِ والضَّرِّ، ويمكن جعلُه مُتَّصِلًا، أي: إلَّا ما شاءَ اللهُ أن يملِّكنيه بأن يُعلِّمنيه ويقدرني عليه، فإنْ لم يشأ ذلك؛ لم يُطلعْني على مواقعِهِ، وخَلْقُ الموانعِ من أسباب تحصيلِ النَّفعِ، ومن أسباب اتِّقاء الضَّرِّ، وحمْلُه على الاتِّصال يُناسب ثبوتَ قدرةٍ للعبد بجعلِ اللهِ تعالى وهي المسمَّاة بالكَسْبِ، فإذا أرادَ اللهُ أن يُوجِّهَ نفسَ الرَّسولِ ﷺ إلى معرفةِ شيءٍ مُغَيَّبٍ أطلعَهُ عليهِ لمصلحةِ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 9/ - 207 208.
(2) الشَّعراوي، تفسير الشَّعراوي: 4510/7.
(3) البقاعي، نظم الدُّرر: 187/8.

الأمَّةِ أو لإكرامِ الأمَّةِ لَهُ كقولِه تعالى: ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِي مَنَامِكَ﴾ إلى قوله: ﴿لِيَقْضِيَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ [الأنفال: 44][1]، ودليلُ هذا المعنى قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ [الجنّ: 26-27]، ويمكنُ أن يكونَ الاستثناءُ مُنقطعًا، والمَعْنَى: ولكن ما شاء اللّه من ذلك كائنٌ[2]، وهذا أبلغُ في إظهارِ العجْزِ عن عِلْمِهَا[3].

معنى الواوِ في قولِه: ﴿وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ﴾:

تكملةُ التَّبرُّؤ من معرفةِ الغيبِ إظهارًا للعبوديَّة

الواو في قوله: ﴿وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ﴾ عاطفةٌ، والجملةُ تكملةٌ للتَّبرُّؤ من معرفةِ الغيب، سواء منه ما كان يَخُصُّ نفسَه، وما كان من شؤونِ غيرِه، فحصلَ من مجموعِ الجُملتين أنَّه لا يملك لنفسِه نفْعًا ولا ضَرًّا، في عالم الشَّهادة وفي عالم الغيب، وأنَّه لا يعلم شيئًا من الغيبِ، ممَّا فيه نفعُه وضَرُّه وما عداه[4]، وفيه مزيدُ إظهارٍ للعبوديَّة والتَّبرِّي من ادِّعاء العلم بالغيوب[5].

وفي هذا العطْفِ أيضًا تأكيدٌ على نفي علمِه ﷺ بالسَّاعة؛ لأنَّه لَمَّا كان علمُ الغيبِ ملزومًا لجلبِ الخيرِ ودفْعِ الضَّرِّ، وكانتِ السَّاعةُ أدقَّ علمِ الغيبِ، أمرهُ بنفي هذا اللَّازم، فينتفي الأعمُّ، فينتفي بانتفائه الأخصُّ[6].

فائدةُ التَّعبيرِ بالجملةِ الشَّرطيَّةِ ودلالتُها:

الاستدلالُ على انتفاءِ عِلْمِهِ بالغيبِ، بانتفاءِ الاستكثارِ مِنَ الخيرِ

جملةُ: ﴿وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُ﴾ فيها الاستدلالُ على انتفاء عِلْمِهِ بالغيب، بانتفاءِ الاستكثارِ مِنَ الخيرِ، وتَجَنُّبِ السُّوء؛ وهو استدلالٌ بأخصِّ ما لو عَلِم المرءُ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 208/9.
(2) القونويّ، حاشيَته على تفسير البيضاوي: 568/8.
(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 302/3، وإسماعيل حقِّي، روح البيان: 292/3.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 208/9.
(5) البيضاويُّ، أنوار التَّنزيل وأسرار التَّأويل: 45/3.
(6) البقاعي، نظم الدُّرر: 187/8.

الغيبَ لعلمَهُ أوَّلَ ما يعلمُ، وهو الغيبُ الَّذي يَهُمُّ نفسَهُ، ولأنَّ اللهَ لو أرادَ اطِّلاعَهُ على الغَيب؛ لكانَ القصدُ من ذلك إكرامَ الرَّسولِ ﷺ فيكونُ اطِّلاعُهُ على ما فيه راحتُه أوَّلَ ما ينبغي اطِّلاعُه عليه، فإذا انتفى ذلك؛ كان انتفاءُ غيرِهِ أولى، ودليلُ التَّالي في هذهِ القضيَّةِ الشَّرطيَّةِ، هو المشاهَدةُ من فواتِ خيراتٍ دنيويَّةٍ لم يتهيَّأْ لتحصيلِها، وحصولِ أسواءٍ دنيويَّةٍ، وهذا مَثَلٌ واضح، وشاهدٌ لا يُدفَعُ على أنَّ النَّبيَّ ﷺ لا يعلم الغيبَ، إذ لو كان يعلم الغيب من تلقاء نفسه؛ لعرفَ عواقبَ الأمورِ قبل أن تجيءَ، ولما اتَّجه إلى أمرٍ تسوءُ عاقبتُه، ولكانَ كلُّ متَّجهه دائمًا إلى ما تُحمَدُ عاقبتُهُ، وتَعْظُمُ ثمرتُه[1]، ولكنَّ اللهَ يُطلع منِ ارتضاهم رسلًا على ما شاء من علمه.

وفي هذا الشَّرطِ أيضًا تعريضٌ لهم؛ إذ كانوا يتَعرَّضون له ﷺ بالسُّوء[2].

وفي هذه الجملةِ الشَّرطيَّةِ ارتقاءٌ في التَّبرُّؤ من معرفةِ الغيب ومن التَّصرُّف في العالم، وزيادةٌ مِنَ التَّعليم للأمَّةِ بشيءٍ من حقيقة الرِّسالة والنُّبوَّة، وتَمْييزِ ما هو من خصائِصها عمَّا ليس منها[3].

معنى (ال) في ﴿ٱلْغَيْبَ﴾ ودلالتُها:

استغراقُ عدمِ عِلمِ النَّبيِّ ﷺ لِكُلِّ غيبٍ إلَّا ما أطلعَهُ اللهُ عليه

قولهُ: ﴿وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ﴾ أي: الغيبُ الَّذي هو سببٌ عاديٌّ لجلبِ المنافع، ودفْعِ المضارِّ لا مُطلقُ الغيب، فإنَّه عليه السلام كان يعلمُ الغيبَ بإعلامهِ تعالى كما نطق به في الآية المَذْكُورة، والمَعْنَى: (ولو استمرَّ في علمِ الغيبِ)، كما يشعرُ بهِ التَّعْبيرُ بصيغَة المَاضي والمُضَارِع معًا[4].

فـ(الـ) في الغيبِ للاستغراقِ، وهو ﷺ لم يعلمْ كُلَّ غيبٍ؛ فإنَّ من

(1) عبد الكريم الخطيب، التَّفسير القرآني للقرآن: 533/5، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 208/9.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 208/9.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 206/9.
(4) القونويّ، حاشيَته على تفسير البيضاوي: 568/8.

الغيبِ ما تفرَّدَ اللهُ تعالى به كمعرفةِ كُنهِ ذاتهِ - ﷻ - ومنه معرفةُ وقتِ قيامِ السَّاعةِ[1].

معنى اللَّامِ في ﴿لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ﴾ ودلالتُها:

بيانُ المعتادِ في عُرفِ النَّاسِ مِنَ الاستكثارِ في جمعِ المنافعِ ودفعِ المضارِّ عند العلمِ بها

قولهُ: ﴿لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ﴾ اللَّامُ الواقعةُ في جواب (لو) أفادتِ التَّوكيدَ، أي: لجعلت المالَ والمنافع كثيرًا على أن يكونَ بناءُ استفعلَ للتَّعديةِ، كما في نحو: استذلَّهُ[2]، وهذه الملازمةُ عاديَّة إقناعيَّةٌ؛ إذ من يعلم الغيبَ؛ يستكثرُ من الخيرِ عادةً، ويدفعُ الشَّرَّ غالبًا، ولذا ورد: عَرَفْتُ الشَّرَّ لا للشَّرِّ بَلْ لِتوقِّيه، فإذا عَلِمَ الغيبَ؛ يُكْثِرُ تَحْصيلَ الخيرِ ودَفْعَ الشَّرِّ بناءً عَلَى جَرْيِ العادَة[3].

معنى (ال) في الخير ودلالتُها:

إفادةُ العمومِ والشُّمولِ لمصالحِ الدِّينِ والدُّنيا

الخيرُ هو جلْبُ منافعِ الدُّنيا وخيراتِهَا مِنَ الخصبِ والأرباحِ والأكساب، وقيل: المرادُ بهِ ما يَتَّصِل بأمرِ الدِّين، أي: لو كنتُ أعلمُ الغيبَ؛ لكنتُ أعلمُ أنَّ الدَّعوةَ إلى الدِّين الحقِّ تؤثِّرُ في هذا، ولا تؤثِّر في ذلك، فكنتُ أشتغلُ بدعوةِ هذا دون ذاك[4]، والظَّاهرُ أنَّ (الـ) هنا استغراقيَّةٌ لعموم المنافع الدينيَّة والدنيويَّة، فيكون المعنى: لفعلتُ الأسبابَ الَّتي أعلمُ أنَّها تنتج لي المصالحَ، والمنافِعَ في ديني ودنياي[5].

دلالةُ تقديمِ الخيرِ على السُّوءِ:

مُراعاةُ مُناسَبَةِ ما قبلَها مِن تقديمِ النَّفعِ على الضَّرِّ

قَدَّمَ ذِكْرَ الخيرِ على ذِكْرِ السُّوء لمناسبة ما قبلَها حيثُ قدَّم فيهِ ذِكْرَ النَّفْعِ على ذِكر الضَّرِ، وسلَكَ في ذِكْرِهما هناك كذلك مسلكَ التَّرقِّي[6].

---

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 125/5.
(2) البروسويّ، روح البيان: 292/3.
(3) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاوي: 568/8.
(4) حسن نظام الأعرج، تفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان: 358/3.
(5) عبد الرحمن السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 352.
(6) الآلوسيّ، روح المعاني: 125/5.

فائدةُ العَطْفِ في قوله: ﴿وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ﴾:

الوصلُ لمقابلةِ المعاني والقَطْعُ للإخبارِ بمعنًى جديدٍ

﴿وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ﴾ قد يكونُ معطوفًا على قولهِ: ﴿لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ﴾، فيكونُ من جوابِ (لَوْ)، ويُوضِّحُ ذلك أنَّه تقدَّم قولُهُ: ﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا﴾، فقابل النَّفعَ بقولهِ: ﴿لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ﴾، وقابَل الضَّرَّ بقوله: ﴿وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ﴾؛ ولأنَّ المُترتِّب على تقدير عِلمِ الغيبِ كلاهما، وهما اجتلابُ النَّفعِ واجتنابُ الضَّرِّ[1]، فيكونُ الكلامُ متَّصِلًا بما قبلَه[2].

ويحتمِلُ أن يكونَ الكلامُ مَقطوعًا تمَّ في قولهِ: ﴿لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ﴾، وابتدأ يُخبرُ بنفي السُّوءِ عنْهُ، وهو الجنونُ الذي رموهُ بهِ، ويترجَّحُ هذا بنحوِ قولهِ سبحانه: ﴿مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍۚ إِنۡ هُوَ إِلَّا نَذِيرٞ لَّكُم﴾ [سبأ: 46] الآية[3]، فيكونُ قولهُ: ﴿وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ﴾ استئنافَ إخبارٍ، أي: ليس لي ما تزعمونَ مِنَ الجنونِ؛ لأنَّهم نسبوهُ إلى الجنونِ[4]، وتكونُ الواوُ استئنافيَّةً، ويحتملُ كذلك أن تكونَ واوًا للحال، والمعنى: لاستكثرْتُ مِنَ الخيرِ، والحالُ أنَّ السّوءَ ما مسَّني، والمعنى الأوَّلُ لِلواو أقربُ.

سِرُّ اصطفاءِ مَسِّ السُّوءِ بَدَلَ دفْعِ المضارِّ:

دلالةُ السُّوءِ على الضَّرِّ بطريقِ الاقتضاءِ

لم يُذْكَرْ في النَّظم الكريم دَفْعُ المضارِّ صريحًا بعد ذكرِ المنافعِ، وجُعِلَ نفي السُّوءِ غايةً لِدفْعِ المضارِّ واجْتِنابِها، فيدلُّ ﴿وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ﴾ عَلَى اجتنابِ المضارِّ بطَريقِ الاقتضاءِ[5]، مع المبالغةِ في نفي أَدنى ضررٍ.

---

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 240/5.
(2) القنوجي، فتح البيان في مقاصد القرآن: 628/2.
(3) أبو منصور الثعالبي، الجواهر الحسان: 100/3.
(4) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 336/7، وابن جُزي، التسهيل لعلوم التنزيل: 315/1.
(5) القونويّ، حاشيَته على تفسير البيضاوي: 568/8.

معنى (ال) في ﴿ٱلسُّوٓءُ﴾ ودلالتُها:

نفيُ جنسِ السُّوء وأحوالِهِ

لمَّا كان الضُّرُّ لا يحتملُ منهُ شيءٌ؛ قال: ﴿وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُ﴾، أي: جنسُ السُّوءِ على وجهِ الاستغراقِ بإقامةِ الموانعِ له عنِّي[1].

غرضُ الفصلِ في قولِهِ: ﴿إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ﴾:

دَفْعُ التَّوهُّمِ النَّاشئِ مِنَ السُّؤالِ عن عملِهِ بعد نَفْيِ ما نَفَى مِن مِلْكِ النَّفعِ والضَّرِّ

قولُهُ: ﴿إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ﴾ مِن تمامِ القولِ المأمورِ بهِ، وهي مستأنفةٌ استئنافًا بيانيًّا، ناشئًا عن سؤالٍ مقدَّرٍ حولَ قدرتِهِ على دَفْعِ السُّوءِ، فأعلنَ التَّبرُّؤَ مِن أن يَمْلِكَ لنفسِه نفعًا أو ضَرًّا؛ لأنَّ السَّامعين يتوهَّمونَ ما نفاهُ عن نفسِهِ أخصَّ صفاتِ النَّبيِّ فَمِن شأنِهِم أن يتعجَّبوا من نفيِهِ ذلك عن نَفْسِهِ، وهو يقولُ: إنَّه رسولُ اللهِ إليهم، فبيَّن لهم أنَّ الرِّسالةَ مُنْحَصِرَةٌ في النِّذارةِ على المفاسدِ وعواقبِها، والبِشارةِ بعواقبِ الانتهاءِ عنها واكتسابِ الخيراتِ[2].

بلاغةُ أسلوبِ القصرِ بالاستثناءِ بعدَ النَّفي ونَوْعُهُ:

حَصْرُ وظيفةِ النَّبيِّ ﷺ وقَصْرُها في التَّبليغِ تبشيرًا وإنذارًا

قولُهُ تعالى: ﴿إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ﴾ قصرٌ موصوفٍ على صِفَةٍ، أي: وما أنا بالنِّسبةِ إلى من بلَّغْتُهم، واتَّخذْتُ كلَّ وسيلةٍ لإقناعِهم، ونُصْحِهِمْ وإرشادِهم، ولم آلُ جُهدًا في إصلاحِهم عن طريقِ إراداتِهِم الحُرَّة، ما أنَا بالنِّسبة إليهم إلَّا نذيرٌ، أمَّا الَّذين خَطَوا بعضَ خطواتٍ إيمانيَّةٍ، أو ظهرتْ لديهم بوادرُ استعدادٍ ما لأنْ يؤمنوا مُستقبَلًا، أو آمنوا إيمانًا صحيحًا، وظهرَ عليهم الاستعدادُ للاستمرارِ على صِدقِ الإيمانِ مُستقبلًا، ومتابعةِ مسيرةِ الإيمانِ بكلِّ ما سيأتيهم من بلاغاتٍ عن ربِّهم، فأنا بالنِّسبةِ إليهم بشيرٌ، فيكونُ القصرُ بهذا المعنى في هذهِ العبارةِ قصرًا إضافيًّا.

---

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 188/8.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 209/9 - 208.

وقيل: بل هو حقيقيٌّ[1]، وقد وردَ في مثلِ هذا حصرُ وظيفةِ الرَّسولِ بالإنذارِ والتَّبشير بلفظيهما معًا أو بأحدِهما، وبلفظ التَّبليغِ الجامعِ لهما آياتٌ كثيرةٌ، بعضُها بالإثباتِ بعدَ النَّفي كما هُنا، وبعضُها بـ(إنَّما)، والحصرُ بكلٍّ منهما أقوى النَّصوص القطعيَّة الدِّلالة، ومع هذا التَّكرار والتَّوكيدِ كُلِّه يأبى غُلاةُ الإطراءِ للرُّسلِ، ولمن دونَ الرُّسل مِن الصَّالحين - حقيقةً أو توهُّمًا - إلَّا أن يشركوهم مع اللّه ﷻ في صفات ربوبيَّتِه وأفعالِه[2].

بلاغةُ تنوُّعِ أسلوبِ القَصرِ في وصفِ النّذارة النبوية:

النَّفيُ والحصرُ بـ(إن، إلَّا) آكدُ وأقوى مِن (ما، إلَّا)، ويَـرِدُ كلٌّ مِنهما بحسبِ مقاماتِ الكلامِ

(إنْ) في قوله تعالى: ﴿إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾ نافيةٌ، فهي نافيةٌ إلَّا ما ثبتَ بعدَ الاستثناءِ، وهو الرِّسالةُ مِنَ اللّهِ يُنذِر بِهَا الكافرَ، ويُبشِّرُ بها المؤمنَ[3].

فعلَّل نَفْيَ امتيازِهِ عنِ البشر بمِلْكِ النَّفعِ والضَّرِّ من غيرِ طرقِ الأسباب وسُنَنِ اللّهِ في الخَلقِ، ونفْيَ امتيازِهِ عنهم بعلمِ الغيبِ، فقال: ﴿إِنْ أَنَا۠﴾، أي: (ما أنا إلَّا نَذيرٌ)[4]، فـ(إن) بمعنى (ما) إلّا أنَّ بينهما فرقًا في قوَّة النَّفي، فـ(إن) آكدُ وأقوى، ومثالُ الفرقِ بينهما يظهرُ في قولِه تعالى: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٩﴾ [الأحقاف: 9]، وقولِه:

(1) من قال: إنَّ الحصرَ في هذه الآيات وأمثالها إضافيٌّ علَّل ذلك بأنَّ مِن وظائف الرُّسل بيانَ الوحي والحكم بين النَّاس، كما قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ﴾ [النساء: 105]، وقال ﷻ: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النَّحل: 44]، والبيانُ يكون بالأفعال كالأقوال، بل الأفعال أقوى دلالةً وأعصى على تأويل المحرفين، وكما قد أمر تعالى بتحكيم رسولِهِ ﷺ والخضوع لحكمه، أمر بالتأسِّي به في هديه وسنته ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ﴾ [الأحزاب: 21]، والصَّوابُ: أنَّ هذا لا ينافي الحصرَ الحقيقيَّ؛ لأنَّ التَّبليغَ لدين اللّهِ وشرعِهِ لا يتمُّ إلّا بالعمل والحكم بِهِ وتنفيذِ أحكامِهِ، فهو داخلٌ في التَّبليغ وبيانِ الوحي، وجملةُ القول: إنَّ الرُّسُلَ - عليهم الصَّلاة والسَّلام - عَبيدٌ لله تعالى مكرَّمون، لا يشاركونه في صفاتِهِ ولا في أفعاله. يُنظر: محمد رشيد رضا، تفسير المنار: 507/9.

(2) محمد رضا، تفسير المنار: 507/9.

(3) محمد أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 3027/6.

(4) الهرري، حدائق الرَّوح والرَّيحان: 259/10.

﴿۞قَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلۡأَرۡذَلُونَ ١١١ قَالَ وَمَا عِلۡمِي بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١١٢ إِنۡ حِسَابُهُمۡ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّيۖ لَوۡ تَشۡعُرُونَ ١١٣ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١١٤ إِنۡ أَنَا إِلَّا نَذِيرٞ مُّبِينٞ ١١٥﴾ [الشُّعراء: 111 - 115]، فقالَ في الآية الأولى: ﴿وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ مُّبِينٞ﴾ [الأحقاف: 9]، وقالَ في الثَّانية: ﴿إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ مُّبِينٞ ١١٥﴾ [الشعراء: 115].

ومِنَ الواضحِ أنَّ الآيةَ الثَّانيةَ في مقامِ المحاربةِ والمجادلةِ والجهادِ في القولِ، والتَّنقيصِ من المؤمنين، كما هو الحالُ في آيةِ الأعرافِ؛ بخلاف الآيةِ الأولى، فإنَّها في مقامِ الدَّعوة الهادئةِ المُبَيَّنَةِ بالحجَّةِ، فالمقامُ في الآية الأولى يختلفُ عنه في الثَّانيةِ، فجاءَ في الثَّانية بـ (إن) و(إلّا) وجاء في الأولى بـ (ما) و(إلّا)، فدلَّ ذلك على أن (إنْ) آكدُ مِن (ما)[1]، لا سيَّما إنَّ (إنْ) فيها معنى التَّقريرِ.

فائدةُ تقديمِ الإنذارِ على البِشارة:

الإشارةُ إلى مقامِ الخطابِ وموضوعِ السُّورةِ العامِّ

قدَّمَ وصفَ النَّذير على وصفِ البشيرِ هُنا؛ لأنَّ المقامَ خطابُ المكذِّبين المُشركين، فالنِّذارةُ أعلقُ بهم مِنَ البِشارة[2]، كما أنَّه لما كانتِ السُّورةُ للإنذار، قدَّمه، فقال: ﴿نَذِيرٞ﴾ أي: مُطلقًا للكافرِ ليرجِعَ عن كفرِهِ، والمؤمنِ ليَثبُتَ على إيمانه[3].

غرضُ تنكيرِ اللَّفظتَيْن ﴿نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ﴾:

إظهارُ المبالغةِ والتَّعظيمِ في الوصفِ

قولهُ: ﴿نَذِيرٞ﴾، أي: مُنذِرٌ بشدَّةٍ مِن أقصى درجاتِ الإنذارِ، بعقابِ اللهِ الشَّديدِ يومَ الدِّين للكافرين، مع ما قد يُنزِلُ اللهُ بهم من عقابٍ مُعَجَّلٍ في الدُّنيا، فنذيرٌ مِن صِيَغِ المبالغة وتنكيرها للتَّعظيم، وَكذلك القولُ في ﴿بَشِيرٞ﴾ ومعناها: مبشِّرٌ بشدِّةٍ بثوابِ اللهِ العظيم يوم الدِّين للَّذين آمنوا، وعملوا الصَّالحاتِ، مع ما قد يمنَحُهم اللهُ من ثوابٍ معجَّلٍ في الدُّنيا.

(1) السَّامرائي، معاني النَّحو: 203/4.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 209/9.
(3) البقاعي، نظم الدُّرر: 188/8.

معنى اللَّامِ ودلالتُها في قولِهِ: ﴿لِّقَوۡمٖ﴾:

بيانُ تعلُّقه بالوصفين وعدًا للمؤمنين

قوله تعالى: ﴿لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ يريد أنَّه نذيرٌ وبشيرٌ لأجل قوم يُطلَب منهم الإيمانُ، ويُدْعَون إليه، وهؤلاءِ النَّاسُ أجمعُ، فتكونُ اللَّامُ للتَّعليل، وتكون للاختصاص لبيان تعلُّقه بالوصفين ﴿نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ﴾ وعدًا للمؤمنين، مع الإشارةِ إلى حذْفِ ذِكرِ الكافرين تطهيرًا للِّسان من ذِكْرِهم.

فائدةُ التَّعبيرِ بالمضارع في وصف القومِ:

شمولُ الخطابِ لمن تهيَّأ للإيمان حالًا ومآلًا ترغيبًا للكفرةِ في الإيمانِ

﴿يُؤۡمِنُونَ﴾، أي: في أيِّ وقتٍ كان، ففيهِ ترغيبٌ للكفَرَةِ في إحداث الإيمانِ، وتحذيرٌ عنِ الإصرارِ على الكفرِ والطُّغيان[1]، فالمضارعُ مُرادٌ بهِ الحالُ والاستقبالُ - كما هو شأنه - ليشملَ من تهيَّأ للإيمانِ حالًا ومآلًا، وأمَّا شمولُه لِمَن آمنوا فيما مَضى، فهو بدلالةِ فحوى الخطابِ؛ إذ هُمْ أولى، وهذا على حدِّ قولهِ تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخۡشَىٰهَا ٤٥﴾ [النَّازعات: 45][2].

دلالةُ تَخصيصِ المؤمنين بِالبِشارةِ والنِّذارةِ على غيرِهم:

الإشارةُ إلى أنَّ رسالةَ الرَّسولِ إنَّما تُؤَثِّرُ أثرَها، وتُعطي ثمرتَها لمن تهيَّأ للإيمان

قولهُ: ﴿لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ يتنازعُ تَعَلُّقُهُ كلٌّ من نذير وبَشيرٍ؛ لأنَّ الانتفاعَ بالأمرين يَخْتَصُّ بالذين تهيَّؤُوا إلى الإيمانِ بأن يتأمَّلوا في الآيات، وينهوا من أنفسِهم، ويقولوا الحقَّ على آبائهم، دون الذين جعلوا ديدنَهم التَّكذيبَ والإعراضَ والمُكابرةَ[3]، وخصَّ اللهُ تعالى المؤمنين بالذِّكرِ؛ لأنَّه ﷺ وإن كان نذيرًا وبشيرًا للكلِّ، إلَّا أنَّ المُنتفع بتلك النِّذارةِ والبِشارةِ هم المؤمنونَ ﴿وَمَا تُغۡنِي ٱلۡأٓيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ ١٠١﴾ [يونس: 101][4]، وفيه إشارةٌ إلى أنَّ رِسالةَ الرَّسولِ إنَّما تؤثِّرُ أثرَها، وتُعطي ثمرتَها لمن كان على استعدادٍ للتَّعامل معها والإيمانِ بها، والانتفاعِ بالخير الذي تحملُه بين يديها[5].

(1) البروسوي، روح البيان: 292/3.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 209/9.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 209/9.
(4) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 426/15.
(5) عبد الكريم الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 533/5.

وفي نظم الكلام على هذا الأسلوب من التَّنازع وإيلاء وصف (البشير) بـ﴿لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾، إشارةٌ إلى أنَّ البشارةَ خاصَّةٌ بالمؤمنين، وأنَّ متعلِّقَ النِّذارة المتروكَ ذِكرُهُ في النَّظم هو لأضدادِ المؤمنين، أي: المشركين، فحذفَ متعلِّقَ النِّذارةِ، ودلَّ على حذفِهِ اكتفاءً بإثبات مُقابِله، والتَّقديرُ: نذيرٌ للكافرين وبشيرٌ لقوم يُؤمنون كما حذف المعطوف في قوله ﴿سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلۡحَرَّ﴾ [النَّحل: 81] أي والبرد[1].

وهذا المعنى مقصود على نحو قوله تعالى: ﴿لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُحۡسِنِينَ ١٢﴾ [الأحقاف: 12]، وهذه المعاني المُستتبَعاتُ مقصودةٌ من القرآن، وهي من وجوه إعجازِه؛ لأنَّ فيها استفادةَ معانٍ وافرةٍ من ألفاظ وجيزة[2].

بديعُ المطابقةِ في الآيةِ:

بين: (النَّفع والضَّرِّ)، و(الخير والسُّوء)، و(النَّذير والبشير)، فهذهِ التَّقابلاتُ المقصودُ بها تعميمُ الأحوال؛ إذ لا تعدو أحوالُ الإنسان عن نافعٍ وضارٍّ، وخيرٍ وسوءٍ، وأحوالُ الرَّسولِ أن يكونَ نذيرًا وبشيرًا، فذِكْرُ هذه الأضدادِ مِثلُ ذِكرِ المساءِ والصَّباح، وذِكرِ اللَّيلِ والنَّهارِ والشَّرِّ والخيرِ؛ جيءَ بها لقَصْدِ الإحاطةِ بالأَحْوالِ[3].

قَصْدُ الإحاطةِ بالأحوالِ من جميعِ وجوهِها

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

المسُّ والإصابةُ:

المسُّ اتِّصالُ أحد شيئين بآخرَ على وجهِ الإحساسِ، أمَّا الإصابةُ؛ فهي التقاءٌ وزيادةٌ، فالمسُّ أقلُّ تمكُّنًا مِنَ الإصابة، وكأنَّه أقلُّ درجاتِها[4]، لأنَّ الشَّيءَ المُصيبَ لشيءٍ، فهو مُتَمكِّنٌ منهُ أو فيهِ[5]، فالإصابةُ أبلغُ من المسِّ؛ لأنَّ تأثيرَها أقوى وأشدُّ.

الإصابةُ التقاءٌ وزيادةُ تمكُّنٍ وتأثيرٍ، والمسُّ أقلُّ درجاتِهَا

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 240/5.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 209/9.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 207/9.
(4) الزَّمخشريُّ، الكشَّاف: 407/1، والنَّيسابوري، غرائب القرآن: 245/2.
(5) ابن عطيَّة الأندلسيُّ، المحرَّر الوجيز: 498/1.

السُّوءُ والشَّرُّ:

الشَّرُّ خلافُ الخيرِ، وهو عدمُ ملائمةِ الشَّيءِ الطَّبعَ[1]، الشَّرُّ: اسمٌ جامعٌ للرَّذائلِ والخطايا، وقد يُطلقُ على المصائِبِ والبلايا، ويدلُّ أصلُها على الانتشارِ والتَّطايرِ[2]، ومنهُ الشَّرَرُ: وهو ما تطايرَ مِنَ النَّارِ، ورَجُلٌ شِرِّيرٌ، أي: كثيرُ الشَّرِّ، والجمعُ أشرارٌ[3].

السُّوءُ أشدُّ وقعًا مِنَ الشَّرِّ، وفي الشَّرِّ معنى الانتشارِ

والسُّوءُ يجري مجرى الشَّرِّ، فيحملُ معنى الذَّنبِ، كالزِّنا والشِّرك[4]، ويُطلَقُ السُّوءُ أيضًا على كلِّ ما يغمُّ الإنسانَ مِنَ الأمورِ الدُّنيويَّةِ والأُخرويَّةِ ومِنَ الأحوالِ النَّفسيَّةِ والبدنيَّةِ والخارِجَةِ من فواتِ مالٍ وجاهٍ وفقْدِ حميمٍ[5]، فالسُّوءُ يأتي بمعنى المنكراتِ والرَّذائِلِ، وبمعنى البؤسِ والمصائِبِ والشَّدائِدِ، وكلُّ ذلك شرٌّ بلا ريبٍ، ولكنَّ السُّوءَ أشدُّ من الشَّرِّ.

(1) الجرجاني، التعريفات، ص: 109، والقاضي نكري، جامع العلوم في اصطلاحات الفنون: 151/2.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (شرّ).
(3) الفيروزباديّ، القاموس المحيط، وابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرازي، مختار الصحاح: (شرّ).
(4) الكفوي، الكليَّات، ص: 503.
(5) الرّاغب، المفردات: (سوأ).

﴿۞هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ ۖ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٨٩﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا ۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾﴾ [الأعراف: 189 - 190]

❁ مُناسَبَةُ الآيَتَينِ لِما قَبْلَهُما:

ذَكَرَ ابتداءَ الخلقِ بعدَ ذِكْرِ السُّؤالِ عن البعثِ تَنْبيهًا على القدرةِ على البعْثِ والإعادةِ

لَمَّا تقدَّمَ سؤالُ الكُفَّارِ عن السَّاعةِ ووَقتِها، وكان فيهم مَن لا يُؤمِنُ بالبعثِ؛ ذكَرَ ابتداءَ خَلقِ الإنسانِ وإنشائِه؛ تنبيهًا على أنَّ الإعادةَ مُمكِنةٌ، كما أنَّ الإنشاءَ كان مُمكِنًا، وإذا كان إبرازُه مِن العَدَمِ الصِّرْفِ إلى الوجودِ واقعًا بالفِعلِ، فإعادَتُه أحرى أن تكونَ واقعةً بالفِعلِ[1].

وأيضًا لَمَّا أمرَ تعالى بالنَّظَرِ في الملكوتِ الدَّالِّ على الوحدانيَّةِ، وقسَّمَ خَلْقَه إلى مؤمنٍ وكافرٍ، ونفى قُدرةَ أحدٍ مِن خَلْقِه على نَفعِ نَفسِه أو ضَرِّها؛ رجعَ إلى تقريرِ التَّوحيدِ، فقال تعالى: ﴿۞هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾[2].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾: النَّفْسُ: الرُّوحُ، يُقال: خَرَجَتْ روحُهُ، أي: نَفْسُهُ[3]، وتُطلقُ أيضًا على الدَّم، ومعنى النَّفسِ حقيقةُ الشَّيءِ وجملتُهُ، وأصلُ (نفس) يَدُلُّ عَلَى خُرُوجِ النَّسِيمِ كَيْفَ كَانَ، مِنْ رِيحٍ أَوْ غَيْرِهَا[4]، وَالنَّفْسُ قِوَامُهَا بِالنَّفَسِ، والمعنى هنا: مِن آدمَ[5] عليه السلام.

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 244/5.
(2) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 427/15، وأبو حيان، البحر المحيط: 244/5.
(3) الجوهري، الصّحاح: (نفس).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نفس).
(5) النيسابوري، إيجاز البيان عن معاني القرآن: 351/1، والزَّبيدي، تاج العروس: (نفس).

2) ﴿لِيَسۡكُنَ إِلَيۡهَاۖ﴾: من السَّكَن: الاستقرارُ في المساكن، وهي البيوت ونحوها، والعَرَبُ تسمِّي المَرْأَة سكنًا ولِباسًا وإزارًا[1]؛ لأنَّ كلًّا من الزَّوجين يَسكُن إلَى صَاحبهِ ويُلابِسُه[2]، وأصلُ (سكن): يدلُّ على خلافِ الاضْطرابِ والحَركةِ[3]، فهو دالٌّ على الاستقرار[4]، ومِنْهُ قولُهم لكُلِّ شَيْءٍ مَاتَ: قد سَكَنَ[5]؛ لذهاب حركتِهِ، ومِنْهُ سُمِّيَتِ النَّارُ: سكَنًا؛ لأنَّها مُعِينةٌ على الاستقرارِ والإقامةِ؛ إذْ بها يُعِدُّ الطَّعامُ، ويُستدفأُ، ويُستضاءُ[6]، وسكَنَ بالمكانِ: أقامَ فِيهِ[7]، ومعنى ﴿لِيَسۡكُنَ إِلَيۡهَاۖ﴾: ليأوي إليها[8].

3) ﴿تَغَشَّىٰهَا﴾: من الغَشْي والغِشْيان، وأصلُ (غشَّى): يدلُّ على تغطيةِ شَيءٍ بِشَيءٍ[9]، وسُمِّي يومُ القيامَةِ غاشيةً؛ لأنَّها تغشَى الخلْقَ بإفزَاعِهَا[10]، وقد تُطْلَقُ الْغَاشِيَةُ علَى النَّار؛ لكونِهَا تَغْشَى وُجُوهَ الْكفَّار[11]، كما قال اللّهُ تعَالَى: ﴿وَتَغۡشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ۝٥٠﴾ [إبراهيم: 50]، وقولُ اللّه سُبحَانَهُ: ﴿يُغَشِّيكُمۡ﴾ أَيْ: يُلْقِي النُّعَاسَ عَلَيْكُمْ كَالْغِطَاءِ[12].

ومعنى ﴿تَغَشَّىٰهَا﴾: تدثَّرها لقضاء حاجته منها[13].

4) ﴿حَمَلًا خَفِيفٗا﴾: الحَمْل - بفتح الحاء - ما يُحْمَل في البطن، والحَمِيل: الولَد في بطن أمِّه، أي: ما كان في بطنِ الزَّوجةِ مِن منيِّ زوجِها[14]، وذلك أوَّلُ الحَمْلِ[15]، لا تجِدُ المرأةُ له ألَمًا؛ لأنَّ المَاءَ خَفِيفٌ على المَرْأَة؛ إذا حَمَلَتْ، والحِمْل - بالكسر - ما حُمِل (على ظهر أو نحوه) ﴿وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمۡلُ بَعِيرٖ﴾ [يوسف: 72] "، وَأصلُ (حَمَلَ): يَدُلُّ

(1) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم: (سكن).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (سكن).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات: (سكن) ابن الجوزيّ، تذكرة الأريب، ص: 93.
(4) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصَّل: (سكن).
(5) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة: (سكن).
(6) جبل، المعجم الاشتقاقِيّ المؤصَّل: (سكن).
(7) ابن سِيده، المحكم والمحيط الأعظم: (سكن).
(8) ابن جرير، جامع البيان: 204/13.
(9) السجستاني، غريب القرآن، ص: 141، والرّاغب، المفردات، ص: 607، وابن الجوزي، تذكرة الأريب، ص: 123، وابن الهائم، التبيان، ص: 214، والكفوي، الكليات، ص: 320.
(10) ابن فارس، مقاييس اللغة: (غشي).
(11) ابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم: (غشو).
(12) الخضيري، السراج في بيان غريب القرآن، ص: 70، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (حمل).
(13) ابن جرير، جامع البيان: 204/13.
(14) الزّبيديّ، تاج العروس: (حمل).
(15) الجوهري، الصّحاح: (حمل).

على إقْلالِ الشَّيْءِ، يُقالُ: حَمَلْتُ الشَّيْءَ أَحْمِلُهُ حَمْلًا، والخَفِيفُ: بإزاءِ الثَّقيلِ[1].

5) ﴿فَمَرَّتْ بِهِۦ﴾: من المرور: استرسال اجتيازيٌّ، وفيه امتداد الوجود إلى مكان آخر كالاطرادي، أي: استمَرَّت به، وقعَدَت، وقامَت، ولم يُثقِلْها الحَمْلُ[2]، وأصلُ مرَّ يدلُّ على مُضِيِّ شَيْءٍ، يُقالُ: مَرَّ الشَّيْءُ يَمُرُّ؛ إذَا مَضَى، وَمَرَّ السَّحَابِ: انْسِحَابُهُ وَمُضِيُّهُ[3].

6) ﴿أَثْقَلَت﴾: من الثِّقَل - كعِنَب: نقيضُ الخِفَّة، والثِّقْل - بالكسر: الحِمْل الثَّقيل، ومِثْقال الشَّيء: ما آذَن وزنَه فثقُل ثِقَله[4]، أَيْ: صارتْ ذاتَ ثِقْلٍ بكِبَرِ الولَدِ في بَطنِها، يُقال: امرأةٌ مُثْقِلٌ، وَقد أَثْقَلَتْ؛ إذا عَظُمَ مَا فِي بَطْنِها[5]، وأصلُ (ثقل): ضِدُّ الخِفَّةِ[6].

المَعْنى الإجْماليُّ:

ذِكْرُ أصلِ خَلْقِ الإنسانِ والمِنَّةِ عليه بالزَّوجةِ والولدِ، وبَيانُ شِرْكِ كثيرٍ من النَّاسِ في مساواةِ الخالقِ بغيرِهِ

هو الَّذي أوجدكم - أيُّها الرِّجالُ والنِّساء - من نفسٍ واحدةٍ هي آدمُ عليه السلام وخلقَ من آدمَ عليه السلام زوجتَه حوَّاءَ، ليأنسَ إليها، ويطمئنَّ بها، واستمرَّتْ سُلالتُهما في الوجود، فلمَّا جامَعَ زوجٌ زوجتَهُ؛ حملَتْ ماءً خفيفًا لا تشعرُ بهِ؛ فقامَت بهِ، وقعدَت، وأتمَّت الحملَ، واستمرَّت على حملِها هذا تمضي في حوائجِها لا تَجِدُ ثقلًا، فلمَّا قَرُبت ولادتُها، وأثقَلَت؛ دعا الزَّوجان ربَّهما قائلين: لئن أعطيتنا - يا ربَّنا - ولدًا صالحَ الخِلقَةِ تامَّها؛ لنكونَنَّ مِنَ الشَّاكرين لِنعمِكَ، فلمَّا استجابَ اللهُ دعاءهما، وأعطاهما ولدًا صالحًا، كما دَعَوَا؛ صَيَّرَا للهِ شركاء

(1) السجستاني، غريب القرآن، ص: 190، والرّاغب، المفردات: (ثقل)، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 525/3، وابن الهائم، التبيان، ص: 214.

(2) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 175، والسجستاني، غريب القرآن، ص: 190، والرّاغب، المفردات، ص: 764، وابن الجوزي، تذكرة الأريب، ص: 123، وابن الهائم، التبيان، ص: 214.

(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (مرَّ)، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (مرّ).

(4) ابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (ثقل).

(5) السجستاني، الفرق، ص: 245.

(6) ابن جرير، جامع البيان: 619/10، وابن فارس، مقاييس اللغة: 382/1، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 525/3.

في عطيَّتهِ الكريمةِ، فَعَبَّدَا ولدَهما لغيرِه، فتعالى اللهُ، وتنزَّهَ عن كلِّ شريكٍ، فهو المنفرد بالربوبيَّةِ والألوهيَّةِ[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

موقعُ الآيةِ البيانيُّ ممَّا قبلَها:

إبطالُ الشِّركِ ببيانِ ما يقتضي التَّوحيدَ وببيان عِظَمِ جنايةِ الشِّركِ

قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾: جملةٌ مُستأنفةٌ استئنافًا ابتدائيًّا، مَسُوقًا لبيان ما يقتضي التَّوحيدَ الذي هو المقصدُ الأعظمُ؛ ولبيان كمالِ عظمِ جناية الكفرةِ في جراءتِهم على الإشراكِ بتذكيرِ مبادي أحوالهم المُنافية له[2].

حيثُ عادَ بها الكلامُ إلى تقريرِ دليلِ التَّوحيدِ، وإبطالِ الشِّركِ من الذي سلفَ ذِكرُهُ في قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ [الأعراف: 172] الآية، وليست من القولِ المأمورِ بهِ في قوله: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾ [الأعراف: 188]؛ لأنَّ ذلك المقولَ قُصِدَ منه إبطالُ الملازمةِ بينَ وصفِ الرِّسالةِ وعِلم الرَّسولِ بالغيبِ، وقد تمَّ ذلك، فالمُناسبُ أن يكونَ الغرضُ الآخرُ كلامًا موجَّهًا مِنَ اللهِ تعالى إلى المشركين لإقامةِ الحُجَّة عليهم بفسادِ عقولِهم في إشراكِهم وإشراكِ آبائِهم[3]، أي: إنَّ الَّذي يستحقُّ العبادةَ والخضوع، والَّذي عندَه مفاتحُ الغيبِ هو اللهُ الَّذي خلقَكم من نفسٍ واحدةٍ هي نفسُ أبيكم آدمَ[4].

غرضُ التَّعبيرِ بالضَّميرِ عنِ الذَّاتِ العليَّةِ:

بيانُ تفرُّدِهِ سبحانه بالخَلْقِ تقريرًا للتَّوحيدِ وتأكيدًا لهُ في النَّفسِ

قولهُ: ﴿هُوَ﴾، أي: وحدَهُ، فمِن دلائِلِ قُدرتهِ وموجباتِ توحيدِهِ، وإفرادِهِ بالعبادة أنَّه خلقَكم من نفسٍ واحدةٍ، فافتتحَ الكلامَ

(1) مجموعة من المؤلّفين، المنتخب في تفسير القرآن الكريم، ص: 238.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 302/3.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 129/5، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 210/9.
(4) طنطاوي، التَّفسير الوسيط للقرآن الكريم: 452/5.

بالضَّميرِ مُقرِّرًا للتَّوحيد مؤكِّدًا لأمرِهِ[1]، فالضَّميرُ (هو) عائدٌ إلى الذَّاتِ العليَّةِ، والإشارةُ إليه بالضَّميرِ للدَّلالةِ على أنَّه أمرٌ مُقرَّرٌ لا يتطرَّق إليه شكٌّ.

فائدةُ التَّعبيرِ بالاسمِ الموصولِ ﴿ٱلَّذِى﴾:

تفخيمُ شأنِ الخالقِ العظيمِ المتفرِّدِ بالخلقِ والمُلْكِ

قولهُ: ﴿ٱلَّذِى﴾: أي: العظيمُ الشَّأنِ[2]، فإيقاعُ الموصولِ خبَرًا في قَولِه: هُوَ الَّذي لِتَفخيمِ شأنِ المبتدأ، أي: هو ذلك العظيمُ الشَّأنِ الَّذي خلقَكم جميعًا وحدَه مِن غَيرِ أن يكونَ لِغيرِه مدخلٌ في ذلك أصلًا بوجهٍ مِن الوجوهِ[3]، فَمِن شأنِ الاسم الموصولِ أن يكونَ مُبهمًا لذلك يقعُ التَّعريفُ به من خلال جملةِ صلةِ الموصولِ الَّتي ترفعُ عنه الإبهامَ، ففيهِ تشويقٌ إلى معرفة صاحبِهِ من خلالِ التَّعريفِ به على مرحلتَيْن.

مَن هم المخاطَبونَ في هذه الآيةِ؟

بيانُ عُمومِ الخطابِ لكلِّ مَن يَصلحُ للخِطاب وإنْ كان الخِطابُ لأهل مكَّةَ ابتداءً

هذه الآيةُ تعجيبٌ للمشركين من أهلِ مكَّةَ مِن إشراكهم باللّٰه شيئًا مع عِلْمِهم بأنَّه خالقُهم ورازقُهم[4]، فهو لأهل مكَّةَ بالدَّرجة الأولى لكونِهم هم المخاطَبون بالوحي ابتداءً، وقيل: إنَّ ضميرَ الخِطابِ في خَلقِكم للمشركين مِنَ العَربِ؛ لأنَّهم المقصودُ مِن هذهِ الحُجَجِ والتَّذكير، وإن كان حكمُ هذا الكلامِ يَشمَلُ جميعَ البشرِ[5]، وقيل: إنَّ الخطابَ بـ﴿خَلَقَكُم﴾ عامٌّ لكلِّ من يصلحُ خطابُه، والمعنى: أنَّكم تفرَّعتم مِن آدمَ[6] عليه السلام.

معنى (من) في قولِهِ: ﴿مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾:

بيانُ تمامِ القُدرةِ على ابتداءِ الخَلقِ ممَّا يُدَلِّلُ على القُدرةِ على إعادتِهِ

(من) في قولِهِ: ﴿مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ ابتدائيَّة[7]، أي: خلقَها ابتداءً

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 189/8.
(2) البروسوي، روح البيان: 294/3.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 303/3، والآلوسيّ، روح المعاني: 129/5.
(4) السيواسي، عيون التفاسير للفضلاء السماسير: 98/2.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 210/9.
(6) أبو حيّان، البحر المحيط: 244/5.
(7) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 211/9.

من ترابٍ، وهي آدمُ - [1]عليه السلام، وفيها إيماءٌ إلى أنَّه من قَدِرَ على اختراعِ حيٍّ من شيءٍ ليس له أصلٌ في الحياة، كان على إعادتهِ حيًّا - من ذلك الشَّيءِ بعدَ أن صارَ له أصلٌ في الحياةِ - أقدرَ[2].

نكتةُ تنكيرِ النَّفسِ ووصفِها بالواحدةِ بطريقِ الإدماجِ:

تضمينُ المعنيَين التَّفسيريَّيْن في كلمةٍ واحدةٍ شاملةٍ لهما

صدَّر اللهُ سبحانه وتعالى هذه الآيةَ بالتَّذكيرِ بنعمةِ خلقِ النَّوعِ المبتدَأِ بخلقِ أصلهِ، وهو آدمُ وزوجُه حواءُ تمهيدًا للمقصودِ، وتعليقُ الفعلِ باسمِ الجمع في مثلهِ، في الاستعمال يقعُ على وجهين: أحدُهما: أن يكونَ المرادُ الكُلَّ المجموعيَّ، أي: جملةُ ما يصدقُ عليه الضَّميرُ، أي: خَلَقَ مجموعَ البَشرِ من نفسٍ واحدةٍ، فتكونُ النَّفسُ هي نفسُ آدمَ الَّذي تولَّد منهُ جميعُ البشرِ، فالمُرادُ بالنَّفسِ الواحدةِ: الجرثومةُ أو السُّلالةُ التي تكاثَرَ منها هذا النَّسلُ، وتوالدَ، كمَا تتكاثَرُ، وتتوالدُ حبَّاتُ السُّنبلةِ مِن حبَّةٍ واحدةٍ، ثُمَّ تكونُ مِن تلك الحبَّاتِ سنابلُ، ومِن تلك السَّنابلِ حبَّاتٌ، ومِن الحبَّاتِ سنابلُ[3].

وعلى هذا فَتَأْنِيثُ الْوَصْفِ بِقَوْلِهِ: ﴿وَاحِدَةٍ﴾، مَعَ أَنَّ الْمَوْصُوفَ بِهِ مُذَكَّرٌ، وَهُوَ آدَمُ نَظَرًا إِلَى تَأْنِيثِ لَفْظِ النَّفْسِ، وَإِنْ كَانَ الْمُرَادُ بِهَا مُذَكَّرًا، وَنَظِيرُ ذَلِكَ مِنْ كَلَامِ الْعَرَبِ قَوْلُهُ[4]:

أَبُوكَ خَلِيفَةٌ وَلَدَتْهُ أُخْرَى *** وَأَنْتَ خَلِيفَةُ ذَاكَ الْكَمَالِ[5]

وثانيهما: أن يكونَ المرادُ الكُلَّ الجمعيَّ، أي: خلقَ كلَّ أحدٍ منكم من نفسٍ واحدةٍ، فتكون النَّفسُ هي الأبَ، أي: أبو كُلِّ واحدٍ من المخاطَبين، على معنى: أنَّكم كلَّكم من طينةٍ واحدةٍ وجنسٍ

(1) الشربيني، السّراج المنير: 623/1.
(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 189/8.
(3) عبد الكريم الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 537/5.
(4) هذا البيت من البحر الوافر، لعُقَيبة بن هبيرة الأسدي. يُنظر: ابن رشيق القيرواني، العمدة في محاسن الشعر وآدابه: 280/2.
(5) الشنقيطي، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن: 354/6.

واحدٍ، على نحو قولهِ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ﴾ [الحجرات: 13]، وقولهِ: ﴿فَجَعَلَ مِنۡهُ ٱلزَّوۡجَيۡنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ ٣٩﴾ [القيامة: 39].

ولفظُ نفسٍ واحدةٍ يحتملُ المعنيين؛ لأنَّ في كِلَا الخَلقين امتنانًا، وفي كليهما اعتبارًا واتِّعاظًا.

ووُصِفَتِ النَّفسُ بواحدةٍ على أسلوبِ الإدماج بين العِبرةِ والموعظةِ؛ لأنَّ كونَها واحدةً أدعى للاعتبارِ؛ إذ ينسلُ مِنَ الواحدةِ أبناءٌ كثيرون حتَّى رُبَّما صارتِ النَّفسُ الواحدةُ قبيلةً أو أمَّةً، ففي هذا الوصفِ تذكيرٌ بهذهِ الحالةِ العجيبةِ الدَّالَّةِ على عِظَمِ القُدرة وسَعةِ العلمِ حيثُ بثَّهُ من نفسٍ واحدةٍ رجالًا كثيرًا ونساءً[1].

دلالةُ العطفِ في قولهِ: ﴿وَجَعَلَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا﴾:

بيانُ اختلافِ الجنسين وكونِ الأنثى مُتولِّدةً مِنَ الذَّكرِ وأنَّه أصلٌ لها

قولهُ: ﴿وَجَعَلَ﴾ عطفٌ على ﴿خَلَقَكُم﴾ داخلٌ في حكمِ الصِّلةِ[2]، فلمَّا كان آدمُ عليه السلام بعد صيرورتهِ لحمًا ودمًا أقربَ إلى السَّببيَّةِ لخَلْقِ ذاتِ لحمٍ ودمٍ منه على سبيل النَّزعِ والفصل[3]؛ قال مُعبِّرًا بالواو؛ لأنَّه كافٍ في نفي الشِّرك الذي جاءَ السِّياقُ للتَّحذيرِ منه، وبيانِ اختلاف الذَّكَرِ عن الأنثى؛ لأنَّ تأخيرَ المُسبَّباتِ عن الأسبابِ مُدَّةً أدلُّ عليه لأنَّهُ خِلافُ الأصلِ[4].

سِرُّ استخدامِ الجَعْلِ دونَ الخَلْقِ:

الدَّلالةُ على الإنشاءِ والتَّصييرِ مع الإشارةِ إلى الزَّوجيَّةِ

قولهُ: ﴿وَجَعَلَ﴾ دونَ (خلقَ)؛ لأنَّ الجَعْلَ إظهارُ أمرٍ عن سببٍ وتَصْييرٍ[5]؛ فالجَعْلُ إمَّا بمعنى التصييرِ، فقولهُ تعالى: ﴿زَوۡجَهَا﴾

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 210/9.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 302/3.
(3) الهرري، تفسير حدائق الروح والريحان: 281/10.
(4) البقاعي، نظم الدُّرر: 189/8.
(5) البقاعي، نظم الدُّرر: 189/8.

مفعولُه الأوَّلُ، والثَّاني هو الظَّرفُ المقدَّمُ، وإمَّا بمعنى الإنشاءِ، والظَّرفُ متعلِّقٌ بجعل[1].

أو عبَّر في جانبِ الأنثى بفعلِ (جَعَلَ)؛ لأنَّ المقصودَ جَعْلُ الأنثى زوجًا للذَّكر، لا الإخبارُ عن كونِ اللّهِ خلقَها؛ لأنَّ ذلك قد عُلِمَ من قولِه: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾[2].

توجيهُ المُتشابِهِ الواردِ في القرآنِ مع هذا الموضعِ:

التَّعبيرُ بالفعلِ (جعل) في: ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ يدلُّ على الحالةِ الدَّائمةِ في السُّلالات البشريَّةِ، وهي أنَّ الذَّكَرَ من هذا النَّوعِ يَسكن للزَّوجِ الأنثى من هذا النَّوعِ، بالجعلِ الرَّبَّانيِّ في نظامِ الخلقِ المُتتابِعِ.

التَّعبيرُ بالجَعْلِ للدَّلالةِ على الحالةِ الدَّائمةِ والسُّلالةِ المتتابِعةِ والتَّعبيرُ بالخَلْقِ للإشارةِ إلى بَدْءِ الخلقِ

أمَّا بَدْءُ اشتقاقِ خَلْقِ حوَّاءَ من آدمَ عليه السلام فقد جاءَ التَّعبيرُ عنهُ في قولِ اللّهِ عزّ وجلّ في سورةِ النِّساء: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً﴾ [النِّساء: 1]، فَبَدءُ خَلْقِ الأُنثى الأولى، كان اشتقاقًا مِنَ الذَّكرِ الأوَّلِ، ثُمَّ سارتِ السُّلالاتُ على أنَّ الذُّكورَ تَحملُ ذُرِّيَّاتِ الإخصابِ ذُكورَها وإناثَها، واقتضى نظامُ التَّكوينِ الرَّبَّانيِّ جعْلَ الذُّكورِ يسكنونَ إلى الإناثِ أزواجًا لهم، لتكون الإناثُ محاضِنَ تَنْبُتُ فيها بذورُ الذُّرِّيَّةِ التي يزرعُها الذُّكورُ فيهِنَّ، ففرَّقَ اللّهُ عزّ وجلّ بين أصلِ الخلقِ، وبين الجَعْلِ بعدَ الخلقِ.

معنى (من) ودلالتُها في ﴿مِنْهَا﴾:

و(مِن) في قولِه: ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا﴾ للتَّبعيضِ، والمرادُ: مِن نوعِها[3]، أي: جسدُها لما يُروى أنَّه سبحانه خلقَ حوَّاءَ من ضِلْعِ آدمَ عليه السلام اليُسْرى، والكيفيَّةُ مجهولةٌ لنا، ولا يُعجِزُ اللّهَ تعالى شيءٌ[4]، ويحتمِلُ

احتمالُ المعنيين التَّفسيريَّين للجَعْلِ مع ترجيحِ الإنشاءِ والتَّصييرِ

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 302/3.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 211/9.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 211/9، والخفاجي، حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي: 417/4.
(4) الآلوسيّ، روح المعاني: 129/5.

أن تكونَ ابتدائيَّةً أو بيانيَّةً، أي: من جنسِها وهذا كقولِه سبحانه: ﴿جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا﴾ [النَّحل: 72، الشُّورى: 11][1].

دلالةُ عودِ الضَّميرِ في ﴿مِنْهَا﴾:

قولهُ: ﴿مِنْهَا﴾، أي: وجعلَ مِنَ النَّفسِ الواحدةِ، أي: لا مِن غيرها[2]، وهو آدمُ عليه السلام على المشتهرِ، حيثُ تعيَّن أنَّ هذا الجَعْلَ كان مِنَ النَّفسِ الواحدةِ الَّتي خُلِقَت ابتداءً، فهو منها لا مِن غَيرها.

تَعيينُ أصلِ الجَعْلِ وتخصيصُ تَعَلُّقِهِ بالنَّفسِ الواحدةِ

فائدةُ تقديمِ شِبْهِ الجملةِ ﴿مِنْهَا﴾ على المفعولِ:

قولهُ: ﴿مِنْهَا﴾ صفةٌ لـ ﴿زَوْجَهَا﴾ قُدِّمت على الموصوف للاهتمامِ بالامتنانِ بأنْ جَعَلَ الزَّوجَ - وهو الأنثى - من نوعِ ذَكَرِهَا، وهذه الحكمةُ مُطَّرِدةٌ في كلِّ زَوجَينِ مِن الحيوانِ[3]، فالظَّرفُ ﴿مِنْهَا﴾ مُتَعَلِّقٌ بـ﴿وَجَعَلَ﴾، وقُدِّم على المفعولِ الصَّريحِ ﴿زَوْجَهَا﴾ للاعتناءِ بالمُقَدَّمِ والتَّشويقِ إلى المُؤَخَّرِ[4]، ويحتملُ أن يكونَ تقديمُها للتَّخصيصِ على معنى: منها لا مِن غيرِها.

بيانُ تمامِ الامتنانِ بكونِ الأنثى من جنسِ ذَكَرِها مع الاعتناءِ بالمُقَدَّمِ والتَّشويقِ إلى المؤَخَّرِ

نكتةُ إضافةِ الزَّوجِ إلى النَّفسِ في ﴿زَوْجَهَا﴾:

يُلاحظُ هنا من النَّاحيةِ البيانيَّةِ أنَّه ﷻ ذكَرَ النَّفسَ في السِّياق بأنَّها مُؤَنَّثَةُ الضَّميرِ ﴿وَاحِدَةٍ﴾، فناسبَ أن يقولَ: ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾، فلمَّا بَيَّن اللهُ ﷻ ثمرةَ ذلك التَّجانُسِ، وهو التَّلاقحُ والتَّزاوجُ بينَ الذَّكرِ والأنثى ليبقى الوجودُ، وليكونَ ذلك التَّجانُسُ مُنتِجًا أقصى غايتِه[5].

بيانُ التَّجانسِ بينَ النَّفسِ وزوجِها إشارةٌ إلى معنى التَّزاوجِ والتَّلاقحِ

(1) عبد القادر ملاحويش آل غازي، تفسير القرآن العظيم: 467/1، والشعراوي، تفسير الشّعراوي: 4513/8.

(2) ابن جرير، جامع البيان: ت شاكر: 304/13، والبقاعي، نظم الدُّرر: 189/8.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 211/9.

(4) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 302/3.

(5) محمد أبو زهرة، زهرة التفاسير: 3028/6.

معنى اللَّامِ ودلالتُها في ﴿لِيَسۡكُنَ﴾:

بيانُ مِنَّةِ إيناسِ الزَّوجِ بزوجتِهِ وأُلْفَتِهِ بها

قولُه: ﴿لِيَسۡكُنَ إِلَيۡهَاۖ﴾، يعني: لِيطْمئِنَّ إليها، ويجامِعَها[1]، فهو تعليلٌ لِما أفادَتْهُ (مِن) التَّبعيضيَّةُ، أي: جعَلَ مِن نوعِ الرَّجُلِ زَوجَهُ ليألَفَها، ولا يجفُوَ قُربَها، ففي ذلك مِنَّةُ الإيناسِ بها، وكثرةُ ممارَستِها؛ لينساقَ إلى غِشْيانِها[2].

فهي عِلَّةٌ غائيَّةٌ للجعلِ للإيناس والاطمئنان[3]، وجعلِ علَّة السُّكون أنَّها مِنْهُ، ولو كان علَّةَ الحُبِّ حُسْنُ الصُّورة الجسديَّة؛ لوجب ألَّا يَسْتَحْسِنَ الأنقصَ من الصُّور، ونحن نجدُ كثيرًا مِمَّن يُؤْثِرُ الأدنى، ويعلمُ فضلَ غيرِه، ولا يجدُ محيدًا لِقلبِه عنه، ولو كان للموافقة في الأخلاقِ لما أحبَّ المرءُ مَن لا يساعدهُ، ولا يُوافِقُهُ، فَعلِمْنا أنَّه شيءٌ في ذات النَّفسِ، ورُبَّما كانتِ المحبَّةُ لسببٍ مِنَ الأسبابِ، وتلك تفنى بفناءِ سببِها[4].

دلالةُ التَّعبيرِ بالمُضارعِ في: ﴿لِيَسۡكُنَ﴾:

الدَّلالةُ على استمرارِ السُّكونِ ودوامِهِ

أي: ليألَفها، ويَسْكُنَ بها على وجهِ الدَّوامِ والاستمرارِ، ويطمئِنَّ إليها، ويميلَ، ولا ينفرَ منها؛ لأنَّ الجنسَ إلى الجنسِ أميلُ وبه آنسُ، كما قال تعالى: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنۡ خَلَقَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا لِّتَسۡكُنُوٓاْ إِلَيۡهَا وَجَعَلَ بَيۡنَكُم مَّوَدَّةٗ وَرَحۡمَةًۚ﴾ [الرُّوم: 21]، فلا أُلفةَ بَينَ زَوْجين أعظمُ ممَّا بين الزَّوجين[5]، وصِيغَةُ المُضارع دَالَّةٌ على الاستِمْرارِ.

بلاغةُ الاستعارةِ في التَّعبير بالسَّكنِ عن الطُّمأنينةِ والأُنْسِ:

تصويرُ الزَّوجةِ وأُنسِ زوجِها بها بمحلِّ السُّكونِ والرُّكون

السُّكونُ هُنا مجازٌ في الاطمئنانِ والتَّأَنُّس، بطريق الاستعارةِ التَّصريحيَّة التَّبعيَّةِ تشبيهًا للزَّوجة بمحلِّ الطُّمأنينةِ والسُّكون،

(1) السمرقندي، تفسير السمرقندي: 574/1.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 211/9.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 129/5.
(4) ابن القيم، روضة المحبين ونزهة المشتاقين، ص: 75.
(5) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 525/3، والزمخشري، الكشاف: 186/2.

فقد جعلَها اللّهُ من نوعِ الرَّجل زوجَه ليألفَها، ولا يجفوَ قُربَها؛ لأنَّ النَّفسَ إلى الجنسِ أَمْيَلُ، وعليه أَقْبلُ، ولا سيَّما إن كان بعضًا، ألا ترى إلى محبَّةِ الوالدِ لولده والقريبِ لقريبه، فالسُّكونُ والمحبَّةُ أبلغُ، كما يسكنُ الإنسانُ إلى ولدِه، ويحبُّه محبَّةً لكونه بَضْعَةً منه[1]، وإنَّما منعَ سبحانه مِن نكاحِ الأصلِ والفرعِ لما في ذلك مِنَ الضِّرارِ وغيره من الحِكَمِ الكبارِ، فيغشاها عندما يَسْكُنُ إليها، فيحصُلُ الحَبَلُ والولادةُ، فتتفرَّعُ النُّفوسُ مِن تلك النَّفسِ[2]، ففي ذلك مِنَّةُ الإيناسِ بها، وكثرةُ مُمارستِها لينساقَ إلى غشيانِهَا، فلو جعلَ اللّهُ التَّناسُلَ حاصلًا بغير داعي الشَّهوةِ؛ لكانت نفسُ الرَّجلِ غيرَ حريصةٍ على الاستكثار من نسلِه، ولو جعلَه حاصلًا بحالةِ أَلَمٍ؛ لكانت نفسُ الرَّجل مُقِلَّةً منهُ، بحيثُ لا تَنْصَرِفُ إليه إلَّا للاضطرار بعد التَّأمُّلِ والتَّردُّد، كما ينصرِفُ إلى شُرْبِ الدَّواء ونحوه[3]، فَعِلَّةُ سُكونِ الرَّجُلِ إلى امرأتِه كَونُها مِن جِنسِه وجوهَرِه، قال اللّهُ تعالى: ﴿۞هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ [الأعراف: 189] فالجِنسُ إلى الجِنسِ أميَلُ، وبه آنَسُ[4].

عِلَّةُ استخدامِ التَّذكيرِ في الضَّميرِ المستَكِنِّ في قولِه: ﴿لِيَسْكُنَ﴾:

بيانُ أنَّ المُرادَ مِنَ النَّفسِ هُنا آدمُ عليه السلام ونِسْبَةُ السُّكونِ إليه

لَمَّا كان المُرادُ بالنَّفس آدمَ عليه السلام على الأرجحِ، وكان الزَّوجُ يُقال عن الذَّكر والأنثى؛ استخدمَ ضميرَهُ في المذكَّر ذاكرًا عِلَّةَ الجعْلِ بقوله: ﴿لِيَسْكُنَ﴾[5]، فالضَّميرُ المُسْتَكِنُّ في ﴿لِيَسْكُنَ﴾ يعودُ إلى النَّفس، وكان الظَّاهرُ تأنيثَهُ؛ لأنَّ النَّفسَ مِنَ المؤنَّثاتِ السَّماعيَّةِ، ولذا أُنِّثت صِفتُها، وهي قوله: ﴿وَٰحِدَةٍ﴾ إلَّا أنَّه جاء مُذكَّرًا هنا باعتبار أنَّ المُرادَ

(1) الزمخشري، الكشاف: 186/2، والقاسمي، محاسن التأويل: 234/5.
(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 190/8.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 211/9.
(4) أبو حيَّان، البحر المحيط: 245/5، وابن القيم، زاد المعاد: 247/4.
(5) البقاعي، نظم الدُّرر: 8/ - 190 189.

منَ النَّفسِ هُنا آدمُ عليه السلام فكان التَّذكيرُ أحسنَ طِباقًا للمعنى[1]، كما أنَّه ذُكِّرَ الضَّميرُ ذهابًا إلى المعنى؛ ليُناسِبَ قولَهُ: ﴿فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا﴾[2].

معنى الفاءِ ودلالتُها في ﴿فَلَمَّا﴾:

التَّفريعُ عمَّا سبقَ بذكرِ لازمِ السُّكونِ، والميلُ هو الغِشْيانُ

الفاء في ﴿فَلَمَّا﴾ عاطفةٌ[3] تفريعيَّةٌ؛ حيثُ فرَّعَ عمَّا سبقَ بفاء التَّعقيب عمَّا ما يحدث عن بعض سكونِ الزَّوجِ إلى زوجهِ، وهو الغِشْيان[4]، فقال مُؤذِنًا بقُربِ غِشْيانِها بعدَ جعْلِها سَكَنًا ﴿فَلَمَّا﴾، وتقديرُ الكلام: فَسَكَنَ إليها، فَمَالت نفسُه إليها، فَلَم يَتَمالكْ أن غَشِيَها ﴿فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا﴾[5].

ولَمَّا كان السُّكونُ مُفسَّرًا بالميلِ، وهو مُتناوِلٌ للميل الشَّهوانيِّ الذي هو مُقدِّمَةُ التَّغشِّي لا سيَّما وقد أُكِّدَ بالفاء كانَ الطِّباقُ في نِسْبتِهِ أيضًا إليْهِ وإنْ كانَ مِنَ الجانِبَينِ[6].

معنى (لمَّا) ودلالتها في ﴿فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا﴾:

بيانُ شرطيَّةِ التَّغشِّي والجماعِ لوقوعِ الحَمْلِ ربطًا للسَّبَبِ بِمُسَبَّبِهِ

(لَمَّا) حينيَّةٌ شرطيَّة بمعنى حِينَ، وهي مخصوصة بالدُّخول على الفعل الماضي، وهي مع تضمُّنها معنى الشَّرط غيرُ جازمة[7]، أي: حين اتَّصل بها زوجها، اتِّصال الرَّجل بالمرأة عَلِقَتْ منه بالجنين الذي ولدته بعد أن تَمَّ حَمْلُهُ في بطنها[8].

بلاغةُ الكنايةِ بصيغة التَّفعُّلِ في قوله: ﴿تَغَشَّىٰهَا﴾:

الدَّلالةُ على التَّكلُّف في الجُهْدِ عند الفعل بمقتضى الفطرة مع الإشارة إلى السِّتر بمقتضى الشَّريعة

قولُه تعالى: ﴿تَغَشَّىٰهَا﴾، أي: أتاها، كغَشِيَها، ويزيدُ ما تُعطيه

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 129/5، وطنطاوي، التَّفسير الوسيط للقرآن الكريم: 452/5.
(2) الشهاب، حاشيته على تفسير البيضاوي: 243/4، والمظهري، التفسير المظهري: 442/3، والقونوي وابن التمجيد، حاشيتاهما على تفسير على البيضاوي: 569/8.
(3) درويش، إعراب القرآن الكريم وبيانه: 508/3.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 211/9.
(5) البقاعي، نظم الدُّرر: 190/8.
(6) الآلوسيّ، روح المعاني: 129/5.
(7) درويش، إعراب القرآن الكريم وبيانه: 508/3، ومحمود صافي، الجدول: 144/9.
(8) عبد الكريم الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 537/5.

صيغةُ التَّفعُّل مِن جُهدٍ، لإفادةِ قُوَّةِ التمَكُّنِ مِن ذلك؛ لأنَّ التكَلُّفَ يقتضي الرَّغبةَ[1]، وهو كنايةٌ نزيهةٌ عن أداءِ وظيفةِ الزَّوجيَّة، تشيرُ إلى أنَّ مُقتضى الفِطرةِ وأدبَ الشَّريعةِ فيها، السَّترُ[2].

دلالةُ التَّذكير في نسبة التَّغشي في قوله: ﴿تَغَشَّىٰهَا﴾:

الإيماءُ إلى تكثيرِ النَّوعِ في كونه عِلَّةً للمُؤانسة

التَّغشِّي منسوبٌ إلى الذَّكر لا محالة وإن كان من الجانبين، وفيه ذوقيَّةٌ رائعة في جعْلِ المرأة مطلوبةً لا طالبة، مرغوبةً لا راغبة، وفيه إيماءٌ إلى أنَّ تكثير النَّوْعِ علَّةُ المؤانسة، كما أنَّ الوحدة عِلَّةُ الوحشة، وأيضًا لمَّا جعل المخلوق أوَّلًا الأصلَ؛ كان المناسبُ أن يكون جعْلُ الزَّوج لسكونه بعد الاستيحاش لا العكس، فإنَّه غير ملائم لفظًا ومعنى[3].

براعةُ أسلوبِ الاستخدامِ في قوله: ﴿فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا﴾:

جوازُ حَمْلِ معنى الآيةِ على التَّفْسيرَيْنِ السَّابقين في معنى النَّفس

قوله: ﴿فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا﴾ التغشِّي هُنا يقع بَيْنَ الذَّكر والأنثى، وأشارت الآيةُ أنَّ الذي تَغَشَّى عند اللِّقاء المُنْتِج بينهما هو الذَّكر، وأنَّ التي تُغْشى هي الأنثى، وبذلك تكون الثَّمرةُ الإنسانيَّة هي نتيجةُ ما بينهما؛ ولذا عاد الضَّميرُ مُذَكَّرًا، فَتَغَشَّىها هو، فكان بينهما ما أوجبته الفِطرة[4]، فحملت هيَ، فعاد الضَّميرُ بعد ذلك إليها، ففي الكلام استخدامٌ في ضَميريْ تَغَشَّاها وما بعده[5].

نُكتةُ التَّعبيرِ بـ﴿حَمْلًا﴾ بعد ﴿حَمَلَتْ﴾:

الإشارةُ إلى خِفَّةِ الحَمْلِ صفةٌ في نفسه وحالٌ لأمِّه

انتصابُ ﴿حَمْلًا﴾ يكون على المصدريَّةِ، وهو الأنسب بقوله تعالى: ﴿فَمَرَّتْ بِهِۦ﴾ إذا مشت بهِ، أو على كونه مفعولًا به، أي: حملت محمولًا خفيفًا، وهو ما في البطن مِنَ النُّطفة والجنينِ قبل أن يكبرَ ويثقل، ويكون المُرادُ بالخِفَّة عندئذٍ عدمَ التَّأذِّي به[6].

(1) الزمخشري، الكشاف: 186/2، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 212/9.
(2) محمد رضا، تفسير المنار: 432/9.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 129/5.
(4) محمد أبو زهرة، زهرة التفاسير: 3028/6.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 210/9.
(6) أبو حيَّان، البحر المحيط: 244/5، وإسماعيل حقي، روح البيان: 294/3.

ولا يخفي ما في جناسِ الاشتقاق مِنَ الإشارة إلى أثرِ الحَمْل في الفعل، وأثره على سلوك الحامل، خفيفًا كان أو ثقيلًا، كلًّا حسبَ درجتِهِ، فحروفُ الفعل (حمل) هي حروف اسم المصدر نفسه.

غرضُ وصفِ الحملِ بالخفَّةِ:

حكايةُ الحالةِ التي تحصلُ للمرأةِ عند تَطَوُّرِ الجنين زيادةٌ في التَّفَكُّرِ والاعتبارِ

يعني بخفَّة الحمل: الماء الذي حملتْهُ حواء في رحمها من آدم أنَّه كان حملًا خفيفًا، وكذلك هو حَمْل المرأة ماءَ الرَّجل خفيفٌ عليها[1]، ووصْفُ الحمل بـ(خفيفًا) إدماجٌ ثانٍ، وهو حكاية للواقع، فإنَّ الحمل في مبدئه لا تجد منه الحاملُ ألمًا، وليس المرادُ هنا حملًا خاصًّا، ولكنَّه الخبرُ عن كلِّ حمْلٍ في أوَّلِه؛ لأنَّ المُرادَ بالزَّوجين جنسُهما، فهذه حكايةُ حالةٍ تحصل منها عِبرة أخرى، وهي عِبرة تَطوُّر الحَمْلِ كيف يبتدئ خفيفًا كالعدم؟ ثُمَّ يَتزايد رويدًا رويدًا حتَّى يَثْقُلَ[2]؛ لأنَّه عند إلقاءِ النُّطفةِ أخفُّ منه عند كونهِ عَلَقَةً، وعند كَوْنِهِ علقةً أخفُّ منه عند كونه مُضْغَةً، وعند كونه مضغة أخفُّ ممَّا بعده، وقيل: إنَّه خفَّ عليها هذا الحمل من ابتدائهِ إلى انتهائه، ولم تجد منه ثِقَلًا، كما تجده الحواملُ من النِّساء لقوله: ﴿فَمَرَّتْ بِهِۦ﴾[3].

بلاغةُ الاستعارةِ في قوله: ﴿فَمَرَّتْ بِهِۦ﴾:

تصويرُ خِفَّةِ الحَمْلِ وعدمِ التَّأذِّي به بحال من يذهبُ ويجيء بخفَّةٍ ويُسْرٍ

أي: استمرَّت به، وقامت، وقَعَدَتْ به، ولم يُثقلها[4]، وأخذتْ، وتركت، ولم تَكْتَرِثْ بحَمْلها، فمرَّت من المرور بمعنى الذَّهاب والمُضي لا من المرِّ بمعنى الاجتيازِ والوصولِ[5]؛ لأنَّ حقيقةَ المُرُورِ: الاجْتِيَازُ، وَيُسْتَعَارُ لِلتَّغَافُلِ وَعَدَمِ الاكْتِرَاثِ لِلشَّيْءِ من باب الاستعارة التَّصريحيَّة التَّبعيَّة، فالمرور مشبَّهٌ به، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا

(1) ابن جرير، جامع البيان: 97/9.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 212/9.
(3) الشوكاني، فتح القدير: 312/2، والقنوجي، فتح البيان في مقاصد القرآن: 629/2.
(4) البغوي، تفسير البغوي: 257/2.
(5) إسماعيل حقي، روح البيان: 294/3.

عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ﴾ [يُونُس: 72]، أَيْ: نَسِيَ دُعَاءَنَا، وَأَعْرَضَ عَنْ شُكْرِنَا؛ لِأَنَّ الْمَارَّ بِالشَّيْءِ لَا يَقِفُ عِنْدَهُ، وَلَا يُسَائِلُهُ، وَقَوْلِهِ: ﴿وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغْوِ مَرُّواْ كِرَامًا ۝٧٢﴾ [الْفُرْقَان: 72].

فمعنى ﴿فَمَرَّتْ بِهِۦ﴾: لم تتفطَّن لَهُ، ولم تُفَكِّر في شأنه، وكل هذا حكايةً للواقع[1]، إعلامًا بأنَّ أمرها فيه كان على عادةِ النِّساء التي نعرفها[2].

معنى الباء ودلالتُها في ﴿بِهِۦ﴾:

تحقيقُ معنى خِفَّتِهِ عليها في أوَّل حَمْله

قولهُ تعالى: ﴿فَمَرَّتْ بِهِۦ﴾، أي: كانت تنتقل به، فـ(مرَّت) مضمِّنة معنى (انتقلت) أي: إنَّها كانت مع هذا الحَمْلِ الخفيف تَروح، وتغدو، وتتقلَّب في أمورِ بيتها، وفي شؤونِها[3]، فهي تتحرَّك حركةَ حياتِها قيامًا وقُعودًا، ولم يعطِّلها عن المشي ذهابًا ورجوعًا إلى أن تثقل، وتشعرَ بالحمل في شُهورِهِ الأخيرة[4].

فقولهُ: (به) تحقيقٌ لمعنى خفَّته، وأنَّه لم يمنعْها مِنَ القيام والقعود والنُّزول والصُّعود[5].

دلالةُ الفاء في ﴿فَلَمَّآ أَثْقَلَت﴾:

تعقيبُ حال الخفَّةِ بحال الثِّقَلِ اللَّازم للحامل عند صلاح حَمْلِها

الفاء في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَثْقَلَت﴾ عاطفةٌ لتعقيب حال الخِفَّةِ بحال الثِّقَل، أي: فلمَّا صار ما في بطنها من الحملِ الَّذي كان خفيفًا ثقيلًا، ودنت ولادتُها حين كَبُرَ في بطنها، فحينئذٍ صار في قلوبهما الشَّفقةُ على الولد، وعلى خروجهِ حيًّا، صحيحًا، سالمًا لا آفةَ فيه ﴿دَّعَوَا ٱللَّهَ﴾[6].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 212/9.
(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 190/8.
(3) محمد أبو زهرة، زهرة التفاسير: 3028/6.
(4) الشعراوي، تفسير الشّعراوي: 4513/8.
(5) الرسعني، رموز الكنوز في تفسير الكتاب العزيز: 336/2.
(6) ابن جرير، جامع البيان: 305/13، والسّعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 352.

نكتةُ الكنايةِ في ﴿أَثْقَلَت﴾:

دلالةُ الثِّقَلِ على كِبَرِ الجنين وكُلْفَةِ أمِّه بحَمْله

﴿أَثْقَلَت﴾؛ أي: فلمَّا دخلت في ثِقَل الحملِ، بسببِ كِبَرِ الجنين في بطنها، يُقال لغةً: أثقلتِ الحاملُ؛ أي: استبانَ حملُها، فهي مُثْقِلٌ، وإنَّما يَسْتَبِينُ حَمْلُها إذا كَبُرَ الجنين في رحمها، فصار ثقيلًا، فالإثقال كنايةٌ عن كِبَرِ الجنين وثِقَلِ الحملِ وكُلفَتِه، يقال: أثقَلَ المريضُ، فهو مُثْقَلٌ[1].

دلالةُ الهمزةِ في ﴿أَثْقَلَت﴾:

الدَّلالةُ على الدُّخول في الثِّقَل وصيرورتِه

الهمزةُ في ﴿أَثْقَلَت﴾ للصَّيرورة، مثل: أورقَ الشَّجرُ، فهو كما يقال: أقربتِ الحاملُ، فهي مُقْرِبٌ؛ إذا أقرب إبَّانُ وَضْعِهَا[2]، كما يُقال: أثمرَ وألبنَ: إذا صار ذا ثَمَرٍ ولبن، وقيل: إنَّها للدُّخول في زمانِ الفِعل، أي: دخلت في زمان الثِّقَلِ، فـ﴿أَثْقَلَت﴾ حان وقتُ ثِقَلِ حملِها، ودخلت في الثِّقَل، كما يُقال: أصبح، وأمسى، إذا دخلَ في الصَّباح أو المساء[3].

بديعُ المطابقةِ بين الخِفَّةِ والثِّقَل:

تصويرُ الحالين المُتقابِلَين وما ينتجُ عن أثرِهما مِنَ التَّقابل الحاصل

المتبادرُ من الثِّقَل معناه الحقيقي، والتَّقابُلُ بينه وبين المعنى الأوَّل للخِفَّة ظاهِرٌ، وقد يرادُ به الكَرْبُ ليقابل الخفَّةَ بالمعنى الثَّاني، وهو الدُّخولُ في الثِّقَل لكنَّ المتبادرَ في الموضعين المعنى الحقيقيُّ[4]، مع ما يوحيه هذا التَّقابلُ من تقابل بَيْنَ أثرِهِ من عدم التَّأذِّي بحال الخِفَّة والفرح بحمله، وبَيْنَ الوَهَنِ والتَّعب والكرب والخوف عليه عند الثِّقَلِ.

فائدةُ التَّأنيثِ والتَّذكير في ضَمائر الأفعال في الآية:

وذلك في قوله: ﴿لِيَسْكُنَ﴾ ﴿تَغَشَّىٰهَا﴾ و﴿حَمَلَتْ﴾ ﴿فَمَرَّتْ﴾

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 212/9.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 212/9.
(3) عضيمة، دراسات لأسلوب القرآن الكريم: 239/4.
(4) الآلوسيّ، روح المعاني: 129/5.

﴿أَثْقَلَت﴾، فجاء ذكْرُ الضَّميرِ المرفوعِ في فِعْلَيْ (يسكن) و(تَغَشَّى): باعتبار كونِ النَّفسِ الواحدة المذكورة آنفًا ذَكَرًا، وأنَّث الضَّميرَ المنصوب في ﴿تَغَشَّىٰهَا﴾، والمرفوعَ في ﴿حَمَلَتْ﴾ و﴿فَمَرَّتْ﴾: باعتبار كونِها مضافةً لـ (زوجها)، وقد عُلِمَ أنَّ المقصودَ بهِ الأنثى، وهو عكسٌ بديعٌ في نَقلِ ترتيب الضَّمائر[1]، وهو دالٌّ على أنَّ كلًّا من الزَّوج والمرأة يقوم بما أُوكلَ إليه، وما هُيِّىء له من أمر النَّسل.

بيانُ بديعِ نقلِ ترتيب الضَّمائرِ بحسب المذكورِ آنفًا

دلالةُ لفظ ﴿دَّعَوَا﴾ وَعَوْدُ الضَّمير فيها:

قولهُ تعالى: ﴿دَّعَوَا ٱللَّهَ﴾؛ أي: فلمَّا حانَ قُرْبُ وَضْعِها، وكَبُرَ الولدُ في بطنها، تَوَجَّهَا إلى اللّه ربِّهما[2].

وظاهرُ قولهِ: ﴿دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا﴾ أنَّ كُلَّ أبوين يَدعوان بذلك، فإنْ حُمِلَ على ظاهرِهِ؛ قُلْنَا: لا يخلو أبوان - ولو مشركين - من أن يَتمنَّيا أن يكون لهما مِنَ الحَمْل مولودٌ صالحٌ، سواءٌ نطقَا بذلك، أم أضمراه في نفوسِهما، فإنَّ مُدَّةَ الحَمْل طويلةٌ، لا تخلو أن يَحْدُثَ هذا التَّمنِّي خلالها، وإنَّما يكونُ التَّمنِّي منهم على اللّهِ، فإنَّ المشركين يعترفون للّه بالرُّبوبيَّة، وبأنَّه هو خالق المخلوقات ومُكَوِّنُها، ولا حَظَّ للآلهة إلَّا في التَّصرُّفات في أحوال المخلوقات، كما دلَّت عليه مُحاجَّاتُ القرآن لهم، نحوُ قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ [يونس: 34]، وإن حُمِلَ دعَوَا على غير ظاهرِهِ؛ فتأويلُه أنَّه مَخْصوصٌ ببعض الأزواجِ الَّذين يَخْطُرُ ببالهِم الدُّعاءُ[3].

شمولُ طالب الدُّعاء لكلِّ أبوين ولو مُشركين

فائدةُ الجمع بين وصف الألوهيَّة والرُّبوبيَّة في ﴿ٱللَّهَ رَبَّهُمَا﴾:

ذَكرَ الاسمَ الأعظم في مقام الدُّعاء استحضارًا؛ لأنَّ المدعوَّ هو الذي له جميعُ الكمال، فهو قادرٌ على ما دعوا به؛ لأنَّه قادرٌ على كلِّ

تَأَكُّدُ الوصفَين في مقام الدُّعاء استحضارًا لعظمة المدعوِّ وإحسانِهِ وامتنانِهِ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 212/9.
(2) أحمد مصطفى المراغي، تفسيره: 138/9.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 213/9.

شيء، وذكرَ صفةَ الإحسان رجاءَ القَبول والامتنان، فقال: ﴿رَبَّهُمَا﴾، أي: الذي أحسنَ إليهما[1].

وإجراءُ صِفةِ الرّبوبيّة المؤذِنةِ بالرِّفقِ والإيجادِ، في قَولِه: ﴿دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا﴾؛ للإشارةِ إلى استحضارِ الأبوَينِ هذا الوَصفَ عند دُعائِهما اللّه، أي: يذكُرُ أنَّه باللَّفظِ، أو ما يُفيدُ مَفادَه[2]، فقد تَبيَّنَ الحملُ، وتعلَّقت به قلوبُ الزَّوجين، وجاء دور الطَّمع في أن يكون المولودُ سليمًا صحيحًا صَبوحًا، وعند الطَّمع تستيقظ الفطرةُ، فتتوجَّهُ إلى اللّهِ، تَعْترفُ له بالرُّبوبيَّة وحده.

نُكتةُ إضافة الرَّبِّ إلى ضميرهما:

الإشـــارةُ إلى تـصـديـرِهـمـا للدُّعاء بالرُّبوبيَّة وسؤالِ الله بها

﴿رَبَّهُمَا﴾، أي: مالكُ أمرِهما، الحقيقُ بأن يُخصَّ به الدُّعاءُ، إشارةٌ إلى أنَّهما قد صدَّرا به دعاءَهما، كما في قولهما: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا﴾ [الأعراف: 23] الآية[3]، فإجراءُ صفةِ ربِّهما المؤذنةِ بالرِّفق والإيجاد: للإشارة إلى استحضار الأبوين لهذا الوصف عند دعائهما اللّه، أي: يذكر أنَّه باللَّفظ، أو ما يُفيد مفاده، ولعلَّ العربَ كانوا إذا دعوا بصلاح الحَمْلِ؛ قالوا: ربَّنَا آتنا صالحًا[4]، فإضافةُ لفظة الرَّبِّ إلى ضميرِهما تشريفٌ لهما.

فائدةُ حذفِ مُتَعلَّقِ الدُّعاءِ في قوله: ﴿دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا﴾:

التَّـعـويـلُ على شهادة الجملةِ القسميَّةِ به

قولُه: ﴿دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا﴾، أي: دَعَواه تعالى أن يُؤتيَهما صالحًا، ووعدًا بمقابلتِه الشُّكْرَ على سبيل التَّوكيدِ القسَميِّ، وقالا أو قائلين: ﴿لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا﴾، فمتعلَّقُ الدعاءِ محذوفٌ تعويلًا على شهادة الجملةِ القسَمية به[5]، فالحذفُ من بلاغة الإيجاز.

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 190/8.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 213/9.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 303/3.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 213/9.
(5) أبو السعود، إرشاد العقل السّليم: 303/3.

الموقعُ البيانيُّ لقوله: ﴿لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا﴾:

تفسيرُ الإجمالِ الحاصلِ ممَّا سبق من الدُّعاء وتفصيلُهُ

قوله: ﴿لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا﴾ بيانٌ لـ﴿دَّعَوَا﴾ على الاستئناف البَيانيِّ، كأنَّه قيل: ماذا قالا في دعائهما؟ أو فقالا: ﴿لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا﴾[1]، ويمكن أن تكون جملةُ لئن آتيتَنا تفسيريَّةً لجملة ﴿دَّعَوَا ٱللَّهَ﴾[2]، فالفصلُ على هذا لكمال الاتِّصالِ كونُ الجملة الثانية مُفسِّرةً للجملة الأولى.

معنى اللَّامِ في ﴿لَئِنْ﴾ ودلالتُها:

توكيدُ جوابِ القَسمِ وتقويتُهُ

اللَّامُ في ﴿لَئِنْ﴾: مُوَطِّئَةٌ للقسم، وتُسمَّى أيضًا اللَّامَ المُؤَذِنَةَ[3]، أي: دعا آدمُ وحواء ربَّهما ومالكَ أمرِهما أن يؤتيَهما ولدًا صالحًا، حالفين باللّه بقولهما: واللّه ﴿لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا﴾، أي: واللّه لئن أعطيتَنا - يا إلهَنا - ولدًا صالحًا[4].

فدعواهُ تعالى أن يؤتيهما صالحًا، ووعدا بمقابلتهِ الشُّكرَ على سبيل التَّوكيدِ القسميِّ[5].

نكتةُ التَّعبيرِ بالجملةِ الشَّرطيَّةِ:

بيانُ أنَّ هذا الدُّعاءَ أنموذجٌ يستَتْبِعُ سائرَ الذُّريَّةِ الصُّلبيَّةِ مهما نزلَت

في قوله تعالى: ﴿لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ ترتيبُ هذا الجوابِ على الشَّرطِ المذكورِ، لما أنَّهما قد عَلِمَا أنَّ ما علَّقا بِهِ دعاءَهما أُنموذَجٌ لسائرِ أفرادِ الجنسِ، ومعيارٌ لها ذاتًا وصفةً، فوجودُه مُستتبِعٌ لوجودِها، وصلاحُه مستلزِمٌ لصلاحها، فالدُّعاءُ في حقِّه متضمِّنٌ للدُّعاء في حقِّ الكلِّ مستتبِعٌ له، كأنَّهُما قالا: لئن آتيتنا وذرِّيَّتَنا أولادًا صالحين[6].

غرضُ تنكير ﴿صَٰلِحًا﴾ وحذفُ الموصوف:

شُمولُ الصَّلاحِ وعُمومه لكلِّ معاني الصَّلاح

ولدا صالحًا، أي: تامَّ الخَلْقِ يصلح للقيام بالأعمال النَّافعة

(1) محمود صافي، الجدول: 144/9.
(2) درويش، إعراب القرآن الكريم وبيانه: 508/3.
(3) بهجت صالح، الإعراب المفصل لكتاب الله المرتّل: 145/4.
(4) الهرري، تفسير حدائق الروح والريحان: 281/10.
(5) الآلوسيّ، روح المعاني: 129/5.
(6) أبو السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم: 303/3.

التي يعملُها البَشَرُ[1]، أي: أعطيتنا ولدًا سويًّا صحيحَ الجوارح[2]، سليمًا من فساد الخِلْقَةِ كنقص بعض الأعضاء، قويَّ البِنيةِ، سليم الفطرة[3]، وقيل: ولدًا ذكرًا؛ لأنَّ الذُّكورةَ من الصَّلاح والجودة[4]، فعلى هذا فالتَّنكيرُ للتَّفخيم والتَّعظيم.

والصَّلاح يشمل معانيَ كثيرةً منها الصَّلاح في استواء الخَلق، ومنها الصَّلاحُ في الدِّين، والصَّلاح في العقل والتَّدبير، فيقال: إنَّهما قالا: لئن آتيتنا صالحًا بجميع معاني الصَّلاح[5].

دلالةُ تتابعِ المؤكِّداتِ في: ﴿لَّنَكُونَنَّ﴾:

رغبةٌ في إجابةِ الدُّعاء وتَحَقُّقِ الرَّجاءِ

﴿لَّنَكُونَنَّ﴾، أي: نحن أو نحن ونَسْلُنا[6]، لنكونَّن من المخلِصين لك في الشُّكر[7]. وقد جمعت هذه الجملةُ عِدَّةَ مؤكِّداتٍ: فاللَّام الواقعة في جوابِ القسم، ونون التَّوكيد الثقيلةُ في (نكونَّ)، فهو فعل مضارعٌ ناقصٌ مبنيٌّ على الفتح لاتِّصاله بنونِ التَّوكيد الثَّقيلة[8]، والجملة الفِعْليَّةُ: ﴿لَّنَكُونَنَّ﴾ جوابُ القسم المحذوف، وجواب الشَّرط محذوفٌ لدلالة جواب القسم عليه[9]، وهذا التَّتابعُ في التَّأكيد دالٌّ على الرَّغبة في قَبولِ الدُّعاءِ بصلاح الولد؛ لأنَّه بصلاحِه صلاحُ حياة الزَّوجين.

غرضُ التَّعبير بالمُضارِعِ في: ﴿لَّنَكُونَنَّ﴾:

التزامُ الدَّوام والاستمرار على شُكر النِّعَم بعد حصولها

﴿لَّنَكُونَنَّ﴾: لَنَصيرنَّ شاكرين لنعمائك دائبين على شكرِها، وذلك لأنَّهما لم يريا أحدًا من جنسِهما، ولم يكن إذ ذاك غيرُ الجنِّ والحيوان والوحش والطَّير[10].

---

(1) المراغي، تفسير المراغي: 138/9.
(2) السمرقندي، بحر العلوم: 574/1.
(3) حجازي، التفسير الواضح: 795/1.
(4) الزمخشري، الكشاف: 186/2.
(5) ابن جرير، جامع البيان: 97/9.
(6) الآلوسيّ، روح المعاني: 129/5.
(7) شحاتة، تفسير القرآن الكريم: 1653/9.
(8) بهجت صالح، الإعراب المفصل لكتاب الله المرتّل: 145/4.
(9) الدرة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 682/3.
(10) الدِّينوري، تفسير ابن وهب عبد الله بن محمد: 28/1، وملا حويش، تفسير القرآن العظيم: 467/1.

معنى (من) ودلالتُها في قوله: ﴿مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾:

إثباتُ شُكرِهما بإثباتِ ملزومِهِ أنَّ في الخلق أقوامًا شاكرين

﴿مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ تبعيضيَّةٌ، أي: من جملةِ الشَّاكرين لنعمك الدِّينيَّةِ والدُّنيويَّة، فيكون شُكري وشُكر حواءَ على إيتاء الولد الصَّالح، وسائرِ النِّعم علينا، وكلٌّ شاكر يَشْكرك على ماله من النِّعم[1]، فجيء بـ(من) ليُشيرَ إلى أنَّ في النَّاس قومًا شاكرين، فإن كانوا فنحنُ من جملتهم، وهو من قبيل الكناية التي هي إثباتُ الشَّيء بإثبات مَلزومه، وهي أبلغُ مِنَ التَّصريح.

دلالةُ (ال) في ﴿ٱلشَّٰكِرِينَ﴾:

الدَّلالةُ على رُسوخهم في الشُّكر وشمولِه منهم ومن ذرِّيَّتهم

أي: نحنُ وأولادنا على نعمتِكَ علينا مِنَ الرَّاسخين في الشُّكرِ لك على إيتائِك[2]، وقيل: على نعمائِك التي من جملتِها هذه النِّعمةُ[3]، فـ(الـ) إمَّا أن تكونَ عهديَّةً يرادُ بها الشَّاكرون المعروفون، وإمَّا أن تكونَ جنسيَّةً استغراقيَّةً، أي: مِن جنسِ الشَّاكرين.

معنى الفاءِ في ﴿فَلَمَّا﴾ ودلالتُها:

الإشارةُ إلى قُربِ الولادةِ مِنَ الدُّعاء

قوله: ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا﴾ الفاءُ كسابقاتها عاطفةٌ تعقيبيَّة، وأشار بها هنا إلى قُرب الولادة من الدُّعاء[4].

معنى (لمَّا) ودلالتُها في قوله: ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا﴾:

بيانُ حلولِ وقت الإتيانِ وحصولِهِ حقيقةً

(لمَّا) ظَرفُ زمانٍ، بمعنى: حِين تضمَّن معنى الشَّرط في محلِّ نصبٍ مُتَعَلِّقٌ بـ﴿جَعَلَا﴾[5] لمّا آتاهما ما طلباه أصالةً واستتباعًا من الولد وولد الولدِ ما تناسلوا؛ وقع منهم الشِّرك[6].

---

(1) محمد بن يوسف أطفيش، تيسير التفسير: 252/5.

(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 191/8.

(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 302/3، والآلوسيّ، روح المعاني: 129/5، والمظهري، التفسير المظهري: 442/3.

(4) البقاعي، نظم الدُّرر: 191/8.

(5) العلوان، إعراب القرآن الكريم: 789/2.

(6) أبو السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم: 304/3.

بلاغةُ التَّعبيرِ بالشَّرطيَّةِ:

بيانُ الانتقالِ من النَّوعِ إلى الجنسِ

قولهُ تعالى: ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَاۚ﴾، أي: فحين أعطاهُما سبحانه الولدَ الصَّالحَ الذي كانا يتَمنَّيانه؛ جَعَلَا للّهِ تعالى شُركاء في هذا العطاء، وأَخَلَّا بالشُّكر في مقابلةِ هذه النِّعمة أسوأَ إخلالٍ، حيث نسبوا هذا العطاءَ إلى الأصنام والأوثان، أو إلى الطَّبيعة كما يزعم الطَّبعيون، أو إلى غير ذلك ممَّا يتنافى مع إفراد اللّه تعالى بالعبادة والشُّكر، فكانتِ النَّتيجةُ عدمَ الوفاءِ للّه فيما عاهداهُ عليه[1].

فأخلَّا بالشُّكر في مقابلة نعمةِ الولد الصَّالح أسوأ إخلالٍ؛ إذ استبدلوه بالإشراك[2]؛ فسمُّوا عبدَ العُزَّى وعبد مناف وعبد الدَّار، فالآية إخبارٌ بالغيب في أحوال بني آدمَ ممَّن كفر منهم وأشرك، ولا يَصِحُّ في آدم وحوَّاء هذا الشِّركُ؛ لعصمة الأنبياء[3].

وهذا انتقالٌ مِنَ النَّوعِ إلى الجنس، فإنَّ أوَّلَ الكلامِ في آدمَ وحوَّاءَ، ثُمَّ انتقل الكلام في الجنس، ولا شكَّ أنَّ هذا موجودٌ في الذُّرِّيَّة كثيرًا، فلذلك قرَّرهم اللّهُ على بطلان الشِّرك، وأنَّهم في ذلك ظالمون أَشَدَّ الظُّلْمِ، سواء كان الشِّركُ في الأقوال، أم في الأفعال[4]، فذكرَ آدم وحواء أوَّلًا كالتَّوطئة لما بعدَهما مِنَ الوالدين، وهو كالاستطراد من ذِكر الشَّخص إلى الجنس، كقوله: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾ [الملك: 5] الآية، ومعلوم أنَّ المصابيحَ - وهي النُّجومُ التي زُيِّنت بها السَّماءُ - ليست هي الَّتي يُرمى بها[5].

(1) طنطاوي، التَّفسير الوسيط للقرآن الكريم: 5/453.
(2) القاسمي، محاسن التأويل: 5/235.
(3) ابن عجيبة، البحر المديد في تفسير القرآن المجيد: 2/426.
(4) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 353.
(5) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 3/475.

غرضُ تنكيرِ ﴿صَٰلِحًا﴾ وحذفِ الموصوف:

الدَّلالةُ على عموم الجِنْسِ

﴿صَٰلِحًا﴾، أي: جنسُ الولدِ الصَّالح في تمام الخَلق بدنًا وقوَّةً وعقلًا، فكثروا في الأرض، وانتشروا في نواحيها ذكورًا وإناثًا[1]، والذي دلَّ على عمومهِ وعدم اختصاصهِ بقائِلَيْنِ مُحَدَّدَيْنِ أنَّه إذا تقدَّم الاسمُ النَّكرةُ، فأعيدَ ذكرُه، فإنَّما يُعادُ مُعرَّفًا بالألف واللَّام، كقوله تعالى: ﴿كَمَآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ رَسُولٗا ١٥ فَعَصَىٰ فِرۡعَوۡنُ ٱلرَّسُولَ﴾ [سورة المزمل: 16: 15]، وكذلك قال سيدنا عمر رضي الله عنه في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلۡعُسۡرِ يُسۡرًا ٥ إِنَّ مَعَ ٱلۡعُسۡرِ يُسۡرٗا ٦﴾ [سورة الشَّرح: 6: 5] لن يغلبَ عُسْرٌ يُسرين؛ لأنَّه إنَّما أُعيد العسرُ مُعَرَّفًا وكانَ شيئًا واحدًا، إذْ كان في كلامٍ واحدٍ، وهنا في كلامين لِقائِلَيْنِ، فَنُكِّرَ[2]، والتَّنكيرُ للتَّفخيم والتَّعظيم.

معنى اللَّامِ في ﴿لَهُۥ﴾ ودلالتُها:

بيانُ مُنازَعتهم لله فيما هو حقٌّ له دونَ غيرِهِ من توحيدِ العبادة

﴿لَهُۥ﴾ اللَّامُ تعليليَّةٌ أو للتَّخصيص، أي: جَعَلا للهِ شركاءَ في ذلك الولدِ الَّذي انفردَ اللهُ بإيجادهِ، والنِّعمة به، وأقرَّ به أعينَ والدَيه، فعبَّداه لغيرِ اللهِ[3].

غرضُ تقديمِ شبهِ الجملة ﴿جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ﴾:

بيانُ رُسوخِهم في جعلِ الشِّرك ونسبةِ النِّعمة إلى غيرِ المنعِم

﴿جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ﴾، أي: فيما أعطاه، فأظهرَا ما كان راسخًا في أنفسِهما منه، وقد نُسِبَ هذا الجعلُ عند المحقِّقينَ من علماء التَّفسيرِ للمشركين وكفرة النَّاس، قال الحسن البصريُّ: "هم اليهودُ والنَّصارى رزقَهم الله أولادًا، فَهَوَّدوا، ونصَّرُوا، وقال ابن كثير: أمَّا نحن فعلى مذهب الحسن البصريِّ في هذا، وأنَّه ليس المراد من السِّياق آدمَ وحوَّاءَ، وإنَّما المُراد من ذلك ذريَّتُه، ولهذا قال: ﴿فَتَعَٰلَى

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 191/8.
(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 272/2.
(3) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 353.

ٱللَّهُ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾[1]، والتَّقديمُ لشبه الجملةِ: إمَّا للتَّخصيص، وإمَّا لتعجيل المضرَّةِ.

سِرُّ تنكير ﴿شُرَكَآءَ﴾ وجمعها:

بيانُ عمومِ شركهم وتنوُّعِه

التَّنكيرُ للتَّعميمِ والتَّحقيرِ، فإمَّا أن يُسمِّياهُ بعبدِ غيرِ اللّٰه كـ (عبد الحارث) و(عبد العُزى) و(عبد الكعبة) ونحو ذلك، أو يُشْرِكا في اللّٰه في العبادة، بعد ما مَنَّ اللّٰهُ عليهما بما مَنَّ به، من النِّعَم التي لا يُحْصيها أحدٌ من العباد[2].

وقد يكون المُراد بالشُّركاء: إبليسَ اللَّعين أخزاهُ اللّٰه! وعبَّر بالأول، وهو الجمع عن المفرد على سبيل المبالغة[3]، فأراد بلفظ الجمع الشيطان للمبالغة، يعني: جعلاهُ شريكًا له تعالى[4].

توجيهُ القراءاتِ المتواترةِ في ﴿شُرَكَآءَ﴾ ودلالاتُها:

بيانُ جمعهم بين شِرْك الطَّاعةِ والعبادة

قولهُ تعالى: ﴿جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ﴾ اختلف القُرَّاءُ في هذا الموضعِ، فقرأ نافع وأبو جعفر، وأبو بكر عن عاصمٍ بكسر الشِّين، وإسكان الرَّاء مع التَّنوين من غير مدٍّ، ولا همز: ﴿شِرْكًا﴾، والتَّقدير: ذوي شِرْكٍ[5]، وقرأ الباقون بِضَمِّ الشَّين وفَتْحِ الرَّاء والمدِّ، وهمزةٍ مفتوحة من غير تَنْوينٍ: ﴿شُرَكَآءَ﴾[6].

فعلى قراءةِ ﴿شِرْكًا﴾، فإنَّ الشِّركَ لا يخلو عنه أحدٌ من الكفَّار في العرب، وبخاصَّةٍ أهلُ مكَّةَ، فإنَّ بعض المشركين يجعل ابنه سادنًا لبيوت الأَصنام، وبعضهم يَحْجُر ابنَهُ إلى صنم ليحفظه، ويرعاه، وخاصَّةً في وقت الصِّبا، وكلُّ قبيلةٍ تنتسب إلى صَنَمِها الذي تَعبده،

(1) المراغي، تفسير المراغي: 139/9.
(2) السّعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 353.
(3) الدّرة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 684/3.
(4) السيواسي، عيون التفاسير للفضلاء السماسير: 98/2.
(5) البقاعي، نظم الدُّرر: 191/8.
(6) ابن الجزري، النشر في القراءات العشر: 273/2.

وكأنَّ المعنى: فلمَّا آتاهما صالحًا؛ جعلا له نصيبًا لم يخلِّصاه له، والتَّفاسير على ذلك تدلُّ، على أنَّ ﴿شِرْكًا﴾، أي: في طاعتهِ، ولم يكن في عبادتهِ، فمَن قرأَ ﴿شِرْكًا﴾ أي: جعلا لغيرهِ شِركًا؛ لأنَّهما لا ينكران أن يكونَ الأصلُ له جلَّ وعزَّ، فالشِّرك يُجعل لغيره، وهذا على معنى: جعلا له ذا شركٍ، فَحُذِفَ (ذا)[1].

وقرأ الباقون ﴿شُرَكَآءَ﴾ على (فُعَلاءَ) جمع شريكٍ، وحجَّتُهم في ذلك أنَّ الوالدين كانا يعتقدان أنَّ ولدَهما من رزقِ اللّه وعطيَّتِهِ ثُمَّ سمَّياهُ، فجعلا لغيرهِ فيه شُركاءَ بالاسم[2]، فبعضُهم يُسمِّي ابنَه: عبدَ كذا مُضافًا إلى اسمِ صنمٍ، كما سَمُّوا عبد العُزَّى، وعبد شمس، وعبد مناة، وعبد ياليلَ، وعبد ضخم، لأنَّ الإضافة على معنى التَّمليك والتَّعبيد[3].

دلالةُ التَّعبيرِ بالاسمِ الموصولِ (ما) دون (مَن):

قولهُ: ﴿جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَاۚ﴾ مرادٌ منه مع الإخبارِ التَّعجيبُ مِن سَفَهِ آرائِهم؛ إذ لا يَجعَلُ رشيدُ الرَّأيِ شريكًا لأحدٍ في مُلكِه وصُنعِه بدونِ حَقٍّ؛ فلذلك عُرِّفَ المشروكُ فيه بالموصوليَّةِ، فقيل: ﴿فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَاۚ﴾ دونَ الإضمارِ، بأن يُقال: (جعَلا له شُركاءَ فيه)؛ لِما تؤذِنُ به الصِّلةُ مِن فَسادِ ذلك الجَعلِ، وظُلْمِ جاعِلِه، وعدمِ استحقاقِ المَجعولِ شَريكًا لِما جُعِلَ له، وكُفرانِ نِعمةِ ذلك الجاعِلِ؛ إذ شكَرَ لِمَن لم يُعطِه، وكفَرَ مَن أعطاه، وإخلافِ الوَعدِ المؤَكَّد[4]، فـ(ما) تدلُّ على العموم لتشمل كلَّ الأعطيات.

الإيذانُ بفسادِ ذلك الجَعلِ وظُلْمِ جاعِلِهِ

وجعْلُ الموصولِ (ما) دون (مَن) باعتبارِ أنَّه عطيَّةٌ، تشمل المولودَ وغيره، أو لأنَّ حالةَ الطُّفولةِ أشبَهُ بغَيرِ العاقِلِ[5].

الإشارةُ إلى أنَّ الولدَ في حالِ طفولتهِ أشبهُ بغير العاقل، وأنَّه عطيَّةٌ ربانيَّة

(1) ابن زنجلة، حجة القراءات، ص: 304.
(2) ابن زنجلة، حجة القراءات، ص: 304.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 214/9.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 214/9.
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 213/9 - 214.

بلاغةُ الإطنابِ في وصف تكوين النَّسل:

التّدليل على حكمة الله وقدرته

وقد سلَكَ في وصفِ تَكوينِ النَّسلِ مَسلَكَ الإطنابِ؛ لِما فيه من التَّذكيرِ بتلك الأطوارِ الدَّالَّةِ على دقيقِ حِكمةِ اللّهِ وقُدرتِه، وبِلُطفِه بالإنسانِ[1].

موقعُ قولِه: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ﴾ ممَّا قبله:

استئنافُ تنزيهٍ لله تعالى يقتضيه المقامُ تَوْبيخًا للمُشركين وتعجيبًا من حالهم

هذا ابتداءُ كلامٍ، وأراد به إشراكَ أهل مكَّةَ، وحَمْلُ ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ﴾ إلى آخر الآية... على الابتداء ممَّا يستدعيه السِّباقُ والسِّياقُ، وبه صرَّح كثيرٌ من أساطين الإسلام[2]، فهو تنزيهٌ فيه معنى التَّعَجُّب؛ لأنَّ هذه الآيةَ سيقت توبيخًا للمشركين في جنايتهم، ونقضهم ميثاقهم، في جريهم على خلاف ما يعاهدون اللّه عليه، وذلك أنَّه تعالى ذكر ما أنعم عليهم من الخلق من نفسٍ واحدة، وجَعَلَ أزواجَهم من أنفسهم ليأنسوا بهنَّ، ثُمَّ إنشاءَه إيَّاهم بعد الغشيان، متدرِّجين في أطوار الخلق من العدم إلى الوجود، ومن الضَّعف إلى القوَّة، ثُمَّ بَيَّن إعطاءهم المواثيقَ إن آتاهم ما يطلبون، ووُلِدَ لهم ما يشتهون، ليكونوا من الشَّاكرين، ثُمَّ أخبر عن غَدْرِهِمْ وكُفرانِهم هذه النِّعم التي امتَنَّ سُبحانه بها عليهم، ونقضِهم ميثاقَهم في إفرادِه بالشُّكر، حيث أشركوا معه غيره في ذلك[3]، فَتَنَزَّهَ سبحانه، وتَقَدَّس عن شرك هؤلاءِ الأغبياءِ الجاحدين الذين يُقابلون نِعَمَ اللّهِ بالإشراك والكفران[4].

معنى الفاءِ في قوله: ﴿فَتَعَٰلَى﴾:

إنشاءُ التَّنزيهِ تَرَتُّبًا عمَّا أحدثوه من الشِّركِ بعد شهودهم قدرته وآثار نعمته

موقعُ فاء التَّفريع في قوله: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ﴾ موقعٌ بديعٌ؛ لأنَّ التَّنزيهَ عمَّا أحدثوهُ منَ الشِّرك يَتَرَتَّب على ما قبلَه من انفراده بالخَلقِ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 212/9.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 130/5.
(3) القاسمي، محاسن التأويل: 235/5.
(4) طنطاوي، التَّفسير الوسيط للقرآن الكريم: 453/5.

العجيبِ، والمِنَنِ العظيمة، فهو مُتعالٍ عن إشراكهم لا يليق به ذلك، وليس له شريكٌ بحقٍّ، وهو إنشاءُ تنزيهٍ غيرُ مقصود به مُخاطَبٌ[1].

والفاءُ لترتيبه على ما فُصِّلَ من قدرته سبحانه وآثارِ نعمته الزاجرة عن الشِّرك الدَّاعية إلى التَّوحيد[2].

دلالةُ قولهِ: ﴿فَتَعَٰلَى﴾:

بيانُ تَقَدُّسِ اللهِ عن شِرْكِهِمْ كُلِّهِ ما ذُكِرَ هُنا وما لم يُذْكَر

تعالى: فعلٌ ماضٍ، أي: سَمَا وتَقَدَّس وارتفع الله سبحانه عن شركهم، وتعاظمَ وتنزَّه أن يكونَ له شريك[3]، فهو أعلى وأجلُّ عَمّا يُشْرِكُونَ؛ فلمَّا لم يَضُرَّ المشركون بالإشراك إلا أنفسَهم، سبَّب عن ذلك قولُهُ: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ﴾ أي: بما له من صفاتِ الكمالِ التي ليست لغيرِه تعاليًا كثيرًا[4] عن إشراكهم كُلِّه: ما ذُكِرَ منه آنفًا من إشراكِ الوالدَين مع اللهِ فيما آتاهما، وما لم يُذْكَر مِن أصناف إشراكِهم[5].

دلالةُ عَودِ ضميرِ الجمع في ﴿يُشْرِكُونَ﴾:

بيانُ عَوْدِ الضَّميرِ على كُلِّ المشركين على تَنَوُّعِ شِرْكهم

والضَّميرُ في ﴿يُشْرِكُونَ﴾ يعود على أولئك الآباء الذين جعلوا لله شركاء، هذا، والمحقِّقون من العلماء يرون أنَّ هاتين الآيتين قد سيقتا توبيخًا للمشركين حيثُ إنَّ اللهَ تعالى أنعم عليهم بخلقهم من نفسٍ واحدة، وجعل أزواجَهم من أنفسِهم ليأنسوا بهنَّ، وأعطاهم الذُّرِّيَّة، وأخذ عليهم العهودَ بشكرِه على هذه النِّعم، ولكنَّهم جَحَدُوا نِعَمَهُ، وأشركوا معه في العبادة والشُّكر آلهةً أخرى[6].

فضميرُ الجمع في قوله: ﴿يُشْرِكُونَ﴾ عائدٌ إلى المشركين الموجودين؛ لأنَّ الجملةَ كالنَّتيجة لما سبقها من دليل خَلْقِ الله

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 214/9.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 130/5.
(3) الزحيلي، التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج: 201/9.
(4) البقاعي، نظم الدُّرر: 191/8.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 214/9.
(6) طنطاوي، التَّفسير الوسيط للقرآن الكريم: 453/5.

إيَّاهم[1]، ولو أراد آدم وحواء - كما قاله بعضهم - لقال ﷻ: (فتعالى اللّه عمَّا يُشركان) على التَّثنية لا على الجمع[2].

دلالةُ تغليب جمع المذَّكَّرِ على المؤَنَّثِ في قوله: ﴿يُشۡرِكُونَ﴾:

الإيذانُ بعظم شِركِهم وفَظاعَتِهِ

في قوله: ﴿يُشۡرِكُونَ﴾ جيء بصيغة جمع المُذَكَّرِ، وتغليبُها على المؤنَّث إيذانًا بِعِظم شِرْكِهم[3]، ولا شَكَّ أنَّ مُخاطبة الرِّجال والنِّساء بصيغة واحدة تَعمُّهمَا جميعًا هو الأبلغ والأفصح، وقد اتَّفق العرب الذين نَزَلَ القرآن بلسانهم - على مُخاطبة الرِّجال والنِّساء مُجتمعين بصيغة المذكَّر لا المؤنث[4]؛ لِخِفَّة المذكَّرِ عندهم على المُؤَنَّثِ، وتَقَدُّمِهِ عليه في لسانهم.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الخَلقُ والجعْلُ:

الجعْلُ في اللُّغة: التَّهيئةُ والصَّنْع، وتصيير الشَّيءِ مِن حالةٍ إلى حالة[5]، والخَلق تقديرُ الأشياء، وإيجادها على مثالٍ لم يُسبق إليه[6]، وقد ورد كِلا اللَّفظين في القرآن الكريم بمعانٍ مُتقاربة، ولعلَّ الفارق الدَّلالي في الاستخدام القرآنيِّ للفعلين (جَعَلَ - خَلَقَ) يتَّضِحُ بجلاء تامٍّ في قول اللّه تعالى: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَۖ﴾ [الأنعام: 1] فعبَّر عن السَّماوات والأرض بلفظ (خَلَقَ)؛ لأنَّ السَّماوات والأرض أجرامٌ تحتاج إلى التَّقدير والإيجاد ابتداءً.

وعبَّر عن الظُّلمات والنُّور بلفظ (جَعَلَ)؛ لأنَّ الظُّلماتِ والنُّورَ مخلوقاتٌ من شيء آخرَ، إذ هُما تبعٌ للسَّماوات والأرض، فناسب

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 214/9.
(2) الخازن، لباب التأويل في معاني التنزيل: 281/2، والبقاعي، نظم الدُّرر: 191/8.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 130/5.
(4) الشنقيطي، أضواء البيان: 637/6.
(5) ابن منظور، لسان العرب: (جعل)، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ: 328/1، والمناوي، التوقيف على مهمات التعاريف، ص: 127.
(6) الزمخشري، الكشاف: 3/2.

ذلك التَّعبيرُ بالفعل (جَعَلَ) الدَّالِّ على التَّهيئة وإنشاء شيءٍ من شيء سابقٍ، يقول الزَّمخشريُّ: "والفرق بين الخَلْقِ والجَعْل أنَّ الخَلْقَ فيه معنى التَّقدير، وفي الجَعْلِ معنى التَّضمين، كإنشاء شيء من شيءٍ، أي: تصيير شيء شيئًا، أو نقله من مكان إلى مكان"، ونَخْلص ممَّا سَبَقَ إلى أنَّ الاستخدام القرآنيَّ لِكَلِمَتَيْ (جَعَلَ - خَلَقَ) يُظهِر اشتراكهما في معنى: إحداث الشَّيءِ، والملمحُ الدَّلالي المُمَيِّز لكلمة (خَلَقَ) هو: التَّقدير والأوَّليَّة، في حين أنَّ الملمح الدَّلاليَّ المميِّزَ لكلمة (جَعَلَ) هو: التَّضمين والتَّهيئة[1].

الشُّركاءُ والأندادُ:

الشَّريكُ أعمُّ من النِّدِّ، وفي النِّدِّ معنى المساواة والمماثلة

الشَّركةُ والمُشاركة: خَلْطُ المِلْكَيْن، وقيل: هو أن يُوجد شيء لاثنين، فصاعدًا، عينًا كان ذلك الشَّيء أو معنًى كمُشاركة[2]، وأَصْلُ (شرك) في اللُّغة: يَدُلُّ على مُقارَنةٍ وخِلافِ انفرادٍ، يقالُ: شَرِكَه في الأمرِ وأشرَكَه شَرِكًا وشَرِكةً؛ إذا صارَ له شَرِيكًا[3]، والشِّركُ: اعتِقادُ شَريكٍ للّهِ في ألوهيَّتِه، وهو الشِّرْكُ الأعظَمُ، وهو شِرْكُ الجاهِليَّةِ، ويليه في الرُّتبةِ اعتِقادُ شَريكٍ للّهِ تعالى في الفِعلِ، وهو قَولُ مَن قال: إنَّ موجودًا ما غيرَ اللّهِ تعالى يستَقِلُّ بإحداثِ فِعلٍ وإيجادِه، وإن لم يُعتَقَدْ كَونُه إلهًا[4].

أمَّا النِّدُّ؛ فهو العِدْلُ والمِثْلُ، يُقال: (لَسْتَ لَهُ بِنِدٍّ)، أي: لست له بمثل في شيء من معانيه ولا عدل، وكلُّ شيء كان نظيرَ الشيء وشبيهًا له؛ فهو له ندّ[5]، والنِّدُّ: خُصَّ بالمخالف المماثِل في الذَّات

(1) العسكري، الفروق، ص: 184.
(2) الرّاغب، المفردات، ص: 259، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ: 266/2.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: 265/3، والرّاغب، المفردات، ص: 451، وابن الأثير، النهاية: 466/2، والفيومي، المصباح المنير: (شرك).
(4) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 181/5.
(5) الأزهري، تهذيب اللغة: (ند)، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ: 155/4، وابن جرير، جامع البيان: 368/1.

والجوهر أَو القُوَّة، من ناددْتُ الرَّجل؛ إذا خالفتُه[1]، ويَدُلُّ على أنَّ معنى النِّد: العِدْلُ قولُه تعالى أوَّلَ سورة الأنعام: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ۝١﴾ [الأنعام: 1] أي: يسوُّون به تعالى غيره ممن لم يخلق سماءً ولا أرضًا، ولا جعل ظلماتٍ ولا نورًا، ويجعلونه له ندًّا وشبيهًا في العبادة والطَّاعةِ، والمحبة والذُّل، والخوف والرَّغبة والرَّهبة، فيحبُّونهم كما يحبُّ المؤمن الله، ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ﴾ [سورة البقرة: 165].

وليس يلزم في النِّدية المُماثلةُ من كلِّ وجه، والمناظرةُ في كلِّ صفة، بل يكفي فيها التَّشبيه ولو بوجه واحد، فإنَّك تقول: فلان نِدُّ فلان، إذا كان مماثلًا له في السِّنِّ فقط، وإن لم يجتمع معه في أيِّ صفة أخرى، من اللَّون والعقل والعلم والدِّين، وقد رُوِيَ عن ابن عبَّاس رضي الله عنهما قال: قال رجل للنَّبيِّ ﷺ: ما شاء الله وشِئْتَ، فقال: «جعلتني لله ندًّا؟ ما شاء الله وحده»[2].

والشِّرْكُ لا يتوقَّفُ على أن يعدِلَ الإنسانُ أحدًا بالله، ويُساويَ بينهما بلا فَرقٍ، بل إنَّ حقيقةَ الشِّرْكِ أن يأتيَ الإنسانُ بخِلالٍ وأعمالٍ خَصَّها اللهُ بذاته العَلِيَّة، وجعَلَها شِعارًا للعُبوديَّة، لأحَدٍ مِنَ النَّاس، كالسُّجودِ لأحَدٍ، والذَّبحِ باسمِه، والنَّذرِ له، والاستغاثةِ به في الشِّدَّة، واعتقادِ أنَّه حاضِرٌ ناظِرٌ في كُلِّ مكانٍ، وإثباتِ قُدرةِ التصَرُّفِ له، وكُلُّ ذلك يَثبُتُ به الشِّركُ، ويُصبِحُ الإنسانُ به مُشرِكًا، وإن كان يعتَقِدُ أنَّ هذا الإنسانَ أو المَلَكَ أو الجِنِّيَّ الذي يسجُدُ له، أو يذبَحُ أو يَنذِرُ له، أو يَستغيثُ به: أقَلُّ مِنَ اللهِ شأنًا، وأصغَرُ منه مكانًا، وأنَّ اللهَ هو الخالِقُ، وهذا عَبدُه وخَلْقُه، لا فَرْقَ في ذلك بين الأولياءِ والأنبياءِ، والجِنِّ والشَّياطينِ، والعفاريتِ والجِنِّيَّاتِ، فمن عامَلَها هذه المعاملةَ كان مُشرِكًا[3].

الإِيتَاءُ وَالإِعْطَاءُ:

لا يكاد أهل اللُّغة يفرِّقون بين الإيتاء والإعطاء، فهما بمعنى واحد عند كثيرٍ من أصحاب المُعْجَماتِ[4]، لكن نجد في الاستعمال القرآنيِّ بعض الفروق الدَّقيقة التي تُوحي ببلاغة

(1) الكفوي، الكليات، ص: 913، والرّاغب، المفردات: (ندد).

(2) رواه أحمد في المسند بأسانيد صحاح، عن ابن عباس، الحديث رقم: (1839) و(196)، والبخاري في الأدب المفرد، بَابُ قَوْلِ الرَّجُلِ: مَا شَاءَ اللَّهُ وَشِئْتَ، الحديث رقم: (783).

(3) الدهلوي، تقوية الإيمان، ص: 54.

(4) الخليل بن أحمد، العين: (أتى)، والجوهريّ، تاج اللّغة وصحاح العربيّة: (أتى).

القرآن وعظمته، وذلك من حيث إنَّ الإيتاء أقوى من الإعطاء في إثبات مفعوله؛ لأنَّ الإعطاءَ له فعل مطاوع، تقول: أعطاني فعطوت، ولا يقال في الإيتاء آتاني، فأتيت، وإنَّما يُقال: آتاني فأخذت، ويترتَّب على هذا أنَّ الإيتاء أقوَى مِنَ الإعطاء؛ لأنَّ المتقرِّرَ أنَّ ما له مطاوعٌ مِنَ الأفعال أضعفُ في إثبات مفعولهِ مِمَّا لا مطاوِعَ له[1].

الإيتاءُ أقوى مِنَ الإعطاءِ، ولا يُستعمل إلَّا لِلشَّيْءِ الكَثِير والعظيمِ الشَّأْنِ

فالإيتاء أقوى من الإعطاء، قال تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ مَن تَشَآءُ﴾ [آل عمران: 26] لأنَّ المُلك شيءٌ عظيم لا يُعطاه إلا مَن له قوَّةٌ، وكذا قوله: ﴿خُذُواْ مَآ ءَاتَيۡنَٰكُم بِقُوَّةٖ﴾ [الأعراف: 171] لعظم الكتاب وشأنه[2].

كما أنَّ الإيتاء يُستعمَلُ غالبًا فيما له ثباتٌ وقرارٌ، بخلاف الإعطاءِ فإنَّ الغالبَ استعمالُهُ فيما يُنْتَقَلُ مِنْهُ بعد قضاء الأَرَبِ منهُ، ومِنْ هذا البابِ عندَهُم قول الله تعالى: ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ١﴾ [الكوثر: 1]؛ لأنَّ فيه انتقالًا مِنْهُ إلى ما هو أعظَمُ مِنْهُ.

كما أنَّ في الإعطاءِ دليلًا على التَّمَلُّكِ بخلاف الإيتاء.

وأمَّا في خصوصِ الاستعمال القُرآنيِّ لِلَفْظَتَي (الإيتاء) و(الإعطاء)؛ فإنَّ بينَهُمَا فرقًا من جِهَتَيْنِ[3]: **إحداهما**: أنَّ الإيتاءَ لم يُستعمل إلَّا لِلشَّيْءِ الكَثِير والعظيم الشَّأْنِ، كالقرآنِ الكريم، والتَّوراةِ، والمُلْكِ، والرَّحمة، بخلاف الإعطاءِ؛ فإنَّهُ يُستعمَلُ لِلشَّيْءِ القليل، ولم يَرِد الإعطاءُ مرادًا به الشَّيءُ الكثيرُ إلَّا بقيدِ مَا يدلُّ على الكثرَةِ.

الأخرى: أنَّ الإيتاءَ إذا صدَرَ مِنَ العَبْدِ يكون عَنْ طِيبِ نفسٍ، بخلاف الإعطَاءِ؛ فَهُوَ مُطْلَقٌ.

(1) السُّيُوطِيُّ، الإتقان: 367/2.
(2) الكفوي، الكُلِّياتُ، ص: 212.
(3) محمّد محمَّد داود، معجم الفروق الدِّلاليَّة في القرآن الكريم، ص: 27 - 29.

﴿أَيُشۡرِكُونَ مَا لَا يَخۡلُقُ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ ١٩١ وَلَا يَسۡتَطِيعُونَ لَهُمۡ نَصۡرٗا وَلَآ أَنفُسَهُمۡ يَنصُرُونَ ١٩٢ وَإِن تَدۡعُوهُمۡ إِلَى ٱلۡهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمۡۚ سَوَآءٌ عَلَيۡكُمۡ أَدَعَوۡتُمُوهُمۡ أَمۡ أَنتُمۡ صَٰمِتُونَ ١٩٣﴾ [الأعراف: 191 - 193]

مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قَبْلَها:

بيانُ أدلَّةِ عَجْزِ الأصنام والأنداد بعد ذِكْرِ علوِّ الله وقوَّته

لمَّا ذَكَر اللّه تعالى عُلوَّهُ عن الشُّركاء، شرعَ يذكر من أوصافهِ عبارة ما يَدُلُّ على ذلك، ويُقيم الأدلَّةَ على عدم صلاحيَّة صَلاحِيَةِ ما أشركوا به للشّركة بِعَجْزِها، بأنَّها من جُملة خلقه ولا تَصَرُّف لها تستحقُّ به وجهًا من التَّعظيم[1]، فأثبتَ سبحانه أنَّه لا قُدرةَ لهذه الأصنامِ على أمْرٍ مِن الأمورِ، وبيَّنَ كذلك أنَّه لا عِلمَ لها بشيءٍ مِن الأشياءِ[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿سَوَآءٌ﴾: السِّينُ والواوُ والياءُ تَدُلُّ تصاريفُها على استقامة واعتدالٍ بين شيئين[3]، وَمِنْهُ قولُهم: مكانٌ، وسَوَاءٌ، أي: وسطٌ[4]، ومنه قولُه تعالى: ﴿سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ﴾ [البقرة: 6]، أي: يَسْتوي الأمرانِ المذكورانِ.

2) ﴿صَٰمِتُونَ﴾: من الصَّمْت، بمعنى السُّكوت "كأنَّه مُصْمتٌ مَتَماسِك الأثناء لا ينفذ ما فيه" أي: ساكتون، يُقال: صَمَتَ يَصْمُتُ صَمْتًا: إذا لم يتكلَّم[5]، وَأَخذه الصُّمات؛ إذا سكت فَلم يتَكَلَّم[6]،

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 192/8.
(2) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 431/15.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، س وي.
(4) الرّاغب، المفردات في غريب القرآن: (سوأ).
(5) السّمين الحلبيّ، عمدة الحفاظ: 352/2، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (صمت).
(6) ابن دريد، جمهرة اللغة: (صمت).

وأصل (صمت) يَدُلُّ عَلَى إِبْهَامٍ وَإِغْلَاقٍ[1]، والمعنى هنا: ساكتون عن دعائهم، فهم في كلا الحالين لا يؤمنون[2].

المَعْنى الإِجْماليُّ:

الأصنامُ لا تقدر على نفْعِ نفسِها فكيف تنفع غيرَها

هل يَصِحُّ أن يشركوا مع الله أصنامًا لا تَقْدِرُ أن تخلق شيئًا من الأشياء، وهم مَخْلوقون للّه؟

ولا تقدر هذه المعبودات نَصْرَ عابديها، ولا تقدر نَصْرَ أنفسِها، فكيف يعبدونها؟ وإن تدعوا - أيُّها المشركون - هذه الأصنام التي عبدتموها من دون الله إلى الهدى؛ لا تسمعْ دعاءكم، ولا تتَّبعْكم، يستوي دعاؤكم لها وسكوتكم عنها؛ لأنَّها لا تسمعُ، ولا تبصر، ولا تَهدِي، ولا تُهدى؛ لأنَّها مجرَّدُ جمادات، لا تعقل، ولا تسمع، ولا تنطق[3].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

الموقعُ البيانيُّ لهذه الآيات من الآيات السَّابقة:

توبيخُ المشركين وإقامةُ الحُجَّة عليهم بتفصيل أحوالهم مع مَعْبُوديهم

هذه الآياتُ الثَّلاثُ كَلامٌ مُعتَرِضٌ بَيْنَ الكلامين المَسوقَيْنِ لتَوبيخ المشركين وإقامة الحُجَّة عليهم، مُخاطَب بها النَّبيُّ ﷺ والمسلمون، للتَّعجيب من سخافة عقول المشركين[4]، وفيه تَعْرِيضٌ بالرَّدِّ عليهم؛ لأنَّه يَبْلُغُ مَسامِعَهم[5].

فقوله: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا﴾ استئنافٌ ابتدائيٌّ مَسوقٌ لتوبيخِ المُشركينَ، واستقباحِ إشراكِهم على الإطلاقِ، وإبطالِه بالكُليَّةِ[6]، ببيان شأنِ ما أشركوهُ بهِ سُبحانه وتفصيلِ أحوالِه

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (صمت).
(2) الخازن، لباب التأويل في معاني التنزيل: 282/2.
(3) نُخْبة من أساتذة التَّفسير، التفسير الميسر: 175/1، ومجموعة من المؤلفين، المنتخب في تفسير القرآن الكريم، ص: 238.
(4) المراغي، تفسيره: 141/9.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 215/9.
(6) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 305/3، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 215/9.

القاضيةِ ببطلان ما اعتقدوه في حقِّه[1]، دالًّا على أنَّ المُرادَ مما سبق الشِّرْكُ الحَقيقيُّ، وأنَّ ﴿أَيُشْرِكُونَ﴾ المشركون وأولادهما في العبادة[2]، ولم تُعطف على سابقتها أيضًا لاختلاف الخبر والإنشاء.

بلاغةُ الاستفهامِ ودلالتُه في ﴿أَيُشْرِكُونَ﴾:

تقريعُ المُشركين والتَّعجيب من سخافة عقولهم

الهمزةُ في قوله: ﴿أَيُشْرِكُونَ﴾ للاستفهام الإنكاري[3]، والاستفهامُ مُستعمَلٌ في التَّعجيبِ والإنكارِ والتَّقريع[4]، حيث صُدِّرت هذه الآية باستفهام يتضمَّن استثارةَ العجبِ من فعل المقْصودِ بِهِ المشركون الأوّلون الَّذين ضرب اللّه ﷻ مثالًا من أمثلة شِرْكِهم في الآية السَّابقة، فقد كان هؤلاء المشركون يجعلون للّه ﷻ شُركاءَ لا تخلق شيئًا، ولا تنفع، ولا تَضُرُّ.

فأنكر على المشركين تسويتَهم بين اللّه ﷻ وبَيْنَ هذه المخلوقات، أو المصنوعات التي يتَّخذونها أربابًا لهم، وكيف تُسَوِّغ لهم عقولهم أن يشركوا مع اللّه مخلوقًا[5].

وتَبَيَّنَ من هذا الاستفهام الإنكاري المُعَجِّبِ من حالهم في ضلالهم في أسلوب الغَيبة أنَّ من أشركوه ليس فيه نوعُ قابليَّة لما أَهَّلُوه، فإنَّ المعبودَ يجب أن يكون قادرًا، ومن كان عاجزًا نوعَ عجز كان مَرْبُوبًا[6].

فائدةُ التَّعبير بالمُضارع في ﴿أَيُشْرِكُونَ﴾:

الدَّلالةُ على تجدُّدِ هذا الإشراكِ منهم

صيغةُ المُضارِعِ في ﴿أَيُشْرِكُونَ﴾ دالَّةٌ على تجدُّدِ هذا الإشراكِ

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 305/3.
(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 192/8.
(3) درويش، إعراب القرآن الكريم وبيانه: 509/3.
(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 305/3، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 215/9، والقنوجي، فتح البيان: 633/2.
(5) عبد الكريم الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 539/5.
(6) البقاعي، نظم الدُّرر: 193/8.

منهم[1]، فهم دائبون على هذا الشِّرك في سائر أحوالهم وأوقاتهم، وفي المضارعيَّة أيضًا استحضارٌ لهذه الصورةِ القبيحةِ.

عودُ الضَّميرِ في ﴿أَيُشْرِكُونَ﴾:

شمولُ الخطابِ لكلِّ المُشركين في كلِّ زمانٍ ومكان

الضَّميرُ في ﴿أَيُشْرِكُونَ﴾ للزوجين المذكورين آنفًا ولمن اقتدى بهما إلى يوم الدِّين[2]، ولهذا حَسُنَ إيرادُ الجمع، لكن فيه تغليبُ الموجود على المعدوم، وأيضًا فيه ذكرُ بعض مَرْجِعِ الضَّمير صريحًا، وذكرُ بعضهِ حُكْمًا[3].

معنى (ما) في ﴿مَا لَا يَخْلُقُ﴾:

بيانُ عَجْزِ الشُّركاء ذاتًا وصفةً على الخَلق والإيجادِ

جاء التَّعبيرُ باسم الموصول (ما) الذي يُستعمل غالبًا فيما لا يُعلَم، ولا يُعقَل، للدَّلالة على أنَّه ليس من صفات الشُّركاء الذين اتَّخذوهم شركاء للّه أن تَخْلُقَ شيئًا، بمعنى: أن تُبْدِع شيئًا، أو تُوجِد شيئًا بخصائصها الذَّاتيَّة، أي: ليس لشركائهم صفاتٌ تستطيع أن تخلقَ حتَّى يصحَّ أن تكون شركاء للّه في ربوبيَّتهِ، وحتَّى يصحَّ أن تُتَّخذ آلهةً مع اللّه، تُعبد وتُدعى، ويُتقرَّب لها بالقرابين، فأخرج ذكرهم بـ (ما) لا بـ(مَنْ) مخرجَ الخبر عن غير بني آدمَ؛ لأنَّ الذي كانوا يعبدونه إنَّما كان حجرًا أو خَشَبًا أو نُحَاسًا، أو بعض الأشياء التي يخبر عنها بـ (ما) لا بـ(مَنْ)[4]، فضلًا عن معاني العموم التي تتأتَّى لـ(ما) أكثر ممَّا تتأتَّى لـ(مَنْ).

فائدةُ إرجاعِ الضَّمير إلى الشركاء بالإفراد:

رعايةُ اللَّفظ مع إفادة العموم

إرجاعُ الضَّمير إليها مفردًا لِرعاية لَفْظِهَا، ولَفظُها مفردٌ، وهو مِن صِيَغِ العُمومِ، كما أنَّ إرجاع ضمير الجمع إليها من قوله

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 305/3، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 215/9.
(2) البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل: 45/3.
(3) القونوي، حاشية القونوي على تفسير الإمام البيضاوي: 571/8.
(4) ابن جرير، جامع البيان في تفسير القرآن: 102/9.

ﷻ: ﴿وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ لرعاية معناها[1]، فأُفرِدَ الضَّميرُ في ﴿يَخْلُقُ﴾ مراعاةً لِلَّفظِ، ثمَّ جُمِعَ في يُخْلَقُونَ مُراعاةً للمَعنى[2].

سِرُّ التَّعبيرِ بجملة صِلَةِ الموصول ﴿لَا يَخْلُقُ﴾:

بيانُ بُطلان إلهيَّةِ المخلوقاتِ

قَولُ اللهِ تعالى: ﴿مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا﴾ احتُجَّ به على أنَّ العَبدَ غَيرُ مُوجِدٍ ولا خالقٍ لأفعالِه، خلافًا للمعتزلةِ القائلينَ بخلقِ الإنسانِ أفعالَ نفسِه؛ وذلك لأنَّ اللهَ تعالى أبطلَ إلهيَّةِ الأجسامِ؛ بسببِ أنَّها لا تخلقُ شَيئًا، وهذا يقتضي أنَّ كلَّ مَن كان خالقًا؛ كان إلهًا، فلو كان العبدُ خالقًا لأفعالِ نَفسِه؛ كان إلهًا، ولَمَّا كان ذلك باطلًا؛ عَلِمْنا أنَّ العبدَ غَيرُ خالقٍ لأفعالِ نَفسِه[3].

فائدةُ التَّعبيرِ بالمُضارعيَّة في ﴿يَخْلُقُ﴾:

تجدُّدُ نفي الخالقيَّة عنهم

نفيُ المضارعِ في قَولِه: ﴿مَا لَا يَخْلُقُ﴾ للدَّلالةِ على تجدُّدِ نفيِ الخالقيَّةِ عنهم[4].

وأَصْلُ معنى التَّجدُّد الذي يَدُلُّ عليه المسند الفعلي، هو حدوث معنى المُسْنَدِ للمسند إليه، وأنَّه ليس مجرَّدَ ثبوت وتَقَرُّرٍ، فَيُعلم منه: أنَّهم لا يخلقون في الاستقبال، وأنَّهم ما خلقوا شيئًا في الماضي؛ لأنَّه لو كان الخَلقُ صفةً ثابتة لهم؛ لكان مُتَقَرِّرًا في الماضي والحال والاستقبال[5].

نكتةُ تنكير ﴿شَيْئًا﴾:

بيانُ كمال عجزِ المعبودات الباطلة وشِدَّةِ ضَعفها

﴿شَيْئًا﴾ تنكيرها للتَّعميم، أي: ما لا يخلق شَيْئًا مِن الأشياء أصلًا مَهْمَا يكن قليلًا حقيرًا[6]، وفيه إبطالٌ لشركهم وبيان لشدَّة

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 133/5.
(2) الخازن، لباب التأويل في معاني التنزيل: 282/2، ومحمد رضا، تفسير المنار: 438/9.
(3) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 431/15، وسليمان آل الشيخ، التوضيح عن توحيد الخلاق، ص: 68.
(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 305/3، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 215/9.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 216/9.
(6) طنطاوي، التَّفسير الوسيط للقرآن الكريم: 455/5.

عجزِ معبوداتِهم الباطلة وضعفِها من أن يخلقوا شيئًا كبيرًا كان أو صغيرًا عظيمًا كان أوحقيرًا.

فمن حقِّ المعبودِ أن يكون خالقًا لعابدِه[1]، فما بالك إن عجز على خَلْقِ ما هو أهونُ من ذلك.

معنى الواو ودلالتُها في ﴿وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾:

بيانُ المعنى اللَّازم من كون المعبودات غيرَ خالقةٍ

قوله: ﴿وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ عطفٌ على ﴿لَا يَخْلُقُ﴾، فلمَّا كان يلزم أن يكونَ ما لا يخلق شيئًا مخلوقًا؛ لأنَّه لا يكون عاجزًا بغير قادرٍ أوجده؛ صرَّح به، وعطف عليه[2]، ومن الممكن جدًّا أن تكونَ الواوُ للحال على معنى: والحال أنَّهم يُخلقون.

نكتةُ بناء ﴿يُخْلَقُونَ﴾ لما لم يُسَمَّ فاعله:

الاستغناءُ عن ذكر الفاعل للعلم به

قوله تعالى: ﴿يُخْلَقُونَ﴾ لَمَّا كان المصنوعُ لا يكونُ صانعًا؛ اكتفى بالبناءِ للمَفعولِ[3]، فعدمُ التَّعرُّضِ لخالقها للإيذان بتَعَيُّنه والاستغناءِ عن ذكره للعلم به[4]، وللانشغال بالفعل عن الفاعل.

فائدةُ التَّعبير بالمضارع في ﴿يُخْلَقُونَ﴾:

بيانُ تجدُّدِ أعراضهم وذواتهم خَلْقًا من بعد خَلق

قوله تعالى: ﴿يُخْلَقُونَ﴾ أي: متجدِّدًا خَلْق أعراضِهم وذواتهم وأمثالهم[5]، فالتَّعبيرُ بالفعلِ المُضارعِ ﴿يُخْلَقُونَ﴾؛ لِتصويرِ حُدوثِ خَلْقِهم، وكونِ مِثلِه ممَّا يتجَدَّدُ فيهم وفي أمثالِهم مِن المُشركين، وهذا أسوأُ فضائِحِهم في الشِّركِ[6]، فمعبوداتُ المشركين من دون اللّه إن بقيت في الوجود، فإنَّها تُخْلَقُ خَلْقًا من بعد خَلْقٍ، فهذه الصيغة تدلُّ على التجدُّد المتكرِّر، ومعنى تجدُّد مخلوقيَّتهم: هو أنَّ

(1) إسماعيل حقي، روح البيان: 295/3.
(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 192/8.
(3) البقاعي نظم الدرر: 192/8.
(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 305/3.
(5) البقاعي، نظم الدُّرر: 192/8.
(6) محمد رضا، تفسير المنار: 438/9.

الضَّميرَ صادق بأمَّة وجماعة، فالمخلوقيَّة لا تُفارقهم؛ لأنَّها تتجدَّد آنًا فآنًا بازدياد المواليد، وتغيُّر أحوال المواجيد، كما قال تعالى: ﴿خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ﴾ [الزُّمر: 6][1].

دلالةُ الإشارةِ إلى الأصنامِ بضميرِ العُقَلاء في: ﴿وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾:

إجراءُ اللَّفظ على حسب اعتقادِهم وتَصَوُّرهم

قَولُ اللهِ تعالى: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ أشار إلى الأصنام في ﴿يُخْلَقُونَ﴾ بضميرِ العُقَلاءِ مِن قَبيلِ الحكايةِ؛ لاعتقادِ المُشركينَ فيها ما يعتَقِدونَه في العُقَلاءِ، لإجرائهم لها مجرى العقلاءِ وتسميتِهم لها آلهةً[2]، أو لأنَّهم مُختَلِطونَ بمَن عُبِدَ مِن العقلاءِ؛ كالمَسيحِ وعُزيرٍ[3]، ويمكن أن يكون لإجراء ضمائر العقلاء في قوله: ﴿وَهُمْ﴾ - وقوله - ﴿يُخْلَقُونَ﴾ وما بعده على الأصنام، وهي جماداتٌ؛ لأنَّهم نُزِّلوا منزلةَ العقلاءِ، بناء على اعتقاد المحجُوجين وتصوُّرهم فيهم[4]؛ لأنَّ الخبرَ عنها بتعظيم المشركين إيَّاها نظيرُ الخبر عن تعظيم النَّاس بعضَهم[5]، كما أنَّهم كانوا يصوِّرونها على صورة من يعقل[6].

بلاغةُ الاستعارةِ التَّهكميَّة في وصفِ المعبوداتِ الباطلة:

إظهارُ غاية جهلِ من يَعبدُ غير الله تعالى وإعلان سفاهة عقولهم

وصفُ هذه المعبودات الباطلة بالمخلوقيَّة بعد وصفِها بنفي الخالقيةِ لإبانة كمالِ منافاةِ حالِها لما اعتقدوه في حقِّها وإظهارِ غايةِ جهلِهم فإنَّ إشراكَ ما لا يقدِرُ على خلق شيء ما بخالقه وخالق جميع الأشياء ممَّا لا يمكن أن يسوِّغه من له عقلٌ[7]، ومثل هذا الوصف يُطلق من قبيل الاسْتِعَارَة التَّهكميَّة[8].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 216/9.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 133/5.
(3) ابن عادل، تفسير ابن عادل: 423/9، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 216/9.
(4) الخازن، لباب التأويل في معاني التنزيل: 282/2، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 216/9.
(5) ابن جرير، جامع البيان: 102/9.
(6) إسماعيل حقي، روح البيان: 295/3.
(7) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 305/3، وابن التمجيد، حاشيته على تفسير البيضاوي: 573/8.
(8) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 573/8.

عَوْدُ ضميرِ الغيبةِ في ﴿وَهُمْ﴾:

إثباتُ مخلوقيَّةِ الأصنامِ وعابديها

ضميرُ الغيبة في ﴿وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ يجوز: أن يكون عائدًا إلى ما عاد إليه ضمير ﴿يُشْرِكُونَ﴾ في الآية السَّابقة، أي: والمشركون يُخلقون، ومعنى الحال: زيادةُ تفظيع التَّعجيب من حالهم لإشراكهم بالله أصنافًا، لا تخلق شيئًا في حال أنَّ المُشركين يُخلَقون يومًا فيومًا، أي: يتجدَّد خلقُهم، والمشركون يُشاهدون الأصنامَ جاثمةً في بيوتها ومواضعها لا تصنع شيئًا، فتكون جملة: وهم يخلقون حالًا من ضمير يشركون.

والمفسِّرون أعادوا ضمير ﴿وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ على ﴿مَا لَا يَخْلُقُ﴾، أي: الأصنام، ولم يبيِّنوا معنى كون الأصنام مخلوقةً، وهي صورٌ نحتها النَّاس، وليست صورها مخلوقةً لله، فيتعيَّن أنَّ المُراد أنَّ مادَّتها مخلوقة، وهي الحجارة[1].

بلاغةُ العطف في قوله: ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا﴾:

بيانُ عجز الأوثان حتى عن نُصرة عابديها بعد إثبات عجزها عن الخَلْقِ

جملة: ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا﴾ عَطْفٌ على جملة: ﴿مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا﴾ فتكون صلة ثانية[2].

جاءت لإثبات عدم قُدرة هذه المعبودات الباطلةِ على نُصرة عابديها بعد إثبات عجزِها عن خَلقِهم.

دلالةُ تخصيصِ النَّصرِ من جُملة المطلوباتِ المرغوبات:

بيانُ أنَّ النَّصرَ أشدُّ مَرغوبٍ لهم، والتَّعريضُ بهزيمتهم من قِبَلِ المسلمين

الظَّاهرُ أنَّ تخصيصَ النَّصرِ من بين الأعمالِ التي يَتَخيَّلُون أن تقومَ بها الأصنامُ مقصودٌ منه تنبيهُ المشركين على انتفاء مقدرةِ الأصنام على نفعِهم؛ إذ كان النَّصرُ أشدَّ مرغوبٍ لهم؛ لأنَّ العربَ كانوا أهلَ غاراتٍ وقتال وترات، فالانتصار من أهم الأمور لديهم، وأنَّ الله أعلمَ المسلمين بذلك؛ تعريضًا بالبِشارة بأنَّ المشركين سيغلبون[3].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 216/9.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 217/9.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 217/9.

عودُ الضَّمائرِ في ﴿يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ﴾:

بيانُ كون الأصنامِ لا تستطيع نصرَ عابديها بحال من الأحوال

قوله: ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ﴾ ولا يستطيعون لعابديهم معونةً؛ إذا حَزَبَهم أمرٌ مُهِمٌّ وخَطْبٌ مُلِمٌّ، كما لا يستطيعون لأنفسهم نصرًا على من يعتدي عليهم بإهانةٍ لهم، أو أخذِ شيءٍ ممَّا عندهم من طيبٍ أو حُلِيٍّ، كما قال تعالى: ﴿وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ۝٧٣﴾ [الحج: 73][1].

فالضَّميرُ المجرور باللَّام في ﴿لَهُمْ﴾ عائدٌ إلى المشركين؛ لأنَّ المجرورَ باللَّام بعد فعل الاستطاعة ونحوه هو الذي لأجلِهِ يقع الفعلُ، مثل: ﴿لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا﴾ [العنكبوت: 17][2].

غرضُ التَّعبيرِ بالمضارعِ في ﴿يَسْتَطِيعُونَ﴾:

تجدُّدُ عَجْزِهِمْ عَنْ نُصْرَةِ معبوديهم حالًا ومآلًا

المضارعُ في ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ يَدُلُّ على تجدُّد نَفْيِ استطاعتِهم نصرةَ مَعبوديهم ودوامَ هذا العجزِ[3].

غرضُ تقديمِ شبهِ الجملةِ ﴿لَهُمْ﴾:

تقديمُ الأهمِّ في البيان لفتًا للانتباه

قولهُ: ﴿لَهُمْ نَصْرًا﴾ قدَّم المعمولَ، وهو الضَّمير في: ﴿لَهُمْ﴾ على عامله: ﴿نَصْرًا﴾، ودخلت عليه لامُ التَّقوية أو التَّعليل، والغرضُ البلاغيُّ من هذا التَّقديم تنبيهُ المشركين على أنَّ عبادتَهم لشركائهم لا تجلبُ لهم معونةَ النَّصر، إذ تقديمُ الأهمِّ في البيان من وسائل التَّنبيهِ عليه، ولفت النَّظر إليه.

نكتةُ تنكير ﴿نَصْرًا﴾:

عجزُها عن النُّصرة مهما كان مقدارُها وشأنُها

تنكيرُ ﴿نَصْرًا﴾ للتَّعميم أو للتَّقليل، أيْ: نصرًا ما، مهما كان مقدارُهُ بجلب منفعةٍ أو دفعِ مضرَّةٍ[4].

---

(1) المراغي، تفسير المراغي: 141/9.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 216/9.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 216/9.
(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 305/3.

دلالةُ الواو في ﴿وَلَآ أَنفُسَهُمۡ يَنصُرُونَ﴾:

لمَّا كان من لا ينصرُ غيرَهُ قد يَنْصُرُ نفسَه؛ نفى ذلك بقوله: ﴿وَلَآ أَنفُسَهُمۡ يَنصُرُونَ﴾ أي: في وقت من الأوقات عندما يصيبُهم بسوء، بل عَبَدَتُهم يدافعون عنهم[1]، فلمَّا كان لا يلزمُ من عدم القُدرةِ على نصرة الآخرين ألَّا يقدرَ على النُّصرَة لنفسه[2]؛ جيءَ بهذا العطفِ لنفي هذا أيضًا اهتمامًا بنفي هذا النَّصرِ عنهم من جميعِ الوجوه؛ لأنَّه أدلُّ على عجز تلك الآلهة؛ لأنَّ من يُقَصِّر في نصر غيرِه لا يقصِّرُ في نصرِ نفسِه لو قَدَرَ، فالمعنى: أنَّ الأصنامَ لا ينصرون من يعبدونهم إذا احتاجوا لنَصْرِهِمْ، ولا ينصرون أنفسَهم إن رام أحدٌ الاعتداءَ عليها[3]، ويمكن أن تكونَ واوًا للحال على معنى: والحال أنَّ أنفسهم لا يستطيعون نصْرَها.

نَفيُ نَصْرِ هذه المعبودات الباطلة لأنفسِها بعد نفي نُصرتها لغيرها إظهارًا لكمال عجزها

دلالةُ التَّعبيرِ عن الأصنام بصيغةِ العُقلاء:

قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَا يَسۡتَطِيعُونَ لَهُمۡ نَصۡرٗا وَلَآ أَنفُسَهُمۡ يَنصُرُونَ﴾ عبَّرَ بصيغةِ العاقِلِ عن الأصنام؛ إشارةً إلى أنَّهم لو كانوا يَعقِلونَ، وكانوا بهذه الصِّفاتِ الخَسيسةِ، ما أهَّلُوهم لِأنْ يكونوا أحبابَهم، فضلًا عن أن يجعَلوهم أربابَهم[4]، فتعبيرُه عنهم بصيغِ العاقل من قبيل الاستعارة التهكُّميَّة.

الإشارةُ إلى صفات الأصنام الخسيسةِ المانعة من عبادتها ولو كانت عاقلةً

معنى (لا) ودلالتُها:

في هذا النَّفي بيانٌ لشدَّة عجزِهم، فمن عَجِزَ عن نَصْرِ نفسِه؛ كان عن نصْرِ غيرِه أعجزَ.

نكتةُ تقديم المفعولِ به على الفعل:

وتقديمُ المَفعولِ في ﴿وَلَآ أَنفُسَهُمۡ يَنصُرُونَ﴾ للاهتمامِ بنَفيِ هذا

الاهتمامُ بنفي نصْرِ النَّفس المُفْضي لنفي نصْرِ الآخرين بطريقِ الأولى

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 193/8.
(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 273/2.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 389/8.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 192/8.

النَّصرِ عنهم؛ لأنَّه أدَلُّ على عجزِ تلك الآلهةِ؛ لأنَّ مَن يُقصِّرُ في نَصرِ غَيرِه لا يُقصِّرُ في نَصرِ نَفْسِه لو قَدَر[1].

نكتةُ التَّعبيرِ بالمضارعِ في ﴿يَنصُرُونَ﴾:

هذا بيانٌ لعجزهم عن إيصال منفعةٍ ما من المنافع الوجوديَّةِ والعدميَّةِ إلى عَبَدَتِهم وأنفسِهم على جهة الاستمرار بعد بيانِ عجزِهم عن إيصال منفعةِ الوجود إليهم وإلى أنفسِهم أيضًا[2].

بيانُ عجزِهم عن إيصال المنافع على جهةِ الدَّوام والاستمرارِ

دلالةُ وصْفِهم بالمخلوقيَّة في الآية السَّابقة ونفي المنصوريَّةِ هنا:

وُصفوا هناك بالمخلوقيَّة عند قوله: ﴿وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ لكونِهم أهلًا لها، وههنا لم يوصفوا بالمنصوريَّةِ عند قوله: ﴿وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ﴾؛ لأنَّهم ليسوا أهلًا لها[3].

بيانُ كونِهم مخلوقين لأهليَّتهم لذلك، وليسوا ناصرينَ لعدم أهليَّتهم

فائدةُ المجازِ المُرْسَلِ في التَّعبيرِ عن العجز والاحتياجِ بنفي الاستطاعةِ:

قولهُ: ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ مجازٌ مرسلٌ علاقته الملزوميَّة؛ لأنَّ المذكورَ هو الملزوم (عدم الاستطاعة)، وهو مستعملٌ في لازم معناه في تأكيد العجزِ والاحتياج المنافيَين لاستحقاق الألوهيَّة[4].

بيانُ كمالِ العجزِ وشِدَّةِ الاحتياج في التَّعبيرِ بنفي الاستطاعةِ

بلاغةُ العطفِ ودلالاتُهُ:

قولهُ تعالى: ﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ يجوزُ أن يكون عطفًا على جملة ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا﴾ زيادةً في التَّعجيب من حال المشركين بذكْرِ تَصميمهم على الشِّركِ على ما فيه من سخافةِ العقول ووهنِ الدَّليل، بعد ذكْرِ ما هو كافٍ لتزييفه[5]، ويجوز أن تكون جملة ﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ معطوفةً على جملة الصِّلةِ في قوله: ﴿لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾، فيكونُ ضميرُ الخطاب في

الزِّيادةُ في التَّعجيب مِن حال المشركين وتوجيهُ الخطاب إليهم لدمغِ حُجَّتِهم

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 217/9.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 305/3.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 305/3.
(4) الآلوسيّ، روح المعاني: 134/5.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 217/9.

﴿تَدۡعُوهُمۡ﴾ خطابًا للمشركين الذين كان الحديثُ عنهم بضمائر الغيبةِ من قوله: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ١٩٠﴾ [الأعراف: 190] إلى هنا، فمقتضى الظَّاهر أن يُقال: (وإن يدعوهم إلى الهدى لا يتَّبعوهم)، فيكون العدولُ عن طريق الغيبةِ إلى طريق الخطابِ التفاتًا من الغيبةِ إلى الخطاب توجُّهًا إليهم بالخطاب؛ لأنَّ الخطابَ أوقعُ في الدَّمغ بالحُجَّةِ[1].

بلاغةُ الالتفاتِ في قوله: ﴿وَإِن تَدۡعُوهُمۡ إِلَى ٱلۡهُدَىٰ﴾:

الإنباءُ عن مَزيدِ الاعتناءِ بأمرِ التَّوبيخِ والتَّبكيتِ

الظَّاهرُ أنَّ الخطابَ للكفَّار انتقل من الغَيبة إلى الخطاب على سبيل الالتفاتِ والتَّوبيخِ على عبادة غيرِ الله، ويدلُّ على أنَّ الخطابَ للكفار قولُه بعد ذلك: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمۡثَالُكُمۡۖ﴾، وضميرُ المفعول عائدٌ على ما عادت عليه هذه الضَّمائر قبلُ، وهو الأصنام، والمعنى: وإن تدعوا هذه الأصنامَ إلى ما هو هُدًى ورشادٌ أو إلى أن يهدوكم، كما تطلبون من الله الهدى والخير، لا يتَّبعوكم على مرادِكم ولا يجيبونكم، أي: ليست فيهم هذه القابليَّةُ؛ لأنَّها جمادٌ لا تعقل[2]، وفيه بيانٌ لعجزِهم عمَّا هو أدنى مِنَ النَّصرِ المنفيِّ عنهم وأيسرُ، وهو مجرَّدُ الدِّلالةِ على المطلوب والإرشادِ إلى طريق حصولِه من غير أن يحصِّلَه الطَّالبُ، فالخطابُ للمشركين بطريق الالتفاتِ المنبىءِ عن مزيد الاعتناءِ بأمرِ التَّوبيخِ والتَّبكيتِ، أي: إنْ تدعوهم - أيُّها المشركون - إلى أن يَهدوكم إلى ما تُحَصِّلونَ به المطالبَ، أو تنجون به عن المكاره[3].

وكان للتَّنبيه بالخطاب ما ليس له بالغَيبة مِنَ التَّعجيب تعجيبًا آخرَ منهم أشدَّ من الأوَّل، وذلك أنَّ معبوداتهم التي أشركوا بها،

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 218/9.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 248/5.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 305/3.

كما أنَّها لا تفعل شيئًا من تلقاء أنفسِها، لا تفعله عند دعاءِ الدَّاعي، ولا تهتدي إليه[1].

نكتةُ التَّعبيرِ بالجملة الشَّرطيَّة مع أنَّ دعوتهم محقَّقةٌ:

الإشارةُ إلى سفاهةِ عقول الدَّاعين وتيئيسهم من معبوداتِهم الباطلةِ

قولهُ تعالى: ﴿وَإِن تَدۡعُوهُمۡ﴾، أي: وإن تدعوهم إلى أن يهدوكم إلى ما تحصِّلون بهِ رغباتِكم، أو تنجون به من المكاره التي تَحيق بكم، لا يتَّبعوكم، فلا يستجيبوا لكم، ولاينفعوكم[2]، فهم في الحالين عديمو النَّفعِ[3]؛ ولأنَّ دعوتهم لهم محقَّقةٌ كان الجوابُ بعدم استجابة معبوديهم مُتَحَقِّقةً إشارةً إلى سفاهة عقول الدَّاعين، وتيئيسهم من إجابة المدعوِّين.

بيانُ التَّرقي في الحوار معهم لدحضِ حُجَجِهم

التَّرقِّي في الحوار على خمسِ مراحلَ: أوَّلًا: لا يَخلقون، ثانيًا: هم يُخلقون، ثالثًا: لا ينصرونكم، ورابعًا: ولا ينصرون أنفسَهم، ثم تأتي المرحلةُ الخامسة في قوله الحقِّ:[4]﴿وَإِن تَدۡعُوهُمۡ إِلَى ٱلۡهُدَىٰ﴾.

دلالةُ التَّعبيرِ بالمضارعِ ﴿تَدۡعُوهُمۡ﴾:

﴿تَدۡعُوهُمۡ﴾، أي: وإن تدعوا - أيُّها المُشركون - أصنامكم دعاءً مُستمرًّا مُتجدِّدًا[5].

دلالةُ عودِ الضَّمائر في ﴿تَدۡعُوهُمۡ﴾:

بيانُ عَودِها على الأصنام مع صِحَّة عودها على عَبَدَتها مِن المشركين تنويعًا للمعاني

الضَّميرُ (هم) عائدٌ على الأصنامِ، وهو الأشهر في عباراتِ المفسِّرين، وقيل: عائدٌ على الكفَّار، فإن قلنا: هم الأصنامُ، فالمعنى: إن تدعوهم إلى ما هو هُدًى ليهدوكم إليه، ويدلُّوكم عليه، كما تطلبون مِنَ اللهِ الخيرَ والهُدى، لا يتَّبعونكم إلى ما تريدونَ منهم، وإن قلنا: هم المشركونَ، فالمعنى: وإن تدعو - أيُّها الرَّسول والمؤمنون

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 193/8، والقنوجي، فتح البيان في مقاصد القرآن: 634/2.
(2) المراغي، تفسير المراغي: 141/9.
(3) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 341/7، والزمخشري، الكشاف: 188/2، وهبة الزحيلي، التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج: 204/9.
(4) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 4521/8.
(5) البقاعي، نظم الدُّرر: 193/8.

- المشركين إلى الهدى لا يتَّبعوكم[1]، فضميرُ الخطابِ المرفوع في ﴿وَإِن تَدۡعُوهُمۡ﴾ على هذا التقديرِ موجَّهٌ إلى المسلمين مع الرَّسول ﷺ وضميرُ جمعِ الغائبِ المنصوب عائدٌ إلى المشركين، كما عادَ ضميرُ ﴿أَيُشۡرِكُونَ﴾ [الأعراف: 191][2].

معنى (ال) في ﴿ٱلۡهُدَىٰ﴾:

يحتمل أن تكونَ (الـ) عهديَّةً يُرادُ بها دعوةُ نبيِّهم، ويحتمل أن تكون جنسيَّةً استغراقيَّةً تدلُّ على عدم استجابتِهم للهدى كلِّهِ أيًّا كان جنسُه ومصدرهُ، والمقصودُ من ذِكره أنَّهم لا يستجيبون إذا دعوتموهم إلى ما فيهِ خيرُهم، فيُعلم أنَّهم لو دَعَوْهُم إلى غير ذلك؛ لكان عدمُ اتِّباعهم دعوتهم أولى[3].

عدمُ استجابتهم للخيرِ من جميع وجوهِهِ

معنى (لا) في ﴿لَا يَتَّبِعُوكُمۡۚ﴾:

(لا): نافية، وغايةٌ في نفي الخير عن هذه المعبودات من حيث إنَّ اتِّباع الهوى عند الدُّعاء مقدورٌ لعابديها غيرُ مقدور لها، فهي أوضعُ رُتْبَةً من عابديها[4].

بيانُ كونِ هذه المعبوداتِ الباطلة أوضعَ وأخسَّ من عابديها

بلاغةُ الاستعارةِ في ﴿يَتَّبِعُوكُمۡۚ﴾:

التَّعبيرُ بـ﴿لَا يَتَّبِعُوكُمۡۚ﴾ استعارةٌ تصريحيَّةٌ عن طاعتهم لكم، حيث شبَّه الطَّاعةَ بالاتِّباع بجامع الملازمة وعدم المفارقة، والمضارعُ فيها للتَّجدُّد الاستمراريِّ.

نفيُ الاتِّباعِ على سبيل التَّجدُّد والاستمرار

بلاغةُ توجيهِ القراءات المتواترةِ في ﴿يَتَّبِعُوكُمۡۚ﴾:

اختلفَ القرَّاء في: ﴿لَا يَتَّبِعُوكُمۡۚ﴾ هُنَا، وفي الشُّعراء ﴿يَتَّبِعُهُمُ ٱلۡغَاوُۥنَ﴾ [الشعراء: 224]، فقرأ نافعٌ بإسكان التَّاءِ وفتح الباءِ فيهما، وقرأ الباقُونَ بفتح التَّاءِ مُشَدَّدَةً وكَسْرِ الباءِ فِي المَوْضِعَيْنِ[5].

المبالغةُ في نفي الاقتداءِ بهم، فلا يتصوَّر منها قصدُ التَّبعِ فضلًا عن إيجادِهِ ونفي اقتفاءِ آثارِهم

(1) الرسعني، رموز الكنوز في تفسير الكتاب العزيز: 340/2.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 217/9.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 218/9.
(4) الجرجانيّ، درج الدُّرر: 717/1، ودرويش، إعراب القرآن الكريم وبيانه: 511/3.
(5) ابن الجزري، النشر في القراءات العشر: 274/2.

فـ﴿لَا يَتَّبِعُوكُمۡۚ﴾ بالتَّشديد من اتَّبع، ومعناهُ: لا يقتدوا بكم في ذلك الهُدى الذي دعوتموهم إليه، ولو بالغْتُم في الاستتباع، جاء بصيغة الافتعال إشارةً إلى أنَّهُ لا يُتصوَّر منهُ قصدُ التَّبع فضلًا عن إيجاده[1].

و﴿لَا يَتۡبَعُوكُمۡۖ﴾ بالتَّخفيف من (تَبِعَ)، ومعناه: لا يَتَّبَعُوا آثاركم[2]، فَتَبِعَهُ: اقتفى أثره، واتَّبَعه: اقتدى به[3].

الموقعُ البيانيُّ لجملة ﴿سَوَآءٌ عَلَيۡكُمۡ﴾:

استئنافٌ مقرِّرٌ ومؤكِّدٌ لمضمونِ ما قبلَه، ومُبيِّنٌ لكيفيَّة عدمِ الاتِّباع، أي: مستوٍ عليكم في عدم الإفادةِ دُعَاؤُكم لهم وسكوتُكم البحتُ، فإنَّه لا يتغيَّر حالُكم في الحالين، كما لا يتغيَّر حالُهم بحكم الجَماديَّة[4]، فكيف يُعْبَدُ من هذه حاله[5]؟ فجملة: ﴿سَوَآءٌ عَلَيۡكُمۡ أَدَعَوۡتُمُوهُمۡ﴾ مُؤَكِّدَةٌ لجملةِ ﴿وَإِن تَدۡعُوهُمۡ إِلَى ٱلۡهُدَىٰ﴾، ولذلك فُصِلت[6].

معنى ﴿سَوَآءٌ﴾ وسِرُّ الاستئنافِ به:

بيانُ عدمِ تغيُّرِ الحُكمِ بِتَغيُّرِ الأحوال

(سواء) اسمٌ للشَّيء المساوي غيرَه، أي: ليس أولى منه في المعنى المسوقِ له الكلامُ، والهمزة التي بعد سواءٍ، يقال لها: همزةُ التَّسويةِ، وأصلُها همزة الاستفهام، استُعمِلت في التَّسوية، كما في قوله تعالى: ﴿سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ﴾ [سورة البقرة: 6][7]، والمعنى: أي: مستوٍ عليكم في عدم الإفادةِ دعاؤكم لهم وسكوتُكم، فإنَّه لا يتغيَّر حالكم في الحالين، كما لا يتغيَّر حالهُم بحكم الجماديَّة[8].

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 193/8.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 248/5، والهرري، تفسير حدائق الروح والريحان: 287/10.
(3) السّمين الحلبيّ، الدّر المصون: 383/3.
(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 305/3.
(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 248/5.
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 218/9.
(7) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 218/9.
(8) الآلوسيّ، روح المعاني: 134/5، وطنطاوي، التَّفسير الوسيط للقرآن الكريم: 456/5.

نكتةُ تعديةِ ﴿سَوَآءٌ﴾ بـ(على):

تيئيسُ المخاطَبين مِن استجابةِ المدعوِّين

(على) في ﴿عَلَيۡكُمۡ﴾ للاستعلاءِ المجازي، وهي بمعنى العنديَّةِ، أي: سواءٌ عندَهم، وإنَّما جُعِل الأمران سواءً على المخاطَبين، ولم يُجعلا سواءً على المدعوِّين، فلم يقل: سواءٌ عليهم، وإن كان ذلك أيضًا سواءً عليهم؛ لأنَّ المقصودَ مِنَ الكلام هو تأييسُ المُخاطَبين مِن استجابة المدعوِّين إلى ما يدعونهم إليه لا الإخبارُ.

توجيهُ المتشابه اللَّفظي في ﴿سَوَآءٌ عَلَيۡكُمۡ﴾:

تعيُّن جَعْلِ التَّسوية لمن يتأتَّى له الخِطابُ، ويُنتظَر منه الجوابُ

قولهُ: ﴿سَوَآءٌ عَلَيۡكُمۡ﴾ تَسْوِيَة لِلحالَين، وإن كان المعنيان متلازمَين في المُخاطَبين والمَدْعُوِّين، كما أنَّهما في قوله: ﴿سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ﴾ [البقرة: 6] متلازمان، فإنَّ الإنذارَ وعدمَه سواءٌ على المشركين، وعلى المؤمنين، ولكنَّ الغرضَ في سورة البقرة بيانُ انعدام انتفاعهم بالهدى، وهذا هو القانونُ للتَّفرقة بَيْنَ ما يَصِحُّ أن يُسنَدَ فيه فعلُ التَّسويةِ إلى جانبَين، وبين ما يَتَعَيَّنُ أن يُسندَ فيه إلى جانبٍ واحدٍ، إذا كانت التَّسويةُ لا تهمُّ إلا جانبًا واحدًا، كما في قوله تعالى: ﴿ٱصۡلَوۡهَا فَٱصۡبِرُوٓاْ أَوۡ لَا تَصۡبِرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡكُمۡۖ﴾ [الطُّور: 16]، فإنَّه يتعيَّن أن تُجعلَ التَّسويةُ بالنِّسبة للمخاطَبين، ولا يَحسُنُ أن يُقالَ: سواءٌ علينا، وكقوله: ﴿سَوَآءٌ عَلَيۡنَآ أَجَزِعۡنَآ أَمۡ صَبَرۡنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٖ ٢١﴾ [إبراهيم: 21] فإنَّه يتعيَّن أن تكونَ التَّسويةُ بالنِّسبةِ إلى المُتكلِّمين[1].

غرضُ الاستفهامِ في ﴿أَدَعَوۡتُمُوهُمۡ﴾:

الإشارةُ إلى تشوُّفِ السَّامع إلى ما بعدَ التَّسويةِ

لَمَّا كان السَّواءُ لا يكونُ إلَّا بين أمرين؛ تَشَوَّفَ السَّامعُ إليهما، فقال: ﴿أَدَعَوۡتُمُوهُمۡ﴾، أي: وجَدَ منكم ذلك الدُّعاءَ[2].

بلاغةُ العدولِ من الفعليَّة إلى الاسميَّة:

في: ﴿أَدَعَوۡتُمُوهُمۡ أَمۡ أَنتُمۡ صَٰمِتُونَ﴾ جملةٌ اسميَّةٌ في معنى الفعليَّةِ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 218/9.
(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 194/8.

المبالغةُ في عدم إفادةِ الدُّعاء من حيثُ إنَّه مسوًّى بالثَّباتِ على الصَّمات

معطوفةٌ على الفعليَّةِ ﴿أَدَعَوْتُمُوهُمْ﴾؛ لأنَّها في قوَّة أمْ صَمَتُّم، فعُدِل عنها للمبالغةِ في عدم إفادةِ الدُّعاء ببيان مساواتِه للسُّكوت الدَّائمِ المستمرِّ[1]، فيُفيدُ بأنَّهم صامتون دائمًا على الدُّعاءِ إليهم[2].

وكان الظَّاهرُ الإتيانَ بالفعل فيما بعد ﴿أَمْ﴾؛ لأنَّ ما في حيز همزة التَّسوية مؤوَّلٌ بالمصدر، لكنَّه عدلَ عن ذلك للإيذانِ بأنَّ إحداثَ الدَّعوةِ مُقابلٌ باستمرار الصُّمَاتِ، وفيه من المبالغة ما لا يخفى، وقيل: إنَّ الاسميَّة بمعنى الفعليَّةِ، وإنَّما عدل عنها؛ لأنَّها رأس فاصلة، وفيه أنَّه لو قيل: تصمتون؛ تَمَّ المُرادُ[3].

وإنَّما لم يقل: أم صمتم؛ للمبالغة في عدم إفادة الدُّعاء من حيثُ إنَّه مسوًّى بالثَّبات على الصُّمات، أو لأنَّهم ما كانوا يدعونها لحوائجِهم، فكأنَّه قيل: سواءٌ عليكم إحداثُكم دعاءَهم واستمرارُكم[4].

بلاغةُ عطفِ الجُملةِ الاسميَّة على الفعليَّةِ:

الإشارةُ إلى أنَّهم لا يدعونهم في وقتِ الشَّدائد

عَطْفُ الجُملةِ الاسميَّةِ ﴿أَمْ أَنتُمْ صَٰمِتُونَ﴾ على الفعليَّةِ ﴿أَدَعَوْتُمُوهُمْ﴾ لفائدةٍ وحِكمةٍ، وهي أنَّ صيغةَ الفعلِ مُشعِرةٌ بالتَّجَدُّدِ والحُدوثِ حالًا بعد حالٍ، وصيغةُ الاسم مُشعِرةٌ بالدَّوامِ والثَّباتِ والاستمرارِ، فهؤلاءِ المُشركونَ كانوا إذا وقَعوا في مُهِمٍّ وفي معضلةٍ؛ تضرَّعوا إلى تلك الأصنام، وإذا لم تَحدُثْ تلك الواقعةُ بَقُوا ساكِتينَ صامِتينَ، فقِيل لهم: لا فرقَ بينَ إحداثِكم دعاءَهم، وبينَ أن تستمرُّوا على صَمتِكم وسُكوتِكم[5].

فعُطِفَ بالاسميَّة إشارةً إلى أنَّهم لا يدعونهم في وقت الشَّدائد، بل يدعون اللّه، فقال: ﴿أَمْ أَنتُمْ صَٰمِتُونَ﴾، أي: عن ذلك على

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 305/3.
(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 273/2.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 134/5، وطنطاوي، التَّفسير الوسيط للقرآن الكريم: 456/5.
(4) الخفاجي، حاشية الشهاب: 420/4، وشيخ زاده، حاشيته على تفسير البيضاوي: 346/4.
(5) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 431/15.

الدَّوام على عادتِكم في الإعراضِ عن دعائِهم في أوقاتِ الملِمَّات، فالذين يدعون مُعتقديهم في وقتِ الضَّرورات أقبحُ حالًا في ذلك من المشركين[1].

بلاغةُ تخريجِ الكلامِ على الاحتباكِ بين دلالةِ الفعل والاسم:

دلالةُ الفعلِ الأوَّلِ على حذْفِ مثلِهِ بعد ذلك، ودلالةُ الاسم الثَّاني على حذْفِ مثلِهِ الأوَّلِ

ويجوزُ أن تكونَ الآيةُ من الاحتباك، فيكون نظمُها: أدعوتموهم مرَّةً، أو أنتم داعوهم دائمًا، أم صَمَتُّمْ عن دعائِهم في وقتٍ ما، أم أنتم صامتون دائمًا عن دعائِهم، حالُكم في كلِّ هذه الأجوبة سواءٌ في عدم الإجابةِ، لا اختلافَ فيه بوجهٍ، فدلَّ بالفعل أوَّلًا على حذْفِ مِثْلِه ثانيًا، وبالاسم ثانيًا على حذْفِ مثلِه أولًا[2].

بلاغةُ البديعِ مِن خلالِ المقابلاتِ في الآياتِ:

بيانُ التَّرقِّي في الحوارِ معهم دحضٌ لحُجَجِهم وإبطالٌ لشِرْكِهم

في هذه المتقابلات: ﴿لَا يَخْلُقُ﴾ و﴿يُخْلَقُونَ﴾ و﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ﴾ و﴿تَدْعُوهُمْ﴾ ﴿لَا يَتَّبِعُوكُمْۚ﴾ و﴿أَدَعَوْتُمُوهُمْ﴾ ﴿أَنتُمْ صَٰمِتُونَ﴾ نجدُ التَّرقِّي بذكرها في الحوار على خمسِ مراحلَ: أوَّلًا: لا يَخلقون، ثانيًا: هم يُخلقون، ثالثًا: لا يستطيعون لهم نصرًا، ورابعًا: ولا ينصرون أنفسَهم، ثُمَّ تأتي المرحلةُ الخامسةُ في قوله الحقِّ:[3]﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ﴾ ﴿لَا يَتَّبِعُوكُمْۚ﴾ في حالين: حال الدَّعوة وحال الصَّمت، فأحدثت هذه التقابلاتُ ترقِّيًا بديعًا في نقض ألوهيَّة أصنامِهم وإبطالِ عبادتِها، فالقضيَّةُ الأولى أنَّها لا تخلُق، والثَّانية أن تكون مخلوقةً بالضَّرورة؛ لأنَّها لا تخلقُ، وإذا كانت مخلوقةً؛ فهي عاجزةٌ، ومن الجائز على العاجِز أنَّه لا يقدرُ أن ينتصرَ لغيرِه؛ لأنَّه ضعيفٌ، ثُمَّ إنَّها أعجزُ من ذلك، فهي لا تنتصرُ لنفسِها، ومع ذلك إن أردت أن تدعوها إلى شيءٍ؛ فلا تُقْبِل،

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 194/8، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 219/9.
(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 194/8.
(3) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 4521/8.

ولا تَستجيب لك حالَ دعوتِكَ، وحال صَمْتِكِ، فهي مخلوقاتٌ عاجزةٌ صمَّاءُ بكماءُ أعجزُ من عابديها، وأخسُّ صِفَةً من مُعظِّميها.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الصَّمتُ والسُّكوتُ:

السُّكوتُ تركُ الكلام مع القدرة عليه والصَّمتُ أعمُّ

السُّكوتُ: هو تركُ التَّكلُّم مع القدرة عليه[1]، وبهذا القيدِ الأخير يُفارق الصَّمتَ؛ فإنَّ القُدْرَةَ على التَّكلُّم غيرُ مُعتبرةٍ فيه، كما أنَّ الصَّمتَ يُراعى فيه الطُّولُ النِّسبي، فمن ضمَّ شفتيه آنًا يكون ساكتًا، ولا يكون صامتًا إلَّا إذا طالت مُدَّةُ الضَّمِّ، كما أنَّ السُّكوتَ إمساكٌ عن الكلام حقًّا؛ كان أو باطلًا، أمَّا الصَّمتُ؛ فهو إمساكٌ عن قولِ الباطلِ دون الحقِّ.

ولذا يكون الصَّمتُ أبلغَ من السُّكوت؛ لأنَّه قد يُستعمل فيما لا قوَّة له للنُّطق، وفيما له قوَّةُ النُّطقِ؛ ولهذا قيل لما لا نطق له: الصَّامتُ والمُصمَت، والسُّكوت يقال لما له نُطْقٌ، فيُترَك استعمالُه[2].

(1) الجرجاني، التعريفات، ص: 120، والكفوي، الكليات، ص: 509.

(2) الزبيدي، تاج العروس: (سكت)، والهروي، مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح: 3038/7.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمۡثَالُكُمۡۖ فَٱدۡعُوهُمۡ فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ١٩٤﴾ [الأعراف: 194]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

تأكيدُ ما سبقَ مِـن الـبـيـان وتعليلُ ما ذكَرَ من عجزِ الأوثان

هذه الجملةُ ورَدَت على سبيلِ التَّوكيدِ لِما قَبلَها في انتفاءِ كَونِ هذه الأصنام قادرةً على شيءٍ مِن نَفعٍ أو ضَرٍّ[1]، وأيضًا ورَدَت بيانًا وتعليلًا لِجُملةِ ﴿وَإِن تَدۡعُوهُمۡ إِلَى ٱلۡهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمۡۚ﴾، أي: لأنَّهم عبادٌ مخلوقونَ[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تَدۡعُونَ﴾: مِنَ الدُّعاءِ بمعنى العبادةِ[3]، وأصلُ الدُّعاءِ أَنْ تُمِيلَ الشَّيءَ إليك بصوتٍ وكلام يكون منك، تقول: دَعوْتُ أدعو دُعاءً[4]، ومعنى (دُعاؤهم إيَّاها): عبادتُهم لها، وتسميتُهم الأصنامَ آلهةً[5].

2) ﴿عِبَادٌ﴾: جمع عبدٍ، والعينُ والباءُ والدَّالُ تدورُ أكثرُ تصاريفِها على لِينٍ وَذُلٍّ[6]، ومِنْهُ قولُهم: طريقٌ مُعَبَّدٌ، أي: مُذَلَّلٌ مِن كثرةِ وطءِ الأقدامِ عَلَيْهِ، قال طَرَفَةُ:

تُبَارِي عِتَاقًا نَاجِيَاتٍ وَأَتْبَعَتْ *** وَظِيفًا وَظِيفًا فَوْقَ مَوْرٍ مُعَبَّدِ[7]

والمعنى هُنا: مُذلَّلون ومُسخَّرون لا يستطيعون دفْعَ شيءٍ عن أنفسِهم[8].

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 249/5.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 220/9 - 221.
(3) الأزهري، تهذيب اللغة: (دعا).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: 279/2.
(5) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 342/7، والنيسابوري، إيجاز البيان عن معاني القرآن: 352/1.
(6) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (عبد).
(7) مهدي محمد ناصر الدِّين، شرح ديوان طرفة، ص: 20.
(8) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 4524/8.

❁ المَعْنى الإجْمالِيُّ:

الأوثانُ مخلوقاتٌ مُسَخَّرَةٌ مملوكةٌ كحال عابديها من المخلوقاتِ في الذُّلِّ والضَّعْفِ

إنَّ الذين تعبدونهم - أيُّها المشركون - من دون اللّهِ هم مخلوقون للّهِ، مملوكون خاضعون له، كما أنَّكم مملوكون لربِّكم، فإن كنتم كما تزعمون صادقين في أنَّها تستحقُّ من العبادة شيئًا، فادعوهم، فليستجيبوا لكم، فإنِ استجابوا لكم، وحصَّلوا مطلوبَكم، وإلَّا تبيَّن أنَّكم كاذبون مُفترون على اللّهِ أعظمَ الفرية[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

الموقعُ البيانيُّ لهذه الآية من الآيات السَّابقة:

استئنافُ مُخاطَبةِ المشركين بتحقير شأن أصنامهم

قولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمۡثَالُكُمۡۖ﴾ استئنافٌ ابتدائيٌّ، انتقل به إلى مُخاطبةِ المُشرِكينَ في تحقير شأن أصنامِهم عندهم، أي: إنَّ هذه الأصنامَ مخلوقةٌ مُحدثة، إذ هي أجسامٌ وأجرام، فهي متعبَّدةٌ، أي: مُتَمَلَّكة[2]، ولذلك صُدِّرَ بِحَرفِ التَّوكيدِ؛ لأنَّ المُشرِكينَ يُنكِرونَ مساواةَ الأصنامِ إيَّاهم في العبوديَّة[3]، فكرَّر بهذا الاستئنافِ تبكيتَهم باتِّباعِهم في أسلوبٍ آخرَ أوضحَ ممَّا قبلَهُ في تبيين النَّقائصِ والتَّنبيهِ على المعايب مُلْجِىءٍ إلى الاعتراف أو التَّصريح بالعناد أو الجنون، فقال مؤكِّدًا: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ﴾، أي: - أيُّها المشركون - دعاءَ عبادةٍ ملازمِين لذلك[4].

بلاغةُ تتابعِ المؤكِّدات في الآية:

التَّوكيدُ على انتفاءِ كَوْنِ الأصنامِ قادرةً على شيءٍ من نفعٍ أو ضُرٍّ

هذه الجملةُ على سبيلِ التَّوكيد لِمَا قبلَها في انتفاء كون هذه الأصنامِ قادرةً على شيءٍ من نفعٍ أو ضُرٍّ[5]، ولهذا صدِّرت بأمِّ أدوات التَّوكيد

(1) مجموعة من المؤلفين، التفسير الميسّر: 175/1، ومجموعة من المؤلفين، المنتخب في تفسير القرآن الكريم، ص: 239.

(2) ابن عطية الأندلسي، المحرَّر الوجيز: 488/2، وأبو منصور الثعالبي، الجواهر الحسان: 105/3.

(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 220/9 - 221.

(4) البقاعي، نظم الدُّرر: 194/8.

(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 249/5.

﴿إِنَّ﴾، ثمَّ بالجملة الاسميَّة، وبالموصول الاسميِّ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ الواقع اسمًا لها، والذي احتاجَ إلى جملةِ صلةِ الموصولِ، والتي فيها ضميرٌ يعود عليه، وبذلك يكون قد تكرَّرَ ذكرُه مرَّتَيْن، وإنَّما ساغَ ذلك كُلُّه؛ لأنَّهم لمَّا اعتقدوا ألوهيَّتها؛ لَزِمَهُم كونُها حيَّةً عاقلة، وإنَّ كانت في الواقع خلاف ذلك، ولكن وردت الألفاظُ على مُقتضى اعتقادِهم[1].

فائدةُ التَّعريفِ بالاسم الموصولِ وموقع صِلَتِهِ:

تنبيهُ المُخاطَبين على خطئِهم في دعاء الأَصْنامِ من دون الله

المُراد بـ﴿ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾: الأصنامُ، فتعريفُها بالموصول لذمِّها ولتَنبيه المُخاطَبِين على خطأِ رأيهم في دعائِهم إيَّاها من دون اللّهِ، في حين هي ليست أهلًا لذلك، فهذا الموصولُ كالموصولِ في قول الشَّاعر:

إنَّ الذين تَرَوْنَهُمْ إخوانَكُمْ *** يَشْفِي غَلِيلَ صُدُورِهِمْ أَنْ تُصْرَعُوا[2]

نكتةُ إطلاقِ الدُّعاء على العبادة:

التَّنبيهُ على عِظَمِ شأن الدُّعاء، والإشارةُ إلى عدم صِحَّةِ عبادة من لا يَصِحُّ أن يُدعى

الدُّعاءُ هو النِّداء لدفع الضُّرِّ وجلب النَّفع الذي يُوَجَّه إلى من يعتقدُ الدَّاعي أنَّ له سُلطانًا يمكِّنه أن يجيبَهُ إلى ما طلبه، إمَّا بذاتهِ وإما بحملهِ الرَّبَّ الخالقَ على ذلك[3].

والدُّعاءُ هو العبادة[4]، ورُكنها الأعظم، فلا يَصِحُّ توحيدُ أحدٍ للّه إلَّا بدعائهِ وحدَهُ، وعَدَمِ دعاءِ أحدٍ معه، كما قال تعالى: ﴿فَلَا تَدۡعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدٗا ١٨﴾ [الجنّ: 18]، والمفسِّرون يقولون: إنَّ الدُّعاءَ في

(1) درويش، إعراب القرآن الكريم وبيانه: 512/3.

(2) البَيْت لعبدة بن الطَّبِيب من قصيدة من الكَامِل يعظ فِيهَا بنيه ويوصيهم بِمَا هُوَ المرضي شرعًا، يُنظر: أبو الفتح العباسي، معاهد التنصيص على شواهد التلخيص: 100/1، وابن عاشور، التّحرير والتنوير: 220/9.

(3) المراغي، تفسير المراغي: 143/9.

(4) أخرج أبو داود والترمذي من حديث النعمان ابن بشير أن النبي ﷺ قال: «الدعاء هو العبادة»، ثمَّ قرأ ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ٦٠﴾ [غافر: 60]. يُنظر: الترمذي، سنن الترمذي، أبواب تفسير القرآن، باب تفسير سورة البقرة، الحديث رقم: (2969)، وأبو داود، سنن أبي داود، أبواب فضائل القرآن، باب الدعاء، الحديث رقم: (1479).

مثلِ هذه الآياتِ معناهُ العبادة، من باب تسمية الكُلِّ باسم الجُزْءِ، فصاروا يُفسِّرون ﴿تَدْعُونَ﴾ تعبُدون[1]، قال تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ۝٦٠﴾ [غافر: 60] فسمَّى الدُّعاءَ عبادةً تنبيهًا على عِظَمِ شأنِه، وإشَارَةً إلى أنَّه لا تَصِحُّ عبادةُ من ليس فيه قابليَّةٌ أن يُدعى، والحاصل أنَّ الدُّعاء يُلازم المعبودَ[2]، فالدُّعاء بمعنى العِبادة تسميةٌ لها بجزئها[3].

معنى (من) في قوله: ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾:

بيانُ سفولِ رُتبتِهم ونزولِ مرتبتِهم من أن يكونوا أهلًا للدُّعاء

﴿مِن﴾ ابتدائيَّةٌ، فلمَّا كان دعاؤهم لهم، إنَّما هو على سبيل الإشراك؛ قال مُشيرًا إلى سفول رُتْبَتِهم بإثبات الجارِّ: ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾[4].

معنى (دون) وإضافتها إلى اسم الجلالة:

بيانُ حقارةِ هذهِ الأصنامِ من أنْ تُسَوَّى باللهِ العظيم

(دون): نقيضُ فوق، وهو ظرفٌ يَدُلُّ على التَّقصيرِ عن الغاية[5]، وصفُوا بِهِ مَا لَيْسَ برفيعٍ[6]، فَقَالُوا: رجلٌ دونٌ، وثوبٌ دُونٌ، وهَذَا دُونك فِي التَّحْقيرِ، ويقالُ: دُونُك زَيْدٌ في المنْزِلَةِ والقُرْبِ[7]، فهذه الأصنامُ أخسُّ منزلةً، وأحقرُ قدرًا من أن تُدعى، أو تُسوَّى باللّه العظيم الذي له صفاتُ الكمالِ والعظمة والجلال[8].

بلاغةُ المجازِ في وصف معبوداتِهم الباطلةِ بالعباد:

بيانُ كونِها مملوكةً مُسخَّرةً مذلَّلةً لا مالكة

أُطْلِقَ على هذه المعبودات الباطلة عبادًا من حيثُ إنَّها مَملوكةٌ

(1) محمد رضا، تفسير المنار: 440/9.
(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 195/8.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 134/5.
(4) البقاعي، نظم الدُّرر: 195/8.
(5) الجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب: (دون).
(6) ابن سيده، المخصص: 234/4.
(7) الزبيدي، تاج العروس: (دون).
(8) البقاعي، نظم الدُّرر: 195/8.

مُسَخَّرة[1]، والعبدُ أصله المملوك، ضِدُّ الحُرِّ، كما في قوله تعالى: ﴿ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ﴾ [البقرة: 178]، وقد أُطْلِقَ في اللِّسان على المخلوق، كما في قوله تعالى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾﴾ [مريم: 93][2].

فمن حيثُ إنَّها مَملوكةٌ مُسخَّرة، أُطلق عليها لفظُ العباد، فهذا بيانٌ جامعٌ في اسْتِعَارَةِ لفظ العبد للصَّنم حيث شبَّه الصَّنَمَ بالعبد المملوكِ المسخَّرِ للمولى، فاسْتُعيرَ لفظُ المُشبَّهِ بجامع المملوكيَّةِ والمُسَخَّريَّةِ[3].

ويحتمل أن تكون استعارةُ لفظ العبد على سبيل التَّهكُّم[4]، قال صاحب الكَشَّاف: "قوله: ﴿عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ﴾ استهزاءٌ بهم، أي: قُصارى أمرِهم أن يكونوا أحياءً عُقلاءَ، فإنْ ثَبَتَ ذلك؛ فهم عبادٌ أمثالكم لا تَفَاضُلَ بينكم، ثمَّ أبطلَ أن يكونوا عبادًا أمثالَهم، فقال: ﴿أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ﴾ [الأعراف: 195]"[5].

والأظهرُ أن يكونَ إطلاقُ العبادِ عليهم مجازًا بعلاقة الإطلاقِ عن التَّقييد روعي في حسنهِ المشاكَلَةُ التَّقديريَّةُ؛ لأنَّه لما ماثلَهم بالمُخاطَبين في المخلوقيَّةِ، وكان المخاطَبون عبادَ اللهِ أطلقَ العبادَ على مماثليهم مشاكلةً[6]، فهو مجازٌ مرسلٌ بعلاقة الإطلاق والتَّقييد؛ لأَنَّ العبادَ خَلْقٌ يعقلون، فجُرِّد عن وصف العقلِ - وهو قيده الأصلي - وأُطلِقَ على مُطْلَقِ المخلوق.

سِرُّ وصف الأصنام بضمائر العُقلاء:

بيانُ تنزيلِهم لها منزلةَ العُقلاءِ وصفًا واعتقادًا، والتَّهكُّم بهم في ذلك

قد يسأل سائلٌ كيف يحسنُ وصفُها بأنَّها عبادٌ مع أنَّها جمادات؟ وجوابُه من وجوهٍ: الأوَّل: أنَّ المشركين لمَّا ادَّعوا أنَّها تَضُرُّ وتنفعُ، وجبَ

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل: 46/3.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 221/9.
(3) ابن التمجيد، حاشيته على البيضاوي: 575/8.
(4) ابن التمجيد، حاشيته على البيضاوي: 575/8.
(5) الزمخشري، الكشاف: 189/2.
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 221/9.

أن يعتقدوا فيها كونها عاقلةً فاهمة، فلا جرم وَردت هذه الألفاظُ على وفقِ معتقداتِهم، ولذلك قال: ﴿فَٱدۡعُوهُمۡ فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لَكُمۡ﴾، ولم يقل: فادعوهم؛ فليستجبْنَ لكم، وقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ﴾، ولم يقل: التي، فعبَّرَ عنها بضمائرِ العُقَلاءِ؛ لأنَّ الكُفَّارَ يَصِفونَها بصفاتِ مَن هو خيرٌ مِن مُطلَقِ العُقَلاءِ، وأنَّها مَعبوداتٌ، وأنَّها تشفَعُ، وتُقرِّبُ إلى اللهِ زُلفَى، فبهذا الاعتبارِ أجرى عليها ضمائرَ العُقَلاءِ[1].

الثَّاني: أنَّ هذا اللَّغوَ أُورِدَ في معرضِ الاستهزاءِ بهم، أي: قُصارى أمرهم أن يكونوا أحياء عُقلاء، فإن ثبت ذلك؛ فهم عبادٌ أمثالكم، ولا فضل لهم عليكم، فلِمَ جعلتم أنفسَكم عبيدًا، وجعلتموها آلهة وأربابًا؟[2].

ويحتمل أنَّهم لمَّا نحتوها بصور الأناسيِّ، ولمَّا كان يُطلقُ العبدُ على النَّاس، والمشهورُ أنَّه لا يُطلَق إلا على المخلوقاتِ من الآدميِّين، فيكون إطلاقُ العباد على الأصنام كإطلاق ضَمِير جمع العقلاء عليها بناءً على الشَّائع في استعمال العرب يومئذٍ من الإطلاق[3].

نُكْتَةُ النَّكرةِ بقوله: ﴿عِبَادٌ أَمۡثَالُكُمۡۖ﴾:

بيانُ وجهِ المماثلةِ في التَّسخيرِ والمملوكيَّةِ دون الحيوانيَّةِ مبالغةٌ في نفي استحقاقِها للعبادة

تنكيرُ ﴿عِبَادٌ﴾ لتقليل شأن هذه المعبوداتِ وذمِّها، ووصفَها بأنَّها ﴿أَمۡثَالُكُمۡۖ﴾، أي: إنَّها مملوكةٌ أمثالكم، وقيل: أمثالكم في التَّسخير، أي: إنَّهم مسخَّرون مذلَّلون لما أريد منهم[4]، فوجهُ الشَّبه المُماثلةُ بينكم من جهةِ كونِهَا مملوكةً له تَعَالَى، ومسخَّرةً لا من جهةِ الحيوانيّة فضلًا عن الإنْسَانيَّة[5]، فهم أمثالُكم في العجزِ عن كلِّ شيءٍ لا سيَّما عمَّا وقعَ بهِ التَّحدِّي من معارضةِ القرآن وغيرِها، وأنتم تزيدون عليها بالحياةِ والعقل، والمعبودُ لا يَصِحُّ أن يكون مثل

(1) الشنقيطي، العذب النمير: 425/4.
(2) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 431/15.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 221/9، والبيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل: 46/3.
(4) البغوي، تفسير البغوي: 259/2.
(5) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 575/8.

العابدِ، فكيف إذا كان دونه[1]؛ ولمَّا كانوا لا يُسَلِّمونَ أنَّهم أمثالهم، فلا يَسْتَحِقُّون عبادتَكم، كما لا يَسْتَحِقُّ بعضُكم عبادةَ بعضٍ[2].

وهذه المماثلةُ إنَّما تظهرُ فيمن يُدْعَى من دونِ اللّهِ تعالى مِنَ الملائكةِ أو الأنبياءِ أو الصُّلحاء، دونَ ما اتُّخِذَ لهم تذكيرًا بهم من التَّماثيل أو القبور أو الأصنام، وقد صار بعضُ هذه المذكِّرات يُقصَد لذاته، جهلًا بما كانت اتُّخِذَتْ لأَجلِه، وفي هذه الحالة تدخل في المماثلةِ بطريقةِ تنزيلها منزلةَ ما وُضِعَتْ لأجله، كأنَّه يقول: إنَّ قُصارى أمرِها أن تكونَ مِنَ الأحياء العُقلاءِ أمثالِكم، فكيف ترفعونَها عن هذهِ المثليَّةِ إلى مقام الرُّبوبيَّة[3]؟

معنى الفاءِ في ﴿فَٱدۡعُوهُمۡ﴾ ودلالتُها:

الفاء فصيحةٌ، أي: إذا صحَّ ذلك، وهو لم يَصِحَّ إلَّا في اعتقادهم وعُرفهم، فادعوهم[4]، في رفْعِ ما يصيبكم من ضَرٍّ، أو في جلب ما أنتم في حاجةٍ إليه من نفْعٍ[5]، وهذه الفاءُ تُشْبِهُ عمل الفاء الواقعة في جواب الشَّرط؛ لأنَّ نظْمَ الجملةِ مشعرٌ بالشرطيَّةِ، والتَّقديرُ: إن كانوا آلهةً؛ فادعوهم، وفرَّع على المماثلة أَمْرَ التَّعجيزِ بقوله: ﴿فَٱدۡعُوهُمۡ﴾ باعتبار ما تفرَّع عليه من قوله: ﴿فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ﴾ لكم المُضَمَّنِ إجابَةَ الأصنام إيَّاهم؛ لأنَّ نفسَ الدُّعاء مُمكنٌ، ولكنَّ استجابتَهُ لهم ليست ممكنةً، فإذا دَعَوْهُم، فلم يستجيبوا لهم؛ تَبَيَّنَ عجْزُ الآلهةِ عن الاستجابةِ لهم[6]، فسبَّبَ عن ذلك أمرهم بدعائِهم لبيان دعوى المثليَّة بل الدُّونيَّة، فقال: ﴿فَٱدۡعُوهُمۡ﴾ أي: إلى شيءٍ منَ الأشياء[7].

التَّسبيبُ عن اعتقادِهم في الأصنام أمرهم بدعائهم لبيان دعوى المثليَّةِ بل الدُّونيَّة

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 195/8.
(2) البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل: 46/3.
(3) محمد رضا، تفسير المنار: 527/9.
(4) درويش، عراب القرآن الكريم وبيانه: 512/3.
(5) طنطاوي، التَّفسير الوسيط للقرآن الكريم: 456/5.
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 221/9.
(7) البقاعي، نظم الدُّرر: 195/8.

دلالةُ الأمر في ﴿فَٱدۡعُوهُمۡ﴾:

تحقيقُ مضمونِ التَّبكيت والتَّعجيز

﴿فَٱدۡعُوهُمۡ﴾ أمرُ تحدٍّ خاطبَ اللّهُ ﷻ به المشركين للتَّعجيز والتبكيت، فإنَّ الدُّعاء وإن كان ممكنًا في نفسِه، لكن مع استجابتِهم محالٌ[1]، فهو أمرٌ لتحقيق مَضمونِ ما قَبلَه بتَعجيزِهم وتَبكيتِهم[2].

فإنَّ شركاءكم لن يستجيبوا لدعائِكم مهما دعوتموهم، إذ هم غير مُمكَّنين من ذلك ولو رغبوا فيه.

أمَّا الأوثانُ والأصنام؛ فأمرُها ظاهر؛ لأنَّها قِطَعٌ جوامدُ مِن عناصرِ الأرض، وأمَّا المرموزُ إليهم بالأوثان والأصنام، فإنْ كانوا من شياطين الجنِّ، فَإِنَّ اللّه مانعُهم بالقهر عن أن يكون لهم سلطان، إلَّا على منِ اتَّبعهم من الغاوين، فلا يزيدون عابديهم إلَّا توريطًا في الشَّرِّ ورهقًا في العمل، ولا ينفعونهم في نصْرٍ، ولا تأييد ضدَّ المؤمنين، ولا يغيِّرون فيهم من قضاء اللّه شيئًا، ولا يجلبون لهم نفعًا، ولا يدفعون عنهم ضرًّا.

وإن كانوا ملائكةً، فإنَّهم يمقتون عابديهم، ولا يعصون اللّهَ ما أمرهم، ويفعلون ما يؤمرون من ربِّهم، وإن كانوا موتى؛ فقد انقطعت كلُّ أعمالهم، والصَّالحون منهم يتبرَّؤون من عابديهم يوم الدِّين.

معنى الفاءِ في ﴿فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ﴾:

تخلُّف الاستجابةِ من المعبودات الباطلةِ وسرعتها من الإله الحقِّ

قولهُ: ﴿فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ﴾ الفاءُ عاطفةٌ[3]، ولمَّا كان الإلهُ الحقُّ يجيب وليَّه عند التَّحدي من غير تخلُّف، أشار إلى ذلك بالرَّبط بالفاء، فقال: ﴿فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لَكُمۡ﴾، أي: يُوجِدُوا لكم إجابةً بيِّنةً في الإتيان بسورة تماثلُ شيئًا من القرآن أو في أيِّ شيءٍ مِنَ المنافع[4]، فإنِ

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 575/8.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 306/3، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 222/9.
(3) درويش، إعراب القرآن الكريم وبيانه: 512/3.
(4) البقاعي، نظم الدُّرر: 195/8.

استجابوا لكم، وحصَّلوا مطلوبَكم، وإلا تَبَيَّنَ أنَّكم كاذبون في هذه الدَّعوى، مُفترون على الله أعظمَ الفرية[1].

دلالةُ الأمر في: ﴿فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ﴾:

التَّحدي والتَّعجيزُ للأصنام وداعيها

الأمرُ في قوله: ﴿فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ﴾ أمرُ تعجيز للأصنام، وهو أمرُ الغائب، فإنَّ طريق أمر الغائب هو الأمر، ومعنى توجيهِ أمر الغائب السَّامعِ: أنَّه مأمورٌ بأن يبلِّغ الأمرَ للغائب، وهذا أيضًا كنايةٌ عن عَجْزِ الأصنام عن الاستجابة لعجزها عن تلقِّي التَّبليغ من عَبَدَتِها[2].

فهؤلاءِ الذين يعبدهم المشركون من دونِ اللهِ جمادًا كانوا أم شياطين أم ملائكة، هم خَلقٌ مثلهم، مخلوقون للهِ، لا يملكون لأنفسِهم نفعًا ولا ضرًّا، فكيف يكون منهم لغيرِهم نفعٌ أو ضرٌّ؟ وها هو ذا الواقعُ يكشف عن هذه الحقيقة، ويقرُّرها؛ فليدع المشركون آلهتهم التي يعبدونها من دون اللهِ، ثم لينظروا ماذا يبلغ هذا الدُّعاء منهم؟ هل يسمعون؟ وإذا سمعوا، هل يعقلون؟ وإذا عقلوا، هل يقدرون على تحقيق المطلوب منهم؟ وكيف وهم لا يستطيعون لأنفسِهم جلْبَ خيرٍ، أو دفْعَ ضرٍّ؟[3] فصيغة ﴿فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ﴾ صيغة الأمر، ومعناه التَّعجيزُ[4].

معنى اللَّام في ﴿فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ﴾:

تأكيدُ كمالِ التَّحدِّي والتَّعجيز

اللَّام في ﴿فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ﴾ لامُ الأمر[5]، على معنى التَّعجيز ومَوضِعُها أنَّ رَبَّ العِزَّة يَطْلُبُ إليهم أن يأمروهم ليستجيبوا، أي: إنَّ الأمرَ بالاستجابة ليس من الله تعالى؛ لأنَّ الله تعالى لا يطلب الاستجابةَ ممَّن لا يجيبُ، بل الأمرُ يكون من غيره ممَّن يَعْبُدُها،

(1) السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، ص: 353.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 221/9.
(3) عبد الكريم الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 540/5.
(4) إسماعيل حقي، روح البيان: 295/3.
(5) درويش، إعراب القرآن الكريم وبيانه: 512/3.

وليكونَ التَّعجيز والتَّحدِّي كاملًا، وبهذا التَّخريجِ يكون طلبُ الاستجابةِ من المشركين لا مِنَ الله تعالى[1]، وإنَّما ورد هذا الأمرُ في معرض الاستهزاء بالمشركين[2].

معنى (إنْ) ودلالةُ التَّعبيرِ بالشَّرطيَّة والغرضُ منها:

ثبوتُ عجزِ المشركين عن إظهارِ دعاءٍ للأصنامِ تَعْقُبُه الاستجابة

لَمَّا كان المقامُ محتاجًا إلى مزيد توبيخ وإلهابٍ؛ قدَّم منه ما ذكر، ثم زاد في الإلهاب، فقال: ﴿إِن كُنتُمْ﴾، أي: جبلَّة وطبعًا[3]، فتَبَيَّن بكانَ واسمِها وخبرها وجوابِ الشَّرط عجزُ الآلهة عن الاستجابةِ لهم، وعَجْزُ المُشركينَ عن تحصيلها مع حرصهم على تحصيلها لإنهاضِ حُجَّتهم، فمآلُ ظهورِ عجز الأصنام عن الاستجابةِ لعبادها إلى إثباتِ عجزِ المشركين عن نهوض حجَّتهم لتلازم العجزين، قال تعالى: ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُواْ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُواْ مَا ٱسْتَجَابُواْ لَكُمْ﴾ [فاطر: 14]، وبهذا يظهرُ أن أمرَ التَّعجيزِ كنايةٌ عن ثبوتِ عَجزِ الأصنامِ عن إجابتِهم، وعجزِ المشركين عن إظهارِ دعاءٍ للأصنام تَعْقُبُهُ الاستجابة[4].

بلاغةُ حذفِ جوابِ الشَّرط:

انتهاءُ التَّحدِّي بالتَّعجيز والعجزِ في إثباتِ صِدقِهم في دعواهم

أي: إن كنتم صادقين في زعمِكم أنَّهم قادرون على ما تعجزون عنه بقواكم البشريَّةِ من نفعٍ أو ضرٍّ، وفي دعوى أنَّهم آلهةٌ، فإنَّ رتبةَ الإلهِ تقتضي ذلك[5]، فادعوهم، فليستجيبوا لكم إمَّا بأنفسِهم، وإمَّا بحملِهم الرَّبَّ ﷻ على إعطائكم[6]، وسياق القول يدلُّ على أنَّ الاستجابةَ غيرُ ممكنةٍ، ولذا كانوا غيرَ صادقين، وبذلك ينتهي التَّحدِّي بالتعجيز والعجز، فعجزوا أن يثبتوا صدقَهم[7].

---

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 431/15، ومحمد أبو زهرة، زهرة التفاسير: 3034/6.
(2) القنوجي، فتح البيان في مقاصد القرآن: 634/2.
(3) البقاعي، نظم الدُّرر: 195/8.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 221/9.
(5) البقاعي، نظم الدُّرر: 195/8.
(6) المراغي، تفسير المراغي: 143/9.
(7) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 3034/6.

﴿أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآۖ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآۖ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآۖ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَاۗ قُلِ ٱدْعُواْ شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ١٩٥﴾ [الأعراف: 195]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

بيانُ أنَّ الأصنامَ أَحَطُّ مَنْزِلَةً مِن عابديها وأحقر شأنًا من مُعظِّميها

لمَّا أثبت الله ﷻ عجزَ الأوثانِ، وأنَّهم أمثالُ عابديهم في الخَلق؛ دلَّ عليه وعلى أنَّهم دونهم في هذه الآية[1]، وتكون هذه الآيةُ تنزيلًا لهم عن مقامِ المُماثلةِ إلى ما دونها؛ إذ المشركون في الخلقِ والتَّكوين أكملُ وأعلى، فكيف يَعْبُدُ الأعلى من هو أدنى منه مقامًا، وأقربُ منه إلى الإكرام[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَبْطِشُونَ﴾: منَ البطشِ: تناوُلُ الشَّيءِ بِصَولةٍ، يُقال: يدٌ باطشةٌ، وأصلُه: أخذُ الشَّيءِ بقَهرٍ وغَلَبةٍ وقوَّةٍ[3]، والمعنى هنا: يعطونَ بها، ويمنعون عنكم الضُّرَّ.

2) ﴿كِيدُونِ﴾: مِنَ الكيدِ: ضَربٌ من الاحتيالِ، وقد يكون مذمومًا وممدوحًا، وإن كان يُستعمَل في المذموم أكثرَ، وأصلُ الكيد يَدُلُّ على مُعالجة لشيءٍ بِشدَّة[4]، والمعنى هنا: دَبِّروا لي، وأعلنوا الحرب.

3) ﴿تُنظِرُونِ﴾: من الإنظارِ، بمعنى الإمهالِ، أي: تُؤخِّرونِ، والنَّظَرُ: الانْتِظَارُ، يُقال: نَظَرتُه، وانتظَرتُه وأنْظَرتُه انتظارًا، أي: أخَّرْتُه[5].

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 196/8.
(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 3036/6.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: 262/1، والرّاغب، المفردات، ص: 129.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: 149/5.
(5) السجستاني، غريب القرآن، ص: 106، والرّاغب، المفردات، ص: 813، وابن الهائم، التبيان، ص: 231.

وأَصْلُ (نَظَرَ) يدلُّ على تأمُّلِ الشَّيْءِ ومعاينتِه، والنَّظِرَةُ: التَّأْخيرُ في الْأَمْرِ، ويُقالُ: نَظَرْتُهُ، أي: انْتَظَرْتُهُ[1]، والمعنى هُنا: فَلاَ تُمْهِلُونِي سَاعَةً، وَاعْجَلُوا فِي كيدي[2].

❁ المَعْنى الإِجْمالِيُّ:

هـذه الأصنـامُ أقلُّ من عابديها في الـخَـلـق والـتَّـكـويـن وعـاجـزةٌ عن الـتَّـصرُّفِ تمامَ العجز

ألهؤلاءِ الأصنام الذين اتَّخذتموهم آلهةً أرجلٌ يسعَوْن بها معكم في حوائجِكم؟ أم لهم أيدٍ يدفعون بها عنكم، وينصرونكم على من يريد بكم شرًّا ومكروهًا؟ أم لهم أعينٌ ينظرون بها، فيعرِّفونكم ما عاينوا وأبصروا ممَّا يغيب عنكم، فلا ترونه؟ أم لهم آذانٌ يسمعون بها، فيخبرونكم بما لم تسمعوه؟ فإن كانت معطَّلةً من ذلك كلِّه، فكيف تعبدونها رجاءَ جلْبِ نفعٍ أو دفْعِ ضرٍّ؟ قل - أيُّها الرسول ﷺ - لهؤلاء المشركين: نادوا من ساوَيْتموهم بالله، ثم احتالوا لِضرِّي ولا تمهلوني[3].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

نكتةُ فصلِ الآية عن سابقتها:

تقريعٌ مُوَجَّهٌ الى الوجدان في إثرِ احتجاجٍ وُجِّهَ قبلَه إلى الجَنان

كلامٌ مُستأنَفٌ بمنزلةِ التَّوبيخ لهم على عقولهم القاصرة[4]، وهو تبكيتٌ إثرَ كلامٍ مؤكَّدٍ لما يفيده الأمر التَّعجيزي من عدم الاستجابة ببيانِ فقدانِ آلاتها بالكليَّة، وقيل: إنَّه على الاحتمال في المُماثلة كرَّ على المثليَّة بالنَّقضِ؛ لأنَّهم أَدْوَنُ منهم، وعبادةُ الشَّخص من هو مثلُهُ لا تليق، فكيف بمن هو دونه[5]؟

(1) ابن دريد، جمهرة اللّغة (رظن)، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والزّبيديّ، تاج العروس، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (نظر)، وابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 99، وابن الهائم، التّبيان في تفسير غريب القرآن، ص: 117.

(2) الشوكاني، فتح القدير: 317/2.

(3) نُخبة من أساتذة التَّفسير، التفسير الميسّر: 175/1، ومجموعة من المؤلفين، المنتخب في تفسير القرآن الكريم، ص: 239.

(4) درويش، إعراب القرآن الكريم وبيانه: 513/3.

(5) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 306/3، والآلوسيّ، روح المعاني: 135/5.

فلمَّا أثبت عجزهم، وأنَّهم أمثالهم؛ دلَّ عليه وعلى أنَّهم دونهم بأسلوب إنكارٍ وتعجيب مُفَصِّلًا لبعض ما نفاهُ عنهم[1].

بلاغةُ الاستفهامِ وغرضُه:

الاستفهامُ في ﴿أَلَهُمْ﴾ وما بَعدَه إنكاريٌّ[2]، للتَّقريع والتَّوبيخ، أي: هؤلاء الذين جعلتموهم شركاءَ ليس لهم شيءٌ من الآلاتِ التي هي ثابتةٌ لكم، فَضْلًا عن أن يكونوا قادرين على ما تطلبونه منهم، فإنَّهم - كما ترون - هذه الأصنامُ التي تَعْكِفُون على عبادتها ليست لهم أرجل يمشون بها في نفْعِ أنفسهم، فضلًا عن أن يمشوا في نفْعِكم، وليس لهم أَيْدٍ يبطشون بها، كما يبطش غيرُهم مِنَ الأحياء، وليس لهم أعينٌ يُبصرونَ بها، كما تبصرون، وليس لهم آذانٌ يسمعون بها، كما تسمعون، فكيف تدعون من هم على هذه الصِّفة من سَلْبِ الأدواتِ وبهذه المنزلة من العجز[3].

التَّوبيخُ والتَّبكيتُ للدَّلالة على كون الأصنام أدونَ من عابديها

فالاستفهامُ فيه للإنكار، وهو خاصٌّ بالأصنام والأوثان، ومعناه: أنَّهم لفقدِهم لجوارح الكسب التي يُناط بها في عالم الأسبابِ النَّفع والضُّر، قد هبطوا عن درجة مُماثلتكم من كلِّ وجه، فأنتم تَفْضُلونَهُمْ في الصِّفات والقِوى التي أودعها اللّٰه في الخَلق، فلماذا ترفعونهم عن مُماثلتكم، وهم بدليل المشاهدةِ والاختبارِ دونكم؟ وها أنتم أولاءِ تستكبرونَ عَن قَبول الهُدى والرَّشاد منَ الرَّسول، وتُعَلِّلون ذلك بأنَّه بشرٌ مثلكم، فيقول بعضكم لبعض: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [المؤمنون: 33-34]، فتأبونَ قَبولَ الحقِّ والخير من مثلكم، وقد فضَّلَه اللّٰهُ بالعلم والهدى عليكم، وهو لا يستذلُّكم بادِّعاء أنَّهُ

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 196/8.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 222/9.
(3) القنوجي، فتح البيان في مقاصد القرآن: 635/2.

ربُّكم أو إلهكم، ثُمَّ ترفعون ما دونه ودونكم إلى مقام الألوهيَّةِ، مع انحطاطهِ وتَسَفُّلِهِ عن هذه المثليَّة[1]؟

فائدةُ تقديمِ المسند ﴿أَلَهُمْ﴾ على المسند إليه:

بيانُ انتفاءِ المُلك

تقديمُ المُسند على المُسْند إليه للاهتمام بانتفاء المُلك الذي دلَّت عليه اللام[2].

نكتةُ تنكيرِ الأرجلِ والأيد والأعين والآذان:

بيانُ تأتِّي الإنكارِ للأوصاف دون الحقيقةِ بأنَّها ليست بأرجلٍ على الحقيقة

﴿أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ﴾ وَصْفُ الأرجلِ بالمشي للإيذان بأنَّ المُنكر هو الوصفُ بناءً على أنَّ محطَّ الفائدة هو القيدُ في الإثبات والنَّفي والإنكار والتَّقرير ما لم يُوجَد صارفٌ عنه، ويُستفاد منه أنَّ أرجلَهم حيث لم يظهر منها ما يظهر من سائرِ الأرجلِ ليست بأرجلٍ في الحقيقة، وكذا الكلامُ في الجوارح الثَّلاثةِ الباقيةِ، بأن يُقالَ: أيمشون بأرجلِهم لتَحْقيقِ أنَّها ليست بأرجلٍ في الحقيقةِ للعلَّةِ المذكورة[3].

سِرُّ اختيارِ الجملة الاسميَّةِ دون الفعليَّة في ﴿أَرْجُلٌ يَمْشُونَ﴾:

بيانُ استمرارِ انتفاء هذه الأوصاف على سبيل الدَّوامِ والاستمرار

وإنَّما اختيرَ في النَّظمِ الجملةُ الاسميَّة؛ لأنَّها لدلالتها على الدَّوام والثَّبات تُفيد أنَّ ثبوت هذه الحال أو انْتِفاءَها أمرٌ مُسْتَمِرٌّ لا حادث[4].

فائدةُ توجيهِ الإنكارِ إلى كُلِّ واحدةٍ من هذه الجوارح الأربعة:

تكريرُ التَّكبيتِ والتَّقريع إشعارٌ بأنَّ انتفاءَ واحدةٍ منها كافٍ في الدَّلالة على عجزها

وُجِّهَ الإنكارُ إلى كُلِّ واحدةٍ من هذه الآلاتِ الأربعِ على حِدَةٍ؛ تكريرًا للتَّبكيتِ، وتثنيةً للتَّقريعِ، إشعارًا بأنَّ انتفاءَ كلِّ واحدةٍ منها بِحِيالِها كافٍ في الدَّلالةِ على استحالةِ الاستجابةِ[5].

---

(1) محمد رضا، تفسير المنار: 529/9.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 222/9.

(3) القونوي، حاشيته القونوي على تفسير الإمام البيضاوي: 577/8، والآلوسيّ، روح المعاني: 135/5.

(4) القونوي، حاشيته على تفسير الإمام البيضاوي: 577/8.

(5) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 306/3.

دلالاتُ وصف الجوارح الأربعة:

تسجيلُ العجزِ عليهم فيما يحتاج إليه النَّاصرُ وكَوْنُ أعضائِها عديمةَ النَّفع

وصفُ الأرجل بـ ﴿يَمْشُونَ﴾ والأيدي بـ ﴿يَبْطِشُونَ﴾ والأعين بـ ﴿يُبْصِرُونَ﴾ والآذان بـ ﴿يَسْمَعُونَ﴾ إمَّا لزيادة تسجيل العجزِ عليهم فيما يحتاج إليه النَّاصرُ، وإمَّا لأنَّ بعض تلك الأصنام كانت مجعولةً على صور الآدميِّين مثل هُبَلَ، وذي الكفَّين، وكُعيبٍ في صور الرِّجال، ومثل سُواعٍ كان على صورةِ امرأة، فإذا كان لأمثال أولئك صورُ أرجلٍ وأيد وأعين وآذان، فإنَّها عديمة العمل الذي تختصُّ به الجوارح، فلا يَطمع طامعٌ في نصرها[1]، فالمراد بهذه الأشياء نفيُ الأفعال دون الأعضاء، كما تقول لضعيفٍ: ألك بدنٌ يحتمل هذا الثِّقَل؟ أو مَعِدَةٌ تحتمل هذا الطَّعامَ؟[2].

معنى (أم) في المواضع الثَّلاثة:

قصدُ معنى (بل) الانتقاليَّةِ

(أم): حرفٌ بمعنى (أو) يختصُّ بعطف الاستفهام، وهي تكون مثل (أو) لأحد الشَّيئين أو الأشياء، وللتَّمييز بين الأشياء، أو الإباحة، أي: الجمع بينها، فإذا وقعت بعد همزةِ الاستفهام المطلوبِ بها التَّعيينُ كانت مثل (أو) التي للتَّخيير، كقوله تعالى: ﴿قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ۝٥٩﴾ [يونس: 59]، أي: عيِّنوا أحدهما، وإن وقعت بعد استفهام غيرِ حقيقي كانت بمعنى (أو) التي للإباحة، وتُسمَّى حينئذٍ مُنقطعةً، ولذلك يقولون: إنَّها بمعنى (بل) الانتقاليَّة، وعلى كل حالٍ، فهي مُلازمةٌ لمعنى الاستفهام، فكلَّما وقعت في الكلام؛ قُدِّر بعدَها استفهامٌ، فالتَّقدير هُنا، بل ألهم أيدٍ يبطشون بها؟ بل ألهم أعينٌ يُبصرون بها؟ بل ألهم آذان يسمعون بها[3]؟

بديعُ المقابلة في ذكْرِ الأيدي مُقابِلَةً للأرجل والأسماع مقابلَ الأبصارِ:

في قوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ﴾، أي: بل ألهم أيدٍ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 222/9.
(2) الجرجاني، درج الدُّرر: 717/1.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 222/9.

بيانُ كَوْنِ المقابلة بين هذه الأعضاء أظهرَ في التَّبكيت

يأخذون بها ما يريدون، أو يدفعون بها عنكم؟ وتأخير هذا عمَّا قبلَهُ لِما أنَّ المشي حالُهم في أنفسهم، والبَطْشُ حالهم بالنِّسبة إلى الآخرين، وأمَّا تقديمُ ذلك على قوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ مع أنَّ الكُلَّ سواءٌ في أنَّها من أحوالهم بالنِّسبة إلى الآخرين، فلمُراعاة المقابلة بين الأيدي والأرجل، ولأنَّ انتفاءَ المشي والبطش أظهرُ، والتَّبْكيت به أقوى[1].

سرُّ وصفِ معبوداتِهم بأوصاف العقلاء:

التَّعبيرُ عنها وفق اعتقادِ عُبَّادها تسفيهًا لعقولِهم

ذكرَها اللهُ ﷻ بالتَّعبيرات التي يُذكرُ بها الأحياءُ العُقلاء مُسايرة لعُبَّادها، (يمشون، يبطشون، يبصرون، يسمعون)، ولولا هذه المُسايرةُ؛ لكان الحديثُ عنها، كما يلي: (ألها أرجلٌ تمشي بها؟ أم لها أيدٍ تبطش بها؟ أم لها أعينٌ تبصر بها؟).

بلاغةُ ترتيبِ الجوارح الأربعة:

بيانُ أنَّ التَّرتيبَ كان بطريق التَّرقِّي بحسب الأهمِّيَّة والغرض

وترتيبُ هذه الجوارحِ الأربع على حسب ما في الآية ملحوظٌ فيه أهميَّتُها بحسب الغرض، الذي هو النَّصرُ والنَّجدة، فإنَّ الرِّجلين تُسرعان إلى الصَّريخ، واليدين تعملان عملَ النَّصر وهو الطَّعن والضَّرب، وأمَّا الأعينُ والآذان؛ فإنَّهما وسيلتان لذلك كُلِّه، فَأُخِّرا، وإنَّما قَدَّم ذكر الأعين هُنا على خلاف معتاد القرآن في تقديم السَّمع على البصر؛ لأنَّ التَّرتيبَ هنا كان بطريق التَّرقي[2].

فلمَّا كان المخشيُّ بعد الانتقال مدَّ اليدِ، قال: ﴿أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ﴾ أي: موصوفة بأنَّهم ﴿يَبْطِشُونَ بِهَآ﴾ أي: نوعًا من البطشِ، ولمَّا كان المخوفُ بعد البطشِ باليد البصرَ خوفًا من الدَّلالة قال: ﴿أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ﴾. أي: منعوتةٌ بأنَّهم ﴿يُبْصِرُونَ بِهَآ﴾ أي: ضربًا من الإبصار؛ ولما كان الإنسانُ ربَّما خاف ممَّا يقصدُ ضرَّهُ، فتغيب عنه، فلا يصل

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 135/5.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 223/9.

إليه بعد ذلك إلا بالسَّمع قال خاتمًا: ﴿أَمۡ لَهُمۡ ءَاذَانٞ﴾، أي: مقولٌ فيها أنَّهم ﴿يَسۡمَعُونَ بِهَاۗ﴾ أي: شيئًا من السَّمع[1].

دلالةُ تخصيصِ الأرجل والأيدي والأعين والآذان بالذِّكر دون اللِّسان:

بيانُ كونِها آلاتِ العلم والسَّعي والدَّفع للنَّصر

خَصَّ الأرجلَ والأيدي والأعين والآذان؛ لأنَّها آلاتُ العلم والسَّعي والدَّفع للنَّصر، ولهذا لم يذكر الألسن لما عُلِمَ من أنَّ الاستجابةَ مُرادٌ بها النَّجدةُ والنُّصرة، ولم يكونوا يسألون عن سببِ الاستنجاد، ولكنَّهم يسرعون إلى الالتحاق بالمستنجد[2].

نكتةُ فصلِ جملة ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ﴾ عن سابقاتِهَا:

بيانُ الإذنِ من الله تعالى لنبيِّه في تحدِّيهم

قوله تعالى: ﴿قُلِ﴾ إذنٌ من الله لرسوله بأن يتحدَّاهم بأنَّهم إنِ استطاعوا؛ استصرخوا أصنامَهم لتتألَّب على الكيد للرَّسول ﷺ والمعنى: ادعوا شركاءكم؛ لينصروكم عليَّ، فتستريحوا مِنّي[3]، فكأنَّ سائلًا سألَ ماذا يُرادُ بعد كلِّ هذا التَّعجيزِ للمشركين، وبيان عجز أصنامِهم، فجاءَ هذا الأمرُ إتمامًا للتَّحدِّي وقطعًا للحُجَّة.

دلالةُ توجيهِ الخطاب إلى النَّبيِّ ﷺ بفعل الأمر: ﴿قُلِ﴾:

تأنيسُ النَّبيِّ ﷺ بالخطابِ تقويةً له ولحُجَّتِهِ

جاء الخطاب موجَّهًا للنَّبيِّ ﷺ بأمر بالقول؛ لأنَّهم لمَّا قُرِّعوا، وتُحُدّوا بعبادةِ من لا يملك ضَرًّا ولا نفعًا؛ قيلَ للنَّبيِّ ﷺ: (قُلْ: إنَّ معبودي يملك الضُّرَّ والنَّفع، فلو اجتهدتم في كيدي؛ لم تصلوا إلى ضرِّي؛ لأنَّ الله يدفعُ عنِّي)، قال الحسن: "كانوا يخوِّفونه بآلهتهم"، فقال الله تعالى: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ شُرَكَآءَكُمۡ ثُمَّ كِيدُونِ﴾[4].

دلالةُ توالي الأمرين في ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ﴾:

إظهارُ كمالِ التَّحدِّي وتمامِ الاحتجاجِ بما لا يُمكن دفعُه وردُّه

﴿قُلِ ٱدۡعُواْ﴾ أي: قل أيُّها الرَّسول الكريمُ لهؤلاءِ الذين هَبَطُوا بعقولهم إلى أحطِّ المستويات: نادوا شركاءكم الذين زعمتموهم

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 197/8.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 222/9.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 223/9.
(4) الخازن، لباب التأويل في معاني التنزيل: 283/2.

أولياءَ، ثُمَّ تعاونوا أنتم وهم على كيدي، وإلحاقِ الضُّرِّ بي من غير انتظارٍ أو إمهال، فإنِّي أنا معتزٌّ بالله، ومُلتَجِئٌ إلى حِماهُ، ومن كان كذلك؛ فلن يخشى شيئًا من المخلوقين جميعًا، وهذا نهايةُ التَّحدي من جانب الرَّسولِ ﷺ لهم والحطِّ من شأنهم وشأن آلهتهم[1].

فحاصلُ المعنى: استنجدوهم إلى إضراري وكيدي، ولا تؤخِّروني، فإن كانوا آلهةً؛ فسيظهر فعلهم[2].

وحكمةُ مُطالبتهم بهذا أنَّ العقائدَ والتَّقاليدَ الموروثة تتغلغل في أعماق الوجدانِ، حتَّى يتضاءلَ دونها كلُّ برهانٍ، ويظلَّ صاحبها مع ظهورِ الدَّليل على بطلانِها، فيتوهَّم أنَّها تَضُرُّ وتنفعُ، وتُقَرِّبُ من الله وتشفع، فطالبهم بأمر عمليٍّ يَسْتَلُّ هذا الوهمَ من أعماق قلوبهم، ويمتلخ الشُّعورَ به من خبايا صدورهم، وهو أن يُنادوا هؤلاء الشُّركاء نداء استغاثة واستنجاد لإبطال دعوة الدَّاعي إلى الكفرِ بها، وإثباتِهِ العجزَ لها، وبَذْلِ الجهد فيما يَنْسبونَ إليها من التَّأثير الباطن، والتَّدبير الكامن الذي هو عندَهم أمرٌ غيبيٌّ، يدخل في معنى الكيد الخفيِّ، فإن كان لها شيءٌ ما من السُّلطان الغيبيِّ في أنفسها أو عند الله تعالى فهذا وقت ظهورِهِ، فإن لم يظهر لإبطال عبادتها وتعظيمها، ونصر عابديها ومعظِّمي شأنها، فمتى يظهرُ وينتفعون به؟ وهم منكرون للبعث[3].

نكتةُ إضافة الشُّركاء إلى ضميرهم:

بيانُ أنَّهم شُركاءُ في زعمهم وتصوُّرهم لا أنَّهم شُركاءُ على الحقيقةِ

قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ شُرَكَآءَكُمۡ ثُمَّ كِيدُونِ﴾ سمَّاهم (شُركاء) من حيثُ إنَّ لهم نسبةً إليهم بتسميتهم إيَّاهم آلهةً وشُركاء لله[4]، أي: (من جعلتموهم شركاءَ لله)، فالإضافةُ لأدنى ملابسة، فالشُّركاء الذين جعلتموهم شركاء، هُم شركاء في زعمكم أنتم[5].

(1) طنطاوي، التَّفسير الوسيط للقرآن الكريم: 456/5.
(2) ابن عطية، المحرَّر الوجيز: 489/2.
(3) المراغي، تفسير المراغي: 143/9، ومحمد رضا، تفسير المنار: 529/9.
(4) ابن عطية الأندلسي، المحرَّر الوجيز: 489/2.
(5) محمد أبو زهرة، زهرة التفاسير: 3036/6.

دلالةُ العطف بـ(ثُمَّ):

لمَّا كان هذا التَّحدِّي تحدِّيًا عظيمًا يحقُّ لفاعله التَّمدُّحُ به، نَبَّهَ عليه بأداة التَّراخي، فقال: ﴿ثُمَّ كِيدُونِ﴾ أي: جميعًا أنتم وهم، وأنتم أكثرُ من حَصى البطحاء وَرَمْلِ الفضاءِ، وأنا وحدي[1].

بيانُ عِظَمِ التَّحدِّي الذي يَحِقُّ لصاحبه أن يتمدَّح به

دلالةُ الجمع بين الأمر والنَّهي:

الأمرُ والنَّهيُ في قولِه تعالى: ﴿كِيدُونِ﴾ ﴿فَلَا تُنظِرُونِ﴾ للزِّيادة في تأكيد التَّعجيز[2].

معنى الفاء في ﴿فَلَا تُنظِرُونِ﴾:

وقولُه: ﴿فَلَا تُنظِرُونِ﴾ تفريعٌ على الأمرِ بالكَيدِ، أي: فإذا تمكَّنْتُم مِن إضراري، فأعجِلُوا، ولا تؤَجِّلوني[3].

التَّفريعُ على الأمر بالكيد بعدم الإنظار تأكيدًا للتَّحدي

دلالةُ النَّهي في ﴿فَلَا تُنظِرُونِ﴾:

في هذا التَّحدِّي تعريضٌ بأنَّه سيَبْلُغُهم، وينتصرُ عليهم، ويستأصلُ آلهتَهم[4]، وقد تحدَّاهم بأتَمِّ أحوالِ النَّصر، وهي الاستنصارُ بأقدر الموجودات في اعتقادهم، وأن يكون الإضرارُ به خفيًّا، وألَّا يتلوَّمَ له، ولا ينتظر، فإذا لم يتمكَّنوا من ذلك؛ كان انتفاؤه أدلَّ على عجزِهم وعجز آلهتهم[5].

التَّعريضُ بأنَّه سيغلبهم، وينتصر عليهم

التَّوجيهُ البلاغيُّ للقراءات المتواترة في ﴿كِيدُونِ﴾ و﴿تُنظِرُونِ﴾:

قرأ أبو عمرٍو ونافع ﴿كِيدُونِۦ﴾ بإثباتِ الياء في الوصل، وقرأ ابنُ كثير وعاصم وابن عامر وحمزةُ والكسائيُّ ﴿كِيدُونِ﴾ بحذف الياءِ في الوصل والوقفِ[6]، قال أبو علي: "إذا أشبهَ الكلامُ المنفصلَ،

جوازُ حذْفِ الياء في الكلام مُراعاةً لتشابه الفواصل

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 197/8.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 223/9.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 223/9.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 223/9.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 223/9.
(6) ابن الجزري، النشر في القراءات العشر: 184/2.

أو كان منفصلًا؛ أشبهَ القافيةَ، وهم يحذفون الياء في القافية كثيرًا، قد التزموا ذلك"[1]، فحذفَ الياءَ بناءً على تشابُهِ الفواصلِ، والمثْبِتون على الأصل.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الْخِدَاعُ وَالْكَيْدُ وَالْمَكْرُ:

الخداعُ: إظهارُ أَمْرٍ للآخرين مع إضمَارِ خلافه[2]، ولا يلزم مِنْهُ أن يكونَ بعد نظر وتدبُّرٍ، ولذا يُقال: خدعَهُ في البيع؛ إذا غشَّهُ، ولو كان ذلك بديهَةً مِن غير فِكْرٍ سابقٍ، بخلاف الكَيْدِ فإنَّه - في حقِّ المخلوقِ - لا يكونُ إلَّا بعد تدبُّرٍ وفِكْرٍ ونظَرٍ.

وأمَّا المكرُ؛ فهو مِثْلُ الْكَيْدِ في كَوْنِه - في حقِّ المَخْلُوق - لا يكُون إلَّا بَعْدَ فِكْرٍ ونَظَرٍ، إلَّا أنَّ الْكَيْدَ أقوَى مِنَ الْمَكْرِ[3].

الخداعُ إظهارُ ما يُخالف الإضمارَ، والمكرُ ما يكون بعد نظرٍ وتَفَكُّرٍ، والكيدُ آكدُ منهما وأشدُّ

الإِنْظارُ والإمهالُ والتَّأْخير:

الإنظارُ: تَمْكِينُ الشَّخْصِ من النَّظرِ وتأخيرهُ لينظُرَ في أمرِه[4]، وهو مقرونٌ بمقدارِ ما يقعُ فيه النَّظر، وجاءَ الإنْظارُ مَعَ ما فيه مِنْ سُوءِ المُنْقَلَبِ، كالعَذابِ، واللَّعْنَةِ، قال تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ ١٦٢﴾ [البقرة: 162]، والإمهالُ مُبهمٌ، وقيل: الإنظارُ، والإمهالُ تأخيرُهُ ليُنهي ما يتكلَّفُهُ من عملِه[5]، ويكونُ مقرونًا بالتَّهديد قال تعالى: ﴿فَمَهِّلِ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَمۡهِلۡهُمۡ رُوَيۡدًا ١٧﴾ [الطَّارق: 17].

الإنظارُ تأخيرٌ تحت المراقبة، والإمهالُ تأخيرُ تهديد

والتَّأخيرُ: إبعادُ الفعلِ عن الآنَ الكائِنِ[6]، أي: تَغييرُ التَّوقيتِ

(1) ابن عطية، المحرَّر الوجيز: 489/2.
(2) المناوي، التوقيف على مهمات التعاريف، ص: 152.
(3) أبو هلال العسكريّ، الفروق اللُّغويَّة، ص: 213، 508، والكفوي، الكليات، ص: 771.
(4) الكفوي، الكليات، ص: 906.
(5) أبو هلال العسكري، الفروق اللغوية، ص: 80.
(6) المناوي، التوقيف على مهمات التعاريف، ص: 89.

المَوْضوعِ مُسبَقًا، وهُو عامٌّ في الوَقْتِ، أمَّا الإنْظارُ؛ ففيهِ تَأخيرٌ معَ عُذْرٍ، ولا عَلاقَةَ له بِوَقْتٍ موضوعٍ أو مُحَدَّدٍ، كقوله ﷻ: ﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ﴾ [البقرة: 280]، فلا تَوقيتَ مُحَدّد لِبُلوغ المَيْسَرَةِ، فالإنظارُ تَأْخيرٌ مَخْصوصٌ؛ فهو تأخيرٌ تحت المراقبة، والإمهالُ تأخيرٌ مع التَّهديد.

﴿إِنَّ وَلِيِّۦَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ ۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ١٩٦﴾

[الأعراف: 196]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

ربطُ بيانِ أنَّ ما سوى اللهِ لا نفعَ له ولا ضرَّ، بكوْنِ الله هو من يهدي ويحمي

لَمّا ذكرَ في الآياتِ المُتَقَدِّمَةِ أنَّ هذه الأصْنامَ لا قُدْرَةَ لَها على النَّفْعِ والضُّرِّ؛ بَيَّنَ في هذهِ الآيَةِ أنَّ الواجِبَ على كُلِّ عاقِلٍ عِبادَةُ اللّه تَعالَى؛ لِأنَّهُ هو الَّذي يتولَّى تحصيلَ منافعِ الدُّنْيا والدّين[1]، وهو الَّذي نزَّلَ القرآنَ بالحقِّ على رسوله، وهو يتولَّى نصْرَ كلِّ صالحٍ من عباده المؤمنين.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَلِيِّۦَ﴾: (فَعيل) من الولي: القُرْبُ، يُقالُ: تَباعَدَ بَعْدَ ولْيٍ، أيْ: قُرْبٍ، وجَلَسَ مِمّا يَليني، أيْ: يُقارِبُني، ومِنَ البابِ المَوْلَى: المُعْتِقُ والمُعْتَقُ، والصّاحِبُ، والحَليفُ، وابْنُ العَمِّ، والنّاصِرُ، والجارُ، و(الوليُّ) من قول القائل: (وَليت أمر فلانٍ)، إذا صرت قيِّمًا به، فأنا أليهِ، فهو وليُّه وقَيِّمُه[2].

2) ﴿ٱلصَّٰلِحِينَ﴾: الصَّلاحُ يَدُلُّ على خِلافِ الفَسادِ، يُقالُ: صَلُحَ الشَّيْءُ يَصْلُحُ صَلاحًا، وحَكَى ابْنُ السِّكّيتِ صَلَحَ وصَلُحَ، والمعنى المحوريُّ: سلامةُ الشَّيء، أي: التئامُهُ على حاله الأصليَّةِ تامُّ النَّفع والخير الَّذي أوجِد أو أريد له[3]، والصّالح هو الَّذي صلح باطنًا بالإخلاصِ والتَّجريد، ونضحَ ذلك على ظاهرِهِ بالأعمال الصّالحة، والمسارعة في الخيراتِ.

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 433/15.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 489/2، وابن فارس، مقاييس اللّغة، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (ولي).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (صلح).

المَعْنى الإجْماليُّ:

يقولُ اللّهُ لنبيِّه محمَّدٍ ﷺ: قل لهم يا رسولَ اللّه: إنَّ نصيري ومُعيني في كلِّ شؤوني، هو اللّهُ الَّذي اصطفاني بالرِّسالةِ، فنزَّل عليَّ هذا الكتابَ العزيزَ (القرآن الكريم)، ودأبُ اللّه مع الصّالحين أنَّه يعينُهم وينصرُهم في أمورِ دينهم ودنياهم.

ضمانُ نصرةِ اللهِ وعونِهِ لنبيِّه، وأنَّه تعالى وليُّ الصّالحين من عباده

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

علَّةُ فصلِ قولِهِ: ﴿إِنَّ وَلِيِّۦَ ٱللَّهُ﴾:

فُصِلتْ هذه الجملة عمّا قبلها؛ لأنَّها وقعت موقعَ التَّعليل لعدم المبالاة المفهوم من قولِه: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ شُرَكَآءَكُمۡ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ﴾[1]، كأنَّهُ قيل: لا أبالي بكم وبشركائِكم؛ لأنَّ وليّيَ هو اللّهُ تعالى الَّذي نزَّل الكتابَ النّاطق بأنَّه وليّي وناصري، وبأنَّ شركاءكم لا يستطيعون نصرَ أنفسِهم فضلًا عن نصركم[2]، فهذا تَعْليلٌ لِعَدَمِ الاكْتِراثِ بتَألُّبهم عليه، واسْتِنْصارِهم بشُرَكائِهم، ولِثِقَتِه بأنَّهُ مُنْتَصِرٌ عليهم، بما دَلَّ عليه الأمْرُ والنَّهْيُ التَّعْجيزيّانِ[3].

من حمْلةُ العنايةُ؛ لم يضرَّه تأليبُ الغوايةِ

دلالةُ الإيجازِ بحذفِ الفعل:

في قوله: ﴿إِنَّ وَلِيِّۦَ ٱللَّهُ﴾، حُذِف فعلُ القول للتَّوصُّلِ إلى مقول القولِ على لسان المبلِّغ مباشرةً؛ ليدلَّ على كمالِ ثقتِه بربِّه، وتصديق ربِّه لهُ، وتثبيته في تبليغ رسالتِه، ومعنى الآية على قراءةِ الجماعةِ: قل - يا محمَّد ﷺ - لعبدةِ الأوثان، ﴿إِنَّ وَلِيِّۦَ ٱللَّهُ﴾، أي: ﴿إِنَّ﴾ نصيري عليكم، ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡكِتَٰبَۖ﴾ عَلَيَّ بالحقِّ، ﴿وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ﴾، أي: يَنْصُرُهُم على مَنْ عاداهُم فيهِ.

ولايةُ اللهِ تنزُّلٌ وتكليفٌ، وحمايتُهُ نصرةٌ وتشريفٌ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 307/3.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 136/5.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 224/9.

نكتةُ التَّصديرِ المفيدِ بحرفِ التَّأكيدِ:

ولاءُ اللهِ والبراءةُ من سواهُ، حمايةٌ لكلِّ من لاذَ بحماه

في قوله: ﴿إِنَّ وَلِيِّۦَ ٱللَّهُ﴾، تصديرُ الآيةِ الكريمةِ بحرفِ التَّأكيدِ، يناسبُ الرَّدَّ على هؤلاء المنكرين، ويوحي المخاطب بزيادةِ ثقةِ المتكلِّم، واللّه ﷻ يتولَّى من يتولّاه، وينصرُ من يستنصرُ به، ويلوذ بحماه، وهو ينصر الصّالِحينَ، ويوفِّقهم للهدى المستبين، ويقوّيهم على مقاومة كيد الشَّيطان اللَّعين[1].

فائدةُ إضافةِ (وليّ) إلى ضميرِ المتكلِّم:

ولايةُ اللهِ لنبيِّه المصطفى، تخصيصٌ ورفعٌ لمقامِهِ الأوفى

في قوله: ﴿إِنَّ وَلِيِّۦَ ٱللَّهُ﴾، إضافةُ (وليّ) إلى ضميرِ المتكلِّم، يدلُّ على زيادةِ التَّشريف، وتخصيصِ العناية لولاية اللّه له ﷺ؛ إذ إنَّ ولايةَ اللّه للمؤمنين عامَّةٌ، بسبب إيمانهم، وولايتُه للنَّبيِّ خاصَّة؛ لأنَّه أوَّلُ المؤمنين، ولأنَّه أرسلَهُ رحمةً للعالمين؛ لينصرَ بهِ الحقَّ وأهلَه.

سرُّ توجيهِ قراءةِ (وليَّ) بتشديد الياءِ، وإضافتها لياء المتكلِّم:

دلالةُ التَّخفيفِ في لفظ (وليّ) على شدَّةِ القُربِ، وخصوصيَّةِ الوَلاية

قولهُ تعالى: ﴿إِنَّ وَلِيِّۦَ ٱللَّهُ﴾: بتشديد (وَليّيَ) مضافًا لياء المتكلِّم المفتوحة، وهي قراءةٌ واضحةٌ، أضاف الوليَّ إلى نفسِه[2]، وقرأ أبو عمرو في بعضِ طرقِه: (إنَّ وليَّ) بياءٍ واحدةٍ مشدَّدة مفتوحة[3]، وفيها تخريجان أحدهما: أنَّ ياءَ فعيلٍ مدغمةٌ في ياء المتكلِّم، والياءُ الَّتي هي لامُ الكلمة محذوفةٌ، وفيه تخفيف في النُّطق، ودلالةٌ على شدَّة القربِ، وخصوصيَّةُ الوَلاية، والآخر: أن يكون (وليَّ) اسمها، وهو اسمٌ نكرةٌ غيرُ مضافٍ لياءِ المتكلِّم، والأصلُ: إنَّ وليًّا اللّه، فوليًّا اسمُها، واللّهُ خبرها، ثمّ حذف التَّنوين لالتقاء السّاكنين، كقوله[4]:

---

(1) عبد الكريم الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 224/9.

(2) وهي قراءة ابن كثير، وابن عامر، ونافع، وعاصم، وحمزة، والكسائيّ، ورويس، والبرجميّ، ويعقوب بخلاف عنه. ينظر: ابن مجاهد، السّبعة، ص: 300، 301، وابن الجزريّ، النّشر: 274/2.

(3) ابن الجزريّ، النّشر: 274/2.

(4) البيت من بحر المتقارب، لأبي الأسود الدّؤليّ، وهو في ديوانه، ص: 203، ورواية البيت الأوّل فيه:
فذكّرته ثمّ عاتبتُه *** عتابًا رقيقًا وقولًا جميلًا
ويروى: (ولا ذاكرٍ) بالجرّ معطوفًا على (مستعتبٍ).

فألفيتُهُ غيرَ مُسْتَعْتِبٍ *** ولا ذاكرَ اللّهَ إلّا قليلًا

والإخبارُ عنِ النَّكرةِ بالمعرفة واردٌ، كقول الشّاعر[1]:

وإنَّ حرامًا أن أسُبَّ مجاشعًا *** بآبائي الشُّمِّ الكرامِ الخضارمِ

وتنكير (وليّ) هنا للتَّعظيم؛ لوقوعهِ مسندًا إليه، ووقوعُ اسم الجلالة الموصوف بخصيصةٍ لا يوصف بها أحدٌ سواه، وكأنَّ المعنى: إنَّ وليَّ اللّه الَّذي هو موصوفٌ بتنزيل الكتاب الكامل المعجز خليقٌ بأن يُعبد، لا تلك الآلهة.

توجيهُ قراءةِ (إنَّ وليِّ اللهُ):

قُرئ: (إنَّ وليِّ اللّهُ)[2]بكسر الياء مشدَّدة، وأصلُها تسكينُ ياءِ المتكلِّم فالتَقَت الياء مع لام التَّعريف، فحُذفَتْ لالتقاءِ السّاكنين، وبقيت الكسرة تدلُّ عليها، نحو: إنَّ غلامِ الرَّجلُ[3]، وفي حذف ياء المتكلِّم والاجتزاءِ بالكسرةِ تخفيفٌ، يوحي بعظمِ الإخبارِ باسمِ الجلالةِ عن الوليِّ، وسرعةُ التَّوصُّل إليه يشير إلى شغفِ المتكلِّم بهِ وشدَّة الرَّغبة فيه.

حذفُ ياء المتكلِّم تخفيفٌ لتعظيم الانتساب، والشَّوق للوهّاب

دلالةُ قراءةِ (إنَّ وليَّ اللهِ):

قرأ الجُحْدُريُّ في رواية[4]: (إنَّ وليَّ اللّهِ) بياءٍ مشدَّدةٍ واسمَ الجلالةِ بالجرِّ، نقلها عنه أبو عمرو الدّانيُّ، أضافَ الوليَّ إلى الجلالةِ، وتخريجُها على ثلاثةِ أوجهٍ، الأوَّل: أن يكون وليُّ اللّهِ اسمَها، و﴿ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ خبرُها، والمرادُ بالَّذي نزَّل الكتاب جبريلُ، يدلُّ عليه قولُه تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾﴾ [الشّعراء: 193]، وقوله: ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ﴾ [النّحل: 102]، وقوله: ﴿وَهُوَ يَتَوَلَّى

التَّوسُّع في فهم (الوليّ) دليلٌ على أهمّيَّةِ هذه القراءةِ في فهم السّياق

(1) البيت من بحر الطّويل، للفرزدق، وهو في ديوانه: 300/2.

(2) وهي رواية عن السوسي من النشر، يُنظر: ابن الجزريّ، النّشر: 274/2، والدّمياطيّ، إتحاف فضلاء البشر: 72/2.

(3) ابن عطيَّة، المحرّر الوجيز: 183/6، والسّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 386/3.

(4) العكبريّ، إعراب القراءات السّبع وعللها: 217/1.

﴿ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ أي: اللّه تعالى. والثّاني: أن يكون الموصوفُ بتنزيل الكتابِ هو اللّه تعالى، والمرادُ بالموصولِ النَّبيُّ ﷺ، ويكون ثَمَّ عائدٌ محذوفٌ لفهم المعنى، والتَّقدير: إنَّ وليَّ اللّهِ النَّبيُّ الَّذي نَزَّل اللّهُ الكتابَ عليهِ، فحذفَ (عليه) كحذفهِ في قولِ الشّاعر[1]:

وإنَّ لساني شُهْدةٌ يُشْتفى بها *** وهوَّ على مَنْ صَبَّه اللّه عَلْقَمُ

أي: صَبَّه اللّهُ عليه. والثّالثُ: أن يكونَ الخبرُ محذوفًا، تقديرهُ: إنَّ وليَّ اللّهِ الصّالحُ، أو مَنْ هو صالح، وحُذف لدلالة قولهِ: ﴿وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ﴾، وكقولهِ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلذِّكۡرِ﴾ أي: معذَّبون[2].

بلاغةُ قصرِ الولايةِ الحقيقيِّ على اللهِ:

الدّلالةُ على قصرِ الولايةِ على المولى، ومجاورة الصِّفةِ لمن هو بها أولى

كان يمكنُ في غير القرآنِ أن يقال: (إنَّ اللّهَ وليّي)، ولكن عدلَ عن ذلك فقال: ﴿إِنَّ وَلِيِّۦَ ٱللَّهُ﴾؛ لأنَّ المعنى تخطَّى مجرَّدَ الإخبارِ عن ولايةِ اللّهِ لهُ إلى التَّقوية، وقصرُ الولايةِ على اللّهِ وحده قصرُ صفة على موصوفٍ قصرًا حقيقيًّا[3]؛ لإبطالِ ولايتهم لآلهتِهم المزعومة، وليجاورَ الموصوف صفته؛ فيكون الحكمُ بالمسند (اسم الجلالة) مُعَلَّلًا بصفةٍ خاصَّةٍ به، تقطع قولَ كلِّ منكرٍ وجاحدٍ.

نكتةُ وصفِ اسمِ الجلالةِ باسمِ الموصولِ وصلتهِ:

التَّنبيهُ على اختصاصِ الموصوفِ بجملةِ الصِّلةِ، وأثره في المعنى

في قوله: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡكِتَٰبَۖ﴾، جيءَ باسمِ الموصولِ نعتًا لاسم الجلالة، للتَّنْبيهِ على أنَّ المَوْصوفَ مُخْتَصٌّ بمَضْمونِ هذه الصِّلَةِ؛ بحَيْثُ تُجْعَلُ طَريقًا لِمَعْرِفَتِه، ولِزيادَةِ التَّفْخيمِ لا للتَّعْريفِ؛ لِأنَّ اسمَ الجلالة أعرفُ المعارف، فإنْ أنكره الجاحدون؛ فإنَّهم لا

(1) البيت من بحر الطّويل، لرجل من همدان، يُنظر: الجرجاويّ، شرح التّصريح: 148/1، وبلا نسبة في تخليص الشّواهد، ص: 165، والمرادي، الجنى الدّاني في حروف المعاني، ص: 474، وابن منظور، لسان العرب: 478/15.

(2) السّمين الحلبيّ، الدّرُّ المصون: 542/5.

(3) كما في قوله تعالى: ﴿رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ كما يشعر به الحصر الذي يفيده تعريف الطّرفين، كما في (صديقي زيد)، ينظر: الآلوسيّ، روح المعاني: 372/12.

يستطيعون إنكارَ حاجتهم إليه في وقت الضُّرِّ، وافتقارهم إليه حينَ البأسِ والشِّدَّة، مصداقًا لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾﴾ [يونس: 12]، وفيهِ تَعْريضٌ ببطلان عبوديَّتِهم، وعجزِ آلهتهم؛ إذْ إنَّهم يتخبَّطون في عبادتهم خبطَ عَشْواء، ويقتحمون فيهِ العمايةَ العمياء، فلا كتابَ لهم على أثرهِ يقتدون، ولا بهِ يهتدون.

إيثارُ فعلِ ﴿نَزَّلَ﴾ دون سواه:

بيانُ رفعةِ الكتابِ وعلوِّ مكانته وعظمة المُنَزِّل وجلالته

في قوله: ﴿إِنَّ وَلِـِّۧىَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ﴾، أوثر الفعل ﴿نَزَّلَ﴾ من التَّنزيل دون غيرهِ من الأفعال، كالإرسالِ والإيحاءِ والإيتاء؛ لمناسبته السّياق في بيانِ رفعةِ هذا الكتابِ العالي الشَّأنِ في مقابل تدنّي هؤلاء المشركين؛ إذ إنَّهم يعبدون أصنامًا مخلوقةً، لم تخلُق شيئًا، ولا تملك لهم ضرًّا ولا نفعًا، ولدلالةِ الفعل ﴿نَزَّلَ﴾ على عِظَم مكانة المُنَزِّل، والمُنَزَّل عليه، والمُنَزَّل لهم، ووثاقة الاعتصامِ باللّه، والالتجاء إليه، أي: كيف لا أتَّخذ اللّه نصيرًا، وهو الَّذي رفع ذكري، وشرَّفني بإنزال الكتابِ العزيز؟

دلالة التَّعبيرُ بصيغةِ الماضي ﴿نَزَّلَ﴾:

التَّعبيرِ بالماضي يدلُّ على شدَّةِ ثقة الرَّسول بربِّه، وقوَّةِ اعتصامِهِ بحبلِه

في قوله: ﴿ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ﴾، التَّعبيرُ بصيغةِ الماضي يشيرُ إلى شدَّةِ ثقةِ الرَّسول ﷺ بربِّه، وقوَّةِ اعتصامِهِ بحبلِه، واستحضارِ سوابقِ كرمه، وسوابغِ نعمه وفضله، فاللّهُ الَّذي تولّاه قديمًا، هو نفسُه الَّذي يتولّاه، وينصرُه على عدوِّه في كلِّ وقتٍ وحين.

دلالةُ صيغةِ (فعَّل) في قوله: ﴿نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ﴾:

التَّنزيلُ للتَّكثير، والقرآنُ نزل نجومًا شيئًا بعد شيء[1]؛ لأنَّ

(1) الواحديّ، التّفسير البسيط: 15/5.

غرضُ التَّنزيلِ بصيغة (فعَّل) التَّكثيرُ والتَّدرُّجُ والتَّقويةُ على المدى

المرادَ النُّزول على سبيل التّدريج والتّنجيم[1]، وذهب بعضهم أنَّ (نزَّل وأنزل) بمعنًى واحدٍ[2]، والمعنى الأوَّل آثرُ وأولى؛ لأنَّ تنجيمَ التَّنزُّلِ يواكبُ تطوُّرَ الأحوالِ، ويقتضيه منهجُ الإقناعِ الطَّويل المدى، للتَّأكُّد بأنَّ عبادةَ غيرِ اللّهِ باطلةٌ، وأنَّ دعاء ما يعبد المشركون من الأوثانِ هزُؤٌ باطل، وسُخْفٌ لا يرضاه لنفسه إلّا جاهلٌ سافل، أو أبلهٌ غير عاقل[3]، وأيًّا ما يكن؛ فإنَّ صيغة (فعَّل)، توحي بالتَّقوية والاعتناء والتَّعظيم.

دلالةُ (ال) في لفظ ﴿ٱلۡكِتَٰبَۖ﴾:

الكتابُ المعجزُ هو الكتابُ الكاملُ في إعجازهِ وبيانهِ

في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡكِتَٰبَۖ﴾، (ال) في لفظ ﴿ٱلۡكِتَٰبَۖ﴾ للعهدِ، أي: الكتابُ المعهودُ، وهو القرآنُ الكريمُ، وفيها معنى التَّفخيم، أي: الكتابُ العجيب الكاملُ في إعجازهِ وبيانهِ، للدَّلالةِ على أنَّه الكتابُ الكامل الَّذي هو جديرٌ بأن يُسمَّى كتابًا، كأنَّ غيرَه ليس جديرًا بأن يسمَّى كتابًا؛ لأنَّهُ من عند اللّه تعالى.

إيثارُ اسمِ ﴿ٱلۡكِتَٰبَۖ﴾ على (القرآن):

الدَّلالةُ على وثاقةِ القرآنِ وحفظه في الصُّدورِ، كما حُفِظَ في السُّطورِ

أوثرَ لفظُ ﴿ٱلۡكِتَٰبَۖ﴾ على لفظ (القرآن)، للإشارةِ إلى معنى (الكَتْب)؛ وهو الإلصاقُ بقوَّةٍ ودقَّةٍ، كإلصاقِ الإلزامِ والفرض[4] في قوله: ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَىۖ﴾ [البقرة: 178]، ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾ [البقرة: 183]، فلفظُ ﴿ٱلۡكِتَٰبَۖ﴾ هنا أنسبُ للسّياق؛ حيث إنَّ الكلامَ فيما مضى عن عجزِ آلهتِهم المزعومة عن نصرهم، فأثبتَ له هنا نقيضَ ما نفاهُ عنهم؛ لأنَّ تنزيلَ الكتابِ نصرٌ، وأيُّ نصرٍ؟ فكأنَّ فيه إيماءً لطيفًا إلى كتْبِ النَّصْرِ له، ومن ذا الَّذي يستطيع أن

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 97/1.

(2) الأزهريّ، معاني القراءات: 167/1، والفارسيّ، الحجّة للقرّاء السّبعة: 161/2، وأبو حيان، البحر المحيط: 168/1.

(3) رشيد رضا، تفسير المنار: 442/9.

(4) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (كتب).

يمحوَ أمْرًا قد كتبه الله، وأمَرَ به؟ قال تعالى: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغۡلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ٢١﴾ [المجادلة: 21].

دلالةُ (الواوِ) بين الحاليَّةِ والعطف:

ربْطُ ولايةِ اللهِ بتنزيلِ الكتابِ، تأكيدٌ على نصرِ الصّالحين أولي الألباب

في قوله: ﴿وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ﴾، الواو حاليَّةٌ أو عاطفة[1]، فعلى الحاليَّة تكونُ فائدتُها ربْطَ ولايته سبحانه لعبادهِ الصّالحين بتنزيل الكتاب الكاملِ المعجز، ولاشكَّ أنَّ تنزيلَ الكتابِ تأييدٌ من اللهِ تعالى للمنزَّل عليه، ونُصْرة له، وعطفُها على جملةِ الصِّلة يجمع أمرين لاسم الموصول الواقع نعتًا لاسم الجلالة: أوَّلهما: ماضٍ مُحَقَّقٌ، وهو تنزيلُ الكتابِ، والآخرُ ثابتٌ مستمرٌّ، وهو كونه سبحانه يتولَّى الصّالحين، وفي كلا المعنيين برهانٌ على ولايةِ اللهِ تعالى للنَّبيِّ ﷺ.

فائدةُ تقديمِ المسندِ إليه على المسند:

القصرُ وتأكيدُ الخبرِ من بلاغةِ تقديمِ المسندِ إليه في المركَّبِ الفعليِّ

في قوله: ﴿وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ﴾، قُدّم المسندُ إليه ﴿وَهُوَ﴾ على المسندِ ﴿يَتَوَلَّى﴾ لتأكيدِ الخبر الفعليِّ، وإفادة الحصر، فلا يتولّاهم أحدٌ سواه[2]، واللّه كفيل بعبادهِ الصّالحين، يحميهم من كلِّ أذيَّة وبليَّةٍ، ومن ينصره اللّه فلا غالب له، ومن لفَّهُ بحمايتهِ، لم يضرَّه كيدُ كائدٍ، ولا تآمرُ متآمرٍ.

نكتةُ مجيءِ المسندِ جملةً فعليَّةً فعلها مضارع:

استمرارُ ولايةِ الصّالحين وتجدُّدها من وغدِ الله لعباده

في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ﴾، مجيءُ المسندِ جملةً فعليَّة فعلُها مضارع؛ لإفادة تجدُّدِ ولايته تعالى باختلاف أحوالهم وحاجاتهم؛ وصيغةُ المضارع (يتولَّى) تفيدُ استمرارَ ولايته لهم، فلا تنفكُّ عنهم قيْدَ أُنْمُلَةٍ، فمَجيءُ المُسْنَدِ فِعْلًا مُضارِعًا لِقَصْدِ الدَّلالَةِ

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 516/3.

(2) تقديم المسند إليه على الخبر الفعليِّ هنا لإفادة تقوّي الحكم لا محالة، ثمَّ يفيد مع ذلك قصر المسند على المسند إليه، فإنَّه لما كان تقديم المسند إليه، على المسند الفعليِّ في سياق الإيجاب، يأتي ليقوّي الحكم ويأتي للقصر على رأي الشَّيخ عبد القاهر وصاحب (الكشّاف)، كما صرَّح به في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَۚ﴾ [المزمّل: 20].

على اسْتِمْرارِ هذا التَّوَلّي وتَجَدُّدِه، وأنَّهُ سُنَّةٌ إلَهيَّةٌ، فكَما تَوَلَّى النَّبيَّ يَتَوَلَّى المُؤْمِنينَ أيْضًا[1].

إيثارُ لفظِ ﴿ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ دونَ غيرِهِ من الألفاظ:

الصَّلاحُ سببُ ولايةِ الصّالحين، وهم مناطُ القدوةِ للمؤتسين

تنويهًا بمقدار الصَّلاح؛ إذ جُعل صفةَ الأنبياء، وبَعْثًا لآحاد النّاس على الدَّأْب في تحصيل صفته، هذه بشارَةٌ لِلْمُسْلِمينَ المُسْتَقيمينَ على صِراط نَبيِّهم ﷺ، بأنْ يَنْصُرَهُمُ اللّه كَما نَصَرَ نَبيَّهُ وأولياءَهُ[2].

بلاغةُ التَّعريضِ في الآية:

تركُ مواجهةِ الفاسدِ بفسادِه، والاكتفاءُ بالتعريض به، مفتاح لهدايته

في قولِه تعالى: ﴿وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ﴾، مفهومِ المخالفةِ له: (وهو لا يتولَّى الطّالحين الفاسدين)، وفيه تعريضٌ بهؤلاء المشركين الَّذين فسدت قلوبُهم؛ فكفروا باللّه تعالى، وجحدوهُ، وفسدت أعمالُهُم؛ فعبدوا من دونه آلهةً أخرى، لا تملك لهم شيئًا، ولا تستطيع لهم نفعًا ولا ضرًّا.

بلاغةُ التَّذييلِ في الآية:

تقريرُ المضمونِ السّابق، يضمن الرَّبطَ بين السّياقات

قولُهُ تعالى: ﴿وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ﴾، تذييلٌ مقرِّرٌ لمضمونِ ما قبله، أي: ومن عادتِه أن يتولَّى الصّالحين من عبادِه، وينصُرَهم، ولا يخذُلَهم[3]، وهو لا يجعل الولاية خصوصيَّةً للرَّسول ﷺ، بل يقول لكلِّ واحدٍ من أتباعِه: كن صالحًا في أيِّ وقت، أمام أيِّ عدوٍّ، ستجدِ اللّه، وهو يتولّاك بالنَّصر[4].

سرُّ العدولِ عن لفظ (المصلحين) إلى لفظ ﴿ٱلصَّٰلِحِينَ﴾:

المصلحُ صالحٌ يدعو بالفعالِ واستقامةِ الحالِ، قبل دعوتِهِ بالمقالِ

وعدلَ عن لفظ (المصلحين) إلى لفظ ﴿ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ لمناسبة السّياق؛ إذ إنَّ الحديثَ عن معاداتهم النَّبيَّ ﷺ وصلاحُه ظاهرٌ لكلِّ ذي عينين، وولايةُ اللّه للصّالحين يدخل فيها ولايتُه للمصلحين

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 224/9.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 224/9.
(3) أبو السّعود، تفسير أبي السّعود: 307/3.
(4) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 4530/8.

من باب أولى، ولم يذكرِ (المصلحين) حتَّى لا يُضيِّقَ واسعًا، وليكون دفاعًا عن كلِّ صالحٍ في ذاته، ولو لم يكن قائمًا بدعوة الآخرين بالقال، فهو داعيةٌ بالفعال وصلاح الحال، كما أنَّ ذكر (المصلحين) يأتي عقيب فسادٍ، وليس هذا بمرادٍ هنا، حتَّى يُفيدَ عناية اللّهِ تعالى ورعايته بالنَّبيِّ ﷺ بغضِّ النَّظر عن أفعال هؤلاء الكافرين.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الوليُّ والنَّصيرُ:

الولايَةُ إخلاصٌ ومَوَدَّةٌ وتعاونٌ، والنُّصرةُ معونةٌ ودعمٌ وتضامن

مجيءُ لفظي (الوليِّ) و(النَّصيرِ) في سياقٍ واحد متعاطفين، دليلٌ على أنَّ بينهما فرقًا، فقد قال اللّه تعالى: ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ١٠٧﴾ [البقرة: 107]، وأصلُ الوَليِّ جعل الثّاني بعد الأوَّل، من غير فصل من قَوْلهم: هذا يَلي ذَلِك ولْيًا، وولّاه اللّهُ، كَأَنَّهُ يَلي أمره، ولم يكِلْهُ إلى غَيره، وولّاه أمره، وكَله إليه، كأنَّه جعله بيَدِه، وتَوَلَّى أمر نَفسه: قامَ من غير وسيطة[1]، وأمّا (النَّصيرُ)؛ فإنَّه (فعيلٌ)، من قولك: (نصرتُكَ أنصرك، فأنا ناصرُك ونصيرك)، وهو المؤيِّد والمقوّي[2]، فالولايَة قد تكون بإخلاصِ المَوَدَّة، والنُّصرةُ تكون بالمعونةِ والتَّقوية، وقد لا تمكن النُّصْرَة معَ حُصول الولايَة[3]؛ ولذلك جمعَ بينهما في كثيرٍ من الآيات[4].

نزَّلَ وأنزلَ:

(نـزَّل) يـدلُّ عـلى الـتَّـدرُّجِ والـتَّـكـثـيرِ، و(أنزلَ) يدلُّ على الـنُّـزول دفـعـةً واحدةً غالبًا

ذهب فريقٌ من العلماء إلى التَّفرقةِ بينهما؛ فالمضعَّف العين (نزَّل)، يدلُّ على التَّدرُّج والتَّكثير، والمتعدّي بالهمزة يدلُّ على النُّزول دفعةً واحدة، ومن هؤلاء الزَّمخشريُّ، حيث يقول: "(فَإِنْ

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 284.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 489/2.
(3) العسكريّ، الفروق اللّغويَّة، ص: 189.
(4) اجتمعا في ثلاثة عشر موضعًا، وهي كالآتي: البقرة: 107، 120، والنّساء: 89، 123، 173، والتّوبة: 74، 116، والعنكبوت: 22، والأحزاب: 17، 65، والشّورى: 8، 31، والفتح: 22.

قُلْتَ): لمَ قالَ: ﴿نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾ [النساء: 136] و﴿أَنزَلَ مِن قَبْلُ﴾ [النساء: 136]؟ (قُلْتُ): لِأنَّ القرآنَ نَزَلَ مُنَجَّمًا مُفَرَّقًا في عِشْرينَ سَنَةً، بخِلافِ الكُتُبِ قَبْلَهُ. انْتَهَى[1]. وذهب آخرون بأنَّهما لغتان بمعنًى واحدٍ، والتَّضعيفُ للتَّعدية، ومن هؤلاء أبو حيّان، حيث إنَّه ردَّ على الزَّمخشريِّ، بقوله: وهذه التَّفْرِقَةُ بين (نزَّل) و(أنزل) لا تَصِحُّ؛ لِأنَّ التَّضْعيفَ في (نَزَّلَ)، لَيْسَ لِلتَّكْثيرِ والتَّفْريقِ، وإنَّما هو لِلتَّعْديَةِ، وهو مُرادِفٌ لِلْهَمْزَةِ[2]، وأرى الاحتكام إلى السّياق، فما جاء بالقراءتين، وصحَّ المعنيان معًا؛ كانت كلُّ قراءة بمنزلة آية، وحُمِلا على التَّنوُّعِ في المعنى، وما امتنع اجتماعُ المعنيين فيهما؛ حملا على التَّوسُّع في اللُّغات.

الصّالحُ والمصلِحُ:

الصّالحُ: اسمُ فاعلٍ من (صلَح)، والصّالح عامل الصَّلاح الَّذي يقومُ به حاله في دنياه، والمصلِحُ: اسمُ فاعلٍ من (أصلح)، من أصْلَحَ الشَّيءَ: أقامه بعد فسادٍ، والمصلح هو فاعل الصَّلاح يقومُ به أمر من الأمور، فلا يقالُ: إنَّ (المصلح) أبلغُ من (الصالح) بحجَّةِ أنَّ الأخير يدلُّ على صلاح الذّات، والأوَّل يدلُّ على تعدّي صلاحه إلى غيره؛ لأنَّ ذلك غيرُ مُسَلَّم، فقد وُصف المصلحون مِنَ الأنبياء والمرسلين والأولياء بالصَّلاح كثيرًا[3]، وجاء الصَّلاحُ بمعنى الإصلاحِ، كقوله: ﴿فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝١٠﴾ [المنافقون: 10]، وقوله: ﴿يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝١١٤﴾ [آل عمران:

الصّالحُ: من عمل ما يستقيم به حالهُ، والمصلِحُ: من قوَّمَ الفساد بالإصلاح

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 575/1.

(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 98/4.

(3) ورد في القرآن والسُّنّة الصّحيحة، فمن القرآن قوله تعالى: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝٣٩﴾ [آل عمران: 39]، ﴿وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝٤٦﴾ [آل عمران: 46]، ومن السنَّة حديث المعراج، وفيه: «مرحبًا بالنّبيّ الصّالح»، رواه الشّيخان.

114]، ومقام الإصلاح غير مقامِ الصَّلاحِ، وجاء الوصفُ بالمصلحِ في مقاماتٍ محدودةٍ[1]، تشير إلى مجيئه عقبَ فسادٍ، فتدبَّر! قيل: ولهذا لا يوصَفُ سبحانه بأنَّه مصلِحٌ، ولا يوصف بأنَّه صالح[2].

(1) ورد (المصلح) اسم فاعل من (أصلح) مفردًا وجمعًا في خمسة مواضع، هي كالآتي: [البقرة: 11، 220، والأعراف: 170، هود: 117، والقصص: 19].

(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 308.

﴿وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسۡتَطِيعُونَ نَصۡرَكُمۡ وَلَآ أَنفُسَهُمۡ يَنصُرُونَ ١٩٧﴾ [الأعراف: 197]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

المناسبةُ بين كونِ اللهِ يتوَلَّى رسولَهُ والصّالحين، وأنَّ سواهُ لا ينصُرُ نفسَهُ ولا غيرَهُ

بعد ما بيَّن لهم أنَّ ناصرَهُ وظهيرَهُ هو اللّهُ وحده، قرَّرَ لهم أنَّ ما عداه ممّا يعبدونه من دونِ اللّه، أو ينادونهُ لدفع الضُّرِّ أو جلب النَّفع لا يستطيعون نصرَكم في أيِّ أمرٍ من الأمور، ولا ينصرون أنفسَهم إذا ما اعتدى عليهم أحدٌ.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تَدۡعُونَ﴾: الدُّعاءُ: هو أنْ تُميلَ الشَّيْءَ إلَيْكَ بصَوْتٍ وكَلامٍ يَكونُ مِنكَ، تَقولُ: دَعَوْتُ أدْعو دُعاءً، ودَعَوْتُهُ؛ إذا سألْتُهُ، وإذا استغثْتُهُ[1].

2) ﴿نَصۡرَكُمۡ﴾: المعنى المحوريُّ: الإمدادُ بما فيه زيادةٌ مناسبةٌ وقوَّة: كما تمدُّ النَّواصرُ الأوديةَ والتِّلاعَ بالماء، وكما يمدُّ الغيثُ الأرضَ، والعطاء، ومنه جاءتِ النُّصْرةُ - بالضَّمِّ: حُسْنُ المعونةِ وإعانةُ المظلوم، ونَصَرَ اللّه المُسْلِمينَ: آتاهُمُ الظَّفَرَ على عَدوِّهم، يَنْصُرُهُم نَصْرًا، وانْتَصَرَ: انْتَقَمَ[2].

المَعْنى الإجْماليُّ:

بيانُ أنَّ الأصنامَ المعبودةَ من دونِ اللهِ، لا تستطيعُ نصرَ نفسِها ولا غيرها

أي: وإنَّ من تدعونهم لنصْرِكم وجلْبِ النَّفعِ لكم ودفعِ الضُّرِّ عنكم عاجزون، فلا هم بالمستطيعين نصْرَكم ولا نصْرَ أنفسِهم[3]، وهذا تأكيدٌ بأنَّ هذه الأصنامَ أعجزُ من أن تنصر أحدًا، وأضعفُ

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (دعو).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والراغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (نصر).
(3) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 145/9.

من أن تعينَ من يستنصرُ بها؛ لأنَّها لا تستطيعُ نفع نفسِها، ولا ضرَّ غيرِها.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ (الواوِ) في قولهِ: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ﴾:

الواوُ عاطفةٌ على ما قبلَها، وهذا أيضًا أمرٌ مِنَ اللّٰه جلَّ ثناؤه لنبيِّه ﷺ أن يقولَه للمشركين، أي: قل لهم: إنَّ اللّٰه نصيري وظهيري، والَّذين تدعون - أنتم أيُّها المشركون - من دونِ اللّٰه من الآلهة، لا يستطيعون نصرَكم، ولا هم مع عجزهم عن نصرتِكم يقدرون على نصرةِ أنفسِهم، فأيُّ هذين أولى بالعبادة وأحقُّ بالألوهيَّة؟ مَنْ ينصرُ وليَّه، ويمنعُ نفسه ممَّن أراده، أم منْ لا يستطيعُ نصر وليِّه، ويعجزُ عن منْعِ نفسهِ ممَّن أرادهُ وبَغاه بمكروه؟[1].

شتّانَ بين ولايةِ اللهِ النّاجزةِ، وقوَّةِ الأصنامِ العاجزةِ

دلالةُ الاسمِ الموصولِ:

في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ﴾، اسمُ الموصولِ في محلِّ رفْعٍ على الابتداء، والخبرُ ﴿لَا يَسۡتَطِيعُونَ نَصۡرَكُمۡ﴾[2]، ودلالةُ الابتداء به في صدر الجملةِ المعطوفةِ على ما قبلَها؛ لفْتُ الانتباه إلى عجزِهم عن دفعِ الضُّرِّ عن أنفسِهم، فضلًا عن الدِّفاع عن غيرِهم.

ورودُ الموصولِ مبتدأً يُلْفِتُ إلى شدَّةِ عجْزِ الأصنام عن نفع أو ضرٍّ

نكتةُ استعمالِ اسمِ الموصولِ ﴿وَٱلَّذِينَ﴾:

(الَّذين) للعاقل، وتُستعمل في غيرِه لتنزيلِه منزلةَ العاقل[3]، وقد استُعملت هنا في غير العاقل: الأصنام وآلهتهم المزعومة، اعتدادًا بظاهرِ صنيع هؤلاءِ المشركينِ من دعاء الأصنام وعبادتهم، وهذا من قبيل استمالة الخصمِ، وإرخاءِ العِنان له في المجاراة؛ ليعثر

خروجُ الموصولِ عن معهودِ دلالتهِ من بابِ الاستمالةِ والإقناع

(1) ابن جرير، جامع البيان: 223/13.
(2) النّحاس، إعراب النّحاس: 85/2.
(3) عضيمة، دراسات لأسلوب القرآن الكريم: 182/8.

حيث يرادُ تبكيته، وإجراء الكلام مع الخصم على سَنَنٍ يبعث للمُنصِف أن يتفكَّرَ فيه، ويُذْعن للحقِّ.

إيثارُ الفعلِ ﴿تَدۡعُونَ﴾ دونَ مرادفاتِه:

يطلقُ الدُّعاء ويرادُ به العبادةَ، وهو في الأصلِ: النِّداءُ، وهو قسمان: عاديٌّ، وعباديٌّ، فما وجَّهه الدّاعي إلى مثلِه من طلبٍ يقدر المدعوُّ على إجابتِه، بمقتضى الأسبابِ العاديَّةِ؛ فهو دعاءٌ عاديٌّ، وما وجَّهه إلى من يعتقد أنَّ له قدرةً أو سلطانًا غيبيًّا فوق الأسباب العاديَّةِ؛ فهو العبادة، سواءٌ أكان المدعوُّ يستجيبُ له بقدرتِه الذّاتيَّةِ أم بتأثيره وشفاعتِه، ووساطته عند ذي القدرةِ الذّاتيَّةِ، والأوَّلُ دعاءُ الموحِّدين لا يتوجَّهون فيه إلّا إلى ربِّهم وحدَه، والثّاني دعاء المشركين الَّذين يتوجَّهون به إلى آلهتِهم[1]، وإيثارُ الفعلِ﴿تَدۡعُونَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ﴾؛ لأنَّ إنكارَ صنيعِهم في دعاء الأصنام، يدلُّ على شدَّة إنكارِ عبادتهم من بابٍ أولى؛ إذ إنَّ خلوَّ الخطابِ من لفظ (العبادة) إشارةٌ إلى عدم تصوُّر وقوعِها لغيرِ اللّٰهِ تعالى.

إذا كان دعاءُ ما يُعْبدُ مِنْ دون اللـه حرامًا، فعبادتُهُ آكدُ في الحرمة

دلالةُ التَّعبيرِ بالفعلِ المضارعِ:

أوثِر التَّعبيرُ بالفعل المضارع في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ﴾، وبالإضافةِ إلى ما يفيدُه المضارعُ من معنى التَّجدُّدِ والاستمرار الكائن في دعائِهم الأصنام، وعكوفِهم على هذه الحالةِ مدَّة طويلة، فيه معنى تقبيحِ الصّورة بعد استحضارها، فما أعظم غباءَ من يدعون أصنامًا، وعدمُ استحقاقها للدُّعاء والعبادة ظاهرٌ وجليٌّ لكلِّ ذي عينين!

الإصرارُ على دعاءِ الأصنامِ الجامدةِ من مظاهرِ العبادةِ الفاسدةِ

بلاغةُ حذْفِ المفعولِ به:

في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ﴾ حُذِف المفعول به، إجراء

(1) محمّد بشير الهنديّ، صيانة الإنسان عن وسوسة الشّيخ دحلان، ص: 435.

للفعلِ المتعدّي إجراء اللازم، للدَّلالة على التَّعجُّبِ من فعلِهم، وغضِّ الطَّرف عن أصنامهم، أو أنَّ حَذْفَ المفعولِ لإفادةِ بطلانِ عمومِ ما يُدْعَى من دونِ اللّه تعالى، وعدمِ استحقاقِه للذِّكر، فضلًا عن العبادةِ.

بطلانُ جميعِ ما يُدْعَى من دونِ اللهِ تنزيهٌ لله عن عبادةِ ما سواه

فائدةُ الجارِّ والمجرورِ في قوله: ﴿مِن دُونِهِۦ﴾:

قولهُ: ﴿مِن دُونِهِۦ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسۡتَطِيعُونَ نَصۡرَكُمۡ﴾، تفيد المجاوزةَ عن عبادة اللّه، حالٌ من الفاعل في (تدعون)، أي: تدعون حال كونكم مجاوِزينَ اللّه، وهو خطاب للمشركين لبيان الحقِّ الَّذي يرفضونه، ولتثبيت القول في نفوسهم، وترسيخ الحقِّ في قلوبهم، ليخرج منها الوهمُ الَّذي عبَّر عنه المولى بأنَّه دعاءٌ من دونه، واللّه يريدنا أن نرفعَ الهمَّةَ لعبادةِ الأعلى، لا عبادةِ من هو دونَهُ.

دعوةُ المعبوداتِ من دونِ اللهِ تفيدُ مجاوزتَهم عبادةَ اللهِ

السِّرُّ في كلمةِ ﴿دُونِهِۦ﴾:

عدلَ عن (غيره)؛ لِأنَّ غَيْرًا تَقَعُ على المُغايِر في جِنْسٍ أو في صِفَةٍ، فتَقولُ: اشْتَرَيْتُ ثَوْبًا وغَيْرَهُ، فيُحْتَمَلُ أنْ يَكونَ ثَوْبًا، ويُحْتَمَلُ أنْ يَكونَ غَيْرَ ثَوْبٍ، وقَلَّ مَنْ يَعْرِفُ هذا الفَرْقَ[1]، فأوثرَ التَّعبيرُ بـ﴿مِن دُونِهِۦ﴾ للدَّلالةِ على تجاوزهم الحدَّ في عبادةِ غيرِ اللّه تعالى، مع عدمِ وجود أدنى شبَهٍ بين المعبودِ بحقٍّ وبين آلهتِهم، أي: حالة كونكم مجاوزين اللّه، فإنَّ معنى (دونِ) أدنى مكانٍ من الشَّيءِ، ثمَّ استعير للتَّفاوت في الأحوالِ والرُّتب، ثم اتُّسع فيه؛ فاستعمل في كلِّ من تجاوز حدًّا إلى حدٍّ، وتخطَّى حكمًا إلى حكم[2].

الدَّلالةُ على تجاوزِهم الحدَّ، مع عدمِ وجودِ شبَهٍ بين المعبود بحقٍّ وبين آلهتِهم

فائدةُ إضافةِ كلمة (دون) إلى ضميرِ اسمِ الجلالة:

في قوله تعالى: ﴿مِن دُونِهِۦ﴾، أُضيفَتْ كلمةُ (دون) إلى ضميرِ

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 93/4.

(2) الهرريّ، تفسير حدائق الرّوح والرّيحان: 169/15.

اسمِ الجلالةِ، لبيانِ عجزِ آلهتِهم بعد توكيدِ نصرةِ اللّهِ وولايتِه لعبادِه الصّالحين، وفي ذينك الأمرين تجليةٌ لصفاتِ المعبود، وتحليةٌ للتَّوحيد المقصود، حيث "إنَّ دعاءكم إيّاها وعدمه سواءٌ، فهي لا تنفع ولا تضرُّ، ولا تهدي ولا تهتدي، أمّا الرَّبُّ المعبود الَّذي بيده كلُّ شيءٍ؛ فهو اللّهُ"[1].

بيانُ تهافتِ الآلهةِ المزعومةِ، بعدَ توكيدِ نصرةِ اللهِ للصّالحين

إيثارُ النَّفي بالأداة (لا) دون (ما):

في قوله: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ﴾، أوثرَ النَّفيُ بـ(لا)؛ لأنَّها أدلُّ على دوامِ النَّفي وطوله، وأنَّها للطّول، والمدُّ الَّذي في لفظها طال النَّفي بها وامتدَّ، وتنفي الحالَ المستمرَّ النَّفي في الاستقبال، فالإتيانُ بـ (لا) مُتَعيَّن هنا[2]، فناسبَهُ النَّفي بـ (لا) الَّتي ينفي بها المستقبل والحال، ولم ينفِ بـ (ما) الخاصَّة بالحال.

اختيارُ الأداةِ المناسبةِ من دقَّةِ السّياق القرآنيِّ في التَّعبيرِ عن المعاني

سرُّ التَّعبيرِ بالفعلِ ﴿يَسْتَطِيعُونَ﴾ دون مرادفاتِه:

أوثرَ التَّعْبيرُ بالفعل ﴿يَسْتَطِيعُونَ﴾؛ لأنَّ الاستطاعةَ أخصُّ من القدرة، فنفيُها نفيٌ للقدرة، فليس في طاقتِهم ذلك، أي: ليس لديهم استشعارُ القدرة، ولا يتأتَّى منهم عملٌ، وسيأتي الفرقُ بين الاستطاعةِ والقدرةِ.

نفيُ الاستطاعةِ نفيٌ للقدرةِ، ولا يكون نفي القدرة نفيًا للاستطاعة

دلالةُ صيغةِ المضارعِ:

في قوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ﴾، صيغةُ المضارعِ تفيدُ الاستمرارَ التجدُّديَّ عند أهل المعاني، وصيغةُ الاستفعال للإشعار بعجزِهم عن ذلك، ودخول النَّفي عليه يدلُّ على استمرارِ النَّفي، وفيه إشارةٌ إلى زيادة التَّهكم والتَّوبيخ لما هم عليه من عبادة الأصنام.

الفعلُ المضارعُ مكرَّسٌ للاستمرارِ التَّجدُّديِّ، والإشعارِ بعجزِهم

سرُّ العدولِ عن صيغة (لا ينصرونكم) إلى ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ﴾:

نفيُ استطاعةِ نصرِهم أبلغُ من نفي نصرهم وهي من البيانِ

(1) إبراهيم القطّان، تيسير التّفسير: 94/2.
(2) ابن قيّم الجوزيّة، بدائع الفوائد: 242/1.

المستوعب للدَّلالةِ؛ إذْ لا طاقة لهم على ذلك، ولو بمثقال ذرَّةٍ، ولا بوجهٍ من وجوه النُّصرة[1]، ويدخل في ذلك، الأمرُ المذكور دخولًا أوَّليًّا[2].

نفيُ الاستطاعةِ نفيٌ لما عداها

نكتةُ إضافةِ (نصر) إلى ضميرِ المخاطَبين:

في قوله: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ﴾، أُضيفَ (نصر) إلى ضمير المخاطبين؛ لأنَّهم المعنيّون بالخطابِ لتوبيخِهم وتبكيتِهم على عبادة أصنام عاجزة عن نصْرِهم في أيِّ أمرٍ من الأمور، بل هي غيرُ قادرةٍ عن فعلِ أيِّ شيءٍ، وللتَّوصُّل بالإضافةِ إلى عطفِ ما بعدَهُ عليه.

توبيخُ القرآنِ على عبادةِ الأصنامِ، دليلٌ على بشاعةِ الفعلِ

دلالةُ عطفِ جملة: ﴿وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ﴾ على ما قبلَها:

عُطِفَت جملةُ: ﴿وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ﴾ على ما قبلَها؛ للتَّرقّي في بيان عجزِ معبوداتهم من أعلى شيءٍ يطلبونه منهم: وهو نصرُهم، إلى أدنى شيءٍ: وهو نصْرُ أنفسهم، أي: ولا أنْ يَنْصُروا أنْفُسَهُم على مَنْ يُحَقِّرُ أمْرَهُم، أو يَسْلُبُهُم شَيْئًا مِمّا وُضِعَ مِنَ الطّيبِ أوِ الحُليِّ عليهم، وقد كَسَّرَ إبْراهيمُ عليه السلام الأصْنامَ، فجَعَلهم جُذاذًا، فما اسْتَطاعوا أنْ يَدْفَعوهُ عَنْ أنْفُسِهم، ولا أنْ يَنْتَفِعوا منه لَها[3].

تعانقُ المعاني في الجملتينِ المتلاحقتينِ ترقٍّ في بيانِ عجْزِ معبوداتِهم

علَّةُ التَّكرارِ لما سبق:

قولهُ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ﴾، وهذا المعنى مذكورٌ في قوله: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ۝١٩١ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ۝١٩٢ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ ۚ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَٰمِتُونَ ۝١٩٣﴾ [الأعراف: 191 - 193]، فالمُرادُ منه وصْفُ الأصْنام بهذه الصِّفاتِ، وهذه الأشْياءُ قد صارَتْ مَذْكورَةً في الآياتِ المُتَقَدِّمَةِ، فما الفائِدَةُ في تَكْريرِها؟ قالَ الواحِديُّ: إنَّما أُعيدَ هذا المعنى؛ لِأنَّ الأوَّلَ

الأوَّلُ للتَّقْريعِ، والثّاني للفَرْقِ بين مَنْ تَجوزُ لَهُ العِبادَةُ، ومَنْ لا تَجوزُ له

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 199/8.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 136/5.
(3) رشيد رضا، تفسير المنار: 443/9.

مَذْكورٌ على جِهَةِ التَّقْريعِ، وهذا مَذْكورٌ على جِهَةِ الفَرْقِ بين مَنْ تَجوزُ لَهُ العِبادَةُ، وبين مَنْ لا تَجوزُ، كَأَنَّهُ قيلَ: الإلَهُ المَعْبودُ يَجِبُ أنْ يَكونَ بحَيْثُ يَتَوَلَّى الصّالِحينَ، وهذه الأصْنامُ لَيْسَتْ كَذلك، فلا تكون صالِحَةً لِلْإلَهيَّةِ[1]. وقال ابن عطيَّة: "إنَّما كرَّر؛ لأنَّ أمْرَ الأصنام وتعظيمها كان متمكِّنًا من نفوسِ العرب في ذلك الزَّمن، ومستوليًا على عقولها؛ فأوعب القول في ذلك لطفًا من الله تعالى بهم"[2]، وقد كرَّر سبحانه هذا لمزيد التَّأكيد والتَّقرير، ولما في تكرار التَّوبيخ والتَّقريع، من الإهانةِ للمشركين والتّنقُّص بهم، وإظهارِ سخفِ عقولهم، وركاكة أحلامهم[3].

فائدةُ تقديمِ المفعولِ على الفعل:

الاختصاصُ في المعنى، والتَّشاكلُ في المبنى، من البيانِ البليغِ

في قوله: ﴿وَلَآ أَنفُسَهُمۡ يَنصُرُونَ﴾، تقديمُ المفعولِ على فعلِه لإفادة الاختصاصِ، وله هنا معنى لطيفٌ، وهو أنَّهم لو كان لهم طاقةٌ وقدرةٌ على الدِّفاع؛ لدافَعوا عن أنفسهم، وهذا لم يحدث، كما أنَّ التَّقديمَ هنا من أجل المشاكلةِ لرؤوس الآي، ومراعاةِ حسن الانتظام، واتِّفاق أعجاز الكلم، فيكون في التَّقديم مراعاة لجانب اللَّفظ والمعنى جميعًا، فالاختصاص أمرٌ معنويٌّ، والتَّشاكل أمرٌ لفظيٌّ[4].

بلاغةُ جناسِ الاشتقاقِ في ﴿نَصۡرَكُمۡ﴾ و﴿يَنصُرُونَ﴾:

الإشارةُ إلى انتفاءِ نصْرِهم بسبب استحكام عجزِهم

مجيءُ فعلِ كلٍّ من ﴿نَصۡرَكُمۡ﴾ و﴿يَنصُرُونَ﴾ من مادَّة (نصر)؛ لأنَّهما يرجعان في اللَّفظ إلى أصلٍ واحد، وفيه إشارةٌ إلى انتفاءِ ذَيْنِكَ الأمْرَيْنِ (نصرهم، ونصر أنفسهم)، لانتفاء الأصل؛ إذْ إنَّهم عاجزونَ بالكليَّة، كما يبدو بديع هذا الجناس في لذَّة وقعه على السَّمع؛ لسهولتهِ وانسجامه.

(1) الواحديّ، البسيط: 536/9.
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 184/6.
(3) القنَّوجي، فتحُ البيان في مقاصد القرآن: 107/5.
(4) المؤيّد بالله، الطّراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز: 37/2.

المشاكلةُ في تسميَةِ دفع الضُّرِّ نصرًا:

بيانٌ لعجزِهم عن إيصالِ المنافعِ الوجوديَّةِ والعدميَّةِ إلى عبدتهم وإلى أنفسِهم

في قوله: ﴿وَلَآ أَنفُسَهُمۡ يَنصُرُونَ﴾، أي: إذا اعتراهم حادثةٌ من الحوادث، لا يدفعونها عن أنفسهم، وإيرادُ النَّصر للمشاكلة[1]، وهو مجازٌ في لازم معناه، وهذا لتأكيد العجز والاحتياج المنافيين لاستحقاق الألوهيَّةِ، وهذا بيانٌ لعجزهم عن إيصال منفعةٍ ما من المنافع الوجوديَّةِ والعدميَّةِ، إلى عبدتهم وأنفسِهم، بعد بيانِ عجزِهم عن إيصال منفعةِ الوجود إليهم، وإلى أنفسهم[2].

نكتةُ استعمالِ صيغةِ المضارعِ:

إفادةُ استمرارِ النَّفي، والإشارةُ إلى استحضارِ الصّورةِ

في قوله: ﴿وَلَآ أَنفُسَهُمۡ يَنصُرُونَ﴾، جاء الفعلُ بصيغةِ المضارع المنفيِّ، لإفادة استمرارِ النَّفي المفهومِ في قوله: ﴿لَا يَسۡتَطِيعُونَ﴾، كما أنَّ فيه إلماحةً إلى استحضارِ صورة المضارع، وهي صورةٌ متكرِّرة، لا يكاد يمرُّ يومٌ حتَّى يشاهدوها، وهي صورةُ عجزِ الأصنام عن دفع الضُّرِّ عن أنفسِها، أيْ: "وَهُم على كَوْنِهم مَخْلوقينَ غَيْرَ خالِقينَ لِشَيْءٍ، لا يَسْتَطيعونَ لِعابِديهم نَصْرًا على أعْدائِهم، ولا يَسْتَطيعونَ لِأنْفُسِهم نَصْرًا على مَنْ يَعْتَدي عَلَيْها بإهانَةٍ لَها، أو أخْذِ شَيْءٍ مِن طيبِها أو حُليِّها، كَما قالَ: ﴿وَإِن يَسۡلُبۡهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيۡـٔٗا لَّا يَسۡتَنقِذُوهُ مِنۡهُۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلۡمَطۡلُوبُ ٧٣﴾ [الحج: 73]، أيْ: فهُم يَحْتاجونَ إلَيْكُم في تَكْريمِهم، وأنْتُم لا تَحْتاجونَ إليهم، بَلْ أنْتُمُ الَّذينَ تَدْفَعونَ عنهم، وتَنْصُرونَهُم بالنِّضالِ دونَهُمْ"[3].

علاقةُ الفاصلةِ بالسّياقِ، ونوعها:

جاءتِ الفاصلةُ قاصمةً لظهورِ المستنصرينَ بالآلهةِ العاجزةِ

في قوله تعالى: ﴿وَلَآ أَنفُسَهُمۡ يَنصُرُونَ﴾، جاءت الفاصلةُ فاصلةً للآية الكريمة متناسبةً مع المعنى؛ حيث إنَّ السّياق في الرَّدِّ على

(1) أبو السعّود، إرشاد العقل السّليم: 305/3.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 134/5.
(3) رشيد رضا، تفسير المنار: 438/9.

هؤلاء المشركين في زعمهم أنَّ لمعبوداتهم حقًّا في العبوديَّةِ، وأنَّ لهم قوَّةً ومنَعة بهم، فكانتِ الفاصلةُ كالقاصمة؛ إذْ إنَّها نفتْ أن يكون لهم أدنى قوَّةٍ، وهذه فاصلة مُصَدَّرة؛ لتقدُّم كلمة (نصر) قبلها[1].

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الدُّعاءُ والعبادةُ:

العبادةُ: اسمٌ جامعٌ لما يحبُّهُ اللهُ ويرضاهُ، والدُّعاء: طلبُ عنايتِه ومعونتِه

حلَّتِ العبادةُ محلَّ الدُّعاء في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ۝٦٠﴾ [غافر: 60]، وأخبر النَّبيُّ ﷺ: «أنَّ الدُّعاءَ هو العبادة»[2] ولكن يبقى لكلِّ لفظٍ معناه الخاصُّ به، فالعبادة: اسمٌ جامع لكلِّ ما يحبُّهُ اللّه ويرضاه من الأقوال والأعمال، الظّاهرة والباطنة[3]، فهي كلُّ ما كان طاعةً للّه تعالى، أو قربة إليه، أو امتثالًا لأمره، ولا فرق بين أن يكون فعلًا أو تركًا[4]. والعبادةُ أنواعٌ كثيرة: منها الخوفُ والرَّجاء والتَّوكُّل والرَّغبة والرَّهبة، والإنابة والاستعانة والاستغاثة، فالدُّعاء لغةً: الطَّلبُ والابتهال، يقال: دعوتُ اللّه أدعوه دعاء: ابتهلت إليه بالسُّؤال، ورغبت فيما عنده من الخيرِ، ودعا اللّه: طلبَ منه الخيرَ ورجاه منه، ودعا لفلان: طلب الخيرَ له، ودعا على فلان: طلبَ الشَّرَّ، والدُّعاء في الاصطلاح هو: "استدعاءُ العبدِ ربَّه ﷻ العنايةَ، واستمدادُه إيّاه المعونةَ"[5].

الاستطاعةُ والقدرةُ:

الاستطاعةُ أخصُّ من القدرةِ، فكلُّ مستطيعٍ قادرٌ، وليس كلُّ قادرٍ بمستطيعٍ؛ لأنَّ الاستطاعةَ: اسم لمعانٍ يتمكَّن بها الفاعل ممّا يريده

الاستطاعةُ أخصُّ من القدرةِ، وكلُّ مستطيعٍ قادرٌ، وليس كلُّ قادرٍ مستطيعًا

(1) وهو أن تكون الفاصلة ذاتها متقدِّمة في الآية، وعلى هذا، فدلالة التَّصدير دلالة لفظيَّة.
(2) أخرجه البخاريّ في الأدب المفرد، برقم: (714)، والتِّرمِذيّ في السنن، برقم: (2969)، وإسناده صحيح، قال الإمام النّوويّ في الأذكار: 333/1، قال التّرمذي: حديث حسن صحيح.
(3) ابن تيميّة، العبوديَّة، ص: 8.
(4) أبو يعلى، العدَّة في أصول الفقه، ص: 163.
(5) الخطّابي، شأن الدّعاء، ص: 4.

من أحداثِ الفعلِ، وهي أربعةُ أشياء: إرادته للفعلِ، وقدرته على الفعل؛ بحيثُ لا يكون له مانعٌ منه، وعلمه بالفعل، وتهيُّؤ ما يتوقَّف عليه الفعل[1]، والاستطاعةُ انقيادُ الجوارحِ للفعل، وقد يعبَّر بنفي الاستطاعةِ عن ثقلِ الفعل على الجارحة، كقوله تعالى: ﴿وَكَانُواْ لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴿١٠١﴾﴾ [الكهف: 101]، أي: إنَّه يثقل عليهم استماع القرآن، ليس أنَّهم لا يقدرون على ذلك، وأنت تقول: لا أستطيعُ أنْ أبصر فلانًا؛ تريد أنَّ رؤيته تثقُل عليك، وجاءت الاستطاعةُ بمعنى الإجابةِ، وهو قوله تعالى: ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ﴾، أي: هل يجيبك إلى ما تسأله؟ والقدرة: هي ما أوجبَ كون القادر عليه قادرًا، ولذلك لا يوصف اللّٰهُ تعالى بأنَّه مستطيعٌ، ويوصف بأنَّه قادرٌ على كذا لكنَّه لا يريده، والإنسان يوصف بأنَّه قادرٌ على أمرٍ، ولكن يمنعه منه مانع، أو لا علم له به أن يعوزه كذا، فظهر أنَّ القدرة أعمُّ من الاستطاعة، والاستطاعةُ أخصُّ من القدرة[2].

(1) الكفويّ، الكليّات: 161/1، 47/2، والرّاغب، المفردات، ص: 461، 595.
(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 48.

﴿وَإِن تَدۡعُوهُمۡ إِلَى ٱلۡهُدَىٰ لَا يَسۡمَعُواْۖ وَتَرَىٰهُمۡ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ وَهُمۡ لَا يُبۡصِرُونَ ١٩٨﴾ [الأعراف: 198]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الرَّبطُ بين عجزِ الآلهة عن النَّفع والضُّرِّ، وبين كونِها لا تسمعُ ولا تبصرُ شيئًا

لمّا ذكرَ عجزَ آلهتِهم الَّتي يدعونها من دون اللّهِ عن جلبِ النَّفع أو دفع الضُّرِّ عن أنفسها، بلْه عن غيرها - ترقَّى في بيان عجزها عن السَّماع والإبصار، فلا يُرجى منها خير ألبتة، فبَعْدَ أنْ نَفَى قُدْرَتَهُم على النَّصْرِ؛ قَفَّى عليه بنَفْيِ قُدْرَتِهم على الإرْشادِ إليه[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَنظُرُونَ﴾: مِنَ النَّظرِ، وهو تَأمُّلُ الشَّيْءِ ومُعايَنَتُهُ، ثُمَّ يُسْتَعارُ، ويُتَّسَعُ فيهِ، فيُقالُ: نَظَرْتُ إلى الشَّيْءِ أنْظُرُ إليه؛ إذا عاينْتُهُ، والنَّظَرُ: تَقْليبُ البَصَرِ والبصيرةِ لإدراكِ الشَّيءِ ورؤيَتِه وفحصه، وقد يطلق، ويرادُ به تصويب عين الشَّخص أو التِّمثال إلى شيءٍ دون إدراك، وهو المراد هنا[2].

2) ﴿يُبْصِرُونَ﴾: من البصر، يُقالُ: رَأيْتُهُ لَمْحًا باصِرًا، أيْ: ناظِرًا بتَحْديقٍ شَديدٍ. ويُقالُ: بَصُرْتُ بالشَّيْءِ؛ إذا صرْتُ به بَصيرًا عالِمًا، وأبْصَرْتُهُ؛ إذا رأيْتُهُ[3].

المَعْنى الإجْماليُّ:

بيانُ أنَّ الأصنامَ لا تسمعُ هدايةً، ولا تبصرُ بأعينِها الجامدةِ شيئًا

أي: وإن تدعوا هذه الأصنامَ إلى الهدايةِ والرَّشادِ، لا يسمعوا دعاءَكم، فضلًا عن المساعدة والإمداد، وتراهم يقابلونَكَ بعيونٍ مصوَّرةٍ، كأنَّها ناظرةٌ، وهي جمادٌ لا تبصر؛ لأنَّ لهم صورةَ الأعينِ، وهم لا يرون بها شيئًا.

(1) رشيد رضا، تفسير المنار: 443/9.
(2) ابن فارس، معجم المقاييس، والرّاغب، المفردات: (نظر).
(3) ابن فارس، معجم المقاييس، والرّاغب، المفردات: (بصر).

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ الواوِ في قولِهِ: ﴿وَإِن تَدۡعُوهُمۡ إِلَى ٱلۡهُدَىٰ﴾:

الواو عاطفةٌ على جملة: ﴿لَا يَسۡتَطِيعُونَ نَصۡرَكُمۡ﴾، لبيان عجزِهم عمّا هو أدنى من النَّصر، وهو مجرَّدُ السَّماع، والمعنى: وإن تَدْعوهُم إلى أن يهدوكم إلى ما تحصِّلون به مقاصدَكم على الإطلاقِ، فإنَّهم لاَ يَسْمَعون لكم دعاءً، ولا يلبّون لكم طلبًا، فضلًا عن المساعدة والإمدادِ[1].

من دعا غيرَ الرَّحمنِ، آبَ بالخيبةِ والخسرانِ

إيثارُ (إن) على (إذا):

في قوله تعالى: ﴿وَإِن تَدۡعُوهُمۡ إِلَى ٱلۡهُدَىٰ لَا يَسۡمَعُواْۖ﴾ أوثرت (إن) على (إذا)؛ لأن استعمال (إن) للتَّنبيه إلى ضعف الاحتمالِ، والشَّكِّ في وقوع الفعلِ؛ للتَّلميح بسفاهة من يقدِمُ على دعوة الأصنامِ، وحماقةِ من يفعلُ ذلك دونَ أدنى تأمُّل في عجزها.

من دعا من لا يفقَهُ ولا يسمعُ، لا يستحقُّ أن يحترمَ ولا أن يُرفعَ

دلالةُ فعلِ الشَّرطِ: ﴿وَإِن تَدۡعُوهُمۡ﴾:

أوثرَ التَّعبيرُ بالفعل ﴿تَدۡعُوهُمۡ﴾ دونَ (تسألوهم) أو (تستهدوهم)؛ للدَّلالة على نفي القليل، وهو الدُّعاء، ممّا يكون أدلَّ على نفي الكثير، وهو ما فوقه من السُّؤالِ أو طلب الهدايةِ، ولأنَّ وقوعَ فعل الدُّعاءِ شرطًا - دليلٌ على تكراره منهم، فالعجبُ كلُّ العجب ممَّن يعلم أنَّه مهما يكن من دعاء لهذه الأصنام، فإنَّها لا تسمع، فضلًا عن أنَّها لا تستجيب، ولم يُجرَّبْ عليها أنَّها هَدَت طالبًا للهدايةِ في يومٍ ما.

نفيُ القليلِ أدلُّ على نفي الكثير، ومعدومُ النَّفعِ لا ينفعُ

فائدةُ صيغةِ المضارعِ:

في قوله تعالى: ﴿وَإِن تَدۡعُوهُمۡ إِلَى ٱلۡهُدَىٰ لَا يَسۡمَعُواْۖ﴾، استُعْمِل الفعل المضارع؛ للدَّلالةُ على تجدُّد دعائهم واستمراره، كما يشيرُ إلى دعوةِ هؤلاء المشركين إلى تدبُّر أمرهم، فلو نظروا إلى أنفسِهم في مرآةِ الحقيقة لازدرَوا أنفسَهم؛ إذْ كيف يُطيقون استحضارَ

تجدُّدُ دعائِهم واستمرارُهُ، استجداءٌ من المؤوس منهم

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 307/3.

صورتهم - وهم الملأ - يُطأطِئون رؤوسَهم لأصنامٍ لا تسمع، طالبين منهم هداهم؟

سرُّ التَّعبيرِ عن المفعولِ بالضَّميرِ المتَّصلِ:

دعوةُ الأصنامِ إلى الهدى، زيادةٌ في التَّهكُّم والاستهزاء

في قوله تعالى: ﴿وَإِن تَدۡعُوهُمۡ إِلَى ٱلۡهُدَىٰ﴾، التَّعبير عن المفعول - الأصنام أو المشركين - بالضَّميرِ المتَّصل نوع تهكُّم؛ إذْ كيف يعدّون هذه الأصنامَ أهلًا للخطاب، فتُدعَى إلى الهدى؟ يقولُ جلَّ ثناؤه لنبيِّه محمَّدٍ ﷺ: قل للمشركين: وإن تدعوا - أيُّها المشركون - آلهتَكم إلى الهدى، وهو الاستقامةُ إلى السَّداد، لا يسمعوا[1]، وذهب الحسنُ إلى أنَّ المرادَ بهذا: المشركون، فيكون المعنى: وإن تدعوا - أيُّها المؤمنون - المشركين إلى ﴿ٱلۡهُدَىٰ لَا يَسۡمَعُواْۖ﴾، أي: لا يعقلوا بقلوبهم[2].

العدولُ عن (وإنْ تهدوهُمْ):

انتفاءُ الدَّعوةِ والاستجابةِ دليلٌ على يأس هؤلاء، وعجز أولئك

أوثرَ التَّعبيرُ بقوله: ﴿وَإِن تَدۡعُوهُمۡ إِلَى ٱلۡهُدَىٰ﴾، وعدلَ عن (وإنْ تهدوهُمْ) وهو أخصرُ؛ لاستبعاد حصول مجرَّد الدَّعوة منكم، واستحالةِ وقوع الاستجابةِ منهم، ولا يستقيم وضع (تهدوهم) موضعه؛ لأنَّ فيه رائحةَ القدرةِ على السَّماع وهذا غيرُ مُتَحَقِّقٍ.

بلاغةُ التَّعبيرِ بـ﴿ٱلۡهُدَىٰ﴾ بدلًا من غيرِه:

الدَّلالةُ على ما في دعوتِهم من الإغراءِ لما فيهِ نفعُهم ونجاتهم

أوثرَ التَّعبيرُ بـ﴿ٱلۡهُدَىٰ﴾ للدَّلالةِ على ما في دعوتِهم من الإغراءِ لما فيه نفعهُم وصلاحهُم، والهُدى على هذا الوَجْهِ ما يُهْتَدَى إليه، والمَقْصودُ مِن ذِكْرِه أنَّهُم لا يَسْتَجيبونَ إذا دَعَوْتُموهُم إلى ما فيهِ خَيْرُهُم، فيُعْلَمُ أنَّهُم لَوْ دَعَوْهُم إلى غَيْرِ ذلك؛ لَكانَ عَدَمُ اتِّباعِهم دَعْوَتَهُم أولَى[3].

سرُّ العدولِ عن عبارة (لا يهتدوا):

عُدِلَ عن قول: (لا يهتدوا) إلى قول: ﴿لَا يَسۡمَعُواْۖ﴾، لأنَّ نفيُ

(1) ابن جرير، جامع البيان: 324/13.
(2) الواحديّ، التّفسير البسيط: 537/9.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 218/9.

السَّماعِ عنهم أبلغُ من نفي الاهتداءِ؛ إذ إنَّه أدلُّ على عجزِ آلهتِهم، والمبالغةُ في نفورِ الكفّار وعدمِ استجابتهم، وذلك لأنَّ قوله: ﴿لَا يَسۡمَعُواْۖ﴾ يحتملُ أن يريدَ الأصنامَ، فيكون تحقيرًا لهم، وردًّا على من عبدها، فإنَّها جمادات لا تسمع شيئًا، فيكون المعنى كالَّذي تقدَّمَ، أو يريد الكفّار، ووصفهم بأنَّهم لا يسمعون، يعني: سماعًا ينتفعونَ به، لإفراطِ نفورِهم، أو لأنَّ اللّه طبعَ على قلوبِهم[1].

نفيُ السَّماعِ مطلقًا أكثرُ دلالةً على عجزِ آلهتِهم المزعومة

سرُّ المخالفةِ بين قَوْلِه: ﴿لَا يَسۡمَعُواْۖ﴾ وقَوْلِه قبلُ: ﴿لَا يَتَّبِعُوكُمۡۚ﴾:

ذكرَ في الآيةِ السّابقةِ قوله: ﴿لَا يَتَّبِعُوكُمۡۚ﴾؛ لبيان عجزِهم عمّا هو أدنى من النَّصرِ المنفي عنهم وأيسر، وهو مجرَّدُ الدَّلالة على البغيةِ والإرشاد إلى طريق حصولها من غير أن تحصلَ للطّالب، وذكر هنا قوله: ﴿لَا يَسۡمَعُواْۖ﴾ أي: دعاءكم فضلًا عن المساعدة والإمداد، وهذا أبلغُ من نفي الاتِّباع، وقال الواحديُّ: إنَّ ما مرَّ للفرقِ بين من تجوز عبادتُه وغيره، وهذا جوابٌ وردٌّ لتخويفهم له ﷺ بآلهتهم[2].

بيانُ أنَّ من عجزَ عن الدَّلالةِ والإرشاد، فهو عاجزٌ عن المساعدةِ والإمدادِ

دلالةُ الواوِ في قولِه: ﴿وَتَرَىٰهُمۡ يَنظُرُونَ﴾:

الواو استئنافيَّةٌ[3]، جُمْلَةٌ مبتدِئَةٌ لِبَيانِ عَجْزِهم، أو حاليَّةٌ، أيْ: والحالُ أنَّكَ تَراهُم يَنْظُرونَ إلَيْكَ حال كَوْنِهم لا يُبْصِرونَ[4]، "أي: وترى الأصنامَ رأيَ العين يُشبهون النّاظرين إليك، ويخيَّلُ إليك أنَّهم يبصرونك، لمّا أنَّه صنعوا لها أعينًا مركَّبةً بالجواهر المضيئة المتلألئة، وصوَّروها صورةَ مَنْ قلبَ حدَقتَه إلى الشَّيء ينظُر إليه، والحالُ أنَّهم غيرُ قادرين على الإبصار"[5].

ماذا ينفعُ من ينظر؛ إذا نظر، ولم يبصر

(1) ابن جزّي، التّسهيل لعلوم التّنزيل: 317/1.
(2) الواحديّ، التَّفسيرُ البسيط: 537/9، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 307/3، والآلوسيّ، روح المعاني: 134/5، 136.
(3) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 516/3.
(4) الشّوكانيّ، فتح القدير: 317/2.
(5) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 307/3.

دلالةُ الخطابِ في الفعل ﴿وَتَرَىٰهُمۡ﴾:

توجيهُ الخِطابِ إلى كلِّ فردٍ من المشركينَ، أو خطابٍ إلى النَّبيِّ الأمين

في قوله: ﴿وَتَرَىٰهُمۡ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ﴾، توحيدُ الضَّمير في (تراهم) مع رجوعِه إلى المشركين لتوجيهِ الخِطابِ إلى كلِّ واحدٍ منهم، لا إلى الكلِّ من حيثُ هو كلُّ الخطاباتِ السّابقةِ تنبيهًا على أنَّ رؤيةَ الأصنامِ على الهيئة المذكورةِ لا تتسنَّى للكلِّ معًا، بل لكلِّ من يواجهها[1].

دلالةُ التَّشبيهِ البليغِ في الآية:

أسوأُ العمى نظرٌ دونَ بصرٍ، ومن عميتْ بصيرَتُه لم ينفعْهُ ناظرهُ

في قولهِ: ﴿وَتَرَىٰهُمۡ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ وَهُمۡ لَا يُبۡصِرُونَ﴾، لَيْسَ المُرادُ مِنَ النَّظَرِ حَقيقَةَ النَّظَرِ، إنَّما على التَّشبيه: وتَراهُم يَنْظُرونَ إلَيْكَ، أيْ: كَأنَّهُم يَنْظُرونَ إلَيْكَ، كَقَوْلِه تَعالَى: ﴿وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ﴾ [الحجّ: 2]، أيْ: كَأنَّهُم سُكارَى، هذا قَوْلُ أكْثَرِ المُفَسِّرينَ[2]، أي: يُشْبِهون النّاظرين إليك؛ لأنَّهم صوَّروا أصنامهم بصورةِ مَن قلَب حدَقتَهُ إلى الشَّيء ينظرُ إليه، وهُم لا يُبْصِرونَ، وهم لا يدركون المرئيَّ[3]، وهو من التَّشْبيه البليغ البديع بحَذْف حرف التَّشْبيهِ للْمُبالَغَة، فإن حَمَلْناها على المُشْرِكينَ؛ فالمعنى: أنَّهُم وإنْ كانوا يَنْظُرونَ إلى النّاسِ إلّا أنَّهُم لِشدَّةِ إعْراضِهم عَنِ الحَقِّ لَم يَنْتَفِعوا بذلك النَّظَرِ والرُّؤْيَةِ، فصاروا كَأنَّهُم عُمْيٌ[4]، فإن كان هذا من وصف الأصنام، فقوله: ينظرون، مجازٌ، وقوله: لا يبصرون، حقيقةٌ؛ لأنَّ لهم صورةَ الأعين، وهم لا يرون بها شيئًا، وإن كان من وصف الكفّار، فـ﴿يَنظُرُونَ﴾ حقيقةٌ، و﴿لَا يُبۡصِرُونَ﴾ مجازٌ على وجه المبالغةِ، كما وصفهم بأنَّهم لا يسمعون[5]؛ فإنَّهم كانوا ينظرون إلى صورةِ النَّبيِّ ﷺ بالحواسِّ الظّاهرة، ولا يبصرون صورةَ نبوَّتِه ومعناه بالحاسَّةِ الباطنةِ الَّتي

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السَّليم: 306/3، 307.
(2) البغويّ، معالم التنزيل: 316/3.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 189/2.
(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 434/15.
(5) ابن جزّي، التّسهيل لعلوم التّنزيل: 317/1.

هي بصرُ القلب[1]، أو أنَّها استعارةٌ تمثيليَّة؛ فقد شُبِّهت حالهم الَّتي يلوح لهم فيها الحقُّ ولا يعرفونه، ويبرق لهم النّور ولا يعرفونه، بحال الَّذين ينظرون، ولا يبصرون؛ لأنَّها رؤيةٌ لا ترى الحقَّ، ولا تضع أيديهم عليه، فهم في ضلالٍ مبينٍ، واللّه ﷻ يهدي من يشاءُ إلى صراطٍ مستقيم[2].

إيثارُ الفعلِ ﴿وَتَرَىٰهُمْ﴾ دون مرادفاتِه:

اتِّساعُ المعنى، وائتلافُ اللَّفظِ مع المعنى، من بليغِ البيان

في قوله تعالى: ﴿وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ﴾، أوثرَ التَّعبيرُ بالفعل ﴿وَتَرَىٰهُمْ﴾ لاتِّساع معناهُ، فهو إمّا من الرُّؤية البصريَّة، وإمّا بمعنى الحسبان، فمَعْناهُ: تَحْسَبُهُم أنَّهُم يَنْظُرونَ إلَيْكَ معَ أنَّهُم في الحَقيقَةِ لا يَنْظُرونَ، أيْ: تَظُنُّ أنَّهُم يَنْظُرونَكَ معَ أنَّهُم لا يُبْصِرونَكَ[3]، مجيءُ فعلِ الرُّؤية متناسبٌ مع النَّظرِ والبصرِ، وكلُّها من وادٍ واحدٍ، وهو من ذروة البلاغةِ وقمَّة البيانِ؛ حيثُ ائتلافُ الألفاظِ مع المعاني.

سرُّ اختيارِ صيغةِ المضارعِ:

من عميَ عن الحقائقِ؛ اضطربَ ميزانُهُ في التَّقييمِ والتَّرجيحِ

في قوله تعالى: ﴿يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾، صيغةُ المضارعِ هنا تدلُّ على استمرارِ هذه الرُّؤيةِ؛ لاستمرارِ ما هم عليه مِنَ النَّظر، دون البصرِ، سواءٌ أكان المقصودُ الأصنامَ أم الكفّارَ، "أمّا الأصنامُ؛ فلا تسمع، ولا تبصر، ولا تعقل شيئًا أبدًا، إذ كانت جمادًا لا حياة فيه، ولا شعورًا له، وأمّا المشركون، وإن كانت لهم آذان تسمعُ، وعيونٌ تبصرُ، وعقولٌ تعقلُ، فإنَّهم لا يسمعون إلّا أصواتًا، ولا يبصرون إلّا صورًا، ولا يعقلون إلّا أوهامًا"[4].

التَّعبيرُ عن المفعولِ بضميرِ الغائبينَ:

في قوله تعالى: ﴿وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ﴾، عدولٌ عنِ التَّعبيرِ باسمِ

(1) ابن القيّم، مدارج السّالكين: 198/3.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 3040/6.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 434/15.
(4) عبد الكريم الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 543/5.

أسلوبُ الاحتقارِ والتَّهكُّمِ والسُّخريةِ، دليلٌ على هوانِهم وقلَّةِ شأنِهم

الإشارة، مثلًا: (وترى هؤلاء)، إلى ضميرِ الغائبينَ في ﴿وَتَرَىٰهُمۡ﴾، وهو يدلُّ على احتقارِهم والاستهانةِ بهم والتَّهكُّم والسُّخرية منهم، كما يشيرُ الجمعُ إلى أنَّهم سواءٌ في الحكم، فكلُّ واحدٍ من المرئيِّ ينطبقُ عليهِ هذا الحكمُ المذكورُ، فلا يُبصرُ وإن كان يَنظُر، كما يشيرُ ضميرُ الغائبِ إلى غيابِ حاسَّةِ البصرِ أو البصيرةِ، وهم إذْ فقَدوا السَّمع لا يسمعونَ نداءً ولا دعاءً، ممَّن يعبدونهم ولا من غيرهم، وإذْ فقدوا البصرَ، لا يبصرونَ حاله وحال خصمهِ، فكيف يُرجى منهم نصرٌ وشدُّ أزرٍ، أو أيُّ معونةٍ أخرى، أو كيف يُخشى منهم إيصالُ ضُرٍّ وأذًى لمن يحتقرُهم؟[1].

دلالةُ الفعلِ ﴿يَنظُرُونَ﴾ واستعمالِ صيغةِ المضارعِ في السّياقِ:

الإشارةُ في فعلِ الاستمرارِ (يَنْظرونَ)، إلى مواجهة موضعِ عينيْ ناظريه

التَّعبيرُ بالفعلِ ﴿يَنظُرُونَ﴾ يشيرُ إلى مواجهة موضع العينين لناظريه، كما أنَّ صيغةَ المضارعِ تدلُّ على استمرارِ هذا الحالِ من النَّظرِ الشَّكليِّ الَّذي لا روحَ فيه، أي: وتَراهُم - أيُّها المُخاطِبُ - يَنْظُرونَ إلَيْكَ بما وُضِعَ لهم مِنَ الأعْيُنِ الصِّناعيَّةِ، وجَعْلُها موَجَّهَةً إلى الدّاخِلِ عَلَيْها كَأنَّها تَنْظُرُ إليه، وتَراهُم - أيُّها الرَّسولُ - يَنْظُرونَ إلَيْكَ، وهُم لا يُبْصِرونَ ما أوتيتَ مِن سَمْتِ الجَلالِ والوَقارِ الَّذي يُمَيَّزُ به صاحِبُ البَصيرَةِ بين أولي الجِدِّ والعَزْمِ، والصِّدْقِ في القَوْلِ والفِعْلِ، وبين أهْلِ العَبَثِ والهَزْلِ[2].

فائدةُ الجارِّ والمجرورِ ﴿إِلَيۡكَ﴾، ودلالته الإعرابيَّة:

شبهُ الجملةِ (إلَيْكَ) يفيدُ تنبيهَ المخاطبِ إلى جمودِ نظرِهم تُجاهَ المقابلِ

قولهُ: ﴿إِلَيۡكَ﴾ جارٌّ ومجرور متعلِّق بالفعل ﴿يَنظُرُونَ﴾ فالنَّظَرُ المَقْرونُ بحَرْفِ (إلى) لَيْسَ اسْمًا لِلرُّؤْيَةِ، بَلْ لِمُقَدِّمَةِ الرُّؤْيَةِ، وهي تقليبُ الحدقةِ نحو المرئيِّ التماسًا لِرُؤْيَتِه[3]، يفيد تنبيهَ المخاطب

(1) المراغيّ، تفسير المراغي: 146/9.
(2) رشيد رضا، تفسير المنار: 443/9.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 730/30.

إلى جمودِ نظرهِم؛ حتَّى لا يتوهَّم أنَّ لهم بصرًا يرون به، كما يفيد أنَّهم يصوِّبون نظرهم تُجاه المقابل، إمّا صناعةٌ - كما في الأصنامِ - وإمّا طبيعةٌ - كما في الكفّار - فلو قيل: (ينظرون وهم لا يبصرون) من دون (إليك)؛ لَما أدَّى مؤدّاه.

دلالةُ الواوِ في قوله: ﴿وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ وأثرُها في المعنى:

الواوُ للحال، وجملةُ ﴿وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ حالٌ من الفاعلِ في ﴿يَنظُرُونَ﴾، أي: إنَّ نفي إبصارهم مستمرٌّ، كلَّما رآهم الرّائي ينظرون، ولو قيل: (وتراهم ينظرون إليكَ في حين أنَّهم لا يبصرون)؛ لأفادَ أنَّ نفيَ الإبصارِ راجعٌ إلى توهُّمِ الرّائي، لا إليهم.

الواوُ للحالِ، أي: إنَّ نفيَ إبصارِهم مستمرٌّ

تقديمُ المسندِ إليهِ على خبرِهِ الفعليِّ:

في قولهِ تعالى: ﴿وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ تقدَّمَ المسند إليه ﴿وَهُمْ﴾، على المسندِ ﴿لَا يُبْصِرُونَ﴾؛ لتقويَةِ الخبر، وإفادةُ القصرِ - موصوف على صفة - للمبالغةِ، وفيه تعريضٌ بحمقِ هؤلاء الكافرين، قد أنعمَ اللّهُ عليهم بنعمةِ البصرِ، فهم يرون، وهذه الأصنامُ لا تبصرُ، بل هي وحدَها الَّتي لا تبصرُ، ومن عداها ممَّن يعبدونها يبصرون، أو تعريضٌ لطيفٌ بمن أبصرَ نورَ النُّبوَّةِ من المؤمنين، أي: إن لم يكن هؤلاءِ الكافرون قد أبصروا، فهناك من اصطفاهُم اللّهُ، وأكرمَهم بنورِ الهدايةِ على أنَّ الكلامَ في (وتراهم) أي: وترى الكافرين، وليس الأصنامَ.

تقويةُ الخبرِ، وإفادةُ القصرِ في التَّقديمِ والتَّأخيرِ لعناصرِ الإسنادِ

إيثارُ استعمالِ الفعلِ ﴿لَا يُبْصِرُونَ﴾، وأثرُ المضارعِ في السّياق:

واستعمالُ البصرِ دونَ المشاهدةِ أو الرُّؤيةِ؛ لأنَّ نفيَ البصرِ نفيٌ لما عداها، وليلفتَ الانتباهَ إلى عجزِهم، وليدخلَ فيه نفيُ التَّدبُّر والتَّأمُّل والانتفاع بالنَّظر، وهذا المعنى يتَّفق والقولَ بأنَّ الكلامَ على الكافرين لا على الأصنامِ، أي: وترى المشركين ينظرونَ إليك، وهم لا يبصرونَ، أي: إنَّهم ينظرون إليك حقيقةً، ولكن لا يتدبَّرون،

نفيُ البصرِ نفيٌ للمشاهدةِ أو الرُّؤيةِ، وهو غايةُ العجزِ عن الإبصار

ولا يتفكَّرون، فيستدلّون بأحوالِكَ على ما تدلُّ عليه من الصِّدق والأمانةِ والنَّصيحةِ وحقيَّةِ النُّبوَّةِ، وإذا كان كذلك، فنظرهم معطَّل عن الفائدةِ المقصودة؛ لأنَّ النَّظرَ إنَّما خلقَهُ اللّه تعالى؛ لينقل إلى العقلِ صورَ الموجودات، فيستفيدَ منها، وإذا خلا الشَّيء عن الفائدةِ الَّتي كان لأجلها، فهو في معنى المعدومِ، وهذا المعنى شائعٌ ذائع في العربيَّة، كثيرٌ في القرآنِ[1].

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الهُدى والهدايةُ:

الـهُـدى خـاصٌّ بـاللـهِ تـعـالى، والـهـدايةُ دلالةٌ بتلطُّفٍ لما فيهِ خيرٌ

الهُدَى والهِدايَةُ في مَوْضوعِ اللُّغَةِ واحِدٌ، ولَكِنْ قد خَصَّ اللّهُ ﷻ لَفْظَةَ الهُدَى بما تَوَلّاهُ وأعْطاهُ، واخْتُصَّ هو به دونَ ما هو إلى الإنْسانِ[2]، والهِدايَةُ الدَّلالَةُ بتَلَطُّفٍ؛ ولِذلك خُصَّتْ بالدَّلالَةِ لِما فيهِ خَيْرُ المَدْلولِ؛ لِأنَّ التَّلَطُّفَ يُناسِبُ مَنْ أُريدَ به الخَيْرُ، وهو يَتَعَدَّى إلى مَفْعولٍ واحِدٍ بنَفْسِه؛ لِأنَّ مَعْناهُ معنى الإرْشادِ، ويَتَعَدَّى إلى المَفْعولِ الثّاني، وهو المُهْدَى إليه بإلى وباللّامِ، والاسْتِعْمالانِ واردانِ، تَقولُ هَدَيْتُهُ إلى كَذا على معنى أوصَلْتُهُ إلى مَعْرِفَتِه، وهَدَيْتُهُ لِكَذا على معنى أرْشَدْتُهُ لِأجْلِ كَذا، قال تعالى: ﴿فَٱهۡدُوهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡجَحِيمِ ٢٣﴾ [الصّافات: 23]، وقال: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي هَدَىٰنَا لِهَٰذَا﴾ [الأعراف: 43]، وقد يُعَدَّى إلى المَفْعولِ الثّاني بنَفْسِه، كَما في قوله: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ٦﴾ [الفاتحة: 6]، على تَضْمينِه معنى عَرَفَ، قيلَ: هيَ لُغَةُ أهْلِ الحِجازِ، وأمّا غَيْرُهُمْ؛ فلا يُعَدّيه بنَفْسِه، وقد جَعَلوا تَعْديَتَهُ بنَفْسِه مِنَ التَّوَسُّعِ المُعَبَّرِ عنه بالحَذْفِ والإيصالِ، وقيلَ: الفَرْقُ بين المُتَعَدّي وغَيْرِه: أنَّ المُتَعَدّيَ يُسْتَعْمَلُ في الهِدايَةِ لِمَنْ كانَ في الطَّريقِ ونَحْوِه؛ ليَزْدادَ هُدًى، ومَصْدَرُهُ حينَئِذٍ الهِدايَةُ، وأمّا هَداهُ إلى كَذا أو

(1) عبد الرّحمن اليمانيّ، رفع الاشتباه عن معنى العبادة والإله: 479/2.
(2) الرّاغب، المفردات: (هدى).

لِكَذا؛ فيُسْتَعْمَلُ لِمَنْ لَم يَكُنْ سائِرًا في الطَّريقِ، ومَصْدَرُهُ هُدًى، وفيه تفصيل ليس هذا محلَّه[1].

الهدى والرَّشادُ:

الإرْشاد إلى الشَّيْء: هو التَّطريق إليه والتَّبيُّنُ لَهُ، والهِدايَة هيَ التَّمَكُّن مِنَ الوُصول إليهِ، وقد جاءَتِ الهِدايَة للمهتدي في قَوْله تَعالَى: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ٦﴾ [الفاتحة: 6]، لم يجئ مثل ذَلِك في الإرْشاد، ويُقال أيْضًا: هداه إلى المَكْروهِ، كَما قالَ اللّه تَعالَى: ﴿فَٱهۡدُوهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡجَحِيمِ ٢٣﴾ [الصّافات: 23]، وقالَ تَعالَى: ﴿إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدٗى مُّسۡتَقِيمٖ ٦٧﴾ [الحجّ: 67]، ولا يُقال: أرشده إلّا إلى المحبوب[2].

الإرشادُ دلالةُ بيانٍ، والهُدى تمكينٌ من الوصولِ بالدَّلالة أو بالتَّوفيق

الهُدى والبيانُ:

إنَّ البَيان في الحَقيقَة: إظْهار المَعْنى للنَّفس كائِنًا ما كانَ، فهو من قبيل القَوْل، والهدى: بَيانُ طَريق الرُّشد؛ ليسلك دونَ طَريق الغيِّ؛ إذا أطلق، فإذا قيِّد؛ اسْتعْمل في غَيره، فقيل: هدى إلى النّارِ وغَيرها[3].

البيانُ: إظهارُ المعنى أو المبنى، والهُدى: بيانُ الطَّريق الموصل

النَّظَرُ والبَصرُ:

أصلُ النَّظرِ: المقابلةُ، فالنَّظرُ بالبصر، الإقبالُ به نحو المبصَر، ولذلك قد ينظر ولا يراه، ومنه قوله تعالى: ﴿وَتَرَىٰهُمۡ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ وَهُمۡ لَا يُبۡصِرُونَ﴾، وأصلُ البصر: هو صحَّةُ الرُّؤية، ويؤخذُ منهُ صفة مُبصرٍ بمعنى: راءٍ، والرّائي: هو المدرك للمرئيِّ[4]، واسْتِعْمالُ النَّظَرِ في البَصَر أكثر عند العامَّة، وفي البصيرة أكثرُ عِنْد الخاصَّةِ[5].

النَّظرُ الإقبالُ بالعينينِ نحو المبصَرِ، والبصرُ الرُّؤيةُ والإدراكُ

النَّظرُ والرُّؤيةُ:

النَّظَرُ: غَيْرُ الرُّؤْيَةِ، فقد يكونُ النَّظَرُ حالَ عَدَمِ الرُّؤْيَةِ، كما أنَّ

(1) للاستزادة ينظر: ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 188/1.
(2) العسكريّ، الفروق اللّغويَّة، ص: 209.
(3) العسكريّ، الفروق اللّغويَّة، ص: 209.
(4) العسكريّ، الفروق اللّغويَّة، ص: 544.
(5) الكفويّ، الكليّات، ص: 906.

الـرُّؤْيَـةُ: غـايَةٌ لِلنَّظَرِ، والنَّظَرُ: الإبصار والتَّفكُّر

النَّظَرَ يوصَفُ بما لا توصَفُ به الرُّؤْيَةُ، يُقالُ: نَظَرَ إليه نَظَرًا شَزَرًا، ونَظَرَ غَضْبانَ، ونَظَرَ راضٍ، وكُلُّ ذلك لِأَجْلِ أنَّ حَرَكَةَ الحَدَقَةِ تَدُلُّ على هذه الأَحْوالِ، ولا توصَفُ الرُّؤْيَةُ بشَيْءٍ مِن ذلك، فلا يُقالُ: رَآهُ شَزَرًا، ورَآهُ رُؤْيَةَ غَضْبانَ، أو رُؤْيَةَ راضٍ، ويُقالُ: انْظُرْ إليه حَتَّى تَراهُ، ونَظَرْتُ إليه، فرَأَيْتُهُ، وهذا يُفيدُ كَوْنَ الرُّؤْيَةِ غايَةً لِلنَّظَرِ، وذلك يوجِبُ الفَرْقَ بين النَّظَرِ والرُّؤْيَةِ[1].

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 730/30.

﴿خُذِ ٱلۡعَفۡوَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ ١٩٩﴾ [الأعراف: 199]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الرَّبطُ بين بيانِ عجزِ الأصنامِ الزّائفةِ، وتبيانِ أصولِ المعاملةِ مع النّاسِ

لَمّا بَيَّنَ في الآيَةِ الأولى أنَّ اللّه هو الَّذي يَتَوَلّاهُ، وأنَّ الأصْنامَ وعابِديها لا يَقْدِرونَ عَلى الإيذاءِ والإضْرارِ، تتَّجه السّورةُ الكريمة بعد ذلك إلى شخص الرَّسول ﷺ فترسمُ له ولكلِّ عاقلٍ المَنهَجَ القَويمَ والصِّراطَ المُسْتَقيمَ في مُعامَلَةِ النّاسِ على وجهٍ يقيه شرَّ الحرجِ والضّيقِ، فتقول: ﴿خُذِ ٱلۡعَفۡوَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ﴾[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلۡعَفۡوَ﴾: من عَفَت الرّيحُ الأثرَ تعفوه: طمستْهُ، وأصلُهُ: تَغَطّي الشَّيء بطبقة خفيفةٍ أو هَشَّةٍ (تنشأ منه)[2]، كما يُغَطّي الوبرُ والرّيشُ والنَّباتُ والتُّرابُ الَّذي تجلبه الرّيحُ ما تحتَه[3]. فمن نظرَ إلى ملحظِ التَّغطية عبَّرَ عن العفوِ بالمَحْو كالرّيح الَّتي تمحو الأثرَ، والعَفو عن الذُّنوب: عَدَم المؤاخذة عليها، وكأنَّ من عفا غطّاها، أو أعرض عنها، وهو قريب من المغفرة والصَّفح، ومنه عَفْوُ اللّه تعالى عَنْ خَلْقِه، وذلك تَرْكُهُ إيّاهُم، فلا يُعاقِبُهُم، فضْلًا منه، ومِنَ البابِ العافيَةُ: دِفاعُ اللّه تعالى عَنِ العَبْدِ، تَقولُ: عافاهُ اللّه تعالى مِن مَكْروهَةٍ، وعَفَوْتُ عنه: قصدت إزالةَ ذنبهِ صارفًا عنه[4]، وكأنَّ

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 434/15، وطنطاويّ، التّفسير الوسيط: 458/5.

(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (عفو).

(3) أصل اشتقاق العفو مِنَ (العِفاء): ما كثُر مِنَ الوَبَر والرّيش؛ فيقال: ناقةٌ ذاتُ عِفاء: كثيرة الوبر، طويلتُه قد كاد يَنْسِل، وعفا شَعَرُ البعير: كثُرَ وطال؛ فغطَّى دَبَرَه (الّذي في ظهره)، وعِفاءُ النّعامة: الرّيش الذي علا الزِّفَّ الصّغار (الزِّفّ - بالكسر: صغير الرّيش)، وكذلك عِفاء الدّيك والطّير، ولا يقال للرّيشة: عِفاءَةٌ؛ حتّى يكون فيها كثافة، وأرض عافيَة: لم يُرْعَ نَبْتُها فوَفُر وكَثُر. وعَفَت الأرضُ: غَطّاها النّباتُ والعُشْب. ينظر: ابن منظور، اللّسان: (عفو).

(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عفو).

الأصلَ: خُذْ بالعفو، ومن نظرَ إلى الزّيادة على الشَّيء[1]عبَّر عن العفوِ بالزّيادة، فالعفو في قوله: ﴿خُذِ ٱلۡعَفۡوَ﴾ كأنَّه أُمِرَ أن يتقبَّل من أخلاقِ النّاس ما زاد، ولا يستَقْصي عليهم.

2) ﴿بِٱلۡعُرۡفِ﴾: كعُرْفِ الفَرَسِ أو الدّيك (وهذا أصل اشتقاقه)، وسُمّيَ بذلك لتميُّزِهِ وظهوره بملمحٍ يدلُّ عليه، ومنه المَعْرِفَةُ والعِرْفانُ، تَقولُ: عَرَفَ فُلانٌ فُلانًا عِرْفانًا ومَعْرِفَةً، وهذا أمْرٌ مَعْروفٌ، وهذا يَدُلُّ على تميُّزه وظهوره والسُّكون إليه؛ لِأنَّ مَنْ أنْكَرَ شَيْئًا تَوَحَّشَ منه ونَبا عنه، ومِنَ البابِ العَرْفُ، وهيَ الرّائِحَةُ الطَّيِّبَةُ؛ لِأنَّها تسْطع فوق الشَّيء، وتدلُّ عليه، وتَسْكُنُ النَّفْسُ إلَيْها، يُقالُ: ما أطْيَبَ عَرْفَهُ! قالَ اللّه ﷻ: ﴿وَيُدۡخِلُهُمُ ٱلۡجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمۡ ٦﴾ [محمد ﷺ: 6]، فقد فُسِّر تعريفُها هنا بمعرفة منازلهم فيها، كما فُسِّر بالتَّطييب من العَرْف الرّائحة الطَّيِّبة، أيْ: طَيَّبَها[2]، و"العُرْف والعارفة والمعروف: كلُّ خصلةٍ حسنة ترتضيها العقول، وتطمئنُّ إليها النُّفوس"[3]، ﴿خُذِ ٱلۡعَفۡوَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ﴾ [الأعراف: 199][4].

3) ﴿وَأَعۡرِضۡ﴾: أعْرَضْتُ عَنْ فُلانٍ، وأعْرَضْتُ عَنْ هذا الأمْرِ، وأعْرَضَ بوَجْهِه؛ إذا ولّاه ظَهْرَهُ، فانصرف عنه (وظهر الإنسان عَرْضُه - بفتح العين)، كأنَّه انحرفَ عنه وولّاه عُرْضه (بضم العين، أي: جانبه)، قال تعالى: ﴿أَعۡرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ﴾ [فصلت: 51]، وقال: ﴿ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٞ مِّنۡهُمۡ وَهُم مُّعۡرِضُونَ ٢٣﴾ [آل عمران: 23]، وقال: ﴿وَإِن تَلۡوُۥٓاْ أَوۡ تُعۡرِضُواْ﴾ [النّساء: 135]، وكلُّ (أعْرَضَ) ومضارِعِها، وأمرِها، والمصدر (الإعراض)، واسم الفاعل (مُعرِض) هو بهذا المعنى[5].

4) ﴿ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾: الجيمُ والهاءُ واللّامُ أصْلانِ: أحَدُهُما خِلافُ العِلْم، والآخَرُ: الخِفَّةُ وخِلافُ الطُّمَأْنينَةِ، فالأوَّلُ: الجَهْلُ نَقيضُ العِلْم، ويُقالُ لِلْمَفازَةِ الَّتي لا عَلَمَ بها: مَجْهَلٌ، والثّاني: يُقالُ: اسْتَجْهَلَتِ الرّيحُ الغُصْنَ؛ إذا حَرَّكَتْهُ، فاضْطَرَبَ[6]. فالجاهلُ نقيضُ العالِم، أو هو السَّفيهُ، نقيضُ الحليم.

(1) كزيادة التّراب على الأثر، والرّيش حتّى يكثر ويطول.
(2) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 231/16.
(3) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 346/7.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (عفو).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (عرض).
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (جهل).

المَعْنى الإجْماليُّ:

اقْبَلْ - أيُّها النَّبيُّ ﷺ أنت وأمَّتك - الفضلَ مِن أخلاقِ النّاس وأعمالهم، ولا تطلب منهم ما يشقُّ عليهم حتَّى لا ينفروا، وأْمر بكلِّ قول حسن وفِعْلٍ جميل، وأعرضْ عن منازعة السُّفهاء ومساواة الجهلةِ الأغبياءِ[1].

خُطَّ نهجُ معاملة النَّبيِّ للمؤمنين بالعفو والعُرفِ والإعراضِ عن الجاهلينَ

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ الإيجازِ بالقِصَرِ:

قوله تعالى: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ﴾، هذه الكلماتُ على قِصَرِها وتقاربِ أطرافها، قد احتوتْ على جميعِ مكارمِ الأخلاقِ، ومحامد الشّيم، وشريفِ الخصالِ[2]، لمّا نزلتْ هذه الآيةُ؛ قال رسول الله ﷺ لجبريل: «ما هذه؟ قال: لا أدري حتَّى أسألَ، ثمَّ رجعَ، فقالَ: يا محمَّدُ، إنَّ ربَّك يأمرُكَ أن تصلَ من قَطَعَكَ، وتعطيَ مَن حرمك، وتعفوَ عمَّن ظلمك»[3]. وقد نظمَ الشّاعرُ فقال:

مَكارِمُ الأخْلاقِ في ثَلاثٍ مَنْ *** كَمُلَتْ فيهِ فذاكَ الفَتَى
إعْطاءُ مَنْ يَحْرِمُهُ ووَصْلُ مَنْ *** يَقْطَعُهُ والعَفْوُ عَمَّنْ عَلَيْه اعْتَدَى

فتأدَّبَ ﷺ بهذا، فأثنى عليه، وقال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾ [القلم: 4][4]. قال جعفر الصّادق: "أمرَ اللّهُ تعالى نبيَّه ﷺ بمكارم الأخلاق، وليس في القرآن آيةٌ أجمع لمكارم الأخلاق من هذهِ الآيةِ"[5]، فجمعَ في الآيةِ جميعَ مكارم الأخلاق؛ لأنَّ في الأمر بالمعروفِ صِلَةَ الرَّحِم، ومنعَ اللِّسان عن الغيبةِ وعن الكذب، وغضَّ الطَّرف عن المحرَّمات، وغيرَ ذلك، وفي الإعراض عن الجاهلين الصَّبرُ والحلمُ وغيرهما[6].

هذه أجمعُ آيةٍ لمكارمِ الأخلاقِ، هداية للنَّبيِّ من الله الخلّاق

(1) نخبة من أساتذة التّفسير، التّفسير الميسّر، ص: 176.
(2) المؤيّد بالله، الطّراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز: 49/2.
(3) الثّعلبيّ، الكشف والبيان: 318/4.
(4) القشيريّ، لطائف الإشارات: 617/3.
(5) ابن حجر العسقلانيّ، فتح الباري: 230/8.
(6) ابن الأثير، المثل السّائر في أدب الكاتب والشّاعر: 273/2.

أصولُ الفضائلِ الأدبيَّةِ في الآيةِ:

الآيةُ أمرٌ بثلاثةِ أُصولٍ كُلّيَّة: العفوُ والعُرفُ والإعْراضُ عَنِ فعل الجاهِليَّة

هذه الآيَةُ بَيانٌ لأُصولِ الفَضائِل الأدَبيَّةِ وأساسِ التَّشْريع، وهيَ الَّتي تَلي في المَرْتَبَةِ أُصولَ العَقيدَةِ المَبْنيَّةِ على التَّوْحيدِ الَّذي تَقَرَّرَ فيما قَبْلَها مِنَ الآياتِ بأبْلَغِ التَّوْكيد، فقَوْلُهُ تَعالَى: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ يَأْمُرُ فيهِ بثَلاثَةِ أشْياءَ، هيَ أُصولٌ كُلّيَّةٌ لِلْقَواعِد الشَّرْعيَّةِ والآدابِ النَّفْسيَّةِ والأحْكامِ العَمَليَّةِ، الأصْلُ الأوَّلُ: العَفْوُ، وهو يُطْلَقُ في اللُّغَةِ على خالِصِ الشَّيْءِ وجَيِّدِهِ، وعلى الفَضْلِ الزّائِد فيهِ أو منه، وعلى السَّهْلِ الَّذي لا كُلْفَةَ فيهِ، وعلى ما يَأْتي بدونِ طَلَبٍ أو بدونِ إخْفاءٍ ومُبالَغَةٍ في الطَّلَب، وهذه المَعاني مُتَقارِبَةٌ، وهيَ وُجوديَّةٌ، ومِن مَعانيهِ السَّلْبيَّةِ إزالَةُ الشَّيْءِ كَعَفَتِ الرّياحُ الدّيارَ والآثارَ، أو إزالَةُ أثَرِه كالعَفْوِ عَنِ الذَّنْب، وهو مَنْعُ ما يَتَرَتَّبُ عليه مِنَ العِقاب، فمَعاني العَفْوِ الوُجوديَّةِ والعَدَميَّةِ أوِ الموجَبَةِ والسّالِبَةِ كُلُّها إحْسانٌ، ورِفْقٌ... فالمُرادُ به أنَّ مِن أُصولِ آدابِ هذا الدّينِ وقَواعِدِ شَرْعِه: اليُسْرَ، وتَجَنُّبَ الحَرَجِ وما يَشُقُّ على النّاس. والأصْلُ الثّاني: الأمْرُ بالعُرْفِ، وهو ما تَعارَفَهُ النّاسُ مِنَ الخَيْرِ، وفَسَّروهُ بالمَعْروفِ، وهو مَبْنيٌّ على اعْتِبارِ عاداتِ الأُمَّةِ الحَسَنَةِ، وما تَتَواطَأُ عليه مِنَ الأُمورِ النّافِعَةِ في مَصالِحِها. والأصْلُ الثّالِثُ: الإعْراضُ عَنِ الجاهِلينَ، وهُمُ السُّفَهاءُ، بتَرْكِ مُعاشَرَتِهم وعَدَمِ مُماراتِهم، ولا عِلاجَ أوقَى لِأذاهُم مِنَ الإعْراضِ عنهمْ[1].

التَّرقّي في المعاني، وبيانُ بعضِها بعضًا من خلال الآية:

موازنةُ منهجِ الآيةِ بينَ تأييدِ المستحسَنِ، ومحوِ المستقبَحِ

قالَ بعضُ العلماء: إنَّ سرَّ الشَّريعة في الطِّباع والعادات، هو تأييدُ المستحسَن ومحو المستقبح[2]، ونلحظُ هذا التَّرتيب البديع، فبدأ بما يناسب إقبالَ الدّاعية على النّاس، وكيفيَّة استقباله لهم على ما

(1) رشيد رضا، تفسير المنار: 444/9، وما بعدها.

(2) القاسميّ، محاسن التّفسير: 242/5.

هم عليه، فأمرهُ بأخذِ العفوِ، وهو أساسٌ في مبدأِ معاملة النّاس بالمسامحة، أي: ما سمحت به أنفسُهم، وما سهل عليهم من الأعمالِ والأخلاق، فلا يكلِّفهم ما لا تسمحُ به طبائعهم[1]، وثنَّى بالتَّدرُّج في أمرهم بالمعروف، حتَّى يستميل قلوبهم، ولا ينفضّوا من حوله، فقال: ﴿وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ﴾، وهو كلُّ قولٍ حسنٍ وفعلٍ جميلٍ وخلق كامل للقريب والبعيد[2]، وختمها بتحصينِ الداعية ضدَّ الجاهلين؛ حتى لا يبالي بهم، ويستمرَّ في دعوته بقوله: ﴿وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾، فلعلَّ إعراضَهُ عنهم يكون سببًا في هدايتهم، ودعوة غيرهم، والإعراضُ عن الجاهلين خُلُقٌ سماويٌّ أمرَ اللّه به نبيَّهُ ليُعَلِّم خَلْقَه هذا الخُلقَ الكريم، والأدبَ السَّماوي العظيم، أنَّه إذا جهل عليك جاهلٌ، فأساء إليك؛ أن تعرضَ عنه ولا تأخذه بزلَّته[3].

نكتةُ خطابِ الخاصِّ، وإرادة العامّ:

الإعلامُ بعلوِّ مكانة النَّبيِّ وتسليَتُهُ، ممّا يعدُّ تأديبًا للأمَّة وتعليمًا لها

الخطابُ في الآية الكريمة: ﴿خُذِ ٱلۡعَفۡوَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ﴾ للنَّبيِّ ﷺ لأنَّه سبق خطابه بقوله: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ شُرَكَآءَكُمۡ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ١٩٥﴾ [الأعراف: 195]، وفي ذلك إقبالٌ على النَّبيِّ وإعلام بعلوِّ مكانتهِ وسموِّ منزلتهِ، وتشريفٌ وتسليةٌ له وتسريةٌ عنه، ولكنَّه يُعدُّ تأديبًا للأمَّة كلِّها.

إيثارُ الفعلِ ﴿خُذِ﴾ على ما يرادفُهُ:

الدَّلالةُ على سعةِ صدر النَّبيِّ الكريمِ، والإلماحُ إلى خلقهِ العظيم

أوثرَ التَّعبيرُ بالفعل: ﴿خُذِ﴾ للدَّلالةِ على سعة صدره، وعظيم خُلُقه ﷺ؛ إذ إنَّ قبولَ ما تيسَّر من أخلاقهم، وعدم المشَقَّةِ عليهم، يحتاج إلى حيِّزٍ واسعٍ؛ ليستحوذَ على ذلك كلِّه، وهو أصلُ الأخذ، أي: "خذ من النّاس - أي: اقبَلْ منهم - ما عفا لك من أخلاقهم،

(1) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 313.
(2) السّعديّ، تيسير اللّطيف المّنان في خلاصة تفسير القرآن، ص: 69.
(3) الشّنقيطيّ، العذب النّمير من مجالس الشّنقيطيّ في التّفسير: 442/4.

أي: تيسَّر وسهُل، ولا تكلِّفهم الجهد، من قولك: أخذت حقّي عفوًا، أي: بسهولة"[1]. وعلى معنى العفو عن المذنبين يكون للتَّعبيرِ بالأخذِ معنًى لطيفٌ، وهو أنَّ العافي آخذٌ وليس مُعطيًا؛ إذ إنَّ ما يجلبه العفو لصاحبهِ من الخير في الدُّنيا والآخرة أضعافَ ما يبذلُه من هضم النَّفس، والتَّجاوز عن الآخرين، وكأنَّه يأخذُ من حيثُ يعطي، وينال من حيثُ يبذل، ويقرب منه قولُ القائل[2]:

تَراهُ إذا ما جِئْتَهُ مُتَهَلِّلًا *** كَأَنَّكَ تُعْطيهِ الَّذي أَنْتَ سائِلُهْ

دلالةُ الأمر في الفعل: ﴿خُذِ﴾:

خرجَ الأمر في (خُذْ) عن معناهُ الحقيقي، وهو "الأَخْذُ خلافُ العطاء (تحصيل الشَّيء في الحوزة بقوَّة)"[3] إلى معنى الإرشاد، إذا فسِّر بالعفو عن المذنبين، وهذا الخلق يتَّفق وما طبع عليه النَّبيُّ ﷺ من الرَّحمة والصَّفح الجميل، فقوله: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ﴾ يتوجَّه وجهين: أحدهما: على حقيقةِ الأخذِ، والآخر: على العملِ بالعفوِ، فإن كان على الأخذِ؛ فهو على وجهين: أوَّلهما: يحتمل أنْ خذ الفضلَ الَّذي لا حقَّ فيه، وهو القليلُ من ذلك واليسير، والآخر: أنْ خذ ما يفضُل من أنفسِهم وحوائجهم من غير مسألةٍ، أي: اقبل منهم ما أعطوك، ولا تلحَّ في المسألةِ، كقوله: ﴿وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ ۝٣٦ إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُواْ﴾ [محمد ﷺ: 36-37]. أخبر أنَّه إن يسألهم أموالهم حملهم ذلك على البخل، وإن كان على العملِ؛ فمعناه: اعفُ عن الظَّلمة عن ظلمهم[4].

بيانُ الآيةِ يدلُّ على الإرشادِ إلى ذلك الملمحِ المستفادِ

العدولُ عن الأمرِ بالعفوِ بـ(اعف) إلى قوله: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ﴾:

وردَ في غيرِ هذا الموضعِ الأمرُ بالعفو، كقوله تعالى: ﴿فَٱعْفُواْ

أخذُ العفوِ أوسعُ معنًى من الأمرِ بالعفوِ في هذا السّياق

(1) النّسفيّ، التّيسير في التّفسير: 105/7.
(2) البيت من بحر الطّويل، لزهير بن أبي سلمى، وهو في ديوانه، ص: 91.
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (أخذ).
(4) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنة: 119/5.

وَٱصۡفَحُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦٓۗ﴾ [البقرة: 109]، وقوله: ﴿فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِۖ﴾ [آل عمران: 159]، وقوله: ﴿فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱصۡفَحۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٣﴾ [المائدة: 13]، ﴿وَلۡيَعۡفُواْ وَلۡيَصۡفَحُوٓاْۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ٢٢﴾ [النّور: 22]، والمرادُ بالعفو فيها قريبٌ من الصَّفح وترك المجازاة، وهذا المعنى يتَّفق وجوَّ المسلمين بعد الهجرة، ولذلك فإنَّ الآياتِ المذكورة آنفًا - الَّتي أُمِر فيها بالعفو - كلُّها مدنيَّة، في حين جاءَ الأمرُ بأخْذِ العفوِ هنا في سورةِ الأعرافِ المكيَّة، وتلك مناسبة لأحوال المسلمين المستضعفين قبلَ الهجرةِ، وأخذ العفو أعمُّ من الأمرِ بالعفوِ كما سبق بيانه.

جمالُ الاستعارةِ المكنيَّةِ في قولِهِ: ﴿خُذِ ٱلۡعَفۡوَ﴾:

الأخذ مجازٌ عن القبول والرِّضا، أي: ارضَ من النّاس بما تيسَّر من أعمالهم، وما أتى منهم، وتسهَّل من غير كُلفة، ولا تطلبْ منهم الجَهْد، وما يشقُّ عليهم؛ حتَّى لا ينفروا. وجوِّز أن يراد بالعفوِ ظاهره، أي: خذِ العفو عن المذنبين، والمراد اعفُ عنهم، وفيه استعارةٌ مكنيَّة؛ إذْ شُبِّه العفوُ بأمرٍ محسوس يُطلب، فيُؤخذ[1].

دلالـــةُ (خُـذ العفو) في المجازِ عـن الـقـبـولِ والرِّضا في أبلغ عبارة

ورودُ عمومِ المأخوذِ منه، ليشملَ النَّفسَ والآخرين:

لم يقل: خذِ العفوَ من كذا، فقَوْلُهُ: ﴿خُذِ ٱلۡعَفۡوَ﴾ دَخَلَ فيهِ صِلَةُ القاطِعينَ، والعَفْوُ عَنِ المُذْنِبينَ، والرِّفْقُ بالمُؤْمِنينَ، وغَيْرُ ذلك مِن أخْلاقِ المُطيعينَ[2]، ومعناه: "خذ ما عفا لك من أخلاق النّاس وأفعالهم، وما أتى منهم، وتسهَّل من غير تكلُّف ولا إعنات، ولا تحرجهم، وتشقَّ عليهم، وقال النَّبيُّ ﷺ في هذا المعنى: «يَسِّروا ولا تُعسِّروا»"[3].

الـعـفـو مـن أسمى الأخلاقِ، وأكثرها أثرًا على الفرد والمجتمع

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 137/5.
(2) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 344/7.
(3) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 515/3.

دلالةُ (ال) في لفظ ﴿ٱلۡعَفۡوَ﴾، وأثرُها في المعنى:

لفظُ العفو تعمُّ صورَ العفوِ الفرديَّةَ والاجتماعيَّةَ

وَقد عَمَّتِ الآيَةُ صوَرَ العَفْوِ كُلَّها؛ لِأنَّ التَّعْريفَ في العَفْوِ تَعْريفُ الجِنْسِ، فهو مُفيدٌ لِلاسْتِغْراقِ، إذا لَم يَصْلُحْ غَيْرُهُ مِن معنى الحَقيقَةِ والعَهْدِ، فأمر الرَّسول ﷺ بأنْ يَعْفوَ ويَصْفَحَ، وذلك بعَدَمِ المُؤاخَذَةِ بجَفائِهم وسوءِ خُلُقِهم، فلا يُعاقِبُهُم، ولا يُقابِلُهُم بمِثْلِ صَنيعِهم، كَما قالَ تَعالَى: ﴿فَبِمَا رَحۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمۡۖ وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَۖ فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ﴾ [آل عمران: 159]، ولا يَخْرُجُ عَنْ هذا العُموم مِن أنْواعِ العَفْوِ أزْمانِه وأحْوالِه إلّا ما أخْرَجَتْهُ الأدِلَّةُ الشَّرْعيَّةُ مِثْلَ العَفْوِ عَنِ القاتِلِ غيلَةً، ومِثْلَ العَفْوِ عَنِ انْتِهاكِ حُرُماتِ اللّه، والرَّسولُ أعْلَمُ بمِقْدارِ ما يَخُصُّ مِن هذا العُمومِ، وقد يُبَيِّنُهُ الكِتابُ والسُّنَّةُ وأُلْحِقَ به ما يُقاسُ على ذلك المُبَيَّنِ[1].

إيثارُ لفظِ ﴿ٱلۡعَفۡوَ﴾ على ما يرادفُهُ:

(العفو) أوسعُ معنًى وأنسبُ للسّياقِ، وأدْخلُ في محاسنِ الأخلاق

أوثرَ لفظُ ﴿ٱلۡعَفۡوَ﴾؛ لأنَّه أوسعُها معنًى، وأنسبها للسّياق؛ حيث يحتملُ أكثر من معنى، وجميعها مناسب للسّياق، أي: خُذِ العَفْوَ، أي: خذ ما عفا لك من أفعال النّاس، وتسهَّل ولا تطلب ما يشقُّ عليهم، من العفوِ الَّذي هو ضدُّ الجَهد، أو خُذِ العَفْوَ عن المذنبين أو الفضلَ وما يسهل من صدقاتِهم، وذلك قبلَ وجوبِ الزَّكاة[2]. والتَّنبيهُ على أنَّ أخذَ العفوِ الظّاهر من أخلاق النّاسِ، ما لم يكن فيه مخالفةٌ لشرع اللّه (ﷺ).

وجهُ عطفِ جملة: ﴿وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ﴾ على ما قبلَها:

تلاحمُ الدَّلالةِ وتدرُّجُ المعاني من خصائصِ الأسلوبِ القرآنيِّ

لمّا أمره بذلك في نفسه؛ أمرَهُ به في غيرِه، فقال: ﴿وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ﴾، فحسن عطف هذا على ذاك؛ لما بينهما من اتِّفاقٍ في الإنشاء، وتدرُّجٍ في المعاني، وتلاحم في الدَّلالة، وانسجام في طريق الأمر بالتَّيسير؛ فالأمرُ بالعُرْف يُعَدُّ امتدادًا للعفو المأمور بأخذِه سهولةً وشرفًا.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 227/9.
(2) البيضاويّ، أنوار التنزيل: 46/3.

إيثارُ الفعلِ ﴿وَأۡمُرۡ﴾ على غيره:

دلالةُ الفعلِ (وَأۡمُر) على العُلوِّ مع النَّفاذِ، وهو معبِّرٌ عن غرضهِ ببيان

للفعلِ هنا دلالة لا تكاد توجد في غيره ممّا يرادفُه، وهي دلالتُهُ على العلوِّ مع النَّفاذ؛ ولذا جاء الأمرُ ضدَّ النَّهي في قوله: ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ﴾ [النّحل: 90]، فخطابُه بهذا إشارةٌ إلى صدورهِ مِنَ المُشَرِّع جلَّ وعلا، ﴿أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٥٤﴾ [الأعراف: 54]، وممّا تجدر الإشارةُ إليه والتَّذكيرُ بهِ أنَّ الفعل الماضي ﴿وَأۡمُرۡ﴾، ومضارعه يأمرُ، تحذف همزتهُ الأصليَّةُ مع همزةِ الوصلِ في صيغةِ الأمرِ منه، كما في قول النَّبيِّ ﷺ: «مُروا أولادكم بالصَّلاة لسبع سنين»[1]، إلّا إذا كان مسبوقًا بالفاء، كما في الأثر: «فَأۡمُروا عُرَفاءَكُم، فلۡيَرۡفَعوا ذلك إلَيۡنا»[2]، أو بالواو كما في قوله: ﴿وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ﴾، وقوله: ﴿وَأۡمُرۡ أَهۡلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصۡطَبِرۡ عَلَيۡهَاۖ﴾ [طه: 132][3].

دلالةُ الأمرِ بالعُرفِ بين الإلزامِ وغيرِهِ:

المعروفُ عُرفًا كالمشروط شرطًا، ما لم يخالف نصًّا

يكون للإلزامِ إذا صدرَ من المشرِّع، أو من ولّاةِ الأمر مالم يخالفْ شرعًا، وقد يكون الأمر بالعُرف غير ملزم[4]، والعرفُ هو" المعروفُ والجميلُ من الأفعال، أو هو كلُّ خصلةٍ يرتضيها العقل، ويقبلها الشَّرعُ"[5]، وقيل: بأنَّهُ الجميل المستحسَن من الأفعال الَّتي تكون قريبةً من قَبول النّاس من غير نكير[6].

---

(1) أخرجه أبو داود في سننه، برقم: (495)، وإسناده حسن.

(2) أخرجه عبد الرزاق في مصنفه، برقم: (9741)، وينظر: بشار عوّاد، المسند المصنّف المعلّل: 344/24، والأثر وارد في غزوة حنين.

(3) والأصل في الأمرِ مِنَ الثّلاثيِّ مهموزِ الفاءِ؛ ك (أمَرَ يَأْمُرُ) ونحوِه، أن يُقالَ فيه: (أُؤْمُرْ)، بهمزتين: الثّانيةُ أصليّة ساكنةٌ، والأوّلى زائدةٌ للتَوصُّلِ إلى النُّطقِ بالحرفِ السّاكنِ. فلمّا اجتمعتْ همزتان وكَثُرَ استعمالُ الكلمةِ، حُذفتِ الهمزةُ الأصليّةُ؛ فزال السّاكنُ؛ فاستُغنيَ عن الهمزةِ الزّائدةِ؛ فصار: (مُرْ)، ورَدّوا الهمزةَ الأصليّةَ في فعلِ الأمرِ مِن (أَمَرَ يَأْمُرُ) خاصَّة إذا تقدَّم قبل ألفِ أمْرِهِ واوٌ أو فاءٌ أو كلامٌ يَتّصلُ به فعلُ الأمْرِ؛ فقالوا: (الفَ فلانًا وأْمُرْهُ)، فردّوه إلى أصلِه، وإنّما فعَلوا ذلك؛ لأنَّ فعلَ الأمْر منه إذا اتَّصَل بكلامٍ قبلَه، سقطتِ الألفُ الزّائدةُ في اللّفظِ.

(4) وتفصيل ذلك في كتب الأُصول، كالمحصول للرّازي: 362/2.

(5) النّسفيّ، مدارك التّنزيل وحقائق التّأويل: 626/1.

(6) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 308/3.

نكتةُ إطلاقِ الفعلِ، وعدمِ تقييدِهِ بمفعولٍ:

لمّا كانت دعوةُ النَّبي ﷺ عالميَّة، أطلق الفعل، ولم يقيَّد بمخاطبٍ معيَّن، فلم يقل: (وأْمُرْهم)؛ ليشمل كلَّ مخاطبٍ بالدَّعوة، وليكون الكلامُ على نسقٍ واحدٍ.

دعوةُ القرآنِ تخاطبُ في العموم كلَّ الأنامِ

دلالةُ الباءِ في قولِهِ: ﴿بِٱلۡعُرۡفِ﴾:

الباءُ: للإلصاق، كقولك: كتبتُ بالقَلَم، وقطعتُ بالسِّكّين، وهذا يدلُّ على تمكُّنه من معرفة المأمور به، من حيثُ حقيقتُه، وملابساتُه، وكيفيَّةُ الأمر به على أحسن وجهٍ، وأنسبِ حالٍ.

الأمرُ بالعُرفِ من شيمِ الإسلامِ الَّتي صانت كثيرًا من القيمِ النَّبيلةِ

إيثارُ لفظِ (العُرْف) دون (المعروف):

في قوله تعالى: ﴿وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ﴾ أوثِر لفظُ (العُرْف) على (المعروف)؛ لأنَّ لفظ (العُرْف) أخفُّ من لفظ (المعروف)، وأنسبُ للدَّعوة قبل الهجرة، ولذا لم يقترن بالنَّهْي عن المنكر، وذلك لما كان عليه المؤمنونَ من ضعْفٍ واضطهادٍ وقهرٍ، وقد جاء لفظ (المعروف) كثيرًا[1]، ومنه قوله: ﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ﴾ [لقمان: 17]، ويذكر (المعروف) غالبًا في مجال الدَّعوة، يقابل النَّهي عن المنكر، قال ابن عيسى: الأمرُ بالمعروفِ والنَّهي عن المنكر يذكران معًا، وهما كالشَّيء الواحد[2]، فيَشْمَلُ المَعْروفَ في الشَّرْعِ وفي العاداتِ والمُعامَلاتِ، ولا يَظْهَرُ هذا في آيَةِ الأعْرافِ الَّتي هيَ الأصْلُ الأوَّلُ؛ لِأنَّها الأولَى في المَوْضوعِ، ولَم يَكُنْ قد نَزَلَ قَبْلَها أحْكامٌ يُفَسَّرُ بها العُرْفُ، ويُحالُ عَلَيْها فيهِ[3]، وسيأتي بيانُ الفرق بين المعروف والعُرْف.

(العُرْف) أخفُّ من لفظِ (المعروف)، وأنسبُ للدَّعوة قبل الهجرةِ

(1) ذكر لفظ (معروف) تسعًا وثلاثين مرّة، منها إحدى وعشرون مرة معرفةً، وثماني عشرة مرة نكرةً (معروف) أو (معروفًا) (معروفة).

(2) الكرمانيّ، لباب التّفسير: 648.

(3) رشيد رضا، تفسير المنار: 448/9.

دلالةُ (ال) في لفظِ (العُرف):

(ال) هنا للاستغراق، وهو كُلُّ ما يَعْرِفُهُ الشَّرْعُ، وقالَ عَطاءٌ: وأْمُرْ بالعُرْفِ، يَعْني: بلا إلَهَ إلّا اللّه[1]، وهو تخصيص من غير داعٍ، وهذا مقيَّد بالعُرْف الَّذي يوافق الشَّرْع، أي: بكلِّ ما عرفَتْهُ النُّفوسُ ممّا لا تردُّه الشَّريعة[2].

كلُّ ما عرفَتْهُ النُّفوسُ ممّا لا تردُّه الشَّريعة، فهو العرفُ المألوفُ

سرُّ العدولِ عن ذكرِ النَّهي عن المنكرِ في قوله: ﴿وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ﴾:

وقعتِ الآيةُ في سياقِ اليُسر في الدَّعوة؛ إذ إنَّها من أوائلِ الآيات المكيَّة الَّتي جاءت في مقام الأمر بالمعروف، وقد تضمَّن ذلك النَّهي عن المنكر، فأغنى بذلك عن ذكرِه؛ لأنَّ السّياق للمساهلة[3]، وإنَّما اقْتَصَرَ على الأمْرِ بالعُرْفِ هُنا: لِأنَّهُ الأهَمُّ في دَعْوَةِ المُشْرِكينَ؛ لِأنَّهُ يَدْعوهُم إلى أُصولِ المَعْروفِ واحِدًا بَعْدَ واحِدٍ، كَما ورَدَ في حَديثِ مُعاذِ بْنِ جَبَلٍ حينَ أرْسَلَهُ إلى أهْلِ اليَمَنِ، فإنَّهُ أمَرَهُ أنْ يَدْعوهُم إلى شَهادَةِ أنْ لا إلَهَ إلّا اللّه، ثُمَّ قالَ: «فَإنْ هُم طاعوا لَكَ بذلك، فأخْبِرْهُم أنَّ اللّه فرَضَ عليهم خَمْسَ صَلَواتٍ»[4]، ولَوْ كانَتْ دَعْوَةُ المُشْرِكينَ مُبْتَدَأةً بالنَّهْيِ عَنِ المُنْكَرِ؛ لَنَفَروا ولَمَلَّ الدّاعي؛ لِأنَّ المَناكيرَ غالِبَةٌ عليهم، ومُحْدِقَةٌ بهم، ويَدْخُلُ في الأمْرِ بالعُرْفِ الاتِّسامُ به والتَّخَلُّقُ بخُلُقِه: لِأنَّ شَأْنَ الآمِرِ بشَيْءٍ أنْ يَكونَ مُتَّصِفًا بمِثْلِه، وإلّا فقد تَعَرَّضَ لِلاسْتِخْفافِ، والآمِرَ يَبْدَأُ بنَفْسِه فيَأْمُرُها، كَما قالَ أبو الأسْوَدِ:

يا أيُّها الرَّجُلُ المُعَلِّمُ غَيْرَهُ *** هَلّا لِنَفْسِكَ كانَ ذا التَّعْليمُ؟

السّياقُ للمساهلةِ، فاقْتَصَرَ على الأهمِّ في دَعْوَةِ المُشْرِكينَ

على أنَّ خِطابَ القرآنِ النّاسَ بأنْ يَأْمُروا بشَيْءٍ يُعْتَبَرُ أمْرًا لِلْمُخاطَبِ بذلك الشَّيْءِ، وهيَ المَسْألَةُ المُتَرْجَمَةُ في أُصولِ الفِقْهِ، بأنَّ الأمْرَ بالأمْرِ بالشَّيْءِ، هو أمْرٌ بذلك الشَّيْءِ[5].

---

(1) البغويّ، معالم التّنزيل: 260/2.

(2) الثّعالبيّ، الجواهر الحسان في تفسير القرآن: 106/3.

(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 203/8.

(4) أخرجه البخاري في صحيحه، برقم: (4090).

(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 227/9.

دلالةُ عطفِ: ﴿وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ على ما قبلَها:

الجمعُ بين الأمر بالفعلِ للمحاسن، والتَّرْكِ للمهالك والمفاتن

لمّا أمرَهُ بالفعلِ في نفسهِ وغيرِهِ في قوله: ﴿خُذِ ٱلۡعَفۡوَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ﴾، أتبعهُ التَّركَ، فقالَ: ﴿وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾، أي: فلأن تكافئهم بخفَّتِهم وسفههم، ولا تمارهم، فإنَّ ذلك أسهلُ من غيرِهِ، وذلك بعد فضيحتِهم بالدُّعاء؛ وذلك لأنَّ محطَّ حالهم اتِّباع الهوى، فيدعوهم إلى تكلُّفٍ ضدَّ هذه الخصال، وفيه إشارةٌ إلى النَّهي عن أن يذهبَ نفسه عليهم حسراتٍ مبالغةً في الشَّفقةِ عليهم[1].

إيثارُ الفعلِ ﴿وَأَعۡرِضۡ﴾ دونَ غيره:

الإعراضُ إشعارٌ بعدمِ الرِّضا على سوءِ أخلاقِهم، وليس تركًا بالكلّيّة

أوثرَ التَّعبيرُ بالإعراض دون التَّركِ أو الهَجْر أو التّولّ؛ لأنَّ المقصودَ منه أمْرُ الرَّسولِ ﷺ بأنْ يَصْبِرَ على سوءِ أخْلاقِهم، وألّا يُقابِلَ أقْوالهمُ الرَّكيكَةَ ولا أفْعالهمُ الخَسيسَةَ بأمْثالِها[2]، وليس المرادُ هجرَهم أو تركَ دعوتهم.

دلالةُ حرفِ الجرِّ (عن) وأثرهُ في المعنى:

المجاوزةُ والابتعادُ من معاني حرف الجرِّ (عن)، وهو معنى في صميمِ المقصد

﴿عَنِ﴾ في قوله: ﴿وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾، فيه معنى المجاوزةِ والابتعادِ، أي: اقبلْ منهم، وتجاوزْ عن الجاهلين الَّذينَ لا يدركون قيم الأشياء والأشخاص والكلمات، فيما يبدرُ منهم من أنواع السَّفاهة والإيذاءِ؛ لأنَّ الرَّدَّ على أمثالِ هؤلاءِ ومناقشتَهم لا تؤدّي إلى خير، ولا تنتهي إلى نتيجة، والسُّكوت عنهم احتزام للنَّفس، واحترام للقول، وقد يؤدّي الإعراضُ عنهم إلى تذليل نفوسِهم وترويضها[3].

إيثارُ ذكرِ ﴿ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ دونَ ضميرِهم أو غيرِهِ مِنَ الصِّفات:

مناسبةُ المعاندينَ من المشركينَ؛ لأنَّ الشِّركَ أكبرُ جهالةٍ

أوثرَ ذكرُ ﴿ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾؛ لأنَّهُ كلامٌ في المعاندين من المشركين، فوضعَ موضع ضميرهم ﴿ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾، تسجيلًا عليهم بعدمِ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 203/8.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 435/15.
(3) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 458/5.

الارعواءِ، وإقناطًا كلّيًّا منهم؛ لأنَّ جهلهم جهلٌ مركَّب، ألا ترى كيف أعاد الضَّمير في قوله: ﴿وَإِخۡوَٰنُهُمۡ يَمُدُّونَهُمۡ فِي ٱلۡغَيِّ ثُمَّ لَا يُقۡصِرُونَ ۝٢٠٢ وَإِذَا لَمۡ تَأۡتِهِم بِـَٔايَةٖ قَالُواْ لَوۡلَا ٱجۡتَبَيۡتَهَاۚ﴾ [الأعراف: 202 - 203]، كلُّ ذلك بيانٌ للعِناد والتَّمرُّد[1].

سِرّ العُدولِ عن جمعِ التَّكسيرِ إلى جمعِ المذكَّرِ السّالمِ:

اختيارُ الجمعِ السّالم للقلَّة، ومناسبةُ صيغتهِ لفاصلةِ الآيةِ

لم يُجمَعِ (الجاهل) جمعَ تكسيرٍ في القرآن الكريم (الجهلاء)، وإنَّما جُمِع جَمْعَ مذكَّرٍ سالمًا ﴿ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾؛ لأنَّ جمع التَّكسير الَّذي على (فُعلاء) للكثرةِ، وهو مناسبٌ لمقام الذَّمِّ، والغرضُ هنا ليس ذاك، بل الحضَّ على التَّخلُّقِ بالحِلْم، والتَّنَزُّهَ عَنْ مُنازَعَةِ السُّفَهاءِ وعلى الإغْضاءِ عَمّا يَسوءُ، كَقَوْلِ مَنْ قالَ: "إنَّ هذه قِسْمَةٌ ما أُريدَ بها وجْهُ اللّه"، وقَوْلِ الآخرينَ: "أن كانَ ابْنَ عَمَّتِكَ"، وكالَّذي جَذَبَ رِداءَهُ حتى حزَّ في عُنُقِه، وقالَ: "أعْطِني مِن مالِ اللّه"[2]؛ لذلك كان التَّعبيرُ بجمع المذكَّر السّالم إشارةً إلى قِلَّتهم وضعفهم، فضلًا عن مناسبته فاصلةَ الآية الكريمةِ، وفيه تناسقٌ جميلٌ، وانسجامٌ صوتيٌّ بديعٌ.

فنُّ الانسجامِ ودلالتُهُ:

الآيةُ إجمالٌ بلا تفصيلٍ مع إيجازٍ مفيدٍ وإعجازٍ سديدٍ

أُعْجِبَ عشّاقُ البيانِ بقولهِ تعالى: ﴿خُذِ ٱلۡعَفۡوَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾؛ لما فيها من إعجازٍ وإيجاز، ولما فيها من عذوبةِ جرسٍ، ووضوحِ بيانٍ، ولأنَّها ترمزُ ولا تشرحُ، وتجملُ ولا تفصِّلُ، وللبلغاءِ في هذا الضَّربِ من البلاغةِ مذاهبُ، وقد أطلقوا عليه اسمَ (فن الانسجام)[3]؛ إذ في قوله: ﴿خُذِ ٱلۡعَفۡوَ﴾ مبدأٌ من مبادئِ التَّشريع في الإسلام، وهو التَّيسيرُ وعدمُ التَّعسيرِ. وفي قولهِ تعالى: ﴿وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ﴾ إشارةٌ صريحةٌ إلى اعتبارِ العُرفِ في الأحكام

(1) الطيّبيّ، فتوح الغيب: 720/6.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 256/5.
(3) وهو أن يكون الكلام متحدّرا كتحدّر الماء المنسجم، حتّى يكون للجملة منه وقع في النّفوس، وتأثير في القلوب، ما ليس لغيره.

الشَّرعيَّة، واحترام العادةِ في التَّعاملِ، ما لم يعارضْهما نصٌّ صريح من القرآن أو الحديث[1]، وفي قوله: ﴿وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾، أمرَ اللّهُ تعالى حبيبَهُ في آخرِ الآيةِ، بتحمُّلِ الأذى والحلم عمَّن جفا، فظهر بهذا أنَّ الآيةَ مشتملةٌ على مكارمِ الأخلاقِ فيما يتعلَّق بمعاملةِ النّاس معه، ولم يكن ﷺ فاحشًا ولا متفحِّشًا ولا صخّابًا في الأسواق، ولا يجزي السَّيِّئَةَ بالسَّيِّئة، ولكن يعْفو ويصفحُ[2].

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الأخذُ والاستحواذُ:

الاستحواذُ الاستيلاءُ على الشَّيءِ بالاقتطاعِ لهُ، والأخذُ أعمُّ

الأخذُ أعمُّ؛ إذْ إنَّ الاستحواذَ أخْذٌ بطريقة مخصوصةٍ، وأصلُ (الاستحواذ) في كلامِ العرب: الغلبةُ، ومنه قولهُ تعالى: ﴿ٱسۡتَحۡوَذَ عَلَيۡهِمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمۡ ذِكۡرَ ٱللَّهِۚ﴾، [المجادلة: 19]، بمعنى: غلب عليهم، يقال منه: "حاذَ عليه واستحاذَ، يحيذ ويستحيذ، وأحاذ[3]، والاستحواذُ: الاستيلاءُ على الشَّيءِ بالاقتطاعِ له[4]، والأخْذُ خلافُ العطاءِ "(تحصيل الشَّيء في الحوزة بقوَّةٍ)، وتُلاحَظ الغلظةُ في الأخذِ خلاف العطاءِ؛ لأنَّ تقبُّلَ الشَّيءِ عطاءً أرْفَقُ، وأخْذُ العفوِ معناهُ: أن يقبل من أخلاق النّاس، ويتركَ الغلظةَ عليهم، أي: خذ ما عفا وسهلَ، وتيسَّرَ من أخلاق النّاس، وارضَ منهم بما تيسَّر من أعمالهم، وتسهَّل من غير كلفة[5].

العفوُ والصَّفحُ:

العفوُ تركُ عقوبةِ المذنبِ، والصَّفحُ التَّجاوزُ عنه وتركُ ملامته

الصَّفحُ: تركُ التَّثْريبِ، وهو أبلغُ من العفو، وقد يعفو الإنسانُ ولا يصفحُ، وقال البيضاويُّ: "العفو ترْكُ عقوبةِ المذنبِ، والصَّفحُ:

(1) صافي، الجدول: 158/5.
(2) حقّي، روح البيان: 298/3.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 608/7.
(4) ابن فضال، النّكت في القرآن الكريم، ص: 488.
(5) ابن جرير، جامع البيان: 333/13، طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 458/5.

تركُ لومِه، قلتُ: ويدلُّ عليه قوله تعالى: ﴿فَٱعۡفُواْ وَٱصۡفَحُواْ﴾ [البقرة: 109] ترقّيًا في الأمر بمكارمِ الأخلاق من الحَسَنِ إلى الأحْسنِ، ومن الفَضْلِ إلى الأفْضل"[1].

العُرْفُ والمعروفُ:

الـعُـرْفُ: ما عَرَفَتْهُ النُّفوسُ مـن الـعـاداتِ والأحـوال، والمـعـروفُ ضدُّ المنكرِ

ذهبَ كثيرٌ من العلماءِ إلى تفسير (العُرْف) بالمعروف، والعُرْفُ والعارفةُ والمعروف - في لغة العرب - واحدٌ كما يقولُ أبو منصور الأزهريِّ: "وهو كلُّ ما تعرفهُ النَّفسُ من الخيرِ وتَبْسَأ[2] به، وتطمئنُّ إليه"[3]، وفَسَّر الرّاغبُ الأصفهانيُّ العُرْفَ: "بالمعروف من الإحسان"[4]، والعُرْف: كُلُّ ما عَرَفَتْهُ النُّفوسُ مِمّا لا تَرُدُّهُ الشَّريعَةُ[5]، والمعروف ما تعارف عليه النّاس، وعلموه، ولم ينكروه[6]، والمعروف ضدُّ المنكرِ، وهو اسم لكلِّ فعلٍ يعرف بالعقل، والشَّرعُ حسَّنَهُ[7]، وبالنَّظر في آيات الذِكْر الحكيم نلْحظ خِفَّة لفظ (العُرْف) ومجيئَه مرَّةً واحدةً في سورة الأعراف المكيَّة، ممّا يدلُّ على خاصّيَّة له، تميِّزه عن لفظ (المعروف) الَّذي تكرَّر كثيرًا مقترنًا بالنَّهْي عن مقابله، وهو لفظ (المنكر)، فالعُرْف والمعروف: ضدُّ النُكْر والمُنكر"؛ لأنَّه شيء جارٍ مألوفٌ مقبول يَعْرِفه كلُّ أحدٍ، ولكن يقال: (العُرف) لما ظهرَ من العاداتِ، وتتابعَ من الأفعال والأحوال، وهو الأنسب لمعنى الآية الكريمة، وهو ينقسم إلى عُرْفٍ صحيح وعُرْفٍ فاسدٍ، فالفاسدُ لا يقول به أحد، ولا يُعتمد عليه، والعُرْف الصَّحيح ينقسم إلى عامٍّ وخاصٍّ، وما يتعلَّق بالألفاظ وما يتعلَّق بالأفعال، وليس ثمَّة

(1) الرّاغب، المفردات، ص: 416، 508، والكفويّ، الكليّات: 120/3، 183/3.
(2) بَسَأ به يَبْسَأُ بَسْا وبُسوءًا وبَسِئَ بَسا: أنِسَ به. ينظر: ابن منظور، لسان العرب: (بسأ).
(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: 344/2.
(4) الرّاغب، المفردات: (عرف).
(5) ابن عطيّة، المحّرر الوجيز: 491/2.
(6) الفيروزآباديّ، تاج العروس: (عرف).
(7) الرّاغب، المفردات، ص: 416، 508.

محلُّ التَّفصيل[1]، و(المعروف) من الألفاظِ الَّتي يصعبُ تعريفها؛ لشدَّة وضوحِها، وبينه وبين العُرْف عُمومٌ وخُصوصٌ وجْهيٌّ؛ بحَيْثُ يَجْتَمِعانِ في صورَةٍ، ويَنْفَرِدُ كُلٌّ واحدٍ منهما بنَفْسِه في صورَةٍ، فيجتمعان في إطلاقِهما على ما تَأْلَفُهُ النُّفوسُ، وتَسْتَحْسِنُهُ، فهو مِمّا تعرفُهُ النُّفوسُ، وينفرد العُرْف في غلبةِ إطلاقِه على عاداتِ النّاس، ولولم تكن معروفةً من الشَّرْع، وجواز إطلاقه على الفاسد، أو المستقبح عند جماعةٍ دون أخرى، كما ينفردُ المعروف بإطلاقِه على كلِّ ما عُرف من طاعةِ اللّه والتَّقرُّب إليه والإحسان إلى النّاسِ، وكلِّ ما ندبَ إليه الشَّرعُ، ونهى عن ضدِّه.

الجهلُ والحُمقُ:

الجهلُ أعمُّ من الحمقِ؛ إذ إنَّ الجهلَ يكون ضدَّ العلم؛ لأنَّ الجاهلَ خالي الذِّهنِ من المعلومات ﴿يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ﴾ [البقرة: 273]، كما يكونُ الجهلُ ضدَّ الحلم؛ لما في الباطن من فراغ، يتمثَّل في السُّلوك بخفَّةٍ وطيش وسفه، أو من جفافٍ، يتمثَّل في السُّلوك بجفاء وغلظة، ومنه قوله: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ۝٥٥﴾ [النّمل: 55]، وقوله: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ۝١٣٨﴾ [الأعراف: 138]. والحمق هو الجَهْل بالأمور الجاريَة في العادة، والجهل يكون بذلك وبغَيْرِه، ولا يُسمَّى الجَهْل باللّه حُمقًا، وأصلُ الحمقِ الضَّعْفُ، والخفَّة لفراغِ الباطن، ومن ثمَّ قيل: البقلة الحمقاءُ؛ لِضعْفِها وخفَّتها لفراغِها، وأحمق الرَّجل، أي: طاش وسفه، وضعف عقلُهُ[2].

الجهلُ أعمُّ، والحمقُ هو الجَهْلُ بالأمورِ الجاريَةِ في العادةِ

(1) للاستزادة يُراجع: السّرخسيّ، المبسوط: 196/12، وابن عابدين، نشر العرف (في مجموعة الرّسائل): 132/2، وعلي حيدر، درر الحكّام: 94/1، وأبو سنّة، العرف والعادة، ص: 19.

(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 101، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (جهل).

﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ٢٠٠﴾ [الأعراف: 200]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

العلاقةُ بين أمرِ الرَّسولِ بالعفو وما يتبعُهُ، وبين الاستعاذةِ من نزغِ الشَّيطان الرَّجيم

لمّا أمرَ اللّهُ رسولَهُ ﷺ في الآية السّابقة بالعفوِ والأمر بالعرف والإعراض عن الجاهلين، وكانت هذه الأمورُ في معاملةِ النّاس قد تفضي إلى الغضب، وقد يكونُ الغضب مدخلًا للشَّيطان؛ ليصدَّ عن أمرِ اللّهِ، ويحملَ على غيرِ ما أمرَ اللّه بهِ - جاء التَّوجيهُ والإرشاد بالالتجاءِ إلى اللّه تعالى.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَنزَغَنَّكَ﴾: من النَّزْغِ، وهو حمْلُ بعضِهم على بعضٍ بفسادِ ذاتِ بينهم، كما نَزَغَ الشيطانُ بين يوسف وإخوته، قال رؤبة:

واحذَرْ أقاويلَ العُداةِ النُّزَّغِ[1]

وهو نَخْس حِسّيّ (في البدن)، أو معنويٌّ للتَّحريك والإثارة[2].

2) ﴿فَٱسۡتَعِذۡ﴾: العَيْنُ والواوُ والذّالُ أصْلٌ صَحيحٌ يَدُلُّ على مَعْنًى واحِدٍ، وهو الالتِجاءُ إلى الشَّيْءِ، ثُمَّ يُحْمَلُ عليه كُلُّ شَيْءٍ لَصِقَ بشَيْءٍ أو لازَمَهُ.

المَعْنى الإجْماليُّ:

الدَّعوةُ إلى الاستعاذةِ باللهِ الواقي من الشَّيطانِ ونزغهِ وزيغه

فَإذا ما اسْتَثارَ الشَّيْطانُ غَضَبَكَ ليَصُدَّكَ عَنِ الإعْراضِ عَنِ الجاهِلينَ، ويَحْمِلَكَ على مُجاراتِهم ومُجازاتِهم، فاسْتَعِذْ باللّهِ، واسْتَجِرْ به مِن نَزْغِ الشَّيْطانِ، إنَّهُ سَميعٌ لِجَهْلِ الجاهِلينَ عَلَيْكَ، عَليمٌ بما يُذْهِبُ عَنْكَ نَزْغَ الشَّيطانِ[3].

(1) البيت مِنَ الرّجز، لرؤبة بن الحجاج، في ديوانه، ص: 98.
(2) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (نزغ).
(3) حومد، أيسر التّفاسير، ص: 1100.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ الواوِ في قوله: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ﴾، وأثرُها في المعنى:

عطفُ جملةِ الشَّرطِ على جملةِ الأمرِ، لما بينهما من علاقةِ السَّببِ بالمسبِّب

الواو استئنافيَّةٌ، لبيان موقفهِ من الشَّيطان، وما يجبُ عليه حيالَه إن حدثَ منه نزغٌ بعد بيان موقفهِ من الأناسيِّ في قوله: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ١٩٩﴾ [الأعراف: 199]. ويحتمل أن تكون عاطفةً على ما قبلَها، عَطَفَ جملةَ الشَّرطِ على جملة الأمر قبلَها؛ لما بينهما من علاقة السَّببِ بالمسبِّب، فمُجاهدةُ النَّفسِ في الإعراض عنِ الجاهلين قد تكمل في موطن، وتضعفُ في موطنٍ آخر، فإن حصلَ ذلك، واعتراك غضبٌ؛ فاستعذ باللّه، وقالَ بَعْضُ المُفَسِّرينَ: إنَّها راجِعَةٌ إلى قوله: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾[1]. وعلى هذا لا يصحُّ أن يحملَ قوله تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ﴾ على الإغواء والوسوسة، بل على ما قاله بعض المحقِّقين: إنَّه راجعٌ إلى قوله: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾، أي: يستخفَّنَّك غضبًا يحملك على تركِ الإعراض، أو النَّزغِ أدنى الوسوسة، فأمره تعالى بالاستعاذةِ من ذلك فيكفيهِ له؛ إذْ لم يُسلَّط على أكثر من ذلك[2].

إيثارُ استعمالِ (إمّا) دون غيرها:

الدَّلالةُ على حمايةِ اللهِ نبيَّهُ الكريم من نزغِ الشَّيطانِ الرَّجيم

قولهُ: (وإمّا)، قال الزَّجاجُ: هذه (إنْ) الَّتي للجزاء، ضُمَّتْ إليها (ما)، والأصلُ في اللَّفظ (إن ما) مفصولة، ولكنَّها مدغمةٌ، وكُتِبَتْ على الإدغام، فاذا ضُمَّت (ما) إلى (إن) لزم الفعلُ النّونَ الثَّقيلة أو الخفيفة، وإنَّما تلزمه النّون؛ لأنَّ (ما) تدخل مؤكِّدةً[3]. وأوثِرَ التَّعبيرُ بـ(إمّا) للدَّلالة على حماية اللّه لنبيِّه ﷺ ممّا قد يقع من نزغ الشَّيطان، ولو كان ضعيف الاحتمال، يعني: إنْ حَصَلَ في

(1) عياض، الشّفا بتعريف حقوق المصطفى: 279/2.
(2) عياض، إكمالُ المُعْلِم بفَوائِدِ مُسْلِم: 505/1.
(3) ابن الجوزيّ، زاد المسير: 58/1.

قَلْبِكَ مِنَ الشَّيْطانِ نَزْغٌ، كَما أنَّهُ تَعالَى قالَ: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزُّمَر: 65]، ولَم يَدُلَّ ذلك على أنَّهُ أشْرَكَ[1].

بلاغةُ استعمالِ النَّزغِ دونَ المسِّ:

في قوله تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ﴾ استعمل النَّزْغَ دونَ المسّ، والنَّزغُ أدنى درجات وسوسةِ الشَّيطان، وما يعتري الإنسانَ من الغضبِ، وعن الزَّجّاج: النزغُ أدنى حركةٍ تكون، ومن الشَّيْطانِ أدْنَى وسْوَسَةٍ، وهو النَّخْس، كأنَّه ينخس حين يغريهم[2]، وهو المناسب لسياقِ الآيةِ الكريمةِ، ومقام النَّبيِّ ﷺ وعصمته؛ فإنَّ أقلَّ درجاتِ الوسوسةِ وردتْ على سبيل الشَّكِّ في حصولها، فإن حصل شيءٌ منها؛ فإنَّ سياج الرَّحمةِ الإلهيَّةِ ستحيط النَّبيَّ ﷺ حتَّى لا يكون للشَّيطان عليه سبيل، "فَإنَّ الشَّيْطان قد يوسوس إلى الأنْبياء، ولَكِن لا يقبلونَ منه"[3]، والنَّزغُ حركةٌ فيها فسادٌ، وقلَّما تستعمل إلّا في فعل الشَّيطان؛ لأنَّ حركاتِه مسرعة مفسدة[4]، ومنه قول النَّبيِّ ﷺ: «لا يُشِرْ أحدُكم على أخيه بالسِّلاح، لا ينزغ الشَّيطان في الغضبِ وتحسين المعاصي، واكتساب الغوائل، وغير ذلك»[5]. وقد ذُكِرَ (المسُّ) في حقِّ المُتَّقين، وهو أقوى من النَّزغ، كما سبق بيانُهُ في المفردات.

النَّزغُ أدنى درجاتِ وسوسةِ الشَّيطانِ، وبه يكون استدراجُ الإنسان

بلاغةُ الاستعارةِ المكنيَّة:

في قوله تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ﴾ استعارةٌ مكنية، فالنَّزغُ والنَّسعُ والنخْسُ: الغَرْزُ؛ شُبِّهت وسوستُه للنّاس وإغراؤه لهم

إطلاقُ النَّزغِ على وسوسةِ الشَّيطانِ للمبالغةِ، والتَّنبيهُ على خطرها

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 436/15.
(2) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 347/7، والنّسفيّ، مدارك التّنزيل: 627/1.
(3) ابن خمير، تنزيه الأنبياء عمّا نسب إليهم حثالة الأغبياء، ص: 71.
(4) ابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 491/2.
(5) الحديث يؤيّده في معناه ما ورد في فتح المبدي بشرح مختصر الزّبيديّ: 358/4: عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النّبيّ ﷺ قال: «لا يُشرْ أحدكم على أخيه بالسّلاح، فإنّه لا يدري لعلّ الشّيطان ينزغ في يده فيقع في حفرة من النّار»، وكذا ما جاء في رواية البخاريّ ومسلم بمثل هذا المعنى من كتاب التّرغيب والتّرهيب، باب: التّرهيب من ترويع المسلم: 29/3.

على المعاصي بغَرْزِ السّائق لما يسوقه على سبيل الاستعارةِ المكنيَّة، وإسنادُه إلى النَّزغ من قَبيل جَدّ جِدُّه، أي: وإمّا يحمِلنَّك من جهتهِ وسوسةٌ ما على خلاف ما أُمرت به من اعتراءِ غضبٍ أو نحوه[1].

لطيفةُ استعمالِ صيغةِ الفعل المضارعِ:

لا سلطانَ للشَّيطانِ على من آمنَ، واعتصمَ بالقرآنِ

في قوله: ﴿يَنزَغَنَّكَ﴾ استُعْمِل الفعل المضارع، دلالةً على استمرارِ الفعل، وتجدُّدِه، فمهما يكن من الشَّيطان من نزْغٍ، فإنَّ لك ملجأً لا تأخذه سنةٌ ولا نومٌ، فاستعذ باللّه، والمعنى: "فإذا ما استثارَ الشَّيطانُ غضبكَ ليصدَّك عن الإعراضِ عن الجاهلين، ويحملَك على مجاراتهم ومجازاتهم، فاستعذْ باللّهِ، واستجرْ به من نزغِ الشَّيطانِ، إنَّه سميعٌ لجهل الجاهلين عليك، عليمٌ بما يُذهب عنك نزغَ الشَّيطان"[2].

نكتةُ تأكيدِ الفعلِ بنون التَّوكيد في قوله: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ﴾:

إشارةُ السّياق إلى نزغِ الشَّيطان وخطره، وإلى مفاسدهِ وأثرِه

ودخلتِ النّونُ مؤكِّدَةً أيضًا، كما لزمتِ اللّامُ النّونَ في القسم في قولك: واللّه لتفعلنَّ[3]، فلو قيل: (ينزغْك)؛ لَما كان في قوَّة ﴿يَنزَغَنَّكَ﴾ لمكان نون التَّوكيد، ولتقويَةِ الفعلِ بالبناءِ على الفتحِ، ولزيادةِ جَرْسِ الكلمة الدّالِّ على خطَر المعنى وأثره.

سرُّ اتِّصالِ الفعلِ بالضَّميرِ الواقعِ مفعولًا في قوله: ﴿يَنزَغَنَّكَ﴾:

إبرازُ ضررِ نزْغِ الشَّيطانِ، وتحذير المخاطبِ منهُ في كلِّ آنٍ

في اتِّصال كافِ الخطاب بالفعل مُسَوِّغٌ لتقديمِ المفعول على الفاعلِ، وهذا يشير إلى أهمّيَّته وعناية المتكلِّم به، كما يدلُّ على خفَّةِ النَّزغ وسرعته؛ بحيثُ يصل سريعًا إلى هدفه لولا فضلُ اللّه ورحمته لمن استعاذَ به من شرِّه.

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 308/3.
(2) حومد، أيسر التّفاسير، ص: 1155.
(3) ابن الجوزيّ، زاد المسير: 58/1.

بلاغةُ إسنادِ النَّزغِ إلى المصدرِ ﴿نَزۡغٌ﴾:

السّياق يحملُ مبالغةً، وإشارةً إلى حمايةِ اللهِ نبيَّهُ من الشَّيطانِ

في إسنادِ النَّزغِ إلى المصدرِ، وجَعْل النَّزْغِ نازغًا: مبالغةٌ، كما قيل: جَدَّ جِدُّه، وروي أنَّها لمّا نزلت قال رسول الله ﷺ: «كيفَ يا ربُّ والغضب؟» فنزل ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٌ﴾، ويجوز أن يُراد بنزغِ الشَّيطان اعتراءُ الغضب، كقول أبي بكر رضي الله عنه: "إنَّ لي شيطانًا يعتريني"[1]، وفي العدولِ عن إسناد النَّزْغِ إلى الشَّيطان إشارةٌ إلى حماية المخاطبِ مِنَ الشَّيطان؛ إذ إنَّ النزْغَ وإن كان صادرًا من الشَّيطان، ولكنَّه جاءَ على سبيل الاحتمال، وهذه خصيصةٌ بالمخاطبِ بهذا السّياق، "وَهذا الأمْرُ شامِلٌ لِلْمُؤْمِنينَ وحَظُّ المُؤْمِنينَ منه أقْوَى؛ لِأنَّ نَزْغَ الشَّيْطانِ إيّاهُم أكْثَرُ، فإنَّ النَّبيَّ ﷺ مُؤَيَّدٌ بالعِصْمَةِ، فلَيْسَ لِلشَّيْطانِ عليه سَبيلٌ"[2]، وهذا يختلف عن السّياق الآخرِ الَّذي أسند فيه النزْغُ إلى الشَّيطان مباشرةً، كقوله: ﴿وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلۡبَدۡوِ مِنۢ بَعۡدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بَيۡنِي وَبَيۡنَ إِخۡوَتِيٓۚ﴾ [يوسف: 100]، وقوله: ﴿وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُواْ ٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ يَنزَغُ بَيۡنَهُمۡۚ﴾ [الإسراء: 53].

فائدةُ قولِهِ: ﴿مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾، وتقديمه على الفاعل ﴿نَزۡغٌ﴾:

بيانُ مصدرِ النَّزْغِ ليحذرَهُ المخاطب ويتوقّاه

أفادَ قولُه: ﴿مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾ بيانَ موضعِ صدورِ النَّزْغِ، وأنَّه من الشَّيطانِ، لا من النَّفسِ، وحينئذٍ يكون الجارُّ والمجرورُ متعلِّقًا بالفعل قبله، ويجوز أن يفيدَ بيانَ حال النَّزغ الشَّيطانيِّ، وأنَّه ذو أثرٍ مختلفٍ، وأصله: (نزغٌ من الشَّيطان)، وحينئذٍ يكون متعلِّقًا بالفاعل بعده، أي: (نزغ الشَّيطانُ به) فكان من الشَّيطان، ويتعلَّق الجارُّ والمجرور بمحذوف يقع حالًا منه؛ لأنَّهُ في الأصل صفتهُ، فلمّا تقدَّم عليه أعربَ حالًا.

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 190/2.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 230/9.

لطيفةُ جناسِ الاشتقاقِ في قوله: ﴿يَنزَغَنَّكَ﴾ و﴿نَزۡغٌ﴾:

يشيرُ إلى اختصاصِ فعلِ النَّزغِ بواحدٍ، وهو الشَّيطانُ

تبدو لطائفُ الجناس هنا من ذكرِ الفاعلِ من جنس حروفِ الفعل؛ وكأنَّه يشيرُ إلى اختصاصِ فعل النَّزغِ بواحدٍ، وهو الشَّيطان، "والنَّزْغ: حركةٌ فيها فسادٌ، قلَّما تُسْتَعمَلُ إلّا في فِعْلِ الشَّيطان، لأنَّ حركته مسرِعَةٌ مفسدة"[1]؛ حيث إنَّ إسنادَهُ إلى غيرهِ لا يُتصوَّر، إلّا أن يكونَ الفاعلُ من ذات الفعل، وفي ذلك حُسنُ الإفادةِ، مع أنَّ الصّورةَ صورةُ الإعادة. "ومعنى هذا: أنَّ الكلمةَ المكرَّرةَ في التَّجنيس مع أنَّ الصَّورة توهمُ السّامعَ في أوَّلِ أمرِها أنَّها لم تَأْتِ بجديدٍ، بل هي مكرَّرةٌ لمعنى سابقتِها، فإذا حصل للسّامع منها المعنى الجديدُ، جاءه ذلك من غير مظانِّه، ومن حيثُ لم يتوقَّعه، وفي ذلك متعةٌ للنَّفس، وربحٌ من غيرِ انتظارٍ"[2].

دلالةُ الفاءِ، وأثرُ دخولها على الجوابِ:

سبيلُ الوقايةِ من الشَّيطانِ، الاستعاذةُ بالله الواقي من زيغه الفتّان

الفاءُ في قولهِ: ﴿فَٱسۡتَعِذۡ﴾ واقعةٌ في جوابِ الشَّرْطِ، وإنَّما اختيرت (الفاء)، من قِبَل أنَّ الجزاءَ سبيله أن يقع ثاني الشَّرط، وليس في جميع حروفِ العطف حرفٌ يوجد هذا المعنى فيه سوى (الفاء)؛ فدخلتْ (الفاء) في جوابِ الشَّرطِ توصُّلًا إلى المجازاةِ[3].

العدولُ عن (فاستعن)، وإيثارُ الفعلِ ﴿فَٱسۡتَعِذۡ﴾:

الدَّلالةُ على قوَّةِ المستعاذِ بهِ، وضعفِ العبدِ المستعيذِ

أوثرَ الفعلُ (استعذ)؛ لأنَّهُ يدلُّ على قوَّة المستعاذ به من جهةٍ؛ للالتجاء إليه، والاحتماء به، وضعف العبد المستعيذ من جهة أخرى، وفيه إظهارُ الانكسارِ للّه تعالى، والاستكانة له، والتَّذلُّل لعظمته، والتَّبرُّؤ من الحولِ والقوَّة، وترك الالتجاءِ لغيرِ اللّه تعالى.

(1) الثّعالبيّ، الجواهر الحسان في تفسير القرآن: 107/3.
(2) المطعنيّ، خصائص التّعبير القرآنيّ وسماته البلاغيّة: 442/2.
(3) ابن جِنّيّ، سِرّ صناعة الإعراب: 252/1، والواحديّ، التّفسير البسيط: 255/2.

فائدةُ الاستعاذةِ عند نزغِ الشَّيطانِ:

تَجْديدُ داعيَةِ العِصْمَةِ المَرْكوزَةِ في نفسِ النَّبيِّ ﷺ

فائِدَةُ هذه الاسْتِعاذَةِ تَجْديدُ داعيَةِ العِصْمَةِ المَرْكوزَةِ في نفس النَّبيِّ ﷺ لِأنَّ الاسْتِعاذَةَ باللّه مِنَ الشَّيْطانِ اسْتِمْدادٌ لِلْعِصْمَةِ، وصَقْلٌ لِزُكاءِ النَّفْسِ مِمّا قد يَقْتَرِبُ مِنها مِنَ الكُدُراتِ، وهذا سِرٌّ مِنَ الاتِّصالِ بَين النَّبيِّ ﷺ ورَبِّه وقد أشارَ إليه قَولُ النَّبيِّ ﷺ: «إنَّهُ لَيُغانُ على قَلْبي، وإنّي لَأَسْتَغْفِرُ اللّه في اليَوْمِ مِئَةَ مَرَّةٍ»[1]، فبِذلك تَسْلَمُ نَفْسُهُ مِن أنْ يَغْشاها شَيْءٌ مِنَ الكُدُراتِ، ويَلْحَقُ به في ذلك صالِحوا المُؤْمِنينَ[2]، ولَعَلَّ اللّه ادَّخَرَ خُصوصيَّةَ الاسْتِعاذَةِ لِهذه الأُمَّةِ، فكَثُرَ في القرآنِ الأمْرُ بالاسْتِعاذَةِ مِنَ الشَّيْطانِ، وكَثُرَ ذلك في أقْوالِ النَّبيِّ ﷺ وجُعِلَ لِلَّذينَ قَبْلَهم الأمْرُ بالتَّذَكُّرِ، كَما ادَّخَرَ لَنا يَوْمَ الجُمُعَةِ[3].

دلالةُ الباءِ في قولِهِ: ﴿بِٱللَّهِۚ﴾، وفائدةُ التَّصريحِ باسمِ الجلالةِ:

الإلصاقُ وإظهارُ اسمِ الجلالةِ، لدفعِ إيهامِ عودِ الضَّميرِ إلى الشَّيطانِ

الباءُ في قَوْلِه: ﴿بِٱللَّهِۚ﴾ باءُ الإلْصاقِ، وهذه الباءُ مُتَعَلِّقَةٌ بالفِعْلِ، والفائِدَةُ فيه: أنَّهُ لا يُمْكِنُ إلْصاقُ ذلك الفِعْلِ بنَفْسِه إلّا بواسِطَةِ الشَّيْءِ الَّذي دَخَلَ عليه، هذا الباءُ فهو باء الإلصاق لِكَوْنِه سَبَبًا لِلْإلْصاقِ[4]. وإظهارُ اسم الجلالة هنا واجبٌ؛ لأنَّه لو قيل: (فاستعذْ به)؛ لحصلَ لبسٌ، وهو عودُ الضَّمير إلى الشَّيطانِ، كما أنَّ في ذكر اسمِ الجلالة دون غيرِه من الأسماءِ الحسنى تربيةً للمهابةِ في القلوب، ودفعًا لنزغات الشَّيطان المتنوِّعة باسم (اللّه) الَّذي هو علمٌ على الذّات العليَّة، ويحمل كلَّ معاني الجلالِ والكمالِ والجمال، فالمستعيذُ باللّه مستعيذٌ بالذّات والصِّفات.

(1) أخرجه مسلم في صحيحه: برقم: (2702)، وأبو داود في سننه، برقم: (1515).
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 296/24.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 232/9.
(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 96/1.

دلالةُ الوقفِ على قولهِ تعالى: ﴿فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۚ﴾:

الوقفُ القرآنيُّ، يمنحُ القارئَ والمستمعَ مُهلةً للتَّأمُّلِ والتَّدبُّر

قوله: ﴿فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۚ﴾ وقفٌ حسن[1]؛ لأنَّه تمامُ جملة الشَّرط، والوقف عليه يمنحُ القارئَ والمستمع مُهلةً للتأمُّل والتَّدبُّر والتَّطبيق العمليِّ، فيُمَكِّنه من الاستعاذةِ فوْرَ قراءتهِ لهذا الأمر الإلهيِّ[2]، وقوله: ﴿إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ تامٌّ[3].

بلاغةُ فصلِ جملةِ: ﴿إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ عمّا قبلَها:

دلالةُ التَّعليلِ للجوابِ بقوله تعالى: (فاسْتَعِذْ باللهِ إنَّهُ سَميعٌ عَليمٌ)

استئنافٌ بيانيٌّ؛ حيث إنَّه تعليلٌ للجوابِ ﴿فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۚ﴾، فجُمْلَةُ: إنَّهُ سَميعٌ عَليمٌ في مَوْقِعِ العِلَّةِ لِلْأَمْرِ بالاسْتِعاذَةِ مِنَ الشَّيْطانِ باللّه، على ما هو شَأْنُ حَرْفِ (إنَّ)، إذا جاءَ في غَيْرِ مَقامِ دَفْعِ الشَّكِّ أوِ الإنْكارِ، فإنَّ الرَّسول ﷺ لا يُنْكِرُ ذلك، ولا يَتَرَدَّدُ فيه، والمُرادُ: التَّعْليلُ بلازِمِ هذا الخَبَرِ، وهو عَوْذُهُ مِمّا اسْتَعاذَهُ منه، أيْ: أمَرْناكَ بذلك؛ لِأنَّ ذلك يَعْصِمُكَ مِن وسْوَسَتِه؛ لِأنَّ اللّه سَميعٌ عَليمٌ[4].

علاقةُ الفاصلةِ بسياقِ الآيةِ:

مناسبةُ لفظي (سَميعٌ عَليمٌ) للفاصلة، وضرورةُ استحضارِ معنى الاستعاذة

قَوْلُهُ: ﴿إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ يَدُلُّ على أنَّ الاستعاذةَ بلسان لا تُفيدُ إلّا إذا حَضَرَ في القَلْبِ العِلْمُ بمعنى الاسْتِعاذَةِ، فكَأنَّهُ تَعالَى قالَ: اذْكُرْ لَفْظَ الاسْتِعاذَةِ بِلِسانِكَ فإنّي سَميعٌ، واسْتَحْضِرْ مَعانيَ الاسْتِعاذَةِ بعَقْلِكَ وقَلْبِكَ، فإنّي عَليمٌ بما في ضَميرِكَ، وفي الحَقيقَةِ

---

(1) الوقف الحسن: الذي يكون عند تمام الكلام، وله تعلق بما بعده من جهة اللَّفظ، وسمَّى كذلك؛ لأنَّه في نفسه حسن مفيد، يجوز الوقف عليه دون الابتداء بما بعده للتَّعلُّق اللَّفظيِّ، الا أن يكون رأس آية، فإنَّه يجوز في اختيار أكثر أهل الأداء. ينظر: الإبياريّ، الموسوعة القرآنّية: 27/5.

(2) ورد ذلك في السنَّة، ولكن ليس ثمَّة دليل على قطع جزء الآية بالاستعاذة، أو الدُّعاء، ويفضَّل ختْم الآية؛ تأدُّبًا حتّى لا يدخلَ كلامُنا في كلام الله تعالى، فعَنْ حُذَيْفَةَ، قالَ: «صَلَّيْتُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ لَيْلَةً، فكانَ إذا مَرَّ بآيَةِ رَحْمَةٍ سَأَلَ، وإذا مَرَّ بآيَةِ عَذابٍ تَعَوَّذَ، وإذا مَرَّ بآيَةٍ فيها تَنْزِيهٌ لِلَّهِ سَبَّحَ»، رواه أبو داود في: باب ما يقول الرّجل في ركوعه وسجوده، من كتاب الصّلاة، برقم: (871)، والنّسائيّ، في: باب تعوُّذ القارئ إذا مرَّ بآية عذاب، وباب مسألة القارئ إذا مرَّ بآية رحمة، من كتاب افتتاح الصّلاة، وفى باب الذّكر في الرّكوع، وباب نوع آخر (من الدّعاء في السّجود)، برقم: (1008) و(1009).

(3) الأنباريّ، إيضاح الوقف والابتداء: 675/2.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 231/9.

القَوْلُ اللِّسانيُّ بدونِ المَعارِف القلبيَّة عديمُ الفائدةِ والأثرِ[1]، ولمّا كان الغَرَضُ مِنَ الاسْتِعاذَةِ الاحْتِرازَ مِن شَرِّ الوَسْوَسَةِ، ناسبها هذان الوصفان للّه تعالى، وهما ﴿سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾، ومَعْلومٌ أنَّ الوَسْوَسَةَ كَأنَّها حُروفٌ خَفيَّةٌ في قَلْبِ الإنْسانِ، ولا يَطَّلِعُ عَلَيْها أحَدٌ، فكَأنَّ العَبْدَ يَقولُ: يا مَنْ هو على هذه الصِّفَةِ الَّتي يَسْمَعُ بها كُلَّ مَسْموعٍ، ويَعْلَمُ كُلَّ سِرٍّ خَفيٍّ، أنْتَ تَسْمَعُ وسْوَسَةَ الشَّيْطانِ، وتَعْلَمُ غَرَضَهُ فيها، وأنْتَ القادِرُ على دَفْعِها عَنّي، فادْفَعْها عَنّي بفَضْلِكَ، فلِهذا السَّبَبِ كانَ ذِكْرُ السَّميعِ العَليمِ أولَى بهذا المَوْضِعِ مِن سائِرِ الأذْكارِ[2].

نكتةُ إردافِ صفةِ العلمِ صفةَ السَّمْعِ هنا:

استعاذةُ (السَّميعُ البَصيرُ) من شَرِّ الإنسِ، و(السَّميعُ العَليمُ) من شَرِّ الشَّيطانِ

نتأمَّل حكمةَ القرآنِ كيف جاءَ بالاستعاذةِ من الشَّيطانِ الَّذي نعلمُ وجودَه، ولا نراهُ بلفظ: ﴿سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ هنا وفي [فصلت: 36]، وجاءتِ الاستعاذةُ من شرِّ الإنسِ الَّذين يؤنَسون، ويُرَوْنَ بالإبصار بلفظ: ﴿ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ في [غافر: 56]؛ لأنَّ أفعالَ هؤلاء معاينةٌ بالبصر، وأمّا نزغُ الشَّيطان؛ فوساوس وخطراتٌ يُلقيها في القلب، يتعلَّق بها العلم، فأمَرَ بالاستعاذة بالسَّميع العليم فيها، وأمرَ بالاستعاذة بالسَّميعِ البصيرِ، في باب ما يُرَى بالبصرِ ويُدْرَكُ بالرُّؤيةِ[3].

سِرُّ العدولِ عن التَّوكيدِ بضميرِ الفصلِ هنا:

في (فُصِّلت) ضميرُ الفصل (هو) بعد دعاءِ إلى ما يشقُّ فعله، وهنا ليسَ كذلك

إنَّ الَّذي في سورة فُصِّلَتْ في قوله: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾﴾ [فُصِّلَت: 36] لمّا كان بعدَ دعاءٍ إلى ما يشقُّ على الإنسانِ فعلُهُ، وهو أن يدفعَ السَّيِّئَةَ بالحسنةِ، ويقابلَ غلظةَ عدوِّه بالملاينةِ، استكفافًا لشرِّه وأذاه حتَّى يعود إلى

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 436/15.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 436/15.
(3) ابن قيم الجوزيّة، تفسير القرآن الكريم، ص: 648.

اللُّطفِ في المقال والجميلِ في الفِعال، فيصيرُ وإن كان عدوًّا كأنَّه صديقٌ حميمٌ قريبُ القُرْبى[1].

نكتةُ المجيءِ بصفتي ﴿سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ نكرتين:

لَمّـا نـفـى عـن آلهتِهم شبهها بالأحياء؛ وردت الصِّفتان نكرتين

وردتِ الصِّفتانِ الكريمتانِ هنا: ﴿سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ من دون (ال)، وفي سياق آخرَ بـ(ال) في قوله: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ٣٦﴾ [فُصِّلَت: 36]، فوردت الصِّفتان في سورةِ الأعرافِ على طريقة التَّنكيرِ ووردتا في السّورة الأخرى معرفتين، وزيد قبلهما الضَّميرُ الواقعُ فصلًا، فقال: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ﴾؛ لأنَّ سورةَ الأعرافِ تقدَّم فيها قبل الآية وصفُ آلهتهم المنحوتة من الحجارةِ والخشبِ الَّتي وُبِّخوا بعبادتها، في قوله في موضع آخر: ﴿قَالَ أَتَعۡبُدُونَ مَا تَنۡحِتُونَ ٩٥﴾ [الصافات: 95]، فوصفت هنا بأنَّها لا تخلق شيئًا، ولا يستطيعون لهم نصرًا، ﴿وَإِن تَدۡعُوهُمۡ إِلَى ٱلۡهُدَىٰ لَا يَسۡمَعُواْۖ وَتَرَىٰهُمۡ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ وَهُمۡ لَا يُبۡصِرُونَ ١٩٨﴾ [الأعراف: 198]، فنفى عنهم القدرةَ والسَّمع والبصرَ وآلةَ المشي، وآلةَ البطش، بقوله: ﴿أَلَهُمۡ أَرۡجُلٞ يَمۡشُونَ بِهَآۖ أَمۡ لَهُمۡ أَيۡدٖ يَبۡطِشُونَ بِهَآۖ أَمۡ لَهُمۡ أَعۡيُنٞ يُبۡصِرُونَ بِهَآۖ أَمۡ لَهُمۡ ءَاذَانٞ يَسۡمَعُونَ بِهَاۗ﴾ [الأعراف: 195] ولم يتقدَّم هنا ما يوهِمُ أدنى شيءٍ يلحقُها بشبهِ الأحياء، فضلًا عمّا فوق ذلك، فوردتِ الصِّفتانِ بقولهِ: ﴿سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ موردًا لم يتقدَّمه ما يوهم صلاحيَّة شيء من ذلك لغيره تعالى ممّا عبدوه من دونه، ممّا قصد هنا، ولا ذكر دعوى شيء من ذلك من مدَّعٍ، فيستدعي ذلك التَّوهُّم مفهومًا ينفيه، فجاء على ما يجبُ، أمّا آيةُ فُصِّلت؛ فتقدَّم قبلَها قولهُ تعالى: ﴿وَلَٰكِن ظَنَنتُمۡ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعۡلَمُ كَثِيرٗا مِّمَّا تَعۡمَلُونَ ٢٢﴾ [فُصِّلَت: 22]، وقوله تعالى: ﴿*وَقَيَّضۡنَا لَهُمۡ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُواْ لَهُم مَّا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ﴾ [فصلت: 25] وقوله تعالى: ﴿أَرِنَا ٱلَّذَيۡنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ﴾ [فصلت: 25]،

(1) الخطيب الإسكافيّ، درّة التّنزيل وغرّة التّأويل، ص: 1146.

فحصل من هذا أنَّ مُضلّيهم إنَّما كانوا من عالَم الإنسِ والجنِّ، وكلا الصِّنفين موصوفٌ بالسَّمع والبصر، وممّن ينسب إليه علمٌ بخلاف المقدَّم ذُكِر في الأعراف، فلمّا تقدَّم في سورة فصِّلت مَن يُظنُّ منه الغنى، ويمكن منه أن يسمعَ ويبصرَ، ويعلم، ناسبهُ التَّعريف في الصِّفة؛ ليعطيَ بالمفهوم نفيَ ذلك عن غير الموصوف بهما تعالى، ثمَّ أكَّد ذلك بضمير الفصل المقتضي التَّخصيص، ليقوى المفهوم المسمَّى عند كثير من الأصوليين بدليل الخطاب[1].

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

النَّزغُ والمسُّ والوسوسةُ:

المسُّ طيفٌ يُلمُّ بالإنسان، والنَّزغُ أدنى درجاتِ الوسوسةِ، وهي من الشَّيطان أعمُّ

النَّزغُ: أدنى حركة تكون من الآدميِّ، ومن الشَّيطان أدنى وسوسةٍ، وأمّا المسُّ؛ فهو الطَّيف يُلمُّ بالإنسان، فيجعلُ فيه وسوسةً، ويبعثُ فيه غضبًا، وينشر فيه فزعًا، والوسوسة أعمُّ، وأصلُها الصَّوْت الخَفيُّ،[2] ومِنه يُقال لصوت الحليِّ: وسواسٌ، وكلُّ صَوتٍ لا يفهم تَفْصيله لخفائهِ: وسْوَسَة ووَسواس، وكَذلك ما وقع في النَّفس خفيًّا، وَسَمّى القرآنُ الموسوسَ وسواسًا بالمَصْدَرِ في قَوْله تَعالَى: ﴿مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ۝٤﴾ [النّاس: 4]، ولا تصبحُ وسوسةُ الشّيطان سلطانًا الا إذا أُطيع فيما يوسوِسُ بهِ من الكفرِ، ويوضِّحُ هذا المعنى قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ۝١٠٠﴾ [النّحل: 100].

والنَّزغُ أدنى درجاتِ الوسوسةِ، فالنَّزغ هو الإغواءُ بالوسوسةِ، وأكْثر ما يكون عند الغَضَب، ويطلق للإزعاج بالحركة إلى الشَّرِّ، ويُقال: هَذِه نزغةٌ من الشَّيْطان للخصلةِ الدّاعيةِ إلى الشَّرِّ[3].

(1) الغرناطيّ، ملاك التّأويل: 223/1.
(2) سامي القدومي، التفسير البياني لما في سورة النحل من دقائق المعاني، ص: 199.
(3) العسكريّ، الفروق اللّغوّية، ص: 67، وابن منظور، اللّسان: (نزغ)، (وسوس).

العَوذُ واللَّوذُ:

العوذُ في لغةِ العرب: الالتجاءُ أو الالتصاقُ، قال الجوهريُّ: أطيبُ اللَّحم عُوَّذُه (على وزن سُكَّر)، وهو ما التصقَ منه بالعظم، أي: التجِئُ إلى رحمةِ اللّهِ، أو التصِقُ بفضلهِ، وكأنَّ المستعيذَ باللّهِ يتحصَّنُ من وجوهِ السّوءِ، تحصُّنَ المخِّ في داخلِ العظم[1]، واللَّوْذُ: مَصْدَرُ لاذَ يَلوْذُ لِواذًا ولياذًا ولَوْذًا، وألاذَ به: وهو أنْ يَسْتَتِرَ بشَيْءٍ مَخافَةَ مَنْ يَراهُ أو يَأْخُذُهُ، والمَلْوَذَةُ: المَوْضِعُ يُلاذُ بهِ، ويُجْتَمَعُ إليه[2]، والعوذُ مِن شَرِّ كُلِّ ذي شَرٍّ، والعياذَةُ تَكونُ لِدَفْعِ الشَّرِّ، واللّياذُ يَكونُ لِطَلَبِ جَلْبِ الخَيْرِ، كَما قالَ المُتَنَبّي[3]:

يا مَنْ ألوذُ به فيما أُؤَمِّلُهُ *** ومَنْ أعوذُ به فيما أُحاذِرُهُ

لا يَجبُرُ النّاسُ عَظْمًا أنْتَ كاسِرُهُ *** ولا يَهيضونَ عَظْمًا أنْتَ جابِرُهُ

العَوذُ يكونُ لجوءًا ممّا يخافهُ العائذُ ويحذرُه، واللَّوذ ممّا يريده اللّائذُ ويؤمِّلُه

(1) ابن هُبيرة، الإفصاح عن معاني الصّحاح: 334/8، والنيّسابوريّ، غرائب القرآن ورغائب الفرقان: 15/1.

(2) ابن عبّاد، المحيط في اللّغة: (لوذ).

(3) البيتان من بحر البسيط لأبي الطّيّب المتنّبي، في ديوانه، ص: 41، قالهما المتنبي في مدح جعفر بن كيغلغ من قصيدة مطلعها:

حاشَى الرَّقيبَ فخانَتْهُ ضَمائرُهُ *** وغَيَّضَ الدَّمْعَ فانْهَلَّتْ بَوادِرُهُ

وقد أسرف في المدح. قال ابن كثير في البداية والنّهاية: 275/11: "بلغني عن شيخنا العلّامة شيخ الإسلام ابن تيميّة أنّه كان ينكر على المتنبّي هذه المبالغة في مخلوق، ويقول: إنّما يصلح هذا لجناب الله ﷻ"، وقال ابن القيّم: "سمعت ابن تيميّة يقول: ربّما قلت هذين البيتين في السّجود، أدعو الله بما تضمّناه في الذّلّ والخضوع"، وقال ابن القيم أيضًا في شفاء العليل في القضاء والقدر: 191/2: "ولو قال ذلك في ربّه وفاطِرِه لكان أسعدَ به من مخلوق مثله".

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ ٢٠١﴾ [الأعراف: 201]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

ربْطُ دفعِ الرَّسولِ النَّزغَ بالاستعاذةِ، بدفعِ المؤمنين الطّائفَ بالتَّذكُّرِ والإنابةِ

لمّا بَيَّنَ في الآيَةِ الأولَى أنَّ الرَّسولَ ﷺ لا يَحْصُلُ لَهُ مِنَ الشَّيْطانِ إلّا النَّزْغُ الَّذي هو كالابْتِداءِ في الوَسْوَسَةِ، وأنَّ عِلاجَ هذه الحالَةِ الاسْتِعاذَةُ باللّه؛ بَيَّنَ في هذه الآيَةِ أنَّ حالَ المُتَّقينَ يَزيدُ على حالِ الرَّسولِ في هذا البابِ، وهو أنْ يَمَسَّهُم طائِفٌ مِنَ الشَّيْطانِ، وهذا المَسُّ يَكونُ لا مَحالَةَ أبْلَغَ مِنَ النَّزْغِ[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مَسَّهُمۡ﴾: المسُّ يَدُلُّ على جَسِّ الشَّيْءِ باليَدِ، ومَسِسْتُهُ أَمَسُّهُ، ومَسَسْتُ أَمُسُّ لغة، والمَمْسوسُ: الَّذي به مَسٌّ، كَأَنَّ الجِنَّ مَسَّتْهُ[2]، والمراد: إذا ألمَّ بهم لَمَمٌ من الشَّيطان، من غضب أو غيره[3].

2) ﴿طَٰٓئِفٞ﴾: الطَّيْفُ: المَسُّ من الشَّيطان (اتِّصال كالغَشَيان ولكن بصورة خفيَّة)، والطَّوف يَدُلُّ على دَوَرانِ الشَّيْءِ على الشَّيْءِ، وأنْ يُحَفَّ به ومِنَ البابِ: الطّائِفُ، وهو العاسُّ، والطَّيْفُ والطّائِفُ: ما أطافَ بالإنْسانِ مِنَ الجِنِّ، قالَ أبو مَنْصورٍ: الطَّيْفُ في كَلامِ العَرَبِ الجُنون، رَواهُ أبو عُبَيْدٍ عَنِ الأحمر، قالَ: وقيلَ لِلْغَضَبِ: طيفٌ؛ لأنَّ عَقْلَ مَنِ اسْتَفزَّه الغضبُ يَعْزُب حَتَّى يَصيرَ في صورَةِ المَجْنون الَّذي زالَ عَقْلُهُ، قالَ: ويَنْبَغي لِلْعاقِلِ إذا أحسَّ مِن نَفْسِه إفْراطًا في الغَضَبِ أن يَذْكُرَ غضَبَ اللّه على المُسْرِفين، فلا يقْدم

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 437/15.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، اللّسان: (مسّ).
(3) ابن جرير، جامع البيان: 333/13.

على ما يوبِقُه، ويَسأل اللّه تَوْفيقَه لِلْقَصْدِ في جَميعِ الأحوال إنَّهُ المُوَفِّق لَهُ[1].

3) ﴿تَذَكَّرُواْ﴾: تفعَّل من الذِّكْر: الحفظُ للشَّيء تذكره، وذَكَرْتُ الشَّيْءَ، خِلافُ نَسيتُهُ، ثُمَّ حُمِلَ عليه الذِّكْرُ باللِّسانِ، ويَقولونَ: اجْعَلْهُ مِنكَ على ذُكْرٍ، بضَمِّ الذّالِ، أيْ: لا تَنْسَهُ، والذِّكْرُ العَلاءُ والشَّرَفُ، وهو قياسُ الأصْلِ[2].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

إنَّ الذين اتَّقوا اللّه تعالى وصانوا أنفسهم عن كلِّ ما يغضبهُ، إذا مسَّهم شيءٌ من وسوسة الشيطان ونزغاتهِ الَّتي تلهيهم عن طاعة اللّه ومراقبته؛ تَذَكَّروا، أي: تذكَّروا أنَّ المسَّ إنَّما هو من عدوِّهم الشَّيطان، فعادوا سريعًا إلى طاعة اللّه، وإلى خوف مقامِه، ونهوا أنفسهم عن اتِّباع همزاتِ الشَّياطين[3].

المتَّقون إذا مسَّهم طائفٌ من الشَّيطان، تذكَّروا فعادوا إلى الرَّحمنِ

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

علَّةُ أسلوبِ الفصلِ في قولِهِ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ﴾:

هذا تَأْكيدٌ وتَقْريرٌ لِلْأمْرِ بالاسْتِعاذَةِ مِنَ الشَّيْطانِ، فتَتَنَزَّلُ جُمْلَةُ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ﴾ إلى آخِرها مَنْزِلَةَ التَّعْليلِ لِلْأمْرِ بالاسْتِعاذَةِ مِنَ الشَّيْطانِ، إذا أحَسَّ بنَزْغِ الشَّيْطانِ؛ ولذَلِك افتتحت بإنَّ الَّتي هيَ لِمُجَرَّدِ الاهْتِمامِ لا لِرَدِّ تَرَدُّدٍ أو إنْكارٍ، كَما افْتُتِحَتْ بها سابِقَتُها في قَوْلِه: ﴿إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝٢٠٠﴾ [الأعراف: 200] فيَكونُ الأمْرُ بالاسْتِعاذَةِ حينَئِذٍ قد عُلِّلَ بعِلَّتَيْنِ:

الاستعاذةُ مَنْجاةٌ لِلرَّسولِ مِن نَزْغِ الشَّيطانِ، وتذكيرٌ بكَيْدِه ومكره

أولاهُما: أنَّ الاسْتِعاذَةَ باللّه مَنْجاةٌ لِلرَّسولِ ﷺ مِن نَزْغِ الشَّيْطانِ،

(1) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، اللّسان، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (طوف، وطيف).

(2) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، اللّسان: (ذكر).

(3) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 460/5.

والثّانيَةُ: أنَّ في الاسْتِعاذَةِ باللّه مِنَ الشَّيْطان تَذَكُّرًا بواجب مُجاهَدَةِ الشَّيْطانِ والتَّيَقُّظِ لِكَيْدِه، وأنَّ ذلك التَّيَقُّظَ سُنَّةُ المُتَّقينَ، فالرَّسولُ ﷺ مَأْمورٌ بمُجاهِدَةِ الشَّيْطانِ: لِأنَّهُ مُتَّقٍ، ولِأنَّهُ يَبْتَهِجُ بمُتابَعَةِ سيرَةِ سَلَفِه مِنَ المُتَّقينَ، كَما قالَ تَعالَى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ﴾ [الأنعام: 90][1].

إيثارُ استعمالِ اسمِ الموصولِ (الّذين) بدلًا مِنَ (المتَّقين):

مَدْحُهم بمَدْلولِ الصِّلَةِ، والإيماءُ إلى دخـول كـلِّ مَن سلك طريق التَّقوى فيها

وَإيثارُ الموصول في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ﴾ لبيان سبب حمايتهم من الشَّيطان، وهو تحلّيهم بالتَّقوى، وما لهم من رصيدٍ مُدَّخر في سجلّات ماضيهم؛ وللدَّلالة على تحقُّق صفة التَّقوى فيهم، فعُدِلَ عَن الإتْيان بالاسم (المتَّقين) هُنا إلى المَوْصولِ، لِقَصْدِ مَدْحِهم بمَدْلولِ الصِّلَةِ، ولِلْإيماءِ إلى دخول كلِّ مَن سلك طريق التَّقوى، سواء أكان مبتدئًا أم منتهيًا، ولبيان أنَّ الصِّلَةَ سَبَبٌ لِلْحُكْمِ المَحْكومِ به على المَوْصولِ.

سرُّ التَّعبيرِ بالفعلِ ﴿ٱتَّقَوۡاْ﴾ دون مرادفاتِه:

مناسبةُ التَّقوى معنى الوقايةِ من الشَّرِّ، وسبيل التَّوقّي من الضُّرِّ

أوثِرَ التعبير بـ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ﴾؛ لمناسبةِ التَّقوى لمعنى الوقايةِ من الشَّرِّ، أوثرَ التَّعبيرُ بها هنا، فهي قاعدةُ الإسلامِ، وجماعُ الخيرِ، والعاصم من كلِّ شرٍّ، والباعثُ على كلِّ فضيلةٍ، وخلقٍ كريم، وهي أساسُ النَّجاةِ في الدُّنيا والآخرة، وسبيلُ السَّعادة، وطريقُ التَّوصُّلِ إلى الطُّمأنينة والاستقرار، والشُّعور بالرِّضا والارتياح، بل وسبب تيسُّرِ الرِّزق الحلال، ولما للتَّقوى من فضائلَ جمَّةٍ، وهي كنزٌ عزيزٌ، إن ظفِرت بهِ، فكم تجد له فيه من جوهرٍ شريف، وعِلقٍ نفيس، وخير كثير، ورزقٍ كريم، وغُنمٍ جسيم، وملك عظيم، فهي الخصلةُ التي تجمع خير الدُّنيا والآخرة، وتأمَّل ما في القرآن من ذكرها كم علَّق بها من خيرٍ! وكم وعدَ عليها من ثواب! وكم أضافَ إليها من سعادةٍ![2].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 221/9.

(2) الفيروزآباديّ، بصائر ذوي التّمييز: 259/5، والزّحيليّ، أخلاق المسلم، ص: 52.

فائدةُ استعمالِ صيغةِ الماضي في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ﴾:

ما ذكرهُ الباري يتحقَّقُ في المستقبل، وإن كان التَّعبيرُ بلفظ الماضي

وَأتى في جانِب التَّقْوَى بصِلَةٍ فِعْليَّةٍ ماضيَةٍ لِلْإشارَةِ إلى لُزومِ حُصولِها وتَقَرُّرِها مِن قَبْلُ؛ لِأنَّها مِن لَوازِمِ الإيمانِ، لِأن التَّقوى آئلةٌ إلى أداءِ الواجِب، وهو حَقٌّ على المُكَلَّفِ[1]، واللّه تعالى يؤكِّد بأنَّ "الَّذينَ اتَّقوا الشِّركَ والمعاصيَ، إذا لَحِقَهُم شيءٌ من وسوسةِ الشَّيطانِ تَفَكَّروا في قدرةِ اللّه عليهم، وإنعامِه إليهم فتركوا المعصيةَ"[2].

بلاغةُ حذفِ المفعولِ في قولِهِ: ﴿ٱتَّقَوۡاْ﴾:

حُذِفَ المفعولُ لتنزيهِ اسم الجلالة من الذِّكرِ مع المسِّ والطَّواف الشّيطانيَّيْن

لمّا كان الغرضُ وصفَهم بالتَّقوى، وبيانَ تلبُّسِهم بها، حُذِفَ المعمول، واكتُفي بالفعل وفاعله، فعومِلَ معاملةَ اللّازم، أو أنَّ معمولَ ﴿ٱتَّقَوۡاْ﴾ محذوفٌ، وهو اسمُ الجلالة؛ للعلمِ بهِ، أو للتَّنزيهِ؛ فلا يليقُ ذكره مع ذكر المسِّ والطَّواف الشّيطانيَّيْن، أو حُذِف لإفادة العموم، أي: اتَّقوا كلَّ ما يغضبُ اللّه تعالى، ويكون سببًا في إثمهم وعذابهم.

بلاغةُ الإطنابِ في خبرِ ﴿إِنَّ﴾:

ما تتضمَّنه جملتا الشَّرطِ والجوابِ من المعاني الجميلة

أوثِرَ الإطنابُ في خبر (إنَّ) في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ﴾ ﴿تَذَكَّرُواْ﴾، ولو قيلَ: إنَّ الذين اتقوا يتذكَّرون عند مسِّ الشَّيطان لهم؛ لكان كلامًا ركيكًا، ورُبَّ كلام يكون الإطنابُ فيه أبلغَ من الإيجازِ، وتصيرُ البساطةُ له كالعلمِ والطِّراز[3]، وجملةُ: (الشَّرطِ وفعله وجوابه) في محلِّ رفعِ خبر ﴿إِنَّ﴾، والتَّعبير عن الخبرِ بهذا الإطناب البليغِ، يومِئ بسياجِ الحفظِ والرِّعاية والعناية؛ إذْ إنَّ وقوعَ الخبرِ جملة شرطيَّة يدلُّ على أنَّ الأصلَ في طريقهم إلى اللّهِ سلامتهم من مسِّ الشَّيطان، فإذا حصل شيءٌ من ذلك؛ تذكَّروا.

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 238/9.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 238/9.

(3) المؤيّد بالله، الطّراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، ص: 96/2.

دلالةُ (إذا)، وإيثارُها دون (إنْ):

تفيدُ (إذا) تحقُّقَ الوقوعِ، و(إنْ) الشَّكَّ؛ فاختلفا لاختلافِ المقامِ

الأصلُ عدمُ قطعِ المتكلِّم بوقوعِ الشَّرط في المستقبلِ مع (إنْ) ومِن ثَمَّ كثر أن تستعملَ (إنْ) في الأحوالِ الَّتي يندُر وقوعُها، ووجبَ أن يتلوها لفظُ (المضارع)، لاحتمالِ الشَّكِّ في وقوعه، بخلاف (إذا) فتُستعمل بحسب أصلِها في كلِّ ما يقطعُ المتكلِّمُ بوقوعه في المستقبلِ - ومن أجل هذا لا تُستعملُ (إذا) إلّا في الأحوالِ الكثيرةِ الوقوعِ، ويتلوها (الماضي) لدلالتهِ على الوقوعِ والحصولِ قطعًا[1]. وفي كَلِمَةِ (إذا) مِن قَوْلِه: ﴿إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ﴾، دلالةٌ على احتمال وقوع المسِّ، والتَّحذيرِ من التَّسويفِ أو التَّأخير عن الالتجاءِ إلى اللّه تعالى؛ حتَّى لا يتمكَّن الشّيطان منهم، وانْظُرْ لِحُسْنِ هذا البَيانِ حَيْثُ جاءَ الكَلامُ لِلرَّسولِ كانَ الشَّرْطُ بلَفْظِ (إنْ) المُحْتَمِلَةِ لِلْوُقوعِ ولِعَدَمِه، وحَيْثُ كانَ الكَلامُ لِلْمُتَّقينَ؛ كانَ المَجيءُ بـ(إذا) المَوْضوعَةِ لِلتَّحْقيقِ أو لِلتَّرْجيحِ، وعلى هذا فالنَّزْغُ يُمْكِنُ أنْ يَقَعَ، ويُمْكِنُ ألّا يَقَعَ، والمَسُّ واقِعٌ لا مَحالَةَ، أو يُرَجَّحُ وُقوعُهُ[2].

سرُّ استعمالِ الفعلِ ﴿مَسَّهُمْ﴾ دونَ غيرِه:

يلجأُ المتَّقونَ إلى اللهِ تعالى، للوقايةِ من مساسِ الشَّيطان

التَّعبيرُ بفِعْلِ ﴿مَسَّهُمْ﴾ الدّالِّ على إصابَةٍ غَيْرِ مَكينَةٍ، إشارَةٌ إلى أنَّ الفَزَعَ إلى اللّه مِنَ الشَّيْطانِ، عند ابْتِداءِ إلْمامِ الخَواطِرِ الشَّيْطانيَّةِ بالنَّفْسِ؛ لِأنَّ تِلْكَ الخَواطِرَ إذا أُمْهِلَتْ لَم تَلْبَثْ أنْ تَصيرَ عَزْمًا ثُمَّ عَمَلًا[3].

الاستعارةُ في الفعلِ ﴿مَسَّهُمْ﴾:

استدراجُ الشَّيطانِ محاولةٌ للغوايةِ الخفيَّةِ لا ينجو منها إلّا من تذكَّر

المسُّ بمعنى الإصابةِ، وهو إلْصاقُ البَشَرَةِ وهو هُنا اسْتِعارَةٌ[4]، وقوله: ﴿إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ﴾ هي استعارة تبعيَّةٌ فعليَّةٌ، والغرضُ منها

(1) إبراهيم الحنفيّ، الأطول شرح تلخيص مفتاح العلوم: 457/1، والهاشميّ، جواهر البلاغة، ص: 151.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 257/5.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 233/9.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 257/5.

بيانُ شدَّةِ حرص الشَّيطان على إغواءِ ابن آدم، حتّى إنَّه ليقترب منه جِدَّ اقترابٍ، ويحاول أن يستدرجَهُ بكلِّ ألوان التَّزيين المتاحة له، لكنَّهُ في النِّهاية، ليس له سلطانٌ على من آمن واتَّقى.

نكتةُ التَّعبيرِ بالفعلِ الماضي في قول: ﴿إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ﴾:

التَّعبيرُ بالماضي، يفيدُ تحقُّقَ الوقوعِ لا محالةَ

أتى بالفعلِ الماضي بعد (إذا) الَّتي هي للاستقبال؛ لأنَّ (إذا) بمنزلة (إنْ)، و(إنْ) تنقلُ الفعل الماضي إلى معنى المستقبلِ، والتَّعبيرُ بالماضي يفيدُ تحقُّقَ الوقوعِ، والمعنى: "إذا ألمَّ بهم طائف من الشَّيطان بوسوسته إليهم ليحملَهم على المعصية، أو ليوقع بينهم العداوة والبغضاء، تذكَّروا أنَّ هذا من فعل الشَّيطان عدوِّهم، وتذكَّروا أنَّ ربَّهم قد حذَّرهم من الشَّيطان ونزغه، ووسوسته، فتابوا وأنابوا واستعاذوا بالله، ورجعوا إليه"[1].

إيثارُ استعمالِ لفظِ ﴿طَٰٓئِفٌ﴾ دونَ غيرِه:

الإشـارةُ إلى خـفـاءِ أثـرِ الشَّيطان، إذا ألمَّ بالإنسانِ

أوثرَ التَّعبيرُ بلفظ ﴿طَٰٓئِفٌ﴾ للإشارةِ إلى خفاءِ أثرِ الشَّيطان؛ إذا ألمَّ بالإنسان، قالَ بَعْضُ البَصْريّينَ: الطّائِفُ والطَّيْفُ سَواءٌ، وهو ما كانَ كالخَيالِ والشَّيْءِ يَلِمُّ بكَ، ويَجوزُ أنْ يَكونَ الطَّيْفُ مُخَفَّفًا عَنْ طَيِّفٍ مِثْلُ مَيِّتٍ ومَيْتٍ، وقالَ بَعْضُ الكوفيّينَ: الطّائِفُ: ما طافَ بكَ مِن وسْوَسَةِ الشَّيْطانِ، وأمّا الطَّيْفُ: فإنَّما هو مِنَ اللِّمَمِ والمَسِّ، وقالَ آخَر منهمُ: الطَّيْفُ: اللِّمَمُ، والطّائِفُ: كُلُّ شَيْءٍ طافَ بالإنْسانِ، وذُكِرَ عَنْ أبي عَمْرِو بْنِ العَلاءِ أنَّهُ كانَ يَقولُ: الطَّيْفُ: الوَسْوَسَةُ[2].

و﴿طَٰٓئِفٌ﴾ اسمُ فاعلٍ كقائلٍ من قال يقول، وكبائع من باع يبيع[3]، وتنكيرهُ للتَّحقير، وفي التَّعبير عن الوسوسةِ بالطّائف إشعارٌ بأنَّها وإن مسَّت هؤلاء المتَّقين فإنَّها لا تؤثِّر فيهم؛ لأنَّها كأنَّها طافت حولهم

(1) حومد، أيسر التّفاسير، ص: 1156.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 646/10.
(3) ابن عطيَّة، المحرّر الوجيز: 492/2.

دونَ أن تصلَ إليهم[1]. والمعنى: إذا ألَمَّ بهم طَيْفٌ مِنَ الشَّيْطانِ مِن غَضَبٍ أو غَيْرِه، مِمّا يُصَدُّ عَنْ واجِب حَقِّ اللّه عليهم، تَذَكَّروا عِقابَ اللّه وثَوابَهُ ووَعْدَهُ ووَعيدَهُ، وأبْصَروا الحَقَّ، فعَمِلوا[2].

توجيهُ قراءةِ ﴿طَيْفٌ﴾[3]، وأثرُها في المعنى:

﴿طَيْفٌ﴾ يكون مخفَّفًا مِن طيَّف كميّت من ميَّت، وإذا قدَّرنا اللَّفظة من طاف يَطيف فطيْفٌ مصدرٌ، وإلى هذا مال أبو عليٍّ الفارسيُّ، وجعل الطّائف كالخاطرِ، والطَّيف كالخطرةِ، وقال الكسائيُّ: الطَّيْفُ اللَّممُ، والطّائفُ ما طافَ حولَ الإنسانِ[4]، ويبدو من خفَّة لفظ ﴿طَيْفٌ﴾ أنَّهُ أقلُّ من ﴿طَآئِفٌ﴾، وعليه فإنَّ قراءَةَ ﴿طَيْفٌ﴾ تشير إلى أوَّل خطْرةٍ، وتلك منزلة أعلى؛ إذ إنَّ أهلها يستشعرونَ الخطرةَ من أوَّلها، فلا يغفلونَ عن مولاهم طرفةَ عين.

الطَّيْفُ اللَّممُ، والطّائفُ ما طافَ حولَ الإنسانِ

نكتةُ إسنادِ المسِّ إلى (الطّائفِ):

يدلُّ إسنادُ المسِّ إلى الطّائف على سرعةِ الفعل مع إرادةِ الاستعلاءِ والإحاطة، ويُلْمح هذا المعنى من دقَّة لفظ المسِّ، ومناسبةِ لفظ ﴿طَآئِفٌ﴾ المبدوء بصوت مستعلٍ ممدود، وانتهائهِ بنبرة الهمزةِ المكسورة، وهواء الفاء المنفوث، واتِّصالُ الفعلِ بالضَّمير الواقعِ مفعولًا في ﴿مَسَّهُمْ﴾ ليكون مُسَوِّغًا لتقديمهِ على الفاعل، ممّا يومِئ إلى سرعةِ الوصولِ إلى المفعول، ولأنَّهُ يعود إلى اسم إنَّ المذكور، وهو (الَّذين اتَّقوا)؛ فيؤكِّدُ مكائدَ الشَّيطان ومصائده بهم؛ وأنَّ المتَّقين على صراطٍ مستقيم، ﴿قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾﴾ [الأعراف: 16- 17].

مسُّ الطّائفِ سرعةٌ في الفعلِ، مع إرادةِ استعلاءٍ وإحاطةٍ

(1) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 460/5.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 646/10.
(3) قرأ ابن كثير وأبو عمرو والكسائي: (طيف) بغير ألف، وقرأ نافع وابن عامر، وعاصم، وحمزة: (طائف) بألف وهمز. ينظر: ابن مجاهد، السّبعة، ص: 301، وأبو علي الفارسيّ، الحجّة: 120/4.
(4) ابن عطيَّة، المحرّر الوجيز: 492/2.

فائدةُ الجارِّ والمجرورِ في قوله: ﴿مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾:

لا يكون المسُّ إلّا من الشَّيطان، ولا الوقايةُ إلّا من الدَّيّان

الجارُّ والمجرورُ بيانٌ للنَّكرة قبلَهُ، فهو متعلِّقٌ بمحذوفٍ صفةٍ لـ﴿طَٰٓئِفٞ﴾ أو ﴿طَيۡفٞ﴾، وفيه تحذيرٌ لهم من غوائلِ الشَّيطان وشَركه، "فإذا ما طاف الشَّيطان بالمسِّ للَّذين اتَّقوا، وتذكَّروا خالق الشَّيطان وخالقهم ....، هنا تزول عنهم، أي: غشاوة، ويبصرون الطَّريق القويم"[1].

مناسبةُ المبنى للمعنى في اشتقاق لفظِ الشَّيطان:

الشَّيطانُ من (شطن) بمعنى ابتعدَ، مناسبٌ للمهمَّةِ الَّتي يريدها

وفي لفظِ ﴿ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾ نكتةٌ بلاغيَّةٌ، وهي مناسبةُ المبنى للمعنى؛ حيث إنَّهُ مشتقٌّ من (شطن) بمعنى: ابتعد، أو من (شاط) بمعنى: احترقَ، والأوَّل هو المشهورُ عند الجمهور، وكون الشَّيطانِ المشتقِّ لفظُه من (شطن) بمعنى ابتعد - هو الَّذي يكونُ سببًا في محاولة مسِّ المتّقين وإصابتهم - اختيار مناسب للمهمَّة الَّتي يريدها؛ فكما أنَّه مبتعدٌ ومطرود من رحمة اللّه، فهو يحاولُ إبعادَ المتَّقين السّائرين على صراطِ اللّهِ المستقيم، ولكنْ هيهات هيهات لما يريدُ، فذلك بعيدُ المنال، وكلُّ ما يستطيعهُ هو المسُّ، وحينئذٍ يكونُ الحفظُ مِنَ اللّهِ تعالى.

نوعُ (ال) في لفظ ﴿ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾:

مهمَّةُ الشَّيطانِ التَّزيينُ بما في الإمكان، لإضلالِ الإنسانِ

التَّعْريفُ في الشَّيْطانِ يَجوزُ أنْ يَكونَ تَعْريفَ الجِنْسِ، أيْ: مِنَ الشَّياطينِ، ويَجوزُ أنْ يَكونَ تَعْريفَ العَهْدِ، والمُرادُ به إبْليسُ، باعْتِبارِ أنَّ ما يوَسْوِسُ به جُنْدُهُ وأتْباعُهُ، هو صادِرٌ عَنْ أمْرِه وسُلْطانِه[2].

نُكْتَةُ تأخيرِ الجارِّ والمجرورِ وتقديمِهما:

تركيبُ الجملةِ القرآنيَّةِ في: ﴿يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ﴾: وثيقُ الصِّلةِ بالسّياق والمقام؛ وحيثُ إنَّ المقامَ في قوله: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ

(1) ابن عطيَّة، المحرّر الوجيز: 492/2.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 233/9.

مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ﴾ أرفعُ من مقامِ المتَّقينَ، في قوله: ﴿إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ﴾ اختلف التَّركيبُ في كلٍّ، فجاءَ في الأوَّلِ: (إنْ، والنَّزْغ، والمضارع، وتقديم قوله: ﴿مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾ على الفاعل)، وجاء في الآخَر: (إذا، والمسّ، وصيغة الماضي، وتأخير قوله: ﴿مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾ على الفاعل)، وقد سبق الحديثُ عن الشَّرط واختيارِ الفعل، وبقي الكلامُ على تقديم الجارِّ والمجرور في الأوَّل وتأخيره في مقام المتَّقين اقتضى المقامُ تقديمَهُ؛ لأنَّه السَّببُ في الأمرِ بالاستعاذةِ، فالمقصودُ هو العياذُ باللهِ منهُ؛ ولتحسين التَّركيب بالفصلِ بين الفعلِ وفاعلهِ المشتقِّ منهُ، فلو قيل: (يَنزَغَنَّكَ نَزْغٌ مِنَ الشَّيْطانِ) لتوالتا، وهما من جنس واحدٍ، بالإضافةِ إلى أنَّ التقديمَ فيهِ حصرٌ لمصدر النَّزْغ، وأنَّه من الشَّيطان، لا من غيرهِ، وتأخَّرَ في المقامِ الآخَر؛ لأنَّهُ سيق على جهةِ الخبرِ، وأريدَ إسنادُ المسِّ إلى الطّائف، ووصف هذا الطّائف أنَّه ﴿مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾، فحسُن مجيءُ الفاعل في موضعه، وتأخيرُ الجارِّ والمجرور للبيانِ كما سبق.

التَّأخيرُ لسوقهِ على جهةِ الخبرِ، وتقديمه لتسبُّبه في الأمرِ بالاستعاذةِ

إيثارُ مجيءِ جوابِ الشَّرطِ ﴿تَذَكَّرُواْ﴾ دونَ غيرهِ:

وأوثرَ التَّعبيرُ بالفعل ﴿تَذَكَّرُواْ﴾ للدَّلالةِ على أنَّ النَّجاةَ من مسِّ الشَّيطان هو ذكرُ اللّه تعالى، ومجاهدةُ النَّفس، والتَّيَقُّظ دائمًا لمكائدِ الشَّيطان، فإنَّما يمسُّ المتَّقين طيفُ الشَّيطان في ساعات غفلتِهم عن ذكر اللّه، ولو أنَّهم استداموا ذكر اللّه بقلوبِهم لَما مسَّهم طائفُ الشَّيطان، فإنَّ الشَّيطانَ لا يقرَب قلبًا في حال شهوده اللّه؛ لأنَّهُ ينخنس عند ذلك، ولكن لكلِّ صارم نَبْوة، ولكلِّ عالم هَفْوةٌ، ولكلِّ عابدٍ شِدَّةٌ، ولكلِّ قاصدٍ فتْرَةٌ، ولكلِّ سائرٍ وقْفَةٌ، ولكلِّ عارفٍ حَجْبةٌ[1].

الدَّلالةُ على أنَّ النَّجاةَ من مسِّ الشَّيطانِ، ذكرُ اللّه تعالى، ومجاهدةُ النَّفس

(1) القشيريّ، لطائف الإشارات: 598/1.

سرُّ استعمالِ صيغةِ الماضي:

قوله: ﴿تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ لتحقُّق ذلك فيهم، فالتَّذكُّرُ مِن دأْبهم، فمتى استدعَوه؛ حضرَ، "أي: تذكَّروا أنَّ المسَّ إنَّما هو من عدوِّهم الشَّيطان، فعادوا سريعًا إلى طاعة اللّه، وإلى خوف مقامهِ، ونهوا أنفسَهم عن اتِّباع همزاتِ الشَّياطين"[1].

من تذكَّرَ عند إغواءِ الشَّيطانِ؛ أبصرَ الحقَّ واضحًا للعيان

دلالةُ صيغةِ (تفعَّل) في قولهِ: ﴿تَذَكَّرُواْ﴾:

تدلُّ صيغةُ التَّفعُّلِ على شيء من المجاهدةِ، وحقيقةُ التَّذكُّر الاستدراكُ عن نسيانٍ أو غفلة لما استثبتَهُ القلب[2]، وهذا مناسبٌ لحال المتَّقين؛ إذا مسَّهم طائفٌ من الشَّيطانِ، وعدلَ عن (ذكَروا) كما جاء في قولهِ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ﴾ [آل عمران: 135]، لأنَّ الذِّكر قولٌ سيقَ لثناءٍ أو دعاء[3]، فليس فيه كُلْفة، أي: ما تعبَّدنا الشّارعُ بلفظٍ منّا يتعلَّق بتعظيمِ اللّه، والثَّناء عليه بأسمائهِ وصفاتهِ، وتمجيدهِ وتوحيدهِ، وشكرهِ وتعظيمهِ، أو بتلاوةِ كتابهِ، أو بمسألتهِ ودعائهِ[4].

التَّذكُّر استدراكٌ بعد نسيانٍ وغفلة، وهو دأبُ المتَّقين الصّالحين

بلاغةُ الإيجازِ في حذفِ المفعولِ:

في قوله تعالى: ﴿تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ حُذِفَ المفعولُ إشارةً إلى تيقُّظِهم من غفلتهِم وكفى، فإنْ أبَيْتَ إلّا أن تُقَدِّرَ مفعولًا، فليكنِ الغرضُ من الحذفِ هو عمومُ ما يصلحُ لأن يكونَ رادًّا لهم إلى يقظتهم، وما يناسب سببَ غفلتِهم، أي: تَذَكَّروا عِقابَ اللّه وثَوابَهُ ووَعْدَهُ ووَعيدَهُ، وأبْصَروا الحَقَّ، فعَمِلوا[5]، أو الاستعاذةَ بهِ تعالى والتَّوكُّلَ عليه[6].

من تيقَّظَ من غفلةٍ؛ حييَ قلبُهُ، وأبصرَ نفحاتِ ربِّه

(1) طنطاويّ، التّفسير الوسيط للقرآن الكريم: 460/4.
(2) الرّاغب، المفردات، ص: 455.
(3) الآلوسيّ، غرائب الاغتراب ونزهة الألباب، ص: 42.
(4) ابن علّان، الفتوحات الرّبانيّة: 18/1، ومجموعة من المؤلّفين، الموسوعة الفقهيّة: 220/21.
(5) ابن جرير، جامع البيان: 646/10.
(6) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 309/3.

دلالةُ الفاءِ وأثرُها في المعنى:

قوله: ﴿فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾، معنى: ﴿فَإِذَا﴾ بسببِ ذلك التَّذكُّرِ[1]، والفاءُ لِتفريعِ الإبْصارِ على التَّذَكُّرِ، وأُكِّدَ معنى (فاءِ) التَّعْقيبِ بفجائيَّة (إذا)[2]، ومفاد ذلك أنَّهم تَذَكَّروا الاستعاذةَ بهِ تعالى والتَّوكُّلَ عليه، فإذا هُم بسبب ذلك التَّذكُّرِ مُّبْصِرونَ مواقِعَ الخطأ، ومكايدَ الشَّيطانِ، فيحترزون عنها، ولا يتَّبعونه[3]، وقد أدَّت الفاء دورًا في ذلك الرَّبط والتَّفريع المتوخَّى في الدَّلالة.

باللهِ وحدَهُ يمتدُّ الرَّجاء، ومن تذكَّره واستعاذَ به نجا

نكتةُ استعمالِ (إذا) ومعناها:

في قولهِ تعالى: ﴿فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ (إذا) الفُجائيَّةُ تدلُّ على أنَّ ما بعدها يكون مُسَبَّبًا عمّا قبلَها، فهو في المعنى مشبَّه لجواب الشَّرطِ، ولذلك جازَ أن تقعَ في جوابِ الشَّرط، وهي تدلُّ على "حُصولِ مَضْمونِ جُمْلَتِها دُفْعَةً بدونِ تَرَيُّثٍ، أيْ: تَذَكَّروا تَذَكُّرَ ذَوي عَزْمٍ، فلَم تَتَرَيَّثْ نُفوسُهُم أنْ تَبَيَّنَ لَها الحَقُّ الوازِعُ عَنِ العَمَلِ بالخَواطِرِ الشَّيْطانيَّةِ، فابْتَعَدَتْ عَنْها، وتَمَسَّكَتْ بالحَقِّ، وعَمِلَتْ بما تَذَكَّرَتْ، فإذا هُم ثابِتونَ على هُداهُم وتَقْواهُم"[4].

مفاجأتُهم بإبصارِ الحقِّ بعد يقظتِهم من ألطافِ الله بهم

فائدةُ تقديمِ المسندِ إليهِ على المسندِ:

التَّعبيرُ بالضَّمير المنفصلِ ﴿هُم﴾ الواقعِ مبتدأً بعد إذا الفجائيَّةِ، يوحي باختصاصِ المتَّقينَ بمزيَّة تذكُّرِهم، أي: يبصرون مواقعَ خطئِهم بالتذكُّرِ والتَّفكُّرِ[5]، وفيه تعريضٌ بمن لا يتذكَّرُ، ولا يبصرُ، وهم المذكورون في الآيةِ بعدَها.

اختصاصُ المتَّقين بمزيَّةِ تذكُّرِهم، والتَّعريضُ بمن لا يتذكَّرُ ولا يُبصرُ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 309/3.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 233/9.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 309/3.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 233/9.
(5) الواحديّ، الوسيط في تفسير القرآن المجيد: 438/2.

سرُّ التَّعبيرِ بالجملةِ الاسميَّةِ:

دوامُ إبصارِ الحقائقِ من دواعي الإيمانِ بالخالقِ

وأوثرَ التَّعبيرُ بقوله: ﴿هُم مُّبْصِرُونَ﴾ بالجملةِ الاسميَّةِ للإشارةِ إلى دوامِ البصرِ بالحقائقِ بإدراكِها، وتغلُّبِها على الأهواءِ والمنازع[1]، فإذا هم أولو بصيرةٍ ثاقبةٍ، يربؤون بأنفسهم أن تنصاعَ للشَّيطانِ وغوايتِه، فهو إنَّما تأخذُ وسوستُهُ الغافلينَ عن ربِّهم الَّذين لا يراقبونه في شؤونهم وأعمالهم، ولا شيء يطرد وساوس الشَّيطان - من ذكرِ اللّه ومراقبتِه في السِّرِّ والإعلان، منْ قِبَلِ أنَّه يقوّي في النَّفس حبَّ الخيرِ، وداعي الإحسانِ، ويضعِّف فيها الميلَ إلى الشُّرورِ والمفاسدِ والآثامِ[2].

بلاغةُ الاستعارةِ في الآية:

الهدايةُ إبصارٌ والضَّلالةُ عمًى، فمن أبصرَ؛ فازَ، ومن عميَ؛ فلا مفازَ

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾، اسْتُعيرَ الإبْصارُ لِلاهْتِداءِ، كَما يُسْتَعارُ ضِدُّهُ العَمَى لِلضَّلالِ، أيْ: فإذا هُم مُهْتَدونَ ناجونَ مِن تَضْليلِ الشَّيْطانِ؛ لِأنَّ الشَّيْطانَ أرادَ إضْلالهم، فسَلِموا مِن ذلك[3].

دقَّةُ استعمالِ ﴿مُّبْصِرُونَ﴾ دونَ غيرِه:

الإبصارُ: رؤيةُ القلبِ والعقلِ، وسبيلُ النَّظرِ في المآلات

المبصرُ: صاحبُ البصيرةِ[4]، فهو دالٌّ على رؤيةِ القلبِ والعقلِ والفكرِ، والنَّظرُ في المآلات، فإيثارُ التَّعبيرِ بقوله: ﴿مُّبْصِرُونَ﴾؛ لأنَّه أدقُّ وأرقُّ وأوسعُ في الدَّلالةِ، فهو يُسمَّى نظرًا؛ لأنَّه التِفاتٌ بالقَلْبِ إلى المنظورِ فيهِ، ويُسمَّى تأمُّلًا؛ لأنَّه مُراجعَةٌ للنَّظَر كرَّةً بعد كرَّة، حَتَّى يتجلَّى لَهُ، وينكشف لِقَلْبه، ويُسمَّى اعْتِبارًا، وهو افتعالٌ من العبورِ؛ لأنَّه يعْبُر منه الى غَيرِه، فيَعْبُر من ذَلِك الَّذي قد فكَّرَ فيهِ الى معرفَةٍ ثالِثَةٍ، وهي المَقْصود من الاعْتِبار؛ ولِهذا يُسمَّى: عِبْرَة وهي على بناء الحالات كالجلسة والرَّكبَة والقتلة إيذانًا بأنَّ هذا العلم والمعرفة قد صار حالًا لصاحبه يعبرُ منه إلى المَقْصودِ به، وقالَ اللّه تَعالَى: ﴿إِنَّ

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 3047/6.
(2) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 151/9.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 233/9.
(4) الكرمانيّ، لباب التّفسير، ص: 490.

فِي ذَٰلِكَ لَعِبۡرَةٗ لِّمَن يَخۡشَىٰٓ ﴿٢٦﴾﴾ [النّازعات: 26]، وقالَ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبۡرَةٗ لِّأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ ﴿٤٤﴾﴾ [النّور: 44]، ويُسمَّى تدبُّرًا؛ لأنَّه نظرَ في أدبارِ الأمورِ، وهي أواخرُها وعواقبها[1].

دلالةُ استعمالِ لفظ ﴿مُّبۡصِرُونَ﴾:

(مُبْصِرونَ) اسمُ فاعلٍ من (أبصر) بمعنى رأى بعينِه، و(باصر) اسمُ فاعل من (بصر)، معنى (بَصُرَ) عَلِمَ، مَأْخوذٌ من البصيرةِ في الأمر، فيكون من المعاني القلبيَّة، وقالَ: أبْصر بزيادَة الهمزَة في أوَّلِه، يَعْني: نظر؛ لِأنَّهُ من بَصَر العين، وبَصَر العين حاسَّتُها، وقالَ الجَوْهَريُّ: البَصَر العلم، وبصرتُ بالشَّيْءِ عَلِمْتُهُ، وقالَ تَعالَى: ﴿قَالَ بَصُرۡتُ بِمَا لَمۡ يَبۡصُرُواْ بِهِۦ﴾ [طه: 96][2]. فإيثارُ اسمِ الفاعلِ من (أبصر) على سبيلِ الاستعارةِ كما سبقَ؛ للمبالغة في اهتدائِهم، وزيادةِ التَّأكيدِ على معرفتِهم.

أطلقَ اسمَ الفاعلِ من الرُّباعيِّ للمبالغةِ والتَّأكيدِ

لطيفةُ استعمالِ الاسمِ بدلًا من الفعلِ:

التَّعبيرُ بالاسمِ ﴿مُّبۡصِرُونَ﴾ يدلُّ على الثُّبوتِ والدَّوام، وفيه إشارةٌ لطيفةٌ إلى قوَّةِ أثرِ الذِّكر والتَّذكُّر، وأنَّ له أمدًا بعيدًا، وأثرًا شديدًا في دوام حالة إبصار المتَّقين، ولو قيل: (يبصرونَ) لذهبَ هذا المعنى، وانطفأتْ جذوتُهُ.

الاسمُ (مُبْصِرونَ) فيه قوَّةُ الذِّكرِ والتَّذَكُّر، جرّاءَ البصرِ والتَّبصُّر

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

المسُّ والإصابةُ:

الإصابةُ أعمُّ؛ لصدقِها على الحسّيِّ والنَّظريِّ، ولذلك تكلَّم الأصوليّون على اختلافٍ هل كلُّ مجتهدٍ مصيبٌ، أم لا؟ مع أنَّه حكمٌ نظريٌّ، والمسُّ في المحسوسات يقول: مسَّ كذا[3]، والمسُّ اتِّصالُ أحد

(1) ابن القيّم، مفتاح دار السّعادة: 182/1.
(2) الجوهريّ، الصّحاح: (بصر).
(3) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 421/1.

الإصابةُ أعمُّ، والمسُّ اتِّصالُ أحدِ شيئين بآخرَ على وجهِ الإحساسِ

شيئين بآخرَ على وجهِ الإحساسِ، وأثرُ الإصابةِ أقوى، فهي كما قالَ الرّاغبُ: أصلُها من إصابةِ السَّهمِ، ثم اختصَّت بالنّائبة، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ﴾ [الشّورى: 30]، وأصاب جاءَ في الخيرِ والشَّرِّ، قال تعالى: ﴿إِن تُصِبۡكَ حَسَنَةٞ تَسُؤۡهُمۡ وَإِن تُصِبۡكَ مُصِيبَةٞ﴾ [التوبة: 50]، وقال بعضُهم: الإصابةُ في الخيرِ اعتبارًا بالصَّوبِ، أي: المطرُ، وفي الشَّرِّ اعتبارًا بإصابة السَّهمِ، ومنه يعلم أنَّ الإصابةَ أبلغُ من المسِّ؛ لأنَّهُ وإن اعتبرَ فيه التَّأثيرُ، لكنَّ تأثيرَ هذا لمّا كان كالمطرِ أو السَّهم كان أقوى وأشدَّ، وأمّا ذكرُ أيّوبَ ﷺ المسَّ في مقامِ الإصابة؛ فلشدَّةِ صبرِه، حتَّى استهانَ بما أصابَهُ، ثمَّ إنَّ الإصابةَ إذا كانت فعل المصيبة، فذكرُها مع السَّيِّئة أقوى وأنسبُ، وإن كانت بمعنى النُّزولِ به مطلقًا، فتستعملُ لكلٍّ منهما، فلكلِّ مقامٍ مقالٌ[1].

المسُّ واللَّمسُ:

اللَّمسُ أخصُّ؛ فإنَّه بالحاسَّةِ، والمسُّ به وبغيرِه[2]، واللَّمس لا يكون إلّا عن قصدٍ، يقول: تماسَّ الحجرانِ، والمسُّ يكون مقصودًا وغيرَ مقصودٍ، فلا يطلق إلّا على الأمورِ الضَّروريَّةِ المحسوسةِ[3].

اللَّمسُ أخصُّ، ولا يكونُ إلّا عن قصدٍ، والمسُّ يكون بقصدٍ وبغيرِه

الطّائفُ والطَّيفُ:

اخْتَلَفَ أهْلُ العِلْمِ بكَلامِ العَرَبِ في فرْقِ ما بين الطّائفِ والطَّيْفِ، قالَ بَعْضُ البَصْريّينَ: الطّائِفُ والطَّيْفُ سَواءٌ، وهو ما كانَ كالخَيالِ والشَّيْءِ يَلِمُّ بكَ، قالَ: ويَجوزُ أنْ يَكونَ الطَّيْفُ مُخَفَّفًا عَنْ طَيِّفٍ، مِثْلُ مَيِّتٍ ومَيْتٍ، وقالَ بَعْضُ الكوفيّينَ: الطّائِفُ: ما طافَ بكَ مِن وسْوَسَةِ الشَّيْطانِ، وأمّا الطَّيْفُ: فإنَّما هو مِنَ اللِّمَمِ والمَسِّ، وقالَ

الطّائفُ ما طافَ بكَ مِن وسْوَسَةِ الشَّيطانِ، والطَّيْفُ اللِّمَمُ والمَسُّ

(1) الرّاغب، المفردات: (صوب)، والشّهاب الخفاجيّ، حاشية الشّهاب على البيضاويّ: 190/2.
(2) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 876/3.
(3) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 421/1.

آخَرون منهمُ: الطَّيْفُ: اللِّمَمُ، والطّائِفُ: كُلُّ شَيْءٍ طافَ بالإنْسانِ، وذُكِرَ عَنْ أبي عَمْرِو بْنِ العَلاءِ أنَّهُ كانَ يَقولُ: الطَّيْفُ: الوَسْوَسَةُ[1].

المبصرُ والرّائي:

البصرُ: الحاسَّةُ الَّتي يرى به الرّائي الأشياءَ، والرُّؤيةُ: هي انتقالُ الصّورة المرئيَّةِ إلى العينِ، فتكونُ رؤيةً، أو القلب أو العقل، فتكون رؤيا، وقد تجيءُ هذه مكانَ تِلْكَ توسُّعًا، قالَ صاحِبُ الكَشّافِ: الرُّؤْيا بمعنى: الرُّؤْيَةِ إلّا أنَّها مُخْتَصَّةٌ بما كانَ مِنها في المَنامِ دونَ اليَقَظَةِ فلا جَرَمَ فرَّقَ بينهُما بحَرْفِ التَّأْنيثِ، كَما قيلَ في القُرْبَى والقُرْبَةِ، وجُعِلَ ألِفُ التَّأْنيثِ فيها مَكانَ تاءِ التَّأْنيثِ لِلْفَرْقِ بينهُما[2]، ومن البصَرِ (حِسُّ الرُّؤية) جاءت استعمالاتُ التَّركيبِ في القرآن الكريم بهذا المعنى ومشتقّاته ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [الأنعام: 103]، ﴿فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ﴾ [القصص: 11]، ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ۝٣٨ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ۝٣٩﴾ [الحاقة: 38، 39]. ولما في البصرِ مِنَ الرُّؤيةِ والكشف جاء "البصيرة: نظر القلب والفطنة"، فهي رؤيةٌ قلبيَّةٌ ﴿عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِي﴾ [يوسف: 108]. والرُّؤيةُ بالعين: النَّظرُ بالعينِ والقلبِ، كالرُّؤيةِ: وهي انتقالُ صورة المرئيِّ من خلال عينِ الرّائي - حين اتِّجاهها إليه إلى قلبهِ أو ذهنهِ[3].

المُبصرُ هو الَّذي يرى بعينهِ الأشياءَ، والرّائي تكونُ رؤياه بالقلب أو بالعقل

المبصرُ والباصرُ:

المبصِرُ: اسمُ فاعلٍ من (أبصر)، والباصرُ: اسمُ فاعلٍ من (بَصُرَ)، يقال: (بَصُرَ به) إذا رآه، كقوله تعالى: ﴿فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ﴾ [القصص: 11]، وقوله: ﴿بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُواْ بِهِۦ﴾ [طه: 96]. وأمّا (أبصره)، فله معنيان: أحدهما: جَعَله باصرًا بالشَّيء، أي: ذا

المبصِرُ: راءٍ ببصرهِ، والباصرُ: من رأى أو علم، وهو مأخوذٌ من البصيرةِ

(1) ابن جرير، جامع البيان: 647/10.
(2) ملّا علي القاري، جمع الوسائل في شرح الشّمائل: 230/2.
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (بصر) و(رأى).

بصرٍ بهِ، كآيةِ النَّهارِ وآيةِ ثمودَ. والثّاني: بمعنى رآهُ، كقولِكَ: أبصرْتُ زيدًا، وفي حديثِ أبي شريح العَدَوي[1]: "أحدِّثُك قولًا قال به رسولُ الله ﷺ يوم الفتح، فسمعَتْهُ أذناي، ووعاه قلبي، وأبصرَتْهُ عيناي حين تكلَّمَ به"[2]، ومعنى بصر: عَلِمَ مَأْخوذٌ مِنَ البصيرة في الأمر، فيكون من المعاني القلبيَّة، وقالَ: أبْصر بزيادَة الهمزَة في أوَّلهِ يَعْني: نظر؛ لِأنَّهُ من بصرِ العين، وبصرُ العينِ حاسُّتها[3].

(1) أخرجه البخاريّ في صحيحه، برقم: (104)، ومسلم في صحيحه، برقم: (1354).

(2) ابن القيّم، مفتاح دار السّعادة: 255/1.

(3) العينيّ، عمدة القاري: 152/17.

﴿وَإِخۡوَٰنُهُمۡ يَمُدُّونَهُمۡ فِي ٱلۡغَيِّ ثُمَّ لَا يُقۡصِرُونَ ٢٠٢﴾ [الأعراف: 202]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

ربْطُ حالِ المتَّقين مـع طـائـفِ الشَّيطانِ، بحالِ الـغـاويـنَ مع الغيِّ والافتتانِ

لمّا ذكرَ حالَ المتَّقين إذا مسَّهم طائفٌ من الشَّيطان؛ ذكر هنا حالَ الغاوين من النّاس، وهم إخوانُ الشَّياطين، ليظهرَ فضل العَوذِ واللُّجوءِ إلى اللّه تعالى.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَمُدُّونَهُمۡ﴾: المدُّ هو جَرُّ شَيْءٍ في طولٍ، واتِّصال شَيْءٍ بشَيْءٍ في اسْتِطالَةٍ، تَقولُ: مَدَدْتُ الشَّيْءَ أَمُدُّهُ مَدًّا، ويدلُّ على الجذْب والزّيادة، والمعنى المحوريُّ: استطالةُ جِرم الشَّيء في نفسِه أو باتِّصاله بغيره، فيزيدهُ طولًا واستمرارًا، أو قدرًا[1].

2) ﴿ٱلۡغَيِّ﴾: ضدُّ الرُّشدِ، فهو ضلالٌ مسبَّبٌ عن هوًى أو ما هو من بابِه، والغيُّ جهلٌ من اعتقادٍ فاسد[2].

3) ﴿يُقۡصِرُونَ﴾: القِصَرُ: خِلافُ الطّولِ، يَقولُ: هو قَصيرٌ بَيِّنُ القِصَرِ، ويُقالُ: قَصَّرْتُ الثَّوْبَ والحَبْلَ تَقْصيرًا؛ إذا حَبَسْتُهُ، وهو مَقْصورٌ، أيْ: مَحْبوسٌ، قالَ اللّه تَعالَى: ﴿حُورٞ مَّقۡصُورَٰتٞ فِي ٱلۡخِيَامِ ٧٢﴾ [الرحمن: 72]، وقَصَّرَ في كذا، أي: توانى، وقَصَّرَ عنه لم: ينله، وأقْصَرَ عنه: كفَّ مع القدرة عليه، ومنه قوله: ﴿وَإِخۡوَٰنُهُمۡ يَمُدُّونَهُمۡ فِي ٱلۡغَيِّ ثُمَّ لَا يُقۡصِرُونَ﴾ واقْتَصَرَ على كذا: اكتفى بالشَّيءِ القَصيرِ منه، أي: القليل[3].

---

(1) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، اللّسان، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (مدّ).

(2) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (غوى).

(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، اللّسان، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (قصر).

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

بيانُ حالِ الشَّياطين من الإنسِ والجانِّ، في إمدادِهم للضّالّين في كلِّ آنٍ

وإخوانُ الشَّياطين، وهم الفجّارُ من ضلالِ الإنسِ تمدُّهم الشَّياطينُ من الجنِّ في الضَّلالَةِ والغَواية، ولا تدَّخر شياطين الجنِّ وُسْعًا في مدِّهم شياطين الإنس في الغيِّ، ولا تدَّخر شياطين الإنس وُسْعًا في عمل ما توحي به شياطين الجنِّ[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ الواوِ في قولِهِ: ﴿وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ﴾، وأثرُها في المعنى:

الضِّدِّيَّةُ مُناسَبَةٌ يَحْسُنُ بها عَطْفُ حالِ الضِّدِّ على ضِدِّه

الواو عاطفةٌ، عَطْفٌ على جُمْلَةِ ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ﴾ [الأعراف: 201] عَطْفُ الضِّدِّ على ضِدِّه، فإنَّ الضِّدِّيَّةَ مُناسَبَةٌ يَحْسُنُ بها عَطْفُ حالِ الضِّدِّ على ضِدِّه، فلَمّا ذَكَرَ شَأْنَ المُتَّقينَ في دَفْعِهم طائفَ الشَّياطينِ؛ ذَكَرَ شَأْنَ أضْدادِهم مِن أهْلِ الشِّرْكِ والضَّلالِ، كَما وقَعَتْ جُمْلَةُ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ﴾ [البَقَرَة: 6][2].

نكتةُ ذكرِ لفظِ (إخوان) دونَ (إخوة):

جمعُ الأخِ على (إخوان) كثيرٌ في غيرِ النَّسبِ، وورَدَ قليلًا في النَّسَبِ

الإخوةُ والإخوانُ جمعُ أخٍ، سواءٌ في ذلك أخو النَّسب وأخو الصَّداقةِ، وقال أهلُ البصرةِ: الإخوة في النَّسب، والإخوانُ في الأصدقاء، وقال أبو حاتم: هذا غلطٌ، بل كلٌّ يستعمل فيهما[3].

هذا، وقد وردَ (الإخوان) جمعًا في القرآن الكريمِ في اثنين وعشرين موضعًا[4]، وبالنَّظر في سياقاتِها رأيتُ أنَّه مستعملٌ في الدَّلالة على قوَّةِ الرّابطة، وما تستلزمه الأخوَّةُ من حقوقٍ وواجباتٍ،

(1) نخبة من أساتذة التّفسير، التّفسير الميسّر، ص: 176.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 233/9.
(3) الدّميري، النّجم الوهاج في شرح المنهاج: 135/6.
(4) على النّحو الآتي: البقرة: 220، وآل عمران: 103، 156، 168، والأنعام: 87، والأعراف: 202، والتّوبة: 11، 23، 24، والحجر: 47، والإسراء: 27، والنّور: 31، 61، والأحزاب: 5، 18، 55، وق: 13، والمجادلة: 22، والحشر: 10، 11.

فوردَ في سياقاتِ رابطةِ النَّسبِ، والنُّبوَّة، والإسلام، وأهل الجنَّة، والكفر، والنِّفاق، وموالاة الشَّيطان. كما وردَ (الإخوة) جمعًا في القرآنِ الكريم في سبعةِ مواضعَ[1]، وهناك موضعٌ ثامنٌ في قراءة (فَأَصْلِحوا بين إِخْوَتِكُم)[2] بالجمع، وبالنَّظر في سياقاتها تبيَّن أنَّها كلَّها في أُخوَّة النَّسب، ما عدا قولَه تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ١٠﴾ [الحُجُرات: 10]. والحقيقةُ أنَّ قولَ أهلِ البصْرَةِ معتبرٌ؛ إذ إنَّ جمعَ الأخِ على (إخوان) كثيرٌ في غيرِ النَّسبِ، وورد قليلًا في النَّسبِ، وقد ذكرَ ذلك ابن عطيَّةَ[3]، ولذلكَ أوثرَ التَّعبيرُ بقولِه: ﴿وَإِخْوَٰنُهُمْ﴾ دونَ (إخوتُهم) للدَّلالةِ على ما بين هؤلاءِ الكافرين والشَّياطين من الرَّوابطِ والوشائجِ الدّافعةِ إلى الغواية والضَّلالِ.

فائدةُ إضافةِ (إخوانِ) إلى ضميرِ الغائبينَ:

الضَّميرُ في قولِه: ﴿وَإِخْوَٰنُهُمْ﴾ عائدٌ على الشَّياطين، والضَّميرُ في قوله: ﴿يَمُدُّونَهُمْ﴾ عائدٌ على الكفّارِ، وهم المرادُ بالإخوان، فإضافةُ (إخوان) إلى ضميرِ الغائبينَ يدلُّ على شدَّةِ التصاقِهم بهم، واتِّباعهم لهم اتِّباع الأعمى لمن يقودُه، والضَّمير عائدٌ على الشَّياطينَ المفهومِ جمعُها من الجنسِ المذكورِ في (ال) في لفظِ (الشّيطان)[4].

الدَّلالةُ على شدَّةِ الالتصاقِ وكاملِ الانصياعِ رغمَ الضَّررِ الحاصلِ

إيثارُ الفعلِ: ﴿يَمُدُّونَهُمْ﴾ دونَ مرادفاتِه:

من مدَّ الجيشَ وأمدَّهُ؛ إذا زاده، وألحقَ به ما يقوّيه، ويكثره، وكذلك مدَّ الدواة، وأمدَّها: زادها ما يصلحها، ومددتُ السِّرج

الدَّلالةُ على أصالةِ الغيِّ والضَّلالِ في أنفسِهم، واستطالةِ غيِّهم وزيادتِه

(1) على النّحو الآتي: النّساء: 11، 176، ويوسف: 5، 7، 58، 100، والحجرات: 10.

(2) وقد نسبت إلى ابن عامر في رواية يحيى بن الحارث، وأبي عمرو والنّقاش عن ابن ذكوان، ينظر: ابن مجاهد، السّبعة، ص: 606، وابن الجزريّ، النّشر: 376/2.

(3) ابن عطيَّة، المحرّر الوجيز: 498/13.

(4) قال الزّمخشريّ: "فإن قلت: لمَ جمع الضّمير في إخوانهم والشّيطان مفرد؟ قلتُ: المراد به الجنس، كقوله: ﴿أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ﴾". يُنظر: الزّمخشريّ، الكشّاف: 191/2.

والأرض؛ إذا استصلحْتُهما بالزَّيت والسِّماد، ومدَّهُ الشَّيطان في الغيِّ وأمدَّه[1]، وأوثرَ استعمالُ الفعلِ ﴿يَمُدُّونَهُمْ﴾ دونَ مرادفاتِه لدلالتهِ على أصالةِ الغيِّ والضَّلال في أنفسِهم، واستطالةِ غيِّهم وزيادته، فهو يحملُ معنيين، يقال: مدَّ وأمدَّ، أي: يطيلون لهم فيه، وقُرِئَ بالوجهين[2]، ويكون من الإمدادِ، أي: زادَ في عددهِ النّاقصِ، يقال: أمددْتُ الشَّيءَ؛ إذا زدتُ فيه من غيره، وقد يكونُ من المدَّة، أي: أعطاهُ مدَّة وقدرًا، يقال: أمددتُهُ مدَّةً، أي: أعطيتُها له[3].

سرُّ إيثار ﴿يَمُدُّونَهُمْ﴾ والعدولِ عن (يُغْوونَهُم):

الإمـــــدادُ بالباطلِ يؤولُ إلى المفسدةِ والضَّلالةِ

قوله: ﴿وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ﴾ عدل فيه عن (يُغْوونَهُم) وهو أخصرُ؛ حتَّى لا يوهمَ أنَّ إغواءهم طارئٌ عليهم، أو أنَّهُم كانوا قبل ذلك على هدًى، ذلك "أنَّ عدوى الشَّرِّ تجيء من إخوانِ السّوء، وهم الَّذين يمدّون في الغيِّ، ويجعلون الضّالَّ يسير شاردًا عن هداه"[4].

الدلالةُ الصَّوتيَّةُ للفعل (مدَّ) في قوله: ﴿وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ﴾:

إفـادةُ امتـدادِ الـجـرمِ مع اتِّصالِه، وتناغمِ الحروف في بنائِه

تُعبِّر الميمُ عن تضامٍّ والتئام ظاهريٍّ، والدّالُّ عن ضغطٍ ممتدٍّ يؤدّي إلى تماسك وامتداد أو احتباس، والفصلُ منهما يعبِّر عن تماسكِ الجِرْم، ويتمثَّل ذلك في استطالتهِ، ويعبِّر التَّركيبُ عن امتدادِ الجرم مع اتِّصالهِ، وفي (أمد) تضيفُ ضَغطةُ الهمزة ما يؤكِّدُ دلالة الميم والدّالِّ[5]، وجعلوا الدّالَّ في (مدَّ) - لأنَّها مجهورةٌ - لما فيه معالجةٌ، والتّاء في (متَّ له بقرابةٍ) - لأنَّها مهموسة - لما لا علاجَ فيه[6]، ويشيرُ تضعيفُ صوتِ الدّالِ وتشديدهِ على قوَّة المعنى

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 67/1.

(2) قرأ نافع وحده من السّبعة، وأبو جعفر: ﴿يُمِدّونَهُمْ﴾ بضمّ الياء وكسر الميم، وقرأ الباقون من السّبعة، ويعقوب: ﴿يَمُدّونَهُمْ﴾ بفتح الياء وضمّ الميم. يُنظر: ابن مجاهد، السّبعة، ص: 301، وابن الجزريّ، النّشر: 275/2.

(3) ابن قرقول، مطالع الأنوار على صحاح الآثار: 25/4.

(4) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 3042/6.

(5) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصَّل: (مدد).

(6) ابن جنّي، الخصائص: 67/1.

وتكراره، كما قال ابن جنّي: "فلمّا كانت الأفعال دليلةَ المعاني كرَّروا أقواها وجعلوه دليلًا على قوَّة المعنى المحدث بهِ، وهو تكرير الفعل"[1].

توجيهُ قراءةِ ﴿يُمِدُّونَهُمْ﴾ وبلاغتها:

الزّيادة نتاجٌ لا مندوحةَ له عن الغيِّ المكين، والضَّلال المستبين

قرأ نافعٌ وأبو جعفرٍ: ﴿يُمِدُّونَهُمْ﴾ بضمِّ الياء وكسر الميم[2]، وتوجيهها أنَّ مدَّ وأمدَّ لغتان، والأولى أكثر، أو أنَّ المعنى يزيدونهم من الغيِّ[3]، والوَجْهُ في قِراءَةِ مَنْ قَرَأ ﴿يُمِدُّونَهُمْ﴾ أيْ: بضَمِّ الياءِ، أنَّهُ مِثْلُ: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٢١﴾ [آل عمران: 21] (أيْ: هو اسْتِعارَةٌ تَهَكُّمِيَّةٌ)، والقَرِينَةُ قَوْلُهُ: ﴿فِي ٱلْغَيِّ﴾[4].

دلالةُ صيغةِ الفعل المضارعِ:

الإمدادُ بالغيِّ فعلٌ مقيتٌ، يتجدَّدُ ولا يتبدَّدُ

في قوله: ﴿وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ﴾، تشيرُ صيغةُ المضارعِ إلى استمرارِ ذينكِ المدِّ والإمداد في الغيِّ إطالةً في الوقت وزيادةً في المقدار، وتجدُّدهما، وهذه الظّاهرة ممتدَّةٌ في الزَّمان في آنها، لتكرُّرِ الفعلِ باستمرارِ، وامتداد الإمداد في مختلفِ الأزمانِ، وذلك ديدنُ الإغواء، وشأنُ الغيِّ إلى يوم القيامة.

بيانُ عائدِ الضَّميرِ المتَّصِل في قوله: ﴿وَإِخْوَٰنُهُمْ﴾:

وإخوانُ الشَّياطين تمدُّهم الشَّياطين في الغيِّ، فضَميرُ

أي: وإخوانُ الشَّياطين تمدُّهم الشَّياطين في الغيِّ[5]، فضَميرُ وإخْوانُهُم عائِدٌ إلى غَيْرِ مَذْكورٍ في الكَلام، إذْ لا يَصِحُّ أنْ يَعودَ إلى المَذْكورِ قَبْلَهُ قَريبًا؛ لِأنَّ الَّذي ذُكِرَ قَبْلَهُ الَّذينَ اتَّقَوْا فلا يَصِحُّ أنْ يَكونَ الخَبَرُ، وهو يَمُدّونَهُم في الغَيِّ مُتَعَلِّقًا بضَميرٍ يَعودُ إلى المُتَّقينَ، فتَعَيَّنَ أنْ يَتَطَلَّبَ السّامِعُ لِضَميرِ ﴿وَإِخْوَٰنُهُمْ﴾ مَعادًا غَيْرَ ما هو مَذْكورٌ في الكَلامِ بقُرْبه، فيُحْتَمَلُ أنْ يَكونَ الضَّميرُ عائِدًا على

(1) ابن جنّي، الخصائص: 157/2.
(2) الدّاني، التيّسير: 115، وابن الجزريّ، النّشر: 275/2.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 108/9، ومكّي القيسيّ، الكشف عن وجوه القراءات: 487/1.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 235/9.
(5) ابن جرير، جامع البيان: 337/13.

مَعْلوم مِنَ السّياقِ وهُمُ الجَماعَةُ المُتَحَدَّثُ عنهم في هذه الآياتِ أعْني المُشْرِكينَ المَعْنيّينَ بقَوْلِه: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ١٩٠ أَيُشۡرِكُونَ مَا لَا يَخۡلُقُ شَيۡـٔٗا﴾ إلى قَوْلِه: ﴿وَلَا يَسۡتَطِيعُونَ لَهُمۡ نَصۡرٗا﴾ [الأعراف: 190 - 192]، فيَرُدُّ السّامِعُ الضَّميرَ إلى ما دَلَّ عليه السّياقُ، بقَرينَةِ تَقَدُّمِ نَظيرِه في أصْلِ الكَلامِ، ولِهذا قالَ الزَّجّاجُ: هذه الآيَةُ مُتَّصِلَةٌ في المعنى بقَوْلِه: ﴿وَلَا يَسۡتَطِيعُونَ لَهُمۡ نَصۡرٗا وَلَآ أَنفُسَهُمۡ يَنصُرُونَ ١٩٢﴾ [الأعراف: 192]، أيْ: وإخْوانُ المُشْرِكينَ، أيْ: أقارِبُهُم ومَنْ هو مِن قَبيلَتِهم وجَماعَةِ دينِهم، ويَجوزُ أنْ يَعودَ الضَّميرانِ إلى الشَّيْطانِ المَذْكورِ آنِفًا باعْتِبارِ إرادَةِ الجِنْسِ أوِ الأتْباعِ[1]، وقد فهم بعضُهم - وليس الفهمُ ببعيدٍ - أنَّ المرادَ بإخوانِهم، هم إخوانُ المؤمنين من المنحرفين، وأصحاب الأهواء والبدع، ومن المشركين والضّالين، وأنَّ هؤلاء جميعًا هم شياطينُ مسلَّطون على المؤمنين، يحاولونَ جاهدين أن يمدّوهم بالغَيِّ والضَّلال، والمؤمنون - مع هذا - في إعراض عنهم، وتسميَةُ هؤلاء الغوّاة من المشركين والضّالّين إخوانًا للمؤمنين، هو لما بينهم من صلات القرابةِ والنَّسب، ومن جهةٍ أخرى؛ فإنَّ هؤلاءِ المشركين الضّالّين، كان من شأنِهم - لو عقلوا - أن يكونوا إخوانًا لهؤلاءِ المؤمنين، أخوَّة إيمان وتقوى، بعد أن كانوا إخوانًا لهم، نسبًا وقرابة، ولكن فرَّق بينهم هذا الضَّلالُ الَّذي هم فيه[2].

فائدةُ الجارِّ والمجرورِ ﴿فِي ٱلۡغَيِّ﴾:

يُريدُ تغلغلَهم في غياهبِ الضَّلالِ، بحيثُ لا يستطيعون منه فكاكًا، ولا يملكون لأنفسِهم خروجًا، فهم بثقلِ غَيِّهم مدفوعون إلى قعْرٍ من الغَيِّ عميقٍ، ولا مُخَلِّصَ لهم منه، و(في) مِن قَوْلِه: ﴿يُمِدُّونَهُمۡ فِي ٱلۡغَيِّ﴾ على قِراءَةِ نافِعٍ وأبي جَعْفَرٍ اسْتِعارَةٌ تَبَعيَّةٌ بتَشْبيهِ الغَيِّ بمَكانٍ

من أوغل في ظلماتِ الضَّلالِ، لم يستطع منها فكاكًا

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 234/9.

(2) عبد الكريم الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 550/5، 551.

المُحارِبَةِ، وأمّا على قِراءَةِ الجُمْهورِ؛ فالمعنى: وإخْوانُهُم يَمُدّونَ لهم في الغَيِّ مِن مَدٍّ لِلْبَعيرِ في الطّولِ، أيْ: يُطيلونَ لهمُ الحَبْلَ في الغَيِّ، تَشْبيهًا لِحالِ أهْلِ الغِوايَةِ وازْديادِهم فيها بحالِ النَّعَمِ المُطالِ لَها الطّولُ في المَرْعَى، وهو الغَيُّ، وهو تَمْثيلٌ صالِحٌ لاعْتِبارِ تَفْريقِ التَّشْبيهِ في أجْزاءِ الهَيْئَةِ المُرَكَّبَةِ، وهو أعْلَى أحْوالِ التَّمْثيلِ، ويَقْرُبُ مِن هذا التَّمْثيلِ قَوْلُ طَرَفَةَ[1]:

لَعَمْرُكَ إنَّ المَوْتَ ما أخْطَأ الفَتَى *** لَكالطِّوَلِ المُرْخَى وثِنْياهُ باليَدِ

وَعليه جَرَى قَوْلُهُمْ: مَدَّ اللّه لِفُلانٍ في عُمُرِه، أو في أجَلِه، أو في حَياتِه[2].

إيثارُ لفظِ ﴿ٱلْغَيِّ﴾ دونَ غيرِه:

في قوله: ﴿يَمُدُّونَهُمْ فِي ٱلْغَيِّ﴾ أوثِرَ لفظُ ﴿ٱلْغَيِّ﴾ دون غيره؛ لأنَّه يحملُ معنى الضَّلال وزيادة؛ إذْ هو ضلالٌ مسبَّبٌ عن هوًى، أو اعتقاد فاسد، فلفظ (الغَيِّ) هنا يشيرُ إلى ما هم عليه من ضلالٍ، وما يؤولون إليه من فسادٍ، والجملةُ من الآيةِ تشيرُ إلى أنَّ ﴿يَمُدُّونَهُمْ فِي ٱلْغَيِّ﴾، تعني: أنَّهم يكونون مددًا لهم فيه، ويعضدونهم، ثُمَّ لا يمسكون عن إغوائهم[3].

الغيُّ هوًى يجانب الصَّوابَ، ويقودُ النَّفس إلى ما يعابُ

دلالةُ الحرفِ (ثُمَّ) في الآية:

قولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾، جاءت (ثُمَّ) لِلتَّرْتيبِ الرُّتْبيِّ، أيْ: وأعْظَمُ مِنَ الإمْدادِ لهم في الغَيِّ، أنَّهُم لا يَألونَهُم جُهْدًا في الازْديادِ مِنَ الإغْواءِ، فلذلك تَجِدُ إخْوانَهُم أكْبَرَ الغاوينَ[4].

أغوى من الغاوي من يزيّنُ لغيرِه الغوايةَ

وجهُ عطفِ جملةِ: ﴿ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾ على ما قبلَها:

جملةُ: ﴿لَا يُقْصِرُونَ﴾ في محلِّ رفعٍ معطوفة على جملةِ

(1) البيت من بحر الطّويل، لطرفة بن العبد، وهو في ديوانه، ص: 26.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 236/9.
(3) الأبياريّ، الموسوعة القرآنيّة: 545/9.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 236/9.

﴿يَمُدُّونَهُمْ﴾، وعطف هذه الجملة على ما قبلَها للدَّلالةِ على إصرارهِم على الشَّرِّ والفساد لفقدِ الوازعِ النَّفسيِّ والواعظِ القلبيِّ؛ ولأنَّهم أطمعوا الشَّيطانَ فيهم.

إصرارُهم على الشَّرِّ والفساد، نأيٌ عن الهدى والرَّشاد

سرُّ استعمالِ الفعلِ: ﴿لَا يُقْصِرُونَ﴾ دونَ غيرِهِ:

استعمالُ الفعل: ﴿لَا يُقْصِرُونَ﴾ دونَ غيرِهِ، للدَّلالةِ على الكفِّ عنهم مع القدرةِ عليهم[1]، واستمرارهم في الضَّلال وعدم الارعواء، فالإقصارُ: الانتهاءُ عن الشَّيءِ، وقال ابن عبّاس: لا يسأمون، والمعنى: لا يقصرُ الشَّياطين في مدِّ الكفّارِ في الغيِّ، ولا يكفّون عن الضَّلالة، ولا يتركونها، والكافرُ لا يتذكَّرُ، ولا يرعوي، وقال ابنُ عبّاس: لا الإنس يمسكون عمّا يعملون من السَّيِّئات، ولا الشَّياطين تمسك عنهم، وعلى هذا يُحْمَلُ قولهُ: لا يقصرون على فعل الإنسِ والشَّياطينِ جميعًا[2]، ثُمَّ لا يُقْصِرونَ، أي: لا يكفّون، قالَ الضَّحّاكُ ومُقاتِلٌ: يَعْني: المُشْرِكينَ لا يُقْصِرونَ عَنِ الضَّلالَةِ، ولا يُبْصِرونَها، بخِلافِ ما قالَ في المُؤْمِنينَ[3].

الإنسانُ لا يمسكُ عن الغوايةِ، والشَّيطانُ لا يرعوي عن الإغواءِ

دلالةُ استعمالِ صيغةِ المضارعِ:

في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾، تشيرُ صيغةُ المضارعِ إلى الاستمرارِ والتَّجدُّد، ونفيهُ يدلُّ على استمرارِ النَّفي، والمُضارع المَنْفيُّ (بِلا) يتَخَلَّص للاستقبال عِنْد سيبَوَيْه، وقالَ الأخْفَش: إنَّه باقٍ على صَلاحيَّة الأمريْنِ، واخْتارَهُ ابْن مالك في التَّسهيل[4].

دلالةُ المضارعِ المنفيِّ على استمرارِ النَّفي في المستقبل

الإيجازُ بحذفِ متعلَّقِ الفعلِ:

في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾ حُذِفَ متعلَّقِ الفعلِ لدلالةِ ما قبلَهُ عليهِ، ويكونُ المعنى على أنَّه من (قصر): ثمَّ لا ينقصون من

من بلاغةِ أسلوبِ الحذفِ دلالةُ ما قبلَ المحذوفِ عليهِ

(1) عضيمة، دراسات لأسلوب القرآن الكريم: 212/4.
(2) القنَّوجيّ، فتحُ البيان في مقاصد القرآن: 111/5.
(3) البغويّ، معالم التنزيل: 262/2.
(4) ابن مالك، شرح التّسهيل: 19/1.

إمدادِهم وغوايتهم،[1] فهم لا يكفّون عن اتِّباع الشَّياطين، ولا يتوبون، ولا يرجعون إلى الله تعالى، وهؤلاءِ بخلاف المؤمنين المذكورينَ في الآية السّابقة، أو من (أقصر)، ويكونُ المعنى: ثم لا يمسكون عن إغوائِهم، والفعلُ على هذا بضمِّ الياء وكسر الصّاد من الرُّباعي.

لطيفةُ توافقِ الفاصلةِ مع سابقتِها في الصَّوامتِ والصَّوائتِ:

إنَّ المماثلةَ بين: ﴿مُّبْصِرُونَ﴾ و﴿يُقْصِرُونَ﴾ في الوزنِ وحرفي الصّاد والرّاء مع الواوِ والنّون من لزوم ما لا يلزم، وقد جاءَ حسنًا بديعًا؛ لأنَّه جاء سلسًا غير متكلَّفٍ، ولا مجلوبًا اجتلابًا، وجاء كُلٌّ من اللَّفظين ملائمًا للمعنى المرادِ منهُ[2].

التَّلاؤمُ في الأصواتِ تأنسُ له الأذنُ، ويرتضيه الذَّوقُ

وقفةٌ تدبُّريَّةٌ مع فاصلةِ الآيةِ الكريمةِ:

ويشيرُ مرماها ومغزاها إلى أنَّ الشَّرَّ يستمرُّ مع مقاومةِ الفطرةِ، باستمرارِ دعاةِ الغيِّ وأنصارِه، وكان مدُّهم وتزيينهم مستمرًّا يغذّي شجرة الشَّرِّ، كما يغذّي الماءُ القذرُ النَّباتَ الخبيثَ الَّذي لا يكونُ إلّا نَكِدًا، فالشَّرُّ يتغذَّى بدعاةِ الشَّرِّ، وينمو، ويغلظُ سوقه بهم، والفسادُ لا يستشري في جماعةٍ، ويعمُّها بالشَّرِّ إلّا بالبيئةِ الفاسدةِ، وبالرَّأي العامِّ الفاسدِ المرذولِ، فإخوانُ السّوءِ يمدّون بالغيِّ، وسواء أكانوا آحادًا، أم كانوا جماعاتٍ، وكلمة إخوانِهم تنطبقُ عليهم، وإنَّ من يُرد إصلاحَ جماعةٍ لا يُصلحُ آحادها ابتداء، إنَّما يُصلح نيَّة الإخوان الَّذين يسيطرون على جوِّها العامِّ أوَّلًا، ثمّ يُصلحون الآحادَ، فيصلحون بالجولةِ الأولى، وإنَّك إن علوتَ من رذائلِ الأفعال إلى فسادِ العقول، تجدُ إخوانَ السّوء هم الَّذين يمدّون في فسادِ العقولِ بعبادةِ الأوثانِ والكفرِ بالآيات[3].

فاصلةُ الآيةِ تدلُّ على أنَّهم لا ينتهون، بل يدومون على غيِّهم

(1) الفرّاء، معاني القرآن: 213/4، والزّجاج، معاني القرآن: 439/2.
(2) عبد الرحمن، بلاغة اللغة العربية: 533/2.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 3048/6.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الإخوانُ والإخوةُ:

لفظُ (إخوان) كثيرٌ في غيرِ النَّسبِ، ولفظُ (الإخوة) كثيرٌ في النَّسَبِ

وردَ معنى الأخوَّةِ في القرآن الكريم على ضروبٍ مختلفةٍ كما ذكر المفسِّرون: فمنها: النَّسب، كقولهِ تعالى: ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾، [المائدة: 30]، ومنها: القبيلةُ، كقوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ [الأعراف: 85]، ومنها: الدّين، كقوله تعالى: ﴿فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا﴾ [آل عمران: 103]. والإخوةُ والإخوانُ جمع أخٍ، سواءٌ في ذلك أخو النَّسبِ وأخو الصَّداقةِ، وقال أهلُ البصرةِ: الإخوةُ في النَّسب، والإخوانُ في الأصدقاء، وقال أبو حاتم: هذا غلطٌ، بل كلٌّ يستعمل فيهما[1]، والحقيقةُ أنَّ قولَ أهلِ البصرةِ معتبرٌ؛ إذ إنَّ جمعَ الأخِ على (إخوان) كثيرٌ في غير النَّسب، ووردَ قليلًا في النَّسبِ، وقد ذكرَ ذلكَ ابنُ عطيَّةَ[2].

المدُّ والإمدادُ:

المدُّ: ما يمدُّ به الشَّيءُ، أي: يزادُ ويكثر، والإمداد: الإعطاءُ والإعانةُ

(المددُ) هو: ما يمدُّ به الشَّيء، أي: يزادُ ويكثر، ومنه: أمدَّ الجيشَ بمددٍ: إذا أرسل إليه زيادة، وأمّا (الإمدادُ)؛ فهو الإعطاءُ، والإعانة، فالمددُ يكثرُ استعمالهُ في اسم المصدر، وقد يطلق المددُ على المصدرِ من مدَّ يَمُدُّ مدًّا، والإمدادُ هو مصدرُ (أمدَّ)، وهو إعطاءُ الشَّيءِ بعد الشَّيءِ، والمَدَدُ: ما أمدَدْتَ به قومًا في الحربِ وغيره من الطَّعام والأعوانِ[3]، والمددُ يطلقُ على كلِّ ما تُمديهِ غيرَك، أي: تعينهُ وتنصرهُ[4].

الغيُّ والضَّلالُ:

أصلُ الغيِّ: الفسادُ، ومنه يقالُ: غوى الفصيلُ؛ إذا بشمَ من كثرةِ

(1) الدّميريّ، النّجم الوهاج في شرح المنهاج: 135/6.
(2) ابن عطيَّة، المحرّر الوجيز: 498/13.
(3) الخليل، العين: (مدد).
(4) الشّدياق، الجاسوس على القاموس: (مدد).

شُربِ اللَّبن، وإذا لم يرو من لبنِ أمِّه، فمات هزلًا، وأصلُ الضَّلال: الهلاكُ، ومنه قولهم: ضلَّت النّاقة؛ إذا هلكت بضياعها، وفي القرآن ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلۡنَا فِي ٱلۡأَرۡضِ أَءِنَّا لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدِۭۚ﴾ [السّجدة: 10]، أي: هلكنا بتقطُّع أوصالنا، فالَّذي يوجبهُ أصل الكلمتين أن يكون الضَّلالُ عن الدّين أبلغَ من الغيِّ فيه، ويستعمل الضَّلال أيضًا في الطَّريق، كما يُستعمل في الدّين، فيقالُ: ضلَّ عن الطَّريق؛ إذا فارقه، ولا يستعمل الغيُّ إلّا في الدّين خاصَّةً، فهذا فرقٌ آخرُ، وربَّما استعمل الغيُّ في الخيبة، يقال: غوى الرَّجل؛ إذا خابَ في مطلبهِ، والضَّلالُ يتصرَّفُ في وجوهٍ لا يتصرَّفُ الغيُّ فيها[1].

الغيُّ: الفسادُ في الدّين، والضَّلالُ: التّيهُ والهلاكُ في الدّين وشؤونِ الحياة

الإقصارُ والكفُّ:

فالإقصارُ الكفُّ عن الشَّيءِ، قال ابن عبّاسٍ: أي: لا يُمسك الغاوي عن الضَّلالِ والمغويَّ عن الإضلالِ[2]، والكفُّ بمعنى المنعِ والصَّرفِ، يقالُ: كَفَّ الرَّجلَ عنِ الأمرِ، وكَفْكَفَه: مَنَعَهُ وصَرَفَهُ، فكَفَّ هو، كقولهِ: ﴿فَكَفَّ أَيۡدِيَهُمۡ عَنكُمۡۖ﴾ [المائدة: 11]، وقوله: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأۡسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ﴾ [النساء: 84]، فاستعمالُ الإقصارِ؛ لأنَّه أخصُّ من الكفِّ والاكتفاءِ، أي: لا يتركون إغواءهم ولو لحظة لجهلهِم وشَرِّهم.

الإقصارُ: الكفُّ عن الشَّيءِ، وهو في دلالته أخصُّ من الكفِّ

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 293.
(2) النيّسابوريّ، غرائب القرآن ورغائب الفرقان: 366/3.

﴿وَإِذَا لَمۡ تَأۡتِهِم بِـَٔايَةٖ قَالُواْ لَوۡلَا ٱجۡتَبَيۡتَهَاۚ قُلۡ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ مِن رَّبِّيۚ هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمۡ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ٢٠٣﴾ [الأعراف: 203]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

المناسبةُ بين إغواءِ الشَّياطينِ، وطلبِ المعاندين للآياتِ تعنُّتًا واستكبارًا

لَمّا بَيَّنَ في الآيَةِ الأولَى أنَّ شَياطينَ الجِنِّ والإنْسِ لا يُقْصِرونَ في الإغْواءِ والإضْلالِ؛ بَيَّنَ في هذه الآيَةِ نَوْعًا مِن أنْواعِ الإغْواءِ والإضْلالِ، وهو أنَّهُم كانوا يَطْلُبونَ آياتٍ مُعَيَّنَةً ومُعْجِزاتٍ مَخْصوصَةً على سَبيلِ التَّعَنُّتِ[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱجۡتَبَيۡتَهَاۚ﴾: من الجَبْي بمعنى: جَمْعِ الشَّيْءِ والتَّجَمُّع، يُقالُ: جَبَيْتُ المالَ أجْبيهِ جِبايَةً، وجَبَيْتُ الماءَ في الحَوْضِ، والحَوْضُ نَفْسُهُ جابيَةٌ، ومن الأصل أُخِذَ "الاجتباءُ: الاصطفاءُ والاختيارُ" (وأصله: أخذٌ وضمٌّ إلى حيِّزٍ)[2].

2) ﴿أَتَّبِعُ﴾: من الاتِّباع، وهو التُّلُوُّ والقَفْوُ، يُقالُ: تَبِعْتُ فُلانًا؛ إذا تَلَوْتَهُ، واتَّبَعْتَهُ، وأتْبَعْتُهُ؛ إذا لَحِقْتَهُ، والأصْلُ واحِدٌ، غَيْرَ أنَّهُم فرَّقوا بين القَفْوِ واللُّحوقِ، فغَيَّروا البِناءَ أدْنَى تَغْييرٍ، قالَ اللهُ: ﴿فَأَتۡبَعَ سَبَبًا ٨٥﴾ [الكهف: 85][3].

3) ﴿يُوحَىٰٓ﴾: مِنَ الوحْي، وهو يَدُلُّ على إلْقاءِ عِلْمٍ في إخْفاءٍ أو غَيْرِه إلى غَيْرِكَ، فالوَحْيُ: الإشارَةُ، والوَحْيُ: الكِتابُ والرِّسالَةُ، وكُلُّ ما أَلْقَيْتَهُ إلى غَيْرِكَ حَتَّى عَلِمَهُ، فهو وحْيٌ كَيْفَ كانَ[4].

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 438/15.
(2) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، اللّسان، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (جبي).
(3) ابن منظور، اللّسان، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (تبع).
(4) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، اللّسان، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (وحي).

4) ﴿بَصَآئِرُ﴾: جمع بصيرةٍ، وهي الدَّلالةُ، ولِما في البصرِ مِنَ الرُّؤيةِ والكشفِ؛ جاء "البصيرةُ: نظرُ القلبِ، الفطنةُ"، فهي رؤيةٌ قلبيةٌ، كقوله تعالى: ﴿عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِي﴾ [يوسف: 108]: على معرفة وبيِّنةٍ ويقينٍ، قال تعالى: ﴿بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾﴾ [القيامة: 14] هو البصيرُ، كما تقول: أنت حجَّة على نفسك، أي: شاهدٌ، قال تعالى: ﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ﴾ [الأنعام: 104] آياتٌ وبيِّناتٌ يُبْصَر بها ويُستَدَلُّ[1].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

بعد أن ذكرَ سبحانه في الآيةِ السّابقةِ أنَّ شياطينَ الجنِّ والإنسِ لا يقصرون في الإغواء والإضلال؛ قفَّى على ذلك بذكرِ نوعٍ خاصٍّ من هذا الإغواءِ، وهو طلبُهُم آياتٍ معيَّنةً ومعجزاتٍ مخصوصةً تعنُّتًا[2].

بيانُ طلبِ الغاوينَ لآياتٍ تعجيزيَّةٍ خارقةٍ تحدٍّ وتعنُّتٌ وضلالٌ

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

توجيهُ عطفِ: ﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِـَٔايَةٍ﴾ على ما قبلَها:

الآيةُ مَعْطوفَةٌ على جُمْلَةِ: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾﴾ [الأعراف: 199] والمُناسَبَةُ أنَّ مَقالَتَهُم هذه مِن جَهالَتِهِمْ[3]، أي: إنَّ الشَّياطين ليَمدّونهم في الغيِّ، ومن ذلك أنَّهم يحملونهم على أن يطالبوك بالآياتِ المقترَحَةِ، فإذا سألوك إحياءَ ميِّتٍ يكلِّمُهم ونحو ذلك؛ فلم تأتِ به، قالوا لك: هلّا اخترتَ هذا الَّذي سألناك، وأتيتَ به، وأنت رسولُ اللّه بزعمِكَ، وللرَّسولِ معجزةٌ، فهلّا تأتينا بالمعجزةِ الَّتي نطلبها منك![4].

مناسبةُ مضمونِ الآيةِ مع ضلوعِهم في الجهالةِ والغوايةِ

(1) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 57/7، 99/19، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (بصر).
(2) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 152/9.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 236/9.
(4) النّسفيّ، التيّسير في التّفسير: 110/7.

بلاغةُ جملةِ الشَّرطِ: ﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم﴾، والمرادُ مِنها:

تدلُّ جملةُ الشَّرطِ هنا على شدَّةِ تعنُّتِ هؤلاء المشركين مع الرَّسولِ ﷺ كما تشيرُ إلى تسليَةِ اللهِ لهُ، أي: إذا لم تأتِهم بآيةٍ مِنَ القرآنِ عند تراخي الوحي، أو بآيةٍ ممّا اقترحوهُ: ﴿قَالُواْ لَوۡلَا ٱجۡتَبَيۡتَهَاۚ﴾[1].

طلبُ المعجزاتِ مع ما في القرآنِ من آياتٍ قصرُ نظرٍ، وسفاهةُ عقولٍ

إيثارُ التَّعبيرِ بـ(إذا) دونَ (إنْ):

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِـَٔايَةٖ﴾، يدلُّ التَّعبيرُ بإذا على الظَّرفيَّةِ المتضمِّنةِ معنى الشَّرطِ، وتحقُّق الوقوع، وهذا المعنى يتَّفقُ وما رويَ أنَّ الوَحْيَ كانَ يَتَأَخَّرُ عَنِ النَّبيِّ ﷺ أحْيانًا فكانَ الكُفّارُ يَقولونَ: هَلّا اجْتَبَيْتَها[2].

الوحيُ تنزَّلَ بأمرِ اللهِ، لا بأهواءِ البشرِ

دلالةُ النَّفي بـ﴿لَمْ﴾، ودخولِها على الفعلِ ﴿تَأْتِهِم﴾:

جاءَ المضارِعُ بعد (إذا) الظَّرفيَّةِ منفيًّا بلم في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِـَٔايَةٖ قَالُواْ لَوۡلَا ٱجۡتَبَيۡتَهَاۚ﴾، ولم يأتِ هكذا في موضعٍ آخرَ من القرآن الكريم[3]، ودلالتهُ وقوعُ عدمِ الإتيانِ لتأخُّرِ الوحي، أو لأمرٍ آخرَ؛ وذلك لأنَّ (لم) تقلبُ المضارعَ إلى ماضٍ.

من فرائدِ التَّراكيبِ القرآنيَّةِ وقوعُ المضارعِ بعدَ (إذا) الظَّرفيَّةِ منفيًّا بحرفِ (لم)

لطيفةُ اختيارِ ﴿تَأْتِهِم﴾، والعدولِ عن (تَجِئْهُم):

الأصلُ لِما يكون مجيئُه بنفسِه أن يعبِّرَ عنه بالمجيء، نحو: جاء فلانٌ، فهو كلامٌ تامٌّ، ولِما يكون مجيئُه بصلةٍ أن يعبِّرَ عنهُ بالإتيان، فيقال: أتى فلانٌ بكذا[4]، والآيةُ هنا من هذا النَّوعِ؛ لأنَّه متعلَّقُ الجارِّ والمجرور بعدهُ، وهو قولهُ: ﴿بِـَٔايَةٖ﴾، والمجيءُ: يُستخدَمُ في سياقِ الأمورِ الشّاقَّةِ الصَّعبة الَّتي فيها ثقلٌ، والإتيانُ: يستخدمُ في سياقِ الأمورِ السَّهلةِ، والميسورةِ، أو الَّتي لم تحدث بعدُ[5]، والإتيان: مجيءٌ

الإتيانُ: مجيءٌ بتهيئةٍ أو قوَّةٍ، والمجيءُ فيما شقَّ أو صعب عادةً

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 309/3.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 260/5.
(3) عضيمة، دراسات لأسلوب القرآن الكريم: 177/1.
(4) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 152.
(5) الهلال، تفسير القرآن الرّيّ: 68/2.

بتهيئةٍ أو قوَّةٍ تؤدّي مؤدّاها[1]، ومن ثمَّ يكون التَّعبيرُ بالإتيانِ من جهةِ كلامِ اللّهِ لهُ؛ لأنَّه ينزلُ عليهِ بتهيئةٍ لا دخلَ لهُ بها، وإنَّما ينزلُ عليه بأمرِ ربِّه، سواءٌ أكانت آيةً قرآنيَّةً أم كونيَّةً.

علَّةُ مجيءِ المفعولِ ضميرًا متَّصلًا في: ﴿تَأْتِهِم﴾:

مجيءِ المفعولِ ضميرًا متَّصلًا في قوله: ﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِـَٔايَةٍ﴾؛ لاشتهارهِ ووضوحِ أمرهِ، فقد سبقَ الحديثُ عن هؤلاء الكافرين الَّذين يعبدون الأصنام من دونِ اللّهِ، ولأنَّ الذِّهن لا يلتفتُ إلى غيرِهم، والمعنى: "وإذا لم تأتِ أيُّها الرَّسولُ هؤلاء المشركين بآيةٍ من القرآن، وتراخى الوحيُ بنزولها، أو بآية ممّا اقترحوهُ عليك من الآيات الكونيَّةِ، إذا لم تفعل ذلك؛ قالوا لكَ بجهالةٍ وسفاهةٍ: لَوْلا اجْتَبَيْتَها"[2]، وهذا محضُ السَّفهِ والطَّيشِ.

لا يتحدَّى اللهُ بطلبٍ ما لم ينزِّلهُ، إلّا كافرٌ جحودٌ، أو غاوٍ لدودٌ

دلالةُ الباءِ في قولهِ: ﴿بِـَٔايَةٍ﴾، وأثرُها في المعنى:

والباءُ للمصاحبةِ والملابسةِ والإلصاقِ[3]، وذلك أنَّ إتيانَهُ جاء مصاحبًا لمجيءِ الآية، ومتلبِّسًا بها، وملتصقًا محلَّ قدرتهِ بالآيةِ، وبما اتَّصل به، وقوله: ﴿بِـَٔايَةٍ﴾ جارٌّ ومجرور متعلِّقان بـ﴿تَأْتِهِم﴾.

حروفُ المعاني ذاتُ أثرٍ في الدَّلالةِ، والباءُ من أبرزِها في هذا المضمارِ

إيثارُ لفظِ (آية) في قولهِ: ﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِـَٔايَةٍ﴾:

أوثرَ لفظُ آيةٍ لدلالتِه على الشَّيءِ العجيبِ، ويجوز أن يرادَ بها الآيةُ من آياتِ القرآنِ، يعني: بحديثٍ من القرآن، ونصوصُ القرآن سمّيت آيةً؛ لأنَّها عجبٌ يعجز البشر عن التَّكلُّم بمثلها[4]، وذلك حين أبطأ التَّنزيلُ بمكَّة، قالَ كفّار مكَّة: ﴿لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَا﴾ يعني: هلّا ابتدعتَها من تلقاء نفسِكَ يا محمَّدُ لقولِهم: ﴿ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ

الآيةُ دالَّةٌ على الشَّيءِ العجيبِ، وطلبُها من غيرِ ما مسوِّغٍ أعجبُ

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (أتى) و(جاء).
(2) طنطاويّ، التّفسير الوسيط للقرآن الكريم: 461/5.
(3) ردّ كثير من المحقّقين سائر معاني الباء إلى معنى الإلصاق، كما ذكر سيبويه. وجعلوه معنى لا يفارقها، وقد ينجرّ معه معان أخر. ينظر: المراديّ، الجنى الدّاني في حروف المعاني، ص: 46.
(4) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 100/1.

هَٰذَآ أَوۡ بَدِّلۡهُۚ قُلۡ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلۡقَآيِٕ نَفۡسِيٓۖ إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّۖ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ﴿١٥﴾ [يونس: 15][1]، أو المرادُ الآيةُ الكونيَّةُ المعجزة، كإحياء الميّت مثلًا، وهو أنَّهُم كانوا يَطْلُبونَ آياتٍ مُعَيَّنَةً ومُعْجِزاتٍ مَخْصوصَةً على سَبيلِ التَّعَنُّتِ، كَقَوْلِه: ﴿وَقَالُواْ لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفۡجُرَ لَنَا مِنَ ٱلۡأَرۡضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾﴾ [الإسراء: 90]"[2].

نكتةُ مجيءِ جوابِ الشَّرطِ ﴿قَالُواْ﴾، دونَ التَّعبيرِ بالادِّعاءِ أو التَّعنُّت:

التَّعبيرُ بالعبارةِ (قالوا)؛ إخبارٌ عمّا حدثَ على سبيلِ التَّحقُّق

جيءَ بالفعلِ ﴿قَالُواْ﴾ جوابًا للشَّرطِ دون التَّعبيرِ بالادِّعاء أو التَّعنُّت، فلم يُقل: (تعنَّتوا)؛ ليثبت قولَهم الَّذي قالوه، فيكونُ إخبارًا عمّا حدثَ على سبيلِ التَّحقُّقِ، أو بما سيكون منهم ليكونَ النَّبيُّ ﷺ على بصيرةٍ بهِ؛ فيتهيَّأ لهُ، ويأخذَ أُهْبَتَهُ.

دلالةُ ﴿لَوۡلَآ﴾، وأثرُها في المعنى:

معنى التَّحضيضِ هنا، هو الإنكارُ والتَّعجيزُ الَّذي بدرَ منهم

تدلُّ ﴿لَوۡلَآ﴾ هنا على التَّحضيضِ، فتختصُّ بالفعلِ، نحو: ﴿لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾ [الفرقان: 21]، ويساويها في التَّحضيضِ والاختصاصِ بالأفعال: هلّا، فيَليها الفِعْلُ ظاهِرًا أو مُضْمَرًا[3]، وهي داخلةٌ هنا على الماضي، فتفيدُ التَّوبيخَ واللَّوم على تركِ الفعلِ فيما مضى، والأمرُ بهِ في المستقبلِ، والتَّحضيضُ: هو الطَّلبُ بشدَّة، والمقصودُ به هنا: الإنكارُ والتَّعجيزُ، أي: هلّا اخترتَها واصطفيتَها[4].

إيثارُ الفعلِ ﴿ٱجۡتَبَيۡتَهَاۚ﴾ ودلالتُهُ:

دلالةُ الاجتباءِ على الاصطفاءِ والاختيارِ، وعلى الجمعِ والاختلاقِ

قوله تعالى: ﴿قَالُواْ لَوۡلَا ٱجۡتَبَيۡتَهَاۚ﴾، أوثرَ فيه التَّعبيرُ بالفعل ﴿ٱجۡتَبَيۡتَهَاۚ﴾، لدلالتهِ على الاصطفاءِ والاختيارِ والجمعِ والاختلاقِ،

(1) البلخيّ، تفسير مقاتل بن سليمان: 82/2.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 438/15.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 387/1.
(4) ابن جرير، جامع البيان: 340/13.

أي: جئتَ بها من عند نفسِكَ، وكذلك هو في اللّغة، يقالُ: اجتبيتَ الشَّيءَ وارتجلْتَهُ واخترعْتَهُ واختلقْتَهُ؛ إذا جئتَ بهِ من عندِ نفسِكَ[1].

وقد وردَ فيه قولان: أحدهما: هلّا افتعلْتَها من تلقاءِ نفسِكَ، قاله ابن عبّاس، ومجاهدٌ، وقتادة، والسُّديُّ، وابن زيدٍ، والفرّاء، والزَّجاجُ، وابن قتيبةَ في آخرين، وحُكي عن الفرّاءِ أنَّه قال: العربُ تقولُ: اجتبيتَ الكلام، واختلقتَهُ، وارتجلتَهُ؛ إذا افتعلتَهُ من قِبَل نفسِكَ، والثّاني: هلّا طلبتَها لنا قبلَ مسألتِكَ؟ ذكره الماورديُّ، والأوَّلُ أصحُّ؛ لقوله تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ مِن رَّبِّيۚ﴾ أي: ليس الأمرُ لي[2].

نكتةُ مخاطبتِهم الرَّسولَ بتاءِ الخطابِ، والعدولِ عن ذكرِ اسمِهِ أو صفتِهِ:

قوله تعالى: ﴿قَالُواْ لَوۡلَا ٱجۡتَبَيۡتَهَاۚ﴾، نلحظُ مخاطبتهم الرَّسولَ ﷺ بضميرِ المخاطبِ دلالة على سخريَّتهم واستهزائِهم وسوءِ أدبِهم، ولا عَجَبَ أنْ يفعل الكافِرونَ ذلك، فكَما يقالُ: "لَيْسَ بَعْدَ الكُفرِ ذَنْبٌ"[3].

يتجلَّى سوءُ الأدبِ مع اللهِ بالكفرِ، ومع الرَّسول بالتَّطاولِ في الخطاب

علَّةُ إيقاعِ الاجتباءِ على ضميرِ الآيةِ، والعدولِ عن تكرارِ النَّكرةِ (آية):

في قوله: ﴿قَالُواْ لَوۡلَا ٱجۡتَبَيۡتَهَاۚ﴾ عادَ الضَّميرُ المنصوبُ على (آيَة)، ولو تكرَّرت لأوهمَ خلاف المراد؛ إذ إنَّ المعنى سيصيرُ أنَّه في حال عدمِ إتيانه بالآية الَّتي طلبوها قالوا: هلّا اختلقت آيةً أخرى، على قاعدةِ أنَّ النَّكرة: إذا تكرَّرتْ أو أُعيدتْ؛ كانَ الثّاني غيرَ الأوَّل[4].

عدم إعادةِ النَّكرةِ، يرفعُ الإلباسَ من الأساس

لطيفةُ خطابِ اللهِ رسولَهُ المصطفى بالفعل ﴿قُلۡ﴾:

إعلامٌ بأهمّيَّةِ مقولِ القول في إلقامِ الخصم الحجَّةَ، وزيادةِ تثبيتٍ لقلبِ النَّبيِّ ﷺ ووثاقةِ النَّصِّ القرآنيِّ، وأنَّهُ من عندِ اللّهِ تعالى الَّذي أمره بـ(قلْ)، وليس للنَّبيِّ فيه إلّا البلاغُ.

تلقينُهُ القولَ من اللهِ تعالى، زيادةُ تثبيتٍ لفؤادِهِ، ووثاقةٌ لنصِّ الخطابِ

(1) النّحّاس، معاني القرآن: 121/3.

(2) ابن الجوزيّ، زاد المسير: 183/2.

(3) من كلام العلماء، وليس حديثًا، ومعناه: أنَّ الكفر بالله، والشّرك به سبحانه أعظم الذُّنوب، فلا يُتعجَّب من الكافر إذا أذنب ذنبًا آخر، وليس معناه: أنَّ الكفّار غير مخاطبين بالشّريعة.

(4) ابن الشّجريّ، أمالي ابن الشّجريّ: 545/3.

الرِّسالةُ اتِّباعٌ وبلاغٌ، لا يتأتَّى لها إلّا ما أذنَ بهِ اللهُ

بلاغةُ القصرِ بـ﴿إِنَّمَآ﴾:

في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾، القصرُ بـ ﴿إِنَّمَآ﴾ يكونُ لِما هو ظاهرٌ، ممّا لا ينكره المخاطبُ، أو ما نُزِّلَ هذه المنزلة نحو: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ۝١١﴾ [البقرة: 11]، ويحسنُ وقوعُها في التَّعريضِ، كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ۝١٩﴾ [الرّعد: 19][1]. أي: ينبغي أن تعلموا أنَّني متَّبِعٌ لا مبتدعٌ، وأن يكونَ ذلك من المسلَّماتِ.

دلالةُ فعلِ الاتِّباعِ على كمالِ التَّأسّي والانصياعِ لمأمورِ اللهِ

إيثارُ الفعلِ ﴿أَتَّبِعُ﴾ دونَ سواهُ:

في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ مِن رَّبِّيۚ﴾ أوثرَ التَّعبيرُ بالفعلِ ﴿أَتَّبِعُ﴾ لدلالتهِ على كمالِ التَّأسّي والاقتداءِ، وعدمِ المخالفةِ في شيءٍ، فالاتِّباعُ هو لحوقُ الشَّيءِ بمتقدِّمٍ أو سابقٍ بلا فصلٍ (مع رقَّةٍ ولين)[2].

دلالةُ فعلِ (أتَّبِعُ) على الاستمرارِ في الاتِّباعِ، والتَّجدُّدِ في الولاءِ للهِ

سرُّ التَّعبيرِ بصيغةِ المضارعِ ﴿أَتَّبِعُ﴾:

في قولهِ: ﴿إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾، صيغةُ المضارعِ في (أتَّبع) تدلُّ على الاستمرار في الاتِّباع، دونَ كللٍ أو مللٍ أو سآمةٍ، أو مخالفةٍ، كما تشيرُ إلى التَّجدُّدِ في الاتِّباع، كلَّما نزلتْ آيةٌ، أو أمرٌ من الوحي.

الدَّلالةُ على المبالغةِ في اتِّباعِ الوحي، وبيانِ منزلتهِ العظيمةِ

دلالةُ (ما) الموصولةِ والعدولِ عن (الَّذي)، وأثره في المعنى:

وأمّا (ما)؛ فهي الموصولةُ، ويجوزُ أن تكونَ مصدريَّةً، وهو ظاهرُ كلامِ الزَّجّاج[3]، والأوَّلُ هو الرّاجح الموصولةُ، فهي في قول النَّحويّين بمعنى (الَّذي)، وليس كذلك، وإن وافقت (الَّذي) في أكثرِ أحكامها، فإنَّها مخالفةٌ لها في المعنى، وفي بعضِ الأحكام، أمّا المعنى: فإنَّ (ما) اسمٌ مبهمٌ في غاية الإبهام، حتَّى إنَّها تقعُ على كلِّ شيءٍ، وتقعُ على ما ليسَ بشيءٍ... وكلُّ ما وصلتَ به يجوز أن

(1) فاضل السّامرائيّ، معاني النّحو: 250/2.

(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (تبع).

(3) قال الزّجاج: "فأعْلَمهم أنّه يتبعُ الوحْي". يُنظر: الزّجاج، معاني القرآن وإعرابه: 250/2. فقوله: (الوحي) مصدر ﴿ما يوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾.

يكونَ صلةَ (الَّذي)، فهي توافقُ (الَّذي) في هذا الحكم، وتخالفُهُ في أنَّها لا تكونُ نعتًا لما قبلَها ولا منعوتة؛ لأنَّ صلتَها تُغنيها عن النَّعت، وأيضًا فلو نُعتت بنعتٍ زائدٍ على الصِّلةِ، لارتفعَ إبهامها، وفي ارتفاعِ الإبهام منها جملة بطلان حقيقتها، وإخراجها عن أصلِ موضوعِها، وتفارقُ (الّذي) أيضًا في امتناعِها في التَّثنية والجمع، وذلك أيضًا لفرطِ إبهامها، فقد وضحَ لك ما بينها وبين (الَّذي) من الفرقِ في المعنى والحكم[1]، ويستنبطُ من إبهام (ما) معنى التَّفخيم والتَّهويلِ والتَّعظيم، وللسّياق أثرهُ في الحكم على المعنى المناسب، وعليهِ فإنَّ إيثارَ (ما) للدَّلالةِ على المبالغةِ في اتِّباعِ الوحي، وتعظيمهِ.

سرُّ العدولِ عن الفعلِ (يأتي) إلى الفعلِ ﴿يُوحَىٰٓ﴾:

قوله: ﴿إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾، يُلاحظ عدولٌ عن الفعلِ (يأتي) إلى الفعلِ ﴿يُوحَىٰٓ﴾، في متن هذه الآيةِ الكريمةِ، وذلك لإثباتِ الوحي، ونفي ما ادَّعَوه من اختلاقِ آيةٍ، أو الإتيان بها من قِبَلِ نفْسِه، والمأمورُ بهِ أن يقولَ: "إنَّما أنا متَّبعٌ لا مبتدع، فما يوحيهِ اللّهُ إليَّ من الآيات، أنا أبلِّغُهُ إليكم بدون تغييرٍ أو تبديلٍ"[2].

ما أخبرَ بهِ الرَّسولُ موثوقٌ؛ لأنَّ أمانتَهم حقٌّ، وتبليغُهم يحقٌّ

إيثارُ التَّعبيرِ بصيغةِ المضارعِ المبنيِّ للمفعولِ:

في قوله: ﴿مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾، تشيرُ صيغةُ المضارع في ﴿يُوحَىٰٓ﴾ على التَّجدُّد والاستمرارِ، وفيهِ إيماءٌ إلى اتِّباعهِ الوحيَ في كلِّ شيءٍ، سواءٌ أكانَ في الحكم الماضي أم الحالي أم اللّاحق ممّا نُسخَ، وممّا لم يُنسخ، كما يشيرُ إلى تواصل اتِّباعه ما دام الوحيُ موصولًا؛ فلا يعتريهِ شيءٌ من السَّهوِ أو الغفلة، فحاله في آخرِ الوحي من اليقظةِ والبصيرةِ والفكرة والعزمِ كحالهِ في أوَّلِه.

دلالةُ المضارعِ على التَّجدُّدِ والاستمرارِ، واتِّباعُ النَّبيِّ وحيَ العليِّ الجبّارِ

(1) السّهيليّ، نتائج الفكر في النَّحو، ص: 139.
(2) طنطاويّ، التفسير الوسيط للقرآن الكريم: 161/5.

فائدةُ الجارِّ والمجرورِ ﴿إِلَيَّ﴾، ومتعلَّقِه:

شبهُ الجملةِ تفخيمٌ للوحي، وتشريفٌ للمرسلِ بالوحي

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ في الجارِّ والمجرور في قوله: ﴿إِلَيَّ﴾ زيادةُ تشريفٍ وخصوصيَّةٍ للنَّبيِّ ﷺ، وفيه تفخيمٌ للوحي المُنَزَّل عليه، ولو حُذِف؛ لفاتَ هذا المعنى، ولأوهمَ إطلاقُ اتِّباعِه لما يوحى، ولو إلى غيره، وهذا فاسدٌ.

فائدةُ قولِه: ﴿مِن رَّبِّيۚ﴾ ومتعلَّقِه:

تأكيدُ معنى الوحي الحقيقيِّ، ودفعِ توهُّمِ غيرِ ذلك

بيانُ مصدرِ الوحي، وأنَّه من قِبَل الله تعالى، والجارُّ والمجرورُ متعلِّقٌ بالفعلِ (يوحَى)، أو متعلِّق بمحذوفِ حالٍ من الضَّميرِ المستتر في (يوحى)، وفائدةُ ذكرِه - حينئذٍ - تأكيدُ معنى الإيحاء الحقيقيِّ المنزَّلِ على الأنبياء (عليهم الصَّلاة والسَّلام).

سرُّ إضافةِ لفظِ (ربِّ) إلى ضميرِ المتكلِّم:

النِّسبةُ بالإضافةِ إلى الرَّبِّ شرفٌ جليلٌ، وحملٌ من الأمانةِ ثقيلٌ

في قولِه: ﴿مِن رَّبِّيۚ﴾ إضافةُ تشريفٍ وتخصيصٍ، يناسب الرَّدَّ عليهم في قولهم: ﴿لَوۡلَا ٱجۡتَبَيۡتَهَاۚ﴾، فمن جملة ربوبيَّتِه أنَّه ما ودعني لنفسي، بل ربّاني على التَّوكُّل عليه، والاعتصامِ بحبلِه.

لطيفةُ تقديمِ: ﴿إِلَيَّ﴾ على: ﴿مِن رَّبِّيۚ﴾:

الوحيُ المنزَّلُ أولى وأهمُّ من حيثُ التَّأسيسُ، وذكرهُ مكرَّرٌ من قبيل التَّأكيدِ

تقديمُ قولِه: ﴿إِلَيَّ﴾ على قوله: ﴿مِن رَّبِّيۚ﴾؛ لأنَّ بيانَ خصيصةِ الوحي المنزَّل عليه أولى وأهمُّ، وهو من قبيل التَّأسيس، وقوله: ﴿مِن رَّبِّيۚ﴾ من قبيلِ التَّأكيدِ، والقاعدةُ عند أهلِ العلم: أنَّه إذا دار الكلامُ بين التَّأسيسِ والتَّأكيد، فالتَّأسيسُ أولى؛ لأنَّ التَّأسيسَ يفيدُ معنى جديدًا، والتَّوكيدُ لا يفيدُ غير المعنى الأوَّلِ إلّا أنَّه يقوّيه.

فائدةُ الاستئنافِ بجملةِ: ﴿هَٰذَا بَصَآئِرُ﴾:

التَّنويهُ بشأنِ القرآنِ الكريم؛ لأنَّهُ بصائرُ تملأُ القلبَ بنورِ اليقينِ الإيمانيِّ

قوله تعالى: ﴿هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمۡ﴾، مُسْتَأْنَفَةٌ لابْتِداءِ كَلامٍ في التَّنْويهِ بشَأْنِ القرآنِ مُنْقَطِعَةٌ عَنِ المَقولِ لِلانْتِقالِ مِن غَرَضٍ إلى

غَرَضٍ بمَنْزِلَةِ التَّذْييلِ لِمَجْموعِ أغْراضِ السّورَةِ[1]، أي: إنَّ هذا القرآنَ - الَّذي أوحاهُ اللّهُ إليَّ - بصائرُ وحججٌ من ربِّكم، من يتأمَّلها حقَّ التَّأمُّل؛ يكن بصيرَ العقلِ بما تدلُّ عليه من الحقِّ، فهي أدلُّ عليه ممّا تطلبون من الآيات الكونيَّةِ[2].

لطيفةُ تلوينِ الخطابِ في قولِهِ: ﴿هَٰذَا بَصَآئِرُ﴾:

ضرورةُ الإعراضِ عن الكافرينَ، وعدمِ الاعتناءِ بأقاويلِهم الباطلةِ

يحتملُ أن يكونَ الخطابُ للمؤمنين، فيكون تلوينًا للخطابِ السّابق؛ حيثُ الرَّدُّ على الكافرين الَّذين تعنَّتوا مع الرَّسول ﷺ في طلبِ الآياتِ، والغرضُ منه هو الإعراض صفحًا عن الكافرين، وعدمُ الاعتناءِ بقولهم، وبيانُ قدرِ المؤمنين بهذا الكتابِ الكريم. كما يحتملُ أن يكونَ متَّصلًا بما قبلَهُ "منْ تَمامِ القَوْلِ المَأْمورِ بأنْ يُجيبَهُم به، فيَكونُ الخِطابُ لِلْمُشْرِكينَ، ثُمَّ وقَعَ التَّخَلُّصُ لِذكْرِ المُؤْمِنينَ بقَوْلِه: ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾"[3].

دلالةُ الإشارةِ في قولِهِ: ﴿هَٰذَا بَصَآئِرُ﴾:

القرآنُ بصائرُ للاستبصارِ بهِ في جميعِ المطالبِ الإلهيَّةِ، والمقاصدِ الإنسانيَّةِ

المشارُ إليهِ هو القرآنُ الكريم، ويدخلُ فيه ما نزلَ في هذه السّورةِ الكريمة، والإشارةُ إلى القرآن بلفظِ الإشارة ﴿هَٰذَا﴾ يلمحُ بها إلى التَّشريف والتَّعظيمِ من جهةٍ، وإلى المضمون الَّذي به شرفَ القرآنُ وسمًا ومقامًا ومضمونًا من جهةٍ أخرى، وفي هذه الآية إشارةٌ إلى القرآن الكريم المدلولِ عليه بما يوحى إلى النَّبيِّ ﷺ، باعتبارِهِ بمنزلةِ البصائرِ للقلوب، بها تُبصِرُ الحقَّ وتدرك الصَّوابَ[4].

سرُّ التَّعبيرِ باسمِ إشارةِ للقريبِ ﴿هَٰذَا﴾:

الإشارةُ للقريبِ إشارةٌ إلى إفرادِ الطَّريقِ ووضوحِهِ وعدمِ الالتباسِ فيهِ

إيثارُ اسمِ الإشارةِ ﴿هَٰذَا﴾ دون (هذه) أو (تلك)؛ لأنَّه للمفردِ المذكَّرِ القريب، وهو قريبٌ لمن أنارَ اللّهُ دربَهُ، وشرح صدرَهُ، وعلم أنَّ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 237/9.
(2) المراغي، تفسير المراغي: 153/9.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 237/9.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 237/9.

القرآنَ من عندِ اللّهِ تعالى، وإفرادُ الإشارةِ تتناسبُ وإفرادَ الطَّريق ووضوحَه وعدمَ الالتباس فيه.

إيثارُ التَّعبيرِ بلفظِ ﴿بَصَآئِرُ﴾ ودلالتُهُ:

آياتُ اللهِ توجِبُ البَصائِرَ لِمَنْ عَرَفَها، ووَقَفَ على حَقائِقِها

أوثرَ لفظُ ﴿بَصَآئِرُ﴾ جَمْعُ بصيرةٍ؛ لأنَّ البَصَرَ كما كان اسْمًا لِلْإِدْراكِ التّامِّ الكامِلِ الحاصِلِ بالعَيْنِ الَّتي في الرَّأْسِ، فالبَصيرَةُ اسْمٌ لِلْإِدْراكِ التّامِّ الحاصِلِ في القَلْبِ، وهيَ في أَنْفُسِها لَيْسَتْ بَصائِرَ إلّا أنَّها لِقوَّتِها وجَلالَتِها توجِبُ البَصائِرَ لِمَنْ عَرَفَها، ووَقَفَ على حَقائِقِها، فلَمّا كانَتْ هذه الآياتُ أَسْبابًا لِحُصولِ البَصائِرِ[1]، فالكلامُ خارِجٌ مخرجَ التَّشبيهِ البليغِ... أو فيهِ مجازٌ مرسلٌ، حيث أطلقَ المسبَّبَ على السَّببِ، وجوِّز أن تكونَ البصائرُ مستعارةً لإرشادِ القرآنِ الخلقَ إلى إدراكِ الحقائقِ[2].

سرُّ جمعِ لفظِ ﴿بَصَآئِرُ﴾ وإفرادِ لفظي (هدى ورحمة):

الهدَى والرَّحمةُ جنسان عامّان، يشملانِ أنْواعَ البَصائِرِ القرآنيَّةِ

وَإِنَّما جَمعَ (البَصائِرَ)؛ لِأَنَّ لِلْقُرْآنِ أَنْواعًا مِنَ الهُدَى على حَسَبِ النَّواحي الَّتي يَهْدي إِلَيْها، مِن تَنْويرِ العَقْلِ في إِصْلاحِ الاعْتِقادِ، وتَسْديدِ الفَهْمِ في الدّينِ، ووَضْعِ القَوانينِ لِلْمُعامَلاتِ والمُعاشَرَةِ بين النّاسِ، والدَّلالَةِ على طُرُقِ النَّجاحِ والنَّجاةِ في الدُّنْيا، والتَّحْذيرِ مِن مَهاوي الخُسْرانِ، وأَفْرَدَ الهُدَى والرَّحْمَةَ؛ لِأَنَّهُما جِنْسانِ عامّانِ يَشْمَلانِ أَنْواعَ البَصائِرِ؛ فالهُدَى يُقارِنُ البَصائِرَ، والرَّحْمَةُ غايَةٌ لِلْبَصائِرِ، والمُرادُ بالرَّحْمَةِ ما يَشْمَلُ رَحْمَةَ الدُّنْيا: وهيَ اسْتِقامَةُ أَحْوالِ الجَماعَةِ وانْتِظامُ المَدَنيَّةِ، ورَحْمَةَ الآخِرَةِ: وهيَ الفَوْزُ بالنَّعيمِ الدّائِمِ، كَقَوْلِه تَعالَى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [النَّحل: 97][3].

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 104/13.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 140/5.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 238/9.

دلالةُ ﴿مِن﴾ وفائدةُ الجارِّ والمجرورِ في قوله: ﴿مِن رَّبِّكُمْ﴾:

و"مِن" لابتداءِ الغايةِ مجازًا، وهي متعلِّقةٌ بمحذوفٍ وقعَ صفةً لبصائر، والتَّعرُّض لعنوان الرُّبوبيَّة مع الإضافة إلى ضميرِ المخاطبين لإظهارِ كمال اللُّطف بهم[1].

كلُّ هدايةٍ من اللهِ، فهي خيرٌ ورحمةٌ لعبادِهِ

نكتةُ تلوينِ الخطابِ في قولِهِ: ﴿رَّبِّكُمْ﴾ بعد قوله: ﴿رَّبِّيٓ﴾:

قولهُ: ﴿إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ مِن رَّبِّيٓ ۚ هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ﴾، نلاحظُ أنَّهُ لمّا كان الوحيُ إليه من إنعامِ اللهِ عليهِ؛ أُضيفَ الرَّبُّ إليه، فقال: ﴿أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ مِن رَّبِّيٓ﴾، ولما كانوا أحوجَ ما يكونون إلى لطفِ اللهِ بهم؛ ليستبصروا بهذا الوحي أضيفَ الرَّبُّ إليهم، فقال: ﴿هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ﴾.

البشرُ في حاجةٍ إلى فواضلِ الرُّبوبيَّةِ، وإلى ألطافِها الخفيَّةِ

دلالةُ عطفِ قولِهِ: ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةٌ﴾ على قوله: ﴿بَصَآئِرُ﴾:

وعطفَ قولَهُ: ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةٌ﴾ على قوله: ﴿بَصَآئِرُ﴾ لبيان ما بعد الاستبصارِ من الحثِّ على العملِ، ﴿وَهُدًى﴾ رُشْدٌ وبَيانٌ ورَحْمَةٌ" أي: ونعمة[2]، وهو يقول لهم: "إنَّ هذا القرآنَ - الَّذي أوحاه اللّه إليَّ - بصائرُ وحججٌ من ربِّكم، من يتأمَّلُها حقَّ التَّأمُّل؛ يكن بصير العقل بما تدلُّ عليه من الحقِّ، فهي أدلُّ عليه ممّا تطلبون من الآيات الكونيَّةِ"[3]، وفي ذلك كمالُ الهدى، وعمومُ الرَّحمةِ، لو أنَّكم كنتم تعقلون.

من أبصرَ الحقائقَ؛ استبانَ له الهُدى، ونالتْهُ رحمةُ الله على المدى

مجيءُ قوله: ﴿مِن رَّبِّكُمْ﴾ بعد لفظِ ﴿بَصَآئِرُ﴾:

لمّا كانَ القرآنُ منهاجًا للناس جميعًا؛ جاء قوله: ﴿مِن رَّبِّكُمْ﴾ قيدًا لقوله: ﴿بَصَآئِرُ﴾ فهو عامٌّ مطلقٌ، يتناسب وعمومَ ربوبيَّتِهِ تعالى، وقوله: ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ خاصٌّ بأهل الإيمان،

تقييدُ (البصائر) لانتفاعِ كلِّ الخلقِ، وإطلاقُ (هدى ورحمة)؛ لتخصيصِهما بالمؤمنينَ

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 234/4.
(2) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 353/7.
(3) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 153/9.

ونظير ذلك قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ٥٧﴾ [يونس: 57][1].

أسلوبُ التَّرقّي في ذكرِ (بصائر) ثمَّ (هدى) ثمَّ (رحمة)، وسرُّ التَّرتيبِ:

القرآنُ بصائرُ للسّابقين، وهُدًى للمُستدلّين، ورحمةٌ للمؤمنين

وهنا لطيفةٌ، وهي الفرقُ بين هذه المراتبِ الثَّلاثِ، وذلك أنَّ النّاس متفاوتون في درجات العلوم، فمنهم من بلغَ الغايةَ في علم التَّوحيد، حتَّى صارَ كالمشاهِد، وهم أصحاب عين اليقين، ومنهم من بلغَ درجةَ الاستدلالِ والنَّظر، وهم أصحابُ علم اليقين، ومنهم المسلِّم والمستسلم، وهم عامَّةُ المؤمنين، وهم أصحابُ حقِّ اليقين؛ فالقرآنُ في حقِّ الأوَّلين - وهم السّابقون بصائرُ، وفي حقِّ القسم الثّاني، وهم المستدلِّون هدًى، وفي حقِّ القسم الثّالثِ، وهم عامَّة المؤمنين رحمةٌ[2].

سرُّ اختصاصِ المؤمنين بالذِّكر في قوله: ﴿لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾:

المؤمنونَ هُمُ الَّذينَ يَستَبصِرونَ، ويَنتَفِعونَ بالوَحْيِ

قولهُ: ﴿لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ خَصَّ المُؤمِنينَ؛ لأنَّهُمُ الَّذينَ يَستَبصِرونَ، وهُمُ الَّذينَ يَنتَفِعونَ بالوَحْيِ، يَتَّبِعونَ ما أمَرَ به فيهِ، ويَجتَنِبونَ ما يُنهَوْنَ عنه فيهِ، ويُؤمِنونَ بما تَضَمَّنَهُ[3]. ولَمّا كانَتْ هذه الفِرَقُ الثَّلاثُ مِنَ المُؤمِنينَ؛ قالَ: لِقَوْمٍ يُؤمِنونَ، وفيهِ تَكميلٌ وبَعْضُ تَلْخيصٍ[4].

فائدةُ التَّنازعِ في متعلَّقِ الجارِّ والمجرورِ:

تَعْريضٌ بأنَّ غَيْرَ المُؤْمِنينَ لَيْسوا أهْلًا لِلانْتِفاعِ به

الجار والمجرور في قوله: ﴿لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ "يتنازعه ﴿بَصَآئِرُ﴾ و﴿وَهُدٗى﴾ و﴿وَرَحۡمَةٞ﴾؛ لأنَّهُ إمّا يَنْتَفِعُ به المُؤْمِنونَ، فالمعنى: هذا بَصائِرُ لَكُم ولِلْمُؤْمِنينَ، وهُدىً ورَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنونَ خاصَّةً؛ إذْ لَم يَهْتَدوا، وهو تَعْريضٌ بأنَّ غَيْرَ المُؤْمِنينَ لَيْسوا أهْلًا لِلانْتِفاعِ به، وأنَّهُم لَهَوْا عَنْ هَدْيِه بطَلَبِ خوارقِ العادات"[5].

(1) ابن القيّم، إغاثة اللهفان: 169/2.
(2) الخازن، لباب التّأويل: 286/2.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 261/5.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 261/5.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 283/9.

سرُّ التَّعبيرِ بلفظ (قوم) في قوله: ﴿لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾:

الإشارةُ إلى أنَّ هدايةَ القرآنِ ورحمتَهُ قيامٌ بحقِّه، ووُقوفٌ عند حدودِه

وذكرَ لفظَ (قوم)؛ لِأنَّ ذِكْرَها يَقْتَضي أنَّ هدايةَ القرآنِ ورحمتِه لن تتَمَكَّنَ منهم حتَّى يسْتَوي فيهِ جَميعُهُم، ويصيرَ مِن خَصائِص قَوْميَّتِهم، وفيه إشارةٌ إلى الحضِّ على التَّوافق والتَّعاون والتَّرابط؛ ممّا يدعوهم إلى استثمار هذه المراتبِ السّابقِ ذكرُها من الاستبصارِ بالقرآنِ والهدايةِ والاسترحامِ به، "فالمُرادُ بقَوْم يُؤْمِنونَ: قَوْمٌ الإيمانُ شَأْنُهُم وسَجيَّتُهُم، ولِلْإشارَةِ إلى معنى تَمَكُّنِ الإيمانِ مِن نُفوسِهِمْ؛ أُجْرِيَ وصْفُ الإيمانِ على كَلِمَةِ (قَوْم)؛ ليُفيدَ أنَّ كَوْنَهُم مُؤْمِنينَ هو مِن مُقَوِّماتِ قَوْميَّتِهِمْ"[1]، وكلمة (قوم) إذا جاءت مع كلمة النِّساء، فالمرادُ بها الرِّجالُ، ومنه قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّۖ﴾ [الحُجُرات: 11]، وإذا جاءت من غير لفظ النِّساءِ شملتِ الرِّجالَ والنِّساءَ، كما في الآية الكريمة[2]، وفي اصطفاءِ كلمةِ (قوم) هنا معنى لطيفٌ؛ فهذه الكلمةُ تفيدُ معنى من يقوم للشَّيء، ويقوم به، أي: من يجتهد في الوفاءِ بحقِّ ما يطلب منه، وفي هذا تعريضٌ بهم أنَّهم لم يكونوا قوّامين بما جاءهم به رسول الله ﷺ فهدَّدهم بأن يتأتَّى بغيرِهم يقومون بما لم يقوموا به.

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/65.

(2) في ذلك خلاف بين العلماء؛ فقال قوم: كلمة (قوم) تخصُّ الرّجال دون النّساء، واستدلّوا بهذه الآية، وبقول زهير:

وما أدري ولست إخالُ أدري *** أقَوْمٌ آلُ حِصْنٍ أم نساءُ

ينظر: الجوهريّ، الصّحاح، وابن منظور، لسان العرب: (قوم).

والصّحيح: أنَّها تعمُّ الرّجال والنّساء، كما في النّداءات النّبويّة بـ ﴿يَٰقَوۡمِ﴾ مِن أنبياء الله السّابقين، فالخطاب فيها للرّجال والنّساء، والنّساء شقائق الرّجال، ولكن هنا عندما قال تعالى: ﴿لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ﴾ دخل الرّجال والنّساء، ثمّ خصّ تعالى النّساء بالذّكر لأنّ الهزء يكون مِنَ النّساء أكثر، فلا يكاد يُفلِت مِنَ النّساء أحدٌ من الهزء، الا من رحم ربُّك، ففي قوله: ﴿لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ﴾ [الحجرات: 11] تعميم، وفي قوله: ﴿وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ﴾ [الحجرات: 11]، تخصيص، وكأنّ النّساء خوطبن مرّتين؛ لأنَّ ذلك من لوازم مجالسهنّ ولوازم أحاديثهنّ.

إيثارُ صفةِ الإيمانِ والتَّعبيرِ بالفعلِ ﴿يُؤۡمِنُونَ﴾:

الإيمانُ أصلُ صلاحِ العملِ وقبولِه، وصيغةُ المضارعِ تجدُّدٌ واستمرارٌ

وأوثرَ وصفُ الإيمانِ، لأنَّهُ الأصلُ الَّذي ينبني عليه صلاحُ العملِ وقبولُهُ، وبهِ يستقبلُ القلبُ بصائرَ القرآنِ، وينقادُ بيُسْرٍ على صراطٍ مستقيمٍ. وصيغةُ المضارعِ تدلُّ على التَّجدُّدِ والاستمرار، فهم يرتقون بهذا الكتابِ في مدارجِ السّالكين، ومعارج المّتقين، ومنازل المحسنين، كما بُشِّروا بذلك الرُّقيِّ في الآخرةِ حين «يُقالُ لِقارِئ القرآنِ: اقْرَأْ وارْقَ ورَتِّلْ كَما كُنْتَ تُرَتِّلُ في الدُّنْيا، فإنَّ مَنْزِلَتَكَ في آخِرِ آيَةٍ تَقْرَؤُها»[1].

توافقُ الفاصلةِ، وأثرُها الصَّوتيُّ والدَّلاليُّ:

توحي الفاصلةُ بالهدوءِ وهدهدةِ النَّفسِ، والتَّخفيفِ من الضَّغطِ والتَّوتُّر

نلحظُ توافقَ الفاصلةِ في قولِه: ﴿يُؤۡمِنُونَ﴾ لما قبلَها وما بعدَها من الفواصلِ، وذلك يُحْدِثُ انسجامًا صوتيًّا، يستولي على القلوبِ، ويستقطبُ العقولَ، ويأسرُ الأسماعَ، وهي متَّفقةٌ - كذلك - مع آياتِها في قرارِ الصَّوت اتِّفاقًا عجيبًا، يلائِمُ نوعَ الصَّوت والوجه الَّذي يُساق عليه، فهذهِ الفواصلُ وختامها يوافقُ ما كان عليه العربُ من اختيارِ حروف اللّين أو المدِّ للانتهاء بمقاطع كلامِهم، أو حرفَي النّون والميم، فالنّون المسبوقةُ بصوتٍ ممدود، الموقوف عليها - توحي بهذا الجوِّ من الهدوءِ والهدهدةِ[2] النَّفسيَّةِ، والتَّخفيف من حدَّة الضَّغط والتَّوَتُّرِ، وهذا جليٌّ من قولِه تعالى: ﴿إِنَّ وَلِيِّۦَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡكِتَٰبَۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ١٩٦﴾ [الأعراف: 196] إلى ختامِ السّورةِ الكريمة.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الآيةُ والمعجزةُ:

المعجزةُ هي ما خرقَ العادةَ من قولٍ أو فعل، إذا وافقَ دعوى

(1) أخرجه أبو داود في سننه، برقم: (1464)، وابن حبّان في صحيحه، برقم: (766)، والحاكم في المستدرك: 739/1.

(2) الهدهدة: تحريك الأمّ ولدَها ليَنام.

الرِّسالة، وقارنها، وطابقها على جهة التَّحدّي ابتداء، بحيث لا يقدر أحدٌ عليها، ولا على مثلها، ولا على ما يقاربُها. قال ابن تيميَّة[1]: "الآياتُ والبراهين الدّالَّةُ على نبوَّةِ نبيِّنا محمَّد ﷺ كثيرة متنوِّعةٌ، وهي أكثرُ وأعظمُ من آياتِ غيرهِ مِنَ الأنبياءِ"، قال: "ويسمّيها النُّظّارُ معجزاتٍ، وتسمَّى دلائلَ النُّبوَّة، وأعلامَ النُّبوَّة ونحو ذلك"، وقال: "وهذه الألفاظُ إذا سمّيت بها آيات الأنبياء؛ كانت أدلَّ على المقصودِ من لفظِ المعجزات؛ ولهذا لم يكن لفظُ المعجزات موجودًا في الكتابِ ولا في السُّنَّةِ، وإنَّما فيهِ لفظُ الآيةِ والبيِّنة والبرهان"[2].

الآيةُ الخارقةُ الدّالَّةُ على صدقِ النُّبوَّةِ، والمعجزةُ ما قصد بها التَّحدّي

الاجتباءُ والاختيارُ والاصطفاءُ:

اختيارُكَ لشَيْءٍ أخذُكَ خيرَ ما فيهِ في الحَقيقَة، أو خَيره عنْدك، والاصطفاءُ أخْذُ ما يصفو منه، ثمَّ كثرَ حَتَّى اسْتُعْمل أحدُهما مَوضِعَ الآخرِ، واسْتُعْمل الاصطفاءُ في ما لا صفو لَهُ على الحَقيقَة[3]، والاصطفاءُ: الاختيارُ من بين أشياءَ متشابهةٍ؛ كأن تختار قلمًا من بين مجموعةِ أقلامٍ، والاختيارُ يكون من بين أشياء غيرِ متشابهةٍ، كأن تختار قلمًا من بين ورقٍ، وكتابٍ، وقلمٍ، فالاصطفاءُ عمليَّةٌ أخصُّ من مجرَّدِ الاختيارِ، والاصطفاءُ يحدثُ بعد الاختيارِ، والاصطفاءُ يكونُ لأمرٍ، أو فعل متميِّزٍ فريدٍ في نوعهِ، مثل تكليمِ اللّهِ ربِّ العالمين لموسى لأوَّلِ مرَّةٍ، فالاصطفاءُ أعلى درجةً من الاختيار، والاجتباءُ يشبهُ الاصطفاءَ، ولكن يأتي في سياقِ الأفرادِ وليس في الأفعالِ كما هو الحالُ في الاصطفاءِ[4]، فالاجتباءُ في الأصلِ الاختيارُ، وأريدَ به هنا الاختلاقُ والافتعال، يقال: اختارَ فلانٌ الشَّيءَ؛ إذا اختلقَهُ واستحدَثه.

الاجتباءُ والاختيارُ والاصطفاءُ، لكلٍّ منها دلالةٌ مرتبطةٌ بسياقها والقرائن المصاحبة

(1) ابن تيميّة، الجواب الصّحيح: 412/5.
(2) السّفّارينيّ، لوامع الأنوار البهيّة: 290/2.
(3) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 285.
(4) الهلال، تفسير القرآن الثّريّ الجامع: 67/3.

الاتِّباعُ والتَّقليدُ:

الاتِّباعُ: اقتفاءُ هدي اللهِ على بصيرةٍ وحجَّةٍ، والتَّقليدُ: قبولُ الاتِّباعِ بلا حجَّةٍ

الاتِّباعُ يدلُّ على لحوقِ الشَّيءِ بمتقدِّمٍ أو سابقٍ بلا فصلٍ، مع رقَّةٍ ولين؛ ولا يكونُ في الإسلامِ إلا بدليلٍ، يقال: غُصْنٌ متتابع: إذا كان مستويًا لا غِلْظة فيه[1]. فالاتِّباعُ هو اتِّباعُ الدَّليلِ والعمل بالوحي، ولا شكَّ في أنَّ هذا اللُّحوقَ والسَّيرَ في أثر الشَّرْع يخلو من الشَّرِّ، ويحلو بالرِّفق واللِّين؛ إذ إنَّه من لطيفٍ خبيرٍ، فقد سمَّى اللهُ العملَ بالوحي اتِّباعًا في مواضعَ كثيرةٍ، منها قوله تعالى: ﴿ٱتَّبِعۡ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ﴾ [الأنعام: 106]، وقوله تعالى: ﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۗ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ٣﴾ [الأعراف: 3]. فمحلُّ الاتِّباع إذًا هو كلُّ حكم ظهرَ دليلُهُ من الكتاب والسُّنَّةِ والإجماع، أمّا محلُّ التَّقليد فهو محلُّ الاجتهاد، فلا اجتهادَ ولا تقليدَ في نصوصِ الوحي الصَّحيحةِ الواضحة الدَّلالة، السّالمة من المعارض، ولا يشترطُ في الاتِّباع والعمل بالوحي سوى العلمِ بما يعملُ، ولا يتوقَّف ذلك على تحصيلِ شروطِ الاجتهاد[2].

وأمّا التَّقليدُ؛ فليس في القرآن من مادَّةِ (قلد) إلّا لفظتا (القلائد) و(مقاليد): وهما مأخوذتان من القَلْد: السِّوارُ المفتولُ من فضَّةٍ، والقلادة، وقَلَد الحديدةَ: رقَّقَها ولواها على شيءٍ أو على مثلها، والتَّقليدُ فيه معنى الحَوْز والحَبْس بشدَّة[3]، وأمّا التَّقليدُ بمعنى: قبول قَول الآخرين من غيرِ حجَّة[4]، فلم يرد لفظُه في القرآن، وإنَّما جاء معناه في موضع الذَّمِّ والنَّهي، بل جاء التَّشْبيه البليغ لأولئك الَّذين يسيرون خلفَ كلِّ ناعق، فقال اللهُ ﷻ: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِي يَنۡعِقُ بِمَا لَا يَسۡمَعُ إِلَّا دُعَآءٗ وَنِدَآءًۚ صُمُّۢ بُكۡمٌ

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (تبع).
(2) ابن القيّم، إعلام الموقّعين: 19/2، 201، والشّوكانيّ، إرشاد الفحول، ص: 881.
(3) الخليل، العين، وابن منظور، اللّسان، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (قلد).
(4) قِوام السُّنّة، الحجّة في بيان المحجّة: 119/2.

عُمۡيٞ﴾ [البقرة: 171]، وفي قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُواْ حَسۡبُنَا مَا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوۡ كَانَ ءَابَآؤُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَهۡتَدُونَ ١٠٤﴾ [المائدة: 104].

فالتَّقليدُ الأعمى والتَّعصُّب يؤدّيان إلى مهاوي الرَّدى، ويقودانِ صاحبهما إلى مسالكِ الغِواية والضَّلال، ويصدّان عن اتِّباع النّور والهدى، فتكونُ النَّتيجةُ تخبُّطًا وانتكاسًا في الدُّنيا، وهلاكًا وخسرانًا في الآخرةِ[1].

(1) حمد الحريقيّ، التّوحيد وأثره في حياة المسلم، ص: 83.

﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾﴾

[الأعراف: 204]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

المناسبةُ بين تعظيمِ القرآنِ وهديِهِ، وبين تلاوتِهِ وتدبُّرِهِ

اعْلَم أنَّهُ تَعالَى لَمّا عَظَّمَ شَأْنَ القرآنِ بقولِه: ﴿هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ﴾ [الأعراف: 203] أرْدَفَهُ بقَوْلِه: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾[1]، فوجب "التزامه والإصغاءُ لتلاوته والتَّدبُّر في معانيه، وتعظيمه، كتعظيم اللّه تعالى في ذكرِهِ وتسبيحِهِ وتحميدِهِ"[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَٱسْتَمِعُوا۟﴾: من السَّماعِ، وهو إيناسُ الشَّيْءِ بالأُذُنِ مِنَ النّاسِ وكُلِّ ذي أُذُنٍ، تَقولُ: سَمِعْتُ الشَّيْءَ سَمْعًا، والسَّمْعُ: الذِّكْرُ الجَميلُ، يُقالُ: قد ذَهَبَ سَمْعُهُ في النّاسِ، أيْ: صيتُهُ[3].

2) ﴿وَأَنصِتُوا۟﴾: الإنصاتُ يَدُلُّ على السُّكوتِ، وأنْصَتَ لاسْتِماعِ الحَديثِ، ونَصَتَ يَنْصِتُ، وفي كِتابِ اللّه تَعالَى: ﴿وَأَنصِتُوا۟﴾، والإنصاتُ على هذا أقوى من الاستماع، وفيه من الاستعدادِ للقبول، أو من الخشوعِ - ما ليس في الاستماع الذي يتحقَّقُ بمجرَّدِ الاستعداد لوصول الصَّوت إلى الأذن[4].

المَعْنى الإجْمالِيُّ:

الأمرُ بقراءةِ القرآنِ باستماعٍ وإنصاتٍ لنيلِ ما فيها من الرَّحمات

إذا قرئَ عليكم - أيُّها المؤمنون - القرآنُ فاصغوا له سمعَكم، لتتفهَّموا آياتِه، وتعتبروا بمواعظِه، وأنصتوا إليه لتعقلوهُ، وتتدبرَّوه؛

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 439/15.
(2) الزّحيليّ، التّفسير الوسيط: 759/1.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، اللّسان، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (سمع).
(4) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، اللّسان، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (نصت).

ليرحمَكم ربُّكم باتِّعاظكم بمواعظهِ، واعتباركم بعبرهِ، واستعمالكم ما بيَّنَهُ لكم ربُّكم من فرائضِه في آيِه[1].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ الواوِ في قولهِ: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلۡقُرۡءَانُ﴾، وأثرُها في المعنى:

الواو عاطفةٌ، ويكون ما بعدها داخلًا في ما أمرَ به الرَّسولُ ﷺ أن يقولَهُ للمشركين، وذلك إعادَةُ تَذْكيرٍ لِلْمُشْرِكينَ تَصْريحًا أو تَعْريضًا بألّا يُعْرِضوا عَنِ اسْتِماعِ القرآنِ وبأنْ يَتَأمَّلوهُ ليَعْلَموا أنَّهُ آيَةٌ عَظيمَةٌ[2]، ويجوزُ أن تكونَ استئنافيَّةً، ويكون الخطابُ للمؤمنينَ، وفيه حسنُ تخلُّصٍ من مخاطبة المشركين والرَّدِّ عليهم تُجاه موقفهم من القرآنِ، إلى الحديثِ عن نفسِه وعلاقتهِ مع القرآنِ، إلى أثرِ القرآنِ في النّاس كافَّةً، وفي المؤمنين خاصَّةً، ثمَّ الانتقالُ إلى الحالِ الَّتي ينبغي أن يكونَ المؤمنون عليها عندما يقرأُ هذا القرآنُ؛ حتَّى يُرحموا، ويَفوزوا بهدايتِه ونورِه.

العطفُ والاستئنافُ إمّا لتحقيقِ البلاغِ، أو لبيانِ الخطابِ على التَّوالي

علَّةُ إيثارِ (إذا) دون (إنْ):

في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلۡقُرۡءَانُ﴾ أوثِر (إذا) دون (إن)، وتبدو فائدةُ (إذا) في تحقُّقِ ما بعده، ووقوعِ الفعل الماضي بعدَهُ يؤكِّدُ هذا، وفيه بشارةٌ بتحقُّقِ قراءةِ القرآنِ إلى قيامِ السّاعةِ، وإشارةٌ إلى فشلِ الكافرين الحاسدينَ الَّذين ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطۡفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَيَأۡبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ ٣٢﴾ [التّوبة: 32]، وما نراهُ في عصرنا من تنوُّعِ إذاعةِ القرآنِ الكريم صوتيًّا شاهدٌ على ذلك، كما أنَّ (إذا) تشيرُ إلى الزَّمان، فهو ظرفٌ متضمِّنٌ معنى الشَّرط، وما بعده في محلِّ جرٍّ بإضافة (إذا) إليه، وفي ذلك إيماءٌ بشدَّةِ تعلُّقِ ما بعدَهُ بهِ، فالمضافُ والمضافُ إليه كالكلمةِ الواحدةِ،

الملاءمةُ بين أداةِ الشَّرطِ وسياقه الدِّلاليِّ والزَّماني للتَّعبيرِ عن المرادِ

(1) ابن جرير، جامع البيان: 345/13.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 238/9.

وحرفُ (إنْ) يَدُلُّ على مجرَّدِ الاشتراطِ، ولا إشعارَ له بالزَّمانِ، كما يدلُّ على الشَّكِّ في الوقوعِ، فمخرجها الظَّنُّ والتَّوقُّع فيما يُخْبِر به المُخْبِر[1]، ومن اللَّطائفِ: (إنْ) لِلشَّكِّ معَ أنَّها جازِمَةٌ، وإذا لِلْجَزْمِ معَ أنَّها لا تَجْزِمُ، وقد أَلْغَزَ في ذلك الإمامُ السيوطيُّ، فقالَ[2]:

أنا إنْ شَكَكْتُ وجَدْتُموني جازِمًا *** وإذا جَزَمْتُ فإنَّني لَم أجْزِم

إيثارُ استعمالِ فعلِ (القراءةِ) دونَ (التِّلاوةِ):

الـقـراءةُ أعـمُّ وأشـمـلُ من الـتِّـلاوةِ، ولهذا ذُكِـرَت في الآيـةِ دونَ التِّلاوة

أوثرَ فعلُ القراءةِ دونَ التِّلاوة؛ لأنَّها تُستعمل في قراءةِ القليلِ والكثيرِ، سواءٌ أكان مكتوبًا أم غير مكتوبٍ، بصوتٍ أم بغيره، والتِّلاوة تستعملُ في ما يطولُ، ويكثرُ من الكلامِ للقراءةِ من مكتوبٍ بصوت، ويتسامحُ فيها، فتكونُ من غيرِ مكتوبٍ لكن بصوتٍ، ففعلُ القراءة في الآية أولى؛ لأنَّه أعمُّ[3].

سرُّ مجيءِ الفعلِ الماضي المبنيِّ للمفعولِ:

دلالـــةُ لـفـتِ الانـتـبـاهِ إلى المـقـروءِ، لا إلى القارئِ

في قوله تعالى: ﴿قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ﴾ بُني الفعلُ ﴿قُرِئَ﴾ للمفعولِ؛ ليلفتَ الانتباهَ إلى الفعلِ، لا إلى الفاعلِ، فينبغي أن يكونَ تركيزُ العقلِ وتكريس الفكرِ في ما يُقْرَأ، لا في مَن يَقْرَأ، ومن شهدَ النّاسَ في عصرنا والتفافَهم حول المشهورين وانفضاضَهم من حول المغمورين؛ أدركَ ذلك.

نكتةُ وضعِ المُظهرِ موضعَ المُضمرِ في ذكرِ لفظِ ﴿ٱلْقُرْءَانُ﴾:

الـتَّـنْـويـهُ بـأمـرِ القراءةِ الواعيَةِ المـصـغـيَـةِ، لتطلُّبِ الرَّحمةِ السّابغةِ

وَذِكْرُ اسْمِ القرآنِ إظْهارٌ في مَقامِ الإضْمارِ؛ لِأنَّ القرآنَ تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ بواسِطَةِ اسْمِ الإشارَةِ فنُكْتَةُ هذا الإظْهارِ: التَّنْويهُ بهذا الأمْرِ، وجَعَلَ جُمْلَتَهُ مُسْتَقِلَّةً بالدَّلالَةِ غَيْرَ مُتَوَقِّفَةٍ على غَيْرِها، وهذا مِن وُجوهِ الاهْتِمامِ بالكَلامِ ومِن دَواعي الإظْهارِ في مَقامِ الإضْمارِ اسْتَقْرَيْتُهُ مِن كَلامِ البُلَغاءِ[4].

(1) المبرّد، المقتضب: 56/2.
(2) السّيوطيّ، الطّراز في الألغاز، ص: 46.
(3) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 38، 39، 75، والرّاغب، المفردات، ص: 168، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (تلو) و(قرأ).
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 239/9.

بلاغةُ جناسِ الاشتقاقِ في: ﴿قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ﴾:

تجانسُ الكلماتِ والحروفِ فيه جمالٌ وكمالٌ، يبقى على مدى الدَّهْرِ

أمّا تلاؤمُ الكلماتِ والحروفِ؛ ففيه جمالُ المقالِ، وكمالُ الكلامِ، نحو قولِه تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ﴾ [البقرة: 24] ﴿وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ﴾ [النمل: 44] ﴿يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ [يوسف: 84] ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ﴾ [الروم: 43] ﴿فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ﴾ [يوسف: 19] ﴿فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ﴾ [الواقعة: 89] ﴿وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ۝٥٤﴾ [الرحمن: 54] ونظائرُها، ونلحظُ في هذا الجناسِ عظيمَ حفظِ اللّهِ لكتابِه الكريمِ؛ فهو يشيرُ بحروفِه الكائنةِ في الفعلِ ﴿قُرِئَ﴾، والاسمِ ﴿ٱلْقُرْءَانُ﴾ يشيرُ إلى بقاءِ حروفِه وحدودِه، فاللّهُ ﷻ، جعله يُقْرَأ على الأسماعِ، رُغْمَ اختلافِ الأصقاعِ والألسنةِ والأزمانِ والأحوالِ، ورُغْمَ كيدِ الأعداءِ، ومحاولاتِ الأغبياءِ.

سرُّ مجيءِ الجوابِ فعلًا دالًّا على الاستماعِ في قوله: ﴿فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥ﴾:

الاستماعُ أوّلُ درجاتِ سُلَّمِ العلمِ بعد الإخلاصِ

أوَّلُ درجاتِ سُلَّمِ العلمِ - بعد الإخلاصِ - هو السَّماعُ، والمرادُ: فاستمعوا له استماعَ تحقيقٍ وقَبولٍ[1]، لأنَّ القارئَ كالحالبِ، والسّامعَ كالشّارِبِ، فهو أكثرُ فائدةً وثوابًا، وقد رأينا رسولَ اللّه ﷺ يعلِّمُ المسلمين، ويقرأُ لهم، بل يدعو أحسنَ القرّاء ليستمع من رسولِ اللّه ﷺ كما في حديثِ أبيّ، كما نراهُ في هذا الحديثِ يدعو أجودَ القرّاء عبد اللّه بن مسعود[2].

إيثارُ صيغةِ الأمرِ بالاستماعِ لا بالسَّماعِ:

لا تنفعُ القراءةُ حينَ تكونُ الأذنُ سامعةً، والقلبُ في صممٍ

والاسْتِماعُ: الإصْغاءُ، وصيغَةُ الافْتِعالِ دالَّةٌ على المُبالَغَةِ في الفِعْلِ، فهي تدلُّ على تعمُّدِ الاستماعِ، والسَّماعُ ممّا قد يحصلُ عن غيرِ عمدٍ، و"الفرقُ بين السَّمعِ والاستماعِ: أنَّ الأوَّلَ يحصلُ ولو بغيرِ قصدٍ، والثّاني لا يكون إلّا بقصدٍ ونيَّةٍ"[3].

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السليم: 310/3.
(2) موسى لاشين، فتح المنعم شرح صحيح مسلم: 613/3.
(3) الزّحيليّ، التّفسير المنير: 227/9.

نكتةُ إسنادِ الفعلِ إلى واوِ الجماعةِ:

في قوله: ﴿فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ﴾ أُسنِدَ الفعلُ إلى الجماعة؛ للحضِّ على التَّدبُّرِ الجماعيِّ، وتدبُّرِ الاستماعِ والإنصاتِ، ومفادُ ذلك أنَّ ذكرَ الاستماعِ والإنصاتِ لآياتِ القرآن الكريم، يشيرُ إلى أنَّها لا تتجلَّى على تاليها بنورِها الوهّاجِ، ولا تدنّي إليه جناها الدّاني بأروعِ الأحكام وأجمل المعاني، إلّا إذا قدَّرها حقَّ قدرِها، وأحلَّها من قلبه ونفسه المكانة الَّتي تستحقُّها، وتوجَّه إليها بجوارحه وجوانحِه، وأفرغَ ذهنه من كلِّ خاطر وشاغل، وتفرَّغَ لها بالكليَّةِ، فآتته أكلها ضعفين، وانفتحَ له من سرِّها المكنونِ، وعطائها المخبوء بين اليقينِ والتَّأويل والظُّنون، ما يجعله لربِّه آويًا، وفي رحمته ثاويًا، فينالُ مفاتيح الفهومِ، ويرتادُ بها أنفس العلوم، ويحوزُ بها في الدُّنيا سعادة، وفي الأخرى ينالُ بها الحسنى وزيادة.

من أعطى القرآنَ كُلَّهُ؛ أعطاهُ القرآنُ بعضَهُ، ومن أعطاهُ بعضَهُ لم يعطِه شيئًا

دلالةُ عطفِ قولِهِ: ﴿وَأَنصِتُواْ﴾ على الجملةِ الَّتي قبلَهُ:

والإنْصاتُ: الاسْتِماعُ معَ تَرْكِ الكَلامِ، فهذا مُؤَكَّدُ ﴿لَا تَسۡمَعُواْ﴾، معَ زيادَةِ مَعْنًى، وذلك مُقابِلُ قَوْلِهِمْ: ﴿لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ﴾ [فصّلت: 26]، ويَجوزُ أنْ يَكونَ الاسْتِماعُ مُسْتَعْمَلًا في مَعْناهُ المَجازيِّ، وهو الامْتِثالُ لِلْعَمَلِ بما فيهِ كَما تَقَدَّمَ آنِفًا في قَوْلِه: ﴿وَإِن تَدۡعُوهُمۡ إِلَى ٱلۡهُدَىٰ لَا يَسۡمَعُواْۖ﴾ [الأعراف: 198]، ويَكونُ الإنْصاتُ جامِعًا لِمعنى الإصْغاءِ وتَرْكِ اللَّغْوِ[1]، ولعلَّ هذا يفسِّرُ مجيءَ الإنصاتِ بعد الاستماعِ في آيةِ التَّركيبِ، كما يفسِّرُ الاكتفاءَ به في قولِه تعالى: ﴿فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْۖ﴾ [الأحقاف: 29].

الإنْصاتُ جامِعٌ لِمعنى الإصْغاءِ وتَرْكِ الانشغالِ عن القرآنِ

سرُّ تقديمِ الاستماعِ على الإنصاتِ في قوله: ﴿فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ﴾:

راعتِ الآيةُ الكريمةُ ترتيبَ الأفعالِ وفقَ الأحداثِ، فالاسْتِماعُ والإنْصاتُ المَأْمورُ بهما هُما المُؤَدّيانِ بالسّامِعِ إلى النَّظَرِ والاسْتِدْلالِ

الاستماعُ والإنصاتُ مراتبُ بحسبِ مراتبِ المستمعينَ في الإخلاصِ للهِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 239/9.

والاهْتِداءِ بما يَحْتَوي عليه القرآنُ مِنَ الدَّلالَةِ على صدقِ الرَّسول ﷺ المُفْضي إلى الإيمانِ به، ولِما جاءَ به مِن إصْلاحِ النُّفوسِ، فالأمْرُ بالاسْتِماعِ مَقْصودٌ به التَّبْليغُ واسْتِدْعاءُ النَّظَرِ، والعَمَلُ بما فيه، فالاسْتِماعُ والإنْصاتُ مَراتِبُ بحَسَبِ مَراتِبِ المُسْتَمِعينَ[1].

فائدةُ قولِهِ: ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾:

أنَّهُ تَعالَى لَمّا عَظَّمَ شَأْنَ القرآن بقولِه: ﴿هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ﴾ [الأعراف: 203]، أرْدَفَهُ بقَوْلِه: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ جملة الشَّرطِ السّابقة، والرَّجاء هنا حصولُ الفعلِ؛ لأنَّه صادرٌ مِنَ اللّهِ تعالى.

تحقُّقُ الرَّحمةِ وحصولُها، لقارئِ القرآنِ بتدبُّرٍ وإتقانٍ

دلالةُ (لعلَّ) وإيثارُ مجيئِها في قولِهِ: ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾:

وإيرادُ لَعَلَّ هنا للإشعارِ بعزَّةِ منالِ الرَّحمةِ، أي: لتكونوا على رجاءٍ من أن يكرمَكم ربُّكم، ويفعلُ بكم كلَّ ما يفعلُهُ الرّاحمُ مع المرحومِ[2].

اللهُ أرحمُ بعبادِهِ من الأمِّ بولدِها، وهو أرحمُ الرّاحمين

بلاغةُ الخطابِ بين التَّخصيصِ والتَّعميمِ:

قوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾، هذا الخِطابُ شامِلٌ لِلْكُفّارِ على وجْهِ التَّبْليغِ، ولِلْمُسْلِمينَ على وجْهِ الإرْشادِ؛ لِأنَّهُم أرْجَى لِلانْتِفاعِ بهَدْيِه؛ لِأنَّ قَبْلَهُ قَوْلَهُ: ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝٢٠٣﴾ [الأعراف: 203]، ولئن عمَّتْ رحمةُ اللّهِ الكونَ برمَّتِه، ووسعتْ كلَّ شيءٍ، فهي مخصَّصةٌ للأتقياءِ من المؤمنين، كما وردَ في القرآنِ الكريم في قولِه تعالى: ﴿وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ۝١٥٦﴾ [الأعراف: 156]، وقوله أيضًا: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝٥٦﴾ [الأعراف: 56].

رحمةُ اللهِ تطالُ كلَّ شيءٍ، وهي رحمةٌ عامَّةٌ شاملةٌ إلّا من أبى

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 239/9.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 209/8.

إيثارُ ذكْرِ الرَّحمةِ دونَ الفلاحِ أو غيرِه:

اقتضاءُ الرَّحمةِ في موقفِ الإقرارِ والإنكارِ آثرُ وأولى

قولهُ تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾، أي: تفوزونَ بالرَّحمةِ الَّتي هي أقصى ثمراتِه[1]، والمعنى باعتبار السّياقِ: "أصغوا إليه بأسماعكم لتفهموا معانيَهُ، وتتدبَّروا مواعظَهُ، وأنصتوا لقراءتهِ حتَّى تنقضيَ إعظامًا له واحترامًا، لكي تفوزوا بالرَّحمة الَّتي هي أعظمُ ثمراتِه، لا كما يعتمدُهُ كفّارُ قريشٍ من قولهم: ﴿لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْاْ فِيهِ﴾ [فصّلت: 26]"[2]، فهؤلاءِ الكفرةُ الفجرةُ يستحقّونَ العذابَ لا الرَّحمة، إلّا أن يتوبوا إلى اللّهِ، ويسلموا إليه.

سرُّ استعمالِ الفعلِ المضارعِ المبنيِّ للمفعولِ:

الرَّجاءُ في رحمةِ اللهِ من أقوى البواعثِ على تعظيمِ القرآنِ الكريمِ

في قوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ بُني الفعلُ للمفعولِ للعلم بالفاعل؛ فلا راحمَ في الحقيقةِ غيرُهُ، أي: لتكونوا عند من يجهلُ العواقبَ على رجاءٍ من حصولِ الرَّحمةِ ممَّن لا راحمَ سواهُ[3].

دلالةُ الأمرِ بالاستماعِ والإنصاتِ عند قراءةِ القرآن:

الأولى هو الأخذُ بظاهرِ الآيةِ إلّا ما استُثني وفقَ الضَّوابطِ والأصولِ

ظاهرُ النَّظمِ الكريمِ يقتضي وجوبَ الاستماعِ والإنصاتِ عند قراءةِ القرآن في الصَّلاة وغيرِها، وقيل: معناهُ إذا تلا عليكم الرَّسولُ القرآنَ عند نزولِه؛ فاستمعوا له، وجمهورُ الصَّحابة ﷺ على أنَّه في استماعِ المؤتمِّ، وقد روي أنَّهم كانوا يتكلَّمون في الصَّلاة، فأُمروا باستماع قراءةِ الإمامِ والإنصاتِ له، وعن ابنِ عبّاس ﷺ أنَّ النَّبيَّ ﷺ قرأ في المكتوبةِ، وقرأ أصحابُه خلفَهُ، فنزلت[4]. وقد اتّفق عُلماءُ الأُمّةِ على أنّ ظاهِر الآيةِ بمُجرّدِه في صور كثيرة مُؤوّل، فلا يقولُ أحد منهم بأنّهُ يجبُ على كُلِّ مُسلِم - إذا سمِع أحدًا يقرأُ القرآن - أن يشتغِل بالاستِماعِ، ويُنصِت؛ إذ قد يكونُ القارِئُ يقرأُ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 310/3.
(2) القاسميّ، محاسن التّأويل: 245/5.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 307/13.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 310/3.

بمحضَرِ صانِعِ في صنعتِه، فلو وجب عليه الاستِماعُ لأُمِر بتركِ عملِه، ولكِنّهُمُ اختلفوا في محملِ تأويلِها، ولو قالوا: المُرادُ من قوله: ﴿قُرِئَ﴾ قِراءَةٌ خاصَّةٌ، وهيَ أن يَقْرأَهُ الرَّسولُ ﷺ على النّاسِ لِعلْمِ ما فيهِ والعَمَلِ به لِلْكافِرِ والمُسْلِمِ؛ لَكانَ أَحْسَنَ تَأْويلًا[1].

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

القراءةُ والتِّلاوةُ:

(قرأ) تُستعمل للقراءةِ من مكتوبٍ ومن غير مكتوبٍ بصوتٍ وبغير صوتٍ، فإذا عُدّيا بـ (على) فهما بصوتٍ ولا بدَّ في الأصل: "تلا" تستعملُ للقراءةِ من مكتوبٍ بصوتٍ، ويتسامحُ فيها، فتكونُ من غيرِ مكتوبٍ، لكن بصوتٍ، وقد أشارَ أبو هلالٍ إلى أنَّ التِّلاوةَ تكونُ في ما يطولُ، أي: يكثرُ من الكلام، وقال الرّاغبُ: إنَّ التِّلاوةَ أخصُّ من القراءةِ؛ لأنَّ التِّلاوةَ تختصُّ بما يُتْبَع، وقال في هذا السّياق: "فكلُّ تلاوةٍ قراءةٌ، وليس كلُّ قراءةٍ تلاوةً فإنَّه لا يقال: تلوْتُ رقعتكَ، وإنَّما يقال: في القرآنِ في شيءٍ إذا قرأْتَهُ؛ وجبَ عليك اتِّباعُهُ". وقال جبلٌ: إنَّ الأمرَ التبسَ على الإمام، فإنَّ الَّذي منع (تلوتُ رقعتَكَ) هو أنَّ التِّلاوةَ لا تكونُ إلّا بصوتٍ، والرُّقعةَ المُرسلةُ من شخصٍ إلى شخصٍ خاصَّةً، ليس الشَّأنُ فيها أن تقرأ علنًا، فهذا هو الَّذي منعَ لا أنَّ الرُّقعةَ ليست مما يُتْبع[2]. انتهى. وهذا وجهٌ وجيهٌ.

القراءةُ أعمُّ من التِّلاوةِ، وكلُّ تلاوةٍ قراءةٌ، وليس كلُّ قراءةٍ تلاوةً

الاستماعُ والإنصاتُ:

الاستماعُ: هو قصدُ السَّماعِ بُغيةَ فهمِ المسموعِ أو الاستفادةِ منهُ، والإنصاتُ هو: السُّكوتُ للاستماعِ، يقالُ: أنصتُ؛ إذا سكتُّ سكوتَ مستمعٍ، قال الإمام النَّوويُّ: "والاستماعُ: هو شغلُ القلبِ بالاستماعِ والإصغاء للمتكلِّم، والإنصاتُ: هو السُّكوتُ"[3].

الاستماعُ عمليَّةٌ عفويَّةٌ بحاسَّةِ الأذنِ، والإنصاتُ مع تركيزِ العقلِ وانتباهِه

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 240/9، وقد فصَّل الفخر الرّازي الكلام في ذلك، فلينظر: الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 440/15.

(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 63، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (تلو)، و(قرأ).

(3) النّوويّ، المجموع: 395/1.

﴿وَٱذۡكُر رَّبَّكَ فِي نَفۡسِكَ تَضَرُّعٗا وَخِيفَةٗ وَدُونَ ٱلۡجَهۡرِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ ٢٠٥﴾ [الأعراف: 205]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

العلاقةُ بين الدَّعوةِ للاستماعِ والإصغاءِ للقرآنِ، وبين كيفيَّتِها وأدبها

لمّا تقدَّمَ الأمرُ بالذِّكر عند نزغِ الشَّيطانِ، ومرَّ إلى أنّ الأمْرَ بالاستماع لأعظم الذِّكرِ، وكان التّالي ربَّما بالغ في الجهرِ ليكثر سامعه، وربما أسرَّ لئلّا يوجبَ على غيرهِ الإصغاءَ؛ علَّمَهم أدبَ القراءةِ[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تَضَرُّعٗا﴾: التَّضرُّعُ يَدُلُّ على لينٍ في الشَّيْءِ مِن ذلك ضَرَعَ الرَّجُلُ ضَراعَةً؛ إذا ذَلَّ، ورَجُلٌ ضَرَعٌ: ضَعيفٌ، "الضَّرْعُ للبهائِم: كالثَّدْي للمرأة. ويدورُ معنى التَّضرُّعِ حول رخاوةٍ أو رقَّةٍ، مع تَدلٍّ، أي: دُنوٍّ ومقاربة من الحصول في الحيِّز، ومن التَّدلّي والرخاوة المعنوية عُبِّر بالتَّركيب عن التَّذَلُّل[2]. فالتَّضرُّعُ يدورُ حولَ الطَّلبِ بذلٍّ وخضوعٍ واستكانة[3].

2) ﴿وَخِيفَةٗ﴾: يَدُلُّ على الذُّعْرِ والفَزَعِ، والخَيفُ: جِلدُ الضَّرْع حين يَخْلو من اللَّبَن يسترخي، والمعنى المحوريُّ: فراغٌ كبيرٌ في جَوف الشَّيءِ (لذَهابِ ما كان يشغله أو انتقاصِه)، كأنَّ الَّذي يخافُ منخوبُ الفؤادِ[4].

3) ﴿ٱلۡجَهۡرِ﴾: إعْلانُ الشَّيْءِ وكَشْفُهُ وعُلوُّهُ، يُقالُ: جَهَرْتُ بالكَلامِ، أعْلَنْتُ به، ورَجُلٌ جَهيرُ الصَّوْتِ، أيْ: عاليهِ[5].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 209/8.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، اللّسان، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (ضرع).
(3) محمّد عويضة، فصل الخطاب في الزّهد والرّقائق والآداب: 328/7.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، اللّسان، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (خوف).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (جهر).

4) ﴿بِٱلۡغُدُوِّ﴾: أصْلٌ صَحيحٌ يَدُلُّ على زَمانٍ، مِن ذلك الغُدوُّ، يُقالُ غَدا يَغْدو. والغُدْوَةُ والغَداةُ، وجَمْعُ الغُدْوَةِ غُدًى، وجَمْعُ الغَداةِ غَدَواتٌ، والغاديَةُ: سَحابَةٌ تَنْشَأُ صَباحًا، وأفْعَلُ ذلك غَدًا، والأصْلُ غَدْوًا، والغَداءُ: الطَّعامُ بعَيْنِه، سُمّيَ بذلك؛ لِأنَّهُ يُؤْكَلُ في ذلك الزَّمانِ[1].

5) ﴿وَٱلۡأٓصَالِ﴾: جمع (أصيل)، من الجذر اللّغوي: (أصل)، والمعنى المحوريُّ: "امتدادٌ في العمقِ يقومُ عليه الشَّيءُ، ويمتدُّ منه إلى الأعلى، كقاعدتي الجبلِ والحائط لهما، وجذرِ الشَّجرة لها، وتلك الأصلةُ لها قائمةٌ تقوم عليها"[2]، والأصيل ما كانَ مِنَ النَّهارِ بَعْدَ العَشيِّ[3]، باعتبار أنه أوّل دخول زمن اللّيل.

6) ﴿ٱلۡغَٰفِلِينَ﴾: يَدُلُّ على تَرْكِ الشَّيْءِ سَهْوًا، ورُبَّما كانَ عَنْ عَمْدٍ، مِن ذلك: غَفَلْتُ عَنِ الشَّيْءِ غَفْلَةً وغُفولًا، وذلك إذا تركتُهُ ساهيًا، وأغْفَلْتُهُ، إذا تركتُهُ على ذِكْرٍ مِنكَ لَهُ، ويَقولونَ لِكُلِّ ما لا مَعْلَمَ لَهُ: غُفْلٌ، الخلو مما يَلفتُ وينبِّهُ أو يدلُّ: كالأرضِ السَّبْسبِ والموات والإبلِ والبلاد المذكورةِ، ومنه "غَفَل عن الشَّيء (قعد)، وأغفلَهُ: تركَهُ، وسها عنه"[4].

المَعْنى الإجْماليُّ:

يَأْمُرُ اللّهُ تَعالَى عِبادَهُ بذِكْرِه كَثيرًا في أوَّلِ النَّهارِ وفي آخِرِه، كَما أمَرَ عِبادَه بعِبادَتِه في هَذينِ الوَقْتَينِ، وكانَ ذلك قَبْلَ أنْ تُفْرَضَ الصَّلَواتُ الخَمْسُ لَيْلَةَ الإسْراءِ، ويَأْمُرُ اللّهُ بأنْ يَكونَ الذِّكْرُ في النَّفْسِ رَغْبَةً ورَهْبَةً، وبالقَوْلِ خُفْيَةً وسِرًّا، لا جَهْرًا، ولِذلك يُسْتَحَبُّ أنْ يَكونَ

أمـرَ بـذكـرِ اللهِ في الأنفسِ بكرةً وعشيًّا، خشيةً وتضرُّعًا للهِ

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (غدو).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (أصل).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (أصل).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، اللّسان، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (غفل).

الذِّكْرُ خَفيًّا لا نِداءً ولا جَهْرًا بَليغًا، وبأَلّا يَكونَ الإنْسانُ غافِلًا عَنْ ذِكْرِ اللّهِ، وأنْ يَسْتَشْعِرَ قَلْبُهُ الخُضوعَ لَهُ، والخَوْفَ مِن قُدْرَتِه[1].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ الواوِ وتوجيه الخطاب في قولِهِ: ﴿وَٱذۡكُر رَّبَّكَ﴾:

الخطابُ للنَّبيِّ المرسلِ، ويجوزُ أن يكونَ لكلِّ مخاطبٍ بهذا القرآنِ

في قوله: ﴿وَٱذۡكُر رَّبَّكَ فِي نَفۡسِكَ﴾، الواو عاطفةٌ على ﴿قُلۡ﴾ في الآياتِ السّابقات، أو تجريدٌ للخطابِ إلى رسولِ اللّه ﷺ[2]، وفي الآية إقْبالٌ بالخِطابِ على النَّبيِّ ﷺ فيما يَخْتَصُّ به، بَعْدَ أنْ أُمِرَ بما أُمِرَ بتَبْليغِه مِنَ الآياتِ المُتَقَدِّمَةِ، والمُناسَبَةُ في هذا الانْتِقالِ أنَّ أمْرَ النّاسِ باسْتِماعِ القرآنِ، يَسْتَلْزِمُ أمْرَ الرَّسولِ ﷺ بقِراءَةِ القرآنِ عليهم قِراءَةً جَهْرِيَّةً يَسْمَعونَها، فلَمّا فرَغَ الكَلامُ مِن حَظِّ النّاسِ نحو قِراءَةِ الرَّسولِ ﷺ أقْبَلَ على الكَلامِ في حَظِّ الرَّسولِ ﷺ مِنَ القرآنِ وغَيْرِه، وهو التَّذَكُّرُ الخاصُّ به، فأُمِرَ بأنْ يَذْكُرَ اللّه ما اسْتَطاعَ، وكَيْفَما تَسَنَّى لَهُ، وفي أوقاتِ النَّهارِ المُخْتَلِفَةِ، فجُمْلَةُ ﴿وَٱذۡكُر رَّبَّكَ﴾ مَعْطوفَةٌ على الجُمَلِ السّابِقَةِ مِن قَوْلِه: ﴿إِنَّ وَلِيِّۦَ ٱللَّهُ﴾ [الأعراف: 196] إلى هُنا[3].

سرُّ الأمرِ بالذِّكرِ دونَ غيرِهِ:

الانتقالُ من الذِّكرِ السَّماعيِّ إلى الذِّكْرِ باللِّسانِ والجنانِ والأركانِ

في قوله تعالى: ﴿وَٱذۡكُر رَّبَّكَ فِي نَفۡسِكَ﴾، السِّرُّ في الأمرِ بالذِّكرِ دونَ غيرِهِ أنَّه انتقالٌ من ذكرِ الاستماعِ والإنصاتِ إلى أعظمِ الذِّكرِ وهو القرآنُ الكريمُ، إلى ذكرِ اللِّسان والجنان والأركان، وبهذا يحتمي الذّاكِرُ بالمذكور، فلا تعتريه الغفلةُ، ولا يقربهُ الشَّيطان.

إيثارُ ذكرِ (الرَّبِّ)، والعدولِ عن اسمِ الجلالةِ:

في قوله تعالى: ﴿وَٱذۡكُر رَّبَّكَ﴾ أوثِرَ ذكرِ (الرَّبِّ) تذكيرًا بعطاءِ الرُّبوبيَّةِ، وفيهِ بيانٌ لطريق الاتِّباع، ومعونةُ اللّه لعبدِهِ عند ما يسلك

(1) حومد، أيسر التّفاسير، ص: 1160.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 210/9.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 241/9.

سبيله؛ حيثُ أمرَهُ – قبل ذلك – أن يقول لهم: ﴿إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ مِن رَّبِّي ۚ هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمۡ﴾، ثمَّ بيَّن له طريقَ الثَّباتِ عليهِ، فقال: ﴿وَٱذۡكُر رَّبَّكَ﴾، وكُلُّ ذلك يَدُلُّ على نِهايَةِ الرَّحْمَةِ والتَّقْريبِ والفَضْلِ والإحْسانِ، والمَقْصودُ منه: أنْ يَصيرَ العَبْدُ فرحًا مبتهجًا عند سَماعِ هذا الاسْمِ؛ لِأنَّ لَفْظَ الرَّبِّ مُشْعِرٌ بالتَّرْبيَةِ والفَضْلِ[1].

التَّذكيرُ بعطاءِ الرُّبوبيَّةِ، وفيه بيانٌ لطريقِ الاتِّباعِ المتوخَّى

فائدةُ إضافةِ (ربّ) إلى ضميرِ المخاطبِ في قوله: ﴿وَٱذۡكُر رَّبَّكَ﴾:

في ذكر الربّ سبحانَه ملاطفةٌ بالمخاطَبِ، ويدخلُ فيهِ الرَّسولُ ﷺ دخولًا أوَّليًّا، كما أنَّ في الإضافة إعلامًا بأنَّ جودَ المذكور سابقٌ على سؤالِ الذّاكرِ، وربوبيَّةُ اللّه كرمٌ فيّاض، وإنعام سخيٌّ مفضالٌ، ولذلك جاءت إضافتُهُ بوصف الرُّبوبيَّةِ إلى ضمير الخطابِ لأجل ذلك.

اللهُ (ﷻ) أكرمُ، وجودُهُ أسبقُ، وعطاؤهُ أنعمُ

علَّةُ اختيارِ (في) الظَّرفيَّة في قوله: ﴿فِي نَفۡسِكَ﴾:

تفيدُ تمكُّن الذِّكر من نفس الذّاكرِ، فكأنَّ خَلْوَتَه الَّتي يَخْلو فيها مع اللّهِ، هو قلبُه، وكيف لا وهو محلُّ نظرِ الرَّبِّ جلَّ وعلا؟ قال ابن عبّاس: يعني بالذِّكر: القراءةَ في الصَّلاة يريد يقرأ سرًّا في نفسه في صلاةِ السِّرِّ[2]، وما يكونُ في النَّفس، يكونُ أقرب إلى الخشوعِ، وأدلَّ على الخشيةِ، وتمحيض النِّيَّة للّهِ تعالى دون سواهُ.

الذِّكرُ في النَّفس دليلٌ على أنَّ اللهَ قريبٌ من العبدِ، وأنَّهُ يسمعُ سرَّهُ ونجواه

إيثارُ التَّعبيرِ بقولِهِ: ﴿نَفۡسِكَ﴾ دونَ (قلبِكَ):

في التَّعبيرِ بالنَّفسِ دونَ القلبِ، إشارةٌ إلى عملِ اللِّسانِ والأركانِ بعد ذكرِ الجَنان؛ فالنَّفْس مجموعُ الرّوحِ والجسدِ معًا، فالنَّفسُ: الدَّمُ، سالتْ نَفْسُه، دَفَقَ نَفْسه، أي: دمه[3]، كما أنَّ نفاسةَ الإنسانِ تحصلُ له بذكرِهِ لربِّه، والنّاس معادنُ، من حيثُ اختلافُ جواهرِها نفاسةً وخساسةً.

الإشارةُ إلى مشاركةِ الإنسانِ بكيانِهِ الدّاخليِّ المثَّلِ بالنَّفسِ

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 442/15.
(2) المظهريّ، التّفسير المظهريّ: 452/3.
(3) ابن منظور، لسان العرب: (نفس).

فائدةُ إضافةِ النَّفسِ إلى ضميرِ المخاطبِ:

مَن اتَّصلت نفسُهُ بذكرِ اللهِ؛ صفا قلبُهُ، ودنا من عفوِ ربِّه

قوله: ﴿فِي نَفْسِكَ﴾، في إضافةِ النَّفس إلى ضميرِ المخاطبِ إيماءٌ إلى يُسرِ التَّكليفِ بالذِّكرِ في النَّفسِ، فهو في وُسعِه، وإذا أرادَ الإنسانُ أن يفعلَهُ فما عليه إلّا ترويضُ روضاتِ نفسِه بكثرةِ ذكرِ ربِّه، والنَّفس إذا ألفت الذِّكرَ؛ صار ديدنًا لها وطبيعةً وذوقًا، لا راحةَ لها إلّا به، ولا سعادةَ لها إلّا في أكنافِه، فيكون غذاءَها الرّوحيَّ الدّائمَ في كلِّ حالٍ، وفي كلِّ زمانٍ، وينعكسُ ذلك على الحواسِّ كلِّها، فيكونُ ذكرُ اللِّسان الدُّعاءَ، وذكرُ العينين البكاءَ، وذكرُ الأذنين الإصغاءَ، وذكرُ القلبِ الخوفَ والرَّجاءَ، وقد قال الشّاعرُ أبوبكر الشِّبليُّ:

ذَكَرْتُكَ لا أنّي نَسيتُكَ لَحْظَةً *** وأيْسَرُ ما في الذِّكرِ ذِكْرُ لِساني

العدولُ عن التَّعبيرِ بـ (سرًّا) إلى قولِهِ: ﴿فِي نَفْسِكَ﴾:

الذِّكرُ في النَّفسِ أقْرَبُ إلى الإخْلاصِ، وأبعدُ عن مراءاةِ النّاس

﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ﴾ والمُرادُ بذِكْرِ اللّه في نَفْسِه، كَوْنُهُ عارِفًا بمَعاني الأذْكارِ الَّتي يَقولُها بلِسانِه، مُسْتَحْضِرًا لِصفاتِ الكَمالِ والعِزِّ والعُلوِّ والجَلالِ والعَظَمَةِ، وذلك لِأنَّ الذِّكْرَ باللِّسانِ إذا كانَ عاريًا عَنِ الذِّكْرِ بالقَلْبِ كانَ عَديمَ الفائِدَةِ[1]، ولَمّا كان الذِّكرُ سرًّا قد يوهمُ اعتراءَ الغفلةِ؛ عدلَ عنهُ إلى قولِه: ﴿فِي نَفْسِكَ﴾، والفائِدَةُ فيهِ: أنَّ انْتِفاعَ الإنْسانِ بالذِّكْرِ إنَّما يَكْمُلُ إذا وقَعَ الذِّكْرُ بهذه الصِّفَةِ، لِأنَّهُ بهذا الشَّرْطِ أقْرَبُ إلى الإخْلاصِ والتَّضَرُّعِ.

دلالةُ قولِهِ: ﴿تَضَرُّعًا﴾:

شرطُ الذِّكرِ أن يكونَ تخشُّعًا وتضرُّعًا لله العليِّ الأعلى

أي: افعل ذلك تخشُّعًا للّهِ وتواضعًا له[2]، والتَّضرُّعُ تفعُّلٌ من الضَّراعةِ، وهو الذُّلُّ، أي: تذلُّلًا وتملُّقًا[3]، وهو حالٌ من الضَّميرِ

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 442/15.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 353/13.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 110/2.

المستتر في ﴿وَٱذۡكُر﴾، أي: اذكره ذا تضرُّعٍ، أو بتأويل اسم الفاعل، أي: اذكره مُتَضَرِّعًا متذلِّلًا له وخائفًا منه سبحانه .

إيثارُ صيغةِ التَّفعُّلِ دونَ الفَعالةِ في قوله: ﴿تَضَرُّعًا﴾:

التَّرقّي في التَّذلُّلِ للهِ تعالى، والتَّدرُّج مدارجَ السّالكين، سبيلُ القربِ منه

ويجيءُ مصدرُ تَفَعَّلْتُ على التَّفَعُّلِ، يقولون: تَقَوَّلْتُ تَقَوُّلًا[1]، والعدول عن الضَّراعة إلى التَّضرُّع؛ لما في التَّفعُّل من التَّرقّي في التَّذلُّل للهِ تعالى والتَّدرُّج من منزلةٍ إلى أخرى، هي أسمى منها، فقد قال ﷺ: يقولُ اللّه ﷻ: "من تواضع لي هكذا، وجعل يزيدُ باطنَ كفِّه إلى الأرض، وأدناها إلى الأرضِ، رفعتُه هكذا، وجعلَ باطنَ كفِّه إلى السَّماء ورفعها نحو السَّماءِ"[2].

نكتةُ عطفِ قولِهِ: ﴿وَخِيفَةً﴾ على قوله: ﴿تَضَرُّعًا﴾:

الجمعُ بين رفعِ الصَّوت تضرُّعًا، وخفْضِ الصَّوتِ خشْيةً وتعظيمًا

﴿وَخِيفَةً﴾: وخوفًا مِنَ اللّهِ أن يعاقبَكَ على تقصيرٍ يكون منك في الاتِّعاظ به والاعتبار[3]، وعطف قولَهُ: ﴿وَخِيفَةً﴾، على قوله: ﴿تَضَرُّعًا﴾، للدَّلالة على أنَّه كَنَّى بالتَّضَرُّعِ عَنْ رَفْعِ الصَّوْتِ، مُرادًا به مَعْناهُ الأَصْليُّ والكِنائيُّ، وذلك لأنَّ التَّذلُّلَ يَسْتَلْزِمُ الخِطابَ بالصَّوْتِ المُرْتَفِع في عادَةِ العَرَبِ[4].

بلاغةُ الطِّباقِ بين: ﴿تَضَرُّعًا وَخِيفَةً﴾:

تنوُّعُ الذِّكرِ والعبادةِ تدفعُ السَّأمَ، وترفعُ الهِمَمَ

قوبِلَ التَّضَرُّعُ هُنا بالخيفَةِ، وهيَ اسْمُ مَصْدَرِ الخَوْفِ، فهو مِنَ المَصادِرِ الَّتي جاءَتْ على صيغَةِ الهَيْئَةِ، ولَيْسَ المُرادُ بها الهَيْئَةَ، مِثْلَ الشِّدَّةِ، ولَمّا كانَتِ الخيفَةُ انْفِعالًا نَفْسيًّا يَجِدُهُ الإنْسانُ في خاصَّةِ نَفْسِه؛ كانَتْ مُسْتَلْزِمَةً لِلتَّخافُتِ بالكَلامِ خَشْيَةَ أنْ يَشْعُرَ بالمَرْءِ مَنْ يَخافُهُ، فلِذلك كُنّيَ بها هُنا عَنِ الإسْرارِ بالقَوْلِ معَ الخَوْفِ مِنَ اللّه،

(1) سيبويه، الكتاب: 79/4.
(2) ذكره الهيثمي في مجمع الزّوائد: 82/8، ونسبه لأحمد والبزّار، وقال: "رجال أحمد والبزّار رجال الصّحيح".
(3) ابن جرير، جامع البيان: 353/13.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 241/9.

فمُقابَلَتُها بالتَّضَرُّعِ طِباقٌ في مَعْنَيَي اللَّفْظَيْنِ الصَّريحَيْنِ ومَعْنَيَيْهِما الكِناءَيْنِ، فكَأنَّهُ قيلَ تَضَرُّعًا وإعْلانًا وخيفَةً وإسْرارًا[1].

فائدةُ قولِهِ: ﴿وَدُونَ ٱلْجَهْرِ﴾:

الإشارةُ إلى التَّكلُّمِ بصوتٍ (دونَ الجهرِ)، فإنَّه أقربُ إلى التَّفكُّر

قَوْلُه: ﴿وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ المعنى: أنْ يَذْكُرَ رَبَّهُ على وجْهٍ يُسْمِعُ نَفْسَهُ، فإنَّ المُرادَ حُصولُ الذِّكْرِ اللِّسانيِّ، والذِّكْرُ اللِّسانيُّ إذا كانَ بحَيْثُ يُسْمِعُ نَفْسَهُ، فإنَّهُ يَتَأَثَّرُ الخَيالُ مِن ذلك الذِّكْرِ، وتَأَثُّرُ الخَيالِ يوجِبُ قوَّةً في الذِّكْرِ القَلْبيِّ الرّوحانيِّ، ولا يَزالُ يَتَقَوَّى كُلُّ واحِدٍ مِن هذه الأرْكانِ الثَّلاثَةِ، وتَنْعَكِسُ أنْوارُ هذه الأذْكارِ مِن بَعْضِها إلى بَعْضٍ، وتَصيرُ هذه الانْعِكاساتُ سَبَبًا لِمَزيدِ القوَّةِ والجَلاءِ والانْكِشافِ والتَّرَقّي مِن حَضيضِ ظُلُماتِ عالَمِ الأجْسامِ إلى أنْوارِ مُدَبِّرِ النّورِ والظَّلامِ[2] - أي: ومتكلِّمًا دونَ الجهرِ، فإنَّهُ أقربُ إلى حسنِ التَّفكُّرِ[3].

العدولُ عن التَّعبيرِ بـ(الهمس) إلى قوله: ﴿وَدُونَ ٱلْجَهْرِ﴾:

الهمْسُ لا صوتَ فيهِ، والمرادُ هنا الصَّوتُ الضَّعيفُ

في قولِهِ: ﴿وَدُونَ ٱلْجَهْرِ﴾ ثمَّةَ صوتٌ ضعيفٌ، وفي الهمسِ لا يوجد صوتٌ مسموعٌ، وذلك من حيثُ إنَّ الصَّوتَ يجري في الفم إذا كان موجودًا، وفي الهمسِ لا أصواتَ، كما قال تعالى: ﴿وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴿١٠٨﴾﴾ [طه: 108][4].

فائدةُ قولِهِ: ﴿مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾:

تنويعُ الذِّكرِ يكونُ أنشطَ للنَّفسِ، وأدعى لعلوِّ الهمّةِ

وفائدة مفهوم قوله تعالى: ﴿مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾؛ ليعمَّ القرآنَ وغيرَه من أنواعِ الذِّكرِ، وفي ذلك تخفيفٌ وتنشيط وحضٌّ على المداومةِ في الذِّكر، والانتقالُ من نوعٍ إلى آخرَ يدفع الملَلَ، ويناسبُ أحوالَ العبدِ، فقد يكونُ أنشطَ في ذكرٍ منه إلى آخرَ.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 241/9.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 444/15.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 310/3.
(4) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (همس).

بيانُ متعلَّق قولِهِ: ﴿مِنَ ٱلۡقَوۡلِ﴾، وفائدتُه:

﴿مِنَ ٱلۡقَوۡلِ﴾ جارٌّ ومجرور متعلِّقٌ بحالٍ من الجهر - أي: دونَ الجهرِ كائنًا من القول[1]، وفائدته: تخيُّرُ أولى الأقوالِ من الذِّكر، وأكثرها ثوابًا، وأنسبُها حالًا، فالقول وإن كان أعمَّ الألفاظِ الدّالَّةِ على الكلام، ولكنَّهُ يُرادُ به القولُ الخاصُّ بالذِّكر.

الذِّكرُ المأثورُ آثرُ عندَ اللهِ، وأدقُّ دلالةً في التَّعبيرِ والبيان

المرادُ بقولِهِ: ﴿بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ﴾:

أي: بالبُكَرِ والعشيّاتِ[2]، والآصال جائزٌ أن يكونَ جمع (أصيل) و(أصُل)؛ لأنَّهما قد يجمعان على أفعالٍ، وأمّا (الآصال)؛ فهي فيما يقالُ في كلامِ العربِ: ما بين العصرِ إلى المغربِ[3]، و"المراد بالغدوِّ والآصال، ليس هو قصرُ ذكرِ اللهِ في هذينِ الوقتين، وإنَّما المرادُ هو شغلُ القلبِ واللِّسانِ بذكرِ اللهِ، ذكرًا دائمًا متجدِّدًا، بحيثُ يُخْلي الإنسانُ نفسَهُ من الشَّواغلِ ما استطاع إلى ذلك سبيلًا، ليكونَ بينَهُ وبينَ اللهِ تلك اللقاءات المسعدة الَّتي يجدِّدُ فيها إيمانَهُ، ويقوّي بها صلتَهُ بخالقه"[4].

الذِّكرُ بكرةً وعشيًّا يجدِّدُ المعينَ، ويربطُ الذّاكرَ بربِّ العالمين

إيثارُ ذكرِ هذينِ الوقتينِ ﴿بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ﴾ دونَ غيرِهما:

وخُصَّ هذان الوقتانِ بالذِّكر؛ لأنَّ الظِّلالَ إنَّما تعظمُ وتكثُر فيهما[5]؛ لأنَّهما طرفا النَّهارِ، ومن افتتح نهارَهُ بذكرِ اللهِ واختتمَهُ به، كان جديرًا برعاية ربِّه، ولأنَّهما وقتُ سكونٍ ودعةٍ وتعبُّدٍ واجتهادٍ، وما بينهما من أوقاتٍ الغالبُ فيها الانقطاعُ لأمرِ المعاش[6].

الأوقاتُ الفاضلةُ، فرصٌ لاستثمارِ الحسناتِ الحاصلةِ

بلاغةُ التَّرقّي في الذِّكْرِ:

حيثُ ذكرَ قيودًا مرتَّبةً تدعو إلى التَّدبُّرِ؛ فبدأ بالإخلاصِ في

ذكرُ اللهِ بالقلبِ واللِّسانِ والأعضاء ولكلٍّ أوقاتٌ وأحوالٌ

(1) صافي، الجدول: 164/5.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 354/13.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 354/13.
(4) عبد الكريم الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 554/5.
(5) الآلوسيّ، روح المعاني: 127/13.
(6) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 463/5.

قوله: ﴿فِي نَفْسِكَ﴾؛ لأنَّهُ أقربُ إلى الإجابة، وأبعدُ من الرّياء، ثمَّ ذكر ما ينبغي أن يكونَ عليه حالُ الذّاكر، وهو قوله: ﴿تَضَرُّعًا وَخِيفَةً﴾، ثمَّ بيَّنَ أن يكونَ باللِّسان لا بالقلبِ وحدَهُ؛ وسطًا في درجةِ الصَّوتِ؛ حتَّى يكونَ أقربَ إلى التَّفكُّر، وهو قوله: ﴿وَدُونَ ٱلْجَهْرِ﴾[1]، وفي الصَّحيحين عن أبي موسى الأشعريِّ، قال: رفع النّاسُ أصواتَهم بالدُّعاء في بعضِ الأسفار، فقال لهم النَّبيُّ ﷺ: «يا أيُّها النّاسُ: أربعوا على أنفسِكم - أي: هوِّنوا على أنفسِكم - فإنَّكم لا تدعون أصمَّ ولا غائبًا، إنَّ الَّذي تدعونَهُ سميعٌ قريبٌ، أقربُ إلى أحدِكم من عنقِ راحلتِه»[2]، ثمَّ ذكرَ أخصَّ الأوقاتِ وأفضلها، وهو قوله: ﴿بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ﴾.

دلالةُ الواوِ في قوله: ﴿وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾:

عاطفةُ جملةِ النَّهي في قولِه: ﴿وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾ على فعلِ الأمرِ بالذِّكر في قوله: ﴿وَٱذْكُر﴾؛ لما بين النَّهي عن الغفلةِ والأمرِ بالذِّكر من علاقةٍ وُثْقى؛ إذ إنَّ النَّهي عن الغفلةِ مطلوبةٌ للذّاكرِ، حتَّى يستمرَّ في ذكرِه، ويرْقى به، وللغافلِ حتَّى ينتبهَ، فيذكُر.

عاطفةُ النَّهي عن الغفلةِ على الأمرِ بالذِّكرِ؛ لأنَّهما متكاملانِ

بلاغةُ وقوعِ النَّهي عن الغفلةِ بعد الأمرِ بالذِّكرِ:

لقد نهى تعالى عن الغفلةِ عن ذكرِه بقولِه: ﴿وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾ أي: من الَّذين يغفلون عن ذكرِ اللّه، ويلهونَ عنه، وفيه إشعارٌ بطلبِ دوامِ ذكره تعالى، واستحضارِ عظمتِه وجلاله وكبريائِه، بقدرِ الطّاقة البشريَّة[3].

الغفلةُ عن الذِّكرِ قسوةٌ في القلبِ، وفتورٌ في الهمَّةِ

دلالةُ الخطابِ في قولِه: ﴿وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾:

خطابٌ للنَّبيِّ ﷺ، والمرادُ عامٌّ، أو المعنى: واذكر ربَّك أيُّها

خوطبَ النَّبيُّ ﷺ، فخوطبتْ فيه أمَّتُهُ

(1) القاسميّ، محاسن التّأويل: 248/5.
(2) أخرجه البخاريّ، برقم: (1423)، ومسلم، برقم: (44 - 47).
(3) القاسميّ، محاسن التّأويل: 248/5.

الإنسانُ، والأوَّل أظهرُ، لأنَّ ما خوطبَ بهِ النَّبيّ ﷺ ولم يكن من خصائصهِ، فإنَّهُ مشروعٌ لأُمَّتِه[1].

فائدةُ دخولِ (لا) على (تكن):

المبالغةُ في النَّهْي عن الغفلةِ، من أساليبِ تربيَةِ النُّفوسِ

النَّهي عن الكونِ من الغافلين أبلغُ من النَّهي عن الغفلةِ، فقولُهُ: ﴿وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾ أشَدُّ في الانْتِفاءِ، وفي النَّهْيِ مِن نَحْوِ: ولا تَغْفُلْ؛ لِأنَّهُ يَفْرِضُ جَماعَةً يَحِقُّ عليهم وصْفُ الغافِلينَ، فيُحَذَّرُ مِن أنْ يَكونَ في زُمْرَتِهم وذلك أبْيَنُ لِلْحالَةِ المنْهي عَنْها[2]، وهذا أبلغُ من (ولا تكن غافلًا)؛ لأنَّ معناهُ النَّهي عن وجودِهِ من جملتِهم وإن لم يكن غافلًا.

إيثارُ لفظِ ﴿ٱلْغَٰفِلِينَ﴾ في الآية:

يقظةُ القلبِ حَياةٌ، لا تُدْرِكُها العِباراتُ، ولا تنالُها التَّوَهُّماتُ

وإيثارُ لفظِ ﴿ٱلْغَٰفِلِينَ﴾؛ لأنَّ الذّاكر إنْ كانَ في الذّاكِرينَ؛ لَم يُكْتَبْ مِنَ الغافِلينَ، وإنْ كانَ في الغافِلينَ كُتِبَ في الذّاكِرينَ؛ لِأنَّهُ يَذْكُرُ حينَ لا يَذْكُرونَ، ولا يَغْفُلُ حينَ يَذْكُرونَ، زَهادَتُهُ فيما يَنْفَدُ، ورَغْبَتُهُ فيما يَخْلُدُ، فيَصْمُتُ ليَسْلَمَ، ويَخْلو ليَغْنَمَ، ويَنْطِقُ ليُفْهِمَ، ويُخالِطُ ليَعْلَمَ، ولا يَنْصِبُ لِلْخَيْرِ وهو يَسْهو، ولا يَسْتَمِعُ لَهُ، وهو يَلْغو، مَجالِسُ الذِّكْرِ معَ الفُقَراءِ أحَبُّ إليه مِن مَجالِسِ اللَّغْوِ معَ الأغْنياءِ[3].

بلاغةُ الطِّباقِ بينَ (الذِّكر والغفلة):

فنُّ الطِّباقِ من المحسِّناتِ البديعيَّةِ المرصَّعةِ للجملةِ

يُظهر لفظُ ﴿ٱلْغَٰفِلِينَ﴾ الواقعُ في حيِّز النَّهي في ختامِ الآيةِ دلالةَ لفظِ (الذِّكْر) المأمورِ به في صدرها، وهو ضدُّ الغفلةِ. كما أنَّ فيهِ ضَرْبًا مِن رَدِّ العَجُزِ على الصَّدْرِ، من حيثُ المعنى؛ إذِ افْتُتِحَتِ الآية بالأمرِ بالذِّكْر، وخُتِمَتْ بالنَّهي عن الغفلة.

(1) القاسميّ، محاسن التّأويل: 248/5.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 242/9.
(3) ابن المبارك، الزّهد والرّقائق، ص: 333.

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

النَّفسُ والرّوحُ:

لفظُ النَّفسِ مشتركٌ، بين الرّوحِ والذّاتِ، والرّوح من أمرِ اللهِ

معلومٌ من نصوصِ الكتابِ والسُّنَّةِ أنَّ النَّفسَ تموت، والرّوح لا تموت، وأنَّها من أمر اللّه. ولفظُ النَّفسِ مشتركٌ، يقع على الرّوحِ وعلى الذّاتِ، ويكون توكيدًا، يقال: خرجتْ نفسُه، أي: روحه، وجاءني زيدٌ نفسُه، بمعنى التَّوكيد، والنَّفس الَّتي تستعدُّ بمعنى الذّات ما يصحُّ أن تدلَّ على الشَّيء من وجهٍ يختصُّ به دونَ غيرِه، وإذا قلت: هو لنفسهِ على صفةِ كذا، فقد دللتُ عليهِ من وجهٍ، يختصُّ به دون ما يخالفُهُ، ويعبَّر بالنَّفس عن المعلومِ في قولهِم: قد صحَّ ذلك في نفسي، أي: قد صار في جملةِ ما أعلمَهُ، ولا يقال: صحَّ في ذاتي[1]، وقد تطلقُ الرّوحُ على الهواءِ الخارجِ من البدن والدّاخلِ فيه، والبخارِ الخارجِ من القلبِ، كما قال ابن تيميَّة[2]، وقال ابن القيِّم: "مذهبُ جمهورِ العلماءِ: أنَّ النَّفسَ والرّوحَ مسمّاهما واحدٌ، وأنَّ الفرق بين النَّفس والرّوح فرقٌ بالصِّفات لا بالذّات، وأنَّ الرّوحَ جسم نورانيٌّ خفيف، يسري في الأعضاء سريانَ الماءِ في العود، والدُّهنِ في الزَّيتونِ، فإذا فارقها وانفصلَ عنها إلى عالمِ الأرواح؛ فسدت تلك الأعضاءُ"[3].

الغدوُّ والإصباحُ:

الغدوُّ: النِّصفُ الأوَّلُ من النَّهارِ، والإصباحُ: أوَّل ما يبدو من النَّهارِ بعدَ الفجرِ

الذَّهابُ غدوةً (أوَّلُ النَّهارِ) ثمَّ كثرَ حتَّى استعملَ في الذَّهابِ والانطلاقِ أيَّ وقتٍ كان[4]، والإصباحُ يَعْني: (إضاءَةَ الفَجْرِ)[5]، وهو مصدرُ أصبحْنا إصباحًا، والإصباحُ صُبْحُ كلِّ يومٍ بمجموعٍ[6].

(1) العسكريّ، معجم الفروق اللّغويّة، ص: 519.
(2) ابن تيميّة، الفتاوى: 282/9.
(3) للاستزادة: ابن قيّم الجوزيّة، في كتابه الرّوح.
(4) الفيروزآباديّ، تاج العروس: (غدو).
(5) مجاهد، تفسير مجاهد: 326.
(6) الفرّاء، معاني القرآن: 346/1.

الأصيلُ واللَّيلُ:

الأصيلُ: الوقتُ ما بينَ العصرِ إلى اللَّيلِ، واللَّيلُ: امتدادُ الظَّلامِ إلى الفجرِ

المُراعى في تسميةِ الأصيلِ الوقتُ الممتدُّ من العصرِ إلى العشاءِ الأولى، والمُراعى في تسميةِ اللَّيل هو طبيعةُ الظَّلام، فالأصيلُ: الوقتُ ما بينَ العصرِ إلى اللَّيلِ[1]، والمعنى المحوريُّ: امتدادٌ في العمقِ يقومُ عليه الشَّيءُ، ويمتدُّ منه إلى الأعلى، كقاعدتي الجبلِ والحائط لهما، وجذرِ الشَّجرة لها، وتلك الأصلةُ لها قائمةٌ تقوم عليها، والأصيل: العَشيُّ من العصر إلى المغرب "باعتبار أنَّهُ أوَّل دخول زمن اللَّيلِ، واللَّيلُ: يعبَّرُ به عَنِ الظَّلامِ، ليلةٌ لَيّلاءُ وليلٌ أَلْيَلُ: شديدُ الظُّلمةِ"[2]، والمعنى المحوريُّ للَّيل: أنَّه حجابٌ لطيفٌ (غير مجسَّم) لكنَّه كثيفٌ يلُفُّ الأشياءَ متميِّزًا عنها عالقًا في الأفق، أي: إنَّ طبيعةَ الظَّلامِ مع عمومِه هو الملحظُ في تسميةِ اللَّيلِ بدليلِ مقابلته بالضّياء في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ﴾ [القصص: 71]. وكما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ۝١٠﴾ [النّبأ: 10][3].

(1) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 351، وابن جرير، جامع البيان: 405/16.

(2) ابن منظور، لسان العرب: (ليل).

(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (أصل) و(ليل).

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسۡجُدُونَ ۩ ٢٠٦﴾ [الأعراف: 206]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

المناسبةُ بين الدَّعوةِ للذِّكرِ ونبذِ الغفلةِ، وبينَ بيانِ حالِ الملائكةِ في كمالِ الذِّكرِ

لَمّا أمرَ بالذِّكرِ في الآيةِ السّابقةِ، والمواظبةِ عليه، وحذَّرَ من الغفلةِ عنهُ؛ بيَّنَ في ختامِ السّورة أنَّ دوامَ الذِّكر بتمامِ الخضوعِ، وكاملِ الخشوعِ والإخباتِ من شأنِ الملائكةِ المقرَّبين، فقالَ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ﴾.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَسۡتَكۡبِرُونَ﴾: من الكِبْرِ، ومِنَ البابِ الكِبَرُ، وهو الهَرَمُ، خِلاف الصِّغَرِ، يُقالُ: هو كَبيرٌ، وكُبارٌ، وكُبّارٌ، قالَ اللّه تَعالَى: ﴿وَمَكَرُواْ مَكۡرٗا كُبَّارٗا ٢٢﴾ [نوح: 22]، والكِبْرُ: مُعْظَمُ الأمْرِ، قَوْلُهُ عَزَّ وعَلا: ﴿وَٱلَّذِي تَوَلَّىٰ كِبۡرَهُۥ﴾ [النور: 11]، أيْ: مُعْظَمَ أمْرِه، ويَقولونَ: كِبْرُ سياسَةِ القَوْمِ في المالِ، فأمّا الكُبْرُ بضَمِّ الكافِ؛ فهو القُعْدُدُ، يُقالُ: الوَلاءُ لِلْكُبْرِ، والكِبْرُ: العَظَمَةُ[1]، والتَّكبُّر هو: التَّعالي على اللّه سبحانه، وهذا كفرٌ باللّه، أو على رسوله، وهذا كفرٌ بالرَّسول، أو على المؤمنين، وهذا هو التكبُّر المألوف بين المسلمين الذين لم يهذِّبوا أنفسَهم، وهي معصيةٌ عظيمةٌ.

2) ﴿وَيُسَبِّحُونَهُۥ﴾: من التَّسْبيح، وهو تَنْزيهُ اللّه جَلَّ ثَناؤُهُ مِن كُلِّ سوءٍ، والتَّنْزيهُ: التَّبْعيدُ، والعَرَبُ تَقولُ: سُبْحانَ مِن كَذا، أيْ: ما أبْعَدَهُ. والمعنى المحوريُّ: مخالطةٌ بتمدُّدٍ لما شأنه أن يَغمر - مع عدم الانغمارِ فيه، كهيئة السّابح يمتدُّ بدنًا وسعيًا فوق الماءِ دون أن ينغمرَ، والمعنى الذي ذكرناه يؤخذُ منه التَّعجُّب لغرابة عدم الانغمارِ

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، اللّسان، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (كبر).

رغم مخالطةِ ما يغمر، وكذلك يؤخذ منه التَّنزيه، من الانبساطِ فوق الماءِ ونحوه دون الانغماسِ فيه، أي من الفَوْقيَّة والعُلوِّ - كما يقال: "تعالى اللّه"، ومن عدمِ الانغماسِ[1].

3) ﴿يَسْجُدُونَ﴾: من السُّجود، وهو يَدُلُّ على تَطامُنٍ وذُلٍّ، يُقالُ: سَجَدَ؛ إذا تَطامَنَ، وكُلُّ ما ذَلَّ؛ فقد سَجَدَ[2].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

الملائكةُ المقرَّبونَ لا يعصونَ اللهَ، بل يسبِّحونَهُ ويعبدونَهُ

إنَّ الَّذين عند ربِّك من الملائكةِ لا يستكبرونَ عن عبادةِ اللّه، بل ينقادون لأوامرِهِ، ويسبِّحونه باللَّيل والنَّهار، وينزِّهونَهُ عمّا لا يليقُ به، وله وحدَه - لا شريك له - يسجدون[3].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

علَّةُ فصلِ قولِهِ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ﴾ عمّا قبلَهُ:

تعليلٌ لما مضى من أمرِ العباد بالذِّكْرِ ببيان أنَّ الملائكةَ يفعلون ذلك

تَتَنَزَّلُ مَنْزِلَةَ العِلَّةِ لِلْأَمْرِ بالذِّكْرِ، ولِذلك صُدِّرَتْ بـ (إنَّ) الَّتي هيَ لِمُجَرَّدِ الاهْتِمامِ بالخَبَرِ، لا لِرَدِّ تَرَدُّدٍ أو إنْكارٍ؛ لِأنَّ المُخاطَبَ مُنَزَّهٌ عَنْ أنْ يَتَرَدَّدَ في خَبَرِ اللّه تَعالَى، فحَرْفُ التَّوْكيدِ في مِثْلِ هذا المَقامِ يُغْني غَناءَ فاءِ التَّفْريعِ، والمعنى: الحَثُّ على تَكَرُّرِ ذِكْرِ اللّه في مُخْتَلَفِ الأحْوالِ؛ لِأنَّ المُسْلِمينَ مَأْمورونَ بالاقْتِداءِ بأهْلِ الكَمالِ مِنَ المَلَأِ الأعْلَى، وفيها تَعْريضٌ بالمُشْرِكينَ المُسْتَكْبِرينَ عَنْ عِبادَةِ اللّه بأنَّهُم مُنْحَطّونَ عَنْ تِلْكَ الدَّرَجاتِ[4]، ووَجْهُ جَعْلِ حالِ المَلائِكَةِ عِلَّةً لأمرِ النَّبيِّ ﷺ بالذِّكْرِ: أنَّ مَرْتَبَةَ الرِّسالَةِ تُلْحِقُ صاحِبَها مِنَ البَشَرِ بِرُتْبَةِ المَلائِكَةِ، فهذا التَّعْليلُ بمَنْزِلَةِ أنْ يُقالَ: اذْكُرْ رَبَّكَ؛ لِأنَّ الذِّكْرَ هو شَأْنُ قَبيلِكَ[5].

---

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (سبح).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سجد).
(3) نخبة من أساتذة التّفسير، التّفسير الميسَّر، ص: 176.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 243/9.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 243/9.

سرُّ التَّعبيرِ باسمِ الموصولِ ﴿ٱلَّذِينَ﴾، والعدولِ عن لفظِ (الملائكة):

المـؤمـنُ يـترقَّـى بالتَّشبُّهِ بأخلاقِ الملائكةِ، فتسمو روحُهُ وأخلاقُهُ

ما تُؤْذِنُ به الصِّلَةُ مِن رِفْعَةِ مَنْزِلَتِهم، فيَتَذَرَّعُ بذلك إلى إيجادِ المُنافِسَةِ في التَّخَلُّقِ بأحْوالِهِمْ[1]، والسّياق واضحُ الدَّلالةِ على المقصودين بالتَّوصيفِ، وهم ملائكةُ الملأِ الأعلى، والتَّعبيرُ بالاسمِ الموصول، وهو معرفةٌ، يقومُ مقامَ اسمِ العلم الَّذي عرف به هؤلاءِ المخلوقونَ من نورٍ، والَّذين وصفهم القرآنُ بأنَّهم: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۩ ۝٥٠﴾ [النّحل: 50]، وقيل: إنَّ المقصودَ بهم الَّذين اصطفاهم واختارهم من بين النّاس، وهم المؤمنون الَّذين عرفوا اللّه حقَّ معرفتِه، فعبدوهُ في ولاءٍ وخشوعٍ[2].

دلالةُ الظَّرفيَّةِ في قولِهِ: ﴿عِندَ رَبِّكَ﴾:

القربُ في مدلولِ (عند رَبِّكَ) قربُ مكانةٍ لا قربُ مكانٍ

في قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ﴾ معنى (عند) هنا: دنوُّ الزُّلفةِ، والقربُ من رحمةِ اللّهِ تعالى وفضلِهِ، لتوفُّرهم على طاعتِهِ وابتغاء مرضاتِهِ[3]، ولعلَّ المجازَ في العنديَّة يتَّسع ليشملَ خلْقًا آخر، بعضَهم من البشرِ قد سمَوا وعلَوا وارتقَوا، كالأنبياءِ والشُّهداء، حتَّى وردَ الخبرُ عن رسولِ اللّهِ ﷺ أنَّه قال: «أبيت عند ربّي يطعمُني ويسقيني»[4]، و(عند) مُسْتَعْمَلٌ مَجازًا في رِفْعَةِ المِقْدارِ، والحُظْوَةِ الإلَهيَّةِ، فإذا فهِمْتَ السَّعادَةَ الحاصِلَةَ لِلْمَلائِكَةِ بكَوْنِهم عند اللّه؛ فهِمْتَ السَّعادَةَ الحاصِلَةَ لِلشُّهَداءِ بكَوْنِهم عند اللّه، وهذه كَلِماتٌ تَفْتَحُ على العَقْلِ أبْوابَ مَعارِفِ الآخِرَةِ[5].

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 243/9.

(2) قال عبد الكريم الخطيب معلِّقًا على هذا الرَّأي الوجيه، ولكنَّه خلاف المشهور: "وهذا المعنى الذي ذهبنا إليه - مخالفين فى ذلك ما أجمع عليه المفسّرون - هو المناسب لسياقِ النَّظم القرآنيِّ، حيثُ كانت الآية السّابقة على هذه الآية دعوة إلى ذكر الله، على تلك الصّورة التي تؤهِّل الذّاكر؛ لأن يكونَ من أهلِ الله، ومن عباده المكرمين.. فهذا الذِّكرُ هو الذي يقرِّب الإنسانَ من ربِّهِ، ويرفعه إلى هذا المقامِ الكريم، وإنَّه لن يرتفع إلى هذا المقام الا من ذكرِ اللهِ هذا الذِّكر، فلا يستكبر عن عبادة اللهِ، ولا يولِّي وجهه إلى غيره، في تسبيح أو سجود". ينظر: عبد الكريم الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 556/5.

(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 193/2، والطّيبيّ، فتوح الغيب: 730/6.

(4) أخرجه البخاريّ ومسلم، عن أبي هريرة رضي الله عنه، ينظر: ابن الأثير، جامع الأصول، برقم: (4563).

(5) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 428/9.

فائدةُ إضافةِ الظَّرفِ إلى الرَّبِّ وتخصيصه:

إضافةُ الظَّرفِ إلى الرَّبِّ تعظيمٌ وسموٌّ، وإضافةُ الرَّبِّ إلى الضَّميرِ تشريفٌ

وإضافةُ العنديَّةِ إلى الرَّبِّ توحي بعظيمِ المنزلة، وسموِّ الرُّتبة، وعلوِّ المكانة، وارتفاع الدَّرجة، وإضافةُ الرَّبِّ إلى ضمير المخاطب فيه تشريفٌ له ﷺ، على رأي من يقول: إنَّ الخطابَ له؛ لبيانِ مكانتهِ وإمامتهِ، وفيهِ تهييجٌ للمؤمنين على المسارعةِ في العبادةِ، وإلهابٌ لمشاعرِهم نحو التَّرقّي في مصافِّ الَّذين عند ربِّك أيُّها المخاطبُ.

إيثارُ التَّعبيرِ بالفعلِ ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ دونَ مرادفاتِه:

الاستكبارُ من أقبحِ الخصالِ الَّتي تُصيبُ صاحبَها في مقتلٍ

أُريدَ به التَّعريضُ بالمُشْركينَ، وأنَّهُم على النَّقيضِ مِن أحْوالِ المَلائِكَةِ المُقَرَّبينَ، فخَليقٌ بهم أنْ يَكونوا بُعَداءَ عَنْ مَنازِلِ الرِّفْعَةِ[1]، وفيهِ "إشارةٌ إلى أنَّ هذهِ المنزلةَ التّي الَّتي لهم عند اللّهِ، لم تدخلْ عليهم بشيء بشيءٍ من الكبر والإدلالِ على اللّهِ، حيثُ لا متطلَّع لهم إلى منزلة غير تلك المنزلةِ، بل إنَّ ذلك كان داعيةً لهم إلى دوامِ العبادة، ومواصلةِ التَّسبيح، حمدًا للّه على ما هم فيه، وشكرًا له على ما أنعمَ بهِ عليهم، واستدامةً لتلك النِّعمةِ"[2].

نكتةُ استعمالِ صيغةِ الاستفعالِ (الاستكبارِ):

الملائكةُ الأعلونَ لا يستكبرونَ، ومن دونِهم أولى بذلك وأجدر

والاسْتِكْبارُ: الامْتِناعُ عَنْ قَبولِ الحَقِّ مُعاندةً وتَكَبُّرًا[3]، وصيغةُ الاستفعالِ هنا تدلُّ على أنَّ المستكبرَ يطلبُ ما ليس له، وفي الحديثِ القدسيِّ: يَقولُ اللّهُ ﷻ: «الكِبْرياءُ رِدائي، والعَظَمَةُ إزاري، فمَنْ نازَعَني شَيْئًا منهما أَلْقَيْتُهُ في جَهَنَّمَ»[4].

بلاغةُ التَّعبيرِ بصيغةِ المضارعِ في قوله: ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾:

التَّنويهُ بتواضعِ الملائكةِ، فيه تعريضٌ باستكبارِ المشركينَ

تدلُّ صيغةُ المضارعِ المنفي في قولهِ: ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ على استمرارِ النَّفي، وتجدُّده، وقوله: ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾، "ليس المقصودُ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 243/9، 244.
(2) عبد الكريم الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 555/5.
(3) ابن منظور، لسان العرب: (كبر).
(4) أخرجه مسلم في صحيحه، برقم: (2620).

به التَّنويهَ بشأن الملائكةِ؛ لأنَّ التَّنويهَ بهم يكون بأفضل من ذلك، وإنَّما أريدَ بهِ التَّعريضُ بالمشركين، وأنَّهم على النَّقيضِ من أحوالِ الملائكةِ المقرَّبينَ، فخليقٌ بهم أن يكونوا بعداءَ عن منازلِ الرِّفعة"[1]، وهي المنازلُ الَّتي نالها الملائكةُ بعدمِ الاستكبارِ.

إيثارُ نفي الفعلِ بـ(لا) دونَ غيرِها:

النَّفي بـ(لا) يناسبُ الغرضَ المسوقَ له النَّفي، وهو التَّعْريضُ بالمشركين؛ إذْ إنَّ المرادَ هو وصف حالي، لا يمنعُ من استمرارهِ في المستقبلِ، بل إنَّ المدَّ الذي في جِرْم (لا) ليشيرَ إلى أنَّها أدلُّ على دوامِ النَّفي وطولهِ.

الإشارةُ إلى أنَّها أدلُّ على دوامِ النَّفي وطولهِ

فائدةُ قولهِ: ﴿عَنْ عِبَادَتِهِۦ﴾:

لَمّا كانَ المقصودُ من جملة ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ التَّعريضَ بالمشركين كما أسلفنا، وليس وصفَ الملائكةِ بعدمِ الكبرِ فحسب - وإن صحَّ الإخبارُ به عنهم - ، كان قوله: ﴿عَنْ عِبَادَتِهِۦ﴾ إيماءً إلى فعل هؤلاء المشركينَ من عبادةِ الأصنامِ والعزوف عن عبادةِ ربِّهم جلَّ وعلا.

الإشارةُ إلى أنَّ هلاكَ المشركينَ في عزوفِهم عن عبادةِ ربِّ العالمينَ

دلالةُ المجاوزةِ بحرفِ الجرِّ ﴿عَنْ﴾:

حرف (عن) يفيدُ المجاوزةَ، ونفيُ الفعل قبلَهُ يشيرُ إلى أنَّهم لم يجاوزوا عبادةَ اللهِ، ولم يفتروا عن التَّذلُّلِ له سبحانهُ طرفةَ عينٍ، ولم يتعدَّ الفعلُ ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ في القرآنِ الكريم إلّا بـ(عن)، وجاءَ في موضعين في سياقِ الملائكةِ هنا، وفي قوله: ﴿وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ١٩﴾ [الأنبياء: 19]، وجاء الفعلُ ﴿يَسْتَكْبِرُونَ﴾ مُثْبتًا في قوله: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ٦٠﴾ [غافر: 60]، كما وردَ الفعلُ (يتكبَّرون) متعدّيًا بـ(في) في موضعٍ واحدٍ، وهو قوله: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي

الملائكةُ لم يجاوزوا عبادةَ اللهِ، ولم يفتروا عن التَّذلُّلِ لهُ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 244/9.

ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٤٦﴾﴾ [الأعراف: 146]. وتعدَّى الفعلُ (استكبروا) بـ(في) في قوله: ﴿فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: "عن عبادةِ اللّٰه، فقوله: ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ إشارةٌ إلى قلَّةِ عقلِهم في اسْتكبارِهم؛ لأنَّ من في الأرض أضعفُ أقسام المكلَّفين، ومن في السَّماءِ أقواهم، ثمَّ إنَّ (مَن في السَّماء) لا يستكبرونَ على اللّٰهِ بالعبادةِ، فكيف (مَن في الأرض)"؟[1]، ولم يتعدَّ الفعلُ (استكبر) بـ(على) في القرآنِ الكريم، وإن جازَ لغةً.

إيثارُ لفظِ (عبادة) دونَ غيرِه كالذِّكرِ في قوله: ﴿عَنْ عِبَادَتِهِۦ﴾:

وأوثرَ لفظُ (العبادة) لشمولِه نواحيَ الحياةِ كلها، وأنواع الطّاعاتِ الكثيرةِ المتعدِّدةِ، ويدخل فيها الذِّكر وأنواعه دخولًا أوَّليًّا، على اعتبارِ أنَّ العبادةَ تشملُ مسالكَ القربِ من اللّٰهِ، وطرائق التَّزلُّف إليه، رجاءَ عفوِه ورحمتِه، والملائكة يفعلون ذلك شكرًا للّٰه، دونَ انتظارِ مقابلٍ ينتفعونَ به، وفي عبادةِ الملائكةِ نموذجٌ يتجلَّى للبشرِ، كي يضاهوهُ في إدراك بعضِه؛ إذ (مالا يُدرَك كلُّهُ، لا يُترَك جلُّهُ، بلْهَ أقلَّهُ).

عبادةُ اللهِ سموٌّ روحيٌّ عظيمٌ، يعلو بصاحبِهِ مكانًا عليًّا

فائدةُ إضافةِ العبادةِ إلى ضميرِ اسمِ الجلالةِ:

قولُهُ: ﴿عَنْ عِبَادَتِهِۦ﴾، لمّا كانتِ العبادةُ لا تنبغي إلّا للّٰهِ أضيفت إليه تعالى، وجيءَ بالضَّمير؛ لأنَّ العهدَ باسمِ الرَّبِّ قريب، ولدفعِ إيهامِ عنديَّة المكانِ، وتصوُّر الحضور، فهم مشغولونَ بما أمروا به، لا يلتفتون إلى غيرِه، قالَ تعالى: ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾﴾ [التَّحريم: 6].

عبوديَّةُ التَّملُّكِ قد تكونُ للبشرِ، والعبادةُ لا تكونُ إلّا لخالقِ البشرِ

(1) ابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 355/15.

دلالةُ عطفِ جملة: ﴿وَيُسَبِّحُونَهُۥ﴾ على ما قبلَها:

التَّسبيحُ تنزيهٌ للخالقِ، وتأكيدٌ لقيّوميَّتِه في ملكوتِه

حَسُنَ عطفُ جملةِ: ﴿وَيُسَبِّحُونَهُۥ﴾ على ما قبلَها؛ لأنَّ نفيَ الاستكبارِ يفهمُ منه التَّذلُّل والخضوع وتأدية العبادة على أحسنِ وجهٍ، فكأنَّهُ عطفُ الخاصِّ على العامِّ، ومعناها: "ينزِّهونَهُ عن كلِّ ما لا يليقُ بعظمتهِ وكبريائهِ، وجلالهِ وجمالهِ، من اتِّخاذ النِّدِّ والشَّريك والظَّهيرِ والمساعدِ على الخلقِ والتَّدبيرِ"[1].

العدولُ عن التَّنزيهِ إلى التَّسبيحِ في قوله: ﴿وَيُسَبِّحُونَهُۥ﴾:

التَّسبيحُ ثناءُ اللهِ على نفسهِ بنفسِه، وهو من خصائصِه، فلا يقالُ لغيرِه

التَّسبيحُ: هو التَّنْزيهُ للهِ تَعالَى عَمّا لا يَجوزُ عليه مِن الصِّفاتِ، فجَميعُ ما خَلَقَهُ اللهُ مُنَزَّهٌ لَهُ مِن جِهَةِ الدَّلالَةِ عليه، والعُقَلاءُ المُطيعونَ يُنَزِّهونَهُ مِن جِهَةِ الاعْتِقادِ والوَصْفِ لَهُ بما يَليقُ به وتَنْزيهِه عَمّا لا يَجوزُ عليه، وقَوْله تَعالَى: ﴿كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ﴾ يَعْني: صَلاةَ مَنْ يُصَلّي منهم، فاللهُ يَعْلَمُها، وقالَ مُجاهِدٌ: "الصَّلاةُ لِلْإنْسانِ، والتَّسْبيحُ لِكُلِّ شَيْءٍ"[2]. والتَّسبيحُ: هو ثناءُ اللهِ على نفسهِ بنفسهِ، فليسَ ثمَّةَ أحسنُ منهُ، وهو من خصائصِ اللهِ تعالى، فلا يقالُ لغيره، وأمّا التَّنزيهُ؛ فيقالُ لغيره، ممَّن قد يُتَّهم "والنَّزَه: ظَلْفُ النَّفس عَن المَدانس، يُقالُ: فلانٌ نَزِهُ النَّفسِ ونازهُ النَّفسِ، والمصدر النَّزاهة"[3]، والتَّسبيحُ فيه معنى السِّباحةِ، فكأنَّ المسبِّحَ يَسْبَحُ في نهرِ العبوديَّةِ بيُسْر، لا يعوقهُ أحدٌ، ولا يعترضُهُ شيءٌ، وهو بتسبيحهِ هذا لا ينفعُ إلّا نفسَه، فاللهُ مُسَبَّحٌ قبل أن يخلقَ من يُسَبِّحه ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾ [يس: 83].

إيثارُ ذكرِ التَّسبيحِ دونَ غيرِه كالتَّحميدِ والتَّكبيرِ مثلًا:

نلحظُ في اصطفاءِ لفظِ التَّسبيحِ في ختامِ السّورةِ تسريةً عن رسولِ

(1) رشيد رضا، تفسير المنار: 465/9.
(2) الجصّاص، أحكام القرآن: 424/3.
(3) ابن دريد، جمهرة اللّغة: (نزه).

اللّه ﷺ إذ إنَّه قد أحزنهُ ما يقولونهُ على اللّهِ من افتراءٍ، وشرك، وما يتَّهمونه به ممّا سبق من الآياتِ، فكأنَّهُ يهدهدُهُ بهذا الختامِ الهاديءِ، فهو يطمئنُهُ، ويسكِّن روعَهُ، فلئن كفرَ هؤلاءِ باللّه، وكذَّبوك فثمَّة خلقٌ آخر ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ﴾.

بيانُ تسبيحِ الملائكةِ تسريةٌ عن رسولِ اللهِ ﷺ

دلالةُ التَّعبيرِ بالفعلِ المضارعِ في قوله: ﴿وَيُسَبِّحُونَهُۥ﴾:

الاستمرارُ والتَّجدُّدُ في التَّسبيحِ، فلا ملَلَ، ولا تعبَ ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ۝٢٠﴾ [الأنبياء: 20]، وهذه مسألةٌ موغلةٌ في القدمِ، وهي سابقةٌ لخلق الإنسانِ، لوجودِ الملائكة قبلَهُ، وتأكيدُ ذلك بقولِه تعالى في القرآن: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: 30]، وقال: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ۝٢٨ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ۝٢٩﴾ [الحجر: 28 - 29]، وسوف تبقى تسبيحاتُ الملائكةِ مستمرَّةً إلى نهاية الدُّنيا، وذلك أمرُ اللّهِ في الخلق والتَّقديرِ.

التَّسبيحُ باقٍ بلا انقطاعٍ إلى يومِ القيامةِ ممّا يشيرُ بهِ الفعلُ (وَيُسَبِّحونَهُ)

أثرُ الواوِ في قولِهِ: ﴿وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ﴾ في المعنى:

عاطفةٌ جملةَ ﴿وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ﴾ على ما قبلَها، وتأخيرُها يوحي بعلوِّ رتبةِ السُّجودِ، لأنَّ السُّجودَ أرقى ألوانِ العبوديَّةِ، وسببِ مكينٍ، لقربِ السّاجدِ من ربِّ العالمينَ، قال تعالى: ﴿كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب۩ ۝١٩﴾ [العلق: 19].

حالةُ السُّجودِ أشرفُ الأحوالِ، وأقربُها إلى اللهِ المتعالي

سرُّ تقديمِ الجارِّ والمجرور ﴿وَلَهُۥ﴾ على الفعل ﴿يَسْجُدُونَ﴾:

ويختصّونه بالعبادةِ لا يشركونَ بهِ غيرهُ، وهو تعريضٌ بمن سواهم من المكلَّفين[1]، ولَهُ يَسْجُدونَ للدَّلالَةِ على الاخْتِصاصِ، أيْ: ولا يَسْجُدونَ لِغَيْرِه، وهذا أيْضًا تَعْريضٌ بالمُشْرِكينَ الَّذينَ يَسْجُدونَ لِغَيْرِه، والمُضارِعُ يُفيدُ الاسْتِمْرارَ أيْضًا[2].

الاختصاصُ، والتَّعريضُ بالمشركينَ، ممّا يبرزهُ بيانُ هذه الآيةِ

(1) الطيّبيّ، فتوح الغيب: 730/6.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 244/9.

إيثارُ استعمالِ السُّجودِ دونَ غيرِهِ من ألوانِ العبادةِ:

ردُّ العجزِ على الصَّدرِ، ليُعلنَ في نهايةِ السّورةِ فوزَ الملائكةِ السّاجدينَ

في ذكرِ فعلِ السُّجود ليكونَ خاتمةَ كلماتِ السّورةِ إشارةٌ لطيفةٌ إلى مطلعِ السّورة من قصَّةِ إبليسَ عندما أبى واستكبر، ولم يكن من السّاجدينَ، ففيه ردُّ العجزِ على الصَّدرِ؛ ليُعلن في نهايةِ السّورة فوزَ الملائكةِ السّاجدين، والعبّادِ الطائعين، وخسرانَ إبليسَ ومن معهُ أجمعينَ.

دلالةُ استعمالِ صيغةِ المضارعِ في قوله: ﴿وَلَهُۥ يَسۡجُدُونَ﴾:

سجودُ الملائكةِ متناغمٌ مع تسبيحِ الكونِ كلِّه للهِ

يدلُّ المضارعُ على الاستمرارِ والتَّجدُّدِ، فهم مع إخلاصِهم العبادةَ، وإتقانِهم لها لا ينقطعون، ولا يفْتُرون، وقد وصفَ اللّهُ تعالى حالَهم من تواضعِهم وإدمانِهم للعبادةِ والتَّسبيح والسُّجود، وفي الحديث: «أطَّت السَّماء، وحقَّ لها أن تئطَّ، ما فيها موضعُ شبرٍ إلّا وفيه ملكٌ قائم أو راكعٌ أو ساجدٌ». ورأسُ الآيةِ موضعُ سجدةٍ[1].

علاقةُ ختامِ السّورةِ بأوَّلِها في خطاب النَّبيِّ الأكرمِ وتوجيهِهِ وتثبيتِهِ:

خُتِمَتِ السّورةُ بما بُدِئَت بهِ، بأنَّ مهمَّةَ الرَّسولِ التَّبليغُ والاتِّباعُ

بهذهِ الآياتِ تختمُ سورةُ الأعرافِ، كما بدأت، فتلتقي بالنَّبيِّ الكريم لقاءً مباشرًا، بعد أن كان مفتتحُها ذلك الخطابَ الموجَّهَ إلى النَّبيِّ بأن يلقى قومَهُ، ويواجههم بآياتِ ربِّه، وبالكتابِ الَّذي نزَّلَهُ عليه، وإن كان في ذلك القطيعةُ بينه وبين أهلهِ؛ إذْ لا مهادنةَ في الحقِّ، ولا حسابَ لصلاتِ القرابةِ والصَّداقةِ فيه... ﴿كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ مِّنۡهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ هكذا بدأتِ السّورةُ، وبهذا تختتم[2].

وتختمُ سورةُ الأعرافِ بذكرِ قضيَّةٍ كُبرى ينبغي أن يعرفَها النّاس، وهي أنَّ الوحيَ يتنزَّلُ بأمر ربِّك، وأنَّ مهمَّةَ الرَّسولِ ﷺ التَّبليغُ واتِّباع الوحي بما فيه من حجج وهدى ورحمة، وأنَّ الواجبَ مع القرآنِ الكريم الاستماعُ والإنصاتُ؛ حتَّى يؤخذَ بهِمَّةٍ، وينالَ

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 495/2.
(2) عبد الكريم الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 544/5.

المتلقّي رحمةَ الله، وأن يتحصَّنَ الإنسانُ بذكرِ ربِّه، وألّا يقعَ في دائرةِ الغفلةِ، وأنَّ ما يؤدّيه المرءُ من وجوهِ العبادات، فإنَّما هو لخيرِه وسعادتِه، فالنّاسُ في أشدِّ الحاجةِ إلى عبادتِهم للهِ سبحانه، وهو الغنيُّ عنهم[1]، وهذا التَّوجيهُ يذكِّرنا بما وردَ في مطلع السّورة، فهو يشي بثقلِ عبْءِ التكليف بدعوة النّاس، وبضرورةِ الصَّبرِ، وضرورةِ شقّ الطريق وفق النهج السليم.

لطيفةُ كونِ آخرِ الأعرافِ أوّلَ سجدةٍ من سجداتِ القرآنِ:

وسيلةُ الوصولِ إلى منزلةِ (الّذينَ عندَ رَبِّكَ)، السُّجودُ للهِ المعبودُ

هذه أوَّلُ سجدةٍ في القرآنِ ممّا يشرعُ لتاليها ومستمعِها السُّجودُ بالإجماع[2]، وكانت آخرُ الأعرافِ هي أوَّل سجدةِ تلاوةٍ من سجداتِ القرآنِ بترتيبِ المصحفِ الشريفِ للإشارةِ إلى أنَّ الوصولَ إلى منزلةِ ﴿عِندَ رَبِّكَ﴾ هو السُّجودُ للهِ تعالى، وصحَّ من حديث أبي هريرةَ مرفوعًا بلفظِ: «أقربُ ما يكون العبدُ من ربِّه، وهو ساجدٌ، فأكثروا الدُّعاءَ»[3]، ولذلك كانت آخرُ سجدةٍ قولَهُ تعالى لخاتم النَّبيّين ﷺ: ﴿لَا تُطِعۡهُ وَٱسۡجُدۡ وَٱقۡتَرِب۩ ١٩﴾ [العلق: 19].

وجهُ مجيءِ آيةِ السُّجودِ خبرًا:

يريدُ اللهُ أن يسجدَ النّاسُ له بحبٍّ وألّا يُساقوا له بالسَّوطِ

في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ﴾ ﴿وَلَهُۥ يُسَبِّحُونَ﴾، ليس في الآيةِ أمرٌ بالسُّجودِ، بل إنَّ مُقْتَضَى السَّجْدَةِ هُنا أنَّ الآيَةَ جاءَتْ لِلْحَضِّ على التَّخَلُّقِ بأخْلاقِ المَلائِكَةِ في الذِّكْرِ، فلَمّا أخْبَرَتْ عَنْ حالَةٍ مِن أحْوالِهم في تَعْظيمِ الله، وهو السُّجودُ للهِ، أرادَ الرَّسولُ ﷺ أنْ يُبادِرَ بالتَّشَبُّهِ بهم تَحْقيقًا للمقصدِ الَّذي سبق هذا الخبر لِأجْلِه[4]، وما أجملَ أن يسجدَ العبدُ لربِّه طائعًا مُتَضرِّعًا مُحِبًّا، فيقتربَ من الجمالِ والجلالِ والكمال!

(1) محمد رأفت سعيد، تاريخ نزول القرآن، ص: 290.
(2) القاسميّ، محاسن التّأويل: 249/5.
(3) أخرجه مسلم في صحيحه، برقم: (482).
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 244/9.

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الاستكبارُ والتَّكبُّرُ:

الاستكبارُ ادِّعاءُ الكبرِ من غيرِ استحقاقٍ، والتَّكبُّرُ إظهارُ الكبرِ باستحقاقٍ

الاستكبارُ: طلبُ الكبرِ من غيرِ استحقاقٍ، والتَّكبُّر: قد يكون باستحقاقٍ؛ ولذلك جازَ في صفة اللّهِ تعالى: المتكبِّر، ولا يجوزُ: المستكبر[1]، وفرقُ التَّكبُّرِ عن الكِبر هو: أنَّ الكِبْرَ مجرَّدُ تعاليه على غيرِهِ في نفسِه، أمّا التَّكبُّر؛ فهو: إظهارُ الكِبْرِ وإبرازِهِ[2].

التَّسبيحُ والتَّنزيهُ:

التَّسبيحُ خاصٌّ باللّه تعالى، وفيه معنى التَّعجب؛ ولذلك ورد أنَّه ﷺ كان يقول: سبحانَ اللّهِ عند التَّعجُّب[3]، ووجهُ إطلاق هذهِ الكلمةِ عند التَّعجُّبِ هو أنَّ الإنسانَ عند مشاهدةِ الأمرِ العجيبِ الخارجِ عن حدِّ أمثالِهِ يستبعدُ وقوعَهُ، وتنفعلُ نفسُهُ منه، كأنَّه استقصرَ قدرةَ اللّهِ؛ فلذلكَ خطرَ على قلبه أن يقولَ قدرَ عليهِ وأوجدَهُ، ثمَّ تدارك أنَّه في هذا الزَّعم مخطئٌ، فقال: سبحانَ اللّهِ تنزيهًا للّه تعالى عن العجزِ عن خلقِ أمرٍ عجيبٍ، يستبعدُ وقوعَهُ لتيقُّنِه بأنَّهُ تعالى على كلِّ شيءٍ قديرٌ[4]، والتَّنزيهُ تبعيدٌ، يدُلُّ على بُعْدٍ في مَكانٍ وغَيْرِه، ويطلق على المخلوقِ، يقالُ: رَجُلٌ نَزيهُ الخُلُقِ: بَعيدٌ عَنِ المَطامِعِ الدَّنيَّةِ[5].

التَّسبيحُ خاصٌّ باللّهِ تعالى، والتَّنزيهُ تبعيدٌ، ويطلقُ على المخلوقِ

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 49.

(2) محمّد نصر، فصل الخطاب في الزّهد والرّقائق والآداب: 441/6.

(3) كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه، أنّ النبيّ ﷺ لقيه في بعض طرق المدينة وهو جنب، فانخنس منه، فذهب فاغتسل، ثمّ جاء، فقال: «أين كنت يا أبا هريرة؟»، قال: كنت جنبًا، فكرهت أن أجالسك وأنا على غير طهارة، فقال: «سبحان الله، إنّ المسلم لا ينجس». أخرجه البخاريّ في صحيحه، برقم: (279).

(4) حقّي، روح البيان: 64/4.

(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نزه).

سُورَةُ الأَنفَالِ

سُورَةُ الأَنفَالِ

تعريف عام بسورة الأنفال:

سورةُ الأنفالِ مدنيّةٌ، وقد حكى الإجماعَ على مَدَنيَّتِها غيرُ واحدٍ[1]، وابتُدِئَ نزولُها في مكانِ بَدرٍ، عَقِبَ الواقِعةِ، وقبلَ الانصرافِ منها، وهي مَعدودةٌ فيما نزَلَ أوَّلُه في أسفارِه ﷺ، فقد نزلَت والنّبيُّ ﷺ في بدرٍ خارجَ المدينة، وهذا ممّا يُدرَجُ في عِدادِ المدنيّ، ويُلحَقُ به.

وهي خمسٌ وسبعون آيةً في الكوفيّ، وستٌّ وسبعون آيةً لدى المَدَنيّين والمكّيّ والبصريّ، وسبعٌ وسبعونَ آيةً في العدّ الشّاميّ[2].

ترتيبُها في المصحف وفي النّزول:

كَوْنُها بين البقرة وآل عمران تشريفٌ

ترتيبُ سورةِ الأنفالِ في المصحفِ بينَ سورةِ الأعرافِ وسورةِ التّوبةِ، وهي السّورةُ السّابعةُ في ترتيبِ المصحفِ[3]، وترتيبُها في النّزولِ بينَ سورةِ البقرةِ، وسورةِ آلِ عِمران[4].

تسميةُ السّورةِ:

الأنفالُ: اسمٌ لم يُرَسَّ على الوضعِ، بل على التّوقيفِ

الأنفالُ هو اسمُ السّورةِ المشهورُ التّوقيفيُّ الّذي أجمعَ على ذكره كلُّ مَن تحدّثَ عنِ السّورةِ، وكتبَ عنها وعن ملابسات نزولِها وآياتِها، وهو المكتوبُ في المصاحف الّتي أُرسِلَت إلى الأمصار، وهو المذكورُ في رواية الواحديّ في أسباب النّزول: عن سعد بن أبي وقّاص رضي الله عنه قال: لمّا كان يومُ بَدرٍ، قُتِلَ أخي عُمَير، وقتلتُ سعيدَ بن العاص، فأخذتُ سيفَه، وكانَ يُسَمَّى ذا الكَيفَةِ، فأتيتُ النّبيَّ ﷺ فقال: «اذهبْ فاطرحْه في القبض»، فرَجَعتُ، وبي ما لا يعلمه إلّا

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/8، والفِيروزابادي، بصائر ذوي التّمييز: 222/1، وابن حجر، فتح الباري: 657/8، والآلوسيّ، روح المعاني: 157/9، ورشيد رضا، المنار: 536/9.

(2) أبو عمرو الدّاني، البيان في عدّ الآي، ص: 158، وابن الجوزيّ، فنون الأفنان، ص: 284.

(3) البيهقيّ، دلائل النّبوّة: 152/7، والسّيوطيّ، أسرار ترتيب القرآن، ص: 88.

(4) الزّركشيّ، البرهان: 194/1، والسّيوطيّ، الإتقان: 43/1، ودروزة، التّفسير الحديث: 16/1.

اللّه مِن قَتلِ أخي، وأخذِ سَلَبي، فما جاوزتُ إلّا قريبًا حتّى نزلَت سورةُ الأنفال[1].

فقولُه: (حتّى نزلَت سورةُ الأنفالِ) نصٌّ في ثبوتِ هذا الاسمِ لها منذ نزلَتْ، فهو اسمٌ توقيفيٌّ.

وجاء ذكرُ اسمِ الأنفال في صحيح البخاريّ: عن سعيد بن جبير، قال: قلت لابن عبّاسٍ ﵄: سورة الأنفال، قال: نزلَت في بدرٍ[2].

المُستفادُ مِن تَسْميَتِها سورَة (بدر) وسورة (الجهاد)

سورة (بَدر)، وقد ثبَتَ هذا الاسمُ لسورة الأنفال عن ابن عبّاس ﵄، ففي الصّحيحينِ عن سعيد بن جبير، قال: «قُلتُ لابنِ عبّاس: سورةُ الأنفال؟ قال: تلك سورةُ بدر»[3].

وتسمّى سورة (الجِهاد): وهو اسمٌ اجتهاديٌّ لِذكرِ أحكامِ القتالِ والغنائم فيها، ولكونِ السّورة نزلَت في غزوةٍ وجِهادٍ[4].

التعريف بمعنى كلمة الأنفال

والأنفالُ: لُغَةً: جمع (نَفَلَ) بفتح النّون والفاء، وأصلُ مادّة (نفل) العطاءُ والإعطاءُ.

جاء في معجم العين: "النَّفَل: الغُنمُ، والجميع الأنفال، ونَفَّلتُ فلانًا أعطيته نفلًا وغُنمًا، والإمام يُنَفِّلُ الجُندَ: إذا جعل لهم ما غنموا. والنّافلة: العطيّة يُعطيها تطوُّعًا بعدَ الفريضةِ من صدقةٍ أو صلاحٍ أو عملِ خيرٍ"[5].

وقال الزَّبيديّ: "ونفله النَّفَل ونفّله تنفيلًا وأنفله إنفالًا: أعطاه إيّاه؛ أي: النَّفَل... ونَفَل نَفلًا: أعطى نافِلةً منَ المعروف، ونفَل الإمامُ الجندَ: جعلَ لهم ما غنموا.. والنّافلة: العطيّةُ عن يدٍ.

(1) أخرجه أحمد في مسنده، رقم: (1555): 222/1، وابن جرير في تفسيره: 173/6، ويُنظر: الواحديّ، أسباب النّزول، ص: 231.

(2) متّفقٌ عليه، أخرجه البخاريّ، كتاب التّفسير، باب سورة الحشر، رقم: (4882): 364/6، ومسلم، كتاب التّفسير، باب في سورة براءة والأنفال والحشر، رقم: (3031): 2322/4.

(3) متّفقٌ عليه، أخرجه البخاريّ، كتاب التّفسير، باب سورة الحشر، رقم: (4882): 364/6، ومسلم، كتاب التّفسير، باب في سورة براءة والأنفال والحشر، رقم: (3031): 2322/4.

(4) البقاعيّ، مصاعد النّظر: 144/2، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 214/8.

(5) الخليل، العين: (نفل).

قال لبيد: للّهِ نافِلَةُ الأجَلِّ الأفضَلِ.

ورجلٌ كثيرُ النّوافل؛ أي: العطايا والفواضل، وكلُّ عطيّةٍ تبرَّع بها مُعطيها من صدقةٍ أو عملِ خيرٍ فهي نافلةٌ"[1].

من هذا البيان لأصل مادّةِ (نفل) تتّضحُ دلالتُها على العطاء والإعطاء، والزّيادة في التّبرع والمنح.

مناسبة التسمية بالأنفال:

وحين ينظرُ القارئُ المتدبِّرُ في سورة الأنفال، يَجِدُ أنّها مُفعمةٌ وحافلةٌ بأنواع العطايا الرّبّانيّةِ لأهل الإيمان، وفي مقدِّمَتِهم الرّسولُ المُجتبَى ﷺ:

سـورةُ الأنـفـال تَـنَـزّلَـتْ بسُبُلِ هِدايةِ المؤمنين

أوّلًا: من ذلك هدايةُ المؤمنين إلى الإيمانِ، ونَبذُ كُلِّ مظاهرِ الشِّركِ في حياتهم، وزيادةُ إيمانهم كلّما تُليَت عليهم آياتٌ من آياتِ ربِّهم، هذا عطاءٌ ربّانيٌّ عظيمٌ لا يَشعرُ به إلّا مَن ذاقَ ظُلُماتِ الجهلِ في أثناء عبوديّته للأصنام والتّخبّط في حمآت الشّركِ والضّلالِ النّتنةِ ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢﴾ [الأنفال: 2].

الوَعْد من الرَّزّاق بـخَـيْرَيِ الـدّنيا والآخرة

ثانيًا: هؤلاء المؤمنون الّذين ذاقوا حلاوةَ الإيمان، واتّصفوا بوَجَل القلوبِ وخشيتِها منَ اللّه الجليل، وترقّوا في مدارج الصِّفاتِ الإيمانيّةِ القلبيّةِ، وترجموا إيمانَهم في إقامة الصّلواتِ، وأنواع الإنفاقِ، وغيرها من أعمالِ البرِّ والإحسانِ، هؤلاء المؤمنون موعودون من ربّهم بأعلى الدّرجاتِ والمغفرةِ والرّزقِ الكريم، ولا يخفى ما في هذا الثّوابِ العظيمِ المذكورِ لهم من عظيم العطاءِ وسخيِّ الإنعامِ تكريمًا وإحسانًا، وهذا العطاءُ الرّبّانيُّ الكبيرُ يناسبُه عنوانُ الأنفال، فهو تكريمٌ وعطاءٌ وزيادةٌ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ

(1) الزّبيديّ، تاج العروس: (نفل).

ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾

[الأنفال: 4].

إعلاءُ كلمةِ الحقّ ونشرُ دعوةِ الإسلامِ

ثالثًا: كان المسلمون الأوائل الّذين خرجوا مع رسول الله ﷺ يريدون الطّائفةَ المحمَّلةَ بالتِّجارة والأموال، نظرًا لِلظُّلم الّذي عانَوه مِن قريشٍ حين أُخرِجوا من ديارِهم وأولادِهم وأموالِهم، وذلك مَبلَغُ عِلمِهم البشريِّ، وكانوا قد وُعِدوا بالنّصر عليهم، والظَّفَرِ بهم إذا التَقَوا بهم وواجهوهم، فكانت نفوسُهم توّاقةً إلى أخذِ شيءٍ من ثأرهم، واسترجاعِ شيءٍ من أموالهم وتجارتهم تكون عِوضًا لهم عمّا فقدوه وسُلِبوه في مكّةَ المكرّمةِ، ولكنّ اللّه العليمَ الحكيمَ أرادَ لهم شيئًا أكبر من هذا، أرادَ لهم سبحانه أن يلتقوا بالطّائفة ذاتِ الشّوكة فيكسروا شوكتَها بإذن اللّه تعالى، أرادَ لهم النّصرَ المبينَ المؤزّرَ على أعتى قوّةٍ عسكريّةٍ كانت تتزعّمُ أحزابَ الشِّركِ في تلك الفترة الجاهليّة، أرادَ لهم سبحانه أن تكونَ لهم دولةٌ قويّةٌ لها شأنُها ومَهابَتُها، قائمةٌ على التّوحيدِ وإخلاصِ العبادة للّه تعالى وتحكيمِ شرعِه في الأرض.

أراد جلَّ شأنُه أن يكونَ لهم اسمٌ تحت الشّمسِ؛ ليهابَهُم ويحسبَ حسابَهُم أهلُ الشّركِ والضّلالِ في كلّ مكانٍ في ذلك الزّمن، ويُحقَّ من خلالهم الحقَّ ويُبطلَ الباطلَ، ويعلمَ العالَمون أنّه ثمَّة إلهًا عظيمًا وربًّا مُهيمنًا هو الّذي يديرُ الكونَ كلَّه، ولا بدّ أن تعودَ إليه النّفوسُ، وتعنوَ إليه الوجوهُ، وتخشعَ في محراب عبادته القلوبُ، ولا ريب أنّ هذا العطاءَ الرّبّانيَّ الّذي حقّقَه اللّهُ سبحانه للمؤمنين من خلال نصرهم في غزوة بدرٍ، هو أكبرُ بكثير ممّا كان الصّحابةُ الكرامُ يفكّرون فيه من عير قريش وتجارتها، وأين هذا العَرَضُ القريبُ من ذاك العطاءِ الرّبّانيِّ السّاميِّ الّذي به أصبحَت للمسلمين دولةٌ عظيمةٌ في الأرض؟

من هنا نقرّرُ: إنّ تسميةَ هذه السّورة بـ(الأنفال) هو أدقُّ اسمٍ مُعبِّرٍ عن هذا النَّفَلِ العظيمِ والعطاءِ الرّبّانيِّ الجزيلِ.

نَـجْـدَةُ الـلـهِ تعالى للمؤمنين المُستغيثين به

رابِعًا: ثُمَّ توالَت أنواعُ الأنفالِ الّتي مَنَّ اللّهُ الكريمُ المنعمُ الوهّابُ بها على فريق المؤمنين، وهم في بدء المعركةِ وفي أثنائها، فاستجابةُ ربّهم لهم وهم يستغيثون نَفَلٌ عظيمٌ، وإمدادُهم بفريقٍ منَ الملائكة الّذين أُنزلوا مُردفين لتقوية صفوفهم نَفَلٌ عظيمٌ، وطَمأنَةُ قلوبهم وهُم في قلب المعركةِ، وقد حَميَ وطيسُها نَفَلٌ عظيمٌ، خصّهم اللّهُ الجليلُ به، وتَغشيتُهم بنُعاسٍ في تلك اللّحظات الّتي تطيرُ فيها القلوبُ وتفزعُ فيها النُّفوسُ نَفَلٌ عظيمٌ، وإنزالُ ماءِ السّماءِ عليهم وتطهيرُ قلوبِهم من رجزِ الشّيطانِ ووسوستِه، والرّبطُ على قلوبهم، وتثبيتُ أقدامِهم في ساحة الوغى نَفَلٌ عظيمٌ، وأمرُ اللّه الجليل ملائكتَهُ بتثبيت قلوبِ أهلِ الإيمان، وإلقاؤه سبحانه الرُّعبَ في قلوبِ الّذين كفروا هو لا ريبَ مِن أعظم أسلحةِ النّصرِ الّتي منَّ بها سبحانه على النّبيّ ﷺ وفريقِ المؤمنين معه.

كلُّ هذه العطايا الّتي سخّرها اللّهُ تعالى لنصرة أهلِ الإيمانِ هي منَ الأنفال العظيمةِ والمنح الجليلةِ والعطاءات الكبيرةِ الّتي ما كانت لتَتَحقَّقَ لولا إرادةُ الجليل وحكمتُه وتدبيرُه. ﴿إِذۡ تَسۡتَغِيثُونَ رَبَّكُمۡ فَٱسۡتَجَابَ لَكُمۡ﴾ [الأنفال: 9] إلى قوله تعالى: ﴿وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلۡأَقۡدَامَ ١١﴾ [الأنفال: 11].

تَوْجيهاتٌ حَرْبيّة مِن رَبّ البَرِيّة

خامسًا: من ناحية أخرى، النّصائح الإيمانيّة والتّوجيهات الحربيّة العسكريّة الدّقيقة، مثل: قوله تعالى: ﴿فَٱضۡرِبُواْ فَوۡقَ ٱلۡأَعۡنَاقِ وَٱضۡرِبُواْ مِنۡهُمۡ كُلَّ بَنَانٍ ١٢﴾ [الأنفال: 12]، وقوله سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحۡفٗا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلۡأَدۡبَارَ ١٥ وَمَن يُوَلِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفٗا لِّقِتَالٍ أَوۡ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٖ فَقَدۡ بَآءَ بِغَضَبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأۡوَىٰهُ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ١٦﴾ [الأنفال: 15 - 16].

هذه النّصائحُ والتّوجيهاتُ الرّبّانيّةُ من أعظم الأنفالِ الّتي جناها المسلمون، وتعلّموها من غزوة بدر الكبرى، وتمسّكوا بها في معاركَ كثيرةٍ بعدها، وكان النَّصرُ حليفَهم عندما أخلصوا لله سبحانه، وأحسنوا التّخطيطَ والتّدبيرَ والاستعدادَ والأخذَ بالأسباب.

ظُهورُ الكافِرينَ عَلى حَقيقَتِهم مِنَ الضّعْفِ والخَوَر

سادسًا: توهينُ كيدِ الكافرين، وقطعُ شوكتهم، وتعريفُ المؤمنين بحقيقة الكافرين، وبأنّهم شرُّ الدّوابّ، وبأنّهم لا يسمعون سماعَ تعقُّلٍ، ولا ينظرون في دلائل التّوحيد نَظَرَ تَبَصُّرٍ، كُلُّ هذا التّبصيرِ الرّبّانيّ يزيدُ فريقَ المؤمنين إيمانًا مع إيمانهم، ويُبصّرُهم بحقيقة عدوِّهم، ويتعرّفون على مكامن الضّعفِ فيه، فتكون كلمةُ أهل الإيمان هي العليا في كلِّ لقاءٍ يجمعُ بين أهل الإيمان وأهل الكفر، وهذه البصائرُ والبياناتُ الرّبّانيّةُ كلُّها عطاءاتٌ إلهيّةٌ، ما كان المؤمنون ليتعرّفوا عليها لولا غزوةُ بدر الكبرى: ﴿ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٨﴾﴾ [الأنفال: 18]، ﴿وَإِن تَعُودُواْ نَعُدْ وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْـًٔا وَلَوْ كَثُرَتْ﴾ [الأنفال: 19]، ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الأنفال: 21]، ﴿۞إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [الأنفال: 22].

إيقاظُ الحَياةِ في قلوب المُستَجيبين، والظّفر بمعيّة الله تعالى

سابعًا: تبشيرُ المؤمنين بمعيّة الله الجليلِ، وأنّ اللّهَ مع المؤمنين، وتوصيتُهم بالاستجابة لله ورسوله ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: 24]، ونُصحُهم بالإخلاصِ وعدمِ الخيانةِ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [الأنفال: 27]، كلُّ هذه البشرياتِ والتّوجيهاتِ الرّبّانيّةِ النّافعةِ منَ الأنفال العظيمةِ، الّتي نفّلَها اللّهُ العليمُ الحكيمُ المؤمنين من خلال سورة الأنفالِ الّتي أنزلها سبحانه، مُحَمّلةٌ بالدّروس حافلةٌ بالعِبَر، الّتي هي آثارٌ ونتائجُ مباركةٌ من نتائج غزوةِ بدرٍ في بناء الفكرِ السّديدِ المستقيمِ في العقول والأذهان، والإيمانِ الرّاسخِ القويّ في القلوب والوجدان.

الإيواءُ والنّصرة مِنَ الجليل لِعبادهِ المؤمنين

ثامنًا: إيواءُ اللّه الجليلِ لأهل الإيمانِ، وتأييدُهم بالنّصر، وتقويةُ جانبِهم بعدما كانوا مستضعفين، ورزقُهم بأنواع الطّيّباتِ، كلُّ أولئك منَ الأنفال الرّبّانيّة والعطاءات العظيمة الّتي مَنَّ بها سبحانه عليهم، وسجّلَتها سورةُ الأنفال: ﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ أَنتُمۡ قَلِيلٞ مُّسۡتَضۡعَفُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمۡ وَأَيَّدَكُم بِنَصۡرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ٢٦﴾ [الأنفال: 26].

الوعدُ بوافرِ الجزاءِ في العاجِلَةِ والآجلة

تاسعًا: خاطبَ اللّهُ سبحانه أهلَ الإيمان، ووَجّههم إلى الاستمساك بحبل اللّه القويِّ، ووعدَهم بعظيم الجزاء في الدُّنيا، وهو أن يجعلَ لهم فرقانًا ونورًا يستبينون به الحقَّ منَ الباطل، ووعدَهم بتكفير السّيِّئاتِ ومغفرة الذّنوبِ في يوم القيامة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا وَيُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ٢٩﴾ [الأنفال: 29]، أوليس هذا المنُّ الإلهيُّ والعطاءُ الرّبّانيّ من أعظم الأنفال؟

ملامِحُ التَّمْكينِ بهجْرَةِ خاتَمِ النّبيّينَ

عاشرًا: ذكرَ سبحانُه في سورة الأنفال مشهدًا من مشاهد الهجرةِ النّبويّةِ الّتي جعلها اللّهُ تعالى فاتحةَ عصرٍ جديدٍ للإسلام ودين القرآن، ونقطةَ انتقالٍ من حالة الاستضعافِ والقلّةِ والفقرِ إلى حالة القوّةِ والدّولةِ والتّمكينِ، حيث ذكّر سبحانه نبيَّه ﷺ بفضله عليه، ورعايته له، وحفظه، حين تكالبَت عليه قوى الشّرّ والشّرك: ﴿وَإِذۡ يَمۡكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثۡبِتُوكَ أَوۡ يَقۡتُلُوكَ أَوۡ يُخۡرِجُوكَۚ وَيَمۡكُرُونَ وَيَمۡكُرُ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ ٣٠﴾ [الأنفال: 30]، ولا ريبَ أنّ التّمكينَ لنبيِّ الإسلامِ وحفظَه في هجرته وبناءَ دولةِ الإسلامِ في المدينة المنوّرة من أعظمِ العطاءاتِ الرّبّانيّةِ، وأفضل الأنفالِ الّتي كتبَها اللّهُ الجليلُ لأهل الإيمان، وسجَّلَتها سورةُ الأنفال.

وُجودُ الرّسولِ المُجتبى بينهم، أمانٌ مِنَ العذابِ

الحادي عشر: إعلانُ اللّه الجليلِ الكريم في سمع الزّمان والمكان أنّه ما كان ليُعذّبَ المشركين في مكّةَ، ورسولُ اللّه بين أظهرهم، وهذا

من أعظم المِنن الرّبّانيّة وأعظم العطاءاتِ الإلهيّةِ الّتي خصّ بها نبيَّه محمَّدًا ﷺ، وهو نَفَلٌ مِن أكرم الأنفال، لو أنَّ قريشًا خفَّفَتْ من غلواء كفرها، ونظرَتْ بعين العقلِ في دعوة الإسلام: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ٣٣﴾ [الأنفال: 33].

دعوة الله الكافرين للإنابةِ إلى سَبيل المؤمنينَ المُنجيَةِ

الثّاني عشر: دعوةُ اللّه تعالى المتجدّدةُ لأهل الكفرِ للانتهاء عنِ الكفر والشّرك، واعتناقِ عقيدةِ التّوحيدِ، وتحفيزهم بالمغفرة وإدخالِ الجنّاتِ منَ النَّفَل العظيم الّذي حفلَت به سورةُ الأنفال، وهي دعوةٌ مفتوحةٌ عابرةٌ للقارّات، نافذةٌ في الأزمان، تتحقّقُ نتائجُها كلّما ثابَ النَّاس إلى رشدهم، وآبوا إلى ربّهم: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُواْ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ ٣٨﴾ [الأنفال: 38]، فأبوابُ التّوبة والمغفرة مفتوحةٌ لجميع النّادمين الأوّابين المُنيبين.

تِبْيانُ أحكامِ توزيعِ الغَنائم، بالعَدل والتّكافُل والمُساواةِ

الثّالث عشر: الغنائمُ الّتي أنعمَ اللّهُ الكريمُ الوهّابُ بها على فريق المؤمنين في غزوة بدرٍ منَ الأنفال المادّيّة الّتي أنعمَ اللّهُ الكريمُ على المؤمنين بها، وشكرُ اللّه عليها واجبٌ لزامٌ، فلولا تمكينُ اللّه وعَونُهُ ونَصرُهُ لهم ما ذاقوا لها طعمًا، والأفضلُ من نعمة الغنائم نعمةُ حُسنِ تقسيمها، والمجتمعُ المسلمُ قائمٌ على العدلِ والتّكافلِ والتّراحمِ والتّعاونِ، وعندما يسعدُ ذوو القربى واليتامى والمساكين وأبناءِ السّبيل فيه، فإنّ البهجةَ والسّعادةَ تعمُّ جميعَ أبناءِ المجتمع، وفي مقدّمتهم رسولُ الأمّةِ الرّؤوف الرّحيم: ﴿۞وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ٤١﴾ [الأنفال: 41].

قَدَرُ اللهِ بوُقوعِ الحَرْبِ حِكْمَةٌ، ونَصْرُه أكْبَرُ غَنيمَةٍ

الرّابع عشر: تقديرُ اللّهِ العليمِ منذُ الأزلِ وقوعُ هذه المعركة هو من أعظم الأنفالِ الّتي جناها المسلمون من خلالها، وقد ذكَرَ سبحانه أنّه أوقعها بتدبيره المباشر، ولو أنَّ المؤمنين تواعدوا مع المشركين

لاختلفوا في الميعاد، وتقليلُ المشركين في أعين المؤمنين، ورؤيا الرّسول ﷺ المُبشّرة له بكلّ خيرٍ الّتي استيقظَ بعدها مُستبشِراً بالنّصر المبين، وبيانُ اللّه في آيات السّورةِ أنّه هو الّذي أصاب مقاتلهم، وأنَّ الرّميَ رميُه والتّدبيرَ تدبيرُه، كلُّ أولئك مِن أعظم الأنفالِ والعطايا الّتي سَعِدَت بها السّورة: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال: 17]، ﴿وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَٱخْتَلَفْتُمْ فِى ٱلْمِيعَٰدِ وَلَٰكِن لِّيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ [الأنفال: 42]، ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًاۖ وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ﴾ [الأنفال: 43]، ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًاۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤٤﴾﴾ [الأنفال: 44].

وجملةُ القول: إنّ كلَّ ما سعِدَت به سورةُ الأنفال من بدايتها إلى ختامها من آياتٍ وموضوعاتٍ، هي في جملتها نِعَمٌ جسيمةٌ، وعطاءاتٌ ربّانيّةٌ عظيمةٌ متنوّعةٌ روحيّةٌ وعلميّةٌ ومادّيّةٌ ومجتمعيّةٌ، وما كان المؤمنون ليتعرّفوا عليها لولا غزوةُ بدرٍ الكبرى الّتي جعلها اللّهُ محطّةً زمنيّةً مهمّةً في تاريخ الرّسالة الإسلاميّة، ولو أنّنا تتبّعنا كلَّ آيةٍ من آيات هذه السّورةِ الجليلةِ لألفَيناها تفيضُ بنوعٍ من أنواع العطايا الرّبّانيّة الكبيرة، البانيَةِ للرّوح الإيمانيّة، المثبّتةِ للإيمان، الغارسةِ للأخلاق، المعلّمةِ لشؤون الحرب، المؤرّخةِ للمعركة الفُرقانيّة، المسجّلةِ لأحداثها المتفرّدة.

ويجدُ القارئُ المتدبِّرُ أنَّ اسمَ الأنفال المُشتَقَّ منَ العطاء والإعطاء هو أدلُّ الأسماءِ على هذا الملمحِ العظيمِ من ملامح السّورة الّذي أبرزَته وجَلَّتهُ إلى الواقع، وأوضحَته في الأذهان غزوةُ بدر الكبرى وملابساتُها المتنوّعة الّتي هي المحورُ العامُّ لبناء السّورة.

محورُ السّورةِ وموضوعاتها:

من خلال دراسةٍ شاملةٍ مُستَقصيةٍ لأهمِّ الموضوعاتِ الّتي تناولتها سورةُ الأنفال، يتبيّنُ أنّ المِحوَرَ العامَّ للسّورة هو: الحديثُ عَن غزوة بدرٍ الكبرى، وأسبابِ النّصرِ فيها، وصفاتِ المؤمنين المنصورين، وتذكيرِ أهلِ الإيمانِ بنعم اللّه السّوابغ عليهم.

وهذا المحورُ المتعلِّقُ بأسباب النّصرِ في بدرٍ وملابساتِ المعركة، وبيانِ أنَّ النّصرَ الحقيقيَّ هو من عند اللّه العليِّ العظيمِ تقديرًا وتحقيقًا، يجدُ قارئُ سورة الأنفال أنّ

أحـداثُ غـزْوةِ بَـدْرِ الـكُـبرى، وحَيْثيّاتُ النَّصْرِ والتّمكينِ

جميعَ الموضوعات الّتي تناولتها السّورةُ تدورُ حولَ هذا المِحورِ العامِّ، وتَلتَفُّ حولَه، ويَحسُنُ في هذه التّقدمةِ للسّورة أن نشيرَ إلى أبرز الموضوعاتِ بيانًا لالتفافها حولَ المحور، وتنبيهًا إليها؛ لأنَّ العِلمَ بالغرض يُساعدُ القارئَ المتدبّرَ على الوقوف على كثيرٍ منَ النّكاتِ واللّطائفِ البيانيّةِ والاختياراتِ اللّغويّةِ الّتي جاء عليها النّظمُ الجليلُ في هذه السّورة.

الموضوع الأوّلُ: تحديدُ الأنفال وكيفيّةُ تقسيمها يعودُ شأنها إلى اللّه ورسوله: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بَيْنِكُمْۖ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ١﴾ [الأنفال: 1].

الموضوع الثّاني: صفاتُ المؤمنين المؤهّلين لنصر اللّه الجليل: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنفال: 2] .... إلى قوله تعالى: ﴿لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ٤﴾ [الأنفال: 4].

الموضوع الثّالث: وصفَ ظروفَ خروجِ المسلمين إلى المعركة بصحبة النّبيّ ﷺ: ﴿كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ﴾ [الأنفال: 5] إلى قوله تعالى: ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ٨﴾ [الأنفال: 8].

الموضوع الرّابع: وصفَ جملةً من عطاءات اللّهِ تعالى للمؤمنين في أثناء المعركة: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ﴾ [الأنفال: 9] إلى قوله تعالى: ﴿عَذَابَ ٱلنَّارِ ١٤﴾ [الأنفال: 14].

الموضوع الخامس: توجيهاتٌ ربّانيّةٌ للمؤمنين المقاتلين، وبيانُ أنَّ النّصرَ نصرُ اللّه، والرّميَ رميُه، والتّدبيرَ تدبيرُه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ﴾ [الأنفال: 15] إلى قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ١٩﴾ [الأنفال: 19].

الموضوع السّادس: طاعةُ اللّه ورسوله، والاستجابةُ لهما، والأخذُ

بأسباب التّقوى عواملُ استحقاقِ النّصرِ وجسرٌ لبلوغه: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ [الأنفال: 20] إلى قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ۝٢٩﴾ [الأنفال: 29].

الموضوع السّابع: تذكيرُ النّبيِّ ﷺ بنصره في الهجرةِ النّبويّةِ، وذِكرُ عنادِ قُرَيشٍ وشدّةِ كُفرِها واستحقاقِها لأنْ تُجابَهَ بالقتال، وبعذابِ اللّهِ المنتَقمِ الجبّارِ: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ [الأنفال: 30] إلى قوله تعالى: ﴿وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ۝٤٠﴾ [الأنفال: 40].

الموضوع الثّامن: كيفيّةُ تقسيمِ الغنائم، وبيانُ تدبيرِ اللّهِ العليمِ الحكيمِ في إدارة المعركةِ وفقَ علمه الأزليّ ﴿۞وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ﴾ [الأنفال: 41] إلى قوله تعالى: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ۝٤٤﴾ [الأنفال: 44].

الموضوع التّاسع: توجيهاتٌ ربّانيّةٌ للأخذ بأسباب النّصر، ووصفٌ لانهزام الكافرين: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً﴾ [الأنفال: 45] إلى قوله تعالى: ﴿لَيْسَ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ۝٥١﴾ [الأنفال: 51].

الموضوع العاشر: تذكيرُ الكافرين المكذّبين من قريشٍ بمَصيرِ المُكذّبين السّابقين، ووصفهم بأنّهم شرُّ الدّوابِّ لتعطيلهم وسائلَ التّعقُّلِ والإدراكِ: ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ [الأنفال: 52] إلى قوله تعالى: ﴿فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ۝٥٧﴾ [الأنفال: 57].

الموضوع الحادي عشر: حِزمَةٌ ثانيةٌ منَ التّوجيهاتِ الرّبّانيّة مساعدةٌ لتحقيق النّصرِ في معارك العقيدةِ بشكلٍ عامٍّ: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً﴾ [الأنفال: 58] إلى قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ۝٦٦﴾ [الأنفال: 66].

الموضوع الثّاني عشر: معالجةُ موضوعِ الأسرى، ودعوتُهم إلى الإيمان باللّه ورسوله، وتشجيعُ أهل الإيمانِ قاطبةً على الهجرة والجهاد بالمال والنّفس: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ﴾ [الأنفال: 67] إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ۝٧٥﴾ [الأنفال: 75].

من خلال هذا العرضِ الموجزِ لجميع آياتِ السّورةِ والموضوعاتِ الّتي تناولتها، يتَبَيَّنُ لقارئ الذِّكرِ المُتَدَبِّر كيف أنَّ جميعَ هذه الموضوعات جيءَ بها في مواضعها خادمةً للمحور العامِّ الّذي جاءَت سورةُ الأنفال تُعالجُه وتُثَبِّتُه في قلوب المؤمنين، الّذي مُفاده أنّ النَّصرَ في غزوة بدرٍ هو تقديرُ العزيزِ العليمِ وتدبيرُه، وبيانُ أهمِّ مقوّماتِ النّصرِ في معارك العقيدةِ بشكل عامٍّ.

الفرائدُ اللّفظيّةُ في السّورة:

﴿ٱلشَّوۡكَةِ﴾ في قوله: ﴿وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيۡرَ ذَاتِ ٱلشَّوۡكَةِ تَكُونُ لَكُمۡ﴾ [الأنفال: 7]، وهي لفظٌ مَسوقٌ من جِنسِ ما دارَت حولَه السّورةُ من موضوع الغزو والجهاد، فجاءَت كنايةً عن أدواتِ الحربِ منَ السّلاحِ والقوّةِ، وتصويرًا لِمعاني الحِدّة والشِّدّة المادّيّةِ والمعنويّةِ، الّتي تستغرقُ حالَ القِتال، وتُشحَنُ بها نفوسُ المُقاتِلين تشبيهًا بالشّوكَةِ الحادّةِ النّافِذة في هيئتِها وأثَرِها.

﴿زَحۡفًا﴾ في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحۡفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلۡأَدۡبَارَ ١٥﴾ [الأنفال 15]، وهذا اللّفظُ منَ المفردات الّتي تَسَمَّت بها المعاركُ وتخصّصَت بها، لِما في الزّحفِ من معنى المُضيّ الّذي يكون منَ المقاتِل نحو عدوّه، ولِما فيه من معنى البُطءِ الّذي يكون في الزّاحِف، فكذلك الغازيّ الحربيّ يكون مُترصِّدًا مُحترِسًا لِخطواتِه تجاه عدوِّه، فلا يندفعُ ولا يتهوّرُ، فيستبطِئ ولا يتعجّل، وسُمّيَ الجيشُ الكثيفُ بالزّحفِ؛ لأنّ كثرتَه العدديّةَ تُبطِئُ حركةَ جنودِه، فكان هذا اللّفظُ الفريدُ في السّورة مُقترنًا بهيئةِ المُقاتِل حالَ قِتالِه، وهيئةِ الجيش حالَ تَقدُّمِه وإقبالِه[1].

﴿مُتَحَيِّزًا﴾ في قوله: ﴿وَمَن يُوَلِّهِمۡ يَوۡمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفٗا لِّقِتَالٍ أَوۡ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٖ فَقَدۡ بَآءَ بِغَضَبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأۡوَىٰهُ جَهَنَّمُۖ﴾ [الأنفال 16]، فلفظُ التّحيّز هو من فرائدِ هذه السّورة، وهو يدلُّ على سلوكٍ مُتكرّرٍ في أفعال المُقاتلين، وهو انضمامُ المُقاتِل إلى حيّزِ الظّهيرِ والمَدَدِ في الجيش إذا أعوَزَه ذلك واضطرَّ إليه، وقدِ انسبكَ اللّفظُ في تركيب﴿مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٖ﴾؛ ليدلَّ على أنّه يَفيءُ وينحازُ إلى الفِئة الّتي تُعضِّده وتُعينُه على عدوّه، وليس يَفيءُ فِرارًا أو جُبنًا[2].

﴿مُكَآءٗ﴾ في قوله: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمۡ عِندَ ٱلۡبَيۡتِ إِلَّا مُكَآءٗ وَتَصۡدِيَةٗۚ فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ ٣٥﴾ [الأنفال 35]، والمُكاءُ لفظٌ على وِزانِ الأصواتِ كالبُكاءِ والنّواحِ، وهو الصّفيرُ بالفم، وفرادَةُ اللّفظِ مَنوطَةٌ بموضوع السّورةِ في الغزو والقِتال، حيثُ إنّ المُكاءَ والتّصديةَ (الصّفير والتّصفيق) كان السّببَ في نزعِ أيديهم عن ولايةِ البيتِ الحرام، وإيعادِهم بالعقوبةِ والنّكالِ، وهو من مُستَتبعاتِ قتالِهم في غزوةِ بدرٍ ومواجهتِهم بالشّدّة

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (زحف).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (حوز)، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (حيز).

والحزم، فكأنّه أتى بلفظِ المُكاءِ ليصِفَ هيئتَهم وحالَهم في صلاتِهم عند البيتِ الحرامِ من عدم الاكتراثِ والتّعقّل لِحُرمةِ الصّلاةِ والمسجدِ الحرام، حتّى راحوا يُصوّتون فيها بالتّصفير والتّصفيق، كما يُصفِّرُ طائرُ المُكاءِ بعفويّةٍ وعدمِ اكتراثٍ. وهذا اللّفظُ يدلُّ على التّساهُلِ والاستخفافِ الّذي يُقابِلُ معنى الانضباطِ والحزمِ في أعرافِ الغزو وأدبيّاتِ الجهادِ[1].

﴿فَشَرِّدْ﴾ في قوله: ﴿فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي ٱلْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [الأنفال 57]، وقد نزلتِ الآيةُ في أولئك النّاقِضين للعهد، إذا تمّ الظّفَرُ بهم أن يُنزِلَ بهم التّشريدَ والإبعادَ الّذي يشتّتُهم، ويردعُ الآخرين عن خيانةِ العهد معه، فسيقَ هذا اللّفظُ الفريدُ ليدلَّ على أتمِّ تطبيقٍ لِمبدأ السّورةِ العامِّ في البأسِ وقوّةِ العزمِ في مُعاملةِ العدوّ، ولا سيّما إذا خانَ وغدرَ.

الأنساقُ التّعبيريّة الّتي تميّزت بها السّورة:

التّراكيبُ المختصّةُ بالسّورة دون سِواها، لَها تَعلّقٌ بمَوضوعاتِها الأساسيّة

هنالك نماذج للتّعبير، استقلّت بها سورة الأنفال، دون باقي سور القرآن الأخرى، مثل: ﴿ٱلْأَنفَالِ﴾، ﴿ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾، ﴿ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ﴾، ﴿مُرْدِفِينَ﴾، ﴿خُمُسَهُۥ﴾، ﴿بِٱلْعُدْوَةِ ٱلدُّنْيَا﴾ ﴿بِٱلْعُدْوَةِ ٱلْقُصْوَىٰ﴾، وهذه الأنساقُ التّعبيريَّةُ لم تأتِ في سورةٍ أخرى، وجميعُها له ارتباطٌ بمقاصد السّورةِ ومضامينها، فـ﴿ٱلْأَنفَالِ﴾ تتضمّنُ عرَضَ الدّنيا الّذي أُريدَ منهم ألّا يتنافسوا عليه، و(ذاتُ البيْن) كنايَةٌ عن مُقتضى إفراغِ قلوبهم من عرضِ الدّنيا، وهو امتلاؤُها بالألفةِ واجتماعِ العزمِ والكَلِمة، و﴿ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ﴾ تركيبٌ يُعبِّرُ عن ضَراوَةِ القِتالِ وبأسِه، و﴿مُرْدِفِينَ﴾ وصفٌ للملائكةِ في تتابُعِهم لتحقيق نَصرِ المؤمنين والذَّودِ عنهم؛ ليزولَ عنهم خوفُهم من عدم استعدادِهم وقِلَّةِ

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (مكو)، والرّاغب، المفردات: (مكا)، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (مكو).

عددِهم، و﴿خُمُسَهُۥ﴾ هو مِقدارُ مَصارِف الغنائم بعد إحرازِهم لها، و﴿بِٱلْعُدْوَةِ ٱلدُّنْيَا﴾ ﴿بِٱلْعُدْوَةِ ٱلْقُصْوَىٰ﴾ تحديدٌ لِجهَتَي المسلمين والكافرين في مواقِع القتال. وعليه: فجميعُ تلك التّراكيب تعلّقَت تعلُّقًا مباشرًا بموضوعات السّورةِ الرّئيسةِ منَ الأنفال، وأحكامِ مصارِفها، والقتالِ وبأسِه، والحربِ وأعوانِها، والمعاهداتِ وجزاءِ النّاقضين لها.

بيانُ المناسبةِ بين السّورة وسابقتها:

دَعْوَةُ سورتي الأعراف والأنفال، لِنَبْذِ الأهواءِ، واطّراحِ الأطْماعِ المُرْدِيةِ

في سورةِ الأعرافِ بدأ السّورةَ برفعِ الحرجِ عنِ النّبيّ ﷺ، وتصفيةِ صدرِه لينذرَ ويُذكِّرَ، وفي سورةِ الأنفال بدأ ببيانِ حكمِ الأنفالِ لقومه؛ ليزولَ الحرجُ من قلوبهم بسببِ التّنازع، ويأتلفوا على حكم اللّهِ ورسولِه.

وفي سورةِ الأعرافِ ذكرَ قصّةَ الأممِ مع أنبيائهم، وذكرَ حالَ قومِ موسى معه في الامتحانِ والابتلاءِ، وفي سورةِ الأنفالِ ذكرَ قِصّةَ النّبيِّ ﷺ وحالَ قومِه معه في مواقفِ الامتحانِ كذلك.

وفي سورةِ الأعراف ذكَرَ أنَّ اتّباعَ الهوى والرّكونَ إلى عرَضِ الدّنيا والإخلادَ إلى الأرضِ سببُ الهلاكِ والبوار، في قوله: ﴿يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُۥ يَأْخُذُوهُۚ﴾ [الأعراف: 169]، وفي قوله: ﴿وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُۚ﴾ [الأعراف: 176]، وفي سورةِ الأنفال حذّرَ منَ الخصومةِ على الدّنيا والتّنازعِ على غنائمها، وصرّحَ بعرَضِ الدّنيا كما صرّحَ بعرَضِ الأدنى في الأعراف، فقال جلّ شأنُه: ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَۗ﴾ [الأنفال: 67].

وفي سورةِ الأعرافِ ذكَرَ امتحانَ آدمَ عليه السلام في الجنّة، وامتحانَ قومِ نوحٍ وهودٍ وصالحٍ وشعيبٍ ولوطٍ، وافتراقَ الأممِ إلى أصحاب الجنّةِ وأصحاب النّارِ، وامتحانَ بني إسرائيل مع موسى، وامتحانَ

أهلِ التّوراةِ والإنجيل بما يجدونه من وصفِ الرّسولِ النّبيِّ الأميِّ، فمنهم كافِرٌ ومنهم مؤمِنٌ، وامتحانَ الّذي آتاه اللّهُ تعالى آياتَه فانسلخَ منها، وامتحانَ الّذين أُخِذَ عليهم ميثاقُ الكتابِ ألّا يقولوا على اللّه إلّا الحقّ فأخذوا عرَضَ الأدنى، وامتحانَ بني آدمَ جميعًا بالعهد الّذي أخذَه اللّهُ تعالى عليهم في عالَم الذَّرِّ، وأشهدَهم على أنفسِهم بالإيمان، وامتحنَهم جميعًا بأن يتّقوا اللّه، ويتّقوا فتنةَ الشّيطان، وختَمَ السّورةَ بأنّه لن يُفلِحَ في هؤلاءِ جميعًا إلّا الصّالحون الّذين يتولّونَ اللّه فيتولّاهم اللّهُ سبحانه: ﴿إِنَّ وَلِيِّۦَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ ۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ١٩٦﴾ [الأعراف: 196]، ثمّ في سورةِ الأنفالِ ذكرَ امتحانَ أهلِ بَدرٍ بإخراجهم للقتالِ في بدرٍ، وإلزامِهم حكمَ اللّهِ ورسولِه في الأنفال، وتحريضِهم على إفراغِ قلوبهم مِن أعراضِ الدّنيا ووقايةِ أنفسِهم من فتنةِ الأموالِ والأولادِ، وبَذلِ أنفسِهم وأموالِهم في الهجرةِ والجهادِ وإظهارِ الدّينِ، فكانَت عاقبةُ امتحانهم خيرًا ونصرًا وثباتًا كعاقبةِ آدمَ عليه السلام، وعاقبةِ أصحابِ الجنّةِ، وعاقبةِ الأمّةِ العادلةِ من قوم موسى، وعاقبةِ الأمّةِ العادلةِ في الخلق: ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ﴾ [الأعراف: 181]، فاجتمعَ هؤلاءِ جميعًا - في الأنفالِ والأعرافِ - في حُسنِ الحالِ والمآلِ وولايةِ اللّه لهم.

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بَيْنِكُمْۖ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ١﴾ [الأنفال: 1]

مُناسَبَةُ أوَّلِ السّورَةِ معَ آخِرِ السّورَةِ قَبْلَها:

عَلاقَةُ عُبوديّةِ المَلائِكَةِ بدَعْوةِ المؤمنين لِتَطْبيقِ أحْكامِ الأنفالِ وفقَ مُرادِ اللهِ

لَمّا وصَفَ اللّهُ عِبادَه الملائكةَ بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ۩ ٢٠٦﴾ [الأعراف: 206] في نهاية سورة الأعراف، وكانَ هذا الوصفُ عِبارةً عن خضوعِهم الدّائم ورُضوخِهم التّامِّ لأمرِ اللّهِ وحُكمِه وقضائِه، فهُم لا يَعصونَ اللّه ما أمَرَهُم، ويَفعلونَ ما يُؤمَرون، ناسَبَ ذلكَ ما هو هاهنا في مُفتَتَحِ سورةِ الأنفال، وهو جوابُهم ببيانِ حُكمِ الأنفالِ الّتي سألوا عنها، والّتي تنازعوا فيها، فكأنّه بهذا البيانِ الافتتاحيِّ يُعلِّمُهم ويُحفِّزُهم أن يَحتَذوا - في قبولِه والرُّضوخِ لِحكمِه والتّسليمِ لمرادِ اللّهِ ورسولِه فيه - حَذوَ الملائكةِ في أوصافِهم الكاملَةِ مع اللّهِ ﷻ في تسليمِهم له، وإذعانِهم لإرادتِه، ودوامِهم على عبوديّتِه، وإردافُ تلك الأحكامِ بعد أوصافِ الملائكةِ مبالغةٌ في التّحريضِ والإغراءِ على قبولِ الحكمِ معَ تَضمينِه معنى التّخويفِ والتّحذيرِ؛ أي: كونوا كهؤلاءِ في تَعامُلِكم مع أحكامِ اللّه، وإلّا فلا يُعبَأُ بكم، فالّذين عندَ اللّه لا يستكبرون عن عبادتِه ويسبحونه!

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلْأَنفَالِۖ﴾: جمعُ النّفَل (بتحريكِ الفاء)، وأصلُه: زيادةٌ طيّبةٌ تُنال، وغَلَبَ إطلاقُه على الغنيمةِ والهِبَة، وجماعُ مَعنَى النَّفَل والنّافِلَة: ما كانَ زيادَةً على الأصل، وسُمّيتِ الغنائمُ أنفالًا؛ لأنّها

مما زادَه اللّهُ تعالى على هذه الأمّةِ، ففُضِّلوا به على سائرِ الأممِ الّتي لم تُحلَّ لهم الغنائمُ [1].

2) ﴿ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾: (ذات) مؤنّثُ (ذو) الّذي هو بمعنى صاحب، و(ذاتَ) - في هذا الموضع - يُرادُ بها نفسُ الشّيءِ وحقيقتُه، وأصلُ البَيْن: مسافةُ ما بين الشّيئين، وهي الفاصِلةُ والواصِلَةُ للطّرفين[2]، ومعنى التّركيب: حَقيقَةُ وصلِكم، والحالةُ الّتي بينكم؛ أي: راعوا الأحوالَ الّتي تجمعُكم منَ القرابةِ والوُصلةِ والمودّةِ[3].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

جَوابُ السّائلين عَنِ الأنفالِ، بِضَرورَةِ التِزامِ الأحْكامِ، بَعيدًا عَنِ الطّمَعِ والخصامِ

يسألُك أصحابُك - أيّها النّبيُّ ﷺ - عنِ الغنائمِ يومَ (بَدرٍ)، ما مآلُها؟ ولِمَن تكون؟ وكيف تُقسَّم؟ قل - أيّها الرّسولُ - مُجيبًا سؤالَهم: الأنفالُ حكمُها مُختصٌّ باللّه ورسوله، يأمرُ اللّهُ بقِسمتها على ما تقتضيه حكمتُه، ويمتثلُ الرّسولُ أمرَ اللّهِ فيها، وليس الأمرُ في قِسمتها موكولًا إلى رأيِ أحدٍ، وإذا كان الأمرُ كذلك فاتّقوا اللّه، واجتنبوا ما أنتم فيه من شِجارٍ ونِزاعٍ وخِلافٍ، فإنّ هذا يُغضِبُ اللّه تعالى، ولا سيّما في حالةِ الحرب، وأصلِحوا الحالَ بينكم، والتزموا طاعةَ اللّه ورسوله إن كنتم مؤمنين؛ فإنّ الإيمانَ يدعو إلى طاعةِ اللّهِ ورسولِه[4].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دَلالَةُ بَراعَةِ الاسْتهلالِ، باسْتِعْراضِ الجَوابِ على السّؤالِ:

موقع القضيّةِ المسؤولِ عنها في نفوسِ السّائلين وتعاملهم

في افتتاحِ السّورةِ بفعلِ السّؤالِ الصّريحِ براعةُ استهلالٍ في

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (نفل)، والسّمين، عمدة الحفّاظ: 209/4، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (نفل).

(2) ولذا أُطلِقَ البَيْنُ على الفِراقِ والوَصل، وقالوا: إنّه منَ الأضداد؛ لأنّ المسافةَ نفسها فصلٌ، لكنّها هي مَوصِلٌ للطّرفين. ينظر: جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (بين).

(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، والجوهريّ، الصّحاح، والرّاغب، المفردات: (بين)، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 500/2، والسّمين، عمدة الحفّاظ: 52/2، وعضيمة، دراسات لأسلوب القرآن: 676/9، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (بين).

(4) حجازي، التّفسير الواضح: 804/1، وجماعة من العلماء، المنتخب، ص: 241، والتّفسير الميّسر: 177/1، والمختصر: 177/1، والوسيط - مجمع البحوث: 1581/3.

توصيفِ المسؤول عنه، من حيثُ كونُه قضيّةً حائرةً في أذهان السّائلين، ومادّةَ جَدَلٍ ونزاعٍ في صفوفِ الحاضرينَ يومئذٍ، فصدّرَ الكلامَ بلفظِ ﴿يَسْـَٔلُونَكَ﴾؛ ليدلَّ على موقعِ القضيةِ المتمكّنِ منَ النّفوس، ويدلَّ على عِظَمِ القضيّةِ في ذاتِها، وأنّها حقيقةٌ بالسّؤالِ عنها والتّنقيبِ حولها.

نكتة استعمال الفعل ﴿يَسْـَٔلُونَكَ﴾ دون غيره:

عبّر بـ﴿يَسْـَٔلُونَكَ﴾ دون (يستفتونك)؛ ليدلَّ على أمرين: الأوّل: العَجَلَةُ في معرفةِ الحكمِ، فإنّ السّؤالَ استدعاءٌ لحضورِ الشّيءِ وحصولِه بين يدي سائلِه، وطالبُ الشّيءِ مُستعجِلٌ له، والمُستدعي شيئًا مُستشرِفٌ ومتشوِّفٌ لجوابِ سؤاله، والمُستشرِفُ لا يتمهّل، بخلاف الاستفتاء، فإنّه لا يتّجهُ بأصلِ معناه إلى هذا المَنزَع، بل هو متّجهٌ إلى تجليةِ غموضٍ يكتنِفُ الشّيءَ؛ ليتقوّى العِلمُ به في ذِهنِ المُستفتي، ويَشتدَّ كالفتَى الخالِص. الثّاني: التّعبيرُ بالسّؤال يفيدُ انقطاعَ السّائِل عنِ المسؤولِ عنه انقطاعًا أصيلًا عن كينونَتِه، فهو طلَبٌ لأساسِ الحكمِ أو ذاتِ الشّيءِ، وأمّا الاستفتاءُ فهو طلبٌ لكشفِ ما له أصلٌ معهودٌ اكتنفَه غموضٌ وجهالةٌ عند السّائل في فروعِه التّابعةِ له.

طالبُ الشّيءِ مُستعجِلٌ له، والمُستشرِفُ توّاقٌ لمعرفة ما يَجْهَل

إيثارُ صيغةِ المضارعِ في قوله: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ﴾:

التّعبيرُ بصيغةِ المضارع في قوله: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ﴾ الغرضُ منه استدعاءُ الصّورةِ المتواليةِ للفعلِ، فضميرُ الجمع يدلُّ على أنّ السّؤالَ صدَرَ عن عدَدٍ، وصيغةُ المضارعة تصوّرُ حالةَ التّناوبِ في صدورِ السّؤالِ منهم، فهذا يسألُ وهذا يسألُ، فالفعلُ بينهم مُتوالٍ ومتجدّدٌ بتَوارُدِ السّائلين حول الغرضِ الواحدِ، وصيغةُ المضارع تدلُّ على أنّ الحدثَ لم يكن عارضًا سُئِل عنه، وانقضى زمنُه سريعًا، بل استمرّ إلحاحُهُ في مَواجيدِهم حتّى استتمّوا بيانَه،

صيغةُ المضارعة تصوّرُ حالةَ التّناوبِ في صدورِ السّؤالِ منهم

واستكمالُ المعلوماتِ يقتضي تَدرُّجَ الذّهنِ في استيفاء أجزائها، وهذا التّدرّجُ مَلحوظٌ بقوّةِ المُضارَعة، وفائدةُ ذلك: أن "يَقعَ التّسليمُ فيها منَ النّاس"[1] في كلِّ عصرٍ، فكأنّ فِعلَ السّؤالِ ما زالَ جاريًا في كلِّ جيلٍ، ويُجابُ عليهم بجوابِه كلَّ حين.

دلالةُ إضمارِ فاعل ﴿يَسْـَٔلُونَكَ﴾:

تَعيُّن السّائلين وشهرتهم، سبب في إيثار التّعبير بالضّمير

وُضِعَ المضمرُ موضِعَ المظهَرِ، فلم يقُلْ: يسألُك النّاسُ؛ لِشهرةِ السّائِلين وتَعيُّنِهم، وهُم فئةٌ منَ الصّحابةِ ﷺ، الّذين لهم تَعلُّقٌ بالغنائِم، فلمّا كان السّائلُ عن هذا السّؤالِ معلومًا مُعيَّنًا وقتَ نزولِ الآيةِ، انصرفَ هذا اللّفظُ إليهم مِن غيرِ التّصريحِ بهم؛ لِتَوَفُّرِ العنايةِ على إظهار المسؤولِ عنه، وهو حُكمُ الأنفالِ، دون فاعِل السّؤالِ، فأظهرَ ما المقامُ أحوجُ إلى إظهارِه من غيره.

علّةُ اتّصالِ الفعلِ بكاف الخطاب في ﴿يَسْـَٔلُونَكَ﴾:

الرّسول مشرّعٌ بأمر الله، وهو المبيّن لأحكامه أمرًا ونَهْيًا

في اتّصالِ الفعلِ بالضّميرِ الواقعِ مفعولًا - وهو ضميرُ الرّسولِ ﷺ - إسنادُ فِعلِهم إلى جِهةِ الحكمِ والفصلِ فيه والجوابِ عليه، وعِلّةُ ذلك تَخصيصُ المفعولِ بالفعلِ وتَعيينُه به دون غيرِه؛ لاعتقادِهم خُصوصيّتَه ﷺ في الحُكمِ فيما شَجَرَ بينهم، والرّدِّ إليه فيما تنازَعوا فيه، والبيانِ مِنه إليهم فيما خَفيَ عنهم حُكمُه، ولو قيل: (يسألونَ عنِ الأنفال) لكانَ فيه إطلاقٌ للمفعولِ، وإعراضٌ عنه في غيرِ المحلِّ، وخلافُ المقتضَى الواجِب عليهم، وهو وجوبُ رفعِ المسائلِ كلِّها إلى رسول الله، فلو كان لكانَ فيه إخلالٌ وإقصارٌ في أسلوبِ التّعاطي الأمثَل مع مَنصِب الرّسالةِ المُقَدَّس.

سرُّ التّعبيرِ بحرف الجرِّ ﴿عَنِ﴾، وفائدة وروده في السّياق:

إرادة السّائلين منوطةٌ بشرع الله الحكيم، وسُنّةِ رسولِه الكريم

تعدّي الفِعلِ ﴿يَسْـَٔلُونَكَ﴾ بـ﴿عَنِ﴾ دالٌّ على أنّهم سألوا معرفةَ الحكمِ، ولم يَسألوا الأنفالَ نفسَها أن يُعطيَها لهم، ولو كان غرضُهم

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 268/5.

استِعطاءَ الأنفال لَتَعدّى الفِعلُ بنفسِه، فيُقال: يَسألونك الأنفالَ، وفي تعديَةِ الفِعل بالجارّ إشارةٌ إلى أنّ قلوبَهم مُتعلِّقةٌ بحكمِ اللّهِ ورسولِه، دائرةٌ معه حيث دار؛ لأنّ سؤالَهم عن حُكم الشّيءِ دون سؤالِهم عنِ الشّيء نفسِه - برهانٌ على جاهِزيّتِهم للتّسليم بما سيكون من قِسمَةٍ، وأمارةٌ على تَمَكُّنِ وازِعِ الرِّضا باللّه ورسولِه على وازِعِ الطّمعِ في المَغانِم والجوائز.

نكتةُ استهلالِ الجوابِ بفعل الأمر ﴿قُلِ﴾:

استهلالُ الجوابِ بفعلِ الأمرِ ﴿قُلِ﴾ في قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ إيذانٌ بتوقيفيّةِ الأحكامِ، وأنّها ثابتةٌ بأصل الوحي؛ فالسّؤالُ كان إليه ﷺ، لكنّ الجوابَ ليس منه، بل من لدن حكيمٍ عليمٍ، وفيه إشهادٌ على وثاقةِ الرّسول ﷺ، وتسجيلٌ بثبوتِ نبوّتِه ورسالتِه، ودحضٌ لِمزاعِم تعلّقِ الافتراءِ والاختلاقِ بالقرآنِ العظيم، وإبطالٌ لجميع وجوهِ الرّيبةِ والظّنِّ أن تتعلّقَ بنصِّه الحكيم.

إيذانٌ بتوقيفيّةِ الأحكامِ، وأنّها ثابتةٌ بأصل الوحي

سرُّ إضمارِ المخاطَبِ في الفعل ﴿قُلِ﴾:

أحدُ دواعي الإضمار عدمُ تعلُّقِ مقاصِد الكلامِ بالمضمَر، فإذا انضمّ لذلك شُهرةُ المضمَرِ وعدمُ التباسِ معرفتِه على السّامعِ تَعيّنَ الإيجازُ بعدمِ إظهاره، فيصيرُ الإظهارُ حينئذٍ كالحشوِ الزّائدِ الّذي لا طائلَ من معرفتِه؛ إذ هو تحصيلُ حاصلٍ وتوضيحُ واضحٍ، فيخلو منه كلامُ الحكيم، فكيف بكلامِ أحكمِ الحاكمين، والغرضُ من ذلك: اختصارُ وقتِ السّامعِ وإدخالُهُ مُباشرةً على ما يلزمُه ويَشغَلُه، لِتَتَمحّضَ هِمّتُه في الغرضِ والغاية، ولا تتوزّعَ أشتاتًا، فيفوّتَ منه مالا ينبغي فواتُه.

عدمُ تعلُّقِ مقاصِدِ الكلامِ بالمضمَرِ، أوجَبَ إضمارَه

إطلاقُ القول وعدمُ تقييده بالمخاطَبين:

لم يُذكَرْ مُتعلَّقُ القولِ؛ أي: لم يقُل في الجواب: (قل لهم)؛ لأنّه (أي: المُتَعلَّق) غيرُ مخصوصٍ بمقولِ القول؛ لأنّ مَقولَ القولِ حُكمٌ

شريعةُ اللهِ صالحةٌ لكلّ زمانٍ، ومُمْكِنة في كلّ مكان

مُطَّرِدٌ، لا يَتعيَّنُ للسّائلينَ المُعاصرين للواقِعةِ يومئذٍ، بل هو جارٍّ فيهم، وفي خُلفائِهم منَ المسلمين إلى يومِ يُبعثون.

لطيفةُ وضعِ المظهرِ مَوضِعَ المُضمَرِ:

الانتقالُ منَ السّببِ الخاصّ لتقريرِ الحكمِ العامِّ

لم يقُل: (قلْ هي للّهِ والرّسول)، بل أظهَرَ فقال: ﴿قُلِ ٱلۡأَنفَالُ﴾، جريًا على أسلوبِ الحكيمِ في الجواب؛ ذلك أنّهم سألوا عن أنفالِ الغنائمِ بعد معركةِ بدرٍ، فسألوا عن أنفالٍ خاصّةٍ، فأجيبوا جوابًا عامًّا يتضمّنُ حُكمَ جميعِ ما يُسَمّى أنفالًا، فدخلَ فيه غنائمُ الحربِ الّتي سألوا عنها، وسائرُ الزّياداتِ في الأموالِ مِن مواردِها الفائضة، بحسَبِ ما اختَصّ اللّهُ بهِ البلادَ من أبوابِ الخير، ولِئلّا يَقتصِرَ ذلك على مفهومِ الغنائمِ بعدَ الحرب، بل يَشملَ الفَيءَ، ويشملَ الحِصَصَ الزّائدةَ الّتي يَختصُّ بها وليُّ الأمرِ بعضَ الأفرادِ والجنودِ بحسبِ المصلحةِ تشجيعًا لهم، قبلَ تقسيمِ الغنائمِ عليهم، ويشملَ أيضًا أموالَ الغنيمةِ المجموعةِ قبلَ تقسيمِها، وهو ما يُسمَّى بالقَبَض؛ أي: الأموالُ المقبوضةُ قبلَ التّقسيم، وعلى هذا: فـ(ال) في لفظ (الأنفال) الوارد في السّؤالِ في قوله: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡأَنفَالِۖ﴾ للعهد، و(ال) الثّانية في الجوابِ في قوله: ﴿قُلِ ٱلۡأَنفَالُ﴾ للاستغراق، وهذا هو عِلّةُ إظهارِ لفظِ الأنفالِ في الجوابِ مع تقدُّمِ ذِكرِه في السّؤال؛ لإرادةِ العمومِ في الجواب[1].

بلاغةُ الجوابِ:

تَختَصُّ أحكامُ الشّرعِ بإرادةِ اللهِ وحكمتِه، والرّسولُ أسوةٌ في بلاغِها لأمّتِه

الجوابُ بقوله: ﴿قُلِ ٱلۡأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِۖ﴾ تركيبٌ بليغٌ، فصَدارتُه بفعلِ الأمر ﴿قُلِ﴾، ودخولُ لامِ الاختصاصِ على مُتعلَّقِ حُكمِ الأنفالِ ﴿لِلَّهِ﴾، والرّبطُ بواوِ الجمعِ بين المعطوفِ والمعطوفِ عليه ﴿لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِۖ﴾ "معناه أنّ حكمَها مختصٌّ باللّهِ ورسولِه، يأمرُ اللّهُ بقسمتِها على ما تقتضيه حكمتُه، ويمتثِلُ الرّسولُ أمرَ اللّهِ فيها، وليس الأمرُ

(1) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 4559/8.

في قسمتِها مُفوَّضًا إلى رأي أحدٍ"[1]، فالجمعُ بين اللّهِ ورسولِه مؤذِنٌ باختِصاصِ اللّهِ بإرادةِ الأحكامِ وإنشائِها، واختصاصِ رسولِه بوظيفةِ البلاغِ عنه وإجراءِ أحكامِه.

فائدةُ ذكرِ اللّام، وإيثارِ لفظ الجلالة (الله):

استحقاقُ التّشريعِ مخصوص بالله، ولا يتأتّى لأحد سواه

اللّامُ في قوله: ﴿ٱلۡأَنفَالُ لِلَّهِ﴾ للملكِ أو الاختصاص، وتوجيهُ (الملْك) على معنى أنَّ الأنفالَ هي الحِصّةُ الزّائدةُ على الغنيمةِ والفيءِ، فهي غيرُ محسوبةٍ فيهما، بل هي راجِعةٌ لتقديرِ وليّ الأمرِ، يُعطيها بالمقتَضَى المعتبَرِ لِمَن شاء، خارجَ حِصَصِ الغزاةِ منَ الغنائم، فالأنفالُ حينئذٍ مالٌ لا يُعرَفُ مالِكُه ولا مُستَحقُّه، فيُقال: الأنفالُ للّهِ؛ أي: مِلكٌ للّهِ، وتوجيهُ (الاختِصاص): على معنى أنّ الأنفالَ مفهومٌ جامعٌ لجميع المغانم، فيُقال: الأنفالُ للّه؛ أي: تختصُّ باللّه في حكمِها، والرّسول في صرفِها وتوزيعِها[2]، وفائدةُ تعيينِ اسمِ الجلالةِ (اللّه)، دونَ غيرِه منَ الأسماء الحسنى؛ لاقتضائِه - بمعناه على الألوهيّةِ - تقريرَ الأحكام؛ إذِ التّشريعُ من لوازِمِ الألوهيّةِ وآثارِها، فاستحقاقُ التّشريعِ لا يكون إلّا للّهِ، "فذِكرُ اسمِ اللّهِ لفائدتين: أولاهما: أنّ الرّسولَ إنّما يتصرّفُ في الأنفالِ بإذنِ اللّهِ توقيفًا أو تفويضًا، والثّانية: لِتشملَ الآيةُ تصرُّفَ أمراءِ الجيوشِ في غَيبةِ الرّسولِ أو بعد وفاتِه ﷺ؛ لأنّ ما كان حقًّا للّهِ كانَ التّصرّفُ فيه لخلفائِه"[3].

نكتةُ الالتفاتِ منَ الخطاب إلى الغيبة:

الانتقال من البلاغ منه، إلى مخاطبة المُبلِّغ عنه، خصوصيّة وتكرِمَةٌ

قوله تعالى: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ﴾ خطابٌ، وقوله: ﴿قُلِ ٱلۡأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِۖ﴾ التفاتٌ عنِ الخطابِ للغيبة، ولو اطّردَ الكلامُ لَقيل: (الأنفالُ للّهِ ولك)، والغرضُ منَ الالتفات إجراءُ وصفِ الرّسالةِ على

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 195/2.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 251/9.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 251/9.

شخصِ النّبيّ ﷺ؛ للإيذانِ بأنّ تَصَرّفَه في أحكامِ اللّهِ واقِعٌ بحسبِ رَسوليَّتِه، لا بمحضِ كونِه بشرًا؛ ليَثبُتَ له بذلك عدمُ الانفكاكِ عنِ الوحي في تَلَقّي الحكمِ وفي تنفيذِ الحكمِ.

واعتبارُ الالتفاتِ منَ الخطابِ إلى الغيبةِ جارٍ بملاحظَةِ أنّ الكلامَ للّهِ ﷻ، ولو اعتبرنا أنّ الكلامَ بعد (قُلْ) لرسول اللّه ﷺ لكان التفاتًا منَ التّكلّمِ للغيبة؛ إذ لو اطّردَ لقال: (الأنفالُ للّهِ ولي)، وتوجيهُهُ بنفسِ ما سبق.

نكتة إيثارِ لفظِ ﴿ٱلرَّسُولِ﴾، والعدولِ عن لفظ (النَّبيّ):

اصطفاءُ لفظِ الرّسولِ في ﴿ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾، والعدولُ عنه في نفسِ السّورةِ في ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ﴾، و﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ﴾، و﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيْدِيكُم مِّنَ ٱلْأَسْرَىٰٓ﴾؛ لاختلافِ المقامِ في كُلٍّ، فلفظُ الرّسولِ مرتبطٌ بتشريع الأحكامِ الّذي تُعتبَرُ فيه الإضافةُ إلى اللّه، ولفظُ النّبيِّ مرتبطٌ بإنباء الخلقِ عنِ اللّهِ البلاغَ، فتعتبر فيه الإضافةُ إلى الخلقِ، فحيثما كان السّياقُ مرتبطًا بتأسيس الأحكام روعيَ لفظُ الرّسالةِ؛ إذ بمقتضاها يتلقّى الرّسولُ التّكليفاتِ والأحكامَ، وحيثما خلا السّياقُ من ذلك إلى مُجرّد التّبليغِ والموعظةِ روعي معنى النّبوّةِ، والمقامُ الّذي جاء لفظُ النّبيِّ في آياتٍ أُخَرَ في السّورة لا يتضمّنُ حكمًا ولا تشريعًا، بل هو إنباءٌ بالتّرغيبِ أو بالتّرهيبِ؛ ولذا جاء لفظُ الرّسولِ هاهنا في: ﴿قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾، وجاء أيضًا في نفس السّورةِ في قوله: ﴿۞وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ﴾؛ لكونِ الموضعينِ في تشريعِ الأحكامِ وتأصيلِها[1].

لَفْظُ الرّسولِ مُرْتَبِطٌ بتَشْريعِ الأحكامِ، وبلاغها بأمانة للأنامِ

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 75/5.

دلالةُ الفاءِ في قوله: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾:

نَقْلُ السّائلِ عنِ الأنفال إلى سعادةِ الحالِ والمآلِ

الفاءُ في قوله: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ فاءٌ فصيحةٌ، لعطفِ مدخولِها على معطوفٍ مُقدَّرٍ تفريعًا على جملةِ: ﴿قُلِ ٱلۡأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِۖ﴾[1]؛ أي: "إذا كان الأمرُ في القِسمةِ للّهِ ورسولِه، ففرِّغوا أنفسَكم لتقوى اللّه، ولا تَشغَلوا أنفسَكم بالمالِ وتقسيمِه، فقِسمةُ اللّهِ هي العدلُ والمصلحةُ معًا"[2]، وفائدةُ التّفريعِ بالتّقوى دون غيرها الإعانةُ على الحكم المذكور؛ إذ بالتّقوى تَتَخَفّفُ مشاقُّ التّكاليف، وتُرَضَّى بسببها النّفوسُ، فتسلمُ منَ النّزاعِ والتّمرّدِ، وتَخلُصُ لقبولِ حكم اللّهِ والاستسلامِ له.

دلالةُ ربط التّقوى باسم الجلالة دون الرّبوبيَّة:

مُراعاةُ النّظيرِ في السّياقِ القريبِ

إسنادُ التّقوى إلى الاسمِ الجليلِ في قوله: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾، دون غيره منَ الأسماء مراعاةً لنظيرِه في السّياقِ قبله، في قوله: ﴿قُلِ ٱلۡأَنفَالُ لِلَّهِ﴾، ولأنَّ تخصيصَ لفظِ (التّقوى) بالجلالة (اللّه) دون غيره منَ الأسماء شائعٌ مشهورٌ؛ لتضمّنِه جميعَ صفاتِ الجلالِ والجمالِ والكمالِ، وقد أظهرَ في مقام الإضمارِ، فلم يَقُل: (فاتّقوه)؛ " لتربيةِ المهابةِ وتعليلِ الحكمِ"[3]، فإنّه أحضُّ على الامتثالِ وأعونُ على تركِ المخالفة.

نكتةُ عطفِ جملة: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ على ما قبلها:

التّفريعُ غَرَضُهُ التّحذيرُ، من مخالفةِ الحكمِ الأثيرِ

عطفُ جملةِ ﴿فَٱتَّقُواْ﴾ على ما قبلها تفريعٌ غَرضُهُ التّحذيرُ من مخالفةِ الحكمِ؛ أي: فاتّقوا المخالفةَ وعدمَ الإذعانِ.

دلالة الجمعِ بين التّقوى والإصلاح:

قولُه: ﴿وَأَصۡلِحُواْ﴾ بعد قوله: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ تأكيدٌ لِما قبله، وتعقيبُ

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 527/3، والخطيب، التّفصيل: 308/9.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 3062/6.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/4.

الشّيءِ بذِكر موجَبِه، فإنّ اتّقاءَ المخالفاتِ بريدُ الإصلاح، فدلّهم على إصلاح ذاتِ البينِ؛ لِتسلَمَ علائقُهم منَ النّزاعِ والخصومةِ الحاصلةِ في الأنفال، بعد أمرِهم بالتّقوى؛ لِتسلَمَ قلوبُهم لأحكام اللّه فيها قبولًا وعملًا، فأرشدهم في تينك الجُملتين إلى صلاحِ أحوالِهم مع الحقِّ ومع الخلقِ بما يُناسِبُ المقام.

وجوه الإصلاح واستشعار التّقوى، تنزعُ ما يُفرِزُه الصّراعُ مِن بَلْوى

وعبّر بالإصلاحِ؛ للإيذانِ بأنّ موادَّ النّزاعِ هي مفاسِدُ تُحسَمُ بأضدادها من وجوهِ الإصلاح.

سرُّ ترتيب التّأكيد على المؤكّد، كترتيب النّتيجة على المقدّمة:

من ناحيةٍ أخرى، جملةُ ﴿وَأَصۡلِحُواْ ذَاتَ بَيۡنِكُمۡۖ﴾ تأكيدٌ لِما قبلها، وهو الأمرُ بالتّقوى؛ لأنّ الأمرَ بالتّقوى مُقتَضٍ لإصلاحِ العلائق، فرتّبَه بعده ترتيبَ النّتيجةِ بعد المقدّمة، "وتوسيطُ الأمرِ بإصلاحِ ذاتِ البينِ بين الأمرِ بالتّقوى والأمرِ بالطّاعةِ؛ لإظهارِ كمالِ العنايةِ بالإصلاحِ بحسب المقام، وليندرجَ الأمرُ به بعينِه تحت الأمرِ بالطّاعة"[1].

الأمرُ بالتّقوى مُقتَضٍ لإصلاحِ العلائق

بلاغةُ تركيب ﴿ذَاتَ بَيۡنِكُمۡۖ﴾:

قوله: ﴿ذَاتَ بَيۡنِكُمۡۖ﴾؛ أي: الحالُ الصّاحِبةُ لِبَينِكم؛ أي: "افتراقِكم واجتماعِكم"[2]، أو أصلِحوا حقيقةَ (نفسَ) ما بينكم، فالأوّل: على معنى أنّ ﴿ذَاتَ﴾ مؤنّثُ (ذو) الّذي هو بمعنى (صاحب)، فتكون ألِفُها مبدلةً منَ الواو، والثّاني: على معنى أنّ ﴿ذَاتَ﴾ أصليّةُ الألِف بمعنى عينُ الشّيءِ وحقيقتُه وماهيتُه، فتكون كلمةً مُقحَمَةً لتحقيقِ الحقيقة[3]، وعلى كُلٍّ فتسليطُ العامِل على ﴿ذَاتَ﴾ مع أنّ الإصلاحَ مُتَّجِهٌ لِلبَين؛ إذ لو قال: (وأصلِحوا بينَكُم) لكانَ صحيحًا؛ للمبالغَةِ في إيقاعِ الإصلاحِ بينهم بجميعِ وجوهِه الظّاهِرَةِ والباطِنَة،

تشبيهُ ما في الصّدورِ، وما في البيْنِ بالصّاحِب في المُلابسةِ التّامّةِ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/4.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 219/8.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 253/9.

فأتى بـ﴿ذَاتَ﴾؛ ليُصيبَ الإصلاحُ لُبَّ ما بينهم منَ النّزاعِ فيستأصِلَه كأنْ لم يكن، ويُصيبَ أصلَ ما بينهم منَ الإيلافِ والخير فيُثَمِّرَه ويُنَمّيه، فـ﴿ذَاتَ﴾ جعلتِ الإصلاحَ جاريًا مجرى التّخليَةِ والتّحليةِ، "فلمّا كانتِ الأحوالُ واقعةً في البَينِ قيل لها ذاتُ البَين، كما أنّ الأسرارَ لما كانَت مضمرةً في الصّدورِ قيل لها: ذاتُ الصّدورِ"[1]، "فشَبّه ما في الصّدورِ وما في البينِ بالصّاحِب في المُلابسةِ التّامّةِ، فذَكَرَ لفظَ المُشَبَّه به وأريدَ المُشبّه"[2].

دلالةُ الواو في قوله: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾:

الواو[3] في قوله: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّـهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ عاطفةٌ لإفادةِ الجمعِ بين المأمورات: التّقوى، والإصلاح، والطّاعة، وجملةُ ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ تأكيدٌ لِما قبلها، وإجمالٌ له، فهو كالعامِّ بعد الخاصّ؛ لأنّ طاعةَ اللّه ورسوله أمرٌ عامٌّ، فيشملُ طاعتَه فيما سبقَ من أمرِ التّقوى وأمرِ الإصلاح وأمرِ تقريرِ الحكمِ في الجواب على سؤالهم، ويشملُ ما هو أوسعُ من ذلك في كلّ أمرٍ ونهي.

العطفُ لا يُنافي التّأكيد، وليس كلُّ تأكيدٍ مُقتَضيًا للفصلِ إلّا بقصد

نكتةُ توجيهِ الخطابِ إلى الجماعة:

في قوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ﴾ الآية، النّكتةُ في التّكليفِ بهذه المذكوراتِ الثّلاث لاختزالِها شُعَبَ الإيمانِ وأصولَه ومقاصِدَه، فإنَّ الإيمانَ لا يخرجُ عنِ اتّقاء المخالفاتِ وطاعةِ الأوامر وإصلاحِ ذاتِ البَينِ مع الخلقِ، ولذا "جعلَ التّقوى وإصلاحَ ذاتِ البينِ وطاعةَ اللّه تعالى والرّسول ﷺ من لوازمِ الإيمانِ وموجباتِه، ليُعلِمَهم أنّ كمالَ الإيمانِ موقوفٌ على التّوفّرِ عليها"[4].

كمالُ الإيمانِ في إصلاحِ العلائقِ، مع اللهِ والخلائق

(1) النّيسابوريّ، غرائب القرآن: 373/3.
(2) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 7/9.
(3) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 7/9.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 270/5.

نكتةُ تعريفِ لفظ (الرّسول) وإضافتِه في الجملتين:

طاعةُ الرَّسولِ جزءٌ من طاعةِ الله

في تعريف لفظِ ﴿وَٱلرَّسُولِۖ﴾ في حيِّز الجوابِ عن سؤالهم في قوله: ﴿قُلِ ٱلۡأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِۖ﴾ إيذانٌ باستقلاليّته ﷺ في إجرائه الأحكامَ عنِ اللّه، وأنّه إن كان في أقضيَتِه ﷺ قدرٌ منَ التّوقيف، فهناك قدرٌ من تفويضِ اللّهِ له في إيقاع الحكم على الكيفيّة الّتي يراها بما توفّر لديه من دواعٍ ومناسباتٍ، ولذا لم يُضَف لفظُ الرّسولِ إليه ﷻ؛ لانفصاله ﷺ بقوّة التّنفيذِ على النّاس، بعد حصولِ قوّةِ التّشريعِ والأمرِ منَ اللّهِ عليه، فلِمُراعاةِ المغايرةِ بين ما للمُفوِّض وما للمفوَّضِ لم تَحسُنِ الإضافةُ، فانفصلَ اللّفظُ بالتّعريفِ في السّياق، كما انفصلَ مُسَمّاه في وظيفتِه في الواقع، وأمّا قوله: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ فقد جاء لفظُ الرّسولِ مضافًا إلى الضّمير العائدِ على الجلالة (رسوله)؛ للإيذانِ أنّ الرّسولَ ﷺ يُطاعُ لأجلِ اللّه، فطاعةُ الرّسولِ جزءٌ من طاعةِ اللّه، كما أنّ المضافَ جزءٌ في نِسبَتِه منَ المضافِ إليه.

التّحريضُ المدلولُ عليه بحرف (إنْ)، والعدولُ عن (إذا):

التّعليقُ بـ(إنْ) جارٍ على كمالِ الإيمانِ لا أصلِه

المعلَّقُ بكلمة ﴿إِن﴾ على الشّيءِ لا يلزمُ أن يكونَ عدمًا عند عدم ذلك الشّيء[1]، وذلك إيذانٌ بأنّ التّعليقَ هاهنا جارٍ على كمالِ الإيمان، وليس أصلَ الإيمان. أيضًا: التّعليقُ بـ﴿إِن﴾ هاهنا لا يفيدُ الشّكَّ في إيمانهم أو التّعريضَ بضعفِه فيهم[2]، بل يفيدُ أنّ التّحقُّقَ بالإيمان لمّا كان غَيبًا في الباطن مَستورًا عنِ المُشاهدَةِ الجازِمة؛ لكونِه يظهرُ بآثاره لا بماهيّته، صار في حكم غيرِ المقطوعِ به، فلا يختصُّ بيقينِ حصولِه إلّا اللّهُ ثمّ العبدُ من نفسِه، بل قد تتخلَّفُ تلك المعرفةُ عنِ العبد نفسِه فيجزِمُ وهمًا بما ليس فيه، فلِغرضِ الخفاء

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 62/10.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 254/9.

المذكور عبّر عنه بـ(إنْ)، لئلّا يَقطعَ العبدُ من نفسِه بالإيمانِ، لا لِغرضِ أن يكونَ مُتشكِّكًا، بل لِغرضِ أن يكونَ دائمَ التّحفّظِ والتّحفّزِ؛ لتنشيطِ إيمانِه، وتجديدِه بالقيامِ عليه عملًا وقولًا، ظاهرًا وباطنًا.

نكتةُ دخولِ الفعلِ ﴿كُنتُم﴾ في السّياق:

تحقُّقُ إيمانِهم ماضيًا، يفضي إلى تحقّقه حاضرًا ومستقبلًا

﴿كُنتُم﴾ في قوله: ﴿إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾؛ للدّلالة على ثبوتِ خبرِها لاسمها؛ أي: إنْ ثبتَ إيمانُكم وتحقّقَ فأطيعوني، وهو مُشعِرٌ بإغرائهم على المداومةِ والاستمرار؛ إذ لا يتأتّى هنا إرادةُ انقطاعِ إيمانِهم في الزّمن الحاضر؛ إذ إنّه لا يُخاطِبُهم بتكليف التّقوى والطّاعة إلّا وهم ما زالوا مُتلبِّسين بصفةِ الإيمانِ، فإذا تحقّقَ إيمانُهم ماضيًا بنفس صيغةِ ﴿كُنتُم﴾، وتحقّقَ لهم حاضرًا بقوّةِ (كان) - إذ هي لا تدلُّ على انقِطاعٍ طارئٍ - وقرينةِ الخطاب، فإنّه ثابتٌ لهم مستقبلًا بقرينةِ الأمر في: ﴿فَٱتَّقُواْ﴾ ﴿وَأَطِيعُواْ﴾؛ أي: كونوا مؤمنين فيما هو آتٍ بالتّقوى والطّاعة، كما كنتم مؤمنين من قبلُ وفي الحال[1].

سرّ التّعبيرِ بالاسم دون الفعل:

التّعبيرُ بالاسميّة يفيدُ الثّبوتَ وعدمَ الانفِكاك

في قوله: ﴿إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ أورد الخبَر اسمًا دون الفِعل، فلم يقُل: (إنْ كنتُم آمنتُم)؛ لتصويرِ أنّ الإيمانَ يُرادُ إيقاعُه في النّفوسِ موقِعَ الرُّسوخِ الّذي لا ينفكُّ عن صاحبِه، وأنّ أصلَه مُلازِمٌ للنّفسِ مُلازمَةَ الطّبعِ والسّجيّةِ لها.

جوابُ الشّرط ودلالتُه، في قوله: ﴿إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾:

كمالُ الإيمانِ رتبةٌ ظنيّةٌ متفاوتةٌ في الزّيادة والنّقصان، غيرُ مقطوعٍ بها

جوابُ الشّرط في قوله: ﴿إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ محذوفٌ دلَّ عليه ما قبله، والتّقدير: (إنْ كنتم مؤمنين اتّقوا وأطيعوا)، أو الجواب: هو المذكورُ المتقدِّمُ، وهو جملةُ ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَصۡلِحُواْ﴾، وفيه خلافٌ مشهورٌ بين النّحويّين، ومدلولُ الشّرطِ وجوابِه حاصِلٌ من وجهين:

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 400/1، وعضيمة، دراسات لأسلوب القرآن: 336/8.

الأوّلُ: تحقيقُ المُعلَّقِ (التّقوى والإصلاح والطّاعة)، بناءً على تحقيق المعلَّقِ به (الإيمان)، فالمرادُ ترتيبُ الجوابِ على الشّرطِ لا التّشكيكُ في إيمانِهم، والمرادُ بالإيمانِ التّصديقُ، باعتبار أنّه مِن شأنِ مُطلقِ الإيمانِ اقتضاءُ التّحقّقِ بتلك المأمورات، لا أنّها لازمٌ للإيمانِ حقيقةً. فالمقصودُ بالإيمان حقيقتُه وليس كمالَه، والشّرطُ هنا مجازيٌّ مُستعمَلٌ في إلهابِ غَيرتِهم وتهييجها على الإيمان، كمَن يقول لغيره: إنْ كنتَ رجلًا فافعل كذا، والشّرطُ مجازيٌّ على هذا التّخريج؛ لأنّ (إنْ) الشّرطيّة تفيدُ التَّردُّدَ في تحقيق شرطِها، وليس هذا مُرادًا هنا، وفائدةُ تصديرِ الشّرطِ بها تنزيلُ مَن يتنازعُ ويتخاصمُ في شيءٍ منزلةَ مَن ضَعُفَ يقينُه، فيُقال لهم: إن علمتُم من أنفسِكم الإيمانَ؛ للتّحريض والإغراء على حسمِ النّزاعاتِ، فجيءَ الشّرطُ بها تتميمًا لهذا المقصِد.

الثّاني: أن يكونَ الشّرطُ على بابِه وحقيقتِه، فيُرادُ بالإيمانِ في قوله: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ كمالُ الإيمان، ولا يخفى أنّ الكمالَ رتبةٌ ظنيّةٌ متفاوتةٌ في الزّيادة والنّقصان بحسبِ الأحوال والأعمال، فحصولُهُ غيرُ مقطوعٍ به، فحسُنَ تصديرُ الشّرطِ بـ(إنْ)، وأيضًا: الأعمالُ المذكورةُ (التّقوى والإصلاح وطاعة اللّه ورسوله) شرطٌ حقيقيٌّ في كمال الإيمانِ، والكمالُ مُنتَفٍ بعدَمِها[1].

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

يَسْألونَكَ ويَسْتَفْتونَكَ:

الاستفتاء: مصدرُ استفتى إذا طلبَ الإفتاءَ، وهو: الإخبارُ بإزالةِ مُشكلٍ، أو إرشادٍ إلى إزالةِ حَيرةٍ. وأصلُ اشتقاقِ أفتَى منَ الفَتَى، وهو الشّابّ، فكأنَّ الّذي يُفتيه يُقوّي نهجَه ببيانِه، فيصيرُ بقوّةِ بيانِه فتيًّا؛ أي: قَويًّا.

السّؤالُ تأسيسٌ للمعلوم، والاستفتاءُ تَجليَةٌ له

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 270/5، وابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 277/2، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 89/2، والآلوسيّ، روح المعاني: 154/5، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 99/4 - 254/9.

وأمّا السُّؤالُ فهو طلبُ تحصيلِ شيءٍ أو طلبُ معلومةٍ عن شيءٍ، فهو سؤالُ عِلمٍ أو سؤالُ عينِ كمالٍ أو متاعٍ. واللّحَظُ الدّقيقُ بين السّؤال والإفتاء يقعُ في أمرين:

الأوّل: أنّ الإفتاءَ لا يكونُ إلّا في المعقولاتِ والمعاني كالمعارف والمعلومات والأحكام، في حين السّؤال يقعُ في المعقولات والمحسوسات، فهو في المُدرَكاتِ بالعقل، والمُتَناوَلاتِ بالجوارح، كمَن يسألُ معرفةَ شيءٍ، ومَن يسألُ أخذَ شيءٍ، والفيصلُ بينهما الحرفُ المُعدَّى به السّؤالُ.

الثّاني: أنّ الاستفتاءَ يقعُ فيما هو معهودٌ أصلُه عند السّائلِ، لكنْ قد خالطَه شيءٌ منَ الالتباسِ أو الغموضِ أو الجهالةِ في أحدِ أوجُهِه، فهو تفريعٌ على موجود، وأمّا السّؤالُ فيقعُ في ذلك، ويقعُ فيما ليس له أصلٌ معهودٌ عند السّائلِ، بل هو طلبٌ لتأسيسِ معلومٍ أو إنشاءِ حُكمٍ ليس له وجودٌ بوجهٍ ما عند السّائلِ، فهو تأسيسٌ لِما خَلا الذّهنُ عنه من جميع أوجُهِه[1].

الأنفال والغنائم والفيء:

الأنفالُ أوسعُ الألفاظِ مدلولًا إزاءَ نظائرِها المستعملة في القرآن

النَّفَل: لغةً: اسمٌ للزّيادةِ، وهو ما يُعطاه الغازي زائدًا على سَهمِه، الفيء: لغةً: الرُّجوع، وهو ما رَجَعَ للمسلمين من أموال الكفّارِ من غير انتزاعِه منهم بالقهر، كفَيءِ بني النّضير الّذين نزلوا على حكم النّبيّ ﷺ، ومكّنوه من أنفسِهم وأموالِهم يفعلُ فيها ما يشاءُ، وأمّا الغنيمةُ فهي ما انتزعَه المسلمون منَ الكفّار بالغلَبَةِ والقَهرِ، والنَّفَلُ أعمُّ منَ الغنيمةِ والفيءِ، فالغنائمُ تُعتَبَرُ نفَلًا؛ لأنّها زيادةٌ على ما هو المقصود من شرعيّةِ الجهادِ، وهو إعلاءُ كلمةِ اللّهِ وقهرُ أعدائِه، والفيءُ يعتبرُ نَفَلًا؛ لِكونه مِنحةً منَ اللّه تعالى ابتداءً من

(1) الرّاغب، المفردات، ص: 437، وابن منظور، لسان العرب: (فتا)، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (فتو - فتى)، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 278/12.

غيرِ وجوبٍ، فهو بمثابةِ العطاء الزّائدِ مِن غيرِ تَعَبٍ، وكلُّ زيادةٍ يَزيدُها الإمامُ بَعضَ الجَيشِ لِما قَد يَراهُ مِنَ الصَّلاحِ يُقالُ له نَفَل، وعليه: فكلُّ غنيمةٍ وفيءٍ نَفلٌ، وليس كلُّ نفلٍ غنيمةً أو فيئًا[1].

(1) ابن الأثير، النّهاية في غريب الحديث والأثر: 482/3، والجرجانيّ، التّعريفات، ص: 163 - 170 - 245، والكفويّ، الكلّيّات، ص: 669، والبركتيّ، التّعريفات الفقهيّة، ص: 159، والماورديّ، النّكت والعيون: 293/2.

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢﴾ [الأنفال: 2]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

المُناسبة بين أحكام الأنفال، وخصال الإيمان والذّكر والتّوكّل

لمّا استنهضَ اللّهُ المؤمنين لِفعلِ ما أمرهم به بتعليقِ التّقوى والإصلاحِ والطّاعةِ على كونِهم مؤمنين، فصّلَ لهم من خِصالِ المؤمنين ما يُناسِبُ المقامَ الّذي هو بيانُ الحكم وتكليفَهم بامتثالِه، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾؛ ليَثبُتَ بذلك مناسبَةُ كلِّ خصلةٍ مذكورةٍ للمقامِ السّابق المشتملِ على أفعالِ اللّهِ وأحكامِه وأوامِرِه، باشتمالِ تلك الخصالِ على كيفيّةِ تفاعُلِ المؤمنين، وتعاطيهم مع أحكامِ اللّه وأوامرِه.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَجِلَتْ﴾: منَ الوَجَل، وهو استشعارُ الخوفِ، ويَدلُّ على الأثَرِ الشّعوريِّ الّذي يَعتري القلبَ منَ الضّعفِ والاضطرابِ، ومُستَتبِعاتِ ذلك من رَجَفانِ القَلب وانصداعِه لذِكرِ مَن يُخافُ سَطوَتُه أو مُطالَعةُ جلالِه[1]، والمرادُ: فزِعَت قلوبُهم لذِكرِه استعظامًا ومَهابةً منه.

2) ﴿يَتَوَكَّلُونَ﴾: من وكَلَ: وهو أصلٌ يدلُّ على الاعتمادِ على غيرِك في أمرك، ومن ذلك الوكيلُ الفاعِلُ الّذي يَتوكَّلُ، والوكيلُ المفعولُ المتوكَّلُ عليه، وليس شرطًا أن يكونَ التّوكُّلُ عن ضعفٍ وعجزٍ في المتوكِّل[2]؛ لأنّه مُطلَقُ إنابةِ غيرِك عنك ليقومَ مقامَك[3].

(1) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، والجوهريّ، الصّحاح، وابن منظور، لسان العرب، والفيروزابادي، بصائر ذوي التّمييز، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (وجل).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (وكل)، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (وكل).
(3) الرّاغب، المفردات: (وكل).

والمرادُ: يتعلّقون باللّه، ويعتمدون عليه وحدَه في قضاءِ حوائجِهم وإنجاحِ مقاصدِهم.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

دلائـل الإيـمان، خِشيةٌ غـامرة، ووَجَـلٌ خاشع، وتوكّلٌ مطلق

إنّ المؤمنين حقَّ الإيمانِ على الوجهِ الأكمَلِ؛ مَن إذا ذُكِر اللّهُ عندهم بأسمائِه وآلائه وأحكامِه، استشعروا الخوفَ منه، واهتزّت قلوبُهم من خشيتِه، واقشعرّت جلودُهُم إعظامًا وإجلالًا له، وإذا قُرِئَت عليهم آياتُ التّنزيلِ استمعوا إليها استماعَ المُستزيدِ الحريصِ المُقبِل، فيَزدادون بها تصديقًا وتحقيقًا لإيمانِهم، وهم في جميع أحوالِهم وأغراضِهم لا يعتمدون، ولا يتعلّقون إلّا باللّه وحده، وهذا من كمالِ إيمانِهم وسلامةِ يَقينِهم.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

العِلّةُ وبيانُها، ممّا يصحّ كونُه استئنافًا بيانيًّا

دلالةُ فصل جملة: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ عمّا قبلها:

وقَعَت جملةُ: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ﴾ موقِعَ البيانِ والتّعليلِ لِما قبلها، أمّا البيانُ فهي مستأنفةٌ مَسوقَةٌ لبيانِ المرادِ بالمؤمنين المذكورين في قوله: ﴿إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ بذكر أوصافِهم الجليلةِ، جريًا على قاعدة: أنّ النّكرةَ إذا أُعيدَ ذكرُها معرفةً تكونُ عينَ الأولى، سواء كان هذا الاستئنافُ استئنافًا نحويًّا، أو استئنافًا بيانيًّا واقِعًا جوابًا لِسؤالٍ مُقَدَّرٍ، كأنّه لمّا قال: ﴿إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ سألَ سائلٌ: بأيِّ البراهينِ يتحقّقُ المرءُ مِن إيمانِه؟ فأجيب: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ﴾، أو البيان لتفصيلِ حالِ المؤمنين الكامليّ الإيمان مُطلقًا؛ ليُعلَمَ منه أنّ تلك الأمورَ الثّلاثةَ هي بعضُ شأنِهم، وعليهِ لا يكون لفظُ﴿ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ هنا عينَ النّكرةِ السّابقةِ، وأمّا التّعليلُ فعلى معنى أنّ تلك المقاماتِ الواردةَ بعد﴿إِنَّمَا﴾ (مقام الخوفِ، ومقام زيادةِ الإيمانِ، ومقام

التّوكُّلِ) هي عِلّةٌ وسبَبٌ لوجوبِ تقوى اللّه، وإصلاحِ ذاتِ بينهم، وطاعتِهم للّهِ ورسولِه، لأنّ هذه الأحوالَ بعد ﴿إِنَّمَا﴾ من شأنِها أن تَحمِلَ المتّصفين بها على الامتثالِ لِما قبلَها منَ المأمورات[1].

بلاغةُ الحصرِ بـ ﴿إِنَّمَا﴾ في مستهلِّ الآية الكريمة:

(إنّما) لفظٌ لا تفارِقُه المبالغةُ والتّأكيدُ حيث وقَع، ويصلُحُ مع ذلك للحصرِ، فإذا دخَلَ في قِصّةٍ وساعدَ معناها على الانحصارِ صحَّ ذلك، كقوله تعالى: ﴿أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ﴾ [الكهف: 110]، وإذا كان السّياقُ لا يتأتّى للانحصار بقيَت (إنّما) للمبالغةِ والتّأكيدِ فقط، كقوله ﷺ: «إنّما الرِّبا في النَّسيئَةِ»[2]، وكقولهم: (إنّما الشّجاعُ عَنتَرَةُ)، وأمّا مَن قال: (إنّما) هي لبيانِ الموصوف فغيرُ صحيحٍ؛ إذ بيانُ الموصوفِ يكونُ في مجرّدِ الإخبارِ دون (إنّما)، وقولُه هنا: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ ظاهرُها أنّها للمبالغةِ والتّأكيدِ فقط؛ أي: الكامِلون.

(إنّما) لفظٌ مُلازِمٌ للمبالغةِ والتّأكيد

وإنّما جاءَتِ صِفاتُهم بصيغةِ الحصرِ لِثَلاثِ فوائد:

الأولى: لتنزيلِ المُخاطَبِ بها منزلَةَ مَن يَعلَمُ ذلك، ويوقِنُه فلا يُنكِرُهُ، فكأنّها واردَةٌ مَوردَ الاعترافِ والإجماعِ عليها فلا يُختَلَفُ فيها.

الثّانية: للإشعارِ بأنّ مَن يَكتفي بتلك الصّفات، فقد بلَغَ كمالَ الإيمان، فهي كافيةٌ له في تلك الرّتبَة، فهي تكفي عن سائرِ ما سواها منَ الخِصال، ولا يَكفي غيرُها عنها في رُتبَةِ الكَمال.

الثّالثة: للاحترازِ والاحتراسِ والتّعريضِ بمَن لَم تتوفّر فيهِ هذه الصّفات، أنّ أمرَه غيرُ أمرِهم، وجزاءَهُ غيرُ جزائِهم[3].

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/4، والآلوسيّ، روح المعاني: 155/5، ورشيد رضا، المنار: 490/9، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 254/9.

(2) أخرجه مسلم، كتاب المساقاة، باب بيع الطّعام مثلًا بمثل، رقم: (1596): 1217/3.

(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 500/2، ورشيد رضا، المنار: 490/9، وطنطاويّ، الوسيط: 30/6.

بلاغةُ أسلوبِ القصرِ ودلالتُه:

الإخلالُ ببعضِ الواجباتِ لا ينقضُ الإيمانَ

ظاهِرُ القصرِ المُستفادِ من ﴿إِنَّمَا﴾ غيرُ مُرادٍ؛ لأنّ الأدلّةَ في الكتاب والسّنّة تظاهرَتْ على أنّ الإيمانَ لا يَنقضُه الإخلالُ ببعضِ الواجبات، ولأنّ أصلَ الإيمانِ لا ينحصِرُ في المقاماتِ المذكورةِ، بل هو حاصِلٌ بالتّصديقِ فقط أو مع الإقرار، ولو كانَ القصرُ مُرادًا لَلَزِمَ عدَمُ الإيمانِ عند عدمِ الطّاعة، ولَلَزِمَ أنّ مَن لم يَعترِه الوَجَلُ إذا ذُكِرَ اللّهُ لم يكن مؤمنًا ! ولذا وجَبَ تأويلُ الكلامِ إلى إرادةِ رُتبَةِ الكمالِ لا رُتبَةِ الأصلِ والأساسِ؛ أي: الإيمانُ الكامِلُ بحصولِ هذه المذكورات، فهو كامِلٌ بها والمتّصِفون بها كامِلون، فتعيّن أنّ القصرَ ادعائيٌّ؛ لِتنزيلِ الإيمانِ الّذي خَلا مِنَ الواجباتِ العظيمةِ منزلةَ العدَم، وهو قصرٌ مجازيٌّ جارٍ على التّشبيه، فهو استعارةٌ مكنيّةٌ: حيثُ شبَّهَ الجانبَ المنفيَّ في صيغةِ القصرِ بمَن ليسَ بمؤمنٍ، وطويَ ذكرُ المشَبَّهِ به ورُمِزَ إليه بذكرِ لازِمِه، وهو حصرُ الإيمانِ فيمَن اتّصفَ بالصّفاتِ الّتي لم يتّصِفْ بها المشَبَّهُ به[1].

سرُّ التَّصريحِ بوصفِ المؤمنين بدلًا منَ الضّمير:

الإظهارُ قد يكونُ أوجَزَ منَ الإضمار

صرّح بلفظِ ﴿ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾، ولم يقُل: (إنّما هُمُ الّذين إذا ذُكِر اللّه وجلَتْ قلوبُهم)؛ لسببين:

الأوّل: لأنَّه لو أضمرَ لعادَ الضّميرُ على لفظِ ﴿مُّؤْمِنِينَ﴾ في جملة الشّرط ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾، ولو كانَ لكان الضّميرُ في معنى مَرجِعِه، وهم مَن في حيّزِ الخطابِ ﴿كُنتُم﴾، فيوهِم حينئذٍ أن يكونَ المرادُ من ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ جماعةَ الخِطابِ في ﴿كُنتُم﴾، وهو إخلالٌ بمقاصدِ الكلام.

الثّاني: إرادةُ إجراءِ وصفِ الإيمانِ على المتّصفين بالأحوال

(1) ابن التّمجيد، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 8/9، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 8/9، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 255/9.

المذكورةِ بعدُ في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ﴾، وفائدةُ هذا الإجراء: تعميمُ الوصف فيشملُ كلَّ مؤمنٍ في كلِّ زمنٍ، وتصويرُ المتّصفين بالإيمان كأنّهم حاضرون بذواتهم المتحقّقةِ بتلك الأحوال، فيشهدهم السّامِعُ بأحوالهم الّتي لا تُفارقُ أشخاصَهم، فأنت حين تقول: المؤمنون كذا وكذا، تتصوّرُ أشخاصًا وذواتًا قامَت صفةُ الإيمان والأحوال المذكورة بهم، وحين تُجري الوصفَ على الضَّمير فأنت تبحثُ عن مَرجِع الضّميرِ أوّلًا، ثمّ تُجري الوصفَ عليه، فيطولُ الإجراءُ في ذهنِ السّامعِ.

نكتةُ استعمالِ اسم الموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾:

الإخبارُ بالموصول الخاصّ لزيادةِ التّعيينِ والتّعريفِ

استعمالُ الاسم الموصول خبرًا عنِ المتّصفين بالإيمان؛ لكمالِ العنايةِ بالخبَر، والإيذانِ بتحقّقِ ما في حيّزِه من صفاتٍ لهم، فالإخبارُ بالموصول الخاصِّ زيادةٌ في تعيين تلك الذّواتِ المؤمنةِ، فكأنّ ذواتَهم صارَت معروفةً لمّا حقّقوا ما في حيّز الموصول من أحوالٍ، ففيه إيذانٌ بكمالِ نِسبةِ ذلك إليهم، وانفرادِهم عن غيرهم بالاتّصاف به.

دلالةُ مجيءِ جملةِ الصّلة جملةً شرطيّةً:

أحوالُ الوجَلِ وتنامي الإيمانِ، من عاداتِ المؤمنين المستمرّةِ والمتكرّرةِ

مجيءُ جملةِ الصّلةِ جملةً شرطيّةً مُصدّرةً بـ(إذا) التّحقيقيّةِ لمدخولِه: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ﴾، الغرضُ منه: إفادةُ أنّ الصّفاتِ الواقعةَ في الجواب ممّا يُعهَدُ تَكرارُهُ واستمرارُه منهم، كلّما حدثَ موجِبُه وهو الشّرط، فكلّما سَمِعوا ذِكر اللّه وجِلوا، وكلّما سمِعوا آيةً جديدة أتَوا بإقرارٍ جديدٍ، فالتّعبيرُ عنهم بـ﴿ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ أفادَ تحقّقَهم بأصل الإيمانِ على وجه الدّوام والقطعِ، والإخبارُ عنهم بالموصول وما في حيّزِه أفادَ استمرارَهم على عهدِ الإيمانِ بتكرار الأعمالِ اللّازمةِ عنه والضّروريّةِ في كَمالِه، ويُعينُ على ذلك تصديرُ الشّرطِ بـ(إذا) الظّرفيّةِ الزّمانيّةِ المُستعملةِ هنا لإفادة

الاستمرارِ والتَّكرارِ، فهي تفيدُ استمرارَ ما دخلَت عليه في الأحوال كلِّها؛ أي: هذه الأحوالُ منَ الوجل وازديادِ الإيمانِ من عاداتِهم المستمرّةِ والمتكررةِ[1].

السّرُّ في استعمال ﴿إِذَا﴾ بدلًا من (إنْ):

ذِكر الله مُتحقِّقُ الأثر، ومتجلّ في أوثق الخَبَر

تُستعمَلُ (إذا) في الشّرط المتَحقِّق الوقوع، أو كثير الوقوع، وفيما كان سبَبُه قويًّا فلا بُدَّ من حصولِ جوابِه، ولذا استعمَلَ ﴿إِذَا﴾ هنا؛ لأنّ ذِكرَ اللّه حاصِلٌ بكثرةٍ، فهو مُتحقِّقٌ، وهو سببٌ قويٌّ لاقتضاءِ جوابِه، وهو قوله: ﴿وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾، وأمّا (إنْ) فالأصلُ استعمالُها فيما هو مُحتَمَلُ الوقوع، والمشكوكُ فيه، بل وفي المعاني الافتراضيّة الّتي تقتصِرُ على الإمكان الذّهنيّ فقط، ولذا لم يَحسُن هنا تصديرُ الشّرطِ بها[2].

نكتةُ بناءِ الفعل ﴿ذُكِرَ﴾ للمفعول:

تعدّدُ أسبابِ ذِكرِ اللهِ ومصادِره ومُتعلَّقِه

جاءَ التّعبيرُ عنِ الذِّكرِ بصيغة الماضي المبنيّ لِما لم يُسَمّ فاعِلُه ﴿ذُكِرَ﴾؛ لقصد العموم والشّيوعِ في مصدرِ الذِّكرِ وفاعِله، وذلك للدّلالةِ على أنّ التّفاعلَ والتّأثّرَ بالذِّكرِ يحصلُ منهم بمجرّدِ ذِكرِ اللّه، بغضّ النّظَرِ عن فاعِله، وبغضّ النّظرِ عن آلَتِه، فقد يحصلُ ذِكرُ اللّهِ لهم بالكلام فيسمعونه، وقد يحصلُ لهم ذِكرُ اللّهِ بالكتابةِ فيقرؤونه، وقد يحصلُ لهم ذِكرُ اللّهِ بنظَرِهم في الكونِ وسَيرِهم في الأرضِ فيشهدونَه، فهُم في شَجَنٍ دائم ووَلَهٍ مستمرٍّ مع ذِكرِ اللّهِ أيًّا كان مصدرُه، وأيًّا كان قائلُه وفاعِلُه، وسواءٌ صَدَرَ الذِّكرُ منهم أو صَدَر إليهم.

نكتةُ إطلاقِ الذّكرِ، وتقييدُ تلاوةِ الآياتِ:

الذّكر أعظم باب للقبول، والتّلاوة نيلٌ لمنتهى السّول

أطلقَ الذّكرَ ولم يقيّده بمصدرٍ أو جهةٍ لتعدّدِ مواردِه وفاعِليه ووسائلِه، فليس يَتعيّنُ له ما يَصِحُّ أن يُقَيِّدَهُ به، وأمّا التّلاوةُ في

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 479/5، والزّركشيّ، البرهان: 197/4، وعضيمة، دراسات لأسلوب القرآن: 176/1.
(2) ابن يعيش، شرح المفصّل: 5/113، وعضيمة، دراسات لأسلوب القرآن: 173/1.

قوله: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ﴾ فقُيِّدَت بـ﴿عَلَيْهِمْ﴾؛ لأنّ التّلاوةَ مُحدَّدةُ المصدرِ والفاعِلِ والآلةِ والجهةِ، فهيَ وحيٌ، وفاعِلُها الّذي يَتلوها، وهو الرّسولُ ﷺ أو كلُّ تالٍ للآيات، وآلتُها اللّسانُ منَ التّالي، والأسماعُ منَ المتلوِّ عليه، ولذا قيّدها بـ﴿عَلَيْهِمْ﴾؛ لانحصارِ مُتعلَّقاتِها في فاعِلها ومفعولِها، وخَصَّ التّقييدَ بـ﴿عَلَيْهِمْ﴾ دون (إليهم) أو (لهم)؛ لِتضمينِ القيدِ معنى الاستيلاءِ والاستحواذِ؛ ولأنّ الأصلَ في التِّلاوة أن تتعدّى بـ(على)، فكأنّ الآياتِ المتلوّةَ لمّا أُلقيَتْ على أسماعِهم أخذَت بمجامعِ نفوسِهم، واستولَت، واستحوذَت عليها من كمالِ تأثيرِها وحركَتِها في القلوب.

إيثارُ الفعل ﴿وَجِلَتْ﴾، والعدولُ عن مرادفه:

أوثِرَ التّعبيرُ بالفعل﴿وَجِلَتْ﴾؛ لِتمحّضِه في الانفعالات الباطنيّة؛ ولذا أُسنِدَ إلى القلوب، بخلاف التّعبيرِ بالخوف والخشية، فليس له هذا الاقتصارُ على الباطن؛ إذ كلاهما له تعلُّقٌ بالجوارح الظّاهِرةِ بعد تَحرّكِ القلبِ بهما[1].

الـوَجَـلُ من أفعال القلوبِ الّتي لا تظهرُ على البدن

سرُّ إسنادِ الوجلِ إلى القلوبِ ﴿وَجِلَتْ﴾:

أسنَدَ الوجَلَ إلى القلوبِ، فلم يَكتَفِ بضمير الجميع (وجِلوا)؛ لإرادةِ التّنصيصِ على محلّ الشّعورِ الّذي يتعلّقُ به الوجَل؛ ليُفيدَ أنَّ وجَلَهم كائنٌ في أصلِ شعورهم وهو القلب، وليس حركةً باطنيّةً طارئةً، بل هو نابعٌ منَ الأصل الشّريفِ في ذواتهم، وإذا كان ذلك فإنّ وجلَهم "يتخلّلُ صميمَ عظامِهم، ويَجولُ في سائرِ معانيهم وأجسامهم"[2]. كما أنَّ (الوَجَل) خوفٌ مشوبٌ باضطرابٍ له حدٌّ، إذا وصل إليه كان أرضًا خصبةً لغرس الخير، مثل (الوَجيل): حُفرة يستنقعُ فيها الماءُ، وهذا المعنى يناسبُ سياقَ الآيةِ الكريمةِ.

الـوَجَـلُ هو النّابع من القلب الـشّـريـفِ، في الجسد المنيف

(1) داود، معجم الفروق الدّلاليّة، ص: 245.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 219/8.

وجهُ الجمعِ بين وجَلِ القلوبِ في (الأنفال)، واطمئنانِها في (الرّعد):

تأثيرُ السّياقِ في اصطفاءِ التّراكيب له أثرٌ بالغٌ في بيان النّص واتّساقه

قوله: ﴿وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنفال: 2]، وقوله: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ۝٢٨﴾ [الرّعد: 28]، ارتبطَ بالوجل وباطمئنانِ القلوب؛ لاختلاف مُتعلَّقَي الذّكر هنا وهناك، فهنا السّياقُ في حكم الأنفال، بعد تشاجرٍ وجِدالٍ، فناسَبَ أن يكونَ ذكرُ اللّه أقربَ تعلُّقًا بذكر أحكامِه وأوامرِه ونواهيه، الّتي تقتضي الوجلَ بتعظيم الأمرِ والنّهي والإشفاقِ منَ التّقصير فيهما؛ إجلالًا لهيبةِ اللّه، ورهبةً من مؤاخذتِه وفواتِ ثوابِه، وأمّا في سورة الرّعد: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾؛ فمعناه: تطمئنُّ بذكر هدايتِه ورحمتِه وملاجئِ إغاثتِه وألطافِه، أو هو مطمئنٌ بثبوتِ الإيمانِ فيه، ولا تضادّ بين هذا وذاك، بل هو من تنوّعِ الأحوالِ بتنوّعِ وارداتِها[1]. لأنَّ ذكرَ اللّه، إنْ جاءَ بعدَ المخالفةِ، لا بُدَّ للنّفس أن تخافَ وتَوجَلَ وتضطربَ هيبةً للّه ﷻ، أمّا إن جاء ذِكرُ اللّهِ بعدَ المصيبةِ أو الشّدّةِ فإنَّ النّفسَ تطمئنُّ به، وتأنَسُ لما فيها من رصيدٍ إيمانيٍّ ترجعُ إليه عند الشّدَّةِ، وتركَنُ إليه عند الضّيقِ والبلاءِ[2]. وفي الجمع بين الآيتين إشارةٌ لطيفةٌ إلى مقام العبدِ الذّاكرِ؛ فهو في حال البدايةِ وجِلٌ، وفي حال النِّهايةِ مطمئنٌّ.

السّرُّ في تقديم الذّكرِ على التّلاوة:

التّلاوةُ ذِكرٌ خاصٌّ، وذِكرُ اللهِ مِن أوسَعِ العبادات

تقديمُ الذّكرِ على التّلاوةِ من تقديمِ الشّيءِ على بعضِ أفرادِه؛ لأنّ التِّلاوةَ ذِكرٌ خاصٌّ، وذِكرُ اللّهِ غرضٌ واسِعٌ وعبادةٌ مطلقةٌ، فبدأ بما هو أوسعُ استئهالًا به لِما هو أخصُّ في المنزلة، وهو ذكرُ التّلاوةِ للوحي المُنَزّل؛ ليُؤذِنَ بذلك أنّ التّحقُّقَ بمقام عموم الذّكرِ هو بوّابةُ التّحقُّقِ بمقام خصوصِ الذّكرِ وهو كلامُ اللّه، فبدأ بالأكثر الأوسع لينتقِلَ إلى الأخصِّ الأعلى.

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 450/15، ورشيد رضا، المنار: 49/9، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 3063/6، والشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 4570/8.

(2) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 9821/16.

دلالة تقديم الجارِّ والمجرورِ على نائب الفاعل:

إفادةُ أنّ فِعلَ التّلاوةِ حاصِلٌ لإجرائه عليهم

تقديمُ الجارِّ والمجرور في قوله: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ﴾ على نائب الفاعل ﴿ءَايَٰتُهُۥ﴾؛ لقصد تخصيصِ الفِعلِ بهم، وتسليطِه على ذواتِهم، فالتّلاوةُ جاريةٌ لأجلهم، مُلقاةٌ على مسامِعهم وحواسِّهم، ففيه دلالةٌ على أنّ الفِعلَ حاصِلٌ لإجرائه عليهم.

سرّ إيثارُ التّعبيرِ بالآيات دون القرآن:

نزولُ القرآنِ علامةٌ على تأييدِ الرّسولِ وصِدقِه

في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ﴾، لم يقُل: (وإذا تُلِيَ عليهم قُرآنُه) مُراعاةً لحالِ تَنزّلِ الوحي، وأنَّه مازال ينزِلُ بالآياتِ مرّةً بعد مَرّةٍ، وهذا التّنزُّلُ آيةٌ في نفسِه؛ لأنّ النّزولَ نفسَه علامةٌ على تأييد الرّسولِ، وهو مُتَعَدٍّ بالنّازِل من كلامِ اللّهِ وهو الآيات، وأمّا القرآنُ فيُقالُ باعتبار المقروءِ المُستقرِّ في الصّدور والسّطور، وليس مقصودًا هنا، بدليل أن جعلَ جوابَ الشّرط ﴿زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾، فإنَّ وصفَها بالآيات ممّا يؤذِنُ بترسيخ الإيمانِ؛ لأنَّ الآياتِ علاماتٌ على صدقِ الأخبارِ وإعجازِ المباني والمعاني، فعبّرَ في الشّرطِ بما هو أدلُّ وأدعى لِما في الجواب.

فائدةُ إضافةِ الآيات إلى ضميرِ اسمِ الجلالة:

الإضافةُ بقصد تعريفِ المضافِ وتفخيمِه

في قوله تعالى: ﴿ءَايَٰتُهُۥ﴾ أضافَ الآياتِ إلى ضمير الجلالة؛ إيذانًا بتعريفها، وحملًا على قبولها، والقطعِ بثبوتها وعدمِ احتمالِها؛ لأنّها إذا كانَت آياتُ اللّهِ ومِنَ اللّهِ انتفى عنها بذلك عوارضُ الوهمِ والرّيبِ فيها، فأحرى بهم أن يتناولوها بوازِعِ العزمِ والصّدقِ.

سرّ إيثارُ استعمالَ الفعلِ (زادت) دون غيره:

لكلِّ حكمٍ تصديقٌ خاصٌّ، وإيمانٌ جديدٌ، يتنامى ويزيد

آثَرَ البيانُ القرآنيُّ استعمالَ الفعلِ ﴿زَادَتْهُمْ﴾ دون غيره؛ ليدلَّ على اطّرادِ المطاوعةِ بين تجدّدِ الوحي بالنّزول، وتجدّدِ الإيمان؛ لأنّه كلّما نزلَت آيةٌ زادَت بها الآياتُ النّازلةُ من قبلُ، فلمّا كان تَجدّدُ التّنزيلِ زيادةً كان تجدّدُ الإيمان زيادةً أيضًا؛ لأنّه زادَ إيمانًا إلى سائرِ ما

قد آمَنَ به؛ إذ لكلِّ حكم تصديقٌ خاصٌّ، ولهذا عبّرَ بزيادةِ الإيمانِ عن زيادةِ العِلم وأحكامِه، وقيل: زيادةُ الإيمانِ كنايةٌ عن زيادةِ العملِ[1]، وخلاصةُ ذلك: أنّ تجدّدَ الإيمانِ هو معنى زائدٌ على أصله كزيادةِ البناءِ فوقَ البناءِ، وزيادةٌ كائنةٌ في أصلِه، كتقويةِ ذاتِ الشّيء بدِعامَةٍ تلتحقُ به، فكما حصلتِ الزّيادةُ في أفراد الآياتِ حصلَت معها الزّيادةُ في الإيمان؛ اطّرادًا للمُطاوعةِ بين المُسبِّب والسّبب، وبين المُتضايفين، وأيضًا لمراعاة التّدرّجِ في حصول الإيمانِ بتدرّجِ ورودِ الآياتِ، والتّدرّجُ زيادةُ درجةٍ إلى درجة، فقيل لذلك زيادة.

إسنادُ الزّيادةِ إلى الآيات وعدمُ إسنادها إلى المؤمنين:

المُتسبِّبُ في حكمِ المُباشِر، في الغالب

إسنادُ الزّيادةِ إلى الآياتِ لتنزيلِ الآياتِ منزلةَ الفاعِل للزّيادة، وهو مجازٌ عقليٌّ؛ لإسناد الفعل إلى غير فاعله الحقيقيّ، لكن لمّا كانَتِ الآياتُ سببًا في ذلك جُعِلَتْ كمَن باشَر الفِعلَ؛ إذِ المُتسَبِّبُ في حكمِ المُباشِر غالبًا[2].

دلالةُ الواو، في قوله: ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾:

التّوكُّلُ عبادةٌ مُستَقِلّةٌ، وأصلٌ في حقيقةِ الإيمان

الواو في قوله: ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ إمّا داخلةٌ في حيّزِ صِلاتِ الموصولِ المتقدّمة، فهي صِلةٌ ثالثةٌ معطوفةٌ على جُملتَي الصّلةِ قبلها، وإمّا أن تكون مستأنفةً عمّا قبلها، وعلى الوجهين فلا محلَّ لها منَ الإعراب، ويُحتمَلُ أن يكونَ لها محلٌّ منَ الإعراب، وهو النَّصبُ على الحالِ من مفعول ﴿زَادَتْهُمْ﴾[3].

فائدةُ تقديمِ الجارِّ والمجرور:

رعايةُ الفاصلةِ مع رعاية المعنى مِن لوازمِ الفصاحة

تقديمُ الجارّ والمجرور في قوله تعالى: ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ يفيدُ الاختصاصَ؛ أي: عليه لا على غيره، وهو أيضًا تقديمُ ما حقّه

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 271/5.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 257/9.
(3) ابن عادل، اللّباب: 449/9.

التّقديم في المعنى؛ لأنّ اللّه هو سببُ المعونةِ المرجوّةِ منَ التّوكُّلِ، وتقديمُ المقصودِ في مقامِ الحاجةِ أولى من تقديم فِعلِ القاصدِ؛ لتوفّر العنايةِ والهِمّةِ إليه وتعلُّقِ الغرضِ به. وفي التّقديم مناسبةٌ لفظيّةٌ وهي رعايةُ الفاصلة، وهو من لوازمِ الفصاحة، وإمّا للتّعريض بالمشركين؛ لأنّهم يتوكّلون على إعانة الأصنامِ، فيكون الكلامُ مدحًا للمؤمنين، وتعريضًا بذمّ المشركين، ثمّ فيه تحذيرٌ من أن تبقى في نفوسِ المؤمنين آثارٌ منَ التّعلُّقِ بما نُهوا عنِ التّعلُّقِ به؛ لتوهّمهم أنّهم إذا فوّتوه فقد أضاعوا خيرًا منَ الدّنيا[1].

إيثارُ استعمالِ اسمِ (الرّبّ) دون اسم الجلالة (الله):

امتلاءُ وصفِ الرّبوبيّةِ بمعاني العِوَضِ والإحسانِ

لإيثارِ اسمِ الرّبّ في قوله تعالى: ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ مع إضافتِه لضميرِ الغائبين دلالةٌ على اختصاصهم بعطاء الرّبوبيّة الخاصّ حالَ توكُّلِهم وتفويضِهم، وهو إيذانٌ بالإحسانِ المتواترِ والعِوَضِ المستمرِّ عمّا فاتهم من عرضِ الدّنيا والخَلَفِ بالمزيد منَ الرّزقِ الواسعِ، وفيه إغراءٌ لهم على الرّضا بقسمةِ رسولِ اللّه ﷺ للأنفال وعدمِ الحزن، إنْ فاتَهم منها حظٌّ كانوا قد أمّلوه، فإنّ ربَّهم لا يفوتُهم بربوبيّته، ولا ينقطعُ عنهم بآثارها المتجدّدة[2].

دلالةُ ترتيبِ الإخبارِ عن توكّلهم بعد زيادة إيمانهم:

تمامُ التّوكُّلِ من تمامِ الإيمان

إيرادُ التّوكُّلِ بعد زيادةِ الإيمانِ أمارةٌ على أنّه لا يصفو للعبد توكُّلٌ، ولا تدومُ له حقيقتُه إلّا بالإيمان الكامل الّذي يقوى ويشتدُّ بزيادتِه في القلوب، فتمامُ التّوكُّلِ من تمامِ الإيمانِ، وضَعفُ التَّوكُّلِ من ضعفِ الإيمانِ.

نكتةُ استعمالِ فعلِ ﴿يَتَوَكَّلُونَ﴾، وإيثارُ صيغةِ المضارع:

المؤمن لا غنى له عن توكّل على الله، ولجوء إلى حماه

التّعبيرُ بالفعل المضارع ﴿يَتَوَكَّلُونَ﴾، دليلٌ على أنّ التّوكُّلَ دَيدَنُهم،

(1) ابن عادل، اللّباب: 449/9، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 259/9.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 259/9.

وهو يتجدّدُ في قلوبهم بتجدّدِ حوائجِهم، فكلّما عرضَت لهم حاجةٌ أحدثوا لها توكُّلًا.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الوجَل والخوف والخشية والرّهبة:

الوجَلُ انفعالُ القلبِ عند الخوفِ والخشية، وهو هنا آثرُ في الدّلالة

الخوف: توقّعُ المكروه بسبب أمارةٍ معلومةٍ أو مظنونةٍ، وغالبًا يكون من ضعف الخائفِ، وإن كان المخوفُ أمرًا يسيرًا، وهو قلبيٌّ نفسانيٌّ يُحمَلُ على حركة البدنِ بالفرار والانتشار أو الكفّ والاحتراز. الخشية: خوفٌ مشوبٌ بتعظيمٍ يمنعُ من ارتكابِ ما يسببُ المكروهَ، ويبعثُ على الامتثال والانقياد، حتّى وإن كان الخاشيُّ قويًّا فهو سكونٌ وانقباضٌ عن التّوجّهِ إلى الإباية أو العصيان، وأكثرُ ما يكون ذلك عن علم بما يُخشَى منه، ولذلك خصّ العلماءَ بها في قوله: ﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْۗ﴾ [فاطر: 28].

والفرق بينهما: أنّ متعلَّقَ الخوفِ استقباليٌّ ومُتعلَّقَ الخشية حاليٌّ، وكلاهما يظهرُ أثرُه على الجوارح، وأثرُ الخوف قلقلةٌ وعدمُ قرار، وأثرُ الخشية سكينةٌ، وكلاهما مانعٌ عن ملابسةِ سببِ المكروه، والعِلمُ في الخشية أحضرُ منه في الخوف، والتّعظيمُ في الخشية ألصقُ منه في الخوف[1]. وأمّا الرّهبةُ فهي تَحقُّقُ الخوفِ وظهورُ أثَرِه منَ التّحرّزِ والاضطرابِ، وهي منَ الرَّهابة؛ وهي عِظامُ الصّدر الّتي تضطربُ عند الخوف، أو منَ الرّهب؛ وهي النّاقةُ المهزولةُ الضّعيفةُ؛ لأنّ الرّاهِبَ شيئًا ضعيفٌ أمامَه. وعليه: فالرّهبةُ هي ما يورِثُه الخوفُ منَ الضّعفِ والاضطرابِ، فهي الجانِبُ العمليّ في الخوف، فالخوفُ قلبيٌّ نفسانيٌّ، والرّهبةُ سَمْتُه الظّاهر. وأمّا الوجَلُ فهو انفعالُ القلبِ عند مُلاحظةِ أسبابِ الخوفِ وأسبابِ الخشية، فهو استشعارٌ باطنيٌّ

(1) الرّاغب، المفردات، (خوف - خشى)، والنّزهيّ، الفروق اللّغويّة، ص: 22، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 480/1.

وتوجُّسٌ خفيٌّ، فحركَةُ الوجَلِ باطِنَةٌ شُعوريّةٌ، فيَدخُل فيه جميعُ ما يَعتري القلبَ منَ الانفعالاتِ المُطاوِعة والمُصاحِبةِ للشّعور بمعاني التّعظيمِ والمخافةِ والإجلالِ الّتي تهجمُ على القلبِ عند مُطالعةِ أسبابها منَ الذِّكرِ والفِكرِ وسَماعِ المواعِظ والزّواجِر.

وعليه: فمتعلَّقُ الخوفِ استقباليٌّ، ومُتعلَّقُ الخشيةِ حاليٌّ، وكلاهما يظهرُ أثرُه على الجوارح مع نُشوئِهما أصالةً في الباطن، ومُتعلَّقُ الرّهبةِ ظاهِريٌّ حاليٌّ؛ لأنّها الأثَرُ العمليُّ للخوف، وأمّا الوجَلُ فهو مقصورٌ على حركة الباطن وانفعالِ الشّعورِ الخفيِّ بجميعِ تلك المُسمّياتِ السّابقة، ولذا يجيءُ في القرآن دائمًا مُقترنًا بالقلوبِ أو وصفًا لِخفايا المشاعِر مع اقترانه بمُطالعةِ ومُلاحظةِ سَبَبِه: ﴿إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ﴾ [الأنفال: 2]، ﴿وَّقُلُوبُهُمۡ وَجِلَةٌ أَنَّهُمۡ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ رَٰجِعُونَ ٦٠﴾ [المؤمنون: 60]، ﴿إِنَّا مِنكُمۡ وَجِلُونَ ٥٢﴾ [الحِجر: 52][1].

التّلاوة والقراءة:

اشتِمالُ التّلاوة على معنًى عمليٍّ، يؤذِنُ بالعمل بالتّلاوة واستشعار عظمة الله

من حيثُ الموضوعُ (التّلاوة) قراءةٌ متتابِعةٌ، لا تكونُ إلّا لكلمتينِ فصاعِدًا، فهي قراءةٌ على نحوٍ مخصوصٍ؛ لأنّ أصلَ التّلاوةِ الاتِّباعُ، وإتباعُ الشّيءِ الشَّيءَ، بخلافِ القراءةِ فتكون في الكلمةِ الواحدة، فتقول: (قرأ فلانٌ اسمَه)، ولا يُقال: (تَلا اسمَه) - إذا كانَ يقولُ لفظَ اسمِه فقط، وليس اسمَه بالكامِل (اسم أبيه وجدّه ولقبِه) - لأنّ أصلَ القراءة جمعُ الشّيءِ وضمُّ بعضِه إلى بعض، وهذا حاصِلٌ في الكلمةِ الواحدةِ بجمعِ حروفِها بعضِها إلى بعض، وحاصِلٌ فيما فوق ذلك، فالقراءةُ أعمُّ.

من حيثُ الأثرُ (التّلاوة) قد تشتَمِلُ على جانبٍ عمَليٍّ، وهو اتّباعُ الشّيءِ المتلوّ والعمل به، فكأنّ الّذي يَتلو القرآنَ - مَثَلًا - يَتتابَعُ في

(1) الرّاغب، المفردات، والسّمين، عمدة الحفّاظ، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (رهب) - (وجل)، والفيروزباديّ، بصائر ذوي التّمييز: 165/5.

ترتيلِ ألفاظِه، ويُتبعُ ذلك باتّباعِ ما قرأهُ فهمًا وعملًا، بدليلِ قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَتۡلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾ [البقرة: 121]؛ أي: يتّبعونه بالعِلمِ والعملِ، وأمّا القراءةُ فهي مجرّدُ التّلفّظِ بالكلامِ، سواء اقترن ذلك بعلمٍ وعملٍ، أو خلا منهما، بدليل قولِ النّبيّ ﷺ في الخوارج «يقرأونَ القرآنَ لا يُجاوِزُ تَراقيهم»[1]، ولم يقُلْ: (يَتلونَ القرآنَ)، وعليهِ: فالقراءةُ أعمُّ.

مِن حيثُ المحلُّ: (التّلاوة) تُستعملُ للقراءةِ من مكتوبٍ وتكون بصوتٍ، ويُتسامَحُ فيها فتكونُ من غيرِ مكتوبٍ لكن بصوتٍ، كتلاوةِ المحفوظِ في الذِّهن، و(القراءةُ) تُستعمَلُ للقراءةِ من مكتوبٍ ومن غير مكتوبٍ، بصوتٍ وبغير صوتٍ (كمَن يقرأُ القرآنَ في نفسِه)، فإذا عُدّيا (تَلا، وقَرَأ) بـ(على) فهما بصوتٍ ولا بُدّ[2].

يتوكّلون ويُفوِّضون:

التّوكُّلُ: هو الاعتمادُ على الغَير في الأمرِ، بحيث يكون نائبًا عنك فيه. فيُلحظُ في التّوكُّلِ مَعنيان: الاعتماديّةُ منَ الوكيل الفاعل، والنّيابةُ منَ الوكيل المفعول. وعلاقةُ الوَكالَة سببيّةٌ بين الطّرفين؛ أي: لا ينوبُ الوكيلُ عن أحدٍ إلّا بسببٍ وإذنٍ منه في التّصرّف، فالفاعلُ له دَخلٌ وسبَبٌ في محلّ الوكالةِ، ولذا جعلوا منطلقَ التّوكُّلِ قيامَ العبدِ بالأسباب؛ ليصحَّ انعقادُ الوكالةِ (التّوكُّل) عليها، ومعنى ذلك: أنّ التّوكُّلَ مُحدَّدُ السّببِ ومُحدَّدُ الغاية، وحقيقةُ التّوكُّل: الاعتمادُ على اللّه الوكيل ﷻ في توصيلِ السّبَبِ لِغايتِه المُرادة، وأمّا التفويضُ فأصلُه "الشّيوعُ وعدمُ تَحدُّدِ اختصاصِ الشّيءِ بمكانٍ،

التّوكُّلُ يُلحَظُ فيه سببُ العبدِ وغرَضُه، والتّفويضُ خالٍ من ذلك

(1) متّفقٌ عليه، أخرجه البخاريّ، كتاب المناقِب، باب علامات النّبوّة، برقم: (3341)، ومسلم، كتاب صلاة المسافرين، باب ترتيل القراءة، برقم: (1358).

(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (تلو)، والعسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 63، والرّاغب، المفردات: (تلو - قرأ)، والكفويّ، الكلّيّات، ص: 308 - 703، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (تلو - تلى)، (قرأ).

أو صحبةٍ، أو مِلك"[1]، فالتّفويضُ علاقةٌ مَشاعيّةٌ تقومُ على إطلاقِ يَدِ المُفَوَّضِ في الأمر تصرُّفًا وحُكمًا من غير قيدٍ ولا سبَبٍ يتوقّفُ عليه، فهو إرجاعُ الشّيءِ بعمومِه وردُّه إلى حكمِ اللّهِ خاليًا من سبَبِ المفوِّض وغَرضِه. والخلاصةُ أنّ التّوكُّلَ يُلحَظُ فيه سبَبُ العبدِ وغرَضُه، بدلالةِ ما تقتضيه الوكالةُ من نيابةِ الوكيلِ عنِ الموكِّل في غرضٍ ما، فالنّيابةُ تقتضي سببًا تتعلَّقُ به، وغايةً يُرتَجَى وصلُ السّببِ بها، واعتمادًا يَنتَويه المتوكِّلُ ويُعلِّقُه بالوكيل. وأمّا التّفويضُ فلا يُلحَظُ فيه أثَرُ المُفوِّض منَ السّببِ والعملِ؛ لأنّه إخراجٌ شامِلٌ للأحوالِ والأغراضِ من حوزَةِ المخلوقِ إلى حوزَةِ الخالق بلا قيدٍ ولا سبَبٍ ولا شرطٍ. ولذا يصحُّ أن يقولَ العبدُ توكّلتُ على اللّه في السّعيِ على الرّزق، ولا يقولُ فوّضتُ؛ لأنّ السّعيَ سبَبُ العبدِ، ويقول: توكّلتُ على اللّهِ في رِزقي، ويقول كذلك: فوّضتُ. ومن جزالةِ النّظمِ الكريمِ: أنّه قال: ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ مسبوقًا بأعمالِهم الباطنة ومَلحوقًا بأعمالهم الظّاهرة، ليومِئَ إلى أنّ التّوكُّلَ مَحفوفٌ بمكاسِب العبدِ وأعمالِه، فهو مُنعَقِدٌ عليها[2].

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (فوض).

(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (فوض)، والسّمين، عمدة الحفّاظ: 256/3.

﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ٣﴾ [الأنفال: 3]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

العلاقةُ بين أعمال القلوب، وبين الصّلاة والإنفاق رجاءُ مَنْ إليه نؤوبُ

لمّا وصَفَ اللّهُ ﷻ المؤمنين بأعمالِ الباطن منَ الوجَلِ وزيادةِ الإيمانِ والتّوكُّلِ، وصفَهم أيضًا بالأعمالِ الظّاهرةِ البدنيّةِ والماليّة: إقامةِ الصّلاة والإنفاقِ من رزق اللّهِ في سبيلِ اللّه، فانتقلَ من تقرير حقيقةِ الإيمانِ إلى تقرير أماراتِه وبراهينِه الدّالّةِ عليه ظاهرًا وباطنًا.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يُقِيمُونَ﴾: منَ الإقامةِ بمعنى: الثَّباتِ والمُداومةِ. كقولهم: أقام في المكانَ؛ إذا ثَبَتَ فيه ودام، ومِن إقامَةِ الشّيءِ بمعنى: تَوفيَتِه حَقَّه. ومعنى يُقيمون: يُداومونَ عليها، ويؤدّونها أداءً تامًّا لا نَقصَ فيه[1].

المَعْنى الإجْمالِيُّ:

يكون اكتمال الإيمان بإقامة الصّلاة، والمبادرة إلى الإنفاق والصّدقات، والمؤمنون الكاملون همُ الّذين يُداوِمون على الصّلواتِ بصِفَتِها التّامّةِ، ويحافظون على أوقاتها، ويحفظونها منَ الخَلَل والدّخَل، وممّا رزقناهم يخرجون النّفقاتِ في الواجبات والمستحبّات.

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

علّةُ الفصلِ في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾:

فائدةُ الفصلِ الانتقالُ من غرضٍ إلى غرضٍ

الفصلُ في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾؛ لكمالِ اتّصالِه مع ما قبله، فهو نعتٌ للموصولِ الأوّل ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ﴾ في الآيةِ السّابقة، وهو مُستَحسَنٌ لإدخالِ الجملةِ في حيّزِ الخبريّةِ

(1) الرّاغب، المفردات: (قوم).

عنِ المؤمنين: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾، فكأنّه قال: (إنّما المؤمنون الّذين يقيمون الصّلاة)، فيجتمِع في ذلك، وفي الصِّلاتِ المتعاطِفةِ، الإخبارُ عنهم بالصّفةِ القلبيّةِ والصّفةِ البدنيّةِ والصّفةِ الماليّةِ، أو بدلٌ منه، أو عطفُ بيانٍ، أو منصوبٌ على القطع لغرضِ المدحِ وإفادةِ الاستقلال، أو في محلّ رفعِ خبرٍ عن مبتدأٍ محذوفٍ؛ أي: همُ الّذين، وعلى هذا الوجهِ الأخيرِ، فجملةُ: ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ استئنافٌ بيانيٌّ، كأنّه سُئِل: هذه صِفاتُهُم القلبيّةُ الباطِنةُ مِنَ الوجَلِ وزيادةِ الإيمانِ والتّوكُّلِ، فأين أوصافُهم القالِبيّةُ الظّاهِرةُ، فأجيب: ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾، وعلى ذلك يكون الفصلُ لِشبهِ كمالِ الاتّصال، وفائدةُ الفصلِ: الانتقالُ من غرضٍ إلى غرضٍ، وهو الإخبارُ عن عَمَلِ الظّاهِرِ بعد أن أخبَرَ عنهم بحالِ الباطِن[1].

إيثارُ استعمالِ الاسم الموصول، بدلًا من اسم الفاعل:

الاسم الموصول يُبينُ عمّا في حيّزه منَ الصِّلَةِ أكملَ بيان

تصديرُ الجملةِ بالموصولِ ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾، ولم يقُل: (المقيمونَ)؛ لِقصدِ الإخبارِ عنهم بذلك استقلالًا، بحيثُ لو اقتُصِر في تعريفِ المؤمنين؛ بأنّهم الّذين يقيمون الصّلاةَ، وممّا رزقهم اللّهُ تعالى ينفقون، لصحّ ذلك، وكان خبرًا كافيًا في التّعريف بهم، فالاسمُ الموصولُ أفادَ تمييزَهم بما في حيّزِه من صِلةٍ، وجعل مضمونَ الصِّلةِ علامةً فاصِلةً في جريانِ وصفِ الإيمانِ وكمالِه عليهم.

دلالة التّعبيرِ بـ﴿يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾، على الاستعارةِ:

أهميّة إقامة الصّلاة، وسرُّ إفرادِ لفظها في السّياق

أصلُ الإقامة: الانتصابُ والنّهوضُ من قعودٍ واضطجاعٍ. وإقامةُ الصّلاة: التّشميرُ لأدائها وإيقاعها على نحوٍ منَ العنايةِ والمواظبةِ، وإقامتُها استعارةٌ تبعيّةٌ في تشبيهِ صيانتها منَ الخلل في أركانِها وشروطِها، بجعلِ الشّيءِ قائمًا بعدَ اعوجاجٍ (تقويمٌ وتعديلٌ)، أو

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 271/5، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 220/8، والآلوسيّ، روح المعاني: 157/5، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 260/9.

كنايةٌ عن الدّوام من بابِ قولِه: (قامَتِ السّوقُ)؛ إذا راجَت ونَفَقَت سِلعتُها؛ لأنّ نَفادَ السِّلَعِ في السّوقِ مُشعِرٌ بتوجّه الرّغباتِ إليها، وذلك يَستدعي استدامتَها، فإذا لم تَكن قائِمةً لم تكن دائِمةً، أو مجازٌ في الإسناد، بمعنى: يجعلون الصّلاةَ قائمةً؛ فيفيد التّجلّدَ والتّشمّرَ، وأنّها تقعُ عن مَزيدِ نشاطٍ كقولهم: قامَتِ الحربُ على ساقِها، أو مجازٌ مُرسَلٌ من بابِ إطلاقِ مُعظَمِ الشّيءِ على كُلِّه، وهو ركنُ القيامِ فيها؛ أي: يوجِدون قيامَها؛ أي: يَقومون فيها، فأسندَ القيامَ إليها؛ لأنّه أظهرُ أجزاءِ الصّلاة، وغالِبٌ فيها، وأرادَ به أداءَها وتحصيلَها كامِلَةً [1].

وسرُّ إفرادِها، فلم يَقُل: (الصّلوات)؛ لأنّه أرادَ اسمَ الجنسِ الّذي يدلُّ على الحقيقةِ والماهيّةِ، فيشملُ كلَّ أنواعِ الصّلاةِ من فريضةٍ ونافلةٍ وغير ذلك؛ ليدلَّ على أنّ إقامتَهم للصّلاةِ لا تختصُّ بها صلاةٌ دون صلاةٍ، بل هم مقيمون لكلِّ ما يتحقّقُ فيه معنى الصّلاة.

دلالةُ الفعلِ ﴿يُقِيمُونَ﴾، دون الفعل (يصلّون):

إسنادُ القيامِ إلى الصّلاة، يتضمّن مدحًا وتنويهًا بمن أقامها

التّعبيرُ بـ﴿يُقِيمُونَ﴾ دون (يُصلّون)؛ للتّنبيه على أنّه أرادَ أكثرَ من مجرّد إيقاعِها وفِعلِها، فِصياغةُ الفعلِ من غير لفظِها (الصّلاة - يُصلّون)، يدلُّ على شيئين: الأوّل: إيقاعُها قائمةً لا اعوِجاجَ فيها ولا فتورَ يعتريها، كحال الشّيءِ المنتَصبِ الثّابِت، فانتصابُه ينفي عنه اعوِجاجَه؛ ولذا يُقال له قائمٌ أو مستقيمٌ، وثباتُه ينفي عنه الانقطاعَ والتّواني، فإقامةُ الصّلاة إدامَتُها بتثبيتِ فِعلِها وعدمِ الانقطاعِ عنها، وصيانتُها من لُحوقِ الخلَلِ في شيءٍ منها؛ ولذا كان إسنادُ القيامِ إلى الصّلاة مدحًا لمَن قام بها، وإسنادُ فِعلِها من لفظِها إليها كان ذَمًّا أو مجرّدَ إخبارٍ عنِ الفعلِ لا مَنقَبَةَ فيه، ولذا قال تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤﴾ [الماعون: 4]؛ للتّنبيهِ على مجرّدِ تحصيلِهم لها من

(1) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 91/2، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (قوم).

غير إقامةٍ وإتقانٍ. الثّاني: أنّ لفظَ ﴿يُقِيمُونَ﴾ فيه تسجيلٌ لأهمّيّةِ ركنِ القيامِ في الصّلاة؛ إذ يَسوغُ إرادةُ الشّيءِ بإطلاقِ جُزئِه؛ إيذانًا بأنّ تحقيقَ هذا الجزءِ مَظِنّةُ استيفاءِ الشّيءِ بكامِله، فعبّر عن أداء الصّلاةِ بأظهرِ ركنٍ فيها وهو القيامُ؛ إيذانًا بإيقاعِ الصّلاةِ كلِّها على معنى القيامِ فيها منَ النّهوضِ والتّشميرِ[1].

نكتةُ استعمالِ صيغةِ المضارع، في قوله: ﴿يُقِيمُونَ﴾:

التّعبيرُ بصيغةِ المضارع ﴿يُقِيمُونَ﴾؛ للإيذانِ بحالِهم مع صَلاتِهم منَ المداومةِ وعدمِ الانقطاعِ، فهم لا يَهجرون الصّلاةَ، وإنْ صَلَّوا لا يَهجرون إقامتَها بتحصيلها من غير إتقانٍ، فدلَّ على مواظبتِهم على الفِعل وعلى إتقانِ الفِعل معًا، بدلالة التّركيبِ منَ الفعل والمفعول معًا، "وليصلُح ذلك للّذين أقاموا الصّلاةَ فيما مضى؛ وهمُ الّذين آمنوا من قبلِ نزولِ الآيةِ، والّذين هم بصددِ إقامةِ الصّلاةِ؛ وهمُ الّذين يؤمنون عند نزولِ الآيةِ، والّذين سيهتدون إلى ذلك؛ وهمُ الّذين جاءوا من بعدهم؛ إذِ المضارعُ صالحٌ لذلك كلّه؛ لأنّ مَن فعلَ الصّلاةَ في الماضي فهو يفعلُها الآن وغدًا، ومَن لم يفعلْها فهو إمّا يفعلُها الآن أو غدًا"[2].

التّعبيرُ بإقامة الصّلاة، دلالة على المواظبة والإتقانِ والتّعظيم

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الرّزق والكسب:

الرّزقُ: العطاءُ الّذي يُصيبُ الإنسانَ فينتفِعُ به؛ لذا يُقال للعطاءِ الجاري، وللنّصيب والحظّ، ولِما يَصِل إلى الجوف ويتغذّى به (الغِذاء)، ويكونُ في المالِ والجاهِ والعِلم، وغلَبَ فيما يُصيبُ الإنسانَ نفعُه، وقد يُطلَقُ على غيرِ ما يُنْتَفَعُ به لعارضٍ يَعرِضُ فيهِ من سوءِ تصرّفٍ أو سَفَهٍ يَصيرُ به غيرَ نافعٍ لِمالِكه، كقول الشّاعر:

الرّزقُ لا يكون إلّا منَ الله، والكسبُ وصفٌ لما يكون منَ العبد

(1) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 81/1.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 231/1.

رُزِقتَ مالًا ولَم تُرزَقْ مَنافِعَهُ *** إنَّ الشَّقيَّ هو المَحرومُ ما رُزِقا[1]

وهذا لا ينفي عنه نَفعَه في ذاتِه كما لا يَخفى. والكَسبُ يُقال فيما أخذَهُ لنفسِه ولغيرِه، ولهذا قد يتعدّى إلى مفعولين، فيُقال: كَسَبتُ فلانًا كذا، وهو يدلُّ على ابتغاءٍ وطلبٍ وإصابةٍ، ولذا فهو جَمعُ الشّيءِ وتحصيلُه (شيئًا بعد شيءٍ) بجُهدٍ ما، كما يُجمَعُ المالُ من مظانّه (شيئًا بعد شيءٍ). ومنه: الكَسبُ: طَلَبُ الرّزق، كقوله تعالى: ﴿أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ﴾؛ أي: ما حصّلتموه مِن أرزاقٍ، ويُقال في كلّ تحصيلٍ من خيرٍ أو شرٍّ كقوله تعالى: ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ﴾، ﴿فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا﴾[2].

وعليه: يختلفُ الرّزقُ عنِ الكسبِ من وجهين: الأوّل: أنّ الكسبَ يكونُ مشتملًا على معنى الجُهد والسّعي، وصيغةُ الافتعال (اكتَسَب) تُقوّي هذا المعنى، والرّزقُ قد يتأتّى بجُهدٍ أو من غيرِ جُهد، ولذا قد يَحصلُ الرّزقُ من غيرِ تحصيلٍ؛ أي: من غير تَدخّلٍ بالفعل والقصد، وأمّا الكسب فمشتَمِلٌ بدلالةِ مَبناهُ على فِعلِ الكاسِب وقصدِه وتأثيرِه في الشّيء المكسوبِ، ولذا صحّ بهذا الاعتبار أن يكونَ الرّزقُ أعمَّ منَ الكسب؛ لأنّ الرّزقَ قد يشتمِلُ على معنى الكسبِ، وقد لا يشتمِلُ إذا خلا من معنى الجُهدِ وقصدِ التّحصيل. فالرّزقُ قد يكون موهوبًا بلا مجهود، وقد يكون مكسوبًا من غير مجهودٍ، فهو أعمُّ.

الثّاني: الرّزقُ مُستعمَلٌ فيما ينفعُ ولا يضرُّ بذاتِه، وأمّا الكسبُ فحاصِلٌ فيما يَضرُّ وينفعُ؛ لأنّ في الضّرر والنّفع كليهما ما هو من مكاسِب الجوارحِ والأفعالِ، فيقال: كسبَ فلانٌ خيرًا إذا ارتكب أسبابَه وكسبَ شرًّا كذلك، ولذا فالمرضُ لا يُقالُ عنه رِزقٌ، وقد يُقال عنه: كسبٌ؛ إذا كسبَه الإنسانُ بارتكابِ أسبابه، وعلى هذا الاعتبار يكون الكسبُ أعمَّ.

وبحسبِ الوجهين السّابقين، فالعلاقةُ بين الرّزق والكسبِ عمومٌ وخصوصٌ وجهيٌّ يعني: كلاهما أعمُّ وأخصُّ باعتبار وجهٍ دون وجه.

الإنفاق والعطاء والإيتاء:

الإنفاقُ: إخراجُ المالِ وما في معناه منَ الحوزَةِ، بحيث ينفَدُ من مالِكه، ويخرجُ عن تصرّفِه، فهو أصلٌ في الإنفادِ والانقطاعِ والزّوالِ، والعطاء: هو مُناولَةُ الشّيءِ للغير، فهو

(1) السّمين، عمدة الحفّاظ، وابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (رزق).
(2) الرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (كسب).

أصلٌ في الأخذِ والتّناول[1]، والإيتاءُ: هو إحضارُ الشّيءِ وإيصالُه لِلمُعطَى، وجعلُه يأتي إليه، فهو أصلٌ في المجيءِ والحضورِ[2]، واستعمالُه في الإعطاءِ لكونِ العطاءِ يقتضي مُناوَلَةَ الشّيءِ بعد إحضارِه، فالإيتاءُ أوّلًا ثمّ العطاءُ.

الإنفاقُ أدلُّ على الهِبَةِ من الإعطاء، والإيتاءُ مُناوَلَةُ ما يُعْطَى لمن يُعْطَى

ويختلفُ الإنفاقُ عنِ الإعطاء: في أنّ الإنفاقَ إخراجُ الشّيءِ على غير نيّةِ الاسترداد، والعطاءُ إخراجُه على نيّةِ المُداوَلَةِ والمُناوَلَة لِمجرّدِ الانتقالِ من يَدٍ ليَدٍ، فلا يقتضي زوالُه عن حوزةِ المُعطي وتصرّفه، وقد يكونُ على نيّةِ الإخراجِ التّامِّ بلا استردادٍ ولا وِصايةٍ منَ المعطي، فهو أعمُّ[3]، ويختلِفُ الإيتاءُ عنِ الإنفاق: في أنّ الإنفاقَ إخراجُ ما في الحوزَةِ وزوالُه عنها، والإيتاءَ إحضارُ الشّيءِ وإيصالُه إلى الجِهةِ الّتي لأجلها كان الإنفاقُ، فالإنفاقُ يقعُ أوّلًا ثمّ الإيتاء. وقد ورد الإيتاءُ في إنفاقِ الزّكاة دون الإعطاء لثلاثة اعتبارات: الأوّل: يتعلَّقُ بالفاعل (المؤتي)، فهو يدفعُ الزّكاةَ عن طيب نفسٍ لا عن إكراهٍ، ولو قال: (يعطون) لاحتمل كُرهَ النّفس، كما قال في الجزية: ﴿حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ﴾، فجعلَ الإعطاءَ فيما كان عن غلبةٍ وقهرٍ، والثّاني: يتعلَّقُ بـ(المؤتَى)؛ وهو الشّيءُ المبذولُ، فإنّ الإيتاءَ يكون في الشّيء عزيزَ القيمةِ، كثيرَ المنفعةِ، عظيمَ القدرِ، ولو قال: (يعطون) لاحتمل إعطاءَ البخسِ والقليلِ، كما أسند العطاءَ للقليل في قوله: ﴿وَأَعۡطَىٰ قَلِيلٗا وَأَكۡدَىٰٓ﴾، وأمّا الإيتاءُ فلم يُسنَد إلّا للعظيم والكثير: ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحِكۡمَةَ﴾ - ﴿ءَاتَيۡنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكۡرٗا ٩٩﴾ - ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُم مُّلۡكًا عَظِيمٗا﴾، فإسنادُ الإتيانِ للزّكاة إعظامٌ لشأن الفريضة وإجلالٌ لمكانها في الشّرع، فالإيتاءُ للكثير والإعطاءُ للكثيرِ

(1) الجوهريّ، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللّغة، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (نفق).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (أتو - أتى).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عطو)، والرّاغب، المفردات، ص: 572، وابن منظور، لسان العرب: (عطا).

والقليلِ بحسب قرينة السّياق، ولذا كان الإعطاءُ فيما يُنتقَلُ عنه إلى ما هو أعلى منه، ولذا قال: ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ۝١﴾ [الكوثر: 1]؛ لانتقاله منَ الكوثر إلى ما هو أعلى منه، وهو الجنّةُ ومزايا النّعيم الأحسن[1]. والثّالث: يتعلَّقُ بـ(المؤتَى إليه) وهو آخِذُ الزّكاة، من حيث إنّ إيتاءَه الزّكاةَ لا يتوقّفُ على قبوله وموافقته، فهو حقيقٌ بها من غير اعتبار موقفه، ولذا كان فعلُ الإيتاءِ أقوى منَ الإعطاء، ولذا ففِعلُ الإيتاءِ لا مُطاوعَ له من لفظه، كما في الإعطاء[2]، يُقال: آتاني فأخذته، وفي الإعطاء يُقال: أعطاني فعطوت؛ وما له مطاوعٌ أضعفُ في إثباتِ مفعولِه ممّا لا مطاوعَ له، ولو قال: (ويعطون الزّكاة) لاحتمل توقّفَهُ على القبول، كما قال: ﴿حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ﴾، فإنّ عطاءَهم الجزيةَ متوقّفٌ على القبول مِنّا، ودلالةُ ذلك هنا: التّنبيهُ على كون الزّكاةِ حقًّا للّه خالصًا، والغنيُّ والفقيرُ ما هما إلّا وكيلان في مُداولَة هذا الحقّ بينهما، فلا الغنيُّ يستكثرُ على الفقير؛ فيَمنّ بزكاته، ولا الفقيرُ يستنكرُ على الغنيّ فيُعرِضُ أو يرفضُ أو يتحرّجُ.

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 86.
(2) الكفويّ، الكلّيّات، ص: 212.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ لَّهُمۡ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمۡ وَمَغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ٤﴾ [الأنفال: 4]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

المناسبة بين المؤمنين حقًّا، وما لهم من مقام وجزاء عند الله

لمّا حقّقوا إيمانَهم باطنًا وظاهرًا، بأعمال القلوبِ وأعمالِ الأبدان وأعمالِ الأموال، شهِدَ اللّهُ لهم بالإيمان الحقِّ ووعدَهم بالجزاء الحسنِ وعاقبةِ الخير، فقال جلّ شأنُه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ لَّهُمۡ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمۡ وَمَغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ﴾.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿دَرَجَٰتٌ﴾: مُفردُها درَجَةٌ، وهي مِثلُ المنْزِلَة، لكنّ الدّرجَةَ تكون باعتبارِ الصّعودِ الفَوقيّ والامتدادِ الرّأسيّ، والمَنزِلَةَ تكون باعتبارِ الامتدادِ الأفُقيّ على البسيطة، كدرجةِ السّطحِ والسُّلَّم، ولذا فالدّرجاتُ هي المراتِبُ والطّبقاتُ الّتي يكونُ بعضُها فوق بعض، ويُعبّرُ بها عنِ المنزلةِ الرّفيعةِ[1].

المَعْنى الإجْماليُّ:

المتّصفون بالإيمان قولًا وفعلًا، هم أصحاب التّكرمة والجزاء الأوفى

الّذين اتّصفوا بنعوتِ الإيمانِ الظّاهرةِ والباطنةِ أولئك همُ المؤمنون، كاملو الإيمان حقًّا، لهم رُتَبٌ ساميةٌ ومقاماتٌ عاليةٌ عند ربّهم، ومغفرةٌ لذنوبهم، ورزقٌ كريمٌ واسعٌ لا ينشغلون بغيره، ولا يتحوّلون عنه.

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

الإشارة تمنحُ الخبرَ لونًا مِنَ القوّة والتّقرير والرّسوخ

دلالةُ اسم الإشارة ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ وموقعها الإعرابيّ:

تمييزُ المسند إليه بالإشارة يمنحُ الخبرَ مزيدًا منَ القوّة

(1) الرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (درج).

والتّقرير[1]، فجملةُ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ مؤكِّدةٌ لمضمون ما قبلها، وهي قولُه: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ﴾، ولذلك فُصِلَتْ ولم توصلْ بالعطف، ويصحُّ أن تقعَ استئنافًا بيانيًّا عن قوله: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ﴾﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ جوابًا عن سؤالٍ مُقدَّرٍ: فماذا لهم منَ المنزلةِ والرّتبةِ؟ فأجيبَ بالإشارةِ إلى تلك المنزلة: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ﴾، وتعيينِها بقوله: ﴿لَّهُمۡ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمۡ وَمَغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ﴾.

وتصديرُ الجملة باسم الإشارة يدلُّ على عدّة وجوه: الأوّل: يدلُّ على استحقاقِهم الحكمَ المذكورَ في حيّزه، وهو قولُه: ﴿هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ لَّهُمۡ دَرَجَٰتٌ﴾.

الثّاني: يدلُّ على عِلّيّة الصّفاتِ - الّتي أُشيرَ به إليها - للحكم المذكورِ بعده؛ أي: بسببِ الصّفاتِ المذكورةِ سابقًا استحقّوا بها كونَهم المؤمنين حقًّا، فكأنّه قال: المقيمون الصّلاةَ، والمنفِقون، والوَجِلون المتوكّلون، أولئك هم المؤمنون حقًّا.

الثّالث: تعظيمُ شأنهم؛ لأنّ دلالةَ اسمِ الإشارة على البُعد مُؤذِنٌ بعلوّ رتبتهم، وبُعد منزلتِهم في الشّرف، ومُؤذِنٌ بكمالِ تحقّقِهم، وتمامِ تميّزِهم، فيما اتّصفوا به.

الرّابع: اسمُ الإشارة مُشعِرٌ بتجسيدِ ما قام بذواتِهم من حقائقِ الإيمانِ وكمالاتِه، فكأنّه دائمُ الحضورِ والمشاهدةِ؛ لأنّ الإشارةَ متّجهةٌ إلى ذواتِهم حالَ تلبّسِهم بالصّفات المذكورة، وهم لا يتلبّسون بها جميعًا في آنٍ، بل هي كائنةٌ فيهم بحسب الاستعداد، حاصِلةٌ بحسب دواعيها في وقتها الّذي حضرَت فيه، فالإشارةُ تُظهِرُ هذه الكينونةَ الغائبةَ منَ الجاهزيّة والاستعداد، وتُظهِرُها للعلَنِ والمشاهدة، بحيثُ لا يُتصوّرُ انفكاكُها عن ذواتهم[2].

أثر الضّميرِ المنفصلِ، وفائدته في السّياق:

الضّميرُ المنفصلُ في قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ﴾ أفاد ثلاثةَ أشياء:

الأوّل: توكيدُ استحقاقِهم للخبر عنهم بصفةِ الإيمان.

الثّاني: تمييزُ الخبرِ عنِ الصّفة؛ أي: كونهم المؤمنين قُصِدَ به الإخبارُ عنهم بذلك، لا أنّه وصفٌ لاسم الإشارةِ قبله، وقصدُ الإخبار أدلُّ على إفادة الاستقلالِ

(1) أبو موسى، خصائص التّراكيب، ص: 200.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/4، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 261/9، وصافي، الجدول: 171/9.

والتّميّزِ بمضمونِ المعنى الّذي اشتملَ عليه، وهو صِفةُ الإيمان ﴿هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾.

ملمح الإبانة بإفادة التّوكيدِ والحصرِ والخبريّة

الثّالث: الحصر، بقصرِ الإيمان على أصحابِ تلك الصّفات، وهو قصرٌ مجازيٌّ، يُقصدُ به المبالغةُ إن أُريدَ بالإيمان أصلُه؛ لأنّ أصلَ الإيمان لا يُزيلُه الإخلالُ ببعض الواجبات، فمفهومُ القصرِ غيرُ ثابتٍ لمنطوقِه، وقصرٌ حقيقيٌّ إن أُريدَ بالإيمان كمالُه؛ لأنّه بذهاب صِفةٍ من تلك الصّفات لا يكون الإيمانُ كاملًا، فالقصرُ مقصودٌ على إرادةِ الكمال، ومعنى كونه حقيقيًّا ثبوت منطوقِه ومفهومِه، ومفهومُ القصرِ هاهنا ثابتٌ، وهو أنّ مَن لم يتّصفْ بتلك الصّفات لم يكنْ كامِلًا في إيمانه[1].

دلالةُ التّعريفِ في لفظ: ﴿ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾:

وصل أسماء الفاعلين، له دلالةٌ على إفادةِ الكمال والتّمكين

(ال) التّعريف في قوله: ﴿ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾؛ هي (ال) الموصولةُ الدّاخِلةُ على أسماء الفاعلين، ولها دلالةٌ على إفادة الكمالِ، وهو استغراقُ خصائصِ أفرادِ الجنسِ؛ أي: هم المؤمنون الكاملون الّذين استوفَوا صِفاتِ أفرادِ الإيمانِ، واستكملوا خصائصَه وحقائقَه، ودلالتُها على الموصوليّة حقيقةٌ، ودلالتُها على الكمال مجازٌ، ولا تَعارض بين الدّلالتين؛ لأنّ معنى الموصوليّة مطّردٌ في (ال)، ثابتٌ بنفسِه من غير قرينةٍ، والّذي أعانَ على دلالة الكمالِ ليس (ال) وحدَها، بل قرائنُ السّياق، وهي في هذا التّركيب: اسمُ الإشارة الدّالّ على البُعد والتّناهي في الغاية، وتوسيطُ ضميرِ الفصلِ بين المبتدأ والخبر، وتعريفُ الخبرِ بلام الجنس. ويترجّحُ حملُ (ال) على معنى الكمالِ هنا؛ لِكون الحصرِ المُستفادِ منَ التّركيب لا يصحُّ إلّا على إرادة معنى الكمال، وإلّا فلا بدَّ من تأويلِه بالحصر المجازيّ الادّعائيّ[2].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 221/8، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 262/9.
(2) الطّيّبيّ، فتوح الغيب: 4/254، والشّهاب، حاشية الشّهاب: 5/370.

فائدةُ قوله: ﴿حَقًّا﴾، وتوجيهُ الوقفِ عليها:

تأكيد جملة الإسناد الخبريِّ قبلها

﴿حَقًّا﴾ صفةُ مصدرٍ محذوفٍ دلَّ عليه المؤمنون؛ أي: هم المؤمنون إيمانًا حقًّا، أو مصدرٌ مُؤكِّدٌ لمضمونِ جملة ﴿هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾؛ أي: حَقّ ذلك حقًّا، "ومعنى ذلك أنّه تأكيدٌ لما تضمّنته الجملةُ منَ الإسنادِ الخبريِّ، وأنّه لا مجازَ في ذلك الإسناد"[1]، أو منصوبٌ على الحال من ضميرِهم، فيكون المصدرُ مؤوّلًا باسم الفاعل كما هو الشّأن في وقوع المصدرِ حالًا؛ أي: محققّين إيمانَهم بكرائمِ الأعمال، وعلى ذلك فانتهاءُ المعنى وتمامُ الوقف عند قوله: ﴿حَقًّا﴾، ويقبُحُ إتمامُ الوقفِ عند ﴿ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ والابتداءُ بـ﴿حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ﴾؛ لأنّ المصدرَ المؤكَّدَ يكون مؤكِّدًا لمضمون ما قبله لا ما بعده، وتقديمُ المصدرِ المؤكِّد لمضمونِ جملة (عليها) ضعيفٌ جدًّا عند النّحويّين، فلا يَسوغُ بناءُ الوقف والابتداء عليه.

وفائدةُ مجيء ﴿حَقًّا﴾ لإفادةِ كمالِ النّوع فيما تأكّدَ به، كمَن يقولُ لابنه البارّ به: أنت ابني حقًّا، فهو لا يريد نفي البنوّة عن سائر أبنائه، بل يريد أنّ بُنوّةَ البارّ به كاملةٌ ظاهرةٌ عن غيره، فهنا أراد بلفظ ﴿حَقًّا﴾ كمالَ التّحقّيقِ والتّثبيتِ لإيمانهم، وهو تحقيقٌ لمعنى القصرِ المستفادِ منَ التّركيب، بما هو عليه من معنى المبالغة[2].

سرُّ تقديمِ المسندِ في قوله: ﴿لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ﴾:

تقديمُ ذواتِهم على جوائزهم، لِكمالِ العنايةِ بهم

تقديمُ الجارِّ والمجرور ﴿لَّهُمْ﴾ على المسند إليه ﴿دَرَجَٰتٌ﴾ يُفيدُ اختصاصَهم باستحقاق الدّرجات، وفي تقديم ذواتِهم على جوائزهم كمالُ عنايةٍ بالمؤمنين، إسراعًا في إلحاقِ التّكريمِ بهم، وإدخالِ السّرورِ عليهم.

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/271.

(2) السّمين، الدّرّ المصون: 5/559، والآلوسيّ، روح المعاني: 5/157، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/261.

علّةُ تنكيرِ لفظ ﴿دَرَجَٰتٌ﴾:

تنكيرُ الدّرجات لتعظيمها في ذاتِها، وتعظيمها في تفاوتِها؛ أي: كلُّ درجةٍ منها عظيمةٌ في ذاتِها، وعظيمةٌ في تفاوتِها بالنّسبةِ لِما دونها وما فوقها[1].

تنكيرُ الدّرجاتِ تعظيمٌ ذاتيٌّ وتعظيمٌ مُقارَنٌ

معنى الظّرفيّة في ﴿عِندَ﴾، وفائدةُ تقييد الدّرجات بها:

الظّرفيّةُ في قوله: ﴿عِندَ رَبِّهِمۡ﴾ تفيدُ معنى الاستقرارِ والثّبوتِ والتّحقّقِ للجزاءِ المفهومِ منَ الدّرجات، و﴿عِندَ رَبِّهِمۡ﴾ ظرفٌ مُتعلِّقٌ بدرجاتٍ؛ لأنّها بمعنى أجور، أو يتعلَّقُ بمحذوف صفةٍ لدرجات؛ لأنّها نكرةٌ، والصّفةُ المُقدّرةُ مؤكِّدةٌ للدّرجات؛ أي: درجاتٌ كائنةٌ عنده[2].

دلالةُ الظّرفيّةِ على الاستقرارِ والثّبوتِ والتّحقّقِ

نكتة إضافةِ الظّرفِ إلى (الرّبّ):

إضافةُ الظّرفِ إلى الرّبّ في قوله: ﴿عِندَ رَبِّهِمۡ﴾ دون اسم الجلالة: (اللّه)، أفاد تعظيمَ مُتعلَّقِ الظّرف وهو الدّرجاتُ، فقد أكّدَ تعظيمَها الذّاتيَّ المستفادَ من تنكيرها، بتعظيمِها الإضافيِّ بنسبتِها إلى عنديّةِ المحلِّ الجليلِ، وهو اسمُ الرّبوبيّة المضاف إلى ضميرهم؛ لإشعارهم بالقربِ وكمالِ العناية، ولِمزيدِ تشريفِهم وتطمينِهم باللُّطفِ والإحسانِ؛ أنّ الجزاءَ المذكورَ مُتيقَّنُ الثّبوتِ والحصولِ، مضمونُ الوقوعِ، مأمونُ الفَواتِ[3].

تأكيدُ التّعظيم الذّاتيّ بالتّعظيم الإضافيّ

نكتةُ عطفِ المغفرةِ على الدّرجات:

الابتداءُ بالدّرجاتِ ثُمّ المغفرةِ ثمّ الرّزقِ الكريمِ على هذا التّرتيب فيه ثلاثُ نكاتٍ:

الأولى: لِمُقابَلَةِ أوصافِهم المذكورة[4]، فكأنّه جازَى كلَّ صفةٍ بما

الدّرجاتُ منازل عالية، والمغفرةُ والرّزقُ الكريمُ مسامحة وإغداق

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 158/5، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 263/9.

(2) السّمين، الدّرّ المصون: 559/5، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/4، ودرويش، إعراب القرآن وبيان: 528/3.

(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/4.

(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 272/5.

يُناسِبها في المعنى والتّرتيب، فالدّرجاتُ لأعمال القلبِ المذكورة في قوله: ﴿وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾، ﴿زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾، ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾، وهذه الأعمالُ لمّا كانَت متفاوتةً بحسبِ أحوال القلوبِ ودرجاتِها في الإيمانِ والنّيّات، ناسَبَها الجزاءُ عليها بالدّرجاتِ المتفاوتةِ والمراتِب المُتباينةِ. والمغفرةُ للأعمال البدنيّةِ في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾؛ لأنّ الصّلواتِ طهارةٌ للبدنِ والقلب ومُكفّراتٌ لما بينها، فناسبها مغفرةُ الذّنوب؛ لأنَّها طُهرةٌ وجُنّةٌ للعبد من خطاياه، والرّزقُ الكريمُ للأعمال الماليّةِ في قوله: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾؛ لأنّ الإنفاقَ رِزقُ المُنفَقِ عليه، وهو مَخلوفٌ برزقٍ خيرٍ منه على المُنفِق عِوَضًا له من خير الرّازقين، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٣٩﴾﴾ [سبأ: 39]، فناسبَه ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾؛ ليكون الجزاءُ من جنس العمل، "وهذا النَّوعُ منَ المقابلة من بديعِ علمِ البديع"[1].

الثّانية: أنّ الدّرجاتِ قُدّمَت؛ لأنَّها دالّةٌ على محضِ الفضل، وأمّا المغفرةُ ففيها اعتبارُ الأعمال؛ إذ هي تذكيرٌ للعبدِ بعمله السّيّئ[2]، فبدأ بما لا مُلاحظةَ للأعمالِ فيه، وهي الدّرجاتُ؛ لِتنشرحَ صدورُهم بما لا يشوبُه استيحاشٌ ولا انقباضٌ، وهذا من عاداتِ الكريم في عطاءاتِه أن يَبدأ العطاءَ من غيرِ ألّا يَربطَه بسبَبٍ؛ إيناسًا للمُعطَى، وتهيئةً لِنفسِه إذا ذُكِّرَ بعطاءِ الكريمِ له رغم إساءتِه وتقصيره في سببِ الطّاعةِ، ووسّطَ المغفرةَ، وقدّمها على الرّزقِ الكريم؛ لأنّ أوّلَ ما يَخطر في بالهم بعد نَيلِ الدّرجات: وماذا عن ذنوبنا وجِنايَتِنا؟!! فكأنّه ثَنّى بما يقطعُ الظّنونَ في حصولِ المؤاخذة بعد ذلك؛ أي: لهم الدّرجاتُ، ولهم مع الدّرجاتِ ألّا يُؤاخذوا بما فعلوا.

الثّالثة: أنّه بدأ بالدّرجاتِ إيذانًا بالمنازلِ العالية، وثَنّى بالمغفرة إيذانًا بأنّ الدّرجاتِ عن غير استحقاقٍ بل عن مُسامحة، وثلّثَ بالرّزق الكريم؛ إيذانًا أنّ الجزاءَ، وإن كان عن غير استحقاقٍ، إلّا أنّه واقِعٌ على جهةِ الاستيفاءِ والكثرةِ والوسعِ؛ لِدفعِ ما قد يُتوهَّمُ مِن أنّ عدمَ استحقاقِه قد يُؤذِنُ بقِلّتِه أو عدمِ وفرتِه.

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 272/5، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 222/8.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 158/5.

فائدةُ تنكيرِ المغفرة، في قوله: ﴿وَمَغْفِرَةٌ﴾:

تنكيرُ المغفرةِ للتّعظيم والتّفخيم؛ للدّلالة على أنّها أوسعُ من ذنوبهم في السَّترِ والمُسامَحةِ، فمَن أرادَ اللّهُ له المغفرةَ فليس هناك في فضائِحه ما هو أكبرُ وأعظمُ منها حتّى لا تسترُه المغفرةُ، وليس هناك في قبائِحه ما يَستعصي على المغفرةِ فلا تَشمَلُه بردائِها.

لا ذنبَ يتعاظمُ على مغفرة الله وصفحه

بلاغة المجاز العقليّ بإسنادِ الفِعل والوصفِ إلى غير صاحبِه:

تنكيرُ الرّزقِ مع وصفه بالكريم دلالةٌ على كثرتِه ووفرتِه، وعلى أنّه حاصِلٌ بطريق الإكرام والتّعظيم لا بالإهانةِ والكَدَر، وعلى أنّه كريمٌ نفيسٌ في مادّتِه ليس فيه رديءٌ أو خَسيسٌ، وعلى أنّه كريمٌ رازِقُه؛ وهو اللّهُ ﷻ، على اعتبار أنَّ إسنادَ الكريم إلى الرّزقِ إسنادٌ مجازيٌّ؛ لأنّ (كريم) فعيل بمعنى فاعِل الكرَم، والرّزقُ لا يفعلُ الكَرمَ، بل الرّازقُ سبحانَه هو المتكرِّمُ بالسّخاء والجود، فإسنادُ الكريم إلى الرّزق مجازٌ عقليٌّ بإسنادِ الفِعل والوصفِ إلى غير صاحبِه[1].

مفادُ لفظ (رزق)، منكّرا، وغرض وصفِه بالكرم

بلاغةُ ختمِ الآية بقوله: ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾:

في ختم الآيةِ بالرّزق الكريم نُكتَتانِ جليلتان: الأولى: أنّه لمّا جعلَ الرّزقَ الكريمَ جزاءً مُقابِلًا للإنفاق في قوله: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾، فختمَ بالإنفاق الفاصلةَ، ختمَ بجزائه الفاصلةَ أيضًا، وهو ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾، ولمّا كان ذلك كذلك وصَفَ الرّزقَ بالكريم؛ لتقرير أنّ الجزاءَ على الإنفاق كان أعلى منه غيرَ مُساوٍ له؛ إيذانًا أنّ اللّه يُخلِفُ على المُنفِق بما هو أحسنُ وأوسعُ ممّا أنفقَه، فقد أنفقوا بعضَ رزقِهم ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾ ليس مُقابِلَ بعض الرّزق، ولا مُقابِلَ رزقٍ كاملٍ ليس بعضًا، بل مُقابِلَ رزقٍ كريم لا ينتهي أمَدُه، ولا ينحصر عدَدُه. فيكون الختمُ بالرّزق الكريم مُقابِلًا لإنفاقهم في موضع الفاصلةِ لفظًا، ومقابلًا له بأحسن منه معنىً.

مقابلةُ الشّيءِ بما هو أحسنُ منه، من رائق البيان

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 263/9.

الثّانية: الختمُ بقوله: ﴿وَرِزۡقٞ كَرِيمٌ﴾ روعيَ فيه البدءُ بقوله: ﴿لَّهُمۡ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمۡ﴾، فكأنّه بقوله: ﴿وَرِزۡقٞ كَرِيمٌ﴾ نفَى عنِ السّامِع التّوهّمَ بأنّ تفاوتَ الدّرجاتِ بينهم قد ينزِعجُ به النّازِلُ في درجتِه عمّن فوقه لنقصٍ في العطاء أو الزّاد، فأخبرَ في الخاتِمةِ بما يُزيل هذا التّوهّمَ، بأنّ كلَّ واحدٍ في درجتِه، وإنْ نزلَتْ، مُستغرقٌ في رزقٍ كريمٍ مُذهِلٍ مُدهِشٍ. فهو ختامٌ لوحِظَ فيه مَطلَعُه.

سرّ ختمِ الجزاءِ بالرّزق الكريم:

تعريضٌ بأنّهم أكرمُ من أن يسألوا عن عرضٍ زائلٍ

في سؤالهم عنِ الأنفالِ وختمِ سياقِ الجواب عليهم بالرّزق الكريمِ الكائنِ للمؤمنين تعريضٌ لطيفٌ بأنّهم أكرمُ من أن يَسألوا عن عرضٍ زائلٍ، وتهوينٌ للدّنيا في قلوبهم، فليستِ الأنفالُ الّتي سألوا عنها شيئًا يُذكَرُ في جانبِ الرّزقِ الكريمِ الّذي وُعِدوا به، فأحرى بهم أن يَتَسَلَّوا بهذا الرّزقِ الكريمِ عمّا شغلهم من أمرِ الأنفال، فلا يكترثوا بها سواء أأصابوا شيئًا منها أم فاتتهم، وفي هذا تحريضٌ لهم على قطع العلائقِ الزّائلةِ، وعدمِ التّعلُّقِ بالمكافآتِ والجزاءاتِ العاجلة منَ الأنفال وغيرها من شؤون الدّنيا؛ لئلّا تشغلهم عنِ الجزاءاتِ الباقية والعواقبِ الخالدة.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

المغفِرة والغُفران:

الغفرانُ يكون مطلوبًا لا مَبذولًا، بينما المغفرةُ تكون مطلوبةً ومَمنوحةً

المغفرةُ والغُفران، أصلُهما (غفر)، وهو تركيبٌ يدورُ حول التّغطيةِ والسّترِ بقصدِ حمايةِ الشّيءِ وصيانتِه، والمغفِرةُ مصدرٌ ميميٌّ سماعيٌّ، على وزن (مَفعِل) بكسرِ العين، وقياسُه فتحُ العَين، والغفرانُ مصدرٌ أصليٌّ سماعيٌّ، فاللّفظانِ مصدران دلالتُهما الأصليّة واحدةٌ على السّترِ والتّغطية، ويظهرُ الاختلافُ بينهما في الاستعمالِ من وجوهٍ: الأوّل: أنّ الغُفرانَ استُعمِلَ في القرآن مطلوبًا لا مَبذولًا، في قوله: ﴿غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ٢٨٥﴾ [البقرة: 285]،

وهي المرّةُ الواحدةُ الّتي ذُكِر فيها هذا المصدر، وتقديره: نسألُك غفرانك. وأمّا المغفرةُ فاستُعمِلَت مطلوبةً ومَمنوحةً، في قوله: ﴿۞وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ [آل عمران: 133]؛ أي: اطلبوها، ولذلك قال بعدها: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغۡفِرَةٞ مِّن رَّبِّهِمۡ﴾ [آل عمران: 136]؛ أي: مَبذولَةٌ لهم بعد طلبِهم لها. الثّاني: أنّ الغُفرانَ لم يُسألْ به غيرُ اللّه، والمغفرةُ حاصِلةٌ منَ الرّبّ ومنَ العبد، والصِّفاتُ على قدرِ الذَّوات، وذلك في قوله: ﴿۞قَوۡلٞ مَّعۡرُوفٞ وَمَغۡفِرَةٌ خَيۡرٞ مِّن صَدَقَةٖ يَتۡبَعُهَآ أَذٗىۗ﴾، فهذا منَ العبد، وهو الموضعُ الوحيدُ، وهي جاريةٌ على معناها اللّغويّ لا الشّرعيّ، وكونها منَ اللّه فكثيرٌ ورودُه في الآيات. الثّالث: كونُ المغفرةِ مصدرًا ميميًّا، فهذا يدلُّ على التباسِه بذاتٍ في الغالب، ويحملُ معنىً لا يحمِلُه مصدر (الغُفران)، الّذي يدلُّ على الحدثِ نفسِه من غير أن يلتبِسَ بمعنى آخر، ولذا لم يأتِ الغُفرانُ إلّا مطلوبًا منَ اللّهِ فقط، فكأنّ المغفِرَةَ دالّةٌ على الحدثِ، وعلى التباسِها بذاتِ المغفورِ له؛ إذ هي نهايةُ مطلَبِه كما أنّ الغفرانَ بدايةُ مطلَبِه، فالمغفرةُ أدلُّ على منتهى الجزاءِ وتمامِه، مثل: المتاب والتّوبة، فالمتابُ توبةٌ تامّةٌ، فالمصدرُ الميميُّ دالٌّ على الذّاتِ غالِبًا، وعلى منتهى الحدَث، ولعلّ أحدَ أدلّةِ زيادةِ المغفرة في المعنى على الغفرانِ تنوّعُ المغفرةِ في استعمالاتها ومواردِها عنِ الغفران، فالمغفرةُ أوسعُ[1].

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (غفر)، وصافي، الجدول: 101/3، وفاضل السّامرائيّ، معاني الأبنية، ص: 32.

﴿كَمَآ أَخۡرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيۡتِكَ بِٱلۡحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ٥﴾ [الأنفال: 5]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

عـلاقـةُ حـال المـؤمـنـين مع الأنـفـال، بما يقتضيه النّفير للجهاد والقتال

لمّا ذكَرَ حالَ المؤمنين مع الأنفالِ، وتعلّقَهم بأن يكونَ لهم حظٌّ ومَغنَمٌ فيها، وما آلَ إليه أمرُهم من تفويض أمرِ قِسمَتِها للّه ورسوله، وما آلَ إليه ذلك من تَشَتّتِ وتفتُّتِ أغراضِهم فيها على خلافِ ما كانوا يُؤَمِّلون، شرعَ يَذكُرُ لهم ما لم يكن سائغًا ومرغوبًا في طبائعهم أيضًا من كراهيّتهم للخروج لقتال النّفير وإيثارهم لغنيمة العير، ثمّ تبيّنَ أنّ المصلحةَ والخيرَ والنّصرَ العظيمَ فيما كَرِهوه وتَجافَوا عنه، كذلك شأنُهم مع الأنفال إنِ وقَعَ على خلاف مرادِهم في القِسمَةِ والتّوزيعِ، فذلك ليجعلَ اللّهُ لهم فيه عاقبةَ الخيرِ، كما جعلَها من قبلُ، فهذا من ذاك، واللّهُ وحدَه هو الحكيمُ ذو التّدبير، فلا يتعلّقون دونه بشيءٍ من أعراض الدّنيا وأغراضِها، فاللّهُ خيرٌ وأبقى.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَرِيقًا﴾: مِنَ الفِرق: وهو القِطعةُ المنفصِلةُ مِنَ الشّيء، والفريق: الجماعةُ المتفرِّدَةُ مِنَ النّاس، وأصلُ التّركيب: فصلُ بعضِ شيءٍ أو أشياء من بعضِها الآخَر، وعُبِّر هنا عنهم بالفريق؛ لانفصالِهم عن غيرِهم منَ المؤمنين بالكُرهِ المذكور، أو لِأنّ رأيَهم يؤولُ إلى الفُرقَة[1].

المَعْنى الإجْماليُّ:

كما أنَّكم لمّا اختلفتُم في المغانم فانتزعها اللّهُ منكم، وجعلها إلى

(1) الرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (فرق)، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 223/8.

حكمِه وحكمِ رسوله ﷺ، كذلك أمرك ربُّك - أيّها النَّبيّ - بالخروج منَ المدينة؛ لِقتالِ مقاتِلي مكّةَ، الّذين خرجوا لحمايةِ عيرِ قريشٍ، وذلك بالوحي الّذي أتاك به جبريلُ، مع كراهةِ فريقٍ منَ المؤمنين للخروج[1].

أفضى الخلاف حَوْلَ الغنائم وقتال بدر، إلى أنّ الخيْرَ في حُكم الله وقَدَرِه

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بيانُ التَّشبيهِ التّمثيليّ، في قوله: ﴿كَمَآ أَخۡرَجَكَ رَبُّكَ﴾:

تشبيهُ حالٍ بحالٍ من بليغ البيان

الكافُ في قوله: ﴿كَمَآ أَخۡرَجَكَ رَبُّكَ﴾ للتّشبيه، والتّشبيهُ هنا بين قصّةٍ وقِصّةٍ، حيثُ شبَّه حالَهم في كراهيّتِهم لخروجِ النّبيّ ﷺ منَ المدينة قبيلَ غزوةِ بدرٍ لِملاقاةِ قريش، بحالِ سؤالِهم عنِ الأنفال، وتشاجرِهم فيها، وكراهيّتِهم نزعَها من أيديهم، ثمّ إحالةِ تقسيمِها لحكم اللّه ورسولِه، فتشاجرُهم في الغنائم شبيهٌ بكراهيّتهم للخروج، وحكمُ اللّهِ ورسولِه في الأنفال شبيهٌ بإخراجِ النّبيّ ﷺ من بيته في بدرٍ؛ لأنّه حكمُ اللّهِ كذلك، فشبّه كراهيةً بكراهيةٍ، وحكمًا بحكمٍ، والتّقدير: الحالُ في قِصّةِ الأنفالِ مِثلُ الحالِ في قِصّةِ إخراجِك من بيتك[2].

دلالة اتّصالِ التّشبيه بما قبله، في قوله: ﴿كَمَآ أَخۡرَجَكَ﴾:

عنايةُ اللهِ تعالى برسوله وبالمؤمنين في بدر، فيوضٌ من النّصر والتّمكين

التّشبيهُ في قوله: ﴿كَمَآ أَخۡرَجَكَ﴾ متّصلٌ بما قبله على التّوجيهِ الآتي: ﴿قُلِ ٱلۡأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِۖ﴾، ﴿كَمَآ أَخۡرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيۡتِكَ بِٱلۡحَقِّ﴾؛ أي: كما أخرجَكَ ربُّك من بيتك بالحقّ، وهم كارهون، قلِ الأنفالُ للّهِ والرّسول، وإن كرهوا[3]. والكافُ في محلّ رفعٍ خبرٌ لمبتدأٍ محذوفٍ؛ أي: (هذه الحالُ في الأنفال) (كحالِ إخراجك)، أو الكافُ في محلّ نصبٍ صِفةٌ لمصدرِ فِعلِ الاستقرارِ المُقدَّرِ في مُتعلّقِ

(1) مجمع الملك فهد، التفسير الميسر: 177/1.

(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 197/2، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 501/2، وأبو حيّان، البحر المحيط: 274/5، والسّمين، الدّرّ المصون: 559/5، وصافي، الجدول: 174/9.

(3) النّحّاس، معاني القرآن: 131/3.

خبرِ الجارّ والمجرور في قوله: ﴿ٱلۡأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِۖ﴾؛ أي: مستقرّةٌ ثابتةٌ للّهِ والرّسول؛ أي: الأنفالُ استقرَّت للّهِ والرّسول، وثبتَت مع كراهتهم (ثباتًا) (مِثلَ) ثباتِ إخراجِ ربّك إيّاك من بيتِك، وهم كارهون[1]، "والمقصودُ من هذا الأسلوب: الانتقالُ إلى تذكيرهم بالخروج إلى بدرٍ، وما ظهرَ فيه من دلائلِ عنايةِ اللّهِ تعالى برسوله ﷺ وبالمؤمنين"[2].

دلالةُ (ما) وفائدتُها:

الموصولُ الحرفيُّ وُصلَةٌ معنويّةٌ بين المصدر والفعل

(ما) في قوله: ﴿كَمَآ أَخۡرَجَكَ﴾ مصدريّةٌ، والمصدرُ المؤوّلُ مِن (ما) ومدخولِها في محلّ جرٍّ بالإضافة إلى الكاف؛ أي: مِثلُ إخراجك. وفائدتُها: إرادةُ المصدريّةِ مع الفعل؛ إذِ الموصولُ الحرفيُّ (ما) وُصلَةٌ معنويّةٌ بين المصدر والفعل؛ لإرادةِ مَدلولَيهما معًا من إفادةِ مجرّدِ الحدثِ وثبوتِ العِبرةِ والذِّكرى في الإخراج، وإفادةِ زمانِه الماضي (أخرجَ)، وهذه جَمعيَّةٌ مُرادَةٌ منَ المصدرِ المؤوّلِ الّذي توسِّلَ إليه بالحرفِ المصدريِّ، ولو عُبِّرَ بالمصدرِ الصّريحِ لكان فيه عدمُ الإسنادِ إلى الفاعِل، والنّصُّ على فاعِل الإخراجِ مقصودٌ وهو ﴿رَبُّكَ﴾؛ لإفادةِ أنّه حكمٌ نافِذٌ، ولو اكتفى بالفعلِ دون (ما) لخلا التّركيبُ من دلالتِه على إرادة معنى المصدر[3].

دلالةُ التّعبيرِ بصيغة ﴿أَخۡرَجَكَ﴾:

لإفادةِ اللّطفِ والعنايةِ، أُسنِدَ الفِعلُ إلى كمال وصف الرّبوبيّة

التّعبيرُ بفعل ﴿أَخۡرَجَكَ﴾ يُنظَر له من ناحيتين: الأولى: من جهة تعديتِه بالهمزة، ولم يقُل: (كما خرجتَ من بيتك)، مع كونه ﷺ خرجَ مُختارًا لا مُضطرًّا، فأُسنِدَ الفِعلُ إلى اللّه سبحانَه؛ لإفادة أنّ

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 197/2، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 501/2، وأبو حيّان، البحر المحيط: 274/5.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 264/9.
(3) السّهيليّ، نتائج الفكر، ص: 180 - 186، وابن القيّم، بدائع الفوائد: 157/1، والسّمين، الدّرّ المصون: 559/5، وصافي، الجدول: 174/9.

الخروجَ جرى بحُكمِه وحِكمتِه، وتحت لُطفِه وعنايتِه، ولإفادةِ معنى الحكمِ النّافذِ والقضاءِ الواجبِ عدّاه بالهمزة، ولإفادة اللّطفِ والعنايةِ أسنده إلى وصف الرّبوبيّة مُضافًا إلى كافِ الخِطاب ﴿رَبُّكَ﴾، ولم يقُلْ: (اللّه)؛ لأنّ مادّةَ الرّبوبيّة تتضمّنُ معنى الإحسانِ ولُطفِ التّدبير والتّقدير.

النّاحية الثّانية: من جِهة اختيارِ لفظِ الخروجِ على ما سواه، فلم يقُل: كما أذِنَ لك، أو كما حكمَ أو قضى ونحو ذلك؛ ليَصِحَّ تعليقُ الفِعلِ بالجارّ والمجرور ﴿مِنۢ بَيۡتِكَ﴾، وليدلَّ على الصّورةِ الحسّيّةِ في انفصالِه عن مَقرِّه وبيتِه، والصّورةِ المعنويّةِ في الانفصال النَّفسيِّ عن حالةِ الاستقرارِ، وحيِّز الأمنِ والرّاحةِ الّتي تصحبُ غالبًا مَن يغادرُ مكانَه على غير موعدٍ[1].

فائدةُ التّعبيرِ بصيغة الماضي، في قوله: ﴿أَخۡرَجَكَ﴾:

التّعبيرُ بالماضي، دالٌّ على سُرعةِ الانقضاءِ والتّحقُّقِ

التّعبيرُ بصيغة الماضي في الفعل ﴿أَخۡرَجَكَ﴾ يُفيدُ سرعةَ انقضاءِ الفعلِ بمجرّد امتثالِه وتنفيذه، ثمّ ذهبَت مشقّتُه، وبقيَت عاقِبتُه، وثبتَ أجرُه، فعبّر بالماضي؛ لإفادةِ أنَّ الفِعلَ صار منَ الذّكريات الماضيةِ الّتي تحقّقَت وانتهَت، وفيه تسليةٌ بأنّ إلزاماتِ الشّرع متى أُجيبَت ولُبّيَت انقضَت، ويذهبُ عناؤُها بانقضاء أزمانِها.

سرُّ اتّصالِ الفعلِ بضمير المفعول، وتأخير الفاعل:

إسنادُ الفعلِ إلى ضميرِ مَن أُلزِمَ به

اتّصالُ الفعلِ بضمير المفعول ﴿أَخۡرَجَكَ﴾، وهو ضميرُ الرّسولِ ﷺ؛ لِكونِه المَعنيَّ بالتّكليف الوارد، فوجَبَ أن يقترنَ فِعلُ الإلزام (الإخراج) بضميرِ مَن أُلزِمَ به، ولأنَّ مُطاوِعَ الإخراجِ، وهو فِعلُ الخروج، قامَ به الرّسولُ ﷺ، واتّصفَ به.

(1) الرّاغب، المفردات، ص: 278، والآلوسيّ، روح المعاني: 158/5.

الإخراجُ من الدّار للقتال، من أكبر الامتحان للرّجال

الإخراجُ عن المألوفاتِ ابتِلاءٌ للنّفس والإرادة

دلالةُ الجارّ والمجرور ﴿مِنۢ بَيۡتِكَ﴾، ومتعلّقه:

الجارُّ والمجرور مُتعلِّقٌ بفعل الإخراج[1]، وتركيبُه من ﴿مِنۢ﴾، ومدخولُها واضِحٌ في قصد الدّلالةِ على موضعِ ابتداءِ الخروج.

دلالة قوله: ﴿بَيۡتِكَ﴾، وفائدةُ إضافةِ بيت إلى ضمير المخاطَب:

المرادُ بقوله: ﴿بَيۡتِكَ﴾ مَسكَنُهُ ﷺ في المدينة أو المدينة نفسها؛ "لأنّها مُهاجَرُه ومَسكَنُه، فهي في اختصاصها به كاختصاصِ البيتِ بساكنه"[2]، فالمرادُ على المعنى الأوّل حقيقةٌ، وعلى الثّاني مجازٌ، والإضافةُ إلى كاف الخطاب للاختصاص، وغرضُ التّركيبِ ﴿مِنۢ بَيۡتِكَ﴾ الدَّلالةُ على أنَّ الإخراجَ الحاصلَ كان إخراجًا من حيّزِ الخصوصيّةِ والمألوف، إلى حيّزِ التّسليم، وتركِ الاختيار مع أحكامِ الشّرع وحِكَمِه؛ لتقرير أنّ "سُنَّةَ اللهِ مع أنبيائه ألّا يفتحَ لهم كمالَ النُّعمى إلّا بعدَ مفارقةِ مألوفاتِ الأوطانِ، والتَّجرُّدِ عن مساكنة ما فيه حظٌّ ونصيبٌ مِن كلِّ معهود"[3].

كلّ أمر الله وقدره حاصل بالحقّ، وآيلٌ للحقّ

معنى الباء في قوله: ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾، وأثره في المعنى:

الباءُ للإلصاق والمُلابسة، وهي حاليّةٌ تعلّقَت مع مجرورها بمحذوفِ حالٍ من مفعول ﴿أَخۡرَجَكَ﴾؛ أي: إخراجًا مُلتبِسًا بالحقِّ ومُلتصِقًا به، فالإخراجُ واردٌ على الحقّ، أو صادرٌ عنه، فكان حقًّا لا بدَّ منه، أو الباء للمصاحبة، كأنّ الإخراجَ حاصلٌ بمصاحبتِه للحقِّ ومصاحبةِ الحقِّ له، فكلاهما واردٌ على الآخر، ويحتملُ أن تكونَ الباءُ في هذا السّياق مفيدةً للسّببيّة، والجارُّ والمجرور مُتعلِّقٌ بـ﴿أَخۡرَجَكَ﴾؛ أي: أخرجك بسبب الحقِّ الّذي سيظهرُ[4] على يديك.

(1) صافي، الجدول: 171/9.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 197/2.
(3) القشيريّ، لطائف الإشارات: 604/1.
(4) السّمين، الدّرّ المصون: 563/5، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 264/9.

دلالةُ الواو وكسرُ همزةِ (إنّ) في: ﴿وَإِنَّ فَرِيقًا﴾:

الجملةُ الحالية مقترنةٌ بالحَدث مقيّدة به

الواو في قوله: ﴿وَإِنَّ فَرِيقًا﴾ حاليّة، ولذلك كُسِرَت (إنَّ) وجوبًا لوقوعها في صدر جملة الحال، فجملة ﴿وَإِنَّ فَرِيقًا﴾ في محلّ نصبِ حالٍ من ضمير المفعول في ﴿أَخْرَجَكَ﴾، والحالُ المذكورةُ مقترنةٌ بحدثِ الخروج، مُقيَّدةٌ به[1].

فائدةُ (إنَّ) وعلاقتُها بالمخاطَب في قوله: ﴿وَإِنَّ فَرِيقًا﴾:

تنزيلُ غيرِ المنكِر مَنزلةَ المنكِر، من بلاغة التّعبير

تأكيدُ خبر كراهيةِ فريقٍ منَ المؤمنين بـ (إنَّ) و(لام الابتداء) في قوله سبحانه: ﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ﴾ مستعمَلٌ في التّعجيب من شأنهم بتنزيل السّامعِ غيرِ المُنكِر لوقوعِ الخبرِ منزلةَ المُنكِر؛ لأنّ وقوعَ ذلك منهم ممّا شأنه أن لا يقعَ؛ إذ كان الشَّأنُ اتّباعَ ما يحبُّه الرّسولُ ﷺ أو التّفويضُ إليه، وما كان ينبغي لهم أن يَكرهوا لقاءَ العدوِّ. ويستلزمُ هذا التّنزيلُ التَّعجيبَ من حالِ المخبَرِ عنهم بهذه الكراهيةِ، فيكونُ تأكيدُ الخبرِ كنايةً عنِ التَّعجيبِ منَ المُخبَرِ عنهم[2].

بلاغةُ التّعبيرِ بقوله: ﴿فَرِيقًا﴾:

التّعبيرُ بالفريق مع تنكيره مُشعِرٌ بقلّتِهم

الفريقُ: يُقال للجماعةِ المنفصلةِ بذاتها عنِ الجماعةِ الكبرى، "فهم الجماعةُ الّذين يفترقون عن جماعةٍ، ويجمعُهم جميعًا رِباطٌ واحدٌ، فالجيش مثلًا يتكوّنُ من فِرَق، يجمعُهم الجيشُ الواحدُ"[3]، والتّعبيرُ بالفريق هنا أفادَ أربعةَ أمورٍ: الأوّل: تصويرُ معنى الانفصالِ الجَمعيِّ الحاصلِ حينئذٍ، حتّى ظهرَ مِن جرّاءِ الإخراجِ الحاصلِ فريقٌ كارهٌ غيرُ مُرَحِّبٍ. الثّاني: أنّ التّعبيرَ بلفظ الفريق يدلُّ على أنّ حالةَ الكُرهِ والامتعاضِ منَ الخروج لم يكن موقِفَ الجميع، بل فِرقَةٍ

(1) السّمين، الدّرّ المصون: 563/5، وصافي، الجدول: 172/9.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 266/9.
(3) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 4582/8.

منهم فقط، وسائرُهُم خلافُ ذلك. الثّالث: أنّ التّعبيرَ بالفريق مع تنكيره مُشعِرٌ بقِلَّتِهم، فهم لا يَعدون فِرقةً قليلةً بإزاءِ جماعةِ المؤمنين حينئذٍ. الرّابع: وهو لازِمُ معنى اللّفظِ أنّه لمّا كانَت آراؤُهم وموقِفُهم يؤولُ إلى الفُرقة عبّرَ عنهم بالفريق[1].

سرُّ تقييدِ الفريقِ بكونه: ﴿مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾:

قَيدُ الإيمانِ مُؤذِنٌ بالعفوِ والمُسامَحةِ

تقييدُ الفريقِ بكونه ﴿مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾؛ للدّلالة على أنّ كراهيتَهم للخروج كانت ناجِمَةً عن داعيةِ الطّبعِ في كُره القتالِ والنّفورِ من مُشارفَةِ أسبابِ الفقدِ، وليسَت كراهةَ اعتقادٍ أو إعراضٍ عنِ اللّه ورسوله، ولذا أقرّ لهم بالإيمانِ وسمّاهم به، وفي هذا التّقييد إفادةٌ بعدم المؤاخذةِ على كراهيّتهم، وأنّهم، وإنْ كانوا ملومينَ عليها، إلّا أنّها في حيّز العفوِ والمسامحةِ؛ لكونها ممّا لا يقدحُ في الإيمان.

دلالة اللّام وفائدتها في: ﴿لَكَٰرِهُونَ﴾:

المبالغةُ في معنى الخبر وتوكيدُه، مفيدٌ في تجليّة المعنى

اللّام في قوله: ﴿لَكَٰرِهُونَ﴾ لامُ الابتداء الّتي تزحلقَت لتتّصلَ بالخبر؛ لوجودِ مؤكِّدٍ آخر اقترن بالمبتدأ، فانفردَ به عنِ اللّام، ووظيفتُها معنويّةٌ، وهي تأكيدُ العلاقةِ الإسناديّةِ بين المبتدأ والخبر، والمبالغةُ في معنى الخبر وتوكيدُه، وكارهون خبر (إنّ) و﴿فَرِيقٗا﴾ اسمها وهو المبتدأ، وتأكيدُ الخبر باللّام يفيدُ تمكّنَ الكُرهِ منهم، وشِدةَ ظهورِه عليهم[2].

نكتةُ إيثار الجمعِ في: ﴿لَكَٰرِهُونَ﴾:

إرادةُ معنى التّعدّدِ والجماعة، بغرض توسيع دائرة الخطاب

العدولُ عنِ الإفراد إلى الجمع في قوله: ﴿لَكَٰرِهُونَ﴾، ولم يقُل: (لكارِه) بالإفراد بوصف لفظِ الفريق؛ إذ لفظُه مفردٌ، جريًا على معنى اللّفظ دون مَبناه؛ لأنّ الفريقَ متعدّدُ الأفرادِ، فهو جمعٌ في المعنى، والغرضُ من ذلك: إجراءُ صِفةِ الكُره على كلِّ واحدٍ في

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 223/8.
(2) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 531/3.

الفريق؛ لاستحضارِ معناها في جميع أفراده، ولو قال: (فريقٌ كارِه) على مراعاة اللّفظِ لَوقَعَ تصوّرُ الصّفةِ على غير معنى التّعدّدِ والجمعيّةِ، فيكون حينئذٍ تصويرًا ساذَجًا للخبَر، لا يحكي تَمَكّنَهُ وحركَتَه في الأجزاء المعنويّة للّفظ.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الفريق والأمّة والجماعة والطّائفة والفِئة والرّهط:

الأمّة أدلُّ على العموم، والألفاظ البواقي دالّة على الخصوص

الكلماتُ الأربعُ تشتركُ في أصلِ دلالتها على معنى الجَمعيّة، وتختصُّ كلٌّ منها بمزيّةٍ تَفرِقُها عن أختِها، فالأمّة: هي الجماعةُ القاصِدَةُ لأمرٍ واحدٍ يشتركون فيه، كقوله تعالى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ [البقرة: 213]، فقد قصَدوا الدّينَ الحقَّ، واجتمعوا عليه. والجماعةُ: همُ الكَثرةُ المُجتَمِعةُ، فهي تدلُّ على مجردِ تَضامِّ النّاسِ بعضِهم لبعض، ومنها يومُ الجُمُعةِ لقيامِ النّاسِ فيها جماعةً. والطّائفة: هي في الأصل الجَماعَةُ الّتي من شَأنها الطّوفُ في البِلادِ للسَّفر، وهي القطعةُ منَ الشّيء؛ كأنّها جانبٌ من حواشيه أو ممّا يحيطُ به، فهي جماعةٌ مُقتَطَعةٌ من جَمعٍ آخر، فصارَت كالحلقَةِ الدّائرةِ في انفصالها، فكُثرَ بذلك طوافُها ودورانُها حول مُرادِها، ولذا فهي تدلُّ على الجماعةِ الّتي تَتَحَلَّقُ حولَ موقِفٍ أو مناسبةٍ، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، فقد تُصوِّرَ فيهم تَحَلُّقَهم ودورانَهم حول الموقِف المذكور فعبّر عنهم بالطّائفة. والفريقُ: الجماعةُ المتفرّقةُ عن آخرين، ومنه: الفِرقَةُ للجماعةِ المتفرّدةِ منَ النّاس، فالفريقُ هي الجماعةُ الّتي تفرّقَت وانفصلَت عن غيرها لسببٍ دَعا لانفرادها كقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ۝٥﴾ [الأنفال: 5]، فعبّر عنهم بالفريق لانفصالِهم بالكراهيَة وافتراقِهم وانفرادِهم بموقِفهم عن سائرِ

جماعةِ المؤمنين[1]. والفئة: جماعةٌ منَ النّاس أو الجَيش، منَ الفأو؛ وهو الصّدعُ والشّقُّ والانفراجُ بين الشّيئين، فكأنّها فِلقَةٌ أو شِقٌّ مِنَ الجماعةِ الكبرى الّتي تنتمي إليها، أو منَ الفَيءِ؛ وهو الرّجوعُ؛ لأنّ بعضَهم يَرجعُ إلى بعضٍ فصاروا جماعةً، أو لأنّه يُرجَع إليهم في التّعاضُدِ والتّظاهرِ، ولذا اقترنَتِ الفئةُ في القرآن بسياقِ الغلبةِ والهزيمةِ والقِتالِ والحربِ، وسُمّيَت بها مؤخِّرةُ الجيش الّتي تقيمُ وراءَه بذلك؛ لأنّهم يَفيئون إليها إذا احتاجوا لِمَدَد[2].

وأمّا الرّهطُ فأخصُّ تلك الألفاظ لدلالتِه على جماعةٍ مُقيَّدةٍ بعَدَدٍ ومخصوصةٍ بوصفِ القوّة، ولذا يُقالُ في جماعةِ الرّجالِ دون النّساء، فالرّهطُ همُ الجماعةُ إلى العشَرَةِ، وقيل إلى الأربعين، وهمُ الجماعةُ الّتي يَتقوّى بها المرءُ، ولذا يُقالُ رهطٌ في عَشيرةِ الإنسانِ الّتي يتعزّزُ بها، أو في العِصابةِ الّتي أفرادُها نافِذونَ أقوياء[3]، كقولِه تعالى: ﴿وَلَوۡلَا رَهۡطُكَ لَرَجَمۡنَٰكَۖ﴾ [هود: 91]، وكقوله: ﴿وَكَانَ فِي ٱلۡمَدِينَةِ تِسۡعَةُ رَهۡطٖ يُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [النّمل: 48].

الكارهُ والمبغِضُ والشّانِئُ:

الكراهيةُ لفظٌ عامٌّ يتّسِعُ ويَضيقُ في مدلوله، على خلاف اللّفظين الآخرين

الكاره: هو مَن لا يرغبُ في الشّيء ولا يُحبُّه. والمبغِضُ: هو من اشتدَّ عنده وازِعُ الكراهية. والشّانئ: هو الّذي يكره الشّيءَ مصحوبًا بالاشمئزاز والتّقذّر منه. فالكراهية: لفظٌ عامٌّ في التّعبير عند عدمِ الرّغبةِ والمحبّةِ. والبُغضُ: شِدّةُ الكراهية، فهو كراهيةٌ مُطبِقةٌ شديدةٌ. والشّنئانُ: كراهيةٌ مع تقذّرٍ وأنَفَةٍ واشمئزازٍ منَ المكروه.

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 278، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (جمع)، والرّاغب، المفردات: (فرق)، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (طوف - طيف).

(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (فأو)، والرّاغب، المفردات: (فيأ)، وابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (فيأ).

(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (رهط)، والسّمين، عمدة الحفّاظ: 117/2، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (رهب).

فليس كلُّ كراهيةٍ بغضًا أو شنئانًا، ولكنّ كلَّ بغضٍ وشنئانٍ كراهيةٌ[1]. فالكراهيةُ لفظٌ عامٌّ يتّسِعُ ويَضيقُ في مدلولِه بحسبِ المقامِ الّذي ورد فيه، وأمّا البغضُ والشَّنَئانُ فمدلولُهما أخصُّ وأضيقُ. ولذا استعمَلَ هنا الكراهيةَ، في قوله: ﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ﴾؛ لأنّه أراد مطلقَ الرّفضِ لانتفاءِ الرّغبةِ (دونَ قَيدٍ).

(1) الجوهريّ، الصّحاح: (شنأ)، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (شنأ - كره)، وابن منظور، لسان العرب: (شنأ)، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (بغض).

﴿يُجَٰدِلُونَكَ فِي ٱلۡحَقِّ بَعۡدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلۡمَوۡتِ وَهُمۡ يَنظُرُونَ ٦﴾ [الأنفال: 6]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الـرّبـط بين كـراهـيّـة بعض المؤمنين للحرب، وجـدالـهـم في الحقّ المستبين

لمّا ذكَرَ سبحانَه أنَّ فريقًا منَ المؤمنين خرجوا مع النّبيّ ﷺ، وهم كارهون للقتال؛ نظرًا لعدم استعدادهم له، ذكَرَ دليلَ كراهتِهم وردّةَ فِعلِهم الّتي أظهروها منَ الجدال في الحقّ، الّذي وعدَهم اللّهُ تعالى به من إعلامِ رسولِه ﷺ بالنّصر المؤزّر من حيث لا يحتسبون ولا يَدرون، فليمتَثِلوا ويوقِنوا بموعود اللّه.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يُجَٰدِلُونَكَ﴾: منَ الجِدالِ والجَدَلِ والمجادلةِ، وهو استِحكامُ الشَّيءِ في استِرسالٍ يَكونُ فيه، وامتِدادُ الخُصومَةِ ومُراجَعَةُ الكَلامِ، ويُقالُ للزِّمام القَويّ جَديلٌ: حَبلٌ مفتولٌ (شديد الفتل أو محكمه). ومنه جادَله: خاصمَه في شدّةٍ ولَدَد، فالمجادلةُ التفافُ كلٍّ على الآخر بإصرارٍ.

والمقصودُ بمجادلتهم في الحقّ بعد ما تبيّن: جدالُهم في لقاء العدوّ، وعند دنوِّ القومِ بعضهم من بعض[1].

2) ﴿يُسَاقُونَ﴾: مِنَ السّوقِ، وهو دفعُ الشّيءِ مِن خَلفِه بقوّةٍ، ليُسرِعَ في سَيرِه ويَتَتابَعَ فيه، ومنهُ سَوق الإبلِ ونحوها، والمرادُ هنا: لِشدَّة كراهيتِهم لِلقاءِ القومِ كأنَّهم يُدفعونَ إلى الموتِ دَفعًا[2].

(1) ابن جرير، جامع البيان: 393/13، وابن فارس، مقاييس اللّغة، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (جدل).

(2) ابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (سوق)، والواحديّ، الوجيز، ص: 431.

المَعْنى الإجْماليُّ:

بيان حال المجادلين في وعد الله، وكأنّهم يساقون إلى الموت بالإكراه

تُصوّرُ هذه الآيةُ فريقًا منَ المؤمنين الّذين جادلوا رسولَ اللّه ﷺ حين خرجوا معه موعودين بالظّفر بإحدى الطّائفتين، حيثُ كان أغلبُ الّذين خرجوا معِ النّبيّ ﷺ يؤمّلون الظّفرَ بعيرِ قريشٍ المحمّلةِ بتجارتهم، ولكنَّ اللّه تعالى - لحكمتِه البالغةِ وعلمِه الأزليّ - اختارَ لهم الطّائفةَ ذات الشّوكة، وعلى الرّغم من وعد النّبيّ لهم بالنّصر والظّفر بإحدى الطّائفتين، وهو الحقُّ الّذي تبيّن، وعلى الرّغم من تصديقهم وعدَ اللّه تعالى، إلّا أنّهم جادلوا رسولَ اللّه في ذلك، وقالوا: ما خرجنا متأهّبين لقتالٍ، وكان حالُهم في ذلك الموطن شبيهًا بأناس يُساقون إلى الموت، وهم ينظرون أسبابَه، ويلحظون أماراتِه؛ ذلك لعدم استعدادِهم النّفسيِّ، وقلّةِ عددِهم وعُدَّتِهم الحربيّةِ، وفي الوقت نفسِه كان فريقُ أهل الشّرك أنشطَ قلوبًا، وأكثرَ استعدادًا، وأوفرَ عددًا وعدّةً، كلُّ ذلك جعلهم يكرهون القتالَ، ويُفضّلون عدمَ لقاءِ عدوِّهم.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ فصل: ﴿يُجَٰدِلُونَكَ فِي ٱلۡحَقِّ﴾ عمّا قبلها:

الاستئنافُ البيانيُّ من أبلغ البيان وأنصعه

جملة ﴿يُجَٰدِلُونَكَ﴾ يُحتمَلُ أن تكونَ مستأنفةً تُخبرُ عن حال المؤمنين الّذين كانوا يُجادلون نبيَّ اللّهِ ﷺ، والاستئنافُ إمّا نحويٌّ غرضُهُ تقريرُ أمارةِ كراهتهم، وساقها القرآنُ استقلالًا سَوقَ الدّليلِ على القضيّة، ولذا فصلَها، وإمّا استئنافٌ بيانيٌّ هو جوابٌ عن سؤالٍ مُقَدَّرٍ يدلُّ عليه المقام، كأنّه قيل: ما دليلُ أنّهم كارهون؟ فقال: ﴿يُجَٰدِلُونَكَ﴾، والاستئنافُ البيانيُّ لا يوصَل بالواو، ويحتملُ أن تكونَ حالًا ثانيةً من ضمير المفعول في ﴿أَخۡرَجَكَ﴾ بعد ﴿وَإِنَّ فَرِيقٗا﴾؛ أي: أخرجك في حال مجادلتهم إيّاك، ويحتملُ أن تكونَ حالًا منَ الضّمير في ﴿لَكَٰرِهُونَ﴾؛ أي: لكارهون في حال جدال، والأحسنُ

أن تكونَ جملةُ ﴿يُجَٰدِلُونَكَ﴾ حالًا من ﴿فَرِيقًا﴾، مضارعُها مُثبَتٌ، مشتملةٌ على ضمير صاحبها، ولذا فُصِلَتْ[1].

دلالة إيثارُ استعمالِ ﴿يُجَٰدِلُونَكَ﴾ دون مرادفاته:

المُجادِلُ لا يَصبِرُ، والجدال سوء أدب مع الله

اصطفاءُ الفعل ﴿يُجَٰدِلُونَكَ﴾ دون غيره ممّا يُقاربُه في المعنى؛ لتصوير حالةِ عدمِ الصّبرِ على عدم الاعتراض، فإنّ المُجادِلَ لا يَصبِرُ، والغرضُ: تصويرُ عِلّةِ الكراهيةِ بلفظٍ يعبّرُ عن إلحاحِ الطبعِ وقلقَلةِ النّفسِ تُجاه ما يُخرِجُها عن حدّ المألوفِ لها، وليس أنسبَ في الدّلالة على ذلك من لفظ (الجِدال) الّذي يدلُّ وزنُه (فِعال) على معانٍ باطِنةٍ كالامتناع والجِماح والنّفار، فاستعملَ ما يَصِفُ تمَنُّعَهُم لشِدّة حرجِهم تجاه الحكمِ بالخروج منَ المدينة[2].

سرّ مجيءُ الفاعلِ ومفعولِه ضميرين:

الإلحاحُ وتركُ الإفصاحِ، مُؤذِنٌ بالصّفح وعدمِ الافتضاحِ

جاء الفاعلُ والمفعولُ في قوله: ﴿يُجَٰدِلُونَكَ﴾ ضميرين، حيثُ يعودُ ضميرُ الواو على الفريق، وضميرُ الخطاب مفعولٌ يعودُ على الرّسول ﷺ، ومِن كرائِم المعاني أنّه أتى على الفاعل والمفعول بالضّمير لا بالاسم الصّريح؛ لئلّا يتقصّدَ الفريقَ الكارِهَ بالإعلانِ والذِّكرِ إعراضًا عن أن يَنسِبَهم بذواتِهم وأشخاصِهم إلى الجِدال، وإعفاءً لهم منَ المؤاخَذةِ عليه، فمَرّ عليهم مُرورَ الكرام بإسناد فِعلِ الجدالِ إلى ضميرهم من غير تصريحٍ، فلم يُفصِحْ عنهم في الذِّكرِ ليَصفحَ عنهم فيما صدرَ منهم، فعدَمُ الإفصاحِ للصَّفح وعدم الافتضاح! والّذي يُعينُ على هذا التّوجيه أمران:

الأوّل: أنّه صرّحَ بهم من قبل، فأضمرَ اكتفاءً بدلالة الظّاهرِ السّابقِ ﴿وَإِنَّ فَرِيقًا﴾ على المضمَرِ اللّاحقِ ﴿يُجَٰدِلُونَكَ﴾. **الثّاني**: أنّه

(1) السّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 563/5.

(2) الأشمونيّ، شرح الأشمونيّ للألفيّة: 233/2، وخالد الأزهريّ، التّصريح بمضمون التّوضيح: 27/2، وفاضل السّامرائيّ، معاني الأبنية، ص: 26.

حين صرّح بهم في قوله: ﴿وَإِنَّ فَرِيقًا﴾ نكّره قصدًا لشيوعه، ثمّ قيّدَه بما يدلُّ على مدحِهم، وهو قولُه: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، والمادِحُ لا يَنوي المؤاخذَةَ، ولا يُعرِّضُ بل يُعرِضُ، فلمّا فرغَ التّركيبُ هنا من قيد المدحِ أضمرَ ذواتَهم لقصدِ الإخبارِ عنِ الجِدالِ الحاصلِ، دون الخوضِ في الفاعلِ، ويكأنّ الاستهجانَ واقعٌ على فِعلِه لا عليه، وأسندَ الجدالَ إلى ضمير الخطابِ المتّصلِ؛ ليدلَّ على أنّهم كانوا يُجادِلون بالودّ، وحسنِ النّيّة، ومقتضى القربِ من شخص الرّسول ﷺ، ولم يكن جدالُهم معه جدالَ الأباعِد ولا المُغرضين، ولذا لم يصرّحْ بإجراء وصفِ الرّسالةِ على المفعول، فلم يقُل: (يجادلون الرّسول)؛ لدفعِ ما يوهِمُ أنّ جدالَهم مُتَّجِهٌ لمعنى الرّسالةِ وأحكامِها، كجِدال المُعرضين المُناكِفين.

نكتةُ استعمالِ صيغةِ المضارعِ ﴿يُجَٰدِلُونَكَ﴾:

التّعبيرُ بالمضارع في قوله: ﴿يُجَٰدِلُونَكَ﴾؛ لحكاية حالِ المجادلَة زيادةً في التّعجيب منها، وهذا التّعجيبُ كالّذي في قوله تعالى: ﴿يُجَٰدِلُنَا﴾ مِن قوله: ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ۝٧٤﴾ [هود: 74]؛ إذ قال: يجادلُنا؛ ولم يقُل: جادلَنا[1].

التّعجيب يبرز التّفاعل مع الحال المكرّسة في السّياق

فائدةُ قولِه: ﴿فِى ٱلْحَقِّ﴾:

قوله: ﴿فِى ٱلْحَقِّ﴾ مُتعلِّقٌ بـ ﴿يُجَٰدِلُونَكَ﴾، والحقُّ هو القتالُ وإيثارُ مُلاقاةِ النّفيرِ على الظّفَرِ بالعير[2]، وفائدتُه: تقريرُ أنّ جِدالَهم جانَبَ الصّوابَ، ولم يكن في موضِعه.

تقريرُ أنّ جِدالَهم جانَبَ الصّوابَ

دلالةُ قولِه: ﴿بَعْدَمَا تَبَيَّنَ﴾:

قوله: ﴿بَعْدَمَا تَبَيَّنَ﴾؛ أي: بعدما تبيّن لهم صوابُه من حيثُ العاقبةُ والنّصرُ، وتبيّنَ لهم فرضُه، فليس لهم أن يُطاوِعوا طِباعَهم في استثقالِه، ودلالةُ التّقييدِ به من وجوهٍ: الأوّل: التّعليلُ بما يقتضي

تقريرُ أنّ الجِدالَ منهيّ عنه، وأنّه خِلافُ الأولَى وخلافُ الصّواب

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 267/9.

(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 199/2، وصافي، الجدول: 173/9.

إنهاءَ حالةِ الجِدالِ، وهو ظهورُ الحقِّ؛ إذ بعد بيانِه ليس لجدالِهم مُقتضًى. الثّاني: تقريرُ أنّ جِدالَهم كان خِلافَ الأولَى وخلافَ الصّوابِ؛ لأنّهم جادلوا برغم ظهور الحقِّ لهم. الثّالث: الإشعارُ بأنّ اللّه عذَرَهم في أصلِ جِدالِهم قبل أن يَظهرَ الحقُّ لهم، وهو مفهومُ قولِه: ﴿بَعْدَمَا تَبَيَّنَ﴾. الرّابع: أنّ الجِدالَ في الحقِّ لا يُلامُ عليه المُجادِلُ إذا كان مُشكِلًا عليه غيرَ بَيِّنٍ عِندَه.

نكتةُ نصبِ الظّرفِ (بعدَ)، وعدمُ دخولِ حرفِ الجرِّ عليه:

عدمُ دخول (مِن) كأن يُقال: (يجادلونك في الحقّ من بعد ما تبيّن)؛ لإفادة استغراقِ الظّرفِ للزّمن المختصِّ به في التّعقيب بين الجدالِ والبيانِ، من غير إرادةٍ لتحديدِ وقتِ ابتداءِ ذلك في حيّزِ البعديّةِ؛ ليفيدَ أنّ جِدالَهم حصلَ بعد ظهورِ الحقِّ لهم، فلا يلزمُ أن يكونَ بعدَه مباشرةً على وجه السّرعةِ والفوريّةِ، ولا يلزمُ أن يكونَ بعدَه بمدّةٍ طويلةٍ أو قصيرةٍ؛ لأنّه أرادَ مجردَ إتيانِ شيءٍ بعد شيءٍ فقط.

ليس كلُّ الجِدالِ مذمومًا في الحوار، ولكن لا ضرر ولا ضرار

وهذا يدلُّ على تفاوتهم ﵃ في صدورِ الجدالِ عنهم بعدَ ظهورِ الحقِّ، بحسبِ تفاوتهم في كيفيّة استقبالِهم للحقِّ المذكورِ، أمّا لو قيل: (من بعد ما تبيّن)؛ أي: أنّ جدالَهم يكون مُبتدَئًا وناشِئًا من تحقّقِ البيانِ لهم؛ لأنَّ (مِن) لابتداءِ الغاية، فالشّروعُ في بدء الحدَث لا بدَّ أن يكونَ فوريًّا وسريعًا بلا تمهّلٍ ولا مُدارسَةٍ للبيانِ الّذي أتاهم، ولو قال ذلك لكان فيه نوعُ مَذَمّةٍ للفريق الّذي جادَل، والّذي شهدَ له بالإيمان؛ لأنّ الّذي يُجادِل سريعًا فورَ أن يظهرَ له الحقُّ يكون متعجّلًا غيرَ متمهِّلٍ في دراسةِ هذا الحقّ، وغيرَ متفرّغٍ لإعادةِ النّظرِ فيه، ولذلك يُسرعُ في الاعتراض بالجدال، فيكون جدالُه جِدالَ المُعرِض لا جِدالَ المتحقِّق المُتحرّي.

وفي عدم الإتيان بـ(منْ) نوعُ مدحٍ للصّحابة ﵃؛ لإشعاره أنّهم لم يُسارعوا في الجدال، بل تمهّلوا ونظروا في الحقّ الّذي أتاهم،

ثمّ جادلوا، وهذا معناه أنّ جِدالَهم كان سائغًا بالنّسبةِ لهم، وله وجهُهُ المُعتَبرُ عندهم، ولم يكن اعتِباطًا أو انفعالًا غيرَ محسوب، وهذا مدحٌ لهم أيُّ مدح، وإعذارٌ لهم أيُّ إعذار، وتقويةٌ لتزّكيتِهم بالإيمان في قوله: ﴿فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، وإنْ كان لا يمنع اشتمالُه أيضًا على معنى العِتاب والتّعجيب إلّا أنّه عِتابُ مَن ثبتَت تزكيتُه، واعتُبِر في الأمور نظَرُه؛ لأنّ الشّهادةَ لهم بالإيمان لها لوازِمُها الكثيرة في الاعتبار والإعذار، وهذا على عكس ما قد يُتَصَوَّرُ من هذا التّركيبِ من أنّه (عليهم) لا (لهم) ﷺ، إلّا أنّه لو اعتُبِرَ ما تمّ تقريرُه لظَهَر أنَّ هذا التّركيبَ مع مجموعِ السّياقِ يفيدُ كونَه (لهم)، وفي صالحهم، لا (عليهم)[1].

دلالةُ الفعل ﴿تَبَيَّنَ﴾ دون مرادفاته:

البيانُ يَخلقُ فجوَةً بين الوضوحِ وعكسه

استُعمِل الفِعلُ ﴿تَبَيَّنَ﴾ دون الأفعال المقاربة له في المعنى؛ ليدلَّ على البَونِ الفاصل بين الحقّ والباطل، وليدلَّ على أنّه ليس مجردَ انكشافٍ ووضوحٍ أو ظهورٍ، بل هو وضوحٌ مقترنٌ ببَينونَةٍ حاصلَةٍ بين طرفين، طرفِ الحقّ وطرفِ غير الحقّ؛ لأنَّ التّبيُّنَ في أصله يدلُّ على "امتدادٍ بين طرفينِ أو جانبينِ مع فصلٍ كبيرٍ أو اتّساعٍ، ومن ذلك الفصل والتّمييز جاء معنى الوضوح والظّهور؛ لأنّ المفصولَ المتميّزَ عن غيره يَلفِتُ النّظرَ"[2].

فائدةُ الفعل اللّازم ﴿تَبَيَّنَ﴾، ودلالةُ صيغته:

معاني التّدرّجِ والصّيرورةِ والتّكلُّفِ، من المعاني المتداولة

الفعلُ ﴿تَبَيَّنَ﴾ على وزن (تَفعّل)، وقد أتى البيانُ على هذه الصّيغة دون أن يُقال: (بان الحقُّ)؛ للدّلالة على عِدّة معانٍ:

الأوّل: (التّدرّج): فالحقُّ يَبينُ شيئًا فشيئًا بتظاهر الأدلّةِ وتكرارِ التّذكيرِ به.

(1) الخضريّ، من أسرار حروف الجرّ، ص: 345.

(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (بون - بين).

الثّاني: (التّكلّف): وهو أحدُ الدّلالاتِ الأصيلةِ لصيغة (تفعّل)، ومعنى التّكلُّف هنا: أنّ إظهارَ الحقِّ يحتاجُ إلى معاناةٍ في انعتاقِه وانفصالِه عنِ الالتباسِ، وتصفيتِه منَ الباطل والهوى، فأسندَ إليه التّبيّنَ؛ ليدلَّ على تَخلُّصه وصفائه، وأنّه خُلاصةٌ مُصفّاةٌ ومُصطَفاةٌ.

الثّالث: (الصّيرورة) فمعنى (تبيّن)؛ أنّه حتّى يظهرَ انتقلَ من طَورٍ إلى طورٍ، فصار واضحًا جليًّا بعد أن كان مُشكِلًا خفيًّا[1].

إيثارُ استعمالِ صيغةِ الماضي: ﴿تَبَيَّنَ﴾:

صيغةُ الماضي في قوله: ﴿تَبَيَّنَ﴾؛ للدّلالة على تشبّعِه - أي: الحقّ - بصفة التّجلّي والبيان، وتحقّقِ ذلك فيه تحقُّقَ الأزمانِ الماضيةِ لا ريبَ في تحقّقِها وتمامِها.

صيغةُ الماضي تدلُّ على تشبّعِ الفاعِل بمعنى الفِعل

دلالة إعراب ﴿كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ﴾:

الجملةُ في محلّ نصب على الحاليّةِ من ضمير (لكارهون)، ويصحُّ أن تكونَ صفةَ مصدرٍ من ﴿لَكَٰرِهُونَ﴾ بتقديرِ مضافٍ؛ أي: كارهون كراهةً ككراهةِ مَن سيقَ إلى الموت، ودلالةُ ذلك تشبيهُهم في كراهيتِهم الجهادَ الموعودَ بالنّصر والظّفر، ونفورِهم منَ الخروجِ له، كحالِ من يُساقُ إلى مَهلَكَتِه وهو ينظرُ، أو تشبيهُ حالِهم في جِدالهم منَ الاضطرابِ وعدمِ القرارِ كحالِ من ساقَه سائقٌ إلى الموت، وهو يُدافِعُه ولا يُطاوِعُه[2].

تصويرُ حال المذكورين في كراهتهم لأمر الله بالخروج للجهاد

بلاغة التّشبيهُ التّمثيليُّ:

في قوله تعالى: ﴿كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ﴾ تشبيهٌ تمثيليٌّ، حيث شبّه حالَهم، في فرط فزعِهم ورعبِهم، وهم يُسارُ بهم إلى الظّفرِ والغنيمةِ، بحالِ مَن يُساقُ إلى القتل[3].

الجدال في أمر الله تعالى، سببه كراهية الموت وحبّ الحياة

(1) سيبويه، الكتاب: 71/2 - 73/4، وابن مالك، شرح التّسهيل: 452/3.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 115/2، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 344/2، والشّهاب، حاشية الشّهاب: 254/4.
(3) صافي، الجدول في إعراب القرآن: 174/9.

نكتةُ التّعبيرِ بـ ﴿يُسَاقُونَ﴾ دون مرادفاته:

غَلَبَةُ الانحيازِ لِمقتضى الطّباعِ عند الأزمات مألوف

عبّرَ بقوله: ﴿يُسَاقُونَ﴾؛ لتضمّنه معنى الدّفعِ بقهرٍ، وهو دالٌّ على التّعجيبِ من حالِهم، وأنّهم يَقيسون الأمرَ بالخروج قياسَ مَن يعتقِدُ أنّه مُكرَهٌ مَلجوءٌ إليه رغمًا عنه، والتّعجيبُ سببُه أنّهم مدفوعون، لكن إلى أسبابِ الحياةِ لا الموتِ، بالنّصر والظّفَر المحتوم وتمكينِ شَوكَتِهم ودَولَتِهم. "ونلحظُ أنّ هناك (سَوقًا)، وهناك (قيادة)، والقيادةُ تعني أن تكونَ منَ الأمام؛ لِتدلَّ النّاسَ على الطّريق، و(السّوق) يكون منَ الخلف؛ لتحثّ المتقدِّمَ أن يُقصِّرَ المسافةَ مع تقصيرِ الزّمنِ، فبدلًا من أن نقطعَ المسافةَ في ساعةٍ - مثلًا - فنقطعها في نصف ساعة؛ أي: أنّهم غيرُ مُنجزين للسّير، بل هم مدفوعون إليه دفعًا، وهم ينظرون بشاعةَ الموتِ؛ لأنّهم تصوَّروا أنَّ مواجهتَهم لألفِ فتىً من مقاتلي قريشٍ مسألةٌ صعبةٌ، فألفٌ أمامَ ثلاثمئةٍ مسألةٌ ليسَت هيّنةً؛ لأنَّ ذلك سيفرضُ على كلِّ مسلمٍ أن يواجهَ ثلاثةً معهم العُدَّةُ والعَتادُ، فكأنّ الصّورةَ الّتي تمثّلَت لهم صورةٌ بشِعةٌ، لكنّهم حينما نظروا هذه النّظرةَ لم يلتفتوا إلى أنَّ معهم ربًّا ينصرُهم على هؤلاء جميعًا"[1].

دلالةُ التّعبيرِ بصيغة المضارع المبنيّ للمفعول:

معرفةُ الفاعلِ لا جدوى منها للمَسوقِ لِحَتفِه

التّعبيرُ بصيغة المبنيّ للمفعول في قوله: ﴿يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ﴾ مع عدمِ التّصريحِ بفاعلِ السَّوق؛ لعدمِ اكتراثِ المَسوقِ إلى الموتِ بفاعِلِ السَّوق؛ لِتوفّر عنايتِه بذاتِه واستغراقِه في شأنه حينئذٍ، ولأنّ المصائرَ المشؤومةَ إنّما تُكرَهُ لأجلِ الهالكين بسببها، بغضّ النّظرِ عن فاعليها؛ إذ معرفةُ الفاعلِ لا جدوى منها للمَسوقِ لِحَتفِه.

فائدةُ ورود الجارّ والمجرور: ﴿إِلَى ٱلْمَوْتِ﴾:

الجارُّ والمجرور متعلِّقٌ بـ﴿يُسَاقُونَ﴾[2]، وفائدةُ التّعليقِ عليه:

(1) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 4584/8.
(2) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 532/3.

التّوسّلُ بحرفِ الانتهاءِ لفظًا، إلى غايةِ النّهايةِ بالموت معنىً

استبشاعُ انتهاءِ الغايةِ الّذي أفاده حرفُ الانتهاء (إلى)؛ لكونِه انتهاءً إلى فناء، فتوسّلَ بحرفِ الانتهاء لفظًا، إلى غايةِ النّهايةِ معنًى.

أثرُ اختلافِهم في المراد بالموت بين الحقيقةِ والمجازِ:

لا فرقَ بين مُعاينةِ سببِ الشّيءِ ومعاينةِ ذاتِ الشّيء

المرادُ بالموت في قوله: ﴿يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ﴾ على وجهين:

الأوّل: يُساقون إلى مواقِع الموتِ ومَظانِّه؛ لأنّهم ثلاثُمئة في مواجهةِ ألفٍ، وهذا سببٌ من أسباب الموتِ لا أنّه حقيقةُ الموتِ، وعليه فالموتُ مجازٌ؛ لأنّه أطلقَ الشّيءَ، وأراد سببَه على أنّه مجازٌ مُرسَلٌ علاقتُه المُسبّبيّة.

الثّاني: يُساقون إلى الموتِ المُحقَّقِ، كأنّهم عاينوه ذاتَه بمعاينةِ أسبابِه، وحينئذٍ فالموتُ محمولٌ على الحقيقة.

أثر إعراب: ﴿وَهُمْ يَنظُرُونَ﴾:

قوله: (يُساقُ للموتِ وهو يَنظُر)، جاريةٌ مجرى الأمثالِ

جملة ﴿وَهُمْ يَنظُرُونَ﴾ حاليّة من قوله: ﴿يُسَاقُونَ﴾، والتّذييلُ بها انتقالٌ من حالِ التّصوّرِ إلى حالِ التّصديق؛ أي: إنّهم يُساقون إلى الموتِ بما أخبِروا به عنه، وهم ينظرون؛ أي: يرونه بأعينهم، والغرضُ: الإيماءُ لِفرط رعبِهم وانتفاضِ قلوبِهم منَ القتال؛ لقلّة عددِهم وعدم استعدادِهم، وهو مبالغةٌ في إطباقِ حالِ الكراهيةِ عليهم؛ لاجتماع سَماعِهم بالمكروه مع نظَرهم إليه. والتّشبيهُ جارٍ مَجرَى الأمثالِ في صلاحية إطلاقِه على مواردَ متعدّدةٍ، فعبارةُ: (يُساقُ للموتِ وهو يَنظُر) مصوغةٌ، كما يُصاغُ المَثَلُ السّائِرُ.

فائدةُ تقديمِ المسند إليه في ﴿وَهُمْ يَنظُرُونَ﴾:

سياق التّقديمِ، يُقرِّبُ السّامِعَ مِنَ استِحضار ذواتِ الفاعِلين

ذِكرُ المسندِ إليه ﴿وَهُمْ﴾ - وهو ضميرٌ عائدٌ على صاحبِ الحال، ولذلك وُصِلَتِ الجملةُ بالواو - أفاد النّصَّ على تعيين ذواتِهم؛ لاستحضارها في مشهد النّظَرِ، وتأكيد أنّ النّظرَ المذكورَ كأنّه - في حيّز التّشبيه - حاصلٌ منهم جميعًا، لا يتخلّفُ من أشخاصِهم أحدٌ،

مع قصدِ أن يستحضرَ السّامعُ صورتَهم بذواتهم وأشخاصهم، وهم يُزاوِلون النّظرَ للخَطَر زيادةً في التّقرير وتأكيدًا للتّشبيه.

إيثارُ استعمالِ ﴿يَنظُرُونَ﴾ دون مرادفاته:

التّعبيرُ بفعلِ النّظرِ، دالٌّ على المواجهةِ والتّرقُّبِ

إيثارُ فِعلِ النّظَرِ دون البصر وغيرِه ممّا يقاربه؛ لقصد الدّلالةِ على أمرين: الأوّل: المواجَهَة؛ لأنّ ناظرَ الشّيءِ يواجِهُه ويُقابلُه، وهذا بلازمِه يفيدُ عدمَ ملابستِه لمتعلّقِ النّظرِ، فهم - فقط - ينظرون، وهذا التّعبيرُ أليقُ بحالهم، فهم قد كانوا في مواجهةِ ما خافوا منه دون أن يُلابِسوه، ويُبصروا عاقبتَه، ولو انتقلوا من حيّز المواجهةِ إلى حيّز الملابسةِ لَعَلِموا أنّ اللّه سينصرُهم بلا صُنعٍ منهم. الثّاني: التّرقُّب؛ لأنّ النّظَرَ مشتملٌ على معنى التّرقّبِ والانتظارِ، فالنّاظِرُ إلى الشّيء يترقّبُ الإحاطةَ به من جميع جوانبه، وينتظرُ المَساسَ به ومُلابستَه، وهذا مطابقٌ لحالِهم من توقّع الخطرِ وعدمِ الإيقانِ به، وانتظارِهم لِلقاء العدوّ، كنظَرِهم إلى مواقِع الموت، فكان التّعبيرُ بالنّظر أليقَ[1].

حذفُ مُتعلَّقِ الفعلِ ﴿يَنظُرُونَ﴾:

الحذفُ بلاغةٌ معهودةٌ في السّياق، وغايته غالبا الإيجاز

حذفَ مُتعلَّق ﴿يَنظُرُونَ﴾ فلم يقُل: (ينظرون إلى كذا) وهذا يشيرُ إلى قصدِ التّعميمِ والاختصارِ، وتعذّرِ انحصارِ المتعلَّقِ في مفعولٍ محدّدٍ؛ لأنّ الّذين يُساقون إلى الموتِ تختلفُ أنظارُهم وتصوّراتُهم في تلك السّاعة بحسب اختلافهم في مَنازِعِ أفكارِهم، وغرائزِ طبائعِهم، أو المفعولُ محذوفٌ لدلالةِ ما قبله عليه[2]؛ أي: (يساقون إلى الموت، وهم ينظرون إلى الموت)، فالحذفُ للإيجاز.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

السَّوْق والدَّفع والقوْد:

الدَّفع: الإزالةُ بقوَّةٍ. فالدّفعُ قد لا يكون قيادةً أو سَوقًا، بل

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 224/8، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (نظر).
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 268/9.

السّوقُ والقوْدُ هو دفعٌ مخصوصٌ لغرضِ إدارةِ الشّيء والدّفع إزالته بقوّة

يكون مُستعملًا في دَرءِ الشّيءِ وإزالتِه. وأمّا السَّوقُ والقودُ فهو دفعٌ مخصوصٌ لغرضِ إدارةِ الشّيء، لا بقصد إزالتِه ومُقاومتِه. والقَودُ: نَقيضُ السَّوقِ، يَقودُ الدّابَّةَ مِن أمامِها، ويَسوقُها مِن خَلفِها، فالقَودُ مِن أمامٍ، والسَّوقُ مِن خَلفٍ[1].

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (دفع)، وابن منظور، لسان العرب: (دفع - قود)، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (دفع - سوق).

﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٧﴾ [الأنفال: 7]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

بيان أنّ الخير في أمر الله للمؤمنين، وأنّه يحقّ الحقّ، ويمحق الكافرين

لمّا تغلّبَ المؤمنون على جزعِهم وقِلّةِ حزمِهم، فامتثلوا، وخرجوا على كُرهٍ منهم، أقبلَ اللهُ تعالى عليهم بخطابهم أن يتذكّروا تلك الفترةَ بالاعتبارِ منَ المُفارقةِ بين مُرادِهم ومُرادِ الله، وأنّهم لو وُكِلوا إلى رغباتِهم ما تحقّقَ لهم هذا الخيرُ العاجلُ بتمكينِ المؤمنين وغَلَبَةِ الكافرين، والخيرُ الآجِل بالمغفرةِ لأهل بدرٍ المُبَشَّرين بالجنّةِ والفوزِ الكبيرِ.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلطَّآئِفَتَيْنِ﴾: مُثنّى طائفَة، مِنَ الجذْرِ: (طوف) وهو أصْلٌ يَدُلُّ على دَوَرانِ الشَّيْءِ على الشَّيْءِ، وأنْ يُحَفَّ به. فأمّا الطّائِفَةُ مِنَ النّاسِ فكَأنَّها جَماعَةٌ تُطيفُ بالواحِد أو بالشَّيْءِ، فهي الجماعة مِنَ النّاسِ، والطّائِفَة منَ الشّيءِ: القطعة مِنه[1].

ومعنى التّركيبِ ﴿إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ﴾: العيرُ مِنَ القافِلةِ المُتّجِهَةِ إلى مكّة أو الظَّفرُ بالنَّصر على عَسكرِ قريش[2].

2) ﴿ٱلشَّوْكَةِ﴾: الشّوكة: الواحِدةُ منَ الشّوك، وأصلُ اللّفظِ يدلُّ على خشونةٍ وحِدَّةِ طَرَفٍ في الشّيءِ، ويُشتَقُّ من ذلك الشّوكَة، وهي شِدّةُ البأسِ والقوّة، والمرادُ: الفئةُ القويّةُ ذاتُ البأس، وهي طائفةُ النَّفيرِ ذاتُ السِّلاحِ[3].

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (طوف).
(2) البغوي، معالم التنزيل: 272/2.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (شوك)، والنّسفيّ، مدارك التّنزيل: 633/1.

3) ﴿يُحِقَّ ٱلۡحَقَّ﴾: أصلُه من (حَقَّ) الّذي يدلُّ على إحكامِ الشّيءِ وصحّتِه، ويُقال: أحققتُ كذا؛ أي: أثبَتُّه حقًّا، أو حكمتُ بكونِه حقًّا. وإحقاقُ الحقِّ: تثبيتُه بالحُجّة، وتأييدُه بالقوّة[1].

4) ﴿دَابِرَ﴾: مِن (دبَر)، وهو أصلٌ يدلُّ على آخِرِ الشّيء وخِلاف قُبُلِه، والدّابِر هو الآخِر. ودابِرُ الكافرين: آخِرُهُم وبَقيّتُهُم، كما أنَّ دابِرَ الشّيءِ آخِرُهُ الباقي منه[2].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

إرادة الله بتقدير يوم الفرقان، لاستئصال الكفر بنصر أهل الإيمان

اذكروا أيّها المؤمنون - مُمتَنّينَ - حالَكم مع وعدِ اللّهِ لكم بإحراز إحدى الطّائفتين: طائفة العيرِ، وما تحمِلُه مِن أرزاقٍ، أو طائفة النّفيرِ؛ وهو قتالُ الأعداءِ والانتصارُ عليهم، والحالُ أنّكم تحبّون إحرازَ العيرِ؛ لعدم القتالِ فيه، واللّهُ يريدُ إعلاءَ دينِه بقِتالكم للكافرين وإهلاكَهم بمعونتِه لكم، وإظهارَكم عليهم.

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ الواو على الاستئناف في: ﴿وَإِذۡ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ﴾:

تحصيل النّصر والتّمكين، كان بالمواجهة الحربيّة بين الجيشين

جملةُ ﴿وَإِذۡ يَعِدُكُمُ﴾ استئنافيّةٌ مسوقَةٌ للامتنانِ عليهم، بتذكيرِهم بمَآلِ إرادةِ اللّهِ فيهم منَ الخيرِ والنّصر، ومُفارَقَةِ ذلك مع حالِهم حينئذٍ منَ الجزعِ وقلّةِ الصّبرِ والحزم، فلو كان المؤمنون قد وُكِلوا إلى ما يَوَدّونَه من اختيارِ الغنيمةِ السّهلَةِ، لَما حصَلَ لهم تلك المصالحُ والمآثِرُ الجَمّةُ من امتثالِهم لإرادةِ اللّهِ العزيزِ الحكيمِ، وتقديرُ الخطابِ: (اذكروا وقتَ وعدِ اللّهِ إيّاكم إحدى الطّائفتين)،

بلاغة الالتفاتِ منَ الغيبة إلى الخطاب:

وأسلوبُ الامتنانِ جرى بطريقِ التّلوينِ والالتفاتِ منَ الغيبةِ

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (حق).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (دبر)، والنّسفيّ، مدارك التّنزيل: 633/1.

للخطاب[1]، فقد أخبرَ عنهم بأسلوب الغيبةِ في قوله: ﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ﴾؛ لاشتمالِ ذلك على ما ليس كاملًا في أوصافهم منَ الكراهيةِ المذكورةِ، فأخبر عنهم، ولم يُخاطبهم؛ لئلّا يُخجِلَهم، ثمّ التفتَ إليهم بالخطابِ؛ لأنّه استذكارٌ لموضعِ امتنانِ اللّه ولطفِه بهم، فكان أدعى لخطابهم؛ لأنّهم امتثلوا حينئذٍ، فكانوا على أكملِ الأحوالِ، فكان الخطابُ إيناسًا لهم ومَسَرّةً.

نِعَمُ الله على عباده غَزيرةٌ، ومِنَنُهُ مُسْتَحِقّة جديرةٌ

نكتةُ حذفِ العاملِ في: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ﴾:

حذفُ العاملِ (واذكر) من قوله: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ﴾؛ لكفايةِ الخطابِ في ﴿يَعِدُكُمُ﴾ عنه في حصولِ التّذكّرِ؛ لأنّ سوقَ الكلامِ في صورة الخبرِ يكفيهم - وهُم منَ البدريّين المغفور لهم - في التقاط إشارته، واللّبيبُ تكفيه الإشارةُ ولا يحتاج إلى التّصريح؛ لأنّ التّصريحَ إحراجٌ لهم، ففيه مراعاةُ اللّه لخواطرِهم ألّا يُجابِهَهم بما يُخجِلُهُم، وحيثما كان المقصودُ واضحًا كان الإيجازُ كافيًا. وأمّا قومُ هودٍ وثمودَ في قوله تعالى لهم: ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ﴾ فقد كانوا غافلين كافرين فلا يكفيهم التّلميحُ، فقرَعَ آذانَهم بصريح اللّفظ لعلّهم يذكّرون، فأطنبَ بذكر العاملِ، والبلاغةُ مراعاةُ مقتضى الأحوال بما يناسبُها في أسلوبِ الخطابِ واصطفاءِ التّراكيبِ.

حيثما كان المقصودُ واضحًا، كان الإيجازُ كافيًا

إيثارُ الفعلِ ﴿يَعِدُكُمُ﴾ دون مرادفاته:

اصطفاءُ الفعلِ ﴿يَعِدُكُمُ﴾؛ لتنزيلِ الغائبِ المجهولِ منزلةَ الحاضرِ المأمولِ، فقد كانوا يخشونَ الهلاكَ للمفارقة العدديّة ولعدم الجاهزيّة، ففعلُ الوعدِ تطمينٌ وترجيةٌ لهم بالقول ألّا يخافوا، ولا يحزنوا، والقولُ منَ اللّه بالوعد يقينٌ ناجزٌ، وفيه منَ التّربيةِ لهم بالتّعريضِ والتّعجيبِ من شأنهم ما فيه، بدليل إسنادِه إلى اسمِ

وعدُ اللهِ يقينٌ ناجزٌ، والله لا يخلف الميعاد

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/4.

الألوهيّةِ الجامعِ ﴿يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ﴾! أي: إذا كان وعدًا كائنًا منَ اللّهِ العظيمِ، فكيف تستمرّون على مخافتِكم؟ فأولَى بكم أن تَتَهيّبوه في وعده، ولا تتهيّبوا مَن هم تحتَ قبضته وقهره منَ الكافرين[1].

سرُّ استعمالِ المضارع ﴿يَعِدُكُمُ﴾، واتّصاله بالضّمير:

قوله: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ﴾، صيغةُ المضارع لحكاية الحالِ الماضيةِ لاستحضار صورتِها[2]، وللدّلالة على أنَّ الوعدَ تكّررَ عليهم أكثر من مرّةٍ؛ لتثبيتهم.

التّذكيرُ بوعْدِ العليم الخبير؛ لاستِحْضارِ المَشْهدِ، وأخْذِ العِبْرةِ

معنى ﴿إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ﴾، وعلّةُ تخصيصِها بالإضافة:

المرادُ بإحدى الطّائفتين: العير أو النّفير، وعلّةُ تخصيصها بالإضافة، التّنبيهُ على أنّ إحداها هو المرادُ فقط، وليس المرادُ كليهما.

نَفَرَتِ الأنْفُسُ مِنَ النّفير، وقد كان فيه النّصْرُ والخَيْرُ

أثر إعرابُ جملة ﴿أَنَّهَا لَكُمْ﴾:

منصوبُ المحلِّ على البدلِ مِن إحدَى؛ أي: يَعِدُكم أنَّ إحدى الطّائفتين كائنةٌ لكم؛ أي: تتسلَّطون عليها تسلُّطَ المُلّاكِ، وتتصرّفون فيهم كيف شئتم، فهي بدلُ اشتمالٍ مُبيّنٍ لكيفيّة الوعد[3].

بَدلُ الاشتمال مُبيِّنٌ لكيفيّة الوعد

إيثارُ المصدرِ المؤوَّلِ على الصّريحِ في: ﴿أَنَّهَا لَكُمْ﴾:

إيثارُ المصدرِ المؤوّلِ ﴿أَنَّهَا لَكُمْ﴾ على المصدر الصّريحِ (كونها لكم)؛ للجمع بين توكيد الإسنادِ بين المبتدأ والخبر، والدّلالة على المصدر لإفادة ثبوتِ حكم الاختصاصِ والاستحقاقِ بين المسند إليه والمسند. وهذا التّعبيرُ آكَدُ في الوعد مِن مثلِ أن يُقالَ: (وإذ يعدُكُم اللّهُ أنّ إحدى الطّائفتين لكم)؛ لأنَّ تركيبَ الآيةِ إثباتٌ بعدَ إثباتٍ: إثباتٌ للشّيء في نفسِه، وهي إحدى الطّائفتين، وإثباتٌ له في بَدَلِه[4].

الجملة المؤوّلة، عبارةٌ عن معنيين منظومين في سلكٍ واحدٍ

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (وعد).
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/4.
(3) ابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 457/9، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/4.
(4) رشيد رضا، تفسير المنار: 500/9.

دلالةُ لام الاستحقاقِ والمِلكِ في: ﴿لَكُمْ﴾:

اللّامُ لامُ الاستحقاقِ والمِلكِ؛ أي: مملوكة لكم، والمِلْكُ عرفيٌّ غيرُ حقيقيٍّ؛ بمعنى: الولايةِ على الغنائم، واستخلافِهم عليها بعدَ الظّفرِ بها[1].

المِلْكُ العُرفيّ، يعني الولاية على الغنائم وليس الحيازة

اختلافُهم في دلالةِ الواو، في: ﴿وَتَوَدُّونَ﴾:

واو ﴿وَتَوَدُّونَ﴾ تتقلَّبُ بين ثلاثة معانٍ؛ فهي إمّا عاطفةٌ وإمّا حاليّةٌ وإمّا مستأنفةٌ، والمعنى على العطف: يَقعُ الوعدُ منَ اللّه، والودُّ منكم، والمعنى على الحاليّة: يعدُكم اللّهُ في حال ودِّكم الطّائفةَ غير ذاتِ الشّوكةِ، وهي العير.

إفادةُ الجمعِ بين الإخبار عنِ الله بالوعد والإخبار عنهم بالودّ

والفرقُ بينهما في العطف: إفادةُ الجمعِ بين الإخبار عنِ اللّه تعالى بالوعد والإخبارِ عنهم بالودّ، وفي الحال: إفادةُ التّزامنِ بين الوعدِ والودِّ؛ أي: أنّ اللّه جلَّ شأنُه وعدَهم في وقتٍ يودّون فيه ذلك، والمعنى على الاستئناف: الإخبارُ بما كان مِن أمرِهم[2].

إيثارُ استعمالِ الفعلِ ﴿وَتَوَدُّونَ﴾:

التّعبيرُ بالفعل ﴿وَتَوَدُّونَ﴾ لتضمين رجائِهم الغنيمةَ من غير قتالٍ معنى الحبِّ، وأنّ انفعالَهم بتمنّي ذلك كان بوازِع إلحاحِ اللهفةِ والحرصِ على المألوف، ولو عبّر بالتّمنّي أو الرّجاء لم يكن يلزمُ اشتماله على المحبّة والألفة[3].

التّعبيرُ بالودِّ يَصِفُ الانفعالَ المَحمومَ في القلوب

سرُّ استعمالِ المضارع ﴿وَتَوَدُّونَ﴾:

صيغةُ المضارعِ في قوله: ﴿وَتَوَدُّونَ﴾ لتصوير حالةِ الانفعالِ الباطنةِ، وهي تَعترِكُ، وتنبِضُ بالوِدادِ المتواتِر، الّذي لا يأفُلُ فيها، ولا يَسكنُ، فهو وِدادٌ مستمرٌّ لا يَفتُرُ، وصيغةُ المضارع تُطابِقُ

تصويرُ حالةِ الانفعالِ الباطنةِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 269/9.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 269/9، والخطيب، التّفصيل في الإعراب: 325/9.
(3) ابن منظور، لسان العرب: (ودد).

خصيصةَ هذا الفِعل، فإنّ عادةَ مَن يودُّ شيئًا أن يستمرَّ انفعالُه بحُبِّ الشّيءِ وطلَبِه حتّى يتحقّقَ، والمحبّةُ هي الّتي تُغريه فلا يزالُ مدفوعًا في ابتغائه.

معنى ﴿ذَاتِ ٱلشَّوۡكَةِ﴾، ودلالةُ ﴿غَيۡرَ﴾:

ذاتُ الشّوكة كنايةٌ عنِ الحرب

﴿ٱلشَّوۡكَةِ﴾ الحِدّةُ والقوّةُ، و﴿ذَاتِ ٱلشَّوۡكَةِ﴾: الفئةُ القويّةُ، مُستعارةٌ من واحِدَةِ الشّوكِ، شَبّه حِدّةَ الرِّماحِ وأدواتِ السّلاحِ بحِدّة الأشواك في النّباتات. وذاتُ الشّوكةِ كنايةٌ عنِ الحرب. و﴿غَيۡرَ﴾ اسمٌ يقعُ على خلافِ ما أُضيفَ إليه؛ أي: والمراد: خلافُ ذاتِ الشّوكة، ولإبهامِ لفظِ ﴿غَيۡرَ﴾ وعدمِ تَعرّفه أو تخصّصِه بالإضافة، فإنّ استعمالَها هنا له نكتةٌ في دلالته: وهي عدمُ تَعيُّنِ مفهوم ﴿ذَاتِ ٱلشَّوۡكَةِ﴾ المُقابِل، وهو (غنيمة العير)، بل إطلاقُ المُقابل؛ بمعنى: أنّهم لا يودّون قتالَ الفئةِ القويّةِ ذاتِ الشّوكةِ مُطلَقًا، حتّى ولو لم يحصلوا على غنيمةِ العيرِ؛ يعني: يودّون غيرَ ذاتِ الشّوكةِ أيًّا كان ذلك: إدراكُ غنيمةِ العيرِ، أو القعودُ والفواتُ، فالمعنيان داخلان في حيّزِ الغيريّةِ، ومفهومِ ذاتِ الشّوكة[1].

سرُّ التعبير بقوله: ﴿غَيۡرَ ذَاتِ ٱلشَّوۡكَةِ﴾:

اشتمالُ هذا التّركيب على سببِ وِدادتهم لملاقاةِ العير

العدولُ عن (غنيمة العير) إلى قوله: ﴿غَيۡرَ ذَاتِ ٱلشَّوۡكَةِ﴾؛ لاشتمال هذا التّركيبِ على ثلاث دلالات: الأولى: أنّها غنيمةٌ صافيةٌ عن كَدَرِ القتال، فهي غنيمةٌ باردةٌ. الثّانية: التّصريحُ في التّركيب بذِكرِ (غنيمة النّفير)، وهي ﴿ذَاتِ ٱلشَّوۡكَةِ﴾؛ للتّعريضِ بأنّها هي المقصودة، ولكنّهم عدلوا عنها إلى غير ذاتِ الشّوكةِ، ولو قال: (غنيمة العير) لكان اقتصارًا على مرادهم من غير أن يتضمّنَ مرادَ اللّه صراحةً. الثّالثة: اشتمالُ هذا التّركيب على سببِ وِدادتهم

(1) عضيمة، دراسات لأسلوب القرآن الكريم: 205/2، ورشيد رضا، تفسير المنار: 500/9، والشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 4585/8.

لملاقاة العيرِ، وموجبِ كراهيتِهم لملاقاة النّفيرِ، وهو كونُ طائفةِ النّفيرِ ذاتَ شوكة، وكونُ العيرِ غيرَ ذلك.

فائدةُ الفعل ﴿تَكُونُ﴾، في: ﴿تَكُونُ لَكُمْ﴾:

ذِكرُ ﴿تَكُونُ﴾ مع إمكان أن يُقال: (وتودّون أنّ غيرَ ذاتِ الشّوكة لكم)؛ لتعيين مُتعلِّق الجارّ والمجرور؛ لدلالته على تأكيد معنى (الودّ)، والمبالغةِ في شأن ما تعلَّقَ به منَ الحرصِ على بلوغِ ما ودّوا وابتَغَوا.

عسى أن تكرهوا شيئًا وهو خيرٌ لكم

دلالةُ اللّام في ﴿لَكُمْ﴾، وفائدةُ الجارّ والمجرور:

حرفُ الاختصاص في قوله: ﴿تَكُونُ لَكُمْ﴾ للملكيّةِ والاستحقاقِ، كما هو في قوله: ﴿أَنَّهَا لَكُمْ﴾[1].

دلالةُ حرفِ الاختصاص على المِلكيّة والاستحقاق

دلالةُ الواو في: ﴿وَيُرِيدُ ٱللَّهُ﴾:

الواو في قوله: ﴿وَيُرِيدُ ٱللَّهُ﴾؛ للاستئناف، فالجملة لا محلّ لها منَ الإعراب، وغرضُ استئنافِها الإخبارُ عن مراد اللّهِ استقلالًا، وتحديدُ ما تعلّقَت به إرادتُه في سياقِ القِصّة، أو للعطف على جملة ﴿وَتَوَدُّونَ﴾، ودلالةُ العطفِ إدخالُ الجملةِ ضِمنَ حيّزِ ما أُمِرَ بذكره في صدر الكلام؛ أي: واذكروا إذ يعدُكم اللّهُ إحدى الطّائفتين، واذكروا أنّ اللّه يريدُ أن يُحقَّ الحقَّ بكلماته[2].

الإخبارُ عن مرادِ الله استقلالًا، وما تعلّقَت به إرادتُه في السّياقِ

سرُّ العدولِ عن (يودُّ) إلى (يريد):

عبّر في جانبِهم بفعل الوِدادِ ﴿وَتَوَدُّونَ﴾، وفي جانبِ اللّه تعالى بفعل الإرادةِ ﴿وَيُرِيدُ ٱللَّهُ﴾، للإشارة إلى أنّ ذلك كان في جانب اللّهِ إرادةً، وإرادتُه سبحانه نافذةٌ، وهي المصلحةُ والخيرُ، والتّعبيرُ في جانبهم بـ﴿وَتَوَدُّونَ﴾ للإشارة إلى أنّه مجرّدُ وُدٍّ، ولم يَصِر إرادةً؛ لامتناع أن يُريدوا ما لا يوافِق إرادةَ اللّه[3].

التّعبيرُ بالإرادة أنفذُ أثرًا منَ التّعبيرِ بالوُدّ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 269/9.
(2) الهمذانيّ، الكتاب الفريد: 189/3، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/4.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 3073/6.

نكتةُ التَّصريحِ باسم الجلالةِ في: ﴿وَيُرِيدُ ٱللَّهُ﴾:

التّصريحُ باسم الألوهيّةِ ﴿ٱللَّهُ﴾ يُشعِرُ بعِلّيَّةِ فعلِ (الإرادة) وسرعةِ جريانِه في النّفاذِ والتّحقُّقِ؛ لأنَّ الّذي يريدُ هو اللّه الّذي خضعَت لألوهيّتِه كلُّ الإراداتِ.

اللهُ هو الّذي خضعَت لألوهيّتِه كلُّ الإراداتِ

لطيفةُ استعمالِ صيغةِ المضارعِ في: ﴿وَيُرِيدُ ٱللَّهُ﴾:

صيغةُ المضارعِ في قوله: ﴿وَيُرِيدُ ٱللَّهُ﴾؛ لاستحضار إرادةِ اللّهِ، وهي تعملُ في الأشياء، وتتحرّكُ بالتّدبيرِ والتّقديرِ، فهي وإن كانَت قديمةً في أصلها إلّا أنّها متجدّدةٌ ومستمرّةٌ في آثارِها وأفعالِها.

إرادةُ اللهِ متجدّدةٌ، وآثارُها

بلاغةُ جناسِ الاشتقاقِ في: ﴿يُحِقَّ ٱلْحَقَّ﴾:

الجناسُ الاشتقاقيُّ في قوله: ﴿وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ يدلُّ على أنّ أصلَ مادّةِ الحقِّ هو (حَقّ)، وأصلُ مادّةِ الباطلِ (بطل)، واستُعمِلَ لفظُ العاملِ والمعمولِ من نفس الاشتقاق؛ ليدلَّ على أنّ إحقاقَ الحقِّ منَ الحقِّ، وجزءٌ منه لا يتمُّ الحقُّ إلّا به[1].

إحقاقُ الحقِّ جزءٌ مِنه لا يتمُّ الحقُّ إلّا به

الدّلالةُ الصّوتيَّةُ في كلمتي: ﴿يُحِقَّ ٱلْحَقَّ﴾:

الدّلالةُ الصّوتيّةُ لقوله: ﴿يُحِقَّ ٱلْحَقَّ﴾ (من جهة الحاءِ المهموسةِ الرّخوةِ والقافِ المجهورةِ الشّديدةِ، ومن جهة كسرِ الحاءِ وتشديدِ القافِ المفتوحةِ)، فالحاءُ المهموسةُ الرّخوةُ تدلُّ على طواعيةِ الحقِّ وسهولتِه في اصطكاكِه واحتكاكِه بقناعاتِ وضلالاتِ مَنْ يَطلبه أو يُعانِده، والقافُ المُضعَّفةُ المجهورةُ تدلُّ على تعقّدٍ شديدٍ في العمق أو الأثناء، وذلك ليس في ذات الحقِّ، بل في مُعالَجتِه وعمليةِ بيانِه والتّنظيرِ له، وكأنّ تركيبَ ﴿يُحِقَّ ٱلْحَقَّ﴾ صوتيًّا يدلُّ على معنيين: الأوّل: سهولةُ الحقِّ في نفسِه، وأنّه طَيِّعٌ في مُرورِه واحتكاكِه بالأنفُسِ السّليمةِ، فتنزلِقُ على صفحتِه قناعاتُ الباطلِ وضلالاتُه. الثّاني: صعوبةُ الحقِّ في إجرائه ومعالجته

الحقُّ صعبٌ إحقاقُه مع الأنفسِ المُظلِمةِ المُعانِدةِ وأفعالُها مستمرّةٌ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 271/9.

مع الأنفس المُظلِمةِ المُعانِدةِ، أو أنّ إجراءَه وإظهارَ ثبوته بالبرهان والتّنظير صعبٌ وشاقٌّ؛ لافتقاره للعِلمِ وإتقانِ البرهانِ[1].

دلالةُ الباء في: ﴿بِكَلِمَٰتِهِۦ﴾:

الباءُ في قوله: ﴿بِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ للسّببيّة؛ أي: بسببِ كلماتِه أرادَ إحقاقَ الحقّ، أو هي للمصاحبة؛ أي: يُحقُّ الحقَّ مصحوبًا بكلماته؛ أي: يُظهرُ الحقَّ مصحوبًا بدليلِه والبرهانِ عليه، أو الباء للملابسةِ والإلصاقِ؛ أي: يحقُّ الحقَّ مُلتبسًا بكلماتِه مُلتصقًا بها، فهي منه، وهو منها، تُداخِلُه ويُداخِلُها[2].

كلماتُ اللهِ ضَمان لإحقاقِ الحقّ على الدّوام

معنى (كلمات الله)، وعلّة جمعها، في قوله: ﴿بِكَلِمَٰتِهِۦ﴾:

جمعَ (كلماته) ليشملَ كلماتِه التّكوينيّةَ بالإيجاد والإرادة، وكلماتِه التّشريعيّةَ بالوحي المتلوِّ المسطورِ. وقُرِئَ: (بكلمته) بالإفراد لجعل المتعدّدِ كالشّيءِ الواحدِ، والمرادُ به: اسمُ الجنسِ فيؤدّي مؤدَّى الجمع، أو على أنّ المرادَ بها كلمةُ (كن) الّتي هي عند الكثير عبارةٌ عنِ القضاء والتّكوين[3].

اسمُ الجنس يؤدّي مؤدَّى الجمع في السّياق

فائدةُ إضافةِ (كلمات) إلى ضمير اسمِ الجلالةِ:

قوله: ﴿بِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ جمعٌ مضافٌ إلى ضمير اسم الجلالةِ يفيدُ العمومَ، ويفيدُ تعريفَ الكلماتِ وتعيينَ مفهومِها، فيفيدُ جميعَ أنواعِ الكلماتِ الصّادرةِ منَ اللّه سبحانه بالوحي أو بإرادة الحكمِ والقضاءِ والتّكوينِ والإيجادِ[4].

كلّ ما صَدَرَ عن اللهِ فهو كلماته، وهي وحيٌ يوحى إلى رسله

دلالةُ الواو في: ﴿وَيَقۡطَعَ دَابِرَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾:

جملة: (يقطع) لا محلّ لها، معطوفةٌ على جملة ﴿يُحِقَّ﴾، داخلةٌ في حيّز الإرادة: يريدُ أن يُحِقَّ، ويريدُ أن يقطعَ[5].

من قطع اللهُ دابِرَه، فلا واصلَ له

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (حقق - حقحق).
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 272/9.
(3) ابن عادل، اللّباب: 458/9، والآلوسيّ، روح المعاني: 161/5.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 271/9.
(5) صافي، الجدول: 176/9.

إيثارُ الفعلِ (يقطع):

من كفر قَطَع اللهُ دابرَه ومَصيره الاستئصالُ

عبّر بالفعل (يقطع) في: ﴿وَيَقۡطَعَ دَابِرَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾؛ لإفادته الاستئصالَ والإزالةَ التّامّةَ[1]، والمعنى أنّه: "عبّر بذلك كناية عن أنه لا يبقى من الكافرين من يجهر بكفره، ويعاند اللّه تعالى، ويستعلى عليه، وذلك فيه تشبيه للكفر بالجيش الّذي يولّي مدبرًا، ويقاتل بقناه، حتى يقضى عليه بقطع أدباره والقضاء عليه"[2].

سرُّ استعمالِ المضارع في: ﴿وَيَقۡطَعَ﴾:

سُنَنُ اللهِ جاريةٌ لا تتخلّفُ، ومن خالفها هَلَكَ

التّعبيرُ بصيغة المضارع في قوله: ﴿وَيَقۡطَعَ دَابِرَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾؛ ليفيدَ أنّ تلك عادةُ اللّهِ في خلقه، فما تزالُ جاريةً حاصلةً، وسُنّةً من سُنَنِه الشّرعيّةِ والكونيّةِ، فلا تتخلّفُ، ولا تتبدّلُ بحال، فهي مُتجدّدةٌ بتجدّدِ أسبابِها وموجباتِها.

بلاغةُ المجازِ في: ﴿وَيَقۡطَعَ دَابِرَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾:

مَثَلٌ سائِرٌ

قطعُ الدّابرِ: إزالةُ الآخِر واستئصالُه، وهو كنايةٌ عن ذهاب الجميعِ وعدم بقاءِ أحدٍ منهم؛ أي: الاستئصالُ الكلّيُّ؛ لأنَّ المستأصِلَ يبدأُ في أوّلِ الشّيءِ، ويَذهبُ يستأصِلُ إلى أن يَبلغَ آخِرَه وهو دابِرُه، وهذا ممّا جرى مَجرى المَثَل[3].

فائدةُ إضافةِ ﴿دَابِرَ﴾ إلى ﴿ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾:

أثَرُ الإنسانِ هو آخِرُ ما يكونُ منه

إضافةُ ﴿دَابِرَ﴾ للكافرين أفادَت معنيين:

الأوّل: إفادةُ أنّه لن تبقى لهم باقيةٌ من تمكينٍ أو غَلبَةٍ؛ لانهزامِهم واستئصالِ أفرادِهم بالقتلِ على أيدي المؤمنين.

الثّاني: إسنادُ القطعِ إلى الدّابرِ، وليس للكافرين إيذانٌ بأنّه إذا بقيَت ذواتُهم فآثارُهم مقطوعةٌ، ومكائدُهم زائلةٌ على معنى

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (قطع).
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 6/ 1063.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 272/9.

أنّ الأدبارَ هي أذيالهُم منَ المكرِ والكيدِ؛ لأنّ وجودَ الكافرين بأشخاصهم سُنّةٌ من سننِ اللّه، فيكون معنى قطعِ دابرِهم إزالةَ آثارهم وإبطالَها، وإنْ بقيَت أعيانُهم، فأثَرُ الإنسانِ هو آخِرُ ما يكونُ منه، والدّابِرُ هو الآخِر.

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

يُحقّ ويُثبِت:

الإثباتُ لفظٌ عامٌّ في تثبيتِ ما يُراد تثبيتُه، أيًّا كان حقًّا أو باطلًا

يُثبِتُ الشّيءَ: يُديمُهُ ويُبقيه. يُحِقُّ الشّيءَ: يُثبِتُ أحقّيَّتَه بأن يستدلَّ له، ويُؤصّلَ لوجهِ كونِه حقًّا، فأصلُه: المطابقةُ والموافقةُ بين الدّليلِ والمدلول، فالإحقاقُ إثباتٌ خاصٌّ لما يُعتَقَدُ أحقّيَّتُه، والإثباتُ لفظٌ عامٌّ في تثبيتِ ما يُراد تثبيتُه أيًّا كان حقًّا أو باطلًا، فهو مُطلَقٌ في تثبيتِ كلِّ رأيٍ نتجَ ذلك عنِ الحقيقةِ أو عنِ الهوى. وعليه: فلفظُ (يُحِقّ) مُقَيّدٌ خاصٌّ، ولفظُ (يُثبِتُ) مُطلَقٌ عامٌّ[1].

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (ثبت - حق).

﴿لِيُحِقَّ ٱلۡحَقَّ وَيُبۡطِلَ ٱلۡبَٰطِلَ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ٨﴾ [الأنفال: 8]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

إرادة الله أعلى وأبقى، وهو يحقّ الحقّ ويبطل الباطل رغم أنف الكفرة

لمّا ذكَرَ اللّهُ الفرقَ بين مُرادِهم في عدمِ القتالِ وإيثارِ السّلامةِ بإحرازِ غنيمةِ العيرِ، بيّنَ أنّ إرادتَه الثّابتةَ الّتي لا تتبدّلُ؛ أن يُظهِرَ الحقَّ الثّابتَ بكلماتِه الكونيّةِ والتّشريعيّةِ؛ لأجلِ أن يُثَبِّتَ لهم دينَهم الحقَّ، ويُظهِرَه على الدّينِ كلِّه.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَيُبۡطِلَ ٱلۡبَٰطِلَ﴾: مِنَ الإبطال: وهو إفسادُ الشّيءِ وإزالتُه، والباطِل: نَقيضُ الحَقِّ، والمرادُ: يُزيلُ الباطلَ، ويُفسِدُ زيفَه، ويُزهِقُ حُجَجَه[1].

2) ﴿ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾: مِنَ الإجرام: وأصلُهُ: القطعُ، واستُعمِلَ في الكسبِ؛ لأنّ الّذي يَكسِبُه منَ العمل كأنّما اقتَطَعَهُ مِن حَوزَةِ ما يُكسَب، وغلَبَ على كسبِ العملِ السّيّئِ، منَ الجِنايات، فقيل لها: الجرائم، لِما يُتصوّرُ في القطعِ من معنى الضّرَر. والمرادُ بالمجرمين: أهلُ الكُفرِ والإفسادِ[2].

المَعْنى الإجْماليُّ:

نصر الحقّ وخذلان الباطل، سنّة الله في كونه، ولو كره الكافرون

فعلَ اللّهُ ما فعلَ من إرادةِ إحقاقِ الحقِّ، ليس إلّا لنصرِ الإسلامِ وأهلِه، ومَحقِ الشّركِ وأهلِه، ولو كرِهَ المجرمون ذلك وقاوموه بأقصى ما لهم منَ المؤامرةِ والكيدِ.

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

نُكتةُ إيرادِ قوله: ﴿لِيُحِقَّ ٱلۡحَقَّ﴾ بعدَ: ﴿أَن يُحِقَّ ٱلۡحَقَّ﴾:

قوله: ﴿لِيُحِقَّ ٱلۡحَقَّ﴾ بعد قوله: ﴿وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلۡحَقَّ﴾ من

(1) الرّاغب، المفردات: (بطل).

(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (جرم).

تعليلُ العامِّ بالخاصّ، من بيان الأسلوب البليغ

بابِ تعليلِ العامِّ بالخاصّ، وهو أن يكون العامُّ سببًا لحصول الشّيءِ الخاصِّ، فالإرادةُ في قوله: ﴿وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ﴾ إرادةٌ عامّةٌ ومُطلَقةٌ غيرُ مقيّدةٍ بقصّة السّياقِ، وهي معطوفةٌ على ﴿وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ﴾؛ للتّمييز بين إرادتِهم وإرادةِ اللّه، كأنّه قال: أنتم تريدون كذا، ومِن شأنِ اللّهِ أن تتعلَّقَ إرادتُه بغايةٍ، هي إحقاقُ الحقِّ وقطعُ دابرِ الكافرين؛ لأجلِ أن يُحِقَّ الحقَّ في شأنكم مع العيرِ والنّفيرِ، ولو كره المجرمون ذلك، فجملة: ﴿لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ﴾ هي غايةُ الإرادةِ العامّةِ في قوله: ﴿وَيُرِيدُ ٱللَّهُ﴾؛ فبينَ الجملتين تبايُنُ عمومٍ وخصوصٍ، وإطلاقٍ وتقييدٍ، ولا يخفى ما في ذلك منَ المبالغة في تأكيد المعنى بذكره على وجهين: عموم وخصوص، وإطلاقٍ وتقييدٍ. وهذا نظيرُ قولِك: أردتَ أن تفعلَ الباطلَ، وأردتُ أن أفعلَ الحقَّ، ففعلتُ ما أردتُهُ لكذا، لا لمقتضى إرادتِك. ونُكتةُ سَوقِ الجملةِ الثّانيةِ بتركيبٍ يُحاكي الجملةَ الأولى: ﴿وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ﴾ مع ﴿لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ﴾ بتعليلِ الفعل بنفسِ ذلك الفعلِ مع تباينهما في المراد؛ لإفهامِ أنّ ذلك كنايةٌ عن كونِه ما فعلَ ذلك الفعلَ إلّا لذاتِ الفعل، لا لغرضٍ آخرَ زائدٍ عليه[1].

دلالةُ اللّام في قوله: ﴿لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ﴾:

إفادةُ التّعليلِ للحصر هنا من مستتبعاتِ التّركيبِ

قوله: ﴿لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ﴾، اللّام فيه للتّعليل، والجملةُ داخِلةٌ في حيّز الجملةِ السّابقةِ مُتعلِّقةٌ بقوله: ﴿وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾، ويصحُّ أن تتعلَّقَ بمحذوفٍ مؤخَّرٍ عنها؛ أي: ليُحِقَّ الحقَّ فعلَ ما فعلَ، لم يفعلْه إلّا لتلك الغاية. وعليه فجملةُ: ﴿لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ﴾ مستأنفةٌ لا محلّ لها منَ الإعراب. وتقديرُ المحذوفِ مؤخَّرًا له دلالتُه البيانيّةُ في إفادة الاختصاصِ والحصرِ؛ أي: لم يفعلْ ذلك إلّا لإحقاقِ الحقِّ وإبطالِ

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 200/2، وأبو حيّان، البحر المحيط: 278/5، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 272/9.

الباطلِ لا لشيءٍ آخرَ، وإفادةُ التّعليلِ للحصر هنا من مستتبعاتِ التّركيبِ، وليس من دلالةِ اللّفظِ، أو يفيدُ تأخيرُ العاملِ المحذوفِ - على أقلِّ تقديرٍ - العنايةَ والاهتمامَ بالمعمول المتقدِّم، وهو قولُه: ﴿لِيُحِقَّ ٱلۡحَقَّ﴾[1].

دلالةُ عطفِ: ﴿وَيُبۡطِلَ ٱلۡبَٰطِلَ﴾ على ما قبلَها:

ثبوت الشّيء قد يُؤَكَّدُ بنفي ضِدِّه

عطفُ قوله: ﴿وَيُبۡطِلَ ٱلۡبَٰطِلَ﴾ على قوله: ﴿لِيُحِقَّ ٱلۡحَقَّ﴾ من قبيلِ المطابقةِ؛ لأنَّه معنى واحدٌ يُقابِلُ آخرَ؛ ولذا آثرَ التّعبيرَ بـ﴿وَيُبۡطِلَ﴾؛ لاستتمام غرضِ المقابلةِ، وفائدةُ العطفِ بهذه الجملةِ يتناولُ وجهين: الأوّل: التّصريحُ بأنَّ اللّه لا يَرضى بالباطل. الثّاني: توكيدُ ما قبله به، فقوله: ﴿وَيُبۡطِلَ ٱلۡبَٰطِلَ﴾ في حكم التّوكيدِ لمضمون قولِه: ﴿لِيُحِقَّ ٱلۡحَقَّ﴾؛ لأنَّ ثبوتَ الشّيءِ قد يُؤَكَّد بنفي ضِدِّه[2].

دلالةُ (لو) على الوصلِ والرّبطِ:

تَحقُّق الحُكمِ في جميع الأحـوالِ العارضة

(لو) في قوله: ﴿وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾ لها دلالاتٌ شتّى:

الأولى: المبالغةُ في الأحوال، ولذا كانتِ الواو في ﴿وَلَوۡ كَرِهَ﴾ حاليّةً؛ أي: يحقُّ الحقَّ ويبطلُ الباطلَ، ولو في حالِ كَراهةِ المجرمين ذلك، والمبالغةُ متوجِّهةٌ لجملة الشّرطِ بعدَ ﴿وَلَوۡ﴾.

الثّانية: أنَّ (لو) أفادتِ الوصلَ والرّبطَ بين ما قبلها وما بعدها؛ أي: بين قوله: ﴿لِيُحِقَّ ٱلۡحَقَّ﴾، وقوله: ﴿كَرِهَ ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾، والرّبطُ هنا في مقامِ تأكيدٍ ومبالغةٍ كما سبق، ولذا يصحُّ تخريجُ معنى الواو على أنّها للعطف على محذوفٍ في موضعِ الحالِ، والمعطوفُ على الحالِ حالٌ، والتّقدير: ليحقَّ الحقَّ ويبطلَ الباطلَ على كلّ حالٍ، ولو في حالِ كَرِهَ المجرمون. وفائدةُ ﴿وَلَوۡ﴾ على هذا التّقدير: استقصاءُ الأحوالِ

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 200/2، وأبو حيّان، البحر المحيط: 278/5، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 272/9.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 273/9.

وغايةُ ما يُتوقَّعُ معه انتفاءُ حُكمِ ما قبلها، فيذكره المتكلِّمُ؛ لِقصدِ تَحقُّقِ الحكمِ في جميع الأحوالِ الّتي تعترضُه أو تطرأُ عليه[1].

بلاغة استعمال لفظ الكُره في: ﴿وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾:

لوازِمُ الكراهية، مانعة لإحقاق الحقّ، وإبطال الباطل

الكراهيةُ في قوله: ﴿وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾، ليستِ الكراهيةَ السّاذَجةَ الّتي هي ضدّ (الحُبّ)، بل هي الكراهيةُ بجميع لوازمِها الدّاعية لمنع إحقاقِ الحقِّ وإبطالِ الباطلِ بمقاومتِه بضدّه منَ الكافرين، فكأنَّ المعنى: أنّ اللّه يحقُّ الحقَّ ويبطلُ الباطلَ، وإن قاوَمَ المجرمون ذلك بمحاربة الحقِّ ونصرِ الباطل، فالكراهيةُ هنا كنايةٌ عن لوازِمها. أمّا مجرّدُ الكراهيةِ من غير مُحاربةٍ فمعناها غيرُ واردٍ هنا؛ لأنّها جُعِلَت غايةً بالِغةً لنفوذِ إرادةِ اللّه فيها، فكيف يُتَحدَّى بإرادةِ اللّه على غايةٍ مجرّدةٍ لا خطرَ فيها ولا أثَرَ، فثَبَتَ أنّ الكراهيةَ المذكورةَ هي الّتي لا تكونُ عن مُسالَمَةٍ ومُصالحةٍ، بل عن محاربةٍ ومقاومةٍ وإفسادٍ[2].

إيثارُ استعمالِ كلمةِ ﴿ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾ دون غيرها:

إيثارُ وصفِ المجرمين في إسناد الكراهيةِ إليهم؛ لإكسابِه معنى الكسبِ المستمرِّ للجنايات والمفاسد الّتي يرتكبونها؛ لتعطيلِ مرادِ اللّهِ في إحقاقِ الحقِّ وإبطالِ الباطلِ، فإنَّ الإجرامَ مُستعارٌ لاكتسابِ المكارِه؛ ليتناسبَ مع وصفهم بالكراهيةِ في ﴿وَلَوۡ كَرِهَ﴾، فوصفُهم بالمجرمين مُسَبَّبٌ عن كراهيتِهم، كأنّه قالَ: إذا كرِهوا الحقَّ أحدثوا بسبب كُرهِهم له الجرائمَ، فكانوا قومًا مجرمين، لا ينفكّون عنِ اكتسابِ القبيحِ والمكروهِ[3].

إيثارُ وصفِ المجرمين لإكسابِه استمرار المفاسد الّتي يرتكبونها

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 504/2، وأبو حيّان، البحر المحيط: 277/5، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 306/3 - 273/9.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 273/9.

(3) الرّاغب، المفردات: (جرم).

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

(يُبطِل) و(يَمحو):

المحو: هو طَمسُ وجـودِ الـشّيءِ، والإبـطـال إزالـة وجه تلبيسه

الإبطالُ: إفسادُ الشّيءِ وإزالتُه، حقًّا كان ذلك الشّيءُ أو باطلًا. وكلُّ ما ذُكِرَ في القرآن من هذا التّركيب فهو بمعنى المُهْدَر؛ لأنّه غيرُ صحيحٍ أو غيرُ نافعٍ. والمَحوُ لِكُلِّ شَيءٍ: إزالةُ أثَرِه. وعليه: فالإبطالُ عامٌّ، وهو لا يقتضي إزالةَ عينِ الشّيءِ، بل يقتضي إزالةَ وجهِ تلبيسِه بإثباتِ زيفِه وإنْ ظلّ موجودًا وكائنًا، وأمّا المحو فهو إزالةُ وجودِ الشّيءِ لا تَعطيلُه بإفسادِه فحسْب[1].

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (بطل)، والرّاغب، المفردات: (محو)، وابن منظور، لسان العرب: (محا)، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (بطل).

﴿إِذۡ تَسۡتَغِيثُونَ رَبَّكُمۡ فَٱسۡتَجَابَ لَكُمۡ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلۡفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُرۡدِفِينَ ٩﴾ [الأنفال: 9]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

ربطُ تجلّياتِ إحقاقِ الحقِّ وإبطالِ الباطلِ بمدِّ المؤمنين بالملائكة المردفين

لمّا بيَّن اللّه سُبحانَهُ في الآية المتقدِّمَةِ أنَّه يحقُّ الحقَّ، ويُبْطِلُ الباطِلَ، فقالَ ﷻ: ﴿لِيُحِقَّ ٱلۡحَقَّ وَيُبۡطِلَ ٱلۡبَٰطِلَ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾؛ بيَّنَ ﷻ في هذه الآيةِ أنَّه نصَرَ المسلمينَ عند اسْتِغاثَتِهم، وأمدَّهم بالمَلائكَةِ، وذلك مظهَرٌ مِن مظاهِرِ تَحْقيقِ الحقِّ[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تَسۡتَغِيثُونَ﴾: الغَيْنُ والواوُ والثّاءُ، تدلُّ تصريفاتُها على النُّصرةِ عند الشِّدَّةِ[2]، يُقالُ: أغاثَهُ يُغيثُهُ؛ إذا نَصَرَهُ على عَدوِّه، وأعانَهُ عليه[3]، واسْتَغاثَهُ: طلَبَ الغَوْثَ، وهو التَّخليصُ مِنَ الشِّدَّةِ، والعَوْنُ على الفِكاكِ مِنَ الشَّدائدِ[4]، ومنه قولُ اللّه تعالَى: ﴿إِذۡ تَسۡتَغِيثُونَ رَبَّكُمۡ﴾، وفي المَثَلِ: "بأمِّه يستغيث اللهفُ"، يقال ذلك لمن اضطرَّ، فاستغاث بأهل ثقته[5].

2) ﴿فَٱسۡتَجَابَ﴾: الجيم والواو والباءُ، تدورُ اشتقاقاتُها علَى مراجعةِ الكلام[6]، ومنه: الجَوابُ؛ إذْ هو خاصٌّ بما يَرْجِع مِنَ الكلام دون المُبْتَدَأ مِنَ الخِطاب، وهو مقولٌ في مُقابلة السُّؤال، ثُمَّ إنَّ السُّؤالَ نوعانِ: أحدهُما: طلبُ مقالٍ، ويكونُ جوابهُ بمقالٍ مثلِه.

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 459/15، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 274/9، والزّحيليّ، التّفسير المنير: 263/9.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (غوث).
(3) بطّال الرَّكبي، النّظم المستعذب: 120/1.
(4) الزَّبيديّ، تاج العروس: (غوث).
(5) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (لهف).
(6) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (جوب).

والآخر: طلبُ نَوالٍ، ويكونُ جوابهُ: النَّوالَ[1]. والاسْتِجابَةُ بمعنى: الإجابَةِ، يقالُ: استجابَ اللّهُ دعاءَهُ، أي: أجابَهُ[2]، ومعناه: قَبِلَهُ[3]، وقَبولُهُ في دعاءِ المسألةِ: يكونُ بإعطاءِ العبدِ سُؤْلَهُ، وقَبولُهُ في دُعاء العِبادَةِ: بالإثابَةِ عليه[4].

3) ﴿مُمِدُّكُم﴾: الميمُ والدّال: تَدُلّانِ على جَرِّ شَيْءٍ في طولٍ، واتِّصالِ شَيْءٍ بشَيْءٍ في اسْتِطالَةٍ[5]، والمَدُّ: الجَذْبُ والمَطْلُ والإمهالُ والزّيادةُ[6]، والإمدادُ: إعطاءُ الشَّيءِ حالًا بعْدَ حالٍ، والفِعْلُ مِن ﴿مُمِدُّكُم﴾ ثلاثيٌّ مضعَّفٌ مزيدٌ بهَمْزَةٍ، يُقال: أمَدَّ، وهو واردٌ في معنى التَّقويَةِ والإعانَةِ، ولذا قالَ المُفضَّلُ: "ما كانَ علَى جِهَةِ القوَّةِ والإعانَةِ، قيل فيهِ: أمَدَّهُ"[7].

4) ﴿مُرْدِفِينَ﴾: الرّاءُ والدّالُ والفاءُ، تدلُّ اشْتِقاقاتُها على اتِّباعِ الشَّيءِ، ومنه التَّرادُفُ وهو التَّتابُعُ[8]، وسُمّيتِ النَّفْخَةُ الثّانيةُ رادفةً، في قولِ اللّه جلَّ وعَلا: ﴿تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ۝٧﴾ [النّازعات: 7]؛ لكونِها تَتْبَعُ النَّفخةَ الأولى. وقولُ اللّهِ سُبحانَهُ: ﴿أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾، أي: مُتَتابِعينَ، يتبَعُ بَعْضُهُم بَعْضًا[9]، قال الزَّجاج: يأتون فِرقةً بعد فِرقة، وقال الفرّاء: أي: متتابعين، ورَدِفَهُ وأرْدَفَهُ بمعنى واحد[10]، وقيل: عنى بالمردفين، المتقدِّمين للعسكر، يُلقون في قلوب العِدى الرُّعب[11]، وقُرِئَ بفتْحِ الدّالِ ﴿مُرْدَفِينَ﴾[12]، والمعنى: أنَّه فعَلَ ذلك بهم، أي: أرْدَفَهُمُ اللّهُ سُبحانَهُ بغَيْرِهِمْ[13].

المَعْنى الإجْماليُّ:

اذْكُروا - أيُّها المؤمنون - نِعْمَةَ اللّهِ تعالَى عَلَيْكُم يَوْمَ بَدْرٍ؛ إذْ تَسْتَجيرونَ به مِن عَدوِّكُم،

(1) الرّاغب، المفردات: (جوب).
(2) الجوهريّ، الصّحاح: (جوب).
(3) الفيّوميّ، المصباح المنير: (جوب).
(4) صالح آل الشَّيخ، التَّمهيد لشرح كتاب التَّوحيد، ص: 180.
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (مد).
(6) ابن سيده، المحكم، والزَّبيديّ، تاج العروس: (مدد).
(7) الواحديّ، التّفسير البسيط: 571/5.
(8) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ردف).
(9) ابن الأثير، النّهاية: (ردف).
(10) الزَّبيدي، تاج العروس: (ردف).
(11) الزَّبيدي، تاج العروس: (ردف).
(12) ابن الجزريّ، النّشر: 275/2.
(13) الهرويّ، الغريبين: (ردف).

وتَدْعونَهُ لِلنَّصْرِ عليهم، فاسْتَجابَ اللهُ ﷻ دُعاءَكُم، قائِلًا: ﴿أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ مِنَ السَّماء، يَتْبَعُ بَعْضُهم بعضًا[1]، وكان مددُ الله تعالى، حين ضاقتْ عليهم الحيَل، وعيَّت بهم العِلَل، فوجدوا نصر الله قريبًا، وقد ثبَّت أقدامهم، ودحر عدوَّهم، وأنالهم مرادهم من السُّمعة البهيَّة، والهيبة السَّنيَّة، والغنيمة الرَّضيَّة.

بيانُ استجارة المؤمنين بالله عند الكَرْب، واستجابته بمددٍ من القوَّة والنَّصر

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

عِلَّةُ فصْلِ قَوْلِ اللهِ: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ﴾ عَمّا قَبْلَهُ:

فُصِلَ قولُ اللهِ ﷻ: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ﴾ عمّا قبلَهُ؛ لِما بينَهُما من كمالِ الاتِّصالِ، أو شبه كمال اتِّصال، وذلك أنَّ هذه الجملةَ بدلٌ من قولِه سُبحانَهُ قبلُ: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ﴾ [الأنفال: 7]، والمُرادُ به بيانُ كراهَتِهم لقاءَ ذاتِ الشَّوكَةِ بشدَّةِ جزَعِهم الَّذي أوجَبَ استغاثَتَهُم باللهِ تعالَى[2]، وعلى شبه كمال الاتِّصال تكونُ الآية جوابًا عن سؤالٍ مقدَّرٍ في الذِّهن: كيف أحقَّ الله الحقَّ، وأبطلَ الباطلَ، لمّا خرجتم تريدون أنَّ غير ذات الشَّوكة تكون لكم؟

مَنِ استغاث عند الكَرْبِ بمولاه؛ أمدَّه اللهُ بعونه وكفاه

دِلالَةُ إيجازِ الحَذْفِ في قَوْلِ اللهِ تَعالَى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ﴾:

البدليَّةُ في قولِ الله تعالَى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ﴾، تقتضي أن يُقدَّرَ فعلٌ قَبْلَ ﴿إِذْ﴾؛ لأنَّ البدلَ على نيَّةِ تَكْرارِ العامِل، فالتَّقدير: واذْكُروا إذْ تَسْتغيثونَ، وهو الفعلُ الأوَّلُ الَّذي عَمِل في قَوْلِه سُبحانَهُ: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ﴾[3]، ويجوز أن يَكونَ قولُ الله تعالَى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ﴾ استئنافًا بإضمارِ فعلٍ، تقديرُهُ: (اذْكُروا)، والمعنى: اذْكُروا

تَذْكيرُ اللهِ تَعالَى العِبادَ بالنِّعم؛ لتجديد الشُّكر على وافر الكَرَم

(1) ابن جرير، جامع البيان: 409/13، ونخبة من العلماء، التَّفسير الميسّر، ص: 178.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 200/2، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 231/8، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/4.
(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 504/2.

إذ تستغيثونَ ربَّكُمْ[1]. وعلى الوجهَيْنِ يكونُ في الآيةِ إيجازٌ بالحذْفِ؛ وذلك بحَذْفِ الفعلِ وفاعلِه، وفي تقديرِ هذا الفِعْلِ - (اذْكُروا) - إيماءٌ للتَّذكيرِ المتجَدِّد.

دِلالَةُ ﴿إِذْ﴾ في قَوْلِه: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ﴾:

(إذْ) في الأصلِ ظرفٌ للزَّمَنِ الماضي، فقَوْلُ اللّهِ سُبحانَهُ: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ﴾، معناهُ: إذِ استغَثْتُم رَبَّكُم، ويجوز أن تكونَ (إذْ)، بمعنَى (إذا) لِلْمُستقبَلِ، كالواردَةِ في قولِ اللّه ﷻ: ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ۝٧٠ إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ﴾ [غافر: 70 - 71]، فيكونُ قد عُبِّر عَنِ المُسْتَقْبَلِ بلفظِ الماضي؛ إيماءً إلى تحقُّقِ وقوعِه[2]، والفعل ﴿تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ﴾ "لم يتعدَّ في القرآن إلّا بنفسه - كما في هذه الآية - وقد يتعدَّى بالحرف، كقول الشّاعر:

حَتَّى اسْتَغاثَ بماءٍ لا رِشاءَ لَهُ *** مِنَ الأباطِحِ في حافاتِه البُرَكُ[3]

نُكْتَةُ التَّعْبيرِ بالفِعْلِ المُضارِعِ في قَوْلِه: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ﴾:

عَلَى القولِ بجريانِ ﴿إِذْ﴾ في قولِ اللّه سُبحانَهُ: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ﴾، على أصلِها في الدِّلالَةِ على الزَّمَنِ الماضي؛ يكونُ في الآيَةِ خروجٌ عَنْ مُقتضَى الظّاهِرِ في التَّعبيرِ بالفِعْلِ المضارِعِ الموْضوعِ في الدِّلالَةِ على الحالِ أوِ الاستقْبالِ، فلَم يَرِدِ النَّظمُ القرآنيُّ: (إذِ اسْتَغَثْتُم رَبَّكُمْ)، وذلك لحكايَةِ الحالِ الماضيةِ استحضارًا لصورَتِها العجيبَةِ، ففيها: تَصْويرٌ لِلاسْتِغاثَةِ، وأنَّها كانَتِ التجاءً مُتَجَدِّدًا مُسْتَمِرًّا باللّهِ تعالَى، وفيها حثٌّ على الاستِمْرارِ في شُكْرِهم للّهِ سُبحانَهُ، ولِذلك عَطَفَ عليه ﴿فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ﴾ بصيغَةِ الماضي؛ مُسايَرَةً لِلْواقِعِ[4].

كُلُّ ما أخْبَرَ اللهُ تَعالَى به عنهم؛ فهو واقعٌ لا مَحالَةَ منهم

حَثُّ العِبادِ على الاسْتِمْرارِ في شُكْرِ اللهِ على عطائه المدرار

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 278/5.

(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 161/5.

(3) البيت لزهير بن أبي سلمى، ينظر: القرشيّ، جمهرة أشعار العرب: 325/1، وابن منظور، لسان العرب: 399/10، عبد الله البكريّ، سمط اللّآلي في شرح أمالي القالي: 260/1، والدّميريّ، حياة الحيوان الكبرى: 180/1، والزّبيديّ، تاج العروس: 314/5.

(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/4، والآلوسيّ، روح المعاني: 161/5، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 3075/6. وطنطاويّ، الوسيط: 46/6.

دِلالَةُ جمعِ ضمير المُسْتَغيثِ في قَوْلِه: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ﴾:

تَعْظيمُ قدرِ النَّبيِّ ﷺ بجعْلِ استغاثتِهِ استغاثةَ الأُمَّةِ برُمَّتِها

جاءَ في السِّيرَةِ أنَّ المُسْلِمينَ لمّا نزلوا بَدْرًا، ورأوا كَثْرَةَ المُشْرِكين؛ استغاثوا اللّه سُبحانَهُ، وعلى هذا فتكونُ الاستغاثَةُ في قولِ اللّه تعالَى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ﴾ صادِرَةً من عُمومِ الجَيْشِ، ويكونُ الضَّميرُ - واوُ الجَماعةِ - شامِلًا لهم، فالآيَةُ واردَةٌ على ما يقتضيهِ الظّاهِرُ، ويَجوزُ أن يكونَ المسْتَغيثُ خصوصَ النَّبيِّ ﷺ، ويدلُّ لذلكَ قولُ عُمَرَ بنِ الخطّاب رضي الله عنه: «لما كان يوم بدر نظر رسول الله ﷺ إلى المشركين وهُم ألفٌ، وأصْحابُهُ ثلاثمئةٍ وتِسْعَةَ عَشَرَ رَجُلًا، فاسْتَقْبَلَ نَبيُّ اللّهِ ﷺ القِبْلَةَ، ثُمَّ مَدَّ يَدَيْهِ، فجَعَلَ يَهْتِفُ برَبِّه: اللهمَّ أنْجِزْ لي ما وعَدْتَني، اللهمَّ آتِ ما وعَدْتَني، اللهمَّ إنْ تُهْلِكْ هذه العِصابَةَ مِن أهْلِ الإسْلام لا تُعْبَدْ في الأرْضِ، فما زالَ يَهْتِفُ برَبِّه، مادًّا يَدَيْهِ مُسْتَقْبِلَ القِبْلَةِ، حَتَّى سَقَطَ رِداؤُهُ عَنْ مَنْكِبَيْهِ، فأتاهُ أبو بَكْرٍ، فأخَذَ رِداءَهُ، فألقاهُ على مَنْكِبَيْهِ، ثُمَّ التَزَمَهُ مِن ورائِه، وقالَ: يا نَبيَّ اللّهِ، كَفاكَ مُناشَدَتُكَ رَبَّكَ، فإنَّهُ سَيُنْجِزُ لَكَ ما وعَدَكَ، فأنْزَلَ اللّهُ ﷻ: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾»[1]، ويكونُ قد عُبِّر عن استغاثَتِه ﷺ بضمير الجَمْعِ؛ لنكاتٍ[2]: إحداها: تعظيمُ قدرِ النَّبيِّ ﷺ وإعلامٌ برفيعِ منْزِلَتِه، فيكونُ مِن خِطاب الواحِد المُعَظَّم بخِطابِ الجَميع. وثانيها: أنَّ فعلَ الاستغاثَةِ أُسْنِدَ إلى الجميعِ؛ لكونِ النَّبيِّ ﷺ كانَ يَسْتَغيثُ لأجلِ المسلمينَ. وثالثُها: أنَّه ﷺ، كان مُعْلِنًا باستغاثَتِه، وهُم يسْمَعونَ، فكانوا بمنزلَةِ مَنْ يَدْعونَ.

نُكْتَةُ التَّعْبيرِ باسْمِ الرُّبوبيَّةِ في: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ﴾:

في تعليقِ الاستغاثَةِ باسمِ الرُّبوبيَّةِ في قولِه سُبحانَهُ: ﴿إِذْ

(1) رواه مسلم في صحيحه، برقم: (1763).

(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 278/5، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 274/9.

دَفْعُ العَوائِقِ الحائِلةِ بين كمالِ الإيمانِ وأهلِه مِن تربيَةِ الله لهم بربوبيَّته

﴿تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ﴾ طَلَبٌ لِلْإغاثَةِ باستعطافِ كرَمِه سُبحانَهُ؛ إذْ هو المحسِنُ إليهم بكلِّ إحسانٍ عامٍّ وخاصٍّ[1]، وذلك أنَّ تربيةَ اللهِ سُبحانَهُ لخلْقِه ضَرْبانِ[2]: أحدُهما: تربيَةٌ عامَّةٌ لجميعِ الخَلْقِ؛ وذلك برزقِهم وهدايتهم لِما فيه مصالحُهم التي بها بقاؤُهم في الدُّنيا. والآخَرُ: تربيَةٌ خاصَّةٌ لأهلِ الإيمانِ، وذلك بتوفيقِهم للإيمانِ وتكميلِه لهم، ودَفْعِ الصَّوارِفِ والعوائقِ الحائلةِ بينَهُم وبينَهُ، والاستِغاثَةُ المذكورةُ في الآيةِ مِن هذا الضَّرْبِ؛ لأنَّ بها إزالَةَ العوائقِ الحائلَةِ بينَهُم وبينَ الإيمانِ، وهذا مِن جُملةِ الأسْرارِ في تَعْليقِ الاسْتِغاثَةِ بالاسْمِ الأحْسَنِ (الرَّبِّ)؛ لدخولِ هذا المَطْلَبِ تَحْتَ ربوبيَّةِ اللهِ تعالى الخاصَّةِ.

دِلالَةُ الجملة الخبريّة: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ﴾:

الالتجاءُ إلى اللهِ تَعالَى إذا ضاقَتِ السُّبُلُ، وتَقاصَرَتِ الأسْبابُ والعِلَلُ

الجملةُ في قولِ اللهِ ﷻ: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ﴾ جملَةٌ خَبَرِيَّةٌ، خرجَتْ عن أصلِ دلالَتِها؛ إذْ لا يُرادُ بها فائدَةُ الخبرِ، وإنَّما المرادُ تَذْكيرُ استمدادِهم منَ اللهِ سُبحانَهُ والتجائِهم إليه حينَ ضاقَتْ بهمُ السُّبُلُ، وتقاصَرتْ بهِمُ الأسبابُ، فجاءَهُمُ الإمْدادُ منه[3] ﷻ.

دِلالَةُ (الفاءِ) في: ﴿فَاسْتَجَابَ لَكُمْ﴾:

سُرْعَةُ إجابَةِ اللهِ تَعالَى دُعاءَ أوليائِه، وتَخْليصِهم مِنَ الشَّدائِدِ

الفاءُ في ﴿فَاسْتَجَابَ﴾ مِن قولِ اللهِ جلَّ وعلا: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ﴾، دالَّةٌ على التَّعقيبِ، فأفادَ ذلكَ أنَّ إجابَةَ دعائِهم كانَت في أعقابِ تَضَرُّعِهم واستغاثَتِهم، وهذا من عَظيمِ فضْلِ اللهِ تعالَى ورحمَتِه؛ حيثُ أجارَهُم مِن أعدائِهم، ونصرَهُم عليهم نصرًا مؤزَّرًا مع قِلَّةِ عَدِدِهم وضَعْفِ عُدَّتِهم[4]، كما أنَّ هذه الفاء دلَّت على أنَّ نظم الجملة مُشْعِرٌ بالشَّرطيَّة، لربط الاستجابة

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 231/8.
(2) السّعدي، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 39.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/4.
(4) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 3076/6، وطنطاويّ، الوسيط: 46/6.

بالاستغاثة على تقدير: إنْ تستغيثوا ربَّكم؛ فيستجِبْ لكم، فهي أشبهُ بالفاءِ الواقعةِ في جوابِ الشَّرط.

نُكْتَةُ التَّعْبيرِ بلفظ (الاسْتِجابَةِ) دونَ (الإجابَةِ):

الاسْتِجابَةُ تقتضي القَبولَ، وتَحْصيلَ منتهى السؤلِ

عُبِّرَ بالاسْتِجابَة دونَ الإجابَةِ في قولِ اللهِ ﷻ: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ﴾ لنُكْتَتَيْنِ: إحداهُما: أنَّ فيه إشعارًا بأنَّ اللهَ سُبحانَهُ أعطاهُم مَطْلوباتِهم الَّتي سألوها ربَّهُم ﷻ، كأشدِّ ما تكونُ الإجابَةُ[1]؛ وذلكَ لأنَّ الاستجابةَ دالَّةٌ على القَبولِ، بخِلافِ ما لو عُبِّر بالإجابَةِ؛ فإنَّها لا تقتَضي قَبولَ ما دَعَوا به؛ لِكَوْنِ الإجابةِ دالَّةً على مُطْلَقِ الجَوابِ قَبولًا كانَ ذلك أو ردًّا، والأُخْرَى: لِما في الاسْتِجابةِ مِنَ الدِّلالة على حُصولِ جَميعِ مَطْلوباتِهم؛ وذلك لكثْرَةِ مَبانيها، والزِّيادةُ في المَبْنَى تقتَضي غالبًا الزِّيادَةَ في المعنى[2]، فلو جاء النَّظْمُ القرآنيُّ: (فأجابَهم)؛ لاحتمَلَ ذلكَ أنَّ الإجابَةَ - إنْ وقعَتْ بإعْطائِهم مَطْلوباتِهم - هيَ في مُقابَلَةِ مَجْموعِ مَطْلوباتِهم لا جميعِها، بخلاف قولِه تعالى: ﴿فَٱسْتَجَابَ﴾؛ فإنَّه دالٌّ على إجابة اللهِ سُبْحانَهُ لِمَطْلوباتِهم كلِّها.

دِلالَةُ التَّعْبيرِ بـ ﴿لَكُمْ﴾ مِن قَوْلِه: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ﴾:

كَرامَةُ اللهِ تَعالَى لِعِبادِه، رفْعٌ لشأنهم، وعلوٌّ في مكانتهم

في تعقيبِ الاستجابَةِ بلفظ ﴿لَكُمْ﴾ مِن قَوْلِه جلَّ وعلا: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ﴾، دِلالَةٌ على الاخْتِصاصِ، وأنَّ الإجابَةَ كانَتْ لِخُصوصِ أهلِ الإيمانِ مِن ربِّهم سُبحانَهُ، وأنَّهُ لا إجابَةَ لغيرِهم؛ لكونِ أهلِ الإيمانِ على الحقِّ، ويَدْعونَ لِلْحقِّ، وهذا مِن كرامَةِ اللهِ ﷻ لأهلِ الإيمانِ[3]، فاللّام للتَّعليل، وتقديمُ شبه الجملة قد يفيد التَّخصيصَ، أو تعجيلَ المسرَّة.

دلالةُ الموقع البيانيِّ لقوله: ﴿أَنِّي مُمِدُّكُم﴾:

قولُه تعالى: ﴿أَنِّي مُمِدُّكُم﴾ استئناف بيانيٌّ جوابًا عن سؤالٍ

(1) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 3076/6.
(2) الشّربينيّ، السّراج المنير: 276/1.
(3) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 3076/6.

استجابةُ الله تعالى لها صوَرٌ كثيرة، ونماذج في الإمداد أثيرةٌ

مقدَّر: كيف استجاب ﷻ لكم؟ فكانتِ الإجابةُ بأنَّه أمدَّهم بالملائكة، وكانت الاستجابةُ للاستغاثة بقوله: ﴿أَنِّي مُمِدُّكُم﴾، أي: مُعينكم بألفٍ مِنَ المَلائِكَةِ متتابعين، بعضهم على إثرِ بعضٍ، وهو ما أكَّده الحديث الَّذي رواه البخاريُّ في صحيحه، بعنوان: (باب شهود الملائكة بدرًا)، عن ابن عبّاس رضي الله عنهما: «أنَّ النَّبيَّ ﷺ، قال يوم بدر: هذا جبريلُ آخذٌ برأس فرَسِه، عليه أداة الحرب»[1].

بَلاغَةُ الالتِفاتِ في الآية:

مِن عَظيمِ إحسانِ اللهِ تَعالَى بعِبادِه إقْبالُهُ عليهم بالعَطاءِ

في قولِ الله ﷻ: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم﴾ التفاتٌ مِنَ الغَيبَةِ إلى التَّكلُّم، وذلك أنَّ قولَهُ: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ﴾ أسلوبُ غَيْبَة؛ لأنَّ الاسمَ الظّاهرَ بمنزلَةِ الغَيْبَةِ، وكذلكَ قولُهُ بعدُ: ﴿فَاسْتَجَابَ﴾، ثُمَّ حوِّلَتِ العبارَةُ إلى التَّكلُّم في قوله سُبحانَهُ: ﴿أَنِّي مُمِدُّكُم﴾، وكان مقتضَى الظّاهرِ: (فاستجاب لكم أنَّهُ مُمِدُّكُمْ)، ونُكْتَةُ العدولِ من الغَيْبَةِ إلى التَّكلُّم: ما في التَّصريحِ بالتَّكلُّم منَ العَظَمَةِ والبرَكَةِ والمهابَةِ[2]، لا سيَّما في معرض إجابة استغاثتهم.

سِرُّ التَّأْكيدِ في: ﴿أَنِّي مُمِدُّكُم﴾:

مِن رَحْمَةِ اللهِ تَعالَى بأهْلِ الإيمانِ، تَثْبيتُ قُلوبِهم عند المُلِمّاتِ

أُكِّدَت جملةُ تفسيرِ الاستجابَةِ بـ (أنَّ)، والجملة الاسميَّة، وذكرِ المسند إليه مرَّتيْن: مرَّةً بكونه مبتدأً، ومرَّةً بكونه فاعلًا مُضمرًا للفظ﴿مُمِدُّكُم﴾، فإنَّ مجيء المسند الفعليِّ، يفيدُ تقوية الحُكْم، وقد يفيد التَّخصيصَ بالقرائن، كما هو مقرَّرٌ في علم المعاني، فقولُه سُبحانَهُ: ﴿أَنِّي مُمِدُّكُم﴾ تأكيدٌ لحصولِ الوَعْدِ بالإمْدادِ، وطَمْأنَةٌ لِقُلوبِ أهلِ الإيمانِ؛ لِتَثْبُتَ عند لِقاءِ عدوِّهم.

معاني الحروفِ وأثرُ القراءات في قوله: ﴿بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ﴾:

الباء للتَّعديَةِ، وتنكير﴿بِأَلْفٍ﴾ للتَّعظيم، و﴿مِّنَ﴾ للبيان، أي:

(1) القاسميّ، محاسن التّأويل: 261/5، والحديث رواه البخاريّ في صحيحه، برقم: (4041).
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 232/8.

بألفٍ من جنس الملائكة، و(ال) في ﴿ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ قد تكون للجنس، وقد تكونُ للعهد، أي: منَ الملائكة المعهودين لهذه المُهِمّاتِ، وفي الحالَين، فإنَّ المددَ الإلهيَّ، هو دعم ربّانيٌّ لمن والاه، وأنَّ اللّه مع الحقِّ والعدل والهدى، والعدد المحدَّد بألف في قوله: ﴿بِأَلْفٍ﴾، هو تذكير بقدرة اللّه على حماية رسوله الأمين، وصفوته من المؤمنين، بما قدَّره، وقرَّره ﷻ.

إمـــدادُ اللـه لـلـرَّسـول والمـؤمـنـين بالملائكة مُردفين مَـظـهـرٌ مِـن مظاهرِ عنايتِه بهم

نُكْتَةُ التَّعْبيرِ بالاسْمِ ﴿مُمِدُّكُم﴾:

وفي التَّعبيرِ بالاسْم ﴿مُمِدُّكُم﴾، في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ دونَ الفِعْلِ؛ إذْ لَم يَرِد النَّظْمُ القرآنيُّ: (أنّي أُمِدُّكُمْ)؛ لِلْإشارَةِ إلى ثُبوتِ الإمْدادِ المَذْكورِ وتحقُّقِه[1]، وأنَّه إمْدادٌ مُسْتَمِرٌّ حتَّى يَنْكَشِفَ ما حَمَلهم علَى الاسْتِغاثَةِ.

الإمْـــــدادُ المـتـواصـلُ، بما يَدْفَعُ الشَّدائِد، إحْسانٌ وتلطُّف مـنـه تَـعـالَى بالمُؤْمِنينَ

تَوْجيهُ القِراءاتِ في لفظ: ﴿مُرْدِفِينَ﴾:

قَوْلُ اللّهِ ﷻ: ﴿أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾، قُرِئَ بكسر الدّالِ وفَتْحِها، فقرأها بالفَتْح نافعٌ وأبو جعفرَ ويعقوبُ، وقرأ الباقونَ بالكَسْرِ[2]، فالفَتْحُ بمعْنى: أنَّ اللّه سُبحانَهُ أرْدَفَ المُسْلِمين بهم، وأيَّدَهُم بهم، أي: إنَّ الملائِكَةَ كانوا مُقَدِّمَةَ الجَيْشِ أو ساقَتَهُم، أو أنَّ المرادَ: أنَّهُ يُرْدِفُهُم غَيْرَهُم مِنَ المَلائِكَةِ، والكسرُ بمعنَى: أنَّهُم كانوا مُتَتابِعينَ يَأْتي بَعْضُهُم في إثْرِ بَعْضٍ، فتكونُ الألفُ رادِفًا لغيرِهم قبلهمْ[3]، فكانوا خلفهم رِدْءًا لهم، وسواءٌ أكانت الملائكة مردفين منهم تابعين ومتبوعين، أو كانوا مردِفين للمُؤمنين وساقةً للجيش[4]، فإنَّ إمدادَهم بهذا العدد المَهول من الملائكة الَّذين يُمثِّلون

التَّكامُلُ الدِّلاليُّ لِـلْـقِـراءاتِ القرآنيَّةِ وأثره في السّياق

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 279/2.
(2) ابن الجزري، النشر في القراءات العشر: 275/2 - 276.
(3) الجاوي، مراح لبيد: 418/1، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 275/9.
(4) أحمد بن عجيبة، البحر المديد: 310/2.

القوَّة الغيبيَّة المدمِّرة، يدلُّ على أنَّ قوانين اللّه في الوجود قائمةٌ على إظهار الحقِّ، وإزهاق الباطل، وأنَّه تعالى يمهل، ولا يهمل.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

(اسْتَجابَ) و(أجابَ):

الاستجابَةُ دالَّةٌ على إعطاءِ جَميعِ المَطْلوباتِ، وهي أخصُّ مِنَ الإجابةِ

الإجابة لغةً تعني: الردَّ على السّائل أو المُسلِّم، أو المحاضر أو المناظر، أو المنادي أيًّا كان، وتكون من طرف لطرف، فإذا وجد الطَّرفُ الأوَّل تفاعلًا من الطَّرف الثّاني، فيكون قد أجابه، وهي نوعان، منها ما يكون ملزمًا، ومنها ما يكون اختياريًّا. وأمّا الاستجابةُ: فهي تحقيقُ مطلوبِ السّائل، ممّا يرغب فيه ويأمله، تقول: طلب فلان منّي كذا، فاستجبتُ لِطَلَبِه، أي: أعطيتُه سؤلَهُ، ولبَّيت له رغبتَهُ، وغالبًا ما يكون ذلك طواعيةً دون إلزام، والإجابةُ من اللّه: أن يُعطيَ السّائل ما طلبه، باستجابة دعوته، وتلبيَةِ طِلْبتِه، والاستجابة من العبد امتثالٌ للأوامر، واجتناب للنَّواهي، ممّا أمر اللّه به من طاعة، وما نهى عنه من معصيةٍ، والفَرْقُ بين الاسْتِجابَةِ والإجابَةِ مِن وجْهَيْن[1]: أحدهما: أنَّ الاسْتِجابَةَ أكثرُ حروفًا مِنَ الإجابَةِ، والزّيادةُ في المَبْنَى تَقْتَضي الزّيادَةَ في المعنى غالبًا، وزيادةُ المعنى هَهُنا مِن جهةِ أنَّ الاستجابَةَ دالَّةٌ على إعطاءِ جَميعِ المَطْلوباتِ. والآخَرُ: أنَّ الاستِجابَةَ أخصُّ مِنَ الإجابةِ؛ لِكَوْنِ الاسْتِجابةِ: الجوابَ بما يوافِقُ الدّاعي، بخِلافِ الإجابةِ، فقد تَكون بموافَقتِه، وقد تَكونُ بمُخالَفتِه.

الاسْتِغاثَة والدُّعاء:

كلُّ استغاثَةٍ دعاءٌ، وليس كلُّ دعاءٍ استغاثَةً

بين الاستغاثَةِ والدُّعاءِ عمومٌ وخصوصٌ مُطْلَقٌ، وذلك أنَّ الاستغاثَةَ لا تكونُ إلّا مِنَ المكروبِ، بخلافِ الدُّعاءِ فإنَّه أعَمُّ، فكلُّ استغاثَةٍ دعاءٌ، وليس كلُّ دعاءٍ استغاثَةً[2]، وعليه فالاستغاثة تكون

(1) الواحديّ، البسيط: 109/8، 362/13، والشّربينيّ، السّراج المنير: 276/1، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 202/4.

(2) العرباوي، التّخلّي عن التقليد والتّحلّي بالأصل المفيد، ص: 90.

عادة من صاحب كَرْب ثقيل، أو جسم عليل، أو ذهن كليل، وهو يجأر إلى الله، ويطلب أن يزيحَ عنه الهمَّ، ويزيل عنه الضَّيمَ، والدُّعاء أعمُّ من الاستغاثة؛ لأنَّه يكون في حالَي البلاء والرَّخاء، والاستغاثة لا تكون إلّا في حال الكَرْب[1]، وفي الحديث عن أبي هُرَيْرَةَ، قالَ: قالَ رَسولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ سَرَّهُ أنْ يَسْتَجيبَ اللهُ لَهُ عند الشَّدائِد والكَرْبِ؛ فلْيُكْثِر الدُّعاءَ في الرَّخاءِ»[2].

الاسْتِغاثَة والاسْتِعانَة:

طالبُ الغَوْثِ مسلوبُ القُدْرَةِ، وطالبُ العَوْنِ ضَعيفُها

الاستغاثَةُ: طَلَبُ الغَوْثِ، وهو الإنقاذُ من الشِّدَّةِ والهَلَكَةِ. والاستعانَةُ: طَلَبُ العَوْنِ، فهُما يشتَرِكانِ في مُطْلَقِ الطَّلَبِ، ويندرجانِ في عُمومِ الدُّعاءِ، إلّا أنَّ الفرقَ بينَهُما مِن جِهَةِ أنَّ طالبَ الغَوْثِ مسلوبُ القُدْرَةِ، وطالبَ العَوْنِ ضَعيفُها[3]، فالاستعانة والاستغاثة بالمخلوق على نوعين: أحدهما: فيما يَقْدِر عليه، وهذا جائز، قال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: 2]، وقال: ﴿فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ﴾ [القصص: 15]. وثانيهما: فيما لا يَقْدِرُ عليه إلّا الله: كالاستعانة بالأموات، والاستغاثة بالأحياء، والاستعانةِ بهم فيما لا يَقْدِرُ عليه إلّا الله، من شفاء المرضى، وتفريجِ الكربات، ودفع الضُّرِّ، وهو غير جائز[4].

(1) أحمد حطيبة، فتح المجيد شرح كتاب التّوحيد: 3/13.
(2) رواه التّرمذيّ في سننه، برقم: (3382)، وقال عنه الألبانيّ: إنَّهُ حديث حسن، ينظر: سلسلة الأحاديث الصّحيحة رقم: (593).
(3) الماورديّ، النّكت والعيون: 298/2.
(4) الفوزان، كتاب التّوحيد، ص: 101.

﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْۚ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: 10]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

العلاقةُ بين إمدادِ اللهِ المؤمنين بالملائكة المردفين، وبين تثبيتهم بالبُشرى والنَّصر المبين

لمّا ذَكَرَ اللّهُ تَعالَى ما أجابَ به استغاثَةَ عبادِه المُؤْمِنينَ مِن إمْدادِه إيّاهم بالمَلائكَةِ، وذلكَ في قَوْلِه سُبحانه: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾؛ بيَّن حِكْمَةَ هذا الإمدادِ وأنَّه لم يَجْعَلْ إردافَ الملائكةِ بَعْضِها بعضًا إلّا بشارَةً لهم تبشِّرُهُم بنَصْرِه المؤمنينَ علَى أعْدائِهم، فقال ﷻ: ﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْۚ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[1]، وفي هذا المضمار يُعلِمُ اللّهُ تعالى رسولَهُ الأكرمَ بأنَّه لا يتخلَّى عنه، وأنَّه لِمَقامه عندَه، قد استجاب دعاءه البليغ، ودعاء المسلمين معه، وأنَّه منجزٌ وعْدَهُ بإمدادهم بألفٍ من الملائكة المكرمين، يأتونهم مددًا، يردف بعضهم بعضًا، فيكونون سندًا قويًّا، لأهل الإيمان لحصول المعجزة العجيبةِ بنصر القِلَّة المؤمنة، واندحار الكَثْرة المناوئة، ومن ينصرهُ اللّه؛ فلا غالب له.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿بُشْرَىٰ﴾: الباءُ والشّين والرّاء، تدُلُّ تصاريفُها على ظُهور الشَّيء معَ حُسْنٍ وجَمال[2]، والبِشارَةُ: كلُّ خبرِ صِدْقٍ تتغَيَّر بَشرةُ الوجهِ بهِ، وبِناءً على هذا؛ فإنَّ البِشارَةَ تُستعمل في الخَيْرِ والشَّرِّ، إلّا أنَّها في الخَيْرِ أغلَبُ، وذهبَ بعضُ أهلِ العِلْمِ إلى أنَّ البِشارةَ هيَ

(1) ابن جرير، جامع البيان: 417/13 - 418.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (بشر).

الخَبَرُ السّارُّ وحدَهُ، واستعمالُه في غيرهِ مِن بابِ التَّهَكُّم[1]، ومِثْلُ البِشارَة: البُشْرَى[2]، ومن جميل ما يروى قول الشّاعر الخبزأرزيّ[3]:

ومُبَشِّري بقُدومِ مَنْ أهْواهُ *** لا زالَ وهْوَ مُبشَّرٌ بمُناهُ

عِنْدي لَهُ بُشْرَى ولَوْ ملَّكْتُهُ *** روحي وقَلْبي قَلَّ عَنْ بُشْراهُ

2) ﴿وَلِتَطْمَئِنَّ﴾: الطّاءُ والميم والنّون، تدلُّ اشتقاقاتُها على استواءٍ، أوِ انخفاضٍ فيما شأنُه الارتفاعُ[4]، ومنه: الطُّمأنينةُ، وهي السُّكونُ[5]، وتُسَمّي العربُ المكانَ المنخفض مِنَ الأرض: المطمئنَّ[6]، وطمأنينَةُ القلوبِ في قول اللّهِ تَعالَى: ﴿وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْۚ﴾ هي سكونُها بأمنِها بَعْدَ الخَوْفِ، و"طمأنينة القلب سكونُهُ واستقراره، بزَوال القلق والانزعاج والاضْطِراب عَنهُ"[7].

3) ﴿ٱلنَّصْرُ﴾: تَدورُ مادَّةُ النّونِ والصّادِ والرّاءِ حول معنَى إتيانِ خيرٍ وإيتائِه بما فيهِ زيادةٌ مناسِبةٌ وقوَّةٌ، ولازِمُهُ: دَفْعُ الضُّرِّ[8]، ومنه سُمّيَ المطرُ نصرًا[9]، والنَّصْرُ على العَدوِّ: إعانَةُ الخصم عليه في حَرْبٍ أو غيرها بقوَّةِ النّاصر وغَلَبَتِه[10]، وهو المعنى المرادُ في قولِ اللّه سُبحانَهُ: ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِۚ﴾.

4) ﴿عَزِيزٌ﴾: العَيْنُ والزّايُ تدلُّ اشْتقاقاتُها على شِدَّةٍ وقوَّةٍ وما شاكَلهما منَ الغَلَبَةِ والقَهْرِ[11]، ومنه قولُهُم: رَجُلٌ عَزيزٌ، أي: مُمْتَنِعٌ لا يُغْلَب، ولا يُقْهَرُ[12]، والعِزَّةُ: حالٌ مانِعَةٌ لِلْمَرْءِ مِن أن يُغْلَبَ، وتارةً تقعُ وصْفَ مدحٍ، وتارةً تكونُ وصفَ ذمٍّ، فأمّا ما يُذمُّ بها فكَعِزَّةِ الكفّارِ، قال اللّه سُبحانَهُ: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ۝٢﴾ [ص: 2]، وذلك أنَّ العزَّةَ للّهِ

(1) الجرجانيّ، التَّعريفات، ص: 45، والمُناويّ، التَّوقيف على مهمّات التَّعاريف، ص: 78.
(2) الزَّبيدي، تاج العروس: (بشر).
(3) البيتان للشّاعر الخبزأرزي، ينظر: الرّاغب، محاضرات الأدباء ومحاورات الشُّعراء البلغاء: 36/2.
(4) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصَّل: (طمن).
(5) الفيروزاباديّ، القاموس المحيط: (طمن).
(6) الخليل، العين: (طمن).
(7) ابن قيّم الجوزيّة، كتاب الرّوح، ص: 220.
(8) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (نصر)، والبيضاويّ، أنوار التَّنزيل: 79/1، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصَّل: (نصر).
(9) الزَّمخشريّ، أساس البلاغة: (نصر).
(10) الفيّوميّ، المصباح المنير: (نصر)، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 486/1.
(11) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عز).
(12) ابن سيده، المحكم: (عز).

تعالَى ولِرَسولِه، هيَ العزَّة الحقيقيَّةُ، وهي الدّائمَةُ الباقيَةُ، بخلافِ العزَّةِ التي للكُفّار فإنَّما هي تَعَزُّزٌ، وهي في حقيقَتِها ذُلٌّ؛ لكونِها تَشَبُّعًا بما لَم يُعْطَوا[1]، واسم اللّهِ تعالَى العَزيز؛ معناهُ: القويُّ الَّذي لا يُغْلَبُ[2].

5) ﴿حَكِيمٌ﴾: الحاءُ والكافُ والميم، تدلُّ اشتقاقاتُها على المَنْعِ[3]، وقيَّده الرّاغبُ بكونِه مَنْعًا لِلإصْلاحِ[4]. ومِن هذا البابِ قولُ جريرٍ[5]:

أبَني حَنيفَةَ أحْكِموا سُفَهاءَكُم *** إنّي أخافُ عَلَيْكُمُ أنْ أغْضَبا

فإنَّ معناهُ: امْنَعوهُم مِنَ التَّعَرُّض لي[6]. ومنه: حَكَمَةُ الدّابةِ؛ لأنَّها تَمْنَعُها مِن مُخالفَةِ الرّاكب[7]، وسُمّيَ القضاءُ حُكْمًا؛ لأنَّه فيه منعُ الظّالم مِنَ الظُّلْم[8]. واسمُ اللّهِ تعالى الحَكيمُ معناهُ: المتَّصِفُ بكَمالِ الحِكْمَةِ وكمالِ الحُكْم بينَ الخَلْقِ، وهو الَّذي يَضَعُ الأشْياءَ مَواضِعَها، ويُنَزِّلُها منازِلَها اللّائقةَ بها في خَلْقِه وأمْرِه[9].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

بيانُ حِكمةِ اللهِ في جَعْلِ إمداد الملائكةِ، تثبيتٌ وبشرى بالنَّصر والتَّمكين

لَم يَجْعَلِ اللّهُ تعالَى ذلك الإمْدادَ إلّا بشارَةً لَكُم بالنَّصرِ، ولِتَسْكُنَ به قُلوبُكُم، وتوقِنوا بنَصْرِ اللّهِ لَكُم على أعْدائِكُم، وما النَّصْرُ إلّا مِن عِنْدِ اللّهِ سُبحانَهُ، لا بشِدَّةِ بَأْسِكُم وقواكُم، إنَّ اللّهَ ﷻ عَزيزٌ في مُلْكِه، حَكيمٌ في شَرْعِه وقَدَرِه[10].

(1) السّمين الحلبيّ، الدّر المصون: 61/4.
(2) ابن الأثير، النّهاية: (عز).
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (حكم).
(4) الرّاغب، المفردات: (حكم).
(5) جرير، ديوانه، ص: 47.
(6) ابن سلّام، غريب الحديث: (حكم).
(7) ابن الأثير، النِّهاية: (حكم).
(8) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (حكم).
(9) القحطانيّ، شرح أسماء الله الحسنى في ضوء الكتاب والسُّنَّة، ص: 101.
(10) ابن جرير، جامع البيان: 417/13 - 418، ونخبة من العلماء، التّفسير الميسّر، ص: 178.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

عِلَّةُ وصْلِ قَوْلِه: ﴿وَمَا جَعَلَهُ﴾ بما قَبْلَهُ:

الثِّقةُ باللهِ مُعتمَدُ المؤمنين في اليقين بالنَّصر، عند فقْدِ أسبابه المعهودة

وُصِلَ قولُ اللهِ ﷻ: ﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ﴾، بقولِه سُبحانَهُ: ﴿أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾؛ لِما بينَهُما مِن التَّوسُّطِ بينَ الكَمالَيْنِ، إذِ الجملتانِ مشْتَرِكَتانِ في الخبَريَّةِ، وبينَهُما مناسَبَةٌ ظاهِرَةٌ؛ لكَوْنِ الآيةِ الثّانيةِ بمنزلَةِ بيانِ الحِكْمَةِ مِنَ الوَعْدِ المذكورِ في الآيةِ الأوْلى، وبينَ الجملتَيْنِ اشتراكٌ في المسنَدِ إليه، وهو في الجُمْلَةِ الثّانيةِ الاسمُ الأعظم (اللهُ)، وفي الجملَةِ الأولَى الضَّميرُ في ﴿أَنِّي﴾ الرّاجِعُ إلى اللهِ ﷻ. فالواوُ في ﴿وَمَا جَعَلَهُ﴾ علَى هذا الوَجْهِ، عاطِفَةٌ هذهِ الآيَةَ على قولِه تعالَى: ﴿أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ﴾[1]، ويجوزُ أن تكونَ الواوُ استئنافيَّةً، ويكونَ قولُهُ تعالَى: ﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ﴾، كلامًا مستأْنَفًا مَسوقًا لبَيانِ أنَّ الأسبابَ الظّاهِرَةَ بمَعْزِلٍ منَ التَّأثيرِ الذّاتيِّ، وإنَّما حقيقَةُ التَّأثيرِ خاصَّةٌ باللهِ تعالى؛ وذلك ليَثِقَ المؤمنونَ باللهِ سُبحانَهُ، ولا يَقْنَطوا مِنَ النَّصْرِ عند فقْدِ أسْبابه[2].

تَعْيينُ مَرْجِعِ الضَّميرِ في قَوْلِه: ﴿وَمَا جَعَلَهُ﴾:

تَعْجيلُ المَسَرّاتِ لِعِبادِ اللهِ المُؤْمِنينَ، وبِشارَتُهُم بما يسُرُّ ويُطَمْئِنُ

الضَّميرُ في ﴿جَعَلَهُ﴾ مِن قولِ اللهِ سُبحانَهُ: ﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ﴾ راجِعٌ إلى القولِ الَّذي تضمَّنَهُ قولُ اللهِ ﷻ: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾، والمعنى: ما جَعَلَ اللهُ تعالى إجابتَكُم بهذا الكلامِ إلّا ليُبشِّرَكُم، وإلّا فقد كان يكْفي أن يَضْمَنَ لكُمُ النَّصْرَ، دونَ بَيانِه إمدادَكُم بالملائكَةِ[3]، وفي تعْيين مَرْجِعِ الضَّميرِ أقوالٌ أخْرَى، منها أنَّه راجِعٌ إلى الإمْدادِ، أي: المصدَرِ المُنْسَبِك من ﴿أَنِّي مُمِدُّكُم﴾، والتَّقديرُ: وما جعلَ اللهُ تَعالَى ذلكَ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 276/9.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/4، والآلوسيّ، روح المعاني: 163/5.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 276/9.

الإمدادَ إلّا بُشْرَى، وعلى هذا الوَجْهِ اقتصَرَ الزَّمخشريُّ[1]، ومالَ إليهِ أبو حيّانَ[2]، واستظْهَرَ ابنُ عَرَفَةَ أنَّ الضَّمير راجِعٌ للْوَعْدِ؛ وذلك لأنَّ البُشْرَى تكونُ مقدَّمَةً على المُبشَّرِ به، والنَّصْرُ ليسَ مبشِّرًا، وإنَّما هو المبشَّرُ به[3]، وهذه المعاني عند التَّأمُّلِ لا تعارُضَ بينَها؛ لأنَّ جميعَها تحصُلُ به البِشارَةُ.

بلاغةُ القصرِ بالاستثناء بعد النَّفي:

في قوله: ﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ﴾ جاء القصرُ هنا بالاستثناء بعد النَّفي، الَّذي يؤتى به عادةً مع المنكر، وذلك تنزيلٌ لهم منزلةَ المنكر، خروجًا عن مقتضى الظّاهر، دون مقتضى الحال، حتَّى يؤكِّدَ لهم أنَّ هذا الإمدادَ، ليس ليقلِّل من أهمّيَّة استعدادهم المادي للقتال، بقدر ما هو تكريمٌ لهم، ورفعٌ لمعنويّاتهم أمام عدوِّهم، فهو قصرٌ ادِّعائيٌّ.

العنايةُ بمعنويّاتِ المؤمنين لونٌ من البشرى بالنَّصر والتَّمكين

بَلاغَةُ المَجازِ المُرْسَلِ:

الجُمْلَةُ في قولِ اللّه تَعالَى: ﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ﴾ جملَةٌ خبريَّةٌ، يَحْتَمِلُ أن يُرادَ بها حقيقَةُ الإخبارِ بأنَّ اللّه سُبحانَهُ أمدَّهُم بالملائكَةِ لأجل البِشارةِ، ويَحْتَمِلُ أنْ تكونَ الجملةُ الخبريَّةُ مرادًا بها التَّذكيرُ والامْتِنانُ، فيكونُ ذلك جاريًا على طريقَةِ المجازِ المرسَلِ المركَّبِ؛ لخروجِ الخبَرِ عن دِلالَتِه الأصليَّةِ، ويجوزُ أنْ يُرادَ المعنَيانِ معًا؛ لعَدَمِ التَّنافي بين دِلالَتَيْهِما، ويكونَ في هذا حَمْلٌ لِلَّفْظِ على حقيقَتِه ومجازِه، وهو جائزٌ؛ لِكَوْنِ هذا الحَمْلِ ضرْبًا مِن ضُروبِ حَمْلِ المُشْتَرَكِ على معْنَيَيْهِ أو مَعانيه.

تَذْكيرٌ وامْتِنانٌ بأفْضالِ اللّه على عِبادِه؛ لشكره وعبادته وفق مُراده

نُكْتَةُ الإظْهارِ في مَوْضِعِ الإضْمارِ:

في قولِ اللّهِ جلَّ وعَلا: ﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ﴾، إظهارٌ في مَقامِ

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 202/2.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 280/5.
(3) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 408/1.

الإضمارِ؛ وذلك لأنَّ مقتضَى الظّاهرِ أنْ يَرِدَ النَّظْمُ القرآنيُّ: (وما جعلَهُ إلّا بُشْرَى)؛ لتقدُّمِ ذِكْرِ مرجِعِ الضَّميرِ في قولِ اللّه تعالَى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ﴾، ونُكْتَةُ الإظهارِ: التَّنويهُ بعظيمِ عنايَةِ اللّه تعالى بهم[1]، بتعليقِ جَعْلِ البُشْرَى بالاسمِ الأعظمِ (اللّه) الجامِعِ لصفاتِ الجلالِ والجَمالِ والكمالِ.

عَظيمُ عِنايَةِ اللهِ تَعالَى بأهْلِ الإيمانِ، نصرٌ وحفظٌ وأمان

بَراعَةُ الالتِفاتِ في الآية:

في قَوْلِ اللّهِ ﷻ: ﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ﴾، التفاتٌ مِنَ التَّكلُّمِ إلى الغَيْبَةِ، وذلك لأنَّ قولَهُ سُبحانَهُ قبلُ: ﴿أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ﴾، أسلوبُ تكلُّمٍ، وقولَهُ جلَّ وعلا: ﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ﴾ أسلوبُ غَيبَةٍ؛ لأنَّ الاسْمَ الظّاهرَ بمنزلَةِ الغَيْبَةِ، فكانَ مُقتَضَى الظّاهرِ: (وما جعلتُهُ إلّا بُشْرَى)، ونُكْتَةُ الالتِفاتِ: زيادَةُ التَّصريحِ بأنَّ الوَعْدَ بالإجابَةِ والإمْدادِ واردٌ مِنَ اللّهِ سُبحانَهُ، وليكونَ ممهِّدًا للتَّصريحِ بالاسْمِ الأعظمِ (اللّه).

التَّصْريحُ بوَعْدِ الإجابَةِ والإمْدادِ، أبْلَغُ في طَمْأنَةِ الله للعِبادِ

نُكْتَةُ التَّبْشيرِ بإمْدادِ المَلائِكَةِ:

فائدَةُ التَّبشيرِ بإمدادِ الملائكَةِ في قولِ اللّه سُبحانَهُ: ﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ﴾ أنَّ المسلمينَ لمّا لَقَوا في بدْرٍ عَدوًّا قويًّا، وجيشًا كثيرًا؛ بشَّرهم اللّهُ تعالَى بطريقةِ النَّصْرِ الذي ضَمِنَهُ لهُم، بأنَّه حاصِلٌ بجَيْشٍ منَ الملائكَةِ؛ وذلك لأنَّ النَّفْسَ أمْيَلُ إلى الحسّيّاتِ، والنَّصْرُ مَعْنًى يدِقُّ إدراكُهُ وتصوُّرُهُ، بخلافِ الصّورِ الحسّيَّةِ مِن تصويرِ مددِ الملائِكَةِ[2].

جَبَلَ اللهُ لنفوسِ البشريَّةِ على المَيْلِ والثِّقَةِ بالأمورِ الحسّيَّة

سرُّ التَّعبيرِ بالبُشْرَى اسْمًا، وبالاطْمِئْنانِ فِعْلًا:

في قولِ اللّه سُبحانَهُ: ﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ﴾؛ جاءَ فيه التَّعبيرُ بالبُشْرَى اسْمًا، وبالاطمئنانِ فِعْلًا،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 77/4.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 276/9.

للدِّلالَةِ على ثبوتِ البُشْرَى مِن غيرِ تعرُّضٍ لدوامِها؛ إذْ دِلالَةُ الاسم على الدَّوامِ ليست ذاتيَّةً فيه، وإنَّما هيَ موقوفَةٌ على القرائِن، وقد عُلِمَ أنَّ البُشْرَى تتقدَّمُ المُبشَّرَ بهِ، فإذا لَم يُحْتَجْ إليها، بخِلافِ الطُّمأنينَةِ؛ فإنَّ متعلَّقَها الخَوْفُ، وهو مِنَ الانفعالاتِ النَّفسيَّةِ القابلَةِ للتَّجدُّدِ، فكانَ التَّعبيرُ عن الطُّمأنينَةِ بالفعْلِ أنسبَ؛ لِتتَجدَّدَ بتجدُّدِ موجِبها.

الخَوْفُ مُتَعَلَّقُ الطُّمَأْنينَةِ الَّتي تتجدَّد بتَجَدُّدِه

سِرُّ اقْتِرانِ اللّامِ بالاطْمِئْنانِ دونَ البُشْرَى:

قُرِنَتِ اللّامُ بالاطمئنانِ دونَ البُشْرَى في قولِ اللّه سُبحانَهُ: ﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ﴾؛ للإيماء إلى أصالَةِ الاطمئنانِ في العِلِّيَّةِ وأهَمِّيَّتِه في نَفْسِه، وذلك لأنَّ في الإمدادِ مَطْلوبَيْنِ اثنَيْن؛ أحدهُما: إدخالُ السُّرور في قلوبهم، وهي البُشْرَى، والآخَر: حصول الطُّمأنينَةِ على أنَّ إعانَةَ اللّهِ تعالَى ونُصْرَتَهُم معَهُم، فلا يَضْعُفوا عَنِ الجِهادِ، وهذا هو المقصودُ الأصليُّ، وفُرِّقَ بين العبارَتَيْنِ للتَّنبيهِ على التَّفاوُتِ بينَهُما في المَطْلوبيَّةِ، فالبُشْرَى مطلوبَةٌ، ولكنَّ حصولَ الطُّمأنينَةِ أقْوَى في ذلكَ، وهذا نظيرُ قولِ اللّه ﷻ: ﴿وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً﴾ [النحل: 8]، فلمّا كان المقصودُ الأصليُّ هو الرُّكوبَ؛ أدخَلَ حرفَ التَّعليلِ عليه[1].

البُشْرَى مِنَ المَطْلوباتِ، ولَكِنَّ الطُّمأنينةَ أقْوَى مَطْلوبيَّةً

بَراعَةُ الاسْتِعارَةِ في الآية:

أصلُ الطُّمأنينَةِ: السُّكونُ وعدمُ الاضطرابِ، وهو حقيقَةٌ في سُكونِ الأجسامِ، وهي في قولِ اللّه سُبحانَهُ: ﴿وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ﴾ مستعارَةٌ ليَقينِ النَّفس بحصولِ الأمْرِ، تشبيهًا لِثباتِ النَّفْسِ، وعَدَمِ اضطرابِها بثباتِ الأجْسامِ المحسوسَةِ[2]، فهي استعارةٌ تصريحيَّةٌ تبعيَّةٌ، ونكتَتُها: تصويرُ المَعاني وإخراجُها في قالَبِ المَحْسوساتِ، وذلِكَ أقرَبُ للنَّفْسِ وأعلَقُ بالذِّهْنِ.

تَصْويرُ المَعاني في قالَبِ المَحْسوسِ، أعْلَقُ بالأذهانِ وآثَرُ لِلنُّفوس

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 354/8، والآلوسي، روح المعاني: 163/5.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 39/3، 78/4.

نُكْتَةُ تَرْكِ تَقْييدِ البُشْرَى بالجارِّ والمَجْرورِ (لَكُمْ):

دِقَّةُ التَّعْبيرِ القرآنيِّ في انتِقاءِ الألفاظِ المُلائِمَةِ لِسياقاتِها

تُرِكَ تَقْييدُ البُشْرَى بـ (لَكُمْ) في قَوْلِه: ﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ﴾، فلَم يَرِد النَّظْمُ القرآنيُّ في هذا الموضِع: (وما جعله اللّه إلّا بُشْرَى لَكُم)، بخلافِ قصَّةِ غَزْوَة أُحُدٍ الواردَةِ في آل عمرانَ، فقد قُيِّدَتِ البُشْرَى بذلكَ، فقال سُبحانَهُ: ﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ﴾ [آل عمران: 126]، وفي ذلك نكاتٌ: إحْداها: أنَّ المقتولَ مِنَ المسلمينَ في أُحدٍ أكثَرُ مِن المقتولِ مِنَ الكُفّار، فلَوْلا أنَّ البُشْرَى قُيِّدَتْ بـ (لَكُمْ)؛ لربَّما تطرَّقَ الوَهْمُ عند سماعِ أوَّلِ الكلامِ أنَّ الإمدادَ كان بُشْرَى للكُفّارِ[1]، بخِلافِ هذا الموضِع فاللَّبْسُ مأمونٌ. وثانيها: أنَّهُ حُذِفَ التَّقييدُ بـ (لَكُمْ) في موضع الأنفالِ؛ لسَبْقِ ذِكْرِه في الآيةِ قبلُ في قولِه ﷻ: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ﴾، فلَم يُقيَّد معَ البُشْرَى لئلّا يُكرَّر لفظٌ تقدَّمَ قريبًا، فأغنَتْ (لَكُمْ) الأولَى بلفظِها ومعناها عن تكرارِها ثانيةً مع البُشْرَى[2]. وثالثُها: أنَّ القصَّةَ في سورَةِ آلِ عمرانَ سيقَتْ مُسهبَةً، بخلافِ القصَّةِ في الأنفالِ؛ فقد وردَت موجَزَةً، فناسبَ أن يُحذَفَ التَّقييدُ؛ تفنُّنًا في التَّعبير، واتِّساعًا في الكلامِ[3].

دلالة الباء وسِرُّ تَقْديمِ الجارِّ والمَجْرورِ ﴿بِهِۦ﴾:

عَظَمَةُ وعْدِ اللهِ تَعالَى للمؤمنين، وفَخامَةُ شَأْنِه في النَّصر والتَّمكين

الباء للسببيَّة، وقُدِّم الجارُّ والمجرور ﴿بِهِۦ﴾ على القُلوبِ في قولِ اللّه سُبحانَهُ: ﴿وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ﴾ لنكتَتَيْن؛ إحداهُما: إرادَةُ الاختصاصِ؛ وذلك أنَّ تقديمَ ما حقُّهُ التَّأخيرُ يدلُّ على الاختصاصِ بطَريقِ الفَحْوَى، والمعنى: ولتطمئنَّ به قلوبُكُم لا بغَيْرِه[4]. والأُخْرَى: قُدِّمَ تأكيدًا لأمرِ الوَعْدِ وتفخيمًا لشأنِه، وإيماءً إلى إتمامِه، وذلك أنَّ العربَ تقدِّمُ ما هُم به أعْنَى، وهو عَنْدَهُم أهَمُّ[5].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 232/8.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 276/9.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 280/5.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 277/9.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 232/8.

بلاغةُ التَّعْريضِ في الآية:

وُجوبُ إحْسانِ الظَّنِّ بوَعْدِ اللهِ تَعالَى من صميم الإيمان به

في قولِ اللّهِ جلَّ وعلا: ﴿وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْۚ﴾، تعريضٌ بما اعتراهُم مِنَ الخوفِ والوَجَلِ مِنَ الطّائفَةِ ذاتِ الشَّوكَةِ، ورغبَتِهم بالظَّفَرِ بالعُروضِ الَّتي كانَت معَ العيْرِ، فعُرِّضَ لهم بأنَّهم لم يُدْرِكوا مرادَ رسولِ اللّه ﷺ حينَ استَشارَهُم، وأخبرَهُم أنَّ العيرَ سلَكَتْ طريقَ السّاحلِ، وقد كان ذلك كافيًا في إدراكِ أنَّ الطّائفَةَ الَّتي وُعِدوا بها، تمَحَّضتْ أنَّها طائفَةُ النَّفيرِ، بَعْدَ أن كانَ الأمْرُ دائرًا بينَها وبينَ طائفَةِ العيرِ، وكانَ الشَّأْنُ أن يظنّوا أحسَنَ الظُّنونِ، بوعْدِ اللّهِ سُبحانَهُ، فأرادَ اللّهُ ﷻ تسكينَ قلوبِهم، فوَعَدَهُم بإمدادِ الملائكَةِ إيّاهُمْ[1].

بَلاغَةُ القَصْرِ في الآية:

نِسبةُ النَّصرِ لغيرِ اللهِ مَجازيَّةٌ، وليست حقيقيَّةً

في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾، قصرٌ بطريقِ النَّفْيِ والاستثناءِ، وهو مِن قَصْرِ الموصوفِ على الصِّفةِ، وهو قَصْرٌ إضافيٌّ تحقيقيٌّ، وأمّا نسبَةُ النَّصْرِ إلى غيرِ اللّهِ تعالَى، فهو بالنَّظَرِ إلى بَذْلِ أسبابِه فحسبُ، كالوارِدِ في قولِه سُبحانَهُ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥۚ﴾ [آل عمران: 81]، والقَصْرُ في قولِه تعالَى: ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾، فيه قَصْرُ النَّصْرِ مَهْما توافَرتْ أسبابُهُ على كَونِه مِن عِنْدِ اللّهِ سُبحانَهُ، فلا نصْرَ إلّا منه، وفي نفيِ النَّصْرِ بـ (ما) نفيٌ لوجودِه، فلا وُجودَ لأيِّ نصْرٍ إلّا أنْ يكونَ مِن عِنْدِ اللّه[2] ﷻ.

نُكْتَةُ الإظْهارِ في مَحَلِّ الإضْمارِ:

كونُ النَّصْرِ مِن عِنْدِ اللهِ تَعالَى، تَعْظيمٌ لشَأْنِ النَّصْرِ وتنويهٌ به

في قولِ اللّه ﷻ: ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾، إظهارٌ في موضعِ الإضْمارِ؛ إذْ مقتضَى الظّاهِرِ أنْ يَرِدَ النَّظْمُ القرآنيُّ: (وما النَّصْرُ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 277/9.
(2) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 3078/6.

إلّا مِن عِنْدِه)؛ لتقدُّمِ التَّصريحِ بالاسمِ الأعظمِ في قولِه جلَّ وعلا: ﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ﴾، ونُكْتَةُ الإظهارِ: إدخالُ المهابَةِ وتعظيمُ شأنِ النَّصرِ، والتَّأكيدُ على كَوْنِ النَّصرِ مِن عِنْدِ اللهِ تعالَى؛ لأنَّ لهُ وحْدَهُ صفاتِ الكمالِ.

بَلاغَةُ الاحتِراسِ:

وُرودُ قولِ اللهِ تعالَى: ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾، بعد قولِه: ﴿أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ۝٩ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ﴾، واردٌ على طريقَةِ الإطنابِ بالاحتراسِ؛ لئلّا يُتَوَهَّمَ أنَّ النَّصرَ حاصِلٌ بالملائِكَةِ لا مِن قِبَلِ اللهِ سُبحانَهُ[1].

إمْدادُ المَلائِكَةِ مِن أسْبابِ النَّصْرِ، وإنَّما النَّصْرُ مِن عِنْدِ اللهِ تَعالَى

عِلَّةُ فصْلِ قَوْلِه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾:

فَصْلُ قَوْلِ اللهِ ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾، عمّا قبلَهُ؛ استئنافٌ بيانيٌّ لوقوعِ الجملَةِ تعليلًا متضمِّنًا الإشعارَ بأنَّ النَّصرَ الواقعَ على الوجهِ المذكورِ آنِفًا، هو مِن مقتضَياتِ الحِكَمِ البالغَةِ[2]، ويجوزُ أن تكون الجملَةُ مستأنفَةً استئنافًا ابتدائيًّا مُنَزَّلَةً منزلةَ الإخبارِ بما ليس بمعلومٍ لهمْ[3].

إيقاعُ النَّصْرِ فيما قُدِّر له مِن مُقْتَضَياتِ الحِكَمِ الإلَهيَّةِ البالِغَةِ

نُكْتَةُ التَّأْكيدِ في قَوْلِه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾:

أُكِّدَ قولُ اللهِ سُبحانَهُ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾، بالأداة ﴿إِنَّ﴾، وبالجملةِ الاسميَّة لتقويَةِ تعليلِ قصْرِ النَّصرِ عليه، وزادَ هذه الجملةَ تأكيدًا إيرادُها اسميَّةً للدِّلالَةِ على ثبوتِ الوصفَيْنِ ودوامِهما، ومعنى ﴿عَزِيزٌ﴾ "لا يغالَب في حُكمه، ولا يُنازَع في أقضيته، ومعنى ﴿حَكِيمٌ﴾ يفعلُ كلَّ ما يَفْعل حَسْبما تقتضيهِ الحكمةُ والمصلحةُ"[4].

قصرُ النَّصْرِ على اللهِ تَعالَى تَأْكيدٌ لثُبوتِ عِزَّتِه وحِكْمَته

(1) الماورديّ، النّكت والعيون: 299/2، وابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 208/2.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 233/8، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 9/4، والآلوسيّ، روح المعاني: 163/5.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 277/9.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 09/4.

سِرُّ الإظْهارِ في مَوْضِعِ الإضْمارِ:

مِن رَحْمَةِ اللهِ تَعالَى بعِبادِه: إدْخالُهُ الطُّمَأْنينَةَ على قُلوبِهِمْ

في قولِ اللهِ ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ إظهارٌ في مقام الإضْمارِ، وذلك أنَّ مقتضَى الظّاهِر أنْ يَرِدَ النَّظْمُ القرآنيُّ: (إنَّه عزيزٌ حكيمٌ)؛ لتقدُّمِ التَّصريحِ بالاسْمِ الأحسَنِ (اللهِ) في قولِه سُبحانَهُ: ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾، ونكتَةُ الإظْهارِ: زيادَةُ المَهابَةِ بالتَّصريحِ بالاسْمِ الأحْسَنِ الجامِعِ صفاتِ الجلالِ والجمالِ والكمال، وفيه أيضًا المبالغَةُ في إدخالِ الاطْمِئنانِ على قلوبِ المخاطَبينَ، وفي التَّصريحِ بالاسمِ الأعظمِ أيضًا إخراجُ الجملَةِ مُخرجَ التَّذْييلِ الجاري مجْرَى المثَلِ؛ إذْ لو أُضْمِرَ - كما هو مقتضى الظّاهِرِ - بأن يَرِدَ النَّظْمُ القرآنيُّ: (إنَّه عزيزٌ حكيمٌ)، لكان ذلك مِن قبيلِ التَّذْييلِ غيرِ الجاري مجرَى المثَلِ.

تَوْجيهُ المُتَشابِهِ اللَّفْظيِّ:

دِقَّةُ انْتِقاءِ الألفاظِ المُعَبِّرَةِ عَنْ مَقاصِدِها في سِياقاتِها مِن بيانِ القرآنِ المُحْكَمِ

قال اللهُ سُبحانَهُ: ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾، وقال تعالَى: ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾﴾ [آل عمران: 126]، فجُعِلَ الاسْمانِ في الأنفالِ في صيغَةِ الخبرِ المؤكَّدِ، وفي آل عمرانَ صيغَتِ الصِّفتانِ في أسلوبِ النَّعْتِ للاسْمِ الأعظمِ (اللهِ)، ووجْهُ ذلك: أنَّ آيةَ الأنفالِ تَقدَّمَ فيها وُعودٌ جليلَةٌ، كقوله سُبحانَهُ: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ﴾ [الأنفال: 7]، وقولِه ﷻ: ﴿وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧﴾﴾ [الأنفال: 7]، وقولِه ﷻ: ﴿لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨﴾﴾ [الأنفال: 8]، فهذه الوُعود الجليلَةُ لم يتقدَّم التَّصريحُ بمثلِها في سورةِ آل عمرانَ، فناسبَ ذلك أن يُؤكَّدَ الاسمانِ الجليلانِ في قولِه سُبحانَهُ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ مِن سورَةِ الأنْفالِ، ولمّا لَم يَرِدْ مثلُ هذه الوُعودِ في آلِ عِمْرانَ، وردَتِ الصِّفتانِ تابعَتَيْنِ غيرَ مؤكَّدَتينِ[1].

(1) ابن الزّبير، ملاك التّأويل: 89/1 - 90.

نُكْتَةُ خَتْمِ الآيَةِ باسْمَيِ اللهِ: (العَزيزِ الحَكيمِ):

خُتِمَت الآيةُ الكريمَةُ باسْمَيِ اللّه تعالَى: (العزيزِ والحَكيمِ)، فقالَ سُبحانَهُ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾؛ لكونِهما أولَى بالذِّكْرِ في هذا المَقامِ؛ وذلك أنَّ العزيزَ ينصُرُ مَنْ يُريدُ نُصْرَتَهُ؛ فلا يُغْلَبُ، والحكيمَ عالِمٌ بمَنْ يستحقُّ نُصْرَتَهُ، وكيف يُعْطيه ذلكَ[1].

مَن نصرَهُ العَزيزُ فلا يُغْلَبُ، ومَن أيَّدَه الحَكيمُ اسْتَحَقَّ النَّصْرَ

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

القُلوب والأفْئِدَة:

الأفئِدَةُ جمعُ لِلْفُؤادِ: ألطَفُ ما في الجسَدِ على الإطْلاقِ، ولذا يُعبَّر بهِ عَن جميعِ البدَنِ؛ لكونِه أشرفَ ما فيهِ، كَما قال تَعالَى: ﴿فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ﴾ [إبراهيم: 37]، وهو أشدُّ تألُّمًا بأدَنى أذًى يلحقُهُ، والأفئدة هي نافذة من نوافذ المعرفة عند الإنسان في الاستعمال القرآنيِّ، ولكنَّها ليست مناطَ التَّكليف، كما هي القلوبُ، أمّا القلبُ؛ فلَيْسَ مَدارُ الحديثِ عنه في القرآنِ الكَريمِ مِن حيثُ رِقَّتُهُ وسُرعةُ تأثُّرِه بما يطرَأُ عليه، بل يَرِدُ وصفُهُ بالقساوةِ وضدِّها، كما قالَ تَعالَى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَـٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: 22]، وقال سُبحانه: ﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: 23]. فالقَلْبُ مَوْطِنُ القوَّةِ والجَلَدِ، ولذا يُعَبَّر به في المواطِنِ الدّالَّةِ على القوَّةِ والتَّعقُّلِ[2]، ويَرِدُ في مَقاماتِ التَّثْبيتِ في الحُروبِ؛ لافتقارِها إلى القوَّةِ والجَلَدِ.

القلبُ العاقلُ مَناطُ التَّكليف، وهو العضو الجوهريُّ الشَّريف

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 78/4، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 3078/6.
(2) الدّوريّ، دقائق الفروق اللّغويّة في البيان القرآنيّ، ص: 106 - 112.

﴿إِذۡ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةٗ مِّنۡهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذۡهِبَ عَنكُمۡ رِجۡزَ ٱلشَّيۡطَٰنِ وَلِيَرۡبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمۡ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلۡأَقۡدَامَ ١١﴾ [الأنفال: 11]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الرَّبطُ بين البشرى بالإمداد وغشيان النُّعاس أمَنةٌ وتطهيرٌ للعباد

لَمّا ذَكَرَ اللّهُ تعالَى البُشْرَى والطُّمَأْنينَةَ بالإمْدادِ؛ ناسَبَ أنْ يَذْكُرَ لهم أنَّه أتْبَعَ القَوْلَ الفِعْلَ، فألْقَى في قلوبهم بمقتضَى عِزَّتِه وحِكْمَتِه السَّكينَةَ والأمْنَ، بدَليلِ النُّعاسِ الذي غَشيَهُم في محلٍّ هو أبْعَدُ الأشْياءِ عنه، وهو مَوْطِنُ القِتالِ ومحاربَةِ الأعداءِ؛ لافتقارِ هذا الموطِنِ إلى التَّيقُّظِ مِن فتْكِ أهلِ الكُفْرِ، ومِمّا ثبَّتَ اللّهُ تعالَى بِهِ عبادَهُ المؤمِنينَ المَطَرُ وأثَرُهُ، فقال سُبحانَهُ: ﴿إِذۡ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةٗ مِّنۡهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ﴾[1]، وفي امتنان اللّه عليهم بالنَّوم في هذه اللَّيلةِ مَلْمَحان مُفيدان: أحدهما: أنَّه قَوّاهم بالاستراحة على القتال من الغد، فكانت تدريبًا واستعدادًا لتلك المعركة الفاصلة، وثانيهما: أنَّه أمَّنهم بزوال الرُّعب من قلوبهم، فانقشع الخوفُ، وزالت الرَّهبة، وثَبَت المؤمنون، حين حَميَ الوطيسُ[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يُغَشِّيكُمُ﴾: الغَيْنُ والشّين والحرْفُ المعتلُّ، تدلُّ تصريفاتُها على تغطيةِ شيءٍ بشيءٍ، ومنه الغِشاءُ، وهو الغِطاءُ، وسُمّي يومُ القيامَةِ غاشيةً؛ لأنَّها تَغْشَى الخلْقَ بإفزاعِها[3]، وقد تُطْلَقُ الغاشيَةُ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 234/8.
(2) الشّوكانيّ، فتح القدير: 332/2.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (غشي).

علَى النّار؛ لكونِها تَغْشَى وُجوهَ الكفّار[1]، كما قال اللّهُ تعالَى: ﴿وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ۝٥٠﴾ [إبراهيم: 50]، وقولُ اللّه سُبحانَهُ: ﴿يُغَشِّيكُمُ﴾، أيْ: يُلْقي النُّعاسَ عَلَيْكُم كالغِطاءِ[2]، وقد غشَّى اللّهُ على بَصَرِهِ تغشيةً، وأغشى، أي: غطَّى؛ ومنه قوله تعالى: ﴿فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ۝٩﴾ [يس: 9][3]، ومن شواهد هذا اللَّفظ قولهم:

مِنَ النّاسِ مَنْ يَغْشَى الأباعِدَ نَفْعُهُ *** ويَشْقَى به حَتَّى المَماتِ أقارِبُهْ[4]

2) ﴿ٱلنُّعَاسَ﴾: النّون والعَيْنُ والسّينُ، تدلُّ تصريفاتُها على ثِقَلٍ أو فُتورٍ في الجِسْمِ لِلينِه وامتِلائه بالرَّخاوَةِ[5]، ومنه النُّعاسُ، وهو أوَّلُ النَّوم[6]؛ لِطُروئه علَى العَبْدِ بسَبَبِ فُتورٍ في بدَنِه، والنُّعاسُ في قولِ اللّه ﷻ: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ﴾ هو النَّوْمُ القَليلُ، أو هو عِبارَةٌ عَنِ السُّكونِ والهُدوءِ[7].

3) ﴿أَمَنَةً﴾: الهَمْزَةُ والميمُ والنّون تدلُّ اشتقاقاتُها علَى تَصْديقٍ وسُكونِ قلبٍ[8]، وأصلُ الأَمْنِ: طُمأنينَةُ النَّفْسِ وزوالُ الخوف[9]، والفِعْلُ منه: أمِنَ، والأَمَنَةُ والأمانُ والأَمْنُ كُلُّه بمَعْنًى واحِدٍ[10]. وقولُ اللّه جلَّ وعلا: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ﴾ معناهُ: أنَّ اللّه تعالَى أرسلَ عليهِمُ النُّعاسَ؛ مِن أجْلِ أنْ يُدْخِلَ على قلوبهمُ الأمانَ مِنَ العَدوِّ أنْ يَغْلِبَهُم، وقد قال ابنُ مسعودٍ رضي الله عنه: "النُّعاسُ في القِتال: أَمَنَةٌ مِنَ اللّهِ ﷻ، وفي الصَّلاةِ مِنَ الشَّيْطان"[11].

4) ﴿رِجْزَ﴾: الرّاء والجيمُ والزّايُ، تدور تصاريفُها على ارتعادٍ عندَ النُّهوض أو الحَمْلِ بسببِ الثِّقَلِ العظيمِ، ومنه: الرِّجْزُ؛ وهو العذاب المُثْقِلُ المعجِزُ[12]، وتقول العرب: ناقةٌ

(1) ابن سيده، المحكم: (غشو).
(2) الخضيريّ، السّراج في بيان غريب القرآن، ص: 70.
(3) الزّبيديّ، تاج العروس: (غشي).
(4) البيت غير منسوب لشاعر، وهو في تهذيب الأزهري: 246/2، وابن منظور، لسان العرب: (بعد)، والقالي، الأمالي: 220/3، وعند الخليل بن أحمد، كتاب العين: (بعد).
(5) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (نعس).
(6) ابن الأثير، النّهاية: (نعس).
(7) الرّاغب، المفردات: (نعس).
(8) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (أمن).
(9) الرّاغب، المفردات: (أمن).
(10) غلام ثعلب، ياقوتة الصّراط في تفسير غريب القرآن، ص: 236.
(11) ابن جرير، جامع البيان: 419/13.
(12) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (رجز).

رَجْزاءُ؛ وهي الَّتي يرعُدُ فخذُها أو عَجُزُها حين تَقوم[1]، أو هي: الَّتي تَقارَبَ خَطْوُها واضْطرَبَ لضعفٍ فيها[2]، ورِجْزُ الشَّيطانِ في قَوْلِ اللّهِ سُبحانَهُ: ﴿وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ هيَ وسْوَسَتُه الَّتي تُكْسِبُ عذابَ اللّهِ تعالَى وغَضَبَهُ، ولِذا سُمّيَت الوسوسَةُ رِجْزًا؛ لأنَّ الرِّجْزَ يَرِدُ مُرادًا بهِ العذابُ[3].

5) ﴿وَلِيَرْبِطَ﴾: الرّاءُ والباءُ والطّاءُ تدورُ اشتقاقاتُها على معنى الشَّدِّ والثَّباتِ[4]، والرَّبْطُ على القَلْبِ: إلهامُ اللّهِ سُبحانَهُ وتَشْديدُهُ وتَقْويَتُهُ[5]، وفلانٌ رابطُ الجأش، وربيطُ الجأش، أي: شديد القلب، كأنَّه يربطُ نَفْسَهُ عن الفرار[6]، ومن المجاز: رَبَطَ اللّه على قلبه: صبَّرَهُ، قال تعالى: ﴿إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا﴾ [القصص: 10]، ورجل رابط الجأش وربيط الجأش[7]، ويقال: رَبَطَ اللّه على قلبهِ بالصَّبر، أي: عَصَمَهُ بالصَّبر[8]، وهذا هو المعنَى المرادُ في قولِ اللّه ﷻ: ﴿وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ﴾.

6) ﴿وَيُثَبِّتَ﴾: الثّاءُ والباءُ والتّاءُ، تدلُّ تصريفاتُها علَى مَتانَةِ ارْتِباطِ الشَّيْءِ بما قامَ عليه، فلا يَتَحَلْحَلُ[9]، ومنه الثَّباتُ، وهو ضِدُّ الزَّوالِ[10]، وتقولُ العربُ: فُلانٌ مُثْبَتٌ وجَعًا؛ وذلك إذا لَم يَقْدِرْ على الحَرَكَةِ[11]، وأثْبَتَهُ السُّقْمُ، أي: لَم يُفارِقْهُ[12]. وقولُ اللّه تعالَى: ﴿وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ﴾، يُرادُ به: تمكينُها مِنَ السَّيْرِ في الرَّمْلِ، وذلكَ بألّا تَسوخَ في ذلك الدَّهْسِ[13].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

إذْ يُلْقي اللّهُ تعالَى عَلَيْكُمُ النُّعاسَ؛ أمانًا منه لَكُم مِن عَدوِّكم أنْ يَغْلِبَكُم، ويُنَزِّلُ عليكُم مِنَ السَّحابِ ماءً طَهورًا؛ ليُطَهِّرَكُم مِنَ الأحداثِ الظّاهرةِ، ويُزيلَ عَنْكُم في الباطِن

(1) العسكريّ، التَّلخيص في معرفة أسماء الأشياء، ص: 359.
(2) الرّاغب، المفردات: (رجز).
(3) الواحدي، التّفسير البسيط: 50/10.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ربط).
(5) الهروي، الغريبين: (ربط).
(6) الجوهريّ، الصّحاح: (ربط).
(7) الزّمخشريّ، أساس البلاغة: (ربط).
(8) نشوان الحميريّ، شمس العلوم: (ربط).
(9) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (ثبت).
(10) الرّاغب، المفردات: (ثبت).
(11) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 179.
(12) الجوهريّ، الصّحاح: (ثبت).
(13) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 280/9.

وساوِسَ الشَّيطانِ وخواطِرَهُ، وليشُدَّ على قلوبِكُم بالصَّبْرِ عند التحام الصَّفَّيْنِ، ويُثَبِّتَ أقدامَ أهلِ الإيمانِ، بتَلْبيدِ الأرض الرَّمليَّةِ بالمَطَرِ، فلا تنْزَلِقُ فيها الأقدامُ[1]، فقد "كانوا يتنقَّلون في حَرْبهم على كثبانٍ من رمل، تسوخ فيه الأقدام؛ فتلبَّد الرَّمل من الماء، وتثبَّتت عليه أقدامهم عند اللُّقيا"[2].

تفضُّلُ اللهِ بالنَّوم المريح، والغيث المَريع تطمينٌ للقلوب، وتثبيتٌ للأقدام

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ حُسْنِ التَّخَلُّصِ:

في الانتقالِ إلى قولِ اللهِ سُبحانَهُ: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ﴾، إبداعٌ في نَظْمِ الآياتِ في الانتقالِ من قصَّةٍ إلى أخرَى، من أدلَّة اعتناءِ اللهِ سُبحانَهُ بنبيِّه ﷺ وبالمؤمنينَ، وهذا الانتقالُ واقِعٌ بواسِطَة (إذ) الزَّمانيَّةِ، (وهذا مِن أبدَعِ التَّخلُّصِ، وهو مِن مبتكراتِ القرآنِ)[3].

عنايةُ اللهِ تعالَى بنَبيِّه ﷺ وبالمؤمنينَ، ضمانٌ وتمكينٌ

عِلَّةُ فصْلِ قَوْلِه: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ﴾:

فُصِلَ قولُ اللهِ ﷻ: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ﴾ عمّا ورد قبلُ؛ لوقوعِه بدلًا من ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ﴾، فبينَ الجملتَيْنِ كَمالُ الاتِّصالِ، وهذا أجوَدُ ما قيلَ في موقِعِ هذه الجملَةِ بما قبلَها[4]، وغشّاهم اللهُ تعالى بالنُّعاس، أي: وضَعهُ على عيونهم، كأنَّه غِشاء، وقد تحقَّق بذلك المدد السَّخيُّ من عطاءِ اللهِ المعجز، ووعْدِه المنجَز، ما تجلَّى به تحقيقُ اللهِ لِما وعَدَ به المؤمنين مِنَ النَّصر والعناية والتَّمكين[5].

بيانُ كَوْنِ الجُمْلَةِ بَدَلًا مِمّا قَبْلَها لِكَمالِ الاتِّصالِ بها

دِلالَةُ الإيجازِ بالحَذْفِ:

يَجوزُ أنْ تكونَ ﴿إِذْ﴾ في قولِ اللهِ سُبحانَهُ: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ

(1) ابن جرير، جامع البيان: 419/13 - 421، ونخبة من العلماء، التّفسير الميسّر، ص: 178.
(2) محمّد عبد اللّطيف الخطيب، أوضح التّفاسير، ص: 211.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 278/9.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 281/5، والبقاعيّ، نظم الدرر: 234/8.
(5) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 1079/6.

تَجَدُّدُ التَّذْكيرِ بما أنْعَمَ اللهُ على المؤمنين يوجِبُ تَجْديدَ الشُّكرِ لربِّ العالمين

﴿أَمَنَةً مِّنْهُ﴾، ظرفَ زمانٍ مبنيًّا على السُّكون متعلِّقًا بفِعْلٍ محذوفٍ تقديرُهُ: اذكروا[1]، ففي الآية إيجازٌ بالحذفِ؛ فقد حُذِفَ الفعلُ وفاعلُهُ وهو (اذكروا)، وتقديرُ هذا الفِعْلِ يَسْتَلْزِمُ تَذْكيرًا متجدِّدًا بإفرادِ ما أنْعَمَ اللهُ تعالَى بهِ على أهل الإيمانِ في غَزْوَةِ بَدْرٍ، وهو إنعامٌ أثير، وتكريمٌ جديرٌ، قد أبرزتْهُ العبارةُ الموجزة البليغة، بالمحذوف والمذكور، لتصوير ذلك المشهد المأثور الَّذي سُمّي يوم الفرقان، بما حملهُ مِن أحداث، وما خلَّده من مآثرَ للنَّبي والمؤمنين.

بَلاغَةُ الاسْتِعارَةِ في الآية:

إبْرازُ المَعاني في صورَةِ المَحْسوساتِ مُعْجِزَةٌ جَرَتْ على خِلافِ العادَةِ

في قَوْلِ اللهِ جلَّ وعلا: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ﴾ استعارَةٌ؛ حيثُ جُعِلَ إلقاءُ النُّعاسِ عليهم بمنزِلَةِ وضْعِ الغِشاءِ على العُيونِ، فصارَ كأنَّهُ غشاءٌ مِن نُعاسٍ[2]، وفي إجراءِ الاستعارةِ مَسْلَكانِ: أحدهُما: أنَّه قد شُبِّهَ إلقاءُ النُّعاسِ بوضْعِ الغشاءِ، على طريقة الاستعارة التَّصريحيَّةِ التَّبعيَّةِ. والآخَرُ: أنَّه قد شُبِّهَ النُّعاسُ بالغطاءِ، فحُذِفَ المشبَّهُ بهِ، ورُمِزَ لَهُ بشيءٍ مِن لوازمِه، وهو ﴿يُغَشِّيكُمُ﴾، على طريقَةِ الاستعارَةِ المَكْنيَّةِ الأصليَّةِ، وفي ذلك إبرازٌ للمَعاني في صورَةِ الأشياءِ الحسّيَّةِ، وليكونَ أظْهَرَ في كَوْنِ ذَلِك معجِزَةً جرَتْ على خلافِ العادَةِ.

نُكْتَةُ التَّعْبيرِ بالفِعْلِ المُضارِعِ في: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ﴾:

إلقاءُ النُّعاسِ على المُؤْمِنينَ في بَدْرٍ معجزةٌ؛ لامْتِناعِه في المَواطِنِ المَخوفَةِ

عُبِّرَ بالفِعْلِ المُضارِعِ ﴿يُغَشِّيكُمُ﴾ مِن قولِ اللهِ سُبحانَهُ: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ﴾، وهو في الأصلِ دالٌّ على الحالِ أوِ الاستقبالِ، والتَّغْشيَةُ أمرٌ ماضٍ، فلَم يَرِد النَّظْمُ القرآنيُّ: (إذ غشّاكُم النُّعاسَ أمنَةً منه)، والنُّكْتَةُ في ذلك: حكايَةُ الحالِ

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 460/15.
(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 3079/6.

الماضيةِ[1]، استحضارًا لصورتِها العجيبَةِ؛ حيث إنَّ العادَةَ جاريةٌ بامتِناعِ النُّعاسِ في المَواطِن المَخوفَةِ، كالحربِ ونحوِها، ومَنْ نام في ذلك الموطن؛ فقد قرَّت عيناه، واطمأنَّ إلى عون الله، ولم يَرِدْ على باله خوفٌ هالعٌ، ولا قَلَقٌ مانعٌ، وهو ما وقع للرَّسول ﷺ أيضًا، فقد ورد «أنَّ رَسولَ الله ﷺ لما كانَ يَوْمَ بَدْرٍ في العَريشِ معَ الصِّدّيقِ، رضي الله عنه، وهُما يَدْعوانِ، أخَذَتْ رَسولَ الله سِنَةٌ مِنَ النَّوْمِ، ثُمَّ اسْتَيْقَظَ مُتَبَسِّمًا، فقالَ: أبْشِرْ يا أبا بَكْرٍ، هذا جِبْريلُ على ثَناياهُ النَّقْعُ، ثُمَّ خَرَجَ مِن بابِ العَريشِ، وهو يَتْلو قَوْلَهُ تَعالَى: ﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ۝٤٥﴾ [القَمَر: 45]»[2].

تَوْجيهُ القِراءاتِ في الآية:

التَّكامُلُ الدِّلاليُّ لِلْقِراءاتِ القرآنيَّةِ، وأثره في السّياق

في قولِ الله جلَّ وعلا: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ﴾ ثلاثُ قراءاتٍ[3]: أوّلها: ﴿إِذْ يُغْشِيكُمُ ٱلنُّعَاسَ﴾، وهي قراءةُ نافعٍ وأبي جعفرَ، على أنَّه مِنَ الرُّباعيِّ (أغْشَى)، ومضارِعُهُ: يُغْشي، كـ: أهْدَى يُهْدي، وفاعلِهُ مستَتِرٌ جوازًا تقديرهُ: هو، يرجِعُ إلى الله سُبحانَهُ، والمعنى: إذْ يُغْشيكُمُ الله النُّعاسَ، فالنُّعاسَ: مفعولٌ بهِ ثانٍ. وثانيها: ﴿إِذْ يَغْشَىٰكُمُ ٱلنُّعَاسُ﴾، وقرأ بها ابنُ كثيرٍ وأبو عمرو، على أنَّه مضارعُ (غَشيَ)، فهو كـ: رضيَ يَرْضَى، و(النُّعاسُ) فاعِلُهُ. وثالثُها: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ﴾، وهي قراءةُ الباقين، على أنَّه من الثُّلاثيِّ المضعَّف (غشَّى) ومضارِعُهُ: يُغَشّي، كـ: ربَّى يُرَبّي، وفاعِلُهُ مُسْتَتِرٌ يعودُ على اللهِ ﷻ. وإسنادُ الإغشاءِ أو التَّغشيَةِ إلى الله سُبحانَهُ على القراءَةِ الأولى والثّالثَةِ لكونِه الَّذي قدَّر أن يناموا في وقْتٍ لا يَنامُ الخائفُ في مِثْلِه عادَةً، ولا يكونُ النَّوْمُ عامًّا سائرَ الجيشِ، فهو نومٌ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 9/4، والآلوسيّ، روح المعاني: 163/5.
(2) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 23/4، والقاسميّ، محاسن التّأويل: 264/5.
(3) ابن الجزريّ، النّشر في القراءات العشر: 276/2، والبَنّا الدّمياطيّ، إتحاف فضلاء البشر، ص: 296، ومحمد سالم محسين، المغني في توجيه القراءات العشر: 185/2 - 186.

أكْرَمَهُمُ اللّهُ تعالَى بهِ لفائدَتِهم، وإسْنادُ الغَشْيِ إلى النُّعاسِ على القراءة الثّانية، إمّا أن يكونَ حقيقةً باعتبارِ المُتعارَفِ، وإمّا أن يكونَ مجازًا عقليًّا، يُرادُ به شِدَّةُ طُروءِ النُّعاسِ عليهم، حتَّى كأنَّهُ الَّذي غَشيَهُم بنفسِه، بحيثُ لَم يَقْدِروا على مُدافَعتِه[1].

بلاغةُ الاسْتِعارَةِ في الآية:

تَسَلُّطُ النُّعاسِ على المُؤْمِنينَ في بَدْرٍ فِعلٌ إلهيٌّ، لا إرادةَ لهم فيه

على قراءة ابن كثيرٍ وأبي عمرٍو: ﴿إِذْ يَغْشَىٰكُمُ ٱلنُّعَاسُ أَمَنَةً مِّنْهُ﴾ بجَعْلِ النُّعاسِ فاعلًا، إمّا على طريقَةِ المجازِ العقليِّ - كما تقدَّمَ - وإمّا على طريقةِ الاستعارةِ بالكنايَةِ؛ حيثُ شُبِّهَ النُّعاسُ بالشَّخْصِ الذي مِن شأنِه أن يأتيَهُم، (والقرينة: ذِكْرُ الأمَنَةِ؛ لأنَّها مِن لَوازِمِ المشبَّه به)[2]، وفي هذا إبرازٌ للمعنويّاتِ في قالَبِ الحسّيّاتِ، وفيه إشْعارٌ بأنَّ النُّعاسَ تَسلَّطَ علَيْهِم من غيرِ إرادَةٍ منهم لَهُ.

سِرُّ مَجيءِ الجارِّ والمَجْرورِ ﴿مِّنْهُ﴾:

حمايةُ اللهِ تَعالَى لأهْلِ الإيمانِ، وقايةٌ في اليقظة والمنام

﴿أَمَنَةً﴾ مِن قولِ اللّه ﷻ: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ﴾ مفعولٌ لأجْلِه، أي: فعَلْتُ ما ذُكِرَ لأجلِ أمْنِكُم، ولمّا كان هذا جاريًا على خِلافِ العادَةِ؛ جيءَ بالجارِّ والمجرورِ ﴿مِّنْهُ﴾؛ للإيماءِ إلى أنَّ فِعْلَ التَّغشيَةِ صادرٌ بحِكمتِه سُبحانَهُ؛ لكونِه لا يَنامُ في مثلِ هذه الأحوالِ إلّا الآمِنُ، فاللّه ﷻ يَمْنَعُ عَدوَّكُم عَنْكُم، وأنتم نائمونَ بقوَّتِه وعِزَّتِه سُبحانَهُ[3]، و(مِن) هنا ابتدائيَّةٌ.

تَوْجيهُ المُتَشابه اللَّفْظيِّ:

دِقَّةُ النَّظْمِ القرآنيِّ في انتِقاءِ مَواقِعِ الكَلِمِ بحَسَبِ مُقْتَضَياتِ الأحْوالِ

قالَ اللّه ﷻ: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ﴾، وقال سُبحانَهُ: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ﴾ [آل عمران: 154]، ووجهُ ذلك أنَّه روعيَ في كلِّ موضعٍ ما اقتضاهُ الحالُ؛ إذْ إنَّ آيةَ الأنفالِ،

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 460/15 - 461، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 278/9.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 164/5.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 235/8.

تَحْكي قصَّةَ غَزوَةِ بدْرٍ، وقد كان المسلمونَ محتاجين إلى الرّاحَةِ، فقُدِّمَ ذِكْرُ النُّعاسِ، ثُمَّ بُيِّنَ أنَّ ذلك واردٌ على جِهَةِ الأمْنِ لهم، بخلافِ آيةِ آل عمْرانَ، فهي تحْكي قصَّةَ غزوةِ أُحُدٍ، وقد مات مِن المسلمينَ شهداءُ، وأصابَتْهُم فاجِعَةُ المعركَةِ، وحصلَ لهم فيها مِنَ الخوْفِ ما حصَلَ، فكانوا أحْوَجَ إلى الأمْنِ، فقُدِّمَ ذِكْرُ ما هُم إليهِ أحْوَجُ.

معاني الحروفِ وغَرَضُ التَّنكير:

في قولِه: ﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾، ﴿مِّنَ﴾ هنا ابتدائيَّةٌ، فالماء ابتدأ نزوله من السَّماء، و(ال) في السَّماء عهديَّة، وأفاد تنكير ﴿مَآءً﴾ هنا التَّكثيرَ والتَّفخيمَ، وقد عُطِفت ﴿وَيُنَزِّلُ﴾ على ﴿يُغَشِّيكُمُ﴾، والجارُّ والمجرور ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ متعلِّقان بـ﴿وَيُنَزِّلُ﴾، والماء عنوانُ النَّظافة والتَّطهير، "وهذا يدلُّ على أنَّ المؤمن يجب أن يظلَّ نظيفًا، رغم الوجود في المعركة الَّتي لو استمرَّ فيها الواحد منهم يومًا أو اثنين دون استحمام؛ لما لامَهُ أحدٌ على ذلك"[1]، وعليه فقوانين الحياةِ يجب أن تبقى مرعيَّةً في جميع الأحوال سواء كانت في الحرب أم في السِّلم، وفي الأحوال العادية والطّارئة.

الماءُ مرتكزُ الحياة، وعنوان التَّطهير في الوجود

نُكْتَةُ تَقْديمِ الجارِّ والمَجْرورِ:

في قَوْلِه تَعالَى: ﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ قُدِّمَ الجارُّ والمجرورُ ﴿عَلَيْكُم﴾ و﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ على المفعول به ﴿مَآءً﴾، مِن قولِ اللّه ﷻ: ﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾؛ اهتمامًا بالمقدَّم وتشويقًا إلى المؤخَّر، وذلك أنَّ تأخيرَ ما حقُّهُ التَّقديمُ، يجْعَلُ النَّفْسَ مرْتَقِبَةً لَهُ، فإذا وردَ بَعْدُ؛ تَمَكَّنَ عندها فضْلَ تمكُّنٍ، وقُدِّم ﴿عَلَيْكُم﴾ على ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾؛ للإشعارِ بأنَّ التَّنزيلَ عليهِم أهَمُّ مِن بيانِ كَوْنِه مِنَ السَّماءِ[2].

تَنْزيلُ الماءِ على خُصوصِ أهْلِ الإيمانِ في بَدْرٍ مِن معجزاتِ الله لنبيِّه

(1) الشّعراويّ، تفسير الشّعراوي: 4598/8.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 9/4، والآلوسيّ، روح المعاني: 165/5.

تَوْجيهُ المُتَشابه اللَّفْظيِّ:

التَّصَرُّفُ في صيَغِ الأفْعالِ في السّياقاتِ المُتَشابِهَةِ تحقيقٌ لِمُطابَقَةِ مُقْتَضَى الحالِ

قالَ اللّه ﷻ: ﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ﴾، وقالَ سُبحانَهُ: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾﴾ [الفرقان: 48]، ووجهُ المغايَرةِ بينَهُما: أنَّ آيةَ الأنفالِ صُدِّرت بقولِه تعالَى: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ﴾، فلمّا كان السّياقُ مبنيًّا على التَّعبير بالفعْلِ المضارِع، لاستحضارِ الحالِ الماضيَةِ، وخاصًّا بأصحابِ النَّبيِّ ﷺ الَّذين كانوا معَهُ في غزوةِ بَدْرٍ؛ ناسبَهُ أن يَرِدَ النَّظْمُ القرآنيُّ: ﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ بالفعْلِ المضارِع، وتصريحًا بالمُنَزَّلِ عليهم، ولمّا كانَ تَنْزيلُ الماءِ في وقتِ القتالِ من الأمور العجيبَةِ الَّتي مَنَّ اللّهُ تعالى بها على أهل الإيمان؛ ناسبَهُ بيانُ الغرَضِ من هذا التَّنزيلِ؛ بما يدلُّ على استحضارِه، فقالَ جلَّ وعلا: ﴿لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ﴾، فاللّام هنا للتَّعليل والمضارع لاستحضار الصّورة؛ بخلافِ آيةِ الفُرقانِ، فقد صُدِّرت بقولِ اللّه تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ﴾ [الفرقان: 48]، فلمّا كان التَّعبيرُ عنِ الإرسالِ بالفعلِ الماضي، وكان الإنعامُ متعلِّقًا بعمومِ الخَلْقِ؛ كان ظاهِرُ السّياقِ أن يَرِدَ النَّظْمُ القرآنيُّ: (وأنزلَ مِنَ السَّماءِ ماءً)؛ ليوافقَ الفعْلَ الَّذي قَبْلُ ﴿أَرْسَلَ﴾، لكنْ لمّا كان المرادُ الدِّلالةَ على عظَمَةِ المُنْزِل والمُنْزَلِ؛ ناسبَهُ عدمُ ذكرُ ﴿عَلَيْكُم﴾؛ لئلّا يوهِمَ اختصاصَهُ بقومٍ معيَّنينَ، وجاء التَّعبيرُ بإسنادِ الفعلِ الماضي إلى ضميرِ العظَمَةِ، فقال سُبحانَهُ: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾، ولمّا ذَكَرَ اللّهُ تعالَى الغرضَ من إنزالِ الماء، بقولِه بَعْدُ: ﴿لِّنُحْيِۦَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا ﴿٤٩﴾﴾ [الفرقان: 49]؛ كان الأنسبُ أن يَرِدَ وصفُ الماء، بما يُلائمُ ذلك، فجيءَ بالوصفِ على زِنَةِ المبالغَةِ، فقال تعالى: ﴿طَهُورًا ﴿٤٨﴾﴾ [الفرقان: 49].

سِرُّ تَقْديمِ الجارِّ والمَجْرورِ ﴿عَنكُمْ﴾:

في قَوْلِ اللّهِ تَعالَى: ﴿وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾، الواو: عاطفةٌ، وقُدِّمَ الجارُّ والمجرورُ ﴿عَنكُمْ﴾ على المفعول به، ﴿رِجْزَ﴾ مِن قولِ اللّه ﷻ: ﴿وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾؛ اهتمامًا بالمقدَّمِ وتشويقًا إلى المؤخَّر، إذْ تأخيرُ ما حقُّهُ أن يُقَدَّمَ يبعَثُ في النَّفْسِ شوقًا إليه، حتَّى إذا وردَ بَعْدُ؛ وقع على نفسٍ مستشْرِفَةٍ لَهُ، فيمكَّن مِنها غايةَ التَّمكُّنِ[1]، وتقديم ﴿عَنكُمْ﴾، هنا لأنَّ مدار هذه النِّعم المذكورة، إنَّما كان من أجْلِهم لا من أجْلِ غيرهم، فهم أهل هذه النِّعم ومحلُّ تحقُّقها فيهم، ويجوزُ أن يكونَ التَّقديمُ لإرادَةِ الاخْتِصاصِ، أي: إنَّ إذهابَ رِجْزِ الشَّيطانِ مختصٌّ بكُم لا يتعدّاهُ إلى غَيْرِكُم مِن الكُفّارِ[2]، ولا تنافيَ بينَ الدِّلالَتينِ؛ لأنَّ النِّكاتِ البلاغيَّةَ، تتَوارَدُ، ولا تتَزاحَمُ.

تَخْصيصُ اللهِ تَعالَى أهْلَ الإيمانِ بإذْهابِ رِجْزِ الشَّيْطانِ عنهمْ

نُكْتَةُ البَدْءِ بذِكْرِ التَّطْهيرِ في قَوْلِه: ﴿لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ﴾:

ابتُدِئَ في ذِكْرِ فوائدِ الماءِ بالتَّطهير، قبلَ ذِكْرِ إذهابِ رِجْزِ الشَّيطانِ، لنكْتَتَينِ: إحداهُما: أنَّ التَّطهيرَ مقرِّبٌ مِن صفاتِ الملائكَةِ المقرَّبينَ[3]، والأخْرَى: أنَّه بُدِئَ بما كانوا إليهِ أحْوَجَ، وذلك لفقْدِهِمُ الماءَ الَّذي به يتطهَّرون لصلاتِهم، فلمّا ذكَرَ اللّهُ تعالى غايةً مِن غاياتِ إنزالِ الماءِ، وهو الطَّهارَةُ الظّاهِرَةُ؛ زادَهُم في الفضْلِ بأنْ طهَّر بَواطِنَهُم مِن وساوسِ الشَّيطانِ.

أنْزَلَ اللهُ الماءَ للطَّهارَةِ الظّاهِرَةِ؛ وطَهَّرَ بَواطِنَ المؤمنينَ مِنَ الأرجاسِ العابرة

بلاغةُ المَجازِ المُرْسَلِ:

الرِّجْزُ في الأصْلِ: العذابُ، وقولُ اللّهِ سُبحانَهُ: ﴿وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾، أي: وسْوَسَتَهُ وكَيْدَهُ، وسُمّيَتْ وسوسَةُ الشَّيطانِ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 9/4.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 236/8.
(3) البقاعي، نظم الدّرر: 236/8.

وكَيْدُهُ رِجْزًا؛ لكونِ ذلك سببًا في العذابِ[1]، ففي الآيةِ مجازٌ مرسَلٌ، علاقَتُهُ: المسبَّبيَّةُ؛ إذْ أُطْلِقَ المُسَبَّبُ وأُريدَ السَّبَبُ؛ ونُكْتَةُ ذلك: الإيماءُ إلى عَدَمِ نفيِ مطْلَقِ الوسوسَةِ، وإنَّما نُفيَ التَّأثُّرُ بها المؤدّي إلى العذابِ.

مِن رَحْمَةِ اللهِ تَعالَى بأهْلِ بَدْرٍ عِصْمَتُهم مِنَ الشَّيْطانِ الرَّجيم، ورجزه الأثيم

وَسْوَسَةُ الشَّيْطانِ: مِن أكبرِ الأرجاسِ المُفْتَقِرَةِ إلى التَّطْهيرِ

تَوْجيهُ المُتَشابه اللَّفْظيِّ:

قالَ اللهُ ﷻ: ﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾، وقال سُبحانَهُ: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾﴾ [الأحزاب: 33]، ووجهُ المغايَرةِ بينَهُما: أنَّ آيةَ الأنفال صُدِّرت بقولِه جلَّ وعلا: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾، فلمّا ذُكِرَ الماءُ؛ كان الأنسبُ تقديمَ ما يتعلَّقُ به وهو الطَّهارَةُ، ولمّا كان يسْبِقُ ذلك قولَهُ تعالَى: ﴿كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ﴿٥﴾ يُجَٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٦﴾ وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧﴾﴾ [الأنفال: 5 - 7]، وكان ذلك مِن وسوَسَةِ الشَّيطانِ، وكانت وسوَسَتُهُ مِن أعظَمِ القذَرِ؛ ناسبَهُ قولُهُ بعدُ: ﴿وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ بخلافِ آيةِ الأحزاب، فإنَّها واردَةٌ في سياقٍ أكثَر تعلُّقًا بتخليَةِ نساءِ النَّبيِّ ﷺ مِن كُلِّ ما يشينُهُنَّ أو يحطُّ قدْرَهُنَّ؛ ناسبَهُ تقديمُ إذهابِ الرِّجْسِ، فقال سُبحانَهُ: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾ [الأحزاب: 33]، ولمّا كان التَّطهيرُ معنويًّا لَم يُنَصَّ على وسيلَتِه الحسّيَّةِ، وهيَ الماءُ، وأُكِّدَ الفعلُ إشْعارًا بتمامِ النِّعْمَةِ، فقال ﷻ: ﴿وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾﴾ [الأحزاب: 33].

(1) السّمرقنديّ، بحر العلوم: 11/2.

نُكْتَةُ تَكْرارِ اللّامِ في قَوْلِه: ﴿لِّيُطَهِّرَكُم﴾ ﴿وَلِيَرْبِطَ﴾:

كُرِّرَتِ اللّامُ في (ليَرْبِطَ) مِن قولِ اللّه سُبحانَهُ: ﴿لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ﴾، وكان يُمْكِنُ أن يَرِدَ النَّظْمُ القرآنيُّ: (ويربِطَ على قلوبِكُمْ)، وإنَّما أُعيدَتِ اللّامُ للإشْعارِ إلى أنَّ الرَّبْطَ على القلوبِ هو المقصدُ الأعْظَمُ، وما ذُكِرَ قَبْلَهُ بمنزِلَةِ الوسيلَةِ إليهِ، وما ذُكِرَ بعدَهُ مِنَ التَّثْبيتِ بغيرِ لامٍ في قولِه: ﴿وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ﴾؛ لكونِه لازمًا للرَّبْطِ المذكورِ آنِفًا[1].

مِن أعْظَمِ المَقاصِدِ في مَواقِعِ قِتالِ الكُفّارِ: الرَّبْطُ على قُلوبِ المُؤْمِنينَ

بَلاغَةُ الاسْتِعارَةِ التَّصريحيَّةِ التَّبعيَّةِ:

الرَّبْطُ في الأصلِ هو الشَّدُّ، وهو حقيقةٌ في الأجسامِ، وقد استعير في قولِ اللّه تعالَى: ﴿وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ﴾ لِما حصَلَ في القَلْبِ مِنَ الشَّدِّ والطُّمأنينَةِ بعدَ التَّزَلْزُلِ[2]، وهذا جارٍ على طَريقَةِ الاسْتِعارةِ التَّصريحيَّةِ التَّبعيَّةِ، ونكتَتُها: تصويرُ السُّكونِ والصَّبْرِ اللَّذَيْنِ أنْعَمَ اللّهُ سُبحانَهُ بهما عليهم في قالَبِ المحسوسِ؛ ليَكونَ أقربَ للذِّهْنِ، وأمْكَنَ في النَّفْسِ، ويَجوزُ أنْ تكونَ الاستعارةُ مكنيَّةً أصليَّةً، وإجراؤُها: أنَّه شُبِّهَت القُلوبُ بالأوعيةِ الَّتي مُلِئَتْ شيئًا، ثُمَّ رُبِطَ رأسُها؛ لئلّا يخْرُجَ منها ذلك الشَّيءُ الَّذي وُضِعَ فيها، فحُذِفَ المشبَّهُ به، وهو الأوعيَةُ، وتُرِكَ شيءٌ مِن لوازمِها وهو الرَّبْطُ؛ مبالغَةً في تصويرِ سكونِ القلوبِ، بلُطْفِ اللّهِ تعالَى، حتَّى امتلأتْ مِن كُلِّ خيرٍ، وثبتَ فيها الرَّبْطُ[3].

الرَّبْطُ على القُلوبِ لُطْفٌ مِن اللّهِ علّامِ الغيوبِ

دِلالَةُ حَرْفِ الجَرِّ (على) في قَوْلِه: ﴿عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ﴾:

حرفُ الجرِّ (على) مِن قولِ اللّه ﷻ: ﴿وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ﴾ دالٌّ على الاسْتِعلاءِ - كما هو الأصْلُ فيه - ووجْهُ ذلك: أنَّ الرَّبْطَ

مِن رَبْطِ اللّهِ على قُلوبِهم أنْ طَهَّرهم مِن ذنوبِهم، ونَصَرهم على عدوِّهم

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 237/8.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 283/5.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 236/8.

على القلوبِ لمّا كان ربْطًا مُحْكَمًا غالبًا؛ جاءَ التَّعبيرُ عنه بحرفٍ دالٍّ على الاسْتِعْلاءِ، فقالَ سُبحانَهُ: ﴿وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ﴾[1]، والمعنى: أنَّ قلوبَهُمُ امْتَلَأَتْ مِن ذلك الرَّبط حتَّى كأنَّهُ علا عَلَيْها، وذلك مُشْعِرٌ بغايةِ التَّمكُّنِ[2].

بلاغةُ الكِنايَةِ في قَوْلِه: ﴿وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ﴾:

تَثْبيتُ اللهِ تَعالَى أقْدامَ أهْلِ الإيمانِ في بَدْرٍ تَثْبيتٌ في الظّاهرِ والباطن

قولُ اللهِ ﷻ: ﴿وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ﴾، يُرادُ به حقيقَةُ ما دلَّ عليه هذا اللَّفْظُ، مِن تثبيتِ أقدامِ المُؤْمِنين بتَلْبيدِ المَطَرِ الرَّمْلَ لئلّا تَسوخَ فيهِ أقْدامُهُم، وحَوافِرُ دوابِّهم، كما يدلُّ عليه سببُ نُزولِ الآياتِ، وهو إجماعُ أهلِ العِلْمِ بالتَّفسير[3]. وذهبَ جماعَةٌ مِن أهل العربيَّةِ - كأبي عُبيدَةَ معمرِ بنِ المُثَنَّى - إلى أنَّ المرادَ بتثبيتِ الأقدام: هو إفراغُ الصَّبْرِ عليهم؛ ليَثْبُتوا لِعَدوِّهم[4]، فيَكونُ التَّعبيرُ بتثبيتِ الأقدامِ واردًا على سبيلِ الكِنايةِ على الصَّبْرِ والصُّمودِ في وجهِ العُدوِّ، فلا يحصُلُ منهم فرارٌ وقتَ القتالِ[5]، ولا رَيْبَ أنَّ المعنى الأوَّلَ أظْهَرُ، ولَكِنْ لا يَمْنَعُ ذلك أن يُرادَ المعنى الكِنائيُّ مضمومًا إلى المعنَى الحقيقيِّ، بل إنَّ ذلك يُؤَيِّدُهُ ويقَوِّيه، فتكون دلالَةُ الآيةِ على الكِنايَةِ وارِدَةً على وجهِ التَّبَعِ للمعنَى الحقيقيِّ.

بَيانُ مَرْجِعِ الضَّميرِ في قَوْلِه: ﴿وَيُثَبِّتَ بِهِ﴾:

أثَرُ تَعْيينِ مَرْجِعِ الضَّميرِ في وفْرَةِ المَعاني القرآنيَّةِ

الباءُ للسَّببيَّةِ والضَّميرُ في ﴿بِهِۦ﴾ من قولِ اللهِ سُبحانَهُ: ﴿وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ﴾، يجوزُ أنْ يَرْجِعَ إلى الماء، فيكونَ التَّثبيتُ حسّيًّا، أو إلى ربْطِ القلوبِ، فيكونَ تثبيتُ الأقْدامِ عِبارَةً عَنِ النَّصْرِ والإعانَةِ في مَواطنِ الحربِ، والأوَّلُ أظْهَرُ، ويُستفادُ المعنى الآخَرُ بطريقِ الكنايَةِ -كما تقدَّمَ-.

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 236/8.
(2) الخازن، لباب التّأويل: 298/2، والآلوسيّ، روح المعاني: 165/5.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 427/13 - 428.
(4) معمر بن المثنى، مجاز القرآن: 242/1.
(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 283/5.

دِلالَةُ (ال) في ﴿ٱلْأَقْدَامَ﴾:

مُراعاةُ التَّناسُبِ الصَّوْتيِّ والمَعْنَويِّ بين خَواتيمِ الآياتِ القرآنيَّةِ

اللّامُ في ﴿ٱلْأَقْدَامَ﴾ مِن قَوْلِ اللّهِ ﷻ: ﴿وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ﴾، عِوَضٌ عَنْ مُضافٍ إليهِ، والأصلُ: ويُثبِّتَ به أقدامَكُم، فحُذِفَ المضافُ إليه، وعوِّضَ عنه اللّام؛ ليكونَ ذلكَ مُلائمًا للتَّناسُبِ الصَّوْتيِّ بينَ أواخِرِ الآيِ، بخلافِ ما لَوْ ورَدَ النَّظْمُ القرآنيُّ: (وَيُثَبِّتَ به أقْدامَكُمْ)، ويمكنُ أن يُقال: إنَّ اللّام عهديَّةٌ ذهنيَّة، والمراد منها أقدام المؤمنين دون غيرهم، فقد امتنَّ اللّه على عباده المؤمنين، بتطهيرهم من الأحداث الظّاهرة، وإزالة ما في بواطنهم من وساوس الشَّيطانِ الخطرة، والرَّبطِ على قلوبهم بالصَّبر عند المنازلة، وتثبيت أقدام المؤمنين، بتلبيد الأرض الرَّمليَّة المائجة، بالمطر حتَّى تثبتَ فيها الأقدام، ولا تنزلق[1].

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

النُّعاس والسِّنَة والنَّوْمِ:

النُّعاسُ والسِّنَةُ والنَّومُ جميعها غفوةٌ وغشية عن الوعي

السِّنَةُ: ثِقَلُ النُّعاسِ، والنَّوْمُ: الغَشْيَةُ الثَّقيلَةُ الَّتي تقطَعُ القلبَ عَن معرفتِه بالأمورِ الظّاهرَةِ[2]، وفرَّق بينَها بعضُ أهل العلم: بأنَّ السِّنَةَ مِنَ الرَّأسِ، والنُّعاسَ في العَيْنِ، والنَّوْمَ في القَلْبِ[3]، والحاصِلُ: أنَّ النُّعاسَ والسِّنَةَ مبادئُ النَّوْمِ.

الشَّيْطان وإبْليس:

يَرِدُ لفظُ (إبْليس) في القرآنِ الكَريمِ مُرادًا به اسمُ عَلَم على الَّذي امْتَنَعَ مِنَ السُّجودِ لآدَمَ عليه السلام، كما في قول اللّه سُبحانَهُ: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [البقرة: 34]، وهو مشتَقٌّ مِنَ الإبْلاسِ، وهو شِدَّة اليأْسِ؛

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 283/5.
(2) الواحديّ، التّفسير البسيط: 349/4.
(3) الفيّوميّ، المصباح المنير: (نوم).

لأنَّ اللّه سُبحانَهُ آيسَهُ مِن كُلِّ خيرٍ، أمّا الشَّيطانُ؛ فيقَعُ وصفًا لكلِّ عاتٍ متمرِّدٍ مِنَ الجنِّ والإنسِ والدَّوابِّ، فلفظُ الشَّيطانِ أعَمُّ مطلقًا مِن إبليسَ[1].

إبليسُ هو زعيمُ الشَّياطين، ورائدُهم في كلِّ فِعلٍ مُشين

الرِّجْز والرِّجْس:

الرِّجْزُ والرِّجْسُ متَقارِبانِ لفْظًا ومَعْنًى، فإنَّ الرِّجْزَ يدلُّ على اضطِرابٍ، والرِّجْسَ يدلُّ على اختلاطٍ، إلّا أنَّ الرِّجْزَ في القرآن الكريم اختصَّ بالعذاب، بخلافِ الرِّجْسِ فإنَّه يغلِبُ في التَّعبير عنِ القَذَرِ حسّيًّا كان أو معنويًّا؛ لِما في القذَرِ مِن اللَّطْخِ والخَلْطِ، والرِّجْسُ وإن استُعمِلَ في القرآن الكريم مرادًا به العذابُ، كما في قولِ اللّه سُبحانَهُ: ﴿قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ﴾ [الأعراف: 71]، إلّا أنَّهُ قد جُعِلَ ما أفضَى إلى العذابِ رجسًا؛ استقذارًا لَهُ، فلَم يخْرُجْ عَنْ أصلِ دِلالَتِه، أمّا الرِّجْزُ؛ فلا يَخْرُجُ عَن معْنَى العذابِ، وذلك لِما يُتَصوَّرُ فيه من اضطرابٍ وحركَةٍ وجلَبَةٍ؛ إذِ العذابُ النّازِلُ لا بُدَّ فيه لِلْمنزولِ بهم، مِن أن يَضْطَرِبوا لأجْلِه، وثَمَّ مَلْمَحٌ دِلاليٌّ بين الرِّجْزِ والرِّجْسِ، يومئُ إليهِ الحرفانِ اللَّذانِ وقعَ فيهما الاختلافُ بين الكَلِمَتَيْن وهما الزّايُ والسّينُ؛ فإنَّ الرِّجْزَ اختصَّ بالعذابِ؛ لِما في الزّاي مِنَ الجهْرِ، والجَهْرُ مِن صفاتِ القوَّةِ في الحروفِ، فهو بهذا الاعْتِبارِ أقوَى مِنَ السّين الَّتي من صفاتِها الهمسُ - وهو أي: الهمسُ - مِن صفاتِ الضَّعْفِ، فاختصَّ الرِّجْسُ بما لَيْسَ في مَعناهُ مِنَ الشِّدَّة الَّتي في الرِّجْزِ[2].

الرِّجْسُ يؤدّي إلى الرِّجْزِ، وكلاهما مُستقبَحٌ مَرْذول

(1) محمّد ياس خضر الدّوريّ، دقائق الفروق اللّغويّة في البيان القرآنيّ، ص: 155 - 156.
(2) محمّد ياس خضر الدّوريّ، دقائق الفروق اللغوية في البيان القرآني، ص: 336 - 358.

﴿إِذۡ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمۡ فَثَبِّتُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ سَأُلۡقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعۡبَ فَٱضۡرِبُواْ فَوۡقَ ٱلۡأَعۡنَاقِ وَٱضۡرِبُواْ مِنۡهُمۡ كُلَّ بَنَانٖ ١٢﴾ [الأنفال: 12]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الرَّبطُ بين تثبيتِ اللهِ للقلوب والأقدام، وبَينَ دعمِ الصَّفوةِ من الملائكة الكرام

لَمّا ذَكَرَ اللهُ سُبحانَهُ حِكْمَةَ إمدادِه أهلَ الإيمانِ بالملائكَةِ، وما تَلاهُ مِنَ الآثارِ المُثَبِّتَةِ لِلْقُلوبِ والأقْدامِ؛ ذَكَرَ في هذه الآيَةِ ما أمَرَ به ذلكَ المَدَدَ مِنَ التَّثْبيتِ بالقَوْلِ والفِعْلِ، فقال ﷻ: ﴿إِذۡ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمۡ فَثَبِّتُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ سَأُلۡقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعۡبَ فَٱضۡرِبُواْ فَوۡقَ ٱلۡأَعۡنَاقِ وَٱضۡرِبُواْ مِنۡهُمۡ كُلَّ بَنَانٖ﴾[1]، وذلك "بأن يُثبِّتوا المسلمين، ويُقووا قلوبهم، فيلهموهم تَذكُّر وعْدِ اللّه لرسوله بالنَّصر، وأنَّه تعالى لا يُخلف الميعادَ، وأنَّه تعالى سيجعل الرُّعب يستولي على قلوب المشركين فيصيبهم الفَزَعُ"[2]، وفي ذلك دعمٌ لأوليائه، ودحرٌ لأعدائه، كما وعَدَ في كتبهِ المنزلة، وشرائعه المرسلة.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يُوحِي﴾: الواوُ والحاءُ والحرفُ المعتَلُّ، تدورُ تصاريفُهُ على إلقاءِ عِلْمٍ على وجْهِ الإخفاءِ، ومنه: الوحيُ؛ وهو الإشارَةُ، وكلُّ ما ألقاهُ أحدٌ إلى غيرِه حتَّى عَلِمَهُ؛ فهو وحْيٌ[3]، وأصلُ الوَحْيِ: الإشارَةُ السَّريعَةُ[4]، والوَحيُ مِنَ اللهِ سُبحانَهُ يكونُ بالإنْباءِ، ويكونُ بالإلهامِ[5]، وسُمّيَ ما يوحيه اللّهُ تعالى إلى أنبيائِه وحيًا؛ لأنَّ المَلَكَ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 237/8.
(2) أسعد حومد، أيسر التفاسير، ص: 173.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (وحى).
(4) الرّاغب، المفردات: (وحى).
(5) ابن دريد، جمهرة اللّغة: (وحي).

أخفاهُ عَن جَميع الخَلْقِ، وخصَّ به النَّبيَّ المَبْعوثَ إليه[1]، ومعنى قولِ اللّه سُبحانَهُ: ﴿يُوحِي رَبُّكَ﴾: يُلْقي إليهم مِن وجْهٍ يَخْفَى[2].

2) ﴿فَثَبِّتُواْ﴾: الثّاءُ والباءُ والتّاءُ، تدلُّ اشتقاقاتُها على دوامِ الشَّيءِ[3]، ومنه الثَّباتُ وهو ضِدُّ الزَّوالِ، ويُطْلَقُ الثَّباتُ علَى النَّفْسيِّ، بمعنَى: سُكونِ القَلْبِ[4]. والتَّثْبيتُ مصدَرٌ بزِنَةِ التَّفعيلِ، وهو دالٌّ على الجَعْلِ، فقولُ القائلِ: ثبَّتَهُ، أي: جَعَلَهُ ثابتًا، ومنه قولُ اللّه تعالى: ﴿فَثَبِّتُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، فإنَّ المرادَ بالتَّثبيتِ: إزالَةُ الاضْطِرابِ النَّفْسيِّ[5].

3) ﴿ٱلرُّعْبَ﴾: الرّاءُ والعينُ والباءُ، تدلُّ كثيرٌ مِن تصْريفاتِها على معنى الخَوْفِ[6]، والرُّعْبُ: الخَوْفُ والفَزَعُ، تقولُ: رَعَبْتُهُ فهو مرعوبٌ؛ إذا أفْزَعْتَهُ[7]، وفُسِّر الرُّعْبُ بأنَّه أشدُّ الخَوْفِ لا مُطْلَقُهُ[8]، وقال الرّاغِبُ: (الرُّعْبُ: الانْقِطاعُ مِن امْتلاءِ الخَوْفِ)[9]، والرُّعْبُ في قولِ اللّه تعالَى: ﴿سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعْبَ﴾ هو الخَوْفُ الشَّديدُ الذي يَمْلَأُ القَلْبَ[10].

4) ﴿بَنَانٍ﴾: الباءُ والنّونُ، تدلُّ علَى امْتِدادِ الشَّيْءِ اللَّطيفِ مِن أصْلِه أو فيه، ومنه البَنانَةُ، وهو: طَرَفُ الإصْبعِ، سُمّيَ بذلك، لأنَّه يَبْدو امْتِدادًا لأصْلِه، معَ لُطْفِ هذا الامْتِدادِ؛ حَيْثُ لا يَظْهَرُ الفاصِلُ بينَ الأنامِلِ[11]. والبَنانُ جمعٌ، مفردُهُ: بنانَةٌ[12]، والبنانُ قد يُطْلَقُ علَى الأطرافِ مِنَ اليَدَيْنِ والرِّجْلَيْنِ[13]. والتَّحقيقُ عندَ أهلِ اللُّغَةِ: أنَّ البنانَ أطْرافُ الأصابِعِ، والأشهَرُ إطلاقُها علَى أطْرافِ أصابِعِ اليَدِ خاصَّةً[14].

(1) الأنباريّ، الزّاهر: 341/2.
(2) الواحديّ، التّفسير البسيط: 52/10.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ثبت).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (ثبت).
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 281/9.
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (رعب).
(7) الجوهريّ، الصّحاح: (رغب).
(8) الزَّبيديّ، تاج العروس: (رعب).
(9) الرّاغب، المفردات: (رعب).
(10) رشيد رضا، تفسير المنار: 509/9.
(11) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (بنن).
(12) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (بنّ).
(13) الواحديّ، التّفسير البسيط: 55/10.
(14) الشِّنقيطيّ، العذب النَّمير: 553/4 - 554.

المَعْنى الإجْماليُّ:

الوحيُ إلى الملائكة بتثبيتِ المؤمنين بالإيقانِ بنصر أوليائه ودحرِ أعدائه

إذْ يوحي ربُّكَ - أيُّها الرَّسولُ الكريمُ - إلى الملائكَة الذينَ أمدَّ اللّهُ تعالَى بهم أهلَ الإيمانِ في غَزْوَةِ بَدْرٍ: أنَّي معَكُمْ؛ أُعينُكُم وأنْصُرُكم، فقوّوا عزائِمَ المُؤْمِنينَ، سَأُلقي في قلوبِ الذينَ كفَروا الخَوْفَ الشَّديدَ والذِّلَّة والصَّغار، وأملؤُها فرَقًا حتَّى ينهَزِموا عَنْكُم، فاضْرِبوا - أيُّها المُؤْمِنونَ - رُؤوسَ الكُفّار، واضْرِبوا منهم أطرافَ الأصابِعِ الَّتي بها إحكامُ قبضَةِ السِّلاحِ[1]، وهذه نِعْمةٌ خفيَّةٌ، أظْهَرها اللّه تعالى للمؤمنين، كيما يشكروه على ما خبَّأ لهم من نُصرةٍ ودَعْمٍ وتأييد، بوحيه العلويِّ إلى الملائكة الَّذين أرسلهم لهذه المهمَّة العظمى، ليقوموا بتقويَةِ القلوب، والتَّذكيرِ بوَعْدِ علّام الغيوب الَّذي تعهَّد بنصر رسلِه والمؤمنين، وذلك ما لا ريب فيه؛ لأنَّ اللّه لا يخلف الميعاد، وقد أظهر ذلك في غزوة بدرٍ، كما أمَرَ وأراد[2].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

تَخْصيصُ الخِطابِ بالنَّبيِّ القدوةِ ﷺ بَعْدَ تَعْميمِه لِلْمُؤْمِنينَ

عِلَّةُ فصْلِ قَوْلِه: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾:

فُصِلَ قولُ اللّه ﷻ: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ عمّا قَبْلَهُ؛ لوقوعِه استئنافًا، فـ (إذْ) في موضعِ نصبٍ بفعلٍ محذوفٍ، تقديره: اذكُرْ[3]، وجَوَّزَ بعضُ أهلِ العِلْم أن يكونَ بَدَلًا ثالثًا من ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ﴾[4]، إلّا أنَّ في هذا التَّجويزِ نظرًا؛ إذْ يُبْعِدُهُ تخصيصُ الخِطاب بالنَّبيِّ[5] ﷺ، وكَوْنُ الجملةِ مستأنفةً أقْوَى.

دِلالَةُ إيجازِ الحَذْفِ في قَوْلِه: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾:

﴿إِذْ﴾ مِن قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾، ظرفُ

(1) ابن جرير، جامع البيان: 428/13 - 431، ونخبة من العلماء، التّفسير الميسّر، ص: 178.
(2) أسعد حومد، أيسر التّفاسير، ص: 173.
(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 10/4.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 237/8.
(5) الآلوسيّ، روح المعاني: 165/5.

زمانٍ مبنيٌّ علَى السُّكون متعلِّقٌ بفعْلٍ محذوفٍ، تقديرُهُ: اذكُرْ، مرادًا بهِ النَّبيُّ ﷺ، فيكونُ في الآيةِ إيجازٌ بالحذفِ؛ إذْ قد حُذِفَ الفعلُ وفاعلُهُ، وهو (اذْكُرْ)، وتقديرُ هذا الفِعْلِ يَسْتَلْزِمُ تَذْكيرًا متجدِّدًا بمضمونِ هذا الوَحْيِ.

التَّذْكيرُ المتَجَدِّدُ بمَضْمونِ الوَحْيِ، يوجِبُ تَجْديدَ شُكْرِ اللهِ تَعالَى عليه

نُكْتَةُ التَّعْبيرِ بالمُضارِعِ في قَوْلِه: ﴿إِذْ يُوحِى﴾:

جاءَ التَّعبيرُ بالفِعْلِ المُضارِعِ ﴿يُوحِى﴾ مِن قولِ اللّه ﷻ: ﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ﴾، وهو دالٌّ في الأصْلِ على الحالِ أوِ الاسْتِقبالِ، وهذا الإيحاءُ الخاصُّ أمرٌ ماضٍ؛ لكونِ السّورَةِ نازلَةً بعد وقْعَةِ بَدْرٍ، ومعَ ذلك، فإنَّ النَّظْمَ القرآنيَّ لَم يَرِدْ: (إذ أوحَى ربُّكَ إلى الملائِكَةِ)، ونُكْتَةُ ذلك: حكايَةُ الحالِ الماضيةِ اسْتِحْضارًا لِعَظيمِ المِنَّةِ بها.

عَظيمُ مِنَّةِ اللهِ تَعالَى على أهْلِ الإيمانِ في بَدْرٍ الكبرى

سِرُّ التَّعبيرِ بلفظ (الرَّبِّ) في قَوْلِه: ﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ﴾:

في التَّعبيرِ بالاسْمِ الأحْسَنِ (الرَّبِّ) في قولِ اللّه سُبحانَهُ: ﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ﴾ إشعارٌ بأنَّ إيحاءَ اللّهِ تعالى إلى الملائكَةِ بتثبيتِ أهل الإيمانِ هو مِن مقتضَياتِ رُبوبيَّتِه وإحسانِه بهمْ[1]، وهَذِه تربيَةٌ خاصَّةٌ؛ لأنَّ فيها دَفْعًا للصَّوارِفِ والعوائقِ الحائلَةِ بينَهُم وبينَ الإيمانِ.

دَفْعُ الصَّوارِفِ عنِ الإيمانِ مِنَّةُ اللهِ تَعالَى على عِبادِه في كلِّ آنٍ

نُكْتَةُ إضافَةِ اسْمِ الرَّبِّ إلى ضَميرِ الخِطابِ في قَوْلِه: ﴿رَبُّكَ﴾:

أُضيفَ الاسمُ الأعظم (الرَّبّ) إلى ضميرِ الخِطابِ المُرادِ بهِ النَّبيُّ ﷺ، في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ﴾؛ لنُكْتَتَيْنِ[2]: إحداهُما: مُلاءَمَةُ ما تقدَّم مِن قولِ اللّه سُبحانَهُ: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ﴾ [الأنفال: 9]، والأُخْرَى: فيه من التَّنويه بقدرِ النَّبيِّ ﷺ، إيماءً إلى أنَّه فعَلَ ذلك لُطْفًا بهِ، ورفعًا لشأنِه.

لُطْفُ اللهِ تَعالَى بنَبيِّه المصطفى، والتَّنْويهُ بقدرِه الأوْفَى

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 237/8.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 280/9.

سِرُّ تَخْصيصِ الخِطابِ بالنَّبيِّ الأوّاب في قَوْلِه: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ﴾:

تخصيصُ النَّبيِّ بالخطابِ وحدَهُ تكريمٌ لجنابه الكريم وهَدْيِه

خُصَّ الخطابُ بالنَّبيِّ ﷺ في قولِ اللّهِ سُبحانَهُ: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾، بعد تعميمِه قَبْلُ، في نَحْوِ قولِه تعالَى: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ﴾، وقولِه ﷻ: ﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾، وذلك أنَّ في هذهِ أشياءَ لا تُناسِبُ مقامَ النُّبوَّةِ، ولَكِنْ لمّا وردَ ذِكْرُ الوَحْيِ إلى الملائِكَةِ؛ جيءَ بالخِطابِ للنَّبيِّ ﷺ؛ تشريفًا لَهُ وتَكْريمًا بمواجَهَتِه بالخِطابِ وحْدَهُ[1]، وفيه تلطُّفٌ به ﷺ، حيثُ كانَتْ هذه الآيةُ مُفصِّلَةً عمَلَ الملائكَةِ في بَدْرٍ، وما خاطبَهُم اللّهُ تعالَى بهِ، فكان تخصيصُ الخطابِ بالنَّبيِّ ﷺ أحْرَى؛ لكونِهَ أحقَّ مَنْ يَعْلَمُ هذا العِلْمَ، ثُمَّ يحصُلُ لِلْمُسْلِمينَ هذا العِلْمُ تَبَعًا لهُ[2]، وقد "خوطب به النَّبيُّ ﷺ بطريق التَّجريدِ، حسبما تنطِق به (الكافُ)، لِما أنَّ المأمورَ به، ممّا لا يستطيعه غيرُه ﷺ، فإنَّ الوحيَ المذكورَ، قبل ظهورِه بالوحي المتلوِّ على لسانهِ ﷺ، ليس من النِّعم الَّتي يقف عليها عامَّةُ الأمَّةِ"[3].

دِلالَةُ (ال) في لفظ ﴿ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾:

مُشارَكَةُ المَلائِكَةِ في غَزْوَةِ بَدْرٍ، كانت إمّا قِتالًا وإمّا مَدَدًا وتَأْييدًا

اللّامُ في ﴿ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ مِن قَوْلِ اللّهِ تَعالَى: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾، يُرادُ بها العَهْدُ العِلْميُّ، وهمُ الملائِكَةُ الَّذينَ شاركوا المُسلمينَ في غَزْوَةِ بَدْرٍ، سواءٌ أكان ذلك على جِهَةِ القِتالِ أم على جِهَةِ المَدَدِ والتَّأييدِ، وجدير بالذِّكر أنَّ اللّه تعالى، قد أوحى إلى الملائكة أنْ يُثَبِّتوا المؤمنين، بنصرهم وتبشيرِهم بالنُّصرة،

وقد روي أنَّ الملائكة يتشبَّهون بالرِّجال الَّذين يعرفونهم بوجوههم، ويمشون بين الصَّفين يوم بدر، فيقول أحدهم: أبشروا فإنَّ اللّه تعالى ناصرُكم"[4].

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 284/5، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 10/4.
(2) ابن عاشو، التّحرير والتّنوير: 280/9.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 10/4.
(4) الجاويّ، مراح لبيد لكشف معنى القرآن المجيد: 419/1.

نكتةُ فصلِ قوله: ﴿أَنِّي مَعَكُمْ﴾ عمّا قبلها:

مضمونُ الإيحاء هو معيَّةُ الله القريبُ الَّتي من اعتمدَ عليها لا يخيب

فُصِلت هذه الجملةُ عن سابقتها، إمّا لكمال اتِّصالها بها؛ لأنَّها بدلٌ منها ومفسِّرةٌ لها، أو للاستئناف البيانيِّ جوابًا عن سؤال مقدَّرٍ في الذِّهن: ماذا أوحى اللّه إلى الملائكة؟ ومفاد ذلك قوله له: "اذكر - أيُّها النَّبيُّ - ومن معك، وحْيَ اللّه تعالى المستمر الَّذي لا ينقطع إلى الملائكة، أنَّ اللّه معكم أيُّها الملائكة، في تأييدهم للمؤمنين، فهو سبحانه ﷻ في ملكوته الأعلى، معكم في تأييد المؤمنين وتثبيت قلوبهم"[1].

سِرُّ التَّأْكيدِ في قَوْلِ اللهِ تَعالَى: ﴿أَنِّي مَعَكُمْ﴾:

تَأْكيدُ مَعيَّةِ اللهِ تَعالَى لِأَهْلِ الإيمانِ نَصْرٌ وتأييد وأمان

أُكِّدَت جملةُ تفسيرِ الإيحاءِ بـ (أنَّ)، والجملة الاسميَّةِ في قولِه ﷻ: ﴿أَنِّي مَعَكُمْ﴾ تأكيدًا لحصولِ معيَّةِ اللّهِ تعالى لأهل الإيمانِ، بنَصْرِهم وتأييدِهم، وطَمْأنَةً لِقُلوبهم ليَشْتَدَّ ثباتُهُم عند لِقائِهم عَدوَّهُم.

بَلاغَةُ الالتِفاتِ:

التَّصْريحُ بالتَّكَلُّمِ أبْلَغُ في تَحْقيقِ العَظَمَةِ والسُّموِّ والمَهابَةِ

في قولِ اللّهِ جلَّ وعلا: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ﴾ التفاتٌ مِنَ الغَيبَةِ إلى التَّكلُّم، وذلك أنَّ قولَهُ سُبحانَهُ: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ﴾ واردٌ علَى أُسْلوبِ الغَيْبَةِ؛ إذِ الاسْمُ الظّاهرُ بمنزلَةِ الغَيْبَةِ، ثُمَّ حوِّلَ التَّعبيرُ إلى التَّكلُّم في قولِه تعالَى: ﴿أَنِّي مَعَكُمْ﴾، وقد كانَ مُقْتَضَى الظّاهرِ: (إذْ يوحي ربُّكَ إلى المَلائكَةِ أنَّهُ معَكُمْ)، ونُكْتَةُ العدولِ مِنَ الغَيْبَةِ إلى التَّكلُّم: ما في التَّصريحِ بالتَّكلُّمِ مِنَ العَظَمَةِ والبرَكَةِ والمَهابَةِ.

دِلالَةُ المَعيَّةِ في قَوْلِه: ﴿أَنِّي مَعَكُمْ﴾:

مِن مَعيَّةِ اللهِ تَعالَى لِأَهْلِ الإيمانِ: إزالَةُ الخَوْفِ عنهم

المَعيَّةُ في قَوْلِه سُبحانَهُ: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ﴾، جائزٌ أنْ يكونَ المرادُ، أنَّ اللّه تعالَى أوحَى إلى المَلائكَةِ، أنَّهُ معَهُم حالَ إرْسالِهم رِدْءًا لِلْمُسْلِمينَ، ويجوزُ أن يكونَ المُرادُ: أنَّ اللّه ﷻ

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 3080/6.

أوحَى إلى الملائِكَة أنَّه معَ المُؤمِنينَ. والثّاني أظْهَرُ؛ لأنَّ المَقْصودَ مِن هذا الكَلامِ إزالَةُ الخَوْفِ، والملائِكَةُ لَم يخافوا مِنَ الكُفّارِ حتَّى يُحتاجَ إلى إزالتِه منهمْ[1].

دِلالَةُ (الفاءِ) في قَوْلِه: ﴿فَثَبِّتُواْ﴾:

الفاءُ في قولِه ﷻ: ﴿فَثَبِّتُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ﴾ يُرادُ بها تَرْتيبُ ما بعدَها علَى ما قَبْلَها؛ وذلك أنَّ إمدادَهُ سُبحانَهُ إيّاهُم مِن أقْوَى موجباتِ التَّثبيتِ[2]، ويَحْتَمِلُ أنْ تَكونَ الفاءُ فصيحةً، فقد أفْصَحَت عن شَرْطٍ مقدَّرٍ، والتَّقديرُ: إذا كان اللّه سُبحانَهُ معكُم في هذا التَّأييدِ، فثبِّتوا الَّذين آمنوا[3]، وهذا علَى القَوْلِ بأنَّ المعيَّةَ للملائِكَةِ وهو خِلافُ الأولَى.

إمْدادُ اللهِ تَعالَى عِبادَهُ بالمَلائِكَةِ مِن أقْوَى موجِباتِ التَّثْبيتِ

بَراعَةُ المَجازِ في قَوْلِه: ﴿فَثَبِّتُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ﴾:

التَّثْبيتُ في قولِ اللّه سُبحانَهُ: ﴿فَثَبِّتُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ﴾ مجازٌ في إزالَةِ الاضْطِرابِ النَّفسانيِّ الَّذي ينشَأُ عن الخَوْفِ وعَدمِ استقرارِ الرَّأْيِ واطمئنانِه[4]، والمطلوب بتثبيت الَّذين آمنوا، أنْ "قوّوا عزائم المؤمنين، وثبِّتوا قلوبَهم، أي: اجعلوا قلوبهم، كأنَّها مربوطةٌ عليها، فلا يخافون أيَّةَ أغيارٍ مِن عدوِّهم"[5].

المُرادُ بالتَّثْبيتِ إزالَةُ الاضْطِرابِ النَّفْسيِّ النّاشِئِ عَنِ الخَوْفِ والاضطراب

سِرُّ التَّعْبيرِ بالاسْمِ المَوْصولِ في قَوْلِه: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ﴾:

عُرِّفَ المُثَبَّتونَ بالاسْمِ المَوْصول (الّذي) في قَوْلِه ﷻ: ﴿فَثَبِّتُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ﴾؛ لِما تدلُّ عليه جُمْلَةُ الصِّلَةِ ﴿ءَامَنُواْۚ﴾ مِن التَّعليل، فإيمانُهم هو الباعِثُ على هذه العنايَةِ[6]، وفي هذا حثٌّ على تحْصيلِ

العِنايَةُ الإلَهيَّةُ بالمُؤْمِنينَ، تَكونُ بقدرِ ما حَصَّلوهُ مِنَ الإيمانِ

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 463/15.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 10/4.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 3080/6.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 281/9.
(5) الشّعراويّ، تفسير الشّعراوي: 4600/8.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 281/9.

هذا الوَصْفِ ليَتَحقَّقَ لأصحابِها مِنَ العنايَةِ بقدرِ ما حصَّلوهُ منه، وهو يقول للمؤمنين: "إيّاكم أنْ تظنّوا أنَّ كثرةَ العدَدِ أو قوَّةَ العُدَدِ، هي الَّتي تَصْنعُ النَّصرَ، بل النَّصرُ دائمًا من عند اللّه تعالى وهو سبحانه القائل: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِۗ﴾ [البقرة: 249]"[1].

عِلَّةُ فصْلِ قَوْلِه: ﴿سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾:

كِفايَةُ اللهِ سُبْحانَهُ المُسْلِمينَ تَخْذيلَ الكافِرينَ، بما لا يدخل في مهمَّة الملائكةِ

فُصِلَ قولُ اللّهِ ﷻ: ﴿سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ عَمّا قَبْلَهُ؛ لوقوعِه بيانًا، فبينه وبينَ ما قَبْلَهُ كمالُ الاتِّصالِ، وذلك أنَّ قولَهُ سُبحانَهُ: ﴿سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾، واردٌ على سَبيلِ بيانِ المعيَّةِ في قولِه قَبْلُ: ﴿أَنِّي مَعَكُمْ﴾[2]. ويُجوزُ أن تكونَ الجُمْلَةُ استئنافًا ابتِدائيًّا جاريةً مجرَى التَّعليلِ، لإفادَةِ التَّثبيتِ[3]، والأظْهَرُ أنَّ هذا الاسْتِئْنافَ مُرادٌ به إخبارُهُم بما يَقْتضي التَّخفيفَ عَنْهم في العملِ الَّذي أمَرَهُم اللّهُ تعالى بهِ؛ وذلك بأنْ كفاهُمُ اللّهُ سُبحانَهُ تخذيلَ الكافِرينَ بعمَلٍ آخَرَ غيرِ الَّذي أمَرَ به الملائِكَةَ، وعلَى هذا فليستِ الجملَةُ بيانًا للمعيَّةِ في قولِه: ﴿أَنِّي مَعَكُمْ﴾[4].

نُكْتَةُ التَّعْبيرِ بـ ﴿سَأُلْقِي﴾ دونَ (سَنُلْقي):

قهْرُ اللهِ يرعب الجبابرةَ والكفرة، وأصحاب العتوِّ والطُّغيان والأَثَرة

في قولِه: ﴿سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعْبَ﴾ جاءَ التَّعبيرُ بـ ﴿سَأُلْقِي﴾ دون (سَنُلْقي)، مع أنَّ النّونَ أدْخَلُ في الدِّلالَةِ على التَّعظيمِ؛ دفعًا لِتَوهُّمِ أنْ يكونَ لِلْملائكَةِ المخاطَبينَ سببٌ في إلقاءِ الرُّعْبِ في قلوبِ الكافرينَ[5]، وما في ﴿سَأُلْقِي﴾ مِنَ الإشعارِ بعَظَمَةِ هذا الإلقاءِ؛ إذْ تكفَّلَ اللّهُ تعالى به، فعظَمَةُ اللّه كفيلةٌ بإرعاب

(1) الشّعراويّ، تفسير الشّعراوي: 4600/8.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 237/8.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 166/5.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 10/4.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 282/9.

الكفرة، مهما كانت سَطْوَتُهم، ومهما زعموا من قوَّةٍ، أو ادَّعوا من غلبةٍ وقهر، فاللّه من ورائِهم محيطٌ.

تَوْجيهُ المُتَشابه اللَّفْظيّ:

دِقَّةُ البَيانِ القرآنيِّ في انْتِقاءِ الألفاظِ المُلائِمَةِ لِسياقاتِها

قالَ اللّه ﷻ: ﴿سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُواْ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ﴾ [الأنفال: 12]، وقال ﷻ: ﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعْبَ بِمَآ أَشْرَكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا﴾ [آل عمران: 151]، ووجهُ المغايَرَةِ بينَهُما أنَّ آيةَ آلِ عمرانَ سُبِقَتْ بقولِ اللّه جلَّ وعلا: ﴿بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّٰصِرِينَ ١٥٠﴾ [آل عمران: 150]، فلَمّا كان مُقتضَى الظّاهرِ فيها أن يَرِدَ النَّظْمُ القرآنيُّ: (سيُلْقي في قلوب الذين كفَروا الرُّعْبَ)، لكن لمّا كان الوَعْدُ من المتكلِّم الحاضِر المعتزِّ بنفسِه أدْعَى للثِّقةِ، وكان نونُ العظَمَةِ أدلَّ على هذا المعنى؛ ناسبَهُ قولُهُ سُبحانَهُ: ﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعْبَ﴾ [آل عمران: 150]، بخلاف آيةِ الأنفالِ، فإنَّه عُدِلَ فيها عن ضمير العظَمَةِ، لئلّا يُفْهَمَ دخولُ الملائِكَةِ في فِعْلِ الإلقاءِ، كما تقدَّم.

بديعُ الطِّباقِ في الآية:

إظْهارُ شَرَفِ أهْلِ الإيمانِ وبَيانُ حَقارَةِ أهْلِ الكُفْران

في قولِ اللّه ﷻ: ﴿فَثَبِّتُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ طباقُ إيجابٍ، بينَ ﴿ءَامَنُواْ﴾ و﴿كَفَرُواْ﴾، وفي ذلك إظهارٌ لشَرَفِ أهلِ الإيمانِ، وعظيمِ منزلَتِهم، وبيانٌ لحقارَةِ أهلِ الكُفْرِ وانحطاطِ رُتْبَتِهم؛ وذلك أنَّ الضِّدَّ يُظْهِرُ حُسْنَهُ أو قُبْحَهُ ضِدُّهُ.

دِلالَةُ الأمْرِ في قَوْلِه: ﴿فَٱضْرِبُواْ﴾:

تَأْييدُ اللهِ تَعالَى عِبادَهُ المُؤْمِنينَ بالمَلائِكَةِ مُشاركةٌ لهم وتسديدٌ

الفاءُ للتَّرتيب والتَّعقيب، والأمْرُ في قولِ اللّهِ جلَّ وعلا: ﴿فَٱضْرِبُواْ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ﴾، يُرادُ به الإخبارُ عَنْ صورَةِ الحالِ، (كما تقولُ إذا وصَفْتَ حَرْبًا لِمَن تُخاطِبُهُ: لَقينا القَوْمَ وهَزَمْناهُم، فاضْرِبْ بسَيْفِكَ

حَيْثُ شِئْتَ، واقْتُل وخُذْ أسيرَكَ؛ أيْ: هذه كانَتْ صِفَةَ الحالِ)[1]، ويَجوزُ أن يكونَ أمْرًا على بابه، وفي المأمورِ بهذا قولانِ[2]: أحدهُما: أنَّهم المُسْلِمونَ، ويكونُ في هذا التفاتٌ في الخِطابِ مِنَ الملائكَةِ إلى المؤمنينَ[3]، وهذا القولُ فيهِ بُعْدٌ؛ لأنَّ هذهِ السّورةَ نَزَلَتْ بَعْدَ انتِهاءِ المعرَكَةِ. والآخَرُ: أنَّهمُ المَلائِكَةُ، فقد أُمِروا بقطْعِ الأعناقِ والأصابعِ على كيفيَّةٍ مخالِفَةٍ لما جرَتْ به العادَةُ، وعلى هذا فيكونُ إسنادُ الضَّرْبِ إليهم حقيقةً، وهذا أقْوَى[4]. ويجوزُ أن يكونَ المرادُ تسديدَ ضرباتِ أهل الإيمانِ، وتوجيه المُشْرِكينَ إلى جِهَتِها، فيكونَ إسنادُ الضَّرْبِ إلى الملائِكَةِ مجازًا، وهو مجازٌ عَقْليٌّ، علاقتُهُ السَّبَبيَّةُ؛ إذِ الملائكَةُ كانوا سببًا في ضَرْبِ المسلمينَ أعناقَ الكُفّارِ وبنانَهُمْ.

دِلالَةُ الفَوْقيَّةِ بين الإيجازِ والكِنايَةِ:

ضربةُ الحقِّ المؤيَّدةُ، مكينةٌ في قصدها مسدَّدةٌ

الفَوْقيَّةُ في قولِ اللهِ ﷻ: ﴿فَٱضْرِبُواْ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ﴾ فيها مسالِكُ لأهْلِ العِلْمِ[5]: أوَّلُها: أن تَكونَ ﴿فَوْقَ﴾ زائدةً، والمرادُ: فاضرِبوا الأعناقَ، وهذا قولٌ ضعيفٌ؛ لأنَّ اللَّفْظَ إذا ورَدَ في القرآنِ الكريم لا ينْبَغي لأحدٍ أن يحْكُمَ عليهِ بأنَّه دونَ مَعْنًى. وثانيها: أن تَكونَ ﴿فَوْقَ﴾ بمعنى (على)، وهذا معروفٌ في لغةِ العرَبِ، فإنَّ العربَ تَقولُ: ضَرَبْتُ فلانًا على عُنُقِه، وضَرَبْتُهُ فوْقَ عُنُقِه، والمعنى واحدٌ. وعلَى هذا الوَجْهِ؛ يكونُ في الآيةِ إيجازٌ بالحذْفِ، وذلك أنَّ مَفْعولَ (اضْرِبوا) محذوفٌ، والتَّقديرُ: فاضْرِبوهُم فوقَ الأعْناقِ، أي: علَى الرِّقابِ. وثالثُها: أن يكونَ المرادُ بـ ﴿فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ﴾ الرُّؤوس، والمرادُ: فاضربوا الرُّؤوسَ، فيكونَ في هذا كنايةٌ عَنْ مَوْصوفٍ؛ وذلكَ لأنَّ

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 508/2.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 283/9.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 3080/6.
(4) الشِّنقيطيّ، العذب النَّمير: 538/4.
(5) الشِّنقيطيّ، العذب النَّمير: 551/4 - 552.

الرَّأْسَ مِن صِفَتِه أنَّه فوْقَ العُنُقِ، ونُكْتَةُ التَّعبيرِ بالكِنايَةِ وصْفُ أبلَغِ ضرَباتِ العُنُقِ وأحْكَمِها، وهيَ الضَّرْبَةُ الكائِنَةُ فوقَ عَظْمِ العُنُقِ ودونَ عَظْمِ الرَّأسِ[1].

دِلالَةُ (ال) في لفظ ﴿ٱلْأَعْنَاقِ﴾:

ذكر (ال) في ﴿ٱلْأَعْنَاقِ﴾ مِن قَوْلِ اللّهِ سُبحانَهُ: ﴿فَٱضْرِبُواْ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ﴾ يُرادُ بها بَعْضُ الجِنْسِ، فهي عهديَّةٌ، والمقصودُ: أعناقُ الكُفّار، كما يُفْهَمُ ذلِكَ مِنَ السّياقِ، ويَحْتَمِلُ أن تكونَ اللّامُ عِوضًا عَنِ المُضافِ إليه، أيْ: اضربوا أعناقَهُمْ[2].

الشِّدَّةُ على الكُفّارِ المُحارِبينَ، عقابٌ لهم على عدوانهم المُهين

نُكْتَةُ التَّنْصيصِ على ما ﴿ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ﴾ و﴿بَنَانٍ﴾:

في قولِ اللّهِ تَعالَى: ﴿فَٱضْرِبُواْ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُواْ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ خُصَّ ما فوقَ الأعناقِ والبَنانُ بالذِّكْرِ في هذه الآية الكريمة، إيماءً إلى ضَرْبِ ما شاؤوا مِن أجسادِ الكُفّار؛ ووجهُ ذلك: أنَّ ما فوق العُنُقِ - وهو الرَّأْسُ - أشْرَفُ الأعضاء، والبنانُ عبارَةٌ عَن أضعَفِها، فذِكْرُ الأشْرَفِ والأضْعَفِ، تنبيهٌ على جميعِ الأعضاءِ؛ لأنَّ البين مُسْتَحضَرٌ في الطَّرفَيْنِ[3]. ويجوزُ أن يكونَ تخصيصُ الأعْناقِ والبَنانِ؛ لكَوْنِ ضرْبِ الأعناقِ إتلافًا لأجسادِ الكفّار، وضَرْبِ البنانِ إبطالًا لصلاحيَّةِ المضْروبِ للقِتالِ؛ إذْ إنَّ تناولَ السِّلاحِ يكونُ بالأصابعِ[4]، فإذا ضُرِبَتِ البَنانُ؛ تعَطَّل مِنَ المَضْروبِ القِتالُ، وعَجَزَ عنِ المحاربَةِ، بخلافِ سائِرِ الأعْضاءِ[5].

ضَرْبُ الأعْناقِ وضَرْبُ البَنانِ تعبيرٌ عن دحْرِ الظُّلْمِ، وقهْرِ العدوان

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 508/2.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 283/9.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 463/15.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 283/9.
(5) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 379/7.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الرُّعْب والخَوْف:

الخوف أعمُّ منَ الرُّعب، والرُّعبُ أشـدُّ الـخـوف وأعلاه

الخَوْفُ: غَمٌّ يَلْحقُ العبدَ مِن توقُّعِه المكروهَ[1]، فهو خاصٌّ بالزَّمن المُسْتَقْبَل[2]، أمّا الرُّعْبُ؛ فهو أخصُّ؛ إذْ هو الخَوْفُ الشَّديدُ الَّذي يملأُ القلوبَ، وقد وردَ في القرآن الكريم في خمسَةِ مواضعَ، جميعُها دالٌّ على كونه معجزةً، فكان الأنْسَبُ في المُعْجِزَةِ أن يُعبَّر بالخَوْفِ الشَّديد المخالِف لِلْعادَةِ، وقد جاءَت أربعَةُ مواضِعَ مِن هذه الخَمْسَةِ في وصفِ الحَرْبِ، وما أصابَ الكُفّارَ فيها مِن خوفٍ عظيم ملأ قلوبَهُم، وهي قولُ اللّهِ ﷻ: ﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعْبَ﴾ [آل عمران: 151]، وقولهُ سُبحانَهُ: ﴿سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعْبَ﴾ [الأنفال: 12]، وقولُهُ تعالَى: ﴿وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ﴾ [الأحزاب: 26]، وقولُهُ جلَّ وعلا: ﴿وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الحشر: 2]، أمّا الموضِعُ الخامسُ؛ فقد جاءَ في سياقِ مُعجزةٍ أيضًا، وهي قصَّةُ أصحابِ الكَهْفِ، وسببُ الرُّعْبِ: ما ألبسَهُمُ اللّهُ تعالى إيّاهُ مِنَ الهَيْبَةِ، فقال سُبحانَهُ: ﴿لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴿١٨﴾﴾ [الكهف: 18][3].

(1) الكفويّ، الكلّيّات، ص: 428.
(2) الشّنقيطيّ، العذبُ النَّمير: 284/1.
(3) مُحمّد محمّد داود، معجم الفروق الدّلاليّة في القرآن الكريم، ص: 240 - 241.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ١٣﴾ [الأنفال: 13]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

لمّا ذكر اللّهُ تعالى نُصرتَهُ وتأييدَهُ لأهل الإيمانِ، وإلقاءَهُ الرُّعْبَ في قلوبِ أهل الكُفْرِ، وأمْرَهُ المؤمنينَ بقتالِهِمْ؛ ذَكَرَ في هذه الآيةِ علَّةَ تَسْليطِهم عليهم، فقالَ سُبحانَهُ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ﴾[1]، أي: إنَّهم تحدّوا اللّهَ ورسولَهُ، فكانوا يناوِئونهما ويشاقّونهما، بكلِّ صلفٍ وتَطاولٍ وغرور، ومَنْ تُسَوِّلُ له نفسُهُ ذلك، فيعتدي على مقام الألوهيَّة الأعظم، أو يتطاولُ على حُرمة الرَّسول الأكرم؛ فإنَّه سوف يُعاقَبُ العقابَ الشَّديدَ.

عـدْلُ اللـه في دحرِ الكافرين، بسببِ حربهم ومشاقّتهم لله ورسوله

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿شَآقُّواْ﴾: الشّينُ والقافُ تدلُّ تصريفاتُها على انصداعِ الشَّيْءِ الشَّديدِ صَدْعًا نافذًا إلى عُمْقِه[2]، ومنه الشَّقُّ؛ وهو الخُرْمُ الواقِعُ في الشَّيْءِ[3]، ثُمَّ يُحمَلُ علَى هذا المعنى على جِهَةِ الاسْتِعارَةِ، كقولِهم عِن الخلافِ: الشِّقاقُ؛ وذلك إذا انصدَعَتِ الجماعَةُ، وتفرَّقتْ، ويُقال لِمَنْ أصابَهُ أمرٌ شديدٌ: أصابَ فلانًا مَشَقَّةٌ، كأنَّهُ لِشدَّةِ هذا الأمْرِ ينصَدِعُ الإنسانُ منه، وينشَقُّ[4]. وشقَّ فلانٌ العصا، أي: فارق الجماعة، وانشقَّت العصا، أي: تفرَّق الأمرُ، والمشاقَّةُ والشِّقاق: الخلافُ والعداوة[5]، قال الشّاعر:

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 238/8.
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (شقق).
(3) الرّاغب، المفردات: (شقّ).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (شق).
(5) الجوهريّ، الصّحاح: (شقق).

إذا كانَتِ الهَيْجاءُ وانْشَقَّتِ العَصا***فحَسْبُكَ والضَّحّاكُ سَيْفٌ مُهَنَّدُ[1]

وقولُ اللّهِ تعالَى: ﴿شَآقُّواْ ٱللَّهَ﴾، معناهُ: حارَبوا اللّهَ سُبحانَهُ، وجانَبوا دينَهُ وطاعَتَهُ، وسُمّي الكُفّارُ مُشاقّينَ للّهِ تعالَى؛ لكونِهم لمّا أعرضوا عَنْ أوامرِ اللّهِ تعالَى، وكذَّبوا بها، وصدّوا؛ تباعَدَ ما بينَهُم، وانفصَلَ، وانشقَّ[2].

2) ﴿ٱلْعِقَابِ﴾: العينُ والقافُ والباءُ تدلُّ اشتقاقاتُها على مَعْنَيَيْنِ؛ أحدهُما: تأخيرُ شيءٍ وإتيانُهُ بعد غيرِه، والآخرُ: ارتفاعٌ وشدَّةٌ وصعوبَةٌ[3]، ومِن هذا الأخير: العقابُ، لما فيه مِنَ الشِّدَّةِ في الإيلامِ، وهو والعقوبَةُ والمعاقبَةُ مختصَّةٌ بالعذابِ[4]، ويصِحُّ أن يَرْجِعَ معناهُ إلى الأصلِ الأوَّلِ، وهو إتيانُ الشَّيءِ بعد آخرَ، وذلك أنَّ العقابَ يَسْتَحقُّهُ صاحبُهُ عَقيبَ فِعْلِه[5]، وهذا هو المعنى المرادُ في قولِ اللّه سُبحانَهُ: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

بيانُ استحقاقِ المشاقّين المعتدين، لما نالوا مِنَ العقابِ والهزيمةِ والنَّكال

ذلك الَّذي حصَلَ لِلْكُفّار مِن ضَرْبهم فوْقَ الأعْناقِ، وضَرْبِ كُلِّ بنانٍ منهم؛ هو جَزاءٌ لهم وعِقابٌ، بسَبَبِ مُفارَقَتِهم أمْرَ اللّهِ تعالَى، وأمْرَ رَسولِه ﷺ، وعِصْيانِهم لهما، ومَن يُخالِفُ أمْرَ اللّهِ سُبحانَهُ وأمْرَ رسولِه ﷺ؛ فإنَّ اللّه ﷻ شَديدُ العِقابِ لَهُ في الدُّنْيا والآخِرَةِ[6].

(1) البيت لجرير الخطفيّ، وليس في ديوانه، ومذكور بلا نسبة في خزانة الأدب: 581/7، وفي شرح شواهد الإيضاح، ص: 374، وكذلك عند السيوطي، شرح شواهد المغني: 900/2، وابن يعيش، شرح المفصّل: 51/2، وابن منظور، لسان العرب: 1/ 312، وعند الزّبيديّ، تاج العروس: (شقق).

(2) أبو حيان، البحر المحيط: 288/5.

(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عذب).

(4) الرّاغب، المفردات: (عقب).

(5) العسكريُّ، الفروق اللُّغويَّة، ص: 239.

(6) ابن جرير، جامع البيان: 433/13. ونخبة من العلماء، التّفسير الميسّر، ص: 178.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

عِلَّةُ فصْلِ قَوْلِه: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ﴾:

بَيانُ عِلَّةِ تَسليطِ اللهِ تَعالَى عِبادَهُ المُؤْمِنينَ على الكَفَرَةِ المُشاقِّينَ

فُصِلَ قَوْلُ اللهِ ﷻ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ عَمّا قَبْلَهُ؛ لوقوعِه تعليلًا؛ فإنَّ اللهَ سُبحانَهُ لمّا ذَكَرَ أمْرَ عبادِه المؤمِنينَ بقتالِ الكَفَرةِ؛ أعقبَهُ ببيانِ عِلَّةِ تَسْليطِهم عليهم، فقالَ جلَّ وعلا: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾[1]، فالجملةُ مستأنفةٌ استئنافًا بيانيًّا، فإنَّ قولَ اللهِ تعالَى: ﴿فَٱضْرِبُواْ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُواْ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾، يبعَثُ في نَفْسِ المُتَلَقّي سؤالًا؛ وهو: لِمَ أوقِعَتْ عليهم هذهِ العقوبَةُ الشَّديدَةُ؟ فجاءَ الجوابُ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾.

نكتة تَعْريفِ المُسْنَدِ إليه بالإشارَةِ:

تَمْييزُ جَزاءِ الكافِرينَ أكْمَلَ تَمْييزٍ وأبْيَنَهُ في السِّياقِ الحكيمِ

عُرِّفَ المسنَدُ إليه بالإشارَةِ في قولِ اللهِ ﷻ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾، ليتميَّزَ جزاؤُهُم أكملَ تمييزٍ؛ إذِ الإشارَةُ في ﴿ذَٰلِكَ﴾ إلى ما حلَّ بهم مِن إلقاءِ الرُّعْبِ في قلوبِهم، وما أصابَهُم مِن ضربِ الرُّؤوسِ والأطْرافِ[2]، فإذا تميَّزَ جزاؤُهُم؛ تبيَّنَ موجِبُ ذلكَ من المشاقَّةِ المذكورَةِ بَعْدُ أبْلَغَ بيانٍ.

نُكْتَةُ التَّعْبيرِ باسْمِ الإشارَةِ ﴿ذَٰلِكَ﴾:

عَظَمَةُ تَسَلُّطِ أهْلِ الإيمانِ على الكافِرينَ في بَدْرٍ وشِدَّةُ ذلك وفَظاعَتُهُ

في قولِ اللهِ تَعالَى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ جاءَ التَّعبيرُ باسْمِ الإشارَةِ الدّالِّ على البُعْدِ ﴿ذَٰلِكَ﴾ في هذه الآية الكريمة، للإيماءِ إلى عظَمَةِ التَّسْليطِ المذْكورِ قبلُ في قولِه سُبحانَهُ: ﴿سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُواْ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُواْ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾، وللإيذانِ ببُعْدِ درجَتِه في الشِّدَّةِ والفظاعَةِ[3]، ومن المنطقيِّ أن يكون المشار إليه في مستوى الفعل المخالف من جهةٍ، وفي مستوى

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 238/8.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 287/5.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 238/8، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 11/4.

العقاب المسلَّطِ على أصحابه الَّذين شاقّوا اللّه ورسوله، وتحدّوا قُدرةَ اللّهِ العليا، ولم يَنْصاعوا إلى هَدي الرَّسول المبلَّغ ونصحه، فنالوا ما ذُكِر في السّياق السّابق، وما أشير إليه في السّياق اللّاحق.

دلالةُ لفظ ﴿ذَٰلِكَ﴾ على خطاب الأمَّةِ من خلال خطابِ الرَّسولِ:

الكافُ في ﴿ذَٰلِكَ﴾ من قول اللّهِ تَعالَى: ﴿فَٱضۡرِبُواْ فَوۡقَ ٱلۡأَعۡنَاقِ وَٱضۡرِبُواْ مِنۡهُمۡ كُلَّ بَنَانٖ ١٢ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ﴾: حرفٌ دالٌّ علَى الخِطابِ، والمرادُ به النَّبيُّ ﷺ، وتكونُ أمَّتُهُ داخلَةً في هذا الخطابِ بالمعنى والتَّبَع[1]، ويَجوزُ أنْ يكونَ الخطابُ لكلِّ مَن يتأتَّى خطابُهُ، فيكونُ الخطابُ خارجًا عن أصلِه في الدِّلالَةِ على مُعيَّنٍ، والقَصْدُ مِن ذلك إرادَةُ العُموم[2]. والوَجْهانِ متآيِلانِ كما هو ظاهِرٌ.

دورُ النُّبوَّةِ في تجسيد الأوامر القرآنيَّةِ تلقّيًا وبلاغًا عن الإرادة الإلهيَّة

دِلالَةُ الباءِ في قَوْلِه: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ﴾:

الباءُ في ﴿بِأَنَّهُمۡ﴾ من قولِ اللّه جلَّ وعلا: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ﴾ للسَّبَبيَّةِ، والمعنى: فعَلْنا بهم ذلكَ بسببِ أنَّهم حادّوا اللّه تعالى ورَسولَهُ[3] ﷺ، وباءُ السَّبَبيَّةِ تُفيدُ معنى التَّعليلِ، فهيَ تُقَوّي علَّةَ فصلِ الجملَةِ عمّا قبلَها[4]، والمشاقَّةُ جعْلُ أنفسِهم في جانبٍ يواجه جانبَ المؤمنين باللّه ورسوله، لذلك استحقّوا عذابَ اللّه وعقابه، بسبب المشاقَّةِ، وعليهم آنئذٍ أن يتحمَّلوا العقابَ الشَّديد من اللّه[5] ﷻ، فكانت الباء موحيَةً بالسَّبب الَّذي من أجلِه وقع عليهم العقابُ والهوانُ.

مُشاقَّةُ اللهِ ورسولِه، خزيٌ في الدُّنيا، وعذابٌ في الآخرة

نُكْتَةُ التَّوكيدِ والتَّعْبيرِ بالفِعْلِ الماضي:

جاءَ النَّظْمُ القرآنيُّ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ﴾، دونَ

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 509/2.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 287/5، والزّمخشريّ، الكشّاف: 205/2، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 284/9.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 3081/6.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 283/9 - 284.
(5) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 4602/8.

(ذلك بمشاقَّتِهم اللّهَ ورسولَهُ)؛ لِما في التَّعبير بالفِعْلِ الماضي ﴿شَآقُّواْ﴾ مِن إفادَةِ التَّحقُّق، المُقْتَضي استِحْقاقَهم ما ذُكِرَ مِن تَسْليطِ أهْلِ الإيمان عليهم، إضافةً إلى توكيد الجملة بـ(إنَّ) والاسميَّة، وتكرارِ الضَّمير الرّاجع إليهم، وذلك لبيان عِظَمِ هذه المُشاقَّة بحقِّ اللّه ورسوله وقُبحِها.

مشاقَّةُ الله ورسوله نتاجُ الصِّراع بين الحقِّ والباطل على مدى الزَّمان

بلاغةُ الاسْتِعارَةِ في الآية:

المشاقَّةُ في قولِ اللّه تعالَى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ﴾ يُرادُ بها العُدْوانُ بعِصْيانٍ وعنادٍ، واشتقاقُها مِنَ الشَّقِّ؛ وهو الخُرْمُ الواقِعُ في الشَّيْءِ[1]، واستعمالُهُ في العُدْوان بعصيانٍ وعنادٍ استعارةٌ؛ إذْ شُبِّهَ ذلك بالصَّدْعِ والخُرْمِ بجامعِ الإخلالِ بأمرٍ صالحٍ في كُلٍّ، على جهَةِ الاستعارَةِ التَّصريحيَّةِ التَّبعيَّةِ، ويجوزُ أنْ تكونَ المُشاقَّةُ مشتقَّةً مِنَ الشِّقِّ، وهو جانبُ الشَّيءِ، وذلك أنَّ المعاديَ المخالِفَ لمّا كانَ متباعِدًا عن عُدوِّه؛ جُعِلَ كأنَّه في شِقٍّ آخرَ[2]، والاستعارةُ تصريحيَّةٌ تبعيَّةٌ كذلكَ، وهذانِ الوجهانِ متكامِلانِ؛ وذلك أنَّ المعاديَ للشَّرْعِ بعصيانٍ وعنادٍ يُخِلُّ بأوامرِ اللّهِ تعالَى وأوامرِ رسولِه ﷺ، ويكونُ متباعدًا متجافيًا عَنْها بعصيانِه لَها.

المعاديْ لِلشَّرْعِ بعِصْيانٍ وضلالةٍ، يواجهُ أوامِرَ الله ورسوله بعِنادٍ وجهالة

دِلالَةُ التَّعْبيرِ بالاسْمِ الأعظم (الله):

عُلِّقَت مُشاقَّةُ الكفَرَةِ بالاسْمِ الأعظم (اللّه) في قولِ اللّه جلَّ وعلا: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ﴾؛ زيادَةً في تشنيعِ فظاعَتِها، وتَقْبيحِ صورَتِها؛ إذْ قد شاقّوا المَلِكَ الأعْلَى الجامعَ لصِفاتِ الجلالِ والكمالِ الَّذي لا يُطاقُ انتقامُهُ[3]، وهذه المُشاقَّة في هذا السّياق "بيانٌ للسَّبب الَّذي مِن أجْله أمرَ اللّه المسلمين بضرب هؤلاءِ المشركين، هذا

مُشاقَّةُ اللهِ تَعالَى فظاعَتُها شَنيعَةٌ، وصورَتُها قَبيحَةٌ

(1) الرّاغب، المفردات: (شق).
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 284/9.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 238/8.

الضَّرب الَّذي مكنَّهم اللّه به من رؤوس أعدائِهم، فهم قد شاقّوا اللّهَ ورسوله، أي: خالفوهما، وعصوا أمرهما، وليس جزاء مَن يشاقِ اللّه ورسولَهُ إلّا أنْ يَلْقى جزاءَهُ عندَ اللّهِ، واللّهُ شديدُ العقابِ"[1].

نُكْتَةُ إيجازِ الحَذْفِ في الآية:

مُعاداةُ أولياءِ اللهِ معصيَةٌ للهِ تَعالَى، ومُخالَفَةٌ لرَسولِه الكريم

ذهبَ بعضُ أهلِ العِلْمِ إلى أنَّ في قولِ اللّه جلَّ وعلا: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ﴾ حذفًا، والتَّقدير: ذلك بأنَّهُم شاقّوا أولياءَ اللّهِ تعالَى، فحُذِفَ المضافُ (أولياء)، وأُقيم المُضافُ إليه مُقامَهُ[2]؛ لقَصْدِ التَّعظيم، مبالغةً في التَّنفيرِ مِن معاداةِ أولياءِ اللّهِ تعالَى؛ إذْ إنَّ معاداتَهُم معاداةٌ للّهِ سُبحانَهُ، والأظْهَرُ ألّا حَذْفَ في الآيَةِ، كما تُشْعِرُ بذلك المقابلَةُ بينَ الاسْمِ الأعظم (اللّه) و(رسوله)، وتَكونُ معاداةُ أولياءِ اللّه تعالَى داخلَةً بالالتِزامِ في مشاقَّةِ اللّهِ تعالى ورسولِه ﷺ؛ لأنَّ معاداتَهُم مِن جملَةِ مُخالفةِ أوامِرِهما.

بلاغةُ التَّعْريضِ في الآية:

المُخالَفَةُ بالمُشاقَّةِ عَذابٌ، وطاعَةُ اللهِ ورسولِه أمانٌ وثوابٌ

في التَّصريح بسببِ انتقامِ اللّهِ تعالَى مِن الكَفَرةِ وتسليطِه أولياءَهُ عليهم، في قولِه ﷻ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ﴾ تعريضٌ لِلْمُؤمنينَ؛ ليسْتَزيدوا مِن طاعة اللّهِ تعالى وطاعَةِ رسولِه ﷺ، وذلكَ أنَّه إذا كانَتِ المخالفةُ بالمُشاقَّةِ سببًا في هذا العِقابِ الشَّديد؛ فيوشِكُ أن يكونَ ما هو مخالفةٌ للّهِ تعالى ورسولِه ﷺ دونَ مُشاقَّةٍ موقِعًا في عذابٍ دونَ ذلكَ، وجديرٌ بأن يكونَ ضدُّ ذلك وهو طاعتُهُما مقتضيًا للخير والثَّوابِ الجزيلِ[3].

نُكْتَةُ الإدْغامِ في الفِعْلِ الماضي والتَّفكيك في المُضارِع:

قَوْلُ اللّهِ تَعالَى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ

(1) عبد الكريم الخطيب، التفسير القرآنيّ للقرآن: 580/5.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 288/5.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 284/9.

وَرَسُولَهُۥ﴾، أُظْهِرَ الحرفانِ في الفِعْلِ المُضارِعِ ﴿يُشَاقِقِ﴾، وأُدغِما في الماضي ﴿شَآقُّواْ﴾؛ لأنَّ السِّياقَ في بيانِ قصَّةِ غَزْوَةِ بدْرٍ، وفيها قِتالُ المسلمينَ لمُشْرِكي العرَبِ، وكان أمرُ مشركي العَرَبِ في عداوتِهم بعد هجرةِ النَّبيِّ ﷺ شديدًا وجهارًا؛ فكان الأنسَبُ إظهارَ الحرفَيْنِ ليُحاكيَ ذلك ظهورَ العداوَةِ، وأُدْغِمَ الحرفانِ في الفِعْلِ الماضي؛ لأنَّ ما سبقَ الهجرةَ (كانَ ما بين مُساتَرَةٍ بالمُماكرَةِ، ومُجاهَرَةٍ بالمُقاهَرَةِ)[1]، فناسبَهُ الإدْغامُ لِما فيه مِن سَتْرِ حَرْفٍ في حرفٍ، وذلك مُحاكٍ لخفاءِ العَداوَةِ.

عَداوَةُ المُشْرِكينَ كانت قَبْلَ الهِجْرَةِ مساترةً، فصارت بعدها مجاهرةً

سِرُّ التَّصْريحِ باسم الرَّسولِ الأكرم:

صُرِّحَ بذِكْرِ النَّبيِّ ﷺ في قولِه سُبحانَهُ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾، لِلْإشْعارِ بأنَّ مشاقَّةَ اللهِ سُبحانَهُ تستلزِمُ مشاقَّةَ رسولِه ﷺ، وأنَّ طاعةَ اللهِ تعالى تقْتَضي طاعةَ رسولِه ﷺ، وأنَّ عصيانَ الرَّسولِ ﷺ، هو مُشاقَّةٌ للهِ تعالى ومحادَّةٌ لَهُ[2].

مُشاقَّةُ اللهِ سُبْحانَهُ تَسْتَلْزِمُ مُشاقَّةَ رَسولِه ﷺ

نُكْتَةُ التَّعْبيرِ بالفِعْلِ المُضارِعِ:

قولُ اللهِ ﷻ: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾، فيه التعبيرُ بالفعْلِ المضارِعِ ﴿يُشَاقِقِ﴾ مِن نَدْبٍ إلى التَّوبَةِ بتَقْييدِ الوعيدِ، والتَّهديد بصيغَةٍ دالَّةٍ على الاستِمْرارِ[3]، ودلَّ المضارِعُ بطريقٍ آخرَ على استمرار هذه المُشاقَّة على مدار الزَّمان، لاستمرار الصِّراع بين الحقِّ والباطل.

غرضُ الوَعيدِ والتَّهديدِ، تَحْقيقُ التَّوْبَةِ مِنَ الآثامِ، والرُّجوعِ إلى ربِّ الأنام

دِلالَةُ (مَنْ) في قَوْلِه: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ﴾:

(مَنْ) في قَوْلِ اللهِ ﷻ: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ شرطيَّةٌ، بدليلِ جَزْمِ المضارِعِ ﴿يُشَاقِقِ﴾ بَعْدَها، وقولُهُ سُبحانَهُ: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 238/8.
(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 3081/6.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 238/8.

بَيانُ تَرْتيبِ شِدَّةِ العِقابِ على مُطْلَقِ المُشاقَّةِ

﴿شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ هو جوابُ الشَّرْطِ، أو دليلُ الجَوابِ، وقُرِنَ بالفاءِ لكونِه وقعَ جملةً اسميَّةً[1]، والجملة الشَّرطيَّة تؤتي أُكُلَها في إثباتِ حُكْمِها من خلال قوَّتها في ربط جواب الشَّرط بفعله، والجملة "بيانٌ لشدَّة العقاب في الدُّنيا والآخرة، وهي دالَّةٌ على جواب شرطٍ محذوف هذه علَّته، والمعنى: فإنَّ اللّه مُنزِلٌ عقابَهُ الشَّديد بهم في الدُّنيا؛ لأنَّهم يغالبون اللّه ورسوله، ونسوا أنَّ اللّه تعالى غالبٌ على كلِّ شيء"[2].

تَوْجيهُ المُتَشابه اللَّفْظيِّ بين آيات المُشاقة:

التَّفَنُّنُ في اسْتِعْمالِ الصِّيَغِ الصَّرْفيَّةِ المُلائِمَةِ من فصيحِ البيانِ القرآنيِّ

قالَ اللّهُ ﷻ: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ [الأنفال: 13]، وقال ﷻ: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ﴾ [النساء: 115]، وقال سُبحانَهُ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۖ وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ۝٤﴾ [الحشر: 4]، ووجهُ المغايَرَةِ في فعلِ المشاقَّةِ بين إظهارِه وإدْغامِه يدورُ حولَ الظُّهور والخفاءِ، فحيثُ أُريدَ الظُّهورُ؛ كان الإظْهارُ أنسبَ، وإذا قُصِدَ الخفاءُ؛ كان الإدغامُ أنسبَ، وبيانُ ذلكَ: أنَّ آيةَ النِّساء وردَتْ في سياقِ مُشاقَّةِ النَّبيِّ ﷺ؛ حيث أظْهَرَ جماعَةٌ ذلك، وأرادوا نُصرةَ طُعْمَةَ على الرَّجُلِ اليهوديِّ، فناسبَ الإظْهارُ الإظهارَ، وأمّا آيةُ الأنفال؛ فهيَ في سياقِ ذِكْرِ قصَّةِ غَزْوَةِ بَدْرٍ، وعداوَةُ مُشْركي العربِ كانت عداوةً ظاهرةً بيِّنَةً، بدليل صيرورَتِها إلى القِتالِ والحربِ؛ فكان فكُّ الإدغامِ أنسبَ، فقال سُبحانَهُ: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾. وأمّا آيةُ الحشْرِ؛ فهي في ذِكْرِ يهودِ بني النَّضير الَّذين حاولوا قتلَ رسولِ اللّه ﷺ، بعد معاهَدَتِهم لهُ على الصُّلْحِ، ثمَّ نكثوا العَهْدَ، وبالَغوا في إخفاءِ مُشاقَّتهم لرسولِ اللّه ﷺ، وشِدَّة كيدِهم لَهُ وللإسْلام، فكان الإدغامُ أنسَبَ.

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 288/5.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 3081/6.

نُكْتَةُ التَّعْبيرِ بالاسمِ الأعظم (الله):

زيادَةُ تَشْنيعِ مُشاقَّةِ اللهِ ورَسولِه، وتبشيعِ صورَتِها في النُّفوس

عُلِّقَت المُشاقَّةُ بالاسْم الأعظم (الله) في قولِ الله سُبحانَهُ: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾؛ ليُطابِقَ الجزاءُ المذكورُ هُنا ما تقدَّم مِن تعليلِ تَسْليطِ اللهِ تعالى أولياءَهُ على الكفَرةِ في قولِه سُبحانَهُ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾، وفي هذا التَّعليقِ زيادَةٌ في تشنيعِ فظاعَةِ هذه المشاقَّةِ، وتَقْبيحِ صورَتِها.

سِرُّ الإظْهارِ للفظ الجلالةِ في مَوْضِعِ إضْمارِه:

إظْهارُ شَناعَةِ ما اجْتَرَأ عليه الكَفَرَةُ، وعَظيمِ ما اقترَفوهُ

في قولِ الله ﷻ: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ إظهارٌ في مَوضِعِ الإضْمارِ، وذلك لأنَّ مقتضَى الظّاهر أنْ يَرِدَ النَّظْمُ القرآنيُّ: (وَمَن يُشاقِقْهُما)، وذلك لنُكْتَتَيْنِ[1]: أوَّلُهُما: تربيَةُ المَهابَةِ وإظهارُ كمالِ شَناعَةِ ما اجترؤوا عليه، وعظيمِ ما اقترَفوهُ. والأُخرَى: الإشْعارُ بعِلَّةِ الحُكْم.

دِلالَةُ الفاءِ في قَوْلِه: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾:

مُشاقَّةُ اللهِ تَعالَى ورَسولِه صَلَّى اللهُ وعليه وسَلَّمَ عِلَّةٌ لِشدَّةِ العُقوبَةِ

الفاءُ في قولِ الله ﷻ: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ رابطَةٌ لِجَوابِ الشَّرْطِ الواردِ في قولِ الله سُبحانَهُ: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾، وفيه إشعارٌ بالعِلِّيَّةِ، وأنَّه سينالُهُم مِن شِدَّةِ عقوبَةِ الله تعالَى بسببِ مشاقَّتِهم لَهُ ولرسولِه ﷺ، "وأمّا عقاب مُشاقَّة اللهِ والرَّسول، فهو الخزي والنَّكال والهزيمة في الدُّنيا، والعذاب الشَّديد، في نار جهنَّم في القيامة، والمقصودُ من إيراد هذا العقاب الزَّجرُ عن الكفر والتَّهديد عليه، وتوبيخ الكافرين، فالعقابُ على ذلك نوعان: عاجلٌ في الدُّنيا، ومؤجَّلٌ في الآخرة"[2].

دِلالَةُ إيجازِ الحَذْفِ في الآية:

مَنْ يُشاقِقِ اللهَ تَعالَى ورَسولَهُ؛ يُعاقِبْهُ اللهُ تَعالَى أشَدَّ العِقابِ

في قَوْلِ اللهِ تَعالَى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ جُملَةُ: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ جوابُ الشَّرْطِ، أو هو

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 11/4، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 3081/6.
(2) الزّحيليّ، التّفسير المنير: 271/9.

دَليلُ الجَوابِ، وعلَى الثّاني، فإنَّ في الآيَةِ إيجازًا بالحَذْفِ؛ إذْ إنَّ الجوابَ محذوفٌ، والتَّقدير: (ومَن يشاقِق اللّه ورسولَهُ؛ يُعاقِبْهُ اللّهُ تعالَى أشدَّ العقابِ؛ فإنَّه سُبحانَهُ شديدُ العِقابِ)، فطويَ الجوابُ، وأُبْقيَ ما يدلُّ عليه، فيَكونُ قولُهُ سُبحانَهُ: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ كنايةً عَن عِقابِ المُشاقّينَ[1].

نُكْتَةُ التَّأْكيدِ في قَوْلِه: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ﴾:

شِدَّةُ عِقابِ اللهِ تَعالَى، وتَحَقُّقُ إيصالِه لِمَنْ يَسْتَحِقُّهُ

أُكِّدَ قولُ اللّهِ ﷻ: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾، بالأداة (إنَّ) والجملةِ الاسميَّةِ، تقويةً لشدَّةِ عقابِ اللّهِ تعالَى، وتحقُّقِ إيصالِه لِمَنْ يستحقُّهُ، ممَّن شاقَّ اللّه تعالَى ورسولَهُ ﷺ، والتَّأكيد يُكمِّل الشَّرط ويقوّيه، وعليه: "فَإنَّ اللّه شَديدُ العقابِ، وأيًّا ما كانَ، فالشَّرطيَّةُ تكملةٌ لما قبلها، وتقريرٌ لمضمونِه، وتحقيقٌ للسَّببيَّةِ بالطَّريقِ البرهانيِّ، كأنَّه قيل ذلك العقابُ الشَّديد، بسببِ مُشاقَّتِهم للّه تعالى ورسولِه، وكلُّ من يشاقق اللّه ورسولَه، كائنًا مَنْ كان، فلهُ بسببِ ذلكَ عقابٌ شديدٌ"[2].

سِرُّ تَعْريفِ المُسْنَدِ إليه بالعَلَميَّةِ:

بَيانُ شِدَّةِ العِقابِ الصّادِرِ مِمَّنْ جَمعَ صِفاتِ الجَلالِ والكَمالِ

عُرِّفَ المسنَدُ إليه بالعلميَّةِ في قولِ اللّه جلَّ وعلا: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾؛ لإدخالِ المهابَةِ في نفوسِ المخاطَبينَ، والمبالغَةِ في بيانِ شدَّة العقابِ الصّادِرِ ممَّنْ جَمعَ صفاتِ الجلالِ والكَمالِ، وقد كان العقاب الشَّديد جزاء وفاقًا، لكونهم قد شاقّوا اللّه ورسوله، وليس جزاء من يعاندُ اللّه ورسوله ويعصهما، إلّا أن يلقى جزاءه عند اللّه، بأشدِّ ما يكون العقاب، وهو عذابٌ لا يطاق، واللّه شديد العقاب، وقد أشار الخطيب إلى هذا بقوله: "والإشارة هنا إلى هذا العذاب الَّذي صبَّه اللّه عليهم، وجرَّعهم كؤوسه على أيدي المؤمنين.. وذلك

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 284/9.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 11/4.

هو جزاؤهم في الدُّنيا، أمّا في الآخرة؛ فلهم أنكى وأمرُّ، إنَّه عذاب النّار[1]، ولذلك أكَّدَ بأنَّه شديدُ العقاب.

نُكْتَةُ الإظْهارِ في مَحَلِّ الإضْمارِ:

دَفْعُ تَوَهُّمِ عَوْدِ الضَّميرِ على أقْرَبِ مَذْكورٍ معَ إخْراجِ الجُمْلَةِ مَخْرَجَ المَثَلِ

لَم يُضْمَرِ المُسْنَدُ إليه في قولِه ﷻ: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾، بأن يَرِدَ النَّظْمُ القرآنيُّ: (فإنَّه شديدُ العقابِ)؛ لِنُكْتَتَيْنِ؛ إحداهُما: لئلّا يُتوَهَّمَ عَوْدُ الضَّميرِ إلى أقربِ مذكورٍ، وهو رسولُ اللّهِ ﷺ، وأنَّ المقصودَ أنَّ اللّهَ سُبحانَهُ يُجْري على يدَيْهِ ما هو مِن جِنْسِ العقابِ لِلْكَفَرَةِ، فإنَّ هذا وإن كان حقًّا في نفسِه إلّا أنَّه ليسَ مرادًا هنا. والأُخرَى: لتخرُجَ الجُمْلَةُ مخرجَ التَّذييل الجاري مَجْرَى المثَلِ، بخلاف ما لو جيءَ بالمسنَدِ إليه مضمرًا؛ فإنَّه يكونُ تذييلًا غيرَ جارٍ مجرَى المثَلِ، فلا يَستقلُّ بنفسِه، بل يفتقِرُ إلى غَيْرِه في بيان أصلِ المرادِ منه.

سِرُّ التَّعْبيرِ بالعِقابِ في قَوْلِه: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾:

لا قُدرةَ للكُفّارِ الخاسِئين على مُغالَبةِ قُدرةِ اللهِ ربِّ العالمين

عَبَّرَ السِّياقُ بلفظ ﴿ٱلْعِقَابِ﴾، في قَوْلِ اللّهِ جلَّ وعلا: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾، إشارَةً إلى أنَّهم ليسوا في مقامِ مُغالَبةِ اللّهِ سُبحانَهُ، وإنَّما هُم في مقامِ مَنْ يُؤدَّبُ، ويُعاقَبُ، ويُرَدُّ خاسئًا[2].

بلاغةُ الاختِباكِ في الآية:

إظْهارُ الحَرْفَيْنِ في مَقامِ إظْهارِ العَداوَةِ، وإدْغامهما في مَقامِ خَفائِها

في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ حذفٌ مقابَليٌّ، وهو المُسَمَّى: احتباكًا، وذلك أنَّ (ذِكْرَ الفِعْلِ المُدْغَمِ أوَّلًا دَليلٌ علَى حَذْفِ المُظْهَرِ ثانيًا، والمُظْهَر ثانيًا علَى حَذْفِ المُدْغَمِ أوَّلًا)[3]، وتقديرُ الاحتباكِ: ذلك بأنَّهم شاقُّوا اللّهَ ورسولَهُ وشاقَقوهُما، ومن يُشاقِّ اللّهَ ورسولَهُ ويُشاقِقْهُما؛ فإنَّ اللّهَ

(1) عبد الكريم الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 580/5.
(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 3081/6.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 239/8.

شديدُ العقابِ، وهذه وجهة نظر واجتهاد، والأظْهَرُ أنَّ هذا ليسَ مِن قبيلِ الاحتباكِ، وإنَّما نوِّعَ في صياغَةِ الفعْلِ لنُكْتَةٍ معنويَّةٍ؛ بأن أُظْهِرَ الحرفانِ في مقامِ بيانِ إظهارِ العَداوَةِ، وأُدْغِما في مقامِ بيانِ خفائِها.

بَلاغَةُ التَّذْييلِ في الآية:

العِقابُ الشَّديدُ نائِلٌ كُلَّ مُشاقِقٍ للهِ تعالَى ورَسولِه ﷺ

قولُ اللهِ ﷻ: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ تذييلٌ، وهو تذييلٌ جارٍ مجرَى المثَلِ؛ لاستقلالِه بنفسِه، وعَدَمِ احتياجِه إلى ما قبْلَهُ في فهْمِ أصلِ المرادِ منه، والقَصْدُ منه تقريرُ مَضْمونِ ما قبْلَهُ، وتحقيقٌ لِلسَّبَبيَّةِ على سَبيلِ البُرْهانِ، فكَأنَّهُ قيلَ: ذلك العقابُ الشَّديدُ، هو بسَبَبِ مُشاقَّتِهم للهِ تعالَى ورَسولِه ﷺ، وكُلُّ مَن يُشاقِقِ اللهَ سُبحانَهُ ورَسولَه ﷺ كائنًا مَنْ كانَ؛ فإنَّ لَهُ بسَبَبِ ذلك عِقابًا شديدًا؛ فتحصَّلَ مِن ذلكَ نتيجَةٌ، وهيَ: أنَّ لهؤلاءِ الكفَرَةِ بسَبَبِ مُشاقَّتِهم للهِ ورسولِه عِقابًا شَديدًا[1].

وفي هذا التَّذييل أيضًا تعميمُ الحُكْمِ بالعقابِ الشَّديد، لكلِّ مَن يُشاققُ اللهَ ورسولَهُ ﷺ، ولا يختصُّ بمَنْ وردَ السِّياقُ بذِكْرِهم[2].

بلاغةُ المَجازِ المُرْسَلِ المُرَكَّبِ:

الإخْبارُ عَنْ شِدَّةِ عِقابِ اللهِ تَعالَى للزَّجْرِ عَنِ الوُقوعِ في أسْبابِه

قولُ اللهِ سُبحانَهُ: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ جملةٌ خبريَّةٌ يُرادُ بها الزَّجْرُ عَنِ الكُفْرِ والتَّهديدُ عَلَيْه، فهو مجازٌ مرسَلٌ مركَّبٌ؛ إذْ لا يُقصَدُ منه مجرَّدُ الإخبارِ، وإنَّما لازِمٌ مِن لوازِمِه[3].

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

العِقاب والعَذاب:

العِقابُ والعذابُ يَرِدانِ مرادًا بهما النَّكالُ، ومجازاةُ الذَّنْبِ بمِثْلِه، ويفترِقانِ مِن وجهَيْنِ[4]: أحدُهما: أنَّ الأصلَ الدِّلاليَّ لـ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 11/4.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 284/9.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 464/15.
(4) العسكريّ، الفروق اللغويّة، ص: 239 - 240، ومحمَّد محمّد داود، معجم الفروق الدّلاليّة في القرآن الكريم، ص: 341 - 343.

العـذابُ أعـمُّ وأوسـع دلالـةً مـن العـقـاب، وكـلاهـمـا من ألـفـاظ الـقـرآن الفصيحةِ

(العذاب) يدلُّ على الضَّرْبِ، والأصلَ الدِّلاليَّ لـ (العقابِ) دالٌّ على الشدَّةِ، وتأخُّر شيءٍ وإتيانُهُ بعدَ غيرِه. ثانيهما: أنَّ العقابَ يُنبئُ عَنِ الاستحقاقِ؛ لأنَّه لا يكونُ إلّا عَقِبَ ذنْبٍ، بخلافِ العَذاب؛ فإنَّه أعَمُّ، فقد يقَعُ على مَن يَسْتَحِقُّهُ ومَن لا يَسْتَحِقُّهُ، ثمَّ إنَّ كلمةَ (العقاب) تكون لما يكون في الدُّنيا، و(العذاب) يأتي في الدُّنيا، ويأتي في الآخرة قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٥﴾﴾ [الأنعام: 165] في الدُّنيا، ولم يصف نفسه بأنَّه سريع العذاب، لما بين اللَّفظين من فرقٍ، ولفظ (العذاب) استُعمل في الدُّنيا، قال تعالى:﴿أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ وَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴿٥﴾﴾ [النّمل: 5]، واستُعمل موصوفًا بلفظ خزي في الدُّنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١٤﴾﴾ [البقرة: 114]، وجاء لفظ العذاب بمعنى العقاب في قوله تعالى: ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾﴾ [النّور: 2]، وهذه عقوبة الزِّنى، سمّاها عذابًا، ممّا يدلُّ على أنَّ العذاب أوسعُ مِنَ العقاب؛ لأنَّه يستعمل دنيا وآخرة، ويُستعمل بمكانِ العقاب[1].

(1) حسام النّعيمي، روائع البيان القرآنيّ (بتصرّف)، موجودة على الشّابكة، منشورة عام: 2023م.

﴿ذَٰلِكُمۡ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ ١٤﴾ [الأنفال: 14]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

المناسبةُ بين سببِ عقابِ المُشاقّين، وبين ما يقال لهم عند مباشرةِ العذابِ المهين

لَمّا خُتِمَتِ الآيَةُ المتقدِّمَةُ - ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾ - بذِكْرِ السَّبَبِ الموجِب لإهانَةِ الذينَ كَفَروا وبما لَهُ مِنَ الصِّفَةِ العَظيمَةِ؛ أُتْبِعَ ذلكَ ببَيانِ ما يُقالُ للكَفَرَةِ حالَ تلبُّسِ العذابِ بهِمْ؛ مزيدًا في تَبْكيتِهم وتَقْريعِهم وتَوبيخِهم، فقال سُبحانَهُ: ﴿ذَٰلِكُمۡ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَذُوقُوهُ﴾: الذّال والواو والقافُ، تدورُ اشتقاقاتُها علَى معرفةِ طَعْمِ الشَّيْءِ، بمعنَى: إيقاعِه على الحِسِّ بالتَّناوُلِ منه، ويلزَمُ منه اختبارُهُ[2]، وهذا مرادُ مَن جَعَلَ معنى أصلِ المادَّةِ اختيارَ الشَّيءِ من جهةِ الطَّعْمِ[3]، والذَّوق: يكون فيما يُكره ويُحمد، قال اللّه تعالى: ﴿فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلۡجُوعِ وَٱلۡخَوۡفِ بِمَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ ١١٢﴾ [النّحل: 112]، أي: ابتلاها بسوء ما خُبِّرت من عقاب الجوع والخوف[4]، ويُستعمَلُ الذَّوْقُ مجازًا في مُطلَقِ الإحْساسِ[5]، ومعنَى قَوْلِ اللّه تعالَى: ﴿ذَٰلِكُمۡ فَذُوقُوهُ﴾: تَلَقَّوْا العذابَ، وأحِسّوا بهِ.

المَعْنى الإجْماليُّ:

ما ذاق المشركون يوم بدر هو عذاب الدُّنيا، وعذاب الآخرة أشدُّ وأدهى

يوجِّه السّياقُ الخطابَ للمشركين، مشيرًا إلى هذا العذاب الَّذي صبَّه اللّه عليهم، وجرَّعهم كؤوسه على أيدي المؤمنين؛ وذلك هو

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 238/8.
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصَّل: (ذوق).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ذوق).
(4) ينظر: ابن منظور، لسان العرب: (ذوق).
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 46/4.

جزاؤهم في الدُّنيا، أمّا في الآخرة، فلهم أنكى وأمرُّ[1]، وخلاصةُ الآية: ذلِكُمُ العذابُ الَّذي عجَّلتُه لَكُم - أيُّها الكافِرون المشاقّونَ للّهِ تعالَى ورسولِه ﷺ - مِنَ الضَّرْبِ فوقَ الأعناقِ، وضربِ البَنانِ؛ فذوقوه عاجلًا في الحياةِ الدُّنيا، ولَكُم في الآخرة عذابُ النّار[2].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

علَّةُ فصلِ الآيةِ عن سابقتِها:

الآيةُ استئنافٌ جديدٌ؛ لأنَّها بيَّنت ما يقال لأولئك المُشاقّين بعد استحقاقِهم العذابَ

فُصِلَ قَوْلُ اللّهِ ﷻ: ﴿ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ﴾ عَمّا قَبْلَهُ؛ وهو قوله جلَّ وعلا: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾، حيث إنَّ الجملةَ سيقت هنا لمخاطبة الكفّار، أي: ذلكم الضَّرب والقتل، وما أوقع اللّه بهم يوم بدر، فكأنَّه قال: (الأمر ذلكم فذوقوه)، وكذا فسَّره سيبويه[3]، والخطاب في ﴿ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ﴾ للمشركين الَّذين قتلوا، والَّذين قُطِعت بنانُهم، أي: يقال لهم هذا الكلام، "حيثُ تُضْرَب أعناقهم وبَنانهم بأن يُلقى في نفوسهم، حينما يصابون: إنَّ إصابتَهم كانت لمُشاقَّتهم اللّه ورسوله، فإنَّهم كانوا يسمعون توعُّدَ اللّهِ إيّاهم بالعذاب والبطش، وكانوا لا يخلون من اختلاج الشَّكِّ نفوسَهم، فإذا رأوا القتل الَّذي لم يألفوه، ورأى الواحدُ منهم نَفْسَه مضروبًا بالسَّيف، ضربًا لا يستطيع له دفاعًا، عَلِمَ أنَّ وعيدَ اللّه تحقَّق فيه، فجاش في نفسه أنَّ ذلك لمشاقَّته اللّه ورسوله"[4].

دِلالَةُ إيجازِ الحَذْفِ في قَوْلِه: ﴿ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ﴾:

التَّعْجيلُ بإعادَةِ التَّذْكيرِ بالعَذابِ زيادةٌ في التَّقْريعِ

﴿ذَٰلِكُمْ﴾ مِن قولِ اللّه سُبْحانَهُ: ﴿ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ﴾ في محلِّ رفعٍ خبرٌ لمبتَدأٍ محذوفٍ، والتَّقدير: الأمْرُ ذَلكُم، ولا يصحُّ أن يكونَ ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ مُبْتَدَأً، و﴿فَذُوقُوهُ﴾ خبرَهُ؛ إذْ إنَّ ما بعْدَ الفاءِ لا يكونُ

(1) عبد الكريم الخطيب، التّفسير القرآني للقرآن: 580/5.
(2) ابن جرير، جامع البيان، 433/13 - 434، ونخبة من العلماء، التّفسير الميسّر، ص: 178.
(3) ابن عطيّة، المحرر الوجيز: 509/2.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 285/9.

خبرًا لِمُبتدأ، إلّا في أحوالٍ، لَيْسَ هذا مِنها[1]، وفي حذفِ المبتدأ تعجيلٌ بإعادَةِ التَّذكير بالعذابِ المذكورِ قَبْلُ.

نُكْتَةُ تَعْريفِ المُسْنَدِ بالإشارَةِ في قَوْلِه: ﴿ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ﴾:

تَمْييزُ العَذابِ أكْمَلَ تَمْييزٍ وأبْيَنَهُ، هو أبْلَغُ في تَقْريعِ الكَفَرَةِ

عُرِّفَ المسنَدُ بالإشارَةِ في قولِ اللّهِ سُبحانَهُ: ﴿ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ﴾، ليتمَيَّزَ عذابُهُم أكملَ تَمْييزٍ وأبْيَنَهُ؛ وذلك أنَّ الإشارَةَ في ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ إلى العذابِ المعجَّلِ اللّاحِقِ الكُفّارَ مِن ضربِ الرُّؤوس والبَنانِ، فإذا تميَّزَ العذابُ هذا التَّمييزَ؛ كانَ أبلَغَ في تقريعِهم بما ذُكِرَ بَعْدُ مِن قَوْلِه تعالَى: ﴿فَذُوقُوهُ﴾.

سِرُّ التَّعْبيرِ باسْمِ الإشارَةِ الدّالِّ على البُعْدِ: ﴿ذَٰلِكُمْ﴾:

فَظاعَةُ العَذابِ الَّذي صَبَّهُ اللهُ تَعالَى على الكَفَرَةِ جزاءً وفاقًا

جاءَ التَّعبيرُ باسْمِ الإشارَةِ الدّالِّ على البُعْدِ في ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ مِن قَوْلِ اللّهِ ﷻ: ﴿ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ﴾؛ إيماءً إلى عظَمَتِه، وإشعارًا ببُعْدِ درجَتِه في الفظاعَةِ والشِّدَّةِ؛ إذِ الإشارَةُ بـ ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ إلى العذابِ الَّذي صبَّهُ اللّهُ تعالَى عليهِم، وجرَّعَهُم كُؤوسَهُ علَى أيدي أهلِ الإيمانِ[2]، فأُنزِلَ البعدُ المعنويُّ منزلةَ البُعدِ الحِسّيِّ لاشتراكهما في معنى البُعد.

سرُّ تعيينِ المُخاطَبِ بقَوْلِه: ﴿ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ﴾:

تَأْكيدُ عُمومِ الخِطابِ لِلْكافِرينَ جَميعًا، هو تحقيقٌ للعدلِ العامِّ

الكافُ في ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ مِن قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ﴾ حرفٌ دالٌّ على الخِطابِ، والميمُ حرفٌ دالٌّ على الجَمْعِ، والمُخاطَبُ هُمُ الكُفّارُ المشاقّونَ للّهِ تعالَى ورسولِه ﷺ[3]. وجيءَ بضميرِ الخطابِ

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 464/15، وفي المسألة تفصيل: حيث يجوز في ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ أربعةُ أوجه؛ أحدها: أن يكونَ مرفوعًا على خبر ابتداء مضمر، أي: (العقاب ذلكم)، والثّاني: أن يرتفعَ بالابتداء، والخبرُ محذوفٌ، أي: (ذلكُ العقابُ). والثّالث: أن يرتفع بالابتداء، والخبرُ قوله: ﴿فَذُوقُوهُ﴾، وهذا على رأي الأخفش، فإنَّهُ يرى زيادة الفاء مطلقًا، أعني: سواءً تضمَّن المبتدأ معنى الشَّرط أم لا، وأمّا غيرُه فلا يُجيز زيادتها الا بشرط أن يكون المبتدأ مشبَّهًا لاسم الشَّرط، والرّابع: أن يكون منصوبًا بإضمار فعل يُفَسِّره ما بعده، ويكون من باب الاشتغال.
يُنظر: السّمين الحلبيّ، الدّرُّ المصون: 581/5.

(2) عبد الكريم الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 580/5.

(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 288/5.

جَمْعًا؛ قصْدًا إلى تأكيدِ عمومِ الخطابِ لِلْكافِرينَ جميعًا، وأنَّهم كُلَّهُم مخاطَبونَ بذَلِك[1].

بَلاغَةُ الالتِفاتِ في الآية:

تَحْويلُ الأُسْلوبِ إلى الخِطابِ أبْلَغُ في التَّقْريعِ والإهانَةِ والتَّوْبيخِ

في قولِ اللّهِ سُبحانَهُ: ﴿ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ﴾، التفاتٌ مِنَ الغَيْبَةِ إلى الخطابِ؛ وذلكَ لأنَّه تَقدَّم الكلامُ عَنِ الكفَرَةِ بأُسْلوبِ الغَيْبَةِ في قولِه ﷻ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ ثُمَّ حوِّلَ ذلكَ إلى الخِطابِ في قولِه تعالَى: ﴿ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ﴾[2]؛ ليَكونَ مُمَهِّدًا لصيغَةِ الأمْرِ في قولِه ﷻ: ﴿فَذُوقُوهُ﴾، وذلِكَ أبلغُ في التَّقْريعِ والإهانَةِ والتَّوبيخِ؛ فإنَّ اسْتِعْمالَ أُسْلوبِ الخِطابِ في هذه المَقاماتِ أبلَغُ في تحقيقِ مَقْصوداتِها.

دِلالَةُ (الفاءِ) في قَوْلِه: ﴿فَذُوقُوهُ﴾:

بلاغةُ الإيجازِ في تَعْجيلِ العَذابِ العَظيمِ لِلْكافِرينَ، وفي الآخرةِ أعْظَمُ عَذابًا

الفاءُ في قولِ اللّهِ جلَّ وعلا: ﴿ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ﴾ فصيحَةٌ، وهي الدّاخِلَةُ على جَوابِ شَرْطٍ مقدَّرٍ، والتَّقديرُ: إذا كانَ هذا عذابَكُم في الحياةِ الدُّنْيا؛ فذوقوهُ[3]، فظهر في ذكر الفاء بلاغةُ الإيجاز بالحذف.

دِلالَةُ الأمْرِ في قَوْلِه: ﴿فَذُوقُوهُ﴾:

الشَّماتَةُ بالكافِرينَ حالَ تمكُّنِ أهْلِ الإيمانِ منهم يَزيدُهُم ذِلَّةً وهوانًا

الأمْرُ بالذَّوْقِ ﴿فَذُوقُوهُ﴾ مِن قولِ اللّهِ سُبحانَهُ: ﴿ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ﴾، لَم يَجْرِ على حقيقَةِ الأمْرِ مِن الدِّلالَةِ على الإلزامِ والإيجابِ، بَلْ خَرَجَ على أصلِه إلى مَعْنًى مجازيٍّ، وهو الشَّماتَةُ والإهانَةُ[4]، بقرينَةِ كَوْنِ المذوقِ هو العذابَ، وذلك أنَّ الكفَرَةَ المشاقّينَ للّهِ تعالَى ورسولِه ﷺ في حالٍ مَهينَةٍ مِنَ الهزيمَةِ في الدُّنيا، وتسَلُّطِ أهلِ الإيمانِ عليهم، وهذا قاطِعٌ بأنَّ أمرَهُم صادِرٌ علَى وجهِ الإهانَةِ والشَّماتَةِ لهُمْ؛ زيادَةً على ما هُم فيهِ مِنَ الذِّلَّةِ والمهانَةِ.

---

(1) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 3082/6.

(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 205/2، والطيّبي، فتوح الغيب: 48/7، والآلوسي، روح المعاني: 168/5.

(3) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 3082/6.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 285/9.

بَراعَةُ المَجازِ في قَوْلِه: ﴿ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ﴾:

الذَّوْقُ في قولِ اللّه سُبحانَهُ: ﴿ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ﴾ مُسْتَعْمَلٌ مجازًا في معنَى الإحْساسِ بحاسَّةِ اللَّمْسِ، وهو مجازٌ مُرسَلٌ، بعلاقَةِ الإطلاقِ[1]؛ وذلك لأنَّ الذَّوْقَ إحساسٌ بآلَةٍ خاصَّةٍ، فأُطْلِقَ عَنْ هذا القَيْدِ، واستُعْمِلَ في مطلَقِ الإحساسِ، ويجوزُ أنْ تكونَ العلاقَةُ مَلْزوميَّةً؛ وذلك أنَّ الإحْساسَ لازِمٌ للذَّوْقِ، ويحْتَمِلُ أن يَكونَ ذَوْقُ العذابِ اسْتِعارَةً لإحْساسِه؛ وذلك لأنَّ الذَّوْقَ أقْوَى الحواسِّ المُباشِرَةِ لِلْجِسْمِ، فشُبِّهَ بهِ إحساسُ الجِلْدِ[2]، ففي قَوْلِه: ﴿ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ﴾ استعارةٌ تصريحيَّةٌ تبعيَّةٌ.

الذَّوْقُ إحْساسٌ بآلَةٍ خاصَّةٍ، ويُسْتَعْمَلُ في معنى الإحْساسِ بحاسَّةِ اللَّمْسِ مَجازًا

نُكْتَةُ التَّعْبيرِ بالذَّوْقِ في قَوْلِه: ﴿فَذُوقُوهُ﴾:

في التَّعبير بالذَّوْقِ في قولِه سُبحانَهُ: ﴿ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ﴾ وعيدٌ عظيمٌ، حيث جُعِلَ ما أصابَهُم مِنَ العذاب الدُّنْيَويِّ العظيم بمنزِلَةِ الذَّوْقِ الَّذي هو مقدِّمَةٌ للطَّعام، فكذلك عذابُهُم هذا مقدِّمَةٌ لعذابٍ أعظَمَ، وهو عذابُ النّارِ، ولِذا قالَ البقاعيُّ: "واعْلَموا أنَّه بالنِّسْبَةِ إلى ما تَسْتَقْبِلونَهُ، كالمَذوقِ بالنِّسْبَةِ إلى المَذوقِ لِأجلِه"[3]، فما أصابَهُم من الآلامِ في الدُّنيا بالنِّسْبَةِ للعذابِ الأعظَمِ المعدِّ لهُم في الآخِرةِ بمنزِلَةِ الذَّوْقِ؛ لأنَّ الذَّوْقَ لا يَكونُ إلّا بتَعَرُّفِ طَعْمِ اليَسيرِ ليُعْرَفَ به حالُ الكَثيرِ[4]. وفي التَّعْبيرِ بالذَّوْقِ أيضًا: إشارَةٌ إلى آلامِ العذابِ، فقد ذاقوها وأحَسّوها، وذاقوا النَّكالَ والقَتْلَ، وذاقوا الذِّلَّةَ بَعْدَ الاسْتِكْبارِ[5].

العذابُ الدُّنيويُّ يَسيرٌ بالنِّسْبَةِ لشدَّةِ العَذابِ الأُخْرَويِّ

سِرُّ التَّأْكيدِ في قَوْلِه: ﴿وَأَنَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾:

أُكِّدَ قولُ اللّهِ ﷻ: ﴿وَأَنَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾، بـ (أنَّ) والجملةِ

المُبالَغَةُ في إثْباتِ وُقوعِ العَذابِ على الكُفّارِ وتَحَقُّقِ إيصالِه إليهِمْ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 285/9.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 188/7.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 240/8.
(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 464/15، وابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 281/2.
(5) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 3082/6.

الاسميَّةِ مبالغَةً في إثباتِ وُقوعِ العذاب على الكُفّارِ، وتحقُّقِ إيصالِه إليهم، وأنَّ العذابَ هو عقوبةُ اللّه لمن خالف هَدْيَهُ، وخرج عن نهجه، فهو مستحقٌّ بذلك لعذاب النّارِ، وعذابُها أسوء العذاب وأشدُّه، ولهذا أكَّد اللّه أنَّه للكافرين.

دِلالَةُ الواوِ في قَوْلِه: ﴿وَأَنَّ لِلْكَٰفِرِينَ﴾:

الواوُ في قولِ اللّهِ سُبحانَهُ: ﴿وَأَنَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ عاطفةٌ، والمعنى: العقابُ المعجَّلُ هو الَّذي أصابَكُم في الدُّنيا مِن ضربِ الرُّؤوسِ والبنانِ؛ فذوقوهُ عاجلًا مع أنَّ لَكُم في الآخرةِ عذابَ النّار آجِلًا[1]، ويَجوزُ أن تَكونَ الواوُ حاليَّةً بمعنى: ذلكم فذوقوه والحالُ أنَّ للكافرين عذابَ النّار.

اجتماعُ العذابِ الدُّنْيَوِيِّ والعذابِ الأُخْرَوِيِّ على الكافِرينَ

نُكْتَةُ الإظْهارِ في مَحَلِّ الإضْمارِ:

في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿وَأَنَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ إظهارٌ في موضِعِ الإضْمار، وذلك أنَّ مقتضَى الظّاهِر أنْ يَرِدَ النَّظْمُ القرآنيُّ: (وأنَّ لَكُم عذابَ النّارِ)، ولكنَّهُ عُدِلَ عَنْ ذلكَ لِنكاتٍ[2]؛ إحداها: تعليقُ الحُكْمِ بالوَصْفِ؛ ليكونَ تعليلًا، فكُفْرُهُم هو عِلَّةُ تعذيبِهم في النّار. وثانيها: توبيخُهُم على كُفْرِهِمْ. وثالثُها: تعميمُ الحُكْمِ؛ إذْ لو وردَ النَّظْمُ القرآنيُّ: (وأنَّ لكُم عذابَ النّارِ)؛ لتوُهِّمَ اختصاصُهُ بالمذكورينَ قَبْلُ ممَّن قاتلَ أهلَ الإيمانِ في بَدْرٍ، ولكنْ لمّا أُظْهِرَ الاسْمُ؛ تبيَّنَ عُمومُ الحُكْمِ بعمومِ علَّتِه.

الكُفْرُ أعْظَمُ أسْبابِ التَّعْذيبِ بالنّارِ، جزاءٌ من الله العزيز الغفّار

دِلالَةُ تقديم المُسْنَدِ في قَوْلِه: ﴿وَأَنَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾:

قُدِّم متعلَّقُ الخبَرِ ﴿لِلْكَٰفِرِينَ﴾ على اسم (أنَّ)، وهو ﴿عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾، من قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿وَأَنَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾، والأصلُ: وأنَّ

أعْظَمُ النّاسِ نَصيبًا مِن عَذابِ جَهَنَّمَ هُمُ الكافِرونَ لكُفرهم الماحق

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 11/4.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 240/8، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 11/4، وطنطاويّ، الوسيط: 54/6.

عذابَ النّارِ للكافِرينَ، وفي ذلكَ نُكْتَتانِ: إحداهُما: إفادَةُ القصْرِ؛ وذلك أنَّ تقديمَ ما حقُّهُ التَّأخيرُ، يدلُّ عليهِ بالفَحْوَى، وهو قَصْرُ صفةٍ على موصوفٍ قصرًا ليسَ حقيقيًّا؛ لِوُرودِ أدلَّةٍ متكاثِرَةٍ في الشَّرْعِ في وعيد العُصاةِ بالنّارِ، إلّا أنَّ الموحِّدين ممَّن يدخلونَ النّار بسَبَبِ ذنوبهم، ولم يغْفِرْها اللّهُ تعالى لهمْ؛ لا يُخلَّدونَ فيها، فأفادَ هذا أنَّ قَصْرَ عذابِ النّارِ على الكافرينَ، ليس قصرًا حقيقيًّا، وإنَّما سيقَ الكلامُ على وجْهِ القَصْرِ للإشْعارِ، بأنَّ لهم أعْظَمَ نصيبٍ مِن عذابِ جهنَّمَ. والأُخْرَى: أنَّ تأخيرَ المسنَدِ إليهِ أنسَبُ في التَّلاؤُمِ الصَّوْتيِّ لفَواصلِ الآيِ؛ فإنَّ بعدَ هذه الآيةِ قولَهُ تعالَى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ﴾ [الأنفال: 15].

دِلالَةُ اللّامِ في (الكافِرينَ):

اللّام في (الكافِرينَ) مِن قَوْلِ اللّهِ تَعالَى: ﴿وَأَنَّ لِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ يُرادُ بها الاستغْراقُ[1]، أي: أنَّ لكلِّ الكُفّارِ عذابَ النّارِ؛ لما تقرَّر في الشَّريعَةِ، مِن أنَّ كلَّ مَن لا يَدينُ بدينِ الإسْلامِ، فإنَّ مآلَهُ نارُ جَهنَّمَ خالِدًا فيها.

كُلُّ مَنْ لا يَدينُ بدينِ الإسْلامِ، فإنَّ مَآلَهُ نارُ جَهَنَّمَ خالِدًا فيها

بَلاغَةُ التَّذْييلِ في الآيَةِ:

قولُ اللّهِ ﷻ: ﴿وَأَنَّ لِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ جملةٌ تذييليَّةٌ؛ والمعنى: وأنَّ لكُم في الآخرَةِ عذابَ النّار، معَ جميعِ الكَفَرَةِ[2]، "إذًا فالهزيمةُ لمعسكر الكفر والذِّلة، هي مجرَّدُ نموذجٍ ذوق هيِّن، لما سوف يحدث لهم يوم القيامة من العذاب الأليم، وعذاب الآخرة سيكون مهولًا"[3].

اجْتِماعُ الكَفَرَةِ في جَهَنَّمَ لِلعَذابِ، هو حُكم الله على من كفر وما تاب

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 285/9.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 285/9.
(3) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 4605/8.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحۡفٗا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلۡأَدۡبَارَ ١٥ وَمَن يُوَلِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفٗا لِّقِتَالٍ أَوۡ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٖ فَقَدۡ بَآءَ بِغَضَبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأۡوَىٰهُ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ [الأنفال: 15 - 16]

مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِما قَبْلهما:

العلاقة بين تقرير عقاب الكفّارِ وعذابهم، وأمْرِ المؤمنين بالثَّبات والشَّجاعة في الحرب

لَمّا بيَّنَ اللّهُ تعالَى إهانَةَ الكُفّارِ في الدُّنْيا بتَسْليطِ أهلِ الإيمانِ عليْهِم، ضربًا لرؤوسِهم وبَنانِهم، وفي الآخِرَةِ بما لهم منْ عذابِ النّار؛ أتْبعَهُ بنَهْيِ المؤمِنينَ عنِ الفِرارِ منهم، وتَهْديدِ مَن نكَصَ عنهم بَعْدَ البَيانِ المتقدِّم، وهو يَدَّعي الإيمانَ، فقالَ ﷻ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحۡفٗا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلۡأَدۡبَارَ﴾[1]، "فيأمرُ اللّهُ تعالى عباده المؤمنين بالشَّجاعة الإيمانيَّةِ، والقوَّة في أمره، والسَّعي في جَلْبِ الأسباب المُقوّية للقلوبِ والأبدان، ونهاهم عن الفرارِ إذا التقى الزَّحفان"[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿زَحۡفٗا﴾: الزّاي والحاءُ والفاءُ، تدلُّ اشْتِقاقاتُها على بُطْءِ الحَرَكَةِ معَ الاحْتِكاكِ بالأرْضِ مِن ثِقَلٍ أو نَحْوِه[3]، وأصْلُ الزَّحْفِ: انْبِعاثٌ معَ جَرِّ الرِّجْلِ[4]، ومنه زحْفُ الصَّبيِّ على الأرضِ قَبْلَ المَشْيِ؛ فإنَّ حرَكَتَهُ بَطيئَةٌ وفيها جرٌّ للأرْجُلِ، وكذا الجَماعَةُ يَزْحَفونَ إلى العَدوِّ[5]؛ لأنَّ اندفاعَهُم نحو العَدوِّ ومُضيَّهُم إليه قُدُمًا فيهِ بُطْءٌ؛

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 240/8.
(2) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 317.
(3) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (زحف).
(4) الرّاغب، المفردات: (زحف).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (زحف).

ليكونَ ذلكَ على جِهَةِ التَّحرُّسِ والتَّرصُّدِ لِلْفُرْصَةِ، ومنْهُ قولُ اللّهِ تعالَى: ﴿إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحۡفٗا﴾[1].

2) ﴿ٱلۡأَدۡبَارَ﴾: الدّالُ والباءُ والرّاءُ، تدلُّ تصريفاتُهُ على آخِرِ الشَّيءِ وخَلْفِه[2]، ومنه الدُّبُرُ؛ وهو نَقيضُ القُبُلِ مِن كُلِّ شَيْءٍ[3]، ومنه: أدبارُ السُّجودِ، وهي أواخرُ الصَّلواتِ، وإدْبارُ النُّجومِ: عند الصُّبْحِ في آخرِ اللَّيْلِ[4]، ووَلّاهُ دُبُرَهُ: كِنايَةٌ عَنِ الهزيمَةِ والفِرارِ مِنَ المعرَكَةِ[5]، ومنه قولُ اللّهِ سُبحانَهُ: ﴿فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلۡأَدۡبَارَ﴾، فهو نَهْيٌ لهم عَنِ الانْهزامِ[6].

3) ﴿مُتَحَرِّفٗا﴾: الحاءُ والرّاءُ والفاءُ، تدلُّ تصاريفُها على نِهايَةِ جانبٍ أو وجْهٍ مِن الشَّيْءِ، يَبْدَأُ بِهِ جانِبٌ آخَرُ، ومنه الانحرافُ، وهو: العُدولُ والمَيْلُ عَنِ الشَّيءِ إلى جانبٍ منه[7]، وحرفُ الشَّيءِ طَرَفُهُ، ومنه قولُ اللّهِ ﷻ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ﴾ [الحج: 11] أي: علَى طَرَفٍ مِنَ الدّينِ، ليسَ لَهُ ثَباتٌ فيهِ، (كالَّذي يَكونُ على طَرَفِ الجَيْشِ، فإنْ أحَسَّ بظَفَرٍ قَرَّ، وإلّا فرَّ)[8]. وقولُ اللّهِ تعالَى: ﴿إِلَّا مُتَحَرِّفٗا لِّقِتَالٍ﴾، أي: مائِلًا لأجلِ القِتالِ، وذلك إذا مالَ عَنْ مُعْظَمِ القتالِ ووسَطِ الصَّفِّ إلى مكانٍ هو أمْكَنُ لَهُ؛ بقصدِ الكَرِّ والفرِّ[9].

4) ﴿مُتَحَيِّزًا﴾: الحاءُ والواوُ والزّايُ تدورُ اشتقاقاتُها حَوْلَ الجَمْعِ والتَّجمُّعِ، ولِذا يُقال لكلِّ مَجْمَعٍ وناحيَةٍ: حَوْزٌ وحَوْزَةٌ، ومنه قولُهُمْ: حمَى فلانٌ الحَوْزَةَ، أي: المَجْمعَ والنّاحيةَ[10]. وقولُ اللّهِ ﷻ: ﴿أَوۡ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٖ﴾ أي: يَصيرُ إلى حَيِّزِ فِئَةٍ مِنَ المُسْلِمينَ - أي: ناحيتِهم - يَمْنَعونَهُ مِنَ العَدوِّ[11]، والتَّحوُّزُ التَّفعُّلُ، والتَّحيُّزُ التَّفيعل، وقال أبو إسحاق في معنى الآية،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 286/9.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (دبر).
(3) الحميريّ، شمس العلوم: (دبر).
(4) الخليل، العين: (دبر).
(5) الفيّوميّ، المصباح المنير: (دبر).
(6) الرّاغب، المفردات: (دبر).
(7) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصَّل: (حرف).
(8) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 66/4.
(9) بطّال الرَّكبيّ، النَّظم المستعذب: 278/2.
(10) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حوز).
(11) الهروي، الغَريبَين: (حوز)، والرّاغب، المفردات: (حيز).

أي: إلّا أنْ يَنحازَ، أي: ينفرد ليكون مع المُقاتِلة، وأصله: متحيِّوز، قلبت الواو ياء لمجاورة الياء، ثمَّ أُدغمت فيها، ويقال: هو (تفيعل) من الحوز[1]، قال الشّاعر:

تَحَيَّزُ مِنّي خيفَةً أنْ أضيفَها *** كَما انْحازَتِ الأفْعَى مَخافَةَ ضاربِ[2]

5) ﴿بَآءَ﴾: الباء والواوُ والهَمْزَةُ تدُلُّ تصريفاتُها على مساواةِ الأجْزاء في المكانِ، وذلك ضدُّ النَّبْوِ الذي هو منافاةُ الأجْزاء[3]، ويدلُّ أيضًا علَى معنى الرُّجوع[4]، تقول العربُ: باءَ بإثمِه، إذا رَجَعَ به[5]. ويُستعمَلُ البَواءُ في مُراعاة التَّكافؤِ، ومنه قولُ العرَب: فلانٌ بواءٌ لفلانٍ؛ إذا ساواهُ، ومنه قولُ اللّهِ تعالَى: ﴿فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [الأنفال: 16]، أي: حلَّ مُبوَّأً، ومعَهُ غضَبُ اللّهِ تعالَى، واسْتِعْمالُ (باءَ) هَهُنا فيهِ إشارةٌ إلى أنَّ مكانَه الموافقَ يَلْزَمُه فيهِ غضَبُ اللّهِ تعالَى، فكَيْفَ بغَيْرِه مِنَ الأمكِنَةِ؟[6].

6) ﴿بِغَضَبٍ﴾: الغين والضّاد والباءُ، تَدور اشتقاقاتُها على معنى الشِدَّةِ والقوَّة، ومنه تسميَةُ العربِ الصَّخرةَ الصُّلبةَ بالغَضْبَةِ[7]، ومنه الغضَبُ؛ فإنَّه دالٌّ على شدَّةِ الغاضبِ وقوَّتِه، فإنَّ العبدَ إذا اسْتَشْعَرَ القُدرةَ؛ كان منه الغضبُ، وإنِ اسْتَشْعَرَ العَجْزَ؛ كان منه الحُزْنُ[8]. وأمّا قولُ الرّاغب في حقيقة الغضَبِ: إنَّهُ (ثورانُ دَمِ القَلْبِ إرادةَ الانْتِقام)، ورتَّب عليهِ أنَّ معنى الغضبِ في حقِّ اللّهِ تعالى، هو الانتقامُ دونَ غيرِه[9]؛ فغيرُ مُسلَّم، إذ حقيقةُ الغضبِ المذكورةُ عند الرّاغب، هي غضبُ المخلوقِ لا غضبُ الخالقِ، فإنَّ الغضبَ مِنَ الصِّفاتِ المعنويَّةِ الَّتي تُدْرَكُ بآثارِها، ومن آثارها في حقِّ المخلوقِ، ما ذكرَهُ الرّاغبُ، لا على أنَّ ذلك هو حقيقتُهُ[10]، فغضبُ اللّهِ تعالَى المذكورُ في قولِه سُبْحانَهُ: ﴿فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ هو غضبٌ يليقُ بجلالِ اللّه وعظَمَتِه.

---

(1) الزّبيديّ، تاج العروس: (حوز).

(2) البيت للقطاميّ. ينظر: الصّحاح واللّسان والتاج (حوز؛ حيز)، والحميريُّ، شمس العلوم: 1657/3.

(3) الرّاغب، المفردات: (باء).

(4) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (بوأ).

(5) ابن دُريد، جمهرة اللُّغة: (بوأ).

(6) الرّاغب، المفردات: (باء).

(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (غضب).

(8) ابن تيميَّة، الرِّسالة الأكمليَّة فيما يجب لله من صفات الكمال، ص: 53.

(9) الرّاغب، المفردات: (غضب).

(10) يدلُّ على عدمَ صحّة تفسيرِ غَضَبِ اللهِ تعالى بالانتقامِ قولُ الله تعالَى: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٥٥﴾ [الزّخرف: 55]، فإنَّ معنى ﴿ءَاسَفُونَا﴾: أغضبونا، فجَعَلَ الانتقامَ أثرًا مترتِّبًا علَى الأسَفِ، فدلَّ علَى أنَّهُ غيرُهُ، يُنظر: ابن عثيمين، القول المفيد: 422/1.

7) ﴿وَمَأْوَىٰهُ﴾: الهَمْزَةُ والواوُ والياء، تدورُ تصريفاتُها على مَعْنَيَيْنِ: التَّجمُّعُ، والإشفاقُ[1]، ومِنَ الأوَّلِ التَّأوّي، وهو التَّجمُّع، وقولُ العربِ: تأوَّتِ الطَّيرُ؛ إذا انضمَّ بعضُها إلى بعضٍ[2]، والمَأْوَى: المكانُ الَّذي يُنْصَرَفُ إليه، ويُقامُ فيه[3]، والمَأْوَى في قولِ اللّهِ تَعالَى: ﴿وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ﴾ المصير الَّذي يَأْوي إليه يومَ القيامَةِ.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

نداءٌ عامٌّ للمؤمنين، للثَّبات في مواجهة المُعتدين، دون استدبار ولا فرار

يا مَنْ آمَنَ باللّهِ تعالى واتَّبعَ رسولَهُ ﷺ، إذا قابلْتُمُ المُشْرِكينَ في القِتالِ متقارِبَيْنِ؛ فلا تولّوهُم ظُهورَكُم، فتَنْهَزِموا عنهم، ومَن يولِّهم مِنكُم ظَهْرَهُ هاربًا منهم، غَيْرَ مُنْعَطِفٍ لِقتالِهم، بأنْ يُريَهُمُ الفَرَّ مَكيدَةً منه، وهو يُريد الكَرَّ عليهم، أو غَيْرَ صائرٍ إلى حَيِّزِ المُؤْمِنينَ الَّذينَ يَفيئونَ به معَهُم إليهم لِقتالِهِمْ؛ فقد رَجَعَ بغَضَبٍ مِنَ اللّهِ سُبحانَهُ واسْتحَقَّهُ، ومصيرُهُ الَّذي يأْوي إليه يومَ القيامَةِ جَهَنَّمُ، وبِئْسَ الموضِعُ الَّذي يصيرُ إليهِ ذلكَ المَصيرُ[4].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

عِلَّةُ فصلِ قَوْلِه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ عَمّا قَبْلَهُ:

التَّحذيرُ مِنَ الوَهَنِ ومن الفِرارِ عند مواجهة العَدوِّ الأرعن

فُصِلَ قَوْلُ اللّهِ ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ عَمّا قَبْلَهُ؛ لوقوعِه استئنافًا ابتدائيًّا[5]، فإنَّ اللّهَ سُبحانَهُ لمّا ذكَّر المؤمنينَ بما أيَّدَهُم بهِ يومَ بدرٍ مِنَ الملائكَةِ والنَّصْرِ مِن عِنده؛ اعترَضَ في خلالِ ذلكَ بتحذيرِهم مِنَ الوَهَنِ والفِرارِ من عُدوِّهم، وفي ضِمْنِ ذلكَ أمرٌ لهم بالثَّباتِ والصَّبْرِ.

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (أوى).
(2) الخليل، العين: (أوى).
(3) ابن أبي نصر الحُميديّ، تفسير غريب ما في الصَّحيحين، ص: 266.
(4) الهروي، الغَريبَيْن: (حوز)، والرّاغب، المفردات: (حيز).
(5) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 286/9.

نُكْتَةُ النِّداءِ بـ (يا) في قَوْلِه: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾:

جاء النِّداءُ بـ (يا) في قَوْلِ اللّه ﷻ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾، وهي في الأصل لِنداء البَعيدِ، ونداءُ اللّهِ سبحانه لعبادِه نِداءٌ مِنَ الخالِق إلى المخلوقين، فجديرٌ أنْ يَكونَ بأداةِ النِّداء لِلْبَعيدِ، وفي التَّعبير بأداة النِّداء لِلْبَعيد نِكاتٌ: أولاها: بُعْدُ ما بين الخالِق والمَخْلوقِ مِنَ المَكانةِ. وثانيها: أنَّه نداء مِنَ الخالِق، وهو مُقْتَضٍ أعلَى العلوِّ وأبعدَهُ. وثالثها: عِظَمُ شأنِ موضوع النِّداءِ، وإظهارُ العنايَةِ بِهِ والمُبالغَةُ في حَثِّهم علَى المُحافظَةِ عليه[1].

الحَثُّ على الصَّبْرِ والثَّباتِ، والتَّحْذيرُ مِنَ الوَهنِ والفِرارِ

سِرُّ النِّداءِ بـ ﴿يَـٰٓأَيُّهَا﴾:

النِّداءُ بـ ﴿يَـٰٓأَيُّهَا﴾ في قَوْلِ اللّهِ جلَّ وعلا: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ فيهِ ضَرْبٌ مِن تَقْوِيَةِ النِّداءِ، ووَجْهُ ذلك: أنَّ (أيّ) لا يُفْهَمُ المرادُ مِنها إلّا باسمٍ بعَدَهُ يُزيلُ غُموضَهُ، وفي هذا انتقالٌ مِنَ الإبْهام إلى الإيضاحِ والبَيانِ، وفي هذا نَوْعُ توكيدٍ، وفي اقترانِه بـ(ها) التَّنبيه: زيادةٌ في التَّوكيدِ؛ إذِ النِّداءُ في الأصل يُرادُ به التَّنبيهُ.

الانْتِقالُ مِنَ الإبْهامِ إلى الإيضاحِ والبَيانِ مِن مُقَوِّياتِ المَعاني

دلالةُ النِّداءِ باسْمِ الإيمانِ:

وقَعَ النِّداءُ باسْمِ الإيمانِ في قَوْلِ اللّهِ تَعالَى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾؛ لكونِ الإيمانِ صَبْرًا وفِداءً، فالنِّداءُ باسمِ الإيمانِ تحريضٌ علَى الصَّبْرِ عند اللِّقاءِ، والثَّباتِ عند الصِّعابِ[2]؛ لِما يُشْعِرُ بِهِ وصفُ الإيمانِ مِنَ الاستعدادِ لامتِثالِ ما يأمرُهُم اللّهُ تعالَى به؛ وذلك لأنَّهُ أخصُّ أوصافِهم تُجاهَ أوامرِ اللّهِ[3] ﷻ، كما قالَ سُبحانَهُ: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ [النّور: 51].

أخَصُّ أوصافِ المؤمنينَ: امْتِثالُهُم الأوامِرَ، وانزجارُهُم عنِ الزَّواجر

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السَّليم: 12/4.
(2) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 3084/6.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/10.

نُكْتَةُ مَجيءِ جُمْلَةِ الصِّلَةِ فِعْلًا ماضيًا:

حَثُّ أهْلِ الإيمانِ على تَجْديدِ إيمانِهم والثَّباتِ عليه

جاءتِ جملَةُ الصِّلَةِ فِعْلًا ماضيًا، في قَوْلِ اللهِ سُبحانَهُ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾؛ لإفادةِ التَّجدُّد والحدوثِ؛ حثًّا لِلْمُخاطَبين على تَجْديدِ إيمانِهم والاستمرارِ عليه، وفي الإتيانِ بها فِعْلًا ماضيًا هاهُنا إشعارٌ بأنَّ وصفَ الإيمانِ ثابتٌ لهم، وأنَّهُم مُتَحَقِّقونَ به؛ لأنَّهم آمنوا بمجرَّد أن سمعوا الحقَّ.

فائِدَةُ حَذْفِ مُتَعَلَّقِ الإيمانِ مِن قَوْلِه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾:

حَقيقَةُ الإيمانِ مُسْتَقِرَّةٌ في النُّفوسِ، ولها تَخضعُ النَّواصي، وتُطأطِأُ الرُّؤوس

حُذِفَ متعلَّقُ الفعلِ ﴿ءَامَنُوٓاْ﴾ مِن قَوْلِ اللهِ سُبحانَهُ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ وهو المُؤْمَنُ به، وفي ذلك مَسْلَكانِ: أحدُهما: ظهورُ أفرادِ المؤمَنِ به؛ وذلك لأنَّ الإيمانَ لَهُ حقيقَةٌ شَرْعيَّةٌ مَعْروفةٌ، فإذا أُطْلِقَ لفظُ الإيمانِ انصرَفَ الذِّهْنُ إلى تلكَ الحَقيقةِ، مِن غَيْرِ افتقارٍ إلى التَّنصيصِ على مُتَعَلَّقِه. والآخر: إرادَةُ العموم؛ وذلك لأنَّ حَذْفَ المَعْمولِ مُؤْذِنٌ بالعُموم، والمعنى: آمَنوا بجَميعِ ما يجبُ الإيمانُ به شرعًا.

نُكْتَةُ تَعْليقِ الشَّرْطِ بـ ﴿إِذَا﴾:

الحَقُّ والباطلُ في صِراعٍ دائِمٍ، لا ينتهي إلى يوم القيامة

في قَوْلِه: ﴿إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفًا﴾ أداةُ الشَّرْطِ (إذا) تَدُلُّ في الأصْلِ علَى تحقُّق وقوعِ مَدْخولِها، ولذا كانَ الغالِبُ في الفِعْلِ المُسْتَعْمَلِ معها، أن يكون ماضيًا؛ للدِّلالة على تحقُّق الوقوع المُناسِب لِما تُفيده (إذا)، والتَّعبير بهذا في قولِه سُبْحانَهُ: ﴿إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفًا﴾ إشعارٌ بتحقُّقِ لقاءِ المؤمنينَ الكفَرَةَ، وأنَّ القِتالَ بينَهُم كائِنٌ لا محالَةَ؛ إذْ لا يَزالُ الحقُّ والباطِلُ في صِراعٍ.

نُكْتَةُ التَّعْبيرِ بالصِّلَةِ في قَوْلِه: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾:

تَحْريضُ المؤْمِنينَ على الثَّباتِ في مواجهةِ مَنْ كَفَرَ باللهِ تَعالَى وآذَى أولياءَهُ

في التَّعبير بالاسْم الموصولِ وصِلَتِه ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾، تَحْريضٌ أشدُّ لِلْمُؤْمِنينَ؛ إذْ إنَّهُم أُمِروا بالثَّباتِ مقابِلَ مَنْ كَفَروا بربِّهم، وآذَوْا أولياءَهُ، وأخْرَجوهُم مِن ديارِهم، وظاهَروا على ذلِكَ[1].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/10.

سِرُّ مَجيءِ جُمْلَةِ الصِّلَةِ فِعْلًا ماضيًا:

كفرُ الكُفّارِ جراءةٌ على الله الواحد القهّار

جاءتِ جملةُ الصِّلَةِ فِعْلًا ماضيًا: ﴿كَفَرُواْ﴾، في قَوْلِ اللّهِ ﷻ: ﴿إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحۡفٗا﴾؛ للدِّلالَةِ علَى تجدُّدِ الكُفْرِ فيهم؛ وفي هذا زيادَةُ حثٍّ على مُصابَرةِ هؤلاءِ وقِتالِهِمْ؛ إذْ عَظُمَت جراءَتُهُم على ربِّهم ﷻ بالكُفْرِ به وبِما يجبُ الإيمانُ به، وفي الإتيانِ بجملَةِ الصِّلَةِ فِعْلًا ماضيًا، إشعارٌ بأنَّ وصفَ الكُفْرِ ثابتٌ لهم مُتَحَقِّقٌ فيهِمْ.

بَلاغَةُ الطِّباقِ اللَّفظي:

تعظيمُ شأنِ أهلِ الإيمانِ، وحَطُّ أقْدارِ أهْلِ الكُفْران

في قَوْلِ اللّهِ ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحۡفٗا﴾، فيه طباقُ إيجابٍ بينَ ﴿ءَامَنُوٓاْ﴾ و﴿كَفَرُواْ﴾، وفي هذا بيانُ عظيمِ التَّفاوُتِ بينَ الطّائفَتَيْنِ؛ تعظيمًا لأهلِ الإيمانِ، وحطًّا وتَحْقيرًا لأهْلِ الكُفْرِ؛ لأنَّ الضِّدَّ يُظْهِرُ حُسْنَ ضِدِّه وقُبْحَهُ.

نُكْتَةُ التَّعْبيرِ بالمَصْدَرِ ﴿زَحۡفٗا﴾:

الحثُّ على الثَّباتِ والمُصابَرَةِ حالَ لِقاءِ الكَفَرة

لفظ ﴿زَحۡفٗا﴾ من قَوْلِ اللّهِ ﷻ: ﴿إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحۡفٗا﴾ مصدَرٌ، وقع حالًا، ولِذا لَم يُجْمَعْ، كقولِ العربِ: قومٌ عَدْلٌ ورِضًى[1]، وجاءَ التَّعبيرُ عَنْ حالِ لقائِهم بالمصدَرِ لقصْدِ المبالَغَةِ في التَّشبيهِ، والمعنى: إذا لقيتُم الّذين كفَروا حالَ كَوْنِهم مُحارِبينَ، وهُم مِنَ الكثْرَةِ بحَيْثُ لا يُدْرَكُ مِن تحرُّكِهم إلّا كَما يُدْرَكُ مِنَ الزَّحْفِ[2].

بلاغةُ الاسْتِعارَةِ في الآية:

تصويرُ مَشْيِ الطّائِفَتَيْنِ في الكَثْرَةِ والاحْتِراسِ في صورَةِ الزّاحِف

في قَوْلِه تَعالَى: ﴿إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحۡفٗا﴾ استعارة، فأصلُ الزَّحْفِ مشيٌ معَ جرِّ الرِّجْلِ، ومنه انْبِعاثُ الصَّبيِّ قبْلَ أن يمشيَ، فشُبِّهَ مشيُ الطّائفَتَيْنِ بعضِهم إلى بعضٍ في القِتالِ بالزَّحْفِ، على طريقَةِ الاستعارةِ التَّصريحيَّةِ الأصليَّةِ، وفي ذلك نُكْتَتانِ؛ إحداهما: الإشعارُ بأنَّ كُلَّ طائفَةٍ تمْشي إلى نظيرَتِها مشْيًا رويْدًا قَبْلَ التَّنادي

(1) الثّعلبيّ، الكشف والبيان: 336/4.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 240/8.

للقِتالِ؛ لأنَّ كلًّا منهما يَدْنو إلى الآخَرِ باجْتِراسٍ وتَرَصُّدٍ لِلْفُرْصَةِ[1].
وثانيهما: الدِّلالَةُ علَى كثْرَةِ المُقاتِلينَ، حتَّى إنَّهم مِن كثْرَتِهم الكاثِرةِ يُرَوْنَ كأنَّهم شيءٌ يَزْحَفُ؛ وذلك لأنَّ الجميعَ يُرَوْنَ بمنزِلَةِ الجسْمِ الواحدِ المُتَّصلِ، فتُحَسُّ حركتُهُ بالنَّظَرِ إليه في غايةِ البُطْءِ وإن كانَت في نَفْسِ الأمْرِ علَى غايَةِ السُّرْعَةِ[2].

دِلالَةُ الفاءِ في قَوْلِه: ﴿فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ﴾:

النَّهْيُ عَنِ الفِرارِ مِن النِّزال دعوةٌ للثَّبات في كلِّ الأحوال

الفاءُ في قَوْلِ اللهِ ﷻ: ﴿إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ﴾ واقعَةٌ في جوابِ الشَّرْطِ[3]؛ لكونِه جملةً طَلَبيَّةً، فالفاءُ رابِطَةٌ بين الشَّرْطِ ﴿إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفًا﴾، والجوابِ: (لا تولّوهُمُ الأدْبارَ)، ووجود الفاء دلالة على بلاغة الحَذْفِ، على تقدير: (إذا لقيتم الَّذين كفروا زحفًا؛ تعيَّن عليكم القتالُ، فلا تولّوا الأدبار).

بَلاغَةُ الكِنايَةِ في قَوْلِه: ﴿فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ﴾:

المُرادُ بالنَّهْيِ عَنْ تَوْلِيَةِ الأدْبارِ: النَّهْيُ عَنِ الفِرارِ والانكسار

تَوْلِيَةُ الأدْبارِ في قَوْلِ اللهِ ﷻ: ﴿فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ﴾، كنايَةٌ عن الفرارِ مِنَ الأعداءِ، بقرينَةِ ذِكْرِه في سياقِ لقائِهم، فتوْلِيَةُ الأدبار مُستعمَلٌ في لازِمِ مَعْناهُ، مع بعضِ معناهُ الأصليِّ؛ وذلك لأنَّ صرفَ الظَّهْرِ إلى العَدوِّ بعْدَ النَّصْرِ للانْصِرافِ إلى المعسكَرِ مِنَ الضَّروراتِ، وليسَ هذا بالمَنْهيِّ عنه، وإلّا لَزِمَ منه أن يَبْقَى المُسْلِمونَ مواجهينَ جيشَ عَدوِّهم مواجهةً دائمَةً، فدلَّ هذا على أنَّ المرادَ بالنَّهْيِ عَنْ توليَةِ الأدبارِ النَّهْيُ عَنِ الفرارِ مِنَ الأعداءِ قَبْلَ النَّصْرِ أو القَتْلِ[4].

---

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 464/15، والخازن، لباب التّأويل: 299/2، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 286/9.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 12/4.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/10.
(4) الخازن، لباب التّأويل: 299/2، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 289/9.

نُكْتَةُ التَّعْبيرِ بالأدْبارِ دونَ الظُّهورِ:

تَقْبيحُ فِعْلِ الفرار، وتَبْشيعُ الانْهِزامِ، للحفاظ على الأُمَّة

عُدِلَ عنِ التَّعبير بالظُّهور إلى التَّعبير بالأدبارِ في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ﴾، فلَم يَرِد النَّظْمُ القرآنيُّ: (فلا تولّوهم الظُّهور)؛ تقبيحًا لِفعْلِ الفارِّ، وتَبْشيعًا للانْهِزامِ، وتنفيرًا منه؛ لأنَّ القُبُلَ والدُّبُرَ يُكْنَى بهما عَنِ السَّوْءَتَينِ[1].

سِرُّ التَّعْبيرِ بـ ﴿ٱلْأَدْبَارَ﴾ دونَ (أدْبارِكُمْ):

المُسْلِمُ في النِّزال مُكَلَّفٌ بفِعْلِ نَفْسِه وغَيْرِه؛ مُبالَغَةً في وحدة الإسْلامِ

جاءَ التَّعبيرُ بلفظ ﴿ٱلْأَدْبَارَ﴾ دونَ (أدْبارِكُمْ)، في قَوْلِ اللّهِ سُبحانَهُ: ﴿فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ﴾، فلَم يَرِد النَّظْمُ القرآنيُّ: (فَلا تولّوهُم أدْبارَكُمْ)؛ إشعارًا بأنَّ المُسْلِمَ في القِتالِ، قد كُلِّفَ بفِعْلِ نفسه وبفِعْلِ غيرِه، مبالغَةً في اتِّحادِ كلمةِ أهلِ الإسْلام؛ لئلّا يتطرَّقَ الوَهَنُ إليهم، وذلك لأنَّ العَبْدَ إذا ولَّى دُبُرَهُ هاربًا؛ كان ذلكَ سببًا لِتَوَلّي غَيْرِه؛ لِما يُلْحِقُهُ هَرَبُهُ مِن وهَنِ العَزائِم، وبِهذا صَحَّ نَهْيُهُ عن فِعْلِ غيرِه بهذا الاعْتِبار، فإذا رأى غيرَهُ ولَّى دُبُرَهُ؛ وجبَ عليه ألّا يوَلّيَ هو دُبُرَهُ، بل يَصْبِرُ، ويَثْبُتُ، ويُقاتِلُ عمَّن ولَّى دُبُره ليَرْجِعَ، ويُقاتِلَ[2].

بَراعَةُ الالتِفاتِ مِنَ الجَمْعِ إلى الإفْرادِ:

وُجوبُ التَّضافُرِ والتَّآزُرِ وعدمِ جَوازِ الانْفِرادِ بِرَأْيٍ دونَ الجَماعَةِ

في قَوْلِ اللّهِ سُبْحانَهُ: ﴿فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ۝١٥ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ﴾، التفاتٌ بالعَدَدِ مِنَ الجَمْعِ ﴿فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ﴾، إلى الإفْرادِ ﴿يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ﴾، فذكَرَ الفارَّ مُفْرَدًا؛ للإشارَةِ إلى وجوبِ التَّضافُرِ والتَّآزُرِ، وألّا ينْفَرِدَ المقاتِلُ برأْيٍ دونَ باقي الجماعَةِ، وألّا يَكونَ إلّا معَهُمْ[3].

دِلالَةُ التَّنْوينِ في ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ مِن قَوْلِه: ﴿يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ﴾:

التَّنوينُ في ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ مِن قَوْلِ اللّهِ ﷻ: ﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ﴾

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 292/5، والخفاجيّ، عناية القاضي: 259/4، والآلوسيّ، روح المعاني: 169/5، وطنطاويّ، الوسيط: 61/6.

(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 281/2.

(3) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 3084/6.

عِوضٌ عَنِ المُضافِ إليه، وهو إيماءٌ إلى يومِ اللِّقاءِ الَّذي دلَّ عليه قولُهُ سُبحانَهُ: ﴿إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾، والتَّقدير: (ومَن يولِّهم دُبُرَهُ يومَ لقائِكُمُ الَّذين كفَروا)، ففيهِ إيجازٌ بحذْفِ جُمْلَةٍ[1].

طَيٌّ بعض الكَلامِ وإبْقاءُ ما يَدُلُّ عَلَيْه من فصيح البيان

دِلالَةُ (اللّامِ) في قَوْلِه: ﴿إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ﴾:

اللّامُ في قَوْلِ اللهِ سُبْحانَهُ: ﴿إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ﴾ لامُ التَّعليلِ، و(إلّا) للاستثناء، والمعنى: إلّا في حالِ مجانبَةِ مُعظَمِ القتالِ ووسطِ الصَّفِّ إلى مكانٍ أمكنَ لَهُ لأجْلِ القِتالِ بالكَرِّ والفَرِّ[2].

جَوازُ التَّزحزح عن وسَطِ الصَّفِّ لِأجْلِ القِتالِ بالكَرِّ والفَرِّ

دِلالَةُ الرَّبْطِ بالفاءِ:

الفاءُ في قَوْلِ اللهِ ﷻ: ﴿فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ رابطَةٌ لِجَوابِ الشَّرْطِ في قولِه: ﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ﴾، وذلك أنَّه لمّا جيءَ بالشَّرْطِ؛ كان ذلك محلًّا لتوقُّعِ السّامِعِ للجوابِ، وتفريغِ ذهنِه لهُ، فجيءَ بالفاءِ إشعارًا بأنَّ الفِعْلَ المُتحدَّثَ عنه قَبلُ سببٌ لهذا الجزاءِ[3].

تَرْتيبُ غَضَبِ اللهِ تَعالَى على مُجانَبَةِ وسَطِ الصَّفِّ لِغَيْرِ قَصْدٍ صَحيحٍ

دِلالَةُ التَّعْبيرِ بالبَوْءِ في الآيةِ:

عُبِّرَ بالبَوْءِ في قولِ اللهِ ﷻ: ﴿فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ للإشعارِ بلُزومِ غضبِ اللهِ تعالَى لهم أينَما حلّوا؛ إذْ معنى قولِ اللهِ سُبحانَهُ في هذه الجملة من الآية ﴿فَقَدْ بَآءَ﴾: حلَّ مُبوَّأً، ومعَهُ غَضَبُ اللهِ جلَّ وعلا، وفي هذا إشارةٌ إلى أنَّ مَكانَه الملائمَ لَهُ يَلْزَمُه فيهِ غَضَبُ اللهِ سُبْحانَهُ، فكَيْفَ بغَيْرِه مِنَ الأمْكِنَةِ؟[4]

الفارُّ مِنَ المَعْرَكَةِ تلحقه لعنةُ الله السّاحقة، وآثار غَضَبِه الماحقة

دِلالَةُ (الباءِ) في: ﴿بِغَضَبٍ﴾:

الباءُ في قَوْلِ اللهِ سُبْحانَهُ: ﴿فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ للإلصاقِ والمُلابَسَةِ، أي: إنَّه قد رجَعَ وغضبُ اللهِ تعالى ملاصِقٌ

من باء بغَضَبِ اللهِ تَعالَى؛ فقد خَسِرَ الدُّنيا والآخرة

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 510/2، وأبو حيّان، البحر المحيط: 292/5.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 290/9.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 241/8.
(4) الرّاغب، المفردات: (باء).

لهُ ومُلابِسٌ، وهذا فيه إشعارٌ بلُزومِ الغضبِ عليه؛ لعظيمِ جُرْمِه وشنيعِ فِعْلَتِه[1].

سِرُّ تَنْكيرِ الغَضَبِ في قَوْلِه: ﴿فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ﴾:

عِظَمُ العَذابِ في الآخرة على قدرِ الفِعالِ الفاجرةِ

تَنكيرُ الغضَبِ في قولِ اللّه سُبْحانَهُ: ﴿فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾، يُرادُ به التَّعظيمُ والتَّفخيمُ، فهُم قد باؤوا بغضَبٍ عظيمٍ؛ لعِظَمِ جُرْمِهم وشناعَةِ صنيعِهم، وزادَ الغضبَ دِلالةً على التَّعظيمِ وصفُهُ بـ ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾؛ فإنَّ الجارَّ والمَجْرورَ مُتَعَلِّقٌ بمَحْذوفٍ صفةٌ لـ (غَضَبٍ)، فأفاد مجموعُ ذلك: كونَهم باؤوا بغضبٍ مؤكَّدٍ؛ فقد اجتمعتِ الفخامةُ الذّاتيَّة المُسْتَفادَةُ من تَنْكيرِ الغَضَبِ، والفخامةُ الإضافيَّةُ المُسْتَفادةُ من إضافَتِها إلى الاسمِ الأعظم (اللّه)[2].

بَلاغَةُ الاسْتِعارَةِ التَّهَكُّميَّةِ:

التَّهكُّمُ مِن أشَدِّ أنْواعِ العَذابِ، وأكثره تأثيرًا في البلاغ

في قَوْلِه: ﴿وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ استعارة تهكّميَّة، فأصلُ المَأْوَى: المكانُ الَّذي يُنْصَرَفُ إليه، ويُقامُ فيه[3]، وإنَّما يُؤْوَى إلى مكانٍ فيه استقرارٌ واطمئنانٌ، فمجيءُ التَّعبيرِ القرآنيِّ عن جهنَّمَ بالمَأْوَى في قولِه سُبْحانَهُ: ﴿وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ﴾ من بابِ الاسْتِعارَةِ التَّهكُّميَّةِ، وهذا أشدُّ وقعًا على النُّفوسِ؛ لِما فيها مِنَ الإنْزالِ لِقدرِ المخاطَبِ والحَطِّ منه[4].

تَوْجيهُ المُتَشابه اللَّفْظيِّ:

دِقَّةُ النَّظْمِ القرآنيِّ في اختيارِ حُروفِ المَعاني، بما يُناسِبُ السِّياقَ

جاء التَّعبيرُ في هذا الموضِع بالواوِ في قولِ اللّه ﷻ: ﴿وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ﴾، وفي آلِ عمرانَ بـ (ثُمَّ)، فقالَ سُبْحانَهُ: ﴿مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾﴾ [آل عمران: 197]، وجيءَ بـ (ثُمَّ) في آلِ عمرانَ؛ لأنَّ هذهِ الآيَةَ سُبِقَتْ بقَوْلِ اللّهِ جلَّ وعلا: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 291/9.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السَّليم: 13/4.
(3) الحُمَيْديّ، تفسير غريب ما في الصَّحيحين، ص: 266.
(4) يحيى العلويّ، الطِّراز لأسرار البلاغة: 127/1.

﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ﴾، وتصرُّفُهم في التِّجارَة وإصابتُهم الأمْوالَ، قد يطولُ زَمَنُهُ، ولذا ذُكِر حَرْفُ العَطْفِ (ثُمَّ) الدّالِّ على التَّراخي.

بخلافِ آيةِ الأنْفالِ؛ فقد وردَ العَطْفُ فيها بالواوِ، في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿وَمَأۡوَىٰهُ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾؛ لعدمَ تضمُّنِها ما يقتضي التَّراخي، فكان الأنسبُ العطفَ بالواوِ المفيدةِ الاشتراكَ في الحُكْمِ.

بَلاغةُ الاعْتِراضِ في الآية الكريمة ودوره في الدَّلالة:

قولُ اللّه ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحۡفٗا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلۡأَدۡبَارَ ١٥ وَمَن يُوَلِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفٗا لِّقِتَالٍ أَوۡ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٖ فَقَدۡ بَآءَ بِغَضَبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأۡوَىٰهُ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ اعتراضٌ بين قولِه سُبحانَهُ قَبْلُ: ﴿إِذۡ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمۡ﴾، وقولِه ﷻ بَعْدُ: ﴿فَلَمۡ تَقۡتُلُوهُمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمۡۚ﴾، وفي هذا الاعتراضِ تدريبٌ للمُسْلِمينَ علَى الشَّجاعَةِ والإقْدامِ والثَّبات عند لقاءِ الأعْداءِ، وهيَ طريقَةٌ حسنَةٌ عند العَرَبِ، وقد زادَها الإسْلامُ تقويَةً[1].

تَدْريبُ المُسْلِمينَ علَى الشَّجاعَةِ والإقْدامِ، والثَّباتِ عند لِقاءِ الأعْداءِ

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

المأْوَى والمثْوَى:

ذهب بعضُ أهل العلم إلى أنَّ المأوَى والمَثْوَى بمعنًى واحدٍ، وفرَّق بينهما جماعةٌ، وحاصلُ الفرقِ بينهُما مِن وجْهَيْنِ: أحدهما: أنَّ المأوى أعمُّ من المثوَى؛ لأنَّ المثوَى يتضمَّنُ معنى الإقامةِ، بخلاف المَأْوَى[2]، فقد يدلُّ على معنَى الإقامة، وقد لا يدلُّ عَلَيْها؛ ولذا قد يأوي الإنسانُ إلى مكانٍ عارضٍ، ولذا جاء في الحديث قولُ النَّبيِّ ﷺ: «انْطَلَقَ ثَلاثَةُ رَهْطٍ مِمَّنْ كانَ قَبْلَكُم حَتَّى أوَوا المَبيتَ إلى غارٍ»[3]

المأوى أعمُّ من المثوى، لكنَّ الإقامةَ في المثوى أكثرُ دوامًا

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/10.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 301/2، والهرَريّ، حدائق الرَّوح والرَّيحان: 222/5.
(3) أخرجه البخاري في صحيحه: برقم: (2272) واللَّفظ له، ومسلم في صحيحه، برقم: (100).

- في القصَّة المشهورة - فعبَّر عن مَبيتِهم العارِض في غارٍ بالإيواءِ. وثانيهما: أنَّ الإقامةَ إن دلَّ عليه لفظ (المأوى) يُفارق الإقامةَ التي يدلُّ عليه لفظُ (المَثْوَى)؛ لأنَّ الإقامةَ في المثوَى إقامةٌ مع دوامٍ، بخِلافِها في المأوى[1]، فالمأوى قد يُقيم فيه المرءُ إقامةً طَويلَةً، ولكنَّ المثوَى تقتضي الإقامةَ الدّائمةَ[2]، وقد جُمِعَ بين المَأْوَى والمَثْوَى في آيةٍ واحدةٍ، وهي قولُ اللّه تعالى: ﴿وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّٰلِمِينَ ١٥١﴾ [آل عمران: 151]، وهو يؤيِّدُ أنَّ في المثوى أمرًا زائدًا على المأوَى، ففي ذِكْر المَثْوَى بعد المأوى إشارةٌ إلى خُلودِهم، ولذا قُدِّم المأوى؛ بالنَّظر إلى التَّرتيب الوجوديِّ؛ فإنَّ الكافرَ يأوي ثُمَّ يَثْوي[3].

(1) عبد الجبّار فتحي زيدان، الفروقُ اللُّغويَّة في القرآن الكريم، ص: 167 - 168.
(2) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 1450/3.
(3) القِنَّوجيّ، فتح البيان: 352/2.

﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ۚ وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾﴾ [الأنفال: 17]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

نسبةُ النَّصرِ كُلِّه للهِ، تبرُّؤٌ من الحولِ والقوَّةِ، الدّاعيةِ إلى التَّنازعِ في الغنائِم

لَمّا ذكرَ اللّهُ تعالى في الآيات السّابقةِ أسبابَ نَصْرِهِ وتأييدِهِ للمؤمنين بإمدادِهم بالملائكةِ وتثبيت أقدامِهم، ونحو ذلك من أسبابِ النَّصر الَّتي سبق ذكرُها في الآياتِ، وظنَّ المؤمنون أنَّهم هم الذين قَتلوا المشركينَ حقيقةً؛ بيَّنَ اللّهُ تعالى في هذه الآية أنَّه الفاعلُ الحقيقيُّ لهذا النَّصرِ، بقتلِهِ للكافرين وتصويبِهِ الرَّمي إليهم، وأنَّ ما أجراه اللّهُ تعالى على أيدي المؤمنين؛ فهو بتوفيقِ اللّهِ لهم، فالآيةُ عَودٌ لإتمامِ الحديثِ في قولِهِ: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ [الأنفال: 12].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿رَمَيْتَ﴾: الرَّمْيُ يُقالُ في المقالِ، كنايةً عن الشَّتمِ كالقَذْفِ، نحو: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ﴾ [النّور: 6] ويُقالُ في الأعْيانِ كالسَّهمِ والحَجَرِ[1]، وهو ما عناه قولُهُ تعالى هنا: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾[2]، وقولُه: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾، أي: نصَرَك[3].

2) ﴿وَلِيُبْلِيَ﴾، ﴿بَلَآءً﴾: يُقالُ: بَلِيَ الثَّوْبُ بلًى وبَلاءً، أي: خَلِقَ، وبَلَوْتُه: اخْتبرتُه، كأنّي أخْلَقتُه من كَثْرَةِ اخْتباري له، قالَ تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ﴾ [البقرة: 155]. وسُمّيَ الغَمُّ بلاءً من حيثُ إنَّه يُبْلي الجِسْمَ، ومن هذا الوجهِ سُمّيتِ التَّكاليفُ بلاءً؛

(1) الرّاغب، المفردات، ص: 366، والفخر الرّازي، مختار الصِّحاح: (رمى).
(2) الفرّاء، معاني القرآن: 406/1، والرّاغب، المفردات، ص: 366، والشَّوكاني، فتح القدير: 423/2.
(3) أبو عبيدة، مجاز القرآن، ص: 244.

لأنَّ فيها مشاقًّا على الأبدانِ، ولأنَّها اختباراتُ اللّهِ تعالى للعبادِ، تارةً بالمسارِّ؛ ليشكروا، وتارةً بالمضارِّ ليصبروا، فصارتِ المِنحةُ والمِحْنةُ جميعًا بلاءً، فالمحنةُ مقتضيةٌ للصَّبرِ، والمنحةُ مقتضيةٌ للشُّكرِ، قال تعالى: ﴿وَنَبۡلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلۡخَيۡرِ فِتۡنَةٗۖ﴾، وإذا قيلَ: ابتلى فلانٌ كذا وبلاهُ، فذلك يتضمَّنُ أمرين: أحدهما: تَعَرُّفُ حالِه، والوقوفُ على ما يُجهَلُ من أمْرِه، الثّاني: ظهورُ جودتهِ ورَداءتهِ، وربَّما قُصِدَ به الأمرانِ، وربَّما يُقصَدُ بهِ أحدُهُما، فإذا قيلَ في اللّه تعالى ابتلاه، فليس المرادُ منهُ إلّا ظهورَ جودتِه ورداءتهِ دونَ التَّعرُّف لحالهِ والوقوفِ على ما يُجهَل من أمْرِه، إذ كانَ اللّهُ علّامَ الغيوبِ[1]، وعلى هذا قولهُ ﷻ: ﴿۞وَإِذِ ٱبۡتَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٖ فَأَتَمَّهُنَّۖ﴾ [البقرة: 124]، وقولُه تعالى هنا: ﴿وَلِيُبۡلِيَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡهُ بَلَآءً حَسَنًاۚ﴾ أي: ليُعرِّفَ المؤمنينَ نِعْمتَهُ عليهم من النَّصرِ والغَنيمةِ والأجْرِ والمَثوبة[2].

المَعْنى الإجْماليُّ:

اللّهُ ﷻ هو الَّذي مكَّن للمسلمين يومئذٍ من عدوِّهم، وأنَّ يدَ اللّهِ تعالى هي الَّتي ضَرَبتْهُم تلك الضَّربةَ القاضيةَ، وأنَّ المسلمين لم يكونوا إلّا أسبابًا ظاهرةً، أجرى اللّهُ على أيديهم ما أخذَ بهِ عدوَّهم، فالنَّصرُ ليس بحَوْلِكم ولابقوَّتِكم قتلتُم أعداءَكم مع كَثْرَةِ عَددِهم وقِلَّةِ عَددِكم؛ بل هو الَّذي أظْفرَكم عليهم[3]، ثمَّ قالَ تعالى لنبيِّه ﷺ في شَأْنِ القَبْضةِ من التُّراب الَّتي حَصَبَ بها وُجوهَ الكافرينَ يوم بَدْرٍ حين خَرَجَ من العريشِ بعدَ دُعائِه وتَضرُّعِه واسْتكانتِه لربِّه، فرماهم بها، وقالَ: «شاهَتِ الوُجوهُ»، ﴿وَمَا رَمَيۡتَ إِذۡ رَمَيۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ

النَّصرُ مِنَ اللهِ وحدَهُ؛ لأنَّهُ موجِدُ الأسبابِ، وصاحبُ القوّةِ الّتي ليس لها غلاب

(1) الرّاغب، المفردات، ص: 145، والفخر الرّازي، مختار الصّحاح: (بَلِيَ).
(2) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 272/2.
(3) عبد الكريم الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 581/3.

﴿رَمَىٰ﴾، فلم يَبْقَ مُشرِكٌ إلّا دَخَلَ في عَينَيْه من ذلكَ التُّرابِ شيءٌ[1]، فطفِقَ المؤمنونَ يَقْتلونَهم ويأسِرونَهم، وكان في ذلك نعمةٌ عظيمةٌ من اللّهِ على المؤمنينَ، حيثُ أظْهرَهم على عَدوِّهم مع كَثْرةِ عددِهم وعُدَّتِهم؛ ليعرِفوا بذلك حقَّهُ، ويشكُروا نِعْمتَه وفضلَه عليهم ورحمتَه بهم[2]، فهو سميعٌ لدعائِهم واستغاثتِهم عليمٌ بصدقِ نيّاتِهم.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دَلالةُ الفاءِ في عبارة: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ﴾:

تعليلُ الأفعالِ بيانٌ لحقيقتِها، وإصلاحٌ لعقيدةِ مَن قامَ بالفعلِ

الأظْهرُ أنَّ الفاءَ فصيحةٌ، ناشئةٌ عن جملةِ: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ﴾ [الأنفال: 12]، تُفصِحُ عن مُقدَّرٍ قَبْلَها شرطٍ أو غيرِه[3]، والأكثرُ أن تكونَ شرطًا، فتكونَ رابطةً لجوابِه، والتَّقديرُ هنا: إذا عَلِمتُم أنَّ اللّهَ أوحَى إلى الملائكةِ بضرْبِ أعناقِ المشركين، وقَطْعِ أيديهم، فلم تقتلوهم أنتُم، ولكنَّ اللّهَ قَتَلَهم، أي: فقد تبيَّنَ أنَّكم لم تقتلوهم أنتُم، أو على تقديرِ: إنِ افتخرتُم بقَتْلِهم؛ فأنتُم لم تقتلوهم، والمعنَى واحدٌ[4]، وكلُّ تقديرٍ يحقِّقُ مقصودَ السّورةِ، وهو التَّدريبُ على التَّبرُّؤِ مِنَ الحَولِ والقوَّةِ، وعدمِ نسبةِ النَّصرِ للأسباب.

ويجوزُ أنْ تكونَ الفاءُ عاطفةً على جملةِ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ﴾ [الأنفال: 15]، أي: يتفرَّعُ على النَّهيِ عن أنْ تولّوا المشركينَ الأدْبارَ تَنْبيهُكُم إلى أنَّ اللّهَ هو الَّذي دَفَعَ المشركينَ عنكم، وأنتُم أقلُّ منهم عَدَدًا وعُدَّة، والتَّفريعُ بالفاءِ تفريعُ العلَّةِ على المعلولِ، فإنَّ كونَ قتلِ المشركينَ

(1) رواه ابن جرير، المعجم الكبير، برقم: (11750)، وقال الهيثميُّ في مجمع الزَّوائد: 87/6: "رجالُه رجال الصَّحيح".

(2) ابن جرير، جامع البيان: 136/9، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 271/2 - 272.

(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 293/9.

(4) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 149/2، وأبو حيّان، البحر المحيط: 295/5، والسَّمين الحلبي، الدُّرُّ المصون: 586/5.

ورَمْيِهم حاصلًا من اللهِ لِأمْنِ المسلمينَ، يُفيدُ تعليلًا وتوجيهًا لِنَهيهم عن أنْ يوَلّوهُمُ الأدْبارَ، ولأمرِهمُ الصَّبرَ والثَّبات، وهو تعريضٌ بضمانِ تأييدِ اللهِ إيّاهم إنِ امْتثلوا؛ لقولِه: ﴿وَٱصۡبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الأنفال: 46].

دَلالةُ دخولِ النَّفْيِ على المضارعِ، في مقابلِ الإثبات في الماضي:

النَّصرُ للهِ ومن اللهِ، وليس للأسبابِ

الظّاهرُ أنَّ دخولَ النَّفي على المضارعِ والحالِ - بأنَّ القتلَ كان حاصلًا - تأكيدٌ على أنَّهم لا حولَ لهم ولا قوَّة في القتلِ، فكأنَّهُ لم يحدث منهم قتلٌ، فعبَّرَ عمّا كانَ بما لم يقع، وجاءَ في مقابلهِ الماضي النّاسبُ حقيقةً ماحدثَ للّهِ، ولذلك يظهرُ فواتُ هذه الفائدةِ البلاغيَّةِ، لو قيلَ: ما قتلتموهم، ولكنَّ اللّهَ قتلَهم، فمضتِ الآيةُ على تصحيحِ الاعتقادِ في نسبةِ النَّتائجِ إلى مسبِّب الأسبابِ سبحانه لا إلى الأسبابِ، وتدريبٍ على التَّبرُّؤ من الحولِ والقوَّة، وكم من سيفٍ يضربُ، ولا يكونُ قتلٌ! وكم من سُمٍّ يُحتسى، ولا يكون موتٌ! وكم مِن مُتَردٍّ مِن عَلٍ، ولايموتُ! فلو كانتِ النَّتائجُ للأسبابِ؛ لَتحقَّقَ الموتُ من سُمٍّ يُحْتَسى، وسيف يُضرب، فما أجلَّ كلامَ اللّهِ! فيكونُ المعنى: كان منكم الضَّربُ، ولم يكن منكم القتلُ، وكان منك الرَّميُ، ولم تكنِ الإصابةُ.

دَلالةُ نفي القتلِ وفاعله مع كونهِ واقعًا:

الفاعلُ الحقيقيُّ له هو اللهُ، وهو الذّي بيده الموت والحياة

أصْلُ الخبرِ المنفيِّ أن يَدُلَّ على انْتفاءِ صدورِ المسنَدِ عن المُسنَدِ إليه، لا أنْ يدُلَّ على انْتفاءِ وقوعِ المُسنَدِ أصلًا، فلذلكَ صحَّ النَّفْيُ في قولِه تعالى: ﴿فَلَمۡ تَقۡتُلُوهُمۡ﴾ مع كونِ القَتْلِ حاصلًا بدليلِ وقوعِه حِسًّا، وإنَّما المَنفيُّ كونُه صادرًا عن أسبابِهم - كما تقدَّمَ آنفًا - فالفاعلُ الحقيقيُّ هو اللّهُ ﷻ وإن كانت صوَرُ الفعلِ حصلتْ منهم ظاهرًا، أي: لم يكونوا هُمُ الفاعِلَ على وجْهِ الحقيقةِ والتَّأثيرِ، فاللّهُ تعالى هو الَّذي قتلَهم بإلقاءِ الرُّعبِ في قلوبِهم وتَسْليطِكم عليهم،

فإذا عَلِمتُم ذلكَ؛ فاعْلَموا يقينًا أنَّكم لم تقتلوهم، ولكنَّ اللّٰهَ هو الَّذي قَتَلَهم[1].

دلالةُ التَّعبيرِ بالقتلِ دونَ الموتِ:

القتلُ سببٌ من أسبابِ الموتِ، ليس إلّا

عبَّرَ بالقتلِ دونَ الموتِ في قولِه: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ﴾، ولم يقل: (فلم تميتوهم)؛ لأنَّ الموتَ ليس من قدراتِ أفعالِ البشرِ، إنَّما هو مختصٌّ بهِ سبحانه فهو الَّذي يحيي، ويميتُ، ولأنَّ القتلَ أخصُّ من الموتِ؛ لأنَّهُ نقضٌ للبنيةِ الجسديَّةِ أوَّلًا، أمّا الموتُ؛ فهو خروجٌ للرّوح من غيرِ نقضٍ للبنيةِ، وهذا غيرُ مناسبٍ لسياقِ الآية؛ لأنَّها في الحديث عن غزوة بدرٍ وما تحملُهُ هذه الكلمةُ من مواجهةِ المؤمنين للكفّار، وذلكَ يكونُ بالمقاتلةِ بينهم؛ لذلك كان التَّعبيرُ بالقتلِ هو المناسبُ.

سرُّ التَّعبيرِ بلفظ (القتلِ) دونَ لفظ (الحربِ):

الحربُ عامٌّ، والقتلُ من نتائجِه

عبَّرَ بالقتلِ دونَ الحربِ؛ لأنَّها أعمُّ من القتلِ، فهي تشملُ الهجومَ والإغارةَ والصَّدَّ والمواجهة، وهذا ما قامَ به المسلمونَ في المعركةِ، فلم يردِ القرآنُ أنْ ينفيَ دورَهم في المعركةِ من حربِ المشركين، وإنَّما أرادَ نفيَ القتلِ الَّذي هو نتيجةُ الحربِ إثباتًا للعنايةِ بالنَّتائجِ كما هو الشَّأنُ.

سِرُّ التَّعبيرِ بقولِهِ: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ﴾ دون (فلم تقاتلوهم):

دفعِ التّوهُّمِ بالمشاركةِ في صيغةِ الإثباتِ، لتتناسبَ مع العطفِ فيما هو آتٍ

عبَّرَ بقولِه: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ﴾ دونَ المفاعلةِ (فلم تقاتلوهم)؛ لأنَّ المُفاعلةَ تكون بين طرفين، فلو عبَّر بها هنا؛ لَما تناسَبَ مع ما هو آتٍ بالعطفِ، ولكنَّ اللّٰه قَتَلَهم، فعبَّر بغيرِ صيغةِ المشاركةِ؛ دفعًا لوهم المشاركةِ في صيغةِ الإثباتِ، فيكونُ اللّٰهُ هو الَّذي شاركَ الكفّار، ولئلّا يلزمَ منهُ أن يقالَ: فلم تقاتلوهم، ولكنَّ اللّٰه قاتلَهم، وهذا غلطٌ فاحشٌ.

وجهُ الاسْتدراكِ بـ ﴿وَلَٰكِنَّ﴾:

وَجْهُ الاسْتدراكِ المُفادِ بـ ﴿وَلَٰكِنَّ﴾ أنَّ الخبرَ نَفَى أنْ يكونَ القتلُ

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 447/2، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 294/9.

الواقعُ صادرًا عنِ المخاطَبينَ، فكانَ السّامعُ بحيثُ يتطلَّبُ أكانَ القتلُ حقيقةً أم هو دونَ القتل، ومَنْ كان فاعلًا له؟ فاحْتيجَ إلى الاسْتدراكِ بقولِه: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمۡۚ﴾[1]؛ للتَّأكيدِ أنَّ فاعلَ القتلِ هو اللّهُ.

اللُّطفُ في توجيهِ الأفعالِ وتفسيرِها، فالاستدراكُ أفضلُ من التَّخطئةِ وألْطفُ

وممّا يذكرُ في سرِّ الاستدراكِ بـ ﴿وَلَٰكِنَّ﴾: أنَّها هي المناسبةُ لمقامِ النَّفي والإثبات، يؤكِّد ذلك ما ذَكَرهُ السَّمينُ الحلبيُّ بقولِه: "وجاءت هنا (لكنَّ) أحسنَ مجيءٍ لوقوعِها بين نفيٍ وإثباتٍ"[2].

دَلالةُ اختيارِ لفظِ الجلالةِ (الله)، اسمًا للفظ ﴿وَلَٰكِنَّ﴾:

جاءَ اسْمُ الجلالةِ ﴿ٱللَّهَ﴾ اسْمًا لـ ﴿وَلَٰكِنَّ﴾ لِما في ذِكرِه مِن إحْياءِ المهابةِ في النُّفوسِ، وزيادةِ التَّأييدِ والتَّثبيت لرسولِه ﷺ وصحابتِه - رضي الله عنهم - وثباتِ هذه الولايةِ التّامَّةِ والنُّصرةِ الدّائمةِ لهم، بما يُحقِّقُ وجودَ الطُّمأنينةِ ونزولَ السَّكينةِ في قلوبِهم[3].

التَّأييدُ والتَّثبيتُ، من فِعلِ الله بعبادِه، حين يأْذَنُ بنصْرِهم

دَلالةُ تقديمِ المُسْنَدِ إليه على خبرِه الفعليِّ:

في قولِه تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمۡۚ﴾ قدَّمَ المُسْنَدَ إليه على المُسْنَدِ الفِعليِّ دونَ أنْ يُقالَ: ولكنْ قَتَلَهمُ اللّهُ؛ لأنَّ نَفْيَ اعْتقادِ المخاطَبين أنَّهم القاتلونَ قد حصلَ من جُملةِ النَّفْي، فصارَ المخاطَبونَ مُتطلَّبينَ لمعرفةِ فاعلِ قتلِ المشركين، فكانَ مُهمًّا عندَهم تعجيلُ العلمِ بها[4].

تأكيدُ نسبةِ القتلِ للهِ وحدَهُ، لأنّه الفاعل على الحقيقة

الغرضُ من أسلوبِ المجازِ في قوله: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمۡۚ﴾:

في قولِه تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمۡۚ﴾ مجازٌ مرسلٌ من قبيلِ إطلاقِ المسبِّب وإرادةِ السَّبب؛ لأنَّ اللّه تعالى هو السَّببُ؛ إذ هو الموفِّقُ، وهو المؤيِّدُ، وهو المُمِدُّ بالملائكةِ[5].

تعظيمُ التَّأييدِ والإمدادِ، الحاصل من ربِّ العِباد

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 294/9.
(2) السّمين الحلبيّ، الدّر المصون: 586/5.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 294/5.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 294/9.
(5) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 3078/6.

دلالةُ عطفِ جملةِ: ﴿وَمَا رَمَيْتَ﴾ على ما قبلَها:

التَّرقّي في بيانِ أنَّ سببَ النَّصرِ التَّأييدُ والإمدادُ

دلَّ العطفُ على الانتقال من خطابِ المؤمنين بنفي قَتلِهم صناديدَ الكفرِ وزعماءَ الشِّركِ، وإنَّما القتلُ حصلَ بسببِ التَّأييدِ والإمدادِ إلى خطابِ رسولِ اللّهِ ﷺ بنفي أن يكونَ رمْيُهُ سببَ النَّصرِ، وإنَّما سببُ النَّصرِ التَّأييدُ والإمدادُ.

دَلالةُ الاسْتطرادِ بعبارة: ﴿وَمَا رَمَيْتَ﴾:

سببُ النَّصرِ هو تأييدٌ من اللهِ ﷻ لرسولِه ﷺ

في قولِه تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ اسْتطرادٌ بذِكْرِ تأييدٍ إلهيٍّ آخرَ، لم يَجْرِ له ذِكْرٌ في الكلامِ السّابق، وهو إشارةٌ إلى أنَّ رسولَ اللّهِ ﷺ بعدَ أنْ حرَّضَ المؤمنينَ على القتالِ يومَ بَدرٍ أتاهُ جبريلُ، فقال: خُذْ قَبْضةً من تُرابٍ، فارْمِهم بها، فأخَذَ حَفْنَةً من الحَصْباءِ، فاسْتقبلَ بها المشركينَ، ثمَّ قال: «شاهتِ الوُجوه» ثمَّ نفَحَهم بها، ثمَّ أمرَ أصحابَهُ، فقالَ: «شُدّوا» فكانتِ الهزيمةُ على المشركينَ حيثُ لم يَبْقَ مُشرِكٌ إلّا أصابَهُ شيءٌ من الحصى في عينَيْهِ، فشُغِلَ بعينَيْه، فانْهزَموا[1].

دَلالةُ عطفِ الجملةِ المنفيَّةِ بـ (ما)، على الجملةِ المنفيَّةِ بـ (لم):

النَّفيُ بـ (ما) و(لم)، حَسَبَ الإيجابِ الواردِ في السّياق

عُطِفَ قولُه تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ﴾ على قولِه: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ﴾؛ لأنَّ (لم) نفيٌ للماضي، وإن كانَ بصورةِ المضارعِ؛ لأنَّ لنَفْيِ الماضي طريقَيْنِ؛ إحداهما: أنْ تدخُلَ (ما) على لفظِه. والأخرى: أنْ تَنْفيَهُ بـ (لم)، فتأتيَ بالمضارعِ، والأصلُ هو الأوَّلُ، فالمضارعُ المنفيُّ بـ (لم) في قوَّةِ الماضي المنفيِّ بـ (ما)، ولأنَّ النَّفيَ ينبغي أنْ يكونَ على حَسَبِ الإيجابِ[2]، وفي هذا التَّلوينِ في النَّفي إعلاءٌ لقدرِ النَّبيِّ ﷺ تفريقًا بين خطابِهِ وخطابِ أصحابِهِ، بتوجيهِ النَّفي إلى الماضي معنًى

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 294/9، وهذه الرِّواية تقدَّم ذكرُها في بيان المعنَى الإجماليّ، وأُعيدتْ هنا لمناسبتها للوجهِ البلاغيّ المثبَت في المتن.

(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 295/5، والسَّمين الحلبيّ، الدُّرُّ المصون: 586/5.

وصورةً، فليس حالُهُ كحالِ الصَّحابةِ؛ لأنَّ النَّفيَ بـ (لم) امتدادٌ من الماضي إلى الحاضرِ، أمّا النَّفيُ بـ (ما)؛ فيشملُ الماضي فقط.

نُكتةُ نَفْيِ المُثْبَتِ في الرّمي، وعدمِه في القتل:

رَميُهُ ﷺ كان معجزةً ربانيَّةً

في سياقِ الآيةِ مُبالَغةٌ من وجهَيْنِ؛ أحدُهما: أنَّ النَّفيَ جاءَ على حَسَبِ الإيجابِ لفظًا، والثّاني: أنْ نَفَى ما صرَّحَ بإثباتِه، وهو قولُهُ: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ﴾، ولم يُصرِّحْ في قولِه: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ﴾ بقولِه: إذْ قَتَلْتُموهم، وإنَّما بولِغَ في هذا؛ لأنَّ الرَّميَ كانَ أمرًا خارقًا للعادةِ مُعجِزًا، وهو آيةٌ من آياتِ اللّهِ العظيمةِ[1]، وفيه تكريمٌ للنَّبيِّ ﷺ بتخفيفِ نفي الرَّمي، ويتبيَّن ذلك أنْ لو قيلَ: وما رميتَ، ولكنَّ اللّه رمَى، فلا يكون لفعلِه أيُّ إثباتٍ، كما مضى من خطابِ المؤمنين، وفيهِ إشارةٌ إلى أنَّ رَمْيَ رسولِ اللّهِ ﷺ كان كسْبًا، ورمْيُ اللّهِ تعالى كان خَلْقًا[2].

بلاغةُ التَّفريق بينَ القتل والرَّمي بالتراب:

شاهت الوجوه حين رمَى الرّسول بالحَفْنة في مُكْنَةٍ وثِقةٍ بالله

تظهرُ بلاغةُ أسلوبِ القرآنِ الكريمِ في التَّعبيرِ عنِ الفرقِ بين قتلِ المسلمين للكفّارِ، ورمي الرَّسولِ ﷺ إيّاهم بالتُّرابِ؛ أنَّ الأوَّلَ: فعلٌ من أفعالِهم المقدورةِ لهم بحسبِ سُننِ اللّهِ في الأسبابِ الدُّنيويَّةِ، وأنَّ الثّاني: (الرَّمي) لم يكن سببًا عاديًّا لإصابتِهم وهزيمتِهم، فليسَ مُشاهدًا، كضربِ أصحابِه ﷺ لأعناقِ المشركين، ولا غيرَ مُشاهدٍ؛ لأنَّهُ لا يكون سببًا لشكايةِ أعينِهم وتشويهِ وجوهِهم لقلَّتِه وبُعده عن راميه، ولكونهم غيرَ مستقبلين له، ومن ثَمَّ كانت الحاجةُ ماسَّةً إلى بيانِ الفَرْقِ بينهما، وذلكَ بعدمِ استقلاليَّةِ المسلمين في القتلِ بالسَّببيَّة لأنَّهُ لولا تأييدُ اللّهِ ونصرُهُ؛ ما حصل لهم هذا النَّصرُ، فاللّهُ سخَّرَ لهم أسبابَ القتلِ. أمّا الرَّميُ؛ فهو من فعلِه - سبحانه

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 295/5، والسَّمين الحلبيّ، الدُّرُّ المصون: 586/5.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 185/9.

وحدَه - بدونِ كسبٍ عاديٍّ للنَّبيِّ ﷺ في تأثيرِه، فالرَّميُ منه كان ظاهريًّا لِتظهرَ المعجزةُ على يديهِ ﷺ[1].

دلالةُ التَّعبيرِ بـ ﴿إِذْ﴾ دونَ (وقت):

التّعبير بإذْ مُتَّسقٌ مع نظمِ السّورة الكريمةِ، في التَّذكيرِ بما كانَ من حال ضعفِ المسلمين

آثرَ التَّعبيرَ بـ ﴿إِذْ﴾ دون (وقت) في قولِه: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ﴾ مع اشتراكِهما في معنى الزَّمن إلّا أنَّ ﴿إِذْ﴾ يُعَبَّرُ بها عن الزَّمن ا لماضي بخلافِ الوقتِ، فإنَّه يطلقُ على نهاية الزَّمنِ المضروبِ للعمل، ولهذا لا يقالُ إلّا مُقَيَّدًا نحو وقتِ كذا، وعلى هذا، فالمناسبُ هو التَّعبيرُ بـ ﴿إِذْ﴾ على رأي من يقولُ: إنَّ الآيةَ نزلت بعد انتهاءِ الغزوةِ، وصار الحديثُ عنها من الزَّمنِ الماضي، كما أنَّ في التّعبير بإذ اتِّساقًا مع نظمِ السّورة الكريمةِ في التَّذكيرِ بما كانَ من حال ضعفِهم حيثُ وردَ هذا الظَّرفُ اثنتي عشرةَ مرَّةً في السّورةِ الكريمةِ، ولم يجتمع هذا العددُ في سورةٍ أخرى لما لهذا الظَّرفِ من أثرٍ في استدعاءِ الأحداثِ الماضيةِ.

دلالةُ حذفِ مفعولِ ﴿رَمَيْتَ﴾:

توفُّرُ العنايةِ على إثباتِ الفعلِ، لا لكونِ المعجزةِ كانت بالله، لا بمن رُمِيَ

لَمّا كانَ الرَّميُ قصَّةً مشهورةً بينَهم، حَوَتْ أمرًا خارقًا جَلَلًا - كما تقدَّم - حُذِفَ مفعولُ الرَّمي في المواضعِ الثَّلاثةِ لورودِ الفعلِ ﴿رَمَيْتَ﴾، وكذلكَ فإنَّ المقصودَ الأصليَّ بيانُ حالِ الرَّمي نفيًا وإثباتًا، إذ هو الَّذي ظهرَ منه ما ظهرَ، وهو المنشأُ لتغيُّرِ المرميِّ به في نفسِه، وتكثُّرِه حيثُ أصابَ عيني كلِّ واحدٍ من المشركين[2].

سرُّ ذكرِ مفعولِ القتلِ مُثبتًا ومنفيًّا:

لا شبهة في أنّ رَمْيَ الرّسول ﷺ، كان بتسديد من الله

ذكرَ مفعولَ القتلِ؛ لأنَّه فعلٌ من أفعالِ المؤمنين المقدورةِ لهم بحسْبِ سُنَنِ اللّهِ في الأسبابِ الكونيَّةِ؛ بخلافِ رمي النَّبيِّ ﷺ إيّاهم بالتُّراب، فلم يُذكر مفعولُهُ بأن يُقال: (وما رميت

(1) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 375/10.

(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 477/2، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 294/9.

وجوهَهم)، إذ لا شبهةَ هنا في عدمِ استطاعة النَّبيِّ ﷺ لهذا الأثرِ استقلالًا بكسبِهِ العاديّ[1].

دَلالةُ الفعلِ ﴿رَمَيْتَ﴾ بين الحقيقةِ والمجاز:

الرَّميُ حقيقتُه: إلقاءُ شيءٍ أمْسَكَتْهُ اليَدُ، ويُطلَقُ الرَّميُ على الإصابةِ بسوءٍ من فعلٍ أو قولٍ، كما في قولِه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ أَزۡوَٰجَهُمۡ﴾ [النّور: 6]، فيجوزُ أن يكونَ الفعلُ ﴿رَمَيْتَ﴾ الأوَّلُ، والثّاني في قولِه: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ مُستَعْمَلَيْنِ في معناهما المجازيِّ، أي: وما أصَبْتَ أعْيُنَهم بالقَذَى، ولكنَّ اللّه أصابَها بهِ؛ لأنَّها إصابةٌ خارقةٌ للعادةِ، فهي معجزةٌ للنَّبيِّ ﷺ وكرامةٌ لأهلِ بَدرٍ، فنُفيَتْ عنِ الرَّمْيِ المعتادِ، وأُسنِدَتْ إلى اللّهِ؛ لأنَّها بتقديرٍ خفيٍّ من اللّهِ ﷻ ويكونُ قولُه: ﴿إِذۡ رَمَيۡتَ﴾ مُستعمَلًا في معناهُ الحقيقيِّ[2].

الرَّميُ الأوَّلُ والثّاني مجازيّان، والثّالثُ حقيقيٌّ، لإثباتِ معجزةِ اللهِ لرسولِه ﷺ

وممّا يُذكرُ - أيضًا - هنا أنَّ النَّفيَ والإثباتَ واردانِ على شيءٍ واحدٍ باعتبارين، فالمنفيُّ هو الرَّمي باعتبارِ الحقيقةِ، والمثبتُ هو الرَّمي باعتبارِ الصّورةِ[3].

دَلالةُ قَيْدِ الفعلِ بظرفِ الزَّمانِ في ﴿إِذۡ﴾:

في قولِه تعالى: ﴿إِذۡ رَمَيۡتَ﴾ يُرادُ تحقُّقُ فعلِه ﷺ يومئذٍ، أي: يومَ بدرٍ حين أخذَ قبضاتٍ من حَصًى وتُرابٍ، فرَمَى بها وجوهَ القومِ ثلاثَ مرّاتٍ، فانْهزموا عندَ آخرِ رَمْيةٍ. وكذلكَ فإنَّ في قولِه: ﴿إِذۡ رَمَيۡتَ﴾ زيادةَ تقييدٍ للرَّمْي، وأنَّه الرَّميُ المعروفُ المشهورُ[4].

تحقُّقُ فعلِ الرَّميِ منه ﷺ في غزوةِ بدرٍ الكبرى

دَلالةُ الاسْتدراكِ في ﴿وَلَٰكِنَّ﴾:

في قولِه تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ إعلامٌ بانْتفاءِ أنْ تكونَ تلكَ

أثرُ الفعلِ من اللهِ تعالى، وصورتُهُ من رسولِ اللهِ المؤيَّدِ

(1) رشيد رضا، تفسير المنار: 519/9.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 295/9.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 185/9.
(4) ابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 511/2، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 295/9.

الرَّميةُ في قولِه تعالى: ﴿إِذْ رَمَيْتَ﴾ مَدفوعةً بيدِه ﷺ ولكنَّها مدفوعةٌ بقُدرةِ الخالقِ الخارجةِ عن الحدِّ المتعارف، فهي معجزةٌ إلهيَّةٌ سلَّحَ اللّهُ بها نبيَّه ﷺ[1]، كما أنَّ فيه بيانَ أنَّ العِبْرةَ بأثرِ الفعلِ لا بصورتِه.

التَّأكيدُ على أنَّ فعلَ الرَّميِ وأثرَهُ كانَ منَ الله

دلالةُ تقديم المسندِ إليه ﴿ٱللَّهَ﴾، على عامله الفعليِّ ﴿رَمَىٰ﴾:

لَمّا كانَ رَمْيُ الحصَى الحاصلُ بيدِ الرَّسولِ ﷺ حاصلًا منه فعلًا، وهو أمرٌ مُشاهدٌ لا يقبَلُ الاحْتمال؛ احْتيجَ في نَفْيِه إلى التَّأكيد، بإسنادِ الرَّميِ إلى اسْمِ الجلالةِ ﴿ٱللَّهَ﴾ إبطالًا لاحْتمالِ المجازِ في النَّفْيِ بأنْ يُحمَلَ على نَفْيِ رَمْيٍ كامل، فلمّا أُريدَ نفيُ تأثيرِه؛ أُسْنِدَ لمن بيدِه وبأمرِه التَّأثيرُ الحقيقيُّ، وهو إيصالُ وإصابةُ عُيونِ جيشِ المشركين[2].

بيانُ العللِ إيضاحٌ وإقناعٌ، لمن غابت عنه الحقائق

دَلالةُ الواوِ في ﴿وَلِيُبْلِيَ﴾:

الواوُ في قولِه تعالى: ﴿وَلِيُبْلِيَ﴾ عَطَفتِ الفعلَ على عِلَّةٍ مستفادةٍ ممّا قبلَهُ، والتَّقديرُ: ولكنَّ اللّه رمَى ليمحقَ الكفّارَ، وليُبْلِيَ المؤمنين، وذلكَ للتَّدليلِ على أنَّ هذا البلاءَ الحسَنَ من اللّهِ وحدَه، فاللّهُ هو الَّذي رَمَى، وهو الَّذي قتلَ، ومَحقَ الكافرين[3].

البَلْوُ كشفٌ لحقائقِ النُّفوس، وإبراز لما تنطوي عليه الصّدور

دَلالةُ اللّامِ في ﴿وَلِيُبْلِيَ﴾:

اللّامُ في قولِه تعالى: ﴿وَلِيُبْلِيَ﴾ لامُ التَّعليل، وله وجهان: الأوَّلُ: هو أنَّ قتلهمُ المشركينَ وإصابةَ أعْيُنِهم كانا الغَرضَ من هَزْمِ المشركين، فهو العِلَّةُ الأصليَّة، والوَجْهُ الثّاني: وهي أنْ يُبليَ اللّهُ المؤمنين بلاءً حسنًا، أي: يُعطيهم عطاءً حَسَنًا يشكرونَه عليه، فيظهرُ ما يدُلُّ على قيامِهم بشُكرِه ممّا تُختبَرُ به طويَّتُهم لمن لا يعرفُها، وهو العطاءُ والنَّصرُ والغنيمةُ في الدُّنيا والجنَّةُ في الآخرة[4].

---

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 477/2، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 296/9.
(2) ابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 511/2، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 295/9 - 296.
(3) السَّمين الحلبيّ، الدُّرُّ المصون: 587/5، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 296/9.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 296/5، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 296/9.

دلالةُ التَّعبيرِ بالمضارع ﴿وَلِيُبْلِيَ﴾:

عبَّر بالمضارع الَّذي يفيدُ التَّجدُّدَ؛ لأنَّ البلاءَ موصوفٌ بالحُسنِ، فاللهُ ﷻ يعطيهم ويمنحُهم مِنَحًا عديدةً في هذهِ الغزوةِ وغيرها، ففي هذهِ الغزوةِ أعطاهم النَّصرَ على المشركين، والأسرَ لصناديدهم، واغتنامَ أموالهم، فضلًا عن العطاءِ الأُخرويِّ، وهو نعيمُ الجنّاتِ، فهو تجدُّدٌ مستمرٌّ، ومن اللهِ الإمدادُ، وعلى المؤمنين حُسْنُ الاستعدادِ.

البَلْوُ أمرٌ متجدِّدٌ مستمرٌّ في حياة المؤمنين، وهو بحاجةٍ إلى الإمدادِ وحُسن الاستعدادِ

سرُّ التَّعبيرِ بلفظ ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ دونَ (الَّذين آمنوا):

آثرَ التَّعبيرَ بوصفِ المؤمنين دونَ الَّذين آمنوا لمدحِهم، وللدَّلالةِ على رسوخِهم في الإيمانِ، وللدَّلالةِ على ثبوتِ هذه الصِّفةِ فيهم على وجهِ الدَّيمومةِ.

البشارةُ بثباتِ الوصفِ وديمومتهِ، من فصيح البلاغ

دَلالةُ الجارِّ والمجرورِ في قولِه: ﴿مِنْهُ﴾:

﴿مِنْهُ﴾ جارٌّ ومجرورٌ، وضميرُهُ (الهاء) عائدٌ إلى اسْمِ الجلالةِ ﴿ٱللَّهَ﴾ و(مِن) للابْتداءِ المجازيِّ لتشريفِ ذلكَ الإبْلاءِ، ويجوزُ عَوْدُ الضَّميرِ إلى المذكورِ من القَتْلِ والرَّمي والظَّفَرِ بالمشركين، ويكونُ (مِن) للتَّعليلِ والسَّببيَّة[1].

تشريفُ الإبْلاءِ، من لُطف الله في التّكرمة والعطاء

دَلالةُ المفعولِ المطلَقِ في ﴿بَلَآءً﴾ ونكتةُ تنكيرِه:

قولُهُ: ﴿بَلَآءً﴾ مفعولٌ مطلَقٌ لفعلِ ﴿وَلِيُبْلِيَ﴾ مُؤكِّدٌ لهُ؛ لأنَّ فعلَ ﴿وَلِيُبْلِيَ﴾ دالٌّ على بلاءٍ حسنٍ[2]، وقدْ دلَّ التَّنكيرُ على تعظيمهِ ورفْعِ درجتهِ.

تأكيدُ الفعلِ وتحقُّقُ حصولِهِ، مقصد في السّياق

دَلالةُ وصفِ المفعولِ المطلقِ بالحُسنِ في قولِه: ﴿حَسَنًا﴾:

جاءَ وصفُ المفعولِ المطلق ﴿بَلَآءً﴾ بكونِه ﴿حَسَنًا﴾؛ ليَدُلَّ على أنَّ هذا البلاءَ هو عطاءٌ جميلٌ من اللهِ، وإحسانٌ إلى المؤمنين، وأنَّ

(1) السَّمين الحلبي، والدُّرُّ المصون: 587/5، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 297/9.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 296/9.

اللّهَ تعالى ما فعَلَ ما فعَلَه إلّا لذلك[1]، كما أنَّ وصفَ البلاءِ بالحسن إشارةٌ إلى الوجهِ الآخرِ من وجوهِ الابتلاءِ، وأنَّه قد يكونُ غيرَ حسنٍ، فقد عافَى اللّهُ المؤمنين مِن أنْ يُبْلَوا بالقتل، وأن يُمتَحنوا بالأسرِ، ولكنَّ رحمةَ اللّهِ تعالى بالمؤمنين جعلت البلاءَ بالخيرِ دونَ الشَّرِّ وبالعافيةِ دونَ البلاءِ، دلَّ على ذلك وصفُ البلاءِ بالحسنِ[2].

الوصفُ بالحُسنِ، تعظيمٌ للمنَّةِ، وتأكيد لفيوضات العطاء

موقعُ جملةِ التَّذييلِ ودلالتهُ في السّياق:

قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾، هو جملةٌ مستأنفةٌ وقعت تذييلًا لتأكيدِ مضمونِ ما مضى، فلمّا سبقَ الحديثُ عن خطراتِ نفوسِ المؤمنين في كراهيَّتهم لقاءَ العدوِّ وعدم رغبتهم في ذلك؛ لأنَّهم لم يتأهَّبوا للقاءِ ذات الشَّوكة؛ ذُيِّلت الجملةُ بهذا التَّذييل، وجاء التَّأكيدُ بـ ﴿إِنَّ﴾ لإثباتِ سمعهِ سبحانه لأقوالهم، وعليمٌ بما في نيّاتهم.

التَّذييلُ تأكيدٌ للمضمونِ، وتعليلٌ لهُ، بما يزيد في رَونقه

دلالةُ الاقترانِ بين (السّميع) و(العليم):

الاقترانُ بين الاسمينِ الجليلين، في مَواطنِ الأزماتِ وأوقاتِ الشَّدائدِ، إحضارٌ للمَهابةِ، وضبطٌ للتَّصرُّفِ، وإخلاصٌ للنّيّاتِ.

التَّعلُّقُ بهذينِ الاسمينِ الجليلينِ مطلوبٌ في الشَّدائدِ والأزماتِ

دلالةُ تقديمِ ﴿سَمِيعٌ﴾ على ﴿عَلِيمٌ﴾:

قُدِّم اسمُ ﴿سَمِيعٌ﴾ على ﴿عَلِيمٌ﴾؛ لأنَّهُ أخصُّ منهُ، وللاهتمامِ بأحداثِ المعركة؛ لأنَّ معظمَ أحوالِ القتالِ في سبيلِ اللّهِ تدورُ على الأمورِ المسموعةِ، مثل: جلبةِ الجيش وقعقعةِ السِّلاحِ، ويأتي بعد ذلك وصفُ العلمِ الَّذي يتعلَّقُ بجميع المعلوماتِ الظّاهرةِ والخفيَّةِ، ففيها ما هو من حديثِ النَّفسِ، مثل: أمرِ الخوفِ وتسويلِ النَّفسِ القعودَ عن القتال، وكلُّ ذلك يتعلَّقُ بالعلم[3].

تقديمُ الأخصِّ على الأعمِّ، معينٌ على تربيّةِ المهابةِ

(1) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 150/2.
(2) عبد الكريم الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 582/3.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 480/2.

دَلالةُ الخَتْمِ بهاتَيْنِ الصِّفَتَيْنِ الجليلَتَيْنِ ﴿سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾:

تطمين قلوبِ المؤمنين، بسداد قيادةِ أكرم المرسلين

جاءَ خَتمُ الآيةِ الكريمةِ بصفتَيْنِ جليلَتَيْنِ من صفاتِ اللّهِ ﷻ وهما: ﴿سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾؛ إيذانًا وتَطْمينًا لقلوبِ المؤمنينَ بقيادةِ رسولِهم الكريم ﷺ، بأنَّ اللّه تعالى قد سمعَ دعاءَهم واسْتغاثتَهم، وعلمَ أنَّهم وكَلوا أنفُسَهم لعنايتِه ونَصْرِه، فقبلَ دعاءهم، ونَصَرَهم[1].

ويمكنُ أن يكونَ المرادُ بأنَّ اللّهَ سميعٌ لكلامِكم وما تَفْخرونَ به، عليمٌ بما انْطوَتْ عليه الضَّمائر، ومَنْ يُقاتلُ لتكونَ كلمةُ اللّهِ هي العليا، والأظهرُ الدَّلالةُ الأولى، لِما عُلِمَ من صِدْق الصَّحابةِ - رضي الله عنهم - مع اللّهِ ورسولِه، وتفانيهم في الدِّفاعِ عن دينِه، والجهادِ في سبيلِه.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الابتلاء والاختبار:

الابتلاءُ كالاختبار، إلّا أنّه يكونُ بتحميلِ المكارهِ والمشاقِّ، وفي الخيرِ والشَّرِّ معًا

النّاظرُ في أغلبِ معاجمِ اللُّغةِ يجدُ أنَّ الابتلاءَ بمعنى: الاختبارِ، مع أنَّ النّاظرَ في استعمالِ القرآنِ الكريم لهذين اللَّفظين يجدُ فرْقًا دقيقًا، وإن اشتركا في المعنى العامِّ، فلكلِّ لفظٍ ما يميِّزُهُ، فالابتلاءُ: يكونُ بتحميلِ المكارهِ والمشاقِّ، ويكونُ في الخيرِ والشَّرِّ معًا، أمّا الاختبارُ؛ فهو أمرٌ عمليٌّ يُستخدمُ بهدف تحديدِ معاييرِ الدِّقَّة والصَّوابِ والصِّحَّةِ في الأمرِ المعروضِ على المختبرِ، وعلى هذا فالابتلاءُ يَقْتضي اسْتخراجَ ما عندَ المبتَلَى من الطّاعةِ والمعصيةِ.

وأمّا الاختبارُ يكونُ بتحميلِ المكارهِ، وبفعلِ المحبوب، فيقالُ: اخْتبرَهُ بالإنعامِ عليه، ولا يُقالُ: ابْتلاهُ بذلك، ولا هو مُبتلَى بالنِّعمةِ، كما قد يُقالُ: إنَّه مُخْتَبَرٌ بها[2]، وعلى ذلك فالاختبارُ جزءٌ من الابتلاءِ، والابتلاءُ أعمُّ من الاختبارِ، فبينهما عمومٌ وخصوصٌ.

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 296/5، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 297/9.

(2) العسكريّ، الفروق، ص: 10، والرّاغب، المفردات، ص: 145، والفخر الرّازي، مختار الصِّحاح: (بَلِيَ).

الرَّمي والقذف:

الرَّمي أعمُّ مِنَ القذف، وهو في الأعيان، والقذف يُلْمَح فيه البُعد والقوّة

عبَّر بالرَّمي دونَ القذفِ لوجودِ فرقٍ بينهما، ويقال في المقالِ كنايةً عن الشَّتمِ والقذفِ، فالملاحظُ أنَّ الرَّمي أعمُّ من القذفِ؛ لأنَّ القذفَ يُلمَح فيه البعدُ والقوَّةُ، وهذا غيرُ مناسبٍ لسياقِ امتنانِ اللّهِ على رسولهِ في أنَّ رميَهُ ﷺ لم يكن ليؤثِّرَ بذاتهِ لولا فضلُ اللّهِ تعالى على رسولهِ في تصويبِ أثرِ الرَّمي إلى وجوهِ المشركين وأعينِهم.

وفيهِ إشارةٌ إلى دفْعِ توهُّمٍ قد يتصوَّرهُ البعضُ من التَّعبيرِ بالقذفِ وما يحملُه من قوَّةٍ وبُعدٍ إلى أنَّه قد وصَلَ بذاتهِ إلى كلِّ المشركين، وفيه تعليمٌ للمسلمين أن يأخذوا بالأسبابِ، وأن يتركوا النَّتائجَ على اللّهِ تعالى.

﴿ذَٰلِكُمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيۡدِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ١٨﴾ [الأنفال: 18]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

المناسبة بين نصر الله لعباده المؤمنين، وإضعافِ كيدِ الكافرين

لَمّا ذكرَ اللّهُ تعالى في الآيةِ السّابقةِ للمؤمنين أنَّكم لستُم الَّذين قَتَلتُم المشركين بقوَّتِكم في يوم بدرٍ، ولكنَّ الَّذي قتلَهم هو اللّهُ، وهو الَّذي أوصلَ أثرَ التُّرابِ إلى وجوه المشركين، فقُتِلوا، وهُزِموا؛ جاءت هذه الآيةُ الكريمةُ لبيانِ أنَّ ما تقدَّم إنَّما هو بأمرِ اللّهِ ﷻ فهو سبحانه الَّذي أوهَنَ كَيْدَ عدوِّهم، وأبْطَلَ مكرَهم، وأخْمَدَ قوَّتَهُم[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مُوهِنُ﴾: الوَهْنُ: ضَعْفٌ من حيثُ الخَلْقُ، أو الخُلُقُ، قالَ تعالى: ﴿حَمَلَتۡهُ أُمُّهُۥ وَهۡنًا عَلَىٰ وَهۡنٖ﴾ [لقمان: 14]، أي: زادَها ضعفًا على ضَعْفٍ، ومنه قولُه تعالى هنا: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيۡدِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾[2]، أي: مُضعِفُ كيدِ الكافرين[3].

2) ﴿كَيۡدِ﴾: الكافُ والياءُ والدّالُ: أصلٌ صحيحٌ يدلُّ على معالجةٍ لشيءٍ بشِدَّةٍ، ثمَّ يتَّسعُ البابُ، وكلُّه راجعٌ إلى هذا الأصلِ، والكَيْدُ: ضربٌ من الاحتيالِ قد يكونُ مذمومًا وممدوحًا، وإن كان يُستعملُ في المذموم أكثرَ، ويُطلق على المعالجةِ، قالوا: وكلُّ شيءٍ تعالجُه؛ فأنتَ تكيدُه، هذا هو الأصلُ في الباب، ثمَّ يسمّون المكْرَ كَيْدًا، قالَ اللّهُ تعالى: ﴿أَمۡ يُرِيدُونَ كَيۡدٗاۖ﴾ [الطّور: 42]. ويقولون: هو يكيدُ بنَفْسِه، أي: يجودُ بها، كأنَّه يعالجُها لِتخْرُجَ.

ولِلْكَيْدِ إطلاقاتٌ كثيرةٌ، منها: أنْ يُخرِجَ الزَّنْدُ النّارَ ببُطءٍ وشدَّةٍ،

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 468/15، والبقاعيّ، نظم الدُّرر: 245/8.
(2) الرّاغب، المفردات، ص: 887، والفخر الرّازي، مختار الصِّحاح: (وهن).
(3) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 272/2.

والحَرْبُ، يُقالُ: خرَجوا، ولم يَلْقَوْا كَيْدًا، أي: حَرْبًا[1]، وقولُه تعالى هنا: ﴿مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي: مُضعِفُ مَكْرِ الكافرين ومُبطِلُهُ[2].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

الإخبارُ بإضعافِ كيدِ الكافرين بشارةٌ للمؤمنينَ

هذهِ الآيةُ بشارةٌ أُخرَى ساقَها اللّهُ تعالى للمؤمنين معَ ما حَصَلَ من النَّصرِ المؤزَّرِ يومَ بدرٍ، أعْلَمَهم فيها ﷻ بأنَّه مُضعِفُ مَكْرِ الكافرين فيما يُسْتقبَلُ، ومُصَغِّرُ أمرِهم، وأنَّهم وكلَّ مالِهم في تَبارٍ ودَمار[3].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دَلالةُ التَّعبيرِ باسْمِ الإشارةِ في ﴿ذَٰلِكُمْ﴾:

البِشارةُ بإضعافِ مكرِ الكافرين

الإشارةُ في ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ إلى ما تقدَّمَ في الآيةِ السّابقةِ من قَتْلِ اللّهِ للكافرين، ورَمْيِه إيّاهم، والبلاءِ الحَسَن[4]، وفي اسْمِ الإشارةِ هنا تأكيدٌ لما تقدَّمَ من الأمورِ الثَّلاثةِ، وأنَّها علَّةٌ للتَّوهين، وفيه كذلك تنبيهٌ على أهمّيَّةِ ما يَرِدُ بعدَه، وهو البِشارةُ للمؤمنينَ بتوهينِ مكرِ الكافرين وإبطالِه. وفيه إشارةٌ إلى عَظَمةِ الأفعالِ الَّتي ذَكَرها اللّهُ فيما سبق من آياتٍ، وذلك بالامتنانِ على المؤمنين بما فعلهُ اللّهُ تعالى لهم من كسرِ شوكةِ المسلمين وإضعافِ عزيمتِهم.

دلالة التَّنوُّع الإعرابيّ للفظ ﴿ذَٰلِكُمْ﴾:

ثراءُ المعنى للدِّلالةِ على تحقُّقِ ما تقدَّم

وقعتِ الجملةُ ممّا سبقَ موقعَ التَّعليلِ، لما ذكر في الآية السّابقةِ وما قبلَها من الأحداثِ، وقد أثْرى هذا التَّعليلُ تنوُّعَ إعرابِ اسمِ الإشارة، ومع كلِّ إعرابٍ معنًى، وكلُّها معانٍ متعانقةٌ، ومن هذه الوجوهِ:

الأوَّلُ: خبرٌ لمبتدأٍ محذوفٍ، تقديرُه: الأمرُ ذلكم، أو: حَتْمٌ وسابقٌ

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: 149/5، وابن منظور، اللّسان: (كيد).
(2) ابن عطيَّة، المحرَّرُ الوجيز: 512/2، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 272/2.
(3) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 272/2.
(4) ابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 512/2، وأبو حيّان، البحر المحيط: 297/5، والبقاعيّ، نظم الدُّرر: 245/8.

وثابتٌ ذلكم[1]، وكونُه خبرًا لمبتدأٍ محذوفٍ رابطٌ وثيقٌ للمعنى بالأحداث السّابقة المذكورةِ في السّورة.

الثّاني: مبتدأ، والخبرُ محذوفٌ، والتَّقديرُ: ذلكمُ الأمرُ، وكونهُ مبتدأً يجعلُ الخبرَ محذوفًا، وتذهبُ النَّفسُ في تقديرِه كلَّ مذهبٍ، ذلكم الأمرُ، ذلكمُ النَّصرُ، ذلكم التَّأييدُ، وكلُّ ذلك لا يُمتنع.

الثّالثُ: في موضعِ نَصْبٍ، تقديرُه: فعَلْنا ذلكم[2]، وكونُه بقيَّةَ جملةٍ فعليَّةٍ محذوفةٍ، والمذكورُ مفعولُها فيه توفيرٌ للعنايةِ على ما وقعَ.

وسرُّ التَّعبيرِ بضميرِ الخطابِ للجمعِ التَّوجُّهُ للجميعِ بإعلانِ ذلك النَّصرِ والفوزِ والظَّفرِ على المشركينَ.

دَلالةُ العَطْفِ بالواوِ في الآية:

النَّصرُ والتَّوهينُ عطاءان للمؤمنين

لَمّا كانَ خبرُ ﴿ذَٰلِكُمۡ﴾ محذوفًا، وتقديرُه: ذلكمُ الأمرُ، عُطِفَتْ عليه جملةُ ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيۡدِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾، أي: ذلكم الأمرُ وأنَّ اللّهَ، أي: المقصَدُ إيلاءُ المؤمنين، وتوهينُ كيدِ الكافرين، وإبطالُ حيَلِهم، وكأنَّ المعنى: ذلكم مرادُ اللّهِ نصرُ المؤمنين وتوهينُ الكافرين، وكأنَّ توهينَهم مِنَّةٌ أخرى غيرُ النَّصرِ؛ لأنَّهُ لا يلزم من كلِّ نصرٍ توهينُ الأعداءِ، فالجمعُ يقتضي المغايرةَ، فهما عطاءان إلهيّان للمؤمنين، ففي هذا العطفِ بشارةٌ فوقَ بُشرى النَّصر ببُشرى إضعافِ شأنِ المشركين وتوهينِ كيدِهم[3]، ويمكنُ أنْ يكونَ ﴿وَأَنَّ ٱللَّـهَ﴾ من قبيلِ عَطْفِ البيانِ على ما تقدَّم من القتْلِ والرَّمي، والمبتدأُ هنا الأمرُ، أي: الأمرُ ذلكم[4].

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 297/9.

(2) ابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 512/2، والنَّسَفي، مدارك التنزيل: 637/1، وأبو حيّان، البحر المحيط: 297/5.

(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 3088/6.

(4) الزَّجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 407/2، والزَّمخشري، الكشّاف: 150/2، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 478/2.

سرُّ التَّعبيرِ بالإظهارِ ﴿ٱللَّهَ﴾، دونَ الإضمارِ:

غرض إيراد لفظ الجلالة، إلقاءُ الرُّعب في قلوبِ الكَفَرة، وتربيةُ المهابةِ عند البَرَرة

آثرَ التَّعبيرَ بلفظ الجلالةِ مُظْهَرًا دونَ أن يقولَ: (وأنَّه موهنُ كيدِ الكافرين)، مُضمَرًا لإلقاءِ الرُّعب والخوف في قلوبِ المشركين، ولأنَّ توهينَ كيدِ الكافرين يناسبُهُ صفاتُ الجلالِ والعِزَّة والقهرِ، ولا يتأتَّى ذلك إلّا مِنَ التَّصريح باسمِ الجلالةِ ﴿ٱللَّهَ﴾.

بلاغةُ التَّعبيرِ بالجملةِ الاسميَّة:

ثباتُ توهينِ كَيْدِ الكافرين وتأكيدُهُ

جاءتِ الجملةُ الاسميَّةُ في قولِه تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ﴾ بيانًا لثباتِ (ذلكمُ الأمرُ) فهو سنَّةٌ إلهيَّةٌ عظيمةُ الشَّأنِ أراكُموها بأعيُنِكم من قتلِ أعدائِكم وهزيمتِهم وتوهينِ كيدِهم وإبطالِ مكرِهم، فما عليكم إلّا التزامُ طاعتِه وطاعةِ رسولِه ﷺ، ولا تنظروا في عاقبةِ شيءٍ ممّا يأمُرُ به ﷺ، فإنَّه ما ينطقُ عنِ الهَوى؛ بل إنَّما هو وحْيٌ نوحيه إليه، ونحن لا نأمرُ بشيءٍ إلّا بعدَ تدبيرِه على أحْكمِ الوجوهِ وأتقنِها[1].

أثَرُ القراءاتِ القرآنيَّةِ في ﴿مُوهِنُ﴾:

توهينُ كيدِ الكافرين في الحالِ والاستقبالِ

في قولِه تعالى: ﴿مُوهِنُ كَيْدِ﴾ ثلاثُ قراءات[2]:

الأولى: ﴿مُوَهِّنُ كَيْدَ﴾ بفتح الواوِ وبتشديدِ الهاءِ وبالتَّنوينِ في ﴿مُوَهِّنُ﴾ ونَصبِ ﴿كَيْدَ﴾.

والثّانيةُ: ﴿مُوهِنُ﴾ بتسكينِ الواوِ وتخفيفِ الهاء وبالتنوين ونَصبِ ﴿كَيْدَ﴾.

والثّالثةُ: ﴿مُوهِنُ كَيْدِ﴾ بإضافةِ ﴿مُوهِنُ﴾ إلى ﴿كَيْدِ﴾.

وفي القراءتين الأوّليَيْن يكونُ المعنَى: أنَّ اللّه سيوهنُ كيدَ الكافرين، وفي القراءةِ الثّالثة تكونُ الإضافةُ في ﴿مُوهِنُ كَيْدِ﴾

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 245/8.

(2) الأولى: قراءة نافع، وابن كثير، وأبي عمرو، وأبي جعفر، والثّانية: قراءة ابنِ عامر، وحمزة، والكسائي، وأبي بكر عن عاصم، وخَلَف، ويعقوب، والثّالثة: قراءة حفصٍ عن عاصم، ينظر: ابن الجزَري، النَّشر: 207/2، والقاضي، البدور الزّاهرة، ص: 129.

لتحقيقِ إضعافِ كيدِ الكافرينَ وإبطالِه باستمرارٍ، والمعنى: أنَّ اللّٰهَ موهِنُ كيدِ الكافرينَ في هذا الحالِ الَّذي هم عليهِ في يومِ بَدْر، وفي المستقبلِ كذلكِ[1].

سرُّ التَّعبيرِ باسمِ الفاعلِ ﴿مُوهِنُ﴾ دونَ الفعلِ:

دوامُ توهينِ كيدِ الكافرين، مِن وعيد الله لكلّ كافر مَهين

آثرَ التَّعبيرَ باسم الفاعل ﴿مُوهِنُ﴾؛ لأنَّهُ يدلُّ على الحالِ والاستقبالِ، وهذا ما أرادهُ اللّٰهُ ﷻ جبرًا لخاطرِ هؤلاءِ المستضعفين من المؤمنينَ من قِبَلِ صناديدِ الكفرِ؛ لأنَّ قواهم قد وهنتْ في بدرٍ، وفيما يأتي بعد بدرٍ؛ فلا مجالَ بعدَ اليومِ للغطرسةِ والاستعلاءِ من مشركي مكَّةَ على المؤمنين، بخلافِ هذا الفعلِ، فلا يؤدّي هذا المعنى؛ لأنَّ الفعلَ يفيدُ التَّجدُّدَ والحدوثَ، والمرادُ هنا إنهاءُ عهدِ الظُّلمِ والاستهانةِ بالمسلمين من المشركين، وذلك بتوهينِ قواهم الجسديَّةِ والنَّفسيَّةِ، ففي التَّعبيرِ باسمِ الفاعلِ كمالٌ للبشارةِ.

سرُّ التَّعبيرِ بـ ﴿ٱلْكَٰفِرِينَ﴾، دونَ (الَّذين كفروا):

بيان درجة الغطرسة في النّكران، عند أهل الكُفران

آثرَ التَّعبيرَ بالكافرين دونَ الَّذين كفروا؛ للإشارةِ إلى بلوغِهم الغايةَ في كفرِهم الَّذي استحقّوا بهِ قَتْلَهم وأسْرَهم في غزوةِ بدرٍ، وتوهينِ كيدِهم بسببِ عنادِهم وغطرَستِهم. وفيه إشارةٌ إلى رسوخِ الكفرِ في قلوبِهم؛ حتَّى فقدوا الاستعدادَ للإيمان، بخلافِ الَّذين كفروا، فليسوا على هذهِ الدَّرجةِ من الغطرسةِ، بدليلِ إسلامِ بعضِهم؛ لأنَّ التَّعبيرَ بالاسم مجرَّدٌ عن الزَّمانِ، ودالٌّ على التصاقِ الصِّفةِ باستمرارٍ.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الكَيْد والمكْر:

الكَيدُ أقْوى مِنَ المكرِ، وهو إيقاعٌ للمكروهِ بالآخرِ قَهْرًا، ولا

(1) محمَّد سالم، الهادي شرح طيبة النَّشر: 265/2.

يُشترَطُ فيهِ القوَّةُ، وكلُّ ذلكَ كانَ بالمشركين، فأوهنَهُ اللّهُ، وأبْطلَهُ بقوَّتِه وقدرتِه.

الـكَـيـدُ: إيـقـاعُ المـكـروهِ بـالآخـرِ قَهْرًا، وهو أقوى مِنَ المكر، والمكرُ يكونُ مع تدبُّرٍ وفِكْرٍ

أمّا المكرُ؛ فلا يكونُ إلّا مع تدبُّرٍ وفِكْرٍ، وإن اشتركا في ذلك، إلّا أنَّ الكَيْدَ أقْوَى مِنَ المكرِ، والشّاهدُ: أنَّه يتعدَّى بنفسِه، والمكرُ يتعدَّى بحرفٍ، فيُقالُ: كادَهُ يَكيدُهُ، ومَكَرَ بهِ، ولا يُقال: مَكرَهُ، والَّذي يتعدَّى بنَفْسِه أقْوى.

والكيْدُ اسْمٌ لإيقاعِ المكروهِ بالآخرِ قَهْرًا، سواءٌ عَلِمَ أم لا، ومنه يُقالُ: فلانٌ يكيدُ لنَفْسِه، أي: يُقاسي المشقَّةَ[1]. وقد آثرَ التَّعبيرَ بالكيدِ؛ لأنَّهُ غلبَ استعمالُهُ في الاحتيالِ على تحصيلِ ما لو اطَّلع عليه المكيدُ؛ لاحترزَ منهُ، فهو احتيالٌ فيه مَضرَّةٌ ما على المفعول بهِ، وهذا ما قصدهُ الكافرونَ في الإضرارِ بالمسلمين، ذلك أنَّ جيشَ المشركين الَّذين جاؤوا؛ لإنقاذِ العيرِ مِن أيدي المسلمين، ولمّا علموا بنجاةِ عيرِهم الذين خرجوا من أجلِها أبَوا أن يرجعوا إلى مكَّةَ، وأقاموا في بدرٍ، فنحروا الجَزورَ، وشربوا الخمرَ، وضربوا الدُّفوفَ، إلى غيرِ ذلك ممّا فعلوا، وليس ذلك لمجرَّدِ اللّهو، بل ليتسامعَ العربُ، فيتساءلوا عن سبب ذلك، فيُخبروا بأنَّهم غلبوا المسلمين، فيصرفَهم ذلك عنِ اتِّباعِ الإسلامِ، فأرادَ اللّهُ توهينَ كيدِهم بتلكَ الهزيمةِ الشَّنعاءِ[2].

الوهن والضَّعف:

الضَّعفُ خلافُ الـقـوَّةِ، وهـو نقصٌ في القوَّةِ البدنيَّةِ، يترتَّب عليهِ عجزٌ في القدرةِ الحسيَّةِ

آثرَ التَّعبيرَ بالوهنِ دونَ الضَّعفِ، لوجودِ فرْقٍ بينَهما، فالضَّعفُ خلافُ القوَّةِ، ويكون في البدنِ، وفي النَّفس، وفي الحال؛ بخلاف الوهنِ فهو ضعفٌ على ضعفٍ يؤدّي إلى فتورٍ في القوَّةِ النَّفسيَّةِ، وضعفٍ في الإرادةِ والعزيمةِ.

(1) العسكريّ، الفروق، ص: 508، والحسيني، الكلّيّات: 125/4، 182، وابن منظور، اللِّسان: (كيد) و(مكر).

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 297/9.

وأمّا الضَّعفُ؛ فهو نقصٌ في القوَّةِ البدنيَّةِ يترتَّب عليهِ عجزٌ في القدرةِ الحسيَّةِ، يؤكِّد ذلك قولهُ تعالى: ﴿۞ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً﴾ الآية، وعلى هذا يفترقُ الوهنُ عن الضَّعفِ في أنَّ الضَّعفَ يتعلَّقُ بالخللِ والنَّقصِ في القوَّةِ البدنيَّةِ، أمّا الوهنُ؛ فمتعلِّقٌ بضعفِ القلبِ والعزيمةِ، ولذلك كان هو المناسبُ هنا؛ لأنَّ كفّارَ مكَّةَ كانوا أصحابَ قوَّةٍ وسطوةٍ وسلطانٍ على القبائلِ العربيَّة، وكانوا يستطيلون، ويفخرونَ بكلِّ ذلك على أهلِ الإيمانِ، فلمّا نصَرَ اللّٰهُ المؤمنينَ مع قلَّةِ عددهم وعتادِهم على المشركين؛ وهنوا في أنفسِهم، ولمّا وهنوا في أنفسِهم؛ وهنَ كيدُهم للمسلمين، وبذلك انتهى عهدُ استضعافِ المسلمين، وكُسِرَت شوكةُ مشركي مكَّةَ.

﴿إِن تَسۡتَفۡتِحُواْ فَقَدۡ جَآءَكُمُ ٱلۡفَتۡحُۖ وَإِن تَنتَهُواْ فَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَإِن تَعُودُواْ نَعُدۡ وَلَن تُغۡنِيَ عَنكُمۡ فِئَتُكُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَوۡ كَثُرَتۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٩﴾ [الأنفال: 19]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

تَوهين كيد الكافرين، نهايتُه الهلاكُ، وسبيلُهُ البَوارُ

لَمّا تضمَّنتِ الآيةُ السّابقةُ إيقاعَ الإهانةِ بالكفّارِ في وقْعةِ بَدْرٍ، الوعدَ بإلزامِهم بالإهانةِ فيما يأتي؛ جاءت هذه الآيةُ لتُفَصِّلَ الأمرَ بتهديدِهم في قالبِ اسْتجلائِهم، فقالَ تعالى: ﴿إِن تَسۡتَفۡتِحُواْ﴾ - أيُّها الكُفّارُ - بعدَ هذا اليومِ كما اسْتفتحتُم في هذه الوقعةِ عند أخْذِ أسْتارِ الكعبةِ وقتَ خروجِكم بقولِكم: اللهمَّ انْصُرْ أهْدَى الحزبَيْن، وأكْرَمَ الجُندَيْن، وأعْلى الفِئتَيْن، وأفضلَ الدّينَيْن، ووقْتَ تَرائي الجَمعيْن، بقولِ أبي جَهْل: اللهمَّ أقطعُنا للرَّحِم، وآتانا ما لا يعلمُ، فأحِنْه الغداةَ، أتاكُمُ الفتحُ كما أتاكم في هذا اليوم، فقد جاءكُمُ في هذا اليومِ بنصرِ المؤمنينَ الفَتْحُ الَّذي اسْتفتحتُم له؛ لأنَّهم أهدَى الفئتَيْنِ وأكرمُ الطّائفتَيْن، وإنْ تنتهوا عن مِثْلِ هذهِ الأقوالِ والأفعالِ المتضمِّنةِ للشَّكِّ أوِ العنادِ، فهو خيرٌ لكم، وقد رأيتُم دلائلَ ذلك، وإن تعودوا إلى المُغالَبةِ؛ نَعُدْ إلى خِذلانِكم، ولن تُغنيَ عنكم جماعتُكم الَّتي تَرْجعونَ إليها للاعْتزازِ بها شيئًا ولو كَثُرتْ؛ لأنَّ اللهَ المَلِكَ الأعْظمَ مع المؤمنينَ الرّاسخينَ في الإيمان[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تَسۡتَفۡتِحُواْ﴾: الفَتْحُ: إزالةُ الإغلاقِ والإشكال، وذلك ضربان: أحدهُما يُدرَكُ بالبصرِ، كفتحِ البابِ وفتحِ المتاعِ، قال تعالى: ﴿وَلَمَّا

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 246/8.

﴿فَتَحُواْ مَتَٰعَهُمۡ﴾، والثّاني: يُدرَكُ بالبصيرةِ، كفتْحِ الهمِّ، وهو إزالةُ الغمِّ، وهو أضرُبٌ: أحدُها: في الأمورِ الدُّنيويَّة، كغمٍّ يُفرَّجُ، أو فقرٍ يُزالُ بإعطاءِ المالِ ونحوه، الثّاني: فتحُ المستغلقِ من العلوم، كقولِكَ: فلانٌ فتحَ من العلمِ بابًا مغلقًا، وفاتحةُ كلِّ شيءٍ: مبدؤهُ الَّذي يُفتَحُ بهِ ما بعدَهُ، وبه سُمّيَ فاتحةُ الكتابِ، وفتحَ القضيَّةَ فِتاحًا: فصلَ الأمرَ فيها، وأزالَ الإغلاقَ عنها، قالَ تعالى: ﴿رَبَّنَا ٱفۡتَحۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ قَوۡمِنَا بِٱلۡحَقِّ وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡفَٰتِحِينَ﴾ [الأعراف: 89]، والاسْتفتاحُ: طلبُ الفَتْح[1]، كما في قولِه تعالى هنا: ﴿إِن تَسۡتَفۡتِحُواْ فَقَدۡ جَآءَكُمُ ٱلۡفَتۡحُۖ﴾، أي: طلبتُم الظَّفَرَ، أو طلبتُم الفَتاح، أي: الحُكْم - وهو المرادُ هنا - أو طلبتُم مبدأ الخيراتِ، فقد جاءكم ذلكَ بمجيءِ النَّبيِّ ﷺ، قالَ تعالى: ﴿وَكَانُواْ مِن قَبۡلُ يَسۡتَفۡتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ [البقرة: 89]، أي: يسْتنصرونَ اللّٰه ببعثةِ محمَّدٍ ﷺ[2].

2) ﴿فِئَتُكُمۡ﴾: الفِئَةُ: الجماعةُ المتظاهرةُ الَّتي يرجعُ بعضُهم إلى بعضٍ في التَّعاضُدِ، قال تعالى: ﴿إِذَا لَقِيتُمۡ فِئَةً فَٱثۡبُتُواْ﴾ [الأنفال: 45][3]. وقولُه تعالى هنا: ﴿وَلَن تُغۡنِيَ عَنكُمۡ فِئَتُكُمۡ شَيۡـٔٗا﴾، أي: جماعتُكم، أو جمعُكم مِنَ الجُموع ما عَسَى أن تجمعوا[4].

المَعْنى الإجْماليُّ:

يقولُ اللّٰهُ تعالى للكفّارِ في هذهِ الآيةِ: إن تطلبوا حُكْمَ اللّٰهِ عليكم بالهلاكِ والهزيمةِ، فقد جاءكم ما تطلبونَ، وإن تنتهوا، وتُسْلِموا، وتتركوا عداوةَ النَّبيِّ ﷺ فهو خيرٌ لكم وأجدى، وإن تعودوا إلى محاربتِهِ؛ نَعُدْ نحنُ إلى نَصْرِه وهزيمتِكم، ولن تغنيَ جماعتُكم

حُكْم الله نازل على الكافرين، وتهكُّمهم مآلهُ الهلاكُ، وكلَّما عادوا، قوبلوا بمثلِ ما وقع بهم

(1) الرّاغب، المفردات، ص: 621 - 622، وابن منظور، اللِّسان: (فتح).
(2) الرّاغب، المفردات، ص: 621 - 622، والبغوي، معالم التَّنزيل: 342/3.
(3) الرّاغب، المفردات، ص: 650، والفيروزآبادي، القاموس: (فيأ).
(4) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 272/2، والشَّوكاني، فتح القدير: 427/2.

وقوَّتُها شيئًا عنكم، ولو كَثُرتْ، وأنَّ اللّهَ معَ المؤمنين بالنَّصرِ والتَّأييدِ والتَّوفيقِ[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دَلالةُ الاستئنافِ بالجملةِ الشَّرطيَّة:

أسلوب التَّهكُّم بالمشركين، له أثر في أحوالهم ومآلهم

وردَ الاسْتئنافُ في الجملةِ الشِّرطيَّةِ: ﴿إِن تَسۡتَفۡتِحُواْ فَقَدۡ جَآءَكُمُ ٱلۡفَتۡحُۖ﴾ على سبيلِ التَّهكُّمِ وهذا التَّهكُّمُ تتضِّحُ صورتُهُ في اسْتخدامِ البيانِ الإلهيِّ للفظِ (المجيء)، حيثُ جاءتْ جُمَلُ الشَّرطِ برُمَّتِها بيانًا لهذا المعنَى وتأكيدًا له، مع ما تضمَّنهُ من التَّوبيخِ لهم في قولِه: إنْ تطلبوا الفَتْحَ؛ فقد جاءكم، أي: كما تَرَوْنَهُ عليكم لا لكم، فيكونُ التَّهكُّمُ في نفسِ الفتحِ حيثُ وُضِعَ موضعَ ما يُقابلُه[2].

بلاغةُ التَّعبيرِ بـ﴿إِن﴾ دونَ إذا في قوله: ﴿إِن تَسۡتَفۡتِحُواْ﴾:

الاستفتاح مِنَ الكفّار ضياع وبوار

آثرَ التَّعبيرَ بـ﴿إِن﴾ دون (إذا)؛ لأنَّ ﴿إِن﴾ تفيدُ الشَّكَّ في الوقوعِ أو قلَّةِ الوقوعِ ونُدرتِه؛ بخلافِ (إذا) الَّتي تفيدُ تحقُّقَ الوقوعِ، وعلى هذا فالمناسبُ هنا التَّعبيرُ بـ ﴿إِن﴾؛ لأنَّ أصلَ طلبِ الاستفتاحِ أن يكونَ في الخيرِ، وطلبِ النَّصرِ منَ اللّهِ، والملاحظُ أنَّهُ جاء هنا من الكفّارِ، وكانت النَّتيجةُ على غيرِ ما يريدونَ، فهُزموا لعدمِ إيمانِهم باللّهِ، فصارَ استفتاحُهم في حُكْمِ المعدومِ.

سرُّ اختيارِ ﴿إِن تَسۡتَفۡتِحُواْ﴾ دونَ الدُّعاءِ:

الاستفتاح إزالةُ الإغلاقِ، وقد كان كَفَرةُ قريش يدعون طلبًا للنّصر

آثرَ التَّعبيرَ بالاستفتاحِ لتعدُّدِ معانيه، ومنها الحُكْمُ، وهو المرادُ هنا؛ لأنَّ الحُكْمَ يكونُ بينَ أطرافٍ متنازعةٍ كلٌّ يدَّعي أنَّه صاحبُ الحقِّ، فيأتي الحكمُ ليزيلَ هذا التَّنازعَ، ولمّا كان الفتحُ معناهُ: إزالةُ الإغلاقِ، وهو كالحكمِ - أيضًا - في إزالةِ الإغلاقِ الموجودِ في

(1) حجازي، التفسير الواضح: 100/8.

(2) ابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 512/2، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 478/2، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 298/9.

القضيَّةِ، وكفّارُ مكَّةَ في خصومتِهم مع النَّبيِّ ﷺ كانوا يستفتحونَ، ويقولون: "اللهمَّ انصر أعلى الجُندين، وأكرمَ الفئتين، وخيرَ القبيلتين"، فكانَ التَّعبيرُ بطلبِ الفتحِ هو المناسبُ لهذا السّياقِ، أمّا الدُّعاءُ؛ فهو عبادةٌ خالصةٌ للّهِ تعالى وكفّارُ مكَّةَ كانوا مشركين يدعونَ مع اللّه إلهًا آخرَ؛ لذلك لم يَرِدْ لفظُ الدُّعاء.

دلالةُ حذفِ متعلَّقِ ﴿تَسۡتَفۡتِحُواْ﴾:

حُذِفَ متعلَّقُ ﴿تَسۡتَفۡتِحُواْ﴾ للعلمِ بهِ، فهم يستفتحونَ على المسلمينَ، ولمّا كان استفتاحُهم وهو طلبُ النَّصر على المسلمين على غيرِ منطقِ الفطرةِ والعقلِ؛ حُذِفَ، ولم يُذْكر.

الاستفتاح دون إيمان يربط بالله، لا معنى له، ولا فائدة منه

بلاغةُ الاستعارةِ في مجيء الفتح:

في قولِه: ﴿جَآءَكُمُ ٱلۡفَتۡحُۖ﴾ فيهِ اسْتعارةُ المجيءِ للحصولِ عندَهم تشبيهًا بمجيءِ المُنْجِد؛ لأنَّ جعْلَ الفتحِ جائيًا إيّاهم يقتضي أنَّ النَّصرَ كانَ في جانبِهم ولمنفعتِهم، والواقعُ يُخالفُ ذلك، فعُلِمَ أنَّ الخبرَ مُستعمَلٌ في التَّهكُّمِ بقرينةِ مخالفتِه الواقعَ بمَسمَعِ المُخاطَبينَ ومرآهم.

أسلوب التّهكم من أبلغ البيان

دلالةُ الخطابِ في سياق آية الاستفتاح:

جاءَ الخطابُ في قولِه تعالى: ﴿إِن تَسۡتَفۡتِحُواْ فَقَدۡ جَآءَكُمُ ٱلۡفَتۡحُۖ﴾ موَجَّهًا للمشركين، فيكونُ الكلامُ اعتراضًا خوطِبَ به المشركونَ في خلالِ خطاباتِ المسلمينَ بمناسبةِ قولِه تعالى: ﴿ذَٰلِكُمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيۡدِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [الأنفال: 18]، والغرضُ من الاعتراضِ المعاجلةُ بالحديثِ عن مواجهةِ المتهكِّمين تثبيتًا للمؤمنين.

التَّعجيلُ بمواجهةِ المتهكِّمين تثبيتٌ للمؤمنين الرّاسخين

بلاغة الالتفات على اعْتبارِ الضَّميرِ في ﴿تَسۡتَفۡتِحُواْ﴾ للمشركين:

في قولِه: ﴿إِن تَسۡتَفۡتِحُواْ﴾ الآية، التفاتٌ من طريقِ الغَيْبَةِ الَّذي اقْتضاه قولُهُ تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيۡدِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾، وفيه تنبيهٌ

المشركونَ المتهكِّمونَ بالمؤمنين، أبعدُ ما يكونون عنِ النَّصرِ

لهم، وبيانٌ لغفلتِهم عنِ الحقِّ؛ إذْ كيفَ يمكنُ أنْ يَسْتنصروا باللّهِ، وهم أبعدُ ما يكونونَ عنه[1]؟.

بلاغةُ الإتيانِ بفعلِ الشَّرطِ مضارعًا دالًّا على الطَّلبِ مع مضيّ الحدَث:

المرادُ استحضارُ حالةِ تكريرِهم الدُّعاءَ، بالنَّصرِ على المؤمنين

وردَ قولُه تعالى: ﴿تَسْتَفْتِحُواْ﴾ بصيغةِ المضارعِ معَ أنَّ الفعلَ قد مضَى زمانُه، لقَصْدِ استحضارِ الحالةِ من تَكْريرِهمُ الدُّعاءَ بالنَّصرِ على المسلمين، وفي استحضارِ الحالةِ الماضيةِ تذكيرٌ لهم بالخزي والهزيمة اعتبارًا بآثارِها المديدةِ.

دلالةُ التَّعبيرِ بالفاءِ، في ﴿فَقَدْ﴾:

معاجلةُ المتهكِّم بمطلوبه، دالٌّ على شِدَّةِ غضبِ اللهِ عليه

عبَّر بالفاءِ في قوله: ﴿فَقَدْ جَآءَكُمُ﴾ للدَّلالةِ على سرعةِ مجيءِ نتيجةِ الاستفتاحِ لهم بهزيمتِهم في يومِ بدرٍ، وفيه إشارةٌ إلى تعجُّلِهم في طلبِ الفتحِ.

دَلالةُ اقْترانِ جوابِ الشَّرطِ بـ (قد):

مجيءُ الهزيمةِ للمشركين أمرٌ محقَّقٌ لا مفرَّ منه

جاءتِ الفاءُ الرّابطةُ لجوابِ الشَّرطِ مقترنةً بـ (قدْ) الدّاخلةِ على الفعلِ الماضي ﴿جَآءَكُمُ﴾؛ للتَّنبيهِ على تحقُّقِ وقوعِه، ويكونُ قولُه: ﴿فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ﴾ معناهُ: نَصْرُ أعلاهما، وقد زعمتُم أنَّكم الأعلى، فالتَّهكُّم في المجيءِ، أو فقد جاءكم الهزيمةُ والقهرُ، فالتَّهكُّم في نفسِ الفتح، حيثُ وُضِعَ مَوضِعَ ما يقابلُهُ.

دَلالةُ تقديم المفعولِ بهِ على الفاعلِ:

تخصيصُهم بمزيدٍ مِنَ التَّهكُّم والازدراءِ

في قولِه تعالى: ﴿جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ﴾ تقدَّمَ المفعولُ بهِ، وهو (كافُ) الخطابِ على الفاعلِ﴿ٱلْفَتْحُ﴾، وجاءَ هذا التَّقديمُ على خلافِ الأصلِ؛ ليدلَّ على التَّخصيصِ والعنايةِ بهِ والاهْتمامِ بأمرِه، والمعنى: فقد جاءَ المشركينَ الفتحُ، وهذا على معنَى التَّهكُّم - كما تقدَّم - أي: تخصيصُهم بمزيدٍ من التَّهكُّمِ والازْدراءِ، والاهتمامُ بشأنِ ما ظَنّوهُ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 298/9.

من أنَّ اللّهَ ناصرُهم، بإحباطِهم وتأييسِهم إذْ ليس الأمرُ كما ظنّوا؛ بل هو وهْمٌ لا دليلَ عليه[1].

دلالةُ التَّعبيرِ بالماضي ﴿جَآءَكُمُ﴾ في جوابِ الشَّرطِ:

عبَّرَ بالماضي في جوابِ الشَّرط لإفادةِ تحقُّقِ وقوعِ نتيجةِ الاستفتاحِ، وهو هزيمتُهم الَّتي صارت أمرًا محقَّقًا لا يُختَلَفُ عليهِ.

كلُّ وعيدٍ مِنَ اللهِ محقَّقُ الوقوعِ

بلاغةُ إسنادِ المجيءِ إلى الفتحِ:

في قولِه تعالى: ﴿جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ﴾ فيهِ اسْتعارةُ المجيءِ للحصولِ عند المشركينَ تشبيهًا بمجيءِ المُنجِد؛ لأنَّ جعْلَ الفَتحِ جائيًا إيّاهم يَقْتضي أنَّ النَّصرَ كان في جانبِهم ولمنفعتِهم، والواقعُ يُخالفُ ذلك، فكانَ في ذلك التَّشبيهِ إشعارٌ بالتَّهكُّمِ بهم وخِذْلانِهم والازْدراءِ بعقولِهم الَّتي لم تَعِ إلى زمنِ هذهِ الواقعةِ أنَّهم على باطلٍ، وأنَّ محمَّدًا ﷺ على حقٍّ[2].

التَّهكُّمُ والاستخفافُ بالمشركين، مزيد مِنَ التّهوين مِن حالهم ومكرهم

سرُّ اختيارِ التَّعبيرِ بالفتحِ دونَ غيرِهِ:

قوله تعالى: ﴿فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ﴾، آثرَ التَّعبيرَ بهِ دونَ غيرِهِ مِن بابِ التَّهكُّمِ بهم؛ لأنَّه وُضِعَ موضعَ ما يقابلهُ، وهو الهزيمةُ.

مَنْ خَذَله الله فلا ناصر له مِن دونه

دلالةُ عطفِ: ﴿وَإِن تَنتَهُواْ﴾ على ما قبلَها[3]:

تظهرُ مناسبةُ عَطْفِ: ﴿وَإِن تَنتَهُواْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ إلى قولِه: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ على ما قبلَها: ﴿إِن تَسْتَفْتِحُواْ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ﴾ من باب عطفِ الوعيدِ على الوعد، والمعنى: انتهوا عن كُفرِكم بعدَ ظُهورِ الحقِّ في جانبِ المسلمين[4].

عطفُ الوعدِ على الوعيدِ تعظيمٌ للوعدِ وترهيبٌ بالوعيدِ

سرُّ التَّعبيرِ بـ (إن) في السّياق:

اختارَ التَّعبيرَ بـ ﴿وَإِن﴾ في قولِه: ﴿وَإِن تَنتَهُواْ﴾؛ لأنَّها تفيدُ

(1) فضل عبّاس، أساليب البيان، ص: 111.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 298/5، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 298/9.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 14/4.
(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 478/15، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 299/9.

الشَّكَّ، في الوقوعِ أو نُدرةِ الوقوعِ وقلَّتِه، وهو المناسبُ للسّياق؛ لأنَّ اللّهَ يعلمُ أنَّ مشركي مكَّةَ لن ينتهوا عن حربِ المسلمين بسهولةٍ، فسيحاولون مرّاتٍ ومرّاتٍ مقاتلةَ المسلمين، وفيه إشارةٌ إلى أنَّ بعضًا منهم سينتهي عن مقاتلةِ المسلمين، وفي هذا إخبارٌ من اللّهِ تعالى بإيمانِ بعضِهم.

انتهاءُ الكافرين عن معاداةِ المؤمنين يقلُّ حدوثُهُ

دلالةُ الفعلِ ﴿تَنتَهُواْ﴾:

آثرَ التَّعبيرَ بالفعلِ ﴿تَنتَهُواْ﴾؛ لأنَّهُ يحملُ معنى الكفِّ عن أيِّ عملٍ عدائيٍّ للمسلمين أو العزم عليه؛ لأنَّ النَّهيَ هو الزَّجرُ عن الشَّيءِ، ومن حيثُ المعنى، لا فرقَ أن يكونَ بالقولِ أو بغيرِه، وما كان بالقولِ لا فرقَ أن يكونَ بلفظ: (اجتنب كذا)، أو بلفظ: (لا تفعل)، إذًا، لفظُ النَّهي أعمُّ مِن غيرِه، كالزَّجرِ مثلًا؛ لذلك اختارهُ القرآنُ، في تحذيرِ المشركين؛ لأنَّ الغرضَ انتهاؤهم عنِ القتالِ والمنازعةِ، وأيضًا الانتهاءُ عنِ الكفرِ والشِّركِ.

لا خيرَ إلّا في الانتهاءِ التّامِّ عنِ العداءِ قولًا وفعلًا

سرُّ التَّعبيرِ بقولِهِ: ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْۖ﴾:

آثرَ التَّعبيرَ بالخيريَّةِ في قوله: ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْۖ﴾؛ للإشارةِ إلى أنَّ ما هم عليه من الكفرِ والقتالِ للمسلمين شرٌّ لهم في دنياهم وأُخراهم، وأنَّ الانتهاءَ عن الكفرِ والقتال، هو الخيرُ لهم في الدُّنيا والآخرة، ولا يتأتَّى ذلك من لفظِ (أفضل) مثلًا؛ لأنَّه قد يشير إلى أنَّ ما هم عليهِ فيهِ فضلٌ، والأمرُ ليس كذلك.

الخيرُ الدّائمُ في الدُّنيا والآخرةِ، في التَّوحيدِ والانتهاءِ عنِ العداوةِ

دَلالةُ عَطفِ الشَّرطِ على الشَّرطِ:

جاءتْ جملةُ الشَّرطِ ﴿وَإِن تَعُودُواْ نَعُدْ﴾ معطوفةً على جملةِ الشَّرطِ سابقتِها، فكانَ ذلك عطفًا للشَّرطِ المتضمِّن للوعيدِ على قولِه: ﴿وَإِن تَنتَهُواْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْۖ﴾، أي: إنْ تعودوا إلى العنادِ والقتالِ؛ نَعُدْ، أي: نعُدْ إلى هَزْمِكم، كما فعلْنا بكم يومَ بَدْرٍ، وفي الاتِّفاق بين الشَّرط وجوابِهِ تأكيدٌ على أنَّ الجزاءَ من جنسِ العمل.

عودةُ الكفّارِ للقتالِ تعيدُ لهم الهزيمةَ، والجزاءُ من جنسِ العملِ

دَلالةُ حذفِ المتعلَّقِ في فعلِ الشَّرطِ ﴿تَعُودُواْ﴾ وجوابِهِ ﴿نَعُدۡ﴾:

ضرورةُ صِدْقِ التَّوجُّهِ إلى اللهِ، والاعتمادِ على نصرِه دونَ سواهُ

في قولِه تعالى: ﴿وَإِن تَعُودُواْ نَعُدۡ﴾ أي: إنْ تعودوا إلى طَلَبِ النَّصرِ؛ نَعُدْ، فننصُرْكم، أي: لا يَنقُصُ ذلكَ من عطائِنا، يُعلِمُهُمُ اللهُ صِدْقَ التَّوجُّهِ إليه، أي: لا تَعْتمدوا إلّا على نصرِ اللهِ[1].

وعلى أنَّ الكلامَ مع المشركين يكونُ المعنى: وإن تعودوا إلى قتالِ المسلمين؛ نعُدْ إلى قهرِكم وخذلانِكم، كما كان في يومِ بدرٍ.

دَلالةُ العطفِ بجملةٍ منفيَّةٍ ﴿وَلَن تُغۡنِيَ﴾:

تيئيسُ الكفّارِ مِنَ النَّصرِ حاضرًا ومستقبلًا، إذ لا أمَلَ لهم في عونِ اللهِ ونصرِه

جاءَ العطفُ بالجملةِ المنفيَّةِ ﴿وَلَن تُغۡنِيَ عَنكُمۡ فِئَتُكُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَوۡ كَثُرَتۡ﴾ على ما تقدَّمها من العَوْدِ لهزيمتهم؛ إنْ عادوا للعِنادِ والقتالِ، تأْييسًا لهم من الانْتصارِ في المستقبلِ كُلِّه، فالمشركونَ كانوا يومئذٍ واثقينَ بالنَّصرِ على المسلمينَ لِكَثْرَةِ عَدَدِهم وعُدَدِهم، فلم يكُ ينفعُهم ذلكَ كلُّه شيئًا؛ لأنَّه بلا إيمانٍ باللهِ، فهو كَسَرابٍ بقيعةٍ يحسَبُه الظَّمآنُ ماءً، حتَّى إذا جاءَه؛ لم يجدْه شيئًا[2].

دلالةُ التَّعبيرِ بـ﴿وَلَن﴾:

تأكيدُ نفيِ قدرةِ الجمعِ على نصرةِ المشركين تيئيسٌ لهم

آثرَ التَّعبيرَ بـ ﴿وَلَن﴾ الَّتي تُفيدُ النَّفيَ المؤكَّدَ، وفي هذا تحذيرٌ للمشركين وإعلانٌ بهزيمتهم في كلِّ الأحوالِ مهما كانت معهم الكثرةُ من العددِ والعُدَّةِ، وفيه بشارةٌ بنصرِ المسلمين.

سرُّ التَّعبيرِ بـ﴿وَلَن تُغۡنِيَ﴾ دونَ (لن تنفع):

نفيُ عدمِ الإغناءِ، مبالغةٌ في إذلالِ الكافرين

آثرَ التَّعبيرَ بقولِه: ﴿وَلَن تُغۡنِيَ﴾ دونَ (لن تنفع)؛ لأنَّ نفيَ الغنى مع أسبابِ وجودِه أبلغُ في الإذلالِ، وأشدُّ في التَّنكيلِ بهم، فهم يملكون أسبابَ الغنى بكثرةِ العدادِ والعُدَّة، ومع ذلك ما أغنتْ عنهم أموالُهم، ولا أولادُهم من إيقاعِ الهزيمةِ بهم في يومِ بدرٍ.

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 300/9 - 301.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير، 299/9.

بلاغةُ تقديمِ المجرورِ ﴿عَنكُمْ﴾ على ﴿فِئَتُكُمْ﴾:

تقديمُ شبهِ الجملةِ ﴿عَنكُمْ﴾ على ﴿فِئَتُكُمْ﴾ - وخاصَّةً بعد النَّفي ﴿وَلَن تُغْنِيَ﴾، لحَصْرِ الإغْناءِ عنهم وتَخْصيصِه بالذّات من فئتِهم، أو من فئةِ غيرِهم، أي: من جَماعتِهم أو من جماعةِ غيرِهم، فالإغْناءُ أو عَدَمُهُ متعلِّقٌ بهم هم أنفسُهم؛ لأنَّهم هم الَّذين اسْتنصروا على المؤمنينَ ظنًّا منهم أنَّهم أهلٌ للغَلَبةِ والنَّصْرِ، فنفَى عنهم ذلكَ بالكُلّيَّةِ؛ لأنَّهم معاندونَ متكبِّرونَ[1]، وفي تقديمِ شبهِ الجملةِ على الفاعلِ تخصيصٌ لهم بعدمِ قُدرةِ أحدٍ على نصرِهم؛ لأنَّهم المقصودونَ بالتَّبكيتِ.

تقديمُ المجرورِ لإفادةِ تخْصيصِ عَدَمِ إغنائِهم، بجمعِهم أو جَمْعِ غيرِهم

تنوُّعُ المرادِ بضميرِ الخطابِ: ﴿عَنكُمْ﴾:

قد يكونُ المرادُ بكافِ الخطابِ المؤمنين، فالنَّصرُ غيرُ مضمونِ الحصولِ عليه إلّا إذا اسْتنصروا باللهِ، واسْتَغْنَوْا بهِ عن غيرِه تعالى ولو كانتْ فئتُهم كثيرةً، وقد يكونُ المرادُ بكافِ الخطابِ المشركين، فالنَّصرُ غيرُ حاصلٍ لهم، ولو حَشَدوا له جمعًا كثيرًا منهم أو من غيرِهم؛ لأنَّهم غيرُ مؤمنينَ باللهِ، والنَّصرُ من عندِه وبأمرِه[2].

ضميرُ الخطابِ يتناولُ المؤمنينَ والمشركين

سرُّ التَّعبيرِ بقولِهِ: ﴿فِئَتُكُمْ﴾:

آثرَ التَّعبيرَ بقولِه: ﴿فِئَتُكُمْ﴾؛ لأنَّ المرادَ بها الجماعةُ الَّذين يكونون رِدءًا للمحاربين، أو الجماعة المتظاهرةُ الَّتي يرجعُ بعضُها إلى بعضٍ التَّعاضُدِ، وفي هذا إشارةٌ إلى قوَّتِها وتماسكها ضدَّ المسلمين؛ فالملاحظُ على هذا التَّعبيرِ أنَّه يشيرُ إلى أنَّ المشركين يعتمدونَ على ردْئِهم من الَّذين لم يشاركوا في غزوة بدرٍ بعد انهزامِ جيشِهم؛ لذلك لم يذكرِ القرآنُ كلمةَ جيشِهم؛ لأنَّه انهارَ ولم يَعُدْ لهُ وجودٌ في هذه المعركةِ، وفيه بشارةٌ بانهزام جيشِ مشركي مكَّةَ، وأنَّهُ وإن طال الوقتُ لن يكونَ لهُ وجودٌ.

تقليلُ الكثرةِ كشفَ عن ضعفِ قوَّتِهم

(1) فضل عبّاس، أساليب البيان، ص: 107 - 108.

(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 245/8 - 246، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 301/9.

سرُّ التَّعبيرِ بقولِهِ: ﴿شَيۡـٔٗا﴾:

آثرَ التَّعبيرَ بقولِهِ: ﴿شَيۡـٔٗا﴾، الَّتي جاءت في سياقِ النَّفي، وهي نكرةٌ؛ لأنَّها تدلُّ على عمومِ نفي الإغناءِ، والزّيادةِ في التَّيئيس مِنَ الاستفادةِ بفئتِهم وجماعتِهم.

التّكثيرُ يفيدُ المبالغةَ في التَّيئيسِ، مِنَ الاستفادةِ بفئتِهم

دَلالةُ التَّعبيرِ بأداةِ الشَّرطِ ﴿وَلَوۡ﴾:

﴿وَلَوۡ﴾ هنا امْتناعيَّةٌ حاليَّةٌ، جاءتْ مع الواوِ قبلَها في معنَى الحال، فجملتُها ﴿وَلَوۡ كَثُرَتۡ﴾ حاليَّةٌ، أي: لن تُغنيَ عنكم فئتُكم شيئًا، والحالُ أنَّه لو كثُرَتْ ما أغْنتْكم، فكيفَ وفئتُكم قليلة[1]؟.

اتِّصالُ ما قبلَها بما بعدَها

دلالةُ الواوِ في جملة: ﴿وَأَنَّ﴾:

عُطِفَ قولُه: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ على ما قبلَها؛ لأنَّها بمنزلةِ التَّعليلِ لتعليقِ جميعِ ما تقدَّم: لمجيءِ الفتحِ والتَّربُّصِ بالمشركين، فإنْ عادوا للقتالِ؛ عُدْنا لهزمِهم، والجموعُ الكثيرةُ لا تغني بدونِ إيمانِ أهلِها[2].

التَّعليلُ يكشفُ المقاصدَ، ويشرحُ صدورَ المؤمنين

بلاغةُ التَّذييلِ في ختام الآية:

العبرةُ بالخواتيم، فجاءتْ خاتمةُ هذه الآيةِ ببيانِ أهمّيَّةِ الإيمانِ في قلوبِ أصحابِ النَّبيِّ ﷺ وأنَّ معيَّةَ اللهِ بنصرِه وتأييدِه مُصاحِبةٌ للمؤمنين دونَ غيرِهم.

المؤمنونَ في معيَّةِ اللهِ ونصرتِهِ دائمًا

سرُّ التَّعبيرِ بالإظهارِ في مقامِ الإضمارِ:

في ختامِ الآيةِ إظهارٌ في مقامِ الإضْمار؛ لأنَّ مُقتَضَى الظّاهرِ أنْ يُقالَ: وإنَّ اللهَ معكم، فعدَلَ إلى الاسْمِ الظّاهرِ للإيْماءِ إلى أنَّ سببَ عنايةِ اللهِ بهم هو إيمانُهم[3].

الإيمانُ باللهِ توفيقُ العنايةِ، وضمان الهداية

(1) السَّمين الحلبيّ، الدُّرُّ المصون: 588/5، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 478/2، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 301/9.

(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 478/2، وابن عاشور، التَّحرير والتّنوير: 301/9.

(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 301/9.

دلالة تعدُّدِ القراءاتِ في قولِهِ: ﴿وَأَنَّ﴾:

التَّعليلُ والتَّأكيدُ يحقِّقانِ معيَّةَ المؤمنينِ

في قولِهِ تعالى: ﴿وَأَنَّ﴾ قراءتان: القراءةُ الأولى بفتحِ همزةِ (أنَّ)، وهي على تقديرِ لامِ التَّعليلِ، أي: ولأنَّ اللّٰه معينُ المؤمنين، عطفًا على قولِه تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝١٨﴾ [الأنفال: 18]، والقراءةُ الثّانيةُ: بكسرِ همزةِ (إنَّ)، على الاسْتئنافِ، فهو تَذْييلٌ للآيةِ في معنَى التَّعليل؛ لأنَّ التَّذييلَ لِما فيهِ مِنَ العُموم يَصْلُحُ لإفادةِ تعليلِ المُذَيَّلِ؛ لأنَّه بمنزلةِ المقدِّمةِ الكُبرَى للمقدِّمةِ الصُّغرَى[1].

دَلالةُ تعريفِ المسنَدِ إليهِ بالعَلميَّةِ ﴿ٱللَّهَ﴾:

تأكيد المهابةِ في القلوبِ، واليقينُ بأنَّ النَّصرَ من عندِ اللهِ وحدَهُ

اسْمُ الجلالةِ ﴿ٱللَّهَ﴾ سَيِّدُ الأسماءِ وسَيِّدُ الأعلام، وإيرادُه هنا بالإسْنادِ إليهِ، لزَرْعِ المهابةِ في القلوب، واليقينِ التّامِّ بأنَّ النَّصرَ والتَّأييدَ والمعيَّةَ الحقيقيَّةَ هي من اللّٰهِ وحدَه دونَ سواه، قالَ تعالى: ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ [الأنفال: 10]، وقالَ ﷻ: ﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ﴾ [آل عمران: 160].

دلالةُ التَّعبيرِ بالمعيَّةِ في قولِهِ: ﴿مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾:

كمالُ المعيَّةِ الإلهيَّةِ، معَ كمالِ العقيدةِ الإيمانيّةِ

آثرَ القرآنُ التَّعبيرَ بالمعيَّةِ في قولِه تعالى: ﴿مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ لبيانِ أنَّ مناطَ المعيَّةِ الحقيقيَّةِ بالإيمان، أي: والأمرُ أنَّ اللّٰه مع المؤمنين، فمعيَّةُ اللّٰهِ مُتحقِّقةٌ مع الكاملينَ في الإيمانِ نصرًا وتأييدًا[2].

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الفَتْح والنَّصْر:

الفتحُ: الحكمُ والفصلُ بين الشَّيئَيْن، ومنه الفصلُ بين الحقِّ والباطل، ويُطلقُ على الفصلِ بين الشَّيئَيْنِ ليظهرَ ما وراءَهما، ومنه: فتحُ الباب، ثمَّ اتُّسِعَ فيه، فقيلَ: فتحَ إلى المعنَى فتْحًا؛ إذا كَشَفَه،

الفتحُ: الفصلُ بين الحقِّ والباطلِ، والنَّصرُ؛ يختصُّ بالمعونةِ على الأعداءِ

(1) السَّمين الحلبيّ، الدُّرُّ المصون: 588/5، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم، 478/2، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 301/9.

(2) السَّمين الحلبيّ، الدُّرُّ المصون: 588/5، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 479/2.

والفاتحُ: الحاكمُ، وقد فتحَ بينَهما، أي: حَكَم، ومنه قولُهُ تعالى: ﴿رَبَّنَا ٱفۡتَحۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ قَوۡمِنَا بِٱلۡحَقِّ وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡفَٰتِحِينَ ٨٩﴾ [الأعراف: 89][1].

أمّا النَّصرُ؛ فيختصُّ بالمعونةِ على الأعداءِ، والنُّصرةُ لا تكونُ إلّا على المنازِعِ المُغالبِ والخَصْمِ المناوئِ، قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا﴾ [غافر: 51]، وقالَ ﷻ: ﴿وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصۡرًا عَزِيزًا ٣﴾ [الفتح: 3]. وقالَ ﷻ: ﴿وَنَصَرۡنَٰهُمۡ فَكَانُواْ هُمُ ٱلۡغَٰلِبِينَ ١١٦﴾ [الصّافّات: 116]، وعلى هذا؛ فالفتحُ أعمُّ والنَّصرُ أخصُّ.

الفِئَة والطّائِفَة:

الفئةُ: هي الجماعةُ المتفرِّقةُ مِن غيرِها، وتُطلَقُ على الجماعةِ المتظاهرةِ الَّتي يرجعُ بعضُهم إلى بعضٍ في التَّعاضُد، قالَ تعالى: ﴿إِذَا لَقِيتُمۡ فِئَةً فَٱثۡبُتُواْ﴾ [الأنفال: 45]. والفئةُ في الحرب: القومُ يكونون ردْءَ المحاربين، قالَ تعالى: ﴿أَوۡ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٖ﴾ [الأنفال: 16]، ثمَّ قيلَ لجمعِ كُلِّ مَنْ يمنعُ أحدًا، وينصرُه: فئةٌ[2].

الفئةُ: الجماعةُ المتعاضِدةُ، وهي أليقُ بسياقِ الآيةِ مِنَ الطّائفة

والطّائفةُ: في الأصلِ الجماعةُ الَّتي من شأنِها الطَّوْفُ في البلادِ للسَّفر، ويجوزُ أنْ يكونَ أصلُها: الجماعةُ الَّتي تَسْتوي بها حَلْقةٌ يُطافُ عليها، ثمَّ كَثُرَ ذلكَ حتَّى سُمّيَ كلُّ جماعةٍ طائفةً، قالَ تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱقۡتَتَلُواْ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَاۖ﴾ [الحُجرات: 9][3]، وعلى هذا فالفئةُ أعمُّ مِنَ الطّائفةِ.

تَعودوا وترجِعوا:

الرُّجوعُ: فِعْلُ الشَّيءِ ثانيةً، ومصيرُه إلى حالٍ كانَ عليها. والعَوْدُ: يُستعمَلُ في هذا المعنَى على الحقيقةِ، ويُستعمَلُ في الابْتداءِ مجازًا، يُقالُ: قد عادَ إليَّ من فلانٍ مَكروهٌ، وإن لم يكنْ قد سبَقَه مكروهٌ قبلَ

العَوْدُ: فِعْلُ الشَّيءِ ثانيةً على الحقيقة، وفي الابْتداء مَجازًا، فهو أوسع مدلولًا من الرُّجوعِ

(1) العسكريّ، الفروق، ص: 396، والرّاغب، المفردات، ص: 621، وابن منظور، اللّسان: (فتح).
(2) أبو عبيدة، مجاز القرآن: 245/1، والعسكريّ، الفروق، ص: 396، والرّاغب، المفردات، ص: 650.
(3) العسكريّ، الفروق، ص: 334، والرّاغب، المفردات، ص: 531.

ذلك، وتأويلُه أنَّه لحقَني منه مَكْروهٌ، ومنه قولُه تعالى: ﴿۞قَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ لَنُخۡرِجَنَّكَ يَٰشُعَيۡبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ مِن قَرۡيَتِنَآ أَوۡ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَاۚ﴾ [الأعراف: 88]. والمعنَى: لَتَدْخُلُنَّ في ديننا، فإنَّه عليه السلام لم يكنْ على دينِهم قطُّ[1]. وقدِ اختارَ التَّعبيرَ بالعَودِ دونَ الرُّجوعِ؛ لأنَّ العَوْدَ معناهُ: الرُّجوعُ إلى الشَّيءِ بعدَ الانصرافِ عنهُ؛ بخلافِ الرُّجوع: فهو العودُ إلى ما كانَ منهُ البدءُ، أو تقديرُ البدءِ مكانًا أو فعلًا أو قولًا[2]. وعلى هذا، فالتَّعبيرُ بالعَودِ هو المناسِبُ للسّياق؛ لأنَّه تحذيرُ المشركين مِنَ العَودِ إلى قتال المسلمين بعد انصرافِهم عنهُ بالهزيمةِ.

المجيء والإتيان:

آثرَ التَّعبيرَ بالمجيءِ دونَ الإتيانِ، لوجودِ فرقٍ بينهما، حيث يتميَّزُ المجيءُ بالصُّعوبةِ؛ فهو بذلك يختلفُ عن الإتيانِ؛ لذلك ناسبَ التَّعبيرُ بالمجيء هنا لما لحقَهم من القتلِ والأسرِ، فالمجيءُ لم يكن سهلًا، إنَّما كان صعبًا عليهم بما جلبَهُ لهم من القتلِ والأسرِ.

كلا اللّفظين يعني الإقبال إلى مكان أو شيء، ولكنّ المجيء فيه صعوبة ومشقّة

(1) العسكريّ، الفروق، ص: 250، والحسينيّ، الكلّيّات: 390/2، والجُرجاني، التَّعريفات، ص: 114، 164.

(2) الرّاغب، مفردات القرآن: (عود - رجع).

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ وَأَنتُمۡ تَسۡمَعُونَ ٢٠﴾ [الأنفال: 20]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

المناسبة بينَ التّنديد بالعناد والجحود، والدّعوة لطاعة الله ورسوله دون كُنود

لَمّا أراهُم اللّهُ آياتِ لُطفهِ وعنايتَهُ بهم في الآياتِ السّابقةِ، ورأوا فوائدَ امتثالِ أمرِ الرَّسولِ ﷺ بالخروجِ إلى بدرٍ، وقد كانوا كارهينَ الخروجَ؛ جاءت هذه الآيةُ لتأمرَهُم بطاعة اللّهِ ورسولهِ شكرًا على نعمةِ النَّصرِ، واعتبارًا بأنَّ ما يأمرُهم بهِ عواقبهُ كلُّها خيرٌ، لذلك حذَّرهم من مخالفةِ أمرِ اللّهِ ورسولهِ[1]، وممّا يذكرُ في المناسبةِ أنَّه لمّا كان سببُ ما أحَلَّهُ اللّهُ بالكفّارِ - مِنَ الإعراضِ عن إجابتِهم فيما قَصَدوا من دعائِهم ومن خِذلانِهم في هذهِ الوقعةِ وإيجابِ مثلِ ذلكَ لهم أبدًا - هو عصيانُهمُ الرَّسولَ ﷺ، وتولّيهم عن قَبولِ ما يسمعونَه منهُ؛ حذَّرَ المؤمنينَ مِن مثلِ حالِهم ذاكَ بالتَّمادي في التَّنازعِ في الغنيمةِ أو غيرِها، فقال: يا أيُّها الَّذين آمنوا أطيعوا اللّهَ الَّذي له جميعُ العِزِّ والعَظَمةِ، وأطيعوا رسولَهُ ﷺ تصديقًا لِدَعْواكُمُ الإيمان، ولا تَتَولَّوْا عنه في حالٍ من الأحوال، وأنتم تسمعونَ لِما يقولُهُ، أو أنتم تُصدِّقونَه؛ لأنَّ ارتكابَ شيءٍ من ذلكَ يُكذِّبُ دَعْوَى الإيمانِ، وينطبقُ على حالِ الكُفّارِ[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تَسۡمَعُونَ﴾: السَّمعُ قوَّةٌ في الأُذُنِ به تُدرَكُ الأصواتُ، وفعلُه يُقالُ لهُ: السَّمعُ أيضًا، وقد سمِعَ سمعًا، ويُعبَّرُ تارةً بالسَّمعِ عنِ الأُذُنِ، نحو: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ﴾ [البقرة: 7]، وتارةً عن

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 302/9.

(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 469/15، والبقاعيّ، نظم الدُّرر: 247/8.

فعلِه كالسَّماعِ، نحو: ﴿إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ۝٢﴾ [الشُّعراء: 212]، وتارةً عن الفَهْم، وتارةً عن الطّاعةِ، قالَ تعالى: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ [النِّساء: 46]، أي: فهِمْنا قولَك، وارْتَسَمْنا لهُ[1].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

الحثُّ على طاعة اللهِ ورسولِه؛ لأنّ الخيرَ كلَّهُ كامنٌ في توخّيها بعلمٍ وثبات

يأمرُ اللّهُ تعالى عبادَهُ المؤمنينَ بطاعتِه وطاعةِ رسولِه ﷺ، ويزجرُهم عن مخالفتِه والتَّشبُّهِ بالكافرينَ به المعانِدينَ له، وخاصَّةً بعدَما عَلِموا ما دعاهم إليه، ووضُحَتْ أمامَهمُ الدَّلائلُ والبراهينُ على صدقِه في رسالتِه ودَعْوتِه[2].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ افْتتاحِ الآيةِ بأسلوبِ النِّداء ﴿يَـٰٓأَيُّهَا﴾:

النِّداءُ للاهْتمامِ بما وراءَهُ مِنَ الأوامرِ والنَّواهي

افْتتاحُ الآيةِ الكريمةِ بالنِّداء للاهْتمامِ بما سيُلْقى إلى المخاطَبينَ، قَصْدًا لإحضارِ الذِّهنِ لِوَعْيِ ما سَيُقالُ لهم، فنزَّلَ الحاضرَ مَنزِلةَ البعيدِ، فطلبَ حضورَهُ بحرفِ النِّداء الموضوعِ لطلبِ الإقْبالِ[3]؛ لأهمّيَّةِ ما يُلقى في شأنِ الجهادِ بالدِّفاع عن المؤمنين والضُّعفاءِ مِنَ الشُّيوخِ والنِّساءِ والذُّرِّيَّة.

بلاغةُ التَّعبيرِ بالمنادَى ﴿ٱلَّذِينَ﴾:

أهليَّةُ المؤمنين الكاملةُ لتحمُّلِ التَّكاليفِ الإلهيَّةِ

التَّعريفُ بالموصوليَّةِ في جملةِ النِّداء ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ للتَّنبيهِ على أنَّ الموصوفينَ بهذهِ الصِّلةِ مِن شأنِهم أن يتقبَّلوا ما سيُؤْمَرونَ به، وأنَّه كما كانَ الشِّركُ مُسبِّبًا لمُشاقَّةِ اللّهِ ورسولِه في قولِه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ [الأنفال: 13]؛ فخليقٌ بالإيمانِ أن يكونَ باعثًا لأهلِه على طاعةِ اللّهِ ورسولِه، وفي ذلكَ كذلكَ رفْعٌ لأقْدارِهم ومكانتِهم عندَ اللّهِ[4].

---

(1) الرّاغب، المفردات، ص: 425، وابن منظور، اللِّسان: (سمع).

(2) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 273/2.

(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 303/9.

(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 298/5، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 303/9.

بلاغةُ التَّعبيرِ بجملةِ الصِّلةِ فعلًا ماضيًا ﴿ءَامَنُوٓاْ﴾:

أفادَ الفعلُ الماضي تحقُّقَ الإيمانِ في قلوبِهم، وملازمتِهم لهذه الصِّفةِ

جاءتْ جملةُ الصِّلةِ في قولِه تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ فعلًا ماضيًا ليُفيدَ تحقُّقَ هؤلاءِ الموصوفينَ بهذه الصِّلة بالإيمان، وإذا كانَ ذلكَ كذلكَ؛ فخليقٌ بهم - وهم على هذه الصِّفةِ الملازمةِ لهم - أنْ يكونَ إيمانُهم باعثًا لهم على طاعةِ اللّهِ ورسوله، وكأنَّ في تلبُّسِهم في هذا الإيمانِ عَودًا على ما وردَ في أوَّلِ السّورةِ بقولِه تعالى: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: 1]، وفي ذلك إشارةٌ جَليَّةٌ هنا إلى أنَّ تحقُّقَ وصْفِ الإيمانِ فيهم وإفراغَهُ في صورةِ الشَّرطِ في أوَّلِ السّورةِ ما قُصِدَ منه إلّا شحذُ العزائمِ، والانْتظامُ في سِلْكِ المؤمنينَ المطيعينَ للّهِ ورسولِه حقًّا وصِدْقًا[1]، وفيه إشارةٌ إلى أنَّ ما سيُلقى عليهم فيهِ مشقَّةٌ، لاسيِّما أنَّ الأمرَ، في سياقِ الحربِ والجهادِ، وهذا أمرٌ تكتنفهُ صعوباتٌ كثيرةٌ وعراقيلُ متعدِّدةٌ، فلا يستطيعُ الصَّبرَ عليها والتَّغلُّبَ على مخاطرها إلّا من أوتي إيمانًا راسخًا.

بلاغةُ التَّعبيرِ بالأمرِ بعد التَّمهيدِ له بالنِّداءِ:

للطّاعةِ أثرٌ عظيمٌ في حياةِ المؤمنين، فلا بُدَّ منَ المسارعةِ في التزامِها

جاءَ قولُه تعالى: ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ أمرًا بالطّاعة، وعَوْدًا على الأمرِ بالطّاعةِ الَّذي افْتُتحتْ به السّورةُ في قولِه تعالى: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾، كرجوعِ الخطيبِ إلى مقدِّمةِ كلامِه ودَليلِه؛ ليأخُذَها بعدَ الاسْتدلالِ في صورةِ نتيجةٍ أسْفَرَ عنها احْتجاجُهُ؛ لأنَّ مطلوبَ القياسِ هو عَيْنُ النَّتيجةِ، ولما لطاعةِ اللّهِ ورسولِه من أثَرٍ عظيمٍ في حياتِهم، فهي سبيلٌ للنَّصرِ العظيمِ والغُنْمِ الوفيرِ، ولا يتحقَّقُ ذلكَ إلّا لمن كانَ قلبُهُ عامرًا بالإيمانِ باللّهِ ورسولِه، وهذا كلُّه مَدْعاةٌ للمسارعةِ في التزامِ تلكَ الطّاعةِ[2].

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 303/9.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 302/9.

سرُّ تكرارِ الأمرِ بالطّاعةِ في السّياق الحكيم:

التَّأكيدُ على أهمّيَّةِ طاعةِ الرَّسولِ ﷺ

كُرِّرَ الأمرُ بالطّاعةِ في هذهِ الآيةِ مع سبقِ ذِكْرِ الأمرِ بها في أوَّلِ السّورةِ في قولهِ تعالى: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ ليعطفَ عليها قولهُ: ﴿وَلَا تَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ وَأَنتُمۡ تَسۡمَعُونَ﴾ وأيضًا لمّا كان الكلامُ من أوَّلِ السّورةِ إلى هنا واقعًا في شأنِ الجهادِ؛ عُلِمَ أنَّ المرادَ (وأنتم تسمعون دعاءَهُ إلى الجهادِ)، ويحملُ ذلك مخاطرةً بالنَّفس وبالمال، ولمّا كانت المخاطرةُ بالنَّفس شاقَّةً شديدةً على كلِّ أحدٍ، وكان ترْكُ المالِ بعدَ القُدرةِ على أخذِهِ شاقًّا شديدًا، والنَّفسُ بطبيعتِها تتبرَّمُ من ذلك، جاء الأمرُ بالطّاعةِ للّهِ ورسولهِ مرَّةً ثانيةً لتأديبِ النُّفوس وتربيتها على الانقيادِ لأوامرِ اللّهِ[1]، وممّا يؤكِّدُ هذا المعنى ما ذَكَرهُ الطَّيبيُّ في سرِّ تكرارِ الأمرِ بالطّاعةِ أنَّ الغرضَ تشديدُ الأمرِ بطاعةِ الرَّسولِ ﷺ وتحريضُ الصَّحابة - رضوانُ اللّهِ عليهم - على الانقياد لأمرهِ والامتناعِ عن مخالفتهِ، لاسيَّما أنَّ الآياتِ قبلَها في قصَّة بدرٍ، وأطالَ الكلامُ فيها، وبعد ذلك كرَّ إلى ما بدأ بهِ، وشدَّد فيهِ غايةَ التَّشديدِ (طاعة الرَّسول ﷺ) حيثُ جعلَها من طاعةِ اللّهِ تعالى وحذَّرَ من مخالفتهِ ﷺ بقوله: ﴿وَلَا تَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ وَأَنتُمۡ تَسۡمَعُونَ﴾[2]، وفي اقتران الإيمانِ بالطّاعةِ إشارةٌ إلى أنَّ الإيمانَ لا تقوم حقيقتُهُ إلّا على الطّاعةِ لِما تحملُ دعوةُ الإيمانِ مِن أوامرَ ونواهٍ، فالإيمانُ ليس مجرَّدَ إقرارٍ باللِّسان، بل لا بدَّ من تصديقهِ بالعمل، ولذلك ذمَّ اللّهُ المنافقين بقولهِ: ﴿يَقُولُونَ بِأَفۡوَٰهِهِم مَّا لَيۡسَ فِي قُلُوبِهِمۡۚ﴾[3].

دَلالةُ ذكرِ اسمِ الجلالةِ ﴿ٱللَّهَ﴾:

مقامُ التَّعظيمِ للهِ يزرعُ المهابةَ، يُهيِّئُ لالتزامِ الطّاعةِ

ذِكْرُ اسْمِ الجلالةِ ﴿ٱللَّهَ﴾ في هذا المقامِ مقامِ التَّعظيم، مقترنًا

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 132/9.
(2) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 59/7.
(3) عبد الكريم الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 585/3.

بالأمرِ بطاعتِه تعالى الَّذي هو رأسُ الأمرِ كُلِّه؛ لِزَرعِ المهابةِ في قلوبِ المؤمنينَ ودَفعِهم للمسارعةِ في امْتثالِ الطّاعة المُطلَقةِ للّه، وللتَّمهيدِ والتَّنبيهِ على أنَّ ما سيأتي من أوامرَ وزواجرَ هي شرعٌ من اللّهِ العظيم، فلا بدَّ من التزامِها[1]، وهذا دليلٌ على الاعترافِ بالعبوديَّةِ للّهِ ربِّ العالمين، ويلزمُ من ذلكَ دوامُ الانقيادِ.

بلاغةُ العطفِ بحرف (الواوِ):

جاءَ قولُه تعالى: ﴿وَرَسُولَهُۥ﴾ عطفًا على اسمِ الجلالة ﴿ٱللَّهَ﴾، ووحَّدَ بينهما بالأمرِ بالطّاعةِ لبيانِ أهميَّةِ طاعةِ رسولِه ﷺ، فطاعةُ الرَّسول ﷺ طاعةٌ للّهِ، فالمعنَى: وأطيعوا رسولَ اللّهِ[2]، وفيه إشارةٌ إلى تشريكِ الرَّسول ﷺ في أمرِ التَّشريع، ووجوبِ الالتزام بطاعتِه فيما يُشَرِّعُ؛ لأنَّ طاعةَ اللّهِ تعالى تكونُ على العموم، وطاعةُ الرَّسولِ ﷺ في تفصيلِ الأحكامِ وتطبيقاتِها، في هذا ردٌّ على مَن يُسَمّونَ أنفسَهم بالقرآنيّين.

طاعةُ الرَّسولِ ﷺ طاعةٌ للّهِ تعالى، وعصيانُه عصيانٌ له

بلاغةُ الإضافةِ إلى الضَّميرِ الرّاجعِ للذّاتِ العَليَّةِ ﴿وَرَسُولَهُۥ﴾:

في قولِه تعالى: ﴿وَرَسُولَهُۥ﴾ عَوْدُ الضَّميرِ (الهاء) إلى اسْمِ الجلالةِ ﴿ٱللَّهَ﴾، أي: أطيعوا اللّه، وأطيعوا رسولَ اللّهِ، وفي هذا تشريفٌ جليلٌ لرسولِ اللّه ﷺ، وتحفيزٌ للمؤمنينَ على طاعةِ رسولِ اللّهِ ﷺ، فإنَّ طاعتَهُ طاعةٌ للّهِ، فكلتا الطّاعتين شيءٌ واحدٌ[3].

تشريفُ مقامِ رسولِ اللهِ ﷺ، وضرورةُ طاعتِه

سرُّ التَّعبيرِ بالرِّسالةِ دونَ النُّبوَّةِ:

عبَّر بالرِّسالةِ دونَ النُّبوَّةِ؛ لأنَّ المقامَ هنا مقامُ تشريعاتٍ وتوجيهاتٍ تتعلَّقُ بحياةِ الأمَّةِ عمومًا، وفي أمرِ الجهادِ خصوصًا، وكلُّ ذلك من مقتضياتِ الرِّسالةِ.

في مقامِ التَّشريعِ، الأنسبُ التَّعبيرُ بالرِّسالةِ لأهميّتها في السّياق المفصح

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 479/2.
(2) الزَّمخشري، الكشّاف: 150/2.
(3) الزَّمخشري، الكشّاف: 150/2، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 479/2.

دلالةُ حذفِ متعلَّقِ الطّاعةِ:

المقصودُ عمومُ الطّاعةِ، لا العباداتِ الحسيّةِ فحسب

حُذِفَ متعلَّقُ الطّاعةِ في قولِه: ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾، وإن كان السّياقُ في شأنِ الإجابةِ إلى أمرِ الجهادِ، وترْكِ المالِ إذا أمرَ اللّهُ بتركِه للدِّلالةِ على العمومِ؛ ليشملَ كلَّ ما يصدرُ عنِ اللّهِ ورسولِه، ويدخلُ أمرُ الجهادِ والمالِ في هذا دخولًا أوَّليًّا.

بلاغةُ عطفِ أسلوبِ النَّهيِ على أسلوبِ الأمرِ في الآيةِ:

التَّأكيدُ على طاعةِ اللهِ ورسولِه، فهي قِوامُ الأمرِ كلّه

في قولِه تعالى: ﴿وَلَا تَوَلَّوْاْ﴾ عُطِفَ النَّهيُ هنا على الأمرِ في قولِه: ﴿أَطِيعُواْ﴾ لبيانِ أنَّ المرادَ هو الأمرُ بطاعةِ اللّهِ ورسولِه ﷺ، والنَّهيُ عن الإعراضِ عن طاعتِهما؛ فكلاهما مُستحقٌّ للّهِ وللرَّسولِ ﷺ، والنَّهيُ عن التَّولّي عن الرَّسولِ نهيٌ عن الإعراضِ عن أمرِ اللّهِ، ويمكنُ أن يُرادَ: أطيعوا اللّهَ ورسولَه، ولا تولَّوا عن هذا الأمرِ وامْتثالِه، أو ولا تتولَّوا عن رسولِ اللّهِ ﷺ، ولاتخالفوهُ[1].

بلاغةُ التَّعبيرِ بالتَّخفيفِ ﴿تَوَلَّوْاْ﴾:

﴿تَوَلَّوْاْ﴾ بتاءٍ واحدةٍ لإفادةِ المستقبلِ

قولُه: ﴿تَوَلَّوْاْ﴾ أصلُهُ (تَتَوَلَّوْا)؛ لأنَّ (تفعَّل) دخلتْ عليه تاءُ المخاطَبِ بالفعلِ المستقبلِ، فحُذفتِ الواحدةُ، والمحذوفةُ هي تاءُ (تفعَّل)، والباقيةُ هي تاءُ العلامةِ؛ لأنَّ الحاجةَ إليها هنا ماسَّةٌ جدًّا ليَبقى الفعلُ مستقبلًا[2]، وفي التَّخفيفِ إشارةٌ إلى وجودِ تباطُؤٍ قد يحدثُ من بعضِ المؤمنين، ليس عن قصدٍ، ولكنَّه عن اجتهادٍ أخطَؤوا فيه؛ فيُعَدُّ ذلك مِن صوَرِ التَّولّي، أمّا قراءةُ التَّشديدِ؛ فتُشيرُ إلى النَّهيِ لمن يُمعِنون في الإعراضِ عن طاعةِ اللّهِ ورسولِه.

سرُّ التَّعبيرِ بالضَّميرِ المفردِ ﴿عَنْهُ﴾:

رجوعُ الضَّميرِ إلى الرَّسولِ ﷺ، يفيدُ أنّ التَّولّي عن الرَّسولِ تولٍّ عنِ اللهِ

إفرادُ الضَّميرِ المجرورِ بـ (عن) في قولِه تعالى: ﴿وَلَا تَوَلَّوْاْ عَنْهُ﴾؛ لأنَّه راجعٌ إلى الرَّسولِ ﷺ؛ إذْ هذا المناسبُ للتَّولّي بحسَبِ الحقيقةِ،

(1) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 150/2، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 479/2.
(2) ابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 513/2.

فإفرادُ الضَّميرِ هنا يُشبِهُ ترشيحَ الاسْتعارةِ، وقد تقدَّم أنَّ النَّهيَ عن التَّولّي عنِ الرَّسولِ نهيٌ عن الإعراضِ عن أمرِ اللّهِ، لقولِه تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ﴾ [الأعراف: 80][1].

وممّا يُذكر في سرِّ ذلك أنَّ النَّبيَّ ﷺ هو الَّذي خاطبهم، وهو المتحدِّثُ باسم ربِّه عنهم، ولا يُتصوَّرُ أن يكونَ التَّولّي عن اللّهِ تعالى بل لتَّولّي عنه ﷺ وإنَّ نسبةَ التَّولّي منهم للّهِ تعالى لا تليقُ[2]، ويحتملُ أن يكونَ الضَّميرُ راجعًا إلى الأمرِ الَّذي دلَّ عليهِ ﴿أَطِيعُواْ﴾.

سرُّ التَّعبيرِ بالتَّولّي دونَ غيرِهِ:

آثرَ في التَّعبيرِ التَّولّي دونَ غيرِهِ؛ لأنَّ لتَّولّيَ يأتي بمعنى الإعراضِ أو الانصرافِ، والمعنى: لا تنصرفوا، وأنتم تسمعون القولَ؛ لأنَّ الانصرافَ، وهم يسمعونَ القولَ يتضمَّنُ معنيين: أوَّلهما: أن يكونَ التَّولّي نفسيًّا، فهم يكونون سامعين، لكن غيرَ مُنفِّذين. ثانيهما: أن يعرضوا عن النَّبيِّ ﷺ حسّيًّا، وهو يتكلَّم، وهم يسمعون[3]، فقد عبَّر عن الأعمِّ؛ ليشملَ النَّهيُ عمّا دونَهُ.

النَّهيُ عنِ الأعلى، تنبيهٌ للنَّهي عنِ الأدنى

دلالةُ النَّهي في قولِهِ: ﴿وَلَا تَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ﴾:

دلَّ النَّهيُ على وجوبِ الانتهاءِ عن التَّولّي مطلقًا، لا لتقييد النَّهي عنهُ بحال السَّماعِ، وفيهِ تحذيرٌ للمؤمنين مِن أن يخرجوا عن طاعةِ اللّهِ، وأن يخالفوا الرَّسولَ فيمَ يسمعون مِن آياتِ اللّهِ[4].

النَّهيُ عن الإعراضِ يؤكِّدُ الطّاعةَ

بلاغةُ قَيْدِ النَّهيِ بالجملةِ الحاليَّةِ: ﴿وَأَنتُمۡ تَسۡمَعُونَ﴾:

قولُه تعالى: ﴿وَأَنتُمۡ تَسۡمَعُونَ﴾ في موضعِ الحالِ من ضميرِ ﴿تَوَلَّوۡاْ﴾، والمقصودُ من هذه الحالِ تَشْويهُ التَّولّي المَنهيِّ عنه والتَّنفيرُ منه، فإنَّ العصيانَ مع توفُّرِ أسباب الطّاعةِ أشدُّ منه في حينِ انْخرامِ

ذمُّ التَّولّي، والتَّنفيرُ منهُ، وتأكيدُ وجوبِ طاعتِهِ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 303/9.
(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 3093/6.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 3092/6.
(4) الآلوسيّ، روح المعاني: 188/9.

بعضِها، وفي هذا السّياقِ تأكيدُ وجوبِ طاعتِه والمواعظِ الزّاجرةِ عن مخالفتِه، فهو سماعُ فهْمٍ وإذْعانٍ[1]، وهذهِ دعوةٌ إلى حُسنِ الاستماعِ، كما أنَّ في ذكرِ هذهِ الجملة تسجيلًا عليهم، وتحقيقًا للبلاغِ فيهم، ممّا يُسقط العذرَ، ويُشعرُ بالتَّهديدِ والوعيد.

دَلالةُ السَّمعِ في قوله: ﴿تَسْمَعُونَ﴾:

السَّمعُ وعدمُ العملِ بالمسموعِ، لا يُعدُّ سمعًا

المرادُ بالسَّمعِ هنا في قولِه تعالى: ﴿وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ﴾ حقيقتُهُ، أي: في حالٍ لا يَعوزُكم تَرْكُ التَّولّي - بمعنى الإعراض - وذلكَ لأنَّ فائدةَ السَّمعِ العملُ بالمسموع، فمَنْ سمعَ الحقَّ، ولم يعملْ به؛ فهو والَّذي لا يَسمعُ سواءٌ في عَدَمِ الانْتفاعِ بذلكَ المسموع[2].

دَلالةُ تقديمِ المسنَدِ إليه على خبرِه الفعليِّ:

تأكيدُ سماعِهم وتحقُّقُهُ، يقتضي الإقبالَ لا الإعراضَ

الجملةُ الحاليَّةُ ﴿وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ﴾ تقدَّمَ فيها المسنَدُ إليهِ على خبرِه؛ لأنَّهُ لَمّا كان الأمرُ بالطّاعةِ كلامًا يُطاعُ؛ ظَهرَ هذا الأمرُ موقعَ ﴿وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ﴾، فلمّا كانَ الكلامُ الصّادرُ من اللّهِ ورسولِه من شأنِه أنْ يقبَلَهُ أهلُ العقولِ وذوو البصيرة؛ كانَ مجرَّدُ سماعِه مُقتضيًا عدمَ التَّولّي عنه؛ لأنَّه دعاءٌ مِنَ اللّهِ ورسولِه لجماعةِ المؤمنينَ بالقرآنِ والمواعظِ والآياتِ، فهم أحقُّ مَن يسمعُ سماعَ فهمٍ وتدبُّرٍ ثمَّ التزامٍ وعملٍ[3].

دلالةُ حذفِ مُتَعَلَّقِ ﴿تَسْمَعُونَ﴾:

العبرةُ بالسَّماعِ لا بالمسموعِ

حُذِفَ متعلَّقُ ﴿تَسْمَعُونَ﴾؛ لإفادةِ العموم، وإن كان المقصودُ سماعَ ما يُتلى مِنَ الحُججِ والبراهين، أو ما يتعلَّق بأمرِ الجهادِ، لكنَّ القرآنَ حَذَفَ المُتعلَّقَ؛ لأنَّ كلَّ ما يُسمع من رسولِ اللّهِ هو خيرٌ للفردِ وللأمَّةِ، فالعبرةُ بالسَّماعِ؛ لأنَّ كلَّ ما يقولهُ رسولُ اللّهِ جديرٌ بالسَّماعِ، فتوفَّرتِ العنايةُ على الفعلِ.

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 479/2، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 303/9.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 303/9.
(3) ابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 513/2، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 303/9 - 304.

سرُّ اختيارِ السَّماع دونَ غيرِه:

البلاغُ طريقةُ السَّماعُ، وهو مِن مألوف المعنى

اختارَ السَّماعَ دونَ غيرِه؛ لأنَّ موضوعَ الطّاعةِ للّهِ ورسوله لا يتأتَّى إلّا عن طريق البلاغِ، والبلاغُ أوَّلُ وسيلةٍ له النِّداءُ، والأُذُنُ هي أوَّلُ مستقبلٍ لهذا النِّداءِ؛ لأنَّها آلةُ الإدراكِ، ولذلك كانت حكمةُ اللّهِ تعالى أن يبلِّغَ الرَّسولُ ﷺ دعوتَهُ عن طريق السَّماعِ، وليس عن طريقِ الكتابةِ؛ لأنَّها أمَّةٌ أمّيَّةٌ، والسَّماع دليلٌ على إقامةِ الحُجَّةِ، ولا يناقضُ ذلك أنَّه أرسلَ بعضَ الرَّسائلِ إلى غيرِ العربِ.

﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعۡنَا وَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ ٢١﴾ [الأنفال: 21]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

العلاقة بين الأمر بطاعة الله ورسوله، وبين الامتثال بالقول والفعل معًا

لَمّا بيَّنَ في الآيةِ السّابقةِ صِفةَ المؤمنينَ في طاعتِهم للّهِ ورسولِه، ونهاهم عن التَّولّي عن أوامرِ رسولِ اللّهِ ﷺ في أيِّ حالٍ من الأحوال، وذكرَ حالَهم في سمْعِهم لِما يقولُهُ رسولُ اللّهِ عنِ اللّه، وأنَّهم يُصدِّقونَه تمامَ التَّصديق؛ قالَ هنا مؤكِّدًا لذلك في هذه الآية: ولا تكونوا - أيُّها المؤمنونَ - كالَّذينَ يقولونَ بألْسنتِهم: إنّا قَبِلْنا تكاليفَ اللّهِ تعالى ثمَّ إنَّهم بقلوبِهم لا يقبَلونَها، ولا يعملونَ بها، وهي صفةٌ للمنافقين، كما أخبرَ اللّهُ عنهم بقولِه: ﴿وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوۡاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمۡ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمۡ﴾ [البقرة: 14][1].

المَعْنى الإجْماليُّ:

التَّظاهرُ بالسَّمعِ مع عدمِ العملِ بمقتضاهُ، ضلالٌ مُبينٌ، ونفاق مُهين

نهَى اللّهُ تعالى المؤمنينَ أنْ يكونوا كالَّذينَ يكتفونَ بمجرَّدِ الدَّعوى الخياليَّةِ الَّتي لا حقيقةَ لها، وهو التَّظاهرُ بالسَّمْعِ لما يُلقيه إليهم رسولُ اللّهِ ﷺ من أوامرِ ربِّه ونواهيه، ولكنَّهم لا يفهمونَها، ولا يَعملونَ بها، فإنَّها حالةٌ لا يرضاها اللّهُ ولا رسولُهُ، بل هي دليلُ النِّفاقِ الَّذي لا رَيْبَ فيه[2].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

دَلالةُ العطفِ بالواوِ، في ﴿وَلَا تَكُونُواْ﴾:

العطفُ تقريرٌ لِما تقدَّمَهُ، وتحذيرٌ عن مخالفتِه

جاءَ قولُه تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُواْ﴾ الآية عطفًا على ما تقدَّمَه، تقريرًا للنَّهيِ السّابق، وتحذيرًا عن مخالفتِه، بالتَّنبيهِ على أنَّها مؤدّيةٌ إلى انْتظامِهم في سِلْكِ الكَفَرةِ، بكونِ سماعِهم كلا سَماعٍ،

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 469/15، والبقاعيّ، نظم الدُّرر: 247/8.

(2) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 273/2، والسّعدي، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 271.

أي: لا تكونوا بمخالفةِ الأمرِ والنَّهي، كالَّذين قالوا: سَمِعْنا، وهم لا يسمعون[1]، والمقصودُ بعدمِ السَّماعِ عدمُ الاستجابةِ، كأنَّهُ قيل: ولاتكونوا كالَّذين قالوا: سمعنا، وهم لا يستجيبون.

بلاغةُ نفيِ الكَوْنِ ﴿وَلَا تَكُونُواْ﴾، على نَفْيِ الفعلِ مباشرة:

تشويهُ التَّولّي عن رسولِ اللهِ ﷺ، والتَّحذيرُ مِن اتِّباعِ أهلِ الضَّلال

وردَ النَّفيُ بفعلِ الكَوْنِ ﴿وَلَا تَكُونُواْ﴾ ليُحَقِّقَ هذا النَّفيُ عدمَ الانْخراطِ في سِلْكِ مَنْ كانوا على هذه الشّاكلةِ في كذبِهم بقولِهم: سَمِعْنا ظاهرًا، وهم لا يَسمَعون على وجهِ الحقيقةِ بالفَهمِ والعملِ بالمسموعِ، ففي هذا النَّفيِ لفعلِ الكَوْنِ مزيدُ تشويهٍ للتَّوَلّي عنِ الرَّسولِ ﷺ بالتَّحذيرِ من أنْ يكونوا كالَّذين قالوا: سمعْنا، وهم لا يسمعون[2].

الغرضُ مِنَ التَّشبيهِ بقوله: ﴿كَٱلَّذِينَ﴾:

التَّشبيهُ هنا لتجنُّبِ ما وقعَ فيه المشركونَ والمنافقونَ في سماعِهمُ الكاذب

في بلاغةِ التَّعبيرِ بالتَّشبيهِ أثَرٌ عظيمٌ في حثِّ النَّفسِ على عدمِ التَّشبُّهِ أوِ التَّجنُّب، وهذا كقولِه تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرًا﴾ [الأنفال: 47]، فأرادَ بيانُ اللهِ من هذا التَّشبيهِ هنا تَنْفيرَ المؤمنينَ من الوقوعِ في مَغَبَّةِ خداعِهم وكذبِهم، بالتَّظاهرِ بالسَّماعِ دونَ فهمٍ أو عملٍ بالمسموع.

بلاغةُ التَّعبيرِ بإيرادِ الصِّلةِ بدلَ الصِّفةِ:

الصِّلةُ كاشفةٌ عنِ العلامةِ الَّتي بها يُعرفون

قولِه تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعْنَا﴾، وفيه إيرادُ اسْمِ الصِّلةِ بدلَ الصِّفةِ في الآية، لبيانِ أنَّ أصحابَ هذه الصِّلةِ - وهم الكافرون - معروفونَ عند المؤمنينَ بمشاهَدَتِهم، وبإخبارِ القرآنِ عنهم، فقد عَرَفوا ذلكَ من المشركين من قبلُ، قالَ تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُواْ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ﴾ [الأنفال: 31]، وقالَ ﷻ: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ۖ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾ [الأنعام: 25]. فهذه الصِّلةُ المصدَّرةُ بالتَّشبيهِ أعادتْ إلى ذهنِ المؤمنينَ التَّذكيرَ

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 479/2.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 304/9.

بأصحابِها، وأضْفَتْ معه التَّحذيرَ من التَّشبُّهِ بأهلِ الفئةِ الذَّميمةِ الَّذين يقولون للرَّسولِ ﷺ: سَمِعْنا، وهم لا يُصدِّقونَه فيما جاءَهم بهِ من عندِ اللّهِ، ولا يَعملون بهِ[1].

بلاغةُ المرادِ باسمِ الموصولِ ﴿كَٱلَّذِينَ﴾:

توجيهُ العنايةِ على جملةِ الصِّلةِ، ودلالتها في السّياق

عبَّرَ باسمِ الموصولِ ﴿كَٱلَّذِينَ﴾ ليشملَ الكفّارَ والمنافقين واليهودَ الّذين يدَّعون السَّماع، وهم في ذلك على قسمين؛ الأوَّل: الكُفّارُ المعاندون من اليهودِ الّذين قال اللّهُ فيهم: ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ﴾ الآية، وأمثالهم من الكفّارِ والمعاندين من أهلِ مكَّةَ الذين قال اللّهُ في حقِّهم: ﴿وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ﴾. الثّاني: المنافقون الذين قال تعالى في بعضِهم: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُواْ مِنْ عِندِكَ قَالُواْ لِلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا﴾[2].

الغرضُ مِنَ التَّعبيرِ بأسلوبِ طباقِ السَّلبِ:

التَّشنيعُ عليهم بوضعِهم في صورةِ من يسمعُ ولا يَسمَعُ في آنٍ واحدٍ

قولهِ: ﴿قَالُواْ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾، وفيه تحذيرُ المؤمنينَ من التَّشبُّهِ بحالِ هؤلاءِ الَّذين يقولونَ بأفواهِهم: سمعْنا، وهم لا يسمعونَ، أي: سمعوا بآذانِهم، ولم يسمعوا بقلوبِهم، ويدلُّ الجمعُ بين الإثباتِ والنَّفي على أنَّ السَّماع على أقسامٍ، أوَّلها: سماعُ تفهُّمٍ وتدبُّرٍ وإدراكٍ وتنفيذ، وهذا الَّذي يطلبهُ اللّهُ تعالى ونبيُّه من المؤمنين، الثّاني: سماعٌ من غير تدبُّرٍ وإدراكٍ، وهذا ما نهى اللّهُ تعالى عنه، وهو إن لم يكن نفاقًا، فهو غفلةٌ عن الحقِّ، وليس سماع وعي وإنصاتٍ، الثّالث: سماع أهل النِّفاق الذين يقولونَ: (سمعنا وعصينا)، والملاحظُ أنَّ القسمين الأخيرين سماعٌ كلا سماعٍ[3]،

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 479/2، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 304/9.
(2) رشيد رضا، تفسير المنار: 523/9.
(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 3093/6.

وعلى هذا فالمنفيُّ كمالُ السَّماع للتَّنبيهِ على أنَّ سماعَهم لعدم ترتُّب المقصودِ عليهِ كلا سماعٍ ومُنَزَّلٌ منزلةَ العدم[1]، والغرضُ مِنَ التَّعبيرِ بأسلوب طباقِ السَّلبِ التَّشنيعُ عليهم ووضعُهم في صورةِ من يسمعُ، ولايسمع في آنٍ واحدٍ، وهو ما لا يكونُ من عاقلٍ.

بلاغةُ تقييدِ قولِهم: ﴿سَمِعْنَا﴾ بالجُملةِ الحاليَّةِ بعدها:

قولُه تعالى: ﴿وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ حالٌ من ضميرِ ﴿قَالُواْ﴾، أي: قالوا ذلكَ، والحالُ أنَّهم لا يسمعونَ، حيث لا يُصدِّقونَ ما سَمِعوهُ، ولا يَفهمونَه حقَّ فهْمِه، فكأنَّهم لا يَسمعونَ رأسًا، وإنْ كانوا ظاهرًا يسمعونَ[2]، فكيف بعاقلٍ يسمعُ، ولا يسمعُ؟.

قرنُ النَّفي بالإثباتِ، تحقيقٌ لانتفاءِ العقلِ، فالجمعُ بين المتناقضاتِ لا يكونُ من عاقلٍ

بلاغةُ تقديمِ المسنَدِ إليهِ على خبرِه الفعليِّ:

تقديمُ المسنَدِ إليهِ على خبرِه الفعليِّ في قولِه تعالى: ﴿وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾؛ للاهْتمامِ به ليتقرَّرَ مَفهومُهُ في ذِهْنِ السّامعِ، فيُرسَّخُ اتِّصافُهُ بمفهومِ المُسنَدِ، وهو انْتفاءُ السَّمعِ عنهم[3]، وإنَّما جاء التَّقريرُ للتأكيدِ من إسناد نفي السَّمع مرَّتين مرَّةً إلى المبتدأ، وأخرى إلى الضَّمير العائدِ على المبتدأ، فكأنَّه في قوَّةِ ما لو قيلَ: يسمعونَ، لا يسمعونَ.

تقريرُ انْتفاءِ السَّمْعِ عنهُم وتأكيدُه

بلاغةُ التَّعبيرِ بالفعلِ المضارعِ منفيًّا:

عبَّرَ بالمضارعِ المنفيِّ ﴿لَا يَسْمَعُونَ﴾؛ لإفادةِ اسْتمرارِهم على عَدَمِ السَّمعِ[4].

عدمُ استماعِهم متجدِّدٌ مستمرٌّ

بلاغةُ أسلوبِ التَّعريضِ:

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾، استخدمَ القرآنُ الكريمُ أسلوبَ التَّعريضِ في هذهِ الآيةِ؛ لأنَّهُ المقصودُ

بيانُ حالِ الكافرينَ والمنافقينَ، والتَّبرُّؤُ منهم

(1) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 49/9.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 479/2.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 304/9.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 304/9.

الأهمُّ منها، وذلك بالتَّعريض بأهلِ هذه الصِّلة مِنَ الكافرينَ أوِ المنافقينَ، لا خشيةَ وقوعِ المؤمنينَ في ذلك، فهم في حِصْنٍ مَكينٍ من التَّردّي في هاويةِ السَّماعِ وعَدَمِ الاتِّباع، ولكنَّه إيماءٌ بأخذِ مزيدِ الاحْتياطِ، والتَّبرُّؤِ التّامِّ مِنَ المشركينَ والمنافقينَ، وما هم عليه مِنَ الخداعِ والتَّكذيبِ والضَّلالِ[1].

سرُّ العدولِ عن الماضي إلى المضارعِ، في الجملةِ المنفيَّةِ:

الفعلُ الماضي لا يدلُّ على الاسْتمرارِ بالنَّفي والإثباتِ، بخلافِ الفعلِ المضارع

جاءَ لفظُ الجملةِ المنفيّة: ﴿وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ دونَ قولِه: (وهم ما سمعوا)؛ لأنَّ لفظَ المُضيِّ (سمعوا) لا يَدُلُّ على اسْتمرارِ الحالِ ولا دَيْمومَتِه؛ بخلافِ نَفْيِ المضارع ﴿لَا يَسْمَعُونَ﴾، فكما يَدلُّ إثباتُه على الدَّيْمومةِ في قولهم: يَسمعُ، يعطي، يَمنَعُ، كذلكَ يَجيءُ نفيهُ[2].

نكتةُ اسْتخدامِ (لا) في النَّفْي بَدَل (ما):

(لا) أوسعُ في نفي المضارعِ، وأدَلُّ على نَفْيِه في المستقبلِ من (ما)

قوله تعالى: ﴿لَا يَسْمَعُونَ﴾، جاءَ حرفُ النَّفي (لا) دونَ (ما)؛ لأنَّها أوسعُ في نَفْي المضارعِ من (ما)، وأدَلُّ على انْتفاءِ السَّماعِ في المستقبل، أي: هم ممَّن لا يَقْبلُ أن يَسمَع[3].

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 304/9.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 299/5.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 299/5.

﴿۞إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلۡبُكۡمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡقِلُونَ ٢٢﴾ [الأنفال: 22]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

لَمّا ذكرَ اللّهُ في الآيةِ السّابقةِ حالَ أولئكَ الَّذين قالو: سَمعْنا بآذانِنا، ولا يستجيبونَ لِما سَمِعوا، فكأنَّهم لم يَسمَعوا؛ جاءت هذه الآيةُ، فشبّهتْ حالهم تلكَ عندَ اللّهِ بحالِ الأصَمِّ في عدمِ السَّماعِ لعدَمِ الانْتفاعِ به، والأبْكمِ في عدمِ كلامِه لعدمِ تكلُّمِه بما ينفعُ، والعادمِ للعقلِ في عدمِ عقلِه لعدمِ انْتفاعِه به.

الرّبط بين الدّعوة لطاعة الله ورسوله، وكون السّامع دون استجابةٍ شرٌّ منَ الدَّوابِّ

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلدَّوَآبِّ﴾: الدَّبُّ والدَّبيبُ: مشيٌ خَفيف، ويُستعمَلُ ذلكَ في الحيوان، وفي الحشَرات أكثر، وكلُّ ماشٍ على الأرضِ دابَّةٌ، قالَ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍۖ﴾ [النّور: 45]، وقالَ ﷻ: ﴿وَلَوۡ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهۡرِهَا مِن دَآبَّةٍ﴾ [فاطر: 45]، وقيل: عنَى الإنسانَ خاصَّةً[1]، والأولى إجراؤها على العُموم.

2) ﴿ٱلصُّمُّ﴾: الصَّمَمُ: فقدانُ حاسَّةِ السَّمْع، وبه يوصَفُ مَنْ لا يُصغي إلى الحقِّ ولا يَقبَلُه، قالَ تعالى: ﴿صُمُّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٌ﴾ [البقرة: 18]، وقولُه تعالى هنا: ﴿ٱلصُّمُّ﴾، أي: الَّذينَ يصمّون آذانَهم، أي: يكتُمونَها عن سماعِ الحقِّ وقَبولِه[2].

3) ﴿ٱلۡبُكۡمُ﴾: الباءُ والكافُ والميمُ أصلٌ واحدٌ قليلٌ، وهو الخَرَسُ، والأبْكَمُ: الأخْرسُ الَّذي لا يتكلَّم، وإذا امْتنَعَ عن الكلام جهلًا أو تَعمُّدًا، يُقالُ: بَكُمَ عن الكلام، وقد يُقالُ للَّذي لا يُفصِحُ: إنَّه

(1) أبو عبيدة، مجاز القرآن: 156/2.
(2) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 273/2، والشَّوكاني، فتح القدير: 429/2.

لَأَبْكَمُ، والأَبْكَمُ للَّذي وُلِد أَخْرسَ، فكلُّ أبكمَ أخرسُ، وليس كلُّ أخرسَ أبكمَ، ويُقالُ: بكيمٌ في معنَى أبكمَ، وجمعوهُ على أبْكام، كشَريفٍ وأشرافٍ[1]. وقولُهُ تعالى هنا: ﴿ٱلْبُكْمُ﴾ أي: الَّذين لا ينتفعونَ بالنُّطْقِ، أو البُكْمُ عن فهمِه أصْلًا[2].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

شرُّ الخلقِ هو الَّذي يسمعُ ولا يجيبُ، ويوعَظ ولا يستجيب

أخبرَ ﷻ أنَّ هذا الضَّرْبَ من بني آدَمَ الَّذين قالوا: سمعنا، وهم لا يسمعونَ هم شرُّ الخَلْقِ والخليقةِ، فهم صُمٌّ عن سَماعِ الحقِّ، بُكْمٌ لا يقولون: الحقَّ، كأنَّهم فقدوا حاسَّةَ الكلامِ، فهمُ الَّذين لا يَعْقِلونَ على وجْهِ الحقيقةِ الفرقَ بين النّورِ والظَّلامِ، والهُدَى والضَّلال، والإسلام والكفرِ، فهؤلاء شرُّ البَريَّة؛ لأنَّ كلَّ دابَّةٍ ممّا سواهُم مطيعةٌ للّهِ فيما خَلَقها لهُ، وهؤلاء خُلِقوا لعبادةِ اللّهِ وحدَهُ، فكفَروا، وأشْركوا معهُ غيرَهُ، ولهذا شبَّهَهُمُ اللّهُ بالأنعامِ، فقالَ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ١٧٩﴾ [الأعراف: 179][3].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ الاستئنافِ في الآية:

بيانُ سوءِ حالِ المعاندين الصُّمّ، لفقدِهم مقوِّماتِ الإنسانيَّة

قولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ﴾ اسْتئنافٌ مسوقٌ لبيانِ كمالِ سوءِ حالِ المشبَّهِ بهِ مبالغةً في التَّحذيرِ، وتقريرًا للنَّهيِ الواردِ في قولِه السّابقِ: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾[4]، فالغرضُ من الاستئنافِ تقريرُ سوءِ حالِ الكافرين.

دلالةُ الجملةِ الاعتراضيَّةِ:

التَّعريضُ بسوءِ حالِ من قالوا: (سمعنا وهم لا يسمعون)

يمكنُ أنْ تكونَ جملةُ ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ﴾ مُعترضَةً، وسَوْقُها في

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: 284/1 - 285، والرّاغب، المفردات، ص: 140.
(2) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 273/2، والشَّوكاني، فتح القدير: 429/2.
(3) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 273/2.
(4) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 479/2.

هذا الموضعِ تعريضٌ بالَّذينَ قالوا: سَمِعْنا، وهم لا يَسمعونَ، بأنَّهم يُشبهونَ دوابَّ صمّاءَ بَكْماءَ[1].

بلاغةُ التَّأكيدِ بـ الأداة المؤكّدة (إنَّ):

إثباتُ الشَّرّيَّةِ التّامَّةِ للكفّارِ

جاءَ حرفُ ﴿إِنَّ﴾ تأكيدًا لشَرّيَّةِ هذهِ الفئةِ العاتيةِ من الكفّارِ، فهي شَرُّ النّاسِ عندَ اللهِ ﷻ وأنَّها أخسُّ المنازلِ لدَيْهِ، لا يُتصوَّرُ وجودُ أسوءَ منها مكانةً، ولا أسْفَلَ منها دَرَكةً[2].

بلاغةُ التَّعبيرِ بالمسنَدِ إليهِ معرَّفًا بالإضافةِ:

أفادَ تركيبُ (شَرّ الدَّوابّ) المبالغةَ في النَّهيِ والتَّحذيرِ

جاءتْ كلمةُ ﴿شَرَّ﴾ مُسندةً إلى كلمةِ ﴿ٱلدَّوَآبِّ﴾؛ لتكتسبَ بهذا الإسنادِ التَّعريفَ، فتستوعبَ باسْمِ التَّفضيل ﴿شَرَّ﴾ جميعَ الدَّوابِّ بمعناهُ الحقيقيِّ؛ بل أكثرَها وأشَدَّها شَرًّا، وفي هذا ما فيه مِنَ المبالغةِ في التَّحذيرِ والإيْغالِ في النَّهيِ والنَّكيرِ[3].

بلاغة الاستعارة التَّمثيليَّة في الآية:

التَّأكيدُ على ذمِّ الكفّارِ بالتَّصويرِ البيانيّ المفصح عن المراد

في قولهِ: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ﴾ الآية، استعارةٌ تمثيليَّةٌ، شبَّهَ فيها من لا يسمعُ الحقَّ، ولا يدركهُ، ولا يبصرُ الآياتِ، ولا يتأمَّلُها بالدّابَّةِ الَّتي لا تسمعُ مواطئَ الأقدامِ، فتطؤها، ومن لا ينطقُ مستغيثًا، فتدقُّهُ الأمورُ دقًّا، ومن لا يعقلُ ما يضرُّهُ، فيكونُ فريسةَ الكلِّ، وجامعُ التَّشبيهِ هو عدمُ الفائدةِ من هذه الحواسِّ في كلٍّ منهم[4]، وقد شبَّههم بالدَّوابِّ لجهلِهم وعدولهم عن الانتفاعِ بما يقولونَ، أو لأنَّهم من الدَّوابِّ، وصفهم بذلك على طريقِ الذَّمِّ؛ لأنَّهُ إذا عبَّر عن الإنسانِ بأصغرِ ما ينطبقُ عليهِ اسمُ الدَّوابِّ والحيوان، كان ذلك تحقيرًا لهُ، واستهانةً بأمرهِ، من زعيم يرفعُ ويخفضُ، إلى حيوانٍ لا يملكُ من أمره شيئًا تدعكهُ الأرضُ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 305/9.
(2) ابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 513/2.
(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 479/2، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 306/9.
(4) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 3095/6.

بالأقدامِ، وهو حيوانٌ كلُّهُ آفاتٌ، فاقدٌ لكلِّ حواسِّ الإدراكِ الحسّيَّة والمعنويَّةِ[1].

سرُّ التَّعبيرِ بعبارة: ﴿شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ﴾:

آثرَ التَّعبيرَ بوصفِ ﴿شَرَّ﴾ دونَ (أسوأ)؛ لأنَّ الشَّرَّ يقابلهُ الخيرُ؛ بخلافِ الأسوأِ، فيقابلهُ الأحسنُ، والمقامُ هنا يناسبهُ التَّعبيرُ بالشَّرِّ؛ لأنَّهُ لا يوجدُ خيرٌ في هذهِ الفئةِ مِنَ البشرِ، فهم شرٌّ محضٌ؛ بخلاف الأسوأِ فقد يوجدُ فيهِ بعضُ الخيرِ مع النُّدرةِ، وليس ذلك مرادًا.

التَّأكيدُ على انتفاءِ الخيرِ في الكفّارِ

بلاغةُ تقديمِ شبهِ الجُملةِ على المسندِ (عندَ الله):

تقديمُ شِبهِ الجُملةِ في قولِه تعالى: ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ قيدٌ أُريدَ بهِ زيادةُ تحقُّقِ كونِهم شرَّ الدَّوابِّ بأنَّ ذلكَ مُقرَّرٌ في علمِ اللّٰه؛ وليس مجرَّدَ اصْطلاحٍ ادِّعائيٍّ، أي: هذه هي الحقيقةُ في تَفاضُلِ الأنواعِ لا في تَسامُحِ العُرْفِ والاصْطلاح، فالعُرْفُ يَعُدُّ الإنسانَ أكملَ من البهائم، والحقيقةُ تُفصِّلُ حالةَ الإنسانِ، فالإنسانُ المُنتَفِعُ بمواهبه - الَّتي منحَها اللّٰهُ له - فيما يُبلِّغُه إلى الكمالِ هو بحقٍّ أفْضَلُ من العُجْمِ، والإنسانُ الَّذي دَلَّى بنَفْسِه إلى حضيضِ تعطيلِ انْتفاعِه بمواهبِه السّاميَةِ يَصيرُ أحَطَّ من العَجماواتِ[2].

الموصوفونَ بأنَّهم شرُّ الدَّوابِّ، أمْرهم مقرَّرٌ في علمِ اللهِ ﷻ

سرُّ الوصفِ بالصُّمِّ والبُكمِ، دون سواه مِنَ الأوصاف:

وُصِفوا بالصُّمِّ والبكم؛ لأنَّ ما خُلِقَ لهُ الأذنُ واللِّسانُ، سماعُ الحقِّ والنُّطق به، وحيثُ لم يوجد بهم شيءٌ من ذلك صاروا كأنَّهم فاقدونَ للجارحَتَينِ رأسًا[3].

التَّأكيدُ على الذَّمِّ بنفي أداةِ السَّمعِ وأداةِ التَّعبيرِ عنِ السَّمعِ

بلاغةُ التَّرتيبِ في سياق الآية:

قوله تعالى: ﴿ٱلصُّمُّ ٱلۡبُكۡمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡقِلُونَ﴾، تقدَّمَ فيه الصُّمُّ

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 133/8، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 3095/6.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 306/9.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 15/4.

على البُكْم في الآيةِ الكريمة؛ لأنَّ صمَّهم متقدِّمٌ على بُكمِهم من حيثُ الواقعُ، فإنَّ السُّكوتَ عنِ النُّطقِ بالحقِّ مِن فروعِ عدمِ سماعِهم له، كما أنَّ النُّطقَ به من فروعِ سماعِه.

السَّمعُ أصلٌ، والنُّطقُ فرعٌ لهُ مبنيٌّ على وجودِه، وفقدُ العقلِ غايةٌ في الشَّرِّيَّةِ

سرُّ وصفِهم بعدمِ التَّعقُّل في قولِه: ﴿ٱلَّذِينَ لَا يَعۡقِلُونَ﴾:

جاءَ وصفُهم بعدَمِ التَّعقُّلِ تحقيقًا لكمالِ سوءِ حالِهم، فإنَّ الأصمَّ الأبْكَمَ إذا كانَ له عقلٌ، رُبَّما يفهمُ بعضَ الأمورِ؛ يُفهِمُهُ غيرُه بالإشارة، ويَهتدي بذلكَ إلى بعضِ مَطالبِه، وأمّا إذا كانَ فاقدًا للعقلِ - أيضًا - فهو الغايةُ في الشَّرِّيَّة وسوءِ الحال، وبذلكَ يَظهرُ كونُهم شَرًّا من البهائم حيثُ أبْطلوا ما به يمتازونَ عنها، وبه يفضُلونَ على كثيرٍ من خلقِ اللّهِ ﷻ فصاروا أخَسَّ من كلِّ خَسيسٍ[1].

تحقيقُ كمالِ سوءِ حالِهم، وانعدام آلة الفهم لديهم

بلاغةُ التَّعبيرِ بالاسْمِ الموصولِ ﴿ٱلَّذِينَ﴾:

أفادَ اسْمُ الموصولِ في قولِه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ لَا يَعۡقِلُونَ﴾ وصفَهم بانْتفاءِ العقلِ عنهم، أي: عَقْلِ النَّظَرِ والتَّأمُّلِ، بَلْهَ عقلَ التَّقبُّلِ، فـ﴿ٱلَّذِينَ﴾ هنا ممّا يناسبُ المشَبَّهين، إذْ هو اسْمٌ موصولٌ بصيغةِ جمع العقلاءِ، وهذا تخلُّصٌ إلى أحوالِ المشبَّهين[2].

أفادَ اسمُ الموصولِ وصفَهم بانْتفاءِ العَقْلِ

بلاغةُ التَّعبيرِ بأسلوبِ التَّعريضِ:

في قولِه تعالى: ﴿۞إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ﴾ الآية تعريضٌ[3] بالَّذين قالوا: سَمِعْنا، وهم لا يَسمعون، بأنَّهم يُشبهونَ دَوابَّ صَمّاءَ بَكْماءَ لا تعقل، فشُبِّه المشركون والمنافقون بالصُّمِّ في عدمِ الانْتفاعِ بما سمعوا؛ لأنَّه ممّا يَكْفي سماعُه في قَبولِه والعملِ به، وشُبِّهوا بالبُكْم في انْقطاعِ الحُجَّةِ والعَجْزِ عن ردِّ ما جاءهم به القرآنُ، وفَهمِ ما قَبلوا، ولا أظْهروا عُذرًا عن عدمِ قَبولِه.

تشبيهُ الكفّارِ والمنافقينَ بالدَّوابِّ، في انتفاءِ الإدراك، وفقْدِ العقلِ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 479/2 - 480.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 306/9.

(3) التَّعريض كلامٌ أُريد به لازمُ مدلوله، وهو أنْ تذكرَ شيئًا يُدَلُّ به على شيءٍ لم تذكره، أي: تذكر كلامًا دالًّا على ما تريدُ دون التَّصريح به، كما يقولُ المحتاج لغيره: جئتُ لأُسلِّمَ عليك، ينظر: الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص: 199، وفضل عباس، أساليب البيان، ص: 350 - 351.

وأصلُ التَّعريضِ في تشبيههم بالدَّوابِّ بأنَّ الدَّوابَّ ضعيفةُ الإدراكِ، فإذا كانتْ صمّاءَ كانت مَثَلًا في انْتفاءِ الإدْراك، وإذا كانت مع ذلكَ بُكْمًا انْعدَمَ منها ما يَعرِفُ به صاحبُها ما بها، فانضمَّ عدَمُ الإفهامِ إلى عدمِ الفَهمِ، وانضمَّ إليهما فقدُ العقلِ، فهي ظلماتٌ بعضُها فوقَ بعضٍ[1].

سرُّ الاكتفاءِ ببعض الصِّفاتِ:

ذمُّ الأُسُسِ يستتبعُ ذمَّ الفروعِ

قوله تعالى: ﴿ٱلصُّمُّ ٱلۡبُكۡمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡقِلُونَ﴾ اكتفى فيه بهذه الصِّفاتِ؛ لأنَّه هي الأساسُ الَّذي نبني عليه وسائلَ الإدراكِ، فإذا فقدوا منفعةَ السَّمعِ والنُّطقِ والعقلِ، كانوا كأنَّهم فقدوا هذه المشاعرَ والقوى بأن خُلِقوا خداجًا ناقصي هذه المشاعرِ أو طرأتْ عليهم آفاتٌ أذهبتْ هذه القوى، فهذهِ المشاعرُ خُلِقَتْ لهم، فأفسدوها على أنفسِهم، إذ لم يستعملوها فيما خُلِقَت لأجلهِ، وهو العبادةُ[2].

سرُّ التَّعبير بنفي العقلِ دونَ غيرهِ، مِن وسائل الإدراك:

فقدُهُم وسائلَ الإدراكِ يؤدّي إلى وصفِهم بعدمِ العقلِ

في قولهِ: ﴿لَا يَعۡقِلُونَ﴾ إشارةٌ إلى أنَّ نفيَ العقلِ عنهم نتيجةٌ لوصفِهم بالصُّمِّ البُكمِ؛ لأنَّهم فقدوا أهمَّ طرقِ الإدراكِ والتَّواصل، فأصبحوا لا يفقهونَ شيئًا؛ لأنَّ العقلَ يكتسبُ معارفَهُ عن طريقِ هذه الحواسِّ، ولذلك المرادُ هنا عدمُ الفهمِ؛ لأنَّ العقلَ على نوعين؛ الأوَّلُ: عقلٌ غريزيٌّ مميَّزٌ مقابلٌ للجنونِ، ويطلق على القوَّة المتهيِّئةِ لقبولِ العلم، الثّاني: العقلُ المُكتسبُ المقابلُ للجهلِ وعدمِ الفهمِ الَّذي هو مناطُ التَّكريمِ، ويُطلَقُ هذا العقلُ على العلم الَّذي يستفيدهُ الإنسانُ بهذهِ القوَّةِ العاقلةِ، وهو يرجعُ إلى العقلِ الغريزيِّ؛ لأنَّهُ من نتيجتِه، ولذلك كلُّ موضعٍ ذمَّ اللّٰهُ فيه الكفّارَ بعدمِ العقلِ، فهو إشارةٌ إلى النَّوعِ الثّاني، ومنه هذا الموضع[3].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتَّنوير: 305/9 - 306.
(2) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 380/10.
(3) الغرناطي، ملاك التأويل: 393/2.

سرُّ اختلافِ فاصلةِ آيتي الأنفال [22] و[55]، مع اتِّفاق صدرِهما:

اختلافُ سياقِ السِّياقِ هو مَناطُ اختلافِ الفواصل

قال تعالى: ﴿۞إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلۡبُكۡمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡقِلُونَ﴾ [الأنفال: 22]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ [الأنفال: 55]، فقد اختلفت فاصلةُ الآيةِ الأولى مع الآيةِ الثّانيةِ؛ لأنَّ الأولى يسبقُها قولُهُ: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعۡنَا وَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ﴾، فوصَفَ اللّٰهُ من استخدموا سمعَهم وأقوالهم، فيما لا فائدةَ منهُ بالصُّمِّ البكمِ الَّذين لا عقلَ لهم، ناسبَ ذلك هذا الختامَ؛ أمّا الآيةُ الثّانيةُ، فسبقها قولُهُ تعالى: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَضۡرِبُونَ وُجُوهَهُمۡ وَأَدۡبَٰرَهُمۡ وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ﴾، والسّياق متعلِّقٌ بالذين كفروا، وهم على نوعَينِ منهم من آمنَ، ومنهم من لم يؤمن؛ لذلك كان ختامُ الآية لهذا الصِّنفِ.

﴿وَلَوۡ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمۡ خَيۡرٗا لَّأَسۡمَعَهُمۡۖ وَلَوۡ أَسۡمَعَهُمۡ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعۡرِضُونَ ٢٣﴾ [الأنفال: 23]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

تكملة الكلام عن الصُّمِّ البُكمِ الّذين لا عقل لهم، بتأكيد الذَّمِّ المتحقّق ببيانِ علّتِهِ

لَمّا بيَّن اللّهُ ﷻ في الآيةِ السّابقةِ صفاتِ شرِّ الدَّوابِّ عندَه؛ أثارَ سؤالًا عند السّامعِ بأن يقولَ: ما لِلْقادرِ ﷻ لم يقبلْ بمن هذا شأنُه إلى الخيرِ؟ أجابَ بأنَّه تعالى جَبَلهم من أوَّلِ الأمرِ - وهو ﷻ لا يُسألُ عمّا يفعل - فهو أعلمُ بحالِ قلوبِهم واسْتعدادِهم لقَبولِ الحقِّ أو رَفْضِه حاضرًا أو مستقبلًا، فعلمَ سبحانه أنَّه لا خيرَ فيهم، فتركَهم على ما علمَ منهم، ولو علمَ فيهم قَبولًا للحقِّ؛ لَهداهُم إليهِ، وجعلَهم مُستجيبينَ له[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿عَلِمَ ٱللَّهُ﴾: العلمُ إدراكُ الشَّيءِ بحقيقتِه. والعلمُ نظريٌّ وعمليٌّ، فالأوَّلُ: ما إذا عُلِمَ فقد كَمُل، نحو: العلمُ بموجوداتِ العالَم، وهذا خاصٌّ باللّه، قالَ تعالى: ﴿أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ﴾ [الملك: 14]. والثّاني: ما لا يتمُّ إلّا بأنْ يُعملَ كالعلمِ بالعباداتِ، والعلمُ كذلك عقليٌّ وسمعيٌّ. والتَّعليم: تنبيهُ النَّفْسِ لتصوُّرِ المعاني، ومنه قولُه تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ١ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ﴾ [العلق: 4]. وُصِفَ اللّهُ تعالى بالعلم؛ لأنَّه لا يخفَى عليه شيءٌ، كما قالَ ﷻ: ﴿لَا تَخۡفَىٰ مِنكُمۡ خَافِيَةٞ﴾ [الحاقّة: 18]، وذلكَ لا يصحُّ إلّا في وصْفِه تعالى[2].

2) ﴿لَّأَسۡمَعَهُمۡۖ﴾: تقدَّمَ معنى السَّمعِ لغةً في الآيتين [20 - 21]، وأمّا قولُه تعالى هنا: ﴿لَّأَسۡمَعَهُمۡۖ﴾ في موقعها في السّياق، فمعناه: لَأَفْهَمَهم، أي: أسْمعَهم سَماعًا يَفهمونَ به، فيَستجيبون[3].

(1) البقاعي: نظم الدُّرر: 248/8.
(2) الرّاغب، المفردات، ص: 580 - 581، وابن منظور، اللِّسان: (علم).
(3) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 273/2، والشَّوكاني، فتح القدير: 479/2.

3) ﴿مُّعۡرِضُونَ﴾: أعْرَضَ: أظْهرَ عَرْضَهُ، أي: ناحيتَهُ، فإذا قيل: أعْرضَ لي كذا، أي: بَدا عَرْضُه، فأمْكَنَ تناولُهُ، وإذا قيل: أعْرَضَ عنّي، فمعناهُ: ولَّى مُبديًا عَرْضَهُ، كما قالَ تعالى: ﴿فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ وَعِظۡهُمۡ﴾ [النِّساء: 63]، وقالَ تعالى: ﴿إِذَا فَرِيقٞ مِّنۡهُم مُّعۡرِضُونَ﴾ [الأنبياء: 32][1].
ومنه هنا في الآية: ﴿لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعۡرِضُونَ﴾، أي: تَوَلَّوْا عن ذلكَ قَصْدًا وعِنادًا بعد فهمِهم ذلك، والحالُ أنَّهم في غايةِ الإعراضِ والإدْبارِ[2].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

في هذهِ الآيةِ أخْبرَ ﷻ أنَّه لو عَلِمَ أنَّ فيهم خيرًا؛ لأفْهمَهم، ولكن لا خَيْرَ فيهم، ولذلكَ تَوَلَّوْا عنِ الطّاعةِ، وأعرَضوا عن الحقِّ، وهذا دليلٌ على أنَّ اللّه تعالى لا يَمنعُ الإيمانَ والخيرَ عن أحدٍ، إلّا عمَّنْ لا خيرَ فيهِ، والَّذي لا يَزْكو لدَيْه، ولا يُثْمِرُ عندَه[3].

انتفاءُ الخيرِ في طينتِهم وجبلَّتِهم، جَعَلَهم أهلًا لعدمِ السَّماعِ

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ الواوِ في ﴿وَلَوۡ﴾:

يجوزُ أنْ تكونَ الواوُ في قولِه: ﴿وَلَوۡ﴾ عاطفةً لجملتِها على جملةِ: ﴿*إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ﴾ باعْتبارِ أنَّ الدَّوابَّ مُشبَّهٌ به الَّذينَ قالوا: سَمِعْنا، وهم لا يَسمعون. ويجوزُ أن تكونَ الواوُ عاطفةً لجملتِها على شِبهِ الجملةِ في قولِه: ﴿كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعۡنَا وَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ﴾[4].

تعدُّدُ المعطوفِ عليهِ، تنوّعٌ في الدّلالة

دَلالةُ التَّعبيرِ بفعلِ الشَّرطِ ﴿عَلِمَ﴾:

يَدُلُّ فعلُ الشَّرطِ ﴿عَلِمَ﴾ بعدَ ﴿وَلَوۡ﴾ على أنَّ انْتفاءَ علمِ اللّهِ بشيءٍ يُساوي علمَهُ بعدمِه؛ لأنَّ علمَ اللّهِ لا يختلفُ عن شيءٍ، فصارَ معنَى ﴿وَلَوۡ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمۡ خَيۡرٗا﴾: لو كانَ في نفوسِهم خيرٌ[5].

انْتفاءُ علمِ اللهِ بشيءٍ يُساوي عِلمَه بعدمِه

(1) الرّاغب، المفردات، ص: 559 - 560، وابن منظور، اللِّسان: (عرض).
(2) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 273/2.
(3) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 273/2، وتيسير الكريم الرَّحمن، ص: 271.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 307/9.
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 307/9.

دلالةُ التَّعبيرِ بالفعلِ الماضي ﴿عَلِمَ﴾ دونَ المضارعِ (يعلم):

علْمُ اللهِ بعدمِ هدايتِهم أزليٌّ

عبَّرَ بالفعلِ الماضي ﴿عَلِمَ﴾ للدَّلالةِ على أنَّ عِلْمَ اللهِ بهم وبأحوالِهم في عدمِ انتفاعِهم بالسَّماعِ لو أسمعَهم لعدمِ وجودِ الخيرِ فيهم، أمرٌ أزليٌّ ليس حديثًا ولا طارئًا؛ لأنَّ علمَ اللهِ تعالى على أربعةِ أقسامٍ: جملةِ الموجوداتِ، وجملةِ المعدوماتِ، وأنَّ كلَّ واحدٍ من الموجوداتِ لو كان معدومًا، فكيفَ يكونُ حالُهُ، وأنَّ كلَّ واحدٍ من المعدوماتِ لو كان موجودًا، فكيفَ يكونُ حالُهُ، والقسمانِ الأوَّلانِ: علمٌ بالواقعِ، والآخرانِ: علمٌ بالقَدَرِ، والآيةُ من القسمِ الأخيرِ، وهو العلمُ بالمقدَّراتِ، وليس من أقسامِ العلمِ بالواقعاتِ[1].

دَلالةُ التَّعبيرِ بالمسنَدِ إليهِ باسْمِ الجَلالةِ ﴿ٱللَّهُ﴾:

العلمُ الأزليُّ بالمقدوراتِ، للهِ وحدَهُ لا لأحدٍ سواهُ

وردَ اسْمُ الجلالةِ ﴿ٱللَّهُ﴾ مُسنَدًا إليه علمُه ﷻ للدَّلالةِ على أمورٍ ثلاثةٍ؛ الأوَّلُ: أنَّ عِلْمَ اللهِ أزليٌّ قديمٌ. الثّاني: إجراءُ أمرِهم على المألوفِ من حِكمةِ اللهِ في خَلْقِ أجناسِ الصِّفاتِ وأشخاصِها. الثّالثُ: أنَّ ما سبقَ وكلَّ شيءٍ لا يخرجُ عن قُدرةِ اللهِ تعالى ومنه هذا الشَّيءُ، أي: لو شاءَ اللهُ أنْ يُجريَ أمرَهم على غيرِ المعتادِ من أمثالِهم لَفَعَلَ سبحانه وبهذا يُعلَمُ أنَّ كلَّ من لم يؤمنْ منَ المشركينَ حتَّى ماتَ على الشِّركِ؛ فقدِ انْتفتْ مخالَطةُ الخيرِ نَفْسِه، وأنَّ كلَّ من آمنَ منهم، فهو في وقتِ عنادِه وتَصْميمِه على العنادِ، قدِ انْتفتْ مخالطةُ الخيرِ نَفْسِه، ولكنَّ الخيرَ يلمعُ عليه، حتَّى إذا اسْتولَى نورُ الخيرِ في نَفْسِه على ظُلمةِ كُفرِه؛ ألْقَى اللهُ في نَفْسِه الخيرَ، فأصبحَ قابلًا للإرشادِ والهُدَى، فحقَّ عليه أنَّه قدْ علمَ اللهُ فيه خيرًا حينَئذٍ، فأسْمعَهُ[2].

من خصائصِ لغةِ القرآنِ مجيءُ ﴿وَلَوْ﴾ على غيرِ بابِها:

أداةُ الشَّرطِ ﴿وَلَوْ﴾ وُضِعتْ للدَّلالةِ على انْتفاءِ الشَّيءِ لأجْلِ انْتفاءِ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 200/3.

(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 470/15، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 308/9.

غيرِه، فإذا قلتَ: لوْ جئتَني لَأكرمتُك، أفادَ أنَّه ما حصلَ المجيءُ، وما حصلَ الإكرامُ، وهذا هو الأصلُ عندَ النَّحْويّين. لكنَّ ﴿وَلَوْ﴾ قد لا تفيدُ إلّا الاسْتلزامَ، فأمّا الانْتفاءُ لأجْلِ انْتفاءِ الآخرِ، فلا يُفيدُه هذا اللَّفظُ، والدَّليلُ عليهِ هذه الآيةُ، وتقريرُهُ: أنَّ كلمةَ (لو) لو أفادَتْ هنا ما ذكرَهُ النَّحْويون؛ لكانَ قولُه تعالى: ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ﴾ يقتضي أنَّه تعالى ما علمَ فيهم خيرًا، وما أسمعهم، ثمَّ قال: ﴿وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّواْ﴾ فيكونُ معناهُ: أنَّه ما أسْمَعهم، وأنَّهم تولَّوْا لكنَّ عَدَمَ التَّولّي خيرٌ مِنَ الخيراتِ، فأوَّلُ الكلامِ يَقْتضي نَفْيَ الخبرِ، وآخرُه يَقْتضي حصولَ الخبَرِ، وذلكَ مُتناقضٌ، فثبتَ أنَّ القولَ بأنَّ كلمةَ (لو) تُفيدُ انْتفاءَ الشَّيءِ لانْتفاءِ غيرِه، لا يَصحُّ في هذا المقامِ هنا في الآية؛ لأنَّه يوجِبُ هذا التَّناقضَ، فوجَبَ ألّا يُصارَ إليهِ[1].

(وَلَـوْ) هنا تفيدُ الاسْتلزام، فلو أُجريتْ على أنَّها حـرفُ امْتـنـاعٍ لامْتناعٍ؛ لَوقعَ التَّناقضُ

دلالةُ التَّنكيرِ في قوله: ﴿خَيْرًا﴾:

أفادَ التَّنكيرُ في قوله: ﴿خَيْرًا﴾ العمومَ والشُّيوعَ، والمعنى: لم يعلمِ اللّهُ فيهم شيئًا من جنس الخيرِ.

انـتـفـاءُ الـخـيرِ منهم على وجهِ العمومِ، حكم عليهم بالهلاك

دلالةُ التَّقييدِ بقولِهِ: ﴿فِيهِمْ خَيْرًا﴾:

جاءَ تقريرُ الكلامِ، لو حصلَ فيهم خيرًا؛ لأسمعهم اللّهُ الحُجَجَ والمواعظَ سماعَ تعليمٍ وتفهيمٍ، ولو أسمعَهم بعد أن علمَ أنَّه لا خيرَ فيهم، لم ينتفعوا بما أسمعَهم، وتولَّوا وهم معرضون، لمّا سألوا رسولَ اللّهِ ﷺ أن يحيي لهم قصيَّ بنَ كلاب وغيره من أمواتهم؛ ليخبروهم بصحَّةِ نبوَّتِه ﷺ فبيَّنَ اللّهُ تعالى أنَّهُ لو علمَ فيهم خيرًا، وهو انتفاعُهم بقولِ هؤلاءِ الأمواتِ؛ لأحياهم حتَّى يسمعوا كلامَهم، لكنَّه تعالى علمَ منهم أنَّهم لا يقولون هذا الكلامَ إلّا على سبيلِ العنادِ والتَّعنُّت، وأنَّهم لو أسمعهم اللّهُ تعالى كلامَهم؛ لتولَّوا عن قبولِ الحقِّ[2].

انـتـفـاءُ الـخـيرِ فيهم دالٌّ على انتفاءِ أن يكونَ منهم خيرٌ

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 470/15، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 307/9.
(2) ابن التَّمجيد، حاشية ابن التّمجيد مع حاشية القونويّ: 50/9.

بلاغةُ التَّعبيرِ بقولِه: ﴿لَأَسۡمَعَهُمۡ﴾:

عبَّرَ بيانُ اللّٰهِ تعالى عن عدَمِ وجودِ خيرٍ في إدراكِهم يعلمُهُ اللّٰهُ تعالى ولكنَّهم لا خيرَ في جِبلَّةِ مداركِهم، فلا يعلمُ اللّٰهُ فيه خيرًا لخُلوِّهم عنهُ بالمرَّةِ، فلم يُسمِعْهم كذلكَ لخلوِّه عنِ الفائدةِ وخروجِه من الحكمةِ، فلذلكَ لم ينتفعوا بكلامِ اللّٰهِ، فهم كمَنْ لا يَسمع[1].

من لم ينتفعْ بكلامِ اللهِ؛ فهو فاقدٌ للسَّمعِ، خالٍ من الفهم

الغرضُ مِنَ التَّعبيرِ بالكنايةِ في الآية:

﴿وَلَوۡ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمۡ خَيۡرٗا لَّأَسۡمَعَهُمۡۖ﴾ عبارة بليغةٌ في ذمِّهم؛ إذْ لو علمَ اللّٰهُ منهم خيرًا؛ لَأسمَعهم إسْماعَ تفهُّمٍ وهدًى، فوقعتِ الكنايةُ عن عدمِ اسْتعدادِ مَداركِهم للخيرِ بعلمِ اللّٰهِ عدمَ الخيرِ فيهم، ووقعَ تشبيهُ عدمِ انْتفاعِهم بفهمِ آياتِ القرآنِ بعدمِ إسماعِ اللّٰهِ إيّاهم؛ لأنَّ الآياتِ كلامُ اللّٰهِ، فإذا لم يَقْبلوها، فكأنَّ اللّٰه لم يُسمِعْهم كلامَهُ، فالمرادُ انْتفاءُ الخيرِ الجِبلّي عنهم، وهو القابليَّةُ للخيرِ، ومعلومٌ أنَّ انْتفاءَ علمِ اللّٰهِ بشيءٍ يُساوي علمَهُ بعدمِه؛ لأنَّ علْمَ اللّٰهِ لا يتخلَّفُ عن شيءٍ[2].

لمّا انتفى اسْتعدادُ مَداركِهم للخيرِ؛ سَلَبَ اللهُ منهم القابليَّةَ للإجابةِ والهداية

دَلالةُ (في) في قوله: ﴿فِيهِمۡ﴾:

(في) حرفُ جرٍّ، وهو هنا يُفيدُ الظَّرفيَّةَ المجازيَّةَ الَّتي هي في معنَى المُلابَسة، ومِن لَطائِفها هنا أنَّها تُعبِّرُ عن مُلابَسةٍ باطنيَّة، وهذه لا يعلمُ بها إلّا اللّٰهُ ﷻ فلو علمَ اللّٰهُ في مَكْنونِ قلوبِهم اسْتعدادًا وقابليَّةً واسْتجابةً للخَيْرِ؛ لوفَّقهم للرَّشادِ وهَداهم للحقِّ[3]، كما أنَّ حرفَ الوعاءِ دالٌّ على انتفاءِ أن تكونَ الهدايةُ في مكوِّنهم وتكوينهم، فالتَّعبيرُ بحرف الوعاءِ أبلغُ في نفي هدايتِهم من التَّعبيرِ بـ (من).

(في) للظَّرفيَّة المجازيَّة الَّتي تُعبِّر عن مُلابَسةٍ باطنيَّة

بلاغةُ العطفِ في الآية:

قولُه تعالى: ﴿وَلَوۡ أَسۡمَعَهُمۡ لَتَوَلَّواْ﴾ معطوفٌ على ما تقدَّمَهُ ﴿وَلَوۡ

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 470/5، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 480/2.
(2) ابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 300/5، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 307/9.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 307/9.

إسماعُهم للحقِّ مَسبوقٌ بعلمِ اللهِ فيهم خيرًا، ولكنّهم لا خير فيهم

﴿عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمۡ خَيۡرٗا﴾، أي: الإسماعُ هنا متوقِّفٌ على علمِ اللهِ بوجودِ خيرٍ في نفوسِهم، والمعنَى: لو أسمَعهُمُ اللهُ سماعَ تفهُّمٍ وتدبُّرٍ، ولَوَقَفوا على حَقيَّةِ الرَّسولِ ﷺ وأطاعوهُ، وآمنوا بهِ، ولكنْ لم يعلَم فيهم شيئًا من ذلك لخُلوِّهم عنه بالمرَّة، فلم يُسمِعْهم كذلكَ لِخُلوِّه عن الفائدة وخروجِه عن الحِكمةِ[1].

المفارقةُ في المعنَى بين الفعلَيْنِ: ﴿لَّأَسۡمَعَهُمۡۖ﴾، و﴿أَسۡمَعَهُمۡ﴾:

(لأسمَعَهم) ما يسمعون، و(أسمعهم) سماعَ تَفهُّمٍ وانْتفاعٍ

قولُه تعالى: ﴿لَّأَسۡمَعَهُمۡۖ﴾ أي: لَأفْهمَهم ما يسمعون، وهو ارْتقاءٌ في الإخبارِ عنهم بانْتفاءِ قابليَّةِ الاهْتداءِ عن نفوسِهم في أصْلِ جبلَّتِهم، فإنَّهم لَمّا أخبرَ عنهم بانْتفاءِ تعلُّمِهمُ الحكمةَ والهُدَى؛ فلذلكَ انْتفَى عنهم الاهْتداءُ، ارْتقَى بالإخبارِ في هذا المعنَى بأنَّهم لو قَبِلوا فهْمَ الموعظةِ والحِكمةِ فيما يَسمعونَه من القرآنِ وكلامِ النُّبوَّةِ؛ لَغلبَ ما في نفوسِهم من التَّخلُّقِ بالباطلِ على ما خالَطَها من إدْراكِ الخَيْرِ، فحالَ ذلكَ التَّخلُّقُ بينَهم، وبينَ العملِ بما سمعوا، وبما علِموا، فتولَّوْا، وأعْرضوا، ولهذا فإنَّ قولَهُ: ﴿أَسۡمَعَهُمۡ﴾ في قولِه تعالى: ﴿وَلَوۡ أَسۡمَعَهُمۡ لَتَوَلَّواْ﴾ بمعنَى: أسْمعهم سَماعَ تفهُّمٍ، وهم على هذه الحالةِ العاريةِ من الخيرِ بالكُلِّيَّةِ، لَتولَّوْا عمّا سَمِعوهُ من الحقِّ، ولم يَنْتفعوا به قطُّ، أوِ ارتدّوا بعدَما صدَّقوه، وصاروا كأن لم يسمعوه أصلًا[2].

والحاصلُ أنَّ السَّماعَ له درجاتٌ، أسفلُها: أن يعمدَ من يُتلى عليه القرآنُ ألّا يسمعَهُ مبارزةً له بالعداوةِ من أوَّلِ وهْلةٍ؛ خوفًا من سلطانه على القلوبِ أن يغلبَهم عليها، كالَّذين قال اللهُ فيهم: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ﴾، ويليها من يستمعُ وهو لا ينوي أن يفهمَ، ويعلمَ كالمنافقين المُشارِ إليهم بقولِه: ﴿وَمِنۡهُم مَّن يَسۡتَمِعُ إِلَيۡكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُواْ مِنۡ عِندِكَ قَالُواْ لِلَّذِينَ

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 480/2.

(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 480/2، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 307/9 - 308.

أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًاۚ﴾ الآية، ويليها من يستمع لأجلِ التماسِ شبهةٍ للطَّعن والاعتراضِ، كما يفعلُ المعاندون من المشركينَ، وفي أيّامنا المستشرقون المعادون للإسلام، وهذه الدَّرجاتُ كلُّها لغيرِ المؤمنين، ويليها أن يسمعَ ليفهمَ، ويتدبَّرَ، ثم يُحكمَ له أو عليه[1].

دَلالةُ الاقْترانِ بين جملتَيِ الشَّرط ﴿وَلَوۡ عَلِمَ﴾ ﴿وَلَوۡ أَسۡمَعَهُمۡ﴾:

الاقترانُ بين جملتَيِ الشَّرطِ اسْتلزاميٌّ، بين علمِ اللهِ عدمِ خيريّتهم، وعدمِ فهْمِهم للمسموع

قد يُظَنُّ أنَّ فيما بين هاتين الجُملتَيْن الشَّرطيَّتَيْنِ تفرُّعًا، أي: تفرُّعُ الثّانية على الأولى تفرُّعَ القضايا بعضِها على بعض في تركيب القياسِ؛ لأنَّ ذلكَ لا يجيءُ في القياسِ الاسْتثنائيِّ، ولا أنَّه من تفريعِ النَّتيجةِ على المقدِّمات؛ لأنَّ تفريعَ الأقْيسَةِ - بتلكَ الطَّريقة الَّتي تُشبهُ التَّفريعَ بالفاءِ - ليس أسلوبًا عربيًّا، فالجُملتان في هذه الآية كلُّ واحدةٍ منهما مُستقلَّةٌ عن الأُخرى، ولا تجمعُ بينَهما إلّا مناسبةُ المعنَى والغَرضِ، فليس اقْترانُ هاتَيْنِ الجُملتَيْنِ هنا بمنزلةِ اقْترانِ قولِهم: لو كانت الشَّمسُ طالعةً؛ لكانَ النَّهارُ موجودًا، ولو كانَ النَّهارُ موجودًا؛ لَدَرَجَتِ الدَّواجِنُ، فإنَّه قد يَنْتُجُ: لو كانتِ الشَّمسُ طالعةً؛ لدَرجَتِ الدَّواجنُ، بواسطةِ تَدرُّجِ اللُّزوماتِ في ذِهْنِ المَحْجوجِ تقريبًا لفهمِه، فإنَّ ذلكَ بمنزلةِ التَّصريحِ بنتيجةٍ، ثمَّ جعلَ تلكَ النَّتيجةَ الحاصلةَ مقدِّمةَ قياسٍ ثانٍ، فتُطوى النَّتيجةُ لظهورِها اخْتصارًا، وهذا ليسَ بأسلوبٍ عربيٍّ، إنَّما الأسلوبُ العربيُّ في إقامةِ الدَّليل بالشَّرطيَّة أنْ يقتصِرَ على مُقدَّمٍ وتالٍ، ثمَّ يُستدرَكُ عليه بالاسْتنتاجِ بذكرِ نقيضِ المقدَّم، وإذا كانَ ذلك كذلكَ؛ فإنَّ ﴿وَلَوۡ﴾ الواقعةَ في هذه الجملةِ الثّانيةِ من قَبيلِ ﴿وَلَوۡ﴾ المُشتَهِرَةِ بين النُّحاةِ بـ (لو) الصُّهيبيَّةِ بسببِ وقوعِ التَّمثيل بها بينَهم بقولِ عمرَ بنِ الخطّابِ رضي الله عنه: «نِعْمَ العبدُ صهيبٌ، لو لم يَخَفِ

(1) رشيد رضا، تفسير المنار: 525/9.

اللّه؛ لم يَعْصِه»[1]. وذلك أن يُستعملَ (لو) لقَصدِ الدَّلالةِ على أنَّ مضمونَ الجزاءِ مُستمِرُّ الوجودِ في جميعِ الأزْمنةِ والأحوالِ عند المتكلِّم، فيأتي بجملةِ الشَّرطِ حينئذٍ مُتضمِّنةً الحالةَ الَّتي هي مَظِنَّةُ أنْ يتخلَّفَ مضمونُها عند حصولها الجزاءَ؛ لو كانَ ذلكَ ممَّا يحتملُ التَّخلُّفَ، فقولُه: «لو لم يَخَفِ اللّه؛ لم يَعْصِه»؛ المقصودُ منه انْتفاءُ العصيانِ في جميعِ الأزْمنةِ والأحوالِ حتَّى في حالِ أمْنِه من غضبِ اللّهِ، فليس المرادُ أنَّه خافَ، فعصَى، ولكنَّ المرادَ أنَّه لو فُرِضَ عَدَمُ خوفِه؛ لَما عَصَى، وبناءً على ما تقدَّم، فإنَّ هذا الاسْتعمالَ يُضعِفُ معنَى الامْتناعِ الموضوعِ لهُ (لو)، وتصيرُ (لو) هنا في مجرَّدِ الاسْتلزامِ على طريقةٍ مُسْتعمِلةٍ للمجازِ المرسَلِ[2].

بلاغةُ التَّعبيرِ بالاسْتعارة، في قوله: ﴿لَتَوَلَّوۡاْ﴾:

في قولِه تعالى: ﴿وَلَوۡ أَسۡمَعَهُمۡ لَتَوَلَّوۡاْ﴾ ليس المعنَى على أنَّه لم يُسمِعْهم، فلم يتولَّوْا؛ لأنَّ تولّيهم ثابتٌ، وهو مستعارٌ من عدمِ فهمِهم وامْتثالِهم، فالمعنَى: على أنَّهم يتولَّوْنَ في حالةٍ ما، لو سمعهمُ اللّهُ الإسماعَ المخصوصَ، وهو إسْماعُ الإفهام، فكيفَ إذا لم يسمعوه[3]؟ وكأنَّه فرارُ يومِ الزَّحفِ من إسماعِ الفهمِ والاستجابةِ، والاستعارةُ تصوِّرُ عداوتَهم للحقِّ والهُدى.

استعارةُ التَّولّي من عدمِ فهمِهم واسْتجابتِهم

بلاغةُ قَيْدِ التَّولّي بالجملةِ الحاليَّةِ ﴿وَّهُم مُّعۡرِضُونَ﴾:

جملةُ: ﴿وَّهُم مُّعۡرِضُونَ﴾ حالٌ من ضميرِ ﴿لَتَوَلَّوۡاْ﴾، وهي مُبَيِّنةٌ للمرادِ مِنَ التَّولّي، وهو معناه المجازيُّ، فالمعنَى: أنَّه لو أسمَعهم بعدَ أنْ علمَ أنَّه لاخيرَ فيهم لمن ينتفعوا بالحُجَجِ والمواعظ، ولَتولَّوْا، وهم مُعرِضون[4].

الجملةُ الحاليَّةُ مؤكِّدةٌ لمعنَى التَّولّي

(1) هذا الخبرُ لا أصلَ له، ولا يوجدُ بهذا اللَّفظ في شيءٍ من كُتُب الحديث، ينظر: علي القاري، المصنوع، ص: 202، وإسماعيل العجلونيّ، كشف الخفاء: 323/2، والسُّيوطيّ، تدريب الرّاوي: 175/2، وذكر السُّيوطي أنَّه من كلام النُّحاة، ولا أصلَ له في الحديث النَّبويّ.

(2) ابن عادل، اللُّباب في علوم الكتاب: 488/9 - 489، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 309/9 - 311.

(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 470/15، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 310/9 - 311.

(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 470/15، وابن عاشور، التّحرير والتَّنوير، 311/9.

بلاغةُ التَّعبيرِ بالجملةِ الحاليَّةِ الاسميَّةِ:

أفـادتِ الجملةُ الاسميَّةُ تمكُّنَ إعراضِهم

جاءتْ صيغةُ جملةِ: ﴿وَّهُم مُّعۡرِضُونَ﴾ اسْميَّةً للدَّلالةِ على تمكُّنِ إعراضِهم وثباتِهم عليه، أي: إعْراضًا لا قَبولَ بعدَهُ[1]، وهو قيدٌ مناسبٌ لوصفهم بعلمِ اللّهِ الأزليِّ بعدمِ هدايتِهم، وتعليلٌ لوصفِهم بعدمِ الهدايةِ؛ لأنَّ إعراضَهُم ثابتٌ مستمرٌّ.

دَلالةُ وقوعِ الإعراضِ حالًا للمتوَلّين:

مِنَ المتولّينَ مَن أقْبَلَ إلى اللهِ، ثمَّ كانَ مِن خيرَةِ المسلمين

أعْقبَ في قولهِ: ﴿وَّهُم مُّعۡرِضُونَ﴾ بجملتِه الحاليَّة قولَه: ﴿لَتَوَلَّواْ﴾؛ ليدُلَّ بمفهومِ المخالفَةِ أنَّ مِنَ التَّولّي ما يُعقِبُهُ إقْبالٌ، ويَصدُقُ على ذلكَ تولّي الَّذين تَوَلَّوْا، ثمَّ أسْلموا بعدُ، كمُصْعَبِ بن عُمَيْرٍ[2] رضي الله عنه.

دلالةُ الجمعِ بين التَّولّي والإعراضِ:

التَّأكيدُ على الإصرارِ على عدمِ الهدايةِ

قولُهُ: ﴿لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعۡرِضُونَ﴾ جَمعَ اللّهُ بين التَّولّي والإعراضِ لوجودِ فرْقٍ بينهما، يقول صاحبُ المنار: "وفرقٌ عظيم بينَ التَّولّي العارضِ لصارفٍ مؤقَّتٍ، وتولّي الإعراضِ والكراهةِ الَّذي فقدَ صاحبُه الاستعدادَ للحقِّ وقبول الخيرِ فقدًا تامًّا"، والصِّنفُ الأخيرُ هو المرادُ في هذهِ الآيةِ؛ لأنَّهم فقدوا الاستعدادَ للإيمان[3]، فلم يوفِّقهم اللّهُ للسَّماع النّافع، حيثُ أفسدوا فطرتَهم، فصاروا ممَّن وصفَهم اللّهُ بقولهِ: ﴿كَلَّاۖ بَلۡۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾.

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 311/9.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 311/9.
(3) رشيد رضا، تفسير المنار: 524/9.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ٢٤﴾ [الأنفال: 24]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

ذِكْرُ الضِّدِّ عَقِبَ ضِدِّه زيادةُ بيانٍ لسوءِ حالِ السّابقينَ

لَمّا ذكرَ اللّهُ ﷻ في الآياتِ السّابقةِ أنَّ شرَّ الدَّوابِّ، لو علمَ اللّهُ فيهم خيرًا؛ لأسمعهم، وبيَّن أنَّهم لا يسمعون، ولا يعقلون، من على المؤمنين بما مَنَحَهم من الإيمانِ، ويسَّرَ لهم من الطّاعةِ، كأنَّه قيلَ: إنَّكم لستُم مثلَ أولئك المطبوعِ على قلوبهم الَّذين امتنعوا عن الطّاعة؛ لأنَّهم ما خُلقوا إلّا للكفرِ، فما تيسَّرت لهم أسبابُ الإجابةِ، أمّا أنتم؛ فمُنِحتمُ الإيمانَ، ووُفِّقتم للطّاعةِ، فاستجيبوا للّهِ وللرَّسولِ؛ إذا دعاكم لما يحييكم، واغتنموا تلك الفرصةَ؛ لأنَّكم ستحشرون إليهِ، ويجازيكم على ما قدَّمتم[1].

ومن أوجهِ المناسبةِ أنَّ ما مضَى من نَكالِ الكافرينَ؛ كان مُسَبَّبًا عن عَدَمِ الاسْتجابةِ للّهِ وللرَّسول، لذا أمرَ اللّهُ المؤمنينَ بها في هذه الآيةِ تحذيرًا من الكَوْنِ مع الكَفَرةِ في مِثْلِ حالِهم، فيُحشَرون معهم، فأمرَهم أنْ يمتثلوا دعوةَ اللّهِ ورسولِه لما فيه صلاحُهم في دنياهم وآخرتِهم، ولْيحذروا أن يَعودوا إلى الكفرِ بعدَ أنْ هداهمُ اللّهُ للإيمانِ، فيحشُرُهم يومَ القيامةِ على هذه الحال[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱسۡتَجِيبُواْ﴾: الجوابُ يُقالُ في مقابَلةِ السُّؤال، والسُّؤالُ على ضربَيْن: الأوَّلُ: طلبُ مَقالٍ، وجوابُه المقالُ، والثّاني: طلبُ نَوالٍ،

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 192/9.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 252/8 - 253.

وجوابُه النَّوالُ، فعلى الأوَّلِ قولُهُ تعالى: ﴿أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ﴾ [الأحقاف: 31]. وعلى الثّاني قولُهُ تعالى: ﴿قَدۡ أُجِيبَت دَّعۡوَتُكُمَا فَٱسۡتَقِيمَا﴾ [يونس: 89]، أي: أُعْطيتُما ما سألتُما، والاسْتجابةُ: هي الإجابةُ، وحقيقتُها هي التَّحرّي للجوابِ والتَّهيُّؤُ له، لكن عُبِّرَ بهِ عن الإجابةِ لقلَّةِ انْفكاكِها عنها، كما في الآيةِ هنا: ﴿ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ﴾[1]، والمرادُ: أجيبوا، وأطيعوا[2].

2) ﴿يُحۡيِيكُمۡۖ﴾: الحياةُ: هي صفةٌ توجِبُ للموصوفِ بها أنْ يعلمَ ويَقْدِر، والحياةُ تُطلقُ على قوى عديدةٍ، أحدُها: القوَّةُ النّاميةُ الموجودةُ في النَّباتِ والحيوان، قالَ تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ كُلَّ شَيۡءٍ حَيٍّۚ﴾ [الأنبياء: 30]، والثّانيةُ: القوَّةُ الحسّاسةُ، وسُمّيَ الحيوانُ حيوانًا، قالَ ﷻ: ﴿وَمَا يَسۡتَوِي ٱلۡأَحۡيَآءُ وَلَا ٱلۡأَمۡوَٰتُۚ﴾ [فاطر: 22]، والثّالثةُ: القوَّةُ العاملةُ العاقلة، كقولِه تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيۡتٗا فَأَحۡيَيۡنَٰهُ﴾ [الأنعام: 122]، والرّابعةُ: عبارةٌ عن ارتفاعِ الغَمِّ، قالَ تعالى: ﴿بَلۡ أَحۡيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمۡ يُرۡزَقُونَ ١٦٩﴾ [آل عمران: 169]. والخامسةُ: الحياةُ الأُخرويَّةُ الأبديَّة، وذلكَ يُتوصَّلُ إليه بالحياةِ الَّتي هي العقلُ والعلم، وهذا هو المعنَى المرادُ في قولِه تعالى هنا: ﴿ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ﴾ [الأنفال: 24][3]. وقد وردَ من معاني يُحييكم: الإيمانُ، والحقُّ، والقرآنُ، والنَّجاةُ، والعصمةُ في الدُّنيا والآخرة، وجميعُها تصلُحُ للمعنَى المراد[4]. والسّادسةُ: الحياةُ الَّتي يوصَفُ بها الباري ﷻ فاللهُ حيٌّ، أي: لا يصحُّ عليه الموتُ، وليس ذلكَ إلّا للهِ ﷻ[5].

3) ﴿يَحُولُ﴾: حَوَلَ: الحاءُ والواوُ واللّامُ أصلٌ واحد، وهو تحرُّكٌ في دَوْر، فالحَوْلُ: العامُ، وذلكَ أنَّه يَحولُ، أي: يدور، وحالَ الشَّخصُ يحولُ؛ إذا تحرَّكَ، وكذلكَ كلُّ مُتحوِّلٍ عن حالة، وفي المثَلِ: لو كانَ ذا حيلةٍ لتحوَّلَ[6]، فأصلُ الحَوْلِ تغيُّرُ الشَّيءِ وانفصالُه عن غيرِه، وباعْتبارِ الانْفصالِ قيل: حالَ بيني وبينَك كذا[7].

4) ﴿ٱلۡمَرۡءِ﴾: يُقال: مَرْءٌ، ومَرْأةٌ، وامْرُؤٌ، وامْرَأةٌ، قالَ تعالى: ﴿إِنِ ٱمۡرُؤٌاْ هَلَكَ﴾ [النّساء:

(1) الرّاغب، المفردات، ص: 210، وابن منظور، اللّسان: (جوب).
(2) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 273/2، والشَّوكاني، فتح القدير: 430/2.
(3) الرّاغب، المفردات، ص: 268 - 269.
(4) ابن جرير، جامع البيان: 213/9 - 214.
(5) الرّاغب، المفردات، ص: 268 - 269، والجُرجاني، التَّعريفات، ص: 94.
(6) أبو عبيدة، الأمثال، ص: 737، وعبد الرحمن، مجمع الأمثال: 175/2.
(7) ابن فارس، مقاييس اللّغة: 121/2، والرّاغب، المفردات، ص: 266.

176]. والمَرْءُ: الرَّجُلُ، تقولُ: هذا مَرْءٌ صالح، وهما مَرْءان، ولا يُجمَع، والمروءةُ: كمالُ المَرْء، كما أنَّ الرُّجولةَ كمالُ الرَّجُلِ[1].

5) ﴿تُحْشَرُونَ﴾: حَشَرَ: الحاءُ والشّينُ والرّاءُ: السَّوْقُ والبَعْثُ والانْبعاثُ، والحَشْرُ: الجمعُ مع سَوْقٍ، وكلُّ جمعٍ حَشْرٌ، قالَ تعالى: ﴿وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ [الكهف: 47]، وسُمّي يومُ القيامةِ يومَ الحَشْرِ كما سُمّي يومَ البَعْثِ والنَّشرِ[2].

المَعْنى الإجْماليُّ:

يأمُرُ اللهُ ﷻ عبادَهُ المؤمنينَ بما يَقْتضيهِ الإيمانُ منهم، وهو الاسْتجابةُ للهِ وللرَّسولِ بالانْقيادِ لما أمرَ بهِ، والمبادَرَةِ إلى ذلك، والدَّعوةِ إليه، والامْتثالِ لأوامرِه ونواهيهِ، فإنَّ في ذلكَ حياةَ القَلْبِ والرّوحِ، ثمَّ حذَّرَ عن عدمِ الاسْتجابةِ للهِ وللرَّسول، فيُحالُ بينَكم وبينَه، وتختلفُ قلوبُكم بأمرِ اللهِ، فهو تعالى الَّذي يَحولُ بين المرْءِ وقلبِه، واعْلَموا أنَّكم سَتُحشرونَ إليهِ في يومٍ لا رَيْبَ فيه، فيُجازَى المُحسنُ بإحسانِه، والمُسيءُ بعصْيانِه[3].

الاستجابةُ للهِ والرَّسولِ هي الحياةُ في الدُّنيا والآخرةِ، وكلُّ ذلك بتوفيقِ اللهِ

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ ارتباطِ هذه الآيةِ، بآية الإيمان والطّاعة:

جاءَ قولُه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ﴾ إعادةً لمضمونِ قولِه سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ [الآية: 20] الَّذي هو بمنزلةِ النَّتيجةِ من الدَّليل، أو مَقْصَدِ الخُطبةِ من مقدِّمتها، فأعقَبَ بيانُ اللهِ ﷻ كلَّ ما تقدَّمَ من مضامينَ ومعالمِ طاعةِ اللهِ ورسولِه بالأمرِ بالاسْتجابةِ للرَّسولِ ﷺ؛ إذا دعاهم إلى شيءٍ تأكيدًا لِما سبقَ مِنَ الأمرِ بالطّاعة، فإنَّ دعوتَه

الاسْتجابةُ نتيجةٌ ومَقصَدٌ لمقدِّمةِ الأمرِ بالطّاعةِ

(1) الرّاغب، المفردات، ص: 766، وابن منظور، اللِّسان: (مرأ).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: 66/2، والرّاغب، المفردات، ص: 237.
(3) السَّعدي، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 271 - 272.

إيّاهم إحياءٌ لنفوسِهم، وضمانٌ لهم لثباتِ قلوبِهم على الحقِّ وحَشْرِهم على هذه الحالِ المُرضيةِ لربِّهم[1].

بلاغةُ تكرارِ النِّداءِ في سورةِ الأنفالِ:

تكرارُ النِّداءِ بوصفِ الإيمانِ، تربيةٌ وحثٌّ على الالتصاقِ بهذا الوصفِ العالي

قولهُ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾، النّاظرُ في آياتِ هذه السّورةِ يجدُ تكرارًا لأسلوبِ النِّداء، ولا سيَّما نداءُ أهلِ الإيمانِ، فقد تكرَّر أكثر من مرَّةٍ فيها؛ لأنَّها نزلت في أحداثِ غزوةِ بدرٍ، وكلُّها كانت بصنعِ اللّهِ وتدبيرِهِ وتأييدِهِ، والغرضُ منها تربيةُ المؤمنين وإعدادُهم لمستقبل الأيّام في ملاقاتهم للمشركين، فكان تكرارُ النِّداء بالإيمانِ لتربيتهم وتأهيلِهم وتحذيرِهم من المخالفاتِ الَّتي تؤثِّر على إيمانهم وعلى كيانِ الأُمَّةِ، مِنَ الفرارِ مِنَ الزَّحفِ، وعدمِ طاعةِ اللّهِ ورسوله، وعدمِ الاستجابةِ لكلِّ ما يصدرُ من أوامرَ، وعدمِ الرُّكونِ إلى الأموالِ والأولادِ وحبِّ الدُّنيا، فكلُّ هذه النِّداءات من بابِ العنايةِ والرِّعايةِ بالمؤمنين.

بلاغةُ الاستفتاحِ بأسلوبِ النِّداءِ ﴿يَـٰٓأَيُّهَا﴾:

إثارةُ همَّةِ المؤمنينَ ودفعُهم لامْتثالِ أوامرِ اللهِ بندائِهم

النِّداءُ من أساليبِ التَّحفيزِ واسْتدعاءِ الهمَّةِ للقيامِ بما وراءِ النِّداءِ من أمرٍ جَلَلٍ ذي أهمّيَّةٍ خاصَّةٍ، وهكذا هنا صُدِّرت الآيةُ الكريمةُ بالنِّداءِ؛ لتنشيطِهم إلى الإقْبالِ على الامْتثالِ بما يَرِدُ بعدَهُ من الأوامرِ، وتنبيههم على أنَّ فيهم ما يوجِبُ ذلك[2]، وعلى المؤمنين أن يجمعوا قلوبَهم وعقولهم لتلقّي المنادى بهِ، وفيهِ إشارةٌ إلى تنبيهِ السّاهي والغافل؛ للعودةِ إلى حظيرة الإيمانِ بنداءِ اللّهِ لهم، وهذا دليلُ حُبِّه سبحانه لعبادِهِ المؤمنين.

بلاغةُ ذِكْرِ المنادَى بالاسْمِ الموصولِ ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾:

أفادَ الاسْمُ الموصولُ تأكيدَ صِفَةِ الإيمانِ، وهذا أدْعَى للاسْتجابةِ

جاءَ الاسمُ الموصولُ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ بعدَ النِّداءِ لتأكيدِ صفةِ الإيمان في قلوبِهم، فهو خطابٌ للمؤمنينَ الصّادقينَ الَّذين هم أعْرفُ النّاسِ

(1) الشَّوكاني، فتح القدير: 430/2، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 311/9.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 480/2.

بحقيقةِ الإيمان، وأكثرُ اسْتجابةً وامتثالًا للهِ وللرَّسولِ إذا دعاهم لما يُحييهم[1]، وفيه إشارةٌ إلى استحضارِهم في ذهنِ السّامعِ بجملةٍ معلومةِ الانتسابِ.

سرُّ التَّعبيرِ بجملةِ الصِّلةِ ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ وبالفعلِ الماضي:

الدَّلالةُ على رسوخِهم في صفةِ الإيمانِ

يُعبَّرُ بجملةِ الصِّلةِ غالبًا في سياقاتِ التَّكليفِ مِنَ الأوامرِ والنَّواهي للتَّرقّي السُّلوكيِّ والعبادي للوصولِ إلى مقامِ الحضورِ والمشاهدةِ، ولذلك جاءَ النِّداء في سورة النّورِ بقوله: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾، فالملاحظُ أنَّ النِّداءَ جاء بعد أمرِ التَّوبةِ، وهذا يعني: أنَّهم يعيشون آثارَ الإيمانِ وثمراتِه اليانعةَ الَّتي تدلُّ على رسوخِ الإيمان. وقد وردَ التَّعبيرُ بصيغةِ الماضي في ﴿ءَامَنُواْ﴾ للدَّلالةِ على تحقُّقِ الإيمانِ فيهم، ووصْفُهم بالإيمانِ إيماءٌ إلى التَّعليل بأمرِهم بالطّاعةِ فيما سبق، فكونُهم آمنوا باللهِ ورسولِه، يعني: أنَّ الإيمانَ هو الَّذي يَقْتضي أنْ يثقوا بعنايةِ اللهِ بهم، فيَمتثِلوا أمرَهُ؛ إذا دعاهم[2]، وينتهوا؛ إذا نهاهم.

بلاغةُ التَّعبيرِ بالأمرِ ﴿ٱسۡتَجِيبُواْ﴾ بعدَ النِّداء:

تأكيدُ الاسْتجابةِ وسرعةُ القيامِ بها

قد غَلَبَ اسْتعمالُ الاسْتجابةِ في إجابةِ طَلَبٍ مُعيَّنٍ، ولذلكَ مُهِّدَ له بالنِّداء، لتسريعِ اسْتجابتهم؛ لِما سيقَ هذا النِّداءُ من أجْلِه[3]، أيضًا؛ لأنَّ الاستجابةَ، هي أولى علاماتِ الطّاعةِ.

وجهُ المناسبةِ بين الماضي ﴿ءَامَنُواْ﴾ والأمرِ ﴿ٱسۡتَجِيبُواْ﴾:

تحقُّقُ الباعثِ إثارةٌ للعملِ بمقتضاهُ

جاءت الدَّعوةُ بأسلوبِ النِّداءِ موجَّهةً للمؤمنينَ بقولِه تعالى: ﴿ءَامَنُواْ﴾ بصيغةِ الماضي لتحقُّق الإيمانِ في قلوبهم، ثمَّ جاءَ بمضمونِ ما يريدُه اللهُ منهم، وهو الاسْتجابةُ للهِ وللرَّسولِ بصيغةِ

(1) ابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 514/2.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 311/9.
(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السليم: 480/2، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 312/9.

الأمر؛ لأنَّه لا يُتصوَّرُ أن يستجيبَ لأوامرِ اللهِ وطاعةِ رسولِه ﷺ من لم يعمُرْ قلبَه الإيمانُ به[1] ﷻ فتحقُّقُ الباعثِ مدعاةٌ للاستثارةِ لتحقيقِ مقتضياتِه.

دلالةُ التَّعبيرِ بالفعل ﴿ٱسۡتَجِيبُواْ﴾:

إجابةُ الدّاعي توفيقٌ من اللهِ

آثرَ القرآنُ الكريمُ التَّعبيرَ بقولِه: ﴿ٱسۡتَجِيبُواْ﴾ دونَ (أجيبوا) لوجودِ فرْقٍ بينهُما؛ فالفعلُ (استجاب) لا يكونُ إلّا فيما فيهِ قبولٌ لمّا دُعي إليهِ، نحو قولِه: ﴿وَنُوحًا إِذۡ نَادَىٰ مِن قَبۡلُ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ﴾، وغير ذلك من الآياتِ الَّتي دعا بها بعضُ الأنبياء، كما في سورة الأنبياء، مثل أيّوبَ وزكريا ويونسَ، أمّا الفعلُ (أجاب)؛ فهو أعمُّ من الاستجابةِ؛ لأنَّه قد يجيب المدعوُّ بالمخالفةِ؛ فبينهما عمومٌ وخصوصٌ وجهيٌّ[2]، كما أنَّ الهمزةَ والسّين والتّاء تدلُّ على الطَّلب، وكأنَّ المعنى: اطلبوا التَّوفيقَ من اللهِ للإجابة، فالسّينُ والتّاء للطَّلب، ومعنى ذلك: أنَّ المنادين يطلبون إجابةَ أنفسِهم، فالخيرُ عائدٌ إليهم لا لمنفعةِ من يجيبون[3].

سرُّ إسنادِ الاستجابةِ للألوهيّة دونَ الرُّبوبيَّةِ:

الإشعارُ بالمهابةِ عونٌ على الاستجابةِ

أُسندتِ الاستجابةُ في هذه الآية للّه سبحانه، في قوله تعالى: ﴿ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ﴾، مع أنَّه وردَ في سورةِ الشّورى ﴿ٱسۡتَجِيبُواْ لِرَبِّكُمۡ﴾، لكنَّ السّياقَ مختلفٌ، فالأمرُ هنا يتعلَّق بشأنِ الجهادِ والقتالِ مع المشركين، وهذا أمرٌ تكتنفُهُ صعوباتٌ كثيرةٌ، والنَّفسُ هنا تغلبها أهواؤها، فتحتاجُ إلى تشريعاتٍ تلجمُها عن رغباتِها، فكانتِ التَّشريعاتُ الإلهيَّةُ المتواليةُ في هذهِ النِّداءاتِ، وطلبَ ربُّنا هنا من المؤمنين الاستجابةَ لهُ دونَ فتورٍ أو تكاسلٍ، فكان لفظُ الجلالةِ ﴿لِلَّهِ﴾

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 311/9.
(2) السّمين الحلبيّ، الدّر المصون: 291/2.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 3097/6.

هو الَّذي يزرعُ المهابةَ في قلوبِ المؤمنين من التَّباطؤِ أو التَّخاذلِ في تنفيذِ الأوامرِ.

بلاغةُ تعريفِ الرَّسولِ باللّامِ ﴿وَلِلرَّسُولِ﴾:

دخلتْ لامُ التَّعريفِ على قولِه: ﴿وَلِلرَّسُولِ﴾ للإشارةِ إلى اسْتقلالِه ﷺ بفعلِ الاسْتجابة، تَنْبيهًا على أنَّ اسْتجابةَ الرَّسولِ ﷺ أعمُّ مِنَ اسْتجابةِ اللّهِ[1].

فعلُ الاستجابةِ متعلِّقٌ بالرَّسول ﷺ

الفرقُ بين طلبِ الاسْتجابةِ للهِ، وطلبِ الاسْتجابةِ للرَّسولِ:

اسْتجابةُ الرَّسولِ ﷺ أعمُّ من اسْتجابةِ اللّهِ؛ لأنَّ الاسْتجابةَ للّهِ، لا تكونُ إلّا بمعنَى المجازِ، وهو الطّاعةُ، بخلافِ الاسْتجابةِ للرَّسول ﷺ، فإنَّها بالمعنَى الأعمِّ الشّاملِ؛ للحقيقةِ: وهو اسْتجابةُ ندائه، وللمجازِ: وهو الطّاعةُ، فأريدَ أمرُهم بالاستجابةِ للرَّسولِ بالمعنَيَيْنِ، كلَّما صَدَرَتْ منه دعوةٌ تَقْتضي أحدَهما[2].

بروز مفهوم العموم والخصوص، في السّياق الحكيم

وممّا يُذكَرُ في هذا - أيضًا - أنَّ المرادَ استجيبوا للّهِ تشريعًا، وللرَّسول ﷺ بلاغًا، وغايةُ التَّشريع والبلاغِ واحدةٌ، فلا بلاغَ عن الرَّسولِ إلّا بتشريعٍ من اللّهِ ﷻ حتَّى مع تفويضِ رسولِ اللّهِ بأن يُشرِّعَ، فهو لم يشرِّعْ من نفسِه، إنَّما شرَّعَ بواسطة حُكْمٍ مِنَ اللّهِ تعالى حيثُ قال: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْۚ﴾[3].

دلالةُ ﴿إِذَا﴾، في قولِه: ﴿إِذَا دَعَاكُمۡ﴾:

عبَّر بـ ﴿إِذَا﴾ التي تفيدُ التَّحقيقَ؛ لأنَّ الرَّسولَ ﷺ يقومُ بأمرِ دعوتِهم لا محالةَ؛ لأنَّ اللّهَ تعالى أمرَهُ بدعائِهم، وهذا دليلٌ على قيامِه ﷺ بأمرِ الدَّعوةِ والبلاغِ على أكملِ وجهٍ.

البلاغُ محقَّقُ الحصولِ، لأنّه أمرُ اللّه الملزم للمُبلِّغ والمُبلَّغ معا

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 312/9.
(2) أبو السَّعود، إرشاد العقل السّليم: 481/2، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 312/9.
(3) الشعّراوي، تفسير الشّعراوي، ص: 4640.

بلاغةُ القيدِ بـ ﴿إِذَا﴾ على قولِهِ: ﴿إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾:

دعوة النّبوّة حياة للأمّة، وإزاحة للغمّة

هذا القيدُ يحقِّقُ أمرين: أوَّلهما: الدَّعوةُ إلى إيقاظ العقلِ، وحملهِ على النَّظر في كلِّ أمرٍ يواجههُ، أو يُدعى إليهِ؛ ليزنَهُ بميزانِ الحقِّ والخيرِ، وهذا يعني احترامَ العقلِ الإنسانيِّ، وإعطاءَهُ الحقَّ في البحثِ والنَّظرِ في أمورِ الشَّريعة. وثانيهما: أنَّ ما تحملهُ أوامرُ الشَّريعةِ وأحكامُها؛ هو الخيرُ المطلقُ الَّذي لا يزدادُ على البحث والنَّظرِ إلّا وضوحًا وبيانًا[1].

دَلالةُ التَّعبيرِ بضميرِ الواحدِ ﴿دَعَاكُمْ﴾:

توحيدُ الضَّميرِ للدَّلالةِ والتَّأكيدِ على أنَّ الاستجابةَ للرَّسولِ كالاستجابةِ للهِ

لم يقُلْ بيانُ اللّهِ: إذا دعاكم في قولِه: ﴿ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ﴾ وهو أصلُ التَّعبيرِ، لكنَّه اكْتَفَى بإعادةِ الضَّميرِ للواحدِ ﴿دَعَاكُمْ﴾؛ لأنَّ ذكرَ أحدِهما مع الآخَر هو على سبيلِ التَّوكيد، فالاستجابةُ لرسولِ اللّهِ ﷺ كاسْتجابتِه للّهِ، أي: في طاعتِه والتزامِ دَعوتِه، قالَ تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النّساء: 80][2]، وممّا يذكرُ في ذلكَ - أيضًا - أنَّ إفرادَ الضَّميرِ دليلٌ على توحيدِ الغايةِ، فلم يفصلْ بين حكمِ اللّهِ التَّشريعيِّ وبلاغِ الرَّسولِ لنا.

بلاغةُ قَيْدِ فعلِ الأمرِ بالشَّرطِ ﴿إِذَا دَعَاكُمْ﴾:

الرَّسولُ ﷺ لا يَدْعوهم إلّا لما فيه إحياءٌ لأنفُسِهم

ليس قولُه تعالى: ﴿إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ قيدًا للأمرِ بالاسْتجابةِ أو تَقْييدِ الدَّعوةِ ببعضِ الأحوال؛ بل هو قيدٌ كاشفٌ ومُنبِّهٌ على أنَّ دعاءَه إيّاهم لا يكونُ إلّا إلى ما فيه خيرٌ وإحياءٌ لأنفُسِهم، وهو المباشِرُ لدعوةِ اللّهِ تعالى[3].

دَلالةُ إيثارِ اللّامِ في ﴿لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾:

التَّعليلُ خطابُ إقناعٍ للمدعوّين

اللّامُ في قولِه: ﴿لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ لامُ التَّعليل، أي: دعاكم لأجْلِ ما هو سببُ حياتِكم الرّوحيَّة، وإذا كانتْ حياتُهمُ الرّوحيَّةُ في الدُّنيا

(1) عبد الكريم الخطيب، التّفسير القرآني للقرآن: 588/3.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 301/5، والنَّسَفي، مدارك التَّنزيل: 639/1.
(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 481/2، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 312/9 - 313.

على شاكلةِ ما يُرضي اللّهَ؛ كانت سببَ إعمارِ حياتِهمُ الأُخرويَّةِ بوافرِ نعيمِ اللّهِ وفضلِ اللّه[1]، والتَّعليلُ خطابٌ مقنعٌ للمدعوّين؛ لأنَّهُ فيهِ بيانُ المصلحةِ المترتِّبةِ على استجابتِهم. وفيه إشارةٌ إلى أنَّه لمّا كان اجتناءُ ثمرةِ الطّاعة في غايةِ القربِ؛ نبَّه على ذلك باللّام دون (إلى)، فقال: ﴿لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ أي: ينقلُكم بعزِّ الإيمانِ والعلمِ عن حالِ الكَفَرةِ[2].

سرُّ التَّعبيرِ بـ(ما) الموصوليَّةِ:

المطلوبُ عمومُ الاستجابةِ، لتعميمِ الاستفادة من الدّعوة

آثرَ التَّعبيرَ بـ (ما) الَّتي تفيدُ العمومَ؛ لأنَّها تطلقُ على القرآنِ، وعلى الجهادِ، فالقرآنُ حياةٌ؛ لأنَّهُ سببُ العلمِ، والعلمُ حياةٌ، فجازَ أن يسمّيَ سببَ الحياةِ بالحياةِ، وأطلقَ على الجهادِ حياةً؛ لأنَّه توهينٌ لقوَّةِ العدوِّ، وفي ذلك حياةٌ للمسلمين، أو لأنَّ الجهادَ سببٌ لحصولِ الشَّهادةِ، وهي توجبُ الحياةَ الدّائمةَ[3].

الغرضُ مِنَ التَّعبيرِ بالاستعارةِ في قولِه: ﴿يُحْيِيكُمْ﴾:

إحياءُ الإنسانِ بطاعةِ اللهِ والاستجابةِ لرسولِ اللهِ، كإحياءِ الميِّت

الإحياءُ تكوينُ الحياةِ في الجَسَدِ، والحياةُ قوَّةٌ بها يكونُ الإدراكُ والتَّحرُّكُ بالاخْتيارِ، ويُستعارُ الإحياءُ تبعًا لاسْتعارةِ الحياةِ للصِّفةِ أوِ القوَّةِ الَّتي بها كمالُ موصوفِها فيما يُرادُ منه، مِثْلُ حياةِ الأرضِ بالإنْبات، وحياةِ العقلِ بالعلمِ وسَدادِ الرَّأي، وضدُّها الموتُ في المعاني الحقيقيَّةِ والمجازيَّة، كما في قولِه تعالى: ﴿أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ﴾ [النَّحل: 21]، وقولِه ﷻ: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ﴾ [الأنعام: 122]، وتُستعارُ الحياةُ والإحياءُ لبقاءِ الحياة، والإحياءُ هذا مستعارٌ لما يُشْبِهُ إحياءَ الميِّت، وهو إعطاءُ الإنسانِ به كمالَ الإنسانِ، فيعمُّ كلَّ ما به ذلكَ الكمالُ من إنارةِ العقولِ بالاعْتقادِ الصَّحيحِ والخُلُقِ الكريم، ولَمّا كانَ دعاءُ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 312/9.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 201/3.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 136/8.

الرَّسولِ ﷺ لا يخلو عن إفادةِ شيءٍ من معاني هذه الحياة؛ أمرَ اللّهُ الأُمَّةَ بالاسْتجابةِ والامْتثالِ لما يَدْعو إليه الرَّسولُ ﷺ [1].

تجدُّدُ الإحياءِ واستمرارهُ يعينُ على تجدُّدِ الاستجابةِ

سرُّ التَّعبيرِ بالمضارعِ في قولِه: ﴿يُحْيِيكُمْ﴾:

آثرَ التَّعبير القرآنيُّ المضارعَ ﴿يُحْيِيكُمْ﴾ إشارةً إلى أنَّ الاستجابةَ لما دعا إليه الرَّسولُ ﷺ مستمرَّةٌ ودائمةٌ في حياتِه وبعد مماتِه.

الواوُ عاطفةٌ لمضمونِ هذه الجملةِ بسابقتِها، وأثرها في المعنى أكيد

دَلالةُ (الواوِ) في ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ﴾:

الواوُ في قولِه تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ﴾ عطفتْ مضمونَ هذه الجملةِ بمضمونِ الجملةِ الَّتي قَبْلَها، فيكونُ عطفُها عليها عطفَ التَّكملةِ على ما تُكَمِّلُه[2].

لفتٌ لذهنِ المخاطَبِ للاهْتمامِ بمضمونِ الأمرِ

دَلالةُ الافْتتاحِ بفعلِ الأمرِ ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ﴾:

صُدِّرتِ الجملةُ بـ ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ﴾ للاهْتمامِ بما تتضمَّنُهُ، وحثِّ المخاطَبينَ على التَّأمُّلِ فيما بعدَه، وذلكَ من أساليبِ الكلامِ البليغِ أن يَفتحَ بعضَ الجُمَلِ المُشتمِلَةِ على خبرٍ أو طَلَبٍ فهْمٍ بـ اعلم أو تعلم، لَفْتًا لذهنِ المخاطَب، وفيه تعريضٌ غالبًا بغفلةِ المخاطَبِ عن أمرٍ مهمٍّ، فمن المعروفِ أنَّ المُخبِرَ أو الطّالبَ ما يُريدُ إلّا علمَ المخاطَب، فالتَّصريحُ بالفعلِ الدّالِّ على طلبِ العلمِ مقصودٌ للاهْتمام[3].

تأكيدُ اتِّصالِ علمِ اللهِ بعزمِ المرءِ قبلَ تنفيذِه

دَلالةُ التَّعبيرِ بأداةِ التَّوكيدِ ﴿أَنَّ ٱللَّهَ﴾:

التَّعبيرُ باسْمِ الجلالَةِ ﴿ٱللَّهَ﴾، وقد سبقَتْهُ ﴿أَنَّ﴾ لتأكيدِ أنَّ علمَ اللّهِ تعالى يخلُصُ بين المرْءِ وعَقْلِه خُلوصَ الحائلِ بين شيئَيْنِ، فيكونُ شديدَ الاتِّصالِ بكليْهما، أو أنَّ المعنَى: أنَّ اللّه يعلمُ عزمَ المرءِ ونيَّتَه قبلَ أنْ تنفعلَ بعَزْمِه وجوارحِه، فشبَّه علمَ اللّهِ بذلكَ بالحائلِ بين شيئَيْنِ في كونِه أشدَّ اتِّصالًا بالمحوَّلِ عنه من أقربِ

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 481/2، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 312/9 - 313.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتَّنوير: 314/9.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 314/9.

الأشياءِ إليه على نحوِ قولِه تعالى: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ [ق: 16][1].

بلاغةُ التَّعبيرِ بالاسْتعارةِ التَّمثيليَّةِ:

في قولِه تعالى: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ﴾ إسنادُ الحَوْلِ إلى اللّهِ مجازٌ عقليٌّ؛ لأنَّ اللّه مُنزَّهٌ عن المكان، والمعنَى: يَحولُ شأنٌ من شؤونِ صفاتِه، وهو تعلُّقُ صفةِ العلمِ بالاطِّلاعِ على ما يُضمِرُهُ المرْءُ، أو تعلُّقُ صفةِ القُدرةِ بتنفيذ ما عزَمَ عليه المرءُ أو بصرفِه عن فعلِه، والمرادُ بالقلبِ هنا عَقْلُ المرْءِ وعزمُه[2]، شبَّهَ منعَهُ سبحانه العبادَ من الوصولِ إلى الشَّيءِ بالحيلولة بين رغباتِ القلوبِ وبين تحقيقِها.

تعلُّقُ صفةِ العلمِ أو القُدرةِ بتنفيذِ ما عزمَ عليه المرْءُ، أو صرْفِه عن فعلِه

دَلالةُ التَّعبيرِ بالمضارعِ ﴿يَحُولُ﴾:

جيءَ بصيغةِ المضارعِ ﴿يَحُولُ﴾ للدَّلالةِ على أنَّ ذلكَ يتجدَّدُ، ويستمرُّ، وهذا في معنَى قولِه تعالى: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ [ق: 16][3].

صيغةُ (يَحولُ) تفيدُ التَّجدُّدَ والاسْتمرارَ

نكتةُ إيرادِ ﴿يَحُولُ﴾ في السّياق:

المقصودُ من إيرادِ الفعلِ ﴿يَحُولُ﴾ في سياقِ الآيةِ تحذيرُ المؤمنينَ من كلِّ خاطرٍ يخطُرُ في النُّفوسِ من التَّراخي في الاسْتجابةِ إلى دعوةِ الرَّسولِ ﷺ، والتَّنصُّلِ منها، أو التَّستُّرِ في مُخالفتِه، وهو معنَى قولِه تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ﴾ [البقرة: 235]. وفيه كذلك حثٌّ على المبادَرةِ إلى إخلاصِ القُلوبِ وتَصْفيتِها قبلَ إدراكِ المنيَّةِ[4].

أفادَ (يَحولُ) تحذيرَ المؤمنينَ منَ التَّراخي، أو التَّنصُّلِ من الاسْتجابةِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 315/9.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 315/9.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 315/9.
(4) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 481/2، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 315/9.

دَلالةُ التَّعبيرِ بلفظ ﴿ٱلۡمَرۡءِ﴾:

المرءُ بعملِه وتصرُّفاتِه، ومن حسن عمله اتّسع تأثيره في محيطه

المرادُ بـ ﴿ٱلۡمَرۡءِ﴾ عملُه وتصرُّفاتُهُ الجِسْمانيَّةُ؛ لأنَّه هو المعوَّلُ عليه في سياقِ الآية، حيث يحولُ اللّهُ بينَ عَزْمِ العبدِ في قلبِه وتَنْفيذِ ما عزمَ عليه[1]، وفيه إشارةٌ إلى دعوةِ الإنسانِ إلى كمالِ التَّخلُّق بصفات المروءةِ الَّتي منها الاستجابةُ للّهِ وللرَّسول.

دَلالةُ التَّعبيرِ بالظَّرفِ ﴿بَيۡنَ﴾:

التَّعبيرُ بالظَّرفِ الدّال على البينيّة، تمثيلٌ لغاية قُربِه تعالى مِنَ العَبْدِ

أصلُ الحَوْلِ - ويُقالُ: الحُؤُولُ - منعُ شيءٍ اتِّصالًا بين شَيئَيْنِ أو أشياء، قالَ تعالى: ﴿وَحَالَ بَيۡنَهُمَا ٱلۡمَوۡجُ﴾ [هود: 43]. وكلمةُ (بينَ) تَقْتضي شيئَيْنِ، فما يكونُ تحوُّلٌ إلّا إلى أحدِهما لا إلى أمرٍ خارجٍ عنهما كالطَّبائع، فإنَّ ذلكَ تحويلٌ، وليس حُؤُولًا، وفي هذا التَّعبيرِ تعدُّدُ المراد فيه، أوَّلًا: أنَّ اللّه تعالى مالكُ الإنسانِ في أفكارِه ومشاعرِه، فهو موجِّهُ قلبَهُ إلى ما يريدهُ سبحانه أي: هو الّذي يحولُ المرءَ وقلبَهُ واتِّجاهَهُ، فهو لا يملك من أمرِه شيئًا، وهذا المعنى يفسِّرهُ قولُهُ ﷺ: «يا مقلِّبَ القلوبِ، ثبِّتْ قلبي على دينكَ»[2]، والثّاني: أنَّ اللّه بأوامرِه ونواهيه يحولُ بينَ المرءِ وقلبِه، أي: بين المرءِ وما تهواهُ نفسُه، ويشتهيه قلبُهُ، فالشَّريعةُ قامعةٌ للنُّفوسِ، كابحةٌ للأهواءِ، الثّالثُ: تمثيلٌ لغايةِ قربه تعالى من العبدِ، كقولِه تعالى: ﴿وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنۡ حَبۡلِ ٱلۡوَرِيدِ﴾ [ق: 16]، ولا مانعَ من الجمعِ بين هذه المعاني، فاللّهُ تعالى مُطَّلِعٌ على مكنوناتِ القلوب على ما عَسى يغفُلُ عنه صاحبُها، وفيه تصويرٌ وتَخْييلٌ لتملُّكِه على العبدِ قَلْبَه، بحيثُ يفسخُ عزائمَه، ويُغيِّرُ نيّاتِه ومقاصدَه، ويحولُ بينَه وبينَ الكفرِ إنْ أرادَ سعادتَه، ويُبدِّلُه بالأمْنِ خوفًا، وبالذِّكر نسيانًا، أو ماهو عكسُ ذلك، وما أشبهَ ذلكَ من الأمورِ المعترضةِ للعبدِ[3].

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 315/9.

(2) أخرجه الترمذيّ في سننه، برقم: (2140)، وقال: حديث حسن.

(3) الزَّمخشري، الكشّاف: 152/2، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 481/2. وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 315/9 - 316.

سرُّ اختيارِ التَّعبيرِ بالقلبِ دونَ غيرِه:

آثرَ التَّعبيرَ بلفظِ القلبِ دونَ غيرِه؛ لأنَّ القلبَ محلُّ الأماني، والمرادُ هنا أنَّهُ سبحانه يَحولُ بينَ المرءِ وبينَ ما يتمنّاهُ، ويريدهُ بقلبِه؛ لأنَّ الأجلَ يَحولُ دونَ الأمَلِ، وذلك بأنَّ الموتَ يقطعُ الأجَلَ، وهذا يقعُ في القلبِ.

القلبُ محلُّ الأماني، ومستودع المعاني

دَلالةُ عطفِ قولِه: ﴿وَأَنَّهُۥٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ﴾:

عُطِفَ قولُهُ تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ﴾ على قولِه: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ﴾ لأنَّه لمّا كانَ المعطوفُ عليه تحذيرًا؛ كان المعطوفُ تذكارًا لِما يؤولُ إليه أمرُهم من البعثِ والجزاءِ بالثَّوابِ والعقاب، ويمكنُ أنْ يكونَ تهديدًا لهم[1].

الجمعُ بينَ التَّحذيرِ والتَّذكيرِ، مِن فصيحِ التَّعبير

سرُّ التَّعبيرِ بالإضمارِ، في قولِه: ﴿وَأَنَّهُۥٓ﴾:

في قولِه: ﴿وَأَنَّهُۥٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ﴾، الضَّميرُ الواقعُ اسْمُ (أنَّ) ضميرُ اسْمِ الجلالة، وليس ضميرَ الشَّأنِ لعدمِ مناسبتِه، ولإجراءِ أسلوبِ الكلامِ على أسلوبِ قولِه السّابق: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ﴾[2].

من جمالِ التّعبير، مسايرةُ أسلوبِ المعطوفِ عليه

دَلالةُ تقديمِ قولِه: ﴿إِلَيۡهِ﴾:

قولُه: ﴿وَأَنَّهُۥٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ﴾ تقديمُ مُتعلَّقِ ﴿تُحۡشَرُونَ﴾، وهو ﴿إِلَيۡهِ﴾ لإفادةِ الاخْتصاص، أي: إليه لا إلى غيرِه تُحشَرون[3].

أفادَ تقديمُ شِبْهِ الجملةِ الاخْتصاصَ

دَلالةُ التَّعبيرِ بقولِه: ﴿تُحۡشَرُونَ﴾ مبنيًّا للمفعول:

أفادَ البناءُ للمفعول في ﴿تُحۡشَرُونَ﴾ على أنَّ اخْتصاصَ الحَشْرِ الآنفِ الذِّكر، يُكْنَّى به عن انْعدامِ ملجأٍ أو مَخْبأٍ تَلتجئونَ إليهِ من الحَشْرِ إلى اللّهِ، فكَنَّى عنِ انْتفاءِ المكانِ بانْتفاءِ محشورٍ إليه غيرِ اللّهِ بأبْدَعِ أسلوبٍ[4].

اسْتحالةُ الحَشْرِ إلى غيرِ اللهِ، ممّا هو معلوم من العقيدة بالضّرورة

---

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 303/5، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 315/9.

(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 303/5، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 481/2، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 316/9.

(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 316/9.

(4) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 481/2، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 316/9.

سرُّ التَّعبيرِ بالحشرِ دونَ الجمعِ:

مَنْ أوجد الخَلْق مِن عدم في البداية، لا يعجزه البعثُ والحشرُ في النّهاية

التَّعبيرُ بالحشرِ يفيدُ الجمعَ مهما يكنِ العددُ، ومهما تناثرت الأجزاءُ، أو تباينت، أو تداخلت في الأجسام، فاللهُ يحشرُ كلَّ عضوٍ، ويجمعهُ مع بقيَّةِ أجزائهِ، وعلى هذا فالحشرُ جمعٌ مع شدَّةِ الضّيق وتزاحمِ الأجزاءِ.

سرُّ اختلافِ التَّعبيرِ بين كونه يَحول بين المرء وقلبه، ويعلم ما في الأنفس:

الله تعالى يعلم خبايا النّفوس، ودواخلَ القلوب

قوله تعالى: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ﴾، وبين قوله: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُۚ﴾، نجد اختلافَ التَّعبير في الآيتين؛ لأنَّ آيةَ البقرةِ يسبقُها الحديثُ عن عدَّةِ المتوفَّى عنها زوجُها، وحَظَرَ المواعدةَ سرًّا إلّا بالقولِ المعروفِ، ونهى عن عزمِ العقدِ قبلَ بلوغِ الكتابِ أجلَهُ، ومعلومٌ أنَّ أمورَ الشَّهوةِ غالبةٌ في هذا المجالِ بين الرَّجُلِ والمرأةِ، فأرادَ قطعَ هواجسِ التَّساهلِ والتَّناجي، فناسبَ ذلك التَّهديدُ بعلمِ ما في النُّفوسِ. أمّا آيةُ الأنفالِ؛ فقد بُدِئَتْ بطلبِ الاستجابةِ لما يجدِّد الحياةَ، وقد يتوهَّمُ عدم القدرةِ على تغييرِ الحالِ؛ لذلك ناسبَ ما يدلُّ على لطيف قدرتهِ سبحانه بأنَّه يحولُ بينَ المرءِ وقلبهِ.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

المرْء والرَّجُل:

المرءُ: الرَّجُلُ مع تحقُّقِ أدبِ النَّفْس

قولُنا: رجلٌ، يُفيدُ القوَّةَ على الأعْمال، ولهذا يُقالُ في مَدْحِ الإنسانِ: إنَّه رَجُل.

والمرْءُ: الرَّجُل، يُفيد أنَّه أدَبُ النَّفْسِ، ولهذا يُقال: المروءةُ أدَبٌ مخصوصٌ، وهي كمالُ المرْءِ، كما أنَّ الرُّجولةَ كمالُ الرَّجُلِ[1].

(1) العسكريّ، الفروق، ص: 249، والرّاغب، المفردات، ص: 766.

(تُحشَرون) و(تُرجعون):

الحَشْرُ: هو الجمعُ مع السَّوْقِ، والشّاهدُ قولُهُ تعالى: ﴿وَٱبۡعَثۡ فِي ٱلۡمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ﴾ [الشُّعراء: 36]، ومنه: يومُ الحَشْرِ؛ لأنَّ الخَلْقَ يُجمَعونَ فيه، ويُساقونَ إلى الموقف، والأصْلُ في الحَشْرِ لغةً: إخراجُ الجماعةِ عن مقرِّهم، وإزعاجُهم، وسَوقُهم إلى الحربِ ونحوِها[1].

الحَشْرُ: جمعٌ مع سَوْقٍ، والإخراجُ مِنَ المقرِّ مع الإزعاج، وهو حالُ النّاسِ يومَ البعث

والرُّجوع: فعلُ الشَّيءِ ثانيةً، ومصيرُه إلى حالٍ كانَ عليها، أو تقديرُ البَدْءِ مكانًا كانَ أو فعلًا أو قولًا، وبذاتِه كانَ رجوعُه أو بجزءٍ من أجزائِه، أو بفعلٍ من أفعالِه، فالرُّجوعُ: العَوْدُ، والرَّجعُ: الإعادةُ[2].

(دعاكم) و(ناداكم):

عبَّرَ القرآنُ الكريمُ بالدُّعاءِ دونَ النِّداءِ في قولِه: ﴿إِذَا دَعَاكُمۡ﴾ مع وجودِ تقاربٍ بين الكلمتين، إلا أنَّه آثرَ التَّعبيرَ بالدُّعاءِ؛ ولأنَّ الدُّعاءَ يكونُ بلفظ الطَّلبِ سواءٌ كان معه نداءٌ، أم لم يكن، بخلافِ النِّداء، ولأنَّ الدُّعاءَ أخفُّ من النِّداءِ، لكلِّ ذلك آثرَ القرآنُ الكريمُ التَّعبيرَ بالدُّعاءِ دونَ النِّداءِ[3].

الدُّعاءُ: طلبُ الفعل، والنِّداءُ: إجابةٌ للصَّوتِ، والدُّعاءُ للقريبِ والنِّداءُ للبعيدِ

(1) العسكريّ، الفروق، ص: 188 - 189، والرّاغب، المفردات، ص: 237.
(2) العسكريّ، الفروق، ص: 250، والحسيني، الكلّيات: 390/2، والجرجاني، التَّعريفات، ص: 114.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 108/2.

﴿وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةٗ لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ٢٥﴾ [الأنفال: 25]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

تعقيبُ النِّداءِ والأمرِ يؤكِّدُهُ النَّهيُ عنِ الظَّنِّ، بتركِ الظّالمِ دونَ عقابٍ

لمّا ذكرَ في الآية السّابقةِ الأمرَ بالاستجابةِ للّهِ ولرسولِه، فربَّما ظنَّ المجيبُ أنَّه لا يلزمه إلّا نفسُه، وليس عليه تعريضُ نفسِه للأذى، بالأخذِ على يدِ من لم يستجبْ للّهِ ولرسولِه؛ نبَّهَ في هذه الآيةِ على أنَّ ذلكَ منابذةٌ للدّينِ، واجْتثاثٌ له من أصلِه؛ لأنَّ ترْكَ العاصي على عِصْيانِه كَتَرْكِ الكافرِ على كُفرانِه، وذلكَ موجبٌ لعمومِ البلاءِ، ومزيدِ القضاءِ[1]، وممّا يذكرُ في المناسبة - أيضًا - أنَّه لمّا حذَّر اللّهُ تعالى الإنسانَ في الآيةِ السّابقةِ من أنَّهُ يحولُ بينهُ وبين قلبِه؛ حذَّره في هذه الآيةِ من الفتنِ، فكأنَّهُ قالَ: احذروا فتنةً إن نزلت بكم؛ لم تقتصر على الظّالمين خاصَّةً، بل تتعدَّى إليكم جميعًا، وتصلُ إلى الصّالحِ والطّالحِ[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فِتۡنَةٗ﴾: أصلُ الفَتْنِ: إدخالُ الذَّهبِ النّارَ لِتَظهرَ جَوْدتُه من رداءتِه، واستُعملتِ الفتنةُ في إدخالِ الإنسانِ النّارَ، قال تعالى: ﴿يَوۡمَ هُمۡ عَلَى ٱلنَّارِ يُفۡتَنُونَ﴾، وتأتي الفتنةُ بمعنَى العذاب، قالَ تعالى: ﴿ذُوقُواْ فِتۡنَتَكُمۡ﴾ [الذّاريات: 14]، أي: عذابَكم، وتأتي بمعنى الاختبارِ، وجُعِلَتِ الفتنةُ كالبلاءِ في أنَّهما يُستعمَلانِ فيما يُدفَعُ إليه الإنسانُ من شِدَّةٍ ورَخاء، وهما في الشِّدَّة أظْهرُ معنىً وأكثرُ اسْتعمالًا، وقد قالَ فيهما ﷻ: ﴿وَنَبۡلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلۡخَيۡرِ فِتۡنَةٗۖ﴾ [الأنبياء: 35]. وقولُه تعالى:

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 256/8، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 316/9.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 138/8.

﴿فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ [الحديد: 14]، أي: أوقعتُموها في بَليَّةٍ وعذاب[1]، وعلى هذا قولُه هنا: ﴿وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً﴾، أي: اخْتبارًا وبلاءً[2].

2) ﴿تُصِيبَنَّ﴾: يُقالُ: أصابَ كذا، أي: وجدَ ما طَلَبَ، كقولكَ: أصابَه السَّهمُ، وأصابَ الَّذي قصَدَه، أي: وجدَه، والصَّوْبُ: الإصابةُ، يُقالُ: صابَهُ وأصابَه، أصابَ السَّهمَ؛ إذا وصلَ إلى المَرْمَى بالصَّواب، والمصيبةُ أصْلُها في الرَّمية، ثمَّ اخْتُصَّتْ بالنّائبةِ، كما في قولِه تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ﴾ [النِّساء: 62]، وأصابَ جاءَ في الخير والشَّرِّ، قالَ تعالى: ﴿إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ﴾ [التَّوبة: 50][3]، ومن الثّانيةِ قولُه هنا: ﴿لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً﴾ أي: تصيبُ الصّالحَ والطّالحَ[4].

3) ﴿خَآصَّةً﴾: التَّخصيصُ والاخْتصاصُ والخُصوصيَّةُ والتَّخصُّصُ: تفرُّدُ بعضِ الشَّيءِ بما لا يُشاركُهُ فيه الجُملةُ، وذلكَ خلافُ العُموم، والتَّعمُّم، والتَّعميم، والخاصَّةُ: ضدُّ العامَّة، وقد خصَّه بكذا يخصُّه، واخْتصَّه يختصُّه، قالَ تعالى: ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ [آل عمران: 74][5]، وقولُه تعالى هنا: ﴿لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً﴾، أي: هي عامَّةٌ لا تختصُّ إصابتُها بما يباشِرُ الظُّلمَ منكم[6].

المَعْنى الإجْماليُّ:

يُحذِّرُ اللهُ تعالى عبادَه المؤمنين اخْتبارًا ومِحْنَةً يَعمُّ بها المسيءَ وغيرَه، لا يَخُصُّ بها أهلَ المعاصي ولا مَنْ باشرَ الذَّنبَ، بل يُعمِّمُها

الفتنةُ لا تصيبُ أهلَ المعاصي فحسب، وإنَّما تَعمُّ مَن معهم عندَ عدم رَدْعهم عنها

(1) الرّاغب، المفردات، ص: 623 - 624، وابن منظور، اللِّسان: (فتن).
(2) ابن جرير، جامع البيان: 218/9.
(3) الرّاغب، المفردات، ص: 495 - 496.
(4) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 274/2، والشَّوكاني، فتح القدير: 431/2.
(5) الرّاغب، المفردات، ص: 284، وابن منظور، اللِّسان: (خصص).
(6) الشَّوكاني، فتح القدير: 431/2.

حيثُ لم تُدفعْ، وتُرفع[1]، كالفتنِ الَّتي تهدُّ كيانَ الأمَّةِ، وتزعزعُ أركانَها، وكظهورِ البدعِ والمنكراتِ، ونحو ذلكَ، فهذهِ فتنٌ لا تصيبُ أصحابَها فقط، بل تلتهم نيرانُها الأمَّةَ جميعًا؛ لذلك حذَّرَ اللهُ منها، وشدَّد العقوبةَ على من خالفَ أمرَهُ، فهو معاقِبُهُ في الدُّنيا والآخرة[2].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دَلالةُ العطفِ بالواوِ في قولِه: ﴿وَٱتَّقُواْ﴾:

بيان تأكيدِ التزامِ التَّقْوى، باعتبارها محور العبادة والمعاملة

جاءَ العطفُ بالواوِ في قولِه تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ﴾ على نَسَقِ ﴿ٱسۡتَجِيبُواْ﴾ و﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ﴾؛ لأنَّ الاسْتجابةَ للهِ وللرَّسولِ، والعلمَ بأنَّ اللهَ يحولُ بين المرءِ وقَلْبِه، يولِّدانِ التَّقوى في النُّفوسِ، فأخبرَهم: إن لم تتَّقوا اللهَ؛ تعُمَّكم فِتَنُهُ[3].

بلاغةُ الافْتتاحِ بالأمرِ ﴿وَٱتَّقُواْ﴾:

التَّحذيرُ من الوقوعِ في فِتنةٍ إنْ لم تتحقَّقِ التَّقوى

صُدِّرتِ الآيةُ الكريمةُ بالأمرِ بالتَّقوى تحذيرًا لهم خشيةَ أنْ تُصيبَهم فتنةٌ، تضطربُ بها أحوالُهم، ويَخْتلُّ بها نظامُ جماعتِهم، فيفشَلوا، وتذهبَ ريحُهم[4].

دَلالةُ التَّنكيرِ في لفظ ﴿فِتۡنَةٗ﴾:

التَّنكيرُ لإفادةِ العُمومِ، مبرز للمعنى الموجود

دلَّ التَّنكيرُ في قولِه: ﴿فِتۡنَةٗ﴾ على العمومِ، أي: عمومِ معنَى ﴿فِتۡنَةٗ﴾، فقد تكونُ إقرارًا للمُنكَرِ بينَ أظْهُرِهم، أو افتراقَ الكلمةِ بينَهم، أو عذابًا ينزلُ بساحتِهم، أو عقوبةً جاريةً على سَنَنِ اللهِ في عقوباتٍ تحصُلُ بحوادثَ كونيَّةٍ تُسبِّبُ هلاكًا أو دمارًا أو ترويعًا يعمُّ الصّالحَ مع الطّالحِ[5].

---

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 274/2.
(2) الحجازيّ، التّفسير الواضح: 104/9.
(3) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 256/8.
(4) ابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 515/2، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 316/9.
(5) الزَّمخشري، الكشّاف: 152/2، وأبو حيّان، البحر المحيط: 304/5.

تنوُّعُ الإعرابِ في موقعِ الجملةِ ممّا قبلَها:

(لا تُصيبَنَّ) جوابٌ للأمرِ، أو نَهْيٌ بعدَ أمرٍ، أو صفةٌ لـ(فِتْنَةً)

قولُه تعالى: ﴿لَّا تُصِيبَنَّ﴾ فيه وُجوهٌ إعرابيَّةٌ عديدةٌ:

أن يكونَ جوابًا للأمرِ، أو نهيًا بعد أمرٍ، أو صفةً لفتنةٍ.

فإذا كان جوابًا؛ فالمعنَى: إنْ أصابتْكم فتنةٌ لا تُصيبُ الظّالمينَ منكم خاصَّةً، ولكنَّها تعمُّكم، وإذا كانت نهيًا بعد أمرٍ، فكأنَّه قيل: واحْذروا ذَنْبًا أو عقابًا، ثمَّ قيل: لا تَعرَّضوا للظُّلم، فيصيبَكم العقابُ، أو أثَرُ الذَّنْب، ووَبالُه على مَنْ ظلمَ منكم خاصَّة، وإذا كانَ صفةً لفتنةٍ على إرادةِ القول، كأنَّه قيل: واتَّقوا فتنةً مَقولًا فيها: لا تُصيبَنَّ، وإذا قيلَ: كيفَ جازَ أنْ تدخُلَ النّونُ المؤكَّدةُ في جوابِ الأمر؟

الجوابُ: هو أنَّ فيه معنَى النَّهْيِ، فإذا قيل: انْزِلْ عن الدّابةِ لا تَطْرَحكَ، جازَ أن يُقالَ: لا تَطْرَحنَّكَ، وكذلكَ هنا: لا تُصيبَنَّ[1].

دَلالةُ ﴿لَا﴾ النَّهي، في سياق الآية:

(لا) للنَّهْي في السّياق الحكيم

حرفُ (لا) في قولِه تعالى: ﴿لَّا تُصِيبَنَّ﴾ نَهْيٌ بقرينةِ اتِّصالِ مَدْخولِها بنونِ التَّوكيدِ المختصَّةِ بالإثْباتِ في الخبرِ وبالطَّلب، إذْ جَعْلُ (لا) هنا للنَّفيِ فيه شذوذٌ؛ لأنَّ النُّونَ لا تدخُلُ المنفيَّ في غيرِ القَسَم[2].

دَلالةُ توجيهِ النَّهيِ للفتنةِ، وهي مِنَ المعاني لا المباني:

المرادُ تحذيرُ المخاطَبِ مِنَ الأمرِ المنهيِّ عنه بطريقِ الكنايةِ

توجَّهَ النَّهيُ للفتنةِ بما اقْتضاهُ مقامُ المبالغةِ من التَّحذيرِ هنا والاتِّقاءِ من الفِتْنة، فأكَّدَ الأمرَ باتِّقائِها بنَهْيِها هي عن إصابتِهم إيّاهم مع أنَّها من المعاني لا المباني؛ لأنَّ هذا النَّهيَ من أبْلَغِ صيَغِ النَّهيِ بأنْ يوجَّهَ النَّهيُ إلى غيرِ المرادِ نَهْيُهُ، تنبيهًا له على تحذيرِه من الأمرِ المنهيِّ عنه في اللَّفظ، والمقصودُ تحذيرُ المخاطَبِ بطريقِ

(1) الفرّاء، معاني القرآن: 407/1، والزَّمخشري، الكشّاف: 152/2 - 153، وابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 515/2.

(2) ابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 515/2، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 482/2، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 317/9.

الكناية؛ لأنَّ نهيَ ذلكَ المذكورِ في صيغةِ النَّهي يستلزمُ تحذيرَ المخاطَبِ، فكأنَّ المتكلِّمَ يجمعُ بين نَهيَيْن، ومنه قولُ العرب: لا أعْرِفنَّكَ تفعَلُ كذا، فإنَّه في الظّاهر المتكلِّمُ نَفْسُه عن فعلِ المخاطَب، ومنه قولُ اللّهِ تعالى: ﴿لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾ [الأعراف: 27]، ويُسمَّى هذا بالنَّهْيِ المحوَّل، فلا ضميرَ في النَّعتِ بالجُملةِ الطَّلبيَّة[1].

وجهُ المعنَى على كونِ ﴿لَّا تُصِيبَنَّ﴾، جملةً اسْتئنافيَّةً:

تأكيدُ الأمرِ باتِّقاءِ الفِتنَةِ معَ زيادةِ التَّحذيرِ بشُمولِها

يجوزُ أنْ تكونَ جملةُ: ﴿لَّا تُصِيبَنَّ﴾ نَهْيًا مُسْتَأنَفًا؛ تأكيدًا للأمرِ باتِّقاءِ الفَتنةِ مع زيادةِ التَّحذيرِ بشمولِها مَنْ لم يكن من الظّالمين[2].

دَلالةُ التَّعبيرِ بالمفعولِ به اسْمًا موصولًا:

الاسم الموصولُ لإفادةِ تأكيدِ وقوعِ الفِتْنة

أفادَ سَوْقُ المفعولِ به ﴿ٱلَّذِينَ﴾ اسْمًا موصولًا تأكيدَ وقوعِ الفتنةِ بالظّالمينَ، وتعدّيها لمن سكتَ عنِ الظّالمين حَصْرًا لهاتَيْنِ الفئتَيْن بالعقاب، ومبالغةً في التَّحذيرِ من هذه الفِتْنةِ.

دَلالةُ التَّعبيرِ بـ ﴿مِنكُمۡ﴾:

الظُّلمُ من المؤمنينَ أقبحُ منه من غيرِهم

(مِن) في قولِه: ﴿مِنكُمۡ﴾ للتَّبعيضِ أو للتَّبيين، وفائدتُه: التَّنبيهُ على أنَّ الظُّلمَ منكم أقْبحُ منه من غيرِكم[3].

دَلالةُ عدمِ إصابةِ الظّالمينَ بالفِتْنةِ وحدَهم:

مَنْ لا يُنكِرْ على الظّالمين ظُلمَهم، ويَرْكَنْ إليهم؛ تُصبْهُ الفِتْنةُ

دلَّ سياقُ الآيةِ على أنَّ الفتنةَ لا تختصُّ إصابتُها بمَن يُباشِرُ الظُّلمَ منكم؛ بل يعمُّه وغيرَه، كإقرارِ المنكَرِ بينَ أظْهُرِهم، والمداهَنَةِ في الأمرِ بالمعروفِ والنَّهي عن المنكر، وافْتراقِ الكلمة، وظُهورِ البِدَع، والتَّكاسُلِ في الجهادِ في سبيلِ اللّه، والرُّكونِ إلى الظّالمين، وغيرِ ذلك ممّا تستغرقُ معانيه كلمةَ الظُّلم[4].

---

(1) ابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 515/2، وأبو حيّان، البحر المحيط: 305/5، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 318/9.

(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 482/2، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 318/9.

(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 482/2.

(4) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 482/2.

دَلالةُ التَّأكيدِ على عدَمِ إصابةِ الظّالمينَ وحدَهم:

المقصودُ بالتَّحذيرِ هم المؤمنونَ

اسْمُ فاعلٍ مؤنَّثٌ لجَرَيانِه على فِتْنةٍ، فهو مُنتصِبٌ على الحالِ من ضميرِ ﴿تُصِيبَنَّ﴾، وهي حالٌ مفيدةٌ هنا؛ لأنَّها المقصودُ من التَّحذيرِ، والأصلُ في هذا أنْ تكونَ ﴿خَآصَّةً﴾ نعتًا لمصدرٍ محذوفٍ، تقديرُه: (إصابةً خاصَّةً)، فهي نَصْبٌ على الحالِ لَمّا انْحذفَ المصدرُ من الضَّميرِ في ﴿تُصِيبَنَّ﴾، وهذا الفعلُ هو العاملُ، ويمكنُ أنْ تكونَ حالًا من الضَّميرِ في ﴿ظَلَمُواْ﴾[1].

سرُّ التَّعبيرِ بقولِهِ: ﴿لَّا تُصِيبَنَّ﴾:

السَّكوتُ على الظُّلمِ مشاركةٌ سكوتيَّةٌ فيهِ

جاء التّعبيرُ القرآنيُّ بقولِه: ﴿وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً﴾، بهذا التَّركيبِ دونَ غيرِه؛ لأنَّه يحملُ دعوةً إلى التَّناصُحِ بين المؤمنين، وإلى التَّناهي فيما بينهم عن المنكرِ، وإلّا فإنَّ سكوتَ السّاكتين منه عن ظلمِ الظّالمين، وبغيِ الباغين هو اعترافٌ ضمنيٌّ بهذا الظُّلمِ وإجازةٌ له، ومن هنا لم يكن ما يحلُّ بالظّالمين من بلاءِ اللّهِ ونقمتِه واقعًا بهم وحدَهم، بل يصيبُهم، ويصيبُ من رآهُم، ولم ينكر عليهم؛ لأنَّ المجتمعَ الإنسانيَّ جَسَدٌ واحدٌ، وما يصيب بعضَهُ من فسادٍ وانحلالٍ لا بدَّ أن يتأثَّرَ به المجتمعُ كلُّهُ، فكان مِنَ الحِكمةِ دفعُ الشَّرِّ ومحاربتُهُ في أيِّ مكانٍ يطلُّ بوجهِه، فإذا قصَّروا في أداءِ هذا الواجبِ في محلِّ المؤاخذةِ والمعاقبةِ، أصابهم جميعا ما حذَّرتْ منه الآية، ولم يقتصر العقاب على العُصاة وحدهم[2].

دلالةُ جملةِ الصِّلةِ ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ دونَ الظَّلَمَةِ:

الظُّلمُ مَناطُ التَّحذيرِ ومدارُهُ

عبَّر بجملةِ الصِّلةِ للإشعار بعلَّةِ التَّحذيرِ، وأنَّه بسببِ الظُّلمِ، وأيضًا؛ لأنَّ الذين يسكتون عن المنكرِ، ظلموا أنفسَهم، وظلموا دينَهم، وظلموا مجتمعَهم.

---

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 306/2، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 318/9، ورجَّح ابن عطيَّة الوجهَ الأوَّل، يُنظر: ابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 516/2.

(2) عبد الكريم الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 589/3.

دلالةُ التَّعبيرِ بلفظ ﴿خَآصَّةٗۖ﴾:

عـلّـة عـقـاب الظّالم الفاعل، ومـن لـم يفعل أيضًا

في قولِه: ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗۖ﴾، عبَّرَ فيه بقولِه: ﴿خَآصَّةٗۖ﴾، للإشارةِ إلى دفْعِ توهُّمٍ في خاطرِ بعضِهم بأنَّ العذابَ مقصورٌ على الّذين ظلموا فقط، فأزالَ القرآنُ الكريمُ هذا الفهمَ الخاطئَ، وبيَّنَ عمومَ العقابِ للظّالمِ والمظلومِ.

دَلالةُ الواوِ في: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ﴾:

معـنـى عـطـف مضمونِ جُملةِ (واعْلَموا) على مضمونِ ما قَبلَها

الواوُ في قولِه تعالى: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ﴾ عَطَفَتْ مضمونَ هذه الجملةِ على مضمونِ الجملةِ الَّتي قبلَها، فيكونُ عطفُها عليها عطفَ التَّكملةِ على ما تُكمِّلُهُ، وكأنَّ بيانَ اللّهِ، قال: الفتنةُ تُصيبُ الَّذين باشَروا الظُّلمَ، والَّذينَ سَكَتوا عنهم، أو رَكَنوا إليهم، وهؤلاء سيصيبُهمُ العقابُ الشَّديدُ من اللّهِ، ويمكنُ عطفُ ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ﴾ هنا على ما تقدَّمَها في قولِه تعالى: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ﴾ [الأنفال: 24]، فمنْ حالَ اللّهُ بينَه وبينَ قلبه؛ فإنَّ مصيرَه إلى عقابِ اللّهِ، أو أنَّ الحَوْلَ بين المرْءِ وقلبِه فتنةٌ؛ فاتَّقوا اللّه في هذه الفتنةِ أن تُصيبَكُم[1].

دَلالةُ التَّعبيرِ بفعلِ الأمرِ ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ﴾:

الظُّلمُ يقتضي شدَّةَ التَّحذيرِ منهُ

افتَتَحَ بيانُ اللّهِ تعالى جُملةَ: واعْلَموا أنَّ اللّه شديدُ العقابِ بفعلِ الأمرِ بالعلم للاهْتمامِ لِقَصْدِ شدَّةِ التَّحذيرِ[2].

دَلالةُ التَّعبيرِ بالمفعولِ بهِ جملةً مؤكَّدةً:

إنَّ الَّذين ظَلموا والسّاكتينَ عنهم سواء؛ لتركهم النّهيَ عنِ المنكر

جاءَ التَّعبيرُ بالجُملةِ المؤكَّدةِ لبيانِ أنَّه تعالى شديدُ العقابِ - لا محالةَ - لمن يُخالفُ أمرَهُ بارْتكابِ الظُّلم أو السُّكوتِ عنه، وفي هذا عَوْدٌ على قولِه السّابق: ﴿ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ﴾، فذلكَ يَشمَلُ مَنۡ يُخالفُ الأمرَ بالاسْتجابةِ.

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 314/9.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 318/9.

سرُّ العُدولِ عنِ الإضمارِ إلى الإظهارِ:

في قولِه: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾، ذُكِرَ اسْمُ الجلالةِ ﴿ٱللَّهَ﴾ لِزَرْعِ المهابةِ في القلوب، والتَّحذيرِ الشَّديدِ من الوقوعِ في مغبَّةِ الظُّلمِ أوِ السُّكوتِ عنه وعن أهلِه، فإنَّ اللّٰه شديدُ العقابِ.

الاسْمُ الجليلُ (اللـه) يَزرعُ المهابةَ في النُّفوسِ، ويُنفِّرُها مِنَ الظُّلمِ

دَلالةُ التَّعبيرِ بالمسنَدِ مُعرَّفًا بالإضافةِ:

في قولِه تعالى: ﴿شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾ عُرِّفت ﴿شَدِيدُ﴾ بإضافتِها لـ ﴿ٱلۡعِقَابِ﴾ للمُبالغةِ في بيانِ عقابِ اللّٰهِ، وشدَّتِه على الظّالمين، ومَنْ وافقَهم، أو سَكَتَ عنهم، أو رَكَنَ إليه[1].

التَّعريفُ بالإضافةِ للمبالغةِ في شدَّةِ عقابِ اللهِ

سرُّ التَّعبيرِ بـ ﴿شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾ دونَ (شديدِ العذابِ):

آثرَ التَّعبيرُ القرآنيُّ ﴿شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾ دون شديدِ العذابِ؛ لأنَّ الآيةَ بُدِئَت بالأمرِ بالتَّقوى، ومن لوازمِ التَّقوى العلمُ بشدَّةِ ما ينتظرُ الظّالمَ والمخالفَ لأوامرِ اللّٰهِ العقابَ المعدَّ لهُ؛ لأنَّ العقابَ، يأتي بعد ارتكابِ جرمٍ شديدٍ يهدِّدُ كيانَ الأمَّةِ، كما في هذه الآية.

تحذيرُ المتَّقين يناسبهُ التَّخويفُ من شدَّةِ العقابِ

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

فِتْنة وبَلاء:

البلاءُ يكونُ ضرَرًا، ويكونُ نفعًا، وإذا أردْتَ النَّفعَ؛ قلتَ: أبْليتُه، وفي القرآن: ﴿وَلِيُبۡلِيَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡهُ بَلَآءً حَسَنًاۚ﴾ [الأنفال: 17]، ومن الضُّرِّ بَلَوْتُه، وأصلُه أن تختبرَه بالمكروهِ، وتستخرجَ ما عندَه من الصَّبر به، ويكونَ ذلكَ ابتداءً[2].

والفتنةُ فيها معنَى الاخْتبارِ؛ لأنَّها مَأخوذةٌ من إدْخالِ الذَّهبِ النّارَ لاخْتبارِ جَوْدتِه من رَداءتِه، وتُستعمَلُ بمعنَى البلاءِ فيما يُدفَعُ إليه الإنسانُ من الشِّدَّةِ والرَّخاء، وفي الشِّدَّةِ أظْهرُ وأكثرُ اسْتعمالًا، وتأتي الفتنةُ بمعنى العذابِ[3].

الفتنةُ: أشدُّ البلاءِ، وفيها معنَى الاخْتبارِ والعذابِ

(1) ابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 516/2.
(2) العسكري، الفروق، ص: 105، والرّاغب، المفردات، ص: 145.
(3) الرّاغب، المفردات، ص: 623 - 624، وابن منظور، اللّسان: (فتن).

﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ أَنتُمۡ قَلِيلٞ مُّسۡتَضۡعَفُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمۡ وَأَيَّدَكُم بِنَصۡرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ٢٦﴾ [الأنفال: 26]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

في مناسبةِ هذه الآيةِ لما قبلَها ثلاثةُ أوجهٍ:

الأول: أنَّه "لمّا أمرَهُم بطاعَةِ اللّهِ وطاعةِ الرَّسولِ ﷺ ثم أمرَهُم باتِّقاءِ المعصية؛ أكَّد ذلك التَّكليفَ بهذهِ الآيةِ: ﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ أَنتُمۡ قَلِيلٞ مُّسۡتَضۡعَفُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾؛ وذلك لأنَّه تعالى بيَّن أنَّهم كانوا قبلَ ظهورِ الرَّسولِ ﷺ في غايةِ القلَّةِ والذِّلَّة، وبعد ظهورِه صاروا في غايةِ العِزَّةِ والرِّفعةِ، وهذا يوجبُ عليهم الطّاعَةَ وترْكَ المخالفةِ"[1].

التَّذكيرُ بحالِ الضَّعفِ والقلَّةِ باعثٌ على دوامِ الشُّكرِ والرِّفْعَةِ

الوجهُ الثّاني: أنَّهُ لمّا أعلمهم سبحانه بأنَّهُ إلهٌ قادرٌ ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾ ليلزموا سبيلَ الاستقامةِ، وكان مِن أشدِّ العقابِ الإذلالُ؛ حذَّرَهُموه بالتَّذكيرِ بما كانوا فيه من الذُّلِّ؛ لأنَّهُ أبْعَثُ على الشُّكرِ، وأزجرُ عن الكفرِ، فقال: ﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ﴾[2].

الوجهُ الثّالثُ: أنَّ في مجيءِ هذه الخطاباتِ - بعد وصفِهم بالذين آمنوا في الآياتِ السّابقةِ - إيماءً إلى أنَّ الإيمانَ هو الَّذي ساقَ لهم هذه الخيراتِ كلَّها، وأنَّه سيكونُ هذا أثرهُ فيهم، كلَّما احتفظوا عليه؛ كفوه من قَبْل سؤالِهم[3].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مُّسۡتَضۡعَفُونَ﴾: الضّادُ والعينُ والفاءُ أصلان متباينان، يدلُّ

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 474/15.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 259/8.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 319/9.

أحدُهما على خلاف القوَّةِ، ويدلُّ الآخرُ على أن يُزادَ الشَّيءُ مثلهُ، و﴿مُّسۡتَضۡعَفُونَ﴾ من الأصلِ الأوَّل، يقال: تضعَّفْتُهُ واستضعفْتُهُ للَّذي يضعِّفُهُ النّاسُ، ويتجبَّرونَ عليه في الدُّنيا للفقرِ ورثاثةِ الحال، وقيلَ: الضُّعفُ بالضَّمِّ في الجسد، والضَّعفِ بالفتحِ في الرَّأي والعقلِ، وقيل: هما معًا جائزانِ في كلِّ وجهٍ[1].

والمعنى في الآيةِ موافقٌ للمعنى اللُّغويِّ، فمعنى ﴿مُّسۡتَضۡعَفُونَ﴾: معدودونَ من الضُّعفاء لقلَّتِهم وذلَّتِهم وخوفِهم، وهوانِهم على النّاس، فكانوا مضطهدينَ مقهورينَ في أرضِ مكَّةَ قبلَ الهجرةِ[2].

2) ﴿يَتَخَطَّفَكُمُ﴾: التَّخطُّفُ: شدَّةُ الخطفِ، والخطفُ والاختطافُ: هو استلابٌ في خفَّةٍ، وقيل: هو الاختلاسُ والأخْذُ في سرعةٍ، وخَطَّفَ بالتَّشديدِ أصلُهُ: اختطفَ، فأُدغمتِ التّاءُ في الطّاءِ، وأُلقيتْ حركتُها على الخاءِ، فسقَطَتِ الألفُ، وخطفَهُ، واختطفَهُ، كما قالوا: نزعَهُ، وانتزعَهُ، ويقالُ للشَّيطان: الخطّافُ؛ لأنَّهُ يخطفُ السَّمْعَ، أي: يسترِقُهُ[3].

ومعنى ﴿يَتَخَطَّفَكُمُ﴾: يأخذَكُم أعداؤكم، فيفتِكوا بكم بدونِ كُبرى مشقَّةٍ، ولا طولِ محاربةٍ؛ إذ كانوا أشدَّ قوَّةً منكم[4].

3) ﴿فَـَٔاوَىٰكُمۡ﴾: الهمزةُ والواوُ والياءُ أصلانِ: أحدُهُما التَّجمُّعُ، والثاني: الإشفاقُ، يقال: أوى وآوى بمعنًى واحدٍ، أوى إلى كذا: انضمَّ إليهِ، وأوى إلى اللّهِ: رجعَ إليهِ، ومن الممدودِ ما جاءَ في الدُّعاءِ: «الحمد للّه الذي أطعمنا وسقانا، وكفانا وآوانا، فكَم مِمَّنْ لا كافيَ له ولاَ مُؤْوِيَ»، والمأوى: المنزلُ والمكانُ الَّذي يأوي إليهِ، وأوى لَهُ: رَقَّ لَهُ، وأشفقَ عَليهِ[5].

ومعنى ﴿فَـَٔاوَىٰكُمۡ﴾: جعلَ لكم مأوًى تأوونَ إليهِ، وتتحصَّنونَ فيهِ من أعدائِكم الكفّارِ، فآواكم في المدينةِ، وحفظَكم، ورعاكم[6].

4) ﴿وَأَيَّدَكُم﴾: التَّأييدُ مصدرُ أيَّدَ: الهمزةُ والياءُ والدّالُ: أصلٌ واحدٌ يدلُّ على

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب، والراغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (ضعف).
(2) ابن جرير، جامع البيان: 477/13، والآلوسي، روح المعاني: 182/5، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 319/9.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب، والراغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (خطف).
(4) ابن عاشور، التحرير: 320/9، والمراغي، تفسير المراغي: 190/9.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (أوى).
(6) ابن جرير، جامع البيان: 479/13، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 101/3، والآلوسي، روح المعاني: 182/5.

القوَّةِ والحفظ، يقال: أيَّده اللّهُ، أي: قوّاهُ، والإيادُ: كلُّ معقلٍ أو جبلٍ حصينٍ أو كنفٍ وسترٍ، وهو كلُّ حاجزٍ للشَّيءِ يحفظُهُ، ويتقوَّى به[1].

ومعنى ﴿وَأَيَّدَكُم﴾: قوّاكُم، وقوَّى شوكتَكُم بمظاهرةِ الأنصارِ، أو بإمدادِ الملائكةِ والتَّثبيتِ الرَّبّاني يومَ بدرٍ[2].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

مَنْ تذكَّرَ ضعفَهُ عندَ قوَّتِه، وذِلَّتَهُ عند عزَّتِه؛ أوى إلى ركـنٍ متينٍ وملاذٍ أمينٍ

يذكِّرُ اللّهُ ﷻ المؤمنينَ بحالِهم، وهم قليلٌ في غايةِ الضَّعفِ وشدَّةِ الخوفِ والهوانِ على النّاس، فهُم مضطهَدونَ مقهورون مشتَّتون، يستضعفُهُم الكفّارُ، فيفتنونَهُم عن دينِهم، وينالونَهم بالمكروهِ في أنفسِهم وأعراضِهم، يخافونَ منهم أن يتخطَّفوهم دونَ كبرى مشقَّةٍ، فيقتلوهُم، ويذكِّرهم سبحانه بفضلِه ومنَّتِه عليهم؛ إذ آواهُم إلى حماهُ، وقوَّتِه ورعايتِه، وجعلَ لهم مأوًى يأوونَ إليه، وإخوة يتحصَّنونَ بهم، وقوّاهم بنصرِه لهم في بدرٍ، وأطعمَهم حلالًا طيِّبًا، فكانت لهم الحياةُ الآمنةُ القويَّةُ الغنيَّةُ.

فمن ذا الَّذي يتأمَّلُ هذه النَّقلةَ الكبيرةَ من الفزعِ إلى الأمنِ، ومن الضَّعفِ إلى القوَّةِ والنَّصرِ، ومن الفقرِ إلى الغنى والرِّزقِ الطَّيِّبِ والمتاعِ الكريمِ، ثمَّ لا يشكرُ اللّه المنعمَ؟

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

معنى الواوِ ودلالتها:

عَطْفُ تذكُّرِ نعمِ اللهِ على الأمرِ بطاعتِهِ يبعثُ في النُّفوسِ الشُّكرَ

الواوُ في قولِه تعالى: ﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ أَنتُمۡ قَلِيلٞ﴾ عاطفةٌ، والمعطوفُ عليه هو قولُهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ﴾ والمعنى: استجيبوا للّهِ فيما يدعوكم إليه، واعلموا بأنَّ اللّه لا تخفى عليه نيّاتُكم، واحذروا من فتنةِ الخلافِ على الرَّسولِ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب، والراغب، المفردات، ص: 38، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (أيد).

(2) القرطبي، أحكام القرآن: 394/7، والآلوسي، روح المعاني: 182/5.

ﷺ وتذكَّروا نعمةَ اللهِ عليكم بالعزَّةِ والنَّصرِ بعد الضَّعفِ والقلَّةِ والخوفِ[1].

بلاغةُ التَّوسُّطِ بين الكَمالَيْنِ:

الارتباطُ بين تذكُّرِ النِّعمِ ودوامِ طاعةِ اللهِ ارتباطٌ وثيقٌ لا ينفكُّ

بينَ قولِه تعالى: ﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ أَنتُمۡ قَلِيلٞ﴾ - وما قبلَهُ من جُملٍ عُطِفَتْ عليها - توسُّطٌ بين الكمالين لاشتراكِهما في الإنشائيَّةِ، ووجودِ تناسبٍ وارتباطٍ بينها؛ إذ إنَّ في أمرِهم - بتذكُّرِ نعمِ اللهِ عليهم بالعزَّةِ والنَّصرِ بعد قلَّتِهم وضعفِهم - تقويةً للأمرِ بطاعتِه ومراقبتِه وعدمِ مخالفةِ رسولِه ﷺ.

غرضُ الأمْرِ:

معرفةُ امتنانِ الرَّحمنِ أمانٌ من افتتانِ الشَّيطانِ

غرضُ الأمرِ في قولِه تعالى: ﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ﴾ الامتنانُ وتذكيرُهم بالحالِ الَّتي كانوا عليها وبالحالِ الَّتي صاروا إليها، فبعدَ القلَّةِ كثَّرهم، وبعد الخوفِ أمَّنهم، وبعد الضَّعفِ قوّاهم.

سِرُّ اختيارِ مُفردةِ الذِّكرِ:

الذِّكرُ تذكُّرُ الجنانِ وذكرُ اللِّسانِ

اختارَ البيانُ القرآنيُّ مفردةَ الذِّكر دونَ غيرِها في قولِه تعالى: ﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ أَنتُمۡ قَلِيلٞ﴾؛ لأنَّها أوسعُ معنًى، فهي تشملُ التَّذكُّرَ للماضي والتَّأمُّلَ في المستقبل، وتشملُ التَّذكُّرَ الفكريَّ والذِّكرَ باللِّسان، بناءً على أنَّها من الذِّكر، فتكونُ للمستقبلِ المتضمِّن تذكُّرَ الماضي، أي: تذكَّروا لتذكُروا نعمةَ اللهِ عليكم، أي: تشملُ على دعوةٍ للتذكُّرِ والتَّأمُّلِ في حالِهم من قبلُ ومن بعدُ.

ويرى ابنُ عاشورٍ أنَّها من الذُّكرِ، قال رحمَهُ اللهُ: "فعل (واذكروا) مشتقٌّ من الذُّكرِ - بضمِّ الذّالِ - وهو التَّذكُّرُ لا ذكرُ اللِّسان، أي: تذكَّروا"[2].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 318/9.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 318/9.

معنى ﴿إِذْ﴾ بينَ الظَّرفيَّةِ والمفعوليَّةِ:

المرادُ بـ (إذ) ما يذكرُهُ المُخاطَبُ من أمرِ الماضي في المستقبلِ

اختلفَ العلماءُ في إعرابِ ﴿إِذْ﴾ على رأيين[1]:

فهي إمّا أن تكونَ اسمَ زمانٍ مجرَّدٍ عن الظَّرفيَّةِ مفعولًا به، وتقديرُهُ: (واذكروا زمنَ كنتُم قليلًا)[2]، وإمّا أن تكونَ ظرفًا لمفعولٍ بهِ محذوفٍ تقديرُهُ: (واذكروا حالَكم إذ أنتُم قليلٌ)، أو: (واذكروا نعمةَ اللّهِ عليكم إذ أنتُم قليلٌ)[3].

ولا يجوز أن تكونَ ظرفًا لـ ﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ﴾؛ لأنَّها للمستقبلِ، فلا يكونُ ظرفُهُ إلّا مستقبلًا، وإذ: ظرفٌ ماضٍ يستحيلُ أن يقعَ فيه المستقبلُ[4]؛ لأنَّه يقتضي طلبَ المحالِ، وهو طلبُ الذِّكر في ذلك الزَّمنِ الذي قد مضى قبلَ وجودِ المخاطبينَ، والمرادُ ذكرُ الوقتِ نفسِه لا الذِّكرُ فيهِ[5].

معنى إضافةِ ﴿إِذْ﴾:

الإضافةُ تعريفٌ بحالِهم في الزَّمنِ الماضي

أفادَت إضافةُ ﴿إِذْ﴾ للجملةِ ﴿أَنتُمۡ قَلِيلٞ مُّسۡتَضۡعَفُونَ﴾ تعريفَ المضافِ[6]، أي: التعريفُ بالوقت الَّذي كان المسلمونَ فيه قليلًا مستضعفينَ يتخطَّفهم النّاسُ، وبهذه الحالِ الَّتي كانوا عليها، فكأنَّه خاطَبهم: اذكروا في مستقبلِ زمانِكم ماضيَكم؛ كي تبقوا على ذُكْرٍ وتذكُّرٍ لنعمةِ اللّهِ عليكم.

بلاغةُ التَّعبيرِ بالجملةِ الاسميَّةِ:

استشعارُ استمرارِ القلَّةِ والضَّعفِ مُعينٌ على الاستجابةِ

عبَّرَ بالجملةِ الاسميَّةِ ﴿أَنتُمۡ قَلِيلٞ﴾، ولم يقل: (واذكروا قلَّتكم واستضعافَكم في الأرضِ)؛ للإيذان باستمرارِ ما كانوا فيه من القلَّةِ وما يتبعُها من الضَّعفِ والخوفِ والاستضعافِ[7]؛ إذ إنَّهم في وقت

(1) المرادي، الجنى الداني، ص: 188.
(2) الكشاف، الزمخشري: 213/2، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 319/9.
(3) ابن عطية، المحرر الوجيز: 516/2.
(4) أبو حيان، البحر المحيط: 307/5.
(5) ابن نور الدين، مصابيح المغاني في حروف المعاني، ص: 78.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 319/9.
(7) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 17/4، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 319/9.

نزولِ الآياتِ ما زالوا في قلَّةٍ، ولذلك قدَّرَ ابنُ عطيَّةَ المفعول المحذوف بـ "حالكم الكائنة أو الثّابتة؛ إذ أنتم قليلٌ"[1]، ففيه مزيدُ امتنانٍ ورائحةُ اختصاصٍ، أي: أنتم دونَ غيرِكم.

نكتةُ التَّعبيرِ بالإفرادِ دونَ الجمعِ:

الإخبارُ بالمفردِ عن الجماعةِ تأكيدٌ للضَّعفِ

جاءَ الخبرُ مفردًا ﴿قَلِيلٌ﴾، وهو خبرٌ عن ضميرِ الجماعةِ ﴿أَنتُمْ﴾، ولم يأتِ بصيغةِ جمعٍ مثل (أقلة) أو (قليلون)؛ لأنَّ قليلًا وكثيرًا قد يجيئانِ غيرَ مطابقينِ لما جريا عليهِ، وفي هذهِ الحالةِ يُعامل موصوفُهما معاملةَ لفظِ شيءٍ أو عدد، قال تعالى: ﴿وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً﴾ [النساء: 1]، وفي هذا التَّقديرِ (شيء) إشارةٌ إلى مزيدِ ضعفٍ فيهم؛ إذ هم شيءٌ قليلٌ.

سِرُّ اختيارِ لفظِ ﴿قَلِيلٌ﴾:

لفظُ (قليلٌ) أوسعُ في الدَّلالةِ على المعنى المرادِ وأنسبُ في بلاغةِ النَّظمِ

أخبرَ القرآنُ عن المخاطبينَ بقولِه: ﴿قَلِيلٌ﴾ في قولِه تعالى: ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ﴾، دونَ ﴿أَذِلَّةٌ﴾ كما في قولِه تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ [آل عمران: 123] رغمَ أنَّ المفسِّرين فسَّروا (أذلة) بقليلِ العددِ والعدَّة؛ ذلك لأنَّ لفظَ (أذلَّة) لا يؤدّي الغرضَ في الدِّلالة، كما يؤدّيه لفظُ (قليل)؛ لأنَّه لا يُشترط في الأذلَّة قلَّةُ العدد، بخلاف لفظ (قليل) فإنَّه يشتملُ على قلَّة العددِ، ويوحي بالذلَّةِ التي صرَّحت بها بقيَّةُ ألفاظِ الآية.

كما أنَّ لفظَ (قليل) يناسبُ ما جاء بعدَهُ من الألفاظِ: ﴿مُسْتَضْعَفِينَ﴾ ﴿تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ﴾، بما يكمِّل صورةَ المشهدِ؛ إذ غالبًا ما تكونُ قلَّةُ العددِ سببَ الضَّعفِ ومقدِّمةً له، وسببَ استضعافِ غيرِهم لهم، ويناسبُ الخوفَ من التَّخطُّف الَّذي يسهل في العددِ القليلِ بدونِ أيّةِ مشقَّةٍ.

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 516/2.

دلالةُ السّينِ والتّاءِ:

مطلقُ الاستضعافِ دالٌّ على غايةِ الضَّعفِ

دلَّ وجودُ السّين والتّاء في المفردةِ القرآنيَّةِ ﴿مُّسۡتَضۡعَفُونَ﴾ على طلبِ ضعفِهم، فالاستضعافُ: طلبُ ضعفِ الشَّيء بتهوينِ حالِه، أي: إنَّ كفّارَ قريشٍ أو العرب أو فارس والرّوم يريدونَ، ويطلبون ضعفهم، ولذلك عبَّر باسمِ المفعول للدَّلالة على غايةِ ضعفهم، يقول البقاعيُّ: "لمّا كان وجودُ مطلق الاستضعافِ دالًّا على غاية الضَّعف بُني للمفعولِ قولُهُ: ﴿مُّسۡتَضۡعَفُونَ﴾ أي: لا منفذَ عندَكم"[1]، فالطَّلبُ من غيرِهم لا منهم.

معنى (أل) في كلمة ﴿ٱلۡأَرۡضِ﴾:

احتمالُ (أل) للعهدِ ولشبيهِ الجنسِ، وكلاهما دليلٌ على شدَّةِ ضعفِهم

(أل) في كلمةِ ﴿ٱلۡأَرۡضِ﴾ في قولِه تعالى: ﴿مُّسۡتَضۡعَفُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ تحتملُ وجهين:

أحدهما: أن تكونَ عهديَّةً، والمرادُ مكَّةُ، والتَّعبيرُ عنها بالأرضِ على هذا الوجهِ باعتبار عظمِها، كأنَّها هي الأرضُ كلُّها، ولأنَّ حالَهم كان في بقيَّةِ البلادِ كحالِهم فيها أو قريبًا من ذلك[2]، "والمعنى تذكيرُ المؤمنين بأيّامِ إقامتهم بمكَّة قليلًا مستضعفين بين المشركين، فإنَّهم كانوا حينئذٍ طائفةً قليلةَ العددِ قد جفاهم قومُهم، وعادوهم، فصاروا لا قومَ لهم، وكانوا على دينٍ لا يعرفُهُ أحدٌ من أهلِ العالمِ، فلا يطمعونَ في نصرٍ موافقٍ لهم في دينِهم، وإذا كانوا كذلك، وهم في مكَّةَ فهم كذلك في غيرها من الأرضِ"[3].

والآخرُ: شبيهٌ بتعريفِ الجنسِ، والمرادُ بالأرضِ الدُّنيا، كما في قولِه تعالى: ﴿وَلَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [الأعراف: 56][4].

(1) البقاعي، نظم الدرر: 259/8.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 259/8.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 319/9.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 319/9.

براعةُ التَّعبيرِ بالظَّرفيَّةِ:

التَّعبيرُ بالظرفيَّةِ إيذانٌ بتغلغلِ استضعافِهم في الأرضِ

عبَّر القرآنُ بالظَّرفيَّةِ ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ للإشارةِ إلى لطيفتينِ:

الأولى: تغلغلُ استضعافِهم في الأرضِ الَّتي هي مكَّةُ إن كانت اللّامُ عهديَّةً، ويقاسُ عليها غيرُها، فحالهُم في بقيَّةِ البلادِ كحالهم في مكَّةَ أو قريبًا من ذلك[1]، فقد كانوا مستضعفينَ من قبلِ كفّارِ قريشٍ وكفّارِ العربِ والفرسِ والرّومِ، أو في الدُّنيا إن كانتِ اللّامُ شبيهًا بتعريفِ الجنس.

ولا تعارضَ مع قولهِ تعالى: ﴿لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾؛ إذِ اللَّطيفةُ ذاتُها، ولكنَّ المعنى يختلفُ وفق العاملِ، فيكونُ المعنى في هذه الآيةِ إفادةَ تغلغلِ استخلافِ اللّهِ وتمكُّنِه لهم في الأرضِ.

الثّانيةُ: إشارةٌ إلى ركونِهم إلى الأرضِ، كأنَّهم غائرونَ فيها في ظلامٍ منخفضٍ، لا قدرةَ لهم على النهوضِ منها، منغمسونَ في ضعفِهم وخوفِهم، لا يدرونَ أين يتوجَّهون؟ كالصَّيد الذي يخاف من الجوارحِ تحوم فوقَه[2].

بلاغةُ ترتيبِ المذكوراتِ:

قلَّةُ أهلِ الحقِّ سببٌ لطمعِ أهلِ الباطلِ بهم واستضعافِهم

قدَّمَ القرآنُ الخبرَ الأوَّلَ ﴿قَلِيلٌ﴾ على الخبرين ﴿مُّسۡتَضۡعَفُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ و﴿تَخَافُونَ﴾ من باب تقديمِ السَّببِ على المسبَّبِ، فالقلَّةُ في العدد تؤدّي إلى الاستضعافِ، والقلَّةُ والاستضعافُ يؤدّيان إلى الخوف، وفي هذا إشارةٌ إلى خطورةِ التَّفرُّق وأهمّيَّةِ الجماعة، وأنَّ التَّفرُّقَ سببٌ لطمع الآخرين واعتدائهم.

نُكْتةُ إسنادِ الخوفِ إلى واوِ الجماعةِ:

الخوفُ متحقِّقٌ عندَ الاجتماعِ فكيفَ معَ الانفرادِ

أفادَ إسنادُ الخوفِ إلى واوِ الجماعةِ في الفعلِ المضارعِ ﴿تَخَافُونَ﴾ لطيفتينِ اثنتينِ:

(1) البقاعي، نظم الدرر: 259/8.
(2) السيوطي، الإتقان في علوم القرآن: 166/2.

الأولى: أنَّ الخوفَ واقعٌ منكم حالَ اجتماعِكم، فكيفَ عندَ الانفرادِ[1]، وهذا فيه إشارةٌ إلى شدَّةِ ضعفِهم وكثرةِ استضعافِهم.

الثّانيةُ: أنَّ فيه إشارةً إلى أهمّيَّة التَّوحُّد والجماعة، وأنَّه سبيلُ تأييدِ اللّهِ ونصرِه، فلمّا كانوا في تلك الحالةِ الَّتي هي في غايةِ الضَّعفِ، وكانت كلمتُهم مجتمعةً على أمرِ اللّهِ الَّذي هو توحيدُهُ وطاعة رسولِه، أعقبَهم الإيواء في دارٍ منيعةٍ، وأيَّدهم بالنَّصرِ وأحسنَ رزقَهُم[2].

نُكتةُ التَّعبيرِ بالفعلِ المُضارِعِ:

الغالبُ أن يأتيَ الماضي مع (إذ)، ولكنَّ النَّظمَ هنا أتى بالمضارع: ﴿تَخَافُونَ﴾ لفائدتينِ:

استحضارُ حالِ الخوفِ مشعرٌ بكمالِ نعمةِ الأمنِ

الأولى: استحضارُ الحالِ الَّتي كان عليها المسلمونَ، وهي حالُ الخوفِ الشَّديد، إضافةً إلى أنَّ استحضارَ الحالِ إنَّما يكونُ في الأمورِ المهمَّة والعظيمَةِ، ممّا يشيرُ إلى صعوبةِ الحالِ الَّتي كانوا عليها، وهذا كلُّهُ بهدف تصويرِ حالِهم التي كانوا عليها بما يحقِّقُ الأثرَ في نفوسِهم، وهو شعورُهم بنعمةِ الأمنِ التي تفضَّل بها المولى سبحانه عليهم.

الأخرى: الإشارةُ إلى استمراريَّةِ الخوفِ فترةً من الزَّمنِ ليست بالقصيرةِ، وإلى عدمِ انقطاعِه بشكلٍ كاملٍ، فما زالَ تهديدُ أعداءِ الإسلامِ من الفرسِ والرّومِ والمنافقين وغيرِهم قائمًا، قبلَ نزول الآياتِ وإلى قيامِ السّاعةِ.

براعَةُ الاستعارَةِ:

تشبيهُ الكافرينَ بالكواسرِ دليلٌ على شراسةِ أعداءِ الإسلامِ

التَّخطُّفُ شدَّةُ الخطفِ، والخطفُ: الأخذُ بسرعةٍ، وهو هنا مستعارٌ للغلبةِ السَّريعةِ؛ لأنَّ الغلبةَ شبهُ الأخذِ، فإذا كانت سريعةً

(1) البقاعي، نظم الدرر: 259/8.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 206/3.

أشبهتِ الخطفَ، أي: يأخذكم أعداؤُكم بدونِ كبرى مشقَّةٍ، ولا طول محاربةٍ؛ إذ كنتُم لقمةً سائغةً لهم، وكانوا أشدَّ منكم قوَّةً، لولا أنَّ اللّٰه صرفَهم عنكم، وقد كان المؤمنونَ خائفين في مكَّةَ، وكانوا خائفين في طريقِ هجرتيهم، وكانوا خائفين يومَ بدرٍ، حتَّى أذاقَهم اللّٰهُ نعمةَ الأمنِ من بعدِ النَّصرِ يومَ بدرٍ[1].

نكتةُ استعمال أنْ المصدريَّةِ بدلَ المصدرِ الصَّريح:

إطنابُ الألفاظِ يُسهِم في تصويرِ المعاني

آثرَ البيانُ الإلهيُّ مجيءَ مفعولِ ﴿تَخَافُونَ﴾ مصدرًا مؤوَّلًا من أنِ المصدريَّةِ ومدخولِها ﴿أَن يَتَخَطَّفَكُمُ﴾ بدلَ المصدرِ الصَّريحِ (خَطْفَ)، لما في ذلك من الإطنابِ والتَّوكيدِ اللَّذينِ يسهمانِ في رسم صورةٍ للتربُّصِ الوجل، والتَّرقُّبِ الفزِع، والأيدي تمتدُّ لتخطفَ القلَّةَ المسلمةَ على سبيلِ التَّدريجِ، كما تتخطَّفُ الجوارحُ الصّيودَ.

دلالةُ استعمالِ العمومِ:

تمالؤُ المشركينَ على المسلمينَ توصيفٌ لشدَّةِ ضعفِهم

استعملَ البيانُ القرآنيُّ مفردةَ ﴿ٱلنَّاسُ﴾ وهو لفظٌ عامٌّ أُريدَ بهِ الخصوصُ، رغم أنَّ الحديثَ عن قومٍ معهودين، وهم المشركونَ من أهلِ مكَّةَ وغيرهم، أي: طائفةٌ معروفةٌ من جنس النّاس من العرب الموالين لهم[2]؛ لأنَّ حالهم كان في بقيَّةِ البلاد كحالِهم فيها أو قريبًا من ذلك[3].

معنى الفاءِ ودلالتها:

تفريعُ الإيواءِ على استضعافِ النّاسِ للمؤمنينَ

(الفاء) حرفُ عطفٍ وتفريعٍ؛ لكون ما قبلها ﴿إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ﴾ أي: قلَّةُ المسلمين وضعفُهم وخوفهم وهوانهُم هو علَّةٌ لما بعدَها، وهو قولهُ تعالى: ﴿فَـَٔاوَىٰكُمْ﴾، وهذه الجملةُ الفعليَّةُ في محلِّ الجرِّ معطوفةٌ مفرَّعةٌ على الجملة الاسميَّةِ في قوله: ﴿إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ﴾ على كونِها مضافًا إليه لـ ﴿إِذْ﴾.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 320/9.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 319/9.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 259/8.

دلالةُ استعمالِ لفظِ الإيواءِ:

أعظمُ المِنَنِ التي تظهرُ في ثنايا المِحنِ

يدلُّ استعمالُ النَّظمِ لِلَفظِ الإيواءِ ﴿فَـَٔاوَىٰكُمۡ﴾ بعد ذكرِ خوفِ التَّخطُّفِ ﴿تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ﴾ على عظيمِ رحمتِه وفضلِه ومنَّتِه وتشريفِه لهم سبحانَهُ؛ لأنَّها أتت في وقتٍ هو أشدُّ ما يكون فيه خوفٌ وضعفٌ وهوانٌ على النّاس وحاجةٌ إلى العطفِ والحمايةِ والسَّندِ؛ إذ إنَّ أعداءهم يأخذونَهم، ويفتكون بهم بدونِ كبرى مشقَّةٍ ولا طولِ محاربةٍ؛ إذ كانوا أشدَّ قوَّةً منهم.

بلاغةُ التَّوسُّطِ بين الكَمالَيْن:

تكاملٌ بين الإيواءِ والتَّأييدِ يبرزُ عظمةَ المنعمِ ورحمتَهُ

بين قولِه تعالى: ﴿فَـَٔاوَىٰكُمۡ﴾ وقولِه تعالى: ﴿وَأَيَّدَكُم﴾ توسُّطٌ بين الكمالينِ لاشتراكِهما في الإنشائيَّةِ، ووجودِ التَّناسُبِ والارتباطِ بينهما؛ إذ إنَّ كلًّا من الإيواءِ والتَّأييدِ نِعمةٌ من اللهِ يكمل بعضها بعضًا؛ فالإيواءُ: ضمٌّ ضعيفٍ مع رأفةٍ وشفقةٍ عليه، والتَّأييدُ: هو تقويتُهُ وحفظُهُ.

علَّةُ حَذْفِ المتُعلَّقات وذكرها:

بيانُ عمومِ أثرِ الإيواءِ في المؤمنينَ

حذفَ البيانُ القرآنيُّ مُتعلَّقَ فِعْلِ ﴿فَـَٔاوَىٰكُمۡ﴾؛ فلم يقل: (آواكم إلى المدينة) بخلافِ ﴿وَأَيَّدَكُم بِنَصۡرِهِۦ﴾ و﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ للإشارةِ إلى وفرةِ الدَّلالةِ في ﴿فَـَٔاوَىٰكُمۡ﴾؛ فالإيواءُ مِنَ اللهِ ﷻ يعني: المددَ والقوَّةَ والعنايةَ والرِّعايةَ، وغير ذلك، فلو أنَّهُ ذكرَ متعلّقَ الفعلِ لحصرِه بما ذكرَ، فأفادَ الحذفُ عمومَ أثرِ الإيواءِ فيهم.

معنى الباءِ ودلالتها:

تأييدُ اللهِ للمؤمنينَ مصاحبٌ للنَّصرِ

حرفُ الجرِّ (الباء) في قولِه تعالى: ﴿بِنَصۡرِهِۦ﴾ يحتملُ معْنَيين:

الأوَّلُ: الإلصاقُ، أي: إنَّ تأييدَ اللهِ لهم أتى ملتصقًا بنصرِه لا ينفكُّ عنهُ.

الآخرُ: المصاحبةُ، بمعنى (مع) وهو الأقربُ، والمعنى: أيَّدكم مصحوبين بنصرِه.

دلالةُ الإضافةِ:

قولهُ تعالى: ﴿بِنَصۡرِهِۦ﴾ اسمٌ معرَّفٌ بالإضافة، وهو من صيغِ العمومِ؛ لذا فإنَّ المعنى البلاغيَّ الَّذي تفيدُهُ هذه الإضافةُ هو عمومُ نصرِ اللّٰهِ تعالى، ليشملَ أنواعًا كثيرةً، فقد أيَّدهم بقوَّتِه، كما قالَ ابن عبّاس[1]، وأيَّدهم بمظاهرةِ الأنصارِ، وأيَّدهم بإنزالِ الملائكةِ يومَ بدرٍ[2]، وأيَّدهم بنصرهِ على الكفّارِ[3]، أو بغير ذلك، فيدخلُ فيه كلُّ نصرٍ مِنَ اللّٰهِ تعالى للمؤمنين، كما أنَّ هذهِ الإضافةَ ﴿بِنَصۡرِهِۦ﴾ تفيدُ التَّشريفَ، تشريفَ هذا النَّصرِ وتشريفَ المنصورين، وأنَّهُ واردٌ من القادرِ سبحانَهُ، فهو قوَّةٌ وعزَّةٌ ورحمةٌ ربّانيَّةٌ، وتدلُّ على إسنادِ التَّأييدِ بالنَّصرِ إلى اللّٰهِ.

نصرُ اللهِ يعمُّ أشكالًا عديدةً تدلُّ على مِنَنٍ مديدةٍ

بلاغةُ ترتيبِ الأفعالِ:

في هذه النِّعمِ رابطٌ يصلُ بعضُها ببعضٍ، ويسمحُ للواوِ أن تجمعَ بينها، فهؤلاءِ قومٌ كانوا قليلين مستضعفينَ، يخشونَ أن يُفتكَّ بهم، ويسلبهم الحرّيَّةَ، فلا جرمَ كانت نعمةُ الأمنِ لها المكانُ الأوَّلُ بين نعمِ اللّٰهِ عليهم، ولم يقفِ الأمرُ عند حدِّ الأمنِ، بل زادَ عليهِ أن أيَّدَهُم بنصرِه، ولم تنتهِ نعمُهُ عند حدِّ الطُّمأنينةِ والغلبِ، بل رزقَهم رغدَ العيشِ، وطيِّباتِ الحياةِ[4].

الأمنُ جالبٌ للنَّصرِ، والنَّصرُ طريقُ الظَّفرِ

بلاغةُ الوصلِ:

وُصِلَ بين الجملِ ﴿فَـَٔاوَىٰكُمۡ﴾ و﴿وَأَيَّدَكُم﴾ و﴿وَرَزَقَكُم﴾، أي: عُطفتِ الجملتانِ الخبريَّتانِ ﴿وَأَيَّدَكُم﴾ و﴿وَرَزَقَكُم﴾ على قولهِ: ﴿فَـَٔاوَىٰكُمۡ﴾ الَّتي في محلِّ جرٍّ؛ لأنَّها جملٌ متغايرةٌ، وتشتركُ في المعنى، وهو التَّذكيرُ بنعمةِ اللّٰهِ على المؤمنينَ: الأمنُ بعد الخوفِ،

(1) الواحدي، التفسير البسيط: 105/10.
(2) البغوي، معالم التنزيل في تفسير القرآن: 347/3.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 17/4.
(4) أحمد البدوي، من بلاغة القرآن: 136.

الكثرةُ بعد القلَّةِ، والقوَّةُ بعدَ الضَّعفِ، ومن محسِّناتِ هذا الوصلِ هنا تناسبُ الجملتينِ في المُضيِّ[1].

بلاغةُ الإدماجِ:

الإشعارُ بسَعَةِ الرِّزْقِ تطييبٌ لخواطرِ المحاويجِ

في قولِه تعالى: ﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ إدماجٌ بذكرِ نعمةِ توفيرِ الرِّزقِ في خلالِ المنَّةِ بنعمةِ النَّصرِ وتوفيرِ العددِ بعد الضَّعفِ والقلَّةِ، فإنَّ الأمنَ ووفرةَ العددِ يجلبانِ سعةَ الرِّزقِ[2]، أي: قَرَنَ بين الغرضِ المسوقِ لهُ الكلامُ، وهو تحقيقُ الأمنِ ووفرةِ العددِ، والغرضِ الآخرِ، وهو سعةُ الرِّزقِ، بدونِ تكلُّفٍ.

دلالةُ حرفِ ﴿مِّنَ﴾:

الإيماءُ إلى طيِّباتٍ لم تأتِ

حرفُ الجرِّ ﴿مِّنَ﴾ في قولِه تعالى: ﴿مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ للتَّبعيض، وهي تفيدُ التَّحفيزَ على الشُّكرِ؛ لأنَّ ما أكرمَهم به من إحلالِ الغنائمِ أو الحلالِ من الرِّزقِ هو جزءٌ من الطَّيِّبات الَّتي أعدَّها لهم، ففيه إيماءٌ لأرزاقٍ لم تأتِ، وأعظمُها رزقُ الجنَّةِ.

فائدةُ التَّعبيرِ بالطَّيِّباتِ:

الطَّيِّباتُ هي غنائمُ لم تَطِبْ إلّا لهذهِ الأمَّةِ أو حلالٌ توافقُهُ الفطرةُ

عبَّرَ القرآنُ بالطَّيِّباتِ دونَ مرادفاتِها للإشارةِ عند من فسَّرها بالغنائمِ الكاملةِ الطَّيِّبة بالإحلال وعدم المنازع[3]إلى أنَّها لم تحِل، ولم تطِب إلّا لهذه الأمَّةِ، وأنَّها من خصائِصها، وعند من فسَّرها بالحلال من الرِّزق[4] إلى طيب هذا الرِّزقِ، وأنَّهُ ليس بخبيثٍ؛ فقد جعلَهُ ملائمًا للطِّباع، شهيًّا للأرواحِ، نافعًا للإشباعِ، "وتقولُ العربُ: طابَ لي هذا، أي: فارقَتْهُ المكارهُ"[5].

(1) من محسِّنات الوصل: أن تتناسبَ الجملتانِ في الاسميَّةِ والفعليَّةِ، وفي المُضي والمضارعة، وفي الأمر والنَّهي، وفي الإطلاقِ والتَّقييدِ. يُنظر: القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة، ص: 160.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 320/9.

(3) الزمخشري، الكشاف: 213/2، والبقاعي، نظم الدرر: 206/3.

(4) ابن أبي زمنين، تفسير القرآن العزيز: 173/2.

(5) السمين الحلبي، عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ: 429/2.

بلاغةُ المقابلةِ:

تقابلٌ بينَ الأحوال المتضادَّةِ تستوجبُ الأعمالَ الجادَّةَ

المقابلةُ من المحسِّناتِ البديعيَّةِ، وفي الآيةِ مقابلةٌ بين القلَّةِ والإيواءِ؛ لأنَّ القلَّةَ يحتاجونَ إلى إيواءٍ، والضَّعفِ والتَّأييدِ؛ فالضَّعيفُ يحتاجُ إلى تأييدِ القويِّ، والخَوْفِ والرِّزقِ؛ فمن أعظمِ أسبابِ الخوفِ: ذهابُ الرِّزقِ، فالآيةُ الكريمةُ اشتملتْ في صدرِها على ثلاثةِ معانٍ يقابلُها في آخرِها ثلاثة معانٍ على التَّرتيبِ، ففي صدرِها القلَّةُ والضَّعفُ والخوفُ قابلها الإيواءُ والتَّأييدُ والرِّزقُ.

علَّةُ الفصلِ:

الشُّكرُ علَّةٌ لإتمامِ النِّعمِ

فصلَ القرآنُ قولهُ: ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ عمّا قبلَها، أي: لم يأتِ بحرفِ العطفِ الواوِ؛ لأنَّهُ لا يُرادُ عطفُ الجملةِ على ما قبلَها، وإنَّما الغرضُ هنا من مجيءِ لعلَّ دونَ أن تُسبقَ بواوٍ إفادةُ معنى التَّعليلِ، فقولُهُ: ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ بيانٌ لحكمةِ الأمرِ بتذكُّرِ النِّعمِ، وأنَّهُ في قوَّةِ المفعولِ لأجلِهِ لـ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ﴾؛ ولذا فسَّرها الزمخشريُّ وأبو حيّانَ بإرادةِ أن تشكروا نعمَ اللهِ[1]، وفسَّرها البقاعيُّ بقولِه: "ليكونَ حالُكم حالَ من يُرجى شكرُهُ"[2].

غرضُ استعمالِ حرفِ التّرجي:

إيقاعُ رجاءِ الشُّكرِ في المخاطَبينَ

سبقتْ ﴿تَشْكُرُونَ﴾ بـ (لعلَّ) لتحقُّقِ الغرضِ البلاغيِّ منها في إحكامِ معنى الفاصلةِ، وهو إبرازُ المتَمَنَّى في صورةِ المُمَكَّنِ المطْموعِ فيهِ، بغيةَ الإشعارِ بكمالِ العنايةِ بهِ، والتَّلهُّفِ على الحصولِ عليه، أو تحقيقه[3].

بلاغةُ الفاصلةِ القرآنيَّةِ:

نِعَمُ اللهِ تعالى تستلزمُ شكرَهُ

أفادتِ الفاصلةُ ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ إحكامَ اللَّفظِ وإحكامَ المعنى، أمّا إحكامُ اللَّفظِ؛ ففي التَّطريبِ وراحةِ النَّفسِ بإعطائِها

(1) الزمخشري، الكشاف: 213/2، وأبو حيان، البحر المحيط: 307/5.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 206/3.
(3) عبد الرحمن، البلاغة اللغوية، ص: 252.

نغمًا خاصًّا؛ إذ خُتِمت بالواوِ والنّونِ، والواو من حروفِ المدِّ الَّتي هي من الحروفِ الطَّبيعيَّةِ في الجرس، وتسمَّى بالهوائيَّة والجوفيَّة، وبذلكَ تكونُ مناسبةً للمقام، وهو مقام تذكُّرِ النِّعم ووجوبِ شكرِها، وهذ يقتضي جوًّا هادِئًا تتحقَّقُ فيهِ الرّاحةُ النَّفسيَّةُ.

وأمّا إحكامُ المعنى وإكماله؛ فقد جاءت الفاصلةُ مكينةً مستقرَّةً في مكانِها، مطمئنَّةً غيرَ نافرةٍ ولا قلقة، بل تشكِّلُ جزءًا من المعنى؛ فقد مهَّدتِ الآيةُ بمعنًى يناسبُ الفاصلةَ، فإنَّهُ لمّا ذكرَ نعمةَ الإيواءِ والتَّأييدِ والرِّزقِ الطَّيِّب؛ أثارَ في الذِّهن ما تستلزمُهُ هذهِ النِّعمُ، وهو الشُّكر، فكان ذلك توطئةً لورودِ الفاصلةِ الَّتي دخلتْ عليها (لعلَّ)، يقولُ الرّازي: "لعلَّكم تشكرونَ، أي: نقلناكم من الشِّدَّة إلى الرخاء، ومن البلاءِ إلى النَّعماءِ والآلاءِ، حتى تشتغلوا بالشُّكرِ والطّاعةِ، فكيفَ يليقُ بكم أن تشتغلوا بالمنازعةِ والمخاصمةِ بسببِ الأنفالِ؟"[1].

نكتةُ التَّعبيرِ بالفعلِ المضارعِ:

النِّعمةُ صَيْدٌ شُكرُها قيْدٌ

استعمل القرآنُ صيغةَ المضارعِ المسبوقِ بـ(لعلّ) في قولِه: ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ للتَّنبيهِ على ضرورة استمرارِ الشُّكرِ حتَّى تدومَ النِّعمُ، وألّا يحيدوا عن أسبابِ بقاءِ عزِّهم، قال ابنُ عاشور: "وقد نبَّههم اللّهُ تعالى بقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾، فلمّا أعطوا حقَّ الشُّكرِ؛ دامَ أمرُهم في تصاعدٍ، وحينَ نسوهُ أخذَ أمرهم في تراجعٍ، وللّهِ عاقبةُ الأمورِ"[2].

غرضُ حذفِ المفعولِ بهِ:

العمومُ يدلُّ على كُنْهِ الشُّكرِ المطلوبِ

ذِكرُ المفعولِ بهِ يؤدّي إلى تخصيصِ الشُّكر بأمرٍ واحدٍ؛ من الإيواء أو التَّأييد بالنَّصرِ أو تحليل الغنائم، وهذا مُخلٌّ بالإفصاحِ عن كُنْهِ المطلوبِ منهم، وهو الشُّكرُ على جميعِ نعمهِ الَّتي لا تعدُّ ولاتحصى.

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 474/15.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 321/9.

وخاصة أنَّ ألفاظَ الآيةِ الكريمةِ الَّتي سبقت ﴿تَشْكُرُونَ﴾ تمتازُ بوفرةِ الدَّلالةِ ﴿فَـَٔاوَىٰكُمْ﴾ و﴿وَأَيَّدَكُم﴾، و﴿وَرَزَقَكُم﴾، فالإيواءُ والتَّأييدُ من اللهِ ﷻ تعني: المددَ والقوَّةَ والعنايةَ والرِّعايةَ، وبالتّالي جاء ﴿تَشْكُرُونَ﴾ محذوفَ المفعولِ نتيجةً لهذهِ النِّعمِ المتعدِّدةِ التي تستحقُّ الشُّكرَ والاعترافَ بفضلِ اللهِ عليهم.

نكتةُ إيثارِ الصِّيغِ الفعليَّةِ:

في عرضِ أحوالِ المسلمين في حالتينِ مختلفتينِ: حالةِ الذِّلَّةِ (الاستضعاف والخوف وتخطُّف النّاس لهم) وحالةِ العزَّةِ ﴿فَـَٔاوَىٰكُمْ﴾ و﴿وَأَيَّدَكُم﴾، و﴿وَرَزَقَكُم﴾ و﴿تَشْكُرُونَ﴾، وفي ذلك دلالةٌ على التَّحوُّلِ والتَّغييرِ الَّذي تناسبهُ صيغُ الأفعالِ أكثرَ ممّا تناسبُهُ الأسماءُ الَّتي تفيدُ الثُّبوتَ والدَّوامَ، وهذا من بلاغةِ التَّناسبِ بين صيغِ الألفاظِ ومعانيها ودلالاتِها.

تغيُّرُ الأحوالِ تناسبُهُ صيغُ الأفعالِ الَّتي تدلُّ على الحدوثِ والتَّجدُّدِ

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الذُّكر والذِّكر:

الذُّكرُ بالضَّمِّ: ضدُّ النِّسيانِ، يقالُ: اجعلْهُ منكَ على ذُكرٍ بضَمِّ الذّالِ، أي: لا تنسَهُ، والذِّكْرُ: يكونُ باللِّسانِ وبالقلبِ، وذِكْرُ الحقِّ بالكسرِ: هو الصَّكُّ (لحفظ الحقِّ فيهِ ثابتًا قويًّا لا يُجحدُ، ولا ينسى)، والمبنيُّ للمفعولِ ومضارعه وفعل الأمرِ من (ذكر) أكثرهُ لِذكْرِ اللِّسانِ، وبَعْضُهُ لِلذِّكرِ ضدَّ النِّسيانِ، أو يصلحُ لهما معًا.

والذِّكرُ بالكسرِ: الصّيتُ والثَّناءُ، والعلاءُ والشَّرفُ، يقالُ: رجلٌ ذَكِرٌ وذكيرٌ، أي: جيِّدُ الذِّكرِ شَهمٌ، ومنهُ قولهُ تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۝٤﴾ [الشرح: 4][1].

الذُّكرُ: استحضارٌ وعدمُ نسيانٍ، وذِكرٌ باللِّسانِ، والذِّكرُ: صيتٌ وثناءٌ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ذكر)، وابن الجوزي، نزهة الأعين النواظر، ص: 302، وابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (ذكر).

مادَّةُ الكلمتين واحدةٌ، وهي الدّالُ والكافُ والرّاءُ، وقد يجتمعُ المعنيانِ معًا، كما في وصف كتابِ اللّهِ تعالى بالذِّكر؛ لكونهِ محفوظًا شريفَ القدرِ، ولما فيهِ من تذكيرٍ بما تضمَّنَ من قصصٍ ومواعظَ، والفرقُ بين اللَّفظينِ يحدِّدُهُ السّياقُ[1].

الإيواءُ والالتجاءُ:

الإيواءُ: المعنى المحوريُّ للإيواءِ: ضَمٌّ مع ضعفٍ ما، كالحاجةِ إلى حمايةٍ أو راحةٍ أو إحساس الآوي بحاجةِ المأويِّ إلى العطفِ ونحوهِ، فالإيواءُ ضمٌّ مع إشفاقٍ على المأويِّ، وأكثر ما في القرآنِ من هذا التركيبِ يرجعُ إلى هذا المعنى، وأمّا ما جاءَ مع أصحابِ النّارِ من معنى المأوى، كقولهِ تعالى: ﴿وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ﴾ [آل عمران: 151] ففيهِ معنى الضَّمِّ ومعنى التَّهكُّم أيضًا[2].

الإيواءُ: ضمٌّ المأوي مع الشَّفقةِ، والالتجاءُ: استنادُ اللّاجئِ إلى حصنٍ قويٍّ

والالتجاءُ: يقالُ: لجأْتُ والتجأْتُ، والملجأُ: الحيِّزُ القويُّ الحصين، يحفظُ ويمسكُ ما يلوذُ بهِ، ويدخلهُ، كالمعقِل لهُ، ولجأ إلى اللّهِ: استندَ إليهِ، ودخلَ في حماهُ، والتجأْتُ إلى اللّهِ: استندْتُ إليهِ، واعتضدْتُ بهِ، وقولُهُ تعالى: ﴿وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلۡجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ﴾ [الشورى: 47] أي: عَلِموا أنَّ اللّهَ وحدَهُ هو الرُّكنُ الشَّديدُ الحصينُ[3].

كلا اللَّفظين فيهما معنى الحاجةِ إلى الحمايةِ والسَّندِ والحصنِ القويِّ، ولكن يمكنُ ملاحظةُ بعض الملامحِ المميِّزة لكلِّ لفظٍ:

فالإيواءُ: إحساسُ الآوي بحاجةِ المأويِّ إلى الحمايةِ والعطفِ، فيكونُ إيواؤُهُ له ضَمًّا مع إشفاقٍ عليهِ وحفظهِ ورعايتهِ.

وأمّا الالتجاءُ: فهو إحساسُ اللّاجئِ بالحاجةِ إلى السَّندِ والحمايةِ والحصنِ المنيعِ.

---

(1) محمد داود، معجم الفروق الدلالية، ص: 389.

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أوى)، والراغب، المفردات، ص: 43، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (أوى).

(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (لجأ).

وكأنَّ الالتجاءَ هو الخطوةُ الأولى، وتكونُ من اللّاجِئ باتِّجاهِ الآوي، ويكونُ الإيواءُ استجابةً لطلبِ اللّاجِئ وضمِّه والإشفاقِ عليهِ وحمايتِه، وقد يكونُ هناكَ التجاءٌ، ولا يكونُ إيواءٌ؛ إذا لم تتمَّ الاستجابةُ من الملتجِئ إليهِ.

المحتويات

الجزء التاسع 7

سورة الأعراف 9

- [الأعراف: 164] 10
- [الأعراف: 165 - 166] 25
- [الأعراف: 167] 46
- [الأعراف: 168] 58
- [الأعراف 169] 69
- [الأعراف: 170] 89
- [الأعراف: 171] 97
- [الأعراف: 172] 112
- [الأعراف: 173] 129
- [الأعراف: 174] 138
- [الأعراف: 175] 144
- [الأعراف: 176] 157
- [الأعراف: 177] 172
- [الأعراف: 178] 180
- [الأعراف: 179] 188
- [الأعراف: 180] 209
- [الأعراف: 181] 223
- [الأعراف: 182] 231
- [الأعراف: 183] 236
- [الأعراف: 184] 241
- [الأعراف: 185] 249
- [الأعراف: 186] 264
- [الأعراف: 187] 271
- [الأعراف: 188] 291
- [الأعراف: 189 - 190] 311
- [الأعراف: 191 - 193] 342
- [الأعراف: 194] 361
- [الأعراف: 195] 371
- [الأعراف: 196] 382
- [الأعراف: 197] 394
- [الأعراف: 198] 404
- [الأعراف: 199] 415
- [الأعراف: 200] 431
- [الأعراف: 201] 443
- [الأعراف: 202] 459
- [الأعراف: 203] 470
- [الأعراف: 204] 488
- [الأعراف: 205] 496
- [الأعراف: 206] 508

سورة الأنفال 519

- [الأنفال: 1] 535
- [الأنفال: 2] 551
- [الأنفال: 3] 566
- [الأنفال: 4] 573
- [الأنفال: 5] 582
- [الأنفال: 6] 592
- [الأنفال: 7] 603
- [الأنفال: 8] 614
- [الأنفال: 9] 619
- [الأنفال: 10] 630
- [الأنفال: 11] 642
- [الأنفال: 12] 657
- [الأنفال: 13] 669
- [الأنفال: 14] 682
- [الأنفال: 15 - 16] 689
- [الأنفال: 17] 702
- [الأنفال: 18] 717
- [الأنفال: 19] 724
- [الأنفال: 20] 737
- [الأنفال: 21] 746
- [الأنفال: 22] 751
- [الأنفال: 23] 758
- [الأنفال: 24] 767
- [الأنفال: 25] 782
- [الأنفال: 26] 790

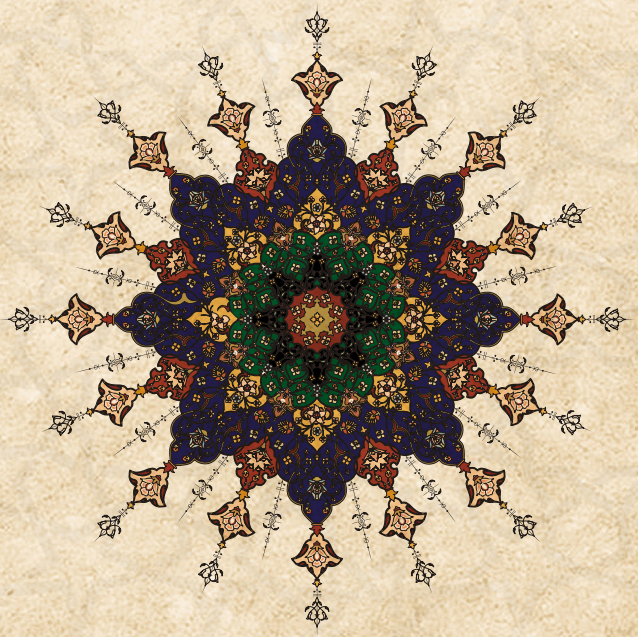

مجمع القرآن الكريم بالشارقة

موسوعة التفسير البلاغي

المُجَلَّدُ السَّادِسَ عَشَرَ

سورة الأنفال من الآية 27 إلى سورة التوبة الآية 22

موسوعة التفسير البلاغي

Government of Sharjah حكومة الشارقة
مجمع القرآن الكريم بالشارقة
HOLY QURAN ACADEMY IN SHARJAH

موسوعة التفسير البلاغي

المُجلَّدُ السَّادِسَ عَشَرَ

سورة الأنفال من الآية 27 إلى سورة التوبة الآية 22

نُخبَةٌ مِنْ عُلَماء مَجمَعِ القُرآنِ الكَريمِ بِالشّارِقَةِ

منشورات القاسمي
AL QASIMI PUBLICATIONS
20/24

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد السادس عشر، سورة الأنفال من الآية 27 إلى سورة التوبة الآية 22
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد السادس عشر، سورة الأنفال من الآية 27 إلى سورة التوبة الآية 22
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 16 ، 804 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-12-8
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 16 : المجلد السادس عشر، سورة الأنفال من الآية 27 إلى سورة التوبة الآية 22.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث ج- المستغانمي، امحمد صافي

الترقيم الدولي : 978-9948-768-12-8
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-9828150 بتاريخ 2024/01/18م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الجُزْءُ التَّاسِعُ

سُورَةُ الأَنفَالِ

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَـٰنَـٰتِكُمۡ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٢٧﴾ [الأنفال: 27]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

تحذيرٌ ونهيٌ عن الخيانةِ بعدَ النِّعمِ وحصولِ شكرِها

في مناسبةِ هذهِ الآيةِ لما قبلَها وجهانِ:

الأوَّلُ: لمّا ذكرَ اللهُ بعضَ أسبابِ النَّصرِ؛ ذكرَ سببًا من أسبابِ الهزيمةِ، وهو الخيانةُ، فحذَّرَ المؤمنينَ من أن يُظهِروا الطّاعةَ والاستجابةَ في ظاهرِ أمرِهم، ويُبطِنوا المعصيةَ والخلافَ في باطنِه.

الآخر: لما ختمَ الآيةَ السّابقةَ، وهو في غايةِ النَّصيحةِ منه تعالى لهم من الإيواءِ والنَّصرِ والرِّزقِ الطَّيِّبِ المشارِ بهِ إلى الامتنانِ بإحلالِ المنعمِ، وختمَ ذلك بالحثِّ على الشُّكرِ؛ نهى في هذهِ الآيةِ عن تضييعِ الشُّكرِ في ذلك بالخيانةِ في أوامرِه بالغلولِ أو غيرِه، فقال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ تذكيرًا بما ألزموا بهِ أنفسَهم من الوفاءِ[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تَخُونُواْ﴾: الخاءُ والواوُ والنّونُ: أصلٌ واحد، وهو التَّنقُّصُ، يقال: تخوَّنني فلانٌ حقَّي، أي: تنقَّصني[2].

و"الخيانةُ والنِّفاقُ واحدٌ؛ إلا أنَّ الخيانةَ تقالُ اعتبارًا بالعهدِ والأمانةِ، والنِّفاق يقالُ اعتبارًا بالدّين، ثمَّ يتداخلانِ، فالخيانةُ: مخالفةُ الحقِّ بنقصِ العهدِ في السِّرِّ، ونقيضُ الخيانةِ: الأمانةُ"[3].

والخيانةُ ضدُّ الوفاءِ، فأصلُ معنى الخونِ النَّقصُ، كما أنَّ أصلَ الوفاءِ التَّمامُ، واستُعمِلَ الخونُ في ضدِّ الوفاءِ؛ لأنَّك إذا خُنْتَ الرَّجلَ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 8/261.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (خون).
(3) الراغب، المفردات: (خون).

في شيءٍ؛ فقد أدخلْتَ عليهِ النُّقصانَ - في زعمك -، واستُعمل الوفاءُ في الإتمامِ بالعهدِ؛ لأنَّ من أنجزَ بما عاهدَ عليهِ؛ فقد أتمَّ عهدَهُ[1].

ومعنى ﴿لَا تَخُونُواْ﴾: لا تنقضوا الأمانةَ، وما كُلِّفْتُم به، بل أدّوا التكاليفَ بأسرِها على سبيل التَّمامِ والكمالِ من غيرِ نقصٍ ولا إخلالٍ، والخيانةُ تشملُ كلَّ معصيةٍ خفيَّةٍ[2].

2) ﴿أَمَٰنَٰتِكُمۡ﴾: الهمزةُ والميمُ والنّونُ: أصلانِ متقاربانِ، أحدُهما: الأمانةُ الَّتي هي ضدُّ الخيانةِ، والآخرُ: التَّصديقُ، والأمانة: الوديعةُ الَّتي تودَعُ عند من يحفظُها كأنَّ معنى اسمِها: الَّتي ينبغي أن تحفظَ في حرزٍ أوثقَ الحفظِ، ومؤتمَنُ القومِ: الَّذي يثقونَ بهِ، ويتَّخذونَهُ أمينًا حافظًا، فالأمانةُ تقعُ على الطّاعةِ والعبادةِ والوديعةِ والثِّقةِ والأمانِ[3].

ومعنى ﴿أَمَٰنَٰتِكُمۡ﴾: أداءُ كلِّ حقٍّ مادّيٍّ أو معنويٍّ إلى أهلهِ، ومن الأمانةِ أداءُ ما ائتُمِنوا عَليهِ من الطّاعةِ والامتثالِ وعدمِ الخيانةِ[4].

المَعْنى الإجْماليُّ:

يخاطبُ اللّهُ الَّذين من شأنِهم أن يتقبَّلوا ما سيؤمرونَ بهِ، فقد صدَّقوا اللّه ورسوله، مكرِّرًا فيهم النِّداء بقصدِ الوعي والاعتناءِ والاهتمامِ، فنهاهُم عن معصيةٍ خفيَّةٍ تنقضُ عهدَ الإيمانِ بينَ المؤمنِ وربِّه، وهي خيانةُ العظيمِ سبحانه بتعطيلِ فرائضِه والاعتداءِ على حدودهِ وانتهاكِ محارمِه التي بيَّنها في كتابهِ، ومنها الغلولُ في الغنائِم، وكذلك نهاهُم عن خيانةِ رسولهِ ﷺ فيرغبون عن بيانِه للقرآنِ إلى بيانهِ بأهوائِهم، أو ترك سنَّتِه، أو إفشاءِ سرِّه للمشركين

الخيانةُ خُلُقٌ كاسرٌ وطريقٌ خاسرٌ وسلوكٌ حاسرٌ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/322.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 15/475، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/322.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (أمن).
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/324، والمراغي، تفسير المراغي: 9/192.

وأعداءِ الدّين، وكذلك نهاهم عن خيانةٍ من نوعٍ آخرَ، وهي نقضُ الوفاءِ بأداءِ ما ائتمِنوا عليه، وخيانةِ بعضِهم بعضًا، فمن يخونُ غيرَهُ في أمانةٍ له إنَّما يخونُ أمَّتَهُ التي هو جزءٌ منها؛ لأنَّ للأمانةِ شأنًا عظيمًا في استقامةِ أحوالِ المسلمين[1].

ويختمُ اللّهُ نداءَهُ، وتحذيرهُ ببيانِ أمرٍ مُهمٍّ، وهو أنَّ إقدامَ الإنسانِ على الخيانةِ، وقد علمَ بفطرته أهميَّة الأمانةِ، وعلمَ بشرعِ اللّهِ عِظمها وقبح خيانتها، أو كان من أهلِ العلمِ والمعرفة، هو أمرٌ قبيحٌ شنيع، وفي هذا البيانِ دعوةٌ إلى الامتناعِ عن التَّفريطِ بالأمانةِ.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ الاستئنافِ:

الاستئنافُ في قولهِ تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ يحقِّقُ اتِّساقَ النَّظمِ القرآنيِّ، فإنَّهُ وإن انقطعت الصِّلةُ الإعرابيَّةُ بين هذهِ الجملةِ المستأنفةِ والجملةِ الَّتي قبلَها، إلّا أنَّهُ لم تنقطعِ الصِّلةُ المعنويَّةُ بينهما، فبعدَ أن أمرَ المؤمنينَ بالطّاعةِ والاستجابةِ للّهِ ولرسولهِ ﷺ يهجسُ في النَّفسِ طلبُ معرفةِ حكم من يُظهرونَ الطّاعةَ والاستجابةَ في ظاهرِ أمرِهم ويبطنونَ المعصيةَ، فنهتِ الآيةُ نهيًا مقصودًا منه التَّحذيرُ؛ إذ لم تسبق من المخاطبينَ خيانةٌ[2].

التَّحذيرُ من الخيانةِ منهجٌ تربويٌّ لا اتِّهامٌ ضمنيٌّ

نكتةُ تَكرارِ النِّداءِ:

الآيتانِ السّابقتانِ لم يتصدَّرْهما نداءُ المؤمنين اكتفاءً بما وردَ في قوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ﴾، أمّا هذه الآيةُ؛ فقد تكرَّر فيها النِّداءُ، ولم يكتفِ النَّظمُ بالمتقدِّم؛ لنكتةٍ، وهي الاعتناءُ بمضمونِ الآيةِ، والاهتمامُ بما سيُلقى على المخاطبين،

نعتُ الإيمانِ لا يجتمعُ مع خيانةٍ ولا يقترنُ بجنايةٍ

(1) الآلوسيُّ، روح المعاني: 3/183، والقاسمي، محاسن التأويل: 5/279.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/321.

قصدًا لتنبيههم على خطيرِ أمرِ الخيانةِ، وأنَّ المؤمنَ الَّذي نودي بنعتِ الإيمانِ لا تكونُ منه خيانةٌ.

فائدةُ نِداءِ المؤمنين بالاسمِ الموصولِ:

تعريفُ المؤمنينَ بالموصوليَّةِ يؤذِنُ باستعدادِهم لامتثالِ ما يأمرُهم اللهُ به

نادى اللهُ المؤمنينَ بالاسمِ الموصولِ (الذين) في قولِه: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾؛ للتَّنبيهِ على أنَّ الموصوفين بهذهِ الصِّلةِ من شأنهم أن يتقبَّلوا ما سيؤمرونَ بهِ، يقولُ ابن عاشور: "وجعلَ طريقَ تعريفِ المنادى طريقَ الموصوليَّة لما تؤذنُ بهِ الصِّلة من الاستعدادِ لامتثال ما يأمرُهم به اللهُ تعالى؛ لأنَّ ذلك أخصُّ صفاتِهم تلقاءَ أوامرِ اللهِ تعالى، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ [النور: 51]"[1].

بلاغةُ ترتُّبِ النَّهي على النِّداءِ:

عِظمُ شأنِ المنهيِّ عنه وخطورتُهُ استدعتِ المبالغةَ والتَّأكيدَ بصيغةِ النِّداءِ

رَتَّبَ القرآنُ النَّهيَ عن خيانةِ اللهِ ورسوله والأماناتِ على النَّداء، أي: لم يأتِ النَّهيُ عن هذه المعصيةِ مباشرةً؛ لأنَّ المقامَ في الآيةِ هو المبالغةُ والتَّأكيد؛ فالنَّهي هو من اللهِ العظيم، والمخاطبونَ هم المؤمنونَ الَّذين صدقوا اللهَ ورسولَهُ، فمقامهم عظيمٌ، والفعلُ المنهيُّ عنه في هذا السِّياقِ - وهو خيانةُ اللهِ ورسوله والأمَّة - شأنُهُ عظيمٌ، والنَّهيُ بذلك كان عظيمًا؛ ولذلك سُبِقَ هذا النَّهيُ بالنِّداء بـ ﴿يَـٰٓأَيُّهَا﴾؛ لأنَّ فيها أوجهًا من التَّأكيدِ وأسبابًا من المبالغةِ، يحتاجها المقامُ، منها: ما في (يا) من التَّأكيد والتَّنبيه، وما في (ها) من التَّنبيهِ، وما في (أي) من التَّدرُّجِ من الإبهامِ إلى التَّوضيحِ.

ثُمَّ كان هذا النِّداءُ للَّذين آمنوا بما يحملُهُ من التَّأكيدِ والمبالغةِ، لتعظيمِ النَّهي الَّذي نُهوا عنه، ولاستثارةِ بواطنِهم وتحريكِ مشاعرِهم للامتناعِ عمّا نُهوا عنه.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/29.

غرضُ النَّهي:

الغرضُ البلاغيُّ للنَّهي في قولهِ تعالى: ﴿لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ﴾ هو التَّحذيرُ، والتَّشنيع، والتَّبشيع أن تقعَ خيانةٌ للّهِ ورسولهِ ﷺ كما يومئُ النَّهيُ إلى التَّوبيخِ والتَّأنيبِ لكلِّ من خانَ الأمانةَ، وخاصَّةً أنَّهم يعلمونَ مدى عِظَمِها عند اللّهِ، وامتناع السَّموات والأرض والجبال وإشفاقها من حملِها، ثم بعد ذلك يخونها، ولذا ختمَ الآية بقوله: ﴿وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾، قال ابنُ عاشور: "حذَّرهم من أن يُظهروا الطّاعةَ والاستجابةَ في ظاهرِ أمرِهم، ويُبطنوا المعصيةَ والخلافَ في باطنهِ، ومناسبتُهُ لما قبلَهُ ظاهرةٌ، وإن لم تسبق من المسلمين خيانةٌ، وإنَّما هو تحذيرٌ"[1].

التَّحذيرُ من خيانةِ اللهِ ورسولهِ والأمَّةِ بجميعِ صورِها

كما أنَّ النَّهي هنا يفيدُ العمومَ؛ لأنَّ الفعلَ في سياقِ النَّهي يعمُّ، فكلُّ خيانةٍ وأيُّ معصيةٍ خفيَّة فهي مرادُ هذا النَّهي[2]، وقد ذكر علماءُ التَّفسيرِ صورًا كثيرةً للخيانةِ إلّا أنَّ سياقَ هذهِ الآية وتناسقَها الموضوعيَّ مع بقيَّةِ موضوعاتِ السّورةِ تشيرُ إلى أنَّ المرادَ الأوَّل لمعنى الخيانةِ هنا هو الخيانةُ في الجهاد في سبيل اللّه، فالخيانةُ فيه من أعظمِ الخياناتِ، وكذا الخيانةُ بعدمِ طاعةِ وليِّ الأمرِ، وما يحصلُ من خيانةٍ في الغنائم وقسمتِها.

دلالةُ التَّعبيرِ بمفردةِ الخيانةِ:

عبَّرَ البيانُ القرآنيُّ بمفردةِ الخيانةِ دونَ غيرِها؛ لأنَّ معناها إبطالٌ، ونقض ما وقع عليه تعاقدٌ من دونِ إعلانٍ بذلك النَّقضِ، وهي ضدُّ الوفاءِ، ولمّا كان الإيمانُ والطّاعةُ للّهِ ورسولهِ عهدًا بين المؤمنِ وبينَ اللّهِ ورسولهِ؛ ناسبَ أن يستخدمَ مفردةَ الخيانةِ لنقضِ هذا العهدِ.

الخيانةُ معصيةٌ خفيَّةٌ تجرُّ إلى عظيمِ الخطايا

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/321.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/322.

كما أنَّ في اختيارِ مفردةِ الخيانةِ تحقيقًا لإيجازِ القصرِ؛ إذ إنَّ الخيانةَ على قلَّةِ مبانيها تدلُّ على كثرة معانيها، فتشملُ كلَّ معصيةٍ خفيَّةٍ، كما في قوله تعالى: ﴿يَعۡلَمُ خَآئِنَةَ ٱلۡأَعۡيُنِ وَمَا تُخۡفِي ٱلصُّدُورُ ١٩﴾ [غافر: 19]، ومنها ما وردَ في تفسير الآية من إفشاءِ أسرارِ المسلمين للكفّارِ، كما وردَ في سبب النُّزولِ، وقد فسَّر ابنُ عبّاسٍ خيانةَ اللّهِ: بتركِ فرائضِه، وارتكاب معاصيه، والأمانةَ: بكلِّ ما ائتمنَ اللّهُ عليهِ العبادَ بألّا ينقصوها [1].

بلاغةُ الاستعارةِ التَّصريحيَّةِ:

في قولهِ تعالى: ﴿لَا تَخُونُواْ﴾ استعارةٌ؛ لأنَّ معنى الخَون: النَّقصُ، كما أنَّ معنى الوفاءِ التَّمامُ، ومنه تخوَّنه؛ إذا تنقَّصَهُ، ثم استُعمل في ضدِّ الأمانةِ والوفاء، فصارت نقصًا خاصًّا؛ لأنَّ من خان في شيءٍ؛ فقد أدخلَ عليه النُّقصانَ فيهِ، فالخائنُ ينقصُ المخونَ شيئًا ممّا خانَهُ فيهِ[2]، فقد شبَّهَ سلوكَ عدمِ الوفاءِ بالحقوقِ بالخوْنِ، وهو النَّقْصُ، وصرَّحَ بهِ على سبيلِ الاستعارةِ التَّصريحيَّةِ، على الاستعمال الشّائعِ الَّذي أصبحَ حقيقةً عرفيَّةً، فتحقَّقَ في هذه الاستعارةِ المعنى اللُّغويُّ، وهو النَّقصُ والقُبحُ العرفيُّ في استعمال هذا اللَّفظِ لما هو على الضِّدِّ من معنى الوفاءِ والتَّمام، فالخائنُ ناقصٌ في تصوُّرِه وسلوكه، وليس بعد ذلك الذَّمِّ من ذَمٍّ.

الخائِنُ ناقصٌ في تصوُّرِه وسلوكِه وهـو في غـايـةِ الذَّمِّ القَبيحِ

فائدةُ التَّعبيرِ بالاسمِ الجليلِ:

عبَّر بالاسمِ الجليل في قولهِ: ﴿لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ﴾ دونَ غيرهِ من أسمائهِ الحسنى؛ لتربيةِ مهابتهِ وعظمته في النُّفوس التي ما خانتْ إلّا لضعفِ هذه العظمةِ في قلوبها، ولزيادةِ تبشيعِ هذا الفعلِ، فإنَّ الخيانة هي خيانةٌ لحقوقِ اللّهِ تعالى ابتداءً وانتهاءً، فمن شأنِ ذكرِ

مَن عظَّمَ اللهَ في قلبه؛ رعـاهُ في سائرِ أعمالِه

(1) رضا، تفسير المنار: 9/534.

(2) الزمخشري، الكشاف: 2/355، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 15/475، والبقاعي، نظم الدرر: 3/206.

الاسمِ الجليلِ، ارعواء المؤمن عنِ الإقدامِ على ما يُغضبُهُ، فإنَّ الخيانةَ مجلبةُ السُّخطِ والغضبِ.

نكتةُ العَطْفِ:

أفادَ العطفُ بالواوِ ثلاثةَ معانٍ، وهي:

خيانةُ الرَّسولِ ﷺ هي خيانةٌ لله سبحانهُ

الأوَّل: وجودُ تغايرٍ بينَ خيانةِ اللّهِ وخيانة الرَّسول ﷺ أي: فللهِ أمانةٌ فيما نصَّ عليها القرآنُ، لا تجوز خيانتُها، وللرَّسول أمانةٌ فيما لم ينصَّ عليه القرآنُ إلّا بتفويضٍ للرَّسول بأن يشرعَ، فإن أطعت الرَّسولَ، فقد أطعتَ اللّه[1].

الثّاني: وجودُ معنًى يجمعُ بينهما، وهو أنَّ طاعةَ اللّهِ هي طاعةٌ لرسولِهِ، وطاعةُ الرَّسولِ هي طاعةٌ للّهِ سبحانه.

الثّالث: ذِكْرُ الرَّسولِ بعد اللّهِ تعالى؛ لتعظيمِ شأنهِ وإظهارِ شرفهِ والإيذانِ بأنَّ خيانتَهُ ﷺ خيانةُ اللّهِ تعالى، وقال غيرُ واحدٍ: إنَّ الجمْعَ بينَ اللّهِ تعالى ورسولِهِ ﷺ أوَّلًا؛ لأنَّ اختصاصَ اللّهِ تعالى بالأمرِ، والرَّسولِ ﷺ بالامتثالِ[2].

سرُّ التَّعريفِ بـ (ال) لا بالإضافَةِ:

مخالفةُ الشَّرائعِ المنسوخةِ ليستْ خيانةً للهِ تعالى

عرَّفَ البيانُ الإلهيُّ كلمةَ (رسول) بأل التَّعريف لا بالإضافة، فلم يقل: (ورسوله)، والحكمةُ من ذلك إفادةُ أنَّ المقصودَ من الرَّسولِ هو سيِّدنا محمَّد ﷺ لأنَّ لام التَّعريف هنا لامٌ عهديَّةٌ، والمعهودُ مفردٌ فلا يقصدُ بهِ العمومُ، بخلافِ (رسوله) فهو معرَّفٌ بالإضافةِ، وهي من صيغ العموم، وبالتّالي فالمعنى: أنَّ للرسول محمَّد ﷺ أمانةً فيما لم ينصَّ عليه القرآنُ إلّا بتفويض قائلِ القرآنِ للرَّسول بأن يشرِّعَ الشَّريعةَ النّاسخة والخاتمة لكلِّ الشَّرائع، فلا طاعةَ لشرعٍ يخالفها، وخاصَّة أنَّ الخطابَ للمؤمنين أتباعِ النَّبيِّ الخاتمِ ﷺ.

(1) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 8/4665.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 5/154.

دلالةُ تَكرار الألفاظ:

تهاونُ النّاسِ بخيانةِ النّاسِ يستدعي تنبيهًا خاصًّا دافعًا لهُ

أعادَ ذكرَ الفعلِ ﴿تَخُونُواْ﴾، ولم يكتفِ بحرفِ العطفِ، الصّالح للنّيابة عن العاملِ في المعطوفِ؛ للتَّنبيهِ على نوعٍ آخرَ من الخيانة، فإنَّ خيانتهم اللّه ورسولَهُ نقضُ الوفاءِ لهما بالطّاعةِ والامتثال، وخيانةُ الأمانةِ نقضُ الوفاء بأداء ما ائتمِنوا عليهِ من أماناتِ النّاس، أي: الأمَّةُ كلُّها، فمن يخونُ غيرهُ في أمانة له إنَّما يخونُ في المآل أمَّتَهُ التي هو جزءٌ منها[1]، فترجعُ الخيانةُ عليه، فكان تَكرارُ فعلِ الخيانة من باب العنايةِ الخاصة، باعتبار أنَّ الناسَ يتهاونونَ فيها في كثيرٍ من الأحوالِ، ولا ينزلونها منزلةَ خيانةِ اللّهِ تعالى، حتَّى إنَّك لتجدَ بعضَهم ينفي عن نفسِه خيانَةَ اللّهِ عند خيانةِ النّاسِ.

بلاغةُ المجازِ بالحذفِ:

للأمانةِ هيبةٌ في نفوسِ النّاسِ وحلاوةٌ في أسماعِهم

الأماناتُ لا تُخانُ، وإنَّما الذي يُخان أصحابُها، ولكنَّ البيانَ الإلهيَّ في قوله تعالى: ﴿لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمۡ﴾ عدل عن ذكر المفعول الأصلي إلى ذكرِ المفعولِ المتَّسع فيه وهو (الأماناتُ)، فلم يقل: (وتخونوا النّاسَ في أماناتهم)؛ لقصد تبشيعِ الخيانةِ بأنَّها نقْضٌ للأمانة، فإنَّ الأمانةَ وصْفٌ محمودٌ مشهورٌ بالحسنِ بين النّاس، فما يكون نقضًا له يكون قبيحًا فظيعًا[2]، والنّاس يستبشعونَ خيانةَ الأمانةِ، فأتى باللَّفظِ الصَّريحِ عليها، دون ذكرِ النّاسِ؛ لتسامحِ النّاسِ في ظلمِ بعضِهم بعضًا.

فائدةُ إضافةِ الجمعِ إلى مجموعِ المخاطَبينَ:

خيانةُ الفردِ خيانةٌ للأمَّةِ وخيانةُ الأمَّةِ خيانةٌ للنَّفسِ

أضافَ البيانُ الإلهيُّ الجمع (الأمانات) إلى مجموعِ المخاطبين الذي دلَّ عليه كافُ الخطاب وميمُ الجماعة؛ مبالغةً في تفظيع الخيانةِ، بأنَّها نقْضٌ لأمانةٍ منسوبةٍ إلى ناقضِها، وهي نظيرُ قولِه:

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/324.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/323.

﴿وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡۚ﴾ [النساء: 29]، فلم يقل: (ولا تقتلوا النفس)، أي: فمن يخونُ غيرَهُ في أمانةٍ له؛ إنَّما يخونُ أمَّته الَّتي هو جزءٌ منها؛ لأنَّ للأمانةِ شأنًا عظيمًا في استقامةِ أحوالِ المسلمين ما ثبتوا عليها وتخلَّقوا بها، وهي دليلُ نزاهةِ النَّفس واعتدال أعمالها، وقد حذَّر النَّبيُّ ﷺ من إضاعتِها والتَّهاونِ بها، وأشارَ إلى أنَّ في إضاعتها انحلالَ أمرِ المسلمين، وقد جعلها النبي ﷺ من الإيمان، وحسبك من رفع شأنِ الأمانةِ أن كانَ صاحبُها حقيقًا بولايةِ أمرِ المسلمينَ؛ لأنَّ ولايةَ أمرِ المسلمين أمانةٌ لهم ونصحٌ[1].

ونلحظُ ملمحًا بلاغيًّا آخر: وهو أنَّ الخطابَ هنا لجماعة المؤمنين، وجاءت الأماناتُ أيضًا جماعةً، لإفادةِ أنَّ لكل إنسانٍ تكليفًا محدودًا، وهو ألّا يخونَ أمانتَهُ، مثلما يقولُ الأستاذُ للتَّلاميذ: أخرجوا أقلامَكم، فهذا أمرٌ لجماعةِ التَّلاميذ بأن يخرجَ كلُّ واحدٍ قلمَهُ[2].

بلاغةُ الجملةِ الحاليَّة:

جملةُ ﴿وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ في موضعِ الحالِ من ضميرِ ﴿لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ﴾، وضميرِ ﴿وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمۡ﴾، وهي حالٌ كاشفةٌ، المقصودُ منها تشديدُ النَّهي، وتشنيعُ المنهيِّ عنهُ؛ لأنَّ النَّهيَ عن القبيحِ في حال معرفةِ المنهي أنَّهُ قبيحٌ يكونُ أشدَّ، ولأنَّ القبيحَ في حالِ علمِ فاعلهِ بقبحِه يكونُ أشنعَ، فالحالُ هنا بمنزلة الصِّفة الكاشفةِ في قولهِ تعالى: ﴿فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٢٢﴾ [البقرة: 22] وليس المرادُ تقييدَ النَّهي عنِ الخيانةِ بحالةِ العلمِ بها؛ لأنَّ ذلك قليلُ الجدوى، فإنَّ كلَّ تكليفٍ مشروطٌ بالعلمِ، وكونُ الخيانةِ قبيحةً أمرٌ معلومٌ[3].

ممّا يزيدُ قبحَ الخيانةِ وحرمتَها العلمُ بها

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/323.
(2) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 8/4669.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/323.

فائدةُ تقويةِ الحُكْمِ الإسناديِّ:

تأكيدُ ذمِّ الخيانةِ في حالِ العلمِ على سائرِ الأحوالِ

معلومٌ أنَّ تقويةَ الحكم الإسناديِّ في الجملةِ يزيدُهُ إيضاحًا وتخصيصًا، فتكونُ فائدتُهُ أتمَّ وأكمل وأقوى عند السّامع، وقد تقوَّى الحكمُ الإسناديُّ في قولِهِ: ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾، حيثُ قُدِّمَ المسندُ إليهِ على المسندِ الفعلي، وفائدةُ ذلك تأكيدُ ذمِّ الخيانةِ في هذهِ الحالِ على سائرِ الأحوال.

نكتةُ التَّعبيرِ بصيغةِ المضارِعِ:

الخيانةُ مذمومةٌ لذاتِها، وللعلمِ بها، ولاستحضارِ العلمِ بها

عبَّرَ البيانُ القرآنيُّ في قوله: ﴿تَعْلَمُونَ﴾ بصيغةِ المضارع؛ للإشارةِ إلى أنَّ علمَهم بعظمِ الأمانة وقبحِ خيانتها حاضرٌ عند الخيانةِ، فالذَّمُّ للخيانةِ يزدادُ بالعلم، ويزدادُ أكثرَ، فأكثر عند استحضارِ العلمِ أثناءَ الخيانةِ، فجمعتِ الآيةُ ذمَّ الخيانة، وذمَّها عند العلمِ بها، وذمَّها عند استحضارِ العلمِ بها، فهي ظلماتٌ بعضُها فوق بعضٍ، من دخلَها منطمسًا فيها؛ لم يُبصر نورَ الأمانةِ، ولا ضياءَ الطّاعة.

غرضُ حَذْفِ المفعولِ:

شمولُ العلمِ أشكالَ الخيانةِ وأحوالَ الجنايةِ

حذْفُ المفعولِ في قوله: ﴿تَعْلَمُونَ﴾ يؤذنُ بالعموم، ولو ذُكر؛ لأوهمَ الاقتصارَ على مفعولٍ واحدٍ، وللعلماءِ في مفعولِ (تعلمون) قولان:

الأوَّلُ: مفعولُ (تعلمون) مقدَّرٌ مَنْوِيٌّ بقرينةِ السّياق، وهو أنَّكم تخونونَ، وأنتم تعلمونَ تبعةَ ذلك، أي: تعلمونَ قبحَها، فإنَّ المسلمين قد تقرَّرَ عندهم في آدابِ دينِهم تقبيحُ الخيانةِ، بل هو أمرٌ معلومٌ للنّاس حتَّى في الجاهليَّة.

الآخر: مفعولُ (تعلمون) غيرُ منويٍّ بمنزلة اللّازم[1]، فيكونُ معناهُ (وأنتم ذوو علم) أي: معرفةُ حقائقِ الأشياء، أي: وأنتم

(1) الطيبي، فتوح الغيب: 7/79.

علماءُ، لا تجهلون الفرقَ بين المحاسنِ والقبائح، فيكونُ كقولِه: ﴿فَلَا تَجْعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٢٢﴾ [البقرة: 22].

وفي كلا الحالين أفادَ حذفُ المفعولِ العمومَ، أي: وأنتم تعلمونَ قبحَ فعلِكم، أو تعلمون أنَّ المنهيَّ عنه قبيحٌ، أو تعلمون عظمَ الأمانةِ ومخاطرَ خيانتِها، أو أنتم أهلُ علمٍ ومعرفةٍ لا تجهلونَ قبحَ الخيانةِ أو غيرِ ذلك ممّا يقتضيهِ السّياقُ.

بلاغةُ الفاصلةِ القرآنيَّةِ:

أفادتِ الفاصلةُ ﴿تَعْلَمُونَ﴾: إحكامَ اللَّفظِ وإحكامَ المعنى.

أمّا إحكامُ اللَّفظِ؛ فلكونِها مع الفاصلةِ الَّتي قبلها ﴿تَشْكُرُونَ﴾ فاصلة مُطَرَّفة، أي: متخالفتان في الوزنِ متَّفقتانِ في الحرفِ الأخيرِ.

وأمّا إحكامُ المعنى؛ فقد جاءتِ الفاصلةُ مناسبةً للمعنى الَّذي مهَّدَ لها، بل كانت جزءًا منهُ، فقد خُتِمَتِ الآيةُ بالعلمِ للإشارةِ لعظمِ تلك الأمانةِ وقبحِ التَّفريطِ بها.

العلمُ بعظيمِ الخيانةِ مانعٌ من إتيانِها

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

العلمُ والمعرفةُ:

العلمُ والمعرفةُ يشتركانِ في معنى الإدراك، وقد يستعملُ أحدُهما مكانَ الآخرِ؛ إذا كانَ العلم يتعدَّى إلى مفعولٍ واحدٍ، حيثُ عرَّفَ بعضُهم العلمَ، فقال: "علِمَهُ يعلمُهُ علمًا: عرَفَهُ حقَّ المعرفةِ"[1].

وإذا تعدَّى العلمُ إلى مفعولينِ؛ فإنَّهُ يتميَّزُ عن المعرفةِ في أنَّهُ: إدراكُ الشَّيءِ بحقيقتهِ ودليلهِ، أي: العلمُ بحقائقِ الأشياءِ، ولا بدَّ في العلمِ من الدَّليلِ.

بينما المعرفةُ: إدراكُ الشَّيءِ بتفكُّرٍ وتدبُّرٍ لأثرِه، أي: معرفةُ ذواتِ الأشياءِ والظّاهرِ منها، ولا تحتاجُ إلى دليلٍ، كما أنَّ المعرفةَ ضدُّها الإنكارُ.

العلمُ أعلى درجةً من المعرفةِ، فالمعرفةُ يسبقُها جهلٌ، والعلمُ نقيضُ الجهلِ

(1) الفِيروزابادي، بصائر ذوي التمييز: 4/88.

فالعلمُ أعلى درجةً من المعرفةِ؛ إذ تستعملُ المعرفةُ في العلمِ القاصرِ المتوصَّل بهِ بتفكُّرٍ، ويسبقها الجهلُ بالمضمونِ، أمّا العلمُ؛ فلا يسبقُهُ جهلٌ، فهو مرحلةٌ بعدَ المعرفةِ بحقِّ المخلوقينَ، وبالنِّسبةِ للّهِ تعالى، فلا يُقالُ: اللّهُ عالمٌ، ولا يقالُ: اللّهُ عارفٌ، كما أنَّ المعرفةَ ضدُّها الإنكارُ، والعلمُ لا يضادُّهُ الإنكارُ[1].

(1) الراغب، المفردات، ص: 561، ومحمد داود، معجم الفروق الدلالية، ص: 343 - 344، وعلي فهمي النزهي، الفروق اللغوية في تفسير الكلمات القرآنية، ص: 129.

﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ٢٨﴾ [الأنفال: 28]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

أعظمُ أسبابِ الخيانةِ من يُخانُ لأجلِهم

لمّا ذكرَ اللّهُ الخيانةَ، وأنَّها من أعظمِ أسبابِ الهزيمةِ والخذلانِ؛ عقَّبَ على ذلك ببيانِ أهمِّ الدواعي المؤدّية إلى الخيانةِ، ولما كان الغالبُ فيها هو حبُّ الأموالِ والأولادِ؛ نبَّهَ تعالى إلى أنَّهُ يجبُ على العاقلِ أن يحترزَ عن المضارِّ المتولِّدةِ من ذلك الحبِّ، فقال: ﴿أَنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞ﴾؛ لأنَّها تشغلُ القلبَ بالدُّنيا، وتصيرُ حجابًا عن خدمةِ المولى[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فِتۡنَةٞ﴾: الفاءُ والتّاءُ والنّونُ: أصلٌ صحيحٌ يدلُّ على ابتلاءٍ واختبارٍ، تقول: فتنتُ الذَّهبَ بالنّارِ؛ إذا امتحنْتَهُ، أي: أذبتَه بالنّارِ للتَّصفيةِ أو للصَّوغِ، واستعملَهُ القرآنُ الكريمُ بمعنى الإحراقِ أو الإذابةِ المادّيَّةِ، كقوله تعالى: ﴿يَوۡمَ هُمۡ عَلَى ٱلنَّارِ يُفۡتَنُونَ ١٣﴾ [الذاريات: 13]، وما ليس بمعنى الإحراقِ أو الإذابةِ المادية ممّا استعمله القرآنُ يدورُ معناهُ بين الابتلاءِ إيقاعًا أو تعريضًا للبلاءِ المحمولِ عن حالٍ أو موقفٍ وبين التَّحوُّلِ نفسِه[2].

المَعْنى الإجْماليُّ:

ما عندَ اللهِ مِنَ الأجْرِ العظيمِ يقي مِنَ الوزرِ العظيمِ لمن فقِهَ وتدَبَّرَ

ينبِّهُ اللّهُ عبادَهُ المؤمنينَ لحقيقةٍ لا بدَّ أن يعلموها، ولا يغفلوا عنها، وهي مواطنُ الضَّعفِ في كينونتِهم البشريَّةِ من الحرصِ على الأموالِ وعلى الأولادِ الَّتي وهبَها اللّهُ للنّاسِ ليبلوَهم بها، ويفتنَهم

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 15/475.

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (فتن)، والراغب، المفردات، ص: 482، وابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (فتن).

فيها، ليرى فيها صنيعَ العبدِ، وتصرُّفَهُ أيشكرُ عليها، ويؤدّي حقَّ النِّعمةِ فيها؟ أم يشتغلُ بها حتَّى يغفلَ عن أداءِ حقِّ اللّهِ فيها؟ فإذا انتبهَ القلبُ إلى موضعِ الامتحان، كان ذلك عونًا له على اليقظةِ والاحتياطِ أن يستغرقَ، وينسى، ويخفقَ في الامتحانِ والفتنة.

ثم لا يدعُهُ اللّهُ بلا عونٍ منه ولا عِوض، فقد يضعفُ عن الأداءِ بعد الانتباهِ، لثقلِ التَّضحيةِ وضخامة التَّكليفِ في أعمقِ مواطنِ الضَّعفِ، وهي الأموالُ والأولاد! بل يلوِّحُ له بما هو خيرٌ وأبقى، فيُعظمُ له الأجرَ، ويعجِّلُ له المسرَّةَ بتقديمِ ﴿عِندَهُۥٓ﴾، ويفضي إلى روح العظمةِ والمهابةِ والمحبَّةِ بذكر الاسمِ الجليل، ليستعينَ العبدُ بذلك كلِّه على فتنةِ المالِ والولد، فلا يحتجبُ بمحبَّتهما عن محبَّته، فالَّذي وهبَ المالَ والولدَ عنده وراءَهما أجرٌ عظيم لمن يستعلي على فتنةِ المالِ والولد.

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ التَّوسُّطِ بين الكمالَين:

كمالُ التَّحذيرِ من الخيانةِ بالتَّنبيهِ على دواعيها

اتَّفقتِ الجملتانِ ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ﴾ وجملة: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞ﴾ في الإنشاءِ لفظًا ومعنًى، ويوجد بينهما جامعٌ في المعنى، وهو التَّحذيرُ من الخيانةِ، وأهم الدواعي المؤدّية لها من الافتتانِ بحبِّ المالِ والولد، فكانتا بذلك متناسبتينِ، وبينهما رابطةٌ قويَّةٌ، وتوسَّطتا بذلكَ بين كمالِ الانقطاعِ وكمالِ الاتِّصالِ، ووجبَ بذلك الوصل بالواوِ، ليُجلّي المعنى المذكور.

براعةُ تشابهِ الأطرافِ:

من علِمَ حُرْمةَ الخيانةِ؛ فعليهِ أن يعلمَ أسبابَها

تحقَّقت في الآيتينِ بلاغةُ تشابهِ الأطرافِ من خلالِ جَعْلِ آخرِ جملةٍ صَدْرَ تاليَتِها، أي: انتهت الآيةُ الأولى بـ ﴿تَعۡلَمُونَ﴾، وبدأت الَّتي بعدَها بـ ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ﴾، وهذا أعطى الكلامَ تحسينًا وجمالًا من حيثُ اللَّفظُ، أي: الأثرُ الصَّوتيُّ له، ومن حيثُ المعنى، وهو تأكيدُ

أهمّيَّةِ العلمِ وبيان أثرِهِ في نجاةِ الإنسانِ إن عملَ بهِ، أو هلاكهِ إن لم يعملْ بهِ، أي: إن كنتُم تعلمونَ حرمةَ الخيانةِ؛ فاعلموا أسبابَها.

غرضُ الأمرِ:

التَّنبيهُ على السَّببِ معينٌ على الحذرِ

الغرضُ البلاغيُّ للأمرِ ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ﴾ هو الاهتمامُ والتَّحذيرُ من الافتتانِ بالمالِ والولدِ، قال ابن عاشور: "وهذا تنبيهٌ على الحذرِ من الخيانةِ الَّتي يحملُ عَليها المرءَ حبُّ المال"[1]، والشَّغفِ بالولدِ.

بلاغةُ القَصْرِ الادِّعائيِّ:

التَّحذيرُ من أعمقِ مواطنِ الضَّعفِ في الكينونةِ البشريَّةِ

أداةُ القصرِ هي ﴿أَنَّمَآ﴾، والمقصور ﴿أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ﴾ وهو الموصوفُ، والمقصورُ عليهِ ﴿فِتۡنَةٞ﴾، خبرٌ يحملُ صفةً تدلُّ على معنى قائمٍ فيهِ، وهي صفةُ التَّسبُّبِ بالفتنِ والمحنِ، والمقصور عنه (كلُّ الصِّفاتِ ما عدا صفةَ التَّسبُّبِ بالفتنِ).

ونوعُ هذا القصرِ: قصرُ موصوفٍ على صفةٍ؛ فقد قُصرَت أموالُهم وأولادهم على كونهم مسبِّبين للفتنِ والمحنِ، وهو قصرٌ حقيقيٌّ ادِّعائيٌّ لكثرةِ ملازمةِ هذهِ الصِّفةِ للموصوفِ؛ إذ من النّادرِ أن يخلو أفراد هذين النَّوعين، وهما أموالُ المسلمين وأولادهم عن الاتِّصاف بالفتنةِ لمن يتلبَّسُ بهما، قال ابنُ عاشورٍ: "جيءَ في الإخبارِ عن كونِ الأموالِ والأولادِ فتنةً بطريقِ القصرِ قصرًا ادِّعائيًّا؛ لقصد المبالغةِ في إثباتِ أنَّهم فتنةٌ"[2]، وهذا التَّقريرُ والمبالغةُ في التَّحذيرِ من تلكَ الأحوالِ وما ينشأُ عنها، فكأنَّ وجودَ الأموالِ والأولادِ نفسُ الفتنة؛ لأنَّ الأموالَ والأولادَ في معظمِ أحوالِ الحياةِ الدُّنيا هما سببُ فتنةٍ، وهذه حقيقةٌ لا يعيها أغلبُ النّاس، لذلك جعلَ اللّهُ ﷻ هذا الأمرَ المجهولَ كأنَّهُ معلومٌ، ليظلَّ حاضرًا في ذهنِ المخاطبين، ولا تصرفهم أموالهم وأولادهم عمّا هو أعظمُ، ألا وهو العمل من أجلِ دارِ الخلود"[3].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/324.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/325.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/325.

نُكتةُ تَقْديمِ الأمْوالِ على الأولادِ:

المـالُ وسيلةٌ في الادِّعـاءِ الباهرِ غايةٌ في السُّلوكِ الظّاهرِ

قدَّمتِ الآيةُ الأمْوالَ على الأولادِ في قوله: ﴿أَنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞ﴾؛ للأسبابِ الآتية:

أوّلاً: الأموالُ مظنَّةُ الحملِ على الخيانةِ أكثر، فإنَّ غرضَ جمهورِ النّاسِ في جمعِ الأموالِ أن يتركوها لأبنائِهم من بعدِهم[1]، كما "أنَّ الأموالَ لا تكادُ تفارقُها الفتنةُ: ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ ۝٧﴾ [العلق: 6-7]، وليس الأولادُ في استلزامِ الفتنةِ مثلَها، فكان تقديمُها أولى"[2]، كما أنَّهُ ليس لكلِّ واحدٍ أولادٌ، وإنَّما لهُ مالٌ، ولو لم يكن إلّا ملبسه، ثم إنَّ الأبناءَ يأتونَ من الزَّواجِ، والزَّواجُ يحتاج إلى المالِ، ولذلك قدَّمَهُ في قولهِ تعالى: ﴿ٱلۡمَالُ وَٱلۡبَنُونَ زِينَةُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ﴾، ولا يعترض بقولهِ تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلۡبَنِينَ وَٱلۡقَنَٰطِيرِ ٱلۡمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلۡفِضَّةِ﴾ [آل عمران: 14]، لأنَّها هنا تعني: الرَّغبةَ في المبالغةِ في الغنى، لا مجرَّدَ امتلاكِ المال[3].

ثانيًا: سلطةُ الإنسانِ على مالهِ أكثرُ من سلطتهِ على ولدِه، فامتحانُهُ بمالِه يكونُ آكدَ من ولدِه.

ثالثًا: مناسبةُ مقامِ الحالِ، أي: حالُ المخاطبينَ بالآياتِ، بأن يحذَروا من الخيانةِ الَّتي يحمل عليها حبُّ المالِ، وهي خيانةُ الغلولِ في الغنائِم وغيرها[4]، وأيضًا في حبِّ الأولاد تكاسلٌ في أداءِ حقِّ الجهادِ بالنَّفس والمال، ولذا قالَ النَّبيُّ ﷺ: «الولدُ مجبنةٌ مبخلةٌ»[5].

والحقيقةُ أنَّ المالَ مقدَّمٌ عند غالبِ النّاس على الأولادِ، وإن زعموا خلافَ ذلك، وادَّعوا أنَّهم يعملون لأجلِ أبنائِهم، فعندَ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/324.
(2) السيوطي، الإتقان في علوم القرآن: 3/46.
(3) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 8/4671.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/325.
(5) رواه أبو يعلى في مسنده برقم: (1032).

التَّحقيقِ والتَّدقيقِ فإنَّ غالبَ النّاسِ ترمي أبناءَها لأجلِ أموالِها، وما مظاهرُ الإهمالِ والغفلة عن الأبناء إلّا بسببِ جمعِ المال، فإنَّ المالَ يتحوَّلُ إلى غايةٍ حقيقيَّةٍ، بعد أن كان وسيلةً ادعائيَّةً.

سرُّ اختيارِ مُفرَدَةِ ﴿فِتْنَةٌ﴾:

الفتنةُ أشدُّ الاختبارِ وأبلغُهُ، ولا يُفتَتَنُ المرءُ كافتتانِه في أموالِه وأولادِه

اختيرَتْ مفردةُ (الفتنة) دونَ غيرِها كالاختبارِ والابتلاء؛ إذ إنَّ "الفتنةَ أشدُّ الاختبارِ وأبلغُهُ"[1]، والفتنةُ وإن كانت ترادِفُ الابتلاءَ في كونِهما يقتضيانِ استخراجَ ما عند المفتتنِ والمبتلى من الطّاعَةِ والمعصية، بخلافِ الاختبارِ الَّذي لا يكونُ لتغييرِ الحالِ في الخيرِ والشَّرِّ، إلّا أنَّها هنا أبلغُ من الابتلاء في كونِها مادَّةَ الابتلاءِ والاختبارِ، وليست هي ذاتُ الابتلاءِ والاختبارِ، كما أنَّها أوسعُ معنًى، فقد استعملَها القرآنُ في اثني عشرَ وجهًا[2].

إضافةً إلى ذلك فإنَّ مصطلحَ الفتنةِ جاءَ متناسبًا مع مادَّةِ الفتنةِ الَّتي وردَ ذكرُها في هذه السّورةِ أربعَ مرّاتٍ.

فائدةُ العَطْفِ بالواو:

ما عندَ اللهِ خيرٌ وأبقى فما عندَكم يَنفَدُ وما عندَ الله باقٍ

عطفَ المولى قولَهُ: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٌ﴾ على قولِه: ﴿أَنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞ﴾ بالواوِ للإشارةِ إلى اشتراكِهما في إعطاءِ معنًى عامٍّ، وهو أنَّ ما عندَ اللهِ من الأجرِ على كفِّ النَّفس عن المنهيّاتِ هو خيرٌ من المنافعِ الحاصلةِ عن اقتحامِ المناهي لأجلِ الأموالِ والأولادِ[3].

سرُّ ذكرِ الاسمِ الجليلِ:

مَنْ وهبَ المالَ والولدَ؛ رغَّبَ بالأجرِ العظيمِ الذي عندَهُ

ذكرَ البيانُ الإلهيُّ المسندَ إليه بالاسمِ الجليل (اللّه)؛ لزيادةِ تأكيدِ عظمةِ الفضلِ الَّذي أعدَّهُ اللّهُ لمن لا يخونُ اللّه ورسولَهُ بسبب

(1) العسكري، الفروق اللغوية: 1/217.
(2) الفيروزابادي، بصائر ذوي التمييز: 4/167.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/324.

مالٍ أو ولدٍ؛ إذ إنَّ ذكرَ اسمِ اللّهِ يضفي على المقامِ الهيبةَ والعظمةَ، ولتربيةِ المهابةِ والعظمةِ في قلوب المؤمنين، ولما في ذكرِه من التَّبرُّك باسمهِ الشَّريف، مع ما يحملهُ السّياقُ من التَّرغيبِ والتَّرهيبِ من التَّصريحِ باسمهِ سبحانهِ؛ ترغيبٌ للمؤمنين بزيادةِ الفضلِ وترهيبٌ للكافرين بتأكُّدِ الحرمانِ.

نكتةُ تقديمِ الخبرِ على المبتدأِ:

قدَّم البيانُ الإلهيُّ المسندَ ﴿عِندَهُۥٓ﴾ على المسندِ إليهِ ﴿أَجۡرٌ﴾؛ لإفادةِ الاهتمامِ، وليوحي بمدى عِظَم ذلك الأجرِ، لتعلُّقهِ باللّهِ سبحانه، فهو عندَهُ لا عندَ غيرِه، كما أنَّ هذا التَّقديمَ فيهِ من تعجيلِ المسرَّةِ ما لا يعلمُهُ إلّا اللّهُ.

من عِظَمِ الأجرِ أن يكونَ عندَ اللهِ لا عندَ غيرِهِ

بلاغةُ الوصفِ ودقَّة انتقائه:

وصفتِ الآيةُ الأجرَ بأنَّه عظيمٌ لأمورٍ:

أوّلاً: المناسبةُ لسياقِ الآياتِ؛ إذ إنَّ سببَ خيانتِهم هو ضعفُ مهابةِ اللّهِ وعظمتِه في قلوبِهم، ممّا جعلَهم يعظِّمونَ المالَ والولدَ، فاحتجبوا بمحبَّتِهما عن محبَّتِه سبحانه، وخانوا بسببِ ذلك اللّه ورسولَهُ، كما أنَّهم لما عظَّموا المالَ والولدَ على حسابِ دينِهم طلبًا لأجرٍ زائلٍ؛ بيَّنَ لهم بأنَّ الباقياتِ الصّالحاتِ خيرٌ عند ربِّهم وأعظمُ أجرًا، ونبَّههم على أنَّ سعاداتِ الآخرةِ خيرٌ من سعاداتِ الدُّنيا؛ لأنَّها أعظمُ في الشَّرفِ، وأعظمُ في الفوزِ، وأعظمُ في المدَّةِ؛ لأنَّها تبقى بقاءً لا نهايةَ لَهُ، فهذا هو المرادُ من وصفِ اللّهِ الأجرَ الَّذي عندهُ بالعِظَم[1].

الأجـرُ العظيمُ أوسـعُ دلالـةً، فالعظيمُ كبيرٌ ولا بدَّ

ثانيًا: الإشارةُ إلى ثِقَلِ التَّضحيةِ وضخامة التَّكليفِ في موطنِ الضَّعفِ في الأموالِ والأولادِ، فلا يدعهُ اللّهُ ﷻ بلا عونٍ ولا مددٍ، بل يلوحُ له بعظمِ الأجر.

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 15/476.

ثالثًا: المناسبةُ لفاصلةِ الآيةِ الَّتي بعدَها (واللّه ذو الفضل العظيم) مناسبةُ إحكامِ لفظٍ، وإحكام معنى، فمَن عندَهُ أجرٌ عظيمٌ هو ذو فضلٍ عظيمٍ.

أمّا لفظُ كبيرٍ؛ فلا يعطي هذه المعاني؛ لأنَّهُ لا يشترطُ أن يكونَ الكبيرُ عظيمًا، أمّا العظيمُ لا بدَّ أن يكونَ كبيرًا ولو بمنزلتِه وشرفِه.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الفتنةُ والابتلاءُ:

الابتلاءُ اختبارٌ وامتحانٌ، والفتنةُ هي مادَّةُ الابتلاءِ

تتقاربُ معاني الفتنةِ والابتلاء في اللُّغةِ؛ فالفتنةُ: هي ابتلاءٌ واختبارٌ، والابتلاءُ: هو الاختبارُ والتَّجريبُ والامتحانُ[1]، ولهذا ساوى بعضُ علماءِ اللُّغةِ بينهما، يقولُ الرّاغبُ: "وجُعلت الفتنةُ كالبلاءِ في أنَّهما يُستعملانِ فيما يُدفع إليهِ الإنسانُ من شدَّةٍ ورخاءٍ، وهما في الشِّدَّةِ أظهرُ معنى وأكثر استعمالًا"[2].

إلا أنَّ هناكَ بعضَ الملامحِ الدِّلاليَّة الَّتي تميِّز اللَّفظين، وهي أنَّ الابتلاءَ: هو اختبارُ الإنسان بالشِّدَّةِ والضَّرّاء ليُرى أيصبرُ أم يجزعُ؟ واختبارهُ بالسَّرّاء والنعم ليُرى أيشكرُ أم يبطرُ، ولهذا استُعْمِلَ البلاءُ في الخيرِ والشَّرِّ، وإن كان في الشَّرِّ أكثر.

أمّا الفتنةُ؛ فهي مادَّةُ الابتلاءِ، أي: هي إيقاعُ الإنسانِ في الشِّدَّةِ من أجل اختبارِه بها.

وأيضًا: لفظُ الفتنةِ وردَ في الاستعمالِ القرآنيِّ على وجوهٍ عدَّةٍ إضافة لمعنى الابتلاءِ والاختبار، منها: (العذابُ، والشِّركُ، والكفرُ، والتَّعذيبُ والتَّحريقُ، والحيرةُ والضَّلالُ) فدلالاتُ الفتنةِ أوسعُ من دلالاتِ الابتلاءِ[3].

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (بلو).

(2) الراغب، المفردات، ص: 481.

(3) الراغب، المفردات، ص: 482، ومحمد داود، معجم الفروق الدلالية، ص: 48، وعلي فهمي النزهي، الفروق اللغوية في تفسير الكلمات القرآنية، ص: 201.

الأجرُ والثَّوابُ:

الأجرُ والثَّوابُ متقاربان دلاليًّا، حيثُ يشتركانِ في معنى المكافأةِ، وفي أنَّهما قد يكونانِ في الدُّنيا أو في الآخرةِ، فمعنى الأجرِ: الكراءُ على العملِ، وجزاءُ ما بذلَهُ من كدٍّ وجهدٍ[1]، ومعنى الثَّوابِ: العودُ والرُّجوعُ، أي: رجوعُ أثرِ العملِ على فاعلِه[2]، إلا أنَّ لكلٍّ منهما ملامحَ دلاليةً تميِّزُهُ، فالأجرُ: يكونُ على عملٍ وجهدٍ وبذلٍ، سواءٌ أكانَ الأجرُ دنيويًّا أو في الآخرةِ، ويكونُ من اللّهِ، كما قد يكونُ من النّاس، ولا يكون إلّا بالخيرِ، أي: النَّفعُ دونَ الضُّرِّ، وقد يكونُ قبلَ الفعلِ المأجورِ عليه، والشّاهد أنَّكَ تقولُ: ما أعملُ حتَّى آخذَ أجري.

الأجـــرُ: جـزاءُ العملِ النّافعِ، والثَّوابُ: رجوعٌ عـلى المـرءِ بما فـعـل خـيرًا أو شرًّا

بينما اختصَّ الثَّوابُ في أنَّهُ:

قد يكون بالخيرِ، وقد يكونُ بالشَّرِّ؛ لأنَّ الثَّوابَ مشتقٌّ من الرُّجوعِ، والثَّوابُ رجوعٌ على المرءِ بما فعل، ويكونُ في الخيرِ والشَّرِّ إلا أنَّه بالخيرِ أخصُّ، وغلَبَ في ثوابِ العمل الصّالح، وفي الجزاءِ على الحسنات، ولا يكونُ إلّا مِنَ اللّهِ تعالى، ويقعُ من جهةِ المكافأةِ، ولا يكونُ إلّا بعد العملِ[3].

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (أجر).

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (ثوب)، والفِيروزابادي، بصائر ذوي التمييز: 2/131.

(3) علي فهمي النزهي، الفروق اللغوية في تفسير الكلمات القرآنية، ص: 162، ومحمد داود، معجم الفروق الدلالية، ص: 48.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا وَيُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ٢٩﴾

[الأنفال: 29]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

التَّرغيبُ بالتَّقوى ونتائجِها بعدَ التَّحذيرِ من الخيانةِ وأسبابِها، مُكنةٌ نفسيَّةٌ وإقناعٌ خطابيٌّ

لما حُذِّر المؤمنونَ من المخالفةِ والخيانة في قولهِ تعالى: ﴿لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ﴾ ومن فتنةِ الأموالِ والأولاد في قوله: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞ﴾؛ ناسبَ أن يأتيَ التَّرغيبُ بالتَّقوى وفضلِها وثوابِها في مقابل ذلك، فقال: ﴿إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا﴾.

كما يظهرُ حسنُ المناسبةِ بين الآيةِ وما قبلَها من خلالِ أنَّها رتَّبت على المنهيّاتِ تحذيراتٍ من شرورٍ وأضرارٍ من قوله: ﴿۞إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلۡبُكۡمُ﴾ [الأنفال: 22] وقوله: ﴿وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةٗ﴾ [الأنفال: 25]، ورتَّبَ على التقوى: الوعدَ بالنَّصرِ ومغفرةَ الذُّنوب وسعةَ الفضل[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فُرۡقَانٗا﴾: الفاءُ والرّاءُ والقافُ: أصلٌ صحيحٌ يدلُّ على تمييزٍ وتزييلٍ بينَ شَيئَينِ، والفرقُ: فصلُ بعض شيءٍ أو أشياءَ من بعضِها الآخرِ فصلًا واصلًا إلى العمقِ، ومنه: فرقتُ بين الشَّيئين وفرَّقتُ، والفُرقانُ بالضَّمِّ مصدرٌ كالغفرانِ والشُّكرانِ، ومن معانيه أيضًا: الحجَّةُ والقضاءُ والفصلُ والحكمُ والفتحُ والنَّصرُ والمخرجُ والفرقانُ في قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡفُرۡقَانَ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦ﴾ [الفرقان: 1]، هو القرآنُ؛ لأنَّهُ يفرِّقُ بين الحقِّ والباطلِ ويبيِّن كلَّ شيءٍ، والتَّبيينُ فصلٌ وتمييزٌ، وسمّي يومُ بدرٍ الفرقانَ؛ لأنَّهُ فصَّل، وميَّز المحقَّ من المبطلِ،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/325 - 326.

وفرقانًا: خروجًا من الشَّكِّ والشُّبهاتِ، ونورًا قلبيًّا يخرجُ بهِ المتَّقي من ظلماتِ الضَّلالاتِ[1].

ومعنى ﴿فُرْقَانًا﴾: نصرًا أو بيانًا وظهورًا أو مزيَّةً لهم في الدُّنيا والآخرةِ أو مخرجًا من الشُّبهاتِ وتوفيقًا وشرحًا للصُّدور، وكلُّ ما فيهِ نجاةٌ واستقامةُ أحوالِ حياتِهم[2].

2) ﴿وَيُكَفِّرْ﴾: الكافُ والفاءُ والرّاءُ: أصلٌ صحيحٌ يدلُّ على مَعْنى واحدٍ، وهو السَّترُ والتَّغطيةُ، وكلُّ ما غطَّى شيئًا، وكلُّ من سترَ شيئًا، فقدَ كفرَهُ، ويقالُ للزّارعِ: كافرٌ؛ لأنَّهُ يكفِّرُ البذرَ، أي: يغطّيهِ ويسترُهُ بالتُّرابِ، والكُفرُ: ضدُّ الإيمانِ، فهو تغطيةٌ للحقِّ، وتكفيرُ السَّيِّئات: سترُها وتغطيتُها، فلا تُرى، ولا يُؤاخذ عليها[3].

المَعْنى الإجْماليُّ:

كرَّرَ اللّهُ الخطابَ بنداءٍ حملَ معنى الاهتمامِ، والوصفُ بالإيمان حرَّكَ فيهم مشاعرَ العملِ، يأمرُهم بالتَّقوى زادِ المؤمن الذي تحيا به القلوبُ، وتستعينُ بهِ على حملِ الأعباءِ الثِّقال، ومواجهةِ وساوسِ الشَّيطان، وعبَّر عن الأمرِ بها بأسلوبِ الشَّرط الذي يفيدُ الدَّوامَ ترغيبًا بها وبيانًا لحسنِ حالِ عاقبتها، ووعدًا بدوامِ النَّصرِ واستقامةِ الأحوالِ؛ إن هم داوموا عليها، وبذلكَ يبيِّنُ حقيقةً مهمَّةً، هي أنَّ التَّقوى تجعلُ في القلبِ فرقانًا، أي: نورًا ينيرُ البصيرةَ، ويرفعُ اللَّبس، ويكشفُ ظلماتِ الطَّريق، حتى يكونوا مطمئنّي البالِ منشرحي الخاطرِ، وذلك يستدعي أن يكونوا منصورينَ، غالبينَ، بصراءَ بالأمورِ، سائرينَ في طريقِ الحقِّ والرُّشدِ، وذلك هو ملاكُ

التَّقوى ملاكُ استقامةِ الأممِ وزادُ المغفرةِ وتكفيرُ الخطايا

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (فرق)، والفِيروزابادي، بصائر ذوي التمييز: 1/83.

(2) الزمخشري، الكشاف: 2/357، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/326.

(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (كفر).

استقامةِ الأممِ[1]، ثمَّ يجعلُ سبحانه التَّقوى زادَ المغفرةِ للخطايا، الزّادَ المطمئنَّ الذي يسكبُ الهدوءَ والقرار.. ويذيِّلُ الآيةَ بزادِ الأملِ في فضلِ اللّهِ العظيم يومَ تنفدُ الأزوادُ، وتقصرُ الأعمال.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ الاسْتِئْنافِ بجملةِ النِّداءِ:

الخطابُ بوصفِ الإيمانِ تذكيرٌ بعهدِ الإيمانِ وما يلزمُ عنهُ مِنَ التَّقوى

الاستئنافُ في الآيةِ هو استئنافٌ ابتدائيٌّ متَّصلٌ بالآيات السّابقةِ ابتداءً من قولهِ تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ﴾ [الأنفال: 20] وما بعدهُ من الآيات إلى هنا[2]، افتتحهُ اللّهُ بالنِّداء اهتمامًا بحال المؤمنين، مخاطبًا إيّاهم بوصفِ الإيمان تذكيرًا لهم بعهدِ الإيمان وما يقتضيهِ[3].

علَّةُ تَكرارِ جملةِ النِّداء:

تَكرارُ النِّداءِ تأكيدٌ وتنبيهٌ لمكانةِ التَّقوى الَّتي ينبغي للمؤمنِ أن يلتزمَها

كرَّر الخطابَ والوصفَ بالإيمانِ لإظهارِ كمالِ العنايةِ بما بعدَهُ، وهو الأمرُ بالتَّقوى الَّتي هي ملاكُ استقامةِ الأفرادِ والأممِ، وذلك لما تحملُهُ معاني النِّداءِ بقولهِ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا﴾ من الاهتمامِ والتَّأكيدِ والتَّنبيهِ والتَّدرُّجِ من الإبهام في (أي) إلى التَّوضيح، والتَّعظيم للمنادى، بل تعظيمِ الأمرِ الَّذي نودوا بهِ، وللإيذانِ بأنَّهُ ممّا يقتضي الإيمانُ مراعاتَهُ والمحافظةَ عليه، مع ما في هذا الوصفِ بالإيمانِ من استثارةِ بواطنِهم وتحريكِ مشاعرِهم وتهيئتِها لتقبُّلِ ما نودوا بهِ[4].

غرضُ الأمرِ بالتَّقوى بجملةِ الشَّرطِ:

وجودُ الفرقانِ وزادُ المغفرةِ والفضلِ العظيمِ متعلِّقةٌ بالدَّوامِ على التَّقوى

عبَّرَ عن الأمرِ بالتَّقوى بجملةِ الشَّرطِ ترغيبًا بالتَّقوى، وبيانًا لحسنِ حالِ عاقبتِها، ووعدًا بدوامِ النَّصرِ واستقامةِ الأحوالِ إن هم

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/18، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/326.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/325.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/325.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 8/263، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/18.

داموا عليها؛ ذلك لأنَّ من أغراضِ فعلِ الشَّرطِ أن يُرادَ بهِ الدَّوامُ[1]، وكذا لإفادةِ أنَّ جوابَ الشَّرطِ، وهو الفرقانُ الَّذي يهدي إلى الحقِّ، وتكفيرِ السَّيِّئات ومغفرةِ الذُّنوب لا يمكنُ أن يحصلَ إلّا بحصولِ فعلِ الشَّرطِ، وهو الاتِّصافُ بالتَّقوى؛ لأنَّهُ مبنيٌّ عليهِ، وفي هذا إفادةٌ بأنَّ ذلكَ سنَّةٌ إلهيَّةٌ لا تتخلَّفُ.

فائدةُ ذكرِ المفعولِ:

ذُكِرَ الاسمُ الجليلُ؛ لتربيةِ المهابةِ والتَّعظيمِ في قلوبِ المؤمنينَ، ولإدخالِ الأُنسِ بسماعِ اسمهِ، ولمراعاةِ مقامِ التَّعظيمِ الَّذي دلَّ عليهِ أسلوبُ النِّداء، والعطاءِ العظيمِ الَّذي يعدُّهُ اللهُ لمن يتَّقيه من الفرقانِ الهادي، وزادِ تكفيرِ الخطايا ومغفرةِ الذُّنوب، وزادِ الأمل بالفضلِ العظيم.

التَّصريحُ بالاسمِ الجليلِ يحقِّقُ الأنسَ والمهابةَ والثِّقةَ بوعدهِ

فائدةُ التَّعبيرِ بفعلِ ﴿يَجْعَل﴾:

عبَّرتِ الآيةُ بلفظِ ﴿يَجْعَل﴾ دونَ غيرِه؛ لأنَّه لفظٌ عامٌّ في الأفعالِ كلِّها، وهو أعمُّ من فعَلَ، وصَنَعَ، وسائر أخواتها، ولذا فالجعلُ في اللُّغةِ فيه معنى التَّهيئةِ والتَّضمينِ والتَّبعيَّة، وإحداثِ شيءٍ من شيءٍ وتكوينهِ منه[2]، وهذا فيهِ إشارةٌ إلى أنَّ إيجادَ النَّصرِ والنَّجاة والهدايةِ والتَّوفيقِ والنّورِ الَّتي أكرمَهم اللهُ بها كانَ نتيجةَ وجودِ التَّقوى والالتزام بأوامرِ اللهِ وعهوده، أي: إنَّ استخدامَ هذا الفعلِ ناسبَ أسلوبَ الشَّرطِ في الآيةِ، بخلافِ بقيَّة الألفاظِ مثلَ (خلق وصنع وفعل وغيرها)، فإنَّها لا تناسبُ المعنى المراد بدقَّةِ هذا اللَّفظِ، قال أبو السُّعودِ: "﴿يَجْعَل لَّكُمْ﴾ بسببِ ذلك"[3].

(يجعلُ) لفظٌ عامٌّ في الأفعالِ كلِّها، وتتحقَّقُ فيه موافقةُ المبنى للمعنى

نكتةُ تقديمِ الجارِّ والمجرورِ:

قدَّمتِ الآيةُ الجارَّ والمجرور ﴿لَّكُمْ﴾ على المفعولِ به ﴿فُرْقَانًا﴾؛

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/325.
(2) الراغب، المفردات، ص: 196.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/18.

تعجيلُ المسرَّةِ مطلبٌ نفسيٌّ وترغيبٌ رحمانيٌّ

لإفادةِ الحصرِ والقصرِ، أي: يجعلُ لكم - أيُّها المؤمنون - لا لغيركم فرقانًا، اهتمامًا وعنايةً بشأنِهم، وتنبيهًا على علوِّ قدرِهم، وتعريضًا بما يقابلُهم من الكافرين بأن ليس لهم من ذلك شيءٌ.

وفي هذا التَّقديمِ كذلك تعجيلُ المسرَّةِ والبشرى بالتَّوفيق والنَّصر منه سبحانه، وإشارةٌ لما يحملُه الفرقانُ من نفعٍ وخيرٍ وهدايةٍ وسرعةِ تحقُّقٍ، يقول ابن عاشور: "قد أشعرَ قولُهُ لكم: إنَّ الفرقانَ شيءٌ نافعٌ لهم"[1].

سرُّ اختيارِ الألفاظِ:

الفرقانُ لفظٌ عامٌّ يدخلُ فيه خيرُ الدُّنيا والآخرةِ

آثرَ التَّعبيرُ القرآنيُّ لفظَ ﴿فُرْقَانًا﴾ على لفظِ (نصرًا)؛ وذلك لاتِّساعِ دلالةِ مفردةِ الفرقانِ في المعنى ما لا تتَّسعُ له دلالةُ لفظِ النَّصر، بل إنَّ الفرقانَ في الآيةِ يشملُ النَّصرَ وزيادة، وهذا من تمام الفصاحةِ، قال ابنُ عاشور: "ولعلَّ اختيارَهُ هنا لقصدِ شمولِه ما يصلحُ للمقامِ من معانيه، فقد فُسِّرَ بالنَّصرِ وبالمخرج وبالغلبةِ، وبالعزَّةِ وبالتَّمييزِ بينهم وبين الكفّارِ في الأحوال الَّتي يستحبُّ فيها التَّمايز في أحوالِ الدُّنيا الظّاهرة، كما يشملُ أحوالَ الدُّنيا القلبيَّةَ المستترةَ، أي: أحوالُ النَّفسِ من الهداية، والمعرفةِ، والرِّضا، وانشراحِ القلبِ، وإزالةِ الحقدِ والغلِّ والحسدِ بينهم، والمكرِ والخداع وذميم الأخلاق[2]، ويشمل كذلك أحوالَ الآخرةِ فرقانًا بالنَّعيمِ المقيم، والثواب العظيمِ لأهل الإيمان، والعذابِ الشَّديد والمقتِ الكبيرِ لأهلِ الكفر[3]، وممّا يدلُّ كذلك على عمومِه أنَّ من أسماءِ القرآن الفرقانَ؛ لأنَّهُ يفرِّقُ بين الحقِّ والباطل.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/326.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/325.
(3) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 8/4675.

براعةُ الإطْنابِ:

في مقامِ كثرةِ العطاءاتِ تحسُنُ كثرةُ الإطناباتِ

آثرتِ الآيةُ أسلوبَ الإطنابِ للإشارة إلى مزيدِ العطاءِ الذي تشيرُ إليهِ كلُّ لفظةٍ من ألفاظِ التَّركيبِ سواءٌ بصيغتِها أم بمادَّتِها من (يجعل) و(لكم) و(فرقانًا)، كما أنَّهُ يتناسبُ مع مقامِ كثرةِ العطاءاتِ الَّتي قصدَها نظمُ الآيةِ ومضمونها؛ فقدِ اشتملت على الفرقانِ والتَّكفيرِ والمغفرةِ وعطاءات أخرى تشيرُ إليها خاتمةُ الآيةِ ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾.

نكتةُ ذكرِ المفعولِ:

مغفرةُ الذُّنوبِ أكثرُ جريًا في الطَّلبِ والوعدِ

ذُكِر مفعولُ ﴿وَيُكَفِّرۡ﴾ وهو ﴿سَيِّـَٔاتِكُمۡ﴾، ولم يُذْكَرْ مفعولُ ﴿وَيَغۡفِرۡ﴾؛ وذلك للاحتمالاتِ الآتيةِ:

الأوَّل: إمّا تفضُّلًا ورأفةً ورحمةً بالمخاطبينَ؛ ذلك أنَّ السَّيِّئَةَ هي الشَّيءُ الذي يسوؤكَ، ويسيء إليك، وقد يكونُ طارئًا، أمّا الذَّنبُ؛ ففيهِ معنى الالتصاقِ، ومنه أُخِذَ ذنبُ الحيوانِ لالتصاقِه بهِ، فالسَّيِّئَةُ سريعةُ المحو، أمّا الذَّنبُ؛ فيلتصقُ، ولذا كان الغفرانُ فيه معنى القطعِ، وهو أقوى من التَّكفيرِ، حتَّى في جذرِهِ (كفر) و(غفر)؛ إذ نلحظُ أنَّهما يختلفان في كونِ الغينِ أقوى من الكافِ، كما أنَّ الذَّنب أشدُّ من السَّيِّئة؛ فالسَّيِّئاتُ تُكفَّرُ؛ إذا اجتُنِبَتِ الكبائِرُ، فلمّا كانتِ السَّيِّئَةُ طارئةً، وأخفَّ من الذَّنبِ الملتصقِ، وسريعةَ المحوِ؛ ناسبَ أن يذكرَها، ولا يذكر الذَّنب رحمةً بعصاةِ المؤمنين.

الثاني: إمّا لكونِ السَّيِّئات -وهي الصَّغائرُ واللَّمم على قولٍ[1]- أكثرَ من الذُّنوبِ، وكثيرة الوقوعِ من النّاس، بخلافِ الكبائرِ، فالوقوعُ فيها نادرٌ، فذكرَ السَّيِّئاتِ حتَّى لا يُستهانَ بها، فتتحوَّلَ إلى كبائِرَ، ولأنَّ الإنسانَ لا يدري ما الَّذي يُدخلُهُ النّارَ[2].

(1) النسفي، مدارك التنزيل: 2/89.
(2) السامرائي، لمسات بيانية لسور القرآن الكريم: 5/155.

الثّالث: لأنَّ تكفيرَ السَّيِّئات أقلُّ دورانًا من مغفرةِ الذُّنوب، وما كان كذلك كان التَّنبيهُ عليه أولى من التَّنبيهِ على ما هو كثيرُ الدَّورانِ في الكتابِ وعلى ألسنةِ العبادِ.

نكتةُ تقديمِ الجارِّ والمجرورِ:

التَّعجيلُ بالبُشرى دليلُ حبٍّ وأمارةُ رحمةٍ

قدَّمَ الجارَّ والمجرورَ ﴿عَنكُمْ﴾ على المفعولِ بهِ ﴿وَيُكَفِّرْ﴾ إشارةً إلى سرعةِ تكفيرِ السَّيِّئات، والتَّعجيلِ بهذهِ البشرى والمسرَّة، وبيانًا للاهتمامِ والعناية بهم، وأنَّه خصَّهم بهذا الأمرِ، وإظهارًا لمدى حبِّه لعبادهِ وتلطُّفِه بهم، وإن أذنبوا، فمن رحمتِه أنَّهُ يتفضَّلُ بالمغفرةِ وإبدال السَّيِّئاتِ حسناتٍ.

بلاغةُ ترتيبِ المعطوفاتِ:

معظمُ النّارِ من مُستصغرِ الشَّررِ

الانتقالُ من الأدنى والأكثرِ إلى الأشدِّ والأقلِّ، فالمغفرةُ أقوى من التَّكفيرِ، والذَّنبُ أشدُّ من السَّيِّئة، وهذا التَّدرُّج يناسبُ حالَ الإنسان، فالصَّغائرُ منه أكثرُ، والتخلُّص منها أسهل، وهي طريقُ الوقوعِ في الكبائر، والتخلُّص منها طريقُ الحفظِ والوقاية من الكبائر.

بلاغةُ الوصلِ بالواو:

عطاءاتٌ لا يُغني أحدُها عن الآخرِ؛ إذْ كلُّها جوابٌ لشرطِ التَّقوى

عطفَ البيانُ القرآنيُّ الجملتين: ﴿وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ﴾ و﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ على جملة ﴿يَجْعَل لَّكُمْ﴾، وهي جملٌ خبريَّةٌ بحرف العطف الواو؛ لأنَّها جملٌ متغايرةٌ لفظًا، مترابطةٌ معنًى؛ إذ الجامعُ بينها أنَّها كلَّها من ثمراتِ تقوى اللّهِ تعالى، قد جاءت جوابًا لفعل الشَّرطِ، فلا يستغني أحدُها عن الآخرِ، ولا يقومُ أحدُها مقامَ الآخرِ وبدلًا عنهُ، كما يجمعُ بينها أنَّ أفعالَ الجملِ الثَّلاثِ بصيغة المضارع، وقد اتَّحدت في المسندِ إليه، وهو الاسمُ الجليلُ.

بلاغةُ الاكتفاءِ بحَذْفِ المفعولِ:

تتنوَّعُ نكتةُ حذفِ مفعولِ ﴿وَيَغْفِرْ﴾ وفقَ معنى التَّكفيرِ والمغفرةِ، فإن كان مفعولُ التَّكفيرِ والمغفرةِ واحدًا، أي: أُريد بالتَّكفيرِ السَّترُ في الدُّنيا،

وبالغفرانِ عدمُ المؤاخذة بها[1]، كانت نكتةُ الحذفِ هنا الاختصارَ؛ إذ ما سبقَ من كلامٍ يدلُّ عليهِ، وهو قولهُ تعالى: ﴿وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾، فهي محمولةٌ على الاكتفاءِ، فإذا ذُكر مفعولُ ﴿وَيُكَفِّرْ﴾؛ اكتُفي به عن مفعولِ ﴿وَيَغْفِرْ﴾ للعلمِ بأنَّ الغفرانَ يكونُ للذُّنوب.

الإشارةُ بالمذكورِ مغنيةٌ عن المحذوفِ عند تحقُّقِ العلمِ بهِ

وإن اختلفَ مفعولُ التَّكفيرِ عن المغفرةِ، بأن كان المقصودُ بتكفيرِ السَّيِّئات تكفيرَ الكبائر وبمغفرة الذُّنوب الصَّغائر[2]، كما هي عادةُ القرآنِ في جعلِ المغفرة للذُّنوب، فإنَّ النُّكتةَ هنا كذلك الاكتفاء، إذ ذكرُ تكفيرِ الكبائرِ يدلُّ على ما يقابلُها، وهو مغفرةُ الصَّغائرِ.

وإن كان المقصودُ من السَّيِّئاتِ الصَّغائرَ، ومن المحذوف الكبائرَ؛ فإنَّ حكمةَ الحذفِ هنا هي الإعظامُ المستفادُ من الإبهامِ، أي: أبهمها لخطورةِ أثرِها.

بلاغةُ التَّذييلِ بالفاصلةِ:

ذيَّلَ البيانُ الإلهيُّ بهذهِ الجملةِ لأغراضٍ عدَّةٍ، منها: تكميلُ المعنى؛ إذ إنَّ هذا التَّذييلَ "كنايةٌ عن حصولِ منافعَ أخرى لهم من جرّاءِ التَّقوى"[3].

العطاءُ العميمُ هو الَّذي لا يعطيهِ إلّا الرَّبُّ الكريمُ ذو الفضلِ العظيمِ

وكذلك للاختصارِ؛ إذ لا يحدُّ عطاءَهُ كلماتٌ، فذيَّل بما يدلُّ على كثرةِ العطاءِ لأهلِ التَّقوى، بذكر الاسمِ الجليلِ الَّذي يدلُّ على العظمةِ، وبوصفِ فضلهِ وعطائهِ بالعظمةِ، وبالتَّعبيرِ بالجملةِ الاسميَّةِ الَّتي تدلُّ على الثُّبوت والدَّوام، فإذا كان المعطي هو اللّهُ، وإذا وُصف عطاؤهُ بالعظمةِ؛ فأنَّى لكلماتٍ أن تتَّسعَ لعطائهِ؟

والتَّعليل لما قبلَهُ، والتَّنبيه على أنَّ ما وعدَهُ اللّهُ تعالى لهم على

(1) قال ابن عاشور: "قيل: التكفير الستر في الدنيا، والغفران عدم المؤاخذة بها "، يُنظر: التّحرير والتّنوير: 9/326.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/326.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/327.

التَّقوى تفضُّلٌ منه وإحسانٌ، لا أنَّه ممّا توجبهُ التَّقوى، كما إذا وعدَ السَّيِّدُ عبدَهُ إنعامًا على عملٍ[1]، بل إنَّهُ تفضَّلَ بهِ عليهم بدونِ واسطةٍ وبدونِ التماسِ عِوضٍ[2].

والإشارةُ إلى تفضُّلِه سبحانه بما رزقَ أهلَ الإسلامِ من علوِّ المنزلةِ وانتشار الهيبةِ وفخامةِ الأمر في قلوبِ المخالفين، كما هو مشاهدٌ رغمَ ما كانَ فيهم من نقصٍ[3].

نكتةُ إظهارِ ما حقُّهُ الإضمارُ:

إظهارُ الاسمِ العظيمِ يبعثُ في النُّفوسِ الأملَ بالفضلِ العظيمِ

أتتِ الآيةُ بالاسمِ الظّاهرِ ﴿وَٱللَّهُ﴾؛ لزيادةِ التَّقريرِ والإيضاحِ، وليبعثَ في النُّفوس الأملَ بفضلِ الإلهِ العظيم، ولأنَّ لفظَ الجلالةِ (اللّه) جامعٌ لكلِّ صفاتِ الكمالِ الَّتي تشتملُ على كلِّ أنواع العطاء والفضلِ، من عطاءِ الرَّحمةِ وعطاء المغفرةِ وعطاء السَّترِ وغيرها.

سرُّ الإيثارِ اللَّفظي:

عطاءُ اللهِ بالفضلِ لا بالعدلِ وبالإحسانِ لا بالميزانِ

آثرَ البيانُ القرآنيُّ لفظَ ﴿ٱلْفَضْلِ﴾ على (الأجر) لِلَطائِفَ عديدةٍ، منها: الفضلُ أوسعُ دلالةً، فالفضلُ يشملُ الأجرَ وزيادةً، فهو في اللُّغةِ زيادةٌ من مادَّةِ الشَّيءِ متميِّزةٌ عنهُ، كما أنَّ الأجرَ يكونُ بمنزلةِ تعويضٍ يتلقّاهُ العاملُ جزاء ما بذلَهُ من كدٍّ وجهدٍ، أمّا الفضْلُ؛ فقد لا يسبقُهُ عملٌ، وإنَّما يكون تفضُّلًا وإحسانًا من اللّهِ سبحانه.

والفضلُ أنسبُ للسّياق، فهو وصفٌ للّهِ تعالى المعطي الكريم، كما أنَّهُ جاءَ في سياقِ العطاءِ الكثيرِ الَّذي لا ينتظرُ مقابلًا، بل يكونُ رغمَ وجودِ التَّقصيرِ، فيكونُ تكفيرُ الخطايا ومغفرةُ الذُّنوب من عطاءاتِه.

ومن اللّطائف أيضًا التَّفنُّنُ في الكلامِ؛ إذ سبقَ ذكرُ الأجرِ العظيمِ في الآيةِ السّابقةِ: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٌ﴾.

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/14.
(2) المراغي، تفسير المراغي: 9/197.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 3/209.

بلاغةُ النَّعتِ بالعظيمِ دونَ الكبيرِ:

الاتِّساقُ السِّياقيُّ يقتضي الوصفَ بالعظيمِ

اتِّساعُ دلالةِ مفردةِ (العظيم) في المعنى ما لا تتَّسعُ له دلالةُ (الكبير)؛ فالعظيمُ في اللُّغة: صفةٌ مشبَّهةٌ لمن اتَّصفَ بالعظمةِ، والعظمةُ: معناها الكبرُ والاتِّساعُ وعلوُّ الشَّأنِ والارتفاع، يقال: عَظُمَ أي: كَبُرَ واتَّسعَ وعلا شأنُهُ وارتفعَ، وكلُّ هذهِ معانٍ تراعى في اسمهِ تعالى "العظيم"، وفي معنى التَّعظيم يأتي اسمُهُ تعالى الكبيرُ، وكذا اسمُهُ الواسعُ، وكذا يأتي معنى التَّبجيلِ للّهِ ﷻ.

مناسبةُ سياقِ الآياتِ الَّتي تتحدَّثُ عن عظمةِ اللّهِ وعظمة عطائهِ، ومناسبةُ فاصلةِ الآيةِ الَّتي قبلها ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٌ﴾، فمَن عندَه الأجرُ العظيمُ هو ذو الفضلِ العظيمِ سبحانه.

لمّا تعدَّدَ الفضلُ، وذكرَ منه سبحانه: ﴿يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا وَيُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۗ﴾، وأُسنِدَ مباشرةً إلى اللّهِ تعالى؛ استعملَ كلمةَ العظيمِ.

ورد قولُهُ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ في القرآنِ ستَّ مرّاتٍ، ولم يردْ بلفظِ الكبيرِ.

بلاغةُ الفاصلتينِ:

الفاصلةُ متوازيةٌ، حيثُ إنَّ اللَّفظتين اتَّفقتا في الوزنِ والحرفِ الأخيرِ، وخُتِمتِ الآيتانِ بنفسِ الكلمةِ، ودلَّتا على غايةِ العظمة، لكن في الأولى جاءتْ نكرةً؛ لعظمةِ ذلك الأجرِ الَّذي لا يدركُ كنْهَه إلّا مُعطيهِ، وجاءتِ الكلمةُ في الثّانية معرفةً، ليدلَّ على أنَّ تلك العظمةَ قد بلغتْ عظمةً ليس بعدها عِظَم، إذ العظيمُ لا يُعظِّمُ إلّا عظيمًا.

﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ۝٣٠﴾ [الأنفال: 30]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

تذكيرٌ بتمامِ نعمِ اللهِ على النَّبيِّ ﷺ وأمَّتِه

في مناسبةِ هذهِ الآيةِ لما قبلَها ثلاثةُ أوجهٍ:

الأوَّلُ: لمّا ذكَّرَ اللهُ المؤمنين نعمَهُ عليهم بقولِه: ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ﴾ [الأنفال: 26]؛ ذكَّرَ رسولَهُ نعمَهَ عليهِ، وهو دفعُ كيدِ المشركين ومكرِ الماكرين عنْهُ[1]، أي: "مسوقٌ لتذكيرِ النِّعمةِ الخاصَّةِ به ﷺ بعد تذكيرِ النِّعمةِ العامَّةِ للكلِّ"[2].

الثاني: لمّا وعدَ سبحانه في الآيةِ السّابقةِ المؤمنينَ بالفضلِ العظيمِ؛ ذكَّرهم من أحوالِ داعيهم وقائدِهم وهاديهم ﷺ بما يدعوهُم إلى ملازمةِ أسبابهِ في سياقِ المخاطبةِ لهُ ﷺ تذكيرًا بنعمتهِ، وإشارةً إلى دوامِ نصرتِه[3].

الثّالث: لمّا أخبرتِ الآيةُ السّابقةُ أنَّ اللهَ يجعلُ للمتَّقي فرقانًا يمنعُ من الاجتراءِ على أهلهِ ومالهِ وعرضهِ ظاهرًا، أتبعتْ بأنَّ اللهَ يحفظُ رسولَهُ مِن مكرِ مَنْ مَكَرَ بهِ، بل يمكرُ لَهُ على ماكرِه، فحفْظُ اللهِ لنبيِّه هو حفظٌ لأمَّتِه.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَمْكُرُ﴾: الميمُ والكافُ والرّاءُ كلمتانِ متباينتانِ: إحداهما: الاحتيالُ والخداعُ، والأخرى: خدالةُ السّاق، ومادَّة الكلمةِ فيها معنى الاختزانِ الرَّقيق أو اللَّطيفِ الَّذي لا يبرزُ متميِّزًا، فالمكرُ: هو تدبيرٌ

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 15/477.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/18.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 3/210.

يُخْفَى، ويُخْتَزَن لأحْداثٍ أو أُمور لتقعَ في المستقبل على نحوٍ ما، والمكرُ: احتيالٌ في خفيةٍ[1]، وعرَّفَهُ الرّاغبُ بأنَّهُ: "صرفُ الآخرين عمّا يقصِدُهُ بحيلةٍ"، وذلك ضربان: مكرٌ محمودٌ: وذلك أن يتحرَّى بذلكَ فعلًا جميلًا، ومكرٌ مذمومٌ: وهو أن يتحرَّى به فعلًا قبيحًا[2].

ومعنى ﴿يَمْكُرُ بِكَ﴾: يوقعونَ الضُّرَّ بكَ خفيةً، ويدبِّرونَ لك في الخفاء[3].

2) ﴿لِيُثْبِتُوكَ﴾: الثّاءُ والباءُ والتّاءُ كلمةٌ واحدةٌ، وهي دوامُ الشَّيءِ، والثَّباتُ: ضدُّ الزَّوالِ، وثبتَ فلانٌ في المكانِ: أقامَ فيهِ، وثبَّتَهُ عنِ الأمرِ: ثَبَّطَهُ، ويستعملُ في الثَّباتِ النَّفسي بمعنى تسكينِ القلبِ، كقولهِ تعالى: ﴿لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ [الفرقان: 32][4].

ومعنى ﴿لِيُثْبِتُوكَ﴾: يُقيِّدوك بحبسٍ أو إيثاقٍ ونحوه، أو يثبِّطوكَ، ويحيِّروك، أو يجرحوكَ جراحةً لا تقومُ، ولا تتحرَّكُ معها[5].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

مكرُ الكافرينَ باطلٌ مأفونٌ ومكرُ اللهِ حقٌّ مكنونٌ

واذكرْ - يا محمَّد ﷺ - نعمتي عليك حينَ تمالأَ عليكَ كفّارُ قريشٍ، واتَّفقت كلمتُهم على الكيدِ بكَ في خفاءٍ، وإيقاعِ الأذى بإحدى خِلالٍ ثلاثٍ: إمّا الحبسُ الَّذي يمنعُكَ من لقاءِ النّاس ودعوتِهم إلى الإسلامِ، وهو أشدُّهُ عليك، وإمّا القتلُ بطريقٍ لا يكونُ ضررُها عظيمًا عليهم، وإمّا الإخراجُ والنَّفي من مكَّةَ، وقد اختاروا قتْلَكَ بأن يأخذوا من كلِّ قبيلةٍ رجلًا حتَّى يتفرَّقَ دمُكَ في القبائلِ كلِّها، وهذا دأبُهم معَك، ومع من اتَّبعكَ مِنَ المؤمنينَ تدبيرُ الأذى

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (مكر).
(2) الراغب، المفردات، ص: 772.
(3) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/518، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/327.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (ثبت).
(5) أبو حيان، البحر المحيط: 5/309، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/18، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/327.

لكم، أي: مكرُهُم مستمرٌّ وكثيرٌ ومتنوِّعٌ، واللّهُ محيطٌ بما دبَّروا، ويدبِّرون، فقد أخرجكَ من بينِهم إلى دارِ الهجرةِ، ووطن السُّلطان والقوَّةِ، واللّهُ خيرُ الماكرين؛ لأنَّ مكرَهُ نصرٌ للحقِّ، وإعزازٌ لأهلِه، وخذلانٌ للباطلِ وحزبِه.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

نوعُ العطفِ بالواوِ:

إمّا من عطفِ القصَّةِ على القصَّةِ، وإمّا من عطفِ المفردِ على المفردِ

الواوُ في قولِه تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ عاطفةٌ[1]، واختُلِفَ في نوعِ العطفِ، فاحتُمل أن يكون العطفُ من بابِ عطفِ القصَّةِ على القصَّةِ من قصصِ تأييدِ اللّهِ رسولَهُ ﷺ والمؤمنين، فيكون (إذْ) متعلِّقًا بفعلٍ محذوفٍ تقديره: (واذكر إذ يمكرُ بكَ الَّذين كفروا)، على طريقةِ نظائرِه الكثيرةِ في القرآنِ.

واحتُمِلَ أن يكونَ من قبيلِ عطفِ المفردِ على المفردِ على قوله: ﴿إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [الأنفال: 26] فهو متعلِّقٌ بفعلِ (اذكروا)، فإنَّ المكرَ بالرَّسولِ ﷺ مكرٌ بالمسلمين، ويكون ما بينهما اعتراضٌ، فهذا تعدادٌ لنعمِ النَّصرِ الَّتي أنعمَ اللّهُ بها على رسولِه ﷺ والمؤمنين، وهذه نعمةٌ خاصَّةٌ بالنَّبيِّ ﷺ والإنعامُ بحياتِه وسلامتِه نعمةٌ تشملُ المسلمين كلَّهم، فسلامتُهُ ﷺ سلامةٌ لأمَّتِه[2].

نكتةُ الإضمارِ في موضعِ الإظهارِ:

مقامُهُ الشَّريفُ ﷺ ليس كأيِّ مقامٍ

لم يأتِ بمادَّةِ الذِّكرِ في خطابِ النَّبيِّ ﷺ فلم يقلْ لهُ: (واذكر إذ يمكر بك الذين كفروا)؛ بخلافِ خطابِه المتقدِّم للمسلمين، رغم أنَّ هاتينِ الآيتينِ وما بعدَهما تذكيرٌ للنَّبيِّ ﷺ بما كانَ من حالِه وحالِ قومِه معَهُ في مكَّةَ[3]، ونكتةُ ذلك: أنَّ خطابَ النَّبيِّ ﷺ وأمرَهُ بالذِّكر في القرآن

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/18.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/327.
(3) رضا، تفسير المنار: 9/540.

لم يرد إلّا في معنيين: الأوّل: ذكرُ الأنبياءِ السّابقينَ، الآخر: الذِّكرُ بمعنى العبادةِ كالتَّسبيحِ والتَّحميدِ، وهنا لم يُذكرِ الذِّكرُ، لأمرين: كي لا يتساوى ﷺ مع عموم المؤمنين، فإنَّ له منزلةً خاصَّةً، والثّاني: أنَّ الحذفَ أبلغُ مِنَ الذِّكرِ، فإنَّ ذكرَ مكرِ الماكرين يُرادُ به بيانُ مسلكِهم، وأخلاقِهم معهُ ﷺ وأنَّهم مستمرّون في ذلك، لا مجرَّدَ تذكُّرِ ذلك الصَّنيعِ منهم، بل الاعتبارُ لما سيؤولُ إليه الحالُ في لاحقِ الأيّامِ، بما ستكونُ عليه عاقبتهم.

غرضُ الإضافةِ:

التَّعريفُ بالحدثِ الَّذي وقعَ في دارِ النَّدوةِ

أفادتْ إضافةُ إذْ للجملةِ ﴿يَمۡكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ تعريفَ المضافِ إليهِ (إذ) أي: التَّعريفُ بالوقت الَّذي اجتمعَ فيه كفّارُ قريشٍ في دارِ النَّدوةِ ليوثِّقوا النَّبيَّ ﷺ ويحبسوهُ، أو يقتلوهُ كلُّهم قتلةَ رجلٍ واحدٍ، أو يخرجوهُ، فهو استحضارٌ لذلك الزَّمنِ المعروفِ، وليس المقصودُ الزَّمنَ لذاتِه، بل الحدثُ الَّذي وقعَ في ذلكَ الزَّمانِ.

نكتةُ التَّعبيرِ بالفعلِ المُضارِعِ:

تصويرُ مكرِ المشركينَ برسولِ اللهِ ﷺ

عبَّرَ القرآنُ بالمضارعِ ﴿يَمۡكُرُ﴾ في موضعِ الماضي الَّذي هو الغالبُ مع (إذ) استحضارًا للحال الَّتي دبَّر فيها المشركونَ المكرَ[1]، فالفعلُ المضارعُ يصوِّرُ هذا الحدثَ صورةً تُلمسُ في كلمةِ ﴿يَمۡكُرُ﴾ صيغةً ومادَّةً، فتثيرُ في المخيِّلةِ صورةً للتَّدبيرِ الخفي الذي يقومُ على الاحتيالِ دونَ المكورِ بهِ، التَّدبير الذي قامَ به المشركونَ من اجتماعِهم في دارِ النَّدوةِ، ثُمَّ اجتماعِهم على قتلِ النَّبيِّ ﷺ وفْقَ خُطَّةٍ خبيثةٍ، تنجيهم من تبعاتِ فعلتِهم.

واستحضارُ الحالِ أو ما يعرفُ كذلك بحكايةِ الحالِ الماضيةِ إنَّما يكونُ في الأمرِ العظيمِ، وأيُّ أمرٍ أعظم من أن يُمكرَ برسولِ اللّهِ ﷺ ويفيدُ كذلك استمرارَ هذا المكرِ وعدم انقطاعِه.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/327.

سرُّ التَّعبيرِ بالمكرِ لا بالخديعةِ:

النَّبيُّ ﷺ قد يقعُ عليهِ المكرُ لكنَّهُ لا يُخدعُ

استعمل القرآنُ مادَّة المكرِ في قوله: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ﴾ دونَ (يخدعك)، فلم يقل: (وإذ يخدعك) الذين كفروا، لتميَّز المكرُ بمعانٍ ودلالاتٍ لا تؤدّيها مادَّةُ الخداعِ، ولا تتناسبُ مع موضوعِ الآياتِ وسياقها، ولا بالَّذي حدثَ في واقعِ الأمرِ تاريخيًّا، فالمكرُ في أصلِ معناهُ التَّدبيرُ، وقد يكونُ محمودًا أو مذمومًا، بخلافِ الخداعِ الَّذي لا يكونُ إلّا مذمومًا، ولذا استعملَ المكرَ؛ ليصحَّ نسبتُهُ للّهِ سبحانه ﴿وَيَمْكُرُ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾، دونَ حاجةٍ للقولِ بالمشاكلةِ.

وفي الخداعِ معنى الغفلةِ وعدمِ التَّنبُّهِ والاحتياطِ من المخدوعِ، وهذا لا يناسبُ حالَ النَّبيِّ ﷺ ومقامَهُ، وكذا لا يقتضي الخداعُ وجودَ تدبيرٍ بخفاءٍ بخلافِ المكرِ، فلا يكونُ بدون تدبيرٍ بخفاءٍ، وهو أصلُ معناهُ، ولذا كان المكرُ هنا أنسبَ لمقامِ حالِ المشركين الَّذين كما تذكرُ الرِّواياتُ اجتمعوا خفيةً، وتشاوروا، ودبَّروا، وأخفَوا تدبيرَهم.

معاني الباءِ ودلالاتها:

مَكْرُ المُشركين لصيقٌ الوقوعِ بهِ ﷺ

الباءُ في قولهِ تعالى: ﴿بِكَ﴾ تحملُ معنى الإلصاقِ، أي: يدبِّرون كيدًا ومكرًا يلتصقُ بك، ولا ينفكُّ عنك؛ فإمّا أن يثخنوك بالجراحِ بحيثُ لا تتحرَّكُ أو يقتلوك أو يخرجوكَ من مكَّةَ، أو يدبِّرونَ مكرًا، وهم ملتصقونَ بكَ، وهم أعلمُ النّاسُ بصدقِكَ وأمانتِكَ، فقد كنتَ فيهم الصّادقَ الأمينَ، وعلى كلا المعنيين، ففي التَّصويرِ لحالِهم شتمٌ وإهانةٌ بهم، فمن يلتصقُ برسولِ اللّهِ، ويعلمُ صدقَهُ، وينكرُ رسالتَهُ، مستحقٌّ للتَّوبيخِ والتَّقريعِ.

ويحتملُ أن تكونَ الباءُ للسَّببيَّةِ، والمعنى: "هذا المكرُ هو بسببكَ - يا محمَّدُ - هم جعلوك سببًا لمكرِهم ﴿لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ

يُخْرِجُوكَ﴾"[1]، وفي هذا إشارةٌ إلى حقدِهم وحسدِهم لرسولِ اللّٰهِ، قال تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٨﴾﴾ [الملك: 28].

نُكْتةُ تقديمِ الجارِّ والمجرورِ على الفاعلِ:

قدَّمتِ الآيةُ الجارَّ والمجرورَ ﴿بِكَ﴾ في قوله: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ﴾؛ لنكاتٍ عدَّةٍ، منها: لفتُ انتباهِ النَّبيِّ ﷺ وتنبيهُهُ إلى ما حيكَ ويُحاكُ لهُ من مكرٍ، وبيانُ شدَّةِ تعلُّقِ مكرِهم بالنَّبيِّ ﷺ، والوقوفُ على مدى الخُبثِ والمكرِ والكراهيةِ الَّتي يحملُها المشركونَ تجاهَ النَّبيِّ ﷺ، وبيانُ شدَّةِ الحسدِ لهُ ﷺ فهم يمكرونَ بكَ أنتَ على وجهِ الخصوصِ.

بلغَ الحسدُ بالمشركينَ مبلغًا لم يستطيعوا معهُ إلّا المكرَ والغدرَ

نكتةُ التَّعبيرِ بالاسمِ الموصولِ:

عُرِّفَ المسندُ إليهِ بالاسمِ الموصولِ في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ لقصدِ الإبهامِ الَّذي من أسرارِهِ: تسليطُ الضَّوءِ على فعلِ المكرِ لا على شخوصِهم، فهي صفةٌ ملازمةٌ للكافرين في كلِّ زمانٍ ومكانٍ.

وتحقيرُهم بالوصفِ النّاقصِ ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾.

والتَّنبيهُ على التَّعميمِ، فصفةُ المكرِ غيرُ خاصَّةٍ بفئةٍ معيَّنةٍ، وخاصَّةً أنَّ (الذين) من ألفاظِ العمومِ، أي: إنَّها تشملُ أدنى ماكرٍ برسولِ اللّٰهِ ﷺ وليس بالضَّرورةِ أن يكونَ راسخًا في المكرِ الَّذي يفيدُهُ التَّعبيرُ بـ(الكافرون).

ولفتُ الانتباهِ في الإبهامِ؛ ليقعَ بعدَهُ التَّفصيلُ، فيتمكَّنُ معناهُ مِنَ الذِّهنِ.

توجيهُ الأذهانِ إلى مكرِ الكافرينَ لا إلى شخوصِهم وأسمائهم

نكتةُ جمعِ الاسمِ الموصولِ:

في إيرادِ الاسمِ الموصولِ جمعًا ﴿ٱلَّذِينَ﴾ في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ إشارةٌ إلى أنَّهم فريقٌ اجتمعَ، وتآزرَ على المكرِ بالنَّبيِّ ﷺ

الَّذين كفروا: فريقٌ اجتمعَ على المكرِ، وتآزرَ على الغدرِ

(1) السامرائي، لمسات بيانية: 5/156.

وبالمؤمنينَ، والمكرُ وإن كانَ من ساداتِهم وكبرائِهم، إلا أنَّ عمومَ الكافرينَ لمّا وافقوهم، أو رضوا بفعلِهم، أو سكتوا عنهُ نُسِبَ لهم جميعًا، يقولُ ابن عاشورٍ: "وإنَّما أُسنِدَ إلى جميعِ الكافرينَ؛ لأنَّ البقيَّةَ كانوا أتباعًا للزُّعماءِ يأتمرونَ بأمرِهم"[1]، ويؤكِّدُ ذلك مجيءُ أفعالِ مكرِهم بصيغةِ الجمعِ (ليثبتوك) (يقتلوك) (يخرجوك).

معنَى اللّامِ الدّاخلةِ على الأفعالِ:

علّةُ المكرِ إنهاءُ خطرِ الإسلامِ على الكفرِ

اللّامُ الدّاخِلَةُ على الأفعالِ: ﴿لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَۚ﴾ هي حرفُ جرٍّ لفظًا، وحرفُ تعليلٍ، أي: ما بعدها مسبَّبٌ عمّا قبلَها، يقول البقاعيُّ: "ثم بيَّن غايةَ مكرِهم، فقال: ﴿لِيُثْبِتُوكَ﴾"[2]، أي: مكروا بكَ لكي يحبسوكَ أو يقتلوكَ أو يخرجوكَ.

بلاغةُ ترتيبِ الأفعالِ:

المنعُ من الدَّعوةِ أشدُّ من القتلِ، والقتلُ أشدُّ من النَّفي

قدَّمَ البيانُ الإلهيُّ ﴿لِيُثْبِتُوكَ﴾ أوَّلًا مراعاةً لما كان أشدَّ على النَّبيِّ ﷺ وهو أن يحبسوهُ في دارِهِ، فلا يتمكَّنُ من لقاءِ النّاسِ ومن دعوتهم إلى الدّين الحقِّ، فقد كان هذا أشدَّ على النَّبيِّ ﷺ من الموتِ في سبيلِ اللّهِ، كيف لا؟ واللّهُ حثَّ على الشَّهادةِ في سبيلِ اللّهِ لأجلِ نشرِ الحقِّ وتبليغِهِ، ثم يأتي آخِرًا الإخراجُ من مكَّةَ الَّتي نشأ بها، وأحبَّها؛ لأنَّها بلدُ اللّهِ الحرامُ وفيها قبلةُ المسلمينَ.

وممّا يؤكِّدُ هذا أنَّ النَّظْمَ اقتصرَ في قولِهِ تعالى: ﴿أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ وَهَمُّواْ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۚ أَتَخْشَوْنَهُمْۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ١٣﴾ [التوبة: 13] على الأدنى، وهو الهمُّ بالإخراجِ، ليعلمَ غيرَهُ بالطَّريقِ الأولى؛ إذِ الإخراجُ أهونُ من القتلِ والحبسِ[3].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/328.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 3/210.
(3) طنطاوي، التفسير الوسيط: 6/222.

دلالةُ استعمالِ حرفِ ﴿أَوْ﴾:

استعملتِ الآيةُ حرفَ العطفِ (أو) الَّذي يفيدُ التَّخييرَ بين شَيئَينِ أو أشياءَ، للدَّلالةِ على التَّردُّدِ الَّذي كانَ منهم بين الحبسِ والقتلِ والإخراجِ، والَّذي كانَ بيانًا لما كانوا يمكرونَهُ من مَكْرٍ.

وهذا التَّردُّدُ يدلُّ على أنَّهُ كان منهم تشاورٌ في أمرِ النَّبيِّ - صلى اللّه عليه وآله وسلم - وما كانَ يهمُّهم، ويهتمّونَ بهِ من إطفاءِ نورِ دعوتِه، وبذلكَ يتأيَّدُ ما وردَ من قصَّةِ دارِ النَّدوةِ.

الباطلُ وإن استعلى باتِّحادِه؛ يبقى متردِّدًا في اتِّخاذِ قرارِه

معاني الواوِ ودلالاتها:

تحتملُ الواوُ في قولِه: ﴿وَيَمْكُرُونَ﴾ وجهين:

أحدُهما: أن تكونَ واوَ الحالِ، والجملةُ حالٌ من ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ وهي حالٌ مؤسِّسَةٌ غيرُ مؤكِّدةٍ، باعتبارِ ما اتَّصلَ بها من الجملةِ المعطوفةِ عليها، وهي جملةُ: ﴿وَيَمْكُرُ ٱللَّهُۖ﴾ فقولُه: ﴿وَيَمْكُرُ ٱللَّهُۖ﴾ هو مناطُ الفائدةِ من الحالِ، وما قبلَهُ تمهيدٌ له، وتنصيصٌ على أنَّ مكرَهم يقابلُهُ مكرُ اللّهِ، ويكونُ المضارعُ في ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُۖ﴾؛ لاستحضارِ حالةِ المكرِ.

وثانيهما: أن تكونَ واوَ الاعتراضِ، أي: العطفُ الصّوريُّ، ويكونَ المرادُ بالفعلِ المعطوفِ الدَّوامَ، أي: هم مكروا بكَ ليثبتوكَ، أو يقتلوكَ، أو يخرجوكَ، وهم لا يزالونَ يمكرونَ، فتكونُ جملةُ: ﴿وَيَمْكُرُونَ﴾ معترضةً، وتكونُ جملةُ: ﴿وَيَمْكُرُ ٱللَّهُۖ﴾ معطوفةً على جملةِ: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾[1].

إمّا أن تكونَ حاليَّةً أو اعتراضيَّةً ومكرُهم على المعنَيَيْن يُقابلُهُ مكرُ اللهِ

غرضُ التَّعبيرِ بالفعلِ المُضارِعِ:

إذا كانت الواوُ حاليَّةً؛ فالغرضُ الأوَّلُ: هو تصويرُ المكرِ في المخيِّلَةِ ليبقى النَّبيُّ ﷺ والمؤمنون يستشعرونَ خطورتَهُ، فيحذرونَ منه، ويدفعونَهُ.

مكرُ الكافرينَ بأهلِ الحقِّ مستمرٌّ؛ فلا بدَّ من استشعارِ الخطرِ المستمرِّ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/328.

وأمّا إذا كانتِ الواوُ اعتراضيَّةً، أي: العطفُ الصّوريُّ، وكان المرادُ بالفعلِ المعطوفِ بعدَها ﴿وَيَمْكُرُونَ﴾ الدَّوامَ، فإنَّها تفيدُ في المقامِ الأوَّلِ: الاستقبالَ والاستمرارَ[1]، وكذلك الكثرة، قال أبو حيان: "إخبارًا باستمرارِ مكرِهم وكثرتِه"[2]، أي: إنَّ مكرَ الكافرين وأهلَ الباطل بالنَّبيِّ ﷺ وبالمؤمنين كثيرٌ ومستمرٌّ لا يتوقَّفُ، ولا ينقطعُ، وأنَّهم يجتمعونَ على هذا المكرِ، سواءٌ في مكَّةَ قبلَ الهجرةِ أو بعدَ الانتقالِ إلى المدينةِ والتَّحالفِ مع القبائلِ ومضايقةِ المسلمين وقتالِهم[3].

وفي كلا المعنيين للواو يفيدُ التَّعبيرُ بالمضارعِ استثارةَ المؤمنينَ ليحذروا من مكرِ الكافرينَ، وليدفعوهُ بالحيطةِ والتَّدبيرِ في كلِّ وقتٍ.

نكتةُ التَّعبيرِ بالمضارعِ:

المكرُ بالأمَّةِ حالةٌ مستمرَّةٌ تَبَعًا لحالةِ المكرِ بنبيِّها

عبَّر القرآنُ عن مكرِهم بصيغةِ المضارعِ في (ليثبتوك، ويقتلوك، ويخرجوك)؛ "لأنَّ تلكَ الأفعالَ مستقبلةٌ بالنِّسبة لفعل المكرِ؛ إذ غاية مكرِهم تحصيلُ واحدٍ من هذه الأفعال"[4]، كما أنَّ التَّعبيرَ بالمضارع يثيرُ في المخيِّلة صورةً لهذه الأفعال القبيحةِ من توثيقِ النَّبيِّ ﷺ وحبسِه حتَّى الموت، ومنعِه بذلك من أن يدعوَ إلى الحقِّ، أو الاجتماعِ على قتلِه، أو إخراجِه من وطنِه منفيًّا مطرودًا، بما يوجبُ الحذرَ منهم في كلِّ زمانٍ.

كما يفيدُ التَّعبيرُ بصيغة المضارع معنى الاستمرارِ وعدمِ التَّوقُّف والانقطاع في محاولةِ إيذائِه ﷺ، وإثخانِه بالجراحِ أو قتلِه، أو إخراجِه من أيِّ مكانٍ يريدُ أن يستقرَّ فيه.

كما أنَّه يُفيدُ أنَّ هذهِ الأفعالَ مستمرَّةٌ في الأمَّةِ من قبلِ الأعداءِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/328.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 5/309.
(3) السامرائي، لمسات بيانية: 5/157.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/327.

الَّذين يتربَّصونَ بها، سواء أعداء الدّاخلِ أم الخارج، فهم ما بين حابسٍ لأهلِ الحقِّ، أو قاتلٍ، أو نافٍ نفيًا فعليًّا أو اضطراريًّا.

توجيه معنى الواوِ:

الواوُ: حرفُ عطفٍ، وهناك احتمالانِ في المعطوفِ عَليهِ، بما يعطي ثراءً في المعنى، فإمّا أن يكونَ العطفُ على الجملةِ الَّتي قبلَها مباشرة ﴿وَيَمۡكُرُونَ﴾، ويكونَ بين الجملتين ازدواجٌ، أي: مكرُهم يقارنهُ مكرُ اللّهِ بهم، وإما أن يكونَ العطفُ على جملة: ﴿وَإِذۡ يَمۡكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾[1].

غرضُ التَّعبيرِ بالفعلِ المُضارِع:

يفيدُ التَّعبيرُ بالمضارعِ استحضارَ حالةِ مكرِ اللّهِ بهم في وقتِ مكرهِم[2]، وبالتّالي يفيدُ تهديدَ الكافرينَ بأنَّ اللّه لهم بالمرصادِ على الدَّوامِ، ليُبطِلَ مكرَهم، ويحبِطَ ما دبَّروا، ويدبِّرون من كيدٍ للنَّبيِّ ﷺ كما يفيدُ في الوقتِ ذاته بشارةً للنَّبيِّ ﷺ وللمؤمنين بأنَّ معيَّتَهُ ونصرَهُ لا ينقطِعُ، فهي تسليةٌ لهُ ﷺ وللمؤمنين.

مكرُ اللهِ المقترنُ بمكرِ الماكرينَ تسليةٌ للمؤمنينَ على مرِّ الأيامِ

بلاغةُ الإطنابِ:

آثرتِ الآيةُ تكرارَ (المكر) صيغةً ومادَّةً في قولهِ تعالى: ﴿يَمۡكُرُ بِكَ﴾ و﴿وَيَمۡكُرُونَ﴾ و﴿وَيَمۡكُرُ ٱللَّهُۖ﴾ و﴿وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ﴾؛ لبيانِ خطورةِ مكرِ الكافرين وتأكيدِ وقوعهِ وكثرتِه وتنوُّعِه بصورٍ متعدِّدةٍ، حيثُ صرَّحتِ الآياتُ ببعضٍ منها: (ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجزك)، وأثرهِ السَّلبيِّ على حياة المؤمنين أفرادًا وجماعاتٍ، وبالتالي وجوبُ الحذرِ الدّائم منهُ ومواجهتهُ، وبالمقابلِ بيانُ لطفِ اللّهِ ومعيَّتِه للمؤمنين بهذا التَّنبيهِ والتَّحذيرِ.

عندَ تكاثرِ صورِ المكرِ تتكرَّرُ ألفاظُهُ الدّالَّةُ على خطورتِه

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/328.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/328.

فنُّ المشاكلَةِ:

مكرُ اللهِ مكرُ جزاءٍ لا مكرُ ابتداءٍ

تنوَّعتْ آراءُ المفسِّرين في قولِه تعالى: ﴿وَيَمۡكُرُ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ﴾ بما يدلُّ على بلاغةِ نظمِها، فمنهم من عدَّها من بابِ المشاكلةِ في الكلامِ، بتسميةِ خيبةِ المسعى في مكرِهم أو مجازاتهم عليه باسم: المكرِ[1]، على سبيل المجازِ المرسلِ، والعلاقةِ السَّببيَّةِ.

ومنهم من عدَّها استعارةً تبعيَّةً من إطلاقِ المكرِ على الرَّدِّ؛ لأنَّهُ لمّا كانَ معنى المكرِ حيلةً يجلبُ بها مضرَّةً إلى الآخرين، وهو ما لا يجوزُ في حقِّه تعالى؛ كان المرادُ بمكرِ اللهِ ردَّ مكرِهم، أي: عاقبتُه ووخامتُه عليهم.

ومنهم من يرى أنَّ في الكلام استعارةً تمثيليَّةً، بتشبيهِ حالةِ تعليلِ المسلمين في أعينِهم الحاملةِ لهم على هلاكِهم بمعاملةِ الماكرِ المحتالِ الَّذي يظهرُ خلافَ ما يبطنُ[2].

نكتةُ إظْهارِ ما حقُّهُ الإضمارُ:

للاسمِ الأعظمِ وقعُ مَهابةٍ وجرْسُ فخامةٍ

أظهرَ النَّظمُ لفظَ الجلالةِ ﴿وَٱللَّهُ﴾، ولم يقل: (وهو خير الماكرين)؛ إشارةً إلى أنَّ اللهَ الَّذي يجمعُ صفاتِ الكمالِ كلَّها لا يخفى عليه مكرُ الماكرينَ، ولا يعجزهُ تدبيرُ المناوئينَ، وأنَّ تدبيرَهُ فوقَ كلِّ تدبيرٍ، فلاسمِ الجلالةِ وقعُ مَهابةٍ، وجرْسُ فخامةٍ.

نكتةُ اختيارِ المفردات:

كلُّ مكرٍ يَبْطلُ، ويبورُ في مقابلةِ تدبيرِ اللهِ الَّذي لا يُغالبُ

عبَّرتِ الآيةُ بكلمةِ (خير) وهي من أسماءِ التَّفضيلِ، رغم أنَّهُ لا خيرَ في مكرِهم، لينبِّهَ على أنَّ كلَّ مكرٍ يبطلُ في مقابلةِ تدبيرِ اللهِ تعالى؛ إذ المقصودُ بخير الماكرين هنا أقوى الماكرين، فوضع خير موضع أقوى وأشد[3]، وأنفذ وأبلغ، وهذا معنى الخيريَّةِ والتَّفضيلِ في

(1) الهروي، تفسير حدائق الروح والريحان في روابي علوم القرآن: 10/430.
(2) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 3/567.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 15/478.

النَّظم، فالإضافةُ للتَّفضيلِ على المضافِ؛ لأنَّ لمكرِ الآخرين أيضًا نفوذًا وتأثيرًا في الجملةِ، وهذا معنى أصلِ فعلِ الخيرِ، فتحصلُ المشاركةُ فيهِ[1]، والمعنى: أنَّ مكرَهُم يبورُ، أي: يكسدُ، ويفسدُ دونَ مكرِ اللّهِ بهم حين أخرجَهم من مكَّةَ، وقتلَهم، وأثبتهم في قليبِ بدرٍ، فجمعَ عليهم مكراتِهم جميعًا، وحقَّق فيهم قولَهُ: ﴿وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ﴾ وقوله: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلۡمَكۡرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهۡلِهِۦۚ﴾[2].

دلالةُ التَّعريفِ والجمعِ:

التَّعريفُ والجمعُ يفيدانِ العمومَ

التَّعريفُ في قولهِ: ﴿ٱلۡمَٰكِرِينَ﴾ هو جمعٌ معرَّفٌ بـ (أل) الجنسيَّةِ الاستغراقيَّةِ، وهو جمعٌ مضافٌ، ودلالتهُ في الآية: العمومُ، فيشملُ كلَّ ماكرٍ يمكرُ بدينِ الإسلامِ من الجنِّ والإنسِ ومن العربِ والفرس والرّوم، وممَّن في زمانِه أو بعدَ حياتِه إلى قيامِ السّاعة، ولا يدخلُ من يمكرُ في سبيلِ الحقِّ، فإنَّ المكرَ بقصدِ الخيرِ، وردِّ مكرِ الماكرين، مطلوبٌ شرعًا، فهو من تدبيرِ الحقِّ وأهلِه، واللّهُ يُعين على فعلِ الخيرِ.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

المكرُ والخداعُ:

المكرُ: تدبيرٌ بخفاءٍ، والخداعُ: إيهامُ المخدوعِ لغفلتِه وعدمِ احتياطِه

المكرُ والخداعُ متقاربانِ دلاليًّا، إذ يُعرَّفُ كلٌّ منهما بالآخرِ في اللُّغةِ، فالمكرُ: الاحتيالُ والخداعُ، والخداعُ: إظهارُ المرءِ خلافَ ما يخفي، وهو فعلٌ ماكرٌ يريدُ به فاعلُهُ أن يوهمَ غيرَهُ، فيظهرُ لهُ حسنًا، ويخفي قبيحًا[3]، إلّا أنَّ هناك بعضَ الملامحِ الَّتي تُميِّز كلًّا منهما:

فالمكرُ يتميَّزُ في أنَّهُ: احتيالٌ من الماكرِ الَّذي يريدُ إيقاعَ الأذى بالمكورِ بهِ الَّذي هو آمِنٌ في نفسِه، ولا يعلمُ بما يخبِّئُهُ له الماكرُ الَّذي ينجحُ في مكرِهِ؛ إذا فجَأ المكورُ بهِ.

(1) الخفاجي، عناية القاضي وكفاية الراضي: 4/269.
(2) الزمخشري، الكشاف: 3/603.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (خدع).

بينما يتميَّزُ الخداعُ في أنَّ الخادعَ يوهمُ صاحبَهُ خلاف ما يريدُ به من المكروه، فيسترُ عنه وجه الصَّوابِ، فيوقعُهُ في مكروهٍ، وقد يعلم المخدوعُ بسوءِ طويَّةِ الخادعِ وعدائهِ، ولكنَّهُ يُخْدَعُ؛ إذا أتاه السّوءُ من حيثُ لا يحتسبُ لهُ، فالخداعُ يعتمدُ على ذكاءِ الخادعِ الَّذي ينجحُ في خداعهِ إذا فجأ عدوَّهُ من حيثُ لم يكن محتاطًا ولا متهيَّأً.

إذًا: المكرُ لا يبدي الماكرُ فيهِ للممكورِ بهِ شيئًا، وإنَّما يدبَّرُ بالخفاءِ، بينما الخداعُ يحاولُ فيه الخادعُ أن يوهمَ المخدوعَ بخلافِ الحقيقةِ ليوقعَهُ في المكروهِ، فالخداعُ لا يقتضي أن يكونَ بعدَ تدبيرٍ ونظرٍ كما المكرُ، كما أنَّ المكرَ لا يقتضي عدمَ حذرٍ واحتياطِ الممكورِ بهِ، بينما الخداعُ قد يعتمدُ على غفلةِ المخدوعِ[1].

(1) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 260، ومحمد داود، معجم الفروق الدلالية، ص: 159 - 160، وعلي فهمي النزهي، الفروق اللغوية في تفسير الكلمات القرآنية، ص: 205.

﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا قَالُواْ قَدۡ سَمِعۡنَا لَوۡ نَشَآءُ لَقُلۡنَا مِثۡلَ هَٰذَآ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٣١﴾ [الأنفال: 31]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الانتقالُ من المكرِ بالرَّسولِ إلى المكرِ بالرِّسالةِ

لمّا ذكرَ ﷻ مكرَ الكفّارِ في ذاتِ النَّبيِّ ﷺ فقالَ: ﴿وَإِذۡ يَمۡكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثۡبِتُوكَ أَوۡ يَقۡتُلُوكَ أَوۡ يُخۡرِجُوكَۚ﴾؛ ذكرَ في قولِه: ﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا قَالُواْ قَدۡ سَمِعۡنَا﴾ مكرَهم أيضًا بما أرسلَ بهِ، وهو القرآنُ، فتصدَّوا للطَّعنِ بهِ، والتَّشغيبِ عليهِ، وهذا غايةُ المكابرةِ والتَّعنُّتِ[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تُتۡلَىٰ﴾: التّاءُ واللّام والواوُ: أصلٌ واحدٌ، وهو الاتِّباعُ، واتِّباعُ الشَّيءِ: ما يسبقُهُ لحوقًا بهِ من خلفِه، ومنه قولُهُ تعالى: ﴿وَٱلۡقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ٢﴾ [الشمس: 2]: تبعها، والتِّلاوةُ: القراءةُ، ولعلَّ أصلَهُ من تتبُّعِ الكلامِ المكتوبِ عند القراءةِ، أي: اتِّباعه كلمةً كلمةً، أو من التَّلاحقِ: تلاحقِ المتلوِّ، أي: (هذا يتبع هذا)، ثم أطلقتِ التِّلاوةُ على تلاوةِ القرآنِ؛ لما فيهِ من تتابعِ الآياتِ بشكلٍ منتظمٍ، والتِّلاوةُ: القراءةُ من مكتوبٍ، ثم عُمِّم في القراءةِ عن ظهرِ قلبٍ، أي: من غيرِ المكتوبِ[2].

والمقصودُ هنا: هو تلاوةُ آياتِ القرآنِ الكريمِ.

2) ﴿أَسَٰطِيرُ﴾: جمعُ أسطورةٍ، من سطرَ: السّينُ والطّاءُ والرّاءُ: فيها دلالةٌ على اصطفافِ الشَّيءِ، كالكتابِ والشَّجرِ، وكلُّ شيءٍ اصطفَّ بانضباطٍ، والسَّطرُ: الخطُّ والكتابةُ، وقوله تعالى: ﴿وَكِتَٰبٍ

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 7/398، والبقاعي، نظم الدرر: 3/210، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/330.

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (تلو).

﴿مَّسۡطُورٖ ۝٢﴾ [الطور: 2] أي: مكتوبٌ مسطَّرٌ، فتوالي كلماتِ الصَّفِّ على استقامتِها يجعلُها سطرًا كسطر الشَّجر، وأمّا الأساطيرُ: فهي الكتابةُ المسطورةُ، ولما كانت أخبارًا مكتوبةً عن الأقدمينَ غابتْ شواهدُها الواقعةُ، وخفيتْ حقائقُها على الحاضرين، وتَشكَّكوا فيها، فلَصِق بمعنى اللَّفظِ معنى الارتيابِ، وقالوا: (الأساطيرُ: الأباطيلُ)، فكأنَّها أشياءُ كُتِبَت من الباطلِ، فصارَ ذلك اسمًا لها، مخصوصًا بها، يقالُ: سطَّر فلانٌ علينا تسطيرًا، إذا جاء بأحاديثَ تشبهُ الباطلَ، فهو يؤلِّفُ ما لا أصلَ له[1].

والأساطيرُ: ما سطَّرهُ الأوَّلونَ، وكتبوهُ من أخبارِ الأممِ وقصصِهم وأحاديثِهم وكذبِهم[2].

3) ﴿ٱلۡأَوَّلِينَ﴾: جمعُ أوَّلٍ، وهو ضدُّ الآخر، وقيل: أصلهُ (وول)، فقُلِبَتِ الواوُ الأولى همزةً، وأُدغِمَت إحدى الواوين في الأخرى، فقيلَ: أوَّلٌ، ومعناهُ: كونُ الشَّيءِ ابتداءً وسبْقًا في أمرٍ لجميع جنسِه، فيكونُ كلُّ ما يماثلهُ فيه تاليًا لهُ، أي: كائنًا بعدهُ، والأوَّل: يكون كذلك بانضمام ثانٍ وثالثٍ إلخ إليه بعدَهُ، والأوَّل: الأسبقُ كقولهِ تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيۡتٖ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكٗا﴾ [آل عمران: 96][3]، والأوَّلون: هم بنو آدمَ مِنَ الأممِ السّابقةِ.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

إعـلامُ المفلسِ تافهٌ في مضمونِه مـتـعـالٍ في منطوقِهِ

وإذا تُتلى – على هؤلاءِ الذين كفروا – آياتُ كتابِ اللّهِ الواضحةُ التي لا ريبَ في دلالتِها على أنَّها من عندِ اللّهِ، والَّتي تكشفُ بإعجازِها ما يريدُهُ اللّهُ منهم، المرَّة تلوَ المرَّةِ؛ لجّوا، وهوَّنوا أمرَها،

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (سطر).
(2) ابن جرير، جامع البيان: 13/503، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/330.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أول)، وابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (وول).

وأزروا بالرِّسالةِ وبصاحِبها ﷺ وقالوا قولًا يغرّونَ بهِ أنفسَهم، ومن اتَّبعهم على باطلِهم؛ تمرُّدًا وعنادًا منهم للحقِّ.

وقد قيلَ: إنَّ القائلَ هو النَّضرُ بنُ الحارثِ، ولكن أُسْنِدَ القولُ إلى جماعةِ المشركينَ مِن حيثُ إنَّهم كانوا يؤيِّدونه، ويحكونهُ، ويحاكونهُ، وقالوا: قد سمعنا، ولو نشاءُ؛ لقلنا مثل هذا الَّذي تُلي علينا غير أنّا لا نعتني بهِ، ولا نهتمُّ، فما هو إلّا ما سطَّرهُ الأوَّلونَ، وكتبوهُ من أخبارِ الأممِ! وأرادوا بقولِهم هذا الإيهامَ بأنَّهم ترفَّعوا عن معارضتِه، وأنَّهم لو شاؤوا؛ لنقلوا من أساطيرِ الأوَّلين إلى العربيَّةِ ما يوازي قصصَ القرآنِ، وهذه وقاحةٌ، وقول بلا فعل، وإلّا فما منعَهم أن يشاؤوا معارضةَ من تحدّاهم غير ما مرَّةٍ، وقرَّعهم بالعجزِ، مع تحيُّزهم وتآمرهم في إيجادِ معذرةٍ يعتذرونَ بها عنِ القرآنِ وإعجازِهِ إيّاهم وتحدّيه لهم[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

معاني الواوِ وتوجيهها:

الواوُ في قولهِ تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا﴾:

إمّا عاطفةٌ؛ عطفتْ جملةَ ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ﴾ على جملةِ ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ﴾، والمعنى: واذكرْ نعمتي عندَك، بمكري بمن حاولَ المكرَ بذاتِكَ، واذكر مكرَهُم بآياتِ كتابِ اللهِ عنادًا وغرورًا.

الواوُ إمّا عاطِفَةٌ أو استئنافيَّةٌ، وفي كلا الوجهين تُصَوِّرُ عنادَ المشركينَ ومكرَهُم

أو استئنافيَّةٌ، فأتت هذهِ الآيةُ ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ﴾ لتكملَ أخبارَ الكافرين وأحوالهم، ولتبيِّنَ بهتانًا آخر من حجاجِهم وتعنُّتِهم، وهو طعنُهم بآياتِ اللهِ.

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/44، وابن عطية، المحرر الوجيز: 2/520، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/330.

نكتةُ استعمالِ الظَّرف:

مَوْقفُ الكفّارِ عندَ سَماعِ الآياتِ معلومٌ مقطوعٌ بِهِ

استعملَ النَّظمُ ﴿وَإِذَا﴾ في قولهِ تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا﴾؛ لأنَّها تستعملُ اسمًا للزَّمن المستقبلِ، وتختصُّ بالجملةِ الفعليَّةِ، ومعناها الشَّرطُ، وتحتاجُ إلى جوابٍ، ومن شرطِها أن يكونَ التَّعليقُ بها على أمرٍ معلومٍ مقطوعٍ بوقوعه، بخلاف (إن)، فإنَّها لا يكونُ التَّعليقُ بها إلّا في مُبهمٍ مشكوكٍ فيه[1]، والحديثُ هنا عن حالةِ الكفّارِ الذين إذا تُتلى عليهم آياتُ اللّهِ؛ كان جوابُهم أمرًا معلومًا مقطوعًا به، وهو الجحودُ والاستكبارُ، ولهذا أتى جوابُ إذا بالماضي ﴿قَالُوٓاْ﴾؛ للدَّلالة على الوقوع والحصولِ منهم قطعًا، وهذا المعنى المرادُ لا تؤدّيه أيُّ أداةٍ أخرى غير (إذا).

نكتةُ التَّعبيرِ بالفِعْلِ المُضارِع:

حرصُ النَّبيِّ على هدايةِ قومِه قابلهُ نكرانُهم وجحودُهم

جاءَ التَّعبيرُ بالمضارع ﴿تُتْلَىٰ﴾ في قولهِ تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا﴾ دون الماضي (تُليت)؛ لأنَّ صيغةَ المضارع تدلُّ على تجدُّدِ التِّلاوةِ عليهم مرَّةً بعدَ مرَّةٍ وزمنًا بعد زمنٍ، وتصويرِ حالِهم وتجدُّدِها آنًا بعد آنٍ، أيْ: كلَّما تُتلى عليهم آياتُ اللّهِ؛ كان هذا حالَهم من الجحودِ والتعنُّت والافتراء، وأمّا الفعلُ الماضي (تُليَت) فلا يؤدّي هذا المعنى.

براعةُ المناسبةِ:

التِّلاوةُ على الكفّارِ واقعٌ متجدِّدٌ، وجوابُهم معلومٌ متبدِّدٌ

ناسبَ استعمالُ ﴿وَإِذَا﴾ استعمالَ الفعلِ المضارعِ ﴿تُتْلَىٰ﴾ بعدَها؛ لأنَّ (إذا) أداةُ شرطٍ وفيها معنى الظَّرفيَّةِ، وهي تستعملُ بحسب أصلِها في كلِّ ما يقطعُ المتكلِّمُ بوقوعهِ في المستقبل، وهذا يناسبُهُ المضارعُ، ليؤدّي معنى تكرارِ الفعلِ، وأنَّ هذا حالهم، كلَّما تُليت عليهم آياتُ اللّهِ؛ كان هذا جوابَهم.

(1) ابن نور الدين، مصابيح المعاني في حروف المعاني، ص: 84، وأبو حيان، البحر المحيط: 5/309.

فائدةُ التَّعبيرِ بصيغةِ المبنيِّ للمفعولِ:

رفضُ قبولِ الحقِّ بقطعِ النَّظرِ عن تاليهِ موقفٌ جاثٍّ وسلوكٌ دنيٌّ

جاءَ التَّعبيرُ بصيغةِ المبنيِّ للمفعولِ ﴿تُتْلَىٰ﴾ في قولهِ تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا﴾ لأمرين:

الأوَّلُ: إفادةُ العمومِ، وذلك لأنَّ الفعلَ المبنيَّ للمفعولِ في سياقِ الشَّرطِ يفيدُ العمومَ، قال البقاعيُّ: "من أي تالٍ فُرِض"[1]، فلو أتى بالمبنيِّ للمعلوم لقيَّدَهُ بتالٍ واحد فقط، وهو رسولُ اللّٰه ﷺ.

الآخر: صرفُ الحدثِ عمدًا عن مُحدِثِه، فلم يُسندهُ إليه، تركيزًا للانتباه على الحدث ذاته، أي: المفعولُ وهو تلاوةُ الآيات، وحصرَ الوعي فيه، فلا يتوزَّعُ في غيرِه، لعدمِ تعلُّقِ غرض الآيات بشخصِ التّالي.

فائدةُ تقديمِ الجارِّ والمجرورِ على نائبِ الفاعلِ:

مَهما بلغَ حرصُ التّالي؛ فإنَّ حقيقةَ الاستكبار متغلغلةٌ في القلوبِ

قدّمتِ الآيةُ الجارَّ والمجرورَ ﴿عَلَيْهِمْ﴾ على نائبِ الفاعل ﴿ءَايَٰتُنَا﴾؛ للاهتمامِ بهم، وأنَّهم المعنيّون بالتِّلاوة عليهم، وفي هذا إشارةٌ إلى أنَّه رغمَ الاهتمامِ بهم والحرصِ على هدايتِهم بتلاوةِ الآياتِ عليهم، إلا أنَّهم استكبروا عن سماعِها سماعَ تدبُّرٍ واتِّعاظٍ، وكفروا بها، فيكونُ هذا أبلغَ في إقامةِ الحجَّةِ عليهم، ودلالة على تعنُّتهم وجحودهم.

نكتةُ استعمالِ القيدِ:

تالي القرآنِ يتلوهُ بعزَّةِ الإسلامِ وعلوِّ الإيمانِ

استعملتِ الآيةُ قيدَ ﴿عَلَيْهِمْ﴾ في قولهِ تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ للإشارةِ إلى أنَّ تلاوةَ الآيات كانت موجَّهةً للكفّارِ دونَ غيرِهم، فيكونُ هذا أبلغَ في إقامةِ الحجَّةِ عليهم، وللتَّأكيدِ على أنَّ الآياتِ كانت تتلى على مسمعٍ منهم، ومن حالِ قوَّةٍ وعلوٍّ وفخامةٍ لا ضعفٍ وذلٍّ ودونٍ، لأجل أن يتدبَّروها، ويؤمنوا بها، إذ التِّلاوةُ في اللُّغة:

(1) البقاعي، نظم الدرر: 8/268.

القراءةُ بصوتٍ، وعندما أتى بحرف الجر ﴿عَلَيْهِمْ﴾ كان في ذلك زيادةُ تأكيدٍ على أنَّ التِّلاوةَ كانت بصوتٍ، وسمعها الكفّار، كما أنَّ حرفَ الجرِّ ﴿عَلَيْهِمْ﴾ دالٌّ على الاستعلاء، ويفيدُ مكانةَ المتلوِّ وعلوَّهُ وشرفَهُ وأنَّهُ حقيقٌ بأن يُسمعَ.

نُكتةُ ذِكْرِ المتلوِّ عليهم بالإضْمارِ لا الإظْهارِ:

معرفةُ المقصودِ تُغني عن ذكرِه

أضمرَ القرآنُ ذكرَ المتلوِّ عليهم - وهم الكفّار - في قوله: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾، ولم يظهرهُ؛ لأنَّ سياقَ الآياتِ وموضوعَها مشعرٌ بتعيينِهم؛ فهي تتحدَّث عن صفاتِ الكفّارِ ومكرِهم وافترائِهم، فعندما ذُكِرَ في هذه الآيةِ ردودُ فعلٍ جاحدةٌ ومستكبرةٌ وخارجةٌ عن سنن الاستقامةِ؛ انصرفَ الذِّهن إليهم، إذ لا يصدرُ إلّا عنهم، فلا حاجةَ إلى إظهارِ ذكرِهم إهانةً لهم وتحقيرًا.

سرُّ التَّعبيرِ بالآياتِ دون الكتابِ:

الاتِّساقُ الدِّلاليُّ يقضي بإيثارِ ذكرِ الآياتِ على الكتابِ

عبَّرتِ الآيةُ بقولهِ: ﴿ءَايَٰتُنَا﴾ دونَ لفظِ (الكتاب)؛ لأمرين:

الأوَّلُ: الإشارةُ إلى إعجازِ الآياتِ، فالآيةُ في اللُّغةِ: العلامةُ، ومن معانيها: البرهانُ والمعجزةُ، والسّياقُ سياقُ تحدٍّ.

الآخر: المناسبةُ بينَ لفظِ (الآيات)، وبين فعلِ (تتلى)، فالتِّلاوةُ هي التَّتابعُ، وهذا يُناسِبُ تتابعَ الآياتِ، ويدلُّ على أنَّهُ تُليت عليهم مجموعةُ آياتٍ متتابعة يحصل بها إعجازٌ وتحدٍّ.

نكتةُ الإسنادِ للجميعِ والمرادُ بعضُهم:

ملَّةُ الكفرِ واحدةٌ وإنِ اختلفتْ وسائلُها؛ فهي متَّفقةٌ في غاياتِها

إسنادُ القول للجميعِ في قولهِ: ﴿قَالُوٓاْ﴾ مع أنَّ القائلَ بعضُهم (زعماؤهم) أو واحدٌ منهم؛ وذلك إمّا لرضا الباقينَ بهذا القولِ، أو لأنَّ القائلَ كبيرٌ متَّبعٌ يقودُهم إلى الباطلِ وإلى طريقِ الغوايةِ، فاتَّبعَهُ قائلون كثيرون، أو لكثرةِ من سيصدرُ منهم هذا القولُ كلَّما تُتلى عليهم آياتُ اللّهِ، فلمّا صدرَ القولُ من بعضِهم، فلا مانعَ من أن

يصدرَ أمثالُ هذا القولِ من بقيَّتهم؛ لأنَّهم متَّفقون على الكفرِ والتعنُّت والاستكبار[1]، والعبرةُ بمضمونِ الأقوالِ لا عمَّن صدرت عنهم.

دلالةُ جملةِ جوابِ الشَّرطِ:

دلَّت جملةُ جوابِ الشرط ﴿قَالُواْ قَدْ سَمِعْنَا﴾ على وقوعِ هذا القولِ من الكفّارِ قطعًا، وهو إقرارُ السَّماع والفهم، فعندما أتى الفعلُ الماضي ﴿قَالُواْ قَدْ سَمِعْنَا﴾ وهو جوابُ الشَّرط بعد الفعلِ المضارع (وإذا تُتْلى)، وهو فعل الشَّرطِ؛ دلَّ على تحقُّقِ الوقوع، أي: دلَّ على أنَّهم كلَّما تُتلى عليهم آياتُ اللّه؛ سيقعُ منهم هذا القولُ حتمًا، وفي هذا إشارةٌ إلى أنَّ طبائعَ الكفّارِ وقلوبهم وردودهم واحدةٌ في كلِّ زمانٍ.

طبائعُ الكفّارِ وقلوبُهم وردودُهم واحدةٌ في كلِّ زمانٍ

فائدةُ استعمالِ أداةِ التَّحقيقِ:

استعملَ النَّظمُ أداةَ ﴿قَدْ﴾ في قولِه: ﴿قَالُواْ قَدْ سَمِعْنَا﴾؛ لتأكيدِ تحقُّقِ سماعِهم للآياتِ، فحرفُ (قد) إذا سبقَ الفعلَ الماضي؛ أفادَ التَّحقيقَ، فقولهم: ﴿قَدْ سَمِعْنَا﴾ أفادَ أنَّهم ليسوا بحاجةٍ إلى استمرار سماعِه، وهذا يدلُّ على أنَّهم لا يجيبونَ بالتَّأمُّلِ والتَّفكير والتَّدبُّر فيما يتلى، بل يعاجلون القارئَ، كأنَّهم يطلبونَ أن يسكتَ، ولا يقرأ، قائلين: سمعنا، كما تقولُ لمتكلِّمٍ لا تريدُ منه الاستمرارَ: سمعنا سمعنا، أي: أقْصِر، وكأنَّهم يتأفَّفون، وهذا لشدَّةِ تعنُّتِهم واستكبارِهم واستخفافٍ منهم بالقرآنِ وإعراضٍ عن سماعِه سماعَ متدبِّرٍ[2].

من طبائعِ المعاندينَ المعاجلةُ بالإجابةِ الجازمةِ دونَ تأمُّلٍ أو تفكُّرٍ

نكتةُ التَّعبيرِ بصيغةِ الماضي:

عبَّرتِ الآيةُ بصيغةِ الماضي ﴿سَمِعْنَا﴾ للإشارةِ إلى عنادِهم واستهزائِهم؛ إذ إنَّ قولَهم: ﴿سَمِعْنَا﴾ بصيغة الماضي بعد ﴿قَدْ﴾ يفيدُ تأكيدَ تحقُّقِ الحدثِ، وهو أنَّهم سمعوا الآياتِ، وانتهى الأمرُ، ولا إرادة عندهم للسَّماعِ مرَّةً أخرى، بخلافِ ما لو استُعمل الفعلُ

إباءُ الكافرينَ عن سماعِ التِّلاوةِ انطماسٌ للأسماعِ في الغوايةِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/330، والقاسمي، محاسن التأويل: 5/283.
(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 6/3114.

المضارعُ، فقال: (قد نسمع)، فإنَّهُ يفيدُ توقُّعَ السَّماعِ منهم في المستقبلِ، وفي هذا إشارةٌ إلى استخفافِهم وإعراضِهم عن تدبُّرِ القرآنِ وكِبَرِهم عن قبولِ الحقِّ.

بلاغةُ المجازِ المرسلِ:

ذكرُ السَّببِ وإرادةُ المسبَّبِ كنايةٌ عن كبرِهم وغرورِهم

أطلقَ النَّظمُ القرآنيُّ لفظَ ﴿سَمِعْنَا﴾، وأراد الفهمَ بدليلِ قولِهِ بعده: ﴿لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ﴾؛ إذ لا يمكنُ أن يقولوا مثل ما سمعوا إلّا إذا فهموهُ، فإطلاقُ السَّمعِ وإرادةُ الفهمِ مجازٌ مرسلٌ، والعلاقةُ سببيَّةٌ؛ فالسَّببُ هو السَّمعُ، والمسَبَّبُ هو الفهمُ؛ لأنَّ السَّمعَ طريقٌ إلى الفهمِ، وفي هذا كنايةٌ عن كبرِهم وغرورِهم، وأنَّهُ يكفيهم أن يسمعوا الآياتِ ليفهموها، وفي هذا أيضًا إيجازٌ يشيرُ إلى معاجلتِهم القارئَ، وكأنَّهم يطلبونَ أن يسكتَ، ولا يقرأ؛ لأنَّهم فهموا ما يقولُ.

فنُّ تغايُرِ المذهبينِ:

فنُّ التغايرِ يبرزُ الحيرةَ والاضطرابَ في الأقوالِ

غايرَ قولُ الكافرينَ هنا - في سورةِ الأنفالِ ﴿قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ﴾، وهي سورةٌ مدنيَّةٌ، ورقمُها في النُّزول: (88) - قولَهم في سورةِ ص: ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي ٱلْمِلَّةِ ٱلْآخِرَةِ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ ۝٧ أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا ۚ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّن ذِكْرِي ۚ بَل لَّمَّا يَذُوقُوا۟ عَذَابِ ۝٨﴾ [ص: 7 - 8]، وهي سورةٌ مكيَّةٌ، ورقمُها في النُّزول: (38)، وقد أنكرَ فيها المشركونَ سماعَهم للقرآنِ إنكارًا منهم لغرابةِ أسلوبِهِ وما بهرَهُم من فصاحتِه، ويلزمُ هذا الكلامَ إقرارُهم بالعجزِ عن محاكاتِه.

وبلاغةُ فنِّ التَّغايرِ أنَّ القولين وقعا في زمنينِ مختلفينِ ووقتينِ متباينينِ، ولو كان القولانِ في وقتٍ واحدٍ؛ لكانَ ذلك تناقضًا وهو عيبٌ، ولم يُعدَّ في المحاسن، ولذلك سمّي تغايرًا لا تناقضًا في كتابِ اللّه تعالى[1].

(1) صافي، الجدول في إعراب القرآن: 9/209.

فنُّ الاحتباكِ:

خالفَ النَّظمُ بين شرط ﴿لَوْ﴾ وجوابِها؛ إذ جعل شرطَها مضارعًا والجزاء ماضيًا، أي: عدلَ عن الفعلِ الماضي (شئنا) إلى المضارعِ ﴿نَشَآءُ﴾، فالتَّقديرُ: لو شِئْنا؛ لقلْنا، ويرى ابن عاشور أنَّهُ لا يبعدُ أن يكونَ احتباكًا قائمًا مقامَ شرطين وجزاءين، فإحدى الجملتينِ مستقبلةٌ والأخرى ماضيةٌ، فالتَّقديرُ لو نشاءُ أن نقولَ؛ نقولُ، ولو شئنا القولَ في الماضي؛ لقلْنا فيهِ، فذلك أوعبُ للأزمانِ، فهُم لمّا قالوا: (لو نشاءُ؛ لقلنا مثل هذا)؛ ادَّعوا القدرةَ على قولِ مثلهِ في الماضي وفي المستقبلِ إغراقًا في النَّفاجة والوقاحةِ[1].

إنَّما تُعرَفُ وقاحةُ الكذّابِ بوضوحِ كذبهِ وجرأةِ زعْمِه

نكتةُ انتقاءِ الألفاظِ:

عبَّر القرآنُ الكريمُ بلفظِ ﴿لَقُلْنَا﴾ في قولهِ تعالى: ﴿لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ﴾، ولم يقل: (لتلونا)؛ ليُعلمَ الفرقُ في التَّقابلِ السياقي بين المقولِ والمتلوِّ؛ إذ إنَّ بين اللَّفظتينِ توافقًا في بعضِ الوجوهِ، فكلاهما كلامٌ يعبِّرُ عمّا في النَّفس، ولكنَّ السّياق هو الَّذي يحدِّدُ اللَّفظةَ المناسبةَ لمكانِ ورودِها، فلفظةُ ﴿تُتْلَىٰ﴾ دلَّت على التَّتابُعِ، فالتِّلاوةُ لا تكونُ في الكلمةِ الواحدة، بخلافِ القولِ فلا يقتضي المتابعةَ؛ إذ يمكنُ أن يكونَ بكلمةٍ واحدةٍ، فلا تقولُ: تلا اسمَهُ، وتقول: قالَ اسمَهُ.

التَّقابلُ السّياقيُّ بين المقولِ والمتلوِّ يُعْلمُ بالسِّماتِ والدِّلالاتِ المختلفةِ لكلٍّ منها

كما أنَّ التِّلاوةَ هي قراءةٌ على وجهٍ مخصوصٍ، وتعني: القراءةَ المتتابعةَ بتغنٍّ، وتعني: المتابعةَ بالعلمِ والعملِ، وهذه المعاني هي المناسبةُ للقرآنِ الكريمِ، فلذلكَ عبَّرَ بـ ﴿تُتْلَىٰ﴾.

أمّا القولُ فإضافةً إلى السِّماتِ السّابقةِ من أنَّهُ لا يقتضي المتابعةَ، ويمكنُ أن يكونَ بكلمةٍ واحدةٍ، فإنَّهُ لا يعودُ في الأغلبِ إلى مصدرٍ معيَّنٍ، وغالبًا لا يدلُّ في أصلهِ على اليقينِ، أي: يكونُ فيما

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/329.

يحتاجُ إلى تثبُّتٍ، ومنه قولهُ تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾﴾ [الحاقة: 44]، ولذلك ناسبَ أن يكونَ التَّعبيرُ عن قولهِم الَّذي هو كذبٌ وافتراءٌ وادِّعاءٌ بقدرتِهم على أن يفعلوا ما لم يفعلوهُ، إبهامًا على النّاس وإيهامًا، ناسبَ أن يكونَ لفظ ﴿لَقُلْنَا﴾، وفي هذا دليلٌ على أنَّهم نطقوا بما في نفوسِهم من انهزام واستسلامٍ نفسيٍّ أمامَ عظمةِ القرآنِ، كما أنَّ لفظَ ﴿لَقُلْنَا﴾ يُناسبُ اعتقادَهم بأنَّ القرآنَ مجرَّدُ أقوالٍ كأساطيرِ الأوَّلينَ.

بلاغةُ وصفِ المفعولِ المطلقِ المحذوفِ:

أبث ألسنتُهم إلّا أن تفضحَ ما في نفوسِهم من الاستسلامِ النَّفسيِّ للقرآنِ

المفعولُ المطلقُ المحذوفُ هو (قولًا)، و﴿مِثْلَ﴾ وصْفٌ له، والتَّقدير: (لو نشاءُ لقلنا قولًا مثلَ هذا)، وهذا دليلٌ على أنَّ قدرتَهم في الادِّعاءِ الكاذبِ لا تتجاوزُ إلا أن تكونَ مثل القرآن، ولم يجرؤوا أن يقولوا: (لقلنا خيرًا منه)، وفيهِ كشفٌ لما يدورُ في نفوسِهم من الاستسلامِ النَّفسي لهذا القرآنِ، كيف لا؟ وأنتَ ترى كيفَ أنَّهم بعد قولِهم: (لقلنا قولا مثل هذا) يصفونَ القرآنَ بعبارةٍ يصعدُ منها دخانُ الانهزامِ النَّفسي عندَهُم، فهم يرمونَ القرآنَ بما يسترونَ بهِ مقامَهم بفعالِهم؛ إذ أساطيرُ الأوَّلين ما أتى بها إلّا رؤساءُ الكفرِ في مكَّةَ، وهم لا يحسنونَ سواها، فرموا القرآنَ بما يستصغرونَ بهِ أنفسَهم من حيثُ لا يشعرونَ، وهذا شأنُ المتكبِّر البليدِ، يقع في بلادةِ شعورِه، وشعورِ نقصِه وعجزِه.

غرضُ التَّعبيرِ باسمِ الإشارةِ للقريبِ:

الإشارةُ بالقريبِ للتَّنبيهِ على تسفُّلِهم واستغراقِهم في الكبرِ والغرورِ

أخبرَ اللّهُ عن حالِ المشركينَ ومقالتِهم ردًّا على سماعِ آياتِ اللّهِ، ووصفَ لنا تعبيرَهُم، وهُم يتحدَّثونَ عن آياتِ القرآنِ من خلالِ استخدامِهم إحدى أدواتِ التَّعريفِ، وهي اسمُ الإشارةِ للقريب الذي أرادوا من خلالهِ الاستخفافَ والاستهزاءَ والتَّقليلَ من عظمةِ كلامِ اللّهِ سبحانه، ممّا يدلُّ على مدى استكبارِهم وإصرارِهم

على الباطلِ وعدمِ سماعِ الحقِّ، وهو دأبُهم وعادتُهم مع كلِّ الأنبياء والرُّسلِ، قال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾﴾ [الفرقان: 41]، ﴿لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾﴾ [النمل: 68]، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنعام: 25]، وحتَّى التَّعبير بهذا دونَ (هذه) أو دون مثلِها فيه دلالةٌ على إهانتِهم لآياتِ اللّهِ وازدرائِهم بمقامِ الرِّسالةِ.

بلاغةُ القصْرِ:

القصْرُ في قولِه تعالى: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ هو قصرٌ بالنَّفي والاستثناءِ، والغرضُ البلاغيُّ منه حصرُ كونِ الآياتِ ليست إلّا أساطيرَ الأوَّلين، ونفيُ أن تكونَ غيرَ ذلك، وجاء بـ (إن) مع (إلا) الَّتي تفيدُ توكيدَ التَّوكيدِ، وهذا الموقفُ يبيِّن مدى العنادِ والتَّكبُّرِ والجحودِ الَّذي وصلَ إليهِ المشركونَ في إنكارِ رسالةِ النَّبيِّ ﷺ يقولُ أبو زهرةَ: "أفبعد هذا التَّحدّي الشّامخِ والسُّكوتِ الخانعِ والعجزِ الخاضعِ يقول قائلُهم: لو شئنا؛ لقلنا مثل هذا، تلك غطرسةٌ كاذبةٌ، ونفخة جوفاء، ويردفونَ كذبَهم بكذبةٍ أخرى، فيقولون: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾"[1].

استعمالُهم للقصرِ يبيِّنُ مدى العنادِ والتَّكبُّرِ الذي وصلوا إليهِ في إنكارِ الرِّسالة

نكتةُ تَكرارِ اسمِ الإشارةِ:

سبقَ أن استخدمَ المشركونَ اسمَ الإشارةِ للقريبِ، وهم يتحدَّثون عن آياتِ القرآنِ، استخفافًا واستهزاءً، يقولُ سبحانه: ﴿لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ﴾، ولقد أعادوا استخدامَ هذا الاسمِ، وهم في سياقِ الاستمرارِ في التَّكبُّرِ والإعراضِ والاستخفافِ، بادِّعائِهم أنَّ القرآنَ ليس إلّا أساطيرَ الأوَّلينَ، فقالوا كما حكى القرآنُ: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾، ولم يقولوا: (إن هو).

تَكرارُ الألفاظِ تابعٌ للرّاسخِ من معاني الاستخفافِ والتَّقليلِ

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 6/3114.

وفي هذه الإعادةِ دلالةُ تأكيدهم للغرض ذاته، وهو الاسخفافُ والتَّكبرُ.

بلاغةُ النَّظمِ في التَّنبيهِ على غايات الخصم:

وَصـفُ الـقـرآنِ بأساطيرِ الأوَّلينَ تـشـبـيـهٌ سلبيٌّ لـصـرفِ الـنّـاسِ عنهُ

وصْفُ المشركين لكلامِ اللهِ المعجزِ بأنَّهُ أساطيرُ الأوَّلينَ: هو تشبيهٌ سلبيٌّ لصرفِ النّاسِ عن القرآنِ، وقد ذكرَهُ القرآنُ ليشيرَ إلى غايةِ المكابرةِ ونهايةِ العنادِ الَّتي كانوا عليها، كيف لا؟ ولو استطاعوا شيئًا من ذلك، فما الَّذي كان يمنعُهم من المشيئةِ، وقد تُحدّوا عشرَ سنينَ، وقُرِّعوا على العجزِ، وذاقوا من ذلكَ الأمرَّينِ، ثمَّ قورعوا بالسَّيفِ، فلم يعارضوا بما سواهُ مع أنفتِهم وفرطِ استنكافِهم أن يغلبوا لاسيَّما في بابِ البيانِ[1]، وهذا من عجيبِ بهتانِهم، ومع هذا كلِّه يعتذرونَ بأنَّ ما في القرآنِ أساطيرُ الأوَّلينَ، وأنَّهم قادرونَ على الإتيانِ"[2].

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

التِّلاوةُ والقراءةُ:

التِّلاوةُ لا تكونُ إلّا بالتَّتابُعِ وبصوتٍ بينَما القراءةُ لا يُشترطُ فيها التَّتابعُ والصَّوتُ

التِّلاوةُ والقراءةُ مُتقاربتانِ في المعنى إلّا أنَّ بينهما ملامحَ دلاليَّةً فارقةً منها:

الأوَّلُ: أصلُ التِّلاوةِ في اللُّغةِ مِنَ الاتِّباع، بينما أصلُ القراءةِ هو جمعُ الشَّيءِ، وضمُّ بعضِه إلى بعضٍ، فقراءةُ الكلامِ تعني: ضَمَّ حروفِه إلى بعضِها والتَّلفُّظَ بها مجموعةً.

الثّاني: القراءةُ أعمُّ من التِّلاوةِ، فالتِّلاوةُ هي قراءةٌ على وجهٍ مخصوصٍ، وتعني: القراءةَ المتتابعةَ بتغنٍّ، وتعني: المتابعةَ بالعلمِ والعملِ، وأمّا القراءةُ؛ فلا تقتضي المتابعةَ، يقال: قرأْتُ الرِّسالةَ، ولا يقالُ: تلوْتُ الرِّسالةَ، فالقراءةُ عامَّةٌ والتِّلاوةُ خاصَّةٌ، فكلُّ تلاوةٍ قراءةٌ، وليس كلُّ قراءةٍ تلاوةً.

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/19.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/329.

الثّالثُ: التِّلاوةُ لا تكونُ في الكلمةِ الواحدةِ، والقراءةُ تكونُ فيها، تقولُ: قرأ فلانٌ اسمَهُ، ولا تقول: تلا اسمَهُ؛ لأنَّ أصلَ التِّلاوةِ: الاتِّباعُ، فإذا لم تكنِ الكلمةُ تتبع أختَها لم تُستَعملْ فيها التِّلاوةُ، وتُستَعمل فيها القراءةُ.

الرّابع: (تلا) تُستعملُ للقراءةِ من مكتوبٍ بصوتٍ، ويتسامح فيها، فتكونُ من غيرِ مكتوبٍ لكن بصوتٍ، و(قرأ) تُستعمل للقراءة من مكتوبٍ ومن غير مكتوبٍ، بصوتٍ وبغير صوتٍ، فإذا عُدّيا بـ (على) فهما بصوتٍ[1].

(1) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 27، والراغب، المفردات، ص: 75، والنزهي، الفروق اللغوية في تفسير الكلمات القرآنية، ص: 27، ومحمد داود، معجم الفروق الدلالية، ص: 159 - 160.

﴿وَإِذْ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ٣٢﴾ [الأنفال: 32]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

طلبُهم العذابَ انتقالٌ إلى مرحلةِ الإفلاسِ في القدرةِ على تحقيقِ ما وعدوا به

لمّا قالوا في الآيةِ السّابقةِ استهزاءً بالآياتِ الّتي تُليت عليهم: ﴿قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ وإيهامًا للنّاس بأنَّهم ترفَّعوا عن معارضةِ القرآنِ، انتقلوا في هذه الآيةِ إلى مرحلةٍ أبلغَ في الجحودِ والإيهامِ من القولِ الأوَّلِ، وهو طلبُهم العذابُ تعليقًا على كونِ القرآنِ حقًّا، وأنَّهم على القطعِ من أنَّ ما جاءَ بهِ النَّبيُّ ﷺ باطلٌ، فقالوا: ﴿وَإِذْ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱللَّهُمَّ﴾: نداءٌ، والمرادُ بهِ - يا اللّه - فحُذِفَ حرفُ النِّداءِ، وعوِّضَ الميمُ في آخرِه، وقيل: ﴿ٱللَّهُمَّ﴾ بمعنى: يا مَن هو إلهي، وقال فريقٌ من العلماءِ: إنَّ الاسمَ الجليل (اللّه) ليس من الأسماءِ الَّتي يجوزُ اشتقاقُ فعلٍ منها، وقال فريقٌ آخرُ: إنَّ أصلَهُ: (الإلاهُ) وحُذِفَتِ الهمزةُ، وأُدْغِمَتِ اللّامُ في اللّامِ، والإلهُ: المعبودُ[1].

2) ﴿فَأَمْطِرْ﴾: الميمُ والطّاءُ والرّاءُ: أصلٌ صحيحٌ فيهِ معنيان: أحدُهما: الغيثُ النّازلُ من السَّماءِ، والآخرُ جنسٌ من العدوِّ، والَّذي جاءَ مِنَ التَّركيبِ في القرآنِ هو المعنى الأوَّلُ، أي: الماءُ المنسكِبُ من السَّحابِ، وقيل: إنَّ (مطر) يقالُ في الخيرِ، و(أمطر) في العذابِ،

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (أله).

وجعل العذابَ تشبيهًا بالمطرِ في التَّصوُّب من أعلى، ﴿وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهِمۡ حِجَارَةٗ مِّن سِجِّيلٍ ٧٤﴾ [الحجر: 74][1].

المَعْنى الإجْماليُّ:

يذكرُ اللّهُ لنبيِّه ﷺ وللمؤمنينَ صورةً أخرى من عنادِ الكافرينَ، وهي قصدُهم التَّخييلَ إلى النّاس أنَّهم على القطعِ من أنَّ ما جاءَ بهِ النَّبيُّ ﷺ باطلٌ، وإلّا لما دعوا بدعاءٍ جارٍ مجرى القسم، أي: يقسمونَ بطريقةِ الدُّعاءِ على أنفسِهم، فتوجَّهوا فيه لمن لهُ تمامُ المُلكِ وعمومُهُ، متهكِّمين برسولِ اللّهِ، قائلينَ: اللهمَّ إن كان هذا الأمرُ هو الحقُّ من عندِك، لا شكَّ فيهِ ولا مريةَ، فعاقبنا على الكفرِ به، بحجارةٍ مخلوقةٍ من السَّماءِ لمن تصيبهُ، كثيرةٍ مثلِ المطرِ، كما عاقبت أصحابَ الفيلَ، ومرادُهم إنكارُ كونِه حقًّا منزَّلًا من عندِ اللّهِ، كأنَّهم قالوا: إن كانَ الباطلُ حقًّا فائتنا بعذابٍ أليم، فعلَّقوا نزولَ العذابِ على محالٍ في ظنِّهم، وحسبوا فيه معذرةً لهم عن العجزِ الذي تلبَّسوا بهِ في معارضةِ القرآنِ.

غايةُ المكابرةِ وتمامُ المفاخرةِ في أن طلبوا العذابَ لأنفسِهم!

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

تعيينُ المعطوفِ عليهِ:

الواوُ في قولهِ تعالى: ﴿وَإِذۡ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ﴾ عاطفةٌ، ويحتمل أن يكون المعطوفُ عليه ﴿وَإِذۡ يَمۡكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ [الأنفال: 30]، ويحتملُ أن يكونَ ﴿قَالُواْ قَدۡ سَمِعۡنَا﴾ [الأنفال: 31][2].

براعةُ المناسبةِ:

بين المفردتينِ رابطٌ بديعٌ، كاشفٌ عن حقيقتِهم الَّتي يستطيعونَها، ففي الأولى ادَّعَوا قدرتَهم على القولِ، ولكنَّهم امتنعوا عنه ترفُّعًا،

قولُهم الثّاني أبطلَ قولَهم الأوَّلَ، وأظهرَ غايةَ عجزِهم وحمقِهم

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (مطر).

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/331.

فلو كان ادِّعاؤُهم صحيحًا؛ لاكتفوا بالقولِ الأوَّلِ (لقلنا) الَّذي جاءَ جوابَ شرطٍ، ومعنا كما سبقَ (لو نشاءُ أن نقولَ؛ نقولُ، ولو شئنا القولَ في الماضي؛ لقلنا فيه)، أي: ادَّعوا القدرةَ على قولِ مثلِه في الماضي وفي المستقبلِ.

ولكنَّهم لمّا قالوا القولَ الثّاني، وأتوا به دعاءً على أنفسِهم وقومِهم بإمطارِ الحجارةِ والعذاب الأليم، أي: بهلاكِ الاستئصالِ، فكشفَ هذا الطلبُ عن غايةِ عجزِهم وعنادِهم وحمقِهم؛ لأنَّهم أبطلوا قولَهم الأوَّلَ، وعلَّقوا الإقرارَ بصدقِ القرآنِ بإنزالِ العذابِ عليهم، ولو امتلكوا القدرةَ؛ لأتوا بما زعموا، ولما لجؤوا للدُّعاءِ على أنفسِهم.

وهذا يدلُّ على الاستسلامِ النَّفسيِّ والعجزِ الدّاخليِّ الَّذي كان في داخلِهم، والذي أرادوا أن يستروهُ بأقوالهم، ففضحتْهُم أقوالُهم.

سرُّ التَّعبيرِ عن المفردِ بالجمعِ:

الكافرونَ فريقٌ واحدٌ اتَّفق على إنكارِ الحقِّ بكلمةِ رجلٍ واحدٍ

وردَ أنَّ القائلَ هو الحارثُ بنُ النضرِ بنِ الحارثِ، فيكونُ القرآنُ قد عبَّرَ عن المفردِ بالجمعِ؛ وذلك لأنَّ النَّضرَ كان في قومِه موسومًا بالنُّبلِ والفهمِ، مسكونًا إلى قولِه، فكانَ إذا قالَ قولًا؛ تبعَه عليه كثيرٌ، واتَّبعوهُ عليهِ حسبما يفعلُهُ النّاسُ أبدًا بعلمائِهم وفقهائِهم[1]، أو هو قولُ الذين ائتمروا في شأنِه[2]، وعلى كلا القولين، فهناك إشارةٌ إلى اتِّفاقِهم على الباطلِ، وأنَّهم كانوا يؤيِّدونَهُ، ويحكونَهُ، ويحاكونَهُ، فإن كانَ الَّذي ابتكرَهُ هو النَّضرُ بنُ الحارثِ، فليس يمتنعُ أن تصدرَ أمثالُ هذا القولِ من أمثالِه وأتباعِه[3].

بلاغةُ ألفاظِ الدُّعاءِ:

عبَّرَ القرآنُ بـ ﴿ٱللَّهُمَّ﴾، وهو دعاءٌ على لسانِ غيرِ المؤمنين، ولم

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/520.
(2) ابن عجيبة، البحر المديد في تفسير القرآن المجيد: 2/326.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/330.

يردُ في القرآنِ الدُّعاءُ به إلّا وهو مقترنٌ باسمٍ آخرَ من أسماءِ اللّهِ عدا هذهِ الآيةَ، فجاءَ في سياقِ استهزاءِ المشركينَ بكلامِ الرَّسولِ ﷺ ولم يكن في سياقِ العبوديَّةِ، بخلافِ المواضعِ الأخرى، ومنها ما جاءَ في دُعاءِ عيسى[1] عليه السلام.

المتكبِّرونَ المعاندونَ يُلمس استهزاؤهم حتَّى في دعائِهم

حُذِفَت أداةُ النِّداء؛ إذ أصلُ هذا الدُّعاءِ: يا اللّهُ، وذلك إيهامٌ بأنَّهُ سبحانه قريبٌ منهم، لا يحتاجونَ إلى ندائِه، وأنَّ الحقَّ معهم، وهذا زيادةٌ في السُّخريةِ والاستهزاءِ بالنَّبيِّ ﷺ.

سياقُ الآياتِ سياقُ قوَّةٍ وبطشٍ، قال بعدها سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمۡ وَأَنتَ فِيهِمۡۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمۡ وَهُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ﴾، وهذا التَّعبيرُ لم يردْ في القرآنِ إلّا في مواضعِ القوَّةِ والبطشِ.

الإشارةُ إلى اعترافِهم باللّهِ الَّذي يتوجَّهونَ إليهِ، وأنَّ للّهِ ﷻ عنديَّةً، وفيها حقٌّ، ورغم ذلك ينصرفونَ عن الامتثالِ لمنهجِه وعبادتِه، ممّا يدلُّ على أنَّهم نموذجٌ للصَّلف والمكابرةِ[2].

توجيهُ استعمالِ ﴿إن﴾ دونَ (إذا):

الكشفُ عن زَعْزَعةِ المشركين وتشكُّكهم بعدمِ وقوعِ العذابِ

عبَّرَ القرآنُ بحرفِ الشَّرط ﴿إن﴾ دونَ (إذا)؛ لأنَّ الأصلَ عدمُ قطعِ المتكلِّم بوقوعِ الشَّرطِ في المستقبلِ مع (إنْ)، بخلافِ (إذا) فتُستعملُ بحسبِ أصلِها في كلِّ ما يقطعُ المتكلِّمُ بوقوعِه في المستقبل، ومن أجلِ هذا لا تُستعمل إلّا في الأحوالِ الكثيرةِ الوقوعِ، واستعمالُ ﴿إن﴾ يناسبُ حالهم، فهم غيرُ جازمينَ بأنَّ القرآنَ حقٌّ ومنزَّلٌ من اللّهِ، بل هم موقنونَ بأنَّهُ غيرُ حقٍّ، وهذا يكشفُ زعزعةَ المشركين،

(1) ﴿قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلۡ عَلَيۡنَا مَآئِدَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدٗا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةٗ مِّنكَۖ وَٱرۡزُقۡنَا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ١١٤﴾ [المائدة: 114] فقد جاء لفظ ﴿رَبَّنَآ﴾ بعد ﴿ٱللَّهُمَّ﴾ في دعاء عيسى عليه السلام، السامرائي، لمسات بيانية: 5/164.

(2) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 6/3665.

ولذلك أتى بضميرِ الفصلِ ﴿هُوَ﴾ الذي يقتضي تقوّي الخبر، أي: إن كان هذا حقًّا ومن عندك بلا شكٍّ[1].

نكتةُ تَكرارِ ﴿هَٰذَا﴾ ثلاثَ مرّاتٍ في سياقٍ واحدٍ:

استمرارُ الاستخفافِ بالقرآنِ دليلُ عدمِ الصِّدقِ في طلبِ الحقِّ

أعادَ القرآنُ كلمةَ ﴿هَٰذَا﴾ - وهي اسمُ الإشارةِ الَّذي يُستعمل للقريب - مرَّةً ثالثةً؛ إذْ سبقَ ذكرُها في الآيةِ السّابقةِ، لإفادةِ التَّأكيدِ، أي: أكَّد القرآنُ وجودَ استخفافِ الكافرين واستهزائِهم بالقرآنِ، واستمرارِهِ منهم، بما يدلُّ على عدمِ صدقِهم في دعائِهم.

دلالةُ اجتماعِ المؤكِّدات:

قولُ الحقِّ ينسلُّ من لسانِ أهلِ الباطلِ فيفضحُهم وهم غافلونَ

ضميرُ الفصلِ (هو) لا محلَّ لهُ من الإعرابِ، يفيدُ التَّأكيدَ على ثبوتِ اتِّصافِ المبتدأ، وهو القرآنُ بالخبرِ ﴿ٱلْحَقَّ﴾ وتقويتِهِ وأحقيَّتِه بهِ، وتعريفُ المسندِ ﴿ٱلْحَقَّ﴾ بلامِ الجنسِ، كما يرى ابنُ عاشور يقتضي الحصرَ، أي: إنَّهُ الحقُّ الكامل في أعلى درجاتِه وأقصى غاياتِه، وبالتّالي اجتمعَ في التَّركيبِ تقوٍّ وحصرٌ، وذلك تعبيرُهم يحكونَ بهِ أقوالَ القرآنِ المنوَّهةَ بصدقِه، أي: وإن كفرت قلوبُهم إلّا أنَّ ألسنتَهم أبتْ إلّا أن تفضحَهم؛ إذ كان يكفيهم أن يقولوا: (إن كان هذا حقًّا)، ولكنَّهم اعترفوا بقوَّةِ حَقّيَّةِ القرآنِ من خلال ضميرِ الفصلِ، وبانحصارِ الحقيقةِ فيهِ من خلالِ تعريفِ المسندِ إليهِ[2].

وهناك من المفسِّرين من يرى أنَّ فائدةَ التَّأكيدِ بضميرِ الفصلِ وتعريفِ المُسندِ هو بيانُ تهكُّمِ المشركينَ بالنَّبيِّ ﷺ يقولونه من بابِ السُّخريةِ والاستهزاءِ، أي: إنَّ القرآنَ حُقَّ بالوجهِ الذي يدَّعيه النَّبيُّ ﷺ من أنَّهُ منزَّلٌ من عندِ اللهِ، لا الحقُّ مطلقًا[3].

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/332.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/332.

(3) البيضاوي، أنوار التنزيل: 3/58، والآلوسي، روح المعاني: 5/187، والقاسمي، محاسن التأويل: 5/284.

معنى التَّعريفِ في لفظِ: ﴿ٱلۡحَقَّ﴾:

لامُ التَّعريفِ بين العهديَّةِ الَّتي تفيدُ التَّهكُّمَ، والجنسيَّةِ الَّتي تفضحُهم

(أل) التَّعريفِ في قولِه تعالى: ﴿ٱلۡحَقَّ﴾ فيها رأيانِ[1]: أوّلهما أنّ (أل) عهديَّةٌ: والعهدُ فيها حضوريٌّ، ومعنى العهدِ في أنَّه الحقُّ الَّذي ادَّعاهُ النَّبيُّ ﷺ وهو أنَّه كلامُ اللّهِ تعالى المنزَّل على النّبيّ ﷺ على النَّمط المخصوصِ[2]، أي: إنَّ القولَ هو تهكُّمٌ من المشركين.

وثانيهما: أنّ (أل) للجنس، وهي تقتضي الحصرَ، أي: إنَّهُ الحقُّ الكاملُ في أعلى درجاتِه وأقصى غاياتِه، وعلى هذا يكونُ هذ القولُ من المشركين ليس تهكُّمًا، وإنَّما اعترافٌ لم يقصدوهُ[3].

بلاغةُ تقديرِ المحذوفِ بالقيدِ:

قَيَّدتِ الآيةُ المحذوفَ، وهو الحالُ (منزَّلًا) بالقيدِ ﴿مِنۡ عِندِكَ﴾ والتَّقدير: منزَّلًا من عندك؛ للإشارة إلى أنَّهم يطعنونَ في كونه حقًّا، وفي كونه منزَّلًا من عندِ اللّهِ[4].

بلاغةُ الاستعارةِ:

الاستعارةُ تصريحيَّةٌ تبعيَّةٌ غرضُها تهكميٌّ

في الآيةِ استعارةٌ، حيثُ شبَّهتِ الآيةُ نزولَ العذابِ بنزولِ المطرِ، فطوى ذكرَ المُشَبَّهِ، وصرَّحَ بذكرِ المشبَّهِ بهِ، على سبيلِ الاستعارةِ التَّصريحيَّةِ التَّبعيَّةِ؛ ليجيءَ المعنى في صورةٍ واضحةٍ قريبةٍ من الأذهان، وسهلةِ التَّحقُّق، كنزولِ المطرِ الذي لا يستبعدهُ أحدٌ، وهذا إفراطٌ في معاندتِهم وتحدّيهم وسخريَّتِهم، وخداعِهم للبسطاءِ وادِّعائِهم بأنَّ العذابَ لن يقعَ، وكشفتِ الآيةُ عن تهكُّمِهم بقيلهم ذلك، ومدى تجاسرِهم في الدُّعاءِ، ورحمة اللّه بهم.

بلاغةُ فعلِ الأمرِ:

استُعملَت صيغةُ الأمرِ في قولِه: ﴿فَأَمۡطِرۡ﴾ و﴿ٱئۡتِنَا﴾ إشارةً إلى

(1) الآلوسي، روح المعاني: 5/187.
(2) القاسمي، محاسن التأويل: 5/284.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/332.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/333.

طلبُ العذابِ دونَ الهدايةِ أمارةُ العجزِ والاستكبارِ

غايةِ تهكُّمِهم وسخريَّتِهم بالنَّبيِّ ﷺ وتحدّيهم؛ إذ إنَّ فعلَ الأمرِ يدلُّ على التَّهكُّمِ إذا تضمَّن سخريَّةً، ويدلُّ على التَّعجيزِ إذا كان في سياق التَّحدّي، لبيانِ عجزِ المأمورِ، وكان المأمورُ بهِ مستحيلًا في زعمِهم، وفي هذا عنادٌ منهم، وإبهامٌ على النّاسِ أنَّهم على بصيرةٍ[1]، وإلّا فالعقلُ يستدعي أن يكونَ الطَّلبُ هو طلبُ الهدايةِ، ولكن عدلوا عنهُ إلى ما ذكروا لفرطِ استكبارِهم وحمقِهم.

دلالةُ تقديمِ الجارِّ والمجرورِ على المفعولِ:

طلبُ تخصيصِهم بالعذابِ تحدٍّ واضحٌ واستكبارٌ فاضحٌ

قدَّمَ البيانُ الإلهيُّ الجارَّ والمجرورَ ﴿عَلَيْنَا﴾ على المفعولِ ﴿حِجَارَةً﴾، وهو من تقديمِ أحدِ المُتعلِّقاتِ على بعض مخالَفةً للتَّرتيبِ الأصلي؛ لإفادةِ الاختصاصِ، أي: سألوا أن يخصَّهم اللّهُ بهذه الحجارةِ دون غيرِهم، وذلك إشارةٌ إلى فرطِ تحدّيهم للنَّبيِّ ﷺ وفرطِ استكبارِهم واستهزائِهم واستخفافِهم بهِ، وإلى قصدِهم من إيهامِ النّاس أنَّهم على القطعِ من أنَّ ما جاءَ بهِ النَّبيُّ ﷺ باطلٌ، وإلّا لما دعوا بدعاءٍ خصّوا فيه أنفسَهم دونَ غيرِهم.

توجيهُ المخصوصِ بالذِّكرِ:

الإشارةُ إلى عذابِ أبرهةَ لبيانِ ثقتِهم بتكذيبِهم الوحيِ وللتَّلبيس على النّاس

أفردَ الكفّارُ طلبَ إمطارِ الحجارةِ من بينِ أفرادِ العذابِ الأليمِ بالذِّكرِ، لكونِ الرَّضْخِ بالحجارةِ ممّا يجتمعُ فيهِ عذابُ الجسمِ بما فيهِ من تألُّمِ البدنِ، وعذابُ الرّوحِ بما فيهِ من الذِّلَّةِ والإهانةِ، وهذا فيه إشارةٌ إلى زيادةِ تهكُّمِهم واستكبارِهم، إضافةً إلى أنَّ فيهِ إيماءً إلى عذابٍ عهدوهُ قريبًا، وهو ما نزل بأبرهةَ من حجارةِ السِّجّيل، وكان له أثرٌ كبيرٌ على النّاس، حتَّى جعلوهُ تأريخًا لهم، وفي هذا زيادةُ تلبيسٍ على النّاس؛ إذ لا يشكُّ أحدٌ منهم أنَّ عذابَ الحجارةِ حينها جاءَ من عندِ اللّهِ ليبطلَ باطلَ أبرهةَ.

(1) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 7/398.

سرُّ ذكرِ القيدِ المعلومِ بداهةً:

التَّهكُّمُ بالتَّلميحِ إلى الوحيِ النّازلِ من السَّماءِ

تمثَّلَ سرُّ ذكرِ قيدِ ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ -والإمطارُ لا يكونُ إلّا منها- بأمورٍ:

الأوَّلُ: التَّهكُّمُ والسُّخريةُ برسولِ اللهِ ﷺ بأنَّهُ كما تدَّعي مجيءَ الوحي من السَّماءِ بأمرٍ خارقٍ، فنحنُ ننتظرُ إن كنتَ صادقًا بدلًا عنه عذابَ الحجارةِ، كالَّتي أتت أصحاب الفيلِ صونًا من اللهِ لبيتِه[1].

الثّاني: التَّأكيدُ، كما تقولُ: نظرتُ بعيني، والنَّظرُ لا يكونُ إلّا بالعينِ.

الثالث: إزالةُ وهمِ من يتوهَّم أنَّ الإمطارَ مجازٌ عن مطلقِ الرَّجمِ، وأنَّه إنَّما ذُكِرَ لبيانِ أنَّ الحجارةَ المرجومَ بها في الكثرةِ مثل المطرِ، أي: لإفادةِ أنَّ المرادَ طلبُ تنزُّلِ الحجارةِ من السَّماءِ على الحقيقةِ، وليس المرادُ حجارةً كثيرةً فقط.

الرّابع: الدِّلالةُ على كونِه بنحوِ الآيةِ السَّماويَّةِ والإهلاكِ الإلهي المحضِ، فإمطارُ الحجارةِ من السَّماءِ أحدُ أنواعِ العذابِ الَّذي نزلَ على بعضِ الأممِ.

بلاغةُ تقديرِ المحذوفِ بالقيدِ:

طلبُ الحجارةِ السَّماويَّةِ هو في حقيقتِه طلبُ معجزةٍ حسيَّةٍ

قُيِّدَتِ الحجارةُ بقيدِ الوصفِ، وهو ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ للإشارةِ إلى تقديرِ محذوفٍ، أي: حجارةٍ مخلوقةٍ من السَّماء لعذابٍ من تصيبُهُ؛ لأنَّ الشَّأنَ أنَّ مطرَ السَّماءِ لا يكون بحجارة[2]، وهذا الطَّلبُ - وهو أن تكونَ حجارةً مخلوقةً من السَّماء مخصَّصةً بمن تصيبهُ - فيه من التَّهكُّمِ ما فيه، وطلبهُم هذا يدلُّ على أنَّهم يطلبونَ معجزةً حسيَّةً؛ لأنَّ الحجارةَ السَّماويَّةَ ستكونُ مختلفةً عن الحجارةِ الأرضيَّةِ.

دلالةُ حرفِ ﴿أَوِ﴾:

طلبُ تنويعِ العذابِ

دلَّ حرفُ العَطفِ ﴿أَوِ﴾ في الآيةِ على التَّنويع، أي: (ائْتِنا بعَذابٍ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 8/270.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/333.

أليمٍ سوى الإمطارِ المذكورِ)، أي: بنوعٍ آخرَ من العذابِ أشدَّ من ذلك وأشقَّ منهُ علينا[1].

عطفُ العامِّ على الخاصِّ أرادوا به التَّعميمَ

ذكرَ كُفّارُ قريشٍ عذابًا خاصًّا، وهو مطرُ الحجارةِ، ثُمَّ عَمَّموا، فقالوا: ﴿أَوِ ٱئۡتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾، من عطفِ العامِّ على الخاصِّ، أي: (ائْتِنا بعَذابٍ أليمٍ يتضمَّنُ الإمطارَ المذكورَ)[2]، ودلالةُ هذا العطفِ أمرانِ:

الأوَّلُ: التَّعميمُ، أي: طلبُ كلِّ أفرادِ العذابِ الأليمِ من عذابِ الدُّنيا؛ لأنَّهم لا يؤمنون بالآخرةِ[3]، وهذا إفراطٌ منهم في التَّحدّي.

الآخرُ: أفردَ الأوَّلَ، وهو عذابُ الحجارةِ بالذِّكرِ اهتمامًا بشأنِه؛ لأنَّهُ كانَ آيةً سماويَّةً خارقةً عهدَها النّاسُ ورأوها، وتتعلَّقُ بالبلدِ الحرامِ وببيتِ اللّهِ العتيقِ، ولذا خصّوها بالذِّكرِ تلبيسًا على النّاس وإيهامًا لهم أنَّ النَّبيَّ ﷺ على باطلٍ، وهم على حقٍّ.

نكتةُ التَّفصيلِ في عذابِ الإمطارِ والإجمالِ في العذابِ الأليمِ:

طلبُ العذابِ تفصيلًا وإجمالًا يدلُّ على لجاجةِ لسانٍ، وبجاحة بيانٍ

فصَّلَ النَّظْمُ في عذابِ الإمطارِ: ﴿فَأَمۡطِرۡ عَلَيۡنَا حِجَارَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾، بقصدِ المبالغةِ في إظهارِ التَّحدّي والاستهزاءِ والتَّهكُّم والمعاندةِ، وهذه المبالغةُ الَّتي ظهرت من خلالِ المفرادتِ الَّتي احتوتها الآيةُ مادَّةً وصياغةً، ومن خلالِ النَّظمِ من التَّقديمِ والتَّأخير والحذفِ، وغير ذلك ممّا سبقَ ذكرُهُ.

بينما في قولِه: ﴿ٱئۡتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ فقد أجملَ؛ لما في التَّنكيرِ من معانٍ توضِّحُ كبرَهُم ومعاندتَهم تغني عن التَّفصيلِ؛ ذلك أنَّ التَّنكيرَ في ﴿بِعَذَابٍ﴾ و﴿أَلِيمٍ﴾ يفيدُ التَّفخيمَ، أي: عذابٌ أليمٌ، لا يُحَدُّ حَدُّهُ، ولا يُقدَرُ قدرُهُ، لا تعرفهُ، ولا تألفُهُ، فأنَّى لك أن تقفَ على كنهِه،

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 15/479.
(2) القاسمي، محاسن التأويل: 2/484.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/333.

وهو هولٌ لا تستطيعُ أن تدركَهُ، أي: طلبوا هذا العذابَ؛ لأنَّهم يرون بكِبْرِهِم أنَّه لن يقعَ بهم.

فهم جمعوا بين ما يعرفونَهُ من أقربِ معهودٍ لهم، وهو إمطارُ أبرهةَ بالحجارةِ، ثم أرادوا الاستطالةَ في الطَّلبِ، فطلبوا عذابًا أليمًا على وجهِ الإجمالِ، للتَّخييرِ وبيانِ مدى ثقتِهم بأنَّهم على حقٍّ، وهذهِ الاستطالةُ في طلبِ العذابِ تدلُّ على لجاجةٍ، وبجاحةٍ، لا تُغني الفقيرَ المُتربَ، ولا تعافي المريضَ المبتر.

بلاغةُ الاستعارةِ المكنيَّة:

تشبيهُ العذابِ بدابّةٍ تُساقُ لإنزالِ عذابِ الاستئصالِ

لم يقلِ القرآنُ: (عذِّبنا عذابًا أليمًا)، وإنَّما أتى بأسلوبِ الاستعارةِ؛ إذ شبَّهَ العذابَ بشيءٍ يُساقُ (دابة)، وحذفَ المشبَّهَ به، وهو الشَّيءُ المساقُ، وأبقى بعضَ لوازمِه، وهو الإتيانُ على سبيلِ الاستعارةِ المكنيَّةِ، وهي استعارةٌ تخييليَّةٌ، إذ صوَّرتِ العذابَ بأنَّه يُساقُ إليهم سَوْقًا، وغرضُ ذلك إبرازُ الأثرِ النَّفسيِّ لهذا العذابِ، وهو الإذلالُ والإهانةُ بقصدِ التَّنفيرِ والاستياءِ منهُ، فيصفُ القرآنُ بهذه الاستعارةِ حالَ الكفّار، وهم يُظهرون للنّاس استعدادَهم لقبولِ هذا العذابِ المليءِ بالإهانةِ والإذلالِ مع ما يحملُه مِن ألمٍ جسديٍّ؛ لتيقُّنهم أنَّه لن يقعَ.

سرُّ التَّعبيرِ بالألفاظِ المنتقاة:

العذابُ أشدُّ وقعًا من العقابِ والمشركونَ طلبوا الأفظعَ لفظاعةِ قلوبِهم

عبَّر النَّظمُ بمفردةِ ﴿بِعَذَابٍ﴾ دونَ (عقاب)؛ لاتِّساع دلالةِ (عذاب)؛ ولا يُشترَطُ أن يكون العقابُ شديدًا أو أليمًا أو مهينًا، فقد يكونُ يسيرًا؛ لارتباطِ العقوبةِ بالذَّنبِ، فإذا عَظُم الذَّنْبُ؛ عظُمت العقوبةُ، وإذا صَغُر؛ كان العقابُ على قدرِه، بخلافِ العذابِ؛ فإنَّهُ يتضمَّنُ دائمًا ملمحَ الإيلامِ والإيجاعِ الشَّديدِ، حتَّى وإنْ لم يوصَفْ بالشَّديدِ أو الأليمِ ونحو ذلكَ.

وبالتّالي يكونُ في التَّعبيرِ بمفردةِ العذابِ إشارةٌ إلى عتوِّ

الكافرين، وكِبرهم، وتهكُّمِهم برسولِ اللّهِ ﷺ وزيادةِ خداع النّاس بألفاظِ دعائِهم؛ وكأنَّهم يقولونَ: (ائْتِنا بعذابٍ لا تنفكُّ الشِّدَّة عنهُ، وهو أليمٌ، سواءٌ أكنّا مذنبين أم غير مذنبين).

سرُّ اختيارِ وصْفِ العذابِ:

النَّظْمُ دقيقُ الوصفِ كاشفٌ عن مقاصدِ التَّعبيرِ عن خفايا النُّفوس

وَصَفَتِ الآيةُ العذابَ بالأليمِ دونَ أوصافٍ أخرى كالشَّديد مثلًا مراعاةً للحيثيَّة الَّتي تعلَّق بها الوصفُ، وهي حيثيَّةُ أثرِ العذابِ على نفسِ المعذَّبِ، وهو كونُهُ عذابًا أليمًا له؛ لأنَّ الألمَ يرتبط بالحسِّ والشُّعور، بخلافِ الوصفِ بالشَّديدِ؛ فإنَّه يتعلَّقُ بنفسِ العذابِ الصّادرِ من جهةِ التَّعذيب وصفتِه، ولمّا كان العذابُ بأصلِ مادَّتِه يتضمَّنُ الشِّدَّةَ والإيجاعَ؛ ناسبَ هنا أن يوصفَ بالأليمِ ليصوِّرَ مدى تعنُّتِهم؛ إذ إنَّهم طَلبوا أن يكونَ العذابُ مع شدَّتِه أليمًا موجعًا لأنفسِهم، وفي ذلك زيادةٌ في إيهامِ النّاس بتحققِ يقينِهم بأنَّ المحلوفَ عليهِ بهذا الدُّعاء ليس منزَّلًا من عندِ اللّهِ، فلذلك عرَّضوا أنفسَهم لخطرٍ عظيمٍ على تقديرِ أن يكونَ القرآنُ حقًّا منزَّلًا من عندِ اللّهِ.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

المطرُ والغيثُ:

غالبُ استعمالِ القرآنِ للغيثِ في النَّفعِ، والمطرِ في مواضعِ الشِّدَّةِ

اللُّغةُ تسوّي في الاستعمال بين الغيثِ والمطرِ، فقد عُرِّفَ المطرُ بأنَّهُ: الغيثُ النّازلُ من السَّماءِ، وعُرِّفَ الغيثُ بأنَّه: المطرُ[1]، فالغيثُ والمطرُ: يشتركانِ فيما يسقطُ من السَّماءِ.

إلا أنَّ كلًّا منهما يتميَّز بملمحٍ دلاليٍّ في أصلِ مادَّتِه، فالمطرُ: هو الماءُ المنسكبُ بشدَّةٍ وغزارةٍ من السَّماءِ، فيشعرُ بالقوَّةِ المهلكةِ، بينما الغيثُ: من الغوثِ، وفيه معنى الإنقاذِ والنُّصرةِ والفرجِ عند الشِّدَّة، وهذا يشعرُ بالرِّفق والرَّحمة.

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (مطر)، وابن منظور، لسان العرب: (غوث)، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (غيث).

كما أنَّ المتأمِّلَ للسّياقاتِ القرآنيَّةِ للكلمتين يلحظُ أنَّ القرآنَ الكريمَ استخدمَ المطرَ في سياق الانتقامِ والهلاكِ والعقابِ الإلهيِّ للطّاغين والمفسدين، وأيضًا في قولهِ تعالى: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ﴾ [النساء: 102]، استخدمَ المطرَ؛ لأنَّه في موضعِ تأذّي المؤمنينَ بهِ في أرضِ المعركةِ.

بينما استخدمَ كلمةَ الغيثِ دائمًا في معنى: المطرِ النّافعِ المخصبِ للأرضِ والنَّبتِ[1].

(1) الراغب، المفردات، ص: 617، ومحمد داود، معجم الفروق الدلالية، ص: 354.

﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمۡ وَأَنتَ فِيهِمۡۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمۡ وَهُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ ٣٣﴾ [الأنفال: 33]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

عدمُ إجابةِ دعائِهم إكرامٌ للنَّبيِّ كونَهُ فيهم وإهانةٌ لهم لعدمِ استحقاقِهم الاستجابةَ

لما علَّقوا إمطارَ الحجارةِ أو الإتيانَ بعذابٍ أليمٍ على تقديرِ كينونةِ ما جاءَ بهِ الرَّسولُ ﷺ حقًّا في الآيةِ السّابقة، أتت هذه الآيةُ جوابًا لكلمتِهم الشنعاءِ، وبيانًا للموجبِ لإمهالِهم والتَّوقُّف في إجابةِ دعائِهم، فأخبرَ تعالى أنَّهم مستحقّون للعذابِ، لكنَّه لا يعذِّبُهم عذابَ استئصالٍ، والنَّبيُّ ﷺ فيهم إكرامًا له، فقال: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمۡ وَهُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ﴾[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿لِيُعَذِّبَهُمۡ﴾: العذابُ هو الإيجاعُ الشَّديدُ والنَّكالُ والعقوبةُ، وقيل: أصلُ العذابِ: الضَّربُ، ثم استُعيرَ ذلك في كلِّ شدَّةٍ، ويكون بإهلاكٍ وإفناءٍ للقوَّةِ والغِلَظ والحَيَويَّة المنبثَّة في البدنِ، أي: تجريدٌ منها بإيقاعِ الآلامِ المؤدّية إلى ذلكَ، كالضَّربِ المبرِّح بصوَرِهِ والجَلْدِ والكيِّ بالنّار وقَطْعِ الأعضاءِ إلخ، وأيضًا بالإجاعةِ والإعطاشِ ونحوهما، وكذلكَ يصدقُ بإيقاعِ الإهانةِ والإذلالِ لذوي الكبرِ والاعتزازِ، فهو يتفاوتُ في الأنواعِ والشِّدَّةِ والأثرِ[2].

ومعنى ﴿لِيُعَذِّبَهُمۡ﴾: عذابَ الإفناءِ والاستئصالِ، كما استأصلَ الأممَ السّابقةَ الكافرةَ[3].

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 4/483، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/19.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (عذب).
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 15/480.

المَعْنى الإجْماليُّ:

وجودُ النَّبيِّ يمثِّلُ حالةَ الإمهالِ، والاستغفارُ يمثِّلُ حالةَ الإقبالِ

أجمعَ المتأوِّلونَ على أنَّ اللهَ ﷻ لم يعذِّب قطُّ أمَّةً عذابَ استئصالٍ، ونبيُّها بين أظهرِها، فاللهُ تعالى مع عظمتهِ وجلالهِ وكمالهِ وعلمهِ وقدرتهِ سبحانه ما كان ليعذِّبَ الكفّارَ عذابَ استئصالٍ مع استحقاقِهم له، والنَّبيُّ ﷺ مقيمٌ بين أظهرِهم؛ وذلك إظهارٌ لمكانةِ النَّبيِّ ﷺ وفضلهِ على العالمينَ؛ فهو الرَّحمةُ المهداةُ والأمانُ للعالمينَ.

ولمّا كان وجودُهُ ﷺ بين أظهرِهم غيرَ دائمٍ، اقتضت رحمتُهُ الَّتي وسعتْ كلَّ شيءٍ أن يجعلَ لهم أمانًا آخرَ، فنفى عنهم عذابَ الاستئصالِ طالما أنَّهم يستغفرونَ، أي: جعلَ الاستغفارَ مانعًا ثابتًا من وقوعِ العذابِ - ولو لم يكنْ هذا الاستغفارُ صفةً ثابتةً فيهم - وذلك ترغيبٌ وتذكيرٌ وحضٌّ على التَّوبةِ من الشِّرك، وتخويفٌ في الوقت ذاتهِ من أنَّ العذابَ يوشكُ أن يقعَ إن انعدمَ الاستغفارُ، وأشارَ إلى أنَّ هذا الاستغفارَ يشملُ كلَّ الذنوبِ التي تتعلَّقُ بحياةِ الأمَّةِ أفرادًا وجماعاتٍ، بدءًا من المجالِ العقدي ثُمَّ التَّشريعي ثم الأخلاقي.. حتَّى يصلَ الاستغفارُ إلى أدقِّ شؤونِ الإنسانِ ممّا لَهُ اتِّصال بما يحفظُ كيانَ الأمَّةِ كلِّها من الاستئصالِ.

واختلف المفسِّرونَ في المقصودِ بـ ﴿وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ على معانٍ منها: ما كانَ اللهُ ليعذِّبَ الكفّارَ، والمؤمنونَ بينهم يستغفرونَ، أو ما كان اللهُ معذِّبَهم، وفي أصلابِهم من سبقَ لَهُ في علمِ اللهِ أنَّه يؤمنُ، ويستغفر، أو ما كان اللهُ معذِّبَ الكافرينَ، وهم بحالِ توبةٍ واستغفارٍ من كفرِهم لو وقع ذلك منهم[1].

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/521 - 522، والقرطبي، أحكام القرآن: 7/399.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

معنى الواوِ:

الواوُ: استئنافيَّةٌ، والكلامُ مسوقٌ جوابًا وبيانًا لموجبِ إمهالِهم، والتَّوقُّف في إجابة دعائِهم، لمّا طلبوا إمطارَ الحجارةِ أو الإتيانَ بعذابٍ أليم إن كانَ ما جاءَ بهِ الرَّسولُ ﷺ حقًّا.

بلاغةُ الكنايةِ:

إن كانتِ الآيةُ ليست نصًّا في استحقاقِهم العذابَ إلّا أنَّ عدمَ استجابتِه سبحانه لطلبهم في نزولِ العذابِ، وتقييدِ نفي العذابِ بكونِ الرَّسولِ معهم، فيهِ كنايةٌ عن ما يلي:

المنكرونَ يستحقّونَ العذابَ لكنَّ وجودَ الرَّحمةِ فيهم دافعٌ لنزولِه

أوَّلًا: استحقاقُهم العذابَ، وأنَّ تأخيرَ عذابِهم سببُه وجودُ النَّبيِّ ﷺ ويؤكِّد استحقاقَهُم للعذاب أنَّهُ أُتبعَ بقولِه سبحانه: ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ﴾[1].

ثانيًا: إعلامٌ بكرامةِ رسولِه ﷺ عنده، وتعظيمٌ لقدرِه أن يعذِّبَ قومًا هو بينهم تعظيمًا لحرمتِه؛ لأنَّهُ جعلَ وجودَهُ بين ظهراني المشركينَ معَ استحقاقِهم العقابَ سببًا في تأخيرِ العذابِ عنهم، فالمعنى الظّاهرُ هو وجودُ الرَّسول بين هؤلاءِ، أمّا المعنى المكنَّى عنهُ في النَّصِّ الكريمِ، فهو الكرامةُ والتَّشريفُ الذي يسبغهُ الباري على حبيبِه المصطفى ﷺ.

ثالثًا: إعلامٌ بأنَّ "إرسالَهُ فيهم رحمةٌ لهم ونعمةٌ عليهم، فلم يجز أن يعذِّبَهم وهو فيهم حتى يستحقّوا سلبَ النِّعمةِ بإخراجِه عنهم"[2].

رابعًا: أنَّ العذابَ يترصَّدهم، وأنَّهم معذَّبون لا محالةَ بدليلِ قولِه تعالى: ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ﴾؟ على معنى: وأيُّ شيءٍ ثابت لهم حتَّى ينتفي عنهم العذابُ، فهم معذَّبون لا محالةَ![3].

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/333.

(2) الماوردي، النكت والعيون: 2/314.

(3) النسفي، مدارك التنزيل: 2/91، والحجازي، التفسير الواضح: 1/825.

نكتةُ التَّعبيرِ بلفظِ الجلالةِ:

اسـمُ الجلالةِ يوحي بصفةِ الرَّحمةِ والحكمةِ والعلمِ

عبَّرتِ الآيةُ بالاسمِ الجليلِ (اللّٰه) إظهارًا لما لَهُ سبحانه من "صفاتِ الكمالِ والعظمةِ والجلالِ"[1]، فهذا الاسمُ دالٌّ على الذّاتِ الجامعةِ لصفاتِ الإلهيَّة كلِّها، بينما سائرُ الأسماءِ لا يدلُّ آحادُها إلّا على آحادِ المعاني من علمٍ وقدرةٍ، أو فعلٍ أو غيرِه، أي مع عظمتهِ وجلالهِ وكمالهِ وعلمهِ وقدرتهِ سبحانه لن يعذِّبَهم، وأنت بين أظهرِهم، ولن يعذِّبَهم، وهم يستغفرونَ، وذلك لرحمتهِ بعبادِه، وحكمته لما فيه مصلحتُهُم، وحكمتهُ في اختيارِ الأصلحِ، ولما فيها من المناسبةِ بين اسمِ الجلالةِ ودعائِهم بـ﴿ٱللَّهُمَّ﴾.

بلاغةُ أسلوبِ النَّفي:

دفعُ العذابِ عنِ المشركينَ بسببِهِ ﷺ أرفعُ شأنًا من استغفارِهم

تظهرُ بلاغةُ النَّفي في قولهِ تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ﴾ في أمرينِ:

الأوَّلُ: تأكيدُ النَّفي باللّامِ المؤكِّدةِ الَّتي يسمّيها النَّحاةُ بلامِ الجحودِ، وهي لامٌ دخلت على الفعلِ ﴿لِيُعَذِّبَهُمْ﴾، وسُبِقَت بالفعلِ النّاقصِ ﴿كَانَ﴾؛ لتقويتها النَّفي الَّذي يسبقُها وتوكيده، وهذا على رأي البصريّين الَّذين يعدّونَ اللّام زائدةً.

الآخرُ: نفيُ إرادةِ العذاب، بجعلِ خبرِ كان المقدَّرِ هو الإرادةُ المنفيَّةُ على رأي الكوفيّين الذين يعدّون اللّام غيرَ زائدةٍ، أي: (وما كان اللّٰهُ مريدًا لتعذيبهم)، وانتفاءُ الإرادةِ للعذابِ أبلغُ من انتفاءِ العذابِ[2].

وعلى كلا الرَّأيين يكونُ استغفارُهم دونَ تلك الكينونةِ الشَّريفةِ، إمّا بتأكيدِ النَّفي باللّام أو بتقديرِ نفي إرادةِ العذابِ دونَ نفي العذابِ؛ لأنَّ نفيَ الإرادةِ أبلغُ، فشتّانَ ما بينَ استغفارِهم وكينونتِه ﷺ فيهم[3].

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 8/271.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 5/312.
(3) أبو حيان، البحر المحيط: 5/312.

المرادُ المتعيّنُ من العذابِ هو عذابُ الاستئصالِ، وأنَّ القرينةَ عليهِ هي تأكيدُ النَّفي الَّذي يصرفُهُ إلى أشدِّه وأفظعِه، فعذابُ غيرِ الاستئصالِ كالقحطِ؛ إذ وقعَ عليهم، والنبيُّ ﷺ بين أظهرِهم[1].

نكتةُ التَّعبيرِ بصيغةِ المُضارِعِ:

الاستمرارُ في تأخيرِ العذابِ عنهم موقوتٌ ببقاءِ النَّبيِّ ﷺ فيهم

أتى بالفعلِ المضارعِ بعد لامِ الجحودِ، في قولِه: ﴿لِيُعَذِّبَهُمْ﴾؛ لأنَّ المضارعَ يدلُّ على الحدوثِ والتَّجدُّدِ والاستمرارِ والتَّوقيتِ، فأفادت صيغةُ المضارعِ أنَّ العذابَ موقوتٌ ببقاءِ الرَّسولِ بينَهم، وبقاؤُهُ ﷺ ليس ثابتًا بل لا بدَّ أن يزولَ.

موقعُ جملةِ الحالِ:

جملةُ ﴿وَأَنتَ فِيهِمْ﴾ حاليَّةٌ، والحالُ قيدٌ، والنَّفيُ في الكلامِ راجعٌ إلى القيدِ، أي: وما كان اللهُ ليعذِّبَهم حالَ كونك فيهم، وفي هذا دلالةٌ على فضلِه على العالمينَ؛ إذ إنَّهُ سببُ عدمِ استئصالِ الكافرينَ بالعذابِ، ما دامَ فيهم ﷺ.

بلاغةُ التَّعريفِ بالضَّميرِ:

تكريمُ النَّبيِّ ﷺ وتشريفُهُ بنوعِ اختصاصٍ في الخطابِ

ذكرَ الضَّميرَ (أنت) - وهو ضميرُ المخاطبِ - تشريفًا وتكرمةً للنَّبيِّ ﷺ وبيانًا لمكانتِه عند ربِّه، أي: أنت دونَ غيرِك، قال ابن عاشورٍ: "وفي توجيهِ الخطابِ بهذا إلى النَّبيِّ ﷺ واجتلاب ضميرِ خطابِه بقولِه: (وأنت فيهم) لطيفةٌ من التَّكرمةِ؛ إذ لم يقل: (وما كان اللّه ليعذبهم وفيهم رسوله)"[2].

وكذلك كانَ في توجيهِ الخطابِ لهُ ﷺ ردٌّ على تحدّيهم وسخريَّتهم بالنَّبيِّ ﷺ.

دلالةُ استعمالِ الظَّرفيَّةِ:

دلَّ حرفُ الظَّرفيَّةِ (في) في قوله تعالى: ﴿وَأَنتَ فِيهِمْ﴾ على

(1) حاشيتا القونوي وابن التمجيد على البيضاوي: 9/72.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/334.

الظَّرفيَّةِ الزَّمانيَّةِ والمكانيَّةِ، أمّا الزَّمانيَّةُ؛ فهي تشملُ مدَّةَ حياتِه ﷺ وقد ذكرَها النَّبيُّ ﷺ فيما رواهُ الترمذيُّ عن أبي موسى الأشعريِّ، قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «أنزلَ اللهُ عليَّ أمانين لأمَّتي ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ فإذا مضيتُ تركتُ فيهم الاستغفارَ إلى يومِ القيامةِ»[1]، ورويَ عن أبي هريرةَ رضي الله عنه أنَّ قال: (كانَ فيكم أمانان مضتْ إحداهُما، وبقيت الأخرى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ۝٣٣﴾)[2].

مؤدَّى الظَّرفيَّةِ الزَّمانيَّةِ والمكانيَّةِ واحدٌ وهو انتفاءُ الاستئصالِ ببقائِهِ ﷺ

وأمّا الظَّرفيَّةُ المكانيَّةُ؛ فإن كان المقصودُ وجودَهُ في مكَّةَ، فيكونُ على رأي من فسَّرَ العذابَ بغيرِ عذابِ الاستئصالِ، وأنَّهُ قد وقعَ بهم بعد هجرتِه ﷺ في غزوةِ بدرٍ وفتحِ مكَّةَ وغيرِهما من مواطنِ نصرتِه عليهم، وإن كانَ المقصودُ بالظَّرفيَّةِ المكانيَّةِ أيَّ مكانٍ أقامَ بهِ النَّبيُّ ﷺ فيكونُ على رأي من فسَّرَ العذابَ بعذابِ الاستئصالِ، وعلى هذا القولِ يكونُ مؤدَّى الظَّرفيَّةِ الزَّمانيَّةِ والمكانيَّةِ واحدًا.

بلاغةُ عَطفِ الجمل:

لمّا كانَ قيدُ نفيِ العذابِ عنهم في الجملةِ الأولى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْۚ﴾ هو وجودُ النَّبيِّ ﷺ فيهم وهذا ليس مما يستمرُّ بل يزولُ البتَّةَ، فيحدثُ التَّعذيبُ؛ أتى العطفُ بالجملة الثانية: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ الَّتي تفيدُ نفيَ العذابِ عنهم طالما أنَّهم يستغفرونَ، أي: جعلَ الاستغفارَ مانعًا ثابتًا من وقوعِ العذابِ، وفي هذا ترغيبٌ وتذكيرٌ بالتَّوبةِ من الشِّركِ بطلبِ المغفرةِ من ربِّهم بأن يؤمنوا بأنَّهُ واحدٌ، ويصدِّقوا رسولَهُ، فهو وعدٌ بأنَّ الاستغفارَ يدفعُ عنهم العذابَ، فيكونونَ في مأمنٍ منه طالما يستغفرونَ، وفيه

فتحُ بابِ الأمانِ من العذابِ قيمةٌ داعيةٌ إلى الهدايةِ بعدَ الغوايةِ

(1) سنن الترمذي، باب ومن سورة الأنفال، رقم: 3082.
(2) المستدرك على الصحيحين للحاكم، كتاب الدعاء والتكبير والتهليل والتسبيح والذكر، رقم: 2014.

ندبٌ لهم إلى الاستغفارِ، وتعليم لما يدفعُ العذابَ عنهم، وهذا زيادةٌ في الإعذارِ لهم[1].

سرُّ اختلافِ التَّعبيرِ بينَ المتقابلات:

الجناسُ يعطي جماليَّةً في السَّمعِ، ويلفتُ الانتباهَ إلى سِرٍّ في النَّظمِ

بين اللَّفظين: ﴿لِيُعَذِّبَهُمْ﴾ وقولِه: ﴿مُعَذِّبَهُمْ﴾ جناسٌ ناقصٌ مضارعٌ اختلفا في نوعِ حرفٍ واحدٍ منهما، وأعطى جماليَّةً في السَّمع، ولفتَ الانتباهَ إلى سرِّ هذا الاختلافِ في النَّظم، وهو اختلافُ التَّركيبِ في استعمالِ الصِّيغةِ الاسميَّةِ والفعليَّةِ الذي أحدثَ أثرًا أسلوبيًّا، فالفعلُ ﴿لِيُعَذِّبَهُمْ﴾ مقيَّدٌ بزمنٍ معيَّنٍ، واسمُ الفاعلِ ﴿مُعَذِّبَهُمْ﴾ ثابتٌ غيرُ محدودٍ بزمنٍ.

موقعُ جملةِ الحالِ:

الجملةُ حاليَّةٌ واختلفَ معناها بسببِ تعيينِ مرجعِ الضَّميرِ

جملةُ ﴿وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ حالٌ من الهاءِ في ﴿مُعَذِّبَهُمْ﴾ وهم المشركونَ، ولكنَّ المفسِّرينَ اختلفوا في تفسيرِ الآيةِ بناءً على اختلافِهم في عودِ ضميرِ (هم) في قولِه: ﴿وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾[2]، فمنهم من جعلَهُ عائدًا إلى مفهومٍ من الكلامِ، يدلُّ عليه يستغفرونَ؛ فإنَّهُ لا يستغفرُ اللهَ إلّا المسلمونَ[3]، ويكونُ المعنى: (وما كان اللهُ ليعذِّبَ الكفّارَ حالَ كونِ المؤمنين بينهم يستغفرونَ).

ومنهم من جعلَهُ عائدًا على المشركينَ، فإمّا أن يكونَ المعنى: (وما كان اللهُ معذِّبَهم وفي أصلابِهم من سبق له في علمِ اللهِ أنَّه يؤمنُ ويستغفرُ)، أو (وما كان اللهُ معذِّبَ الكافرين، وهم بحالِ توبةٍ واستغفارٍ من كفرِهم لو وقع ذلك منهم، أي: لو استغفروا)، وهذا يرجِّحُهُ ابن عاشورٍ، إذ يقول: "حالٌ مقدَّرةٌ، أي: إذا استغفروا اللهَ من الشِّركِ، وهذه حَسُنَ موقعُها هنا أنَّها جاءت قيدًا لعاملٍ منفيٍّ، فالمعنى: وما كان اللهُ معذِّبَهم لو استغفروا"[4].

(1) الخفاجي، حاشيته على البيضاوي: 4/271، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/334.
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/521 - 522، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 7/399.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/334.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/335.

بلاغةُ التَّعريفِ بالضَّميرِ:

أُسنِدَ الاستغفارُ إلى ضميرِ الجميعِ (هم)؛ لوقوعهِ فيما بينَهم، ولجعلِ ما صدرَ عنِ البعضِ كما قيلَ بمنزلةِ الصّادرِ عن الكلِّ[1].

استغفارُ عمومِ الأمَّـةِ دافـعٌ لـعـذابٍ واقـعٍ على عمومِها

كما أنَّ هذا الضَّميرَ لتأكيدِ أهميَّةِ الاستغفارِ في حياةِ الأفرادِ والجماعاتِ، وأنَّه من أسبابِ أمانِ هذه الأمَّةِ من عذابِ اللّهِ سبحانه.

سرُّ تغايُرِ التَّعبيرِ بالاسميَّةِ والفعليَّةِ:

الاستغفارُ سببٌ مستمرٌّ في دفعِ الـعـذابِ، أمّـا بقاءُ النَّبيِّ ﷺ فمؤقَّتٌ

التَّركيبُ المتمثِّلُ بتغايرِ التَّعبيرِ بالاسميَّة والفعليَّةِ في الآيةِ أحدثَ أثرًا أسلوبيًّا في استعمالِ الصّيغةِ الاسميَّةِ والفعليَّةِ، فجعلَ لكلٍّ منهما وظيفةً جماليَّةً تختلفُ عنِ الأخرى، فعبَّرَ بالفعلِ ﴿لِيُعَذِّبَهُمْ﴾، وهو مقيَّدٌ بزمنٍ معيَّنٍ، والقيدُ الواردُ عليهِ هو حالُ وجودِ النَّبيِّ ﷺ فيهم، وعبَّرَ باسمِ الفاعلِ ﴿مُعَذِّبَهُمْ﴾، وهو ثابتٌ غير محدودٍ بزمنٍ، والقيدُ الواردُ عليهِ هو قيدُ الاستغفارِ، فذكرَ الحالة الثّابتةَ بالصيغةِ الاسميَّةِ والحالة الموقوتةَ بالصّيغةِ الفعليَّةِ، فكانَ الاستغفارُ مانعًا ثابتًا من العذابِ بخلافِ بقاءِ الرَّسولِ بينهم، فإنَّ العذابَ موقوتٌ ببقاءِ النَّبيِّ بينهم، وهذا هو السِّرُّ في تخالُفِ النَّظمِ بينَ قولهِ تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْۚ﴾ وبين قولهِ سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾، وهذا من كرمِ اللّهِ ورحمتهِ الَّتي وسعت كلَّ شيءٍ؛ إذ يدفعُ ربُّنا العذابَ عنهم، ولو لم يكنِ الاستغفارُ صفةً ثابتةً فيهم، ولا يهلكُهم حتى يكونَ الظُّلمُ صفةً ثابتةً فيهم، قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ ۝٥٩﴾ [القصص: 59][2].

نكتةُ حذفِ مفعولِ:

حذفَ النَّظمُ القرآنيُّ مفعولَ ﴿يَسْتَغْفِرُونَ﴾؛ لإفادةِ العمومِ، أي: ليذهبَ الذِّهنُ كلَّ مذهبٍ يمكنُ أن يصلَ إليهِ، فيشملُ الاستغفارَ

(1) الآلوسي، روح المعاني: 5/187.
(2) السامرائي، لمسات بيانية: 5/164.

من كلِّ الذُّنوب الَّتي تتعلَّق بحياةِ الأمَّةِ أفرادًا وجماعاتٍ، بدءًا من المجالِ العقديِّ ثمَّ التَّشريعيِّ ثمَّ الأخلاقيِّ ثمَّ التربويِّ والتَّعليميِّ والاقتصاديِّ والاجتماعيِّ والسّياسيِّ، حتى يصلَ الاستغفارُ إلى أدقِّ شؤونِ الإنسانِ ممّا لَهُ اتِّصالٌ بما يحفظُ كيانَ الأمَّةِ كلِّها من الاستئصالِ والزَّوالِ الكاملِ.

الاستغفارُ سلوكٌ عامٌّ في كلِّ شؤونِ حياةِ الأمَّةِ غيرُ خاصٍّ بالذِّكرِ اللِّسانيِّ

بلاغةُ الكنايةِ:

نصَّ قولهُ تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمۡ وَهُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ﴾ على عدمِ استجابتِهِ سبحانه لطلبهِم في نزولِ العذابِ، وتقييد نفي العذابِ بحالِ كونِهم يستغفرونَ على اختلافِ معانيها كنايةٌ عن أنَّ العذابَ يوشكُ أن يقعَ عليهم؛ إن لم يستغفروا، ويتوبوا، ويرجعوا عن كفرِهم، ويدخلوا الإسلامَ، وهي كنايةٌ عرضيَّةٌ كما يسمّيها ابنُ عاشورٍ، أي: في الآية تعريضٌ بهذا العذابِ[1].

التَّرهيبُ بتصوُّرِ وقوعِ العذابِ والتَّرغيبُ بدفعِ أسبابهِ بالاستغفارِ

وكنايةٌ عن رحمتهِ ﷻ، فكأنَّهُ يحضُّهم على التَّوبةِ، ويرغِّبُهم بها حتَّى لا ينزلَ بهم العذابُ، فهو وعدٌ بأن التَّوبةَ من الشِّركِ تدفعُ عنهم العذابَ، وتكونُ لهم أمنًا، وذلك هو المرادُ بالاستغفارِ؛ إذ مِنَ البَيِّن أنَّه ليس المرادُ بقولهِ: ﴿يَسۡتَغۡفِرُونَ﴾ أنَّهم يقولونَ: غفرانَكَ اللهمَّ ونحوه؛ إذ لا عبرةَ بالاستغفارِ بالقولِ، والعملُ يخالفُهُ، فيكونُ قولُهُ: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمۡ وَهُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ﴾ تحريضًا - وذلك في الاستغفارِ - وتلقينًا للتَّوبةِ زيادةً في الإعذارِ لهم على معنى قولِه تعالى: ﴿مَّا يَفۡعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمۡ إِن شَكَرۡتُمۡ وَءَامَنتُمۡۚ﴾ [النساء: 147][2].

❁ الفُروقُ المُعجَميَّةُ:

الاستغفارُ والتَّوبةُ:

الفرقُ بينهما من وجهين:

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/335.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/334.

أحدُهما لفظيٌّ، وهو أنَّ مادَّةَ الاستغفارِ في اللُّغةِ: من الغَفْرِ: إلباسُ الشَّيءِ ما يصونُهُ عنِ الدَّنسِ، وأصلُهُ مِنَ التَّغطيةِ والسَّتْرِ[1].

وأمّا التَّوبةُ في اللُّغةِ: مِنَ التَّوبِ وهو الرُّجوعُ، وخصَّهُ بعضهم بالرُّجوعِ عنِ المعصيةِ إلى الطّاعةِ، و(تاب إلى) معناهُ: رجوعُ العبدِ عن ذنبهِ إلى طاعةِ اللّهِ[2].

والآخرُ: معنويٌّ، وهو أنَّ الاستغفارَ: طلبُ المغفرةِ مِنَ اللّهِ تعالى بالدُّعاءِ والتَّوبةِ أو بغيرِهما من الطّاعة، أي: طلبُ تغطيةِ ذنوبهِ وسترِها والعفوِ عنها، وأن يصونَهُ من أن يمسَّهُ عذابٌ، وأمّا التَّوبةُ، فهي النَّدمُ على الخطيئةِ مع العزمِ على تركِ المعاودةِ إلى الذَّنب الَّذي تابَ عنْهُ.

إذًا: فالتَّوبةُ: نوعٌ مِنَ الاستغفارِ، وهي مقدِّمةُ الاستغفارِ؛ إذ لا بدَّ من النَّدمِ مع الاستغفارِ؛ لأنَّهُ لا يجوزُ الاستغفارُ مع الإصرارِ على الذَّنبِ، وكأنَّ التَّوبةَ طلبُ وقايةِ شرِّ ما يُستقبلُ، والاستغفارُ: وقايةُ ما مضى[3].

التَّوبةُ: ندمٌ ورجوعٌ عن الذَّنبِ، والاستغفارُ: طلبُ المغفرةِ بالدُّعاءِ وتركِ المعاصي

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (غفر)، والراغب، المفردات، ص: 609، وابن منظور، لسان العرب: (غفر).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (توب)، والراغب، المفردات، ص: 169، وابن منظور، لسان العرب: (توب).
(3) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 235، ومحمد داود، معجم الفروق الدلالية، ص: 93، والنزهي، الفروق اللغوية في تفسير الكلمات القرآنية، ص: 28.

﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَمَا كَانُوٓاْ أَوْلِيَآءَهُۥٓۚ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٣٤﴾ [الأنفال: 34]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

ربط انتفاء العذاب لوجود الرّسول والاستغفار بكونه لا يمتنع عن المفسدين والكفّار

لمّا بيّن النّظمُ الكريمُ أنّ مانعَ نزولِ العذابِ عليهم، بقولِه جلّ شأنُه: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ بيّن أنّهم مُستحقّون العذابَ، "لأنّ المانعَ ليس من قِبَلهم، أي: وما لهم ممّا يمنعُ تعذيبَهم متى زالَ ذلك"[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَصُدُّونَ﴾: (صدّ) أصلٌ يدلُّ على إعْراضٍ وعُدولٍ، فالصَّدُّ: الإعْراضُ، صَدَّ عنه يَصِدُّ صُدوداً: أعرضَ، وصدَّه عن الامر صدًّا: مَنَعَهُ وصَرَفَه عنه. والصَّدُّ قد يكون انصرافًا عنِ الشّيء وامتناعًا، نحو: ﴿يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا﴾، [النساء: 61]، وقد يكونُ صَرْفًا ومَنْعًا نحو: ﴿وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [الحج: 25][2].

2) ﴿أَوْلِيَآءَهُۥٓۚ﴾: (ولي) أصْلٌ يَدُلُّ على قُرْبٍ. يُقالُ: تَباعَدَ بَعْدَ ولْيٍ، أيْ قُرْبٍ. المَوْلَى، والصّاحِبُ، والحَليفُ، وابْنُ العَمِّ، والنّاصِرُ، والجارُ؛ كُلُّ هَؤُلاءِ مِنَ الوَلْيِ وهو القُرْبُ. وكُلُّ مَنْ ولِيَ أمْرَ آخَرَ فهو وليُّهُ، والوَلايَةُ: تَوَلّي الأمرِ[3].

المَعْنى الإجْمالِيُّ:

يُخبر اللّهُ تعالى عن انتفاءِ موانعِ العذابِ عنِ الكافرين لذاتِهم،

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/20، والمراغي، تفسير المراغي: 9/203.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (صدّ - صدد).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، والفيّوميّ، المصباح المنير: (ولي).

فأيُّ "شيءٍ لهم في انتفاء العذابِ عنهم، يعني: لاحظَّ لهم في ذلك وهم معذَّبون لا محالة. وكيف لا يعذَّبون، وحالُهم أنهم يَصدّون عنِ المسجدِ الحرامِ كما صدّوا رسولَ الله ﷺ عامَ الحديبية"[1]، فلا شيءَ يمنعُ تعذيبَ الله إيّاهم؛ لأنّهم مُستحقّون للعذابِ، وكيف لا يُعذَّبون وهُم من شدّةِ عُتوّهم وعنادِهم يَصُدّونَ المؤمنين عَنِ المَسْجِد الحَرام والطّوافِ حول البيت مدَّعين ولايتَه؟ والحالُ ليس لهم صلاحيّةُ الولايةِ في بيت الله لخباثةِ كُفرِهم وفسقِهم وعدمِ لياقتِهم، بل ما يصلحُ لولايتِه وخدمتِه إلّا الذين يجتنبون كبائرَ الإثم والفواحشَ ويتطهّرون عنِ المعاصي والآثامِ مُطلقًا، ولكِنَّهم لا يَعْلَمونَ عدمَ استحقاقِهم ولايتَه[2].

لا يَمتنعُ نزولُ العذاب على الفجرة، لتوفُّرِ أسبابِه من الشّرك والصّدِّ والأثرة

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ العطْفِ ومُؤدّاهُ في سياق الآية الحكيمة:

عطف قولَه جلّ شأنُه: ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ﴾ على قولِه تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ﴾؛ لأنّه في بيان أسبابِ عذابِهم ومنْعِ العذابِ عنهم، فهو "ارتقاءٌ في بيان أنّهم أحقّاءُ بتعذيبِ الله إيّاهم، بيانًا بالصّراحةِ"[3].

استحقاقُ العذابِ بانتفاءِ أسبابِ منْعِه، عدل من الله ووفاء بوعده

الغرضُ منْ أسلوبِ الاستفهامِ، في السّياق الكريم:

في قوله ﷻ: ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ﴾ أدخل (ما) على الجملة، وجمهورُ المفسرين على أنّها استفهاميةٌ، والاستفهامُ للتّقريرِ، أي: كيف لا يُعذَّبونَ وهم مُتَّصفون بهذه الحال؟[4]، أو أنّ الاستفهام جاء للإنكار، والتّقديرُ: "ما الذي ثبت لهم لأن ينتفي عنهم عذابُ الله، فكلمة (ما) اسمُ استفهامٍ إنكاريٌّ، والمعنى: لم يثبت لهم شيء"[5]

لا شيءَ يمنعُ من عذابِ الكفارِ، وقد كفروا بالله وكذّبوا رسولَه

(1) الزّمخشري، الكشاف: 2/217.
(2) النخجواني، الفواتح الإلهية: 1/287.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/335.
(4) السمين، الدر المصون، ص: 599.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/335.

وقد جاء الاستفهام لنفي المانع من تعذيبِهم بإثبات ارتكابِهم ما يستحقُّه، فكيف لا يُعَذَّبون ولم يثبت لهم شيءٌ يمنعُه[1]، والمعنى: "أيُّ شيءٍ لهم في انتفاء العذابِ عنهم، يعنى: لاحظَّ لهم في ذلك وهم معذَّبون لا محالةَ"[2]. وإضافةً إلى ذلك فإنّ: "الاستفهامَ للتّعجبِ من مناقضةِ حالهم لما يجبُ لحَرَم اللّهِ الآمِن، والمعنى أيُّ أمرٍ ثبت لهم حتّى يُقيموا في الحرمِ ولا يعذّبُهم، يمنعُهم منه، وهم يحاربون شعائرَه، وذلك بصدّهم عن سبيل اللّه، وعنِ المسجد نفسِه، فهم يمنعون النّبيّ ﷺ من أن يؤدّيَ المناسكَ، ويمنعون ضِعافَ المؤمنين بإيذائِهم، ويَصدّون النّاسَ معنويًا بوضعِ الأصنام على الكعبةِ بناءِ إبراهيمَ، وينتهكون المحارمَ، بحمْلِ النّاسِ على الطّوافِ عرايا رجالًا ونساءً، حتى إنّهن ليَسترْنَ سوءاتِهن بأكفِّهنَّ، هذا كلُّه صدٌّ عنِ البيت؛ فكيف لا يُعذّبُهم اللّه بمغالبتِهم على الاستيلاءِ على البيت، والحالُ أنّهم لا يقومون على حُرماتِ البيتِ"[3].

سرُّ إيرادِ عذابِهم بالاستفهامِ دونَ الإخبارِ في السّياق:

إثباتُ العذابِ بالاستفهامِ الإنكاريِّ أبلغُ منَ الإخبارِ

في قولِه ﷻ: ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ﴾ أثبتَ تحقّقَ العذابِ لهم بالاستفهامِ الإنكاريِّ لنفي المانعِ عن عذابِهم، ولم يعبّرْ عنِ العذاب بصيغةِ الإخبارِ المباشرِ فلم يقلْ: (لا مانعَ من عذابِ اللّه لهم)؛ لأنّ النّفيَ بالاستفهامِ أبلغُ منَ النّفيِ بالخبرِ؛ لأنّه "أبلغُ في معنى الإيجابِ، أيْ: لا جوابَ لمن سألَ عن مثلِ هذا يصحُّ في نفْيِ العذابِ عنهم، والمعنى: لِمَ لا يعذّبُهم اللّه وهذا فعلُهم"[4].

غرَضُ الخبرِ في الآية، على القولِ بأنّ (ما) نافيةٌ:

وذلك على أنّ (ما) نافيةٌ، والتّقديرُ: وما عدمُ التّعذيبِ كائنًا

(1) العليمي، فتح الرحمن: 3/11.
(2) الزّمخشري، الكشاف: 2/217، والخازن، لباب التأويل: 2/310.
(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 6/3119.
(4) الواحدي، البسيط: 10/128.

لهم مع صدِّهم عنِ المسجد الحرام[1] وقد أفاد الخبرُ في قولِه ﷻ: ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ﴾ "بيانَ أنّ من كانت هذه حالُه لم يكن وليًّا للمسجدِ الحرام، فهم إذن أهلٌ لأن يُقتلوا بالسّيف ويُحارَبوا، فقَتَلَهم اللّهُ يومَ بدرٍ، وأعزّ الإسلامَ بذلك"[2]، فالخبرُ جاء لنفْيِ الأسبابِ المانعةِ من عذابِهم، ونفْيِ استحقاقِهم ولايةَ المسجدِ الحرامِ وإنِ ادّعوا ذلك.

الفضائلُ لا تتحقّقُ بالدّعاوَى، ولا بالأماني الكاذبة

دلالة حرف اللّام في قوله: ﴿لَهُمْ﴾:

في قولِه جلّ شأنه: ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ﴾ عبّرَ عن كونِ العذابِ مُستحقًّا لهم بلام الجرِّ الدّالّةِ على التّمليكِ والاستحقاقِ، وهي هنا "للاستحقاقِ، والتّقديرُ: ما الذي ثبت لهم لأن ينتفيَ عنهم عذابُ اللّه"[3].

عذابُ الكافرين مُستحقٌّ لهم وواقع، ويقين ليس له دافعٌ

بلاغةُ الكنايةِ في التّعبيرِ عنِ استحقاقِهمُ العذابَ:

في قولِه ﷻ: ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ﴾ دخل الاستفهامُ على فعلِ العذابِ المنفيِّ (لا يعذّبهم) للدّلالةِ على انتفاءِ مانعِ تعذيبِهم، والمقصودُ "الكنايةُ عنِ استحقاقِهمُ العذابَ وحلولِه بهم، أو توقّعِ حلولِه بهم، تقول العربُ: مالك ألّا تُكرمَ، أي: أنت حقيقٌ بأن تُكرمَ، ولا يمنعُك منَ الإكرام شيءٌ، فاللّفظُ نفيٌ لمانعِ الفعلِ، والمقصودُ أنَّ الفعلَ توفّرت أسبابُه، ثم انتفت موانعُه، فلم يبقَ ما يحولُ بينك وبينه"[4].

نفيُ موانعِ العذابِ دليلٌ على استحقاقِهم له

إيثارُ التّعبيرِ بلفظِ الجلالةِ في السّياق:

في قولِه ﷻ: ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ﴾ أسندَ العذابَ إلى لفظِ الجلالةِ تهويلًا لشأنِ العذابِ، فذكرُ اللّه تعالى في سياقِ الحديثِ عن شيءٍ يخلعُ عليه التّعظيمَ، فقولُه تعالى: ﴿أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ﴾

لفظُ الجلالةِ يورثُ المهابةَ في مقامِ الثّوابِ أوِ العقابِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/335.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 15/480.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/335.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/335.

"أي: الذي له كمالُ العِزّ والعظمةِ على الظّالم، والإكرامِ والرّفقِ بالطّائعِ عاجلًا"[1].

دلالة الواوِ الحالية، ﴿وَهُمۡ يَصُدُّونَ﴾ وموقعُ الجملةِ بعدَها:

افتتحَ قولَه تعالى: ﴿وَهُمۡ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ﴾ بالواو الحاليّة، والجملةُ حاليّةٌ، أي: "وكيف لا يعذَّبون ﴿وَهُمۡ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ﴾ أي: وحالُهم ذلك، ومِن صدِّهم عند إلجاءِ رسولِ الله ﷺ إلى الهجرةِ، وإحصارُهم عامَ الحديبيةِ"[2]؛ وإنّما استحقّوا العذابَ في هذه الحالِ؛ لأنّ ما قاموا به منَ الصّدِّ عنِ المسجد الحرام يُعدّ "جريمةً عظيمةً يستحقُّ فاعلوه عذابَ الدّنيا قُبَيلَ عذابِ الآخرةِ؛ لأنه يؤولُ إلى الصّدِّ عنِ التّوحيدِ"[3].

استحقاقُ العذابِ على قدْرِ الجريمةِ

دلالةُ التّعبيرِ بلفظ ﴿يَصُدُّونَ﴾:

في قولِه ﷻ: ﴿وَهُمۡ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ﴾ عبّر عن صدِّهم بالفعلِ المضارعِ للدّلالةِ على أنّه عادةٌ ثابتةٌ لهم؛ لأنَّ من "شأنِهم فعلَ حقيقةِ الصّدّ في الماضي والحالِ والمآلِ، لا ينفكّون عن ذلك، كما كانوا يمنعون مَن شاءوا مِن دخول البيت ويقولون: نحن ولاتُه، نفعلُ ما نشاء، ويَصدّون المؤمنين عنِ الطّواف به بالتّعذيبِ والفتنةِ، وصَدّوا رسولَ الله ﷺ ومَن معه بالإخراجِ، ثمّ صدّوهم عامَ الحديبيّةِ عنِ الوصول إلى البيت، وعامَ عمرةِ القضيّة عنِ الإقامة بعد الثّلاثةِ الأيّام"[4]، فضلًا عمّا يقدّمُه الفعلُ المضارعُ منَ التّصوير الفنّي لمشهدِ الصّدِّ واستحضار صورتِه القبيحةِ.

استمراءُ المشركين الصّدَّ عن بيتِ الله الحرامِ، ومنْعَ دخولِه

نُكتةُ حذفِ مفعولِ ﴿يَصُدُّونَ﴾:

الفعلُ (صدّ) فعلٌ متعدٍّ يحتاجُ إلى مفعولٍ به، ولكنّه في قولِه جلّ

(1) البقاعيّ، نظم الدرر: 8/272 - 273.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/20.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/336.
(4) البقاعيّ، نظم الدرر: 8/273.

شأنُه: ﴿وَهُمۡ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ﴾ جاء المفعولُ به محذوفًا، والمعنى: وهم يَصدّون عنِ المسجد الحرام أولياءَه، ومن أرادَ تعظيمَه بالصّلاةِ فيه[1]، وإنّما ساغ الحذفُ لما دلّ السّياقُ على المفعولِ به في قولِه تعالى: ﴿إِنۡ أَوۡلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُتَّقُونَ﴾[2]، وفي هذا الحذفِ إيجازٌ بليغٌ، والغرضُ منه تعميمُ كلِّ صدٍّ قاموا به، إذ هم لم يقوموا بصدٍّ واحدٍ، كما أشعر الفعلُ المضارعُ ﴿يَصُدُّونَ﴾ على دوام الصّدِّ وتجدّدِه بحيث إنّه عادةٌ لهم، فكان الصّدُّ متنوّعًا لا يتعلّقُ بفعل واحد، فكان الإطلاقُ أبلغَ في التّعبيرِ عن ذلك.

حذفُ المفعول به أبلغُ في الدّلالةِ، على دَوامِ صَدِّهم وتجدُّدِه

دلالة (أل) العهديّة، في لفظ ﴿ٱلۡمَسۡجِدِ﴾:

في قولِه عزّ ذكرُه: ﴿وَهُمۡ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ﴾ جاء المسجدُ معرّفًا بالألف واللّام الدّالّةِ على العهدِ؛ فالمرادُ به المسجدُ الحرامُ بعينِه لا جنسُ المساجدِ، فخصَّه بالذّكرِ إظهارًا لفُحشِ ذلك الصّدِّ، فإنّ المسجدَ الحرامَ أحقُّ المساجدِ بأن لا يُصدَّ عبادُ اللّه عنه.

الصّدّ كان مُتعلّقًا بالمسجدِ الحرامِ بعينِه، لا بكلِّ مسجدٍ

فائدةُ وصفِ المسجدِ بلفظ ﴿ٱلۡحَرَامِ﴾:

وُصفَ المسجدُ في قولِه ﷻ: ﴿وَهُمۡ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ﴾ بأنّه الحرامُ، "أي العظيمُ حرمتُه عند كلِّ أحدٍ؛ فلا اختصاصَ به لشخصٍ دون آخرَ"[3]، فأفادَ هذا الوصفُ بأنّه المسجدُ الذي وُضعَ للنّاس، وهذا يُسفرُ عن قباحةِ جُرمِهم بالصّدّ عنه؛ إذ إنّه مسجدٌ لا يختصُّ بهم، فكان هذا الصّدُّ لا يحقُّ لهم بوجهٍ منَ الوجوه، ووَصْفُه بالحرام يدلُّ على حُرمةِ الظّلم فيه؛ لأنّه وُضعَ حَرمًا آمنًا للنّاسِ، فانتهاكُ عُمومِ حُرمتِه جريمةٌ عظيمةٌ تُؤكّدُ استحقاقَهمُ العذابَ،

انتهاكُ حُرمةِ المسجدِ بالصّدِّ تأكيدٌ على استحقاقِهمُ العذابَ

(1) الواحدي، البسيط: 10/129 - 130، والبقاعيّ، نظم الدرر: 8/273.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/336.
(3) البقاعيّ، نظم الدرر: 8/273.

والجملةُ مُساقةٌ تدليلًا على ذلك الاستحقاقِ، فأفادَ الوصفُ بالحُرمةِ تأكيدَ ذلك الاستحقاقِ.

غرضُ وصْفِ المسجدِ بألفاظ (الحرام) و(المحرّم) و(الحرَمِ):

صفةُ الحُرمةِ ثابتةٌ راسخةٌ في حقِّ هذا المسجدِ

جاء وصفُ البيتِ بكونِه محرّمًا بأكثرَ من صيغةٍ، فوُصفَ بأنّه حرامٌ، ومحرّمٌ، وحَرَمٌ؛ إذ قال جلّ شأنُه: ﴿وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾، فوصفَه بالمصدرِ الدّالِّ على أنّ الحُرمةَ هي وصفُه الثّابتُ مبالغةً في التّشنيع عليهم لفعلتِهم بالصّدِّ عنه، وقال: ﴿عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ﴾ على لسانِ إبراهيمَ عليه السلام في دعائِه لأهلِه بالأمنِ في هذا الوادي القَفرِ، فناسبَه أن يذكرَ البيتَ بهذا البناءِ الصّرفيِّ الدّالِّ على أنّه مُحرّمٌ على أحدٍ أن يتعرّض لساكنِه لأنّه مُحرّمٌ عليه ذلك، وقال عنه: ﴿حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾؛ وذلك تأكيدٌ على هذه الصّفةِ له دونَ غيرِه من البيوتِ؛ فجاءت في معرضِ الامتنانِ عليهم بأن جعلَ هذا البيتَ حَرمًا وآمنًا دون غيرِه، فذكر بيتَه بأكثرَ من صيغةٍ لبيانِ رسوخِها في حقِّ هذا المسجدِ على تنوُّعِ مُراداتِها، فيُرادُ ترسيخُها في أذهانِ النّاسِ كذلك.

دلالة الواو على الحاليّة وجملتها في الآية القرآنيّة:

نفيُ ولايتِهم بغرضِ إظهارِ اعتدائِهم بذلك الصّدّ عنه

في قولِه تعالى: ﴿وَمَا كَانُوٓاْ أَوْلِيَآءَهُۥٓ﴾ الواوُ حاليّةٌ، والجملةُ "حالٌ من ضمير ﴿يَصُدُّونَ﴾ مفيدةٌ لكمال قُبحِ ما صنعوا منَ الصّدّ؛ فإنّ مباشرتَهم للصّدِّ عنه مع عدمِ استحقاقِهم لولاية أمرِه في غايةِ القُبحِ، وهو ردٌّ لما كانوا يقولون: نحنُ ولاةُ البيتِ والحرمِ فنصدُّ من نشاءُ ونُدخِلُ من نشاءُ"[1]. وفائدةُ الحالِ بيانُ أنّه لم يكنِ الصّدُّ حقًّا لهم؛ لأنّهم ﴿وَمَا كَانُوٓاْ أَوْلِيَآءَهُۥٓ﴾، فنفَى عنهم ولايتَه، إذ لو كانوا أهلًا

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/20، والشّوكاني، فتح القدير: 2/349، والآلوسي، روح المعاني: 5/189.

لولايتِه فلربّما وقعَ الصّدُّ منهم موقعَه[1]، وهذا يُظهرُ " اعتداءَهم في صدِّهم عنِ المسجدِ الحرامِ؛ فإنّ مَن صدَّ عمّا هو له منَ الخير كان ظالمًا، ومن صدَّ عمّا ليس من حقّه كان أشدَّ ظلمًا، ولذلك قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾ [البقرة: 114] أي: لا أظلمَ منه أحدٌ لأنّه منعَ شيئًا عن مُستحقّه"[2].

نُكتةُ دخولِ ﴿وَمَا﴾ على (كان) واسمِها وخبرِها:

نفيُ استحقاقِ الولايةِ، إيغالٌ في نفيِ كونِهم أولياءه

في قولِه جلّ شأنه: ﴿وَمَا كَانُوٓاْ أَوْلِيَآءَهُۥٓ﴾ أدخلَ النّظمُ الكريمُ (كان) بين (ما) ومعمولَيْها، وأصلُ الكلامِ: (وما هم أولياءه)؛ لأنّه لم يردْ نفيُ كونِهم أولياءَه وحسبُ، بل نفيُ استحقاقِهم أن يكونوا كذلك منَ الأصل، أي: ما كانوا "مُستحقّين ولايةَ أمرِه مع شِركِهم"[3]، فأدخلَ النّفيَ على كان للدّلالةِ على أصالة انتفاءِ استحقاقِهم لولايةِ البيتِ، فالمنفيُّ هو الاستحقاقُ، فالمعنَى: "وما استحقّوا مع إشراكِهم وعداوتِهم للدّين أن يكونوا وُلاة أمرِ الحرم"[4].

بلاغة المجاز المرسل وعلاقتُه اللّزوميّةُ في السّياق:

نفـيُ ولايـةِ المسجدِ الحرام عنهم يستلزمُ نفي استحقاقِها

في قوله ﷻ: ﴿وَمَا كَانُوٓاْ أَوْلِيَآءَهُۥٓ﴾ نفَى أن يكونَ المشركون أولياءَ المسجدِ الحرامِ، وهم أولياؤُه في الواقعِ، فالمرادُ من ذلك النّفيِ نفيُ استحقاقِ الولايةِ لا نفسِها، فهو مجازٌ مرسلٌ علاقتُه اللّزوميّةُ، حيث أطلقَ اللّازمَ وأراد الملزومَ والقرينةُ كونُهم مُتولّين وقتَ نزولِها، إذ نفيُ الولايةِ مستلزِمٌ لنفيِ استحقاقِها لُزومًا عربيًّا[5].

فائدةُ إضافةِ الأولياءِ إلى الضّميرِ العائدِ على المسجدِ الحرامِ:

أضافَ الأولياءَ في قولِه ﷻ: ﴿وَمَا كَانُوٓاْ أَوْلِيَآءَهُۥٓ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ﴾ إلى

(1) البقاعيّ، نظم الدرر: 8/273، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 15/480.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/337.
(3) ابن كمال باشا، تفسير ابن كمال باشا: 4/260.
(4) النسفي، مدارك التنزيل: 1/643.
(5) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 9/74.

النّـفـيُ يسلبُ عنهم دعـواهُم ولايةَ البيْتِ

الضّميرِ العائدِ إلى البيتِ ردًّا لدعواهُم بكونِهم ولاةَ البيتِ؛ حيث "كان المشركون يقولون: نحنُ أولياءُ المسجدِ الحرامِ، فردَّ اللّه عليهم بقولِه: ﴿وَمَا كَانُوٓاْ أَوۡلِيَآءَهُۥٓۚ﴾ أي: أولياءَ البيتِ: ﴿إِنۡ أَوۡلِيَآؤُهُۥٓ﴾ أي: ليس أولياءُ البيتِ ﴿إِلَّا ٱلۡمُتَّقُونَ﴾"[1].

والضّميران لا يصحُّ أن يكونا عائدَيْن على لفظِ الجلالةِ في قولِه تعالى: ﴿وَمَا لَهُمۡ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ﴾؛ "لأنّ الضّميرَ إذا دار بين الأقربِ والأبعدِ فللأقربِ، وأيضًا في الاحتمال الأوّل ردٌّ لقولِهم: نحن ولاةُ البيتِ، وأيضًا انتفاءُ ولايةِ اللّه تعالى عنهم ظاهرةٌ واضحةٌ، فلا فائدةَ فيها معتدًّا بها في نفْيِ ذلك"[2].

دلالة الاستئناف البيانيّ في تعيين أولياء المسجد الحرام:

التّعليلُ يُكسبُ القناعةَ ويُقوّي الحُجّةَ

قولُه ﷻ: ﴿إِنۡ أَوۡلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُتَّقُونَ﴾ جملةٌ مستأنفةٌ استئنافًا بيانيًّا أو تعليليًّا[3]؛ فالجملةُ: "تعيينٌ لأوليائِه الحقِّ، وتقريرٌ لمضمونِ ﴿وَمَا كَانُوٓاْ أَوۡلِيَآءَهُۥٓۚ﴾ مع زيادةِ ما أفاده القصْرُ من تعيينِ أوليائِه، فهي بمنزلة الدّليلِ على نفْيِ ولايةِ المشركين، ولذلك فُصِلَتْ"[4]، وقد جاءتْ لبيانِ أهلِ الولايةِ على البيتِ بعد أن نفاها عنِ المشركين[5]، وهي للتّعليلِ، وللتّدليلِ على نفْيِ ولايتِهم على البيت، "وإنّما لم يَكتفِ بجملةِ القصْرِ مع اقتضائِه أنّ غيرَ المتّقين ليسوا أولياءَ المسجدِ الحرامِ، لقصْدِ التّصريحِ بظلمِ المشركين في صدِّهم المسلمين عنِ المسجدِ الحرامِ بأنّهم لا ولايةَ لهم عليه، فكانت جملةُ: ﴿وَمَا كَانُوٓاْ أَوۡلِيَآءَهُۥٓۚ﴾ أشدَّ تعلّقًا بجملةِ: ﴿وَهُمۡ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ﴾ من جملةِ: ﴿إِنۡ أَوۡلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُتَّقُونَ﴾ وكانت

(1) ابن عادل، اللباب في علوم الكتاب: 9/509.
(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 9/74.
(3) محمود صافي، الجدول: 5/213.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/337.
(5) البقاعيّ، نظم الدرر: 8/273.

جملةُ: ﴿إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ﴾ كالدّليلِ، فانتظمَ الاستدلالُ أبدعَ انتظام، ولِما في إناطةِ ولايةِ المسجدِ الحرامِ بالمتّقين منَ الإشارة إلى أنَّ المشركين الذين سُلِبت عنهم ولايتُه ليسوا منَ المتّقين، فهو مذمّةٌ لهم وتحقيقٌ للنّفي بحجّةٍ"[1].

دلالة ﴿إِنْ﴾ على القصر في السّياق:

افتتح قولَه جلّ شأنُه: ﴿إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ﴾ بحرف النّفي (إن)، ولم يأتِ النّفيُ بـ (ما)؛ لأنّ النّفيَ بـ (إن) أكثرُ تأكيدًا ومبالغةً، ولذا كانت في الاستعمالِ القرآنيِّ غالبًا ما تأتي مع (إلّا) والقصرِ، لما فيه تأكيدٌ للمعنى، أمّا (ما) فتأتي مع الحصرِ لكن ليس هو الغالبُ عليها، كما يُلاحظُ أنّ بين (إن) و(إلّا) جِناسًا لفظيًّا بالافتتاح بالهمزة المكسورة، وهذا التّشابهُ في بداية اللّفظين فيه مزيدٌ منَ القوّة في التّعبير بهما معًا؛ فيكونُ قولُه تعالى: ﴿إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ﴾ يدلُّ على قوّة النّفي الذي يُضيفُ تأكيدًا للتّأكيدِ المرادِ بالقصرِ.

الاستثناءُ المنفيّ، فيه دلالةٌ على تأكيد التّأكيد

بلاغةُ القصرِ ونوعُه ودلالتُه في الآية:

في قولِه تعالى: ﴿إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ﴾ جاء القصرُ بالنّفي والاستثناءِ للدّلالة على تعيينِ أولياءِ المسجد[2]، وحصرِ ولايتِه بهم، فليس لهذا المسجدِ أولياءُ على وجه الاستحقاقِ غيرُ المتّقين، فجاء الإخبارُ عن ذلك بأسلوبِ القصرِ للدّلالةِ على تأكيدِ ذلك، وهو قصرُ قلبٍ؛ لأنّه عكسُ الحُكمِ الذي كانوا يظنّونه بأنّهم هم ولاتُه، وهو قصرٌ موصوفٍ على صفةٍ.

لا يَستحقُّ الولايةَ على المسجدِ الحرامِ إلّا المؤمنون المتّقون

سِرُّ اصطفاءِ النّفي والاستثناءِ طريقًا للقصرِ:

في قولِه تعالى: ﴿إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ﴾ جاء القصرُ بطريق النّفي والاستثناءِ؛ لأنّه جاء لبيانِ حُكمٍ يُنكره المشركون، وهذا من

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/337.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/337.

وجوهِ استعمالِ القصرِ بهذه الطّريقةِ، أمّا القصرُ بـ (إنّما) فإنّه يُستعملُ في "حُكمٍ من شأنِه ألّا يجهلَه المخاطبُ ولا يُنكرَه"[1]، وعليه فإنّ استحقاقَ ولايةِ البيتِ للمتّقين كان حُكمًا يُنكرُه المشركون، ولا يُقرّون به فجاء القصرُ بأسلوب النّفْيِ والاستثناءِ الدّالِّ على ذلك.

مناسبة إنكارِهم استحقاقَ التّقوَى للولايةِ على وجْهِ الحصْرِ

نوع (أل) في لفظ ﴿ٱلْمُتَّقُونَ﴾:

في قولِه ﷻ: ﴿إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ﴾ عرّفَ المتّقين بالألف واللّام الدّالّةِ على الجنسِ، فتشملُ جميعَ الأتقياءِ في كلِّ زمان، فقولُه: ﴿إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ﴾ "يعني المؤمنين الذين يتَّقون الشّركَ، ويَحترزون عنِ المنكراتِ، كالذي كانوا يفعلونَه عندَ البيت"[2].

كلُّ مَنِ اتّصفَ بالتّقوَى فهو أهلٌ لولايةِ هذا البيتِ الحرام

سِرُّ التّعبيرِ بالمتّقين دونَ المؤمنين أو المسلمين:

في قولِه تعالى: ﴿إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ﴾ جعل ولايتَه منحصرةً بالمتّقين دونَ المسلمين؛ إذ ليس "كلُّ مسلمٍ أيضاً ممّن يصلحُ لأنْ يليَ أمرَه، إنّما يستأهلُ ولايتَه من كان برًّا تقيًّا، فكيفَ بالكفرةِ عبدةِ الأصنامِ"[3]، فذكرُ المتّقين دون المسلمين إشارةٌ إلى عُلوِّ منزلةِ ولايةِ اللّه تعالى وقد وصَفَ أنّه وليُّ المؤمنين في قولِه جلّ شأنُه: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ إيغالًا ومبالغةً في كونِ مجرّدِ الإسلامِ لا يكفي في نَيلِ تلك الولايةِ[4].

ولايةُ اللّه تعالى منزلةٌ رفيعةٌ، لا تُنالُ إلّا بالبرِّ والتّقوَى

غرضُ حذْفِ مُتعلّق لفظ ﴿ٱلْمُتَّقُونَ﴾:

في قولِه عزّ ذكرُه: ﴿إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ﴾ جاء لفظُ المتّقين بلا مُتعلّقٍ للاهتمامِ بهذا الوصفِ، "أي: العريقون في هذا الوصفِ بما يجعلون بينَهم وبين سخَطِ اللّه من وقاياتِ الطّاعاتِ"[5]، فأطلقَ

الاهتمامُ بصفة التّقوى لذاتها، وشمولها لكلِّ ما يُتّقَى

(1) الجناجيُ، البلاغة الصافية، ص: 175.
(2) ابن عادل، اللباب في علوم الكتاب: 9/509.
(3) الزمخشريّ، الكشاف: 2/217.
(4) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 7/92.
(5) البقاعيّ، نظم الدرر: 8/273 - 274.

التّقوَى عنِ المتعلّقِ فلم يقلْ: (يتّقون اللّه)؛ اهتمامًا بصفةِ التّقوَى من حيث هي، لا من حيثُ المتعلّقُ بها، كما أفادَ الإطلاقُ الشّمولَ، فيشملُ كلَّ ما يندرجُ تحت هذا الفعلِ.

معنى الواو في جملة ﴿وَلَٰكِنَّ﴾ العاطفة، ومعنى الجملةِ بعدَها:

نفيُ الولايةِ ونفيُ العلمِ قرينانِ

في قولِه جلّ شأنُه: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ (الواو) عاطفةٌ، والجملةُ في قولِه تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ معطوفةٌ على الجملةِ في قولِه: ﴿إِنۡ أَوۡلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُتَّقُونَ﴾[1]، فالجملة الأولى نفتِ الولايةَ عنهم، وأثبتتْها للمتّقين، والثّانيةُ نفتِ العلْمَ عن أكثرِهم، وأثبتت لهمُ الجهلَ، ويُمكنُ أن تكونَ الواوُ حاليّةً، والجملةُ بعدَها في محلِّ نصبٍ على أنّها حالٌ.

معنى (لكنّ) الاستدراكيّة في السياق:

من الدّعاوَى ما يكونُ مَنشؤها الجهلُ بحقائق الأمورِ

في قولِه ﷻ: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ جاء حرفُ الاستدراك (لكنّ) تعقيبًا على النّفْيِ السّابقِ في الجُملتين في قولِه تعالى: ﴿وَمَا كَانُوٓاْ أَوۡلِيَآءَهُۥٓۚ إِنۡ أَوۡلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُتَّقُونَ﴾ فلمّا نفَى ذلك عنهم فإنّه "يثيرُ فرضَ سائلٍ يسألُ عنِ الموجبِ الذي أقحمَهم في الصّدِّ عنِ المسجدِ الحرامِ، ويَحسبون أنّهم حقيقون بولايتِه"[2]، فجاء الاستدراكُ تعليلًا لادّعائِهم بعد نفْيِ استحقاقِهم.

سِرُّ نفْيِ العلْمِ عنِ الأكثريّةِ دونَ الجميعِ:

نفيُ العلمِ عنِ الأكثريّةِ يُشيرُ إلى علْمِ الأقليّةِ

في قولِه عزّ ذكرُه: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ نفَى العلْمَ عن أكثرِهم، ولم يقل: (ولكنّهم لا يعلمون)؛ لأنّ فيهم مَن لا يصدقُ عليه الوصفُ بكونِه لا يعلمُ، فأرادَ بذلك "أنْ يُعْلِمَ ويُشعرَ أنّ بينهم وفي خلالِهم قومًا قد جنحوا إلى الإيمان، ووقع لهم عِلمٌ، وإن كان ظاهرَهم الكفرُ، فاستثناهُم منَ الجميع بقولِه:

(1) محمود صافي، الجدول: 5/212 - 213.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/338.

﴿أَكۡثَرَهُمۡ﴾، وكذلك كانت حالُ مكّة وأهلِها، فقد كان فيهمُ العبّاسُ وأمُّ الفضل وغيرُها"[1].

نُكتةُ التّعبيرِ بالمضارِعيّةِ في الفعل ﴿لَا يَعۡلَمُونَ﴾:

المشركونَ غارقونَ في الجَهلِ مُستمرّونَ فيه

في قولِه جلّ شأنُه: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ عبّر عن انتفاء علمِهم بالفعل المضارع، للدّلالةِ على استمرار النّفْي، فإنّهم لا يعلمون على الدّوامِ، فلا انقطاعَ لجهلِهم عن كونِ استحقاقِ الولايةِ منحصرًا بالمتّقين، وهذا إخبارٌ عن كونِهم لن يدركوا تلك الحقيقةَ؛ لأنّ الجهلَ عادةٌ متأصّلةٌ فيهم.

بلاغةُ حذْفِ مفعولِ: ﴿لَا يَعۡلَمُونَ﴾:

ادّعاءُ ما ليس بحقٍّ دليلُ الجهلِ، وانتفاءِ العلمِ

جاء العلمُ المنفيُّ عنهم مطلقًا بلا مفعولٍ به في قولِه تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ فلم يُبيّنْ أيَّ شيءٍ لا يعلمونَه؛ وذلك لدلالةِ السّياقِ عليه في قولِه تعالى: ﴿وَمَا كَانُوٓاْ أَوۡلِيَآءَهُۥٓۚ إِنۡ أَوۡلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُتَّقُونَ﴾، فالمعنى: "لا يعلمون أنّهم ليسوا بأوليائِه بل يظنّون أنّهم أولياؤه"[2]. وقد يكونُ أنّه أرادَ نفْيَ مُطلقِ العلْمِ عنهم، بلا نظرَ إلى مُتعلّقٍ، ويدخلُ فيه عدمُ معرفتِهم بمُستحقِّ الولايةِ دُخولًا أوّليًّا، فيكونُ انتفاءُ مُطلقِ العلمِ عنهم هو السّببُ بادّعائِهم ذلك، أي: فلِكوْنِهم لا يعلمون "ادَّعَوْا لأنفسِهم أمرًا غيرُهم أولَى به"[3].

فائدةُ توسُّطِ النّفْيِ بين المسنَد إليه والمسنَدِ الفعليِّ:

عجزُ المشركين عنِ العلْمِ والفهْمِ ثابتٌ ومُستمرٌّ ومتجدّدٌ

في قولِه ﷻ: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ نفَى العلمَ عنهم بالجملةِ الاسميّةِ الدّالّةِ على تأكيدِ مضمونِها وثباتِ المعنى فيها، وجاء المسنَدُ فعلًا منفيًّا للدّلالةِ على ثبوتِ هذا النّفْيِ وتجدُّدِه، تقويةً

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/522، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/20، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/338.

(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/522.

(3) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 320.

للحُكم المنفيِّ، والمعنى "ليس لهم علمٌ بالأمورِ ليميّزوا بين الحقِّ والباطلِ والمتّقي والفاسقِ وحُسنِ العواقب وسيّئِها"[1]، فهذه القدرةُ منتفيةٌ عنهم على وجهِ الدّوامِ والثّبوتِ والتّأكيدِ.

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الصدُّ والمنعُ:

الصّدُّ أخصُّ منَ المنعِ فهو منعٌ عن بلوغِ المقصَدِ، "الصّدُّ هو المَنْعُ عَن قصْدِ الشّيءِ خاصَّة؛ ولهذا قالَ اللّه تَعالَى: ﴿وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ أي: يمْنَعونَ النّاس عَن قَصْدِه، والمنعُ يكونُ في ذَلِك وغَيره؛ ألا ترى أنّه يُقال: منع الحائِط عَنِ الميل، ولا يُقال: صدَّه عنِ الميل؛ لأنّ الحائطَ لا قصْدَ لَهُ"[2]. وفي الآيةِ الكريمةِ عبّرَ بالصّدِّ دون المنعِ؛ لأنّهم كانوا يمنعون النّاسَ أن يقصدوا ويبلغوا بيتَ اللّه تعالى.

الصّدُّ أخصُّ منَ المنعِ، فهو منعٌ عن بلوغِ المقصَدِ

(1) البقاعيّ، نظم الدرر: 8/274.

(2) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 114.

﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً ۚ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الأنفال: 35]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

العلاقة بين استحقاقهم للعذاب، ونفيُ ولايتِهم على المسجد الحرام، لجرائمهم العظام

لمّا ذكر جلّ شأنُه "أنّ الكفّارَ ليسوا بأولياءِ البيتِ الحرامِ ذَكَرَ عقِبَهُ السّببَ في ذلك، وهو أنّ صلاتَهم عنده كانت مُكاءً وتصديةً"[1]، فولايةُ المسجدِ الحرامِ منزلةٌ رفيعةٌ لا ينالُها من يُشركُ بعبادةِ اللّه تعالى، فلمّا "كانوا يفعلون عندَ البيتِ ما يُنزَّهُ البيتُ عنه ممّا هو غايةٌ في الجهل، قال مُبيّنًا لجهلِهم واستحقاقِهم للنّكالِ وبُعدِهم عنِ استحقاق ولايتِه: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ﴾"[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مُكَآءً﴾: (مَكا) أصْلٌ يَدُلُّ على شَيْءٍ مِنَ الأصْواتِ، مكا الطّيرُ يمكو مُكاءً: صَفَرَ، المُكاءُ: الصَّفيرُ، مَكا الإنسان: صَفَرَ بفيه، وهو أن يَجمع بين أصابع يَدَيْهِ، ثُمَّ يُدخِلَها في فيهِ ثُمَّ يَصْفِرَ فيها، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً﴾ تنبيهًا أن ذلك منهم جارٍ مجرَى مُكاءِ الطّيرِ في قلّةِ الغناءِ، والمُكّاء: طائرٌ[3]، فما كانت صلاتُهم إلّا صفيرًا بالأفواهِ[4].

2) ﴿وَتَصْدِيَةً﴾: (صدّ، صدى) والتَّصْديدُ: التَّصْفيقُ، وتُبْدَلُ الدالُ ياءً فيقالُ: التَّصَدّي والتَّصْديَةُ، وهي: التَّصْفيقُ باليَدَيْنِ[5].

(1) الخازن، لباب التأويل: 2/310، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 15/480، وابن عادل، اللباب في علوم الكتاب: 9/509.
(2) البقاعيّ، نظم الدرر: 8/274.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (مكا).
(4) العليمي، فتح الرحمن: 3/111.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة، والفيروزآبادي، القاموس المحيط: (صدّ - صدى).

فقولُه تعالى: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً﴾، يعني إلّا "تصفيقًا بإحدى اليدَيْن على الأخرى"[1]، وهي على وزن " (تَفْعِلَة) من الصّدّى، أو مِن صدَّ يصُدّ[2]؛ وذلك أنّهم كانوا يطوفون بالبيت عُراةً مُشبكون بين أصابعِهم يُصفّرون فيها ويُصفّقون، وكانوا يفعلون نحوَ ذلك إذا قرأ رسول الله ﷺ في صلاته يَخلطون عليه"[3].

3) ﴿فَذُوقُواْ﴾: (ذوق) أصلٌ وهو اختبارُ الشّيء من جهة تَطَعُّم، ثم يُشتقّ منه مجازًا فيقال: ذُقتُ المأكولَ، الذّوقُ: وجودُ الطّعمِ بالفم، وأصلُه فيما يقلُّ تناولُه دون ما يَكثرُ، فإنّ ما يكثرُ منه يقال له: الأَكْلُ، واختيرَ في القرآن لفظُ الذّوق في العذابِ كثيرًا، نحوَ: ﴿لِيَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ﴾، ويَكونُ بالفَم وبغَيْرِ الفَم، وكلُّ ما نزلَ بإنسانٍ من مكروهٍ فقد ذاقَهُ، قال تعالى: ﴿فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا﴾ أي خبَرتْ[4].

المَعْنى الإجْماليُّ:

البُرهانُ على نفْيِ استحقاقِهم ولايةَ البيتِ الحرامِ، لشركهم وسوء فعالهم

يُخبرُ الله تعالى عن ضلالِهم في صلاتِهم وطوافِهم، فما كانت صلاتُهم إلّا صفيرًا وتصفيقًا في المسجدِ الحرامِ المعدِّ للتّوجهِ والتّقرّبِ لله تعالى على وجهِ الخضوعِ والانكسارِ والتّذلّلِ والافتقارِ، وما ذلك إلّا من أماراتِ الاستهانةِ والاستخفافِ الدّالِّ على الكُفرِ، وهذا يَستوجبُ العذابَ لا الولايةَ على المسجدِ الحرام[5]. والمعنَى: أنّ "اللهَ تعالى إنّما جعلَ بيتَه الحرامَ ليُقامَ فيه دينُه، وتُخْلص له فيه العبادةُ، فالمؤمنون هم الذين قاموا بهذا الأمرِ، وأمّا هؤلاء المشركون الذين يَصدّون عنه، فما كان صلاتُهم فيه التي هي أكبرُ أنواعِ

(1) العليمي، فتح الرحمن: 3/111.
(2) الزّمخشري، الكشاف: 2/218، وابن عادل، اللباب في علوم الكتاب: 9/510.
(3) النّسفي، مدارك التنزيل: 1/643 - 644.
(4) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (ذوق).
(5) النخجواني، الفواتح الإلهية: 1/287.

العباداتِ: ﴿إِلَّا مُكَآءً وَتَصۡدِيَةً﴾ أي: صفيرًا وتصفيقًا، فِعلَ الجهَلةِ الأغبياءِ، الذين ليس في قلوبِهم تعظيمٌ لربِّهم، ولا معرفةٌ بحقوقِه، ولا احترامٌ لأفضلِ البقاعِ وأشرفِها، فإذا كانت هذه صلاتَهم فيه، فكيف ببقيّةِ العباداتِ؟"[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

معنَى الواوِ ودلالةُ الجملةِ بعدَها:

استحقاقُهمُ العذابَ مسبَّبٌ بكثيرٍ منَ الأسبابِ

الجملةُ في قولِه تعالى: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمۡ عِندَ ٱلۡبَيۡتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصۡدِيَةً﴾ معطوفةٌ على الجملةِ في قولِه جلّ شأنُه: ﴿وَهُمۡ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ﴾؛ لأنّها تقريرٌ لاستحقاقِهم العذابَ، أو هي معطوفةٌ على قولِه تعالى: ﴿وَمَا كَانُوٓاْ أَوۡلِيَآءَهُۥٓ﴾ فتكونُ تقريرًا لعدمِ استحقاقِهم ولايةَ المسجدِ الحرامِ[2]، فالجملةُ "كالدّليلِ المقرّرِ لانتفاءِ ولايتِهم للمسجدِ الحرامِ؛ لأنّ من كان يفعلُ مثلَ هذا عند مسجدِ اللّه لم يكن منَ المتّقين، فكان حقيقًا بسلْبِ ولايةِ المسجدِ عنه، فعُطفتِ الجملةُ باعتبارِها سببًا للعذابِ"[3].

نُكتةُ دخولِ النّفْيِ على ﴿كَانَ﴾ وجُملتِها:

أصلُ وجودِ صلاتِهم كان على هذا الوصْفِ المذكورِ

في قولِه تعالى: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمۡ عِندَ ٱلۡبَيۡتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصۡدِيَةً﴾ دخلَ النّفيُ على كان ولم يدخلْ على الفعل مباشرةً، فلم يقلْ: (لم يصلّوا عند البيت إلّا مُكاءً وتصدية)؛ لأنّه أراد أن يُثبتَ كونَ صلاتِهم على هذه الصّفةِ مبالغةً وتأكيدًا؛ إذ إنّ تسليطَ النّفْيِ على فعلِ الكوْنِ يدلُّ على انتفاءِ الفعلِ منَ الأصل، فنفَى وجودَ صلاتِهم على أيِّ هيئةٍ وصفةٍ إلّا من وجودِها على الهيئةِ والصّفةِ المذكورةِ، إثباتًا لكونِه على ذا الوصْفِ منذ يومِ وجودِها.

(1) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 320.
(2) القاسمي، محاسن التأويل: 5/287، والطّيبي، فتوح الغيب: 7/93 - 94.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/338.

فائدةُ تذكيرِ الفعْلِ ﴿كَانَ﴾ مع الصّلاةِ:

صلاةُ المشركين لا يُرادُ بها معناها الشَّرعيُّ، بل معناها العرفيّ

في قولِه جلّ شأنُه: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ﴾ جاء الفعلُ خاليًا من علامةِ التّأنيثِ؛ لأنّ "العربَ تعلّقُ الفعلَ لا علامةَ فيه بالمؤّنث، ومنه قولُه تعالى: ﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ﴾، وقولُه: ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ﴾، وقولُه: ﴿كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾، ونحو هذا ممّا أُسندَ فيه الفعلُ دون علامةٍ إلى المؤنثِ"[1]، ولعلّ المرادَ من ذلك التّنبيهُ على الفعلِ عمومًا لا على الفاعلِ، فالمرادُ نفْيُ كونِ الصّلاةِ لا الصّلاةَ المفردةَ، والتّفكّرِ في وجود العاقبةِ لا العاقبةَ بحدّ ذاتِها، وفي قولِه: ﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ﴾ لعلّ المرادَ الإخبارُ عن هول الأخْذِ، أمّا الصّيحةُ فهي وسيلةٌ، فالاعتبارُ للأخْذِ بالمقام الأوّلِ، وقد يكونُ التّذكيرُ في الضّميرِ على معنى أنّ المرادَ منَ الصلاةِ الدّعاءُ.

الغرضُ منَ الاستعارة في لفظ ﴿صَلَاتُهُمْ﴾:

سُمّي فعلُهم ذلك صلاةً على طريقةِ المشاكلةِ التّقديريّةِ

في قولِه عزّ ذكرُه: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً﴾ عبّر عنِ الصّلاة بالمكاءِ والتّصديةِ، وهما ليسا منَ الصّلاةِ في شيءٍ، فالمرادُ "بالصّلاةِ ليس نفسَها بالمعنى اللُّغويِّ أو الشّرعيِّ، بلِ الأمرُ الذي يضعُ الكفّارُ موضعَ الصّلاةِ، ويفعلون ذلك الأمرَ بدلَ الصّلاة، فالصّلاةُ مجازٌ عن ذلك الأمرِ ومُستعارٌ له للتّهكّمِ على حدّ: تَحيّةُ بَيْنهم ضَرْبٌ وجيعٌ"[2].

وذهبَ بعضُ أئمّةِ التّفسيرِ إلى أنّ ذلك مشاكلةٌ؛ إذ لا تعرفُ لهم صلاةٌ "فتسميةُ مكائِهم وتصديتِهم صلاةً مشاكلةٌ تقديريّةٌ؛ لأنّهم لمّا صدّوا المسلمين عنِ الصّلاة وقراءةِ القرآن في المسجدِ الحرامِ عندَ البيت، كان من جملةِ طرائقِ صدِّهم إيّاهم تشغيبُهم عليهم وسُخريتُهم بهم يُحاكون قراءةَ المسلمين وصلاتَهم بالمكاءِ

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/523.

(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 9/74، والطّيبي، فتوح الغيب: 7/94 - 95.

والتّصديةِ، قال مجاهدٌ: "فعلَ ذلك نفرٌ من بني عبدِ الدّار يخلِطون على محمّدٍ صلاتَه"، وبنو عبدِ الدّارِ هم سدنةُ الكعبةِ وأهلُ عمارةِ المسجدِ الحرامِ، فلمّا فعلوا ذلك للاستسخارِ منَ الصّلاة سُمّي فعلُهم ذلك صلاةً على طريقة المشاكلةِ التّقديريّةِ، والمشاكلةُ ترجعُ إلى استعارةِ علاقتِها المشاكلةِ اللّفظيةِ أوِ التّقديريةِ؛ فلم تكن للمشركين صلاةٌ بالمكاءِ والتّصديةِ، وهذا الذي نحاه حُذّاقُ المفسّرين: مجاهدٍ، وابنِ جُبير، وقتادةَ، ويُؤيّدُ هذا قولُه: ﴿فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ﴾؛ لأنّ شأنَ التّفريعِ أن يكونَ جزاءً على العمل المحكيِّ قبْلَه، والمكاءُ والتّصديةُ لا يُعدّانِ كفرًا إلّا إذا كانا صادرَيْنِ للسّخريةِ بالنّبيِّ ﷺ وبالدّين، وأمّا لو أريدَ مجرَّدُ لهوٍ عملوهُ في المسجدِ الحرامِ فليس بمقتضٍ كونَه كُفرًا"[1].

نُكتةُ تقْييدِ الصّلاةِ بالظّرفِ المضافِ: ﴿عِندَ ٱلۡبَيۡتِ﴾:

في قولِه ﷻ: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمۡ عِندَ ٱلۡبَيۡتِ إِلَّا مُكَآءٗ وَتَصۡدِيَةٗۚ﴾ قيّدَ كونَ الصّلاةِ بهذه الكيفيّةِ المذمومةِ كائنةٌ عند بيتِ اللّه تعالى المُستوجبِ للهيبةِ والتّعظيمِ، والحالُ أنّ الصّلاةَ فيه ينبغي أن تكونَ مبنيّةً على الخشوعِ، في قيْدِ الصّلاة بكونِها عندَ المسجدِ الحرامِ زيادةٌ في التّبشيعِ عليهم[2].

قبائحُ المشركين وجرائِمُهم، في مواطنِ الخُشوعِ والهيبةِ والجلالِ

سرّ إيثارِ التّعبيرِ بالبيتِ دونَ المسجدِ في الآية:

عبّرَ عنِ المسجدِ الحرامِ المذكورِ في الآيةِ السّابقةِ بـ﴿ٱلۡبَيۡتِ﴾ في قولِه ﷻ: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمۡ عِندَ ٱلۡبَيۡتِ إِلَّا مُكَآءٗ وَتَصۡدِيَةٗۚ﴾ ولم يقلْ: (عند المسجد الحرام)؛ "للاختصارِ مع الإشارةِ إلى أنّه بيتُ اللّه تعالى؛ فينبغي أن يُعظَّمَ بالعبادةِ، وهم لم يفعلوا"[3]، فـ(أل) في (البيت) للعهدِ، وفي ذلك زيادةٌ في التّشنيعِ على قبيحِ فعلِهم، فإنّ

التّعبيرُ بالبيتِ هيبةٌ وجلالٌ، وأبلغُ في التّقريعِ على المشركين

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/339.
(2) البقاعيّ، نظم الدرر: 8/274.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 5/190.

لفظَ (المسجد الحرام) يستدعي الصّلاةَ والحجَّ والعمرةَ والطّوافَ وسائرَ المناسكِ، أمّا التّعبيرُ بالبيتِ فإنّه يستدعي كونَه بيتَ اللّه المعظّمَ، وهذا أبلغُ في سياقِ التّقريعِ عليهم بشناعةِ فعْلِهم.

بلاغةُ القصْرِ ودلالتُه ونوعُه:

ليسَ في أعمالِ المشركين ما يُؤهِّلُهم لاستحقاقِ ولايةِ بيتِ الله

في قولِه ﷻ: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً﴾ قصَرَ صلاتَهم على المُكاء والتّصديةِ، مبالغةً وتأكيدًا لنفْيِ فضائلِ الأعمالِ التي تجعلُهم أهلًا لولايةِ المسجدِ، فلمّا قصَرَ ولايةَ المسجدِ على المتّقين، أعقبَه بنفْيِ كوْنِ صلاةِ المشركين من أعمالِ التّقوَى، فإنّها ليست منَ العبادةِ في شيءٍ، فعبّرَ عن ذلك بالقصْرِ لتأكيدِ المضمونِ وتقويةِ الحُكمِ، وجاء القصْرُ بطريقِ النّفْيِ والاستثناءِ؛ لأنّهم يُنكرون أن تكونَ صلاتُهم كذلك، وهو قصْرٌ موصوفٌ على صفةٍ، فقصْرُ الصّلاةِ على الصّفةِ المذكورةِ، وهو قصْرُ قلْبٍ؛ إذ ظنّ المشركون أنّ فعْلَهم ذلك من جنْسِ الصّلاةِ، فجاء القصْرُ لعكسِ الحُكمِ، وهو قصْرٌ إضافيٌّ لاشتمالِ صلاتِهم على ما هو أكثرُ منَ المُكاءِ والتّصديةِ.

فائدةُ تنكيرِ لفظي ﴿مُكَآءً وَتَصْدِيَةً﴾ في الآية:

ما يُستحَى من فِعْلِه يُحقَّرُ ولا يُعظَّمُ

في قولِه ﷻ: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً﴾ عبّرَ عنِ المُكاءِ والتّصديةِ بالتّنكيرِ تحقيرًا لهذين الفعلَيْن المتّخَذَيْن وسيلةً للعبادةِ على حسبِ ظنِّهم، فسلبَ عنهما أيّةَ منزلةٍ من منازلِ الاعتدادِ، حتّى لو كان ذلك بمجرّدِ التّعريفِ.

وجهُ استثناءِ المُكاءِ والتّصديةِ منَ الصّلاةِ، وليسا منها:

المبالغةُ في سوءِ فعْلِهم والتّهكُّمِ بصَلاتِهم العابثة

في قولِه ﷻ: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً﴾ استثنَى المُكاءَ والتّصديةَ منَ الصّلاةِ، وهما ليسا من جنسِها، وفي هذه الحالةِ لا يصحُّ الاستثناءُ إلّا لغرضٍ بلاغيٍّ، فجاء ذلك في الآيةِ هنا "تقريعاً للمُشركين بتركِهم ما أُمروا به في المسجدِ الحرامِ، فإنّ

ما لا يدخلُ تحت الشّيءِ قد يُستثنَى منه لمصلحةٍ وغرضٍ كقصْدِ المدحِ والذّمِّ؛ فعلى هذا يكونُ التّقديرُ: وما كان موضعُ صلاتِهم أي عوضُها إلّا مُكاءً وتصديةً"[1]، ففي ذلك مبالغةٌ في ذمّ فعْلِهم إذ وضعوا ما ليس من جنْسِ الصّلاة فيها وزعموا أنّه قُربةٌ للّه تعالى، ويحتملُ أنّه أرادَ التّهكّمَ بهم، كما قالوا: تحيّةُ بينِهم ضربٌ وجيعٌ، فجعل الضّرب تحيّةً على سبيلِ التّهكّمِ[2].

معنَى الفاءِ في: ﴿فَذُوقُواْ﴾:

العذابُ مسبَّبٌ عن فعْلِهم، ينالونَه في العاجلةِ قبْلَ الآجلةِ

في قولِه جلّ شأنُه: ﴿فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ افتتحَ الجملةَ بالفاءِ الدّالّةِ على السّببيّةِ[3]، أي بسببِ ما قُمتُم به ذوقوا جزاءَه في الدّنيا، كما أنّ الفاءَ دلّت على التّعقيبِ وإنّما يُعبّرُ بها "إذا كان ذلك العذابُ المسبَّبُ بما ذكرَه مُعجّلًا"[4]، وهذا يقطعُ بكوْنِ العذابِ المذكورِ هو ما نالوه في بدْرٍ.

نوعُ (أل) في لفظ ﴿ٱلْعَذَابَ﴾ في السّياق:

نزول العذاب الّذي طلبوه بهم

في قولِه تعالى: ﴿فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ دخلتِ الألفُ واللّامُ لتعريفِ العذابِ تعريفَ العهدِ؛ إذِ المرادُ به القتلُ والأسرُ يومَ بدْرٍ، وهو ما توعّدَهم اللّه تعالى به، وما طلبوه بقولِهم: ﴿أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[5]، وقد يُرادُ به جنسُ العذابِ.

بلاغةُ الاستعارةِ في ذوق العذاب:

شبّهَ شدّةَ مسِّ العذابِ لهم بشيءٍ محسوسٍ من شأنِه أن يُتذوّقَ

في قولِه تعالى: ﴿فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ التّعبيرُ عنِ العذابِ بالفعلِ (ذوقوا) وهو "مجازٌ عن نزولِه بهم بحيث يمسُّ إحساسَهم، وكأنّه يُذاقُ مذاقًا مُؤلمًا، ولا يخلو ذلك من تهكّمٍ

(1) القنّوجيّ، فتح البيان: 5/170.
(2) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 7/94 - 95.
(3) البقاعيّ، نظم الدرر: 8/276.
(4) ابن كمال باشا، تفسير ابن كمال باشا: 4/262، والآلوسي، روح المعاني: 5/190 - 191.
(5) البيضاوي، أنوار التنزيل: 3/58، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/20.

بهم، كما يقولُ اللّه تعالى: ﴿فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٖ﴾"[1]، ويُضافُ إلى ذلك أنّه قد يكونُ من بابِ الاستعارةِ المكنيّةِ، فشبّهَ الذي ينالُ العذابَ بمَن يتذوّقُ الطّعامَ، بجامعِ أنّه واجدٌ أثرَ ذلك التّذوّقِ، فحذفَ المشبَّه به وأبقى قرينةَ التّذوّقِ للدّلالةِ عليه، والغرضُ من ذلك التّهكّمُ بهم.

فائدةُ الأمرِ ودلالتُه في: ﴿فَذُوقُواْ﴾:

ارتباطُ التّذوّقِ بالعذابِ فيه مَزيدُ توبيخٍ

فعْلُ الأمرِ (ذوقوا) في قولِه جلّ شأنُه: ﴿فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ﴾ يدلُّ على التّوبيخِ والتّغليظِ[2]، فالأمرُ مجازيٌّ لا يُرادُ منه وجوبُ ما يلزمُه تذوّقُ العذابِ، إذ إنّ ذلك ممّا لا يُتصوّرُ الأمرُ به، فدلَّ على أنّ المرادَ التّوبيخُ والتّغليظُ والتّهكّمُ بهم.

بلاغة الالتفاتِ منَ الغَيبةِ إلى المخاطَبِ في الآية:

مواجهةُ المذنبِ بعقابِه أشدُّ رهبةً له، وأكثر إخافة

قولُه عزّ ذكرُه: ﴿فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ﴾ جاء بصيغةِ المخاطَبِ بعد أن خاطبَهم بالغيبةِ في قولِه: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمۡ﴾، وهذا التفاتٌ، وموقعُه غايةُ الحسنِ والبلاغةِ؛ لأنّ توجيهَ الخطابِ بالعذابِ إلى السّامعِ أكثرُ مبالغةً في التّهديدِ وإدخالِ الرَّوعِ في قلوبِهم، فوجّهَ الخطابَ إليهم "لأنّ مخاطبَتَهم بالعقابِ يجعلُه أوقعَ في النّفوسِ، وأدعَى للرّهبةِ"[3].

معنَى الباءِ في الدّلالة على السّبَبيّة في السّياق:

ذوقُ العذابِ للمُشركين جزاءٌ وفاقٌ لكُفرِهم بالله ورسوله

في قولِه ﷻ: ﴿بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ﴾ تدلُّ الباءُ على السّببيّةِ، وجيءَ بها "للتّأكيدِ؛ إذ سببيّةُ الكفرِ مفهومةٌ من لفظةِ الفاء"[4]، فقولُه ﴿فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ﴾ دلَّ على أنّ العذابَ حاصلٌ بسببِ كفرِهم،

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 6/3122.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/339.
(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 6/3121، والقنّوجيّ، فتح البيان: 5/170.
(4) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 9/76، والخازن، لباب التأويل: 2/311، والشّربينيّ، السراج المنير: 1/569.

"أي إنكم قد صِرتُم بهذا الفعل أهلًا لذَوْقِه بما تَستُرون ممّا دلّتْكُم عليه عقولُكم من هذا الحقِّ الواضحِ"[1].

نُكتةُ التّعبيرِ بالمصدرِ المؤوّلِ:

الكفرُ في هؤلاء المشركين دائمٌ ومُتجدّدٌ

في قولِه جلّ شأنُه: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ دخلتِ الباءُ السّببيّةُ على (ما) المصدريّةِ[2] التي يَنْسبِكُ منها ومن فعلِها مصدرٌ، والتّقديرُ: بسببِ كونِكم تكفرون، فدلَّ المصدرُ المؤوّلُ على ثبوتِ الكُفرِ فيهم وتجدُّدِه. ولم يقلْ: (بأنّكم كافرون) وهذا أيضًا مصدرٌ مؤوّلٌ؛ ولكنّه يخلو منَ الفعْلِ المتضمِّن الدّلالةَ الزّمنيّةَ التي تقتضي الدّوامَ والتّجدّدَ والمزاولَةَ.

سرّ التّعبيرِ بالمضارعِ في: ﴿تَكْفُرُونَ﴾:

تجدّدُ الكفرِ سببٌ في ذَوقِ العذابِ

في قولِه تعالى: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ عبّرَ عن كُفرِهم بالفعلِ المضارعِ الذي "يفيدُ تصويرَ حالِ كُفرِهم المتجدّدِ المستمرِّ، فكلُّ ساعةٍ تمرُّ وهم كافرون تجديدٌ للكفرِ، وحيث يتجدّدُ الكفرُ يتجدّدُ سببُ العذابِ"[3]، "وأنّ هذا الاستمرارَ هو السّببُ في ضلالِهم"[4] ولمّا كان كُفرُهم غيرَ مُنقطعٍ وقتَ نزولِ الآيةِ كان الأنسبَ والأبلغَ أن يُعبّرَ عنه بما يدلُّ على الواقعِ المستمرِّ، وذلك بالتّعبيرِ عنه بالفعلِ المضارعِ.

بلاغةُ المتشابهِ اللّفظيِّ:

اختلافُ أسبابِ العذابِ باختلافِ المخاطَبين وأحوالهم

قولُه جلّ شأنُه: ﴿فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ يُشابهُ قولَه عزّ ذِكرُه: ﴿فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف: 39]، وقولَه: ﴿وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾ [السجدة: 14]، فعبّرَ هنا بـ﴿تَكْفُرُونَ﴾، وفي الأعراف بـ﴿تَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف: 39]، وفي

(1) البقاعيّ، نظم الدرر: 8/276.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/340.
(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 6/3122.
(4) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 6/3122.

السّجدة بـ﴿تَعۡمَلُونَ ١٤﴾ [السجدة: 14]؛ لأنّ العذابَ هنا كائنٌ بسببِ الكُفرِ، وأمّا في الأعراف فلأجْلِ الكُفرِ والإضلالِ وما يجرُّه الإضلالُ منَ الكِبرياءِ؛ فلمّا تعدّدت الأعمالُ عبّرَ عنها بالكسبِ؛ لأنّهم قصَدوها، وفي السّجدةِ كان الخطابُ عامّا مع النّاسِ فجاء بالعملِ الذي هو أعمُّ منَ الكسبِ؛ لأنّ السّياقَ كان في عمومِ النّاس غيرِ المؤمنين.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيۡهِمۡ حَسۡرَةٗ ثُمَّ يُغۡلَبُونَۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحۡشَرُونَ ٣٦ لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلۡخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجۡعَلَ ٱلۡخَبِيثَ بَعۡضَهُۥ عَلَىٰ بَعۡضٖ فَيَرۡكُمَهُۥ جَمِيعٗا فَيَجۡعَلَهُۥ فِي جَهَنَّمَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ٣٧﴾ [الأنفال: 36 - 37]

مُناسَبَةُ الآيَتينِ لِما قَبْلهما:

المناسبة بين المكاء والتّصدية، والإنفاق في الصّدّ

ما أخبر اللّه تعالى في الآيةِ السّابقةِ عن عبادةِ الكفّارِ البدنيّةِ، وهي المُكاءُ والتّصديةُ، ذكر عَقِبَه عبادتَهم الماليّةَ التي لا جدوَى لها في الآخرة بقولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ﴾[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾: (سبل) أصْلٌ يَدُلُّ على امْتِدادِ شَيْءٍ. والمُمْتَدُّ طولًا: السَّبيلُ، وهو الطَّريقُ، سُمّيَ بذلك لامْتِدادِه، وهو الطّريقُ الذي فيه سُهولةٌ، وما وضَحَ منه، يُذَكَّر ويُؤَنَّثُ. ويُستعملُ السَّبيلُ لكلّ ما يُتوصّلُ به إلى شيءٍ خيرًا كان أو شرًّا، قال تعالى: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ﴾ [النحل: 125]، وسَبيلُ اللّه: طَريقُ الهُدَى الَّذي دَعا إليه[2].

2) ﴿حَسۡرَةٗ﴾: (حسر) أصْلٌ، وهو من كشفِ الشّيءِ، والحَسْرةُ: أشدُّ التّلهّفِ على الشّيءِ الفائتِ، وذلك انكشافُ أمرِه في جزعِه وقلّةِ صبرِه، وهي الغمُّ على ما فاتَه والنّدمُ عليه، كأنّه انحسرَ عنه الجهلُ الذي حملَه على ما ارتكبَه، قال تعالى: ﴿لِيَجۡعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسۡرَةٗ فِي قُلُوبِهِمۡۗ﴾ [آل عمران: 156][3].

(1) الشّربينيّ، السراج المنير: 1/569، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 15/481، وابن عادل، اللباب في علوم الكتاب: 9/513.

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (سبل).

(3) الجوهري، الصحاح، وابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات: (حسر).

3) ﴿يُغْلَبُونَۗ﴾: (غلب) أصلٌ يدلُّ على قوّةٍ وقهرٍ وشدّةٍ، والغَلَبَةُ القهرُ، وتَغَلَّبَ على بَلَدِ كَذا: اسْتَوْلَى عليه قَهْرًا[1]، ﴿ثُمَّ يُغْلَبُونَۗ﴾ أي: لا يَظفرون بما يُؤمّلون[2].

4) ﴿يُحْشَرُونَ﴾: (حشر) أصلٌ يدلُّ على جمعٍ مع السَّوقِ والبعثِ والانبعاثِ، أحْشُرُهُم حَشْرًا: جمعتُهم، ومنه يومُ الحشْر. والحَشْرُ: إخراجُ الجماعةِ عن مقرِّهم وإزعاجُهم عنه إلى الحربِ ونحوِها[3]، وقولُه تعالى: ﴿إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾ يعني يُساقون إلى النّارِ[4].

5) ﴿لِيَمِيزَ﴾: (ميز) أصْلٌ يَدُلُّ على تَزَيُّلِ شَيْءٍ مِن شَيْءٍ. مَيَّزْتُهُ تَمْييزًا ومِزْتُهُ مَيْزًا. وامْتازوا: تَمَيَّزَ بَعْضُهُم مِن بَعْضٍ، وانْمازَ الشَّيْءُ: انْفَصَلَ عَنِ الشَّيْءِ، ومِزْتُ الشيءَ: عَزَلْتُهُ وفَرَزْتُه[5]، وقولُه تعالى: ﴿لِيَمِيزَ ٱللَّـهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾ "يعني: ليفرّقَ اللّه بين فريقِ الكفّارِ وهمُ الفريقُ الخبيثُ وبين فريق المؤمنين وهمُ الفريقُ الطيّبُ"[6].

6) ﴿ٱلْخَبِيثَ﴾: (خبث) أصْلٌ واحِدٌ يَدُلُّ على خلافِ الطَّيِّب مِنَ الرِّزْق والولدِ والنّاسِ، الخُبْثُ والخَبيثُ: ما يُكره رداءةً وخساسةً، محسوسًا كان أو معقولًا، وأصلُه الرّديءُ الدّخلةِ[7]، الجاري مجرَى خَبَثِ الحديدِ، هو خبيثٌ، أي رديءٌ[8]، وقولُه تعالى: ﴿لِيَمِيزَ ٱللَّـهُ ٱلْخَبِيثَ﴾ يعني الكفّارَ، وهمُ الفريقُ الخبيثُ[9].

7) ﴿ٱلطَّيِّبِ﴾: (طيب) أصلٌ يدلُّ على خلافِ الخبيث، وأصلُ الطَّيِّب: ما تَستلذُّه الحواسُّ، وما تستلذُّه النّفسُ، يقال: أرضٌ طيّبةٌ للتي تصلحُ للنّبات؛ وريحٌ طيّبةٌ إذا كانت ليّنةً ليست بشديدةٍ؛ وطُعْمةٌ طيبّةٌ إذا كانت حلالًا؛ وامرأةٌ طيّبةٌ إذا كانت حَصانًا عفيفةً[10]، وقولُه تعالى: ﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾ يعني: فريقَ المؤمنين، وهمُ الفريقُ الطيّبُ[11].

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، اللسان: (غلب).
(2) الخازن، لباب التأويل: 2/311.
(3) الجوهريّ، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات: (حشر).
(4) الخازن، لباب التأويل: 2/311.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (ميز).
(6) الخازن، لباب التأويل: 2/311.
(7) تَقولُ: إنّه لعَفيف الدُّخْلة وإنّه لخَبيث الدُّخْلة أي باطِنُ أمره، داخِلَةُ الرّجلِ: باطنُ أمره. ينظر: الجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب: (دخل).
(8) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (خبث).
(9) الخازن، لباب التأويل: 2/311.
(10) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (طيب).
(11) الخازن، لباب التأويل: 2/311.

8) ﴿فَيَرْكُمَهُۥ﴾: (ركم) أصْلٌ يَدُلُّ على تَجَمُّعِ الشَّيْءِ. والرُّكامُ: ما يُلقى بعضُه على بعضٍ، قال تعالى: ﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا﴾ [النور: 43]، الرَّكْمُ: جَمْعُكَ شَيْئًا فوْقَ شَيْءٍ حَتَّى تَجْعلَه رُكامًا كالرَّمْلِ والسَّحابِ، ونَحْوِ ذلك مِنَ الشَّيْءِ المُرْتكِم بَعْضُهُ على بَعْضٍ. وهو إلقاءُ بَعْضِ الشَّيْءِ على بَعْضٍ وتَنْضيدُه[1]، وقولُه تعالى: ﴿فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا﴾ أي: يجعلُ بعضَهم على بعض[2].

9) ﴿ٱلْخَٰسِرُونَ﴾: (خسر) أصْلٌ يَدُلُّ على النَّقْصِ. فمِن ذلك الخُسْرُ والخُسْرانُ، خَسَرْتُ الميزانَ: نَقَصْتَهُ، الخُسْرُ والخُسْرانُ: انتقاصُ رأسِ المال، ويُستعملُ في المقتَنَياتِ، كالمال والجاهِ في الدّنيا وهو الأكثرُ، وفي المقتَنَياتِ النّفسيّةِ كالصّحّةِ والسّلامةِ، والعقلِ والإيمانِ، والثّوابِ، وهو الذي جعلَه اللّه تعالى الخسرانَ المبينَ، وقال: ﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ١٥﴾ [الزمر: 15]، وكلُّ خُسرانٍ ذكره اللّه تعالى في القرآنِ فهو على هذا المعنَى الأخيرِ، دون الخسرانِ المتعلّقِ بالمقتَنياتِ الدّنيويّةِ والتّجاراتِ البشريّةِ. خَسِرَتْ تِجارَتُهُ أي خَسِرَ فيها، ورَبِحَتْ أي رَبِحَ فيها. وصَفْقَةٌ خاسِرَةٌ: غَيْرُ رابحةٍ[3]، وقولُه تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ يعني "الذين كفروا وأنفقوا أموالَهم في طاعة الشّيطانِ هم الذين غُبنتْ صفقتُهم وخسرتْ تجارتُهم أنهم اشتروا بأموالهم عذابَ اللّه في الآخرةِ"[4].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

يُخبرُ اللّه تعالى عن عداءِ المشركين للّه ورسولِه والمؤمنين

سَعيُ الكفّارِ في عـداءِ الإسـلامِ لا يُكْسِبهُم غيرَ البوارِ والخُسْران

(1) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (ركم).
(2) ابن الجوزيّ، تذكرة الأريب، ص: 129.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (خسر).
(4) الواحدي، البسيط: 10/147.

ببيانِ الغرضِ من إنفاقِهم الأموالَ، فغرَضُهم "في إنفاقِ أموالِهم هو الصّدُّ عن سبيلِ الحقِّ بمحاربةِ رسولِ اللّه ﷺ، وجمعُ الجيوشِ لذلك، وإنفاقُ أموالِهم عليها، وذلك كما وقعَ مِن كفّارِ قريشٍ يومَ بدرٍ، ويومَ أحدٍ، ويومَ الأحزابِ، فإنّ الرّؤساءَ كانوا ينفقون أموالَهم على الجيشِ، ثُمّ أخبرَ اللّه سبحانه عنِ الغيبِ على وجه الإعجازِ، فقال: ﴿فَسَيُنفِقُونَهَا﴾ أي: سيقعُ منهم هذا الإنفاقُ، ثم تكونُ عاقبةُ ذلك أن يكونَ إنفاقُهم حسرةً عليهم"[1]، ثمّ يُبيّنُ ﷻ من حشْرِهم إلى النّار، والمعنى: "أنّ اللّه يحشرُ الكافرين إلى جهنّمَ ليَميزَ الكافرين منَ المؤمنين بأنْ يجمعَ الكافرين جميعًا فيُلقيَهم في جهنّم، ثمّ أخبرَ عنهم أنّهم همُ الخاسرون، أي: الذين خابت سِعايتُهم وتبّتْ أيديهِم وصاروا إلى النّارِ"[2].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

الاستئنافُ ودلالتُه في السّياق:

جاءتِ الجملةُ في قولِه جلّ شأنُه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ﴾ مستأنفةً غيرَ معطوفةٍ لبيانِ نوعٍ آخرَ من أنواعِ صدِّهم، فلمّا ذكرَ أنّهم ﴿يَصُدُّونَ عَن ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ﴾ أعقبَه بذكْرِ صدِّهم عن سبيلِ اللّه تعالى بإنفاقِ الأموالِ، وفي ذلك تأكيدٌ على ضلالِ سَعيِهم وذمِّ صدِّهم عنِ المسجد الحرامِ، وعن سبيلِ اللّه.

بُغضُ الكفّارِ لدينِ اللهِ متأصّل فيهم لا ينفكّون عنه

بلاغةُ الالتفاتِ في الضَّمائرِ منَ الخطابِ إلى الغيبةِ:

في قولِه ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ﴾ التفاتٌ منَ الخطاب الذي كان في قولِه: ﴿فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ﴾ إلى الغيبةِ تعميمًا للحُكمِ، فلو قال: (إنّكم تنفقون) لكان المقصودُ منَ النّصّ نفقتَهم على الخصوصِ، فلمّا عدلَ عنِ الخطابِ إلى

حسرةُ المنافقين على خُسرانِ أموالِهم عامّةٌ لكلِّ مُنفقٍ صادٍّ عن سبيلِ الله

(1) الشّوكاني، فتح القدير: 2/350.
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/526.

الغيبةِ صلُحَ النّصُّ لكلِّ أحدٍ ينفقُ مالَه بهذا المقصدِ والغرَضِ، كما أنّ الالتفاتَ عنهم فيه تحقيرٌ لهم.

فائدةُ تتابُعِ المؤكّداتِ في صدْرِ الآيةِ:

التّوكيدِ يبعثَ الطّمأنينةَ في المؤمنين والخوْفَ في نفوسِ الكافرين

قولُه جلّ شأنُه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾ خبرٌ منَ اللّه - تعالى - مؤكَّدٌ بـ(إنّ) والجملةِ الاسميّةِ، وذكْرِ المسنَدِ إليه مرّتيْن، فإنّ اللّه تعالى يؤكّدُ أنّهم ينفقونَ الأموالَ ليصدّوا عن سبيل اللّه فلا يتحقّقُ لهم قصْدُهم[1]، وإنّما أكّدَ الإخبارَ؛ لأنّه إخبارٌ عن فعلٍ وما سيؤولُ إليه في المستقبل، فكان جديرًا بأن يؤكَّدَ ليقعَ موقعَه في نفوسِ السّامعين، وفي التّأكيدِ تقويةٌ لمضمونِ الخبرِ، فإنّهم يُنفقون تلك الأموالَ قصدًا منهم أن يحاربوا اللّه تعالى ويَصدّون عن سبيلِه، وهذا يدعو للعجَبِ والإنكارِ، وهذا يقتضي التّأكيدَ.

غرضُ التّعبيرِ بالاسمِ الموصولِ وصِلتِه ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾:

الكفرُ أقبحُ ما يوصفُ به الإنسانُ

قولُه جلّ شأنُه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ﴾ عبّرَ عنهم بالاسمِ الموصولِ لذمِّهم، فهُم "يُنفقون أموالَهم يقصُدون بذلك الصّدَّ عن سبيلِ اللّه، والدّفعَ في صدْرِ الإسلام"[2]، فليس كلُّ المشركين أنفقوا، بل أنفقَ فئةٌ منهم.

فائدةُ التّعبيرِ بالفعلِ المضارعِ ﴿يُنفِقُونَ﴾:

تجدّدُ الحسرةِ كلّما تجدّدَ الإنفاقُ

في قولِه جلّ شأنُه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ﴾ عبّرَ بالفعل المضارعِ عن إنفاقِهم "إشارةً إلى أنّ ذلك دأبُهم، وأنَّ الإنفاقَ مستمرٌّ لإعدادِ العُددِ لغزوِ المسلمين، فإنفاقُهم حصلَ في الماضي ويحصلُ في الحال والاستقبالِ"[3]، كما أنّ التّعبيرَ بذلك يدلُّ على

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 6/3123.
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/525.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/340.

إصرارِهم على الإنفاقِ، وأنّه إنفاقٌ قد تكرّرَ كثيرًا، وحصيلةُ ذلك أنّه إنفاقٌ كثيرٌ، مع استحضارِ صورتِهم البشعةِ في عملِهم.

نُكتةُ جمعِ لفظ الأموالِ، وإضافتِها إليهم:

الكفّارُ متعلّقون بالأموالِ الكثيرةِ، وهي مُنتهَى أمانيهم

في قولِه جلّ شأنُه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ﴾ عبّرَ عمّا أنفقوه بلفظِ المالِ، والمالُ يُطلقُ على كلّ ما يملكُه الإنسانُ، والتّعبيرُ به في الآية مجموعًا يدلُّ على أنّهم أنفقوا أنواعًا كثيرةً منها، كالنّقودِ والمركوبِ والسّلاحِ وغيرِها، وإضافةُ الأموال إلى ضميرِهم لشدّةِ تعلّقِهم بها، وليدلَّ على العُمومِ "فكأنّه قيل: ينفقون أموالهم كلَّها مبالغةً، وإلّا فإنّهم ينفقون بعضَ أموالِهم"[1].

معنى اللّام في لفظ ﴿لِيَصُدُّواْ﴾:

الكشفُ عن الأغراضِ الحقيقيّةِ تبشيعٌ للتّقبيحِ

في قولِه جلّ شأنُه: ﴿لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾ عبّرَ عن علّةِ إنفاقِهم بإدخال اللّامِ التّعليليّةِ على الفعل، لبيانِ أنّ "غرضَهم الصّدُّ عنِ السّبيلِ بحسبِ الواقعِ وإنْ لم يكن كذلك في اعتقادِهم"[2]، فهم لم يؤمنوا أنّه سبيلُ اللّه، وذكرُ العلّةِ مع الفعلِ يدلُّ على قوّةِ عزمِهم وثباتِ نيّتِهم على صدِّهم ومحاربتِهم دينَ اللّه.

نُكتةُ التّعبيرِ عن علّةِ إنفاقِهم، بالفعلِ المضارعِ:

علّةُ الإنفاقِ مستمرّةٌ لرسوخِ الكُفرِ في نفوسِهم

في قولِه جلّ شأنُه: ﴿لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾ عبّرَ عنِ الغاية من إنفاقِهم بإدخال اللّامِ التّعليليّةِ على الفعلِ المضارعِ الدّالِّ على التّجدّدِ، فأفاد ذلك أنّ "الإنفاقَ مستمرٌّ؛ لأنّه مَنوطٌ بعلّةٍ ملازمةٍ لنفوسِهم، وهي بغضُ الإسلامِ وصدُّهمُ النّاسَ عنه"[3].

فائدةُ إضافةِ (السّبيلِ) إلى لفظِ الجلالةِ:

أضاف السّبيلَ في قولِه تعالى: ﴿لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾ إلى

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/340.

(2) الآلوسي، روح المعاني: 5/191، والزّمخشري، الكشاف: 2/219، وابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 9/513.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/340.

سبيلُ اللهِ عظيمُ الشّأن، فيه نجاةُ العبدِ في الدّنيا والآخرةِ

لفظِ الجلالةِ تعظيمًا لأمرِ السّبيلِ وتفخيمًا له، فهو سبيلٌ "لا يُداني عظمتَه عظمةٌ، مع اتّساعِه ووضوحِه وسهولتِه"[1]، فخلعتِ الإضافةُ إلى لفظِ الجلالةِ على المضافِ إليه كلَّ أوصافِ الحُسنِ والفخامةِ؛ لأنّ السّبيلَ المنسوبَ إلى اللّه تعالى لا بدَّ أنّه يتّصفُ بالعظمةِ، كما أنّه يتّصفُ بصلاحِه لعبادِ اللّه تعالى. والمرادُ من ذلك إظهارُ بشاعةِ فعْلِهم، وسوءِ مسلكِهم؛ إذ إنّهم يصدّون عنِ السّبيلِ العظيمِ الذي رضيَه اللّه تعالى أن يكون منهاجًا لعبادِه.

معنَى الفاءِ في لفظ ﴿فَسَيُنفِقُونَهَا﴾ من الآية الكريمة:

التّفريعُ والتّعقيبُ السّريعُ من متطلّبات الخطاب

افتتحَ الجملةَ في قولِه جلّ شأنُه: ﴿فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً﴾ بالفاءِ للتّفريعِ "على العلّة؛ لأنّهم لمّا كان الإنفاقُ دأبَهم لتلك العلّةِ المذكورةِ، كان ممّا يتفرّعُ على ذلك تكرّرُ هذا الإنفاقِ في المستقبلِ، أي: ستكونُ لهم شدائدُ من بأسِ المسلمين تضطرُّهم إلى تكريرِ الإنفاقِ على الجيوشِ لدفْعِ قوّةِ المسلمين"[2]. كما أنّ الفاءَ دلّتْ على قُربِ زمانِ الإنفاقِ، فالمرادُ مِن ﴿يُنفِقُونَ﴾ الإنفاقُ في غزوةِ بدْرٍ، والمرادُ مِن ﴿فَسَيُنفِقُونَهَا﴾ أي: بعدَ ذلك في غزوة أُحدٍ، فالمرادُ بيانُ قُربِ زمانِ الإنفاقِ[3]، والضّميرُ المنصوبُ في ﴿فَسَيُنفِقُونَهَا﴾ "راجعٌ إلى الأموال لا بقيد كونِها المُنْفَقَةَ، بلِ الأموالُ الباقيةُ، أو بما يكتسبونَه"[4].

الغرَضُ من تكرارِ فعْلِ الإنفاقِ، في السّياق:

حِرصُ المشركين على إنفاقِ أموالِهم وبذْلِها للصدِّ عن سبيلِ الله

كرّرَ النّظمُ الكريمُ لفظَ (الإنفاق) في قولِه ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ﴾، ولم يقل: (ينفقون أموالَهم ليصدّوا عن سبيل اللّه ثمّ تكونُ)؛ لأنّ هذا

(1) البقاعيّ، نظم الدرر: 8/276.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/341.
(3) الإيجي، جامع البيان: 2/21.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/341.

التّكرارَ يدلُّ على تأكيدِ حدوثِه، كما أنّ "في تكريرِ الإنفاقِ في الشّرطِ والجزاءِ الدّلالةَ على كمالِ سوءِ الإنفاقِ"[1].

سِرُّ التّعبيرِ بالمضارعِ ﴿فَسَيُنفِقُونَهَا﴾، الدّالِّ على الاستقبالِ:

إصرارُ المشركين على الإنفاقِ، تترتّبُ عليه الحسرةُ والهزيمةُ

في قولِه عزّ ذكرُه: ﴿فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً﴾ أخبرَ عن إنفاقِهم الذي لم يقعْ بعدُ[2] بالفعلِ المضارعِ المقترنِ بحرفِ الاستقبالِ للدّلالةِ على تكرارِ وقوعِ الإنفاق منهم وتجدُّدِه، كما دلَّ حرفُ السّين على تأكيدِ حدوثِ ذلك وما يعقبُه منَ الحسرةِ والخُسرانِ، فهو إخبارٌ بوقوعِ مضمونِ الخبرِ على وجهِ الحتْمِ "أي: بحُكمٍ قاهرٍ لهم، لا يَقدِرون على الانفكاكِ عنه"[3].

براعةُ التّعبيرِ بالضّمائرِ في: ﴿فَسَيُنفِقُونَهَا﴾:

جولةُ الباطلِ ساعةٌ، ثمّ تكونُ الحسرةُ والنّدامةُ

في قولِه عزّ ذكرُه: ﴿فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً﴾ جاء التّعبيرُ في الجُملتَيْن مُتباينًا، فلم يقلْ: (ثمّ إنّهم سينفقون أموالهم)، كما لم يقل: (فسيتحسّرون)؛ لأنّ التّركيبَ بجمْعِ (الفاءِ، وفعلِ الإنفاق، وضميرِ الفاعل، وضميرِ الأموال) في ﴿فَسَيُنفِقُونَهَا﴾ يدلُّ على الإيجازِ، فأخبرَ عن ذلك بطريقةِ العُجالةِ بالتّقليل منَ الألفاظِ إشعارًا بأنّ زمانَ الاستعدادِ والانتشاءِ به سريعُ الانقضاء، ثمّ لمّا عبّرَ عن ما بعد الإنفاقِ ﴿ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً﴾ جاء التّركيبُ مُستطيلًا مُشعرًا بطولِ الزّمان إيماءً إلى شدّةِ تحسّرِهم، ولم يقل: (فسيتحسّرون).

معنى ﴿ثُمَّ﴾ ودلالتُها هنا:

رُتبةُ الحسرةِ في الألمِ أعلى من رُتبةِ الإنفاقِ

أخبرَ عن مآلِ إنفاقِهم في قولِه جلّ شأنُه: ﴿ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً﴾ فآثرَ التّعبيرَ بحرفِ العطفِ (ثُمّ) الدّالِّ على التّراخي،

(1) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 7/97.
(2) الإيجي، جامع البيان: 2/21 - 22.
(3) البقاعيّ، نظم الدرر: 8/277.

فمدلولُها "إمّا التّراخي في الزّمان؛ لما بين الإنفاقِ المذكورِ وبين ظهورِ دولةِ الإسلامِ منَ الامتدادِ، وإمّا التّراخي في الرُّتبة؛ لما بين بذْلِ الأموالِ وعدمِ حُصولِ المقصودِ منَ المباينةِ"[1]، فمعنى التّراخي الزّمانيِّ أنّ الأموالَ تكونُ حسرةً بعد إنفاقِها بمدّةٍ[2]، وأمّا التّراخي في الرُّتبةِ فمعناه "غايةُ بُعد ما بين غرضِهم في الإنفاق، وبين ما يحصلُ منه، ويقعُ بعدَه"[3]، فما كان في أوهامِهم هو استئصالُ شأفةِ المسلمين، ولكنْ ما نالوه هو الخُسرانُ والخيبةُ، وما أبعدَ ما بين الرُّتبتَيْن!

بلاغةُ المجاز في إسناد الحسرة إلى الأموال:

حينما يكونُ إنفاقُ المال سببًا للحَسرةِ والنّدامةِ

في قولِه تعالى: ﴿تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً﴾ أسندَ الحسرةَ إلى الأموالِ على سبيلِ المجازِ المرسلِ؛ لأنّ العلاقةَ بين الأموالِ والحسرةِ علاقةُ المسبِّب والمسبَّب، فإنفاقُ الأموالِ هو سببُ الحسرةِ[4]، "أي: أنَّ هذا الإنفاقَ يكونُ عاقبتُه حسرةً؛ لأنَّهُ يذهبُ المالُ ولا يحصلُ المقصودُ، بل يُغلبون في آخرِ الأمرِ"[5].

فائدةُ التّعبيرِ بالمضارعيّةِ في: ﴿تَكُونُ﴾:

بيان أنّ الأموال حسرةٌ دائمةٌ ومُستمرّةٌ على المدى

في قولِه ﷻ: ﴿تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً﴾ عبّرَ عن وجودِ الحسرةِ بالفعلِ (يكون) بعد حرفِ العطفِ (ثمّ) للدّلالةِ أنّ كونَ تلك الحسرةِ متجدّدٌ، وليس التّحسّرُ هو المتجدّدُ، فلم يقل: (ثمّ هم يتحسّرون)؛ لأنّ المرادَ ليس تجدّدَ الحسرةِ، بل تجدّدُ وجودِ الحسرةِ، وهذا يدلُّ على أنّ استمرارَهم بالإنفاقِ سيصاحبُه استمرارٌ بوجودِ الحسرةِ وتكوُّنِها.

(1) الشّوكاني، فتح القدير: 2/350، والقنّوجيّ، فتح البيان: 5/171.
(2) البقاعيّ، نظم الدرر: 8/277، والآلوسي، روح المعاني: 5/191.
(3) ابن كمال باشا، تفسير ابن كمال باشا: 4/264.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/341.
(5) ابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 9/513، والآلوسي، روح المعاني: 5/191.

غرضُ تقديمِ شبْهِ الجُملةِ: ﴿عَلَيْهِمْ﴾:

في قولِه تعالى: ﴿تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً﴾ قدّمَ شبْهَ الجملةِ على الخبرِ، فلم يقلْ: (ثم تكونُ حسرة عليهم)؛ للدّلالةِ على اختصاصِ الحسرة بهم، فهي حسرةٌ خاصّةٌ بالمنْفقين، لا على جميعِ الكافرين الذين سيُغلبون، فالحسرةُ كائنةٌ على الوجهِ الأخصِّ على الذين أنفقوا أموالَهم، ويمكنُ أن يكونَ غرضُ التّقديم، لأنّ العنايةَ منصبّةٌ هنا على مآلِهم وما حلَّ بهم.

حسرةُ هؤلاءِ المشركين المنفقين لا تُشبهُ حسرةَ غيرِهم

دلالةُ حرفِ الاستعلاءِ في شبه الجملة: ﴿عَلَيْهِمْ﴾:

عبّرَ النّظمُ الكريمُ في قولِه تعالى: ﴿تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً﴾ بحرف الاستعلاءِ لبيانِ تمكّنِ الحسرةِ منهم، وفي ذلك مبالغةٌ في شدّة النّدَمِ والتّحسّرِ على ما فاتَهم بفقدِ الأموالِ وخُسرانِ القتالِ، فالحسرةُ كائنةٌ لهم كونًا يعلوهم، فاستقرّتْ فوقَهم فهيَ في مكانٍ مكينٍ.

الحسرةُ متمكّنةٌ منهم موجودةٌ وجودًا استقرَّ فوقَهم

بلاغةُ الإخبارِ بالمصدرِ بلفظ ﴿حَسْرَةً﴾:

في قولِه ﷻ: ﴿تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً﴾ أخبرَ عنِ الأموال بأنّها حسرةٌ، فجعلَ الأموالَ نفسَها حسرةً، على سبيلِ التّشبيهِ البليغِ، فحذفَ أداةَ التّشبيهِ ووجْهَ الشَّبهِ، وإنّما الحسرةُ هو عاقبةُ إنفاقِها وضياعِها بلا تحقيقِ المقصودِ منها، فالإخبارُ "عنها بنفسِ الحسرةِ مبالغةٌ، مثلَ الإخبارِ بالمصادرِ؛ لأنّ الأموالَ سببُ التّحسّرِ لا سببَ الحسرةِ نفسِها"[1].

عندما تُصبحُ الأموالُ المنفَقَةُ حَسرةً على أصحابِها

نُكتةُ تنكيرِ لفظ ﴿حَسْرَةً﴾:

في قولِه ﷻ: ﴿تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً﴾ جاء لفظُ الحسرةِ نكرةً؛ تهويلًا لشأنِ ما نالَهم منَ الحسرةِ والغمِّ، فهو تحسّرٌ كبيرٌ لما فاتَهم من إهدارِ أموالِهم من غير تحقيقِ المقصودِ؛ "لأنَّ أموالَهم تذهبُ ويُغلبون ولا يَظفرون بما يُؤمّلونَ"[2].

أعظمُ الحسرةِ بذلُ الأموالِ دونَ تحقيقِ المقصودِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/341، والزمخشريّ، الكشاف: 2/219، وأبو السّعود، إرشاد العقل السليم: 4/21.

(2) الخازن، لباب التأويل: 2/311.

معنى (ثمّ) العاطفة، وأثرها في السّياق:

مآلُ الكفّارِ إلى الخُسرانِ مهما طالَ الزّمنُ

في قولِه جلّ شأنُه: ﴿ثُمَّ يُغْلَبُونَ﴾ آثرَ العطفَ بـ(ثمّ)، وهي مثلُ التي قبْلَها تدلُّ في هذا الموضعِ على التّراخي الزّمانيِّ الحقيقيِّ، والتّراخي في الرُّتبةِ[1]، فالتّراخي في الزّمانِ يدلُّ على طولِ الحربِ بينهم وأنّهم سيخْسَرون "آخرَ الأمرِ وإن كان الحربُ بينهم سجالًا قبْلَ ذلك"[2]، وأمّا التّراخي في الرُّتبة، فهو التّباينُ بين إنفاقِ الأموالِ لغايةٍ ما، وعدمِ حصولِ المقصودِ من ذلك الإنفاقِ، بل تحقّقَ خلافُ ما كانوا يأملون[3]. وهذا إخبارٌ بالغيبِ، وقد تحقّقَ كما قال، فيكونُ من دلائلِ النّبوّةِ؛ لأنّه أخبرَ عنه قبلَ وقوعِه[4].

سِرُّ بناءِ الفعلِ: ﴿يُغْلَبُونَ﴾ لما لم يُسمّ فاعلُه:

لـلـه تـعـالى جُـنـودُه الـتي يُحقّقُ بها قدرَه الغالبَ

آثرَ في قولِه عزّ ذكرُه: ﴿ثُمَّ يُغْلَبُونَ﴾ أن يُعبّرَ بالفعلِ المبنيّ لما لم يُسمَّ فاعلُه "لكونِ فاعلِ الفعلِ معلومًا بالسّياقِ؛ فإنّ أهلَ مكّةَ ما كانوا يقاتلون غيرَ المسلمين"[5]، ويُضافُ إلى ذلك أنّ الغرَضَ من الخبرِ هنا الاهتمامُ بعدمِ تحقُّقِ غايتِهم وأنّهم سيقعُ عليهم الغَلَبُ، لا بالنّظرِ لكونِه من مُعيّن، فليس من مرادِ السّياقِ أن يُخبر عن مَن سيغلبُهم، بلِ الغرضُ هو عدمُ تحقّقِ المقصودِ من ذلك الإنفاقِ، كما أنّ الغَلبَ إنّما يكونُ بإذنِ اللّه تعالى وتوفيقِه، فالفاعلُ قد يكونُ حقيقيًّا وهو اللّه تعالى، أو مجازيًّا وهو المسلمون، فجاء الفعلُ مبنيًّا لغيرِ الفاعلِ ليشملَ كلا الفاعلَيْن، كما أنّ فيه إيجازًا في التّعبيرِ.

سِرُّ تقديمِ الحسْرةِ على الغَلَبِ في سياقِ الآيةِ:

ضياعُ الأموالِ أخفُّ على النّفسِ منَ الانهزامِ

في قولِه عزّ ذكرُه: ﴿ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ﴾ قدّم

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/342.

(2) البيضاوي، أنوار التنزيل: 3/59، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/21.

(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 15/481، والشّوكاني، فتح القدير: 2/350، والقنّوجيّ، فتح البيان: 5/171.

(4) النّسفي، مدارك التنزيل: 1/644، وابن جزي، التسهيل: 1/326.

(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/341 - 342.

ذكرَ الحسرة وأخّرَ ذكرَ الغَلَب؛ لأنّ الحسرةَ بضياع الأموال أقلُّ شأنًا منَ الانهزام، فقدّمَ وأخّرَ "ارتقاءً في الإنذار بخيبتِهم وخذلانِهم، فإنّهم بعد أنْ لم يحصلوا من إنفاقِهم على طائلٍ توعّدوا بأنّهم سيغلبُهم المسلمون بعد أن غلبوهم أيضًا يومَ بدْرٍ"[1].

فائدة الخبرِ في السّياق:

جاء الخبرُ في قولِه جلّ شأنُه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيۡهِمۡ حَسۡرَةٗ ثُمَّ يُغۡلَبُونَۗ﴾ المتضمّنُ إخبارَهم بما سيؤولُ إليه إنفاقُهم إنذارًا لهم "بأنّهم لا يحصلون من إنفاقِهم على طائلٍ فيما أنفقوا لأجلِه؛ لأنّ المنفقَ إنّما يتحسّرُ ويندمُ إذا لم يحْصُل له المقصودُ من إنفاقِه، ومعنى ذلك أنّهم يُنفقون ليغلِبوا فلا يَغْلِبونَ"[2].

اللـه لطيفٌ بعباده يُنذرُهم بمآلِ أفعالِهم، لعلَّ ذلك يُحدثُ لهم ذكرًا

وهو خبرٌ عنِ انتفاءِ تحقيقِ أهدافِهم زجرًا لهم عنِ الاستمرارِ في الإنفاقِ، فالمقصودُ "من هذا الكلام أنّهم لا يَستفيدون من بذْلِهم أموالَهم في تلك الإنفاقاتِ إلّا الحسرةَ والخيبةَ في الدّنيا، والعذابَ الشّديدَ في الآخرة، وذلك يوجبُ الزّجرَ العظيمَ عن ذلك الإنفاقِ"[3].

دلالةُ العطْفِ في ﴿وَٱلَّذِينَ﴾ في الآية:

الجملةُ في قولِه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحۡشَرُونَ﴾ معطوفةٌ على قولِه جلّ شأنُه: ﴿ثُمَّ يُغۡلَبُونَۗ﴾ إشراكًا لهم في العاقبةِ، فهم سيُغْلبون جميعًا[4]، فدلّ العطفُ على أنّه حُكمٌ عليهم بالغَلَبِ وبالحشْرِ إلى النّارِ.

حُكمُ الله على المشركين في الدّنيا بالهزيمةِ وفي الآخرةِ بالنّارِ الأليمة

غرَضُ التّعبيرِ بالاسمِ الموصولِ وصِلتِه:

في قولِه جلّ شأنُه: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحۡشَرُونَ﴾ جاء

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/341.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/341.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 15/482.
(4) الطّيبي، فتوح الغيب: 7/99.

التّعريفُ بالموصولِ يُظهرُ علّةَ الحُكمِ عليهم بالحشرِ إلى جهنّمَ

المسنَدُ إليه معرَّفًا بالموصوليّةِ للدّلالةِ على ذمِّهم لإصرارِهم على كفرِهم وعنادِهم "أي: استمرّوا على الكفرِ؛ لأنّ مِن هؤلاء الكفّارِ المذكورين سابقًا مَن أسلمَ وحسُن إسلامُه"[1]، كما أنّ التّعبيرَ عنهم بالموصولِ يُظهرُ علّةَ إناطةِ الحُكم بهم بما في حيّزِ صلةِ الموصولِ؛ فإنّما سيقوا إلى جهنّمَ بسببِ كُفرِهم، فهو "إيماءٌ إلى أنّ علّةَ استحقاقِهم الأمرَيْن في الدّنيا والآخرة، هو وصفُ الكفرِ، فيُعلَمُ أنّ هذا يحصُلُ لِمَن لم يُقلعوا عن هذا الوصْفِ قبل حلولِ الأمرَيْن بهم"[2].

بلاغةُ الإظهارِ في موضعِ الإضمارِ، في الآية:

في التّصريحِ بالكفرِ تشنيعٌ عليهم، وإخراجٌ لِمَن آمنَ منهم

وضعَ الظّاهرَ موضعَ المضمَرِ في قولِه ﷻ: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحۡشَرُونَ﴾، فلم يقل: (وإلى جهنّم يُحشرون)؛ "لأنّه كان فيهم مَن أسلمَ، بل ذكرَ أنّ الذين بقَوا على الكفر يكونون كذلك"[3]، فهو قد خصَّ الكفّارَ منهم؛ لأنّ فيهم من تركَ الكفرَ، فلو عبّر عنهم بالضّميرِ لكان شاملًا لهم جميعًا، والحالُ ليس كذلك، كما أنّه يُفصحُ "عنِ التّشنيع بهم في هذا الإنذارِ حتّى يُعادَ استحضارُ وصْفِهم بالكفر بأصرحِ عبارةٍ"[4].

سرّ التّخصيص بتقديمِ شبهِ الجُملة: ﴿إِلَىٰ جَهَنَّمَ﴾:

ليس للمشركين مكانٌ يُحشرون إليه إلّا النّارُ، وبئس القرار

في قولِه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحۡشَرُونَ﴾ قدّمَ شبْهَ الجملةِ للدّلالةِ على تخصيصِ جهةِ مسيرِهم وسَوْقِهم، فهم يُساقون إلى النّارِ لا إلى غيرِها[5]، فليس ثَمَّ مكانٌ يُحشرون إليه غيرُ جهنّمَ، وفي هذا التّخصيصِ تغليظٌ عليهم بقطعِ كلِّ أملٍ بالنّجاة، فحصرَ

(1) الشّوكاني، فتح القدير: 2/350، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/21، والمراغي، تفسير المراغي: 9/205.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/342، والبقاعيّ، نظم الدرر: 8/277.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 15/482، والواحدي، البسيط: 10/144.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/342.
(5) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/21، والبقاعيّ، نظم الدرر: 8/277.

مصيرَهم بغايةٍ واحدةٍ لا فرارَ منها، وفائدةُ هذا التّقديمِ "دَفعُ وهْمِ القَرارِ في مَجمعٍ آخرَ"[1].

نُكتةُ التّعبيرِ بـ﴿يُحْشَرُونَ﴾، من حيث المادّةُ اللّغويّةُ والصّيغةُ:

الذُّلُّ والهوانُ في الحشْرِ إلى جهنّم، حيث المصير السّاحق

عبّر النّظمُ الكريمُ في قولِه جلّ شأنُه: ﴿إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾ عن جمْعِ الكافرين إلى جهنّمَ بالفعلِ ﴿يُحْشَرُونَ﴾ إيماءً إلى "كثرة أهلِ جهنّمَ، وإلى أنّهم يكونون في ضيقٍ محشورون"[2]، فدلَّ هذا الفعلُ على أنّهم يُساقون مُكتظّين مُتزاحمين بمشهدٍ مَهينٍ. وجاء التّعبيرُ عن ذلك بالفعلِ المبنيِّ للمفعول؛ لأنّ الأهمَّ هو الحَشرُ، لا كونُه مِن مُعيّن[3]، والتّعبيرُ بالمضارع لتصويرِ ذلك المشهدِ واستحضارِه في الذّهن، كما أنّه يدلُّ على أنّه حشْرٌ ممتدٌّ طويلُ الزّمن.

معنى اللّامِ في: ﴿لِيَمِيزَ﴾ ودلالتُها هنا:

غايةُ الحشْرِ أن يفصلَ الله بين الطّيّبِ والخبيثِ

اللّامُ في قولِه ﷻ: ﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾ دالّةٌ على التّعليلِ، متعلّقةٌ بقولِه: ﴿يُحْشَرُونَ﴾، والغرضُ من ذلك "بيانُ أنّ مِن حِكمةِ حشْرِهم إلى جهنّمَ أن يتميّز الفريقُ الخبيثُ منَ النّاس منَ الفريقِ الطّيّبِ في يومِ الحشْرِ؛ لأنّ العلّةَ غيرَ المؤثّرةِ تكونُ متعدّدةً، فتمْييزُ الخبيثِ منَ الطّيّب من جُملة الحِكمِ لحشْرِ الكافرين إلى جهنّمَ"[4].

بلاغةُ القراءاتِ القرآنيّةِ المتواترةِ في: ﴿لِيَمِيزَ﴾:

الفصلُ بين النّاسِ على وفقِ صفاتِهم مُتحقّقٌ ثابتٌ

قُرئَ الفعلُ ﴿لِيَمِيزَ﴾ في رواية جمهور القرّاء: ﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾، منَ الفعلِ (ماز، يميزُ) بمعنى: فرزَ، وقرأ حمزةُ والكسائيُّ: (ليُميِّزَ) بضمّ الياء والتّشديد، من الفعلِ (ميّز يميِّزُ)، بمعنى: محّصَ الفرزَ، وعليه جاء قولُه تعالى: ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾

(1) ابن كمال باشا، تفسير ابن كمال باشا: 4/264.
(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 6/3124.
(3) البقاعيّ، نظم الدرر: 8/277.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/342، البقاعيّ، نظم الدرر: 8/278.

[الملك: 8]، وكونُ الفعلِ مُسندًا إلى اللّه تعالى في كلتا القراءتَين فإنّهما مُستويتان[1]، غيرَ أنّ هذا الاستواءَ كائنٌ في الإسنادِ، لكنْ في الدّلالة فإنّ القراءةَ بالتّشديدِ تدلُّ على المبالغةِ[2]؛ لأنّ متعلّقَه كثيرٌ، إذ إنّ هذا التّمييزَ يشملُ كلَّ النّاس يومَ الحسابِ، فالكثرةُ هنا اقتضتِ المبالغةَ.

إيثارُ التّعبيرِ بلفظِ الجلالةِ ﴿ٱللَّهُ﴾ في السّياق:

تعظيمُ الشّأنِ بذكرِ ذي الجلالِ، وتربيّةُ المهابةِ في النّفوس

في قولِه ﷻ: ﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلۡخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾ أسندَ فعْلَ التّمييز إلى لفظِ الجلالةِ، استحضارًا بأنّ الذي سيميّزُهم هو الذي له صفاتُ الكمالِ والجلالِ[3]، فيكونُ تمييزًا على الشّكلِ الأكملِ، فذكرُ لفظِ الجلالة يخلعُ العظمةَ والهيبةَ على مضمون سياقِه، فاللّه ذو الجلالِ هو الذي يميزُ الكافرين، فإنّ الشّأنَ عظيمٌ وإنّه لنبأٌ جليلٌ.

الدّلالاتُ الحقيقيّةُ والمجازيّةُ للفظي ﴿ٱلۡخَبِيثَ﴾ و﴿ٱلطَّيِّبِ﴾:

تشبيهُ المعنويِّ بالحسّيِّ أبلغُ في الإفهامِ، وأدلُّ على علّةِ التّمْييزِ

في قولِه جلّ شأنُه: ﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلۡخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾ عبّرَ عنِ المؤمنين والكافرين بصفتَي (الطّيّبِ، والخبيثِ) وهما وصْفان حِسّيّان للأشياء، فأُطلقا في الآية على موصوفٍ معنويٍّ؛ فالخبيثُ هو "الشّيءُ الموصوفُ بالخبثِ والخباثةِ، وحقيقةُ ذلك أنّه حالةٌ حسّيّةٌ لشيءٍ تجعلُه مكروهًا، مثلَ القذرِ، والوسخِ، ويُطلقُ الخُبثُ مجازًا على الحالةِ المعنويّةِ من نحوِ ما ذكرنا تشبيهًا للمعقولِ بالمحسوسِ، وهي استعارةٌ تصريحيّةٌ حُذف فيها المشَبّهان، والمرادُ به هنا خِسّةُ النّفوسِ الصادرةِ عنها مفاسدُ الأعمالِ، والطّيّبُ الموصوفُ بالطّيّب ضدُّ الخبث بإطلاقَيْه؛ فالكفرُ خبثٌ لأنّ أساسَه الاعتقادُ الفاسدُ، فنفسُ صاحبِه تتصوّرُ الأشياءَ على خلافِ حقائقِها فلا جرمَ أن

(1) الفارسي، الحجّة: 3/104، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/342.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/21.
(3) البقاعيّ، نظم الدرر: 8/278.

يأتيَ صاحبُها بالأفعال على خلافِ وجهِها، ثم إنَّ شرائعَ أهلِ الكفرِ تأمرُ بالمفاسدِ والضّلالاتِ وتَصرفُ عنِ المصالحِ والهدايةِ بسببِ السّلوكِ في طرائقِ الجهلِ وتقليبِ حقائقِ الأمورِ، وما من ضلالةٍ إلا وهي تُفضي بصاحبِها إلى أُخرى مثلِها، والإيمانُ بخلافِ ذلك"[1].

دلالة (أل) في: ﴿ٱلۡخَبِيثَ﴾ و﴿ٱلطَّيِّبِ﴾:

عُرِّفَ (الخبيث والطّيّب) في قولِه تعالى: ﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلۡخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾ تعريفَ الجنسِ، فالألف واللّام دالّتان على الجنسِ، فالمرادُ منَ الوصفين الجنسُ في الخبيث والطّيب[2]، "والمعنى: ليميزَ اللّه الفريقَ الخبيثَ منَ الكُفّارِ منَ الفريقِ الطَّيّبِ منَ المؤمنين، فيجعلَ الفريقَ الخبيثَ بعضَه على بعضٍ"[3]، فليس المرادُ أن يفصلَ اللّه تعالى بين فردَيْن أحدُهما متّصفٌ بكونِه خبيثًا والآخرُ متّصفٌ بكونِه طيّبًا، بلِ الفصلُ بين كلِّ النّاسِ على وفْقِ صفتَيِ الطّيبِ والخبثِ الدّالّتين مجازًا على المؤمنين والكافرين.

الإيمانُ والكفرُ أساسُ التّمايُزِ بين النّاسِ يومَ القيامةِ

بلاغةُ طباقِ الإيجابِ بين: ﴿ٱلۡخَبِيثَ﴾ و﴿ٱلطَّيِّبِ﴾:

في قولِه ﷻ: ﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلۡخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾ طباقُ إيجابٍ؛ إذ جمعَ بين لفظين متضادّين مُثبتَين ﴿ٱلۡخَبِيثَ﴾ ﴿ٱلطَّيِّبِ﴾، وأفادَ الطّباقُ هنا تنبيهَ السّامعِ إلى ما بين طرفَيِ الطّباقِ من فرقٍ؛ فهو يشيرُ إلى أنّ التّمييزَ كائنٌ بين الفريقين لِما بينهما من تضادٍّ في اتّصافِهما بالطّيب والخُبث؛ إذ بضدِّها تتمايزُ الأشياءُ، كما أفادَ جمعُ الصّفتين معًا التّنبيهَ على أنّ المرادَ بهما المدحُ والذّمُّ، فلو قال: (ليميز الكافرين من المؤمنين) لما أفادَ وصفَ المدحَ والذّمِّ الذي أفادتْه الصّفتانِ المذكورتانِ معًا.

الجمعُ بين المتضادَّين يدلُّ على معيارِ التّمييزِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/343.

(2) البقاعيّ، نظم الدرر: 8/279.

(3) ابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 9/513، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 9/78.

معنى الحرف (من) في شبه الجملة: ﴿مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾:

فصلُ الضّدّ عن ضدّه، لينتظم المعنى، وترسى الدّلالة

(مِن) في قولِه جلّ شأنُه: ﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلۡخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾ للفصلِ والتّمييزِ؛ لأنّها داخلةٌ بين متضادَّين، وهي كما في قولِه تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلۡخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِۗ﴾ [آل عمران: 179]، وقولِه: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ ٱلۡمُفۡسِدَ مِنَ ٱلۡمُصۡلِحِۚ﴾ [البقرة: 220]، وهو معنى أثبتَه لها ابنُ مالك: "وأشرتُ بذكرِ الفَصْلِ إلى دخولِها على ثاني المتضادَّين"[1]. وقد خرّجهُ ابنُ هشام على معنى الابتداءِ أو أنّه بمعنى (عن) للتّجاوزِ، وقالَ في نقْدِ قولِ ابنِ مالك: "وَفيه نظرٌ؛ لِأنّ الفَصْلَ مُسْتَفادٌ منَ العامِل فإنّ (ماز وميز) بمَعْنى فصلَ، والعلمُ صفةٌ توجبُ التَّمْييزَ، والظّاهِرُ أنّ (مِن) في الآيتين للابتداءِ أو بمَعْنى (عَن)"[2]. وقدِ استحسن معنَى الفصلِ العلّامةُ ابنُ عاشور: "وهو معنى رشيقٌ لا غنى عن إثباتِه، وهو معنًى متوسّطٌ بين معنى مِن الابتداء ومعنى البدليّة حين لا يصلحُ متعلّقُ المجرورِ لمعنى الابتدائيةِ المحضِ، ولا لمعنى البدليّةِ المحضِ فحدَثَ معنًى وسطٌ"[3].

نكتةُ تقديمِ الخبيثِ على الطّيّبِ في الذّكرِ:

ما كان ألصقَ بالسّياقِ كان أحقَّ بالتّقديمِ

قدّمَ صفةَ الخبيثِ على الطّيّب في قولِه عزّ ذكرُه: ﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلۡخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾؛ لأنّ السّياقَ في الحديثِ عنِ الكافرين وحشْرِهم إلى النّار، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحۡشَرُونَ ٣٦ لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلۡخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجۡعَلَ ٱلۡخَبِيثَ بَعۡضَهُۥ عَلَىٰ بَعۡضٖ﴾، فإنّ الكافرين هم المقصودون بالتّمييزِ والفصلِ عنِ المؤمنين، نكايةً بهم.

فائدةُ عطْفِ جملة ﴿وَيَجۡعَلَ﴾ على ما تقدَّمَها:

لا يليقُ الخبيثُ إلا بالخبيثِ مثْلِه

عطفَ قولَه عزّ ذكرُه: ﴿وَيَجۡعَلَ ٱلۡخَبِيثَ بَعۡضَهُۥ عَلَىٰ بَعۡضٖ﴾ على قولِه تعالى: ﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلۡخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾ بالواو إشراكًا للجعْلِ

(1) ابن مالك، شرح التسهيل: 3/137.
(2) ابن هشام، مغني اللبيب، ص: 424 - 425.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/358.

بكونِه غايةً ثانيةً للحشْرِ إلى جهنّمَ، فجعلُ "الخبيثِ بعضِه على بعض علّةٌ أخرى لحشْرِ الكافرين إلى جهنّم، ولذلك عطفَ بالواو، فالمقصودُ جمعُ الخبيث وإن اختلفت أصنافُه في مجمعٍ واحد، لزيادة تمييزِه عنِ الطّيّب"[1].

نُكتةُ تكرارِ الخبيث في: ﴿وَيَجۡعَلَ ٱلۡخَبِيثَ﴾:

تـأكـيـدُ صـفـةِ الخبثِ بتكرارِها

في قولِه تعالى: ﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلۡخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجۡعَلَ ٱلۡخَبِيثَ بَعۡضَهُۥ عَلَىٰ بَعۡضٖ﴾ تكرّرَ لفظُ ﴿ٱلۡخَبِيثَ﴾ لبيان المقصودِ بالجعْلِ، وفيه تصريحٌ بعلّةِ ذلك الجعْلِ على تلك الهيئةِ، فلكونِه خبُثَ وفقدَ أيَّ اعتبارٍ للتّكريم، فآلَ به أن يكون مركومًا بعضَه على بعض.

موقعُ عبارة ﴿بَعۡضَهُۥ عَلَىٰ بَعۡضٖ﴾ ودلالتُه:

تنوّعُ الموقعِ ثراءٌ للمعنى

في قولِه جلّ شأنُه: ﴿وَيَجۡعَلَ ٱلۡخَبِيثَ بَعۡضَهُۥ عَلَىٰ بَعۡضٖ﴾ يُعربُ قولُه: ﴿بَعۡضَهُۥ﴾ بدلًا منَ ﴿ٱلۡخَبِيثَ﴾، بدلَ بعضٍ من كلٍّ، وقولُه: ﴿عَلَىٰ بَعۡضٖ﴾ في موضعِ المفعولِ الثّاني[2]، ويجوزُ في قولِه: ﴿عَلَىٰ بَعۡضٖ﴾ أن يكونَ في موضعِ الحالِ، والتّقديرُ: ويجعلُ الخبيثَ بعضَه عاليًا على بعضٍ، أي: بعضَه فوق بعضٍ[3]. "وفي جمْعِه بهذه الكيفيّةِ تذليلٌ لهم وإيلامٌ؛ إذ يجعلُ بعضَهم على بعضٍ حتّى يصيروا رُكامًا"[4]، وهذا التّركيبُ يفيدُ أنّ الفعلَ متشاركٌ بين الأبعاضِ؛ فإنّ بعضَهم كائنٌ فوقَ بعضِهم الآخرِ، كما أنّ بعضَهم تحت بعضٍ في الوقتِ ذاتِه، فهو للدّلالةِ على التّشاركِ في الفعلِ والتّشاركِ في الفوقيةِ والتّحتيةِ في الوقتِ ذاتِه.

معنَى الفاءِ في: ﴿فَيَرۡكُمَهُۥ﴾:

تـأكـيـدُ هـلاكِ الخبيثِ قانون إلـهـيّ للهلاك والعقاب

قولُه جلّ شأنُه: ﴿فَيَرۡكُمَهُۥ جَمِيعٗا فَيَجۡعَلَهُۥ فِي جَهَنَّمَۚ﴾ معطوفٌ على قولِه تعالى: ﴿وَيَجۡعَلَ ٱلۡخَبِيثَ بَعۡضَهُۥ عَلَىٰ بَعۡضٖ﴾[5]، وهو "عطفُ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/343.
(2) ابن عادل، اللباب في علوم الكتاب: 9/514.
(3) ابن عادل، اللباب في علوم الكتاب: 9/514، والعليمي، فتح الرحمن: 3/113.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/343.
(5) ابن عادل، اللباب في علوم الكتاب: 9/514.

تفسيرٍ يؤكّدُ الذي قبْلَه في إرادةِ الحقيقةِ مع إفهامِ شدّةِ الاتّصال حتّى يصيرَ الكلُّ كالشّيءِ الواحدِ، كالسّحابِ المركوم"[1]، فعطفُ الرّكمِ على جعْلِ الخبيثِ بعضَه فوق بعضٍ يدلُّ على أنّه جعلَ كذلك على وجهِ الحقيقةِ، ويشيرُ إلى أنّ كونَ بعضِه على بعض كائنٌ على طريقةِ التّراكمِ الدّالّةِ على الإهمالِ وقلّةِ المبالاة بهذا المركوم؛ إذ إنّه رُكِمَ لأنّه خِلوٌ من قيمِ الاعتبارِ.

سِرُّ إفرادِ الضّميرِ في لفظ ﴿فَيَرْكُمَهُۥ﴾:

الضّمائرُ في قولِه عزّ ذكرُه: ﴿فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَ﴾ عائدةٌ على الخبيثِ، وجاء الضّميرُ بالإفراد مع أنّه أريدَ بالخبيثِ الكافرون اعتبارًا بلفظِه، فالمركوم هو الخبيثُ كلُّه.

المركوم هو الخبثُ كلّه

دلالةُ التّعبيرِ بالفعل: (يَرْكُمَهُ) مُضارِعًا:

في قولِه تعالى: ﴿فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَ﴾ عبّرَ عن جمعِ الخبيثِ في جهنّمَ على وجهِ التّراكمِ بيانًا لشدّةِ التّزاحُمِ بحيث إنّه كائنٌ كالشّيءِ المتراصِّ المتلاصقِ امتهانًا له وازدراءً به. ويدلُّ الفعلُ المضارعُ على استمرارِ الفعلِ مُشعرًا بطولِ المدّةِ الزّمانيّةِ تعبيرًا عن كثرةِ ذلك الخبيثِ، كما أنّه يستحضرُ ذلك التّراكمَ باستجلابِ صورتِه بالفعلِ المضارعِ، فهو مشهدٌ تصويريٌّ لركْمِ ذلك الخبيثِ المستمرِّ.

امتهانُ الخبثِ وازدراؤه، ممّا يؤكّد مفسدته وهوانه

بلاغة جملة ﴿فَيَرْكُمَهُۥ﴾، بين الحقيقةِ والمجازِ:

في قولِه جلّ شأنُه: ﴿فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَ﴾ عبّرَ عن جمعِهم بالتّراكمِ تعبيرًا عن فرطِ ازدحامِهم، فهو جمعٌ وضمٌّ حتّى يتراكمَ بعضُه فوقَ بعضٍ[2]؛ فالخبيثُ أمرٌ معنويٌّ لا يُتصوّر فيه التّراكمُ، فهو استعارةٌ في تشبيهِ جمْعِ الخبيثِ كأنّه شيءٌ من شأنِه

تجسيدُ الخبثِ مَدعاةٌ للنّفورِ منه، والانْصرافِ عنه

(1) البقاعيّ، نظم الدرر: 8/279.

(2) البيضاوي، أنوار التنزيل: 3/59، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 15/482.

أن يتراكمَ إذ "جعَلَ الكفّارَ في الانضمامِ والازدحامِ، والاجتماعِ في النّارِ شيئًا مركومًا، كحطبٍ مرتكبٍ بعضُه على بعض، مجموعٍ ملقىً في جهنّمَ مبالغةً"[1].

نُكتةُ التّوكيدِ بلفظ ﴿جَمِيعًا﴾:

الحكمُ شاملٌ لكلِ فردٍ من أفرادِ الخبيثِ

في قولِه ﷻ: ﴿فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَ﴾ يجوزُ في قولِه تعالى: ﴿جَمِيعًا﴾ أن يكونَ حالًا، ويجوزُ أن يكونَ توكيدًا[2]، فالحالُ باعتبار أنّه بيانٌ لكيفيةِ التّراكُم، بمعنى إنّه يتراكمُ في حالةِ كونِ المركومِ جميعَ الخبيثِ، والتّأكيدُ لنفْيِ احتمالِ عدمِ شمولِ جميعِ الخبيثِ بالتّراكُم، فلمّا قال ﴿جَمِيعًا﴾ دلَّ على أنّ الحُكمَ شاملٌ لكلِّ فردٍ من أفرادِ الخبيثِ.

معنى حَرفِ الفاءِ في لفظ: ﴿فَيَجْعَلَهُۥ﴾ ودلالتُه:

سرعةُ الحشْرِ إلى جهنّمَ، وصف للمصير، عند العادل القدير

في قولِه تعالى: ﴿فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَ﴾ عطفَ الفعلَ (يركمُه) على الفعلِ (يجعلُ) بحرف العطفِ الفاءِ للدّلالةِ على سُرعةِ الرّكم؛ إذ إنّه لا يلبثُ أن يكونَ مركومًا بعد الجمْعِ، وأنّ الرّكْمَ مسبّبٌ عن ذلك الجعْلِ ومترتّبٌ عليه. وكلُّ ذلك يشيرُ إلى سرعة حشْرِهم إلى جهنّم بحيثُ إنّهم لا يُؤخَّرون عنها بشيءٍ ولا يفصلُ بينهم وبين الدّخولِ فيها على وجه التّراكمِ حائلٌ.

دلالةُ لفظ (الجعْلِ) في جهنّمَ:

التّعجيلُ بعذابِ الكفّارِ وإدخالِهم النّارَ جزاءً وِفاقًا

في قولِه جلّ شأنُه: ﴿فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَ﴾ عبّرَ عن مُكثِهم ودخولِهم النّار بقولِه: ﴿فَيَجْعَلَهُۥ﴾، ولم يقل: (فيدخلَه جهنّم) لأنّه حَكمَ عليهم بذلك فالجعلُ بمعنى الحُكم بالشّيءِ على الشّيءِ، كقولِه تعالى: ﴿إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٧﴾

(1) ابن كمال باشا، تفسير ابن كمال باشا: 4/264.
(2) ابن عادل، اللباب في علوم الكتاب: 9/514.

[القصص: 7][1]، فتراكمُ الخبيثِ في النّار إنّما كان بحُكم اللّه تعالى، وفي ذلك تأكيدٌ على لُبثِهم فيها، فكأنّ الخبيثَ يومَ القيامةِ يُجعلُ في النّار جعلًا، بيانًا لسرعةِ إدخالِهم وإنجازِ العذاب لهم، كما أشارت الفاءُ العاطفةُ إلى تلك السّرعةِ.

دلالةُ الختْمِ بالجملةِ الاستئنافيةِ في الآية:

دخولُ هؤلاء المحكومين إلى النّارِ هو الخُسرانُ المبينُ

قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾، الجملةُ فيها استئنافيّةٌ بيانيّةٌ جوابًا عن سؤالٍ مقدّرٍ عن حالِهم، لبيانِ أنّ الذين حَكمَ عليهم بأن يُحشروا إلى النّارِ على الوجه الموصوفِ بالتّراكمِ بعضِهم فوق بعض مزدحمين مُهانين في غايةِ الخُسران، فلمّا كان ذلك في غايةِ الخسرانِ استأنفَ بقولِه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ جامعًا تصريحًا بالعمومِ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾[2].

الغرَضُ من أسلوبِ القصْرِ، في فاصلةِ الآية:

ليس بعد خَسارةِ الجنّة ورِضْوانِ الله تعالى خسارةٌ

في قولِه ﷻ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ قصْرٌ طريقُه تعريفُ الطّرفين، وأكّدَ بضمير الفصْلِ للمبالغةِ في خُسرانِهم، فلا خُسرانَ موجودٌ غيرُ خُسرانِهم، فهمُ "الكاملون في الخُسران لأنّهم خسِروا أنفسَهم وأموالَهم"[3]، وهو قصْرٌ إضافيٌّ ادّعائيٌّ، فهو مبالغةٌ في اتّصافِهم بالخُسران[4]، وإنّما حصرَهم بالخسران؛ لأنّهم اشترَوْا بأموالِهم النّارَ والهلاكَ[5]، وهو قصْرُ موصوفٍ على صفةٍ.

سِرُّ التّعبيرِ باسمِ الإشارةِ الدّالِّ على البُعدِ، والجمْعِ:

اسمُ الإشارةِ يحيلُ إلى الصّفاتِ الّتي هي علّةُ إسنادِ الخُسران إليهم

في قولِه ﷻ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ عبّرَ عنهم باسمِ الإشارة دونَ الضّمير، فلم يقل: (هم الخاسرون، أو: إنّهم هم الخاسرون)؛

(1) الرّاغب، المفردات: (جعل).
(2) البقاعيّ، نظم الدرر: 8/279.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/21.
(4) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 9/79، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/343.
(5) البقاعيّ، نظم الدرر: 8/279.

فآثرَ اسمَ الإشارة "للتّنبيه على أنّ استحقاقَهم الخبرَ الواقعَ عن اسمِ الإشارةِ كان بسببِ الصّفاتِ التي ذُكرت قبلَ اسمِ الإشارةِ، فإنّ مَن كانت تلك حالَه كان حقيقًا بأنّه قد خَسِرَ أعظمَ الخُسران؛ لأنّه خَسِر منافعَ الدّنيا ومنافعَ الآخرة"[1]، فاسمُ الإشارة يحيلُ إلى الصّفاتِ المذكورةِ آنفًا، فيتضمّنُ علّةَ إسنادِ الخُسرانِ إليهم، وقد جاء اسمُ الإشارةِ بصيغةِ البُعدِ، إذ إنّ "ما فيه من معنى البُعدِ للإيذانِ ببُعدِ درجتِهم في الخُبثِ"[2]، فلمّا كان الخُسران مُنحصرًا بهم على وجه المبالغةِ، فكان اسمُ الإشارةِ الدّالُّ على البُعدِ يشيرُ إلى أنّهم بلغوا النّهايةَ في الخبثِ، كما جاء التّعبيرُ عنِ (الخبيث والطّيب) باسم الإشارةِ بصيغة الجمعِ، ولم يقل: (ذلك)؛ لأنّه أحالَ الكلامَ على قولِه: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحۡشَرُونَ﴾، وفيه تصريحٌ بأنّ ذلك الحكمَ عامٌّ للأفرادِ المتّصفين بذلك، ولو قال: (ذلك هو الخسران المبين) لم يكن في ذلك تصريحٌ بشمولِ الأفرادِ بهذا الحُكمِ، فجاء اسمُ الإشارة جمعًا إشارةً للأفرادِ.

معنَى (ال) في لفظ: ﴿ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ ودلالتُه:

في قولِه ﷻ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ أدخلَ الألفَ واللّام الدالّةَ على تعريفِ الجنسِ في قولِه: ﴿ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ تحقيقًا للقصْرِ، فجنسُ الخاسرين مُنحصرٌ بهم، فهم "الكاملون في الخُسران؛ لأنّهم خسروا أنفسَهم وأموالَهم"[3]، فلا خاسرَ غيرُهم.

أخسرُ الخاسرين من خَسِرَ نفسَه ومالَه، وانتهَى أمرُه إلى الجحيمِ في مآله

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الرّكْمُ والجمْعُ والقَرْءُ:

الجَمْعُ: ضمُّ الشّيءِ بتقريب بعضِه من بعض، يقال: جَمَعْتُهُ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/343.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/21.
(3) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/59.

الجمعُ عامّ، والرّكمُ جمعٌ بإلقاءِ شيءٍ فوق شيءٍ، والقرءُ جمعٌ باحتواءٍ

فاجْتَمعَ[1]، فهو جمعٌ عامٌّ مطلقٌ. أمّا الرّكم والقَرءُ: فهما أخصُّ من الجمْعِ، فيدلّان على جمعٍ بكيفيّة ما؛ أمّا القَرء: فهو من (قَرِيَ) أصْلٌ يَدُلُّ على جُمَعٍ واجْتِماع. مِن ذلك القَرْيَةُ، سُمّيَتْ قَرْيَةً لاجْتِماعِ النّاسِ فيها. ومنه القرآنُ، كَأنَّهُ سُمّيَ بذلك لِجَمْعِه ما فيهِ مِنَ الأحْكامِ والقِصَصِ وغَيْرِ ذلك. وأقْرَأتِ المَرْأةُ كَأنَّها قد جَمعَتْ دَمَها في جَوْفِها فلَم تُرْخِه. فهو تجمُّعُ ما شأنُه الحركةُ بكثافةٍ في حَيّزٍ محدّدٍ، كتجمّع الماءِ في مجتمَعِه، والنّاسِ والنّملِ في القاريةِ والقَرْيةِ[2].

الرُّكامُ: ما يُلقى بعضُه على بعض، قال تعالى: ﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا﴾ [النور: 43]، وهو جَمْعُكَ شَيْئًا فوْقَ شَيْءٍ حَتَّى تَجْعلَه رُكامًا كالرَّمْلِ والسَّحابِ ونَحْوِ ذلك. وهو إلقاءُ بَعْضِ الشَّيْءِ على بَعْضٍ وتَنْضيدُه[3]، فالرّكم جمعٌ بتراكُمٍ فوقيٍّ، والقَرءُ جمعٌ خاصٌّ كذلك، ولكنّه جمعٌ باحتواءٍ.

وقولُه تعالى: ﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا﴾ جاء في سياقِ تقريعِ الكافرين بخُسرانِهم في الدّنيا والآخرةِ، وأنّه سيجمعُهم في النّار يومَ القيامة، ولكنّه جمعٌ بطريقةٍ مهينةٍ كالشّيءِ الذي يُلقَى بعضُه فوق بعض، فانتزع عنهم صفةَ التّكريم بإنسانيّتِهم ﴿۞وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ [الإسراء: 70] فجعلَهم أشياءَ لا قيمةَ لها. وهذا المعنَى يتحقّقُ بالرّكمِ، لا بالجمعِ، لذا آثرَ التّعبيرَ بالرّكم.

الحشر والجمْع:

"الحشْرُ: هو الجمعُ مع السّوْقِ، والشّاهدُ قولُه تعالى: ﴿وَٱبْعَثْ

(1) الرّاغب، المفردات: (جمع).

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصل: (قري).

(3) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (ركم).

الحشْرُ أخصُّ مـنَ الجمعِ؛ فهو جمعٌ مع سَوْقٍ

فِي ٱلۡمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٣٦﴾ [الشعراء: 36]، أي: ابعثْ من يجمعُ السّحرةَ ويسوقُهم إليك، ومنه يومُ الحشْرِ؛ لأنّ الخلقَ يُجمعون فيه ويُساقون إلى الموقفِ"[1]. وفي هذه الآيةِ: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحۡشَرُونَ﴾ عبّرَ بالحشرِ دون الجمعِ؛ لأنّه في مقام التّهكّم، فالحشرُ أظهرُ للنّكايةِ بهم، ودخولُهم النّارَ إنّما يكونُ بصورةِ مُدانين يُساقون إلى سوء مصيرِهم بما اقترفت أيديهم، لذا اصطفاه النّظمُ الكريمُ هنا.

(1) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 144.

﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغۡفَرۡ لَهُم مَّا قَدۡ سَلَفَ وَإِن يَعُودُواْ فَقَدۡ مَضَتۡ سُنَّتُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٣٨﴾ [الأنفال: 38]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

لمّا بيّن السّياق ضلال المشركين، أعقبَه بإرشادِهم إلى الغفران، تفاديا لمصير الهالكين

لمّا بيّن اللّه تعالى في الآية السّابقةِ "ضلالَهم في عبادتِهم البدنيّةِ والماليّةِ، وكان في كثيرٍ منَ العباراتِ السّالفةِ القطعُ للذين كفروا بلفظِ الماضي بالشّقاءِ، كان ذلك موهِمًا لأنْ يُرادَ مَن أوقعَ الكفرَ في الزّمن الماضي وإنْ تابَ، فيكونُ مُؤيَّسًا منَ التّوبة فيكونُ موجبًا للثّباتِ على الكفرِ"[1]، فقال تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغۡفَرۡ لَهُم مَّا قَدۡ سَلَفَ﴾.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿سَلَفَ﴾: (سلف) أصْلٌ يَدُلُّ على تَقَدُّم وسَبْقٍ، السَّلَفُ: المتقدِّم، قال تعالى: ﴿فَجَعَلۡنَٰهُمۡ سَلَفٗا وَمَثَلٗا لِّلۡأٓخِرِينَ ٥٦﴾ [الزخرف: 56]، أي: مُعتبَرًا متقدّمًا، وقال تعالى: ﴿فَلَهُۥ مَا سَلَفَ﴾ [البقرة: 275]، أي: يُتجافى عمّا تقدّمَ مِن ذنْبِه، والسَّلَفُ أيضًا كلُّ عملٍ قدَّمه العبدُ[2]، وقولُه تعالى: ﴿مَّا قَدۡ سَلَفَ﴾ "يعني ما قد مضى مِن كُفرهم وذنوبِهم قبل الإسلامِ"[3].

2) ﴿سُنَّتُ﴾: (سنّ وسنن) أصلٌ وهو جريانُ الشّيء واطّرادُه في سهولةٍ، والأصلُ قولُهم: سنَنْتُ الماءَ على وجهي أسُنُّهُ سَنًّا، إذا أرسلتَه إرسالًا. ثمّ اشتُقّ منه السُّنّةُ، وهي السّيرةُ؛ وإنّما سُمّيت بذلك لأنّها تجري جريًا، ومن ذلك قولهم: امضِ على سَنَنِكَ وسُنَنِكَ، أي:

(1) البقاعيّ، نظم الدرر: 8/279، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 15/482، وابن عادل، اللباب في علوم الكتاب: 9/514.

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (سلف).

(3) الخازن، لباب التأويل: 2/312.

وجهك، فالسُّنَنُ: جمع سُنَّةٍ، وسُنَّةُ الوجه: طريقتُه، وسُنَّةُ النّبيّ ﷺ طريقتُه التي كان يتحرّاها، وسُنَّةُ اللّه تعالى قد تقال لطريقةِ حِكمتِه، وطريقةِ طاعتِه، نحوَ: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدۡ خَلَتۡ﴾ [الفتح: 23][1].

3) ﴿ٱلۡأَوَّلِينَ﴾: (أول وآل) أصْلٌ وهو ابْتِداءُ الأمْرِ، فالأوَّلُ مُبْتَدَأُ الشَّيْءِ، وهو أفعلُ التّفضيلِ بمعنى نقيضِ الآخِر، وهو الذي يترتّب عليه غيرُه، ويكونُ بمعنى أسبقَ، ويُستعملُ بمعنى المتقدّمِ بالزّمان كقولك: عبد الملك أوّلًا ثُمّ المنصور[2].

المَعْنى الإجْماليُّ:

ترغيبٌ بالتّوبةِ والاستغفار، ووعيدٌ على الإصرارِ، كما مضت سنّة هلاك الكفّار

يُخبرُ اللّه تعالى عن رحمتِه بالكفّارِ المعاندين فيتلطّفُ بهم بأن يفتحَ لهم بابَ التّوبةِ، ومعنَى الآيةِ " إنّ هؤلاء الكفّارَ إنِ انتهوا عنِ الكفرِ، ودخلوا في دينِ الإسلام والتزموا شرائعَه غفرَ اللّه لهم ما قد سلفَ من كفرِهم وشِركِهم، وإن عادوا إلى الكفرِ، وأصرّوا عليه، فقد مضت سنّةُ الأوّلينِ بإهلاكِ أعدائِه، ونصرِ أنبيائِه وأوليائِه، وأجمعَ العلماءُ على أنّ الإسلامَ يَجُبُّ ما قبْلَه، وإذا أسلمَ الكافرُ لم يلزمْه شيءٌ من قضاءِ العباداتِ البدنيّةِ والماليّةِ، وهو ساعةَ إسلامِه كيومِ ولدتْه أمُّه، يعني بذلك أنّه ليس عليه ذنْبٌ"[3].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ فصلِ الآيةِ عمّا سبقَها:

بابُ التّوبةِ مفتوحٌ ما لم يُغَرْغِرِ العبدُ

في قولِه تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ يصحُّ أن يكونَ فُصلَ لكمالِ الانقطاعِ؛ إذِ الكلامُ السّابقُ إخبارٌ وهذا أمرٌ. ويصحُّ أن يكونَ استئنافًا بيانيًّا؛ "لأنّ ما تقدّمَ بين يديه منَ الوعيدِ وقلّةِ الاكتراث بشأنِهم، وذكرِ خيبةِ مساعيهم، ممّا يثيرُ في أنفُسِ بعضِهم

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات: (سنّ/سنن).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، السمين عمدة الحفاظ: (أوَلَ/آل).
(3) الخازن، لباب التأويل: 2/312.

والسّامِعين أن يتساءلوا عمّا إذا بقيَ لهم مخلصٌ يُنْجيهم من ورطتِهمُ التي ارتبقوا (أي: وضعوا أنفسَهم في ربقةِ كأنَهم قُيّدوا من أعناقهم) فيها، فأُمرَ الرّسولُ بأن يقولَ لهم هذا المقالَ ليُريَهم أنّ بابَ التّوبةِ مفتوحٌ، والإقلاعَ في مُكْنتِهم"[1].

افتتاحُ الخطابِ بفعْلِ القولِ يُنبّهُ على أهميّةِ المقالِ

الغرَضُ منَ التّعبيرِ بالأمرِ بـ﴿قُل﴾:

في قولِه عزّ ذكرُه: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغۡفَرۡ لَهُم مَّا قَدۡ سَلَفَ﴾ افتتحَ الآيةَ بفعْلِ الأمرِ ﴿قُل﴾، فآثرَ إخبارَهم بهذا الأسلوبِ دون أن يقولَ: (إنّ الذين كفروا إن ينتهوا) اهتمامًا بالمقول، وإلطافًا بالمقولِ له، كما أنّ فيه بيانًا لمكانةِ النّبيّ ﷺ بالتّأكيدِ على كونِه ﷺ وسيطًا بين اللّه تعالى وبينَهم في أمرِ التّوبةِ وعتقِهم من ذنوبهم، ويضافُ إلى ذلك أنّ ما يُبدأُ به بفعلِ الأمرِ (قلْ) يدلُّ على الاهتمامِ بمضمونِه؛ إذ إنّه سيتكرّرُ ذكرُه مرّتين؛ مرّةً بتلاوةِ الآيةِ كما نزلت مُصدّرةً بفعْلِ القولِ، ومرّةً بامتثال النّبيّ ﷺ لهذا الأمرِ فيَشرعُ بخطابِ الكافرين قائلًا لهم مضمونَ هذا المقولِ، وعندها يسمعُ الكافرون هذا الخطابَ مرّتين، مرّةً منَ اللّه تعالى، ومرّةً منَ النّبيّ ﷺ فينتبِهون إلى الاهتمامِ بهم منَ اللّه تعالى.

كلّ كافر ينتهي عن كفره المنحرف، يغفر له ما قد سلف

نُكتةُ التّعبيرِ عنِ الكافرين بالاسمِ الموصولِ وصِلتِه:

عبّرَ النّظمُ الكريمُ عنِ الكافرين بالاسمِ الموصولِ في قولِه جلّ شأنُه: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغۡفَرۡ لَهُم﴾؛ لأنّهم قومٌ مقصودون بأعيانِهم، فيدلُّ على العهدِ، أي: المعهودين وهم أبو سفيانَ وأصحابُه[2]، فذكْرُهم بالاسمِ الموصولِ ذمٌّ لهم، ويجوزُ أن يُرادَ به كلُّ مَن تحقّقَ به مضمونُ الصّلةِ، فتكونَ شاملةً لكلِّ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/344.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 5/192.

الكافرين، والتّعريفُ فيه للجنس، ويدخلُ هؤلاء دخولًا أوليًّا[1]؛ لأنّ المغفرةَ بحالِ الانتهاء عنِ الكفرِ لا تتعلّقُ بالمذكورين دون غيرِهم، فكلُّ كافرٍ إنِ انتهى عن كفرِه، فإنّ اللّه تعالى يغفرُ له.

معنَى اللّامِ في: ﴿لِّلَّذِينَ﴾ في الآية:

وجوب إيصال مقول القول إليهم، لأنّه حكم لأجلهم

في قولِه عزّ ذكرُه: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغۡفَرۡ لَهُم مَّا قَدۡ سَلَفَ﴾ تعلّقَ الجارُّ والمجرورُ ﴿لِّلَّذِينَ﴾ بفعْلِ القولِ، وذكرَ أئمّةُ التّفسيرِ أنّ اللّام هنا تدلُّ على معنيَيْن: "الأول: أنّها للتّبليغ، أُمرَ أن يُبلِّغَهُم معنى هذه الجملةِ المحكيّةِ بالقولِ، وسواءً أوردها بهذا اللّفظ أم بلفظٍ آخرَ مُؤدٍّ لمعناها. والثّاني: أنّها للتّعليل"[2]، فالتّعليلُ بمعنى: قلْ لأجلِهم هذا القولَ، والتّبليغُ لتأكيدِ إيصالِ القولِ إليهم، كما أنّ فيه دلالةً على تخصيصِهم بهذا المقولِ.

نُكتةُ إسنادِ القولِ للغائبين:

إجراءُ القولِ بمعناه لا بلفظِه من الإفصاح المبين

في قولِه جلّ شأنُه: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغۡفَرۡ لَهُم﴾ جرى ذكْرُ خطابِ الكافرين بصيغةِ الغائبِ، فلم يقل: (إن تنتهوا)؛ لأنّه أرادَ أن يُبلّغَهم بمضمونِ القولِ بالمعنى دونَ اللّفظِ، فهو "أمرٌ منَ اللّه ﷻ لنبيّه ﷺ أن يقولَ للكفّارِ هذا المعنى الذي تضمّنتْه ألفاظُ قولِه: ﴿إِن يَنتَهُواْ يُغۡفَرۡ لَهُم مَّا قَدۡ سَلَفَ﴾، وسواءٌ قالَه النّبيّ ﷺ في هذه العبارةِ أو غيرِها، ولو كان الكلامُ كما ذكرَ الكسائيُّ أنّه في مصحفِ ابنِ مسعود: (قل للذين كفروا إن تنتهوا يغفر لكم) لما تأدّتِ الرّسالةُ إلّا بتلك الألفاظِ بعيْنِها"[3].

وفي ذلك بيانٌ لعُلوِّ مكانتِه ﷺ؛ فإنّ الخطابَ يتضمّنُ "تنبيهًا على أنّه ليس حظُّه مجرّدَ تبليغِ مقالةٍ، فجعلَ حظَّه حظَّ المخبرِ

(1) القاسمي، محاسن التأويل: 5/292.
(2) ابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 9/514، والآلوسيّ، روح المعاني: 5/192.
(3) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/527، والواحدي، البسيط: 10/149.

بالقضيّة، الذي يُرادُ تقرّرُها لديه قبل تبليغِها، وهو إذا بلّغ إليهم يُبلّغُ إليهم ما أُعلمَ به وبُلِّغ إليه، فيكونُ مُخبرًا بخبرٍ، وليس مجرَّدَ حاملٍ لرسالةٍ"[1].

دلالة وضْعِ الظّاهرِ موضعَ المضمَرِ، في السّياق:

صِلةُ الموصولِ تُبيّنُ علّةَ المقولِ

في قولِه جلّ شأنُه: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغۡفَرۡ لَهُم﴾ وضعَ الظّاهرَ موضعَ المضمَرِ، فاستعملَ الاسمَ الموصولَ بدلًا عنِ الضّميرِ، فلم يقل: (قل لهم)؛ للدّلالةِ على أنّ مقولَ القوْلِ إنّما جاء لكونِهم اتّصفوا بالكفرِ، فهو خاصٌّ بهم، وفيه دلالةٌ على أنّهم استمرّوا بالكفرِ، وإمّا أن يُرادَ به العهدُ، وهم كفّارُ مكّةَ، أو أن يُرادَ به العمومُ، فهو شاملٌ لكلِّ كافرٍ في كلِّ وقتٍ؛ ترغيبًا لهم في الدّخولِ في الإيمان وحثًّا عليه[2].

التّعبيرُ بـ(إنْ) ودلالتُه:

لا أملَ محقّقٌ في رجوعِ هؤلاءِ الكافرينَ عن كُفرِهم

آثرَ النّظمُ الكريمُ التّعبيرَ بـ (إن) الشّرطيّةِ دون (إذا) في قولِه جلّ شأنُه: ﴿إِن يَنتَهُواْ يُغۡفَرۡ لَهُم﴾؛ لِما بينهما من فرقٍ؛ فمدخولُ (إذا) محقّقُ الوقوعِ، وأنّه متيقَّنٌ، ووقوعُه كثيرٌ، بخلافِ (إن) فمدخولُها مشكوكٌ في وقوعِه، أو يُرادُ له أن يكونَ نادرَ الوقوعِ، فالكافرون أصرّوا على كفرِهم حتّى دخلوا الحروبَ، فانتهاؤُهم غيرُ محقّقِ الوقوعِ في القريبِ.

فائدةُ الجملةِ الشَّرطيّةِ:

ليس بين الكفّارِ ومَغفرةِ الله إلّا رجوعُهم عنِ الكفر

صاغَ النّظمُ الكريمُ الوعدَ بمغفرتِه تعالى بصيغةِ الشّرطِ في قولِه جلّ شأنُه: ﴿إِن يَنتَهُواْ يُغۡفَرۡ لَهُم﴾ فعلّق مغفرتَه بانتهائِهم عنِ الكفر، وكأنّه عقدٌ، وفي ذلك تأكيدٌ لوقوعِ المغفرةِ حالَ وقوعِ الانتهاء، إشارةً إلى سَعة مغفرتِه وسرعةِ إيفائِه بما وعدَ ﷻ.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/344.
(2) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 7/100.

غرَضُ التّعبيرِ بالمضارعِ في: ﴿يَنتَهُواْ﴾ و﴿يُغْفَرْ﴾:

دوامُ المغفرةِ مرهونٌ بحصولِ التّوبةِ ودوامِها

في قولِه جلّ شأنُه: ﴿إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم﴾ جاء التّعبيرُ عن فعْلِ الشّرطِ وجوابِه بالفعلِ المضارعِ "أي يتجدّدُ لهم وقتًا ما الانتهاءُ عن مُغالبتِهم بالانتهاءِ عن كفرِهم، فيذلّوا للّه ويخضعوا لأوامرِه"[1]؛ كما أنّ الخطابَ جاء للجميعِ، ولا يُتصوّرُ أن ينتهيَ الجميعُ عن كفرِهم دفعةً واحدةً، بل سيكونُ انتهاءً ممتدًّا يستغرقُ زمانًا طويلًا، فعبّرَ بالفعلِ المضارعِ الدّالِّ على التّجدّدِ والاستمرارِ، كما أنّ الانتهاءَ للفردِ الواحدِ يتطلّبُ وقتًا لِما يجري في فكرِه من تأمّلٍ ومراجعةٍ، فالانتهاءُ لا يقعُ إلّا بمغالبةٍ وتدرّجٍ، كما أنّ الفعلَ المضارعَ المعبّرَ عنِ الانتهاءِ في سياقِ التّوبةِ والمغفرةِ يُشعرُ بشرطِ المداومةِ على الانتهاءِ والثّباتِ عليه، ويقابلُ ذلك كلَّه تجديدُ مغفرتِه تعالى لتجديدِهم الانتهاءَ.

سِرُّ إطلاقِ الانتهاءِ ﴿إِن يَنتَهُواْ﴾، في السّياق:

لا يُعتبرُ الانتهاءُ إلّا بتحقيقِ الإيمانِ

قولُه جلّ شأنُه: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ﴾، جاء فيه الانتهاءُ غيرَ مُبيّنٍ عن أيِّ شيءٍ، فهو انتهاءٌ مطلقٌ، والمرادُ به الكفرُ "والحاملُ على ذلك جوابُ الشّرط بـ﴿يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾، ومغفرةُ ما قد سلفَ لا تكونُ إلّا لِمُنْتَهٍ عنِ الكفرِ"[2]، وقد يشملُ الانتهاءُ عن كلِّ ما كانوا يفعلون منَ القتالِ والإنفاقِ ومعاداةِ النّبيّ ﷺ، وذلك لا يصدقُ إلّا بالإيمان ودخول الإسلام[3].

نُكتةُ إسنادِ المغفرةِ لِما لم يُسمَّ فاعلُه:

المعلومُ بالضّرورةِ غيرُ مَحوجٍ للتّعبيرِ

عبّرَ في قولِه تعالى: ﴿يُغْفَرْ لَهُم﴾ عنِ المغفرة بالفعْلِ المضارعِ المبنيِّ للمفعولِ؛ اهتمامًا بالغايةِ المرجوّةِ، وهي المغفرةُ الموضوعةُ إزاءَ الانتهاءِ، فهي مقصودةٌ لذاتِها لا بكونِها من مُعيّن؛ "لأنّ النّافعَ نفسُ

(1) البقاعيّ، نظم الدرر: 8/279.
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/527.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/21، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/344.

الغفران، وهو مَحْوُ الذّنب"[1]، كما أنّ في ذلك منَ الإيجازِ ما لا يخفَى؛ إذ منَ المعلوم بالضّرورةِ أن من يغفرُ الذّنوبَ إنّما هو اللّه تعالى.

معنَى اللّام في (لهم) ودلالتُها:

الإيفاءُ بالشّرطِ يمنحُ الاستحقاقَ

في قولِه ﷻ: ﴿يُغْفَرْ لَهُم﴾ اللّام لامُ الاستحقاق، فلمّا وضعَ المغفرةَ في أحدِ طرفَي العَقدِ بينَه تعالى وبينَهم إذا حقّقوا الانتهاءَ، فعبّرَ باللّام عنِ استحقاقِهم المغفرةَ، ولم يقل: (تُغفر ذنوبهم) تأكيدًا على استحقاقِهم المغفرةَ حالَ إيفائِهم بالشّرطِ، وفيه طمأنةٌ لهم وحثٌّ على الانتهاءِ.

غرَضُ تقديمِ شبْهِ الجملةِ: ﴿لَهُم﴾ على نائبِ الفاعلِ:

في التّقديمِ إشارةٌ إلى مَزيدِ العنايةِ والاهتمامِ

في قولِه جلّ شأنُه: ﴿يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ قدّمَ شبْهَ الجُملةِ على نائبِ الفاعلِ الأجدرِ بالتّقديم، فلم يقل: (يُغفر ما قد سلف لهم)؛ اهتمامًا بهم؛ لأنّ سياقَ الحديثِ في الإلطافِ بهم ودعوتِهم إلى التّوبةِ، فقدّمَ ذكرَهم تعجيلًا بإنجازِ المغفرةِ لهم؛ لأنّ الأهمَّ هنا تحقّقُ المغفرةِ لهم قبل بيانِ ماسيُغْفَرُ.

معنى (ما) في: ﴿مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ في الآية:

أثرُ عمومِ المغفرةِ في تحقيقِ عُمومِ التّوبةِ منَ الذّنوبِ والآثامِ

في قولِه جلّ شأنُه: ﴿مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ عبّرَ عن سالفِ معاصيهم بـ(ما) الدّالّة على العموم؛ تعميمًا لكلّ "ما اجترحوه كائنًا ما كان فيُمحَى عينًا وأثرًا، فلا عقابَ عليه ولا عتابَ"[2]، وهي هنا اسمٌ موصولٌ، وفي ذلك بيانٌ لعظيمِ رحمتِه وسَعةِ مغفرته ﷻ، فلو قال: (تُغفر لهم ذنوبهم) لاحتمل الكبيرَ منها وحسبُ، فجاء لفظُ العمومِ قدعًا لكلِّ احتمالٍ.

بلاغةُ أسلوبِ الاتّزانِ في آية الوعد بالغفران:

في قولِه عزّ ذكرُه: ﴿إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ جاءت ثلاثةُ

(1) البقاعيّ، نظم الدرر: 8/279 - 280.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/280.

تراكيبَ متّزنةٌ وهي: ﴿إِن يَنتَهُواْ﴾ ﴿يُغْفَرْ لَهُم﴾ ﴿مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ فكلُّ هذه العباراتِ على زِنةٍ واحدةٍ، فهي "محسّنٌ بديعيٌّ وهو الاتّزانُ؛ لأنّه في ميزانِ الرّجْزِ"[1]، فمجيءُ العبارات على نظام الاتّزانِ القارِّ في أذنِ العربِ يَلفتُ عنايةَ السّامعِ لمضمونِ العباراتِ.

لفتُ عنايةِ السّامعِ يُحقّقُ الغرضَ

نُكتةُ دُخولِ (قد) على الفعلِ الماضي:

في قولِه ﷻ: ﴿إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ دخلتْ (قد) على الفعلِ الماضي، فدلَّتْ على التّحقيقِ، ومعنى التّحقيقِ أنّ مدلولَ الكلمةِ قد تحقّقَ وقوعُه على وجهِ التّأكيدِ، وهذا يفيدُ تأكيدَ تعلّقِ المغفرةِ بالسّابقِ من أعمالِهم.

مغفرةُ ما تحقّقَ وقوعُه إلهابٌ على الانتهاءِ

دلالةُ العطْفِ بالواوِ في الآية:

الجملةُ في قولِه جلّ شأنُه: ﴿وَإِن يَعُودُواْ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾، معطوفةٌ على قولِه تعالى: ﴿إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ فهما مشتركان بالتّضادِّ[2]، فتكرارُ الكفرِ وقتالُ المؤمنين ضدُّ الانتهاء، فالعطفُ جمعٌ بين النّقيضَيْن.

بابُ المغفرةِ مفتوحٌ، ولكنّ سُنّةَ اللهِ في الكفّارِ ماضيةٌ

دلالةُ التّعبير بـ (إنْ) الشّرطيّةِ:

في قولِه تعالى: ﴿وَإِن يَعُودُواْ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾، عبّرَ بـ (إن) الشّرطيّةِ في جملةِ الشّرطِ الثّانيةِ، فلمّا كان انتهاؤُهم في جملةِ الشّرطِ الأولى غيرَ محقّقٍ، ومشكوكًا فيه، بنى العودةَ في جملةِ الشّرطِ الثّانيةِ على الافتراضِ غيرِ اليقينيّ، تنبيهًا على أنه لاينبغي أن يكونَ إلا افتراضًا، وذلك باستعمال (إن) الشّرطيةِ دون (إذا) للدّلالةِ على أنّ تحقُّقَه لا يُقْطعُ به.

عودتهم إلى ما كانوا لاينبغي أن يكون إلّا افتراضًا

بلاغةُ التّعبيرِ بالجملةِ الشرطيّةِ برمّتها:

في قولِه ﷻ: ﴿وَإِن يَعُودُواْ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ عبّرَ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/345.

(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 9/80.

تهديدٌ بوقوعِ العذابِ، بمقتضَى وقوعِ الإعراضِ

بالجملةِ الشّرطيّةِ وعيدًا لهم وتهديدًا، فالجملةُ في الآية "تجمعُ الوعيدَ والتّهديدَ والتّمثيلَ بمَن هلك مِنَ الأمم في سالفِ الدّهر بعذابِ اللّه"[1]، وجعلَ الوعيدَ قائمًا على تعليقِ أحدِ الطّرفين بالآخرِ، إن وقعَ أحدُهما، فإنّ الآخرَ واقعٌ على وجه الضّرورةِ لتعليقِه به، فإن أوقعوا عودتَهم فجزاؤُهم وقوعُ سُنّةِ الأممِ الماضيةِ، وفي ذلك تأكيدٌ لتحقُّقِ العذابِ.

فائدةُ التّعبيرِ بالمضارع ﴿يَعُودُواْ﴾، في السّياق:

تكرارُ القتالِ وتجدُّدُه لن يغيّرَ مصيرَ الكافرين بالخُسرانِ

عبّر النّظمُ الكريمُ في قولِه جلّ شأنُه: ﴿وَإِن يَعُودُواْ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ بالفعلِ المضارعِ للدّلالةِ على ثباتِ تحقُّقِ جوابِ الشّرطِ مهما تكرّرَ فعلُ الشّرطِ، فتجدُّدُ عَودِهم إلى قتال المسلمين لن يغيّرَ المحصّلةَ والمآلَ الذي عبّرَ عنه ﴿فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾، وهو انطباقُ سُنّةِ الأوّلين عليهم بانهزامِهم أمامَ جندِ اللّه الغالبين.

سِرُّ إطلاقِ العودةِ ﴿وَإِن يَعُودُواْ﴾، في السّياق:

العودةُ تتحقّقُ بالرّجوعِ إلى الحالةِ التّي كان عليها

في قولِه جلّ شأنُه: ﴿وَإِن يَعُودُواْ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ جاءتِ العودةُ مطلقةً، ولم يُبيّن عن أيِّ شيءٍ يعودون إليه، فهي عودةٌ مطلقةٌ منَ القيد، والمرادُ العودةُ "إلى القتالِ؛ لأنّ لفظةَ (عاد يعود) إذا جاءت مُطلقةً، فإنّما تتضمّنُ الرّجوعَ إلى حالة قد كان الإنسانُ عليها ثُمّ تنقّل عنها، ولسنا نجدُ في هذه الآية لهؤلاء الكفّارِ حالةً تُشبه ما ذكرنا إلّا القتالَ، ولا يصحُّ أن يُتأوَّل (وَإِنْ يَعودوا إلى الكفر)؛ لأنّهم لم ينفصلوا عنه"[2].

بلاغةُ حذْفِ جوابِ الشّرطِ في الآية:

التّهديد والوعيد بالشّرطِ بلا جوابٍ أبلغُ في الرّدْعِ

قولُه جلّ شأنُه: ﴿وَإِن يَعُودُواْ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ جملةٌ شرطيّةٌ ابتدأتْ بحرفِ الشّرطِ (إن) وفعْلِ الشّرطِ ﴿يَعُودُواْ﴾،

(1) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 7/404.
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/527، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 7/403.

أمّا جوابُ الشّرطِ فهو محذوفٌ، والتّقديرُ: ننتقمُ منهم بالعقابِ والعذابِ، فليتوقّعوا الإهلاكَ والتّدميرَ[1]، أمّا الجملةُ في قولِه تعالى: ﴿فَقَدۡ مَضَتۡ سُنَّتُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ فهي دليلُ الجوابِ، وليست هي الجوابَ، والتّقديرُ: إن يعودوا انتقمْنا منهم فقد مضت سنّةُ الأوّلين[2]، وإنّما لم تكن هي جوابًا؛ لأنّ مُضيَّ سنّةِ الأوّلين لا يتعلّقُ بعودِهم إلى الكفرِ والقتالِ؛ لأنّها سنّةٌ ثابتةٌ، ولكنْ يتعلّقُ بهم لازمُها وهو العذابُ.

وذهب العلّامةُ ابنُ عاشور إلى أنّ الجملةَ ﴿فَقَدۡ مَضَتۡ سُنَّتُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ هي جوابُ الشّرطِ: "وهذا الخبرُ تعريضٌ بالوعيدِ بأنّهم سيلْقَون ما لَقيَه الأوّلون، والقرينةُ على إرادةِ التّعريضِ بالوعيدِ أنّ ظاهرَ الإخبارِ بمُضيِّ سُنّةِ الأوّلين، وهو منَ الإخبار بشيءٍ معلومٍ للمُخْبَرين به، وبهذا الاعتبارِ حسُن تأكيدُه بـ(قد)؛ إذِ المرادُ تأكيدُ المعنَى التّعريضيِّ. وبهذا الاعتبارِ صحَّ وقوعُ قولِه: ﴿فَقَدۡ مَضَتۡ سُنَّتُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ جزاءً للشّرط. ولولا ذلك لما كان بين الشّرطِ وجوابِه مُلازمةٌ في شيءٍ"[3].

دلالة الفاء على التّعليل في لفظ (فقد):

علّةُ تحقّقِ خُسرانِهم ثباتُ سنّةِ نصرِ الله لعبادِه المؤمنين

دلّتِ الفاءُ في قولِه عزّ ذكرُه: ﴿وَإِن يَعُودُواْ فَقَدۡ مَضَتۡ سُنَّتُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ على التّعليلِ، فهي تعليلٌ لجوابِ الشّرطِ المحذوفِ[4]، وليست هي الفاءَ الرّابطةَ لجوابِ الشّرطِ؛ إذ إنّ قولَه تعالى: ﴿فَقَدۡ مَضَتۡ سُنَّتُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ لا يصلحُ أن يكون جوابًا للشّرطِ على الرّاجحِ، فالجملةُ مدخولُ الفاء "تعليلٌ للجواب أُقيم مقامَه، والتّقديرُ: وإن يعودوا انتقمْنا منهم، وأهلكناهُم، فقد مضت سنّةُ الأوّلين في أنّا انتقمْنا منهم وأهلكْناهم بتكذيب أنبيائِهم عليهم السلام"[5].

(1) القونوي، حاشي على البيضاويّ: 9/80، والقنّوجيّ، فتح البيان: 5/174.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 5/192 - 193، وابن كمال باشا، تفسير ابن كمال باشا: 4/265 - 266.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/346.
(4) القنّوجيّ، فتح البيان: 5/174.
(5) ابن كمال باشا، تفسير ابن كمال باشا: 4/265 - 266، وينظر: القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 9/80.

نُكتةُ دخولِ (قد) للمرّةِ الثّانيةِ:

ما يَعدُ اللهُ به فهو مُؤكَّدُ الوقوعِ

كرّرَ النّظمُ الكريمُ في قولِه تعالى: ﴿وَإِن يَعُودُواْ فَقَدۡ مَضَتۡ سُنَّتُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ إدخالَ (قد) على الفعلِ الماضي تأكيدًا لتحقّقِ جوابِ الشّرطِ، وبيانًا لثباتِ هذه السّنّة، وإنّما أكّدَ هذه السّنّةَ تقويةً لمضمون الخبرِ، "وهذا الخبرُ تعريضٌ بالوعيدِ بأنّهم سيلْقَون ما لَقيَه الأوّلون، والقرينةُ على إرادةِ التّعريضِ بالوعيدِ أنَّ ظاهرَ الإخبارِ بمُضيّ سُنّةِ الأوّلين، وهو منَ الإخبار بشيءٍ معلومٍ للمُخبَرين به، وبهذا الاعتبارِ حسُنَ تأكيدُه بقد، إذِ المرادُ تأكيدُ المعنَى التّعريضيِّ"[1].

دلالةُ التَّعبيرِ بالفعْلِ الماضي ﴿مَضَتۡ﴾ في السّياق:

زوالُ الباطلِ سُنّةٌ قاهرة، وفي التّاريخ شواهدُ ظاهرة

في قولِه جلّ شأنُه: ﴿مَضَتۡ سُنَّتُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ عبّرَ عن جريانِ سُنّة اللّه تعالى في نُصرة أنبيائِه وعبادِه المؤمنين بالفعْلِ الماضي فقال ﴿مَضَتۡ﴾ للدّلالةِ على رسوخِها وأنّها مقطوعٌ بها وقد عَلمَها النّاسُ، "أي: وُجِدتْ وانقضتْ ونفذَت فلا مردَّ لها، بدليلِ ما سُمعَ من أخبارِ الماضينَ وشوهدَ من حالِ أهلِ بدرٍ ممّا أوجبَ القطْعَ بأنّ اللّه مع المؤمنين وعلى الكافرين"[2].

سِرُّ إضافةِ السُّنّةِ للأوّلين:

سُنّةُ النّصرِ تتعلّقُ بالرُّسلِ الغالبين، وبأقوامِهم المغلوبينَ

في قولِه ﷻ: ﴿وَإِن يَعُودُواْ فَقَدۡ مَضَتۡ سُنَّتُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ أضافَ السُّنّةَ إلى الأوّلين؛ لأنّ العذابَ لمّا كان يتكرّرُ وقوعُه بالمعرضين عن أنبيائِهم صارَ كأنّه سُنّةٌ لهم، وهي سُنّةُ اللّه تعالى "أي عادةُ اللّه تعالى الجاريةُ في الذين تحزّبوا على الأنبياءِ عليهمُ الصّلاةُ والسّلامُ مِن نَصْرِ المؤمنين عليهم وخُذلانِهم وتدميرِهم. وأُضيفتِ السّنّةُ إليهم لما بينَهما منَ الملابسةِ الظّاهرةِ، ونظيرُ ذلك قولُه سبحانه: ﴿سُنَّةَ مَن قَدۡ أَرۡسَلۡنَا﴾ [الإسراء: 77]، فأضافَ السُّنّةَ إلى المرسَلين مع أنّها

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/346.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/280.

سنّتُه تعالى لقولِه سبحانه: ﴿وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحۡوِيلٗا ٧٧﴾ [الإسراء: 77] باعتبارِ جريانِها على أيديهم"[1]، فإضافةُ السُّنّةِ للأوّلين المرادُ بهم كلُّ الأقوامِ الذين تحزّبوا ضدَّ الأنبياءِ، وأضافَ السُّنّةَ للأنبياءِ ولله تعالى، والمرادُ تحقّقُ نصْرِ الله تعالى لعبادِه وخُسرانِ الكافرين مِصداقًا لقولِه تعالى: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغۡلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ﴾ [المجادلة: 21].

معنَى (اللّامِ) في: ﴿ٱلۡأَوَّلِينَ﴾:

في قولِه جلّ شأنُه: ﴿وَإِن يَعُودُواْ فَقَدۡ مَضَتۡ سُنَّتُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ يجوزُ في الألف واللّام أن تكونَ للجنْسِ، فمعنى الأوّلين الأُممُ التي سبقتْ، وعَرَفوا أخبارَهم أنّهم كذّبوا رُسُلَ الله فلقَوا عذابَ الاستئصالِ، مثلَ عادٍ وثمود[2]، ويجوزُ أن تكونَ للعهد، والمرادُ بالأولين أهلُ مكّةَ الذين استأصَلَهمُ السّيفُ يومَ بدرٍ، وفي كلٍّ منهما عِبرةٌ للحاضرين، وتهديدٌ لهم بأن يصيروا مصيرَهم[3]، وفي ذلك تأكيدٌ لوقوعِ العذابِ بجعْلِه مَقيسًا بعذابٍ قد وقعَ وتحقّقَ مِرارًا حتّى بات سُنّةً مطّردةً، فما يمنعُ أن يأتيَهم؟

الإحالةُ على المعلومِ دلالةٌ على الرُّسوخِ في الأذهانِ

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

(سلَفَ) و(مضَى):

السّلفُ: أصْلٌ يَدُلُّ على تَقَدُّمٍ وسَبْقٍ، والسَّلَفُ: المتقدِّمُ، قال تعالى: ﴿فَجَعَلۡنَٰهُمۡ سَلَفٗا وَمَثَلٗا لِّلۡأٓخِرِينَ ٥٦﴾ [الزخرف: 56]، أي: معتبرًا متقدّمًا[4]، فيُلاحظُ فيه التّقدّمُ والسّبقُ. أمّا المضيُّ: فهو أصْلٌ يَدُلُّ على نَفاذٍ ومُرورٍ، المُضيُّ والمَضاءُ: النّفاذُ، ويقال ذلك في الأعيانِ والأحداثِ. قال تعالى: ﴿وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٨﴾ [الزخرف: 8]، ﴿فَقَدۡ

السّلفُ يدلُّ على السّبْقِ والتّقدّمِ، والمضيُّ يدلُّ على الذّهابِ والمرورِ

(1) الآلوسي، روح المعاني: 5/192، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 15/482، والإيجي، جامع البيان: 2/23.

(2) الواحدي، البسيط: 10/150، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/346.

(3) البيضاوي، أنوار التنزيل: 3/59، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/346.

(4) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات: (سلف).

مَضَتۡ سُنَّتُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ [الأنفال: 38]. ويقال: مضى الزّمانُ، مضى الشّيءُ مُضيًّا: ذهبَ، ومضَى في الأمر مُضاءً: نفذَ، قولُه تعالى: ﴿وَٱمۡضُواْ حَيۡثُ تُؤۡمَرُونَ ٦٥﴾ [الحجر: 65] أي اذهبوا بسرعةٍ[1]، و"المُضيّ خلافُ الاسْتِقْبال، ولذا يُقال: ماضٍ ومستقبلٌ"[2]، فالمضيُّ يدلُّ على الذّهاب والمرورِ، أمّا السّلف فيدلّ على التّقدّمِ، فلذا يقال للآباء والأجدادِ سلفٌ ولا يقال لهم ماضٍ، ويقال للمتقدّمين سلفٌ، كالصّحابةِ رضي الله عنهم، وفي الآية الغرضُ بيانُ أنّ اللّه تعالى يغفرُ لهم ما تقدّمَ وسبَقَ من ذنوبِهم، فكان التّعبيرُ عن ذلك بالسّلفِ الدّالِّ على التّقدّمِ.

(السُّنّةُ) و(الدّأْبُ):

الدّأبُ: لا يكونُ إلّا اختيارًا؛ ألا ترى أنّ العادةَ في الأكلِ والشُّربِ المُقيمَينِ للبدَنِ لا تُسمّى دَأبًا، وأمّا السّنةُ فإنّها تكونُ على مِثال سبَقَ[3].

فالدّأبُ أصْلٌ يَدُلُّ على مُلازَمَةٍ ودَوام، وهو العادَةُ والشَّأْنُ، ودَأبَ الرَّجُلُ في عَمَلِه، إذا جَدَّ[4]، فهو فعلٌ اختياريٌّ يدلُّ على المداومةِ بجدٍّ واجتهادٍ وإصرارٍ وملازمةِ العملِ، أمّا السُّنّةُ فهي تكرارُ الأمر وثباتُه، وهي طريقةٌ جاريةٌ؛ ولذا كان التّعبيرُ على الأمرِ المعتادِ بنزولِ العذابِ على الكافرين بالسّنّة؛ لأنّه كالقانونِ السّاري الثّابتِ، وليس لأنّه فعلٌ ملازمٌ يدلُّ على الحرْصِ، فإنّ اللّه تعالى وضعَ للكون نظامًا وسَنّ له سُننًا، ومن تلك السُّنن التي بيّنها في كتابه نزولُ العذابِ بالمكذِّبين، فقال جلّ شأنُه: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغۡفَرۡ لَهُم مَّا قَدۡ سَلَفَ وَإِن يَعُودُواْ فَقَدۡ مَضَتۡ سُنَّتُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ [الأنفال: 38].

السُّنّةُ جريانٌ على مثالٍ سبَقَ، والعادةُ ما اعتادَه الإنسانُ، والدَّأبُ ما أصَرَّ عليه

(1) الجوهريّ، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، والسّمين، عمدة الحفّاظ: (مضى - مضي).
(2) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 306.
(3) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 226.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (دأب).

﴿وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِۚ فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ٣٩ وَإِن تَوَلَّوۡاْ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَوۡلَىٰكُمۡۚ نِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ ٤٠﴾ [الأنفال: 39 - 40]

مُناسَبَةُ الآيَتينِ لِما قَبْلهما:

عدمُ الانتهاءِ عنِ مُعاداة المؤمنين، بالإنفاقِ المريب، مُـؤْذنٌ بالفتنة والقتالِ الرّهيب

لمّا بيّن الله تعالى في الآيةِ السّابقةِ "أنّ هؤلاء الكفّارَ إنِ انتهَوا عن كفرِهم حصلَ لهمُ الغفرانُ، وإن عادوا فهم مُتوعَّدون بسُنّةِ الأوّلين، أتْبعه بأنْ أمرَ بقتالِهم إذا أصرّوا فقال: ﴿وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ﴾"[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فِتۡنَةٞ﴾: (فتن) أصْلٌ يَدُلُّ على ابْتِلاءٍ واخْتِبارٍ. الفَتْنُ: الإحْراقُ. وشَيْءٌ فتينٌ: أيْ مُحْرَقٌ. ويُقالُ لِلْحَرَّةِ: فتينٌ، كَأنَّ حِجارَتَها مُحْرَقَةٌ. مِن ذلك الفِتْنَةُ. يُقالُ: فتَنْتُ أفْتِنُ فتْنًا. أصلُ الفَتْنِ: إدخالُ الذّهب النّارَ لتظهرَ جودتُه من رداءتِه، واستُعملَ في إدخالِ الإنسانِ النّارَ، قال تعالى: ﴿يَوۡمَ هُمۡ عَلَى ٱلنَّارِ يُفۡتَنُونَ ١٣﴾ [الذاريات: 13]، ﴿ذُوقُواْ فِتۡنَتَكُمۡ﴾ [الذاريات: 14]، أي: عذابَكم، وجُعلتِ الفتنةُ كالبلاءِ في أنّهما يُستعملان فيما يُدفعُ إليه الإنسانُ من شدّةٍ ورخاءٍ، وهما في الشّدّةِ أظهرُ معنًى وأكثرُ استعمالًا، وقد قال فيهما: ﴿وَنَبۡلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلۡخَيۡرِ فِتۡنَةٗۖ﴾ [الأنبياء: 35][2]، وقولُه تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ﴾ "معناها حتّى لا يُفتنَ أحدٌ عن دينه كما كانت قريشٌ تفعلُ بمكّةَ بمن أسلَمَ كبلالٍ وغيرِه"[3].

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 15/483، وابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 9/515، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 8/280.

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات: (فتن).

(3) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/527، والخازن، لباب التأويل: 2/312.

2) ﴿بَصِيرٌ﴾: (بصر) أصْلٌ وهو العِلْمُ بالشَّيْءِ؛ يُقالُ: هو بَصيرٌ به. ومِن هذه البَصيرَةُ، والبَصيرَةُ: البُرْهانُ. وأصْلُ ذلك كُلِّه وُضوحُ الشَّيْءِ. البَصَرُ يقالُ للجارحةِ النّاظرةِ، نحوَ قولِه تعالى: ﴿كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ﴾ [النحل: 77]، ويقالُ لقوّةِ القلبِ المدرِكةِ: بَصيرَةٌ وبَصَرٌ. ويُقالُ: بَصُرْتُ بالشَّيْءِ: إذا صِرْتَ به بَصيرًا عالِمًا، والبَصيرُ: العالِمُ[1].

3) ﴿تَوَلَّوْاْ﴾: (ولي) أصْلٌ يَدُلُّ على قُرْبٍ. يُقالُ: تَباعَدَ بَعْدَ ولْيٍ، أيْ قُرْبٍ، و(تَوَلَّى) إذا عُدّي بـ (عن) لفظًا أو تقديرًا اقتضَى معنَى الإعراضِ وتركِ قُربِه، كقولِه: ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٣﴾﴾ [آل عمران: 63]، والتَّوَلّي قد يكونُ بالجسم، وقد يكونُ بتركِ الإصغاءِ والائتمارِ، قال اللّه ﷻ: ﴿وَلَا تَوَلَّوْاْ عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الأنفال: 20][2].

4) ﴿نِعْمَ﴾: (نعم) أصْل يَدُلُّ على تَرَفُّهٍ وطيبِ عَيْشٍ وصَلاحٍ، و(نِعْمَ) فعلُ ماضٍ لا يتصرَّفُ، وهو كلمةٌ تُسْتَعْمَلُ في المَدْحِ بإزاءِ بِئْسَ في الذَّمّ، قال تعالى: ﴿نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾﴾ [ص: 44]، ﴿نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ تقول: إن فعَلْتَ كَذا فبِها ونِعْمَتْ. أي: نِعْمَتِ الخَصْلَةُ هيَ، وغَسَّلْتُهُ غَسْلًا نِعمّا، يقال: فعَلَ كذا وأنْعَمَ، أي: زادَ، وأصلُه من الإنْعام[3].

5) ﴿ٱلْمَوْلَىٰ﴾: (ولي) أصْلٌ يَدُلُّ على قُرْبٍ. والمولى يُطلقُ بإزاءِ معانٍ: فالمولى: النّاصرُ والمنعمُ وابنُ العمّ والحليفُ، قولُه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿١١﴾﴾ [محمد ﷺ: 11]. فالمولى هو النّاصرُ، والقائمُ بأمرهم. وكلّ مَن تولّى أمرَك فهو مولاك. والولاءُ يحصلُ لما فيه من معنَى القُربِ من حيث النّسبُ ومن حيث الدّينُ ومن حيث الصداقةُ والنّصرةُ والاعتقادُ، والوليُّ والمولى يُستعملان في كلِّ ذلك[4].

6) ﴿ٱلنَّصِيرُ﴾: (نصر) أصْلٌ يَدُلُّ على إتْيانِ خَيْرٍ وإيتائِه. النَّصرُ: إعانةُ المَظْلوم، ونَصَرَ اللّه المُسْلِمينَ: آتاهُمُ الظَّفَرَ على عَدوِّهم، قال تعالى: ﴿نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ﴾ [الصَّف: 13]، ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١١٦﴾﴾ [التوبة: 116]، ونُصْرَةُ اللّه للعبد ظاهرةٌ، ونُصْرَةُ العبدِ للّه هي نصرتُه لعبادِه، والقيامُ بحفظِ حدودِه، ورعاية عهودِه،

(1) الجوهري، الصحاح، وابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات: (بصر).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، والسمين، عمدة الحفاظ: (ولي).
(3) الجوهري، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات: (نعم).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، والسّمين، عمدة الحفاظ، والفيّوميّ، المصباح المنير: (ولي).

واعتناقِ أحكامِه، واجتنابِ نهْيِه، والنَّصيرُ: النّاصِرُ؛ قالَ اللّه تَعالَى: ﴿نِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ﴾[1].

المَعْنى الإجْماليُّ:

تشريعُ القتالِ لغايةٍ ساميةٍ؛ حتّى لا يُفتَنَ أحدٌ عن دينِه، واللّه يتولّى من أعرض وانحرف

يخاطبُ اللّه تعالى المؤمنين آمرًا إيّاهم بقتال المشركين "حتّى لا يكونَ شِرْكٌ وصدٌّ عن سبيل اللّه؛ ولا يُعْبَدَ إلّا اللّه وحدَه لا شريكَ له، فيرتفعَ البلاءُ عن عبادِ اللّه في الأرض، وحتّى يكونَ الدّينُ والطّاعةُ والعبادةُ كلُّها للّه خالصةً دون غيرِه، فإنِ انزجروا عن فتنة المؤمنين وعنِ الشّركِ باللّه، وصاروا إلى الدّين الحقّ معكم، فإنّ اللّه لا يخفى عليه ما يعملون مِن تركِ الكفرِ والدّخولِ في الإسلام، وإن أعرضَ هؤلاء المشركون عمّا دعوتموهم إليه - أيّها المؤمنون - منَ الإيمان باللّه ورسولِه وتركِ قتالِكم، وأبَوْا إلّا الإصرارَ على الكفرِ وقتالِكم، فأيقِنوا أنّ اللّه معينُكم وناصرُكم عليهم. نِعْمَ المعينُ والنّاصرُ لكم ولأوليائِه على أعدائِكم"[2].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ عطْفِ الآيةِ على ما سبَقَ:

تحقيقُ الوعيدِ ردعٌ للكافرين

الجملةُ في قولِه عزّ ذكرُه: ﴿وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ﴾ معطوفةٌ على الجملةِ في قولِه تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغۡفَرۡ لَهُم مَّا قَدۡ سَلَفَ﴾ وقد جاء الخطابُ عامًّا في الجملةِ المعطوفةِ ترغيبًا للمؤمنين في القتالِ، وتحقيقًا للوعيدِ في قولِه تعالى: ﴿فَقَدۡ مَضَتۡ سُنَّتُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾[3]؛ فعطفَ الجمعَ على المفردِ؛ لأنّ الغرَضَ منَ الجملةِ المعطوفِ عليها التّلطّفُ بالكافرين، وهو وظيفةُ النّبيّ وحدَه، فجاء الخطابُ بالإفراد، ولمّا كان الغرَضُ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (نصر).
(2) مجموعة من المؤلفين، التفسير الميسر: 1/181.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/21، والآلوسي، روح المعاني: 5/194.

منَ الجملةِ المعطوفةِ تحريضَ المؤمنين على القتالِ، جاء بالجمعِ، فخوطبوا جميعًا[1].

سرُّ التّعبيرِ بالأمرِ ﴿وَقَٰتِلُوهُمۡ﴾، ومعنى عوْدِ الضّمائرِ:

القتالُ واجبٌ عند الاعتداء، لدفع صولة الأعداء

في قولِه تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِۚ﴾ جاء فعلُ الأمرِ ﴿وَقَٰتِلُوهُمۡ﴾ للدّلالةِ على فرضِ القتالِ على المؤمنين، فهو أمرٌ للوجوبِ، والمرادُ بالضّميرِ المشركون من أهلِ مكّةَ[2].

دلالة (حتّى) على التّعليل، في السّياق:

تشريعُ القتالِ، لغايةٍ ساميةٍ وهدَفٍ نبيلٍ

في قولِه جلّ شأنُه: ﴿وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِۚ﴾ عبّرَ عن غايةِ القتالِ بالحرف (حتّى) الدّالِّ على التّعليلِ، فإنّه "تعالى أمرَ بقتالهم ثمّ بيّنَ العلّةَ التي بها أوجبَ قتالَهم، فقال: ﴿حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ﴾ ويخلصُ الدّينُ الذي هو دينُ اللّه من سائر الأديانِ، وإنّما يحصلُ هذا المقصودُ إذا زال الكفرُ بالكليّةِ"[3]، فالغايةُ منَ القتال إزالةُ أسبابِ الميلِ عنِ الدّين منَ الأصل، وذلك بإزالةِ الشّركِ على وجهِ التّمامِ[4].

غرَضُ التّعبيرِ بـ﴿تَكُونَ﴾ من حيثُ المادّةُ والصّيغةُ:

لا يسلمُ العبادُ إلّا باستئصالِ الباطلِ

قولُه جلّ شأنُه: ﴿وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ﴾ عبّرَ عن إزالةِ الفتنةِ بفعلِ الكونِ ﴿لَا تَكُونَ﴾، ولم يقل: (وقاتلوهم حتّى لا يفتنوا المؤمنين)؛ ليدلَّ على انتفاءِ وجودِ الفتنةِ بانتفاءِ وجودِ أصلِها، وهذا أبلغُ ممّا لو تسلّطَ النّفيُ على الفتنةِ. وجاءَ التّعبيرُ بفعل الكوْنِ بصيغةِ المضارعِ المنفيِّ للدّلالةِ على استمرارِ انتفاءِ وجودِ هذه الفتنةِ، وهذا يدلُّ على استمرارِ القتالِ ضرورةً حتّى تُزالَ كلُّ أسبابِ الفتنةِ.

(1) الهرري، حدائق الروح والريحان: 10/429.
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/527، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/346.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 15/483.
(4) النسفي، مدارك التنزيل: 1/645، والبقاعيّ، نظم الدرر: 8/280.

نُكتةُ تنكيرِ لفظ ﴿فِتۡنَةٞ﴾، في السّياق:

في قولِه عزّ ذكرُه: ﴿وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ﴾ جاء لفظُ الفتنةِ بصيغةِ التّنكيرِ للتّعميمِ استقصاءً لكلِّ فتنةٍ، فيجبُ القتالُ حتّى لا يبقَى من شيءٍ من فتنةِ الكافرين للمؤمنين، حيث "كان المؤمنون في مبدأِ الدّعوةِ يُفْتَنون عن دينِ الله، فافْتُتِن منَ المسلمين بعضُهم، وأمرَ رسولُ الله ﷺ المسلمين أن يخرجوا إلى الحبشة، وفتنةٌ ثانيةٌ وهو أنّه لمّا بايعتِ الأنصارُ رسولَ الله ﷺ بيعةَ العقبة، تآمرت قريشٌ أن يفتنوا المؤمنين بمكّةَ عن دينِهم، فأصاب المؤمنين جَهدٌ شديدٌ، فهذا هو المرادُ منَ الفتنة، فأمر الله تعالى بقتالِهم حتّى تزولَ هذه الفتنةُ"[1]، فذكرَ الفتنةَ بالتّنكيرِ تعميمًا لكلِّ فتنةٍ من تلك الفتنِ خفيفةً كانت أو شديدةً، وقد يفيدُ التّنكيرُ التّعظيمَ، أي: فتنةٌ عظيمةٌ.

من غاياتِ القتالِ ردُّ الفتنِ عن المسلمين، قلّتْ أو كثُرتْ

دلالةُ العطْفِ في جملة ﴿وَيَكُونَ﴾:

قولُه جلّ شأنُه: ﴿وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِۚ﴾ معطوفٌ على قولِه تعالى: ﴿لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ﴾ لاشتراكِهما في الغايةِ منَ القتالِ، فشُرِعَ القتالُ لدفعِ الفتنِ عن عبادِ الله التي تُكرهُهم على تغييرِ اعتقادِهم، وشُرِعَ ليكونَ الدّينُ لله تعالى وحدَه حيث لا إكراهَ لأحدٍ فيما يَدينُ لله تعالى به.

الدّين كلُّه لله، وهو وحدَه المعبودُ، بحقٍّ في هذا الوجود

معنَى (ال) الجنسيّة في لفظ ﴿ٱلدِّينُ﴾ ودلالتُها:

في قولِه ﷻ: ﴿وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِۚ﴾ عرّفَ الدّينَ تعريفَ الجنسِ[2]، أي: ليكونَ جنسُ الدّين لله تعالى، وليس دينًا معهودًا واحدًا بعينِه.

أصلُ الدّين واحدٌ، وكلُّه لله تعالى

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 15/483.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/347.

غرَضُ التّوكيدِ المعنويِّ بلفظ ﴿كُلُّهُۥ﴾:

لا دينَ حقٌّ إلا ما كان في الأساس خالصًا لله من دون النّاس

أكّدَ النّظمُ الكريمُ أن يكونَ كلُّ الدّين للّه تعالى في قولِه عزّ ذكرُه: ﴿وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِۚ﴾ فلا يبقَى غيرُ الدّين الحقِّ، "وتضمحِلَّ الأديانُ الباطلةُ إمّا بإهلاكِ أهلِها جميعا، أو برجوعِهم عنها خَشيةَ القتلِ"[1]، فدلّ التّأكيدُ في ﴿كُلُّهُۥ﴾ على وجوبِ استمرارِ القتالِ حتّى تزولَ سائرُ الأديانِ المنافيةِ للتّوحيدِ، فهو تصريحٌ بمدى القتالِ الزّمنيِّ والغائيِّ.

سِرُّ إيثارِ التَّعبيرِ بلفظِ الجلالةِ في السّياق:

لا مندوحة من إخلاصِ الدّينِ لله العظيمِ ﷻ

في قولِه عزّ ذكرُه: ﴿وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِۚ﴾ آثرَ التّعبيرَ بلفظِ الجلالةِ في بيانِ الغايةِ بجعْلِ الدّين خالصًا له؛ للدّلالةِ على تعظيمِ الإخلاص في الدّين الذي يُجعلُ للّه تعالى، فالدّينُ كائنٌ له بما له منَ الجلالِ فهو الملكُ الأعظمُ[2].

معنى اللّام في لفظ الجلالة (للّه):

لله تعالى الدّينُ الخالِصُ، وكلّ ما سواه ضلالة

في قولِه عزّ ذكرُه: ﴿وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِۚ﴾ عبّرَ عن وجوبِ أن يكونَ الدّينُ خالصًا من كلِّ ما يشوبُه من شِركٍ أو باطلٍ أو خوفٍ[3]، وذلك بإدخالِ لامِ الجرِّ الدّالّةِ على المِلْكِ والاختصاصِ، فهو تعبيرٌ عن تخصيصِ الدّينِ بأنّه كائنٌ للّه تعالى وحدَه مُخلَّصًا من كلّ دين وفكرةٍ تخالفُ التّوحيدَ.

بلاغةُ المتشابهِ اللّفظيِّ بين آية الأنفال: (39)، وآيةِ البقرة: (193):

تأكيدُ المعنى في أوّل نصٍّ يُغني عن تأكيدِ ما جاء لاحِقًا

في قولِه جلّ شأنُه: ﴿وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِۚ﴾ تشابهٌ لفظيٌّ مع قولِه تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِۖ﴾ [البقرة: 193]، غيرَ أنّه قد أضافَ التّأكيدَ بقولِه: ﴿كُلُّهُۥ﴾ في سورة الأنفال؛

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/21.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/280.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/280.

"وذلك لأنّ هذه الآيةَ أسبقُ نزولًا من آية البقرةِ فاحتيجَ فيها إلى تأكيدِ مُفادِ صيغةِ اختصاصِ جنْسِ الدّينِ بأنّه للّه تعالى، لئلّا يُتوَهَّمَ الاقتناعُ بإسلامِ غالبِ المشركين، فلمّا تقرّرَ معنى العُمومِ وصارَ نصًّا من هذه الآية عدلَ عن إعادتِه في آية البقرة تطلّبًا للإيجاز"[1].

معنَى الفاءِ في جملة: ﴿فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ﴾:

حُكمُ من انتهَى بعدَ حُكمِ من لم ينتَهِ

لمّا أمرَ بقتالهم أعقبَه بقولِه ﷻ: ﴿فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾ فالفاءُ للتّعقيبِ[2]، فلمّا كان حالُهم بعدَ الأمرِ بقتالِهم ودعوتِهم إلى الانتهاء يقعُ بين حالين؛ إمّا الإسلامُ، وإمّا الدّوامُ على الكفرِ، أعقبَه بحُكمِ من انتهى عنِ الكفرِ والقتالِ[3].

بلاغةُ التّعبيرِ بالجُملةِ الشَّرطيّةِ، المصدّرة بالأداة (إنْ):

ومَنْ أوفَى بعهْدِه من الله، فالله لا يخلف الميعاد

صيغَ حالُهم بفرضِ إجابتِهم وانتهائِهم عنِ الكفر في قولِه جلّ شأنُه: ﴿فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾ بصيغةِ التّعليق، فأجْراها مجرَى العَقدِ بين طرفَين؛ تأكيدًا لوقوعِ الجزاءِ حالَ وقوعِ الشّرطِ، فمنِ انتهى عنِ الكفرِ فإنّ جزاءَه ثابتٌ عند اللّه تعالى؛ لأنّ اللّه تعالى بصيرٌ بما يعملون، فلا يخفَى عليه استحقاقُهم.

نُكتةُ التّعبيرِ بـ(إن) الشّرطيّةِ في سيّاق الآية:

السّبْقُ ببناءِ الأحكامِ، على ما سيقعُ افتراضًا، من مقاصد آي القرآن

في قولِه ﷻ: ﴿فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾ آثرَ النّظمُ الكريمُ التّعبيرَ بـ(إن) الشّرطيّة دون (إذا)؛ لأنّ الغرضَ منَ الشّرطِ إجراءُ الأحكامِ على الحالاتِ المفترَضةِ، من غيرِ إشعارٍ بيقينِ وقوعِها أو التّشكيكِ به، فصاغَ تلك الحالاتِ بالجُملِ الشّرطيّةِ لبيانِ تعلّقِ ما يفعلون وما يؤولُ عنه. وقد أجراه مجرى العقدِ الدّالِّ على وجوبِ الإيفاء وتأكيدِ تحقّقِ الجزاءِ.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/347.
(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 9/81.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/281.

معنَى الفاءِ ودلالتُها في السّياق:

يُجازي الله عبادَه؛ لأنّه يعلمُ ما يفعلون

في قولِه جلّ شأنُه: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾ ابتدأ بالفاءِ التّعليليّةِ العاطفةِ على جوابِ الشّرطِ المحذوفِ؛ فالجملةُ تعليلٌ لجواب الشّرطِ المحذوفِ، فإنّ اللّه تعالى يُجازي أولئك الكافّين عنِ الكفرِ؛ لأنّه ﴿بِمَا يَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾، أي "إنَّ اللّه عالمٌ لا يخفَى عليه شيءٌ يوصلُ إليهم ثوابَهم"[1].

إيثارُ التّعبيرِ بلفظِ الجلالةِ ﴿ٱللَّهَ﴾ في السّياق:

تعظيمُ علمِ الله بذكرِ لفظِ الجلالة، وتربيةُ مهابتِه في النّفوسِ

في قولِه ﷻ: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾ إسنادُ صفةِ البصيرِ إلى اللّه تعالى، وقد عبّرَ بلفظِ الجلالةِ في إسنادِ صفةِ البصيرِ، تعظيمًا لعلْمِه "أي المحيطُ عِلماً وقُدرة"[2]، فالتّعبيرُ بلفظِ الجلالة يدلُّ على كمال ما جيء لبيانِه، فالذي يُبصرُ ويعلمُ ما تعلمون هو الذي له صفاتُ الكمالِ والجلالِ، فيكونُ علْمُه كاملًا تامًّا.

الغرَضُ منَ التَّعبيرِ بالإظهارِ في موضعِ الإضمارِ:

حيثُما ذُكرَ الله، فثمَّ التّعظيمُ والتّفخيمُ والجلالُ

كرّرَ لفظَ الجلالةِ في قولِه جلّ شأنُه: ﴿وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِۚ فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾ ولم يقل: (فإنّه بما يعملون بصير)، فوضعَ الظّاهرَ موضعَ المضمَرِ؛ تفخيمًا لمضمونِ الخبرِ بإظهارِ لفظِ الجلالة الدّالِّ على تعظيم الحيّزِ المذكورِ فيه، وفي ذلك تفخيمٌ وتعظيمٌ للجزاءِ المعلّقِ بانتهائِهم، أي إنّ اللّه العظيمَ ذا الجلالِ يعلمُ ما يفعلون فهو بجلالِه مُجازيهم عليه. كما أنّ "في إظهارِ الاسم الجليلِ تربيةً للمهابةِ"[3].

الغرَضُ من تتابُعِ المؤكّداتِ:

الجزاءُ محقّقٌ لعلْمِ الله المؤكّدِ لكلِّ أعمالِ عبادِه

الجملةُ في قولِه ﷻ: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾ اسميّةٌ مفيدةٌ لتأكيدِ مضمونِها، مع أنّها مؤكّدَةٌ بـ (إنّ)، وبتضمُّنِها لفظَ الجلالة،

(1) ابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 9/516.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/281.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 1/542.

وبتقديم ﴿بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ على الخبرِ، فكلُّ ذلك التّأكيدِ بغرَضِ تأكيدِ علْمِه تعالى، وبيانِ تمامِ إحاطتِه بما يعملون، ويَؤولُ ذلك أخيرًا إلى تأكيدِ وقوعِ الجزاءِ المعبّرِ عنه بجُملةِ الشّرطِ.

معنَى الباءِ في: (بِما) في السّياق:

عبّرَ النّظمُ الكريمُ في قولِه جلّ شأنُه: ﴿بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ بالباء الدّالّةِ على الملابسةِ، للدّلالةِ على ملابسةِ علْمِه تعالى لكلّ ما يعملون، فلا يعملون شيئًا يغيبُ عن علْمِه، فقولُه: ﴿بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ متعلّقٌ بقولِه: ﴿بَصِيرٌ﴾ الدّالِّ على العلْمِ، فكلُّ أفعالِهم متعلّقةٌ بعلْمِه لأنّه مُلابسٌ لها.

علمُ الله تعالى محيطٌ بكلِّ أفعالِ العبادِ

معنى (ما) في: ﴿بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ من الآية:

في قولِه جلّ شأنُه: ﴿بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ عبّرَ عن أعمالِهم بالاسمِ الموصولِ (ما) الدّالِّ على العمومِ، أي: إنّ اللّه تعالى بصيرٌ "بعمومِ ما تعملون وتأملون، خبيرٌ يُجازيكم عليه بلا فوتِ شيءٍ منه"[1]. فهو تعالى عالمٌ بالأعمال كلِّها كبيرِها وصغيرِها، دِقِّها وجلِّها، وفي ذلك تأكيدٌ لتحقيقِ الجزاءِ الشّاملِ لكلِّ عملٍ. ويصحُّ أن تكونَ (ما) مصدريّةً، فإنّه - تعالى يعلمُ عملَهم بالجملة، فيكونُ عملُهم معلومًا له ﷻ، أمّا على اعتبارِ أنّها موصولةٌ فالمعنى أنّه يعلمُ بما يعملون على وجه الإفرادِ، فكلُّ عمل يعملونَه، فإنّ اللّه تعالى يُبصرُه، ولا تناقُضَ بين الدّلالتَيْن.

تأتي (ما) هنا موصولة أو مصدريّة، وكلاهما مفيدة في المعنى

دلالةُ التّعبيرِ بالمضارعِ ﴿يَعْمَلُونَ﴾:

في قولِه عزّ ذكرُه: ﴿بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ عبّرَ عن أفعالِهم بـ ﴿يَعْمَلُونَ﴾؛ لأنّ العَمَلَ: كلُّ فعلٍ يكونُ منَ الحيوانِ بقصْدٍ[2]، فهو أخصُّ منَ الفعْلِ لما فيه من دلالةٍ على القصْدِ، كما يدلُّ العملُ على

كلُّ عملٍ متجدّدٍ يلزمُه تهديدٌ متجدّدٌ

(1) النخجواني، الفواتح الإلهية: 2/280، والشّربينيّ، السراج المنير: 2/82.
(2) الرّاغب، المفردات: (عمل).

إيجادِ الأثرِ في الشّيءِ، فعقّبَ على انتهائِهم عنِ الكفرِ بالعملِ؛ لأنّهم قصدوا ذلك، والانتهاءُ عملٌ؛ لأنّه أحدثَ الأثرَ في تركِهم الكفرَ، وعبّرَ عن ذلك بصيغةِ المضارعِ؛ لأنّ هذا العملَ يدومُ ويتجدّدُ.

تَنوُّعُ القراءاتِ القرآنيّةِ في: ﴿يَعۡمَلُونَ﴾:

في المواجهةِ زيادةُ تهديدٍ، وفي الغيبةِ شدّةُ غضبٍ

قولُه تعالى: ﴿بِمَا يَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ قُرئ ﴿يَعۡمَلُونَ﴾ لصيغة الغائبِ، وقُرئ (تعملون) بصيغةِ الخطابِ، فصيغةُ الغائب من تمام الحديثِ عنِ الكفّار في حالة انتهائِهم عن كفرِهم، وقراءةُ مَن قرأ بتاء الخطابِ يكونُ خطابًا للمسلمين، والمعنى فإنّ اللّه بما تعملون منَ الجهاد في سبيلِه، والدّعوةِ إلى دينِه، والإخراجِ من ظلمةِ الكفرِ إلى نورِ الإسلامِ بَصيرٌ يُجازيكم عليه أحسَنَ الجزاءِ[1].

وعلى القراءةِ الثّانيةِ بصيغةِ الخطابِ يكونُ في الآية التفاتٌ، فإنّ الفعلين: (تفعلون)، ﴿ٱنتَهَوۡاْ﴾ مُختلِفانِ بالخطابِ والغيبةِ، وهذا التفاتٌ، والغرضُ منه التّغليبُ، "أي: إنّه بصير بعملِكم وعملِهم، فيُنبّئُكم جميعًا، ويُجازي كلًّا، بحسبِ عملِه"[2].

دلالةُ القراءة بصيغة الخطاب ﴿تَعۡمَلُونَ﴾:

الأجرُ على النّيّةِ كالأجرِ على الفعْلِ

القراءةُ بصيغةِ الخطابِ ﴿تَعۡمَلُونَ﴾ في قولِه جلّ شأنُه: ﴿فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ يتعلّقُ بفعل الشّرطِ في قولِه: ﴿فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ﴾ "للدّلالةِ على أنّهم يُثابون بالسّببيّةِ كما يُثابُ المباشِرون بالمباشرةِ"[3]، فكونُ ثباتِ المؤمنين في القتال هو أحدُ أسبابِ انتهاءِ الكافرين عنِ القتال، فإنّ اشتراكَهم بهذا السّببِ يضمنُ لهمُ الأجرَ عندَ اللّه تعالى، فهو بصيرٌ بما يعملون.

الغرَضُ من تقديم شبْهِ الجملة: ﴿بِمَا﴾ على المسند:

في قولِه جلّ شأنُه: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ قدّمَ شبْهَ الجملةِ

(1) الزّمخشري، الكشاف: 2/220، وابن عطية، المحرر الوجيز: 2/528، وابن الجزري، النّشر، 2/276.
(2) ابن كمال باشا، تفسير ابن كمال باشا: 4/266.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/21.

على المسنَدِ، فأصلُ الكلامِ: (بصير بما يعملون)؛ لأنّه أخرجَه مخرجَ التّخصيص، إذ تخصيصُ العِلم بما يعملون، وهو لا يختصُّ بذلك دليلٌ على إرادةِ المبالغةِ في كوْنِ ما يعملونَه لا يخفَى منه شيءٌ، وأنّ اللّه عليمٌ به كعِلْم مَنْ تفرّغَ لشيءٍ لا يُلاحظُ شيئًا غيرَه، فإنّه لن تضيعَ عنه شاردةٌ، أو واردةٌ دونَه، فيكونُ علْمُه به علمًا دقيقًا.

علمُ الله تعالى محيطٌ بكلّ شيءٍ، إحاطةَ من لا يعزب عن علمه شيء

بلاغةُ اختيارِ اسمِ ﴿بَصِيرٌ﴾ لفاصلةِ الآيةِ:

آثرَ النّظمُ الكريمُ في قولِه ﷻ: ﴿بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ أن يعبّرَ عن علْمِه تعالى بما يعملون بلفظ البصيرِ دون العلْمِ، مبالغةً في ذلك العلْمِ؛ فعبّرَ عن علْمِه بالإبصارِ مع أنّ مِن أعمالِهم ما لا يُبْصَرُ، كأعمالِ القلوبِ[1]، وذلك تأكيدٌ للمبالغةِ المتحصِّلةِ بتقديمِ شبْهِ الجملة؛ فأكّدَ تلك المبالغةَ؛ "حيث جعلَ جميعَ ما يعملون مُبْصَرًا له تعالى، فعبّرَ عن علْمِه تعالى بالبصرِ مع أنّ قليلًا مِمّا يعملون منَ المُبْصراتِ"[2].

الرّؤيةُ أبلغُ منَ العلْمِ في التّعبيرِ عنِ الإحاطةِ بالأعمالِ

التّعبير بصيغةِ المبالغةِ مُنكَّرةً في: ﴿بَصِيرٌ﴾:

في قولِه عزّ ذكرُه: ﴿بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ عبّرَ عن علْمِه بلفظِ ﴿بَصِيرٌ﴾ بصيغةِ المبالغةِ على وزنِ (فعيل) مبالغةً في هذا العلْمِ، و"إشارةً إلى العلْمِ بما يكونُ من ذلك خالصًا أو مَشوبًا، ففيه مزيدُ حثٍّ على الإخلاصِ"[3]؛ فشدّةُ العلْمِ تدلُّ على انكشافِ كلِّ شيءٍ، وورودُ هذه الصّفةِ في سياقِ معرفةِ الأعمالِ يفيدُ أنّ كلَّ عملٍ هو مُبصرٌ معلومٌ به، فيقعُ التّرغيبُ والتّرهيبُ على أتمِّ وجْهٍ، وقد آثرَ التّعبيرَ بصيغةِ التّنكيرِ تعظيمًا لعلْمِه وتفخيمًا لشأنِ ذلك العلْمِ، وليس المرادُ حصْرَ صفةِ البصيرِ به ﷻ، إذ لو قال: (إنّ اللّه البصير

التّرهيبُ والتّعظيمُ يُناسبان سياقَ التّحذيرِ

(1) الشهاب، عناية القاضي: 2/222.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 1/357.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/345.

بما يعملون) لكان دالًّا على الحصْرِ، وليس ذلك المرادَ، بل أراد تعظيمَ هذه الصّفةِ فجاء بها نَكرةً.

دلالةُ العطْفِ في: ﴿وَإِن تَوَلَّوْاْ﴾:

الـكـفّـارُ أمـامَ التّوجيه الرَّبّانيّ، إمّـا مُـنـتَـهٍ مستجيبٌ، وإمّا معانِدٌ مكابرٌ

قولُه تعالى: ﴿وَإِن تَوَلَّوْاْ﴾ معطوفٌ على قولِه: ﴿فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ﴾؛ إذ لمّا أمرَ بقتالِهم بقولِه تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ وأعقبَه بقولِه ﷻ: ﴿فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ لبيانِ حالِ من انتهى عن كفرِه وقتالِ المسلمين، عطفَ عليه حالَ مَن لم ينتَهِ فقال: ﴿وَإِن تَوَلَّوْاْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْ﴾ لكونِه أحدَ حالَيِ الكفّارِ بعد دعوتِهم للكفِّ عنِ الكفرِ والقتالِ.

دلالةُ التّعبيرِ بـ(إنْ) الشّرطيّةِ:

لا يُستبعدُ إصرارُ الـكـفّـارِ على الكفْرِ، ومحاربةِ المؤمنين في كلّ عصر

قوله تعالى: ﴿وَإِن تَوَلَّوْاْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْ﴾، عبّرَ فيه عن ثاني أحوالِهم على سبيل الافتراضِ بالجملةِ الشّرطيّةِ، تأكيدًا لوقوعِ الجزاءِ حالَ وقوعِ الشّرط، وآثرَ التّعبيرَ بـ (إن) الشّرطيّةِ لأنّ انتهاءَهم في الجملةِ الأولى سيقَ على سبيلِ الافتراضِ، فأجرَى في تولّيهم على السّبيلِ ذاتِه، وذلك باستعمال (إن) الشّرطيةِ الدّالّةِ على عدمِ اليقينِ.

بلاغةُ التَّعبيرِ بالجُملةِ الشّرطيّةِ:

إعراضُ الكافرين عنِ الإيمان لن يضرَّ مَن كان الله وليَّه

في قولِه جلّ شأنه: ﴿وَإِن تَوَلَّوْاْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْ﴾ صيغَ التّولّي وما تعلّقَ به من ولايةِ اللّه تعالى للمؤمنين ونصرِه إيّاهم صيغةَ العَقدِ بين طرفَين؛ دلالةً على تحقُّقِ غلبةِ المؤمنين وخُسرانِ الكافرين، وفي ذلك تبشيرٌ للمسلمين بحُسنِ مآلِهم.

فائدةُ التَّعبيرِ بالمضارعِ في: ﴿تَوَلَّوْاْ﴾:

آثرَ النّظمُ الكريمُ في قولِه تعالى: ﴿وَإِن تَوَلَّوْاْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْ﴾ التّعبيرَ بالفعلِ المضارعِ عن تولّيهم للدّلالةِ على أنّ تولّيَهم

عادةٌ لهم، وأنّهم مُصرّون عليه، فهم ماضون في قتال المؤمنين تمسّكًا بدينِهم وضلالِهم[1].

الفعلُ المضارعُ يدلُّ على الإصرارِ والمداومَةِ

معنى الفاء في لفظ ﴿فَٱعۡلَمُوٓاْ﴾:

في قولِه عزّ ذكرُه: ﴿فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَوۡلَىٰكُمۡۚ﴾ ربطَ فعْلَ الشّرطِ بجوابه بالفاء الرّابطةِ؛ لأنّ الجوابَ جملةٌ طلبيّةٌ[2]، وفي ذلك تنبيهٌ للمؤمنين باستحضارِ كونِهم تحت ولايةِ اللّه تعالى حالَ تولّي الكافرين، فافتتاحُ "جملةِ جوابِ الشّرط بـ﴿فَٱعۡلَمُوٓاْ﴾ لقصْدِ الاهتمامِ بهذا الخبرِ وتحقيقِه، أي: لا تغفلوا عن ذلك"[3].

استحضارُ ولايةِ اللهِ في الأذهانِ واجبٌ حالَ العدوانِ

الغرَضُ منَ الأمرِ بالعلْمِ: ﴿فَٱعۡلَمُوٓاْ﴾:

في قولِه عزّ ذكرُه: ﴿فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَوۡلَىٰكُمۡۚ﴾، بنَى جوابَ الشّرطِ على الأمْرِ بالعلْمِ، "وافتتاحِ جملةِ جوابِ الشّرطِ بـ﴿فَٱعۡلَمُوٓاْ﴾ لقصْدِ الاهتمامِ بهذا الخبرِ وتحقيقِه، أي: لا تغفلوا عن ذلك"[4]. فالعلمُ بأنَّ اللّه تعالى وليُّكم يجبُ أن يكونَ حاضرًا في الأذهانِ مُحقّقًا في النفوسِ، وفي ذلك مبالغةٌ في الأمرِ بالإيمانِ والثّقةِ بنصْرِ اللّه تعالى، فتكونُ تلك الثّقةُ معلومةً ثابتةً ثُبوتَ العلْمِ غيرَ قابلةٍ للشّكِ والتّذبذُبِ.

تحقيقُ اليقينِ بنصْرِ اللهِ تعالى أمرٌ لا شكّ فيه ولا ريب

دلالة الموقع النّحويّ للمصدَر السّادِّ مسدَّ مفعولَيْن:

أوقعَ فعلَ العلْمِ في قوله جلّ شأنُه: ﴿فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَوۡلَىٰكُمۡۚ﴾ على كوْنِ اللّه تعالى وليِّكم، فالجملةُ "في تأويلِ مصدَرٍ سادٍّ مسدَّ مفعولَيْ (اعلموا) تقديرُه: فاعلموا، وأيقنوا كوْنَ اللّه تعالى مولاكم، وناصرَكم"[5]. فالولايةُ معمولُ الفعْلِ ﴿فَٱعۡلَمُوٓاْ﴾ فكَوْنُ اللّه تعالى

الإيمانُ بوعْدِ اللهِ والثّقةُ بنصْرِه ضمانٌ وأمان

(1) الخازن، لباب التأويل: 2/312.
(2) الهرري، حدائق الروح والريحان: 10/429 - 430.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/348.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/348.
(5) الهرري، حدائق الرّوح والرّيحان: 10/430، والخازن، لباب التّأويل: 2/312.

وليَّكم يجبُ أن يكونَ معلومًا لكم حاضرًا في أذهانِكم لأنّه منَ الإيمان وواجبِ الاعتقاد.

سِرُّ إيثارِ التَّعبيرِ بلفظِ الجلالةِ ﴿ٱللَّهَ﴾ في السّياق:

ولايةُ الله أعظمُ الولاياتِ على الإطلاقِ

في قوله عزّ ذكرُه: ﴿وَإِن تَوَلَّوۡاْ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَوۡلَىٰكُمۡۚ﴾، آثرَ النّظمُ الكريمُ أن يُعبّرَ بلفظِ الجلالةِ في بيانِ ولايتِه تعالى للمؤمنين، فالتّعبيرُ بالاسمِ الدّالِّ على الملكِ الأعظمِ ﷻ أبلغُ في سياقِ الكلام عن ولايتِه لعبادِه، "أي: الذي له الإحاطةُ الكاملةُ بكلِّ شيءٍ"[1]، فلا وليَّ أعظمُ منه تعالى، والغايةُ تثبيتُ قلوبِ المؤمنين.

دلالةُ تتابُعِ المؤكّداتِ في: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ مَوۡلَىٰكُمۡۚ﴾:

ولايةُ اللهِ ضمانةٌ للعبد، وحمايةٌ له

جاء النّظمُ الكريمُ في قولِه تعالى: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ مَوۡلَىٰكُمۡۚ﴾ في غايةِ التّأكيدِ، فجاءَ التّعبيرُ بالجملةِ الاسميّةِ الدّالّةِ على تأكيدِ مضمونِها، وكونِها مؤكّدةً بـ (إنّ)، وكونِ المسنَدِ إليه لفظَ الجلالةِ المفيدَ تعظيمَ مضمونِ سياقِه، وكلُّ ذلك تأكيدٌ لولاية اللّه تعالى للمؤمنين وتقويةٌ لما تتضمّنُه من حُكْمٍ، وفائدةُ ذلك تثبيتُ مضمونِ الجملةِ في أذهانِ المسلمين.

فائدةُ إضافةِ المولَى إلى الضّميرِ في لفظ ﴿مَوۡلَىٰكُمۡۚ﴾:

من كان اللهُ مولاهُ فلا غالبَ له

في قولِه عزّ ذكرُه: ﴿وَإِن تَوَلَّوۡاْ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَوۡلَىٰكُمۡۚ﴾ أضافَ لفظَ المولَى لهم تثبيتًا لهم وتقويةً لقلوبِهم، أي: فاعلموا أنّ اللّه تعالى "ناصرُكم، فثقوا به ولا تبالوا بمعاداتِهم"[2]، كما أنّ في هذه الإضافةِ تكريمًا لهم بكونِهم في كنَفِ اللّه تعالى وحفْظِه.

دلالة جملة الاستئناف على معنى التّذييل للآية:

مدحُ الحقِّ نفسَه تثبيتٌ لقلوبِ العبادِ

الجملةُ في قولِه جلّ شأنُه: ﴿نِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ مستأنفةٌ، فلمّا أخبرَهم أنّه هو مولاهُم "استأنف مادحًا نفسَه بما هو أهلُه

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/282.
(2) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/59.

تعريفًا بقدرِه وحثًّا للمؤمنين على التّمسّكِ بوَلايتِه[1]، فهو "نعمَ النّاصرُ على الأعداء، فلا يُغلبُ من نصرَه، وكلُّ مَن كان في حمايةِ اللّه تعالى كان آمنًا منَ الآفاتِ، مصونًا عن المخلوقاتِ، وهذا ثناءٌ منَ اللّه تعالى على نفسِه، فهو حمدٌ قديمٍ لقديمٍ"[2]، فلمّا أمرَهم بوجوبِ العلْمِ بكونِه وليَّهم، أعقبَهُ بالثّناءِ على حُسنِ ولايتِه، فهي "بمنزلةِ التّذييلِ"[3] لجملةِ جوابِ الشّرطِ.

بلاغةُ الحذْفِ في صيغة المدح المصدّرة بلفظ ﴿نِعْمَ﴾:

إبـرازُ المعنَى في صـورةِ الظّاهرِ المعروفِ أوفَى في التَّعبيرِ عنه

قولُه ﷻ: ﴿نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ مدحٌ وثناءٌ منَ اللّه تعالى على نفسِه ﷻ، جاء بصيغةِ المدحِ بالفعلِ (نِعْم)، وهذه الصّيغةُ عبارةٌ عن جملةٍ فعليّةٍ من فعلٍ وفاعلٍ تُعربُ خبرًا عن مبتدأٍ محذوفٍ تقديرُه (هو)، وهذا المبتدأُ هو الذي صيغَ المدحُ له، ويُسمَّى المخصوصَ بالمدح، وهو محذوفٌ وُجوبًا[4]، وإنّما حُذفَ اعتمادًا على ظهورِ المعنَى وطلبًا للإيجازِ، كما أنّ الحذْفَ هنا فيه فائدةٌ تتمثّلُ بالاهتمامِ بصفةِ المدح، وما وقعَ فيه الثّناءُ، فيتركّزُ انتباهُ السّامعِ على ذلك، فإنّما صيغَ المدحُ؛ لأنّ مذكورًا قد سبقَ ذكرُه في السّياقِ، فلمّا عُلِمَ اكْتُفيَ بإظهارِ وجهِ المدحِ عليه.

بلاغةُ عطْفِ: ﴿وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ في السّياق الحكيم:

مـدحُ النُّـصرةِ تأكيدٌ للولايةِ، الضّامنة للحفظ والوقاية

قولُه تعالى: ﴿وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ معطوفٌ على قولِه جلّ شأنُه: ﴿نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ﴾ لما في لفظةِ ﴿ٱلْمَوْلَىٰ﴾ من معنَى النّصرِ الذي يوافقُ لفظَ ﴿ٱلنَّصِيرُ﴾[5]. فأفادَ هذا العطفُ التّأكيدَ، إذ إنّ المولَى لا يقتضي أن يكون نصيرًا، فذكرَ النُّصرةَ معطوفةً على الولايةِ تأكيدًا لشُمولِ الولايةِ للنّصرةِ.

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/282.
(2) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 10/422.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 9/348.
(4) النسفي، مدارك التنزيل: 1/645، والهرري، حدائق الروح والريحان: 10/430.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/348.

معنَى (اللّام) في ﴿ٱلۡمَوۡلَىٰ﴾ و﴿ٱلنَّصِيرُ﴾ ودلالتُها:

الولايةُ والنّصرةُ راسختانِ في الممدوحِ أصالة وعظمة

في قولِه جلّ شأنُه: ﴿نِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ عرّفَ (المولَى والنّصيرَ) بالألفِ واللّامِ الدّالّةِ على العهدِ الصّريحِ؛ والمعهودُ قولُه تعالى: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ مَوۡلَىٰكُمۡ﴾، وأفادَ هذا التّعريفُ أنّ الصّفةَ المصاغةَ للمدحِ، وهي الولايةُ والنّصرةُ معروفةٌ راسخةٌ في الممدوحِ، وأنّ المدحَ جاءَ تنبيهًا وتنويهًا بهذه الصّفاتِ.

فائدةُ التّعبيرِ عن نصْرِ الله بصيغةِ المبالغةِ:

مَنْ نصرَه الله فلا غالِبَ له

في قولِه عزّ ذكرُه: ﴿نِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ عبّرَ عنِ الثّناء على نصْرِه بإيراد النّصرِ على صيغةِ المبالغةِ بيانًا إلى أنّه لا يُغلَبُ مَن نَصرَه[1]، فإنّ أفعالَ اللّه تعالى لا تتأثّرُ بالمبالغةِ، فتدلُّ صيغةُ المبالغةِ فيها على أثرِ المتعلّقِ، فالمبالغةُ في النّصرةِ متعلّقةٌ بتأكيدِ انتفاءِ تحقُّقِ الغَلَبِ على من أراد اللّه تعالى أن ينصرَه.

الغرَضُ منَ التّعبيرِ بالأسلوبِ الإنشائيِّ غيرِ الطّلبيِّ:

تأكيدُ المدحِ والثّناءِ طُمأنينةٌ للعبادِ

قولُه عزّ ذكرُه: ﴿نِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ جملةٌ إنشائيّةٌ مستأنفةٌ؛ لأنها إنشاءُ ثناءٍ على اللّه تعالى وهي بمنزلةِ التّذييلِ جاءت لتأكيدِ قولِه: (فاعلموا أن اللّه مولاكم) فصيغَ المدحُ والذّمُّ منَ الإنشاءِ غيرِ الطّلبيِّ؛ لأنّه لا يستدعي مطلوبًا وقتَ الكلامِ، فهو يتحقّقُ وقتَ اللّفظِ، فلا وجودَ خارجيٌّ له. وهو أسلوبٌ يُعبّرُ عنِ الثّناء والإعجابِ بالشّيءِ بألفاظٍ معيّنةٍ.

علّةُ سقوطِ الفاء السّببيّة، مقارنة بورودها في موقع آخر:

لا تتوقّفُ ولاية الله تعالى على علّةِ كونِه نعْمَ المولَى فقط

في قولِه عزّ ذكرُه: ﴿وَإِن تَوَلَّوۡاْ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَوۡلَىٰكُمۡۚ نِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ جاء الفعْلُ ﴿نِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ﴾ بلا فاء، وقد جاء بالفاء في موضعٍ آخرَ: ﴿وَٱعۡتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ فَنِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 3/59.

﴿٧٨﴾ [الحج: 78]، فلم "يُدخلْ فاءَ السّببِ هنا؛ لأنّ المأمورَ به العِلمُ، واعتقادُ كونِه مولىً واجبٌ لذاتِه لا لشيءٍ آخرَ، بخلاف ما في آخر الحجّ، فإنّ المأمورَ هناك الاعتصامُ"[1]، فالعلمُ بالولايةِ أتبعَه ثناءً على ولايته، فليس هنا علاقةٌ سببيّةٌ؛ إذ لا تتوقّفُ ولايتُه على علّةِ كونِه نعْمَ المولَى، أمّا في سورة الحجّ فأمرَهم بالاعتصامِ؛ لأنّ مَن تعتصمون به جديرٌ بهذا الاعتصام ففيه بيانُ العلّةِ.

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

(الفتنة) و(البلاءُ) و(الامتحانُ):

الفتنةُ ما يتَبَيَّن بها حالُ الإنْسان منَ الخَيْر والشّر، وهي الّتي آثرها السّياق

الابْتِلاء: في الأصْل: التّكليفُ بالأمرِ الشّاقِّ، ولا يكونُ إلّا بتحميلِ المكارِه[2]، والفتنةُ ما يتَبَيَّن بها حالُ الإنْسان منَ الخَيْر والشَّر، يُقال: فتنتَ الذَّهَبَ بالنّار، لتعلمَ أنّه خالصٌ أو مُشوبٌ، فهي أشدُّ الاختبار؛ لأنَّها مشتقّة منَ الحرق بالنّار[3]، والمِحْنَةُ: واحدةُ المِحَنِ التي يُمْتَحَنُ بها الإنسانُ من بليَّةٍ. ومَحَنْتُهُ وامْتَحَنْتُهُ، أي اختبرتُه، والاسمُ المِحْنَةُ. مَحَنَهُ سَوْطًا: ضَرَبَهُ[4]، وإنّما آثرَ أن يعبّرَ بالفتنةِ في هذا الموضع؛ لأنّه في سياقِ فتنةِ المؤمنين بالتّعذيبِ.

التّولّي والإعراضُ:

التّولّي يقتضي الابتعادَ بعْدَ قُربٍ، والإعراضُ يدلُّ على الصّدودِ والانصرافِ

(وَلَيَ) أصْلٌ يَدُلُّ على قُرْبٍ. يُقالُ: تَباعَدَ بَعْدَ ولْيٍ، أيْ قُرْبٍ، و(تَوَلَّى) إذا عُدّي بـ (عن) لفظًا أو تقديرًا اقتضى معنَى الإعراض وتركِ قُربِه، كقولِه تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ﴾[5]. أمّا أعْرَضَ فمعناه: أظهر عَرْضَهُ. أي: ناحيتَه. وإذا قيل: أعْرَضَ عنّي، فمعناه: ولَّى مُبديًا عَرْضَهُ. قال: ﴿ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ﴾ [السّجدة:

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/282.
(2) العسكري، الفروق اللّغويّة، ص: 216، والكفويّ، الكليّات، ص: 34.
(3) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 217، والكفوي، الكليات، ص: 692.
(4) الجوهري، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (محن).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، والسمين، عمدة الحفاظ: (ولي).

22[(1)]. التّولّي مشتقٌّ منَ الولْيِ بمعنى القُربِ، فيكونُ التّولّي عن شيءٍ يدلُّ على الابتعادِ عنه؛ لأنّه أعرضَ عنِ القُربِ منه. أمّا الإعراضُ فهو الصّدُّ والامتناعُ، وهذا يدلُّ على أنّ التّولّيَ أغلظُ منَ الإعراض؛ لأنّه كان قريبًا ثمّ تولّى وابتعدَ. والآيةُ في سياقِ القتال وعرْضِ الانتهاءِ عليهم، فإمّا أن يدخلوا الإسلامَ، أو يتولّوا ويتوغّلوا في عداوةِ الإسلامِ.

الولايةُ والنّصرةُ:

الولايةُ أدلُّ على المودّةِ، والنُّصرةُ أدلُّ على الإعانةِ

بين الولايةِ والنُّصرةِ فرقٌ، فبينهما عمومٌ وخصوصٌ من وجه، فليس كلُّ وليٍّ ناصرًا، وليس كلُّ ناصرٍ وليًّا، وقد يجتمعان، فيكونُ الوليّ ناصرًا؛ فإنّ "الولايَة قد تكونُ بإخلاص المَوَدَّةِ، والنّصرةُ تكونُ بالمعونةِ والتّقويةِ، وقد لا تُمكنُ النُّصْرَةُ معَ حُصول الولايَةِ، فالفرقُ بَينهما بَيّنٌ"[(2)]، وقد جمعَ بينهما في قولِه تعالى: ﴿نِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ تحقيقًا للمعنيَيْن، الولايةِ والنُّصرةِ.

(1) الرّاغب، المفردات: (عرض).

(2) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 189.

الجُزْءُ العَاشِرُ

﴿ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا يَوۡمَ ٱلۡفُرۡقَانِ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ٤١ ﴾ [الأنفال: 41]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

ربطُ نصرِ المُؤمنينَ على الأعداء، بقَسْمِ ما تَحصَّلَ منَ الغَنائِم

لمّا أمرَ اللّهُ تعالى بالمقاتَلةِ في قوله: ﴿وَقَٰتِلُوهُمۡ﴾، وكان منَ المعلوم أنَّ القتالَ قد تكونُ فيه مكاسبُ، وقد تحصلُ عند المقاتِلَةِ الغنيمةُ، لا جَرمَ ذكرَ اللّهُ تعالى حكمَ الغنيمة[1]. وأيضًا، لمّا كان التَّقديرُ: فإذا أعانكم مولاكم عليهم، وغلبتُموهم وغَنِمْتُم فيه، فلا تَنْسُبوا إلى أنفسِكم فِعلًا، بلِ اعلموا أنَّه هو الفاعلُ وحدَه؛ لأنَّ الملكَ للّه وحدَه، فلا تتنازعوا في المغنَم تنازعَ مَن أخذَهُ بقوَّتِه، وحازَه بقدرتِه - عَطَفَ عليه قولَه: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم﴾[2]، وأيضًا لمّا أجْمَلَ مِن حُكْم الأنفالِ مُفتَتَحَ السّورةِ انتقلَ لبيانِ حكمِ الغنيمةِ، وناسبَ الانتقالُ إليه ما جرى منَ الأمرِ بقتالِ المشركينَ، إن عادوا إلى قتالِ المسلمين[3].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿غَنِمۡتُم﴾: أصلُ مادّة (غنم)، يعودُ إلى معنًى حسّيٍّ هو (الغَنَم)؛ أي: جنس الحيوان المعروف، فإنَّ الظفرَ بهِ يُسَمَّى غُنْمًا، والأصلُ في الغُنْمِ هو الفوزُ بالشّيء من غير مشقّةٍ، ثمّ اتُّسِع في ذلك، فسُمّي كلُّ ما يُظفَرُ به منَ العدوِّ، سواءً أكان

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 15/484، والشّوكانيّ، فتح القدير: 2/353.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/282 - 283.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 5/5.

بمشقّةٍ أو بدون مشقّةٍ؛ غُنْمًا ومَغْنَمًا وغَنيمةً، ثُمَّ اختصَّ به ما أُخِذَ مَن مالِ المُشرِكينَ بقَهرٍ وغَلبةٍ[1].

ويُقال: "غَنِمْتُ أَغْنَمُ غَنْمًا وغَنيمَةً، والغنائمُ جمعُها، والمغانم: جمعُ مَغْنَم، والغُنْمُ بالضّمّ الاسمُ، وبالفتح المصدر، والغانم: آخِذُ الغنيمةَ. والجمع: الغانمون. ويُقال: فلانٌ يتغنَّمُ الأمرَ؛ أي: يَحْرِصُ عليه، كما يَحرِصُ على الغنيمة"[2].

2) ﴿وَٱلۡيَتَٰمَىٰ﴾: يدورُ معنى اليُتْم على انفراد الشَّيءِ عن مُجانسِه، مُستقلًّا بذاته، ومنه الدّرّةُ اليتيمةُ المتفرِّدةُ بقيمتِها أو صفتِها، لاتَشْرَكُها أخرى في هذه القيمة، وكلُّ منفردٍ يتيمٌ. واليُتْمُ هنا هو انقطاعُ الصّبيّ عن أبيه قبلَ بلوغِه، وكلُّ ما في القرآن من لفظ اليتيم مفردُهُ ومثنّاهُ وجمعُهُ هو بهذا المعنى[3]. وقوله تعالى: ﴿وَءَاتُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰٓ أَمۡوَٰلَهُمۡۖ﴾ [النّساء: 2]، سمّاهم يتامى بعدَ بلوغِهم وإيناسِ رُشْدِهم؛ لِلزومِ اليُتْمِ إيّاهم، كما قالوا للنّبيّ ﷺ بعدَ كِبَرِه: يتيم أبي طالب؛ لأنّه ربّاه. وقال الأصمعيّ: اليتيمة: الرّملةُ المنفردةُ، قال: وكلُّ منفردٍ ومنفردةٍ عند العرب يتيمٌ ويتيمةٌ[4].

3) ﴿وَٱلۡمَسَٰكِينِ﴾: يدورُ معنى (سكن) على استقرارٍ في جوفِ حيِّز أو باطن: كالقوت في الجوف، وكَهُمودِ ما يُذبَحُ بالسّكّين في مكانه، ومنه المسكين، وهو القارُّ الصّابرُ على ما هو فيه، لا يجاهدُ للتّخلُّص منه، إمّا للتّسليم لصاحب الأمرِ سبحانه، أو لسببٍ عنده. و﴿وَٱلۡمَسَٰكِينِ﴾ في الآية جمعُ مِسْكينٍ، وهو الّذي لا يملكُ ما يَسُدُّ حاجتَه؛ لعجزِه واستكانتِه وتسليمِه، واختُلِفَ في أيّهما أشدُّ حاجةً الفقير أو المسكين[5].

4) ﴿وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ﴾: هو المسافرُ البعيدُ عن منزله، وقد نُسِبَ إلى السّبيل وهي الطّريقُ السّهلُ؛ وذلك لِتَلَبُّسِه به، أو لممارستِه إيّاه، حتّى أصبح بعيدًا عن منزله، أو لملازَمَتِه الطّريقَ في السّفر، أو لأنَّ الطّريقَ تُبرزه، فكأنّها ولدَتْه[6].

(1) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (غنم).
(2) ابن الأثير، النّهاية: (غنم).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (يتم).
(4) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (تيم).
(5) الرّاغب، المفردات، والفيّوميّ، المصباح المنير: (سكن).
(6) الرّاغب، المفردات، والفيّوميّ، المصباح المنير: (سبل)، والآلوسيّ، روح المعاني: 1/443.

وقال ابنُ الأثير: "وأمّا ابنُ السّبيلِ فهو المسافرُ الكثيرُ السّفرِ، سُمّيَ ابنًا لها لُملازَمَتِه إيّاها. وفيه: «حريمُ البئرِ أربعون ذراعًا من حواليها لأعطانِ الإبلِ والغَنَم، وابنُ السّبيلِ أوّلُ شاربٍ منها»[1]؛ أي: عابرُ السّبيلِ المجتازُ بالبئرِ أو الماءِ أحقُّ به منَ المُقيم عليه، يُمَكَّنُ مِنَ الوِرْدِ والشُّربِ"[2]. وقالَ الشّافعيُّ: "ابنُ السَّبيلِ من أهلِ الصَّدقةِ الّذي يُريد بلدًا غيرَ بلدِه لأمرٍ يَلزَمُه. قال: ويُعْطى ابنُ السَّبيلِ قدرَ مايُبَلِّغُه البلدَ الّذي يريدُه في نَفَقَتِه وحَمولَتِه"[3].

5) ﴿ٱلْفُرْقَانِ﴾: تدلُّ مادَّةُ (فرق) على تمييزٍ وتزييلٍ بين شيئين، والفُرقان أبلغُ منَ الفَرْقِ؛ لأنَّهُ يُستَعملُ في الفَرْقِ بين الحقِّ والباطِل، والفَرْقُ يُستَعملُ في ذَلِك وفي غَيره. والمرادُ بـ﴿يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ﴾ في هذه الآية يومُ بدرٍ الّذي فرَقَ اللّهُ فيه بين الحقّ والباطل[4]. "والفُرقانُ: البُرهانُ، وهذا مُسْتَقْصًى في كتاب لغات القرآنِ، ورجل فروقَة، وكذلك المرأة، أُخرِجَ مخرجَ نسّابة وعلّامة وبصيرة وما أشبه ذلك"[5].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

تعظيمُ شأنِ يومِ بدرٍ، بما وهبه اللهُ منَ النّصرِ والغنائمِ والآياتِ

واعْلَموا، أيُّها المؤمنون، أنَّ ماظَفِرتُم به مِن مالٍ منَ الكفّارِ بغَلَبةٍ وقَهْرٍ، وإن كانَ شيئًا قليلًا، فأربعةُ أخماسِه للمقاتِلينَ الّذين حضروا المعركة، والخُمُسُ الباقي يجزَّأُ خمسةَ أقسامٍ: الأوَّلُ للّهِ وللرَّسولِ، فيُجعلُ في مصالحِ المسلمينَ العامَّة، والثّاني لذوي قرابةِ رسولِ اللّهِ ﷺ؛ وهم بنو هاشمٍ وبنو المطَّلبِ، جُعِل لهم الخُمُسُ مكانَ الصَّدقةِ، فإنَّها لا تحلُّ لهم، والثّالث لليتامى؛ وهم أطفالُ المسلمينَ الّذين فقدوا آباءَهم، والرّابعُ للمساكينِ الّذين لا يملكون ما يكفيهم ويسدُّ

(1) حديث مرفوع عن أبي هريرة ﷺ، أخرجه أحمد في المسند، رقم: (10416)، وإسناده صحيح.
(2) ابن الأثير، النّهاية: (سبل).
(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (سبل).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (قرب).
(5) ابن دُريد، جمهرة اللّغة: (رفق).

حاجتَهم، والخامسُ للمسافرِ الّذي انقطعَت به النَّفقةُ، إن كنتم مقرّينَ بتوحيدِ اللّهِ، مطيعين له، مؤمنين بما أنزلَ على عبدِه محمَّدٍ ﷺ من الآياتِ والمَدَدِ والنَّصرِ، يومَ فرَق بينَ الحقّ والباطل ببدرٍ؛ حينما التقى جَمعُ المؤمنينَ وجَمعُ المشركينَ، واللّهُ على كلِّ شيءٍ قديرٌ، لا يُعجِزُه شيءٌ، ولا يمتنعُ عليه شيءٌ أرادَه[1].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

مناسبةُ الوصلِ بالواوِ في قوله: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ﴾:

الغنيمةُ مَلمَحٌ للانتصار بعد الاستبشار:

لمّا أمرَ اللّهُ المؤمنين بالقتال، في قوله: ﴿وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِۚ﴾ [الأنفال: 39]، ناسبَ الوصلَ بالواوِ؛ لمشاركةِ المعطوفِ والمعطوفِ عليه في الطَّلبِ، ولمناسبةِ الجهةِ الجامعةِ بينهما، فالأوّلُ هو أمرٌ بقتالِ المشركين، والثّاني هو أمرٌ بتعلُّمِ قسمةِ الغنائمِ المحصَّلةِ من قتالِ المشركين، ولمّا أعْقَب تقسيمَ الغنائمِ بعد الأمرِ بالقتال؛ كان بمثابةِ البشارةِ بالنّصرِ، فإنَّ الغنائمَ لا تكون إلّا عندَ الغلبة[2].

نكتةُ التَّعبيرِ بلفظِ ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ﴾:

لا عُذْرَ في انتفاء العلمِ بما يُذكَرُ بعد لفظ (واعلموا)

لمّا كانَت قسمةُ الغنيمةِ وما يتعلَّقُ بها منَ المهمّات الّتي يحتاجُها النّاسُ، ولكي لا يقعَ تنازعٌ بينَهم، افتُتِحَ قوله تعالى: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم مِّن شَيۡءٖ﴾ بفعلِ الأمرِ ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ﴾ المفيدِ وجوبَ الامتثالِ بتحصيلِه.

ومنَ الفوائد اللّغويّةِ للتّعبير به: أوّلًا: الإيذانُ بأنَّ ما سَيُذكَرُ ممّا لاعُذْرَ للمؤمنين في انتفاءِ العلمِ به. وثانيًا: ليبذل المؤمنون المخاطَبون الجُهْدَ في تفريغِ أذهانهم؛ لوعيه وتنزيلِه منازلَهُ ورَعيه. وثالثًا: للاهتمام بما يتضمَّنُه مُتعلِّقُ الفعلِ؛ لِحثِّ المخاطَبين على التّأمُّل فيما بعدَه. ورابعًا: لِلَفْتِ أذهانِ المخاطَبين إلى ما يُغفَلُ عنه

(1) ابن جرير، جامع البيان: 13/553 - 560، ونخبة من أساتذة التّفسير، التّفسير الميسّر، ص: 182.
(2) السّكاكيّ، مفتاح العلوم، ص: 251.

غالبًا من أمرٍ مهمٍّ، ينبغي العلمُ به لما فيه من أثرٍ في حياتِهم. كما أفادَ الأمرُ بـ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ﴾ تعليمَ اللّٰه تعالى المؤمنين قَسْمَ غنائمِهم إذا غَنِموها[1].

بلاغةُ التّعبيرِ بـ: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ﴾ بينَ الكنايةِ والمجازِ المُرسَلِ:

المقصدُ الأسنى ظهورُ ثمرةِ العلمِ بالعمل:

يَحْتَمِلُ الأمرُ بـ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ﴾ أن يكونَ كنايةً، يُرادُ بها صريحُ العلمِ ولازمُه[2]؛ والمعنى: طلبُ تعلُّمِ المؤمنين قسمةَ الغنيمة، وطلبُ العملِ بها، لِما يترتّبُ على العلمِ منَ الانقياد لأمرِ اللّٰه، والعملِ بشريعتِه، فتكون الكنايةُ هنا على إرادة المعنيين معًا. ويَحتمِلُ أن يكونَ اللَّفظُ على معنى المجازِ المُرسَلِ، فإنَّ العلمَ العمليَّ إذا أُمر به لم يُرَدْ منه العلمُ المجرَّدُ؛ لأنَّه مقصودٌ بالعَرَضِ، والمقصودُ بالذّاتِ هو العملُ بقرينةِ السّياقِ، والعلاقةُ هي اللُّزومُ؛ بمعنى: ذَكرَ الملزومَ وأرادَ اللّازمَ، فالمرادُ هو العلمُ المُضمَّنُ بالعمل، والانقيادُ لأمرِ اللّٰه تعالى في تقسيمِ الغنيمةِ؛ لأنّ العلمَ بقسمةِ الغنيمةِ يستوي فيه المؤمنُ والكافرُ[3].

دلالةُ المصدرِ المؤوَّلِ في قوله: ﴿أَنَّمَا غَنِمۡتُم﴾ ﴿فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ﴾:

الحثُّ على الامتثالِ بالإجمالِ بتحصينِ المعنى منَ الاحتمالِ

وردَ المصدرُ المؤوَّلُ في موضعينِ في الآيةِ في قولِه: ﴿أَنَّمَا غَنِمۡتُم﴾، وقولِه: ﴿فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ﴾؛ لاقتضاءِ المقامِ تحصينَ المعنى منَ الإشكالِ والاحتمالِ الّذي يقترنُ بالمصدرِ الصَّريحِ، وتخليصَه من شوائبِ الإجمالِ، وللإيذانِ بأنَّ المرادَ حقيقةُ الغُنْمِ، وحقيقةُ استحقاقِ اللّٰه، وما عُطِفَ عليه الخُمُسُ من غيرِ أيِّ وصفٍ، أو هيئةٍ، أو كيفيّةٍ مصاحبةٍ لِلغُنْمِ أو لاستحقاقِ الخُمسِ، أي: سواءً أكانَ الغُنْمُ بجُهدٍ كثيرٍ أو قليلٍ، أو بضَررٍ كبيرٍ أو صغيرٍ؛ حثًّا على الامتثالِ بالإجمالِ المقصودِ في الأذهانِ[4].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/283، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/314.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 5/5.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/211، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/60.
(4) ابن القيّم، بدائع الفوائد: 1/92 - 93.

نكتةُ مجيءِ المفعولِ مصدرًا مُؤوَّلًا في قولِه: ﴿فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ﴾:

تأكيدُ وجوبِ العملِ بقسمةِ الغنيمةِ، من الأحكام الحكيمة

لمّا كانَ المصدرُ المؤوَّلُ ﴿أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ﴾ سدَّ مسدَّ مفعولَي ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ﴾، وسُلِك فيه تكرارُ الإسنادِ في موضعَي المصدرِ المؤوَّلِ؛ أفادَ ذلكَ تقوّيَ الحكمِ وتقريرَه، فهو على معنى تأكيدِ وجوبِ العملِ به[1]. ولفظُ (ما) في قوله تعالى هي اسمٌ موصولٌ بمعنى (الّذي)، والمصدرُ المنسبِكُ من أنّ وما بعدها مفعولٌ لـ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ﴾؛ أي: "اعلموا كونَ الّذي غَنِمتُموه: خُمسه للّه ولرسوله، إلى آخر النّصِّ الكريمِ"[2].

دلالةُ تَكرار ﴿أَنَّمَا﴾ التَّوكيديَّة:

تأكيدُ المعنى وتقريرُه في نفوسِ المخاطَبين من مألوف السّياقِ القرآنيِّ

أفادَت ﴿أَنَّمَا﴾ – في قوله: ﴿أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ﴾ – تأكيدَ الإسنادِ وتقريرَه؛ لتقويةِ المعنى وتثبيتِه في نفوسِ المخاطَبين، والقاعدةُ أنْ "توصلَ (ما) مع (أنّ)، إذا كانت كافّةً عنِ العمل، وتُفصلَ كما هنا إذا كانت عاملةً، وجملة ﴿أَنَّمَا غَنِمْتُم﴾ صلةٌ، والعائدُ محذوفٌ، والتّقديرُ: أنّ الّذي غنمتُموه ﴿مِّن شَيْءٍ﴾ مُطلَقُ شيءٍ بدليل التّنوين: ﴿فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ﴾"[3]، وكذلك للمُستحقّين كما هو ترتيبُهم في الآية.

مناسبةُ التَّعبيرِ بالاسم الموصول ﴿أَنَّمَا﴾:

الغنيمةُ توجِبُ استحقاقَ الأصنافِ الخمسةِ الخُمُسَ

الظّاهرُ أنّ ﴿أَنَّمَا﴾ في قوله: ﴿أَنَّمَا غَنِمْتُم﴾ موصولةٌ بمعنى الّذي[4]، ومناسبةُ التّعبيرِ بالاسم الموصول بيانُ وجهِ بناءِ الخبرِ عليه؛ أي: لأنَّكم غنمتم، فاستحقَّ الأصنافُ المذكورة الخمُسَ، وفيه إشعارٌ بتوجيهِ أذهانِ المخاطَبينَ إلى ما سيخبرُ به من قسمةِ الغنيمةِ

(1) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 9/83.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 6/3130.
(3) عبد القادر العاني، بيان المعاني: 5/292.
(4) السّمين الحلبيّ، الدُّرّ المصون: 5/605.

لينتظروا ورودَه إليهم، حتَّى يأخذَ منهم مكانَه إذا ورد[1]، ومعلومٌ "أنّ المسلمين قد اختلفوا في شأن هذه الأنفال، فكان أنِ انتزعَها اللّهُ من أيديهم، ووضعها في يد الرّسول، ليضعَها حيث يرى"[2].

نكتةُ التَّعبير بـ(ما):

لفظ (مـا) أعـمُّ من لفظ (الّذي) في استعماله في السّياق

عَبَّرَ بـ(ما) دونَ (الّذي) في قوله: ﴿أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ﴾؛ لأنَّ (ما) أعمُّ منَ الّذي، والسّياقُ يقتضي العمومَ؛ ليتناولَ كلَّ ما يكونُ مَغْنمًا، وإن كانَ قليلًا كما سيأتي، والعِبرةُ ليسَت في قلّة الغنائم أو كثرتِها، بل في نصر اللّهِ وتأييده لعباده المؤمنين من جهة، وفي براءة ذمّةِ المنتصرين منَ الغُلول الماحقِ والتّنازعِ السّاحقِ من جهة أخرى، إذ ماحصّلوه من غنيمةٍ مهما كان، فهو متاعُ الحياةِ الدّنيا الزّائل، وما عند اللّه خيرٌ للأبرار.

نكتةُ التّعبيرِ بلفظ ﴿غَنِمْتُم﴾:

الغنيمةُ مِنَّةٌ لله تعالى على المؤمنين؛ تتويجًا للنّصر المبين

عَبَّرَ بـ﴿غَنِمْتُم﴾ في قوله: ﴿أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ﴾ دونَ (ظَفِرتُم) مثلًا؛ للإشعار بأنَّ القسمةَ المذكورةَ مختصَّةٌ بما ظُفِرَ به من مالِ المشركين بغلبةٍ أو قهرٍ، وبأنَّه من توابعِ النَّصرِ؛ لإفادة أنَّ الغنيمةَ منَّةٌ للّه تعالى على المؤمنين، و"(غَنِمَ) يدلُّ على إفادة شيءٍ لم يُملكْ من قبل، ثمّ يختصُّ به ما أُخِذَ من مال المشركين بقهرٍ وغلبةٍ"[3].

سببُ إيثارِ حذفِ العائدِ في قوله: ﴿غَنِمْتُم﴾:

غـرضُ حـذفِ العائدِ الإيجازُ، وهو من صميم الكلامِ البليغِ

حُذِفَ العائدُ للإيجاز، وهو منَ البيان في موضعِه، ولو ذُكِرَ فقيل: (غنمتموه) لاستطالتِ الكلمةُ من غيرِ فائدةٍ، ولتخصَّصَ المَغنمُ، مع أنَّ المقامَ مقامُ تعميمٍ كما تقدّم، وكلُّ ما وضعَ عليه المنتصرون أيديهم، مهما غَلا وعَلا، فهو محسوبٌ منَ الغنيمة،

(1) السّكاكيّ، مفتاح العلوم، ص: 182.
(2) عبد الكريم الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 5/612.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (غنم).

وعدمُ تخصيصِه هو فتحٌ لمجال الحصرِ للغنيمة، وعدمُ تقييدٍ له بأشياء دون أشياء، علمًا بأنّ الغنيمةَ كثيرًا ما تهفو لها قلوبُ القادةِ والجندِ، مع أنّها ليست غايةً في الجهاد، ولا مُدرَجةً في النّوايا، ولا واردةً في المقاصد، ولكنّها نتيجةٌ لا غايةٌ، ووسيلةٌ لا هدفٌ.

نكتةُ التّعبيرِ بلفظ ﴿شَيْءٍ﴾:

كلُّ ما يُحصَّلُ من غنيمةٍ، هو فيوضاتُ عطاءٍ كريمةٌ

لمّا كانَ لفظُ شيءٍ في قوله: ﴿أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ﴾ مِن ألفاظِ المعاني الّتي تُطلَقُ على كلِّ ما يُطلَقُ عليه اسمُ شيءٍ، أو على كلِّ ما يصِحُّ الإخبارُ عنه منَ المخلوقاتِ في هذا السّياقِ، وكان (ما) فيه معنى الشّرطِ ورائِحَتُهُ، دلَّ التّعبيرُ على عموم ما يُطلَقُ عليه شيءٌ؛ ليشملَ الحقيرَ والجليلَ، والصَّغيرَ والكبيرَ؛ لئلّا يُتوهَّمَ أنَّ المقصودَ غنيمةٌ معيَّنةٌ خاصَّةٌ[1].

دلالةُ الحالِ في الجارّ والمجرورِ ﴿مِّن شَيْءٍ﴾:

تقسيمُ الغنائم شرعٌ مُؤسَّسٌ يذهبُ بسَخائِم الأنفُسِ

لمّا كان الجارُّ والمجرورُ ﴿مِّن شَيْءٍ﴾ في محلِّ نصبٍ على الحالِ منَ الضَّميرِ المحذوفِ، في قوله: ﴿غَنِمْتُم﴾[2]، بتقدير: غنمتُموه، دلَّ على معنى: كائنًا ما كان ذلك الشَّيءُ قليلًا أو كثيرًا، وفي ذلك ترشيدٌ لأهواء النّفوسِ، وكَفْكَفةٌ للمطامعِ والمطامحِ المعهودةِ، وذلك لونٌ منَ الجهاد الأكبر، وهو جهادُ النّفسِ، حتّى لا تدخل الأنفسُ في مماحكاتٍ دنيئةٍ، ومشاكساتٍ وضيعةٍ، تعصفُ بالأجور، وتُحبطُ الأعمالَ، وتُسهمُ في تَذْكيَةِ الصّراع الماديِّ المسعورِ، ممّا تشهدُه الانتصاراتُ عادةً، في كلّ زمانٍ، وفي كلّ مكانٍ.

نكتةُ مجيءِ الفاء في ﴿فَأَنَّ﴾:

توسّعُ المعنى لتكثيرِ الفائدة من بلاغة القرآنِ الزّائدةِ

أفادَ مجيءُ الفاءِ في حَيِّز الخبرِ في قوله تعالى: ﴿فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ﴾ تأكيدَ تضمينِ الاسمِ الموصول (ما) معنى الاشتراطِ؛

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/211، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 3/219، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/7.

(2) السّمين الحلبيّ، الدّرُّ المصون: 5/606، والآلوسيّ، روح المعاني: 10/3.

ليكونَ الخبرُ على معنى المجازاةِ، والتَّقديرُ: إنْ غنمتُم فحَقٌّ للّهِ خُمُسُه، فيكون الكلامُ مُضمَّنًا معنيين: أحدُهما الإخبارُ؛ ليفيدَ الثّبوتَ، والثّاني: الاشتراطُ؛ ليفيدَ أنَّ الحصولَ على الغنيمة سببٌ للقسمةِ، وللإشعارِ باقترانِ مفهومِ القسمةِ بالحصولِ على الغنيمةِ، لِما يفيدُه معنى الشّرط[1].

دلالةُ اللّامِ في قولِه تعالى: ﴿لِلَّهِ﴾:

اختصاصُ الخُمُسِ بالأصنافِ المذكورة، وفْقًا لأحكامِها الفقهيّة المأثورة

تفيدُ اللّامُ في قولِه تعالى: ﴿فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ﴾ الاستحقاقَ، وهو الظّاهرُ، والمعنى أنَّ الخُمسَ مُستحقٌّ للّه، ويُشعِرُ الاستحقاقُ بمعنى الاختصاص، فإنَّ مَن استحقَّ شيئًا فقد حصلَ له بهِ نوعُ اختصاصٍ[2]، وهذا منَ المعاني الّتي كانت سببًا في إفرادِ الاسمِ الجليلِ وتقديمِه، وأجازَ بعضُ المفسّرينَ أن تكونَ للمُلكِ[3]. و"أكثر المُفَسّرين على أنّ قَولَه: ﴿لِلَّهِ﴾ افتِتاحُ كلامٍ، وليسَ للّه سهمٌ مُنفَردٌ؛ بل سهمُ اللّه وسَهمُ الرَّسول واحِدٌ. وفيه قَولٌ آخر: أنّ للّه سَهْمًا يُصرَفُ إلى الكَعبَة، وقد رويَ أنّ الحسنَ بن مُحَمَّد بن الحَنَفيَّة سُئِلَ عَن هذه الآيَة فقال: قَولُه ﴿فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ﴾ افتِتاحُ كلامٍ، للّه الدُّنيا والآخِرَة"[4].

مناسبةُ إفرادِ اسمِ اللهِ في المعاطيف:

رَضيَ منَ المؤمنين بالخُمُسِ فسمّاه لنفسِه، وردَّهُ عليهم

أفردَ النَّظْمُ الكريمُ اسمَ اللّهِ تعالى، في قوله: ﴿فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ﴾، ولم يقلْ: (للّهِ ولِلرَّسولِ خُمُسَهُ)؛ بل قال: ﴿فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ﴾؛ لتعظيمِ الأمرِ وتفخيمِه، وللإيذانِ بأنَّ الاستحقاقَ للّهِ أوَّلًا وبالذّاتِ، وأنَّ الدّنيا كلّها للّه، وللإشعارِ بمنَّةِ اللّه على المؤمنين، إذ رضي منكم بالخُمُسِ فسمّاه لنفسِه، وردَّه عليكم[5]، وهو ما يُلمَحُ في

(1) السّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 5/605، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/7.
(2) المراديّ، الجنى الدّاني، ص: 96.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/8.
(4) السّمعانيّ، تفسير القرآن: 2/265.
(5) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/60، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 8/238.

قوله تعالى: ﴿وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ﴾ [النّور: 33]، وكذلك في قوله تعالى: ﴿وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ [الحديد: 7].

سرُّ عطفِ الرّسولِ الأكرمِ على الاسمِ الأعظمِ:

الامتثالُ للرّسولِ المُجتبَى امتثالٌ لأمرِ الله الأعلى

لمّا تقرّرَ أنَّ الخُمُسَ للرّسول ﷺ كانَ عطفُ الرَّسولِ على الاسمِ الجليل في قوله: ﴿لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ﴾؛ إيذانًا بأنَّ ما يكون للرَّسول فهو للهِ، فإنَّ قِسْمَ اللّهِ وقسمَ الرَّسولِ واحِدٌ؛ تحضيضًا للامتثال لأمرِ الرَّسولِ المبلِّغ عنِ اللّه، ومثله قولُه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ﴾ [التّوبة: 62][1]، وقولُه: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النّساء: 80]، وارتباطُ طاعةِ اللّه وحقوقِه بطاعةِ الرّسولِ وحقوقِه محضُ تكريمٍ وتفخيمٍ لمقام النّبوّة السّامي.

بلاغةُ حذفِ الخبرِ في قوله: ﴿فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ﴾:

لا سبيلَ إلى الإخلالِ بالخُمُسِ والتّفريطِ فيه، مهما كانتِ الأسباب

المصدرُ المؤوَّل: ﴿فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ﴾ مبتدأٌ خبرُه محذوفٌ؛ لتقويةِ معنى الوجوبِ، واستحقاقِه للّه تعالى، وبيانُه أنَّه لمّا كانَ المرادُ تثبيتَ معنى أحقّيَّةِ الخُمُسِ للّه تعالى ووجوبِه؛ لم يكتفِ باقترانِ الاسمِ الجليلِ بلام الاستحقاقِ، فكانَ الإتيانُ بـ﴿فَأَنَّ﴾ على معنى تكريرِ الإسنادِ؛ تأكيدًا للمعنى. كما أنَّ الخبرَ إذا حُذِفَ واحْتَمَلَ غيرَ واحدٍ منَ التّقديراتِ، ممّا هو في المعنى نفسِه، مثلَ: ثابت أو واجب أو حقّ أو لازم، وما أشبه ذلك، كان أقوى؛ لإيجابه منَ النّصِّ على واحدٍ، فلمّا حُذِفَ الخبرُ، واقتضى المقامُ أن لا يقدّرَ إلّا ما يفيدُ الوجوبَ بعباراتٍ مُتعدّدةٍ، دلَّ على التّعميم الّذي يفيدُ تأكيدَ الوجوبِ، وتفخيمَ شأنِ القسمةِ، وتهويلَ تركِ الامتثالِ بها. وتقديرُ الكلامِ: فحقٌّ أو فواجبٌ أنَّ للّه خُمُسًا؛ أي: فلا بدَّ من ثبات الخُمسِ فيه، لا سبيلَ إلى الإخلال به والتّفريط فيه[2].

(1) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/60، وأبو حيّان، البحر المحيط: 5/323، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 8/238.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/221، والطّيبيّ، فتوح الغيب: 7/103، وابن التّمجيد، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 9/82، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/8.

مناسبةُ البَدْءِ بالاسم الجليلِ في سياق القِسمة:

غرضُ توكيلِ صرفِ الخُمُسِ إلى رسولِ اللهِ ﷺ

لمّا قال اللّهُ تعالى: ﴿فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ﴾ آذنَ بأنَّ الابتداءَ باسمِ اللّهِ تعالى؛ للإشارةِ إلى أنَّ ذلك الخمسَ حقُّ اللّه، يصرفُه حيثُ يشاءُ، وقد شاءَ فوَكَلَ صَرْفَهُ إلى رسولِه[1] ﷺ، كان له خمسُ الخُمس يصنعُ فيه ما يشاء، واليوم يُصرَفُ إلى مصالح المسلمين[2].

ولا شكّ أنّ المؤتَمنَ على صرف الخُمسِ إلى مصارفه الشّرعيّة، وقسمتِه على مستحقّيه؛ هو النّبيُّ الأمينُ، باعتباره المبلِّغَ عنِ اللّه، وحامي حمى الشّريعةِ، والقائمَ للّه بأمره، وفي ذلك دلالةٌ على حساسيّة هذه المهمّة وأهميّتِها.

سرُّ التَّعبيرِ في آية الخُمس:

براعةُ نظمِ القرآن وحسنُ تأليفِه من صميمِ بلاغته الرّاقية

من براعة نظم الآيةِ، أنّ قوله تعالى: ﴿۞وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا يَوۡمَ ٱلۡفُرۡقَانِ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِۗ﴾ هو بمثابة جملةٍ واحدةٍ، تعلّقَ أوّلُها بآخرِها، مع تكرُّرِ الإسنادِ وتعلّقِ الشَّرطِ في قوله: ﴿إِن كُنتُمۡ﴾ بما قبله، في تآلفٍ في النّظمِ عجيب.

نكتةُ تتابُعِ التّأكيداتِ في آية الخُمس:

تتابُعُ التّأكيداتِ لتجنُّبِ التّنازعِ على الغنيمة، بحسمِ الأمرِ ابتداءً

توالت تأكيداتٌ عدَّةٌ في قوله: ﴿۞وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ﴾، ومن شأنِها أن تبعثَ في النّفوسِ تقوى اللّهِ تعالى في أمرِ المكاسِب الدُّنيويّة، فقد أمرَت بالعلم، ودلَّت على فائدة الخبرِ ولازمِها، وجاءَتِ على أسلوب الجملة الاسميّةِ بما تفيدُه من ثبوتِ المعنى، وتكرّرت (أنّ) الّتي تفيدُ تأكيدَ مضمونِ الجملة، وكان الشّرطُ على معنى التّكرير؛ لتقدُّمِ ما يدلُّ على الجواب عليه، كما

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/8.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/8.

أفادَ تقدّمُ المسنَدِ على المسنَدِ إليه في قوله: ﴿فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ﴾ تأكيدًا آخرَ، فتتابعتِ المؤكِّداتُ كي لا تبقى في النّفوس أيُّ رغبةٍ في التّدافُعِ نحوَ الغنيمةِ والتّنازعِ.

دلالةُ (أل) في لفظ (الرَّسولِ):

رُسّيَت أحكامُ الغنائمِ على أمانةِ الرّسولِ وقدوتِه

(أل) في قوله: ﴿وَلِلرَّسُولِ﴾ عهديَّةٌ؛ أي: الرَّسولُ الّذي تعرفونه، فأشْعَرَ مجيءُ (أل) العهديّة بقُربِه منهم؛ حثًّا على الامتثالِ ورعايةً لِحقِّ الرّسالةِ، وقد كان ذلك التّخصيصُ تكريمًا لمقام النّبوّة المستَحِقَّة، لما تقتضيه أعباءُ البلاغِ في بيئةٍ نافرةٍ منكِرَةٍ، ومُتَطلَّباتٍ لتأسيسِ مجتمعِ الأنصارِ والمهاجرةِ، وعليه حُدِّدَ سهمُ الرّسول ﷺ، "فقد كان له الخُمسُ من خُمُسِ الغنيمةِ، فيصرِفُهُ في كفايةِ أولادِه ونسائِه، ويَدَّخِرُ من ذلك قوتَ سنةٍ، وما يَفضُلُ يصرفُه إلى الكُراعِ والسّلاحِ وغيرِ ذلك منَ المصالحِ، وقال الشّعبيّ: ما كان رسولُ اللّه ﷺ يطلبُ منَ الغنائمِ لنفسه شيئًا قطّ إلّا الصَّفيَّ منَ المَغنَمِ، وهو ما كان يتناولُه من عبدٍ أو أمَةٍ أو فرسٍ"[1].

سرُّ إعادةِ اللّام دون عطفِها في قولِه: ﴿وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾:

تأكيدُ العنايةِ بذي قُربى رسول الله ﷺ

لمّا كانت اللّام في قوله: ﴿لِلَّهِ﴾ للاستحقاقِ كما تقدّم، ومثلُها في ﴿وَلِلرَّسُولِ﴾، أفادَ إعادةُ اللّام في ﴿وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ دونَ غيرِهم منَ الأصنافِ الباقيةِ، دفْعَ توهُّمِ اشتراكِهم في سهمِ النّبيِّ ﷺ؛ لمزيدِ اتِّصالِهم به، ولِلاهتمامِ والعنايةِ بهم[2].

دلالة (أل) في قوله: ﴿ٱلْقُرْبَىٰ﴾:

إكرامُ ذوي القربى لأجلِ قرابتِهم من رسولِ الله ﷺ

لمّا كانَت لامُ الاستحقاقِ مفيدةً اتّصالَ ﴿وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ بالرّسولِ كانت (أل) في القُربى عِوضًا عن مضافٍ إليه مقرّرٍ للاتّصال، والتّقدير: لذي قربى المُؤتي المالَ، وهو الرَّسولُ المذكورُ قبلَه، والمعنى:

(1) الكيا الهرّاسيّ، أحكام القرآن: 3/158.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 10/4.

ولذوي قربى الرَّسول؛ أي: قرابته، ففيه إيذانٌ بأنَّ إكرامَهم لأجلِ صلةِ القرابةِ برسولِ اللّهِ ﷺ، ولأنَّ اللّه حرَّمَ عليهم أخذَ الصَّدقاتِ والزَّكاةِ، فلا جَرَمَ أنَّهُ أغناهم من مالِ اللّهِ[1].

وقال القرطبيُّ: إنّ اللّامَ لبيان المصرفِ والمحلِّ[2]، وإكرامُهم بسبب القربى من رسول اللّه واردٌ بجلاءٍ في قوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰۗ﴾ [الشّورى: 23]، وفي الحديث: «لا يُحبُّهُم إلّا مُؤمنٌ، ولا يُبغضُهُم إلّا منافقٌ، مَن أحبَّهم أحبَّه اللّه، ومَن أبغضَهم أبغضَه اللّه»[3]، وقد أُثِرَ عنِ الصّدّيق رضي الله عنه أنّه قال: (والَّذي نَفسي بيَدِه لَقَرابَةُ رَسولِ اللّه ﷺ أحَبُّ إليَّ أن أصِلَ مِن قَرابَتي)[4]. وقد أجمعَ العلماءُ على أنّه من تمامِ محبّةِ النّبيِّ ﷺ محبّةُ آله، ومعلومٌ أنّ القرآنَ يحثُّ على إكرام القرابة عمومًا، وهم أولو الأرحام، وصلةُ رحمِ النّبيِّ أولى بالإكرام، وفي هذا المضمار يقول الشّافعيّ[5]:

يا آلَ بَيتِ رَسولِ اللّهِ حُبَّكُمُ *** فرضٌ مِنَ اللّهِ في القُرآنِ أنزَلَهُ
يَكفيكُمُ مِن عَظيمِ الفَخرِ أنَّكُمُ *** مَن لَم يُصَلِّ عليكُم لا صَلاةَ لَهُ

بلاغةُ التَّراكيبِ في آية الخُمس:

الغنيمةُ كلُّها لله، وتقسيمُها مِنَّةٌ منَ الله على المؤمنين

جاء قولُه: ﴿فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ في تأليفٍ بديعٍ ونظمٍ بليغٍ عجيبٍ، وبيانُه أنّه أفردَ كينونةَ الخُمُسِ للّهِ، وفَصَلَ بينَ اسمِه تعالى وبين المعاطيف، بقوله: ﴿خُمُسَهُۥ﴾؛ ليَظْهَرَ استئثاره تعالى بكَينونَةِ الخُمسِ له، ثمّ أشرَكَ المعاطيفَ معه على سبيلِ التَّبعيّةِ له؛ للإشعارِ بأنَّ الأمرَ كلَّه

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/9.
(2) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 8/11.
(3) البخاريّ، الجامع الصحيح، برقم: (3572).
(4) البخاريّ، الجامع الصحيح، برقم: (3508).
(5) حسين بن محمّد المهديّ، صيد الأفكار في الأدب والأخلاق والحكم والأمثال: 1/438.

للّهِ، فالمعاطيفُ من جهةِ أنَّها توابعُ يكون موضعُها التَّقديمَ؛ لتقدُّمِ المعطوفِ عليه؛ ليفيدَ التّقديمُ التّخصيصَ والاهتمامَ بالقسمةِ، ومن جهة فصلِها بـ﴿خُمُسَهُۥ﴾ يكون موضعُها التّأخيرَ؛ للإشعارِ بأنّ الغنائمَ كلَّها للّهِ، ولهذا لم يأتِ التَّركيبُ على ما هو مقتضى الظّاهر، بأن يُقال: (فأنّ للّهِ وللرَّسولِ ولذي القُربى واليتامى والمساكين وابنِ السَّبيل خمُسَه)[1].

دلالةُ (أل) في قوله تعالى: ﴿وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ﴾:

(أل) في اللَّفظين جنسيَّةٌ؛ للإشعارِ بأنَّ النَّصيبَ المذكورَ ليس لأفرادٍ معيّنين بل لكلِّ مَن له وصفٌ من حقيقةِ اللَّفظين المذكورَين؛ لإفادةِ العمومِ، وهؤلاء هم أجدرُ النّاسِ بالعطاء، وقد حثّ اللّهُ على القسمة لهم وإغنائهم، لما يحتاجون إليه من دعمٍ وإعانةٍ، على اعتبار أنّهم جزءٌ منَ المجتمع، وأنّ الدّولةَ تُخصّصُ لهم من مداخيلها ما يُغنيهم عن ذلّ السّؤالِ، ما داموا في ظلّ الإسلام، أخذًا بمبدأ التّكافلِ العامِّ، وحِفظًا لكرامة الإنسانِ في مجتمع الإيمان.

اليتامى والمساكين محلُّ الشَّفقة، ومناطُ العنايةِ والمؤازرة

نكتةُ مجيءِ ﴿وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ﴾ بصيغةِ الجمعِ:

جاءَ اللَّفظانِ بصيغة الجمعِ؛ لِما في الجمعِ من معنى الكثرةِ؛ لِتهتزَّ قلوبُ المؤمنين لهم، ويرغبوا في إعطائِهم، فيكونوا ممتثلين لأمرِ اللّه بإعطائهم قسمتَهم منَ الغنيمةِ عن رضًا ورغبةٍ، والاستحقاقُ كان لهاته الفئات لما يعانون من غَبْنٍ وخَصاصَةٍ، وقد تكفّلَ الشّرعُ بتقسيم الغنائم تفاديًا للصّراع المادّيِّ المسعورِ، ممّا يقعُ عادةً عند انتصارِ الجيوشِ، وصراع القادةِ والجندِ؛ لتحصيل المنافعِ الدّنيويّةِ المغْريَةِ، وهو أمرٌ حَسَمَه السّياقُ القرآنيُّ بحزمٍ ودقّةٍ، مُلتفتًا إلى الفئات المسحوقة منَ اليتامى المغبونين، والمساكينِ المعوزين؛ لضمان الكفايةِ، والتّخفيفِ من ضغط الحياةِ، ولأَوْاءِ العَوَزِ.

كثرةُ اليتامى والمساكين توجبُ إعطاءَهُم قِسمَتَهم منَ الخُمُسِ

(1) أبوحيّان، البحر المحيط: 5/326.

بلاغةُ ترتيب المستحقين في آية الخُمس:

اليتامى أشدُّ عَوَزًا من المساكين؛ لزيادة فقْدِ العائل، وانكسارِهم باليُتْم

لمّا كانَتِ القرابةُ مُقدَّمةً شرعًا وعُرفًا، وكان اقترانُ ﴿وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ بلفظ ﴿وَلِلرَّسُولِ﴾ فيه بيانُ اتّصالِهم برسول الله، قُدِّمَ لفظُ ﴿وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ على غيرِه، ولمّا كان اليتيمُ أشدَّ عَوَزًا منَ المسكين غالبًا، والقلوبُ بفطرتِها تميلُ إلى إعطائه، قُدِّمَ على المسكين، وكلُّهم يُقدَّمُ على ابن السّبيل.

ولهذا التّرتيبِ نظائرُ في القرآن الكريم، كما في قوله تعالى: ﴿فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [الحشر: 7]، وقوله: ﴿وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ﴾ [البقرة: 177]، وقوله: ﴿وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [النّساء: 36].

نكتةُ الإفرادِ في ﴿وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾:

أُفرِدَ ابنُ السَّبيلِ؛ لانفرادِه عن أحبابِه ووطنِه وأصحابِه

لم يُذكرِ ﴿وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ في القرآنِ الكريم إلّا بحالةِ الإفراد دونَ الجمعِ، فلم يقُلْ: (أبناء السّبيل)، مع أنّه في أكثر المواضع كان يُعطَفُ على الجمعِ، وكأنَّ إفرادَه لانفراده عن أحبابِه ووطنِه وأصحابِه، فهو أبدًا يتوقُ إلى الجمعِ، ويشتاقُ إلى الرَّبعِ، والكريمُ يحِنُّ إلى وطنه حنينَ الشّارف إلى عَطَنِه. أو لأنَّه لمّا لم يكنْ بين أبناءِ السَّبيلِ والمعطي تعارفٌ غالبًا، يُهوِّنُ أمرَ الإعطاء، ويرغِّبُ فيه، أفردَهم؛ ليهونَ أمرُ إعطائِهم، وليشيرَ إلى أنَّهم - وإنْ كانوا جمعًا - ينبغي أن يُعتَبَروا كنفسٍ واحدةٍ، فلا يَضْجَرُ من إعطائِهم لِعدمِ معرفتِهم وبُعْدِ منفعَتِهم[1].

سرُّ جمعِ اليتامى والمساكين، وإفرادِ ابن السَّبيل:

الاهتمامُ بترتيبِ القسمةِ مِن عدلِ القرآنِ والحكمةِ

لمّا كان اليتامى والمساكين أكثرَ مِن ابنِ السَّبيل باعتبارِ الوجودِ

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 2/70 - 71.

الخارجيِّ؛ قُدِّمَ الكثيرُ على القليل في القسمةِ، وللإشعارِ بأهمّيّة ترتيبِ القسمةِ بينهم[1].

نكتةُ التَّعبيرِ بـ﴿إن﴾ الشَّرطيَّة:

تقسيمُ الغنيمةِ دالٌّ على كمالِ الإيمانِ، وتنفيذِ أحكامِ الرّحمن

لمّا كانَت (إنْ) تُسْلَكُ فيما يُشكُّ فيه؛ لندرةِ وقوعِه أو لصعوبتِه، كان الإتيانُ بـ﴿إن﴾ هنا في قوله: ﴿إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ﴾ على خلافِ مقتضى الظّاهر؛ لأنَّ المخاطَبين مؤمنون، ومناسبةُ مجيء الكلامِ على خلافِ مقتضى الظّاهر، هو الإشعارُ بثقلِ تحقُّقِ الجزاءِ وصعوبتِه على النّفسِ، لِما فيه منَ التّخلّي عنِ المالِ - الّذي يتحصَّلُ بمشقَّةٍ وكربٍ - للّه ولرسولِه، فلمّا كانت (إن) تُستعمَلُ لِما يندرُ وقوعُه؛ أفاد الإتيانُ بها تعظيمَ شأنِ إيمانِهم، عندَ امتثالِهم للّه ولرسولِه ﷺ، كما يَحتمِلُ أن يكون المعنى: (إنْ كنتم مؤمنين حقًّا)؛ ليكونَ تقسيمُ الغنيمةِ دالًّا على كمالِ الإيمانِ.

بلاغةُ حذفِ جوابِ الشّرطِ:

حُـذِفَ جـوابُ الـشّـرطِ لتأكيدِ الامتثال لقسمةِ الغنيمةِ

جاء النَّظمُ الكريمُ في قوله: ﴿إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا﴾ على هيئة الجملةِ الشّرطيّةِ الّتي حُذِفَ جوابُها؛ ليفيدَ تأكيدَ المعنى وتقريرَه، وكأنّ جوابَ الشّرطِ قد تكرَّر؛ لتعلُّقِ الشّرطِ بجوابٍ محذوفٍ يدلُّ عليه ﴿۞وَٱعۡلَمُوٓاْ﴾؛ والمعنى: "إنْ كنتم آمنتم باللّه وما أنزلنا على عبدنا يومَ الفرقانِ، يومَ التقى الجمعانِ، فاعلموا أنّه تعالى جَعَلَ الخُمُسَ لهؤلاء، فيجبُ التّقرّبُ به، فانقادوا وسلِّموا لأمرِ اللّه فيما أعلمكم به من حال قسمةِ الغنيمةِ، وسلِّموا الخُمُسَ إليهم، واقتَنِعوا بالأخماس الأربعة الباقية"[2]. وأفادَ هذا الأسلوبُ تحفيزَ السّامعين وتنشيطَهم لِلمبادرة إلى الامتثالِ، فيما يُتصوَّرُ فيه مشقَّةٌ على النّفسِ.

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/516.

(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/211، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/531، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/60.

مناسبةُ التَّعبيرِ بـ(ما) وصلته:

تعظيمُ شأنِ الآياتِ المنزّلةِ يومَ الفرقانِ مَلمحٌ في البيان

لمّا كان الاسمُ الموصول (ما) أعمَّ منَ (الّذي) دلَّ التَّعبيرُ به في قوله: ﴿وَمَآ أَنزَلۡنَا﴾ على تعظيمِ النَّصرِ الّذي أنزله اللّهُ يومَ بدرٍ على نبيِّه ﷺ وأصحابِه وظهورِه، فالمنزَّلُ يومَ بدرٍ آياتٌ عظيمةٌ باهرةٌ، ولتأكيدِ هذا العمومِ وتفخيمِه حُذِفَت صلةُ الموصولِ، والتّقدير: إن كنتم آمنتُم باللّه وبما أنزلناه[1]. والمعنى في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا﴾؛ "أي: وآمنتُم بما أنزلنا على عبدنا محمّد صلّى اللّه عليه وآله وسلّم، من آياتِ التّثبيتِ والمَدَدِ، يَومَ الفُرقانِ الّذي فرَقْنا فيه بين الكفر والإيمان"[2].

بلاغةُ أسلوبِ الالتفاتِ:

على قدرِ عظمةِ المُنزِلِ تكونُ عظمةُ المُنزَلِ

في قوله: ﴿وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا﴾ التفاتٌ، فلم يَقُل: (وما أنزلَ على عبدِه) بعد قوله تعالى: ﴿إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ﴾، فعَدَلَ عن ضمير الغَيْبةِ إلى (نا) الّتي تفيدُ تعظيمَ المتكلِّم، ولوَّنَ الخطابَ للإشعارِ بتعظيم الآياتِ المنزَّلةِ، فالعظيمُ لا ينزِّلُ إلّا آياتٍ عظيمةً.

كما أنَّ في الالتفاتِ عنايةً بالمُنزَّلِ والمُنزَّلِ عليه، واستدرارًا لإصغاء السّامعين لِعظَمِ شأنِ الخبرِ.

نكتةُ التَّعبيرِ بالفعل ﴿أَنزَلۡنَا﴾:

علّةُ نزولِ الآياتِ يومَ بدرٍ، بسرعةٍ وتدفّقٍ عجيبٍ

أفادَ التّعبيرُ بالفعل ﴿أَنزَلۡنَا﴾ أنَّ نزولَ الآيات يومَ بدرٍ كان دفعةً واحدةً، وكان إنزالًا سريعًا لأجلِ التَّفريجِ عنكم منَ القرآنِ، والجنودِ، والسَّكينةِ في قلوبِكم، وغير ذلك، وأشعرَ اللّفظُ برفعةِ المنزَّلِ؛ لأنَّ الإنزالَ منَ السّماء. وقولُه: "﴿وَمَآ أَنزَلۡنَا﴾ عطفٌ على الاسم الجليل؛ أي: إن كنتم آمنتم باللّه وبما أنزلناه"[3]؛ "أي: إن كان إيمانُكم باللّه،

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/531، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/23.
(2) الأبياريّ، الموسوعة القرآنيّة: 9/562.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/23.

وبالحقّ الّذي أنزله اللّهُ على رسوله يومَ الفرقان، الّذي حصلَ فيه منَ الآيات والبراهين، ما دلّ على أنّ ما جاء به هو الحقّ"[1].

دلالةُ الحرفِ ﴿عَلَىٰ﴾:

غرضُ السّياق تشريفُ رسولِ اللّه ﷺ وتكريمُه

أفادَ التّعبيرُ بحرفِ الاستعلاء في قوله: ﴿وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا﴾ تمكُّنَ الآياتِ المنزّلةِ من رسولِ اللّهِ ﷺ، وكأنَّها أظلَّته استيعابًا، تشريفًا له ﷺ وتكريمًا، وفيه التّنويهُ بالرّسول المنزَّلِ عليه القرآن، ومختلف معجزات التّأييدِ والنّصرِ له في غزوة بدرٍ؛ للتّذكير بأنّ "ما أسداهُ إليكم يومَ بدرٍ، لم يكن جاريًا على مُتعارَفِ الأسبابِ المُعتادَةِ، فقُدرةُ اللّه قلبَتِ الأحوالَ، وأنشأتِ الأشياءَ من غيرِ مَجاريها. ولا يَبعُدُ أن يكونَ من سببِ تَسميَةِ ذلكَ اليوم يومَ الفرقانِ، أنّه أُضيفَ إلى الفرقانِ الّذي هو لَقَبُ القرآنِ، فإنَّ المشهورَ أنّ ابتداءَ نزولِ القرآنِ كان يومَ سبعةَ عشَرَ من رمضانَ، فيكونُ مِن استعمالِ المُشترَكِ في مَعنَيَيهِ"[2].

بلاغةُ التّعبيرِ في قوله: ﴿عَلَىٰ عَبۡدِنَا﴾:

إبرازُ مقامِ الرّسولِ الأعظمِ، بوصف العبوديّةِ الأكرم

في وصفِ رسولِ اللّه بكونه عبدًا للّه في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا﴾ تشريفٌ لمقامه ﷺ، فهو أعلى مقام يمكن أن يصلَ إليه بشرٌ، ولم يوصَف به رسولُ اللّهِ ﷺ في القرآن إلّا في سياقِ الخصوصيّة، فدَلَّ على أنَّ إنزالَ الآياتِ لخصوصيّةِ رسولِ اللّهِ ﷺ، كما أنَّ إضافتَه إلى ضميرِ العظمةِ زيادةٌ في تشريفِه ورفعةِ مقامِه. ولمّا خصَّ الإنزالَ على رسولِه، ولم يقُل: (وما أنزلنا عليكم) أفادَ أنَّ سببَ إنزالِ الآياتِ وحصولِ الغُنْمِ والنّصرِ أمران: إيمانُهم باللّه ووجودُ رسولِ اللّه بينهم؛ تكريمًا له ﷺ، وتشريفًا، وبيانًا لمقامِه العظيمِ عند اللّه تعالى.

(1) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن في تفسير كلام المنّان، ص: 321.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/15.

مناسبةُ العطفِ في الشّرط:

الإيذانُ بتحقُّقِ الإيمان، بالامتثالِ في قسمةِ الغنيمةِ لأمر الله

أشعرَ العطفُ في قوله: ﴿إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا﴾ أنَّ التّقديرَ: (إنْ كُنتُم آمنتُم باللّهِ، وآمَنتُم بما أنزلنا على عَبدنا)، فالمعطوفُ عليه وهو الإيمانُ باللّه سببٌ لتحقُّقِ المعطوف وهو الإيمانُ بما أنزلَ اللّهُ على رسولِه؛ للإيذانِ أنَّه لا يتصوَّرُ وجودُ المعطوفِ دونَ المعطوف عليه، وأنَّ المعطوفَ بسببٍ منَ المعطوف عليه، وليكون مجموعُ قوله: ﴿كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا﴾ شرطًا، كما أنَّ في العطفِ ما لا يخفى منَ التَّشريف والتَّعظيم[1]؛ لتعلُّقِ الإيمانِ بالآياتِ المنزَّلةِ يومَ بدرٍ على رسولِ اللّه ﷺ، مع أنَّ الإيمانَ برسولِ اللّه كافٍ للإيمانِ بها، ولِما يفيدُه الاقترانُ بالإيمانِ باللّه تعالى منَ المعنى المذكور؛ والمعنى: الإيذانُ بتحقُّقِ الإيمان بمجموعِ الشّرطِ بالامتثالِ في قسْمةِ الغنيمةِ.

نكتةُ التّعبيرِ بالفعل ﴿كُنتُمۡ﴾:

قسمةُ الغنيمةِ زيادةٌ في الإيمانِ، وتحقيقٌ للعبوديّة للدّيّان

أفادَ مجيءُ الفعلِ الماضي ﴿كُنتُمۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ﴾ إثباتَ إيمانِ المخاطَبينَ، بمعنى تحقُّقِ وقوعِ إيمانِهم[2]، وهكذا في كلِّ شرطٍ يقترنُ به الفعلُ (كان)، ولو قال: (إنْ آمنتم باللّه) لكان المعنى على الاستقبال. كما أفادَ انتفاءَ إيمانِهم؛ لدلالةِ الشّرطِ على الاستقبال، فلمّا قال: ﴿إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ﴾، ولم يدلَّ الفعلُ (كان) على انقطاعٍ طارئٍ، كان المعنى: إنْ كنتم آمنتُم باللّه حقًّا، وداومتُم على إيمانكم، فيُشعِرُ اللَّفظُ أنَّ العملَ بقسمةِ الغنيمةِ زيادةٌ في الإيمانِ وتحقيقٌ له.

دلالةُ الاستعارةِ في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا﴾:

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا يَوۡمَ ٱلۡفُرۡقَانِ﴾، فيه إطلاقُ

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 10/8.

(2) الرّضيّ، شرح كافيّة ابن الحاجب: 2/293، والسّامرائيّ، معاني النّحو: 4/64.

الإنزالِ على حصوله استعارة، تشبيهًا له بالواصل إليهم من علوّ، تشريفًا له، كقوله تعالى: ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الفتح: 26][1]، والحاصلُ: أنّ ذلك التّنزُّلَ "هو أوّلُ مشهدٍ شهدَه رسولُ الله ﷺ، واللّهُ على كلّ شيءٍ قديرٌ، فكان ممّا شهدتُم من تصريف قدرتِه بقضائه وقدره مع تأييد رسولِه، وإنجازِ وعده له، أن نصركم على قلّتِكم وجوعِكم وضعفِكم، على ثلاثة أضعافِ عددِكم أو أكثر منَ الأقوياء"[2].

عندما ينصرُ اللهُ نبيَّه، فلا غالبَ لبأسه، ولا قاهرَ لبطشه

مناسبةُ تقييدِ الإنزالِ بظرف الزّمانِ:

دلَّ تعلُّقُ ظرفِ الزّمانِ ﴿يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ﴾ بالفعل ﴿أَنزَلْنَا﴾، على تعظيم زمانِ الإنزالِ وتفخيمِه؛ لِما ظهر فيه منَ الآياتِ البيّناتِ ونصرِ المؤمنين على الكافرين، فأشعرَ بتعظيم الظّرفِ لشرفِ ما أنزلَ فيه من وحيٍ وملائكةٍ، وعظمِ ما تحقّقَ فيه من نصرٍ وتأييدٍ، وتلك سنّةُ اللّه في نصر عبادِه المرسلين، ودَحْرِ أعدائِه منَ الكافرين والمناوئين، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلْأَذَلِّينَ ۝٢٠ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ۝٢١﴾ [المجادلة: 20 - 21].

تشريفُ الظّرفِ الزّمانيِّ لِشرفِ مظروفه

مناسبةُ تخصيصِ الإنزالِ:

تخصيصُ إنزالِ الآياتِ الباهراتِ بـ﴿يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ﴾، فيه مَلمحٌ عجيبٌ، ولطيفةٌ ماتعةٌ؛ فالفرقانُ هو اسمٌ للقرآنِ، حيثُ فرّق اللّهُ فيه بين الحقّ والباطلِ، والفرقانُ هو اليومُ الّذي نزلَ القرآنُ فيه على الرّسولِ ﷺ: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾ [البقرة: 185]، وكلا الأمرين: نزولُ الفرقانِ ويومُ الفرقانِ في بدرٍ كانا في رمضانَ.

نـزولُ الفرقان ويومُ الفرقان، كلاهما كان في شهر رمضانَ الأبرك

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/14.
(2) رشيد رضا، تفسير المنار: 10/17.

دلالة (أل) في لفظَي ﴿ٱلْفُرْقَانِ﴾ و﴿ٱلْجَمْعَانِۗ﴾:

مَن ينصره الله فلا غالبَ له سواه

التّعريفُ بـ(أل) في ﴿ٱلْفُرْقَانِ﴾ و﴿ٱلْجَمْعَانِۗ﴾ للعهد؛ للإيذانِ بحضورِ يومِ بدرٍ في أذهان المخاطَبين؛ لأهميّة هذا اليوم، "حيث كان يومًا فارقًا بين الحقّ والباطل، بين الإيمان والكفر، ﴿يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِۗ﴾ جَمْعُ المسلمين، وجمعُ الكافرين، فقد شهدَ المسلمون في هذا اليوم، كيف كانت أمدادُ السّماءِ تتنزّلُ عليهم، وكيف كانت آثارُ هذه الأمداد في عدوّهم، وفي دحره وهزيمته"[1].

دلالةُ ﴿يَوْمَ﴾ بين البدليّة وعطفِ البيان:

التقاءُ الفريقينَ يومَ الفرقانِ، بمحضِ تدبيرِ اللهِ ذي الإحسان

لمّا كان ﴿يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِۗ﴾ هو نفسه يومَ الفرقانِ، وكان على معنى تمامِ البيانِ والإيضاحِ، دلَّ على أنَّه بدلٌ من ﴿يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ﴾ أو عطفُ بيانٍ، فهو على معنى التّتميم، وجاء البدلُ أو عطفُ البيانِ مُضافًا إلى الجملة الفعليّة؛ للإشعارِ بعظمِ تدبيرِ اللّه في هذا الالتقاء؛ لِما يفيدُه لفظُ ﴿ٱلْتَقَى﴾، من كونِه عن غير قصدٍ من جمعِ المؤمنين، ولا من جمعِ الكافرين، بل بمحض تدبيرِ اللّهِ، ولتصويرِ حالةِ التقاءِ الجمعين؛ إذ فرّق اللّهُ به بين قوى الحقِّ وقوى الباطلِ، كما فرّق بقرآنه بين الحقّ والباطل، ولو قيل: (يوم بدر)، لم يُفد هذه الفوائدَ[2].

مناسبةُ إضافةِ الظّرفِ إلى الفعل في قوله: ﴿يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِۗ﴾:

غلبةُ المؤمنين، تحقّقت بما أنزلَ اللهُ من أسبابِ النُّصرةِ الإلهيّة

أُضيف ظرفُ الزّمانِ إلى الجملةِ الفعليَّةِ ﴿ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِۗ﴾؛ لِتصوير تلك الحالةِ الدّالَّةِ على ضعفِ أحدِ الفريقين وقوَّةِ الآخر، بما تقدّمَ من ذكرِ أحوالِ الفريقين، وللإشعارِ بغلَبَةِ الضَّعيف على القويِّ، بما أنزلَ اللّهُ من أسباب الفتحِ والنُّصرةِ، ولو قيلَ: (يومَ بدر)، لم يُفدْ هذا المعنى[3].

(1) عبد الكريم الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 5/619.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/284.
(3) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 7/109.

نكتةُ اختيارِ لفظِ ﴿ٱلۡجَمۡعَانِۖ﴾:

غرضُ نبذِ الفرقةِ بينَ المؤمنين، الضّمانُ للنّصر والتّمكين

التّعبيرُ بلفظ ﴿ٱلۡجَمۡعَانِۖ﴾ دون (الفئتان) أو (الجيشان) مثلًا؛ لِما فيه من قوّة الجمعِ والاحتشادِ، فعدوُّكم قد تجمّعَ يريدُ قتلَكم، وأنتم تجمّعتُم تريدون إزهاقَ الباطلِ، فلا ينبغي مع هذا التّجمّع أن تتفرّقوا بسببِ الغنائم، وأن تتقاتلوا على مكاسبِ الدّنيا؛ ففي استعمال هذه اللّفظة شحذٌ لِلهمم نحوَ الاجتماع، ونبذِ الفرقةِ بينَ الصُّفوفِ؛ لأنّ الاتّحادَ رحمةٌ، والفرقةَ عذابٌ، وفي عدم الجمع، ضعفُ القوّةِ، ووهنُ المقاومةِ، واشتدادُ شوكةِ العدوِّ، وميلانُ كفّةِ الغلبةِ، وذهابُ الرّيحِ، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ وَٱصۡبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ٤٦﴾ [الأنفال: 46]، وقوله: ﴿وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ كُنتُمۡ أَعۡدَآءٗ فَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم بِنِعۡمَتِهِۦٓ إِخۡوَٰنٗا﴾ [آل عمران: 103].

دلالةُ الواوِ بين الحاليّة والاستئناف:

قدرةُ اللهِ لا يُعجِزُها شيءٌ في الأرضِ ولا في السّماء

تحتملُ الواو في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾، أن تكون حاليّةً على معنى: والحالُ في هذا كلّه، أنّ اللّهَ قديرٌ على هذا وغيره، من نصرةِ المؤمنين، وتكليفِهم بما يحفظُ عليهم دينَهم ودنياهم، كما تحتملُ أن تكونَ استئنافيّةً لتقريرِ حكمٍ كلّيٍّ، يدخلُ فيه ما تقدّمه.

سرُّ التّقديمِ والتّأخيرِ:

كمالُ قدرةِ اللهِ وعمومُ مُتعلَّقِها

لمّا كان تقديمُ متعلّقات الخبر يفيدُ الاهتمامَ بها، والعنايةَ بشأنِها، مع تأكيدِ المعنى وتقريرِه، أفادَ تقديمُ شبه الجملة الجارّ والمجرور ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ على خبر المبتدأ ﴿قَدِيرٞ﴾، في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾؛ إظهارَ قدرتِه ﷻ، في كلّ ذرّةٍ من ذرّاتِ الكونِ، وتقريرَها عندَ المخاطَبين، حتّى لا يتبادرَ لذهنِ أحدٍ أنّ هذهِ القدرةَ قد يفوتُها بعضُ الأشياء، "فقد شهدَ المسلمون في هذا اليوم، كيف

كانَت أمدادُ السّماءِ تتنزّلُ عليهم، وكيف كانَت آثارُ هذه الأمداد في عدوِّهم، وفي دحره وهزيمته"[1].

نكتةُ التَّعبيرِ بألفاظ العمومِ في ﴿كُلِّ﴾ و﴿شَيۡءٖ﴾:

الإعلامُ بعمومِ قدرةِ اللهِ وإحاطتِها بكلِّ شيءٍ، مرقاةٌ إلى اليقين

لمّا كان لفظُ ﴿كُلِّ﴾ مِن ألفاظ العموم الّتي تستغرقُ كلَّ أفرادِ ما أُضيفَ اللَّفظُ إليه، وكان ﴿شَيۡءٖ﴾ أعمَّ لفظٍ من ألفاظ المعاني؛ لدلالتِه على كلِّ ما يصحُّ الإخبارُ عنه منَ المخلوقاتِ في هذا السّياق، في قوله: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾، فالتّركيبُ منَ العامِّ الّذي يأتي على الجملة لا يغادرُ منها شيئًا[2]، فلمّا كان كذلك أفادَ التّعبيرُ بهذا التّركيبِ عمومَ قدرةِ اللّه تعالى وإحاطتَها بكلِّ شيءٍ.

مناسبةُ تقديمِ المتُعلَّقِ على المتعلَّقِ به:

إفادةُ التّقديم حصرَ المعنى وتأكيدَه، لمزيدٍ منَ التّحقُّق بفحواه

قُدِّمَ مُتعلَّقُ المسندِ ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ على المسندِ في قوله: ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾؛ لتخصيصِ الأمر بقدرة اللّهِ وحدَه، ولتأكيدِه، وتقريرِه، فالمعنى على الحصرِ، "وفي هذا إشارةٌ إلى اللّه تعالى القادر على كلّ شيءٍ، هو الّذي نصركم، وهو الّذي قهرَ عدوَّكم، مع كثرة العَدد والعُدَد، وهو الّذي بدَّلَ من ذُلِّكم عزًّا، ومن عزّهم خذلانًا، وهو الّذي دمغَ الباطلَ فأزهقه، وهو الّذي حقَّ الحقَّ بكلماته، وأُبطِلَ المُجرمون، فإذا كان نصرُكم بتأييد اللّه، وتؤمنون به حقَّ إيمانكم فلا تستكثروا حقَّ اللّه والضّعفاء في الغنائم، إن كنتم مؤمنين"[3]، فإن قدرتُم بالنّصر والتّمكين، فلا تنسوا قدرةَ اللّه ربِّ العالمين.

مناسبةُ إيثارِ لفظ ﴿قَدِيرٌ﴾:

تنوّعُ الدّلالاتِ وتكثيرُها بلفظٍ واحدٍ؛ لمناسبة المقامِ

إيثارُ الاسمِ الجليلِ بوصفِه بـ﴿قَدِيرٌ﴾، في قوله: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾؛ لتُختمَ به هذه الآيةُ، فيه دلالاتٌ لغويَّةٌ بلاغيَّةٌ مناسبةٌ لمقامِ الكلامِ وسياقِه، وهي: أوّلها: لمّا كان لفظُ ﴿قَدِيرٌ﴾ صفةً مشبَّهةً

(1) عبد الكريم الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 5/619.
(2) ابن فارس، الصّاحبي في فقه اللّغة، ص: 159.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 6/3138.

على معنى المبالغة في الوصفِ، دلَّ على دوامِ اتّصافِ اللّهِ تعالى بالقدرة وثبوتِها؛ ليؤذنَ باستمرارِ أثرِها في كلِّ شيءٍ. وثانيها: فيه تعريضٌ بالوعيدِ، لِمَن يتنكّبُ عن تشريعات اللّه وأحكامه الّتي تقدّمَت. وثالثها: فيه إشارةٌ إلى أنّ هذه المغانمَ ما كانَت لتكون لولا قدرتُه تعالى. ورابعها: فيه تذكيرٌ بنصره تعالى للمؤمنين ببدرٍ، وبقدرتِه على أن يفعلَ هذا دومًا، فاللّهُ تعالى قادرٌ على أن ينصرَ القليلَ على الكثيرِ، والذَّليلَ على العزيزِ، كما فعلَ بكم ذلك اليوم، فلا يُعجزُ اللّهَ شيءٌ، ولا يخرجُ عن قدرتِه شيءٌ.

حسنُ التَّذييل في قوله: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾:

تنوّعُ فوائدِ جملةِ التّذييلِ لعمومِ معناها، وعمقِ دلالتها

في الإتيانِ بجملةِ التّذييلِ فوائدُ، هي: أنّ الآيةَ الكريمةَ ذُيِّلَت بقوله: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾؛ لِتفيدَ معنى العمومِ والكلّيّةِ، وأنّها لمّا كانَت على معنى العمومِ كانَت كالمَثَلِ في جريانِها في الكلامِ؛ لصحّة التَّمثيل بها في بيان إحاطةِ قدرةِ اللّهِ بكلِّ شيءٍ، وأنَّه لا يفوته شأنٌ ولايعجزه أمرٌ. وأنّ جملةَ التَّذييلِ، كما تفيدُ تأكيدَ مفهومِ الآيةِ، فإنّه يدخلُ في عمومِها قدرةُ اللّه على نصرِ المؤمنين، وهم قليلون بالأولويّة لمناسبة السّياق، وأنّ الإيذانَ بالتّعجيب من أمرِ اللّه، وعظيمِ قدرتِه؛ لانعكاس الأمرِ في النَّصرِ، إذ نصرَ القليلَ على الكثيرِ؛ للإشعارِ بأنَّ ما فعل هو الجاري على سننِه المطّردة[1].

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الأنفال والغنيمة والفيء:

اختلافُ التّعبيرِ عنِ المعنى الواحدِ؛ لاختلافِ الاعتباراتِ

وردَ في سورة الأنفال استعمالُ النَّفَلِ والغَنيمَةِ، ووردَ في القرآن - أيضًا - لفظُ ﴿أَفَآءَ﴾ [الحشر: 7]، والفرقُ بينها: أنَّه إذا اعتُبِر بكون المالِ مَظْفورًا به بقوَّةٍ وشوكةٍ؛ يُقالُ له: غَنيمَةٌ، وإذا حصلَ من غيرِ قتالٍ؛

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/284، والبهاء السّبكيّ، عروس الأفراح: 1/612.

يُقالُ له: الفَيْء، وإذا اعتُبِرَ بكونه مِنحَةً منَ اللّه ابتداءً من غير وجوبٍ؛ يُقالُ له: نَفَلٌ، أو أن يكونَ قبلَ القِسْمةِ من جملةِ الغنيمة. وذهبَ بعضُ اللّغويّين إلى أنَّ الفرقَ بينَ الغنيمةِ والفيءِ هو أنَّ الغنيمةَ اسمٌ لما أُخِذَ من أموال المشركين بقتالٍ، والفيءَ ما أُخِذَ من أموالهم بقتالٍ وغير قتالٍ إذا كان سببُ أخذه الكفرَ[1].

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 391، والرّاغب، المفردات: (فيأ).

﴿إِذۡ أَنتُم بِٱلۡعُدۡوَةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُم بِٱلۡعُدۡوَةِ ٱلۡقُصۡوَىٰ وَٱلرَّكۡبُ أَسۡفَلَ مِنكُمۡۚ وَلَوۡ تَوَاعَدتُّمۡ لَٱخۡتَلَفۡتُمۡ فِي ٱلۡمِيعَٰدِ وَلَٰكِن لِّيَقۡضِيَ ٱللَّهُ أَمۡرٗا كَانَ مَفۡعُولٗا لِّيَهۡلِكَ مَنۡ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٖ وَيَحۡيَىٰ مَنۡ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٖۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ٤٢﴾ [الأنفال: 42]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الرّبطُ بين أحكام غنائمِ بدرٍ، وبين قضاءِ الله بالحرب والتّمحيص والنّصر

بعد تفصيلِ أحكامِ الغنائمِ والتقاءِ الجَمْعَيْن، ذكرَ لهم يومَ ملتقاهم، وحالتَهم الّتي كانوا عليها، من اعترافٍ بالعجزِ؛ تذكيرًا لهم بحالتِهم الحَرجَةِ الّتي كانوا فيها، وتنبيهًا إلى لطفِ اللّهِ بهم؛ ليكونَ ردعًا عنِ المنازعةِ وردًّا إلى المطاوعة، فقال مبدلًا من ﴿يَوۡمَ ٱلۡفُرۡقَانِ﴾، ما سمّاه ﴿بِٱلۡعُدۡوَةِ ٱلدُّنۡيَا﴾[1]، وكيف قضى ما قدّر، ونصر مَن آمنَ وكبّر.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿بِٱلۡعُدۡوَةِ﴾: "قالَ القُتَبيُّ: العُدْوة: الشَّفير، شَفير الوادي، وقال أبو عَوسَجَةَ: العُدوة: ناحيةُ الوادي الّتي تليهم، وقال: إنّما سمّيَت الدّنيا؛ لأنّها دنَت منك، والآخرة؛ لأنّها استأخرت"[2]. و(العُدوَةُ) بضمّ العين أو كسرها لغتان من لغات العرب، قُرِئَ بهما[3]. ويدورُ معنى العَدْوِ على تجاوزٍ في الشَّيءِ وتقدُّمٍ لِما ينبغي أن يُقتصَر عليه، ومن ذلك العَدْوُ، والعُدوةُ: البقعةُ الصّلبةُ المرتفعةُ شيئًا على غيرِها من حافَّةِ الوادي وجانبِه؛ وسُمّيَت بذلك لتجاوزِها وارتفاعِها على غيرِها ممّا يجاورها[4].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/285، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/15 - 16.
(2) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنّة: 5/224.
(3) قرأ ابن كثير والبَصريّان ﴿بِٱلۡعِدۡوَةِ﴾ بكسر العين، وقرأ الباقون بالضّم. يُنظر: ابن الجزريّ، النّشر في القراءات العشر: 4/2337.
(4) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (عدو).

2) ﴿ٱلدُّنۡيَا﴾: من "(دنا) منه من باب سما وسميت، و(الدّنيا) لدنوِّها، والجمع (الدّنا) مثل الكُبْرى والكُبَر، وأصلُه دنو، فحذفتِ الواو لاجتماع السّاكنين، والنّسبةُ إليها (دنياويّ)، وقيل: (دنيويّ) و(دنيي). ودانى بينَ الأمرين قارَبَ، وبينهما (دناوة)؛ أي: قرابة أو قُرب"[1]. والدُّنوُّ: القُربُ بالذّات أو بالحكم، ويُستعمَلُ في المكانِ والزّمانِ والمنزلةِ، وهو هنا باعتبار الذّاتِ، واستُعمِلَ في المكان الأقرب في مقابل القُصوى، والدّنيا تأنيثُ الأدنى. والعُدْوةُ الدُّنيا ممّا يَلي المَدينَةَ[2].

3) ﴿ٱلۡقُصۡوَىٰ﴾: القَصْو في اللّغة البُعد، يُقال: قَصَوتُ عنه وأقصَيتُ؛ بمعنى: أبعَدتُ، وبِلادٌ قاصيَةٌ بعيدةٌ، وهو بالمكان الأقصى والنّاحية القُصوى؛ أي: الأبعد، والقصوى تأنيث الأقصى. والعدوةُ القُصوى ممّا يلي مكّةَ[3].

4) ﴿وَٱلرَّكۡبُ﴾: الرَّكب: راكبو الإبل أو الخيلِ، وهو اسمُ جمعٍ أو جمعٌ، ويُطلَقُ على العشرة فما فوق[4]، الرُّكبانُ والرَّكْبُ: أصحاب الإبل في السّفر، وهو اسمُ جمعٍ لا واحدَ له. وهي في الآية: رُكبان قريش المقبلين منَ الشّام، الّذين سلكوا طريقَ السّاحل، فلمّا سمعَ بهم النّبيّ ﷺ نَدَبَ أصحابَه؛ لاسترجاع بعض ما حُجِزَ منه ومن أصحابه بمكّة، ولكنّ اللّه شاءَ أن تكونَ حربُ بدرٍ عِوَضًا ونصرًا وتمكينًا[5].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

لمّا أخبرَ اللّهُ عن يومِ الفرقانِ بيّن الحالةَ التّي كانوا عليها في ذلكَ اليوم؛ أي: إذ أنتم أيُّها المؤمنونَ حينئذٍ بحافَّةِ الوادي الأقربِ

حربُ بدرٍ المظفّرة كانت نصرًا لأولياء الله، ودَحْرًا لأعدائه

(1) الفخر الرّازي، مختار الصّحاح: (دنا).
(2) الرّاغب، المفردات، والفيروزباديّ، القاموس المحيط: (دنو).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، والفيّوميّ، المصباح المنير، والفيروزباديّ، القاموس المحيط: (قصو).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (ركب).
(5) ابن جرير، جامع البيان: 13/398.

إلى المدينةِ، أو المعنى: واذكروا حينما كنتُم بحافَّةِ الوادي الأقرب إلى المدينة، وعدوُّكم منَ المشركين بالوادي الأقصى ممّا يلي مكّةَ، والعيرُ فيه أبو سفيان وأصحابُه في موضعٍ أسفلَ منكم إلى ساحلِ البحرِ الأحمرِ، ولو تواعدتم أنتم وعدوّكم منَ المشركينَ من أهلِ مكَّةَ على موعدٍ تلتقونَ فيه للقتال، لاختلفتُم في الميعادِ المضروبِ بينَكم، ولكنَّ اللّه جمعَكم هنالك؛ ليقضيَ ما أرادَ بقدرته، بنصرِ أوليائه، وخِذلانِ أعدائه، وإنَّ اللّه لَسميعٌ لأقوالِ الفريقينِ، عليمٌ بما تنطوي عليه قلوبُهم وضمائرُهم[1].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

مناسبةُ تصديرِ الآية بـ﴿إِذْ﴾:

قوله تعالى: ﴿إِذْ أَنتُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلدُّنْيَا﴾، فيه أنّه لمّا أجملَ الكلامَ على يومِ الفرقانِ في الآية السّابقةِ؛ بيّن الحالةَ الّتي كانوا عليها بالإتيانِ بلفظ ﴿إِذْ﴾، للإشعار بعِظَمِ الأمرِ، لما يفيدهُ تصديرُ الكلام بـ﴿إِذْ﴾ من عِظَمِ شأنِ الظّرف الّذي يفيدُ تعظيمَ الحدَثِ الواقعِ فيه.

كانت غزوةُ بدرٍ تمحيصًا للإيمان، واختبارًا للعقيدة:

دلالةُ ظرفِ الزّمان ﴿إِذْ﴾:

يحتملُ الظّرفُ، في قوله تعالى: ﴿إِذْ أَنتُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أن يكونَ بدلًا من ﴿يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ﴾؛ ليفيدَ مجموعُ البدلِ والمبدَل منه زيادةً في إيضاحِ صورةِ ضعفِ أحدِ الفريقين وقوةِ الآخر، وبيانِ الحالةِ الغريبةِ من غلبة الضَّعيف على القويِّ، بما أنزلَ اللّهُ من أسبابِ نصرِ المؤمنين، وهزيمةِ الكافرين، وفيه معنى الامتنان[2]. كما يَحتملُ أن يكونَ ظرفًا لفعلٍ مُقدَّرٍ تقديره: (واذكروا إذْ)؛ لتذكير المخاطَبين بنعم اللّهِ العظيمةِ والآياتِ الّتي أنزلَها في ذلك الوقتِ. كما تَحتملُ أن تكونَ ظرفًا لِما تقدّمها منَ الكلام؛ أي: (واللّه على

تنوّعُ المعنى وتوسّعُه بتنوّعِ التّوجيهِ في السّياق

(1) ابن جرير، جامع البيان: 13/56، ونخبة من أساتذة التّفسير، التّفسير الميسّر، ص: 182.
(2) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 7/109.

كُلِّ شَيءٍ قَديرٌ، إذ نصرَكم في حالةٍ كنتُم في موضعٍ وهيئةٍ ما كان لكم أن تنتصروا فيها)؛ لِتكون ﴿إِذْ﴾ بمثابة التّعليل؛ فيكون الكلامُ على معنى الاستدلالِ والحِجاجِ، على منّة الله على المؤمنين بالنّصرِ، ولطفِه بهم.

براعةُ الإطنابِ في الآية قيد التّفسير:

غلبةُ المشركين يومَ الفرقانِ لم تكنْ إلّا بصنعِ اللهِ ولطفِ تدبيرِه

ذكرَ على سبيلِ الإطنابِ التّوقيتَ ومراكزَ الفريقين، وأنّ الرَّكبَ أسفلُ منهم، ولمّا كانَت هذه الأخبارُ معلومةً عند المخاطَبين، دلَّ على أنّ المرادَ لازمُ الفائدة مع أصلِها؛ أي: لتصويرِ الحالةِ وللإخبارِ عن قوّة شأنِ العدوّ وشوكتِه، واستظهارِهم بالرّكب، وحِرصِهم على المقاتلة عنها، وعن ضعفِ شأن المسلمين والتياثِ أمرِهم واختلاطِه، واستبعادِ غَلَبتِهم عادةً، فإنَّ العُدْوةَ الدّنيا كانت رِخوةً تسوخُ فيها الأقدامُ، ولا يُمشى فيها إلّا بتعبٍ، وكانت مفازةً لا ماءَ فيها، والعدوةَ القصوى الّتي أناخَ بها المشركون، كانت في مكانٍ فيه الماءُ، وكانت أرضًا لا بأسَ بها، فغلَبتُهم في مثل هذا الحالِ ليسَت إلّا صُنعًا منَ اللّه تعالى، ودليلًا على أنّ ذلك أمرٌ لم يتيسّر إلّا بحولِه وقوّته، وباهرِ قدرته[1].

دلالةُ الواو في قوله: ﴿وَٱلرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾:

التّأكيدُ على بيانِ لطفِ اللهِ بالمؤمنينَ وحسنِ تدبيرِه لهم

الواو حاليَّة[2]؛ والمعنى: أنتم بالعدوة الدّنيا، والحالُ أنّ القافلةَ ليست ببعيدةٍ عنكم، فلو علمَ العدوُّ بهذا الوضع لطبَّقَ جماعَتَيْه على جيشِ المسلمين، ولكنَّ اللّه صرفَهم عنِ التّفطُّنِ لذلك، وصرفَ المسلمين عن ذلك، وقد كانوا يطمعونَ أن يصادفوا العيرَ فينتهبوها، كما قال تعالى: ﴿وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ﴾ [الأنفال:

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/212، والطّيبيّ، فتوح الغيب: 7/111، والنّيسابوريّ، غرائب القرآن: 3/403، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/24.

(2) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/60، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/24، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 9/89.

7]، ولو حاولوا ذلك لوقعوا بين جماعتين منَ العدوِّ، ولأصبحوا بين فكَّي الرَّحى! ولكنّ اللّه سلّمَ، ففي الحال تأكيدٌ على بيانِ لطفِ اللّه بالمؤمنين، وحسنِ تدبيرِه لهم[1].

دلالةُ (أل) في قوله: ﴿وَٱلرَّكۡبُ﴾:

(أل) عهديّةٌ ذهنيَّةٌ في قوله: ﴿وَٱلرَّكۡبُ أَسۡفَلَ مِنكُمۡۚ﴾، أي: الرّكب الّذي تعرفونه، فالكلامُ عن حالةٍ كانت قريبةَ عهدٍ بكم؛ أي: معهودةً في أذهانِكم، "ولا خلاف بين اللّغويّين في أنّه يُقال: ركبتُ الفرسَ، وركبتُ البَغلَ، وركبتُ الحمارَ، وقد قالَ اللّه تعالى: ﴿وَٱلۡخَيۡلَ وَٱلۡبِغَالَ وَٱلۡحَمِيرَ لِتَرۡكَبُوهَا﴾ [النّحل: 8]، فأوقع الرّكوب على الجَميع، وقال زيد الخَيل الطّائي:

وتَركَبُ يَومَ الرَّوعِ فيها فوارِسٌ *** بَصيرونَ في طَعنِ الأباهِرِ والكُلَى

وهذا اللَّفظُ لا يدلُّ على تَخصيص شَيءٍ بشَيءٍ، بل اقترانه بقوله: ﴿فَرِجَالًا﴾ [البقرة: 239]، يدلُّ على أنّه يَقعُ على كلّ ما يُقِلُّ على الأرض"[2].

كلُّ مَن ركبَ دابّةً فهو راكبٌ، وليس اللّفظُ خاصًّا براكب الإبل

دلالةُ الواو في قوله: ﴿وَلَوۡ﴾:

تَحتَمِلُ الواو في قوله: ﴿وَلَوۡ تَوَاعَدتُّمۡ لَٱخۡتَلَفۡتُمۡ فِي ٱلۡمِيعَٰدِ﴾ أن تكونَ استئنافيّةً، بمعنى: الإخبار عن أمر المواعدةِ لو حصلَت في ذلك الموضعِ وذلك الزّمان، "وقد كان العيرُ في أسفل الوادي بثلاثة أميالٍ، ولو تَواعَدتُّم أنتم وأهلُ مكّةَ، وتواضَعتُم بينكم على موعدٍ تلتَقونَ فيه للقتال؛ لخالَفَ بعضُكم بعضًا، فثبَّطَكم قِلَّتُكم وكثرَتُهم عنِ الوفاءِ بالمَوعدِ، وثَبَّطَهم ما في قلوبِهم مِن تَهَيُّبِ رسولِ اللّهِ ﷺ والمُسلمين، فلَم يتَّفِقْ لكم منَ التّلاقي ما وفَّقهُ اللّهُ، وسبّبَ لهُ"[3].

كلُّ أمرٍ ينفّذُ في الكون، هو قدرُ اللّه المحتوم

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/17.
(2) البغداديّ، خزانة الأدب: 6/254.
(3) النّسفيّ، مدارك التّنزيل: 1/646.

وتَحتمِلُ أن تكونَ عاطفةً؛ لتعطفَ جملةً على جملةٍ؛ ليفيدَ عطفُ الجملةِ تمامَ تصويرِ الحالةِ[1].

بلاغةُ الشَّرطِ في قوله: ﴿وَلَوْ﴾:

لمّا أفاد الشّرطُ هنا في قوله: ﴿وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَٱخْتَلَفْتُمْ فِى ٱلْمِيعَٰدِ﴾ أنَّكم لو تواعدتُم؛ لاختلفتُم في الميعاد، لظروفِ ذلك الوقت من تعذُّرِ الإيفاءِ بالتّواعدِ في وقتٍ واحدٍ، دلَّ على أنّه بالأحرى أن لا تتوافقوا على الإيفاء بالوقتِ، وأنتم لم تتواعدوا؛ ليُعلَمَ أنَّ حلولَكم في العُدوَتَينِ مِن صنعِ اللّهِ، وحسنِ تدبيرِه؛ لإظهارِ معجزتِه، وليعلموا أنَّ نصرَهم إنّما كانَ من عنده تعالى[2].

حلولُ الفريقينِ في العُدوَتَينِ، تدبيرٌ حكيمٌ من ربِّ الثّقلين

بلاغةُ التّغليبِ في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ﴾:

لمّا كان المعنى: (ولو تواعدتُم أنتُم وهُمُ القتالَ)، أفادَ اللّفظُ تغليبَ المخاطَبين وهم المؤمنون، على الغائبين وهم المشركون؛ بيانًا لشرافةِ المؤمنين[3]، وللإشعارِ بأنَّ مواعدةَ قتالِ المشركينَ إن حصلَت فينبغي أن تبدأ منَ المؤمنين؛ بيانًا لما ينبغي أن يكونوا عليه منَ القوَّةِ وشدَّةِ الشَّوكةِ.

تغليبُ المؤمنين لشرفهم، ولما ينبغي أن يكونوا عليه منَ القوَّةِ

وذهب بعضُ المفسّرين إلى أن لا تغليبَ في اللَّفظِ؛ لأنَّ الخطابَ للفريقين؛ والمعنى: ولو تَواعَدتُم بينكم؛ أي: أنتُم وأهلُ مكَّةَ على موعدٍ تلتقون فيه للقتال. وذهب ابنُ عاشور إلى أنَّ التّغليبَ واقعٌ في لفظَي ﴿تَوَاعَدتُّمْ﴾ و﴿لَٱخْتَلَفْتُمْ﴾[4].

بلاغةُ الجِناسِ والطِّباقِ:

في لفظَي ﴿تَوَاعَدتُّمْ﴾ و﴿ٱلْمِيعَٰدِ﴾ - في قوله: ﴿وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 4/7، والصّافي، الجدول في إعراب القرآن: 10/226.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/19.
(3) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/61، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/24، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 9/91، والآلوسيّ، روح المعاني: 5/204.
(4) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/224، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/19.

أثرُ المحسّناتِ البديعيّةِ في التّناسقِ الصّوتيِّ والمعنويِّ في الآية

﴿لَٱخۡتَلَفۡتُمۡ فِي ٱلۡمِيعَٰدِ﴾ - جِناسُ اشتقاقٍ مغاير، ذو أثرٍ بليغٍ في المعنى. وفي قوله: ﴿بِٱلۡعُدۡوَةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ و﴿بِٱلۡعُدۡوَةِ ٱلۡقُصۡوَىٰ﴾ طباقٌ موجبٌ؛ ليحصلَ منَ المقايسة بينهما وضوحُ الحالةِ الّتي كان عليها المؤمنون يومَ بدرٍ، وليتكاملَ التّناسقُ الصّوتيُّ والمعنويُّ في استعمال الجِناسِ والطِّباقِ في هذه الآية في بيانِ الصّورةِ وإيضاحِها.

دلالةُ اللّامِ في قولِه: ﴿لَٱخۡتَلَفۡتُمۡ﴾:

دلالةُ اللّامِ على التّسويفِ والتّأكيدِ واضحةٌ جَليَّةٌ

هذهِ اللّامُ رابطةٌ لجوابِ ﴿وَلَوۡ﴾ بالشَّرطِ، وتفيدُ التَّسويف[1]؛ لأنَّها تدلُّ على تأخير وقوعِ الجوابِ عن الشّرط، وتراخيه عنه بأحداثٍ مطويَّةٍ، والمعنى: لو تواعدتُم، وجاء كلُّ فريقٍ إلى الموضعِ الّذي تواعدتُم فيه، لاختلفتُم في الميعاد.

كما تفيدُ التَّأكيدَ[2]، بمعنى زيادةِ تقريرِ اختلافِهم في الميعاد وتحقيقِه، وبمعنى تأكيد ارتباطِ الجزاءِ بالشّرطِ؛ أي: لو تواعدتُم فلا يقعُ سوى الاختلاف في الميعاد، ولا ينفكُّ عنه، وذلكَ بحكمِ العادةِ والواقِعِ في ذلكَ الزَّمانِ.

مناسبةُ حذفِ مُتعلِّق قوله تعالى: ﴿لَٱخۡتَلَفۡتُمۡ﴾:

لا تلاقيَ في الميعادِ من غيرِ توفيقِ اللهِ وتيسيره

لم يُذكَرْ سببُ الاختلافِ في الميعاد، لو تواعدَ المؤمنون والمشركون القتالَ؛ للإشعارِ بعمومِ السّببِ، والمعنى: لو تواعدتُم على الاجتماعِ، من غيرِ أن يوفّقَه اللّه، لاختَلَفتُم بسببِ القواطِعِ والعوارضِ القاطعةِ بالنّاسِ؛ للإشعارِ بنعمةِ اللّهِ يومَ بدرٍ، وتيسيرِه ما تيسّر من ذلك[3]، واللّهُ يفعلُ ما يرى ويشاء، لا رادَّ لحكمه، ولا معقّبَ لكلماته.

(1) خالد الأزهريّ، شرح التّصريح على التّوضيح: 2/424، والسّامرائيّ، معاني النّحو: 4/92.
(2) ابن الأثير، الجامع الكبير، ص: 225، وابن يعيش، شرح المفصّل: 5/142.
(3) المهدويّ، تحصيل الفوائد: 3/187، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/533، وأبو حيّان، البحر المحيط: 5/329.

دلالة ﴿وَلَٰكِن﴾ الاستدراكيّة:

تلاقي الفريقين يومَ الفرقانِ بحدِّ ذاتِه، من معجزاتِ الله

﴿وَلَٰكِن﴾ في قوله: ﴿وَلَٰكِن لِّيَقۡضِيَ ٱللَّهُ أَمۡرٗا كَانَ مَفۡعُولٗا﴾؛ للاستدراكِ، بمعنى: بيان انتفاءِ المقدَّم؛ ليفيدَ انتفاءَ التّالي، مع تأكيدِ امتناعِ تحقّقِ الجزاءِ الّذي تفيده﴿وَلَوۡ﴾[1]، والمعنى: ولو تواعدتُم أنتُم وهُمُ القتالَ لاختلفتم في الميعادِ فما تلاقيتُم، ولكِن لمّا لم تتواعدوا لم تختلفوا في الميعادِ، فجمعَ اللّهُ بينكم على هذه الحالِ من غير ميعادٍ؛ للإيذانِ بأنَّ انتفاءَ التّواعدِ كانَ سببًا في التّلاقي، وهو خلافُ العادةِ، ليكون على معنى أنَّ تلاقيَكم بحدِّ ذاتِه معجزةٌ من معجزاتِ اللّه، وأنّه كان بقضائِه وحكمِه.

بلاغةُ حَذْفِ المسبَّبِ بعد: ﴿وَلَٰكِن﴾:

حُذِفَ المسبَّبُ وذُكِرَ السّببُ؛ لإظهارِ قضاءِ اللّه وحسنِ تدبيرِه

لمّا كان تقديرُ ما بعد حرفِ الاستدراك في قوله: ﴿وَلَٰكِن لِّيَقۡضِيَ ٱللَّهُ أَمۡرٗا كَانَ مَفۡعُولٗا﴾، هو: (ولكِن لمّا لم تتواعدوا لم تختلفوا في الميعاد)، دلَّ على أنّه حُذِفَ، وطويَ منَ الكلامِ دلّ عليه قوله: ﴿وَلَوۡ تَوَاعَدتُّمۡ لَٱخۡتَلَفۡتُمۡ فِي ٱلۡمِيعَٰدِ﴾: فهو إيجازٌ بحذف جملةٍ مضمونُها مُسبَّبٌ؛ لأنّه معروفٌ مُشاهَدٌ منَ المخاطَبين، فلا فائدةَ في ذكرِه، واكتُفيَ بذكرِ سببِه[2]، فجيءَ بحرف الاستدراكِ ﴿وَلَٰكِن﴾ للتّوصل إلى ذكرِ سببِ الجمعِ بين الفريقين، وهو إظهارُ قضاء اللّه في الأمرِ بقولِه: ﴿لِّيَقۡضِيَ ٱللَّهُ أَمۡرٗا كَانَ مَفۡعُولٗا﴾؛ ليتحقّقوا أنَّ ما اتَّفقَ لهم منَ الفتح ليس إلّا صُنعًا منَ اللّه ﷻ خارقًا للعادات، فيزدادوا إيمانًا وشكرًا، وتطمئنَّ نفوسُهم بفرضِ الخُمُس[3].

دلالةُ اللّامِ في قوله: ﴿لِّيَقۡضِيَ﴾:

تفيدُ اللّامُ هنا في قوله: ﴿لِّيَقۡضِيَ ٱللَّهُ أَمۡرٗا كَانَ مَفۡعُولٗا﴾ التّرتُّب،

(1) ابن هشام، مغني اللّبيب: 1/383.
(2) القزوينيّ، الإيضاح، ص: 314.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/24.

بمعنى: ليترتَّبَ على لقائِكم العدوَّ ظهورُ قضاءِ اللّهِ تعالى، ومثلُه اللّام في قولِه: ﴿لِّيَهۡلِكَ﴾، والمقدّرةُ في ﴿وَيَحۡيَىٰ﴾، بمعنى ليترتَّبَ على قضاءِ هذا الأمر أن يَهلِكَ مَن هلكَ مِنَ الكفّارِ عن حُجَّةٍ بيِّنةٍ مُشاهَدةٍ بالبصرِ، ويحيا مَن حيَّ منَ المؤمنينَ عن بيِّنةٍ قطعيَّةٍ حسّيَّةٍ كذلك، فيزدادوا يقينًا بالإيمان.

تنوّعُ المعنى وتوسّعُه، بتنوّع معنى الحرف في سياق الآية

وتَحتمِلُ اللّامُ أن تكونَ لِلتّعليل، والمعنى: ولكن لم تختلفوا في الميعاد؛ ليظهرَ قضاءُ اللّه، ولأجل أن يهلكَ مَن هلك، وليحيى مَن حَيَّ. كما تَحتمِلُ أن تكونَ لامَ العاقبة، والمعنى: لتكون نتيجةُ ذلك اللِّقاءِ أن يظهرَ قضاءُ اللّهِ السّابقُ في علمِه، ويهلكَ الّذين هلكوا عن حجَّةٍ قائمةٍ ويحيى من حيَّ عن حجَّةٍ ظاهرةٍ[1].

دلالةُ التّنكيرِ في لفظ ﴿أَمۡرًا﴾:

أفادَ التّنكيرُ في قوله: ﴿وَلَٰكِن لِّيَقۡضِيَ ٱللَّهُ أَمۡرًا﴾ تعظيمَ الأمرِ الّذي يقضي به اللّه، ولهذا وصفَه بقوله: ﴿كَانَ مَفۡعُولًا﴾، بالإشارة إلى امتناع تخلّفِ قضاءِ أمرِ اللّهِ وحصولِه، والأمرُ المشارُ إليه هنا، هو إعزازُ الإسلام، وإحقاقُ الحقِّ، وإبطالُ الباطل[2]، وذلك من أعظم المهامِّ وأرقاها؛ لأنّها تجليّاتٌ لقدر اللّه المدبّر الحكيم.

امتناعُ تخلُّفِ قضاءِ اللهِ وتقديرِه، يتماشى مع حكمةِ صنعِه وتدبيرِه

دلالةُ الفعلِ: ﴿كَانَ﴾:

أفادَ التّعبيرُ بلفظ ﴿كَانَ﴾ في قوله: ﴿كَانَ مَفۡعُولًا﴾ الدّوامَ والاستمراريّةَ، والمعنى: دوامُ حصولِ ما يقضي اللّهُ به؛ أي: ليقضيَ اللّهُ أمرًا حقيقًا بأن يُفعلَ لقضائه به، والمرادُ به هنا نصرُ أوليائه، وقهرُ أعدائه، وللإشعار بأنَّ ما يقضيه اللّهُ تعالى محتَّمُ الوقوع، فعُبِّرَ به بصيغة الماضي لتحقّقه حتّى كأنَّه مضى[3].

نصرُ أولياء الله وقهرُ أعدائه دائمٌ مستمرٌّ، في كلّ حينٍ وأوان

(1) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 9/92، ورشيد رضا، تفسير المنار: 10/17، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 6/3141.

(2) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 9/92، ورشيد رضا، تفسير المنار: 10/17، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 6/3141.

(3) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/61، والنّيسابوريّ، غرائب الفرقان: 4/277.

دلالةُ الكلامِ بين البدلية والاستئناف:

دلالةُ الكلامِ على البيانِ والإيضاحِ لاقتضاء المقامِ

يَحتملُ أن يكونَ قولُه: ﴿لِّيَهۡلِكَ مَنۡ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٖ وَيَحۡيَىٰ مَنۡ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٖۗ﴾ بدلًا من قوله: ﴿لِّيَقۡضِيَ ٱللَّهُ أَمۡرٗا كَانَ مَفۡعُولٗا﴾؛ وهو قولُ جمهورِ المفسّرين؛ وهو من بدلِ البعضِ منَ الكلِّ؛ ليفيدَ مجموعُ البدلِ والمبدَل منه زيادةً في الإيضاحِ والبيانِ، وكأنَّ قولَه: ﴿لِّيَقۡضِيَ ٱللَّهُ أَمۡرٗا كَانَ مَفۡعُولٗا﴾ جاء مُجمَلًا بعمومِه، ثمَّ بيّنه بجملةِ البدل، ولهذا تكرّرَ دخولُ اللّام عليها، وتكون اللّامُ على هذا التّوجيه؛ للتّرتّبِ أو للتّعليلِ، أو للعاقبةِ في المَوضِعين. ويحتملُ أن يكونَ ﴿لِّيَهۡلِكَ مَنۡ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٖ﴾ مُتعلِّقًا بـ﴿مَفۡعُولٗا﴾؛ لتكونَ اللّامُ تعليليّةً[1]، كما يحتملُ أن يكونَ استئنافًا بيانيًّا عن سؤالٍ تقديره: (لِمَ يفعل هذا؟)، فكانت الإجابةُ: ﴿لِّيَهۡلِكَ مَنۡ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٖ﴾، وتكون اللّامُ حينئذٍ في ﴿لِّيَقۡضِيَ﴾ للتّرتّب أو للتّعليل أو للعاقبة، واللّام في ﴿لِّيَهۡلِكَ﴾ للتّعليل.

دلالةُ التّنكيرِ في لفظ ﴿بَيِّنَةٖ﴾:

البيّنةُ على الإيمانِ والكفر واضحةٌ، لا ينكرُها أيُّ عاقلٍ حصيفٍ

أفادَ التّنكيرُ في قوله: ﴿لِّيَهۡلِكَ مَنۡ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٖ﴾ تعظيمَ البيّنةِ وتفخيمَها، وكونَها واضحةً أشدَّ الوضوحِ؛ فما يترتّبُ عليه الهلاكُ والحياةُ، أو الكفرُ والإيمانُ، لابدَّ أن يكونَ عظيمًا، والمعنى: "فيهلك الهالكون من كفّار قريشٍ عن حُجَّةٍ ظاهرةٍ، وهي هزيمةُ الكثرةِ الكافرةِ، ويحيا المؤمنون من حجّةٍ بيّنةٍ، وهي نصرُ اللّه للقلَّةِ المؤمنةِ، إنّ اللّه لَسميعٌ عليمٌ لا يخفى عليه شيءٌ من أقوال الفريقين ولا نيّاتهم"[2].

دلالةُ ﴿لِّيَهۡلِكَ﴾ و﴿وَيَحۡيَىٰ﴾ بين الحقيقة والمجاز:

السّياقُ للكفرِ هلاكٌ وللإيمان حياةٌ

يَحتملُ أن يكونَ المرادُ منَ الفعلين ﴿لِّيَهۡلِكَ﴾ و﴿وَيَحۡيَىٰ﴾ الحقيقةَ؛ أي: الموت والحياة، والمعنى: ليموتَ مَن يموتُ عن بيّنةٍ

(1) النّيسابوريّ، غرائب القرآن: 3/403.

(2) لجنة من علماء الأزهر، المنتخب في تفسير القرآن الكريم، ص: 249.

عاينَها؛ لقطعِ أعذارِه، ويعيشَ مَن يعيشُ عن حجّةٍ شاهدَها. ويَحتملُ أن يكونَ استعارةً تصريحيّةً تبعيَّةً؛ إذ استعارَ الهلاكَ والحياةَ للكفر والإسلام، فشبّه الكفرَ بالهلاك بجامعِ ما يلقاه صاحبُه من ضررٍ، وشبّه الإيمانَ بالحياة بجامعِ ما يلقاه صاحبُه من نفع. كما يَحتملُ أن يكونَ مجازًا مُرسَلًا؛ فإنَّ الهلاكَ مُسبَّبٌ عنِ الكفر، والحياةَ مُسبَّبةٌ عنِ الإيمان، فعلاقتُه السَّببيَّةُ؛ والتَّعبيرُ بالحياة والهلاك عن سبَبَيْهِما يورِثُ في النَّفس الرّغبةَ في تجنّبِ أسبابِ الهلاكِ، والسّعيَ في أسباب الحياة [1].

سرُّ المجازِ المُرسَلِ في لفظَي ﴿هَلَكَ﴾ ﴿وَيَحْيَىٰ﴾:

جاءَت الأفعال ﴿لِّيَهْلِكَ﴾ و﴿هَلَكَ﴾ و﴿حَيَّ﴾ في قوله: ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ﴾ ﴿وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ﴾ على طريق المجاز المُرسَل، باعتبار ما سيكون، فالمرادُ بـ(هلك) المشارفُ للهلاكِ أو الكفر، والمرادُ بلفظ ﴿حَيَّ﴾ المشارفُ لِلحياة أو الإيمانِ، أو مَن حالُه في علم اللّه تعالى الهلاكُ والحياةُ[2]، وعُبِّرَ بصيغة الماضي للإشعار بالقطعِ بتحقّقِه ووقوعِه.

المـوتُ والحـياةُ قـدرُ الله المقيَّد في علمه أزلًا

نكتةُ التّعبيرِ بالمضارع في قوله: ﴿لِّيَهْلِكَ﴾ ﴿وَيَحْيَىٰ﴾:

التّعبيرُ بالمضارع في ﴿لِّيَهْلِكَ﴾ و﴿وَيَحْيَىٰ﴾ دون الماضي؛ للدّلالة على الاستمرارِ، وتجدُّدِ الهلاكِ والحياةِ؛ لأنَّ الخطابَ على معنى العمومِ، فليس خاصًّا بمَن تتحدّثُ عنهم الآية، والمعنى: "ليهلِكَ الهالكون من كفّار قريش عن حجَّةٍ ظاهرةٍ، وهي هزيمةُ الكثرةِ الكافرةِ، ويحيا المؤمنون من حجّةٍ بيّنةٍ، وهي نصرُ اللّه للقلّة المؤمنة"[3]، وهذا الأمرُ يتجدّدُ في كلّ الأحوالِ والأزمنةِ، ممّا يتناسبُ في الاستعمال مع الفعل المضارع، الدّالِّ على الحال والاستقبال.

السّياقُ القرآنيُّ ودلالتُه صالحةٌ لكلّ زمانٍ ومكانٍ

(1) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/61، والآلوسيّ، روح المعاني: 10/11.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/24.
(3) إبراهيم القطّان، تيسير التّفسير: 2/108.

بديعُ المقابلةِ وأثرُها في المعنى:

كلُّ فعلٍ ببيّنةٍ، فهو حكمةٌ للبشر ونفعٌ لهم

قابَلَ التنزيل الحكيم بين قولِه: ﴿لِّيَهۡلِكَ مَنۡ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٖ﴾ وقولِه: ﴿وَيَحۡيَىٰ مَنۡ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٖۗ﴾؛ لتوجيهِ المخاطَبين إلى المقايَسةِ بين مَن يموتُ على الكفر، ومَن يموتُ على الإيمان، أو بين مَن يصدرُ منه الكفرُ، ومَن يصدرُ منه الإيمانُ؛ لمزيدِ بيانٍ يقتضيه المقام، فيشكر المؤمنونَ اللّه على نعمة اللِّقاءِ والنَّصرِ على الأعداءِ.

دلالةُ ﴿عَنۢ﴾ على المجاوزةِ المجازيَّةِ:

خروجُ (عن) إلى المعنى المجازيّ

تفيدُ ﴿عَنۢ﴾ هنا في قوله: ﴿عَنۢ بَيِّنَةٖۗ﴾ المجاوزةَ المجازيَّةَ، بمعنى: ليَهلِك مَن هلك صادرًا هلاكُه عن حجَّةٍ ودليلٍ، ويحيى مَن حيَّ صادرًا هلاكُه عن حُجَّةٍ ودليلٍ[1]، ذلك أنّه "هو الّذي جمع بين المؤمنين والمشركين في هذه المعركة، فأغرى المؤمنين بالعير، وحرَّك قريشًا لحماية عيرِها، وهو الّذي سهّلَ اللّقاءَ على الفريقين، فأطمع المشركين في المؤمنين، وسهّلَ للمؤمنين اللّقاءَ بهم؛ ليحقّقَ ما أراد سبحانه؛ وهو إعزازُ الحقّ، وإذلالُ الباطل"[2]، وقد كان تصريفُ الأقدار لتحقيق المعنى المجازيِّ المُتوخّى.

دلالةُ القراءاتِ القرآنيّةِ في لفظِ ﴿حَيَّ﴾:

حياةُ المؤمنين متفاوتةٌ بين أعلى الكمالِ وأدناه، والكمالُ المُطلَقُ لله

قرأ نافع والبَزِّيُّ عن ابن كثير وأبي بكر عن عاصم بإظهار الياءين للفعل ﴿مَنۡ حَيَّ﴾؛ ليشيرَ الإظهارُ إلى معنى الحياةِ الّتي هي في أعلى الكمال، وقرأ الباقون بالإدغام ﴿حَيَّ﴾؛ لتشيرَ القراءةُ إلى معنى أدنى الكمالِ، فحياةُ المؤمنين متفاوتةٌ بين أعلى الكمالِ وأدناه[3].

بلاغةُ مجيءِ الكلام على خلافِ مقتضى الظّاهر:

لمّا اقترنَ بقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ ثلاثةُ مُؤكِّدات:

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/21.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 10/21.
(3) ابن الجزريّ، النّشر في القراءات العشر: 4/2337، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 3/221.

(إنَّ) المؤكِّدةُ لمضمونِ الجملة، والجملةُ الاسميَّةُ الّتي تفيدُ ثبوتَ المعنى، واللّامُ، ولمّا كان المخاطَبون مؤمنين بأنَّ اللّه سميعٌ عليمٌ؛ دلَّ على أنَّ الكلامَ جاءَ على خِلافِ مُقتضى الظّاهر لما يقتضيه الحال، إذ نُزِّلَ المخاطَبون منزلةَ مَن هو بحاجةٍ إلى تأكيدِ المعنى وتقريره؛ لإزالةِ الضَّعفِ الّذي أصابهم لِما رأوا من قلّة عددِهم وعُدَّتِهم، وكثرةِ عددِ المشركين وعُدَّتِهم، وللإشعارِ بأنَّ مَن لا يقبلُ إعطاءَ الخُمُسِ للّهِ فيتكلمُ مُعترِضًا، أو يُضمِرُ في قلبِه خلافَ ما قسمَ اللّه، فهو بمنزلةِ المنكِر.

التّصرّفُ في السّياق وفْق مُقتضى الحال، أثَرٌ في الإيضاح والإقناع

مناسبةُ الجمعِ بين الوصفين ﴿لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾:

جمعَ في آية التّذييلِ بين الوصفين الجليلين؛ لاشتمالِ الأمرين على القولِ والاعتقادِ، والتّقدير: فإنَّ اللّه لسميعٌ أقوالَكم، عليمٌ بنيّاتِكم، وكيف يدبِّرُ أمورَكم، ويسوّي مصالحَكم. كما أنَّ فيه تعريضًا بأنَّ البيّنةَ على الهلاكِ أو الإيمانِ، إنّما هي لأجلكم؛ لأنَّ اللّه لسميعٌ عليمٌ، بكفرِ مَن كفرَ، وبإيمانِ مَن آمنَ[1].

إنَّ اللهَ سميعٌ الأقوالَ، عليمٌ بالنّيّاتِ والمقاصد

بلاغة التّعريض:

أفادتِ الجملةُ في قوله: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ التّعريضَ بالمجازاةِ يومَ القيامة، للمؤمنين والكافرين، فإنَّه تعالى لمّا كان سميعًا للأقوالِ، عليمًا بما في القلوبِ، دلَّ على أنَّه تعالى سيجازي كلَّ إنسانٍ بما يستحقُّه، من ثوابٍ أو عقابٍ، على حسبِ ما يسمعُ من أقوالِه، وما يعلمُ من اعتقادِه وما في قلبِه.

كلُّ إنسانٍ سيُجازَى يومَ القيامةِ بما يقولُ وما يعتقدُ

حُسْنُ التّذييل وبلاغتُه:

أفادَت الجملةُ التّذييليّةُ في قوله: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾، فوائدَ لغويّةٍ بلاغيَّةٍ، خلاصتها: عمومُ المعنى وكلّيَّتُه، وثبوتُ الوصفين للّه

بلاغةُ الإتمامِ في سبك العبارةِ بمسك الختامِ

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/224، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 9/93.

تعالى، لمجيء الجملةِ اسميَّةً، وإجراء الجملة مجرى المثَلِ في الكلامِ لعمومِها وكلّيَّتِها، وإفادة تأكيد مفهومِ ما تقدّم الجملة، فهو تعالى سميعٌ بأقوالِ مَن كان في العُدْوَتَيْن، عليمٌ بأحوالِهم، بمعنى: لا يخفى عليه شيءٌ، عليمٌ بنيّاتهم وأحوالِهم، إضافة إلى المبالغةَ في المعنى بما ذُكرَ مِن اقترانِها بالمؤكِّدات[1].

(1) البهاء السّبكيّ، عروس الأفراح: 1/612.

﴿إِذۡ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلٗاۖ وَلَوۡ أَرَىٰكَهُمۡ كَثِيرٗا لَّفَشِلۡتُمۡ وَلَتَنَٰزَعۡتُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ٤٣ وَإِذۡ يُرِيكُمُوهُمۡ إِذِ ٱلۡتَقَيۡتُمۡ فِيٓ أَعۡيُنِكُمۡ قَلِيلٗا وَيُقَلِّلُكُمۡ فِيٓ أَعۡيُنِهِمۡ لِيَقۡضِيَ ٱللَّهُ أَمۡرٗا كَانَ مَفۡعُولٗاۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ ٤٤﴾

[الأنفال: 43 - 44]

مُناسَبَةُ الآيَتَينِ لِما قَبْلهما:

تـوالي ألـطـافِ الـلـه تـعـالى بـالـمـؤمـنـين، في غزوة بدرٍ الكبرى

لمّا ذكرَ اللّهُ تعالى في الآيةِ السّابقةِ موضعَ الفريقين يومَ بدرٍ، وصوَّرَ حالَهم في ذلك الوقتِ، زاده بيانًا وإيضاحًا، بما أشارَ إليه من لُطفِ تدبيرِه في مدّةِ نزولِهم بالعُدْوةِ الدُّنيا، فإنَّ هذهِ الرُّؤيا ممّا اشتملَ عليه زمانُ نزولِ المؤمنين بعُدْوةِ بدرٍ، ثمّ لمّا بيَّنَ ما نشأ عن رؤيتِه ﷺ من قِلَّتِهم، وما كان ينشأُ عن رؤيتِه الكثرةَ، لو وقعت، أتبعَه ما فعلَ منَ اللُّطفِ في رؤيتِهم بأنفسِهم يقظةً، فقال: ﴿وَإِذۡ﴾، أي: واذكروا أيضًا ﴿وَإِذۡ يُرِيكُمُوهُمۡ﴾[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿لَّفَشِلۡتُمۡ﴾: فشِلَ يَفْشَلُ عندَ الحربِ والشّدّةِ ويضعفُ، وإنّه لَخَشِلٌ فشِلٌ، والفَشِلُ: الجَبانُ المرعوبُ، يُبهَتُ عند الرَّوع، لا يُحسِنُ قتالًا ولا شِرادًا[2]، قال اللّهُ جلّ وعزّ: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ﴾ [الأنفال: 46]، قال الزّجّاج: أي: تجبُنوا عن عدوّكم إذا اختلفتُم[3]. والفَشَلُ: هو الفزعُ والجُبنُ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/289، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/22.
(2) الخليل، العين: (فشل).
(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (فشل).

والضَّعفُ[1]، ويدلُّ على ضعف القلبِ وخَوَرِ الجَنانِ. وذهب بعضُ اللُّغويّين إلى أنَّ الفشلَ هو ضَعْفٌ مع جُبْن[2].

2) ﴿وَلَتَنَٰزَعۡتُمۡ﴾: يدورُ معنى النّزْعِ على القَلْع، يقالُ نَزَعَ الشّيءَ يَنزِعُه نزعًا، فهو مَنزوعٌ ونَزيعٌ، ويأتي منه معنى المطاوعة، يُقال: انتَزَعَه فانتَزَعَ؛ أي: اقتَلَعَه فاقتَلَعَ. والتّنازُعُ والمنازَعةُ: المجاذَبةُ، ويُعبَّرُ بهما عنِ المخاصمة والمجادلة[3]. ويُقال: "تنازُعٌ على البقاء: صِراعٌ بين كائنات النّوعِ الواحدِ للحصول على القوتِ والغذاءِ، من أجل البقاءِ والوجودِ، وتكون فيه الغَلَبةُ للأفضل"[4]. (تنازع) القَوم: اختلفوا، ويُقال: تنازعوا في الشَّيء، والقَومُ الشَّيءَ: تجاذَبوه[5].

3) ﴿بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾: هي الأشياءُ الموجودةُ في الصّدور، وهي الأسرارُ والضّمائرُ والمعتقداتُ والظّنونُ، فإنّها لمّا كانَت مضمَرةً في الصّدور، حالَّةً فيها، مصاحبةً لها، سُمّيَت ذاتَ الصّدور، وذهب بعضُهم إلى أنّ المرادَ القلوبُ الّتي في الصّدور[6].

4) ﴿ٱلۡتَقَيۡتُمۡ﴾: اللّقاء، توافي الاثنين متقابلَيْن؛ أي: استقبالُ الشّيءِ ومصادفتُه معًا على سبيلِ المواجهةِ والتَّماسِّ، ويُقال ذلك في الإدراك بالحسّ، وبالبصر، وبالبصيرة، واللّقاء. والالتقاءُ في الأصل الحضورُ لدى الغير، من صديقٍ أو عدوٍّ، وفي خيرٍ أو شرٍّ، وقد كَثُرَ إطلاقُه على الحضور مع الأعداء في القتال[7]، قال النّابغة[8]:

إذا ما التَقَى الجَمعانِ حَلَّقَ فوقَهُم *** عَصائِبُ طَيرٍ تَهتَدي بعَصائِب

ورويَ في غريب الحديث: «إذا التقى الصّفّان في سَبيل اللّه، فُتِحَت أبوابُ السَّماء وأبوابُ الجنَّة»[9].

(1) ابن منظور، لسان العرب: (فشل).
(2) الرّاغب، المفردات: (فشل)، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: 3/231.
(3) الرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (نزع).
(4) أحمد مختار عمر، معجم اللّغة العربيّة المعاصرة: (بقي).
(5) مجمع اللّغة العربيّة بالقاهرة، المعجم الوسيط: (نزع).
(6) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 9/397، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/128.
(7) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (لقي)، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/27.
(8) الخليل، العين: (عصب).
(9) الزّمخشريّ، الفائق: 1/315.

المَعْنى الإجْماليُّ:

بيانُ الرّؤيةِ المنامِيّةِ والواقعيّةِ للعدوّ؛ تمهيدًا لنصر المؤمنين عليهم

واذكرْ - أيُّها النّبيُّ - حينما أراك اللّهُ قبلَ يومِ بدرٍ قلَّةَ عددِ عدوِّك في منامِك، وأنّهم مهزومون، فأخبرتَ المؤمنين بذلك، فقويَت قلوبُهم، واجترؤوا على حربِهم، ولو أراك ربُّك عدوَّهم كثيرًا لفشلَ أصحابُك، فجَبُنوا ولم يقدروا على حربِ القومِ، ولَتنازعوا في ذلكَ، ولكنّ اللّه سلّمهم من ذلك، بما أراكَ في منامِك منَ الرُّؤيا، إنّهُ عليمٌ بخفايا الصُّدورِ، لا يخفى عليه شيءٌ ممّا تضمرُه القلوبُ.

واذكروا أيُّها المؤمنونَ حينما أراكمُ اللّهُ الأعداءَ في أرضِ المعركةِ قليلًا، وهم كثيرٌ عددُهم، وقلَّلَكم في أعينِهم؛ ليتركوا الاستعدادَ لحربِكم، فتهونَ على المؤمنينَ شوكتُهم، حتّى يقضيَ اللّهُ بينَكم ما قضى من قتالِ بعضِكم بعضًا، وإظهارِكم على أعدائِكم منَ المشركينَ والظَّفَرِ بهم، لِتكونَ كلمةُ اللّهِ هي العليا، وكلمةُ الّذين كفروا السُّفلى، وإلى اللّهِ مصيرُ الأمورِ كلِّها، فيجازي كُلًّا بما يستحقُّ؛ المحسنَ بإحسانِه، والمسيءَ بإساءَتِه[1].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

مناسبةُ تصديرِ الآيةِ بـ﴿إِذْ﴾ ودلالتها:

تنوّعُ الحوادثِ يومَ الفرقانِ مرتبطٌ بعِظَمِ ما وقعَ فيه منَ الأحداثِ

لمّا كان تصديرُ الكلامِ بظرفِ الزّمانِ (إذ) لما عظمَ شأنُه، دلَّ على عظمِ شأنِ زمنِ إراءةِ اللّهِ رسولَه ﷺ العدوَّ في منامِه قليلًا في قوله: ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا﴾، وتعظيمُ شأنِ الظّرفِ لعظمِ مظروفِه، وما وقع فيه منَ الأحداثِ.

ويَحتملُ ظرفُ الزّمانِ ﴿إِذْ﴾ أن يكونَ بدلًا من يوم الفرقان، وهو الأحسنُ، وبيانُه أنَّه لمّا جاء ﴿إِذْ﴾ بدلًا من ﴿يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ﴾، في قوله: ﴿إِذْ أَنتُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلدُّنْيَا﴾ جيءَ ببدلٍ ثانٍ؛ ليُشعِرَ تكرّرُ الظَّرفِ على

(1) ابن جرير، جامع البيان: 13/569 - 573.

سبيلِ البدلِ بتنوّعِ الحوادثِ العظامِ الّتي وقعَت يومَ الفرقانِ، وليكون مجموعُ البدل والمبدَل منه أكثرَ بيانًا وإيضاحًا للمعنى.

ويَحتمِلُ أن يكونَ ظرفًا لفعلٍ محذوفٍ، تقديره: (اذكُروا)؛ لتذكير جميعِ المخاطَبين بالقرآن، بظهور معجزةِ اللّٰه يومَ بدرٍ. ويَحتمِلُ أن يكونَ ظرفًا مُتعلِّقًا بقوله: ﴿لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾؛ أي: يعلمُ المصالح؛ إذ يقلِّلُهم في عينِك، في مَنامِكَ في رؤياك، فتفيد ﴿إِذْ﴾ حينئذٍ التّعليلَ أيضًا، ليكونَ الكلامُ على معنى الاستدلالِ لإظهارِ الحجّة وبيانِها لجميعِ المؤمنين[1].

مناسبةُ التّعبيرِ بالمضارع في قوله: ﴿يُرِيكَهُمْ﴾:

استحضارُ صورةِ المنامِ العجيبةِ مِنَ المعجزات الخوارق

أفادَ التّعبيرُ بصيغة المضارع في قوله: ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا﴾ استحضارَ صورةِ حالةِ الرُّؤيا العجيبةِ في نفس النّبيّ ﷺ، وفي نفوس أصحابِه، وفي نفوس المتدبّرين لهذا القرآن[2] - وذلك أنّ النّبيَّ ﷺ رأى في المنام أنّ العدوَّ قليلٌ قبل أن يلتقوا، فأخبر أصحابَه بما رأى في المنام، فقالوا: رؤيا النّبيِّ ﷺ حقٌّ، والقومُ قلّةٌ، فلمّا التقوا ببدرٍ قلَّلَ اللّٰهُ المشركين في أعين المؤمنين؛ لتصديقِ رؤيا النّبوّة الّتي لا تنطقُ عنِ الهوى[3].

نكتةُ إسنادِ الفعل إلى الله تعالى في قوله: ﴿يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ﴾:

رُؤيا النّبيِّ ﷺ وحيٌ بمَدلولِها

أُسنِدَت الإراءةُ إلى اللّٰهِ تعالى في قوله: ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا﴾؛ لأنَّ رُؤيا النّبيِّ ﷺ وحيٌ بمَدلولِها[4]؛ "أي: إنّه تعالى سميعٌ لما يقولُ أصحابُك، عليمٌ بما يُضمِرونه، إذ يُريك اللّٰهُ عددَ عدوِّك وعدوِّهم قليلًا في الرّؤيا المناميّة، فتخبرُ بها المؤمنينَ، وتطمئنُّ قلوبُهم، وتقوى آمالُهم بالنّصر، فيجترئون عليهم"[5].

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/223، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/534.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/23.
(3) السّمرقنديّ، بحر العلوم: 2/23.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/330، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/22.
(5) أحمد مصطفى المراغيّ، تفسير المراغيّ: 8/10.

بلاغةُ الاحتراس في الجار والمجرور ﴿فِي مَنَامِكَ﴾:

الإطنابُ في قوله: ﴿فِي مَنَامِكَ﴾ من قوله: ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا﴾؛ للاحتراس من أن يُظنَّ أن يكونَ المرادُ من قوله: ﴿يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ﴾ الرّؤيةَ البصريّةَ أو القلبيّةَ، فهو لدفعِ ما قد يُتوهّمُ من خلافِ المقصودِ، ولِلتّأكيد على أنّها الرّؤيةُ الحُلميّةُ، فبها تكون الآيةُ أعظمَ وأظهرَ، وعليه جميعُ المفسّرين[1].

برؤيا الرّسولِ الأعظم، في منامِه الأعظم، كانت الآيةُ أنضرَ وأبهرَ

نكتةُ التّعبيرِ بقوله: ﴿مَنَامِكَ﴾:

لمّا كان لفظُ ﴿مَنَامِكَ﴾ من قوله: ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا﴾ مصدرًا ميميًّا، وليس ظرفَ مكانٍ، دلَّ على أنَّ المرادَ به نومُك، وعُبِّرَ بالمصدر الميميّ، دون أن يقولَ: (في نومِك)؛ للإشعار بأنَّ الإراءةَ في النّوم كانت في الموضِع المعتادِ للنّوم، وإنّما قال: ﴿يُرِيكَهُمُ﴾، فأسندَ الرُّؤيةَ إلى ما كان في النّوم؛ للإيذانِ بأنّها في مقامِ الرّؤيةِ الحقيقيّةِ على سبيلِ الاستعارةِ، فكأنّه أطلقَ العينَ على حاسّة الخيالِ تشبيهًا لها بالعين الباصرةِ، في كونها سببًا لإدراك المحسوساتِ العينيّةِ، وحاسّةُ الخيالِ كذلك يُدرَكُ بها في حال غيابِ المادّةِ[2].

الإراءةُ كانَت في النّوم، ولله في أحوال العباد شؤونٌ وتصريفاتٌ

بلاغةُ الشّرطِ في قوله: ﴿وَلَوْ﴾:

لمّا كانَت (لو) في قوله: ﴿وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾ تفيدُ تعليقَ حصولِ فشلِ المؤمنين وتنازعِهم على حصولِ الشَّرطِ، وهو إراءةُ اللّهِ رسولَه المشركين كثيرًا الّتي قطعَ بانتفائِها، كان المعنى تعليقَ امتناعِ فشلِهم وتنازعِهم على ما قطعَ بامتناعِه، وهو إراءَةُ اللّهِ رسولَه العدوَّ كثيرًا، ففي التّعبيرِ حصرُ امتناعِ الفشلِ والتّنازعِ على امتناعِ إراءَةِ اللّهِ رسولَه العدوَّ كثيرًا؛ إظهارًا لمنَّةِ اللّهِ تعالى على المؤمنينَ، بما أكرمَ اللّهُ رسولَه في الرُّؤيا.

إظهارُ منَّةِ اللهِ تعالى على المؤمنينَ، بما أكرمَ اللهُ رسولَه في الرُّؤيا

(1) مكّيّ بن أبي طالب، الهداية إلى بلوغ النّهاية: 4/2836، والزّمخشريّ، الكشّاف: 2/225.
(2) الزّجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 2/419، وحاشية محيي الدّين شيخ زاده: 4/398.

دلالةُ اللّام الرّابطةِ لجواب (لو):

دلالةُ اللّام على التّسويفِ والتّأكيدِ، زيادةٌ في البيانِ المفيدِ

هذهِ اللّامُ في قوله: ﴿لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾ رابطةٌ لجوابِ ﴿وَلَوْ﴾ بالشَّرطِ، وتُسمَّى لامَ التَّسويف[1]؛ لأنَّها تدلُّ على تأخير وقوعِ الجوابِ عنِ الشّرط، وتراخيه عنه في الزّمن، والمعنى: لو أراكهم رؤيا مماثلةً للحالة الّتي تبصرُها الأعين، وما كانوا عليه في الواقعِ منَ الكثرة، وحدَّثتَ بها المؤمنين، لجبنتُم وهبتُم الإقدامَ، ولَتَنازَعتُم في الرّأي، وتفرّقَت فيما تصنعون كلمتُكم، وترجّحتُم بين الثّباتِ والفرارِ. كما تفيدُ التَّأكيدَ[2]، بمعنى: تأكيدِ تقريرِ الفشلِ لو تحقَّقَ الشّرطُ، وبمعنى تأكيد ارتباطِ الجزاءِ بالشّرطِ؛ أي: لو أراكَهُم كثيرًا فلا يقعُ سوى الفشلِ والتّنازعِ في الأمرِ؛ أي: القتالِ.

بلاغةُ الالتفاتِ في قوله: ﴿وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ﴾:

الفشلُ والخوفُ لا تتأتّى نسبتُه إلى رسولِ الله المعصوم

عُدِلَ في الكلام عن مخاطبة النّبيّ ﷺ إلى خطاب المؤمنين؛ إذِ الفشلُ والخوفُ لا يناسبُ نسبتُه إليه ﷺ؛ إظهارًا لشرفِ رسول الله، وتلطُّفًا به ﷺ، ولأجلِ عصمتِه منَ الفشلِ والنّقائصِ كذلك، ولهذا لوِّنَ الخطابُ عنه إليهم، فأُسنِدَ الفشلُ إلى مَن يُتَصَوَّرُ منه ذلك، وهذا من محاسنِ التّعبيرِ القرآنيّ[3].

نكتةُ التّعبيرِ بصيغة ﴿تَنَٰزَعْتُمْ﴾:

التّنازعُ فيه معنى التّخاصمِ والتّخالفِ، وهو مذمومٌ مشؤومٌ

عَبَّرَ في قوله: ﴿لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾ بصيغةِ التّفاعلِ المفيدِ معنى الاشتراكِ، بمعنى: أن يكونَ كلُّ واحدٍ فاعلًا في اللّفظ، مفعولًا في المعنى، والمعنى: كلُّ واحدٍ مشاركٌ صاحبَه في التّنازعِ، صريحًا من غيرِ سبقٍ لواحدٍ على آخر في التّنازعِ، وفي اللّفظ معنى التّخاصم والتّجاذبِ والتّخالفِ؛ بأن يَنزَعَ كلُّ واحدٍ مَنْزَعًا خِلافَ مَنْزَعِ صاحبِه[4].

(1) خالد الأزهريّ، شرح التّصريح على التّوضيح: 2/424، والسّامرائيّ، معاني النّحو: 4/92.
(2) ابن الأثير، الجامع الكبير، ص: 225، وابن يعيش، شرح المفصّل: 5/142.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/330، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 9/93.
(4) الرّضيّ، شرح الشّافية: 1/100، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 8/289.

مناسبةُ العطفِ في جواب الشّرط:

لمّا جاءَ الجزاءُ في قوله: ﴿وَلَوۡ أَرَىٰكَهُمۡ كَثِيرٗا لَّفَشِلۡتُمۡ وَلَتَنَٰزَعۡتُمۡ﴾ معطوفًا؛ دلَّ على أنَّ الشّرطَ لو وقعَ؛ لوقعَ الفشلُ والتّنازعُ كلاهما، وفيه إشعارٌ بأنَّ وقوعَهما يعني الهزيمةَ والخِذلانَ، والنّتيجةُ معلومةٌ سلفًا، ومُدرَكةٌ باعتبار أنّ النّتائجَ مُترتِّبةٌ على المُقدّمات، ومعنى: "﴿لَّفَشِلۡتُمۡ﴾: لجبُنْتُم وهبتُم الإقدامَ، ولَتَنازَعتُم في الرّأي، وتفرّقَت فيما تصنعون كلمتُكم، وتأرجحتُم بين الثّبات والفِرار، ولكِنَّ اللّه سَلَّمَ؛ أي: عَصَم وأنعَمَ بالسّلامة منَ الفشل والتّنازع[1].

وقوعُ الفشلِ والتّنازعِ يعني الهزيمةَ والخِذلانَ، وهما متلازمان

سببُ إيثارِ تقديمِ الفشلِ على التّنازع:

لمّا كان التّنازعُ سببًا للفشلِ، لِقوله تعالى: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ﴾ [الأنفال: 46]، كان تقديمُ الفشلِ على التّنازع هنا في قوله: ﴿لَّفَشِلۡتُمۡ وَلَتَنَٰزَعۡتُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ﴾؛ لتعظيمِ المنَّة، بتقديم مُسبَّبِ التّنازع ونتيجتِه؛ لأنّه الأهمُّ بمقتضى المقام، فالفشلُ يعني الهزيمةَ، وللإشعارِ بأنَّ الفشلَ قد يحصلُ من غير تنازعٍ، بأن يكونَ له أسبابٌ أخرى.

الفشلُ مُسبَّبٌ عنِ التّنازع، ونتيجةٌ لا مندوحةَ عنها

دلالةُ (أل) في لفظ ﴿ٱلۡأَمۡرِ﴾:

تفيدُ (أل) في قوله: ﴿وَلَتَنَٰزَعۡتُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ﴾ العهدَ، والمعنى: الأمرُ الّذي تعهدونه، وهو القتالُ أو لقاءُ العدوِّ. أو تكون عِوضًا عنِ المضاف إليه؛ أي: (أمرِ القتال)[2]؛ للإشعارِ بأنّ أمرَ القتالِ في أذهانِكم، وأنّكم لم تنسوه بعدُ؛ لعِظَمِ ما وقعَ فيه منَ الحوادثِ العظام، والآياتِ البيّنات.

خيارُ طاعة الله ورضاه حمايةٌ من مَغبّات التّنازعِ والفشلِ

نكتةُ التّعبيرِ بلفظ ﴿ٱلۡأَمۡرِ﴾:

عبّر بلفظ الأمر دونَ القتالِ في قوله: ﴿وَلَتَنَٰزَعۡتُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ﴾؛ لما يفيدُه اللّفظُ من معنى الشّأنِ الّذي يشملُ أيضًا لقاءَ العدوِّ، وما

عبَّرَ بلفظ الأمرِ؛ لتعظيمِ شأنِ لقاء العدوِّ يومَ الفرقانِ

(1) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 6/108.

(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/535، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/61، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/24.

يَعرِضُ فيه منَ الأحوالِ الّتي تصاحبه، كما أنَّ فيه تفخيمًا لشأنِ القتالِ في ذلك اليوم.

دلالةُ ﴿وَلَٰكِنَّ﴾ الاستدراكيّة:

تفيدُ ﴿وَلَٰكِنَّ﴾ الاستدراكَ في قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَۚ﴾، بمعنى رفعِ ما يُتوهَّمُ من وقوعِ المؤمنين في الفشلِ والتّنازع، ولمّا كانَت (لو) تفيدُ امتناعَ وقوعِهما كان مجيءُ الاستدراكِ على معنى تأكيدِ امتناعِ الوقوعِ وتقريرِه[1]، بمعنى: أنّه "لو تركَكم ترونهم كثيرًا، دون أن يُثَبِّتَكم بهذه الرّؤيا لهبتُموهم، ولتردَّدتُم في قتالهم، ولعجزتُم، وكان التّنازعُ في الإقدام وعدمِه، ولكنّ اللّه سلّم من ذلك، ونجّى من عواقبه"[2].

تأكيدُ السّلامةِ من وقوعِ الفشلِ والتّنازع؛ لحفظ الله للأمّة

مناسبةُ الاستدراكِ بقوله: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَۚ﴾:

لمّا كانَ الاستدراكُ على معنى: (لكنّ اللّه لم يُرِ رسولَه المشركين كثيرًا، فلم تفشلوا، ولم تتنازعوا) عَبَّرَ عن انتفاءِ اللّازم بانتفاءِ الملزوم، بما هو أعمُّ منهما، وهو قوله: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَۚ﴾؛ ليكونَ أوعبَ فائدةً، وللإشعار بالسّبب؛ لتقريرِ أنّ الأمرَ كلَّه للّه، ولإظهار نعمةِ اللّه عليهم، بمعنى: أنّكم لم تفشلوا ولم تتنازعوا، لأنَّ اللّه أنعمَ عليكم بالسّلامةِ منهما، وممّا يصحبُهما منَ الضُّرِّ والأذى[3]، ولا مكانَ للفشلِ والنّزاعِ، مادامتِ الأمّةُ معتصمةً بحبل اللّه الّذي لا تنفصِمُ عُراه.

كما سلّم اللهُ الأمّةَ منَ الفشلِ والتّنازعِ فيما مضى، كذلك يفعلُ فيما يأتي

بلاغةُ الحذفِ في قوله تعالى: ﴿سَلَّمَۚ﴾:

حُذِفَ المفعولُ في قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَۚ﴾؛ ليُفيدَ العمومَ، فيتناولَ كلَّ ما سلَّم اللّهُ في ذلك الوقتِ، وفي تلكَ الحالة،

حذفُ المفعولِ لإفادةِ العمومِ، من حُسنِ البيانِ في السّياق

(1) ابن هشام، مغني اللّبيب: 1/383.

(2) لجنة من علماء الأزهر، المنتخب في تفسير القرآن الكريم، ص: 249.

(3) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/61، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/24، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 9/93.

ليكون التَّقديرُ: ولكنَّ اللّهَ سلّمَ منَ الفشل والتّنازع، بأن سلّمَكم من سببهما، وهو إراءتُكم واقعَ عدد المشركين؛ لأنّ الاطّلاعَ على كثرة العدوّ يلقي في النّفوس تهيُّبًا، وسلَّمَ منَ الهزيمةِ، وسلَّمَ منَ العدوّ، وسلَّم أمرَه فيهم، حتّى نفذَ ما حكم فيهم به من هلاكهم، وسلَّم أمرَكم لكم، ونحوه منَ التّقديراتِ الّتي تندرجُ فيما ذكر، بقرينة المقامِ، فسلَّم اللّهُ ذلكَ كلَّه[1].

نكتةُ التّعبيرِ بلفظ ﴿سَلَّمَ﴾:

عبّر بلفظ ﴿سَلَّمَ﴾ دون غيرِه؛ لأنَّه لفظٌ يعمُّ السّلامةَ من كلِّ مُتخوَّفٍ، اتّصلَ بالأمر أو عرضَ في وجهه؛ أي: إنَّه لم يلحقهم أيُّ عيوبٍ ظاهرةٍ أو باطنةٍ، ولم يُصِبْهم أيُّ نقصٍ، وفي اللَّفظ معنى البقاءِ، والغنى، والعزِّ، والصّحةِ، والعافية[2].

التّعبيرُ بلفظِ (سَلَّمَ)، المفيد عموم السّلامةِ من كلِّ مُتخوَّفٍ

مناسبةُ وضعِ الظّاهرِ مَوضِعَ المضمَرِ:

وُضِعَ الظّاهرُ مَوضِعَ المضمَرِ في لفظِ الجلالة في قوله: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ﴾، دون أن يقولَ: ولكنّه سلّم؛ لإحضارِ الاسمِ الجليلِ بعينِه، وباسمٍ مختصٍّ به؛ لِقصد إسنادِ ذلك إلى اللّه، ولِتأكيدِ المعنى وتقريرِه، وللاهتمامِ بهذا الحادث، وللإشعارِ بعظمِ شأنِ الأمرِ، وبعظم عنايةِ اللّهِ تعالى به؛ فلا يصدرنَّ ذلك إلّا عن باهر السّلطان[3].

تعظيمُ عنايةِ اللّه لأمرِ المؤمنين، سلامةً منَ الأذى في كلِّ حين

مناسبةُ مجيءِ الخبر جملةً فعليّةً ﴿سَلَّمَ﴾:

جاء الخبرُ جملةً فعليّةً في قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ﴾؛ لتقوية الإسنادِ وتأكيدِه، فهو على معنى تكرير الإسناد لعودِ الضّمير على المسنَدِ إليه[4].

تقويةُ الإسنادِ لتأكيدِ المعنى من لطائفِ الإبانةِ عنِ المراد

(1) الماورديّ، النّكت والعيون: 2/323، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/535، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/24.

(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/535، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (سلم).

(3) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 7/120، والتّفتازانيّ، المُطوَّل، ص: 215 - 217، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/24.

(4) السّكاكيّ، مفتاح العلوم، ص: 221.

بلاغةُ الاستئنافِ البيانيّ بالجملة التّعليليّة:

من كمال اليقين الجزمُ بأنّ اللهَ يعلمُ ما تخفي الصّدور

جملةُ: ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ تعليليّةٌ، جاءَت استئنافًا بيانيًّا عن سؤالٍ تقديرُه: (لِمَ فعلَ بهم ما فعل منَ الإراءةِ وغيرِها ؟) فكان الجوابُ: لأنّه يعلمُ مُضْمَراتِ صدورِهم، وخواطِرَها، وتأثُّرَها بالمشاهَداتِ والمحسوساتِ[1]؛ وبيانُ السّبب بالجملة الاستئنافيّة؛ يحرِّكُ السّامعين لأن يعلموا ويتقرّرَ عندهم أنَّ اللّه عليمٌ بخفايا الصّدور.

مناسبةُ الإضمارِ بعدَ الإظهار:

الإضمارُ للإيجاز يبينُ عنِ الدّلالة، في حالتي التّصريح والإيعاز

أضمرَ لفظَ الجلالة في قوله: ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾، وعَبَّر عنه بالضّمير في ﴿إِنَّهُۥ﴾، لأنَّ المسنَدَ إليه في ذهنِ المخاطَبين لتقدُّمِ ذِكره، فأُضمِرَ إيجازًا، وهو تعالى: ﴿عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾؛ لأنّه ليس هناك أيَّةُ قرينةٍ صارفةٍ للمعنى إلى غير اللّه، الّذي ثبَّتَهم بالرّؤيا، وحَماهُم من لَأْواءِ الفشلِ، وفتنةِ التّنازعِ، فكان أمرُه مقضيًّا، وحكمُه مَرعيًّا، وحكمتُه ساريةً، وكفى اللّهُ المؤمنين من تلك العواقب العاتية؛ لأنّه عليمٌ بالقلوب وما تنطوي عليه، وهو يعلمُ السّرَّ وأخفى، فلا تخفى عنه خافية.

تتابعُ المؤكِّدات في السّياق:

في قوله: ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ أفادَت (إنّ) تأكيدَ مضمونِ الجملة، كما دلَّتِ الجملةُ الاسميّةُ على تأكيدِ المعنى وثبوتِه، حتّى لا تبقى في النّفوس شائبةٌ أنّ اللّه تعالى هو الّذي يُؤتي نصرَه مَن يشاء، وليسَت بقوّةِ استعدادِكم أو كثرتِكم. وكونه عَليمًا بذاتِ الصُّدورِ؛ بمعنى: أنّه يعلمُ ما سيكون في القلوب المنطويَةِ على الأفكار، والمحتويَةِ على الأسرار، منَ الشّجاعة والجُبْن، ومنَ المصابرة والجزع، ومنَ الثّبات والتّزلزل، ومنَ التّشبُّث والتّحوُّل، فكان حقيقًا بهذا النّمط منَ التّوكيد المكثّف، أن يجلّي قدرةَ اللّه المحيطة بعلم كلِّ شيءٍ، والّتي لا يُعجِزُها شيء.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/23.

دلالات التّذييل في قوله: ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾:

فوائدُ التّذييل اللّغويّةُ والبلاغيّةُ، تُبرِز بيانَه وجمالَه

في جملة التّذييل فوائد لغويّة وبلاغيَّة هي[1]:

أولاً: لمّا جاء الكلامُ في سياق ذمِّ التّنازعِ في القتالِ وفي الغنيمةِ، وكانَ التّدبيرُ إنّما يصدرُ عن ذلك الموضع، ويرجعُ إليه، وكلُّ بني آدم خُصّوا بمعنى التّدبير؛ دلَّ على أنَّ المرادَ بالصّدور صدورُ البشر، فخَصَّهم بعلم ما تنطوي عليه صدورُهم، منَ الخواطرِ والبواعثِ والصّوارفِ؛ ليخرجَ الكلامُ مخرجَ التّحذيرِ لهم كي لا يُضْمِروا ما يخالفُ إيمانَهم، فإذا كان عالمًا بذاتِ الصُّدور فسيُظْهِرُ ما يشاءُ على رسوله وعلى المؤمنين، لذلك خَصَّ علمَه هنا بذاتِ الصّدور، وإن كان عالمًا بالكلِّ، بذات الصّدور وغير ذات الصّدور؛ لأنّه محيطٌ بكلّ شيءٍ علمًا.

ثانيًا: تفيدُ بمقتضى اللّازمِ معنى العمومِ، فمَن كان لا يخفى عليه ما كان مُضمَرًا في صدر المرءِ، ولا يعلمُه غيرُ صاحبه، ولا يمكن اطّلاعُ أحدٍ عليه - لا يخفى عليه القولُ سرًّا كان أو جهرًا.

ثالثًا: في جملة التّذييل معنى العمومِ والكلّيّةِ، فتكونُ جاريَةً مجرى المَثَلِ في الكلامِ.

التكثيف الدلالي في قوله: ﴿بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾:

مُضمَراتُ الصّدورِ مدبِّرةٌ لحالِ البشرِ، الّتي يحكمُها قدرُ الله المقدور

لمّا كانتِ الأسرارُ والضَّمائرُ والخواطرُ، الحالَّةُ في الصُّدورِ المصاحبة لها، هي المدبّرةَ لحال البشرِ، المصرِّفةَ لأمورِهم، جُعلت كأنَّها مالكةٌ للصُّدور، فأفادَ لفظُ (ذاتِ)، ما لايفيدُه لو قيل: (إنّه عليمٌ بالصّدور أو بالقلوب)، فليس لفظُ (ذاتِ) مُقحَمًا، ولا من إضافة المسمَّى إلى اسمه[2]، ولكنّه أفاض من إضافته لفظ (ذات)

(1) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنّة: 8/494، 10/33، ومكّيّ بن أبي طالب، الهداية: 12/7579.
(2) الشّهاب، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 4/278 - 5/71.

إلى الصّدور على الجملة المكرَّسةِ لتأكيد معنًى عقائديٍّ جليلٍ، يتعلَّقُ بإحاطة علم الله بما يخبِّئه المتشاكسون، وتنطوي عليه صدورُهم، فتكون حركةُ قَدَرِه متماشيةً مع مُطلَقِ علمِه، فلا يكون إلّا ما أراد، وهو القاهرُ فوق عباده، وكلُّ ما قدّرَه فلِحكمةٍ لا نعلمُها، ولكنّنا ندركُ آثارَها، فيما وقع من أحداثٍ، وما يقعُ من تصاريفَ.

فائدةُ الوصلِ في لفظ ﴿وَإِذْ﴾:

العطفُ يقتضي المغايرةَ، ويجمعُ المعاني لإبراز الدّلالةِ الكلّيّةِ للسّياق

جاء الوصلُ بالواو في قوله: ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ﴾؛ لإفادة مغايرةِ هذه الرُّؤيةِ لِما سبقها، فهي في اليقظة، وللإشعارِ بأنَّ الرَّسولَ ﷺ لا يندرجُ في خِطاب: ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ﴾؛ لأنَّهُ لا يَجوزُ على أن يرَى الكَثيرَ قليلًا لا حَقيقَةً ولا تَخمينًا، ليكونَ الخطابُ بطريقِ التّلوين، فالإراءةُ هنا تختلفُ عمّا أراه اللّهُ تعالى لرسولِه[1] ﷺ.

مناسبةُ التّعبيرِ بـ﴿وَإِذْ﴾:

رؤيةُ اليقظةِ عند الفريقين من آياتِ الله الباهرةِ

لمّا كانَت ﴿وَإِذْ﴾ في قوله: ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ﴾ لتعظيم شأن المذكورِ إذا تصدّرَت في الكلام، أفادَت هنا أنَّ ما ذُكِرَ بعدَها من رؤيةِ اليقظةِ عندَ الفريقينِ آيةٌ أخرى من آياتِ الله يومَ بدرٍ، ونعمةٌ كبيرةٌ أظهرها اللّهُ للمؤمنين يومئذٍ، وفي قوله: ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ﴾ الضّميران مفعولان، والمعنى: وإذ يبصِّركم إيّاهم، وقد يؤيّدُ اللّهُ المعجزةَ المناميّةَ، بالمعجزة المباشرة في حالة اليقظة؛ ليثبتَ تصرّفَ قدرتِه في جميع الأحوال، من نوم أو يقظةٍ، في الحال أو في المآل، ممّا ينفسحُ له كلُّ تعبيرٍ دامغٍ لكلّ باطل، وتشملُه كلُّ معجزةٍ مِن شأنها أن تكشفَ عن كلِّ يقينٍ لا يخالطُه إفكٌ، ولا تشوبُه ظنون.

دلالةُ ﴿إِذِ﴾ في قوله: ﴿إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ﴾:

أفادَت ﴿إِذِ﴾ هنا في قوله تعالى: ﴿إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا﴾

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/331، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/24.

بيانَ وقتِ الرّؤيةِ، بمعنى: حصولِ الرّؤيةِ في وقتِ الالتقاء، ليكونَ الأمرُ أشدَّ تثبيتًا للمؤمنين، وأجرأ للكفّار على القتال، وفي ﴿إِذِ﴾ معنى التّعليل؛ بمعنى: أنَّ سببَ ما حصلَ من رؤية اليقظةِ للمؤمنين، هو التقاؤُكم بفريق المشركين.

حصولُ رؤيةِ التّقليلِ للطّرفين في وقتِ الالتقاء

نكتةُ التّعبيرِ بلفظ ﴿ٱلۡتَقَيۡتُمۡ﴾:

في قوله: ﴿وَإِذۡ يُرِيكُمُوهُمۡ إِذِ ٱلۡتَقَيۡتُمۡ﴾ لمّا كان الالتقاءُ افتعالًا منَ اللِّقاء، وصيغةُ الافتعال فيه دالَّة على المبالغة[1]، دلَّ على أنَّ التقاءَ الفريقين كان على سبيلِ المقابلةِ، وجهًا لوجهٍ متماسّين؛ ليفيدَ قربَ بعضِهم من بعضٍ بحيث تكون الرّؤيةُ واضحةً، للإيذانِ أنَّ التّقليلَ الّذي حصل كانَ بآيةٍ من آياتِ اللّه، خصوصًا وأنّه تعالى مالكُ الملك، والمتصرّفُ في الكون بالمشيئة، وهو مُقلِّبُ القلوب والأبصار، يفعلُ ما يشاءُ ويختارُ، لارادَّ لحكمه، ولا مُعقِّبَ لكلماته، ولذلك فهو قد أعطى مثالًا واقعيًّا ملموسًا في نصرة منِ اصطفاهم لتقواهم، ودحرِ مَن غضبَ عليهم لكفرهم الصُّراح، وفِسْقِهم البَواح، وهو العادلُ الّذي لا تضيعُ عنده حصائلُ الأعمالِ من أهل الهدايةِ، ولا صنوفُ المخازي من أهل الضّلال والغَواية.

التّقليلُ آيةٌ من آياتِ اللّه؛ لشدّة قربِ الفريقين، وكأنّهما متماسَّيْن

بلاغةُ الاحتراسِ في قوله: ﴿فِيٓ أَعۡيُنِكُمۡ﴾:

جاء الكلامُ على طريق الإطنابِ في قوله: ﴿فِيٓ أَعۡيُنِكُمۡ﴾؛ لأنَّ الرّؤيةَ إذا أُطلِقَت لا تكون إلّا بآلتِها وهي الأعين، فكان ذِكْرُ ﴿فِيٓ أَعۡيُنِكُمۡ﴾ احتراسًا؛ لأنَّه لو لم يكن لمقصدٍ لكان مُستغنًى عنه، فجاء الاحتراسُ لدفعِ ما قد يُتوهَّمُ، من أنّ يكونَ المرادُ رؤيا المنامِ، ولِتأكيدِ أنَّ الرّؤيةَ بالأعينِ؛ ولينبّهَ على أنّ رؤيتَهم بالأعينِ قليلًا عددُهُم، يسيرًا أمرُهُم، ليست على حقيقة ما هم عليه؛

تأكيدُ أنَّ رؤيةَ المؤمنين كانت بالعين لا في المنامِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/27.

أي: ليس كذلك في نفس الأمر، بل بفعلِ اللّه، ليكونَ آيةً من آياتِ اللّه تعالى[1].

دلالةُ الحالِ في لفظ ﴿قَلِيلًا﴾:

الرّؤيةُ بهيئةِ القلّةِ، كانت في وقتِ التقاء الفريقين وليست مُطلَقةً

قوله: ﴿قَلِيلًا﴾ هنا - من قوله: ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ﴾ ﴿فِيٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا﴾ - حالٌ؛ لأنَّ الرُّؤيةَ رؤيةُ العين، فالفعلُ يتعدّى لمفعولٍ واحدٍ[2]، ولمّا كان الحالُ قيدًا لعاملِه، ولمتعلِّقاتِ عاملِه، أفادَ المعنى أنَّه تعالى أراهم المشركين قليلًا في أعينِهم، وليس في حقيقةِ الأمرِ، وأنَّ هذه الرّؤيةَ بهيئةِ القِلَّةِ كانت في وقتِ التقاء الفريقين، وليست مُطلَقةً؛ ليفيدَ أنَّ ما حصلَ في هذه الرّؤية آيةٌ من آياتِ اللّه أظهرها اللّهُ إكرامًا للمؤمنين، وليدلَّ على عنايةِ اللّهِ ولطفِه بهم، منذ بداياتِ الأمرِ.

مناسبةُ التّعبيرِ بلفظ ﴿قَلِيلًا﴾:

تصديقُ رؤيةِ العينِ لِما رآه رسولُ الله ﷺ في المنام

عَبَّر بلفظ ﴿قَلِيلًا﴾ في قوله: ﴿فِيٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا﴾ موافقًا لما ذكرَ في الآية السّابقةِ في اللَّفظ والمعنى؛ ليدلَّ على أنَّ القليلَ الّذي حصل في النّوم تأكَّدَ بحصوله في اليقظة[3]؛ ليكونَ مُصدِّقًا لما أخبر به النّبيّ ﷺ عن رؤياه، تشريفًا لقدره ﷺ، وبيانًا لمكانتِه عندَ اللّه، وليجترأ المؤمنون على عدوّهم.

نكتةُ التّعبيرِ بصيغة فعيل في قوله: ﴿قَلِيلًا﴾:

قوّةُ الإيمانِ بمددِ اللهِ، وضعفُ الكفرِ بخذلانِ اللهِ وعقابه

لمّا تكرر وصفُ القلّة ﴿قَلِيلًا﴾ بصيغة (فعيل) في الآيتين أشعرَ بأنَّه وصفٌ لازمٌ ثابتٌ دائمٌ على المشركين، ماداموا بوصفِ الكفرِ، ومادامَ المؤمنون بوصفِ الإيمانِ، فتكون القلَّةُ بمعنى لازمِها؛ وهو الضّعف[4].

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/27.

(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/225، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 15/488.

(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/225، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 15/488، والنّيسابوريّ، غرائب القرآن: 3/404.

(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/290.

حِكمةُ التّقليلِ في رؤية العينِ للفريقين:

معجزةُ التّقليلِ؛ أنَّ اللهَ تعالى صدّ الأبصارَ، عن إبصارِ بعضٍ دونَ بعضٍ

لمّا أخبرَ اللّهُ تعالى أنَّ الرّؤيةَ كانت بالعين عندَ الطّرفين، دلَّ على إنفاذِ قضائِه في نصرةِ الإسلامِ وإظهارِه، فقلّلَ كلَّ طائفةٍ في عيونِ الأخرى، وإنّما جاءَ السّياقُ على معنى اعتبارِه آيةً من آياتِ اللّه؛ لأنَّ البصرَ قد يرى الكثيرَ قليلاً والقليلَ كثيرًا، لكن لا على هذا الوجه، ولا إلى هذا الحدّ، وإنّما ذلك بصدِّ اللّهِ تعالى الأبصارَ، عن إبصار بعضٍ دون بعضٍ، مع التّساوي في الشّرائط، فوقع الخللُ في التَّخمينِ والحَزْر الّذي يستعمله النّاس في هذا؛ لِتَتجَسّر كلُّ طائفةٍ على الأخرى في الحربِ، وتَتَسبّب أسبابُها، ويتجرَّأ كلٌّ منهم على قتالِ الآخر، ولا يطيل الأُهبةَ والتَّحضيرَ فيقعَ اللِّقاءُ[1].

نكتةُ التّعبيرِ بالمضارع في قوله: ﴿يُرِيكُمُوهُمْ﴾ ﴿وَيُقَلِّلُكُمْ﴾:

المضارعُ يُعبَّرُ به عنِ استحضارِ الصّورةِ، وحكايةِ الحالِ

عبّرَ بالأفعال المضارعة في قوله: ﴿يُرِيكُمُوهُمْ﴾ و﴿وَيُقَلِّلُكُمْ﴾ لحكاية الحالِ الماضية، ولتصويرِ تلكَ الحالةِ الغريبةِ[2]؛ ليستحضرَ المخاطَبون تلك الصّورة، حتّى كأنّهم رأيُ عينٍ أمامَ ساحةِ المعركةِ، ومعلومٌ أنّ الإراءةَ جاءَت "تصديقًا لرؤيا رسول اللّه ﷺ، وليُعاينوا ما أخبرَهم به، فيزدادَ يقينُهم، ويَجِدّوا، ويَثبُتوا، قال ابن مسعود رضي الله عنه: لقد قُلِّلوا في أعيننا، حتّى قلتُ لرجلٍ إلى جنبي: أتراهم سبعين؟ قال: أراهم مئةً! فأسرنا رجلًا منهم، فقلنا له: كم كنتم؟ قال: ألفًا!"[3].

نكتةُ التّعبيرِ بلفظ ﴿وَيُقَلِّلُكُمْ﴾:

تقليلُ المؤمنين لم يكن وصفًا ثابتًا، بل واقعة فعلٍ حصلَت قبلَ اللّقاء

عَبَّر بصيغة الفعل المضارع: ﴿وَيُقَلِّلُكُمْ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَيُقَلِّلُكُمْ فِيٓ أَعۡيُنِهِمۡ﴾، دون الوصف بصيغة (فعيل)، كما وصفَ

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/214، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/535، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/25.
(2) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 9/94.
(3) القاسميّ، محاسن التّأويل: 5/302.

العدوّ؛ للإشعارِ أنّها صيغةُ فعلٍ واقعٍ وقتًا قبلَ اللّقاء؛ ومادّةُ التّفعيل تدلُّ على الجعلِ، فصيغةُ الفعلِ تفيدُ أنَّ التّقليلَ ليس وصفًا، والمعنى: يجعلكم قليلًا؛ ليجترئوا على قتالِكم ومصادمتِكم[1]، وقد قال أبو جهل: إنّ محمّدًا وأصحابَه أكلةُ جزور، مثلٌ في القلّة، (كأكَلَةِ رأسٍ)، أي: أنّهم لقلّتهم يكفيهم ذلك[2].

بلاغةُ الاحتراسِ في عبارة ﴿فِيٓ أَعۡيُنِهِمۡ﴾:

تقليلُ المؤمنين ليس بالنَّقصِ من عدد المسلمين، بل في أعينِ الكافرين

جاء الكلامُ على طريق الإطناب في قوله: ﴿فِيٓ أَعۡيُنِهِمۡ﴾ في قوله: ﴿وَيُقَلِّلُكُمۡ فِيٓ أَعۡيُنِهِمۡ﴾؛ ليعلمَ أنَّ التَّقليلَ ليس بالنَّقصِ من عدد المسلمين في نفس الأمر، فهو في أعينهم فقط، "وهذا من شأنه أن يبعثَ في نفوس المشركين، أو في كثيرٍ منهم، مشاعرَ الاستخفافِ بالمسلمين، وعدمَ المبالاةِ بهم، وأخذَ الحذرِ منهم، وبهذا يفوتهم كثيرٌ من إحكام التّدبير، كما تتخلّى عنهم كثيرٌ من مشاعر الخوفِ الّتي تحملُ الإنسانَ على استجماعِ قواه، واستخراجِ كلِّ رصيدٍ في كيانه، لدفع الخطر الّذي يتهدَّده!"[3].

مناسبةُ تكرارِ قوله: ﴿لِيَقۡضِيَ ٱللَّهُ أَمۡرٗا كَانَ مَفۡعُولٗاۗ﴾:

لا تَكرارَ في الجملة لاختلاف الفعلِ المعلَّلِ بها، فالتَّكرارُ ثراءٌ لا ترداد

قد يُقال ذكرتَ هذه الجملة في الآية المتقدِّمَة، فكان ذكرُها هنا محضَ التَّكرار، وجوابه أنْ لاتَكرار؛ لأنّه لمّا اختلفَ الفعلُ المُعلَّلُ به أُعيدَ ذكرُ الجملة، فاختلفَ المعنى لاختلافِ السَّبب، وبيانُه أنَّه علَّلَ بها الجمعَ بين الفريقين، من دون ميعادٍ في الأولى، وفي هذه الآية علّلَ بها تقليلَ كلِّ واحدٍ منَ الفريقين، في أعين الآخر في الثّانية.

وأيضًا المرادُ بالأمر ثَمَّةَ الالتقاءُ على الوجه المَحكيِّ، وهاهنا إعزازُ الإسلامِ وأهلِه، وإذلالُ الشّركِ وحزبِه، أو يُقال: إنّه تعالى لمّا قلّلَ عددَ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/291، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/27.
(2) القاسميّ، محاسن التّأويل: 5/302.
(3) القاسميّ، محاسن التّأويل: 5/302.

المؤمنين في أعين المشركين بَيَّن هاهنا، أنَّه إنّما فعل ذلك ليصيرَ ذلك سببًا لئلّا يبالغَ الكفّارُ في تحصيل الاستعداد والحذر، فيصير ذلك سببًا لانكسارهم، فيحصل به نصرُ المؤمنين وهزيمةُ المشركين[1].

مناسبةُ إيثارِ الإظهارِ موضعَ الإضمار:

تربيةُ المهابةِ في نفوس المخاطَبين إجلالًا لله تعالى، من مقاصد البيان القرآنيّ

جاء المسنَدُ إليه ﴿ٱللَّهِ﴾ في قوله: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ﴾ ظاهرًا بعد إضماره في الجملة السّابقة؛ ليكونَ على خلافِ مقتضى الظّاهر؛ لتربيةِ المهابةِ في نفوس المخاطَبين، ولزيادة الإيضاحِ والتَّقريرِ عند المخاطَبين بذكرِ الاسم الّذي يخصُّه تعالى، ولما في مجيء الاسمِ الجليلِ من إظهارٍ لتعظيمِ ما قضى به سبحانَه ممّا هو آيةٌ من آياتِه يومَ بدرٍ، ولمناسبة كون ما قضى به كان مفعولًا ثابتًا واجبًا، فلا يقضي به إلّا الله تعالى[2].

دلالةُ الواو بين الاستئنافيّة والحاليّة:

العطفُ الصّوريُّ اعتراضٌ يقترنُ بالجملة التّذييليّة آخر السّياق

الواو في قوله: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ﴾ استئنافيَّةٌ؛ لتكون الجملةُ بعدها تذييليَّة، خوطِبَ بها المؤمنون وغيرهم، وذهب ابنُ عاشور إلى أنَّ هذه الواو اعتراضيّةٌ، والعطف يسمَّى اعتراضيًّا؛ لأنَّه عطفٌ صوريٌّ ليسَت فيه مشاركةٌ في الحكم، وهو اعتراضٌ في آخر الكلام؛ لاقترانِه بالجملة التّذييليّة[3].

بلاغةُ الحصرِ في الكلام:

كلُّ شيءٍ في الكون من بدئه إلى منتهاه، أمره راجعٌ إلى الله

لمّا تقدّمَ ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ﴾ على المسنَد والمسنَد إليه ﴿تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ﴾، في قوله: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ﴾؛ دلَّ على الحصرِ، وهو على معنى قَصْرِ القلبِ؛ أي: إلى الله لا إلى غيره، تُرجَعُ الأمور[4]. وإمّا على معنى

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 15/488، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/61، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 9/95.
(2) السّكاكيّ، مفتاح العلوم، ص: 177 - 180.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/28.
(4) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 9/96.

قَصْرِ الإفراد؛ أي: إلى اللّه وحدَه تُرجَعُ الأمور. ويَحتمِلُ أن يكونَ على مجموعِ الوجهين لدخول جميعِ المخاطَبين في الكلام؛ بمعنى: إلى اللّه وحدَه لا إلى غيره تُرجَعُ الأمور[1]؛ ليفيدَ الحصرُ تقريرَ ما يعتقدُه المؤمنون، وتصويبَ ما يخطئُ به الكافرون في حكمِهم ومعتقدِهم.

دلالة (أل) في لفظ ﴿ٱلْأُمُورُ﴾:

(أل) في قوله: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ استغراقيّة[2]؛ ليدلَّ اللّفظُ على أنّ المعنى: إلى اللّه وحده لا إلى غيره ترجعُ الأمورُ كلُّها، جليلُها ودقيقُها[3]، وقوله: ﴿وَإِلَى ٱللَّـهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾، كما قال صاحبُ المنار: بمعنى "فلا يَنْفُذُ شيءٌ في العالم إلّا ما قَضاهُ اللّهُ تعالى، وقَدَّرَ أسبابَهُ، وإنَّما القَضاءُ والقَدَرُ قائمانِ بسُنَنِه تعالى في الأسبابِ والمُسَبَّباتِ، فهو لو شاءَ لَخَلَقَ في القُلوبِ والأذهانِ ما أرادَهُ بتأثيرِ مَنامِ الرَّسولِ، وبِتَقليلِ كُلٍّ مِنَ الجَمْعَينِ في أعيُنِ الآخَرِ، مِن غَيرِ أن يُرَتِّبَهُما على هذينِ السَّبَبَينِ، ولكِنَّهُ ناطَ كلَّ شيءٍ بسببٍ، وخلقَ كلَّ شيءٍ بقَدَرٍ"[4].

كلُّ ما قدّرَ اللهُ في الحياة مرتبطٌ بسُنَن الأسبابِ والمُسبَّباتِ

نكتةُ الجمعِ في لفظ ﴿ٱلْأُمُورُ﴾:

لمّا كانَت (أل)، في قوله: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ استغراقيّةً؛ كان التّعبيرُ بصيغة المفردِ كافيًا في الدّلالة على استغراق الأمورِ كلِّها، فلمّا جاء بصيغة الجمعِ دلَّ على أنَّ المرادَ منَ الأمور الذّواتُ والأحوالُ جميعُها[5]؛ لمناسبتِها سياق الكلام، بمعنى: إلى اللّه تُرجعون بذواتِكم، وإلى اللّه ترجعُ الأحوالُ الّتي رأيتموها في يومِ الفرقان منَ الإراءةِ المعتادةِ، والإراءةِ غيرِ المعتادة، والمعنى على العموم.

إلـى الـلـه الـرّجـعـى، فلا مفرَّ إلى سِواهُ ولا شكوى

(1) مجمع البحوث، التّفسير الوسيط: 3/1628.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/28.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/25، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 9/96.
(4) رشيد رضا، تفسير المنار: 10/19.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/28.

دلالةُ لفظ ﴿تُرۡجَعُ﴾:

تدبيرُ أمورِ الدّنيا كلِّها، مرجعُه إلى الله جلّ في علاه

في قوله: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ﴾ لمّا كان الرّجوعُ بمعنى العودِ إلى ما كان منه البدءُ[1]، دلَّ على أنَّ تدبيرَ أمورِ الدّنيا كلِّها، وتصريفَها بدءًا ورجوعًا إلى اللّه وحدَه، فلا يصدرُ شيءٌ إلّا منه وعن قضائه، ولا ينفذُ شيءٌ في العالم إلّا ما قضاه اللّهُ تعالى وقدَّرَ أسبابَه. وعبّر بالرّجوع للإشعار بأنَّ مآلَ الذّواتِ والأحوالِ في ما حصلَ يومَ الفرقانِ وفي غيرِه إلى اللّه تعالى وحدَه، فيجزي المحسنَ إحسانًا، وللمسيء العاقبةُ السّوءى أو المغفرةُ.

نكتةُ التّعبيرِ بالمضارع في قوله: ﴿تُرۡجَعُ﴾:

كلُّ مايجري في الكَوْنِ مَقْدور وإلى اللهِ تُرجَعُ الأُمور

عَبَّرَ بصيغة المضارعِ في قوله: ﴿تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ﴾؛ للدّلالة على استمرارِ رجوعِ الأمورِ كلِّها إلى اللّه، وتجدّدِ رجوعِها حالًا فحالًا، وفي هذه الواقعةِ ومثيلاتِها في هذه الدّنيا، يقدّرُ اللّهُ الأسبابَ، "فيتمُّ تنفيذُ أمرٍ علمَه اللّهُ، وكان لا بدَّ أن يتمَّ، وإلى اللّه تُرجَعُ أمورُ العالمِ كلّه، فلا يَنْفُذُ إلّا ما قضاه، وهيّأ أسبابَه"[2].

أثرُ المجازِ العقليّ في توجيه القراءة القرآنيّة في قوله: ﴿تُرۡجَعُ﴾:

كلُّ الأمورِ منقادةٌ بنفسها إلى إرادةِ الله خالقِها

في قوله: ﴿تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ﴾، قرأ ابنُ عامر وحمزة والكسائيّ ويعقوب وخَلَف بفتح تاء (تَرجِعُ)، وقرأ الباقون بضمّها ﴿تُرۡجَعُ﴾[3]: فعلى قراءة الفتحِ فـ﴿ٱلۡأُمُورُ﴾ فاعل، ويكون الإسنادُ على طريقِ المجازِ العقليِّ، والمعنى: (إلى اللّه تُرجعُ الأمورُ مِن تلقاءِ ذاتها إلى اللّه)، وفائدةُ التّعبيرِ بالمجاز الإيذانُ بأنّها منقادةٌ بنفسِها إلى اللّه. وعلى قراءة الضّمِّ حُذِفَ الفاعلُ للعلم به؛ وهو اللّهُ تعالى، فهو الّذي يُرجِعُها إليه، وفائدةُ البناءِ للمفعول توجيهُ الأنظار، إلى رجوعِ الأمور كلِّها إلى اللّه تعالى[4].

---

(1) الرّاغب، المفردات: (رجع).

(2) الرّاغب، المنتخب في تفسير القرآن الكريم، ص: 250.

(3) ابن الجزري، النشر في القراءات العشر: 2/208- 209.

(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/346، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/29.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمۡ فِئَةً فَٱثۡبُتُواْ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ٤٥﴾ [الأنفال: 45]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الـرّبـطُ بين أسبابِ النّصرِ ودواعيه، بذكر اللهِ والثّباتِ على مباديه

لمّا عرّفَهم اللّهُ بنعمِه ودلائلِ عنايَتِه، وكشَفَ لهم عن سرٍّ من أسرارِ نصرِه إيّاهم، وكيف خَذلَ أعداءَهم، وصرفَهم عن أذاهم، فاستتبَّ لهم النَّصرُ مع قلَّتِهم وكثرةِ أعدائِهم، أقبلَ في هذه الآيةِ على أن يأمُرَهم بما يُهَيِّئُ لهم النَّصرَ في المواقعِ كلِّها، ويستدعي عنايةَ اللّهِ بهم وتأييدَه إيّاهم، فجمعَ لهم في هذه الآيةِ ما به قِوامُ النَّصرِ في الحروبِ كلِّها، بمراعاةِ آدابِ اللّقاء عندَ مبارزةِ الأعداءِ[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فِئَةً﴾: أصلُ الكلمة (فيأ)، ويدورُ معنى الكلمة على فجوةٍ أو شَقٍّ وفَراغٍ في شيءٍ غليظٍ صُلْبٍ، يَفصِلُه شطرين أو كتلتين: كالصّدع في الجبل وتلك الفُرَج. والفئةُ: الفِرقةُ أو الجماعةُ، من ناسٍ أو جيشٍ كثيرين أو قليلين، بحيث تكونُ متظاهرةً يَرجعُ بعضُهم إلى بعض في التّعاضُد. كما تُطلَقُ على الطّائفَةِ الّتي تُقيمُ وراءَ الجَيشِ، فإن كانَ عليهم خَوفٌ أو هَزيمَةٌ، التجؤوا إليهم[2].

2) ﴿فَٱثۡبُتُواْ﴾: يدورُ معنى الثّباتِ على متانة ارتباطِ الشّيءِ المتنقِّل، بما لُزَّ به أو قامَ عليه، لا يتحلحلُ ولا يزولُ، ومنه الثّبات في المكان، وفي مواجهة العدوّ. كما استُعمِلَ في الثّبات النّفسيّ، وما هو من بابه، كقوله: ﴿لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَۖ﴾ [الفرقان: 32][3].

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 15/489، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/29.
(2) الرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (فيأ).
(3) الرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (ثبت).

ومعنى اللّفظ في سياقه: "﴿فَٱثۡبُتُواْ﴾ لقتالهم كما ثَبَتُّم في بدرٍ، ولا تحدّثوا أنفسَكم بفِرار"[1]، والثّباتُ هنا عدمُ التّزلزلِ والتّزحزحِ في مواطنِ الحربِ، عندَ لقاءِ العدوّ ومواجهته في ميدان النّزالِ والالتحامِ، وهو موقفٌ مرعبٌ، تَزِلُّ فيه الأقدامُ، وتنخلعُ فيه القلوبُ، ويحومُ فيه الموتُ على الرّؤوس، إذا اشتدَّ الوطيسُ.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

التّعريفُ بآدابِ القتالِ عندَ هلعِ النّفوسِ، ومباشرةِ الحربِ الضّروس

يا أيُّها الّذين آمنوا باللّه حقَّ الإيمان، إذا لقيتُم جماعةً من أهل الكفرِ باللّه للحرب والقتال، فاثْبُتوا لقتالِهم، ولا تولّوهم الأدبارَ، وادعوا اللّه بالنّصر عليهم، واذكروه في قلوبكم وألسنتكم، لعلَّكم تنجحون فتظفرون بعدوّكم، ويرزقُكم اللّهُ النّصرَ والظّفرَ عليهم[2].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

مناسبةُ النّداءِ بالأداة (يا):

تنبيهُ المؤمنين إلى أهميّة الخطابِ والإقبالِ إليه، منهجٌ نفسيٌّ مشوقٌ

لمّا كان النّداءُ لطلب إقبالِ المخاطَبِ، كان المرادُ هنا طلبَ الإقبال بالقلب والحضور النّفسيّ، وجيءَ بـ(يا) النّداء الّتي للبعيد، في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾؛ إمّا للإيذانِ باحتمالِ غفلةِ المؤمنين عنِ الثّباتِ وذكرِ اللّه كثيرًا؛ لمجيءِ (يا) في مناداةِ مَن سها وغفل وإن قرُب؛ تنزيلًا له منزلةَ مَن بَعُدَ، تنبيهًا لِلمؤمنين للاهتمامِ بما يأتي بعدَ النّداء. وإمّا للتّأكيد المؤْذِن بأنّ الخطابَ الّذي يتلوه معنيٌّ به جدًّا، وللإشعارِ ببعدِ مكانةِ الثّبّاتِ وذكرِ اللّه كثيرًا[3]. ونداءُ اللّه تعالى للمؤمنين لا يُتصَوَّرُ فيه إلّا أن يكونَ من إنزال القريبِ منزلةَ البعيد، ليتنبّهوا ولا يغفلوا، وهو مظهرٌ من مظاهرِ التّوكيد.

(1) الخطيب الشّربينيّ، السّراج المنير: 1/574.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 13/574.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/121.

دلالةُ استعمالِ (أيٌّ) في المنادى:

تربية المؤمنين على الثبات في القتال والجِدّ عند النِّزال

في قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ لمّا كان لفظُ (أيّ) وصلةً لنداء المعرَّفِ (بأل)، كانَت تمهيدًا للتّأكيدِ، فيكون بمثابةِ ذكرِ المنادى مرّتين للتّأكيدِ[1]، والنّداءُ تحريضٌ للمؤمنين على القتال، وتأكيدٌ للثّبات على النّزال، وهو يخاطبُهم بأسلوب النّداء: "﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ﴾؛ أي: إذا حاربتُم جماعةً منَ الكفرة، فجدّوا في المحاربة ولا تنهزموا"[2].

فائدةُ (ها) التّنبيه، في قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا﴾:

تأكيدُ النّداء، والاهتمامُ بمضمونِه، من بلاغة الخطاب

لمّا كان لفظُ (ها) للتّنبيه، وكان النّداءُ على معنى طلبِ إقبالِ المدعوِّ، ناسب اقترانُ الكلامِ بها، ليُشعِرَ اللَّفظُ بتأكيدِ النّداء، والاهتمام بمضمونِه، خاصّةً وأنّ الثّباتَ قوّةٌ معنويّةٌ، طالما كانتِ السّببَ في النّصر والغَلَب، فإنّ من أهمِّ أسبابِ النّصرِ فيها الثّباتَ وعدمَ اليأس، بل الثّباتُ نافعٌ في كلّ أعمالِ البشرِ، فهو الوسيلةُ في الفوز والنّجاح فيها[3].

من لطائفِ النّداءِ بقوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا﴾:

مجيءُ النّداء إشعارٌ بعِظَمِ ما يأتي بعده في السّياق

قد يُقال: لِمَ كثُرَ في كتاب اللّهِ النّداءُ على هذا الأسلوبِ، ما لم يكثُر في غيره؟

والجواب: لاستقلاله بأوجهٍ منَ التّأكيد، وأسبابٍ منَ المبالغة، ليسَت في غيرِه منَ الأساليب؛ لأنّ كلَّ ما نادى اللّهُ له عبادَه، من أوامرِه ونواهيه، وعظاتِه وزواجرِه، ووعدِه ووعيدِه، واقتصاصِ أخبارِ الأممِ الدّارجةِ عليهم وغيرها، هي أمورٌ عِظامٌ، وخُطوبٌ جِسامٌ، ومعانٍ عليهم أن يتيقَّظوا لها، ويميلوا بقلوبهم وبصائرهم

(1) ابن هشام، مغني اللّبيب: 1/92.
(2) الجاوي، مراح لبيد: 1/426.
(3) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 10/09.

إليها، وهم عنها غافلون، فاقتضتِ الحالُ أن يُنادَوا بالأسلوبِ الآكَدِ الأبلغِ[1].

دلالةُ الموصول وصلته في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾:

لمّا عَبَّرَ بصلة الموصول﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾؛ دلَّ على تذكيرِهم بما هو معلومٌ عندهم؛ تعظيمًا لشأنِ الإيمانِ، وللإيماء إلى وجهِ بناء الشّرط وجزائه، على كونهم مؤمنين، كما أنَّ فيه مقصدًا آخرَ، هو توجيهُ أذهانِ المخاطَبين إلى ماسيخبرُ به عنه، ليكونوا منتظرين لوروده إليهم، حتَّى يأخذَ مكانَه من قلوبِهم[2].

الإيمانُ يقتضي الثّباتَ عند لقاءِ الأعداءِ، والذّيادَ عن بيضة الدّينِ وحرماتِه

مناسبةُ التّعبيرِ بـ﴿إِذَا﴾ في قوله: ﴿إِذَا لَقِيتُمۡ﴾:

لمّا كان الأصلُ في ﴿إِذَا﴾ القطعَ بوقوع الشّرط، أشعرَ أنَّ لقاءَ الفئةِ أمرٌ مقطوعٌ به، وأنّه لا ينقطعُ، وأنّه قريبُ الوقوعِ في المستقبل، وهو النّكتةُ في اقترانِ الشّرطِ بالفعل الماضي ﴿لَقِيتُمۡ﴾؛ لكونِ الماضي مُؤْذِنًا بالقطع في الوقوعِ، ويكون لفظُ (إذا) للتّنبيه على أنَّ المتّصفين بالإيمانِ، يحقُّ أن يكون ثباتُهم عند لقاء العدوِّ وذكرُهم اللّه كثيرًا مقطوعًا به[3].

الإيقانُ بثبات المؤمنين عند اللّقاء، وذكرُ الله كثيرًا عند النّزال

سرُّ حذفِ صفة ﴿فِئَةً﴾:

لم يذكرِ القرآنُ صفةَ الفئة في قوله: ﴿إِذَا لَقِيتُمۡ فِئَةً فَٱثۡبُتُواْ﴾؛ للإشعار بعمومِ الفئةِ؛ لتشملَ الكافرةَ والباغيةَ وغيرها، وذهب بعضُ المفسِّرين، إلى أنَّ الصِّفةَ محذوفةٌ للعلم بها منَ السّياق، أو لأنَّ المؤمنين ما كانوا يلقَون إلّا الكفّار، والتّقدير: فئةً كافرةً[4].

سوف تبقى الحربُ سجالًا بين الكفر والإيمان، على مدى الأزمان

سببُ تنكير لفظ ﴿فِئَةً﴾:

لمّا كانتِ النّكرةُ في سياق الشّرطِ تفيدُ العمومَ دلَّ على أنَّ المعنى

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/90.
(2) السّكاكيّ، مفتاح العلوم، ص: 181 - 183.
(3) السّكاكيّ، مفتاح العلوم، ص: 240 - 243.
(4) البغويّ، معالم التّنزيل: 3/364، والزّمخشريّ، الكشّاف: 2/226.

تنوّعُ الأعداء وتحاملُهم، لايؤثّرُ في ثباتِ المؤمنين

على العمومِ؛ ليشملَ كلَّ فئةٍ هي عدوٌّ للمؤمنين، في قوله: ﴿إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً﴾، على سبيلِ البدلِ، بأن تأتي فئةٌ ثمَّ فئةٌ أخرى على البدلِ، في الذّواتِ والأوقاتِ والمواضعِ[1]، كما يرشدُ إليه السّياقُ؛ والمعنى: أيُّ فئةٍ كانت قليلةً أو كثيرةً؛ ليشملَ عمومَ الفئة وعمومَ أحوالِها[2]، وتقدّمَ في سورة الأنفال قوله تعالى: ﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦﴾﴾ [الأنفال: 16].

دلالةُ الفاءِ في جواب الشّرط:

وجوبُ الثّباتِ، وذكرُ الله كثيرًا، عند الحرب العوان، من غيرِ مهلةٍ

لمّا كانتِ الفاءُ حرفَ عطفٍ، يفيدُ التّرتيبَ والتّعقيبَ، وكانت في موضعِ جوابِ الشّرطِ هنا في قوله: ﴿إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُوا۟﴾، دلَّت هنا على ترتّب وجوبِ الثّباتِ، وذكرِ اللّهِ كثيرًا، على لقاء الفئةِ، بمعنى: أنَّ لقاءَ المؤمنين الفئةَ سببٌ لتحقّقِ الجزاءِ. كما دلَّت على وجوب أن يكون الثّباتُ وعدمُ تولّي الأدبار عندَ اللّقاء، من غير مهلةٍ، ومن دون تقاعس.

بلاغةُ الاستعارة في قوله: ﴿فَٱثْبُتُوا۟﴾:

الثباتُ عندَ قتالِ العدوِّ يقتضي المداومةَ عليه

أصلُ الثّباتِ هو اللّزومُ وعدمُ الحركة، وهو هنا مجازٌ عنِ المداومةِ على القتال، فشبّه الأمرَ بمواصلة المؤمنين القتالَ ولزومه، بالأمر بلزوم المكانِ وعدم التّزحزحِ عنه لمَن شأنُه الثّباتُ وعدمُ التّحرّكِ، حيث حذفَ هذا الشَّيءَ الجامدَ الثّابتَ، وترك شيئًا من لوازمه، وهو الثّباتُ وأسنده إلى المشبّه، على سبيل الاستعارة المكنيّة التّخييليّة؛ ليفيدَ تقويةَ المعنى وتأكيدَه، وليكونَ استدلالًا على وجوبِ الثّباتِ، وتصويرًا للحالةِ.

(1) الجوينيّ، البرهان في أصول الفقه: 1/119، والعطّار، حاشية على شرح جمع الجوامع: 2/10.
(2) الواحديّ، التّفسير الوسيط: 2/464.

نكتةُ التّعبيرِ بلفظ ﴿فَٱثۡبُتُواْ﴾:

الثّباتُ في الحرب دليلُ رسوخِ الإيمانِ، وثباتِ الجَنانِ

لمّا كان الأمرُ بالثّبات نهيًا عن تَوْليةِ الأدبارِ، وكانَ الأمرُ بالشّيء نهيًا عن ضدّه، دلَّ على أنَّ المرادَ منَ الأمر بـ﴿فَٱثۡبُتُواْ﴾ - في قوله: ﴿إِذَا لَقِيتُمۡ فِئَةً فَٱثۡبُتُواْ﴾ - فائدةُ الخبر ولازمُها؛ أي: الأمرُ بالثّباتِ والنّهيُ عنِ التّولّي[1]، و"هذا أمرٌ بما فيه داعيَةُ النّصرِ، وسببُ العزِّ، وهي وصيَّةٌ منَ الله مُتَوَجّهَةٌ بحَسَبِ التّقييدِ في آيةِ الضّعفِ، ويجري مع معنى الآيةِ قولُ النّبيِّ ﷺ: «لا تتمنَّوا لقاءَ العدوِّ، واسألوا اللّهَ العافيةَ، فإذا لقيتُموهم فاثبتوا»"[2].

مناسبةُ العطفِ في جملة الجزاءِ:

دَيْمومةُ ذِكْرِ الله عند القتال ثَباتٌ حِسّيٌّ ودَعْمٌ نفسيٌّ

عُطِفَ ﴿وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ﴾ على جواب الشّرط ﴿فَٱثۡبُتُواْ﴾، في قوله: ﴿فَٱثۡبُتُواْ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا﴾؛ ليفيدَ العطفُ التّشريكَ بين المعطوف والمعطوف عليه، في وقوعِ الجزاء، وليُشعرَ أنَّ المعطوفَ ﴿وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ﴾ لا يكونُ شيئًا حتّى يتحقّقَ المعطوفُ عليه، بقوله: ﴿فَٱثۡبُتُواْ﴾، فيكونُ الشّرطُ سببًا للامتثال لِذكر الله، بواسطةِ أنّه سببٌ للامتثال لـ﴿فَٱثۡبُتُواْ﴾، فيكون المعنى على هذا: (إذا لقيتم فئةً فاثبتوا، وإذا ثبتّم فاذكروا الله كثيرًا)[3]. وفيه إشعارٌ أنَّ ذكرَ الله كثيرًا يقوّي الثّباتَ ويديمه، وجمع بين الأمرِ بالثّبات والأمرِ بذكر الله ليفيدَ الجمعَ بين الجانب النّفسيِّ والحسّيِّ عندَ لقاءِ العدوِّ.

دلالةُ تنكيرِ لفظ ﴿كَثِيرٗا﴾:

ذِكْرُ الله مأمورٌ به في جميعِ الأوقاتِ

جاء اللّفظُ بصيغة النَّكِرة لتعظيمِ الذّكرِ وتفخيمِه، وللحثِّ على الزّيادةِ والكثرةِ في ذكر الله كما يرشدُ إليه السّياقُ، وفيه بيانٌ

(1) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنّة: 5/230.

(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/536. والحديث أخرجه مسلم، الصحيح، برقم: (4541)، بلفظ: «و إذا لقيتموهم فاصبروا».

(3) الجرجانيّ، دلائل الإعجاز، ص: 234.

لأهميّة ذكرِ اللّه، إذ أمرَ اللّهُ تعالى به في أحْلَكِ الظّروف وأشدِّها انشغالًا للمؤمنين فيما هو واجبٌ عليهم، وفي وقتِ تماسِّ الفريقين، والمواجهة في الحربِ وحملِ السّلاح، فكيفَ إذا كان المؤمنُ في حالةِ الرَّخاءِ والمُسالَمة؟!

مناسبةُ مجيءِ لفظ ﴿كَثِيرًا﴾:

لمّا كان السّياقُ قد أخبرَ عن كثرةِ العدوِّ وقلّتِهم ناسبَ أن يقيِّدَ الذِّكرَ المأمورَ به بصفة المصدر المحذوف، والتّقدير: اذكروا اللّه ذكرًا كثيرًا؛ للتّنبيه إلى أن لا تنظروا إلى كثرة العدوِّ بل امتثلوا إلى كثرة الذّكر فتظفَروا[1].

لا تنظروا إلى كثرةِ العدوِّ بل امتثلوا إلى كثرةِ الذِّكرِ فتظفَروا

بلاغةُ التّعبير بـ﴿لَّعَلَّكُمْ﴾:

لمّا كان (لعلَّ) على معنى التَّرجّي والتّعليل؛ أفاد الكلامُ الرّجاءَ بالنّسبة للعبدِ[2]، بمعنى: امتثلوا لأمر الثّباتِ حين لقاءِ الفئةِ، واذكروا اللّه كثيرًا رجاءَ أن تُفلِحوا وتُنجِحوا، وأفادَ التّعليلَ بمعنى: أنّ الثّباتَ حينَ لقاء العدوِّ وذكرَ اللّه كثيرًا؛ سببٌ للفلاحِ.

قلوبُ المؤمنين تتطلَّعُ دومًا إلى رحمة الله ترتجي رضاه

دلالةُ مجيء الخبر جملةً فعليّةً:

أفاد الإسنادُ تأكيدَ المعنى وتقويتَه بما تضمَّنه من مجيء المسنَدِ جملةً فعليَّةً[3].

مناسبةُ حذفِ مُتعلّق الفعل ﴿تُفْلِحُونَ﴾:

للإيذانِ بعمومِ فلاحِهم إذا امتثلوا لأمره تعالى؛ أي: لعلَّكم تفلحون في الدّنيا، وتفلحون في الآخرة. كما يَحتملُ أن يكونَ المرادُ إثباتَ وصفِ الفلاح في أنفسهم؛ ليكونَ وصفًا لازمًا لهم.

خيرُ الفلاح ما كان في الدّنيا والآخرة

(1) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنّة: 5/232.
(2) ابن هشام، مغني اللّبيب: 1/317، والشّنقيطيّ، أضواء البيان: 5/525.
(3) السّكاكيّ، مفتاح العلوم، ص: 217 - 221.

دلالةُ الفعلِ المضارع ﴿تُفْلِحُونَ﴾:

أفادَ الفعلُ المضارعُ استمرارَ فلاحِ المؤمنين إذا ثبتوا عند لقاءِ الفئةِ وذكروا اللّٰه كثيرًا، وتَجَدُّدَ حدثِ الفلاح أو وصفِه بتجدُّدِ أسبابِه.

تـجـدّدُ فـلاحِ المؤمنين بتجدّد أسبابِه

﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ وَٱصۡبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ٤٦ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرٗا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ ٤٧﴾ [الأنفال: 46 - 47]

مُناسَبَةُ الآيَتينِ لِما قَبْلهما:

رَبْطُ الدَّعوةِ إلى الثَّباتِ والذِّكرِ باتِّخاذِ الأسبابِ المفضيةِ إلى النَّصرِ

لمّا أمرَهم بالثَّباتِ وذكْرِ اللّهِ كثيرًا في الآيةِ السّابقةِ؛ ناسبَ الاستمرارَ على الوصيَّةِ لهم، بأنْ يتمِّمَ ذكْرَ الأسبابِ المعينةِ على النَّصرِ[1]، وأيضًا لمّا أمرَهم برسوخِ الأقدامِ، وذكرِ اللّهِ على الكمالِ والتَّمامِ؛ أمرهم بأعمالٍ راجعةٍ إلى انتظامِ الجيشِ، والتئامِ الصَّفِّ، ووحدةِ الكلمةِ، وهي تمتينُ علائقِ بعضِهم مع بعضٍ، بالهرَعِ إلى الطّاعةِ، والالتزامِ بترْكِ التَّنازعِ والشِّقاقِ، والتَّحلّي بالصَّبرِ الجميلِ، واجتنابِ الكِبْرِ والرّياءِ والصَّدِّ عنِ السَّبيلِ[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿رِيحُكُمۡۖ﴾: أصلُ الكلمةِ: روحٌ، ويدلُّ على سعةٍ وفسحةٍ واطِّرادٍ، وأصل ذلك كلِّه الرّيحُ، وهي الهواءُ المتحرِّكُ، والجمع رياحٌ، وعامَّةُ المواضعِ الَّتي ذكرَ اللّهُ تعالى فيها إرسال الرّيح بلَفْظِ الواحِد، فهي بمعنى العذابِ، وكلُّ موضعٍ ذكرَ فيه بلفظِ الجمع، فهي بمعنى الرَّحمةِ، ويأتي اللَّفظُ على المجازِ بمعنى الغلبةِ، ومنه: (ذهبت ريحهم)، أي: دولتهم[3]، ومن ذلك قولُ الشّاعرِ:

إذا هَبَّت رياحُكَ فاغتَنِمها*** فعُقبى كُلُّ خافِقَةٍ سُكونُ

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/536.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/30.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والزّمخشريّ، أساس البلاغة، والرّاغب، المفردات: (روح).

وإن دَرَّت نياقُكَ فاحتَلِبها*** فما تَدري الفَصيلُ لِمَن يَكونُ؟ [1]

2) ﴿بَطَرًا﴾: الباءُ والطّاءُ والرّاءُ أصلٌ واحدٌ، وهو الشَّقُّ، وسُمّي البيطارُ لذلك، والمعنى المحوريُّ الَّذي تدورُ عليه هو: تجمُّعُ مادَّةٍ فاسدةٍ في الباطنِ أو في الأثناء، فيشقُّ عنها: كما في إخراجِ الماءِ الَّذي في باطنِ الحافرِ، وهو فاسدٌ، ويقال لكلِّ من أرهق إنسانًا، فحمَّلَهُ فوقَ ما يُطيقُهُ: قد أبْطَرَهُ ذَرعَهُ، أي: ضيَّعَ واستهلكَ قوَّتَهُ، والبطرُ: دهشٌ يعتري الإنسانَ من سوءِ احتمالِ النِّعمةِ وقلَّةِ القيام بحقِّها، وصرفِها إلى غيرِ وجهها، ومنه: بَطَرُ النِّعمة: قلَّةُ احتمالها والطُّغيانُ بها، وعدمُ شكرها، فهو في ضوءِ ما سبقَ فسادُ النَّفس إزاءَ تلقّي النِّعمةِ ببخْسِ قيمتِها، أو بالإفسادِ بها، فتُهْدَرُ[2].

3) ﴿وَرِئَآءَ﴾: مشتقٌّ من الفعلِ (رأى)، يقال: فلانٌ مُراءٍ وقومٌ مُراؤونَ، والاسم الرّياءُ، وهو أن يفعلَ شيئًا ليراهُ النّاس، ويَظُنّوا به خَيْرًا، يُقالُ: فعَلَ ذلك رياءً وسُمْعَةً، ويُقال: أرْأى الرَّجُلُ؛ إذا أظهرَ عَملًا صالحًا رياءً وسُمْعةً[3].

المَعْنى الإجْماليُّ:

دعـــــوةٌ إلى طاعةِ اللهِ ونبذِ الفرقةِ، وتحفيزٌ على الصَّبرِ على العوائقِ

يرشدُهم السّياقُ أن أطيعوا اللّهَ ورسولَهُ، فيما أمركم بهِ، ونهاكم عنهُ، ولا تخالفوهما في شيءٍ، ولا تختلفوا، فتفرَّقوا، وتختلف قلوبُكم، فتضعفوا، وتجْبُنوا، وتذهب قوَّتُكم وبأسُكم، واصبروا على مشاقِّ الطّاعةِ واجتنابِ المعصيةِ، إنَّ اللّه معَ الصّابرين بتأييدهِ ومعونتِه ونصرِه، ولا تكونوا مثلَ المشركينَ الَّذين خرجوا من بلدِهم كِبْرًا ورياءً؛ ليمنعوا النّاسَ من الدُّخول في دينِ اللّهِ، واللّهُ بما

(1) البيتان منسوبان لعليّ بن أبي طالب، وللشّافعي، وللمتنبّي، وللشّاعر ابن هندو العبّاسيّ، وهما من الحكمة السَّيّارة، واستشهد الزّمخشريّ بالمطلع. ينظر: الزمخشري، أساس البلاغة: 1/393، والزّبيديّ، تاج العروس: 6/414.

(2) الرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (بطر).

(3) الأزهريّ، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (رأى).

يعملون محيطٌ، لا يغيبُ عنه شيءٌ، ففي الآيةِ أمرٌ من اللّه (جلّ ثناؤه) إلى المؤمنين بهِ وبرسولهِ، ألّا يعملوا عملًا إلّا للّهِ مخلصًا، طلبًا لما عنده[1]، وابتغاءً لمرضاتهِ وفضلهِ.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

مناسبةُ الوصلِ بالواوِ في قولهِ: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾:

جاءَ الوصلُ بالواو، ليفيدَ عطفَ ما في هذهِ الآيةِ على جوابِ الشَّرطِ في قولهِ: ﴿فَٱثۡبُتُواْ﴾ لمناسبةِ عطفِ الطَّلبِ على الطَّلبِ، وتصدَّرتِ الآيةُ بالأمرِ بطاعةِ اللّهِ ورسولهِ، ولم تكن ضمنَ الآيةِ السّابقة لتعظيمِ أمرِ الطّاعة، وللإشعارِ بأنَّ طاعةَ اللّهِ ورسولِه تحقِّقُ الثَّباتَ في القتالِ وتقوّيه، فيكونُ التَّخصيصُ بالأمرِ بطاعةِ اللّهِ ورسولهِ هنا فيه تأكيدٌ.[2]

طاعةُ اللهِ ورسولِه أهمُّ أسبابِ النَّصرِ المبينِ

مناسبةُ العطفِ في قولهِ: ﴿وَرَسُولَهُۥ﴾:

عطفَ لفظَ ﴿وَرَسُولَهُۥ﴾ على الاسمِ الجليلِ، للإشعارِ بأنَّ طاعةَ رسولِه من طاعتهِ، وأنَّ الامتثالَ لطاعةِ اللّهِ تعالى، لا يحصلُ من دونِ طاعةِ رسولِه، ولمّا كان المقامُ مقامَ ذِكْرِ لقاءِ الفتنَة، لقاء الفئة؛ أفادَ التَّنبيهُ على وجوبِ طاعةِ رسولِ اللّهِ ﷺ، في الإقدامِ والإحجامِ في القتالِ، لجهلِهم بالعواقبِ[3]، كما أنَّ العطفَ أشارَ إلى تقريرِ أمرِ خمسِ الغنيمةِ، فإنَّ ما كانَ لرسولِ اللّهِ، فهو للّهِ تعالى.

الامتثالُ لطاعةِ اللهِ العظيمِ، لا معنى له دونَ طاعةِ رسولِه الكريمِ

دلالةُ الإضافةِ إلى الضَّميرِ في: ﴿وَرَسُولَهُۥ﴾:

أضيفَ لفظُ (رَسولِ) إلى الضَّميرِ العائدِ إلى ﴿ٱللَّهَ﴾، لكونِه مذكورًا، فهو مقرَّرٌ في ذهنِ السّامعِ، وللإيذانِ أنَّ طاعةَ رسولِ اللّهِ، هي نفسُها طاعةٌ للّهِ تعالى؛ لأنَّ الآمرَ بها، والواضعَ لها ذلك الموضعَ

تنويهٌ بمكانةِ الرَّسولِ القداسيَّةِ بإضافةِ الرَّسولِ إليهِ في الطّاعةِ

(1) ابن جرير، جامع البيان: 13/576، ونخبة من أساتذة التّفسير، التّفسير الميسّر، ص: 183.
(2) القاسميّ، محاسن التّأويل: 5/305.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/293.

مِنَ التِّجلَّةِ والتَّكرمةِ، هو اللّهُ (تعالى)، إضافةً إلى أنَّ الرَّسولَ مذكورٌ بلفظِ الرَّسولِ، وهو يعني: أنَّ الطّاعَةَ للّهِ بالأصالةِ، وأنَّ العطفَ والإضافةَ لطاعةِ رسولِهِ، يوحي بأنَّ أصلَ طاعةِ الرَّسولِ، راجعةٌ إلى طاعةِ اللّهِ في الأساسِ.

فائدةُ حذفِ تاءِ المضارعةِ في: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ﴾:

حُذِفَت تاءُ الفعل في قوله: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ﴾ تخفيفًا، والتَّقديرُ: (ولا تتنازعوا)، ولعلَّ فيه إشارةً إلى أنَّ التَّنازعَ - وإنْ قلَّ - منهيٌّ عنهُ، ولذلك قالَ لهم: "وَلا تَنازَعوا باختلافِ الآراءِ، كما فعلتُم يومَ بدرٍ، في أوَّلِ الأمرِ، ويومَ أحدٍ، فتَفَشَلوا، أي: تجبُنوا"[1].

التَّنازعُ وإنْ قلَّ ينبغي اجتنابُهُ؛ لأنَّـهُ خيبةٌ وفسادٌ

دلالةُ حذفِ متعلَّقِ الفعلِ ﴿تَنَٰزَعُواْ﴾:

في قولِهِ تعالى: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ﴾ حُذِفَ متعلَّقُ الفعلِ لإفادةِ العمومِ، فليس الأمرُ مختصًّا بالتَّنازع في رأيٍ معيَّنٍ، ولا في أمرِ الغنيمةِ أو في القتالِ، والمعنى: لاتنازعوا في أيِّ رأيٍ، للإشعارِ بأنَّ التَّنازعَ سببُ كلِّ شرٍّ، ولم يقل: (ولا تنازعوا فيما بينكُمْ)، للإيجازِ في الكلامِ، فإنَّ التَّنازعَ بمعنى: أن ينزعَ بعضُ القومِ بعضًا، وليفيدَ النَّهيُ عمومَ المنازعةِ، ليعمَّ الأفرادَ والجماعاتِ.

التَّنازعُ سببُ كلِّ شرٍّ، وهو المفضي لكلِّ خيبةٍ وهزيمةٍ

مناسبةُ النَّهي عن التَّنازعِ في قولِهِ: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ﴾:

لمّا كانت طاعةُ اللّهِ ورسولِه، تفيدُ الموافقةَ بينَ المسلمين في أصلِ الدّين؛ ناسبَ أن يعطفَ عليها قوله: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ﴾، ليؤذنَ أنَّه كما تجبُ الموافقةُ في الدّين والعقيدةِ، تجبُ الموافقةُ في الرَّأي والعزيمة[2]، وليشعرَ أنَّ طاعةَ اللّهِ ورسولِه، لا تكفي في النَّصرِ من دونِ اجتنابِ التَّنازعِ في الآراءِ.

أوَّلُ الفسادِ التَّنازعُ، ورأسُ الزَّلِ الاختلافُ

(1) المظهريّ، محمّد ثناء الله، التّفسير المظهريّ: 4/97.

(2) القشيري، لطائف الإشارات: 1/629.

مناسبةُ عطفِ النَّهي عَنِ المنازعةِ على الأمرِ بالطّاعةِ:

اجتنابُ التَّنازعِ لونٌ من طاعةِ اللهِ وطاعةِ رسولِه

لمّا كانَ الأمرُ بطاعةِ اللهِ ورسولِه في قولِه: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾، عامًّا شاملًا، لِكلِّ ما تأتون وما تَذرون، ليعمَّ فعلَ المأموراتِ، وتركَ المنهيّاتِ الَّتي تشملُ التَّنازعَ، كان النَّهيُ عن التَّنازعِ في قولِه: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ﴾، من عطفِ الخاصِّ على العامِّ؛ ليكونَ تأكيدًا للنَّهي عن التَّنازع، وتقريرًا لهُ، لاندراجِه في الأمرِ بطاعةِ اللهِ ورسولِه، اندراجًا أوَّليًّا وهكذا الأمرُ بالصَّبرِ، ففيهِ معنى التَّأكيد[1]، وإنْ كان المرادُ من الأمرِ بطاعةِ اللهِ ورسولِه الأمرَ بطاعةِ ولّاة الأمورِ، فيكونُ من عطفِ العامِّ على الخاصِّ، حتَّى يرتقي النَّهي بهم من الأدنى إلى الأعلى، وذلك لأنَّ النَّهيَ عن التَّنازعِ، أعمُّ من الأمرِ بطاعةِ ولّاة الأمورِ؛ لأنَّهم إذا نُهوا عن التَّنازع بينهم، فالتَّنازعُ مع أولي الأمرِ أولى[2].

دلالةُ الفاءِ بين السَّببيَّةِ والعطفِ:

التَّنازعُ والفشلُ مذمومانِ على مستوى الأفرادِ والجماعاتِ

في قولِه تعالى: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ﴾، الأظهرُ أنَّ الفاءَ في قولِه: ﴿فَتَفۡشَلُواْ﴾ سببيَّةٌ؛ لأنَّها وقعت في جواب النَّهي، فيكونُ ﴿فَتَفۡشَلُواْ﴾ منصوبًا بأنْ مضمرة، ليفيدَ أنَّ الفشلَ، مسبَّبٌ عن التَّنازعِ، بمعنى: أنَّ التَّنازعَ سببٌ للفشلِ، ولمّا كان المسبَّبُ - وهو (الفشلُ) - مذمومًا عندَ الأفرادِ والجماعاتِ، بحكم العقلِ والفطرةِ؛ دلَّ على ذمِّ السَّببِ، وهو (التَّنازع)، ويكون قولهُ: ﴿وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ﴾ بنصبِ الفعلِ ﴿تَذۡهَبۡ﴾، معطوفًا على ﴿فَتَفۡشَلُواْ﴾، ويمكنُ أن تكونَ الفاءُ عاطفةً، فيكونَ الفعلُ ﴿فَتَفۡشَلُواْ﴾ مجزومًا، لدخولِه في حكمِ النَّهي بـ(لا)، في قوله: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ﴾ والتَّقدير: لاتنازعوا، فلا تفشلوا، والمعنى على النَّهي عن الأمرين: التَّنازعِ والفشلِ[3].

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/25.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 5/31.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/226، والسّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 5/332.

بلاغةُ التَّعبيرِ بالتَّركيبِ: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ﴾:

كلُّ تنازعٍ يعقبهُ الفشلُ، ويُطْبِقُ من جرّائِه الضَّعفُ

لمّا كانَ الرّاجحُ أنَّ الفاءَ هنا سببيَّةٌ؛ أفادَ أنَّ التَّركيبَ تضمَّنَ نهيًا واستدلالًا، على وجوبِ الامتثالِ ببيانِ سببِ النَّهي، وهو الَّذي يسمَّى في البلاغةِ (العلَّة الغائيَّةَ)، وبيانهُ أنَّه لمّا قال: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ﴾، أفادَ النَّهيُ طلبَ انتفاءِ التَّنازعِ وتركَهُ، ولمّا أرادَ أنْ يستدلَّ على ذمِّ التَّنازعِ، ليكون أدعى إلى التَّركِ، ذكرَ ما يكونُ مسبَّبًا عن التَّنازع، وهو الفشلُ، فيكون المرادُ من الكلام أمرين: النَّهيَ وبيانَ سببِ النَّهي، والنَّهي هنا على تقديرِ شرطٍ مفادُهُ: لا تنازعوا، فإنْ تتنازعوا؛ تفشلوا[1]، فيكون ذكرُ الفاءِ بيانًا للسَّببِ، وإشعارًا بوقوعِ الفشلِ عقبَ التَّنازعِ من غيرِ مهلةٍ، ليكونَ التَّركيبُ على معنى المبالغةِ في التَّحذيرِ من المنهيِّ عنه، وفيه معنى آخر، هو من لازمِ الفائدةِ، والمعنى: إن لم تتنازعوا؛ لن تفشلوا، ولن تذهبَ دولتُكم وقوَّتُكم وهيبتكم، ولازم اللّازم: اجتماعكم قوَّةٌ لكم، وهيبةٌ في عيونِ الآخرين.

دلالةُ النَّهي في قولِهِ: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ﴾:

النَّهيُ عنِ التَّنازُعِ على الاستمرارِ؛ لأنَّهُ على المدى فسادٌ ودمارٌ

لمّا كان التَّنازعُ قد وقعَ يومَ بدرٍ على الغنيمةِ، ويومَ أُحُدٍ على تركِ الموقعِ على الجبلِ، وكان الخطابُ بالنَّهي على معنى العموم لجميعِ المؤمنين في موردِ النِّداء؛ لأنَّه لم يُرِدْ به مخاطَبًا بعينه، ولمّا كانَ النَّهيُ راجعًا إلى اتِّصالِ الواقعِ، بما عليهِ المؤمنونَ، من تركِ التَّنازعِ، وليس إلى قطعِ الواقعِ؛ دلَّ على أنَّ النَّهيَ، على معنى الاستمرار، وليس على المرَّةِ[2].

سببُ كونِ التَّنازعِ سببًا للفشلِ:

التَّنازعُ جبنٌ وخورٌ، والاتِّفاقُ قوَّةٌ وتمكينٌ

قد يقالُ: لمَ قال: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ﴾، دونَ أن يقولَ: (ولا تختلفوا مثلًا)؟ والجوابُ: أنَّه لمّا كان التَّنازعُ على معنى: أنَّ كلَّ واحدٍ من

(1) السّكاكي، مفتاح العلوم، ص: 321، والتّفتازاني، المطوّل، ص: 428 - 429.
(2) السّكاكيّ، مفتاح العلوم، ص: 321.

المتنازعين، يريدُ أن ينزعَ ما عندَ الآخرِ من رأيٍ، ويلقي به، أو كان على معنى نزعٍ إلى الشَّيء نزوعًا؛ إذا مالَ إليهِ، فإنَّ كلَّ واحدٍ من المتنازعين في الأمر، يميلُ إلى غيرِ ما يميلُ إليهِ الآخرُ، فيفيدُ كلا الوجهين، التَّغاضبَ وانتفاء التَّعاون بين القوم، والتَّفرُّق؛ لِلانشغالِ باتِّقاءِ بعضِهم بعضًا، فيصرفُ الأمَّةَ والجيشَ عن الإقدام على أعدائِهم، فيتمكَّنُ منهم العدوُّ، فكان التَّعبيرُ بلفظِ ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ﴾ دونَ غيرِه، على مقتضى بلاغةِ الكلامِ[1].

بلاغةُ الاستعارةِ التَّصريحيَّةِ التَّبعيَّةِ، أو المكنيَّةِ:

الهيبةُ عدمُ التَّفرُّقِ، لا في التَّشرذمِ والتَّمزُّقِ

في قولهِ: ﴿وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ﴾ استعارةٌ تصريحيَّةٌ تبعيَّةٌ عن الغلبةِ أو الشَّوكةِ، أو الدَّولة؛ إذ شبَّهَ الدَّولةَ والشَّوكة بالرّيحِ، فحذف المشبَّهَ، وذكرَ المشبَّهَ بهِ، وشُبِّهتِ الدَّولةُ أو الغلبةُ بالرّيح، من حيثُ إنَّها في تمشّي أمرِها ونفاذِه، مشبَّهةٌ بها في هُبوبها، فلا يمنعُ جَرْيَها ونفاذَها شَيْءٌ[2]، ويمكنُ حملُها على الاستعارةِ المكنيَّةِ، وتكون الرّيحُ مستعارةً للقوَّةِ[3]، وأصلهُ: أنَّ الرَّيح إذا كانت في الحرب من جهة صفٍّ؛ كانت في وجوه أعدائهم، فمنعتهم ممّا يريدون، فخذلوا، فصارت كأنَّها قوَّةُ مَنْ أتتْ مِن عندِه، فصارت ممّا يستعارُ للكنايةِ عن القوَّةِ في المواجهاتِ والقتالِ[4]، ويمكنُ أن تكونَ الرّيحُ مستعارةً، لِلهيبةِ والرُّعب في نفوس الأعداء؛ لأنَّهما من لوازمِ القوَّةِ، وكنايةٌ عنها، والمعنى: فتذهبُ هيبتُكم ورعبُكم، وأجازَ بعضُ المفسِّرين أن يكونَ الكلامُ على الحقيقةِ، ويكونُ المرادُ بالرّيح الحقيقةَ، أي: ريحُ النَّصرِ الَّتي يرسلُها اللّٰهُ ﷻ لنصرِ أوليائهِ

(1) رشيد رضا، تفسير المنار: 10/23، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/31.
(2) الزّجاج، معاني القرآن وإعرابه: 2/425، والزّمخشريّ، الكشّاف: 2/215، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/31، وينظر: الشّعرواويّ، تفسير الشّعراويّ: 12/7540.
(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/536.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/294.

وهلاك أعدائهِ[1]، وفي الحديثِ قال رسولُ اللّه ﷺ: «نُصِرْتُ بالصَّبا، وأُهْلِكَتْ عادٌ بالدَّبورِ»، والصَّبا هي ريحُ النَّصرِ، والدَّبورُ هي رياحُ الهلاكِ[2].

بلاغةُ العطفِ في جملتي الجزاءِ في قولهِ: ﴿فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْۖ﴾:

لمّا كان التَّنازعُ سببًا للفشلِ، والفشلُ سببًا لذهابِ الدَّولةِ وتوابعِها؛ دلَّ على أنَّ الشَّرطَ - وهو التَّنازع - سببٌ لذهابِ الدَّولةِ بوساطةِ كونِه سببًا للفشلِ، فكانَ النَّهيُ عن التَّنازع مفيدًا انتفاء الفشلِ، وما عطفَ عليهِ[3]، "لأنَّ التَّنازعَ هو تعاندُ القوَى، أي: توجدُ قوَّةٌ تعاندُ قوَّةً أخرى، والقوى المتعاندةُ، تهدرُ طاقةَ بعضِها البعضَ، فالتَّعاندُ بين قوَّتينِ، يهدرُ طاقةَ كلٍّ منهما، فتصبحُ كلُّ قوَّةٍ ضعيفةً وغيرَ مؤثِّرةٍ"[4].

التَّنازعُ سببٌ لذهابِ الدَّولةِ وقوَّتِها، والأمَّةِ وتماسكِها

دلالةُ التَّعبيرِ بالمضارعِ في قولهِ: ﴿فَتَفْشَلُواْ﴾ و﴿وَتَذْهَبَ﴾:

لإفادةِ تكرُّرِ الفشلِ وذهابِ ريحِكم إنْ تنازعتم، وأنَّه سيكونُ مستمرًّا على معنى تجدُّدِهما حالًا فحالًا، ليدلَّ على أنَّ الفشلَ والضَّعفَ يذهبُ شيئًا فشيئًا، ومثله قوَّةُ الدَّولةِ والهيبةِ، يذهبانِ شيئًا فشيئًا، "والفشلُ هو إخفاقُ الإنسانِ دونَ المهمَّةِ الَّتي كانَ يرجوها من نفسِه"[5].

تلاشي الدَّولةِ والقوَّةِ شيئًا فشيئًا، إن وقعَ التَّنازعُ الماحقُ

دلالةُ الإضافةِ للفظِ (الرّيح):

في قولهِ تعالى: ﴿وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْۖ﴾ الإضافةُ هنا للتَّخصيصِ، بمعنى الرّيحِ الَّتي خصَّكم اللّهُ بها، إشعارًا بالنِّعمةِ، وحثًّا على

مِن علامةِ النَّصرِ أن تهبَّ ريحٌ من جهةِ المقاتلين إلى وجوهِ الأعداءِ

(1) الماورديّ، النّكت والعيون: 2/324، والزّمخشريّ، الكشّاف: 2/215، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/536، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/62، وأبو حيان، البحر المحيط: 5/332، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/25.

(2) البخاريّ، الجامع الصحيح، برقم: (1035)، مسلم، الصحيح، برقم: (900).

(3) الجُرجانيّ، دلائل الإعجاز، ص: 234.

(4) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 8/4723.

(5) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 8/4727.

دوامِها، بدوامِ سببِها، وهو تركُ التَّنازع، وذهب بعض المفسِّرين إلى أنَّ الإضافةَ هنا، لأدنى ملابسةٍ، لتكونَ الرّيح على المعنى الحقيقيِّ لها؛ للإشعارِ بأنَّ الأغلبَ والأشهرَ، هو أنَّ علامةَ الكسرِ، ذهابُ الرّيحِ من وجوهِ الأعداءِ، كما أنَّ علامةَ النَّصرِ أن تهبَّ ريحٌ من جهةِ المقاتلينَ إلى وجوهِ الأعداءِ[1].

بلاغةُ الإيجازِ بالحذفِ:

طويَتْ بعضُ الجملِ، على طريقِ الإيجازِ لوضوحِها، فحذفَ لازمَ الشَّرطِ، وهو (تفرَّقتم)، والتَّقدير: (ولا تنازعوا؛ لأنَّكم إذا تنازعتم؛ اختلفتم وتفرَّقتم)، ولمّا ذكر الجزاءَ في قولِه: ﴿فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ﴾؛ حذفَ لازمَهُ، وهو (فَلا تُنْصَرونَ)، والتَّقديرُ: (فإذا تفرَّقتم؛ فشلتم، وجبنتُم، وذهبت قوَّتُكم وغَلَبَتُكم؛ فلا تنصرونَ، ولا تظفرونَ على عدوِّكم؛ بل يظفرُ بكم عدوُّكم)[2].

التَّنازُعُ سببٌ لانتفاءِ النَّصرِ، وحتميَّةٌ لانتصارِ العدوِّ على المتنازعين

مناسبةُ الأمرِ بقولِه: ﴿وَٱصۡبِرُوٓاْۚ﴾:

لمّا كانَ ما تقدَّم من الأوامرِ والنَّواهي، فيه مشاقٌّ، جاء بلفظٍ عامٍّ جامعٍ للمعاني[3]، فقال: ﴿وَٱصۡبِرُوٓاْۚ﴾، أي: على ما يكونُ من المشاقِّ، ولمّا جاءَ في سياقِ هذه الآيةِ، اندرجَ فيه الصَّبرُ في القتالِ - والصَّبرُ على طاعةِ اللّهِ ورسولِه وعن التَّنازعِ - اندراجًا أوَّليًّا، ليشعرَ أنَّ النَّصرَ لا يقعُ من غيرِ صبرٍ.

النَّصرُ معَ الصَّبرِ، ومن صبرَ ظفرَ

فائدةُ حذفِ متعلَّقِ الفعلِ ﴿وَٱصۡبِرُواْ﴾:

حُذِفَ متعلَّقُ فعلِ الأمر ﴿وَٱصۡبِرُواْ﴾، إمّا ليفيدَ العمومَ، والمعنى: (اصبروا على طاعةِ اللّهِ ورسولِه، وعلى شدائدِ الحربِ، واصبروا مع نبيِّ اللّهِ ﷺ عندَ لقاءِ عدوِّكم، ولا تنهزموا عنه، وتتركوهُ، واصبروا على مخالفةِ أهوائِكم الَّتي تحملُكم على التَّنازع)، ويكون المرادُ بيانَ

الصَّبرُ على طاعةِ اللهِ، كالصَّبرِ على مخالفةِ الأهواءِ

(1) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 9/97.
(2) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنة: 5/232.
(3) الرّاغب، المفردات: (صبر).

عمومِ ما يتعلَّقُ بهِ الصَّبرُ، وإمّا ليفيدَ التَّحلّي بالصَّبرِ على الجملةِ، بمعنى أن يكونَ الصَّبرُ نفسُهُ، معنًى ثابتًا في أنفسِهم[1].

حسنُ التَّذييلِ في: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾:

جملةُ التَّذييلِ كالمثلِ في جريانِها في الكلامِ

أفادتْ جملةُ التَّذييلِ فوائدَ؛ هي أوَّلًا: تأكيدُ مفهومِ ما تقدَّمها، للإشعارِ بأنَّ الامتثالَ للأوامرِ والنَّواهي لا يكون من غيرِ صبرٍ. وثانيًا: لمّا كانت الجملةُ على معنى العمومِ والكُلّيَّة؛ أفادتْ أنَّ اللّهَ تعالى مع كلِّ صابرٍ من المؤمنينَ. وثالثًا: لمّا كانت الجملةُ على معنى العمومِ، كانت بمنزلةِ المثلِ في جريهِ في الكلامِ. رابعًا: أفادَ تأكيدُ مضمونِ الجملةِ بـ(إنَّ)، ومجيئُها جملةً اسميَّةً: تقريرَ المعنى؛ حثًّا للمؤمنين على الصَّبْرِ والمداومةِ عليه؛ لأنَّ ترويضَ النُّفوسِ وحبسَها على مقتضى العقلِ والشَّرعِ يحتاجُ إلى صبرٍ. خامسًا: في جملةِ التَّذييلِ إيماءٌ إلى منفعةِ الصَّبرِ الإلهيَّةِ، وهي إعانةُ اللّهِ لمن صبرَ امتثالًا لأمرِه[2].

دلالةُ لفظِ ﴿إِنَّ﴾ في قولِه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾:

دلالةُ (إنَّ) على معنى السَّببيَّةِ، تربطُ المضمونَ بالمقصدِ القيَميِّ

تفيدُ ﴿إِنَّ﴾ تأكيدَ مضمونِ الجملةِ، كما تقدَّمَ، كما تفيدُ تعليلَ الأمرِ بالصَّبرِ؛ لأنَّ حرفَ التَّأكيدِ في مثلِ هذا، قائمٌ مقامَ فاءِ التَّفريعِ[3]، والمعنى: (اصبروا؛ لأنَّ اللّه مع الصّابرين)، ففيهِ بيانُ سببِ الأمرِ للمبالغةِ في الحثِّ على الامتثالِ.

نكتةُ ذكرِ الاسمِ الجليلِ ﴿ٱللَّهَ﴾:

قوَّةُ اللهِ وإعانتُهُ للصّابرينَ، نعمةٌ لكلِّ محتسبٍ صبورٍ

في قولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾، ذكرَ الاسمَ الجليلَ ﴿ٱللَّهَ﴾ دونَ أن يقولَ: إنَّ ربَّكم مع الصّابرينَ، للإيذانِ بالإمدادِ والقوَّةِ، والإعانةِ والغلبةِ للصّابرينَ، لما يدلُّ عليه مقامُ الألوهيَّةِ، اقتضاءً لمقامِ الكلامِ وسياقِه، فالصَّبرُ سلاحُ المؤمنِ الَّذي لا يفلُّ،

(1) الجرجانيّ، دلائل الإعجاز، ص: 155.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/31.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/32.

ولقد قيلَ: (الشَّجاعةُ صبرُ ساعةٍ)، وكفى بالصَّبرِ شرفًا أنَّ اللّهَ مع الصّابرين بالمعونةِ والمددِ والتَّأييدِ إلى الأبدِ.

دلالةُ الحرفِ ﴿مَعَ﴾ في قولِهِ: ﴿مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾:

أينما وُجِدَ الصَّبرُ؛ وُجِدَ إمدادُ اللهِ الَّذي لا ينفدُ

لمّا كان لفظُ ﴿مَعَ﴾ يفيدُ أصالةَ المذكورِ بعدَهُ، وتبعيَّةَ ما قبلَهُ على سبيلِ الاجتماعِ في زمانٍ أو مكانٍ[1]؛ أفادَ أنَّ المرادَ من أصالتِهم، إنَّما هي من حيثُ إنَّهم المباشِرون للصَّبرِ، فهم متَّبعونَ من تلك الحيثيَّةِ، ومعيَّتُهُ تعالى، إنَّما هي من حيثُ الإمدادُ والإعانةُ، والنُصرةُ والكَلاءةُ والحفظُ، في أيِّ مكانٍ أو زمانٍ، يكونونَ فيه، والأغلب أن تكونَ للمكانِ، والمعنى: كلَّما صبرْتُم؛ كان إمدادُهُ تعالى ونصرُهُ تابعًا لكم في أيِّ مكانٍ تكونونَ فيه لا يفارقكم[2]، واللّهُ يعطي على الصَّبرِ بلا حسابٍ، ويوفّي الصّابرين أجرَهم، لما للصَّبرِ من مزيَّةٍ، وما لأهلِهِ من مقامٍ عندَ اللّهِ، تُرْفَعُ بهِ درجاتُهم، وتضاعفُ به أعمالُهُم عندَ من لا تضيعُ عندَهُ الأعمالُ، ولا يُظلمُ عندَهُ أحدٌ فتيلًا، وقد قالَ تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ۝١٠﴾ [الزّمر: 10].

دلالةُ التَّعبيرِ بلفظِ ﴿ٱلصَّٰبِرِينَ﴾:

الصّابِرُ هو الَّذي يكونُ الصَّبرُ وصفًا ثابتًا لهُ، لا مؤقَّتًا

في قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾، لمّا جاءَ الاسمُ بصيغةِ اسمِ الفاعلِ، دلَّ على أنَّ اللّه تعالى مع المؤمنين الَّذين يكونُ الصَّبرُ وصفًا لازمًا لهم، لاينفكُّ عنهم، وقد جاءَ السّياقُ في حثِّه على الوحدةِ والصَّبرِ، "ليشدَّ تلك الجماعةَ بعضَها إلى بعضٍ، بعد أن شدَّ كلَّ فردٍ فيها إلى موطنِ العزمِ والصَّبرِ من نفسِه"[3].

فائدةُ حذفِ متعلَّقِ ﴿ٱلصَّٰبِرِينَ﴾:

تناسقُ اللَّفظِ لتناسقِ المعنى

لمّا حُذِفَ متعلَّقُ الفعلِ ﴿وَٱصْبِرُوٓاْ﴾، فكان دالًّا إمّا على العمومِ أو على معنى الاتِّصاف بالصَّبرِ، ليكونَ معنًى ثابتًا لهم، ناسبَ أن

(1) الرّضي، شرح كافيّة ابن الحاجب: 3/311، والسّامرائي، معاني النّحو: 2/243 - 244.
(2) ابو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/25.
(3) عبد الكريم الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 5/628.

يحذف متعلَّق ﴿ٱلصَّٰبِرِينَ﴾؛ ليكون على نسقِه وشبهِه في المعنى، وليوافقَ المعلولُ علَّتَهُ.

بديعُ جناسِ الاشتقاقِ:

الأمرُ بالثَّباتِ على الصَّبرِ، والمداومةِ عليهِ في كلِّ أمرٍ

في قولهِ تعالى: ﴿وَٱصۡبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ جناسُ اشتقاقٍ مغايرٍ، وغرضُهُ بيانُ قيمةِ الثَّباتِ على الصَّبرِ والمداومةِ عليهِ بكلِّ أحوالهِ، وقد استعملَ فعلَ الأمرِ ﴿وَٱصۡبِرُوٓاْۚ﴾ في البدايةِ للحثِّ على الصَّبرِ والاستعانةِ على لأواءِ مصادمةِ الأعداءِ بالثَّبات والتَّصبُّرِ؛ لأنَّهُ المنجى والسَّندُ في تلك الحالِ، واستعملَ اسمَ الفاعلِ في بيانِ أنَّ اللّٰه مع الصّابرين، ومن كانَ اللّٰهُ معهُ، فلا يخاف دركًا ولا يخشى.

مناسبةُ الوصلِ بالواو في: ﴿وَلَا تَكُونُواْ﴾:

الائتمارُ بالامتثالِ للطَّلبِ أمرًا أو نهيًا

أفادتِ الواوُ استمرارَ وصيَّةِ اللّٰهِ للمؤمنين، فعطفت جملةَ النَّهي في قوله: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرٗا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾ على جملةِ ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ﴾، فيكون الكلامُ من عطفِ جملة النَّهي على جملةِ النَّهي، ويحتملُ أن تكونَ قد عطفت جملةَ النَّهي على جملةِ ﴿فَٱثۡبُتُواْ﴾، فيكونُ من عطفِ جملةِ النَّهي على جملةِ الأمر، وهو بالمجمل من عطفِ الطَّلبِ على الطَّلبِ[1]، إكمالًا لأسباب النَّصرِ عند اللِّقاءِ، وفي كلا الحالين هو من عطفِ تكليفٍ على تكليفٍ.

براعةُ الجمعِ بين فائدةِ الخبرِ ولازمها:

الأمرُ بالاتِّصافِ بضدِّ ما يفعلهُ المشركونَ بسببِ شركِهم

لمّا قالَ اللّٰهُ تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُواْ﴾؛ دلَّ على أنَّ المرادَ منه، نهيُ المؤمنين عن الخروجِ على الحالةِ الَّتي خرج عليها المشركون من ديارِهم، ويكون هو فائدةَ الخبرِ، وفيه إيذانٌ بلازمِ الفائدة، على معنى أمرِ المؤمنينَ بالخروجِ على ضدِّ ذلك، كأنَّه قال: اخرجوا بحالٍ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/32.

ووصفٍ، على ضدِّ ما خرجوا هم عليهِ، أي: مِن تقوى اللّهِ، والخشيةِ منهُ، مخلصين أعمالَكم للّهِ[1].

نكتةُ التَّعبيرِ بلفظِ ﴿دِيَٰرِهِم﴾:

استحكامُ المشركين على ما خرجوا عليهِ مِنَ الأوصافِ الذَّميمةِ

في قولهِ تعالى: ﴿كَٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِم﴾ عبَّرَ بلفظِ ﴿دِيَٰرِهِم﴾ دونَ (منازلهم) أو (بيوتهم)؛ لأنَّ الدّارَ هو الموضعُ الَّذي يحلُّ به القومُ، ويشتملُ على بيوتٍ ومنازلَ، بحيثُ يكونُ لهُ حرمٌ يحيطُ بهِ[2]، فدلَّ على أنَّهم خرجوا جميعًا من محيطِ حرمِهم، بطرًا ورئاءَ النّاس، ويصدّونَ عن سبيلِ اللّهِ، إشعارًا باستحكامِهم على ما خرجوا عليهِ، واجتماعِهم على الأوصافِ المذكورة، تأكيدًا وتقريرًا للمبالغةِ في ذمِّهم، وأنَّ خروجَهم مجتمعينَ، كان سببًا في اتِّصافِهم بالأحوالِ القبيحةِ، ولو قال: (منازلهم أو بيوتهم)؛ لأفادَ خروجَهم منفردين؛ لأنَّ البيتَ: هو اسْمٌ لمسقفٍ واحدٍ لَهُ دهليزٌ، والمنزلَ: اسْمٌ لما يشْتَمل على بيتٍ يسكنهُ الرَّجلُ بعيالهِ، بمعنى: خرجَ كلُّ واحدٍ منهم من بيتهِ، أو من منزلهِ، ففيهِ معنى الضَّعفِ والتَّشتُّتِ، كما أنَّه قد يوهمُ أنَّ الأوصافَ المذكورةَ، أحوالٌ لهم على الغالب، وليس على الاستيعابِ.

نكتةُ التَّعبيرِ بصيغةِ الجمعِ ﴿دِيَٰرِهِم﴾:

تنوُّعُ الأقوامِ الَّذين خرجوا لقتالِ المسلمينَ

في قولهِ تعالى: ﴿خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِم﴾، لمّا كانَ لكلِّ قوم من أهلِ مكَّةَ دارٌ، بمعنى محلَّةِ تجمُّعهم، دلَّ على أنَّ المرادَ خروجُ أقوامٍ من ديارِهم، فلم يكونوا من قومٍ معيَّنين، إشعارًا بكثرتِهم، والخروجُ بوصفِ الكثرةِ إشارةٌ إلى الخطْبِ الَّذي بسببهِ خرجوا من ديارِهم، وأنَّ ما عزموا على فعلِه من استعراضٍ للقوَّةِ، واحتفالٍ بما كانَ

(1) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنّة: 5/234، والسّمرقنديّ، بحر العلوم: 2/24، والزّمخشريّ، الكشّاف: 2/227.

(2) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (دور)، والكفويّ، الكليّات، ص: 239.

غرضُهُ إخافةَ الآخرين، كان فعلًا جماعيًّا، اقترحهُ الزُّعماءُ والعتاةُ، ولكنَّ المشاركين فيهِ، كانوا كلَّ الخارجين من ديارِهم.

بديعُ الإدماجِ لمعنيين مع النَّهي:

بيانُ قبحِ المنهيِّ عنهُ سببٌ مقنعٌ لاجتنابه

لمّا كانَ الأصلُ في الكلامِ النَّهيَ عن التَّشبُّهِ بالمشركين في بطرِهم، ورئائِهم، وصدِّهم عن سبيلِ اللّهِ؛ أدمجَ معنيين مع النَّهي، هما التَّشنيعُ على المشركين بذكرِ أحوالِهم القبيحةِ، وتكريهِ المسلمين تلكَ الأحوال؛ لأنَّ الأحوالَ الذَّميمةَ، تتَّضِحُ مذمَّتُها، وتنكشفُ مزيدَ الانكشافِ، إذا كانت من أحوال قومٍ مذمومين عند آخرينَ، وهذا أبلغُ في النَّهي، وأكشفُ لقبح المنهيِّ عنهُ، فإنَّ بيانَ قبحِ المنهيِّ عنهُ، سببٌ مقنعٌ لتركِه واجتنابه[1].

بلاغةُ التَّشبيهِ في قوله: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ﴾:

إبرازُ المشركينَ في معرضِ التَّقبيحِ والتَّوبيخ للتَّنفيرِ من حالِهم

لمّا كان الأصلُ في المشبَّهِ بهِ أنْ يكونَ أعرفَ بجهةِ التَّشبيهِ من المشبَّهِ، وأخصَّ بها؛ دلَّ على أنَّ المشركين معروفونَ بالأوصافِ المذكورةِ، ولمّا كان وجهُ الشَّبهِ ما ذكرَ من أحوالِهم من البطرِ والرِّئاءِ والصَّدِّ عن سبيلِ اللّهِ، كان وجهُ الشَّبهِ قريبًا؛ لظهورِ الأحوالِ على الذَّواتِ، فهي بمنزلةِ المحسوساتِ، ومجيءُ ما يدلُّ على وجه الشَّبهِ - وهي الأحوالُ المذكورةُ المجتمعةُ - يفيدُ حضورَ صورةِ التَّشبيهِ بحضورِ ذواتِهم، فهي صورةٌ متكرِّرةٌ على الحسِّ بمجرَّدِ حضورِ ذواتِهم في الذِّهن، والغرضُ من التَّشبيهِ هنا، إبرازُ الَّذين خرجوا من ديارِهم إلى المخاطبينَ في معرضِ التَّشويهِ والتَّقبيح والتَّوبيخ، للتَّنفيرِ من حالِهم، وفائدةُ التَّشبيهِ أنَّه تعالى لمّا نهى المؤمنين عن التَّشبُّهِ بأحوال المشركين المذكورةِ المجتمعةِ؛ دلَّ على أنَّ الأحرى بهم، ألّا يتَّصفوا بها؛ لأنَّ الاتِّصافَ بأمرٍ، أقوى من التَّشبُّهِ بهِ، والمعنى: بدلًا من أن يقولَ اللّهُ تعالى للمؤمنين: إذا خرجتُم من ديارِكم، لا تبطروا، ولا تراؤوا

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/32 - 33.

النّاس، ولا تصدّوا عن سبيلِ اللّهِ، عبَّرَ بأسلوبِ التَّشبيهِ، ليكونَ أبلغَ في النَّهي، وأوضحَ للمعنى، لحضورِ الصّورةِ أمامَهم.

دلالةُ ﴿بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ﴾ بينَ الحالِ والمفعولِ لأجلِهِ:

اقترانُ الأوصافِ القبيحةِ بالمشركينَ من وقتِ خروجِهم للقتالِ

ذهبَ جمهورُ المفسِّرينَ إلى أنَّ ﴿بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ﴾ أحوالٌ، فجاء ﴿بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾ مصدرين على معنى الحالِ، أي: بَطِرينَ مُرائين، وجاء ﴿وَيَصُدُّونَ﴾ فعلًا في موضع الحال، أي: صادّين؛ ليكونَ المرادُ اقترانَهم بهذهِ الأحوالِ، وانتفاءَ انفكاكِهم منها من وقتِ خروجِهم، وليس المرادُ في الكلامِ انتفاءها عنهم، قبلَ الخروجِ، وذهبَ آخرونَ إلى جوازِ أن تكونَ مفعولًا لأجلِه، لبيانِ سببِ خروجِهم، أي: إنَّ البطرَ والرّياءَ والصَّدَّ عن سبيلِ اللّهِ، حملهم على الخروجِ، فيكونُ المرادُ تبييتَهُم النّيَّةَ، على أن يخرجوا لهذا الغرضِ، فهو من قبيلِ العلَّةِ الغائيَّةِ[1].

نكتةُ مجيءِ الحالِ مصدرًا:

مجيءُ الحالِ مصدرًا يفيدُ المبالغةَ، وهو من البيانِ الجميلِ

في قولهِ تعالى: ﴿خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرًا﴾ جاءَ الحالُ هنا مصدرًا للمبالغةِ، بمعنى تمكُّنِ عينِ البَطَرِ، وعينِ رئاء النّاس منهم، فأحوالهُم قد جمعتْ كلَّ البطرِ، وكلَّ الرِّئاءِ[2]، ومعلومٌ "أنَّ النِّعمَ إذا كَثُرَت مِنَ اللّهِ تعالى على العبدِ، فإن صرفَها إلى مرضاتهِ تعالى، وعرفَ أنَّها من اللّهِ تعالى، فذاكَ هو الشُّكرُ، وأمّا إن توسَّلَ بها إلى المفاخرةِ على الأقرانِ، والمغالبةِ بالكثرةِ على أهلِ الزَّمانِ، فذاك هو البطرُ"[3].

توجيهُ القراءاتِ القرآنيَّةِ في قولهِ: ﴿وَرِئَآءَ﴾:

كلمةُ ﴿وَرِئَآءَ﴾، قرأها أبو جعفرٍ (رياءً)، بإبدالِ الهمزةِ ياءً[4]،

(1) الواحديّ، التّفسير البسيط: 10/188، والزّمخشريّ، الكشّاف: 2/227، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/62، والسّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 5/616، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 9/99، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/33.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/33.

(3) الجاوي، مراح لبيد: 1/428.

(4) ابن الجزريّ، النّشر في القراءات العشر: 1/396.

ووجودُ الهمزةِ، وتَحقُّقُ النُّطقِ بها يتيحُ ثراءً في المعنى؛ حيثُ يكشفُ عن حالةِ التَّكلُّفِ في الحشدِ والاستعراضِ من قبل المشركين، وقد ظهرَ رياؤُهم في قولِ أحدِ زعمائِهم: (واللّٰهُ ما نرجعُ عن قتالِ محمَّدٍ، حتَّى نردَ بدرًا، فنشربُ فيها الخمورَ، وتعزفُ علينا القيانُ، وننحرُ الجزورَ في بدرٍ، فيثني النّاسُ علينا بالشَّجاعةِ والسَّماحةِ) [1].

اختلافُ القراءاتِ مفيدٌ في التَّأويلِ وانفساحِ الدَّلالةِ

دلالةُ مجيءِ الأحوالِ على العطفِ:

لمّا جاءتِ الأحوالُ معطوفةً، وكانتِ الواوُ تفيدُ الجمعَ المطلقَ في الحالِ؛ دلَّ على أنَّ المرادَ بيانُ واقعِ حالِ المشركين حين خروجِهم من ديارِهم، وليس المرادُ النَّهيَ عن الاتِّصاف بهذهِ الأحوالِ، حالَ اجتماعِها فقط، فإنَّها مذمومةٌ مجتمعةً أو منفردةً.

الصِّفاتُ القبيحةُ مذمومةٌ، مجتمعةً كانت أو منفردةً

نكتةُ التَّعبيرِ بصيغةِ المصدرِ (فِعالِ):

لمّا كانَ ﴿وَرِئَآءَ﴾ مصدر (راءى) (فاعَلَ) من الرُّؤيةِ؛ كان على معنى المفاعلةِ، وتفيدُ الصّيغةُ معنى المبالغةِ من جهتين: إحداهما مجيئُها على صيغةِ المصدرِ - كما تقدَّم - والأخرى مجيئُها بصيغةِ المفاعلةِ، أي: بالغوا في إراءةِ النّاسِ عملهم، رغبةً في أنْ يروهم ليفخروا عليهم[2].

المرائي يحبُّ أن يراهُ النّاسُ، ليفخرَ عليهم

بلاغةُ العُدولِ عن المصدرِ إلى صيغةِ المضارعِ:

عبَّرَ بصيغةِ المضارعِ ﴿وَيَصُدُّونَ﴾ عطفًا على المصدرين ﴿بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾، وهو خلافُ الظّاهر؛ لأنَّ الأصلَ في العطفِ توافقُ المعاطيفِ في الاسميَّةِ والفعليَّةِ، ونكتتُهُ أنَّ الاسمَ لمّا كانَ على معنى الثُّبوتِ والتَّمكين، عبَّرَ بالمصدرين، إيذانًا بأنَّ البطرَ والرِّئاءَ كانا وصفين ثابتين لهم، راسخَين في أنفسِهم، أي: كانوا مجبولين على البطرِ والمفاخرةِ والعُجبِ، ولمّا كانَ الصَّدُّ عن سبيلِ اللّٰهِ، حصلَ

تجدُّدُ فعلِ الصَّدِّ من الكافرين، ومزوالتِهم لهُ، أمرٌ معهودٌ موجودٌ

(1) الجاويّ، مراح لبيد: 1/428.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/33.

في زمنِ دعوةِ رسولِ اللّهِ ﷺ؛ عُبِّرَ بالفعلِ على معنى حدوثِه منهم، وجاءَ بصيغةِ المضارعِ؛ لأنَّ المرادَ تجدُّدُ فعلِ الصَّدِّ من الكافرين، ومزوالتِهم له، بمعنى أنَّ الصَّدَّ يحدثُ منهم شيئًا فشيئًا، متجدِّدًا متزايدًا، كما أنَّ في التَّعبيرِ بصيغةِ المضارعِ استحضارًا لصورة صدِّهم عن سبيلِ اللّهِ، تبشيعًا لفعلِهم وتقبيحًا له[1].

نُكْتَةُ تنكيرِ لفظِ (بَطَرًا):

البطرُ آفةٌ تُدمِّرُ الكيانَ، وتجني على فطرةِ الإنسانِ

في قولِه تعالى: ﴿خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرًا﴾ أفادَ التَّنكيرُ تفخيمَ البطرِ وتعظيمَهُ، لِما يقتضيه المقامُ من ظهورِ خُيَلائِهم وكِبَرِهم وكفرِهم بنعمِ اللّهِ عليهم، والبطرُ صفةٌ نفسيَّةٌ، تلبسُ صاحبَها، وتحرِّكُ فيه نوازعَ شتَّى من الضَّلالِ المؤذي، بأساليبَ استعراضيَّةٍ شتَّى، بطرًا ورياءً وصدًّا عن سبيلِ اللّهِ (ﷻ).

نكتةُ الإضافةِ في قولِه: ﴿وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾:

الرّياءُ: لا يكونُ الفعلُ والقصدُ إلّا مِن أجلِ النّاسِ

أضافَ المصْدَرَ ﴿وَرِئَآءَ﴾ إلى مفعولِه؛ للإشعارِ بأنَّ الرّياءَ، لا يكونُ إلّا منْ أجلِ النّاسِ، وبيانُه أنَّهُ لمّا ذكرَ الحاملَ لهم على الخروجِ من أنفسِهم في قولِه: ﴿بَطَرًا﴾ بمعنى: إظهارِهم فخرَهم، ومقابلتِهم النِّعمةَ بالتَّكبُّرِ؛ ذكرَ ما أوجبَهُ لهم من غيرِها، فقالَ: ﴿وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾، أي: خرجوا يرون النّاسَ خروجَهم، وأحوالَهم الَّتي كانوا عليها، من شربِ الخمورِ، ونحرِ الجزورِ، وعزفِ القيانِ، ليثنوا عليهم بالشَّجاعةِ والسَّماحةِ[2].

دلالةُ (أل) في لفظِ (النّاسِ) في قولِه: ﴿بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾:

الرّياءُ مظهرٌ زائفٌ، وإرضاءُ النّاسِ غايةٌ لا تدركُ

تفيدُ (أل) هنا الاستغراقَ، بمعنى: أنَّ رياءَهم، كان من أجلِ كلِّ النّاسِ، وليس من أجلِ المؤمنين فقط، أي: كانوا يطلبونَ إظهارَ

(1) الجرجانيّ، دلائل الإعجاز، ص: 175، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 15/491، والقوجويّ، حاشية محيي الدّين شيخ زاده على البيضاويّ: 4/401.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/297.

جميلِ أفعالِهم، وإخفاءَ قبيحِ باطنِهم، لكلِّ النّاس، وهذهِ ظاهرةٌ متفشّيةٌ في أهلِ الرّياءِ، تراهُم يتظاهرونَ بإبرازِ الأعمالِ إلى كلِّ النّاسِ، وكلَّما فشا الخبر، وانتشرَ الأثرُ؛ كانَ ذلك أمتعَ لنفوسِهم، وأشبعَ لرغبتِهم في الظُّهورِ، وهو رغبةٌ نفسيَّةٌ تسيطرُ على صاحبِها، فتودي بهِ في مسالكِ المهالكِ.

فائدةُ ذكرِ قولِهِ: ﴿بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾:

لمّا كان المشركونَ خرجوا على هذه الأحوالِ، أو لهذه الغايةِ، كان جزاؤُهم من جنسِ أعمالِهم، وذلك أنَّ أبا جَهْلٍ، لمّا علمَ بنجاةِ عيرِ أبي سفيان، قال: واللهِ لا نَرْجِعُ؛ حَتَّى نَرِدَ بَدْرًا، فنُقيمُ بها ثَلاثًا، فنَنْحَرُ الجَزورَ، ونُطْعِمُ الطَّعامَ، ونَسْقي الخَمْرَ، وتَعْزِفُ عَلَيْنا القيانُ، وتَسْمَعُ بنا العَرَبُ، فلا يَزالونَ يَهابونَنا أبَدًا، فكان جزاؤهم حينَ وافَوْها أن سُقوا كؤوسَ المَنايا مَكانَ الخَمْرِ، وناحَتْ عليهمُ النَّوائِحُ مَكانَ القيانِ، وكانت أموالُهم غنائمَ بدلًا عن بذلِها، ورجعوا أذلّاءَ مهانينَ، ودخلَ العربُ بعدَها أفواجًا في دينِ اللهِ[1].

الجزاءُ من جنسِ العملِ، وكما تدينُ تدانُ

بلاغةُ حذفِ مفعولِ الفعلِ:

لمّا كانَ الفعلُ ﴿وَيَصُدُّونَ﴾ متعدّيًا؛ دلَّ على أنَّ حذفَ المفعولِ بقصدِ العمومِ، وليس لدلالةِ السّياقِ عليه، ليفيدَ أنَّ صدَّهم عن سبيلِ اللهِ؛ كان لأنفسِهم وللمؤمنين، لأهلِ مكَّةَ ولِغيرِهم، والمعنى: يصدّونَ أيَّ إنسانٍ عن سبيلِ اللهِ؛ لأنَّهم أحرى بذلك، من أنْ يقتصرَ صدُّهم على أنفسِهم[2].

الصّادّونَ عن سبيلِ اللهِ، يصدّونَ أنفسَهم وغيرَهم

مناسبةُ التَّعبيرِ بالموصولِ وصلتِهِ:

لمّا كان النَّهيُ بقولِهِ: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِم﴾، يقتضي أن يكونَ المنهيُّ عنهُ جملةً معلومةَ الانتسابِ إلى مشارٍ إليهِ؛

قبحُ الصِّفاتِ إشعارٌ بقبحِها، وضرورةُ تبشيعِ فعلِ من يتَّصفُ بها

(1) البغويّ، معالم التّنزيل: 2/299، والزّمخشريّ، الكشّاف: 2/227، والآلوسيّ، روح المعاني: 5/211.
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/537، والسّمين الحلبيّ، الدّر المصون: 5/616، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 8/297.

ناسبَ أن يعبِّرَ بالموصولِ وصلتِه؛ ليكونَ الاجتنابُ عن حالةٍ معلومةٍ واضحةٍ، كما أنَّ في التَّعبيرِ بالاسمِ الموصولِ إشعارًا باستهجانِ التَّصريحِ باسمِهم، في مقامِ الكفرِ بنعمةِ اللّهِ، والطُّغيانِ فيها، والتَّكبُّرِ وإظهارِ السُّمعةِ، والصَّدِّ عن سبيلِ اللّهِ، وليكونَ على معنى العمومِ، ففيهِ نهيُ المؤمنين، عن أن يكونوا مثلَ كلِّ مَنْ عملَ مثلَ عملِهم، وفيه أيضًا تنبيهُ المؤمنين إلى وجهِ بناءِ النَّهي عن ما ذكرَ، للإشارةِ إلى قبحِ هذه الصِّفاتِ، وقبحِ من يعملُ مثلَها، ومن أجلِ تذكيرِهم بأنْ يكونوا على الضِّدِّ منها[1].

نكتةُ ذكرِ الأحوالِ الثَّلاثةِ:

لمّا أمرَ اللّهُ تعالى بالصَّبرِ في الآيةِ السّابقةِ، وكان من معاني الصَّبرِ ضبطُ النَّفسِ عن الطُّغيانِ وغيرِه، وكان الَّذي يضادُّ هذا المعنى، هو البطرُ والرّياءُ الصَّدُّ عن سبيلِ اللّهِ[2]، ناسبَ أن يذكرَ ما كانَ عليهِ المشركونَ، حالَ خروجِهم من ديارِهم مِنَ الأحوالِ الَّتي كانوا عليها.

الصَّبرُ يضادُّ البطَرَ والرّياءَ والصَّدَّ عنِ سبيلِ اللهِ

دلالةُ الواوِ بين الاستئنافِ والحالِ:

في قولِه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ تحتمل الواوُ أن تكونَ استئنافيَّةً؛ لِتقريرِ معنى جملةِ التَّذييلِ، وتحتمل أن تكونَ حاليَّةً، وهو الظّاهرُ؛ لتكون الجملةُ حالًا من ضميرِ ﴿كَٱلَّذِينَ خَرَجُواْ﴾[3]، أي: فعلوا ما فعلوا بخروجِهم بَطِرينَ مُرائين، صادّين عن سبيلِ اللّهِ، والحالُ في ذلك كلِّه أنَّ اللّه محيطٌ بهم، عالمٌ بأحوالهم كلِّها.

الحرفُ يحتملُ أكثرَ من تأويلٍ، وهو جزءٌ من البنيةِ الدّلاليَّةِ للسّياقِ

دلالةُ الاسمِ الموصولِ (ما):

في قولِه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطٌ﴾، لمّا كانَ الاسمُ الموصولُ (ما) يفيدُ العمومَ دلَّ على إحاطةِ علمِ اللّهِ بأعمالِهم جميعًا، وفي

إحاطةُ علمِ اللهِ بالأعمالِ جميعًا، دليلٌ على سعتِه واتِّساعِه

(1) السّكاكيّ، مفتاح العلوم، ص: 181 - 182، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 8/296.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/56.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/34.

ذلك إشارةٌ إلى "أنَّ اللّهَ ﷻ محيطٌ بكلِّ أعمالِهم، لا يغيبُ عنه عملٌ واحدٌ ممّا يفعلونَهُ، هو محيطٌ بهم تمامًا، وهم لا يستطيعونَ أن يفلتوا منهُ" [1].

بلاغةُ المجازِ:

إسنادُ الإحاطةِ إلى اللّه تعالى في قولهِ: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ﴾، مجازٌ عقليٌّ، والمرادُ علمُه سبحانه، وفائدتُهُ تعظيمُ الأمرِ وتهويلُهُ، لما يقتضيه مقامُ الألوهيَّةِ من الخوفِ والرَّهبةِ من المحاسبةِ والمجازاةِ[2]؛ "لأنَّهُ سبحانَه محيطٌ بكلِّ صغيرةٍ وكبيرةٍ، وسيجازي الَّذين أساؤوا بما عملوا، ويجازي الَّذين أحسنوا بالحُسنى" [3].

اللهُ محيطٌ بكلِّ شيءٍ علمًا، فلا يعزبُ عن علمهِ شيءٌ

فائدةُ تقديمِ شبهِ الجملةِ:

في قولهِ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ﴾، تقدَّمتْ شبهُ الجملةِ ﴿بِمَا يَعۡمَلُونَ﴾، على الخبرِ ﴿مُحِيطٞ﴾، وفائدةُ التَّقديمِ إمّا أن تكونَ من بابِ تعجيلِ المسرَّةِ للمؤمنين، وتعجيلِ المضرَّةِ للكافرينَ، فقدَّمَ ما كانت العنايةُ إليهِ مُنصبَّةً، وإمّا أن تكونَ لِلحصرِ الإضافيِّ الادِّعائيِّ؛ لأنَّه تعالى يحيطُ بكلِّ شيءٍ علمًا، ففيهِ إشارةٌ إلى أنَّهُ لشِدَّةِ إحاطتِه بأعمالِهم، كأنَّهُ لا نظرَ لَهُ إلى غيرِها، فلا شاغلَ لَهُ عنها، ترهيبًا لهم[4].

علمُ اللهِ بأعمالِ المشركين مسرَّةٌ للمؤمنين، ومضرَّةٌ للكافرين

نكتةُ التَّعبيرِ بلفظِ ﴿يَعۡمَلُونَ﴾:

التَّعبيرُ بقولهِ: ﴿يَعۡمَلُونَ﴾ هنا دونَ (يفعلون)؛ لأنَّ العملَ يكونُ فيما يمتدُّ زمانُهُ، وما يكون عن قصدٍ وتخطيط، ولِما من شأنِه أن يُحدث أثرًا، بخلاف الفعل[5]، وقد باءت أعمالُهم بالخسرانِ، وآلوا

مدلولُ العملِ يخالفُ مدلولَ الفعلِ، وكلاهُما يُحصى على الإنسانِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/34.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/34.
(3) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 6/116.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/279.
(5) الرّاغب، المفردات: (فعل) و(عمل). والشّعراوي يفرّق بين (عمل) و(فعل)، وأن (عمل) تشمل الفعل والقول، قال في تفسيره: "إذن، فالقول محلّه اللّسان، والفعل محلّه بقية الجوارح، والاثنان يجمعهما العمل"، يُنظر: الشّعرواويّ، تفسير الشّعراوي: 5/2978.

بها إلى سوءِ العاقبةِ، وأشنع النَّهايةِ، "فأوردَهُم - إذ خرجوا يحادّونَهُ - بدرًا، فنحرَ مكانَ الجزورِ رقابَهم، وسقاهُم مكانَ الخمورِ كؤوسَ المنايا، وأصاحَ عليهم مكانَ القيانِ صوائحَ النَّوائحِ"[1].

بلاغةُ قولِهِ: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ بينَ التَّصريحِ والكنايةِ:

هذا الكلامُ جمعَ بينَ الصَّريحِ والكنايةِ باعتبارين، فهو تذكيرٌ للمسلمين بصريحِ المعنى باعتبارِ أنَّهُ خطابٌ لهم، ليكون على معنى تقريرِ ما في اعتقادِهم وتأكيدٍ له، وهو وعيدٌ للكفّارِ وتهديدٌ لمن بقي منهم بالمعنى الكنائيِّ؛ لأنَّ إحاطةَ العلم بما يعملون مجازٌ في عدم خفاءِ شيءٍ من عملِهم عن علمِ اللّهِ تعالى، فيكون المرادُ منه لازمَ علمِه تعالى بما يعملون، وهو المجازاةُ، أي: إنَّه مجازيهم عن عملِهم بما يجازي بهِ العليمُ القدير من اعتدى على حرمهِ، وهذا يقتضي التَّوبةَ والاستعدادَ باللّازمِ الأبعدِ[2].

لا تخفى على اللهِ خافيةٌ، ولا يعزبُ عن علمهِ شيءٌ

حُسْنُ التَّذييلِ:

تفيدُ جملةُ التَّذييلِ: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ فوائدَ؛ هي: أوَّلًا: عمومَ المعنى وكلّيَّتَهُ. وثانيًا: لمّا كانت الجملةُ تفيدُ عمومَ المعنى؛ كانت جاريةً مجرى المثلِ في الكلام، وثالثًا: أفادتِ الجملةُ بشارةً للمؤمنينَ، بالإيذانِ بعلمِ اللّهِ بما يعملُهُ المشركون، وأنَّهُ مجازيهم، على ما يفعلونَهُ بالمؤمنين، وفيها تهديدٌ للكافرين، ووعيدٌ لهم كما تقدَّمَ[3].

براعةُ التَّذييلِ، لعمومِ المعنى ولجريهِ مجرى المثلِ

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الضَّعف والفَشَل والوَهن:

الفشلُ يكونُ عِنْد الحَرْبِ والشِّدَّةِ؛ إذا ضَعُفَ وكسلَ، وتثاقلَ وذَهَبت قواهُ، فأبطأ عن اللِّقاءِ، أو هو ضعفٌ مقرونٌ بجبنٍ؛ لِما فيه

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/297.

(2) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنة: 5/234، والواحديّ، التّفسيرالوسيط: 2/456، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/537، وأبو حيان، البحر المحيط: 5/333، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/34.

(3) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنة: 5/234.

من معنى التَّراخي، وعدمِ الثَّباتِ، ومنهُ تَفَشَّلَ الماءُ: سالَ، فيكون الفشلُ عند اللِّقاءِ والشَّدائدِ، ويكون الفشلُ في الحالِ لا في البدنِ[1]، فناسبَ ذكرُ الفشلِ في سياقِ هذه الآيةِ، وأمّا الضَّعفُ؛ فهو ضدُّ القوَّةِ، أي: هو نقصانُ القوَّةِ، وهو من فعلِ اللّهِ تعالى، كما أنَّ القوَّةَ من فعلِ اللّهِ، تقولُ: خلقَهُ اللّهُ ضعيفًا، أو خلقَهُ قويًّا، والضَّعْفُ قد يكونُ في النَّفسِ، وفي البدنِ، وفي الحالِ، قال تعالى: ﴿وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسۡتَكَانُواْۗ﴾ [آل عمران: 146]، أي لم يضعفوا بنقصانِ قوَّتِهم، فيكونُ الضَّعفُ مستعملًا في الحربِ وغيرها، وقال الخليلُ: الضُّعْفُ بالضَّمِّ في البدن، والضَّعْفُ بالفتحِ في العقلِ والرَّأي، وأمّا الوهنُ؛ فهو من حيثُ الخَلْقُ، أو الخُلُقُ، وهو أن يفعلَ الإنسانُ فعلَ الضَّعيفِ، تقولُ: وهنَ في الأمرِ يهنُ وهنًا، وهو واهنٌ، إذا أخذ فيهِ أخذَ الضَّعيفِ، ومنهُ قولهُ تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ١٣٩﴾ [آل عمران: 139]، أي: لا تفعلوا أفعالَ الضُّعفاءِ، وأنتم أقوياءُ على ما تطلبونَهُ، بتذليلِ اللّهِ إيّاهُ لكم، فلا يقالُ: خلقَهُ اللّهُ واهنًا، كما يقالُ: خلقَهُ اللّهُ ضعيفًا، ويحتملُ أن يقالَ: الضُّعفُ: نقصانُ القوَّةِ - كما تقدَّمَ - والوهنُ هو انكسارُ الجسدِ بالخوفِ ونحوِهِ، ويكونُ في الحربِ وغيرِها كذلك[2].

الضَّعْفُ: نقصانُ القوَّةِ، والوهنُ: فعلُ الضَّعيفِ، والفشلُ: الضَّعفُ المقرونُ بجبنٍ

البَطَر والجَحْد وكُفر النِّعمة والتَّكبُّر:

لفظُ ﴿بَطَرًا﴾ لم يَرِدْ في القرآنِ الكريمِ إلّا في موضعينِ، هنا وفي سورةِ القصصِ، في قولهِ: ﴿وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةِۭ بَطِرَتۡ مَعِيشَتَهَاۖ فَتِلۡكَ مَسَٰكِنُهُمۡ لَمۡ تُسۡكَن مِّنۢ بَعۡدِهِمۡ إِلَّا قَلِيلٗاۖ وَكُنَّا نَحۡنُ ٱلۡوَٰرِثِينَ ٥٨﴾ [القصص: 58]، وقد قرَّرَتْ آيةُ القصصِ بوضوحٍ أنَّ البطرَ كانَ سببًا في إهلاكِ القُرى لما لهُ من آثارٍ وخيمةٍ، والفرقُ بينَ البطرِ وكفرانِ

البَطَرُ: هو الطُّغيانُ عند النِّعمَةِ، وهو اللَّفظُ المعبَّرُ بهِ في هذه الآيةِ بدقَّةٍ

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن سيده، المحكم والمخصّص، والرّاغب، المفردات: (فشل).
(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 115 - 116، والرّاغب، المفردات: (ضعف، وهن).

النِّعَم والتَّكبُّرِ والجحودِ: هو أنَّ البطرَ هو الطُّغْيانُ عند النِّعْمَةِ وطولِ الغِنَى، حتَّى يصلَ إلى حدِّ الدَّهشِ، فلا يضبط صاحبُه نفسَهُ، ففيه معنى دفعِ الحقِّ والفخرِ والبغي ومجاوزةِ الحدِّ في الطُّغيانِ، وبَطَرُ الحقِّ ألّا يَراهُ حَقًّا، ويَتَكَبَّرَ عَنْ قَبولِه لطغيانِه ودهشِه، وبطرُ النِّعمةِ: هو تعظيمُها مع البغي فيها، وبطرَ فلانٌ نعمةَ اللّٰهِ: استخفَّها، فكفرَها، وبغى فيها، ولم يسترجعْها، فيشكرُها، وأمّا كفرانُ النِّعمةِ؛ فهو تغطيَتُها وإخفاؤُها وتركُ شكرِها، فلا يتضمَّنُ الكفرانُ معنى الطُّغيانِ والدَّهشِ والأشَرِ، كما هو في البطرِ، والجحودُ هو نقيضُ الإقرارِ مع العلمِ بالحقِّ، أو هو نفيُ ما في القلبِ إثباتُه، وإثباتُ ما في القلب نفيُهُ، وقد يكونُ للنِّعمةِ أو غيرِها، والبطرُ يغايرُ الكِبرَ والتَّكبُّرَ والاستكبارَ، فالكِبرُ إعجابُ الإنسانِ بنفسِه، بأن يرى نفسَهُ أكبرَ من غيرِه، فيرفضَ الحقَّ، ويمتنعَ عن قبولِه، والتَّكبُّرُ أعمُّ من البطرِ من حيثُ مقابلةُ النِّعمةِ، فلا يختصُّ بالنِّعمِ وحدَها[1].

الرِّئاء والنِّفاق:

النِّفاقُ: إظهارُ الإيمانِ وإبطانُ الكفرِ، والرِّياءُ: إظهارُ الفعلِ لحمدِ النّاسِ فحسبُ

الفرقُ بينهما: هو أنَّ النِّفاقَ إظهارُ الإيمانِ، مع إبطانِ الكفرِ وإسرارِه، ولايقعُ اسمُ النِّفاقِ حينَ إطلاقِ اللَّفظِ على من يُظهرُ شيئًا، ويُخفي غيرَهُ، إلّا الكفرَ والإيمانَ، والرِّئاءُ: إظهارُ الخيرِ مع إبطانِ الشَّرِّ، مع قصدِ إظهارِ الجميلِ، وإبطانِ القبيحِ، ليكونَ حسنَ المرأى، فيُمدحَ بين النّاسِ، أو هو إظهارُ جميلِ الفعلِ رغبةً في حمدِ النّاس لا في ثوابِ اللّٰهِ تعالى، فليس الرّياءُ من النِّفاقِ في شيءٍ، فإنِ استعملَ أحدُهما في موضعِ الآخر، فعلى التَّشبُّهِ[2].

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، والزّمخشريّ، أساس البلاغة، والرّاغب، المفردات: (بطر، جحد، كبر، كفر)، والعسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 231.

(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 228 - 229، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 15/490.

﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ ۖ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ ۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤٨﴾﴾ [الأنفال: 48]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

المناسبةُ بين بطرِ الكفّارِ في بدرٍ، ونكوصِ الشَّيطانِ عن نصرةِ أوليائِه المنهزمينَ

لمّا أخبرَ اللّهُ تعالى عن حالِ الفريقينِ يومَ بدرٍ في الآياتِ السّابقةِ؛ جاءت هذه الآيةُ معطوفةً على قولِه: ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِيٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا﴾، زيادةً في إيضاحِ لطفِ تدبيرِه تعالى، وبيانِ صنعِه يومَ بدرٍ، فيكونُ الكلامُ السّابقُ الَّذي توسَّطَ بين العاطفِ والمعطوفِ اعتراضًا، فذكرَ في الاعتراضِ ما يَنْبَغي للمؤمنين عند اللِّقاءِ، ليَجْمعَ لهم بين الأمْرِ بما يَنْبَغي، والتَّحْذيرِ ممّا لا يَنْبَغي، وتَرْكِ التَّشَبُّهِ بمَنْ لا يُرْتَضَى، فيَكونُ للآيةِ إتْمامُ المُناسَبَةِ بحِكايَةِ خُروجِهم وأحْوالِه، ليتمَّ هذا الأسلوبُ البديعُ المحكمُ الانتظامِ[1]، وأيضًا جاءت هذه الآيةُ استمرارًا في تصويرِ ما حصلَ يومَ بدرٍ، فإنَّهُ لمّا ذكرَ أحوالَهم الَّتي خرجوا بها من ديارِهم، وذكرَ أحوالَ المشركينَ الَّتي نهى عن التَّشبُّهِ بها؛ بيَّن أنَّ ما كانوا يعملونَهُ، وما يظهرونَهُ من الأحوالِ، إنَّما كانَ من تزيينِ الشَّيطانِ؛ تنفيرًا للمؤمنينَ من أعمالِهم، وتعظيمًا لقدرِ النَّصرِ، وبيانًا أنَّ نصرَ المؤمنين كان نصرًا على المشركين، وعلى الشَّيطانِ الَّذي زيَّنَ لهم.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿زَيَّنَ﴾: الزّاءُ والياءُ والنّونُ أصْلٌ صَحيحٌ، يَدُلُّ على حُسْنِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/34، وينظر: الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (زين).

الشَّيْءِ وتَحْسينِه[1]، يدورُ معنى لفظ (زَيَن) على حسنِ الشَّيءِ وتحسينهِ، فالزَّيْنُ نقيضُ الشَّيْنِ الَّذي هو القبحُ، وازَّيَّنَتِ الأرضُ، وتَزَيَّنَتْ، أي: حَسُنت وبَهُجَتْ بنباتِها، ثمَّ عُمِّمَ اللَّفظُ لكلِّ ما يتزيَّنُ بهِ، فالزّينةُ اسمٌ جامعٌ لكلِّ شَيْءٍ يُتَزيَّنُ به، وزَيَّنَ الشَّيءَ: جعلَ الشَّيءَ ذا زينةٍ، أو إظهارهُ زينًا، أو نسبتهُ إلى الزَّينِ، وهو في الآيةِ بمعنى إظهارهِ في صورةِ الزَّينِ، إمّا بالفعلِ، وإمّا بالقولِ، وإن لم يكن في الحقيقةِ زينًا، والتَّزيينُ قد ينسبُ إلى اللّهِ تعالى، وقد ينسبُ إلى الشَّيطانِ، وقد يُذكَرُ غيرَ مسمًّى فاعلُهُ.

2) ﴿لَا غَالِبَ﴾: جذرُ الكلمةِ الغلبُ، وفي الأصل يطلق الغلبُ على الرَّقبةِ العظيمةِ، ومنهُ الأغْلَبُ: الغليظُ الرَّقبةِ عَظيمُها، ويدورُ معنى الكلمةِ على الشِّدَّةِ مع علوٍّ ما، وعِظَم جِرْم، والغَلَبُ: القوَّةُ والقهرُ والشدَّةُ، ومنه تغلَّبَ على بلدِ كذا: استولى عليهِ وملَّكَهُ قهرًا، كأنَّ من استولى، تناولَ غَلَبَ الرَّقبةِ إشعارًا بقوَّتِه وشدَّتِه، وسائرُ ما في القرآنِ من التَّركيبِ، هو من الغَلَبِ: القهرِ[2].

3) ﴿جَارٌ﴾: يدلُّ معنى اللَّفظِ، على دخولٍ في حيِّز شيءٍ بقوَّةٍ للإقامةِ، والجارُ: من يقربُ مسكنُهُ منكَ، ولمّا كان عندَ العربِ من حقوقِ الجيرةِ، استُعملتِ المجاورةُ، والإجارةُ في معنى الحماية؛ ولمّا تُصوِّرَ مِنَ الجارِ، معنى القربِ؛ دلَّ الجوارُ على معنى الحماية مع القُربِ منهُ، فعبَّرَ عن كلِّ من يعظِّم حقَّهُ، أو يستعظم حقَّ غيرهِ بالجار، ويقالُ: استجرْتُهُ فأجارني[3].

4) ﴿تَرَآءَتِ﴾: الرّاءُ والهمزةُ والياءُ، أصلٌ يدلُّ على نظرٍ وإبصارٍ بعينٍ أو بصيرةٍ، ويقال: تراءى القومُ، أي: رأى بعضُهم بعضًا، ففي الصّيغةِ معنى المشاركةِ، وتراءى فلانٌ لفلانٍ؛ إذا تعرَّضَ له ليراهُ[4]، وتقولُ: تراءى لي فلانٌ، أي: تصدَّى لكَ لتراهُ، وتراءى له تابِعُهُ من الجنِّ؛ إذا ظهرَ لهُ ليَراهُ، والمِرآةُ التي يُنْظَرُ فيها[5]، وفي القرآنِ: ﴿فَلَمَّا تَرَآءَا ٱلْجَمْعَانِ﴾ [الشّعراء: 61].

(1) ابن فارس، معجم مقاييس اللّغة: (زين).
(2) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، والرّاغب، المفردات، والجوهريّ، الصّحاح، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (غلب).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (جور).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (رأى).
(5) الخليل، العين: (رأي).

5) ﴿نَكَصَ﴾: المعنى المحوريُّ لهذهِ المادَّةِ: الرُّجوعُ القهقرى بقوَّةٍ إلى الخلفِ، يقالُ: نكصَ عن الأمرِ: أحجمَ، وتركيبُ ﴿نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ يُقصدُ بهِ الرُّجوعُ القهقرى، ومنهُ قولُهم: أرادَ فلانٌ أمرًا، ثمَّ نكَصَ على عَقِبيهِ، أي: أحجمَ عنهُ، ورجعَ القَهْقَرى بقوَّةٍ إلى الخلفِ، أي: تأخَّرَ عَن ما تقدَّمَ لَهُ الآخر خوفًا أو هيبةً، وهو في الآيةِ بمعنى رجعَ هاربًا، وتركَ غيرَهُ متقدِّمًا[1].

6) ﴿عَقِبَيْهِ﴾ العِقابُ: العَقِبُ مؤخَّرُ الشَّيءِ، ويدورُ بابُ الكلمةِ على معنى أنْ يَجيءَ الشَّيْءُ بعَقِبِ الشَّيْءِ، أيْ: مُتَأخِّرًا عنه، ومنه قولهم: (جاءَ زَيْدٌ يَطَأُ عَقِبَ عَمْرٍو)، والمعنى: كُلَّما رَفَعَ عَمْرٌو قَدَمًا؛ وضَعَ زَيْدٌ قَدَمَهُ مَكانَها، والعقِبُ هو مؤخَّرُ القدمِ، وجمعهُ: أعقابٌ، ومنه العقابُ؛ لوقوعِه عقبَ الفعلِ الَّذي يُجازى عليهِ، يُقالُ: عاقبتُ الرَّجلَ، أي: جزيتُهُ بما فعلَ سوءًا، وأصلُ ذلك: أنَّكَ جعلْتَ ثمرةَ عملِهِ تَعْقُبُهُ، أي: تلحقُهُ لا يفوتها، والعُقوبَةُ والمعاقبةُ والعِقابُ يُختَصُّ بالعذابِ[2].

المَعْنى الإجْماليُّ:

خذلانُ الشَّيطانِ لأتباعِهِ سنَّةٌ، ما فتئت تتجدَّدُ ولاتتبدَّدُ

يقول السّياقُ: واذكر - يارسولَ اللّهِ - حين حسَّنَ الشَّيطانُ للمشركين خروجَهم إليكم، لحربِكم وقتالِكم، وما جاؤوا له بأنْ وسوسَ لهم، وقال لهم بأنْ ألقى في روعِهم: لن يغلبَكم اليومَ أحدٌ من النّاس، وإنّي ناصرُكم، فلمّا تقابلَ الفريقانِ: المشركونَ، ومعهم الشَّيطانُ، والمسلمونَ، ومعهم الملائكةُ، ورأى بعضُهم بعضًا ارتدادَ الشَّيطان هاربًا، وهو يقولُ للمشركين: إنّي بريءٌ منكم، إنّي أرى ما لا ترونَ من الملائكةِ الَّذين جاؤوا مددًا للمسلمين، إنّي أخافُ اللّه،

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، والراغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (نكص)، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: 4/222.

(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، والفيّوميّ، المصباح المنير، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (عقب).

فخذلَهم، وتبرَّأ منهم، واللّهُ شديدُ العقابِ، لِمَنْ عصاهُ، ولم يتبْ توبةً نصوحًا[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

مناسبةُ التَّعبيرِ بلفظِ (إذْ):

وعدُ الشَّيطانِ غرورٌ، وميثاقهُ ضلالٌ وزورٌ

في قولهِ تعالى: ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾، لمّا كانَ تصديرُ الكلامِ بـ﴿وَإِذْ﴾ لتعظيمِ شأنِ المذكورِ بعدَها، بما يفيدُهُ تعظيمُ الظَّرفِ تعظيمَ الحدثِ الواقعِ فيه، والمعنى: "واذكُر وقتَ تزيينِ الشَّيطانِ أعمالَهم في معاداةِ المؤمنينَ وغيرِها، بأن وسوسَ إليهم"[2]، وواضحٌ أنَّ الظَّرفيَّةَ الزَّمنيَّةَ هنا مرعيَّةٌ؛ لأنَّ الشَّيطانَ تشكَّلَ لهم في صورةٍ آدميَّةٍ في ذلك الزَّمانِ، وقبل أن يلتقيَ الجمعانِ، ليقنعَهم بما يريدُ تزيينَهُ لهم، قال المفسِّرونَ: وإبليسُ قد تصوَّرَ في صورَةِ سراقَةَ بنِ جعْشمٍ المدلجيِّ، يجيرُ المُشْركين، ويخبرُهم أنَّه لا غالب لهم اليَوْم من النّاسِ، فلَمّا أبْصرَ المَلائِكَةَ؛ نكصَ على عَقِبَيْهِ[3]، قال ابن عاشورٍ: "ويَجوزُ أنْ يَكونَ إسْنادًا مَجازيًّا، وإنَّما المُزَيِّنُ لهم سُراقَةُ بإغْراءِ الشَّيْطانِ، بما سَوَّلَ إلى سُراقَةَ بْنِ مالِكٍ مِن تَثْبيتِه المُشْركينَ على المُضيِّ في طَريقِهم، لإنْقاذِ عيرِهم، وألّا يَخْشَوْا غَدْرَ كِنانَةَ بهمْ"[4]، وأيًّا كانتِ الرِّوايةُ محمولةً على الحقيقةِ أو على المجازِ، فقد كان تزيينُ الشَّيطانِ مرتبطًا بالأوانِ، ودلالةُ (إذْ) الظَّرفيَّةِ عليهِ بليغةٌ.

بلاغةُ تلوينِ الخطابِ:

تلوينُ الخطابِ من براعةِ النَّظمِ، وفيهِ راحةٌ للمخاطبِ

بعد أن كانَ الخطابُ في الآياتِ السّابقةِ للمؤمنين بالأمرِ والنَّهي، لبيانِ أسبابِ النَّصرِ، خوطبَ النَّبيُّ ﷺ، في هذهِ الآيةِ بطريقِ

(1) ابن جرير، جامع البيان: 13/7، نخبة من أساتذة التّفسير، ص: 183.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/26.
(3) السّيوطيّ، الدّرّ المنثور: 4/78.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/35.

التَّلوينِ[1]، وفي ذلك تنويعٌ وتحسينٌ للسّياقِ الَّذي تقدَّمَ فيهِ مضامينُ الخطابِ، وفيه نَقْلٌ لوجهةِ الخطابِ من جهةٍ إلى أخرى، لاستيعابِ العناصرِ المعنيَّةِ بالدِّلالةِ.

نكتةُ التَّعبيرِ بصيغةِ (فَعَّلَ):

تحسينُ الشَّيطانِ أعمالَ المشركين، لا يجعلُها حسنةً

في قولِه تعالى: ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾، لمّا كانت صيغةُ (فَعَّلَ)، لنسبةِ المفعولِ إلى أصلِ الفعلِ، لتسميَتِه به، ولتكثيرِ أصلِ الفعلِ[2]؛ دلَّ على أنَّ تزيينَ الشَّيطانِ أعمالَ المشركينَ الَّتي عملوها في معاداةِ رسولِ اللّهِ ﷺ، وفي مسيرِهم إلى بدرٍ، وقتالِهم رسولَ اللّهِ ﷺ وتزيينِه لهم قوَّتَهم، حتَّى اعتمدوها، كان بإظهارِها في عقولِهم وحسبانِهم في صورةِ الزَّين، وهي في الحقيقةِ ليست كذلك، والمعنى: نسبَها إلى الزَّين، وصوَّرها كذلك مع تكرُّرِ فعلِ التَّزيين منه؛ ترغيبًا فيها، ليقبلوا عليها، ويزيدوا منها رغبةً فيها، وليكون تزيينُهُ صدًّا لهم، عن رؤيةِ الحقِّ واتِّباعِه، كما قال تعالى: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [النّمل: 24].

دلالةُ تقديمِ الجارِّ والمجرورِ:

متابعةُ الشَّيطانِ إيذانٌ بسوءِ العملِ، وسوءِ العاقبةِ

في قولِه تعالى: ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ قُدِّمَ الجارُّ والمجرورُ على الفاعلِ والمفعولِ؛ للإشعارِ باهتمامِ الشَّيطانِ بهم، ممّا يُنْبِئُ عن سوءِ أعمالِهم، ولأنَّ الكلامَ مسوقٌ فيهم، وفي التَّقديمِ إشعارٌ بتخصيصِ تزيينِ الشَّيطانِ لهم دونَ المسلمين، فهو تخصيصٌ إضافيٌّ، لبيانِ منَّةِ اللّهِ على المؤمنينَ، بحفظِه لهم من الشَّيطانِ وتزيينِه، يومَ الفرقانِ، وهذا بليغٌ في بابِه.

نكتةُ مجيءِ لفظِ ﴿أَعْمَٰلَهُمْ﴾، بصيغةِ الجمعِ:

لمّا كانَ لفظُ زيَّنَ على معنى تكثيرِ التَّزيُّنِ ناسبَهُ مجيءُ الأعمالِ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/26، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 9/100.
(2) الرّضيّ، شرح شافيّة ابن الحاجب: 1/93 - 94.

بصيغةِ الجمعِ، لظهورِ معنى التَّكثيرِ فيها، فيكونُ التَّزيينُ لكلِّ عملٍ من أعمالِهم، والمعنى: اذكر إذ زيَّنَ الشَّيطانُ لهؤلاءِ الكفّارِ أعمالَهم، والمقصودُ الأعمال الَّتي عملوها في معاداةِ رسولِ اللّهِ ودعوتِه، وقد كانوا يخطِّطونَ، ويسعونَ حثيثًا لوأدِ الإسلامِ، والإجهاضِ على دعوتِه، ولا يدَّخرون في ذلك جهدًا، ولذلك فقد زَيَّنَ لهم الشَّيطانُ مجملَ ما بادروا إليهِ من أعمالٍ، وكان الصَّوغُ بوزن الجمع منطبقًا على واقعِ المواجهةِ الدَّؤوبةِ المبرزةِ في السّياقِ.

تلوُّنُ مكرِ الكفرةِ وكيدِهم، نتاجُ تزيينِ الشَّيطانِ بدونِ توانٍ

بلاغةُ الكنايةِ في التَّعبيرِ:

في قولِه تعالى: ﴿زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾، التَّعبيرِ بلفظ ﴿زَيَّنَ﴾، كنايةٌ عن أمرينِ؛ أحدهُما: فيه كنايةٌ عن ضلالِ أعمالِهم، والثّاني: أنَّ التَّزيين، بمعنى الإضلالِ والإغواء، فإنَّ تزيينَ الشَّيطانِ إغواءٌ لهم، باتِّباع خطواتِه وطاعتِه، كما أنَّ تزيينَ اللّهِ للإيمانِ توفيقٌ وهدايةٌ للمؤمنينَ.

تزيينُ الشَّيطانِ غوايةٌ، وتزيينُ اللهِ هدايةٌ

نكتةُ التَّعبيرِ بلفظِ ﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾:

في قولِه تعالى: ﴿وَإِذۡ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾، ذكرَ لفظَ ﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾، ولم يسمِّه باسمِ إبليسَ؛ لأنَّ الشَّيطانَ لمّا كان مشتقًّا من شطنَ بمعنى بَعُدَ، عُبِّرَ به للإشعارِ بأنَّ تزيينَهُ ووسوستَهُ، إبعادٌ للمشركين عن الحقِّ وإضلالٌ لهم عن الهُدى والرَّشادِ، والغالبُ أن يُستعملَ لفظُ الشَّيطانِ في الكيدِ والصِّراعِ، وفي الإغراءِ والإغواءِ، ولذلك قالَ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمۡ عَدُوّٞ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّاۚ إِنَّمَا يَدۡعُواْ حِزۡبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ٦﴾ [فاطر: 6].

تزيينُ الشَّيطانِ لأتباعِهِ، ووسوستُه لهم إبعادٌ عن الحقِّ والهُدى

دلالةُ (لا) النّافيةِ للجنسِ في قولِه: ﴿لَا غَالِبَ لَكُمۡ﴾:

قولُه: ﴿لَكُمۡ﴾ خبرٌ للأداةِ (لا) النّافيةِ للجنسِ[1]، أي: لنفيِ وجودِ أيِّ أحدٍ، ممَّن له وصفُ الغلبةِ لكم، والمعنى على استغراقِ

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/228، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/62، وأبو حيّان، البحر المحيط: 5/334.

نفي جنسِ الغالبين للمشركين ذلك اليوم، والتَّقديرُ (لا غالب كائنٌ لكم)، ويكونُ ﴿ٱلۡيَوۡمَ﴾ ظرفًا مقيَّدًا؛ إشعارًا بظهورِ أمرِهم وشأنِهم في ذلك اليوم، إن غلبوا المسلمينَ، وتأكيدًا لنفي غلبتِهم، وتقريرَه في ذلك اليوم، ولمّا كان القتالُ بين فئتين، يقتضي وجودَ غالبٍ ومغلوبٍ، وكان ﴿لَكُمۡ﴾ هو الخبرُ؛ دلَّ على أن لا غالبَ لكم، يفيدُ بمفهومِه (إنَّكم أنتم الغالبون)، ففي الكلام مبالغةٌ في المعنى، وفي التَّعبيرِ بهذا التَّركيبِ نكتةٌ أخرى؛ لِما يفيدُهُ النَّفي بـ(لا) للجنسِ من كونِها جوابًا لسؤالٍ تقديرهُ: هل مِن غالبٍ لكم اليومَ[1]؟ وبيانُه أنَّ الشَّيطانَ لمّا زيَّن للمشركين أعمالَهم ومسيرَهم وقوَّتهم؛ تعاظموا، وظنّوا أن لا أحدَ يغلبُهم، فكأنَّهم قد قالوا حينئذٍ: هل من غالبٍ لنا اليومَ؟ على معنى العموم، لمجيءِ النَّكرةِ في سياقِ النَّفي، فقالَ الشَّيطانُ مؤكِّدًا ومقرِّرًا: ﴿لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلۡيَوۡمَ﴾، وأجازَ بعضُ المفسِّرين أن يكونَ ﴿لَكُمۡ﴾ صفةً لقوله: ﴿غَالِبَ﴾، ويكون اليومُ خبرًا له[2]، والوجهُ الأوَّلُ هو الظّاهرُ تركيبًا ومعنًى.

إفادةُ نفي الجنسِ المبالغةَ في النَّفي؛ ليصدِّقَهُ المشركونَ

دلالةُ (أل) في لفظِ ﴿ٱلۡيَوۡمَ﴾:

في قولِه تعالى: ﴿لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلۡيَوۡمَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾، تفيدُ (أل) من لفظِ ﴿ٱلۡيَوۡمَ﴾ العهدَ العلميَّ، بمعنى: يوم بدرٍ، للإشعارِ بحضورِه في أذهانِهم، ويومُ بدرٍ علامةٌ زمنيَّةٌ فارقةٌ في الصِّراعِ المحتدم بين الطَّرفين، وهو يومٌ مشهودٌ، وقد سُمّيَ لذلك يومَ الفرقانِ؛ لأنَّهُ فرَّقَ فيهِ بينَ الحقِّ والباطلِ، وقد زيَّنَ الشَّيطانُ للكفّارِ: أنَّهم وصلوا إلى ذلك المستوى من العزوةِ في ذلكَ اليومِ، فلا يحقُّ لهم الانسحابُ دونَ تخليدِ وجودِهم القويِّ، لتأديبِ من يتطاولُ عليهم.

يومُ بدرٍ علامةٌ فارقةٌ في تاريخِ الصِّراعِ بين الكفرِ والإيمانِ

(1) سيبويه، الكتاب: 2/275.

(2) السّمين الحلبيّ، الدّر المصون: 5/616، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/26.

دلالةُ ﴿مِنَ﴾ في قولِهِ: ﴿ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾:

نفيُ الجنسِ تقريرٌ للإعلامِ، وتحفيزٌ من الشَّيطانِ على الإقدامِ

أفادت ﴿مِنَ﴾ بيانَ جنسِ الغالبِ[1]، لمجيءِ لفظِ ﴿غَالِبَ﴾ وصفًا عامًّا؛ للإيذانِ بأنَّ المرادَ من نفي الجنسِ في قولِهِ: ﴿لَا غَالِبَ لَكُمُ﴾، هو ما كانَ من جنسِ النّاسِ، وليكونَ أدعى للمشركين على القتالِ بإيهامِهم، أنَّهم أقوى النّاس، فالتَّصريحُ بذكرِ النّاسِ تقريرٌ للمعنى، وإيضاحٌ له بالنِّسبةِ للمشركين.

مناسبةُ الوصلِ بالواوِ في قوله: ﴿وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ﴾:

كلُّ وعودِ الشَّيطانِ هوانٌ وأوهامٌ

لمّا نفى الشَّيطانُ أن يكونَ أيُّ أحدٍ غالبًا للمشركين، ولكي يردَّ على ما قد يقعُ في نفوسِهم، من توقُّعِ الهزيمةِ، أو الخوفِ منها، وأنَّهم قد يغلبونَ لتزايدِ المسلمينَ، ولعلمِهم بأنَّ رسولَ اللّهِ كُلَّما أَخْبَرَ عَنْ شَيْءٍ؛ وقَعَ[2]؛ زادَ في إضلالِه لهم، بأن ذكرَ لهم أنَّكم إن غلبتُم؛ فسأكونُ جارًا لكم، أعينُكم وأنصرُكم عليهم، ولن أتخلَّى عنكم، فأفادَ الوصلُ بالواو الجمعَ والتَّشريكَ، لتكونَ الجملةُ معطوفةً على ﴿لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ﴾، والمعنى: أنَّكم ستغلبونَ لجمعِكم بين أمرين؛ أحدُهما: أنَّه لاغالبَ لكم، والثّاني: أنِّي جارٌ لكم، ليسدَّ عليهم أبوابَ الرُّجوعِ عن القتالِ، وأجازَ بعضُ المفسِّرين، أن تكونَ الواوُ للحالِ، وتكونَ جملةُ: ﴿وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ﴾ حاليَّةً، والتَّقديرُ: لا أحدَ يغلبكم، وأنا جارٌ لكم، أُعينُكم، وأنصرُكم؛ للإشعارِ بأنَّ انتفاءَ غَلَبَتِهم، إنَّما تكونُ في وقتِ جوارِهِ لهم، لتعظيمِ شأنِ جوارِه لعنَهُ اللّهُ[3].

دلالةُ التَّنكيرِ في لفظِ ﴿جَارٌ﴾:

من كانَ الشَّيطانُ جارَهُ؛ طالَهُ الأذى من جوارِهِ

في قولِهِ: ﴿وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ﴾ جاءَ بلفظِ ﴿جَارٌ﴾ نكرةً؛ للإشعارِ بأنَّ الشَّيطانِ، كان يعظِّمُ جوارَهُ للمشركين، ويفخِّمُهُ، وأنَّهُ الحامي

(1) الدّر المصون: 5/616، وابن عادل، اللّباب: 9/538.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 15/144.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/334.

النّاصرُ لهم، وأنَّهُ جارٌ لكلِّ من ارتضى سلوكَ سبيلِه، واتِّباعَ غوايتِه، فهو باستعمالِ النَّكرةِ هاهنا، يشيرُ إلى عموم الجيرةِ الَّتي تتأتَّى لكلِّ من يريدُ أن يركنَ إليهِ، ويقبلَ حمايتَهُ وإعانتَهُ، أو يدخلَ في جوارِه، كما وعدَ الكفّارَ في ذلك الموقفِ المصيريِّ المهمِّ.

نكتةُ التَّعبيرِ بلفظِ ﴿جَارٌ﴾:

تبرُّعُ الشَّيطانِ في إجارتِه إضلالٌ للمشركينَ وتغريرٌ بهم

لم يقل: وإنّي أجيرُكم؛ لأنَّ التَّعبيرَ بلفظِ (أُجير)، يؤذنُ أنَّهم طلبوا إجارتَهُ، فأجارَهُم، فلمّا قال: ﴿وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ﴾؛ دلَّ على أنَّه - لعنَهُ اللّهُ - وسوسَ لهم، أنَّهُ حاميهم من نفسِه من غيرِ طلبٍ منهم إضلالًا منهُ لهم، ولم يقل: وإنّي جارُكم، لِما تفيدُهُ اللّامُ هنا من تقويةِ اختصاصِ جوارِه لهم وتأكيدِه[1].

بلاغةُ التَّعبيرِ بقوله: ﴿وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ﴾ بينَ الكنايةِ والاستعارةِ:

من كانَ الشَّيطانُ له جارًا؛ خطَّ إلى الخزيِ والنّارِ مسارًا

لمّا ألقى الشَّيطانُ في روعِ المشركين، وخيَّلَ إليهم أنَّهم لا يُغلَبون، ولا يُطاقون، لكثرةِ عَددِهم وعُدَدِهم، وأوهمهم أنَّ اتِّباعَهم إيّاهُ - فيما يظنّون أنَّها قرباتٌ - مجيرٌ لهم، حتَّى تجاسروا، فقالوا: اللهمَّ انصر أهدى الفئتين، وأفضلَ الدّينين، كان (جارٌ) على معناهُ اللّازمي، إمّا بالكنايةِ، بأنْ يرادَ الحامي لهم، وإمّا على الاستعارةِ، بمعنى: إنّي دافعُ الضَّررِ عنكم، لقربي منكم، وصحبتي لكم، كما يدفعُ الجارُ الضَّررَ عن جارِه.

تتابعُ المؤكِّداتِ في مقولةِ الشَّيطانِ:

الكذبُ لا تجدي فيه كثرةُ المؤكِّداتِ، ولا تلميعُ العباراتِ

تتابعتِ المؤكِّداتُ في قولِ الشَّيطانِ: ﴿وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ﴾، لتقريرِ ما يوسوسُ بهِ في صدورِ الكفّارِ، فأكَّدَ النَّفيُ غلبتَهُم بـ(لا) النّافيةِ للجنسِ - كما تقدَّمَ - وأكَّدَ جوارَهُ لهم، بـ(إنَّ) الَّتي تفيدُ تأكيدَ مضمونِ الجملةِ، وبالجملةِ الاسميَّةِ، وباللّامِ الدّاخلةِ لتقويةِ الاختصاصِ.

(1) السّامرائي، معاني النّحو: 3/74.

بلاغةُ الاستعارةِ:

إغواءُ الشَّيطانِ فنونٌ وفتونٌ لاستدراجِ كلِّ مفتونٍ

في قوله: ﴿زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾، و﴿وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ﴾، التَّزيينُ والقولُ فيهما على سبيلِ الاستعارةِ التَّمثيليَّةِ، بتشبيهِ وسوستهِ وتخييلهِ بمن يفعلُ فعلَ التَّزيين، ويقولُ القولَ المذكورَ، ثمَّ حُذِفَ المشبَّهُ، وذُكِرَ المشبَّهُ بهِ، ليكونَ على معنى المبالغةِ، في تأثُّرهم بتزيينِ الشَّيطانِ، والمعنى: وسوسَ لهم، فحسَّنَ لهم أعمالَهم، وألقى في روعِهم، وخيَّلَ إليهم أنَّهم لا غالبَ لهم، فلا يغلبونَ، ولا يطاقونَ، لكثرةِ عددِهم وعُددِهم، فالقولُ مقالةٌ نفسانيَّةٌ لا لفظيَّة، فهو حديثٌ نفسيٌّ بوسوسةِ الشَّيطانِ في قلوبِهم، ويُمكِنُ أنْ يَكونَ صُدورُ هذا القَوْلِ، على لِسانِ بَعْضِ الغواةِ مِنَ النّاسِ، ممَّن كان مع المشركينَ في القتالِ، فقالَ لهم ذلك بإغْواءِ إبْليسَ لَهُ، ونُسِبَ ذلك إلى إبْليسَ؛ لِأنَّهُ هو المُتَسَبِّبُ في ذلك القَوْلِ، فيَكونُ القَوْلُ صادرًا مِن إنْسانٍ حَقيقَةً، وهو على طريق المجاز العقليِّ، باعتبارِ صدورِ قولِ ذلك الشَّخصِ المتأثِّرِ بوسوسةِ الشَّيطانِ[1].

دلالةُ حرفِ (الفاء):

أكبرُ الغبنِ والأساةِ أن يتبرَّأَ المتبوعُ مِنَ التّابعِ

في قولهِ تعالى: ﴿فَلَمَّا تَرَآءَتِ﴾ أفادتِ الفاءُ التَّعقيبَ، بمعنى: تعقيبِ وقوعِ ترائي الفئتين، على قولِ الشَّيطانِ من غيرِ مهلةٍ؛ للإشعارِ بسرعةِ نكوصِه وخيانتِه لهم، وقد تلاحقتِ الأحداثُ بسرعةٍ، وكانَ النُّكوصُ برجوعِه القهقرى على عقبيهِ، وقد تبرَّأ من المشركينَ، وقيل: "إنَّهُ كان آخذًا بيدِ الحارثِ بن هشام، أخي أبي جهلٍ، فلمّا رأى الملائكةَ، ينزلونَ مِنَ السَّماءِ، يقدمُهم جبريل (عليه السلام)؛ نزعَ يدَهُ من يدِ الحارثِ، وهربَ، فقالَ لهُ الحارثُ: أفِرارًا مِن غيرِ قتالٍ؟ وجعلَ يُمسِكُهُ، فدَفعَ في صدرِه، وقال: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوۡنَ﴾، وهربَ"[2].

(1) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنة: 5/235، والزّمخشريّ، الكشّاف: 2/227، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/62، وأبو حيّان، البحر المحيط: 5/334، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/26، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/35.

(2) السّمعانيّ، تفسير القرآن: 2/271.

دلالةُ (لَمّا) في قولِهِ: ﴿فَلَمَّا تَرَآءَتِ﴾:

أحبالُ الكذبِ قصيرةٌ، وخُدَعُ الشَّيطانِ مكشوفةٌ للعيانِ

لمّا كانت (لمّا) التَّعليقيَّةُ حرفَ وجودٍ لوجودٍ، يفيدُ وقوعَ أمرٍ لوقوعِ غيرِه، وفيها معنى الشَّرطِ والتَّعليل، ويدخلُ الكلام الَّذي يتضمَّنُها معنى الوقتِ[1]، أفادَ التَّعبيرُ بها أنَّ الشَّيطانَ نكصَ على عقبيهِ، وقال قولَهُ المذكورَ بمجرَّدِ وقوعِ ترائي الفئتينِ من قبلِ القتالِ، وأنَّ التَّرائي كانَ السَّببَ في نكوصِه، وأنَّ نكوصَهُ كان في وقتِ التَّلاقي والتَّرائي؛ لتضمُّنها معنى الوقت، ولاقترانِ الجوابِ بالشَّرطِ؛ إشعارًا بعظمِ فئةِ المؤمنينَ وقوَّتِهم ورهبتِهم، في أعينِ أعدائِهم حين التَّرائي مع قلَّتِهم في العددِ والعدَّةِ، ففيهِ تذكيرٌ بهذهِ النِّعمةِ العظيمةِ والآيةِ الباهرةِ، كما أنَّ فيهِ إيذانًا بسرعةِ انكشافِ كذبِ الشَّيطانِ في دعواهُ.

نكتةُ التَّعبيرِ بصيغةِ ﴿تَرَآءَتِ﴾:

التَّرائي بين الفئتين مؤذنٌ بقربِ القتالِ والالتحامِ

لمّا كانَ الفعلُ ﴿تَرَآءَتِ﴾ على وزنِ تفاعلت، فهو من المفاعلةِ دلَّ على معنى المشاركةِ، أي: رأت كلُّ فئةٍ الأخرى رؤيةَ عينٍ، بحيثُ كانت كلُّ فئةٍ في مرمى نظرِ الفئةِ الأخرى، ومقابلةً لها؛ إشعارًا بقربِ القتالِ، والمعنى: "فَلَمّا تَراءَتِ الفِئَتانِ - أي: التقى الجمعانِ: جمعُ المؤمنين، وجمعُ الكافرين - بحيثُ رأت كلُّ واحدةٍ الأخرى، ورأى إبليسُ نزولَ الملائكةِ من السَّماءِ؛ نَكَصَ عَلى عَقِبَيْهِ، أي: رجعَ إلى خلفهِ هاربًا، وقالَ: إنّي بَريءٌ مِنكُمْ"[2]، والتَّرائي موقفٌ مزلزلٌ، تُمتحن فيه عزائمُ الرِّجالِ، ويُنظرُ فيهِ إلى جلَدِ الشُّجعان، ويكونُ فيصلًا في تحقيقِ النَّصرِ أو الهزيمةِ، والنُّكوصُ حين التَّرائي مؤذنٌ بالخيبةِ، وموحٍ بالخذلانِ، وكذلك هو شأنُ الشَّيطانِ في كلِّ مناحي الحياةِ، كلَّما زيَّن للإنسانِ أمرًا،

(1) الرّضي، شرح كافية ابن الحاجب: 3/309، والمراديّ، الجنى الدّاني، ص: 594، وابن هشام، مغني اللّبيب، ص: 369.

(2) الرّضيّ، شرح كافية ابن الحاجب: 3/309، والمراديّ، الجنى الدّاني، ص: 594، وابن هشام، مغني اللّبيب، ص: 369.

حتَّى إذا جدَّ الجدُّ، وجاءتِ اللَّحظةُ الحاسمةُ؛ نكصَ على عقبيهِ، وخذلَ منِ اغترَّ بهِ.

بلاغةُ المجازِ المرسلِ:

التَّلاقي سببٌ في التَّرائي، وهو مؤذنٌ بالتَّصادمِ والاشتباكِ

في قولهِ تعالى: ﴿فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ﴾، عبَّرَ بلفظِ ﴿تَرَآءَتِ﴾ على طريقِ المجازِ المرسلِ[1]؛ لأنَّ التَّرائي مسبَّبٌ عن التَّلاقي حتَّى صارَ كلُّ واحدٍ بحيثُ يتمكَّنُ من رؤيةِ الآخرِ، والمعنى: تلاقتِ الفئتانِ، فكان التَّلاقي سببًا في التَّرائي، وعُبِّرَ بالمجازِ المرسلِ، لتعظيمِ أثرِ المسَبِّب، وما ترتَّبَ عليهِ.

بلاغةُ الاستعارةِ:

كلُّ نكوصٍ تأخُّرٌ وتعثُّرٌ، ونكوصُ الشَّيطانِ خيبةٌ وتنكُّرٌ

لمّا كان التَّعبيرُ بلفظ ﴿نَكَصَ﴾ في قولهِ تعالى: ﴿نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾، بمعنى: رجعَ القهقرى في الأصلِ، عُبِّرَ بهِ؛ لتشبيهِ بطلانِ كيدِه مع إحكامِه، بالرُّجوعِ القهقرى، في عدمِ الوصولِ إلى ما قصدَهُ، ورجوعِه عنه خائبًا، بعدَ إقبالِه عليهِ؛ ليكونَ استعارةً تمثيليَّةً، تصويرًا لحالةِ رجوعِه، فارًّا منهزمًا، فالتَّعبيرُ بـ﴿نَكَصَ﴾ ليس على الحقيقةِ[2].

فائدةُ ذكرِ قولهِ: ﴿عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾:

تفظيعُ حالةِ التَّقهقرِ بالتَّعبيرِ بالعقبِ لهوانِه

لمّا كانَ الجارُّ والمجرورُ ﴿عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾، حالًا من فاعلِ ﴿نَكَصَ﴾، كان تأكيدًا لرجوعِه القهقرى، وتقريرًا له، ويحتملُ أن يكونَ حالًا مؤسَّسة؛ إذا كانَ (نكص) بمعنى مطلقِ الرُّجوعِ؛ لأنَّهُ كنايةٌ عن الفرارِ، فيفيدُ أنَّ رجوعَهُ كان على حالةٍ مزريةٍ خائبةٍ، هي حالةُ القهقرى، وعلى الوجهين أفادَ ذكرُ ﴿عَقِبَيْهِ﴾، تفظيعَ حالةِ التَّقهقرِ وخسَّتِها؛ لأنَّ عقبَ الرَّجلِ أخسُّ القوائمِ، لملاقاتِه الغبارَ والأوساخَ[3].

(1) الشّهاب، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 4/280، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 9/101.
(2) ابن عطية، المحرّر الوجيز: 2/538، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 9/101، والآلوسيّ، روح المعاني: 10/22.
(3) السّمين الحلبيّ، الدّر المصون: 5/618، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/37.

مناسبةُ الوصلِ في قوله: ﴿وَقَالَ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّنكُمۡ﴾:

خذلانُ الشَّيطانِ، يجمعُ بينَ القولِ المزيَّنِ، والفعلِ المخيَّبِ

أفادتِ الواوُ عطفَ القولِ على الفعلِ؛ لِما بين الجملتينِ من جهةٍ جامعةٍ تجمعُهما، وهي خذلانُهُ لهم، فأفادَ قولُ الشَّيطانِ المُبالَغَةَ في الخِذْلانِ والانْفِصالِ عنهم، فإنَّهُ - لعنَهُ اللهُ - لَم يَكْتَفِ بالفِعْلِ، حَتَّى أكَّدَ ذلك بالقَوْلِ[1]، ولمّا كان جوابُ (لمّا) جملتينِ معطوفتينِ؛ دلَّ على وقوعِ النُّكوصِ، والقولُ المذكورُ في وقتِ ترائي الفئتينِ.

بلاغةُ الاستعارةِ:

تبرُّؤُ الشَّيطانِ قمَّةُ الخيبةِ والخذلانِ

في قولِهِ تعالى: ﴿وَقَالَ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّنكُمۡ﴾ جاءَ الكلامُ على الاستعارةِ، إذ شبَّهَ تبرُّؤَ الشَّيطانِ من المشركينَ، وخذلانَهُ لهم، بالرَّجلِ الَّذي يقولُ هذا القولَ، إيذانًا بوضوحِ تبرُّئِه منهم، وأنَّه كان بمنزلةِ القولِ المسموعِ، أو يكونَ مجازًا عقليًّا، بأن يكونَ شخصٌ ممَّن كانَ معَهم في القتالِ، له شأنٌ، قال ذلك القولَ متأثِّرًا بوسوسةِ الشَّيطانِ[2].

دلالةُ (إنَّ) على التَّوكيدِ:

انقلابُ الشَّيطانِ وتبرُّؤُهُ من أتباعِه، حقيقةٌ لا مفرَّ منها

تفيدُ (إنَّ) - في قولِهِ تعالى: ﴿إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّنكُمۡ﴾ - تأكيدَ مضمونِ الجملةِ، بمعنى: تأكيدِ براءةِ الشَّيطانِ من المشركينَ وتقريرِها، وهذهِ البراءةُ مسألةٌ حتميَّةٌ لازمةٌ، يلجأُ إليها أهلُ الباطلِ، حيثُ تكونُ وشائجُ الصِّلةِ منبتَّةً في النِّهايةِ بينَ أهلِ الباطلِ بعضِهم ببعضٍ، وعلى رأسِهم الشَّيطانُ الَّذي يعدُ أتباعَهُ ويمنّيهم، ثمَّ ينتهي إلى الانقلابِ عليهِم والتَّبرُّؤِ منهم، فتكونُ الخيبةُ الكبرى بينَهُ وبينَهُم.

نكتةُ الالتفاتِ في الضَّميرِ:

ما كانَ للهِ دامَ واتَّصلَ، وما كانَ لغيرِ اللهِ انقطعَ وانفصلَ

في قولِهِ: ﴿بَرِيٓءٌ مِّنكُمۡ﴾ التفاتٌ بمجيءِ ضميرِ الخطابِ؛ لأنَّ النُّكوصَ يفيدُ الرُّجوعَ القهقرى، فلا يكونونَ قبالتَهُ؛ للإشعارِ بأنَّهُ

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/335.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/35.

استحضرَهُم، كأنَّهم يسمعونَهُ، فقال قولهُ هذا[1]، ويحتملُ أن يكونَ على الظّاهرِ رجعَ مستأخرًا مقبلًا بوجههِ إليهم[2]، وأيًّا كانَ الأمرُ في هذهِ الحالةِ أو تلكَ، فإنَّ التَّبرُّؤَ بهذا الأسلوبِ السّافرِ الجليِّ، وبصورةٍ جازمةٍ باتَّةٍ، هو منتهى كلِّ علاقةٍ تقومُ على الباطلِ.

مناسبةُ تقديمِ: ﴿نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ على: ﴿وَقَالَ إِنِّي بَرِيٓءٌ﴾:

قُدِّمَت الجملةُ الأولى على الثّانيةِ؛ لِما يُشعرُ بهِ ترائي الفئتينِ من شدَّةِ خذلانِه وخيبتِه (لعنهُ اللّهُ)، بما رأى حينئذٍ من إمدادِ الملائكةِ للمؤمنينَ، فتصاغرَ ودُحِرَ، فاستعجل الانهزامَ أوَّلًا، ثمَّ قال: ﴿إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّنكُمْ﴾؛ تعظيمًا لآياتِ اللّهِ يومَ الفرقانِ، وإيذانًا بصغارِ الشَّيطانِ وضعفِه وحقارتِه.

تصاغرَ الشَّيطانُ لمّا رأى إمدادَ الملائكةِ للمؤمنينَ

بلاغةُ الاستئنافِ:

وردَ الاستئنافُ البيانيُّ في الآيةِ: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ﴾؛ جوابًا لسؤالٍ تقديرهُ، (لِم قلتَ: إنّي بريءٌ منكم، وقد زيَّنت لهم أعمالَهم، وقلت: لا غالب لكم اليومَ من النّاسِ؟)، فكان الجوابُ في بيانِ السَّببِ ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ﴾، فتبرَّأ لخوفِه ورهبتِه، ممّا رأى من خرقِ العادةِ، ونزولِ الملائكةِ.

قوَّةُ الشَّيطانِ ومكائدُهُ، تتضاءلُ أمامَ قدرةِ اللهِ الَّتي لا تُغالبُ

تتابعُ التَّأكيدِ:

في قولهِ تعالى: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ﴾ تنوُّعُ التَّأكيدِ في الآيةِ لتقريرِ معناها، بعدَ أنْ زيَّنَ لهم أعمالهم، ووعدَهم بالغلبةِ، فجاء على طريقِ الخبرِ الإنكاريِّ، بتأكيدهِ بـ(إنَّ)، ومجيءِ الخبرِ جملةً فعليَّةً، لتقوّي الحكمَ بنفسِ التَّركيبِ على تقديرِ تكرُّرِ الإسنادِ بتكرُّرِ المسندِ إليهِ، وهو الياءُ في قولهِ: ﴿إِنِّيٓ﴾ والضَّميرِ المستتر

التَّأكيدُ بلفظِ (لا) النّافيةِ على نفي رؤيتِهم ما كان يرى

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/36.
(2) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنة: 5/236.

في ﴿أَرَىٰ﴾ [1]، ولمّا تتابعَ التَّأكيدُ على إثباتِ رؤيتِه؛ ناسبَ أن يأتيَ بـ(لا) لتأكيدِ نفي رؤيتِهم، ما كان يراهُ[2].

بديعُ الطِّباقِ في قولِه: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوۡنَ﴾:

جاء طباقُ السَّلبِ في قولِه: ﴿أَرَىٰ﴾، و﴿لَا تَرَوۡنَ﴾؛ ليفيدَ المقايسةَ بينَ رؤيةِ الشَّيطانِ ورؤيةِ المشركين، وأنَّ رؤيتَهُ ما لا يرون، كانت حينَ تراءتِ الفئتان.

تقابلُ اللَّفظينِ طباقٌ، وهو يجلّي المعنى، ويوضِّحُ الدّلالةَ

دلالةُ التَّعبيرِ بالمضارعِ ﴿أَرَىٰ﴾ و﴿لَا تَرَوۡنَ﴾:

عُبِّرَ بصيغةِ المضارع ﴿أَرَىٰ﴾، إشعارًا باستمرارِ رؤيتِه، لما لا يرونَهُ، وأنَّها متجدِّدَةٌ حالًا فحالًا، ولم تكن مرَّةً واحدةً، ولتصويرِ حالةِ الرُّؤيةِ المستمرَّةِ، عُبِّرَ بقولِه: ﴿لَا تَرَوۡنَ﴾، إشعارًا باستمرارِ نفي رؤيتِهم، ما يراهُ، ولتصويرِ الحالةِ كذلك.

ما يراهُ إبليسُ مستمرٌّ، بإرجاءِ اللهِ لهُ إلى نهايةِ الدُّنيا

مناسبةُ التَّعبيرِ بالاسمِ الموصولِ وصلتِه:

في قولِه تعالى: ﴿مَا لَا تَرَوۡنَ﴾، عُبِّرَ بالاسمِ الموصولِ ﴿مَا﴾ المفيدِ العمومَ المرادَ بهِ تعظيمُ المرئيِّ وتفخيمُهُ، وتأكَّدَ هذا التَّعظيمُ بحذفِ العائدِ من الفعلِ ﴿تَرَوۡنَ﴾، لما يشعرُ بهِ ذكرُ العائدِ من التَّخصيصِ، فيكونُ التَّعميم.

إفادةُ العمومِ هنا أولى من التَّخصيصِ لإفادةِ هولِ المرئيِّ

نكتةُ مجيءِ قولِه: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَۚ﴾:

لمّا علِمَ الشَّيطانُ أنَّ القوَّةَ الَّتي مع المؤمنينَ، هي قوَّةُ اللهِ بما أمدَّهم من الملائكةِ، وعلِمَ أنَّها لا تقهر، وأنَّ المشركينَ مهزومون لا محالةَ، وأنَّه لا قوَّةَ له ولا طاقةَ، قال مقولةَ العاجزِ: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَۚ﴾، وذهبَ بعضُ المفسِّرين إلى أنَّه إنَّما ذكرَ خوفَهُ من اللهِ تعالى في هذا الموضعِ، ولم يذكرْهُ في امتناعِه من السُّجودِ لآدمَ؛ لأنَّه قد كانَ سألَ الإنظارَ إلى قيامِ السّاعةِ، فلمّا رأى نزولَ الملائكةِ ببدرٍ؛ تصوَّرَ قيامَ السّاعةِ، فخافَ[3].

خوفُ الشَّيطانِ بسببِ ظنِّه أنَّ أوانَ قيامِ السّاعةِ قد آنَ

(1) السّكاكيّ، مفتاح العلوم، ص: 217، 221.
(2) سيبويه، الكتاب: 3/117.
(3) الماورديّ، النّكت والعيون: 2/235.

بلاغةُ التَّعبيرِ بقولِهِ: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَۚ﴾، بين الاستئنافِ البيانيِّ والتَّأكيدِ:

رؤيةُ الشَّيطانِ حقيقةٌ للهولِ، وخوفُهُ من اللهِ باطلٌ من القولِ

لمّا جاءَ قولهُ تعالى: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ﴾، استئنافًا بيانيًّا، كما تقدَّم، فكأنَّ السّائلَ سألَ مرَّةً أخرى: وما حملكَ على هذا كلِّه؟ فكانَ الجوابُ: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَۚ﴾، ويحتملُ أن يكونَ تأكيدًا لمضمونِ قولِهِ: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ﴾، فإنَّهُ لمّا رأى ما رأى، هالَهُ الموقفُ، وفزعَ منه، فقال مؤكِّدًا مقتضاهُ: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَۚ﴾.

دلالةُ الواوِ بين العطفِ أو الاستئنافِ:

ارتباطُ المعنى بالوعيدِ لمن يخالفُ اللهَ، ويعادي نبيَّهُ

تحتملُ الواوُ في قولِهِ: ﴿وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾، أن تكونَ عاطفةً لتكونَ من تمامِ كلامِ الشَّيطانِ، في بيانِ جزاءِ الأفعالِ المخالفةِ لأوامرِ اللهِ تعالى، ويُحتملُ أن تكونَ استئنافيَّةً، ليكونَ الكلامُ من جهتِهِ ﷻ على معنى الوعيدِ، لمن يخالفُ أوامرَهُ، ويعادي رسولَهُ ﷺ، وهو الظّاهرُ؛ لأنَّ علماءَ الوقفِ ذكروا أنَّ الوقوفَ على الاسمِ الجليلِ في قولِهِ: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَۚ﴾، هو وقفٌ حسنٌ أو مطلقٌ، أي: يحسنُ الابتداءُ بما بعدَهُ[1].

نكتةُ التَّعبيرِ بقولِهِ: ﴿شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾:

مجازاةُ الشَّرِّ بالعقابِ من وعدِ اللهِ المرسَّخِ في الكتابِ

لمّا كانَ العقابُ لا يكونُ إلّا مجازاةً على أمرٍ، وكان لا يُستعمل إلّا في الشَّرِّ؛ عُبِّرَ بـ﴿شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾، دون أن يقولَ: (شديد العذاب)؛ لمناسبةِ المقامِ، ففيهِ إيذانٌ بسوءِ عاقبةِ أعمالِهم، وأنَّ الَّذي عملوهُ من معاداتِهم رسولَ اللهِ ﷺ، ومسيرِهم للقتالِ، وقتالِهم المؤمنين، هو من الشَّرِّ، وأنَّ ثمرةَ هذه الأعمالِ ستعقبُهم وتلحقُهم، ولا يفوتُ منها شيءٌ، وأنَّ اللهَ تعالى، هو المتعقِّبُ لهذهِ الأعمالِ المتقدِّمة، وسيجازيهم عليها سوءًا، وفيه تنبيهٌ أنَّ العقابَ يُرتكبُ بالجرائمِ، لا قبلَ أدائِها[2].

(1) النّيسابوريّ، غرائب القرآن: 3/410، والأشمونيّ، منار الهدى: 1/296.
(2) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (عقب)، والرّاغب، تفسير الرّاغب، ص: 93.

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

نَكَصَ ورَجَعَ وفرَّ:

النُّكوصُ لا الفرارُ: إحجامٌ بعد إقدامٍ، والرُّجوعُ: عودٌ على ما منهُ البَدءُ

وردَ في الآيةِ السّابقةِ قولُهُ: ﴿نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾، ولم يقل: (رجعَ على عقبيهِ)، ولا (فرَّ على عقبيهِ)، لمناسبةِ لفظِ ﴿نَكَصَ﴾ للسّياقِ، فإنَّ النُّكوصَ هو إحجامٌ عن الأمرِ، بعدَ تقدُّمٍ لهُ، خوفًا ورهبةً، ممّا يلاقيهِ إن استمرَّ بالإقدامِ، مع تركِ غيرِه متقدِّمًا، ويكونُ باختيارِ صاحبهِ من غيرِ قهرٍ، وهو المناسبُ تمامًا، لمعنى الآية وسياقِها، بنكوصِ الشَّيطان عن المشركينَ يومَ بدرٍ، وأمّا (فرَّ) فهو بمعنى المباعدةِ بخفَّةٍ وسرعةٍ، فيكون فيهِ انكشافٌ لموضعٍ فيهِ اختلاطٌ، وأمّا (رجع)؛ فهو العودُ إلى ما كانَ منه البدءُ، أو تقديرُ البدءِ مكانًا كان أو فعلًا، أو قولًا، فهو تحوُّلٌ عن الاتِّجاهِ أو الحالِ إلى عكسهِ، والرُّجوعُ قد يكون محمودًا، وقد يكونُ مذمومًا، والنُّكوصُ لا يكون إلّا في مقامِ الذَّمِّ[1].

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (رجع)، (فرر)، (عقب).

﴿إِذۡ يَقُولُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمۡۗ وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ٤٩﴾ [الأنفال: 49]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

اقترانُ تزيينِ الشَّيطانِ، بإرجافِ المنافقينَ، لا يضعفُ المسلمينَ

لمّا استوفى ما كانَ يقطعُ بهِ المشركونَ من قوَّتِهم وضعفِ المسلمين، ممّا هو من أنفسِهم، وممّا هو من تزيينِ الشَّيطانِ؛ أبدلَ منهُ ما كان يقطعُ بهِ أهلُ الجهلِ باللّهِ من هزيمةِ المسلمينَ، لقلَّتِهم عددًا وعُدَّةً ولكثرةِ عددِ المشركين، وعدَّتهم في حقِّهم، فقال: ﴿إِذۡ يَقُولُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ﴾[1]، وأيضًا: لمّا ذكر اللّهُ تعالى أنَّ الشَّيطانَ زيَّن للمشركينَ أعمالهم؛ بيَّن أنَّ قولَ المنافقين، وقع في وقتِ تزيين الشَّيطانِ للإرجافِ بفئةِ المسلمين، فيكونُ قد اجتمع عليهم تزيينُ الشَّيطانِ للمشركين أعمالَهم، وقولُ المنافقين ما قالوه، فالمناسبةُ في ذكرِ هذه الآيةِ، عقبَ آيةِ تزيين الشَّيطانِ، هيَ أنَّ كِلا الخَبَرَيْنِ يَتَضَمَّنُ قوَّةَ جَيْشِ المُشْرِكينَ، وضَعْفَ جَيْشِ المُسْلِمينَ، ويَقينَ أولياءِ الشَّيطان، بأنَّ النَّصْرَ سَيَكونُ لِلْمُشْرِكينَ على المُسْلِمينَ، فأفادت (إذ) الاقترانَ الزَّمنيَّ بين التَّزيينِ وقول المنافقين، فيكونُ قَوْلُهم واقِعًا في وقْتِ تَزْيينِ الشَّيطانِ أعْمالَ المُشْرِكينَ، ليزيدوا من إضعافِ المسلمين، بما توهَّموهُ، من قلَّة تدبيرِ المسلمين وغرورِهم[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مَّرَضٞ﴾: يدورُ معنى لفظِ (مرض)، على ما يَخرجُ بهِ الإنسانُ أو الحيوانُ عن حدِّ الصِّحَّةِ في أيِّ شيءٍ كان، فهو خروجٌ عن الاعتدالِ الخاصِّ بالإنسانِ، وذلك ضربان: مَرَضٌ جسميٌّ، والآخرُ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/300.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/37.

عبارةٌ عن الرَّذائلِ كالجهلِ، والجبنِ، والبخلِ، والنِّفاقِ، وغيرِها من الرَّذائلِ الخلقيَّةِ، والمرضُ في القلبِ كلِّه هو الشَّكُّ، وهو مشهورٌ في كلامِ العربِ[1]، والمقصودُ بالمرضِ القلبيِّ هو الشَّكُّ، عبادةُ اللّه على حرفٍ، وعدمُ رسوخِ العقيدةِ في الوجدانِ نظرًا للتَّذبذبِ في الإيمانِ والميلِ إلى الكفرانِ.

2) ﴿غَرَّ﴾: الغَرَرُ: هو الخطرُ الَّذي لا يُدرى أيكونُ أم لا، والغِرُّ: الَّذي لا يَفْطُنُ للشَّرِّ، ويَغْفُلُ عنه، ومنه اغترَرْتُه واستَغْرَرْتُهُ، أيْ: أتيتُهُ على غِرّةٍ، أي: على غَفْلَةٍ، ورجلٌ غِرٌّ؛ إذا كان ينخدعُ لمن خادعَهُ، ويقالُ: غَرَّ فلانٌ فلانًا، أي: عَرَّضَهُ للهَلَكَةِ والبَوارِ، أو بمعنى نقصه من الغِرارِ، وهو النُّقْصانُ، أو المعنى: فعَلَ به ما يُشْبِهُ القَتْلَ والذَّبْحَ بغِرارِ الشَّفْرَةِ، أي: حدُّها، والغرورُ كلُّ ما يَغُرُّ الإنسانَ من مالٍ وجاهٍ، وشهوةٍ وشيطانٍ، كما يطلقُ الغرورُ على الإيقاعِ في المضرَّةِ، بإيهامِ المنفعةِ[2].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

إنكارُ المعاندين غرورَ المؤمنين بدينِهم، لكن من توكَّلَ على اللهِ كفاهُ

واذكرْ - يارسول اللّه - وقتَ أن قال أهلُ النِّفاقِ والَّذين في قلوبِهم شكٌّ في الإسلامِ، ممَّن لم يصحَّ يقينهم، لمّا رأوا قلَّةَ المسلمينَ، وكثرةَ عدوِّهم: خدعَ هؤلاءِ المسلمينَ دينُهم، ولم يدرك هؤلاءِ المنافقونَ ومن مَعهم أنَّه من يتوكَّلُ على اللّهِ، ويثقُ بوعدِهِ، فإنَّ اللّه لن يخذلَهُ؛ لأنَّ اللّه عزيزٌ لا يغلبهُ شيءٌ، ولا يعجزهُ أمرٌ، حكيمٌ في تدبيرِهِ وصنعِهِ[3].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ لفظِ ﴿إِذْ﴾:

في قولِهِ تعالى: ﴿إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾، تفيدُ ﴿إِذْ﴾ هنا عظمَ

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (مرض)، وينظر: الرّاغب، تفسير الرّاغب: 1/99، والماورديّ، النّكت والعيون: 2/326.

(2) الرّاغب، المفردات، ص: 270.

(3) ابن جرير، جامع البيان: 13/12 - 15، ونخبة من أساتذة التّفسير، التّفسير الميسّر، ص: 183.

تعظيمُ الظَّرفِ إشعارٌ بعظمِ مظروفِه

القولِ الَّذي قالَهُ المنافقونَ، والَّذين في قلوبِهم مرضٌ، للتَّنبيهِ على عظمِ قولِهم في ذلكَ الوقتِ بحيثُ يستحقُّ أن يكونَ القولُ الَّذي قالوهُ مثلًا للذِّكرى والتَّدبُّر والعظةِ، فإنَّ تعظيمَ الظَّرفِ، إشعارٌ بعظمِ مظروفِه، والكلامُ المصدَّرُ بلفظِ (إذ)، موجَّهٌ إلى مخاطَبٍ معيَّنٍ، أو مخاطبينَ مُعيَّنينَ لِلتَّذكيرِ بأمرٍ مُهمٍّ قدْ حَصَل.

بلاغةُ التَّعريضِ بذكرِ قولِ المنافقينَ:

تعظيمُ قدرِ الدِّينِ عندَ المؤمنينَ؛ إذ بذلوا أنفسَهم لأجلِه

ذُكِرَ قولُ المنافقينَ؛ للتَّعريضِ بعظمِ منزلةِ الدّين وخطيرِ قدرِه في قلوبِ المؤمنين الذين قاتلوا مع رسولِ اللّهِ ﷺ وذلك أنَّهم بذلوا أنفسَهم للهلاكِ؛ لخروجِهم لقتالِ عدوِّهم مع ضعفِهم وقلَّةِ عددِهم، وكثرةِ أعدائِهم وقوَّتِهم؛ رجاءَ أن يسلمَ لهم دينُهم، فذكرهُ اللّهُ تعالى لنا لنعرفَ عظيمَ محلِّ الدّين في قلوبهم؛ ليكونَ محلُّ الدّين في قلوبنا على مثل قدرِه في قلوبِ صحابةِ رسولِ اللّهِ ﷺ[1].

دلالةُ لازمِ الفائدةِ من قولِ المنافقين:

قد ينتصرُ أهلُ الإيمانِ - وإن كانوا قلَّةً - ضدَّ الطُّغيانِ

فائدةُ القولِ هو معنى منطوقِه المذكورِ، ولازمُ الفائدةِ هنا إثباتُ رسالةِ رسولِ اللّهِ محمَّدٍ ﷺ؛ لأنَّهم إنَّما قالوا ذلك سرًّا فيما بينهم، فأطْلَعَ اللّهُ رسولَهُ على ذلكَ؛ ليعلمَ أنَّهُ عرفَ ذلك باللّهِ[2]، "والإشارةُ بقولِه تعالى: (هؤلاء) إلى المسلمينَ، وإنَّما قالوا هذا؛ لأنَّهم رأوا قلَّةَ المسلمين، فلم يشكّوا في أنَّ قريشًا تَغلبُهم"[3].

دلالةُ الفعلِ المضارعِ في قولِه: ﴿إِذۡ يَقُولُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ﴾:

تفيدُ صيغةُ المضارعِ تَجَدُّدَ بشاعةِ قولِهم معَ الاستمرارِ والاستحضارِ

لمّا كانَ ظرفُ الزَّمانِ (إذْ)، لما مضى، فيقترنُ في الأصلِ بالفعل الماضي، لفظًا أو معنًى، كانَ التَّعبيرُ بصيغةِ المضارعِ هنا؛ للإشعارِ بأنَّ قولَهم كان متَّصِلًا بالزَّمنِ الماضي مع استمرارِه وتجدُّدِه كلَّ

(1) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنة: 5/237.
(2) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 5/237.
(3) ابن الجوزيّ، زاد المسير: 2/217.

وقتٍ، لما لهم فيهِ من الرَّغبةِ[1]، وأنَّ هذا كان شأنَهم وديدنَهم، كما يفيدُ التَّعبيرُ بالفعلِ المضارعِ استحضارَ صورةِ قولِهم البشعةِ.

دلالةُ القولِ بين الحقيقةِ والمجازِ:

التَّعبيرُ بلسانِ الحالِ مجازٌ يبيِّنُ بلاغةَ الإعجازِ

القولُ هنا مستعملٌ في حقيقتهِ ومجازِهِ، فالمنافقونَ يقولونَ ذلك حقيقةً بألسنتِهم، أمامَ أمثالِهم من المنافقينَ، والَّذين في قلوبِهم مرضٌ، يقولون ذلك في أنفسِهم، وبلسانِ حالِهم من خلالِ تعاملِهم مع المؤمنينَ[2]، وما يقالُ بلسانِ الحالِ، لا يكونُ إلّا مجازًا، والتَّعبيرُ بالمجازِ لا يقلُّ أهمّيَّةً عن التَّعبيرِ بالحقيقةِ، وهو من مأنوس الاستعمالِ المتوخَّى عادةً في مثلِ هذه الأحوال.

مناسبةُ العطفِ في: ﴿وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾:

العطفُ يقتضي التَّغايرَ بالذّاتِ أو بالوصفِ

لمّا كانَ العطفُ يقتضي المغايرةَ بين المعاطيف؛ دلَّ هنا في قولهِ: ﴿إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ على تغايرِ المعطوفين، فإمّا أن يكونَ بتغايرِ الذّاتين، أي: التَّغايرُ بالشَّخصِ، فيكونُ المرادُ من المنافقينَ الَّذين أظهروا الإيمانَ، وأبطنوا الكفرَ، والمرادُ من ﴿وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ الَّذين لم يطمئنّوا إلى الإيمانِ بعدُ، وبقيتْ في قلوبِهم شبهةٌ، فليسوا بثابتي الأقدامِ في الإسلام، وإمّا أن يكونَ بتغايرِ الوصفين، فيكونُ واحدًا بالشَّخصِ، وله وصفان، فكشفَهما اللّهُ تعالى، والمعنى: وإذ يقولُ الَّذين جمعوا بين الوصفين: النِّفاقِ والشَّكِّ في الإيمانِ، وردَ هذا الوجهُ في القرآنِ الكريم، حينَ ذكرَ اللّهُ المؤمنينَ بوصفين في قولهِ تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾ [البقرة: 3]، ثمَّ قال: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ [البقرة: 4]، وهما واحدٌ، ويحتملُ أن يكونَ من عطف العامِّ على الخاصِّ، تأكيدًا وتقريرًا لكشفِ ما يقوله المنافقونَ، فإنَّ من في قلبهِ مرضٌ، أعمُّ من المنافق،

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/299.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/38.

والمَرَضُ أعَمُّ مِنَ النِّفاقِ؛ إذْ يُطْلَقُ مَرَضُ القلبِ على الكفرِ، وعلى الاعتراضِ الَّذي فيه شبهةٌ وعلى ما بينهما[1].

دلالةُ الموصولِ وصلتِهِ:

النِّفاقُ ومرضُ القلبِ، سببانِ للاستهزاءِ بالمسلمين

في قولِه تعالى: ﴿يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾، عُدِلَ عنِ التَّصريحِ بالاسمِ، ولم يقل: (ويقول أهلُ النِّفاقِ ومرضى القلوب)، فذُكِرَ الصِّنفانِ عن طريق الموصولِ وصلتِه، لما تشعرُ بهِ جملةُ الصِّلةِ، من معنى مفهومٍ عندَ المخاطبينَ، فإنَّ لفظَ ﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾ بتقديرِ الَّذين ينافقونَ، لِما تدلُّ عليهِ (أل) المقترنة بالوصفِ على الموصوليَّةِ، ووجهُ مجيءِ الموصولِ وصلتِهِ في الموضعين، هو الإيماءُ إلى وجهِ بناءِ قولِهم الَّذي قالوه، وأنَّ سببه هو نفاقُهم، وما في قلوبِهم من المرضِ والشُّبهة، كما أنَّ فيه زيادةَ تقريرٍ لنفاقِ الصِّنفِ الأوَّلِ، ومرضِ قلوبِ الصِّنفِ الثّاني، وفيه كذلك تعريضٌ بإهانتِهم لوصفِهم بهذين الوصفين[2].

بلاغةُ تقديمِ المسندِ على المسندِ إليه:

مرضُ الشُّبهاتِ أشدُّ فتكًا من مرضِ الشَّهواتِ

في قوله تعالى: ﴿فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾، قُدِّم المسندُ ﴿فِى قُلُوبِهِم﴾ على المسندِ إليهِ ﴿مَّرَضٌ﴾ للاهتمام؛ لأنَّ القلوبَ هي محلُّ الشُّبهةِ والشَّكِّ، فلما كانَ المسؤولُ عنهُ، هو متعلَّقُها، كان هو المهتمَّ بهِ في الكلامِ، والمعنى: "الَّذين لم تطمئنَّ قلوبُهم بالإيمانِ بعدُ، وبقيَ فيها نوعُ شبهةٍ، وقيل: هم المشركونَ، وقيل: هم المنافقونَ في المدينة"[3].

---

(1) مكي بن أبي طالب، الهداية: 4/2846، والزّمخشريّ، الكشّاف: 2/228، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/539، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 3/63، وأبو حيّان، البحر المحيط: 5/335، وابن التّمجيد، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 9/104.

(2) السّكاكي، مفتاح العلوم، ص: 184.

(3) مكّي بن أبي طالب، الهداية: 4/2846، والزّمخشريّ، الكشّاف: 2/228، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/539، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/63، وأبو حيّان، البحر المحيط: 5/335، وابن التّمجيد، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 9/104.

بلاغةُ تنكيرِ لفظِ ﴿مَّرَضٌ﴾:

في قولِه تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾، أفادَ التَّنكيرُ تعظيمَ المرضِ الَّذي في صدورِهم، وتهويلِه، فكانَ منهُ صدورُ قولِهم الَّذي قالوه، فأمّا ﴿وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾، ففيهم ثلاثةُ أقوالٍ: "أحدُها: أنَّهم قومٌ كانوا قد تكلَّموا بالإسلامِ بمكَّةَ، فأخرجَهم المشركونَ معهم يومَ بدرٍ كُرهًا، فلمّا رأوا قلَّةَ المسلمين، وكثرةَ المشركين، ارتابوا ونافقوا. والثّاني: أنَّهم المشركونَ، لمّا رأوا قلَّة المسلمين، قالوا: ﴿غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمۡۗ﴾. والثّالث: أنَّهم قومٌ مرتابونَ، لم يظهروا عداوةَ النَّبيِّ ﷺ"[1]، وأيًّا كان المعنى من الثَّلاثةِ، فإنَّ التَّنكيرَ، يبقى له أثرهُ في تبريزِ تعظيمِ المرضِ وتبشيعِه.

مَرَضَى القلوبِ خطرٌ على الأمَّةِ في الظُّروفِ المدلهمَّةِ

بلاغةُ المجازِ:

في قولِه تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾، عبَّرَ بذكرِ القلوبِ عن معتقدِهم الفاسدِ؛ إذ القلوبُ محلُّهُ، فإنَّهُ لمّا كان معلومًا بالخبَرِ عن مرضِ القلبِ، أنَّه معنيٌّ به مرضُ ما هم معتقدوه من الاعتقادِ الفاسدِ، استغنى بالخبَرِ عن القلبِ بذلك، والكفايةُ عن تصريحِ الخبَرِ عن ضمائرِهم، واعتقاداتِهم، فاجتزأ بدلالةِ الخبَرِ عن قلوبِهم على معناهُ عن تصريحِ الخبرِ عن اعتقادِهم ليلزمَ منهُ شكُّهم في دينِهم[2].

دلالةُ الخبرِ عن قلوبِهم مجزئٌ عن التَّصريحِ باعتقادِهم

أثرُ التَّعبيرِ بالمجازِ في قولِه: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾:

لمّا كان المرضُ حقيقةً، هو فيما يعرضُ للبدنِ، فيخرجهُ عن الاعتدالِ الخاصِّ به، ويوجبُ الخللَ في أفعالِه؛ عُبِّرَ به هنا على طريقِ المجازِ بمعنى: الشَّكِّ أو ضعفِ الإيمانِ أو سوءِ الاعتقادِ، ممّا هو فسادٌ وآفةٌ شبيهةٌ بالمرضِ، للإيذانِ بأنَّ الصِّحَّة في الإيمانِ باللهِ وبرسولِه،

المرضُ في القلوبِ شكٌّ في الاعتقادِ، وضعفٌ في الدّينِ

(1) ابن الجوزيّ، زاد المسير: 2/217.

(2) ابن جرير، جامع البيان: 1/279، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/539.

وفي عبادتهِ سبحانه والامتثالِ لأوامرهِ، واجتنابِ نواهيهِ، وأنَّ المرضَ في ما هم فيه من الشُّبهةِ والشَّكِّ، وسوءِ الاعتقاد، وسوءِ الأعمالِ، وأنَ شكَّهم يزيدُ كما يزيدُ المرض[1]، كما أفادَ التَّعبيرُ بالمرضِ أنَّه صار وصفًا قارًّا، كما أنَّه إذا أصابَ القلبَ، تأثَّر بهِ الجسدُ كلُّهُ، وفيه كذلك إشعارٌ بسوءِ عاقبةِ شكِّهم عليهم، كما أنَّ المرضَ كذلكَ.

بلاغةُ الاستعارةِ التَّصريحيَّةِ التَّبعيَّةِ:

لا تزيدُ أقاويلُ الباطلِ المؤمنينَ إلّا رسوخًا وثباتًا

في قولهِ تعالى: ﴿غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمۡۗ﴾، لفظُ (غرَّ) هنا مستعارٌ؛ إذ شبَّهَ المنافقونَ والَّذين في قلوبهم مرضٌ: الدّينَ - وهو الإسلامُ - بالغررِ، أي: في مظهرٍ محبوبٍ، وهو في العاقبةِ مكروهٌ، كما أنَّ في قولِهم تعريضًا بالمسلمينَ، أنَّهم مغفَّلونَ منخدِعونَ بالإسلامِ، لاغترارِهم بهِ، لتشويهِ الحقيقةِ، وليبثّوا روحَ الانهزامِ والفرارِ في قلوب المسلمين، فيضعفوا عند ملاقاةِ المشركين، أو يرجعوا، فلا يقاتلوا، وإسنادُهم فعلَ الغرورِ إلى الدّين، باعتبارِ ما في القرآنِ من الوعدِ بالنَّصرِ، أي: غرَّهم ذلك، فخرجوا، وهم عددٌ قليلٌ، للقاءِ جيشٍ كثيرٍ، والمعنى: إذ يقولونَ ذلك عند اللِّقاءِ، وقبل حصولِ النَّصرِ، فإطلاقُ الغرورِ هنا استعارةٌ تصريحيَّةٌ تبعيَّةٌ، وإسنادهُ إلى الدّين حقيقةٌ عقليَّةٌ[2].

دلالةُ اسمِ الإشارةِ:

مَـن أعـزَّهُ اللهُ بـنـصـرِهِ، لا يضرُّهُ تطاولٌ ولا استحقارٌ

في قولهِ تعالى: ﴿غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمۡۗ﴾، عُبِّرَ باسمِ الإشارةِ، ولم يُذكرِ المسلمونَ بوصفِ الإسلامِ؛ لأنَّ المنافقينَ - ومن معهم - قصدوا كمالَ العنايةِ بتمييزِ المسلمين - الَّذين قالوا فيهم هذه المقولةَ - أكملَ تمييزٍ، وجاءَ على صيغةِ القريبِ؛ لأنَّهم قصدوا تحقيرَهم لقلَّتِهم، واسترذالَهم لضعفِهم.

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/59، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 1/45.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/38.

فائدةُ تقديمِ المفعولِ على الفاعلِ:

في قولهِ تعالى: ﴿غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمۡۗ﴾، قُدِّمَ المفعولُ به ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ على الفاعل ﴿دِينُهُمۡۗ﴾؛ لتخصيصهم بالاغترارِ بدينِهم، وللاهتمامِ بهم؛ لأنَّهم هم المقصودونَ في الكلامِ، ولم يَدُرْ في خَلَدِ هؤلاءِ المغرورين أنَّ هذه الفئةَ القليلةَ، سوف تستأصلُ شأفتَهم، وتذيقُهم مرارةَ الهزيمةِ والاندحارِ.

مَن تكُنْ باللهِ نصرتُهُ؛ فلا غالبَ لهُ بقولٍ ولا قتالٍ

دلالةُ الإضافةِ في لفظِ ﴿دِينُهُمۡۗ﴾:

في قوله تعالى: ﴿غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمۡۗ﴾، أفادتِ الإضافةُ هنا تخصيصَ الدّين الَّذي يدينُ به المسلمونَ بهم، أي: إنَّه ملَّةٌ خاصَّةٌ بهم، ففيه إشعارٌ بأنَّهم لا يدينونَ بالإسلامِ، أو هم في شَكٍّ منه، وديدنُ المشكِّكين أن ينفوا عن هذا الدّينِ صدقيَّتَهُ، ويكونُ ذلك التَّكذيبُ مطعنًا في أهلهِ واعتقادِهم حتَّى يسهلَ عليهم نسفُ الحقائقِ، والإقناع بالأباطيل.

محاربةُ الدّينِ بالقولِ والفعلِ ضلالةٌ وسوءُ تقديرٍ

دلالةُ قولهِ: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ﴾:

وردتْ هذهِ الجملةُ استئنافًا على طريقِ الإخبارِ؛ لتكونَ جوابًا لهم من جهتِه تعالى، وردًّا لمقالتِهم[1]، فإنَّهُ تعالى كما أخبرَ عنهم بقولِهم الَّذي قالوهُ، أخبرَ عن جوابه ورَدِّه على مقالتِهم، فهي من جملةِ الأخبارِ المسوقةِ لبيانِ عنايةِ اللهِ تعالى بالمسلمين، وللامتنانِ عليهم، فالمناسبةُ بينها وبين الجملةِ الَّتي قبلها: أنَّ الاستئنافَ فيها بمنزلةِ العلَّةِ لخيبةِ ظنونِ المنافقين ونصرائِهم، أي: إنَّ اللهَ خيَّبَ ظنونهم، فالمسلمون يتوكَّلونَ على اللهِ، في لِقاءِ عَدوِّهم، وليسوا مغترّينَ بدينِهم، كما قالوا عنهم[2].

دَأْبُ المسلمينَ التَّوكُّلُ على اللهِ لا الغرورُ

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/228، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/63، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/26.

(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/336، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/38.

بلاغةُ الجملةِ الشَّرطيَّةِ في قولِهِ: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ﴾:

أفاد الأسلوبُ الشَّرطيّ إرادةَ العمومِ، لتذهبَ النَّفسُ في تقديرِهِ كلَّ مذهبٍ

لمّا كان الشَّرطُ على معنى تعليقِ الجوابِ بالشَّرطِ، وكانَ الجوابُ هنا محذوفًا؛ إذ ذكرَ الملزومَ وأرادَ اللّازمَ، وهو عزَّةُ المتوكِّل على اللّه، وإلفائهِ منجيًا من مضيقِ أمرِهِ، فهو كنايةٌ عنِ الجوابِ، وليسَ الجوابَ، وهو من وجوهِ البيانِ، وكثيرُ الوقوعِ في القرآن[1]؛ ومناسبةُ ذكرِ الملزومِ، وإرادة اللّازمِ انتفاءُ الملازمةِ بينهما بوعدِ اللّهِ الَّذي لا يتخلَّفُ، كما أنَّه يفيدُ العمومَ؛ لتذهب النَّفسُ فيه كلَّ مذهبٍ في التَّقديرِ، فلمّا كانَ الأمرُ كذلك؛ دلَّ على مناسبتِه كلّ ظرفٍ يقتضيهِ مقامُ المخاطبين، ويدخلُ فيه المسلمونَ الَّذين قاتلوا المشركينَ بتوكُّلهم على اللّهِ في قتالِهم، دخولًا أوَّليًّا، فكانَ الجزاءُ عزَّةَ المسلمينَ ونصرَهم على عدوِّهم.

دلالةُ التَّعبيرِ بالفعل المضارعِ:

الحثُّ على استمرارِ التَّوكُّلِ وتجدُّدِه، بعمومِ الأزمنةِ والأمكنةِ

في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ﴾، أفادَ التَّعبيرُ بالفعلِ المضارعِ الحثَّ على استمرارِ التَّوكُّلِ على اللّهِ، وتجدُّدِه بعموم الأزمنةِ والأمكنةِ؛ لأنَّ سياقَ ورودِ الجملةِ كانَ للدَّلالةِ على أنَّ المسلمينَ، توكَّلوا على اللّهِ في وقت قتالِهم المشركين يومَ بدرٍ، وفي ذلك المكانِ، فلمّا حذف متعلَّق الفعلِ؛ دلَّ على العموم.

فائدةُ تخصيصِ التَّوكُّل بقولِهِ: ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾:

تحصيلُ الجزاءِ الأوفى، مرتبطٌ بالتَّوكُّلِ على اللهِ الأعلى

لمّا جاءَ فعلُ الشَّرطِ ومتعلَّقُهُ (على اللّه)، في سياقِ الشَّرطِ، وكان الشَّرطُ قيدًا للجملة؛ دلَّ على تخصيصِ أن يكونَ التَّوكُّلُ على اللّهِ وحدَهُ، لا على غيرِه، ولمّا كان الجزاءُ على معنى اقترانه بالشَّرطِ؛ دلَّ على أنَّه لا يتحقَّق إلّا بحصولِ الشَّرطِ، أي: التَّوكُّل على اللّهِ وحدَهُ، لا على غيرِه، والمعنى من يتوكَّل على اللّهِ وحدَهُ دونَ غيرِه، فإنَّ الجزاءَ واقعٌ وهو ثابتٌ لا يتغيَّرُ.

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/27، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/39.

دلالةُ مجيءِ الجملةِ الفعليَّةِ خبرًا لأداةِ الشَّرطِ:

في قولهِ تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ﴾، أفادَ مجيءُ الجملةِ الفعليَّةِ ﴿يَتَوَكَّلْ﴾، خبرًا تقوّي حُكْمَ مضمونِ الجملةِ بنفسِ التَّركيبِ، لعظمِ الشَّرطِ والجزاءِ، ففيهِ معنى التَّقريرِ والتَّأكيد[1]، وقد "أخبرَ اللّهُ ﷻ بأنَّ من توكَّلَ على اللّهِ، واستندَ إليهِ، فإنَّ عزَّةَ اللّه تعالى وحكمتَهُ، كفيلةٌ بنصرهِ، وشدِّ أعضادهِ"[2].

مَن توكَّلَ على اللهِ؛ حماه المولى، وكانَ بها أولى

دلالةُ (الفاء) في قولهِ: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾:

أفادتِ الفاءُ الواقعةُ في جواب الشَّرطِ في قوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾، اقترانَ الجزاءِ بالشَّرطِ، بأن يكونَ عقبَهُ من غيرِ مهلةٍ، وفي ذلك ترهيبٌ بعزَّةِ اللّهِ لمن لم يتوكَّلْ على اللّهِ، وتذكيرٌ بحكمتهِ لمن توكَّلَ عليهِ، وأسلمَ له القيادَ، وعلم أنَّهُ الملجأُ في الكروبِ، والمنجى عند احتدامِ الخطوبِ.

من توكَّلَ على اللهِ؛ اطمأنَّ إلى كنفهِ وحماهُ

تتابعُ التَّأكيدِ:

في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾، جاءَ تأكيدُ جملةِ الجزاءِ بتأكيدينِ، هما الأداةُ (إنَّ)، ومجيءُ الجملةِ اسميَّةً، دالَّةً على ثبوتِ اتِّصافِ اللّهِ بالوصفين الجليلين، فيفيدُ التَّأكيدُ زيادةً في تقريرِ مضمونِ الجملةِ: للمؤمنين، فيستبشرون، وللكافرين فيعلمون أنَّ اللّهَ ناصرُ المؤمنينَ، فيخيبونَ.

دلالةُ المؤكِّداتِ على إبرازِ النَّصرِ للمؤمنين، وتأكيدِ الخيبةِ للكافرين

مناسبةُ مجيءِ الكلامِ على خلافِ مقتضى الظّاهرِ:

كان الظّاهرُ أن يقولَ: (وَمَنْ يَتَوَكَّلْ على اللّه فإنَّهُ عَزيزٌ حَكيمٌ)، لقربِ ذكرِ الاسمِ الجليلِ، فعدلَ عن الكلامِ بوضعِ الظّاهرِ موضعَ المضمرِ، لتربيةِ المهابةِ بتقريرِ ذكرِ الاسمِ الجليلِ، ولزيادةِ تمكينه، أي: تقريره، وتثبيته في ذهنِ السّامعِ حتَّى يكونَ مستحضرًا لا يزولُ

لإظهارِ اسمِ الجلالةِ من التَّفخيمِ والتَّعظيمِ، ما ليس للضَّميرِ

(1) السّكاكيّ، مفتاح العلوم، ص: 217.
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/539.

عن البالِ؛ لأنَّ في إظهارِ الاسمِ الجليلِ من التَّفخيمِ والتَّعظيمِ ما ليس في الضَّمير، والمقام يقتضيه، لتقويةِ داعيةِ التَّوكُّلِ على اللّهِ تعالى[1].

حسنُ التَّذييلِ:

بلاغةُ جريانِ الجملةِ مجرى المثلِ في التَّوكُّلِ على اللهِ

في قولِه تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾، أفادتْ جملةُ التَّذييلِ أنَّه لمّا كانت جملةُ الشَّرطِ على معنى العموم، لشمولِ اسم الشَّرطِ (من) كلَّ العقلاءِ ولِعمومِ الجزاءِ - كما تقدَّمَ - دلَّ على أنَّها بمنزلةِ المثلِ في جريانِها في الكلامِ، لتشملَ كلَّ من يتوكَّلُ على اللّهِ في أعمالِه، وأنَّ فيها حثًّا للمؤمنين جميعًا على التَّوكُّلِ على اللّهِ، لِما ذكره من عظمِ الجزاءِ الذي لا يتخلَّفُ.

مناسبةُ مجيءِ وصفي ﴿عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ في الآية:

من توكَّلَ على اللهِ وإنْ ضعفَ؛ لا يغالبُ بقوَّةٍ وإن عظمت

لمّا جاءَ الكلامُ في سياقِ قتالِ الفئةِ المؤمنةِ القليلةِ العددِ والعدَّةِ، للفئةِ الكافرةِ الكثيرةِ العددِ والعدَّةِ، وكان الشَّرطُ في بيانِ جزاءِ الَّذي يتوكَّلُ على اللّهِ؛ ناسبهُ ذكرُ الوصفين (عزيزٌ حكيمٌ) في الجزاءِ، فاللّهُ تعالى عَزيزٌ غالبٌ، لا يذلُّ من توكَّل عليهِ، واستجارَ به، وإنْ قلَّ، ولا يغالبُ بقوَّةٍ وإن كثرت، فمن تمسَّكَ بالاعتمادِ عليه نصرَهُ؛ لأنَّهُ حَكيمٌ، يفعل بحكمتهِ البالغةِ، ما تستبعدُهُ العقولُ، وتحار في فهمه ألبابُ الفحولِ، ويَضَعُ الأشْياءَ مَواضِعَها، ويضعُ أسبابَ النَّصرِ من حيثُ يجهلُها البشرُ، كما أنَّ حكمتَهُ تقتضي نصرَ أوليائِه[2].

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

المنافقون، والذين في قلوبهم مرض:

النِّفاقُ إبطانُ الكفرِ وإظهارُ الإسلامِ، والمرضُ اختلالٌ في صحة الإنسانِ

وردَ ذكرُ المرضِ مقرونًا بالنِّفاقِ، ووردَ منفردًا، فقالَ تعالى: ﴿وَإِذۡ يَقُولُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ

(1) البهاء السبكي، عروس الأفراح: 1/266 - 267.

(2) البيضاوي، أنوار التنزيل: 3/63، وأبو حيّان، البحر المحيط: 5/336، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/27، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/38.

إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾﴾ [الأحزاب: 12]، وقال تعالى: ﴿۞لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾﴾ [الأحزاب: 60]، وقال تعالى حكايةً عن المنافقين: ﴿فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾﴾ [البقرة: 10]، وقال: ﴿فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ ۚ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ﴾ [المائدة: 52]، وقال: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾﴾ [التوبة: 125]، ومجيءُ المرضِ معطوفًا على النِّفاق، يقتضي تغايرهُ، فالنِّفاقُ: هو إبطانُ الكفرِ وإظهارُ الإسلامِ، والمرضُ: هو الخروجُ عن الاعتدالِ الخاصِّ بالإنسانِ، وهو نوعانِ: أحدُهما: جسميٌّ، وهو فتورُ الأعضاء، بأن يكونَ فيها خللٌ، وهو المذكورُ في قولهِ تعالى: ﴿وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾ [النّور: 61]، والثّاني: عبارةٌ عن الرَّذائلِ كالجهلِ، والجبنِ، والبخلِ، والنِّفاقِ، وغيرها من الرَّذائلِ الخُلقيَّةِ، نحو قوله: ﴿فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ﴾ [البقرة: 10]، ويشبِّهُ النِّفاقَ والكفرَ وحبَّ الفاحشةِ والسَّيرَ وراءها، ونحو ذلك مِنَ الرَّذائلِ: بالمرضِ؛ لأنَّ المرضَ أعمُّ منها من حيثُ المعنى، وأيضًا إمّا لكونِها مانعةً عن إدراكِ الفضائلِ، كالمرضِ المانعِ للبدنِ عن التَّصرُّفِ الكاملِ، وإمّا لكونها مانعةً عن تحصيلِ الحياةِ الأخرويَّةِ المذكورةِ في قوله: ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [العنكبوت: 64]، وإمّا لميلِ النَّفسِ بها إلى الاعتقاداتِ الرَّديئةِ، كميلِ البدنِ المريضِ إلى الأشياءِ المضرَّةِ[1]، ويقالُ: أصلُ المرضِ الفتورُ، فهو في القلبِ فتورٌ عن الحقِّ، وفي الأبدانِ فتورُ الأعضاءِ، وفي العيونِ فتورُ النَّظرِ[2]، واستُعمِلَ المرضُ في القرآنِ بمعنى الكفرِ والنِّفاقِ، والشَّكِّ والرِّيبةِ، وضعفِ الجسدِ، وضعفِ الإيمان، والشَّهوةِ والميلِ إلى النِّساءِ، والسِّياقُ هو الذي يعيِّنُ المرادَ.

(1) الرّاغب، المفردات: (مرض).

(2) السّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: 4/85، وابن الهائم، التّبيان في تفسير غريب القرآن، ص: 50.

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ۝٥٠ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ۝٥١﴾ [الأنفال: 50 - 51]

مُناسَبَةُ الآيَتينِ لِما قَبْلهما:

العلاقةُ بين أعداءِ المؤمنين في الدُّنيا، ومصيرِهم في عذابِ النّارِ في الآخرةِ

لمّا بيَّنَ اللّهُ تعالى أحوالَ أعداءِ المؤمنينَ، المجاهرينَ والمتستِّرينَ في الدُّنيا؛ بيَّنَ أحوالَ موتِهم والعذابَ الَّذي يصلُ إليهم في ذلك الوقتِ[1]، ولمّا عذَّبوهم قولًا وفعلًا؛ علَّلوا لهم ذلكَ بقولِهم زيادةً في تأسيفِهم وتوبيخِهم: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾، وأيضًا لما وُفِّيَ وصفُ حالِ المشركين، وفُصِّلَت أحوالُ هزيمتهم ببدرٍ، وكيف أمكنَ اللّهُ منهم المسلمين على ضعفِ هؤلاء، وقوَّةِ أولئك، بما شاهدَهُ كلُّ حاضرٍ، حتَّى ليوقنَ السّامعُ أنَّ ما نالَ المشركين يومئذٍ، إنَّما هو خذلانٌ من اللّهِ إيّاهم، وإيذانٌ بأنَّهم لاقونَ هلاكَهم ما داموا مناوئين للّهِ ورسولِهِ؛ انتقلَ إلى وصفِ ما لقيَهُ من العذابِ مَن قُتِلَ منهم يومَ بدرٍ، ممّا هو مغيَّبٌ عن النّاس، ليعلمَ المؤمنون، ويرتدعَ الكافرونَ، والمرادُ بالَّذين كفروا هنا الَّذين قُتِلوا يومَ بدرٍ، وتكون هذه الآيةُ من تمامِ الخبرِ، عن قومِ بدرٍ، ثمَّ أعقبَهُ قولُهُ: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾، لقصدِ التَّنكيلِ والتَّشفّي[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَتَوَفَّى﴾: يدورُ معنى (وفي)، على إكْمالٍ وإتْمامٍ، ومنه الوَفاءُ: إتْمامُ العَهْدِ وإكْمالُ الشَّرْطِ، والوافي: الَّذي بلغَ التَّمامَ،

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 15/493.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/39.

وتَوَفَّيْتُ الشَّيْءَ: بذلته تامًّا، واسْتَوْفَيْتُهُ؛ إذا أخذتُهُ كُلَّهُ، حتَّى لَم تَتْرُكْ منه شَيْئًا، ومنه يُقالُ لِلْمَيِّت: تَوَفّاهُ اللّه، وقد وفَى الشَّيْءُ بنَفْسِه يَفي؛ إذا تَمَّ، وقد عبَّرَ عن الموتِ النَّومِ بالتَّوَفّي؛ وإذا أطلقَ اللَّفظَ، فقيلَ: وفاةٌ، فيُقصدُ بهِ الموتُ، والتَّوفّي هنا: استيفاءُ الأرواحِ، أي: استعادةُ اللّه تعالى إيّاها[1].

2) ﴿وَأَدۡبَٰرَهُمۡ﴾: الدُّبُرُ خِلافُ القُبُلِ، ودُبُرُ كُلِّ شَيْءٍ: عَقِبُهُ ومُؤَخَّرُهُ، وجَمْعُهُما: أدْبارٌ، ودَبَرَ النَّهارُ وأدْبَرَ، وذلك إذا جاءَ آخِرُهُ، وهو دُبُرُهُ، وقَطَعَ اللّه دابِرَهُم، أيْ: آخِرَ مَنْ بَقيَ منهم، وقولهُ تعالى: ﴿يَضۡرِبُونَ وُجُوهَهُمۡ وَأَدۡبَٰرَهُمۡ﴾، أي: وجوهَهم وخلفهم[2]، قال الكسائيُّ: ﴿وَإِدۡبَٰرَ ٱلنُّجُومِ ٤٩﴾ [الطّور: 49]؛ لأنَّ لها دبرًا واحدًا في وقتِ السَّحرِ، ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ وَأَدۡبَٰرَ ٱلسُّجُودِ ٤٠﴾ [ق: 40]؛ لأنَّ مع كلِّ سجدةٍ أدبارًا، ودابرُ الشَّيءِ: آخرُهُ، وفي التَّنزيلِ: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْۚ﴾ [الأنعام: 45]، أي: استؤصِلَ آخرُهم، ودابرةُ الشَّيءِ، كدابرِه، وجاء دبريًّا: أي: أخيرًا، وفلانٌ (لا يصلّي الصَّلاةَ إلّا دبريًّا)، أي: أخيرًا[3].

3) ﴿وَذُوقُواْ﴾: ذاقه ذوقًا، اختبرَ طعمهُ وأصلُهُ، فيما يقلُّ تناولُهُ، "فإنَّ ما يكثرُ من ذلكَ، يقالُ له: الأكلُ، وأذقتُهُ أنا إذاقةً، وفي البصائرِ والمفرداتِ: اختيرَ في القرآنِ لفظُ الذَّوقِ للعذابِ؛ لأنَّ ذلك، وإن كانَ في التَّعارُفِ للقليل، فهو مستصلحٌ للكثيرِ، فخصَّهُ بالذِّكرِ، ليعلمَ الأمرين، وكثرَ استعمالُهُ في العذابِ، وقد جاءَ في الرَّحمةِ نحو قولهِ تعالى: ﴿وَلَئِنۡ أَذَقۡنَٰهُ رَحۡمَةٗ مِّنَّا﴾ [فصّلت: 50]"[4]، والذَّوقُ: مباشرةُ الحاسَّةِ الظّاهرةِ، أو الباطنةِ، ولا يختصُّ ذلك بحاسَّةِ الفمِ في لغةِ القرآنِ، ولا في لغةِ العربِ، قالَ تعالى: ﴿وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ﴾، وقالَ تعالى: ﴿هَٰذَا فَلۡيَذُوقُوهُ حَمِيمٞ وَغَسَّاقٞ ٥٧﴾ [ص: 57][5].

4) ﴿عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ﴾: الحرْقُ: حَكُّ الشَّيْءِ بالشَّيْءِ، معَ حَرارَةٍ والتِهابٍ، والمعنى المحوريُّ: الَّذي تدلُّ عليه هذه المادَّة: تحويلٌ حادٌّ أو بالغٌ، ينالُ مادَّةَ الشَّيءِ وحقيقتَهُ

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، والفيّومي، المصباح المنير، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (وفَى).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (دبر).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (دبر)، وابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم: 9/311.
(4) الزَّبيديّ، تاج العروس: 25/326.
(5) الزَّبيديّ، تاج العروس: 25/326.

كالنّارِ، وهي تُفني حقيقةَ ما تُحرقُهُ، وتحوِّلُهُ رمادًا[1]، والمعنى: لهم عذابٌ بكفرِهم، وعذابٌ بإحراقِهم المؤمنينَ، و"التَّحريقُ: تأثيرُ النّارِ في الشَّيء، وفي الحديثِ: (الحَرِقُ شهيدٌ)، هو بكسرِ الرّاءِ: الَّذي يقعُ في النّارِ، فيلتهبُ"[2]، والحريقُ صفةٌ للنّارِ، يرادُ أنَّها محرقةٌ، والمرادُ بهِ هنا، هو عذابُ جهنَّمَ، والعياذُ باللّه.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

بيانُ توفّي أرواحِ الكافرينَ معَ عذابٍ مؤلمٍ مهينٍ، بما قدَّمَت أيديهم

ولو تُعاينُ - يا رسولَ اللّهِ - حين يتوفَّى الملائكةُ أرواحَ الكفّارِ، فتنزعُها من أجسادِهم، تضربُ الوجوهَ منهم والأدبارَ، ويقولون لهم: ذوقوا عذابَ النّارِ الَّتي تحرقُكم يومَ ورودِكم جهنَّم، هذا العذابُ لكم بما كسبت أيديكم، من الآثامِ والمعاصي أيّام حياتِكم، فذوقوا اليومَ العذابَ، وفي معادكم عذابُ الحريق، ذلك الجزاءُ الَّذي أصابَكم بسببِ أعمالِكم السَّيِّئة في حياتِكم الدُّنيا، وبسببِ أنَّ اللّهَ لا يظلمُ أحدًا من خَلْقِه، فيجزي المحسنُ بإحسانِه، ويجزي المسيءَ بإساءتِه، فلا يعذِّبُ بغيرِ ذنبٍ[3].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ الشَّرطِ في الآية:

يجوزُ أن تُخطِئ المنايا، والخلدُ في الدَّهرِ لا يجوزُ

في قولِه تعالى: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾، لمّا كانت كلمةُ ﴿وَلَوۡ﴾ هنا، لتعليقِ ما امتنعَ بامتناعِ غيرِه، على سبيلِ القطعِ والجزمِ[4]؛ أفادَ الشَّرطُ امتناعَ الجزاءِ، لامتناعِ الرُّؤيةِ في وقتِ قبضِ أرواحِ الكافرين، ويأتي هذا الأسلوبُ، لبيانِ عظمِ الجزاءِ، وأنَّهُ كان بحيثُ يصعبُ تصوُّرُهُ.

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (حرق).
(2) الزَّبيديّ، تاج العروس: 25/157.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 13/15 - 18، ونخبة من أساتذة التّفسير، التفسير الميسر، ص: 183.
(4) السّكاكيّ، مفتاح العلوم، ص: 246.

نكتةُ التَّعبيرِ بالفعلِ المضارعِ ﴿تَرَىٰٓ﴾ على المفردِ المخاطبِ:

لا تختصُّ الرُّؤيةُ براءٍ دونَ آخرَ؛ إذْ كلُّ راءٍ، لهُ مدخلٌ في الخطابِ

لمّا كانَ حقُّ الخطابِ أن يكونَ معَ مخاطَبٍ معيَّنٍ، وجاء الفعلُ ﴿تَرَىٰٓ﴾ - وهو بمعنى الرُّؤيةِ البصريَّةِ - خطابًا للرَّسولِ ﷺ، وقصدَ بهِ غيرَ المعيَّنِ؛ دلَّ على معنى العمومِ، لصلاحيَّةِ الخطابِ؛ لأن يخاطب به كلُّ أحدٍ، فيدخلُ فيهِ الرَّسولُ ﷺ وغيره؛ قصدًا لتفظيعِ حال الَّذين كفروا، وخاطبَ بهِ الرَّسولَ دونَ غيرِه، لعظمِ الأمر، ولعلمِه بصنعِ اللّٰهِ أكثرَ من غيرِه، وجاءَ بصيغةِ المضارعِ للمخاطبِ، ليكونَ على خلافِ مقتضى الظّاهرِ، من أنَّ الأصلَ دخولُ (لو)، على الماضي؛ إيذانًا بأنَّ الرُّؤيةَ قد بلغت من الظُّهورِ إلى حيثُ يمتنعُ خفاؤها ألبتَّة، فلا تختصُّ رؤيةُ راءٍ دونَ راءٍ، بل كلُّ من يتأتَّى منه الرُّؤية، فلهُ مدخلٌ في الخطابِ، ليفيدَ الخطابُ التَّجدُّدَ والتَّكرارَ والاستمرارَ، ونُظِمَ هنا الفعلُ المضارعُ الدّالُّ على المستقبلِ في سلكِ الماضي المقطوعِ به، لصدورهِ عمَّن لا خلافَ في أخبارهِ، كما أنَّ في مجيء الفعلِ المضارعِ إشعارًا باستحضارِ صورةِ الَّذين كفروا، والملائكةُ يتوفّونهم، ويقولون لهم: ذوقوا عذابَ الحريقِ، تنكيلًا بهم وترويعًا للمخاطبين، لئلّا يكونوا مثلَهم[1].

دلالةُ حذفِ المفعولِ بهِ:

هولُ حالِ الكفرةِ بشدَّةِ سكراتِ الموتِ وأنواعِ الكُرباتِ

في قولهِ: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ﴾، حُذِفَ مفعولُ ﴿تَرَىٰٓ﴾ لإفادةِ العمومِ بمعنى التَّهويلِ والتَّعظيمِ، والتَّقديرُ: (ولو ترى الكفرةَ)، أو (ولو ترى حالَ الكفرةِ حينئذٍ)، ورُجِّحَ كونُ المحذوفِ (حال الكفرة)؛ لأنَّ المقصودَ رؤيةُ حالهم، من شدَّةِ سكراتِ الموتِ، وأنواعِ الكرباتِ[2].

(1) السّكاكيّ، مفتاح العلوم، ص: 180، 246، والبهاء السّبكيّ، عروس الأفراح: 1/170، 356، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/40.

(2) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/63، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/27، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 9/105.

دلالةُ الظَّرفِ ﴿إِذْ﴾:

تهويلُ تصويرِ وقتِ قبضِ الملائكةِ أرواحَ الَّذين كفروا

في قولِه تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾، تفيدُ ﴿إِذْ﴾ هنا تعظيمَ الوقتِ الَّذي تقبضُ فيه الملائكةُ أرواحَ الَّذين كفروا، وتعظيمَ وقتِ الضَّربِ، ووقتِ قولِهم الَّذي يقولونهُ لهم، كما تشعرُ (إذ) بالتَّعليلِ[1]، فقد أشعرَ الكلامُ من بدايتِه بالتَّهويلِ والتَّفظيعِ، بقوله: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ﴾، فجاءت ﴿إِذْ﴾ مُعلِّلَةً هذا التَّهويلَ، وكأنَّ المعنى لِمَ هذا التَّهويلُ والتَّعظيمُ؟ فقيلَ: لما يقعُ حينَ تتوفَّى الملائكةُ الَّذين كفروا.

بلاغةُ حذفِ جوابِ الشَّرطِ:

جوابُ (ولو) محذوفٌ للإيذانِ بخروجِه عن حدودِ البيانِ

حُذِفَ جوابُ الشَّرطِ؛ للدَّلالةِ على أنَّ ضرْبَ الملائكةِ وجوهَ الكفّارِ وأدبارَهم، حين يتوفّونهم، وقولَهم؛ أمرٌ لا يحيطُ به الوصفُ، ولتذهبَ نفسُ السّامعِ كلَّ مذهبٍ ممكنٍ، فلا يتصوَّرُ مطلوبًا، ولا مكروهًا، إلّا ويجوزُ أن يكونَ الأمرُ أعظمَ ممّا يتصوَّرُهُ، ولو ذكرَ الجوابَ هنا، فربَّما خفَّ أمرُهُ عند السّامعِ، فأشعرَ حذفُ الجوابِ أنَّ فظاعةَ الضَّربِ والقولِ الَّذي قالوهُ لهم، بلغَ مبلغًا، يبهتُ السّامعَ[2]، وتقديرُ الكلامِ للتَّقريبِ: لو عاينتَ وشاهدتَ؛ لرأيتَ أمرًا عظيمًا فظيعًا[3].

دلالةُ التَّعبيرِ بصيغةِ المضارعِ في قوله: ﴿يَتَوَفَّى﴾ و﴿يَضْرِبُونَ﴾:

حالُ الكافرين في سوءِ العقبى، نقيضُ حالِ أهلِ الإيمانِ والتَّقوى

لاستحضارِ صورةِ الحالةِ الَّتي يكونونَ عليها، للتَّحذيرِ من أعمالِهم، وليستبشرَ المؤمنون بحالِ إيمانِهم، ويحمدوا اللّٰه على أنَّهم ليسوا مثلَهم، كما يفيدُ المضارعُ تجدُّدَ الحدوثِ وتكرارَهُ، واستمرارَهُ، لكلِّ كافرٍ باللّٰهِ[4].

دلالةُ الموصولِ وصلتِه:

في قولِه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾، جاءَ الكلامُ على صيغةِ

(1) الرّضيّ، شرح كافية ابن الحاجب: 3/282.
(2) القزوينيّ، الإيضاح في علوم البلاغة: 3/188، والبهاء السّبكيّ، عروس الأفراح: 1/593.
(3) مكّي بن أبي طالب، الهداية: 4/2847، والزّمخشريّ، الكشّاف: 2/217.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/40.

الموصولِ وصلتهِ، لما تفيدُهُ الصِّلَةُ من معنى معلومِ الانتسابِ إلى مشارٍ إليهِ معيَّنٍ، ليدخلَ في المذكورِ كلُّ من يحدثُ الكفرَ أو يتَّصِفُ بهِ، كما أفادَ التَّعبيرُ الإيماءَ، إلى أنَّ سببَ نيلِهم العذابَ الفظيعَ المذكورَ، هو كفرُهم[1].

كلُّ من اتَّصفَ بالكفرانِ، كانَ مصيرهُ العذابَ والهوانَ

سببُ حذفِ متعلَّقِ الفعلِ ﴿كَفَرُواْ﴾:

لم يقلْ: (الَّذينَ كَفَروا باللّهِ) مثلًا، للإشعارِ بالعموم، فيشملُ من كفرَ باللّهِ وبرسولِهِ، وباليومِ الآخرِ، وكلَّ من كفرَ بما يجبُ الإيمانُ بهِ، وكلُّ فعلٍ يخالفُ شرعَ اللّهِ، ويندُّ عن أمرِهِ وهداهُ، ممّا نصَّ عليهِ القرآنُ، وبيَّنتهُ سنَّةُ سيِّدِ عدنانَ، فهو آيلٌ إلى الكفرِ، ولهذا أطلقَ في الآيةِ بعدمِ ورودِ المتعلَّقِ، ولم يقيِّدِ المعنى في واحدٍ من فعالِ الكفرِ الكثيرةِ، حتَّى يتلاءمَ السِّياقُ مع كلِّ الألوانِ من الكفرانِ، إشارةً إلى أنَّ الكفرَ كلَّهُ ذميمٌ.

ارتباطُ شرحِ أحوالِ الكُفّارِ بأحوالِ موتِهم وعذابِهم المخزي المهينِ

دلالةُ الوقفِ والابتداءِ في تنوُّعِ المعنى:

يحتملُ أن يكونَ قولهُ: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾، مفعولًا والفاعل محذوفًا، والتَّقديرُ: (إذ يتوفَّى اللّهُ الَّذين كفروا)، فيكونُ الوقفُ على ﴿كَفَرُواْ﴾، ثمَّ تبتدئُ: ﴿ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ﴾، على الابتداءِ والخبرِ؛ لأنَّ اللّهَ هو الَّذي يتوفَّى الأنفُسَ، قالَ تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ [الزّمر: 42]، واختارَ النّيسابوريُّ أن يكونَ الوقفُ على (كفروا) ممنوعًا؛ لاختلالِ النَّظمِ وفسادِ المعنى[2]، كما يحتملُ الوقفُ على ﴿ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾، ويكونُ لفظُ ﴿ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ فاعلًا مؤخَّرًا، ويبتدئُ بـ﴿يَضْرِبُونَ﴾ على إضمارِ مبتدأٍ، أي: (هم يضربون)، والأحسنُ من هذا كلِّه والأولى: الوقفُ على ﴿وَأَدْبَٰرَهُمْ﴾، وهو وقفُ التَّمامِ، ويبتدئُ بقولِهِ: ﴿وَذُوقُواْ﴾ على معنى: ويقولون[3].

التَّوفّي قدرُ اللهِ وأمرُهُ، والملائكةُ منفِّذونَ للإماتةِ والعذابِ

(1) السّكاكيّ، مفتاح العلوم، ص: 181 - 182.
(2) النّيسابوريّ، غرائب القرآن: 3/409.
(3) مكّي بن أبي طالب، الهداية: 4/2848، والزّمخشريّ، الكشّاف: 2/229، والأشمونيّ، منار الهدى: 1/296.

دلالةُ التَّقديمِ والتَّأخيرِ:

من حاربَ اللهَ ورسولَهُ؛ آلَ إلى الخزي في الدُّنيا، والعذابِ في الآخرةِ

في قولِه تعالى: ﴿يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾، قُدِّمَ المفعولُ ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ على الفاعلِ ﴿ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾؛ للاهتمامِ بهِ؛ لأنَّ الحديثَ منصبٌّ على الَّذين كفروا في الأساسِ[1]، "وتقديمُ المفعولِ للاهتمامِ بهِ، وقيل: الفاعلُ ضميرٌ عائدٌ إلى اللهِ ﷻ، والملائكةُ مبتدأٌ"[2]، فقد خرجَ الكفّارُ على حالٍ من الزُّهوِ والكبرياءِ، وقد آلَ بهم الغرورُ إلى سوءِ المصيرِ، "فهاهُم أولاءِ يتلقّون الصَّفعاتِ على وجوهِهم، والضَّرباتِ على أدبارِهم، كما يُفعَلُ بعبيدِهم وإمائِهم!"، فما أجدت لهم عزَّةٌ، ولا منعتْهُم منعةٌ، ولا نفعتْهُم سطوةٌ، ولا أغنى عنهم جاهٌ، لقد عروا من هذا كلِّه، "ولبسوا ثوبَ الخزي والمهانةِ، ونزلوا إلى أسوأِ ممّا كانَ عليهِ الأرقّاءُ، من عبيدٍ وإماءٍ!"، وتلك سنَّةُ اللهِ في تأديبِ كلِّ مفسدٍ ومعاندٍ[3].

توجيهُ القراءاتِ القرآنيَّةِ لمعاني الآيةِ الدّلاليَّةِ:

باختلافِ القراءاتِ القرآنيَّةِ، يتَّسعُ المعنى، وتتنوَّعُ الدّلالاتُ

في قولِه: ﴿يَتَوَفَّى﴾، جاءتْ قراءةُ ابنِ عامرٍ بتأنيثِ الفعلِ، أي: (تتوفَّى) بالتّاء الفوقيَّةِ، وقرأ البقيَّةُ بالياءِ التَّحتيَّةِ[4]، وعلى قراءة التَّأنيثِ لا يوقف على ﴿كَفَرُواْ﴾، بل يوقفُ على ﴿ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾، أو ﴿وَأَدۡبَٰرَهُمۡ﴾، وهو الأحسنُ - كما تقدَّم - فتكون قراءةُ ابن عامر مقوّيةً لأن يكون ﴿ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾ فاعل ﴿يَتَوَفَّى﴾، وألّا يوقف على ﴿كَفَرُواْ﴾، وأُنِّثَ الفعلُ لتأنيث لفظ ﴿ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾، وأمّا الجمهورُ؛ فيروْنَ أنَّ تأنيثَ الملائكةِ، مجازيٌّ وليس حقيقيًّا، هو جمع تكسيرٍ، والفصلُ بين الفعلِ والفاعل يجيزهُ كما هنا؛ إذ فصل بـ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾[5].

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/102، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 9/105.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/27.
(3) عبد الكريم الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 5/635.
(4) ابن الجزري، النشر: 2/277.
(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/336، والأشمونيّ، منار الهدى: 1/296.

دلالةُ الجملةِ بين الحاليَّةِ والبدلِ:

ذكرُ الاشتمالِ على الضَّربِ دونَ غيرِه لفظاعتِه وهولِه

تحتملُ جملةُ ﴿يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ﴾، أن تكونَ حالًا من الفاعل ﴿ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾، أو من الفاعلِ والمفعولِ، لاشتمالِ جملةِ الحالِ، على ضميرينِ راجعينِ إليهما، والتَّقديرُ: (يتوفّى الَّذين كفروا الملائكةُ، حالَ كونِهم يضربونَ وجوهَهم وأدبارَهم)، أي: وقوعُ الضَّربِ في وقتِ التَّوفّي تنكيلًا بهم، كما تحتمل أن تكونَ بدلَ اشتمالٍ، من جملةِ ﴿يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾[1]، بمعنى اشتمالِ التَّوفّي على أنواعٍ من العذابِ، منها الضَّربُ على وجوهِهم وأدبارِهم، وذكْرُ الاشتمال على الضَّربِ دونَ غيرِه لفظاعته وهولِه.

ذكرُ الوجوهِ والأدبارِ بينَ الكنايةِ والمجازِ المرسلِ:

خُصَّتِ الوجوهُ والأدبارُ بالذِّكرِ؛ لأنَّ الخزيَ في ضَرْبِهما أشدُّ وأقوى

ذكَرَ الوجوهَ والأدبارَ لتعميمِ الضَّربِ الَّذي يقعُ عليهم، بمعنى إيصالِ الألمِ إليهم، بكلِّ ضربٍ، وبكلِّ جهةٍ على معنى الإحاطةِ، فهو من بابِ الكنايةِ؛ لأنَّ الوجوهَ والأدبارَ يُكنَّى بها عن جميعِ البدنِ، وقد يكونُ من بابِ المجازِ المرسلِ، حيثُ أطلقَ الجزءَ، وأرادَ الكلَّ، فذكرَ الوجوهَ والأدبارَ، وأراد الأعضاءَ كلَّها، وإنَّما خصّوهما بالضَّربِ؛ لأنَّ الخزيَ والنَّكالَ في ضربِهما أشدُّهُ كما أنَّ إيقاعَ الأذى فيهما أقوى[2].

نكتةُ حذفِ القولِ في قولِه: ﴿وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾:

حذفُ القولِ إيجازًا؛ لانصبابِ الكلامِ على المقولِ

قولُه: ﴿وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾، حذفَ القولَ فيهِ إيجازًا؛ فإن كانَ من قولِ الملائكةِ - وهو الظّاهرُ من السّياقِ - فيكونُ من عطفِ الجملة الخبريَّةِ على ما قبلَها، ليجتمعَ عليهم عذابُ الفعلِ، وعذابُ القولِ، والتَّقديرُ: (ويقولونَ: ذوقوا عَذابَ الحَريقِ)[3]، وإن كانَ من قولِ اللّهِ تعالى، فيكونُ التَّقديرُ: (ونقولُ)، وهذا النَّوعُ من الحذفِ

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/229، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/40.
(2) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنة: 5/239، والزّمخشريّ، الكشّاف: 3/63، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 9/106، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/41.
(3) الفرّاء، معاني القرآن: 1/413، وابن جرير، جامع البيان: 13/17.

- أي: حذفُ القولِ - كثيرٌ في القرآن، وهو من الإيجازِ البديعِ في الكلام، كما في قولهِ تعالَى: ﴿وَإِذۡ يَرۡفَعُ إِبۡرَٰهِـۧمُ ٱلۡقَوَاعِدَ مِنَ ٱلۡبَيۡتِ وَإِسۡمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلۡ مِنَّآۖ﴾ [البَقَرَة: 127] أيْ: ويقولانِ: رَبَّنا، وقولِه سبحانه: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلۡمُجۡرِمُونَ نَاكِسُواْ رُءُوسِهِمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ رَبَّنَآ أَبۡصَرۡنَا﴾ [السَّجْدَة: 12] أيْ: يَقولونَ: رَبَّنا[1].

بلاغةُ الاستعارةِ في قولِه: ﴿وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ﴾:

لمّا كان الأصلُ في الذَّوقِ أن يكونَ باللِّسان والفم؛ كان التَّعبيرُ عن إصابةِ العذابِ لهم بالذَّوقِ، من بابِ الاستعارة المكنيَّةِ التَّخييليَّةِ، حيثُ شبَّهَ العذابَ بشيءٍ محسوسٍ من شأنه أن يُذاقَ، بجامعِ المباشرةِ؛ إذ الذَّوقُ من أبلغِ أنواعِها، وحاسَّتُهُ مميَّزةٌ جدًّا، فحذفَ المُشبَّهَ به، وترك شيئًا من لوازمِه، وهو الذّوق، وأسندهُ إلى المُشبَّهِ بجامعِ بقاءِ الأثرِ والإحساسِ به، ويمكن حملُها على التَّصريحيَّةِ، بتشبيهِ إصابةِ العذابِ بتذوُّقِه، بجامعِ الوصولِ إلى المقصودِ في كليهما[2].

الاستعارةُ تصويرٌ بديعٌ، يكسو السّياقَ جمالًا وروعةً

دلالةُ الفعلِ ﴿وَذُوقُواْ﴾:

جاء فعلُ الأمرِ ﴿وَذُوقُواْ﴾ دالًّا على المجاز، وجاءَ بأسلوبِ البشارةِ لهم؛ ليفيدَ هنا الإهانةَ على طريق التَّهكُّم، وهو كلامٌ يقالُ للمنتقمِ منهُ[3]، وعليه فإنَّ التَّعبيرَ بقولِه: ﴿وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ﴾، لا يخلو من تهكُّم بهم؛ لأنَّهم فسقوا، وذاقوا من الهوى ما ذاقوا، فكأنَّهُ يقالُ لهم: كما ذقتُم المتعَ والشَّهواتِ، فذوقوا الحريقَ، وكأنَّهُ يبشِّرُهم"[4]، و"قيل: كانوا يقولونَ للكفّارِ حينئذٍ هذا اللَّفظَ، فحذْفُ (يقولون) اختصارٌ، وقيل: معناهُ: وحالهُم يومَ القيامةِ أن يقالَ لهم هذا[5].

الأمرُ بالذَّوقِ على طريقِ التَّهكُّم، يقالُ للمنتقمِ منه عادةً

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 15/146، والسّكاكيّ، مفتاح العلوم، ص: 260.
(2) الهَرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 11/84.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/447، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 9/106، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/42.
(4) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 6/3159.
(5) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/540.

دلالةُ الإضافةِ في قولِهِ: ﴿عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ﴾:

إضافةُ العذابِ إلى الحريقِ إضافةٌ بيانيَّةٌ من بابِ إضافةِ الجنسِ إلى نوعِه لبيانِ هذا النَّوعِ[1]، وقولهُ تعالى: ﴿وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ﴾، هو بيانٌ للمصيرِ الَّذي صارَ إليهِ أولئك المشركونَ الَّذين أذلَّ اللّٰهُ كبرياءَهُم في هذا اليومِ، يومَ بدرٍ، وهو مصيرٌ مشؤومٌ، يُلقى بهم في سواءِ الجحيمِ، حطبًا لجهنَّمَ، ووقودًا لسعيرِها"[2].

العذابُ بكلِّ أنواعِهِ مهلكٌ للنَّفسِ مدمِّرٌ للكرامةِ والضَّميرِ

دلالةُ صيغةِ (فعيل) في قولِهِ: ﴿ٱلۡحَرِيقِ﴾:

صيغةُ فعيلٍ هنا بمعنى اسمِ الفاعلِ، مثل الأليمِ بمعنى مؤلِم، والمعنى: ذوقوا العذابَ الَّذي هو من نوعِ العذابِ المحرقِ[3]، وجاء بصيغةِ فعيلٍ؛ للمبالغةِ لِما تدلُّ عليه صيغةُ فعيلٍ، من معنى وصفِ الحرقِ الثّابتِ لهذا العذابِ، أعاذنا اللّٰهُ منهُ.

مجيءُ صيغةِ (فَعيلٍ) بمعنى اسمِ الفاعلِ للثُّبوتِ في الوصلِ

مناسبةُ التَّعبيرِ بقولِهِ: ﴿وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ﴾:

يحتملُ أن يكونَ المرادُ من عذابِ الحريقِ، عذابَ النّارِ نَفْسِها، بذوقِهم العذابَ في الآخرةِ، وهو الظّاهرُ؛ لأنَّ عذابَ الآخرةِ أشدُّ وأبقى، ويحتملُ أن يكونَ المرادُ حالَةَ المَوْتِ في الدُّنيا، أي: ذوقوا مقدِّمةَ عذابِ النّارِ[4]؛ ليكونَ الموتُ نكالًا عليهم، وما بعدَه أشدُّ.

عذابُ الحريقِ: هو عذابُ النّارِ نفسِها، وهو أشدُّ العذابِ

دلالةُ اسمِ الإشارةِ ﴿ذَٰلِكَ﴾:

قولهُ: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيكُمۡ﴾، "إنَّما قال: (ذلك) على خطابِ الواحدِ، ولم يقل: (ذلكم)، على قياسِ اللُّغةِ الأُخرى، بأن يقالَ: (ذلكُم بما قَدَّمَتْ أيْديكُمْ)، لأنَّهُ أرادَ به الجمعَ، فكأنَّهُ قال: (ذلك أيُّها الجمعُ)، والجمعُ بلفظِ الواحدِ، وهُما لغتانِ جيِّدتانِ

التَّعبيرُ باسمِ الإشارةِ (ذلك) استحضارٌ للصّورةِ المهيبةِ، لفظاعةِ المشهدِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/41.
(2) عبد الكريم الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 5/636.
(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 1/548، 2/540.
(4) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/63، وأبو حيّان، البحر المحيط: 5/336، والنّيسابوريّ، غرائب القرآن: 3/409، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 9/106.

نزلَ بهما القرآنُ"[1]، وقد عُبِّرَ بلفظ ﴿ذَٰلِكَ﴾؛ لإحضارِ المشارِ إليه، وهو الضَّربُ والعذابُ في ذهنِ السّامعِ، بالإشارة إليهِ، للدَّلالةِ على وضوحِه، ولتمييزِهِ أكملَ تمييزٍ وتعيينٍ؛ إشعارًا بالقطع بحصولِ الضَّربِ والعذابِ على المجموعِ، وعُبِّرَ بصيغةِ اسمِ الإشارة الَّذي للبعيدِ، للإشعارِ بكونهما استحضارًا للصّورةِ المهيبةِ لفظاعةِ المشهدِ، لمن لم يكن حاضرًا، بتعظيم ما يشاهدونه من الأهوال[2]، وفيه استحضارٌ للصّورةِ المهيبةِ؛ لفظاعةِ المشهدِ، لمن لم يكن حاضرًا.

دلالةُ (الباء) في قولِهِ: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيكُمۡ﴾:

إسنادُ ما قدَّمَ من عملٍ إلى اليدِ من دقَّةِ البيانِ وتلاؤمِه مع المرادِ

تفيدُ الباءُ معنى السَّببيَّةِ، أي: بسببِ ما قدَّمت أيديكم، وجيءَ بالسَّببِ للإيذانِ أنَّ هذا العذابَ لعظمِ هولِه، ممّا يتساءلُ عن سببه[3]، ولأهمّيَّةِ اليدِ في الفعلِ والسَّببِ، "نحن نعلمُ أنَّ معظمَ أعمالِ الإنسانِ يزاولها بيدِه، وقد يفعلُ أشياءَ بقدميهِ أو بلسانِه؛ لكنَّ معظمَ الأعمالِ تتمُّ باليدِ؛ لأنَّ اليدَ تحملُ القدرةَ على الفعلِ، فسبحانه لم يفتَئِتْ عليهم"[4].

دلالةُ الواوِ بين العطفِ والاستئنافِ:

غرضُ الاعتراضِ التَّذييليِّ في قولِهِ: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ﴾

تحتملُ الواوُ في قولِهِ: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ﴾، أن تكونَ عاطفةً تفيدُ التَّشريكَ بين المعطوفِ والمعطوفِ عليهِ، فتكونُ الباءُ السَّببيَّةُ داخلةً على المعطوفِ كذلك، على معنى الاجتماعِ مع المعطوفِ عليهِ، للدَّلالةِ على أنَّ سببيَّةَ العذابِ في قولِه: ﴿بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيكُمۡ﴾، مقيَّدةٌ بانضمامِ ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ﴾ إليه،

(1) وهبة الزّحيليّ، التّفسير المنير: 10/36.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/27، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/41.

(3) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/63، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/27، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 4/185.

(4) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/63، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/27، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 4/185.

أي: بسبب اجتماعِ أمرين: ما قدَّمت أيديكم من المعاصي، وأنَّ اللّه ليس بظلّام للعبيدِ؛ إذ لولا أنَّه تعالى ليس بظلّامٍ للعبيدِ، وأنَّه عادلٌ عليهم؛ لأمكنَ أن يعذِّبَهم بغيرِ ذنوبِهم، ومن العدلِ أن يعاقبَ المسيءَ منهم، ويثيبَ المحسنَ، وفائدةُ العطفِ: هي الإيذانُ: أنَّ ما قدَّمت أيديهم، أوجبَ حصولَ العذابِ، وعدْلُ اللّهِ أوجبُ، كونُ هذا العذابِ في مقدارِهِ المشاهدِ من الشِّدَّةِ، حتَّى لا يظنّوا أنَّ في شدَّتهِ إفراطًا عليهم في التَّعذيبِ، كما تحتملُ أن تكونَ جملةُ ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ﴾ اعتراضًا تذييليًّا مقرِّرةً لمضمونِ ما قبلَها، بمعنى: كلُّ ما حصلَ من القتالِ ومقدِّماتِه، وما حصلَ بعدَهُ، وما قدَّمتموهُ بأيديكم، ليس بظلمٍ من اللّهِ لكم، وأنَّه تعالى لا يعذِّبكم من غيرِ ذنبٍ[1].

بلاغةُ قوله: ﴿بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيكُمۡ﴾ بين الاستعارةِ والمجازِ والتَّغليبِ:

يحتملُ قولهُ: ﴿قَدَّمَتۡ أَيۡدِيكُمۡ﴾، أن يكونَ مجازًا عن الكسبِ والفعل على طريقِ الاستعارةِ المكنيَّةِ، بتشبيهِ الأعمالِ الَّتي اقترفوها، بما يجتنيهِ المجتني من الثَّمرِ، أو يقبضُهُ البائعُ من الأثمانِ، تشبيهَ المعقولِ بالمحسوسِ، وذكرِ رديفِ المشبَّهِ، وهو الأيدي الَّتي هي آلةُ الاكتسابِ للأعمالِ، في غالبِ أمرِ الإنسانِ، فأضيفَ كلُّ كسبٍ إليها، أي: بما قدَّمتْهُ أيديكم لكم، والمعنى ذلك واقعٌ بسببِ ما كسبتُم من الكفرِ والمعاصي[2]، ويحتملُ أن يكونَ كنايةً عن القدرةِ[3]، ويحتمل أن يكونَ مجازًا مرسلًا بالتَّعبيرِ عن الكلِّ باسمِ الجزءِ، فإنَّ الذُّنوب تكون بالألسنةِ وغيرها أيضًا، وعبِّرَ بالأيدي؛ لأنَّ بها البطشَ والأذى

تنوُّعُ المعاني البلاغيَّةِ للأسلوبِ الواحدِ براعةٌ في النَّظمِ القرآنيِّ

(1) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/63، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/27، والقنّوجي، فتح البيان: 5/194، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 4/185.

(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 10/25.

(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 15/146.

غالبًا[1]، كما يجوزُ أن يكونَ على سبيل التَّغليب، بأن نَسبَ ما قَدَّموهُ مِنَ المَعاصي القَوْليَّةِ والفِعْليَّةِ والاعْتِقاديَّةِ إلى الأيْدي، تغليبًا لها على غيرِها، ممّا يقعُ به الكسبُ؛ لِأنَّ الأيْدِيَ تُزاوِلُ أكْثَرَ الأعْمالِ، فكأنَّ كُلَّ عَمَلٍ واقِعٌ بها[2].

تتابعُ المؤكِّداتِ:

الـلـهُ لا يظلمُ النّـاسَ شيئًا، ونسبةُ الظُّلمِ إليهِ مستحيلةٌ

في قولِه تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ﴾، أفادت (أنَّ) تأكيدَ مضمونِ الجملةِ الاسميَّةِ الَّتي تفيدُ تأكيدَ ثبوتِ المعنى وتقريره، وأفادتِ الباءُ تأكيدَ نفي الظُّلمِ عنِ اللهِ تعالى، كما أنَّ توسُّطَ النَّفي بينَ المسندِ إليهِ والمسندِ، أفادَ تقوية الحكم[3]، واللهُ عدلٌ مطلقٌ، لا يظلمُ النّاسَ شيئًا، وليس بظلّامٍ للعبيدِ، "إذ لا يعذِّب أحدًا بلا ذنبٍ، على أنَّه لو فعلَ، فلا يعدُّ ظلمًا، لاستحالةِ نسبةِ الظُّلم إليهِ؛ لأنَّهُ المالك المطلقُ، وللمالكِ التَّصرُّفُ بملكهِ كيفَ يشاءُ، ألا ترى أنَّكَ إذا هدمتَ دارَك، أو أخربت ما هو ملكك، لا يعترضُكَ فيه أحدٌ؟"[4].

دلالةُ حرفِ النَّفي ﴿لَيۡسَ﴾:

دقَّـةُ البيـانِ بإجراءِ التَّقابلِ بـينَ أفـرادِ الظُّلمِ، وأفرادِ العبيدِ

تُفيدُ ﴿لَيۡسَ﴾ في قولِه: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ﴾ استمرارَ النَّفي[5]، وهذا الأسلوبُ من دقَّةِ الأداءِ البيانيِّ، لإجراءِ التَّقابُلِ بينَ أفرادِ الظُّلم، وأفرادِ العبيدِ، فلو أنَّه تعالَى ظَلَمَ كُلَّ واحدٍ من عبادِه، أقلَّ ظُلْمٍ؛ ولكنَّهُ لا يفْعَلُ ذلك، فهو ليْسَ بظلّامٍ، فاللهُ ﷻ نفى ذلك عن نفسه في نصوصٍ أخرى، منها قولهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةٗ يُضَٰعِفۡهَا وَيُؤۡتِ مِن لَّدُنۡهُ أَجۡرًا عَظِيمٗا ٤٠﴾ [النّساء: 40]، وقولهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ ٱلنَّاسَ شَيۡـٔٗا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 6/3159.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/456، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/121.
(3) الجرجانيّ، دلائل الإعجاز، ص: 213 - 214.
(4) عبد القادر العاني، بيان المعاني: 5/301.
(5) السّامرائي، معاني النّحو: 4/191.

أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾ [يونس: 44]، وقولهُ تعالى: ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾﴾ [الكهف: 49][1].

دلالةُ صيغةِ (فَعّالٍ) في قولِهِ: ﴿لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾:

نفيُ أدنى الظُّلمِ وأقصاهُ عن اللهِ؛ لأنَّه ليس بظالمٍ ولا ظلّامٍ

قد يقالُ: لمّا كانت صيغةُ فعّالٍ للمبالغَةِ؛ كانَ الأبلغُ في وصفهِ تعالى أن يُنفى عنهُ أدنى الظُّلم لا أكثره، أي: لمّا كان النَّفي منصبًّا على المبالغةِ؛ كان المعنى: وما ربُّك بكثيرِ الظُّلم؛ فالمنفيُّ هو الكثرةُ وحدَها، دونَ الظُّلم الَّذي ليس كثيرًا، وهذا معنًى فاسدٌ؛ لأنَّ اللّه لا يظلمُ مطلقًا، لا كثيرًا ولا قليلًا، وجوابهُ من وجوه؛ **أوَّلًا**: أنَّ المرادَ نفيُ نفسِ الظُّلم، وجاءَ على خلافِ مقتضى الظّاهرِ، لما فيهِ من البيانِ أنَّ ما هم فيهِ من الأعمالِ القبيحةِ، يوجبُ العذابَ وأقصاهُ، فدلَّ على أنَّهم استحقّوا أشدَّ العذابِ؛ لأنَّهم أشدُّ المسيئينَ، فهم أحقّاءُ لعذاب الحريقِ، فيكونُ فيه إشارةٌ إلى عظمِ العذابِ على سبيلِ الكنايةِ، **ثانيًا**: أن يقال: إنَّ العذابَ الَّذي توعَّدَ بأن يفعله بهم، لو كان ظلمًا؛ لكان عظيمًا، فنفاهُ على حدِّ عِظمهِ، لو كان ثابتًا. **ثالثًا**: جاء بصيغة التَّكثير ليناسبَ المتعلَّقَ ﴿لِّلْعَبِيدِ﴾؛ ليكونَ توزيعًا على الآحادِ، كأنَّهُ قيل: ليس بظالمٍ لفلانٍ، ولا بظالمٍ لفلانٍ، وهكذا، فلمّا جمعَ هؤلاءِ عدلَ إلى ظلّامٍ لذلكَ[2]، **رابعًا**: أن يكونَ المرادُ من قولهِ: ﴿بِظَلَّامٍ﴾ بذي ظلمٍ، لمجيءِ فعّالٍ بمعنى صاحبٍ[3]، والمعنى على هذه الوجوهِ كلِّها هو أن يقال: كما أنَّ وقوعَ الظُّلم منهُ لعبيدهِ منتفٍ قطعًا، تعيَّن أنْ تكونوا أنتم الظّالمينَ لأنفسِكم قطعًا فلوموها، فلا لومَ لكم إلّا عليها[4].

(1) عبد الرحمن، بلاغة اللّغة: 1/212.

(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/229، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 9/448، والآلوسيّ، روح المعاني: 10/27، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 4/185.

(3) ابن مالك، شرح الكافية الشّافية: 4/1963، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 8/302.

(4) رشيد رضا، تفسير المنار: 10/31.

دلالةُ اللّامِ الجارَّةِ ﴿لِّلۡعَبِيدِ﴾:

اللهُ تعالى منزَّهٌ عن الظُّلمِ كلِّه كتنزُّهِه عن سائرِ النَّقائِص

قال تعالى: ﴿لَيۡسَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ﴾، ولم يقل: (بِظلّامٍ العبيدَ)؛ لما تفيدُهُ اللّامُ الدّاخلةُ على معمولِ صيغةِ المبالغةِ من تقويةِ نفي ظلمِه تعالى للعبيدِ، وتأكيدِه وتقريرِه[1]، "وبأنَّ اللّه تعالى ليس بظلّامٍ للعبيدِ، فيكونُ ذلك العذابُ ظلمًا منهُ على تقديرِ عدمِ وقوعِ سببهِ من كسبِ أيديكم، ولكنَّ سببَ ذلك منكم، ثابتٌ قطعًا، كما أنَّ وقوعَ الظُّلمِ منهُ لعبيدِه، منتفٍ قطعًا، فتعيَّنَ أن تكونوا أنتم الظّالمين لأنفسِكم قطعًا، فلوموها فلا لومَ لكم إلّا عليها"[2]، وفي الحديثِ القدسيِّ الَّذي يرويهِ الرَّسولُ ﷺ عن ربِّه: «يا عِبادي إنّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ على نَفْسي، وجَعَلْتُهُ بينكُم مُحَرَّمًا، فلا تَظالَموا»"[3]، وعليه فاللّام ذاتُ أثرٍ في تقويَةِ المعنى، بنفي الظُّلمِ عنِ اللّهِ في الأساسِ وفي كلِّ حالٍ، مع ملاحظةِ أنَّ التَّعريفَ باللّامِ في ﴿لِّلۡعَبِيدِ﴾ عوضٌ عن المضافِ إليهِ (عبيده)[4]، للنَّصِّ على استغراقِ العمومِ.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

العباد والعبيد:

لفظُ العبادِ مقترنٌ بالرِّفعةِ، ولفظُ العبيدِ مرتبطٌ بالتَّحقيرِ

بيانُه أنَّه متى سيقت اللَّفظةُ في مضمارِ التَّرفيعِ والدَّلالةِ على الطّاعةِ، دونَ أن يقترنَ بها معنى التَّحقيرِ، وتصغيرِ الشَّأنِ، جاء بصيغةِ (عباد)، ومنهُ قولهُ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلۡعِبَادِ ٢٠٧﴾ [البقرة: 207]، و[آل عمران: 30]، وقولهُ: ﴿عِبَادٞ مُّكۡرَمُونَ ٢٦﴾ [الأنبياء: 26]، وقولهُ: ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ﴾ [الزّمر: 53]، وقولُ عيسى في معنى الشَّفاعةِ، والتَّعريضِ لرحمةِ اللّهِ: ﴿إِن تُعَذِّبۡهُمۡ فَإِنَّهُمۡ عِبَادُكَۖ﴾ [المائدة: 118]، فنوَّهَ بهم، وأمّا العبيدُ، فيستعملُ

(1) السّامرائي، معاني النّحو: 3/74.
(2) رشيد رضا، تفسير المنار: 10/31.
(3) أخرجه مسلم في صحيحه، باب تحريم الظّلم، برقم: (2577).
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/42.

في التَّحقيرِ، ومنهُ قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلۡعَبِيدِ﴾ [فصلت: 46]، لأنَّهُ مكانُ تشفيقٍ وتنجيةٍ وإعلامٍ بقلَّةِ انتصارِهم ومقدرتِهم، وأنَّهُ تعالى ليس بظلّامٍ لهم معَ ذلك، ولمَّا كانت لفظةُ العبادِ تقتضي الطّاعةَ، لم تقع هنا، ولذلك أنِسَ بها في قولهِ تعالى: ﴿۞قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ﴾ [الزّمر: 53]، فهذا النَّوعُ من النَّظرِ يسلكُ بهِ سبلُ العجائبِ في ميزةِ فصاحةِ القرآنِ العزيزِ، على الطَّريقةِ العربيَّةِ السَّليمةِ[1].

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 1/461، 589، والشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 1/81 - 82.

﴿كَدَأۡبِ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيّٞ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ٥٢﴾ [الأنفال: 52]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

المناسبةُ بينَ هزيمةِ الكفّارِ في بدرٍ، وهلاكِ كفرةِ آلِ فرعونَ ومَن قَبْلهمْ

لمّا بيَّن اللّهُ تعالى، ما أنزلهُ بأهلِ بدرٍ من الكفّارِ عاجلًا وآجلًا؛ أتبعهُ بأنْ بيَّنَ أنَّ هذه طريقتُهُ وسنَّتُهُ في الكلِّ، فقال: ﴿كَدَأۡبِ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ﴾[1]، وأيضًا لمّا بيَّنَ سيرَ المشركين وأعمالهم مع رسولِ اللّهِ ﷺ، وبيَّنَ أنَّ من خالفَ ما أمرَ اللّهُ بهِ ورسولهُ؛ هلكَ كائنًا من كان؛ أتبعَهُ بما يبيِّنُ أنَّ هذا من العمومِ والاطِّراد، بحيثُ لا يخصُّ زمانًا دونَ زمانٍ، ولا مكانًا سوى مكانٍ، وأنَّ ما يفعلهُ المشركون بما أُرسلَ بهِ النَّبيُّ ﷺ، هو كعادةِ الأمم السّالفةِ مع رسلِهم، فذكرَ هذه الآيةَ[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿كَدَأۡبِ﴾: دأبَ الرَّجلُ في عملهِ: اجتهدَ فيهِ، ودأبتِ الدّابةُ في سيرِها دأْبًا ودأبًا ودُؤوبًا، وفي قراءةِ عاصم: ﴿تَزۡرَعُونَ سَبۡعَ سِنِينَ دَأَبٗا﴾ [يوسف: 47]، ومن المجازِ: هذا دأْبُكَ، أي: شأْنُكَ وعملُك[3]، ويدورُ معنى (دأبَ) عَلى ملازمةٍ ودوامٍ، فالدَّأْبُ: العادةُ المستمرَّةُ على حالةٍ، حتَّى تكونَ شأنًا لصاحبِها، ودأبَ الرَّجلُ في عملهِ دَأبًا ودُؤوبًا؛ إذا استمرَّ على العملِ، وواظبَ عليه، وجدَّ، وتعبَ فيه، ففي اللَّفظِ معنى الاجتهادِ في الشَّيءِ، ومعنى ﴿كَدَأۡبِ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ﴾: كعادةِ آلِ فرعونَ في كفرِهم، وتظاهرِهم على نبيِّهم.

2) ﴿فَأَخَذَهُمُ﴾: يدورُ معنى الأخذِ على حَوْزِ الشَّيءِ، وجمعِه

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 15/459.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/303.
(3) الزَّمخشريُّ، أساس البلاغة: (دأب).

في الأثناءِ، ضمًّا أو قبضًا، على غِلَظٍ ماديٍّ أو معنويٍّ، والأَخْذُ حوزُ الشَّيءِ وتحصيلُهُ بقوَّةٍ، وهو خلافُ العطاءِ، أي: التَّناولُ، ومنهُ أَخْذُ الميثاقِ، أي: ضمانُهُ، بمعنى تحصيلِه بقوَّةٍ، وأخذَهُ بذنبه: تمكَّنَ منهُ، فعاقبَهُ، والمؤاخَذَةُ: المجازاةُ على الذَّنبِ بالعقوبةِ[1].

المَعْنى الإجْماليُّ:

بيانُ هلاكِ كفّارِ مكَّةَ، كما هلكَ آلُ فرعونَ ومَن قبلَهم

فِعْلُ هؤلاءِ المشركين من قريشٍ الَّذين قُتِلوا ببدرٍ من التَّكذيبِ، والكفرِ بآياتِ اللهِ، كعادةِ قومِ فرعونَ، ومَن كفرَ باللهِ، وكذَّبَ بآياتِه ورسلِه مِن الأممِ الخاليةِ قبلهم، ففعَلْنا بهم مِنَ التَّعذيبِ والهلاكِ، كفعلِنا بفرعونَ وأشياعِه وأتباعِه، ومن سبقَ مِنَ الأممِ[2]، أي: إنَّ هؤلاءِ كذَّبوا كما كذَّبَ فرعونُ وآلُهُ ومن سبقَهم، فنزلَ بهم العذابُ، كما نزلَ بسابقيهم.

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

براعةُ الإيجازِ بالحذفِ في قولِهِ: ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾:

الكفرُ ملَّةٌ واحدةٌ، وعاقبةُ أهلِه في الهلاكِ والعذابِ مشتركةٌ

لمّا ذكرَ أحوالَ المشركينَ وأعمالهم، واستأنف كلامًا آخر، يبيِّنُ فيه أنَّ ما حلَّ بهم، هو بسببِ كفرهم، لا بشيءٍ آخر من غيرِهم، حُذِفَ المبتدأ، والتَّقدير: دأبُ هؤلاءِ كدأبِ آلِ فرعونَ[3]، وهذا الحذفُ من بلاغةِ الكلامِ ولطفِه، ولو ذكرَ؛ لكانَ ثقيلًا في الكلامِ[4]؛ إذ عادةُ البلغاءِ الاكتفاءُ بما يكونُ له دورٌ في الكلامِ، وما كان جائزًا أو ضروريًّا أن يحذفَ، استغنَوا عنه، واكتفَوا بما يدلُّ عليهِ، وقالوا: (البلاغةُ الإيجازُ).

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (أخذ).
(2) ابن جرير، جامع البيان: 13/18.
(3) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 2/439، والزّمخشريّ، الكشّاف: 2/229، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/27.
(4) الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص: 147 - 149.

بلاغةُ التَّشبيهِ:

دورُ التَّشبيهِ في تجليَةِ الصّورةِ وبيانِها

في قوله تعالى: ﴿كَدَأۡبِ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ﴾ تشبيهٌ تمثيليٌّ، إذ شبَّهَ المشركين بآل فرعونَ، والَّذين من قبلهم، ووجهُ الشَّبهِ صورةٌ منتزعةٌ من متعدِّدٍ، هي كفرهُم بآياتِ اللّهِ، وما ترتَّبَ عليهِ من أخذِ اللّهِ لهم بذنوبِهم؛ لأنَّ دأبَهم هو مجموعُ ما فعلوا، وما فُعِل بهم، لا ما فعلوهُ فقط[1]، فأركانُ التَّشبيهِ كلُّها مذكورةٌ، لإيضاحِ الصّورةِ وبيانِها للمخاطبينَ.

نكتةُ التَّعبيرِ بلفظِ (دَأبِ):

من دأبَ على الكفرانِ؛ جنى الخيبةَ والهوانَ

عبَّرَ في قولهِ تعالى: ﴿كَدَأۡبِ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ﴾ بالدَّأبِ ليُشعِرَ أنَّ كفرَهم بآياتِ اللّهِ صارَ عادةً دائمةً مستمرَّةً لهم، وأنَّهم كانوا يجدّونَ ويجهدونَ ويجتهدونَ في كفرِهم، فكانَ شأنًا ملتزمينَ بهِ لا يفارقُهم على التَّأبيدِ[2].

دلالةُ الإضافةِ:

الدَّأبُ على الكفرِ إيغالٌ في الضَّلالِ يؤولُ إلى سوءِ المآلِ

الإضافةُ في قولهِ: ﴿كَدَأۡبِ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ﴾ من إضافةِ المصدرِ إلى فاعلهِ، والمعنى: كما دأبَ آلُ فرعونَ، والَّذين مِن قبلِهم، وأجازَ بعضُ المفسِّرينَ أن تكونَ الإضافةُ من إضافةِ المصدرِ إلى مفعولهِ، والتَّقديرُ: كدأبِ اللّهِ فيهم، فأضافَ الدَّأبَ إليهم؛ إذ لهم نسبةٌ إليه، بكفرِهم بآياتِ اللّهِ، والرَّأيُ الأوَّلُ، هو الرّاجحُ والظّاهرُ[3].

نكتةُ التَّعبيرِ بالمصدرِ الصَّريحِ:

وصفُ اللُّزومِ بلفظِ الدَّأبِ دليلٌ على تأصُّلِهم في الكفرِ

في قولهِ تعالى: ﴿كَدَأۡبِ﴾ عَبَّرَ بالمصدرِ الصَّريحِ (دَأْبِ) دون المؤوَّلِ، بأنْ يقالَ: (كما دأب)؛ للإشعارِ بلزومِهم الكفرَ بآياتِ اللّهِ، وأنَّه صارَ حدثًا ملازمًا لهم من غيرِ تخصيصٍ بزمنٍ، فوصْفُ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/28.
(2) الحرّاليّ، تراث أبي الحسن الحرّاليّ: 1/521.
(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/540.

اللُّزومِ من معنى الدَّأبِ، كما أنَّهُ لو جاء بالمصدر المؤوَّلِ؛ لأفادَ أنَّهم كفروا، ثم صارَ الكفرُ دأبًا لهم، فلمّا جاء بالمصدرِ الصَّريحِ؛ كانَ على معنى المبالغةِ، فكأنَّ ابتداءَ حالِهم، هو الدَّأبُ على الكفرِ بآياتِ اللّهِ، توبيخًا لهم وتقبيحًا، ولتعظيمِ شأنِ الكفرِ بآياتِ اللّهِ[1].

سببُ إيثارِ التَّمثيلِ بآلِ فرعونَ دونَ سواهُم:

آلُ فرعونَ نموذجٌ للطُّغيانِ، ومثالٌ للمصيرِ المزري

نَبَّهَ على آلِ فِرْعَوْنَ، دون غيرِهم من الأممِ السّابقةِ؛ لأنَّ الكَلامَ معَ مخاطبينَ يَعْرِفونَ ما جَرَى لأشياعِ فرعونَ وأتباعِه، حينَ كَذَّبوا بموسَى مِن إغْراقِهم وتَصْييرِهم آخِرًا إلى النّارِ.

بلاغةُ التَّعريضِ:

تأرجحُ عقبى الكفّارِ بينَ الاستئصالِ والنّارِ

في الآيةِ بشارَةٌ لِرَسولِ اللّه ﷺ، ولِمَنْ آمَنَ به، لِما تفيدهُ من التَّعريضِ بأنَّ الكُفّارَ مَآلُهُم في الدُّنْيا إلى الاسْتِئْصالِ، وفي الآخِرَةِ إلى النّارِ، كَما جَرَى لِآلِ فِرْعَوْنَ والذين من قبلِهم، أُهْلِكوا في الدُّنْيا، وصاروا إلى النّارِ[2].

دلالةُ التَّعبيرِ بالاسمِ الموصولِ وصلتِهِ:

الاسمُ الموصولُ يستوعبُ الأممَ السَّوابقَ على امتدادِ الدَّهرِ

لمّا كانت الأممُ السّالفةُ كثيرةً، أوجزَ في تعدادِهم بذكرِ الاسمِ الموصولِ، بوساطةِ جملةِ الصِّلةِ: ﴿وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ﴾، ولمّا كانَ لفظُ (قَبْلِ) هنا، للتَّقدُّمِ الزَّماني من غيرِ قيدٍ، أفادَ استيعابَ الأممِ السّالفةِ معَ الإيجازِ، وللإشعارِ بأنَّ توالي الأزمانِ لم يغيِّرْ دأبَهم وعاداتِهم في الكفرِ.

نكتةُ مجيءِ ﴿مِن﴾ في قولِهِ: ﴿مِن قَبۡلِهِم﴾:

الكفرُ مسارٌ ممتدٌّ عبرَ الزَّمانِ الموغلِ في القدمِ

ذكرَ حرفَ الجرِّ ﴿مِن﴾ لإفادةِ الابتداءِ؛ للإشعارِ بامتدادِ دأبِ الكفرِ، وكأنَّهُ سارَ من زمنِ الأممِ السّالفةِ إلى وقتِ آلِ فرعونَ، وأفادَ الحرفُ ﴿مِن﴾ أنَّ كلَّ قومٍ كانوا يبتدئونَ كفرَهم بآياتِ اللّهِ، حتَّى

(1) السّامرائيّ، معاني النّحو: 3/148.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/36.

يكونَ الأمرُ عندَهم عادةً وشأنًا لا يفارقونَهُ، كما تحتملُ (مِن) معنى النّيابةِ عن (في)، للتَّنصيصِ على الظَّرفيَّةِ الزَّمانيَّةِ للأقوامِ السّالفةِ، والمعنى: وكدأبِ الَّذين هم في الوقتِ الَّذي كان قبلَ وقتِ آلِ فرعونَ[1].

دلالةُ العطفِ في قولِهِ: ﴿وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ﴾:

لمّا كانَ العطفُ بالواوِ على معنى التَّشريكِ بين المعطوفينَ في الحكمِ؛ أفادَ أنَّ دأبَ آلِ فرعون، ودأبَ الَّذين من قبلهم أمرٌ واحدٌ، في الكفرِ بآياتِ اللّه، فتكونُ عادةُ الأمم بجملتِها لا على انفرادِ أمَّةٍ[2].

الكافرونَ مجموعونَ في الكفرِ والضَّلالِ على موقفٍ واحد

دلالةُ عودِ الضَّميرِ في قولِهِ: ﴿قَبۡلِهِمۡۚ﴾:

يُحتمَلُ أن يعودَ الضَّميرُ في ﴿قَبۡلِهِمۡۚ﴾ على آلِ فِرْعَوْنَ، فيكونُ المرادُ من الاسمِ الموصولِ، كُفّارَ الأُمَمِ السّالِفَةِ، كَقَوْمِ نوحٍ، وقَوْمِ هودٍ، وقَوْمِ شُعَيْبٍ، وغَيْرِهم، وهذا هو الظّاهرُ من السّياقِ، وكذا يُحْتَمَلُ أنْ يَعودَ الضَّميرُ على الَّذينَ كَفَروا، وهُم مُعاصِروا رَسولِ اللّه ﷺ[3].

الدُّنيا تموجُ بالصِّراعِ بينَ الكفرِ والإيمانِ عبرَ الأزمانِ

دلالةُ قولِهِ: ﴿كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمۡۚ﴾ بينَ الاستئنافِ والحاليَّةِ:

تحتملُ الجملتانِ ﴿كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمۡۚ﴾، أن تكونا بمنزلةِ الاستئنافِ البيانيِّ، لِتكونا تفسيرًا لدأبِ آلِ فرعونَ، ويكونَ الضَّميرُ في ﴿كَفَرُواْ﴾ عائدًا إلى ﴿ءَالِ﴾، كَأَنَّهُ قيلَ: (ما فعَلَ آلُ فرعون والذين من قبلهم ليكونوا مثلَهم؟ وما فُعِلَ بهمْ؟)، فقيلَ: ﴿كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمۡۚ﴾، فالجملتانِ المعطوفتانِ كَأَنَّهما جَوابُ سُؤالَين مُقَدَّرَين، كما تحتملُ أن تكونا تفسيرًا لدأبِ مشركي مكَّةَ، ويكون

من كفرَ بآياتِ اللّهِ؛ أُخِذَ بذنبه، ولاقى ما لا يرضاهُ

(1) الرّضي، شرح كافية ابن الحاجب: 4/260، والسّامرائيّ، معاني النّحو: 2/194.
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/540.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/38.

الضَّميرُ في ﴿كَفَرُواْ﴾ عائدًا إلى مشركي مكَّةَ، كما تحتملُ الجملتانِ أن تكونا حاليَّتينِ، بتقديرِ (قد كَفَروا)، أي: دأبُ كفّارِ مكَّةَ، كدأبِ آل فرعونَ، والَّذين من قبلهِم في حالِ كفرهِم وإهلاكِهم[1].

سرُّ جعلِ أخْذِ اللهِ للكفّارِ دأبًا:

لمّا كانَ الدَّأْبُ على معنى الاعتيادِ على الشَّيءِ، والاستمرارِ عليهِ، وكان العذابُ قد جُعِلَ من جملةِ دأبِهم، مع أنَّهُ ليس ممّا يُتصوَّرُ مداومتُهم عَليهِ، واعتيادُهُم إيّاهُ، كما هو المعتبرُ في مدلولِ الدَّأبِ، أفادَ أنَّ دخولَ العذابِ في الدَّأبِ من بابِ تغليبِ ما فعلوهُ على ما فُعِلَ بهم، أو لِتنزيل مداومتِهم على ما يوجبُهُ من الكفرِ والمعاصي منزلةَ مداومتِهم على العذابِ، لما بينهما من الملابسةِ التّامَّةِ[2].

دخولُ العذابِ في الدَّأبِ من بابِ تغليبِ ما فعلوهُ على ما فُعِلَ بهم

دلالةُ الآياتِ الإلهيَّةِ في قولِهِ: ﴿كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾:

يُحْتَمَلُ أنْ يكونَ المرادُ من ﴿بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾: المَتْلوَّةَ في كُتُبِ اللّه، ويُحْتَمَلُ أنْ تَكونَ العَلاماتِ الدّالَّةَ على تَوْحيدِ اللّه وصِدْقِ أنْبيائِه[3]، قال ابن عبّاسٍ: "هو أنَّ آلَ فرعونَ أيقنوا أنَّ موسى نبيٌّ من اللّه، فكذَّبوهُ، كذلك هؤلاءِ جاءهم محمَّدٌ ﷺ بالصِّدقِ فكذَّبوه، فأنزلَ اللّهُ بهم عقوبتَهُ، كما أنزلَ بآلِ فرعونَ، والَّذين من قبلِهم، أي: كفروا بآياتِ اللّهِ، فأخذَهُم اللّهُ بذنوبِهم، إنَّ اللّه قويٌّ شديدُ العقابِ"[4].

يتكاملُ الإعجازُ في آياتِ اللهِ في الكونِ المنظورِ، والوحي المسطورِ

نكتةُ جمعِ لفظِ (آياتِ):

في قوله تعالى: ﴿كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾، أفادَ جمعُ الآياتِ أنَّ الآياتِ كانت تتوالى عليهم، ولم يكنْ لهم آيةٌ واحدةٌ، وأنَّ دأبَهم كان هو الكفرُ بها، وقد تَعدَّدَتْ رسلُهم وكثرت، وتوالى المبعوثونَ لهم من

من كابرَ آياتِ اللهِ بالنُّكرانِ، أولاهُ اللهُ الخسرانَ والهوانَ

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/229، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/63، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/28، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 9/109.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/28.

(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/39.

(4) البغويّ، معالم التّنزيل: 2/302.

الرُّسلِ والأنبياءِ الَّذين كثروا وخصوصًا في بني إسرائيلَ، فكانَ الكفرُ بذلكَ متعدِّدًا بتعدُّدِ التَّكذيب الَّذي يُقابلُ بهِ كلُّ نبيٍّ تختارهُ العنايةُ الإلهيَّةُ للبلاغِ، ولذلك كان الجمعُ للفظِ آياتٍ مناسبًا لتعدُّدِ ذلك وتكرارهِ، في فتراتٍ متلاحقةٍ.

دلالةُ الإضافةِ في قولهِ: ﴿بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾:

الآياتُ المضافةُ إلى اللهِ في الآيةِ، لعنةٌ على من ارتادَ الغوايةَ

الإضافةُ للتَّخصيصِ، لِتعظيمِ الآياتِ بتخصيصِها باللهِ تعالى، وفي التَّعبيرِ إيذانٌ أنَّهم كانوا يعرفونَ أنَّها آياتُ اللهِ، ثمَّ يكفرونَ بها، ففيهِ توبيخٌ للكافرين، وتهويلٌ لكفرِهم؛ لأنَّ من عرفَ التزمَ وأنابَ، إن رجعَ وتابَ، ومن جهلَ واستكبرَ بعد أن عرفَ وأنكرَ؛ كان نكرانُهُ عن علمٍ ومعرفةٍ بالحقِّ، فوجبَ أن يكونَ إيمانُهُ أكبرَ، وتصورُّهُ للهدى أبصرَ، ولكنَّهُ أضاعَ الدَّليلَ، فضلَّ عن سواءِ السَّبيلِ.

دلالةُ الفاءِ في: ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ﴾:

الكفرُ مفضٍ إلى الذُّنوبِ، ومعرِّضٌ صاحبُهُ للأواءِ الخطوبِ

أفادتِ الفاءُ أنَّ ما قبلَها سببٌ لما بعدَها، مع التَّرتيبِ والتَّعقيبِ، والمعنى: أنَّ كفرَهم بآياتِ اللهِ، جعلَهم يذنبونَ ذنوبًا كثيرةً، فكان سببًا في أخذِهم وهلاكِهم، وأنَّ أخذَهُم كان بعدَ كفرِهم وارتكابِهم الذُّنوبَ، وتعقيبُ كلِّ أمرٍ بحسبه، وهو أمرٌ يقتضيهِ عدلُ اللهِ الَّذي غمرَ الموجوداتِ، وكان كلُّ شيءٍ عنده بمقدارٍ، ولا يظلمُ ربُّك أحدًا.

مناسبةُ وضعِ الظّاهرِ موضعَ المضمرِ:

غرضُ الإظهارِ زيادةُ تمكينِ الاسمِ الجليلِ، وتقريرهُ في ذهنِ السّامعِ

كان الظّاهرُ أن يقولَ: (كفروا بآياتِ اللهِ، فأخذهم بذنوبِهم)، لقربِ ذكرِ الاسمِ الجليلِ، فعدلَ عن الكلامِ بوضعِ الظّاهرِ موضعَ المضمرِ في قولهِ: ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمۡۚ﴾، لتربيةِ المهابةِ بتقريرِ ذكرِ الاسمِ الجليلِ، ولتعظيمِ كفرِهم بآياتِه سبحانه، ولزيادةِ تمكينِ الاسمِ الجليلِ وتقريرِه في ذهنِ السّامعِ، حتَّى يكونَ مستحضرًا لا يزولُ عن البالِ؛ لبيانِ عظمِ أخْذِ اللهِ لهم وإهلاكِهم، وأنَّه من مقامِ

الألوهيَّة الجليلةِ، ولم يقل: (فأخذناهم بذنوبهم) ليكونَ الكلامُ على منهاجٍ واحدٍ في الغيبةِ[1].

بلاغةُ الاستعارةِ:

في قولهِ تعالى: ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ﴾، جاءَ الكلامُ على طريقِ الاستعارةِ التَّصريحيَّةِ التَّبعيَّةِ، وبيانُه أنَّه شبَّهَ إحاطةَ عذابه بهم وإهلاكَهم بقوَّةٍ، وانتفاءِ تفلُّتِ أيِّ واحدٍ منهم، بالمَأْخوذِ باليَدِ المُتَصَرِّف فيه بحُكْمِ إرادَةِ الأخْذِ[2] الَّتي تفيدُ حوزَ الشَّيءِ والتَّمكُّنَ منهُ، وتحصيلَه بقوَّةٍ، للإيذانِ أنَّ عقابَهم كانَ عظيمًا، وأنَّهُ استوعبَ جميعهم.

من أخذتْهُ قوَّةُ اللهِ؛ فلا مفرَّ لَهُ منها، ولا فكاكَ

دلالةُ الباءِ ومجرورِها في قولهِ: ﴿بِذُنُوبِهِمْ﴾:

الباءُ سببيَّةٌ، بمعنى: أنَّ سببَ أخْذِهم وإهلاكِهم، هو ما اكتسبوهُ من الذُّنوب مع كفرِهم، ففيهِ إشارةٌ إلى أنَّ لهم مع كفرِهم ذنوبًا أُخَرَ، لها دخلٌ في استتباعِ العقابِ، ويجوزُ أن يكونَ المرادُ بذنوبِهم معاصيَهم المتفرِّعةَ على كفرِهم، فتكونُ الباءُ للملابسةِ، أي: فأخذَهم ملتبسينَ بذنوبِهم، غيرَ تائبينَ عنها[3]، وفي الباءِ السَّببيَّةِ إشعارٌ بأنَّ صريحَ المؤاخذةِ مُناطٌ بالذُّنوبِ، وأنَّ المؤاخذةَ الدُّنيويَّةَ لا تصلُ إلى حدِّ الانتقامِ على الكفرِ بآياتِ اللهِ فقط، فأفادَ أنَّ ما ظهرَ من أمرِ الدُّنيا يقع عقابًا على ما ظهرَ من الأعمالِ، وما بطنَ من أمرِ الآخرةِ، يستوفي العقابَ على ما أصرَّت عليه الضَّمائرُ من الكفرِ[4]، وقد أفادَ الجمعُ في المجرورِ بالباءِ كثرةَ ذنوبِهم، وعبَّرَ بالذُّنوبِ دونَ غيرِها، ممّا يدلُّ على المعصيةِ؛ لأنَّ الذَّنبَ ينبئُ عن استحقاقِ العقابِ المناسبِ للسّياقِ[5].

ما ظهرَ من الذُّنوبِ يقعُ عقابُهُ في الدُّنيا، وما ضُمِرَ يُستوفى في الآخرةِ

(1) البهاء السّبكيّ، عروس الأفراح: 1/266 - 267.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/39.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/38، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/28.
(4) الحرّالي، تراث أبي الحسن الحرّالي: 1/522.
(5) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 257.

دلالةُ ﴿إِنَّ﴾ في قولِهِ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾:

عقابُ اللهِ شديدٌ قويٌّ على كلِّ كافرٍ عتيٍّ

تفيدُ ﴿إِنَّ﴾ تأكيدَ مضمونِ الجملةِ؛ لبيانِ أنَّ اللّٰه تعالى ليس بخافٍ عليهِ ما يفعلهُ الكفّارُ، وأنَّه سيعاقبُهم على كفرِهم، وفي التَّأكيدِ تعريضٌ بالمُشْرِكينَ، فقد كانوا يُنْكِرونَ قوَّةَ اللّٰه عليهم، بمعنى لازمِها، وهو إنْزالُ الضُّرِّ بهم، ويُنْكِرونَ أنَّه شَديدُ العِقابِ لهم، فأكَّدَ الخَبَرَ باعْتِبارِ لازِمِهِ التَّعْريضيِّ الَّذي هو إبْلاغُ هذا الإنذارِ إلى مَنْ بَقيَ مِنَ المُشْرِكينَ[1].

بلاغةُ الاستئنافِ البيانيِّ:

العذابُ منوطٌ بالسَّيِّئاتِ الماحقةِ، ولا يقعُ بلا سابقةٍ

في قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾ استئنافٌ بيانيٌّ، مَسوقٌ لتعليلِ ما يفيدُ النَّظمُ الكريمُ من كونِ ما حلَّ بهم من العذابِ منوطًا بأعمالِهم السَّيِّئةِ غيرَ واقعٍ بلا سابقةٍ، فالجملةُ جوابٌ لسؤالٍ تقديرُهُ: لِمَ أخذهم بذنوبِهم؟[2].

بلاغةُ حسنِ التَّذييلِ:

التَّذييلُ كالأمثالِ المرويَّةِ مفيدٌ للعمومِ والكليَّةِ

في التَّذييلِ بقولِهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾ فوائدُ؛ هي: أوَّلًا: تفيدُ معنى العمومِ والكلّيَّة لما تدلُّ عليه الجملةُ الاسميَّةُ من معنى الثُّبوتِ، ولوصفِ اللّٰهِ تعالى بوصفين ثابتين لهُ سبحانه، ثانيًا: لمّا كانت جملةُ التَّذييلِ، تفيدُ العمومَ والكلّيَّةَ؛ دلَّت على أنَّها بمنزلةِ المثلِ، في جريانِها في الكلامِ. ثالثًا: التَّنبيهُ على أنَّ كلَّ مَن يكفرُ باللّٰهِ وآياتِه، له عذابٌ مدَّخرٌ، ويدخل فيه كفّارُ مكَّةَ - ومن كان قبلَهم - دخولًا أوَّليًّا سوى ما نزلَ بهم من العذابِ العاجلِ[3].

مناسبةُ مجيءِ الوصفينِ في جملةِ التَّذييلِ:

وصفُ اللهِ بالقوَّةِ وشدَّةِ العقابِ يتلاءمُ مع مضمونِ الخطابِ

لمّا كانَ الكلامُ عن دأبِ كفّارِ مكَّةَ، ومن كانَ قبلَهم من الأممِ السّالفةِ الَّتي كفرت بآياتِ اللّٰهِ، وكان الدَّأبُ بمعنى الشَّأنِ الَّذي

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/44.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/104.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 15/495.

يكونون عليه؛ ناسبَ مجيءُ الوصفين؛ لأنَّ وصْفَ اللّهِ تعالى بالقويِّ، بمعنى التّامِّ القوَّةِ الَّذي لا يَسْتَوْلي عَلَيهِ العَجْزُ في حالٍ مِن الأحْوالِ[1]، وجاءَ وصف ﴿شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ لمناسبةِ المجازاةِ في قولهِ تعالى: ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْۚ﴾؛ لأنَّ معنى الأخْذِ بالذَّنْبِ العِقابُ عليه[2].

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

العادة والدَّأب:

الدَّأبُ والدَّؤوبُ: المبالغةُ في السَّيرِ، وأدأبَ الرَّجلُ الدّابةَ إدآبًا؛ إذا أتعبَها، والفعلُ اللّازِمُ دأبتِ الدّابةُ تدأبُ دُؤوبًا، وقولهُ تعالى: ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ [آل عمران: 11]، أي: كعادتِهم وحالِهم[3]، الفرقُ بينهما: هو أنَّ الدَّأبَ لا يكونُ إلّا اختيارًا، وفيه معنى الجدِّ والاجتهادِ والكدحِ، حتَّى يصيرَ الأمرُ شأنًا لازمًا، مع الجهدِ والتَّعبِ في تعاطيهِ، وفيه معنى الاستمرارِ على حالةٍ واحدةٍ، وأمّا العادةُ؛ فهي اسمٌ لتكريرِ الفعلِ والانفعالِ حتى يصيرَ ذلك سهلًا تعاطيهِ كالطَّبع، ولذلك قيل: العادَةُ طبيعةٌ ثانيةٌ، ولمّا كان العودُ بمعنى الرَّجوعِ إلى الشَّيءِ وتجدُّدِ الأمرِ فيه؛ دلَّ على احتمالِ تغيُّرِ الحالِ في الاختيارِ، وقد تكونُ العادةُ اختيارًا أو اضطرارًا[4].

الدَّأبُ: اجتهادٌ باختيارٍ، والعادةُ: إلفُ الأمرِ بالتَّكرارِ

(1) الخطابي، شأن الدّعاء: 1/77.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/85.
(3) الخليل، العين: 3/38.
(4) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 254، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (عود).

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمۡ يَكُ مُغَيِّرٗا نِّعۡمَةً أَنۡعَمَهَا عَلَىٰ قَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ٥٣﴾ [الأنفال: 53]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

العلاقة بين مصير آل فرعون المغرقين، وكون النّعم تتغيّر بالكفر المهين

لمّا كان كأنّه قيل: فما له يمهلُهم ولا يعالجُهم بالأخذ قبلَ النّكايةِ في أوليائه وأهل ودّه وأصفيائه؟ أجيبَ بأنّ الأخذَ على هذه الحالة؛ بسبب أنّهم غيّروا ما في أنفسهم، وقد كان له سبحانَه أن يأخذَهُم قبلَ أن يغيّروا لعلمه بما في ضمائرِهم، ولكنّه تعالى أجرى سنّتَه الإلهيّةَ لتمامِ علمِه وكمالِ قدرتِه وإحاطتِه بجميعِ صفاتِ الكمالِ[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مُغَيِّرٗا﴾: التَّغييرُ يُقال على وجهين: أحدهما: لتغيير صورةِ الشّيءِ دون ذاته، يُقال: غَيَّرْتُ داري: إذا بنيتُها بناءً غيرَ الّذي كان. والآخر: لتبديله بغيره، نحو: غَيَّرْتُ غلامي ودابّتي: إذا أبدلتهما بغيرهما، نحو: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ﴾ [الرّعد: 11].

المَعْنى الإجْماليُّ:

سبب تغيير النّعم، ما يحصل من كفر وعناد في سائر الأمم

جرَت سنّتُه سبحانَه في خلقه ألّا يبدّلَ نعمَه بنقمةٍ، إلّا بسبب ارتكابِ الذّنوبِ، واجتراحِ السّيّئاتِ، فإذا لم يتلقّ النّاسُ نعمَه ﷻ بالشّكر والطّاعة، وقابلوها بالكفر والعصيان، بدّل نعمَهم بنقمٍ جزاءً وفاقًا، بسبب أنّه سبحانه سميعٌ لما نطقوا به من سوء، وعليمٌ بما ارتكبوه من قبائحَ ومنكراتٍ، وقد عاقبَهم على ذلك بما يستحقّون من عذاب[2].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/304 - 305.
(2) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 126 - 129/6.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ الفصلِ:

وجهُ الفصلِ بالاستئنافِ البيانيِّ أنّه مَسوقٌ لتعليل ما يفيدُه النّظمُ الكريمُ من استحقاقِ حلولِ النّكالِ للكفران، وأنّ ما حلّ بهم منَ العذاب منوطٌ بأعمالهم السّيّئة، فقد ترتّب العقابُ على أعمالهم السّيّئة دون أن يقعَ ابتداءً مع قدرته تعالى على ذلك[1].

في الفصل بيانٌ لعلّة استحقاقِ الكفرة النّكالَ بهم

دلالة استعمالِ اسم الإشارة للبعيد، في نداء القريبِ:

قوله ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارةٌ إلى ما ذكرَته الآياتُ السّابقةُ منَ الأخذ بسبب ذنوبهم، وهو اسمُ إشارةٍ للبعيد، ولكنّ البعدَ هنا هو بعدٌ معنويٌّ للإشعار بكون الأخذِ في الغاية القاصيةِ منَ الهول والفظاعة. واستهلالُ الآيةِ باسم الإشارة للبعيد، من شَأْنِه أن يجذبَ الأنظارَ والعقولَ إلى ما يَتْبعُها من كلام، فـ" اسمُ الإشارة في مثل هذا المقام مُؤذنٌ بأنّ ما بعده جديرٌ بمَن قبله لأجل اكتسابه موجِبَهُ"[2].

النّداء بالبعد، ذو غرض بيانيّ في الآيـة، هو التّهويل

دلالةُ (الباء) على السّببيّة أو التّوكيد:

الباءُ في قوله ﴿بِأَنَّ ٱللَّهَ﴾ للسّببيّة[3]؛ أي: أنّ ما أصابهم كان بسبب أنّ اللّه تعالى قد اقتضت سنّتُه ألّا يغيّرَ نعمَه على قوم حتّى يقع التَّغيير منهم. وتحتمل أن تكونَ الباءُ زائدةً لتوكيد كونه تعالى متّصفًا بعدم التَّغيير لما فيه مِنَ الكفايةِ، والقدرةِ، والعزّةِ، والحكمةِ، والعلمِ.

تغييرُه تعالى للنّفوس، مرهونٌ بالسَّعي والإقدام

بلاغةُ التّوكيد بـ(أنّ)، والجملة الاسميّة:

تأتي (أنّ) كما (إنّ) لتوكيد الحكمِ والنّسبة بين الجزأين إذا كان المخاطبُ عالمًا بالنّسبة والحكم، ونفي الشّكِّ عنها إذا كان المخاطَبُ مُتردِّدًا فيها، ونفي الإنكار لها إذا كان مُنكِرًا لها. ومنها:

سننُ اللّه تعالى، قائمةٌ في الأرض لا تتخلّف

(1) الطّيّبيّ، فتوح الغيب: 7/134، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/104.
(2) الطّيّبيّ، فتوح الغيب: 7/135.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/218، والآلوسيّ، روح المعاني: 10/28.

أنّها جاءَت مُؤكَّدةً بـ (أنّ) والجملة الاسميّة، وذِكْرِ المُبتدَأ مرّةً أخرى بكونه اسمَ (كان) المحذوف، وفي هذا زيادةُ تقريرٍ لها على أنّها سنّةٌ لا تتخلّف.

سرُّ إظهار اسمِه الأعظم ﴿ٱللَّهَ﴾ في السّياق:

إحاطةُ الله تعالى بجميع صفاتِ الكمالِ والامتنان

الاسمُ الظّاهرُ أوقعُ في النّفس منَ الضّمير، ومن عادات القرآنِ التّصريحُ باسمه الأعظم في مواضع التّمنّن، والتّفضّل، والنّعم، والثّبات على سننها؛ للدّلالة على تمام علمِه، وكمالِ قدرتِه، وإحاطتِه بجميع صفاتِ الكمالِ.

بلاغةُ الحذفِ للتّخفيف، في لفظ ﴿يَكُ﴾:

التّخفيفُ إشعارٌ بانتفاء وقوع أدنى تغيير منَ الله، مهما كان خفيفًا أو قليلًا

الفعل (يكُ) حُذِفَتِ النّون فيه تخفيفًا؛ إذ إنّه مجزومٌ لوقوعه بعد (لم)، وعلامةُ جزمه السّكونُ المُقدّرُ على النّون المحذوفة تخفيفًا في (يكنْ)، وغرضُ هذا الحذفِ منَ الكلمة هنا كمالُ تنزيهه تعالى عن أن يُغيّر أيَّ نعمةٍ مهما قلّت عن قوم حتّى يبادروا هُم بالعصيان، فالأصلُ هو دوامُ النّعم لا زوالُها. و"إرْشادٌ إلى أنَّ هذه الموعظةَ خليقةٌ بأن يوجزَ بها غايةَ الإيجاز، فيبادرُ إلى إلقائها لما في حسن تلقّيها من عظيم المنفعةِ؛ لأنّ مَن خالفَها جديرٌ بتعجيل الانتقام"[1].

بلاغةُ التّعبير بفعل الكون مضارعًا:

سنّةُ الله ومقتضى حكمته، أن يعلّقَ الإنعامَ بتغيير النّفس

يدلُّ الكونُ في قولنا: (كان زيدٌ قائمًا) على الحصول المُطلَق، ويدلُّ خبرُه على الكون المخصوصِ؛ أي: حصوله، فلفظُ الكون دالٌّ على حصولٍ ما، ثم عيّن بالخبر ذلك الحاصل، فكأنّك قلت: حصلَ شيءٌ، ثمّ قلت: حصلَ القيامُ، فالفائدةُ في إيراد مُطلَقِ الحصولِ أوّلًا، ثمّ تخصيصِه، فضلًا عن تعيين زمان ذلك الحصولِ المقيّدِ، ولو قيل: (قام زيد)، لم تحصل هاتان الفائدتان معًا. وحيث وقع الإخبارُ بـ (كان) عن صفةٍ ذاتيّةٍ (اللّه)، فالمرادُ الإخبارُ عن

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/305.

وجودها، وأنّها لم تفارقْ ذاتَه، وتأتي بمعنى القدرة والاستطاعة؛ فمعنى قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ۝٥٨﴾ [النّساء: 58]، وقوله: ﴿وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ عَجُولٗا ۝١١﴾ [الإسراء: 11]، أنّ معناه: أنّه هذا كونه، أي: هذه حقيقتُه وصفتُه[1]، فما استُعمِلَ منه في جنس الشَّيء مُتعلِّقاً بوصفٍ له هو موجودٌ فيه، فتنبيهٌ على أنَّ ذلك الوصفَ لازمٌ له، قليلُ الانفكاكِ منه. وبذا يكون معنى نفي الكون التّنزيهَ ونفيَ الحصولِ المُطلَقِ، والحصولِ المتعيّنِ بالخبر؛ أي: ما يجب وما ينبغي أن يكونَ له المعنى المذكور[2]. والمعنى المنفيّ هنا تغييرُ النّعمةِ المقيّدُ بتغيير الحال، والتّعبيرُ عنه بنفي الكون أقوى منَ التّعبير عنه بنفي الفعل المباشر في قولنا مثلًا: (لا يغيّرُ نعمةً)، ودلالةُ صيغةِ المضارعِ المنفيِّ بـ(لم) في هذا الموضع تفيدُ استمرارَ كونه تعالى غيرَ مُغيّرٍ نعمةً أنعمها على قوم حتّى يغيّروا ما بأنفسهم، وأنّ ذلك سنّةُ الكون، "فقوله: ﴿لَمۡ يَكُ مُغَيِّرٗا﴾ مُؤذِنٌ بأنّه سنّةُ اللّه ومقتضى حكمته؛ لأنّ نفيَ الكون بصيغة المضارع يقتضي تجدّدَ النّفي ومنفيه"[3].

براعةُ الإيجازِ بالحذف في السّياق:

الاكتفاءُ بالمذكور لـلإيـجـاز، من فصيح البيان

سياقُ الكلام يقتضي محذوفًا تقديره: (لم يكُ هكذا)، فاكتُفيَ بالمذكور اختصارًا؛ تقريبًا لبيان تعميم العلّةِ، وإبعادًا للسّامع من مثل ذلك[4].

بلاغةُ التّنكير للألفاظ: ﴿مُغَيِّرٗا﴾، و﴿نِّعۡمَةً﴾، و﴿قَوۡمٍ﴾:

إفادة التّعظيم، والـتّـكـثـير، وإعمام النّعمِ، وأفراد القومِ

والتّنكير لـ﴿مُغَيِّرٗا﴾ يفيدُ التّعظيمَ له ﷻ، وتنكيرُ ﴿نِّعۡمَةً﴾ و﴿قَوۡمٍ﴾ يحتملُ التّقليلَ والتّكثيرَ، والأفضل أن يُحملَ تنكيرُهما على التّعميم ليشملَ النّعمَ كلَّها، ويشملَ المسلمَ والكافرَ، والبرَّ والفاجرَ[5].

(1) السّامرائيّ، معاني النّحو: 1/209 - 215.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 15/510.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/54.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/304 - 305.
(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/337.

نكتةُ التّعبيرِ عنِ التّغييرِ باسم الفاعل:

دوامُ وصفِ عدمِ التّغييرِ وثبوتُه مقيّدٌ بتغيير المكلّف

عبّر عن نفي التّغيير بنفي اللّفظ المُصاغ على هَيْئَةِ اسمِ الفاعلِ ﴿مُغَيِّرًا﴾ للدّلالة على ثبوتِ وصف نفي التّغيير في الزّمن الماضي، ودوامِه مقيّدًا بشرط تغيير المكلَّف ما بنفسه. وعدل عنِ المضارع للتّعبير عن ثبوت هذا الوصف فيه سبحانه؛ وذلكم من أماراتِ حكمتِه، وقدرتِه جلّ في علاه.

وجهُ إيثارِ لفظِ (النّعمةِ) دون (المنّة) وغيرها:

النّعمةُ لا يشوبُها ما يكدّرُها، ولا تكون عاقبتُها سوأى

النّعمةُ الحالةُ الحسنةُ؛ لأنّ بناءَ الفعلة بالكسر للهيئات؛ ومُتعلّقَ النّعمة اللّذّاتُ الحسّيّةُ، ثمّ استُعمِلَت في اللّذّاتِ المعنويّةِ العائدةِ بالنّفع، ولو لم يحسّ بها صاحبُها. فالمرادُ منَ النّعمة ما لم يَشُبْها ما يكدّرها، ولا تكون عاقبتُها سوأى، فهي شاملةٌ لخيرات الدّنيا الخالصةِ منَ العواقب السّيّئةِ ولخيرات الآخرةِ، وهي الأهمُّ، فيشمَلُ النِّعمَ الدّنيويّةَ، ويشمَلُ النّعمَ الأخرويّةَ. وتنكيرها للتكثير، والإعمام بحسب ما ذُكر.

تعديةُ فعلِ الإنعامِ بـ(على):

نعمُ اللهِ تشريفٌ، وتفضّلٌ، ومنّةٌ

الاستعلاءُ المستفادُ بـ(على) المصاحب لفعل الإنعام، نصٌّ على فوقيّته، وإنزالِه منَ السّماء، وفي هذا تشريفٌ للمُنعَم عليه، وتفضّلٌ من لدن المُنعِم.

علّةُ التّعبير بلفظ (قوم):

لولا دوامُ نعمِ اللهِ، ما اجتمع قومٌ

إنّ تخصيصَ الإنعام بلفظ (قوم) فضلًا عنِ الإعمام المستفادِ من تنكير اللّفظِ، فإنّه يومئ إلى أنّ ذلك الفضلَ مُتمكّنٌ منهم حتّى كأنّه من مقوّمات قوميّتهم، وعليه فإنّهم لم يكونوا قومًا من غير دوامِ نعمِ اللّه عليهم، وتنوّعِها، وثباتِها فيهم.

بلاغةُ الجناس الاشتقاقيّ في السّياق:

بين لفظي (نعمة) و(أنعمها) جناسٌ اشتقاقيٌّ، جمع فيه بين

المصدر والفعل الماضي الدّالّ على تحقّق المنّ؛ وترسيخِ وقوعِ الإنعام، وعدمِ تغييرِه إلّا بالقيد المذكور في الآية. فضلًا عمّا أضفاه على السّياق من تأثيرٍ بليغٍ يقعُ في القلب أحسنَ موقعٍ، بما يُحدثُه من ميلٍ إلى الإصغاء، والتّجاوب، والتّأثير، فالقبول.

تَرْسيخُ حَتْميّةِ وقوعِ الإنعامِ، وعَدَمِ تغييره إلّا بالقيد المذكور

وكذا الأمر مع لفظي: (مغيِّرًا) و(يغيّروا) فجمع بين صيغتي اسم الفاعل والفعل المضارع؛ ليوائمَ بين ثبوتِ صفةِ نفي التّغييرِ منه سبحانَه، وبين قيدِ التّغييرِ المُتجدِّد المُستمرِّ لدى المكلَّف.

فائدةُ التّعبير بالحرف ﴿حَتَّىٰ﴾، للدّلالة على الغاية:

جعل الجملةَ على نظم الجملِ الشّرطيّةِ، بتعليق التّغيير الإلهيّ بالتّغيير الإنسانيّ، كلُّ ذلك حتّى يستقرَّ في وجدانِهم أنّ صلاحَ الكونِ وانتظامَه مرتبطٌ تمامًا بصلاح النّفوسِ واستقامتِها على شريعة اللّه، يقول صاحبُ التّحرير والتّنوير: "فالغايةُ المستفادةُ من (حتّى) لانتفاء تغييرِ نعمةِ اللّهِ على الأقوام هي غايةٌ مُتّسعَةٌ؛ لأنّ الأقوامَ إذا غيّروا ما بأنفسهم من هدىً أمهلهم اللّهُ زمنًا، ثمّ أرسلَ إليهم الرّسلَ، فإذا أرسلَ إليهم الرّسلَ فقد نبّههم إلى اقتراب المؤاخذةِ، ثمّ أمهلَهم مدّةً لتبليغ الدّعوةِ والنّظرِ، فإذا أصرّوا على الكفر غيّرَ نعمتَه عليهم بإبدالها بالعذاب أو الذّلّ أو الأسر، كما فعل ببني إسرائيلَ حين أفسدوا في الأرض[1]"، فـ(حتّى) هنا لانتهاء الغايةِ، وانتفاء الشّرطِ. وأثارَ الزّمخشريّ مسألةً مهمّةً هنا نصّها: "فإنْ قلت: فما كان من تغيير آلِ فرعونَ ومشركي مكّةَ حتّى غيّر اللّه نعمتَه عليهم؟ ولم تكن لهم حالٌ مرضيّةٌ فيغيّروها إلى حالٍ مسخوطةٍ؟ قلت: كما تُغَيَّرُ الحالُ المرضيّةُ إلى المسخوطة تُغَيَّرُ الحالُ المسخوطةُ إلى أسخطَ منها، وأولئك كانوا قبلَ بعثةِ الرّسولِ إليهم كفرةً عبدةَ أصنامٍ، فلمّا بعث إليهم بالآيات البيّناتِ، فكذّبوه،

مِن السّنن الإلهيّة، ربط التّغيير الاجتماعيّ بالتّغيير النّفسيّ

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/45.

وعادوه، وتحزّبوا عليه ساعين في إراقةِ دمِه، غيّروا حالَهم إلى أسْوأ ممّا كانت، فغيّرَ اللّهُ ما أنعم به عليهم منَ الإمهال وعاجلهم بالعذاب[1]".

التَّعبيرُ عنِ التَّغيّرِ بالمضارع:

شرطُ التّغييرِ أن يكونَ مُتجدِّدًا

يدلُّ التَّعبيرُ بصيغة المضارع على أنّ التّغييرَ لا يكون وقتيًّا منوطًا بالعذاب، أو الخوف منه، وإنّما يكون مُتجدِّدًا، مُستمرًّا فيهم، يمارسونه عادةً، وإرادةً، وعبادةً.

سرُّ إسنادِ الفعلِ إلى واو الجماعة:

التّوبةُ الجماعيّةُ قيدُ رضا الله، وعودُ إنعامه

دلَّت واو الجماعة على شمول هذا الحكم جميع النّاس، فاجتماعهم على هذا التّغييرِ هو قيدُ تغييرِ اللّهِ تعالى نعمتَه، ولن يُعبَأ بالتّغيير الفرديّ، ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾﴾ [هود: 117].

سرُّ التّعبيرِ بالموصول (ما):

أكّدَت (ما) ما لابسهم من نكرانٍ وجحودٍ

للعموم المستفادِ مِن (ما) في قوله: ﴿مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾؛ أُختيرَ دون غيره منَ الأسماء الموصولة، لكون تغيير ﴿مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ عامًّا غيرَ مُحدَّدٍ. والإتيانُ بـ (ما) الموصولة؛ للإيماء إلى علّة الحكم؛ أي: إنّ ظلمَهم وإنكارَهم سببٌ في تغيير النّعمةِ، فأفاد تَأكيدَ ما لابسهم من جحود.

دلالةُ (الباء) في لفظ ﴿بِأَنفُسِهِمْ﴾:

آثامُ صنيعهم ملاصقةٌ لهم، وتصرّفاتهم نتاج هذه الملابسة

الباء في قوله: ﴿بِأَنفُسِهِمْ﴾ باء الإلصاق والملابسة؛ أي: ما لاصقهم وعَلِقَ بهم[2] من أدران صدّهم عنِ المنهجِ الحقِّ، وسبيلِ الصّدقِ المؤدّيين إلى الرّضا، والنّجاة، والفوز.

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/218.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/45.

سرُّ توكيدِ جملةِ الفاصلةِ، في السّياق:

وجاء الاسمان الجليلان المذيّل بهما الفاصلة مؤكَّدين بـ (أنّ)، والجملة الاسميّة؛ لأنّها جاءَت تعريضًا بأولئك الّذين غيّروا وبدّلوا في دين الله، فاستحقّوا ما استحقّوه منَ العذاب.

في هذا التّوكيد تَسْريَةٌ لقلوب الفئةِ المؤمنةِ الصّابرةِ، وطمأنةٌ لهم

بلاغةُ أسلوب التّذييلِ، في جملةِ الفاصلةِ:

أوجز أبو السّعود مناسبةَ قوله: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ لسابقتها، وسرَّ تذييلها بهذين الاسمين الجليلين، فذكر أنّ الجملةَ "عطفٌ على ﴿بِأَنَّ ٱللَّهَ﴾ إلى آخره داخل معه في حيّزِ التّعليل؛ أي: وبسبب أنّه تعالى سميعٌ عليمٌ، يسمعُ ويعلمُ جميعَ ما يأتون وما يذرون منَ الأقوالِ والأفعالِ السّابقةِ واللّاحقةِ، فيرتِّبُ على كلٍّ منها ما يليقُ بها من إبقاء النّعمة وتغييرها"[1].

كمالُ صفاتِ اللهِ تعليلٌ لإبقاء النّعمِ وزوالها

نكتةُ التّعبيرِ عنِ الاسمين بصيغة (فعيل):

في صوغهما على هيئة (فعيل) دلالةُ ثبوت الصّفتين فيه تعالى؛ لما تدلّان عليه منَ الشّدّةِ، والمبالغةِ في الوصف بما تحصّله من صفات السّمعِ والعلمِ أكملِها، وأتمِّها جلّ وتعالى وصفُه، وقدرتُه.

الوصفان (سميعٌ عليمٌ) ثابتان فيه تعالى بيقين

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

التّغيير والتّبديل:

الاستبدال: أخذُ الأوّل بدلَ الثّاني بعد أن كان حاصلًا له أو في شرف الحصولِ، فهو يُطلَقُ على تبديل ذاتٍ بذاتٍ كتبديل الدّنانيرِ دراهمَ، وعلى تبديل صفةٍ بأخرى كبدّلتُ الخاتمَ حلقةً[2].

والتّغيير: تبديلُ شيءٍ بما يضادُّه، فقد يكون تَبْديلَ صورةِ جسمٍ كما يُقال: غيّرتُ داري، ويكون تَغْييرَ حالٍ وصفةٍ، ومنه تغييرُ الشّيب؛

تغييرُ النّعمةِ إبدالُها بضدّها؛ من النّقمة وسوء الحال

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/105.

(2) القونويّ وابن التّمجيد، حاشيتان على البيضاويّ: 9/412.

أي: صباغه، وكأنّه مشتقٌّ منَ الغير وهو المخالفُ، فتغييرُ النّعمة إبدالُها بضدّها؛ وهو النّقمةُ وسوءُ الحال؛ أي: تبديلُ حالةٍ حسنةٍ بحالةٍ سيّئةٍ[1]. ومن هنا فهو أنسبُ لسياق تغيير النّعمةِ إلى نقمةٍ، وتغيّرِ سوءِ الخُلُقِ والحالِ بحسنهما.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/45.

﴿كَدَأۡبِ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ فَأَهۡلَكۡنَٰهُم بِذُنُوبِهِمۡ وَأَغۡرَقۡنَآ ءَالَ فِرۡعَوۡنَۚ وَكُلّٞ كَانُواْ ظَٰلِمِينَ ٥٤﴾

[الأنفال: 54]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الـعـلاقـة بين أسـبـاب تـغـيّر الـنّـعـم، ومـا حلّ بآل فرعون والّـذيـن مـن قبلهم من هلاك

لمّا بيَّن ما أنزله بأهل بدر منَ الكفّار عاجِلًا وآجِلًا، أتبعه بأنْ بيَّن أنَّ هذه طريقتُه وسنّتُه ودأبُه في الكلِّ فقال: ﴿كَدَأۡبِ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ﴾[1]، فهو استئنافٌ مَسوقٌ لبيان أنّ ما حلَّ بهم منَ العذاب بسبب كفرِهم لا بشيءٍ آخرَ من جهة غيرِهم، وذلك بتشبيه حالهم بحال المعروفين بالإهلاك بسبب جرائمِهم؛ لزيادة تقبيحِ حالِهم، وللتّنبيه على أنّ ذلك سنّةٌ مُطَّرِدةٌ فيما بين الأمم المهلَكةِ؛ أي: شأنهم الّذي استمرّوا عليه ممّا فعلوا وفُعِل بهم منَ الأخذ، كدأب آلِ فرعونَ المشهورين بقباحةِ الأعمالِ وفظاعةِ العذابِ والنّكالِ[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿كَدَأۡبِ﴾: الدّال، والهمزة، والباء أصلٌ واحدٌ يدلُّ على ملازمةٍ ودوامٍ. والدّأبُ: العادةُ المستمرّةُ دائمًا على حالة والشَّأنُ، ودأبَ فلانٌ في عمله؛ أي: جدَّ وتعِب. وأصله: المبالغة في السَّير، والدّأبُ في الآية: العادةُ والشّأنُ. ودَأبُ آلِ فِرعَونَ؛ أي: شأنُهم وعادتُهم الّتي يستمرّون عليها[3]. ويرى الأزهريّ أنّ معنى "دَأبَ هَهُنا اجتهادُهم في كفرهم وتظاهرُهم على النَّبيّ ﷺ كتظاهر آلِ فِرعَونَ

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 15/495، وابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 9/543.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/103.
(3) الخليل، العين، والجوهريّ، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (دأب).

على موسى عليه السلام"[1]. ودأبُهم عند أهل التّفسيرِ عادتُهم وعملُهم الّذي دأبوا فيه؛ أي: داوموا عليه، وواظبوا، وكَفَروا[2].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

عقوباتُ السّابقين من آل فرعون الظّالمين، عظاتٌ وعبر للّاحقين

إنّ شأنَ تكذيبِ هؤلاء المشركين الّذين حاربوك يا محمّد، كشأن تكذيبِ آلِ فرعونَ، ومَن تقدّمهم منَ الأقوام السّابقةِ، كقوم نوحٍ وقوم هودٍ، فكانت نتيجةُ ذلك أن أهلكَهم اللّهُ بسبب ما ارتكبوه من ذنوب، وبسبب استعمالهم النِّعَمَ في غير ما خُلِقَت له، وكلٌّ منَ الأقوام المذكورين، ومَن على شاكلتهم في الكفر والضّلال كانوا ظالمين لأنفُسِهم بكفرهم، ولأنبيائهم بسبب محاربتهم لهم، وإعراضهم عنهم، مع أنّ الأنبياءَ ما جاءوا إلّا لهدايتهم[3].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ الفصلِ:

ما حلَّ بآل فرعون من نقمةٍ، كان بسبب الكفر والظّلم والغرور

الجملةُ استئنافٌ سيق؛ لبيان أنّ ما حلَّ بهم منَ العذاب بسبب كفرِهم لا بشيءٍ آخرَ مِن جهة غيرِهم، ولتقرير ما سيق له الاستئنافُ الأوّلُ، ويصحُّ تقديرُ كونِها اعْتِراضًا[4].

بلاغةُ الإيجازِ بالحذف:

وضوحُ المعنى مظنّةُ الإيجاز بالاستغناء بالمذكور

قوله: ﴿كَدَأْبِ﴾ خبر لمبتدأ محذوف، تقديره: (دأبُ هؤلاء مثل دأب آلِ فرعونَ)، وهو حذفٌ تابعٌ للاستعمال في مثل هذه الحالات، فإنّ العربَ إذا تحدّثوا بشيءٍ، ثمّ جاؤوا بخبرٍ دون مبتدأ، عُلِمَ أنّ المبتدأ محذوفٌ، ويُقدَّرُ بحسب الكلام[5].

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (دأب).
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/229.
(3) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 126 - 129/6.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/29.
(5) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/229، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/43.

وجوّزوا في (دأب) أن يكونَ في محلّ النّصبِ على أنّه نعتٌ لمصدرٍ محذوفٍ؛ أي: حتّى يغيّروا ما بأنفسهم تَغْييرًا كائِنًا كدأبِ آلِ فرعونَ؛ أي: كتغييرهم، على أنّ دَأْبَهُم عبارةٌ عمّا فعلوه فقط كما هو الأنسبُ بمفهوم الدّأبِ[1].

بلاغةُ التّشبيهِ في السّياق:

التّشبيهُ الأوّلُ لمشابهتهم للسّابقين، والثّاني لبيان سُنّةِ التّغييرِ الكونيّ والاجتماعيّ

شبّه دأبَهم بدأب المذكورين، لكنْ لا بطريقِ التّكريرِ المحضِ، بل بتغيير العُنوانِ، وجعلِ الدّأبِ في الجانبين عبارةً عمّا يلازمُ معناه الأوّلَ من تغيير الحالِ وتغييرِ النّعمة، أخذاً ممّا نطقَ به قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمۡ يَكُ مُغَيِّرٗا نِّعۡمَةً﴾ الآية؛ أي: دأبُ هؤلاء وشأنُهم الّذي هو عبارةٌ عنِ التّغييرَين المذكورين، كدأب أولئِك حيث غيّروا حالَهم فغيّر اللّهُ تعالى نعمتَه عليهم، فقولُه تعالى: ﴿كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ﴾ تفسيرٌ لدأبهم الّذي فعلوه من تغييرهم لحالهم، وقوله تعالى: ﴿فَأَهۡلَكۡنَٰهُم﴾ تفسيرٌ لدأبهم الّذي فُعِلَ بهم من تغييره تعالى ما بهم من نعمته، وأمّا دأبُ قريشٍ فمستفادٌ منه بحكم التّشبيه، فللهِ درُّ شأنِ التّنزيلِ حيث اكتَفى في كلٍّ منَ التّشبيهين بتفسير أحدِ الطّرفين[2]، وهذا رأيُ الطّيبيِّ فالتّشبيهُ الثّاني عنده مُفصّلٌ لما أُبهمَ منَ التّشبيه الأوّلِ، وليس تشبيهًا جديدًا، قال في حاشيته على الكشّاف: فعُلِمَ من هذه الآية: أنّ تلك النّعمةَ هي نعمةُ الآياتِ المنزَلةِ، وأنّ ذلك الكفرانَ تكذيبُها وجحودُ الحقّ، وقوله: ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمۡۚ﴾ مشتملٌ لجميع أنواعِ التّعذيبِ، وقوله: ﴿وَأَغۡرَقۡنَآ ءَالَ فِرۡعَوۡنَۚ﴾ نصٌّ على تعيين العذابِ.

وزعم بعضُهم أنّ هذا ليس بتكرير؛ لأنّ معنى الأوّل حالُ هؤلاء كحال آلِ فرعونَ في الكفر والتّكذيب، فأخذهم بالعذاب، ومعنى

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/105.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/105.

الثّاني حالُ هؤلاء كحال آلِ فرعونَ في تغييرهم النّعم، وتغيير اللّه حالهم بسبب ذلك التّغيير، وهو أنّه أغرقَهم، بدليل ما تقدّم عليه، وهو قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمۡ يَكُ مُغَيِّرٗا﴾ الآية، والنّظمُ يأبى هذا القولَ؛ لأنّ وجهَ التّشبيهِ في التّشبيهِ الأوّلِ هو قوله: ﴿كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمۡۚ﴾، فشبّهَ حالَ كفّارِ قريشٍ بحال فرعونَ ومَن قبله، والوجه الاخر للتّشبيه الكفرُ المُرتَّبُ عليه العقابُ، فكذلك ينبغي أن يكونَ الوجهُ في التّشبيه الثّاني هو قوله: ﴿كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ فَأَهۡلَكۡنَٰهُم بِذُنُوبِهِمۡ﴾، لأنّه مثلُه[1].

وبعضُ المفسّرين رأى أنّ التّشبيهين ليسا من بابٍ واحدٍ، مثل صاحب المحرّر الوجيز حيث يقول: "وهذا التَّكريرُ هو لمعنًى ليس للأوّلِ، إذِ الأوّلُ دأبٌ في أنْ هلكوا لمّا كفروا، وهذا الثّاني دَأْبٌ في أنْ لم تُغَيَّرْ نعمَتُهم حتّى غيَّروا ما بأنفسهم[2]"، وكذلك القاضي البيضاويّ حيث قال: "الأوّل: تشبيهُ الكفرِ والأخذ، والثّاني: تشبيهُ التّغييرِ في النّعمة بسبب تغييرهم ما بأنفسهم"[3]، والّذي يبدو أنّ التّشبيهين، وإن ظهرا لأوّل وهلةٍ مكرّرَيْنِ إلّا أنّ سياقَ كلِّ تشبيهٍ ووجهَ الشّبهِ فيهما مُختلفٌ تمامًا، فالتّشبيهُ الأوّلُ جاء في سياق مشابهتهم للأقوام السّابقة في أنّ ما أصابَهم كان بسبب كفرهم وعنادهم، وليس بسبب ظلمِ اللّه تعالى لهم، فوجهُ الشّبه بين مشركي مكّة ومَن سبقهم هو في ظلمهم أنفسهم بسبب ما قدّمته أيديهم، لا بسبب شيءٍ آخر، فاستحقّوا على إثر هذا أن يؤاخذوا بالعقوبة بسبب هذه الذّنوب، وسياقُ التّشبيه الثّاني يتعلَّقُ بسنّةِ التّغييرِ الكونيِّ الّتي ربطَها الحقُّ ﷻ بسنّة التّغيير الاجتماعيّ، فإنّ صلاحَ الكونِ منوطٌ بصلاح النّفوس، وهذا ما ذكره الحقُّ في مواضعَ كثيرةٍ، يقول تعالى: ﴿وَأَلَّوِ ٱسۡتَقَٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسۡقَيۡنَٰهُم مَّآءً غَدَقٗا ١٦﴾ [الجنّ: 16]، وقال: ﴿وَلَوۡ أَنَّ أَهۡلَ ٱلۡقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ لَفَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَرَكَٰتٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذۡنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ٩٦﴾ [الأعراف: 96]، ووجهُ الشّبهِ هنا بينهم وبين مَن سبقوهم هو في تكذيبهم بهذه السّننِ الإلهيّةِ والقوانينِ الكَوْنيّة، فاستحقّوا على إثرها الإهلاكَ والإغراقَ، وكأنّه يقول لهم: إنّ مَن يُكذِّبُ بهذه السّنن تنقلبُ عليه قوانينُها، فبدلًا من أن تكونَ قوانينُ الكون مسخّرةً لتكون سببًا في نجاتهم واستقرارهم في الأرض، تصبح سببًا في إهلاكهم وإغراقهم واللّه أعلم.

(1) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 7/134.

(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز، ص: 809.

(3) البيضاويّ، حاشية محيي الدّين بن شيخ زادة للقونويّ: 4/406 - 407.

سرُّ التّعبيرِ بالآل دون غيره:

أوثر لفظُ الآل ليشملَ الأتباعَ كلَّهم

عبّر بـ﴿ءَالِ فِرۡعَوۡنَ﴾؛ ليشملَ ملأَهُ، وشرفاءَ قومه، وكبراءَهم، وجميعَ أتباعه، ومَن آلَ إليه في دينٍ، أو مَذهَبٍ، أو نسبٍ؛ لأنّ الآلَ لا تُطلَقُ إلّا على الأتباعِ كلِّهم، مع إيمانهم بالمتبوع، واتّباع منهجِه، وشريعتِه، وسيرتِه[1].

فائدةُ تخصيصِ ذكرِ آلِ فرعونَ مِن بينهم:

كفرُ فرعون وآله، هو أشنعُ الكفر وأفظعُه

وجهُ تخصيص ذِكرِ ﴿ءَالِ فِرۡعَوۡنَ﴾ دون غيرهم، وذِكرِ الّذي أُهلِكوا به، وهو إغراقهم؛ لأنّه انضمّ إلى كفرهم دعوى الإلهيّةِ والرّبوبيّةِ لغير الله تعالى، فكان ذلك أشنعَ الكفر وأفظعَه[2].

آلُ فرعون أقربُ إلى كفّار قريشٍ من غيرهم، وفيه تذكيرٌ لأهل الكتاب منهم

خُصّوا بالذّكر؛ لكونهم أقربَ إلى هَؤُلاءِ الكفّار من غيرهم ممّن كان قبلهم، ألا ترى أنّه قال: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ رَسُولٗا شَٰهِدًا عَلَيۡكُمۡ كَمَآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ رَسُولٗا ١٥﴾ [المزّمّل: 15]، أو أن يُذكرَ أهلُ الكتاب منهم؛ لكونهم كانوا ينكرون بعثَ الرُّسلِ من غير ملّتِهم، ويقولون: إنّ محمّدًا أمّيٌّ بُعِثَ إلى الأمّيّين مثلِه، فأجاب: إنَّ موسى لم يكُنْ منَ القبط، ومع ذلك بُعِثَ رسولًا إليهم؛ وعليه فإنّ مُحَمَّدًا، وإن كان أمّيًّا، فإنّه بُعِثَ إلى الأمّيّين وغيرهم[3].

في ذكر هلاكِ أشهر الملوكِ الظّلمةِ طغيانًا عِبرةٌ، ورهبةٌ، وردعٌ

وخُصَّ آلُ فرعونَ بذكر هلاكهم؛ لأنّ فرعونَ كان أشهرَ ملوكِ عصرِهم، وأشدَّهم طغيانًا عن رعيّتِه، وأرهبَهم، وأظلمَهم، فذِكْرُهُ للعرب، وقد أهلكه اللّهُ تعالى بالغرقِ، أرْهبُ لنفوسهم، وأشَدُّ على غرورهم، وأرْدعُ لطغيانهم، وفوق ذلك أغرقَه اللّهُ تعالى بأمرٍ خارقٍ للعادةِ لم يكن في حسبانهم، إذِ انفلقَ البحرُ فكان كلُّ فرقٍ كالطّودِ العظيمِ، ثمّ انطبقَ عليهم بما لم يعهدوا، ولم يحسبوا،

(1) الرّاغب، المفردات: (آل)، والسّمين، عمدة الحفّاظ: 1/140، ورشيد رضا، تفسير المنار: 9/74 - 75.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/338.
(3) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنّة: 5/241.

فهو يُذكِّرُ المشركين بأنّ اللهَ تعالى يأتيهم من حيثُ لم يحتسبوا، وأنّه سيهزمُهم من حيثُ لا يشعرون، بل يحسبون في أنفسهم أنّهم الغالبون، ويوسوسُ لهم الشّيطانُ بأنّهم لا غالبَ لهم[1].

الذّكرُ في مواضع الخيبةِ إذلالٌ

وفضلًا عمّا ذُكِرَ فإنّ موردَ الذّكرِ في مَواطنِ الخيبةِ، والعقوبةِ، والعذابِ، والإهلاكِ إذلالٌ ومهانةٌ يناسبه التّصريحُ، فعقابُ هؤلاء الكفّار بأنواع العقوبةِ لِما ارتكبوه من تنوّع الزّلّاتِ، كما تنوّعت من آلِ فرعونَ الذّنوبُ فنوّع لهم العقوبةَ[2].

علّةُ العطفِ بحرف (الواو):

اجتمعَ آلُ فرعونَ ومَن قبلهم في تكذيب آياتِ اللهِ

وصلَ بين جملتي ﴿ءَالِ فِرۡعَوۡنَ﴾، و(الّذين من قبلهم) بالعاطف (الواو) الدّالّة على مُطلَقِ الجمعِ مع المشاركة في الحكم، دون (الفاء)، أو (ثمّ)؛ للدّلالة على مُطلَقِ الجمعِ مع المشاركةِ في الحكم من غير اقتضاءِ ترتيبٍ، ممّا يسوّغُ أن يكونَ المتأخّرُ ذكرًا مُتقدِّمًا معنى، والعكس بالعكس كذلك.

وجهُ تشديدِ فعل التّكذيب، وإسنادِه إلى واو الجماعة:

الإصرار على الكذب وممارسته؛ أودى بهم إلى عاقبة مُزْرِيَةٍ

بالغَ في وصف كذبهم بالتّعبير عنِ الفعل مُشَدَّدًا، مُصاغًا بهيأة الماضي الدّالّ على الوقوع، والتّحقّق، والإصرارُ على شنيع فعلِ التّكذيب للخالق غيٌّ وضلالٌ يستحقُّ العقابَ، ويستوجبُ الإهلاكَ، ودلَّت واو الجماعة على اجتماعهم على الكذب، وشموله جميع المذكورين. قال تعالى: ﴿فَأَغۡرَقۡنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعٗا ١٠٣﴾ [الإسراء: 103]، فالضّميرُ في ﴿كَذَّبُواْ﴾، وكذلك في ﴿فَأَهۡلَكۡنَٰهُمۡ﴾، عائدٌ على المشبّه والمشبّه به في ﴿كَدَأۡبِ﴾؛ ليشملَ كلَّ المُكَذِّبين السّابقين.

سرُّ جمعِ لفظ (آيات)، في السّياق الحكيم:

تعدّدُ الآياتِ قطعٌ للعذر، ومن أنذر فقد أعذر

جمعُ الآياتِ في قوله: ﴿بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ﴾ دليلُ تعدّدِها، وتنوّعِها،

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 6/3166.
(2) القشيريّ، لطائف الإشارات: 1/633.

رحمةً منَ اللّه، وقطعًا للعذر، وفي ذلك " زيادةُ دلالةٍ على كفران النّعم وجحود الحقّ"[1].

فائدةُ تعريفِ الآياتِ بالإضافة:

عِـظَـمُ الآيـاتِ، بعِظَمِ صانعها

تعريفُ الآيات بإضافتها إلى لفظ الرّبوبيّةِ دليلُ عظمتِها، وصدقِها، ونفعِها؛ بوصفه مُنعمًا بها عليهم، راعيًا لمصالحهم من حيث إنّه هو المُرَبّي لهم بنعمه، ولهذا ذكرَ فيها اسمَ الرّبِّ مضافًا إليهم بدلَ اسمِ الجلالةِ هناك - فيدخُلُ في ذلك تكذيبُ الرّسلِ ومعاندتُهم وإيذاؤُهم وكفرُ النّعم المُتعلِّقة ببعثهم والسّابقةِ عليها، وفي الجزاء على ذلك بعذاب الدّنيا[2]. ومن فوائد نسبةِ الآياتِ المُكذَّبةِ إلى ربّهم: بيانُ فظاعةِ التّكذيبِ؛ لأنّهم كذّبوا بآيات ربِّهم الّذي خلقَهُم، وكوَّنَهُم، وربّاهُم، وهو العليمُ بما يناسبُهُم من أدلّةٍ، وأنّ هذه الآياتِ منَ المتفضَّلِ عليهم بنعمة الوجودِ والتّنميةِ، وإعطائِهم القوّةَ الّتي طغَوا بها[3].

سرُّ إيثارِ وصفِ الرّبوبيّة:

لا شناعةَ لفعل أشدُّ منَ الاجتراء على الخالق في موضع الشّكر

ذكرَ وصفَ الرّبوبيّة هنا دون الاسم العلم لزيادة تفظيع تكذيبهم؛ لأنّ الاجتراءَ على اللّه مع ملاحظة كونه ربًّا للمجترئ، يزيدُ جراءَته قبحًا؛ لإشعاره بأنّها جراءةٌ في موضعِ الشّكرِ؛ لأنّ الرّبَّ يستحقُّ الشّكرَ[4].

وفي مقام الرّبوبيّةِ مزيدٌ منَ النّعي عليهم بأنّ تكذيبَهم صدرَ بحقِّ مَن ربّاهم، ودلائلُ تربيته وإحسانه كثيرةٌ مُتَتاليَةٌ، فقابلوها بكفران النّعمةِ وجحود الحقِّ فاستحقّوا الإهلاكَ والإغراقَ[5].

(1) الطّيّبيّ، فتوح الغيب: 7/133.
(2) رضا، تفسير المنار: 10/41.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 6/3165.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/46.
(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/338.

دلالةُ (الفاءِ) العاطفة في السّياق:

تضافرُ الذّنوب، مظنّةُ العقاب من علّام الغيوب

الفاءُ في قوله سبحانه: ﴿فَأَهۡلَكۡنَٰهُم بِذُنُوبِهِمۡ﴾ عاطفةٌ؛ لربط ما بعدها على ما قبلها؛ أي أنّه بسبب تكذيبِهم أهلكهم اللّهُ تعالى بسبب هذه عقابًا منَ اللّه تعالى، ولأنّ الذّنوبَ المتضافرةَ يترتّبُ عليها الهلاكُ لا محالة[1]، وعملُها التّعقيبُ والتّرتيبُ أفادَ سرعةَ وقوعِ الأخذِ بهم.

معنى حرف (الباء) في شبه الجملة ﴿بِذُنُوبِهِمۡ﴾:

التّلبّس بالذّنوب، سببُ أخذ كلّ عاصٍ، بالعقاب المطلوب

الباء لتأكيد ما أفادته الفاءُ منَ السّببيّةِ، مع الإشارةِ إلى أنَّ لهم مع كفرهم ذنوبًا أُخَرَ لها دخلٌ في استتباع العقابِ، ويجوزُ أن يكونَ المرادُ بذنوبهم معاصيَهم المتفرِّعةَ على كفرهم، فتكونُ الباءُ للملابسة؛ أي: فأخذهم مُلتبِسين بذنوبهم، غيرَ تائبين عَنْها، فدأبُهم مجموعُ ما فعلوا وفُعِل بهم لا ما فعلوه فقط[2].

وجهُ إيثارِ لفظِ الإهلاكِ دون الأخذ:

مآلُ الأخذ الإهلاكُ، وليس بعد وقوعه من ادّراك

عبّرَ بالإهلاك عوضًا عن لفظ (الأخذ) المُتقدِّم ذكرُهُ في الآية [52]؛ ليفسّرَ الأخذَ بأنّه آلَ إلى الإهلاك، وزيدَ الإهلاك بيانًا بالنّسبة إلى آلِ فرعونَ بأنّه إهلاكُ الغرقِ[3].

براعةُ التّفنّنِ في الأسلوب:

الكفرُ والتّكذيبُ سببان للأخذ والإهلاك

وخولِف بين الجملتين بذكر التّكذيبِ هنا بعد ذكرِ الكفرِ في الآية [52] تفنّنًا في الأسلوب، وزيادةً للفائدة، فالكفرُ والتّكذيبُ سببان للأخذ والإهلاك[4].

الحكمةُ في تكرار قوله: ﴿ءَالِ فِرۡعَوۡنَ﴾:

فائدةُ التَّكرارِ أنّه تعالى ذكرَ في الآية الأولى الأخذَ بالذّنوب

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 6/3165.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/104.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/46.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/46.

والتّعذيب، ولم يبيّن ما كان ذلك العذاب، فبيّنَ في الآية الأخرى أنّ ذلك العذابَ هو الإهلاكُ والاستئصالُ؛ إذ قال: ﴿فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَۚ﴾؛ فالكلامُ الثّاني جرى مَجرَى التّفصيلِ للكلامِ الأوّلِ؛ لأنّ الآيةَ الأولى فيها ذكرُ أخذِهم، وفي الآية الثّانيةِ ذكرُ إغراقِهم، فهذه تفسيرٌ للأولى[1]، وعلّةُ التّفصيلِ أنّه مقامُ ذمٍّ وهو كالمدح، والبلاغةُ فيه الإطنابُ[2]، ولقصد التّأكيدِ، والتّسميعِ، وتقريرِ الإنذارِ والتّهديدِ[3]، فقد ذكر في الآية الأولى أنّهم كفروا بآيات اللّه، وفي الآية الثّانية أنّهم كذّبوا بآيات ربّهم؛ ففي الآية الأولى إشارةٌ إلى أنّهم أنكروا آياتِ اللّهِ وجحدوها، وفي الآية الثّانيةِ إشارةٌ إلى أنّهم كذّبوا بها مع جحودِهم لها وكفرِهم بها، وفي ذلك زيادةٌ في الدّلالة على كفران النّعمِ، وجحودِ الحقِّ، وفي ذكر الإغراقِ بيانٌ للأخذ بالذّنوب[4]؛ فالأولى لسببيّة الكفر، والثّانية لسببيّة التّغيير[5].

في ذكر الإغراق بيانٌ للأخذ بالذّنوب الّتي تغرق القلب قبل البدن

وثمّة فائدةٌ أخرى في تكرار ذكرهم؛ وهي تأكيدُ الإعلام بأنّه لا يُهمَلُ المُكلَّفُ على الدّوام، وإن أمْهَلَهُ حينًا ودهرًا[6].

بلاغةُ الالتفاتِ، منَ الغيبة إلى الحضور:

في الكلام التفاتٌ منَ الغيب إلى الحاضر، والإسنادُ إلى اللّه تعالى بإسناد الإهلاكِ إليه ﷺ لبيان تأكّدِ الوقوعِ؛ لأنّه منَ اللّه تعالى القاهرِ فوقَ عبادِه العزيزِ الحكيمِ، ولتربية المهابةِ في النّفس، وللتّذكير بالرّهبة منَ اللّه تعالى[7].

حكمُ الله واقعٌ، والتّذكيرُ بالرّهبة منه واجبٌ

(1) الخازن، لباب التّأويل: 3/43، والماتريديّ، تأويلات أهل السّنّة: 5/241 - 242.
(2) الصّاويّ، حاشية على تفسير الجلالين، ص: 708.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/46.
(4) الخازن، لباب التّأويل: 3/43.
(5) الشّربينيّ، السّراج المنير: 1/577.
(6) القشيريّ، لطائف الإشارات: 1/633.
(7) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 6/3165.

وفي الالتفاتِ إلى نونِ العظمةِ في (أهلكنا) جَرْيٌ على سنن الكبرياءِ؛ لتهويلِ الخَطبِ[1].

بلاغةُ عطفِ الجُمل، وأثره في السّياق:

الإشعار بالعطف والاتّساق، كمالُ هولِ الإغراقِ

عطفُ قوله تعالى: ﴿وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ﴾ على ﴿فَأَهْلَكْنَٰهُم﴾ مع اندراجه تحته؛ للإيذان بكمالِ هولِ الإغراقِ وفظاعتِه كعطف جبريلَ عليه السلام على الملائكة[2]. وهو من عطف الخاصِّ على العامّ للإشادة بجرائمِ آلِ فرعونَ حتّى كأنّها مغايرةٌ لجرائم كلِّ الأقوامِ الّذين سبقوهم.

بلاغةُ التّشابه اللّفظيّ بين آية آل عمران، وآيتي الأنفال:

علّةُ اختلافِ النّظمِ بين الآيات الثّلاث، اختلافُ السّياق الّذي وردَت فيه كلُّ آيةٍ

قد شابه نظمُ هاتين الآيتين هنا في الأنفال نظمَ آيةٍ أخرى في سورة آل عمران، قال تعالى: ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١١﴾﴾ [آل عمران: 11].

وقد حاول صاحبُ ملاك التّأويل أن يعلّلَ بعضَ أسبابِ الاختلافِ في نظم الآياتِ الثّلاثِ بما يأتي: آية آل عمران والآية [54] منَ الأنفال ذُكِرَ فيهما التّكذيبُ، ففي سورة آل عمران تقدّم قبلَها الحديثُ عن تنزيل الكتبِ الثّلاثةِ، والإشارةُ إلى ما تضمّنَتهُ منَ الهُدى والفرقان، فالتّكذيبُ ناسبَها، وفي الأنفال جاء التّكذيبُ؛ لأنّه سبقَها بآيتين الحديثُ عنِ الكفر، فعدل لثقل التّكرّرِ مع القرب، وليحصلَ وسمُهُم بالكفر والتّكذيب، وجيءَ بالاسم الظّاهر (اللّه) في الآية [52] منَ الأنفال فقال: ﴿كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾؛ لتقدُّم ذكرِ الملائكةِ في قوله: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ بنسبةِ الفعلِ للملائكة، وتقدّم أيضًا: ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾، بينما في آل عمران لم يتقدّمها ذكرُ فعلٍ لغير اللّه، ولا نسبةُ شيءٍ لسواه، فجيءَ بقوله:

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/29.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/29، والآلوسيّ، روح المعاني: 10/31.

﴿كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ [آل عمران: 11] على طريقة الالتفاتِ، وفي الموضعِ الأوّلِ منَ الأنفال: ﴿كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾؛ ليُعلمَ أنّ الأمرَ له ﷻ، وأنّ الملائكةَ مسخّرون بأمره وفعلُهم مِن خلقِه، وتَزْيينَ الشّياطين بقدره، وقيل في الثّانية: ﴿كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾؛ ليجري مع ما تقدّمه مُتّصلًا به من قوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ﴾، فذكر ابتداءَه بالنّعم، فناسبه ذكرُ ملكيّته سبحانَه لهم بقوله: ﴿بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾، وأمّا الأخذُ بالذّنوب في آل عمران والآيةِ الأولى منَ الأنفال دون الموضع الثّاني منَ الأنفال: ﴿فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ﴾، فإنّه جاء هكذا دفعًا للتّكرار؛ لأنّه سبقها الحديثُ عنِ الأخذ بالذّنوب، وأمّا تباينُ الحديث عن شدّة العقابِ ففي آل عمران: ﴿وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ۝١١﴾ [آل عمران: 11]؛ لأنّه لم يسبقها ما سبق آيةَ الأنفال الأولى منَ الحديث عن قول الشّيطان: ﴿لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ﴾؛ فقوبِل قولُه المُضمَحلُ بإسناد القوّة لله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾؛ ولذلك فصّل العقابَ في ثانية الأنفال فقال: ﴿فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُواْ ظَٰلِمِينَ﴾، وهو آخرُ موضعٍ وقع التّذكيرُ فيه بعبادة آلِ فرعونَ في تكذيبهم، وأخذِهم بكفرهم[1].

ولا شكّ أنّ كثيرًا من توجيهاته سديدٌ مقبولٌ، وبعضها لا يخلو من تكلّفٍ، فانفرادُ الآيةِ الأولى منَ الأنفال بقوله: ﴿كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ سبقها الحديثُ عن توفّي الملائكةِ للّذين كفروا، وسبقها الحديثُ كثيرًا عن فئة الكافرين في مقابل الفئة المؤمنة، فناسب أن يسِمَهم بالكفر، وبعدها بآيتين يبيّنُ نوعَ هذا الكفر، وأنّه كان تكذيبيًّا، ولذلك خصّص في الآية الثّانيةِ الأخذَ بالإهلاك أيضًا.

يقول ابنُ عاشور: "فأمّا المُخالَفَةُ بين ﴿كَذَّبُواْ﴾ [آل عمران: 11] و﴿كَفَرُواْ﴾؛ فلأنّ قَومَ فِرعَونَ والّذينَ مِن قَبلِهم شارَكوا المُشركينَ في الكُفرِ باللّه وتَكذيبِ رُسُلِه، وفي جَحدِ دَلالَةِ الآياتِ على الوَحدانيَّةِ وعلى صِدقِ الرَّسولِ ﷺ، فذُكِروا هنا ابتِداءً بالأفظَعِ مِنَ الأمرَينِ، فعُبِّرَ بالكفر بالآياتِ عَن جحد الآياتِ الدّالَّةِ على وحدانيَّةِ اللّهِ تعالى؛ لأنّ الكُفرَ أصرَحُ في إنكارِ صِفاتِ اللّهِ تعالى. وقَد عُقِّبَتْ هذه الآيَةُ بالّتي بَعدَها، فذُكِرَ في الّتي بَعدَها التَّكذيبُ

(1) ابن الزّبير، ملاك التّأويل: 1/79.

بالآياتِ؛ أي: التَّكذيبُ بآياتِ صِدقِ الرَّسولِ ﷺ، وجَحدُ الآياتِ الدّالَّةِ على صِدقِه. فأمّا في سورَةِ آلِ عِمرانَ [11] فقَد ذُكِرَ تَكذيبُهُم بالآياتِ؛ أي: الدّالَّة على صِدقِ الرَّسولِ ﷺ؛ لأنّ التَّكذيبَ مُتَبادِرٌ في مَعنَى تَكذيبِ المُخبِر، لِوُقوعِ ذلك عَقِبَ ذِكرِ تَنزيلِ القُرآنِ، وتَصديقِ مَن صَدَّقَ به، وإلحادِ مَن قَصَدَ الفِتنَةَ بمُتَشابهِه، فعُبِّرَ عَنِ الّذينَ شابَهوهُم في تَكذيبِ رَسولِهم بوَصفِ التَّكذيبِ. فأمّا الإظهارُ هُنا في مقامِ الإضمارِ فاقتَضاهُ أنَّ الكُفرَ كُفرٌ بما يَرجِعُ إلى صِفاتِ اللّهِ، فأُضيفَتِ الآياتُ إلى اسمِ الجَلالَةِ؛ ليَدُلَّ على الذّاتِ بعُنوانِ الإلَهِ الحَقِّ، وهو الوَحدانيَّةُ"[1].

غرضُ التّنكيرِ في لفظ ﴿وَكُلٌّ﴾، من الآية الكريمة:

المرادُ بـ﴿وَكُلٌّ﴾؛ أي: كلٌّ منَ الفرق المذكورين، أو ﴿وَكُلٌّ﴾ من هؤلاء وأولئك، أو ﴿وَكُلٌّ﴾ من آل فرعونَ وكفّار قريش[2]، والأولى الحملُ على العموم، وتنوين ﴿وَكُلٌّ﴾ للتّعميم؛ تعويضٌ عنِ المضاف إليه، أي: كلُّ مَن تقدّمَ منَ المذكورين؛ أي: آل فرعون والّذين من قبلهم، ولذا جاءَ بعدَها ﴿كَانُواْ ظَٰلِمِينَ﴾؛ لتعدّدهم مراعاةً للفاصلة عند مَن يقولُ بذلك[3]، ولا شكّ أنّه عند التّحقيق فإنّ العلماءَ يرضون أن تكونَ مراعاةُ الفاصلةِ مقبولةً إن كانت تبعًا للمعاني المقصودة، فتزيدها حسنًا فوقَ حُسن، ومفعول ﴿ظَٰلِمِينَ﴾ محذوفٌ للتّعميم، فيدخلُ فيه ظلمُهم لأنفُسِهم، وظلمُهم لغيرهم.

مراعاة الفاصلة للمعاني المقصودة، يزيدها حُسنًا فوق حُسنها

بلاغةُ توكيدِ الحكمِ في الفاصلة بـ(كان)، والجملة الاسميّة:

(كلٌّ) مضافٌ إلى محذوفٍ يعمُّ حكمَ اللّهِ تعالى عليه بأنّه ظالمٌ، فوصف اللّهُ تعالى العصاةَ جميعًا بأنّهم ظالمون، فقال تعالى: ﴿وَكُلٌّ

ظلمُهم ثابتٌ دائمٌ أحاط بهم، فأغرقتهم أمواجه المتلاطمة

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/43.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 10/31.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/338 - 339، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/46.

كَانُواْ ظَٰلِمِينَ﴾؛ أي: كلُّ الّذين كفروا برسل اللّهِ، وآياتِ ربِّهم كانوا ظالمين، وأكّدَ ذلك الحكمَ بـ(كان) الدّالّةِ على استمرار الظّلم، وبالجملة الاسميّةِ، وقد ظلموا أنبياءَهم بتكذيبهم مع أنَّ الحقَّ واضحٌ أبلجُ، وظلموا أنفسَهم؛ لأنّهم ارتضوا الضّلالةَ بدلَ الهداية، وظلموا المؤمنين؛ لأنّهم آذوهم، وسَخِروا منهم، وظلموهم؛ لأنّهم حاربوهم، وهم فاجرون في حربهم، وظلموهم؛ لأنّهم أشاعوا عنهم السّوءَ، وهكذا أحاطَ الظّلمُ بهم، والظّلمُ ظلماتٌ يومَ القيامةِ، واللّهُ مُنتقِمٌ جبّارٌ[1].

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الدّأب والسُّنّة:

الـدّأبُ وصفٌ لطريقة الكفّار في السّير، على نهج سابقيهم حتّى أُهلِكوا

ممّا يُلحَظُ في هذه الآيات مدار البحث أنّ آيتي الأنفال استَعملتا لفظةَ (الدّأب) الّتي وردَت أيضًا في سورة آل عمران بقوله: ﴿كَدَأۡبِ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمۡۗ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ١١﴾ [آل عمران: 11]، وفي سورة يوسف بقوله: ﴿قَالَ تَزۡرَعُونَ سَبۡعَ سِنِينَ دَأَبٗا فَمَا حَصَدتُّمۡ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلٗا مِّمَّا تَأۡكُلُونَ ٤٧﴾ [يوسف: 47]، وفي سورة إبراهيم: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ دَآئِبَيۡنِۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ ٣٣﴾ [إبراهيم: 33]؛ فيُلحظُ في استعمالاتها أنّها كانت وصفًا لحالاتٍ متتابعةٍ لا تتغيّر، فقد شبّه القرآنُ الكريمُ حالَ الكفّار بمَن يسيرُ على عادةِ مَن سبقه حذو القذّة بالقذّة دون خروجٍ عن سننهم في الحياة، مع الثّبات في طريقة السّيرِ، واستعمل القرآنُ لفظةً أخرى مقاربةً للتّعبير عن مثل هذه الحالات؛ وهي لفظةُ (السُّنّة) في وصف عادات السّابقين، فقال: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤۡمِنُوٓاْ إِذۡ جَآءَهُمُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّهُمۡ إِلَّآ أَن تَأۡتِيَهُمۡ سُنَّةُ ٱلۡأَوَّلِينَ أَوۡ يَأۡتِيَهُمُ ٱلۡعَذَابُ قُبُلٗا ٥٥﴾ [الكهف: 55]، واستعملها مضافةً إلى اللّه على

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 6/3166.

أنّها من قوانين الكونِ الكونيّةِ أو الاجتماعيّةِ، فقال: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلُۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا ٦٢﴾ [الأحزاب: 62].

فالسّنّة هي عادةٌ أيضًا مثلُ الدّأب، ولكنّها قد تكون قهريّةً، وقد تكون اختياريّةً، وقد تكون كونيّةً أو اجتماعيّةً، والدّأبُ لا يكونُ إلّا اختياريًّا من خلال الاستعمالاتِ الّتي ذكرها القرآنُ الكريمُ له، فظهر بهذا أنّ استعمالَ الدّأبِ في المواضعِ الّتي ورد فيها لا تسدُّ مَسدَّهُ كلمةُ (العادة) أو (السُّنّة).

﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ٥٥﴾

[الأنفال: 55]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

بيّن في هذه الآية وما بعدها أحكامَ التّعاملِ مع الّذين ينقضون هذه العهود، وكذلك الّذين يُخاف مِن أن ينقضوها، بعد أن تَحَدّثَ عمّا جرى مع الكافرين المعاصرين للنّبيّ ﷺ ومَن سبقوه، فالرّابطُ العامُّ الجامعُ في هذه الآيات كلِّها هو الحديثُ عنِ الكفر وأهلِه، منَ المعاهدين وغيرهم. والآيةُ هنا تعليلٌ لاتّصافهم بالظّلم في الآية السّابقة، أو استئنافٌ بيانيٌّ له؛ أي: ظلموا لأنّهم كفروا بآيات ربِّهم الّذي تفرّدَ بالإحسان إليهم[1]، ثمّ إنّه تعالى لما وصف كلَّ الكفّارِ بقوله: ﴿وَكُلُّ كَانُواْ ظَٰلِمِينَ﴾ أفرد بعضَهم بمزيّةٍ في الشّرِّ والعِنادِ[2].

المناسبة بين هلاك الكافرين، وتشبيههم بالدّوابّ، لانعدام العقل والدّين

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلدَّوَآبِّ﴾: جمع دابّة، وأصل (دبّ) يدلّ على حركةٍ على الأرض تكون أخفَّ منَ المشي، ويُقال لكلِّ مَن مشى على الأرض دابّةً[3]، وتُستعمَلُ كلمةُ (دابّة) مع كلِّ حيوانٍ، وإن اختُصَّت في التّعارفِ بالفرس، وقولُه هنا: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ﴾ عامٌّ في جميع الحيوانات[4].

المَعْنى الإجْماليُّ:

الآيةُ إخبارٌ عن قوم مطبوعين على الكفر بأنّهم لا يؤمنون؛ أصرّوا على الكفر ورسخوا فيه، فلا يتوقّعُ منهم إيمانٌ، فهم شرُّ

شرُّ النّاس مَن أصرَّ على الكفران، فأضحى كالبهائم، بلا عقل ولا إيمان

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/308.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 15/149.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (دب).
(4) الرّاغب، المفردات: (دب).

النّاسِ عند الله ﷻ، ورويَ أنّ هذه الآيةَ نزلَت في طائفةٍ من بني عبد الدّار؛ وهم يهودُ بني قريظة رهطُ كعبِ بنِ الأشرف، وظاهرُها العمومُ فيهم وفي غيرهم ممّنِ اتّصفَ بهذه الأوصاف[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ أسلوب الفصلِ:

المصرُّ على الكفر، والنّاقضُ للعهد في حكم الدّابّة العجماء

هذه الآياتُ لم تُعطَفْ على سابقتها؛ لأنّها تناولَت أحكامًا جديدةً تتعلَّقُ بأصنافٍ منَ الكافرين تربطُهم مع المؤمنين عهودٌ ومواثيقُ، فجاءَت استئنافًا ابتدائيًّا جديدًا[2]، شرعَت فيه الآياتُ ببيان أحكام خاصّةٍ بأصنافٍ محدّدةٍ منَ الكافرين، بعد أن تناولتِ الكافرين منَ المشركين ومَن سبقهم من كفّار الأممِ البائدةِ، وقد مرّ قولُ الرّازيّ: إنّه تعالى لمّا وصف كلَّ الكفّارِ بقوله: ﴿وَكُلُّ كَانُواْ ظَٰلِمِينَ﴾ أفرد بعضَهم بمَزيَّةٍ في الشّرِّ والعنادِ، فقال: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ﴾؛ أي: في حكمه وعلمه مَن حصلت له صفتان: الصّفة الأولى: الكافرُ الّذي يكونُ مُستمرًّا على كفره، مُصِرًّا عليه، لا يتغيّر عنه البتّة، الصّفة الثّانية: أن يكونَ ناقضًا للعهد على الدّوام[3]. وتحتملُ الآيةُ هنا تعليلَ اتّصافِهم بالظّلمِ في الآية السّابقةِ بحسب ما مرّ آنفًا.

بلاغةُ المؤكِّدات، في ثنايا الآية الكريمة:

كونهم دوابًّا، وصفٌ راسخٌ فيهم على مدى الأزمان

جاءَتِ الآيةُ هنا على هيئة الجملةِ الاسميّةِ المؤكَّدةِ بـ (إنّ)؛ لتعطي معاني الثّباتِ والاستقرارِ فيما تقرّرُه من قضايا وأحكام، لتبقى قاعدةً مُقرَّرةً على مدى الأزمان، مهما تبدّلتِ الظّروفُ والأحوالُ، وترسّخَ نفي إيمانِهم المستقبليِّ المُقرَّرِ في فاصلةِ الآيةِ بحسب ما سيأتي بيانه.

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/541، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/64، والخازن، لباب التّأويل: 3/43.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/46.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 15/149.

علّةُ وصفِهم بلفظ ﴿ٱلدَّوَآبِّ﴾ دون (النّاس):

مَن يجحدُ دعوةَ الإسلامِ أشبهُ بمَن لا عقلَ له

قد جُعلوا في الآية شرَّ الدّوابِّ لا شرَّ النّاسِ إيماءً إلى أنّهم بمعزلٍ من مجانستهم، وإنّما هم من جنس الدّوابِّ، ومع ذلك شرٌّ من جميع أفرادِها كما جاء في قوله: ﴿إِنۡ هُمۡ إِلَّا كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّ سَبِيلًا ۝٤٤﴾ [الفرقان: 44][1]، فوصفهم القرآنُ بهذا الوصف؛ لأنّ دعوةَ الإسلام أظهرُ من دعوة الأديانِ السّابقةِ، ومعجزةَ الرّسولِ ﷺ أسطعُ مِن أن تُطمَسَ، والدّلالة على أحقيّة الإسلام عقليّةٌ بيّنةٌ، فمَن يجحدْه فهو أشبهُ بمَن لا عقلَ له[2]. عبّرَ عنهم بالدّوابِّ، وهو اللّفظُ الّذي غلبَ استعمالُه في البهائم ذوات الأربع أو فيما يركبُ منها؛ لإفادة أنّهم ليسوا من شرار البشرِ فقط، بل هم أضلُّ من عجماواتِ الدّوابّ؛ لأنّ فيها منافعَ للنّاس، وهؤلاء لا خيرَ فيهم، ولا نفعَ لغيرهم منهم، فإنّهم لشدّةِ تعصّبِهم لجنسِهم قد صاروا أعداءً لسائر البشرِ[3].

بلاغة التّشبيهِ البليغِ:

تشبيهُهم بالدّوابّ انتفاءٌ لبشريّتهم، ومزيد التّشنيعِ عليهم

وصْفُهم بأنّهم شرُّ الدّوابِّ هو تشبيهٌ بليغٌ؛ حُذِفَت فيه أداةُ التّشبيه ووجهُ الشّبه في هذا الموضع بخلاف التّصريح بالأداة في آية سورة الفرقان المُتقدِّمة، وقد تقدّمَ في نظم الآيةِ الكريمةِ المشبّهُ به على المشبّه، والأصل: إنّ الّذين كفروا شرُّ الدّوابِّ عند الله، وفي تنوّع مظاهرِ هذا التّقديم منَ الدّلالات على التّشنيع عليهم ما فيه، حيث بدأ التّعريفَ بشرّ الدّوابِّ على أنّهم هُم، ولم يبدأ التّعريفَ بهم على أنّهم هُم شرُّ الدّوابِّ.

بلاغةُ التّقديمِ:

في التّقديمِ تشويقٌ، وإلماحٌ بأنّ الأمورَ لا تتعدّى ميزانَ الله تعالى

في تقديم ﴿شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ﴾ هنا تشويقٌ إلى معرفة مَن هُم، حيث تتوجّهُ النّفوسُ لمعرفة مَنِ استحقَّ هذا الوصفَ بأن يكونوا ليسوا دوابًّا فحسبُ؛ بل شرّ الدّوابّ.

---

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/107.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/47.

(3) رضا، تفسير المنار: 10/42.

وفي تقديم شبهِ الجملةِ الظّرفيّةِ ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ على خبر إنّ؛ إيماءٌ بأنّ الأمورَ لا توزَنُ إلّا بميزان اللّه، لا بميزان غيره، وأنّ الغايةَ القصوى في كلِّ الأمورِ ينبغي أن لا تتعدّى ميزانَ اللّه، وأفادَ ذكرُها الاحتراسَ من أن يكونَ هذا النّظرُ عند النّاس، بل هو عند اللّه كذلك، فالعنديّةُ هي في سابق علمِه وصادقِ حكمِه[1].

فائدةُ التّعبيرِ بالاسم الموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾:

التّعبيرُ بالاسم الموصول، غرضه البلاغيُّ، هنا هو الذّمّ والتّحقير

جاء بخبر إنّ اسمًا موصولًا مُبهَمًا في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ مُفتقِرًا إلى جملة صلةِ الموصولِ ﴿كَفَرُواْ﴾؛ لتزيلَ إبهامَه من ناحية، ولتدلَّ على تجدّد الكفرِ فيهم من ناحيةٍ أخرى؛ لما يُفهمُ من كونها جملةً فعليّةً، فضلًا عن أنّ التّعبيرَ بالاسم الموصول في هذا الموضع يفيدُ الذّمَّ والتّحقيرَ لهم، إذ ما من وسيلةٍ للتّعريف بهم سوى بالكفر، فليس لهم عنوانٌ غيرُهُ يُعرَفونَ به.

علّةُ إيثارِ فعلِ الكفرِ الماضي المجموع دون الوصف:

اجتمعوا على الكفر فاشتركوا في الذّمّ

عبّرَ عنهم بفعل الكفر ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ دون الوصف (الكافرون)؛ للإشارة إلى أنّهم كانوا مؤمنين، فعرض لهم الكُفْرُ، وهذا ظاهرٌ في جملة اليهودِ الّذين كفروا بمحمّدٍ ﷺ كما كفروا بمَن قبله، وهم في عرف القرآنِ متكافلون متشابهون، آخرهم في ذلك كأوّلهم[2]. وجمعه يدلُّ على شمول كلِّ الكافرين المقصودين بالكلام.

سرّ استعمال (الفاء) في الجملة، وتنوّع معانيها:

الفاء قد تحتملُ التّعليليّةَ أو غيرها، والسّياقُ هو المرجِّحُ لبعضها

تحتملُ الفاءُ هنا معانيَ متنوّعةً، كلُّها سائغٌ ومقبولٌ، إذ يمكن أن تكونَ تعليليّةً بمعنى أنّ العلّةَ في استحقاقهم هذا الوصفَ وتَمَكُّنِه فيهم، هي عدمُ إيمانِهم، ويمكن أن تكونَ الفاءُ فصيحةً تفصحُ عن كلامٍ محذوفٍ، يمكن أن يكونَ تقديرُه: إذا علمت أنّ أولئك شرُّ

(1) القشيريّ، لطائف الإشارات: 1/633.
(2) رضا، تفسير المنار: 10/42.

الدّوابّ، فاعلم أنّهم لا يؤمنون أصلًا فلا تُتعبْ نفسَك، ويمكن أن تكون عاطفةً عطفتِ الصّلةُ على الصِّلَةِ بما يُشعِرُ بمعنى الحال، كأنّه قيل: إنّ شرَّ الدّوابِّ الّذين كفروا مُصرّين على عدم الإيمان[1]، أو بما يُشعِرُ أنّ المُرادَ هو مجموعُ الصّلتين، بمعنى: إنَّ شرَّ الدّوابّ الّذين كفروا من قبل الإسلام، فاستمرّ كفرُهم فهم لا يؤمنون بعد سماعِ دعوةِ الإسلام[2]، وفي العطف تنبيهٌ على أنَّ تحقُّقَ المعطوفِ عليه يستدعي تحقُّقَ المعطوف[3].

ويُفهم من كلام بعضهم أنّ الفاءَ وقعَت هنا استئنافيّةً، كما يُفهَمُ من كلام أبي السّعود حيث يقول: "﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ حكمٌ مترتّبٌ على تماديهم في الكفر ورسوخِهم فيه، وتسجيلٌ عليهم بكونهم من أصل الطّبعِ، لا يَلويهِم صارِفٌ، ولا يَثنيهِم عاطفٌ أصلًا، جيءَ به على وجه الاعتراضِ، لا أنّه عطفٌ على ﴿كَفَرُواْ﴾، داخِلٌ معه في حيّزِ الصّلةِ[4]".

بديعُ توسّطِ النّفي في ثنايا السّيّاق:

أفادَ توسّطُ النّفي قوةَ الحُكْمِ، وجمال الإيقاعِ الصّوتيّ في الفواصل

أفاد توسّطُ النّفي في قوله: ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ بين المسند إليه المُقدَّم، والمسند الفعليِّ المُؤخّرِ في قوله: ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ تقويةَ الحكم وتوكيدَه[5]"، وقد يفيدُ التَّخْصيصَ بالقرائن، ولا قَرينَةَ موجِبَةٌ للتّخصيص ههنا، فأفادَت معنى التّأكيدِ على نفي الإيمانِ عنهم، دون التّعرّضِ لغيرهم فضلًا عمّا يضيفُه هذا التّقديمُ من إيقاعٍ صوتيٍّ جميلٍ في فواصل الآيات، من مراعاةٍ للفاصلة بعد مراعاة المعاني المرادة، فالقرآنُ لا يُقدِّمُ أو يُؤخِّرُ كلمةً لأجل الفاصلة

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 10/31.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/47.
(3) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/64.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/107.
(5) الطّيّبيّ، فتوح الغيب: 7/135.

فقط، وإنّما مدارُ الأمر قائمٌ على المعاني، وتبقى مراعاةُ الفاصلة على جلالة قدرها معنىً ثانويًّا، لا مطلبًا أساسيًّا.

دلالةُ اسميّةِ جملة الفاصلة:

حقائقُ الله تعالى الثّابتةُ، لاتَتَبدّلُ إلّا بإذنه

جيء بالصّلة الثّانية جملةً اسميّةً لإفادة ثبوتِ عدمِ إيمانهم، وأنّهم غيرُ مرجوٍّ منهم الإيمان[1]، وهذه حقيقةُ شرِّ الخلائقِ، فهيهات أن تتبدّلَ الحقائقُ إلّا أن يشاءَ واضعُها، فقوله: ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ لا يُبقي للرّجاء فيهم مساغٌ، ولا ينجعُ فيهم نصحٌ وإبلاغٌ[2].

دلالةُ صوغِ الإيمانِ المنفيّ مضارعًا:

رفضُهم الإيمان فعلٌ مُتجدِّدٌ منهم

أفاد مجيءُ الخبر فعلًا مضارعًا ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ معنى التّجدّدِ الاستمراريِّ لعدم قبولِهم الإيمانَ كلّما عُرِضَ عليهم، فهذا هو موقفُهم الّذي يُعبّرون عنه كلّما دُعوا إلى الحقّ؛ ذلك أنّ كلمةَ (كفروا) لا تقتضي الثّباتَ على الكفر دائمًا، فعطفَ عليها الإخبارَ بأنّ كفرَهم دائمٌ مستمرٌّ لا يرجعون عنه في جملتهم، حتّى ييأسَ الرّسولُ والمؤمنون ممّا كانوا يَرْجونَ من إيمانهم، وهذا لا ينافي وقوعَ الإيمان من بعضهم، وقد وقع[3].

بلاغةُ المتشابهِ اللّفظيِّ بين آيتي الأنفال:

ناسبَ في الأولى بين ذكر السّمع والصّمم، وفي الثّانية سياقَ كفرِهم ونقضِهم للعهود

قد شابه نظمُ هذه الآية الّتي بين أيدينا نظمَ آيةٍ أخرى مُتقدِّمةٍ عليها في نفس السّورة، وهي قوله تعالى: ﴿۞إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلۡبُكۡمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡقِلُونَ ٢٢﴾ [الأنفال: 22]، ولا شكّ أنّ لكلّ سياقٍ خصوصيّتَه الّتي تقتضي ألفاظَه وتراكيبَه الخاصّةَ به؛ فهذه الآية جاءَت في سياق الأمر بطاعة الله ورسوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ وَأَنتُمۡ تَسۡمَعُونَ ٢٠ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعۡنَا وَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ ٢١ ۞إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلۡبُكۡمُ ٱلَّذِينَ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/47.
(2) القشيريّ، لطائف الإشارات: 1/633.
(3) رضا، تفسير المنار: 10/42.

لَا يَعۡقِلُونَ ۝٢٢ وَلَوۡ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمۡ خَيۡرٗا لَّأَسۡمَعَهُمۡۖ وَلَوۡ أَسۡمَعَهُمۡ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعۡرِضُونَ ۝٢٣﴾ [الأنفال: 20 - 23]، فقد تقدّمَ هذه الآيةَ الحديثُ عن عدم انتفاعِ هؤلاء الكفّار بسمعهم، وتبعها الحديثُ عن أنّه لو علمَ اللّه فيهم خيرًا لأسمعَهم، حيث ذُكِرَ السّمعُ قبلها مرّتين وبعدها مرّتين، فناسب ذلك كلُّه أن تكونَ قد ذُيّلت بوصفهم بالصّمِّ البكمِ الّذين لا يعقلون، فقد عطّلوا متعمّدين أدواتِ المعرفةِ والاستقبالِ فيهم لسماع الحقّ، وشابهوا بفعلتهم هذه فعلةَ مَن سبقوهم على الكفر مِنَ الّذين قالوا سمعْنا وهم لا يسمعون، فاستحقّوا هذه الأوصافَ الّتي لاءَمَتْ عدمَ انتفاعِهم بما أكرمَهم اللّهُ به من نوافذِ المعرفةِ ومصادرِ العلمِ، وأمّا الآيةُ الّتي بين يدينا الآن فقد وصفتهم بما وصفتهم به تلك من أنّهم شرُّ الدّوابّ، ولكن هذه المرّة لعلّةٍ أخرى غير العلّتين السّابقتين، وهي هنا بسبب كفرِهم وعدمِ إيمانِهم ونقضِهم للعهود المبرَمةِ مع النّبيّ محمّد ﷺ كلّما سنحَت لهم الفرصةُ.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الأنعام والدّوابّ:

كلمة الدّوابّ هي الأقربُ لتأديةِ الغرضِ مِنَ التّشبيه الّذي سيق من أجله

استَعْمَلتِ الآياتُ السّابقةُ في وصف الكافرين لفظةَ ﴿ٱلدَّوَآبِّ﴾، واستعملَت في مَواضِعَ أخرى - كما تقدّم - لفظةَ (الأنعام)، وفي موضع واحد جَمعَ بين اللّفظتين في قوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ مُخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَۗ إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ۝٢٨﴾ [فاطر: 28]، فاقتضى الأمرُ التّفريقَ بين هاتين اللّفظتين في الاستعمال القرآنيِّ، يقول صاحبُ مقاييس اللّغة: "النّونُ والعَينُ والميمُ فُروعُهُ كثيرَةٌ، وعِندَنا أنّها على كَثرَتِها راجِعَةٌ إلى أصلٍ واحِدٍ يدُلُّ على تَرَفُّهٍ وطيبِ عَيشٍ وصَلاحٍ. منهُ النِّعمَةُ: ما يُنعِمُ اللّهُ تعالى على عَبدِه به مِن مالٍ وعَيشٍ. يُقالُ: للّهِ تعالى عليه نِعمَةٌ. والنِّعْمَةُ: المِنَّةُ، وكَذا النَّعماءُ. والنَّعْمَةُ: التَّنَعُّمُ وطيبُ العَيشِ. قال اللّه

تعالى: ﴿وَنَعۡمَةٖ كَانُواْ فِيهَا فَٰكِهِينَ ٢٧﴾ [الدّخان: 27]. والنُّعامَى: الرّيحُ اللَّيِّنَةُ. والنَّعَمُ: الإبلُ، لِما فيهِ مِنَ الخَيرِ والنِّعمَةِ. قالَ الفَرّاءُ: النَّعَمُ ذَكَرٌ لا يُؤَنَّثُ فيقولونَ: هذا نَعَمٌ وارِدٌ، وتُجمَعُ أنعامًا، والأنعامُ: البَهائِمُ"[1]، وقيلَ: النَّعَمُ الإبلُ خاصَّةً، والأنعامُ ذَواتُ الخُفِّ والظِّلفِ؛ وهي الإبلُ والبَقَرُ والغَنَمُ، وقيلَ تُطلَقُ الأنعامُ على هذه الثَّلاثَةِ فإذا انفَرَدَتِ الإبلُ فهي نَعَمٌ، وإنِ انفَرَدَتِ البَقَرُ والغَنَمُ لَم تُسَمَّ نَعَمًا"[2]، والأنعام عند صاحب المفردات: جمع النَّعَم، وتسميته بذلك؛ لأنّ الإبلَ عندَ العربِ أعظمُ نعمةً، لكنِ الأنعام تُقال للإبل والبقر والغنم[3]، وبناءً على هذا فلفظُ الدّوابّ أعمُّ من لفظ الأنعام؛ لأنّ الأخيرةَ محصورةٌ في أصناف معروفةٍ منَ الحيوانات، يكثرُ فيها الخيرُ بالنّسبة للإنسان، بخلاف الدّوابّ الّتي تشمَلُ كلَّ ما يدبُّ على الأرض النّافعَ منه والمفترسَ والضّارَّ، ولذلك لمّا وصفَ القرآنُ الكريمُ الكافرين بكونهم أنعامًا أضربَ عنها إلى وصف أشدّ فقال: ﴿وَلَقَدۡ ذَرَأۡنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ لَهُمۡ قُلُوبٞ لَّا يَفۡقَهُونَ بِهَا وَلَهُمۡ أَعۡيُنٞ لَّا يُبۡصِرُونَ بِهَا وَلَهُمۡ ءَاذَانٞ لَّا يَسۡمَعُونَ بِهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ ١٧٩﴾ [الأعراف: 179]، فاختيارُ كلمةِ الدّوابِّ في سورة الأنفال كان هو الأقربُ لتأديةِ الغرضِ منَ التّشبيه الّذي سيق من أجله، وهو التّنفيرُ من حالِ الكافرين وفضحُ أعمالِهم، فشرُّ ما يدبُّ على الأرض من مخلوقاتٍ على اختلاف أجناسِها وتنوّعِ ألوانِها وسائرِ أصنافِها هم أولئك الكافرون، وبناءً عليه لا تسدُّ كلمةُ الأنعام مكانَها في هذا التّشبيه، ولا تؤدّي الغرضَ الّذي أدّته كلمةُ الدّوابّ واللّه أعلم.

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نعم).
(2) الفيوميّ، المصباح المنير: 2/613.
(3) الرّاغب، المفردات: (نعم).

﴿ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنۡهُمۡ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهۡدَهُمۡ فِي كُلِّ مَرَّةٖ وَهُمۡ لَا يَتَّقُونَ ٥٦﴾ [الأنفال: 56]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

المناسبة بين تشبيه العصاة بالدّوابّ، والتّنديد بمن ينقضُ العهد في كلّ مرّة

لمّا شبّههم بالدّوابّ العجماواتِ انتقل إلى بيانِ وصفٍ من أوصافهم، وحالٍ من أحوالهم، وهم اليهودُ الّذين عاهدوا النّبيَّ ﷺ، ونقضوا عهدَه[1]، وفي ذلكم تفصيلٌ لما أُجمِلَ من وصفٍ، ومزيدُ تأكيدٍ لاستحقاقهم إيّاه.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿عَٰهَدتَّ﴾: يقول ابنُ فارس: "العَينُ والهاءُ والدّالُ أصلُ هذا البابِ عِندَنا دالٌّ على مَعنًى واحِدٍ، قَد أومَأ إليه الخَليلُ، قالَ: أصلُهُ الاحتِفاظُ بالشَّيءِ وإحداثُ العَهدِ به. والّذي ذَكَرَهُ مِنَ الاحتِفاظِ هو المَعنَى الّذي يَرجِعُ إليهِ فُروع البابِ. فمِن ذلك قَولُهُم: عَهِدَ الرَّجُلُ يَعهَدُ عَهدًا، وهو مِنَ الوَصيَّةِ. وإنّما سُمّيَتْ بذلك؛ لأنّ العَهدَ مِمّا يَنبَغي الاحتِفاظُ به. ومنه اشتِقاقُ العَهدِ الّذي يُكتَبُ لِلوُلاةِ مِنَ الوَصيَّةِ، وجَمعُهُ عُهودٌ. والعَهدُ: المَوثِقُ، وجَمعُهُ عُهودٌ. ومِنَ البابِ العَهدُ الّذي مَعناهُ الالتِقاءُ والإلمامُ، يُقالُ: هو قَريبُ العَهدِ به، وذلك أنّ إلمامَهُ به احتِفاظٌ به وإقبالٌ"[2]، ولم يبعدِ المعنى الاصطلاحيّ عن هذا المعنى فهو "حفظُ الشّيءِ ومراعاتُه حالًا بعدَ حالٍ"[3].

المَعْنى الإجْماليُّ:

الّذين أخذتَ عهودَهم ومواثيقَهم أن لا يحاربوك ولا يُظاهروا

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 6/3168.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عهد).
(3) الرّاغب، المفردات: (عهد).

عليك محاربًا لك كبني قريظة ونظرائهم، ممّن كان بينك وبينهم عهدٌ وعقدٌ، ثمّ ينقضون عهودَهم ومواثيقَهم، كلّما عاهدوا دافعوك وحاربوك وظاهروا عليك، وهم لا يتّقون اللّه، ولا يخافون في فعلهم ذلك أن يوقِعَ بهم وقعةً تجتاحُهم وتهلكُهم[1].

مَن ينقض العهدَ والميثاقَ، فلا إيمان لَدَيْه بمولاه، ولا خشية له من الله

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

توجيهُ فصلِ الآيةِ عمّا قبلها:

قوله: ﴿ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنۡهُمۡ﴾ جاء مُنفصلًا عمّا قبله دون حرفِ العطفِ، ممّا جعلَه يحتملُ إعراباتٍ كثيرةً لمعانٍ سديدةٍ، كلُّها شافٍ كافٍ، لكنّ بعضَها قد يكون الأقربَ لمتطلّبات السّياق، فيمكن أن يكونَ بدلًا مُطابقًا (بدل الكلّ منَ الكلّ) لقوله: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾، فالّذين عاهدوا هُمُ الّذين كفروا، ويمكن أن يكونَ بدلَ البعض منَ الكلّ على معنى أنّ شرَّ الدّوابِّ مَن جمعَ بين ثلاثة أوصافٍ: الكفر، الموافاة عليه بعدم الإيمان، المعاهدة مع النّقض[2]، فالمعاهَدونَ هم بعضُ أولئك الكافرين.

الّذين نقضوا العهدَ هم أنفسُهم الّذين كفروا، أو صِنفٌ منهم

ويمكن أن يكون قولُه: ﴿ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنۡهُمۡ﴾ عطفَ بيان من ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾؛ إذ إنّ عطفَ البيان يزيدُ عن معنى البدل عند مَن يرى التّفريقَ بينهما بزيادة الوصفِ فيه، ويمكن أن يكونَ نعتًا للّذين كفروا، ولا عطف يقعُ بين التّابع والمتبوع كما هو مُقرَّرٌ، أو يكون موقعُهُ الرّفعَ على الابتداء وخبره (فإمّا تثقفنّ)، حيث دخلتِ الفاءُ في الخبر؛ لأنّ نظمَ الجملةِ مُشعِرٌ بالشّرطيّة[3]، أو أن يَكونَ خبرًا لمبتدأ محذوفٍ تقديره: هم الّذين عاهدت منهم، أو في محلّ نصبٍ على الذّمّ، والتّقدير: أذُمُّ الّذين عاهدتَ منهم[4].

زيادةُ الوصفيّة، والإشعارُ بالشّرطيّة، والذّمُّ وجوهُ إعرابٍ مقبولةٌ

(1) ابن جرير، جامع البيان: 14/20 - 21.
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/620.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/339.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/107.

وربّما كان الأيسر من هذه التّوجيهات كلِّها أن نجعلَه استئنافًا بيانيًّا عن سؤالٍ مُقدّرٍ في الذّهن بعد قوله: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾؛ من هم الموسومون بأنّهم شرُّ الدّوابِّ؟ فكان الجواب: الّذين تعاهدهم ثمّ ينقضون عهودَهم.

تقديرُ الاستئنافِ عن سؤالٍ مُقدَّرٍ وجهٌ راجحٌ

بلاغةُ التّعبيرِ بالاسم الموصول:

غرضُ التّعبير بالاسم الموصول هنا النّعيُ عليهم بنقضهم للعهود والمواثيق، وفي ذلك قدحٌ لهم وتشهيرٌ بهم، فضلًا عن تَخصيص الموصول الأوّلِ بمَن عاهدَ منهم، ثمّ نقضَ، وفائدَةُ التّعميمِ أوّلًا ثمّ التَّخصيص ثانيًا؛ لزيادة التّقرير، كما هو المقرَّرُ في الغرض منَ البدل[1].

شهّرَ بهم، ونعى عليهم نقضَهم للعهود والمواثيق، وقرَّرَ قبحَ فعلهم

سرُّ التَّعبير عنِ المعاهدة، بصيغة المفاعلةِ:

إيرادُ لفظِ المعاهدةِ على صيغة المفاعلة ﴿عَٰهَدتَّ﴾ الدّالّ على حصول الفعلِ منَ الجانبين[2]، إشارةٌ الى أنّهم قبلوا العهدَ، وأقرّوه؛ ومن ثمَّ فنقضُ الالتزامِ به تعريضٌ بهم، وترسيخٌ لما وُصِفوا به، توبيخًا لهم، وحطًّا من شأنهم.

إقرارُهم بالعهد ثمّ نقضُه، ترسيخٌ لما وُصِفوا به

دلالةُ (مِن) في قوله: ﴿مِنۡهُمۡ﴾:

قد تكون (مِن) للتّبعيض عند بعض المفسّرين، على اعتبار أنّ المعاهدةَ إنّما تكونُ مع أشرافهم[3]، وقد ضعّف صاحبُ تفسيرِ التّحرير والتّنوير هذا الرّأيَ؛ لعدم متانةِ المعنى، إذ يصيرُ الذّمُّ مُتوجِّهًا إلى بعض الّذين كفروا فهم لا يؤمنون، وهم الّذين ينقضون عهدَهم، في حين تعدّى العهدُ بـ(من) للدّلالة على أنّ العهدَ كان يتضمّنُ التزامًا من جانبهم، فلمّا ذكر المفاعلةَ ﴿عَٰهَدتَّ﴾ الدّالّ

دلّت (مِن) على أنّ العهدَ كان يتضمّنُ التزامًا من جانبهم

(1) القونويّ وابن التّمجيد، حاشيتان على البيضاويّ: 9/112.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/48.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 15/149.

على حصولِ الفعلِ منَ الجانبين، نبّه على أنّ المقصودَ منَ المعاهدة التزامُهم بأن لا يعينوا عليه عدوًّا[1].

بلاغةُ التّضمينِ في لفظ العهد:

المعاهدةُ عبارةٌ عن إعطاء العهدِ، وأخذه منَ الجانبين

يمكن أن يكون الكلامُ قد بُنِيَ على التّضمين[2]؛ إذ ضَمّنَ العهدَ معنى الأخذ، والأخذ هو الّذي يتعدّى بـ (مِن)، فيصبح المرادُ هو مجموعُ الفعلين؛ أي: عاهدتَ آخذًا منهم، لأنّ المعاهدةَ عبارةٌ عن إعطاء العهدِ وأخذه منَ الجانبين[3].

دلالاتُ العطفِ بـ﴿ثُمَّ﴾ في السّياق:

أفادَ العطفُ بـ (ثمّ) هنا معاني التّراخي الزّمنيّ والرّتبيّ على حدٍّ سواء

وقوله: ﴿ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ﴾ الجملةُ معطوفةٌ بـ ﴿ثُمَّ﴾ على جملة صلة الموصول ﴿عَٰهَدتَّ مِنْهُمْ﴾، وأفادَ العطفُ بـ﴿ثُمَّ﴾ هنا معاني التّراخي الزّمنيّ والرّتبيّ على حدٍّ سواء، فنقضُ العهد أشنعُ رتبةً ممّا كان قبله، وهذه الجملةُ داخلةٌ مع الجملة السّابقةِ في حيّزِ الصّلةِ.

سرُّ العدولِ من فعل المضيّ إلى الاستقبال:

ديدنُ اليهود وشأنُهم تجدّدُ نقض العهود، فهم قومٌ بُهْتٌ

العدولُ بمجيء صيغةِ الاستقبالِ ﴿يَنقُضُونَ﴾ بعد الفعل الماضي ﴿عَٰهَدتَّ﴾ للدّلالة على تجدّد النّقضِ وتعدّدِه فيهم، واستمرارِهم على ذلك، ولبيان أنّ من شأنهم نقضَ العهد مرّةً بعد مرّةٍ، فهذا ديدنُهم، وكونهم على نيّته في كلّ حال، وفي هذا تعريضٌ بالتّأييس من وفائهم بالعهد[4]، وأنّه لم يكن هفوةً رجعوا عنها، وندموا عليها، بل أنّهم ينقضونه في كلِّ مرّةٍ وإن تكرّر، وهو يصدقُ على عهود طوائف اليهودِ الّذين كانوا حولَ المدينة في جملتهم، وهم ثلاثُ طوائفَ،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/48.

(2) التّضمين: هو تضمينُ كلمة معنى كلمة أخرى، وجَعلُ الكلامِ بعدَها مبنيًّا على الكلمةِ غيرِ المذكورة، كالتّعديةِ بالحرفِ المناسبِ لمعناها، فتكون الجملةُ بهذا التّضمين بقوّة جملتين. يُنظر: عبد الرحمن، بلاغة اللّغة: 2/49.

(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/107.

(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 15/149، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/107.

ويصدقُ على بني قريظة وحدَهم بحسب ما نُقِلَ عنِ ابن عبّاس ﵄، وكانوا أشدَّهم كفرًا، فقد رويَ أنّه تكررَ عهدُه ﷺ لهم، ثمّ نقضوا عهدَ رسولِ الله ﷺ، وأعانوا عليه المشركين بالسّلاح في يوم بدرٍ، ثمّ قالوا: أخطأنا فعاهدهم مرّةً أخرى، فنقضوه أيضًا يومَ الخندق[1].

بلاغةُ التّعبيرِ بجملة: ﴿فِي كُلِّ مَرَّةٍ﴾:

المرادُ بـ ﴿كُلِّ مَرَّةٍ﴾ كلُّ مرّةٍ من مرّات المعاهدةِ الّتي يحقُّ فيها الوفاءُ بما عاهدوه عليه سواء تكرّر العهدُ أم لم يتكرّر؛ لأنّ العهدَ الأوّلَ يقتضي الوفاءَ كلّما دعا داعٍ إليه[2]، ويمكن أن يكون المعنى في كلّ مرّةٍ من مرّات المحاربةِ[3]، واستبعد صاحبُ تفسير إرشاد العقل السّليم هذا المعنى فقال: "﴿فِي كُلِّ مَرَّةٍ﴾؛ أي: من مرّات المعاهدةِ إذ هي الّتي يُتوقَّعُ فيها عدمُ النّقضِ، ويُستقبَح وجودُه، لا من مرّات المحاربة كما قيلَ، إذ لا يُتوقَّعُ فيها عدمُ النّقضِ بل لا يُتصوَّرُ أصْلاً حتّى يُستقبَحَ فيها وجودُه؛ لكونها مَظِنّةً لعدمه، فلا فائدةَ في تقييد النّقضِ بالوقوع في كلّ مرّةٍ من مرّاتها بل لا صِحةَ له قَطْعًا؛ لأنّ النّقضَ لا يتحقّقُ إلّا في المرّةِ الواردةِ على المعاهدة لا في المرّات الواقعةِ بعدها بلا معاهدة"[4].

تكرّرَ النّقضُ في كلِّ مرّةٍ، يُتوقَّعُ فيها عدمُه، ويُستقبَحُ وجودُه

وأكّده الطّاهرُ ابن عاشور بقوله: "الأظهرُ أنَّ هذه الآيةَ نزلَت عقب وقعةِ بدر، وقبل وقعة الخندقِ، فالنّقضُ الحاصلُ منهم حصلَ مرّةً واحدةً، وأخبر عنه بأنه يتكرّرُ مرّاتٍ، وإن كانت نزلَت بعد الخندقِ، بأنِ امتدَّ زمانُ نزولِ هذه السّورة، فالنّقضُ منهم قد حصل مرّتين، والإخبارُ عنه بأنّه يتكرّرُ مرّاتٍ هو هو، فلا جدوى في ادّعاء أنّ الآيةَ نزلَت بعد وقعةِ الخندقِ"[5].

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 15/149، ورشيد رضا، تفسير المنار: 10/43.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/48.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/107، والآلوسيّ، روح المعاني: 15/32.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/107.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/48.

معاني (الواو) في مطلع الآية الكريمة:

عَدَمُ وقوعِ التّقوى منهم، تيئيسٌ للمؤمنين منهم، وذمٌّ لهم وقدحٌ

قوله: ﴿وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ﴾، يمكن أن تكون الواو في جملة الفاصلةِ عاطفةً، والجملةُ الاسميّةُ معطوفةٌ على جملة الصّلة ﴿عَٰهَدتَّ﴾، أو على الخبر ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ في الآية السابقة، ويكون العدولُ بعطف الجملةِ الاسميّةِ على الفعليّة لما فيها من معنى الدّوام والثّبات، وهذا آكدُ في نفي التّقوى عنهم، وإمّا أن تكون الواو حاليّةً، والجملةُ منَ المبتدأ والخبر (هم لا يتّقون) في محلّ النّصب على الحاليّة، والمعنى: ينقضون عهدَهم في كلّ مرّةٍ، وحالُهم حالُ مَن لا يتّقي الله، وعلى كلا الاحتمالين فالجملةُ دالّةٌ على أنّ نفيَ التّقوى عنهم صفةٌ متمكِّنةٌ منهم ومَلَكَةٌ فيهم[1]. وفي وجه الحاليّة معنى: "أنّ هؤلاء القوم دأبهم نَقْضُ العهودِ والمواثيقِ في كلِّ وقتٍ، ومع ذلك فحالهم وشأنهم أنّهم لا يشعرون خلال نقضِهم للعهود بأيِّ تحرّجٍ أو خجلٍ، بل يرتكبون ما يرتكبون منَ المنكَرات دون أن يتّقوا عارَها، أو يخشوا سوءَ عاقبتها"[2].

دلالةُ تقديمِ الخبر، وتوسّطِ النّفي، في جملة الفاصلةِ:

بالتقديم قوّى حكمَ عدمِ تقواهم

يدلُّ على هذا مجيءُ الخبر (هم) مُقدَّمًا تليه الجملة الفعليّة المنفيّة، وهذه الحالةُ منَ التّرتيب بين المسند والمسند إليه وأداة النّفي تفيدُ تقويةَ الحكم عند جمهور البلاغيّين كما تقدّم مرارًا، وقد تفيدُ التّخصيصَ بالقرائن، ولا قَرينَةَ دالّةٌ على التّخصيص في هذا الموضع.

بلاغةُ التّعبيرِ بالمضارع ﴿يَتَّقُونَ﴾، وحَذْفِ مفعوله:

شأنُهم النّقض في كلّ عهدٍ يقطعونه

لا شكّ أنّ التّعبيرَ عن نفي التّقوى بالمضارعيّة له دلالته في تجدّده عندهم، فهذا شأنُهم، وهذا ديدنُهم دائمًا عند كلّ عهدٍ يقطعونه،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/49.
(2) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 6/134 - 135.

وكذلك فإنّ في حذف مفعولِ التّقوى بإنزال الفعلِ المتعدّي منزلةَ الفعلِ اللّازمِ، ما يفيدُ التّعميمَ ليشملَ كلَّ ما يمكن أن يُتَّقى من عذابِ اللّه وغضبِه ومحارمِه.

ووقوعُ فعل ﴿يَتَّقُونَ﴾ في حيّز النّفي يعمُّ سائرَ جنسِ الاتّقاءِ؛ وهو الجنسُ المُتعارفُ منه، الّذي يتهممُ به أهلُ المروءات والمتديّنون، فيَعمُّ اتّقاءَ اللّه وخَشْيَةَ عقابِه في الدّنيا والآخرة، ويعمُّ اتّقاءَ العارِ، واتّقاءَ المسبّةِ، واتّقاءَ سوءِ السّمعة، فإنّ الخَيْسَ بالعهد والغدرَ مِنَ القبائح عند جميع أهل الأحلامِ، وعند العرب أنفسِهم، ولأنّ مَن عُرِفَ بنقض العهد، عُدِمَ مَن يركَنُ إلى عهده وحِلْفه، فيبقى في عزلةٍ منَ النّاس، فهؤلاء الّذين نقضوا عهدَهم قد غلبهم البغضُ في الدّين، فلم يعبأوا بما يجرُّه نقضُ العهد مِنَ الأضرار لهم[1].

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

العهود، والمواثيق، والعقود، والوعد:

اختيار لفظةِ العهد ناسبَت هذه الحال، من العهود الّتي أُبرِمَت بين طرفين

استعملتِ الآياتُ السّابقةُ لفظةَ العهود للتّعبير عنِ الاتّفاقيّات الموثّقة مع الكافرين، مع أنّ القرآنَ استعملَ ألفاظًا أخرى في مواضعَ مختلفةٍ للدّلالة على هذه العهود مثل: الميثاق في مثل قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [البقرة: 83]، والعقود في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوْفُواْ بِٱلْعُقُودِۚ﴾ [المائدة: 1]، والوعد في مثل قوله: ﴿ثُمَّ صَدَقْنَٰهُمُ ٱلْوَعْدَ فَأَنجَيْنَٰهُمْ وَمَن نَّشَآءُ وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ ۝٩﴾ [الأنبياء: 9]، ولا شكّ أنّ كلَّ لفظةٍ منها تشتركُ مع اللّفظةِ الأخرى في معانٍ، وتنفردُ عنها في معانٍ أخرى، بحيث تبقى لكلّ لفظةٍ خصوصيّتُها في الاستعمال القرآنيّ، لا تصلح اللّفظةُ الأخرى لتقومَ في مقامها، وتؤدّي غرضَها الّذي استُعمِلَت من أجله، فالميثاقُ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/49.

في أصل اللّغة يدلُّ على عقدٍ وإحكام، فالميثاقُ هو العهدُ المُحكَم[1]، أو العقدُ المُؤكَّدُ بيمينٍ وعهدٍ[2]، فالفرقُ بين العهد والميثاق عند صاحب كتاب الفروق في اللّغة: "أنّ الميثاقَ توكيدُ العهدِ من قولك: أوثقتُ الشّيءَ إذا أحْكَمتَ شدَّه، وقال بعضُهم: العهدُ يكون حالًا منَ المتعاهدين، والميثاقُ يكون من أحدهما[3]"، ولذلك نجد في سورة الرّعدِ أنّه قد جمعَ بين اللّفظتين ممّا يدلُّ على تغاير معنيّهما بقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلۡمِيثَٰقَ ٢٠﴾ [الرّعد: 20]، ففرّق في هذا الموضع بين العهدِ والميثاقِ، فالعهدُ يقتضي الوفاءَ، والميثاقُ يقتضي عدمَ النّقضِ، وقال بعدَها بآياتٍ: ﴿وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهۡدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مِيثَٰقِهِۦ﴾ [الرّعد: 25]، حيث دلّت هذه الآيةُ على أنّ الميثاقَ هو العهدُ الموثَّقُ، ولذلك أُسنِدَ إليه النّقضُ، ومثلها في سورة البقرة قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهۡدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مِيثَٰقِهِۦ﴾ [البقرة: 27]، وقد جاء ذكرُ الميثاقِ في أكثر مرّات وروده مسندًا إلى أهل الكتاب كقوله: ﴿وَإِذۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكۡتُمُونَهُۥ﴾ [آل عمران: 187]، وهو العهدُ الّذي أخذَه اللّهُ عليهم.

وعند العسكريّ أنّ العقدَ أبلغُ منَ العهد؛ لأنّه إلزامٌ باستيثاق[4]، وأمّا الوعدُ فإنّه يقتضي الإنجازَ، والعهدُ هو وعدٌ مقرونٌ بشرطٍ، وهو يقتضي الوفاءَ[5].

وفي ضوء ما تقدّم من فروق عند صاحبِ الفروق في اللّغة، وهي آراءٌ مُقدَّرَةٌ ومُحتمَلَةٌ؛ فإنّ اختيارَ لفظةِ العهدِ دون غيرها فيما نحن بصدده ناسبَت هذه الحالَ منَ العهود الّتي أُبرِمَت بين طرفين، فخان بعضُهم هذه العهودَ، وأُمرنا بطرح بعضِها عند ظهورِ أماراتِ الخيانةِ، فلم تكن هذه العهودُ بقوّة المواثيقِ وإحكامِها؛ لأنّ أصحابَها لم يفوا بها، ولا بقوّة العقودِ المُؤكِّدة، بل إنّ الأمرَ كان للنّبيّ ﷺ بأن يطرحَ منها ما بدرَ من أصحابها من خيانةٍ لها، فكانَت كلُّ لفظةٍ أليقَ في المكان الّذي جاءَت فيه لا تسدُّ قريبتُها مكانَها أبدًا.

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (وثق).
(2) الرّاغب، المفردات: (وثق).
(3) العسكريّ، الفروق، ص: 69.
(4) العسكريّ، الفروق، ص: 69.
(5) العسكريّ، الفروق، ص: 69.

﴿فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي ٱلْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ۝٥٧﴾ [الأنفال: 57]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الآيـةُ شـروعٌ في بيان حكمهم، بعـد أن فصّلَ حالَهم

إذ قد تحقّقَ منهم نقضُ العهدِ فيما مضى، وهو مُتوقَّعٌ منهم فيما يأتي، لا جرمَ تفرّعَ عليه أمرُ اللّه رسوله ﷺ أن يجعلَهم نكالًا لغيرهم، متى ظفرَ بهم في حربٍ يُشهرونها عليه أو يعينون عليه عدوَّه[1]، فالآية المباركة "شروعٌ في بيان أحكامهم بعد تفصيل أحوالِهم"[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تَثْقَفَنَّهُمْ﴾: أصل مادّةِ (ثقف) يدورُ حولَ تصويبِ عوج الشّيء، ثمّ استُعملَ لَمن يظفرُ بالشّيءِ؛ لأنّه إذا ثَقِفَهُ فقوّم اعوجاجه فقد أمسكَه[3]، والمعنى المحوريّ الّذي تدورُ عليه معاني هذه المادّة هو: تمكّنٌ يُبْلَغُ به أتقنُ أحوالِ الشّيءِ وأحكمها: كالخلّ الثَّقيفِ لإحكام تعتيقه، واستقامة الرّمح والقوس على ما يراد منهما بتحكّم الثِّقاف فيهما، ومنه: ثقُف - ككرم وفرح: صار حاذقًا خفيفًا فطِنًا. ومن تمكّن ما يحيط بالشّيء منه أشدّ التّمكنِ: ثَقِفَه: ظَفِرَ به أو أدركه، وسائر ما في القرآن منَ التّركيب هو بمعنى التّمكّن التّامّ منَ الشّيء[4].

2) ﴿فَشَرِّدْ﴾: منَ الفعل (شَرَدَ)، ولم تأتِ في القرآن الكريم إلّا في هذا المَوضِع، وورد في استعمالات اللّغة قولُهم: شرد البعيرُ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/49.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/108.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ثقف).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (ثقف).

والدّابّةُ: نَفَر واستعصى وذهبَ على وجهه، ونَفَر وذهب في الأرض. وشرد الرّجلُ شرودًا: ذهب مطرودًا. تشرّدَ القومُ: ذهبوا. والمعنى المحوريّ اندفاعٌ بابتعادٍ، ويلزمُه التّفرّدُ أو التّفرّقُ: كالبعير الشّاردِ، والمطرودِ، والقومِ الذّاهبين رحيلًا بلا عود.

وفي قوله تعالى: ﴿فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي ٱلْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾؛ أي: فرّقْ وبدّدْ جمعَهم إن أسرتهم يا محمّد فنكلّ بهم مَنْ خلفهم ممّن تخافُ نقضَهم للعهد لعلّهم يذّكرون فلا ينقضون العهدَ[1].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

بيان أنّ جزاء ناقضي العهدِ، الحرب والتّشريد والعقاب؛ رجاء الارعواء والتّذكّر

فإمّا تلقيَنَّ في الحرب هؤلاء الّذين عاهدتهم فنقضوا عهدَك مرّةً بعد مرّةٍ، فافعلْ بهم فعلًا يكون مُشرِّدًا من خلفهم من نظرائهم ممّن بينك وبينه عهدٌ وعقدٌ، إخافةً لهم، حتّى لا يجترئوا على مثل الّذي اجترأ عليه هؤلاء الّذين وصف اللّهُ صفتَهم في هذه الآية من نقضِ العهدِ[2].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

معنى حرف (الفاء) في مَطلَع الآية:

أفادتِ الفاءُ الرّبط بين جملتين، فضلًا عنِ التّرتيبِ والتّعقيبِ

الفاء في قوله: ﴿فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي ٱلْحَرْبِ﴾ هي العاطفة للتّرتيب والتّعقيب، بمعنى: إذا كان حالُهم كما ذُكر فإمّا تصادفنّهم في الحرب فافعلْ بهم كيت وكيت[3]، ويمكن أن تكونَ الفاءُ هي الرّابطةَ بين هذه الجملةِ وبين الآية السّابقةِ؛ وذلك لتضمّنِ المبتدأ ﴿ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنْهُمْ﴾ معنى اسم الشّرطِ، فكأنّه قيل: مَن يعاهدْ منهم؛ أي: منَ الكفّار، فإن تظفرْ بهم فاصنعْ كذا[4].

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (شرد).
(2) ابن جرير، جامع البيان: 14/20 - 21.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/108.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/339.

معاني (إمّا)، ودلالاتها:

أفادت (إمّا) هنا معنى الشّرط حيث علّقت فعلًا بفعلٍ حالَ وقوعه

(إمّا) عند الكوفيّين مكوّنةٌ من (إن) الشّرطيّة و(ما) الّتي قيل عنها زائدة[1]، ودخلَتِ النّونُ مع (إمّا) تأكيدًا، ولتفرّق بينها وبين (إمّا) الّتي هي حرفُ انفصالٍ في قولك: جاءَني إمّا زيدٌ وإمّا عمرو[2]، وفعلُ الشّرطِ لها في الآية قوله: ﴿تَثْقَفَنَّهُمْ﴾ فهو فعلُ مضارع مبنيّ على الفتح لاتّصاله بنون التّوكيد الثّقيلة، وهو في محلّ جزم فعل الشّرط، وجوابه ﴿فَشَرِّدْ﴾، والفاء رابطة للجواب.

بديعُ إيثارِ لفظِ ﴿تَثْقَفَنَّهُمْ﴾، على (تصادفنّهم):

إنَّ المُصادِفَ قد يَغلِبُ فيُمكِنُ التَشريدُ به، وقَد لا يَغلِبُ

﴿تَثْقَفَنَّهُمْ﴾ معناه: تَأْسِرُهُم وتحصِّلُهم في ثِقافِكَ، أو تلقاهم بحالِ ضعفٍ تَقدِرُ عليهم فيها وتَغلِبُهم، وتأخذُهم، وتظفرُ بهم، وهذا لازمٌ منَ اللّفظ لقوله: (في الحَربِ)، وقيل: ثَقِفَ: أخذَ بسرعةٍ، ومن ذلك قولُهم: (رجلٌ ثَقِفٌ لَقِفٌ)، ذكر ابنُ عطيّة أنّ بعضَ النّاسِ ذهبَ إلى أنّ معنى (تثقفنّهم): تُصادِفَنَّهُم، وردّه لكونه لا ربطَ له في المعنى، وذلك أنَّ المُصادَفَ يُغْلَبُ فيُمكِنُ التَشريدُ به، وقَد لا يُغْلَبُ[3]. وثقفَ لفظٌ صريحٌ في الظّفر، والغلبة.

بلاغةُ الجملةِ الشّرطيّةِ المقترنةِ بالفاء:

جملة الشّرطِ بشارةٌ بالظّفر، وتطمينٌ للمؤمنين

في مجيء فعل الشّرطِ على هيئة الفعليّةِ، ومعها نون التّوكيدِ الثّقيلةِ في (تثقفنّهم)، ما يدلّ على تكرّر تحقّقِ هذه البشارة بالنّسبة للمؤمنين، فلا بدّ أن يحصلَ لكم الظّفرُ عليهم في كلّ مواجهةٍ تكون بينكم، وفي هذا النّظم تطمينٌ للمؤمنين، وتهديدٌ لأعدائهم، وفي دخول الفاء الرّابطة على جواب الشّرطِ الظّاهرِ، والّذي لا يصلحُ أن يكونَ جوابًا للشّرط إلّا بتقدير جوابٍ محذوفٍ،

(1) ابن هشام، مغني اللّبيب: 1/71 - 73.
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/542.
(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/542.

تذهبُ فيه النّفوسُ كلَّ مَذهَبٍ، كأن يكون التّقديرُ: فإمّا تثقفنّهم في الحرب، فتقاتلونهم، وتنتصرون عليهم، فشرّدوا بهم مَن خلفهم؛ ليكونوا عِبرةً لغيرهم، في ذلك كُلِّه تأكيدٌ على ما في الآية من أحكامٍ حريٌّ بها أن تُطبّقَ لما فيه صلاحُ حالِ المؤمنين وتمكينُهم في الأرضِ.

دلالةُ الأمرِ المُصاغِ بالفعل (شرِّدْ):

أفادَ الأمرُ التّهديدَ، والوعيدَ، والإيذانَ بحربٍ قريبةٍ معهم

(شرّد) فعلُ أمرٍ مبنيّ على السّكون في محل جزم جواب الشّرط، وهو أمرٌ مفيدٌ للتّهديد، ويكون المعنى حينئذٍ: فإمّا تظفرنّ بهم في تضاعيف الحربِ ففرّقهم تفريقًا عنيفًا موجِبًا للاضطرار والاضطراب، ونكّلْ بهم مَن وراءهم منَ الكفرة، وفيه إيماءٌ بأنّهم بصدد حربٍ قريبةٍ معهم[1].

بلاغةُ الكنايةِ أو التّضمينِ في فعل التّشريد:

يحتملُ فعلُ التّشريدِ معنى التّسميعِ بهم عند العرب

قد يكون معنى (شرّد بهم)؛ أي: سمّع بهم[2]، على الكناية أو التّضمين؛ فيكون التّشريدُ كنايةً عنِ التّسميع بهم عند العربِ، ولا مانعَ من إرادة المعنى الحقيقيّ، فمِن شأن التّسميع بهم أن يؤدّي إلى تشريدهم، أو أن يكون الفعلُ (شرّد) قد تضمّنَ الفعلَ (سمّع) فيصبح المرادُ - كما تقدّم في الحديث عنِ التّضمين - مجموعَ قوّةِ الفعلين؛ أيّ: سمّعْ بهم العربَ تسميعًا مِن شأنه أن يُشرّدَ مَن خلفهم.

معاني حرف (الباء)، في قوله: ﴿بِهِمْ﴾:

تحتملُ الباءُ التّعديةَ والسّببيّةَ: ولها أثر في المعنى

الباء في قوله: (بهمْ) قد تكون للتّعدية والنّقل، وقد تكون باءُ السّببيّة بمعنى: شرّدْ بهم مَن خلفهم بسبب تنكيلك بهم[3].

سرُّ تقديمِ شبه الجملة ﴿بِهِمْ﴾:

تقديمُ شبهِ الجملةِ (بهم) يفيدُ مزيدًا منَ النّعي عليهم

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 15/497، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/108.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 10/32.
(3) درويش، إعراب القرآن الكريم وبيانه: 3/158.

وتبكيتهم، إذِ الأصل: فشرّدْ مَن خلفهم بهم، فأفاد تقديمُهم على المفعول به مدى تقدّمهم في الخيانة ونقض العهودِ، وأنّهم السّببُ الرّئيسُ في تشريد مَن جاء خلفَهم.

رسوخُ الخيانةِ فيهم، وتمكّنهم الماكر في نقض العهودِ

بلاغةُ الكنايةِ، أو الاستعارةِ في قوله: ﴿مَّنْ خَلْفَهُمْ﴾:

المقصود بـ ﴿مَّنْ خَلْفَهُمْ﴾؛ أي: مَن وراءهم مِنَ الكفرة، والاسم الموصول (مَن) مفعول به لشرّد، وفيه كنايةٌ عن صفتي التّخويف والتّنفير؛ فإنّ إيقاعَ التّشريدِ لمَن في الوراء لا يتحقّقُ إلّا بتشريد مَن كانوا في الأمام. ويمكن حمل المعنى على الاستعارة بأن يكون الخلفُ مُسْتَعارًا للمُقتدين بهم بجامع الاتّباع[1]، فشبّه مَن يقتدي بأولئك الكفّار بحالِ مَن هو بالخلف بجامع الاتّباعِ في كليهما لمَن هو في الأمام، فحذفَ المشبّهَ، وهُمُ الّذين يقتدون بهم، وذكرَ المشبّهَ به (مَن خلفهم) على سبيل الاستعارةِ التّصريحيّةِ، فيكون كلُّ هذا التّنكيل بالأتباع، فكيف بالرّؤساء وأئمة الكفر!

إيقاعُ التّشريد لمَن في الوراء، لا يتحقّقُ إلّا بتشريد مَن كانوا في الأمام

دلالة الجملة التّعليليّة على الاستئناف البيانيّ:

قوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ جملةٌ تعليليّةٌ وقعَت استئنافًا بَيانيًّا جوابًا عن سؤالٍ مُقدَّرٍ: لمَ نفعل بهم هذا؟ وضميرُ الغيبة في (لعلّهم) راجعٌ إمّا إلى ضمير الكفرةِ ناكثي العهود في قوله: (تثقفنّهم)، وإمّا أن يكون راجعًا إلى (مَن) الموصولة في قوله: (مَن خلفهم) باعتبار كونِ مدلولِ صلتِها جماعةً منَ النّاس، ويكون المعنى: لعلّ مَن خلفهم يخافُك، ويتذكّرُ ما حلَّ بناقضي العهدِ منَ النّكالِ، فلا يُقدِموا على نَقضِ العهدِ، فيؤول معنى التّذكُّرِ إلى لازمه، وهو الاتّعاظُ والاعتبارُ، وقد شاع إطلاقُ التَّذَكُّرِ وإرادةُ معناهُ الكنائيِّ وغلبَ فيه[2]، وربّما كان الحملُ على هذا المعنى أبلغَ منَ المعنى الأوّل، والأصلُ في (لعلّ) أنّها

أيلولة معنى التّذكُّرِ إلى لازمه، وهو الاتّعاظُ والاعتبارُ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/50.

(2) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 7/138، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/50.

تفيدُ التّرجّي، والمقامُ لا يساعدُ عليه، فيكون المقصودُ التّشفّيَ بهم، والإيماءَ إلى أنّ ما أصابهم كان بسبب عدم تذكّرهم.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

ثقفتموهم، ووجدتموهم، وصادفتموهم:

الثّقفُ يقومُ على التّربّص والتّمكّن والظّفر بالأعداء المؤذين للمؤمنين

استعملتِ الآياتُ السّابقةُ لفظةَ (ثقفتموهم)، ولم تستعملْ لفظةَ (وجدتموهم)، ونجد مثل ذلك النّظم في مواضعَ متنوعةٍ في القرآن الكريم من مثل قوله تعالى: ﴿وَٱقۡتُلُوهُمۡ حَيۡثُ ثَقِفۡتُمُوهُمۡ وَأَخۡرِجُوهُم مِّنۡ حَيۡثُ أَخۡرَجُوكُمۡۚ﴾ [البقرة: 191]، وقوله في سورة النّساء؛ إذ ذُكرتِ اللّفظتان في آيتين متجاورتين، في سياقٍ واحدٍ ممّا يزيدُ من صعوبة التّفريق بينهما، وهي قوله: ﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَخُذُوهُمۡ وَٱقۡتُلُوهُمۡ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡۖ وَلَا تَتَّخِذُواْ مِنۡهُمۡ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرًا ٨٩﴾ [النّساء: 89]، وبعدها قوله: ﴿فَخُذُوهُمۡ وَٱقۡتُلُوهُمۡ حَيۡثُ ثَقِفۡتُمُوهُمۡۚ وَأُوْلَٰٓئِكُمۡ جَعَلۡنَا لَكُمۡ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٗا مُّبِينٗا ٩١﴾ [النّساء: 91]، وقال في سورة التّوبة: ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلۡأَشۡهُرُ ٱلۡحُرُمُ فَٱقۡتُلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡ وَخُذُوهُمۡ وَٱحۡصُرُوهُمۡ وَٱقۡعُدُواْ لَهُمۡ كُلَّ مَرۡصَدٖۚ﴾ [التّوبة: 5]، وهذا التّباينُ في استعمالِ اللّفظتين في مواضعَ متشابهةٍ في سياقات القتالِ والمناجزةِ يدفعُ للتّساؤل عنِ الفرق بينهما، ويلحظُ من خلال استقراءِ هذه المواضع؛ أنّ الثّقفَ يُرادُ به نوعٌ مُحدَّدٌ مخصوصٌ منَ الوجدان، يقومُ على التّربّصِ والتّمكّنِ والظّفرِ بالأعداء الّذين سبقَ لهم وأنْ تعرّضوا للمؤمنين بالقتل والتّشريد؛ ففي سورة البقرة قال عند الأمر بمقاتلة مَن قاتلهم: ﴿وَٱقۡتُلُوهُمۡ حَيۡثُ ثَقِفۡتُمُوهُمۡ وَأَخۡرِجُوهُم مِّنۡ حَيۡثُ أَخۡرَجُوكُمۡۚ وَٱلۡفِتۡنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلۡقَتۡلِۚ﴾ [البقرة: 191]، فهو ثقفٌ مقصودٌ مُدبَّرٌ له غاياتُه المحدّدة، وقد سبقه إخراجٌ وأذىً منَ المشركين، وفي النّساء قال: ﴿سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأۡمَنُوكُمۡ وَيَأۡمَنُواْ قَوۡمَهُمۡ كُلَّ مَا رُدُّوٓاْ إِلَى ٱلۡفِتۡنَةِ أُرۡكِسُواْ فِيهَاۚ فَإِن لَّمۡ يَعۡتَزِلُوكُمۡ وَيُلۡقُوٓاْ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَمَ وَيَكُفُّوٓاْ

أَيۡدِيَهُمۡ فَخُذُوهُمۡ وَٱقۡتُلُوهُمۡ حَيۡثُ ثَقِفۡتُمُوهُمۡۚ﴾ [النّساء: 91]، فهو ثقفٌ مُحدَّدٌ أيضًا بهذه الفئة الّتي لم تكفّ أيْديَها عن المؤمنين، ومثلُ هذا في سورة الممتحنة بقوله عن المشركين: ﴿إِن يَثۡقَفُوكُمۡ يَكُونُواْ لَكُمۡ أَعۡدَآءٗ وَيَبۡسُطُوٓاْ إِلَيۡكُمۡ أَيۡدِيَهُمۡ وَأَلۡسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ وَوَدُّواْ لَوۡ تَكۡفُرُونَ ٢﴾ [الممتحنة: 2]، فهو ثقفٌ عن ترصُّدٍ وتدبيرٍ قد خُطِّطَ له زمنًا طويلًا، في حين وردَت كلمةُ (وجدتموهم) في موضعي النّساء، والتّوبة في سياق الحديثِ عن قتالٍ مع المنافقين أو المشركين لا يحملُ ظلالَ هذه الشّدّة الّتي نجدُها في مواضع (ثقف)، ففي سورة النّساء كان السّياق في الحديث عن المنافقين: ﴿۞فَمَا لَكُمۡ فِي ٱلۡمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيۡنِ وَٱللَّهُ أَرۡكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓاْۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَهۡدُواْ مَنۡ أَضَلَّ ٱللَّهُۖ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلٗا ٨٨ وَدُّواْ لَوۡ تَكۡفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءٗۖ فَلَا تَتَّخِذُواْ مِنۡهُمۡ أَوۡلِيَآءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَخُذُوهُمۡ وَٱقۡتُلُوهُمۡ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡۖ وَلَا تَتَّخِذُواْ مِنۡهُمۡ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرًا ٨٩﴾ [النّساء: 88-89]، ومعلومٌ أنّ الإسلامَ لم يأمرْ بقتل المنافقين إلّا إذا تعرّضوا مباشرةً للمسلمين؛ وذلك لصعوبةِ تمييزهم وتذبذبِ مواقفهم، فكان الأليقُ هنا (حيث وجدتموهم) سواء كان الوجود الحسّيّ أو المعنويّ بمعنى العلم؛ لأنّ هذا النّوعَ منَ القتال مُباشَرةً معهم لا يُتصوّرُ حدوثُه ولا يحتاج إلى هذا الإعدادِ والتّربّصِ والشّدّةِ، وكذلك نجدُ لفظةَ (وجدتموهم) في سورة التّوبة: ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلۡأَشۡهُرُ ٱلۡحُرُمُ فَٱقۡتُلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡ وَخُذُوهُمۡ وَٱحۡصُرُوهُمۡ وَٱقۡعُدُواْ لَهُمۡ كُلَّ مَرۡصَدٖۚ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٥﴾ [التّوبة: 5]، فقتالهم يكون بعدَ انتهاءِ الأجلِ المضروبِ لهم، أو بعدَ انقضاءِ الأشهرِ الحرمِ حيث وجدناهم أو علمناهم، وليس في هذا السّياقِ أيضًا تلك المعاني الّتي نجدُها في سياقات (ثقفتموهم) من معاني التّربّصِ والتّمكّنِ والإعدادِ والغلبةِ، فليس في ذهن المؤمنين أن تكونَ المدّةُ المضروبةُ بينهم وبين أعدائهم فرصةً للإعداد، والتّربُّص، والانتقام، وقد تقدّم أنّ المُصادَفَ يُغْلَبُ فيُمكِنُ التَّشريدُ به، وقَد لا يُغْلَبُ.

﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوۡمٍ خِيَانَةٗ فَٱنۢبِذۡ إِلَيۡهِمۡ عَلَىٰ سَوَآءٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡخَآئِنِينَ ٥٨﴾ [الأنفال: 58]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

أتـمَّ حُكمَ النّاقضِ للعَهدِ فعلا، ببيان من يتوقّع منه ذلك مستقبلًا

الآيةُ "بيانٌ لأحكام المُشرفين إلى نقض العهد، إثْر بيانِ النّاقضين له بالفعل"[1]، في دعوة مباشرةٍ للحذر منهم، وتوّقع غدرِهم.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿خِيَانَةٗ﴾: أصل مادّةِ (خون) يدلُّ على التّنقّص[2]، والمعنى المحوريّ: نقصُ خطيرٍ - في خِفيَةٍ أو لُطفٍ - مِن باطِنٍ أو حَوزَةٍ كان في داخِلها: كذَهابِ الحِدَّة مِنَ النَّظَر، والقوّةِ منَ الرِّجلَين ومن الرِّشاء، وكذَهابِ اللَّحمِ والشّحمِ منَ النّاقة، وكسَرِقةِ المال. ومنه: خَوّنه وخَوَّنَ منه وتخوّنه: تَنَقَّصَه. ومن ذلك خَوْن الأمانة المادّيّة بانتقاصها أو أخذها في خفية كالسّرقة. ومن معنويه: خيانةُ العهود والمواثيق، فعدمُ الوفاء نقصٌ، كما أنّ إتمامَ الكيل استيفاءٌ، "يُقال: خانه العهدَ أو الأمانةَ؛ أي: في العهد أو الأمانة[3]. واصطلاحًا: الخيانةُ هي مخالفةُ الحقِّ بنقض العهد في السّرّ[4].

2) ﴿فَٱنۢبِذۡ﴾: مادّته (نبذ): وأصلها يدلُّ على الطّرح والإلقاء[5]، والمعنى المحوريّ الّذي تدور حولَه اسْتِعْمالاتُ هذه المادّة: طَرْحُ الشّيء أو تنحيته بعيدًا مع تخَلٍّ أو ما يشبهه - كالنّبيذ الموصوف - حيث يُنَحَّى زمنًا طويلًا إلى أن يصلح، وكنبذ الشّيء: إلقائه منَ

(1) القاسميّ، محاسن التّأويل: 5/313.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (خون).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (خون).
(4) الرّاغب، المفردات: (خون).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نبذ).

اليد، وكطرح ولدِ الزّنا. ومن قولهم: جلس نَبْذة؛ أي: ناحية. وانتبذَ عن قومه: تَنَحَّى ﴿إِذِ ٱنتَبَذَتۡ مِنۡ أَهۡلِهَا مَكَانٗا شَرۡقِيّٗا ١٦﴾ [مريم: 16]، ومن معنى الطّرحِ الإخراجُ منَ الماء ﴿۞فَنَبَذۡنَٰهُ بِٱلۡعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٞ ١٤٥﴾ [الصّافّات: 145]، وبعكس ذلك ﴿فَنَبَذۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّۖ﴾ [القصص: 40]، ومنَ الطّرح والإلقاء كذلك: ﴿كَلَّاۖ لَيُنۢبَذَنَّ فِي ٱلۡحُطَمَةِ ٤﴾ [الهمزة: 4]، وقوله: ﴿فَقَبَضۡتُ قَبۡضَةٗ مِّنۡ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذۡتُهَا﴾ [طه: 96]؛ أي: ألقيتها على الحلي الّذي جمعوه من أهل مصر، ومنَ الطّرحِ المجازيِّ تخليًّا وإعراضًا قوله: ﴿نَبَذَ فَرِيقٞ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمۡ﴾ [البقرة: 101]، وأمّا قولُه تعالى: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوۡمٍ خِيَانَةٗ فَٱنۢبِذۡ إِلَيۡهِمۡ عَلَىٰ سَوَآءٍۚ﴾؛ أي: فانبذ إليهم عهدهم؛ أي: ارمه واطرحه غيرَ مبالٍ به[1].

المَعْنى الإجْماليُّ:

نقضُ العهد المقطوع، إيذانٌ بالحرب الضّروس:

وإمّا تخافنّ - يا نبيّ اللّه - من عدوٍّ لك بينك وبينه عهدٌ وعقدٌ أن ينكثَ عهدَه، وينقضَ عقدَه، ويغدرَ بك، فألق إليهم مقاليدَ السّلم، وآذنهم بالحرب، وأعلمهم قبل حربِك إيّاهم أنّك قد فسختَ العهدَ بينك وبينهم بما كان منهم من ظهور آثارِ الغدرِ والخيانةِ، حتّى تصيرَ أنت وهم على سواءٍ في العلم بأنّك لهم محاربٌ، فيأخذوا للحرب آلتَها، وتبرأ منَ الغدر، واعلم أنّ اللّه لا يحبُّ الغادرين[2].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ الوصلِ بالعطف:

وصل حكم النّاقضين للعهود بالفعل، بحكم الّذين يوشكون على ذلك

قوله: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوۡمٍ خِيَانَةٗ فَٱنۢبِذۡ إِلَيۡهِمۡ عَلَىٰ سَوَآءٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡخَآئِنِينَ﴾، هذه الآية معطوفةٌ على الآية السّابقةِ من باب عطف حالةٍ على حالةٍ، أو عطف حكمٍ على حكمٍ؛ فهناك تناولَ

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (نبذ).
(2) ابن جرير، جامع البيان: 14/25.

حكمَ النّاقضين للعهود بالفعل، وهنا تناولَ أحكامَ المشرفين على النّقض[1]، وقد يكون هذا العطف من باب عطف العامّ على الخاصّ، إذ إنّ حالةَ مَن يمكن أن تظهرَ منه علاماتُ الخيانة والغدر، أشملُ وأعمُّ منَ الّذين غدروا بالفعل[2].

سِرُّ التّعبير بـ(إمّا)، في السّياق:

تأكيدُ الشَّرط ترسيخٌ للخوف

(إمّا) هنا كما في قوله تعالى: ﴿فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ﴾، هي (إنْ) الشّرطيّة مُؤكَّدة بلفظ (ما)؛ ولذا أُكِّدَت بالنّون الثّقيلة، ويكون تأكيدًا للشّرط، فهو تأكيدٌ للخوف، والمعنى: إن خفتُم خوفًا مؤكَّدًا توافرت أسبابُه، حتّى يكون توقّعُ الخيانةِ أمرًا ثابتًا قامَت أماراتُه، وبدرَت بوادرُه[3].

بلاغةُ الاستعارةِ في لفظ (الخوفِ):

للعلم والخوف أماراتٌ ودلائلُ، ويترتّبُ عليه مخاطرُ

الخوفُ مُستعارٌ للعلم بأنْ شبَّه العلمَ بالخوف، بجامع أنَّ كليهما يكون عن أماراتٍ ودلائلَ، ويترتّب عليه مخاطرُ؛ أي: وإمّا تعلمنَّ من قومٍ منَ المعاهدين نقضَ عهدٍ فيما سيأتي بما لاح لك منهم من دلائلِ الغدرِ ومخايل الشّرِّ، فاطرحْ إليهم عهدَهم[4]؛ لأنّ شؤونَ المعاملات السّياسيّة والحربيّة، تجري على حسب الظّنون ومخائل الأحوال، ولا يُنتظَرُ تحقّقُ وقوعِ الأمرِ المظنونِ؛ لأنّ التّريّثَ قد يُعرّضُ الأمّةَ للخطر، وضياع المصالحِ[5].

دلالةُ (الفاء) في جواب الشّرط في السّياق:

الفاءُ رُبِطَت بجوابٍ محذوفٍ

الفاءُ في جواب الشّرط ﴿فَٱنۢبِذۡ﴾ رابطةٌ بجوابٍ محذوفٍ، تقديره: وإمّا تخافَنّ من قومٍ خيانةً، فبادرْ أنت بالتّصرّف معهم، فانبذ إليهم عهودَهم.

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/108.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/51.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 6/3170.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/108.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/52.

توجيهُ التَّعبير عن جواب الشّرط:

صاغ جوابُ الشّرط بفعل الأمر المبنيّ في محلّ جزم، والمفعولُ به محذوفٌ، تقديره: عهدهم، دلّ عليه قوله قبلها: ﴿ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهۡدَهُمۡ﴾، وأفادَت صيغةُ الأمرِ فيه معاني التّحقيرِ وعدم المبالاةِ بهذه العهود المبرمةِ معهم، وأفادَت نونُ التّوكيد الثّقيلة فيه ربطَ هذا النّقض بثبوت الخوف وتيقّنه في النّفوس، واقتضَت قوّةُ جوابِ الشّرطِ ﴿فَٱنۢبِذۡ﴾ الحضَّ على حربهم ومناجزتهم إن لم يستقيموا[1].

أفادَت صيغةُ الأمر فيه معاني التّحقير واللّامبالاة، بهذه العهود المبرمة معهم

بلاغةُ الاستعارةِ في فعل الأمر﴿فَٱنۢبِذۡ﴾:

في قوله: ﴿فَٱنۢبِذۡ﴾ استعارةٌ تصريحيّةٌ؛ لأنّ النّبذَ مُستعمَلٌ على الحقيقة في الطّرح، وهو هنا مجازٌ عن إعلامهم بأن لا عهدَ لهم بعدَ اليوم، فشبّه العهدَ بالشّيء الّذي من شأنه أن يُرمَى لعدم الرّغبة فيه[2].

بخيانتهم فقدوا الثّقةَ بهم، فكان النّبذ إليهم مقابل خيانتهم

بيانُ التّضمينِ في فعل النّبذِ:

تعدية ﴿فَٱنۢبِذۡ﴾ بـ (إلى) لتضمّنِ النّبذِ معنى الرّدّ، فيصبح المطلوبُ مجموعَ قوّةِ الفعلين؛ أي: اُرْدُدْ إليهم عهدَهم ردًّا فيه طرحٌ وإلقاءٌ.

الأمرُ بردّ العهدِ، فيه طرحٌ وإلقاءٌ

سرُّ تنكير القوم والخيانة:

تنكير ﴿قَوۡمٍ﴾ و﴿خِيَانَةٗ﴾ جاء في سياق الشّرط مفيدًا للعموم؛ ليشملَ كلَّ قومٍ مهما كان وصفُهم، وكلَّ خيانةٍ مهما كان حالُها، وفي مجيء هذا التّنكير رفعٌ لشأن المؤمنين وتعزيزٌ لمعنويّاتهم، بأن يكونَ هذا ردّهم مع أيِّ قومٍ كانوا، وضدّ أيِّ خيانةٍ قلّت أو كبرت، والمقصودُ بخوف الخيانةِ ظهورُ بوارقها، وبلوغ ذلك إلى المسلمين[3].

المؤمنون مرفوعٌ عند الله تعالى قدرُهم

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز، ص: 810.
(2) الهرريّ، حدائق الرّيحان: 11/84.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/51.

توجيهُ إعراب قوله: ﴿عَلَىٰ سَوَآءٍۚ﴾:

صفةُ النّبذ تساوي بيانه لدى الجميع

الجملة صفة لمصدر محذوف؛ أي: نبذًا صفته أنّه على سواء، أو حال منَ الضّمير في ﴿فَٱنۢبِذۡ﴾؛ أي: في حال كونك على سواء[1]، ومعنى (على سواء)؛ أي: حتّى يكون الأمرُ في بيانِه والعلمُ به على سواءٍ منكَ ومنهم، فتكونون في استشعار الحربِ سواءً، وقيل: على سواء؛ أي: على مَعْدَلَةٍ؛ أي: فذلِكَ هو العدلُ[2]، وهو قريبٌ منَ الرّأي الأوّل.

دلالة فنّ الإشارة على الإيجاز في السّياق:

التّعبير بكلماتٍ قليلةٍ، عن معانٍ عظيمةٍ بالإشارة

في قوله: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوۡمٍ خِيَانَةٗ فَٱنۢبِذۡ إِلَيۡهِمۡ عَلَىٰ سَوَآءٍۚ﴾ فنٌّ، يُقال له: فنّ الإشارة، وهو من أبواب الإيجاز، حيث عبّر القرآنُ الكريمُ بكلماتٍ قليلةٍ عن معانٍ عظيمةٍ يطولُ شرحُها، ولكن يُعبَّرُ عنها بالإشارة، فقوله: ﴿فَٱنۢبِذۡ إِلَيۡهِمۡ عَلَىٰ سَوَآءٍۚ﴾ يُشيرُ إلى الأمر بالمقاتلة بنبذ العهدِ كما نبذوا عهودَهم، مع ما يدلُّ عليه الأمرُ بالمساواة في الفعل منَ العدل، فإذا أضفتَ إلى ذلك ما تشير إليه كلمةُ ﴿خِيَانَةٗ﴾ من وجود معاهدةٍ سابقةٍ، تبيّنَ لك ما انطوَت عليه هذه الإشاراتُ الخفيّةُ من دلالاتٍ ومعانٍ خفيّةٍ[3].

بلاغةُ الاستئنافِ البيانيّ في جملة الفاصلة:

تكرارُ معاهدتهم، مضيٌّ في التّعاقد مع من لا يحبّهم الله

قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡخَآئِنِينَ﴾، من حيث الموقع؛ استئنافٌ بيانيٌّ جاءَ جوابًا عن سؤالٍ مُقدَّرٍ فُهِمَ منَ الجملة الشّرطيّة السّابقة، تقديره: لمَ ننبذُ إليهم عهدَهم عند ظهور مخايلِ الخيانةِ منهم؟ فهي جملةٌ تعليليّةٌ لما تقدّمها، وفيها ما فيها منَ التّعريض بالخيانة، فإنّ الاستمرارَ في عهودهم مضيٌّ في معاهدة مَن لا يحبّهم اللّهُ، فضلًا عن أنّه لا يمكن عطفُها على الجملة الإنشائيّة قبلها: ﴿فَٱنۢبِذۡ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/52.
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز، ص: 810.
(3) درويش، إعراب القرآن الكريم وبيانه: 3/159 - 160.

﴿إِلَيۡهِمۡ عَلَىٰ سَوَآءٍۚ﴾؛ لأنّه لا يمكن عطفُ الجملةِ الإنشائيّةِ على الخبريّة أو العكس، إلّا إذا كانَت إحداهُما بمعنى الأخرى، كما هو مقرّرٌ عند علماء البيان.

أغراضُ تزاحم المؤكّدات، في جملة الفاصلة:

التّوكيدُ ترسيخٌ لبغضه تعالى الخيانةَ

قد أكّد نفيُ محبّةِ اللّهِ تعالى للخيانة بـ (إنّ) الّذي هو حرف توكيدٍ ونصبٍ، وبالجملة الاسميّة، وبذكر المسند إليه مرّةً بوصفه مسندًا إليه مبتدأً، ومرّةً بكونه فاعلًا مُضمَرًا في الفعل ﴿يُحِبُّ﴾؛ ترسيخًا لبغضه تعالى صفةَ الخيانةِ، ومَن رسخَ فيهم هذا الوصف.

توجيهُ توسّطِ النّفي في السّياق:

وسَّط النّفيَ ليقوّي بغضَه للخائنين

توسّطَ النّفيُ هنا بين الفاعل المقدَّم (اللّه) والفعلِ المُؤخَّرِ (يحبّ)، وهذه الحالةُ تقتضي تقويةَ الحكم وتوكيدَه عند البلاغيّين، وقد تفيدُ التّخصيصَ بالقرائن - كما تقدّم مرارًا -، ولا قرينة هنا على صرفه إلى التّخصيص؛ لأنّ عدمَ محبّةِ الخائنين ليس حصرًا على لفظ الجلالة، فالخائنون لا يحبُّهم اللّهُ ولا رسولُه ولا المؤمنون، فيكون التّقديمُ هنا مفيدًا لتقوية الحكم وتوكيده. ونفيُ المحبّةِ أبلغُ في النّهي؛ لأنّ محبّةَ اللّه مطلوبةٌ، فإذا كانتِ الخيانةُ لا تؤدّي إليها فهي منهيٌّ عنها نهيًا شديدًا مُؤكَّدًا[1].

دلالةُ التّعريف بـ(أل)، وصيغةُ اسمِ الفاعل:

لا يُحِبُّ اللهُ تعالى الخيانَةَ، عظُمَت أو صغُرَت

تعريف المفعول به ﴿ٱلۡخَآئِنِينَ﴾ بـ (أل) تعريفًا استغراقيًّا ليشملَ كلَّ مَن كانت هذه صفته، دلّ على هذا الاستغراق تنكيرُ كلمتي (قوم) و(خيانة)، والتّعبيرُ عنِ الخيانة بصيغة اسم الفاعلِ الدّالّ على رسوخ الوصفِ، ودوامِه؛ فاللّهُ تعالى لا يُحبُّ كلَّ مَن اتّصفَ بالخيانة مهما كانَت هذه الخيانةُ نوعًا وكمًّا.

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 6/3172.

بلاغةُ المتشابهِ اللّفظيّ بين آيتي الأنفال والحجّ:

آيَةُ الحجّ كانت في التّثبيت للمؤمنين، والأنفال لمَن يُخشَى منهم نقضُ العهود

هناك آية أخرى في سورة الحجّ تشبهُ نظمَ هذه الآية، وهي قوله تعالى: ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٖ كَفُورٍ ٣٨﴾ [الحجّ: 38]؛ حيث تقدّمَ النّفيُ (لا) فيها لفظَ العموم (كلّ)، والأصل أن تفيدَ هذه الطريقةُ عند البلاغيّين سلبَ العموم[1]؛ بمعنى: أنّ الظّاهرَ المُرادَ منها أنّ اللّه قد يُحبُّ بعض الخوّانين دون بعضِهم الآخر، كما في قولنا: لم آخذْ كلَّ الدّراهم؛ أي: أنّني يمكن أن أكونَ قد أخذتُ بعضَها لا كلّها، مع أنّ الّذي يعتقده المؤمنُ هو أنّ اللّه لا يحبُّ جميعَ الخونةِ والكافرين، لذلك قالوا: إنّها هنا ليست على ظاهرها من إرادة سلبِ العموم، بل إنّها تفيدُ عمومَ السّلبِ بالقرائن؛ أي: إنّ اللّه لا يحبُّ جميعَ مَن كان هذا وصفُه على وجه العموم، دون استثناءٍ، فقد سلبَت آيةُ الحجِّ محبّةَ اللّه عن كلِّ مَنِ اتّصف بهذين الوصفين المُبالغ فيهما على وجه العموم، ويبقى التّساؤلُ عن سرِّ التّغايرِ بين نظمي الآيتين في الأنفال والحجّ، والّذي يبدو من سياق آية الحجِّ أنّها جاءَت تمهيدًا لتشريع الإذن لهم بالقتال بعد أن كان مُحرَّمًا عليهم، لمَن أخرجوهم من ديارهم بغير حقٍّ، حيث جاء بعدَ هذه الآية قوله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ ٣٩ ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيۡرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّهُدِّمَتۡ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٞ وَصَلَوَٰتٞ وَمَسَٰجِدُ يُذۡكَرُ فِيهَا ٱسۡمُ ٱللَّهِ كَثِيرٗاۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ٤٠ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ ٤١﴾ [الحجّ: 39 - 41]، فسياقُ آيةِ الحجِّ كان في التّسريةِ والتّثبيتِ للمؤمنين بأنّ اللّه تعالى يُدافعُ عنهم، وأنّه لن يتركَهم لعدوّهم، وأنّ ما أصابهم ما

(1) الجرجانيّ، دلائل الإعجاز، ص: 371 - 372، والقزوينيّ، تلخيص المفتاح، ص: 67 - 68.

كان ليصيبهم لولا سنّةُ التّدافعِ، وأنّ التّمكينَ في الأرض هو ما أعدّه لهم بعد ذلك، فكان هذا التّعريضُ بأعدائهم من خلال وصفهم بصيغتي المبالغة للخيانة المُقترنةِ بالكفر هو الأليق بهذا المقام، وفيه ما فيه من إذهابِ غيظِ المؤمنين ووعيدِ الكافرين، ولا سيّما وأنّ سورةَ الحجّ مكّيّةٌ على أصحِّ الأقوال، بينما في آية الأنفالِ هنا كان الحديثُ مُنصبًّا على مَن يُخشَى منهم نقضُ العهودِ، وكان الأمرُ بأن يطرحَ عهودَهم ومواثيقَهم على سواء، فناسب هذا كلّه ذكرُ عدمِ مَحبَّتِه للخائنين عمومًا على اختلاف أجناسِهم ومللِهم والله أعلم.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

النّبذ، والطّرح، والإلقاء، والقذف، والرّمي:

النّبذُ طرحٌ للعهود مع الخائن، وفيه معنى مجيء جزائهم من جنس عملهم

استُعمِلَتْ كلمةُ (النّبذ) دون (الطّرح) أو (الإلقاء) و(القذف) و(الرّمي) لخصوصيّة كلِّ لفظةٍ منها، دون ما تشترك فيه كلُّ هذه الألفاظ في معاني الإبعاد والإقصاء الحسّيّة والمعنويّة؛ فالطّرحُ للشّيء هو تنحيته بعيدًا مع تخَلٍّ عنه[1]، واستعملَها القرآنُ الكريمُ مرّةً واحدةً على لسان أخوةِ يوسفَ: ﴿ٱقۡتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ ٱطۡرَحُوهُ أَرۡضٗا يَخۡلُ لَكُمۡ وَجۡهُ أَبِيكُمۡ وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعۡدِهِۦ قَوۡمٗا صَٰلِحِينَ ٩﴾ [يوسف: 9]، فالطّرحُ يجتمعُ مع النّبذ في الإلقاء والإبعاد، لكنّ الطرحَ قد يكون مع استهانةٍ واسترذالٍ، أو قد لا يكونُ كذلك، والنّبذُ اسمٌ لإلقاء الشّيءِ استهانةً به، وإظهارًا للاستغناء عنه، فهو طرحٌ من نوعٍ مخصوصٍ[2]، وأمّا الإلقاءُ فهو طرحُ الشّيءِ حيث تلقاه؛ أي: تراه، ثمّ صار في التّعارف اسمًا لكلّ طرح[3]، قال تعالى: ﴿إِذۡ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمۡ فَثَبِّتُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ سَأُلۡقِي فِي قُلُوبِ

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (نبذ).
(2) العسكريّ، الفروق، ص: 332.
(3) الرّاغب، المفردات، ص: 344.

ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعۡبَ فَٱضۡرِبُواْ فَوۡقَ ٱلۡأَعۡنَاقِ وَٱضۡرِبُواْ مِنۡهُمۡ كُلَّ بَنَانٖ ﴿١٢﴾﴾ [الأنفال: 12]، والرّمي يُستعمَلُ في الإلقاء المادّيّ والمعنويّ[1]، قال تعالى: ﴿وَمَا رَمَيۡتَ إِذۡ رَمَيۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ وَلِيُبۡلِيَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡهُ بَلَآءً حَسَنًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ﴿١٧﴾﴾ [الأنفال: 17]، والقذفُ أشدُّ منَ الرّمي والإلقاء؛ لأنّه يكون للرّمي البعيد سواءً أكان رميًا مادّيًّا أو معنويًّا[2]، ولذلك ورد في القرآنِ مع الحصون المنيعةِ في سياق الحديثِ عن اليَهود: ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمۡ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنۡ حَيۡثُ لَمۡ يَحۡتَسِبُواْۖ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعۡبَۚ﴾ [الحشر: 2]، وقال: ﴿وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمۡ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعۡبَ فَرِيقٗا تَقۡتُلُونَ وَتَأۡسِرُونَ فَرِيقٗا ﴿٢٦﴾﴾ [الأحزاب: 26].

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (رمى).
(2) الرّاغب، المفردات: (قذف).

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَبَقُوٓاْۚ إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ۝٥٩﴾ [الأنفال: 59]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

العلاقة بين تسلية نبيّه من خيانة أعدائه، وأنّ نجاتهم لا تعجز قدرة الله

لمّا بيّنَ تعالى ما يفعلُ الرّسولُ في حقِّ مَن يجدُه في الحرب، ويتمكّنُ منه، وذكر أيضًا ما يجبُ أن يفعلَه فيمَن ظهر منه نقضُ العهد، بيّنَ أيضًا حالَ مَن فاته في يوم بدرٍ وغيره؛ لئلّا يبقى حسرةً في قلبه، فقد كان فيهم مَن بلغَ في أذيّةِ الرّسول ﷺ مَبلغًا عظيمًا، فقال: لا تحسبنّ الّذين كفروا سبقوا؛ والمعنى: أنّهم لمّا سبقوا فقد فاتوك، ولم تقدرْ على إنزال ما يستحقّونه بهم[1].

فالآيةُ تسليةٌ للنّبيّ ﷺ، على ما بدأه به أعداؤُهُ منَ الخيانة مثلَ ما فعلَت قريظَةُ، وما فعلَ عبدُ اللّه بنُ أبَيٍّ بن سَلول وغيرُهم من فلول المشركين الّذين نجَوا يومَ بدرٍ، وطمأنةٌ له وللمسلمين بأنّهم سَيُدالون منهم، ويأتون على بقيَّتِهم، وتهديدٌ للعدوِّ بأنَّ اللّهَ سَيُمَكِّنُ منهم المُسلمين[2].

المَعْنى الإجْماليُّ:

لا أحَدَ يفلت من عقاب الله، وحسابه، مهما كانت حيلته وتحصيناته

هذه الآيةُ نزلَت فيمَن أفلتَ منَ الكفّار في بدرٍ، والخطابُ موجّهٌ لرسول اللّه ﷺ؛ والمعنى: لا تظنّنّ الّذين كفروا فائتين اللّه تعالى، وناجين من عقابه، ومُفلتين من حسابه، فإنّهم لا يَعجِزون طالبَهم، بل لا بُدَّ من أن يُظفرَك اللّهُ بهم، أخذهم في الدّنيا وفي الآخرة، وهذا وإن كان في أهل بدرٍ، إلّا أنّ العِبرةَ بعموم اللّفظِ لا بخصوص السّببِ[3].

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 15/498.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/5.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/505، والصّاويّ، حاشية على تفسير الجلالين، ص: 709.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

توجيهُ إعرابِ (الواو) في المَطلَع:

تسليةُ نبيّ الرّحمة الّذي لا يظلم

الواو هنا عاطفة، عطفَت طبيعةَ تعاملِ النّبيّ ﷺ مع مَن يتمكّن منه في الحرب، ومع مَن ظهر منه نقضٌ للعهد، على حال مَن فاته في يوم بدر وغيره، لئلّا يبقى حسرةً في قلبه، بعد أذيّتهم له ﷺ. أو هي للاستئناف[1].

توجيهُ القراءتين في (لا يحسبنّ):

في تنوّع القراءات ثراءٌ وتنوّعٌ، يُظهرُ روعةَ الإعجاز وتفرّدِه

قوله: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ﴾، فيه قرأ ابنُ عامر وحفص وحمزة وأبو جعفر بياء الغيب مع فتح السّين (يَحسبنَّ)، وقرأ الباقون بتاء الخطاب للنّبيّ ﷺ (تحسبنّ)، على اختلاف أصولِ القرّاءِ أيضًا بفتح السّين أو كسرها، وقرأ ابنُ عامر بفتح همزة (أنّهم لا يعجزون)، وقرأ الباقون بكسرها (إنّهم لا يعجزون)[2]، فعلى قراءة ياءِ الغيبةِ (يحسبنّ) يكون الفاعلُ هو قوله: (الّذين كفروا)، و(حسب) فعل متعدٍّ طبعًا، ويحتاج إلى مفعولين، يمكن أن يكونَ الأوّلُ محذوفًا، وتقديره (أنفسهم)، والمفعول الثّاني هو المصدرُ المؤوّلُ من (أن) المحذوفة والفعل (سبقوا) بعدها، والتّقدير: ولا يحسبنّ الّذين كفروا أنفسَهم سابقين، ويمكن أن يسدَّ المصدرُ المؤوّلُ مسدَّ المفعولين أيضًا، والتّقدير: ولا يحسبنّ الّذين كفروا أن سبقوا[3]، ويمكن على تقديرٍ أبعد أن يكونَ الفاعلُ محذوفًا تقديره يعود على الرّسول ﷺ أو المؤمنين، ويكون (الّذين كفروا) مفعولًا به أوّل، و(سبقوا) مفعولًا به ثانيًا[4]، وأمّا على قراءة تاء المخاطبةِ للنّبيّ ﷺ أو مَن يصلحُ للخطاب، يكون المفعولُ به الأوّلُ (الّذين كفروا) والثّاني (سبقوا)، والمعنى: ولا تحسبنّ الّذين كفروا سابقين[5].

---

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 6/3173.
(2) آل نصر، طلائع البشر، ص: 184.
(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز، ص: 811.
(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 15/151.
(5) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 15/151.

دلالةُ النّهي عنِ الحسبان:

النّهي عنِ الحسبان، نهيٌ عمّا ينبغي

(لا) ناهية، والنّهي عنِ الحسبان، والظّنّ هو نهيٌ عمّا ينبغي؛ لأنّ الحسبانَ لا يقعُ عليه النّهي، إنّما المرادُ: لا ينبغي لهم أن يحسبوا أنّهم سبقوا؛ أي: فازوا، إذا سبقوا إلى عيرهم، وأخذوها، وأفلتوا بها، فإنّهم لا يُعجزون[1].

بلاغةُ الاستعارة في لفظِ (السّبق):

إنّ اللهَ يمهلُ الظّالمَ؛ فإذا أخذه لم يُفلته

السَّبقُ مُستعارٌ للنّجاة ممّن يَطلُبُ، والتَّفلُّتِ من سُلطته، شبَّهَ المُتَخلِّص من طالبه بالسّابق كقوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَاۚ﴾ [العنكبوت: 4]، وقالَ بعضُ بَني فقْعَسٍ:

كَأَنّكَ لم تُسبَقْ منَ الدَّهرِ مَرَّةً***إذا أنتَ أدركتَ الّذي كُنتَ تَطلُبُ

أي: كأنّك لم يَفُتكَ ما فاتَكَ إذا أدركتَهُ بعدَ ذلك، ولذلك قوبِلَ السَّبقُ هنا بقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ﴾؛ أي: هم وإنْ ظهرَت نجاتُهُمُ الآن، فما هي إلّا نَجاةٌ في وقتٍ قصيرٍ، فهم لا يُعجِزون اللّه، فهو القادرُ عليهم المتمكّنُ منهم، أو لا يُعجزون المُسلمين؛ أي: لا يُصَيِّرون مَن أفلَتوا منه عاجِزًا عن نَوالِهم[2].

توجيهُ العدولِ عن ذكرِ ما سبقوا فيه:

بيان أنّه لا غايةَ لحياتهم، ولا جدوى من عيشهم

عُدِلَ عن ذكر "ما سبقوا فيه أو ما فازوا به، بل أطلق نفي ظنِّهم أنّهم سبقوا أيَّ نوعٍ منَ السّبق، أو فازوا بأيِّ نوعٍ منَ الفوز، فالمعنى: أنّهم لا يظنّون أنّهم يسبقون بأيِّ سبق، فحياتُهم فارغةٌ أبدًا، لأنّهم ليست لها غاية؛ لأنّ أيَّ سبقٍ لهم فهو لغوٌ، وأنّ نهايتَهم واحدةٌ إنِ استمروا على كفرهم، وإنّ اللّه تعالى غالبٌ، والنّصرُ للمؤمنين"[3].

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 6/3173.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/53.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 6/3173.

توجيهُ قراءةِ كسرِ همزةِ (إنّ) وفتحِها:

مهما يغلبوا فإنّ الغلبَ عليهم، ولا تحسبَنَّهم مُعجزين المؤمنين

أكثرُ القرّاءِ على كسر (إنّ) في قوله: ﴿إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ﴾ وهو الوجهُ؛ لكون الجملةِ مستأنفةً استئنافًا بيانيًّا جوابًا عن سؤال تثيرُه جملةُ: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَبَقُوٓاْۚ﴾؛ ولأنّه ابتداءُ كلام غيرِ متّصلٍ بالأوّل كقوله: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَاۚ﴾ [العنكبوت: 4]، وتمّ الكلامُ، ثمّ قال: ﴿سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾، فكما أنّ قولَه: ﴿سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ منقطعٌ منَ الجملة الّتي قبلها، كذلك قوله: إنّهم لا يُعجزون. وهي في معنى تَعْليلِ نهيهم عن حسبان أنّهم سبقوا، حين ظنّوا أنّهم فازوا عندما سبقوا إلى عيرهم، وأخذوها، وأفلتوا بها؛ لأنّه ما دامتِ النّهايةُ للمؤمنين، وأنّهم لا يُعجزون، فالهزيمةُ لاحقةٌ بهم مهما سبقوا، ومهما يفوزوا في حركاتٍ ليسَت هي النّهاية، واللّهُ من ورائهم محيطٌ حتّى يوم القيامة[1]. وهناك قراءةٌ بفتح (أنّ) على حذف لام التّعليل؛ فالجملةُ في تأويلِ مصدرٍ هو علّةٌ للنّهي؛ أي: لأنّهم لا يُعجزون، جاء في الكشّاف: كلٌّ واحدةٍ منَ المكسورة والمفتوحة تعليلٌ إلّا أنّ المكسورةَ على طريقةِ الاستئنافِ، والمفتوحةَ تعليلٌ صريحٌ[2]، والمعنى الجُمليّ للنّصّ السّاميّ أنّهم مهما يسبقوا ويفوزوا فإنّ الغلبَ عليهم، ولا تحسبَنَّهم مُعجزين منَ المؤمنين، كما في قوله تعالى: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مُعْجِزِينَ فِي ٱلْأَرْضِۖ﴾، وقوله تعالى: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي ٱلْبِلَٰدِ ١٩٦ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُۚ﴾[3].

بلاغةُ التّعبير بالمضارع، وحَذْفِ مفعولِ ﴿يُعْجِزُونَ﴾:

بيان أنّهم لا يُعجزون اللهَ في أيّ شيءٍ، وعلى الدّوام

التّعبيرُ عن نفي العجزِ بالفعل المضارع ﴿يُعْجِزُونَ﴾، وما يدلُّ عليه منَ التّجدّدِ الاستمراريِّ، وحذفِ مفعول ﴿يُعْجِزُونَ﴾ إيجازًا

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 15/498، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 6/3173.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/231، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/54.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 6/3173.

وتعميمًا ليشملَ اللّهَ والرّسولَ والمؤمنين، فهم أعجزُ من أن يُعجِزوا اللّهَ أو رسولَه أو المؤمنين، كلُّ ذلك يؤدّي الى شحذ همّةِ المؤمنين وتقويةِ بنيانِهم وجبرِ خواطرِهم، ويؤدّي بشكلٍ آخر موازٍ لهذا إلى تهديدِ الكافرين، وزعزعةِ بنيانِهم، وتقويضِ أوهامِهم.

بلاغةُ المؤكِّدات:

لا شكّ أنّ نظمَ الجملةِ ﴿إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ﴾ يشبهُ نظمَ الجملةِ السّابقةِ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ﴾، وما قيل هناك من وجوهٍ بلاغيّةٍ يصلحُ أن يُقال هنا، من حيث تقدّم المسند إليه المبتدأ على المسند الفعليِّ المنفيِّ، وما يتبعه من تقوية الحكمِ أو تخصيصِه، فضلًا عن أنّ هذه الجملةَ هنا قد حظيَت بالمُؤكِّداتِ الّتي حظيَت بها الجملةُ السّابقةُ.

التّوكيدُ يرفعُ مَعْنَويّاتِ المؤمنين، ويحقّق التّعريض بالكافرين

﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ وَمِن رِّبَاطِ ٱلۡخَيۡلِ تُرۡهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمۡ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمۡ لَا تَعۡلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعۡلَمُهُمۡۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيۡءٖ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيۡكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تُظۡلَمُونَ ٦٠﴾ [الأنفال: 60]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

المناسبة بين قدرة الله على الكافرين، وضرورة الإعداد للنّصر المبين

بعد أن أوجبَ عليهم أن يُشرِّدوا مَن بادرَ إلى نقض العهد، وأن ينبذوا عهودَ مَن يُخافُ منه الخيانةُ، ونقضُ الميثاقِ، أمرَهم في هذه الآية بالإعداد للكفّار[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَأَعِدُّواْ﴾: يقول صاحبُ معجم المقاييس في اللّغة حول أصل مادّة (عدّ): "العينُ والدّالُ أصلٌ صحيحٌ واحدٌ لا يخلو منَ العدِّ الّذي هو الإحصاءُ، ومنَ الإعداد الّذي هو تهيئةُ الشّيء، وإلى هذيْن المعنَييْن ترجعُ فروعُ البابِ كلُّها[2]"، الإعداد: هو التّهيئةُ والإرصاد[3].

2) ﴿قُوَّةٖ﴾: القافُ والواو والياءُ أصلان متباينان، يدلُّ أحدُهما على شدّةٍ وخلافِ ضَعْفٍ، والآخرُ على خلاف هذا وعلى قلّةِ خيرٍ، فالأوّلُ القوّةُ، والقويُّ: خلافُ الضّعيفِ، والأصلُ الآخرُ: القَواءُ: الأرضُ الّتي لا أهلَ بها[4]، والقوَّة: تُستعمَلُ تارةً في معنى القدرة، نحو قوله: ﴿خُذُواْ مَآ ءَاتَيۡنَٰكُم بِقُوَّةٖ﴾ [الأعراف: 171]، وتارةً للتّهيّؤ الموجود في الشّيء، ويُستعمَلُ ذلك في البدن تارةً، وفي القلب

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 15/151.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عد).
(3) الكفويّ، الكلّيّات، ص: 148.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (قوي).

أخرى[1]، وقال صاحب الكلّيّات: القوّةُ: هيَ كَون الشَّيء مُستعدًّا لأن يوجد ولم يوجد[2].

3) ﴿رِّبَاطِ ٱلۡخَيۡلِ﴾: رَبطُ الفرس: شدّه بالمكان للحفظ، ومنه: رِباطُ الخيل، وسمّي المكانُ الّذي يخصُّ بإقامة حِفْظِه فيه: رباطًا، والرِّباط مصدر رَبَطْتُ ورابَطْتُ، والمُرابَطَة كالمحافظة، قال الله تعالى: ﴿وَمِن رِّبَاطِ ٱلۡخَيۡلِ تُرۡهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمۡ﴾ [الانفال: 60]، وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصۡبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ﴾ [آل عمران: 200]، فالمرابطة ضربان: مرابطة في ثغور المسلمين، وهي كمرابطة النّفس البدن، فإنّها كمَن أُقيم في ثغرٍ، وفوّض إليه مراعاتُه، فيحتاج أن يراعيه غيرَ مخلٍّ به، وذلك كالمجاهدة، والضّربُ الثّاني: يُقال: فلان رابِطُ الجأش: إذا قوي قلبُه[3].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

قوّة الإعداد تُرهبُ الأعداء المتربّصين، وتُمكّنُ المؤمنين منَ النّصر المكين

يخاطبُ اللهُ عبادَه المؤمنين بقوله: ﴿وَأَعِدُّواْ﴾ لأعدائكم الكفّار السّاعين في هلاككم وإبطال دينكم، ﴿مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ﴾؛ أي: كلُّ ما تقدرون عليه منَ القوّة العقليّة والبدنيّة وأنواع الأسلحة ونحو ذلك ممّا يعينُ على قتالهم، فدخلَ في ذلك أنواع الصّناعات الّتي تعملُ فيها أصنافُ الأسلحةِ والآلاتِ والشّجاعةِ والتّدبيرِ والمراكبِ المحتاج إليها عند القتالِ، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمِن رِّبَاطِ ٱلۡخَيۡلِ تُرۡهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمۡ﴾، وهذه العلّةُ موجودةٌ فيها في ذلك الزّمان، وهي إرهابُ الأعداء، والحكمُ يدورُ مع علّته، وقوله: ﴿تُرۡهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمۡ﴾؛ أي: ممّن تعلمون أنّهم أعداؤكم، ﴿وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمۡ لَا تَعۡلَمُونَهُمُ﴾ ممّن سيقاتلونكم بعدَ هذا الوقت الّذي

(1) الرّاغب، المفردات: (قوى).
(2) الكفويّ، الكلّيّات، ص: 717.
(3) الرّاغب، المفردات: (ربط).

يخاطبُهم الله به، ﴿ٱللَّهُ يَعۡلَمُهُمۡۚ﴾ فلذلك أمرَهم بالاستعداد لهم، ومِن أعظم ما يعينُ على قتالهم بذلك النّفقات الماليّة في جهاد الكفّار، ولهذا قال تعالى مُرَغِّبًا في ذلك: ﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيۡءٖ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ قَليلًا كان أو كَثيرًا ﴿يُوَفَّ إِلَيۡكُمۡ﴾، فأجرُه يوم القيامة مُضاعفٌ أضْعافًا كثيرةً، ﴿وَأَنتُمۡ لَا تُظۡلَمُونَ﴾؛ أي: لا تنقصون من أجرها وثوابها شيئًا[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ الوصلِ بالعطف:

جمعَ وجوبَ التّشريد والنّبذ، مع الأمر بالإعداد

الآيةُ الكريمةُ معطوفةٌ؛ إمّا على قوله: ﴿فَإِمَّا تَثۡقَفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡحَرۡبِ﴾، فبعد أن أوجبَ عليهم أن يُشرِّدوا مَن صدر منه نقضُ العهد، وأن ينبذوا عهودَ مَن يُخاف منه النّقض، أمرهم في هذه الآية بالإعداد لهؤلاء الكفّار[2].

بلاغةُ الاحتراسِ في العطف:

الاستعدادُ للعدوّ، علّةُ كونه لا يُعجز

تحتملُ الآيةُ العطفَ على قوله: ﴿وَلَا يَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَبَقُوٓاْۚ﴾؛ ليفيدَ العطفُ غرضًا بلاغيًّا يسمّى الاحتراس[3]، فقوله: ﴿وَلَا يَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَبَقُوٓاْۚ﴾ يوهمُ التّوهينَ من شأن المشركين، والتّقليلَ من شأنهم؛ فعقّبه بالأمر بالاستعداد لهم، لئلّا يحسب المسلمون أنّ المشركين قد صاروا في مكنتهم، فيلزم من هذا الاحتراس أن يستعدّوا لهم، فيكون هذا الاستعداد هو السّببُ في كونهم لا يُعجزون[4].

(1) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 324 - 325.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 15/151.
(3) وهو نوعٌ منَ الإطناب، ويسمّى الاحتراس أو التّكميل: وهو أن يُؤتى بكلامٍ يوهمُ خلافَ المقصود بما يدفعه. يُنظر: القزوينيّ، تلخيص المفتاح، ص: 127.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/54 - 55.

دلالةُ الأمرِ (أعدّوا)، ووجهُ جمعِه:

الأمرُ بالإعداد اتَّخاذُ الشّيء لوقت الحاجةِ إليه[1]، وهو عامٌّ موجّهٌ لكلّ المؤمنين؛ فـ" المخاطبة في هذه الآية لجميع المؤمنين"[2]، فاجتماعُهم، ومشاركتُهم في الإعداد موئلُ نصرِهم، وآلةُ تمكينِهم، وسرُّ ثباتِهم.

يدُ الله مع الجماعة، والجماعة رحمة، والفرقة عذاب

عودُ الضّمير في ﴿لَهُم﴾، من الآية الكريمة:

الضّميرُ في قوله: ﴿لَهُم﴾ عائدٌ على الّذين يُنْبَذ إليهم العَهْدُ، أو على الّذين لا يُعجزون على تأويل مَن تأوّلَ ذلك في الدّنيا، ويحتملُ أن يعيدَه على جميع الكفّار المأمور بحربهم في ذلك الوقت، ثمّ استمرّتِ الآيةُ في الأمّةِ عامّةً، إذِ الأمرُ قد توجّهَ بحرب جميعِ الكفّار[3].

الأمرُ مُتوجّهٌ لمحاربة جميع الكفّار

سرُّ التّعبيرِ بالموصول (ما) في السّياق:

إيثار الموصول الاسميّ (ما) الدّالّ على الإبهام والتّنكير؛ لإفادة التّعميم لتشملَ كلَّ أنواعِ الإعداد، ومختلفَ وجوه الاستطاعة قلّت أو كثرت.

أفادَت (ما) التّعميمَ، لتوخّي كلّ أنماط الإعداد اللّازمة

التَّعبيرُ عنِ الاستطاعة بصيغة الاستفعال:

تدلُّ صيغةُ الاستفعال على طلبِ الفعلِ، والأمرُ هنا بالاستطاعة وفاقَ هذه الصّيغة طلبٌ للسّعي وبذلِ الجهدِ والنّفسِ لتحصّل تمامِ الإعداد، والإمكانِ منه، والقدرةِ على تنفيذه بما توحي به الصّيغةُ من دلالةٍ على قوّةِ المعنى، بالزّيادةِ على أصل الفعلِ، وبذا تكونُ أخصَّ منَ القدرة.

الحثُّ على تحصّل مكامنِ الإعدادِ، في مواجهة الأعداء

بلاغةُ تنكير لفظ ﴿قُوَّةٍ﴾ في الآية:

الخطابُ في الآية هو لجماعة المسلمين وولاة الأمر منهم؛ لأنّ ما يُراد منَ الجماعة إنّما يقوم بتنفيذه ولاةُ الأمور الّذين هم وكلاءُ الأمّةِ على مصالحها[4]، والأمرُ في ﴿وَأَعِدُّواْ﴾ يفيدُ الوجوبَ الفرضيَّ

إفادة القوّة التّعميمَ، ليشملَ كلَّ القوى المادّيّة والمعنويّة

(1) الخازن، لباب التّأويل: 3/45.
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/545.
(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/545.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/55.

على القادرين، وتقديمُ شبه الجملة ﴿لَهُم﴾ على المفعول به، إنّما هو لكمال التّحذيرِ للمؤمنين من أعدائهم، ولكي لا يتواكلوا ولا يتوانوا في الإعداد والتّهيئة لأعدائهم الّذين يتربّصون بهم، والضّمير في قوله: ﴿لَهُم﴾ عائدٌ على الّذين يُنْبَذ إليهم العَهْدُ، أو على الّذين لا يُعجزون، ويحتمل أن يعودَ على جميع الكفّار المأمورِ بحربهم في ذلك الوقت، ثمّ استمرّتِ الآيةُ في الأمّةِ عامّةً[1]، والظّاهرُ العمومُ[2]، والقوّةُ هنا أُطلِقَت مجازًا على شدّة تأثير شيءٍ ذي أثر، ويمكن أن تكونَ أُطلقت على سبب شدّةِ التّأثيرِ، فقوّةُ الجيش شدّةُ وقعِه على العدوّ، وقوّتُه أيضًا سلاحُه وعتادُه، وهو المراد هنا، فهو مجازٌ مُرسَلٌ بواسطتين أو بسببين، فاتّخاذُ السّيوفِ والرّماحِ والأقواسِ والنّبالِ منَ القوّة في جيوش العصورِ الماضيةِ، واتّخاذُ الدّبّاباتِ والمدافعِ والطّيّاراتِ والصّواريخِ منَ القوّة في جيوش عصرِنا[3]، وذكروا فيما يمكن أن يكونَ سببًا في القوّة وجوهًا: **الأوّل**: المرادُ منَ القوّة أنواعُ الأسلحة، **الثّاني**: ما ورد عنِ النّبيّ ﷺ: «ألا إنّ القوّةَ الرّميُ» قالَها ثلاثًا[4]، **الثّالث**: قال بعضُهم: القوّةُ هي الحصونُ، الرّابع: هذا عامٌّ في كلِّ ما يتقوّى به على حرب العدوّ، وهو القول الأولى[5]، ويؤيّدُ هذا الرّأيَ الأخيرَ تنكيرُ كلمةِ ﴿قُوَّةٍ﴾، والّذي يفيدُ التّعميمَ ليشملَ كلَّ القوى المادّيّة والمعنويّة، فيدخل فيها الرّميُ دخولًا أوّليًّا؛ لأنّه من أهمِّ القوى الّتي تحسمُ المعركة.

توجيهُ العطفِ، في ذكر رباط الخيل:

عطفُ ﴿رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ﴾ على ﴿قُوَّةٍ﴾ من عطف الخاصّ على العامّ للاهتمام بذلك الخاصّ[6] نحو قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا

عطفُ (رباط الخيل)، من عطف الخاصّ على العامّ

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز، ص: 811 - 812.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/343.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/55.
(4) مسلم، الصحيح، كتاب الإمارة، باب: فضل الرّمي والحثّ عليه، برقم: (1917).
(5) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 15/151 - 152.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/55.

لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبۡرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوّٞ لِّلۡكَٰفِرِينَ ﴿٩٨﴾﴾ [البقرة: 98]، وجبريل وميكال من جنس الملائكةِ، وعطفها عليها يقتضي تفضيلَها على بقية أفرادِ جنسِها.

علّةُ إيثارِ صيغة (الرّباط)، في ثنايا السّياق:

الرّباطُ اسمٌ للخيل الّتي تُربَطُ في سبيل اللّه، فِعال بمعنى مفعول، أو مصدرٌ سمّيت به[1]، حيث يسمّون المكانَ الّذي تُربطُ فيه الخيولُ رباطًا، ويمكن أن تكونَ رباطُ صيغةَ مبالغةٍ للمبالغة بربط الخيلِ واحتباسِها انتظارًا للغزو[2].

الرّباطُ اسمٌ للخيول الّتي تُربَطُ في سبيل الله

بلاغةُ الكنايةِ في جملة ﴿رِّبَاطِ ٱلۡخَيۡلِ﴾:

﴿رِّبَاطِ ٱلۡخَيۡلِ﴾ كنايةٌ عربيّةٌ بليغةٌ معروفةٌ عند العربِ دالّةٌ على البأس والإعداد الحربيّ[3]، قال الشّعراويّ: "ورباط الخيل هو القوّةُ الّتي تحتلُّ الأرضَ، فمهما بلغَت قدرتُك في الرّمي فأنت لا تستطيع أن تستولي على أرض عدوِّك، ولكنَّ راكبي الخيل كانوا يدخلون المعركةَ في الماضي بعدَ الرّمي ليحتلوا الأرضَ، وهذه عَمَليَّةٌ تقومُ بها المدرّعات الآن؛ فالمعركةُ تبدأُ أوّلًا: رَمْيًا بالصّواريخ والطّائرات حتّى إذا حطّمتَ قوّةَ عدوِّك انطلقَتِ المدرّعاتُ لتحتلَّ الأرضَ، فالطّائراتُ والصّواريخُ تهلكُ العدوَّ وتحطّمُه، ولكنّها لا تأخذُ الأرضَ، ولكنّ الّذي يمكّننا منَ الأرض والاستيلاء عليها هو رباطُ الخيل، أو المدرّعاتُ، ورباطُ الخيل هو عقده للحرب؛ أي: أنّ الخيلَ تُعدُّ، وتُعلَفُ، وتدرَّبُ، وتكونُ مستعدّةً للحرب في أيّة لحظةٍ، تَمامًا كما تأتي للمدرّعات، وتعدُّها إعدادًا جيّدًا بالذّخيرة، وتصلحُ ماكيناتِها، وتتدرّبُ عليها؛ لتكونَ مُستَعدًا للقتال في أيّ لحظة"[4].

الخيلُ مظنّةُ البأس، والإعداد للحرب

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/109.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/55.
(3) مراد، المقدّمة في فقه العصر: 2/737.
(4) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 8/4777.

وجهُ إضافةِ الرّباط إلى الخيل:

الإضافةُ للبيان، أو على (من) التّبعيضيّة

يكثرُ استعمالُ التّركيبِ ﴿رِّبَاطِ ٱلۡخَيۡلِ﴾ في الخيل الّتي تُربَطُ في سبيل اللّه. فالإضافة؛ إمّا باعتبار عموم المفهوم الأصليِّ، أو بملاحظة كون الرّباط مشتركًا بين معانٍ أُخَر، كانتظارِ الصّلاةِ، وملازمةِ ثغرِ العدوِّ، والمواظبةِ على الأمر، فإضافته لأحد معانيه للبيان، كـ (عين الشّمس)، ومنه يعلم أنّه يجوزُ إضافةُ الشّيء لنفسه إذا كان مُشتركًا، وإذا كان من إضافة المُطلَقِ للمقيّد، فهو على معنى (من) التّبعيضيّة[1].

سرُّ تخصيص الخيل بالذّكر، في سياق القرآن الكريم:

خُصّتِ الخيلُ بالذّكر تشريفًا لها على لسان كثير من الأنبياء

لمّا كانتِ الخيلُ هي أصلُ الحروبِ وأوزارها، والّتي عُقِدَ الخيرُ في نواصيها، وهي أقوى القوّة، وحصونُ الفرسان، وسروجُ صولاتِهم، وآلاتُ غاراتِهم، خصّها اللّهُ بالذّكر ههنا تشريفًا لها، على نحو قوله: ﴿مَن كَانَ عَدُوّٗا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبۡرِيلَ وَمِيكَىٰلَ﴾ [البقرة: 98][2].

بلاغةُ تركِ العطفِ في السّياق:

تُرِكَ العطفُ لشبه كمال الاتّصال، أو لكمال الانقطاع أو لكونها جملةً حاليّةً

قوله تعالى ﴿تُرۡهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمۡ﴾، هذه الجملةُ لم تُعطَفْ على سابقتها لاحتمالات: إمّا لكونها استئنافًا بيانيًّا جوابًا عن سؤالٍ مُقدَّرٍ: لمَ نعدّ لهم هذا كلّه؟ ترهبون به عدوَّ اللّه وعدوَّكم، وهو الأولَى هنا؛ لأنّ في تقدير السّؤالِ المحذوفِ بَلاغَةً عَجيبَةً من شجاعة العربيّة، وإمّا أنّ تركَ العطفِ لكمال الانقطاع بسبب عدمِ جوازِ عطفِ الجملةِ الخبريّةِ على الإنشائيّةِ، فجملة ﴿تُرۡهِبُونَ﴾ خبريّة، وجملة ﴿وَأَعِدُّواْ﴾ إنشائيّة، ولا يجوزُ عطفُ إحداهما على الأخرى إلّا إن كانت إحداهما بمعنى الأخرى، وإمّا تُرِكَ العطفُ لكونها جملةً حاليّةً من ضمير ﴿وَأَعِدُّواْ﴾ على معنى: مرهبين به، أو منَ الاسم الموصول (ما)، أو من عائده المحذوف (ما استطعتموه)[3].

(1) القاسميّ، محاسن التّأويل: 5/315.
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/546.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/109، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/56.

توجيهُ القراءاتِ في قوله: ﴿تُرۡهِبُونَ﴾:

غـايـةُ الإعـدادِ إيقاعُ الرّهبة في قلوب الكافرين، كـلٌّ بحسب ما يلزمه

قرأ الجمهورُ ﴿تُرۡهِبُونَ﴾ بسكون الرّاء وتخفيف الهاء، منَ الفعل (أرهب)، وقرأ رويس بفتح الرّاء وتشديد الهاء[1]، منَ الفعل (رَهَّب)، وكِلاَ الفعلين مُتعدٍّ، لكنّ قراءةَ التّضعيف أفادَتِ المبالغةَ في إيقاع الرّهبةِ في قلوبهم، وبجمع معاني القراءتين يُفهَمُ أنّ الغايةَ من هذا الإعداد هو إيقاعُ الرّهبةِ في قلوب الكافرين، كلٌّ بحسب ما يلزمه من هذا التّخويف والإرهاب، وفوائدُ هذا الخوف ما جاء في تفسير الرّازيّ: "أوَّلُها: أنّهُم لا يَقصِدونَ دُخولَ دارِ الإسلام. وثانيها: أنّه إذا اشتَدَّ خَوفُهُم فرُبَّما التَزَموا مِن عِند أنفسِهم جِزيَةً. وثالِثُها: أنّه رُبَّما صارَ ذلك داعيًا لهم إلى الإيمان. ورابِعُها: أنّهُم لا يُعينونَ سائِرَ الكُفّارِ. وخامِسُها: أن يَصيرَ ذلك سَبَبًا لِمَزيدِ الزّينَةِ في دارِ الإسلامِ"[2].

الغَرَضُ منَ العطف بين الصّفات:

عطفُ الصّفاتِ لإنـزال التّغاير العنوانيّ، منزلةَ التّغاير الذّاتيّ

المراد بـ﴿عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمۡ﴾ هم المشركون، وعرّفهم بصفتين متقاربتين بأنّهم أعداءُ اللّه وأعداؤهم ليتقوّى ذمّهم، فهذا من عطف الصّفات لموصوفٍ واحدٍ لإنزال التّغايرِ العنوانيِّ منزلةَ التّغايرِ الذّاتيِّ، وقد تقدّمَ الحديثُ عن نظائره، فكونهم أعداءً للّه يقتضي أنّهم أعداءٌ للمؤمنين، وعطفُ ﴿وَعَدُوَّكُمۡ﴾ أفاد توكيدًا لعداوتهم للّه، وأشعر أنّ كلَّ صفةٍ منَ الصّفتين تصلحُ أن تكونَ كافيةً لإرهابهم، فكيف وقد اجتمعتِ الصّفتان بما يُشعِرُ بنبوّ إحداهما عنِ الأخرى.

دلالة العطفِ في مطلع الآية الكريمة:

قوله: ﴿وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمۡ﴾، الجملةُ معطوفةٌ على ما سبقها، والمراد أنّ تكثيرَ أدواتِ الجهاد وآلاتِه كما يُرهبُ أعداءَ اللّه الّذين

(1) آل نصر، طلائع البشر، ص: 184.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 15/152 - 153.

نعلمُ أنّهم أعداءٌ، يُرهِبُ كذلك الأعداءَ الّذين لا نعلمُ أنّهم أعداءٌ كالمنافقين، وذلك أنّهم إذا شاهدوا قوّةَ المسلمين وكثرةَ آلاتِهم وأدواتِهم انقطعَ عنهم طمعُهم من أن يصيروا غالبين لهم، وذلك يحملُهم على ترك الكفر في بواطنهم، ويَصيرونَ مخلصين، وأيضًا فإنّ المنافقَ من شأنه أن يتربّصَ ظهورَ الآفاتِ، ويحتالَ في إلقاء الإفسادِ والتّفريقِ فيما بين المسلمين، فإذا شاهدَ قوّةَ المسلمين خافَهم، وتركَ هذه الأفعالَ المذمومةَ، وقال بعضُهم: المرادُ بذلك كفّارُ الجنِّ أو المسلمون؛ لأنّ المسلمَ قد يُعادي أخاه المسلم[1].

من وجوه الإعداد، تكثيرُ آلات وأدواتِ الجهادِ

فائدةُ التّعبيرِ بشبه الجملة ﴿مِن دُونِهِمۡ﴾:

يرى ابنُ عاشور أنّ هذا القيدَ في قوله: ﴿مِن دُونِهِمۡ﴾ ما يُشعِرُ بأنّهم من قبائل العرب الّذين كانوا ينتظرون ما تنكشفُ عنه عاقبةُ المشركين من أهل مكّة من حربهم مع المسلمين، فقد كان ذلك دأبَ كثيرٍ منَ القبائلِ، ولذلك ذكرَ ﴿مِن دُونِهِمۡ﴾ بمعنى من جهات أخرى؛ لأنّ أصلَ (دون) أنّها للمكان المخالفِ، وهذا أولى من حمله على مُطلَقِ المغايرة الّتي هي من إطلاقات كلمة (دون)؛ لأنّ ذلك المعنى قد أغنى عنه وصفهم بـ(آخرين)[2]، وعلى جلالة قدر رأيه إلّا أنّ الحملَ على العموم هو الأليقُ بألفاظِ كتابِ الله تعالى ليعمَّ كافّةَ صنوفِ أعداءِ الله، وأعدائِهم الظّاهرين والمبطنين والله أعلم.

استيعاب صنوف أعداء الله كافّةً، الظّاهرين والمبطنين

دلالةُ نفي العلم بالفعل المضارع المنفيّ:

معنى قوله: ﴿لَا تَعۡلَمُونَهُمُ﴾: لا تعلمون أعيانَهم وأشخاصَهم؛ إذ هم مُستترون عن أن تعلَموهم بالإسلام، فالعلمُ هنا بمعنى المعرفة، ولذلك فقد تعدّى إلى مفعولٍ واحدٍ، وبعضهم تكلّفَ في تقدير مفعولٍ ثانٍ لـ(علم)، مثل: محاربين أو فارغين أو راهبين[3]، وإطلاقُ العلمِ على

نَفْيُ عِلْمِ الأعيان والأشخاص، استيعابٌ لكلّ المَنْفيّاتِ في السّياق

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 15/153.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/57.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/345.

المعرفة شائعٌ في لغة العربِ، وفي إسناد المعرفةِ إلى اللّه تباينَت آراءُ العلماء، والأكثرون على منعه[1]؛ لأنّ المعرفةَ تكونُ بعدَ جهلٍ، وتحتاجُ إلى أسبابٍ في تحصيلها، وكلا الأمرين تتنزّه عنه الذّات العليّة.

بلاغةُ تقديمِ المسند إليه، على المسند الفعليّ:

في قوله: ﴿ٱللَّهُ يَعۡلَمُهُمۡۚ﴾ تقديمٌ للمسند إليه على الخبر الفعليّ، وهذا التّركيبُ كما تقدّم مرارًا يفيدُ تقويةَ الحكم وتأكيدَه، وقد يفيدُ التّخصيصَ بالقرائن، وذلك عند مَن يرى أنّ اللّه وحده هو الّذي يعلمُ حالَهم، بدليل أنّه نفى عنهم علمهم بهم، ويرى ابنُ عاشور أنّ الحملَ على التّخصيص والقصر هنا غيرُ مرادٍ؛ لأنّه تقدّمها قوله: ﴿لَا تَعۡلَمُونَهُمۡ﴾، ولو قيل: (لا تعلمونهم ويعلمهم اللّه) لحصلَ معنى القصر من مجموع الجملتين[2]، وفي حملها على تقوية الحكم ما يرفعُ من معنويّةِ المؤمنين، وما يزعزعُ معنويّات أعدائهم، ويمكن كذلك أن يكونَ قوله: ﴿ٱللَّهُ يَعۡلَمُهُمۡۚ﴾ استئنافًا بيانيًّا جوابًا عن سؤالٍ مُقدَّرٍ: فمَن يعلمهم؟

أفادَ التّقديمُ رفع معنويّات المؤمنين، وزعزعة معنويّات أعدائهم

نكتةُ التّعبير بالجملة الاسميّة:

جاءَت الجُمْلةُ بهيئة الاسميّةِ الّتي تفيدُ التّوكيدَ والثّباتَ تعريضًا وتهديدًا لهؤلاء الآخرين، وإشعارًا بالامتنان على المسلمين بأنّهم بمحلّ عنايةِ اللّهِ، فهو يحصي أعداءَهم، وينبهُهم إليهم[3].

أفادَت هيئةُ الاسميّة تهديدَ الآخرين، وامتنانًا للمسلمين

نكتةُ التّعبير عنِ العلم وعن نفيه مضارعًا:

علمُ اللّه تعالى بهم دائمٌ مُتجدِّدٌ مُستمرٌّ لا يسعُه حدٌّ، ولا يُحيط به كمٌّ، وعلمُ البشر بخلافه قاصرٌ، محدودٌ قد يعلمُ شيئًا ويجهلُ أشياءَ.

علمُ اللّه لا يسعه شيءٌ، وقد أحاط بكلّ شيء علما

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 10/38 - 39.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/57.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/57.

دلالةُ الواو:

الواو بين الاستئنافيّة والعاطفة على الآية الفارطة

قوله: ﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيۡءٖ﴾، هذه الواو يمكن أن تكون استئنافيّةً شرعت بعدها بكلام جديدٍ لا يتّصلُ مباشرةً بما سبقها؛ حيث لا يجوزُ أن تكونَ معطوفةً على قوله: ﴿وَأَعِدُّواْ﴾؛ لاختلاف نظم الجملتين من حيث الإنشائيّة والخبريّة من ناحية، ولغياب الجامعِ المباشرِ بينهما من ناحية أخرى، ولكن يحتمل كونها عاطفة على قوله: ﴿وَلَا يَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَبَقُوٓاْۚ﴾ أو قوله: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوۡمٍ خِيَانَةٗ﴾ فتكون عاطفةً على ما تقدّمها من أحكامٍ جليلةٍ في هذه السّورةِ الكريمةِ.

بلاغةُ الجملةِ الشّرطيّةِ:

تَحَقُّقُ الإيفاءِ، والمجازاة مرهونٌ بالإنفاق في سبيل الله

قوله تعالى: ﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيۡءٖ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيۡكُمۡ﴾ جملةٌ شرطيّةٌ؛ لأنّ (ما) اسم شرط جازم في محلّ نصب مفعول به مقدَّم لـ(تنفقوا)، و(تنفقوا) فعل الشّرط و(يوفّ) جوابه[1]، وهما مجزومان، ومنَ المعلوم أنّ الجملةَ الشّرطيّةَ تفيدُ تحقّقَ وقوعِ جوابِ الشّرط لتحقّق فعله، فهي قويّةٌ في إثبات أثرِها، فتَحَقُّقُ الإيفاءِ، والمجازاة مرهونٌ بالإنفاق في سبيل اللّه؛ ذلك أنّ إعدادَ القوّةِ يستدعي إنفاقًا، وأنّ النّفوسَ شحيحةٌ بالمال، لذا تكفَّل اللّهُ للمنفقين في سبيله بإخلاف ما أنفقوه، والإثابة عليه[2].

سرُّ التّعبيرِ بالمضارع في السّياق:

دوامُ الإنفاقِ وإكثاره، رباحٌ ومنافع جمّة

جاء التّعبيرُ بالفعليّة في ﴿وَمَا تُنفِقُواْ﴾ و﴿يُوَفَّ﴾ لإفادة التّجدّدِ الاستمراريِّ، وفيه إلماحٌ على إدامة الإنفاقِ، والحَثِّ على الإكثار منَ التّصدّق، والجزاء أداءٌ للحقِّ الكاملِ باستمرار، وإيفاءٌ له على الدّوام، فالمُجزي اللّهُ فأنّى يُظلَمون؟!

(1) درويش، إعراب القرآن الكريم وبيانه: 3/163.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/57.

نكتةُ تنكيرِ لفظِ ﴿شَيۡءٍ﴾:

أفادَت (شيء) التّعميم، في السّياق الكريم

جاءَت كلمةُ ﴿شَيۡءٍ﴾ المستغرقة في الإبهام والتّنكير في سياق الشّرط، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيۡءٍ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيۡكُمۡ﴾؛ لإفادة التّعميم لتشملَ أيَّ شيءٍ مهما قلّ أو كثر.

بلاغةُ المجازِ العقليِّ والاستعارةِ في الآية:

الإنفاقُ في سبيل الله قرضٌ له تعالى يوفّيه بأحسن منه

أُسنِدَتِ التّوفيةُ إلى الإنفاق بطريق البناء للمجهول على سبيل المجازِ العقليِّ من إسناد الفعلِ لغير الفاعل، أو عن طريق المجازِ بالحذف؛ بمعنى: يوفِّ جزاءَ الإنفاق إليكم، حيث جُعِلَ الإنفاقُ كالقرض لله، فحذفَ المشبّهَ به، وجَعلَ على الإنفاق جزاءً، فسَمّى جزاءَهُ توفيةً، وأُسنِدَ إلى المشبّه على طريقة الاستعارةِ المكنية[1]، وفي الاستعارة منَ التّوكيد للمعنى ما ليس في الحقيقة، فالاستعارةُ تتضمّنُ الحقيقةَ، وفيها مزيدُ بيانٍ وتقريرٍ لا تسدُّ مسدَّه الحقيقةُ.

دلالةُ الواو في قوله: ﴿وَأَنتُمۡ لَا تُظۡلَمُونَ﴾:

العطفُ جمعٌ للوفاء ونَفيِ الظّلم

الواو يمكن أن تكون عاطفةً، فتجمع بين التّوفيةِ، وعدمِ الظّلم. ويكونُ المعنى: يوَفَّى إليكم ما تنفقونه ولا تُظلمون أيضًا، ويمكن أن تكونَ واو الحال، والجملة الاسميّة منَ المبتدأ والخبر في محلّ النّصب على الحاليّة على معنى: ﴿يُوَفَّ إِلَيۡكُمۡ﴾، والحال في ذلك: أنّكم لا تُظلمون.

توجيهُ توسّطِ النّفي في السّياق:

توسّطَ النّفيُ توكيدًا لعناية الله، وأنّه لا يضيّعُ لهم شيئًا

يُشعِرُ نظمُ الجملةِ بتوسّط النّفي بين المسند إليه المقدَّم والمسند الفعليّ، بتقوية الحكم، كما تقدّمَ مرارًا، وقد يفيدُ التّخصيصُ بالقرائن، ولا قرينةَ هنا على إرادة تخصيصهم دون غيرهم بنفي الظّلم عنهم، وإنّما المرادُ توكيدُ عنايةِ الله تعالى بهم، وأنّه لا يضيّعُ لهم شيئًا من أعمالهم.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/58.

نكتةُ صوغِ الخبرِ جملةً فعليّةً:

لا ظلمَ مع تجدّدِ الإنفاق

مجيءُ الخبرِ ﴿تُظْلَمُونَ﴾ بالفعليّة للدّلالة على تجدّد نفي الظّلم عنهم، وديمومته، واستمراره، وأنّه لا تنقطعُ رحمةُ اللّه عنهم؛ توفيةً لدوام إنفاقِهم، واستمرار تصدّقِهم.

بلاغةُ إسنادِ الفاعلِ للمفعول:

واجبُهم التّفكّرُ بالنّعمة وأداءُ حقّها

أمّا إسنادُ الفعلِ للمفعول فلأنّ الفاعلَ معلومٌ مُقرَّرٌ في أذهانهم، وما عليهم سوى الانشغال بهذه النّعمة والتّفكّر فيها وأداء حقّها.

سرُّ حذفِ مفعول ﴿تُظْلَمُونَ﴾:

الحذفُ للتّعميم، وأثره في السّياق جليّ

حذفُ مفعولِ ﴿تُظْلَمُونَ﴾ للتّعميم كي يشملَ صغائرَ الأمور وكبائرَها، والمرادُ لا تُظلمون بترك الإثابةِ أو بنقص الثّوابِ.

بلاغةُ التّعبيرِ عن تركِ الثّوابِ بالظّلم:

بيانُ كمالِ نزاهتِه سبحانه وجَميلِ إثابتِه

عبّر عن ترك الإثابةِ، ونَقْصِ الثّوابِ بقوله: ﴿وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾، والتّعبيرُ عن تركها بالظّلم مع أنّ الأعمالَ غيرُ موجبةٍ للثّواب حتّى يكونَ تركُ ترتيبِه عليها ظُلْماً لبيان كمالِ نزاهتِه سبحانه عن ذلكَ بتصويرِه بصورةِ ما يستحيلُ صدورُه عنهُ تعالى منَ القبائح وإبرازِ الإثابةِ في مَعرِض الأمورِ الواجبةِ عليه تعالى[1].

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/32.

﴿۞وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلۡمِ فَٱجۡنَحۡ لَهَا وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ٦١﴾ [الأنفال: 61]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الآيةُ "انتِقالٌ مِن بَيان أحوالِ مُعامَلَةِ العَدوِّ في الحَربِ: مِن وفائِهم بالعَهدِ، وخيانتِهم، وكَيفَ يَحِلُّ المُسلمونَ العَهدَ معَهُم إن خافوا خيانتَهُم، ومُعامَلَتِهُم إذا ظَفِروا بالخائِنينَ، والأمْرِ بالاستِعدادِ لهم إلى بَيان أحكامِ السِّلمِ إن طَلَبوا السَّلمَ والمُهادَنَةَ، وكَفّوا عَن حالَةِ الحَربِ، فأمَرَ اللّهُ المُسلِمينَ بأن لا يأنفوا مِنَ السَّلمِ، وأن يوافِقوا مَن سَألَهُ منهم"[1].

الآيةُ انتقالٌ من أحوالِ الحربِ إلى أحوالِ السّلمِ

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿جَنَحُواْ﴾: "الجيمُ والنّونُ والحاءُ أصلٌ واحدٌ يدلُّ على الميلِ والعدوانِ، ويُقال: جَنَحَ إلى كذا؛ أي: مالَ إليه، وسُمّيَ الجناحان جناحَيْن لميلِهما في الشِّقَّين، والجُناحُ: الإثمُ، سُمّيَ بذلك لميلِه عن طريقِ الحقِّ"[2].

2) ﴿لِلسَّلۡمِ﴾: "السّينُ واللّامُ والميمُ معظمُ بابِه منَ الصِّحَّةِ والعافيةِ، ويكون فيه ما يَشِذُّ، فمنِ البابِ الأوّلِ: السِّلم وهو الصُّلحُ، وقد يُؤنَّثُ ويُذَكَّرُ، والّذي شَذَّ عنِ الباب: السَّلمُ: الدَّلوُ الّتي لها عُروةٌ واحدةٌ[3]، والمعنى المحوريّ الّذي تدورُ عليه هذه المادّة: صحّةُ جِرمِ الشّيءِ والتئامُ ظاهره في ذاته؛ أي: عدم تصدّعه أو تفرّع غيره منه: كعيدان السَّلَم الموصوفة، وكالحجارةِ العريضةِ الصّلبةِ، وكعظام

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/58.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (جنح).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سلم).

الأصابع كلّ منها ملتئم في ذاته غير متّصل بغيره، وكظاهر حَجَر الحافر المستوى. ومنه: "سَلَمَت الدّلوَ: فرَغْتُ من عملها وأحكمتها"، (أي: هي تامّة سليمة. والدِّلاء كانت تُصنع من جلود تُخرز وتُلأم). ومنه "السُّلَّم: المِرقاة" لأنّه أداةُ الصّعود دون عَطَب. ومنه: "سَلِم (كفرح) سلامةً وسلامًا: بَرِئَ من عيب جسميّ أو معنويّ، فهو سالم وسليم"، فمِنَ السّلامة المادّيّة؛ أي: عدم التّصدّع والعيوب ﴿وَهُمْ سَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [القلم: 43]، ومنَ السّلامة المعنويّة: "السِّلم ضدّ الحرب"؛ لأنّه مسالمةٌ[1].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

يستمرُّ خطابُ اللّه تعالى لعباده المؤمنين بأنّ الكفّارَ المحاربين إن مالوا للسّلم، والصّلح، وترك القتال، فأجبهم إلى ما طلبوا مُتوكِّلًا على ربِّك، فإنّ في ذلك فوائدَ كثيرةً. واللّهُ تعالى سميعٌ عليمٌ بما يضمره العبادُ في نفوسهم[2].

دينُ الإسلامِ دينُ السّلامِ، لمن يجنح له، ويتوكّل على اللّه، المحيط بكلّ شيء

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ الواو في مطلع الجملة الشّرطيّة:

قوله: ﴿۞وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلۡمِ فَٱجۡنَحۡ لَهَا﴾، قد تكون الواو عاطفةً على قوله: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوۡمٍ خِيَانَةٗ فَٱنۢبِذۡ إِلَيۡهِمۡ عَلَىٰ سَوَآءٍۚ﴾، ويكون الضّميرُ في (جنحوا) هو للّذين نُبِذَ إليهم على سواء[3]، أو يكون عائدًا على أهل الكتابِ، والأولى طبعًا أن يعودَ إلى جميع الكافرين من مشركين وأهل كتاب، وقد تكون الواو هنا استئنافيّةً.

جمع بين الشّدّة والسّلم، رحمةً ورأفةً

توجيهُ الجملةِ الشّرطيّةِ:

الجملةُ شرطيّةٌ في قوله: ﴿۞وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلۡمِ فَٱجۡنَحۡ لَهَا وَتَوَكَّلۡ

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (سلم).
(2) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 324 - 325.
(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز، ص: 813.

عَلَى ٱللَّهِۚ﴾ ربطَت جوابَ الشّرط (فاجنح) بفعله (جنحوا)، ورسّخَت تحقّقَ وقوعِ جوابِ الشّرطِ (فاجنح) لتحقّقِ فعلِه (جنحوا)، فهي قويّةٌ في إثبات أثرِها، فتحقّقُ الاستجابة للسّلم والميل إليه مُتوقِّفٌ على استعدادهم للجنوح له وسعيهم إليه.

تحقّقُ السّلم، مرهونٌ بسعيهم للجنوح له

علّةُ التّعبير بـ(إنْ) دون (إذا):

التّعبير بـ(إن) دون (إذا) هنا لما فيها من معنى التّشكيكِ وقلّةِ حصولِ فعلِها، وتدلُّ على أنّ الأصلَ معهم هو دوامُ قتالِهم ومناجزتِهم، بخلاف التّصالحِ معهم، فهو في حكمِ القليلِ النّادر.

الأصلُ دوامُ قتالِهم وليس مصالحتَهم

إيثارُ لفظِ الجنوحِ، ووجهُ تعديته وتضمينه:

عبّر عنهم بالميْل، ولم يقُل: إن طلبوا السّلم للتّنبيه على أنّه لا يسعفهم إلى السّلم حتّى يعلم أنّ حالَهم حالُ الرّاغب؛ لأنّهم قد يُظهرون الميْلَ إلى السّلم كيدًا[1].

وقد يتعدّى الجنوحُ بـ(إلى) و(اللّام)، كما يُفهَمُ من كلام صاحبِ الكشّاف[2]، ويرى غيرُه أنّ الجنوحَ يتعدّى بـ(إلى)؛ لأنّه بمعنى (مال)، فإذا تعدّى باللّام فإنّما يأتي لغرضٍ، وهو هنا للتّنبيه على أنّ ميلَهم إلى السّلم ميلُ حقٍّ؛ أي: لأجله لا لشيءٍ آخر[3]، ويمكن حملُ هذا المعنى على تضمين ﴿جَنَحُواْ﴾ معنى: (صالحوا) لأجل ﴿لِلسَّلۡمِ﴾، أو معنى: رضخوا، فتكون اللّام للتّعليل كما يُفهَمُ من كلامه، ويصبح المرادُ في التّضمين قوّةَ الفعلين؛ أي: مالوا فصالحوا لأجل السّلم.

مالوا لأجل السّلم؛ فصالحوا، وذلك مأمور الله العليّ

بلاغةُ المشاكلةِ في التّعبير بالجنوح عن قبول المصالحةِ:

كلمة ﴿لِلسَّلۡمِ﴾ قرأها الجمهورُ بفتح السّين، وقرأها شعبةُ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/59.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/221.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/59.

بكسرها[1]، والأرجح عند العلماء أنّهما لغتان من لغات العربِ لمعنى واحدٍ، فقد يكونا بمعنى الإسلام أو الصّلح، كما يظهرُ من استعمالاتهما.

الجنوحُ للمسالمة مرتبطٌ بحُجَّةِ منفعتِها للمسلمين

والفاءُ الرّابطةُ في الجواب ﴿فَٱجۡنَحۡ﴾ قد تكون عاطفةً على جواب مُقدَّرٍ، كأن يكون تقديرُ الكلام: وإن جنحوا للسّلم قَدِّرْ أنت الملائم للمسلمين، فإن رأيت أنّ في مسالمتهم منفعةً للمسلمين فاجنحْ لذلك، والتّعبيرُ عن قبول مصالحتِهم بالجنوح هو من باب المشاكلة[2] (وإن جنحوا فاجنح)، وبين الجنوحين فروقٌ وفروقٌ.

بلاغةُ الاستعارةِ:

الجنوحُ المطلوبُ ما ثبتَ وصُدِقَ فيه

قوله تعالى: ﴿۞وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلۡمِ فَٱجۡنَحۡ لَهَا﴾ استعارةٌ؛ إذ شبّه هوى الإنسان إلى الأشياء بميل جرمٍ إلى جرمٍ، "والمرادُ بها: فإن مالوا إلى السّلم ميلَ ثباتٍ عليه، وركونٍ إليه، لا ميل مكرٍ ومخادعةٍ وإدهانٍ ومواربةٍ، فسالِمْهم على هذا الوجه الّذي طلبوا السّلمَ عليه، وأنّث السّياقُ (السّلم)؛ لأنّه بمعنى المسالمة والمخادعة، وما يجري مجرى ذلك"[3].

فائدةُ عطفِ التّوكّل على ﴿فَٱجۡنَحۡ﴾:

لا جنوحَ من غير التّوكّلِ على الله

قوله: ﴿وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾ معطوفٌ على ﴿فَٱجۡنَحۡ﴾، وفائدةُ عطفِه أنّهم بحاجةٍ إلى توكيل الأمر، وتفويضه إلى اللّه، إذا نقضوا العهدَ، وعدلوا عنِ الوفاء[4].

بلاغةُ التّشابهِ اللّفظيّ:

الدُّعاءُ إلى السَّلمِ، هو في حالِ قُدرَةِ المُسلِمينَ وخَوفِ العَدوِّ منهم

أفاد الأمرُ في الفعلين ﴿فَٱجۡنَحۡ﴾ و﴿وَتَوَكَّلۡ﴾ النّدبَ أو الإباحةَ، وقد

(1) آل نصر، طلائع البشر، ص: 184.

(2) المشاكلة: ذكرُ الشّيءِ بلفظِ غيره لوقوعه في صحبته تحقيقًا، كقوله: ﴿تَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِي وَلَآ أَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِكَۚ﴾ [المائدة: 116]، أو تقديرًا نحو قوله: ﴿صِبۡغَةَ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: 138]، وهو مصدرٌ مُؤَكِّدٌ لفعل: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾ [البقرة: 136]، ينظر: القزوينيّ، تلخيص المفتاح، ص: 178 - 179.

(3) جعفر شرف الدّين، الموسوعة القرآنيّة، خصائص السّور: 8/224.

(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 15/154.

جاء في سورة محمّد ﷺ النّهي عن مسالمتهم بقوله تعالى: ﴿فَلَا تَهِنُواْ وَتَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱلسَّلۡمِ وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمۡ وَلَن يَتِرَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ ٣٥﴾ [محمّد ﷺ: 35]، فيبدو من ظاهر الآيتين في الأنفال ومحمّد وقوعُ التّعارض بين الحكمين، والأمر ليس كذلك، فآية سورة محمّد ﷺ ذكرَت قيدًا جديدًا ﴿وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ﴾، يقول ابنُ عاشور عند آية سورة محمّد ﷺ: "فَتَحَصَّلَ مِمّا تَقَرَّرَ أنّ الدُّعاءَ إلى السَّلم المَنهيِّ عَنهُ هو طلبُ المسالمةِ مِنَ العَدوِّ في حالِ قُدرَةِ المُسلِمينَ وخَوفِ العَدوِّ منهم، فهو سَلمٌ مُقَيَّدٌ بكَونِ المُسلِمينَ داعينَ له وبِكَونِه عَن وهَنٍ في حالِ قوَّةٍ، قالَ قَتادَةُ: أي لا تَكونوا أوَّلَ الطّائِفَتَينِ ضَرِعَت إلى صاحِبَتِها، فهذا لا يُنافي السَّلمَ المَأذونَ فيه بقَولِه: ﴿۞وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلۡمِ فَٱجۡنَحۡ لَهَا﴾ [الأنفال: 61]، فإنّه سَلمٌ طَلَبَهُ العَدوُّ، فلَيسَت هذه الآيَةُ ناسِخَةً لآيَةِ الأنفال ولا العَكسَ، ولِكلٍّ حالَةٌ خاصَّةٌ، ومُقَيَّدٌ بكَونِ المُسلِمينَ في حالَةِ قوَّةٍ ومَنَعَةٍ وعِدَّةٍ بحَيثُ يَدعونَ إلى السَّلمِ رَغبَةً في الدَّعَةِ، فإذا كان لِلمُسلِمينَ مَصلَحَةٌ في السَّلمِ أو كان أخَفَّ ضُرًّا عليهم فلهم أن يَبتَدِئوا إذا احتاجوا إلَيهِ، وأن يُجيبوا إلَيهِ إذا دُعوا إلَيهِ"[1].

بلاغةُ التّذييلِ، في نهاية سياق الآية الجليل:

قوله: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾، استئنافٌ بيانيٌّ جوابًا عن سؤالٍ مُقدَّرٍ: لمَ نجنح إلى مسالمتهم، ونتوكّل على الله؟ لأنّه هو السّميع العليم. والتّذييلُ بهذين الاسمين؛ لأنّه سميعٌ لما يقولونه، عليمٌ بما يضمرونه، ونبّه بذلك لزجرهم عن نقضِ الصّلحِ[2].

التّنبيه بغاية زجرهم عن نقض الصّلح

براعةُ التّوكيدِ في جملة الفاصلة:

جاءَت فاصلةُ هذه الآية مرصّعةً بأساليبَ متنوّعةٍ في التّوكيد؛ فأُكِّدَت بـ(إنّ) والجملة الاسميّة، وقُصِرَت بضمير الفصل ﴿هُوَ﴾،

قصرُ صفاتِ الكمالِ والتّوكّل عليه جلّ في علاه

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 26/131.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/154.

وبتعريف الخبر، يقول ابنُ عاشور: "وطريقُ القَصرِ في قَولِه: هو السَّميعُ العَليمُ أفادَ قَصرَ مَعنَى الكَمالِ في السَّمعِ والعِلمِ؛ أي: فهو سَميعٌ منهم ما لا تَسمَعُ، ويَعلَمُ ما لا تَعلَمُ. وقَصرُ هَذَين الوَصفَينِ بهذا المَعنَى على اللّه تعالى عَقِبَ الأمرِ بالتَّوَكُّل عليه يُفضي إلى الأمرِ بقَصرِ التَّوَكُّلِ عليه لا على غَيرِه. وفي الجَمعِ بَينَ الأمرِ بقَصرِ التَّوَكُّلِ عليه وبينَ الأمرِ بإعدادِ ما استَطاعَ مِنَ القوَّةِ لِلعَدوِّ: دَليلٌ بَيِّنٌ على أنّ التَّوَكُّلَ أمرٌ غَيرُ تَعاطي أسبابِ الأشياءِ، فتَعاطي الأسبابِ فيما هو مِن مَقدورِ النّاس، والتَّوَكُّلُ فيما يَخرُجُ عَن ذلك"[1].

بديعُ المقابلةِ بين مفتتحِ الصّفحةِ وختامِها:

لا حدَّ يُحيطُ بصفاته سبحانه

خُتِمَتِ الآيةُ في مَطلعِ الصّفحة بقوله: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾، وخُتِمَتْ هذه الآيةُ الأخيرةُ فيها بالوصفين نفسيهما معرّفين: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾؛ فأطلقَ صفتي السّمع والعلم في الأولى فلا قيدَ، ولا حدَّ، ولا سعةً تحيطُ. وقصرهما عليه ههنا جلّ في علاه، وتباركت أوصافُه. فسبحانَه مِن خالقٍ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشّورى: 11].

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الرّهبة، والجزع، والحذر، والخشية، والخوف، والرّعب، والرّوع، والفرَق، والفزع، والهلع، والوجف، والوجل:

أراد اللهُ أن يكونَ الكافرون في خوفٍ واضطراب، فلا يشعروا بالطّمأنينةِ

استعملَتِ الآياتُ السّابقةُ لفظةَ (ترهبون) للتّعبير عنِ الخوف الّذي يقعُ على أعداءِ اللّه، واستعملَ القرآنُ الكريمُ ألفاظًا أخرى للتّعبير عن هذا الخوف، وعند التّدقيق في دلالاتها المعجميّة واستعمالاتها السّياقيّة في القرآن الكريم نجد أنّ لكلّ لفظةٍ منها خصوصيتّها الّتي تميزها عمّا تشتركُ به مع غيرها، ومن هذه الألفاظ الّتي استعملَها القرآنُ الكريمُ:

الرّهبة: يقول ابنُ فارس: الرّاءُ والهاءُ والباءُ أصلان: أحدُهما

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/59.

يدلُّ على خوفٍ، والآخرُ على دِقّة وخِفّة، فالأوّلُ الرَّهبةُ: تقولُ رهِبتُ الشّيءَ رُهْبًا ورَهَبًا ورَهبَةً، والتَّرهُّبُ: التَّعبُّدُ، والأصلُ الآخرُ الرَّهبُ: النّاقةُ المهزولةُ، والرِّهابُ: الرِّقاقُ منَ النِّصالِ"[1]. واصطلاحًا: "الرَّهبةُ والرُّهبُ: مخافة مع تحرّزٍ واضطرابٍ"[2].

الجزع: هو حزن يصرفُ الإنسانَ عمّا هو بصدده، ويقطعه عنه، وأصل الجَزَع: قطع الحبلِ من نصفه، يُقال: جَزَعتُهُ فانجَزَعَ، وهو خلافُ الصّبر[3].

الحذر: احترازٌ عن مخيف، يُقال: حَذِرَ حَذَرًا، وحذرته. وحَذارِ؛ أي: احذر[4].

الخشية: خوفٌ يشوبُه تعظيمٌ، وأكثر ما يكون ذلك عن علم بما يُخشَى منه[5].

الخوف: توقّعُ مكروهٍ عن أمارةٍ مظنونةٍ، أو معلومةٍ، كما أنّ الرّجاءَ والطّمعَ تَوَقّعُ مَحْبوبٍ عن أمارةٍ مظنونةٍ، أو معلومةٍ، ويضادُّ الخوفُ الأمنَ، ويُستعمَلُ ذلك في الأمور الدّنيويّة والأخرويّة، قال تعالى: ﴿وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓۚ﴾ [الإسراء: 57]. والخوفُ منَ اللّه لا يُرادُ به ما يخطر بالبال منَ الرّعب، كاستشعار الخوفِ منَ الأسد، بل إنّما يُرادُ به الكفُّ عنِ المعاصي واختيار الطّاعات؛ ولذلك قيل: لا يعدُّ خائفًا مَن لم يكنْ للذّنوب تاركًا. والتّخويفُ منَ اللّه تعالى: هو الحثُّ على التّحرّز، وعلى ذلك قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥۚ﴾ [سورة الزّمر: 16][6].

الرّعب: الانقطاعُ منِ امتلاء الخوفِ، يُقال: رَعَبتُهُ فرَعَبَ رُعْبًا، فهو رَعِبٌ. والتِّرعابَةُ: الشّديد الخوف والفزع. وقد جاء هذا اللّفظُ في القرآن في خمسةِ مَواضِع فقط، منها قوله تعالى: ﴿سَنُلۡقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعۡبَ﴾ [آل عمران: 151][7].

الرَّوعُ: إصابةُ الرّوع (القلب)، واستُعمِلَ فيما ألقي فيه منَ الفزع، يُقال: رُعتُهُ وروَّعتُهُ، وريعَ فلان: فزع. والأروَعُ: الّذي يروع بحسنه، كأنّه يُفزِع. وقد جاء هذا اللّفظ في القرآن مرّةً واحدةً، وذلك قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنۡ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلرَّوۡعُ﴾ [هود: 74]؛ أي: الخوف[8].

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (رهب).
(2) الرّاغب، المفردات: (رهب).
(3) الرّاغب، المفردات: (جزع).
(4) الرّاغب، المفردات: (حذر).
(5) الرّاغب، المفردات: (خشى).
(6) الرّاغب، المفردات: (خوف).
(7) الرّاغب، المفردات: (رعب).
(8) الرّاغب، المفردات: (روع).

الفرَق: الفزعُ وتفرُّقُ القلبِ من شدّة الخوف، يُقال: فرِقَ فلان: إذا جزع واشتدّ خوفه. وقد جاء هذا اللّفظ في القرآن مرّةً واحدةً بصيغة الفعل، وذلك قوله سبحانه في وصف المنافقين: ﴿وَلَٰكِنَّهُمۡ قَوۡمٞ يَفۡرَقُونَ ٥٦﴾ [التّوبة: 56]؛ أي: يخافون أن يُظهِروا ما هم عليه[1].

الفزَع: انقباضٌ ونفارٌ يعتري الإنسان منَ الشّيء المخيف، وهو من جنس الجزع: ﴿لَا يَحۡزُنُهُمُ ٱلۡفَزَعُ ٱلۡأَكۡبَرُ﴾ [الأنبياء: 103]، وقوله تعالى: ﴿وَيَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [النّمل: 87][2].

الهلع: أسوأ الجزع والضّجر، وهذا اللّفظ لم يَرِد في القرآن إلّا مرّةً واحدةً فقط، وذلك قوله تعالى: ﴿۞إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ١٩﴾ [المعارج: 19][3].

الوجف: الاضطراب، وسرعة السّير[4]، يُقال: وجَفَ الشَّـيءُ يَجِف وجْفًا: اضطرب. ووجَفَ القلبُ: خفق. ووجفَ فلانٌ: إذا سقط منَ الخوف، فهو واجفٌ. وهذا اللّفظُ بهذا المعنى لم يَرِد في القرآن إلّا مرّةً واحدةً فقط، وذلك قوله تعالى: ﴿قُلُوبٞ يَوۡمَئِذٖ وَاجِفَةٌ ٨﴾ [النّازعات: 8]، وأمّا قوله تعالى: ﴿فَمَآ أَوۡجَفۡتُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ خَيۡلٖ وَلَا رِكَابٖ﴾ [الحشر: 6] فالمرادُ بـ (الإيجاف) هنا: الإسراعُ في السّير، يُقال: وجفَ الفرسُ يجف وجيفًا وهو: سرعة السّير، وأوجفه صاحبُه: إذا حملَه على السّير.

الوجل: استشعار الخوف، يُقال: وجِلَ يَوْجَلُ وجَلًا: خاف وفزع، فهو وجِلٌ، قال تعالى: ﴿قَالَ إِنَّا مِنكُمۡ وَجِلُونَ ٥٢﴾ [الحجر: 52]، وقال سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمۡ وَجِلَةٌ﴾ [المؤمنون: 60][5].

وقد حاول صاحبُ كتاب الفروق اللّغويّة التّفريقَ بين بعض هذه الألفاظ، وممّا جاء عنده: أولاً: الفرقُ بين الخوفِ والحذرِ والخشيةِ والفزعِ: أنّ الخوفَ توقّعُ الضّررِ المشكوكِ في وقوعه، ومَن تيقّن الضّررَ لم يكن خائفًا له، وكذلك الرّجاءُ لا يكون إلّا مع الشّكّ، ومَن

(1) الرّاغب، المفردات: (فرق).
(2) الرّاغب، المفردات: (فزع).
(3) ابن الأثير، النّهاية في غريب الحديث والأثر: 5/269.
(4) الرّاغب، المفردات: (وجف).
(5) الرّاغب، المفردات: (وجل).

تيقّن النّفعَ لم يكن راجيًا له، والحذرُ توقّي الضّرر سواء كان مظنونًا أومتيقّنًا، والحذرُ يدفعُ الضّررَ، والخوفُ لا يدفعُه[1].

ثانيًا: الفرقُ بين الخوف والخشية: أنّ الخَوفَ يتَعَلَّق بالمكروه وبترك المَكروه، تقول: خفتُ زيدًا كما قالَ تعالى: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾ [النّحل: 50]، وتقول: خفتُ المَرَض كما قالَ سبحانه: ﴿وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ۝٢١﴾ [الرّعد: 21]، والخشيةُ تتَعَلَّقُ بمنزل المَكروه، ولا يُسمَّى الخَوفُ من نفس المَكروه خشيَةً، ولهذا قالَ: ﴿وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ۝٢١﴾ [الرّعد: 21]، فإن قيل أَليسَ قد قالَ: ﴿إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [طه: 94]، قُلْنا: إنّهُ خشي القَول المُؤَدّي إلى الفرقَة والمؤدّي إلى الشَّيء بمَنزِلَة مَن يَفعَله، وقال بعضُ العلماءِ: يُقال: خشيت زيدًا ولا يُقال: خشيت ذهابَ زيدٍ، فإنْ قيل ذَلِك فلَيسَ على الأصل، ولكِن على وضعِ الخشية مَكان الخَوف، وقد يوضَعُ الشَّيءُ مَكانَ الشَّيءِ إذا قَرُبَ مِنه[2].

ثالثًا: الفرقُ بَين الخَوف والرّهبة: أنّ الرّهبةَ طولُ الخَوف واستمرارُه، ومن ثمَّ قيل للرّاهب راهِبٌ؛ لأنّهُ يديمُ الخوفَ، والرّهبةُ خوفٌ يقعُ على شريطة لا مَخافَة، والشّاهِدُ أنّ نقيضَها الرَّغبَةُ؛ وهي السَّلامَةُ منَ المخاوف معَ حُصول فائِدَة، والخَوفُ معَ الشَّكِّ بوُقوع الضّرر، والرّهبةُ معَ العلم به يَقعُ على شريطة كَذا، وإن لم تكنِ الشّريطةُ لم تقع[3].

رابعًا: الفرقُ بَين الخَوفِ والهلعِ والفزعِ: أنّ الفَزعَ مفاجأةُ الخَوف عِند هجوم غارة أو صَوت هدّة وما أشبه ذَلِك، وهو انزعاجُ القلب بتوقّعِ مَكروهٍ عاجلٍ، وتقول: فزعتُ مِنه فتعديهِ بمن، وخِفته فتعديه بنَفسِه، فمَعنى خفته؛ أي: هو نَفسه خوفي، ومعنى فزعتُ مِنه؛ أي: هو ابتِداء فزعي؛ لأنّ مِن لابتداء الغاية، وأمّا الهَلَع فهو أسوَأُ الجزع[4].

خامسًا: الفرقُ بَين الخَوف والوجل: أنّ الوَجَلَ خلافُ الطّمأنينةِ، وجل الرّجلُ يوجلُ وجلًا إذا قلق ولم يطمئن، ويُقال: أنا مِن هذا على وجلٍ، ومن ذَلِك على طمأنينةٍ، ولا يُقال على خوفٍ في هذا المَوضِع، وفي القُرآن: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾؛ أي: إذا ذُكِرَت عَظمَةُ الله وقدرتُه لم تَطمئِنَ قُلوبُهم إلى ما قدّموه منَ الطّاعَة، وظنّوا أنّهم

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 270.
(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 270.
(3) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 271.
(4) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 272.

مقصِّرون، فاضّطربوا من ذَلِك، وقلقوا، فلَيسَ الوجلُ منَ الخَوفِ في شَيءٍ[1].

ويظهرُ من خلال هذه الفروق؛ أنّ استعمالَ ﴿تُرۡهِبُونَ﴾ في الآية السّابقة إنّما كان لخصوصيّة هذه اللّفظةِ، وما تحملُه من دلالاتٍ، فقد أراد اللّهُ تعالَت حكمتُه أن يكون ثمرةُ الإعداد للكافرين هو خوفٌ دائمٌ فيه اضطرابٌ وقلقٌ يلازمهم، ولا يتركهم لحظةً واحدةً ليشعروا بالطّمأنينةِ أو السّكون.

(جنحوا)، و(مالوا)، و(دَعَوْا):

إيثار لفظة (جنحوا)، تعريضٌ بالكافرين بأنّهم سيبقون في موضع تهمةٍ

استعملَتِ الآيةُ لفظةَ ﴿جَنَحُواْ﴾ في قوله: ﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلۡمِ فَٱجۡنَحۡ لَهَا﴾ دون غيرها منَ الألفاظ كـ(الميل)، كما في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَمِيلُواْ كُلَّ ٱلۡمَيۡلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلۡمُعَلَّقَةِۚ﴾ [النّساء: 129]، أو (دعوا) كقوله تعالى: ﴿فَلَا تَهِنُواْ وَتَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱلسَّلۡمِ وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ﴾ [محمد ﷺ: 35].

وبعدَ التّتبّع للمعنى المحوريّ لمادّة (جنح) نجدُ أنّها تدورُ حول: امتدادٍ، أو اندفاعٍ منَ الجوانب قويّ أو حادّ، كالجَناح من جسم الطّائر: ﴿وَلَا طَٰٓئِرٖ يَطِيرُ بِجَنَاحَيۡهِ﴾ [الأنعام: 38]، ﴿جَاعِلِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُوْلِيٓ أَجۡنِحَةٖ﴾ [فاطر: 1]، وكشفرتي النّصلِ من جِرمه، والعَضُد من جانب الصّدر، وكأوائل الضّلوع من مصدرها. ومنه: جِنْحُ الطّريق - بالكسر - جانبه. وجِنْح القومِ: ناحيتهم. وجَنَحتِ السّفينةُ جُنوحًا: انتهَت إلى الماءِ القليلِ فلزِقَتْ بالأرض فلم تمضِ، "(انحرفَت إلى الماءِ الضّحلِ، وهو يكون في جوانب المَجرَى). ومن ذلك "الجُناح: الجناية والجُرمُ: (انحرافٌ عنِ الجادة المستقيمة إلى الجوانب)، وكذلك الإثمُ والذّنبُ: ﴿۞إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلۡمَرۡوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِۖ فَمَنۡ حَجَّ ٱلۡبَيۡتَ أَوِ ٱعۡتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَاۚ﴾ [البقرة: 158][2].

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 273.
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (جنح).

وعلى هذا نجدُ أنّ مادّةَ (جنح) تحملُ في طيّاتها معاني الجنايةِ والجرمِ والإثمِ، واختيارُها هنا دون غيرها مُشعِرٌ بأنّ ميلَهم هذا إلى السّلم هو تُهمةٌ أوّلًا في نظرهم؛ لأنّه يُعَدُّ تنازلًا عن كبريائهم وغطرستهم، وهم في جنوحهم للسّلم سيبقون في موضع تهمةٍ وشكٍّ وجرمٍ بالنّسبة للمؤمنين، وفي هذا تحذيرٌ للمؤمنين بأن يأخذوا حذرَهم منهم خشيةَ أن ينقضوا عهدَ المصالحة معهم، فلا تصلحُ كلمةُ (مالوا) أو (طلبوا) أن تسدَّ مسدَّ هذه اللّفظة في هذا الموضع.

﴿وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخۡدَعُوكَ فَإِنَّ حَسۡبَكَ ٱللَّهُۚ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ بِنَصۡرِهِۦ وَبِٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٦٢ وَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡۚ لَوۡ أَنفَقۡتَ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مَّآ أَلَّفۡتَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيۡنَهُمۡۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ٦٣﴾ [الأنفال: 62 - 63]

مُناسَبَةُ الآيَتينِ لِما قَبْلهما:

خِداعُ الأعداءِ احتمالٌ قائمٌ ومسلكٌ غائمٌ

لمّا بيَّنَ سبحانه في الآيةِ السّابقةِ حكمَ الاستجابةِ للصُّلحِ الذي يجنحُ له الأعداءُ؛ بيَّن في هذه الآيةِ أحدَ أغراضِ الميل للصُّلحِ الَّذي قد يكون في نيّاتهم، فقد يكون طلبُ الصُّلحِ "خديعةً حربيَّةً ليغروا المسلمين بالمصالحةِ، ثمَّ يأخذوهم على غرَّةٍ، أيقظ اللّه رسولَه لهذا الاحتمالِ، فأمرهُ بأن يأخذَ الأعداءَ على ظاهرِ حالهم، ويحملَهم على الصِّدق[1]"، فمناسبةُ الآيةِ للسّابقة مناسبةُ تتميمٍ وتكميلٍ احترازيٍّ لما قد يقع في قابلِ الأيّامِ.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَخۡدَعُوكَ﴾: يدلُّ أصلُ هذه المادَّة على إخفاءِ شيءٍ، وبه سُمّيَت الخِزانَةُ مُخْدَعًا، والأخْدَعانِ: عِرْقانِ في اللَّبَّتينِ؛ لأنَّهُما خَفيا، وبَطَنا، ويُجمَعُ على أخادعَ[2]، والخداعُ: "إنزالُ الآخرِ عمّا هو بصددهِ بأمرٍ يبديهِ على خلاف ما يخفيهِ"[3]، وقد وردَت هذه الكلمةُ خمسَ مرّاتٍ في القرآن الكريم، واحدةٌ هنا واثنتان في البقرة، واثنتان في النِّساء، غالبُها في سياق الحديثِ عن المنافقين وصفاتِهم، وهذا يتلاءمُ مع طبيعة شخصيَّةِ المنافقِ الذي يُخفي خلافَ ما يُظهرُ.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/61، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 15/154.
(2) الخليل، العين، ص: 234.
(3) الرّاغب، المفردات، ص: 110.

2) ﴿حَسْبَكَ﴾: مَعْناهُ: كافٍ، وهو صِفَةٌ مُشَبَّهَةٌ بمعنى اسْمِ الفاعِل، أيْ: حاسِبُكَ، أيْ: كافيكَ، والحَسْبُ: العَدُّ والإحصاء، والحَسَبُ: ما عُدَّ، والحَسَبُ بفتح السّين: الشَّرَفُ الثّابتُ في الآباء، رجلٌ كريمُ الحَسَبِ: حسيبٌ، وقَوْمٌ حُسَباءُ، وأمّا حَسْبُ بسكون السّين؛ فمعناهُ: كما تقولُ: حَسْبُك هذا، أيْ: كَفاكَ، وأحْسَبَني ما أعطاني، أي: كفاني[1].

3) ﴿وَأَلَّفَ﴾: أصلُ مادَّة الإلفِ يدُلُّ على انضمامِ الشَّيءِ إلى الشَّيءِ"[2]، والإلفُ: اجتماعٌ مع التئام، والمُؤَلَّفُ: ما جُمِعَ من أجزاءٍ مختلفة، ورُتِّب ترتيبًا قُدِّمَ فيهِ ما حقُّهُ أن يُقدَّم، وأُخِّر فيه ما حقُّه أن يُؤَخَّر[3].

المَعْنى الإجْماليُّ:

تمامُ الثِّقةِ باللهِ تعالى طريقُ المتوكِّلين وسبيلُ المؤمنينَ

تناولتِ الآيتانِ موقفَ المسلمين ممَّن يريدُ الصُّلحَ في الظّاهرِ، ويُبطنُ خلافَه، فوجَّهتِ النَّبيَّ ﷺ بما يجبُ عليه من الثِّقةِ باللّه ﷻ فإن أرادَ أولئكَ خداعَك والمكرَ بك؛ فإنَّ اللّه كافيكهم وكافيك خداعَهم إيّاك؛ لأنَّه متكفِّلٌ بإظهارِ دينك على الأديان، ومتضمِّنٌ أن يجعلَ كلمتَهُ العليا، وكلمةَ أعدائهِ السُّفلى، فهو الذي قوّاك بنصرهِ إيّاك على أعدائهِ وبالمؤمنين، وجمعَ بين قلوبهم من الأوسِ والخزرجِ بعد التَّفرُّقِ والتَّشتُّت، على دينهِ الحقِّ، فصيَّرهم به جميعًا بعد أن كانوا أشتاتًا، وإخوانًا بعد أن كانوا أعداءً، لو أنفقتَ ما في الأرض جميعًا، ما جمعتَ بين قلوبهم بحيْلِكَ، ولكنَّ اللّه جمعَها على الهُدى، فائتلفتْ، واجتمعتْ تقويةً من اللّه لك وتأييدًا منهُ ومعونةً على

(1) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، والرّاغب، المفردات: (حسب)، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/62.

(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، ص: 85.

(3) الرّاغب، المفردات، ص: 20.

عدوِّكَ، وإنَّ اللّه الذي ألَّف بين قلوبِهم بعد تشتُّتِ كلمتِهم، جعلَهم لك أنصارًا، فعليهِ فتوكَّلْ، وبهِ فثِقْ، فإنَّه حكيمٌ في تدبيرِ خلقهِ[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ العطفِ بالواو:

العدوُّ طالبُ السِّلمِ إمّا خاضعٌ صادقٌ وإمّا مراوِغٌ مخادِعٌ

الواو في قولِه تعالى: ﴿وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخۡدَعُوكَ﴾ عاطفةٌ، عطفتِ الجملةَ على الجملةِ السّابقة: ﴿۞وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلۡمِ﴾، ومعنى العطفِ: تتميمُ الكلامِ وتكميلُ المعنى، ودفعُ ما قد يجولُ في الصُّدورِ، فإنَّ من يجنحُ للسِّلمِ في حالةِ الحربِ؛ فإنَّه أحدُ رجلين: إمّا مريدٌ للسِّلم حقيقةً، وإمّا مخادعٌ، فأتى العطفُ على الحالةِ الثّانيةِ استكمالًا لأحوالِ الأعداءِ، ولدفعِ ما يجولُ في صدرِ المؤمنينَ من السُّؤالِ عن المطلوبِ في حالِ حُدوثِ مثلِ هذا الفعلِ.

نكتةُ استعمالِ (إن) دون (إذا):

الثِّقةُ باللهِ أصلٌ عظيمٌ من أصولِ الانتصارِ على الأعداءِ

صُدِّرَتِ الجملةُ الشَّرطيَّةُ في قوله: ﴿وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخۡدَعُوكَ فَإِنَّ حَسۡبَكَ ٱللَّهُۚ﴾ بحرفِ الشَّرطِ (إن) الَّذي يُستعمل في الأمر المشكوكِ فيه الَّذي ينبغي ألّا يكونَ، بخلاف (إذا) التي تُستعمل في الأمرِ المُحقَّقِ، وقد تأتي إحداهُما في موضعِ الأخرى أحيانًا لغرضٍ بيانيٍّ خروجًا عن مقتضى الظّاهرِ، وليس خروجًا عن مقتضى الحالِ، وفي مجيئِها هنا دونَ (إذا) نوعٌ من الطَّمأنةِ للمُؤمنين، وبشرى لهم بأنَّ هذا الخداعَ ليس أكيدًا حتميًّا، بل هو في حكمِ الممكنِ؛ لذا وجبَ على المؤمنين الثِّقةُ باللّهِ تعالى بأنَّه ناصرُهم ومؤيِّدُهم.

دلالةُ التَّعبيرِ بصيغةِ الفعلِ المضارِعِ:

تحذيرُ المؤمنينَ من غدرِ المُخادعينَ منهجُ المتثبِّتينَ

عبَّرَ النَّظمُ بصيغةِ المضارعِ في جملةِ فعلِ الشَّرطِ في قولِه: ﴿وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخۡدَعُوكَ فَإِنَّ حَسۡبَكَ ٱللَّهُۚ﴾ لاستحضارِ صورةِ هذهِ الخديعةِ،

(1) ابن جرير، جامع البيان: 5/3886 - 3888.

وهي صورةُ إظهارِ الرَّغبةِ في المصالحةِ، وإبطانِ الغدرِ والخديعةِ في السِّرِّ، وقد يفيدُ معنى التَّجدُّدِ الاستمراريِّ ليُفيدَ تحذيرَ المؤمنين في كلِّ زمانٍ ومكانٍ من أن يغترّوا بهم، ويقعوا في خديعتِهم.

إشاراتُ الغيبِ في ثنايا النَّظمِ

جاء مفعولُ فعْلِ الشَّرطِ مصدرًا مؤوَّلًا ﴿أَن يَخۡدَعُوكَ﴾ بالمضارعيَّةِ، فلم يقل: (وإن يريدوا خداعَك)؛ إذ دلَّ الفعلُ المضارعُ على استحضارِ الصّورةِ والتَّجدُّدِ الاستمراريِّ؛ لتؤدّيَ الأغراضَ الَّتي أدّاها الفعلُ ﴿يُرِيدُوٓاْ﴾، بالإضافةِ إلى أنَّ صيغةَ المضارع هنا أفادتِ استبعادَ أن يقعَ منهم خداعٌ لا بسببِ أمانتِهم وحسنِ أخلاقِهم، بل لأنَّ اللّٰه علِمَ ضعفَهم عن إيقاعِ المخادعةِ بحيثُ يقعُ لهم انتصارٌ وللمؤمنين هزيمةٌ، وهذا من إشاراتِ الغيبِ في ثنايا النَّظمِ الكريمِ.

بلاغةُ اسْتعمالِ مفردةِ الخداعِ:

إخفاءُ خلافِ المُظْهرِ متوقَّعٌ من أعداءِ الأمَّةِ

ناسبتْ مفردةُ ﴿يَخۡدَعُوكَ﴾ في قولِه: ﴿وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخۡدَعُوكَ﴾ سياقَ الكلامِ، إذ دلَّتِ المفردةُ مُعجميًّا على إخفاءِ شيءٍ، وهو المتلائمُ مع طبيعةِ العداوةِ الَّتي يُكِنُّها الأعداءُ في صدورِهم تجاه المؤمنين عمومًا، وهو المناسبُ لما يُظَنُّ فيهم من إخفاءِ شيءٍ مع إظهارِ الجنوحِ للسِّلمِ والصُّلحِ، فلم يقل: (وإن يريدوا أن يمكروا بكَ) أو (يغدروا)، فإنَّه غيرُ مناسبٍ لهذا السّياقِ.

نكتةُ توجيهِ الخِطابِ للنَّبيِّ ﷺ:

مَنْ يُسيءُ إلى رسولِ اللهِ؛ فهو مسيءٌ لأمَّةِ كلِّها

وُجِّهَ الخِطابُ للنَّبيِّ ﷺ في قولِه: ﴿وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخۡدَعُوكَ﴾، فلم يقل: (وإنْ يُريدوا أن يخدعوكم)، وذلكَ ليتناسبَ مع الآيةِ السّابقةِ؛ إذ وُجِّهَ الخطابُ له ﷺ ولبيانِ أنَّ ما يقعُ من الأعداءِ من الخداع والمكر على خيرِ خلقِ اللّٰه تعالى فلا يُستبعَدُ منه الأشدُّ والأنكى في حقِّ بقيَّةِ المؤمنين، فإنَّهم لا يُراعون حرمةً ولا أمانةً.

بلاغةُ استعمالِ الفاءِ في جوابِ الشَّرطِ:

اقترنَ جوابُ الشَّرطِ في قوله تعالى: ﴿وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخۡدَعُوكَ

حُسْنُ الإشاراتِ المقاميَّةِ يُناسبُها براعةُ الإيجازِ الخفيَّةُ

﴿فَإِنَّ حَسۡبَكَ ٱللَّهُۚ﴾ بالفاءِ الرّابطة بمقدَّرٍ، ولك أن تُقدِّرَهُ: إن يُريدوا خِداعَكَ، ولم يكن لك بدٌّ من قبولِ مصالحتِهم، وخِفْتَ غدرَهم وخيانتَهُم؛ فإنَّ اللّه يكفيكهم، فاحتملتِ الفاءُ هذه المعاني، وحَسُنَ الإيجازُ لما فيهِ تلويحٌ لما يجولُ في النَّفس، مع الحياءِ من إظهارِه، فناسبَ الإضمارُ الإضمارَ، ولاءمَ الإيجازُ المقامَ.

فائدةُ استعمالِ التَّوكيدِ في الخطابِ:

على المؤمنِ الأخذُ بالظّاهرِ وتركُ السَّرائرِ

يرى ابنُ عاشورٍ أنَّ تأكيدَ الجملة بـ(إنَّ) روعيَ فيه المعنى الكنائيُّ؛ لأنَّ معناه الصَّريح ممّا لا يشكُّ فيه أحدٌ[1]، ومعناهُ: أنَّ التَّأكيدَ ليس للنَّبيِّ ﷺ وليس للفئةِ المؤمنةِ المُخاطبة معه بأنَّ اللّه تعالى لن يتخلَّى عنهم، فهم يعرفون هذه الحقيقةَ، بل هو على المعنى المُكنَّى عنهُ، بمعنى: ضرورةُ ألّا يتعاملَ المسلمونَ معهم بحسب ظنِّهم بهم، وأن يقتصروا على ظاهرِ المسألةِ، ويكلوا أمرَهُم إلى اللّه.

فائِدةُ تقديمِ ﴿حَسۡبَكَ﴾ على لفظِ الجلالةِ:

إشباعُ النُّفوسِ بالطُّمأنينةِ سابقٌ لإسماعِها هيبةَ الألوهيَّةِ

جاء المسندُ إليهِ ﴿حَسۡبَكَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخۡدَعُوكَ فَإِنَّ حَسۡبَكَ ٱللَّهُۚ﴾ وصفًا، وهو بمعنى الكفايةِ، وكان الظّاهرُ أن يكون ذاتًا؛ فلم يقل: (فإنَّ اللّه حسبك)؛ وذلك على اعتبارِ أنَّ الذي يخطرُ بالبالِ بادئ بَدْءٍ هو طلبُ مَن يَكْفيهِ[2]، فإنَّ النُّفوسَ في مثل هذه المواقفِ تترقَّبُ الوعدَ بالكفايةِ، فلمّا قال: حسبك؛ تشوَّقتِ النُّفوسُ للتَّصريحِ باسْمِ الكافي سبحانه وهذا من التَّراكيبِ الَّتي يصْلُحُ أن يكونَ فيها المسندُ إليه مسندًا والعكس، وهو المسمَّى بالحمل على المواطأةِ.

بلاغةُ العدولِ من الفعليَّةِ إلى الاسميَّةِ:

جاءَ جوابُ الشَّرطِ معدولًا من الجملة الفعليَّةِ إلى الجملة

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/62.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/62.

الاسميَّةِ المؤكَّدةِ بـ (إنَّ) في قولِه تعالى: ﴿فَإِنَّ حَسۡبَكَ ٱللَّهُۚ﴾ لما تُفيدُه من معاني الثَّباتِ والاستقرار وإزالةِ ما في النُّفوس من هواجسَ وظنونٍ، فإنَّ شأنَكم وديدنكم - أيُّها المؤمنونَ - أن تكونَ ثقتُكم بنصر اللّه وتأييده، وأنَّهُ لن يتخلَّى عنكم أبدًا، فجملةُ ﴿فَإِنَّ حَسۡبَكَ ٱللَّهُۚ﴾ دلَّت على تكفُّلِ اللّه كفايةَ هذا الأمرِ، وفيها كنايةٌ عن عدم معاملةِ المسلمين لهم بناءً على الظَّنِّ، ألّا يتوجَّسوا منهم خيفةً، وأنَّ ذلك لن يضرَّهُم[1].

الثِّقةُ باللهِ أثبتُ مقامًا من هواجسِ الظُّنونِ

نكتةُ التَّعبيرِ بلفظِ الجلالةِ:

آثرَ النَّظمُ التَّعبيرَ بلفظِ الجلالةِ في قولِه: ﴿فَإِنَّ حَسۡبَكَ ٱللَّهُۚ﴾؛ وذلك لما يورِّثُهُ هذا اللَّفظُ من بهاءِ الجلالةِ ومهاب الجلال، فإنَّ ذكرَ لفظِ الجلالةِ في كونهِ الكافي سبحانه هو أعظمُ أثرًا في المخاطبين، وترويعًا للمعتدين؛ لأنَّ اللّه الكافي عبدَهُ هو المعذِّبُ عدوَّهُ.

الإشارةُ إلى كفايةِ العبادِ دليلٌ على وعيدِ الأعداءِ

توجيهُ الفصلِ عن الكلامِ السّابقِ:

فُصِلَ قولُه تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ بِنَصۡرِهِۦ وَبِٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ عن الجملةِ السّابقةِ، فلم يقل: (وهو الذي أيَّدك..)؛ إمّا لأنَّها من قبيلِ شبهِ كمالِ الاتِّصال، فهي جملةٌ مستأنفةٌ استئنافًا بيانيًّا، فهي جوابٌ عن سؤالٍ مقدَّرٍ: لمَ نكِلُ أمرَهم إلى اللّه؟ وعلى هذا التَّقديرِ؛ فهي جملةٌ تعليليَّةٌ لما تقدَّمها[2]؛ لأنَّها جوابٌ عن سؤالٍ مقدَّر، أي: لأنَّه هو الذي أيَّدك بالنَّصرِ وبالمؤمنين.

الحملُ على الاستئنافِ البيانيِّ أو التَّفسير

وإمّا أن تكون جملةً مُفَسِّرةً أو مؤكِّدةً لما تقدَّمها، فلم تُعطف عليها لكمالِ اتِّصالها بها، حيث لا يُعطَفُ التّابعُ على المتبوع، فتكون بيانًا لكفايةِ اللّهِ للنَّبيِّ ﷺ بالتَّأييدِ.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/62.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/110.

نكتةُ التَّعبيرِ بالاسمِ الموصولِ:

تعظيمُ الذّاتِ العليَّةِ بما اتَّصفت بهِ من صفاتِ النُّصرةِ والتَّأييدِ

جاءَ الخبرُ في قولهِ تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصۡرِهِۦ وَبِٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ اسمًا موصولًا مبهمًا مفيدًا للتَّعظيم؛ لأنَّهُ يعودُ على لفظِ الجلالة، وقد شوَّقَ الاسمُ الموصولُ السّامعَ لإزالةِ الإبهام بقولِه: ﴿أَيَّدَكَ بِنَصۡرِهِۦ﴾ فأفادت معانيَ التَّعظيم والتَّبجيلِ لهذه الذّاتِ العليَّةِ، فكأنَّ طريقَ التَّعريفِ بها هو بوصفِها بالتَّأييدِ بالنَّصرِ وبالمؤمنينَ.

فائدةُ التَّعبيرِ بمفردةِ التَّأييدِ:

التَّأييدُ أخصُّ مِنَ التَّقويةِ بالفعلِ والآثارِ

آثر النَّظم القرآنيُّ استعمالَ مفردةِ التَّأييد في قولِه تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصۡرِهِۦ وَبِٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾، وهو التَّقويةُ بالإعانةِ على عملٍ، وجُعِلَت هذه التَّقويةُ بالنَّصرِ؛ لأنَّه يقوّي العزيمةَ، ويثبِّتُ رأيَ المنصور، والتَّأييدُ تقويةٌ بالارتكانِ إلى عظيم، فكيف إذا كان المُؤيِّدُ هو اللّه تعالى؟ فإنَّه يزيدُ من الثِّقةِ والطُّمأنينةِ والقوَّةِ النَّفسيَّةِ والظّاهرة، وهذا من أعظمِ ما يكونُ عليه الاستقواءُ باللّه تعالى ولذلك لم يقل: (هو الذي قوّاك بنصرِه).

دلالةُ إضافةِ لفظِ النَّصرِ إلى الضَّميرِ العائدِ على لفظِ الجلالةِ:

نصرُ اللهِ ليس كأيِّ نصرٍ بل هو نصرٌ خاصٌّ بآثارِه ومعانيه

في إضافة النَّصرِ إلى الضَّمير العائدِ إلى الذّاتِ العليَّةِ في قولهِ تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصۡرِهِۦ وَبِٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ تنبيهٌ على أنَّه نصرٌ خارقٌ للعادة، وهو النَّصرُ بالملائكةِ والمعجزات[1]، فيما يتعلَّقُ بالنَّبيِّ ﷺ وما يتعلَّق بالصّالحين من المجاهدينَ والعاملينَ لإعلاءِ كلمةِ اللّهِ تعالى ففي الإضافةِ معنى الخصوصِ، فهو نصرٌ خاصٌّ غير معهودٍ إلّا لعبادِ اللّهِ الَّذين يرتضيهم لمثلِه، فهو نصرٌ ليس كأيِّ نصرٍ.

غرضُ إعادةِ حرفِ الجرِّ على المعطوفِ:

تقسيمُ أسبابِ النَّصرِ إلى ما هو ظاهرٌ معلومٌ وخفيٌّ مضمونٌ

عُطِفَ قولُهُ تعالى: ﴿وَبِٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ على قولِه: ﴿بِنَصۡرِهِۦ﴾، وقد أُعيدَ حرفُ الجرِّ بعد الواوِ؛ لدفع توهُّم أن يكون معطوفًا على اسمِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/63.

الجلالةِ، فيوهمُ معنًى غير مرادٍ، وهو أنَّ اللّه تعالى أيَّدهُ بنصرهِ ونصرِ المؤمنين لَهُ، مع أنَّ المقصودَ أنَّ وجودَ المؤمنين تأييدٌ من اللّه لرسولهِ؛ إذ وفَّقهم لاتِّباعهِ[1]، قال الرّازي: "فإن قيلَ: لمّا قال: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصۡرِهِۦ﴾ فأيُّ حاجةٍ مع نصرهِ إلى المؤمنينَ حتَّى قالَ: ﴿وَبِٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾؟ قلنا: التَّأييدُ ليس إلّا مِنَ اللّه لكنَّهُ على قسمين: أحدهما: ما يحصلُ من غيرِ واسطةِ أسبابٍ معلومةٍ معتادةٍ، والثّاني ما يحصلُ بواسطةِ أسبابٍ معلومةٍ معتادةٍ، فالأوَّلُ هو المرادُ من قولهِ: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصۡرِهِۦ﴾ والثّاني هو المرادُ من قوله: ﴿وَبِٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾[2]".

فائدةُ العطفِ بين الأفعالِ:

المؤالفةُ بين المؤمنينَ سبيلُ النَّصْرِ المعنويِّ

عُطِفَ قولُهُ تعالى: ﴿وَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡۚ﴾ على قولهِ: ﴿أَيَّدَكَ﴾ في قولِهِ: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصۡرِهِۦ وَبِٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾، فيكون المعنى: أيَّدَكَ بنصرِه وبالمؤمنين، وألَّف بين قُلوبِ الَّذين أيَّدك بهم، فتكون المؤالفةُ مظهرًا من مظاهرِ نصرةِ دينِ اللّهِ تعالى ومن تركَ المؤالفةَ بين المؤمنينَ وحاربها، فإنَّه يكونُ قد تركَ سببًا من أسبابِ التَّأييدِ وحاربَهُ، وهذا دليلٌ عظيمٌ من أدلَّةِ المؤالفةِ بين المسلمين، وأنَّ اجتماعَهم على كلمةٍ واحدةٍ هو طريقُ النَّصرِ والظَّفَرِ.

بلاغةُ حذفِ المسند إليه:

الانشغالُ بالمؤالفةِ أولويَّةٌ في مواجهةِ الباطلِ

المسندُ إليه الفاعلُ في قولِه تعالى: ﴿وَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡۚ﴾ محذوفٌ، ونكتةُ الحذفِ أمران:

الأوَّل: الإيجازُ للعلمِ به، وهذه نكتةٌ لفظيَّةٌ لا تستقلُّ بذاتِها.

الآخرُ: ليتحقَّقَ الانشغالُ بفعلِ المؤالفةِ، وليعتني بهِ المؤمنونَ أيَّما عنايةٍ، فيشكروا اللّه عليها.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/63.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 15/155.

دلالةُ استعمالِ مفردةِ ﴿وَأَلَّفَ﴾:

المؤالفةُ جمعٌ للأفرادِ ذوي العلاقةِ الواحدةِ لتحقيقِ غرضٍ مرضيٍّ

آثرَ النَّظمُ الكريمُ الإتيانَ بمفردةِ المؤالفةِ دونَ غيرِها من الألفاظِ في قولِه تعالى: ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾، من مثلِ: جمعَ، وحبَّبَ؛ وذلك أنَّ المؤالفةَ لفظٌ يُراد بهِ الجمعُ في الظّاهر والباطن لتحقيق غايةٍ، فالمؤالفةُ هي اجتماعُ الأواصرِ بما يحقِّق غايةً مرضيَّةً، وهذا لا يكونُ بمجرَّدِ الحبِّ، أو مطلق الجمعِ، فكم من متحابّينَ لا يُحقِّقونَ أغراضًا مقصودةً، فإيثارُ هذا اللَّفظِ لبيانِ أمرٍ مقصودٍ لا يُحقِّقُهُ لفظٌ آخر، والتَّأليفُ بين قُلوبِ المُؤمنينَ مِنَّةٌ أُخرَى على الرَّسولِ، إذْ جَعَلَ أتْباعَهُ مُتَحابّينَ، وذلك أعْوَنُ لَهُ على سياسَتِهم، وأرْجَى لاجْتِناءِ النَّفْعِ بهمْ؛ إذْ يَكونونَ على قَلْبِ رَجُلٍ واحِدٍ، وقد كانَ العَرَبُ يُفَضِّلونَ الجَيْشَ المُؤَلَّفَ مِن قَبيلَةٍ واحِدَةٍ؛ لأنَّ ذلك أبْعَدُ عَنْ حُصولِ التَّنازُعِ بينهُمْ.

وَهو - أيْضًا - مِنَّةٌ على المُؤْمِنينَ؛ إذْ نَزَعَ مِن قُلوبهمُ الأحْقادَ والإحَنَ الَّتي كانَتْ دَأْبَ النّاسِ في الجاهِليَّةِ، فكانَتْ سَبَبَ التَّقاتُلِ بين القَبائِلِ، بَعْضِها معَ بَعْضٍ، وبين بُطونِ القَبيلَةِ الواحِدَةِ[1].

دلالةُ إسنادِ فعلِ ﴿وَأَلَّفَ﴾ إلى القلوبِ:

القلوبُ هي مناطُ الصَّلاحِ في الأمَّةِ

استعملَ النَّظمُ القلبَ جمعًا مضافًا إلى الضَّميرِ دونَ الاكتفاءِ بالضَّميرِ وحدَهُ، فلم يقل: (وألَّف بينهم)، وذلك لبيانِ أنَّ القلوبَ هي موطنُ المؤالفةِ، فإذا صلُحت؛ فقد ائتلفت، وألَّفت بين جماعةِ المؤمنين، ففيه دلالةٌ على أثر صلاحِ القلوبِ في حياة الأمَّةِ ونصرتِها على أعدائها؛ فقولُه: ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ معطوفٌ على المنن السّابقة، فقد ألَّفَ بين قلوبِهم حتَّى جعلهم أمَّةً واحدةً.

نكتةُ جمعِ القلوبِ:

اختلافُ القلوبِ لا تُزيلُهُ إلّا قدرةُ العزيزِ الحميدِ

لجمعِ القلوبِ في قولِه تعالى: ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ نكتةٌ بيانيَّةٌ بديعةٌ، وهي بيانُ اختلافِها وتنوُّعها، في مشاربِها وأصولها وميولها

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/63.

وشهواتها، فليس الجمعُ لمجرَّدِ الكثرةِ، بل لبيانِ التَّعدُّدِ، فإنَّ القلوبَ الَّتي جُمعت هي قلوبُ المهاجرين والأنصارِ، والأوسِ والخزرج مع ما كانَ بينهم قبلَ ذلك من العصبيَّةِ والضغينةِ والتَّهالك على الانتقامِ، بحيثُ لا يكادُ يأتلفُ فيهم قلبانِ حتَّى صاروا بتوفيقهِ تعالى كنفسٍ واحدةٍ[1]، وممّا هو معلومٌ أنَّ الاختلافاتِ إذا كثُرت؛ فإنَّها تكونُ أصعبَ منالًا، فكيف إذا تكاثرت، واختلفت، وتعدَّدت؟ وهذا زيادةٌ في الامتنانِ على العبادِ.

بلاغةُ الاستئنافِ البيانيِّ:

المالُ طريقٌ لجمعِ المرتزقةِ لا لجمعِ الأمَّةِ

بيَّنَ الحقُّ سبحانه استحالةَ تأليفِ تلك القلوبِ المتنافرةِ في جاهليَّتِها في قولهِ: ﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ﴾، وهو "استئنافٌ مقرِّرٌ لما قبلَهُ، ومبيِّنٌ لعزَّةِ المطلبِ وصعوبةِ المأخذِ، أي: تناهي التَّعادي فيما بينهم إلى حدٍّ لو أنفقَ منفقٌ في إصلاحِ ذات البيْنِ جميعَ ما في الأرضِ من الأموالِ والذَّخائرِ لم يقدرْ على التَّأليفِ والإصلاح[2]"، فهو اسْتِئْنافٌ ناشِئٌ عَنْ مَساقِ الامْتِنانِ بهذا الائْتِلافِ، فهو بَيانيٌّ، أيْ: لَوْ حاوَلْتَ تَأْليفَهُم ببَذْلِ المالِ العَظيمِ؛ ما حَصَلَ التَّآلُفُ بينهُمْ[3]، كَما امتنَّ سبحانه عليهم في قولِه: ﴿وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا﴾ [آل عمران: 103].

نكتةُ خطابِ الواحدِ وإرادةِ الجميعِ:

الأموالُ غيرُ مؤثِّرةٍ إن كانتِ القلوبُ مبعثَرةً

الخطابُ في قوله تعالى: ﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾، وإن كان ظاهرُهُ للنَّبيِّ ﷺ إلا أنَّه يتناولُ كلَّ واقفٍ عليه؛ لأنَّهُ لا مبالغةَ في انتفاءِ ذلكَ من منفقٍ معيَّنٍ[4]، فهو تحدٍّ ضمنيٌّ قائمٌ إلى قيامِ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/110.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/110.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/64.
(4) الآلوسيّ، روح المعاني: 10/41.

السّاعةِ، فإنَّ الأموالَ مَهْما تكاثرت في أيدي أصحابِها؛ فلن تكونَ مؤثِّرةً إن كانت القلوبُ مبعثَرةً.

سرُّ التَّعبيرِ بـ(لَوْ) دونَ غيرِها من أدواتِ الشَّرطِ:

استُعملتْ أداةُ (لَوْ) دون غيرِها من أدوات الشَّرط في قولِه تعالى: ﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ زيادةً في بيانِ استحالة تحقُّقِ المؤالفةِ بين مَنْ وقعتِ المؤالفةُ بينهم، فلم يقل: (إن أنفقت) أو (إذا أنفقت)، فـ(لَوْ) تدلُّ على عدم الوقوع، فكيف إذا كان جوابُها نفيًا؟ وأفاد نظمُ هذه الجملةِ الشَّرطيَّةِ عقدَ السَّببيَّةِ والمسبَّبيَّةِ بين الجملتين، فـ(لَوْ) تقوم بتقييدِ الشَّرطِ بالزَّمن الماضي دونَ المستقبلِ، وتُفيدُ امتناعَ الجوابِ لامتناعِ فعلِ الشَّرطِ، ولذلك يمكنُ أن يأتيَ بعدها حرفُ استدراكٍ[1]، كما حصلَ هنا.

براعةُ اتِّساقِ مفردةِ الإنفاقِ:

الإنفاقُ والأرضُ علاقةُ الجزءِ بالكلِّ

المفردةُ القرآنيَّةُ متَّسقةٌ مع نظيراتِها في قولِه تعالى: ﴿مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾، فذكرُ الأرضِ جاءَ على أتمِّ المناسبةِ، حيثُ إنَّ الإنفاقَ المُشتقَّ من مادَّة (نفق) مأخوذٌ من نافقاءِ اليَرْبوعِ وهو جُحْرٌ من جِحرتِه يخرج منه؛ إذا أخذ عليه الجُحْرُ الذي دخلَ فيه[2]، فالعلاقةُ بين إنفاقِ المالِ ونفَقِ الأرضِ: هو نفادُ المالِ المنفقِ في الأرضِ؛ لأنَّهُ يتوارى عنِ الأنظارِ في باطنِ الأرضِ، فكانَ اختيارُ هذه المفردةِ بدلًا من مرادفاتِها مُتَّسِقًا مع لفظِ الأرضِ التي تحوي النَّفقَ، والنَّفقُ الذي أُخِذَ منه الإنفاقُ هو جزءُ الكلِّ الَّذي هو الأرضُ.

دلالةُ إيثارِ استعمالِ ﴿مَا﴾:

الاتِّساقُ مطلبُ النَّظمِ، وسرُّ الاختيارِ

آثرَ النَّظمُ الإتيانَ بما الموصوليَّةِ في قولِه تعالى: ﴿مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ بدلًا من الاسمِ الموصولِ الظّاهرِ، حيث أُريدَ بيانُ العمومِ،

(1) ابن هشام، مغني اللّبيب: 1/284.
(2) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 29.

أي: ما في الأرضِ كلِّها دونَ استثناءٍ، ما ظهرَ منها وما بطنَ، والاتِّساقُ بين الأدوات والمفردات مطلبٌ عظيمٌ في النَّظم القرآنيِّ، لما له من إبرازِ المعاني وتوكيدِ مراميها.

بلاغَةُ اسْتِعمالِ حَرْفِ الظَّرفيَّةِ:

كلمةٌ موجزةٌ في استغراقِ جميعِ أموالِ الأرضِ

سبقَ بيانُ اتِّساقِ مفردةِ الإنفاقِ مع لفظِ الأرضِ، ويزدادُ الأمرُ جمالًا في استعمالِ حرفِ الظَّرفيَّةِ، في قولِه تعالى: ﴿مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾؛ فلم يقل: (لو أنفقت ما على الأرض)؛ ليشملَ ذلك ما عليها وما فيها، وليتلاءمَ مع مفردةِ الإنفاقِ، فالإنفاقُ المفترضُ يشملُ ما هو ظاهرٌ وما هو باطنٌ، بحيثُ لا يغيبُ شيءٌ ممّا فيها، وهذا دالٌّ على استيعابِ جميعِ أموالِ الأرضِ الظّاهرةِ والباطنةِ، وهذا في غايةِ المبالغةِ في استغراقِ الأموالِ، ولا يوجدُ في لسانِ أحدٍ ما يشملُ جميعَ أموالِ الأرضِ كهذا البيانِ.

الإشـــارةُ إلى اكتشافِ الأموالِ النَّفطيَّةِ

ولا يبعدُ أن تُشيرَ الآيةُ إلى ما سيكونُ في باطنِ الأرضِ من أموالٍ نفطيَّةٍ باطنيَّةٍ - لاسيَّما - في جزيرةِ العربِ الَّتي كانتِ المؤالفةُ بفضلِ اللّٰه تعالى بين قلوبِ أهلِها، ففيها فضيلةٌ للعربِ، حيثُ إنَّ اللّٰه تعالى ألَّف بين قلوبهم، ثم أخَّر إخراجَ ما في الأرضِ لتكون لهم إنفاقًا في قادمِ الأيّام، فلمّا تآلفوا أخرجتِ الأرضُ خيراتِها، وما دامتِ المؤالفةُ بين قلوبِهم على قاعدةِ الإسلامِ قائمةً؛ فالخيراتُ - بإذنِ اللّٰهِ - على قاعدةِ الشُّكرِ قائمةٌ.

معنى التَّعريفِ في لفظِ ﴿ٱلْأَرْضِ﴾:

دلَّ التَّعريفُ على معنى العهدِ، فالمقصودُ بالأرضِ: المعهودةُ كلُّها، لا بعضُها أو أجزاءٌ منها، وهي تشملُ البرَّ والبحرَ وغلافَها الجويَّ الملاصقَ لها.

موقعُ الحالِ من السّابقِ:

جاءتِ الحالُ ﴿جَمِيعًا﴾ مبيِّنةً المقصودَ بالمنفَقِ، ومؤكِّدةً مفهومَ

التَّأكيدُ على استغراقِ جميعِ الأموالِ

العمومِ والاستغراقِ الواردِ في قولِه تعالى: ﴿مَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾؛ فهي تشمَلُ جميعَ ما في الأرضِ من أموالٍ ينتفعُ بها النّاسُ، ويُقوِّمونها ممّا يخطرُ في الأذهانِ وما لا يخطُر، وهذا في غايةِ المبالغةِ في استغراقِ الأموالِ، وفي تصويرِ استحالةِ المؤالفةِ بالأموالِ وحدَها.

بلاغةُ البيانِ القرآنيِّ في المدحِ الشَّبيهِ بالذَّمِّ:

فضلُ العربِ بتقديمِ عبادةِ الدَّيّانِ على الأموالِ والجنانِ

وفي هذا البيانِ فضلٌ للعربِ الذين آلفتْ بين قلوبِهم كلماتُ القرآنِ، ومواعظُ النَّبيِّ العدنان، فكان لها أعظمُ التَّأثيرِ، ما لم يكن لأموالِ الدُّنيا كلِّها، فإقبالُهم إقبالُ الواثقِ المستوثقِ، الباحثِ عن الحقِّ، المؤمنِ بالحقِّ، فلم يكن إيمانُهم عابرًا للحصولِ على أموالٍ فانية، أو زخارفَ لاهيةٍ، أو شهواتٍ لاغيةٍ، بل كان راسخًا رسوخَ الرَّواسي الشّامخةِ، فكانت هذه الجملةُ مدحًا بما يُشبهُ الذَّمَّ، وامتنانًا يحيطُ به الامتنانُ، لا يفقهُ إشاراتِه إلّا عربيُّ اللِّسانِ آمنَ باللّهِ، وكفرَ بما دونَهُ.

بلاغةُ جملةِ جوابِ الشَّرطِ:

إعجازُ القرآنِ التَّأثيريِّ وجهٌ كاشفٌ عن عجزِ البشرِ على التَّأثيرِ الحقيقيِّ

جاءت جملةُ جوابِ الشَّرطِ ﴿مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ واقعةً موقعَ البيانِ المُفصحِ عن حقيقةِ النَّفي فيها، فإنَّ إنفاقَ ما في الأرضِ كلِّها جميعًا لن يُحقِّقَ المؤالفةَ بين مَنْ آمنَ باللّهِ تعالى كما تحقَّقَ ذلك في التَّأثُّرِ بالقرآنِ، فأثرُ القرآنِ أعظمُ أثرًا من إنفاقِ جميعِ أموالِ الأرضِ، وهذا نصٌّ كاشفٌ عن إعجازِ القرآنِ في تأثيرِه على السُّلوكِ الاجتماعيِّ للبشرِ، وهذا أحدُ أوجُهِ الإعجازِ التَّأثيري، ومعنى الكلام: بيانُ قوَّةِ أثرِ القرآنِ في النّاسِ، بما لا تستطيعُهُ قوَّةٌ أخرى، فباتَ القرآنُ - باعتبارِه كلامَ اللّهِ تعالى - خارقًا للعادةِ البشريَّةِ في تأليفِ القُلوبِ، وهذا البيانُ بيِّنٌ في نفي القدرةِ عن كلِّ أحدٍ على المؤالفةِ بين قلوبِ مَنْ تحقَّقتِ المؤالفةُ بينهم بالقرآنِ.

سرُّ إظهارِ ما حقُّهُ الإضمارُ:

اختلافُ الفاعلِ والحالِ إشارةٌ إلى الفرقِ بين المقامينِ

في قولِه تعالى: ﴿مَّآ أَلَّفۡتَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡ﴾ كان ظاهرُ النَّظمِ أن يكونَ بإضمارِ القلوبِ، فيقولُ: (ما ألَّفت بينها)، لكنَّه عدلَ عن ذلك وأظهرها، وسرُّ ذلك كامنٌ في كونِ الفاعلِ في قولِه تعالى: ﴿وَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡۚ﴾ هو اللّٰهُ تعالى فالجملةُ خبرٌ عمّا وقعَ، بينما في قولِه تعالى: ﴿مَّآ أَلَّفۡتَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡ﴾ فالفاعلُ هو النَّبيُّ ﷺ والجملةُ إخبارٌ عمّا يستحيل أن يقع؛ فلمّا اختلفَ الفاعلُ والحالُ بين الوقوعِ واستحالةِ الوقوعِ حَسُنَ الإظْهارُ للإشارةِ إلى بيانِ الفرقِ بين المقامَيْنِ.

أغراضُ التَّصريحِ بلفظِ الجلالةِ:

تأليفُ الملكِ المنّانِ اعتزازٌ للمؤمنِ وامتنانٌ

ذُكِرَ المسندُ إليه - وهو لفظ الجلالةِ - في قولِه تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيۡنَهُمۡۚ﴾ مُظْهَرًا، مع تقدُّمِ ذكرِه في قولِه تعالى: ﴿وَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡۚ﴾ فكان مقتضى الظّاهرِ الإضمارَ، لكنَّه عدلَ عن ذلك لأغراضٍ عدَّةٍ، منها:

الأوَّلُ: تربيةُ المهابةِ في قلوبِ المُخاطَبين.

الثّاني: تقويةُ الامتنانِ في نفوسِ المخاطبين.

الثّالثُ: المحافظةُ على أثرِ تلك المؤالفةِ العظيمةِ الصّادرةِ عنهُ سبحانه.

الرّابع: الإشارةُ إلى اختلافِ المقامَيْنِ: مقامِ ذكرِ المؤالفةِ ابتداءً، ومقامِ ذكرِ المؤالفةِ بعد نفي قدرةِ أحدٍ عليها.

نكتةُ العدولِ عن ذكرِ القلوبِ إلى ذكرِ أصحابِها:

ذكرُ نتائجِ الأفعالِ امتنانٌ من صاحبِ الأفعالِ

جاء ذكرُ القلوبِ مظهرًا مرَّتينِ في قولِه تعالى: ﴿وَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡۚ لَوۡ أَنفَقۡتَ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مَّآ أَلَّفۡتَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡ﴾، وعدلَ في الجملةِ الاستدراكيَّةِ عن ذكرِها - إضمارًا أو إظهارًا - إلى ذكرِ أصحابِها، فقال: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيۡنَهُمۡۚ﴾؛ لأنَّ الجملةَ الاستدراكيَّةَ تُخبرُ عن النَّتيجةِ العظيمةِ، وهي التَّأليفُ بين أصحابِ القلوبِ بعد وقوعِها، فالمؤالفةُ بينهم هي في المعيشةِ والزَّواجِ والنَّسبِ والمعاملاتِ الماليَّةِ

ونصرةِ بعضِهم بعضًا، وما يتبعُ ذلك من لوازمِ المؤالفةِ على الحقِّ، فكان ذكرُ القلوبِ كالعلَّةِ للنَّتيجةِ في المؤالفةِ بين أصحابِ القلوبِ.

فائدةُ الاستدراكِ بعد النَّفي:

أفادَ الاستدراكُ بـ ﴿وَلَٰكِنَّ﴾ بعد النَّفي بـ﴿مَآ﴾ في قولِه تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيۡنَهُمۡۚ﴾ مجموعةً من المعاني، وهي كالآتي:

التَّأليفُ بين القلوبِ منَّةٌ خالصةٌ للهِ ﷻ

الأوَّل: القصرُ، حيثُ قصرَ التَّأليفَ بين قلوبِهم على الذّات العليَّةِ، بعد أن نفاهُ عنهم.

الثّاني: أشعرَ النَّظمُ بحرفِ الاستدراكِ بعد النَّفي زيادةً في التَّأكيدِ، حيثُ أثبتَ ذلك في الجملةِ المتقدِّمةِ خبرًا ﴿وَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡۚ﴾، ثمَّ أكَّدَهُ مرَّةً أخرى في الجملةِ الاستدراكيَّة.

الثّالث: أومأ الاستدراكُ إلى نفي القدرةِ على التَّأليفِ بين القلوبِ عن رسولِ اللّه ﷺ دفعًا لأن يظُنَّ ظانٌّ أنَّ اللّه ألَّف بين قلوبِهم بأخلاقِه ﷺ وحسن دعوتِه، فإنَّ أخلاقَ النَّبيِّ ﷺ منَّةٌ من اللّه تعالى على الأمَّةِ، كما أنَّ التَّأليفَ بين القلوبِ منَّةٌ عليها.

بلاغةُ التَّذييلِ:

تعليلُ خوارقِ السُّننِ الاجتماعيَّةِ بيانٌ قرآنيٌّ ونظمٌ معجزٌ

جاءَت فاصلةُ الآيةِ: ﴿إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ مؤكَّدةً بـ(إنَّ)، والتَّأكيدُ بها لِمُجَرَّدِ الاهْتِمامِ بالخَبَرِ باعْتِبارِ جَعْلِه دَليلًا على بَديعِ صُنْعِ اللّه تعالى فإنَّ التَّأليف بين القُلوبِ ممّا لا تستطيعُه قوى البشرِ، فكانتِ الجملةُ تعليلًا لما حصلَ من تأليف اللّهِ وحدَه لقلوبِ المؤمنين، فلمّا كانَ هذا التَّكْوينُ صُنْعًا عَجيبًا؛ ذَيَّلَ اللّه الخَبَرَ عنه بقَوْلِه: ﴿إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[1]، وهذا من توحيدِ الأسماءِ والصِّفات، فقد اختيرَ هذان الاسمانِ دونَ غيرِهما، وهما: ﴿عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾، "أي: قادرٌ قاهرٌ يمكنهُ التَّصرُّفُ في القلوب، ويقلبُها من العداوةِ إلى الصَّداقة، ومن

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/64.

النَّفرةِ إلى الرَّغبة، حكيمٌ بفعلِ ما يفعلُهُ على وجهِ الإحكامِ والإتقانِ، أو مطابقًا للمصلحة والصَّواب[1]"، ومن آثارِ حكمتهِ تدبيرُ أمورِهم على وجهٍ أحدثَ فيهم التَّوادَّ والتَّحابَّ، فاجتمعت كلمتُهم، وصاروا جميعًا كنانةَ رسولِ اللّه ﷺ الذّابّينَ عنه بقوسٍ واحدةٍ[2].

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الخداعُ والكَيْدُ والغُرورُ والمَكْرُ:

الخداعُ لا يحتاجُ كبيرَ تدبيرٍ وفكرٍ، بخلافِ الكيدِ فهو يحتاجُ ذلك

استعملتِ الآيةُ الأولى لفظةَ الخداعِ، واستعملَ القرآنُ كلماتٍ مقارِبةً لها في مواضعَ أُخرى كالكيدِ والمكرِ والغرورِ، وكلُّ لفظةٍ من هذهِ الألفاظِ قد تلتقي مع اللَّفظةِ الأخرى في بعضِ الدِّلالاتِ وتغايرها بدلالاتٍ أخرى تميِّزُها عن غيرِها، فقد جاء استعمالُ كلمةِ الكيدِ في بعض المواضعِ كقولهِ تعالى: ﴿أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هُمُ ٱلْمَكِيدُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [الطور: 42]، وقولهِ: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾ فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا ﴿١٧﴾﴾ [الطارق: 15 - 17] والكيدُ ضربٌ من الاحتيالِ، وقد يكونُ مذمومًا، وقد يكون ممدوحًا، وإن كان أكثرُ استعمالهِ في المذموم[3].

فالفرقُ بين الخَدْعِ والكيد: أنَّ الخَدْعَ هو إظهارُ ما يُنطقُ بخلافِه، أرادَ اجتلابَ نفعٍ أو دفع ضرٍّ، ولا يقتضي أن يكونَ بعد تدبُّرٍ ونظرٍ وفكرٍ ألا ترى أنَّهُ يقال: خدعَهُ في البيع؛ إذا غشَّهُ من جشاءٍ، وهمُّه الإنصافُ، وإن كان ذلك بديهةً من غيرِ فكرٍ ونظرٍ، والكيدُ لا يكونُ إلّا بعدَ تدبُّرٍ وفكرٍ ونظر، ولهذا قال أهلُ العربيَّةِ: الكيدُ التَّدبيرُ على العدوِّ وإرادة إهلاكه، وسمّيت الحيلُ الَّتي يفعلها أصحابُ الحروب بقصد إهلاكِ أعدائهم: مكايدَ؛ لأنَّها تكون بعد تدبُّرٍ ونظرٍ، ويجيءُ

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 15/156.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 10/41.
(3) الرّاغب، المفردات، ص: 335.

الكيدُ بمعنى: الإرادةِ، وهو قولهُ تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ كِدۡنَا لِيُوسُفَۖ﴾ [يوسف: 76] أي: أردنا، ودلَّ على ذلكَ بقولهِ: ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ [يوسف: 76]، ويجوزُ أن يقالَ: الكيدُ الحيلةُ التي تقرِّبُ وقوعَ المقصودِ به من المكروه، وهو من قولهم: كادَ يفعلُ كذا، أي: قرُبَ، إلّا أنَّه قيل في هذا: يكادُ، وفي الأولى: يكيد؛ للتَّصرُّفِ في الكلامِ والتَّفرقةِ بين المعنيين.

ويجوز أن يقالَ: إنَّ الفرقَ بين الخَدْعِ والكيدِ: أنَّ الكيدَ اسمٌ لفعلِ المكروهِ بالآخرين قهرًا، تقول: كايدني فلانٌ، أي: ضرَّني قهرًا، والخديعةُ: اسمٌ لفعلِ المكروهِ بالآخرين من غير قهرٍ، بل بأن يريدَ بأنَّهُ ينفعهُ، ومنه الخديعةُ في المعاملةِ، وسمَّى اللّه تعالى قصدَ أصحابِ الفيل في مكَّةَ كيدًا في قولهِ تعالى: ﴿أَلَمۡ يَجۡعَلۡ كَيۡدَهُمۡ فِي تَضۡلِيلٖ ٢﴾ [الفيل: 2]، وذلك أنَّهُ كان على وجهِ القهرِ[1].

الغـرورُ: وهْـمٌ يـوقـع صـاحـبَـهُ في الـخـطـأ، والـخَـدْعُ: إيهامٌ صادرٌ عن الآخرِ للإيقاعِ في الخطأ

وأمّا الغرورُ، فقدِ استعمل القرآنُ الكريمُ لفظةَ الغرورِ في مثلِ قولهِ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامٗا مَّعۡدُودَٰتٖۖ وَغَرَّهُمۡ فِي دِينِهِم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ٢٤﴾ [آل عمران: 24] والغَرورُ: كلُّ ما يغرُّ الإنسانَ من مالٍ وجاهٍ وشهوةٍ وشيطانٍ[2]، والفرقُ بين الخَدْعِ والغرورِ: أنَّ الغرورَ إيهامٌ يحملُ الإنْسانَ على فعل ما يضرُّهُ مثل أن يرى السَّرابَ، فيحسبهُ ماءً، فيضيِّعُ ماءَهُ، فيهْلك عطشًا، وتضييعُ الماءِ فعلٌ أدّاهُ إليهِ غرورُ السَّرابِ إيّاه، وكَذلك غرَّ إبْليسُ آدمَ، ففعلَ آدمُ الأكلَ الضارَّ له، والخَدْعُ: أن يسترَ عنه وجهَ الصَّوابِ، فيوقعَهُ في مَكْروهٍ، وأصلهُ من قَوْلهم: خدعَ الضَّبُّ؛ إذا توارى في جُحْرِه، وخدعَهُ في الشِّراء أو البيعِ؛ إذا أظهر لَهُ خلافَ ما أبطنَ، فضرَّهُ في مالهِ[3].

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 288 - 289.
(2) الرّاغب، المفردات، ص: 270.
(3) العسكريّ، الفروق اللغويّة، ص: 289.

وأمّا المكرُ؛ فهو صرفُ الآخرِ عمّا يقصدُه بحيلةٍ، وذلك ضربان: محمودٌ ومذمومٌ[1]، وقد استُعمِلَ في القرآنِ الكريمِ كثيرًا من مثل قولهِ تعالى: ﴿وَيَمۡكُرُونَ وَيَمۡكُرُ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ ٣٠﴾ [الأنفال: 30]، والمكرُ مثلُ الكيدِ في أنَّهُ لا يكونُ إلّا مع تدبُّرٍ وفكرٍ إلا أنَّ الكيدَ أقوى منهُ[2].

(1) الرّاغب، المفردات، ص: 356.

(2) العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 290.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسۡبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٦٤ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ عَلَى ٱلۡقِتَالِۚ إِن يَكُن مِّنكُمۡ عِشۡرُونَ صَٰبِرُونَ يَغۡلِبُواْ مِاْئَتَيۡنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٞ يَغۡلِبُوٓاْ أَلۡفٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَفۡقَهُونَ ٦٥ ٱلۡـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمۡ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمۡ ضَعۡفٗاۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٞ صَابِرَةٞ يَغۡلِبُواْ مِاْئَتَيۡنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمۡ أَلۡفٞ يَغۡلِبُوٓاْ أَلۡفَيۡنِ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ٦٦﴾ [الأنفال: 64 - 66]

مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قَبْلَها:

الانتقالُ من وسيلةِ الإقناعِ إلى أوامرِ التَّكليفِ منهجُ القرآنِ في البناءِ والنُّهوضِ

لمّا وعدهُ سبحانه بالنَّصرِ عند مخادعةِ الأعداءِ؛ وعدَهُ بالنَّصرِ والظَّفرِ في هذهِ الآيةِ مطلقًا على جميع التَّقديرات، وعلى هذا الوجهِ لا يلزمُ حصولُ التَّكرارِ؛ لأنَّ المعنى في الآيةِ الأولى: إن أرادوا خداعَك؛ كفاك اللّه أمرَهم، والمعنى في هذه الآية عامٌّ في كلِّ ما يُحتاجُ إليهِ في الدّين والدُّنيا[1]، فمناسبةُ هذه الآياتِ للآياتِ السّابقةِ هو تثبيتُ التَّوكُّل على اللّهِ تعالى والانتقالُ من خطابِ الإقناعِ إلى خطابِ التَّكليفِ، وقد وقعَ قولُهُ تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسۡبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ كواسطةِ العقدِ ودرَّةِ القلادةِ بين السّابقِ واللّاحقِ، لأنَّه خطابٌ تكميليٌّ للسّابقِ في دفعِ ما قد يُحدثهُ الخاطرُ من فكرٍ، وخطابٌ تمهيديٌّ للّاحق في تحريضِ المؤمنين على القتالِ، وهو القيامُ بما يُمليه واجبُ العملِ، بقطعِ النَّظر عن وقوعِ الخديعةِ أو عدمها، فمَوْقِعُ هذه الآيَةِ بَعْدَ الَّتي قَبْلَها كاملُ الاتِّساقِ والانْتِظامِ، فإنَّهُ لَمّا أخْبَرَهُ بأنَّهُ حَسْبُهُ وكافيهِ، وبَيَّنَ ذلك بأنَّهُ أيَّدَهُ

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 15/156.

بنَصْرِه فيما مَضَى وبالمُؤْمِنينَ، فقد صارَ لِلْمُؤْمِنينَ حَظٌّ في كِفايَةِ اللّه تعالى رَسولَهُ ﷺ فلا جَرَمَ أَنْتَجَ ذلك أنَّ حَسْبَهُ اللّه والمُؤْمِنونَ، فكانَتْ جُمْلَةُ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسۡبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾؛ كالفَذْلَكَةِ لِلْجُمْلَةِ الَّتي قَبْلَها[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿حَرِّضِ﴾: تدلُّ مادَّةُ الحاءِ والرّاءِ والضّادِ على الذَّهابِ والتَّلفِ والهلاك والضَّعفِ وشبه ذلك، كأنَّهُ في الأصلِ إزالةُ الحرض، والحَرَض وهو المشرفُ على الهلاك[2]، والتَّحريضُ الحثُّ على الشَّيء بكثرةِ التَّزيين وتسهيلِ الخَطْبِ فيه، فهو حثُّ الآخرين على الشَّيء حثًّا يعلمُ معه أنَّهُ حارضٌ إن تخلَّفَ عنه، والحارضُ الَّذي قدْ قارَبَ الهلاكَ؛ فالتَّحريضُ هو إقناعُ المحرَّضِ على فعلِ أمرٍ إن لم يفعلْهُ؛ وقعَ في الهلاكِ، وقد وردت هذه اللَّفظةُ في موضعين آخرين من القرآنِ سوى هذا الموضعِ في قوله: ﴿فَقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفۡسَكَۚ وَحَرِّضِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ﴾ [النساء: 84] وقوله: ﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ تَفۡتَؤُاْ تَذۡكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوۡ تَكُونَ مِنَ ٱلۡهَٰلِكِينَ ٨٥﴾ [يوسف: 85].

2) ﴿يَفۡقَهُونَ﴾: يدلُّ أصلُ المادَّةِ على إدراكِ الشَّيءِ والعلمِ بهِ، والفقهُ اصطلاحًا: التَّوصُّلُ إلى علمٍ غائبٍ بعلمٍ شاهدٍ، فهو أخصُّ من العلمِ، والفقهُ: هو العلمُ بأحكامِ الشَّريعةِ[3].

المَعْنى الإجْماليُّ:

تُخاطبُ الآياتُ النَّبيَّ ﷺ آمرةً بأن يحثَّ المؤمنينَ على القتالِ بصبرٍ وجلدٍ، من أجلِ إحقاقِ الحقِّ وإبطالِ الباطلِ، فإنَّ وجودَ عشرينَ رجلًا صابرًا يغلبونَ - بسببِ إيمانِهم وصبرِهم - مئتينِ

المؤمنُ منتصرٌ بأمرِ اللهِ ومعيَّتِهِ لا بقوَّتِهِ وكثرتِه

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/65.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (حرض)، والزّجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 2/423.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (فقه).

من الكافرين، وإن توجدْ مئةٌ تغلبْ ألفًا، وبعد أن شقَّ على المؤمنينَ الاستمرارُ على مواجهةِ الأعداءِ الكثيرين، ولم تبقَ هناك ضرورةٌ لدوام هذا الحكمِ لكثرةِ عددهم؛ خفَّف اللهُ عنهم رحمةً بهم، فأوجبَ عليهم أن يثبتَ الواحدُ منهم أمامَ اثنين من أعدائِهم بدلًا من عشرةٍ، واللّه تعالى مع الصّابرين بتأييدهِ ورعايتهِ ونصرهِ، وللإشارةِ إلى تأييدِهم، وأنَّهم منصورونَ حتمًا؛ لأنَّ من كان اللّه معه لا يغلب[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ الاستئنافِ:

النَّبيُّ هو قدوةُ الأمَّةِ وخطابُهُ خطابٌ لها

قولُهُ تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسۡبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ اسْتِئْنافٌ ابْتِدائيٌّ بالإقْبالِ على خِطابِ الرَّسولِ ﷺ بأوامِرَ وتَعاليمَ عَظيمَةٍ، مَهَّدَ لِقَبولِها وتَسْهيلِها بما مَضَى مِنَ التَّذْكيرِ بعَجيبِ صُنْعِ اللّه والامْتِنانِ بعِنايَتِه برَسولِه والمُؤْمِنينَ، وإظْهارِ أنَّ النَّجاحَ والخَيْرَ في طاعَتِه وطاعَةِ اللّه، مِن أوَّلِ السّورَةِ إلى هُنا[2]، فهذه الآيةُ هي خلاصةٌ لما تقدَّم، جاء الخطابُ فيها للنَّبيِّ صراحةً.

بلاغةُ البَدْءِ بحرفِي النِّداءِ والتَّنبيهِ:

نداءُ اللّه للنَّبيِّ دليلُ عِظَمِ ما سيُلقى من القولِ

تصديرُ الجملةِ بحرفِي النِّداءِ والتَّنبيهِ في قولِه تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾ تنبيهٌ على مزيد الاعتناءِ بمضمونها[3]، فإنَّ من بلاغةِ القرآنِ العنايةَ بالمخاطَبِ بتنبيهِهِ على مضامين المعاني، فالنِّداءُ إن كان لنداءِ البعيدِ - كما هو الأغلبُ عند النَّحويّين[4] - فإنَّ لاستعمالِ (يا) في نداءِ القريبِ أغراضًا بيانيَّةً، وحريٌّ أن يُتنبَّهَ لها، ونداءُ اللّه تعالى للمؤمنين لا يُتصوَّرُ فيه إلّا أن يكونَ من إنزالِ القريبِ

(1) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 6/152 - 154.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/65.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/111.
(4) ابن هشام، مغني اللّبيب: 2/429.

منزلةَ البعيدِ ليتنبَّهوا، ولا يغفلوا، وهو مظهرٌ من مظاهرِ التَّوكيدِ، وفي نداءِ النَّبيِّ بهذا الحرفِ ما فيهِ من إعلاءٍ لشأنهِ ورفعٍ لقدرهِ ولقدرِ مناديهِ، وهناك توكيدٌ من نوعٍ آخرَ في استعمالِ (أيٍّ) التي قالوا عنها: إنَّها تأتي في حالاتٍ محدَّدةٍ منها: أن تكونَ وصلةً لنداء المُعرَّفِ بأل[1]، فهنا مظهرٌ آخرُ من مظاهرِ التَّوكيدِ في ذكرِ المنادى مرَّتينِ: مرَّةً بكونهِ منادًى أصيلًا، ومرَّةً أخرى بذكرهِ بدلًا أو صفةً بعد قولهِ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا﴾، وهناك مظهرٌ آخرُ من مظاهرِ التَّوكيدِ في هذه الجملةِ في مجيءِ (الهاء) الَّتي تأتي للتَّنبيهِ، على أنَّها نعتٌ آخر للمنادى لكونهِ هو المقصودُ بالنِّداءِ[2].

غَرضُ النِّداءِ بوصفِ النُّبوَّةِ ومعنى (أل) فيه:

رفعةُ النَّبيِّ قائدًا وقدوةً رفعةٌ لأمَّتِه

التَّعريفُ في ﴿ٱلنَّبِيُّ﴾ للعهدِ، ولا ينصرفُ الذِّهنُ إلّا إلى النَّبيِّ ﷺ وإيراده ﷺ بعنوانِ النُّبوَّةِ للإشعارِ بعلِّيَّتها للحكم[3]، وتَخْصيصُ النَّبيِّ بهذه الكِفايَةِ لِتَشْريفِ مَقامه بأنَّ اللهَ يَكْفي الأُمَّةَ لأجْلِه[4]، وفي ندائهِ ﷺ بوصف النُّبوَّةِ دونَ الرِّسالةِ ما فيه من معاني الرِّفعةِ والعلوِّ الَّتي نجدُها في معاني (نبو) ودلالاتها على العلوِّ والارتفاع، وهذا ما نلحظهُ في نداءاتِ النَّبيِّ ﷺ بوصف النُّبوَّةِ في القرآنِ أنَّها تأتي بوصفهِ القائدَ والقدوةَ للمؤمنين، بخلافِ النِّداءات له بوصفِ الرِّسالةِ حيثُ تأتي على أنَّها النِّداءُ بالوصفِ الوظيفيِّ له ﷺ.

بلاغةُ تعريفِ الجزأين:

الإلهابُ والتَّهييجُ توطئةٌ لتحريضِ المؤمنين على القتالِ

عُرِّف الطَّرفانِ في قولِه تعالى: ﴿حَسْبُكَ ٱللَّهُ﴾ ليكونَ المقدَّمُ مسندًا إليهِ، والمؤخَّر مسندًا، وهذا ممّا يجوزُ فيه الإعرابُ العكسيُّ عند النُّحاةِ، لكنَّ التزامَ ترتيبِ النَّظمِ يحملنا على جعلِ المقدَّمِ

(1) ابن هشام، مغني اللّبيب: 1/92.
(2) ابن هشام، مغني اللّبيب: 2/402.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/111.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/65.

مبتدأً، والمؤخَّرِ خبرًا، وهو من الحملِ على المواطأةِ، وهو يُفيدُ القصرَ، وتقديمُ ﴿حَسۡبُكَ﴾ فيه معنى الإلهابِ والتَّهييجِ بتكريرِ هذه الجملةِ، بهذا النَّظم، فإنَّ النَّبيَّ ﷺ يعلمُ أنَّ اللّٰه كافيهِ، وإخبارُه بذلك مع التَّكرار أفادَ إلهابَهُ وتهييجَهُ توطئةً لتكليفهِ بتحريضِ المؤمنين على القتالِ.

تعيينُ المعطوفِ عليه وبراعةُ إعرابِ ﴿وَمَنِ﴾:

أتباعُ النَّبيِّ مكفيّون من اللهِ تعالى ابتداءً ليكفوا النَّبيَّ انتهاءً

استُعمِلَتْ ﴿وَمَنِ﴾ في قولهِ تعالى: ﴿وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ للدَّلالةِ على العموم، فيدخلُ فيها جميعُ المتَّبعين من المؤمنين نصًّا، وتحتملُ أن تكون ﴿وَمَنِ﴾ في محلِّ نصبٍ، وفي محلِّ رفعٍ، فعلى النَّصبِ تكون معطوفةً على الكافِ في قوله: ﴿حَسۡبُكَ ٱللَّهُ﴾، فالكافُ مجرورةٌ لفظًا منصوبةٌ محلًّا على أنَّها مفعولٌ به؛ لأنَّ في ﴿حَسۡبُكَ﴾ معنًى واقعًا من الفعل: رددناهُ، ويصير المعنى: يكفيكَ اللّٰه، ويكفي منِ اتَّبعكَ، و﴿وَمَنِ﴾ معطوفةٌ على الكافِ، وعلى الرَّفعِ تكون معطوفةً على لفظِ الجلالةِ، ويكون المعنى: يكفيك اللّٰه، ويكفيك أتباعُك من المؤمنينَ[1].

والإعرابانِ صحيحانِ صنعةً ودلالةً، فالمعنى صحيحٌ على النَّصبِ؛ إذ اللّٰهُ يكفي نبيَّه والمؤمنين، وكذلكَ على الرَّفعِ؛ إذ جعلَ اللّٰهُ المؤمنين كافين النَّبيَّ ﷺ والكفايةُ ابتداءً من اللّٰهِ للمؤمنين؛ لتتحقَّقَ لنبيِّه ﷺ فبأيِّ الإعرابين أخذتَ؛ فالمعنى صحيحٌ.

سرُّ استعمالِ مفردةِ الاتِّباع:

شرطُ الاتِّباعِ الإيمانُ والطّاعةُ في نصرةِ النَّبيِّ ﷺ

استُعملتْ مفردةُ ﴿ٱتَّبَعَكَ﴾ في قولِه تعالى: ﴿وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ دونَ أن يقولَ: (ومن آمن بك) أو (ومن نصرك) وغيرها من المحتملاتِ؛ لبيانِ أنَّ كفايةَ النَّبيِّ بمن معَهُ هي بكونِهم أتباعًا له، ومقتضى الاتِّباع الإيمانُ والطّاعةُ والنُّصرة، والتَّعبيرُ بالاتِّباعِ دون

(1) الفرّاء، معاني القرآن: 1/417، والزّجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 2/423، والزّمخشريّ، الكشّاف: 2/222.

التَّبع يدلُّ على اللُّحوقِ، فإنَّ بناءَ (تَبِعَ) يدلُّ على القفوِ، وبناء (اتَّبعَ) يدلُّ على اللُّحوقِ[1]، فـ (تبع) أشدُّ دلالةً في التُّلوِّ والقفوِ من (اتَّبع)، والمطلوبُ هو عمومُ الاتِّباعِ، فاستُعمل الاتِّباعُ لما فيهِ من مراعاةِ حالِ المُتَّبعين، فهم على أحوالٍ متباينةٍ، ودرجاتٍ مختلفةٍ، لكنَّهم جميعًا متَّصفون بالاتِّباعِ، وهو المطلوبُ في هذا المقامِ.

نوعُ ﴿مِنَ﴾ والتَّعريفِ في قولِه تعالى: ﴿مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾:

يُحمَلُ التَّعريفُ في لفظِ: ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ إمّا على تعريفِ العهدِ؛ إذا كان المقصودُ بالمؤمنين أصحابَ النَّبيِّ ﷺ وتكونُ ﴿مِنَ﴾ تبعيضيَّةً، وإمّا على تعريف الجنس؛ إذا كان المقصودُ عمومَ المؤمنين المتَّبعين إلى قيامِ السّاعةِ، وتكون ﴿مِنَ﴾ بيانيَّةً[2]، والصَّحيح أنَّها للجنسِ، ويدخل العهدُ دخولًا أوَّليًّا، فاللهُ ناصرٌ نبيَّهُ بأصحابهِ على وجه الخصوصِ، وبالمؤمنين عامَّةً على جعلِ ﴿مَنِ ٱتَّبَعَكَ﴾ منصوبةً، أو أنَّ المُتَّبعين ينصرون النَّبيَّ ﷺ من الصَّحابةِ خاصَّةً، ومن المؤمنين عامَّةً على جعلِ ﴿مَنِ ٱتَّبَعَكَ﴾ مرفوعةً كما تقدَّمَ.

يدخلُ في مفهومِ (المؤمنين) الصَّحابةُ دخولًا أوَّليًّا وعمومُ المؤمنين

سرُّ اختيارِ صفةِ الإيمانِ:

اختيرَ وصفُ الإيمانِ في قولِه: ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ دونَ الإسلامِ؛ لأمرين اثنين:

الأوَّل: بيانُ أثرِ الإيمانِ في عظائمِ الأمورِ، وكبائرِ الشُّؤونِ، فإنَّ الإيمانَ جذرُ الخيرِ والحقِّ والأمانةِ في القلوبِ، ولذلك آثرَ السّياقُ الإتيانَ بهِ تنبيهًا على علَّةِ العملِ والاستجابةِ لأمرِ اللهِ تعالى في تأييدِ النَّبيِّ ونصرةِ دينِه على الباطلِ، وأفادَ أنَّ الإيمانَ ليس مجرَّدَ اعتقادٍ معرفيٍّ عابرٍ، بل هو تصديقٌ وقولٌ وعملٌ لا ينفكُّ عن صاحبه بحالٍ، فهو يشملُ في هذا السّياق مفهومَ الإسلامِ والإحسانِ وحقائقِ اليقينِ من التَّوكُّلِ عليه والثِّقةِ بهِ في الانتصارِ على الباطلِ.

الإيمانُ يتضمَّنُ الأعمالَ العظيمةَ والمعتقداتِ الرّاسخةَ

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (تبع).
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 10/43 - 44.

الآخر: لما يتضمَّنهُ وصفُ الإيمانِ من الإيماءِ إلى الخصوصيَّةِ بخلافِ الإسلامِ، فهو يدلُّ على العمومِ، كما قال سبحانه: ﴿۞قَالَتِ ٱلۡأَعۡرَابُ ءَامَنَّاۖ قُل لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا وَلَمَّا يَدۡخُلِ ٱلۡإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمۡۖ﴾ [الحجرات: 14].

تكريرُ الخطابِ ودلالةُ الأمرِ:

تَحريضُ المؤمنينَ على قتالِ أعداءِ اللهِ من متطلَّباتِ النُّبوَّةِ

كُرِّرَ خطابُ النَّبيِّ ﷺ في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ عَلَى ٱلۡقِتَالِۚ﴾ بعد قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسۡبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾؛ لإظهارِ كمال الاعتناءِ بشأنِ المأمورِ به[1]، ولِلتَّنْويهِ بشَأْنِ الكَلامِ الوارِدِ بَعْدَ النِّداءِ، وهذا الكَلامُ في معنى المَقْصِدِ بالنِّسْبَةِ لِلْجُمْلَةِ الَّتي قَبْلَهُ؛ لِأَنَّهُ لَمّا تَكَفَّلَ اللهُ لَهُ الكِفايَةَ، وعَطَفَ المُؤْمِنينَ في إسْنادِ الكِفايَةِ إليهمْ؛ احْتيجَ إلى بَيانِ كَيْفيَّةِ كِفايَتِهم، وتِلْكَ هيَ الكِفايَةُ بالذَّبِّ عَنِ الحَوْزَةِ وقِتالِ أعْداءِ اللهِ[2].

وفي النِّداءِ بلفظِ النُّبوَّةِ ما يشعرُ بأنَّ النَّبيَّ ﷺ قدوتُهم في ذلك، وأنَّ التَّهيئةَ لقتالِ أعدائِهم هو من متطلَّباتِ هذه النُّبوَّةِ.

غرضُ الأمرِ ومعناه:

معنى الأمرِ في قولِه تعالى: ﴿حَرِّضِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ عَلَى ٱلۡقِتَالِۚ﴾ للوجوبِ، ومعناه: بالغ في حثِّهم عليهِ وترغيبهم فيه بكلِّ ما أمكنَ من الأمورِ المرغَّبةِ[3].

سرُّ اختيارِ مفردةِ ﴿حَرِّضِ﴾:

التَّحريضُ هو إقناعٌ بالغٌ لدفعِ الهلاكِ عنِ الأمَّةِ

استعملَ النَّظمُ مفردةَ ﴿حَرِّضِ﴾ دونَ مرادِفاتِها؛ لما تتضمَّنُه هذه المفردةُ من معنًى، فالتَّحريضُ هو إقناعُ المحرَّضِ على فعلِ أمرٍ إن لم يفعلْهُ؛ وقعَ في الهلاكِ، فأدَّت هذه المفردةُ معنًى فريدًا: وهو إقناعُ المخاطَبِ غايةَ الإقناعِ وبالِغَ البيانِ، بما يجبُ عليه من قتالِ أعداءِ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/111.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/66.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/111.

اللّهِ تعالى وإلّا وقع هو في القتلِ والهلاكِ، ومن هنا يَبينُ التَّناسبُ بين اللَّفظةِ وسياقِ الكلامِ.

معنى التَّعريفِ في لفظِ ﴿ٱلْقِتَالِۚ﴾:

التَّعريفُ في لفظِ ﴿ٱلْقِتَالِۚ﴾ للعهدِ، أي: القتالُ الَّذي يعرفهُ المؤمنونَ في مقاتلةِ أعداءِ الدّين، وليس من شأنِ النَّبيِّ أن يُحرِّضَ الأمَّةَ على أيِّ قتالٍ، إلّا في قتالِ أعداءِ الملَّة الذين يحولون دونَ الدَّعوةِ إلى اللّهِ تعالى فحقيقةُ القتالِ هي في نصرةِ الحقِّ وإنصافِ أهلِه، وردع الباطلِ وهزيمةِ وحِزْبِه.

القتالُ في الإسلامِ لإعلاءِ كلمةِ الحقِّ وإزهاقِ الباطلِ

بلاغةُ الاستئنافِ البيانيِّ:

لمّا كان عمومُ الجنسِ الذي دلَّ عليهِ تعريفُ القتالِ يقتضي عمومَ الأحوالِ باعتبارِ المقاتَلين، وكان في ذلك إجمالٌ من الأحوال، وقد يكونُ العدوُّ كثيرين، ويكون المؤمنونَ أقلَّ منهم؛ بيَّن هذا الإجمالَ بما جاء بعدها من تفصيل[1]، فقال تعالى: ﴿إِن يَكُن مِّنكُمۡ عِشۡرُونَ صَٰبِرُونَ يَغۡلِبُواْ مِاْئَتَيۡنِۚ﴾ وهو استئنافٌ بيانيٌّ؛ لأنَّ الإجمالَ الَّذي سبقها من شأنهِ أن يثيرَ سؤالًا عن الأحوالِ مع تباينِ عددِ العدوِّ، فكأنَّ المعنى: حرِّض المؤمنين على القتالِ بهذه الكيفيَّةِ[2].

التَّفصيلُ بعد الإجمالِ بيانٌ مشرقٌ وتوضيحٌ مفلقٌ

نكتةُ استعمالِ ﴿إِن﴾ بدلًا من أدواتِ الشَّرطِ الأخرى:

أتى النَّظمُ بأداةِ الشَّرطِ ﴿إِن﴾ لبيانِ أنَّ هذا الاحتمالَ ليس لازمًا، فهو من بابِ التَّمثيل الافتراضيِّ، لا التَّعيين الحتميِّ، وفيه من التَّخفيفِ بطريقِ الإيماءِ ما لا يخفى أثرُهُ على المخاطَبين.

فائدةُ التَّعبيرِ بصيغةِ المضارعِ:

التَّعبيرُ بصيغةِ الفعلِ المضارعِ في فعلِ الشَّرطِ وجوابه في قولِه تعالى: ﴿إِن يَكُن مِّنكُمۡ عِشۡرُونَ صَٰبِرُونَ يَغۡلِبُواْ مِاْئَتَيۡنِۚ﴾ يُفيدُ

استحضارُ الصّورةِ يُخفِّفُ من وطأةِ القتالِ ويُمهِّدُ النَّفسَ لها

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/66.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/66.

استحضارَ الصّورةِ في ذهنِ السّامعِ، وهو مناسبٌ للسّياقِ، فإنَّ المخاطَبين يجولُ في خاطرِهم ذلك الافتراضُ العدديُّ، وكيفيَّةُ التَّغلُّبِ عليهِ، فكان التَّعبيرُ بصيغةِ المضارعِ مرتعًا خصبًا للبيانِ.

توجيهُ ﴿يَكُن﴾ بين النَّقصِ والتَّمامِ:

(كان): إمّا أن تكونَ ناقصةً، واسمُها ﴿عِشۡرُونَ﴾، و﴿صَٰبِرُونَ﴾ صفةٌ لها، وخبرها ﴿مِّنكُمۡ﴾، وإمّا أن تكونَ تامَّةً، وفاعلها ﴿عِشۡرُونَ﴾، والجارُّ والمجرورُ ﴿مِّنكُمۡ﴾ في موضعِ نصبٍ على الحال[1].

بلاغةُ قولِه: ﴿مِّنكُمۡ﴾ تقديمًا وخطابًا:

تقدَّمَ الجارُّ والمجرورُ في قولِه تعالى: ﴿إِن يَكُن مِّنكُمۡ عِشۡرُونَ صَٰبِرُونَ يَغۡلِبُواْ مِاْئَتَيۡنِۚ﴾ للعناية والرَّعايةِ بالمخاطَبين[2]، وللتَّلطُّفِ بهم، لاسيَّما أنَّ السّياقَ في تحريضِهم على مغالبةِ أعدائهم في حال كونهم قلَّةً وحالِ كونِ أعدائهم كثرةً، والضَّمير في ﴿مِّنكُمۡ﴾ عائدٌ على النَّبيِّ ﷺ والمؤمنين، وعلى كلِّ الأحوال لا يخفى ما تؤدّيه الجملةُ الشَّرطيَّةُ في النُّفوس من خلالِ تعليقِ النَّتائجِ على الأسبابِ.

العنايةُ بالمخاطبين أولويَّةٌ قرآنيَّةٌ ولطفٌ في الخطابِ

نكتةُ التَّعبيرِ بالخبرِ عن الإنشاءِ:

قولُه تعالى: ﴿إِن يَكُن مِّنكُمۡ عِشۡرُونَ صَٰبِرُونَ يَغۡلِبُواْ مِاْئَتَيۡنِۚ﴾ ظاهرُه الخبرُ، وحقيقتُهُ الإنشاءُ؛ "كَأَنَّهُ قالَ: إنْ يَكُنْ منكُم عِشْرونَ؛ فلْيَصْبِروا، ولْيَجْتَهِدوا في القِتالِ حَتَّى يَغْلِبوا مئتين، والَّذي يَدُلُّ على أنَّهُ لَيْسَ المُرادُ مِن هذا الكَلامِ الخَبَرَ؛ وُجوهٌ: الأوَّلُ: لَوْ كانَ المُرادُ منه الخَبَرَ؛ لَزِمَ أنْ يُقالَ: إنَّهُ لَم يَغْلِبْ قَطُّ مئتانِ مِنَ الكُفّارِ عِشْرينَ مِنَ المُؤْمِنينَ، ومَعْلومٌ أنَّهُ باطِلٌ. الثّاني: أنَّهُ قالَ: ﴿ٱلۡـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمۡ﴾، والنَّسْخُ أَلْيَقُ بالأمْرِ منه بالخَبَرِ. الثّالِثُ: قَوْلُهُ مِن بَعْدُ: ﴿وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ وذلك ترغيبٌ في الثَّباتِ على الجهادِ، فثَبَتَ

عظائمُ الأمورِ في بداياتِها فإنْ أُحسِنَتِ البداياتُ؛ تكاملتِ النِّهاياتُ

(1) السّمين الحلبيّ، الدرّ المصون: 5/636.
(2) السّمين الحلبيّ، الدّر المصون: 5/636.

أنَّ المُرادَ مِن هذا الكَلامِ هو الأمْرُ؛ وإنْ كانَ واردًا بلَفْظِ الخَبَرِ، وهو كَقَوْلِه تَعالَى: ﴿۞وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ﴾ [البَقَرَة: 233]، ﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ﴾ [البَقَرَة: 228]"[1].

ونكتةُ التَّعبيرِ بالخبرِ عن معنى الإنشاءِ - وهو الأمرُ هنا - بيانُ تأكيدِ هذا الأمرِ، وأنَّه بمنزلةٍ لا يُقبَلُ معها التَّهاونُ أو التَّراخي أو التَّسويفُ أو الأخذُ بالرُّخصةِ، بل هو مقامٌ عظيمٌ يستدعي القيامَ بأعظمِ الأفعالِ لتحقيقِه على وجْهِه المطلوبِ.

بلاغةُ التَّعبيرِ بمفردة ﴿يَغْلِبُواْ﴾:

آثرَ النَّظمُ التَّعبيرَ بمفردةِ ﴿يَغْلِبُواْ﴾ دونَ أن يقولَ: (يهزموا) أو (يقتلوا) أو (ينتصروا على مئتين)، وما إلى ذلك من ألفاظٍ؛ وذلك لأنَّ الغلبةَ تدلُّ على العظمةِ والشِّدَّةِ والتَّمكُّنِ في أصلِ اللُّغةِ[2]، وعليهِ فيكونُ الوعدُ لا للانتصارِ فحسبُ؛ لأنَّ الانتصارَ قد يكون يسيرًا، أو قريبًا من ذلك، أمّا الغلبةُ؛ فهي انتصارٌ عظيمٌ، وهذا إخبارٌ ووعدٌ من اللّه تعالى أنَّ المؤمنين إنِ استعانوا باللّهِ، وصبروا؛ فإنَّهم يغلبون عشرةَ أضعافٍ، وهذا يُقوّي أنَّ الخبرَ مرادٌ به الأمرُ، والمعنى: إن استجبْتُم لأمرِ اللّهِ؛ فأطعتموه؛ فإنَّه يجعلُكم غالبين على أعدائِكم، كما أنَّهُ ليس المطلوبُ بالغلبةِ على الأعداءِ قتلَهم وإبادتَهم، كما يظنُّ ذلك ضَعَفةُ العقولِ والقلوبِ، بل المرادُ الغلبةُ ثم هدايةُ المغلوبين لإنقاذِهم من عذابِ الدُّنيا والآخرةِ.

غلبةُ المؤمنين لأعدائِهم تمكُّنٌ وقوَّةٌ يُرادُ منها هدايةُ الخلقِ

غرَضُ العَطْفِ:

عُطِفَ قولُه تعالى: ﴿وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ يَغْلِبُوٓاْ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ على السّابق لأداءِ غرضٍ بيانيٍّ، وهو زيادةُ التَّقريرِ، وتحقيقُ الاطمئنان لدى المخاطَبين، على أنَّهُ قد يجري بين الجمْعَيْنِ

الإيماءُ إلى أنَّ خرقَ السُّننِ الاجتماعيَّةِ لا يصدُرُ إلّا عن خبيرٍ عليمٍ

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 15/157.
(2) الجوهريّ، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (غلب).

القليلَيْنِ ما لا يجري بين الجمعينِ الكثيرَيْنِ، مع التَّفاوتِ بينهما على نسبةٍ واحدةٍ، فبيَّنَ أنَّ ذلك لا يتفاوتُ في الصّورتيْن[1]، فغرضُ العطفِ دفعُ أيِّ احتمالٍ يجري في الذِّهن والتَّجربة من أنَّ ما يتحقَّقُ في الجمعِ اليسير قد لا يتحقَّق في الجمعِ الكثير، ففيه إيماءٌ إلى وعدٍ كريمٍ هو من قبيل خرقِ السُّننِ الاجتماعيَّةِ الَّتي لا تكونُ إلّا بقدرةِ حكيمٍ عليمٍ.

توجيهُ القراءاتِ القرآنيَّةِ:

التَّأنيثُ اللَّفظيُّ والتَّذكيرُ المعنويُّ لا يتعارَضان بل يتعاضَدان

في قولِه تعالى: ﴿وَإِن يَكُن مِّنكُم﴾ قراءتانِ، فقد قَرَأ الكوفيّونَ، والبَصْريّانِ بالياءِ على التَّذْكيرِ، وقَرَأ الباقونَ بالتّاءِ على التَّأْنيثِ[2]، "فَمن أنَّثَ فلتأنيثِ المئةِ، ومن ذكَّرَ فلِأنَّ المئةَ وقعت على عددٍ مُذَكَّرٍ، وأُخْرَى وهي: أنّه لمّا حُجِز بَين الاسْم والفِعْل بحاجزٍ؛ ذكَّرَ الفِعْل؛ لِأنَّ الحاجزَ صارَ كالعوضِ منه"[3].

بلاغةُ الاحتباكِ بين الجُملتينِ الشَّرطيَّتينِ:

إرشادُ القليل إلى الصَّبرِ إلهابٌ لهم، وتحفيزُهم بالغَلَبَة تنشيطٌ لهُم

في قولِه تعالى: ﴿وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ يَغْلِبُوٓاْ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ زيادةُ الاسمِ الموصولِ ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ على الجملةِ السّابقةِ، وفي الجملةِ السّابقةِ ﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُواْ مِاْئَتَيْنِۚ﴾ زيادةُ نعتِ المؤمنين بقولِه: ﴿صَٰبِرُونَ﴾، فيُستدلُّ من كلِّ جملةٍ على المحذوف في الأخرى، فيكونُ تقديرُ الجملتيْن: إنْ يكن منكم عشرونَ صابرونَ؛ يغلبوا مئةً من الذين كفروا، وإن يكنْ منكم مئةٌ صابرةٌ؛ يغلبوا ألفًا من الذين كفروا، وهذا احتباكٌ بديعٌ، يقول أبو حيّان: فانظر إلى فصاحةِ هذا الكلامِ حيثُ أثبتَ قيدًا من الجملةِ الأولى، وحذفَ نظيرَهُ من الثّانية، وأثبتَ قيدًا في الثّانية،

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/111 - 112.
(2) ابن الجزريّ، النّشر: 2/277.
(3) ابن زنجلة، حجّة القراءات، ص: 313.

وحذفه من الأولى، ولمّا كان الصَّبرُ شديدَ المطلوبيَّةِ؛ أثبتهُ في أولى جملتي التَّخفيف، وحذفَهُ من الثّانيةِ لدلالة السّابقةِ عليه[1].

معنى ﴿مِّنَ﴾ ودلالتُها:

و﴿مِّنَ﴾ في قولهِ: ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ بيانيَّةٌ حيثُ بيَّنتِ المرادَ بعددِ الألفِ[2].

نكتةُ التَّعريفِ بالاسمِ الموصولِ:

التَّعريفُ بالاسمِ الموصولِ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ مع جملةِ صلتهِ ﴿كَفَرُواْ﴾ في قولِه تعالى: ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ إيماءٌ لما سيأتي من وصفهم بأنَّهم لا يفقهون[3]، حيثُ كان تعليلُ كفرِهم بكونِهم لا يفقهون، فهناك تلازمٌ بين الكفرِ وعدم الفقهِ، وليس المقصودُ بالفقهِ هاهنا مطلقَ الفهمِ، بل ما يخصُّ العقلَ والحكمةَ في فهم المطلوبِ من العبادِ، أن يعملوه لدارِ المعاد.

التَّلازمُ بين الكفرِ وعدمِ الفقهِ في الدّينِ مؤدّاهُ الهزيمةُ والخسارةُ

حكمةُ اختيارِ هذه الأعدادِ في الآيةِ الكريمةِ:

سألَ بعضُ المفسِّرين عن اختيارِ هذه الأعدادِ، وهي العشرونَ في مقابل المئتين، والمئةُ في مقابلِ الألفِ، مع أنَّ "حاصلَه وُجوبُ ثَباتِ الواحِد في مُقابَلَةِ العَشَرَةِ، فما الفائِدَةُ في العُدولِ عَنْ هذه اللَّفْظَةِ الوَجيزَةِ إلى تِلْكَ الكَلِماتِ الطَّويلَةِ؟ وجَوابُهُ: أنَّ هذا الكَلامَ إنَّما ورَدَ على وفْقِ الواقِعَةِ، وكانَ رَسولُ اللّه يَبْعَثُ السَّرايا، والغالِبُ أنَّ تِلْكَ السَّرايا ما كانَ يَنْتَقِصُ عَدَدُها عَنِ العِشْرينَ، وما كانَتْ تَزيدُ على المئةِ، فلِهذا المعنى ذَكَرَ اللّه هَذَيْنِ العددين"[4]، ويُقوّي هذا الوجهَ أنَّ حكمَ الآيةِ قد خُفِّف فيما بعدُ، فيكون اختيارُ هذه الأعداد لمناسبةٍ واقعيَّةٍ من شأنِها تربيةُ الجيلِ المسلم في ذلك الوقتِ بما يتناسبُ مع وضعه الذي يعيشُ.

تربيةُ القرآنِ للمؤمنين يُحقِّقُ غاياتِ الدَّعوةِ وأهدافَ المرحلةِ

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/349.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 10/45.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/68.
(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 15/158.

دلالةُ الباءِ السَّببيَّةِ:

الباءُ في قولهِ تعالى: ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ سببيَّةٌ، كأنَّه قال: إنَّهم قومٌ مغلوبون؛ لأنَّهم لا يفقهون، ومعنى ذلك: أنَّه بسببِ أنَّهم قومٌ جهلةٌ باللّه تعالى وباليوم الآخرِ لا يقاتلونَ احتسابًا وامتثالًا لأمرِ اللّه تعالى وإعلاءً لكلمتهِ وابتغاءً لرضوانه، كما يفعلُ المؤمنونَ، وإنَّما يقاتلونَ للحميَّةِ الجاهليَّةِ واتِّباع خطواتِ الشَّيطانِ، وإثارة ثائرةِ البغي والعدوانِ، فلا يستحقّونَ إلّا القهرَ والعدوانَ[1].

الفقهُ المعتبرُ هو الَّذي يقودُ صاحبَهُ إلى النَّجاةِ في الدّارين

وَتَقْريرُ هذا الكَلامِ مِن وُجوهٍ:

الوَجْهُ الأوَّلُ: أنَّ مَنْ لا يُؤْمِنُ باللّه، ولا يُؤْمِنُ بالمَعادِ، فإنَّ غايَةَ السَّعادَةِ والبَهْجَةِ عندهُ لَيْسَتْ إلّا هذه الحَياةَ الدُّنْيَويَّةَ، ومَنْ كانَ هذا مُعْتَقَدَهُ؛ فإنَّهُ يَشِحُّ بهذه الحَياةِ، ولا يُعَرِّضُها لِلزَّوالِ، أمّا مَنِ اعْتَقَدَ أنَّهُ لا سَعادَةَ في هذه الحَياةِ، وأنَّ السَّعادَةَ لا تَحْصُلُ إلّا في الدّارِ الآخِرَةِ، فإنَّهُ لا يُبالي بهذه الحَياةِ الدُّنْيا، ولا يَلْتَفِتُ إلَيْها، ولا يُقيمُ لَها وزْنًا، فيُقْدِمُ على الجِهادِ بقَلْبٍ قَويٍّ وعَزْمٍ صَحيحٍ، ومَتَى كانَ الأمْرُ كَذلك؛ كانَ الواحِدُ مِن هذا البابِ يُقاوِمُ العَدَدَ الكَثيرَ مِنَ البابِ الأوَّلِ.

العبرةُ بفقهِ المآلاتِ لا بتحقيقِ الشَّهواتِ

الوَجْهُ الثّاني: أنَّ الكُفّارَ إنَّما يُعَوِّلونَ على قوَّتِهم وشَوْكَتِهم، والمُسْلِمونَ يَسْتَعينونَ برَبِّهم بالدُّعاءِ والتَّضَرُّعِ، ومَنْ كانَ كَذلك؛ كانَ النَّصْرُ والظَّفَرُ به أَلْيَقَ وأولَى.

الوَجْهُ الثّالِثُ: وهو أنَّ كُلَّ قَلْبٍ اخْتَصَّ بالعِلْمِ والمَعْرِفَةِ؛ كانَ صاحِبُهُ مَهيبًا عند الخَلْقِ، وما ذاكَ إلّا أنَّ الآدَميَّ بسَبَبِ ما فيهِ مِن نورِ العَقْلِ يَكونُ مَهيبًا، ورُبَّما قَوِيَ عند ظُهورِ التَّجَلّي في قَلْبه على أعْمالٍ يَعْجِزُ عَنْها قَبْلَ ذلك الوَقْتِ[2].

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 10/45.

(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 10/158.

بلاغةُ الاستئنافِ:

الاستئنافُ مقوٍّ للنَّسخِ ومبيِّنٌ للبدل

جملةُ: ﴿ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا﴾ منفصلةٌ عن الجملةِ السّابقةِ على الاستئنافِ النَّحوي، وهو ما يؤيِّدُ القولَ بوقوع النَّسخِ فيها، وهو رأيُ جمهورِ العلماءِ، ولم يخالفْ في ذلك إلّا نفرٌ قليلٌ، وفيها نسخٌ إلى حكم أقلَّ؛ تخفيفًا على المؤمنين، فبين النّاسخِ والمنسوخِ تراخٍ زمنيٌّ، والاستئنافُ أنشأ حكمًا جديدًا، هو مرتبطٌ بالحكمِ السّابقِ من حيثُ الكلُّ، وجديدٌ من حيثُ التَّفصيلُ.

معنى ﴿ٱلْـَٔـٰنَ﴾:

ظرفٌ زمانيٌّ فاصلٌ بينَ مرحلَتَيْنِ

﴿ٱلْـَٔـٰنَ﴾: اسمُ ظرفٍ للزَّمانِ الحاضرِ، قيل: أصلُهُ: أوانٌ بمعنى زمانٍ، ولمّا أُريد تعيينُهُ للزَّمانِ الحاضرِ لازمته لامُ التَّعريفِ بمعنى العهدِ الحضوريِّ، فصارَ مع اللّام كلمةً واحدةً، ولزمَهُ النَّصبُ على الظَّرفيَّةِ، والوقتُ المستحضرُ بقولِه: ﴿ٱلْـَٔـٰنَ﴾ هو زمنُ نزولِها، وهو الوقتُ الَّذي علمَ اللّهُ عنده انتهاءَ الحاجةِ إلى ثباتِ الواحدِ من المسلمينَ للعشرةِ من المشركين، بحيثُ صارتِ المصلحةُ في ثباتِ الواحد لاثنين، لا أكثرَ، رفقًا بالمسلمين واستبقاءً لعددهم[1].

نكتةُ التَّعبيرِ بالتَّخفيفِ:

التَّخفيفُ دليلُ الرَّحمةِ الممزوجةِ بإرادةِ التَّربيةِ

أضفى التَّعبيرُ بمفردةِ ﴿خَفَّفَ﴾ في قولِه تعالى: ﴿ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ﴾ ما يحملُهُ مِنَ السُّرورِ والبهجةِ في قلوبِ المؤمنين، بعد أن ثقُلتْ عليهم مواجهةُ الأعداءِ بعُشرِ العددِ، وأشار استعمالُ هذه المفردةِ إلى ما يُقابِلُها من معنى الثِّقَل المستكنِّ في الحكم السّابقِ، وغايةُ التَّخفيف بعد إثقالِ الحكم على المؤمنين، تبليغُهم درجاتِ الرِّضا والطّاعة، ونزعُ فتيل المعصيةِ والاعتراضِ من القلوب، فدلالةُ هذه المفردة في هذا السّياق دلالةٌ نفسيَّةٌ أتَتْ على الضِّدَّين من التَّخفيفِ بعد الثِّقل، والمؤمنون في الحالين في درجاتِ الرِّضا آمنونَ.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/69.

سرُّ تقديمِ فعلِ ﴿خَفَّفَ﴾ على لفظ الجلالةِ:

قُدِّمَ فعلُ ﴿خَفَّفَ﴾ على الفاعلِ لفظِ الجلالةِ في قولِه تعالى: ﴿ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ﴾؛ لبيانِ العنايةِ بالحكمِ اللّاحقِ، وللمسارعةِ بالتَّبشيرِ، فإنَّ إخبارَ المخاطَبين بالحكمِ الجديدِ فيهِ بشارةٌ، فحسُن تقديمُها، وهو ما يُشير إلى أنَّ المؤمنين كانوا متشوِّقين إلى نزولِ مثل هذا الحكمِ، وهو ما يُصوِّر فرحتَهم بأمرين؛ بالتَّخفيف عنهم، وبأنَّهم قد فازوا برضوانِ اللّهِ عندما كلَّفهم أن يقاتلَ الواحدُ منهم عشرةً من الكافرين.

ظَفِرَ المؤمنونَ بالفوزِ برضوانِ اللهِ عندَ التَّكليفِ وعندَ التَّخفيفِ

دلالةُ بناءِ الفعلِ للفاعلِ:

بُنِي الفعلُ للفاعلِ في قولِه تعالى: ﴿خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ﴾ دونَ البناءِ للمفعولِ، فلم يقل: (خُفِّفَ عنكم)، وذلك لأنَّ التَّصريحَ بالاسمِ الجليلِ يورِّثُ في قلوبِ المؤمنين مزيدَ الرَّحمةِ، فاللّهُ سبحانه هو الَّذي أراد التَّخفيفَ، والنَّصُّ على الفاعلِ مرادٌ في هذا السّياق، فهو معلومٌ بداهةً، لكنَّ التَّصريحَ به يُرادُ منه استشعارُ العنايةِ والرِّعايةِ تصريحًا لا تلويحًا، وعبارةً لا إشارةً.

معرفةُ عنايةِ اللهِ تعالى بعبادِه بالتَّصريحِ تورِّثُ الطُّمأنينةَ والسَّكينةَ

معنى الواوِ ودلالتُها:

الواوُ في قولِه تعالى: ﴿وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا﴾ واو الحال، والجملةُ منصوبةٌ على الحاليَّة، أي: خفَّفَ عنكم، والحالُ أنَّه يعلم ضعفَكم، وحملُ الواوِ على العطف قد يوردُ فهمًا غيرَ مرادٍ من أن يكون علمُهُ تعالى حادثًا بعد حصول ضعفِهم مع أنَّ ضعفَهم متحقِّقٌ[1]، والمصدرُ المؤوَّلُ من أنَّ واسمِها وخبرِها سدَّ مسدَّ مفعولَيْ ﴿وَعَلِمَ﴾[2].

تخفيفُ اللهِ عن عبادِه تربيةٌ تدريجيَّةٌ لتحقيقِ رضاه

بلاغةُ الإطنابِ:

عدلَ النَّظْمُ عن أن يُقالَ: (وعَلِمَ ضَعْفَكُم) مع إيجازِه اللَّفظيِّ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/70.

(2) درويش، إعراب القرآن الكريم وبيانه: 3/168.

ضعفُ المؤمنينَ طارئٌ لا أصيلٌ، وهو مقيَّدٌ بقتالِ الواحدِ للعشرةِ

إلى ما جاءَ عليه النَّظمُ الكريمُ ﴿وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا﴾، وذلك لدفعِ التُّهمةِ عن المؤمنينَ، فلو قال: (وعلمَ ضَعفَكم) لظُنَّ أنَّ الضَّعفَ أصيلٌ فيهم، ولظُنَّ أنَّ ضعفَهم عامٌّ يشملُ أبدانَهم وقدرتَهم على القتالِ وإيمانَهم، فإنَّ الضَّعفَ "قد يكونُ في النَّفسِ وفي البدن وفي الحال"[1]، فلمّا قال: ﴿وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا﴾ عُلِمَ أنَّ الضَّعفَ المرادَ مقيَّدٌ بضعفِ قتالِ الواحدِ للعشرةِ المأخوذ من السّياق، وهو ضعفٌ طارئٌ لا أصيلٌ، وهو الأوفقُ بمقامِ خطابِ المؤمنين الذين جاهدوا في سبيل اللّهِ آخذين بالعزيمةِ، فإنَّ جزاءَ المحسنِ الإحسانُ إليهِ، وهذا ما دلَّ عليه النَّظمُ البديعُ.

نكتةُ تقديمِ الجارِّ والمجرورِ على اسم ﴿أَنَّ﴾:

قُدِّم الجارُّ والمجرورُ في قولِه تعالى: ﴿وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا﴾ على المبتدأ؛ للعنايةِ بهم والاهتمام بشأنِهم، فما كان هذا التَّخفيفُ في الحكمِ إلّا رحمةً بهم، فهم المقصودونَ بهذهِ الرُّخصةِ وهذا التَّخفيفِ.

غرضُ تنكيرِ ﴿ضَعْفًا﴾:

التَّنكيرُ محمولٌ على التَّنويعِ لا التَّعظيمِ

تنكيرُ لفظِ ﴿ضَعْفًا﴾ إمّا أن يُحملَ على التَّنويعِ، وهو ضعفُ الرَّهبةِ من لقاءِ العدد الكثير في قلَّةٍ[2]، وإمّا أن يُحملَ على معنى التَّكثيرِ أو التَّعظيمِ باعتبارِ كثرةِ الضُّعفاءِ أو عظمةِ البلاء،

والصَّحيحُ أنَّ غرضَ التَّنكيرِ محمولٌ على التَّنويع، والمرادُ به هنا ما أفصحَ عنهُ السّياقُ من ضعفِ لقاءِ الأعداءِ في حالِ أنَّهم عشرةُ أضعافِ المؤمنين.

سرُّ التَّعبيرِ بمفردةِ ﴿ضَعْفًا﴾:

اجتماعُ المَدحِ بما يُشبهُ الذَّمَّ والتَّعريضَ بالآخرين

لسائلٍ أنْ يسألَ عن سرِّ وصفِ المؤمنين بالضَّعفِ؟ وهل يوصَف بمن يواجهُ عشرةَ أضعافِه بالضَّعفِ؟ فعند تدبُّرِ ما أصابَ المؤمنينَ

(1) الرّاغب، المفردات، ص: 222.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/70.

لا يجدُهُ ضعفًا بشريًّا اعتياديًّا، بل هو ضعفٌ نادرُ الحدوثِ بين البشرِ، ولو نُظِرَ إليهِ من جانبِ الاعتيادِ، فليس ضعفًا؛ فيُسألُ عن سرِّ ذلك الوصفِ؟

والجوابُ: أنَّ هذا الوصفَ هو من قبيلِ المدحِ بما يُشبهُ الذَّمَّ؛ فلا تجدُ أحدًا يصفُ شخصًا لا يُجابهُ عشرةَ أضعافِه بالضَّعيفِ، فباتَ هذا الوصفُ مدحًا للمؤمنين عند المقارنةِ بغيرِهم ممَّن يضعفُ عن مجابهةِ الاثنين والثَّلاثة، وهذا من أدقِّ مسالك المَدْحِ بما يُشبه الذَّمَّ، وفيه تعريضٌ بغيرِهم ممَّن يضعفُ عن القليلِ من المؤمنين، وممَّن اشتكى من أقلَّ من ذلك، وفيه تنبيهٌ لعمومِ المؤمنين في قابلِ الأيّامِ، بأنَّ اللّٰه تعالى لم يُكلِّفْهم ما كلَّف المؤمنين في بدايةِ الجهادِ.

توجيهُ القراءاتِ القرآنيَّةِ في قولِه: ﴿ضَعْفًا﴾:

تخفيفُ الأحكامِ يَلحقُ بعمومِ الأمَّةِ وأفرادِها

قرأ عاصمٌ وحمزةُ وخلفٌ بفتح الضّاد: ﴿ضَعْفًا﴾، وقرأ أبو جعفرٍ بضمِّ الضّادِ وفتح العيْنِ والفاء وبعدها ألفٌ، وبعد الألفِ همزةٌ مفتوحةٌ غيرُ منوَّنةٍ ﴿ضُعَفَآءَ﴾، وقرأ الباقون بضمِّ الضّادِ ﴿ضُعْفًا﴾[1].

وتوجيهُ تلك القراءاتِ: أنَّ (الضَّعف) و(الضُّعف) لغتانِ من لغاتِ العربِ، وليس كما قيلَ بالتَّفرقةِ بينهما بأنَّ لغةَ الضَّمِّ تفيدُ ضعفَ البدنِ، ولغةُ الفتحِ تفيدُ ضعفَ الرَّأي والعقل[2]، وعلى قراءةِ ﴿ضُعَفَآءُ﴾ يكونُ المعنى: أنَّ علَّةَ التَّخفيفِ هي وجودُ الضُّعفاء المحَدَّدين المعروفين بينكم، وليس المقصودُ حالةَ الضَّعفِ عمومًا.

والقراءتانِ بينهما تكاملٌ عجيبٌ، فقراءةُ الجمهورِ تُسلِّط الضَّوء على وجود الضَّعفِ، بينما قراءةُ ﴿ضُعَفَآءُ﴾ فهي تُشير إلى وجودِ بعض الضُّعفاء بينهم، وأنَّه لأولئك كان التَّخفيفُ، فقراءةٌ تناولتِ الضَّعفَ بمفهومِه العامِّ، وقراءةٌ أشارت إلى وجودِ بعض الضُّعفاءِ.

(1) ابن الجزريّ، النّشر: 2/277.

(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز، ص: 816، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/71.

معنى الفاءِ:

الفاءُ في قوله تعالى: ﴿فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ صَابِرَةٌ﴾ تفريعيَّةٌ، فهي تفريعُ ما بعدَها على ما قبلَها، فإنَّ التَّخفيفَ يقتضي بيانَ مآلِ الحكمِ بعد تخفيفِه، وتوضيحَ ما لَحِقَهُ من تفصيلٍ.

غرضُ استعمالِ (إنْ) دون (إذا):

تحفيزُ المؤمنين على الصَّبرِ لبلوغِ النَّصرِ

إيثارُ استعمالِ (إنْ) دون غيرِها من أدواتِ الشَّرطِ في قوله تعالى: ﴿فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ صَابِرَةٌ﴾؛ لبيانِ أنَّ قدرةَ المؤمنين متفاوتةٌ في تحقيق الالتزامِ بالصَّبرِ، فليس المؤمنونَ على درجةٍ واحدةٍ في الصَّبرِ على الشَّدائدِ، فكان استعمالُها يُفيدُ إلهابًا وتحفيزًا للمخاطَبين على الصَّبرِ، كأنَّه قال: إن صبرْتُم وأخذتم بالأسبابِ المعنويَّةِ والماديَّةِ، فإنَّ مئةً تغلبُ مئتينِ، وإن كانتِ الأخرى من عدمِ الصَّبرِ، فالأخرى من عدمِ النَّصرِ.

نكتةُ التَّعبيرِ بالفعلِ المضارعِ:

شأنُ الأحكامِ النَّاسخةِ الاستمرارُ والتَّجدُّدُ في حياةِ الأمَّةِ

الجملتانِ المتفرِّعتانِ بعد (إنْ) في قولِه تعالى: ﴿فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُواْ مِاْئَتَيْنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓاْ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِۗ﴾ شرطيّتانِ، وفعلا الشَّرطِ وجوابُهما أتيا على صيغة الفعليَّةِ للدَّلالةِ على التَّجدُّدِ الاستمراريِّ؛ لأنَّ هذا الحكمَ باقٍ غيرُ منسوخٍ، وقد يدلُّ على استحضارِ الصّورةِ أيضًا، ولا مانعَ من تعدُّدِ الأغراضِ البيانيَّةِ، فإنَّ النِّكاتِ لا تتزاحمُ.

تَوجيهُ القِراءاتِ القُرآنيَّةِ:

قرأ عاصمٌ وحمزةُ والكسائيُّ وخلفٌ بياءِ التَّذكيرِ في ﴿يَكُن﴾ في قولِه تعالى: ﴿فَإِن يَكُن مِّنكُم﴾، وقرأ الباقونَ بتاءِ التَّأنيثِ[1]، وهذا كما في الآيةِ الَّتي سبقتها معتمِدٌ على النَّظرِ: أهو إلى ظاهرِ اللَّفظِ أم إلى المعنى؟ أي: إلى اعتبارِ التَّأنيثِ المجازيِّ على معناهُ

(1) ابن الجزريّ، النّشر: 2/277.

أو على لفظهِ، وبناءً - كذلك - على توسُّطِ ﴿مِّنكُم﴾ بين الفعلِ والعددِ ممّا يشكِّلُ فاصلًا بين الفعلِ والعددِ، وعلى القراءتين فاللَّفظُ والمعنى معتبران.

معنى حرفِ (من):

المطلوبُ من الأمَّةِ إعدادُ فئاتٍ من المؤمنينَ للقتالِ والمغالبةِ

تحتملُ (من) في قولِه: ﴿فَإِن يَكُن مِّنكُم﴾ أن تكونَ للتَّبعيضِ، ومعناه: استعدّوا وتجهَّزوا؛ ليكونَ منكم من يكونُ أهلًا لقتالِ الكافرين، فيصبرُ عندَ المغالبةِ، وتحتملُ أن تكونَ للبيانِ، ومعناهُ: كونوا مستعدّينَ للقتالِ، واصبروا، والتَّبعيضُ أسعدُ دلالةً من البيانِ، فإنَّ عمومَ النُّصوصِ القرآنيَّةِ والمقاصدِ الشَّرعيَّةِ تدلُّ على هذا المعنى.

غرضُ تَكرارِ المعنى الواحدِ مرَّتين قبلَ التَّخفيفِ وبعده:

الدَّلالةُ على أنَّ الحالَ واحدةٌ لا تتفاوتُ

يقولُ الزَّمخشريُّ: "فإن قلت: لِمَ كرَّرَ المعنى الواحدَ، وهو مقاومةُ الجماعةِ لأكثرَ منها مرَّتين قبل التَّخفيف وبعده؟ قلتُ: للدَّلالة على أنَّ الحالَ مع القلَّةِ والكثرةِ واحدةٌ لا تتفاوتُ؛ لأنَّ الحالَ قد تتفاوتُ بين مقاومة العشرين المئتينِ والمئةِ الألفَ، وكذلك بين مقاومة المئةِ المئتينِ والألفِ الألفين"[1].

بلاغةُ الاحتباكِ:

المذكوراتُ في بابِ الاحتباكِ أولى من المحذوفاتِ مع إغناءِ كلِّ مذكورٍ عن المحذوفِ

في قولِه تعالى: ﴿فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُواْ مِاْئَتَيْنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓاْ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِۗ﴾ احتباكٌ؛ فقد وُصِفَ قولُهُ تعالى: ﴿مِّاْئَةٌ﴾ بالصَّبرِ، ولم يوصفْ قولُهُ: ﴿أَلْفٌ﴾ بذلك، كما أنَّه قُيِّدَ قولُهُ تعالى: ﴿يَغْلِبُوٓاْ أَلْفَيْنِ﴾ بقيدِ ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِۗ﴾، ولم يُقيَّدْ قولُهُ تعالى: ﴿يَغْلِبُواْ مِاْئَتَيْنِۚ﴾ بذلك، فتقديرُ الاحتباكِ: فإن يكنْ منكم مئةٌ صابرةٌ؛ يغلبوا مئتينِ بإذنِ اللهِ، وإن يكن منكم ألفٌ صابرةٌ؛ يغلبوا ألفين بإذنِ اللهِ، وسرُّ ذلك أنَّ التَّنويهَ بالصَّبرِ في حقِّ المئةِ

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/223.

أشدُّ احتياجًا، كما أنَّ الغلبةَ على الألفين أحوجُ إلى قيدِ ﴿بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ﴾، فذكرَ لكلِّ لفظٍ ما هو أولى اعتناءً من الآخرِ؛ للتَّنبيه على أهمّيَّتِه، مع إغناءِ كلٍّ مذكورٍ عن المحذوفِ.

براعةُ استعمالِ قيدِ: ﴿بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ﴾ ذكرًا وحذفًا:

التَّنبيهُ بذكرِ القيدِ لدفعِ الأوهامِ وحذفُهُ لمعرفتِهِ ضرورةً

معنى قولِه: ﴿بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ﴾ أي: بأمرِه، ويجوزُ أن يُرادَ به الأمرُ التَّكوينيُّ باعتبارِ صورة الخبرِ والوعدِ، ويجوزُ أن يُرادَ به الأمرُ التَّكليفيُّ باعتبارِ ما تضمَّنَهُ الخبرُ من الأمرِ[1]، والباءُ يمكن أن تكونَ سببيَّةً، فهذا التَّخفيفُ ما كان إلّا بسببِ هذا الإذنِ، وشبهُ الجملةِ (الجارُّ والمجرورُ) في موقعِ الحالِ من ضميرِ ﴿يَغۡلِبُوٓاْ﴾، وصرَّحَ بالإذنِ هنا دونَ الآيةِ المنسوخةِ مع أنَّ كليهما مرهونٌ بإذنِ اللّه؛ لأنَّ غُلْبَ الواحدِ للعشرةِ أظهرُ في الخرقِ للعادةِ، فيُعلم بدءًا أنَّهُ بإذنِ اللّه، وأمّا غُلْبُ الواحدِ الاثنين، فقد يُحسبُ ناشئًا عن قوَّةِ أجسادِ المسلمين، فنبَّهَ على أنَّهُ بإذنِ اللّه ليُعلمَ أنَّهُ مضطردٌ في سائرِ الأحوالِ[2].

معنى الواوِ ودلالته:

دلالةُ حرفِ الواوِ بين الاعتراضِ والحالِ

الواوُ في قولِه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ إمّا أن تكونَ اعتراضيَّةً تذييليَّةً لتقريرِ مضمون ما قبلها[3]، وإمّا أن تكونَ الواوُ حاليَّةً، ويصيرُ المعنى: تحصل لكم الغلبةُ بهذه الكيفيَّةِ بإذنِ اللّه والحالُ في هذا كلِّه أنَّ اللّه مع الصّابرين.

نكتةُ إظْهارِ ما حقُّهُ الإضمارُ:

جرَيانُ الجملةِ مجرى المثلِ السّائرِ

أُظْهِرَ الاسمُ الجليلُ في قولِه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ ولم يقل: (وهو مع الصّابرين) مع تقدُّمِ ذكرِه في قولِه: ﴿بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ﴾؛ للنَّصِّ على حضورِ هيبةِ الجلالِ والجمالِ المُكتنزة في الاسم الجليل، ولمكافأة الصّابرينَ بالتَّصريحِ باسم اللّهِ تعالى في معيَّتِهم، ولإقامةِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/71.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/72.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/112.

الجملةِ: ﴿وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ مُقامَ الاستقلالِ، فتجري مثلًا سائرًا على الألسُنِ، بأنَّ اللهَ مع الصّابرين.

معنى المعيَّةِ:

نصرُ اللهِ للمؤمنينَ وتأييدُه لهم بصبرِهم وتحمُّلِهم الشَّدائدَ

المرادُ بالمعيَّةِ معيَّةُ نَصْرِه وتَأْييدِه، ويُشعر حرفُ ﴿مَعَ﴾ في دخولِه على لفظِ ﴿ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ بأصالتِهم من حيثُ إنَّهم المباشرون للصَّبر[1]، ولا شكَّ أنَّ هذه المعيَّةَ من شأنِها أن ترفعَ من قيمةِ فضيلةِ الصَّبرِ، وترفعَ من شأنِ الصّابرين، فهي معيَّةٌ مرتبطةٌ باللهِ تعالى لا بغيره.

توجيهُ قولِه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ على الإنشاءِ:

الأمرُ بالصَّبرِ يأتي بالوعدِ لفاعلِه والوعيدِ لتاركِه

يرى ابنُ عطيَّةَ الأندلسيُّ أنَّ هذهِ الجملةَ الخبريَّةَ ﴿وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ فيها معنى الإنشاءِ؛ لأنَّها تحوي وعدًا وحضًّا على الصَّبرِ، وفيها وعيدٌ لمن لا يصبرُ[2]، فكأنَّ هذهِ الجملةَ الخبريَّةَ قد حَمَلَتْ في منطوقِ حالِها أمرًا بالصَّبر ونهيًا عن تركِه.

بلاغةُ الاحتباكِ الإجماليِّ:

الآياتُ تتكاتفُ ويأخذُ بعضُها بعُرى بعضٍ في بيانِ المعاني والدَّلالاتِ

لم يُتعرَّضْ في قولِه تعالى: ﴿فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُواْ مِاْئَتَيْنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓاْ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ لحالِ الكفرةِ من الخذلان، كما لم يُتعرَّضْ في قوله تعالى: ﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُواْ مِاْئَتَيْنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ يَغْلِبُوٓاْ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ لحالِ المؤمنينَ، مع أنَّ مدارَ الغلبةِ في الصّورتَيْن مجموعُ الأمرين: نصرُ اللهِ المؤمنينَ، وخذلان الكفرةِ اكتفاءً بما ذُكِرَ في كلِّ مقامٍ عمّا تُرِكَ في المقام الآخر[3]، وهذا قريبٌ من الاحتباكِ، لكن على طريقِ الإجمالِ لا التَّفصيلِ.

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/113.
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز، ص: 816.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/112.

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الحسْبُ والكفايةُ:

الحسْبُ مرحلةٌ سابقةٌ للكفايةِ الَّـتـي تـعـني الامتلاءَ بلا مزيدٍ

استعملَ القرآنُ الكريم كلماتٍ مقاربةً لقولِه تعالى: ﴿حَسۡبُكَ ٱللَّهُ﴾ مثل قولِه: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ﴾ في نحو ستَّ عشرةَ مرَّةً، كانت الأولى ورودًا منهنَّ في سورة النِّساءِ في قوله: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ٦﴾ [النساء: 6]، حيثُ جمعت بين هاتيْنِ الكلمتين المتقاربتين، عِلمًا أنَّ سورةَ النِّساء هي - أيضًا - أكثرُ سورةٍ ذُكِرَ فيها (كفى باللّه) حيثُ وردت تسعَ مرّاتٍ.

وكلمة ﴿حَسۡبُكَ﴾ أصلُها مادَّةُ (حسب) تعودُ لأربعِ أصولٍ: الأوَّلُ: العدُّ، تقول: حسِبتُ الشيءَ أحسُبُهُ حسْبًا وحُسبانًا، الثاني: الكفايةُ، تقول: شيءٌ حسابٌ، أي: كافٍ، الثّالث: الحُسبانُ، وهي جمعُ حُسبانةٍ، وهي الوسادةُ الصَّغيرةُ، والرّابعُ: الأحسبُ، وهو الَّذي ابيضَّتْ جلدتُهُ[1]، والمعنى المحوريُّ الَّذي تدورُ حولَهُ هذه الأصولُ هو: جمعُ ما هو منتشرٌ في حيِّزٍ يضمُّهُ حتى يمتلئَ بهِ[2]، ولا شكَّ أنَّ قولَهُ: ﴿حَسۡبُكَ ٱللَّهُ﴾ يدورُ حولَ أصل الكفايةِ، ولم ترد هذه الصّيغةُ في القرآنِ إلّا في موضعين، والموضعانِ في هذه السّورةِ: الأوَّلُ: قولُه: ﴿وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخۡدَعُوكَ فَإِنَّ حَسۡبَكَ ٱللَّهُۚ﴾، والآخرُ: قولُهُ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسۡبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾، وأمّا أصلُ (كفى)؛ فهو يدلُّ على الحَسْبِ الَّذي لا مستزادَ فيهِ[3]، والمعنى المحوريُّ لـ(كفى): بلوغُ الامتلاءِ أو النُّمو إلى الكمال المناسبِ دونَ زيادةٍ[4]، ومعنى ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ١٦٦﴾ [النساء: 166]، أي: اكتفِ باللّه[5]، على تضمينِ

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، ص: 263.
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: 1/426.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة، ص: 929.
(4) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: 4/1904.
(5) الرّاغب، المفردات، ص: 330.

الفعلِ (كفى) فعلَ الأمرِ (اكتفِ)، فيصبحُ مجموعُ اللَّفظِ يُساوي قوَّةَ الفعلين، أي: اكتفِ باللّه كفايةً، وبناءً على ما تقدَّمَ يظهرُ جليًّا أنَّ الحسْبَ يأتي قبل الاكتفاءِ؛ لأنَّ الحسبَ يقومُ على الجمعِ في حيِّز، والاكتفاءُ هو حسْبٌ لا مُستزادَ فيه، وبهذا اختصَّتْ سورةُ الأنفالِ بهذا الحسْبِ الذي جاء مُؤَيَّدًا بنصرِ اللّه وبالمؤمنينَ في الموضعِ الأوَّلِ، وبالمؤمنين في الموضعِ الثّاني، وقد سبقَ هاتيْن الآيتيْنِ في السّورةِ الكريمةِ الأمرُ بالإعدادِ لأعداءِ اللّه بكلِّ أنواعِ القوى الممكنةِ، وهو نوعٌ منَ الجمعِ والإعدادِ يوصلُ إلى حالةِ الامتلاءِ والاكتفاءِ.

الفقهُ والعلمُ:

الفقهُ أخصُّ من العلمِ وأشملُ ويأتي بعد تأمُّلٍ

الفقهُ: هو التَّوصُّلُ إلى علمٍ غائبٍ بعلمٍ شاهدٍ، فهو أخصُّ من العلمِ[1]، والمعنى المحوريُّ الَّذي يدورُ حولَهُ أصلُ (فقه) هو: وصولٌ إلى حقيقةِ باطنِ الشَّيءِ؛ كما يعرفُ الفحلُ حال باطن النّاقة، ومن ذلك: "الفِقْه: العلمُ بالشَّيء وفهمُه" (فهمًا عميقًا مستوعبًا) وقد فقِهَ الشَّيءَ: كأنَّما غاصَ في داخلِه، فأدركَ دقائقَهُ وخفاياهُ[2]. والمعنى المحوريُّ لـ(علم) يقومُ على: الدِّلالةِ والهدايةِ بمرتفع إلى معنى: اتجاهٍ أو طريقٍ أو حدٍّ أو غيرِ ذلك، كما يدلُّ العَلَم في الصَّحراءِ على الاتِّجاهات والطُّرقِ والمواقعِ (وكما يُتَّخَذُ الجبلُ عَلَمًا على مثلِ ذلك)[3]، والعِلمُ اصطلاحًا هو: "إدراكُ الشَّيءِ بحقيقتِه، وذلك ضربانِ: أحدُهما: إدراكُ ذاتِ الشَّيءِ، والثّاني: الحكمُ على الشَّيءِ بوجودِ شيءٍ هو موجودٌ لَهُ، أو نفي شيءٍ هو منفيٌّ عنه[4]".

فالفقهُ: "هو العلمُ بمقتضى الكلام على تأمُّلِه، ولهذا لا يُقال: إنَّ اللّه يفقهُ؛ لأنَّهُ لا يوصف بالتأمُّلِ، ولا يُستعمل إلّا على معنى الكلامِ،

(1) الرّاغب، المفردات، ص: 290.
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: 3/1703.
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: 3/1512.
(4) الرّاغب، المفردات، ص: 258.

ومنهُ قوله: ﴿لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾﴾ [الكهف: 93]"[1]، وممّا يؤيِّدُ هذا الكلامَ ما جاء في سورة (المنافقون): ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُواْ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّواْۗ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٧﴾ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّۚ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾﴾ [المنافقون: 7 - 8] ففي سياقِ القولِ جاء ﴿يَفْقَهُونَ﴾ وفي سياقِ علم حقيقةِ الشَّيءِ جاء ﴿يَعْلَمُونَ﴾، ولذا جاءَ في الآيةِ هنا في سورة الأنفالِ ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾؛ لأنَّ الكفّارَ يقيسون الأمورَ الغائبةَ عنهم كالنَّصرِ والغلبةِ بالأمورِ الحسّيَّةِ المشاهدة كالعَدَد والعُدَد، ولا يدركون حقيقةَ الأشياءِ، ولا يعلمونَ الغيب، فناسبَ هذا كلَّه مجيءُ ﴿يَفْقَهُونَ﴾ هنا دونَ ﴿يَعْلَمُونَ﴾.

الضَّعفُ والوهنُ:

الضَّعفُ يكونُ جِبلّيًّا بخلافِ الوهنِ فيكون جِبلّيًّا وكسبيًّا

الضَّعفُ قد يكونُ في النَّفسِ وفي البدنِ وفي الحالِ، والمعنى المحوريُّ الذي يدورُ حولَهُ الضَّعفُ: هو عدمُ القوَّةِ: ﴿۞ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً﴾ [الروم: 54]، ﴿ٱلْـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًاۚ﴾، ومن ذلك: "الضَّعيفُ الأعمى" وكلُّ ما في القرآنِ من الفعلِ (ضعُف) و(استضعف) ومضارعِه للفاعل والمفعول، وكلمةُ (ضَعْف) بالفتح، والصِّفةُ (ضعيف) وجمعُها (ضِعاف) و(ضُعفاء)، وكذلك صفةُ التَّفضيل (أضعف)، واسم المفعول (مستضعف) وجمعه كلُّ ذلك من الضَّعف: وهو عدمُ القوَّة[2]، بينما يدورُ المعنى المحوريُّ للوهنِ حول: ضعفِ تماسكِ البدنِ أو الشَّيءِ من اشتمالِه على رخاوةٍ ولذهابِ الصَّلابةِ منهُ، كالعظمِ الواهنِ وكالمرأةِ والطّائرِ الذي ذهبت قوَّتُه[3]، والوهنُ

(1) العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 102.
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: 3/1289.
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: 4/2327.

اصطلاحًا: "ضَعْفٌ من حيثُ الخَلْقُ أو الخُلُق[1]"، وقد وردت مرّاتٍ عديدةً في القرآنِ الكريمِ في مثلِ قولهِ تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ۝٤﴾ [مريم: 4] وقوله: ﴿وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِۚ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ۝٤١﴾ [العنكبوت: 41] وقوله في بدايةِ هذهِ السّورةِ: ﴿ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝١٨﴾ [الأنفال: 18].

والفرقُ بينَ اللَّفظتين: أنَّ الضَّعفَ ضدُّ القوَّةِ، وهو من فعلِ اللّٰه تعالى والوهنُ هو أن يفعلَ الإنسانُ فعلَ الضَّعيفِ، وهو قويٌّ قادرٌ، والوهنُ - أيضًا - انكسارُ الحدِّ والخوف ونحوهِ، والضَّعفُ نقصانُ القوَّةِ[2]، وعلى هذا فالوهنُ قد يكونُ كسبيًّا أحيانًا بسبب إهمالِ أسباب القوَّةِ، فيسبِّب ضعفَ البدنِ أو ضعفَ الأمَّةِ، ولكنَّ الآياتِ السّابقةَ استعملت كلمةَ الضَّعفِ للتَّعبيرِ عن حالِ المؤمنين دونَ الوهنِ لبيان أنَّ هذا الضَّعفَ لا مَدْخَلَ لهم فيهِ، وأنَّهُ حالةٌ طبيعيَّةٌ وجبلّيَّةٌ في النُّفوسِ، وليس ناشئًا عن قصورٍ في همَّةِ المؤمنين أو تراخٍ في عزائمِهم، لذا لا تصلحُ كلمةُ الوهنِ أن تؤدّيَ هذا الغرضَ، وتقومَ بهذه المهمَّةِ في هذا الموضعِ الذي جاءت فيهِ.

(1) الرّاغب، المفردات، ص: 416.

(2) العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 132.

﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسۡرَىٰ حَتَّىٰ يُثۡخِنَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنۡيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ٦٧ لَّوۡلَا كِتَٰبٞ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمۡ فِيمَآ أَخَذۡتُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ٦٨ فَكُلُواْ مِمَّا غَنِمۡتُمۡ حَلَٰلٗا طَيِّبٗاۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٦٩﴾ [الأنفال: 67 - 69]

مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قَبْلَها:

رِفْقُ القرآنِ بالمؤمنين بعد غزوةِ بدرٍ مظهرٌ من مظاهرِ تشريعاتِه ورحمتِه

أوضحَ صاحبُ تفسيرِ (التَّحريرِ والتَّنوير) خيرَ إيضاحٍ صلةَ هذهِ الآياتِ بما تقدَّمَها من النّاحيتَيْن: السّياقيَّةِ، والمقاميَّةِ، فقال: "اسْتِئْنافٌ ابْتِدائيٌّ مُناسِبٌ لِما قَبْلَهُ سَواءٌ نَزَلَ بعَقِبه أم تَأَخَّرَ نُزولُهُ عنه، فكانَ مَوْقِعُهُ هُنا بسَبَبِ موالاةِ نُزولِه لِنُزولِ ما قبلَهُ، أو كانَ وضْعُ الآيَةِ هُنا بتَوْقيفٍ خاصٍّ، والمُناسَبَةُ ذِكْرُ بَعْضِ أحْكامِ الجِهادِ، وكانَ أعْظَمُ جِهادٍ مَضَى: هو جِهادُ يَوْمِ بَدْرٍ، فلا جَرَمَ نَزَلَتْ هذه الآيَةُ بَعْدَ قَضيَّةِ فِداءِ أسْرَى بَدْرٍ مُشيرَةً إلَيْها. وعِنْدي أنَّ هذا تَشْريعٌ مُسْتَقْبَلٌ أخَّرَهُ اللّه تعالى رِفْقًا بالمُسْلِمينَ الَّذينَ انْتَصَروا ببَدْرٍ، وإكْرامًا لهم على ذلك النَّصْرِ المُبينِ، وسَدًّا لِخَلَّتِهِمُ الَّتي كانوا فيها، فنَزَلَتْ لِبَيانِ الأمْرِ الأجْدَرِ فيما جَرَى في شَأْنِ الأسْرَى في وقْعَةِ بَدْرٍ"[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَسۡرَىٰ﴾: الأسرُ: الشَّدُّ بالقيْدِ من قولهم: أسَرْتُ القَتَبَ، وسمّي الأسيرُ بذلكِ، ثمَّ قيل لكلِّ مأخوذٍ ومقيَّدٍ؛ وإن لم يكن مشدودًا[2]، وأُسْرةُ الرَّجلِ: مَن يتقوَّى بهِ، والأُسْرُ: احتباسُ البولِ، كالحصْرِ في

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/72.
(2) الرّاغب، المفردات، ص: 17.

احتباسِ الغائطِ لما في ذلك من الشِّدَّة القويَّةِ، ويُجمعُ الأسيرُ على أُسارَى وأسارى؛ ضمًّا وفتحًا، وأسرى، والمشهورُ أنَّه لا فرقَ[1].

2) ﴿يُثۡخِنَ﴾: يقولُ ابنُ فارس: "الثّاءُ والخاء والنّونُ يدلُّ على رزانةِ الشَّيءِ في ثقلٍ، تقول: ثَخُنَ الشَّيءُ ثخانةً، والرَّجلُ الحليمُ الرَّزينُ ثخينٌ[2]"، ومنه استعيرَ أثخنتُهُ ضربًا واستخفافًا[3]، "ومن المجازِ: أثخنَتْهُ الجراحاتُ، وتركه مثخنًا وقيدًا، وأثخنَ في العدوِّ: بالغَ في قتلهِم وغلَّظَ، وأثخنَ في الأرضِ: أكثرَ القتلَ، وأثخنَ في الأمرِ: بالغَ فيهِ، وأثخنتُهُ معرفةً، ورصنتهُ معرفةً؛ إذا قتلتهُ علمًا، وأثخنَهُ قولُهُ: بلغَ منهُ، وامرأةٌ مثخنةٌ: ضخمةٌ، واستثخنَ منّي الإعياءُ، والمرضُ: غلباني، واستثخنَ منّي النَّومُ: غلبني، وفلانٌ رزينٌ ثخينُ الحلمِ، وهو أعزلُ ثخينٌ، ومؤذٍ ثخينٌ[4]"، ولم ترد هذهِ الكلمةُ إلّا في موضعيْنِ من القرآنِ الكريمِ ارتبطا بالقتالِ، هذا الموضعُ، والموضعُ الآخرُ في سورةِ محمد ﷺ: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرۡبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثۡخَنتُمُوهُمۡ فَشُدُّواْ ٱلۡوَثَاقَ فَإِمَّا مَنَّۢا بَعۡدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلۡحَرۡبُ أَوۡزَارَهَاۚ﴾ [محمد ﷺ: 4]، والمقصودُ في الآيةِ: هو المبالغةُ في القتلِ، الذي يلحقُهُ التَّمكُّنُ في الأرضِ.

3) ﴿عَرَضَ ٱلدُّنۡيَا﴾: خُصَّ العُرْضُ بالجانبِ، وأعْرَضَ الشَّيءُ: بدا عُرْضُهُ، وعَرَضْتُ العودَ على الإناءِ، واعْتَرَضَ الشَّيءُ في حلقهِ: وقفَ فيهِ بالعَرْضِ، واعْتَرَضَ الفرسُ في مشيهِ، وفيه عُرْضيَّةٌ، أي: اعْتِراضٌ في مشيهِ من الصُّعوبةِ، وعَرَضْتُ الشَّيءَ على البيعِ، وعلى فلانٍ، ولفلانٍ، والعَرَضُ: ما لا يكونُ له ثباتٌ، ومنهُ استعارَ المتكلِّمون العَرَضَ لما لا ثباتَ لَهُ إلّا بالجوهرِ كاللَّونِ والطَّعمِ، وقيل: الدُّنيا عَرَضٌ حاضرٌ، تنبيهًا أن لا ثبات لها[5]، فالدُّنيا عرضٌ لتغيُّرِ أحوالها، ولكثرةِ خصائصِها الذّاتيَّةِ والعارضة الَّتي تحتاج إلى المتعلِّقين بها والباحثين عنها حتَّى تحلَّ في ذواتِهم وخواطرِهم.

(1) السّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: 1/89.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، ص: 181.
(3) الرّاغب، المفردات: (ثخن).
(4) الزّمخشريّ، أساس البلاغة، ص: 70.
(5) الرّاغب، المفردات: (عرض).

المَعْنى الإجْماليُّ:

الأحـــــداثُ العظيمةُ تربّي الأمّـةَ العظيمةَ وحادثةُ الأسرى بـــــابٌ مـن أبـوابِ التَّربيـةِ الحضاريَّةِ

تُبيِّنُ الآياتُ أنَّه ما استقام لنبيٍّ من الأنبياءِ عليهم الصلاة والسلام أنْ يَكونَ لَهُ أسْرى من أعدائهِ الذين يريدون به وبدعوته شرًّا، حتى يبالغَ في قتلِهم، وإنزالهِ الضَّرباتِ الشَّديدةَ عليهم إذلالًا للكفرِ وإعزازًا لدين الله، تريدون - أيُّها المؤمنون - بأخْذِكم الفداءَ من أعدائِكم الأسرى عرضَ الدُّنيا ومتاعَها الزّائِلَ، وحطامَها الَّذي لا ثباتَ لَهُ، والله تعالى يريدُ لكم ثوابَ الآخرةِ، والله تعالى عَزيزٌ لا يُغالب، بل هو الغالبُ على أمرهِ، حَكيمٌ في كلِّ ما يأمرُ بهِ، أو ينهى عنهُ.

ولولا حكمٌ مِنَ الله تعالى سبقَ منهُ في الأزلِ ألّا يعذِّبَ المخطئَ على اجتهادهِ، أو ألّا يعذِّبَ قومًا قبل تقديمِ البيانِ إليهِم، ولولا كلُّ ذلك لأصابَكم بسببِ ما أخذْتُم مِنَ الفداءِ قبل أن تؤمروا بهِ عَذابٌ عَظيمٌ لا يُقادرُ قدرهُ في شدَّتِه وألمِه، ولقد عفوتُ عنكم - أيُّها المؤمنون - فيما وقعتُم فيهِ من تفضيلِكم أخْذَ الفداءِ من الأسرى على قتلِهم، وأبحْتُ لكم الانتفاعَ بالغنائِم، فكلوا ممّا غنمتُم من أعدائِكم حلالًا لذيذًا هنيئًا لا شبهةَ في أكلهِ ولا ضررَ، واتَّقوا الله في كلِّ أحوالِكم بأن تخشوهُ، وتراقبوهُ، ولذا غفرَ لكم ما فرطَ منكم، وأباحَ لكم ما أخذتموهُ من فداءٍ، وتابَ عليكم توبةً صادقةً[1].

وقد جاء في سببِ نزولِها: ما رواهُ الإمامُ مسلمٌ عن عمرَ بنِ الخطّاب، قال: "فَلَمّا أسَروا الأُسارَى؛ قالَ رَسولُ الله ﷺ لِأبي بَكْرٍ وعُمَرَ: «ما تَرَوْنَ في هَؤُلاءِ الأُسارَى»؟ فقالَ أبو بَكْرٍ: يا نَبيَّ الله! هُم بَنو العَمِّ والعَشيرَةِ، أرَى أنْ تَأْخُذَ منهم فِدْيَةً، فتَكونُ لَنا قوَّةً على الكُفّارِ، فعَسَى الله أنْ يَهْديَهُم لِلْإسْلامِ، فقالَ رَسولُ الله ﷺ: «ما تَرَى يا ابنَ الخَطّابِ»؟ قُلْتُ: لا، والله! ما أرَى الَّذي رَأى

(1) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 6/157 - 160.

أبو بَكْرٍ، ولَكِنّي أرَى أنْ تُمَكِّنّا، فنَضْرِبَ أعْناقَهُم، فتُمَكِّنَ عَليًّا مِن عَقيلٍ، فيَضْرِبَ عُنُقَهُ، وتُمَكِّنّي مِن فُلانٍ (نَسيبًا لِعُمَرَ)، فأضْرِبَ عُنُقَهُ، فإنَّ هَؤُلاءِ أئِمَّةُ الكُفْرِ وصَناديدُها. فهَوِيَ رَسولُ اللّه ﷺ ما قالَ أبو بَكْرٍ، ولَم يَهْوَ ما قُلْتُ، فلَمّا كانَ مِنَ الغَدِ جِئْتُ، فإذا رَسولُ اللّه ﷺ وأبو بَكْرٍ قاعِدَيْنِ يَبْكيانِ، قُلْتُ: يا رَسولَ اللّه! أخْبِرْني مِن أيِّ شَيْءٍ تَبْكي أنْتَ وصاحِبُكَ، فإنْ وجَدْتُ بُكاءً؛ بَكَيْتُ، وإنْ لَم أجِدْ بُكاءً تَباكَيْتُ لِبُكائِكُما، فقالَ رَسولُ اللّه ﷺ: «أبْكي لِلَّذي عَرَضَ عَلَيَّ أصْحابُكَ مِن أخْذِهِمُ الفِداءَ، لَقد عُرِضَ عَلَيَّ عَذابُهُم أدْنَى مِن هذه الشَّجَرَةِ» - شَجَرَةٍ قَريبَةٍ مِن نَبيِّ اللّه ﷺ وأنْزَلَ اللّه ﷻ: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسۡرَىٰ حَتَّىٰ يُثۡخِنَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ إلى قوله: ﴿فَكُلُواْ مِمَّا غَنِمۡتُمۡ حَلَٰلٗا طَيِّبٗاۚ﴾ فأحَلَّ اللّه الغنيمةَ لهم"[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

علَّةُ الفصلِ:

حكمُ الأسرِ تختلفُ أحكامُهُ باختلافِ أحوالِهِ

قولهُ تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسۡرَىٰ حَتَّىٰ يُثۡخِنَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ استئنافٌ نحويٌّ جديد يتعلَّقُ بقضيَّةٍ أخرى من قضايا غزوةِ بدرٍ، يدورُ حولَ حكمِ اتِّخاذ الأسرى، وما جرى في ذاك من أحداثٍ، وقد جاءتْ تفصيلاتُ تلك الحادثةِ في كتبِ السّيرةِ والحديثِ، والاستئنافُ لبيانِ الأسرِ وحكمهِ في الإسلامِ بحسبِ أحوالِه.

نكتةُ استعمالِ أداةِ ﴿مَا﴾:

إفادةُ عمومِ النَّفي في أعمِّ أحوالِ الأسرِ قبلَ الإثخانِ

أداةُ ﴿مَا﴾ في قولِه تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسۡرَىٰ﴾ حرفُ نفيٍ، واستُعمل دونَ غيرِه من أدواتِ النَّفي؛ لبيانِ العموم، وليقوى دخولُهُ على ﴿كَانَ﴾، فيزيدُهُ عمومًا، وهذا من نفي أعمِّ أحوالِ الأسرِ إلّا حالَ الإثخانِ في الأرضِ، وقد دلَّ هذا النَّفيُ سواء

(1) مسلم، الصّحيح، كتاب: الجهاد والسّير، باب: الإمدادِ بالملائِكةِ في غزوةِ بدر، وإباحةِ الغنائِمِ، رقم: (1763).

أكان داخلًا على جملة اسميَّةٍ أم فعليَّةٍ على معنى: أنَّهُ لا يصحُّ أن يكونَ هذا الأمرُ، ولا يتصوَّرُ حصولُهُ بأيِّ حالٍ مِنَ الأحوالِ.

بلاغةُ استعمالِ ﴿كَانَ﴾:

توجيهُ احتمالِ (كان) لأن تكونَ ناقصةً أو تامَّةً

يحتمل أن تكونَ ﴿كَانَ﴾ ناقصةً، واسمُها المصدرُ المؤوَّلُ ﴿أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسۡرَىٰ﴾، وخبرُها مقدَّمٌ عليهِ، وهو ﴿لِنَبِيٍّ﴾، ويحتملُ أن تكونَ تامَّةً، بمعنى: ما صحَّ أو ما استقام، ويكونُ المصدرُ المؤوَّلُ ﴿أَن يَكُونَ﴾، واسمها المؤخَّرُ ﴿أَسۡرَىٰ﴾، وخبرُها المقدَّمُ ﴿لَهُۥٓ﴾ فاعلًا لها، ويتعلَّقُ بها الجارُّ والمجرورُ ﴿لِنَبِيٍّ﴾[1].

وَجْهُ إدخالِ (كان) على لفظِ (يكون)

"كيفَ حسُنَ إدخالُ لفظةِ ﴿كَانَ﴾ على لفظة ﴿يَكُونَ﴾ في هذهِ الآية؟ والجواب: قولهُ: ﴿مَا كَانَ﴾ معناه النَّفيُ والتَّنزيهُ، أي: ما يجبُ وما ينبغي أن يكونَ له المعنى المذكورُ، ونظيره قولُه: ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٖۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓۚ﴾ [مريم: 35]"[2].

اجتماعُ الخبريَّةِ والإنشاءِ في تركيبٍ واحدٍ:

خبرٌ مُشرَبٌ بالإنشاءِ

صيغةُ ﴿مَا كَانَ﴾ قد تأتي خبريَّةً كما هو في هذه الآيةِ، وفيها رائحةُ الإنشاءِ، فمعنى ﴿مَا كَانَ﴾: لا يصلحُ؛ لأنَّ هذا الكلامَ جاء تمهيدًا للعتابِ؛ فتعيَّنَ أن يكونَ مرادًا منه ما لا يصْلُح من حيثُ الرَّأيُ والسّياسةُ، وقد تأتي إنشائيَّةً صريحةً بمعنى النَّهي، كما في قولهِ: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمۡ أَن تُؤۡذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزۡوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦٓ أَبَدًاۚ﴾ [الأحزاب: 53][3].

تعيينُ مقصودِ الخطابِ:

يدخلُ في خطابِ النَّبيِّ خطابُ أصحابه

الخطاب في قولِه تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسۡرَىٰ حَتَّىٰ يُثۡخِنَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ وإن كان ظاهرُه للنَّبيِّ ﷺ إلا أنَّه موجَّهٌ للمسلمين

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 3/169.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 15/164.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/74.

الذين أشاروا عليه بالفداء؛ لأنَّهُ ما فعل رسولُ اللّه إلّا ما أمرهُ اللّه بهِ من مشاورةِ أصحابه، ويكون المعنى العامُّ لها: نفيَ اتِّخاذ الأسرى عن استحقاق نبيٍّ لذلك الكونِ[1].

غرضُ تقديمِ الجارِّ والمجرورِ:

النَّبيُّ هو القُدوةُ في التَّكاليفِ العامَّةِ والفرديَّةِ

الغرضُ البيانيُّ من تقديم قولِه: ﴿لِنَبِيٍّ﴾ وقوله: ﴿لَهُۥٓ﴾ في قولِه تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسۡرَىٰ﴾ هو العنايةُ بالمخاطَبِ ورعايته بهذهِ الآيةِ من ناحيةٍ، والعنايةُ بتنفيذِ الأحكامِ المرادةِ من هذا النَّفي من ناحيةٍ أخرى، فما نُفيَ عن النَّبيِّ ﷺ من شأنِه أن يُنفى عن أتباعهِ ضرورةً، وتنزيلُ الأتباعِ منزلتَهم الحقيقيَّةَ في اتِّباع النَّبيِّ ﷺ أمرًا ولفظًا.

غرضُ تنكيرِ كلمة: ﴿لِنَبِيٍّ﴾:

الإشارةُ إلى قِدَمِ حُكمِ الأسرِ

نُكِّرت كلمةُ (نبيّ) للتَّعميم، إشارةً إلى أنَّ هذا الحكم سابقٌ وقديمٌ في حروب الأنبياء[2]، ولا يختصُّ بنبيِّ هذه الأمَّةِ وحدَها.

توجيهُ القِراءاتِ القرآنيَّةِ:

قرأ أبو عمرٍو وأبو جعفر ويعقوبُ بالتّاء الفوقيَّةِ: ﴿تَكُونَ﴾، وقرأ الباقون بالياء التَّحتيَّةِ ﴿يَكُونَ﴾[3]، فحجَّةُ من أنَّثَ الفعلَ ﴿تَكُونَ﴾ مراعاةً للَّفظ ﴿أَسۡرَىٰ﴾ على تأنيثِها المجازيِّ، وحجَّةُ من ذكَّرَ الفعل ﴿يَكُونَ﴾ تقدُّمُ الفعلِ، وتذكيرُ أسرى، وللفصل بين الفعل والفاعل بتقدُّمِ شبه الجملةِ الجارِّ والمجرورِ[4].

معنى اللّامِ وفائدتُها:

أفادتِ اللّامُ في قولِه تعالى: ﴿لَهُۥٓ أَسۡرَىٰ﴾ معنى الاستحقاقِ، أي: ما كان لنبيٍّ أن يتَّخذ أسرى على وجْه الاستحقاقِ.

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/74.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/74.
(3) ابن الجزريّ، النّشر: 2/277.
(4) ابن زنجلة، حجّة القراءات، ص: 313.

توجيهُ القِراءاتِ القرآنيَّة:

التَّكاملُ الدّلاليُّ بين القراءاتِ المتواترةِ مَهيَع التَّمام

قرأ أبو جعفرٍ بضمِّ همزةِ ﴿أَسْرَىٰٓ﴾ وفتحِ السّينِ وألفٍ بعدَها: ﴿أُسَرَىٰٓ﴾ وهي جمع أسيرٍ، وقرأ الباقون بإسكان السّين من غيرِ ألفٍ: ﴿أَسْرَىٰٓ﴾ وهي جمعُ أسيرٍ أيضًا[1]، فحجَّةُ من قرأ: ﴿أُسَرَىٰٓ﴾ أنَّها جمعُ أسيرٍ، مثل: كسالى، وحجَّةُ من قرأ: ﴿أَسْرَىٰٓ﴾ أنَّها جمعُ مثل مرضى، ويرى ابنُ خالويه أنَّ الحجَّةَ لمن أثبتها، أي: الألف ﴿أُسَرَىٰٓ﴾: أنَّه أرادَ: جمعَ الجمعِ، والحجَّةُ لمن طرحها أنَّه أراد جمعَ أسيرٍ[2]، وهذا الرَّأي أليقُ من التَّفريقِ بين هذيْنِ الجمعيْنِ تفريقًا في المعنى المرادِ من كلٍّ منهما دونَ أن يستندَ إلى دليلٍ راجحٍ.

بلاغةُ الاستعارةِ المكنيَّةِ:

تصويرُ تمكُّنِ النَّبيِّ من الأرضِ دليلُ طلبِ ذلك

الإثْخانُ: الشِّدَّةُ والغِلْظَةُ في الأذَى، يُقالُ: أثْخَنَتْهُ الجراحَةُ، وأثْخَنَهُ المَرَضُ؛ إذا ثَقُلَ عليه، وقد شاعَ إطْلاقُهُ على شِدَّةِ الجراحَةِ على الجَريحِ، وقد حَمَلَهُ بَعْضُ المُفَسِّرينَ في قولِه تعالى: ﴿حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي ٱلْأَرْضِۚ﴾ على معنى الشِّدَّةِ والقوَّةِ، فالمعنى: حَتَّى يَتَمَكَّنَ في الأرْضِ، أيْ: يَتَمَكَّنَ سُلْطانُهُ وأمْرُهُ، وقد عبَّرَ بالإثخانِ لا بالتَّمكُّن لما في اللفظِ من معنًى حسّيٍّ بليغ، فالإثخانُ يُصوِّرُ تمكُّنَ النَّبيِّ وسلطانَهُ في الأرضِ، وفيها استعارةٌ بليغةٌ، حيثُ شبَّهَ الأرضَ بالشَّيءِ الذي يُثخن، على سبيلِ الاستعارةِ المكنيَّةِ.

بلاغةُ الكنايةِ:

تقريرُ المعاني المعنويَّةِ بالألفاظِ الحسيَّةِ أقوى أثرًا ودلالةً

معنى قولِه: ﴿حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي ٱلْأَرْضِۚ﴾: حتَّى يقوى ويشتدَّ ويبالغ ويقهر؛ لأنَّ الملكَ والدولة إنَّما تشتدُّ بالقتل؛ لأنَّ كثرتَهُ توجب قوَّةَ الرُّعب وشدَّةَ المهابة، وذلك يمنعُ من الجراءةِ ومن الإقدام على ما لا ينبغي، فلا مانعَ من حملِها على الكناية عن إدخالِ الرُّعب على قلوبِ الكافرين المناوئين لدينِ الحقِّ، والتَّمكُّنِ في الأرضِ.

(1) ابن الجزريّ، النّشر: 2/277.

(2) ابن خالويه، الحجّة في القراءات السّبع، ص: 173.

بلاغةُ الاستئنافِ البيانيِّ:

عتابُ المقرَّبينَ رِفعةٌ وإهمالُهم معرَّةٌ

قولهُ تعالى: ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنۡيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۗ﴾ استئنافٌ بيانيٌّ مسوقٌ للعتابِ[1]، فالجملةُ تعليلٌ للنَّهي المستفادِ من الجملة السّابقةِ، بتقدير سؤالٍ: لِمَ كان العتابُ على اتِّخاذ الأسرى؟ والخطابُ هنا أيضًا للفريقِ الَّذين أشاروا بأخذِ الفداءِ[2]، عند من يرى أنَّ النَّبيَّ ﷺ غيرُ مشمولٍ بالعتاب، وتقدَّمَ في معاني المفرداتِ أنَّ عرضَ الدُّنيا هو متاعُها الزّائلُ من مالٍ وغيرِه.

براعةُ الخبرِ في تعيينِ الأغراض:

إنكارُ أن يطلبَ المؤمنُ الدُّنيا بأعمالِ الآخرةِ

يرى ابنُ عاشورٍ أنَّ قولَهُ تعالى: ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنۡيَا﴾ قد يكون مستعملًا في معنى الاستفهام الإنكاريِّ، "والمعنى: لَعَلَّكُم تُحِبّونَ عَرَضَ الدُّنْيا، فإنَّ اللّه يُحِبُّ لَكُمُ الثَّوابَ وقوَّةَ الدّينِ؛ لأنَّهُ لَوْ كانَ المَنْظورُ إليه هو النَّفْعَ الدُّنْيَويَّ؛ لَكانَ حِفْظُ أنْفُسِ النّاسِ مُقَدَّمًا على إسعافهم بالمالِ، فلَمّا وجَبَ عليهم بَذْلُ نُفوسِهم في الجِهادِ، فالمعنى: يوشِكُ أنْ تَكونَ حالُكُم كَحالِ مَنْ لا يُحِبُّ إلّا عَرَضَ الدُّنْيا، تَحْذيرًا لهم مِنَ التَّوَغُّلِ في إيثارِ الحُظوظِ العاجِلَةِ"[3].

نكتةُ التَّعبيرِ بصيغةِ الفعلِ المضارِعِ:

بيانُ خطورةِ إرادةِ المخاطَبين إن استمرّوا عليها، ورحمةِ اللهِ بما يُريدُه لعبادِه

آثَرَ النَّظمُ الكريمُ استعمالَ صيغة المضارعِ في قولِه تعالى: ﴿تُرِيدُونَ﴾ وقوله: ﴿يُرِيدُ﴾ لاستحضارِ الإرادتين، وبيانِ خطورةِ إرادةِ المخاطَبين إنِ استمرّوا عليها، وتجدُّدِ حالها فيهم، واشتمالِها على معنى الإنكارِ المستمرِّ، ما دامتِ الإرادةُ متجدِّدةً، وبيانِ رحمةِ اللّهِ تعالى بإرادتهِ المستمرَّةِ في رعايةِ المؤمنين، فهو يُريدُ لهم الدّارَ الآخرةَ، بصرفِ إرادتِهم عن عرضِ الحياةِ الدُّنيا.

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/113.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/75.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/76 - 77.

سرُّ التَّعبيرِ بعرضِ الدُّنيا عن المالِ:

المقصودُ بقولِه: ﴿عَرَضَ ٱلدُّنۡيَا﴾ المالُ، وإنَّما سُمّيَ عَرَضًا؛ لِأنَّ الانْتِفاعَ به قَليلُ اللُّبْثِ، فأشْبَهَ الشَّيْءَ العارِضَ؛ إذِ العُروضُ مُرورُ الشَّيْءِ وعَدَمُ مُكْثِه؛ لِأنَّهُ يَعْرِضُ لِلْماشينَ بدونِ تَهَيُّؤٍ، والمُرادُ عَرَضُ الدُّنْيا المَحْضُ، وهو أخْذُ المالِ لِمُجَرَّدِ التَّمَتُّعِ به، وإنَّما ذُكِرَ معَ الدُّنْيا المُضافُ، ولَم يُحْذَفْ: لِأنَّ في ذِكْرِه إشْعارًا بعُروضِه وسُرْعَةِ زَوالِه[1].

المالُ عارضٌ سريعُ الزَّوالِ لا يلبثُ كثيرًا

بلاغةُ حذفِ الموصوفِ:

ذكرتِ الآيةُ ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنۡيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۗ﴾ صفةَ الدُّنيا والآخرة، ولم تذكرِ الموصوفَ، وهو (الحياة)، وذلك لبيانِ أنَّ إرادتَهم كانتْ متَّجهةً للعاجلةِ، وللإشارةِ إلى أنَّهم كانوا متعجِّلين في قرارِهم بشأنِ الأسرى، كما أنَّ ذكرَ ﴿عَرَضَ﴾ قد أغنى عن ذكرِ الموصوفِ، وحُذِفَ الموصوفُ فيما يتعلَّق بالآخرة؛ للمشاكلةِ، فلمّا اتَّجهتِ الأنظارُ إلى الدُّنيا تعجُّلًا؛ نبَّههم على ضرورةِ التَّعجُّلِ في إرادةِ الآخرةِ.

أثرُ المشاكلةِ في توجيهِ الأنْظارِ لما يَجبُ أنْ تتعجَّلَ فيهِ

بلاغةُ حذفِ المضافِ:

الإرادةُ في قولِه تعالى: ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنۡيَا﴾ بمعنى: المحبَّةِ، أي: تُحبّون منافعَ الدُّنيا، واللّه يحبُّ ثوابَ الآخرة أو عملَها، فحُذف المُضافُ، وأُقيمَ المُضافُ إليهِ مكانَهُ[2] إيجازًا لدلالةِ المقام عليه، وليكونَ الكلامُ أشملَ وأعمَّ، فيدخلُ فيه كلُّ ما يصلحُ أن يكونَ فيه من المنافعِ والمصالحِ ومظانِّ الخيرِ ونحوِه ممّا يحرصُ عليه النّاس.

مسلكُ الإيجازِ أعمُّ دلالةً وأشملُ معنًى

نكتةُ المشاكلةِ في أسلوبِ المقابلةِ:

عبَّرَ بإرادتِه ﷻ مقابلَ إرادتِهم في قولِه تعالى: ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنۡيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۗ﴾ على سبيلِ المشاكلةِ[3]، وفي الجملةِ استعمالٌ

إقناعُ المعاتَبين بدقائقِ الأسلوبِ دليلُ الارتقاءِ بلمحِ الإشاراتِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/76.

(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز، ص: 817.

(3) المشاكلة: هي ذكر الشّيء بلفظ غيره لوقوعه في صحبته، تحقيقًا أو تقديرًا. ينظر: القزوينيّ، تلخيص المفتاح، ص: 178.

لأسلوبِ المقابلةِ بين ما يريدونَهُ، وبين ما يريدُهُ اللّه لهم؛ لبيانِ الفرقِ بين الإرادتين، ولما تُفيدُه المقابلةُ من مزيدِ العتابِ، وهو يدلُّ على أنَّ المخاطَبين المعاتبين يلمحونَ دقائقَ النَّظمِ، ويأخذونَ رقائقَ العتابِ.

نوعا الواوِ ومعناهما:

الواوُ في قولِه: ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۗ﴾ إمّا أن تكونَ عاطفةً للجملةِ على السّابقةِ، وإمّا أن تكونَ للحاليَّةِ على معنى: تريدون متاعَ الدُّنيا، والحالُ أنَّ اللّه يريدُ لكم ثوابَ الآخرة.

الـــــواوُ بـين العطْفِ والحالِ

غرضُ تقديمِ المسندِ إليهِ على المسندِ الفعليِّ:

قُدِّمَ المسندُ إليهِ على المسندِ الفعليِّ في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۗ﴾ يُفيدُ تقويةَ الحكمِ وتوكيدَه على قولٍ، وقد يُفيدُ التَّخصيصَ بالقرائنِ على قولٍ آخرَ، ولا قرينةَ صارفةً هنا إلى التَّخصيص؛ فاللّه تعالى يريدُ لهم ثوابَ الآخرةِ، والنَّبيُّ ﷺ كذلك.

تـوكـيـدُ معنى إرادةِ الـلـهِ للمؤمنينَ الدّارَ الآخرةَ

بلاغةُ التَّذييلِ:

قولُهُ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ معطوفٌ على جملةِ ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۗ﴾ عطفًا يؤذنُ بأنَّ لهذين الوصفيْن أثرًا في أنَّهُ يريدُ الآخرةَ، فيكونُ كالتَّعليل، وهو يفيدُ أنَّ حظَّ الآخرةِ هو الحظُّ الحقُّ ولذلك يريده العزيزُ الحكيمُ[1]، واجتماعُ الوصفين ﴿عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ له دلالةٌ سياقيَّةٌ؛ فصفةُ عزيزٍ تؤذنُ بأنَّهُ يغلِّبُ أولياءَهُ على أعدائِه، وصفةُ حكيمٍ تعني: أنَّه يعلمُ ما يليقُ بكلِّ حالٍ، ويخصِّصه بها، كما أمرَ بالإثخانِ، ونهى عن الفداءِ حين كانت الشَّوكةُ للمسلمين، وخيَّرَ بينه وبين المنِّ بقولِه: ﴿فَإِمَّا مَنَّۢا بَعۡدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلۡحَرۡبُ أَوۡزَارَهَاۚ﴾ [محمد ﷺ: 4] لمّا تحوَّلت الحالُ، وصارت الغلبةُ للمؤمنين[2]، واجتماعُ هذين الوصفين دليلُ إرادتِهما للأمَّةِ، فيجبُ أن يسعى

اجـتـمـاعُ وصـفِ العـزَّةِ والحكمةِ دليـلُ إرادتِـهـما للأمَّةِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/77.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/113.

المؤمنونَ إلى الامتثالِ بخلق العزَّة والحكمة، وأن يكونَ لهما حضورٌ راسخٌ في سلوك الأمَّةِ الحضاريِّ.

فائدةُ الاستئنافِ البيانيِّ:

إظهارُ قوَّةِ إيمانِ المخاطَبين وتقواهم لربِّ العالمين

قوله: ﴿لَّوۡلَا كِتَٰبٞ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمۡ فِيمَآ أَخَذۡتُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾ استئنافٌ بيانيٌّ؛ لأنَّ الكلامَ السّابقَ يؤذنُ بأنَّ مفاداةَ الأسرى أمرٌ مرهوبٌ تُخشى عواقبهُ، فيستثيرُ سؤالًا في نفوسِهم عمّا يترقَّبُ من ذلك لو حدث[1]، فيأتي الجوابُ بما أفادتْهُ الآيةُ، وفائدةُ الاستئنافِ البيانيِّ أنَّه يُظهر مدى قوَّةِ إيمانِ أصحابِ رسولِ اللهِ ﷺ وخوفِهم من عذابِ اللهِ تعالى.

بلاغةُ استعمالِ ﴿لَّوۡلَا﴾ في بيانِ فنِّ المدْح بما يُشبهُ الذَّمَّ:

غايةُ المدحِ في دفعِ القدحِ واستحالةِ التَّعذيب

﴿لَّوۡلَا﴾ في قوله: ﴿لَّوۡلَا كِتَٰبٞ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمۡ فِيمَآ أَخَذۡتُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾ حرفُ امتناعٍ لوجودٍ متضمِّنةٌ معنى الشَّرطِ، ومعناه: لولا قضاءٌ من الله سبق لكم - أهلَ بدرٍ - في اللَّوح المحفوظ، بأنَّ الله مُحِلٌّ لكم الغنيمةَ، وأنَّ الله قضى فيما قضى أنَّه لا يُضِلُّ قومًا بعد إذ هداهم حتَّى يبيِّنَ لهم ما يتَّقون[2]، وأنَّه قضى ألّا يمسَّكم عذابٌ منه تعالى أي: عدمُ مسِّ العذابِ بسببِ سبقِ قضاءِ اللهِ، فشرطُ العذاب انتفاءُ قضاءِ اللهِ، والانتفاءُ مستحيلٌ، فالعذابُ مثلُهُ، وهذا في غاية المَدْح، ودفعِ القدْح عن أصحابِ رسولِ اللهِ ﷺ ففيه فنُّ المدحِ بما يُشبهُ الذَّمَّ.

دلالةُ التَّعبيرِ بالكتابِ:

الإشارةُ إلى الإعجازِ الغيبيِّ

ذهبَ المفسِّرون إلى تفسيرِ الكتابِ في قوله تعالى: ﴿لَّوۡلَا كِتَٰبٞ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمۡ فِيمَآ أَخَذۡتُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾ بقضاءِ الله تعالى وجاءَ التَّعبيرُ بالكتابِ دون القضاءِ في هذا السّياقِ لبيانِ أنَّه قضاءٌ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/77.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 5/3897 - 3900.

ثابتٌ مكتوبٌ قبلَ وقوعِ الحدَثِ، ففيه إعجازٌ غيبيٌّ في الإخبارِ عن قضاءِ اللّه لما سيحدُث، هذا ما يقتضيه ظاهرُ النَّظمِ الكريم، أو أن يُحمل على الكنايةِ عن رحمةِ اللّه بعبادِه، فيما يقتضيه قضاؤهُ في مثل هذه الأحوالِ، وحملُ الكلامِ على ظاهرِ النَّظمِ أسعدُ مسلكًا.

غرضُ تنكيرِ الكتابِ:

اجتماعُ غرضِ النَّوعِ والتَّعظيمِ للحالِ والمآلِ

لفظُ ﴿كِتَٰبٌ﴾ في قوله: ﴿لَّوۡلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ﴾ مبتدأٌ نكرةٌ سوَّغَ مجيئَهُ نكرةً وقوعُهُ بعدَ ﴿لَّوۡلَا﴾، وخبرهُ محذوفٌ، تقديرهُ: موجودٌ أو كائنٌ، وتنكيرُهُ إمّا أن يكون للتَّنويعِ والإبهام[1]، وإمّا للتَّعظيمِ على اعتبار أنَّ هذا الكتابَ مسندٌ إلى اللّه، والمعنيان متآيلانِ، فنوعُ الكتاب خاصٌّ بما هو غيبيٌّ، وهو عظيمٌ في ذاتِه وفي مصدرِه وفي مآلِه.

معنى ﴿مِّنَ﴾ ودلالتُها:

اكتسابُ معنى التَّشريفِ والتَّعظيمِ للكتابِ

أفادت ﴿مِّنَ﴾ في قولِه تعالى: ﴿لَّوۡلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ﴾ معنى الابتداءِ، أي: كتابٌ وقضاءٌ نازلٌ من اللّهِ تعالى وقد أعطى هذا الحرفُ زيادةَ تشريفٍ وتعظيمٍ للكتابِ، في كونهِ من عندِ اللّهِ تعالى.

بلاغةُ استعمالِ القيد:

عظمةُ الأحكامِ المتعلِّقةِ بالأمَّةِ وشؤونِها الحضاريَّةِ والدَّعويَّةِ

ذُكِرَ قيدُ ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾، وقُدِّمَ في قولِه: ﴿لَّوۡلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ﴾، فلم يقل: (لولا كتابٌ سبق من اللّه)، ولم يقل: (لولا كتابٌ سبقَ لمسَّكم)، ونكتةُ ذلك بيانُ عظمةِ القضاءِ المتعلِّق بهذا الحدثِ، وأنَّه قضاءٌ عظيمٌ، ارتبطَ بحدثٍ عظيمٍ اختصَّ بالأمَّةِ وشؤونِها، فقضاءُ اللّه لم يتوقَّف على خصوصيَّةِ هذا الحدثِ، بل تعدّاهُ في مسيرةِ الأمَّةِ في علاقتِها مع الآخر، وفي الدَّعوة إلى دينِ اللّه تعالى بما يُعطي التَّصوُّرَ الصَّحيحَ قوَّةً ورحمةً في العلاقةِ مع الآخرِ.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/77.

بلاغةُ الاستعارةِ المكنيَّةِ:

بيانُ تداركِ رحمةِ اللهِ بعبادِه

اختيرتْ مفردةُ ﴿سَبَقَ﴾ دونَ مرادِفاتِها من مثل: (مضى)؛ للفتِ الأنظارِ إلى أنَّ هذا القضاءَ مقصودٌ، ولبيان تداركِ رحمةِ اللّهِ بهم، فكأنَّ الكتابَ مسابقٌ كتابًا آخر، وهو الذي سبقَ، ولو لم يسبقْ لوقع المكروهُ، ففيه زيادةُ امتنانٍ على عبادِ اللّه تعالى وفيه استعارةٌ بتشبيه الكتابِ بسابقٍ، على سبيل الاستعارةِ المكنيَّة، بحذفِ المشبَّه به، وذكر لازمٍ من لوازِمه، وهو لفظُ ﴿سَبَقَ﴾.

فنُّ التَّعليلِ:

سبقُ القضاءِ علَّةُ النَّجاةِ

في قوله تعالى: ﴿لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ فنٌّ جليلٌ من فنون البلاغةِ يُسمَّى (فنَّ التَّعليل) وهو أن يريدَ المتكلِّمُ ذكرَ حكم واقعٍ أو متوقَّع، فيقدِّمُ قبل ذكرِه علَّةَ وقوعِه؛ لكونِ رتبةِ العلَّةِ التَّقدُّمَ على المعلولِ، وسبقُ الكتابِ من اللّه هو العلَّةُ في النَّجاةِ من العذاب[1]، وهذا فنٌّ بديعيٌّ مُشْرَبٌ بأساليبِ الإقناعِ الخطابيِّ.

بلاغةُ التَّعبيرِ بقولِه: ﴿لَمَسَّكُمْ﴾:

العذابُ المدفوعُ بالكلّيَّةِ هو أدنى الدَّرجاتِ

أفادتِ اللّامُ الدّاخلةُ على جوابِ الشَّرطِ ﴿لَمَسَّكُمْ﴾ التَّوكيدَ، واختيرتْ مفردةُ المسِّ دون (أصابكم) لبيانِ أنَّ المدفوعَ وقوعُهُ، هو أدنى درجاتِ الفعلِ، وهو المسُّ، فلمّا نفى المسَّ؛ نفى ما هو أعلى منه بخلافِ العكس، وهذا كذلك كاشفٌ عن رحمةِ اللّهِ وامتنانِه بعبادِه، ورعاية حال أولئك المؤمنين، فإنَّ المدفوعَ عنهم هو مسٌّ لا أعظمَ منه، فالمعنى: أنَّه لو أرادَ أن يوقِعَ عليهم عذابًا؛ لكانَ مجرَّدَ مسٍّ، فكيف وقد دُفِع بالكلّيَّةِ.

وإضافةُ المسِّ للمفعولِ فيهِ زيادةُ امتنانٍ للمخاطَبين بغرضِ استشعارِ رحمةِ اللّهِ بهم.

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 3/170.

نكتةُ استعمالِ حرفِ الظَّرفيَّة:

الجمعُ بين معنى التَّعليلِ والظَّرفيَّةِ

أفادَ حرفُ الظَّرفيَّةِ في قولِه: ﴿فِيمَآ أَخَذۡتُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ معنى التَّعليلِ، وفائدةُ استعمال هذا الحرفِ دونَ حرفِ التَّعليلِ، فلم يقلْ: (لمسَّكم بسببِ ما أخذْتم)؛ تصويرُ حجمِ ما وقعوا فيه من العملِ، فأفاد معنَيَيْنِ اثنين، الأوَّل: الظَّرفيَّةَ أصالةً، والآخر: التَّعليلَ تبعًا.

دلالةُ إيثارِ ذكرِ ﴿فِيمَآ﴾ على الاسمِ الموصولِ الظّاهرِ:

استعملَ السّياقُ ﴿فِيمَآ﴾ الموصولةَ دونَ الاسمِ الظّاهر، فلم يقل: (في الذي أخذتم) للإبهامِ والإجمالِ في عدمِ إرادة التَّعيين، لاسيَّما أنَّ الأخْذَ تبايَنَت درجاتُه بين الآخذين، فكانَ استعمالُ ﴿فِيمَآ﴾ أدقَّ مسلكًا في تحقيقِ المرادِ.

نكتةُ تقديمِ شبه الجملة:

وتقديمُ شبهِ الجملةِ ﴿فِيمَآ أَخَذۡتُمۡ﴾ على الفاعلِ ﴿عَذَابٌ﴾ للتَّنبيهِ على علَّة مسِّ العذابِ، فهي من بابِ تقديمِ السَّببِ على النَّتيجةِ.

فائدةُ تنكيرِ لفظِ ﴿عَذَابٌ﴾:

عمومُ العذابِ وعظمتُهُ

نُكِّر لفظُ ﴿عَذَابٌ﴾ لإفادةِ التَّعميم؛ ليشملَ عذابي الدُّنيا والآخرة، ولا مانع في ذلك من حمْلِه على إفادةِ التَّعظيم أيضًا، فإنَّ عذابَ اللهِ عظيمٌ، ووصفهُ بقولِه: ﴿عَظِيمٌ﴾ قرينةٌ على ذلك.

دلالةُ الفاءِ بين الفصيحةِ والتَّفريعِ:

ما بعد الفاءِ مرتبطٌ بما قبلَها تسبُّبًا ونتيجةً تشريعيَّةً

الفاءُ في قوله تعالى: ﴿فَكُلُواْ مِمَّا غَنِمۡتُمۡ حَلَٰلٗا طَيِّبٗاۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ﴾ إمّا أن تكونَ فصيحةً، فقد أفادتِ الفاءُ معنى التَّسبيب، والسَّببُ محذوفٌ، والمعنى: قد أبحْتُ لكم الغنائمَ، فكلوا ممّا غنمتم[1]، وإمّا أن تكونَ تفريعيَّةً آذنت بتَفْريعِ هذا الكَلامِ على ما قَبْلَهُ، وفي هذا التَّفْريعِ وجْهانِ:

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/225.

أحَدُهُما: الَّذي جَرَى عليه كَلامُ المُفَسِّرينَ أنَّهُ تَفْريعٌ على قَوْلِه: ﴿لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ﴾، أيْ: لَوْلا ما سَبَقَ مِن حِلِّ الغَنائِم لَكُمْ؛ لَمَسَّكُم عَذابٌ عَظيمٌ، وإذْ قد سَبَقَ الحِلُّ، فلا تَبِعَةَ عَلَيْكُم في الانْتِفاعِ بمالِ الفِداءِ.

والآخر: أنَّ التَّفْريعَ ناشئٌ على التَّحْذيرِ مِنَ العَوْدِ إلى مِثْلِ ذلك في المُسْتَقْبَلِ، وأنَّ المعنى: فاكْتَفوا بما تَغْنَمونَهُ، ولا تُفادوا الأسْرَى إلى أنْ تُثْخِنوا في الأرْضِ، وهذا هو المُناسِبُ لإطْلاقِ اسْمِ الغَنيمَةِ هُنا إذْ لا يَنْبَغي صَرْفُهُ عَنْ مَعْناهُ الشَّرْعيِّ.

وَلَمّا تَضَمَّنَ قَوْلُهُ: ﴿لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ﴾ امْتِنانًا عليهم بأنَّهُ صَرَفَ عنهم بَأْسَ العَدوِّ، فرَّعَ على الامْتِنانِ الإذْنَ لهم بأنْ يَنْتَفِعوا بمالِ الفِداءِ في مَصالِحِهِم، ويَتَوَسَّعوا به في نَفَقاتِهِم، دونَ نَكَدٍ ولا غُصَّةٍ، فإنَّهُمُ اسْتَغْنَوْا به معَ الأمْنِ مِن ضُرِّ العَدوِّ بفَضْلِ اللّه، فتِلْكَ نِعْمَةٌ لَم يَشُبْها أذًى[1].

غرضُ الأمرِ وفائدتُه:

تـوكـيـدُ حـلِّ الـغـنـائـمِ والامـتـنـانِ على ذلك

الأمرُ في قولِه تعالى: ﴿فَكُلُواْ﴾ ليس منشأً لإباحةِ الغنائمِ؛ إذ قد سبقَ تحليلُها قبلَ يومِ بدرٍ، ولكنَّهُ أمرٌ يفيدُ التَّوكيدَ واندراجَ مالِ الفداءِ في عمومِ ما غنمتُم؛ إذ كان قد وقعَ العتابُ في الميْلِ للفداءِ، ثمَّ أقرَّهُ الرَّسولُ ﷺ[2] ووجهُ التَّوكيدِ دفعُ مَظِنَّةِ تحريمِ الانتفاعِ من الغنائمِ، وهو يُفيدُ الامتنانَ أيضًا[3].

فائدةُ التَّعبيرِ بالأكلِ عن الانتفاعِ:

دفـعُ أدنى تحرُّزٍ عـن الانـتـفـاعِ بالغنائمِ

عُبِّرَ عنِ الانتفاعِ الهنيءِ بالأكلِ في قولِه تعالى: ﴿فَكُلُواْ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًاۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ﴾؛ لأنَّ الأكلَ أقوى كيفيّاتِ الانتفاعِ بالشَّيءِ، فإنَّ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/78 - 79.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/354.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/79.

الآكلَ ينعمُ بلذاذةِ المأكولِ، وبدفعِ ألمِ الجوعِ عن نفسِه، ودفعُ الألمِ لذاذةٌ، ويكسبهُ الأكلُ قوَّةً وصحَّةً، والصحَّةُ مع القوَّةِ لذاذةٌ أيضًا[1]، ولأنَّ الأكلَ يُضارعُ الانتفاعَ في كثرةِ الاستعمالِ، ويدلُّ على كمالِ الانتفاعِ بالشَّيءِ المأكولِ، ولمّا كان السّياقُ في توكيدِ إباحةِ الانتفاعِ بالغنائمِ، عبَّرَ بالأكلِ ليدلَّ على هناءةِ الآكلِ دونَ أدنى تحرُّزٍ.

معنى (مِن) ودلالتُها:

تقسيمُ الغنائمِ يرجعُ للإمامِ بما تقتضيهِ المصلحةُ الشَّرعيَّةُ

معنى (من) في قولِه: ﴿مِمَّا غَنِمۡتُمۡ﴾ التَّبعيضُ، فإنَّ المخاطَبين لم يَمتلكوا جميعَ الغنائمِ، بل حازوا بعضَها، و(ما) موصولة، وجملتها ﴿غَنِمۡتُمۡ﴾ وشبهُ الجملةِ من الجارِّ والمجرورِ ﴿مِمَّا غَنِمۡتُمۡ﴾ متعلِّقٌ بـ﴿فَكُلُواْ﴾[2]، وفائدةُ التَّعبيرِ بما الموصوليَّة، بيانُ عمومِ الانتفاعِ، وتركُ التَّقسيم لما تقتضيه المصلحةُ الشَّرعيَّةُ.

فائدةُ وصفِ الحلالِ بالطَّيِّب:

دفعُ الشُّبُهاتِ وتأكيدُ التَّرغيبِ بهِ

قولُهُ تعالى: ﴿حَلَٰلٗا﴾ منصوبٌ على الحالِ من المغنومِ، أو صفةٌ للمصدرِ المحذوفِ، والتَّقديرُ: أكلًا حلالًا[3]، و﴿طَيِّبٗاۚ﴾ صفةٌ له، والحلالُ لا يكونُ إلّا طيِّبًا، ففائدةُ وصفِه بالطَّيِّب تأكيدُ التَّرغيبِ[4]، ودفعُ توهُّمِ إباحتهِ مع وجودِ شيءٍ من الحرجِ، فكان الوصفُ دافعًا لأيِّ شبهةٍ أو وسوسةٍ في غيرِ محلِّها.

دلالةُ العطفِ بين الجمل:

الشَّريعةُ ضبطتْ أفعالَ المكلَّفين باختلافِ مراتبِهم

عُطِفَ قولُهُ تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ﴾ على الأمرِ بالأكلِ في قولِه: ﴿فَكُلُواْ مِمَّا غَنِمۡتُمۡ﴾، لضبطِ الانتفاعِ بالغنائمِ بما فيهِ طاعةُ اللهِ، فإنَّ المؤمنينَ متفاوتونَ بالانتفاعِ ما بين متساهلٍ ومتشدِّدٍ، فكما أنَّ التَّعبيرَ بالأكلِ، ووصفَ الحلالِ بالطَّيِّب يضبط المتشدِّدَ، فإنَّ الأمرَ بالتَّقوى إرشادٌ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/79.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/226.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/226.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/114.

للمتساهلِ في أكلِ الغنائم، فكان السّياقُ جامعًا بين الطَّرفين، ليُحقِّقَ المقصودَ بما لا مزيدَ عليه، كما أنَّ التَّقوى تنفعُ الطَّرفين؛ لأنَّ التَّقوى هي شكرُ اللّه على ما أنعمَ من دفع العذابِ عنهم[1].

بلاغةُ التَّذييلِ:

الأمـرُ بالتَّقوى سياجُ المستقبلِ، والمغفرةُ والرَّحمةُ بلسمُ الماضي

قولهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ إمّا أن يُحملَ على الاستئنافِ البيانيِّ، على تقديرِ سؤال: لِمَ كان الأمرُ بالتَّقوى؟ فالجملةُ تعليليَّةٌ للأمرِ بالتَّقوى[2]، وإمّا أن يُحملَ على تركِ العطف بينها وبين الجملةِ الَّتي سبقتها لاختلاف الخبريَّة والإنشائيَّةِ، ويعبِّرون عنه بكمالِ الانقطاع أو الانفصال لغايةٍ، وقد بيَّنَ الشَّيخ عبدُ القاهرِ الجرجاني، وهو يتحدَّثُ عن محاسن (إنَّ) أنَّها تتولَّى ربطَ الجملةِ بما قبلَها ربطًا يُحتاجُ فيهِ أنَّك إذا حذفتها؛ قد تحتاجُ إلى الفاءِ في أكثر الأوقاتِ لتسدَّ محلَّها[3]، فكأنَّ الجملةَ السّابقة حالٌ حُذِفَ (إنَّ) منها، يكونُ تقديرُها: واتَّقوا اللّه، فإنَّ اللّه غفورٌ رحيم، فأغنى وجودُها عن فاءِ التَّفريع.

وتقديرُ الكلام: واعلموا أنَّ اللّه غفورٌ على ما أقدمتُم عليه في الماضي من الزلَّةِ، رحيمٌ لما أتيتم من الجرم والمعصيَةِ، فقولهُ: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ إشارةٌ إلى المستقبلِ، وقوله: ﴿غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ إشارةٌ إلى الحالةِ الماضيةِ[4].

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

المسّ والإصابة:

يدلُّ المسُّ على جسِّ الشَّيء باليد[5]، فيكونُ الإدراكُ معهُ بحاسَّةِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/79.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/79.
(3) الجرجانيّ، دلائل الإعجاز، ص: 408 - 411.
(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 15/167.
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (مسس).

المـــسُّ: هـو مطلقُ المباشرةِ والمـلامـسـةِ، والإصابةُ: بلوغُ المـقـصـودِ على وجهٍ بليغٍ

اللَّمسِ، ويكنَّى به أحيانًا عن النِّكاحِ، والجنونِ والأذى[1]، واستُعملت هذه الكلمةُ في حوارِ إبراهيمَ عليه السلام مع أبيه: ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٞ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيۡطَٰنِ وَلِيّٗا ٤٥﴾ [مريم: 45] وفي قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَمَسُّهُمُ ٱلۡعَذَابُ بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ ٤٩﴾ [الأنعام: 49] وقوله: ﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهۡبِطۡ بِسَلَٰمٖ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٖ مِّمَّن مَّعَكَۚ وَأُمَمٞ سَنُمَتِّعُهُمۡ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ ٤٨﴾ [هود: 48].

وأمّا الإصابةُ؛ فأصلُ جذرِها (صَوَبَ) وهو يدلُّ على نزولِ شيءٍ واستقرارِه[2]، والصوابُ عند الرّاغبِ الأصفهانيِّ يُقال على وجهيْن: أحدهما: باعتبارِ الشَّيءِ في نفسِه، فيقالُ: هذا صوابٌ؛ إذا كان في نفسِه محمودًا بحسبِ مقتضى الشَّرعِ والعقل، والثاني: يُقالُ باعتبار القاصدِ؛ إذا أدرك المقصودَ بحسبِ ما يقصدهُ، فيقال: أصابَ كذا؛ إذا وجدَ ما طلب[3].

وقد أُسنِدَ فعلُ الإصابةِ في القرآن الكريم إلى العذابِ والمصائبِ في مواضعَ عديدةٍ، منها: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ﴾ [آل عمران: 165]، فدلَّ الاستعمالُ اللُّغويُّ والقرآنيُّ لهاتيْن اللَّفظتينِ على اشتراكهما في المباشرةِ والملامسةِ لمن وقعَ فعلُهما عليه، مع تمكُّنِ (الإصابة) وتغلغلِها على وجهٍ أبلغَ مِنَ (المسّ)؛ لذا فإنَّ في استعمالِ إبراهيمَ عليه السلام للمسِّ في حوارِه مع أبيهِ نوعًا من المؤانسةِ والتَّطميعِ والتَّرغيب في دعوة أبيهِ لدينِه، لا يسدُّ مسدَّها أن يقولَ له: (يصيبك عذابٌ من الرحمن)، وكذلك في سورةِ الأنعام جاء قوله: ﴿وَمَا نُرۡسِلُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَۖ فَمَنۡ ءَامَنَ وَأَصۡلَحَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٤٨ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَمَسُّهُمُ ٱلۡعَذَابُ بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ ٤٩﴾ [الأنعام: 48 -

(1) الرّاغب، المفردات: (مسس).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (صوب).
(3) الرّاغب، المفردات: (صوب).

49] ناسب ذكرَ ﴿مُبَشِّرِينَ﴾ وتقديمَها على ﴿وَمُنذِرِينَۖ﴾، وتقديمَ الإيمان والصَّلاحِ، ونفيَ الخوفِ والحزنِ عن المؤمنين أن يُعبِّرَ عن وقوعِ العذابِ بالمسِّ دونَ غيرِه، وكذلك نجدُ مثلَ هذا الإيناسِ والتَّطميع في سورة هود: ﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهۡبِطۡ بِسَلَٰمٖ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٖ مِّمَّن مَّعَكَۚ وَأُمَمٞ سَنُمَتِّعُهُمۡ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ ٤٨﴾ [هود: 48] فالسَّلامُ والبركاتُ والإمتاعُ نِعَمٌ عظيمةٌ من الله إزاءَ لفظِ المسِّ المسندِ للعذابِ.

بينما نجدُ في استقصاءِ مواقعِ إصابة العذابِ في القرآن الكريم أنَّ هذا العذابَ قد أحاط بأصحابِه من ناحيةٍ، وروعي فيه وقوعهُ وفقَ الصَّوابِ على مقتضى العقلِ والشَّرعِ من ناحيةٍ أخرى، والله أعلمُ وأحكمُ.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيۡدِيكُم مِّنَ ٱلۡأَسۡرَىٰٓ إِن يَعۡلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمۡ خَيۡرٗا يُؤۡتِكُمۡ خَيۡرٗا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٧٠﴾ [الأنفال: 70]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الرَّبط بين أحكام الغنائم، وأحكام الأَسْرى، وكلاهما مشمولٌ بحكمة الإسلام ورحمته

لمّا ذكرَ اللّهُ تعالى في الآياتِ السَّابقةِ ما يتعلَّقُ بشأن الأسرى مِن أخذ الفداءِ منهم، وكيف شقَّ عليهم أخذُ أموالِهم؛ جاءَت هذه الآيةُ لتستكمل الحديثَ عنهم بترغيبهم في الإسلام، وذلك بخطاب رسولِ اللّه ﷺ لهم مباشرة[1] لاستمالة قلوبِهم، مُستَعطِفًا لَهُم مُرغِّبًا في الإسلام؛ بأنْ يَقولَ لَهُم كلمةً رحيمةً هاديةً، فقال سُبحانَهُ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيۡدِيكُم مِّنَ ٱلۡأَسۡرَىٰٓ إِن يَعۡلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمۡ خَيۡرٗا يُؤۡتِكُمۡ خَيۡرٗا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمۡ﴾[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلۡأَسۡرَىٰٓ﴾: الهَمزَةُ والسّينُ والرّاءُ تدلُّ اشتقاقاتُها على مَعنَى الحَبسِ والإمساكِ[3]، ومِنهُ: الأسيرُ وهو المسجونُ، كما قالَ اللّهُ تعالى: ﴿وَيُطۡعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسۡكِينٗا وَيَتِيمٗا وَأَسِيرًا ٨﴾ [الإنسان: 8]، ويُجمَعُ على: أُسَراءَ، وأُسارَى، وأَسارَى، وأَسْرَى[4].

وأصلُ الأَسرِ: الشَّدُّ بِالقَيدِ، وبذلكَ سُمِّي الأَسيرُ أسيرًا، ثُمَّ استُعمِلَ الأسيرُ في كُلِّ مَأخوذٍ، ولو لم يَكُنْ مَشدودًا بالقَيدِ[5].

2) ﴿قُلُوبِكُمۡ﴾: القافُ واللّامُ والباءُ تدورُ تصاريفُها على

(1) رضا، تفسير المنار: 10/87.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 8/333، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 6/3197.
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (أسر).
(4) ابن سِيدَه، المُحكَم: (أسر).
(5) الرّاغب، المفردات: (أسر).

مَعنَيَيْنِ؛ أحدهما: خالِصُ الشَّيءِ وشريفُهُ، والآخر: ردُّ الشَّيء من جهةٍ إلى أُخرى[1].

والقُلوبُ جمعُ قَلبٍ، وقلبُ كلِّ شيءٍ: أفضلُهُ وأَخلَصُهُ، ومِنهُ سُمِّي قلبُ الإنسانِ قلبًا[2]، وتقول العرَبُ: جِئتُكَ بهذا الأمرِ قَلبًا، أي: مَحضًا لا يَشوبُه شيءٌ[3].

وذكَرَ بعضُ أهلِ العربيَّةِ أنَّ القَلبَ سُمِّي قلبًا؛ لِتَقَلُّبِهِ وكثرةِ تغيُّرِه[4]، ومِنهُ قولُ الشّاعر:

ما سُمّيَ القَلبُ إلا مِن تَقَلُّبِهِ *** والرّأيُ يُصرَفُ والأَهواءُ أَطوارُ[5]

ويَرِدُ القَلبُ في القرآنِ الكريم مُرادًا بهِ القوَّةُ الباطنةُ، كما في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكۡرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلۡبٌ﴾ [ق:37]، وهذا الإطلاقُ هو الغالِبُ، وكما في قولِهِ تعالى: ﴿إِن يَعۡلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمۡ خَيۡرٗا﴾، ويُعبَّر بالقلب عنِ المعاني الَّتي تختصُّ به منَ الرّوح والعلمِ والشّجاعة وغير ذلك[6].

3) ﴿وَيَغۡفِرۡ﴾: الغَينُ والفاءُ والرّاء تدلُّ أكثرُ تصاريفِها على معنى السَّترِ، ومِنهُ: الغَفْرُ؛ وهو السَّترُ[7]، وقال الرّاغب: "الغَفرُ: إلباسُ ما يَصونُه عن الدَّنسِ"[8]، وهو راجعٌ إلى معنى السَّترِ، والمغفرةُ شَرعًا: سَترُ الذَّنبِ والتَّجاوزُ عَنهُ[9]، وهذا هوَ المَعنَى المُرادُ في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ﴾.

المَعْنى الإجْماليُّ:

في هذه الآية يقولُ اللّهُ تعالى لنبيِّه الكَريم: يا أيُّها النَّبيُّ قُلۡ لِمَن

أحكام مخاطبة الأسرى، وبيان أنَّ الكلمة الرّحيمة الهادية، روح دعوةِ الإسلامِ

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (قلب).
(2) نشوان الحِميريّ، شمس العلوم: (قلب).
(3) الخليل، العين: (قلب).
(4) ابن الأنباريّ، الزّاهر في معاني كلمات النّاس: 2/373.
(5) هو عند الأزهريّ في تهذيب اللّغة: (قلب) بلا نسبةٍ.
(6) الرّاغب، المفردات: (قلب).
(7) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (غفر).
(8) الرّاغب، المفردات: (غفر).
(9) ابن عُثيمين، القول المفيد: 1/85.

أسرتُموهُم في بَدرٍ: لا تَأسَوا على ما أُخِذَ مِنكُم مِنَ الفِداء، إن يَعلَمِ اللّهُ تعالى في قلوبِكُم خيرًا وإسلامًا؛ يُؤتِكُم أفضلَ ممّا أُخِذَ مِنكُم مِنَ المالِ، ويصفَحْ لكم عَمّا اقترفتُموهُ مِن كُفرِكُم باللّهِ تعالى وقتالِكُم نبيَّهُ ﷺ، واللّهُ ﷻ غفورٌ لذُنوبِ عبادِهِ؛ إذا تابوا، رحيمٌ بِهِم[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالةُ فَصلِ سياقِ الآيةِ عَمّا قَبلَهُ:

فُصِلَ قَولُ اللّهِ ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيۡدِيكُم مِّنَ ٱلۡأَسۡرَىٰٓ﴾ عَمّا قَبلَهُ؛ لأنّه استئنافٌ ابتدائيٌّ لِمَا شأنه أن يُسأَلَ عنه؛ فكأنَّ الآيةَ كانت بمنزلةِ الجوابِ عمّا يردُ في شأن الأسرى.

تطييبُ خواطرِ الأسرى، من رحمةِ الإسلام في معاملةِ الخصوم

دلالة النِّداءِ بلفظ ﴿يَٰٓأَيُّهَا﴾:

المقصودُ منه أن يجمعَ النّبيُّ ﷺ قلبَه وعقلَه في خطابه لأسرى بدرٍ بأَمرٍ مُتعلِّقٍ بحالِ سرائرِ بعضِ الأَسرَى، بعد أن كانَ الخطابُ مُتعلِّقًا بالتَّحريضِ على قتالِ المُشركينَ، وما يتبَعُ ذلكَ مِن أحكامٍ[2].

الإشارةُ إلى استحضارِ القلبِ والعقلِ عند الخطاب

وقد دلَّ هذا النِّداء بهذه الصّيغةِ الّتي اشتملَت على كثيرٍ من عناصر التّوكيد؛ على أنَّ اللّه ﷻ يدعو رسولَه الكريمَ صلوات اللّه عليه وسلامه لتحمُّلِ أمورٍ ذاتِ شأنٍ وبالٍ عمومًا، وفي شأن أسرى بدرٍ خصوصًا، ولا سيَّما أنّ الحديثَ عنهم هو من مَكنوناتِ النُّفوسِ وجزيلِ وَعدِ اللّهِ ﷻ لِمَن في قلبِهِ الخَيرُ، فإنَّ هذا المذكورَ لَهُ شأنٌ خَطيرٌ وجليلٌ.

سرُّ اختصاصِ النِّداءِ بالحرف (يا):

بيان عظمة اللهِ ﷻ، وَعظمة خِطابِهِ

اختصّ النداءُ بـ (يا) في قولِ اللّهِ سُبحانَهُ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾ دون غيرها من حروف النِّداء؛ لأنّها أندى، ولا يُنادى اسمُ اللّه إلّا بها، ولا يُقَدَّرُ عند الحذف غيرُها، ولأنّها في الأصل لِنداء البَعيدِ، ونداءُ اللّه

(1) ابن جرير، جامع البيان: 14/72، ونخبة من العلماء، التّفسير الميسّر، ص: 186.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/80.

ﷻ لرُسُلِه وأنبيائِه نِداءٌ مِنَ الخالِقِ إلى المَخلوقينَ، فحريٌّ أَن يكونَ بأداةِ النِّداء لِلبعيد.

وفي التَّعبيرِ بأداة النِّداء لِلبَعيد نِكاتٌ: **أُولاها**: بُعدُ ما بَينَ الخالِقِ والمَخلوقِ مِنَ المَكانةِ، **ثانيها**: أنَّه نِداءٌ مِنَ الخالِقِ سُبحانَهُ، وهو مُقتَضٍ أعلى العلوِّ وأبعدَهُ، **ثالثها**: أنّها تُفيدُ التّوكيدَ المُؤذِنَ بأنّ الخطابَ الّذي يتلوها معنيٌّ به جدًّا.

سِرُّ (أيّ) في قوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا﴾:

جاءَ النِّداءُ بـ ﴿يَـٰٓأَيُّهَا﴾ في قَولِ اللّهِ ﷻ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ﴾، وفي ذَلكَ ضَربٌ مِن تَقويةِ النِّداءِ، وَوَجهُ ذلكَ: أنَّ (أَيّ) لا يُفهَمُ المرادُ بها إلّا باسم بعَدَها يُزيلُ غُموضَها، وفي هذا انتقالٌ مِنَ الإبهامِ إلى الإيضاحِ والبَيانِ، وذلكَ ضربٌ مِن ضُروبِ التَّوكيدِ.

الانتقالُ مِنَ الإبهامِ إلى الإيضاحِ والبيان

وفي اقترانِ (أَيّ) بـ(ها) التَّنبيه: زيادةٌ في التَّوكيدِ؛ إذِ النِّداءُ في الأَصلِ يُرادُ به التَّنبيهُ، فاجتمَعَ في هذا النِّداءِ الخاصِّ تَنبيهانِ؛ إيماءً إلى عَظَمَةِ مضمونِهِ وكبيرِ أهمّيَّتِه.

سِرُّ نِداءِ اللهِ تعالى نَبيَّهُ بالوَصفِ:

مِن طرائقِ القُرآنِ الكَريمِ في نداءِ النَّبيِّ ﷺ أن يُنادَى بالوَصفِ لا بالاسمِ، فلَم يَرِد في النَّظمِ القرآنيِّ قطُّ: (يا مُحَمَّدُ ﷺ)، وإنّما يَرِدُ: ﴿۞يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ﴾ [المائدة: 41، 67]، و﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ﴾، وذلكَ لبيانِ رفعَةِ قَدرِ النَّبيِّ ﷺ عِندَ ربِّهِ سُبحانَهُ[1]، وفيهِ أيضًا تَعليمُ العبادِ الأدبَ معَهُ ﷺ في المناداة، قال تعالى: ﴿لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾، وأيضًا في تلقّي أوامر التّشريع، قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾.

عَظَمَةُ قَدرِ النَّبيِّ ﷺ عِندَ رَبِّهِ ﷻ

سرُّ إيثارِ التّعبيرِ بوَصفِ النُّبوّة:

في النِّداءِ بِوَصفِ النُّبوَّةِ في قولِهِ سُبحانَهُ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّمَن

(1) ابن باديس، مجالس التّذكير، ص: 371.

إبرازُ منزلة النّبيّ ﷺ الرّفيعة

﴿فِيٓ أَيۡدِيكُم مِّنَ ٱلۡأَسۡرَىٰٓ﴾ دون الرّسالة، مع تحقيقِ الوصفَين لِمقصدِ بَيانِ منزلةِ النَّبيِّ ﷺ الرَّفيعَةِ؛ لكَونِ لفظِ النُّبوَّةِ مُشعِرًا بأنَّه ﷺ مُنبَّأٌ مِنَ اللّهِ سبحانَه، وفي هذا إيماءٌ إلى التَّرغيبِ في التَّلقّي مِنه ﷺ؛ إذ إنَّ اللّهَ سُبحانَهُ قد أنبأَهُ بكلِّ جليلٍ مِنَ المعاني[1] يُزكّي أُمّتَه مع رفع مقدارِه وإتمام أنوارِه.

وممّا يُذكَرُ أيضًا أنّ التّعبيرَ بالنّبوّة يأتي في مقام ذِكرِ الأحداثِ حين يكون الأمرُ مُتعلِّقًا بالأسوةِ السّلوكيّة، أمّا إذا كان مُتعلِّقًا بتشريعٍ؛ فالمناسبُ ذِكرُ الرّسالة.

وممّا يؤكّدُ ذلك أنّ النّداءَ بالرّسالة ورد في قوله سبحانَه: ﴿۞يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ﴾ [المائدة: 41، 67] في سورةِ المائدةِ، والمقامُ فيها مقامُ التّشريعات عمومًا، وما يتعلَّقُ بأهل الكتابِ خصوصًا.

وأيضًا في سرِّ التّعبيرِ بالنّبوّة في هذا الموضع الإعلامُ بوضعِ حدٍّ فاصلٍ في التّعامل بينه ﷺ وبين المشركين؛ فالقرآن يريدُ هنا ترسيخَ علوِّ قدرِه بالوحي الشّريف الّذي أنبأَه اللّهُ به؛ فيتعاملون معه على أنّه محمّدٌ النّبيُّ بدلًا من محمّد القُرشيّ.

دلالةُ العُدولِ في ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾:

النّبيُّ مُحمَّدٌ ﷺ منفردٌ بالنُّبوَّةِ، وَقتَ نُزولِ القُرآنِ الكريمِ

عدلَ عنِ المخاطبة بالإضافة بأن يقولَ: (يا نبيَّ اللّه) إلى المُخاطَبة بالوصف المُعرَّف بـ (أل) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾ لِمَا تدلُّ عليه (أل) من استغراقِ خصائصِ وصفِ النّبوّة؛ فهو النّبيُّ الكاملُ، ولذلك اختُلفَ في معنى اللّام في قوله: ﴿ٱلنَّبِيُّ﴾؛ فمنهم مَن قال: اللّام في ﴿ٱلنَّبِيُّ﴾ مِن قَولِ اللّهِ ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾ لِلعَهدِ العِلميِّ، والمرادُ بِهِ النَّبيُّ محمَّدٌ ﷺ.

ويجوزُ أن تكونَ اللّام لِلعَهدِ الحضوريِّ؛ أي: النَّبيُّ الحاضِرُ وَقتَ

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 8/333.

نزولِ هذا الخِطابِ، ومِنَ المعلومِ أَن لا نَبيَّ في الأرضِ حيٌّ وقتَ نُزولِ هذا الخِطاب إلّا محمَّدٌ ﷺ.

والوَجهانِ متآيلانِ.

دلالةُ تكرارِ النّداءِ بـ ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾:

تهيئتُه ﷺ، لتحمُّل الصُّعوبات في قتاله مع المشركين

النَّاظرُ في الرُّبُع الأخيرِ من سورة الأنفال يجدُ تكرارَ النّداء بـ ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسۡبُكَ ٱللَّهُ﴾ الآية - ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ عَلَى ٱلۡقِتَالِۚ﴾ الآية - ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيۡدِيكُم مِّنَ ٱلۡأَسۡرَىٰٓ﴾ الآية، وكلُّها في سياق الحديثِ عن مواجهة الرّسول ﷺ للمشركين، وما تحملُه هذه المواجهةُ من صعوباتٍ يحتاج النّبيُّ ﷺ فيها إلى رفعِ روحِه المعنويّةِ بكفاية اللّه له في مواجهة المشركين، وهذه الكفايةُ تجعلُه ﷺ على يقينٍ بنصر اللّه؛ لأنّ اللّه كافيه؛ لذلك أرادَ أن يُشرِّفَ المؤمنين بنيل شرفِ النّصر بتحريضهم على قتال المشركين، وذلك برفعِ روحِهم المعنويّة؛ بأنّ الإيمانَ يجعلُ الواحدَ منهم بعشرةٍ منَ الكفّار، وكان فضلُ اللّه على الرّسول والمؤمنين ظاهرًا؛ بأن هُزِمَ المشركون في بدرٍ، فقُتلَ منهم سبعون، وأُسِرَ منهم سبعون؛ فكان هذا النّداءُ الأخيرُ نداءَ المنتصر، حيث قال اللّهُ له: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيۡدِيكُم مِّنَ ٱلۡأَسۡرَىٰٓ﴾ قولَ ترحُّم وتعطُّفٍ عليهم لترغيبهم في الإسلام، وكلُّ ذلك ولفظ النُّبوَّة تاجٌ على رأسه ﷺ يجعلُه عالي القدر عالي المكانة، وفيه بشارةٌ بنصره ﷺ ومَن معه مِنَ المؤمنين؛ لأنّ النّبوّةَ تعني العلوَّ والارتفاعَ، وهذا ما حقّقه اللّهُ لرسوله في غزوة بدرٍ.

سِرُّ خطاب الأسرى بواسِطَةِ النَّبيِّ الأكرم:

اختيارُ مشركي مكّةَ أن يكونوا في زمرةِ الأعداءِ دون الأولياء

وُجّه الخطابُ للأسرى عن طريق نَبيِّه ﷺ في قولِهِ سُبحانَهُ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيۡدِيكُم مِّنَ ٱلۡأَسۡرَىٰٓ﴾، دونَ أن يوجِّهَ إليهم الخطابَ أصالةً؛ للتّنبيهِ على عدَمِ أهليَّتِهم لخطابِ اللّه

تعالى بإبعادهم أنفسَهم عنِ الإيمان به وبرسوله ﷺ، وبما اختاروا لأنفسِهم الكَونَ مع أعدائِهِ دونَ الكَونِ مع أوليائِهِ[1].

وفيه إشارةٌ بأنّ سيّدَنا محمّدًا ﷺ هو المُبلِّغُ عن ربّه، وفي هذا إشارةٌ إلى إعلان نُبوَّتِه منَ اللّه؛ فهو النّبيُّ ﷺ آمنتُم به أم لم تؤمنوا.

دِلالةُ الأَمرِ في ﴿قُل﴾:

فِعلُ الأَمرِ ﴿قُل﴾ مِن قَولِ اللّهِ ﷻ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّمَن فِىٓ أَيۡدِيكُم مِّنَ ٱلۡأَسۡرَىٰٓ﴾ جارٍ على أصلِهِ مِن إرادَةِ طلبِ الفِعلِ على وجهِ الإلزامِ؛ لِكَونِ الأَمرِ صادِرًا منَ اللّه ﷻ إلى نَبيِّه المأمورِ أصالةً بالبلاغِ عنه سُبحانَهُ.

اللّهُ ﷻ هو الآمِرُ، ونبيُّهُ ﷺ هو المُبَلِّغ الأمين

وفيه إشارةٌ إلى أنّ أصلَ بلاغِ الدّعوة بالقول؛ لأنّه يشتملُ على الحكمةِ والموعظةِ الحسنةِ والجدالِ بالّتي هي أحسن، وما يأتي بعد ذلك من وسائلِ الدّعوة فهو تابعٌ له.

بَراعَةُ الاستِعارَةِ في جَعْلِ الأسرى في أيديهم:

في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّمَن فِىٓ أَيۡدِيكُم مِّنَ ٱلۡأَسۡرَىٰٓ﴾ استعارَةٌ؛ حيثُ شُبِّهَ الأسرَى الّذينَ هُم في وثاقِ المُسلمينَ واستيلائِهِم بالشَّيءِ الّذي في أَيديهِم، وهُم قابِضونَ عليهِ[2]، على طريقةِ الاستعارةِ التَّصريحيَّةِ، وفي ذَلكَ مِن بلاغةِ التَّصويرِ وإبرازِ المعاني في قالَبِ المحسوسِ ما يجعَلُهُ مُستَقِرًّا في النَّفسِ.

إبرازُ المعاني في قَوالِبِ المَحسوساتِ، أَعلَقُ بالذِّهنِ وأَقرَبُ إلى الفَهمِ

سرُّ التَّعبير بـ ﴿مِّنَ﴾:

قوله تعالى: ﴿قُل لِّمَن فِىٓ أَيۡدِيكُم مِّنَ ٱلۡأَسۡرَىٰٓ﴾، آثرَ فيه التّعبيرَ بـ ﴿مِّنَ﴾ الّتي تفيدُ العمومَ والشّمولَ وعدمَ الاختصاص؛ لِتصدُقَ على كلِّ الأسرى الّذين وقعوا في قبضة يدِ المسلمين؛ بخلاف (الّذي)

بيان العموم والشّمول في الاسم الموصول

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/333.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/36، والآلوسيّ، روح المعاني: 5/231، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/80.

فإنها لا تؤدّي هذا العموم، بل تنصرفُ إلى شخصٍ مُعيّن أو إلى مجموعةٍ معيّنة، وهذا غيرُ مُراد.

دلالةُ إيثارِ الظَّرفيّة بحرف ﴿فِيٓ﴾:

التّمكّن التّامّ في الجملة

آثرَ التّعبيرَ بالظّرفيّة ﴿فِيٓ﴾ الّتي تدلُّ على تمكُّنِ المظروف في الظّرف، وفي هذا إشارةٌ إلى أنّ هؤلاء الأسرى المشركين قد صاروا في قبضةِ المؤمنين وتحت تصرُّفهم؛ فلا يخرجون عن مُرادهم؛ لأنّهم في قبضة أيديهم، وتمكّنوا منهم تمكُّن الظّرف منَ المظروف، بخلاف الباء فلا تؤدّي هذا المعنى؛ لأنّها قد تكون بمعنى السّببيَّة أو الإلصاقِ، وليس هذا هو المُراد.

وممّا يؤكّدُ ذلك (اللّام) في قوله: ﴿لِّمَن﴾؛ فإنّها تدلُّ على التّأكيد.

سِرُّ العُدولِ في ﴿أَيۡدِيكُم﴾:

النّبيُّ ﷺ هو القائدُ، وأُمّتُهُ تَبَعٌ لَه

ورَدَ التَّعبيرُ بـ ﴿أَيۡدِيكُم﴾ في قَولِ اللّهِ ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيۡدِيكُم مِّنَ ٱلۡأَسۡرَىٰٓ﴾ مع أنّ مُقتَضَى الظّاهر أن يَرِدَ النَّظمُ القرآنيُّ: (لِمَن في يَدَيكَ)؛ لتقدُّم ذِكرِ ﴿قُل﴾ الّذي يدلُّ على المفرد، وإنَّما جُمِعَت باعتبارِ تَعَدُّدِ المالِكينَ[1]، وللإيماءِ إلى أنَّ الأصلَ في خطابِ النَّبيِّ ﷺ أنَّه خطابٌ لأُمَّتِه تبعًا، ونظيرُهُ قولُه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ [الطّلاق: 1].

دِلالَةُ (مِنْ) في ﴿مِّنَ ٱلۡأَسۡرَىٰٓ﴾:

بيان أثَرِ مَعاني الحُروفِ في إبرازِ حَقائِقِ القُرآنِ الكَريمِ

(مِنْ) - في قَولِ اللّهِ ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيۡدِيكُم مِّنَ ٱلۡأَسۡرَىٰٓ﴾ - بيانيَّةٌ؛ لتقدُّم الاسم الموصولِ (مَنْ)، وهوَ مُبهَمٌ يفتقِرُ إلى بيانٍ، فجاءَ هذا البيانُ في قولِهِ تعالى: ﴿مِّنَ ٱلۡأَسۡرَىٰٓ﴾.

سِرُّ التّعبيرِ بـ(الأسرى) في القراءات القرآنيّة:

النّاظرُ في آيات القرآنِ الكريمِ يجدُ أنّه استعملَ الجمعَ ﴿أَسۡرَىٰ﴾

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/80.

الأَسرَى منْ لَم يُشدَّ عَليهمُ الوَثاقُ، والأُسَارى منْ شُدَّ عليهمُ الوَثاقُ

في قوله سبحانه: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسۡرَىٰ﴾، وفي الآية الّتي معنا: ﴿قُل لِّمَن فِيٓ أَيۡدِيكُم مِّنَ ٱلۡأَسۡرَىٰٓ﴾، و﴿أُسَٰرَىٰ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَإِن يَأۡتُوكُمۡ أُسَٰرَىٰ﴾، وهذه المواضع رُويَت بأكثر من قراءة، تدورُ حولَ ﴿أَسۡرَىٰ﴾ و﴿أُسَٰرَىٰ﴾؛ فموضعُ سورة البقرة قرأه حمزة ﴿أَسۡرَىٰ﴾ بغير ألفٍ، وباقي القرّاء قرؤوا ﴿أُسَٰرَىٰ﴾ بالألف وضمّ الهمزة، وفي سورة الأنفال وردَ الخلافُ في قوله: ﴿أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسۡرَىٰ﴾، حيث قرأَ أبو جعفر ﴿أُسَٰرَىٰ﴾ بضمّ الهمزة وفتح السّين وألفٍ بعدها، وفي قوله: ﴿قُل لِّمَن فِيٓ أَيۡدِيكُم مِّنَ ٱلۡأَسۡرَىٰٓ﴾ قرأ أبو عمرٍ وأبو جعفر (من الأُسارى)، وباقي القرّاء ﴿أَسۡرَىٰ﴾ مع أنّهما من مادّة (أسر) الّتي تدلُّ على الحبس والإمساك[1].

وعلى هذا يرِدُ السّؤالُ في وجه الفرق بين ﴿أَسۡرَىٰ﴾ و﴿أُسَٰرَىٰ﴾؟

النّاظر في كتب اللّغةِ يجدُ أنّها تشيرُ إلى أنّ الأسيرَ يُجمَعُ على (الأَسرى)، و(الأَسارى)، و(الأُسارى) جمع الجمع، ولا يزيدون على ذلك.

بخلاف استعمالِ القرآنِ الكريمِ فإنّه فرَّقَ بينهما مراعاةً للوصف أو للحالة الّتي يكونُ عليها الأسير؛ لأنّ حالتَه تدورُ بين وصفين: محكوم عليه بالأسر أو في قبضة مَن أسَرَه؛ لأنّ (أسير) على وزن (فعيل)، جمْعُهُ على (فَعْلَى) نحو: (قتيل) و(قَتلَى)، وأصلُ ذلك إنّما يكون لما كان بمعنى مفعول؛ كالقتيل بمعنى المقتول، فصار في حكم الإنفاذ؛ لأنّه لمّا أُصيبَ بالأسر صار كالجريح والقتيل؛ لذلك يُطلَقُ لفظُ الأسرى على الّذين في يد أعدائهم.

أمَّا (أُسارى) على وزن (فُعالى)؛ فقد كَثُرَ استعمالُها في معنى الضّعف والتّعب، نحو: كُسالى وسُكارى، وفي هذا توصيفٌ لحالة

(1) ابن الجزريّ، النّشر: 218/2 - 277.

الأسرى الموثَقين في القَيد، وقد أصابهم الضّعفُ والإعياءُ، ولذلك يجدُ النّاظر في مَوضعِ سورةِ البقرة تأكيدًا لذلك، حيث عبّر عنهم بقوله: ﴿وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَرَىٰ﴾؛ فقوله: ﴿يَأْتُوكُمْ﴾ دليلٌ على أنّهم ليسوا في يد أعدائهم، بل أتوا قومَهم في حالةٍ من الضّعف والإعياءِ، بخلاف كلمة ﴿أَسْرَىٰ﴾ فتدلُّ على أنّهم في يد أعدائِهم، وفي قبضةِ مَن استولى عليهم، وهنا توصيفٌ لحالة أسرى مشركي مكّةَ الّذين كانوا في يدِ النّبيِّ ﷺ وأصحابِه.

والمدُّ في (الأُسَارَى) يومئ إلى شدَّةِ الأَسرِ أكثَرَ من لفظِ (الأسرَى).

وعلى هذا فالأسرى وصفٌ يُطلَقُ على الّذين في يد أعدائهم عمومًا، والأُسارى وصفٌ يُطلَقُ على الّذين في القيد، وبذلك تتكاملُ القراءتان في وصف حالةِ الأسيرِ حُكمًا وواقعًا[1].

سِرُّ تَعليقِ الشَّرطِ بـ(إنْ):

إحاطَةُ عِلمِ اللهِ تعالى بجميع المَعلوماتِ، من أوضح المُسَلَّمَات

عُلِّقَ الشَّرطُ بـ(إنْ) في قَولِ اللهِ ﷻ: ﴿إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا﴾ مع أنَّ الأصلَ في (إنْ) دلالَتُها على الشَّكِّ بوقوعِ مدخولِها، ومِنَ المعلومِ مِنَ الدّين بالضَّرورَةِ أنَّ عِلمَ اللهِ سُبحانَهُ بكلِّ شيءٍ قطعيٌّ مُتحقَّق، وإنَّما اختيرَ حرفُ الشَّرطِ (إنْ) باعتبار متعلِّق العِلمِ لا باعتبارِ العِلمِ ذاتِه، والمَعنَى: أنَّ ثبوتَ الخَيرِ في قُلوبِ هؤلاءِ الأَسرَى لَيسَ مقطوعًا بِهِ، وإن كانَ اللهُ سُبحانَهُ عالِمًا بِهِم حالًا ومآلًا.

دلالَةُ عبارة ﴿إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ﴾:

عِلمُ اللهِ تعالى، يُبديه ولا يَبتديه، وهو المحيط بكلّ شيء علمًا

يجوزُ أن يُرادَ بالعِلمِ في قَولِ اللهِ ﷻ: ﴿إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا﴾ ظهورُ عِلمِهِ للنّاس[2]، وهوَ العِلمُ الّذي يترتَّبُ عليه الثَّوابُ والعقابُ، وذلك لأنَّ العِلمَ ضَربانِ:

(1) ابن أبي مريم، المُوضِح في وجوه القراءات وعِلَلِها: 1/288، ومحمّد الدّوريّ، دقائق الفروق اللّغويّة في البيان القرآنيّ، ص: 298 - 299، ومحمّد محمّد داود، معجم الفروق الدّلاليّة في القرآن الكريم، ص: 464 - 465.

(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/356.

أحدُهُما: عِلمٌ بالشَّيء قَبلَ وُجودِهِ.

والآخرُ: عِلمٌ بالشَّيء بعدَ وُجودِهِ[1].

وكلا العِلْمَين ثابتٌ للّه تعالى، إلّا أنَّ الأوَّلَ - وهو العِلمُ السَّابق - لا يَتَرَتَّبُ عليه الثَّوابُ والعِقابُ؛ حتَّى يُختَبَرَ النّاس، ويُمتَحَنوا، وأمّا العِلمُ بالشَّيءِ بعدَ وجودِهِ فهذا هوَ العِلمُ الّذي يترتَّبُ عليهِ ثوابٌ وعقابٌ، وهو المرادُ في قولِهِ تعالى: ﴿إِن يَعۡلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمۡ خَيۡرٗا﴾، وفي هذا دليلٌ على إقامة الحُجّة عليهم، وأنّ ما يحكمُ اللّهُ به على عباده هو دليلٌ على علمه الأزليّ.

دلالةُ تَعريفِ المُسنَدِ إليهِ (الله):

عَظَمَةُ عِلمِ اللهِ سُبحانَهُ، وإحاطَتُهُ بجميعِ العلم وأدقّه وأشمله

عُرِّفَ المُسنَدُ إليهِ بالعَلَميَّةِ (اللّه) في قَولِ اللّهِ ﷻ: ﴿إِن يَعۡلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمۡ خَيۡرٗا﴾؛ للإيماء إلى عَظَمَةِ عِلمِ اللّهِ سُبحانَهُ لإحاطتِهِ بجميعِ المعلوماتِ، مَهما دقَّتْ، كالعِلمِ بما في مكنوناتِ القُلوبِ؛ لأنّ لفظَ الجلالةِ يجمعُ كلَّ صفاتِ الجلالِ والجمالِ والكمالِ[2].

دلالةُ إسنادِ الخيرِ في قلوب الأسرى:

ادّعاء الإيمان باللّسان، لا يكفي لحصولِ الخيرِ للإنسان

أسندَ الخيرَ في قوله تعالى: ﴿إِن يَعۡلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمۡ خَيۡرٗا﴾ إلى علم اللّه؛ للإشارة إلى أنّ ادّعاء الإيمانِ باللّسانِ فقط لا يكفلُ لهم الحصولَ على الخير، ولا يُوصِّلُهم إلى مغفرة اللّه عمومًا، وفي شأن أسرى بدر خصوصًا؛ فعليهم أن يُخلِصوا للّه في إيمانهم حتّى ينالوا عظيمَ فضلِه وثوابِه.

سرُّ التّعبيرِ بالظّرفيّة في قوله: ﴿فِي قُلُوبِكُمۡ﴾:

تمكُّن الخير من القلب، مفتاحٌ للولوج إلى حقائق الإيمان

آثرَ التّعبيرَ بالظّرفيّة في قوله: ﴿فِي قُلُوبِكُمۡ﴾ دون غيرها منَ الحروف، نحو: (مِن) كأن يقول: (من قلوبكم)؛ لأنّ الظّرفيّةَ هي الأبلغُ في هذا السّياق، حيثُ دلَّت على تمكُّنِ علمِ اللّهِ بما في

(1) ابن عثيمين، تفسير القرآن (منَ الحجرات إلى الحديد)، ص: 424.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/333.

قلوب الأسرى؛ فأصبحَت قلوبُهم مظروفةً يحيطُ علمُ اللّه بها من كلِّ الجوانب، بخلاف (مِن) فلا تؤدّي ذلك؛ لأنّها قد تكون بمعنى الابتداء، والمعنى: ابتداء ما في قلوبكم، وهذا غيرُ مُراد.

سرُّ التّعبيرِ بقوله: ﴿قُلُوبِكُمْ﴾:

القلوبُ محلُّ نظرِ الله تعالى، ومَوْئِلُ الإيمان واليقين

آثرَ التّعبيرَ بقوله: ﴿قُلُوبِكُمْ﴾ دون غيرها كالصّدور والأفئدة؛ لأنّ القلوبَ هي مناطُ التّكليف ومحلُّ المؤاخذة، قال تعالى: ﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِيٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ إلى غير ذلك منَ الآيات الّتي تؤكّد على أنّ القلبَ هو محلُّ القوّة العاقلةِ والمساءلةِ، بخلاف الصّدور والأفئدةِ. وللإشارة أيضًا إلى استحقاق الجزاءِ على ما في القلب؛ لأنّه موضعُ الإيمان، قال تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾، ولمّا كان المرادُ هنا (إن يعلمِ اللّهُ وجودَ الإيمان في قلوب الأسرى)؛ عَبَّر بالقلوب.

سرُّ التّعبيرِ بلفظ (الخير) عنِ (الإيمان):

الخيرُ عطاء الله الدُّنيويُّ والأخرويّ، وهو منه تعالى ممدود غير محدود

قوله تعالى: ﴿إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا﴾، آثرَ فيه التّعبيرَ بالخير مع أنّ المرادَ به الإيمان؛ لأنّ الخيرَ هو الثّمرة النّاتجةُ عنِ الإيمان، ولأنّ الكلَّ يرغبُ فيه بحكم الفطرةِ السَّويّة، ولأنّه يجمعُ الكمالاتِ في الدّنيا وفي الآخرة؛ ففي الدّنيا يُطلَقُ على العقلِ والعدلِ والفضلِ، والشّيء النّافع، ويُطلَقُ على المال أيضًا، وهذا واضحٌ في كثيرٍ من آيات القرآنِ قال تعالى: ﴿إِن تَرَكَ خَيْرًا﴾، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾، وفي الآخرة يُطلَقُ على الفلاح والفوز بالجنّة، ولمّا كان لفظُ الخيرِ بهذه المثابة المادّيَّةِ والمعنويَّةِ؛ آثر التّعبيرَ به، وضدُّه الشّرُّ، وكأنّ القرآنَ يوجّههم إلى أنّ ما هم عليه من قتالِ رسولِ اللّه ﷺ، ومنَ البقاءِ على الكفر هو الشّرُّ كلُّه؛ فعليهم أن يرغبوا عنه إلى الإيمان باللّه ورسوله؛ لأنّه الخيرُ كلُّه[1].

(1) الرّاغب، المفردات: (خير).

سِرُّ تَنكيرِ لفظ ﴿خَيْرًا﴾:

كرمُ الله لا حدَّ له، كما لا حدّ لكماله

نُكِّرَ ﴿خَيْرًا﴾ مِن قَولِ اللّهِ سُبحانَهُ: ﴿إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا﴾؛ للدِّلالَةِ على التَّقليلِ؛ أي: إنْ يعلَمِ اللّهُ في قلوبِكُم شيئًا مِن تقواهُ الّتي تَحمِلُ على الإيمانِ الّذي هوَ رأسُ كلِّ خيرٍ، ولو كان قليلًا؛ لأنّ القليلَ مِن تقواه يقبلُه اللّهُ، ويضاعفُ ثوابَه، ولذلك فيه إشارةٌ إلى عظيمِ فضلِ اللّهِ ﷻ حيثُ يجزي على العملِ اليسيرِ بالثَّواب الجليلِ[1].

سرُّ التَّعبيرِ بالإيتاء في: ﴿يُؤْتِكُمْ﴾:

عطاءُ الله ليس كعطاء أحدٍ، فهو المعطي بلا حدٍّ

آثرَ التّعبيرَ بالإيتاء دون الإعطاء في قوله: ﴿يُؤْتِكُمْ خَيْرًا﴾؛ للدّلالة على وجود فرقٍ بين عطاءِ البشرِ وعطاءِ ربِّ البشرِ؛ فعطاءُ البشرِ محدودٌ وقليلٌ، وقد يكون عن كراهيةٍ وعدمِ حبٍّ، قال تعالى: ﴿وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ ۝٣٤﴾ [النجم: 34]، وقال تعالى: ﴿حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ۝٢٩﴾ [التوبة: 29] بخلاف عطاء ربِّ البشرِ؛ فهو كثيرٌ لا حدَّ له، ونفعُه عظيمٌ في الدّنيا والآخرة، ويعطيه لخَلْقه حبًّا لا عن كراهية، لكلِّ ذلك عبَّر عنه بالإيتاء ليَحُثَّهم على الدّخول في الإسلام لينالوا الخيرَ كلَّه، وهذا ما وقع مع العبّاس بن عبد المطلب، كما تذكرُ بعضُ الرّوايات أنّه لمّا دفعَ فداءَه وفداءَ أولادِ أخويهِ أعطاه اللّه خيرًا ممّا أُخِذَ منه في الدّنيا أضعافًا مُضاعفةً، وفي الآخرة يرجو غفرانَ ذنبِه وعفوَ ربِّه.

دلالةُ تكرارِ لفظِ ﴿خَيْرًا﴾:

تكرار لفظ (خيرًا) في السّياق، ليشملَ خيرَي الدّنيا والآخرة

كرّرَ القرآنُ الكريمُ لفظَ ﴿خَيْرًا﴾ مع سَبْق ذِكْره في قوله تعالى: ﴿إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا﴾؛ لاختلاف المعنى في كلٍّ منهما؛ ففي الأولَى يُرادُ به الإيمان، وفي الثّانية يُطلَقُ على الخير المادّيِّ والمعنويّ؛ فيُطلَقُ على المال في الدّنيا وعلى الجنّة في الآخرة، يؤكّدُ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/334.

ذلك ما جاء عن العبّاس رضي الله عنه قال: "عوّضني اللّه عن أربعين أوقيّة أربعين عبدًا في الغزوات، وأعطاني زمزمَ، وما أحسبُ أنّ لي بها جميعَ مالي"[1]، ولم يقفِ الأمرُ عند العبّاس بل شملَ جميعَ مَن آمنَ بعد ذلك، وغزا مع النّبيِّ ﷺ؛ فأصابَ منَ الخير، وآتاه اللّهُ تعالى مع ذلك الإيمانَ والإخلاصَ، ومَن قُتِلَ منهم في الجهاد أُعطِي الشّهادةَ وفضلها عظيم[2].

سرُّ التّعبيرِ بعبارة ﴿أُخِذَ مِنكُمْ﴾:

آثرَ التّعبيرَ بالأخذ في قوله تعالى: ﴿مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ﴾ دون غيره؛ لأنّ الأخذَ معناه حَوْزُ الشّيء وتحصيله، وفي هذا إشارةٌ إلى قوّة المسلمين وتمكُّنهم من هؤلاء الأسرى؛ لأنّهم صاروا في قبضةِ أيديهم، وفيه ترهيبٌ للمشركين، وإضعافٌ للرُّوح المعنويّةِ عندهم الّتي تؤدّي بطبيعة الحال إلى إضعافِ القوّة البدنيّة، وفيه بشارةٌ للمسلمين بالغَلَبَة على المشركين.

الأخذُ حَوْزُ الشّيء وتحصيله، وهو تناولٌ بقوّة

سرُّ التّعبير بالماضي ﴿أُخِذَ مِنكُمْ﴾:

عبّرَ بالماضي للدّلالة على تحقُّق وقوعِ الأخذِ من أسرى بدر سواءٌ كان الأخذ مادّيًّا أو معنويًّا.

تأكيد دلالة الماضي على الوقوعِ والتّحقُّقِ

دلالةُ التّعبيرِ بقوله: ﴿مِنكُمْ﴾:

عبّرَ بقوله: ﴿مِنكُمْ﴾ للدّلالة على التّبعيض، وفي هذا إشارةٌ إلى أنّ هذا الأخذَ يمكنُ أن يكونَ من بعض الأسرى الّذين يمتلكون إعطاءَ الفدية، وأمّا الّذين لا يمتلكون الفديةَ ولا أعطى قومُهم عنهم، كان المنُّ عليهم منَ اللّه ورسوله، وفي هذا إشارةٌ إلى رحمته ﷺ وسماحة هذا الدّين.

الفديةُ لا تكون مِن جميع الأسرى

(1) كما جاء عند أبي زهرة، وهرة التفاسير: 6/3198 .

(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 6/3198.

دِلالَةُ حَذفِ مَفعولِ ﴿وَيَغۡفِرۡ﴾:

حَـذفُ المَعمولِ مُؤذِنٌ بِالعُمومِ

حُذِفَ مفعولُ ﴿وَيَغۡفِرۡ﴾ في قَولِ اللّهِ ﷻ: ﴿يُؤۡتِكُمۡ خَيۡرٗا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ﴾، وذَلِكَ قصدٌ لإرادةِ العمومِ؛ لأنَّ حَذفَ المَعمولِ مُشعِرٌ بذلك؛ والمَعنَى: يغفِرْ لَكُم ذنوبَكُم جميعًا.

بلاغةُ العطفِ بلفظ (الواو):

الإسلامُ أَعظَمُ سَبَبٍ لِتَحصيلِ المَغفِرَةِ

في عطفِ قوله تعالى: ﴿وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ﴾ على قولِه سُبحانَهُ: ﴿يُؤۡتِكُمۡ خَيۡرٗا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمۡ﴾ أسلوبُ تَرَقٍّ بذِكرِ الشَّيءِ، ثُمَّ تعقيبه بما هو أَعظَمُ[1]؛ وذلك إذا كانَ المرادُ بـ ﴿خَيۡرٗا﴾ مِن قولِهِ تعالى: ﴿يُؤۡتِكُمۡ خَيۡرٗا﴾: الخَلفَ في الدُّنيا[2]، فيكونُ عطفُ المغفِرَةِ عليه تَرَقّيًا مِنَ الجزاءِ الدُّنيويِّ إلى الجزاءِ الأُخرَويِّ، وهو أعلى وأرقى.

وإن كانَ المرادُ بـ ﴿خَيۡرٗا﴾ الإسلامَ الّذي يُلقيهِ اللّهُ ﷻ في قلوبِهِم، فيكونُ العَطفُ مِن عَطفِ المسبَّبِ على السَّبَبِ؛ إذِ الإسلامُ أَعظَمُ سببٍ لتحصيلِ المَغفِرةِ، ومَن فاتهُ الإسلامُ انتفَت عنه المَغفِرَةُ قَطعًا.

دلالَةُ مجيءِ جوابِ الشّرط جملةً خبريّة:

مـلـمـح حـضّ الأَسـرى على الـدُّخـولِ في الإسلامِ

قولُ اللّهِ ﷻ: ﴿إِن يَعۡلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمۡ خَيۡرٗا يُؤۡتِكُمۡ خَيۡرٗا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ﴾ جُملَةٌ خبريَّةٌ؛ إذِ التَّحقيقُ في جُملَةِ الشَّرطِ؛ أنَّه يُنظَرُ إليها باعتبار جوابِها، فإن كان جوابُها خبرًا فهي خبريَّةٌ، وإن كان جوابُها إنشاءً فهي إنشائيَّةٌ، والجوابُ في قولِ اللّهِ سُبحانَهُ: ﴿يُؤۡتِكُمۡ خَيۡرٗا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ﴾ خبرٌ، فالجملَةُ خبريَّةٌ.

وهذا الخبَرُ جارٍ على أصلِهِ في إفادَةِ المخاطَبينَ ما لا عِلمَ لَهُم بِهِ قَبلُ، ويُضافُ إلى ذلك أنَّ فيه حضًّا وتحريضًا للأَسرى

(1) التَّرقّي: أن يُذكرَ المعنى ثُمَّ يُردَفَ بما هو أبلغُ مِنه. يُنظر: السُّيوطيّ، شرح عقود الجُمان، ص: 135.
(2) الواحديّ، التّفسير البسيط: 10/261.

على الإيمانِ[1]، فهو بهذا الاعتبارِ مجازٌ مُرسَلٌ مُركَّبٌ. والمعنيانِ المذكوران لا تَنافيَ بينَهُما؛ إذِ النِّكاتُ البلاغيَّةُ تتوارَدُ ولا تتزاحَمُ.

سِرُّ اختيارِ المغفرةِ في ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾:

آثرَ التّعبيرَ بالمغفرة في قوله: ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾؛ لأنّها تحملُ معنى السّترِ لكلِّ ما أسلفتموه من كفرٍ وجحودٍ وقتالٍ للمسلمين، وفي هذا تحريضٌ لهم على الإسلام؛ لأنّ اللّه ﷻ يمتنُّ عليهم بإعطائهم شيئًا غير قابلٍ للتّعويض، وهو المغفرةُ، وذلك من فضلِ اللّهِ ورحمتِه.

المغفرةُ كلُّها سترٌ، ورحمة، وغفران الله يشمل التّائبين برُمَّتهم

دلالةُ التّعبيرِ بالمضارع ﴿وَيَغْفِرْ﴾:

عبّرَ بالفعل المضارع الّذي يدلُّ على التّجدُّد والحدوثِ؛ فكلّما أحدثَ العبدُ ذنبًا أوجدَ اللّهُ له مغفرةً، هذا على العموم، ويدخلُ فيه أسرى بدرٍ على الخصوص إنْ هم ندموا على ما فعلوا من قتال المسلمين، ورضوا باللّه ربًّا، وبالإسلام دينًا، وبسيّدنا محمّد ﷺ نبيًّا ورسولًا، وفيه بشارةٌ بأنّ بابَ المغفرة مفتوحٌ لا يُغلَقُ حتّى تطلعَ الشّمس من مَغربِها.

مغفرةُ الله مُتجدِّدةٌ للعبد، بتجدُّد توبته للمعبود

دلالةُ التّعبيرِ بقوله: ﴿لَكُمْ﴾:

عبّرَ القرآنُ الكريمُ بقوله: ﴿لَكُمْ﴾ لمزيدٍ منَ العنايةِ والاختصاصِ بأسرى بدرٍ، وإن كانتِ المغفرةُ عامّة للكلِّ، إلّا أنّ اللّهَ أرادَ أن يُطيِّبَ خواطرَهم بهذا التّخصيص لينزعَ ما في قلوبِهم من غلٍّ وحقدٍ على المسلمين، وليُذهبَ القلقَ عنهم بما قدّموا من أفعالٍ سيِّئة.

التّخصيص دليلُ العنايةِ الإلهيّة، والرّعايةِ الرّبانيّة

نُكتةُ الإظهارِ في مَوضِعِ الإضمارِ:

في قولِ اللّهِ سُبحانَهُ: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ إظهارٌ في محلِّ الإضمارِ، وذلكَ أنَّ مقتضَى الظّاهرِ أن يَرِدَ النَّظمُ القرآنيُّ: (وهو غفورٌ رحيمٌ)؛ لتقدُّمِ ذِكرِ الاسمِ الأحسَنِ (اللّه) في قولِه: ﴿إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ﴾، وعُبِّر عنه سُبحانَهُ بعدَها بالضَّمائرِ، فلمّا جيءَ إلى هذا

تفخيمُ صِفَتَي المَغفِرَةِ والرَّحمَةِ، لعظمة الله وعزّته وجلاله

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 6/3197.

المَوضِعِ أُظهِرَ ذلكَ، فقالَ سُبحانَهُ: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، والنُّكتَةُ في ذلكَ: تعظيمُ شَأنِ الوَصفَينِ اللَّذَينِ دَلَّ عليهما اسما اللّهِ: الغَفورُ والرَّحيمُ؛ وهُما المغفِرَةُ والرَّحمةُ، فَفُخِّمَ حالُهُما وقَدرُهما؛ إذ هُما صادِران ممَّن جمعَ صِفاتِ الجلالِ والجَمالِ والكمالِ.

دلالَةُ التَّعبيرِ بصيغَتَي (فعول) و(فعيل):

في بِناءِ اسمَي اللّهِ تعالى (غَفورِ) و(رحيم) مِن قولِ اللّه ﷻ: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ على صيغتي المبالغَةِ دِلالَةٌ على قوَّةِ المغفرَةِ وسعَةِ الرَّحمَةِ وكثرَتِهما، فبناءُ المبالَغَةِ يقتضي قوّةَ المغفرةِ وكثرتَها، ومستَعمَلٌ باعتبار كثرَةِ المخاطَبينَ، وعِظَمِ المغفرَةِ والرَّحمَةِ باعتبارِ واحدٍ مِنهُم[1].

اللهُ ﷻ كَثيرُ المَغفِرَةِ، وعَظيمُ الرَّحمَةِ ممّا يشمل خلقه وكونه

بَلاغَةُ التَّذييلِ في آخر الآية:

جاءَ هذا التَّذييل للتّأكيدِ على صفةِ المغفرةِ بعدَ التّأسيس لها في قوله: ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْۚ﴾، وعلى أنّ هذا التّذييلَ ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ جارٍ مَجرَى المثَلِ؛ لِاستقلالِهِ وعَدَمِ افتِقارِهِ إلى ما قبلَهُ في إدراكِ تمامِ المُرادِ، وفيهِ إيماءٌ إلى عِظَمِ مغفرةِ اللّهِ تعالى لَهُم؛ لأنّه كثيرُ الغفرانِ كثيرُ الرّحمةِ بعبادِهِ[2].

التَّأكيد على صفة المغفرة بعدَ التَّأسيس لها

سرُّ تقديمِ المغفرةِ على الرّحمةِ:

قوله: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، وفيه قُدِّمَتِ المغفرةُ على الرّحمة؛ لأنّ المغفرةَ سلامةٌ والرّحمةَ غنيمةٌ، والسّلامةُ تُقدَّم على الغنيمة، وممّا يُذكَرُ في سرِّ تقديمِ المغفرةِ على الرّحمةِ أنّه من باب تقديم السَّبب على المُسبَّبِ؛ فإنّ المغفرةَ سببٌ في الرّحمة، وأيضًا لأنّ تقديمَ المغفرةِ على الرّحمةِ من بابِ تقديمِ التَّخلية على التَّحلية؛ فالمغفرةُ زوالُ المرهوبِ، والرّحمةُ تحصيلُ المطلوبِ.

زوالُ المَرهوبِ مُقدَّمٌ على تحصيل المطلوب

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/81.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/81.

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

النَّبيُّ والرَّسولُ:

الرّسولُ يؤسّسُ الدّعوةَ، والنّبيُّ يُجدِّدُها ويلتزم بها

في الفرقِ بين النَّبيِّ والرَّسولِ أقوالٌ كثيرَةٌ[1]، أصحُّها: أنَّ النَّبيَّ مَن أُوحِيَ إليه بشَرعٍ، وأُرسِلَ إلى قومٍ موافقينَ له، وهذا مُرادُ مَن قال: إنَّ النَّبيَّ يُوحَى إليهِ بشَرعِ مَن قَبلَهُ، فيكونُ مُجدِّدًا له، بخلاف الرَّسولِ فإنَّه مَن أُوحِيَ إليه بشَرعٍ، وأُرسِلَ إلى قومٍ مخالفينَ لَهُ[2].

وعلى هذا: فالنَّبيُّ مؤكِّدٌ، والرَّسولُ مؤسِّسٌ.

المَغفِرَةُ والرَّحمَةُ:

المغفرةُ طريقُ الرَّحمةِ، والرَّحمة سببٌ في المغفرة

الفَرقُ بينَهما مِن أَوجُهٍ: **أوَّلُها**: أنَّ أصلَ الغَفرِ في اللُّغَةِ: السَّترُ[3]، وأصلَ الرَّحمَةِ: الرِّقَّةُ والعَطفُ[4]. **ثانيها**: أنَّ أحدَهما سبَبٌ في الآخَرِ، ومال ابنُ عَرفة إلى أنَّ الرَّحمةَ سببٌ في المغفرة؛ لأنَّ الرِّقَّةَ والعطفَ يوجِبان عادةً سَترَ الزَّلَلِ[5]، إلّا أنَّ ظاهِرَ القرآنِ الكريم عكسُه؛ وهو كونُ المغفرة سببًا في الرَّحمة، كما قال الله تعالى: ﴿لَوۡلَا تَسۡتَغۡفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ٤٦﴾ [النّمل: 46]. **وثالثُها**: أنَّ المغفرةَ والرَّحمةَ إذا جُمِعا في محلٍّ واحدٍ؛ انصرفَتِ المغفرةُ لسَترِ ما مضى منَ الذُّنوبِ، والرَّحمةُ لِلعِصمة مِنها فيما يُستقبَلُ[6] إذا كان ذلكَ جزاءً في الدُّنيا؛ لأنَّ الآخرةَ لا يُتصوَّرُ فيها ذنوبٌ حتَّى يُحتاجَ إلى العصمةِ منها. ورابِعُها: أنَّ المغفرةَ فيها زَوالُ المَكروه مِن آثار الذُّنوب، والرَّحمةَ فيها تحصيلُ المَطلوب[7].

---

(1) مصطفى السُّليمانيّ، الجواهر السُّليمانيَّة، ص: 27 - 28.
(2) ابن تيميّة، النُّبوّات: 2/714 - 715.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (غفر).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (رحم).
(5) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/435 - 2/258.
(6) ابن عثيمين، شرح ثلاثة الأصول وأدلّتها، ص: 19.
(7) ابن عثيمين، تفسير الفاتحة والبقرة: 3/66.

المَغفِرَةُ والعَفوُ:

العفوُ واقعٌ عند تركِ الواجبات، والمغفرةُ واقعةٌ عند فعلِ المُحرَّمات

الفرقُ بينَهما مِن ثلاثةِ أَوجُهٍ: أحدُها: أنَّ أصلَ الغَفرِ في لُغة العربِ: السَّترُ[1]، وأصلَ العَفوِ: المحوُ وتركُ الشَّيءِ[2].وثانيها: أنَّ الغالبَ استعمالُ العفوِ في تركِ الواجباتِ، واستعمالُ المغفرةِ في فعل المحرَّماتِ[3].وثالثها: أنَّ أحدَهُما أبلغُ مِنَ الآخَرِ، وقد وقع خلافٌ في تَعيينِ الأبلَغِ مِنهُما على قولَينِ: أحدهما: أنَّ العفوَ أبلغُ مِنَ المغفرة؛ لأنَّ المغفرةَ تُنبِئُ عَنِ السَّترِ، بخلاف العفو فإنَّه مُشعِرٌ بالمَحْوِ، والمحْوُ أبلغُ منَ السَّترِ[4].

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (غفر).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عفو)، وابن الأثير، النِّهاية في غريب الحديث والأثر: (عفا).
(3) ابن عثيمين، شرح العقيدة الواسطيَّة: 1/341.
(4) الصَّفّوريّ، نزهة المجالس ومنتخب النَّفائس: 1/88.

﴿وَإِن يُرِيدُواْ خِيَانَتَكَ فَقَدۡ خَانُواْ ٱللَّهَ مِن قَبۡلُ فَأَمۡكَنَ مِنۡهُمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٧١﴾ [الأنفال: 71]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الرَّبطُ بين معاملة الأسرى، في حالتي المسالمة والخيانة، وبين كون الله قادرًا عليهم

لمّا أمَرَ اللّهُ سُبحانَهُ نبيَّهُ ﷺ في الآيةِ السّابقة بعَرضِ البُشرَى على الأَسرى في قولِهِ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيۡدِيكُم مِّنَ ٱلۡأَسۡرَىٰٓ إِن يَعۡلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمۡ خَيۡرٗا يُؤۡتِكُمۡ خَيۡرٗا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ﴾، وكانَ تقديرُ الكلام: فإنْ صدَّقوك وقبِلوا هذه البُشرَى مِنَ اللّهِ سُبحانَهُ، فإنَّه يوفِّي لَهُم ما وعدَهُم؛ جاءَت هذه الآيةُ تسليةً لرسول اللّه ﷺ وتطمينًا له من غدرِهم ومكرِهم إذا خانوا رسول اللّه ﷺ بقوله ﷻ: ﴿وَإِن يُرِيدُواْ خِيَانَتَكَ فَقَدۡ خَانُواْ ٱللَّهَ مِن قَبۡلُ فَأَمۡكَنَ مِنۡهُمۡۗ﴾[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿خِيَانَتَكَ﴾: الخاءُ والواوُ والنّونُ تدورُ تصاريفُها على مَعنَى التَّنَقُّص، ومِنهُ: الخيانَة، يُقال: خانَهُ يخونُهُ خَونًا وخيانَةً؛ إذا نقصَ وفاؤُهُ[2]، وحقيقةُ الخيانَةِ: أَن يُؤتَمنَ الإنسانُ، فلا يَنصَح[3]، أَو هيَ: مُخالَفَةُ الحَقِّ بِنَقضِ العَهدِ في السِّرِّ[4]، ومِن هذا قولُ اللّه تعالى: ﴿وَإِن يُرِيدُواْ خِيَانَتَكَ فَقَدۡ خَانُواْ ٱللَّهَ مِن قَبۡلُ فَأَمۡكَنَ مِنۡهُمۡۗ﴾.

2) ﴿فَأَمۡكَنَ﴾: الميمُ والكافُ والنّونُ تدلُّ اشتقاقاتُها على مَعنَى رُسوخِ الشَّيءِ مُتَجَمِّعًا مِن دُقاقٍ في باطِنٍ يَلتَئِمُ عليه، ومِنه قولُهُم: مَكَّنَهُ مِنَ الشَّيءِ، ومَكّنَ له، أي: جَعَلَ له سُلطانًا عليه، وقَدّرَهُ،

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 8/335.
(2) ابن دُرَيْد، جمهرة اللّغة: (خون)، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (خون).
(3) ابن سِيدَه، المُخصَّص: 1/286.
(4) الرّاغب، المفردات: (خون).

والتَّمكينُ مِنَ الشَّيءِ: إنالةُ ما يَصِحُّ الفعلُ بِهِ مِنَ الآلاتِ والقوَى، و(أَمكَنَ) يَرِدُ بمعنى (مكَّنَ)، ومِنه قولُ اللّه سُبحانَهُ: ﴿فَأَمۡكَنَ مِنۡهُمۡۖ﴾؛ ومعناهُ: مكَّنَ المُسلِمينَ مِنهم، وجعَلَهُم أَسرَى في أَيديهِم[1].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

مَنْ خان الله ورسوله من الأسرى، أمكن اللهُ منهم، واستأصل شأفتَهم

في هذه الآية يقولُ اللّهُ تعالى لرسوله: وإنْ يُرِد هَؤُلاءِ الأَسرى الّذينَ في أَيديكُم الغَدرَ بِكَ والمَكرَ والخِداعَ، بإظهارِهِم لكَ بالقَولِ خلافَ ما في نُفوسِهم، فلا تَيأَس؛ فقَد خالَفوا أَمرَ اللّهِ سُبحانَهُ مِن قَبلِ معرَكَةِ بَدرٍ، فأَمكَنَ منهم المُؤمِنينَ ببدرٍ، واللّهُ عليمٌ بما يقولونَ بأَلسِنَتِهِم، ويُضمِرونَهُ في نُفوسِهِم، حَكيمٌ في تَدبيرِهِم وتَدبيرِ أُمورِ جَميعِ خَلقِه[2].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

عِلَّةُ الوَصلِ بربط الآية الكريمة بِما قَبلَها:

الجَمعُ بَينَ الوَعدِ والوَعيدِ مِن طَرائِقِ القُرآنِ الكَريمِ في البيان

وُصِلَ قَولُ اللّهِ ﷻ: ﴿وَإِن يُرِيدُواْ خِيَانَتَكَ﴾ بما قَبلَهُ: ﴿إِن يَعۡلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمۡ خَيۡرٗا يُؤۡتِكُمۡ خَيۡرٗا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ﴾؛ لِما بينَ الجُملَتينِ مِنَ التَّوسُّطِ بين الكمالَينِ، وذلكَ أنَّ كِلتا الجملَتَينِ خبريَّةٌ، وبينَهُما تضادٌّ، وذلكَ أنَّ الجُملَةَ الأولَى واردَةٌ على جِهَةِ الوَعدِ، فهي كلامٌ مَسوقٌ من جهته سبحانَه طمأنةً وتسليةً للنّبيّ ﷺ بطريق الوعدِ، وليُبلِغ مضمونَه الأسرى ليعلموا أنّهم لا يغلبون اللّه ورسولَه، وهذا من باب الوعيدِ لهم كما في الجملةِ الثّانيةِ.

نُكتَةُ تَعليقِ الشَّرطِ بـ(إنْ):

خيانَةُ الأَسرَى للنَّبيِّ ﷺ ليسَ مَقطوعًا بها

(إنْ) في أصلِ وضعِها تدلُّ على عَدَمِ القَطعِ بوقوعِ مدخولِها، وعُلِّقَ الشَّرطُ بها في قَولِ اللّهِ ﷻ: ﴿وَإِن يُرِيدُواْ خِيَانَتَكَ﴾؛ جريًا

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصَّل: (مكن).

(2) ابن جرير، جامع البيان: 14/75، ونخبة من العلماء، التَّفسير المُيسَّر، ص: 186.

على الأَصلِ في إفادة الشَّكِّ؛ إذ إنَّ خيانَتَهُم النَّبيَّ ﷺ ليسَ مقطوعًا بها؛ لأنّ وضعَ الأسيرِ بما يُؤخَذُ عليه من شروطٍ والتزاماتٍ يجعلُه في موضع الالتزام بما طُلِبَ منه من عدمِ قتالِ المسلمين وتأليبِ الأعداءِ عليهم، وأيضًا؛ لأنّ رسولَ اللّه ﷺ بقيادته للمسلمين فى موضعِ القوّة؛ ففكرةُ العودةِ إلى الخيانة أمرٌ مشكوكٌ فيه، ولما تحمله جملةُ الوَعدِ في قولِه تعالى: ﴿إِن يَعۡلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمۡ خَيۡرٗا يُؤۡتِكُمۡ خَيۡرٗا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ﴾ مِن ترغيبِهم في الإسلام وحُسنِ التّلطّف معهم.

سِرُّ التَّعبيرِ بأسلوب الشَّرط عن إرادة الخيانة:

جاءَ التَّعبيرُ بإرادَةِ الخيانَةِ في قولِ اللّه سُبحانَهُ: ﴿وَإِن يُرِيدُواْ خِيَانَتَكَ﴾ دونَ الخيانَةِ نفسِها، فلم يَرِدِ النَّظمُ القرآنيُّ: (وَإِنْ يخونوكَ)؛ وذلك لأنَّ سياقَ الآيَةِ واردٌ لِمَعنَى الوَعيدِ، وتعليقُ الوعيدِ على إرادَةِ الخيانَةِ أَبلَغُ مِن تعليقِه على الخيانَةِ ذاتِها، وفي هذا إظهارٌ لسُرعَةِ عقابِ اللّهِ تعالى لِمَن تَبدُرُ منه مبادئُ الخيانَةِ بإرادتِه لها.

عِقابُ اللّهِ تعالى لِمَن أبدى من الخيانة ما يستحقّ به الإهانة

دلالةُ التّعبيرِ بعبارة: ﴿وَإِن يُرِيدُواْ﴾:

عبّرَ القرآنُ الكريمُ بالإرادة دون النِّيَّة؛ لأنّ الإرادةَ عزمٌ على الفعل؛ فتحوَّل من مجرَّد خاطرٍ إلى فعلٍ له أثرٌ في الواقع، بأن يعودوا للقتال مرّة ثانيةً، أمّا النِّيَّة؛ فهي مجرّد خاطرٍ لا يخرجُ إلى الواقع، ومن رحمةِ اللّهِ أنّه لا يحاسبُهم على هذا الخاطر لعلمه بما يقعُ في نفوس المأسورين.

الإرادةُ عزمٌ، والنّيّة خاطرٌ، ولكليهما دور في نجاح العمل واكتماله

دلالةُ التّعبير بالإضمار في ﴿وَإِن يُرِيدُواْ﴾:

عبّرَ بالضّمير في قوله: ﴿وَإِن يُرِيدُواْ﴾ لتعدُّد المُرادِ بهذا الضّمير؛ فبعضُ العلماء يرى أنّه يعودُ إلى الكفّار الّذين يخونون العهودَ في المستقبل، وبعضهم يرى أنّه يعودُ إلى الّذين جنحوا للسَّلم في قوله: ﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلۡمِ فَٱجۡنَحۡ لَهَا﴾، ولا يعبأُ الرَّسول ﷺ بما يفعلون إن

اختلافُ مرجعِ الضّميرِ، إثراءٌ للسّياق أثير

أرادوا الخيانةَ بعد أن جنحوا للسَّلم، وذهب البعض إلى أنَّ الضمير يعودُ للأسرى الّذين عاهدوا النّبيَّ ﷺ أن يكفّوا أذاهم عنِ المسلمين فإن خالفوا ذلك، ولم يكفّوا فلا تأبه بهم؛ فالملاحظُ أنّ التّعبيرَ بالضّمير في قوله: (يريدون) أعطى مساحةً في المرادِ بهم، ولو عبّرَ بالظّاهر؛ لاختصَّ بفريقٍ أو بجماعةٍ دون الآخرين.

سرُّ التّعبيرِ بالخيانة دون غيرها:

وُرودُ التّعبير بالخيانة، للتّنفير منها، ومن مُرتكبيها

آثرَ التّعبيرَ بالخيانة دون غيرها في قوله: ﴿وَإِن يُرِيدُواْ خِيَانَتَكَ﴾؛ لأنّ الخيانةَ تُقال اعتبارًا بالعهد والأمانة؛ لذلك كان اختيارُها هو المناسبَ لهذا السِّياق؛ لأنّ الخيانةَ تعني مخالفةَ الحقِّ بنقض العهدِ في السِّرِّ، وهذا هو المناسبُ لسلوك الأسرى إذا خانوا العهد[1].

دِلالَةُ الإضافَةِ في ﴿خِيَانَتَكَ﴾:

النَّبيُّ ﷺ أفضلُ الخَلقِ مَجدًا، وأوثقهم عَهدًا

إضافَةُ الخيانَةِ إلى ضميرِ الخِطابِ في قولِهِ سُبحانَهُ: ﴿وَإِن يُرِيدُواْ خِيَانَتَكَ﴾ مِن إضافَةِ المصدَرِ إلى مفعولِهِ، والمعنَى: وإنْ يُريدوا أَن يَخونوكَ.

وضميرُ الخِطابِ يُرادُ بهِ النَّبيُّ ﷺ، وخُصَّ بذلكَ لكونِهِ أفضَلَ الخَلقِ في شرَفٍ وأَعلاهُم في عَهْدٍ[2]، وفيها إشارةٌ إلى أنّ خيانةَ الرَّسول ﷺ خيانةٌ للّه.

سرُّ التّعبيرِ بالمصدر الصَّريح:

إفادةُ تأصُّلِ الفعلِ من مُرتكِبه، دلالةٌ على دقّة الاستعمال وأصالته

آثرَ التّعبيرَ بالمصدر الصَّريح ﴿خِيَانَتَكَ﴾، دون المصدر المؤوّلِ (أن يخونوك)؛ لأنّ المصدر الصّريح يدلُّ على الحدث من غير زمنٍ؛ فكأنّه يشيرُ إلى أنّ أمرَ الخيانةِ في هؤلاء الأسرى، أو على أنَّ المرادَ بهم الكفّارُ الّذين تكون الخيانةُ من طبائعهم الّتي لا تنفكُّ

(1) الرّاغب، المفردات: (خون).
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/335.

عنهم، يؤكّد هذا قوله تعالى: ﴿فَقَدْ خَانُواْ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ﴾، أمّا المصدرُ المؤوّلُ؛ فيدلُّ على الخيانة مع تجدُّد الزّمن.

دِلالَةُ (الفاءِ) في ﴿فَقَدْ﴾:

مَن تَقَدَّمَت منه خيانَةٌ؛ لا يُستَبعَدُ مِنه تَكرارُها

الفاءُ في قولِ اللّهِ سُبحانَهُ: ﴿فَقَدْ خَانُواْ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ﴾ داخِلَةٌ على ما قامَ مقامَ جَوابِ الشَّرطِ[1]، ودخولُها هَهُنا واجِبٌ؛ لاقترانِ هذه الجُملَةِ بـ(قَد)، وجوابُ الشَّرطِ الحقيقيُّ محذوفٌ، والتَّقديرِ: وإن يُريدوا خيانَتَكَ؛ فإنَّ ذلك غيرُ مُستَبعَدٍ منهُم؛ فقد خانوا اللّه سُبحانَهُ مِن قَبلُ[2]، ففيه إيجازٌ بالحذفِ؛ إذ طُوِيَ مِنَ الكلامِ ما دلَّ السِّياق عليه.

نُكتَةُ التَّأكيد بـ(قَد):

الوُقوعُ في الجُرمِ مَرَّةً، مَظِنَّةٌ لِلعَودِ إليهِ، إذا غابت الخشية لله

قولُ اللّهِ سُبحانَهُ: ﴿فَقَدْ خَانُواْ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ﴾، جملَةٌ خبريَّةٌ دَخَلَت عليها (قَد)، فأفادَت تقويَتَها وتأكيدَ مضمونِها، وأنَّ خيانتَهُم مِن قَبلُ ثابتَةٌ ثُبوتًا مُؤكَّدًا، ومَن ثبتَ ذلك عنه مرَّةً لا يُستَبعَدُ صدور ذلك منه مرَّةً أُخرَى.

سِرُّ التّعبيرِ بالماضي ﴿خَانُواْ﴾:

خيانةُ المشركِ مُتحقِّقَةٌ، في خيانته للمعبود الواحد

عبّرَ عن خيانتهم بالفعل الماضي ﴿خَانُواْ﴾؛ للدّلالة على تحقُّق وقوعِ الخيانةِ منهم؛ حيث عبدوا الأحجارَ والأوثانَ، وهمّوا بقتلِ الرّسول أو حبسِه أو إخراجِه من مكَّةَ، وكلُّ ذلك من بابِ الخيانةِ العظمى.

دلالَةُ التَّعبيرِ باسمِ الجلالة (الله):

خيانَةُ النَّبيِّ الأكرم جُرمٌ، وخيانَةُ اللهِ تعالى أعظَمُ

عُلِّقَت خيانَتُهُم باسمِ الجلالة (اللّه) في قولِه ﷻ: ﴿فَقَدْ خَانُواْ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ﴾ تعظيمًا لهذهِ الخيانَةِ؛ إذ خانوا المَلِكَ الأعظَمَ الجامعَ لصفاتِ الجلالِ والجمالِ والكمالِ[3]، وإذا صدرَت هذه الخيانَةُ العظيمَةُ مِنهُم؛ فخيانَتُهم لنبيِّهِ ﷺ غيرُ مُستغرَبَةٍ ولا مُستَبعَدَةٍ.

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 5/232.
(2) الهرريّ، تفسير حدائق الرّوح والرّيحان: 11/96.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/335.

الحروفُ ذاتُ معانٍ في إبرازِ دقائقِ البيانِ القُرآنيِّ

دِلالَةُ (مِنْ) في ﴿مِن قَبْلُ﴾:

(مِنْ) في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿فَقَدْ خَانُواْ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ﴾ أفادَت مَعنَيين: أحدُهُما: تَوكيدُ المَعنَى وتَقويَتُهُ، وهذا هو المَعنَى الغالِبُ على (مِنْ) الواقِعَةِ مع (قَبلُ) و(بَعدُ)، والآخَرُ: الإيماءُ إلى أنَّ خيانتَهُم لَم تَكُن مُستغرِقَةً للزَّمَنِ[1].

خيانَةُ العِبادِ لله تعالى، تَكونُ بالكُفرِ والشِّرك وما دونَهُما

الإيجازُ بالحَذفِ في سياق الآية الكريمة:

في قولِ اللّهِ سُبحانَهُ: ﴿فَقَدْ خَانُواْ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ﴾ إيجازٌ بالحذفِ؛ إذْ حُذِفَ المُضافُ إليهِ، وقُصِدَ معناهُ دونَ لفظِهِ، ولذا بُنِيَ (قَبلُ) على الضَّمِّ، والتَّقدير: فقد خانوا اللّه تعالى مِن قبلِ هذا الوقتِ بالكُفرِ وغيرِهِ مِن أنواعِ الفِسقِ[2].

خيانةُ المشركين لن تضرَّ النّبيَّ ﷺ

دلالةُ الإخبارِ بخيانتهم لله:

ذكرَ القرآنُ الكريمُ خيانتَهم للّه؛ لطمأنةِ النّبيِّ ﷺ بأنّ ما يفعلونه معك ليس تهوينًا من شأنك؛ لأنّهم ارتكبوا الخيانةَ مع اللّه قبل ذلك، وفي هذا إشارةٌ إلى أنّهم إن أعادوا الخيانةَ فسنُسلِّطُك عليهم كما فعلنا فيما مضى[3].

دِلالَةُ الفاءِ في ﴿فَأَمْكَنَ﴾:

سُرعَةُ عقابِ الخائنينَ، تُناسب ما يَبدُرُ منهم من سرعة الخيانة

الفاءُ في قولِه ﷻ: ﴿فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ﴾ عاطِفَةٌ[4]، وهي واردَةٌ على أصلِها في الدِّلالَةِ على التَّعقيبِ، وفي هذا دِلالَةٌ على سُرعَةِ إنزالِ اللّه تعالى عُقوبَتَهُ بالخائِنينَ، وفي هذا زجرٌ لِمَن تُسوِّل له نفسُه فعلَ الخيانة مع اللّه ورسوله.

سِرُّ التَّعبيرِ في ﴿فَأَمْكَنَ﴾:

آثرَ التَّعبيرَ بالتَّمكين في قوله: ﴿فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ﴾؛ لأنّ التّمكينَ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/335.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/335.
(3) حاشية القونويّ: 9/136.
(4) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 4/46.

يُطلَقُ على المكان والمكانة؛ فيُقال: مكَّنتُ له فتمكَّنَ، ويُقال: مَكَانٌ ومَكَانةٌ[1]؛ لذلك آثرَ التَّعبيرَ به دون القُدرة مثلًا؛ لأنّ التّمكينَ أعمُّ منَ القدرة؛ فالتّمكُّنُ منهم يعني القُدرةَ عليهم؛ بخلاف ما لو عبَّرَ بالقُدرة فإنّه قد لا يكون معه التّمكين؛ لأنّ القدرةَ وصفٌ لهيئةِ الإنسانِ إذا كان قادرًا على فعل شيءٍ ما، وأيضًا لأنّ التّمكينَ يشيرُ إلى عُلوِّ المكانة.

لفظُ (التَّمكين) فيه علوٌّ وقوَّةٌ، والله أعلى وأقوى من كلِّ عُتلٍّ جبّارٍ

نُكتَةُ العُدولِ في ﴿فَأَمۡكَنَ مِنۡهُمۡۗ﴾:

في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿وَإِن يُرِيدُواْ خِيَانَتَكَ فَقَدۡ خَانُواْ ٱللَّهَ مِن قَبۡلُ فَأَمۡكَنَ مِنۡهُمۡۗ﴾ عُدِلَ عَنِ التَّعبيرِ بـ (فخانَهُم)، فلَم يَرِدِ النَّظمُ القرآنيُّ (وإن يُريدوا خيانَتَكَ فقد خانوا اللّه مِن قبلُ فخانَهُم) على ما في نظائرِه، كقوله سُبحانَهُ: ﴿إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمۡ﴾ [النّساء: 142]، وقولِه جلَّ وعلا: ﴿وَيَمۡكُرُونَ وَيَمۡكُرُ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ ٣٠﴾ [الأنفال: 30]؛ وذلِكَ لأنَّ الخيانَةَ خِداعٌ في مَقامِ الائتِمانِ، فهيَ بهذا الاعتبارِ نقصٌ بكلِّ حالٍ، وليسَ فيها وجهٌ لِلكمالِ[2]، بخلافِ الخِداعِ والمَكرِ فإنَّه يقَعُ فيها الكمالُ والمدحُ، وهُما بهذا الاعتبار مِن أوصافِ اللّهِ تعالى على سبيلِ المقابلَةِ، ولا يصحُّ إرادَةُ ما فيهما مِن معاني النَّقصِ، أمّا الخيانَةُ؛ فلا مَدحَ فيهما ألبتَّةَ، ولذا لَم يَجُزْ أَن يَرِدَ النَّظمُ القرآنيُّ: (فخانَهُم)؛ لتمحُّضِ الخيانَةِ لمعاني النَّقص.

تَمَحُّضُ الخيانَةِ لِمَعاني النَّقصِ وسوء التَّصرُّف

دِلالَةُ الإيجازِ بالحَذفِ في سياقِ الآيةِ:

في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿فَقَدۡ خَانُواْ ٱللَّهَ مِن قَبۡلُ فَأَمۡكَنَ مِنۡهُمۡۗ﴾ دليلٌ على مَحذوفٍ في قولِه: ﴿وَإِن يُرِيدُواْ خِيَانَتَكَ فَقَدۡ خَانُواْ ٱللَّهَ﴾، والتَّقديرُ: وإنْ يُريدوا خيانَتَكَ فإنَّ ذلكَ ليسَ مُستبعَدًا مِنهُم،

بيانُ التَّحذيرِ مِنَ العاقِبَةِ السَّيِّئَةِ للخيانَةِ

(1) الرّاغب، المفردات: (مكن).

(2) ابن عثيمين، شرح العقيدة الواسطيّة: 1/143.

وسَيُمكِّنُكَ اللّهُ تعالى مِنهم، مِثلَ ما أمكنَ مِنهُم مِن قَبلُ عِندَ وقوعِ الخيانَةِ[1].

لفظُ (أَمْكَنَ) بَينَ المجازِ والكِنايَةِ:

الفعلُ (أَمْكَنَ) مِن قول اللّهِ سُبحانَهُ: ﴿فَأَمۡكَنَ مِنۡهُمۡۖ﴾ مُشتَقٌّ مِنَ المكانِ، والهمزَةُ في أوَّلِهِ للجَعلِ، ومعنى: (أَمكَنَ فلانٌ فلانًا مِن كذا)؛ أي: جعل لَهُ مكانًا؛ أي: مَقرًّا، فالمكانُ واردٌ على سبيلِ المجازِ أو الكنايَةِ (عَن كَونِهِ في تَصَرُّفِهِ كما يَكونُ المَكانُ مَجالًا لِلكائِنِ فيهِ)[2]، وفي هذا غايةُ التَّحذيرِ مِنهُم حيثُ أُبرِزَ جزاؤُهُم في قالبِ المحسوسِ؛ لأنَّ إدراكَ المحسوساتِ أقربُ للذِّهنِ، فتكونُ أوقعَ في التَّهديدِ.

المُبالَغةُ في تَهديدِ الخائِنينَ، محاولةٌ لرَدْعِهِم عن فِعلِهِم المُشين

دِلالَةُ (مِن) في ﴿فَأَمۡكَنَ مِنۡهُمۡۖ﴾:

(مِنْ) في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿فَأَمۡكَنَ مِنۡهُمۡۖ﴾ اتِّصاليَّةٌ، وذلك أنَّ (مِنْ) الّتي يتعدَّى بِها فعلُ (أَمكَنَ) تَرِدُ لهذا المَعنَى، كالّتي في قولِهِم: لستُ مِنكَ ولستَ مِنّي.

سِياقُ الكَلامِ موَجِّهٌ للمَعاني، مُبَيِّنٌ لِما استَكَنَّ مِنها

وفي الآيةِ إيجازٌ بالحذفِ، وذَلِكَ بحذفِ مفعولِ (أَمكَنَ)، والتَّقديرُ: فأمكَنَكَ اللّهُ مِنهُم، والّذي دلَّ على تعيينِ المَحذوفِ: سياقُ الكلامِ[3].

دِلالَةُ الخَبَرِ في جواب الشَّرط:

قولُ اللّهِ ﷻ: ﴿وَإِن يُرِيدُواْ خِيَانَتَكَ فَقَدۡ خَانُواْ ٱللَّهَ مِن قَبۡلُ فَأَمۡكَنَ مِنۡهُمۡۖ﴾ جملَةٌ خبريَّةٌ، وذلكَ أنَّ التَّحقيقَ في الجُملَةِ الشَّرطيَّةِ يُنظَرُ إِلَيها باعتبار جوابِها، فإن كان جوابُها خبرًا فهي خبريَّةٌ، وإن كانَ جوابُها إنشاءً فهي جملةٌ إنشائيَّةٌ، والجوابُ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿فَقَدۡ خَانُواْ ٱللَّهَ مِن قَبۡلُ فَأَمۡكَنَ مِنۡهُمۡۖ﴾ خبرٌ، فجملَةُ الشَّرطِ خَبَريَّةٌ.

لُطفُ اللهِ تعالى بمُصطفاه، بطريقِ الوَعدِ له، والوَعيدِ لمن عاداه

(1) السّمرقنديّ، بحر العلوم: 2/34.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/82.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/83.

وهذا الخبَرُ مَسوقٌ مِنَ اللّٰهِ تعالى تسليَةً لنبيِّهِ ﷺ بطريقِ الوَعدِ لَهُ والوعيدِ والتَّهديدِ لَهُم[1]، فهو بهذا الاعتبارِ مجازٌ مُرسَلٌ مُركَّبٌ.

نُكتَةُ تَعريفِ المُسنَدِ إليهِ (الله):

إرادةُ التَّعظيم والمهابةِ بذكر اسم اللّٰه الأعظم مبرزًا بالتَّعريف بالعَلَميَّة

عُرِّفَ المُسنَدُ إليهِ بالعَلَميَّةِ (اللّٰه) في قولِ اللّٰهِ ﷻ: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ لإرادَةِ التَّعظيم، وبيانِ قَدرِ الوصْفَيْنِ اللَّذَينِ دلَّ عليهما الاسمانِ الواردانِ في الخَبَرِ؛ وهُما وصفُ العِلمِ والحِكمَةِ، وأنَّهما وَصفانِ لا مُنتَهَى لكمالِهما؛ لكونِهما وصفَي مَن لَهُ جميعُ صفاتِ الجلالِ والجمالِ والكمالِ.

سِرُّ الإظهارِ في مَحَلِّ الإضمارِ:

الدّلالةُ على معاني الجلالِ والجَمالِ والكَمالِ في السّياق

في قولِ اللّٰهِ ﷻ: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ إظهارٌ في مَوضِعِ الإضمارِ، وذلكَ أنَّ مقتضَى الظَّاهِرِ أن يَرِدَ النَّظمُ القرآنيُّ: (وهو عَليمٌ حكيمٌ)؛ لتقدُّمِ ذِكرِ اسمِ الجلالةِ (اللّٰه) في قولِه: ﴿فَقَدْ خَانُواْ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ﴾، وأُظهِرَ في هذا الموضِعِ، فقالَ ﷻ: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾، والنُّكتَةُ في ذلكَ: إدخالُ المهابَةِ وتَربيَتُها؛ لِما يدلُّ عليهِ الاسمُ الأَحسَنُ مِن معاني الكمالِ.

بلاغةُ التَّذييلِ في آخرِ الآيةِ الكريمة:

بَيانُ سَعَةِ عِلمِ اللّٰهِ تعالى ودَقيقِ حِكمَتِهِ ﷻ

قولُ اللّٰهِ ﷻ: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ تذييلٌ جارٍ مَجرَى المثَلِ؛ لِاستقلالِهِ وعَدَمِ افتقارِهِ إلى ما قبلَهُ في إدراكِ تمامِ المُرادِ منه، وفيهِ إيماءٌ إلى سعَةِ عِلمِ اللّٰهِ تعالى ودقيقِ حِكمَتِهِ سُبحانَهُ، فقولُه تعالَى: ﴿عَلِيمٌ﴾؛ أي: عليمٌ بما تُكِنُّهُ قلوبُهُم، ﴿حَكِيمٌ﴾ في معامَلَتِهم حَسَبَ ما يَعلَمُهُ مِنهُم[2].

مُناسبةُ خِتامِ الآيَةِ لِمَضمونِها:

في خَتمِ الآيةِ بالاسمَينِ الكريمَينِ (العَليم) و(الحكيمُ) في قولِ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/37، والآلوسيّ، روح المعاني: 5/232.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/83.

حِكمَةُ اللهِ تعالى تَقتَضي تَوهينَهُ كَيدَ الكُفّارِ، وإتقانَهُ ما يواجههم به

اللّهِ ﷻ: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ تناسُبٌ بديعٌ؛ إذ إنَّ عِلمَ اللّهِ تعالى الواسِعَ يقتَضي عِلمَهُ بأحوالِ هؤلاءِ، وما يُضمِرونَهُ مِن أَمرِ الخيانَةِ، وحِكمَتَهُ سُبحانَهُ تقتضي تَوهينَهُ كَيدَهُم، وإتقانَهُ ما يُقابِلُهم بِهِ، فهو لاحقُهُم لا محالَةَ[1].

سرُّ تقديمِ ﴿عَلِيمٌ﴾ على ﴿حَكِيمٌ﴾:

اللهُ لا يخفى عليه شيءٌ، وأفعالُه كلُّها حكيمةٌ

قدَّمَ العِلمَ على الحكمةِ في قوله: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ مناسبةً لِمَا وردَ في صدر الآية؛ حيث تكلّمَتْ عن إرادة وقوعِ الخيانةِ منَ الكُفَّار عمومًا أو منَ الأسرى خصوصًا بناءً على المُراد بالضّمير في قوله: ﴿وَإِن يُرِيدُواْ﴾، وأمرُ الخيانةِ يقعُ تدبيرُه في الخفاء؛ فناسبَ أن يُقدِّمَ العلمَ ليعلّمَهم بأنّه لا تخفى عليه خافيةٌ؛ فهو عليمٌ بنِيَّات قلوبهم.

سرُّ اختلافِ فاصلةِ هذه الآية عن سابقتها:

التَّرغيبُ بعد التَّرهيب منهجٌ في العقاب والتَّأديب

خُتِمَت فاصلةُ هذه الآية بقوله: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾، في حين خُتِمَت فاصلةُ الآيةِ السَّابقةِ بقوله: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾؛ وذلك مراعاةٌ للتّناسب بين معنى الآيتين؛ فالآيةُ الأُولى كان الحديثُ فيها عن بعض أحوالِ الأسرى، وما أُخِذَ منهم، وهذا أمرٌ يتبعُهُ كراهيةٌ ومعصيةٌ منَ الأسرى؛ لذلك كان صدورُ المعصيةِ منهم مُتوقَّعًا، ويريدُ القرآنُ أن يُرغِّبهم في العودة إلى الإسلام؛ فأعلمَهم بأنّ اللّه يسترُ ما كان منهم منَ المعاصي، ويرحمُهم إذا آمنوا باللّه ورسوله؛ فقال في ختام الآية: ﴿إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

أمّا الآيةُ الثّانيةُ الّتي خُتِمَت بقوله: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ فمع ما سبق ذِكرُه يظهرُ للقارئ التَّناسبُ الجميلُ في اختيار تذييلِ الآيةِ بالعلم والحكمة؛ لارتباطهما بمضمونِ معنى الآيةِ الّتي تتحدَّثُ عن

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/336.

إرادةِ الخيانةِ لرسول الله ﷺ، وما أعلمَ اللهُ به رسولَه في طمأنته بتمكُّنه منهم إن هم فعلوا ذلك؛ فهو سبحانَه عليمٌ بكلِّ النيات، حكيمٌ فيما يصنعُ فيهم.

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الخيانَةُ والخِداعُ:

بين الخيانة والخداع عمومٌ وخصوصٌ، وكلاهما من المنهيات المُفسِدة

الخداعُ هو إظهارُ أمرٍ، وقد أَضمَرَ الخادِعُ خلافَه[1]، وقَد يكون المُضمَرُ لَهُ يستحقُّ ذلكَ، كعقوبَةٍ يستحقُّها يَفجَؤُهُ بها، ونحو ذلكَ، بخلاف الخيانَةِ؛ فإنَّها مُخالَفَةُ الحَقِّ بِنَقضِ العَهدِ في السِّرِّ[2]، ولذا تُعرَّفُ الخيانَةُ بأنَّها خِداعٌ في مَقامِ الائتِمانِ[3]، وبهذا التَّقريرِ يتبيَّنُ أنَّ الفرقَ بين الخيانَةِ والخداعِ مِن وَجهَينِ:

أحدُهُما: أنَّ الخداعَ أَعَمُّ مُطلَقًا مِنَ الخيانَةِ؛ إذِ الخيانَةُ خداعٌ خاصٌّ، وهو الخداعُ في مقامِ الائتِمانِ، والآخَرُ: أنَّ الخداعَ فيه ما هو حقٌّ، وفيه ما هو باطلٌ، ولذا صحَّ وصفُ اللهِ تعالى بالخداعِ على جِهَةِ المقابَلَةِ بالمَعنَى الحقِّ الّذي فيهِ، فيُقال: يُخادعُ اللهُ تعالى مَن يُخادِعُهُ، بخلاف الخيانَةِ؛ فإنَّها كُلَّها باطلٌ ونقصٌ، ولا يصحُّ وصفُ اللهِ تعالى بِها بحالٍ؛ لتمحُّضِها للنَّقص، ولا كمالَ فيها بوجهٍ منَ الوجوهِ.

(1) ابن الأنباريّ، الزّاهر في معاني كلمات النّاس: 2/284.
(2) الرّاغب، المفردات: (خون).
(3) ابن عثيمين، شرح العقيدة الواسطيّة: 1/143.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيۡءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْۚ وَإِنِ ٱسۡتَنصَرُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ فَعَلَيۡكُمُ ٱلنَّصۡرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوۡمِۭ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُم مِّيثَٰقٞۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ٧٢﴾ [الأنفال: 72]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الـعـلاقـة بين قـدرة الله على كـلِّ خـائـنٍ، والـخـطـوط الـفـاصـلـة بين مَـن نُـوالي ومَـن نُعادي

في مناسبة هذه الآية لما قبلَها وجوهٌ عدَّةٌ:

أوّلًا: لمّا ذكرتِ الآياتُ السّابقةُ مراحلَ الصّراعِ الّذي كان قائمًا بين الفريقين، وما نتجَ عنه من قتلٍ لبعض المشركين، وأسرٍ لبعضهم، وكيفيَّة التَّعامل مع الأسرى في أخذِ الفديةِ وعدمِها، كان منَ المناسب أن تُختمَ السّورةُ بهذه الآيات الّتي تخطِّطُ حدودَ التّعامل، وترسمُ المواقفَ الّتي يأخذُها المؤمنون منَ الكافرين حتّى يكونوا على بيِّنةٍ من أمرهم فيما يأخذون أو يدعون منَ الجبهة المقاتلة لهم، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ﴾ ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾[1].

ثانيًا: لمّا كانتِ الآياتُ السّابقةُ تتحدّثُ عن قتالِ المسلمين للكفّار، وما نتج عنه من أسرى، وكيفيّةِ التّعاملِ معهم مع وجودِ قرابةٍ لهم، إلّا أنّهم ضربوا بهذه القرابة عُرضَ الحائط، مُستبدلين بها قرابةَ الإسلام؛ جاءَت هذه الآياتُ لتتحدّثَ عن رابطة الإسلام، وأنّها أقوى من كلِّ رابطةٍ حتّى ولو كانت رابطةَ النّسبِ، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ﴾ الآية[2].

(1) الخطيب، التّفسير القرآنيّ: 3/3683.
(2) حجازي، التّفسير الواضح: 10/26.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ءَامَنُواْ﴾: الهَمزَةُ والميمُ والنّونُ: تدلُّ على تصديقٍ وسُكونِ قلبٍ[1]، وأصلُ الأَمنِ: طُمأنينَةُ النَّفسِ وزوالُ الخَوفِ[2]، وفِعلُهُ: أَمِنَ، وأمّا الفِعلُ (آمَنَ) فإنَّ له وجهَينِ: أحدُهما: أَن يكونَ مُتعدِّيًا، تقولُ: آمَنتُهُ؛ إذا جعلتَ له الأَمنَ والأمانَ، ومِنه - في وَجهٍ[3] - اسمُ اللّهِ: المُؤمِنُ، والآخرُ: أَن يكونَ لازمًا، ومعنى (آمَنَ) على هذا: صارَ ذا أَمنٍ.

والإيمانُ: التَّصديقُ، باتِّفاقِ أهلِ اللُّغةِ[4]، ويُطلق في الشَّرعِ إطلاقَين[5]: **إطلاقٌ عامٌّ**؛ تَندَرِجُ فيه جميعُ أمورِ الدّين العِلميَّةِ والعَمَليَّةِ، فهو بهذا الاعتبارِ: قولٌ وعملٌ واعتِقادٌ، **وإطلاقٌ خاصٌّ**؛ والمرادُ به التَّصديقُ والإقرارُ بأصولِ الإيمان السِّتَّةِ المشهورةِ.

ويجوزُ أَن يكونَ الإيمانُ الواردُ في قَولِهِ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ مُرادًا بهِ المعنى العامُّ أو الخاصُّ، والأوَّلُ أَعَمُّ وأشمَلُ؛ لاندراجِ الثَّاني فيهِ.

2) ﴿وَهَاجَرُواْ﴾: الهاءُ والجيمُ والرّاءُ تدلُّ تصاريفُها على مَعنَيَينِ كُلِّيَّين؛ أحدُهما: قطعٌ وقطيعةٌ، والآخَرُ: شدُّ شيءٍ ورَبطُه[6]، والمهاجَرةُ في الأصل مُصارَمةُ الآخرِ وتركه، ومِنهُ الهَجرُ والهِجران؛ وهو مفارقةُ الإنسانِ غيرَه، إمّا بالبَدَنِ أو باللِّسان أو بالقَلب[7].

و(هاجَرَ) مِنَ المُهاجَرة؛ وهي: تركُ أرضٍ إلى أرضٍ أخرَى[8]، ثُمَّ خُصَّت في الشَّرعِ بالانتقال إلى بلدِ الإسلام[9].

3) ﴿وَجَٰهَدُواْ﴾: الجيمُ والهاءُ والدّالُ تدلُّ تصريفاتُهُ على المشقَّةِ[10]، ويأتي بمَعنى الطّاقة والوُسعِ[11]. والمُجاهَدَةُ تُطلَقُ في الشَّرعِ على استِفراغِ الوُسعِ في مدافعةِ العَدوِّ،

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (أمن).
(2) الرّاغب، المفردات: (أمن).
(3) الزَّجّاج، تفسير أسماء الله الحسنى، ص: 31 - 32.
(4) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة: (أمن)، وهذا الاتِّفاقُ إنَّما هو في الحقيقةِ اللُّغويَّةِ لِلإيمانِ، أمّا معناه في الشَّرعِ فليسَ هو معناه في اللُّغةِ، بل له في الشَّرعِ حقيقةٌ أُخرى أَوضَحَتها أدلَّتهُ.
(5) البرّاك، شرح العقيدة الطَّحاويَّة، ص: 239.
(6) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (هجر).
(7) الرّاغب، المفردات: (هجر).
(8) الجوهريّ، الصّحاح: (هجر).
(9) السَّفّارينيّ، لوائح الأنوار السَّنيَّة: 2/86.
(10) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (جهد).
(11) الرّاغب، المفردات: (جهد).

وهو ثلاثةُ أضربٍ: مجاهدةُ العدوِّ الظّاهر، ومجاهدةُ الشَّيطانِ، ومجاهدةُ النَّفسِ[1]، وتدخلُ ثلاثتُها في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، والمجاهدةُ تكونُ باليدِ واللّسانِ والمالِ، وسُمِّي بذلكَ؛ لِما فيهِ مِن استِفراغِ ما في الوُسعِ والطّاقةِ من قولٍ أو فعلٍ[2]، ولِما في ذلك مِنَ المشقَّةِ على النّفوس.

4) ﴿ءَاوَواْ﴾: الهَمزَةُ والواوُ والياءُ تَدورُ تصريفاتُها على مَعنَيَين: التَّجمُّعُ، والإشفاقُ[3]، ومِنَ الأوَّلِ التَّأوّي؛ وهو التَّجمُّع، وقولُ العربِ: تأوَّتِ الطَّيرُ؛ إذا انضمَّ بعضُها إلى بعضٍ[4].

المَأوَى: المكانُ الّذي يُنصَرَفُ إليه، ويُقامُ فيه[5]، وآوَى فلانٌ فلانًا؛ أي: أَنزَلهُ في مَأوًى يُقيمُ فيه، وآويتُ له: رَحِمته، وتحقيقه: رجعتُ إليه بقلبي، قال في حقِّ يوسفَ عليه السلام: ﴿ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَخَاهُۖ﴾؛ أي: ضمَّه إلى نفسه[6]، ومعنى قولِ اللّه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ﴾؛ أي: أَنزَلوا المُهاجِرينَ في دُورِهِم[7].

5) ﴿وَّنَصَرُوٓاْ﴾: تَدورُ مادَّةُ النّونِ والصّادِ والرّاءِ حول معنَى إتيانِ خيرٍ وإيتائِه بما فيهِ زيادةُ مناسِبةٌ وقوَّةٌ. ولازِمُهُ: دَفعُ الضُّرِّ[8]. والنَّصرُ على العَدوِّ: إعانَةُ الخَصْمِ عليه في حَربٍ أو غيرها؛ بقوَّةِ النّاصر وغَلَبَتِه[9]، وهو المُرادُ في قولِه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ﴾، و﴿ٱسۡتَنصَرُوكُمۡ﴾ الواردَةُ بعدُ، معناها: طلبوا مِنكُم النُّصرَةَ.

6) ﴿أَوۡلِيَآءُ﴾ - ﴿وَلَٰيَتِهِم﴾: الواوُ واللّامُ والياءُ تدلُّ اشتقاقاتُها على مَعنَى القُربِ، ومنه: الوَليُ وهو القُربُ، تقولُ العربُ: تباعَدَ فلانٌ بعدَ وَلْيٍ؛ أي: بَعدَ قُربٍ، وجلسَ ممّا يَليني؛ أي: يُقاربُني. ومِنه المَولَى، وهوَ يُطلَقُ على معانٍ، مِنها: الحليفُ، والنَّاصرُ، والجارُ، وفي كلِّها مَعنَى القُربِ كما هو بيِّنٌ[10].

---

(1) الرّاغب، المفردات: (جهد).
(2) ابن الأثير، النِّهاية في غريب الحديث والأثر: (جهد).
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (أوى).
(4) الخليل، العين: (أوى).
(5) الحُميديّ، تفسير غريب ما في الصَّحيحين، ص: 266.
(6) الرّاغب، المفردات: (أوى).
(7) الخضيريّ، السّراج في بيان غريب القرآن، ص: 74.
(8) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (نصر)، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل وأسرار التّأويل: 1/79، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصَّل: (نصر).
(9) الفيّوميّ، المصباح المنير: (نصر)، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/486.
(10) الفيّوميّ، المصباح المنير: (نصر)، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/486.

ومِن أسماءِ اللّهِ سُبحانَهُ: (الوَليُّ)، ومَعناهُ النَّاصِرُ، أو هو المتوَلّي لأمورِ الخلائقِ، القائمُ بها[1]. و﴿أَوْلِيَآءُ﴾ في قولِ اللّهِ سُبحانَهُ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ﴾؛ بمعنى: أنصارٍ، والمرادُ: أولئكَ بعضُهُم أَنصارُ بَعضٍ وأَعوانٌ على مَن سِواهُم مِنَ المُشرِكينَ[2]، والوَلايَةُ في الآية معناها: النُّصرَةُ.

7) ﴿مِّيثَٰقٗاۖ﴾: الواو والثّاءُ والقافُ تدلُّ تصاريفُها على العَقدِ والإحكام[3]، وأصلُه: الاطمِئنانُ بالشَّيء والسُّكونُ إليهِ والاعتمادُ عليه[4]؛ إذ لا يُطمَأَنُّ إلّا بالأمر الشَّديدِ الإحكامِ، ويُقال: أخذتُ الأَمرَ بالأَوثَقِ؛ أَي: الشَّديدِ المُحكَمِ[5].

والميثاقُ: عقدٌ مُؤكَّدٌ بيمينٍ وعهدٍ، والمرادُ بالميثاقِ في الآية: العَهدُ الّذي وَثَّق بهِ بَعضُكُم على بَعضٍ[6].

❁ المَعْنى الإجْمالِيُّ:

بيّنَ اللّهُ تعالى في هذه الآية أنَّ الَّذينَ صَدَّقوا اللّهَ ﷻ ورسولَهُ ﷺ، وهَجَروا قَومَهُم وعَشيرَتَهُم ودُورَهُم، وبالَغوا في إتعابِ نُفوسِهم وإنصابِها في حَربِ أعداءِ اللّهِ سُبحانَهُ مِنَ الكُفّارِ مِن أَجلِ إعلاءِ كلمَةِ اللّهِ سُبحانَهُ، وصفَهم اللّهُ تعالى بالمهاجرين، والّذينَ جَعَلوا لِرَسولِ اللّهِ ﷺ والمُهاجِرينَ معه مَأوًى يأوونَ إليه، وجعلوا لهم مِن مَنازِلِهم مَساكنَ؛ إذ أَخرَجَهُم قَومُهُم مِن مَنازِلِهم، ونَصَروهُم على أعدائِهم وأعداءِ اللّهِ تعالى مِنَ المُشركينَ، همُ الأنصارُ، - وهُمُ المهاجِرونَ والأَنصارُ - بعضُهم أنصارُ بَعضٍ، وأعوانٌ على مَن

المهاجرون والأنصار يدٌ واحدةٌ على مَن سواهم، وهم أولياء بعضهم في الإيمان والمصير

(1) ابن الأثير، النّهاية في غريب الحديث والأثر: (ولي).
(2) ابن جرير، جامع البيان: 14/78 - 79.
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (وثق).
(4) الرّاغب، المفردات: (وثق)، والسَّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (وثق).
(5) ابن دُريد، جمهرة اللُّغة: (وثق).
(6) ابن جرير، جامع البيان: 14/82.

سِواهُم مِنَ المُشرِكينَ، وأَيديهِم واحِدَةٌ على مَن كَفَر باللّهِ تعالى، وبَعضُهُم إِخوانٌ لِبَعضٍ، دونَ أَقرِبائِهِم الكُفّار.

والّذينَ صَدَّقوا باللّهِ سُبحانَهُ ورَسولِهِ ﷺ، ولَم يُفارِقوا دارَ الكُفرِ إلى دارِ الإسلامِ، ليسَ لَكُم - أيُّها المُؤمِنون المُهاجِرونَ - مِن نُصرَتِهِم ومِيراثِهِم، حتَّى يُفارِقوا قومَهم ودورَهم مِن دارِ الحَربِ إلى دارِ الإسلامِ، وإِنِ استَنصرَكُم هؤلاءِ الَّذينَ آمنوا ولَم يُهاجِروا - بأنَّهُم مِن أَهلِ دينِكُم - على أَعدائِكُم وأعدائِهِم مِنَ المُشرِكينَ، فَيَجِبُ عليكُم - أيُّها المؤمِنونَ مِنَ المهاجرينَ والأَنصارِ - أَن تَنصُروهُم، إلّا أَن يَستَنصروكُم على قَومٍ بَينَكُم وبَينَهُم عَهدٌ قد وَثَّق بِهِ بَعضُكُم على بَعضٍ ألّا يُحارِبَهُ، واللّهُ ﷻ لا يَخفَى عليه شيءٌ مِمّا تَعمَلونَهُ فيما أَمَرَكُم ونَهاكُم مِن وِلايَةِ بَعضِكُم بعضًا، وتركِ وِلايَةِ مَن آمَنَ ولَم يُهاجِرْ، ونُصرَتِكُم إيّاهُم عِندَ استِنصارِكُم في الدّينِ، وغَيرِ ذلكَ مِن فَرائِضِهِ الّتي فَرَضَها عليكم[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

عِلَّةُ الفَصلِ للجملة المؤكَّدة عَمّا قبلَها:

بَيانُ أَحكامِ موالاةِ المُسلِمينَ بَعضِهِم بَعضًا

فُصِلَ قَولُ اللّهِ ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ﴾ عَمّا قَبلَهُ؛ لوقوعِه استئنافًا ابتدائيًّا، وهو واردٌ للإعلامِ بأحكامِ موالاةِ المسلِمينَ لأهلِ الإسلامِ، مِنَ الّذين هاجَروا، والّذين لم يُهاجروا، وعدَمِ جوازِ موالاةِ الكُفّارِ[2].

نُكتَةُ تَأكيدِ الجُملَةِ الخبريّةِ المؤكَّدة بإنَّ:

بَيانُ أَهَمّيَّةِ رابِطَةِ الأُخوَّةِ الدّينيَّةِ والموالاةِ في اللهِ سُبحانَهُ

أُكِّدَ قولُ اللّهِ سُبحانَهُ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ﴾ - وهو جملَةٌ خبريَّةٌ - بـ (إنَّ) تقويةً لنُصرَةِ المؤمنينَ بعضِهم بعضًا، تَمتينًا لرابِطَةِ الأُخوَّةِ الدّينيَّةِ، واهتمامًا بشَأنِ الموالاةِ في اللّهِ تعالى.

(1) ابن جرير، جامع البيان: 14/77 - 82، ونخبة من العلماء، التّفسير المُيسّر، ص: 186.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/83.

نُكتَةُ تَعريفِ المُسنَدِ إلَيهِ بالموصوليَّةِ:

عُرِّفَ المسنَدُ إلَيهِ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ بالمَوصوليَّة في قولِهِ ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ﴾؛ إيماءً إلى نَوعِ الخَبَرِ المَحكومِ به على المسنَدِ إلَيهِ؛ وأنَّه مِن التَّكريمِ والرِّفعَةِ، وذلكَ أنَّ وجوبَ موالاةِ أهلِ الإيمانِ بعضِهِم بعضًا من أَعظَمِ وجوهِ التَّكريمِ بسَبَبِ إيمانِهِم، وفيهِ إعلامٌ بعِلَّةِ استحقاقِهِم هذِهِ الرِّفعَةَ في قولِهِ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ﴾، وأنَّ هذه المَكرُمَةَ مُسَبَّبَةٌ عَن إيمانِهِم وهِجرَتِهِم وجهادِهِم، وفي هذا تَرغيبٌ في التَّلبُّسِ بالإيمانِ، وما ذُكِرَ مَعَهُ مِنَ الأوصافِ؛ ليَندرِجَ العبدُ في سِلكِ المُكرَمينَ بولايَةِ أَهلِ الإيمانِ.

التَّرغيبُ في تَحقيقِ أوصافِ وِلايَةِ أَهلِ الإيمانِ

عِلَّةُ ذِكرِ المَوصولِ الدالِّ على الجمعِ:

إيرادُ الاسمِ الموصولِ جَمعًا في قولِ اللهِ ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَاْ وَّنَصَرُوٓاْ﴾؛ فيه إشعارٌ بِكَثرَةِ أهلِ الإيمانِ الّذينَ جمَعوا بينَ هذهِ الأعمالِ الجليلَةِ؛ مِنَ الهِجرَةِ والجهادِ في سبيلِ اللهِ سُبحانَهُ، وغيرِها مِنَ المذكوراتِ في الآيةِ الكريمَةِ.

كَثرَةُ المُؤمِنينَ المُتَّصِفينَ بالأوصافِ الحَسَنَةِ

سِرُّ مَجيءِ الصِّلَةِ فِعلًا ماضيًا:

جيءَ بصِلةِ المَوصولِ فعلًا ماضيًا ﴿ءَامَنُواْ﴾ و(هاجَروا) (وَجاهَدوا) مِن قولِهِ سُبحانَهُ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ﴾؛ للدِّلالَةِ على تحقُّقِ وَصفِ الإيمانِ والهِجرَةِ والجِهادِ الحقِّ فيهِم.

وللدّلالة أيضًا على رسوخ هذه الأوصاف فيهم لدرجة أنّها تمكَّنَت في قلوبهم تمكُّنَ الصّفة في الموصوف؛ فلا تنفكُّ عنهم هذه الأوصاف، يؤكّدُ هذا أنّه بعد فتحِ مكّةَ انقطع وصفُ الهجرةِ بمَن آمنَ من أهلِ مكّةَ بعد ذلك، ولو ذهبَ إلى المدينة المنوّرة، وبقي وصفُ المهاجرين للطّبقة الأُولى الّتي هاجرت من مكّةَ إلى المدينة، ولو عادَت إلى مكّةَ.

تَحقُّقُ وَصفِ الإيمانِ والهِجرَةِ والجِهادِ في سبيلِ اللهِ تعالى

نُكتَةُ حَذفِ مُتَعَلَّقِ الإيمانِ:

حَقيقَةُ الإيمانِ مُستَقِرَّةٌ في نُفوسِ المؤمِنينَ، وهُم مُقِرّونَ بجميعِ ما يَجِبُ الإيمانُ بِهِ

حُذِفَ مُتعلَّقُ الفعلِ ﴿ءَامَنُواْ﴾ من قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ﴾، وهو المُؤمَنُ بهِ، وفي ذلك مَسلَكانِ:

أحدُها: ظُهورُ أفرادِ المُؤمَنِ به؛ وذلك لأنَّ لِلإيمان حقيقةً شرعيَّةً معروفةً، فإذا أُطلِقَ لفظُهُ انصرَفَ الذِّهنُ إلى تلكَ الحقيقةِ، مِن غَيرِ افتِقارٍ إلى التَّنصيصِ على مُتَعَلَّقِه.

والآخرُ: إرادَةُ العُمومِ؛ وذلك لأنَّ حَذفَ المَعمولِ مُشعِرٌ بالعُمومِ، والمَعنَى: آمَنوا بجميعِ ما يَجِبُ الإيمانُ بهِ شَرعًا.

بلاغَةُ عَطفِ الهجرةِ والجهادِ على الإيمان:

بَيانُ شَرَفِ الهِجرَةِ والجِهادِ في سَبيلِ اللهِ تعالى

في عَطفِ الهجرَةِ والجهادِ على الإيمانِ في قَولِ اللهِ ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ﴾ إطنابٌ بعطفِ الخاصِّ على العامِّ؛ وذلك لأنَّ حقيقةَ الإيمانِ شَرعًا: قولٌ وعمَلٌ واعتقادٌ، والهِجرَةُ والجِهادُ مِن جُملَةِ الأعمالِ الصّالحَةِ المندَرِجَةِ تحتَ مُسَمَّى الإيمانِ، ومِن شَأنِ عطفِ الخاصِّ على العامِّ: بيانُ الاهتمامِ بشأنِ الفردِ الخاصِّ بذِكرِهِ مرَّتين؛ أولاهُما بذِكرِه مُندرجًا تحتَ لَفظِ العامِّ، والأُخرَى: بذِكرِه على سَبيلِ الاستِقلالِ والانفرادِ.

ولمّا كان الإيمانُ هو الأصل عَطفَ عليه الهجرةَ والجهادَ؛ لأنّهما فرعان عنه، وإن كانا مشروطين في الواقع بالإيمان، فَفي الآيَةِ إيماءٌ إلى فضيلَةٍ خاصَّةٍ في الهِجرَةِ والجهادِ في سبيلِ اللهِ سُبحانَهُ.

بلاغةُ ترتيبِ الصِّفاتِ: الإيمان والهجرة والجهاد:

التَّرَقّي في تَعدادِ الأَعمالِ الصّالِحاتِ، منهج في التَّزكيَة مكين

في قَولِ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ﴾، رتّبَ الذِّكرُ الحكيمُ الأوصافَ المذكورةَ في الآية مراعاةً لترتيبها حسب الوقائع والواقع؛ لأنّ الإيمانَ أوّلها، ثمّ الهجرةَ، ثمّ الجهادَ في سبيل الله، ولا سبيلَ إلى الهجرة إلّا بعد تحقُّقِ الإيمان، ولا يمكن للمسلم أن يجاهدَ في سبيلِ اللهِ إلّا بعد تحقُّقِ الهجرةِ بمعناها

العامّ من هجر الشَّهواتِ والمعاصي عمومًا، وقبل ذلك الهجرة إلى المدينة خصوصًا، وأيضًا جاء التَّرتيبُ في الآية من باب التَّرقّي في ذِكرِ بَعضِ أفرادِ الإيمانِ؛ وذلكَ لأنَّ جملةَ الصِّلَةِ قَد صُدِّرت بالإيمانِ، وهو شامِلٌ لجميعِ الدِّين؛ لكونِهِ جامِعًا للأقوالِ والأفعالِ والاعتِقاداتِ، ثُمَّ فُرِّعَ عَنه عَمَلانِ جليلانِ يندرِجانِ تَحتَهُ، وهما: الهِجرَةُ والجهادُ، وبُدِئَ بالهِجرَةِ لِما فيها مِن مفارقَةِ الأوطانِ، وذلك ممّا يشقُّ على النَّفسِ، وثُنِّيَ بالجِهادِ لِما فيه مِن بذلِ المُهَجِ في سبيلِ اللّهِ تعالى، وذلِك أشقُّ على النُّفوسِ مِن مجرَّدِ مفارقَةِ الأوطانِ، وإنْ كانَ اللّهُ ﷻ قَد قرَنَ بينَهُما في قولِهِ سُبحانَهُ: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ ٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ أَوِ ٱخْرُجُواْ مِن دِيَٰرِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ﴾ [النّساء: 66]، فإنَّ ذلك دالٌّ على شدَّةِ مفارقةِ الأوطانِ، وليسَ دليلًا على تساويهِما مِن كُلِّ وَجهٍ؛ إذ الاقترانُ في النَّظمِ لا يستَلزِمُ التَّساويَ في الرُّتبَةِ مِن كُلِّ الوجوه.

بلاغةُ التَّعبيرِ بصيغة المُفاعلةِ في الهجرةِ والجهادِ:

الهجرةُ والجهادُ في القرآن الكريم يحملان طابعًا تقابُليًّا مع النَّفس في ترك رغباتها

قوله تعالى: ﴿وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ﴾، آثرَ التَّعبيرَ بالمفاعلة لما تحملُه من معنًى زائدٍ على الفعل (هجر) و(جهد)؛ لأنَّ المهاجَرةَ تحملُ معنى التَّنازعِ النَّفسيِّ بين حبِّه لوطنه الّذي أقامَ فيه ومَسقط رأسِه، وبين حبِّه للّه ولرسوله رغبةً في الثَّواب؛ لذلك كانَت كلُّ تعبيراتِ القرآن الكريم في هذا الباب على وزن فاعَل (هاجَر).

وأيضًا للتّفريق بين (هجر) بمعنى التّرك كما في قوله تعالى: ﴿وَٱهْجُرُوهُنَّ فِي ٱلْمَضَاجِعِ﴾، وقوله: ﴿وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ۝١٠﴾؛ فالمعنى هنا يختلفُ عنِ المهاجَرة؛ لأنّ هجْرَ المضاجعِ وهجْرَ المنازعةِ قد يكون شرعيًّا، وقد يكون على غير ذلك، لكنّ المهاجَرةَ مصطلحٌ قرآنيٌّ شرعيٌّ تميّزَ به القرآنُ في معناه.

وأمّا عنِ المُفاعلة في باب المُجاهدة؛ فأمرُها ظاهرٌ؛ لأنّها تقعُ بين

طرفين في المعركة؛ فكلٌّ منهما يحاولُ أن يُجهِدَ الطّرفَ الآخرَ في نفسه وفي ماله؛ لذلك كانتِ المفاعلةُ ظاهرةً.

وإن حُمِلَت على مجاهدة النَّفسِ؛ فالمفاعلةُ واقعةٌ بين رغبةٍ وشهوةٍ تتملَّكُ الإنسانَ للوقوع في الخطأ وبين داعي الإيمانِ الّذي يمنعُه من ذلك، وهذه المنازعة يُطلَقُ عليها المجاهدة.

نُكتَةُ تَقديمِ المالِ على النَّفسِ:

الجهادُ بالمالِ أكثَرُ وُقوعًا، وأتَمُّ دَفعًا لِلحاجَةِ

قُدِّمَ المالُ على النَّفسِ عِندَ بيانِ نَوعَي الجِهادِ في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، لنُكتَتَيْنِ:

أوَّلًا: لكونِ الجهادِ بالمالِ أكثَرَ وقوعًا، وأتَمَّ دَفعًا لِلحاجَةِ، بحيث لا يُمكِنُ تصوُّرُ الجِهادِ بالنَّفسِ دونَ الجهادِ بالمالِ[1].

ثانيًا: لكونِ المالِ سببَ قيامِ النَّفسِ، وقَد كانَ المالُ أوَّلَ الأَمرِ في غايَةِ العِزَّةِ[2]؛ وذلك لأنّ المهاجرين بذلوا أموالَهم الّتي كسبوها بكَدِّهم بعدَ الهجرة، بعد أن فقدوا أموالَهم الّتي كانت مِن كسبهم قبلَ الهجرةِ؛ فالمالُ الّذي أنفقوه على تجهيز الجيوشِ في سبيلِ اللّهِ له مزيّةٌ؛ لأنّه جاء بعدَ كدٍّ وعناءٍ في تكوينه بعد أن تركوا أموالَهم في مكّةَ قهرًا من كفّار قريش.

دلالةُ التّعبيرِ بلفظ ﴿بِأَمۡوَٰلِهِمۡ﴾:

الجهادُ بالمالِ لا يقتصرُ على نوعٍ معيَّنٍ منه

عبَّرَ بالجمع مراعاةً للفظ الجمع في الآية، وأيضًا للدّلالة على أنّهم جاهدوا بكلِّ ما يمتلكون منَ المالِ سواءٌ كان عينًا أو عرضًا؛ لأنّ المالَ كلُّ ما يُتموَّلُ به، ويصدقُ ذلك على الذَّهبِ والفضَّةِ، وعلى الخيلِ والإبلِ؛ فكان التَّعبيرُ بالجمع لوصف حبِّهم للّه ولرسوله؛ فلا يبخلون بما يمتلكون.

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/37.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/337.

دلالةُ (الباء) في ﴿بِأَمۡوَٰلِهِمۡ﴾:

استعانوا بالمال في الجهاد، وبذلوه على حُبِّهم له

جاءَ التَّعبيرُ بالباء ليفيدَ معاني عدَّة؛ منها: الإلصاقُ والاستعانةُ، وكلُّها محتملةٌ في هذا السّياق؛ بمعنى: (وجاهَدوا مُستعينين بأموالهم)؛ لأنّها تُقوِّي ظهورَهم على القتال، أو (جاهَدوا بأموالهم المختصّة بهم)؛ وهذا دليلٌ على حبِّ الإنسانِ للمال، لكنّهم مع ذلك قدّموها في سبيل الله.

دلالةُ التّعبيرِ بلفظ (الأنفُس):

المجاهدون بأنفسهم في سبيل الله عددُهم قليلٌ

قوله: ﴿وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ عبّرَ بالأنفس دون النّفوس؛ لأنّ الأنفسَ جمعُ قلَّةٍ، بخلاف النّفوس فهي جمعُ كثرة، قال تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتۡ﴾، أمّا الأنفسُ - وهي جمعُ القلّةِ - فكان التّعبيرُ بها مناسبًا؛ لأنّ الّذين يجاهدون في سبيل الله قلَّةٌ مقارنةً بكثرة المسلمين.

سِرُّ التّعبيرِ بالظّرفيَّةِ:

تمكّنُ حبِّ الجهاد في سبيل الله في أنفسهم

الظّرفيّةُ في قَولِ اللهِ ﷻ: ﴿وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ دالٌّ على السَّبَبيَّةِ، والمَعنَى: جاهَدوا بسَبَبِهِ، فلم يَصُدَّهم عنه صادٌّ، وظَهَرَت لَهُم محاسِنُ الجهادِ، فسَهُلَ عليهم سُلوكُهُ.

والتَّعبيرُ بـ(في) مُشعِرٌ أيضًا بتمكُّنِهِم مِنَ السَّبيلِ تمكُّنَ المظروفِ مِنَ الظَّرفِ، فيكون الدِّينُ غالبًا عليهِ، لا يَخرُجُ عنه بحالٍ منَ الأحوالِ[1].

سِرُّ الإضافَةِ في ﴿سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾:

سُلوكُ سَبيلِ اللهِ تعالى مُوصِلٌ لِرَحمَتِهِ

إضافةُ السَّبيل إلى اسم الجلالةِ (الله) في قولِ اللهِ ﷻ: ﴿وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ يُراد بها تعظيمُ السَّبيلِ، والإشعارُ بأنَّ مَن سلكَهُ وصلَ إلى رَحمَةِ اللهِ تعالى، ومِن لازِمِ ذلك: تعظيمُ المجاهدينَ ورفعُ شأنِهم؛ حيثُ سلَكوا هذا السَّبيلَ الجليلَ.

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/337.

وفيه إشارةٌ إلى تيسير اللّهِ لأسباب الجهاد خصوصًا، ولمنفعةِ المسلمين عمومًا؛ لأنّ السّبيلَ كلُّ ما يُتوصّلُ به إلى فعل الخير غالبًا، وممّا يُذكَرُ أيضًا في سرِّ الإضافةِ إخراجُ ما كان في سبيل الهوى والعصبيَّة.

فائِدَةُ تقييدِ ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾:

تَقييدُ المُجاهَدَةِ بكَونِها ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ في قولِ اللّهِ سُبحانَهُ: ﴿وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ يُرادُ به مدحُهُم بذلك، وفيه الإشعارُ بعلَّةِ استحقاقِهم عُلوَّ المنزلةِ، مع ما فيه مِن حُسنِ مَوضِع ﴿سَبِيلِ﴾ مع ذِكرِ الجِهادِ؛ وذلكَ أنَّ السَّبيلَ مِن شأنِه أن يكونَ مَسلوكًا، ففيه حركَةٌ تناسبُ الحرَكَةَ المستفادَةَ مِن لَفظِ الجِهادِ.

مِن أَسبابِ الوِلايَةِ الجِهادُ في سَبيلِ اللهِ تعالى

تَوجيهُ المُتَشابِهِ اللَّفظيِّ في هذه الآية قيد التفسير:

قالَ اللّهُ ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، وقالَ سُبحانَهُ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ أَعۡظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِۚ﴾ [التّوبة: 20]، فقُدِّمَ ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ على ذِكرِ الأموال والأَنفُسِ في سورةِ التَّوبة، وعُكِسَ ذلكَ في سورَةِ الأَنفالِ، ووجهُ المغايَرةِ بينَهُما: أنَّ آيةَ الأنفالِ يُرادُ بها مَعَ المَدحِ تعظيمُ ما صدَرَ مِنهُم مِنَ الإيمانِ والهِجرَةِ والجهادِ بالأَموالِ والأَنفُسِ، فقُدِّمَ ذِكرُ الأموالِ والأنفُسِ تنبيهًا مُعرِّفًا بمكانَةِ ذلكَ مِنَ النُّفوسِ، وأنَّهم بادَروا ببذلِها على حُبِّهِم لها، وشُحِّ الطِّباعِ في الأصلِ بها، فكانَ في هذا التَّقديم تَغبيطٌ لَهُم وإعظامٌ لصنيعِهِم.

دِقَّةُ النَّظمِ القُرآنيِّ في تَقديمِ الأَلفاظِ وتَأخيرِها

بخلافِ آيةِ التَّوبَةِ؛ فإنَّها مبنيَّةٌ على ذِكرِ المفاضَلَةِ بينَ سقايَةِ الحاجِّ وعمارةِ المسجِدِ الحرام، وبينَ مَن آمنَ وهاجرَ وجاهدَ بالمال والنَّفسِ، وفيها ردٌّ علَى مَن توَهَّمَ أنَّ السِّقايةَ وعمارةَ المسجدِ الحرام أفضَلُ، فنُصَّ على أنَّ الإيمانَ وما ذُكِرَ مَعَهُ أعظَمُ عِندَ اللّهِ تعالى؛ فلَم يُعرِضْ هَهُنا موجبٌ لتقديمِ ما قُدِّمَ في سورةِ الأنفالِ[1].

(1) ابن الزُّبير الغَرناطيّ، مِلاك التّأويل: 1/225.

وممّا يُذكَرُ في سرِّ توجيهِ المتشابهِ أنَّ آيةَ الأنفالِ جاءَت عَقيبَ ما أنكره اللّهُ تعالى على مَن قال لهم: ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنۡيَا﴾، وذلك بأخذ الفداءِ منَ الأسرى، وحذَّرَهم القرآنُ على ما أخذوا بقوله: ﴿لَّوۡلَا كِتَٰبٞ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمۡ فِيمَآ أَخَذۡتُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾، أي: منَ الفداء، وكلُّ ذلك يُدلِّلُ على سَبْق الحديث عنِ المال بأشكاله؛ فناسبَ تقديمَ المالِ في سورة الأنفال، وفي هذا مدحٌ لمَن أنفقَ أموالَه في سبيل اللّه؛ لا مَن يجاهد طلبًا للنّفع العاجل، وأمّا في سورة براءة؛ فتقدَّمَ ذِكرُ الجهاد في قوله تعالى: ﴿كَمَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَجَٰهَدَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾؛ لذلك قدّمَ الجهادَ من باب التّناسب[1].

دلالةُ (الواو) في ﴿وَٱلَّذِينَ﴾:

الاشتراكُ في صفات الفضلِ تميُّزٌ وتكريمٌ

دلَّتِ الواو على عطف الأنصارِ على المهاجرين، ومدحَتهم بإيوائهم، ونُصرتِهم من كلِّ ما يُكدِّرُ أمنَهم واستقرارَهم، وفي هذا دلالةٌ على الجمع بينهم في صفاتِ الفضلِ.

سرُّ عدمِ ذكرِ الإيمانِ مع الإيواء والنُّصرة:

الّذين آووا الرّسولَ ﷺ قد تمكَّنَ الإيمانُ فيهم

لم يذكرِ الإيمانَ مع الأنصار في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ﴾ كما ذكرهُ مع المهاجرين في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ﴾؛ للدّلالة على أنَّ الإيمانَ تمكَّنَ منهم تمكُّنًا ظهرَ أثرُه على أفعالِهم وأقوالِهم وحركاتِهم؛ فكلُّها تنطقُ بالإيمان؛ لذلك عبَّر بلوازم الإيمانِ منَ الإيواء والنُّصرة.

سِرُّ تَعريفِ المُسنَدِ إليه بالموصوليَّةِ:

الحثُّ على التَّخلُّقِ بالأوصافِ المُقتَضيَةِ ولايَةَ أهلِ الإيمانِ

عُرِّفَ المسنَدُ إليه ﴿وَٱلَّذِينَ﴾ بالموصوليَّة في قولِه ﷻ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ﴾؛ للإيماءِ إلى نَوعِ الخَبَرِ المَحكومِ بهِ على المُسنَدِ إليه؛ وأنَّه مِن جنسِ التَّكريمِ والرِّفعَةِ؛ وذلكَ أنَّ وجوبَ موالاةِ أهلِ الإيمانِ

(1) الشِّرْبي، المُتشابه اللّفظيُّ في القرآن الكريم وأسراره البلاغيَّة، ص: 444.

بعضِهم بعضًا من أَعظَمِ وجوهِ التَّكريم بسَبَبِ إيمانِهم، وفيه إعلامٌ بعِلَّةِ استحقاقِهم هذِهِ الرِّفعَةَ في قولِه تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ﴾، وأنَّ هذه المَكرُمَةَ مُسَبَّبَةٌ عَن إيوائِهم أهلَ الإيمانِ ونُصرَتِهم لهم.

وفي هذا تَرغيبٌ في التَّلبُّسِ بالإيواءِ والنُّصرَةِ؛ ليَندَرِجَ العبدُ في عُمومِ المُكرَمينَ بوِلايَةِ أهلِ الإيمانِ.

عِلَّةُ إيرادِ الاسمِ المَوصولِ الدالِّ على الجمع:

كَثرَةُ المُؤمِنينَ المُتَّصِفينَ بالأَوصافِ الحَسَنَةِ، مؤشِّر إيجابيّ

إيرادُ الاسمِ الموصول جَمعًا في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ﴾؛ فيهِ إشعارٌ بِكَثرَةِ أهلِ الإيمانِ الّذينَ جمَعوا بينَ هذهِ الأعمالِ الجليلَةِ؛ مِنَ الإيواءِ والنُّصرَةِ، وفي هذا مدحٌ وتشريفٌ للأنصار، وتوبيخٌ وتبكيتٌ للمنافقين في المدينة.

سِرُّ مَجيءِ الصِّلَةِ فِعلًا ماضيًا:

تَحقُّقُ وَصفِ الإيواءِ والنُّصرَةِ في أَهلِ الإيمانِ الحَقِّ

جيءَ بصِلةِ المَوصولِ فعلًا ماضيًا ﴿ءَاوَواْ﴾ و﴿وَّنَصَرُوٓاْ﴾ مِن قولِهِ سُبحانَهُ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ﴾؛ للدِّلالَةِ على تحقُّقِ وَصفِ الإيواءِ والنُّصرَةِ فيهِم، ورسوخِ هاتين الصِّفتين في قلوبهم حبًّا للّه ولرسوله؛ يؤكِّدُ ذلك قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلۡإِيمَٰنَ مِن قَبۡلِهِمۡ يُحِبُّونَ مَنۡ هَاجَرَ إِلَيۡهِمۡ﴾.

نُكتَةُ حَذفِ متعلِّقِ الإيواءِ والنُّصرةِ:

عَظيمُ صَنيعِ الأَنصارِ في إيوائِهم المُهاجِرينَ مِنَ المُؤمِنينَ

حُذِفَ متعلِّقُ الفعلِ ﴿ءَاوَواْ﴾ من قَولِ اللّهِ ﷻ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ﴾، وفي ذلكَ ثلاثةُ مسالِكَ:

أحدُها: ظُهورُ الأفرادِ الّذينَ وقعَ عليهِم فعلُ الإيواءِ؛ وهُمُ المؤمِنونَ الّذينَ هاجَروا مِن مكَّةَ المكرَّمَةِ إلى المدينَةِ النَّبويَّةِ.

ثانيها: إرادَةُ العُموم؛ وذلكَ لأنَّ حَذفَ المَعمولِ مُشعِرٌ بالعُموم، والمَعنَى: آوَوا جَميعَ مَنِ احتاجَ إلى الإيواءِ مِن أَهلِ الإيمانِ، وهُمُ المؤمنونَ مِن أهلِ مكَّةَ.

وفيه إشارةٌ إلى كرم الأنصارِ في عدمِ ذكرِ مَن آوَوْهُم حتّى لا يكون فيه شبهةٌ منَ المنِّ على المؤمنين المهاجرين؛ لأنّ اللّه مدحَهم بسلامة القلبِ وطيب النَّفسِ في قوله: ﴿وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾.

ثالثُها: أن يكونَ فِعلُ الإيواءِ قَد نُزِّلَ منزلةَ الفعلِ اللّازِمِ، فلا يَفتَقِرُ إلى تَقديرِ مفعولٍ بِهِ أصلًا، ونُكتَةُ ذلكَ: الإشارةُ إلى عظيمِ صنيعِهِم، حتَّى كأنَّهُ لا إيواءَ في الوجودِ إلّا ما فعَلوهُ[1].

سرُّ اختيارِ التَّعبيرِ بالإيواء:

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ﴾، وفيه آثرَ التّعبيرَ بالإيواء دون غيره؛ لأنّه يدلُّ على معنيين: الضَّمُّ، والانتهاء، وكأنّ الأنصارَ ضمّوا المهاجرين إليهم انضمامَ الجزءِ إلى الكلِّ، وانضمامَ الأخِ إلى أخيه، كما قال تعالى في حقِّ يوسفَ عليه السلام: ﴿ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَخَاهُۖ﴾، وفي هذا دلالةٌ على الرّحمةِ الموجودةِ في قلوب الأنصارِ.

ظهورُ معاني الرّحمةِ والأمانِ، من مظاهر اللّطف والإنعام

وفيه إشارةٌ إلى أنّ المهاجرين وصلوا إلى غايتهم منَ الأمان؛ لأنَّ (آوى) بمعنى: انتهى، قال تعالى: ﴿إِذۡ أَوَيۡنَآ إِلَى ٱلصَّخۡرَةِ﴾؛ أي: انتهينا إليها.

ولأنّ الإيواءَ صفةٌ ممدوحةٌ، فقد امتنَّ اللّهُ بها على المؤمنين المهاجرين في قوله: ﴿فَـَٔاوَىٰكُمۡ وَأَيَّدَكُم بِنَصۡرِهِۦ﴾، وفي هذا مدحٌ للأنصار[2].

سرُّ تقديمِ الإيواءِ على النُّصرة:

في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ﴾ قدَّمَ الإيواءَ على النُّصرةِ بيانًا للواقع الّذي فعله الأنصارُ مع المهاجرين عندما وصلوا إلى المدينة المنوَّرةِ ؛ فآووهم إلى مساكنهم، فالإيواءُ هو المرحلةُ الأولى الّتي ذكرها القرآنُ مراعاةً للواقع المُعاش؛ ثمّ جاءتِ النّصرةُ مرحلةً

مراعاةُ التَّرتيب الزَّمانيِّ والمكانيِّ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/338.
(2) الرّاغب، المفردات: (أوى).

تاليةً عند وقوع القتالِ مع المشركين، وفيه إشارةٌ إلى تقديم العامِّ على الخاصِّ؛ لأنّ النُّصرةَ جزءٌ منَ الإيواء.

دلالَةُ الإشارَةِ بـ ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ﴾:

التَّنويهُ بِشَأنِ المُهاجِرينَ والأَنصارِ

في التَّعبيرِ باسم الإشارَةِ ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ﴾ من قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ﴾ إظهارٌ للاهتمامِ بهم، وذلك بتَمييزِهم أكمَلَ تَمييزٍ[1].

والإشارَةُ إليهم باعتبارِ اتِّصافِهم بالصِّفاتِ الفاضِلَةِ المذكورَةِ قَبلُ، وفي ذلكَ تنويهٌ بشأنِهم، وحثٌّ لغَيرِهم على التَّخلُّقِ بهذهِ النُّعوتِ الكريمَةِ.

دلالةُ التَّعبيرِ في ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ﴾:

الإيماءُ إلى عُلوِّ مَكانَةِ المُهاجِرينَ والأَنصارِ

أُشيرَ إلى المذكورينَ باسمِ الإشارةِ الدَّالِّ على البُعدِ ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ﴾ في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ﴾ تعظيمًا لَهُم، وإشعارًا بعُلوِّ طبقَتِهم وبُعْدِ مكانَتِهم في الفضائِلِ[2].

سرُّ التّعبيرِ بالولاية من بَعْضِهِمْ لبَعْض:

المؤمنون ينصرون بعضَهم بعضًا

آثرَ التّعبيرَ بالولاية دون غيرها؛ لأنّها تحملُ معاني عديدة؛ منها: المحبّةُ والنّصرةُ والمودّةُ، وقدِ اجتمعَت كلُّ هذه الصّفات في ولاية المهاجرين مع الأنصار؛ فظهر التّوادُّ والتّحابُّ والتّناصرُ بينهم، حيث جاهدوا جميعًا بأموالهم وأنفسهم في سبيل اللّه، وفيها دلالةٌ على أنّهم كانوا يقتسمون الغنيمةَ بينهم بالسّويّة على النّظام الّذي قرّره اللّهُ تعالى في الغنائم؛ فلا فرقَ بين الأنصار والمهاجرين.

واستدلّ البعضُ بالتّعبير بالولاية في قوله: ﴿بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ﴾ على الميراث بين المهاجرين والأنصار في أوّلِ أمرِ الهجرةِ؛ لأنّ هذا الأمرَ نُسِخَ فيما بعد بقوله تعالى: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلۡأَرۡحَامِ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلَىٰ بِبَعۡضٖ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِۚ﴾[3].

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/85.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/338، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/37.

(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 6/3202.

دلالةُ التّعبيرِ بحرف (الواو):

الاشتراكُ في صفةِ الإيمان أساسٌ في أقسام المؤمنين الأربعة في الزّمان النّبويّ

في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يُهَاجِرُواْ﴾ آثرَ التّعبيرَ بالواو الّتي تفيدُ العطفَ؛ لأنّها عطفَت هذا القسمَ منَ المؤمنين على ما سبق ذِكْرُه منَ المهاجرين ومنَ الأنصار؛ لأنّ النّبيَّ ﷺ عندما هاجر من مكّةَ إلى المدينة صار المؤمنون على قسمين؛ منهم مَن وافقَه في تلك الهجرة، وهاجر معه، ومنهم مَن بقي في مكّةَ دون أن يهاجر؛ فهؤلاء هم الّذين قال اللّهُ فيهم: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يُهَاجِرُواْ﴾؛ فكان العطفُ بالواو الّتي تدلُّ على الجمع؛ لإفادة اشتراكهم في صفةِ الإيمان[1].

سِرُّ تَعريفِ المُسنَدِ إِلَيهِ بِالمَوصوليَّةِ:

تَمامُ الوِلايَةِ تَحصُلُ باجتِماعِ الإيمانِ والهِجرَةِ

عُرِّفَ المسنَدُ إِليهِ (الَّذينَ) بالمَوصوليَّة في قولِهِ سُبحانَهُ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يُهَاجِرُواْ﴾؛ للإيماءِ إلى نَوعِ الخَبَرِ المَحكومِ بهِ على المسنَدِ إِلَيهِ، وبيانِ عِلَّةِ استِحقاقِهم الحُكمَ، وأنَّ الولايَةَ التّامَّةَ إنَّما تكونُ باجتِماعِ الإيمانِ والهِجرَةِ معًا.

وفي هذا حثٌّ على الهِجرَةِ والتَّنفيرِ مِن تَركِها؛ لتحصيلِ الوِلايةِ التّامَّةِ لأَهلِ الإيمانِ.

سِرُّ مَجيءِ الصِّلَةِ فعلًا ماضيًا مع الإيمان:

التَّفريقُ بين تحقُّقِ الإيمانِ ووقوعِ الهجرةِ

جيءَ بصِلةِ الموصولِ فعلًا ماضيًا ﴿ءَامَنُواْ﴾ مِن قولِهِ سُبحانَهُ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يُهَاجِرُواْ﴾؛ للإشعارِ بتحقُّقِ وَصفِ الإيمانِ فيهم، بخلافِ فِعلِ الهِجرَةِ، فقد جيءَ بهِ مضارِعًا منفيًّا بـ (لَم)؛ للدِّلالَةِ على أنَّ الهِجرَةَ لَم تَقَع مِنهُم قَبلُ، بقَطعِ النَّظَرِ عَن تحقُّقِها فيهم بَعدُ؛ حثًّا لهم على اكتِسابِها.

سرُّ النَّفي بـ ﴿وَلَمۡ﴾ دون (لن):

تبقى الفرصةُ قائمةً لمَن لم يهاجرْ ليلتحقَ برَكْبِ المهاجرين

آثرَ القرآن النّفيَ في قوله: ﴿وَلَمۡ يُهَاجِرُواْ﴾ بـ ﴿وَلَمۡ﴾ دون (لن) لوجود فرقٍ بينهما، وإن اشتركا في النّفي؛ إلّا أنّ النّفيَ بـ (لن) يحملُ

(1) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 8/190.

معنى التَّأبيد على رأي كثيرٍ منَ العلماء في الغالب، والقرآنُ يشيرُ إلى أنَّهم لم يهاجروا حتّى الآن، ولكن يمكنُ أن يهاجروا فيما بعد، بدليل قوله تعالى بعد ذلك: ﴿مَا لَكُم مِّن وَلَيَتِهِم مِّن شَيۡءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْۚ﴾.

سرُّ تكرارِ الاسم الموصول ﴿وَٱلَّذِينَ﴾:

تعدُّدُ أصنافِ المؤمنين في زمانه ﷺ

كرّرَ الاسم الموصول ﴿وَٱلَّذِينَ﴾ ؛ لأنّه في كلِّ موضعٍ يشيرُ إلى طائفةٍ منَ المؤمنين في زمانه ﷺ؛ فالموضعُ الأوَّلُ يشيرُ إلى المهاجرين، والموضعُ الثّاني يشيرُ إلى الأنصار، والموضعُ الثّالث يشيرُ إلى الّذين آمنوا، ولم يهاجروا إلى المدينة، وفي هذا دليلٌ على تعدُّد أصنافِ المؤمنين واختلافِ أوصافِهم زيادةً ونقصًا.

نُكتَةُ حَذفِ متعَلِّقِ الإيمانِ مِن الآية:

حَقيقَةُ الإيمانِ مُستَقِرَّةٌ في نُفوسِ المؤمِنينَ

حُذِفَ متعلِّقُ الفعلِ (آمَنوا) من قول اللّهِ سُبحانَهُ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يُهَاجِرُواْ﴾ وهو المُؤمَنُ بهِ، وفي ذلك مَسلَكانِ:

أحدُها: ظُهورُ أفرادِ المُؤمَنِ به؛ وذلك لأنَّ للإيمان حقيقةً شرعيَّةً معروفةً، فإذا أُطلِقَ لفظُهُ انصرَفَ الذِّهنُ إلى تلكَ الحقيقةِ، مِن غَيرِ افتِقارٍ إلى التَّنصيصِ على متعلِّقِه.

والآخرُ: إرادَةُ العُموم؛ وذلك لأنَّ حَذفَ المَعمولِ مُشعِرٌ بالعُموم، والمَعنَى: آمَنوا بِجَميعِ ما يَجِبُ الإيمانُ بِهِ شَرعًا، وفي هذا تعظيمٌ لشَأنِ الهِجرَةِ؛ حيثُ إنَّهم آمَنوا بجميعِ ما يجبُ الإيمانُ بهِ شَرعًا، ومع ذلك لم يَكُن لهم كمالُ الولايَةِ بسبَبِ تَركِهِمُ الهجرَةَ.

سرُّ الإتيان بنفي الولاية:

التّفريقُ بين الّذين آمنوا ولم يهاجروا وبين مَن آمن وهاجر

جاء قولُه تعالى: ﴿مَا لَكُم مِّن وَلَيَتِهِم مِّن شَيۡءٍ﴾؛ لبيان حكمِ الّذين آمنوا ولم يهاجروا، وذلك بنفي الولايةِ عنهم للتّفريق بينهم وبين السّابق عليهم.

دلالةُ نفي الولاية:

دلَّ نفيُ الولايةِ في قوله: ﴿مَا لَكُم مِّن وَلَيَتِهِم مِّن شَيۡءٍ﴾ على حكم

التَّعاملِ مع هذا الصّنفِ منَ المؤمنين؛ بأنّهم لا يتساوون مع الصّنفين السّابقين المهاجرين والأنصار في ولاية بعضهم لبعض منَ النُّصرةِ والإرثِ، والصّحيحُ قصرُ نفي الولايةِ هنا على الإرث دون النّصرة؛ لأنّ اللّه قال بعدها: ﴿وَإِنِ ٱسۡتَنصَرُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ فَعَلَيۡكُمُ ٱلنَّصۡرُ﴾.

شحذُ هممِهم للهجرة إلى المدينة

دلالةُ تعدُّدِ القراءات في قوله: ﴿مِّن وَلَٰيَتِهِم﴾:

في قوله تعالى: ﴿مِّن وَلَٰيَتِهِم﴾ قراءتان؛ الأولى: بكسر الواو لحمزة، والثّانية: بفتح الواو لباقي القرّاء؛ فمَن قرأ بفتح الواو جعلها بمعنى: النّصرة والتّأييد، ومَن قرأ بالكسر تكون الولايةُ بمعنى: الإمارة، وذلك للفصل بين المعنيين، وقد يجوزُ كسرُ الولاية؛ لأنّ في تولّي بعض القوم بعضًا جنسًا منَ الصّناعة كالقِصَارة والخِيَاطة فهي مكسورة[1]، وعلى هذا فالقراءتان تؤدّيان إلى نفي نُصرتِهم، وتولّي أمورِهم إلّا في حالةِ استنصارِهم للمسلمين بدليل قوله: ﴿وَإِنِ ٱسۡتَنصَرُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ فَعَلَيۡكُمُ ٱلنَّصۡرُ﴾.

تعدُّدُ القراءاتِ ثراءٌ للمعنى

سرُّ التّعبيرِ بالولاية المنفيّةِ:

قوله: ﴿مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيۡءٍ﴾: آثرَ فيه التّعبيرَ بالولاية دونَ النُّصرة؛ لأنّ الولايةَ المنفيّةَ هنا هي الإرثُ دون ولايةِ النُّصرةِ؛ لأنّ اللّه قال بعد ذلك: ﴿وَإِنِ ٱسۡتَنصَرُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ فَعَلَيۡكُمُ ٱلنَّصۡرُ﴾؛ فالملاحظُ أنّه عطفَ هذه الآيةَ على ما سبق في قوله: ﴿مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيۡءٍ﴾، والمعطوفُ مغايرٌ للمعطوف عليه؛ فوجب أن يكونَ المرادُ بالولاية المذكورة أمرًا مغايرًا لمعنى النّصرة[2].

ولايةُ الإرثِ مغايرةٌ لولاية النّصرِ

وذهب البعضُ إلى أنّ الولايةَ المنفيّةَ هي نعمةُ الجهادِ المشتركِ بين المهاجرين والأنصار ونعمةُ المؤاخاة، وبذلك يكون هذا الصّنفُ حُرِمَ من ولاية قسمةِ الغنيمةِ ومن ولاية المؤاخاةِ[3].

(1) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 8/193.
(2) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 8/193.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 6/3203.

أَثَرُ مَعاني الحُروفِ في بيانِ دقائِقِ المعاني القُرآنيَّةِ

دِلالةُ (مِن) في ﴿مِّن شَيۡءٖ﴾:

(مِنْ) في ﴿مِّن شَيۡءٖ﴾ - مِن قَولِ اللّهِ سُبحانَهُ: ﴿مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيۡءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْۚ﴾ - صِلَةٌ يُرادُ بها تَوكيدُ النَّفيِ؛ فقَد نُفيَت عَنهُم الوِلايَةُ، ثُمَّ أُغرِقَ في هذا النَّفي، فجاء ﴿مِّن شَيۡءٖ﴾ لتَعُمَّ أيَّ نوعٍ مِن أنواعِ الوِلايَةِ، سواءٌ أكانَت في التَّوارُثِ أم في غَيرِهِ[1].

دعوتهم إلى الانضمام للمؤمنين في المدينة

دلالةُ التّعبيرِ بقوله: ﴿حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْۚ﴾:

دلَّ هذا التّعبيرُ على دفع توهُّمٍ يَرِدُ في الخاطر بأنّ هذا الصِّنفَ منَ المؤمنين لمّا لم يهاجروا مع رسولِ اللّه ﷺ سقطَت ولايتُهم مُطلقًا؛ فأزالَ اللّهُ تعالى هذا الوهمَ بقوله: ﴿مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيۡءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْۚ﴾؛ يعني: أنّهم لو هاجروا لعادَت تلك الولاية وحصلَت، ودلَّ أيضًا على دعوتهم إلى الهجرة إلى المدينة وترغيبهم فيها؛ لأنّ المسلمَ متى سمع أنّ اللّه منعَهم منَ الولاية حتّى يهاجروا، لا شكّ أنّه سيسرعُ الخُطا إلى الهجرة رغبةً لمَا فيها منَ النَّفعِ الدّنيويّ والفوزِ الأخرويّ.

تَفاضُلُ أَهلِ الإيمانِ في تَحصيلِ أَفرادِ العَمَلِ الصَّالِحِ

نُكتَةُ تَقديمِ المُهاجِرينَ على الأَنصارِ:

بُدِئَ بالمهاجرينَ قَبلَ الأنصارِ في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ﴾ ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ﴾؛ لكونِ المهاجرينَ أصلَ الإسلامِ، وأوَّلَ مَنِ استجابَ للّه تعالى، فتركوا أوطانَهُم صيانَةً لدينِهِم، وكانوا قُدوةً لغيرِهِم في الإيمانِ، وسببًا في تقويَةِ الدّين وثباتِه؛ فبحصولهم على هذه الصّفات كانوا قدوةً لمَن بعدهم، وأصبحوا سادةً للمسلمين إلى يوم القيامة، وثُنّيَ بالأنصارِ؛ لأنَّهم آووا المُهاجرين، وبذلوا النّفسَ والمالَ في خدمةِ رسولِ اللّه ﷺ وإصلاحِ مهمّاتِ أصحابِه، ومع ذلك فحالُ المهاجرين أعلى من حال الأنصار؛ لأنّهم السّابقون بالإيمان، ولأنّهم تحمّلوا العناءَ من قريشٍ زمنًا مديدًا، وتحمّلوا

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/342.

مفارقةَ الأوطانِ والأهلِ والجيرانِ، وكلُّ ذلك لم يحصُلْ للأنصار؛ لذلك قدّمَ القرآنُ ذِكْرَ المهاجرين على الأنصار.

دلالَةُ الخَبَرِ في الآية الكريمة:

التَّرغيبُ في الهِجرَةِ والتَّنفيرُ مِن تَركِها

قَولُ اللهِ سُبحانَهُ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيۡءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْۚ﴾ جملةٌ خبريَّةٌ، جاريَةٌ على أصلِها في إعلامِ أهلِ الإيمانِ بحكمٍ شرعيٍّ جديدٍ، ويدلُّ الخَبَرُ أيضًا على التَّرغيبِ في الهِجرَةِ[1] والتَّنفيرِ مِن تَركِها؛ لئلّا تَفوتَهُم بِتَركِها ولايَةُ أهلِ الإيمانِ، فهي بهذا الاعتبار مجازٌ مُرسَلٌ مُركَّبٌ.

دلالةُ الواو في جملة الاستنصار في الدّين:

عطف الجُمَل لاشتراك في الحُكْم الواحد

دلَّتِ الواو في قوله: ﴿وَإِنِ ٱسۡتَنصَرُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ﴾ على عطف هذه الجملة على ما قبلها في قوله: ﴿مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيۡءٍ﴾، وذلك من باب عطفِ حُكمٍ على حُكمٍ؛ حيث ذُكِرَ في الجملة السَّابقةِ نفيُ الولايةِ لهم حتّى يهاجروا، وهنا ذكرَتِ الحكمَ الثّاني، وهو: إن استنصروكم فانصروهم، ولا تخذلوهم، فجامعُ العطفِ بينهما هو الاشتراكُ في الحكم.

سرُّ التّعبيرِ بـ ﴿وَإِنِ﴾:

طلبُ النُّصرةِ يجوزُ وقوعُه منَ المؤمنين بأحوالٍ خاصَّةٍ

قوله: ﴿وَإِنِ ٱسۡتَنصَرُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ﴾، آثرَ التّعبيرَ فيه بـ ﴿وَإِنِ﴾ الّتي تفيدُ الشَّكَّ في الوقوع أو ندرة الوقوع؛ لأنّ طلبَ النُّصرةِ من هذا الصّنف منَ المؤمنين أمرٌ محتَملٌ نظرًا لبقائهم في موطن الأمانِ بين أقوامِهم وعدم تعرُّضِهم لمواقفَ تستدعي طلبَ النُّصرة.

وفيه إشارةٌ إلى أنّ الإسلامَ يحترمُ المؤمنين مع اختلاف أحوالهم، وأنّ القليلَ منه يأخذُ حكمَ الكثير في النّصرة.

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/342.

سِرُّ التّعبيرِ بـ ﴿ٱسۡتَنصَرُوكُمۡ﴾:

الاستنصارُ شاملٌ لكلِّ أنواعِ العَوْنِ

قَولُ اللّهِ تعالى: ﴿وَإِنِ ٱسۡتَنصَرُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ﴾: آثرَ التّعبيرَ بالنَّصر؛ لأنّ معناه العونُ بكلّ أشكالِه سواءٌ كان العونُ مادّيًّا أم معنويًّا، وفي هذا دليلٌ على أنّ هؤلاء المؤمنين في موطن الضَّعفِ من غيرهم، والإسلامُ يحرصُ على العزّةِ للمؤمنين في كلِّ مكانٍ، قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾.

دلالَةُ الحرف (في) ﴿فِي ٱلدِّينِ﴾:

مَناطُ النُّصرَةِ الشَّرعيَّةِ الأُمورُ الدِّينيَّةُ

آثرَ التَّعبيرَ بـ﴿فِي﴾ الّتي تدلُّ على الظَّرفيَّة، والمعنى: أنَّهم مُتمكِّنونَ مِنَ الدّين تمكُّنَ المَظروفِ مِن ظرفِه، وهي ظرفيَّةٌ مجازيَّةٌ، تَؤولُ إلى معنى التَّعليلِ[1]، ويجوزُ أن تكونَ ﴿فِي﴾ بمعنى السّببيّةِ، ويكون المرادُ إن طلبوا نُصرَتَكُم بسَبَبِ أمرٍ مِن أُمورِ الدّين فانصروهم، إلّا على قومٍ بينكم وبينهم ميثاق.

سرُّ تقييدِ النَّصرِ بكونه في ﴿ٱلدِّينِ﴾:

لا نصرةَ في قَبَليَّةٍ أو عَصَبيَّةٍ أو عَرَضٍ دُنيويٍّ زائلٍ

قيّدَ طلبَ النُّصرةِ بكونه في الدّين لإخراج النُّصرةِ من أجل العصبيَّةِ والقبليَّةِ ؛ فذلك أمرٌ مذمومٌ، وأيضًا لأنّ لفظَ الدّين لفظٌ عامٌّ، فتندرجُ تحتَه معانٍ كثيرةٌ ينبغي الحفاظُ عليها؛ فإذا تعرّضَ أمرٌ من أمور الدّين أو شعيرةٌ من شعائره للاستهزاء وللسّخرية ونحو ذلك، وجب على المسلمين نصرةُ هؤلاء المؤمنين الّذين لم يُهاجروا حتّى لا يكون للكافرين على المؤمنين سبيلٌ.

دلالَةُ (عَلَى) وأثرها في السِّياق:

وُجوبُ نُصرَةِ أَهلِ الإيمانِ بَعضِهِم بَعضًا

آثرَ التّعبيرَ بـ(عَلَى) في قَولِ اللّهِ سُبحانَهُ: ﴿فَعَلَيۡكُمُ ٱلنَّصۡرُ﴾؛ لأنّها للاستعلاءِ، والمُرادُ ههنا الدِّلالَةُ على الوجوبِ والإلزامِ؛ لأنَّ مَعنَى الاستِعلاءِ مُتضَمَّنٌ فيه؛ أي: واجبٌ علَيكُم نَصرُهُم.

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/343، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/86.

نُكتَةُ تَقديمِ الخَبَرِ ﴿فَعَلَيۡكُمُ﴾:

تقديمُ الخبرِ للاهتمام به

قوله تعالى: ﴿فَعَلَيۡكُمُ ٱلنَّصۡرُ﴾، قُدِّمَ الخبَرُ ﴿فَعَلَيۡكُمُ﴾ لإرادَةِ الاهتِمام[1]، وفيه إشارةٌ إلى أنّ المؤمنَ يحتمي بولاية المؤمنين مهما تباعدتِ الدِّيارُ، وتناءتِ الأقطارُ؛ فالمؤمنُ إذا استنصرَ بجماعة الإيمانِ وجبَت نُصرتُه.

دلالَةُ (أَلْ) في ﴿ٱلنَّصۡرُ﴾:

أثَرُ مَعاني الحُروفِ في فَهمِ المعاني القُرآنيَّةِ

اللّامُ في لفظ ﴿ٱلنَّصۡرُ﴾ مِن قَولِ اللّهِ ﷻ: ﴿فَعَلَيۡكُمُ ٱلنَّصۡرُ﴾ لِلعَهدِ الذِّكريِّ، والنَّصرُ مذكورٌ في قولِه قبلُ: ﴿ٱسۡتَنصَرُوكُمۡ﴾؛ فإنَّهُ دالٌّ على طلَبِ نصرٍ، فلمّا ذُكِرَ النَّصرُ بَعدُ في قولِه سُبحانَهُ: ﴿فَعَلَيۡكُمُ ٱلنَّصۡرُ﴾ كان راجِعًا إلى النَّصرِ الّذي طلبوهُ، والمَعنى: فعلَيكُم نَصرُهُم[2].

سرُّ التّعبيرِ بـ ﴿فَعَلَيۡكُمُ ٱلنَّصۡرُ﴾:

النَّصرُ من أجلِ الدّينِ، وليس من أجل العصبيَّةِ

عبّرَ بالنَّصر مُعرَّفًا بـ(أل) دون إضافته إلى الضّمير (نصرهم)؛ للدّلالة على أنّ نصْرَهم يكون من أجل الدّين، وليس من أجل الأشخاص؛ لأنّ البعضَ قد يُنصَرُ من أجل قرابةٍ أو منفعةٍ، لكنّ القرآنَ يريدُ أن يكونَ النَّصرُ من أجل الدّين؛ لذلك جاءَ التّعبيرُ مُعرَّفًا بـ(أل) دون التّعريف بالضّمير.

سِرُّ تقديمِ ﴿بَيۡنَكُمۡ﴾ على ﴿وَبَيۡنَهُم﴾:

احترامُ الإسلامِ للمواثيقِ والعهود

في قوله تعالى: ﴿إِلَّا عَلَىٰ قَوۡمِۭ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُم مِّيثَٰقٞۗ﴾ قدّمَ القرآنُ الكريمُ لفظَ ﴿بَيۡنَكُمۡ﴾ للدّلالة على أنّ المسلمين في موضعِ القوَّة، حيث قدّمَهم في الذّكرِ ووجّهَ الخطابَ إليهم، وأمّا الفريقُ الآخرُ؛ فأخّرَهم في الذّكر، وعبّرَ عنهم بضمير الغيبة، وفي هذا دليلٌ على ضعفِهم وعدمِ ظهورِ قوتِهم.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/86.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/86.

نُكتَةُ تَنكيرِ ﴿مِّيثَٰقٌ﴾:

نُكِّر لَفظُ ﴿مِّيثَٰقٌ﴾ من قَولِ اللّهِ ﷻ: ﴿إِلَّا عَلَىٰ قَوۡمِۭ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُم مِّيثَٰقٌ﴾ لإرادَةِ تعظيمِ هذا الميثاقِ وتَغليظِه.

تَعظيمُ الميثاقِ وَتَغليظُهُ، من أصولِ المعاملة في الإسلام

دلالَةُ تَعريفِ المُسنَدِ إِلَيهِ (الله) بالعلميَّةِ:

عُرِّفَ المُسنَدُ إليه (اللّه) بالعَلَميَّةِ في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾؛ لإظهارِ المَهابَةِ بالتَّصريحِ بالاسمِ الأَحسَنِ الجامعِ لِصفاتِ الجَلالِ والجَمالِ والكَمالِ، وفيه أيضًا تَرهيبُ المخاطَبينَ مِن مخالفَةِ أوامرِ اللّهِ تعالى بالتَّركِ أو نَواهيه بالارتكابِ.

تَرهيبُ المُخاطَبينَ مِن مُخالَفَةِ أوامِرِ اللهِ تعالى بالتَّركِ، أو نَواهيهِ بالارتكابِ

نُكتَةُ تَقديمِ الجارِّ والمَجرورِ:

قُدِّمَ الجارُّ والمَجرورُ في قَولِ اللّهِ ﷻ: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾ تأكيدًا لِعلمِ اللّهِ سُبحانَهُ بالخفايا؛ وذلك أنَّ السّياقَ لمّا كانَ في بيانِ المصالحِ الَّتي تُنَظِّمُ الدِّينَ، وكانَ للنُّفوسِ أحوالٌ متباينَةٌ؛ اقتضَى ذلكَ تأكيدَ عِلمِ اللّهِ[1] ﷻ.

إحاطَةُ عِلمِ اللهِ تعالى بجميعِ أَحوالِ الخَلقِ

وفي تقديمِ الجارِّ والمجرورِ اهتمامٌ بالمقدَّمِ، وذلكَ أنَّ اللّهَ سُبحانَهُ عالمٌ بما يَعمَلُ المخاطبونَ وعالمٌ بجميعِ أحوالِ الخلقِ، فكانَ التَّقديمُ مُفيدًا الاهتمامَ بالمقدَّمِ لكونِ السّياقِ في أعمالِهم، لا دالًّا على الحَصرِ.

بلاغَةُ التَّذييلِ في آخرِ الآيةِ الكريمة:

قَولُ اللّهِ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾ وجُملَةُ التَّذييلِ واردَةٌ على جِهَةِ التَّحذيرِ للمسلمينَ؛ لئلّا يحمِلَهُم العَطفُ على إخوانِهم المسلمينَ على أن يُقاتِلوا قومًا عقدوا معَهُم ميثاقًا، ولازِمُ هذا التَّحذيرِ التَّنويهُ بشأنِ الوفاءِ بالعَهدِ[2].

التَّنويهُ بِشَأنِ الوَفاءِ بالعَهدِ، وأهميتُه في الإسلام

وفي جملةِ التَّذييلِ أيضًا تَرغيبٌ وتَرهيبٌ: ترغيبٌ في العَمَلِ بما جاءَ الحثُّ عليه مِنَ الإيمانِ والهِجرَةِ وتوابعِهما، وترهيبٌ مِنَ العمَلِ بضِدِّ ذلكَ[3].

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/344.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/87.

(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/345.

سرُّ التَّعبيرِ بـ ﴿بَصِيرٌ﴾:

آثرَ التّعبيرَ بلفظ ﴿بَصِيرٌ﴾ دون (عليم) في قوله: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ﴾؛ لأنّ السِّياقَ هنا يتعلَّقُ بأحداثٍ مُشاهدَةٍ، ناسَبَها التّعبيرُ بالبصير؛ فأمرُ الإيواءِ والنُّصرةِ والهجرةِ والجهادِ كلُّها أمورٌ مُشاهدَةٌ تقعُ تحتَ بصرِ اللّهِ ﷻ، وفي ذلك تقويةٌ لمضمون الكلام عند المؤمنين وتقريرُه في نفوسهم، أمّا العلمُ فيتعلَّقُ بأمر النّيّات والخفايا، وما ذُكِرَ هنا ليس من هذا الباب.

الأحـــــداثُ المُشاهدَةُ قُوبِلَت بالصّفةِ الدّالَّةِ عليها

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الميثاقُ والعهدُ:

آثرَ التّعبيرَ بالميثاق دون العهد؛ لأنّه أبلغُ، فالميثاقُ عهدٌ مؤكَّدٌ بيمينٍ، ولذلك يستخدمُه القرآنُ الكريمُ في الأمور المغلظة، مثل: ﴿وَأَخَذۡنَا مِنۡهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ١٥٤﴾ [النساء: 154]، ومثل الحديث على ميثاق النّبيّين، وفي الحديث عنِ المعاهدات الّتي تُعقَدُ بين المسلمين وغير المسلمين، سمّاها القرآنُ ميثاقًا كما في هذه الآية.

المـيـثـاقُ عـهـدٌ مؤكَّدٌ بيَمِينٍ

وأيضًا لأنّ الميثاقَ أخصُّ منَ العهد؛ فكلُّ ميثاقٍ عهدٌ، وليس كلُّ عهدٍ ميثاقًا، ويدُلُّ الاشتقاقُ اللُّغويُّ على هذا الفارقِ؛ فإنَّ الميثاقَ مِن قولِهم: أوثقتُ الشَّيءَ؛ أي: أَحكمتُهُ[1].

وذكرَ الشَّوكانيُّ فرقًا آخرَ بينَهما[2] لا يَرجِعُ إلى أَصلِ اللُّغةِ: وهو أنَّ العهدَ جميعُ ما عَهِدَ اللّهُ تعالى على العبادِ مِنَ الأوامرِ والنَّواهي، والميثاقَ ما أخذَه اللّهُ سُبحانَهُ على عبادِه حين أخرجَهُم مِن صُلبِ آدمَ في عالم الذَّرِّ؛ وهو الواردُ في قول اللّه ﷻ: ﴿وَإِذۡ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ﴾ [الأعراف: 172].

(1) ابن القطّاع، كتاب الأفعال: 3/304.
(2) الشَّوكانيّ، فتح القدير: 3/94.

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٍۚ إِلَّا تَفۡعَلُوهُ تَكُن فِتۡنَةٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَفَسَادٞ كَبِيرٞ ٧٣﴾ [الأنفال: 73]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

ربطُ شروط موالاة المؤمنين بمفهوم موالاة الكافرين الذّين هم بالكفر ملّةٌ واحدةٌ

لَمّا بيَّنَ اللّهُ ﷻ في الآية السّابقة شَرطَ موالاةِ المُسلمينَ لأهلِ الإسلامِ بقوله: ﴿مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيۡءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْۚ﴾؛ بَيَّنَ هنا موالاةَ الكافِرينَ بعضِهم بعضًا، وأنَّهُ لا شَرطَ فيها إلّا مُطلَقُ الكُفرِ، فهو وإن اختَلَفَت أنواعُهُ، وتعدَّدَت ضُروبُهُ، يَجمَعُهُ عداوَةُ اللّهِ سُبحانَهُ وولايَةُ الشَّيطانِ وحِزبِهِ، فقالَ ﷻ: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٍۚ﴾[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فِتۡنَةٞ﴾: أصل الفَتْنِ: إدخالُ الذَّهب النَّارَ لتظهرَ جودتُه من رداءته، ولذلك تذكرُ بعضُ كتبِ اللّغةِ أنّ الفاءَ والتّاءَ والنّونَ تدورُ تصريفاتُها على إذابةِ مادَّةِ باطنِ الشَّيءِ وتحويلِها؛ بإدخالها نارًا حارَّةً، ومِنه إذابةُ الذَّهب والفضَّة[2].

والفتنةُ تُستعمَلُ في إدخال الإنسانِ النّارَ، قال تعالى: ﴿يَوۡمَ هُمۡ عَلَى ٱلنَّارِ يُفۡتَنُونَ﴾، وتُطلَقُ على العذاب، قال تعالى: ﴿ذُوقُواْ فِتۡنَتَكُمۡ﴾؛ أي: عذابَكم، وتارةً يُسمُّون ما يحصلُ عنه العذاب، فيُستعمَلُ فيه نحو قوله: ﴿أَلَا فِي ٱلۡفِتۡنَةِ سَقَطُواْۗ﴾، وتارةً في الاختبار نحو: ﴿وَفَتَنَّٰكَ فُتُونٗاۚ﴾. والفتنةُ منَ الأفعال الّتي تكون منَ اللّه تعالى ومنَ العبد؛ كالبليّةِ والمُصيبةِ والقتلِ والعذابِ وغيرِ ذلك منَ الأفعال الكريهةِ، ومتى كان من اللّه يكون على وجه الحكمةِ، ومتى كان من الإنسان بغير أمرِ اللّهِ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/345.
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصَّل: (فتن).

يكون بضدّ ذلك، ولهذا يذمُّ اللّهُ الإنسانَ بأنواع الفتنةِ في كلّ مكانٍ نحو: ﴿وَٱلۡفِتۡنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلۡقَتۡلِۚ﴾، وقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾[1].

والفِتنَةُ في الأرضِ: قوَّة الكُفر[2]، وَوجهُ التَّحويلِ في هذا المَعنَى ظاهِرٌ؛ وذلِكَ أنَّ الأصلَ في الأرضِ أنَّ اللّه سُبحانَهُ جعلَها على الإيمانِ والتَّوحيدِ، فَفُشوُّ الكُفرِ فيها وقوَّتُهُ تحويلٌ للأرضِ عمّا ينبغي أن تَكونَ عليهِ.

2) ﴿وَفَسَادٌ﴾: الفَسادُ: خروجُ الشّيء عنِ الاعتدال قليلًا كان أو كثيرًا، وضدُّه الصَّلاح؛ وهو البُطلانُ والاضمِحلال، ويأتي بمَعنَى التَّغَيُّرِ[3]، ويُستعمَلُ ذلك في النَّفسِ والبدنِ والأشياءِ الخارجةِ عنِ الاستقامة[4].

والمعنى الجامِعُ له أنَّهُ خُروجُ الشَّيءِ عَنِ الاعتِدال والاستِقامة[5]، فيكون في الأرضِ بِتَهييجِ الحُروبِ والفِتَنِ، وانتفاءِ الاعتِدالِ والاستقامَةِ عَن أحوالِ النَّاسِ وزَرعِهِم وسائِرِ منافِعِهم، وتولّي المؤمِنِ الكافِرَ دونَ المؤمِنِ[6].

المَعْنى الإجْماليُّ:

بيّنَ اللّهُ تعالى في هذه الآية أنّ الّذينَ كفَروا باللّهِ تعالَى ورسولِهِ ﷺ بَعضُهُم أَعوانُ بَعضٍ، وليس لكم أن توادّوهم أو تتّخذوهم أصدقاءَ مهما كانوا منَ القرابةِ والصّلةِ، وإن لَم تَفعَلوا - أيُّها المؤمِنونَ - ما أُمِرتُم بِهِ تكُنْ في الأَرضِ فِتنَةٌ للمُؤمِنينَ عَن دينِ اللّهِ سُبحانَهُ، وفسادٌ عريضٌ بالصَّدِّ عَن سَبيلِ اللّهِ تعالى وتَقويَةِ دعائِمِ الكُفرِ[7].

موالاةُ الكافرِ فتنةٌ كبيرةٌ، والولاء العقديُّ لُحمة ورِباط

(1) الرّاغب، المفردات: (فتن).
(2) السَّمعانيّ، تفسير القرآن: 2/282.
(3) الزَّبيديّ، تاج العروس: (فسد).
(4) الرّاغب، المفردات: (فسد).
(5) الرّاغب، المفردات: (فسد).
(6) ابن جرير، جامع البيان: 14/87، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (فسد).
(7) ابن جرير، جامع البيان: 14/84 - 87، ونخبة من العلماء، التّفسير الميسّر، ص: 186.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالةُ الواو في الجملة المبدوءة بالموصول:

مِن طَرائِقِ القُرآنِ الكَريمِ ذِكرُ الأَشياءِ المُتَناظِرَةِ المُتَقابِلَةِ

الواوُ في ﴿وَٱلَّذِينَ﴾ من قَولِ اللّه ﷻ: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٍۚ﴾ عاطِفَةٌ، وصَلَت هذهِ الجُملَةَ بما قَبلَها؛ لِما بينَهُما مِنَ التَّوسُّطِ بينَ الكمالَين؛ فإنَّ كُلًّا من هذهِ الجملَةِ وما عُطِفَت عليهِ من قولِ اللّه سُبحانَهُ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ﴾ خبريَّةٌ، وبينَهُما جامعٌ وهو التَّضادُّ؛ فإنَّ اللّه تعالَى لَمّا ذَكَرَ وِلايةَ أهلِ الإيمانِ ذَكَرَ ولايةَ أهلِ الكُفرِ، وبين الجُملَتَينِ تناسبٌ من جِهَةِ الاتِّفاق في لفظِ المُسنَدِ إليه (الّذينَ)، وإنِ اختلفَ متعلِّقُهما، واتَّحدا في اسميَّةِ الجُملَةِ، ويَجوزُ أن تَكونَ الواوُ للتَّقسيم؛ وذلك لأنَّ الآيَةَ في بيانِ حُكمِ القِسمِ المقابِلِ لقولِهِ تعالى قَبلُ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ﴾[1]. ولا تعارُضَ بينَ دِلالةِ الواوِ على التَّقسيمِ وبينَ كَونِها عاطِفَةً.

نُكتَةُ تَعريفِ المُسنَدِ إلَيهِ بالمَوصوليَّةِ:

أَهلُ الباطِلِ يُوالي بَعضُهُم بَعضًا على باطِلِهِم

عُرِّفَ المسنَدُ إليهِ (الَّذينَ) بالموصوليَّة في قولِ اللّه ﷻ: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٍۚ﴾؛ للإيماءِ إلى عِلَّةِ الحُكمِ المذكورِ في الخَبَرِ، وأنَّ تَوَلِّي بعضِهِم بعضًا إنَّما كانَ بسبَبِ اجتماعِهِم على الكُفرِ.

عِلَّةُ إيرادِ الاسمِ المَوصولِ جَمعًا:

كَثرَةُ أَهلِ الكُفرِ مَعَ اختِلافِ مَشارِبِ كُفرِهِم

إيرادُ الاسمِ الموصول جَمعًا في قولِ اللّه ﷻ: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٍۚ﴾؛ فيهِ إشعارٌ بِكَثرَةِ أهلِ الكُفرِ؛ وذلكَ لأنَّ الكُفرَ أنواعٌ متعدِّدَةٌ، كُلُّ نوعٍ مِن أنواعِهِ يندرِجُ تحتَه أفرادٌ كثيرونَ.

سِرُّ مَجيءِ الصِّلَةِ فِعلًا ماضيًا:

تَحَقُّقُ وَصفِ الكُفرِ مُوجِبٌ للموالاةِ عليه

جيءَ بصِلةِ المَوصولِ فعلًا ماضيًا ﴿كَفَرُواْ﴾ من قولِهِ سُبحانَهُ: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٍۚ﴾؛ للدِّلالَةِ على تحقُّقِ وَصفِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/87.

الكُفرِ فيهم، وأنّهم همُ الّذين حرصوا على رسوخ الكفرِ في قلوبِهم، حتّى فقدوا الاستعدادَ للإيمان، وفيه إشارةٌ إلى التّنفير من وصف الكُفرِ وتقبيحه، حتّى ولو كان في كُفر النّعمةِ.

نُكتَةُ حَذفِ متعلّق الكُفرِ:

إغراقُ أَهلِ الكُفرِ في الباطِلِ، بِتَكذيبِهِم جَميعَ ما أَوجَبَ اللهُ تعالى الإيمانَ بِهِ

حُذِفَ متعلِّقُ الفعلِ (كَفَروا) مِن قولِ اللهِ سُبحانَهُ: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٍۚ﴾ وهو المَكفورُ بهِ؛ لإرادَةِ العُموم، وذلك لأنَّ حَذفَ المَعمولِ مُؤذِنٌ بذلك، والمَعنَى: كفَروا بِجَميعِ ما يَجِبُ أن يُؤمِنوا بِهِ شَرعًا.

وأيضًا للدّلالة على أنّ كُفرَهم لا يقتصرُ على الكفر باللّه ورسله إلى آخر ما يجبُ الإيمانُ به، بل يتعدّى كفرُهم إلى جحودِ كلِّ نعمةٍ وخيرٍ.

دلالَةُ التّعبيرِ بالجملة الخَبَريّةِ:

تَحريمُ موالاةِ المُسلِمينَ للكافِرينَ

قولُ اللهِ سُبحانَهُ: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٍۚ﴾ خَبَرٌ، وهوَ مُستَعمَلٌ في مَعناهُ الكِنائيِّ؛ وهو النَّهيُ عن موالاةِ المسلمينَ لأهلِ الكُفرِ عمومًا، سواءٌ أكانت هذه الموالاة في الميراث؛ فلا يرثُ المسلمُ الكافرَ، والنَّصُّ النَّبويُّ في هذا صريحٌ: «لا يرثُ المسلمُ الكافرَ ولا الكافرُ المسلمَ»[1]، أم بمعنى المؤازرةِ والمناصرةِ، وعلى ذلك فالآيةُ تدلُّ بمفهومها على نفي الوراثة بين الكفّار والمؤمنين، وأيضًا نفي المؤازرةِ، وتدلُّ على إيجابِ المباعدةِ والمصارمةِ بين المسلمين والكافرين، وإن كانوا أقاربَ[2].

والقَرينَةُ على هذهِ الدِّلالَةِ أنَّ الإخبارَ المحضَ عَن ولايةِ الكُفّار بعضِهم بعضًا ليسَت ممّا يَهُمُّ أهلَ الإسلامِ لولا إرادَةُ النَّهيِ عَن موالاةِ المسلمينَ إيَّاهم[3].

(1) أخرجه البخاري في الجامع الصحيح، الحديث رقم: (6764)، ومسلم في صحيحه، الحديث رقم: (1614).

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/38.

(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/345، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/87.

دلالةُ التّعبيرِ بقوله: ﴿أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ﴾:

الكفّارُ كلُّهم يدٌ واحدةٌ على المسلم، وهم يتكاتفون ضدَّه

دلَّ هذا التّعبيرُ على أنّ الكفّارَ يُوالي بعضُهم بعضًا لاجتماعهم على الكفر، وإنِ اختلفَت مللُهم، كما حصلَ بين اليهود ومشركي مكّةَ؛ فكلُّ فريقٍ منهم يُوالي الآخرَ من أجل القضاءِ على المسلمين، يؤكّدُ ذلك التّعبيرُ بالبعضيّة الّذي يشيرُ إلى أنّهم، وإنِ اختلفَت مذاهبُهم ومِللُهم، بمنزلة الجزءِ منَ الكلِّ، والعُضو منَ الجسد في حربهم على الإسلام والمسلمين.

سرُّ التّعبيرِ بقوله: ﴿إِلَّا تَفۡعَلُوهُ﴾:

صيغةُ (فعل) أعمُّ من (عمل)

آثرَ التّعبيرَ بالفعل دون العمل مثلًا؛ لأنّ الفعلَ أعمُّ منَ العمل، والمرادُ هنا العموم في ولاية المؤمنين بنُصرتهم ومؤازرتهم وقطع ولاية الكافرين بكلِّ أصنافها، ولو دعَتِ الأسبابُ إلى ذلك من قَرابةٍ ونحوها.

دلالةُ واو الجماعة في قوله: ﴿إِلَّا تَفۡعَلُوهُ﴾:

الأمةُ جمعاءُ مطالبةٌ بموالاة المؤمن دون الكافر

دلَّ التّعبيرُ بواو الجماعة على أنّ الأمةَ في كلِّ أفرادها مجتمعةً مطالبةٌ بقطع ولاية الكافرين وموالاة المؤمنين لبعضهم البعض بالمؤازرة والمناصرة؛ للحفاظ على بَيْضتها ولُحمتها، ومَن وقفَ على تاريخِ الدُّولِ الإسلاميَّةِ الّتي سقطَت وبادَت يجدُ أنَّ السّببَ الأعظمَ في سقوطِها وإبادتِها مخالفتها أمرَ اللّه في ترك ولايةِ الكافرين، واستُبدلَت ولايةُ المؤمنين بعضَهم بعضًا بولاية الكافرين.

تَعَدُّدُ مَرجِعِ الضَّميرِ في سياق الآية:

تعدُّدُ المعاني القُرآنيَّةِ بتَعَدُّدِ أوجُهِ مَرجِعِ الضَّميرِ

الضَّميرُ في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿إِلَّا تَفۡعَلُوهُ﴾ يجوزُ أن يعودَ على الميثاقِ، والمرادُ: حِفظُهُ، أو على النَّصرِ، أو على التَّوارُثِ، وجائزٌ أن يعودَ على مجموعِ ذلك كُلِّهِ[1]، فيكونُ الضَّميرُ بمنزلَةِ اسم الإشارَةِ الّذي يُشارُ بهِ إلى كلِّ ما تقدَّمَ[2]. والأظهَرُ أنَّ الضَّميرَ راجِعٌ إلى قولِهِ سُبحانَهُ:

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/359.
(2) الطّيّبيّ، فتوح الغيب: 7/158.

﴿بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ﴾، على معنى: إنْ لَم تفعَلوا مِثلَهُ مِن موالاةِ المسلِمينَ، ومعاداةِ الكافِرين[1]، ولذا قال الزَّمخشريُّ في تفسير هذه الآية: "إلّا تَفعَلوا ما أَمَرتُكُم بهِ مِن تَواصُلِ المُسلِمين، وتَوَلّي بَعضِهِم بَعضًا..."[2].

سرُّ التَّعبيرِ بـ ﴿تَكُن﴾:

في قوله: ﴿تَكُن فِتۡنَةٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ يدلُّ التّعبيرُ بقوله: ﴿تَكُن﴾ على أنّه من سُنَنِ اللّه الكونيّة، أنّ ترْكَ ما أمرَ اللّهُ به عمومًا، وفي النّهي عن موالاة الكافرين خصوصًا، يؤدي إلى العواقبِ الوخيمةِ والأضرارِ الجسيمةِ على مستوى الفرد والأمَّة، ويؤكِّدُ الواقع ما أصاب الأمةَ من خَسارةٍ فادحةٍ لمّا اتّخذَتِ الكفّارَ أولياءَ، ولم يكن ذلك أمرًا عفويًّا، بل هو نتيجةٌ لمخالفة سنن اللّه.

الفتنةُ كائنةٌ بمخالفة سُنَن الله

سرُّ اختيارِ التَّعبيرِ بالفتنة:

في قوله: ﴿تَكُن فِتۡنَةٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ آثرَ التَّعبيرَ بالفتنة؛ لأنّها تُطلَقُ على معانٍ عديدة منَ الابتلاءِ والاختبارِ والعذابِ والشِّدَّةِ، وكلُّ ذلك قد حدثَ للمسلمين في مبدأ الدّعوة، فحاول الكفّارُ أن يفتنوهم عن دين اللّه، فأمرَ الرّسولُ ﷺ بعضَ المسلمين بالهجرة إلى الحبشة، وبعدَ بيعةِ العقبة اشتدَّ إيذاءُ مشركي مكّةَ للمؤمنين، فأصابَهم جهدٌ شديدٌ، وما المقاطعةُ الاقتصاديّةُ الّتي فعلَتها قريشٌ إلّا دليلٌ على شدّة هذه الفتنة وعِظمها.

الفتنةُ وقعُها شديدٌ، حذّرَ القرآنُ منها أشدَّ التحذيرِ

نُكتَةُ تَنكيرِ ﴿فِتۡنَةٞ﴾:

دلَّ تنكيرُ ﴿فِتۡنَةٞ﴾ في قَولِ اللّهِ ﷻ: ﴿إِلَّا تَفۡعَلُوهُ تَكُن فِتۡنَةٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾على الخطر العظيمِ[3] النّاتجِ عن هذه الفتنة في واقعِ الأمَّةِ،

ضَعفُ أهلِ الإيمانِ وقوَّةُ أهلِ الكُفرِ

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 8/345.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/240.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/346، وأبو السّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/38، والآلوسيّ، روح المعاني: 5/233.

والمعنى: إلّا تفعَلوه تَحصُلُ فِتنَةٌ عظيمَةٌ في الأرضِ؛ بضعفِ أهلِ الإيمانِ وقوَّةِ أهل الكُفرِ.

سِرُّ عدمِ وصفِ الفتنةِ بالكِبَر:

قليلٌ منَ الفتنة كافٍ للتّحذير منه

لم يصفِ القرآنُ الكريمُ الفتنةَ بالكِبَر بأن يقولَ: (فتنةٌ كبيرةٌ)؛ لأنّ القليلَ منَ الفتنة خطرُه عظيمٌ؛ فما احتاجَت أن تُوصَفَ بالكبيرة؛ فكيف لو وصفَها بالكبيرة؛ بخلاف الفسادِ فمنه الصّغيرُ والكبيرُ، لذلك وصفه فيما بعدُ بالكبير؛ ليُفرِّقَ بين فسادٍ يتعلَّقُ بالأمّة ودينِها وفسادٍ يتعلَّقُ بأمرٍ دنيويٍّ أو شخصيٍّ.

دلالَةُ اللّامِ في لفظ ﴿ٱلۡأَرۡضِ﴾:

مَن أحدَثَ فِتنَةً في بُقعَةٍ مِنَ الأَرضِ؛ كانَت بِمَنزِلَةِ الفِتنَةِ في الأَرضِ كُلِّها

اللّامُ في ﴿ٱلۡأَرۡضِ﴾ مِن قَولِ اللّهِ ﷻ: ﴿إِلَّا تَفۡعَلُوهُ تَكُن فِتۡنَةٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ لامُ الجِنسِ المفيدَةُ عمومَ البِقاعِ المندرجةِ تَحتَ لَفظِها، وهذه الدِّلالَةُ تقتضي شناعَةَ مَن ألحَقَ الفِتنَةَ في أيِّ بقعةٍ من بقاعِ الأرضِ؛ لأنَّ مَن فَعَلَ ذلك؛ فقد ألحقَ فسادًا في تِلكَ البُقعَةِ بالفِعلِ، وفي جَميعِ البِقاعِ الأُخرَى بالقوَّةِ.

وممّا يُذكَرُ في دلالة (أل) في الأرض أنّ ما يحدثُ في أيّ بقعةٍ من بقاعها شرقًا أو غربًا صار معلومًا لكلِّ أهلِ الأرضِ في الغالب؛ فهي وإن كانت قديمًا متباعدةً فهي الآن متقاربةٌ كالقرية الواحدة.

سِرُّ التَّنصيصِ على مَحَلِّ الفِتنَةِ:

الإخلالُ بالمكانِ الّذي يَعيشُ فيهِ المَرءُ مِن أعظَمِ القَبائِحِ

التَّنصيصُ على محلِّ الفِتنَةِ - وهيَ الأرضُ - في قولِ اللّهِ سُبحانَهُ: ﴿إِلَّا تَفۡعَلُوهُ تَكُن فِتۡنَةٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ فيه المبالغَةُ في حَملِهِم على الامتِثالِ لِما أُمِروا بِهِ؛ تجنُّبًا لظهورِ الفِتنَةِ في الأرضِ، وهي المحلُّ الّذي خُلِقوا مِنه، وعلى ظَهْرِهِ يعيشونَ، وإليهِ يَرجِعونَ، فقَمِنٌ ألّا تَقَعَ فيه فِتنَةٌ.

سرُّ الجمعِ بين الفتنةِ والفسادِ:

قوله: ﴿إِلَّا تَفۡعَلُوهُ تَكُن فِتۡنَةٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَفَسَادٞ كَبِيرٞ﴾، جمعَ

القرآنُ الكريمُ بينهما للمبالغة في التّحذير في عدمِ فعلِ ما شرعه اللّهُ للمؤمنين من ولايةِ بعضهم لبعض وتناصُرِهم وتعاونِهم تجاه ولاية الكفّار؛ وذلك لأنّ الأثرَ المُترتِّبَ على ذلك أثرٌ خاصٌّ وأثرٌ عامٌّ ؛ فالفتنةُ أثرٌ يختصُّ باضطهادِ المسلمين وصدِّهم عن دينهم، وهذا واضحٌ في هذه السّورة، قال تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ﴾، وتعني الفتنةُ أيضًا: التباسَ الأمرِ وعدمَ وضوحِ الحقيقةِ عند بعض المسلمين؛ أمّا الفسادُ؛ فأثرُه عامٌّ على كيان الأمّة، ومظهرُه استضعافُ دولةِ الإسلامِ وفرضُ الشُّروطِ عليهم والتَّحكّمُ في شعائرهم.

الفتنةُ خاصَّةٌ، والفسادُ عامٌّ، وكلاهما واقعٌ بمخالفة أمر الله

سرُّ التَّعبيرِ بالفساد:

في قوله: ﴿تَكُن فِتۡنَةٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَفَسَادٞ كَبِيرٞ﴾، آثرَ التّعبيرَ بالفساد دون غيره؛ لأنّه لفظٌ عامٌّ تندرجُ تحتَه كلُّ أنواعِ الخروجِ عن حدِّ الاعتدالِ كُفْرًا وشِرْكًا، ويشملُ ما يقعُ في النّفس والبدن والأشياء، وفيه إشارةٌ إلى أنّ ولايةَ المؤمنين للمؤمنين صلاحٌ، وأنّ ولايةَ الكافرين للمؤمنين فسادٌ.

كلُّ ضررٍ بالمؤمن في دينه ودنياه هو فساد

دلالَةُ تَنكيرِ لفظ (فَسادٌ):

نُكِّرَ لَفظُ (فَساد) مِن قَولِ اللّهِ ﷻ: ﴿تَكُن فِتۡنَةٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَفَسَادٞ كَبِيرٞ﴾؛ لإرادَةِ التَّعظيمِ؛ أي: تَحدثُ في الأَرضِ فتنَةٌ عظيمَةٌ وفسادٌ عظيمٌ وكبيرٌ.

ويجوزُ أَن يكونَ التَّنكيرُ لإرادَةِ النَّوع؛ أي: يَحصُلُ نوعٌ مِنَ الفسادِ مُباينٌ لِما عُهِدَ مِنه، وهذه الدِّلالَةُ تؤولُ إلى ما قَبلَها؛ لأنَّ هذا الفسادَ إنَّما بايَنَ سائرَ أنواعِ الفسادِ؛ لعِظَمِهِ وشدَّةِ شناعَتِهِ.

تَركُ موالاةِ أَهلِ الإسلامِ بَعضِهِم بَعضًا مِنَ الفَسادِ العَظيمِ في الأَرضِ

دلالَةُ وَصفِ الفَسادِ بالكِبَرِ:

في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿تَكُن فِتۡنَةٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَفَسَادٞ كَبِيرٞ﴾، وُصفَ الفَسادُ بِالكِبَرِ مبالغَةً في تعظيمِه وإظهارِ خُطورَتِه، فاجتَمَع فيه نوعان: فسادٌ مادّيٌّ وفسادٌ معنويٌّ، وبيانُ ذلك من وجهين:

اجتِماعُ الكِبَرِ المادّيِّ والمعنويِّ في الفَسادِ

أوّلًا: أنّ المسلمين لو اختلطوا بالكفّار في زمانِ ضعفِ المسلمين وقلّةِ عددهم وزمانِ قوّة الكفّار وكثرةِ عددهم؛ فربما صارَت تلك المخالطةُ سببًا لالتحاق المسلم بالكُفّار.

ثانيًا: أنّ المسلمين لو كانوا متفرِّقين لم يظهرْ منهم جمعٌ عظيمٌ ؛ فيصير ذلك سببًا لجرأة الكفّار عليهم، وهذا فسادٌ كبيرٌ[1].

بَراعَةُ الاستِعارَةِ التَّصريحيَّةِ التَّبعيَّةِ:

إبـرازُ الـفَـسـادِ في صـــورَةِ المَـحـسـوسـاتِ مُبالَغَةٌ في بَيانِ شَناعَتِهِ

وَصْفُ الكِبَرِ في الأصلِ يُطلَقُ حقيقةً على عِظَمِ الأجسام، ووصفُ الفسادِ بالكِبَرِ في قولِ اللّه ﷻ: ﴿تَكُن فِتْنَةٌ فِي ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ مُستعارٌ للفسادِ الشَّديدِ القَويِّ[2]، على طريقةِ الاستعارَةِ التَّصريحيَّةِ التَّبعيَّةِ، والنُّكتَةُ في ذلكَ: إبرازُ الفسادِ، وهوَ معنويٌّ في صورةِ المحسوسِ مبالغَةً في تَشنيعِهِ.

سرُّ وَصْفِ الفسادِ بالكبير:

الـفـسـادُ الـكـبيرُ هو ما عَمَّ وطَمَّ حـتّـى أهـلـك الحرث والنّسل

آثرَ الوصفَ بالكبير دون العظيم؛ لوجود فرقٍ بينهما: فالعَظيمُ قد يكونُ مِن قِبَلِ الكَثرَةِ ومِن غيرِها[3]، فتقولُ: جاءَ خَلقٌ عظيمٌ، تُريدُ مِن جِهَةِ كَثرَةِ عَدَدِهِم، وتقولُ: هذا ذنبٌ عظيمٌ، مِن جِهَةِ مِقدارِهِ لا مِن حيثُ كَثرَتُهُ؛ إذ هو ذنبٌ واحدٌ، أمّا الكَبيرُ فهو بحسَبِ الشَّأنِ والمِقدارِ فحَسبُ، ولا مَدخَلَ للقِلَّةِ والكَثرَةِ فيه؛ لذلك كان التّعبيرُ في وصف الفسادِ بالكبير.

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 8/195.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/88.
(3) أبو هلال العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 183.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّاۚ لَّهُم مَّغْفِرَةٞ وَرِزْقٞ كَرِيمٞ ٧٤﴾

[الأنفال: 74]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

أهلُ الفضل والإيمان درجاتٌ، والله يُجازي كُلًّا بما قدَّمت يداه

لمّا ذكرَ اللهُ ﷻ فيما سبق أصنافَ أهلِ الإيمانِ؛ وهُمُ المهاجرونَ، والنّاصرونَ، والقاعِدونَ عنِ الهِجرَةِ، وفصَّلَ أحكامَ موالاتِهم؛ بيَّنَ في هذه الآيَةِ تفاوُتَهُم في الفَضلِ وتَمايُزَهُم في الشَّرَفِ، فقال سُبحانَهُ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّاۚ﴾[1].

وممّا يُذكَرُ في وجه المناسَبَة أنّه لمّا قسَّمَ المؤمنين في زمان النّبيّ ﷺ فيما سبق إلى ثلاثة أقسام في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٖۚ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ﴾الآية، بيّن في هذه الآية أنّ الكاملين في الإيمان منهم هم الّذين حقَّقوا إيمانَهم بتحصيل مُقتضاه منَ الهجرةِ والجهادِ وبذلِ المالِ ونُصرةِ الحقِّ ؛ فكان لهم مِنَ اللهِ الوعدُ الكريمُ بقوله: ﴿لَّهُم مَّغْفِرَةٞ وَرِزْقٞ كَرِيمٞ﴾[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مَّغْفِرَةٞ﴾: الغَينُ والفاءُ والرّاء تدلُّ أكثرُ تَصاريفِها على مَعنى السَّترِ، ومِنهُ: الغَفرُ؛ وهو السَّتر[3]، وقال الرّاغب: "الغَفرُ: إلباسُ ما

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/347.
(2) القونوي، حاشية القونويّ: 9/139.
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (غفر).

يَصونُه عَنِ الدَّنسِ"[1]، وهو راجعٌ إلى مَعنَى السَّترِ، والمغفرةُ شرعًا: سَترُ الذَّنْب والتَّجاوزُ عنه[2].

2) ﴿وَرِزْقٌ﴾: الرّاءُ والزّايُ والقافُ تدُلُّ اشتقاقاتُها على العطاء[3]، فالرِّزقُ: العطاءُ، أو هو ما يُنتَفَعُ به[4]، والمَصدَر: الرَّزقُ بفتح الرَّاءِ، والرِّزقُ هو الاسمُ، وقد يُستعمَلُ بمعنى المَصدَر[5].

والمُرادُ بالرِّزقِ في قولِه تعالى: ﴿لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ العطاءُ الّذي يُعطَونَهُ في الجنَّةِ[6]، ويجوزُ أن يُرادَ بها رزقُ الدُّنيا والآخِرَةِ[7]، وهو أنسبُ لجزيلِ عطاءِ اللّهِ تعالى وجليلِ إحسانِهِ سُبحانَهُ على عبادِهِ المؤمنينَ.

ويُطلَقُ الرِّزقُ إطلاقاتٍ متعدِّدةً[8]: أَوَّلُها: العطاءُ الجاري، ومِنه قولُهُم: رَزَقَ السُّلطانُ جُندَه، ثانيها: النَّصيب، ومِنه قولُه تعالى: ﴿وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا﴾ [النّحل: 75]، ثالثُها: ما يَصِل إلى الجَوف ويُتَغذَّى به، ومِنه قولُ النَّبيِّ ﷺ: «لَو أَنَّكُم تَوَكَّلتُم على اللّه حَقَّ تَوَكُّلِه؛ لَرَزَقَكُم كَما يَرزُقُ الطَّيرَ، تَغدو خِماصًا، وتَروحُ بِطانًا»[9]، رابِعُها: كُلُّ خَيرٍ وَصَلَ إلى صاحبِه، ومِنه قَولُهُم: رَزَقَ اللّهُ فلانًا عِلمًا.

المَعْنى الإجْماليُّ:

بيانُ فضلِ المؤمنين والمجاهدين والمناصرين عند الله ربّ العالمين

بيّنَ اللّهُ تعالى في هذه الآية أنّ الّذينَ آمَنوا باللّهِ ﷻ ورَسولِهِ

(1) الرّاغب، المفردات: (غفر).
(2) ابن عثيمين، القول المفيد: 1/85.
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (رزق).
(4) الجوهريّ، تاج اللُّغة وصحاح العربيَّة: (رزق).
(5) الواحديّ، التّفسير الوسيط: 1/82.
(6) ابن عطيّة، المُحرَّر الوجيز: 2/557.
(7) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 6/3209.
(8) السّمين الحلبيّ، عمدة الحُفّاظ: (رزق)، وابن الجوزيّ، نزهة الأَعيُن النّواظِر، ص: 324.
(9) رواه التِّرمذي في سننه: (2344)، وابن ماجه في سننه: (4164)، وصحَّحه الألبانيُّ في السِّلسلة الصَّحيحة، رقم: (310).

ﷺ، وفارَقوا ديارهُم قاصِدينَ دارَ الإسلامِ، أو بلَدًا يَتَمَكَّنون فيه مِن عِبادَةِ رَبِّهم سُبحانَهُ، وجاهَدوا لإعلاءِ كلمةِ اللّهِ تعالى، والّذينَ آوَوا رَسولَ اللّهِ ﷺ والمُهاجِرينَ مَعَهُ، ونَصَروهُم، وواسَوهُم بالمالِ والتَّأييد، ونَصَروا دينَ اللّهِ تعالى، أولَئِكَ هُم أهلُ الإيمانِ باللّهِ ورَسولِهِ حقًّا، لهم مَغفِرَةٌ لِذُنوبِهم، ورِزقٌ كريمٌ واسِعٌ في جَنّاتِ النَّعيم[1].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

عِلَّةُ وَصلِ الجملة بما قبلَها في السِّياق:

مِن طَرائِقِ القُرآنِ الكَريمِ ذِكرُ الأَشياءِ المُتَقابِلَةِ؛ زِيادَةً في البَيانِ

في قَولِ اللّهِ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، وُصِلَ قَولُ اللّهِ ﷻ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ﴾ بما قَبلَهُ: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٍۚ﴾؛ لِما بينَ الجُملَتينِ مِنَ التَّوسُّطِ بينَ الكمالَينِ؛ وذلك أنَّ كلتا الجملَتينِ خبريَّةٌ، وبينَهُما جامعٌ وهميٌّ؛ وهو التَّضادُّ بين الإيمانِ والكُفرِ، وبينَ الجُملَتَينِ تناسبٌ؛ إذ قَدِ اتَّفقَتا في لفظِ المُسنَدِ إليه (الّذينَ)، وإن اختلفَتا في مُتعلَّقِهِ، واتَّحدتِ الجُملَتانِ أيضًا في الاسميَّةِ.

بلاغةُ الاعتراضِ في الآيةِ الكريمة:

التَّنويهُ بِشَأنِ المُهاجِرينَ والأَنصارِ وبَيانُ عَظيمِ جَزائِهِم

قولُ اللّهِ ﷻ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ جُملَةٌ مُعترِضَةٌ بينَ قَولِهِ سُبحانَهُ: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٍۚ﴾، وقولِهِ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۢ بَعۡدُ وَهَاجَرُواْ﴾، فالواوُ على هذا الوَجهِ اعتراضيَّةٌ، ونُكتَةُ الاعتراضِ هَهُنا: التَّنويهُ بشأنِ المهاجرينَ والأَنصارِ، وبيانُ جزيلِ ثوابِهِم بعدَ بيانِ أحكامِ ولايَةِ بعضِهِم بعضًا[2].

(1) ابن جرير، جامع البيان: 14/88، ونخبة من العلماء، التّفسير الميسّر، ص: 186.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/89.

نُكتَةُ تَعريفِ المُسنَدِ إلَيهِ بالمَوصوليَّةِ:

حثُّ المُخاطَبينَ على استِكمالِ مَراتِبِ الإيمانِ الحَقِّ

جيءَ بِالمسنَدِ إلَيهِ (الَّذينَ) اسمًا موصولًا في قولِ اللّهِ سُبحانَهُ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ﴾؛ للإيماءِ إلى نَوعِ الخَبَرِ المَحكومِ به على المسنَدِ إلَيهِ؛ وأنَّه مِن جِنسِ التَّكريمِ والتَّشريفِ، وفيه إشعارٌ بعِلَّةِ استحقاقِهم هذِهِ الرِّفعَةَ الإيمانيّةَ في قولِه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ﴾، وأنَّ هذِهِ المَنقَبَةَ - وهيَ الحُكمُ بكمالِهم في الإيمانِ - مُسَبَّبٌ عن إيمانِهم وهِجرَتِهم وجهادِهم بأموالِهم وأنفسِهم في سبيلِ اللّه.

عِلَّةُ إيرادِ الاسمِ المَوصولِ ﴿وَٱلَّذِينَ﴾:

كَثرَةُ المُؤمِنينَ الجامِعينَ الصِّفاتِ الجَليلةَ

عبّرَ القرآنُ الكريمُ باسمِ الموصولِ ﴿وَٱلَّذِينَ﴾ الّذي يدلُّ على الجمعِ في قولِ اللّهِ جلَّ وعلا: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ﴾؛ للإشعارِ بكَثرَةِ أهلِ الإيمانِ الّذينَ جمَعوا هذه الأوصافَ الجليلَةَ؛ مِنَ الهِجرَةِ والجِهادِ، وما نتج عنهما من أعمالٍ صالحةٍ.

سِرُّ مَجيءِ الصِّلَةِ فِعلًا ماضيًا:

تَحقُّقُ وَصفِ الإيمانِ والهِجرَةِ والجِهادِ فيهِم

جاءَت صِلةُ المَوصولِ فِعلًا ماضيًا في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ﴾؛ للدِّلالَةِ على تحقُّقِ وَصفِ الإيمانِ والهِجرَةِ والجِهادِ فيهِم، ورسوخِ هذه المعاني في قلوبِهم.

دلالةُ عطفِ الهجرةِ والجهادِ على الإيمان:

رِفعَةُ مَكانَةِ الهِجرَةِ والجِهادِ في سَبيلِ اللهِ تعالى

في عَطفِ الهجرَةِ والجهادِ على الإيمانِ في قَولِ اللّهِ ﷻ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ﴾ مزيدُ عنايةٍ واهتمامٍ، وذلك من باب عَطفِ الخاصِّ على العامِّ؛ ونُكتَته مِن حيثُ الجُمْلَةُ: بيانُ الاهتمامِ بِشَأنِ الفردِ الخاصِّ بذِكْرِهِ مرَّتين؛ أُولاهُما بِذِكرِه مُندَرِجًا تَحتَ لَفظِ العامِّ، والأُخرى: بذِكرِه على سَبيلِ الانفرادِ، وفي هذا إيماءٌ إلى شَرَفِ الهِجرَةِ والجِهادِ في سبيلِ اللّهِ سُبحانَهُ.

بلاغةُ التَّرَقّي في ذكرِ الإيمانِ والهجرةِ والجهاد:

في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾

أُسلوبُ تَرقٍّ في إيرادِ بَعضِ أفرادِ الإيمانِ؛ وذلكَ أنَّه صدَّرَ جملَةَ الصِّلَةِ بالإيمانِ وهو شاملٌ لجميعِ الدِّينِ؛ لكونِ حقيقَتِه جامعَةً للأقوالِ والأعمالِ والاعتِقاداتِ، ثُمَّ ذُكِرَ عَمَلانِ جليلانِ يَندَرِجانِ تَحتَهُ، وهما: الهِجرَةُ والجهادُ، وبُدِئَ بالهِجرَةِ لِما فيها مِن مفارقَةِ الأوطانِ، وذلك شاقٌّ على النَّفسِ، وذُكِرَ بعَدَها الجِهادُ؛ لِما فيهِ مِن بذلِ النُّفوسِ في سَبيلِ اللّهِ تعالى، وهو أشقُّ على النُّفوسِ مِن مُطلَقِ مُفارقَةِ الأوطانِ.

التَّرَقّي في تَعدادِ الأعمالِ الصّالِحاتِ

دلالَةُ التَّعبيرِ بالظَّرفيّةِ:

في التَّعبيرِ بحرفِ الجرِّ (في) إيذانٌ بقوَّةِ تمكُّنِهم مِن هذا السَّبيلِ كَتمكُّنِ المظروفِ مِن ظَرفِهِ[1]، ويؤكِّدُ هذا أنّ حرف الجر (في) مِن قَولِه تعالى: ﴿وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ دالٌّ على السَّبَبيَّةِ، والمعنى: جاهَدوا بسَبَبِهِ، فلم يَمنَعهُم عنه مانِعٌ.

شِدَّةُ تَمَكُّنِ أَهلِ الإيمانِ في سَيْرِهِم على طَريقِ الحَقِّ

دلالةُ إضافَةِ السَّبيلِ إلى (الله):

إضافةُ السَّبيل إلى اسم الجلالة (اللّه) في قولِ اللّهِ سُبحانَهُ: ﴿وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ دالٌّ على تَعظيمِ السَّبيلِ وتَفخيمِه، والإعلامُ بأنَّ مَن سلَكَهُ؛ فَقَد وَصَلَ إلى رَحمَةِ اللّه سُبحانَهُ، ولازِمُ ذلك: تعظيمُ المُجاهِدينَ السّالكينَ هذا السَّبيلَ، وبيانُ رِفعَةِ شَأنِهم.

سُلوكُ سَبيلِ اللّهِ تعالى مُوصِّلٌ إلى رحمته

نُكتَةُ تَقييدِ المُجاهَدَةِ بكَونِها ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾:

تَقييدُ الجِهادِ بكَونِهِ ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ في قولِ اللّهِ سُبحانَهُ: ﴿وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ يُرادُ بهِ مدحُ المُجاهِدينَ بذلك، وفيه إعلامٌ بعلَّةِ استحقاقِهِم عُلوَّ المكانَةِ ورفعَةَ المنزِلَةِ، مع ما فيهِ مِن حُسنِ مَوضِعِ ﴿سَبِيلِ﴾ مقرونًا بِذِكرِ الجِهادِ؛ إذ إنَّ السَّبيلَ مِن شَأنِهِ أن يَكونَ مَسلوكًا، فَفيهِ حَركَةٌ وتنقُّلٌ تُناسِبُ الحرَكَةَ والتَّنقُّلَ المستفادَيْنِ مِن لَفظِ الجِهادِ، ولم يُقيِّدِ الهجرةَ في هذه الآية بكونها في سبيل

مِن أَسبابِ استحقاقِ عُلوِّ المنزِلَةِ عِندَ اللهِ تعالى: الجِهادُ في سَبيلِه

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/337.

اللّه، مع ورود ذلك في مواضعَ أخرى منَ القرآن، قال تعالى: ﴿وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾؛ لأنّ المقامَ هنا في هذه السّورة هو مقامُ الحديثِ عن غزوة بدرٍ، وأمرُ الجهاد فيها هو الأساس؛ فراعى القرآنُ مُقتَضى الحال لحثِّ المؤمنين على فضيلة شرفِ الجهادِ، وأيضًا لأنَّ أمرَ الجهادِ مُتكرِّرٌ، بخلاف أمرِ الهجرةِ فهو غيرُ متكرِّرٍ.

سرُّ حَذفِ ذِكرِ المالِ والنَّفسِ:

مِن مَسائِلِ القُرآنِ الكَريمِ تَنويعُ الكلامِ تَفَنُّنًا

لَم يُنصَّ على كَونِ الجهادِ بالنَّفسِ والمالِ في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ اكتفاءً بذِكرِهِ قَبلُ في قولِ اللّهِ سُبحانَهُ: ﴿وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، فاختُصِرَ ذلك، وطُوِيَ ذِكرُهُ في هذه الآيَةِ لتقرُّرِهِ في أذهانِ المخاطَبينَ بما سَبَقَ التَّنصيصُ عليهِ، وللتَّفنُّنِ في التَّعبيرِ بذِكرِ المَعنَى مُطوَّلًا تارةً، ومُختصرًا تارةً أُخرَى.

وممّا يُذكَرُ في ذلك أنّ سياقَ هذه الآية مَسوقٌ للثّناء عليهم والشّهادة لهم بفوزهم بالقَدَحِ المُعَلَّى منَ الإيمان، ولا تتأتّى هذه الشّهادةُ إلّا ببذلهم لكلِّ ما يمتلكون؛ لذلك كان عدمُ ذكرِ المالِ والنَّفسِ من باب المبالغةِ في تمكُّنِ الجهاد منهم وتمكُّنِهم منَ الجهاد.

دلالةُ الواو في عطف جملة الإيواء والنُّصْرة:

فَصلُ الجملةِ بالواوِ للاشتراكِ في الصّفات

في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ﴾: دلَّتِ الواو على عطف هذه الجملة على ما قبلها لوجود اشتراكٍ بينهما في التّحلّي بمكارم الأخلاقِ؛ فمع تعدُّدِ الأصنافِ يوجدُ بينهم جمعٌ في الصّفات الإيمانيّة.

سرُّ تَعريفِ المُسنَدِ إليهِ بالمَوصوليَّةِ:

إيواءُ أَهلِ الحَقِّ وَنُصرَتُهُم مِن أَسبابِ تحصيلِ كَمالِ الإيمانِ

جيءَ بِالمسنَدِ إليهِ (الَّذينَ) معرَّفًا بالاسم الموصولِ في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ﴾؛ للإيماءِ إلى نَوعِ الخَبَرِ المَحكومِ به على المُسنَدِ إليهِ؛ وأنَّه من جنسِ الرِّفعَةِ والتَّكريمِ، وذلكَ أنَّ الحُكمَ بكَمالِ الإيمانِ وتحقُّقِهِ فيهم مِن أَعظَمِ وُجوهِ التَّشريفِ، وفيهِ إعلامٌ بعِلَّةِ استحقاقِهم هذه الرِّفعَةَ في قولِ اللّهِ سُبحانَهُ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ

﴿ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ﴾، وأنَّ هَذه المنقَبَةَ مُسَبَّبةٌ عَن إيوائِهم أهلَ الإيمانِ ونُصرَتِهم لَهُم، وممّا يُذكَرُ في هذا أنّ التّعبيرَ بالموصول كأنّه يشيرُ إلى طائفةٍ مخصوصةٍ لا يعرفُ التّاريخُ لها نظيرًا؛ لذلك كانَت صفةُ الإيواءِ الموجودةُ في جملة الصّلةِ ﴿ءَاوَواْ﴾ من باب التّأكيدِ على ذلك التَّخصيصِ المفهومِ من سياق الآيات.

عِلَّةُ إيرادِ الاسمِ المَوصولِ مَجموعًا:

كَثرَةُ المُؤمِنينَ المُتَّصِفينَ بالأَوصافِ الحَسَنَةِ

إيرادُ الاسمِ المَوصولِ مجموعًا في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ﴾؛ فيهِ إشعارٌ بِكَثرةِ أهلِ الإيمانِ الّذينَ جمَعوا بينَ هذهِ الأعمالِ الجليلَةِ مِنَ الإيواءِ والنُّصرَةِ.

سِرُّ إيرادِ جُملَةِ الصِّلَةِ فِعلًا ماضيًا:

تَحَقُّقُ وَصفِ الإيواءِ والنُّصرَةِ في أَهلِ الإيمانِ الحَقِّ

في قَولِ اللّهِ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ﴾: جيءَ بِصِلةِ المَوصولِ فعلًا ماضيًا ﴿ءَاوَواْ﴾ و(نَصَروا) مِن قولِهِ سُبحانَهُ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ﴾؛ للدِّلالَةِ على تحقُّقِ وَصفِ الإيواءِ والنُّصرَةِ فيهِم.

نُكتَةُ حَذفِ مُتعلِّقِ الإيواءِ:

التَّنويهُ بجَليلِ صَنيعِ الأَنصارِ في إيوائِهِم أَهلَ الإيمانِ

حُذِفَ مُتعلَّقُ الفعلِ ﴿ءَاوَواْ﴾ مِن قَولِ اللّهِ ﷻ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ﴾، وفي ذلك ثلاثَةُ أَوجُهٍ:

أحدُها: ظُهورُ الأفرادِ الّذينَ وقعَ عليهِم فعلُ الإيواءِ؛ وهُم المؤمِنونَ الّذينَ هاجَروا مِن مكَّةَ المكرَّمَةِ إلى المدينَةِ النَّبويَّةِ.

ثانيها: إرادَةُ العُمومِ؛ وذلك لأنَّ حَذفَ المَعمولِ مُشعِرٌ بالعُمومِ، والمَعنَى: آوَوا جَميعَ مَنِ احتاجَ إلى الإيواءِ مِن أَهلِ الإيمانِ.

ثالثُها: أن يكونَ فِعلُ الإيواءِ قَد نُزِّلَ منزلةَ الفعلِ اللّازِمِ، فلا يَفتَقِرُ إلى تَقديرِ مفعولٍ بِهِ أصلًا، ونُكتَةُ ذلكَ: الإشارةُ إلى عظيمِ صنيعِهِم، حتَّى كأنَّهُ لا إيواءَ في الوجودِ إلّا ما فعَلوهُ[1].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/338.

سرُّ حَذفِ المَفعولِ في ﴿وَّنَصَرُوٓاْ﴾:

الإشادَةُ بالأنصارِ في نُصرَتِهِم لأَهلِ الحَقِّ

حُذِفَ مفعولُ (نَصَروا) مِن قَولِ اللّهِ سُبحانَهُ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ﴾، وفي ذلك ثلاثةُ مسالِكَ:

أحدُها: ظُهورُ الأفرادِ الّذينَ وقعَ عليهم فعلُ النُّصرَةِ؛ وهُم مسلِمو مكَّةَ الّذينَ هاجَروا إلى مدينَةِ الرَّسولِ ﷺ.

ثانيها: إرادَةُ العُمومِ؛ وذلك لأنَّ حَذفَ المتعلَّقِ مُؤذِنٌ بذلكَ، والمَعنَى: نصَروا كُلَّ محتاجٍ إلى النُّصرَةِ مِن أَهلِ الإسلامِ.

ثالثُها: أن يكونَ فِعلُ النُّصرَةِ - وهو متعدٍّ - قد نُزِّلَ مَنزِلَةَ الفعلِ اللَّازِمِ، فلَم يُحتَجْ معه إلى تَقديرِ مفعولٍ بِهِ، والنُّكتَةُ في ذلك: التَّنويهُ بِعَظيمِ نُصرَتِهِم، حتَّى كأنَّهُ لا نُصرَةَ في الواقِعِ إلّا نُصرَتُهُم.

نفيُ التَّكرارِ بين الآيات قيد التفسير:

تَشابُهُ الآياتِ في اللَّفظِ لا يَستَلزِمُ اتِّفاقَها في مَقاصِدِها

بين قَولِ اللّهِ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ﴾، وبين قَولِهِ سُبحانَهُ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ﴾ لا يجد النّاظرُ في الآية الأولى تَكرارًا بينها، وبين هذه الآيةِ الأخرى السَّابقةِ عليها، وإن تشابهَت ألفاظُهُما؛ وذلك لأنَّ الآيةَ السّابقَةَ في سياقِ بيانِ ولايَةِ المؤمنينَ بعضِهِم لبعضٍ، وأمّا هذه الآيةُ فَواردَةٌ لقصدِ الثَّناءِ عليهِم، والشَّهادَةِ لهُم بصدقِ الإيمانِ ووَعدِهِم بالجزاءِ الحسَنِ[1]. وأيضًا لأنّ الآيةَ السّابقةَ كانَت في ذِكرِ أَقسامِ أَصحابِ النَّبيِّ ﷺ في زمانه، حيث قسَّمَتْهُم إلى أربعَةِ أقسامٍ بعدَ اشتراكِهِم جميعًا في الإيمانِ: قسمٌ جمعَ بين الهِجرَةِ والجِهادِ، وقِسمٌ آوَى ونصَرَ، وقِسمٌ لَم يُهاجِر، وقِسمٌ رابعٌ - مذكورٌ بَعدُ - هاجَرَ مِن بَعدُ[2]، فذُكِرَ ذلكَ

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 15/519، والخازن، لباب التَّأويل: 2/330، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/89.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/336.

كُلُّهُ مقرونًا بحُكمِهِ، وأيضًا لأنّ السِّياقَ بينهما مختلفٌ، فسياقُ الآيةِ الأولى لبيان أنّ رابطةَ الإسلام أقوى من رابطة النَّسبِ، وأمّا الثّانية فهي في بيان مكانتِهم وعُلوِّ شأنِهم.

وممّا يُذكَرُ في هذا السّياق أنّ المهاجرين كانوا على طبقاتٍ، فبعضُهم من أهل الهجرة الأولى، وهم الّذين هاجروا قبلَ الحُديبيّة، وبعضُهم من أهل الهجرة الثّانية، وهم الّذين هاجروا بعد صلح الحديبيّة، وكان بعضُهم يُلقَّبُ بصاحب الهجرتين: الحبشة والمدينة؛ فلعلّ المرادَ منَ الآية الأولى الهجرةُ الأولى إلى المدينة، ومنَ الآية الثّانية الهجرةُ الثّانيةُ[1].

سِرُّ التّعبير بالإشارَةِ في ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾:

في التَّعبيرِ باسمِ الإشارَةِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ مِن قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ﴾ إظهارٌ للاهتمامِ بهم؛ وذلك بتَمييزِهم أكمَلَ تَمييزٍ.

والإشارَةُ إليهم باعتبار اتِّصافِهم بالصِّفاتِ الفاضِلَةِ المذكورَةِ قَبلُ، وفي ذلكَ تنويهٌ بشأنِهم وحثٌّ لغَيرِهم على التَّخلُّقِ بهذهِ النُّعوتِ الكريمَةِ.

الحَثُّ على التَّخلُّقِ بالأوصافِ الجَليلَةِ مِنَ الإيمانِ والهِجرَةِ والنُّصرَةِ ونَحوِها

نُكتَةُ اسمِ الإشارَةِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾:

في قَولِ اللّهِ تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ﴾: أُشيرَ إلى المذكورينَ باسمِ الإشارةِ الدّالِّ على البُعدِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ﴾ تعظيمًا لَهُم، وإشعارًا بعُلوِّ طبقَتِهم وبُعدِ مكانَتِهم في الفضائِلِ[2].

عُلوُّ طَبَقَةِ الأَنصارِ وبُعدُ مَكانَتِهِم في الفَضائِلِ

بلاغةُ القَصرِ في الآية الكريمة:

في قَولِ اللّهِ ﷻ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ﴾ قَصرُ صِفَةٍ على مَوصوفٍ، وذلك بسبَبِ تَعريفِ طَرَفَي الجملةِ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ و﴿ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾، ففيهِ قصرُ الإيمانِ الحقِّ على أولَئِكَ المَذكورينَ؛

الثَّناءُ على أصحابِ رسولِ اللّهِ بكمالِ إيمانِهِم

(1) ابن عادل، اللُّباب: 9/581.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/338، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/37.

لأنَّ المقصورَ بتَعريفِ طرفَي الإسنادِ هوَ المُعرَّفُ باللَّامِ، سواءٌ أكان مُقدَّمًا أَم مُؤخَّرًا.

وقَصرُ الإيمانِ عليهم دونَ غَيرِهم ممَّن لَم يُهاجِرْ مُقيَّدٌ بالحالِ في قولِهِ تعالى: ﴿حَقًّا﴾، "والمَعنى: أنّهم حاقّونَ، أَي: مُحَقِّقون لإيمانِهم بأَن عَضَّدوهُ بالهِجرَةِ مِن دارِ الكُفرِ، وليسَ الحَقُّ هُنا بمعنى المُقابِلِ للباطِلِ، حتَّى يكونَ إيمانُ غَيرِهم ممَّن لَم يُهاجِروا باطِلًا؛ لأنَّ قرينَةَ قَولِهِ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ﴾ مانِعَةٌ مِن ذَلِكَ؛ إذ قَد أَثبَتَ لَهُمُ الإيمانَ، ونفَى عَنهُمُ استِحقاقَ وِلايَةِ المُؤمِنينَ"[1].ففي الآيَةِ مَدحٌ جليلٌ لهؤلاءِ ومَن كانَ على صِفَتِهِم؛ إذ عِندَهُم من قوَّةِ الإيمانِ ما لَيسَ عِندَ غَيرِهِم.

نُكتَةُ التَّعبيرِ بِضَميرِ الفَصلِ (هُم):

بلوغُ الصَّحابةِ المرتبةَ العليا في الإيمانِ

ضميرُ الفصلِ (هُم) مِن قولِ اللهِ ﷻ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ لا يُرادُ بِهِ دِلالتُهُ على القصرِ، وإنَّما المرادُ به تَأكيدُ القَصرِ وتقويَتُهُ؛ إذِ القَصرُ مُستَفادٌ مِن تَعريفِ طَرَفَي الإسنادِ.

وقد أُكِّدَتِ الجُملةُ أيضًا بإيرادِها اسميَّةً؛ وذلكَ لأنَّ الجُملةَ الاسميَّةَ آكدُ مِنَ الفعليَّةِ، وأدلُّ على الثُّبوتِ واللُّزومِ، ففيه إيماءٌ إلى لزومِ هؤلاءِ للإيمانِ الكامِلِ، ولدفعِ توهُّمِ أنّ الأنصارَ ليسوا في درجةِ الّذين آمنوا وهاجروا، كما يَتصوّرُ بعضهم؛ فبعضُ الأنصارِ قدّمَ للإسلامِ مالم يقدّمْه بعضُ المهاجرين.

دِلالَةُ اللَّامِ في ﴿ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾:

الإشادَةُ بمكانَةِ أصحابِ رسولِ اللهِ وكَمالِ إيمانِهِم وَرُسوخِهِم فيهِ

اللَّامُ في ﴿ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ مِن قَولِ اللهِ ﷻ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ دالَّةٌ على الكَمالِ، والمعنى: أولئكَ هُمُ الكامِلونَ في الإيمانِ، الرّاسِخونَ فيهِ، المتحقِّقونَ بِهِ.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/89.

دلالةُ التَّعبيرِ بِـ ﴿حَقًّا﴾:

عبَّرَ القرآنُ الكريمُ بقوله: ﴿حَقًّا﴾؛ لأنّه مصدرٌ مؤكِّدٌ لغيره، والعاملُ فيه أحَقَّ ذلك حقًّا، وعلى هذا يكونُ التَّعبيرُ به من باب تأكيد ما تضمَّنتْه الجملةُ منَ الإسناد الخبريّ، وأنّه لا مجازَ في ذلك الإسناد، ويجوزُ أن يكونَ صفةً لمصدر محذوفٍ؛ أي: أولئك هم المؤمنون إيمانًا حقًّا[1].

مَن لَم يَكُن مُحِقًّا في دينِهِ؛ لا يَتَحَمَّلُ مُفارَقَةَ الوَطَنِ، وبَذْلَ النَّفسِ والمالِ

وفيه إشارةٌ إلى رفع الغبارِ الّذي وقعَ بين الصّحابة رضوان اللّه عليهم من آثار الغنائم وفداء الأسرى، وأنّ هذا لم يؤثِّرْ على الصّفحة البيضاءِ النّاصعةِ لهؤلاء الأصحاب في إيمانهم؛ فلم تَشُبهُ شائبةٌ تُكدِّرُ صفوَه أو خاطرةٌ مِن شكٍّ تُضعِفُ قيمتَه، بل هو الإيمانُ الخالصُ.

وفي هذا إشارةٌ إلى أنّ هذا الوصفَ هو ما ينبغي أن يكونَ عليه أهلُ الإيمان في جميع الأحوال والأزمان.

وممّا يُذكَرُ في سرِّ التَّعبيرِ بـ ﴿حَقًّا﴾ مِن قولِ اللّهِ سُبحانَهُ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقًّاۚ﴾ الإشارةُ إلى قوَّةِ اتِّصافِهم بكونِهم مُحقّين مُحَقِّقين في طريقِ الدّين، وفيهِ مبالَغَةٌ في مَدحِهم، وهُم أهلٌ لِهذا المَدحِ؛ حيثُ إنَّ الّذي لَم يكُنْ مُحِقًّا في دينِه لَم يتحمَّلْ تَرْكَ الأديانِ السَّابقةِ، ولَم يُفارق أهلَهُ ووطَنَهُ، ولَم يَبذُلْ نفسَهُ ومالَهُ[2].

بلاغةُ التَّعبيرِ بالجملة الخبريّةِ:

قولُ اللّهِ ﷻ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقًّاۚ﴾ جملَةٌ خَبَريَّةٌ، يُرادُ بها معَ الإعلامِ بمضمونِها: تعظيمُ المهاجرين والأنصارِ، والثَّناءُ عليهم، والشَّهادَةُ لَهُم بالمنزِلَةِ الرَّفيعَةِ والجزاءِ الحسَنِ[3].

الشَّهادَةُ لِلمُهاجِرينَ والأنصارِ بالمَنزِلَةِ الرَّفيعَةِ والجَزاءِ الحَسَنِ

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/458.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 15/519، وطنطاويّ، التّفسير الوسيط: 6/169.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/359، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/38.

دِلالَةُ تَقديمِ الجارِّ والمَجرورِ ﴿لَّهُم مَّغْفِرَةٌ﴾:

كَمالُ العِنايَةِ والاهتِمامِ بالكُمَّلِ مِن أَهلِ الإيمانِ

قُدِّمَ الجارُّ والمجرورُ ﴿لَّهُم﴾ في قولِ اللهِ ﷻ: ﴿لَّهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ اهتمامًا بالكُمَّلِ مِن أهلِ الإيمانِ، وتخصيصًا للمغفِرَةِ بهم دونَ غيرِهم، وهو قصرٌ غيرُ حقيقيٍّ؛ إذِ المغفِرَةُ تَنالُ ناقِصي الإيمانِ أيضًا.

ثُمَّ إنَّ تقديمَ الجارِّ والمجرورِ ﴿لَّهُم﴾ على ﴿مَّغْفِرَةٌ﴾ واجبٌ بحسَبِ الصِّناعَةِ النَّحويَّةِ؛ لكونِ ﴿مَّغْفِرَةٌ﴾ نكرةً ليسَ لها مُسَوِّغٌ، وذلك لا يُنافي إفادَتَها الاهتمامَ والقصرَ؛ إذ تقرَّر في القواعدِ: أنَّ كونَ أمرٍ ما لازمًا بحَسَبِ القواعِدِ النَّحْويَّةِ لا يُنافي قَصدَ إفادةِ ما يَقتَضيهِ المقامُ[1].

سِرُّ تَنكيرِ ﴿مَّغْفِرَةٌ﴾:

التَّجاوزُ عَن جَميعِ الذُّنوبِ والتَّبِعاتِ

نُكِّرَ لَفظُ ﴿مَّغْفِرَةٌ﴾ في قَولِ اللهِ سُبحانَهُ: ﴿لَّهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ للدِّلالَةِ على التَّعظيمِ والتَّفخيمِ؛ أي: لَهُم مغفرةٌ عظيمةٌ تامَّةٌ كاملةٌ عن جميعِ الذُّنوبِ والتَّبعاتِ، وهي مغفِرَةٌ لا يُقادَرُ قَدرُها[2].

نُكتَةُ تَنكيرِ ﴿وَرِزْقٌ﴾:

الرِّزقُ الَّذي يَنالُ أَهلَ الإيمانِ يَعُمُّ الرِّزقَ الحَسَنَ في الدُّنيا والآخِرَةِ

نُكِّرَت كلمةُ ﴿وَرِزْقٌ﴾ في قَولِ اللهِ ﷻ: ﴿لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾؛ للإشعارِ بعَظَمَتِهِ وفخامَتِهِ؛ أي: لهم رزقٌ عظيمٌ، مِنَ المغانمِ وغَيرِها، في الدُّنيا والآخِرَةِ[3].

دِلالَةُ وَصفِ الرِّزقِ بِكَونِهِ كَريمًا:

الرِّزقُ العَظيمُ مِنَ اللهِ سُبحانَهُ لا كَدَرَ فيهِ بِوَجهٍ مِنَ الوُجوهِ

في وصفِ الرِّزقِ بالكَرَمِ في قولِ اللهِ ﷻ: ﴿لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ زيادَةٌ في تعظيمِهِ، إذ مَعنَى الكَرَمِ في الرِّزقِ: كونُهُ لا كَدَرَ فيه بوجهٍ مِنَ الوُجوهِ؛ لا في انقطاعِهِ، ولا نُقْصانِهِ، ولا في أيِّ شيءٍ مِن حالِهِ[4].

---

(1) الشِّهابُ الخفاجيّ، عناية القاضي وكفاية الرّاضي: 6/229.

(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 15/519، والآلوسيّ، روح المعاني: 5/233، وطنطاويّ، التّفسير الوسيط: 6/169.

(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/348.

(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/348.

سرُّ تقديمِ المغفرةِ على الرِّزق الكريمِ:

المغفرةُ سببُ الرِّزق وحلولِ البركة

قوله: ﴿لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾، قُدِّمَ الوعدُ بالمغفرة على الرّزقِ الكريمِ، وذلك من باب تقديم التّخليةِ قبلَ التّحليةِ لمَا هو معلومٌ من طبع الإنسان منَ التَّقصير في أداء ما طلبه اللّهُ منه، سواء أكان ذلك قليلًا أم كثيرًا؛ فأراد اللّهُ ﷻ أن يُطمئنَ الإنسانَ بإسقاط ما عليه منَ التّبعاتِ، لا سيّما أنّ الآياتِ في سياق الجهادِ والغنائمِ، ولا يخلو الأمرُ فيهما من وجود تقصيرٍ.

سرُّ اختلافِ فاصلةِ هذه الآية عن سابقتها:

تعدُّدُ الصّفاتِ قُوبِلَ بتعدُّد الدَّرجات

النّاظرُ في ختام هذه الآية في خواتيمِ سورةِ الأنفالِ يجدُ أنّها ذكرَتِ الجزاءَ المعدَّ للمؤمنين في الآخرة بقوله: ﴿لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾، في حين أنّ الآية الأولى في صدرِ سورةِ الأنفالِ، ذكرَتِ الجزاءَ المعدَّ لهم بقوله تعالى: ﴿لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾، والسّرُّ في ذلك أنّ الآيةَ الّتي في صدرِ سورةِ الأنفال جاءَت تعقيبًا على صفات المؤمنين الواردة في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾؛ فلمّا كانَت صفاتُ المؤمنين مُتعدِّدةً ودرجاتُهم فيها مختلفةً من ناحية الكمال والتّمام كان منَ المناسب ذِكْرُ الدّرجات.

وأمّا الآيةُ الأخرى في خواتيم سورة الأنفالِ؛ وهي محلُّ الدّراسة معنا؛ فلم يُذكَرْ فيها ما يتعلَّقُ باختلاف الدّرجات، حيث تحدثَت عنِ الهجرة والجهاد في سبيلِ اللّهِ والإيواءِ والنُّصرةِ، والأمرُ في ذلك ظاهرٌ لا يحتاج إلى ذِكر الدّرجاتِ؛ لأنّهم تمكَّنوا في أدائها، وتحقَّقت فيهم على المستوى الكامل.

سرُّ إيثارِ التّعبيرِ بقوله: ﴿لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾:

النَّاظرُ في هذه الآيات يجدُ أنّها وردَت جزاءً للّذين آمنوا وعملوا

ذِكرُ الأرزاقِ مُشاكِلٌ لذِكرِ الغنائمِ والفداءِ

الصّالحات في مواضعَ عديدةٍ في القرآن الكريم، فالموضعُ الأوّلُ في سورة الأنفال، والثّاني في سورة المائدة، والثّالث في سورة فاطر.

ومنَ الملاحَظ أنّ الجزاءَ المُعدَّ للّذين آمنوا مناسبٌ لهم في كلِّ موضع؛ فآيةُ سورة الأنفال جاءَت في سياقِ الحديثِ عن تعقيباتِ القرآنِ عن آياتِ القتالِ في غزوة بدرٍ، وما نتجَ عن ذلك منَ الغنائم، وأخذِ الفداءِ منَ الأسرى؛ فكلُّ ذلك يشيرُ إلى أنّ السِّياقَ في مقام الحديثِ عنِ الأرزاق؛ فجاءَ ختامُ الآيةِ ليُشيرَ إلى أنّ أفضلَ الرّزقِ ما كان كثيرَ الخير ودائمَ النّفع، ولا يتأتّى ذلك إلّا في رزق الجنّة؛ لذلك قال: ﴿لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾.

أمّا آيةُ سورةِ المائدةِ فجاءَت عقب تشريعاتٍ وأحكامٍ ذُكرَت في الآياتِ قبلَها، وكان ختامُ ذلك إقامةَ العدلِ الّذي هو رأسُ الأعمالِ الصّالحة؛ فكان الوعدُ منَ اللّه لمَن وفَّى بهذه الأعمالِ الصّالحةِ بالمغفرة والأجر العظيم، وجعل ذلك وعدًا منه سبحانه في قوله: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ۝٩﴾ [المائدة: 9]، وكان سِنادُ الوعدِ إلى اللّه يقتضي أن يُوصَفَ بالعَظَمة في قوله: ﴿وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾.

أمّا آيةُ سورة فاطر فقد بُدِئت بقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ۝٧﴾ [فاطر: 7]؛ فالنّاظر في الآية يجدُ وصفَ العذابِ المعدِّ للّذين كفروا بالشَّديد، وهذا يدلُّ على صلابته وقوّته؛ فكان من رحمة اللّهِ تعالى أن ذكرَ الجزاءَ المُعدَّ للّذين آمنوا وعملوا الصّالحات بالأجر الكبير من باب إبرازِ اللُّطفِ للمؤمنين والتَّبكيتِ للكافرين.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۢ بَعۡدُ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ مَعَكُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ مِنكُمۡۚ وَأُوْلُواْ ٱلۡأَرۡحَامِ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلَىٰ بِبَعۡضٖ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمُۢ ٧٥﴾ [الأنفال: 75]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمّا بيّنَ اللّهُ ﷻ في الآية السَّابقةِ الجزاءَ المُعدَّ للمؤمنين حقَّ الإيمانِ المُتَّصفين بهذه الصِّفات، بيّنَ في هذه الآية أنَّ مَن تَرَكَ ما هو عليه مِنَ البقاءِ في دارِ الكُفرِ والقُعودِ عنِ الجهادِ؛ بأن هاجَرَ وجاهَدَ، لَحِقَ بالمؤمنينَ الكُمَّلِ في مُطلَقِ دَرَجَتِهم، وإن كانوا فيها أعلَى منه درجَةً لسَبقِهم إلى المعالي والمكارِمِ، فقالَ سُبحانَهُ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۢ بَعۡدُ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ مَعَكُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ مِنكُمۡۚ﴾[1].

الولايةُ مضمونةٌ حتّى لمَن تأخّرَ إيمانُهم وجهادُهم

وممّا يُذكَرُ في المناسبة أنّه لمّا منعَ اللّهُ في الآيات السّابقة قبلَ ذلك ولايةَ المؤمنين للّذين آمنوا ولم يهاجروا بالصَّراحة ابتداءً، ونفى عنِ الّذين لم يهاجروا تحقيقَ الإيمان، وكان ذلك مثيرًا في نفوسِ السّامعين أن يتساءلوا: هل لأولئك تمكُّنٌ من تداركِ أمرِهم برَأبِ هذه الثُّلمة؛ فجاءَت هذه الآيةُ لتفتحَ لهم بابَ التَّداركِ قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۢ بَعۡدُ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ مَعَكُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ مِنكُمۡۚ﴾[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلۡأَرۡحَامِ﴾: الرَّاءُ والحاءُ والميمُ تدورُ اشتقاقاتُها على معنى الرِّقَّةِ والعطفِ والرَّأفَةِ، ومِنه: الرَّحِمُ؛ وهي صِلَةُ القرابَةِ، ثُمَّ سُمِّيَ رحِمُ المرأةِ رَحِمًا؛ لأنَّ مِنها ما يكونُ ما يُرحَمُ ويُرقُّ لَهُ مِنَ الوَلَدِ[3].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/348.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/89.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (رحم).

والأرحامُ جمعُ رَحِم؛ والرَّحِمُ: القرابَةُ تَجمَعُ بينَ بَني أبٍ وبينَهُما رَحِمٌ؛ أي: قَرابَةٌ قريبَةٌ[1]، وأولو الأرحام: الأقاربُ، ويَصدقُ هذا الاسمُ على كلِّ مَن يَجمَعُ بينَهُم نسبٌ[2].

2) ﴿كِتَٰبِ﴾: على وَزنِ فِعالٍ مِنَ الكَتْبِ، وأصلُهُ: ضمُّ الشَّيءِ إلى الشَّيء[3].

ويُطلَقُ الكتابُ على الخطِّ والكتابةِ، كما قال اللّهُ تعالى عن عيسَى عليه السلام: ﴿وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾[4] [المائدة: 110].

ويُطلَقُ مرادًا به المكتوبُ، فيكون مِن إطلاقِ المصدَرِ مُرادًا به اسمُ المفعول، كقَولِهم: فِراشٌ بمعنى: مفروشٍ، وغِراسٌ بمعنى: مَغروسٍ، ولِباسٌ بمعنى: مَلبوسٍ، ثمّ أُطلِقَ على الصَّحيفة مع ما كُتِبَ فيها[5].

ويأتي (الكِتابُ) في القُرآنِ الكريم على أحَدَ عشَرَ وَجهًا[6]، والمُرادُ بِهِ في قولِ اللّهِ سُبحانَهُ: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ يجوزُ أن يُرادَ بِهِ قضاءُ اللّهِ تعالى وشرعُهُ، أو القرآنُ الكريمُ، أو اللَّوحُ المحفوظُ[7].

المَعْنى الإجْماليُّ:

حُكمُ ولايةِ مَن تأخّرَ إيمانُهم وجهادُهم، والقرابةُ أَوْلَى بالإرث

بيّنَ اللّهُ تعالى في هذه الآية أنّ الّذينَ آمَنوا به سبحانه وبرَسولِهِ ﷺ مِن بَعدَ بَيانِه وِلايَةَ المُهاجرينَ والأَنصارِ بَعضِهِم بَعضًا، وانقِطاع وِلايَتِهِم مِمَّن آمَنَ ولَم يُهاجِرْ حتَّى يُهاجِروا، وانتقلوا مِنَ المقام مع المشركين في مكّةَ إلى المقام مع المؤمنين في المدينة المنوَّرةِ، وشارَكوكُمْ

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (رحم).
(2) الزّبيديّ، تاج العروس: (رحم).
(3) ابن دُرَيد، جمهرة اللّغة: (كتب).
(4) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 3/223، ونصر الهورينيّ، المطالع النَّصريَّة، ص: 41.
(5) نصر الهورينيّ، المطالع النّصريّة، ص: 41.
(6) ابن الجوزيّ، نُزهة الأعين، ص: 526 - 527.
(7) ابن الجوزيّ، زاد المَسِير: 2/229.

الجهادَ، فأولَئِكَ منكُم في الوِلايَةِ؛ فلهم من حقوق النُّصرَةِ في الدّينِ مِثلُ الّذي يَجِبُ لبعضكم على بعضٍ، وبيّنَ أنّ أولي القَرابةِ بَعضُهم أَولَى بِبَعضٍ في الميراثِ في حُكمِ اللّهِ تعالى مِن عُمومِ المُسلِمينَ؛ إنَّ اللّه عليمٌ بكلِّ شيءٍ، ومِن ذلكَ عِلمُهُ سُبحانَهُ بِما يُصلِحُ عِبادَهُ[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

عِلَّةُ وَصلِ السِّياق بِما قَبلَهُ:

إتمامُ الكَلامِ عَن أَصنافِ أَهلِ الإيمانِ

وُصِلَ قَولُ اللّهِ ﷻ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۢ بَعۡدُ وَهَاجَرُواْ﴾ بِما قَبلَهُ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾؛ لِما بينَ الجُملَتينِ مِنَ التَّوسُّطِ بينَ الكمالَينِ؛ وذلكَ أنَّ كلتا الجُملَتَينِ خبريَّةٌ، وبينَهُما جامعٌ وهو الكلامُ عن أَصنافِ أهلِ الإيمانِ، وبين الجُملَتَينِ تناسبٌ؛ إذْ قَدِ اتَّفقَتا في لفظِ المُسنَدِ إليهِ (الّذينَ) وصِلَتِهِ (آمَنوا)، وقَدِ اتَّحدتِ الجُملَتانِ كذلكَ في الاسميَّةِ، وفي مقامِ التَّقسيمِ الّذي استوعبَتهُ هذه الآيات.

سِرُّ تَعريفِ المُسنَدِ إليهِ بالمَوصوليَّةِ:

مشاركةُ اللّاحقِ للسّابقِ في الأجرِ

عُرِّفَ المُسنَدُ إليه (الَّذينَ) بالموصوليَّةِ في قولِ اللّهِ سُبحانَهُ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۢ بَعۡدُ وَهَاجَرُواْ﴾؛ للإيماءِ إلى نَوعِ الخَبَرِ المَحكومِ به على المسنَدِ إليهِ؛ وأنَّه مِن جنسِ الرِّفعَةِ والتَّكريمِ، وفيهِ إشعارٌ بعِلَّةِ استحقاقِهم هذِهِ الرِّفعَةَ في قولِهِ: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مِنكُمۡۚ﴾، وأنَّ هذِهِ المكرُمَةَ - وهي اندراجُهُم مع أهلِ الإيمانِ الحقِّ - مُسَبَّبٌ عَن إيمانِهِم الحاصِلِ بَعدُ وهِجرَتِهِم وجهادِهِم مع المؤمِنينَ.

سرُّ التّعبيرِ باسمِ المَوصولِ ﴿وَٱلَّذِينَ﴾:

كَثرَةُ مَنِ التَحَقَ بِرَكبِ أَهلِ الإيمانِ

وَرَدَ الاسمُ المَوصولُ جَمعًا في قولِ اللّهِ جلَّ وعلا: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۢ بَعۡدُ وَهَاجَرُواْ﴾؛ للإشعارِ بِكَثرَةِ مَنِ التحقَ بأهلِ الإيمانِ الحقِّ؛

(1) ابن جرير، جامع البيان: 14/89، ونخبة من العلماء، التّفسير الميسّر، ص: 186.

مِمَّنِ اقتَدَى بِهِم في الإيمانِ، وإنْ تأخَّر إسلامُهُ عنهم، وهاجَروا، وشاركوا المُؤمِنينَ في جهادِهِمُ الكُفّارَ.

سِرُّ مَجيءِ الصِّلَةِ فِعلًا ماضيًا:

تَحَقُّقُ وَصْفِ الإيمانِ والهِجرَةِ والجِهادِ

جيءَ بصِلَةِ المَوصولِ فِعلًا ماضيًا ﴿ءَامَنُواْ﴾ و﴿وَهَاجَرُواْ﴾ ﴿وَجَٰهَدُواْ﴾ في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۢ بَعۡدُ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ مَعَكُمۡ﴾؛ للدِّلالَةِ على تحقُّقِ وَصفِ الإيمانِ فيهم - ويكون ذكرُه هنا من باب التّمهيد؛ لأنّ الكلامَ على تأخُّرِ الهجرةِ وليس على الإيمان؛ لأنّهم كانوا مؤمنين، أمّا أمرُ الهجرة فهو محلُّ الذِّكر؛ لأنّهم هاجروا بعد هجرتكم، وجاهدوا معكم في بعض غزواتكم.

دلالةُ التَّعبيرِ بقوله: ﴿مِنۢ بَعۡدُ﴾:

رتبةُ مَن تأخّرَ إسلامُهم وجهادُهم

ذكرَ القرآنُ الكريمُ قولَه: ﴿مِنۢ بَعۡدُ﴾؛ للإشارة إلى أنّ أمرَ الهجرةِ والجهادِ لهم لم يكن حاصلًا في وقتِ نزولِ الآياتِ، وفي هذا دلالةٌ على أنّ أصحابَ هذه الصِّلة قسمٌ مغايرٌ للأقسام السَّابقة؛ فليس المعنى أنّهم آمنوا من بعدِ نزولِ هذه الآية؛ لأنَّ الّذين لم يكونوا مؤمنين، ثمّ يُؤمنون من بعدُ لا حاجةَ إلى بيان حُكم الاعتدادِ بإيمانهم؛ لأنّه منَ المعلوم أنّ الإسلامَ يَجُبُّ ما قبله، وإنّما المقصودُ بيانُ أنّهم إنْ تداركوا أمرَهم بالهجرة قُبِلوا، وصاروا منَ المؤمنين المهاجرين.

سِرُّ عَطفِ الهجرةِ والجهادِ على الإيمان:

عطفُ الخاصِّ على العامِّ

في عَطفِ الهجرَةِ والجهادِ على الإيمانِ في قَولِ اللّهِ ﷻ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۢ بَعۡدُ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ مَعَكُمۡ﴾: إطنابٌ، وصورَتُهُ: عَطفُ الخاصِّ على العامِّ؛ وذلك أَنَّ حقيقةَ الإيمانِ في الشَّرعِ: قولٌ وعمَلٌ واعتقادٌ، والهِجرَةُ والجِهادُ مِن جُملَةِ الأعمالِ المندَرِجَةِ تَحتَ حقيقَةِ الإيمانِ الشَّرعيَّةِ، والشَّأنُ في عطفِ الخاصِّ على العامِّ إبرازُ الاهتِمامِ بشَأنِ الفردِ الخاصِّ بذِكرِهِ مرَّتين؛ أُولاهُما بذِكره مُندَرِجًا تَحتَ لَفظِ العامِّ، والأُخرَى: بذِكرِه على سَبيلِ الانفِرادِ، ففي قولِهِ

تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۢ بَعۡدُ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ مَعَكُمۡ﴾ الآيَةِ إيماءُ شَرَفِ الهِجرَةِ والجِهادِ في سبيلِ اللّهِ سُبحانَهُ.

بلاغةُ التَّرَقّي في السِّياق:

الـتَّرَقّـي في تَعدادِ الأعمالِ الصَّالِحاتِ

في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۢ بَعۡدُ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ مَعَكُمۡ﴾ أُسلوبُ تَرقٍّ في إيرادِ بَعضِ أفرادِ الإيمانِ؛ وذلك أنَّهُ قد صُدِّرَت جملَةُ الصِّلَةِ بالإيمانِ، وهو شامِلٌ لجميعِ الدّينِ؛ لكونِ حقيقَتِهِ جامِعَةً للأقوالِ والأعمالِ والاعتِقاداتِ، ثُمَّ ذُكِرَ عملانِ جليلانِ يَندَرِجانِ تَحتَهُ وهما: الهِجرَةُ والجهادُ، وبُدِئَ بالهِجرَةِ لِما فيها مِن مفارقَةِ الأوطانِ، وذلك شاقٌّ على النَّفسِ، وذُكِرَ بعدَها الجِهادُ؛ لِما فيهِ مِن بذلِ النُّفوسِ في سَبيلِ اللّهِ تعالى، وهو أشقُّ على النُّفوسِ مِن مُطلَقِ مُفارقَةِ الأوطانِ.

دلالَةُ ﴿مَعَكُمۡ﴾:

أَهـلُ الإيـمـانِ دَرَجاتٌ وَمَراتِبُ

المعيَّةُ في ﴿مَعَكُمۡ﴾ مِن قولِ اللّهِ سُبحانَهُ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۢ بَعۡدُ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ مَعَكُمۡ﴾ مؤذِنَةٌ بأنَّ الصِّنفَ المذكورَ في هذه الآيةِ دونَ الصِّنفِ الأوَّلِ الّذي لم يستقرَّ في مكّةَ بعد أن هاجر منها المؤمنون، ولأنّهم لم ينالوا شرفَ الجهادِ مدَّةً منَ الزَّمانِ مع المؤمنين، وعلى هذا فالمعيّةُ دلَّت على كونِهم تَبَعًا لهم لا صدرًا[1].

دلالَةُ الفاءِ في ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾:

مَـن تَـأَخَّـرَ إيمانُهُ وَهِجرَتُهُ لَحِقَ بِالمُؤمِنينَ السَّابِقينَ في أَصلِ الإيمانِ

الفاءُ في قَولِ اللّهِ سُبحانَهُ: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مِنكُمۡۚ﴾ داخِلَةٌ على الخَبَرِ لتضمُّنِ الاسمِ الموصولِ مَعنى الشَّرطِ، مِن جِهَةِ وُرودِهِ بِمَنزِلَةِ الجوابِ عَن سُؤالٍ، فكأنَّه قيلَ: وأمّا الّذينَ آمَنوا مِن بعدُ، وهاجروا، وجاهدوا معَكُم فأولئِكَ مِنكُم، و(أمّا) تدلُّ على الشَّرطِ؛ إذ هيَ بمعنى: مهما يكُنْ مِن شيءٍ[2].

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/360، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/90.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/90.

نُكتَةُ الإشارَةِ في ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾:

تَمييزُ مَراتِبِ أَهلِ الإيمانِ

اسمُ الإشارَةِ (أولَئِكَ) مِن قولِ اللّه ﷻ: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مِنكُمۡۚ﴾ راجِعٌ إلى المذكورينَ باعتبار الأوصافِ؛ لأنَّ الصِّفاتِ هي مدارُ الأحكامِ.

والإشارَةُ إليهم باسم الإشارةِ الدّالِّ على البُعدِ يُرادُ بهِ الاعتِناءُ بالخَبَرِ، وتَمييزُ الموصوفينَ بذلك الحُكمِ[1].

دلالَةُ (مِنْ) في ﴿مِنكُمۡۚ﴾:

أَهلُ الإيمانِ - مهما اختَلَفَت مَراتِبُهُم فيه - ولايَتُهُم للمُسلِمينَ

(مِنْ) في قَولِ اللّهِ ﷻ: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مِنكُمۡۚ﴾ يُرادُ بها التَّبعيضُ، والضَّمير المجرورُ بـ (مِنْ) راجِعٌ إلى جماعَةِ المهاجِرينَ الأَوَّلينَ، والمعنى: أنَّ هذا الصِّنفَ مِن أهلِ الإيمانِ الّذينَ تأخَّر إسلامُهُم مِن جماعةِ المهاجِرين الأوَّلينَ؛ أي: مُندَرِجونَ فيهم مُلحقونَ بِهِم، فتكون ولايتُهُم للمُسلِمينَ[2]، ويكون المعنى ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مِنكُمۡۚ﴾؛ أي: من جُملتِكم أيُّها المهاجرون والأنصار، وهمُ الّذين جاؤوا من بعدهم: ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ﴾ فألحقهم اللّهُ تعالى بالسّابقين، وجعلهم منهم تفضُّلًا منه وترغيبًا في الإيمان والهجرة[3].

سِرُّ التَّعبيرِ بقوله: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مِنكُمۡۚ﴾:

أهلُ الإيمانِ درجاتُهم متفاوتةٌ، والفضلُ للسّابق

عبّرَ القرآنُ الكريمُ بقوله: ﴿مِنكُمۡۚ﴾، ولم يقُل: (مثلكم)؛ لأنّ المِثليةَ تقتضي الاتّفاقَ في الذّات والصّفة، والمقصودُ هنا الاتِّفاقُ في الإيمانِ والهجرةِ والواقعِ، يقول: إنَّهم هاجروا بعد المهاجرين السّابقين؛ فكان التّعبيرُ بـ(منكم) هو الأوفق ليُعطي كلَّ ذي حقٍّ حقَّه ؛ فيُعطي للسَّابقين حقَّهم في الأوَّليّة المُطلقة، وليَدُلَّ على أنّ مرتبةَ هؤلاء دونهم؛ لأنّهم أُلحقوا بهم، والمُلحقُ به أصلٌ، وهؤلاء

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/90.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/90.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/38.

فرعٌ، والأصلُ مقدَّمٌ على الفرع، وفي جَعْلهم منهم هنا في مَوضِع التّكريم والتّشريف تفضُّلٌ منَ اللّه عليهم.

بلاغةُ الالتفاتِ في الآية:

أسلوبُ الالتفاتِ فيه تشريفٌ

وجّهَ اللّهُ ﷻ الخطابَ إليهم بطريق الالتفات لتشريفِهم ورفعِ مكانتِهم، حيث كان أسلوبُ الغيبةِ في أوّلِها، ثمّ انتقل إلى أسلوب الخطاب[1].

سِرُّ التّعبيرِ بالواو في قوله: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ﴾:

ولايةُ أولي القُربى قائمةٌ بنفسها

آثرَ التّعبيرَ بالواو دون غيرها؛ لأنّها عاطفةٌ؛ فعُطِفَت هذه الجملةُ على ما قبلها، ولا يلزمُ من ذلك العطف الاتّحادُ بين المعطوف والمعطوف عليه، ولكنَّ وقوعَ هذه الآية إثرَ التّقاسيم السَّابقةِ للمؤمنين في زمنِ النّبيِّ ﷺ يُؤذِنُ بأنَّ لها حظًّا في إتمامِ هذه التَّقاسيمِ، وعلى هذا جامعُ العطفِ بينهما هو أمرُ الولايةِ الّتي تعدَّدَت أشكالُها بين ولاية النُّصرةِ وولاية الإرثِ وولاية الأرحامِ؛ فكان عطفُ هذه الآية على ما قبلَها للدّلالة على أنّ ولايةَ الأرحامِ قائمةٌ، وأنّها مُرجِّحةٌ لغيرها منَ الولايات[2].

دلالةُ التَّعبيرِ بكَوْن أُولي الأرحام بعضهم أولى ببعض:

ميراثُ ذوي الأرحام، ممَّا قرَّرته الشَّريعة

التَّعبيرُ بقوله: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾ يدلُّ على ثبوت الولاية، ولذلك تمسّكَ أصحابُ أبي حنيفةَ بهذه الآية على توريث ذَوي الأرحام، وإن كان ذلك ليس محلَّ اتّفاق؛ لأنّ البعضَ يرى أنّ هذا الحكمَ قد نُسِخَ بآياتِ أحكامِ الميراث.

سِرُّ التَّعبيرِ بصيغة التَّفضيل ﴿أَوْلَىٰ﴾:

تفاضلُ ذوي الأرحام قُربًا وبُعْدًا

آثرَ التّعبيرَ بقوله: ﴿أَوْلَىٰ﴾ للدّلالة على أنّ الولايةَ لذوي الأرحام لا تُعتبَرُ إلّا بالنِّسبة لمَحَلِّ الولايةِ الشَّرعيّةِ؛ فأولو الأرحام أَولى بالولاية

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/38.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/91.

ممّن ثبتَت لهم ولايةٌ تامَّةٌ كالمهاجرين والأنصار، أو ناقصةٌ كالّذين آمنوا ولم يُهاجروا في ولاية النَّصرِ في الدّين، إذا لم يكن دونَها مانعٌ من كُفرٍ أو تَركِ هجرةٍ. فالمؤمنون بعضُهم لبعض أولياءُ ولايةَ إيمانٍ، وأولو الأرحامِ منهم بعضُهم لبعض أولياءُ ولايةَ النَّسبِ[1].

المجازُ في تركيب ﴿فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِۚ﴾:

فَطَرَ اللهُ تعالى العِبادَ على المَيلِ إلى أقارِبِهم

كتابُ اللّهِ تعالى في قولِه سُبحانَهُ: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلۡأَرۡحَامِ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلَىٰ بِبَعۡضٖ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِۚ﴾ قضاءُ اللّهِ وشَرعُهُ، والكِتابُ مَصدَرٌ، يَجوزُ أن يكونَ باقيًا على أصلِ دلالَتِهِ المصدريَّةِ، ويجوزُ أن يكونَ بمعنَى اسم المَفعولِ؛ أي: المكتوب، وهو على هذا مَجازٌ مرسَلٌ بعلاقةِ التَّعلُّقِ الاشتقاقيِّ.

سِرُّ التّعبيرِ بقوله: ﴿فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِۚ﴾:

الكتابةُ أشدُّ المواثيق، وأثبتُها حجةً، وأقواها دليلًا

آثَرَ التّعبيرَ بقوله: ﴿كِتَٰبِ﴾ على قضاء اللّه وشرعه للدّلالة على ثبوتها وعدم تغييرها؛ لأنّ العربَ إذا أرادوا توكيدَ عهدٍ كتبوه للتّوثيق، وهذا ما استعملَه القرآنُ الكريمُ في كثيرٍ منَ الأحكام مثل: أمر الصّيام؛ فقال: ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾، وفي أمر القِصاص؛ قال: ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَىۖ﴾ ونحو ذلك منَ الأحكام.

سرُّ تقييد أوليّةِ أُولي الأرحامِ في كتاب الله:

تعظيمُ المنصوصِ عليه في كتاب الله

قُيِّدَت أوليَّةُ أولي الأرحام بأنّها في كتاب اللّه؛ للدّلالة على أنّ ذلك حكمٌ فطريٌّ، قدَّرَه اللّهُ، وأثبَتَهُ بما وضعَ في النَّاسِ مِنَ المَيلِ إلى قَراباتِهم... "فلمّا كانَت ولايَةُ الأرحامِ أمرًا مُقرَّرًا في الفِطرَةِ، ولم تَكُنْ ولايَةُ الدِّين معروفةً في الجاهليَّةِ بيَّنَ اللّهُ أنَّ ولايَةَ الدِّين لا تُبطِلُ ولايةَ الرَّحِمِ إلّا إذا تعارَضَتا؛ لأنَّ أواصِرَ العقيدَةِ أَقوَى مِن أواصِرِ الجسَدِ"[2].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/92.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/92.

دلالَةُ الإضافةِ في ﴿كِتَٰبِ ٱللَّهِۚ﴾:

تَفخيمُ شَأنِ أَواصِرِ الرَّحِمِ

إضافةُ الكِتابِ إلى الاسمِ الأَحسَنِ (اللّه) في قولِ اللّهِ سُبحانَهُ: ﴿فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِۚ﴾ يُقصَدُ بها تَعظيمُ الكِتابِ وتَفخيمُهُ، ولازِمُ ذلكَ تفخيمُ شَأنِ هذا الحُكمِ المَكتوبِ.

تَوجيهُ المُتَشابِهِ اللَّفظيِّ في الآيةِ قيدِ التفسيرِ:

دِقَّةُ البَيانِ القُرآنيِّ في الإجمالِ والتَّفصيلِ بِحَسَبِ مُقتَضَياتِ الحالِ

قال اللّهُ ﷻ: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلۡأَرۡحَامِ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلَىٰ بِبَعۡضٖ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ﴾ [الأحزاب: 6]، وقال سُبحانَهُ: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلۡأَرۡحَامِ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلَىٰ بِبَعۡضٖ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِۚ﴾، ووجهُ الفَرقِ بينَهُما: أنَّ آيةَ الأحزابِ خُصَّت بقولِه: ﴿مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ﴾ دونَ سورةِ الأَنفالِ؛ وذلكَ لأنَّ آيةَ الأنفالِ صُدِّرت بقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۢ بَعۡدُ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ مَعَكُمۡ﴾، فلمّا كانَ الخطابُ للمهاجِرينَ والأنصارِ الّذين سبقَ ذِكرُهُم قَبلُ ناسَبَهُ الاكتفاءُ بقولِه تعالى: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلۡأَرۡحَامِ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلَىٰ بِبَعۡضٖ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِۚ﴾ دونَ التَّنصيصِ على كونِهم مؤمِنينَ ومهاجِرين، أمّا آيَةُ الأحزابِ، فقد صُدِّرت بقوله ﷻ: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡۖ وَأَزۡوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمۡۗ﴾، فلمّا ذُكِرَ المؤمِنونَ على سبيلِ الإجمالِ، وأُريدَ تقسيمُهم إلى مهاجِرينَ وأنصارٍ، ناسبَهُ التَّفصيلُ في موضعِ سورةِ الأنفالِ هنا.

سِرُّ تَعريفِ المُسنَدِ إليه (الله):

عِظَمُ أَوصافِ اللّهِ تعالى وأَفعالِهِ

جاءَ المسندُ إليهِ (اللّه) معرَّفًا بالعلميَّةِ في قولِهِ سُبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾؛ للإيماءِ إلى عظَمَةِ عِلمِ اللّهِ تعالى المُحيطِ بكلِّ شيءٍ؛ وذلكَ لأنَّ الاسمَ الأحسَنَ (اللّه) جامعٌ لصِفاتِ الجلالِ والجمالِ والكمالِ، وذلك مُشعِرٌ بعظمَةِ أوصافِهِ وأفعالِهِ.

وأُكِّدَ ذلكَ بـ (إنَّ) واسميَّةِ الجُملَةِ زيادَةً في توثيقِ هذا المَعنَى وتقويَتِه.

سرُّ الإظهارِ في مَوضِعِ الإضمارِ:

في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾ إظهارٌ في مقامِ

المُبالغةُ في بَيانِ إحاطَةِ عِلمِ اللهِ تعالى بكُلِّ مَعلومٍ

الإضمارِ، وذلك أنَّ مقتضَى الظّاهِر أن يَرِدَ النَّظمُ القرآنيُّ: ﴿إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ﴾؛ لتقدُّمِ التَّصريحِ بالاسمِ الأحسَنِ (اللّهِ) في قولِهِ سُبحانَهُ: ﴿فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾، ونكتَةُ الإظهارِ زيادَةُ المهابَةِ بالتَّصريحِ بالاسمِ الأَحسَنِ الجامِعِ صفاتِ الجلالِ والجمالِ والكمالِ، وفيه أيضًا المبالغَةُ في بيانِ إحاطَةِ علمِ اللّهِ تعالى.

وفي التَّصريحِ بالاسمِ الأحسَنِ أيضًا إخراجُ الجملَةِ مخرجَ التَّذييلِ الجاري مجرَى المثَلِ؛ إذ لو أُضمِرَ - كما هو مُقتَضى الظَّاهرِ - بأن يَرِدَ النَّظمُ القرآنيُّ: (إنَّه بكلِّ شيءٍ عليمٌ) لكانَ ذلكَ مِن قَبيلِ التَّذييلِ غيرِ الجاري مَجرَى المثَلِ.

بَراعَةُ التَّذييلِ في آخرِ الآيةِ:

تَقريرُ أَولَويَّةِ ذَوي الأَرحامِ بَعضِهِم بِبَعضٍ فيما يُعتَدُّ فيهِ بالوِلايَةِ

قولُ اللّهِ ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ﴾ تذييلٌ جارٍ مَجرَى المثَلِ؛ لاستقلالِهِ بالإفادَةِ، وعدمِ احتياجِهِ إلى ما قَبلَهُ في فَهمِ تمامِ المرادِ منه.

وهذا التَّذييلُ مُؤذِنٌ بالتَّعليلِ؛ ولذا فُصِلَتِ الجُملَةُ عمّا قبلَها، والمقصودُ من جملةِ التَّذييلِ: تقريرُ أولويَّةِ ذوي الأرحامِ بعضِهِم ببعضٍ فيما يُعتَدُّ فيه بالولايَةِ، ما لم يَمنَع من ذلك مانعٌ مُعتبَرٌ شَرعًا[1].

مُناسبةُ الفاصِلَةِ لِمَضمونِ الآيَةِ:

مِن بَلاغةِ القُرآنِ الكَريمِ مُلاءَمَةُ مَقاطِعِ الآيِ لِمَطالِعِها

خُتِمَت هذه الآيةُ باسمِ اللّهِ تعالى: العَليم، فقال سُبحانَهُ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ﴾، وذلكَ لكونِ صِفَةِ العِلمِ ملائِمَةً لنفوذِ هذهِ الأحكامِ الشَّرعيَّةِ[2].

بَراعةُ خَتمِ السُّورَةِ:

خُتِمَت سورَةُ الأنفالِ بقولِ اللّهِ ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ﴾، وذلك في غايَةِ البراعَةِ؛ وذلك لكونِ السُّورَةِ اشتمَلَت على أحكامٍ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/92.
(2) ابن عطيّة، المُحرَّر الوجيز: 2/557.

كثيرةٍ في الولايةِ العامَّةِ والخاصَّةِ والعهودِ وصلةِ الأرحام، وما قبلَهما ممّا سبق من أحكام القتالِ والغنائمِ وقواعدِ التَّشريعِ ونحو ذلك من أصول الحكمِ المُتعلِّقةِ بالأنفس ومكارمِ الأخلاقِ، كلُّ ذلك عن علمٍ واسعٍ محيطٍ بكلِّ شيءٍ؛ لذلك كان الخَتمُ بصفةِ العِلمِ مِن أنسبِ ما يكون؛ لكونِ صفةِ العلمِ جامعةً ذلكَ كُلَّهُ ومحيطةً بمبادئِهِ وغاياتِه[1].

مِن دقائقِ الإعجازِ القُرآنيِّ بَراعةُ خَتمِ سُوَرِهِ

التَّناسُبُ في سورَةِ الأَنفالِ:

في تناسُبِ مطلَعِ السّورَةِ ومقطَعِها وَجهانِ[2]:

أحدُهُما: أنَّ السُّورَةَ صُدِّرَت بقولِ اللّهِ ﷻ: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِۖ﴾، ثُمَّ ذُكِرت معركَةُ بَدرٍ في قولِهِ سُبحانَهُ: ﴿كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ﴾، ثُمَّ خُتِمَتِ السّورةُ بذِكرِ معركَةِ بدرٍ، وما ترتَّب عليها مِنَ الغنائمِ والأسرَى، في قولِهِ جلَّ وعلا: ﴿فَكُلُواْ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًاۚ﴾، وقولِهِ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيْدِيكُم مِّنَ ٱلْأَسْرَىٰٓ﴾، ويندرجُ في ذلكَ الجهادُ، وهو ما خُتِمَت به السُّورَةُ في قولِهِ سبحانَهُ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۢ بَعْدُ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ مَعَكُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ مِنكُمْۚ﴾.

تَناسُبُ مَقاطِعِ سُوَرِ القُرآنِ الكَريمِ مع مَطالِعِها

والآخَرُ: أنَّ اللّهَ ذكرَ في أوَّلِ السُّورةِ المؤمنينَ حقًّا، وذكرَ جُملةً مِن أوصافِهِم، فقالَ سُبحانَهُ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾، ثُمَّ قال فيهِم: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّاۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾، وذكَرَ في آخرِ السُّورةِ أهلَ الإيمانِ مِنَ المهاجرينَ والمجاهدينَ والّذين آوَوا ونصروا، وقال فيهم: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّاۚ لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾.

وبناءً على ذلك فالتَّناسبُ واضحٌ بين مَطلعِ السُّورةِ وخاتمتِها،

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/360، ورضا، تفسير المنار: 10/103.

(2) فاضل السّامرّائيّ، التّناسب بين السّور في المفتتح والخواتيم، ص: 18 - 19.

وهذا دليلٌ واضحٌ على أنّ القرآنَ مُعجِزٌ في ترتيبِ آياتِه وتناسُبِ معانيه؛ فأوّلُ السُّورةِ مربوطٌ بخيوط الإعجازِ في آخر السُّورةِ، ولو انقطعَ ذلك الخيطُ لانفصلَت لُحمةُ التَّعبيرِ؛ فسبحانَ مَن وصلَ أوصالَ السُّورةِ مشتملةً على بِنْيتِها اللُّغويَّة الّتي تشابكَت معانيها مع تعدّد أحكامِها، وتنوّع أصنافِ النَّاس فيها، وتعدُّدِ زمنِ النُّزولِ؛ فالسّورةُ لم تنزلْ دفعةً واحدةً، ومع ذلك فمعانيها متلازمةٌ، يخرجُ معنى الآية الأخيرةِ من رَحِم معنى الآيةِ الأولى.

سُورَةُ التَّوبَةِ

سُورَةُ التَّوبَةِ

تعريف عام بسورة التوبة

حكايةُ الإجماعِ على مدنيَّةِ السُّورة

سورةُ التَّوبةِ مدنيَّةٌ باتِّفاق، نزلتْ في غزوةِ تبوك سنةَ تِسْع، وابتُدِئَ نزولها عقِبَ فتحِ مكَّة في سنةَ تسعٍ عامَ حجِّ أبي بكرٍ رضي الله عنه، وقد حكَى الإجماعَ على مَدَنيَّتِها غيرُ واحد[1].

وآياتُها مئةٌ وتِسعٌ وعشرون آية في الكوفي، وفي عدِّ أهلِ المدينةِ ومكَّةَ والشَّامِ والبصرة: مئةٌ وثلاثون آية، واختِلافُ العدِّ في ثلاثِ آيات، هي: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٌ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾، عدَّها البصْريُّ، ولم يَعدَّها الباقون، و﴿إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبۡكُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا﴾، عدَّها الشَّاميُّ، ولم يعدَّها الباقون، و﴿وَعَادٍ وَثَمُودَ﴾، عدَّها المدنيَّان والمكيُّ، ولم يعدَّها الباقون[2].

وهي السُّورةُ التاسعة في ترتيب المصحفِ بعد سورةِ الأنفالِ وقبل سورةِ يونس[3]، وفي ترتيب النُّزول المئة وثلاث عشرة، وترتيبُها في النُّزولِ بعد سورةِ المائدة وقبل سورةِ النَّصر[4].

أسماؤها المذكورة، وسبب تسميتها:

ليس في السُّوَر ما كَثُرَتْ أسماؤهُ مثل التَّوبة والفاتحة

الاسم الأوّل: التَّوبةُ: وهو اسمها الثَّابتُ رِوايةً وشُهرةً، فعَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، قَالَ: قُلْتُ لابْنِ عَبَّاسٍ: سُورَةُ التَّوْبَةِ، قَالَ: «التَّوْبَةُ هِيَ الفَاضِحَةُ»[5]، وقد كُتِبَتْ في المصاحفِ بهذا الاسم، وفي كتبِ

(1) النَّحاس، النّاسخ والمنسوخ، ص: 477، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 8/273، وابن حجر، فتح الباري: 8/316، والبقاعي، مصاعد النّظر 2/151، والقاسميّ، محاسن التّأويل: 5/342، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/97.

(2) الدّاني، البيان في عدّ آي القرآن، ص: 160.

(3) السّيوطي، أسرار ترتيب القرآن، ص: 93.

(4) الزّركشي، البرهان: 1/209، وابن حجر، فتح الباري: 8/734، ودروزة، التّفسير الحديث: 1/16.

(5) متفق عليه، أخرجه البخاريّ، كتاب التّفسير، الحديث رقم: (4882): 6/147، ومسلم، كتاب التّفسير، باب سورة براءة والأنفال والحشر، الحديث رقم: (3031): 4/2322.

التَّفسير والسُّنَّة ومرويَّات الصحابة ﷺ، وجعَلَ الترمذيُّ في جامِعِه ترجمةً بهذا الاسم، والحاكمُ في مُستدركه[1].

ومناسبة التَّسميةِ بهذا الاسم هي نزولُ السُّورةِ بعهْدِ التَّوبةِ لجميعِ الفئاتِ الواردَةِ فيها من المشركين والمنافقين والمؤمنين، فكثُرَ ذِكْرُ التوبةِ فيها من أوَّلها إلى آخرها ﴿فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [التوبة: 3]، ﴿فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [التوبة: 5]، ﴿فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ﴾ [التوبة: 11]، ﴿وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾ [التوبة: 15]، ﴿ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾ [التوبة: 27]، ﴿فَإِن يَتُوبُواْ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ [التوبة: 74]، ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: 102]، ﴿هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾﴾ [التوبة: 104]، ﴿وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: 106]، ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ﴾ [التوبة: 112]، ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِىِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ﴾ [التوبة: 117]، ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: 117]، ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ﴾ [التوبة: 118]، ﴿ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾﴾ [التوبة: 126]. وفي تسميتها بالتَّوبةِ مع نزولِها بالبراءَةِ نُكْتَةٌ لطيفة، وهي أنَّ البراءةَ المذكورة لا تزولُ عنهم إلَّا بالتوبة، فالتوبةُ عهدٌ مع اللهِ جديد يَهدِمُ ما كانَ قبلَهُ من نكْثِ العهود والعقوباتِ التي استحقُّوها.

الاسم الثّاني: سورة بَراءة: كُتِبَتْ به في بعضِ المصاحف[2]، وورَدَ في بعضِ المرويَّاتِ الثابتة، وفي إطلاقاتِ الصحابة ﷺ، ففي الصحيحِ عن البراءِ بن عازبٍ ﷺ، قال: «آخر سورةٍ نزلتْ براءةٌ»[3]، وعن عمر بن الخطاب ﷺ قال: «تعلَّموا سورةَ براءة»[4].

ومناسبةُ التسميةِ بهذا الاسم: نزولها بالبراءةِ من عهودِ المشركين والبراءةِ من جميعِ من تشبَّهَ بهم، وشايعَهُم في الوصْفِ أو في الموالاة.

الاسم الثالث: القَرِينَة: (القَرينتان: الأنفال والتّوبة): فعن عثمان بن عفان ﷺ قال:

(1) الترمذي، الجامع الكبير، تفسير القرآن، باب: ومن سورة التوبةس: 5/123، والحاكم، المستدرك، كتاب التفسير، تفسير سورة التوبة: 2/360.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/95.

(3) أخرجه البخاري، كتاب التفسير وكتاب المغازي، باب ﴿يَسْتَفْتُونَكَ﴾، وباب حجّ أبي بكر بالناس سنة تسع، الحديث رقم: (4605)، ورقم: (4364): 6/50، 5/167.

(4) أخرجه البيهقيّ في شعب الإيمان: 4/90.

«كانت الأنفال وبراءة تُدْعَيان في زمن رسول الله ﷺ القَرِيْنَتَيْن، فلذلك قَرَنْتُ بينهما، ولم أكتبْ بسم الله الرحمن الرحيم»[1].

الاسم الرابع: سورة المُبَعثِرة: وهي تسميةٌ منسوبةٌ لابن عباس [2]رضي الله عنهما، وعَن مُحَمَّد بن إسحاق قَالَ: "كَانَت بَرَاءَة تسمَّى في زمَان النَّبِي ﷺ المبَعثِرة، لِما كشَفَتْ من سرائر النَّاس"[3]. وعن ثابت بن الحارث الأنصاري أنَّه قال: «ما كانوا يدعون سورةَ التوبة إلا المُبَعْثِرَةَ، فإنَّها تُبعثِرُ أخبارَ المنافقين»[4].

أسماء أخرى لسورةِ التَّوبة:

كثيرٌ من أسماء سـورةِ التَّـوبـة مُتَّحِدٌ في تقرير المعنى نفسه

سورةُ الفاضِحة: فعَنْ سعيد بن جبير، قال: قلتُ لابن عباس: سُورَةُ التَّوْبَةِ، قَالَ: (التَّوْبَةُ هِيَ الفَاضِحَةُ، مَا زَالَتْ تَنْزِلُ، وَمِنْهُمْ وَمِنْهُمْ، حَتَّى ظَنُّوا أَنَّهَا لَنْ تُبْقِيَ أَحَدًا مِنْهُمْ إِلَّا ذُكِرَ فِيهَا)[5].

ومناسبةُ التسميةِ بهذا الاسم: لأنَّها فضَحتْ دَواخِلَ المنافقين بنحوِ قوله فيها: ﴿يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [التوبة: 64].

سورةُ العذاب: فعن حذيفةَ رضي الله عنه، قال: «إِنَّكُمْ تُسَمُّونَهَا سُورَةَ التَّوْبَةِ، وَهِيَ سُورَةُ العَذَابِ»[6]. ومناسبةُ التَّسميةِ بهذا الاسم: لمجيءِ الوعيدِ بالعذابِ فيها في نحوِ ستةَ عشَرَ موضعًا من السُّورة[7].

سورةُ المُقَشْقِشَة: فعن ابن عمرَ رضي الله عنهما قال: «وَهل فعل بِالنَّاسِ

(1) أخرجه النَّحَّاس، الناسخ والمنسوخ: 3/208.
(2) الفيروزابادي، بصائر ذوي التمييز: 1/228.
(3) ذكره السيوطي في الدر: 4/121 وعزاه لابن المنذر، وانظر: ابن هشام، السيرة النبوية: 2/554.
(4) ابن العربي، أحكام القرآن: 2/244.
(5) أخرجه البخاري، كتاب التفسير، الحديث رقم: (4882)، 6/147.
(6) أخرجه أبو عبيد في فضائل القرآن، ص: 130، والحاكم في المستدرك: 2/331، والطبراني في الأوسط، الحديث رقم: (1330)، وابن أبي شيبة في مصنفه، الحديث رقم: (30898)، قال الهيثمي في مجمع الزوائد، الحديث رقم: (11035): "رواه الطبراني في الأوسط، ورجاله ثقات".
(7) في الآيات من سورة التّوبة: [3]، [14]، [26]، [34]، [39]، [52]، [55]، [61]، [66]، [68]، [74]، [79]، [85]، [90]، [101]، [106].

الأفاعيل إلَّا هِيَ، مَا كُنَّا ندعوها إلَّا المقَشقِشة»[1]، يَقصِد سورةَ التوبة. وأورد هذا الاسمَ بعضُ المفسِّرين: كابن عطية، وابن الجوزي، والرازي، والخازن، والشوكاني[2].

ومناسبةُ التسميةِ بهذا الاسم: فمن قولهم: "قَشَّ من مرضِه: بَرَأَ"[3]، وهذه التسميَة من معاني البراءةِ، فهي مُبرِّئَةٌ من الشِّركِ والنِّفاق؛ لِمَنْ تبرَّأ من صفاتِ المشركين والمنافقين الواردةِ فيها[4].

سورة المُنَقِّرَة: عن عبد الله بن عبيدِ بن عميرٍ رضي الله عنه قال: "كَانَت بَرَاءَة تسمَّى المنقِّرة نَقَّرَتْ عَمَّا فِي قُلُوب المشركين"[5]. وذكرَ هذه التِّسمية بعضُ المفسرين: كالبيضاوي، وأبي السعود، والشوكاني[6].

ومناسبةُ التَّسميةِ بهذا الاسم: أنَّ السُّورة قرعَتْ قلوبَ الكافرين والمنافقين، فنقَّبَتْ، وبَحَثَتْ فيها؛ لِتُخرِجَ ما كتَمُوْهُ من العداوةِ والأضغان، وذلك ظاهر في نحو قوله تعالى فيها: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مُخۡرِجٞ مَّا تَحۡذَرُونَ ٦٤﴾ [التوبة: 64]، والنقْرُ هو قرعُ الشَّيءِ واختِراقُه للبَحثِ والتنقيبِ فيه[7]، وتسميتها بذلك كنايةٌ عن الفضيحةِ التامَّةِ لهم بهتْكِ خفاياهم وكشْفِ أستارِهم.

سورةُ البَعُوث (بفتْحِ الباء وضمّها): فعن المقداد بن الأسود قال: «أَتَتْ عَلَيْنَا البَعُوثُ يَعْنِي سُورَةَ التَّوْبَةِ»[8].

ومناسبةُ التسميةِ بهذا الاسم: على وجْهِ الفتْح، فهي صيغةُ مبالغة بمعنى اسم الفاعل، باعتبار أنَّ السُّورة بَعثَتْ ما في قلوبِ المنافقين، وأخرجَتْه للعَلَنِ بعد الكِتمانِ.

وعلى وجْه الضمِّ فالبُعوثُ هي الجيوش التي تجهَّزَتْ للغزو، وهذا ملائِمٌ أيضًا مع

(1) أورده السيوطي في الدرّ المنثور: 4/121، وعزاه لأبي الشيخ وابن مردويه عن زيد بن أسلم رضي الله عنه.
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 3/3، وابن الجوزي، زاد المسير: 3/389، والرازي، مفاتيح الغيب: 15/223، والخازن، لباب التأويل: 2/237، والشوكاني، فتح القدير: 2/476.
(3) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (قشش - قشقش).
(4) الآلوسي، روح المعاني: 5/235.
(5) أورده السيوطي في الدرّ المنثور، وعزاه لأبي الشيخ: 4/121.
(6) البيضاوي، أنوار التنزيل: 2/274، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/39، والشوكاني، فتح القدير: 2/476.
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نقر)، والراغب، المفردات: (نقر).
(8) أخرجه الحاكم في المستدرك، الحديث رقم: (3282): 2/363.

مضمون السُّورة، وقد وردتْ مادَّة هذه التسميةِ في قولهِ في السُّورة: ﴿وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمۡ﴾ [التوبة: 46]، أي: خروجَهم مع بُعوثِ الجهادِ.

سورة البَحوث: (بفتْحِ الباء وضمِّها) فعن المقداد بن الأسود قال: «ائْتِ عَلَى سُورَةِ البحوثِ: قَالَ اللّه ﷻ ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ [التوبة: 41]»[1]، وهي صيغةُ مبالغةٍ من البَحْثِ بمعنى اسم الفاعل[2].

وهذه التَّسميةُ في نفْسِ معنى تسميتِها بالمنقِّرة والبَعوث، فهي بحثَتْ، وبَعَثَتْ، ونقَّرتْ عمَّا في القلوبِ وكشَفَتْه.

سورة الحافِرة: ذكَرَها بهذا الاسم غيرُ واحدٍ من المفسِّرين، كالزَّمخشري، وابن الجوزي، والرازي[3]، ذلك أنَّها تَحفِرُ قلوبَ أَهلِ النِّفاق، فتُخرِجُ ما فيهم من رُكامِ الرِّجْسِ ورَمَادِه، بمثل قوله: ﴿إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمۡۗ﴾ [التوبة: 110]، ﴿فَأَعۡقَبَهُمۡ نِفَاقٗا فِي قُلُوبِهِمۡ﴾ [التوبة: 77][4].

سورة المُثِيرَة: فعن قَتادةَ قال: (كانت هذه السُّورة تسمَّى الفاضحة - فاضحة المنافقين - وكان يقال لها: المثيرة - أنبأت بمثالبِهم وعوراتِهم)[5].

سورة المُنكِّلَة: أي: المُعاقِبةُ التي جاءتْ بالنَّكالِ والعِبْرَةِ الرَّادِعة، ووقعتْ هذه التَّسمية عند عددٍ من المفسِّرين غير منسوبةٍ لمصدرٍ أو قائِل[6].

سورة المشرِّدة: سمِّيتْ بذلك؛ "لأنَّها شرَّدتْ جموعَ المنافقين وفرَّقتهم"[7]، ويُكأنَّها تطبيقٌ لقولِه تعالى في سورةِ الأنفال: ﴿فَإِمَّا تَثۡقَفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡحَرۡبِ فَشَرِّدۡ بِهِم مَّنۡ خَلۡفَهُمۡ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ ٥٧﴾ [الأنفال: 57].

---

(1) أخرجه ابن المبارك في الجهاد، حديث رقم: (103، 104)، والحاكم في المستدرك: 2/118، 333، 3/349، والشيباني في الآحاد والمثاني، حديث رقم: (290)، وابن أبي شيبة في المصنَّف، حديث رقم: (19758)، والبيهقي في السنن الكبرى: 9/21، وصحَّحه الحاكم، ووافقه الذهبي.

(2) الألوسي، روح المعاني: 5/235.

(3) الكشاف: 3/5، وزاد المسير: 3/389، ومفاتيح الغيب: 15/223.

(4) الفيروزابادي، بصائر ذوي التمييز: 1/227.

(5) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره، الحديث رقم: (10045): 6/1829.

(6) الزمخشري، الكشاف: 2/136، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 15/172، والنسفي، مدارك التنزيل: 2/114، والسخاوي، جمال القراء: 1/36، والسيوطي، الإتقان: 1/173.

(7) الخازن، لباب التأويل: 2/332.

سورة المُخزِيَة: سمِّيتْ بذلك لافتتاحها بخزي الكافرين في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِى ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٢﴾ [التوبة: 2][1].

سورة المُدمدِمَة: نُسِبَتْ هذه التَّسمية لسفيان بن عُيَيْنَة[2]، ووجْهُ تسميتها بذلك أنَّها جاءتْ بالوعيدِ المُطبِقِ عليهم المُهلِكِ لهم، من دَمْدَمْت الشَّيءَ: ألزقته بالأرض، أي: سوَّيته بها أو فوقها بضغط شديد، كما قال الله تعالى: ﴿فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ۝١٤﴾ [الشمس: 14]، أي: فهُدِّمَت مساكنهم عليهم، ودُفِنُوا تحتها، أو ابتلعهم الأرض، واندَمَّتْ عليهم، وهكذا حال هذه السُّورة كشفتْ خبايا المنافقين، وهتكت نيَّاتِهم ودواخلهم، فهدَّمت ما يخطِّطون، ويرجون.

ووردت هذه التَّسمية عند كثيرٍ من المفسِّرين: كالزّمخشري، والرّازيّ، والبيضاويّ، والنّسفيّ[3].

المقاصدُ الكبرى للسُّورة:

أوّلاً: الكلامُ على أحكام العهود الَّتي بين النَّبيِّ ﷺ وبين المشركين، وما يتبع ذلك من حالة حربٍ وأمنٍ، وبيان أحكام الوفاء والنَّكث، وتقرير البراءة من المشركين، ورفع العصمة عن أنفسهم وأموالهم.

ثانيًا: إعلانُ مواجهة أهل الكتاب المحاربين حتى يعطوا الجزيةَ، وذمُّ ما أدخله الأحبار والرُّهبان في دينهم من العقائد الباطلة، وبيانُ تكالبهم على الأموال، وأنَّهم ليسوا بعيدين عن أهل الشِّرك.

ثالثًا: بيانُ حرْمَة الأشهرِ الحُرُم، وإبطالُ ما كان يفعلُه العرب في الجاهلية من تقديم بعض الأشهر أو تأخيرها حَسَب رغباتهم.

---

(1) الزمخشري، الكشاف: 2/136، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 15/172، والنسفي، مدارك التنزيل: 2/114، والسخاوي، جمال القراء: 1/36، والسيوطي، الإتقان: 1/173.

(2) الآلوسي، روح المعاني: 5/235.

(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/5، والرّازيّ، مفاتيح الغيب: 15/223، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل وأسرار التّأويل: 2/274، والنّسفيّ، مدارك التّنزيل: 2/101.

رابعًا: حثُّ المسلمين على نصرة النبي ﷺ في العسر واليسر، وأنَّهم إنْ لم ينصروه؛ فاللهُ ناصرُه، وتذكيرُهم بنصر الله لرسوله ﷺ عندما أنجاه من كيد المشركين في حادثة الهجرة، وبنصره له يوم حُنَين، وبيانُ جملةٍ من حقوق النَّبيِّ ﷺ على المؤمنين؛ كوجوب محبَّتِه، والتزامِ هديه، وتحريمِ إيذائه والقعود عن الخروج معه في الجهاد.

خامسًا: التَّنويهُ بغزوة تبوك والإشارة إلى التجهُّز لها، وذمُّ المنافقين المتثاقلين، والمعتذرين والمستأذنين في التخلُّف بلا عذرٍ، والمخذِّلين عن الخروج للغزو، والتَّنويهُ بالغزوة وجيشها، وذكرُ الذين تاب الله عليهم من المتخلِّفين عنها.

سادسًا: فضْحُ أساليب المنافقين وتخذيلهم للمؤمنين؛ حيث ذُكِرت صفاتُهم الواحدة تِلْوَ الأخرى؛ فذكرت السُّورةُ أذاهم لرسول الله ﷺ، وأَيمانَهم الكاذبةَ، وأمْرَهم بالمنكرِ ونَهْيَهم عن المعروف، وكَذِبَهم في عهودهم، وسُخْريَتهم بضعفاء المؤمنين، فلم تَدَعْ لهم سِترًا إلَّا هتكتْهُ، وفي ضمن ذلك جاءَ أمرُ النَّبيِّ ﷺ بجهادهم، ونهيُه عن الاستغفار لهم والصلاةِ على موتاهم.

سابعًا: مقابلةُ صفات أهل الكفر والنِّفاق وجزائهم بأضدادها من صفات المؤمنين وجزائهم، والتنبيهُ على فضل أبي بكرٍ رضي الله عنه وفضل المهاجرين والأنصار رضي الله عنهم، والإشارةُ إلى فضل مسجدِ قباء ومسجدِ الرسول ﷺ.

ثامنًا: الحثُّ على الصَّدَقةِ، والتَّوبةِ إلى الله، والعملِ الصالح، والأمرُ بالفقه في الدين ونشرِ الإسلام.

تاسعًا: امتنانُ الله على المسلمين بأن أرسلَ فيهم رسولًا منهم اتَّصف بصفات فيها كلُّ خير لهم كالرَّحمة والشفقة؛ حثًّا لهم على متابعته والتخلُّق بأخلاقه[1] ﷺ.

بيانُ مناسبةِ السُّورةِ للسّورة قبلها:

سورةُ الأنفالِ نزلتْ في غزوةِ بدر، وسورة التوبة نزلتْ في غزوةِ تبوك، فكانت الأنفال في أوَّلِ غزوةٍ للرَّسول ﷺ في رمضان في السَّنةِ الثَّانيةِ من الهجرة، وكانت التَّوبة في

(1) الفيروزابادي، بصائر ذوي التمييز: 1/228، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/100، وعبد الله شحاته، أهداف كلّ سورة ومقاصدها في القرآن الكريم، ص: 109.

آخرِ غزوةٍ له ﷺ في رجب في السَّنة التَّاسعة من الهجرة، فاجتمعتِ السُّورتان على تقريرِ الهدفِ نفسه، وهو ذكر أحكام القتالِ في زمانينِ متباينينِ، فسورةُ الأنفالِ في المبدأ وسورة التوبةِ في المنتهى[1].

الأنفالُ تُعبِّر عن ضعفِ شوكة المسلمين، والتّوبةُ تعبِّر عن القوّةِ والتَّمكين

بيانُ محورِ سورة التّوبة والموضوعات التي تأتلفُ وتلتفُّ حوله:

تدورُ موضوعاتُ السُّورةِ حولَ غايةٍ مركزيَّةٍ تُحلِّقُ حولها، وتلتئِمُ عليها، وهي ضَبْطُ العلاقةِ من الولاياتِ والعَدَاوات بين المسلمينَ والمشركين، وضبْطُ علاقتِهم مع غيرهم من الطَّوائفِ المنحرفة في أهلِ الكتاب والمنافقين.

غرضُ السُّورة: ضبطُ العلاقاتِ من الولاياتِ والعَدَاوات، بين المؤمنين وغيرهم

ولكون سورةِ التَّوبةِ مِن آخرِ ما نزل مِنَ القرآنِ الكريم، فهي سورةٌ تتناولُ العديد من الموضوعات والمقاصد التي تهمُّ المجتمع المسلم في علاقاتهِ مع الآخرين، فبيّنت السورة المنهاج الذي يجب أن يسلكَهُ المؤمنون في مواجهة الشِّرك والكفرِ والنِّفاق، وفي تحقيق العزَّةِ والتَّمكين للدِّين الحقِّ، والسُّورة إذْ تَنعقِد لهذا الغرض، فهي تبني هذا الضبْطَ على أساس الموالاة المتجرِّدة لله ورسولهِ فقط، وهي تُحاكِمُ على هذا المعيارِ دون تساهلٍ في الميزانِ به ودون اعتبار غيرِه من الموازين.

وموضوعاتها تبدأ بحسمِ العلاقاتِ مع المشركين في كافَّةِ معاهداتِهم على تباين أحوالِهم في النَّكثِ أو الوفاء، أو الخضوع بالإسلام أو البقاء على الكفر، وفصَّل ذلك، ولم يُغفِل فيه شيئًا.

وفاصَل بين المؤمنين والكافرين في ولايةِ المسجد الحرام والقيام عليه، وجعَلَ المؤمنين أحقَّ وأولى به، وفاصَلَ بين المؤمنين والكافرين في الولايةِ والانحيازِ، وحرَّمَ أن يكونَ الكافرُ من ذوي القربى أو أيُّ شيءٍ من عرَضِ الدُّنيا في المنافع والتِّجارات أحبَّ وأولى في التقديم

(1) رضا، تفسير المنار: 10/133، وطنطاوي، الوسيط: 6/184.

والاعتبار من أحكامِ اللّه ورسولِهِ وإعلائهما فوقَ كلِّ اعتبارٍ، فهي مُفاصَلةٌ حاسِمَةٌ ضابِطةٌ مع الخصومِ المُجاهرين ومع الأقاربِ المشركين، ومع الأشياء النفعيَّةِ مِنَ الأعراض والأغراض.

ثمَّ يأتي حسْمُ العلاقةِ وضبطُها مع الذين لايؤمنون باللّه ولا باليوم الآخرِ من أهلِ الكتاب والتَّحذير من مسلكِهم في الاعتقادِ، وإعلاء يدِ المؤمنين عليهم بفرضِ الجزيةِ عليهِم أن يدفعوها، وهم خَجِلون وجِلون من انحرافِهم وفسادِ مَسْلَكِهم.

ثمَّ تتفرَّغ السُّورةُ بعدئذٍ لفضْحِ المنافقين المندسِّين مُستخْفِي النِّيَّات والطَّوِيَّات فتفضحُهم بالبرهانِ؛ لتؤسِّسَ لِمعاملةٍ جديدةٍ معهم من الحزم والرَّدع والمجاهرة بالعداوة، وفي نفْس الوقتْ تحذِّرُ المؤمنين الصَّادقين أن يحذروا مسلَكهم في الحرص والجُبنِ والشُّحِّ والتخلُّفِ عن الجهاد وإخلافِ العهود مع اللّه في النَّفقةِ وإخراجِ حقِّ المالِ.

ثمَّ بعد تجليةِ كافَّة المواقِف وكشْفِ حقيقةِ الأشخاصِ والفئاتِ، تتفرَّغُ السُّورة لضبطِ علاقاتِ المؤمنين بعضِهم مع بعض، وأنَّ الأصل فيها الولايةُ على طاعة اللّه ورسوله وإقام الصَّلاة وإيتاء الزَّكاة، فإذا حصلَ إخلالٌ أو تقصير من أحدهم؛ فالحكمُ في ذلك للّه ورسوله، وهم في تفاعلِهم مع إخلالهِ وتقصيرهِ تَبَعٌ للّه ورسوله؛ ولذا حدَّدَتِ السُّورةُ كيفيَّةَ التَّعامل مع أولئك المقصِّرين، وبيَّنتْ فئاتِهم، كالثَّلاثة الذين خُلِّفوا، والآخَرين المُرجَوْنَ لأمرِ اللّهِ، والذين اعترفوا بذنوبهم، وبيَّنتْ من هم أصحابُ الأعذار في القعود عن الجهاد على جهةِ الحقيقة، ومن هم أصحابُ الأعذار على جهةِ الزَّيفِ والادِّعاء، وحكمَ كُلٍّ وعاقبتَهُ، هذه السُّورةُ حدَّدتْ جميعَ الأصناف والفئات؛ لتُقِيمَ من ذلك تحديدَ العلاقاتِ مع كلِّ صنفٍ بما يناسبُهُ: إمَّا بالبراءة الكاملةِ منه، وإمَّا بالتماسِ العذرِ له، وإمَّا بتصفيةِ صفوفِهم منه وانتزاعه من الانتسابِ إليهم كالمنافقين بتحريم الاستغفار لهم أحياءً، والصلاةِ عليهم أمواتًا، وكتحريم الاستغفارِ للمشركين، ولو كانوا أولي قربى من بعدِ ما تبيَّن لهم أنَّهم أصحابُ الجحيم[1].

(1) السّعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 187، والشنقيطي، أضواء البيان: 2/503.

الفرائد اللفظية في السّورة:

﴿كَسَادَهَا﴾ [24]، ﴿مَوَاطِنَ﴾ [25]، ﴿نَجَسٌ﴾ [28]، ﴿يُضَٰهِـُٔونَ﴾ [30]، ﴿فَتُكۡوَىٰ﴾ [35]، ﴿جِبَاهُهُمۡ﴾ [35]، ﴿فَثَبَّطَهُمۡ﴾ [46]، ﴿يَجۡمَحُونَ ۝٥٧﴾ [57]، ﴿جُرُفٍ﴾ [109]، ﴿هَارٍ فَٱنۡهَارَ﴾ [109].

تلك عشْرَةٌ كاملةٌ من الكلمات انفردتْ بها السُّورةُ عن غيرها.

وهذه التراكيب المُفردَة والمتفرِّدَة، تعبِّرُ في شِدَّتِها الدلاليَّةِ عن حالةِ الطوارئِ الَّتي تَسْرِي بها حركةُ السُّورةِ وإيقاعُها، وذلك على النحو التالي:

الكلمة الأولى: ﴿كَسَادَهَا﴾ [24]، في قوله: ﴿قُلۡ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ وَإِخۡوَٰنُكُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ وَعَشِيرَتُكُمۡ وَأَمۡوَٰلٌ ٱقۡتَرَفۡتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخۡشَوۡنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرۡضَوۡنَهَآ أَحَبَّ إِلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٖ فِي سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦۗ﴾، فوصْفُ التِّجارةِ بالكسادِ، وهو الشَّيءُ الدُّونُ الرَّديءُ الَّذي لا يشتمِل على منفعةٍ[1]، تعريضٌ بأنَّ اللّٰه ورسولَه في مقامٍ عظيم، فلا يَنبغِي أن يُؤثَر شيءٌ في الحُبِّ على هذا المقام، فيصير هذا المقامُ في رُتْبَةِ الدُّوْنِ والزَّهادة، بإيثارِ التِّجاراتِ عليه خشيةً من كسادها، فيرضَونَ للّٰه ورسولِه من الزَّهادةِ والدُّوْن ما لا يرتضونه لتجاراتِهم، والسُّورةُ كلُّها مبنيَّةٌ على تمحيضِ أحكامِ اللّٰه ورسوله للاعتبار الخالصِ والاعتدادِ التامِّ.

الكلمة الثانية: ﴿مَوَاطِنَ﴾ [25]: ﴿لَقَدۡ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٖ وَيَوۡمَ حُنَيۡنٍ إِذۡ أَعۡجَبَتۡكُمۡ كَثۡرَتُكُمۡ فَلَمۡ تُغۡنِ عَنكُمۡ شَيۡـٔٗا﴾، فالمواطِنُ هنا هي مقاماتُ الحربِ ومواقِفُها[2]وغزواتُها، وهي كلمةٌ معبِّرةٌ عن حركةِ السُّورةِ العامَّةِ في الغزوِ والجِهادِ وامتِحانِ النَّاسِ بنَدْبِهم للقتالِ وعدم التَّخلُّفِ والتَّخاذُل.

الكلمة الثالثة: ﴿نَجَسٌ﴾ [28]: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡمُشۡرِكُونَ نَجَسٞ فَلَا يَقۡرَبُواْ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ بَعۡدَ عَامِهِمۡ هَٰذَاۚ﴾ وهي صِفةٌ مشبَّهةٌ[3]بجعلِ النَّجاسةِ المعنويَّةِ وصفًا ملازِمًا لهم، والتَّعبيرُ بتلك الكلمةِ خيرُ شاهدٍ على معنى البراءةِ من المشركين، فنجاستُهم الشِّركيَّةُ أحدُ عِلَلِ البراءةِ منهم.

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (كسد).

(2) النسفي، مدارك التنزيل: 1/672.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 10/159.

الكلمة الرابعة: ﴿يُضَٰهِـُٔونَ﴾ [30]، في قوله: ﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ عُزَيۡرٌ ٱبۡنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ ٱللَّهِۖ ذَٰلِكَ قَوۡلُهُم بِأَفۡوَٰهِهِمۡۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوۡلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبۡلُۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۖ﴾، فكلمة ﴿يُضَٰهِـُٔونَ﴾ تعبِّرُ عن شدَّةِ مُشابهةِ اليهودِ والنَّصارى بالمشركين التي أتتِ السُّورةُ بالبراءةِ منهم، فكأنَّه قيل: إنَّ الكفرَ كلَّه مِلَّةٌ واحدة، والمشركون واليهود والنصارى والمنافقون جميعهم في سَلَّةٍ واحدةٍ، وهم أخلاطٌ متشابهون، ولذا جاءتِ السُّورةُ تضبطُ العلاقاتِ معهم جميعًا بالميزانِ والحُكْم نفْسِه.

الكلمة الخامسة والسادسة: ﴿فَتُكۡوَىٰ﴾ [35]، ﴿جِبَاهُهُمۡ﴾ [35]، في قوله تعالى: ﴿يَوۡمَ يُحۡمَىٰ عَلَيۡهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكۡوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمۡ وَجُنُوبُهُمۡ وَظُهُورُهُمۡۖ هَٰذَا مَا كَنَزۡتُمۡ لِأَنفُسِكُمۡ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَكۡنِزُونَ﴾، فـ"الكيُّ أن يُوضَع على الجِلْد جمْرٌ أو شيءٌ مُشتَعِل، والجِبَاه جمع جبهةٍ، وهي أعلى الوجْهِ مما يَلِي الرَّأسَ"[1]، وهما لفظانِ يعبِّرانِ عن مدى النِّقمَةِ عليهم لمَّا خانوا عهْدَ اللهِ في أموالهم، فكنزوها، وبَخِلوا بها، فاللَّفظانِ واردانِ في سياقِ العهْدِ، كما السُّورةُ كلُّها واردةٌ في العهودِ والعقوبةِ على الإخلالِ بها.

الكلمة السابعة: ﴿فَثَبَّطَهُمۡ﴾ [46]، في قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمۡ فَثَبَّطَهُمۡ وَقِيلَ ٱقۡعُدُواْ مَعَ ٱلۡقَٰعِدِينَ﴾أي: "فَكَسَّلَهُمْ، وضَعَّفَ رَغْبَتَهم في الانبعاثِ"[2]، وهي كلمةٌ تعبِّرُ عن المبالغةِ في رفضِهم ونبْذِهم والتبرُّؤِ من أفعالهم لمّا نبذوا عهودَهم مع اللهِ بالكذِبِ والنِّفاق، فالكلمةُ واردةٌ في معنى النَّبْذِ والبراءة الَّتي انْبَنَتْ عليها السُّورةُ.

الكلمةُ الثامنة: ﴿يَجۡمَحُونَ ۝٥٧﴾ [57]، ﴿لَوۡ يَجِدُونَ مَلۡجَـًٔا أَوۡ مَغَٰرَٰتٍ أَوۡ مُدَّخَلٗا لَّوَلَّوۡاْ إِلَيۡهِ وَهُمۡ يَجۡمَحُونَ﴾ واختيارُ لفظةِ الجُموحِ لتصويرِ "شِدَّةِ حِرصهم على الفرارِ والاختباءِ دون أيِّ تراخٍ"[3]، وهو وصْفٌ للدَّافِعِ النفْسيِّ مِنْ حاجِزِ النُّفورِ بينهم وبين أحكام اللهِ وعهودِه إليهم، بما حملَهم على التَّخلُّفِ عن الغزو وعلى خيانةِ اللهِ ورسوله وهو مدارُ السُّورةِ وموضوعُها.

الكلمةُ التاسعة والعاشرة: ﴿جُرُفٍ هَارٖ فَٱنۡهَارَ﴾ [109] في قوله تعالى: ﴿أَفَمَنۡ أَسَّسَ بُنۡيَٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقۡوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٍ خَيۡرٌ أَم مَّنۡ أَسَّسَ بُنۡيَٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٖ فَٱنۡهَارَ بِهِۦ فِي

(1) ابن عاشور، التّحرير والتنّوير: 10/179.

(2) النّسفي، مدارك التّنزيل: 1/683.

(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: 1/334.

نَارِ جَهَنَّمَۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، وهذا التركيبُ من الفَرائِدِ، تقريرٌ لأعمالِ هؤلاءِ جميعًا أنَّها قائمة على غيرِ أساسٍ صحيح، بتمثيلِها بمن يؤسِّسُ بِناءً على طرَفِ حُفْرةٍ آيِلَةٍ للسُّقوط، فمتى وضَع البناءَ انجرفتْ به، وانهارتْ، وسقطَ معها بناؤه وهَوَى، وهو تمثيلٌ يومِئُ بِشِدَّةٍ إلى أنَّ أعمالهم لا تَصِحُّ إلا بتجديدِ العهدِ مع الله بالتَّوبةِ إليهِ والبراءةِ ممَّا سواه، وهو العملُ بحاصِل عُنوانِ السُّورةِ ومضامينِها.

﴿بَرَآءَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ١﴾

[التّوبة: 1]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

عِلْمُ اللهِ بكلِّ شيءٍ هو محلُّ الرَّبْطِ بين آخرِ الأنفالِ وأوَّلِ التَّوبةِ

مطلَعُ سورةِ ﴿بَرَآءَةٞ﴾ ظاهِرُ المناسبةِ مع آخرِ سورةِ الأنفال، سواءٌ آخرها العامُّ، وآخِرها الخاصُّ، أمَّا آخِرها العامُّ: فقد ختَمَتْ سورةُ الأنفالِ بتَرسيمِ الحدودِ الفاصلةِ بين المؤمنين والكافرين، فالمؤمنون بعضُهم أولياءُ بعضٍ، والكافِرون بعضُهم أولياءُ بعضٍ، وفي سورةِ التَّوبةِ تطبيقٌ لتلك المُفاصَلةِ، وتنفيذٌ لهذا العزْلِ التَّامِّ بين المؤمنين والكافرين بإعلانِ البراءةِ من المشركين ومن العهودِ المعقودةِ معهم. وأمَّا عن المناسبةِ مع آخرِها الخاصِّ؛ فقد خَتَمَتِ الأنفالُ بتقرير حقِّ الموالاةِ بين المؤمنين، وجعلتْ هذا الحقَّ آكَدَ وأوْلَى بين أولي الأرحامِ والقراباتِ، ثمَّ ذيَّلَتْ هذا التقريرَ بقولِه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ٧٥﴾ [الأنفال: 75]، وهذا التَّذييلُ هو محلُّ الرَّبْط بين آخرِ الأنفالِ وأوَّلِ التَّوبة، أي: إنَّ تقريرَ الولايَاتِ في آخرِ الأنفالِ كلُّهُ حِكْمةٌ وصوابٌ وصلاحٌ؛ لأنَّه مِنْ لَدن العليم بدقائقِ الأحوالِ والتَّفاصيل، كذلك تقريرُ العداواتِ ونزْعُ المعاهداتِ في أوَّلِ سورة براءة ناجِمٌ عن تلك العِلَّةِ الكامِلةِ في العِلْم والإحاطةِ التي ذُيِّلَتْ بها سورةُ الأنفال، فالختْمُ والافتتاحُ مَردُّهُمَا لِقولِه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿بَرَآءَةٞ﴾: البراءةُ مصدرُ (بَرِئَ) كـ(تَعِبَ)، وأصله: التَّباعُدُ مِنَ الشَّيءِ ومُزَايَلَتُه، كَبَرِئَ من المرضِ: إذا انفصَلَ عنهُ، وسَلِمَ منه،

(1) الرازيّ، مفاتيح الغيب: 15/520، والخطيب، التّفسير القرآني للقرآن: 5/694.

وخَلَصَ مِنْ أذاه، والمرادُ بقوله: ﴿بَرَآءَةٌ﴾، أي: هذه براءةٌ، بمعنى تبرُّؤٍ وتباعدٍ وتخلُّصٍ من مُعاهدةِ المشركين[1].

المَعْنى الإجْماليُّ:

إعلانُ نهايةِ العهودِ مع المشركين في جزيرةِ العربِ

هَذِهِ براءةٌ وتَباعُدٌ وتَخَلُّصٌ وإعلانُ انفصالٍ تامٍّ - مِنَ اللّهِ ورسولِه - عنِ المُعاهَداتِ الَّتي كانتْ قائمةً بين المسلمين والمشركين النَّاكثين للعهود في جزيرةِ العربِ[2].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ

موقعُ جملةِ الافتتاح ﴿بَرَآءَةٌ﴾ وأثرُهُ في المعنى:

إعرابُ البراءةِ خبرًا لمبتدأ محذوفٍ أمْكَنُ بلاغةً، لِحداثَتِها عند المُخاطَبين

جملة ﴿بَرَآءَةٌ﴾ في محلِّ رفْعٍ خبر عن مبتدأ محذوف، والتقديرُ: هذه الآياتُ براءةٌ صادِرةٌ أو مُبتدَأةٌ مِن اللّهِ، والجارُّ والمجرور متعلِّقٌ بنفْس ﴿بَرَآءَةٌ﴾؛ لأنَّها مصدرٌ، وهذه المادَّةُ تتعدَّى بـ(مِنْ)، ويجوز أنْ تكون ﴿بَرَآءَةٌ﴾ مبتدأً، والجارُّ والمجرور متعلِّقانِ بمحذوفٍ نعتٍ لـ ﴿بَرَآءَةٌ﴾، وهو المسوِّغُ للابتداء بالنَّكرة لتخصيصها به، والتَّقديرُ: براءةٌ حاصلةٌ واصِلةٌ من اللّهِ، وكونُ البراءةِ خبرًا لمبتدأ محذوف أمْكَنُ بلاغةً؛ لأنَّ هذه البراءةَ أمرٌ حادثٌ لم يُعهد عن المخاطَبين، فلا بدَّ من جعلِها خبرًا حتى تكونَ معلومةً عند المخاطَب أوَّلًا، لتحقيقِ النِّسبةِ التقيُّديَّة بين الخبرِ والمبتدأ أوَّلًا، لِيَتِمَّ بناءُ الوصفِ بعد ذلك على تلك النِّسبة المعلومة، فحَقُّ الصِّفاتِ قبلَ عِلمِ المخاطَب بثبوتِها لموصوفاتِها أن تكونَ أخبارًا، وحقُّ الأخبارِ بعد العِلم بثبوتِها لما هي له أن تكونَ صفاتٍ[3].

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (برأ)، والجزائريّ، أيسر التّفاسير: 2/336.

(2) حجازي، التّفسير الواضح: 1/854، ومجمع البحوث، التّفسير الوسيط: 3/1656، ونخبة من العلماء، التّفسير الميسَّر: 1/187، جماعة من علماء التفسير، المختصر في تفسير القرآن الكريم: 1/187.

(3) أبو السعود، إرشاد العقل السّليم: 4/40، والفرّاء، معاني القرآن: 1/420، والزَّجاج، معاني القرآن: 2/428، والنّحّاس، إعراب القرآن: 2/108، ومكّي، مشكل الإعراب، ص: 307، والعكبريّ، التّبيان في إعراب القرآن: 2/634، والسّمين الحلبي، الدّر المصون: 6/5، والشّهاب، عناية القاضي وكفاية الرّاضي: 4/296.

دلالةُ الافتتاحِ بالجملة الاسميَّة:

الافتتاحُ بالاسميَّةِ تضمَّنَ الخبرَ والإنشاءَ، وثبوتَ الحدثِ واستمرارَهُ

قولهُ: ﴿بَرَآءَةٌ﴾ افتتاحٌ بالاسميَّةِ، فلم يقل: (قد تبرَّأَ اللّهُ)، للدَّلالةِ على أنَّ البراءةَ ثابتةٌ أزلًا في عِلْمِ اللّهِ، فهو قضاءٌ ثابتٌ عنده، ولذا عبَّر بالاسميَّةِ الدَّالَّة على ثبوتِ المعنى وانقضائه، وإنَّما هو مُتجَدِّدٌ وحادِثٌ باعتبارين، الأوَّل: إخبار المخاطَبين به وكشْفُه لهم، وهذا سِرُّ مجيءِ الجملةِ خبريَّةً.

الثَّاني: باعتبارِ إنشاء الأمْر، فالمخاطَبون مأمورون بالبراءةِ، ولذا فالجملةُ إنشائيَّةٌ في معناها وإن أتتْ بلفظِ الخَبر.

ولو قال: (قد تبرَّأَ اللّه) على الفعليَّةِ لم تتضمَّن تلك المعاني الثَّلاثةَ جميعًا معًا[1].

براعةُ الاستهلالِ بالمصدرِ ﴿بَرَآءَةٌ﴾:

التَّعبيرُ بالمصدرِ حشْدٌ معنويٌّ، لجميعِ الدِّلالاتِ المجرَّدةِ لِلَّفظ

الاستهلالُ بالمصدرِ يدلُّ على تهويل الوعيدِ الذي تضمَّنه المقامُ، ففي افتتاح الوعيد بالمصدر حشْدٌ معنويٌّ لجميع دلالات اللفظِ المجرَّدةِ في إفادةِ الحدَثِ مع إفادةِ ثبوتِه وعراقَتِه، أي: براءةٌ كاملةٌ ثابتةٌ بكلِّ ما تحتَمِلُه من معاني الانفكاكِ وانعدامِ الصِّلة وقطع الأعذار ورفضِ الشَّفاعات بين المتَبَرِّئ والمُتَبَرَّأ منهُ، وهذا الاستهلال في كلِّ سورةٍ من سورِ القرآن الكريم، ولاسيَّما الطُّول والمئين مفتتح من الآي يكون استهلالًا بديعًا مشيرًا إلى جوهر المعنى الكليِّ الذي يقوم في السُّورة، وهذا من أجلِّ مظاهر براعة القرآن وإعجازه، فإنَّ المستهلَّ يُعدُّ أوَّلَ ما يطرق أذنَ المستمعِ، وأوَّلَ ما يحظى به من انتباهٍ، فإذا كان مستهلًّا بديعًا مشيرًا إلى موضوع السُّورةِ أو مقصدِها أو جزءًا من ذلك، فإنَّ ذلك يجذبُ انتباهَ المستمعِ، ويثيرُ اهتمامَهُ، ويجعلُهُ يتابع باقي السُّورةِ بشغفٍ وحرص[2].

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/40، والشهاب، عناية القاضي وكفاية الرّاضي: 4/296، والقاسميّ، محاسن التّأويل: 5/346.

(2) محمود توفيق، الإمام البقاعيّ ومنهاجه في تأويل بلاغة القرآن، ص: 224.

دلالةُ التَّنكيرِ في ﴿بَرَآءَةٌ﴾:

التَّنكيرُ في لفظةِ الوعيد ﴿بَرَآءَةٌ﴾ يدلُّ على شُيوعِها المُطلَقِ وعدمِ تَعيُّنِها وانحصارِها في معانٍ مُحدَّدةٍ أو مقاصدَ مُقيَّدةٍ يُريدها المتكلِّمُ لتخفيفِ جُرعةِ اللفظِ في حِدَّتِه وصولتِه، فكأنَّ المتكلِّم يقول حينئذٍ: هي براءةٌ لا لِجامَ لها ولا قَيْدَ، فهي جاريةٌ بمعناها المطلَقِ المُطبِقِ بجميع أجزائهِ على مَنْ سيقَ الوعيدُ في حقِّهم براءةٌ خاليةٌ عن الرَّحمة جافيةٌ عن الإمهال، وهذا معنى قولهم: إنَّ التَّنكيرَ للتَّعظيم والتهويل والمبالغةِ في سوءِ الإيعاد والإرعاد[1].

التَّنكيرُ للتَّعظيمِ والتَّهويلِ والمبالغةِ في سوءِ الإيعادِ والإرعادِ

بلاغةُ الجملةِ الخبريَّةِ:

مِن براعة أساليبِ القرآنِ الكريم أنَّه يستخدمُ الجملةَ الخبريَّة في مواضعَ تحتاج إلى الإنشاءِ، لكنَّه يفيدُ بها معانيَ إنشائيَّةً بطريقة أكثر تأثيرًا وإقناعًا، فقوله: ﴿بَرَآءَةٌ﴾ جملةٌ خبريَّةٌ معناها الإنشاء، وبلاغةُ هذا التَّركيب في أنَّ معنى الخبريَّةِ مقصودٌ أصالةً من اللَّفظ، ومعنى الإنشاء مقصود تبعًا من قرينة السِّياق، ويفيد مجيئُها على جهة الإخبار لا الأمر الصَّريح، لإفهام السَّامع أنَّ أصلَ الحكم حاصلٌ ومتقرِّر قبلَ طلبِ إنشائه من المُخاطَب، فمعنى وجوده غير مفتقرٍ لامتثالِ المأمور به.

جملةُ الخَبَرِ الّتي معناها الإنشاء، أفادتْ أن أصلَ الحكمِ حاصلٌ قبل طلبِ إنشائهِ

نكتةُ إسنادِ التَّبرِّي:

أسندَ البراءةَ إلى اللّه ورسوله، والعهدَ إليهم؛ لأنَّ البراءةَ إخبارٌ عن مطلوبٍ لم يُحدِثوه بعدُ، فكيف تُنسَبُ إليهم إذًا؟ واللّهُ هو الذي حكَمَ بهِ، وأنشأهُ، فلذلك نُسِبَ إليهِ، وأمَّا المعاهدةُ؛ فهم الّذين حصَّلوها، وأنجزوها، ولذا نسِبتْ إلى ضميرهم.

وأيضًا: رِعايةً لِحُسْن الأدبِ، وتنزيهًا لجنابِ اللّه، فإنَّ المعاهدةَ،

بلاغةُ العدولِ بالالتفاتِ من الغيبةِ للخطاب، ومن ضميرِ التَّثنية إلى ضميرِ الجمعِ الخِطابيّ

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 8/361، وأبو السّعود، إرشاد العقل السليم: 4/39، والآلوسيّ، روح المعاني: 5/238، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/103.

وإنْ جَرَتْ بإذنِ اللّه، إلا أنَّ المقامَ مقامُ نكْثٍ للعهد، فلم يقل: (إلى الذين عاهدَا) على ضميرِ اللّه ورسوله، لئلَّا يُقحَمَ اسمُ اللّه في مقامِ منقوضٍ منكوث، ولذا أُسنِدَ إلى البراءةِ دون المعاهدة؛ ليكون في جانِبِ الغَلبَةِ والعِزَّة والقهْر بالعقوبة، وهو (البراءة).

وأيضًا: في نِسبةِ البراءةِ إلى اللّه ونسبة المعاهدة إليهم، إيذانٌ بأنَّ البراءة حكمٌ ناجِز محتوم لا يتوقَّف على رأي المخاطَبين، ولا دخْل لهم في إتْمامِه، بل لا دخْل لهم فيه إلَّا بالامتثال والإذعان، وأمَّا المعاهدةُ؛ فهي عقدٌ تكليفيٌّ شرعيٌّ صدرَ عنِ اللّهِ إذْنًا، وعن المتعاقِدين مُباشرةً وإجراءً، والبراءةُ متعلِّقةٌ بالعقد من حيث تحصيلُه لا من حيثُ الإذنُ فيه، فنُسِب لمن حصَّلوه[1].

دلالةُ تعديةِ المصدر بالحرفِ:

قال سبحانه: ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ﴾، ولم يقل: "براءةُ اللّهِ ورسولِه"؛ للتَّنصيص على معنى الابتداء، كما يُعهَدُ في الأحكام التي تصدرُ مُقترِنةً بجِهةِ ابتدائها، وليَحسُنَ مقابلتُه بحرف الانتهاء في قوله: ﴿إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم﴾ تنبيهًا على أوَّل الغايةِ وآخرها، ولِدلالةِ التَّنوينِ في ﴿بَرَآءَةٌ﴾ مع ﴿مِّنَ﴾ على الإضافةِ والابتداءِ معًا، والتَّركيبُ المتضمِّنُ لمعنيينِ أولى في الاستعمالِ من التَّركيب الذي يتضمَّن معنًى واحِدًا؛ لوجازتِه في التَّعبير عن أكثرَ من مقصودٍ بعبارةٍ واحدة، فيُصانُ الكلامُ عن التَّكرارِ، وكيفيَّةُ ذلك: أنَّه " لمّا نَوَّنَ أدخَلَ ﴿مِّنَ﴾ كما تقول: هذا فضلُ اللّهِ، ورحمةُ اللّهِ، ثم يُنوِّنُ فتدخِلُ (مِنْ)، فتقول: (فضلٌ من اللّهِ ورحمةٌ منه)"[2]، ولو عبَّر بالإضافةِ دونَ التَّعديةِ، فيقال: (براءة اللّه)؛ لأفاد تعريفَ النَّكرةِ فقط دون إفادةِ ما سبق.

التَّركيبُ المتضمِّنُ لمعنيينِ أولى في الاستعمالِ من التَّركيب الَّذي يتضمَّن معنًى واحِدًا

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/40، والشّهاب، عناية القاضي وكفاية الراضي: 4/296، والآلوسيّ، روح المعاني: 5/238، ورضا، تفسير المنار: 10/135.

(2) الواحديّ، البسيط: 10/280.

وجهُ اصطفاءِ لفظ ﴿بَرَآءَةٌ﴾:

اصطفاءُ لفظ البراءة أمكَنُ بلاغةً من جهتين الأولى: للدِّلالة على معنى الإلزام السابق الذي أوجبَتِ البراءةُ الانفكاك منه؛ لأنَّ البراءةَ خلوُّ الذِّمَّةِ ممَّا كان يَشغلُها الالتزامُ به. الثانية: للدَّلالة على معنى الفسْخِ القهريِّ للمعاهدة، وليس الانقضاءَ الاختياريَّ ببلوغِ الاتِّفاقِ أجلَه، وفيه إيذانٌ بِخِزيِهِم وإذلالِهم ومعاجَلَتِهم بالإهانةِ والخِذلان[1].

إيذانٌ بمعنى الفسْخِ القهريِّ للمعاهدةِ، وخِزيِ المشركين وهوانهم

نكتةُ إضافةِ البراءةِ إلى اسمِ الألوهيَّةِ:

إسنادُ البراءةِ لاسم الألوهيَّةِ دون غيرِه من الأسماء؛ لإفادة كمالِ العلمِ بمن يستحقُّ البراءة ومن لا يستحقُّها، وكمال القدرةِ على غَلبَتِهم وإنفاذِ حكمِه فيهم، وكمال حِكمتِه في ترتيبِ المصالح على ذلك للمؤمنين ووقايتهم من المضارِّ التي تنالهم لو كانوا استمرُّوا في معاهدةِ المشركين، فلاقتضائه مجموعَ تلك الكمالات؛ ناسَبَ التَّعبيرَ بالاسمِ الجامع لها المُستغرِقِ لأفرادها، وفي تعليق البراءةِ بهذا الاسم الجليل إشعارٌ بعِلِّيَّةِ الحكمِ بها، أي: لِكوْنِه اللّٰه الكامل تبرَّأَ منهم[2].

تعليقُ البراءةِ بالاسم الجليل (اللّٰه) إشعارٌ بعِلِّيَّةِ الحكمِ بها

معنى العطفِ بين اللّٰه ورسوله:

العطفُ بين اللّٰه والرسول، ليدلَّ على الجمع بينهما في صدورِ البراءة عنهما، على معنى المغايرةِ بين ما للّٰه فيها وما للرَّسول، فالبراءةُ من اللّٰه بمعنى تقريرِها والإذنِ بها، ومن الرَّسول بمعنى إبلاغِ ذلك عن اللّٰهِ ومُباشرتِه لإجرائها.

العطفُ يدلُّ على اشتراكِ المتعاطِفَين، في تقريرِ الحكمِ والمغايرةِ بينهما في كيفيَّةِ التقريرِ

إيثارُ إضافةِ الرَّسولِ لضمير الجلالةِ:

إنَّما قال: ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ﴾ بإضافةِ الرَّسول إلى ضمير الجلالة، ولم يقل: (براءة من اللّٰه والرَّسول)؛ لإفادةِ أنَّ الرَّسولَ

(1) الرَّاغب، المفردات، ص: 121، وابن عاشور، التّحرير والتَّنوير: 10/103، والشّعراوي، تفسير الشّعراوي: 8/4858.

(2) البقاعي، نظم الدّرر: 8/361.

غيرُ مقصودٍ بفعل البراءةِ أصالةً واستقلالًا، بل هو تبَعٌ للّه فيه، غيرُ منفصلٍ عنهُ في تقريرِ هذا الحكم، كما تقول في غلام زيدٍ: جاء زيدٌ وغلامُه، وتقول: جاء زيدٌ والغلامُ، ففي التَّركيب الأوَّل: لم تقصِد الغلام بفعل المجيءِ أصالةً بل قصْده بالمجيءِ مشمولٌ في قصدِك لزيدٍ، وفي الثَّاني: قصدتَ الغلامَ بالفعلِ، كما قصدتَ زيدًا تمامًا.

إضافةُ الرَّسولِ إلى ضميرِ الجلالةِ لإفادةِ أنَّ الرَّسولَ تبَعٌ لله فيه

وتدلُّ الإضافة كذلك على أنَّ الرسول - ﷺ - هو الوكيلُ عن اللّه في تبليغ رسالته وتنفيذِ حكمه، وأنَّه لا يجوز لأحدٍ أن يخالفَه أو يعارضَه، وأنَّ من أطاع الرَّسولَ؛ فقد أطاعَ اللّه، ومن عصاه؛ فقد عصى اللّه.

دلالةُ عدم تكرار (من) مع الرّسول:

لم يكرِّرْ حرفَ الابتداءِ في جانبِ الرَّسولِ، فيقول: (براءةٌ من اللّهِ ومن الرسولِ)؛ لأنَّ ابتداءَ البراءةِ كان من اللّه، ولم يكنْ مِنَ الرَّسول، فالرَّسولُ ﷺ لم يبتدِئ حكمًا، بل تلقَّى الحكمَ، وأجْراهُ عن اللّه، ولو قال: (براءةٌ من اللّه ومِنْ رسوله) لتُوهِّم أنَّهما براءتان، والحقُّ أنَّها براءةٌ واحدةٌ، وأنَّ براءةَ الرَّسول ﷺ للمعاهَدين من المشركين من جنس براءة اللّهِ وتبعٌ لها[1].

الرسولُ ﷺ لم يبتدِئ حكْمَ البراءةِ، بل تَلَقَّاه من الله، وأجْراهُ عن الله

نُكتةُ حذف متعلِّق البراءة:

حذَفَ في قوله: ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ﴾ متعلِّقَ البراءةِ، فلم يقل: (براءةٌ من اللّه من معاهدةِ كذا أو اتِّفاق كذا أو عقد كذا أو من هؤلاء)؛ لدلالة ما في حيِّز حرفِ الانتهاء من الغايةِ عليه، وهي الموصول وصِلته، في قوله: ﴿إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾، أي: البراءة واصلةٌ من اللّه إلى الذين عاهدتم، أي: بريءٌ من المعاهدة أو من المشركين أصحابِها، فحذفَ ذلك اكتفاءً بدلالةِ الغايةِ عليه،

حيثما كان المقصودُ واضحًا، كان الإيجازُ كافيًا

(1) الشّعراوي، تفسير الشّعراوي: 8/4859.

وللاحتراز عن تكرار (من)، وحيثما كان المقصودُ واضحًا؛ كان الإيجازُ كافيًا، والإيجازُ حينئذٍ أبلغُ[1].

دلالةُ التَّعبيرِ بالاسم الموصول:

أطرافُ التَّعاقُدِ مُحدَّدون ومعروفون، لا يعتريهم إبهامٌ ولا احتمال

التَّعبيرُ بالاسم الموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾ دون أن يقولَ: (مَنْ عاهدتم)؛ لتخصيص المُعاهَدين وتعيينهم؛ لأنَّ طبيعة العقود أن يكون أطرافُها محدَّدين ومعروفين لا يعتريهم إبهامٌ ولا احتمال، ولذا عبَّر بالموصول الخاصِّ، وأمَّا (مَنْ) فموصولٌ احتماليٌّ مشترك يعتريه الإبهام، ولا يتمحَّض لِمعنًى واحدٍ، فلِوثوقيَّةِ العقد لم يعبَّر به[2].

حكمةُ التَّعبيرِ بـ(إلى):

القصدُ لتحديدِ الغايةِ بحرفِ الانتهاء أوجَبَتْهُ ضرورةُ المَقام

التَّعبيرُ بحرف الانتهاءِ غرضُه النصُّ على غايةِ البراءةِ، أي: مُنْتهاها إلى أولئك، ولو قال: (للّذين عاهدتم) لم يُفِد ذلك؛ لأنَّ اللَّامَ حرفُ اختصاصٍ تتعلَّق به معانٍ شتَّى ليس منها إفادةُ الغاية[3]. والقصدُ لتحديد الغايةِ هنا ليس اعتباطًا، بحيث تنوبُ اللَّام عن (إلى) بلا تأثير، فتحديدُ الغاية هنا يقتضيه مقامُ اعتبار المعاهدة كعقْدٍ؛ إذ لا بدَّ من إعلام الطرف المقابل بزوالِ جميع الإلزمات الَّتي يؤدِّيها إليه الطَّرف الآخر بموجب العهد، ولذا كانت البراءةُ مُحدَّدةَ الابتداء والانتهاء، لِتخلو من الاحتمال والتأويل، وتتمحَّض للقطعيَّةِ والوضوح.

ويحتملُ أنَّ حرف الانتهاء (إلى) هنا يفيد التَّحدِّيَ والتَّحذير، فكأنَّ اللّٰه ورسوله يقولان للمشركين: إلى أيِّ حدٍّ تظنُّون أنَّكم تستطيعون مخالفةَ حقِّ اللّٰه وشرعه؟ إلى أيِّ حدٍّ تظنُّون أنَّكم تستطيعون خداع المسلمين بعهودِكم الزَّائفة؟ إلى أيِّ حدٍّ تظنُّون أنَّكم تستطيعون الفرار من عذاب اللّٰه وغضبه؟

---

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/39.

(2) فاضل السامرائي، معاني النحو: 1/137.

(3) ولا يُقال: إنَّ اللام تأتي بمعنى: (إلى) أحيانًا فتفيد الغاية؛ لأنّ: (إلى) تفيد الغاية حقيقةً، وليس تجوُّزًا بالتضمين.

دلالةُ إسنادِ فعل المعاهدةِ في ﴿عَٰهَدتُّم﴾:

التَّكاليفُ الشَّرعيَّةُ تُسْنَدُ لأهلِها الملتزمين بأدائِها، ويُخاطَبون بها

أسندَ فعلَ المعاهدةِ لضمير خطاب المؤمنين ﴿عَٰهَدتُّم﴾، ولم يقل: (إلى الذين عاهدوكم من المشركين)؛ إعلاءً لجانِبِ أهل الإيمان بأنَّهم هم الذين عاهدوا من قبلُ، وهم الذين يتبرَّؤون الآن، وتهوينًا من فعل المشركين في المعاهدات أن يكونَ له قيمةٌ أو وزن إلَّا بحبلٍ من اللّٰه وحبْلٍ مِن عباده، ولولا ذلك؛ فلا اعتداد لعهدهم، فالاعتدادُ والاعتبارُ حاصلٌ من جِهةِ المؤمنين لا من جهتِهم، وأنَّ إسناد فعل المعاهدة إلى ضمير خطابِهم يفيدُ التَّحقير للمشركين، فكأنَّ اللّٰه ورسوله يقولان لهم: أنتم الذين عاهدتم، وأنتم الذين نَقضتم، وأنتم الذين ستخسَرون، فضلًا عن أنَّ البراءةَ لمّا كانت من المؤمنين إليهم؛ أسندَ الفعل إليهم دونهم؛ ليدلَّ على أنَّ التكاليف الشَّرعيَّة إنَّما يُخاطب بها أهلها الملتزمون بأدائها، وأمَّا المشركون؛ فليسوا أهلًا ولا محلًّا لذلك.

نكتةُ التَّعبيرِ بالماضي في ﴿عَٰهَدتُّم﴾:

التَّعبيرُ بالماضي دلَّ على استيفاءِ المؤمنينَ لِفعلِ المعاهدةِ وتحقُّقِهم مِنْهُ

التَّعبيرُ بالماضي في قوله: ﴿عَٰهَدتُّم﴾ للدّلالة على استيفاءِ المؤمنينَ لِفعلِ المعاهدةِ وتحقُّقِهم مِنْهُ، إتمامًا ووفاءً، وهذا تعريضٌ بأنَّ النَّقضَ والإخلال حصل من جهة المشركين، وأنَّ البراءة المذكورة كانت بعد تحقُّقِ فعل المعاهدة من المؤمنين لا من المشركين، ولذا عبَّر بصيغة الماضي مع إسنادِهِ الفِعلَ لضميرهم.

دلالةُ ﴿مِّنَ﴾:

إزالةُ الإبهامِ قبلَها

معنى ﴿مِّنَ﴾ في قوله: ﴿عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ بيانيَّةٌ؛ لتبيينِ فِئَةِ المعاهَدين في قولِه: ﴿عَٰهَدتُّم﴾؛ لأنَّ هناك عبدةَ الأوثان، وهناك أهل الكتاب، فأخبر أنَّهم المشركون الأصليُّون[1].

(1) ابن هشام، مغني اللبيب، ص: 430، وأبو حيّان، البحر المحيط: 5/366، ورضا، تفسير المنار: 10/134.

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

البراءة والتَّخَلُّص:

البراءةُ تكونُ مِمَّا يُتعِبُ ويُؤذي، والخلاصُ لا يَلزمُ أن يكون مِمَّا يَضرُّ

البراءةُ أو التَّبرُّؤ أصلٌ في التَّباعدِ من الشَّيءِ والسَّلامةِ والخَلاصِ منه، والتَّخَلُّص أو الخَلاص أصلٌ في التفَصِّي من الشَّيءِ بالزَّوالِ عنه وعدم الشَّركةِ فيه، فكلا اللفظين مؤذِنٌ بالتباعدِ والإقصاء عن شيءٍ ما، إلا أنَّ البراءةَ أخصُّ من التخلُّص، فالبراءةُ تكونُ مِمَّا يُتعِبُ ويُؤذي، والخلاصُ لا يَلزمُ أن يكون مِمَّا يَضرُّ، بل قد يكونُ مُجرَّدَ تَنْقِيةِ شيءٍ عن شيءٍ، بتخليصِ الشَّيءِ ممَّا يشوبُهُ ممَّا ليس من جِنْسِه، فالتخلُّص أعمُّ، ولذا يُقولون: أبْرأكَ اللهُ من مَرضِك، ولا يقولون: خلَّصك الله منه، لكون البراءةِ فيما يضرُّ، وشواهد القرآن تُعينُ على هذا العموم والخصوص بين اللَّفظين، فاللهُ ﷻ يقول في البراءة: ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ﴾ [التوبة: 1]، ﴿وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا﴾ [النساء: 112]، ﴿بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾﴾ [هود: 54]، ﴿لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْاْ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْ﴾ [الأحزاب: 69]، فذلك كُلُّهُ فيما يُتْعِب، ويؤذي، ويَعيبُ، وما هو عِبْءٌ وضَرَر، وأمَّا مادَّةُ الخلاص؛ فيقول الله تعالى: ﴿فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُواْ مِنْهُ خَلَصُواْ نَجِيًّا﴾ [يوسف: 80]، أي: انفصلوا عنهم لِلمُناجاةِ وليسَ تبَرِّيًا منهم، وقولُه: ﴿أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى﴾ [يوسف: 54]، أي: أخْتَصُّه بالقُربِ والمنزلة، وقوله: ﴿مَا فِى بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا﴾ [الأنعام: 139]، فالخلاصُ في هذهِ المواضع مُطلَقُ فصلِ شيءٍ عن شيءٍ، وقوله: ﴿نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٦٦﴾﴾ [النحل: 66]، فالخلاصُ هنا انفصالٌ عمَّا يَضرُّ؛ لأنَّه كانَ بجوارِ فرْثٍ ودم، وقوله: ﴿أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾﴾ [الزمر: 11]، فالخلاصُ أيضًا عمَّا يَضرُّ؛ لأنَّه تَبَرُّؤٌ عن الشِّرْكِ وتنقيةٌ للباطنِ منه، وعليه: فمادَّةُ الخلاصِ عامَّةٌ، ومادَّةُ البراءةِ خاصَّةٌ[1].

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (برأ، خلص)، والسّمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (خلص)، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (برأ، خلص)، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/103.

﴿فَسِيحُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَرۡبَعَةَ أَشۡهُرٖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُمۡ غَيۡرُ مُعۡجِزِي ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخۡزِي ٱلۡكَٰفِرِينَ ٢﴾ [التّوبة: 2]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

تفريعُ بداءةِ البراءةِ، بعد انقضاء الأجل

لمّا قرَّرَتِ الآياتُ براءةَ اللّهِ ورسولِه من معاهدةِ المشركين الناقضين لعهودِهم، فرَّعتْ على ذلك تفصيلَ المُهلَةِ والأجَلِ المُسمَّى الذي تبدأ البراءةُ بعد انقضائِه؛ ليكونوا في فُسْحةٍ مِن أمرهم حتى يتأهَّبوا لِتَبِعاتِ البراءةِ وعواقبِها، أو يَختاروا سبيل الرُّشْدِ والعِصمةِ والأمْن بإسلامِهم واهتدائِهم.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَسِيحُواْ﴾: مِنَ السَّيْح: وهو السَّيْرُ عَلى مَهَلٍ، وأصلُه: الماءُ الجاري، والتَّركيبُ يَدُلُّ عَلَى اسْتِمْرَارِ شَيْءٍ وَذَهَابِهِ وسَيَبَانِه، وتقييدُه بالأرضِ معناهُ الذَّهابُ فيها والسَّيْرُ، والمراد بالآية: فسيروا في الأرض كيف شئتُم[1].

المَعْنى الإجْمالِيُّ:

المهلةُ المقرَّرةُ للمشركين، بما فيها مِنَ التَّسامُح بعد نهاية وقتها

بعد إعلانِ البراءةِ من المشركين، يُخاطِبُهُمُ اللّهُ فيقول لهم: اذهبوا، وسيروا في الأرضِ حيثُ شئتُم آمنينَ على أنفسِكم - وهو تأجيلٌ لحكم المشركين، وتسامُحٌ معهم - مُدَّةَ أربعةِ أشهرٍ تَتَمَكَّنونَ فيها من إعادةِ النَّظَرِ للتفكير والتدبُّر في دين الإسلام، والرُّجوعِ إلى أنفسِكُم؛ لِتختاروا على بصيرةٍ إمَّا الاستعدادَ لأحكامِ البراءةِ، وما يترتَّبُ عليها من زوالِ عهدِ الأمان، وإمَّا الدُّخولَ في الإسلامِ، وما يستَتْبِعُهُ من عِصمةِ دمائِكم واستحقاقِكُمُ الأمْن، ولِتعلموا في

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سيب - سيح)، والنسفي، مدارك التنزيل: 1/662.

كلِّ الأحوالِ أنَّكم تحتَ قدرةِ اللّهِ وسلطانه لن تَفلتُوا منه بحيلةٍ أو مكيدةٍ أو اعتِصامٍ بِسواه، إذِ اللّهُ مُذِلُّ الكافرينَ ومُهِينُهُم في الدُّنيا والآخِرة، فلا تَبْقَوا على سبيلِهم.

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالة جملة ﴿فَسِيحُواْ﴾:

جملةُ (فَسيحوا) تفريعٌ على معنى البراءة

الفاءُ عاطفةٌ لربط السَّبب بالمسبِّب، وهي الفصيحة؛ لتفصيل ما يكون بعد البراءةِ من العهد، وجملة: ﴿فَسِيحُواْ﴾ تفريعٌ على معنى البراءة، أي: إذا كان ذلك كذلك من ثبوتِ البراءةِ المذكورةِ، فسيحوا في الأرض إذًا[1].

اصطفاءُ لفظ ﴿فَسِيحُواْ﴾:

التَّعبيرُ بلفظ (فسيحوا) يفيدُ ثلاثَ دلالات

الدَّلالة على كمالِ التَّوسعةِ والتَّرفيهِ وسهولة السَّعي، ممَّا ليس في سيروا ونظائرِه؛ لأنَّ السياحة تفيد الاتِّساع في السَّير مع البطءِ والتريُّثِ فيه، تقول: (ساح الشيء) و(سال الشيء)، فعند ما تقول: (سال الماء)، أي: تدفَّقَ وسال، وأنت تشاهده سائلًا، وإن قلتَ: (ساح السَّمْن) أي: سار ببطءٍ لا يُدرك حتى صارَ سائلًا، والتَّعبير به يفيدُ ثلاثَ دلالات: الأولى: تمكينُهم مِنَ النَّظر في أمر أنفسِهم حتى يختاروا ما فيه مصلحتُهم من إيثارِ الإسلام أو الخضوع لحكمهِ فيهم إن بَقَوا على الشِّرك، كما ينظر السَّائح برفْقٍ وتُؤَدَةٍ فيما يطوف عليه من معالمَ ومَشاهد. الثانية: الدَّلالة على أنَّهم بعد البراءة في إمهالٍ وفُسْحةٍ مؤقَّتة يسيرون فيها آمنين مطمئنِّين لا يتعرَّض لهم أحد، فالتَّعبير بهذا اللفظ ينفي المُباغتَةَ بالمؤاخذة، ويُقرِّرُ إنفاذَ البراءةِ على التَّراخي. الثالثة: تنزيهُ المسلمين عن الغدرِ ونبْذ العهد دون إعلامٍ أو إنذار[2].

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/105، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 6/3223، وصافي، الجدول: 10/278، والدرويش، إعراب القرآن: 4/51.

(2) الواحدي، البسيط: 10/282، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/40، والشّعراوي، تفسير الشعراوي: 8/4861، وطنطاوي، الوسيط: 6/198.

دلالةُ الجملة الطلبيَّةِ في ﴿فَسِيحُواْ﴾:

التَّعبيرُ بالأمرِ أفادَ كمالَ القوَّةِ والغَلَبَةِ

قوله: ﴿فَسِيحُواْ﴾ صيغةُ إنشاءٍ طلبيَّةٍ، وقد أجراها بفعل الأمر مع أنَّ الأمرَ للإباحة والإيذانِ بالرُّخصة، وليس للوجوب، فضلًا عن أنَّ نسقَ السِّياق واردٌ على الإخبار في تقريرِ البراءة، فلو انتظم السِّياق؛ لقال: (فَلَكُم أنْ تسيحوا) على الإخبار كذلك، ولكنه عبَّر بالأمر، لإظهارِ كمالِ القوَّة والغلَبَة، وعدم الاكتراث لهم ولاستعدادهم، فأهمل إخبارهم، وساقَه مساقَ الأمرِ الموجَّهِ لهم، لِجعلِهم في موقعِ المأمورِ المُستعلَى عليهِ[1].

نكتةُ الالتفاتِ في: ﴿فَسِيحُواْ﴾:

توجيهُ الإنذارِ المباشِرِ للمخاطَبِ والمبالغة في إعلامِهِ بالمطلوب

قولهُ: ﴿فَسِيحُواْ﴾ فيه التفاتٌ من الغيبةِ، وهو قوله: ﴿عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾، إلى الخطاب بفعلِ الأمر، ولو انتظم السِّياقُ؛ لقيل: (فليسيحوا)، ونكتةُ الالتفات وتغيير الأسلوب: توجيهُ الإنذارِ إليهم بالخطاب المباشر؛ مبالغةً في إعلامهم بالإمهال بعد البراءة، دفْعًا لإمكانِ غفلتهم وسهوهِم عن المقصود، وتفويتًا عليهم أنْ يَدَّعوا عدم استعدادهم لتَبِعاتِ البراءة احتيالًا منهم[2].

وجهُ المجاز في ﴿فَسِيحُواْ﴾:

جوازُ إجراء الاستعارة التَّبَعِيَّة في (فسيحوا) إذا أُهمِلَ القيدُ المكاني في (في الأرض)

يجوز في قوله: ﴿فَسِيحُواْ﴾ أن تكون استعارةً تَبَعِيَّةً، على اعتبار أنَّ أصلَ السِّياحةِ جريانُ الماءِ وانبساطُه، ثمّ استُعمِلَتْ للسَّيْرِ تشبيهًا له في حركتِه بحالِ الماء، وهو يَسيحُ، ويجري[3].

دلالةُ التَّقييد ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾:

فائدة القيدِ بالظرفيَّة ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ لعدَّة وجوه: لزيادة التَّعميم في الأمن والضمان الحاصل لهم وقت الإمهالِ، أي: سيحوا في كلِّ الأقطارِ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/40.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/40، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/105.
(3) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاوي: 9/145.

في أيِّ جهةٍ آمِنينَ حيثُما شِئتُم من الأرضِ. الأوَّل: لقَصْدِ التَّعميم لأقطارِ الأرضِ من دارِ الإسلامِ وغيرِها. الثاني: لَمَّا كانت السِّياحةُ تُطلَقُ على غَيرِ السَّيرِ؛ قيَّد عموم إطلاقها بقَولِه: ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾[1].

القيدُ المكاني للتَّعميم، وتقييد دلالةِ متعلِّقه (فسيحوا)

فائدةُ التَّقييد بالظَّرف ﴿أَرۡبَعَةَ أَشۡهُرٖ﴾:

قولُه: ﴿أَرۡبَعَةَ أَشۡهُرٖ﴾ بعد قوله: ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾، إتْباعٌ للقيْدِ المكاني بالقيْدِ الزَّماني؛ لاستيفاءِ مُحدِّداتِ المُهلةِ بعد البراءة، كما تُحدَّدُ النِّسَبُ والقيودُ في صيغِ العقودِ وما يجري مجراها، فبلاغةُ قولِه: ﴿أَرۡبَعَةَ أَشۡهُرٖ﴾ هي في تَجليةِ الموقفِ على الوجْهِ الأتمِّ للخصوم، وعدم تغفيلهم أو التَّعمِيَةِ عليهم في شيء من التَّفاصيل، كما يَفعل ذلك غالبًا ذوو القدرةِ والنُّفوذ في الخصوماتِ من تهوين الخصمِ والاحتيال عليه.

إتْباعُ القيْدِ المكاني بالقيْدِ الزَّمانيّ، لاستيفاءِ مُحدِّداتِ المُهلةِ بعد البراءة

دلالةُ الوصلِ والصّيغة في: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ﴾:

جملةُ ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ﴾ معطوفةٌ على ﴿فَسِيحُواْ﴾، داخلةٌ معها في حكم التَّفريع على معنى البراءة، للاحتراس من توهُّم عدم القدرةِ عليهم وقتَ إمهالهم؛ لئلَّا يغترُّوا، ويكيدوا، ولتسريعِ أنْ يَحتاطوا لأنفسِهم بعد انتهاء مُهلةِ الأمان بالتلبُّس بأسباب عِصمَتِهم من المُقاتلةِ والحرب، فالجملة مشتملةٌ على التهديدِ والوعظِ معًا، وتصديرها بِفعل اليقين: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ﴾ لتقريعِ أسماعهم وإيقاظ قلوبِهم لِما سيُتْلَى بعده لتنبيههم على كونهِ أمرًا مُهمًّا يَلزمهم مزيد الاعتناء به[2].

الأمرُ بالعلمِ يتضمَّنُ إيقاظَ قلوبهم بالتَّهديدِ والوعظِ معًا

دلالةُ المصدر المؤوَّل ﴿أَنَّكُمۡ غَيۡرُ﴾:

البنيةُ الإفراديَّةُ للمصدر الصَّريح لا تكفي هنا في التَّعبير عن المعنى المقصود هنا، فجيءَ بالمصدر المؤوَّلِ بتركيبٍ إسناديٍّ تامٍّ مع تعبيرِه عن مواقع الكلمات المفردة الَّتي يفيدها المصدر الصَّريح،

يؤتى بالمصدرِ المؤوَّل أحيانًا، لقصورِ المصدر الصَّريح عن الوفاءِ بالمعنى المراد

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 8/371، والآلوسي، روح المعاني: 5/239، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/106.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/372، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/106.

وعبَّر بالمصدر المؤوَّل في قوله: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُمۡ غَيۡرُ مُعۡجِزِي ٱللَّهِ﴾، فالجملةُ من أنَّ واسمها وخبرها في تأويل مصدر سدَّ مسدَّ مفعولي (اعلموا)، ولم يعبِّر بالمصدر الصَّريح، فلم يقل: (واعلموا عدمَ كونِكم معجزين)، أو (كونَكم غيرَ معجزين)؛ لأنَّ المصدرَ المؤوَّل ينتظِم فيه معنيان في سِلْكٍ واحد، فهو يدلُّ على الصَّريح وزيادة، والصّريح لا يفي بمعنيين بل بمعنى، فالمؤوَّل أبلغ، واستعماله هنا دلَّ على أمرين: الأوَّل: تأكيدُ النِّسبة القيديَّةِ بين المسند والمسند إليه بالحرف المصدري المشدَّد. الثَّاني: الدَّلالة على تقريرِ الوقوع وقصديَّةِ الإخبار بعلمِ أنَّهم غير معجزي اللّهِ، فدلالةُ ذلك لا تحصل بالمصدر الصَّريح[1].

دلالةُ ﴿غَيۡرُ﴾:

وذلك في قوله: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُمۡ غَيۡرُ مُعۡجِزِي ٱللَّهِ﴾ فإنّ ﴿غَيۡرُ﴾ اسمٌ يقع على خلافِ ما أضيف إليه، أي: والمراد: خلافُ مفهوم الإعجاز، ولإبهامِ لفظ (غير) وعدم تَعرُّفه أو تخصُّصِه بالإضافة، فإنَّ استعمالها هنا له نكتةٌ في دلالته: وهي عدمُ تَعيُّن المفهوم المقابل، لـ ﴿مُعۡجِزِي ٱللَّهِ﴾، فهو ثابتٌ على إبهامه، لتذهب العقولُ كلَّ مذهَبٍ في مستوياتِ القدرةِ وغلبةِ الربِّ لهم على كلّ حالٍ من أحوالهم في التمكُّن والاحتيال[2].

التَّعبيرُ بالغيريَّةِ يفيد الإبهامَ، في مقدارِ المفهومِ الّذي دلَّتْ عليه

اصطفاءُ لفظ ﴿مُعۡجِزِي﴾:

اصطفاءُ اللَّفظ من مادة العجْزِ، بتركيبٍ يدلُّ على التَّعجيزِ والإعجازِ للمفعول، دون ما هو أدنى منه كالضعفِ وغيره (مُضعِفينَ)، أو بما يضادُّه من الغلبة، فلم يقل: (غالبين)، لثلاثِ نكاتٍ: الأولى: لدلالتهِ على ضدِّه من غلبةِ اللّه لهم؛ لأنَّ العجز ضدُّ القدرة، ففي التَّعبيرِ به تقريرٌ لتمامِ ضدِّه.

فواتُ الأشياءِ الضئيلةِ من حيِّز القدرة العظيمة، عجزٌ عند صاحب السُّلطان القاهرِ

(1) عبد القاهر، المقتصد: 1/478، والجندي، المصدر المؤوّل، ص: 92.
(2) عضيمة، دراسات لأسلوب القرآن: 2/205.

الثانية: أنَّه لم يُعبِّر بنفي المعاني الموجَبَةِ عنهم كالغلبةِ والقدرة، لِنفي الإرادةِ عنهم من كلِّ وجْهٍ إزاءَ إرادةِ اللّه وقدرته؛ إذ لا حولَ لهم ولا قوَّةَ إلَّا به.

الثَّالثة: عبَّر بالعجز الذي هو انتفاءُ القدرةِ بالكلِّيَّة، دون ما هو أدنى منه كالضَّعف؛ لأنَّ فوات الأشياء الضيئلةِ من حيِّز القدرة العظيمة عجزٌ عند صاحبِ السُّلطان القاهرِ بالنسبة لجلال مقامه، ولأنَّ الضَّعفَ هو عدمُ تعلُّقِ القدرةِ بالشَّيءِ أو بجزءٍ منهُ، وعدمُ التعلُّقِ في هذا الجزء عجزٌ عنه، فثبتَ أنَّ مَآلَ البدائلِ التعبيريَّةِ إلى العجز[1].

فضلًا عن أنَّ المشركين لا يقدرون على إحباط قدرة اللّه، أو تخطِّي حدوده، أو نقض عزَّته، بل هم تحت قهرِهِ وقدرته وحكمتهِ.

دلالةُ جمعِ المذكَّرِ السَّالم (معجزين):

ليقعَ نفيُ الإعجاز عنهم من جميع الوجوه

التَّعبير بجمع المذكر السَّالم بصيغة اسم الفاعل للدَّلالة على الثُّبوت، مع إفادة الحال والاستقبال، مع إرادة الفعليَّة لجريان الجمع السَّالم مجرى علامةِ الجمع في الفعل، فـ "معجزون" قائمٌ مقامَ يُعجِزون؛ ليقع نفيُ الإعجاز عنهم من جميعِ الوجوه[2].

دلالةُ الإضافةِ في ﴿مُعۡجِزِي ٱللَّهِ﴾:

تنزيهُ المقامِ مِن إسنادِ إعجازِهم للفظِ الجلالةِ بطريق التَّحقيق

أضافَ اسم الفاعل إلى لفظ الجلالة، ولم ينصبْهُ به لسببين:

الأوَّل: تنزيهًا للّه ﷻ من تسليطِ إعجازهم له بطريق التَّحقيق؛ إذ النَّصبُ مؤذِنٌ بذلك، وأمَّا الإضافةُ فحاصِلةٌ بأدنى مُلابسة، فنفَى عنهم إعجازَهم له، ولو بأدنى سبب.

الثاني: دلالةُ ذلك على أنَّ الإعجازَ المذكور هو تنزُّلٌ بحسب تصوُّرهم لا بحسب وجوده واقعًا، فنفيُه متوجِّهٌ لذلك[3].

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (عجز).
(2) فاضل السّامرائي، معاني الأبنية، ص: 41، 126.
(3) فاضل السّامرائي، معاني النّحو: 3/122.

بلاغةُ المصدرِ المؤوَّل في ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخۡزِى﴾:

جملةُ ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخۡزِى﴾ مصدرٌ مؤوَّل من أنَّ واسمها وخبرها، معطوفةٌ على المصدرِ المؤوَّل في قولهِ: ﴿أَنَّكُمۡ غَيۡرُ مُعۡجِزِى ٱللَّهِ﴾، فهو داخِلٌ في حيِّز الأمرِ بالعِلم في قوله: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ﴾، وإيثارُ التَّعبيرِ به لتوكيدِ المعنى مبالغةً في تقويته وتثبيتِ مضمونهِ[1].

المصدرُ المؤوَّل هو عبارةٌ عن معنيين منظومين في سلك واحدٍ

إيثارُ التَّعبيرِ باسم الفاعل:

قولهُ: ﴿مُخۡزِى﴾ اسمُ فاعل من الرباعيِّ (أخزَى)، والتَّعبيرُ به دون الفعل (يُخزي)؛ ليدلَّ على تحقُّق الخزي المذكور في الماضي والحال والاستقبال مع إفادة الاستمرار والثُّبوت، وليَحسُن مقابلتُه مع ما قبله من لفظ ﴿مُعۡجِزِى﴾ في تواردِهما معًا على نفسِ الصِّيغة[2].

مراعاةُ النَّظيرِ في إيرادِ اللَّفظِ على نفْسِ صيغةِ ما قبلَهُ في السِّياق

بلاغةُ الإظهارِ في مقام الإضمارِ ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ﴾:

قولهُ: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخۡزِى﴾، فيه إظهارُ اسم الفاعل ﴿مُخۡزِى﴾ دونَ الضَّمير المتَّصل "ـه"، ولو اطَّرد السياقُ لَأَضمَر، فقال: (وأنه مخزي)، وهو من أساليب البلاغة القرآنيَّة التي تدلُّ على إعجاز القرآن وثراء معانيه، ويحقِّق أغراضًا منها:

التَّهويلُ وقصدُ التَّعميم، والتَّسجيل على المخاطَب بوصفٍ ظاهرٍ

الأوّل: في إظهارِ الاسم الجليل زيادةٌ في التَّرهيب، ولإجراء الوصف المذكور عليه تهويلًا لأمْر الإخزاءِ.

الثاني: تشريفُ اسم الفاعل ﴿مُخۡزِى﴾ وتفخيمُه والتَّلذُّذ بذكرِه، فهو صفةٌ من صفات اللّٰه تعالى التي تدلُّ على قدرتهِ وحكمتهِ، وعدلهِ في إخزاء الكافرين.

الثّالث: تقريرُ المعنى وبيان استقلال الجملةِ، فالإظهار يدلُّ على أنَّ هذا الصِّفة لا تقتصر على حال معيَّنٍ أو زمان محدَّد، بل هي صفةٌ دائمة للّٰه تعالى في كل حال وزمان.

(1) الجندي، المصدر المؤوّل، ص: 91.
(2) الصّافي، الجدول في إعراب القرآن: 10/279.

الرّابع: التَّسجيلُ على المخاطَب بوصف ظاهرٍ، فالإظهار يجعلُ المخاطَبَ يتأمَّل في هذه الصِّفةِ، ويشعر بأثرها في نفسه، ويخشى من عقابِ اللّه تعالى إذا كان من الكافرين.

الخامس: التَّهويلُ وقصدُ التَّعميم، فالإظهارُ يزيد من رهبة المخاطَب، ويجعلُه يدرك أنَّ اللّه تعالى مخزٍ لجميع الكافرين، بلا استثناءٍ أو رحمة[1].

دلالةُ العدول عن الإضمارِ للإظهار:

الإيماءُ إلى سببِ الفعل، والتَّعريضُ بالمُظْهَر بإجراء الوصفِ الكَريهِ عليه

لم يقل: مخزيكم، بل: ﴿مُخْزِى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾؛ إيثارًا للإظهار على الإضمارِ لثلاثةِ أغراض، الأوَّل: الإيماءُ إلى سببِ الإخزاءِ، وهو الاتِّصاف بالكفر، فلولا الوصفُ بهِ؛ ما حصلَ الخزيُ. الثاني: التَّعريضُ بهم بإجراء وصف الكفر عليهم بعدَ وصفِهم بالإشراك زيادةً في ذمِّهم. الثالث: التَّقبيحُ منهم بذكرِ جريمتهم[2].

التَّعبير بوصف الكفرِ ومجيئه مفعولًا للإخزاء:

معنى الكمالِ في الصِّفة

في قوله: ﴿مُخْزِى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ التَّعبيرُ بوصف الكافرين دون غيرهِ من باب إتباعِ الخاصِّ بذكر العام، لمناسبة المقام، فوصَفَهم بالشِّركِ أوَّلًا، وهو وصفٌ خاصٌّ بعد تقريرِ البراءةِ، لتمييزِ فئتِهم، ثمَّ لمّا تمَّ لهم الإمهالُ، وحصلتْ لهم الضمانةُ إلى الأجل المسمَّى؛ عمَّمَ في الوصفِ زيادةً في وصفِهم بحسَبِ ما زادَ من عِلْمِهم في قوله: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ﴾، فزيادةُ الوصفِ ناسبتْ زيادةَ العِلم، أو خروجًا من المقام الخاصِّ للمقام العام إغراقًا في التَّحذير وتعميمًا في البيان، فالوعيدُ صادقٌ فيهم إن استمرُّوا، وفي كلِّ كافرٍ يتشبَّه بهم؛ ليكونَ الرَّدع شاملًا لهم، ولمن سواهم[3].

(1) البقاعي، نظم الدرر: 8/372، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/41.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/107.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 8/372، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/41، والآلوسيّ، روح المعاني: 5/241.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(فسيحوا) و(فَسِيروا):

السِّياحةُ تقال لغرضٍ عميقٍ خفيٍّ في السَّيرِ، والسَّير يتعلَّقُ بالتَّنقُّل الظَّاهرِ

السِّياحةُ أصلُها (سيح) الدالُّ على جريان الشَّيء باتِّساع واطِّراد، ومن شكل الجريانِ باتِّساع واطِّراد؛ قالوا: ساحَ الشَّيءُ إذا خرجَ عن الحيِّزِ الذي فيه، وامتدَّ عنه، كقولهم: ساح السَّمْنُ؛ إذا سالَ ببُطْءٍ، فجَرى خارجَ وعائِه، ومن ذلك: السِّياحةُ في الأرض: الاتِّساعُ في السَّيْرِ والبُعْدِ عَنِ المُدُنِ والعِمارَةِ، وهو تسيُّبٌ وتجاوزٌ للمساكن باطِّرادٍ، أي: بلا تقيُّدٍ بسَيْرِ حياةِ المُقيم، وأمَّا السَّيْرُ؛ فهو جريٌ مُمْتَدٌّ من نُقطةٍ إلى نقطةٍ، فهو انتقالٌ من موضع إلى موضع، والسَّيْرُ في الأرض: الذَّهابُ في مواضِعها امتدادًا وانتشارًا، فالسِّياحةُ سيرٌ مخصوصٌ لاقتضائِها الخروجَ عن الحيِّز والتَّوسُّع في المَسِير، وأمَّا السَّيرُ؛ فهو عامٌّ بلا قيدٍ، ولذا فالسَّياحةُ تقالُ لغرضٍ عميقٍ خفيٍّ في السَّير، والسَّير يتعلَّقُ بالتنقُّلِ الظَّاهرِ، ولذا قال تعالى: ﴿قُلْ سِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ﴾، فرتَّبَ عليه النَّظَر، والنَّظرُ يتعلَّقُ بالظَّواهر، ولذا قالوا: السَّائحون: هم الَّذين يتحَرُّون ما اقتضاه قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ﴾، فالسَّائح يتحرَّى ما وراء السَّيْرِ من الإبصار والاعتبار، فهو سائرٌ مُعتبِر، فكلُّ سائحٍ سائرٌ، وليس العكس، ولذا قال لهم هنا: ﴿فَسِيحُواْ﴾ ليدلَّ على إرادة التوسُّع في المَسير كيفما شاؤوا، والتّوسُّع في التَّفكير، كيفما استطاعوا[1].

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سيب، سيح)، والراغب، المفردات: (ساح، سار)، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (سير، سيح).

﴿وَأَذَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوۡمَ ٱلۡحَجِّ ٱلۡأَكۡبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ وَرَسُولُهُۥۚ فَإِن تُبۡتُمۡ فَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُمۡ غَيۡرُ مُعۡجِزِي ٱللَّهِۗ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ٣﴾ [التّوبة: 3]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الانتقالُ إلى إخبار جميع النَّاس بالبراءةِ من المشركين

بعد أن أخبرَ اللهُ ﷻ ببَراءتِه من المشركين النَّاكثين للعهد، وضرَبَ لهم أجلًا من الإمهالِ والفُسْحة؛ ليَستدركوا ما فاتهم من إخلال العهودِ بالوفاء والاستقامة، وَلِيَتحوَّلوا عن انحرافِ الشِّرك إلى جادَّةِ الإيمان، عطَفَ على ذلك الإخبارَ بالإعلامِ العامِّ والبيان التَّامِّ منه ومن رسولِه ﷺ - والذي يُذَاع، ويُشاعُ جهْرًا على جميع النَّاس يوم الحجِّ الأكبر بأنَّ الله بريءٌ من المشركين، ورسوله بريءٌ منهم؛ وذلك لِينتقلَ من إخبارهم بالبراءة منهم في المعاهدات، إلى إخبار النَّاس جميعًا بالبراءة منهم في جميع مَسْلَكِهم، فترقَّى من البراءةِ ذاتِ المتعلَّق الخاصّ إلى البراءةِ العامَّة، ومن إخبارِ أصحابِ البراءةِ إلى إخبارِ النَّاس جميعًا.

شَرْحُ المُفْرَدات:

1) ﴿وَأَذَٰنٞ﴾: الأذانُ: الإعلامُ، وأصله: أذِنَ، أي: عَلِم الشَّيءَ سَمَاعًا بِأُذُنِه، وأذَّنَ تأذينًا؛ إذا أكثَر من إعلامِ غيرِه، وآذَنَه إيذانًا: أعلَمَه، فالتَّركيبُ دائرٌ حول العِلم بالشَّيء والإعلامِ به[1].

2) ﴿مُعۡجِزِي﴾: مِنَ العجْز، وأصله يدلُّ على الضَّعفِ وعلى تأخُّر الشَّيء، وأعجزه الشَّيءُ: فاته وعجزَ عنه، وكل (يُعْجِز) واسم

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (أذن)، والرّاغب، المفردات: (أذن)، والسّمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (أذن)، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (أذن).

الفاعل (مُعجِز) في القرآن واقعان دائمًا في سياق النَّفي؛ لأنَّهما إزاءَ سلطان الله ﷻ ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُمۡ غَيۡرُ مُعۡجِزِي ٱللَّهِ﴾ [التوبة: 2][1].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

الإعلانُ في جمهرة النَّاس مسلمهم وكافرِهم، من جميعِ جزيرة العربِ بالبراءةِ من المشركين

بعد أن أخبرَ اللهُ ﷻ ببَراءتِه من المشركين النَّاكثين للعهد، وضرَبَ لهم أجلًا من الإمهالِ والفُسْحة، أخبَرَ هنا أنَّه في بيانٍ عامٍّ وإعلامٍ مُعلَنٍ للنَّاسِ جميعًا وقتَ اجتماعِهم في موسم الحجِّ أنَّه بريءٌ من المشركين، ورسولُهُ بريءٌ منهم، ثم توجَّهَ اللهُ بالخطاب للمشركين مبشِّرًا لهم: إنْ تُبْتُم من الشِّركِ؛ فهو خيرٌ لكم، وإنْ أعرضتُم عنِ الوفاء والاستقامةِ؛ فاعلموا أنَّكم غيرُ فائتين ولا فالِتينَ من قبْضةِ الله وقُدرتِه، وأنذِر - أيُّها الرَّسول - الذين كفروا في كلِّ مكانٍ وزمانٍ بعذابٍ أليم في الدُّنيا والآخرة.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

موقعُ الجملة ممَّا قبلَها ودلالةُ الوصل بالواو:

الخَبَرُ بثبوتِ الأذان، معطوفٌ على الخَبَرِ بثبوتِ البراءة

قوله: ﴿وَأَذَٰنٞ﴾ معطوفٌ على قوله: ﴿بَرَآءَةٞ﴾ من بابِ عطفِ الجملةِ على الجملة، وليس عطف المفرد على المفرد؛ لأنَّ (أذان) ليس مُخبَرًا عنه بخبرِ البراءة، وهو قوله: ﴿إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾، فلا يُسوَّغُ أن يكون عطفًا للمفرداتِ، بل للجُمَل[2].

دلالة صيغة فَعَال (أذان):

لفظُ (أذان) في معنى (الإيذان)، وهو إيقاعُ المأذونِ به في (الأُذُن) بإبلاغِه

صيغةُ (اسم المصدر) في قوله: ﴿وَأَذَٰنٞ﴾، والإتيانُ بها دون صيغةِ المصدرِ (فِعْل)، فلم يقل: (وإذْنٌ) - كما في القراءةِ الشَّاذَّة - للدَّلالةِ على معنى الرُّخْصَةِ والإعلانِ بالرُّخصة، فـ(فَعَال) أكملُ، لدلالتها على الحدثِ وعلى الاسمِ منه - وهو (البلاغ) - وعلى

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (عجز).
(2) الزمخشريّ، الكشّاف: 2/244، وأبو حيان، البحر المحيط: 5/368، والشّوكاني، فتح القدير: 1/857.

الفاعِلِ، وهي تدلُّ على الفاعِلِ بلازمِ اللَّفظِ لا بذاتِه؛ إذْ معنى الأذان (الإيذان)، كما العطاء بمعنى (الإعطاء)، فهمزةُ التَّعديةِ (الإفْعال) دالَّةٌ على الفاعل، وزيادة المبنى تفيد زيادةَ المعنى، فالأذانُ إعلامٌ كامِلٌ بمأذونيَّةِ الشيءِ وإباحتِه، والإذنُ لا يلزمُ منه معنى الإشهارِ والإعلام، فلا يدلُّ على الفاعِل[1].

بلاغةُ التَّعبير بالاسميَّة دون الفعلِ:

قوله: ﴿وَأَذَٰنٌ﴾ جملةٌ اسميَّةٌ خبريَّة تضمَّنتْ معنى الطَّلب، أي: (أَذِّنُوا)[2]، ولم يفتتِح الجملةَ بالفعليَّة؛ لدلالةِ المصدرِ بلفظِه على معنى الثُّبوتِ والاستقرارِ والدَّيمومةِ، أي: هذا خَبَرٌ ثابتٌ غيرُ طارئٍ، ودلالتِه بمعناه على الإنشاءِ والأمرِ، وهي الفعليَّة والاستمرار، فكان التَّعبير بالاسميَّةِ أوسعَ في المعنى، وأجمَعَ في الدلالة.

التَّعبيرُ بالاسميَّةِ أوسعُ في المعنى، وأجمعُ في الدَّلالة

سرُّ التَّقييدِ بـ﴿إِلَى ٱلنَّاسِ﴾:

تعليقُ الأذانِ بالجار والمجرور في قوله: ﴿إِلَى ٱلنَّاسِ﴾، دلَّ على عمومِ الأذانِ في جِهَتِه التي تَعقِلُهُ، وتتلقَّاهُ، وهم عمومُ النَّاسِ دون تخصيصٍ بمؤمنٍ أو مُشرك، فهو لجميعِ مَنْ يَصلحُ أن يُخاطَبَ به، دون تحديدِ المخاطَبين، فلا يُستثنى منهم أحدٌ، سواء كان مسلمًا أم كافرًا، مؤمنًا أم مشركًا، حاضرًا أم غائبًا، فهذا الإعلانُ عامٌّ لكلِّ مَن سَمِعَهُ أو بلغه.

البراءةُ خاصَّةٌ بالنَّاكثين، والأذانُ لعمومِ المؤمنين والكافرين

دلالةُ التَّعديةِ بحرف الانتهاءِ:

تعديةُ الأذانِ للنَّاسِ بحرفِ انتهاء الغايةِ (إلى)، دونَ تعديتِه بحرف الاختصاصِ(اللام)، لتضمينِه معنى المَراسيم القاطِعة التي تُوَصَّلُ من جِهَةٍ إلى جِهة، كما يقال: هذا نَبَأ صادِرٌ مِنْ جِهةِ

تناسقُ اصطفاءِ حرفِ التَّعديةِ فيه تقريرُ الحجَّةِ بأكمَلِ أسلوب

(1) ابن القطّاع، أبنية الأسماء والأفعال والمصادر، ص: 275، وابن خالويه، مختصر في الشّواذ، ص: 56، وأبو حيّان، البحر المحيط: 5/367، وعضيمة، دراسات لأسلوب القرآن: 6/18، والمظهري، التّفسير المظهري: 4/133، وفاضل السّامرائي، معاني النّحو: 3/166.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/108.

كذا إلى جِهةِ كذا، فلِغَرَضِ التَّنصيصِ على مبدأ الجِهةِ ومنتهاها عبَّر بـ(إلى) إزاءَ (مِنْ)، ولم يقل: (للناس) لإخلائِهِ من معنى الاختصاصِ، لكونِ النَّاسِ أخلاطًا من المؤمنين والكافرين، وفيهم من لايستأهِلُ للاختصاصِ، ولا يُعبَأُ معهُ بغيرِ قرعِهِ بالبلاغِ وتوصيلِه إليه، وإتيان النَّظمِ على هذا التركيب لاشكَّ أنَّه أنسبُ بمعنى الجِديَّةِ في إقامة الحجَّةِ وتقريرها.

نُكتةُ الإسنادِ في (الأذان):

رسولُ اللهِ هو المُبَلِّغُ الأصيلُ عن اللهِ، فلا يُذْكَرُ أحدٌ بإزائِه

أسنَدَ الأذان إلى الله ورسوله دون غيرهما، لِكونِ الأذانِ حُكمًا بتشريعٍ، وهذا لا يكون إلَّا لله على لسانِ رسوله ﷺ، ولدفْعِ إيهامِ أنْ يكونَ الأذانُ صادرًا من عِنْدِ المسلمين من تلقاءِ أنفسِهم، فنصَّ على مصدرِه، ولكونِ المسلمينَ من جمْلَةِ المُبَلَّغينَ بالأذان، فلا يجتَمِع أن يكونوا مأمورين وآمرين والرَّسول ﷺ حيٌّ بينهم؛ إذْ هو المُبَلِّغُ الأصيل عن ربِّهِ، فلا يُذْكَرُ أحدٌ بإزائِه[1].

دلالةُ إسنادِ الأذانِ لله ورسوله:

وصْفُ الرِّسالة تُعتبرُ فيه الإضافةُ إلى اللهِ، ووصْفُ النُّبوَّةِ تُعتبر فيه الإضافةُ إلى الخَلْقِ

أُسنِدَ الأذانُ لاسم الألوهيَّةِ الأعظم ﴿ٱللَّهِ﴾ إيماءً إلى كوْنِ الأذانِ صادرًا من جهةِ كمالٍ واستحقاق، فهو حُكْمٌ من حكيمٍ كاملٍ، فلا مدخَلَ فيهِ لِنقصٍ أو قصورٍ، وهو حُكْمٌ من مُستَحِقٍّ؛ لأنْ يَحكمَ؛ لأنَّه الله الجليل، وأسندهُ لوصفِ الرِّسالة دون النبوَّةِ؛ لأنَّهُ واردٌ في حيِّزِ ابتداءِ الحكمِ وصدورِه، لا في حيِّزِ انتهائِهِ إلى جهةِ بَلاغِه، فلمَّا كان الابتداءُ المفهوم أقربَ إلى حيِّزِ التلقِّي عن الله جعلَهُ بوصف الرّسالة؛ لأنَّه يَتَلقَّى عن الله بالرِّسالة، ويُبلِّغ بالنُّبوَّة[2].

حكمةُ الوصف في ﴿ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ﴾:

وصَفَ الحجَّ بالأكبر، لِمُقابَلَتِه بالحجِّ الأصغرِ الذي هو (العُمْرة)؛

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/108.

(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 5/75، ورضا، تفسير المنار: 10/137.

إذْ هي حجٌّ وقَصدٌ للبيتِ أيضًا، وعلى هذا التخريجِ يُطلَقُ اليوم على الأيَّام؛ لأنَّه جنس، تسميةً للأيامِ المُشترَكةِ بِحكْمٍ وعِلَّةٍ واحدةٍ بيومِ كذا، أداءً للحدثِ الواحدِ بظرفِه الملائِم، أو لدلالتِه على الجزءِ الأكبَر في الحجِّ، وهو يوم النَّحر؛ لأنَّه يشتملُ على أكثرِ مناسك الحجِّ، ولأنَّ أكثرَ أعمالِ الحجِّ تكون قد أُدِّيَتْ فيه، فسائِرُ أيامِ الحجِّ دونه أو أصغرُ منه، ولأنَّه يكون كالخاتمةِ للحج، ويكون فيه أكبرُ جمْعٍ من المسلمين في مكان واحد، فَسَمَّى مُعظَمَ الشيءِ باسمِ كُلِّه على طريقة المجاز المرسَل، و"لأنَّه الحجُّ الوحيد الذي اجتمع فيه الكفّارُ والمؤمنون، وبعد ذلك لم يَعد هناك حجٌّ للكفَّار أو المشركين"[1].

أداءُ الحدثِ الواحدِ بظرفِه الملائِم الّذي بِهِ تمامُ الحجِّ وفيه أكبرُ أعمالِه

وجهُ إسنادِ الأذانِ للقيد العامّ:

التَّعبيرُ بلفظ الأذان أفاد إيصالَ البلاغِ جَهْرًا وصراحةً، وإسناده إلى الناس أفاد عموميَّتَه، والتَّعليقُ بالظَّرفِ أفاد تعيينَ الوقتِ والمكان الذي يُؤَدَّى فيه الأذان، وفائدة التعيين، تسهيلُ التَّعميم في قوله: ﴿إِلَى ٱلنَّاسِ﴾؛ لأنَّ الظَّرفَ المذكور هو مَظِنَّةُ حصول اجتماعِهم على تلك الحالةِ العامَّةِ الكاملة[2].

تقريرُ البراءةِ من المشركين في أوسعِ الأماكن على أكثرِ الأعداد بأجْهَرِ الوسائِل

دلالةُ العطف في ﴿وَرَسُولِهِۦٓ﴾:

العطفُ في قوله: ﴿وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ﴾، يفيدُ الاشتراكَ في تقريرِ إنشاءِ الأذانِ المذكور، مع المُغايرةِ بين اللّهِ ورسولِه في كيفيَّةِ هذا الإنشاء، فإنشاءُ اللّهِ للأذانِ مُطْلَقٌ حقيقيٌّ، وإنشاءُ الرَّسول له نِسْبِيٌّ بالإضافةِ إلى النَّاس، أي: هو الذي أنشأ لهم مَعرفَتَه وإيجابه، وأمَّا بالإضافةِ إلى اللّه؛ فهو غيرُ مُنْشِئٍ له بل ناقِل، فإنشاءُ اللّهِ للأحكامِ إنشاء موجِد، وإنشاء الرَّسول لها إنشاءُ مُبلِّغٍ.

إنشاءُ اللهِ للأحكامِ مُطْلَقٌ حقيقيٌّ، وإنشاءُ الرَّسول لها نِسْبِيٌّ عُرفِيٌّ

(1) النَّسفي، التَّيسير في التَّفسير: 7/270، والبيضاوي، أنوار التّنزيل وأسرار التّأويل: 3/71، والطِّيبي، فتوح الغيب: 7/172، وأبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 6/3226، والشَّعراوي، تفسير الشَّعراوي: 8/4867.
(2) رضا، تفسير المنار: 10/137.

نكتةُ عدمِ تكرارِ حرف الابتداءِ:

عدمُ تكرارِ حرفِ الابتداءِ مع المعطوفِ، يفيدُ عدمَ اختصاصِه بابتداءِ الشَّيءِ وإصدارِه

لم يقل في الآية الكريمة: (وأذانٌ من الله ومن رسولِه) بتكرير حرفِ الابتداءِ؛ لئلَّا يُوهِمَ استقلالَ الرسول ﷺ بإضافةِ شيءٍ في الحكمِ المذكور بإزاءِ اللهِ ﷻ؛ لإفادةِ أنَّه حكْمٌ خالِصٌ لله، والرَّسولُ معه فيه بإنفاذِه وامتثالِه.

سِرُّ عدم إسناد الحجِّ لضميرِ النَّاس:

إيقاعُ النِّسبة الإضافيَّة موقعَها من الحقيقة

لم يقل في السِّياق: (يوم حجِّهم) لِتقعَ النِّسبة الإضافيَّة موقعَها من الحقيقة، والحقيقةُ أنَّ النَّاسَ مناطُ تبليغ الأذان ليسوا جميعَهم حاجِّين في هذا اليوم، فمنهم الحاجُّ ومن ليس كذلك، ولو أضاف الحجَّ إليهم؛ فقد يُظنُّ بالإضافةِ أنَّ جميعَهم حجيجٌ يومئذٍ.

موقعُ جملةِ ﴿أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٌ﴾ ممَّا قبلَها:

تقريرُ معنى توكيد البراءةِ من غير إلحاقاتٍ يَسوغ الاستغناءُ عنها

جملة ﴿أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٌ﴾ واقعةٌ في حيِّز الأذان المتقدِّم، على تقدير حذفِ حرفِ التَّعدية، أي: (أذانٌ بأنَّ الله بريء)، وعِلَّةُ الحذف دلالةُ الكلام عليه، وتسريعٌ بوعيد البراءةِ بعد الأذان، وإفساحٌ لحرفِ التَّوكيد أن يتصدَّرَ من غير جارٍّ، ليتفرَّغَ النَّظمُ لتقرير معنى توكيد البراءة، من غير إلحاقاتٍ يَسوغ الاستغناءُ عنها، ويصحُّ أن تقع جملة ﴿أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٌ﴾ موقعَ الاستئنافِ البيانيِّ ممَّا قبلَها "كَأَنَّهُ قِيلَ: ما هَذا الإعلامُ؟ قالَ مُفَسِّرًا لَهُ مُصَرِّحًا بِما هو المَقصُودُ لِئَلَّا يَقَعَ فِيهِ نَوعُ لَبْسٍ حاذِفًا الصِّلَةَ[1] إعلامًا بِأَنَّ هَذا مُستَأْنَفٌ عَلى تَقدِيرِ سُؤالِ سائِلٍ، لا مَعمُولٍ لِأذانٍ: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ﴾"[2].

إيثارُ التَّعبيرِ بـ ﴿أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٌ﴾:

تقويةُ مضمونِ المعنى وتوكيد تقريرِه مبالغةٌ في تحقيقِ البراءةِ

التَّعبيرُ بالمصدر المؤوَّل في قوله: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٌ﴾ لِتقويةِ مضمون المعنى وتوكيد تقريره، مُبالغةً في تحقيقِ البراءةِ وتثبيتِ حُكْمِها،

(1) باء التَّعدية المقدَّرة (بأنَّ الله).

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/373، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/109، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 6/3225.

فالله تعالى يبرِّئ نفسَهُ من المشركين ومن كلِّ ما يشركون به من دونه، ويبرِّئ رسولَه منهم أيضًا، فلا علاقةَ لهم بهم في أحكام الدِّين ومتعلَّقاته، ولا يقبل منهم شيئًا إلَّا التَّوحيد والإسلام.

دلالةُ التَّعبير باسم الفاعل دون الفعل:

اقترانُ وصفِ البراءةِ بالله، وتضمُّنَ اسم الفاعل لمعنى الاسميَّةِ والفعليَّةِ

التَّعبيرُ باسم الفاعل ﴿بَرِيٓءٌ﴾ دون الفِعل، فلم يقل: (قد تبرّأ)؛ للدَّلالة على الذَّاتِ العليَّة باقترانِ وصفِ البراءةِ بها، وفيه زيادةُ تهويلٍ للبراءةِ، وأنَّها صادرةٌ عن عقوبةٍ وانتقام، لِتعلُّقِها بحضرةِ المقامِ الإلهيِّ رأسًا، فضلًا عن تضمُّنِ اسم الفاعل لمعنى الاسميَّة والفعليَّة معًا، فيفيدُ ثبوت الوصف في الماضي والحال واستمراره في المستقبل، فالتَّعبيرُ باسم الفاعل يدلُّ على أنَّ هذه البراءة ليست حادثةً أو مؤقَّتة، بل هي صفةٌ دائمة وخالدة لله تعالى، فدلَّتِ الصِّيغةُ على الذَّات والحدَثِ والزَّمن.

حكمةُ التَّكرارِ في صيغة (البراءة):

الشِّرْكُ موجِبٌ لبراءةِ اللهِ مِن العبد

التَّكرار في قوله: ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾، وقوله: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٌ﴾ تكرارٌ في الظاهرِ فقط، لكونِ الموضع الأول تقريرًا لأصل البراءة وتحديدًا لجهتِها المُستحقَّة، ولذا قال: ﴿إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾، وفي الموضع الثاني إذاعةٌ لِما تقرَّر، وإعلامٌ به ليكون حكمًا معلومًا للعامَّة ومُشتَهِرًا بينهم، ذلك كمن يُقرِّر أمرًا، ويَعلَمُه أهلُه المعنيُّون به خاصَّةً، ثم يُصدِر تعميمًا إعلاميًّا بالخبر ليكونَ مشهودًا وشائعًا، لأهمِّيَّته وخطَرِ آثارِه التي يَلزَمُ النَّاسَ معرفتُها لِلزومِ تفاعلِهم معه بما يتحتَّم عليهم، "وأيضًا المراد بالأوَّل البراءة من العهد، وبالثَّاني البراءةُ التي هي نقيضُ الموالاة، ولهذا لم يصِف المشركين ثانيًا بوصفٍ مُعيَّن كالمعاهدة، تنبيهًا على أنَّ الموجِب لهذه البراءةِ هو كفرُهم وشركهم، ولهذا أتبعه قوله: ﴿فَإِن تُبْتُمْ﴾، أي: عن الشِّرك"[1].

(1) النيسابوريّ، غرائب القرآن: 3/431، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 6/3227.

الفرق بين ﴿مِّنَ﴾ في موضعين في الآية:

إعرابُ الحروفِ كاشِفٌ عن مواقِعها في التَّراكيب

(مِنْ) في قوله: ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ و﴿بَرِيٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾، الأولى في موضع الصِّفةِ، أي: براءةٌ موصوفةٌ بكونِها مِنَ اللّه. والثَّانية في موضع المفعول، كما يُقال: بَرِئتُ منك، أي: أوقعتُ براءتي عليك[1].

موقعُ جملة ﴿وَرَسُولُهُۥٓ﴾ ممَّا قبلَه:

تَبايُنُ مدلولِ واوِ الوصل بتباينِ الأعاريب على مدخولِها

قوله: ﴿وَرَسُولُهُۥٓ﴾ معطوفٌ على جملة ﴿أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٌ﴾، والتَّقدير: (وأنَّ رسوله بريء)، فالرَّفعُ للعطف على محلِّ اسم ﴿أَنَّ ٱللَّهَ﴾، أو(بريءٌ هو ورسولُه)، بالعطف على الضَّمير المُستكِنِّ في بريء، أو (ورسوله بريءٌ منهم) بالرَّفع على الابتداء والخبَر، والواو للاستئناف النَّحْوي، وليس للعطف، لِصحَّة الابتداءِ بالمبتدأ ﴿وَرَسُولُهُۥٓ﴾، والوقفِ على ما قبله: ﴿ٱلْمُشْرِكِينَ﴾[2].

عِلَّةُ تأخيرِ لفظ الرَّسول:

جعْلُ البراءةِ في النَّظمِ الكريم كائنةً في جِهتين بإدراجها في جملتين

لم يقل: (أن اللّه ورسوله بريء)، كما قال: ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ﴾، فتأخيرُ لفظ الرَّسول عن لفظ الجلالة، لوجهين: الأوَّل: لِجعْلِ البراءة كائنةً في جِهتين بإدراجها في جملتين؛ لأنَّ المعنى (اللّه بريء منهم والرسول بريء منهم)، وهذا يُناسِبُ عمومَ جهةِ الإعلام؛ إذ هو أذانٌ في النَّاسِ كلِّهم، فحبَّر لهم الخبرَ بالبراءةِ، وأطنَبَ فيه بذكره مرَّتين لِتقع البراءةُ منهم موقعَ التّهويلِ وفصلِ الخطاب.

الثاني: أنَّ هذه الآيةَ ليستْ، كقوله: ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ﴾، إذْ لم يقل هناك: (براءة من اللّه وبراءة من رسوله)؛ لئلَّا يُوهِم أنَّ حكمَ البراءةِ مُتعدِّدٌ لا واحد، وأمَّا هنا؛ فلا يدلُّ قوله: (أن اللّه بريء من المشركين ورسوله بريء منهم) على تعدُّدِ البراءةِ، بل يدلُّ على تعدُّدِ الذَّوات؛ لأنَّه عبَّرَ باسم الفاعل (بريء)، فدلَّ ذلك على

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 5/370، وابن عادل، اللّباب: 10/12.
(2) الأشموني، منار الهدى، ص: 240.

أنَّ ذات اللّٰه بريئةٌ منهم، وذات رسولِه بريئةٌ منهم، فهذه ذاتٌ وهذه ذات، لكنَّ البراءة واحدةٌ غيرُ متعدِّدةٍ، ويندفع بهذا التَّقرير التباسُ مَنْ يَتوهَّم أنَّ آية ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ تفيد اتِّحاد البراءة، وآية ﴿ٱللَّهَ بَرِيٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُۥ﴾ تفيد تعدُّدَها.

نكتةُ التَّصريحِ بفعل البراءة مرَّةً ثانية:

صرَّح بفعلِ البراءةِ مع تَقَدُّم ذِكْرِه، فلم يختصر أو يضمر بأن يقال: وأذانٌ إلى النَّاس بذلك، أو بها، أو بالبراءة؛ مُراعاةً للمقامِ ومقتضى الحال، فالمقامُ مقامُ بيانٍ، فيَحتاجُ للإطناب، وحالُ السَّامعين متفاوتةٌ في الفهمِ والمُلاحظة، فصرَّح لاستقصاء البلاغ ولقطع المعاذير في عدم استيضاحِه[1].

الإطنابُ لاستقصاء البلاغ وقطعِ المعاذير في عدم استيضاحِه

موقعُ جملةِ ﴿فَإِن تُبْتُمْ﴾ ممَّا قبلَها ودلالةُ الفاء:

قولُه: ﴿فَإِن تُبْتُمْ﴾ الفاءُ عاطفةٌ، تفريعًا على قوله: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾، فيترتَّبُ على الإيذان بالبراءة حالتان: حالةُ التَّوبة، أو حالةُ التَّولِّي، والعطف بالفاء خاصَّةً لأجل ترتيبِه على ما قبله، فالجملة شرطيَّةٌ مقترنةٌ بجملة جوابيَّةٍ، تدلُّ على رغبةِ اللّٰه في توبة المشركين وإسلامهم، وأنَّ ذلك خيرٌ لهم في الدُّنيا والآخرة، وأنَّه لا يجبرهم على ذلك، بل يتركُ لهم الخيار، أو أنَّ الجملةَ استئنافيَّةٌ بغرضِ تعميم حكم التَّوبةِ في حقِّهم، فلا يقتصر على ارتباطِه بسياقِ البراءة.

العطفُ بالفاءِ له اختصاصُ ترتيبِ ما بعدَها على ما قبلَها

دلالةُ ﴿تُبْتُمْ﴾:

التَّعبيرُ بصيغة الماضي في ﴿تُبْتُمْ﴾ للإشعار بأنَّ التوبة المطلوبة هي التوبة الخالصةُ التي وقعتْ موقعَ التَّحقيق والتَّمكُّن، وفي ﴿تُبْتُمْ﴾ التفاتٌ من الغَيبة للخطاب، وغرضُ الالتفات: التَّهديدُ والتَّحذير والتَّحريض ليَستَتْبِعوا البراءةَ بالتَّوبة، كمن يقولُ: رسَبْتَ فاحذَر ألَّا

التَّوبة المطلوبةُ هي التوبة الخالصة، والالتفاتُ فيه التحريض على إتباع البراءةِ بالتَّوبة

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/109.

تَتَدارَك، وهذا التَّوجيهُ على معنى العطف، وعلى معنى الاستئناف، فالالتفاتُ انتقالٌ من براءتِهِ منهم إلى فتْح بابِ التَّوبة لهم، فواجَهَهُم بما يُرجِّيهم، ويَقطعُ يَأسَهم بسببِ البراءة[1].

معنى الشَّرطِ وتصديرُه بـ ﴿فَإِن﴾:

حيِّزُ الشَّرطِ غيرُ مضمونٍ حصولُه

تصدير الشَّرط بإنْ، ﴿فَإِن تُبْتُمْ﴾ للدلالةِ على أنَّ ما في حيِّز الشَّرطِ غيرُ مضمونٍ حصولُه، فتوبتُهم أمرٌ ممكنٌ، وتولِّيهم أمرٌ ممكِن، وليس في كليهما شيءٌ مقطوع به[2].

دلالةُ جملةِ جوابِ الشَّرط:

الرَّبطُ بالفاء في تركيب الشَّرط يدلُّ على السببيَّةِ بين الشَّرطِ وجوابِهِ

جملةُ جوابِ الشَّرطِ ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾، أفادتِ العِلِّيَّةَ بينَ الشَّرط وجوابِهِ، فالخير مُسَبَّبٌ عن التَّوبة، والرَّبط بالفاء نصٌّ في ذلك، وأفادتْ تعظيمَ سببِ الجزاءِ، وزيادةَ تعيينِه بإعادةِ ضميرِه في الجواب ﴿فَهُوَ﴾، أيْ: أمْرُ التَّوبة، ولو قال: (فخير لكم) لم يدلَّ على ذلك، وأفادتْ عمومَ الجواب بتنكير ﴿خَيْرٌ﴾، وإطلاقِ متعلِّقِهِ بعدم ذِكْره، فلم يُحدِّد: (خيرٌ في أيِّ شيء)؛ ليَعمَّ جميعَ الأحوال والأوقات، والجار والمجرور (لكم)، لتخصيص الخيرِ بهم، فلا ينتفِع اللّٰهُ بتوبتِهم في شيءٍ، كما لا يَضُرُّه عدمُها.

إيثارُ اصطفاءِ ﴿خَيْرٌ﴾:

جامعيَّةُ لفظ الخيرِ في مدلولِهِ على كافَّةِ الرَّغائبِ

اصطفاءُ لفظ ﴿خَيْرٌ﴾ في موقع الجزاءِ على التَّوبة إيْذانٌ بدَفْعِ ضِدِّه، وهو الشَّرُّ، وتحقيقٌ لدلالتهِ على كلِّ مرغوبٍ نافعٍ من كلِّ أحدٍ، وفي هذا اللَّفظ - وما ينطوي عليه من الخير الشَّامل المُطبِق- من أساليب البلاغةِ القرآنيَّة التي تدلُّ على إعجاز القرآن وثراء معانيه ما يلي:

أوّلاً: تحفيزُ المشركين على التَّوبة والإسلام، فاللّٰه تعالى يخبرهم

(1) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 6/3227.
(2) عضيمة، دراسات لأسلوب القرآن: 1/169.

بأنَّ ذلك خيرٌ لهم في الدُّنيا والآخرة، وأنَّه يرحم من تاب منهم وأسلم، ويغفر لهم ما مضى من ذنوبهم.

ثانيًا: تحذيرُ المشركين من الإصرارِ على الكفر والشِّرك، فاللهُ تعالى ينذرهم بأنَّ ذلك شرٌّ لهم في الدُّنيا والآخرة، وأنَّه يعذِّب من تولَّى منهم، وكفر، ولا يقبل منه شيئًا إلَّا التَّوحيد والإسلام.

ثالثًا: تجميلُ الكلام وتزيينهُ بالتَّقديم والتأخير، فاللّه تعالى يقول: ﴿فَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ﴾ قبل أن يقول: ﴿وَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ﴾؛ ليجعلَ الخير مقدَّمًا على الشَّرِّ، والتَّوبة مقدَّمة على التَّولِّي، والإسلام مقدَّمًا على الكفر.

رابعًا: توضيحُ المقصودِ وتقصير الكلام، فاللّه تعالى يقول: ﴿فَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ﴾، دون أن يذكرَ ما هو ذلك الخيرُ؛ لأنَّ المشركين يعلمون أنَّ الخيرَ هو الإسلامُ والإيمان، وأنَّ ذلك يورثُهم رضا اللّهِ وجنَّةَ الخلدِ[1].

دلالةُ الوصلِ بالواو وموقعِ الجملة ممَّا قبلَها:

معنى التَّوبةِ يُقابِلُ معنى التولِّي

الواو في قوله: ﴿وَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُمۡ غَيۡرُ مُعۡجِزِي ٱللَّهِۗ﴾ لِعطفِ شرطٍ على شرطٍ، عطفًا للشَّيء على مُقابِلِه؛ لأنَّ معنى التَّوبةِ يُقابِلُ معنى التَّولِّي، والشَّرطان المعطوفان تفريعٌ على البراءةِ الَّتي هي مضمونُ الأذان السابق، وفي جعْلِ جملةِ التَّولية هي المعطوفةَ على جملة التَّوبة دون العكس، تأخيرٌ لداعي المَضرَّةِ والتَّشاؤم عن داعي المَسرَّةِ والتَّفاؤلِ، وفيه إحسانُ الظَّنِّ بالمدعوِّ ولو كان كافرًا، وتقديمُ ما يُرجِّيه على ما يُرهِّبُه؛ دفعًا لقنوطِهِ وأمَلًا في تحفيزِه على ما يُسعِدُه.

بلاغةُ التَّعبيرِ في ﴿تَوَلَّيۡتُمۡ﴾:

المؤاخذةُ لا تكون بمجرَّدِ ملابسةِ السَّببِ بل بتحقيقِهِ

التَّعبيرُ بصيغة الماضي في ﴿تَوَلَّيۡتُمۡ﴾ للدَّلالة أنَّ مؤاخذتَهم لا تكون عن تحقُّقِ سببِها من التولِّي وانقضائهم منه، وفيه أنَّ الجزاء

(1) الرَّاغب، المفردات: (خير)، وابن جرير، جامع البيان: 14/131، والرَّازي، مفاتيح الغيب 15/527، والشربيني، السِّراج المنير: 1/589.

بعده في قوله: ﴿فَٱعۡلَمُوٓاْ﴾، جزاءٌ مُستحَقٌّ على مُتحقِّقٍ، فالمؤاخذةُ لا تكونُ بمجرَّدِ ملابسةِ السَّببِ بل بتحقيقِه.

دلالةُ تكرارِ نفي إعجازِهم والفرقُ بينه وبين السَّابق قبلَهُ:

اختلافُ المقامِ مؤذِنٌ باختلاف المعنى

نفيُ إعجازِهم للّه في قوله: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُمۡ غَيۡرُ مُعۡجِزِي ٱللَّهِ﴾، وفي قوله: ﴿وَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُمۡ غَيۡرُ مُعۡجِزِي ٱللَّهِۗ﴾، ليس تكرارًا في معنى مطابِق، بل تكرارٌ لتقرير معنى زائد، فالأوَّل لتقرير أنَّهم تحتَ قدرةِ اللّه مهما كان إمهالهم طال أم قَصُر، وهو وارد في حيِّزِ إمهالهم بالأربعة أشهر بعد إيذانهم بالبراءة من المُعاهدة، فهو واردٌ في حيِّزٍ مُقيَّد، ومعطوفٌ غير مُسبَّبٍ عما قبله، وأمَّا الموضعُ الثاني، فمُسبَّبٌ عمَّا قبلَه، وواردٌ في حيِّزٍ عام ليس مخصوصًا بالبراءة من عهدِهم، بل بالبراءة من شرِكهم، وهذا أعمُّ، واختلاف المقام مؤذِنٌ باختلاف المعنى، وسِرِّ إعادته بلفظِه، ليكون ما قرَّره للمشركين في عهدهم متَّفِقًا مع ما قرَّره لعموم النَّاس في يوم حجِّهم، فكما قرَّر البراءة في الموضعين، قرَّر فيهما كذلك أنَّهم لا يُعجِزونه؛ ليكون ما قيلَ لهم قد قيل للنَّاس لا يختلف عنه.

موقعُ واو الوصلِ ممَّا قبلَها:

عطفُ المعنى العامِّ على المعنى الخاصِّ

الواو في قوله: ﴿وَبَشِّرِ﴾ للعطف على جملتي الشَّرط قبله، وهو من عطْفِ المعنى العام على المعنى الخاصِّ، فكأنَّه قيل: (أبشِّرُ التَّائبين منكم بالخير، وأعِدُ المُعرضِين منكم بالشَّرِّ، وأبشِّر الكافرين كافَّةً بالعذاب)، وهو عطْفُ إنشاءٍ على إنشاءٍ[1].

دلالةُ الاسم الموصولِ:

الدّلالةُ على الذَّات والفِعل بطريق المنطوق المتعدِّد

قولهُ: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ عبَّر فيه بالاسم الموصول؛ ليدلَّ عليهم بذواتِهم، فيُجرِي وصفَ الكفرِ عليها، وفيه إشعارٌ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 8/379.

بِعلَّةِ تعذيبِهم، وهو أنَّهم ذواتٌ كافِرةٌ، والتَّعبيرُ بتركيب ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أبلغُ من اسم الفاعلين (الكافرين)؛ لدلالتهِ على الذَّات والفِعلِ بطريق المنطوقِ المتعدِّدِ لا الصَّيغة الأُحاديَّة مُراعاةً لاقتضاء المقام للإطناب[1].

بلاغةُ الالتفاتِ إلى الرَّسول:

الحكمُ بالعذاب على معيَّنٍ من أعمالِ الغَيْب

في قولهِ تعالى: ﴿وَبَشِّرِ﴾ التفاتٌ من خطابِهم لخطاب رسول اللّه ﷺ، إذ لم يقل: (إن تبتم فهو كذا وإن توليتم فهو كذا ولكم أو أبشركم بكذا)؛ لأنَّ الحكمَ بالعذاب من أعمالِ الغيْب، فلا يُباشِرُهُ النَّاسُ إلَّا بوحي، وليس في النَّاس غيرُ الرسولِ يُوحَى إليه[2].

دلالةُ الحقيقةِ والمجازِ في البشارةِ المذكورةِ:

استعمالُ البُشرى في جانبِ العذابِ قد يجري على معنى الحقيقة

التَّعبيرُ بالبِشارة في جانب العذاب، استعارةٌ تهكُّميَّةٌ للتَّنبيهِ على أنَّ أَسَرَّ وأَفْرَحَ ما يَسمعونَه من الأخبار الخبرُ بما يَنالهم من العذاب، فشبَّه انتشارَ الحَزَن والغمِّ على بَشَرَةِ المُخبَر بالعذابِ انقباضًا، بانتشار الفرح والسرور على بَشَرَةِ المتفائل بالخبر السعيد انبساطًا، بجامع الظهور والتَّغيُّرِ في البشَرَةِ عند كليهما. ووجْه التهكُّم: استعمالُ البِشارةِ في ضدِّ حقيقتها؛ إذ استعمالها فيما يُفرِح، والإخبار بالعذاب ضِدُّ ذلك، وتشبيهُ الضِّدِّ بضدِّه لا يَروج في عقلِ أحدٍ إلَّا على معنى التهكُّم، وغرض التهكُّم مِن جعْلِ عذابِهم محلًّا للبشرى: الزِّيادةُ في تعذيبهم وإذلالهم بابتداء الخبر بما يُطمِعُهم ويرجِّيهم بقوله: ﴿وَبَشِّرِ﴾، فإذا انتبهوا للبِشارة وتوقَّعوها، انتهى بهم إلى اليأسِ والقنوط بجعْلِ العذابِ مضمونَ البشرى، على غرار قوله تعالى: ﴿وَإِن يَسْتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ﴾ بأيِّ شيء؟ ﴿بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ﴾، فيجمع عليهم عذابَين: عذابًا عند إخبارهم بالعذاب،

(1) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 6/3228.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/42.

وعذابًا عند ملابستِهم له، واستعمال البُشْرى في جانب العذابِ قد يجري على معنى الحقيقة لا المجاز باعتبار أمرين: الأوَّل: أنَّ الأصل في البُشْرى كلُّ ما يؤثِّر في البَشَرة من القبْض أو البسْط، وهذا في الخير والشَّرِّ، واستعمالُهُ في الخير على سبيل التَّغليب فقط. الثاني: مُلاحظةُ القيدِ، فمتى أُطْلِقَتِ البِشارة؛ كانت في الخير، ومتى قُيِّدتْ بما يسوء؛ كانتْ على حقيقتِها للاحتراز بالقيْد عن الإلباس الذي يقضي بقول المجاز فيها[1].

بلاغةُ الختمِ بقولِهِ: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾:

الختْمُ بقوله: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ تذييلٌ يتأكَّدُ به زجرَهم عن التولِّي والإعراضِ عن الحقِّ، ويندفع به اقتصارُ العذاب على حال الدُّنيا فقط، ويتقرَّر به استمراره وحصوله في الآخرة[2].

تأكيدُ زجرهم عن الإعراضِ عن الحقِّ واستمرارُ عقابهم في الدَّارين

سرُّ حذفِ متعلِّق البشارة:

لم يقل في السِّياق الكريم: (وبشَّرهم بالعذاب في أيِّ مكانٍ أو زمن)، فحذفَ متعلِّقَ البشارة للاختصار وتَحقيق الإيجاز، فاللّٰه تعالى يختصر كلامه بأدنى حدٍّ من الألفاظ، ويشير إلى ما يعلمه الكافرون من أحوالهم وأقدارهم، ويجعلهم يتدبَّرون في هذا الإنذار، ويتفكَّرون في معانيه، مع ما تضمَّنته الآيةُ من تعميم الوعيد وشموله لكلِّ شرٍّ في الدُّنيا والآخرة، فاللّٰه تعالى يتوعَّد الذين كفروا بعذاب أليم دون أن يذكر ما هو ذلك العذاب؛ لأنَّ الكافرين يعلمون أنَّ العذابَ هو النَّار والخزي والنَّدامة وغير ذلك من الأمور التي يخافونها، ويهربونَ منها، فيشمَلُ أحوالَ الدّنيا والآخرة جميعًا.

فيه الاختصارُ وتحقيقُ الإيجاز وتعميمُ الوعيد وشموله

(1) الرَّاغب، المفردات: (بشر)، ورضا، تفسير المنار: 10/137، والشَّعراوي، تفسير الشَّعراوي: 8/4868، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 3/207.

(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 15/527، وطنطاوي، الوسيط: 6/203.

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الأذان والإعلام:

الأذانُ هو الإعلامُ بالشَّيء بإسْماعِ الآذانِ به، والإعلامُ هو إبلاغُ العِلمِ بالشَّيء للآخر، فالأذانُ أخصُّ من الإعلام؛ لأنَّ الأوَّلَ مَلحوظٌ فيه قصدُ الآذانِ بالإسماع، والثَّاني عامٌّ في وسائل إيصال العِلم فربَّما يحصل سماعًا أو كتابةً أو إشارةً أو غير ذلك، والأذان طريقُه الجهْر وعلوُّ الصَّوت؛ لأنَّ مجموعَ الآذانِ لا يتحقَّقُ سماعُها إلَّا بالجهْر، وأمَّا الإعلامُ؛ فيقع بغير الجهْر، كما يقع بالجهْرِ[1].

الأذانُ طريقُهُ الجهْرُ، والإعلام يقع بغير الجهْرِ كما يقع بالجهْر

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أذن)، والرَّاغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (أذن، علم)، وابن منظور، لسان العرب: (أذن)، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (أذن، علم).

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ثُمَّ لَمۡ يَنقُصُوكُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَمۡ يُظَٰهِرُواْ عَلَيۡكُمۡ أَحَدٗا فَأَتِمُّوٓاْ إِلَيۡهِمۡ عَهۡدَهُمۡ إِلَىٰ مُدَّتِهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَّقِينَ ٤﴾ [التّوبة: 4]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

أمرُ الإسلامِ بالوفاء ونهيهُ عن الخيانة

لمّا أعلَمَ اللّهُ ببراءتِه مِنَ المشركين النَّاكثين، ونزع منهم العهدَ والأمان، وأمهلهم مُدَّةً معلومةً، يُستباحون بعدها غيرَ معصومي الدِّماء، استثنى اللّه في هذه الآية فئةً من المشركين لهم عهدٌ سارٍ في مُدَّتِه، ولم يخونوا، ويغدِروا في شيءٍ أبدًا، فأمَر المسلمين بالوفاء لهم جزاءً على وفائهم وحفْظِ عهدِهم[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿لَمۡ يَنقُصُوكُمۡ﴾: أصلُه منَ النَّقْص وهو الخُسرانُ في الحظِّ، خِلافُ الزِّيادة، وينْقِصوكم من الإنقاص، وهو الأخذُ من الشَّيء حتى يَقِلَّ، ويَخْتَلَّ، والمراد هنا: لم يُخْسِروكم شيئًا في أمْرِ معاهدتهم معكم[2].

2) ﴿وَلَمۡ يُظَٰهِرُواْ﴾: أصلُ (ظهر): يدلُّ على قوَّةٍ وبُروزٍ، ولذلك سمِّي وقتُ الظُّهر والظَّهيرة؛ إذ هو أظهرُ أوقاتِ النَّهار وأضوؤها، والأصل في ذلك كلِّه ظَهْرُ الإنسان، وهو خلاف بَطْنه، وهو يجمعُ البروز والقوة، والظَّهيرُ: العَوْنُ والمعينُ، والمعنى: لم يُعاوِنوا، ويُعِينوا أحدًا عليكم[3].

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 8/379.

(2) ابن فارس، المقاييس مقاييس اللغة: (نقص، خسر)، والرَّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (نقص).

(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، (ظهر)، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/110.

المَعْنى الإجْماليُّ:

الاستثناءُ من البراءة التَّامَّةِ، أوفياء العهود

يُستثنى من حكمِ البراءةِ السَّابق أولئك المشركون الذين دخلوا معكم في عهدٍ محدَّدٍ بمُدَّةٍ، ولم يخونوا العهدَ، ولم يُعاونوا عليكم أحدًا من الأعداء، ولم يُهيجُوا أقوامًا آخَرينَ، ويَنصُروهم، ويُرَغِّبوهم في الحَربِ، فأكمِلوا لهم عهدَهم إلى نهايتِه المعلومة؛ لأنَّ اللّٰه يحبُّ المُّتقين الذين اتقوا الشِّرك والخيانةَ، وغيرَ ذلك من المعاصي، فكما اتَّقَوا خيانتَكم، فاتَّقُوا خيانتَهم جزاءً بجزاء[1].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

موقعُ جملة الاستثناء ممَّا قبلَها:

الفاصلُ في قوَّةِ المستثنَى؛ لأنَّه تفريع على معناهُ

الاستثناء في قوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم﴾ متَّصلٌ من قوله: ﴿إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾، فكأنَّه قال: (براءة إلى الذين عاهدتم من المشركين إلا أهل الوفاء منهم)، واتِّصال الاستثناء مع طولِ الفصلِ غير مؤثِّرٍ؛ لأنَّ الفاصلَ في قوَّة المستثنَى؛ لأنَّه تفريعٌ على معناه، ويصحُّ أن يكون الاستثناءُ منقطعًا بمعنى الاستدراك ممَّا قبله، أي: (أنَّ اللّٰه بريء من المشركين ورسولُه، وبشِّر الذين كفروا بعذاب أليم لكنَّ الذين عاهدتم من المشركين، ثم لم ينقصوكم شيئًا، فحكمهم غير ذلك)، أو الاستثناء من مدةِ الأجلِ المضروب في قوله: ﴿أَرۡبَعَةَ أَشۡهُرٖ﴾ لمن له عهدٌ مطلق ليس بمؤقَّت، والتقدير: (إلَّا الذين عاهدتم من المشركين، فلا يتناولهم الحكم بالأربعة أشهر)[2].

دلالةُ الاسمِ الموصولِ ﴿ٱلَّذِينَ﴾:

تحديدُ المقصودين بالصِّلة وتجسيدُ الخطاب وتحقير المخاطَبين

الاسمُ الموصول في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم﴾، دلَّ على تمييزهم

(1) نخبة من العلماء، التفسير الميسر، ص: 187.

(2) النسفي، التيسير في التَّفسير: 270/7، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 8/71، وأبو حيان، البحر المحيط 5/370، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/42، ورضا، تفسير المنار: 10/138، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 10/122.

أكملَ تمييز، وأفاد أنَّهم معروفون بتحقُّقِهم بمضمون الصِّلة، فلا يَختلطون بالنَّاكثين المستوجبين للبراءة، ولا يلتبِسون بهم، ففيه تحديدُ المخاطَبين والمقصودين، فالاسمُ الموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾ دلَّ على أنَّ المشركين المعنيِّين بهذا الإعلان هم فقط الذين عاهدتموهم من قبل، وأخذتم منهم موادعةً وصلحًا، وليس كلُّ المشركين عمومًا، وفيه كذلك تجسيدُ الخطاب وتحقير المخاطبين، فالاسم الموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾ يجعلُ المشركين كأجسامٍ بلا أرواحٍ، وكأشخاصٍ بلا أسماء، وكأفرادٍ بلا شخصيَّةٍ، فلا يستحقُّونَ ذكرَ أسمائهم، أو نسبهم، أو صفاتهم، بل يكفي ذكرُ حالتهم الضَّعيفة حين قبلوا بالمعاهدة معكم.

معنى حرف التَّراخي ﴿ثُمَّ﴾:

التَّعبيرُ بـ ﴿ثُمَّ﴾ في ﴿ثُمَّ لَمۡ يَنقُصُوكُمۡ﴾ أفاد ثباتَهم على عهدِهم مع تمادي المدَّةِ، للدَّلالة على دوام وفائِهم، وأنَّهم مع كونهم عرضةً للنَّكث والنَّقص كإخوانهم المشركين ضبطَوا أنفسهم، ولم ينكُثوا في عهدهم، ولم ينقصوا المسلمين - مع بغضهم لأهلِ الإيمان - شيئًا من شروط العهد، بل وفَّوا به حقَّ الوفاء[1].

يُعرَفُ وفاءُ العهدِ بِطولِ الاختبار

دلالةُ مفهومِ الوصفِ بنفي النَّقص عنهم:

قوله: ﴿ثُمَّ لَمۡ يَنقُصُوكُمۡ﴾ دلَّ بمفهومِه على أنَّ الموسومين بالبراءة إليهم في قوله: ﴿بَرَآءَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ ليسوا مطلقَ المُعاهَدين من المشركين، بل النَّاكثين العهدَ النَّاقِضين له.

الوصف متحتّم على النَّاكثين من المشركين

نكتةُ التَّعبيرِ بالنَّقص:

عبَّر بالنَّقص دونَ النَّقضِ، مع أنَّ وصفَ النَّقضِ ألصقُ بالعهدِ من غيرِه؛ لأنَّ التَّعبيرَ بالنَّقص قوبِلَ بالتَّمام في قوله: ﴿فَأَتِمُّوٓاْ﴾،

النَّقصُ أعمُّ مِنَ النَّقض، فيشملُ كلَّ ضررٍ، ولو كان خارج العهد

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/42، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 6/3228.

فلِحُسْنِ المُقابلةِ أوثِرَ على غيره، والتَّعبير بالنَّقص أبلغُ؛ لأنَّ النَّقص يشمَلُ كلَّ إخلالٍ يؤثِّر في أصل العقد أو كمالِ العقد، والنَّقضُ يتعلَّق بما لا وجود للعقد إلَّا به كالأركان وشرائط الصحَّة، فالنَّقص أمكنُ وأشدُّ، والنَّقص أعمُّ، فيشمَلُ كلَّ ضررٍ، ولو كان خارج العهد، والنَّقضُ للعهد فقط، ولذا كان المعنى: (لم ينقصوكم شيئًا من شرط العهد أو شيئًا من النقصان أيًّا كان بابُه)، فلم يقتلوا منكم أحدًا، ولم يضرُّوكم قطُّ[1].

دلالةُ النفي بِـ ﴿لَمْ﴾:

ورودُ الاستثناءِ في الحاضر على ما كان منهم من وفاءِ العهود في الماضي

استعملَ ﴿لَمْ﴾ في قوله: ﴿لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا﴾: لإرادةِ نفي الفِعل في الزَّمن الماضي؛ إذ هي حرف نفي وجزْمٍ وقلْبٍ؛ ليكون الاستثناءُ في قوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم﴾ واردًا في الحاضر على ما كان منهم في الماضي، وأمَّا نفي المضارع ﴿يَنقُصُوكُمْ﴾ بـ(ما) فيدلُّ على الزمن الحاضر حسبُ، ونفيه بـ(لا) يدلُّ على المستقبل، والنَّفي بهما منفكٌّ عن مرادِ الآية[2].

إيثارُ كلمة ﴿شَيْـًٔا﴾ وتنكيرها:

عمومُ نفي الانتقاص في المعاملةِ من هؤلاء المعاهَدين

لفظ (شيء) من الأجناسِ المتوغِّلة في العموم، وجاء نكرةً في سياق النَّفي، فيعمُّ، فاجتمع عمومُ اللَّفظ مع عموم التَّركيب، ليدلَّ على أنَّ النَّقصَ المذكور يتناول أدنى إخلالٍ بالمعاهدة ولو شيئًا قليلًا يسيرًا، ولذا لم يُعيِّنِ المفعولَ، فلم يقل: (شيئًا في كذا)؛ لإرادةِ كلِّ ما يَصِحُّ وصفُهُ أنَّه نقصٌ في المعاملة من هؤلاء المعاهَدين[3].

دلالةُ اشتقاق ﴿يُظَٰهِرُواْ﴾:

المظاهرَةُ اشتقاقُها من الظَّهْر أو مِن الظُّهور وتصويرُ مشاركة المتعاونين

﴿يُظَٰهِرُواْ﴾ من المُظاهرَةِ على صيغة المفاعلة، وهي المُعاوَنةُ، واشتقاقها إمَّا مِن الظَّهْر؛ لأنَّه موضِع الأحمالِ، ومحلُّ القوَّة،

(1) السّمين، الدّر المصون: 6/10، والنَّيسابوري، غرائب القرآن: 3/431.
(2) سيبويه، الكتاب: 4/222، والمبرّد، المقتضب: 1/41.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/113.

فصيغةُ المُفاعَلَة لِتصوِّرَ أنَّ كلًّا من المتعاونَين يُشارِكُ أحدهما ظهرَ الآخَرِ، ويُعيره إيَّاه، وإمَّا من الظُّهورِ؛ لأنَّ الإعانةَ تُظْهِرُ حال الإنسانِ على غيره بالغلَبةِ ونحوها بعد ما كان خفيًّا لا يؤبَهُ بوجودِه، فصيغةُ المفاعلةِ جاريةٌ على أنَّ المُتعاونين يُظْهِرُ أحدهما الآخر، فالمُعِين يُظهِرُ المُعانَ بإحراز النَّصر، والمُعانُ يُظهِرُ المُعينَ بِبَسْطِ شوكتِه ورواجِ ذِكْرِه وسُمْعتِه وإحراز الولاء له[1].

وجهُ التَّعديةِ بحرفِ الاستعلاء:

المُظاهَرَةُ تجعلُ الظَّهيرَ مُستعليًا بِمن أعانَهُ فوق الخصوم

التَّعديةُ بحرف (على) في قوله: ﴿يُظَٰهِرُواْ عَلَيۡكُمۡ﴾ للاستعلاءِ المجازي، ويكأنَّ المُظاهَرَةَ تجعلُ الظَّهيرَ (الفاعِل) مُستعليًا بِمن أعانه فوقَ الخصوم، وتجعل الظَّهير (المفعول) مُلْقًى به فوق أكنافِ الخصوم الظَّاهِر عليهم[2].

دلالةُ المفعولِ بقوله: ﴿أَحَدٗا﴾:

إفادةُ لفظِ (أحد) لعموم الجنس

قولهُ: ﴿أَحَدٗا﴾ نكِرةٌ عامَّةٌ في سياق النَّفي، وتفيدُ استغراقَ جنس النَّاطقين، قِلَّةً أو كَثْرة، مجتمعين أو متفرِّقين، والمعنى: أيُّ أحدٍ ممَّا يصحُّ استخدامُه في المُظاهرة، على جهة الإطلاقِ والشيوع، ولذا لم يُعيِّن ﴿أَحَدٗا﴾ ممَّن؟ أو من أيِّ جهة؟ لتقرير أنَّ معاونة الأعداء بأيِّ وسيلةٍ مهما قلَّتْ، تبيح نبذ العهد؛ لأنَّ الخيانةَ الصَّغيرة مِهادُ الخيانةِ الكبيرة وبريدُها[3].

دلالة الفاء وموقع ﴿فَأَتِمُّوٓاْ﴾:

عراقةُ فاءِ الرَّبط في دلالتِها على السببيَّةِ

الفاءُ في قوله: ﴿فَأَتِمُّوٓاْ﴾ هي فاءُ التَّسبيب، أو الفصيحة، فهي عاطفةٌ لِمُقدَّرٍ قبلَها، والمعنى: إنْ كانوا فعلوا ذلك؛ فأتمُّوا إليهم، والعطف بها إيذانٌ بأنَّ مضمونَ الاستثناء في قوله: ﴿ثُمَّ لَمۡ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/113.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/113.
(3) الرَّاغب، المفردات: (أحد)، وطنطاوي، الوسيط: 6/204، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (أحد).

﴿يَنقُصُوكُمۡ﴾ سببٌ وعِلَّةٌ لمدخولِ الفاء ﴿فَأَتِمُّوٓاْ﴾، وما بعد الفاء تفريعٌ عليه ومترتِّبٌ عنه[1].

دلالةُ حرف الانتهاءِ ﴿إِلَيۡهِمۡ﴾:

التَّعبيرُ بحرف الانتهاءِ ﴿إِلَيۡهِمۡ﴾؛ لإفادةِ معنى الإيصالِ والبلوغ، ولتضمينِ الإتمام معنى الأداء والدَّفْع، أي: أدُّوه إليهم، لتقرير أنَّ العهودَ أماناتٌ تُؤدَّى، وتُدفَع إلى أهلِها، ويجبُ إدخالها في حيازة الجِهةِ الَّتي هي غايةُ استحقاقِها[2].

تضمينُ الإتمام معنى أنَّ العهودَ أماناتٌ تُؤدَّى وتُدفَع إلى أهلها

اصطفاءُ التَّعبيرِ بالمدَّةِ:

التَّعبيرُ في قولِه تعالى: ﴿إِلَىٰ مُدَّتِهِمۡۚ﴾ بالمدَّةِ دون الأجل أو الوقت؛ للدَّلالةِ على أوَّلِ الوقتِ وآخرِه، فإنَّ المُدَّة هي مَدُّ ما بين النُّقطتين أوَّلِ الزَّمن وآخِرِه، وأمَّا الأجلُ؛ فغايةُ الوقت ونقطةُ النِّهايةِ التي ينقضي عندها، والتَّعبير بالمدَّة لتصوير معنى الإمهال والفُسْحة مع الاستيفاء الكاملِ لوقتِهم المشروطِ في المعاهدة دونَ إنقاصِ شيءٍ منه[3].

الدّلالةُ على أوَّلِ وقتِ المعاهدة وآخرِه

دلالةُ الإضافةِ إلى الضميرِ:

الإضافةُ إلى الضَّميرِ لتعريفِ المضاف، وهما: (العهد والمدَّة) وجاءتِ الإضافةُ لضمير المشركين دون المسلمين، مع أنَّ العهدَ والمدَّةَ كائنان في الجانبين معًا؛ لأنَّ المشركين أكثرُ انتفاعًا بها من المسلمين، بكونِ أيديهم هي السُّفلى في هذا العهدِ بغلبةِ المسلمين وبَسْطَتِهم يومئذٍ[4].

انتفاعُ المضافِ إليهِ بالمضافِ

وجهُ العطفِ بقوله: ﴿وَلَمۡ يُظَٰهِرُواْ﴾:

قوله: ﴿لَمۡ يَنقُصُوكُمۡ شَيۡـٔٗا﴾ عامٌّ في استغراقِه لكلِّ ألوانِ النَّقص

النَّقصُ يقع في الذَّوات بإيذائها، ويقع في مُمْتلكاتِها بسلْبِها

(1) الصّافي، الجدول في إعراب القرآن: 10/282.
(2) ابن عطية، المحرّر الوجيز: 3/8.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أجل)، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (مدد).
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/113، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 6/3229.

والإخلال في المعاهدة، فيشملُ النَّقصَ في الذَّواتِ بمباشرة قتْلِها أو التَّسبُّب في قتلِها، والنَّقص في تابع الذَّوات ومتعلِّقاتها كمصادرة التِّجارةِ وسرقة السَّلاح وسائرِ المملوكاتِ، وقولهُ: ﴿وَلَمۡ يُظَٰهِرُواْ عَلَيۡكُمۡ أَحَدٗا﴾ خاصٌّ بعد عامٍّ، وهو داخل فيما قبلَهُ؛ لأنَّه عبارةٌ عن التسبُّبِ في الضَّرر، لا مُباشرته، إلا أنَّه ذكرَهُ لكونهِ حيلةَ مَن لا يستطيع مباشرةَ الأذى بمن يعاهدُهُ، إمَّا خوفًا أو عدم تمكُّن، فيحتال بالتسبُّبِ اتِّقاء التورُّط في المُباشَرة، فذكَره استيفاءً لِنَمَطي النقص، المباشِر وغير المباشر، والصَّريح جهرةً، والخفيِّ احتيالًا[1].

لَمْحُ المقابلةِ في الآية الكريمة:

في قولهِ: ﴿لَمۡ يَنقُصُوكُمۡ﴾ ﴿وَلَمۡ يُظَٰهِرُواْ﴾ فيهِ إيماءٌ إلى أنَّ إخلافَ العهود فيه إقلالٌ من الحقِّ بنقصِ الوفاء به، وإكثارٌ من الباطل بالمُظَاهَرةِ؛ لأنَّ النَّقص إقلالٌ في الوفاء، والمُظاهرة إكثارٌ في الخصوم والأعداء، ففي هذا التَّقابلِ توضيحُ الحكم وتفصيل الشَّرط، فاللّٰه تعالى يخبر المسلمين بأنَّهم لا يحاربون هؤلاءِ المشركين الذين عاهدوهم من قبلُ، إلّا إذا نقضوا عهدَهم بأحدِ الأمرين: إمَّا بالإخلال بشروط العهدِ، وإمَّا بالتَّحالف مع أعداء المسلمين ضدَّهم، فالمقابلةُ بين ﴿لَمۡ يَنقُصُوكُمۡ﴾ و﴿وَلَمۡ يُظَٰهِرُواْ عَلَيۡكُمۡ﴾ تفيدُ التَّخصيص والتفصيلَ لشرط السَّلامة من القتال، فلا يكفي ألَّا يَنْقُصوا المسلمين شيئًا من شروط العهد، بل يجب ألَّا يعاونوا عليهم أحدًا مِن أعدائهم[2].

التَّخصيصُ والتَّفصيل؛ إذ النَّقص إقلالٌ في الوفاء، والمُظاهرة إكثارٌ في الأعداء

نكتةُ تصديرِ جملة الختْم بالتَّوكيد:

الافتتاحُ بـ ﴿إِنَّ﴾ لمحضِ الاهتمامِ والعناية بتقريرِ الجملة، وكأنَّ الغرضَ بالافتتاح المؤكِّد إجراءُ التَّركيب مجرى القانون المحدَّدِ والمثل

إجراءُ التَّركيب مجرى القانون، وتأكيدُ الجُمَل لانعطافها بعد سياقٍ مؤكَّدٍ في معناه

(1) الشّعراوي، تفسير الشّعراوي: 8/4870.
(2) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 8/71.

السَّائر المحكم، وقرينةُ خلوِّ المخاطَبين عن التَّردُّدِ في هذا الخبر، تجعلُه مسوقًا لأجل تأكيد انتفاعِهم به، لا لإثباتِ أصلِه، فيكون خبرًا بمعنى الإنشاء، أي: أكِّدوا انتفاعَكم بمقتضى ذلك بدوامكم على الاستقامة وعدم التَّجاوز، أو لأجل أن يَسوقوه إلى غيرِهم بهذا المساقِ المؤكَّد للتَّرهيب والترغيب، فإنَّ المؤمن مُبَلِّغٌ عن ربِّه.

وأكَّدَ التَّذييلَ بحرفِ التَّوكيد؛ لأنَّه واقِعٌ بعد مقامِ رعايةِ العهود المؤكَّدةِ، فكذلك ما يَتبعها من الرَّغائبِ فيها والبواعثِ عليها يكون مؤكَّدًا كذلك.

بلاغةُ التَّذييل في آخر الآية:

علاقةُ الجزائيَّةِ بين الفاصلةِ ومفتَتَحِ الآية

جملةُ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ جاءت تذييلًا لما قبلَها لتقرير كونِ الجزاء من جنسِ العمل، كأنَّهُ قال لهم: منِ اتَّقى خيانةَ عهدكم إليه، فاتَّقوا خيانةَ عهدِه معكم لأجل ذلك، ومن لم يُظاهِر أحدًا عليكم؛ فلا تُظاهِروا عليه بنقضِ عهدِكم معه لأجْلِ أمانته.

علَّةُ الفصلِ في ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾:

إغناءُ (إنَّ) المؤكِّدة عن العاطفِ في الرَّبط والتَّعليل

أفادت جملةُ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ التَّفريعَ والتَّعليلَ لما قبلَها: ﴿فَأَتِمُّوٓاْ إِلَيۡهِمۡ عَهۡدَهُمۡ إِلَىٰ مُدَّتِهِمۡۚ﴾، فجاءت كالوعد والمكافأةِ بعدَها، وانفصلت عنها بالتَّجرُّد من العاطف، واستهلَّتْ بـ ﴿إِنَّ﴾ الدَّالَّةِ على التَّوكيد، اهتمامًا بالخبر، "ومن شأن (إن) إذا جاءت على هذا الوجه أن تفيد التَّعليلَ، وربْطَ مضمونِ جملتها بمضمون الجملة التي قبلَها، فتغني عن فاء التَّفريع، ولذلك فُصِلَتِ الجملةُ عن الَّتي قبلَها، فَلم تُعطَف لإغناءِ (إن) عن العاطف"[1].

بلاغةُ كمالِ الانقطاع:

تأكيد الجملة بالاستئناف عمَّا قبلها وبافتتاحها بإنّ المؤكّدة

وخبريَّةُ هذهِ الجملة بعد الإنشاءِ قبلَها، وتضمُّنها معنى الإنشاء وإن وقعت بلفظِ الخبر، وتأكيدها بالاستئناف عمَّا قبلها وبافتتاحها

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 176/8.

بـ(إن)، وتضمُّنها معنى التَّرغيب بلفظها ومعنى التَّرهيب بمفهومِها، أي: احذروا كراهيةَ اللّهِ للفاجرين، وإفادة (إنَّ) في افتتاحها التَّعليل والرَّبط لما قبلَها، كأنَّها تقوم مقامَ الفاء، فذلك من وجوهِ بلاغةِ الفصل في هذا الموضعِ[1].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(ينقُصوك) و(ينقُضوكم):

النَّقص - بالصاد المهملة - معناه الإقلالُ من الشَّيءِ والأخْذُ منه حتى يَقِلَّ بالنِّسبةِ لِما كان عليه، قليلًا كان ذلك أم كثيرًا، والنَّقصُ في أصلِ مدلولِه لا يَزولُ معه أصلُ الشَّيء؛ إذْ هو خِلافُ الزِّيادة، ولكنَّه إذا بولِغَ فيه انتقض معه الشَّيءُ وفَنِيَ. والنَّقض - بالضَّاد المعجمةِ - هو تفكُّكُ أجزاء الشَّيء وتداعيها حتى تفسُدَ، وتصيرَ غيرَ صالحةٍ، ومنه التَّناقُض بين الأشياء لعدم صلاحيَّة اجتماعها معًا، فنقضُ الشَّيء هو أن يصير بحالةٍ غيرِ صالحةٍ في ذاتِه وأصله، فكأنَّهُ لَمَّا تفكَّكتْ أجزاؤهُ، وانفرطتْ مَعاقِدُه؛ تناقضتْ في ائتلافِها مرّةً أخرى، ففسدَتْ، وعليه فالنَّقضُ يحمل معانيَ لا يحملُها النَّقص، من فساد الشَّيء وعدم صلاحيَّتِهِ وزوالِ أصولِهِ، وأمَّا النَّقصُ؛ فلا يؤوَّل لتلك المعاني إلا بالاطِّراد والمبالغةِ فيه، فالنَّقص قد يؤول للنَّقض، والنقضُ لا يكون نقصًا، ولذا عبَّر هنا في الآية بـ﴿يَنقُصُوكُمْ﴾ في جانب العهد ليدلَّ على أنَّهم مؤاخَذون على أدنى إخلال[2].

النَّقصُ قد يؤول للنَّقضِ، والنَّقضُ لا يكون نقصًا؛ إذْ هو أعظمُ منه

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 172/8.

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والسّمين الحلبي، عمدة الحفاظ، وابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (نقص، نقض).

﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلۡأَشۡهُرُ ٱلۡحُرُمُ فَٱقۡتُلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡ وَخُذُوهُمۡ وَٱحۡصُرُوهُمۡ وَٱقۡعُدُواْ لَهُمۡ كُلَّ مَرۡصَدٖۚ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٥﴾

[التّوبة: 5]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لمّا أزال اللّه الوُصلةَ بينه وبين المشركين النَّاقضين للعهد بالبراءةِ، وأعطاهم مهلةً مؤقَّتةً، أخبر هنا بحكمهِ فيهم بعد انقضاءِ الأجل المحدَّد، فقال: ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلۡأَشۡهُرُ ٱلۡحُرُمُ فَٱقۡتُلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡ﴾.

حكم اللّه بما يُصنَعُ في شأن البراءةِ مِن المُشركينَ النّاقضين للعهد بعد تحديد الأجَلِ

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱنسَلَخَ﴾: مِنَ الانسلاخِ، يقال: سَلَخَ فانْسَلَخ، وأصل السَّلْخ: نزْع جِلْدِ الحيوانِ، واستُعمِل في انقضاءِ الشَّهْر وانصِرامِهِ كأنَّه نُزِعَ عن النَّاس ونُزِعَ مِن موضعِه في مُحيطِ الزَّمن[1].

2) ﴿ٱلۡأَشۡهُرُ ٱلۡحُرُمُ﴾: الحُرُم جمعُ حرام، وأصله: المنْع، فالشَّيءُ الحرامُ هو الممنوعُ عن تناوله، والمرادُ بالأشهر الحرم هنا: مُهْلَةُ الأربعةِ أشهرٍ التي حُرِّمَ، ومُنِعَ فيها قتالُ المشركين أثناءَها[2].

3) ﴿مَرۡصَدٖۚ﴾: مِنَ الرَّصَد، وهو الاستعدادُ لترقُّبِ الشَّيء، وأصلُ (رصد): يدلُّ على التَّهيُّؤِ لمُراقَبةِ شَيءٍ على مَسلَكِه، والمرصَد المكان الَّذي يَرقُبُ منه الرَّاصِد أو المكان المرصود، ويصحُّ أن يكون مصدرًا ميميًّا كذلك، والمراد به هنا: أماكن المشركين التي يُرصَدون فيها كالطُّرقاتِ والممرَّات ونحوها[3].

(1) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (سلخ).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (حرم).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، والسّمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (رصد).

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

حكمُ اللهِ في قتالِ المشركين المعاهدين بعد تمامِ المدَّةِ المضروبةِ لهم

فإذا انتهتِ الأشهر الحُرُم التي أمَّنْتُم فيها أعداءكم، فاقتلوا المشركين حيث لقيتموهم، وحاصروهم في مَعاقِلِهم، وضيِّقوا عليهم، فلا تدعوهم يتوسَّعون في بلادِ الله، وترصَّدوا لهم طرقهم، فإن تابوا إلى الله من الشِّرك، وأقاموا الصَّلاة، وأعطوا زكاةَ أموالهم، فقد أصبحوا إخوانَكم في الإسلام، لهم ما لكم، وعليهم ما عليكم، فاتركوا قتالَهم، إنَّ الله غفور لمن تاب من عباده، رحيم به[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالة موقع ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ﴾:

بعدَ الإمهالِ يَحصلُ الوعيد، واللهُ تعالى يمهل ولا يهمل

قوله: ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلۡأَشۡهُرُ ٱلۡحُرُمُ﴾ معطوفٌ على قوله: ﴿فَسِيحُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَرۡبَعَةَ أَشۡهُرٖ﴾، وهو تفريعٌ على غايةِ القيدِ الزمنيِّ فيه، أي: لهم مُهلةُ أربعةِ أشهر، فإذا انسلختْ عنهم؛ فعاملوهم معاملةَ المُحارِبِ، واقتلوهم[2].

دلالةُ تصديرِ الشَّرط بـ(إذا) دون (إنْ):

انسلاخُ الأشهرِ وضعٌ زمنيٌّ واجِبُ التحقُّق

تُستعمَلُ (إذا) فيما هو متَحقِّقُ الوقوع، أو كثير الوقوع، وفيما كان سبَبُهُ قويًّا؛ فلا بدَّ من حصولِ جوابِه، ولذا استعمَلَ ﴿فَإِذَا﴾ هنا؛ لأنَّ انسلاخَ الأشهر وضعٌ زمنيٌّ واجِبُ التحقُّق، وهو سببٌ أكيدٌ لاقتضاءِ جوابِه، وهو قوله: ﴿فَٱقۡتُلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾، وأمَّا (إنْ) فالأصلُ استعمالُها فيما هو مُحتَمَلُ الوقوع، والمشكوكُ فيه، بل وفي المعاني الافتراضيَّةِ التي تقتصِر على الإمكان الذِّهنيِّ فقط، ولذا لم يَحسُنْ - هنا - تصديرُ الشَّرطِ بها[3].

(1) نخبة من العلماء، التَّفسير الميسَّر، ص: 187.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/114.
(3) ابن يعيش، شرح المفصل: 113/5، وعضيمة، دراسات لأسلوب القرآن: 1/173.

اصطفاءُ لفظ ﴿ٱنسَلَخَ﴾:

مادَّة (سلخ) تدور حول نزْعِ شيءٍ ملتصِقٍ بشيءٍ، كسَلْخِ الجِلْدِ عنِ اللَّحم[1]، ولفظ الانسلاخِ هنا يُعَبِّرُ عن انقضاءِ الزَّمنِ المذكور في جملةِ الشَّرط، ونكتةُ استعماله دون الانقضاءِ ونحوِه، لموافَقةِ المقامِ في الانتقالِ من حالَيْنِ مُتضادَّتَيْنِ بِفِعْلِ القوَّةِ وانتزاعِ شيءٍ من شيء، فكأنَّ اللَّفظَ ناطِقٌ بحالِهم، أي: إذا انقضى زمنُ المُهلَةِ؛ فانزَعوا عنهم ما التصقَ بهم من عهدِ الأمان حتى يكونوا في مَفْرِقٍ عنه، فحالُهم في انسلاخِهم عن مواقِعِ الأمْنِ والإمهال كحالِ انسلاخِ الأشهرِ عن مواقِعها في الزَّمن، فالتَّعبير بالانسلاخ من موافقاتِ الألفاظ للمقام وجريانِها مع حَرَكَةِ السِّياق.

التَّعبيرُ بالانسلاخ من موافقاتِ الألفاظ للمقام، وجريانِها مع حَرَكَةِ السِّياق

المجازُ في قولِهِ: ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ﴾:

﴿ٱنسَلَخَ﴾ مُطاوِع (سَلَخ)، تقول: (سَلَخَ فانْسَلَخ)، وحقيقته: في سلخِ الجِلْد من الحيوان، واستعمالُه في الأشهر بمعنى انقضائِها وتمامِها استعارةٌ، حيث شَبَّه انقضاء الأشهر بأسمائها وأحكامها في حركةِ الزَّمن بانفصال لحمِ الحيوانِ عن جِلْدِه، على معنى (انسلَخَ مِنْه)، ويجوز إجراءُ الاستعارة على أنَّ الأشهرَ الحُرُمَ هي زمان، والزَّمان ظرفٌ، والنَّاسُ مظروفونَ فيه، فكأنَّ الأشهرَ الحرمَ حِرزٌ لهم من قِتالِ المسلمين، كما أنَّ جِلْدَ الحيوانِ حِرزٌ لِجسدِه ولَحمِه، على معنى(انسَلَخَ عنه)، وفيه تعريضٌ وتلويحٌ أنَّ زوالَ الأشهر الحُرُمِ يُزيلُ الوقايةَ عنهم بعد أنْ كانتْ ملتصِقةً بهم[2].

زوالُ الأشهرِ الحُرُم يُزيلُ الوقايةَ عنهم، بعد أنْ كانتْ ملتصِقةً بهم

نكتةُ وضعِ المظهرِ موضعَ المضمرِ:

لم يقل في السِّياق الكريم: (انسلختْ)؛ إذ وضَعَ المُظْهَرَ موضعَ

ذِكْرُ أشهرِ المُهلةِ بوصفِ الحرمةِ، تعظيمٌ لها بإنزالها منزلةَ الأشهرِ الحُرُم

(1) الشّعراوي، تفسير الشّعراوي: 8/4874.

(2) ابن عطية، المحرّر الوجيز: 3/8، والنّيسابوريّ، غرائب القرآن: 3/432، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/114، والشّعراوي، تفسير الشّعراوي: 8/4874.

المضمرِ لإجراءِ وصْفِ الحرمةِ على الأشهر؛ تأكيدًا لِمضمونِ الإذْنِ بالسِّياحةِ من حرمةِ التعرُّض لهم، مع ما في التّصريح من مزيدِ الاعتناءِ بشأنِ هذه الأشهر[1].

دلالةُ التَّعبيرِ بجمْعِ القِلَّة ﴿ٱلْأَشْهُرُ﴾:

إعجاز القرآن في دقَّة استعمال العدد قلَّةً وكثرة، بحسب مجرى السّياق

التَّعبيرُ بجمع القِلَّةِ أَفْعُل؛ لكونِ الأشهرِ المذكورة في عددٍ قليل لم يتجاوزِ العشرةَ، وهي الواردةُ في قوله: ﴿فَسِيحُواْ فِي ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾، ولذا لمَّا تجاوزتِ العشْرَةَ؛ عبَّر بوزْنِ الكثرة في قوله: ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ﴾ [التّوبة: 36].

وجهُ التَّقييدِ بوصف ﴿ٱلْحُرُمُ﴾:

تأكيدُ وجوبِ الإمهالِ في القيدِ الزّمنيِّ، بوصْفِ المُهلَةِ بِما يُنبِئ عن تحريمِ ضِدِّه

التَّقييدُ بوصْفِ الحُرُمِ في قوله: ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾؛ لإفادةِ أنَّ المُهلةَ الواردةَ في قوله: ﴿فَسِيحُواْ فِي ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾ واجبةٌ في العملِ والامتثال بالنِّسبةِ للمسلمين، دفْعًا لِتوهُّم أنَّ الأمرَ في قوله: ﴿فَسِيحُواْ﴾ لمّا كان على سبيل الإباحةِ بالنّسبةِ للمشركين، فكذلك ما في حيِّزه من المُهلَة، فجاء هنا بوصف ﴿ٱلْحُرُمُ﴾ لبيانِ أنَّ الإباحةَ بالنِّسبةِ للمشركين فقط أو الإباحة في السِّياحةِ دون المُهْلَةِ المحدَّدة، مع كونِ الالتزام به من المسلمين واجبًا، لِكونها مُحرَّمةً في قتالهم أو مُحرَّمًا عليهم مُخالفةُ حكمِها في الإمهالِ والأمان، فأكَّدَ وجوبَ الإمهالِ في القيدِ الزمنيِّ بوصْفِ المُهلَةِ بِما يُنبِئ عن تحريمِ ضِدِّه.

معنى (ال) في الآية الكريمة:

إفادةُ العهدِ الذِّكري وعوْد العهدِ على مذكورٍ أولى مِنْ عوْدٍ على مُقَدَّر

(الـ) في ﴿ٱلْأَشْهُرُ﴾ للعهد الذّكري، كقوله: ﴿أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ۝١٥ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ﴾، فالأشهرُ الحرمُ هي المذكورةُ في قوله: ﴿فَسِيحُواْ فِي ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾، وسمِّيت حُرُمًا لتحريم القتال فيها في ذلك العام، ولا يُراد بها الأشهرُ الحُرُمُ في قوله:

(1) القاسميّ، محاسن التّأويل: 5/352.

﴿مِنۡهَآ أَرۡبَعَةٌ حُرُمٞۚ﴾؛ لأنَّ عوْدَ العهدِ على مذكورٍ أولى مِنْ مُقَدَّرٍ، ثم إنَّ الأشهر الأربعة المحرَّمة بيانُ حكمِها لاحِقٌ في آيةٍ تاليةٍ، وسياقٍ متأخِّرٍ عن ذلك[1].

العطفُ بالفاء ودلالتهُ في ﴿فَٱقۡتُلُواْ﴾:

جملةُ ﴿فَٱقۡتُلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ جوابُ قوله: ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ﴾، و(الفاء) رابطةٌ لجواب الشَّرط، لإفادةِ السّببيَّة والتَّعليلِ بين الشَّرطِ والجزاء، فالقتلُ مترتِّبٌ على انسلاخِ الأشهر ونتيجةٌ عنه.

الأمرُ بالقتل مترتِّبٌ على انسلاخ الأشهر ونتيجةٌ عنه

دلالةُ اصطفاء ﴿ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾:

التعبيرُ بالمشركين لاستبعادِ مفهومِه من أهلِ الكتابِ والأديان خارج جزيرةِ العرب، وقَصْرِه على الوثَنيِّين؛ إذْ ليسَ يُقالُ لغيرهِم هذا الاسم إلا على سبيل التَّقييد، وفائدةُ تمييز الفئة واستبعاد غيرها العِلمُ بأنَّ ما عدا ﴿ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ له حكمٌ آخر وغير داخِلٍ في حكمِهم، وأيضًا اصطفاءُ لفظ المشركين هنا لِمُراعاة نظيرِه السَّابق في قوله: ﴿إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾، وقوله: ﴿بَرِيٓءٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾، ولو غايَر الوصفَ؛ لأوهمَ أنَّهم صِنْفٌ آخر غيرُ النَّظير المذكور.

اصطفاءُ لفظ المشركين هنا لِمُراعاةِ نظيرِه السَّابقِ، ولدفعِ إيهامِ أنَّهم صِنْفٌ آخر

سرُّ التَّعبيرِ بـ﴿حَيۡثُ﴾:

التَّعبيرُ بـ﴿حَيۡثُ﴾ في قوله: ﴿فَٱقۡتُلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡ﴾ يدلُّ على استفراغِ الوُسْعِ في قتالهم على كلِّ حالٍ ووضْع، بناءً على إفادةِ (حيث) للمكانيَّة المُبْهَمَة، فتركيب ﴿حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡ﴾ أفادَ العمومَ بدلالةِ حيثُ، ودلالةِ حذفِ متعلَّق (وجَدَ)، فلم يقل: "وجدتموهم في مكان كذا"[2].

(حيث) تدلُّ على المكانيَّةِ باتِّفاق، وقد تدلُّ على الزّمان

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/380، وطنطاوي، الوسيط: 6/206.
(2) القشيريّ، لطائف الإشارات: 2/8، وعضيمة، دراسات لأسلوب القرآن: 9/668.

نكتةُ عدم إدخال (مِنْ) على ﴿حَيْثُ﴾:

إزالةُ (مِنْ) أفاد إمكانَ الفُسْحةِ بينَ القتلِ والإمساك

لم يقل: (مِنْ حيثُ)، لإفادة استغراقِ الظَّرف لِلمكانِ الذي يُوجَدونَ فيه، من غير إرادةٍ لتحديدِ موضعٍ فيه لِبدءِ الفِعل المذكور في حيِّز الحيثيَّة (اقتلوهم - وجدتموهم)، ولو قال: (مِنْ حيثُ وجدتموهم)؛ لكان معناه: اقتلوهم في الموضع الذي ابتدأْتُم إمساكَهم فيه، فإزالةُ (مِنْ) أفاد إمكانَ الفُسْحةِ بين القتلِ والإمساك، فيجوز أنْ يقتلوهم في عمومِ المكان لا في موضِعٍ خاصٍّ منه، ويجوز أنْ يجدوهم في مكانٍ، ويقتلوهم في مكانٍ آخرَ يسوقونَهم إليه؛ لأنَّ القتْلَ مُسَبَّبٌ عن الفِعل ﴿وَجَدتُّمُوهُمْ﴾، أي: عن تحقُّقِه في الزَّمن، ولذا جاء بالماضي، وغايةُ تحقُّقِه قد تكونُ في مكانٍ غير المكانِ الذي ابتُدِئَ فيه الفعل أثناءَ الملاحقةِ والمُطاردةِ لهم[1].

معنى العطْفِ بالواو:

الجمعُ بين المأموراتِ في الإذنِ بها، لا الجمع بينها في الإجراء

قوله تعالى: ﴿وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُواْ﴾، وفيها توالي المعطوفاتِ بالواو في (فاقتلوا وخذوا واحصروا واقعدوا)؛ للدَّلالة على الجمعِ بينها في الإذنِ بها، أي: هذه المأموراتُ مأذونٌ بها جميعًا، وليس الجمع بينها في الإجراء؛ لأنَّ إجراءَها يكونُ بحسبِ الإمكانِ والقدرة ومراعاة المصلحة، فإجراءُ أحدِها قد يكفي عن الآخر، وقد يُستطاعُ القتلُ، ولا يُستطاع الأسرُ والحصار، والعكس، فما أفادتْهُ الواو من التَّشريك في الحكم راجِعٌ إلى الإذنِ بها جميعًا[2].

دلالةُ التَّعبير بـ ﴿وَخُذُوهُمْ﴾:

التَّوبةُ لا تكون إلَّا على قدْرٍ من الموعظةِ والتَّمثُّل بالمُذْنِب

التَّعبيرُ بالأخْذ كنايةٌ عن الأسْرِ، وكانت العربُ تعبِّرُ عن الأسير بالأخيذ، ونكتةُ عدمِ التَّعبير بلفظ الأسْر؛ لِدفْعِ توهُّمِ استرقاقِهم،

(1) الخضريّ، من أسرار حروف الجر، ص: 345.

(2) رضا، تفسير المنار: 10/149، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/115، والشّعراوي، تفسير الشّعراوي: 8/4877.

كما يُسْتَرَقُّ الأسير، فإنَّ مشركي العرب لا يُسْتَرَقُّون، ولأَنَّ الأسْرَ لا يكونُ إلا بالقهر؛ لأنَّه الربْطُ والشَدُّ بالقيْد، وأمَّا الأخْذ فعامٌّ، فقد يقع بالتَّناول والاختيار، وقد يقع بالقهر، فعبَّر به لإمكانِ أنْ يوجدَ في أفراد المشركين مَنْ يؤخذُ إلى حيازةِ المسلمين طوعًا لا كَرهًا من غير أن يُقيَّدَ، أو يُساقَ كالأسير[1]، وفي التَّعبير به إشارةٌ للمسلمين على جوازِ أنْ تشتمِلَ مُعاملتهم للمشركين المأخوذين على شيءٍ من الرِّفْقِ، ويساعدُ على ذلك قولهُ بعده: ﴿فَإِن تَابُواْ﴾؛ لأنَّ التوبةَ لا تكون إلا على قدْرٍ من الموعظةِ والتمهُّل بهم.

نكتةُ التَّعبير بلفْظ القعودِ:

العطفُ بقوله: ﴿وَٱقْعُدُواْ﴾، ولم يقل: (وارصدوهم)؛ لإفادة المُبالغةِ في الرَّصدِ؛ لأنَّ القعودَ لِفعلِ الشَّيء دالٌّ على التفرُّغ له، وتصويرِ المرابطة في كلِّ موضعٍ يترقَّب خروجهم منه، وبذلِ غاية الجهدِ في ذلك، وتركِ شؤونِ الحياة، والترصُّدِ لهؤلاء المشركين حتى يتوبوا من شركهم.

القعودُ لِفعلِ الشَّيء دالٌّ على المرابطة، وبذلِ غاية الجهد في ذلك

وجهُ المجازِ في ﴿وَٱقْعُدُواْ﴾:

حقيقةُ القعود الثُّبوتُ والرُّسوخ في المكان وهو ضِدُّ القيام، واستعير هنا للملازمةِ والمرابطةِ على المُراقبةِ والتتبُّع للمشركين كما يُلازِمُ القاعِدُ هيئةَ لزومِهِ المكانَ، فلا يتحوَّل عنه[2].

استعارةٌ للملازمةِ والمرابطةِ على المُراقبةِ والتتبُّع للمشركين

دلالةُ الجار والمجرور ﴿لَهُمْ﴾:

دلَّ الجار والمجرور في قوله: ﴿لَهُمْ﴾ على اختصاصهم بالقتل والأسْر؛ لتصوير أنَّ القعودَ لأجل التسلُّط على ذواتِهم بالاضطهادِ والإرصاد.

القعودُ مُسَلَّطٌ على ذواتِهم بالاضطهادِ والإرصاد

دلالةُ لفظ ﴿كُلَّ﴾:

لفظُ (كلٌّ) أفادَ استغراق جميع المراصد والمواضع والسُّبُل

(1) الشّهاب، حاشيته على تفسير البيضاوي: 4/300، وطنطاوي، الوسيط: 6/207.
(2) الآلوسيّ، روح المعانيّ: 5/246، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/115.

والممرَّات التي هي مَظِنَّة اجتيازهم بمراقبتِها موضعًا موضِعًا، فلا يُهمَلُ منها مكان بليلٍ أو نهار، وفيه من المبالغة في الحرص على الإحاطةِ بهم والاحتياطِ منهم ما فيه، والاستغراق هنا عُرفيٌّ بحسبِ الطاقةِ وغلبةِ الظنِّ على استقصاء المواضع، كما دلَّتْ صيغةُ العموم على الاستقصاء المكاني والزَّماني والفِعلي، أي: اقعدوا لهم في كلِّ مكانٍ وفي كلِّ وقتٍ، وارصدوا كلامَهم وحركاتهم وأفعالهم، فهم لا يخرجون عنِ الرَّقابةِ في عمومِ أحوالهم[1].

الاستغراقُ عُرفيٌّ بحسبِ الطَّاقةِ وغلبةِ الظَّنِّ على استقصاء المواضع

معنى صيغة ﴿مَرْصَدٍ﴾:

صيغة ﴿مَرْصَدٍ﴾، (مَفْعَل) وهي صيغةٌ تصلح مصدرًا ميميًّا، فتدلُّ على الحدثِ المجرَّد مع دلالتها على الذَّاتِ، فإنَّ المرصَد يحمِل معه ذاتًا تُرصَد، ودلالتها على تمام الحدثِ وغايتِه، فالمرصَد يدلُّ على تمام الرَّصدِ ونهايتِه، وهذه نكتةُ إيثار التَّعبير بالمصدر الميمي دون غيره من المصادر كالرَّصَدِ والإرصادِ التي تدلُّ على الحدث مجرَّدًا من غير اقترانِ معنًى إضافيٍّ به، وصيغة (مَفْعَل) هنا تصلح أيضًا أن تكونَ للمكان والزمان، فتدلُّ على مكان الرَّصد وزمانِه؛ ليقع رصدُهم للمشركين عامًّا في كلِّ وقتٍ ومكان[2].

صيغةُ (مَفْعَل) تصلح هنا أن تكونَ للمكان والزَّمان والمصدر

نكتةُ التَّعبير بلفظ (المرصد):

جاء التَّعبيرُ بالمرصد دون الطَّريق ونحوه لإفادة العموم والشُّيوع؛ ليتناولَ كلَّ موضعٍ يصحُّ للرَّصد؛ لأنَّ لفظ ﴿مَرْصَدٍ﴾ مُبْهَمٌ، فهو مُطلَقٌ في كلِّ موضعٍ أو حالٍ تُرقَب، وأمَّا الطريقُ؛ فلفظٌ محدودٌ يصدقُ على مكانِ السَّيْرِ الذي يُطرَقُ بالأرجُل، فهو خاصٌّ بحالٍ معيَّنةٍ للسّائر فيه وحالٍ معيَّنةٍ في هيئتِه الأرضيَّة المحدودة[3].

لفظُ (مَرصَد) مُبْهَمٌ، ولفظ(الطريق) مُحَدَّدٌ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/115، والشّعراوي، تفسير الشّعراوي: 8/4877.
(2) السّمين، الدّر المصون: 6/13، وفاضل السامرائيّ، معاني الأبنية، ص: 32، 36.
(3) الرّاغب، المفردات: (طرق).

وجهُ إيصالِ الفعلِ للظَّرفِ بنفسِه:

(كلٌّ) ليس ظرفًا، لكنْ له حكمُ ما يُضافُ إليه؛ لأنَّه عبارةٌ عنه

في قوله: ﴿وَٱقۡعُدُواْ لَهُمۡ كُلَّ مَرۡصَدٖۚ﴾ عُدِّيَ الفعل للظَّرف بنفسه من غير حرفِ جرٍّ، فلم يقل: (واقعدوا لهم في كلِّ مرصد أو على كلِّ مرصد)، مع كونه سائغًا لغةً؛ ليستغرِقَ الترصُّد كلَّ جزءٍ من أجزاءِ كلِّ مرصدٍ متى أمْكَنَهم ذلك، بخلاف ما لو قال: (في)؛ فإنَّه يدلُّ على شُغْلِ كلِّ مرصدٍ في موضعٍ واحدٍ منه في أيِّ جزءٍ أو موضعٍ كان[1].

موقعُ جملة ﴿فَإِن تَابُواْ﴾ ممَّا قبلها:

تواردُ العطفِ والاستئنافِ على الموضعِ الواحدِ بحسَبِ تكييفِ المعنى

جملةُ ﴿فَإِن تَابُواْ﴾ معطوفةٌ على ما قبلها ﴿فَٱقۡتُلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ تفريعًا عَلى الأفعالِ المُتَقَدِّمَةِ في قوله: ﴿فَٱقۡتُلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡ وَخُذُوهُمۡ وَٱحۡصُرُوهُمۡ وَٱقۡعُدُواْ لَهُمۡ﴾، أو استئنافيَّةٌ لانتقاله من أفعال المسلمين إلى أفعالهم، فالأفعالُ (اقتلوهم وخذوهم واحصروهم وارصدوهم) من عمل المسلمين ومُخاطَبين بها، والأفعال في قوله: ﴿فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ من أفعال المشركين مقصودين بها[2].

نكتةُ تعيينِ الصَّلاة والزَّكاة بعد التَّوبةِ:

إتباعُ التَّوبةِ بالصلاةِ والزكاة كإتباعِ القضيَّةِ ببرهانِها

ضَمَّ الصلاةَ والزَّكاةَ لجانبِ التوبة، كما يُضَمُّ إلى القضيَّةِ برهانُها، فحقيقةُ التوبةِ باطنيٌّ يحتاجُ إلى تأييدِ البرهانِ الظاهريِّ عليه من الصلاة والزَّكاة، فلا يُتوسَّلُ لمعرفة الباطن إلَّا بالأمارات الدَّالَّة، وغرض ذلك في المقام: التَّحقُّقُ من دخولهم في جماعة المسلمين بالفعل لا بمجرَّد القولِ والادِّعاء، فالتَّعبيرُ عن التوبة بالنطق بالشَّهادتين إن كان كافيًا في موقف القتالِ للكفِّ عنهم، لكنَّه لا يكفي بعد ذلك لمعاملةِ من ينطق بهما معاملةَ المسلمين في عامَّةِ الأوقات[3].

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/381.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/116، ودرويش، إعراب القرآن وبيانه: 4/58.

(3) رضا، تفسير المنار: 10/154.

نكتةُ التَّعبير بالإقامة للصّلاة والإيتاء للزّكاة:

لو قيل: صلَّوا وزكَّوا لَغَابَ معنى الإتقانِ عن لفظِ الطَّلَبِ

لو جرى السِّياقُ على نَمَط الفِعل الواحد؛ لقيل: (صَلَّوا وزَكَّوا)، كما قال: ﴿تَابُواْ﴾، والنُّكتة في إجراء ذلك على التّوبة دون الصَّلاة والزَّكاة؛ لأنَّ التّوبةَ عملٌ قلبيٌّ غير ملحوظ، فلا يلحظُ أداؤه متفاوتًا كتفاوتِ الأعمال الظَّاهرة في تجويدها وإتقانها، فيُطلَبُ فِعلُهُ من لفظِ اسمه (التوبة، تابوا، توبوا) لإيقاعه بمعناه المجرَّد الخالص، وأمَّا الصَّلاةُ والزَّكاة؛ فلظهورهِما في العمل والإجراء؛ طُلِبَ فِعلُهما على وجْهِ الإتقانِ والإحسان، فأمرَ بهما من غير لفظِ اسمَيهما، من: (أقيموا وآتوا)، ولو قال: صلُّوا وزكُّوا؛ لغاب معنى الإتقان عن لفظ الطلب.

موقعُ جملة ﴿فَخَلُّواْ﴾ ممَّا قبلَه:

جوابُ الشَّرط مقترنة بالفاء لترتُّب الجواب عن الشَّرط ترتُّب النَّتيجة عن المقدِّمة

جملة ﴿فَخَلُّواْ﴾ جوابُ الشرط السابق عليه، وقُرِنَتْ بالفاء لترتُّب الجواب على الشَّرط ترتُّبَ النَّتيجةِ على المقدِّمة، فالعلاقة سببيَّةٌ بين الشَّرط وجزائه.

اصطفاءُ لفظ ﴿سَبِيلَهُمۡۚ﴾:

إيثارُ لفظ (السَّبيل) يُحقِّق معنى التَّخلية في قوله: (فَخَلُّوا)

إيثارُ التَّعبير بلفظِ (السَّبيل) لتحقيقِ معنى التَّخلِية في قوله: ﴿فَخَلُّواْ﴾ في موقعِ التَّيسير والوُسْع؛ ليتحقَّقَ لهم تمامَ الانتفاع بمضمون الفِعل؛ لأنَّ السَّبيلَ هو الطريق السهل الممتدُّ، فيدلُّ على بُعدِه ويُسْرِه، فكأنَّه قيل: اتركوا لهم الطُّرُقَ على ما هي عليه من الأمانِ والسَّلامة، واضمنوا لهم ذلك في عرضِها وطولِها[1].

وجهُ إضافةِ السَّبيل لضميرِهم:

إضافةُ (السَّبيل) لضميرِهم مكافأةٌ لهم إزاءَ مكافأةِ جملة الجواب

لم يقل في السِّياق الكريم: (فخلوا السَّبيلَ لهم)، بل أضاف السَّبيل لضميرهم؛ لتعريف السَّبيل بالضَّمير، والدَّلالة على استحقاقهم له، فكأنَّهم أحرزوه لصالحِهم بعد توبتهم حتى صار

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات: (سبل).

منسوبًا إليهم، وفي إضافة السَّبيل لضميرهم إشعارٌ بأنَّ تخليةَ المسلمين لهم السبيلَ بعد توبتهم عن استحقاقهم له، لا عن تفضُّل المسلمين عليهم، فكأنَّ الإضافةَ مكافأةٌ ضمن مكافأة جملةِ الجواب.

بلاغةُ الكناية في قوله: ﴿فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمۡۚ﴾:

كنايةٌ تجري مجرى الأمثال في الدَّلالة على متاركتهم وعدم التَّعرُّض لهم

قوله: ﴿فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمۡۚ﴾ كنايةٌ عن إطلاقِ سراحهم بعد أخذهم أو حصارهم ﴿وَخُذُوهُمۡ وَٱحۡصُرُوهُمۡ﴾، أو كنايةٌ عن عدم التعرُّض لهم بأدنى أذًى أو مُضايقة أو ضرر بعد توبتهم، وعبارة ﴿فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمۡۚ﴾ جاريةٌ مجرى الأمثال، في الدَّلالة على المُتارَكَةِ والإخلاءِ التامِّ، كمن يقول لغيره: (خَلِّ سبيلي)، أي: دعني وشأني، وعليه فالجملةُ من التَّمثيل أيضًا[1].

بلاغةُ المقابلة في قوله: ﴿فَخَلُّواْ﴾ ﴿وَٱقۡعُدُواْ﴾:

التَّفصيلُ والبيانُ لشرط القتال والسّلامة منه

قوله: ﴿وَٱقۡعُدُواْ لَهُمۡ كُلَّ مَرۡصَدٖۚ﴾ تمثيلٌ في المرابطةِ ضِدَّهم والتربُّص بهم، وقوله: ﴿فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمۡۚ﴾ تمثيلٌ في رفْعِ عينِ المراقبةِ عنهم وإعفائهم من الرَّصد والتَّتبع، فهذا في مقابلةِ هذا[2].

فالمقابلة بين ﴿فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمۡۚ﴾ و﴿وَٱقۡعُدُواْ لَهُمۡ كُلَّ مَرۡصَدٖۚ﴾ تفيدُ التَّفصيلَ والبيان لشرط السلامة من القتال، فلا يكفي أن يتوبوا، ويسلموا، بل يجب أن يؤدُّوا حقوقَ الله عليهم من إقام الصَّلاة على صفتها وإيتاء الزَّكاة لمستحقِّيها، فاللهُ تعالى يأمرُ المسلمين بقتال المشركين وحصارهم ورصدهم، إلَّا إذا تابوا، وأقاموا الصَّلاة، وآتوا الزكاة، فإن كانوا كذلك؛ فلا يحاربوهم.

موقعُ جملةِ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ ممَّا قبله:

التَّلويحُ بأنَّ الإذنَ في تخليةِ سبيلِهم من لوازمِ مغفرةِ الله لهم إذا تابوا

جملةُ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ تعليليَّةٌ لما قبلها من الأمر بتخليةِ سبيلِهم، أي: أمرَكم بتخلية سبيلِهم؛ لأنَّ اللهَ غفورٌ رحيم لمن تاب إليه،

(1) الطِّيبيّ، فتوح الغيب: 7/180، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/116.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/116.

وفيه تلويحٌ بأنَّ الإذنَ في ﴿فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمۡۚ﴾ من لوازم مغفرة اللّٰه لهم إذا تابوا، إذْ لو لم يُرِد المغفرةَ لهم ما أمَر المؤمنين أن يخلُّوا سبيلَهم[1].

عِلَّةُ الفصل في ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾:

افتتاحُ الجملة بحرف التَّأكيدِ الّذي أغنى عن حرف العطف

سببُ فصل جملةِ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ عمَّا قبلَها، وعدمِ وصلِها بالفاء العاطفة التي تدلُّ على ترتُّبها عمَّا قبلها، لافتتاح الجملةِ بحرفِ التَّأكيد الَّذي أغنى عن حرف العطفِ، وقام مقامَه في إفادة العِلَّة وربْطِ مضمون جملتِه بمعنى الجملةِ قبلَهُ.

بلاغةُ استهلالِ الجملة بحرف التَّأكيد:

التَّأكيدُ يُغني عن تكرار الأخبار

استهلالُ الجملة بحرف التأكيد ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ مع أنَّه لا حاجةَ لتأكيد نِسبةِ ذلك الوصف إلى اللّٰهِ جلَّ وعلا؛ لرسوخ معرفته في قلوب المؤمنين، فسيقَ التَّأكيدُ رغم ذلك، للاهتمام بالخبَرِ عن اللّٰه جل وعلا، ولأنَّ تأكيد صفات اللّٰهِ يؤكِّد الإيمان في القلوب ويهيِّجُها على تأكيدِ العملِ بمقتضاها، وفي التَّأكيد مراعاة لحال الإنسان الذي ينسى، فيحتاج إلى تكرار، والتَّأكيد يُغني عن تكرار الأخبار، والتَّأكيد أيضًا لتأليف قلوب المشركين وتحريضِهم على التَّوبةِ وهم أحوج إلى التأكيد لترسيخ الاعتقاد الصّحيح عن اللّٰه في عقولِهم التي خَلَتْ عنه.

تضمُّنُ الجملةِ الخبريَّةِ لمعنى الإنشاء:

جملةُ الفاصلةِ الخبريَّةِ في معنى الإنشاء والحضِّ للمسلمين بتخليةِ سبيلهم

التَّذييلُ بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ بعد الأمر في قوله: ﴿فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمۡۚ﴾، وكونُ جملة الختْمِ في محلِّ السَّببِ لما قبلها، يُسوِّغُ أن تكون جملة الختْم الخبرية في معنى الإنشاء والأمر للمسلمين، أي: فخلُّوا سبيلَهم، واغفروا لهم، وارحموهم، فأولى بكم أن تتخلَّقوا بصفات اللّٰه.

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/44، والصّافي، الجدول في إعراب القرآن: 10/284.

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(انسلخ) و(انتزَع):

انسلخَ من سَلخَ، وانتزَع من نَزَع، والسَّلْخُ: إخراجُ الشَّيء عنْ جِلْدِه، فهو يستعمَل في نَزْعِ شيءٍ عن شيءٍ مُلتَصِقٍ به، والنَّزْع: قلْعُ الشَّيءِ من مقرِّهِ وإخراجه عن موضِعه، والفرق بينهما أنَّ السَّلخَ فيه كَشْطٌ وإزالةُ آثارِ الشَّيءِ من الشَّيء، ففيه تسليكٌ وتخليصٌ يفصِلُ الشَّيء عن لصيقِه حتى ينكشِفَ عنه، ولذا كان أصلُ استعمالهِ في كشْطِ جِلدِ الحيوانِ عن لحمِه، ففيه تُؤَدَةٌ ودقَّةٌ وعناية حتى يتخلَّصا، وأمَّا النَّزْعُ؛ فهو قلْعُ شيءٍ من شيء بقوَّةٍ وشدَّةٍ، وغالبًا ما يكون دُفعةً واحدةً، فليس فيه رُوَيْدٌ ولا تُؤَدةٌ، ولا يتضمَّن معنى الكشْطِ ولا يلزمُ منه قصدُ كشْفِ الشَّيءِ عن الشَّيء[1].

السَّلْخُ: فيه كَشْطٌ وإزالةُ آثارِ الشَّيءِ من الشَّيء، والنَّزْعُ: لا يَلزَمُ فيه الكشطُ

(الأَخْذُ) و(الأَسْرُ):

الأَخْذُ أعمُّ مِنَ الأَسْر، فهو مطلقُ تناولِ الشَّيءِ وتحصيلِه، سواءٌ وقع ذلك بقهْرٍ أو من غير قهر، وإنَّما يُعبَّرُ عن الأسير بالأَخِيذِ والمأخوذ لاعتبار جانِبِ القهرِ في الأَخْذِ، وأمَّا الأَسْرُ؛ فهو أخصُّ؛ إذْ فيه قهرٌ وقيْدٌ، فهو مستعملٌ في الشَّدِّ بالقيْد، ومأخوذٌ من الإسار، وهو السَّيْرُ الذي يُقتَطَعُ من جِلْدٍ غير مدبوغ لِتُقَيَّدَ وتُشَدَّ به الأغراضُ، ولا دلالةَ في لفظ الأَخْذِ على القيْدِ أبدًا[2].

لا دلالةَ في لفظِ الأَخْذِ على القيْدِ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (سلخ، كشط، نزع).
(2) الرّاغب، المفردات (أخذ، أسر)، والسّمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (أسر)، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (أخذ، أسر).

﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ۝٦﴾ [التّوبة: 6]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

استثناءٌ لفيف من المشركين المستجيرين، وأحكام المستجير وغير المستجير منهم

لمّا تقرَّر في الآيةِ السَّابقة حُكمُ اللّه في المشركين الذين لا عهد لهم بعد انتهاء مهلةِ الأربعة أشهر، وكان أمْرُه للمسلمين أنْ يقتلوهم، ويأسروهم، ويحاصروهم، ويرصدوهم إلّا من تاب منهم، وأقام الصَّلاة، وآتى الزكاة، عطَفَ هنا في هذه الآية ما هو مُستثنًى أيضًا من الوعيد والأذى، وهو المشركُ الذي يأتي مستجيرًا يطلبُ عهدَ الأمان، فاستثنى المستجيرين منهم، كما استثنى التَّائبين.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱسْتَجَارَكَ﴾: من الجِوَارِ، وهو الكَوْنُ بالقرْبِ، وأصله المَيْل، وأُخِذَ منه الجارُ؛ لأنَّه يَميل على جارِه بالحقِّ والفضل بسبب القُرب، أو لِتقاربهما، مالَ أحدُهما عن الآخرِ، أو مال عليه، وهنا: السِّين والتَّاء للطَّلب، أي: طلَبَ الجِوارَ لأجْلِ الحمايةِ والأمانِ، فهو هنا مُستعارٌ في الاستغاثةِ والالتجاءِ[1].

2) ﴿أَبْلِغْهُ﴾: من البُلُوغ والبَلَاغ، وهو: الانتهاءُ إلى أقصى المقصدِ والمنتهى، والمراد هنا: أوصِلْهُ إلى جهتِه ومَقرِّه الذي يأمنُ فيه[2].

3) ﴿مَأْمَنَهُۥ﴾: من الأمْن، وهو الحالُ التي تثْبُتُ بها الطُّمأنينة، ويزول معها الخوف، والمأمَن اسم مكان، وهو الموضع الذي يتحقَّق فيه الأمْن، ولا يُنالُ فيه المرءُ بأذًى وشَرٍّ[3].

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (جور)، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/118.

(2) الرّاغب، المفردات: (بلغ)، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/113.

(3) الرّاغب، المفردات: (أمن).

المَعْنى الإجْماليُّ:

مشروعيَّةُ تأمينِ الحربيِّ؛ إذا طلب الأمانَ من المسلمين، مستجيرًا به

وإنْ طلبَ أحدٌ من المشركين - الذين استُبيحتْ دماؤهم وأموالهُم - الدُّخولَ في جوارك - أيُّها الرسول - وطلبَ العهدَ بالأمان، فأجِبْهُ إلى طلبِه حتى يسمع القرآنَ الكريم، ويطَّلِعَ على هدايته، ثمَّ أوصِلْهُ إلى مكانٍ يأمنُ فيه؛ وذلك لإقامةِ الحُجَّةِ عليه، ذلك بسبب أنَّ الكفَّار قومٌ جاهلون بحقائقِ الإسلام، فربَّما اختاروه إذا زالَ الجهلُ عنهم[1].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

موقعُ جملةِ ﴿وَإِنْ أَحَدٌ﴾ ممَّا قبلَهُ:

تفريعُ العطفِ على معنى الاستثناءِ السَّابقِ عليهِ

جملة ﴿وَإِنْ أَحَدٌ﴾ معطوفةٌ على ﴿فَإِن تَابُواْ﴾ لاستتمامِ التَّفصيل والأقسام، كأنَّه قيل: (فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم إلَّا التَّائب منهم أو المُستجير)، أو معطوفةٌ على ﴿فَٱقْتُلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ لتخصيصِ عمومِه، أي: (اقتلوا المشركين ممن لا عهد لهم إلّا المستجير بك)[2].

دلالةُ مجيءِ التَّركيب بصيغة الشَّرط:

تركيبُ الشَّرط يؤكِّد الحكمَ المذكورَ بطريقِ الجزاء

مجيءُ قولِه: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ بصيغة الشَّرط ليطَّرِد مع ما انعطف عليه في قوله: ﴿فَإِن تَابُواْ﴾، فقد جاء مشروطًا كذلك، وصِيغَ الكلامُ بذلك لتأكيدِ الحكمِ المذكورِ بطريقِ الجزاء؛ لأنَّ أسلوبَ الشَّرط تحفيزيٌّ بما تضمَّنه من ربْط النُّفوس بجزاءٍ يُرتَجَى من الفعل، والدَّلالةِ على علاقة السَّببيَّة بين فِعل المُجير والمستجير بأنسبِ صيغةٍ وأجمعها[3].

وجهُ الإتيانِ بـ(إنْ) في صدر الشَّرطِ:

التَّنبيهُ على ندرةِ وقوع فعل الشَّرط وكونِه احتماليًّا فرَضِيًّا

تصديرُ الشَّرط بـ(إنْ) في ﴿وَإِنْ أَحَدٌ﴾؛ لكونِ مدخولها احتماليًّا فرَضِيًّا في وقوعه، وليس محقَّقًا أو كثير الوقوع، وفيه تنبيهٌ على

(1) نخبة من العلماء، التَّفسير الميسّر، ص: 187.
(2) الواحديّ، البسيط: 10/298، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/117.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/117.

ندرةِ وقوع فعل الشَّرط، فحرف (إنْ) يشير إلى أنَّه لا يتوقَّع أن يستجير أحدٌ من المشركين بالمسلمين؛ لأنَّهم في حالة حرب وعداوة، ولأنَّهم متكبِّرون على دخول الإسلام، فإذا وقع ذلك؛ فهو شأنٌ فرديٌّ وخاصٌّ.

بلاغةُ التَّعبيرِ بلفظ ﴿أَحَدٌ﴾:

بلاغةُ سياقِهِ في دلالته على الذَّاتِ والصِّفة، وعلى من لا عهد له خصوصًا

قال في السِّياق الكريم: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ﴾، ولم يقل: (وإن مشرك) مع أنَّ كليهما يفيدُ العموم - لكونهما نكرتَين في سياق الشَّرط - لثلاثةِ أوجهٍ:

الأوَّل: لإرادة تخصيص النَّكرة بالوصفِ العهدي بعده، وهو ﴿مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾؛ ليقيِّد إطلاق النَّكرة في سياق الشَّرط بالمشركين المعهودين بالذِّكر في قوله: ﴿فَٱقْتُلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾، أي: المشركين الذين لا عهد لهم، وحتى يُجري هذا التَّقييد لا بد أن يأتي بأحدٍ دون المشرك؛ لأنَّه حينئذٍ سيقولُ: (وإنْ مُشركٌ استجارك)، فيكونُ اللَّفظ عامًّا في كلِّ مشركٍ، سواء له عهد أم ليس له عهدٌ، فيفوتُ المقصود، ولو قال: (وإن مشركٌ من المشركين استجارك)؛ لكان تكرارًا مُخِلًّا بإضافة الشَّيء لنفسِهِ، ولا يُقال: إنَّ العمومَ في (وإن مشركٌ استجاركَ) سيدخل فيه جميعُ المشركين النَّاكث وغير النَّاكث ولا بأس، فهذا خطأٌ؛ لأنَّ هذه الآيةَ تُجدِّدُ عهدًا بالأمان لمن لا عهد لهم، وأمَّا المشركُ الذي له عهدٌ؛ فهو غير مرادٍ هنا؛ لأنَّه مُجَارٌ بعهدِه بالفعل وآمِنٌ؛ فلا حاجةَ لإدخالِه في الآية.

الثاني: أنَّ تركيب: ﴿أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ أبلغُ في سياقه هنا من تركيب (وإن مشركٌ)؛ لأنَّ الأوَّل يدلُّ على الذَّاتِ والصِّفة على جهة الاستقلال فيهما، فـ(أحد من المشركين) فيه تنصيصٌ أوَّلًا على الذَّاتِ المستجيرة اعتبارًا لها، ومبالغةً في الدِّلالةِ على حضورها الذَّاتيِّ؛ لِتُفْرَدَ بالنَّظَرِ والعناية، ثم يأتي وصفُها استقلالًا أيضًا

﴿مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾، أمَّا (مُشْرِك)؛ فهي تدلُّ على الذَّاتِ والصِّفة معًا من غيرِ إفرادِ كلٍّ باستقلالِه عن الآخر، فيخلو من النُّكتةِ المذكورةِ.

الثَّالث: أنَّ لفظ ﴿أَحَدٌ﴾ فضلًا عن إفادته لعموم الجنسِ، فله خصوصيَّةٌ في دلالته على الجمعيَّةِ كدلالتِه على الفرديَّةِ، فيتناولُ في معناه "مَنْ يصلح للخطابِ واحِدًا كان أو مُثَنًّى أو مجموعًا، فإنَّ المُستأمَنَ قد يكون جماعةً من المشركين"، فأوردَهُ ليتناولَ حال الاجتماع والافتراق والوحدة في المُستجيرين[1].

سرُّ تقديمِ المسندِ إليه ﴿أَحَدٌ﴾:

تقديمُ ﴿أَحَدٌ﴾ على الفعل ﴿ٱسۡتَجَارَكَ﴾ مع أنَّ تقديم الفعل كان سيغني عن تقديرِ العامِل في ﴿أَحَدٌ﴾، (إن استجارك أحدٌ من المشركين استجارك) ومع ذلك قدَّم المسندَ إليه لتوفُّر العناية عليه، واتِّجاه القصد إليه، كأنَّه قيلَ: ليس المقصودُ طلبَ الإجارةِ، وإنَّما المقصود الطَّالِبُ لها، لا مِنْ حيثُ كونُه مُستجيرًا، إنَّما لكونِ استجارتِه ذريعةً ومِظِنّةً لسماعِه كلامَ الله، ففي التَّقديم كمالُ الحرص على ذاتِ الشَّخص المُستجير في تلبيتِه بإجارتِه وفي إسماعه القرآنَ لهدايتِه[2].

كمالُ الحرصِ على ذاتِ الشَّخص المُستجيرِ مِظنَّةٌ لهدايته

المجازُ في قوله: ﴿ٱسۡتَجَارَكَ﴾:

الاستجارةُ هي طلبُ الجِوار، فالسِّين والتاء للطَّلب، واستُعمِلَتْ مجازًا في طلبِ الأمان، لِكون الإنسان - غالبًا - لا يُجاوِرُ إلَّا مواضعَ الأمنِ له[3].

حالُ طالبِ الأمانِ تُشبِهُ حالَ طالِبِ الجِوار، في قصدِ كليهما لمعنى الأمنِ

دلالةُ أسلوبِ الخطابِ في قوله: ﴿ٱسۡتَجَارَكَ﴾:

أسلوبُ الخطابِ للنَّبيِّ ﷺ في قولِه: ﴿ٱسۡتَجَارَكَ﴾، وقوله:

(1) القُونَويّ، حاشيته على تفسير البيضاوي: 9/157.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/118، وأبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 6/3232.
(3) القُونَويّ، حاشيته على تفسير البيضاوي: 9/157، وعاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/118.

الخطابُ فيه تخصيصٌ للنَّبيِّ بمباشَرةِ مُهِمَّاتِ القضاءِ والحُكْم

﴿فَأَجِرْهُ﴾ مع قوله: ﴿ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ﴾ دليلٌ على أنَّ السُّلطان أو الإمام هو من يجوز له إعطاءُ الأمان للمحاربِ المنبوذ، ويدلُّ قوله: ﴿ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ﴾ أنَّه على الإمام إذا أعطى عهدًا لمُحاربٍ بالأمان أن يحفظَهُ، ويمنعَ النَّاسَ منه أن يتناولوهُ بشرٍّ أو أذًى[1].

نكتةُ السُّكوتِ عن سببِ الاستجارةِ:

لا يستجيرُ العاقلُ إلَّا لغرضٍ صحيح

لم يقل: (استجارك لكذا)، وسكتَ عن سبب الاستجارةِ؛ لتفاوت أغراضِ المستجيرين، فكلٌّ يستجيرُ بحسب حاجتِهِ، وفي السُّكوتِ عن السَّبب اعتبارٌ لمقاصدِ العقلاء منهم؛ إذ لا يستجيرُ العاقل إلَّا لغرضٍ صحيحٍ[2].

دلالةُ الفاءِ و(حتّى):

اعتِبارُ استجارةِ المشركِ سبَبًا كافيًا في إغاثَتِه إلى حين ما يدعو لهدايتِه

قوله: ﴿فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ﴾، الفاءُ في قوله: ﴿فَأَجِرْهُ﴾ رابطةٌ الجوابَ بالشَّرط، ومعناها: لِتَكُنِ استجارةُ المُشركِ بك سببًا كافيًا في إغاثته، و(حتى) حرفُ غايةٍ أو تعليل متعلِّقٍ بـ(أجِرْه)، ومعنى الغايةِ: أجِره إلى أن يسمعَ، ومعنى التَّعليل: أجِرْهُ كي يسمعَ أو لأجل أنْ يسمعَ[3].

بلاغةُ الإيجازِ بالحذفِ في سماع المستجير:

تأليفُ قلبِ الكافرِ بإغاثتِه وتأمينِهِ رجاءَ أنْ يهتدِي

قولهُ: ﴿فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾، فيه إيجازٌ بديعٌ لكلام محذوفٍ بين جواب الشَّرط ﴿فَأَجِرْهُ﴾، وغايته ﴿حَتَّىٰ﴾، " وهو ما تشتمل عليه إقامةُ المستجير من تفاوضٍ في مهمٍّ، أو طلبِ الدُّخولِ في الإسلام، أو عرْض الإسلام عليه، فإذا سمعَ كلامَ اللّهِ؛ فقد تمَّت أغراضُ إقامتِهِ؛ لأنَّ بعضَها من مَقصِدِ المستجيرِ، وهو حريصٌ على أن يبدأَ بِها، وبعضها من مقصدِ النبيِّ ﷺ وهو لا يتركهُ يعود حتى

(1) الجصّاص، أحكام القرآن: 4/273، وأبو حيان، البحر المحيط: 5/375.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/118.
(3) أبو حيان، البحر المحيط: 5/374، والصافي، الجدول في إعراب القرآن: 10/286.

يُعيدَ إرشادَهُ، ويكونَ آخرُ ما يدورُ معه في آخرِ أزمانِ إقامتهِ إسماعَهُ كلامَ اللّهِ تعالى"[1].

بلاغةُ التَّعبيرِ باسم المصدرِ ﴿كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾:

الدَّلالةُ على الاسمِ المفهومِ من حدث التَّكليم، وهو القرآنُ العظيم

وردَ التَّعبير هنا بـ (الكلام) الذي هو اسمُ مصدرٍ، دون المصدر (التكليم)، ودونَ الجمعِ السَّالم (كلمات)، واسمُ المصدرِ نصٌّ في الاسميَّة المجرَّدةِ عن الزَّمن، فهو لا يفيد الفِعليَّةَ، فصيغتُه مَقصودٌ منها استحضارُ المعنى الثَّابتِ للشَّيء، وتتأكَّدُ تلك الدَّلالة - هنا - بإفادة لفظ(الكلام) لمعنى الجنسيَّةِ الدالِّ على الماهِيَّةِ والحقيقةِ؛ إذْ هو اسمُ جنسٍ يقعُ على القليلِ والكثير، و(الكلمات) جمعٌ سالم، والجمع السَّالمُ يدلُّ على الحدَث؛ فهو يُقرِّبُ الصِّفةَ من الفِعليَّةِ، والجمعُ السَّالم مقصودٌ منه استحضارُ صورةِ الحدوثِ في اللَّفظ، والحدوثُ الزَّمنيُّ يدلُّ على التَّبايُن، والتَّجدُّد، والتَّعدُّد، وهذا كلُّه ليس مقصودًا هنا، فلم يعبِّر هنا بالجمعِ السَّالم (كلمات اللّه)، وقال: ﴿كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾، لإرادةِ الاسميَّةِ المجرَّدة، وهو (القرآن)، وعبَّر باسم المصدرِ (الكلام) دون (التكليم)؛ لأنَّ اسم المصدرِ يدلُّ على الاسم المفهوم من الحدث، والمصدر يدلُّ على الحدثِ، فالكلامُ هو اسمُ الشَّيءِ الحاصلِ من حدَثِ التَّكليم وهو القرآنُ، فاسم المصدر يدلُّ بموجبِه على اسم الشَّيء وعلى الذَّاتِ الَّتي تعلَّق بها[2].

دلالةُ إضافة الكلام إلى الاسم الجليل:

تجريدُ العقلِ المُشرِكِ عن خرافاتِ الافتراءِ على القرآنِ بزعمِ بَشَريَّتِه، وتهيئتُهم لسماعه

إضافةُ الكلامِ للفظ الجلالة من باب إضافةِ الصِّفة للموصوف[3]، أي: الكلام الَّذي تكلَّم بهِ اللّهُ، واتَّصف بهِ، ففي الإضافةِ دليلٌ على أنَّ الرَّسول ﷺ ليس إلَّا مُبلِّغًا له مأمورًا به، وفي هذا تجريدٌ للعقليَّة

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/118.

(2) الجوهريّ، الصّحاح: 5/2023، والسّمين الحلبي، عمدة الحفاظ: 3/423، ودرويش، إعراب القرآن وبيانه: 1/87، فاضل، معاني النَّحو: 3/164.

(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/375.

المُشرِكة عن خرافاتِ الافتراء على القرآن التي علِقَتْ بأذهانِهم، وحجبتهم عن الاستماعِ له، فكأنَّ الإضافة هَيَّأتْهُم لسماع القرآن على نحوٍ خالصٍ من الشُّبهات الَّتي ألِفوها.

معنى (ثم) في قوله: ﴿ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ﴾:

فُسحةُ النَّظَرِ بعد سماعِ المشركِ للقرآنِ، واستمرارُ إجارتِهِ في أرضِ الإسلام

العطفُ بحرفِ التَّراخي قبل الأمرِ دونَ غيرِه، يدلُّ على أمرين: الأوَّل: الفُسْحة في الحوارِ والنِّقاش والتفاوض بعد سماعِ المشرك للقرآن، فهو ليس سماعًا عابرًا بل سماعًا متبوعًا بإفهامٍ ومراجعةٍ ومُساءَلَةٍ، فإذا انقضتْ تلك المُهلةُ التي دلَّتْ عليها (ثُمّ)، كان إبلاغُه مأمنَه أجاب المشركُ أم لم يُجِب، الثَّاني: "وجوبُ استمرارِ إجارتهِ في أرضِ الإسلامِ إلى أن يبلغَ المكان الَّذي يأمنُ فيه، ولو بلغَهُ بعد مدَّةٍ طويلةٍ، فحرف (ثم) هنا للتَّراخي الرُّتَبي اهتمامًا بإبلاغه مأمنَه"[1].

إيثارُ الفعلِ ﴿يَسْمَعَ﴾:

المشركُ في مقامِ التَّعرُّف على القرآنِ، ولم يطلب سماعَهُ

إنَّما قال: ﴿يَسْمَعَ﴾ بصيغة المضارع؛ ليدلَّ على أنَّ إسماعه ربَّما تكرَّرَ، ولم يكن عن مرَّةٍ واحدة، فما زال حاضرًا بين يدي النَّبيِّ، فالنَّبيُّ يُسْمِعُه، فيسمعُ منه، وقال: ﴿يَسْمَعَ﴾، ولم يقل: (يستمِع) لأربعة أوجهٍ: الأوَّل: أنَّ إسماعَه القرآنَ هو من جهةِ النَّبيِّ ﷺ، والمشركُ ليس حريصًا على السَّماع، ولم يأتِ لطلبِه، بل أتى للاستجارة، فهو مُبادَأٌ بهِ من النَّبيِّ ﷺ رجاءَ أن يسمعَ، فلمَّا كان ذلك كذلك؛ كان سماعًا لا استِماعًا.

الثاني: أنَّ المُشرِك المستجيرَ هو خالي الذِّهن من العِلْم بالقرآنِ وفهمِه، ولذلكَ وصفَهم بأنَّهم قومٌ لا يعلمونَ، فهو في مقامِ مَن يتعرَّفُ على الشَّيء، فيحتاجُ أنْ يسمعَه أوَّلًا، ثم إنْ عَقِلَهُ؛ استمع له.

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/119.

الثَّالث: أنَّ المشرِكَ لا يستمِعُ للقرآنِ بل يسمعُهُ؛ لأنَّ الَّذي يستمعُ له حقَّ الاستماع هو المؤمن المقِرُّ به، أو غير المؤمن الذي تكوَّنتْ فيه الجاهزيَّةُ لقبولِه، وكلاهما غيرُ حاصِلٍ في هذا المقام.

الرابع: أنَّ السَّماع أعمُّ من الاستماع، والأعمُّ يتضمَّنُ الأخصَّ، فلا مانع أنْ يكون حاصلًا هنا كذلك.

صيغة ﴿مَأۡمَنَهُۥ﴾ ودلالتها:

﴿مَأۡمَنَهُۥ﴾ مصدرٌ ميميٌّ أو اسم مكان، والمعنى على الأوَّل: أبلِغْهُ موضعَ أمانِه، وعلى الثّاني: أبلِغْهُ أمانَه[1]، وباعتبار الصِّيغتَين يدلُّ معنى اللَّفظِ على أنَّ النَّبيَّ ﷺ مسؤولٌ عن تأمينِهِ من الوقتِ الذي يُعطيهِ فيه العهدَ بالإجارةِ إلى الوقتِ الذي يَصِلُ فيه لِمكانهِ آمِنًا، وما بينهما في سفَرِه ورحيلِه.

تقريرُ مسؤوليَّةِ وليِّ الأمرِ في تأمينِ المشرك المستجير

دلالةُ إضافةِ المأمنِ لضميرِ المشركِ:

أضافَ المأمنَ لضمير المشركِ إيذانًا بأنَّ المكانَ مكانُ أمْنِهِ الخاصِّ الَّذي لا يقدر أحدٌ فيه أن ينالَه بسوءٍ كدارِ قومِهِ ونحوِه، وللتَّفريق بين دارِ الإجارةِ التي يكون فيها آمِنًا بالعهد العارض، وداره الأصليَّة التي يكون فيها آمِنًا بالاستحقاقِ الدَّائم[2].

بَلَدُ الإجارةِ أمانُها بالعهدِ الخاصِّ المؤقَّت، والبَلَدُ الأصليَّة أمانُها بالاستحقاقِ الدَّائم

وجْهُ جعْلِ سماعِ كلامِ اللهِ غايةً للإجارة:

جعلُ سماعِ القرآنِ غايةً لإجارةِ المُشرك تسجيلٌ للحجَّةِ على المشركين؛ إذ جعل تجديدَ الأمان لهم ذريعةً لإبلاغهم مع استغناءِ الرَّسول والمؤمنين عنهم وقدرتهم عليهم، وفيه تحريضٌ للمؤمنين أن يؤلِّفوا قلوبَ الكافرين بما يتمكَّنون بهِ من إبلاغِهم الوحي وتعريفهم بهِ، وفيه إشارةٌ إلى أنَّ أغراضَ الدُّنيا مطلوبةٌ لأجلِ تلك الغاية وهي سماعُ القرآنِ والتَّحقُّقُ به.

أغراضُ الدُّنيا يُتوسَّلُ بها لغايةِ إسماعِ كلامِ اللهِ والتَّعريفِ بهِ

(1) السّمين، الدّر المصون: 6/14.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/120.

دلالةُ الإشارةِ في ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ﴾، وعِلَّةُ الفصلِ:

قولهُ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ﴾، استئنافٌ لالتماس العذرِ لهم وهي تعليليَّةٌ لما قبلَها ولذلك فُصِلَتْ، فـ(ذلك) إشارةٌ إلى مضمونِ ما قبلَهُ من اللُّطف والمطاوعة، كأنَّه قال: هذا اللُّطفُ في الإجارة والإسماعِ وتبليغ المأمن بسببِ عَدَمِ عِلمهم، فنَعْذُرُهم[1].

استئنافُ التماس العذرِ للمشركين، وتعليلُ اللُّطف في الإجارة وإسماع القرآن

معنى دخولِ الباءِ على مدخولِ الإشارة ﴿بِأَنَّهُمۡ﴾:

الباءُ في قوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ﴾ للنَّصِّ على السببيَّةِ، أي: ذلك السَّابق من الإجارةِ وتبليغ القرآنِ والمأمن بسببِ أنَّهم قومٌ لا يعلمون، وفائدة النَّصِّ على السببيَّةِ بالباء إعذارُهُم من الله، والتماسُ العذر لهم من النَّاس، إذ الجهلُ حجابٌ يدعو لاعتذارِ الجاهلِ منه وإعذار العالِم له حتى يتعلَّم[2].

الجهلُ حجابٌ يدعو لاعتذارِ الجاهلِ من جهلِه وإعذار العالِمِ للجاهِلِ لحين تعلُّمِهِ

دلالةُ إقحامِ لفظِ القوم، في السّياق:

لم يقل: (ذلك بأنَّهم لا يعلمون)؛ لتأكيد أنَّ جهلَهم ضاربٌ في أقوامِهم، فكأنَّهم يتناقلون الجهلَ بينهم إمَّا بالعَدوَى، وإمَّا بالتَّوارث، وهذا أبلغُ في تأكيد عدم عِلمِهم وأدعى لتقريرِ معنى إعذارِهم السَّابق.

تأكيدُ جهلِ المشركين، وهو منقولٌ بالوراثَةِ أو بالتَّقليد

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(استَجَارَكَ) و(استأمَنَكَ):

﴿ٱسۡتَجَارَكَ﴾ معناهُ: طَلَبَ جِوارَك، من الجِوَار وهو مُجاوَرةُ الشَّيء للشَّيء، وأصلُ التَّركيب يدورُ حولَ المَيْل، ويكأنَّ الجارَ لِتقاربِهِ الشَّديد لجارِهِ يكونُ كلاهُما مائلًا إلى صاحبِهِ، وتُستعملُ الاستجارةُ كنايةً عن طلَبِ الأمان، للزوم الأمانِ والسَّكِينة عن حالةِ المجاورةِ غالبًا، وحالُ طالبِ الأمان تُشبِه حالَ طالِبِ الجِوار في قصدِ كليهما

المُستجيرُ يطلبُ الأمانَ مع القُربِ من المُجير، والمستأمِنُ لا يَلزمُ جِوَاره ممَّنْ يؤمِّنُهُ

(1) ابن عطية، المحرّر الوجيز: 3/9، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/120.
(2) النّسفي، مدارك التّنزيل: 1/665.

لمعنى الأمْنِ وعدم الخوفِ، إلَّا أنَّ لفظَ (المستأمِن)، وهو طالبُ الأمان، لا يفيد معنى القُربِ والميْل الَّذي يفيدُه لفظ (المُستجير)، فلفظُ المُستجيرِ أمكنُ في دلالتِهِ على طلبِ الأمانِ مع القُربِ من المُجير، وأمَّا (استأمَنَك)؛ فهي مجرَّدةٌ في طلبِ الأمْنِ سواءٌ بقربٍ ومُجاورة أو من غيرهما، فلفظُ استجاركَ أخصُّ وأبلغُ من لفظِ استأمنكَ، ولذا عبَّرَ بهِ في الآية[1].

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، والسّمين: (أمن، جور)، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (جور).

﴿كَيۡفَ يَكُونُ لِلۡمُشۡرِكِينَ عَهۡدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمۡ عِندَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۖ فَمَا ٱسۡتَقَٰمُواْ لَكُمۡ فَٱسۡتَقِيمُواْ لَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَّقِينَ ٧﴾ [التّوبة: 7]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

المُناسبةُ بينَ إجارةِ المُستجيرِ والمُعاهدِ، والبراءةُ ممّن سبقَ غدرُهم بالمؤمنين

لمّا كانَتِ العهودُ مُعظَّمَةً عندَ العربِ وغيرِهم، وكانَ قد سبقَ الكلامُ في البراءةِ من عهودِ المُشركين أثارَ ذلك سؤالًا في نفوسِ السَّامعينَ منَ المُسلمينَ وغيرِهم عن سببِها، وكيف أُنهيَتِ العُهودُ، وأُعلنَتِ الحربُ؟! فإنَّ هذا ممّا يُتعجَّبُ منه، فشرعَ في تحقيقِ حقِّيَّةِ ما سبقَ مِنَ البراءةِ وبيانِ سببِها، وأنَّهُ أمران: بُعْدُ ما بينَ العقائدِ، وسبقُ الغدرِ[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿عَهۡدٌ﴾: العَهدُ: الأمانُ، واليمينُ، والمَوثِقُ، والذِّمّةُ، والحِفاظُ، والوصيّةُ، وقد عَهِدتُ إليه؛ أي: أَوصيتُهُ. ومنه اشتُقَّ العَهدُ الّذي يُكتَبُ لِلوُلَاةِ. وتقولُ: عليَّ عَهْدُ اللّهِ لأفعلنَّ كذا. وفي الأمرِ عُهْدَةٌ بالضّمِّ؛ أي: لم يُحْكَمْ بعدُ[2]. قَالَ الخليلُ: أَصلُهُ الاحتِفاظُ بالشَّيءِ وإحداثُ العَهدِ بِهِ. والَّذي ذَكَرَهُ مِنَ الاحتِفاظِ هُو المَعنَى الَّذي يَرجِعُ إِلَيهِ فُرُوعُ البَابِ. فَمِنْ ذَلِكَ قَولُهُم: عَهِدَ الرَّجُلُ يَعهَدُ عَهدًا، وهوَ مِنَ الوَصِيَّةِ... وأَهلُ العَهدِ هُمُ المُعَاهَدُونَ، والمَصدَرُ المُعَاهَدَةُ؛ أَي: إِنَّهُم يُعاهَدُونَ على ما عَلَيهِم مِن جِزيَةٍ، والقِياسُ واحِدٌ، كأَنَّهُ أَمرٌ يُحتَفَظُ بِهِ لَهُم، فإِذَا أَسلَمُوا ذَهَبَ عَنهُمُ اسمُ المُعاهَدَةِ[3].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/383، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/121، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/44.

(2) الجوهريّ، الصّحاح: (عهد).

(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عهد).

2) ﴿ٱسۡتَقَٰمُواْ﴾: يدورُ لفظُ (قوم) على مَعنى جماعةٍ مِنَ النّاسِ، وعلى معنى انتصابِ الشّيءِ إلى أعلى ثابتًا، ومنه: قامَ قيامًا؛ إذا انتصبَ، والإِقَامَةُ في المكانِ: الثّباتُ، وإِقَامَةُ الشّيءِ: توفيةُ حقِّهِ وإدامتُهُ، والاستِقَامَةُ يُقالُ في الطّريقِ الّذي يكونُ على خطٍّ مُستوٍ، فالاستقامةُ في الشّيءِ بمعنى الاعتدالِ والاستواءِ فيه، وعدمِ الحيودِ عن جادّتِهِ، ويكونُ واضحًا بيِّنًا، ومعنى (استقامُوا) هنا: لَزِمُوا توفيةَ حقِّ العهدِ، وثبتُوا عليه بُوضوحٍ[1].

المَعْنى الإِجْماليُّ:

الوفاءُ بالعهدِ خُلقٌ يحبّهُ اللهُ، ويرضاه لعبادِهِ المؤمنينَ

أنّى يكونُ أيُّها المؤمنونَ باللّهِ ورسولِهِ لِلمشركينَ بربِّهم عهدٌ وذِمَّةٌ عندَ اللّهِ وعندَ رسولِهِ، يُوفّى لَهُم بهِ، ويُترَكون مِن أجلِهِ آمنينَ يَتصرَّفونَ في البلادِ؟ والمعنى: لاعهدَ لَهُم، وأنَّ الواجبَ على المؤمنين قتلُهُم حيثُ وَجدُوهُم، إلَّا الّذين أُعطوا العهدَ عندَ المسجدِ الحرامِ منهُم، فإذا استقامُوا لكُم على العهدِ فاستقيمُوا لَهُم في وفائِهِ، إنَّ اللّهَ يُحبُّ مَنِ اتَّقاهُ، وامتنعَ عن نقضِ العهودِ والغدرِ بها، لمنْ عاهدَهُ، فالوفاءُ بالعهدِ مِن أخلاقِ المُتَّقينَ[2].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ الاستفهامِ المجازيِّ:

بيانُ أن لا بقاءَ لعهدِ المُشركينَ بعدَ نكثِهِم لِلعهدِ، وانسلاخِهِم منهُ

في قولِهِ تعالى: ﴿كَيۡفَ يَكُونُ لِلۡمُشۡرِكِينَ عَهۡدٌ﴾ جاءَ الاستفهامُ بـ ﴿كَيۡفَ﴾ على طريقِ الاستنكارِ والاستبعادِ والتّعجيبِ لأنْ يكونَ لِلمُشركينَ عهدٌ ولا ينكثوهُ؛ لِما هُمْ عليهِ مِنَ الشّركِ، والمعنى على إنكارِ وقوعِ العهدِ ونفيِهِ بالكلّيّةِ لأنْ يكونَ لِلمُشركينَ عهدٌ في جميعِ الأحوالِ؛ لِيُفيدَ استحالةَ أنْ يثبتَ لهؤلاءِ عهدٌ، أو أنْ يكونَ الاستنكارُ

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (قوم).

(2) ابن جرير، جامع البيان: 14/141.

والاستبعادُ لأنْ يَفِيَ اللّه ورسوله بالعهدِ، وهُم قَد نَكثُوهُ، وفي الوجهين معنى التَّعجُّبِ مِن أنْ يكونَ لهم عهدٌ، أو أنْ يبقى العهدُ بينَهُم وبينَ المُؤمنينَ بعدَ نَكْثِهم العهدَ، وفيه كذلك تعجيبٌ مِن حالِ مَن يدَّعي أنَّ المُشركينَ مع إهدارِهم العهودَ والمواثيقَ ونقضِها يكونُ لهم عهدٌ واجبُ الرِّعايةِ على كلِّ حالٍ، فقد أغربَ مَن هذا حالُه، ودعا إلى التَّعجُّبِ مِن حالِه، وفي الاستفهامِ الإنكاريِّ توبيخٌ لمَنْ تُحدّثُهُ نفسُهُ بأنْ يُثبِتَ لهم عهدًا؛ لقطعِ الطّمعِ في ذلك[1]، وقيل: هذا الاستِفهَامُ مَعنَاهُ النَّفيُ، ومنه في قِراءَةِ عبد اللّه: (كَيفَ يكونُ لِلمُشركينَ عهدٌ عِندَ اللّهِ ولا ذمَّةٌ)؛ أي: لَيسَ لِلمُشركينَ[2].

دلالةُ ﴿كَيْفَ﴾ على العُمومِ في سياقِ الآيةِ:

لمّا كانَ اسمُ الاستفهامِ ﴿كَيْفَ﴾ لِلسّؤالِ عنِ الحالِ دلَّ على أنَّ الإنكارَ يَنتَظِمُ الأحوالَ كلَّها لعمومِ الاسمِ، ففيهِ مِنَ المُبالَغةِ ما لا يَخفى؛ لإفادتِهِ الإنكارَ على وجودِ عهدٍ مِنَ المُشركينَ عندَ اللّهِ ورسولِهِ في جميعِ الأحوالِ المُستغرِقةِ لجميعِ الأزمنةِ والأمكنةِ إلَّا فيما استُثنيَ.

إنكارُ بقاءِ العهدِ لِلمُشركينَ يَنتظِمُ جميعَ أحوالِ المؤمنينَ

دلالةُ ﴿كَيْفَ﴾ على الحالِ في سياقِ التَّخصيصِ:

الأداةُ (كيف) يُسأَلُ بها عنِ الحالِ، والحالُ قد يكونُ عامًّا، وقد يكونُ خاصًّا، فإنْ أُطلِقَتْ تكونُ عامّةً، وإنْ خُصِّصَت تكونُ خاصّةً، ولكنّها قد لا يُرادُ بها الاستفهامُ، بل يُرادُ بها التَّعجُّبُ، كأنْ يُقالَ لكَ: (كيف سبَّ فلانٌ أباهُ؟!)، هنا تَعَجُّبٌ مِنَ القُبحِ؛ لأنّ مَا حَدَثَ مُستَهجَنٌ، ولا يصحُّ وقوعُهُ ولا يُتصوَّرُ، والتَّعجُّبُ مِنَ القُبحِ يكونُ تعجُّبَ إنكارٍ، وفي هذه الآيةِ الكريمةِ يقولُ تعالى: ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ﴾ [التّوبة: 7]، وهذا تعجُّبٌ مِن أن يكونَ لِلمُشركينَ شيءٌ

عجبٌ من المشركين الذين لا وازعَ لهم يمنعُهم مِن نقضِ العهودِ

(1) مكّيّ بن أبي طالب، الهداية إلى بلوغ النّهاية: 2/1347، والزّمخشريّ، الكشّاف: 2/249، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/9، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 15/531، ورضا، تفسير المنار: 10/164.

(2) البغداديّ، خزانة الأدب: 5/14.

مِنَ العهدِ؛ لأنّ الأصلَ أنّهُ لا عَهدَ لَهُم؛ لأنّهُم لا يَعرفون إلّا نقضَ العَهدِ، ولا يَتمسَّكونَ بالعهودِ ولا يحترمُونَها، لِذلكَ سِيقَ الاستفهامُ عَن ذلكَ لا بغرضِ الاستفهام، ولكن بغرضِ التَّعجُّبِ مِن أن يكونَ لهم عهدٌ، بينما هُم في الحقيقةِ لا عهدَ لَهُم ولا ذِمَّةَ[1].

مُناسبةُ توجيهِ الإنكارِ في ﴿كَيۡفَ يَكُونُ﴾:

انتفاءُ وجودِ أيِّ حالٍ يَستحِقُّ أنْ يُراعَى فيه عَهدُ المُشرِكينَ

توجَّهَ الإنكارُ إلى كيفيَّةِ ثبوتِ العهدِ ووقوعِه، دونَ أن يتوجَّهَ إلى ثبوتِ العهدِ، فلمْ يقُلْ: (كيفَ تعاهدونَ المُشرِكينَ)؛ لأنَّ في توجيهِ الإنكارِ إلى كيفيَّةِ ثبوتِ العهدِ مِنَ المبالَغةِ ما ليسَ في توجيهِهِ إلى ثبوتِهِ؛ لأنَّ الحالَ لمّا كانَ مُلازِمًا غيرَ مُفارِقٍ لِكُلِّ مَوجودٍ، فإذا انتَفى جميعُ أحوالِ وجودِهِ فَقَدِ انتَفى وجودُهُ على الطّريقِ البُرهانيِّ؛ والمعنى: على أيِّ حالٍ أو في أيِّ حالٍ، يوجدُ لهم عَهدٌ مُعتَدٌّ بهِ ﴿عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ﴾، يستحِقُّ أنْ تراعَى حقوقُهُ، ويُحافَظَ عليهِ إلى إتمامِ المُدَّةِ، ولا يُتعرَّضَ لَهُم بِحَسَبِه قَتلًا ولا أَخْذًا[2].

الفعلُ ﴿يَكُونُ﴾ بينَ التَّمامِ أو النَّقصِ:

تعظيمُ وفاءِ المُشرِكينَ بعهدِهِم لِلمُؤمنينَ، واحترامُهُم له

يَحتمِلُ الفعلُ أن يكونَ مِنَ الكونِ التّامِّ، بمعنى: إنكارِ وقوعِ العهدِ واستبعادِهِ، ويكونُ اسمُ الاستفهامِ على التّشبيهِ بالحالِ، وتقديرُ الكلامِ: كيفَ يوجدُ عَهدٌ لِلمُشرِكينَ عندَ اللّهِ؟! واستظهرَ السَّمينُ الحلبيُّ وأبو السُّعود هذا الوجهَ؛ لإفادته أنَّ الأصلَ ألّا يوجدَ عَهدٌ لِلمُشرِكينَ عندَ اللّهِ وعندَ رسولِه إلَّا الّذينَ عاهدُوا المؤمنينَ واحترمُوا العهودَ[3]. وذَهَبَ جمهورُ المُفسِّرينَ إلى أنَّ ﴿يَكُونُ﴾ مِنَ الكونِ النّاقصِ، فيكونُ فِعلًا ناقصًا، واختلفُوا في الخبرِ، ونذكرُهُ لتنوُّعِ المعنى بتنوُّعِ التّوجيهِ، فأكثرُهُم على أنَّ الخبرَ اسمُ الاستفهامِ المُقدَّمِ، والمعنى: إنكارُ أن يكونَ عهدٌ في أيِّ حالٍ مِنَ الأحوالِ

(1) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 8/4898.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/45.
(3) السّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 6/14، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/44.

لِلمُشرِكينَ عندَ اللّهِ، وأجازُوا أن يكونَ ﴿لِلۡمُشۡرِكِينَ﴾ هو الخبرَ، فيكونُ مَحطُّ فائدةِ الخبرِ كونَ العهدِ لِلمُشرِكينَ، أو يكون ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾؛ والمعنى: إنكارُ أن يكونَ عهدٌ عندَ اللّهِ لِلمُشرِكينَ تَعظِيمًا للأمرِ وتَفخِيمًا لهُ[1].وعلى جميعِ هذه الأوجهِ الإعرابيّةِ يكونُ الإنكارُ على عهدٍ واقعٍ، ولمّا كانَ عهدُ الأمانِ لم يقعْ بعدُ أفادَ التّعبيرُ المبالغةَ في الإنكارِ بتنزيلِ مَا هو بالإمكانِ العُرفيِّ مَنزِلةَ الواقعِ، وعلى كلا الوَجهين؛ فالفعلُ ﴿يَكُونُ﴾ مُستعمَلٌ في مَعنى الدَّوامِ، مثل قولِهِ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [النّساء: 136]؛ بمعنى استمرارِ الإنكارِ على وُقوعِ العَهدِ أو على عَهدٍ وَاقعٍ، إلَّا الّذين عاهدُوا المُؤمنينَ واحترمُوا عهودَهُم.

فائدةُ تقديمِ المُسندِ على المُسندِ إليه:

أصلُ الكلامِ في قولِهِ: ﴿كَيۡفَ يَكُونُ لِلۡمُشۡرِكِينَ عَهۡدٌ﴾: كيفَ يكونُ عهدٌ لِلمُشرِكينَ؟! فقُدِّمَ الجارُّ والمجرورُ؛ للاهتمامِ وللتّخصيصِ، فأمّا وجهُ الاهتمامِ فإنّ الأولى في إنكارِ وقوعِ العهدِ واستبعادِهِ في حالِ كونِهِ لِلمُشرِكينَ النّاكِثين قبلَ غيرِهِم؛ لِشركِهِم باللّهِ تعالى، وأمّا وَجهُ التّخصيصِ فهو أنَّ المقصودَ بالإنكارِ هو عهدُ المُشرِكينَ لا مُطلق العهدِ[2].

الإنكارُ على عهدِ المُشرِكينَ النّاكِثينَ، وليسَ على مُطلَقِ العهدِ

نكتةُ التّعبيرِ بالجارِّ والمجرورِ ﴿لِلۡمُشۡرِكِينَ﴾:

لمّا كانَ المرادُ بالمُشرِكينَ النَّاكِثينَ؛ لأنَّ البراءةَ إنَّما هي في شأنِهِم، وكانَ لفظُ (المُشۡرِكِينَ) وصفًا مُشتقًّا نبَّهَ على أنَّ عِلَّةَ انتفاءِ العَهدِ بالوَصفِ الَّذي قامَ بِهِم هُو الإشرَاكُ؛ فإنَّ تعليقَ الحُكمِ بالمُشتقِّ يُؤذِنُ بعلّيَّةِ المأخذِ؛ أي: ما منهُ الاشتقاق؛ أي: إنّ سببَ الإنكارِ والاستبعادِ والتّعجيبِ مِن أنْ يكونَ لهم عهدٌ عندَ اللّهِ وعندَ

لا عهدَ لِلمُشرِكينَ معَ إضمارِهِم الغدرَ والنَّكثَ

(1) البيضاويّ، أنوار التّنزيل وأسرار التّأويل: 3/72، وأبو حيّان، البحر المحيط: 5/376.
(2) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 2/6.

رسولِهِ.. هُو ما هُم عليهِ مِن شركِهِم باللّهِ، فهُم أضدادُ المُؤمنينَ، وَغِرَةٌ صدورُهم عليهم، فأفادَ الاسمُ المُشتقُّ وجهَ الإنكارِ والاستبعادِ؛ إشعارًا بأنَّ المُشركينَ يُضمِرونَ الغدرَ لِلمُؤمنينَ؛ لِمَا في صدورِهِم مِنَ الغيظِ والبغضاءِ والحَسدِ لِلمُؤمنينَ بعدَ الحروبِ والعَداواتِ؛ والمعنى: كيفَ يكونُ لِلمُشركينَ عهدٌ، مع إضمارِ الغدرِ والنَّكثِ، بسببِ شركِهِم باللّهِ ﷻ؟!

سرُّ الوصفِ المُشتقِّ في قولِهِ: ﴿لِلۡمُشۡرِكِينَ﴾:

أقبحُ الأخلاقِ عندَ العربِ وأشنعُها نَكثُ العهدِ

لم يقُلْ: (كيف يكونُ للّذين أشركوا عهدٌ)، بل جاءَ بالوصفِ المُشتقِّ، ونكتتُهُ: الإيذانُ بعراقتِهِم في الشِّركِ، فتوجِبُ عراقتُهم فيه ومحبَّتُهم لظهورِه نَكثَ العهدِ الّذي لا أقبحَ منه عندَ العربِ ولا أشنعَ[1]، ومزاولةُ الشّركِ باعتبارِهِ طبعًا وعادةً تقتضي أن يُصبحَ وصفًا مُشتقًّا، يكون غلّابًا في الطّبعِ، ومُتصرِّفًا في أهواءِ صاحبِهِ وميولِهِ، فتراهُ يَهوي في مَزالِقِ الضّلالةِ، ويتيهُ في مَجاهيلِ العصيانِ، وهو لا ينفكُّ مَزهوًّا بفعلِهِ، مُنتشيًا بنكثِهِ ونقضِهِ، وهو في مَفاسدِهِ تلك، لا يدري أنّهُ ضلَّ سعيُهُ في الحياةِ الدّنيا، وهو يَحسبُ أنَّهُ يُحسِنُ صُنعًا.

دلالةُ التَّنكيرِ في ﴿عَهۡدٌ﴾:

الوفاءُ بالعهدِ في الحربِ والسّلمِ، وفي كلِّ حالةٍ واجبٌ لا محالةَ

أفادَ مجيءُ النّكرةِ في سياقِ الاستفهامِ - في قولِهِ تعالى: ﴿عَهۡدٌ عِندَ ٱللَّهِ﴾ - العمومَ، بمعنى: إنكارِ وقوعِ أيِّ عهدٍ للمُشركينَ عندَ اللّهِ ورسولِهِ، واستبعادِ وقوعِهِ، فلا يختصُّ الأمرُ بالعهدِ في الحروبِ، بل يشملُ كلَّ ما يُطلَقُ عليه عهدٌ، ومع تطوّرِ الحياةِ يحتاجُ الإنسانُ في كلِّ العُصورِ إلى أنواعٍ مِنَ المُعاملاتِ والتَّصرُّفاتِ، يضطرُّ معَها إلى إزجاءِ العُقودِ، وما يَترتَّبُ عليها مِن عُهودٍ هُوَ مُلزَمٌ بها ديانةً؛ لكونِ

(1) النّيسابوريّ، إيجاز البيان: 1/373، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 15/531، وأبو حيّان، البحر المحيط: 5/375، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 8/386.

القرآن أوصَى بها، وأنّ اللّهَ في كلامِهِ المُحكَم قد نوَّهَ بها، فتبوَّأَت مَكانةً خاصّةً، وشنَّعَ على المُشركينَ الّذين لا يَجدُونَ حَرجًا في نَكثِها، والتّهاونِ بحُرمتِها.

دلالةُ ﴿عِندَ﴾ في قوله ﴿عَهۡدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ﴾:

لا عهدَ لِمُشرِكٍ لم يُراعِ عهدَ اللهِ الأزليَّ في الإقرارِ بالوحدانيَّةِ

لمّا كانَ الظَّرفُ ﴿عِندَ﴾ - في قولِهِ: ﴿عَهۡدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ﴾ - نعتًا للفظ (عَهۡدٌ)؛ دلَّ على أنَّ الإنكارَ إنَّما هو على عهدٍ مخصوصٍ بوصفِهِ عندَ اللّهِ وعندَ رسولِهِ؛ تعظيمًا لإنكارِ أن يكونَ لِلمُشركينَ النّاكِثينَ مثلُ هذا العهدِ، فالمُشركُ باللّهِ لا يكونُ له عهدٌ عندَ اللّهِ الواحدِ الأحدِ، "إذ هُم مِن غايةِ انهماكِهِم في كفرِهِم وضلالِهِم لا يَلتفتونَ إلى اللّهِ ولا إلى رسولِهِ، لذلك لا يُقبلُ منهُم العهدُ والميثاق، بل أمرُهُم؛ إمّا السّيفُ، وإمّا الإسلامُ"[1].

نكتةُ ذكرِ الاسمِ الجليلِ ﴿ٱللَّهِ﴾:

دلالةُ تعظيمِ الاسمِ الجليلِ (اللهِ) الجامِعِ لصفاتِ الكمالِ

عَبَّرَ بالاسم الجليل في قولِهِ تعالى: ﴿عَهۡدٌ عِندَ ٱللَّهِ﴾ للإيذانِ بأنَّه سبحانَهُ المُستَجمِعُ لصفاتِ الكمالِ، فهو لا يُحِبُّ نقضَ عهدِهِ مع أوليائِهِ، فكيفَ بهِ مع أعدائِهِ[2]، "فليسَ مِنَ المعقولِ أن يُوفي اللّهُ تعالى لَهُم بعهدٍ؛ لأنّ العهودَ تُوجِبُ حقوقًا وواجباتٍ مُتبادلةً، فمَن توقَّعَ عدمَ الوفاءِ وتأكَّدَ له النَّكثُ في العهدِ فليسَ عليه وفاءٌ، وقد نفَى اللّهُ بهذا أن يكونَ عندَ المُشركينَ وفاءٌ بعهدِ اللّه"[3]، وقدِ اندرجَ اسمُ الجلالةِ في هذا السّياقِ، فكانَ ذكرُهُ ها هنا.

نكتةُ ذكرِ ﴿رَسُولِهِۦٓ﴾ في سياق الآية:

رسولُ اللهِ الخاتمُ أوفى النّاسِ للعهودِ، وأرعاهُم لِلمَواثيقِ

اقترنَ ذِكرُ لفظِ ﴿رَسُولِهِۦٓ﴾ مع ذكرِ ﴿ٱللَّهِ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿عَهۡدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ﴾ للإيذانِ بكمالِ صفاتِ خُلُقِ رسولِ اللّهِ ﷺ،

(1) نعمة الله بن محمود الشّيخ علوان، الفواتح الإلهيّة: 1/298.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/386.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/386.

وأنَّه أكملُ الخَلقِ وأوفاهُم لِلعهودِ، وأحفَظُهم وأرعاهُم لَها[1]، وأنّه حقيقٌ بأن يُرعَى عهدُهُ، وأنّه لا يَنكثُ عهودَهُ؛ إذْ ما ينكرُهُ رسولُ اللّهِ هو عينُ ما ينكرُهُ اللّهُ. ولمّا كانَ العطفُ على معنى التّشريكِ بينَ المعطوفين والجمع بينهُما.. أفادَ السّياقُ أنّهُ لا عهدَ لِلمُشركينَ عندَ اللّهِ، وبالتّالي فإنّه لا عهدَ لَهُم عندَ رسولِهِ، وأنَّ ما ينكرُهُ الرّسولُ هو ذاتُهُ ما ينكرُهُ مَن أرسلَهُ، وفي هذا تكريمٌ لرسولِهِ الأبرِّ، وتأكيدٌ على أنّه الضّامنُ لتطبيقِ الأحكام، وأنّ ما يقرُّهُ الرّسولُ أو يرفضُهُ إنّما هو وحيٌ يُوحَى، وأنّ ما أحلَّهُ أو حرّمَهُ رسولُ اللّه كالّذي أحلَّهُ أو حرّمَهُ اللّهُ جلَّ في عُلاه.

دلالةُ تكرارِ الظَّرفِ ﴿عِندَ﴾:

أفادَ تكرارُ الظَّرفِ في قولِهِ: ﴿عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ﴾ تقريرَ إنكارِ أن يكونَ لِلمُشركينَ عهدٌ عندَ اللّهِ، ولا عندَ رسولِهِ؛ للإيذانِ بعدمِ الاعتدادِ بهِ عندَ كُلٍّ منهُما على حِدَةٍ؛ مُبالَغةً في الإنكارِ والاستبعادِ[2]، "وهو إنكارٌ لِلوقوعِ لا لِلواقعِ؛ أي: تحذيرٌ لِلمُؤمنينَ مِن أن يقعَ منهُم ذلكَ في المُستقبَلِ، والمُرادُ بالمُشركينَ أولئكَ الّذينَ نقضُوا عهودَهُم؛ لأنّ البراءةَ إنّما هي في شأنِهِم، وتكريرُ كلمةِ (عِندَ) للإيذانِ بعدمِ الاعتدادِ بعهودِهِم عندَ كلٍّ مِنَ اللّهِ تعالى ورسولِهِ ﷺ على حِدَةٍ"[3].

لا اعتدادَ عندَ اللّهِ ورسولِهِ بعهدِ لِمُشركينَ دأبُهُم الخيانةُ والغدرُ

توجيهُ آيةِ نبذِ المؤمنينَ عهدَ المُشركينَ:

هذا الاستفهامُ الإنكاريُّ بقولِهِ: ﴿كَيۡفَ يَكُونُ لِلۡمُشۡرِكِينَ عَهۡدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ﴾ وهو نفيٌ مفهومٌ مِنَ الاستفهامِ المُتبادَرِ شمولُهُ لجميعِ المعاهَدينَ مِنَ المُشركينَ النّابذينَ لِعهودِهِم، باستثناءِ مَنِ استثناهُمُ النَّصُّ، ممّنِ التزمُوا بالعهدِ، لا يُناقضُ روحَ الإسلامِ

مَن أوفى بعهدِهِ فازَ، ومَن نكثَ العهدَ فلا مَفازَ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/386.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/45.
(3) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 6/213.

وأحكامَهُ في تعظيم شأنِ العهودِ وأحكامِها؛ لقولِه تعالى في وصفِ المؤمنين: ﴿وَٱلۡمُوفُونَ بِعَهۡدِهِمۡ إِذَا عَٰهَدُواْۖ﴾ [البقرة: 177]، وقولِه: ﴿وَأَوۡفُواْ بِٱلۡعَهۡدِۖ إِنَّ ٱلۡعَهۡدَ كَانَ مَسۡـُٔولٗا ٣٤﴾ [الإسراء: 34]، وأنّ هذا لا علاقةَ له بنسخِ ذاك، وليسَ هذا بمُلغٍ لذلك، وقد راعى التّشريعُ الحكيمُ مُقتضى الحالِ في مُراعاةِ المُعاملاتِ بينَ المؤمنينَ ومُخالِفيهم، فقالَ في نتائجِ الحُكم: ﴿فَمَا ٱسۡتَقَٰمُواْ لَكُمۡ فَٱسۡتَقِيمُواْ لَهُمۡۚ﴾؛ بمعنى: "فاستقيموا لهم مدّةَ استقامتِهم لَكُم"[1]، وهو حالٌ يَقتضي مِنَ الطّرفِ المُؤمنِ أن يلبسَ لكلِّ حالةٍ لَبُوسَها، وأن يُراعيَ حالَ مَنِ التزمَ بعهدِهِ إلى مُدّتِه، ويتعاملَ بحزمٍ مع مَن نبذَ العهدَ، ولم يلتزمْ بالمَواثيقِ.

التّنويهُ بنخوةِ بعضِ المُشركينَ في الوفاءِ بالعهودِ رَغمَ شركِهم

براعةُ الاستدراكِ بقولِهِ: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمۡ﴾:

لمّا كانَ الإنكارُ على معنى نفي عمومِ وقوعِ العهدِ لِلمُشركينَ يقتضي فيه ظاهرُ الكلامِ أن يكونَ المستثنى هو العهدَ؛ بأنْ يُقالَ: (إلّا عهدَ الّذين عاهدتُم)، فلمّا قالَ: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمۡ عِندَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۖ﴾ بطريقِ الاستدراكِ، بمعنى: (لكنّ الّذين عاهدتُم)، فنوَّهَ بذواتِهم مُبالَغةً في جميلِ وفائِهم بما عاهدُوا عليهِ، أو يُقال: لمّا كانَ نفيُ عمومِ العهدِ لِلمُشركينَ يقتضي شمولَ جميعِ المُعاهَدينَ كانَ الاستثناءُ مِنَ المُعاهَدينَ، وليسَ من عمومِ العهدِ، فقال: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمۡ﴾، فيكون الاستثناءُ متَّصلًا، فالاستثناءُ هنا بينَ الانقطاعِ والاتِّصالِ، وكلٌّ لهُ وجهٌ في المعنى[2].

رعايةُ ذمّةِ المُوفينَ بعهدِهِم مراعاةٌ للقيمِ الإنسانيّةِ العامّةِ

مناسبةُ الموصولِ وصلتِهِ في ﴿ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمۡ﴾:

عُبِّرَ بالموصولِ وصلتِهِ بذكرِ المُعاهَدينَ عندَ المسجدِ الحرامِ في قولِه: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمۡ عِندَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۖ﴾؛ لِزيادةِ بيانِ

(1) أبو السّعود إرشاد العقل السّليم: 6/213.

(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/249، والبيضاويّ، أنوار التنّزيل: 3/72، وأبو حيّان، البحر المحيط: 5/376، وابن عادل، اللّباب: 10/22.

أصحابها بجملةِ الصِّلةِ المعلومَةِ الانتساب إلى ناسٍ مُعيَّنين، ولِلإشعارِ بأنَّ تأكيدَ الوفاءِ بهذا العهدِ لما صاحَبَهُ مِن حالِ كونِهِ عندَ المسجدِ الحرام، وعن ابن عبّاسٍ: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمۡ عِندَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۖ﴾؛ يعني: أهلَ مكّةَ.

دلالةُ مجيءِ الحالِ ﴿عِندَ﴾:

لمّا كانَ ﴿عِندَ﴾ حالًا مِن فاعل ﴿عَٰهَدتُّمۡ﴾، وكانَ قد أنكرَ أن يكونَ لِلمُشركينَ عهدٌ في أيِّ حالٍ مِنَ الأحوالِ.. دلَّ على تعظيمِ المُعاهدةِ في حالِ كونِها عندَ المسجدِ الحرام، وأنَّ سببَ توكيدها هو كونُها كانَت في الحالِ المذكورةِ، مِمّا يقتضي تأكيدَ الوفاءِ بذلك العهدِ بشروطِهِ[1].

تعظيمُ المُعاهدةِ عندَ المَسجدِ الحرامِ مُراعاةٌ لشرفِ المكانِ وهيبتِهِ

دلالةُ التركيب الوصفي في ﴿ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۖ﴾:

ذَكَرَ الموصوفَ والصّفةَ إيذانًا بأنَّ العهدَ عندَهُ أبعدُ عن مَظنَّةِ النَّكثِ؛ لِمَا تدُلُّ عليهِ الصّفةُ مِن مَعنى الحُرمةِ والتّعظيم؛ لأنَّ المعاهدةَ عندَهُ أوقعُ في نفوسِ المُشركينَ مِنَ الحِلفِ المُجرَّدِ، كما قالَ تعالى: ﴿فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلۡكُفۡرِ إِنَّهُمۡ لَآ أَيۡمَٰنَ لَهُمۡ﴾ [التّوبة: 12]، ففيه حثٌّ وترغيبٌ لِلمُؤمنينَ في الوفاءِ بهذا العهدِ الّذي جرى قُربَ المَسجدِ الحرام، وليسَ المُرادُ كلَّ مَنْ عاهدَ عندَ المَسجدِ الحرام، كما قد يَتَوهَّمُهُ المُتَوَهِّمُ؛ لأنَّ النّبيَّ ﷺ لم يكُنْ مَأذونًا بأن يُعاهِدَ فريقًا آخرَ مِنهم[2].

المعاهدةُ عندَ المسجدِ الحرامِ أوثقُ وأعظمُ حُرمةً

دلالةُ الفاءِ في قولِهِ: ﴿فَمَا ٱسۡتَقَٰمُواْ﴾:

تفيدُ الفاءُ هنا التّفريعَ، وابتناءَ ما بعدَها على ما قبلَها؛ بمعنى: أنَّ سببَ الأمرِ بالاستقامةِ لهم مدّةَ استقامتِهم لكُم هو ما كانَ مِنَ العهدِ بينَكُم وبينَهُم عندَ المسجدِ الحرامِ؛ أي: فتربَّصُوا أمرَهُم ولا

العهدُ مُوجِبٌ للاستقامةِ عليهِ مِنَ الطّرفين

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/45، ورضا، تفسير المنار: 10/164.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/122.

تُقاتلُوهُم، فما استقامُوا لكُم على العهدِ فاستقيمُوا لَهُم على مثلِه[1]، وهؤلاءِ هُم "قبائلُ بني بكرٍ وبني ضَمرَةَ الّذين لم ينقضُوا عهودَهُم المعقودةَ معَهُم يومَ الحديبيّةِ، فهؤلاءِ حُكمُهُم أنّهم ما استقامُوا لكم فاستقيمُوا لَهم؛ أي: حافظُوا على عهدِهم ما دامُوا مُحافِظينَ عليه، قائِمينَ على الوفاءِ بهِ"[2].

(ما) بينَ المصدريَّةِ والشَّرطيَّةِ في ﴿فَمَا﴾[3]:

المؤمنونَ لا يخونونَ عهودَهُم، ولا يُبادِرونَ إلى نقضِها

تحتملُ (مَا) في قولِه: ﴿فَمَا ٱسۡتَقَٰمُواْ لَكُمۡ﴾ أن تكونَ مَصدريّةً ظرفيّةً، وأنْ تكونَ شرطيَّةً[4]، فإذا كانَت مصدريَّةً فالكلامُ بتقديرِ: فاستقيمُوا لَهُم على العهدِ مدّةَ استقامتِهم لَكُم، والغرضُ مِن مَجيءِ (مَا) المصدريّةِ الظّرفيّةِ التّصريحُ بتأقيتِ الاستقامةِ على العهدِ إلى مُدَّةٍ مُعيَّنةٍ، وفائدةُ تقديمِ (مَا) هنا - فلم يقُلْ: (فاستقيمُوا لَهُم ما استقامُوا لَكُم) - الإشعارُ بأنَّ الأمرَ بالاستقامةِ لهم مُرتَبِطٌ برؤيتِكُم لاستقامتِهم لَكُم، وعلمِكُم بها؛ للإيذانِ بأنَّ المُشركينَ قد يَخونونَ العهدَ، وأنَّ المؤمنينَ لا يَخونونَ ولا يَلتوونَ في عهودِهم، وإنْ كانَت (مَا) شرطيّةً فالتّقديرُ: أيُّ زمانٍ استقامُوا لَكُم فيه على العهدِ فاستقيمُوا لَهُم فيهِ، وأيًّا ما كانَ فحكمُ الأمرِ بالاستقامةِ ينتهي بانتهاءِ مُدّةِ العهدِ؛ لأنّ استقامتَهُم، الّتي وُقِّتَ بوقتِها الاستقامةُ المأمورُ بها عبارةٌ عن مُراعاةِ حقوقِ العهدِ، وبعدَ انقضاءِ مُدّتِه لا عهد ولا استقامة، فصارَ عينَ الأمرِ الواردِ فيما سَلَفَ، حيثُ قالَ تعالى: ﴿فَأَتِمُّوٓاْ إِلَيۡهِمۡ عَهۡدَهُمۡ إِلَىٰ مُدَّتِهِمۡۚ﴾ [التّوبة: 4]، خلا أنَّه قد صرَّحَ

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/249، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل وأسرار التّأويل: 3/72.

(2) الزّحيليّ، التّفسير الوسيط: 1/834.

(3) تكون (ما) شرطيّةً زمانيّةً، كقولِه تعالى: ﴿فَمَا ٱسۡتَقَٰمُواْ لَكُمۡ فَٱسۡتَقِيمُواْ لَهُمۡۚ﴾؛ قالَ ابنُ فارس: "(ما) إذا كانَت شرطًا وجزاءً، فكقول المُتكلّم: ما تفعل أفعل، قالَ علماؤُنا: مَوضِعُها منَ الإعرابِ حسب العاملِ، فإن كان الشّرطُ فعلًا لا يتعدّى إلى مَفعولٍ فمَوضِعُ (ما) رفعٌ، يقولُ البصريّونَ: هو رفعٌ بالابتداءِ، ويكونُ رفعًا عندنا بالغايةِ، وإن كانَ الفعلُ مُتعدِّيًا كانت (ما) مَنصوبةً، وإنْ دخلَ عليهِ حرفُ خفضٍ أو أُضيفَ إليه اسمٌ، فهو في مَوضِعِ خفضٍ". يُنظر: الزَّبيديّ، تاج العروس: 40/497.

(4) البيضاويّ، أنوار التّنزيل وأسرار التّأويل: 3/72، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/45.

ههنا بتقييدِ المُدّةِ، وأطلقَ في الآيةِ، مع كونِهِ مُعتبرًا قَطعًا؛ أي: تقييدُ الإتمام المأمورِ بهِ ببقائِهِم على ما كانُوا عليهِ مِنَ الوفاءِ، فأشعرَ الكلامُ على الوجهينِ أنَّ استقامةَ المُسلمينَ لِلعهدِ مُرتَبِطةٌ باستقامةِ المُشركينَ لِعهدِهِم ووفائِهِم لهُ. ولابدَّ مِنَ الإشارةِ إلى أنَّ (مَا) هنا لا تَكونُ نافيةً؛ لأنَّ المَعنَى: يَفسُدُ؛ إذ يَصيرُ المَعنَى استَقِيمُوا لهُم؛ لأنَّهُم لَم يَستَقِيمُوا لَكُم[1].

بلاغةُ الاستعارةِ في أمر الاستقامة:

في قولِهِ تعالى: ﴿ٱسۡتَقَٰمُواْ﴾ و﴿فَٱسۡتَقِيمُواْ﴾ شبَّهَ الثَّباتَ على العهدِ، ولزومَ توفيةِ حقِّهِ بلزومِ الطّريقِ المُستقيمِ الّذي لا اعوجاجَ فيه ولا انحرافَ، فشبَّهَ المعنويَّ بالحسّيِّ؛ للإيضاحِ والبيانِ في الدَّعوى على طريقِ الاستعارةِ التّصريحيّةِ التّبعيّةِ[2]؛ لتأكيدِ عدمِ الحيودِ عن جادَّتِها أو الميلِ فيها إلى رغبةٍ أو حاجةٍ.

الاستقامةُ في العهود بمعنى عدمِ الانحرافِ عنها أو الميلِ فيها

سرُّ استعمالِ اللام في ﴿لَكُمۡ﴾:

وردَ قولُهُ تعالى: ﴿فَمَا ٱسۡتَقَٰمُواْ لَكُمۡ﴾، وهو استقامةٌ للأمر، ويعني: أنّه كانَ قريبًا منه، أمّا قولُهُ تعالى: ﴿فَٱسۡتَقِيمُوٓاْ إِلَيۡهِ وَٱسۡتَغۡفِرُوهُۗ وَوَيۡلٞ لِّلۡمُشۡرِكِينَ ٦﴾ [فُصّلت: 6] فيعني: أنّهم كانوا بَعيدِينَ مِنَ اللّهِ، وهو يدعوهُم للاقترابِ منهُ، ومَن أشركَ حَبِطَ عملُهُ، وبَعُدَ عنِ اللّهِ، وهو تعالى أغنى الأغنياءِ عنِ الشّركِ، ولذلك كانَ مَلمَحُ القُربِ مَتبوعًا بقولِهِ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾، وكانَ مَلمَحُ البعدِ مَتبوعًا بقولِهِ: ﴿وَوَيۡلٞ لِّلۡمُشۡرِكِينَ﴾، فاستعمالُ اللّامِ هاهنا أَولى وآثرُ في بيانِ السّياقِ.

حروفُ المعاني بينَ القربِ والبُعدِ تجلّي دقّةَ اختيارِ الحرفِ

دلالةُ شبه الجملة في ﴿لَكُمۡ﴾ و﴿لَهُمۡۚ﴾:

التَّقييدُ بالجارِّ والمجرورِ للتَّخصيصِ؛ للإشعارِ بأنَّ الاستقامةَ

(1) العكبريّ، التّبيان: 2/636، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل وأسرار التّأويل: 3/72، وأبو حيّان، البحر المحيط: 5/376، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/45.

(2) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 2/7.

مُخصَّصَةٌ بما قُيِّدَت بهِ، وأنَّها ليسَت مُطلَقةً مُستمرَّةً، وقولُهُ: ﴿فَمَا ٱسۡتَقَٰمُواْ لَكُمۡ فَٱسۡتَقِيمُواْ لَهُمۡۚ﴾؛ "أي: فما دامُوا مُستَقيمينَ على عهدِهم، مُراعِينَ لِحقوقِكُم فاستقيمُوا لَهُم على عهدِهم"[1].

المعاملةُ معَ المُشركينَ على سبيلِ مُقابلةِ العهدِ بالوفاءِ بهِ

فائدةُ حذفِ مُتعلَّقِ: ﴿فَمَا ٱسۡتَقَٰمُواْ لَكُمۡ﴾:

لمّا كانَ تقديرُ الكلامِ: فمَا استقامُوا لَكُم على العهدِ، أو على الوفاءِ بالعهدِ، فاستقيمُوا لَهُم[2] دلَّ على أنَّ المُتعلَّقَ حُذِفَ للإيجازِ، وفائدتُه حثُّهُم على الاستقامةِ مُطلَقًا؛ أي: في كلِّ عملٍ يَقتضي الاستقامةَ، وليسَ على العهدِ فقط.

الحثُّ على الاستقامةِ في المُعاملةِ مُطلَقًا، وليسَ في العهودِ فقط

بديعُ المقابلةِ في قولِهِ: ﴿لَكُمۡ﴾ و﴿لَهُمۡۚ﴾:

أفادَ مجيءُ الجارِّ والمجرورِ على سبيلِ المقابلةِ تأكيدَ أنَّ استقامتَكُم لَهُم مُرتبطةٌ باستقامتِهم لَكُم، مع وضوحِ استقامتِهم لَكُم وتأكُّدِها، وأنَّهم إنِ استقامُوا لَكُم فاستقامتُكُم تكونُ لهؤلاءِ الّذين استقامُوا لَكُم حصرًا؛ حذرًا مِن خداعِ المُشركينَ وغدرِهم.

استقامةُ المُؤمنينَ لمَنِ استقامَ لهم حصرًا

دلالةُ الفاءِ في قولِهِ: ﴿فَٱسۡتَقِيمُواْ﴾:

تفيدُ الفاءُ التّرتيبَ والتّعقيبَ؛ بمعنى: ترتّب استقامتكم لَهُم على استقامتِهم لَكُم، وأن تكونَ عقبَها، على معنى الاقترانِ بالتَّعاقُبِ؛ لِما تفيدُهُ الفاءُ هنا مِن أنّ ما بعدَها على مَعنى جوابِ الشّرطِ، سواء أكانَت (مَا) مَصدريَّةً أم شرطيَّةً؛ والمعنى: فَتَرَبَّصُوا أمرَهُم، فإنِ استقامُوا على العهدِ فاستقيمُوا على الوفاءِ؛ أي: إنَّ استقامةَ المُؤمنينَ مُتعلِّقةٌ باستقامةِ المُشركينَ على العهدِ[3]، والفاءُ الواقعةُ في قولِهِ: ﴿فَٱسۡتَقِيمُواْ لَهُمۡۚ﴾ فاءُ جوابِ الشّرطِ، وأصلُ ذلك: أنّ الظَّرفَ والمَجرورَ إذا قُدِّمَ على مُتعلَّقِهِ قد يُشرَبُ معنى الشّرطِ، فتَدخُلُ الفاءُ

تربُّصُ المؤمنينَ بالمُشركينَ المُعاهَدينَ لمعرفةِ ثباتِهم على العهدِ

(1) القاسميّ، محاسن التّأويل: 5/357.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 15/531، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 8/78.
(3) البيضاويّ، أنوار التّنزيل وأسرار التّأويل: 3/72.

في جوابِه، ومنهُ قولُهُ تعالى: ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلۡيَتَنَافَسِ ٱلۡمُتَنَٰفِسُونَ ٢٦﴾ [المطفّفين: 26]؛ لِوجوبِ جَعلِ الفاءِ غيرَ تَفريعيَّةٍ؛ لأنَّهُ قد سَبَقَها العطفُ بالواو، وقَولُ النّبيِّ ﷺ: (كَمَا تَكونُوا يُولَّ عَليكُم)، بِجزمِ الفِعلَين، وقَولُهُ لِمَن سألَهُ أن يُجاهِدَ، وسَأَلَهُ الرّسولُ: (أَلَكَ أَبَوانِ؟)، قالَ: نَعمْ، قالَ: (ففيهِما فَجاهِد). والاستقامةُ: حقيقتُها عَدمُ الاعوِجاجِ، وهي دلالةٌ على حُسنِ المُعاملةِ وتَركِ القِتالِ[1].

نكتةُ التَّعبيرِ بـ ﴿فَٱسۡتَقِيمُواْ﴾:

للإشعارِ أنَّ الاستقامةَ الثّانيةَ غيرُ الأولى؛ والمعنى: فما استقامُوا على العهدِ فاستَقيمُوا على الوفاءِ[2]، وقدِ استقامَ المُسلمونَ على الوفاءِ، ولكنّ المُشركينَ لم يَستقيموا، بل نكصُوا على أعقابِهِم، "ونقضُوا العهدَ، وأعانُوا بني بكرٍ على خُزاعةَ، فَضربَ لهم رسولُ اللّهِ ﷺ بعدَ الفتحِ بأربعةِ أشهرٍ يختارونَ مِن أمرِهِم؛ إمّا أن يُسلِموا، وإمّا أن يَلحقوا بأيِّ بلادٍ شاؤوا، فأسلَمُوا قبلَ الأربعةِ أشهرٍ"[3].

الاستقامةُ على الوفاءِ مَشروطٌ بالاستقامةِ على العهدِ

دلالةُ ﴿إِنَّ﴾ في قولِهِ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾:

تفيدُ ﴿إِنَّ﴾ تأكيدَ مَضمونِ الجملةِ؛ لتقريرِ المعنى في نفوسِ المُخاطَبينَ، كما أنّها قامَت مَقامَ تعليلِ الأمرِ بالاستقامةِ، وتقريرِهِ بطريقِ الإيجازِ، فكأنَّ الأمرَ بالاستقامةِ أمرٌ بالتّقوى؛ لدخولِ الاستقامةِ في التّقوى دخولًا أوَّليًّا في هذا المقامِ؛ لأنَّ التّقوى تَعمُّ الوفاءَ وغيرَهُ مِن أداءِ الواجباتِ والاجتنابِ عنِ المناهي، فَأَنبأَ التّعليلُ أنَّ الاستقامةَ مِنَ التَّقوى، وإلّا لم تكُنْ مُناسبةً للإخبارِ بأنّ اللّهَ يُحِبُّ المتَّقينَ عَقِبَ الأمرِ بالاستقامةِ لهم، ولأنَّ في الاستقامةِ لَهُم حِفظًا

مَراتبُ التَّقوى تتفاوتُ بالأولويَّةِ على مُقتَضى المَقامِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/123.
(2) البيضاويّ، أنوار التّنزيل وأسرار التّأويل: 3/72.
(3) الثّعلبيّ، الكشف والبيان: 5/14.

لِلعهدِ الّذي هُوَ مِن قَبيلِ اليَمينِ[1]، وأشعرَ الكلامُ أنَّ مَراتِبَ التّقوى تتفاوتُ بالأولويَّةِ على حسبِ المَقامِ.

بلاغةُ التَّذييلِ في قولِهِ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾:

لمّا جاءَت جملةُ التّذييلِ بعدَ الإنكارِ على أن يكونَ لِلمُشركينَ عَهدٌ عندَ اللّهِ وعندَ رسولِهِ، وبعدَ أمرِ المُؤمنينَ بالاستقامةِ لَمَن استقامَ لَهُم في عهدِهِ.. دلَّ على أنّها تضمَّنَت مَعنيين؛ أحدُهما: إفادةُ أنَّ التَّربُّصَ بالمُشركينَ وقطعَ الطّمعِ في معاهدتِهِم مِن أعمالِ المتَّقين[2]. الثّاني: أنَّ الوفاءَ بالعهدِ، والقيامَ بموجَبِهِ، والاستقامةَ عليهِ مِن صفاتِ المتَّقين، فلذلكَ جاءَ بلفظٍ مُستغرِقٍ الوفاءَ بالعهدِ، مُتضمِّنٍ الإيمانَ؛ ليفيدَ أنَّ مَن اتَّقى اللّهَ يُوَفي بعهدِهِ لِمَن عاهدَ[3].

مِن صفاتِ المتَّقينَ الحذرُ مِنَ المُشركينَ، والوفاءُ للمُوفينَ

فائدةُ مَجيءِ الخبرِ جملةً فعليَّةً:

أفادَ مجيءُ جملةِ ﴿يُحِبُّ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ - في قولِهِ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ - خبرًا تقويةَ الحُكمِ وتقريرَهُ دونَ تخصيصِهِ؛ بمعنى تحقيقِ حبِّ اللّهِ للمُتَّقينَ وتأكيدِهِ؛ إظهارًا لِشرفِ التّقوى وأهميَّتِها في هذا المَقامِ، وليسَ المرادُ تخصيصَ حبِّ اللّهِ لِلمُتَّقينَ دونَ المُحسِنينَ أو المُؤمنينَ مَثلًا، فليسَ المَقامُ مَقامَ إحسانٍ ولا إظهارٍ لإيمانٍ[4]، كما أنّ قولَهُ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ "تعليلٌ لِلأمرِ بالاستقامةِ، وإشعارٌ بأنّ القيامَ بمُوجَبِ العَهدِ مِن أحكامِ التَّقوى"[5].

مقامُ إظهارِ التّقوى غيرُ مَقامِ إظهارِ الإحسانِ أو الإيمانِ

الدلالة السياقية للمضارعِ ﴿يُحِبُّ﴾:

عُبِّرَ بلفظِ ﴿يُحِبُّ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾؛

(1) البيضاويّ، أنوار التّنزيل وأسرار التّأويل: 2/24/ - 3/72، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/45، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/123.

(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/249.

(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/9، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 15/531، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/45.

(4) السّكّاكيّ، مفتاح العلوم، ص: 221.

(5) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/45.

للإشعارِ بأنَّ الّذين يَستقيمونَ على العهدِ، ويُوفونَ بهِ يحبُّهُم اللّهُ؛ لأنّهم صاروا بفعلِهم هذا مِنَ المتّقينَ، والتّقوى هي السّببُ المُفضي إلى محبّةِ اللّهِ، وعلى قدرِ التّقوى يكونُ الارتقاءُ في مَقاماتِ المحبّةِ، وهي مَلمَحٌ لنيلِ مَرضاةِ اللّهِ والأنسِ بهِ، وتقديرِهِ حقَّ قدرِه، وكلُّ ما أمَرَ بهِ مِنَ الأمرِ بالطّاعاتِ، والنّهي عنِ المَعاصي هو سبيلٌ لِلمحبّةِ وتَجلٍّ للتّقوى الّتي هي جماعُ الأمرِ كلّه، وبها تكونُ النّجاةُ في الدّنيا، والتّرقياتُ في الآخرةِ. وقد أفادَ التّعبيرُ بالفعلِ المضارعِ استمرارَ حبِّ اللّهِ لِلمُتّقينَ، ويدخل فيهم دخولًا أوّليًّا، وهُمُ الّذين يَستقيمونَ على الوفاءِ بعهودِهم، كما يفيدُ أنَّ آثارَ حبِّهِ تعالى لهم تتجدَّدُ وقتًا فَوَقتًا.

الوفاءُ بالعهدِ مِن أعمالِ المتّقينَ الّذين يحبُّهُم اللهُ تعالى

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

العهد والميثاق:

الميثاقُ: توكيدُ العهدِ، مِن قولِكَ: أوثقتُ الشّيءَ؛ إذا أحكمتَ شدَّهُ، وقالَ بعضُهُم: العهدُ يكونُ حالًا مِنَ المُتعاهِدينَ، والميثاقُ يكونُ مِن أحدِهِم[1]، قالَ ابنُ حومد: "والميثاقُ هو العهدُ الشَّديدُ المؤكَّدُ"[2]، وبينَ العهدِ والميثاقِ من حيث اللّغة فروقٌ، منها: "أنّ العهدَ إلزامٌ والتزامٌ، سواء كانت فيه يمينٌ أو لم تكنْ، نحو: (عهدُ اللّهِ لأفعلنَّ)، و(عَليَّ عهدُ اللّهِ)، فهو مُلتزِمٌ بهذا العهدِ، والميثاقُ هو العهدُ المؤكَّدُ باليَمين"[3]، والميثاقُ مُركَّبٌ مِنَ العهدِ واليمينِ معًا[4]، والظّاهرُ: أنّ العهدَ والميثاقَ مُترادفانِ لا فرقَ بينَهُما مِن حيث المعنى، ولكنّ العهدَ أعمُّ مِنَ الميثاقِ في مَعناه، والميثاقُ داخلٌ في العهدِ، ولكنّهُ مُؤكَّدٌ باليمينِ، ويجبُ الوفاءُ بهِ، وكذلك العهدُ الواجِبُ، وهو ما أوصاهُ المَعاهِدُ به، وأخذَ عليه المَوثِقَ"[5].

الميثاقُ عهدٌ شديدٌ مُوثَّقٌ باليمين، والعهدُ إلزامٌ والتزامٌ باليَمينِ وبدونِهِ

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة: 4/45.
(2) أسعد حومد، أيسر التّفاسير: 1/90.
(3) مجلّة البحوث الإسلاميّة، إدارة البحوث العلميّة والإفتاء، السّعوديّة: 3/396.
(4) القرافيّ، أنوار البروق: 3/37.
(5) هود أبو راس، الخطاب القرآنيّ لأهل الكتاب وموقفهم منه قديمًا وحديثًا، ص: 278.

﴿كَيۡفَ وَإِن يَظۡهَرُواْ عَلَيۡكُمۡ لَا يَرۡقُبُواْ فِيكُمۡ إِلّٗا وَلَا ذِمَّةٗۚ يُرۡضُونَكُم بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَتَأۡبَىٰ قُلُوبُهُمۡ وَأَكۡثَرُهُمۡ فَٰسِقُونَ ٨﴾

[التّوبة: 8]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

رَبْطُ كونِهِ لا عهدَ لِلمُشركينَ بما في صدورِهِم مِن ضغينةٍ وحقدٍ على المؤمنين

لمّا أنكرَ سبحانَهُ أن يكونَ لِلمُشركينَ غيرِ المُستَثنَينَ عهدٌ واستبعدَهُ أكّدَ الإنكارَ والاستبعادَ تمهيدًا لبيانِ العلَّةِ المُوجِبةِ للإنكارِ، بالإخبارِ عَن دخائلِهِم وما يبطنونَهُ[1]، فهُم "يخدعونَكُم بكلامِهِم المَعسولِ، وقلوبُهُم مُنطويَةٌ على كراهيتِكُم، وأكثرُهُم خارجونَ عنِ الحقِّ ناقضونَ لِلعهدِ"[2]، لا يَرقُبونَ في المؤمنينَ إلّا يُراعى، ولا ذِمَّةً تُحفَظُ.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَظۡهَرُواْ﴾: الظَّهرُ: الجارحةُ، وجمعُهُ: ظُهُورٌ، ويُستعارُ الظّهرُ لِمَن يُتَقوَّى بهِ، وظَهَرَ الشّيءُ أصلُهُ: أن يَحصُلَ شيءٌ على ظَهرِ الأرضِ، فَلا يَخفَى، ثمّ صارَ مُستعمَلًا في كلِّ بارزٍ بعدَ خَفاءٍ مُبصَرٍ بالبصرِ والبَصيرَةِ. ومنهُ: الظّهورُ بمعنى الظّفَرِ بالشّيءِ؛ لِبُروزِهِ. وظَهَرَ عليهِ: غَلَبَهُ. وظاهرَه: عاونَه. وظهرتُ على فُلانٍ: عَلَوْتُهُ وغلبتُهُ. وظهرتُ على السَّطحِ إذا صرتَ فوقَهُ. و﴿يَظۡهَرُواْ﴾ في الآيةِ بمعنى: يغلبُوكم أو يَظفَروا بكُم[3].

2) ﴿يَرۡقُبُواْ﴾: يدورُ معنى رَقَبَ على انتصابٍ لِمُراعاةِ شيءٍ، ومِن ذلكَ الرّقيبُ، وهو الحَافِظُ، ورَقَبَ الشّيءَ يرقُبُه: انتظرَهُ ورَصَدَهُ،

(1) البيضاويّ، أنوار التّنزيل وأسرار التّأويل: 3/72، ونظم الدّرر: 8/384، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/46.

(2) لجنة من علماء الأزهر، المنتخب في تفسير القرآن الكريم، ص: 259.

(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، والرّاغب، المفردات: (ظهر)، وابن جرير، جامع البيان: 14/145، والبغويّ، معالم التّنزيل: 2/219.

وحرسَهُ وحفظَهُ، وهوَ مِن لازمِ العلوِّ والإشرافِ على الأماكنِ؛ لأنّ المُشرِفَ مُطَّلِعٌ على ما دونَهُ، ثمّ إنّهم كانُوا يَفعلون ذلك؛ أي: يَصعدُونَ على الأماكنِ المُرتفعةِ للاطّلاعِ، ويُسمُّونَها مَراقبَ. ورقبَ الإنسانَ يرقبُهُ هو أن ينتظرَهُ، ثمّ قِيلَ لكلِّ مَن حافظَ على شيءٍ وراعاهُ؛ راقبَهُ وارتقبَهُ، و﴿لَا يَرۡقُبُواْ﴾ في الآيةِ بمعنى: لا يَحفَظُوا ولا يُرَاعُوا[1].

3) ﴿إِلّٗا﴾: الإلُّ: كلُّ حالةٍ ظاهرةٍ مِن عهدٍ أو حِلْفٍ لا يُمكنُ إنكارُهُ، وأصلُهُ مِنَ اللَّمَعَانِ، فأُطلقَ الإلُّ على الحِلْفِ والعَهدِ؛ لأنَّ المُتحالِفينَ يُظهِرونَ حلفَهم ويُشيعونَهُ، فلا يُمكنُ إنكارُهُ، فهو بمَنزِلةِ اللَّمَعَانِ في الظُّهورِ وعدمِ الخفاءِ، كما أطلقَ الإلُّ على القَرابةِ وعلى الجارِ؛ لِتنزيلِهما مَنزِلةَ العهدِ في رعايتِهما والقيامِ بحقوقِهما، وذَهَبَ بعضُ اللُّغويّينَ إلى أنَّ حقيقةَ الإلِّ - على ما تُوجِبُهُ اللُّغَةُ - تحديدُ الشَّيءِ، فَمِن ذَلِكَ الأَلَّةُ الحَربةُ لأنّها مُحَدَّدَةٌ، فالإلُّ يَخرُجُ في جَميعِ ما فُسِّرَ مِنَ العَهدِ والقَرابَةِ والجِوارِ على هذا، إذا قُلتَ في العَهدِ: بَينَهُما الإلُّ، فتأويلُهُ أنّهما قَد حَدَّدَا في أَخذِ العَهدِ، وإذا قُلتَ في الجِوَارِ: بَينَهُما إلٌّ، فتأويلُهُ جِوَارٌ يُحَادُّ الإنسانَ، وإذا قُلتَهُ في القَرَابَةِ فتأويلُهُ القَرابَةُ الَّتي تُحادُّ الإنسانَ، وتفسيرُ الإلِّ بأنَّهُ مِن أسماءِ اللهِ غيرُ صحيحٍ، كما صرَّحَ بهِ الرَّاغبُ وغيرُهُ، و﴿إِلّٗا﴾ هنا؛ بمعنى: العهدِ[2].

4) ﴿ذِمَّةٗ﴾: الذِّمَّةُ: كلُّ ما يَجبُ في المروءةِ أن يُحفظَ ويُحمَى مِنَ الأواصرِ؛ مِن صُحبةٍ وخلُقٍ، وحُرمةٍ وخلَّةٍ، وجوارٍ وحِلفٍ، وأمانٍ وضمانٍ، فأُطلقَتِ الذِّمَّةُ على كلِّ واحدٍ ممّا ذُكِرَ؛ لأنّهُ يكونُ عَقدًا في الضّميرِ، ومِن ذَلِكَ أهلُ الذِّمَّةِ؛ أي: أهلُ العهدِ والأمانِ، ويُقالُ: في ذمَّتي كذا؛ أي: ألتزمُ بهِ وأحفظُهُ، والذِّمَامُ: ما يُذَمُّ الرّجلُ على إضاعتِهِ ممّا يجبُ الالتزامُ بهِ وحفظُهُ ومُراعاتُهُ[3].

5) ﴿وَتَأۡبَىٰ﴾: الإباءُ: "مَصدرُ قولِكَ: أبى يَأبى بالفتحِ فيهما، مع خُلوِّهِ مِن حروفِ الحلقِ، وهو شاذٌّ؛ أي: امتنعَ، فهو (آبٍ) و(أبِيٌّ) و(أبَيانٌ) بفتحِ الباءِ، و(تأبّى) عليه:

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وجبل المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (رقب)، والبغويّ، معالم التّنزيل: 2/319، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/9.

(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (ألل).

(3) الرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (ذمم)، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/10، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/124.

امتنعَ، وقولُهُم في تحيّةِ المُلوكِ في الجاهليّةِ: أبيتَ اللّعنَ؛ أي: أبيتَ أن تأتيَ مِنَ الأمورِ مَا تُلعَنُ عَليهِ"[1]، ويدورُ معنى كلمةِ (أبى) على الامتناعِ عنِ الشَّيءِ امتناعًا تامًّا كراهةً له، أو إحساسًا بالاستغناءِ عنهُ، وعدمِ الحاجةِ إليهِ، وأبى القلبُ: اشتدَّ امتناعُهُ، فكلُّ إباءٍ امتناعٌ مِن غيرِ عكسٍ، والإباءُ: أن تعرضَ شيئًا مَطلوبًا، فيأبَى الّذي عُرِضَ عليه الشَّيءُ قبولَهُ، وتأبى قلوبُهُم؛ بمعنى: اشتدَّ امتناعُها عنِ الإذعانِ لَما يبدو بألسنتِهِم كُرهًا لهُ[2].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

كيفَ يكونُ لهؤلاءِ المُشركين الّذين نقضُوا عهدَهُم، أو لَمَنْ لا عهدَ له منهُم منكُم، عهدٌ وذِمَّةٌ؟ وهُم إنْ يغلبُوكُم أو يشعروا بالقوَّةِ عليكُم، لا يَحفظُوا فيكم عَهدًا ولا حُرمةً، يرضونَكُم بألسنتِهِم بالكلامِ الحلوِ، بأنَّهم يُوفونَ العهدَ ويَحفظونَهُ، ولكنَّ قلوبَهُم تأبَى الوفاءَ بما يَقولونَ، وتصديقَ ما يُبدونَهُ لكُم بألسنتِهِم، وأكثرُهُم مُتمرِّدونَ ناقضونَ للعهدِ[3].

ما تَنطِقُ بهِ ألسنةُ الغادرينَ مِن ودادٍ، غيرُ ما تنطوي عليهِ صدورُهُم مِن أحقادٍ

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

سرُّ تكرارِ اسمِ الاستفهامِ ﴿كَيْفَ﴾:

في مَجيءِ اسمِ الاستفهامِ ﴿كَيْفَ﴾ - في قولِهِ: ﴿كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُواْ عَلَيْكُمْ﴾ - تَكرارٌ لاستبعادِ ثباتِ المُشركينَ على العهدِ، والسِّرُّ في إعادةِ اسمِ الاستفهامِ لهُ وجهان؛ أحدُهُما: أنَّه لَمَّا ذكرَهُ أوَّلًا لاستبعادِ ثباتِ عهدِهِم عندَ اللّهِ، ولم يذكرْ إذ ذاكَ سببَ البعدِ؛ لاقتضاءِ المقامِ ذِكْرَ الغايةِ باستثناءِ الباقينَ على العهدِ، وطالَ الكلامُ.. أُعيدَت ﴿كَيْفَ﴾

إنكارُ دوامِ العهدِ مع المُشركينَ الّذين يُبطِنُونَ نيّةَ الغدرِ لِلمُؤمنينَ

(1) الرّازيّ، مختار الصّحاح، ص: 12.

(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (أبى)، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/10.

(3) ابن جرير، جامع البيان، والماتريديّ، تأويلات أهل السّنّة: 5/306، ونخبة من أساتذة التّفسير، التّفسير الميسّر، ص: 188.

تطريَةً لِلذّكرِ، ولتكونَ تمهيدًا لِذكرِ علَّةِ الإنكارِ والاستبعادِ، وليأخذَ بعضُ الكلامِ بُحْجَزةِ بعضٍ، فأفادَ التَّكرارُ تأكيدَ الإنكارِ والاستبعادِ والتّعجيبِ، معَ بيانِ العلَّةِ والسّببِ في انتظامٍ للكلامِ، مع حُسنِ تأليفٍ بليغٍ[1]. والثّاني: الإشعارُ بأنَّ جملةَ الحالِ لها مَزيدُ تَعلُّقٍ بتَوَجُّهِ الإنكارِ على دوامِ العهدِ لِلمُشركينَ، حتّى كأنَّها مُستَقِلَّةٌ بالإنكارِ، لا مُجرَّدُ قيدٍ للأمرِ الّذي توجَّهَ إليه الإنكارُ ابتداءً، فَيَؤُولُ المعنى الحاصِلُ مِن هذا النَّظمِ إلى إنكارِ دوامِ العهدِ مع المُشركينَ في ذاتِهِ ابتداءً؛ لأنَّهم ليسُوا أهلًا لِذلكَ، وإلى إنكارِ دوامِهِ بالخُصُوصِ في هذه الحالةِ، وهي حالَةُ ما يُبطِنُونَهُ مِن نيَّةِ الغدرِ إنْ ظَهرُوا على المُسلمينَ، مِمَّا قامَت عَلَيهِ القَرائنُ والأَمَاراتُ، كما فعلَت هَوازِنُ عَقِبَ فَتحِ مكَّةَ[2].

براعةُ الإيجازِ بالحذفِ[3]:

ذِكْـرُ القبيحِ على قدرِ حاجةِ المتلقّي لـهُ في الكلامِ

حُذِفَ المُستفهَمُ عنه في قولِهِ: ﴿كَيۡفَ وَإِن يَظۡهَرُواْ عَلَيۡكُمۡ﴾؛ لكونِهِ مَعلومًا ممّا تقدَّمَ في السِّياقِ، فالإيجازُ بحذفِهِ أليقُ، ولفائدةٍ أخرى؛ هي الإيذانُ بأنَّ النَّفسَ مُستَحضِرَةٌ له مُتَرَقِّبَةٌ لِورودِ ما يُوجِبُ استنكارَهُ مِنَ العللِ المُوجِبةِ لعدمِ ثباتِهم على العهدِ واستبعادِهِ، وأصلُ الكلامِ: (كيفَ يكونُ لهُم عهدٌ عندَ اللّهِ وعندَ رسولِهِ؟!)، وفي هذا الحذفِ مِنَ الفخامةِ ما لا توجدُ لو ذُكِرَ المحذوفُ[4]، ومِن أسرارِ هذا الحذفِ ضيقُ المقامِ مِنَ المُشركينَ وخياناتِهم؛ تقبيحًا لهُم، وصَونًا لِلكلامِ عن تَكرارِ ذكرِهِم.

(1) السّكندريّ، الانتصاف لما تضمّنه الكشّاف: 2/249.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/123.

(3) "يشيعُ الأسلوبُ المرفوضُ بينَ المُعاصرين، وهو ما ظاهرُهُ خروجُ أداةِ الاستفهامِ عن صدارتِها. وقد أجازَ مَجمَعُ اللّغةِ المصريّ - في دورته الحاديةِ والخمسين - هذا الاستعمال، على أنّ اسمَ الاستفهامِ وقعَ صدرًا في جملتِهِ الّتي حُذِفَ ركنها، أو حُذِفت برمَّتها، وقد وردَ لهذا الاستعمال نظائرُ، منها قولُهُ تعالى: ﴿كَيۡفَ وَإِن يَظۡهَرُواْ عَلَيۡكُمۡ لَا يَرۡقُبُواْ فِيكُمۡ إِلّٗا وَلَا ذِمَّةٗۚ﴾ [التّوبة: 8]". يُنظر: أحمد مختار عمر، معجم الصّواب اللّغويّ: 1/95.

(4) الزّجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 2/433، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/9، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/46، والمطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 2/7.

دلالةُ الواو على الحالِ في ﴿وَإِن﴾:

ثباتُ المُشركينَ على حالةٍ تُنافي الوفاءَ بالعهدِ

في قولِهِ: ﴿وَإِن يَظْهَرُواْ عَلَيْكُمْ﴾ أفادَتِ الواوُ الحاليَّةَ، بمعنى: إنكارِ أن يكونَ لهم عهدٌ واستبعادِهِ، والحالُ أنَّهم إنْ يَظهروا عليكُم لا يَرقُبوا فيكم إلًّا ولا ذِمَّةً؛ أي: وهُم على حالةٍ تُنافي الوفاءَ بالعهدِ[1]، فدلَّتِ الحالُ على أنَّ سببَ الإنكارِ والاستبعادِ، هو أنَّهم إنْ يَظهروا عليكُم لا يَرقَبُوا فيكُم عهدًا ولا ذِمَّةً، ونكتةُ بيانِ العلَّةِ والسّببِ بأسلوبِ الحالِ الإشعارُ بثباتِ حالِهِم هذا، وعدمِ اقترانه بوقتِ إعطاءِ العهدِ.

مناسبةُ التَّعبيرِ بأداةِ الشَّرطِ ﴿وَإِن﴾:

نُدرةُ غلبةِ المُشركينَ على المؤمنينَ، إنْ كانوا على وصفِ الإيمانِ

لمّا كانَت أداةُ الشّرطِ (إنْ) تفيدُ عدمَ الجزمِ بوقوعِ الشّرطِ، وكانَ الحكمُ النّادرُ الوقوع مَوقعًا لـ(إنْ) آذنَ الكلامُ - في قولِهِ: ﴿كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُواْ عَلَيْكُمْ﴾ - بندرةِ غلبةِ المُشركينَ على المؤمنينَ، إنْ كانوا على وصفِ الإيمانِ، ولهذا كانَ الأقضى لحقِّ البلاغةِ هنا أن يكونَ الفعلُ ﴿يَظْهَرُواْ﴾ بلفظِ المضارعِ؛ لأنّهُ غيرُ مُتحقِّقٍ في الواقعِ[2].

دلالةُ الفعلِ المُقدَّرِ بعدَ ﴿كَيْفَ﴾:

المُشركونَ لا عهدَ لهم، ومَن لا عهدَ لهُ لا أمانَ لهُ

بَعدَ أداةِ الاستفهامِ الحاليّةِ ﴿كَيْفَ﴾ - في قولِهِ تعالى: ﴿كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُواْ عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُواْ فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً﴾ - فعلٌ مُقدَّرٌ، تقديره: (كيفَ يكونُ لهم عهدٌ، وإنْ يَظهَرُوا عَليكُم لا يَرقُبُوا)، والمعنى الإعرابيُّ والدّلاليُّ يحدّدُهما الفعلُ المقدَّرُ بعدَ كيفَ، وفي ﴿كَيْفَ﴾ هنا تأكيدٌ للاستبعادِ الّذي في الأولَى[3]، ومدارُ المعنى على أنّ احتمالَ ظهورِهِم بمعنى انتصارِهِم وتمكُّنِهِم سوف يكونُ وَبالًا على المُسلمينَ، ومردُّ ذلك إلى أنّهم لا عهدَ لَهُم، ولا أمانَ لمواثيقِهِم،

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/250، وأبو حيّان، البحر المحيط: 5/377، والسّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 6/17.

(2) السّكّاكيّ، مفتاح العلوم، ص: 240.

(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/9.

فَهُم لا يَرْجُونها إلّا في حالةِ ضعفِهم، فإذا مالَت لهم الكفّةُ نسُوا عهدَهُم، وانقلبُوا يفتكونَ بالمُسلمينَ، فيصبحونَ وحوشًا كاسرةً، لا يَرقبونَ في مُؤمنٍ إلًّا ولا ذِمَّةً.

دلالةُ الضَّميرِ في قولِهِ: ﴿يَظْهَرُواْ﴾:

التّعبيرُ بالضّميرِ للإيذانِ بأنَّ المرادَ الذّواتُ مع أحوالِهم الّتي ذُكِرَت

لمّا كانَ الضّميرُ في ﴿يَظْهَرُواْ﴾ عائدًا إلى ﴿لِلْمُشْرِكِينَ﴾ في الآيةِ المُتقدِّمةِ دلَّ على أنَّ الكلامَ يجري فيهم، وإنّما جاءَ بصيغةِ الضّميرِ، ولم يذكرِ الاسمَ الظّاهرَ؛ للإيذانِ بأنَّ المذكورينَ هُم أنفسُهُم الّذين وَقَعَ الإنكارُ على أن يكونَ لهم عهدٌ عندَ اللّهِ وعندَ رسولِهِ، فجاءَ الضّميرُ إيجازًا في الكلامِ؛ لبيانِ أنَّ المُرادَ هُمُ المُشركونَ بأوصافِهِم وأحوالِهِم الّتي ذُكِرَت.

بلاغةُ قولِهِ: ﴿يَظْهَرُواْ عَلَيْكُمْ﴾:

الغالبُ ظاهرٌ مُستقوٍ، والمغلوبُ يُخفي نفسَهُ ونقصانَهُ

يحتملُ أن يكونَ قولُهُ: ﴿يَظْهَرُواْ﴾ استعارةً تصريحيّةً تبعيّةً؛ إذ شُبِّهَتِ الغلبةُ بالظّهرِ؛ لأنّه ممّا يُتقوَّى به؛ ليفيدَ أنَّ غلبتَهُم على مَعنى التَّقوِّي والاقتدارِ، أو يُقالُ: شُبِّه فيها الاستعلاءُ المعنويُّ بالاستعلاءِ الحسّيِّ، بجامعِ السّيطرةِ والقهرِ في كلٍّ منهُما مع مُراعاةِ جوابِ الشّرطِ، كما يُحتملُ أن يكونَ كنايةً، وبيانُهُ: أنَّ مَن غَلَبَ غيرَهُ حَصَلَت له صِفةُ كَمالٍ، ومَن كانَ كذلك أظهرَ نفسَهُ، ومنهُ صارَ المغلوبُ كالنَّاقصِ، والنَّاقصُ لا يُظهِرُ نفسَهُ، ويُخفي نقصانَهُ، فَصَارَ الظُّهُورُ كنايةً لِلغلَبةِ؛ لِكونِهِ مِن لوازمِها، أو يُقالُ: مِن شأنِ الغالبِ الاستعلاءُ على المغلوبِ، ومَن عَلَا شيئًا مَلَكَهُ[1].

فائدةُ التَّعبيرِ بشبهِ الجملةِ ﴿عَلَيْكُمْ﴾:

شرطُ الظّهورِ على المؤمنينَ مَدعاةٌ للتّنكيلِ بهِم في كلِّ حين

أفادَ حرفُ الجرِّ في قولِهِ: ﴿وَإِن يَظْهَرُواْ عَلَيْكُمْ﴾ أنَّ المرادَ: إنْ تمكَّنوا تمكُّنَ ظهورٍ وغلبةٍ، بحيث تكونُ الغلبةُ مُستوعبةً جميعَ

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 15/532، والنّيسابوريّ، غرائب القرآن: 3/435، والمطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 2/7.

المُسلمينَ، ومعنى: ﴿وَإِن يَظۡهَرُواْ عَلَيۡكُمۡ﴾: يغلبوا عليكُم ويَظفروا بكُم، ﴿لَا يَرۡقُبُواْ فِيكُمۡ إِلّٗا وَلَا ذِمَّةٗۚ﴾؛ يعني: لا يحفظوا فيكُم قرابةً ولا عهدًا. وقوْلُه: ﴿عَلَيۡكُمۡ﴾ هنا تفيدُ دورانَ الدّولابِ؛ لتكونَ الغلبةُ لهؤلاءِ الغلاظِ الشّدادِ، الّذين لا يَحفظونَ عهدًا، ولا يُراعونَ قَرابةً ولا إحسانًا ولا مِيثاقًا.

نكتةُ مجيءِ الجزاءِ بلفظِ: ﴿لَا يَرۡقُبُواْ﴾:

تعظيمُ أمرِ المحافظةِ على (الإلِّ والذِّمَّةِ)؛ لعلوِّ شأنِهما وارتفاعِ مَنزلتِهما

لمّا كانَ الظّهورُ بمعنى الظّفرِ بالشّيءِ وعلوِّهِ عليه، على وجهِ الغلبةِ - ومنه قولُهُم: ظهرتُ على السّطحِ إذا صرتَ فوقَهُ - وكان ﴿وَإِن يَظۡهَرُواْ عَلَيۡكُمۡ﴾ في سياقِ الشّرطِ، ناسبَهُ أن يأتيَ بلفظِ ﴿لَا يَرۡقُبُواْ﴾ في قولِهِ: ﴿لَا يَرۡقُبُواْ فِيكُمۡ إِلّٗا وَلَا ذِمَّةٗۚ﴾؛ لما يُلازمُ لفظَ الرّقوبِ مِن مَعنى العلوِّ والإشرافِ بارتفاعٍ؛ ليُفيدَ أنّ المُشركينَ في حالِ ظهورِهم وعُلوِّهم لا يُراعون إلًّا ولا ذِمَّةً، وفي التّعبيرِ إشعارٌ بتعظيمِ أمرِ المحافظةِ على الإلِّ والذِّمَّةِ؛ لعلوِّ شأنِهما وارتفاعِ مَنزلتِهما عندَ جميعِ النّاسِ؛ لاقترانِ التّعبيرِ عنهما بلفظِ الظُّهورِ والرّقوبِ.

فائدةُ التَّقديمِ في قولِهِ: ﴿فِيكُمۡ﴾:

الكلامُ بصيغةِ الخطابِ له مِنَ التَّأثيرِ في المتلقّي ما ليسَ في الغَيْبةِ

لمّا تقدَّمَ الجارُّ والمجرورُ ﴿فِيكُمۡ﴾ على المفعولِ بهِ ﴿إِلّٗا﴾ دلَّ على حصرِ نفيِ رقابتِهم في المؤمنينَ، وأنَّهُم هُمُ المعنيّونَ بالأمرِ دونَ غيرِهم؛ إشعارًا بعظيمِ ضغينتِهم وعداوتِهم لَهُم، وفي مَجيءِ ضميرِ المُخاطبةِ العائدِ إلى المؤمنينَ تنبيهٌ لِشدَّةِ عَداوةِ المُشركينَ النّاكثينَ لهم، فإنَّ الكلامَ على سبيلِ المُخاطبةِ لهُ مِنَ التَّأثيرِ في المتلقّي ما ليسَ في الغَيْبةِ.

دلالةُ مجيءِ ﴿إِلّٗا﴾ و﴿ذِمَّةٗۚ﴾ نَكرتين:

لمّا جاءَ اللّفظان نَكرتين في سياقِ النّفي أفادَ المعنى عمومَ نفي مُراقبتِهم الإلَّ والذِّمّةَ؛ أي: سواءٌ كانَ كلُّ واحدٍ منهما كبيرًا أو

صغيرًا[1]، واعتبارُ مُراعاةِ الإلِّ والذِّمّةِ "يعني: أنّ وُجُوبَ مُراعاةِ حقوقِ العهدِ على كُلٍّ مِنَ المُتعاهِدَينِ مَشروطٌ بمُراعاةِ الآخَرِ لها، فإذا لم يُراعِها المُشركونَ فكيف يُطلَبُ من المؤمنين أن يُراعوها؟! على مِنوالِ قولِ مَن قالَ:

عَلَامَ تُقبَلُ مِنهُم فِديَةٌ وَهُمُ *** لَا فِضَّةً قَبِلُوا مِنّا ولا ذَهَبَا"[2].

تقبيحُ حالِ المُشركينَ الّذين لا يُراعونَ أيَّ عهدٍ أو ذِمَّةٍ

دلالةُ العطفِ وتكرارِ ﴿لَا﴾:

لمّا كانَ العطفُ - في قولِه: ﴿لَا يَرۡقُبُواْ فِيكُمۡ إِلّٗا وَلَا ذِمَّةٗۚ﴾ - مُفيدًا التّشريكَ في الحُكمِ، وكانَتِ الواوُ على معنى الجمعِ بينَ المعطوفين مع تكرارِ ﴿لَا﴾ كانَ الكلامُ على تقديرِ تَكرارِ الفعلِ؛ أي: لا يرقبوا فيكُم إلًّا، ولا يرقبوا فيكم ذِمَّةً؛ ليفيدَ العطفُ مع تَكرارِ (لَا) نفيَ رقابتِهِم الإلَّ والذِّمّةَ، سواءً كانا مُجتمعَين أو مُنفردَين مع تأكيدِ نفيِ رقابتِهِم وتقريرِها.

نفيُ مُراعاةِ المُشركينَ الحِلفَ والعهدَ سواء كانا مُجتمعَين أو مُنفردَين

بلاغةُ الكنايةِ في قولِه: ﴿لَا يَرۡقُبُواْ﴾:

لمّا أفادَت جملةُ الحالِ - في قولِه: ﴿وَإِن يَظۡهَرُواْ عَلَيۡكُمۡ لَا يَرۡقُبُواْ فِيكُمۡ إِلّٗا وَلَا ذِمَّةٗۚ﴾ - أنّهم إنْ يَظفروا بكُم لا يُراعوا فيكم حِلفًا ولا عهدًا، كانَ لازمُهُ أنَّ مَن حالُهُم هذه لا يَثبتونَ على عهدٍ، وهذا هو السَّببُ المُوجِبُ للإنكارِ والاستبعادِ والتَّعجيبِ[3]، وذكرُ السَّببِ بطريقِ الكنايةِ فيهِ معنى الاستدلالِ، وإقامةِ الحُجّةِ، فيكونُ أدعى لامتثالِ المُؤمنينَ واقتناعِهِم.

مَنْ لا يُراعِ حِلفًا ولا عهدًا لا يثبتْ على عهدٍ، ولا يُؤمَنُ له جانبٌ

اختلافُ العلماءِ في معنى (الإلّ):

جاءَ الكلامُ آخذًا بعضُه بحُجَزِة بعضٍ، وقد تساءلَ السّياقُ عن بيانِ حالِ المُشركينَ، وما تَتلظَّى بهِ قلوبُهُم، وما يُنبِئُ به الحالُ عمّا

اللّفظُ القرآنيُّ لا تنفكُّ عنهُ الدّلالةُ في البيانِ المُعجِزِ الأخّاذِ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/384.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/46.
(3) ابن التّمجيد، حاشية على تفسير البيضاويّ: 9/163.

يُخالِفُ المقال، وقد بَسَطَ العلماءُ القولَ في معنى (الإلّ)، والإلُّ هذا: القرابةُ، وهو قولُ ابنِ عبّاسٍ، ومنهُ: العهدُ، ومنهُ: الأنينُ في الدُّعاءِ مع البُكاءِ، وخَريرِ الماءِ، والطَّعنُ، ومنهُ قولُ أبي بكر رضي الله عنه: إنّ هذا - أي: كلامَ مُسَيلِمةَ - مَا يَخرُجُ مِن إلّ؛ أي: مِن إلهٍ، وفي إلِّ اللّهِ؛ أي: قُدرتِهِ وإلَهيَّتِهِ[1]، وقالَ آخرون: إنّ الإلَّ هو الجؤارُ، وهو رفعُ الصّوتِ عندَ التّحالفِ، وذلك أنّهُم كانُوا إذا تحالَفُوا جَأَرُوا بذلك جُؤارًا. وقالَ الزّجّاج: الإلُّ عندي على ما تُوجِبُهُ اللّغةُ يدورُ على معنى الحِدّةِ، ومنهُ: الألّةُ لِلحربةِ، ومنه: أُذُنٌ مُؤَلَّلةٌ؛ أي: مُحدَّدةٌ[2]، وفي المعنى" استبعادٌ لأن يَبقى المُشركون على عهدٍ بينَهُم وبينَ المُسلمينَ، وإنْ كانَت بينَهم وبينَ المُشركين قرابةُ نسبٍ أو عهودٌ مُوثَّقةٌ، والمُستفهَمُ عنه هنا مَحذوفٌ؛ لدلالةِ الحالِ عليه، وهو: كيفَ يحفظونَ لكم عهدًا، وهُم عداوةٌ تمتلئُ بها صدورُهُم بغضةً وشنانًا لَكُم، حيثُ لا يَجدونَ شِفاءً لَمَا في صدورِهِم مِن هذا الدّاءِ إلّا أن يَأخذوكُم بالبأساءِ والضّرّاءِ؟"[3].

براعةُ الاستئنافِ البيانيِّ في ﴿يُرۡضُونَكُم﴾:

لمّا كانَ ذلك مَظنَّةً لأن يُقالَ: قد أكَّدُوا لنا الأيمانَ، وأوثقوا العهودَ، فلمَ لا نُعطيهِم العهدَ؟ قال مُعلِّلًا ببيانِ حالِهم المنافيةِ لثباتِهم على العهدِ، المؤدِّيةِ إلى عدمِ مُراقبتِهم عندَ الظَّفرِ، ومُجيبًا لِمَن استبعدَهُ: ﴿يُرۡضُونَكُم بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَتَأۡبَىٰ قُلُوبُهُمۡ﴾، فجاءَ الاستئنافُ لبيانِ حالةِ الخداعِ الّذي هُم عليهِ.

إثارةُ السُّؤالِ أدعى إلى تثبيتِ المعنى والإقرارِ بهِ

بلاغةُ الكنايةِ:

في الاستئنافِ - في قولِهِ تعالى: ﴿يُرۡضُونَكُم بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَتَأۡبَىٰ قُلُوبُهُمۡ﴾ - كنايةٌ بذكرِ المَلزومِ وإرادةِ اللّازمِ، وهو تحذيرُ المؤمنينَ

تنبيهُ المؤمنينَ إلى أساليبِ خداعِ الكافرينَ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/385.
(2) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 4/59.
(3) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 5/708.

وتنبيهُهُم إلى ألّا يُصدِّقُوا الصُّورةَ الّتي يرونَها أمامَهُم مِنَ المُشركينَ؛ لأنّهم يُحاولونَ خِداعَ المُؤمنينَ بالقولِ الحَسنِ، والوَجهِ البشوشِ، والألفاظِ الحلوةِ النَّاعمةِ، لكنَّ قلوبَهُم تأبَى هذا العملَ بما أبدَتهُ ألسنتُهُم وتنكرُهُ[1].

فائدةُ التَّعبيرِ بالاستئنافِ في: ﴿يُرۡضُونَكُم﴾:

لمّا كانَ تَعليقُ عدمِ رعايةِ المُشركينَ العهدَ بالظَّفرِ مُوهِمًا للرِّعايةِ عندَ عَدَمِهِ كَشَفَ عن حقيقةِ شؤونِهِم الجليَّةِ والخفيَّةِ بطريقِ الاستئنافِ في قوله تعالى: ﴿يُرۡضُونَكُم بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَتَأۡبَىٰ قُلُوبُهُمۡ﴾، وبيَّنَ أنَّهُم في حالةِ العَجزِ أيضًا ليسُوا مِنَ الوفاءِ في شيءٍ، وأنَّ مَا يُظهرونَهُ مُداهَنَةٌ لا مُهادَنَةٌ، فإذا كانُوا في حالِ العَجزِ عن غلبةِ المُسلمينَ مُخادِعينَ فحالُهم عندَ ظهورِهم على المسلمينَ أدعى لِلخِداعِ والغدرِ، فيلزمُ منه استبعادُ ثباتِهم على العهدِ[2].

إذا كانَ الكفَّارُ في حالِ الانكسارِ مُخادِعينَ فحالُ ظهورِهِم أدعى لِلخديعةِ

بلاغةُ المجازِ المُرسَلِ:

جاءَ الكلامُ على طريق المجاز المُرسَلِ في قولِهِ: ﴿يُرۡضُونَكُم بِأَفۡوَٰهِهِمۡ﴾ بذكرِ السَّببِ وهو الفمُ، وإرادةِ المُسبَّبِ وهو القولُ الخارجُ منهُ، ويحتملُ أنْ يكونَ مِن ذكرِ المَحلِّ وإرادةِ الحالِّ، ونكتةُ التّعبيرِ بالمجازِ المُرسَلِ: أنَّ التّعبيرَ بالأفواهِ يدُلُّ على عِظَمِ الفمِ وسَعَتِهِ، ففيه إشارةٌ إلى كثرةِ ثرثرتِهِم بالكلامِ مع تفخيمِهِ وتضخيمِهِ، فكأنَّهُم يتكلَّمُونَ بملءِ أفواهِهِم؛ لتزويقِ الكلامِ وتنميقِهِ وتحسينِهِ وتزيينِهِ؛ ليُرضُوا المؤمنينَ بحلاوتِهِ، فيخدعوهم.

مِن أساليبِ الخداعِ الماكرةِ تزويقُ الكلامِ بالعباراتِ الآسرةِ

نكتةُ التَّعبيرِ بلفظِ ﴿يُرۡضُونَكُم﴾:

لمّا كانَ الرّضا خلافَ السُّخطِ، وكانَ بمعنى تشبُّعِ النَّفسِ

إرضاءُ الكافرينَ الغادرينَ لِلمُؤمنينَ لكي لا يَنتبهوا إلى خداعِهِم

(1) ابن جرير، جامع البيان: 14/150، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل وأسرار التّأويل: 3/73، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 8/385، والشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 8/4904.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/46.

وامتلائِها بَلالًا ورِقَّةً، نحَو الّذي يُرضَى عنهُ[1] عُبِّرَ بـ ﴿يُرۡضُونَكُم﴾؛ للإشعارِ بأنَّهم يَجعلونَ المُؤمنينَ لا يَسخطونَ عليهم، ولا يَحذرونَ منهُم، ولا يَنتبهُونَ لِمَكرِهِم وخداعِهِم؛ والمعنى: يرضُونَكُم عنهُم وعن أفعالِهِم وأحوالِهِم، فيلزمُ منهُ عدمُ التَّحرُّزِ مِنهُم.

فائدةُ حذفِ مُتعلِّقِ الفعلِ في ﴿يُرۡضُونَكُم﴾:

مـحـاولـةُ الـكـافـريـنَ الغادرينَ إرضاءَ المؤمنينَ في كلِّ شيءٍ، مع إبايةِ قلوبِهِم لهُ

في قولِهِ تعالى: ﴿يُرۡضُونَكُم بِأَفۡوَٰهِهِمۡ﴾ يحتملُ مُتعلِّقُ الفعلِ ﴿يُرۡضُونَكُم﴾ أن يكونَ بتقديرِ: يُرضونَكُم بأفواهِهِم في الوفاءِ، فيكون مقابلُهُ: وتأبَى قلوبُهُم الوفاءَ، ومفهومُهُ: تأبَى قلوبُهُم إلَّا الغدرَ، أو: يُرضُونَكُم بأفواهِهِم في الطّاعةِ، وتأبَى قلوبُهُم الطّاعةَ، ومفهومُهُ: تأبَى إلّا المعصيَةَ، أو: يُرضُونَكُم بأفواهِهِم في الوعدِ بالإيمانِ، وتأبَى قلوبُهُم الوعدَ، ومفهومُهُ: تأبَى إلّا الشِّركَ[2]، فلمّا حُذِفَ المُتعلِّقُ أفادَ عمومَ المعنى؛ ليشملَ المذكورَ وغيرَه ممّا هو في معناه.

مناسبةُ العطفِ في قولِهِ: ﴿وَتَأۡبَىٰ قُلُوبُهُمۡ﴾:

تـنـاقـضُ الـكـافـريـنَ بينَ إرضـاءِ المؤمنينَ بـكـلامِـهِـم، وإبايتِهِ بقلوبِهِم

العطفُ - في قولِهِ: ﴿يُرۡضُونَكُم بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَتَأۡبَىٰ قُلُوبُهُمۡ﴾ - على معنى الجمعِ بينَ المُتعاطِفينِ على سبيلِ ذكرِ الشَّيءِ ونقيضِهِ، فهُم يَجمعونَ بينَ الفعلِ المحسوسِ المَرئيِّ - وهو إرضاءُ المؤمنينَ بحلوِ الكلامِ - والفعلِ القلبيِّ غيرِ المرئيِّ على سبيلِ المناقضةِ؛ إيذانًا بطريقةِ خداعِهِم ومَكرِهِم.

بلاغةُ الاستعارةِ في ﴿وَتَأۡبَىٰ قُلُوبُهُمۡ﴾:

يأبى الكافرونَ، وتأبى قلوبُهُم إرضاءَ المؤمنينَ

إسنادُ الإبايةِ إلى القلوبِ استعارةٌ تصريحيَّةٌ تبعيَّةٌ، فقلوبُهم لمَّا نَوَتِ الغدرَ شُبِّهَتْ بمَن يُطلَبُ منه شيءٌ فَيَأبَى[3]، ويحتملُ أن يكونَ مَجازًا عقليًّا، علاقتُهُ المكانيّةُ، والتّقديرُ: يأبونَ بقلوبِهِم؛ ليكونَ

(1) الرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (رضي).
(2) الماورديّ، النّكت والعيون: 2/343، وأبو حيّان، البحر المحيط: 5/378.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/124.

نظيرَ ﴿يُرۡضُونَكُم بِأَفۡوَٰهِهِمۡ﴾، والسِّرُّ البلاغيُّ في إسنادِ الإبايةِ إلى قلوبِهم دونَ ذواتِهم هو الإشعارُ بالغلِّ والحقدِ والأضغانِ الّتي في قلوبِهم على المُؤمنينَ، وللإشارةِ إلى أنَّ قلوبَهُم امتلأَتْ حِقدًا، حتَّى كأنّها صارَت لفرطِ ما فيها مِن مَكرٍ عدوًّا آخرَ لِلمؤمنينَ يتربَّصُ بهم الدَّوائرَ، كما أنَّه جارٍ على أسلوبِ القرآنِ في مُقابلةِ الأفواهِ بالقلوبِ[1].

بلاغةُ الإيجازِ بالحذفِ:

تقديرُ الكلام في قولِه: ﴿يُرۡضُونَكُم بِأَفۡوَٰهِهِمۡ﴾: يُرضُونَكم بقولٍ مِن أفواهِهم، فحُذِفَ القولُ وحرفُ الجرِّ، وفائدةُ الحذفِ الإيجازُ، والإشعارُ بأنَّ قولَهُم كانَ بأفواهِهم كلِّها؛ حرصًا منهُم على خداعِ المؤمنينَ وإرضائِهم بحلوِ الكلامِ النّاعمِ المنمَّقِ المزيَّنِ.

الجمعُ بينَ بلاغةِ الإيجازِ ودقَّةِ المعنى

براعةُ تعليقِ الإرضاءِ بقولِه: ﴿بِأَفۡوَٰهِهِمۡ﴾:

لم يَقُلْ: (يُرضُونَكُم بقولِهم أو بكلامِهم) مثلًا، بل نسبَ الإرضاءَ إلى الأفواهِ؛ للإيذانِ بأنّ كلامَهُم مُجرَّدُ ألفاظٍ يَتفوَّهُونَ بها مِن غيرِ أن يكونَ لها مِصداقٌ في قلوبِهم، وكلُّ مَوضِعٍ علّقَ اللّهُ تعالى فيه حُكمَ القولِ بِالفَمِ هو إشارةٌ إلى الكذبِ والتَّكبُّرِ عنِ الحقِّ، وتنبيهٌ أنّ الاعتقادَ لا يطابقُهُ، ولهذا قالَ اللّهُ تعالى عن يومِ القيامةِ: ﴿ٱلۡيَوۡمَ نَخۡتِمُ عَلَىٰٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ﴾ [يس: 65]، فلمّا قالَ اللّهُ تعالى: ﴿يُرۡضُونَكُم بِأَفۡوَٰهِهِمۡ﴾ دلَّ على أنَّ ما في قلوبِهم يخالِفُهُ، ولمّا قالَ: ﴿وَتَأۡبَىٰ قُلُوبُهُمۡ﴾ كانَ بمَنزلةِ التّصريحِ بما عَلِمَ ضمنًا، فيكون تأكيدًا وتقريرًا لِلمعنى، وإظهارًا لِمَا يَحرصونَ عليهِ من إخفاءِ ما في قلوبِهم؛ ليكونَ التَّصريحُ بإباءِ قلوبِهم ومُخالفَتِها لِمَا يقولونَهُ بأفواهِهم زيادةً في توبيخِهم وفضحِهم[2].

تعليقُ حُكمِ القولِ بِالفَمِ إشارةٌ إلى الكذبِ؛ لأنّ الاعتقادَ لا يطابقُهُ

(1) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 2/7.

(2) الرّاغب، المفردات: (فوه)، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/46.

نكتةُ التَّعبيرِ بلفظِ ﴿وَتَأْبَىٰ﴾:

إبايةُ الكافرين بقلوبِهم هو باختيارِهم، مع وجودِ الدَّاعي إلى الامتثالِ

عُبِّرَ بلفظِ ﴿وَتَأْبَىٰ﴾ في قولِهِ: ﴿وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ﴾؛ للإشعارِ بشدّةِ امتناعِ قلوبِهم عن قَبولِ ما يَقولُونَه بأفواهِهم أَنَفَةً وكراهةً له، وللإشعارِ بأنَّ امتناعَهُم كانَ باختيارِهم معَ وجودِ القُدرةِ على الامتثالِ والدّاعي إليهِ، فيكونُ تأكيدًا لِمَا دلَّ عليه السِّياقُ مِن أنَّ ما يَقولونَهُ بأفواهِهم كَذِبٌ وخِداعٌ لِلمُؤمِنين[1].

بلاغةُ الحذفِ في قولِهِ: ﴿وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ﴾:

مِن جمالِ البيانِ القرآنيِّ حذفُ بعضِ عناصرِ السّياقِ لغرضٍ

حُذِفَ المفعولُ في قولِهِ: ﴿وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ﴾؛ لإفادةِ العُمومِ، والمعنى: تأبَى قلوبُهُم ما تتفوَّهُ به أفواهُهُم ممّا يُرضون به المؤمنينَ، وتأبَى قلوبُهم الاعتقادَ بما تَفوَّهوا به، والإذعانَ له والعملَ به، وتأبَى قلوبُهُم الإيمانَ والطّاعةَ، ويجري في تقديرِ المحذوفِ كلُّ ما هو في هذا المعنى، فكانَ الحذفُ أولى؛ لعمومِ المعنى وللإيجازِ[2].

دلالةُ المضارعِ في قولِهِ: ﴿يُرْضُونَكُم﴾ ﴿وَتَأْبَىٰ﴾:

الإيذانُ باستمرارِ الغادرينَ بالخِداعِ، وأنَّ غدرَهُم قد يحصُلُ في أيِّ لحظةٍ

عبّر بصيغةِ المضارعِ للإيذانِ باستمرارِهم على الجمعِ بينَ إرضاءِ المؤمنين باللّسانِ الحلوِ المنمَّقِ، وبين إباءِ قلوبِهم لِمَا يَقولونَهُ، وأنَّ هذا الأمرَ يتجدَّدُ عندَهم حالًا فحالًا، وفيه تصويرٌ للحالةِ أيضًا؛ إشعارًا ببشاعةِ فعلِهم، وبأنَّ غدرَهُم قد يحصُلُ في أيِّ لحظةٍ.

بديعُ المُقابلةِ بينَ ﴿بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ و﴿قُلُوبُهُمْ﴾:

الاكتفاءُ باللِّسانِ للتّعبيرِ عمّا في القلبِ، فإذا تخالَفَا جُمِعَ بينَهُما

لمّا كانَ اللّسانُ مُعبِّرًا عمّا في القلبِ استُغني بالقولِ عن ذكرِ ما في القلبِ، فإذا تخالَفَا جمعَ بينَهُما على سبيلِ المُقابلةِ، فيكون القولُ مُختصًّا بالأفواهِ، من غيرِ أن يكونَ له مِصداقٌ في القلبِ، فهُم "﴿يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ﴾؛ أي: يقولونَ بألسنتِهم ما فيه مُجامَلَةٌ

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (أبى).

(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/10، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل وأسرار التّأويل: 3/72، وابن عادل، اللّباب: 10/29، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 8/385، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/46.

ومُحاسَنةٌ لَكُم، طَلَبًا لِمَرضاتِكُم، وتَطييب قلوبِكُم، و﴿قُلُوبُهُمْ﴾ تأبَى ذلكَ وتُخالِفُهُ، وتَوَدُّ مَا فيهِ مَساءَتُكم ومَضَرَّتُكم، كَما يَفعَلُهُ أهلُ النّفاقِ وذَوُو الوَجهَينِ"[1].

دلالةُ الواو على الحاليّةِ في ﴿وَأَكْثَرُهُمْ﴾:

لمّا كانَتِ الواو حاليَّةً أفادَت جملةُ ﴿وَأَكْثَرُهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ أنَّها في مَوضِعِ الحالِ مِن واو الجماعةِ في ﴿يُرْضُونَكُم﴾، والمقصودُ المبالغةُ في الذَّمِّ بأنَّ أكثَرَهم مَوصوفٌ بالفِسقِ في حالِ إرضائِكُم بأفواهِهِم[2]، وقد "حَكَمَ عَلَيهم بالفِسقِ، وهو التَّمرُّدُ والتَّجَرِّي، والخُرُوجُ عنِ الحقِّ؛ لِنقضِهِم العُهودَ، وعَدمِ مُراعاتِهِم لِلعُقُودِ"[3].

دقّةُ القرآنِ في توصيفِ نوازعِ النّفوسِ، ودواخلِ الفِسقِ والهَوى

سببُ إيثارِ وصفِ الكفّارِ بالفِسقِ:

في قولِهِ تعالى: ﴿وَأَكْثَرُهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ إنْ قيلَ: الموصوفونَ بهذهِ الصِّفةِ كُفَّارٌ، والكفرُ أقبَحُ وأخبَثُ مِنَ الفِسقِ، فكيفَ يحسُنُ وصفُهُم بالفِسقِ في مَعرِضِ المُبالَغةِ في الذَّمِّ؟! فالجوابُ: أنَّ الكافرَ قد يكونُ عَدلًا في دينِهِ، وقد يكونُ فَاسِقًا خبيثَ النَّفسِ في دينِهِ، فالمُرادُ ها هنا أنَّ هؤلاءِ الكُفَّارَ الّذينَ مِن عادتِهِم نَقضُ العُهُودِ أكثَرُهُم فاسقونَ في دينِهِم وعندَ أقوامِهِم، وذلكَ يُوجِبُ المُبالَغةَ في الذَّمِّ[4].

الفِسقُ أقبحُ ما يُوصَفُ بهِ المُتمرِّدونَ عن مَنهجِ اللهِ

سببُ الحُكمِ بالفِسقِ على الأكثريَّةِ:

في قولِهِ: ﴿وَأَكْثَرُهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ إنْ قيلَ: هَذا الكلامُ في المُشرِكينَ وهُم كُلُّهُم فاسِقُونَ، فَكَيفَ قَالَ: وأَكثَرُهُم فاسِقُونَ؟! قيلَ: لمّا كانَ السّياقُ في بيانِ الوفاءِ بالعهدِ ونقضِهِ أَرَادَ بالفِسقِ هاهنا نَقضَ العهدِ، فقد كَانَ في المُشرِكينَ مَن وَفَّى بِعَهدِهِ، وأَكثَرُهُم نَقَضُوا،

الفاسِقونَ جمعُوا المَذمَّةَ الدّينيَّةَ والعُرفيَّةَ

(1) الشّوكانيّ، فتح القدير: 2/388.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/124.
(3) الشّوكانيّ، فتح القدير: 2/388.
(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 15/533.

فلهَذا قالَ: ﴿وَأَكْثَرُهُمْ فَٰسِقُونَ﴾؛ تعظيمًا لشأنِ نقضِ العهدِ، فيكون التّعبيرُ باللَّفظِ المُشتقِّ إيذانًا بأنَّ نقضَ العهدِ صارَ سجيَّةً لهم، أو يُقالُ: قد يكونُ الكافرُ مُحترزًا عنِ الكذبِ، ونقضِ العهدِ والمكرِ والخديعةِ، وقد يكونُ مَوصوفًا بذلك، ومثلُ هذا الشَّخصِ يكونُ مَذمومًا عندَ جميعِ النَّاسِ وفي جميعِ الأديانِ، فالمرادُ أنَّ أكثرَهُم مَوصوفونَ بهذهِ الصِّفاتِ المَذمومةِ لا جميعَهم، فإنَّ بعضَهُم يَتفادَى الغدرَ، ويتعفَّفُ عمّا يجرُّ إلى أُحدوثةِ السُّوءِ، فالفِسقُ هنا الخروجُ عنِ الكمالِ العُرفيِّ بينَ النَّاسِ، وليسَ المرادُ به الخُرُوجَ عَن مَهيَعِ الدِّينِ؛ لأنَّ الخُرُوجَ عَنِ الدّينِ وصفٌ لجميعِهم لا لأكثرِهم، ولأنَّهُ قد عُرِفَ مِن وصفِهم بالكفرِ، فَجمعُوا المَذمَّةَ الدِّينيَّةَ والمَذمَّةَ العُرفيَّةَ[1].

نكتةُ التّعبيرِ بلفظِ ﴿فَٰسِقُونَ﴾:

لمّا كانَ الفِسقُ هوَ الخروجَ عنِ الطّاعةِ لأجلِ اتّباعِ الشّهواتِ، وكانَ فيه معنى التَّمرُّدِ كانَ الإخبارُ بهذا الوصفِ - في قولِهِ: ﴿وَأَكْثَرُهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ - أنسبَ للسّياقِ، فهُم فاسِقُون خارجُونَ عنِ الطَّاعةِ؛ لأنَّ مُراعاةَ حقوقِ العهدِ مِن بابِ الطَّاعةِ، وهُم مُتمرِّدونَ ليسَت لَهُم مُرُوءَةٌ رادِعَةٌ، ولا عَقيدَةٌ وَازِعَةٌ، ولا يَتَسَتَّرُونَ في الغَدرِ، وعدمِ مُراعاةِ العهدِ، كما يَتعاطَاهُ بعضُهم مِمَّن يَتَفادَى الغدرَ، ويَتَعَفَّفُ عمّا يَجُرُّ أُحدُوثَةَ السُّوءِ، كما أنَّ التّعبيرَ باللّفظِ المُشتَقِّ يُؤذِنُ بلُصُوقِ الوصفِ بِهِم، وأنَّهُ صارَ سجيَّةً لَهُم كما تَقدَّمَ[2].

الفِسقُ تمرُّدٌ سببُهُ اتّباعُ الشّهواتِ والرّكونُ إلى مُطلَقِ المَلَذّاتِ

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الإلّ والذِّمَّة والعهد والميثاق واليَمين:

لمّا كانَ العطفُ على معنى المغايرةِ دَلَّ على أنَّ الإلَّ غيرُ الذِّمَّةِ،

(1) البغويّ، معالم التّنزيل: 2/320، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 15/533، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل وأسرار التّأويل: 3/73، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/124.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/46.

والفرقُ بينَهُما: أنَّ الإلَّ هو كلُّ حالةٍ ظاهرةٍ مِن عهدٍ أو حِلفٍ، لا يمكنُ إنكارُهُ، ويكونُ مُلزِمًا، وظاهرُ استعمالِهِ في القرآنِ الكريم، أنّه لا يكونُ إلّا فيما يَتعلَّقُ بهِ العهدُ مع اللّهِ، أو يكونُ حلفًا باللّهِ تعالى، وبهذا يكونُ أخصَّ من العهدِ، الّذي يكونُ مع اللّهِ أو مع النّاسِ، في أمورِ الحياةِ وشؤونِها، وذَهَبَ بعضُ المُفسِّرينَ إلى أنَّ الإلَّ يُطلَقُ على الحِلفِ والعهدِ، ويُطلَقُ كذلكَ على النَّسبِ والقَرابةِ، وقد كانَت بينَ المُشركينِ وبينَ المُسلمينَ أنسابٌ وقَراباتٌ، فَيَصِحُّ أنْ يُرادَ في الآيةِ كِلا مَعنَيَيهِ. وأمّا الذِّمَّةُ فهي مِنَ الذَّمِّ؛ لأنَّ صاحبَهُ يُذَمُّ على إضاعتِهِ، والذِّمَّةُ كلُّ ما يَجِبُ في المروءةِ أنْ يُحفَظَ ويُحمَى مِنَ الأواصرِ، مِن صُحبةٍ وخُلُقٍ، وحُرمةٍ وخُلَّةٍ، وجِوارٍ وحلفٍ، وأمانٍ وضمانٍ، فأُطلِقَتِ الذِّمّةُ على كلِّ واحدٍ ممّا ذُكِرَ؛ لأنّه يكونُ عقدًا في الضّميرِ، وَمِن ذَلِكَ أهلُ الذِّمَّةِ؛ أي: أهلُ العهدِ والأمانِ، ويُقالُ: في ذِمَّتي كذا؛ أي: ألتزِمُ به وأحفَظُهُ، فالعهدُ مَا يتَّفقُ رجلان أو فريقان مِنَ النّاسِ على التزامِهِ بينَهُما لِمصلحتِهِما المُشتركةِ، فإنْ أكَّدَاهُ ووثَّقاهُ بما يَقتضي زيادةَ العنايةِ بحفظِهِ، والوفاء به سُمِّيَ مِيثاقًا؛ وهو مُشتَقٌّ مِنَ الوَثاق، وهو الحبلُ والقيدُ، فالميثاقُ عقدٌ مُؤكَّدٌ بيمينٍ وعهدٍ، وإنْ أكَّداه باليمين خاصَّةً سُمِّيَ يَمينًا، وقد يُسمَّى بذلك لوضعِ كلٍّ مِنَ المُتعاقِدين يمينَهُ في يمينِ الآخرِ عندَ عقدِهِ، واليمينُ في الأصلِ اليدُ المقابلةُ لِلشِّمالِ، وذَهَبَ بعضُ اللّغويينَ إلى أنَّ الفرقَ بينَ العهدِ والميثاقِ أنَّ العهدَ يكونُ حالًا مِنَ المتعاهدَيْنِ، والميثاقَ يكونُ مِن أحدِهما[1].

لـلإلِّ والـذِّمَّـةِ مَـعـانٍ عـديـدةٌ، ولكنَّهُما أقـربُ الألـفـاظِ لـدلالـةِ الـسّـيـاقِ على المُرادِ

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 57، والرّاغب، المفردات: (الإل، ذم)، ورضا، تفسير المنار: 10/167، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/124.

﴿ٱشۡتَرَوۡاْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنٗا قَلِيلٗا فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِهِۦٓۚ إِنَّهُمۡ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٩﴾ [التّوبة: 9]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

تنوُّعُ الأدلَّةِ على كُفرِ المُشرِكينَ لإظهارِ الحُجّةِ عليهم

لمّا كَشَفَ اللّهُ سَرائِرَهُم، وبيَّنَ خِداعَهُم شَرَعَ يُقيمُ لهم دليلًا آخرَ على فِسقِهِم بتمسُّكِهِم بكفرِهِم، فقالَ مُعبِّرًا بما يُفيدُ أنّهُم تَمَكَّنُوا مِنَ الكُفرِ تَمَكُّنًا صارُوا بهِ كأنَّهُ في حَوزَتِهِم: ﴿ٱشۡتَرَوۡاْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنٗا قَلِيلٗا﴾ الآيةَ[1]، لقد " أعرَضوا عن آياتِ اللّهِ، واستبدلُوا بِها عَرَضًا قليلًا مِن أعراضِ الدّنيا، ومنعُوا النّاسَ عنِ الدُّخولِ في دينِ اللّهِ، إنّ هؤلاء قَبُحَ ما كانُوا يَعمَلُونَ"[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَصَدُّواْ﴾: يدورُ معنى الصّدِّ حولَ الاعتراضِ بقَوِيٍّ أو كثيفٍ، يَرُدُّ المقبلَ أو يمنعُهُ، كالجبلِ بالنّسبةِ لِلسّائرِ باتّجاهٍ، يُقالُ: صددتُ فلانًا عنِ الأمرِ؛ إذا عدلتَهُ عنهُ ومنعتَهُ وصرفتَهُ، وقد يكونُ انصرافًا عنِ الشّيءِ وإعراضًا عنهُ، وقد يكونُ صرفًا ومنعًا للغيرِ بحيث يحولُ عنهُ، و﴿فَصَدُّواْ﴾؛ بمعنى: مَنَعُوا[3]، "يُقالُ: صدَّ فلانًا عن كذا صدًّا؛ إذا منعَهُ وصَرَفَهُ عنهُ، قالَ اللّهُ ﷻ: ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعۡبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ﴾ [النّمل: 43]؛ أي: صدَّها كونُها مِن قومٍ كافرينَ عنِ الإيمانِ. وفي التّنزيلِ: ﴿فَصَدَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [النّمل: 24]، كأصَدَّهُ إصدادًا، وصَدَّدَهُ، وأنشدَ الفرّاءُ لذي الرُّمَّةِ:

أُناسٌ أَصَدُّوا النَّاسَ بالسَّيفِ عَنهُمُ *** صُدُودَ السَّوَاقِي عَن أُنُوفِ الحَوائِمِ"[4].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/385 - 386.

(2) لجنة من علماء الأزهر، المنتخب في تفسير القرآن الكريم، ص: 259.

(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، والفيّوميّ، المصباح المنير، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (صدد)، وابن جرير، جامع البيان: 14/151.

(4) الزَّبيديّ، تاج العروس: (صدد).

2) ﴿سَآءَ﴾: يُقالُ: ساءَ ما فَعَلَ فلانٌ صنيعًا يَسوءُ؛ أي: قَبُحَ صنيعُهُ صنيعًا، والسُّوءُ: الفُجُورُ والمُنكَرُ، ويُقالُ: فُلانٌ سيِّئُ الاختيارِ، وقد يُخفَّفُ، مِثلُ: هَيِّنٍ وهَيْنٍ، ولَيِّنٍ ولَيْنٍ. قالَ الطُّهَوِيُّ:

ولَا يَجزُونَ مِن حُسْنٍ بسَيْءٍ *** ولَا يَجزُونَ مِن غِلَظٍ بِلَيْنِ[1].

والسّيّئُ خلافُ الحَسَنِ، وهو اسمُ فاعلٍ مِن ساءَ يَسوءُ، إذا قَبُحَ، وهو أسوأُ القومِ، وهي السَّوأى أي: أقبحُهم، والنّاسُ يقولونَ: أسوأُ الأحوالِ، ويريدونَ الأقلَّ أو الأضعفَ، والمُساءَةُ نقيضُ المَسرَّةِ. وبدَت مَساويه؛ أي: نقائصُهُ ومعايبُهُ[2].

المَعْنى الإِجْماليُّ:

بيانُ عراقةِ المُشرِكينَ في القبائحِ، وأنَّها راسخةٌ في جبلَّتِهم

استبدَلُوا بآياتِ اللّهِ قليلًا مِن عَرَضِ الدّنيا التَّافهِ، وهُو اتِّبَاعُ الشَّهَواتِ والأَهواءِ، فأعرضُوا عنِ الحقِّ، ومنعُوا الرّاغبينَ في الإسلامِ مِن الدُّخولِ فيهِ، لقد قَبُحَ عملُهُم مِن اشترائِهم الكفرَ بالإيمانِ، وصدِّهم عن سبيلِ اللّهِ مَن آمنَ باللّهِ ورسولِهِ، أو مَن أرادَ أن يُؤمِنَ[3]، إنّهُم بهذا العملِ الخسيسِ الّذي انصرفُوا فيهِ عنِ الحقِّ وسطوعِهِ قد ساءَ فعلُهُم، وقَبُحَ صنيعُهُم الّذي ما فتئَ يتجدَّدُ آنًا بعدَ آنٍ، ويستمرُّ إلى عصرِنا هذا، ثمّ إلى أن يَرِثَ اللّهُ الأرضَ ومَن عَلَيها[4].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ الاستعارةِ في ﴿ٱشۡتَرَوۡاْ﴾:

خسارةُ الكافرينَ وخيبتُهُم ببيعِهم آياتِ اللّهِ مُقابلَ مَنافعَ قليلةٍ

لَمَّا تَرَكَ المشركونَ دِينَ اللّه وآياتِه، وَآثَروا الكُفرَ وما كانوا عليهِ كَانَ ذَلِكَ بمَنزِلَةِ الاستبدالِ، فصارَ كالشِّرَاءِ والبَيعِ، فجاءَ الكلامُ في قولِهِ: ﴿ٱشۡتَرَوۡاْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنٗا قَلِيلٗاۖ﴾ على طريقِ الاستعارةِ

(1) ابن منظور، لسان العرب: (سوأ).
(2) الفيّوميّ، المصباح المنير: 1/298.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 14/150، ونخبة من أساتذة التّفسير، التّفسير الميسّر، ص: 188.
(4) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 6/3238.

التَّصريحيَّةِ التَّبعيَّةِ، وبيانُهُ: أنَّه شبَّهَ آياتِ اللهِ القريبةَ منهم الثّابتةَ عندَهُم بمالٍ بأيديهم، بذلُوهُ وفرَّطُوا فيهِ لأجلِ اقتناءِ مَنافعَ قليلةٍ، فلمّا تركُوا ما قد مُكِّنوا منه وأخذُوا ما يمكنُ نبذُهُ مثَّلَ حالَهُم بحالِ مَنِ اشترى شيئًا بشيءٍ؛ إيذانًا بخيبةِ مُعاملتِهم وخسارتِهم الكبيرةِ بهذا الشّراءِ[1].

دلالةُ الباءِ في قولِهِ: ﴿بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾:

العوضُ يقتضي المُعاوضةَ بينَ شيئين

الباءُ للعوضِ، وشأنُها أنْ تدخلَ على ما هو عِوَضٌ يبذلُهُ مالكُهُ، لأخذِ مُعوَّضٍ يملكُهُ غيرُهُ، وتفيدُ هنا أنَّ المَبذولَ هو آياتُ اللهِ، والمأخوذَ هو الثَّمنُ القليلُ، وكونُهُم (اشتَرَوا بِآياتِ اللهِ ثَمَنًا قَلِيلًا)؛ "أي: باعُوها بثمنٍ هو عرضٌ مِن أعراضِ الدّنيا، وهو قليلٌ بجوارِ الحقائقِ الخالدةِ الّتي فيها الصّلاحُ في الدّنيا والآخرةِ"[2].

دلالةُ تركيبِ ﴿بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾:

أعظمُ دلائلِ الإسلامِ هي القرآنُ؛ لظهورِ حُجّتِهِ

المُرادُ بـ ﴿بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ الدَّلائلُ، فيكون المعنى على العُموم، وهي دلائلُ الدّعوةِ إلى الإسلامِ، وأعظَمُها القُرآنُ؛ لِمَا اشتمَلَ عليهِ مِنَ البراهينِ والحِجاجِ، ومِن جُملَتِهِ ما فِيهِ الأَمرُ بالوَفاءِ بالعُهودِ والاستقامةِ، فيدخل فيها دخولًا أوَّليًّا[3].

بلاغةُ الاستعارةِ في ﴿ثَمَنًا قَلِيلًا﴾:

التّعجيبُ ممّن يَزهَدُ بآياتِ اللهِ، ويحرِصُ على اتّباعِ الهوى

جاءَ قولُهُ: ﴿ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ على طريقِ الاستعارةِ المكنيَّةِ؛ إذ شُبِّهَ أهواءُ المُشركينَ ومنافعُهُم بالثّمنِ القليلِ الّذي مِن شأنِهِ أن يُبذَلَ ولا يُقتَنَى؛ ثمَّ حُذِفَ المشبَّهُ وصُرِّحَ بالمشبَّهِ بهِ في هذا التّشبيهِ؛ إيذانًا بأنّهُم قَلبُوا الأمرَ؛ لأنَّ الثّمنَ يكونُ مَدفوعًا لا مَأخوذًا؛ إذ كانَت آياتُ اللهِ هي المدفوعةَ في مُقابلِ تحصيلِ الثّمنِ القليلِ، والنُّكتةُ في هذا

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/11، وأبو حيّان، البحر المحيط: 5/378.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 6/3238.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/125.

القلبِ التّنبيهُ على عجيبِ فعلِهم وتقبيحِه؛ إذ زهدُوا بآياتِ اللّهِ، وحَرصُوا على اتّباعِ أهوائِهم؛ إشارةً إلى أنّهم فعلُوا عكسَ ما كانَ يجبُ أن يفعلُوهُ[1].

سرُّ الوصفِ بـ ﴿ٱشۡتَرَوۡاْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنٗا قَلِيلٗاۖ﴾:

لا عُذرَ لِمُشرِكٍ بعدَ ظهورِ الإسلامِ وانتشارِهِ ومَكِنتِهِ

لم يَصفِ القرآنُ المشركينَ بمثلِ ما وصفَ به أهلَ الكتاب في سورةِ البقرةِ؛ مِنَ الاشتراءِ بآياتِ اللّهِ ثمنًا قليلًا إلّا في هذهِ الآيةِ، ثمَّ لم يُوصَفُوا بمثلِ هذا في آيةٍ أخرى نزلَتْ بعدَها؛ لأنَّ نزولَها كانَ في آخرِ عهدِ المُشركينِ بالشِّركِ، إذْ لم تَطُلْ مُدَّةٌ حتَّى دَخَلُوا في دينِ اللّهِ أفواجًا، سَنَةَ الوفودِ وما بعدَها، وفيها دلالةٌ على ظهورِ أمرِ الإسلامِ وصحّتِه، ونُهُوضِ حُجّتِه، فآذنَتِ الآيةُ أنَّهُ ليسَ لَهُم سببٌ في بقائِهم على الشّركِ؛ هؤلاءِ الّذين بقُوا على الشِّركِ مِنَ العربِ بَعدَ فتحِ مَكَّةَ وظهورِ الإسلامِ سوى مَنافعَ يَجتَنُونَها مِن عوائدِ قومِهم؛ مِن غاراتٍ يشنُّها بعضُهُم على بعضٍ، ومَحَبَّةِ الأحوالِ الجاهليَّةِ مِن خَمرٍ ومَيسرٍ وزنىً وغيرِ ذلكَ مِنَ المَذمَّاتِ واللَّذَّاتِ الفائتةِ، وذلكَ شَيءٌ قليلٌ[2].

سببُ وصفِ الثّمنِ بالقليلِ:

كلُّ عرَضِ الدّنيا زائلٌ، وآياتُ الله ثوابٌ خالدٌ

لَمَّا كانَ ما حصَّلُوهُ بدلًا مِنَ الآياتِ، كان في سببِ وصفِهِ بالقليلِ - في قوله تعالى: ﴿ٱشۡتَرَوۡاْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنٗا قَلِيلٗاۖ﴾ - وجهان؛ أحدُهما: أنَّ أهواءَهُم وأغراضَهُم مِن عَرَضِ الدّنيا الّذي بقاؤُهُ قليلٌ غيرُ دائمٍ، فهو مَذمومٌ، وفيه كنايةٌ عن أنَّ الحرصَ على آياتِ اللّهِ والالتزامَ بها فيه الثّوابُ الدّائمُ المَحمودُ. والثّاني: أنّه حرامٌ، والحرامُ قليلٌ[3]، وفيه كنايةٌ عنِ التّعجيبِ مِن حالِهم، باشترائِهِمُ القليلَ الزّائلَ، بالكثيرِ الدّائمِ.

(1) الخفاجيّ، حاشية على تفسير البيضاويّ: 4/529، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/125.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/125.
(3) الماورديّ، النّكت والعيون 2/244، وابن الجوزيّ، زاد المسير: 2/239.

علَّةُ التَّعبيرِ بالثَّمنِ (القليلِ):

الوصفُ بالقليلِ يجعلُ الثّمنَ دونَ قيمةِ المثمَّنِ

قولُهُ: ﴿ٱشۡتَرَوۡاْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنٗا قَلِيلٗاۚ﴾؛ في هذه الآيةِ استعملَ السّياقُ لفظَ (ثمنًا)، ووصفَهُ بقولِهِ: (قليلًا)، وقد استعملَ لفظَ (ثمنًا) إحدى عشْرةَ مرّةً في القرآنِ، ووصفَهُ في إحداها مرّةً واحدةً بأنّهُ (بخس)، وفي البواقي بأنّه (قليل)، وذلك في قولِهِ تعالى: ﴿وَشَرَوۡهُ بِثَمَنِۭ بَخۡسِ دَرَاهِمَ مَعۡدُودَةٖ وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ٢٠﴾ [يوسف: 20]، وعليه فكلُّ ما كانَ حقًّا للّه فثمنُهُ قليلٌ؛ لأنّ حقوقَ اللّهِ لا كفاءَ لها، وعطاءَه لا نهايةَ لهُ، ولا يمكنُ الحصرُ للثّمنِ، ولا مقاربتُهُ إلّا أن يُوصَفَ بأنّه قليلٌ، وليسَ معنى ذلك أنّ الثّمنَ الكثيرَ يكافئُها أو يُساويها. ووَصفُ الثّمنِ بالقليلِ وَرَدَ تحقيرًا لشأنِ الثّمنِ، وتهوينًا مِن قيمتِهِ، وهو في غايةِ الإفصاحِ والبيانِ، وأمّا حقوقُ العبادِ فقد وُصِفَت بلفظِ (بخس)؛ أي: ناقِصٍ دُونَ ثَمنِهِ، وباعَهُ بثمنٍ بَخسٍ؛ أي: مَبخوس.

دلالةُ (الفاء) في ﴿فَصَدُّواْ﴾:

مَنْ ضلَّ عنِ الحقِّ وأضلَّ غيرَهُ فقد جمعَ السُّوءَ كلَّهُ

أفادتِ الفاءُ في قولِهِ: ﴿فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِهِۦٓۚ﴾ التَّرتيبَ والتَّعقيبَ؛ بمعنى: أنَّ اشتراءَهُمُ الثَّمنَ القليلَ مِنَ المنافعِ والأهواءِ، وإيثارَهم البقاءَ على الكفرِ تسبَّبَ عليهِ أنْ يَصُدُّوا النّاسَ عن سبيلِ اللّهِ، واتّباعِ دينِهِ، وأنَّ الصَّدَّ جاءَ عَقِبَ الاشتراءِ[1]، ولمّا كانَتِ الفاءُ حرفَ عطفٍ يفيدُ الجمعَ، دلَّ على أنّهُم جمعُوا السُّوءَ كلَّهُ، بضلالِ أنفسِهِم وإضلالِ النّاسِ.

بلاغةُ الاستعارةِ في ﴿فَصَدُّواْ﴾:

سبيلُ اللهِ وحدَها المُوصلةُ إلى المقصدِ الأسنى، وهو رضا اللهِ

عُبِّرَ بـ ﴿فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِهِۦٓۚ﴾ ليكونَ استعارةً تصريحيّةً تبعيّةً، إذ مثَّلَ حالَ المشركينَ الّذين يمنعونَ النّاسَ عنِ اتّباعِ دينِ اللّهِ بحالِ مَن يصدُّ النَّاسَ بقوَّةٍ عنِ السّيرِ في طريقٍ تُبلِّغُ إلى المَقصُودِ، ويَحُولُ

(1) البيضاويّ، أنوار التّنزيل وأسرار التّأويل: 3/73، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/12.

بينَهُم وبينَها[1]، وفيهِ إيذانٌ بأنَّ سبيلَ اللّهِ هي المُوصلةُ إلى المَقصدِ الأسنى، وهو رضا اللّهِ ومحبّتُهُ وجنّتُهُ.

دلالةُ حذفِ مفعولِ ﴿فَصَدُّواْ﴾:

لمّا كانَ الصَّدُّ بمعنى: الإعراضِ، وبمعنى: المنعِ والصَّرفِ، وكانَ المفعولُ مَحذوفًا دلَّ على أنّ المُرادَ: عدلُوا عن سبيلِهِ، وصَدُّوا كلَّ قاصدٍ عنهُ؛ لِيشملَ المُؤمنينَ السَّائرينَ في سبيلِهِ، والرّاغِبينَ في السَّيرِ في سبيلِهِ؛ أي: مَن آمنَ، ومَن أرادَ أن يُؤمِنَ، فيكون الحذفُ أقضى لحقِّ البلاغةِ نَظمًا ومعنًى؛ لِلإشعارِ بظلمِهِم وبشدَّةِ قبحِ أعمالِهِم[2].

الصَّدُّ عن سبيلِ اللّهِ يشملُ منعَ المؤمنينَ والرّاغبينَ في الإيمانِ

فائدةُ الإضافةِ في قولِهِ: ﴿سَبِيلِهِۦٓ﴾:

للإيذانِ بأنّهم صَدُّوا المؤمنينَ والرّاغبينَ في الإيمانِ عن كُلِّ ما يُوصِلُ إلى اللّهِ، ولو قالَ: (فصدُّوا عن سبيلِها)، بأنْ يعودَ الضَّميرُ إلى الآياتِ لكانَ المعنى: عنِ الوصولِ إليها، فلمّا قال: ﴿فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِهِۦٓ﴾كانَ الذَّمُّ أعمَّ؛ لِصدِّهِم عَن كلِّ مَا يُوصِلُ إلى اللّهِ، وكانَ أقبحَ لتعليقِ الصَّدِّ باللّهِ تعالى، فالإضافةُ لتشريفِ السّبيلِ وتعظيمِهِ[3].

رغبةُ الكافرينَ في الصَّدِّ عن كلِّ ما يُوصِلُ إلى رضا اللهِ

دلالةُ ﴿عَن سَبِيلِهِۦٓ﴾ بينَ الحقيقةِ والمجازِ:

يحتملُ أن يكونَ المعنى: فصدُّوا عن دينِهِ المُوَصِّلِ إليهِ، فيكون التّعبيرُ بالسّبيلِ على طريقِ المجازِ، أو أن يكونَ المعنى: فصدُّوا عن سبيلِ بيتِهِ بحصرِ الحُجَّاجِ والعُمَّارِ، فيكون مِنَ الحقيقةِ، والأوّلُ أعمُّ وأظهرُ وأشنعُ مِن كلِّ شنيعٍ[4]؛ لأنَّ صدَّ الحُجّاجِ والعُمّارِ عنِ الوصولِ إلى بيتِهِ، يَدخلُ في الصَّدِّ عن دينِهِ الموصِّلِ إليه ﷻ.

الصَّدُّ عن سبيلِ اللّهِ يشملُ الصّدَّ عن زيارةِ بيتِهِ المُعظَّمِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/125.

(2) ابن جرير، جامع البيان: 14/151، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/11، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/126.

(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/46.

(4) البيضاويّ، أنوار التّنزيل وأسرار التّأويل: 3/73، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 9/167.

مناسبةُ مجيءِ الكلامِ على مُقتضَى الظّاهرِ:

لم يقُلْ: (فصَدُّوا عن سبيلِ اللّهِ)، بل جاءَ بالضّميرِ فقالَ: ﴿فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِهِۦٓ﴾؛ لِقُربِ ذكرِ الاسمِ الجليلِ؛ ليكونَ على مُقتضَى الظّاهرِ للإيجازِ، ولِيكونَ المرادُ مِنَ الضّميرِ عينَ المذكورِ أوّلًا؛ إيذانًا بأنَّ آياتِ اللّهِ الّتي استبدلُوهَا هي مِن سبيلِهِ المُوصِّلِ إليه ﷻ.

آياتُ اللهِ الّتي يزهَدُ بها الكافرونَ هي مِنَ السَّبيلِ الموصِّلِ إلى اللهِ تعالى

سببُ إيثارِ التَّعبيرِ بالجملةِ الابتدائيَّةِ:

عُبِّرَ بالجملةِ: ﴿إِنَّهُمۡ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ بطريقِ الاستئنافِ الابتدائيِّ، ففُصِلَتْ عَنِ الّتي قبلَها؛ لِيظهَرَ استِقلالُها بالإخبارِ بذمِّهِم، وذمِّ عملِهِم، فتفيدُ ثبوتَ المعنى واستقرارَه فيهم، فكانَ لا ينبغي أنْ تُعطَفَ في الكلامِ، إذِ العطفُ يَجعَلُ الجُملةَ المعطوفةَ بِمَنزلةِ التَّكمِلَةِ لِلمَعطوفَةِ عليها، وافتُتِحَت بحرفِ التَّأكيدِ لتأكيدِ ذمِّهِم[1].

استئنافُ الكلامِ لِيظهرَ ذمُّ الكافرينَ، ويستقلَّ في الكلامِ

دلالةُ (إنَّ) والضمير المتصل بها في ﴿إِنَّهُمۡ﴾:

تفيدُ (إنَّ) تأكيدَ مَضمونِ الجملةِ؛ إيذانًا بأهمّيَّةِ الخبرِ، ولتقريرِهِ في نفوسِ المُخاطَبين. ويَعودُ الضّميرُ إلى المُشركينَ مع الأوصافِ الّتي وُصِفُوا بها، ويدخلُ فيها دخولًا أوّليًّا اشتراؤُهم بآياتِ اللّهِ ثمنًا قليلًا؛ ليكونَ الخبرُ في قولِهِ: ﴿سَآءَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ شاملًا كلَّ ما ذكرَ؛ لِيُفيدَ الخبرُ ذمَّ ذواتِهِم على اتِّصافِهِم بهذهِ الأعمالِ؛ لِوقوعِ الجملةِ خبرًا عنِ الضّميرِ، ولِيُفيدَ ذمَّ عملِهِم بدلالةِ المُطابقةِ على ذمِّ عملِهِم، فيكون تأكيدًا وتقريرًا.

ذمُّ ذواتِ المُشركينَ لاتِّصافِهِم بالشّركِ، وذمُّ عملِهِم الصّادرِ عنِ الشِّركِ

دلالةُ الفعلِ ﴿سَآءَ﴾:

يحتملُ الفعلُ ﴿سَآءَ﴾ في قولِهِ: ﴿سَآءَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ أنْ يكونَ مِن أفعالِ الذَّمِّ، مِن بابِ بِئسَ، والمَخصوصُ بالذَّمِّ محذوفٌ، وتقديرُ الكلامِ: (ساءَ العملُ ما كانُوا يعملونَ) أو (ساءَ ما كانُوا يَعملُون

اشتراءُ الأهواءِ بآياتِ اللهِ عملٌ سيئٌ، ويَسُوءُ صاحبَهُ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/126.

عملُهُم)، ويحتملُ أن يكونَ على بابِه: فإمَّا أن يكونَ فعلًا لازمًا؛ بمعنى: قَبُحَ مُضمَّنًا معنى بئس؛ لتكثيرِ المعنى، ولهذا اقتُصِرَ على الفاعلِ؛ والمعنى: ساءَ ما كانوا يَعملُونَ، وبِئسَ ما كانوا يَعملونَ، فيفيد تقبيحَ ما يَعملونَ وذمَّهُ، وإمّا أنْ يكونَ فعلًا مُتعدِّيًا جامدًا حُذِفَ مفعولُهُ، كقولِهم: (ساءَني كذا)، والتَّقديرُ: إنّهُم ساءَهُم ما كانوا يَعملونَ، ونكتةُ حذفِ المفعولِ بيانُ أنَّ السُّوءَ قد صارَ وَصفًا لازمًا لكلِّ ما كانُوا يَعملونَ[1].

دلالةُ ﴿مَا﴾ في ﴿مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾:

عُبِّرَ بـ ﴿مَا﴾ في قولِهِ: ﴿سَآءَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾، ولم يقل: (ساءَ الّذي كانُوا يَعملُونَ)؛ إشعارًا بسوءِ جميعِ عملِهِم، ويدخلُ فيه دخولًا أوّليًّا أعمالُهُم المذكورة في هذه الآياتِ، فكأنَّهم ليسَ لهم عملٌ سوى ما ذَكَرَ؛ تَعظيمًا لسُوءِ عملِهِم، وتقبيحًا له، وأيضًا لمّا كانَ هذا العملُ أقبحَ عملٍ وأفظعَهُ بعدَ الشِّركِ باللّهِ كانَ سببًا في سوءِ سائرِ أعمالِهِم.

اشتراءُ الأهواءِ بآياتِ الله سببٌ في سوءِ سائرِ الأعمالِ

سببُ إيثارِ التّعبيرِ بـ ﴿مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾:

لم يقُلْ: (إنَّهم ساءَ عملُهم)، بل عبَّر عن عملِهِم بصيغةِ (كانَ يفعل) الدّالَّةِ على الدّوامِ والاستمرارِ في قولِهِ تعالى: ﴿كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾؛ للإشارةِ إلى أنَّ مَا ذُكِرَ مِن عملِهِم المتقدِّمِ - أي: نقضِهِمُ العهودَ، وانتفاءِ مُراقبتِهِم الإلَّ والذِّمَّةَ لِلمؤمنينَ، واشترائِهِم بآياتِ اللّهِ الثّمنَ القليلَ، وصَدِّهِم عن سبيلِ اللّهِ - كلُّ هذا مُستمرٌّ، وأنَّه دَأبٌ لَهُم، ومُتَكَرِّرٌ منهُم، فهُم يُجدِّدُونَ عملَهُ في كلِّ وقتٍ، كما أنَّ في التّعبيرِ بـ ﴿يَعۡمَلُونَ﴾ مُراعاةً للفاصلةِ[2].

سوءُ العملِ وقبحُه دأبُ الكافرينَ في كلِّ وقتٍ

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/11، وأبو حيّان، البحر المحيط: 5/378، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل وأسرار التّأويل: 3/73، والسّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 6/23، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/46، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 9/167.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/389، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/46، والخفاجيّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 530، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/126.

دلالةُ صلةِ الموصولِ في ﴿كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾:

لمّا كانَت صلةُ الموصولِ مَعلومةَ الانتسابِ عندَ المُخاطَبين دلَّ على أنّ المُشركينَ كانوا يَعلمونَ سوءَ عملِهم مع إصرارِهم عليهِ؛ لأنّهُم في فعلتِهم تلك ساءَ ما كانُوا يَعملونَ، فَهُم " لا عقيدةَ تَزَعُهُم، ولا مروءةَ تردعُهُم، خارجونَ مِن أصولِ الدّينِ والمروءةِ والأخلاقِ، مُتجاوزونَ حدودَ الصِّدقِ والوفاءِ، مُتحلِّلونَ مِن قيودِ العهدِ والميثاقِ".

مَن لا عقيدةَ تَزَعُهُ، ولا مُروءةَ تردعُهُ سيُودي به عملُهُ

فائدةُ حذفِ مفعولِ ﴿يَعۡمَلُونَ﴾:

أفادَ حذفُ المفعولِ أنَّ عملَهُم الموصوفَ بالسُّوءِ، لا يقتصرُ على الكفرِ باللّهِ، بل يشملُ عملهُم مع أنفسِهم ومعَ النّاسِ، ويُحتملُ أن يكونَ المُرادُ لزومَ السُّوءِ في أيِّ عملٍ يَعملونَهُ إنْ أُريدَ بالفعلِ اللّزومُ، فيفيد سوءَ عملِهم مع اللّهِ ومع النّاسِ أيضًا، فالمآلُ واحدٌ.

سوءُ عملِ الكُفّارِ لايقتَصِرُ على الكفرِ بالله، بل يشملُ كلَّ أعمالِهم

فائدةُ مجيءِ الخبرِ جملةً فعليَّةً:

أفادَ مجيءُ خبرِ (إنَّ) جملةً فعليَّةً في قولِهِ: ﴿مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ تَقوِّي الحُكمَ بنفسِ التّركيبِ، والمُرادُ تحقيقُ سُوءِ عملِهم دونَ تخصيصِ سُوءِ العملِ بهِم[1]، وعملُهُم المذكورُ في لفظِ ﴿يَعۡمَلُونَ﴾ يشملُ مَا كانُوا يعملونَ مِن اشتراءِ الكُفرِ بالإيمانِ، والضّلالةِ بالهدى، والصُّدودِ والصَّدِّ عن دينِ اللّهِ، وما جاءَ بهِ رسولُهُ مِنَ البيّناتِ والحقِّ[2].

الجزاءُ مِن جنسِ العملِ، ولا يُظلمُ أحدٌ شيئًا

❁ الفُروقُ المُعجَمِيَّةُ:

الثّمنُ القليلُ والثّمنُ البَخسُ:

الثّمنُ القليلُ جاءَ في القرآنِ للتّعبيرِ عن آياتِ اللّهِ، وعن عهدِ اللّهِ سبحانَهُ؛ وذلك لأنّ مُقابلَ العدوانِ على حقِّ اللّهِ، مهما بَلَغَ فهو ثمنٌ قليلٌ، وفي ذلكَ يقولُ: ﴿وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗاۚ﴾، فلا ثمنَ

(1) السّكّاكيّ، مفتاح العلوم، ص: 221.
(2) رضا، تفسير المنار: 10/168.

يُناسِبُ آياتِ اللّهِ ﷻ، ومهما كانَ الثّمنُ فهو قليلٌ؛ لأنّ عظمةَ آياتِ اللّهِ لا تُقدَّرُ بثمنٍ محدودٍ، ولا بِعوضٍ مَعدودٍ، وفي القرآنِ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشۡتَرُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ وَأَيۡمَٰنِهِمۡ ثَمَنٗا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ [آل عمران: 77]؛ ويعني الثّمنُ القليلُ هنا: "حطامُ الدّنيا الزّائلُ الفاني"[1]، وأمّا قولُهُ: (ثمن بخس) فمعناهُ: قليلٌ، وقد وَرَدَ في قولِهِ تعالى في قِصّةِ يُوسفَ: ﴿وَشَرَوۡهُ بِثَمَنِۭ بَخۡسٖ دَرَٰهِمَ مَعۡدُودَةٖ وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ٢٠﴾ [يوسف: 20]، وعلى الأقوالِ كُلِّها: "فالبَخسُ في اللّغةِ: هو نقصُ الشّيءِ على سبيلِ الظّلمِ. والبخسُ والباخسُ الشّيءُ الطّفيفُ، وقولُهُ: ﴿دَرَٰهِمَ مَعۡدُودَةٖ﴾ فيه إشارةٌ إلى قلّةِ تلك الدّراهمِ"[2].

الثّمنُ القليلُ: ما كانَ دونَ قيمةِ المثمَّنِ حقيقةً، والبخسُ: نقصُ الشّيءِ ظُلمًا

(1) الخطيب، أوضح التّفاسير، ص: 69.
(2) الخازن، لباب التّأويل: 2/519.

﴿لَا يَرۡقُبُونَ فِي مُؤۡمِنٍ إِلّٗا وَلَا ذِمَّةٗۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُعۡتَدُونَ ١٠﴾

[التّوبة: 10]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا أخبرَ اللّهُ تعالى بعراقتِهم في الفِسقِ، وأنّهُم اشترَوا بآياتِ اللّهِ ثمنًا قليلًا دلَّ على أنَّ خيانتَهُم للّه وللمؤمنينَ، وعدمَ مُراعاتِهم حقَّ الحِلفِ والعهدِ خلقٌ مُتأصِّلٌ فيهم، سواء؛ أكانوا أقوياءَ أم مُستضعفِينَ، وأنَّ خيانتَهُم ليسَت خاصَّةً بالمُخاطَبينَ، بل عامّةٌ لكُلِّ مَنِ اتَّصَفَ بصفةِ الإيمانِ[1].

مَن شَرَى بآياتِ اللهِ ثمنًا قليلًا لم يَرقُبْ في المؤمنينَ إلَّا ولا ذِمَّةً

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلۡمُعۡتَدُونَ﴾: يدورُ معنى الكلمةِ على حولَ تَجَاوزٍ في الشَّيءِ وتَقدُّمٍ لِمَا يَنبغِي أن يُقتَصَرَ عليهِ. والعَادِي: الّذي يَعدُو على النّاسِ ظُلمًا. والاعتداءُ مُشتَقٌّ مِنَ العُدوانِ، وهو مُجاوزةُ الحقِّ؛ أي: تَجَاوزُ ما يَنبغي أن يُقتصَرَ عليه ظلمًا صُراحًا. والاعتداءُ يكونُ على سبيلِ الابتداءِ، كقولِهِ تعالى: ﴿وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ١٩٠﴾ [البقرة: 190]، وعلى سبيلِ المُجازاةِ، كقولِهِ تعالى: ﴿فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ بِمِثۡلِ مَا ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡۚ﴾ [البقرة: 194]، ومِنَ الباب العَدُوُّ، و﴿ٱلۡمُعۡتَدُونَ﴾ بمعنى المُتجاوزينَ الغايةَ في الظُّلمِ والشَّرِّ[2].

المَعْنى الإجْمالِيُّ:

لا يراعي المُشركونَ في مُؤمنٍ قَرابةً ولا عهدًا في أيِّ حالٍ، وأولئكَ الجامِعونَ لِلصّفاتِ الذّميمةِ شأنُهُم العدوان والظّلم[3]، وهُم حربٌ

ذمُّ قطيعةِ الرّحمِ ونقضِ الذِّمَّةِ؛ لأنّها نقصٌ في المروءةِ، وثلمٌ في الدّين

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/389، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/126.

(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (عدو)، وابن جرير، جامع البيان: 14/151، والزّمخشريّ، الكشّاف: 2/250.

(3) مجمَع البحوث الإسلاميّة بالأزهر، التّفسير الوسيط: 3/1664.

على الإيمانِ وأهلِه، فلا يُقيمونَ وزنًا لِقَرابةِ المُؤمنِ، ولا قيمةً لِعهدِه، بل شأنُهُم العدوانُ المُبيحُ، لكلِّ سَطْوٍ قبيحٍ، وما يَنجرُّ عن ذَلكَ مِنَ الظّلمِ الصّريحِ، الّذي طالما أهلَكَ الحرثَ والنَّسلَ، وأظهرَ في الأرضِ الفَسادَ[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

مُناسبةُ مَجيءِ الآيةِ بطريقِ الفصلِ دونَ الوصلِ:

ذمُّ الكافرينَ بسببِ أعمالِهم وقبائحِ أفعالِهم

جاءَتِ الآيةُ بطريقِ الفصلِ، إمّا لأنَّها بدلُ اشتمالٍ مِن قولِه في الآيةِ السّابقةِ: ﴿يَعۡمَلُونَ﴾، أو مِنَ المَخصوصِ بالذَّمِّ المحذوفِ، الّذي هو بتقديرِ: (عملُهم)؛ لِيُظهِرَ بمَجموعِ المُبدلِ منهُ والبدلِ مَزيدَ الاعتناءِ بالشَّأنِ[2]، فتكون الآيةُ تفسيرًا لِلمَخصوصِ بالذَّمِّ، ولِلإيذانِ بأنَّ ذمَّهُم كانَ لأعمالٍ ارتكبُوها، ومن أهمِّ ما اشتملَت عليهِ: أنّهم كانوا ﴿لَا يَرۡقُبُونَ فِي مُؤۡمِنٍ إِلّٗا وَلَا ذِمَّةٗۚ﴾، وإمّا استئنافًا بيانيًّا؛ لِتكونَ جوابًا لِسؤالٍ تقديرُهُ: هل كانَت خيانتُهُم لإحَنٍ وضَغائنَ بينَ الفريقينِ، أو لأنَّها تقعُ في وقتِ ظهورِهم وقوّتِهم على المؤمنينَ؟ فجاءَتِ الآيةُ لِتفيدَ أنَّ خيانتَهُم بسببِ وصفِ الإيمانِ خاصَّةً، كما أنَّ الآيةَ أفادَت معنًى أعمَّ وأوسعَ مِمَّا أفادَهُ قولُهُ: ﴿وَإِن يَظۡهَرُواْ عَلَيۡكُمۡ لَا يَرۡقُبُواْ فِيكُمۡ إِلّٗا وَلَا ذِمَّةٗۚ﴾ [التوبة: 8]؛ لأنَّ إطلاقَ الحكمِ عنِ التَّقييدِ بشرطِ ﴿وَإِن يَظۡهَرُواْ عَلَيۡكُمۡ﴾ يفيدُ أنَّ عدمَ مُراعاتِهم حقَّ الحِلفِ والعهدِ خُلُقٌ مُتأصِّلٌ فيهم، سواءٌ كانوا أقوياءَ أم مُستضعفِينَ، وأنَّ ذلكَ لِسُوءِ طويَّتِهم لِلمُؤمنينَ لأجلِ إيمانِهم، وعلى كلا التّوجيهين لا تكريرَ في الآيةِ، فعلى الوجهِ الأوّلِ تكونُ تفسيرًا وبيانًا لِمَا تقدَّمَها، وعلى الثّاني تكونُ جوابًا لسؤالٍ اقتضاهُ المَقامُ[3].

(1) نخبة من أساتذة التّفسير، التّفسير الميسّر، ص: 188.

(2) السّكّاكيّ، مفتاح العلوم، ص: 253.

(3) البيضاويّ، أنوار التّنزيل وأسرار التّأويل: 3/73، والنّسفيّ، مدارك التّنزيل: 1/666، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 9/167، والآلوسيّ، روح المعاني: 5/251، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/126.

فائدةُ التّقديمِ في قولِهِ: ﴿فِي مُؤۡمِنٖ﴾:

عدمُ مُراعاةِ الكافرينَ العهدَ والذِّمَّةَ مخصوصٌ بالمؤمنينِ

لمّا تقدَّمَ الجارُّ والمجرورُ ﴿فِي مُؤۡمِنٖ﴾على المفعولِ بهِ ﴿إِلّٗا﴾ دلَّ على حصرِ نفي رقابتِهِم بالمؤمنِ، واهتمامِهم به، إشعارًا بعظيمِ ضغينتِهِم وعداوتِهِم له، وتقريرًا لمَا تقدَّمَ في الآيةِ السّابقةِ مِن تقديمِ ﴿فِيكُمۡ﴾، وهُم لا يَرقُبونَ في المُؤمنينَ - على الخصوص - الإلَّ ولا الذِّمَّةَ، ويَعتبرون الإساءةَ لِلمُؤمنينَ جائزةً، بينما تعاملُهُم مع بعضِهِم مِن ملَّتِهِم لا يكونُ على نفسِ الشَّاكلةِ، وهو شبيهٌ بما كانَتِ اليهودُ تفعلُهُ مع العربِ والمُسلمينَ، ممّا ذكرَهُ اللّهُ في قولِهِ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُواْ لَيۡسَ عَلَيۡنَا فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٞ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ٧٥﴾ [آل عمران: 75].

بلاغةُ التَّغليبِ للذَّكرِ على الأنثى:

مِن شأنِ المُقاتَلةِ أن تكونَ بينَ الرّجالِ عادةً

عُبِّرَ بالمُؤمنِ في قولِهِ: ﴿فِي مُؤۡمِنٖ﴾ على سبيلِ التّغليبِ؛ لأنَّ المرادَ المؤمنُ والمؤمنةُ، ونكتةُ التّغليبِ أنَّ نقضَ العُهودِ غالبًا ما يكونُ في الحروبِ، ومِن شأنِ الحروبِ والمُقاتلَةِ أن تكونَ بينَ الرّجالِ، فعُبِّرَ بالمُؤمنِ تَغليبًا.

بلاغةُ الإطنابِ في ﴿لَا يَرۡقُبُونَ فِي مُؤۡمِنٖ﴾:

الإطنابُ البليغُ في الإفصاحِ، كالإيجازِ المُبينِ في الجملِ الفِصاحِ

قولُ اللّهِ تعالى: "﴿لَا يَرۡقُبُونَ فِي مُؤۡمِنٖ﴾، جاءَتِ العبارةُ لمزيدِ التّشنيعِ والتّقبيحِ عليهم؛ لأنّ مَقامَ الذَّمِّ كمَقامِ المدحِ؛ البلاغةُ فيه الإطنابُ[1]، وهو بابٌ مِنَ البلاغةِ أثيرٌ، إذا كانَ مُتلائمًا مع السّياقِ، وخادمًا للمعنى، ومُفصِحًا ببيانٍ عنِ المُرادِ، دونما مُبالغةٍ فيه، كما كانَتِ الطّبقةُ الفصيحةُ مِن أربابِ البيانِ يَتوخَّونَهُ ويَشترِطونَ في فصيحِ الكلامِ أنْ يَنأى عَنِ الإيجازِ المُخلِّ، وأن يَتنزَّهَ عَنِ الإطنابِ المُملِّ.

(1) الهرريّ، تفسير حدائق الرّوح والرّيحان: 11/156.

سرُّ صيغةِ المُشتقِّ في قولِهِ: ﴿فِي مُؤۡمِنٖ﴾:

الوصفُ المُوجِبُ لعداوةِ الكافرينَ لِلمُؤمنينَ هو الإيمانُ باللهِ وبرسولِهِ

لمّا علَّقَ النّفيَ بالاسم المُشتقِّ ﴿مُؤۡمِنٖ﴾ دلَّ على عِلّيّةِ المأخَذِ ومَنزعِ الاشتقاقِ، فهو إعلامٌ بأنَّ الوصفَ المُوجِبَ للعَداوةِ هو الإيمانُ فقط؛ أي: إنَّ ذنبَ المؤمنِ في هذا عندَهُم هو كونُهُ مُؤمِنًا، كما قالَ تعالى: ﴿وَمَا نَقَمُواْ مِنۡهُمۡ إِلَّآ أَن يُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ﴾ [البروج: 8]، وسببُ مَجيءِ الاسمِ المُشتقِّ: أنَّه لمّا قالَ أوَّلًا: ﴿لَا يَرۡقُبُواْ فِيكُمۡ﴾ كانَ يُحتمَلُ أن يَظُنَّ ظانٌّ أنَّ ذَلِكَ لِلإحَنِ الّتي وقعَت، فَزالَ هذا الاحتمالُ، ونبّهَ على العلَّةِ في ذلك بقولِهِ: ﴿فِي مُؤۡمِنٖ﴾[1].

فائدةُ التَّنكيرِ في لفظِ ﴿مُؤۡمِنٖ﴾:

المؤمنُ كيِّسٌ فَطِنٌ حَذِرٌ، لا يَغفلُ عن خيانةِ الأعداءِ وغدرِهِم

لمّا جاءَ الاسمُ النّكرةُ في سياقِ النّفي في قولِهِ تعالى: ﴿لَا يَرۡقُبُونَ فِي مُؤۡمِنٍ﴾؛ أفادَ العُمومَ؛ بمعنى: لا يَرقُبونَ في أيِّ مُؤمِنٍ إلَّا ولا ذِمَّةً، فيشمل كلَّ مُؤمِنٍ مِنَ المُخاطَبين وغيرِهم، من حيثُ إنَّهُ مُؤمِنٌ[2]، ففيه حثٌّ لكلِّ مُؤمِنٍ على أن يتنبَّهَ للكُفَّارِ، ويحذرَ مِن خيانتِهِم وغدرِهِم.

دلالةُ الواوِ في لفظِ ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ﴾:

اقترانُ اعتداءِ الكافرينَ بوقتِ عدمِ مُراعاتِهِم عهدَ المُؤمنينَ وذِمّتَهُم

تحتملُ (الواو) في قولِهِ تعالى: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُعۡتَدُونَ﴾ أن تكونَ حاليّةً؛ بمعنى: أنّ كونَهم مُعتدين مُقترنٌ بوقتِ عدمِ رقابتِهِم في مُؤمِنٍ إلَّا ولا ذِمَّةً، غيرُ مُنفَكٍّ عنهُم، ولمّا اجاءَتِ الجملةُ الحاليّةُ اسميَّةً، دلَّ على ثبوتِ هذا الوصفِ لَهُم، وحصرِهِ بِهِم كما سيأتي، وتَحتملُ أن تكونَ عاطفةً؛ لِتكونَ الجملةُ الاسميّةُ مَعطوفةً على الجملةِ الفعليّةِ في قولِهِ: ﴿لَا يَرۡقُبُونَ فِي مُؤۡمِنٍ إِلّٗا وَلَا ذِمَّةٗۚ﴾؛ لِمُناسبةِ أنَّ إثباتَ الاعتداءِ العظيمِ لَهُم نشأَ عنِ الحقدِ، فالضَّغينةِ الّتي أضمرُوها لِلمُؤمنينَ، لا لشيءٍ إلّا لأنَّهُم

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/11، وأبو حيّان، البحر المحيط: 5/378.
(2) محمد رضا، تفسير المنار: 10/168.

مُؤمنونَ كقولِهِ تعالى: ﴿وَمَا نَقَمُواْ مِنۡهُمۡ إِلَّآ أَن يُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ﴾ [البروج: 8][1].

سببُ إيثارِ التَّعبيرِ باسمِ الإشارةِ:

التّعبيرُ باسمِ الإشارةِ إلى الصّنفِ الّذي اجتمعَت فيهم الأوصافُ الذّميمةُ

اسمُ الإشارةِ ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ لا يُقصَدُ به هنا - في قولِهِ: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُعۡتَدُونَ﴾ - الإشارةُ إلى ذواتٍ مُعيَّنةٍ، ولكن إلى صنفٍ اجتمعَت فيهم تلك الأوصافُ الذَّميمةُ، فلمّا انكشفَت أحوالُهُم حتَّى صاروا كالحَاضِرينَ تجاهَ السَّامعِ، بحيثُ يُشارُ إليهم عُبِّرَ عنهم باسمِ الإشارةِ ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ﴾؛ والمعنى: (الجَامِعُونَ لِتلكَ الأَوصَافِ الذَّميمَةِ)[2].

دلالةُ الجملةِ الاسميَّةِ في قولِهِ: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُعۡتَدُونَ﴾:

عادةُ الكافرينَ المبالغةُ في تعدّي حدودِ اللهِ؛ لانتفاءِ الوازعِ الدِّينيِّ عندَهُم

لمّا كانتِ الجملةُ الاسميَّةُ دالَّةً على الثُّبوتِ أفادَ الكلامُ أنّهم كما خانُوا ولم يراعُوا العهودَ فيما مَضى، فإنَّهم كذلك يَفعلونَ فيما يأتي، والمعنى: عادتُهُمُ المُبالَغَةُ في حَملِ أنفسِهم على أنْ يتعدَّوا الحدودَ؛ لعدمِ ما يَرُدُّهم عَن ذَلِكَ مِن وازعٍ إلهيٍّ ورَادِعٍ شَرعيٍّ[3].

دلالةُ القصرِ بضميرِ الفصلِ في ﴿هُمُ ٱلۡمُعۡتَدُونَ﴾:

التَّطوُّعُ لِلعدوانِ دليلٌ على أصالةِ الشَّرِّ في نفوسِهم اللّئيمةِ

لمّا ضمَّ المُشركونَ إلى كفرِهم الخيانةَ، وعدمَ الحميَّةِ صحَّ قصرُ الاعتداءِ عليهم بضميرِ الفصلِ ﴿هُمُ﴾، وقَوَّى هذا القصرُ مَجيءَ خبرِ المبتدأ مُعرَّفًا بـ(أل)، والقصرُ هنا إمَّا أن يكُونَ لِلمُبالَغةِ في اعتدائِهم، فكأنَّهُ ليسَ هناكَ قومٌ مُعتدونَ سِواهم؛ لِمَا تفيدُهُ (أل) الجنسيّة في ﴿ٱلۡمُعۡتَدُونَ﴾ مِن استغراقِ كلِّ معاني الاعتداءِ؛ لأنَّهُ اعتداءٌ عظيمٌ مخفيٌّ على قومٍ حالَفُوهُم وعاهَدُوهُم، ولم يُلحِقُوا بهم ضُرًّا مع تمكُّنِهم منهُ، ولأنّهُم دونَ أن يُعتدَى عليهم تَطوَّعوا بالعدوانِ على دينِ اللّهِ، وعلى رسولِهِ ﷺ وعلى المُؤمنينَ، بسببِ وصفِ الإيمانِ،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/127.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/378.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/389، ورضا، تفسير المنار: 10/169.

كما أنّهُم قامُوا بالعدوانِ على أنفسِهم، في اشترائِهِمُ الثّمنَ القليلَ بآياتِ اللّهِ، وإمّا أنْ يكونَ قصرَ قَلبٍ؛ بمعنى: هُمُ المُعتدونَ لا أنتُم؛ لأنَّهُم هُم بَدَؤُوكُم بنَقضِ العهدِ[1].

سببُ إيثارِ الإخبارِ عنهُم بلفظِ ﴿ٱلْمُعْتَدُونَ﴾:

لمّا كانَ الاعتداءُ يأتي على سبيلِ الابتداءِ، وعلى سبيلِ المُجازاةِ وصفَهُم اللّهُ تعالى في قولِهِ: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُعْتَدُونَ﴾ بابتداءِ الاعتداءِ، ونقضِ العهودِ، والتَّعَمُّقِ في الباطلِ[2]؛ إيذانًا بظلمِهِم وقبيحِ عملِهِم؛ ليكونَ الوصفُ على نهايةِ الذّمِّ، "ذلك أنّ سمةَ العدوانِ أصليّةٌ فيهِم، فمِن شأنِهِم عدمُ التّقيُّدِ بالعُهودِ، بحكمِ عنادِهِم وكفرِهِم وكراهيتِهِم للإيمانِ، ولا علاجَ لهؤلاء أبدًا إلّا الإجبار على الرّجوعِ عنِ الكفرِ، والاعتصامِ بالإيمانِ"[3].

نهايةُ الذَّمِّ الوصفُ بالاعتداءِ؛ لأنّ بواعثَها الكراهيَةُ والكفرُ والطّغيانُ

دلالةُ صيغةِ ﴿ٱلْمُعْتَدُونَ﴾:

لمّا كانَت صيغةُ ﴿ٱلْمُعْتَدُونَ﴾ اسمَ فاعلٍ مُشتقٍّ مِنَ الفعلِ (يَعتدي) على وزن (يَفتعل) دلَّ على تكلُّفِهِم في الاعتداءِ على حدودِ اللّهِ، وحملِ أنفسِهِم عليهِ، بحيث اتّخذُوهُ وَصفًا لَهُم، كما تفيدُ الصِّيغةُ المُبالَغةَ في الاجتهادِ في تعدِّيهِم حتّى صارَ التَّعدِّي وَصفًا ثابتًا لهم، لا يتغيَّرُ[4].

تكلُّفُ الكافرينَ ثقلَ الاعتداءِ على المُؤمنينَ، حتَّى صارَ وَصفًا ثابتًا لَهُم

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الذِّمَّةُ والعهدُ:

هُنالك فرقٌ بينَ العهدِ والذِّمَّةِ، فالعهدُ عامٌّ في كلِّ أحدٍ مِن أهلِ الكتابِ أو غيرِ أهلِ الكتابِ، ويرجعُ العهدُ لوليِّ الأمرِ إن رأى المَصلحةَ

(1) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 9/168، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/127، والشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 8/4910.

(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/9.

(3) إبراهيم القطّان، تيسير التّفسير: 2/122.

(4) الرّضي، شرح شافية ابن الحاجب: 1/110، والحملاويّ، شذا العرف، ص: 33.

مثلًا في الصُّلحِ بينَه وبينَ أهلِ الكفرِ لِلانتفاعِ بِهِم، فهذهِ المَصالِحُ تَرجعُ إلى تقريرِ وليِّ الأمرِ، والعهدُ مُصطلَحٌ قرآنيٌّ، قالَ تعالى في مُحكَمِ التّنزيلِ: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ثُمَّ لَمۡ يَنقُصُوكُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَمۡ يُظَٰهِرُواْ عَلَيۡكُمۡ أَحَدٗا فَأَتِمُّوٓاْ إِلَيۡهِمۡ عَهۡدَهُمۡ إِلَىٰ مُدَّتِهِمۡۚ﴾ [التّوبة: 4]، وأمّا الذِّمَّةُ فهي عَقدٌ والتزامٌ مع غيرِ المُسلمِ، فالذِّمّيُّ: هو مَن نزلَ وانضوى تحتَ رايةِ الإسلامِ، وتحتَ حُكمِهِ بشروطِ الإسلامِ وشروطِ وليِّ الأمرِ مُقابلَ الجزيةِ السَّنويَّةِ[1]. وبالتّالي فالذِّمَّةُ: عهدٌ يُعطَى لغيرِ المُسلمينَ، مِنَ المُقيمينَ في دولةِ الإسلامِ، بالحفاظِ على أرواحِهِم وأموالِهِم وعدمِ المَساسِ بعقائدِهِم، بحيثُ تَكفلُ لهم الحريّةَ الدّينيّةَ، شريطةَ احترامِها، واحترامِ الأُطُرِ العامّةِ لِلمُجتمعِ المُسلمِ، وعدمِ التَّدخُّلِ في خصوصيّاتِهِ.

(1) محمّد حسن عبد الغفّار، شرح مختصر الصّارم المسلول: 7/4.

﴿فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخۡوَٰنُكُمۡ فِي ٱلدِّينِۗ وَنُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ١١﴾ [التّوبة: 11]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

التّوبةُ وإقامةُ الشّعائرِ سبيلُ الأخوَّةِ والحسبانِ في حوزةِ المُسلمينَ

لَمَّا بيَّنَ اللّهُ تعالى حالَ مَنْ لا يرقُبُ في المؤمنينَ إلًّا ولا ذِمَّةً، ويَنقُضُ العهدَ، ويَنطَوِي على الخيانةِ، ويَتعدَّى ما حُدَّ لَهُ بيَّنَ مِن بَعدُ أنَّهُم إنْ أقامُوا الصَّلاةَ وآتَوُا الزَّكاةَ كَيفَ حُكمُهُم[1]، وأيضًا: لَمَّا بيَّنَ ما أوجبَ بُعدَ المشركينَ مِنَ المؤمنينَ ومُعاداتَهم لَهُم بيَّنَ ما يَصيرُونَ به أهلًا، فجاءَت هذه الآيةُ[2]، وأيضًا: لمّا حَكَمَ على المُشركينَ بسُوءِ العملِ، وبأنّهُم مُعتدونَ في غايةِ العَداوةِ أعقبَهُ بهذهِ الآيةِ؛ لِيكونَ مِن تعقيبِ الشِّدَّةِ باللِّينِ، إنْ هُم أقلَعُوا عن عداوةِ المُسلمينَ بأنْ دَخَلُوا في الإسلامِ؛ لِقصدِ مَحوِ أثرِ الحَنقِ عَلَيهِم إذا هُم أسلَمُوا ؛ تنبيهًا لَهُم على أنَّ تداركَهُم أمرَهُم هَيِّنٌ عَلَيهم، فيصيروا بعدَ توبتِهِم إخوانًا بعدَ أن كانُوا مُعتدِينَ، ففي الآيةِ ترغيبٌ بعدَ التّرهيبِ الواردِ في الآياتِ السّابقةِ[3].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَإِخۡوَٰنُكُمۡ﴾: أصلُ الكلمةِ (أخَوٌ)، والمعنى مِنَ العُرْوةِ أو نحوِها يُشَدُّ فيها الشّيءُ؛ أي: يُرْبَطُ كما تُرْبَطُ الدَّابّةُ في عروةِ الآخِيةِ، ومِن هذا الأَخُ والأُختُ مِنَ النّسبِ، فالأخوان مُرتبِطان بخروجِ كلٍّ منهُما مِن نفسِ الصُّلبِ أو البطنِ الّتي خَرَجَ منها الآخرُ، أو منهُما معًا، ففي الكلمةِ مَلحَظُ الارتباطِ، ولهذا سمّيَ المشاركُ

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 15/533.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/390.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/127.

آخَرَ في الوِلادةِ مِنَ الطَّرفَين، أو مِن أحدِهما، أو مِنَ الرَّضاعِ أخًا، ولِلمَلحظِ ذاتِه استُعير في كلِّ ارتباطٍ لغيرِهِ في قبيلةٍ، أو في دينٍ، أو في صَنعَةٍ، أو في مُعامَلةٍ، أو في مَودَّةٍ، أو في صَداقةٍ، أو تَلازمٍ في حالٍ، وفي غيرِ ذلكَ مِنَ المُناسباتِ، وكلُّ ما في القرآنِ مِنَ التّركيبِ هوَ مِن الأخوّةِ المذكورةِ، حقيقةً كانت أو بمعنى الاقترانِ والارتباطِ أو المُجانسةِ المُلازِمةِ[1]، والأخوّةُ هنا بالمعنى المجازيِّ؛ أي: أخوَّةُ المَودَّةِ والاقترانِ بسببِ الدّينِ.

2) ﴿وَنُفَصِّلُ﴾: "مِن (فصل)، الفاءُ والصّادُ واللّامُ كلمةٌ صحيحةٌ، تدُلُّ على تمييزِ الشَّيءِ مِنَ الشّيءِ، وإبَانتِه عنهُ، يُقالُ: فَصَلتُ الشّيءَ فَصلًا، والفَيصَلُ: الحَاكِمُ. والفَصيلُ: وَلَدُ النَّاقَةِ إذا افتُصِلَ عن أمِّه"[2]، الفصلُ يدُلُّ على تمييزِ الشّيءِ مِنَ الشّيءِ وإبانتِهِ عنهُ؛ أي: إبانةُ أحدِ الشّيئين مِنَ الآخرِ، حتّى يكونَ بينهما فُرْجةٌ، ومنهُ قِيلَ: المَفَاصِلُ، الواحدُ مَفْصِلٌ، وتفصيلُ الشّيءِ: تبيينُهُ؛ أي: جعْلُهُ فصولًا مُتمايزةً، فيلزمُ منه إيضاحُهُ وانتفاءُ إشكالِهِ، و﴿وَنُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ﴾ في الآيةِ؛ بمعنى: نوضِّحُها ونبيِّنُها[3].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

بيانٌ عظيمِ كرمِ اللهِ بقبولِ توبةِ الكافرِ، وإنْ كانَ مُعتدِيًا

فإنْ تابَ المُشركونَ مِن كفرِهِم ورجعُوا إلى الإيمانِ باللّهِ، وأدَّوُا الصَّلاةَ المفروضةَ، وأعطَوُا الزّكاةَ الواجبَةَ لمُستحقِّيها، فهُم إخوانُكُم - أيُّها المُسلمونَ - في الإسلامِ، وفي الآيةِ إظهارُ عظيمِ كرمِ اللّهِ تعالى وجُودِهِ؛ إذِ القومُ قد افترَوا على اللّهِ كذبًا، وكذّبُوا رسولَ اللّهِ، وهمُّوا بقتلِهِ وإخراجِهِ مِن بينِ أظهرِهِم، وطعنُوا في دينِهِم، وعملُوا كلَّ بليَّةٍ مِن نصبِ الحروبِ والقتالِ فيما بينَهُم، ثمَّ

(1) الرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (أخو).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (فصل).
(3) ابن جرير، جامع البيان: 14/152، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/11.

إنَّه وعدَهُمُ التَّوبةَ والمَغفرةَ والتَّجاوزَ عمَّا كانَ منهُم إنْ تابوا، وجعلَ فيما بينَهُم الأُخوَّةَ والمودَّةَ بقولِهِ: ﴿فَإِخۡوَٰنُكُمۡ فِي ٱلدِّينِۗ﴾[1].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالةُ الفاءِ في قولِهِ: ﴿فَإِن تَابُواْ﴾:

تَحتملُ الفاءُ أن تكونَ سببيّةً؛ للإيذانِ بأنَّ توبيخَ المُشركينَ على شركِهِم وعملِ السُّوءِ، يكونُ سببًا لكونِهِم فرقتين: فريقٌ منهُم تائبونَ وفريقٌ منهم نَاكِثونَ، كما تحتملُ أن تكونَ تَفصيلًا لحالِهِم بعدَ بيانِ شناعتِهِم وشدَّةِ شكيمتِهِم، تنبيهًا لِلمُؤمنينَ أن لا يَعدَموا خيرًا مِنَ الكافرينَ، فمنهُم مَن قد يتوبُ، ويكونُ صالحًا[2].

تنبيهٌ إلى أنّ مِنَ الكافرينَ مَنْ يتوبُ ويكونُ صالحًا

بلاغةُ التّعبيرِ بأداةِ الشّرطِ ﴿فَإِن﴾:

الأصلُ في أداةِ الشّرطِ (إنْ) أنّها تفيدُ الخلوَّ عنِ الجزمِ في الشّرطِ وندرةَ حصولِهِ، ولمّا اقترنَ بها الفعلُ الماضي ﴿تَابُواْ﴾ في قولِهِ: ﴿فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾؛ دلَّت على الجزمِ؛ لِمَا يُؤذِنُ بهِ الفعلُ الماضي مِنَ التَّحقُّقِ، فيكون الكلامُ جاريًا على خلافِ مُقتضَى الظّاهرِ، ونكتتُهُ تنزيلُ المُخاطَبينَ مِنَ المُشركينَ مَنزلةَ مَن هو مِن أهلِ الجهالةِ لعدمِ جريِه على مُوجِبِ العلمِ، بأن كانَ عليهم أن يُؤمنوا ويَعملُوا الصّالحاتِ بدلَ الإشراكِ باللّهِ وسُوءِ العملِ، ولِلإشعارِ بقربِ التّوبةِ منهُم وسهولتِها، وللحثِّ عليها ما دامَت قريبةَ التَّحصيلِ[3].

قربُ التّوبةِ وسهولتُها والحثُّ عليها، ما دامَت قريبةَ التّحصيلِ

سرُّ التَّعبيرِ بالتَّوبةِ في قولِهِ: ﴿فَإِن تَابُواْ﴾:

لمّا كانَتِ التّوبةُ بمعنى الرُّجوعِ عنِ الشّيءِ دلَّ على سُوءِ حالِهِم الّذي هُم عليهِ قبلَ التّوبةِ، ولمّا حَذَفَ متعلِّقَ الفعلِ ﴿تَابُواْ﴾ دلَّ على أنَّ المُرادَ عمومُ التّوبةِ؛ لِتشملَ التّوبةَ مِنَ الكفرِ، فتكون مُضمَّنةً الرّجوعَ

التّوبةُ مِنَ الكُفرِ مُضمَّنةٌ الرُّجوعَ إلى الإيمانِ

(1) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنّة: 5/307.
(2) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 9/168.
(3) السّكّاكيّ، مفتاح العلوم، ص: 240.

إلى الإيمانِ؛ للإشعارِ بأنَّ الأصلَ هو الإيمانُ، ولتشملَ كذلك التّوبةَ مِن سُوءِ أعمالِهم، فبدأَ بها لأنّها الأصلُ، ثمَّ قَرَنَ بها إقامَةَ الصّلاةِ وإيتاءَ الزّكاةِ تنبيهًا على مَكانةِ الصّلاةِ والزّكاةِ عندَ اللّهِ تعالى[1].

سببُ اقترانِ إقامَةِ الصّلاةِ وإيتاءِ الزّكاةِ بالتّوبةِ:

الأُخوَّةُ في الدّينِ مُسبَّبةٌ عَنِ التّوبةِ والصّلاةِ والزّكاةِ، وكمالُ الأُخوَّةِ بكمالِها

لمّا كانَتِ التّوبةُ عنِ الشِّركِ مُضمَّنةً الإيمانَ باللّهِ قرنَ به حقَّ اللّهِ بإقامةِ الصَّلاةِ، وحقَّ النّاسِ بإيتائِهم الزّكاةَ تعظيمًا لشأنِهما، فقد قرنَ اللّهُ الصّلاةَ بالزّكاةِ، ولمْ يرضَ بإحداهما دونَ الأخرى، وجعلَ الأُخوَّةَ مُسبَّبَةً عن هذه الشّروطِ الثّلاثةِ، فكمالُ الأُخوَّةِ بكمالِها[2].

دلالةُ الفاءِ في قولِهِ: ﴿فَإِخْوَٰنُكُمْ﴾:

متى لم تُوجدِ الشّروطُ الثّلاثةُ لا تحصُلُ الأخوَّةُ في الدِّينِ

أفادَتِ الفاءُ ترتُّبَ الأُخوّةِ على حصولِ مَجموعِ المَعاطيفِ في جملةِ الشّرطِ، بمعنى حصولِ توبتِهم وإقامتِهمُ الصَّلاةَ وإيتائِهمُ الزّكاةَ؛ أي: متى لم توجدْ هذهِ الثّلاثةُ لا تحصُلُ الأخوَّةُ في الدِّينِ، وذَهَبَ الرّازيُّ رحمَهُ اللّهُ إلى أنَّ المُعَلَّقَ على الشَّيءِ بأداةِ الشّرطِ (إنْ) لا يَلزَمُ مِن عَدَمِهِ عَدَمُ ذلك الشَّيءِ، فلا تعدمُ الأخوّةُ إنْ كانَ لا يُؤتِي الزّكاةَ بأن كانَ فقيرًا لا مالَ لهُ؛ لأنَّ المَرادَ التَّنبيهُ على ما هوَ بالأحرى، وذَهَبَ بعضُهُم إلى أنَّ المُعَلَّقَ على الشَّيءِ بأداةِ الشّرطِ (إنْ) عَدَمٌ عندَ عدمِ ذلك الشّيءِ، فتكونُ المُؤاخَاةُ بالإسلامِ بينَ المُسلمينَ مَوقُوفةً على فعلِ الصّلاةِ والزّكاةِ جميعًا، فإنَّ حصولَ مَجموعِ المَعاطيفِ شرطٌ لِتَحقُّقِ الجزاءِ، ومَن لم يكنْ أهلًا لِوجوبِ الزّكاةِ عليهِ بأنْ كانَ فقيرًا وَجَبَ عليهِ أنْ يُقِرَّ بِحُكمِها، فإذا أقرَّ بهذا الحُكمِ دَخَلَ في الشّرطِ الّذي به تَجبُ الأُخُوَّةُ[3].

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/11.
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/11.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 15/534.

سرُّ الجملةِ الاسميّةِ في قولِهِ: ﴿فَإِخۡوَٰنُكُمۡ فِي ٱلدِّينِۗ﴾:

الإيمانُ يقتضي ثباتَ الأُخُوَّةِ الدّينيّةِ ودوامَها

لمّا كانَ جزاءُ الشّرطِ لا يكونُ إلّا جملةً، وكانَ ﴿فَإِخۡوَٰنُكُمۡ﴾ خبرًا لمبتدأ محذوفٍ - والتّقديرُ: فهُمْ إخوانُكم - أفادَ التّعبيرُ بالجملةِ الاسميَّةِ أنَّ إيمانَهم يَقتضي ثباتَ أُخُوّتِهم لِلمُؤمنينَ ودوامَها، تنبيهًا على أنَّهم بتوبتِهم وما يتبعُها مِن إقامِ الصَّلاةِ وإيتاءِ الزَّكاةِ، يَعُودونَ كالمُؤمنينَ السّابقينَ مِن قَبلُ في أصلِ الأُخُوَّةِ الدِّينيَّةِ[1].

دلالةُ الإضافةِ في قولِهِ: ﴿فَإِخۡوَٰنُكُمۡ﴾:

انتقالُ التّائبينَ مِنَ الكافرينَ إلى إخوانٍ بعدَ تَحقُّقِ الشُّروطِ الثّلاثةِ

أفادَتِ الإضافةُ التّخصيصَ؛ بمعنى: تخصيصِ أُخوّتِهم بكم، بسببِ إيمانِهم وتوبتِهم؛ أي: هُمْ إخوانٌ لَكُم، وليسَ لِمَن كانَوا معهُ على الكفرِ، فتنتقل أخوَّتُهم إليكُم، وتكونُ مُختصَّةً بكُم بعدَ توبتِهم وإقامِ الصَّلاةِ وإيتاءِ الزّكاةِ، وضميرُ الخطابِ (كُمْ) يَعودُ إلى المؤمنينَ، فالخطابُ لَهُم[2].

فائدةُ التّعبيرِ بقولِهِ: ﴿فَإِخۡوَٰنُكُمۡ فِي ٱلدِّينِۗ﴾:

مِن حقِّ الأُخوَّةِ ألّا يُذكَرَ ما كانَ مِنَ المُذنبِ مِنَ المَساوئ

لمّا جعلَ اللّهُ مِنَ الأُخوّةِ والمَودَّةِ فيما بينَ هؤلاءِ، إذا تابوا عن شركِهم وسُوءِ عملِهم، فقالَ: ﴿فَإِخۡوَٰنُكُمۡ فِي ٱلدِّينِۗ﴾؛ والمعنى: عَامِلُوهُم مُعاملةَ الإخوانِ؛ أي: لَهُم مَا لَكُم، وعليهِم مَا عَليكُم، ولاتلتفِتوا إلى مَا سَلَفَ منهُم مِنَ المَثالِبِ والطُّغيانِ، وقد كانَ منهُم مَا كانَ؛ مِنَ الصَّدِّ، وزُهدِهم بآياتِ اللّهِ، وحرصِهم على عرضِ الدّنيا.. دلَّ على أنَّ مَن كانَ له ذنبٌ أو جفاءٌ، ثمَّ رَجعَ عن ذلك وتابَ لَزِمَ أنْ يُتجاوزَ عنهُ، وألّا يُذكَرَ بعدَ ذلكَ مَا كانَ منهُ مِنَ الذَّنبِ، فمِن حقِّ الأُخُوَّةِ ألّا يُذكَرَ مَا كانَ منهُم مِنَ المَساوئِ[3].

---

(1) الفرّاء، معاني القرآن: 1/425، وابن جرير، جامع البيان: 14/152، والزّمخشريّ، الكشّاف: 2/251، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/127.

(2) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 9/168.

(3) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنّة: 5/307، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل وأسرار التّأويل: 3/73، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 9/168.

دلالةُ التقييدِ بـ ﴿فِي ٱلدِّينِۗ﴾:

الأُخُوَّةُ في الدّينِ تَجمَعُ كلَّ مَن يؤمنُ باللهِ، ويُقيمُ الصّلاةَ، ويُؤتي الزّكاةَ

تقييدُ الجملةِ الاسميّةِ بالجارِّ والمجرورِ ﴿فِي ٱلدِّينِۗ﴾ للتّخصيصِ، وفيه إيذانٌ بأنَّ الأُخُوَّةَ أنواعٌ، ومِن أهمِّها وأعظمِها الأُخوَّةُ في الدِّينِ، إذ جعلَها جزاءً ومُكافأةً للتّوبةِ ومَا عَطَفَ عليها، وفيه إشعارٌ بأنَّ الأُخُوَّةَ في الدّينِ تَجمَعُ كلَّ مَن يُؤمِنُ باللهِ، ويقيمُ الصّلاةَ، ويُؤتي الزّكاةَ.

بلاغةُ المجازِ بالظَّرفِ في قولِهِ: ﴿فِي ٱلدِّينِۗ﴾:

التّائبُ المُقيمُ الصّلاةَ المُؤتي الزّكاةَ مُتمكِّنٌ في الإسلامِ

الظَّرفيَّةُ في قولِهِ: ﴿فِي ٱلدِّينِۗ﴾ مَجازيَّةٌ، تَشبيهًا لِلمُلابسةِ القَويَّةِ بإحاطةِ الظَّرفِ بالمَظرُوفِ؛ زِيادةً في الدَّلالةِ على التَّمكُّنِ مِنَ الإسلامِ، وأنَّهُ يَجُبُّ ما قبلَهُ[1]، "وهذهِ الأُخُوّةُ أوّلُ مَزيّةٍ دُنيويّةٍ للإسلامِ، فإنّ المُشركينَ كانوا مَحرومينَ مِن هذهِ الأُخُوَّةِ العظيمةِ، بعضُهم حربٌ لبعضٍ في كلِّ وقتٍ إلّا ما يكونُ مِن عهدٍ أو جوارٍ، قلّما يفي به القَويُّ لِلضّعيفِ دائمًا"[2].

دلالةُ (أل) في قولِهِ: ﴿ٱلدِّينِۗ﴾:

وَحدةُ العقيدةِ والملّةِ لِمَنْ يُوحِّدونَ اللهَ تعالى

(أل) ههنا عهديَّةٌ؛ بمعنى الدِّينِ الّذي أمرَكُم اللهُ بهِ، وهو الإسلامُ[3]، وإنّما عَبَّرَ بالدِّينِ، ولم يقُلْ: إخوانُكُم في الإسلامِ؛ إشعارًا بوحدةِ العقيدةِ والملَّةِ لِمَن يُوحِّدُونَ اللهَ تعالى، ولا يُشركونَ بهِ شيئًا، كما أنّ فيه تَنبيهًا على أنَّ الأُخُوّةَ تَقتضي القيامَ بشرائعِ الدّينِ.

سببُ إيثارِ الجزاءِ في قولِهِ: ﴿فَإِخۡوَٰنُكُمۡ فِي ٱلدِّينِۗ﴾:

مِن أعظمِ مَزايا الإسلامِ الدُّنيويّةِ الأُخوَّةُ في الدّينِ

لمّا كانَ المُشركونَ مَحرومينَ مِن أُخوَّةِ الدّينِ، بعضُهم حربٌ لبعضٍ في كلِّ وقتٍ إلّا مَا يكونُ مِن عهدٍ أو جوارٍ قلَّما يفي به القَويُّ لِلضَّعيفِ، وكانَ لِمَن يدخلُ في دينِ الإسلامِ أحكامٌ وحقوقٌ جمعَ ذلكَ كلَّهُ في جزاءِ الشّرطِ في بيانِ مَزايا الإسلامِ الدّنيويّةِ في قولِهِ: ﴿فَإِخۡوَٰنُكُمۡ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/128.

(2) رضا، تفسير المنار: 10/169.

(3) ابن جرير، جامع البيان: 14/152.

﴿فِي ٱلدِّينِۗ﴾؛ تعظيمًا لشأنِ جزاءِ الشّرطِ، وفيه مِن استمالةِ المُشركينَ واستجلابِ قلوبِهم مَا لا مَزيدَ عليه، وأفادَ الجزاءُ تحريمَ دماءِ أهلِ القبلةِ؛ إذ قامَت وشيجةُ الأُخُوَّةِ في الدِّينِ مَقامَ أُخوَّةِ النَّسبِ[1].

مناسبةُ العطفِ في ﴿وَنُفَصِّلُ﴾:

عَطَفَ جملةَ ﴿وَنُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ على جملةِ: ﴿فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِي ٱلدِّينِۗ﴾؛ لأنَّها بها أَعلَقُ؛ لِمناسبةِ اجتماعِ الجهةِ الجَامعةِ بينَهُما، لأنَّهم إنْ تابُوا فَقَد صاروا إخوانًا لِلمُسلمينَ، فَصَاروا مِن قومٍ يَعلَمونَ؛ إذْ سَاوَوا المُسلِمينَ في الاهتداءِ بالآياتِ المُفَصَّلَةِ[2].

التّوبةُ مِنَ الكُفرِ طريقٌ إلى العلمِ النّافعِ

مُناسبةُ التَّذييلِ:

مُناسبةُ مَوقعِ جملةِ التّذييلِ ﴿وَنُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ عَقِبَ قولِه: ﴿ٱشْتَرَوْاْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ [التّوبة: 9] أنَّه تضمَّنَ أنَّهُم لم يَهتدُوا بآياتِ اللّهِ، ونَبذُوها على علمٍ بِصحّتِها، كقولِه تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ [الجاثية: 23]، وباعتبارِ مَا فيهِ مِن فرضِ توبتِهم وإيمانِهم إذا أقلَعُوا عن إيثارِ الفَسادِ على الصَّلاحِ، فكانَ قولُهُ: ﴿وَنُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ جَامعًا لِلحَالَينِ، دالًّا على أنَّ الآياتِ المَذكُورةَ آنفًا في قولِه: ﴿ٱشْتَرَوْاْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ [التّوبة: 9] آياتٌ واضِحةٌ مُفصَّلَةٌ، وأنَّ عَدَمَ اهتداءِ هؤلاءِ بها ليسَ لِنَقصٍ فيها، ولكنَّها إنّما يَهتدِي بها قومٌ يَعلَمُونَ، فَإنْ آمنُوا فَقَد كانُوا مِن قومٍ يَعلَمُونَ[3].

عـدمُ الاهـتـداءِ بآياتِ اللهِ ليس لـنـقـصٍ فـيـهـا، فإنَّما يَهتدي بها قومٌ يَعلمونَ

بلاغةُ الجمعِ بينَ الاعتراضِ والتّذييلِ:

أفادَت جملةُ ﴿وَنُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ الاعتراضَ عندَ

مَن تأمَّلَ تفصيلَ آيـاتِ الـلـهِ فهو العَـالِـمُ المُتبصِّرُ الحَصيفُ

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/11، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 15/533، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/47، ورضا، تفسير المنار: 10/169.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/128.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/128.

بيانِ الصّنفين؛ أي: بينَ قولِه: ﴿فَإِن تَابُواْ﴾ وقولِه: ﴿وَإِن نَّكَثُوٓاْ﴾؛ لِتفيدَ الحثَّ على تأمُّلِ ما فُصِّلَ في الأحكامِ المُندَرجةِ في تضاعيفِها، والمحافظةِ عليها؛ أي: مِن أحكامِ المُعاهِدين، وخصالِ التّائبينَ، فكأنَّ مَن تأمَّلَ تفصيلَ الآياتِ فهُوَ العالِمُ[1]، كما أنّها جملةٌ تذييليَّةٌ تفيدُ كلّيَّةَ مَضمونِهِ وعمومَهُ؛ لِتكونَ كالمَثَلِ في جريانِها في الكلامِ، فيمكنُ أن يُتَمثَّلَ بها في كلِّ مَقامٍ مُناسِبٍ لِلمعنى.

دلالةُ (أل) في لفظِ ﴿ٱلْأَيَٰتِ﴾:

تَحتملُ (أل) في قولِه: ﴿وَنُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ أن تكونَ عهديَّةً، والمعنى: الآياتُ المعهودةُ في الخطابِ، والّتي يعيّنُها المقامُ، وهي الآياتُ المُتعلِّقَةُ بأحوالِ المُشركينَ مِنَ النَّاكثينَ وغيرِهم، وأحكامِهم حالتي الكُفرِ والإيمانِ، كما تَحتملُ أن تكونَ استغراقيَّةً؛ لِتشملَ جميعَ آياتِ القرآنِ الكريمِ، فَيندَرجُ فيها تلكَ الآياتُ اندراجًا أوَّليًّا[2]، وهذا الوجهُ أَولى لعمومِ مَعناه، ويقوّيهِ أنَّ الجملةَ تذييليَّةٌ، تفيدُ عمومَ المعنى، وذَهَبَ بعضُ المُفسِّرينَ إلى أنَّ المُرادَ بالآياتِ الحِججُ والأدلَّةُ على خلقِه[3].

آياتُ اللهِ هي جميعُ آياتِ القرآنِ الكريمِ، وكلُّها مُعجِزٌ بليغٌ

فائدةُ التَّقييدِ بقولِه: ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾:

لمّا كانَ قولُهُ تعالى: ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ تقييدًا لتفصيلِ الآياتِ وإيضاحِها فُهِمَ منهَا أنَّهُم إنِ اشتَرَوا بها ثمنًا قليلًا فَلَيسُوا مِن قومٍ يَعلَمُونَ، فَنُزِّلَ علمُهُم حينَئذٍ مَنزلةَ عَدَمِه؛ لانعدامِ أثرِ العلمِ، وهوَ العملُ بالعلمِ، وفيه نداءٌ عليهم بمُساواتِهم لِغيرِ أهلِ العُقُولِ، كقولِه: ﴿وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [العنكبوت: 43][4].

تنزيلُ العلمِ مَنزلةَ العدمِ؛ لانعدامِ العملِ بهِ

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/250، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل وأسرار التّأويل: 3/73، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/47، والخفاجيّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 4/530.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/47.

(3) ابن جرير، جامع البيان: 14/152.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/128.

لفظُ ﴿يَعۡلَمُونَ﴾ بينَ الكنايةِ والمَجازِ:

التَّفكُّرُ في آياتِ اللهِ وتدبُّرُها طريقٌ إلى العلمِ

لمّا كانَتِ الجملةُ تحثُّ على تأمُّلِ ما فُصِّل مِنَ الأحكامِ دلَّ على أنَّ المرادَ بالعلمِ صريحهُ وكنايتهُ؛ أي: العلمُ والتَّأمُّلُ، ويحتملُ أن يكونَ اللَّفظُ مَجازًا بعلاقةِ السَّببيَّةِ، فيكون العلمُ سَببًا لِلتَّأمُّلِ؛ لأنَّ المقصودَ حثُّهُم على التَّفكُّرِ في آياتِ اللّهِ وتدبُّرِها[1].

بلاغةُ حذفِ مَفعولِ ﴿يَعۡلَمُونَ﴾:

مَنْ تأمَّلَ تفصيلَ الآياتِ فهو العالِمُ حقًّا، والأخشى لله

حُذِفَ المفعولُ مِن قولِهِ: ﴿لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾؛ لتنزيلِ الفعلِ مَنزلةَ اللَّازمِ، بمعنى: صارَ العلمُ سجيَّةً لهم؛ إذ أُريدَ به: لقومٍ ذوي عِلمٍ وعقلٍ، فيكون المُرادُ: مَن تأمَّلَ تفصيلَها فهو العَالمُ، ويحتملُ أن يكونَ المفعولُ مُقدَّرًا مِنَ السّياقِ؛ أي: يَعلَمُونَ ما فصَّلْناهُ، فيكون المُرادُ بـ ﴿يَعۡلَمُونَ﴾ مَنْ شأنُهُ العلم، والوجهُ الأوّلُ أَولَى لِعمومِهِ[2].

دلالةُ المضارعِ في ﴿وَنُفَصِّلُ﴾ و﴿يَعۡلَمُونَ﴾:

تجدّدُ العلمِ بتجدُّدِ التَّفكُّرِ في آياتِ اللهِ

جاءَ الفعلانِ بصيغةِ المضارعِ في قولِهِ تعالى: ﴿وَنُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾؛ لإفادةِ استمرارِ تجدُّدِ تفصيلِ الآياتِ وتوضيحِها، واستمرارِ تجدُّدِ علمِ القومِ؛ والمعنى: استمرارُ تفصيلِ الآياتِ ووضوحِها لهم بتجدُّدِ علمِهم؛ "أي: نوضّحُها ونميّزُها ﴿لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾، فإليهم سياقُ الكلامِ، وبِهِم تُعرَفُ الآياتُ والأحكامُ، وبِهِم عُرِفَ دينُ الإسلامِ، وشرائعُ الدّينِ"[3].

توجيهُ المُتشابِهِ اللّفظيِّ:

اختلافُ جزاءِ الشّرطِ لاختلافِ المقامِ، لا لاختلافِ الشّرطِ

وردَتِ الآيتانِ في هذه السُّورةِ باتّفاقِ الشّرطِ واختلافِ الجزاءِ في قولِهِ تعالى: ﴿فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ۝٥﴾ [التّوبة: 5]، وقالَ تعالى: ﴿فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ

(1) الخفاجيّ، حاشية على تفسير البيضاويّ: 4/531، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 9/169.
(2) الطّيبيّ، حاشية على تفسير الكشّاف: 7/186، والخفاجيّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 4/530، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 9/169.
(3) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 329.

﴿وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخۡوَٰنُكُمۡ فِي ٱلدِّينِۗ﴾ [التّوبة: 11]، ولاتكرارَ في الآيتين، وبيانُهُ: أنَّه لمَّا كانَ المَقامُ هنا لذكرِ اعتدائِهم على المؤمنينَ، ومُعاداتِهم لهم؛ إذْ قالَ قبلَ ورودِ هذه الآيةِ: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُعۡتَدُونَ﴾ جُعِلَتْ توبتُهُم سببًا لِلأُخُوَّةِ مع المؤمنينَ؛ ليكونَ الجوابُ حُكمًا بخلافِ المُعاداةِ ألبتَّةَ، بخلافِ مقامِ قولِهِ: ﴿فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ۝٥﴾ [التّوبة: 5]؛ حيث إنَّ المُعقَّبَ بالتّوبةِ هنالك هو الأمرُ بقتالِهم والتَّرصُّدِ لهم؛ إذْ قالَ تعالى: ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلۡأَشۡهُرُ ٱلۡحُرُمُ فَٱقۡتُلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡ وَخُذُوهُمۡ وَٱحۡصُرُوهُمۡ وَٱقۡعُدُواْ لَهُمۡ كُلَّ مَرۡصَدٖۚ﴾، فناسبَ أنْ يُفرَّعَ على توبتِهم أمرٌ بخلافِ ذلك، وهو عدمُ التَّعرُّضِ لهم بسُوءٍ؛ أي: بتخليةِ سبيلِهم، فاختلفَ جزاءُ الشّرطِ لاختلافِ المَقامِ لا لاختلافِ الشَّرطِ. وقد حَصَلَ مِن مَجموعِ الآيتين أنَّ توبتَهم تُوجِبُ أمنَهُم وأُخُوَّتَهُم. ومِن لطائفِ الآيتينِ أنْ جُعِلَتِ الأُخُوّةُ مَذكورةً ثانيًا؛ لأنَّها أخصُّ الفائدَتَين مِن توبتِهم، ولأنَّ الأُخُوَّةَ سَببٌ لِلتَّخليةِ، فكانَت هذه الآيةُ مُؤَكِّدةً لِأُختِها في أصلِ الحُكمِ[1].

(1) الكرمانيّ، أسرار التّكرار، ص: 133، وزكريّا الأنصاريّ، فتح الرّحمن: 1/22، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/127.

﴿وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُم مِّنۢ بَعۡدِ عَهۡدِهِمۡ وَطَعَنُواْ فِي دِينِكُمۡ فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلۡكُفۡرِ إِنَّهُمۡ لَآ أَيۡمَٰنَ لَهُمۡ لَعَلَّهُمۡ يَنتَهُونَ ١٢﴾ [التّوبة: 12]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

تنوُّعُ مُناسباتِ الآياتِ قوَّةٌ في إحكامِ بلاغتِها؛ لبيانِ مَصيرِ مَن تابَ ومَن نَكَثَ

لمَّا بيَّن السَّببَ المُوجِبَ لمُجازاةِ المُشركينَ من جنسِ عَمَلِهم، وهو البَراءةُ منهُم، وما يَتبعُ ذلكَ إلى أنْ خَتَمَ بتقديرِ توبتِهم، رَجَعَ إلى قَسيمِ قولِه: ﴿فَمَا ٱسۡتَقَٰمُواْ لَكُمۡ فَٱسۡتَقِيمُواْ لَهُمۡۚ﴾ فقال: ﴿وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُم﴾ الآيةَ[1]. وأيضًا: لمّا استوفَى البيانَ لأصنافِ المُشركينَ الّذين أمرَ اللّهُ بالبَراءةِ من عهدِهم بقولِه: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ إلى قولِه: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ٣﴾ [التّوبة: 3] وأطنبَ في الكلامِ لإبطانِهمُ الغَدرَ، والّذين أمَرَ بإتمامِ عهدِهم إلى مُدَّتِهم مَا استَقامُوا على العَهدِ بقولِه: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ثُمَّ لَمۡ يَنقُصُوكُمۡ شَيۡـٔٗا﴾ [التّوبة: 4] الآياتِ، والّذينَ يَستَجيبونَ عَطَفَ عَلى أُولئكَ؛ لبيانِ الّذين يُجاهِرونَ بنَكثِ العَهدِ، ويُعلِنُونَ بما يُسخِطُ المُسلِمينَ من قولِهم[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿نَّكَثُوٓاْ﴾: الأصلُ في النَّكثِ: أن تُنقَضَ الخيوطُ الخَلِقَةُ الصُّوفِ وغيرِه، بعدَ إبرامِه في الأَكسِيَةِ والغَزلِ؛ لِيُعادَ فتلُهُ ونسجُهُ، فيدورُ المعنى المحوريُّ للكلمةِ على تَشعيثِ الشّيءِ المُلتئِمِ ونَقضِه، كالخيطِ والحبلِ وعُودِ السِّواكِ لمَا تشعَّثَ من رأسِه، فهو بمعنى النَّقضِ بعدَ الإحكامِ، كَمَا تُنكَثُ خيطُ النَّسَائجِ بعدَ إبرامِها، واستُعِيرَ مجازًا لِنَقضِ الأيمانِ أو العَهدِ والبيعةِ، وكلُّ ما في القرآنِ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/391.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/129.

مِنَ التّركيبِ – عدا نَكث الغزلِ في آيةِ النّحلِ [92] – فهوَ مِن نكثِ الأيمانِ والعُهودِ؛ أي: مِنَ النَّكثِ المجازيِّ[1].

2) ﴿أَيۡمَٰنَهُمۡ﴾: جمعُ يمينٍ، مِنَ اليُمنِ، وأصلُ اليَمينِ هو يمينُ اليدِ؛ أي: الجارحةُ المعروفةُ، واليَمينُ في الحِلفِ مُستعارٌ مِنَ اليدِ اعتبارًا بما يَفعَلُهُ المُعاهِدُ والمُحالِفُ وغيرُهُ؛ لأنّ المُتحالِفِينَ كانُوا يَتماسحونَ بأيمانِهِم فيَتَحالَفونَ، وكلُّ ما جاءَ بلفظِ (أيمان) في القرآنِ فهوَ بمعنى الحِلفِ والأقسامِ[2]، "والجميعُ: الأَيْمان والأَيمُن. والعربُ تقولُ: لَيَمُنُكَ وأَيمُنُكَ في الحلفِ، يريدونَ به اليمينَ، ويُقالُ: بل يُريدونَ بها أيمن. ويُقال: لا أَيْمُنُك، كقولِكَ: لا واللّه"[3]، وَهِي كَقَولِهِم: يَمِينُ اللّهِ، كَانوا يحلفُونَ بهَا، قالَ امرُؤ القَيسِ:

فَقُلْتُ يَمِينُ اللّهِ أبرَحُ قَاعِداً *** ولَو ضَرَبُوا رَأسِي لَدَيكِ وأوصَالي"[4]

3) ﴿وَطَعَنُواْ﴾: الطّعنُ: هو الضّربُ بالرّمحِ وبالقرنِ، وما يجري مَجرَاهُما، ويدورُ معنى الكلمةِ على نفاذٍ حادٍّ دَقيقٍ، أو نفاذٍ بحدَّةٍ في مادّةٍ قريبةٍ ليّنةٍ: كالرّمحِ في البَدنِ، وهوَ لا يُستعمَلُ إلّا إذا كانَ المَطعُونُ قريبًا، فلا يُقالُ طعنَهُ بالسَّهمِ، واستُعيرَ الطّعنُ لِلوقيعةِ في الشَّيءِ بالذّمِّ والعيبِ، ومِنَ المجازِ: طعنَ فيه بالقولِ إذا عابَهُ، ومنه: الطّعنُ في النَّسبِ، ومَن ابتدأَ بِشَيءٍ أو دَخَلَهُ فَقَد طَعَنَ فيهِ، ولهذا يُقَالُ: طَعَنَ فلَانٌ في السِنِّ إذا دَخَلَ فِيهَا[5].

4) ﴿أَئِمَّةَ﴾: جمعُ إمامٍ، وهو المُؤتَمُّ بهِ، إنسانًا كأن يَقتَدِي بقولِهِ أو فعلِهِ، أو كتابًا، أو غيرَ ذلك، مُحِقًّا كانَ الإمامُ أو مُبطِلًا، والإمامُ مَا ائتُمَّ بِهِ سواءٌ أكانَ رئيسَ القومِ أم غيرَهُ، و﴿أَئِمَّةَ ٱلۡكُفۡرِ﴾: رؤساءُ الكُفرِ وقادَتُهُم الَّذِينَ ضُعَفاؤُهُم تَبَعٌ لَهُم؛ أي: الّذين بَلَغُوا الغايةَ في الكُفرِ، بحيث صارُوا قُدوةً لأهلِ الكُفرِ[6].

5) ﴿يَنتَهُونَ﴾: مِنَ النّهي، وهو ضدُّ الأمرِ، نَهاهُ يَنهاهُ نَهيًا، فانتهى وتَناهَى، أنشدَ سيبويه:

إذا مَا انتَهَى عِلمِي تَنَاهَيتُ عِندَهُ *** أَطَالَ فَأَملَى أَو تَناهَى فَأَقصَرَا

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والزّمخشريّ، أساس البلاغة، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (نكث).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والزّمخشريّ، أساس البلاغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (يمن).
(3) الخليل، العين: (يمن).
(4) القاسم بن سلّام، غريب الحديث: (يمن).
(5) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، والزّمخشريّ، أساس البلاغة، وابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (طعن).
(6) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (أمم).

وتَناهَوا عنِ الشّيءِ: نَهَى بعضُهم بعضًا، وفي التّنزيلِ: ﴿كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُۚ﴾ [المائدة: 79]، وقد يجوزُ أن يكونَ معناه: يَنتهونَ[1]، ويدورُ معنى النّهي على تَحبُّسِ الشّيءِ في مكانِه وتوقُّفِه فيه لا يَتخطّاهُ، ومنهُ: النَّهيُ ضدُّ الأمرِ، وهو مِنَ التَّحبُّسِ والتَّوقُّفِ عند حدٍّ في الأصلِ، ومنهُ: قولُه تعالى: ﴿وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْۚ﴾ [الحشر: 7]، فالنَّهيُ: طلبُ كفٍّ عن بدءِ أمرٍ أو عن استمرارِه، والانتهَاءُ: الانزجارُ عمّا نُهِيَ عنهُ بالتَّوقُّفِ عنهُ[2].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

إنْ نقَضَ هؤلاء المشركونَ عهودَهُم مِن بعدِ عهدِهم معَكُم، وأظهرُوا الطّعنَ في دينِ الإسلامِ، فثلبُوهُ وعابُوهُ فقاتِلُوا رؤساءَ الكفرِ، إنّ زعماءَ الكفرِ لا عهدَ لَهُم، حتَّى يَنتهوا عمّا هُم عليهِ مِنَ الكفرِ؛ ونكثِ العهودِ وعداوتِهم للإسلامِ[3]، وهذا الأمرُ بالقتالِ داخلٌ في الدّفاعِ المَشروعِ عنِ النّفسِ، وحمايةِ الأمّةِ مِنَ التّآمُرِ والاعتداءِ.

توجيهٌ بقتالِ مَن نَكَثَ الأيمانَ وطَعَنَ في الدّينِ حمايةً للنّفسِ والملّةِ

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

مُناسبةُ الوصلِ بالواوِ في ﴿وَإِن﴾:

عُطفَتِ الآيةُ في قولِه: ﴿وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُم﴾ لتكونَ مُقابلَ قولِه تعالى: ﴿فَإِن تَابُواْ﴾؛ لِمَا بينهما مِنَ الجهةِ الجامعةِ؛ للإيذانِ بأحكامِ القسمِ الآخرِ مِنَ المُشركينَ المُخادِعينَ، النّاكثينَ أو العَازِمينَ على النَّكثِ؛ أي: وإنْ لَم يَفعَلوا ذلكَ - بأنْ نكثُوا عهدَهُم، وأظهَرُوا مَا في ضمائرِهم مِنَ الشَّرِّ، وأخرجُوهُ مِنَ القولِ إلى الفعلِ، وطَعَنُوا في دينِكُم، وقَدَحُوا فيهِ بتصريحِ التَّكذيبِ، وتَقبيحِ الأحكامِ - ﴿فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلۡكُفۡرِ﴾[4].

الإيذانُ بأحكامِ القسمِ الآخرِ مِنَ المُشركينَ النّاكثينَ أو العَازِمينَ عليه

(1) ابن سيده، المحكم: (نهي).
(2) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (نهي).
(3) ابن جرير، جامع البيان: 14/153 - 154، ونخبة من أساتذة التّفسير، التّفسير الميسّر، ص: 188.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/47، والبروسويّ، روح البيان: 3/390، والقِنَّوجيّ، فتح البيان: 5/244، ورضا، تفسير المنار: 10/172.

بلاغةُ التَّعبيرِ بأداةِ الشَّرطِ ﴿وَإِن﴾:

نكثُ العهودِ، والطّعنُ في الدّينِ، ديدنُ الكفرةِ المُراوغِينَ

الأصلُ في أداةِ الشّرطِ (إنْ) أنّها تفيدُ الخلوَّ عنِ الجزمِ في الشّرطِ، وندرةَ حصولِهِ، ولمّا اقترنَ بها الفعلُ الماضي ﴿نَّكَثُوٓاْ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُم﴾؛ دلَّت على الجزمِ؛ لِمَا يُؤذنُ به الفعلُ الماضي مِنَ التَّحقُّقِ، فيكون الكلامُ جاريًا على خلافِ مُقتضَى الظّاهرِ، ونكتةُ مَجيءِ ﴿وَإِن﴾ تنزيلُ المُخاطَبينَ مِنَ المُشركينَ مَنزلةَ مَن هُوَ مِن أهلِ الجهالةِ؛ لِعدمِ جريِهِ على مُوجِبِ العلمِ؛ لِنكثِهِم أيمانَهم وطعنِهِم في دينِ الإسلامِ، ولِلإشعارِ أنَّ المُتوقَّعَ منهُم هو النّكثُ والطّعنُ؛ لِيؤذنَ بتحقُّقِ وقوعِهما في المُستقبلِ؛ لِمجيءِ الفعلين بصيغةِ الماضي[1].

بلاغةُ الاستعارةِ في ﴿نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُم﴾:

فسادُ عملِ النّاكثينَ العهودَ، وتقبيحُ فعلِهِم المشينِ

جاءَ الكلامُ على طريقِ الاستعارةِ التّصريحيّةِ التّبعيّةِ، إذ شُبِّهَ نقضُ الأيمانِ بنكثِ الخيوطِ بعدَ نَسجِها وإبرامِها؛ إيذانًا بفسادِ عملِهِم وتَقبيحًا لفعلِهِم؛ لأنَّهم نقضُوا العهدَ بعدَ إحكامِهِ، فإنَّ النَّكثَ إذا وَقَعَ وهو بعدُ في حالِ قوّتِهِ؛ أي: من دونِ مُقتَضٍ فهو فَسادٌ مَحضٌ، ويفوتُ به المطلوبُ.

نكتةُ التَّعبيرِ بلفظِ ﴿نَّكَثُوٓاْ﴾:

متابعةُ الحِلفِ لِلعهدِ تقويةٌ لهُ وحثٌّ على استدامةِ الوفاءِ بِهِ

عَبَّرَ عن نقضِ العهدِ بنكثِ الأيمانِ تَشنيعًا للنَّكثِ؛ لأنَّ العهدَ كانَ يقارنُهُ اليمينُ على الوفاءِ، ولذلك سُمِّيَ العهدُ حِلفًا، وفيه إشعارٌ بتعظيمِ شأنِ الحِلفِ منذُ القِدَمِ[2]، وَمِنَ النَّكثِ قِيلَ لِمَن يُبَايعك على شَيءٍ، ثمَّ ينقُضُ مَا أَعطَاكَ مِن نَفسِهِ: ناكث، وعادةً مَا يُستعمَلُ هذا اللّفظُ في نَقضِ الأيمانِ، ومنه قولُهُ تعالى: ﴿وَلَا تَنقُضُواْ ٱلۡأَيۡمَٰنَ بَعۡدَ تَوۡكِيدِهَا وَقَدۡ جَعَلۡتُمُ ٱللَّهَ عَلَيۡكُمۡ كَفِيلًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا تَفۡعَلُونَ ٩١﴾

(1) السّكّاكيّ، مفتاح العلوم، ص: 240.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/129.

﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّتِي نَقَضَتۡ غَزۡلَهَا مِنۢ بَعۡدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثٗا﴾ [النّحل: 91 - 92]، وهو استعمالٌ في غايةِ البلاغةِ، ويُؤيّدُ المعنى بجلاءٍ وقُوّةٍ[1].

دخولُ حرفِ الجرِّ على الظّرفِ في ﴿مِّنۢ بَعۡدِ﴾:

النَّكثُ غدرٌ للعهدِ، وحِنْثٌ باليَمينِ، وهو خُلقٌ ذَميمٌ

في قوله تعالى: ﴿مِّنۢ بَعۡدِ عَهۡدِهِمۡ﴾ جاءَ ظرفُ الزّمانِ مَجرورًا بـ ﴿مِّنۢ﴾ الّتي تفيدُ ابتداءَ الزّمانِ؛ للإشعارِ بأنَّ نكثَهم الأيمانَ جاءَ بعدَما أحكمُوا عهدَهُم مُباشرةً مِن غيرِ مُهلةٍ، فلَم يُطيلُوا بقاءَهُم على العهدِ، بل سَارعُوا إلى نقضِه، هذا إنْ كانَ ﴿مِّنۢ بَعۡدِ عَهۡدِهِمۡ﴾ مُتعلِّقًا بـ ﴿نَّكَثُوٓاْ﴾، وإذا كانَ الجارُّ والمجرورُ مُتعلِّقًا بـ ﴿أَيۡمَٰنَهُمۡ﴾ أفادَ أنَّ الحِلفَ وَقَعَ بعدَ العهدِ مُباشرةً، كما هو الظّاهرُ، إذِ الغالبُ أن يكونَ الحِلفُ بعدَ العهدِ، فيكون التّقييدُ بقولِه: ﴿مِّنۢ بَعۡدِ عَهۡدِهِمۡ﴾ زيادةً في تَسجيلِ شَناعَةِ نَكثِهم، بتذكيرِ أنَّه غَدرٌ لِلعهدِ، وحِنْثٌ باليَمينِ[2].

دلالةُ الإضافةِ في قولِهِ: ﴿عَهۡدِهِمۡ﴾:

العهدُ لا يُنقَضُ في كلِّ المِلَلِ، وعندَ كُلِّ الشُّعوبِ

لمّا كانَ المرادُ مِنَ العهدِ هنا المصدرَ، وكانَتِ الإضافةُ هنا على معنى اللّامِ أفادَ أنَّ المرادَ العهدُ اللّائقُ بهم[3]؛ إشعارًا بأنَّ العهدَ لا يُنقَضُ، وأمّا هُم فقد نقضُوا العهدَ المُختصَّ بهم المنسوبَ إليهم، وحُذِفَ مُتعلِّقُ المصدرِ للإيجازِ؛ إذِ التّقديرُ: (مِن بعدِ عهدِهم معكُم أو مِن بعدِ عهدِهم إليكُم).

دلالةُ الواوِ في ﴿وَطَعَنُواْ﴾:

الطَّعنُ في الإسلامِ ضربٌ مِن ضروبِ نكثِ الأيمانِ ونقضِ العهدِ

تحتملُ الواوُ - في قوله تعالى: ﴿وَطَعَنُواْ فِي دِينِكُمۡ﴾ - أن تكونَ على أصلِ وضعِها؛ لِتفيدَ الجمعَ بينَ المعطوفَينِ في الحُكمِ؛ بمعنى: أنْ يكونَ الجزاءُ - وهو القتلُ - مُعلّقًا بحصولِ مجموعِ نكثِ الأيمانِ والطّعنِ في الدّينِ، فيكونُ مجرّدُ الطّعنِ في الدّينِ لا يقتضي الجزاءَ

(1) الدّينوريّ، غريب الحديث: 2/41.
(2) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 9/169، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/129.
(3) البسيليّ، التّقييد الكبير: 1/558.

إلَّا مع وجودِ نكثِ العهدِ، وفي المسألةِ توجيهٌ آخرُ: بأنْ يكونَ العطفُ من عطفِ الخاصِّ على العامِّ، فيكون المعطوفُ بيانًا للواقعِ، وإيذانًا بأنَّ الطَّعنَ في الإسلام ضربٌ من ضروبِ نكثِ الأيمانِ، ونقضِ العهدِ، وأشعرَ العطفُ أنَّه مِن أقبحِهِ وأشنعِهِ؛ لخصوصيَّةِ عطفِ الخاصِّ على العامِّ، وليسَ المرادُ به تقييدَ حلِّ قتالِهِم بالجمعِ بينَ النَّكثِ والطّعنِ كما هُوَ في الوجهِ الأوّلِ، كما تَحتملُ أن تكونَ بمعنى (أو)؛ لِيكونَ العطفُ مِن عطفِ القسيمِ على القسيمِ؛ لِيُفيدَ أنَّ أحدَ الأمرينِ كافٍ في قتلِهِم؛ أي: إنْ نكثوا عهدَهُم حلَّ قتالُهُم، وإنْ لم يَنكثُوا بل طعنُوا في الدّينِ مع الوفاءِ بالعهدِ حلَّ قِتالُهُم[1].

دلالةُ لفظِ ﴿وَطَعَنُواْ﴾:

يُفيدُ لفظُ الطّعنِ - في قولِهِ تعالى: ﴿وَطَعَنُواْ فِي دِينِكُمْ﴾ - كلَّ ما يُشعرُ بالعيبِ، مِن إظهارِ الذَّمِّ أو الفسادِ أو النّقصِ فيه، أو يُقالُ: أنْ يُنسَبَ إلى الدِّينِ ما لا يليقُ به، أو يُعتَرضَ بالاستخفافِ على ما هو مِنَ الدِّينِ، لِمَا ثَبَتَ مِنَ الدَّليلِ القطعيِّ على صحَّةِ أصولِه واستقامةِ فروعِه، فمِنَ الطّعنِ في الدِّينِ صريحُ التّكذيبِ فيه وتقبيحُ أحكامِه، والطّعنُ في القرآنِ وفي النَّبيِّ ﷺ؛ وإنّما كانَ الأمرُ بالقتلِ مُتعلِّقًا بإظهارِ الطّعنِ والتَّصريحِ فيه ؛ لأنَّ الأصلَ في الطّعنِ أن يكونَ ظاهرًا، كما أنَّ الكافرَ لا يخلو مِنَ الطّعنِ في الدّينِ سواءٌ أكانَ أصليًّا أم مُرتدًّا[2].

الطّعنُ في الدّينِ هو إظهارُ الذَّمِّ أو الفسادِ أو النّقصِ فيهِ

دلالةُ حرفِ الجرِّ ﴿فِي﴾ في قوله ﴿وَطَعَنُواْ فِي دِينِكُمْ﴾:

أفادَ الجارُّ والمجرورُ ﴿فِي دِينِكُمْ﴾ مِن قولِهِ تعالى: ﴿وَطَعَنُواْ فِي دِينِكُمْ﴾ أنَّ طعنَهُم كانَ في أصولٍ مِنَ الدِّينِ، وأنَّهُم كانوا أحقَّ

الطّعنُ في الدّينِ ضلالٌ مُبينٌ، ولا يفعلُهُ إلّا سفيهٌ مَهينٌ

(1) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 8/83، ورضا، تفسير المنار: 10/172، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/130.

(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/12، وابن الجوزيّ، زاد المسير: 2/240، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 8/82، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل وأسرار التّأويل: 3/73، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 9/170.

بالجزاءِ المذكورِ، ومَعلومٌ أنّ الطّعنَ في شيءٍ مِن فروعِ الدّينِ أو أصولِهِ مُفْضٍ إلى الكفرِ، وقد أتاحَت لنا كتبُ التّاريخِ والسّيرةِ وكتبُ التّفسيرِ بسطةً مِنَ الوقائعِ الحقيقيّةِ عن مَصائرِ الطّاعِنينَ في الدّينِ، وكيفَ عاقبَتهُم القُدرةُ بالهلاكِ وسُوءِ العاقبةِ.

سرُّ المُخاطَبةِ على خلافِ مُقتضَى الظّاهرِ في ﴿دِينِكُمْ﴾:

لم يقُلْ: (طعنُوا في دين الإسلامِ)؛ بل جاءَ بطريقِ الخطابِ؛ للإشعارِ باختصاصِ الدِّينِ بهم؛ تشريفًا لِلمُخاطَبينَ، ولِيعمَّ كلَّ مُخاطَبٍ، وجاءَ الخطابُ على خلافِ مُقتضَى الظّاهرِ، وبيانُهُ: أنَّ أصلَ الخطابِ وإنْ كانَ لِمُعيَّنٍ لكنَّ القصدَ منهُ هنا غيرُ مُعيَّنٍ، فلا يُرادُ منه أهلُ الخطابِ في وقتِ نزولِ القرآنِ؛ قصدًا إلى أن يحصِّلَ كلُّ مُسلمٍ مُخاطَبٍ باختصاصِ الدّينِ بهِ؛ لِيرُدَّ على النّاكِثينَ العهودَ والطّاعنينَ في الدّينِ.

الانتسابُ إلى الدّينِ تشريفٌ وتكريمٌ في كلِّ زمانٍ ومَكانٍ

بلاغةُ الاستعارةِ في قولِهِ: ﴿وَطَعَنُواْ فِي دِينِكُمْ﴾:

جاءَ الكلامُ على طريقِ الاستعارةِ التّصريحيّةِ التّبعيّةِ[1]، إذ شُبِّهَ الثَّلبُ في الدّينِ، والقَدحُ فيه، والاستنقاصُ منهُ، للنّيلِ منهُ وإنهائِهِ بقوّةٍ وحدَّةٍ بالطّعنِ بالرُّمحِ الّذي يكونُ فيه المطعونُ قريبًا؛ إشعارًا بحرصِ الطّاعنِ على إنهاءِ الدّينِ بثلبِهِ، وإظهارِ العيبِ فيه تَنفيرًا لِلمُؤمنينَ منه ولِلرَّاغِبينَ في الدّخولِ فيه، أو جاءَ الطّعنُ هنا على سبيلِ الاستعارةِ، بمعنى الثّلبِ والنسبةِ إلى النّقصِ، بتشبيهِ الدّينِ المُلتئمِ غيرِ المنقوصِ بالجسدِ السّليمِ، فإذا نَقَصَ فيه بالثَّلبِ والشَّتمِ شُبِّهَ بالجسدِ الّذي أُفسِدَ التحامُهُ[2].

حرصُ الطّاعنِينَ على تهوينِ أمرِ الدّينِ بثلبِهِ، وإظهارِ العيبِ فيهِ

بلاغةُ وضعِ الظّاهرِ مَوضِعَ المُضمَرِ:

وَضَعَ ﴿أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ﴾ في قولِهِ: ﴿فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ﴾ مَوضِعَ

(1) الزّمخشريّ، أساس البلاغة: (طعن)، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/251.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/129.

الإيذانُ بأنَّ الكافرينَ صارُوا بالنّكثِ والطّعنِ ذوي رياسةٍ وتقدُّمٍ في الكفرِ

الضَّميرِ، فكانَ الظّاهرُ أن يقولَ: (فقاتلوا أئمّتَهُم)؛ لِيكونَ على نسقِ ما تقدَّمَهُ، ولكنَّه جاءَ على خلافِ مُقتضَى الظّاهرِ؛ للإيذانِ بأنَّهم صارُوا بالنّكثِ والطّعنِ ذوي رِياسَةٍ وتَقدُّمٍ في الكُفرِ، فهُم أحِقّاءُ بالقتلِ والقتالِ، إذ لا يَشُقُّ كافرٌ غبارَهُم، فصاروا قدوةً لغيرِهم؛ لأنَّ الّذينَ أَضمَرُوا النَّكثَ يبقَون مُتَرَدِّدِينَ بإظهارِهِ، فإذا ابتَدَأَ بعضُهم بإظهارِ النّقضِ اقتَدى بِهِم الباقُونَ، فَكانَ النّاقِضُون أئمَّةً لِلباقِينَ[1].

دلالةُ التّعبيرِ بلفظِ ﴿أَئِمَّةَ﴾:

المُتقدِّمُ بالنَّكثِ والطّعنِ أَولى مِن غيرِهِ بالعقابِ

أفادَ لفظُ ﴿أَئِمَّةَ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلۡكُفۡرِ﴾ أنَّ المُتقدِّمينَ في النَّقضِ والطَّعنِ، ومَن صَدَرَ ذلك منهم أوَّلًا أَولى مِنْ غيرِهِم بالقتلِ، وأنَّهم أحِقَّاءُ به لتعليقِ الأمرِ بالقتلِ على كونِهم أئمَّةً في الكفرِ، إذِ الحكمُ على المُشتَقِّ يُؤذِنُ بعِليَّةِ المأخذِ[2]، وعن أئمّةِ الكفرِ " قال قتادةُ وغيرُهُ: أَئمّةُ الكفرِ كأبي جهلٍ، وعُتبةَ، وشيبةَ، وأُميّةَ بن خلَفٍ، وعَدَّدَ رِجالًا.. ورُوِيَ عن عَلِيّ بن أبي طالبٍ رضي الله عنه مثلُه.

والصّحيحُ كما قالَ ابنُ كثيرٍ: أنّ الآيَةَ عامّةٌ، وإنْ كانَ سببُ نُزُولِها مُشرِكي قُريشٍ، فهي عامّةٌ لَهُم ولِغيرِهِم"[3].

القراءاتُ القرآنيّةُ في لفظِ ﴿أَئِمَّةَ﴾:

الاختلافُ راجعٌ إلى التّخفيفِ الصّوتيِّ، بينَ تسهيلِ الهمزةِ أو تحقيقِها

في قولِهِ تعالى: ﴿فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلۡكُفۡرِ﴾ حَقَّقَ ابنُ عَامرٍ وعَاصِمٌ وحَمزَةُ والكِسائِيُّ وخَلَفٌ الهمزتين، وسَهَّلَ الثَّانِيةَ فِيها: نافِعٌ وأَبُو عَمرٍو وابنُ كَثِيرٍ وأَبُو جَعفَرٍ ورُوَيسٌ، وتسهيلُ الهمزةِ إمّا بجعلِها بَيْنَ بَيْنَ، كَما هِيَ في سَائِرِ بابِ الهَمزَتَينِ مِن كَلِمَةٍ، وبِهذا وَرَدَ النَّصُّ عَنِ الأَصبَهَانِيِّ عَن أَصحَابِ وَرشٍ، وإمّا بياءٍ خالصةٍ، ومَرجِعُ الاختلافِ في القراءةِ إلى التّخفيفِ الصّوتيِّ، عندَ مَن يرى التّسهيلَ لِثقلِ

(1) البيضاويّ، أنوار التّنزيل وأسرار التّأويل: 3/73، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/47، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/130.

(2) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 9/170.

(3) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/117.

الجمعِ بينَ الهمزتين في النُّطقِ، وإلى تحقيقِ الهمزةِ الثّانيةِ، تكون على الأصلِ عندَ مَن يرى التّحقيقَ [1].

سرُّ العدولِ في قولِهِ: ﴿فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلۡكُفۡرِ﴾:

كانَ الظّاهرُ أنْ يُقالَ: (فقاتلوا أئمّةَ الشّركِ)؛ لِتقدُّمِ لفظِ الشّركِ في السِّياقِ في قولِهِ: ﴿كَيۡفَ يَكُونُ لِلۡمُشۡرِكِينَ عَهۡدٌ﴾ [التّوبة: 7]، فعُدِلَ عنهُ إلى لفظِ الكفرِ؛ إيذانًا بأنَّ نكثَ العهدِ والطّعنَ في الدِّينِ مِن خصالِ الكفرِ؛ لأنّهم غطَّوا فطرتَهم عنِ الحقيقةِ الظّاهرةِ عقلًا وعُرفًا بوجوبِ الوفاءِ بالعهدِ، واستقامةِ دينِ الإسلامِ، وأمّا الشّركُ فهو عبادةُ إلهٍ مع اللّهِ تعالى أو مِن دونِهِ، فدلالةُ الكفرِ هنا أقضى لحقِّ المعنى وسياقِهِ.

نكثُ العهدِ والطّعنُ في الدِّينِ ضدُّ الفِطرةِ والعقلِ والعُرفِ السّليمِ

مُناسبةُ الأمرِ بقتلِ أئمّةِ الكُفرِ دونَ غيرِهِم:

تخصيصُ الأمرِ بمقاتَلَةِ الأئمَّةِ، مع أنّهُ عامٌّ لهم ولأسافلِهِم؛ إمّا لأنَّ مِن شأنِ الأتباعِ تقليدَ الأئمَّةِ، فيصَدُرونَ عن آرائِهِم وتدبيرِهِم، فإذا قاتلُوهم اضطربَ الأتباعُ، ودانوا لهم طوعًا أو كُرهًا، وإمّا لأنَّهم إذا قَتلُوهُم لم يبقَ لَهُم إمامٌ في الكُفرِ، فيذهب الكفرُ رأسًا [2].

ذهابُ الكُفرِ بذهابِ رؤُوسِهِ، وانقراضِ عُتاتِهِ

دلالةُ الإضافةِ في قولِهِ: ﴿أَئِمَّةَ ٱلۡكُفۡرِ﴾:

الظّاهرُ أنَّ الإضافةَ هنا بمعنى (في) [3]؛ أي: أئمَّةً في الكفرِ؛ بمعنى: توغُّلِهِم فيه حتّى صارَ الكفرُ ظرفًا حاويًا لَهُم، فيكون المعنى: قاتلُوا ذوي التَّقدُّمِ والرِّياسةِ فيهِ كما تقدَّمَ، وتحتملُ الإضافةُ أن تكونَ لأدنى مُلَابَسةٍ، والمعنى: قاتِلُوا رؤساءَ المشركينَ وصناديدَهُم سواءٌ أكانوا هم النّاقضينَ والطّاعِنينَ أم غيرَهم؛ والمعنى: قاتِلُوا أئمَّةَ الكفَّارِ، فتخصيصُ قتلِهِم؛ إمَّا لأنَّ قتلَهُم أهمُّ، وهُم أحقُّ بهِ؛

إسلامُ أئمَّةِ الكفرِ سببٌ لإسلامِ أتباعِهِم

(1) ابن مجاهد، السّبعة في القراءات، ص: 312، وابن الجزريّ، النّشر: 1/379.
(2) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنّة: 5/308.
(3) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 3/73.

لأنَّهُم هُم الّذين يُحرِّضُونَ الأتباعَ على الأفعالِ الباطلةِ، وإمّا لمنعِ المُسلمينَ مِن مُراعاةِ رؤساءِ المُشركينَ، طمعًا في إسلامِهِم؛ فإنَّ إسلامَهُم سببٌ لإسلامِ أسافلِهِم[1].

براعةُ التّعبيرِ بقولِهِ: ﴿أَئِمَّةَ ٱلۡكُفۡرِ﴾:

لكلِّ جيلٍ أئمَّةٌ في الكفرِ، يزهو بوجودِهِم، ويضمحلُّ بانقراضِهِم

لمّا كانَ (أئمَّةُ) جمعَ إمامٍ بمعنى الّذي يُقتدَى بهِ ويكونُ مَتبوعًا مِن غيرِهِ، وكانَت (أل) جنسيَّةً؛ بمعنى جنسِ الكفرِ ليدخلَ فيه كلُّ كافرٍ، فالأصوبُ في هذا أن يُقالَ: إنّه لا يُعنَى بها مُعيَّنٌ بذاتِهِ، وإنَّما وقعَ الأمرُ بقتالِ أئمَّةِ النَّاكثينَ بالعهودِ مِنَ الكفرةِ إلى يومِ القيامةِ دونَ تَعيينٍ، ويدخلُ فيه كفَّارُ العربِ ومُحاربو رسولِ اللّهِ ﷺ دخولًا أوَّليًّا تحتَ اللَّفظةِ، إذِ الّذي يتولَّى قتالَ النَّبيِّ والدَّفعَ في صدرِ شريعتِهِ هو إمامُ كُلِّ مَنْ يكفُرُ بذلكَ الشَّرعِ إلى يومِ القيامةِ، ثمَّ تأتي في كُلِّ جيلٍ مِنَ الكُفَّارِ أئمَّةٌ خاصَّةٌ بذلكَ الجيلِ، فهُم لا يَنقرضونَ يَحيَونَ أبدًا ويُقتَلُونَ[2].

علّةُ مجيءِ (إنَّ) في ﴿إِنَّهُمۡ﴾:

استحقاقُ أئمّةِ الكفرِ القتالَ؛ لاستخفافِهِم وغدرِهِم الأثيمِ

في قولِهِ: ﴿إِنَّهُمۡ لَآ أَيۡمَٰنَ لَهُمۡ﴾ تفيدُ (إنَّ) التّعليلَ وبيانَ السّببِ لمَضمونِ الشّرطِ والجزاءِ معًا، فكأنَّه قيلَ: ما سببُ تعليقِ قتالِ أئمَّةِ الكفرِ بنكثِهِم بعهدِهِم وطعنِهِم في الدّينِ؟ وهل مِن حقٍّ في قتالِهِم؟ فبيَّنَ الحاملَ على الأمرِ بتصديرِ الكلامِ بـ(إنَّ)؛ تنبيهًا على عدمِ توفيتِهِم بحقِّ الأيمانِ الّتي قطعُوها على أنفسِهِم، فتكون جملةُ ﴿إِنَّهُمۡ لَآ أَيۡمَٰنَ لَهُمۡ﴾ تعليلًا لِقتالِهِم بأنَّهم استحقُّوهُ لأجلِ استخفافِهِم بالأيمانِ الّتي حلفُوها على السَّلمِ فَغَدَرُوا، ويحتملُ أن يكونَ التّعليلُ لمضمونِ الشّرطِ، كأنَّه قيلَ: وإنْ نَكَثُوا وطَعَنُوا كما هو المُتَوَقَّعُ مِنهُم؛ إذْ لا أيمانَ لهم حَقيقةً حتّى لا يَنكُثُوها، أو يكونَ لاستمرارِ القتالِ

(1) البيضاويّ، أنوار التّنزيل وأسرار التّأويل: 3/73، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 9/170.
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/12.

المَأمورِ بهِ المُستَفادِ مِن سياقِ الكلامِ، كأنَّهُ قِيلَ: فقاتِلُوهُم إلى أنْ يَنتَهوا؛ إنَّهم لا أَيمانَ لَهُم حتّى يُعقدَ معَهُم عهدٌ آخَرُ[1].

فائدةُ مجيءِ الجملةِ الاعتراضيّةِ:

لمّا جاءَتِ الجملةُ الاعتراضيّةُ في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَٰنَ لَهُمْ﴾[2] على معنى التّعليلِ تضمَّنَت بيانًا لِلمُسلمينَ، وتنبيهًا لهم كيلا يَشرَعُوا في قتالِ أئمّةِ الكُفرِ، وهُم غيرُ مُطَّلِعينَ حكمةِ الأمرِ بهِ، فيكونَ قِتالُهُم لِمُجرَّدِ الامتثالِ لأمرِ اللّهِ، فَلا يكونَ لَهُم مِنَ الغيظِ عَلى المُشركينَ ما يَشْحَذُ شِدَّتَهم عَلَيهم[3]، كما أفادتِ الجملةُ الاعتراضيَّةُ تأكيدَ نقضِهِم العهدَ، وتقريرَه بنفي حقيقةِ أيمانِهِم؛ لأنَّ القصدَ مِنَ الأيمانِ تعظيمُهُا والوفاءُ بها، وهُم قد نكثُوا بها.

القصدُ مِنَ الأيمانِ تعظيمُه والوفاءُ بِهِ

دلالةُ عودِ الضّميرِ في قولِهِ: ﴿إِنَّهُمْ﴾:

قولُهُ: ﴿فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَٰنَ لَهُمْ﴾ يعودُ الضّميرُ على ﴿أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ﴾ بما استحقُّوا بهِ هذا الوصفَ، وهو نكثُهُم أيمانَهُم وطعنُهُم في دينِ الإسلامِ، فكانَ مَجيءُ الضّميرِ فيه على مُقتضَى الظّاهرِ أوفى لحقِّ المعنى وسياقِه، وقِيلَ: "أصوبُ ما يُقالُ في هذه الآيةِ: أنّه لا يُعْنَى بها مُعيَّنٌ، وإنّما وَقَعَ الأمرُ بقتالِ أئمّةِ النّاكثينَ للعهودِ مِنَ الكَفَرةِ إلى يومِ القيامةِ، واقتضَت حالُ كفّارِ العربِ ومُحاربي النّبيِّ ﷺ أن تكونَ الإشارةُ إليهم أوّلًا، ثمّ كُلُّ مَن دَفَعَ في صدرِ الشّريعةِ إلى يومِ القيامةِ فهُو بمَنزِلَتِهم"[4]، وقد أصبحَ الكفرُ عبرَ العصورِ ألوانًا وأشكالًا، وصارَ له أئمّةٌ وروّادٌ، ونخبٌ وزعماءٌ يتولّون كبرَهُ، ويتحمّلُونَ وزرَهُ، وعليه فالضّميرُ يحتملُ العودةَ إلى المَعنَيَيْنِ: القريبِ والبعيدِ، ويستوفي الدّلالةَ فيهما معًا.

مَوقِفُ الإسلامِ مِن أئمّةِ الفُجرِ والكُفرِ ثابتٌ لا يتغيَّرُ، وباقٍ لا يتحوَّرُ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/48، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/130.
(2) النّسفيّ، مدارك التّنزيل: 1/667.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/130.
(4) الثّعالبيّ، الجواهر الحسان: 3/163.

كنايةُ التّعبيرِ بقولِهِ: ﴿لَآ أَيۡمَٰنَ لَهُمۡ﴾:

الأيمانُ لقطعِ الخُصوماتِ، لا أنّها مُسقِطةٌ لِلحقُوقِ

لمّا نفى تحقُّقَ أيمانِهم دلَّ على أنْ لاعهدَ لَهُم بعدَ نقضِهِمُ العهدَ، ولمّا ربطَ اللّهُ تعالى استقامةَ المُسلمينَ على العهدِ باستقامةِ الكفَّارِ لَهُم دلَّ على أنَّ نفيَ تحقُّقِ أيمانِهم يلزمُهُ على سبيلِ الكنايةِ أنْ لا يُوَفُّوا لَهُم العهدَ الّذي كانَ لَهُم إذا نقضُوا، فيكونُ تأكيدًا لِمَا تقدَّمَ، وتقريرًا له[1].

دلالة النفي في ﴿لَآ أَيۡمَٰنَ لَهُمۡ﴾ لما أثبتَ:

إقامةُ العالمِ بالشّيءِ مُقامَ الجاهلِ بهِ؛ لعدمِ القيامِ بمُوجَبِهِ

(لا) هنا لنفي الجنسِ؛ بمعنى نفي حقيقةِ الأيمانِ لَهُم؛ أي: لا أيمانَ لَهُم على الحقيقةِ، وإلَّا لَمَا طعنُوا ولم ينكثُوا، وقد يُقالُ: كيفَ يُثبتُ لهم الأيمانَ في قولِهِ: ﴿وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُم﴾، ثمّ ينفي أصلَها وحقيقتَها؟ والجوابُ: أنَّه أثبتَهَا لهم باللّسانِ؛ لأنَّ النَّكثَ لا يُسمَّى نكثًا إلَّا بعدَ وقوعِ الأيمانِ والعهدِ، أو يُقالُ: لأنَّه تعالى وَصَفَها بالنَّكثِ، ولو لم تكُنْ مُنعقدةً لم يُتصوَّرْ نَكثُها، ثمَّ نفاها عنهُم في قولِهِ: ﴿لَآ أَيۡمَٰنَ لَهُمۡ﴾؛ لأنَّهم لَمَّا لَمْ يَثْبُتُوا عَلَى الأيمانِ، ولم يَقومُوا بحقِّها؛ إذ لم يُوفُّوا بها نَفَاها عنهُم في الحقيقةِ، فعهودُهُم ما هي إلَّا مُخادَعةٌ لِسانيّةٌ لم يَقصدوا الوفاءَ بها، فجاءَ الكلامُ لا على مُقتضَى الظّاهرِ؛ إذ أحلَّ المحيطَ بفائدةِ الجملةِ الخبريّةِ وبلازمِ فائدتِها علمًا محلَّ الخالي الذّهنِ عَن ذلكَ؛ لعدمِ القيامِ بموجَبِهَا، ويحتملُ أن يكونَ النّفيُ مُسلَّطًا على وَصفٍ مَحذوفٍ، فيكون نفيُ الأيمانِ مُقيَّدًا، والتّقديرُ: لا أَيمَانَ لَهُم يُوَفُّونَ بها[2].

توجيهُ القراءاتِ القرآنيّةِ في ﴿لَآ أَيۡمَٰنَ لَهُمۡ﴾:

تنوُّعُ القراءةِ مَلمَحٌ لفهمِ الآيةِ، وانفتاحِها على مَزيدٍ مِنَ المعاني

قَرَأَ الجمهورُ ﴿لَآ أَيۡمَٰنَ لَهُمۡ﴾ بفتحِ همزةِ ﴿أَيۡمَٰنَ﴾ على أنَّه جمعُ

(1) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنّة: 5/308.

(2) البيضاويّ، أنوار التّنزيل وأسرار التّأويل: 3/73، والسّكّاكيّ، مفتاح العلوم، ص: 171، وأبو حيّان، البحر المحيط: 5/380، والطّيبيّ، حاشية على تفسير الكشّاف: 7/188، والنّيسابوريّ، غرائب القرآن: 3/436.

يَمينٍ، وقَرَأَهُ ابنُ عامرٍ بكسرِ الهمزةِ، على أنّهُ مَصدرٌ؛ أي: ليسُوا بمؤمنينَ، ولا تَكرارَ في نفي إيمانِهم بعد أنْ وصفَهم بأئمَّةِ الكُفرِ؛ لأنَّه أرادَ انتفاءَ الوازعِ عندَهُم في الثَّباتِ على العهدِ، أو اجتنابِ الطّعنِ في الدّينِ، والمَقامُ مَقامُ تعليلٍ برهانيٍّ، وتقديرُ الكلامِ: إنّهُم لا إيمانَ لَهُم، ومَن لا إيمانَ لهُ لا عهدَ لهُ لانتفاءِ الوازعِ، أو لأنَّه أرادَ أنَّ المَانِعَ مِن قتلِهم أحدُ أمرين: إمَّا العهدُ وقد نَقضُوه، وإمَّا الإيمانُ وقد حُرِمُوهُ[1].

دلالةُ التّعبيرِ بلفظِ (لَعَلَّ):

الكريمُ إذا أطمَعَ فعَلَ، وإذا وَعَدَ أَنجَزَ

لمّا كانَت (لعلَّ) لترجّي ما هو مَحبوبٌ أو دَفْعِ ما هو مَكروهٌ، ولِتوقُّعِهِ في المُستقبلِ أفادَت هنا في قولِهِ تعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ﴾ الرّجاءَ لِلمُخاطَبينَ والتّوقُّعَ منهُم لِمَا هو مَحبوبٌ مَرغوبٌ؛ بمعنى: ترجونَ بقتالِ أئمَّةِ الكفرِ انتهاءَهُم عنِ النَّكثِ والطّعنِ، وتتوقَّعُونَ منهُمُ الكفَّ عنهُما، ويحتمل أن يكونَ التّعبيرُ بـ(لعلَّ) على معنى: أنَّ قتالَهُم يجعلُهُم في صورةِ المرجوِّ منهم أن يَنتهُوا ليترجَّحَ قتالُهُم في نفوسِ المؤمنينَ بعدَ الأمرِ بهِ، وقد يكونُ مجيءُ (لعلَّ) هنا على سبيلِ الإطماعِ؛ لأنَّه إطماعٌ مِن كريمٍ رحيمٍ، إذا أطمَعَ فعَلَ ما يُطمَعُ فيهِ لا محالةَ؛ لجَرْيِ إطماعِهِ مَجرَى وعدِهِ المَحتومِ وفاؤُهُ بهِ[2].

سرُّ التّعبيرِ بقولِهِ: ﴿لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ﴾:

البـاعـثُ على قتالِ أئمّةِ الكُفرِ دفـعُ ضـررِهـم، وردُّهُم إلى ربِّهم

لمّا كانَ ﴿لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ﴾ مُتعلِّقًا بفعلِ الأمرِ ﴿فَقَٰتِلُوٓاْ﴾ دلَّ على أنَّ الأمرَ بالقتالِ مُستمرٌّ لغايةِ انتهائِهم عنِ النَّكثِ والطَّعنِ؛ لِيُفيدَ أنَّ الغرضَ مِن قتالِ أئمَّةِ الكفرِ هو دفعُ ضررِهِم وليسَ أذيَّتَهُم؛ أي: ليكُنْ غرضُكم في المُقاتَلَةِ بعدَ ما وُجِدَ مِنهُم مِنَ العَظائِمِ أن يَنتهُوا عمَّا هُم عليهِ لا إيصالَ الأذيَّةِ بِهِم، كما هو طريقةُ المُؤذِينَ، فالباعثُ

(1) ابن مجاهد، السّبعة في القراءات، ص: 312، وابن الجزريّ، النّشر: 2/278، والخفاجيّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 4/534، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/130.

(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/92، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 2/334.

على قتالِهم هو ردُّهُم إلى طاعةِ مَعبودِهم رحمةً عليهم، وهَذَا مِن كَرَمِهِ سُبحَانَهُ وفَضلِهِ وعَودِهِ عَلَى المُسِيءِ بالرَّحمَةِ، فهَذَا في حقِّ النّاكِثينَ والطّاعِنينَ في الدّينِ الحاقِدينَ عليهِ، فما ظنُّكَ بالمُحسنينَ الّذين لا يَحملُونَ في قلوبِهم ضغينةً على الإسلامِ؟[1].

بلاغةُ الكنايةِ في قولِهِ: ﴿لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ﴾:

الحربُ في الإسلامِ لمنعِ الباطلِ، وإرساءِ الحقِّ والفضائلِ

لمّا جعلَ الغايةَ مِن قتالِ أئمّةِ الكفرِ الانتهاءَ ممَّا هُم عليهِ دلَّ بلازِمِهِ على سبيلِ الكنايةِ على النَّهيِ عنِ القتالِ اتِّباعًا لِهَوى النَّفسِ أو إرادةَ مَنافعِ الدُّنيا مِن سَلبٍ وكَسبٍ وانتقامٍ مَحضٍ، والمعنى: فلا تقاتِلُوهُم لأمرٍ نَفسانيٍّ، وداعٍ شَهوانيٍّ[2].

فائدةُ مجيءِ خبرِ (لعلّ) جملةً فعليَّةً:

أثرُ التّعليلِ بـ(لعلّ) في جلاءِ المعنى واتِّساقِهِ

أفادَ مجيءُ ﴿يَنتَهُونَ﴾ في قولِهِ: ﴿لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ﴾ خبرًا للأداةِ (لعلّ) تقويةً لِلحُكمِ، بمعنى تحقيقِ الانتهاءِ عنِ الكفرِ، ونقضِ العهدِ، والطّعنِ في الدّينِ، وتقريرِهِ بقتالِهِم[3]، وقد جاءَ ذلك في سياقِ التَّرجِّي بلفظِ (لعلّ)، الّذي يفيدُ التعليلَ، كما في قولِهِ تعالى: ﴿وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ۝٥٣﴾ [البقرة: 53]، وقولِهِ تعالى: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ۝١٣٢﴾ [آل عمران: 132]، وهنا يقولُ لِلمُؤمنينَ: "أمّا إذا نَكثوا أيمانَهُم مِن بعدِ عهدِهِم الّذي قَطعُوهُ على أنفسِهِم لِلمُسلمينَ، وطعنُوا في دينِهِم فعليهم أن يُقاتِلُوا أئمّةَ الكفرِ الّذينَ لا يُقيمونَ وزنًا لأيمانِهِم؛ لعلَّ هذا القتالَ يَضطرُّهُم إلى الانتهاءِ عن مَوقفِهِم الباغي"[4]، وفي آيةِ التّوبةِ نجدُ أنّ التّعليلَ يأتي مِن رجاءِ رجوعِهِم عن باطلِهِم، وما يَقومُونَ بهِ مِن

(1) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 8/86، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل وأسرار التّأويل: 3/73، وأبو حيّان، البحر المحيط: 5/381، والنّيسابوريّ، غرائب القرآن: 3/436، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 9/172.

(2) رضا، تفسير المنار: 10/173.

(3) السّكّاكيّ، مفتاح العلوم، ص: 221.

(4) دروزة محمّد عزّة، التّفسير الحديث: 9/367.

نكثٍ لِلعهودِ، وطَعنٍ في الدّينِ بما هُو منهُم مَعهودٌ، بحيث إنَّ مَن شملَتهُ العنايةُ فتابَ خرجَ مِنَ الحُكمِ العامِّ، ومَن بقيَ على عنادِهِ، ولم يبرحْ ضلالَهُ وغيَّهُ فهو لم يَنتهِ، ولذلك كانَت علّةُ السّياقِ حضًّا على الانزجارِ، وتنديدًا بما يَفعلُهُ الطّاعِنونَ مِنَ الكُفّارِ.

دلالةُ الضَّميرِ في قولِهِ: ﴿يَنتَهُونَ﴾:

لـم يـأتِ الـدّيـنُ إلا لأجل الصُّلح وقـطـع طـمـع المـعـتـديـن في القتال

لمّا كانَ القتالُ يُفني كثيرًا مِنَ الكفَّارِ أو مِن أئمَّتِهِم فالانتهاءُ المَرجوُّ مِنَ المَذكورينَ في ضميرِ الجمعِ هو انتهاءُ البَاقينَ مِنَ الأحياءِ، بعدَ أنْ تَضعَ الحربُ أوزارَها[1]، مُتعلِّقٌ بقولِهِ: ﴿فَقَٰتِلُواْ﴾ أئمّةَ الكُفرِ؛ أي: لِيكُنْ غَرَضُكُم في مُقاتَلَتِهِم انتِهاءَهُم عمّا هُم عليهِ بَعدَ مَا وُجِدَ منهُم مِنَ العظائمِ، وهذا مِن غايةِ كرمِهِ على المُسيءِ[2].

مُناسبةُ حذفِ مُتعلِّقِ الفعلِ ﴿يَنتَهُونَ﴾:

حُـذِفَ المُتعلِّقُ لإفـادةِ انـتـهـاءِ الكُفّارِ عن جميعِ غيِّهِم ونكثِهِم وطعنِهِم

حُذِفَ مُتعلِّقُ الفعلِ، والتّقديرُ: لعلَّهُم يَنتهونَ عمّا هُم عليهِ أو عن غيِّهِم؛ لِيتناولَ مَا هُم عليهِ مِنَ الكُفرِ والنَّكثِ والطَّعنِ وغيرَهُ ممّا هُو في معناهُ، فحَذَفَ المُتعلِّقَ؛ لإفادةِ العمومِ، وللإيذانِ بعظيمِ ما وجدَ منهُم، وما أظهَرُوهُ[3]، وذهبَ بعضُ المُفسِّرينَ إلى تخصيصِ المُتعلِّقِ؛ ليكونَ بتقديرِ: يَنتهونَ عن نقضِ العهدِ أو عنِ الطَّعنِ أو عنِ الكُفرِ، والوجهُ الأوّلُ أَولَى وأثرَى في المعنى المُناسِبِ للسّياقِ[4].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(نَكَثَ) و(نَقَضَ):

لمّا كانَ النَّكثُ بمعنى تَشعيثِ الشّيءِ المُلتَئِمِ ونَقضِهِ بعدَ إحكامِهِ،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/130.
(2) النّسفيّ، مدارك التّنزيل: 1/667.
(3) البيضاويّ، أنوار التّنزيل وأسرار التّأويل: 3/73، والنّسفيّ، مدارك التّنزيل: 1/667، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 8/392.
(4) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنّة: 5/309، والبغويّ، معالم التّنزيل: 2/322، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 15/535، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/131.

كَمَا تُنكَثُ خيوطُ النَّسَائجِ بعدَ إبرامِها، كان أخفَّ مِنَ النّقضِ الّذي بمعنى: انتِثَارِ العَقدِ مِنَ البِنَاءِ، حتَّى يُسمَعَ له صوتٌ، ومنهُ: نقضُ الحَبلِ والعِقدِ وهُو ضِدُّ الإبرَامِ، فلمّا كانَ الأمرُ كذلك كانَ النَّقضُ أشدَّ مِنَ النَّكثِ؛ فلا يقعُ إلَّا بثقلٍ بالغٍ شديدٍ أو نحوه، فاستُعمِلَ النَّكثُ مع الأيمانِ مُطلَقًا، ومع البيعةِ لِلمُؤمنينَ في قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوۡقَ أَيۡدِيهِمۡۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦۖ وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيۡهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤۡتِيهِ أَجۡرًا عَظِيمًا ١٠﴾ [الفتح: 10]، بينما استُعمِلَ النَّقضُ مع الأيمانِ المُؤكَّدةِ، قال تعالى: ﴿وَلَا تَنقُضُواْ ٱلۡأَيۡمَٰنَ بَعۡدَ تَوۡكِيدِهَا﴾، ومع العهدِ بعدَ مِيثاقِهِ، ومعَ الميثاقِ المُغلَّظِ في قولِهِ تعالى: ﴿وَقُلۡنَا لَهُمۡ لَا تَعۡدُواْ فِي ٱلسَّبۡتِ وَأَخَذۡنَا مِنۡهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ١٥٤ فَبِمَا نَقۡضِهِم مِّيثَٰقَهُمۡ﴾ [النّساء: 154 - 155][1].

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (نقض - نكث).

﴿أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوۡمٗا نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ وَهَمُّواْ بِإِخۡرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٍۚ أَتَخۡشَوۡنَهُمۡۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَوۡهُ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ١٣﴾ [التّوبة: 13]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الرّبطُ بينَ الأمرِ بقتالِ النّاكِثينَ، وبينَ الأسبابِ الدّاعيّةِ إلى ذلك

لمّا أمرَ بقتالِهم حتّى ينتهوا ممّا هُم عليهِ شَرَعَ بذكرِ الأسبابِ الباعثةِ على قتالِهم، بأمورٍ ارتكبُوها، فَذَكَرَ ثلاثةَ أسبابٍ، كُلٌّ واحدٍ منها يُوجِبُ مُقاتلتَهُم، ويكونُ باعثًا على الإقدامِ عليهم لَو انفردَ، فكيفَ بها حالَ الاجتماعِ؟ كما أنّ الحثَّ على قتالِهم جاءَ في صورةِ تعجيبٍ ممَّن يَتوانَى فيهِ[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَهَمُّواْ﴾: يدورُ معنى الهمِّ حولَ ذَوَبانِ الشَّيءِ مُتَسَيِّبًا ممّا يجمعُهُ لحرارةٍ أو شدّةٍ، ومنهُ: الانهمامُ الّذي هو الانهضامُ في ذوبانِ الشَّيءِ واسترخائِهِ، بعدَ جُمودِهِ وصلابَتِهِ، ويُقالُ: انهَمّ الثّلجُ والشَّحمُ والبَرَدُ إذا ذابَ، ومِن ذلكَ الهَمُّ الحُزْنُ وهَمَّهُ الأمرُ وأهَمَّهُ: أَقْلَقَهُ وحَزَنَهُ، كما قالُوا: همَّهُ السُّقمُ والمَرضُ: أذابَهُ وأذهبَ لحمَهُ، ومنهُ: هَمَّ بالشّيءِ: نواهُ وأرادَهُ وترجّحَ عندَهُ فعلُهُ، كأنّما تحلَّبت إرادتُهُ وهَوَاهُ، طلبًا لِفعلِهِ، وَهَمَمتُ بِالشَّيءِ هَمًّا؛ إذا أَرَدتَهُ ولَم تَفعَلْهُ[2].

2) ﴿أَتَخۡشَوۡنَهُمۡۚ﴾: "خَشِيَ الرّجلُ يَخشَى خَشيَةً؛ أي: خافَ، فهوَ خَشيانُ والمرأةُ خَشيَاءُ. وخاشاني فلان فخَشَيتُهُ أَخشِيه بالكسرِ، عن أبي عبيد؛ أي: كنتُ أشدَّ خَشيَةً منهُ. وهذا المكانُ أَخشَى مِن ذاك؛ أي: أشدُّ خوفًا. وقولُ الشّاعرِ:

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 15/535، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 8/392، وابن عادل، اللّباب: 10/35.
(2) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والفيّوميّ، المصباح المنير، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (همم).

ولَقَد خَشِيتُ بِأنَّ مَنْ تَبِعَ الهُدَى *** سَكَنَ الجِنَانَ مَعَ النَّبِيِّ مُحَمَّدِ

قالوا: مَعناهُ: عَلِمتُ. وقولُهُ تعالى: ﴿فَخَشِينَآ أَن يُرۡهِقَهُمَا طُغۡيَٰنٗا وَكُفۡرٗا ٨٠﴾ [الكهف: 80] قالَ الأخفشُ: معناهُ: كرهْنا"[1]، قولُهُ: "إلّا مَا كانَ مِن خَشيَةِ اللّهِ تعالى"؛ أي: مِن خوفِهِ، عنِ الجوهريِّ وغيرِهِ، "والخشيةُ: أحدُ مَصادرِ (خَشِيَ)، وهي ستّةٌ نظمَها شيخُنا أبو عبد اللّهِ بن مَالك في بيتٍ، وهو:

خَشِيتُ خَشْيًا وَمَخشَاةً وَمَخشِيَةً *** وخَشيَةً وخَشَاةً ثُمَّ خشْيَانَا"[2].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

مَن صَدَقَ اللهَ واتّقاهُ، كانَت خشيتُهُ لله لا لأحدٍ سواهُ

ألَا تُقاتلونَ - أيُّها المؤمنونَ - هؤلاءِ المُشركينَ الّذين نقضُوا العهدَ الّذي بينَكم وبينَهُم، وعقدُوا نيّتَهُم على إخراجِ الرَّسولِ مِن بين أظهرِهِم، حين تَشاوروا في أمرِه بدارِ النَّدوةِ؟ وهُم بدؤوكُم أوَّلَ مرَّةٍ بالمُعاداةِ والمُقاتلةِ؟ أَتخافونَهم؟ أو: أتخافونَ ملاقاتَهُم في الحربِ؟ فاللّهُ أولى بكُم أن تَخشَوهُ، إن كنْتُم مُؤمنينَ حقًّا[3].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ التَّحضيضِ في ﴿أَلَا تُقَٰتِلُونَ﴾:

تهييجُ المؤمنينَ على المُبالغةِ في قتالِ المَذكورينَ

لمّا كانَت (لا) لنفي المُستقبَلِ دلَّ على أنَّ الفعلَ لم يتحقَّقْ وجودُه بعدُ، فكانَ دخولُ همزةِ الاستفهامِ على الفعلِ المنفيِّ، إنكارًا على عدمِ مُقاتَلتِهِم، وتقريرًا لانتفاءِ المُقاتَلَةِ، وتوبيخًا لَهُم على تركِها؛ لِيفيدَ تحضيضَ المؤمنينَ عليها في المستقبلِ، وإغراءً لهم وتهييجًا على سبيلِ المبالغةِ في الفعلِ؛ أي: في المُقاتَلَةِ، فإنّه حيث كانَ التَّركُ مُستقبَحًا مُنكَرًا أفادَ بطريقٍ برهانيٍّ أنَّ إيجادَه أمرٌ مَطلوبٌ مَرغوبٌ فيه، فيفيدُ الحثَّ والتَّحريضَ عليه، وتولَّدَ مِنَ الاستفهامِ معنى

(1) الجوهريّ، الصّحاح: (خشي).
(2) شمس الدّين البعليّ، المطلع على ألفاظ المقنع، ص: 114.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 14/158، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل وأسرار التّأويل: 3/74.

الَعَرضِ الّذي يفيدُ الطّلبَ برفقٍ ولينٍ، ترغيبًا في قتالِ النَّاقضينَ العهدَ المَوصوفِينَ بما يُوجِبُ قتالَهُم، فكانَ الحثُّ على المُقاتَلَةِ، والتّحضيضُ عليها بهذا الأسلوبِ أبلغَ ممّا لو أُثبِتَ بغيرِهِ[1].

نكتةُ التّعبيرِ بصيغةِ المُستقبلِ ﴿تُقَٰتِلُونَ﴾:

ما يحضُّ عليه القرآنُ، نصرٌ في العاجلةِ، وفوزٌ في الآجلةِ

لمّا كانَ المُرادُ هو التّحضيضَ على القتالِ، وكانَ التّحضيضُ لا يقعُ إلّا في المُستقبلِ[2] جِيءَ بصيغةِ المضارعِ الدّالِّ على المُستقبلِ، كما أفادَتِ الصّيغةُ تجدُّدَ التّحضيضِ على قتالِهِم، كلَّما اتَّصفُوا بالأوصافِ المذكورةِ.

فائدةُ التّعبيرِ بقولِهِ: ﴿قَوۡمٗا﴾:

القومُ هُمُ الّذين يكونونَ ذوي مَنعةٍ وقوَّةٍ عظيمةٍ

عُبِّرَ بالقومِ في قولِهِ: ﴿أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوۡمٗا نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ﴾، ولم يُقلْ مثلًا: (ألَا تُقَاتِلُونَ مَن نَكَثُوا أيمَانَهُم)؛ للإشعارِ بأنَّ الّذين تُقاتِلُونَهُم هُمُ الّذين أعدُّوا أنفسَهُم لِلحروبِ، وأنَّهم ذوو مَنعةٍ عظيمةٍ، فإنَّ الأصلَ أن يُطلَقَ اللَّفظُ على الرّجالِ، وهُوَ المناسبُ لِمَقامِ القتالِ، وأشعرَ اللَّفظُ كذلكَ أنَّ المَذكورينَ بأوصافِهِم هُمُ القادةُ والقائمونَ بالأمرِ، وأنَّ بعضَهم يقومُ مع بعضٍ في العملِ بالأوصافِ المذكورةِ للقومِ[3].

دلالةُ تنكيرِ لفظِ ﴿قَوۡمٗا﴾:

تنكيرُ القومِ لإفادةِ العُمومِ؛ ليشملَ أيَّ قومٍ يتَّصفُونَ بالأوصافِ المذكورةِ

لمّا جاءَ ﴿قَوۡمٗا﴾ في سياقِ الإنكارِ دلَّ على العمومِ، بمعنى الحضِّ على قتالِ أيِّ قومٍ مَوصوفينَ بالأوصافِ المذكورةِ، فمَنْ كَانَ في مِثلِ هذهِ الصِّفاتِ مِن نَكثِ العُهُودِ وإخرَاجِ الرّسولِ والبَدءِ بالقِتَالِ مِن

(1) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنّة: 5/309، والزّمخشري، الكشّاف: 2/252، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/13، وأبو حيّان، البحر المحيط: 5/382، والنّيسابوريّ، غرائب القرآن: 3/437، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 8/392، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 9/172، وابن التّمجيد، حاشية على تفسير البيضاويّ: 9/172.

(2) السّبكيّ، عروس الأفراح: 1/423.

(3) الرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (قوم)، والعسكريّ، الفروق اللّغويّة: 1/280، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 8/392.

غَيرِ مُوجِبٍ حَقِيقٌ بأَن لا تُترَكَ مُصَادَمَتُهُ، وأَن يُوَبَّخَ مَن فَرَّطَ فِيهَا[1]؛ ليكونَ الكلامُ مُنتقِلًا مِن خصوصيَّةِ قتالِ أئمَّةِ الكُفرِ إلى عُمومِ قتالِ كُلِّ قومٍ اتّصَفُوا بالصِّفاتِ المذكورةِ، ولمّا كانَ أئمَّةُ الكفرِ قد نكثُوا أيمانَهم، وطعنُوا في الدّينِ أفادَ دخولَهُم في القومِ الّذين حضَّ على قتالِهم دخولًا أوّليًّا؛ ليكونَ تأكيدًا للأمرِ بقتالِهم، وتقريرًا له.

دلالةُ الجُملِ الثّلاثِ بعدَ الاسمِ النّكرةِ ﴿قَوْمًا﴾:

توالي المُخالفات يُفضي إلى فسادِ الطّبعِ، وتحجُّرِ المَشاعرِ

لمّا كانَ لفظُ ﴿قَوْمًا﴾ نكرةً في قولِه تعالى: ﴿أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ وَهَمُّواْ بِإِخۡرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٍۚ﴾ كانَتِ الجملُ الّتي تلتهُ صفاتٍ؛ ليفيدَ اتِّصافَهُم بصفةِ نَكثِ الأيمانِ والهمِّ بإخراجِ الرّسولِ، وكونهم هُم بَدؤوا المُؤمنينَ أوّلَ مرَّةٍ، ولمّا كانَ قولُهُ تعالى: ﴿نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ﴾ وقولُهُ: ﴿وَهَمُّواْ بِإِخۡرَاجِ ٱلرَّسُولِ﴾ بصيغةِ الفعلِ المُتحقِّقِ الوقوعِ في الماضي، دلَّ على أنَّ هذا الاتِّصافَ على وجهِ لزومِ المعنى عندَهُم وثباتِهِ في قلوبِهم؛ بمعنى: أنّها صارَت لهم عادةً وخُلُقًا[2].

سببُ إيثارِ وصفِ القومِ بثلاثِ جملٍ مُتعاطِفةٍ:

مُوجِباتُ القتالِ نشأَت مِن قِبَلِ العدوِّ، لا مِن قِبَلِ المؤمنينَ

وَصَفَهُم بثلاثةِ أوصافٍ تُوجِبُ الحَضَّ عَلَى المُقاتَلَةِ؛ للإيذانِ بأنَّ مُوجِباتِ القتالِ نشأَت مِن قِبَلِ العدوِّ لا مِن قِبَلِ المُؤمنينَ، فبَدَأَ بالسَّببِ الأعظمِ والأهمِّ اعتبارًا، والأكثرِ تهييجًا لِلمُؤمنينَ على المُقاتَلَةِ؛ بمعنى: قاتِلوهم؛ لأنّهم اجترؤوا على اللّهِ، فنكثُوا الحِلفَ به في عهدِهم، ولأنَّهم اجترؤوا على رسولِه ﷺ الّذي هو أعلى الخَلقِ قدرًا، فهمُّوا بإخراجِهِ، ولأنَّهم عادَوا المؤمنينَ، فبدؤوا بمُقاتلتِهم، وذكرَ ثلاثةَ مُوجِباتٍ؛ لأنَّ تعديدَ المُوجِباتِ القويّةِ وتفصيلَها ممّا يُقوِّي داعيةَ المُقاتلةِ[3].

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/252، وأبو حيّان، البحر المحيط: 5/382.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/393.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 15/535.

دلالةُ الصّفةِ على السَّببيَّةِ:

وَصَفَ القومَ الّذين حضَّ على قتالِهم بثلاثِ جملٍ، وأفادَ الوصفُ معنى السَّببِ الّذي يَبعثُ على مقاتلتِهم كما تقدَّمَ، فجاءَتِ الأوصافُ مَعطوفةً بالواوِ الّتي تفيدُ التّشريكَ في الحُكمِ؛ لِيُفيدَ العطفُ أمرين: أحدُهما: صلوحُ كلِّ سببٍ لو انفردَ بأنْ يكونَ باعثًا على المُقاتلةِ، والثّاني: أنَّ اجتماعَ هذه الأسبابِ الثّلاثةِ يكون أدعى في الحضِّ على قتالِهم؛ أي: إنَّ كلَّ واحدٍ منها على انفرادِهِ كافٍ في الحضِّ على مُقاتلتِهم، فكيفَ بها حالَ الاجتماعِ[1]؟

كلُّ سببٍ باعثٌ على القتالِ، فكيف إذا اجتمعَتِ الأسبابُ؟

بلاغةُ الاستعارةِ التّصريحيّةِ:

قولُهُ تعالى: ﴿نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ﴾ استعارةٌ تصريحيّةٌ، لأنّ النَّكثَ في أصلِهِ هو الرّجوعُ إلى خلفٍ، ثمّ استُعمِلَ في النّقضِ مَجازًا، بجامعِ أنّ كلًّا مُتأخِّرٌ عن مَطلوبِهِ، وقد عَبَّرَ مِن خلالِ هذه الاستعارةِ عن بشاعةِ الفعلِ الّذي هو نقضُ الأيمانِ بنَكثِها، ممّا هُو مُستقبَحٌ في العُرفِ، ومُحرَّمٌ في الشَّرعِ[2]، شُبِّهَ نقضُ الأيمانِ بنَكثِ الخيوطِ بعدَ نسجِها وإبرامِها إيذانًا بالفسادِ الحاصلِ؛ لأنَّهم نقضُوا العهدَ بعدَ إحكامِهِ، وقد صرّحَ بالمشبّهِ بهِ - وهو النكثُ - على سبيلِ الاستعارةِ التّصريحيّةِ، وتَكرّرَت هذهِ الصّورةُ تِباعًا في هذه الآيةِ وسابقتِها.

نكثُ الأيمانِ مِن أسوأِ ما يَقترفُهُ الإنسانُ

مُناسبةُ تَكريرِ قولِهِ تعالى: ﴿نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ﴾:

كرّرَ التّركيبَ في قولِهِ: ﴿نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ﴾ مِن حيث اللّفظُ؛ لأنّه هنا في مَعرِضِ ذكرِ مُوجِباتِ المُقاتَلةِ والباعثِ عليها، ولم يكرّرِ الطّعنَ في الدّينِ؛ لتعظيمِ شأنِ نكثِ الأيمانِ، ولأنّهُ لمّا كانَ في مَعرِضِ بيانِ أسبابِ المُقاتَلةِ بدأَ بما يتعلَّقُ باللّهِ تعالى.

نكثُ الوعودِ فَسادٌ للنّفوسِ، وهلاكٌ في العَواقِبِ

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 15/535، وأبو حيّان، البحر المحيط: 5/381.

(2) الهرريّ، تفسير حدائق الرّوح والرّيحان: 5/155.

دلالةُ الفعلِ ﴿وَهَمُّواْ﴾:

إفادةُ الهمِّ معنى النيَّةِ على الفعلِ والرَّغبةِ فيهِ

أُريدَ بالهمِّ في قولِهِ تعالى: ﴿وَهَمُّواْ بِإِخۡرَاجِ ٱلرَّسُولِ﴾ نيَّتُهُم إخراجَ الرَّسولِ ورغبتُهم فيهِ في قلوبِهم مع انتفاءِ حصولِ الإخراجِ؛ لأنَّ رسولَ اللّهِ ﷺ خرجَ بنفسِهِ بإذنِ اللّهِ له؛ أي: إنَّ مُؤاخذتَهُم في هذهِ الآيةِ على مُجرَّدِ الهمِّ بإخراجِ الرَّسولِ، تدُلُّ على أنَّهم لم يُخرِجُوهُ، وإلّا لكانَ الأجدَرُ أنْ يَنعى عليهم الإخراجَ لا الهمَّ بذلك الفعلِ[1].

سببُ إيثارِ ذكرِ الهمِّ بالإخراجِ:

مَن حَمتهُ رعايةُ اللهِ لم يضرّهُ كيدُ البشرِ

لمّا همَّ المُشركونَ بأحدِ أمورٍ ثلاثةٍ؛ قتلِهِ ﷺ وحبسِهِ وإخراجِهِ، وإليه يُشيرُ قولُهُ تعالى: ﴿وَإِذۡ يَمۡكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثۡبِتُوكَ أَوۡ يَقۡتُلُوكَ أَوۡ يُخۡرِجُوكَۚ وَيَمۡكُرُونَ وَيَمۡكُرُ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ ٣٠﴾ [الأنفال: 30]، وقالَ تعالى: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَسۡتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلۡأَرۡضِ لِيُخۡرِجُوكَ مِنۡهَاۖ وَإِذٗا لَّا يَلۡبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلٗا ٧٦﴾ [الإسراء: 67]، وكانَ الهمُّ بالإخراجِ هو الّذي وقعَ أثرُهُ في الخارجِ بحسبِ الظّاهرِ اقتُصِرَ عليه، فالواقعُ في الخارجِ هو الهمُّ لا الإخراجُ؛ لأنَّه ﷺ خرجَ بنفسِهِ كما تقدَّمَ، ويُحتمَلُ أن يكونَ الاقتصارُ على الهمِّ بالإخراجِ لأنّهُ أدنى مِنَ القتلِ أو الحبسِ؛ ليُعلَمَ غيرُهُ بطريقِ الأولى، كما يُحتمَلُ أنْ يُقالَ: إنّهم لمّا ائتمروا فيما بينَهُم في دارِ ندوتِهم على قتلِهِ ﷺ بأيدي عُصبةٍ مُؤلَّفةٍ مِن شبّانِ بطونِ قُريشٍ كلِّها؛ ليتفرَّقَ دمُهُ في القبائلِ، فتتعذَّرَ المطالبةُ بهِ، وكانَ هذا الائتمارُ هو الحاملَ لهُ على الخروجِ إلى دارِ الهجرةِ اقتصرَ على ذكرِ همِّهم بإخراجِهِ دونَ همِّهم بحبسِهِ، وهمِّهم بقتلِهِ، ويُحتمَلُ أن يكونوا قد همُّوا بإخراجِ الرّسولِ مِنَ المدينةِ أيضًا، بعدَ أن رَجَعَ إليها عَقِبَ الفتحِ، بأن يكونوا قد همُّوا بغزوِ المدينةِ، وإخراجِ الرَّسولِ والمسلمينَ منها، وتشتيتِ جامعةِ الإسلامِ[2].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/133.

(2) الخفاجيّ، حاشية على تفسير البيضاويّ: 4/534، والقنّوجيّ، فتح البيان: 5/247، والآلوسيّ، روح المعاني: 5/255، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/134.

دلالةُ (أل) في لفظِ ﴿ٱلرَّسُولِ﴾:

(أل) هنا في قولِهِ: ﴿وَهَمُّواْ بِإِخۡرَاجِ ٱلرَّسُولِ﴾ عهديّةٌ بمعنى الرّسولِ الّذي تعرفونَهُ، وهو سيّدُنا مُحمَّدٌ ﷺ، ومناسبةُ مجيءِ اللّفظِ مُعرَّفًا بـ(أل) دونَ أن يقولَ: وهمُّوا بإخراجِ رسولِ اللّهِ الإيذانُ بأنَّ رسولَ اللّهِ حاضرٌ في قلوبِهم وأذهانِهم، أو لاستحضارِهِ في قلوبِهم؛ لِيكونَ أدعى إلى تصوُّرِ الهيبةِ، ولِتعظيمِ شأنِ إخراجِهِ ﷺ مِن بيتِهِ وبلدِهِ.

تعظيمُ شأنِ التَّعرُّضِ لرسولِ اللهِ ﷺ

براعةُ التّعبيرِ بقولِهِ: ﴿وَهُم بَدَءُوكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٍۚ﴾:

جاءَت هذه الجملةُ اسميَّةً لِتُخالِفَ ما سبقَها مِنَ الجملتين اللَّتين وردَتا بصيغةِ الجملةِ الفعليّةِ؛ لِتُفيدَ تقويةَ حُكمِ السّببِ المُوجِبِ لِلقتالِ عندَ المُخاطَبينَ؛ لزيادةِ التّأكيدِ والتّقريرِ، بسببِ مَجيءِ خبرِها جملةً فعليَّةً، ونكتةُ زيادةِ التّقريرِ في هذه الجملةِ: أنَّ ما سبقَها يتعلَّقُ باللّهِ وبرسولِهِ، فالسَّببُ المُوجِبُ لمقاتَلةِ المُشركينَ أقوى، فلمّا تعرَّضَ لذكرِ السّببِ المُتعلِّقِ بالمؤمنينَ جاءَ بهذهِ الطّريقةِ لتقويةِ المعنى في نفوسِهم.

الظُّلمُ ظلماتٌ يومَ القيامةِ، والبادِئُ بالظُّلمِ أظلمُ

دلالةُ حذفِ المُتعلِّقِ في قولِهِ: ﴿وَهُم بَدَءُوكُمۡ﴾:

حَذَفَ مُتعلِّقَ ﴿بَدَءُوكُمۡ﴾ لإفادةِ عمومِ المُعاداةِ الّتي بدأَها الكافرونَ؛ لِيفيدَ بداءَتَهُم في النَّكثِ، وفي القتالِ، وفي الشّرِّ؛ لأنَّه ﷺ بدأَهُم بالدَّعوةِ، وإلزامِ الحُجَّةِ بالكتابِ، والتّحدِّي بهِ، فعَدَلُوا عَن مُعارضتِهِ إلى المُعاداةِ والمُقاتَلَةِ[1].

دعوةُ رسولِ اللهِ حُجَّةٌ وبيانٌ، وديدنُ الكفّارِ مُقاتَلَةٌ وعدوان

دلالةُ النَّصبِ والإضافةِ في قولِهِ: ﴿أَوَّلَ مَرَّةٍۚ﴾:

في قولِهِ تعالى: ﴿وَهُم بَدَءُوكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٍۚ﴾ نصبٌ على المصدريَّةِ، والإضافةُ مِن إضافةِ الصِّفةِ إلى الموصوفِ، والتَّقديرُ: وهُم بَدَؤُوكُم

الرّسولُ لا يبدأُ الأعداءَ بعدوانٍ، ولكن يَصدُّ غوائلَ العدوانِ

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/252، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل وأسرار التّأويل: 3/73، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/134.

مرَّةً أُولى، والمرَّةُ الواحدةُ مِن حدثٍ يحدُثُ، فمعنى ﴿بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۚ﴾: بَدَؤُوكم أوّلَ بَدءٍ بالنَّكثِ؛ أي: بَدءًا أوَّلَ، فالمَرَّةُ اسمٌ مُبهَمٌ لِلوَحدةِ مِن فِعلٍ ما، والأغلبُ أنْ يُفَسَّرَ إبهامُهُ بالمَقامِ كما هنا، وقد يُفَسِّرُهُ اللَّفظُ، ويُفيدُ المصدرُ هنا توكيدَ الحدثِ وتقريرَهُ[1].

براعةُ الحثِّ على القتالِ في قولِهِ: ﴿أَتَخْشَوْنَهُمْۚ﴾:

لمّا كانَ الضَّميرُ في ﴿أَتَخْشَوْنَهُمْۚ﴾ عائدًا على المُشركينَ أفادَ أنَّ المعنى: أتخشونَ المُشركينَ؟ ولمّا كانَ الخطابُ لِلمُؤمنينَ دلَّ على أنَّه يَتكلَّمُ في خصمِهِم، فيكون فيه تهييجٌ للمُؤمنينَ؛ لإظهارِ شجاعتِهِم وقوّتِهِم، فإنَّه إذا قِيلَ للرَّجلِ: أتَخشى خصمَكَ؟ كانَ ذلك تَحريكًا منهُ لِأنْ يَستَنكِفَ أن يُنسَبَ إلى كَونِهِ خائفًا مِن خَصمِهِ[2].

تهييجُ المؤمنينَ لإظهارِ شجاعتِهِم وقوّتِهِم أمامَ أعدائِهِم

بلاغةُ الاستفهامِ المجازيِّ في قولِهِ: ﴿أَتَخْشَوْنَهُمْۚ﴾:

جاءَ الاستفهامُ على معنى الإنكارِ والإقرارِ، بمعنى الإنكارِ على خشيةِ الكافرينَ، والخوفِ منهُم، وإقرارِ أنَّ تركَ مُقاتَلَتِهِم بسببِ الخشيةِ منهُم، وذَلِكَ لِتوبيخِ المُؤمنينَ والتّعجيبِ مِن خشيتِهِم الكافرينَ، وفي طيِّ التّوبيخِ حضٌّ على مُقاتَلَتِهِم، إذ وصفَهُم بما يُوجِبُ الرّغبةَ فيها، ويُحقِّقُ أنَّ مَنْ كانَ على تلكَ الصّفاتِ السّيّئةِ حقيقٌ بأنْ لا تُترَكَ مُصادمتُهُ، ويُوَبَّخَ مَن فَرَّطَ فيها[3]، والمرادُ: أتخشونَ أنْ ينالَكُم مَكروهٌ منهم، حتَّى تتركُوا قتالَهُم؟ لأنَّ الخشيةَ في المُقاتَلَةِ إنَّما هي مِنَ الإصابةِ بمَكروهٍ، لكنّهُ قالَ: ﴿أَتَخْشَوْنَهُمْۚ﴾، ولم يقُلْ: أتَخشونَ الأذى أو المَكروهَ منهُم؛ لِلمُبالغةِ في الكلامِ؛ لأنّهُم إنْ لم يخشَوهُم فلن يخشَوا أذاهُم ولا وقوعَ الضُّرِّ منهُم؛ كما أنَّ فيه تهييجًا لِلمُؤمنينَ، وحثًّا لَهُم على تَركِ الخوفِ مِن قتالِ الكافرينَ.

توبيخُ المؤمنينَ مِن خشيتِهِم الكافرينَ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/134.

(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 15/536.

(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/252، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/48، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 9/173.

بلاغةُ الكنايةِ في الاستفهامِ المجازيِّ:

عُبِّرَ عن تركِ قتالِ المُشركينَ بالخشيةِ مِنهُم؛ أي: ذكرَ المَلزومَ، وأرادَ لازمَهُ على سبيلِ الكنايةِ لِلمُبالَغةِ في المعنى، وليكونَ أوثقَ في تحقيقِ المُدّعَى، فإنَّه يلزمُ مِن خشيتِهم تركُ قتالِهم؛ والمعنى: أتتركُونَ قِتالَهُم خشيةَ أن يَنالَكُم مَكروهٌ مِنهُم[1]؟

مَن يخشَ الأعداءَ لا يقاتلْهُم

نكتةُ التّعبيرِ بلفظِ ﴿أَتَخۡشَوۡنَهُمۡۚ﴾:

أُوثِرَتِ الخشيةُ على الخوفِ هنا؛ لِمناسبةِ المقامِ؛ لأنَّ الخشيةَ خوفٌ مع تعظيمٍ لِلمَخُوفِ منهُ، فلمّا دخلَت همزةُ الاستفهامِ المفيدةُ للإنكارِ دلَّ على أنَّ الإنكارَ على أمرين: الخوفِ مِنهُم، وتعظيمِ شأنِهم أو قوّتِهم وعددِهم[2].

الخشيةُ تجمعُ معنى الخوفِ والتَّعظيمِ

دلالةُ الفاءِ في قولِهِ: ﴿فَٱللَّهُ﴾:

الفاءُ تفريعيّةٌ - على التّقريرِ في قولِهِ: ﴿أَتَخۡشَوۡنَهُمۡۚ﴾ - ﴿فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَوۡهُ﴾؛ أي: فاللّهُ الّذي أمرَكُم بقتالِهم أحقُّ أنْ تخشَوهُ إنْ خطرَ في نفوسِكُم خاطرُ عدمِ الامتثالِ لأمرِهِ، وفي الفاءِ أيضًا نوعٌ مِن تعليلٍ؛ لأنَّ الاستفهامَ وإنْ كانَ للتَّقريرِ لكنَّهُ مُضمَّنٌ مَعنى النَّهي، كأنَّه قِيلَ: لا تخشَوهُم؛ لأنَّ اللّهَ أحقُّ بالخشيةِ وأحرى بالطّاعةِ[3].

النّهيُ عن خشيةِ الكُفّارِ؛ لأنَّ اللهَ أحقُّ بالخشيةِ وأحرى بالطَّاعةِ

دلالةُ اسمِ التّفضيلِ ﴿أَحَقُّ﴾:

في قولِهِ تعالى: ﴿فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَوۡهُ﴾ اسمُ التّفضيلِ ليسَ على بابِهِ، فهو بمعنى حقيق[4]، فليسَ لغيرِ اللّهِ أحقّيَّةٌ في الخشيةِ منهُ أو تعظيمِهِ، ونكتةُ مجيءِ اسمِ التّفضيلِ هي نفيُ الاشتراكِ، وتفرُّدُ اللّهِ بالخشيةِ، ولإفادةِ أنَّ خشيتَهُ ينبغي أن تكونَ في أعلى مَا يمكنُ.

ليس لغيرِ اللهِ أحقّيَّةٌ في الخشيةِ مِنهُ أو تعظيمِهِ

(1) البيضاويّ، أنوار التّنزيل وأسرار التّأويل: 3/74، والآلوسيّ، روح المعاني: 5/255.
(2) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 2/10.
(3) النّيسابوريّ، غرائب القرآن: 3/437.
(4) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 9/173.

إفادةُ الحصرِ في قولِهِ: ﴿فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَوۡهُ﴾:

المُؤمِنَ أشجَعُ النَّاسِ، وأعلاهُم هِمَّةً؛ لأنَّه لا يَخشَى إلَّا اللهَ

لمّا كانتِ الفاءُ للتّفريعِ على الإنكارِ على الخشيةِ مِنَ الكافرينَ، ثمَّ أثبتَ أحقِّيّةَ اللهِ بالخشيةِ، وعلَّقَ السَّببَ على كونِهم مُؤمنينَ دلَّ الكلامُ على معنى الحصرِ؛ بمعنى أنَّ مُقتضَى الإيمانِ أنْ لا يُخشَى إلَّا مِنَ اللهِ، فالمَقامُ يدُلُّ عليهِ، إذ أنكرَ خشيةَ الغيرِ، ولا يضرُّ انتفاءُ أداةِ الحصرِ، فقد يَقومُ السّياقُ مقامَها، وفيهِ إشعارٌ أنَّ المُؤمِنَ يكونُ أشجَعَ النَّاسِ، وأعلاهُم هِمَّةً؛ لأنَّه لا يَخشَى إلَّا اللهَ[1] ﷻ.

تنوُّعُ المعنى لِتنوُّعِ التَّوجيهِ الإعرابيِّ:

في قولِهِ تعالى: ﴿فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَوۡهُ﴾: الاسمُ الجليلُ ﴿فَٱللَّهُ﴾ مبتدأٌ و﴿أَحَقُّ﴾ خبرُهُ، و﴿أَن تَخۡشَوۡهُ﴾ بدلُ اشتمالٍ مِن ﴿فَٱللَّهُ﴾؛ والمعنى: خشيةُ اللهِ تعالى أحقُّ، وهذا التّقديرُ على معنى تكريرِ الحُكمِ لزيادةِ التّقريرِ والإيضاحِ، ويُحتمَلُ أن يكونَ التّقديرُ: (بأن تخشَوهُ)؛ والمعنى: اللهُ أحقُّ مِن غيرِهِ بالخشيةِ، ويُحتمَلُ أن يكونَ ﴿أَن تَخۡشَوۡهُ﴾ مبتدأً، خبرُهُ ﴿أَحَقُّ﴾، والجملةُ خبرُ الاسمِ الجليلِ، والمعنى: اللهُ خشيتُهُ أحقُّ[2].

بلاغةُ التَّعبيرِ بأسلوبِ الشّرطِ:

تأكيدُ الجزاءِ بأسلوبِ الشّرطِ، وأثرُهُ في المعنى

في قولِهِ تعالى: ﴿إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ يُحتمَلُ أن يكونَ أسلوبُ الشّرطِ للتَّهييجِ وللتّحضيضِ على الفعلِ، ولا يُقصَدُ فيه معنى الشّرطِ والجزاءِ، كَمَن يُقالُ له: افعلْ هذا إنْ كنتَ شُجاعًا، وهو أسلوبٌ عربيٌّ فصيحٌ شائعٌ، ويُحتمَلُ أنْ يكونَ الكلامُ على معنى الشّرطِ حقيقةً، ويكون الجزاءُ محذوفًا معلومًا مِنَ السّياقِ؛ أي بتقديرِ: إنْ كنتُم مُؤمنينَ وَجَبَ عليكُم أنْ تُقدِمُوا على هذه المُقاتَلَةِ، ومفهومُهُ: أنَّكُم إنْ لم تُقدِمُوا عَلَيها وَجَبَ أن لا تكونوا مُؤمنينَ، أو: إنْ صَحَّ أنَّكُم مُؤمنونَ

(1) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 9/173.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/382، والآلوسيّ، روح المعاني: 5/255.

حقًّا فلا تَخشَوا إلا اللّهَ[1]، وعلى كلا التّقديرين يكونُ الشّرطُ على معنى تأكيدِ الجزاءِ؛ لأنَّهُ لمّا ذُكِرَ قبلَ الشَّرطِ صريحًا، ثمَّ نُويَ معناهُ بعدَ الشّرطِ تقديرًا أفادَ تكريرَ المعنى وتقريرَهُ.

دلالةُ لفظِ ﴿مُّؤۡمِنِينَ﴾:

مُقتضَى الإيمانِ الصّحيحِ أنْ لا خشيةَ إلّا مِنَ اللهِ

لمّا كانَ الخطابُ لجميعِ المؤمنينَ في قولِهِ تعالى: ﴿إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾، وكانَ طلبُ الحاصلِ غيرَ مُتصوَّرٍ دلَّ على أنَّ المُرادَ إنْ كنتُم كاملي الإيمانِ، أو إنْ كنتُم مُؤمنين حقًّا، أو المعنى: مُقتضَى الإيمانِ الصّحيحِ أنْ لا يَخشى المُؤمِنُ إلَّا اللّهَ؛ لأنَّ قدرتَهُ ﷻ أتمُّ، وعقابَهُ أشدُّ، بلْ لا قدرةَ إلَّا لَهُ، ولا يكونُ إلّا ما يريدُ، فأفادَ الشّرطُ الحضَّ على القتالِ كَذلِكَ[2].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الخشيةُ والخوفُ:

الخشيةُ: هي الخوفُ المقرونُ بالعلمِ، والخوفُ: مُجرَّدُ الذُّعرِ دونَ حاجةٍ لِلعلمِ

وَرَدَ في هذه الآيةِ معنى الخشيةِ في قولِهِ تعالى: ﴿أَتَخۡشَوۡنَهُمۡۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَوۡهُ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾، والخشيةُ لونٌ مِن استشعارِ الخوفِ، لكنّهُ مَقرُونٌ بالعِلمِ، قالَ اللّهُ تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْۗ﴾ [فاطر: 28]، وأمّا الخوفُ فهوَ مُجرَّدُ ذُعرٍ يحصلُ للإنسانِ ولو بلا عِلمٍ، ولهذا قد يخافُ الإنسانُ مِن شيءٍ يتوهَّمُهُ، وهوَ في أصلِهِ لا حقيقةَ لهُ، فقد يَرى في اللّيلةِ الظّلماءِ شَبحًا لا وجودَ له، فيخافُ منهُ، فهذا ذُعرٌ مَبنيٌّ على وَهمٍ، لكنّ الخشيةَ تكونُ عن عِلمٍ؛ فقد ذَهَبَ مُوسى عليه السلام، وقالَ لِفرعونَ ما أمرَهُ اللّهُ بهِ: ﴿فَقُلۡ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ١٨ وَأَهۡدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخۡشَىٰ ١٩﴾ [النّازعات: 18 - 19][3]، والفرقُ بينَ الخوفِ والخشيةِ: أنّ الخوفَ يَتعلَّقُ بالمَكروهِ، وبتَركِ

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 15/536، والنّيسابوريّ، غرائب القرآن: 3/437.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/252، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل وأسرار التّأويل: 3/74، وأبو حيّان، البحر المحيط: 5/382.
(3) محمّد بن صالح العثيمين، تفسير جزء عمّ، ص: 46.

المَكروهِ، في قولِكَ: (خِفتُ زيدًا)، وتقولُ: (خِفتُ المرضَ)، كما قالَ تعالى: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾ [النّحل: 50]، والخشيةُ تتعلَّقُ بمُنزِلِ المَكروهِ، ولا يُسمَّى الخوفُ مِن نفسِ المَكروهِ خشيةً، ولهذا قالَ: ﴿وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ۝٢١﴾ [الرّعد: 21][1]، فالخشيةُ تتعلَّقُ بالمعنويِّ، والخوفُ يتعلَّقُ بالمَحسوسِ.

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 217.

﴿قَٰتِلُوهُمۡ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ بِأَيۡدِيكُمۡ وَيُخۡزِهِمۡ وَيَنصُرۡكُمۡ عَلَيۡهِمۡ وَيَشۡفِ صُدُورَ قَوۡمٖ مُّؤۡمِنِينَ ١٤ وَيُذۡهِبۡ غَيۡظَ قُلُوبِهِمۡۗ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ١٥﴾ [التّوبة: 14 - 15]

مُناسَبَةُ الآيَتَينِ لِمَا قَبْلَهُما:

الانتقالُ من التَّحذيرِ من تركِ القتالِ والتّقاعسِ عنه إلى الأمرِ بهِ، تحفيزٌ للهممِ عليه

لَمَّا وبَّخهمُ اللّهُ على تركِ القتالِ، وتوعَّدَهم عليه معَ ذكرِ موجباتِهِ؛ جرَّد لهم الأمرَ به في تينِ الآيتين، وجعلَ جزاءَهُ خمسةَ وعودٍ؛ ليثبِّتَ قلوبَهم، وتصحَّ نيَّاتُهم، ولا يخشَوا قتالَهم؛ تشجيعًا لهم وتهييجًا للهِمَمِ؛ لتنبعثَ الحميَّةُ على قتالِهم[1].

وأيضًا: لَمَّا بكَّتَ في التَّواني عنهم؛ وَعَدَهم بما يُزيل خشيتَهم منهم، بل يوجبُ إقدامَهم عليهم ورغبتَهم فيهم، فإنَّه لمّا أنكرَ عليهم تركَ قتالِهم الذي تضمَّنَ الأمرَ به صرَّح هنا بالأمرِ؛ لِينتقلَ من التَّحذيرِ من التَّركِ إلى الأمرِ بالفعلِ؛ لتقويةِ الدَّاعي وحثِّ الهِمَمِ لِمَا في القتالِ من الثِّقَلِ والكراهةِ له[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَيُخۡزِهِمۡ﴾: أصلُ الكلمةِ خَزَوَ، ويدورُ معنى الخِزي على الإبعادِ معَ الذُّلِّ والهوانِ والفضيحةِ من حيثُ وقعَ صاحبُه في عارٍ، وخَزِيَ الرجلُ إذا وَقع في بليَّةٍ وشَرٍّ، فَذلَّ بذلك وَهَان، واسْتَحْيَا مِنْ قُبْحِ فِعْلِهِ فتَبَاعَدَ ونأى، ومنه قَوْلُهُمْ: أَخْزَاهُ اللّه؛ أَيْ: أَبْعَدَهُ وَمَقَتَهُ، والخزيُ في الآية بمعنى الهوان والذِّلَّة[3].

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/252، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/13، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل وأسرار التّأويل: 3/74.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/397.

(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفاظ: (خزي).

2) ﴿غَيْظَ﴾: هو الحرارةُ الَّتي يجدُها الإنسانُ من فورانِ دمِ قلبِه، وينتج منها أشدُّ الغضبِ، أو أشدُّ الحَنَقِ، ويكون كامنًا في القلبِ، ومنه: تغيَّظت الهاجرةُ؛ إذا اشْتدَّ حَمْيُها، وَلَا يَكُونُ الغَيْظُ إلَّا بِوُصُولِ مَكْرُوهٍ إلى المُغْتَاظِ[1].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

مجابهةُ عدوّ اللهِ وعدوّ رسولِه؛ شِفاءٌ لما في صُدورِ المؤمنين، ومن تابَ قُبِلَ مع المؤمنين

قاتِلوا - أيُّها المؤمنونَ - هؤلاءِ المشركينَ أعداءَ اللّهِ يعذِّبْهم اللّهُ بأيديكم، ويذلَّهم بالهزيمةِ والقهرِ، وينصرْكم عليهمْ بالظَّفَرِ والغلبةِ، ويبرئْ داءَ صُدورِ قومٍ مؤمنينَ باللّه ورسولِه، مِمَّا كَانُوا يَنالُونَهُ مِنَ الأَذَى مِنْهُم، ويُذْهِبْ عن قلوبِ المؤمنينَ الغيظَ، ومَنْ تابَ مِنْ هؤلاءِ المعاندينَ، فإنَّ اللّه يتوبُ على من يشاءُ، ويمنُّ اللّهُ على مَنْ يشاءُ مِنْ عبادِهِ الكافرينَ، فيُقْبِلُ بِهِ إلى التَّوبة بتوفيقِه إيَّاه، واللّهُ عليمٌ بسرائرِ عبادِهِ، وبمَا كانَ وما سيكونُ، حكيمٌ في تصريفِ أمورِهم[2].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

براعةُ الإعجازِ:

إثباتُ صدقِ النَّبيِّ دليلٌ على صحَّةِ نبوَّتِه فيما أخبر

لمّا وفَّى اللّهُ بما وعدَ المؤمنينَ به في تينِ الآيتين كانتَا من المعجزاتِ ومن الأدلَّةِ على صدقِ رسولِ اللّهِ ﷺ وصحَّةِ نبوَّتِه؛ لأنَّه تعالى أخبرَ عن حصولِ هذه الأحوالِ، وقد وقعت موافقةً لهذه الأخبار، فيكون ذلك إخبارًا عن الغيب، والإخبارُ عن الغيبِ معجزٌ، فيكونُ إثباتًا لصدقِ نبوَّةِ رسولِ اللّه محمَّدٍ[3] ﷺ.

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، والرّاغب، المفردات، والفيوميّ، المصباح المنير، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (غيظ).

(2) ابن جرير، جامع البيان: 14/160، والفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 16/6، ونخبة من أساتذة التّفسير، التّفسير الميسر، ص: 189.

(3) الزّجاج، معاني القرآن وإعرابه: 2/436، والزّمخشريّ، الكشّاف: 2/252، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل وأسرار التّأويل: 3/74.

فائدةُ الاستئنافِ الابتدائيِّ وأثرهُ:

قولهُ تعالى: ﴿قَٰتِلُوهُمۡ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ بِأَيۡدِيكُمۡ﴾، اسۡتِئۡنَافٌ ابۡتِدَائِيٌّ لِلۡعَوۡدِ مِنۡ غَرَضِ التَّحۡذِيرِ إِلَى صَرِيحِ الۡأَمۡرِ بِقِتَالِهِمُ الَّذِي فِي قَوۡلِهِ: ﴿فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلۡكُفۡرِ﴾ [التَّوۡبَة: 12] وَشَأۡنُ مِثۡلِ هَذَا العَوۡدِ فِي الۡكَلَامِ أَنۡ يَكُونَ بِاسۡتِئۡنَافٍ كَمَا وَقَعَ هُنَا[1].

تجاوزُ التَّحذير عن قتالهم في حالات خاصَّةٍ إلى الأمر الصَّريح لأغراض عامَّةٍ

فائدةُ مجيءِ الأمر:

في قوله تعالى: ﴿قَٰتِلُوهُمۡ﴾، جزمَ الأمرَ بقتالِهم، فجاءَ بصيغةِ الطَّلبِ المباشِرِ بعدَ أنۡ كنَّى عنه في الآياتِ السَّابقةِ؛ ليكونَ الأمرُ على سبيلِ التَّرقِّي من التَّكنِّي إلى التَّصريح؛ لِمَا في القتال من الكُلفةِ والثِّقَل على النَّفس، ولأنَّه مكروهٌ في الطَّبائعِ، وللإيذانِ بأنَّ الامتثالَ لا يكونُ إلَّا بإنجازِ القتالِ وتحقُّقِه، فلا مجالَ للتَّأويلِ في وجوب قتالِهم.

التَّرقِّي في الأوامر من طرائق التَّربيةِ القرآنيَّةِ الحصيفة

دلالةُ الأمر بصيغةِ المفاعلة:

في قوله تعالى: ﴿قَٰتِلُوهُمۡ﴾، جاء الأمرُ على صيغةِ المفاعلةِ، فلم يقلۡ: (اقتلوهم)؛ للإيذانِ بقدرتهم على قتالِهم، فالصِّيغةُ مشعرةٌ بالتَّحريض على مقاومتِهم، وإثارةِ روحِ الجهاد في قلوبِهم؛ لنكثِ الكافرين عهودَهم مع المؤمنين، ولما اتَّصفوا به من الصِّفاتِ الموجبةِ لقتالِهم، كما تفيدُ الصِّيغةُ تشارُكَ الفريقين في القتالِ؛ بمعنى: أنَّ أحدَهما يفعل بصاحبِه فعلًا، فيقابله الآخر بمثلِه، فيُنۡسَب للبادئ نسبةُ الفاعليَّةِ، وللمقابلِ نسبةُ المفعوليَّة؛ أي: إنَّ المؤمنين سيلقَون من أعدائِهم قتالًا، كما تدلُّ الصِّيغةُ على غلبةِ أحدِهما، ولهذا جاء الجزاءُ بذكرِ غلبةِ المؤمنين ونصرِهم، ولمّا أمرَ اللّٰهُ تعالى المؤمنين بقتالِ أعداءِ اللّٰهِ وأعدائهم؛ كان كنايةً عن علمِ اللّٰه بشجاعتِهم وقدرتِهم على المقاتلةِ والمواجهةِ[2].

مواجهةُ الكافرين دليلُ شجاعة المؤمنين، ورسوخ أقدامهم

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/135.

(2) الرّضيّ، شرح شافية ابن الحاجب: 1/96، والحملاويّ، شذا العرف، ص: 30 - 31.

سببُ إيثارِ التَّعبيرِ بأسلوبِ الأمرِ والجزاءِ:

الإذنُ بالقتال مُؤذِنٌ بالاستعداد الفعّال، جرّاء نكث العهد والاستفزاز

لم يقلْ: (إن تقاتلوهم) أو (إذا قاتلتموهم)؛ لأنَّ في صيغةِ ﴿قَٰتِلُوهُمۡ﴾ الإيذانَ بِصريح الأمرِ بقتالِهم، بعدَ أنْ كنَّى عنه في الاستفهام الإنكاري، أي: استعِدُّوا لقتالِهم، وإنْ لم يطلبوا هم قتالَكُم؛ إشعارًا بأنَّهم قد اتَّصفوا بأوصافٍ توجبُ مقاتلتَهم، مثل نكثِ العهدِ وغيرِه.

براعةُ التَّعبير بتتابع الجزاء، ودلالتها على التّأييد الإلهيّ:

بنصرِ المؤمنين على الكافرين تكثرُ نِعَمُ الله وتتتابعُ عطاءاته

ذكرَ الجزاء في قوله: ﴿يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ بِأَيۡدِيكُمۡ وَيُخۡزِهِمۡ وَيَنصُرۡكُمۡ عَلَيۡهِمۡ وَيَشۡفِ صُدُورَ قَوۡمٖ مُّؤۡمِنِينَ ١٤ وَيُذۡهِبۡ غَيۡظَ قُلُوبِهِمۡۗ﴾، فبدأ بالأشدِّ والأهمِّ، فجعل جزاءَ القتال تعذيبَهم بأيدي المؤمنين، ثمَّ لمّا كان تعذيبُهم يتسبَّبُ منه خزيُهم وإذلالُهم؛ عطف عليه قوله: ﴿وَيُخۡزِهِمۡ﴾ إشعارًا بأنَّ التَّعذيبَ قد يكونُ بالقتلِ، أي: بقتلِ بعضِهم، فيكون الخزيُ على الباقين، وقد يكونُ بغيرِ القتلِ، فيكون الخزي على جميعِهم، ولمّا كانَ نصرُ المؤمنين وانكسارُهم مسبَّبًا من خزيهم وإذلالِهم؛ قال: ﴿وَيَنصُرۡكُمۡ عَلَيۡهِمۡ﴾، فإنَّه لمّا حصل الخزيُ لهم بسببِ كونِهم مقهورينَ؛ حصل النَّصرُ للمسلمين بسببِ كونِهم قاهرين[1]، ولمّا كان يتسبَّبُ من الظَّفر عليهم شفاءُ المؤمنين من داء الأذى الذي أوقعَهُ المشركون بالمؤمنين بكفرِهم باللّه وأذيَّتِهم المؤمنين قال: ﴿وَيَشۡفِ صُدُورَ قَوۡمٖ مُّؤۡمِنِينَ﴾، فإنَّ مَنْ طالَ تأذِّيه من خصمِه، ثمَّ مكَّنه اللّهُ منه على أحسنِ الوجوهِ، فإنَّه يعظُمُ سرورُه به، ويصيرُ ذلك سببًا لقوَّةِ النَّفسِ، وثباتِ العزيمةِ، ولمّا كان تعذيبُهم وخزيُهم وشفاءُ صدورِ المؤمنين يتسبَّبُ منه ذهابُ غيظِهم وحَنَقِهم على الكافرين قال تعالى: ﴿وَيُذۡهِبۡ غَيۡظَ قُلُوبِهِمۡۗ﴾.

"وبُدِئَ أوّلًا فِيها بِما تسبّب عنِ النّصرِ، وهُو تعذِيبُ اللّه الكُفّار

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 16/5.

بأيدي المُؤمنين وإخزاؤُهُم؛ إذ كانت البُداءةُ بما ينالُ الكُفّار من الشّرِّ هي الّتي يُسرُّ بها المُؤمنُون، ثُمّ ذكر السّبب، وهُو نصرُ اللّه المُؤمنين على الكافرين، ثُمّ ذكر ما تسبّب أيضًا عن النّصرِ من شِفاءِ صُدُورِ المُؤمنين وإذهابِ غيظِهم تتميمًا لِلنِّعم، فذكر ما تسبّب عن النّصرِ بالنِّسبةِ لِلكُفّارِ، وذكر ما تسبّب لِلمُسلِمين من الفرحِ والسُّرُورِ بإدراكِ الثّأرِ"[1].

سببُ عدم ذكْرِ الغنائم في الجزاء:

لم يذكر تعالى في الجزاء وجدانَ الأموال، والفوزَ بالمطاعم والمشاربِ؛ لأنَّ العربَ قومٌ جُبِلوا على الحميَّةِ والأَنَفَةِ، فرغَّبَهم في هذه المعاني، لكونها لائقةً بطباعِهم[2].

العربُ قومٌ جُبِلوا على الحميَّةِ والأَنَفَةِ والشّجاعة الفطريّة

سر اختيار لفظ ﴿يُعَذِّبْهُمُ﴾:

ذكرَ التَّعذيبَ دون غيره من الألفاظ الدالة على إلحاق الأذى بالغير؛ لأنَّه يشملُ كلَّ ما يطلقُ عليه عذابٌ، فيصدقُ بالقتل وبالأسر وباغتنام الأموال وغير ذلك، كما أنَّ التَّعذيبَ أمرٌ زائدٌ على أسبابه من الطَّعنِ والضَّربِ، فقد يصابُ القومُ بالطَّعنِ والضَّربِ، ويُقتَلُ بعضُهم، ويُجرَحُ بعضٌ، ولا يُسمَّون معذَّبين بذلك وحدَه، فإنَّ الغالبَ والمغلوبَ فيه سواء، فلمَّا قال: ﴿يُعَذِّبْهُمُ﴾؛ دلَّ على أنَّه تعالى سيُحدِثُ في أنفُسِ المشركين في هذا القتال أذًى جسديًّا وألمًا نفسيًّا، لعلَّ أظهرَ أسبابه اليأسُ وسلْبُ البأسِ[3]، وأشعرَ اللَّفظُ أنَّ الذي يؤثِّر في العدوِّ، ويكون من مُوجِباتِ النَّصرِ، هو تعذيبُهم، وإنزالُ الأذى فيهم، وليس منازلتَهم بالقوَّةِ فحسبُ.

تعذيبُ العدوِّ وإنزالُ الأذى فيهم سببٌ للنَّصرِ عليهم

فائدةُ التَّعبيرِ بصيغة (يُفَعّل):

في قوله تعالى: ﴿يُعَذِّبْهُمُ﴾، عُبِّرَ بصيغةِ (فعَّل يُفَعِّل)؛ لِمَا تفيدُه

عذاب الله على أعداء الدين واقع، أليم متجدد متتابع، ليس له دافع

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/382.
(2) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 16/5.
(3) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 16/5، ومحمد رضا، تفسير المنار: 10/177.

من معنى تكثيرِ تعذيبهم بالمقاتلة، كما تدلُّ صيغةُ المضارعةِ على استمرارِ تجدُّدِ تعذيبِهم وآلامِهم بالمقاتلةِ وقتًا عَقِيبَ وقتٍ.

سرُّ تعليقِ العذاب بأيدي المؤمنين:

تشريفُ أيدي المؤمنين بتعذيبِ أعدائهم بها إظهار للغلبة والتّمكين

في قوله: ﴿يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ بِأَيۡدِيكُمۡ﴾، لمّا كان لفظُ ﴿يُعَذِّبۡهُمُ﴾ مقيَّدًا بقوله: ﴿بِأَيۡدِيكُمۡ﴾ دلَّ على أنَّ المرادَ تعذيبُهم في الدُّنيا لا في الآخرةِ، إشعارًا بأنَّ عذابَ اللّهِ ينالُهم في الدّنيا بتعجيلِه لهم فيها، كما أنَّه واقعٌ ثابتٌ في الآخرة، ولتكون البشارةُ بالتَّعذيبِ على الوجهِ الأتمِّ الذي يترتَّبُ عليه شفاءُ الصُّدورِ ونحوُه على الوجهِ الأكملِ؛ إذْ ثمّة فرقٌ بينَ تعذيبِ العدوِّ بيدِ عدوِّهِ وتعذيبِه لا بيدِه[1]، وفي ذكرِ أيدي المؤمنينَ تشريفٌ لها، إذ جعلَ تعذيبَ أعدائِه بها، كما أنَّ فيها إشعارًا بقوَّتِهم وشدَّةِ ما يقعُ على الكافرين؛ لِمَا يدلُّ عليه لفظُ اليدِ من معنى القوَّةِ والشِّدَّةِ، فاختارها اللّه ليكونَ تعذيبُ الكافرين بها.

بلاغةُ المجازِ العقلي:

لمّا كانَ قتالُ الكافرين ناشئًا بأمر الله تعالى نسبَ تعذيبَهم إليه

في قوله: ﴿يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ بِأَيۡدِيكُمۡ﴾، أُسنِدَ التَّعذيبُ إلى اللّه تعالى، على طريقِ المجازِ العقلي، والظَّاهرُ أنْ يكونَ الإسنادُ إلى المؤمنين، بأنْ يقالَ: تعذِّبوهم بأيديكم[2]، لكنَّه جاء على طريق المجازِ، ونكتتُه ظهورُ امتثالِ المؤمنين لأمرِه تعالى لهم بالقتالِ، أي: لمّا كانَ قتالُهم ناشئًا بأمره تعالى، مع استجاب المؤمنين له؛ نسبَ التَّعذيبَ إليه سبحانَه، فكأنَّ اللّه تعالى يقولُ للمؤمنين: عليكم قتالُهم، وعلينا تعذيبُهم بأيديكم، كما أنَّ في المجازِ إشعارًا بشدَّةِ العذابِ ودوامِ أثرِه، فيكونُ للمبالغةِ، فإنَّه تعذيبُ اللّهِ تعالى القويِّ العزيزِ، وإنْ كانَ بأيدي العبادِ[3].

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 16/5، والآلوسيّ، روح المعاني: 5/256.
(2) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 9/174.
(3) محمد رضا، تفسير المنار: 10/177.

توجيهُ المتشابهِ القرآنيِّ:

نفى اللّهُ تعالى تعذيبَ الكفَّار في حالِ وجودِ رسولِ اللّه ﷺ بينَهم، فقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمۡ وَأَنتَ فِيهِمۡۚ﴾ [الأنفال: 33]، فكيف قال هاهنا: ﴿يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ بِأَيۡدِيكُمۡ﴾؟ وجوابُه: أنَّ المرادَ من آيةِ الأنفالِ عذابُ الاستئصالِ، والمرادَ من آيةِ التَّوبةِ عذابُ القتلِ والحربِ، والفرقُ بين البابين: أنَّ عذابَ الاستئصالِ قد يتعدَّى إلى غيرِ المذنب وإنْ كانَ في حقِّه سببًا لمزيدِ الثَّوابِ، أمَّا عذابُ القتلِ؛ فالظَّاهرُ أنَّه يبقى مقصورًا على مَن يكونُ في القتالِ أو على المذنبِ[1]، وقريبٌ منه أنْ يقالَ في الجوابِ: المرادُ من التَّعذيبِ في آيةِ الأنفالِ النِّقمةُ المحضةُ، وما كانَ ليقعَ على قومِ نبيِّ الرَّحمةِ، وأمَّا هنا؛ فإنَّه انتقامٌ من بعضِهم بما هو رحمةٌ لمجموعِهم، فمآلُه خيرٌ للمؤمنين وللنَّاسِ جميعًا، فهو كقَطْعِ العضوِ المجذومِ من الجسدِ، لأجلِ سلامةِ جملتِه، فلولا ذلك الجهادُ الذي ذاقَ به أولئك القومُ الآلامَ والأوجاعَ؛ لَمَا صارَ الباقون منهم سادةَ البشرِ في الأرضِ[2].

لولا تضحيات السّابقين؛ لَمَا صارَ اللّاحقون رادةَ البشرِ وسادتَهُم

نكتةُ التَّعبيرِ بلفظ ﴿وَيُخۡزِهِمۡ﴾:

عُبِّرَ بالخِزْيِ؛ لِما ينزل بهم من الذُّلِّ والهوانِ، حيثُ شاهدوا أنفسَهم بعدَ شموخِهم واستكبارِهم مقهورين ذليلين مَهينين في أيدي خصومهم المؤمنين، وأشعرَ اللَّفظُ أنَّ جزاءَهم بالخزيِ هو لِما ارتكبوه من الأفعال القبيحة كالكفرِ ونقض العهدِ وغيرِهما، فلمَّا كانت أفعالُهم عارًا؛ عُوقبوا بالخزيِ[3].

أفعالُ العارِ ليس لها جزاءٌ إلَّا الخزيُ والهوان

سببُ إيثارِ حذف متعلِّق: ﴿وَيُخۡزِهِمۡ﴾:

لمّا كان الخزيُ يحتملُ أنْ يكونَ في الدُّنيا أو في الآخرةِ حُذِف الجارُّ والمجرورُ الدَّالُّ على زمانِ الخزيِ؛ لِيفيدَ عمومَ الخزيِ،

خِزيُ الدُّنيا بالذُّلِّ والهوان، وخزيُ الآخرةِ بالفضيحةِ والعذابِ الشّديد

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 16/5.
(2) محمد رضا، تفسير المنار: 10/181.
(3) الأزهريّ، تهذيب اللغة: (خزي)، والفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 16/5.

فيتناولَ خزيَهم في الدُّنيا والآخرةِ، والمعنى: ويُخزِهم بالذُّلِّ في الدُّنيا سواءٌ أكانَ بالأسرِ أو بغيرِه، ويخزِهم بالفضيحةِ والعذابِ في الآخرةِ[1].

مناسبةُ الخطابِ في التَّعذيب والنَّصر، والغَيْبة في سواهما:

أعمالُ الإيمانِ قد يقومُ بها بعضُ المؤمنين، ويفرحُ بها جميعُهم

آثرَ التَّعبيرُ صيغةَ الخطابِ في التَّعذيبِ والنَّصرِ، فقال: ﴿يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ﴾، ثمَّ عدلَ إلى الغَيبةِ في قوله: ﴿وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾، وقولِه: ﴿وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ﴾، معَ أنَّ النَّصرَ والشِّفاءَ عامٌّ لكلِّ واحدٍ من المؤمنين؛ لأنَّ تعذيبَ الكافرين ونصْرَ المؤمنين بالنَّظرِ إلى الحاضرين، ولمّا كانَ شفاءُ صدورِ المؤمنينَ يعمُّ الحاضرينَ القتالَ وغيرَهم عُبِّرَ بصيغة الغَيبةِ، إشعارًا بأنَّ أعمالَ الإيمانِ كمُقاتَلةِ الأعداءِ قد يقومُ بها بعضُ المؤمنين، ويفرحُ بها جميعُهم بسببِ آصرةِ الإيمانِ التي تجمعهم[2].

دلالةُ شفاء صدور المؤمنين:

بيان أنّ في قتالِ الكافرين شفاءَ صدورِ المؤمنين

قولُهُ: ﴿وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾، لمّا كانت قلوبُ المؤمنين تتوجَّعُ لكفرِ الكافرين باللّه، وتكذيبِهم الرَّسولَ، وتتألَّمُ له؛ وعدَهم شفاءَ صدورِهم، وذلك يحتمل وجهين: أحدهما: أنَّهم يُسلِمون، فيصيرونَ إخوانًا، فيدخلُ فيهم السُّرورُ والفرحُ بإزاءِ ما حزنوا وتألَّموا، وذلك شفاءُ صدورِهم، ولهذا أعقبَه بذكرِ التَّوبةِ، والثاني: أنّه يشفي صدورَهم بقتلِ الكافرين وهزيمتِهم؛ لِمَا لَقُوا منهم من الأذى والغمِّ، ففي قتالِ الكافرين شفاءُ صدورِ المؤمنين[3].

بلاغةُ الاستعارةِ التصريحيّة التبعيّة:

قتالُ الكافرين النَّاكثين العهدَ دواءٌ يُزيلُ الغمَّ عن المؤمنين

قولُهُ: ﴿وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾، جاء الكلامُ فيه على طريقِ الاستعارةِ التَّصريحيَّةِ التَّبعيَّةِ، وبيانُه: أنَّه شبَّهَ الغمَّ الشَّديدَ، والهمَّ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/397.
(2) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 9/174.
(3) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنّة: 5/311.

الكبيرَ الحاصلَ بأذيَّةِ الكافرين للمؤمنين بالمرضِ الحاصلِ في الصُّدورِ، فكان قتالُهم بمنزلةِ الدَّواءِ الّذي يُزيلُ هذا الغمَّ، ويشفي الصُّدورَ.

ونكتةُ التَّعبيرِ بالاستعارةِ التَّصريحيَّة التَّبعيَّة: الإشعارُ بضَرورة قتالِهم، وأنَّه هو الدَّواءُ لإزالةِ ما أصابَ صدورَهم من الهمِّ والغمِّ.

مناسبةُ التَّعبير بلفظ (الصُّدور) دونَ (القلوب):

لمّا قال تعالى: ﴿وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾؛ دلَّ على أنَّ الأذى الذي سبَّبَ الهمَّ والغمَّ للمؤمنين إنّما هو بسببِ عقائد أهل الكفر الفاسدةِ، وبسبب الأذى النَّفسي للمؤمنين، ممَّا ينالونَه منهم من عوارضِ الدُّنيا.

عقائدُ الكفرِ الفاسدةُ وبالٌ على الكفّار، وهَمٌّ وغمٌّ للمؤمنين

نكتةُ التَّعبير بلفظ ﴿قَوْمٍ﴾:

عُبِّرَ بصيغةِ الاسم النَّكرةِ ﴿قَوْمٍ﴾؛ ليشْمَلَ المُخَاطَبِينَ وَكُلَّ مُؤْمِنٍ؛ لأَنَّ مَا يُصِيبُ أَهْلَ الْكُفْرِ مِنَ العَذَابِ وَالخِزْيِ بل كلَّ ما يَهدُّهُم، هُوَ شِفَاءٌ لِصَدْرِ كُلِّ مُؤْمِنٍ؛ فإنَّ كفرَ الكافرين همٌّ في صدور المؤمنين، كما يحتمل أنْ يريدَ تخصيصَ قوم من المؤمنين الذين نُقِضَ فيهم العهدُ، ونالتْهم الحربُ، فهؤلاءِ فريقٌ تُغايرُ حالتُهُ حالةَ الفريقِ المخاطَبينَ بالتَّحريضِ على القتالِ والتَّحذيرِ من التَّهاونِ فيه[1]، وفي هذا الوجهِ إشعارٌ بأنَّ ما يصيبُ قومًا معيَّنين من المؤمنين يوجِبُ على الجميعِ نصرتَهم وإعانتَهم.

إصابةُ بعض المؤمنين بالأذى يوجِبُ لهم النّصرةَ العامّة

براعةُ الالتفات:

قوله: ﴿قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾ لم يأتِ الكلامُ على نسقِ ما سبق، بأنْ يقالَ: (ويشفِ صدورَكم)؛ فأقامَ الظَّاهرَ مُقامَ المضمر؛ ليكونَ من باب الالتفاتِ، وفائدتُه: الشَّهادةُ للمخاطَبينَ برسوخِهم في الإيمانِ لامتثالِهم أمرَ اللّه تعالى، كما أنَّ في التَّعبير بلفظِ ﴿قَوْمٍ﴾ إظهارًا لقوَّةِ هؤلاء القومِ ومَنَعتِهم[2].

امتثالُ أوامرِ الله دلالةٌ على الرُّسوخِ في الإيمانِ

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/13، وأبو حيّان، البحر المحيط: 5/382، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/136.

(2) السّمين الحلبيّ، الدّر المصون: 6/27، وابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 10/39.

مناسبةُ العطفِ:

التَّرقِّي يجعلُ شفاءَ الصُّدور مسرَّةً، وذهابَ المكارِه لذَّةً

في قوله: ﴿وَيَشْفِ﴾ و﴿وَيُذْهِبْ﴾، قد يقالُ: ما الفرقُ بينَ شفاءِ الصُّدورِ وإذهابِ غيظِ القلوبِ، فإنَّ العطفَ يقتضي المغايرةَ؟ وجوابُه: أنَّه قد يكفي في الاختلافِ بينهما اختلافُ المفهومينِ والحالينِ، فيكونُ ذهابُ غيظِ القلوب مساويًا لشفاء الصُّدور، فيحصل تأكيدُ الجملة الأُولى بالجملة الثَّانية؛ فيكونُ شِفَاءُ الصَّدْرِ مِنْ آلَةِ الغَيْظِ هُوَ إِذْهَابَ الْغَيْظِ، وفائدةُ التَّأكيدِ المبالغةُ في جعلهم مسرورين بما يمنُّ اللّه تعالى عليهم من تعذيبِه أعداءَهم وإخزائِهم، ومِن نصرتِه سبحانَه لهم عليهم[1].

والظَّاهر: أنَّ بينهما مغايرةً في المعنى، ويُؤذِنُ به مجيءُ ﴿وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ﴾ بدايةَ آيةٍ، وبيانُه: أنَّ القلبَ أخصُّ من الصَّدر، ولمّا كان الغيظُ الذي يقعُ بالمكارِه والمكابدِ هو الحرارةَ الشَّديدةَ في القلبِ، وينتجُ منه الغضبُ الذي هو من آثارِ الغيظِ، كانت إزالةُ الغيظِ بإذهابِه، فيثبتُ بالإذهابِ لذَّةُ ذهابِ المكارِه، وهو غيرُ الشَّفاء، فالغيظُ ليس داءً يصيبُ القلبَ، وإلَّا ما كانَ كظمُ الغيظِ يَجري في مقامِ المدحِ، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ﴾ [آل عمران: 134]، ولهذا قال اللّه تعالى: ﴿وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ﴾، ولم يقلْ: (ويشفِ قلوبَهم من الغيظ)، وأمَّا الهمُّ الذي يصيبُ الصُّدورَ، فإزالتُه بالدَّواءِ، وقد جعلَ دواءَهُ قتالَهم المسبِّبَ لتعذيبِهم ونصرِ المؤمنين الموجِبِ فرحتَهم وسرورَهم، وبهما يكون شفاءُ الصُّدورِ، ففيه إشعارٌ بأنَّ الفرحَ نوعٌ من الدَّواءِ، وبه يقعُ الشَّفاءُ، فشفاءُ صدورِ المؤمنين بنصرِ اللّهِ هو غيرُ ذهابِ الغيظِ مِن قلوبِهم والحقدِ على مَنْ غدرَهم وظلمَهم، ويحتملُ أنْ يقالَ: لمَّا كانَ الشِّفاءُ قد لا

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/383، والآلوسيّ، روح المعاني: 5/256، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/136.

يُراد به الكمالُ؛ أتبعه تحقيقًا لكماله قولَه: ﴿وَيُذۡهِبۡ غَيۡظَ قُلُوبِهِمۡۗ﴾، أي: يُثبتُ بها من اللَّذةِ ضدَّ ما لَقُوه منهم من المكروهِ، وينفي عنها ألمَ ما كابَدوه من المساوئِ والمكارهِ التي أوجبت الغيظَ، أو يقالُ: لمّا كانَ إذهابُ الغيظِ من القلبِ أبلغَ من شفاءِ الصُّدور؛ كان العطفُ من بابِ التَّرقِّي في الفوائدِ، وهو حَسَنٌ ولطيفٌ، كما يحتملُ أنْ يكونَ الاختلافُ بـ(المصدق) مع اختلافِ المفهوم، فيكون المرادُ بشفاءِ الصُّدورِ ما يحصلُ من المسرَّةِ والانشراحِ بالنَّصرِ، والمرادُ بذهابِ الغيظِ استراحتُهم من تعبِ الغيظِ، وتحرُّقِ الحقدِ[1].

دلالةُ عَوْدِ الضَّمير في قولِه: ﴿قُلُوبِهِمۡۗ﴾:

لمّا عاد الضَّميرُ في قوله: ﴿قُلُوبِهِمۡۗ﴾ إلى الموصوفِ وصفته ﴿قَوۡمٖ مُّؤۡمِنِينَ﴾؛ دلَّ على أنَّ الصحابةَ مؤمنون في علمِ اللّٰه تعالى إيمانًا حقيقيًّا؛ لأنَّها تدلُّ على أنَّ قلوبَهم كانت مملوءةً من الغضب، ومن الحميَّةِ لأجل الدِّين، ومن الرَّغبةِ الشَّديدةِ في علوِّ دين الإسلامِ، وهذه الأحوالُ لا تحصلُ إلَّا في قلوبِ المؤمنين.

بيانُ حبِّ الصَّحابةِ للإسلامِ، وحميّتهم لإعلاء الدّينِ ونصرته

بلاغةُ الاستئناف الابتدائيّ:

في قولِه تعالى: ﴿وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۗ﴾، نلاحظ أنّه لمّا كان الجزاءُ في قولِه تعالى: ﴿يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ بِأَيۡدِيكُمۡ﴾ قد يُشعرُ أنَّ المرادَ تعذيبُ جميعِ الكافرين، وكان المؤمنونَ حريصينَ على إيمانِهم؛ جاءت الجملة استئنافيَّةً؛ للإيذانِ بأنَّ الخزيَ والتَّعذيبَ الّذي سينزلُه بهم لا يعمُّهم، بل هو خاصٌّ بمن استحوذَ عليهم الكفرُ، فلم يبقَ فيهم استعدادٌ للإيمان، وأمَّا غيرُهم من المشركينَ الذين خانُوا، وغدَروا، ولم يَقتلوا، بل أسلموا مِنْ قبلِ هذا الأمرِ أو بعدَه؛ فيتوبُ اللّٰهُ على مَنْ يوفِّقُه للإيمانِ، ويتقبَّلُ

الإمهالُ في التَّوبةِ رحمةٌ من اللّٰه لعبادِه، وإعذارٌ لهم

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/397، والآلوسيّ، روح المعاني: 5/256، ومحمد رضا، تفسير المنار: 10/177، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/136.

توبتَهم منهم، وفي هذا إعذارٌ وإمهالٌ لمن تأخَّر فضلًا من الله تعالى ورحمةً بهم[1].

مناسبةُ مجيءِ قوله: ﴿وَيَتُوبُ ٱللَّهُ﴾، بالوصلِ دونَ الفصلِ:

لمَّا كانت الجملُ الَّتي سبقتْ هذه الجملةَ جزاءً للطَّلبِ، وكانت هذه الجملةُ ليست مسبَّبةً عن القتال على الصَّحيح - ويؤيِّده قراءة الجمهور لقولِه تعالى: ﴿وَيَتُوبُ﴾ بالرَّفعِ - كان الظَّاهر أنْ تُفصلَ عمّا قبلَها، فلمَّا جاءتْ بطريقِ الوصلِ بواو العطفِ؛ دلَّ على التَّشريكِ بين معناها، ومعنى ما تقدَّمها؛ إشارةً إلى أنَّ مضمونَها يتعلَّق ببقيَّة أحوالِ المشركين الذين لم يقاتلوا، أو قاتلوا ولم يُقتلوا، فكأنَّه قيلَ: فما حالُ من لم يقاتلوا، أو قاتلوا ولم يُقتلوا؟ فقال: ﴿وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾، فناسب انتظامُها مع ما قبلها[2].

بابُ التَّوبةِ مفتوحٌ لمن قاتلَ المؤمنين ومَنْ لم يقاتلْهم، إذا صدق وأناب

توجيهُ قراءتَي الرَّفع والنَّصب في قوله: ﴿وَيَتُوبُ﴾:

قرأَ الجمهورُ ﴿وَيَتُوبُ﴾ برفعِ الباء، وقرأ رُوَيسٌ عن يعقوبَ ويونسُ عن أبي عمرٍو بنصبِ الباء، أي: (وَيَتُوبَ)[3]، ووجهُ قراءةِ الرَّفع أنَّ ﴿وَيَتُوبُ﴾ ليس من جنسِ ما يكون جزاءً للقتال؛ لأنَّ التَّوبةَ لا يكون القتالُ سببًا لَها؛ إذ قد توجدُ بغير قتال، لِمَنْ شاءَ اللّٰهُ أنْ يتوبَ عليه في كلِّ حال؛ أي: إنَّ القتالَ غيرُ موجِبٍ لهم التوبةَ من اللّٰه، وهو مُوجِبٌ لهم العذابَ من اللّٰه، والخزيَ، وشفاءَ صدور المؤمنين، وذهابَ غيظ قلوبهم، فجزم ذلك شرطًا وجزاءً على القتال، فابتُدِئَ الخبرُ به ورُفع، ووجهُ الرَّفع حثُّ الباقين من الكفَّارِ بعدَ القتالِ على التَّوبةِ[4]، ووجهُ قراءة النَّصب هو أن تكونَ الواو للمعيَّةِ، والفعلُ

الرَّفعُ: فيه حثُّ الكفَّار على التَّوبةِ، والنَّصبُ: هو أن تكون الواو للمعيَّةِ

(1) محمد رضا، تفسير المنار: 10/177.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/137.
(3) ابن الجزريّ، النّشر في القراءات العشر: 2/278.
(4) ابن جرير، جامع البيان: 14/162، والزّجاج، معاني القرآن وإعرابه: 2/437، وابن جنيّ، المحتسب: 1/285.

بإضمارِ (أنْ)؛ أي: بتقدير: (وأنْ يَتُوبَ)، بأنْ يرادَ بالتَّوبةِ توبةُ المؤمنين؛ فإنَّ قتْلَ الكافرين والجهادَ في سبيلِ اللّه هو توبةٌ للمؤمنين وكمالٌ لإيمانِهم، فتدخلُ التَّوبةُ على هذا في شرطِ القتالِ؛ بمعنى: أنَّ اللّه تعالى يجمعُ عليهم بالقتالِ التَّوبةَ إلى ما ذكره من الجزاءِ، ويحتملُ أنْ يرادَ توبةُ الكافرينَ، وهو الظَّاهر، ويؤيِّده السِّياقُ، بأنْ يقالَ: لمّا كانت مقاتلتُهم سببًا لتوهين أمرِهم وفلِّ شوكتهم، فتقلَّ بذلك نخوتُهم وحميَّتُهم كانَ ذلك سببًا لاستكانتِهم وخضوعِهم، فيتدبَّروا، ويتأمَّلوا أمْرَ رسولِ اللّهِ ﷺ، وأنَّه على الحقِّ المبينِ، وأنَّهم على الباطلِ والزَّيغِ، فيرجعوا عن كفرِهم إلى الإسلامِ، أو يقالَ: إنَّ القتالَ كما تسبَّبَ بتعذيبِ قومٍ، تسبَّبَ بتوبةِ قومٍ آخرين، فيرجعون إلى اللّهِ لمّا رأوا الموتَ بأعينِهم، أو يقالَ: إنَّ قِتَالَ الْكُفَّارِ وَغَلَبَةَ الْمُسْلِمِينَ إِيَّاهُمْ قَدْ يَنْشَأُ عَنْهَا إِسْلَامُ كَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ رَغْبَةٌ فِي الإِسْلَامِ، وَلَا دَاعِيَةٌ قَبْلَ القِتَالِ[1].

مناسبةُ الإظهارِ، في مقام الإضمار:

تكرارُ الاسم الجليل (الله) تربيةٌ للمهابةِ في نفوسِ المخاطَبين

لمّا كان الاسمُ الجليلُ قد ذُكِر في قوله: ﴿وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾؛ كان مقتضى الظَّاهر أن يأتيَ بالضَّمير، فيقولَ: (وهو عليمٌ حكيمٌ)، لكنَّ الكلامَ جاء على خلافِ مقتضى الظَّاهر، فأوثرَ إظهارُ لفظِ الجلالةِ على الإضمارِ، فقال: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾؛ لتربيةِ المهابةِ وإدخالِ الرَّوعةِ في نفوسِ المخاطَبين[2]، ولأنَّ الإخبارَ عن الاسمِ الجليلِ الجامعِ لصفاتِ الكمالِ والجلالِ بهذين الوصفين الجليلَين مشعرٌ بخُصوصيَّتِهما في هذا المقامِ ومناسبةِ معانيهما لمضمونِ السِّياقِ.

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/252، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/14، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل وأسرار التّأويل: 3/74، وأبو حيّان، البحر المحيط: 5/384، والطّيبيّ، فتوح الغيب: 7/195.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/49.

دلالةُ التَّعبير بالموصول ﴿مَن﴾:

شمولُ رحمتهِ، وبالغُ حكمتهِ، يَطُول جميعَ خَلْقِهِ

عبَّرَ بالاسمِ الموصولِ ﴿مَن﴾ دونَ (الذي) بأن يقول: (ويتوبُ اللّهُ على الذي يشاءُ)؛ لأنَّ (مَنْ) أكثرُ عمومًا واستغراقًا للأفرادِ؛ تنبيهًا على إمكانِ استغراقِ توبتِهِ تعالى لعمومِ خَلقِه.

ولمّا كان لفظُ ﴿مَن﴾ أعمَّ مِن (الذي) - إذ أنَّه يشمَلُ المفرد وغيره، والمذكَّر والمؤنث - أشعرَ بإطلاق قدرة اللّه تعالى على عبادهِ؛ فلا يحولُ بينه وبين توبتهِ أحدٌ من خلقهِ، فقد يتوبُ على من كان في صفوف المقاتَلِين، فيهديهِ اللّه للإسلام إن كان كافرًا، أو يشرحُ صدره إن كان منافقًا، أو يثبِّتهُ، ويعينهُ إن كان مؤمنًا مقاتِلًا.

بلاغةُ الحذفِ:

الإيجازُ، والتَّنبيهُ على أنّ وقوع مشيئة اللّه لا يتوقَّف على أسباب

حُذِفَ مفعولُ ﴿يَشَآءُ﴾ للإيجازِ، ولو قيل: (ويتوبُ اللّهُ على مَنْ يشاءُ أنْ يتوبَ عليه) لصِرْنا إلى كلامٍ غَثٍّ، وإلى شيءٍ يَمجُّهُ السَّمْعُ، وتَعافُه النَّفْسُ؛ لعلمِ السَّامع أنَّ المشيئةَ تعلَّقت في المعنى بشيءٍ عُرِفَ من السِّياقِ، فالواجبُ في حُكْم البلاغةِ ألَّا يُنْطَقَ بالمحذوفِ هنا، ولا يَظْهَرَ إلى اللَّفظِ[1].

فحذْفُ المفعولِ دلالةٌ على طلاقةِ القدرة، وعظيم العفو، فهو غيرُ مرتبطٍ بأسبابٍ تُوَصِلُ إلى نتائج، بل فضلُ إنعام، وآيةُ فضل، وعلامةُ إكرام من ذي الفضل والمنَّةِ ذي الجلال والإكرام.

بلاغةُ التَّذييلِ:

اللّهُ تعالى يعاملُ النَّاس بنيَّاتِهم، في حكمة وعلم، بما يصلح لهم

قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾، هي جملةُ التَّذييل، وقد تضمّنت الإخبارَ عن لفظ الجلالة ﴿وَٱللَّهُ﴾ بالوصفين الجليلين؛ لإفادة أنَّ اللّهَ يعامل النَّاس بما يعلم من نيَّاتِهم، وأنَّه حكيمٌ لا يأمرُ إلَّا بما فيه تحقيقُ الحكمةِ، فوجبَ على النَّاس امتثالُ أوامرِه، وأنَّه

(1) الجرجانيّ، دلائل الإعجاز، ص: 164.

يقبلُ توبةَ مَنْ تابَ إليه تكثيرًا للصَّلاحِ، فأفادتِ الجملةُ التَّذييليَّةُ معنًى عامًّا كلِّيًّا؛ لِتجريَ مَجْرى المثَلِ في الكلامِ[1].

توجيهُ المتشابهِ اللفظي:

مجيءُ جملِ التَّذييل على ما يناسبُ الآيةَ، ويلائم معناها وسياقَها

قال الله تعالى هنا: ﴿وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾، ثمَّ قال فيما بعدُ: ﴿ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٢٧﴾ [التوبة: 27]، فاستوتِ الآيتانِ في إعلامه تعالى نبيَّهُ والمؤمنين أنَّه يتوبُ على مَنْ يشاءُ، وفي ختْمِ كلِّ آيةٍ بصفتين من صفاته سبحانه - فقيل في الأُولى: ﴿عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾، وفي الثانية ﴿غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٢٧﴾ [التوبة: 27] - مناسبةٌ حسنةٌ، ووجهُ ذلك: أنَّ الآيةَ الأولى أعقبَ بها ما تقدَّمها مُتَّصِلًا بها من الآيِ في كفَّار مكَّةَ وفعلِهم مع رسولِ اللهِ ﷺ وأصحابِه من التَّضييقِ والإحراجِ وبدئِهم بالقتال يومَ بدرٍ ونقضِهم العهدَ، فأمر الله تعالى بقتالِهم؛ ليكونَ القتالُ سببًا لتعذيب اللهِ لهم، ولِخزيهم والنَّصرِ عليهم، ولِشفاءِ صدورِ قومٍ مؤمنين، وإذهابِ غيظِ قلوبِهم، ثمَّ أخبرَ بتوبتِه على مَنْ يشاءُ، ثمَّ قال: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾؛ أي: عليمٌ بما في الأمر بالقتال، وفي طيِّ ما يجري فيه وتوابعِه ممَّا سيكونُ، وأنَّ ذلك كلَّهُ بتقديره السَّابق أوَّلًا؛ إذْ لا تتحرَّكُ ذرَّةٌ إلَّا بإذنِه وتقدُّمِ علمِه أوَّلًا، وحكيمٌ في أفعالِه وأوامرِه، ومنها: أنَّه تعالى أمركم بقتالِهم، فهذا وجهُ النَّظمِ، والتَّناسُبُ فيه واضحٌ.

وأمَّا الآيةُ الثَّانية؛ فسببُها ما جرى يومَ حُنينٍ من تولِّي النَّاس مدبرين حين ابتُلُوا بإعجابِهم بكثرتهم، فلم تغنِ عنهم شيئًا، ولم يثبتْ معَ رسولِ اللهِ ﷺ في ذلك اليوم إلَّا بعض أصحابه؛ إذ لم يبرحْ ﷺ من مكانِه، فنادى العبَّاسُ رضي الله عنه بآلِ الأنصار، فاستجابَ ناسٌ، وأنزلَ اللهُ سكينتَه على رسولِه وعلى المؤمنين، ومكَّن نبيَّه والمسلمينَ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/137.

من أعدائِهم، فخُتِمتْ هذه الآيُ بقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ٢٧﴾ [التوبة: 27]؛ لمناسبةِ سياقِ التَّوبةِ؛ تأنيسًا لمَنْ فرَّ من المسلمين في ذلك اليوم، وبشارةً لهم بتوبةِ اللّٰهِ عليهم، وأنَّ ما وقعَ منهم من الفرارِ مغفورٌ لهم؛ رحمةً من اللّٰهِ سبحانَه، فجاء كلُّ هذا على ما يناسِبُ، ولا يلائِمُ خلافُه[1].

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الغيظُ والغضبُ:

الإغاظةُ: تكونُ من نفسِ الإنسانِ ومن غيرِه، والغضبُ: لا يكونُ إلَّا مِنْ آخرَ

الفرقُ بينهما: هو أنَّ الغيظَ كما تقدَّمَ في شرح المفردةِ هو الحرارةُ الكامنةُ في القلبِ، بحيثُ يمتلئُ القلبُ بها، ويكون كامنًا من هذه الحرارةِ الغضبُ، كما أنَّ الغيظَ يلازمُه إرادةُ انتقام صاحبِه ممَّن أوصلَ إليه المكروهَ، فيكون أخصَّ من الغضب، كما أنَّ الفرقَ بينهما له وجهٌ آخر؛ هو: أنَّ الإغاظةَ تكون من نفسِ الإنسانِ ومن غيرِه، وأمَّا الغضبُ؛ فلا يكونُ إلَّا مِنْ آخرَ، فالإنسانُ يجوزُ أنْ يغتاظَ من نفسِه، ولا يجوزُ أنْ يغضبَ عليها، وذلك أنَّ الغضبَ إرادةُ الضَّررِ للمغضوب عليه، ولا يجوزُ أنْ يريدَ الإنسانُ الضَّررَ لنفسه، والغيظُ يقربُ من بابِ الغمِّ، فيكون كامنًا في النَّفسِ، ويُظهرُه الغضبُ[2].

(1) الغرناطيّ، ملاك التّأويل: 1/227.

(2) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 130، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/136.

﴿أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تُتۡرَكُواْ وَلَمَّا يَعۡلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمۡ وَلَمۡ يَتَّخِذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَلِيجَةٗۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ١٦﴾ [التوبة: 16]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

عـلاقـة الأمـر بـالـدّفـاع على النّفس بالابتلاءِ لـتـمـحـيـص المؤمنين حقًّا

لمّا وبَّخ اللّه المؤمنين على تراخيهم في الجهاد في الآياتِ السَّابقةِ؛ أعقبَهُ هنا - على سبيلِ التَّرقِّي - توبيخَهم على ظنِّهم أَن يُتركوا دونَ أَن يبلوَهم اللّهُ بجهادِ المشركين؛ ليتبيَّنَ المخلِصُ في إيمانِه وجهادِه من غيرِه، فانتقلَ من ترغيبٍ إلى مزيدٍ فيه.

وأيضًا: لمَّا كان التَّقديرُ - لما أرشد إليه تقاعدُهم عن القتال وإدخالِ ﴿أَمۡ﴾ المرشدِ إلى أنَّ مدخولَه وسطُ الكلام، فإنّ الابتداء له الألف وحدَها - وهل حسبتم أنَّه تعالى لا يعلمُ ذلك، أو لا يقدرُ على نصرِكم؟ بنى عليه قولَه موبِّخًا لمَنْ تثاقَلَ عن ذلك بنوعِ تثاقُلٍ: ﴿أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تُتۡرَكُواْ﴾[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَلِيجَةٗۚ﴾: يدورُ معنى الولوج على الدُّخول في مضيقٍ أو فجوة كثيفة الإحاطة تُخْفِي وتَستُر، بحيث يكونُ ملجأً لصاحبِه، كالكهف، وكلُّ شيء أدخلْتَه في شيء ليس منه فهو وليجةٌ، ووَلِيجَةٌ يَكُونُ لِلْوَاحِدِ وَالاثْنَيْنِ وَالجَمْعِ بِلَفْظٍ وَاحِدٍ[2]، ومعنى ﴿وَلِيجَةٗۚ﴾ في الآية: بطانةٌ ودُخَلاءُ من المُشْركين يخالطونهم ويودُّونهم[3].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/398.
(2) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (ولج).
(3) السّجستانيّ، غريب القرآن، ص: 480.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

اختبارُ المؤمنين سنَّةٌ إلهيَّةٌ؛ ليَميزَ اللهُ الصّادقَ من الكاذب

لا تظنُّوا - يا معشرَ المؤمنين - أنْ يتركَكُم اللهُ على ما أنتم عليهِ بغيرِ اختبارٍ يختبرُكم به، ليعلمَ اللهُ علمًا ظاهرًا للخلقِ الذين أَخلصوا في جهادِهم، ولمْ يتَّخذوا غيرَ اللهِ ورسولِه والمؤمنين بطانةً وأولياءَ، واللهُ خبيرٌ بجميعِ أعمالِكم ومجازيكم بها.

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالةُ حرف ﴿أَمْ﴾ في مطلع الآية:

توبيخُ من يظنُّ سَفَهًا أنْ يتركَهُ اللهُ، من غير اختبارٍ في هذه الدُّنيا

(أم) هذه هي المنقطعة، ولمّا كانت بمعنى (بل) التي للإضرابِ الانتقالي، وكانت الهمزة فيها للإنكار المضمَّنِ معنى النَّهي، والمفيدِ غرضَ التَّوبيخِ؛ كان مجيئُها في الكلامِ للانتقال بها من غرضِ التَّوبيخِ على تركِ القتالِ إلى غرضٍ آخرَ: هو الإنكارُ على حسبانِهم أنَّهم يُتركون، ولايُختبرون في إخلاصِهم، وتوبيخُهم عليه، وهذا التَّوبيخ له علاقةٌ بما قبلَه؛ لأنَّهما في موضوعٍ واحدٍ، لما تفيده (أم) من معنى التوسُّط في الكلام، فهو استفهامٌ معترضٌ في وسطِ الكلامِ، ولهذا قال: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ﴾، ولم يقل: (أحسبتم)؛ ليفرَّق بينه وبين الاستفهامِ المبتدأ الذي يكون بهمزة الاستفهامِ أو بـ(هل)، ولِما أفادته [أَمْ] من الإضرابِ الانتقالي[1].

بلاغةُ الحذفِ:

تقبيحُ تركِ الجهادِ واتِّخاذِ الوليجةِ من دونِ الله

لمّا قال الله تعالى: ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ دلَّ على وجودِ المقابل، وحُذِفَ من الكلامِ للعلمِ به، وتقديرُه: مِنَ الذين لم يجاهدوا منكم، واتَّخذوا وليجةً من دون الله، ونكتةُ حذفِه استهجانُ التَّصريحِ به بعدَ العلمِ به من السِّياقِ.

(1) الفرّاء، معاني القرآن: 11/426، وابن جرير، جامع البيان: 14/165، والزّمخشريّ، الكشّاف: 2/253، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/14، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل وأسرار التّأويل: 3/74.

دلالةُ الخطابِ في قوله: ﴿حَسِبْتُمْ﴾:

كراهةُ بعضِ المؤمنين للجهادِ في سبيل الله، يؤثِّر سلبًا في الأمّة

لمّا كان الضَّمير بصيغة الجمع؛ دلَّ على أنَّ الخطابَ لجميع المؤمنين لمّا كرِهَ بعضُهم القتالَ، فدلَّ على أنَّ المقصودَ بالإنكار والتَّوبيخِ هو مَنْ كرِهَ القتالَ، وظنَّ الظَّنَّ المذكور دونَ غيرِه، ونكتةُ خطابِ الجميعِ الإشعارُ أنَّ كراهةَ بعضهم للقتال يؤثِّر في الجميع، وهذه الكراهة طبيعيَّةٌ، وليست ذمًّا للمؤمنين، لِما فيه من الشِّدَّةِ وعِظَمِ المشقَّةِ؛ لقوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ﴾ [البقرة: 216].

مناسبةُ مجيءِ الفعل بصيغة المبني للمفعول:

تنوُّعُ أسبابِ حذفِ الفاعل، توسُّعٌ في نِكاتِ البلاغةِ ومقاصدِها

قال: ﴿تُتْرَكُوا۟﴾، فلم يذكر الفاعل؛ لأنَّ الغرضَ تعلُّقُ التَّرك بالمخاطَبِين، وليس الغرضُ معرفةَ الذي يتركهم على ما هم عليه من غير اختبار، كما أنَّ التَّركَ مشعرٌ بمعنى التَّخلِّي عن الشَّيء أو تخليتِه أو رفضِه، ولا يناسبُ هنا أن يذكر الفاعلُ؛ لإشعارِه بتخلِّي الله عن المؤمنين، أو يكون الحذفُ للعلمِ بالفاعلِ؛ لظهورِه بدلالةِ السِّياق عليه[1]، ومعنى ﴿تُتْرَكُوا۟﴾: بقاؤكم على الحالةِ التي أنتم عليها دونَ المساسِ بها[2].

دلالةُ مجيءِ مفعول ﴿حَسِبْتُمْ﴾ مصدرًا مؤوَّلًا ﴿أَن تُتْرَكُوا۟﴾:

التَّعبير بالمصدر المؤوّل، تحصينٌ من الإشكالِ، وتخليصٌ من شوائب الإجمال

جاءَ مفعول ﴿حَسِبْتُمْ﴾ مصدرًا مؤوّلًا: ﴿أَن تُتْرَكُوا۟﴾، ليسدَّ مسدَّ مفعولي (حسبَ)، وذلك أنَّ المصدرَ قد يكون فيما مضى، وفيما هو آتٍ، وليس في صيغته ما يدلُّ عليه، فجاؤوا بلفظ الفعل المشتقِّ منه مع (أن)؛ ليجتمعَ لهم الإخبارُ عن الحدث مع الدِّلالة على الزَّمان[3]. ولمّا كانت (أن) مصدريَّةً تدلُّ على الزَّمانِ المستقبل؛ دلَّ على أنَّهم حسبوا

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/138.
(2) الرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (ترك).
(3) ابن القيم، بدائعُ الفَوائِد: 1/92.

أن يكونَ تركُهم في المستقبل مع الاستمرار على التَّرك، ولمّا كان المصدر المؤوَّل دالًّا على مجرَّدِ معنى الحدث دونَ احتمالِ وصفٍ زائدٍ عليه؛ أفادَ أنَّهم كانوا يريدونَ مطلقَ التَّرك على ما هم عليه، ففي التَّعبير بـ ﴿أَن تُتۡرَكُواْ﴾ تحصينٌ من الإشكالِ، وتخليصٌ له من شوائب الإجمال؛ ليؤذِنَ الكلامُ بركونِ بعضِهم إلى مطلقِ التَّرك من غيرِ أيِّ وصفٍ مقيِّدٍ له، فيشعرُ الكلامُ برغبتِهم في الدَّعة والاستراحة[1].

بلاغةُ حذف متعلَّق ﴿تُتۡرَكُواْ﴾:

مواجهة المعتدين أمرٌ لا ينفكُّ عن الإيمانِ والدِّين

لمّا كان لا بدَّ لفعلِ التَّرك من تعليقه بمتعلَّق: من حال أو مجرور، يدلُّ على الحالة التي يفارق فيها التَّاركُ متروكَهُ حذف متعلَّق الفعلِ في الآية؛ لإفادةِ العموم، بمعنى: أنْ تُتركوا على الحالِ التي أنتم عليها؛ إشعارًا بأنَّ الجهادَ أمرٌ لا ينفكُّ عن الإيمانِ، ويحتمل أنَّه حذفَ لدلالة السِّياق عليه، أي: أن تتركوا دون جهاد، أو أن تتركوا في دعةٍ، وذلك بعد فتح مكَّة[2].

دلالةُ الواوِ في قولِهِ: ﴿وَلَمَّا يَعۡلَمِ﴾:

المؤمنون يبادرون إلى العملِ الصَّالحِ، ولا يَخلدونَ إلى الدَّعةِ والرَّاحةِ

الواوُ للحالِ، وجملة ﴿وَلَمَّا يَعۡلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمۡ وَلَمۡ يَتَّخِذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَلِيجَةٗۚ﴾ في موضعِ الحالِ من ضمير ﴿تُتۡرَكُواْ﴾، والمعنى: لا تظنُّوا أن تتركوا في حالِ عدمِ تعلُّقِ علمِ اللهِ بوقوعِ ابتدار المجاهدين للجهاد، وحصول تثاقلِ مَنْ تثاقلوا، وحصولِ تركِ الجهادِ من التَّاركينَ، فإنَّه تعالى يعلمُ أنَّكم ستجاهدون، وتخلصون في أعمالِكم[3].

دلالةُ التَّعبيرِ بحرفِ الجزم ﴿وَلَمَّا﴾:

ما تُيقّن في علم الله تعالى حصولهُ، فهو واقع لا محالة

﴿وَلَمَّا﴾ حرفٌ يفيدُ نفيَ وقوعِ الفعلِ إلى زمنِ التكلُّم، مع توقُّعِ

(1) ابن القيّم، بدائع الفوائد: 1/192، والسّامرائيّ، معاني النحو: 3/148.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/138.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/138.

وقوعِه في المستقبل، وقد دلَّ هنا على أنَّ تبيُّنَ ذلك للمؤمنين وإيضاحَه لهم سيكون قريبًا، والمرادُ أنَّه إلى الآن لم يتحقَّقْ وقوعُ الجهادِ منكم، لعدمِ حصولِه إلى وقتِ نزولِ الآية، ولكنَّه يُنتظر وقوعُه وَفْقَ ما في علمِ اللّه[1].

بلاغةُ الكناية:

نفيُ وقوعِ الشَّيءِ نفيٌ لعلمِ اللهِ تعالى بوقوعِه

قوله: ﴿وَلَمَّا يَعۡلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمۡ﴾، نلحظ فيه، أنّه لمّا كانت الأداة (لمّا) تُفيد نفيَ وقوعِ ما تدخلُ عليه إلى وقتِ التكلُّم، وكان المتكلِّم هو اللّه تعالى عالمَ الغيب والشهادة؛ دلَّ على أنَّ الكلامَ على خلافِ مقتضى الظَّاهر، وبيانُه: أنَّه لمَّا كانَ وجودُ الشَّيءِ يلزمُه أنْ يكون معلومَ الوجودِ عند اللّه؛ كانَ علمُ اللّهِ تعالى بوجوده كنايةً عن تحقُّقِ وجوده، للمبالغة في تحقُّقِ الأمرِ؛ إذ جاء المعنى بطريقِ إقامةِ الحجَّةِ والبرهان عليه، من حيثُ إنَّ تعلُّقَ العلم به مستلزمٌ لوقوعه، فلمَّا نفى اللّهُ تعالى علمَه بجهادِهم وما عطفَ عليه؛ لَزِمَ نفيُ وقوعِ الجهادِ منهم على سبيلِ الاختبارِ، معَ توقُّعِ حصولِه قريبًا؛ ليكونَ الكلامُ على طريق الكناية من ذكرِ اللَّازم وإرادة الملزوم، وهو طريقٌ من طرائق الكناية، أو يقالُ: لو وُجدَ الجهادُ؛ لتعلَّقَ علمُ اللّه به، فلمَّا لم يتعلَّق لقوله: ﴿وَلَمَّا يَعۡلَمِ ٱللَّهُ﴾؛ دلَّ على انتفاءِ جهادِ المؤمنين إلى زمنِ نزولِ الآيةِ، فتكون الكنايةُ على الطَّريقة المشهورةِ بذكر الملزومِ وإرادةِ اللَّازم، والمعنى: أم حسبتُمْ أنْ تُتْركوا، والحالُ أنَّه لم يَتبيَّنِ الخُلَّصُ مِنَ المجاهدينَ منكم من غيرِهم، وعلى كلا التَّوجيهين يكون المرادُ من نفي علمِه تعالى نفيَ وقوعِ الجهادِ من المخاطَبين ليُجازَوا عليه[2].

(1) الواحديّ، التّفسير الوسيط: 3/1668، والزّمخشريّ، الكشّاف: 2/253، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/49.

(2) البيضاوي، أنوار التّنزيل وأسرار التّأويل: 3/74، والسّكاكيّ، مفتاح العلوم، ص: 403، وابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 10/41، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 9/174.

دلالةُ العلم في قوله: ﴿وَلَمَّا يَعۡلَمِ ٱللَّهُ﴾:

مناسبةُ مجيءِ (لَمَّا) في الكلامِ المبادرةُ إلى تحصيلِ ما بعدَها والعملِ به

يحتمل أنْ يكون المرادُ من العلم ظهورَ المعلوم للخلقِ، كما تقدَّمَ في بيان بلاغةِ الكناية، ويحتمل أنْ يكونَ المرادُ هو اللَّازمَ الثَّانيَ لعلمِ اللّٰه تعالى، ليكون على الكناية بإرادةِ اللَّازم الثَّاني، وبيانُه: أنَّ علمَه تعالى بجهادِهم يَلْزَم منه وقوعُه وظهورُه، ويلزمُ من وقوعِ جهادِهم وضوحُهُ وتبيُّنُه عندهم، ويقتضي هذا حذفُ المقابل للعلم به؛ ليكون التَّقديرُ: ولمَّا يتبيَّنْ لكم الذين جاهدوا منكم من غيرِ المجاهدين، والمعنى: ولمّا يتبيَّن لكم المؤمنونَ من المنافقين؛ لدلالةِ السِّياق على المعنى، وفائدةُ التَّعبيرِ عنْ عدمِ التَّبيُّنِ بعدم علمِ اللّٰهِ تعالى به أنَّ المقصودَ هو التَّبيُّنُ من حيثُ كونُه متعلَّقًا للعلم ومدارًا للثَّوابِ، فيكون المرادُ تحصيلَ الجهادِ والإخلاصِ؛ ليُجازى المؤمنونَ بالثَّوابِ عليهما[1].

فائدةُ مجيءِ صلتين للاسم الموصول:

أهمُّ مقصدٍ في القتالِ الامتثالُ لأوامرِ الله تعالى وصدقُ النِّيَّةِ

قوله: ﴿وَلَمَّا يَعۡلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمۡ وَلَمۡ يَتَّخِذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾، بتقدير: (الَّذِينَ جاهَدُوا مِنْكُمْ، وَالَّذِينَ لَمْ يَتَّخِذُوا)، فأفادَ مجيءُ صلةِ الموصولِ جملتين أنْ ليسَ الغرضُ من إيجابِ القتالِ نفسَ قتالِ الأعداءِ فقط، بل الغرضُ أن يؤتَى به انقيادًا لأمرِ اللّٰه ﷻ، فيجمع المجاهدُ بينَ القتالِ وسلامةِ الإيمانِ؛ ليظهرَ بهِ بذلُ النَّفسِ والمالِ في طلبِ رضوانِ اللّٰهِ تعالى، فحينئذٍ يحصلُ به الانتفاعُ، وأمَّا الإقدامُ على القتالِ لسائرِ الأغراضِ الأخرى فذاك ممَّا لا يفيد أصلًا[2].

مناسبةُ العطفِ في قوله: ﴿وَلَمۡ يَتَّخِذُواْ﴾:

تحتمل الواوُ أنْ تكونَ عاطفةً؛ لتكونَ جملةُ ﴿وَلَمۡ يَتَّخِذُواْ﴾

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/49.
(2) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 16/8.

لا ينفكُّ الجهادُ عن انتفاءِ اتِّخاذِ البطانةِ من المنافقين

معطوفةً على ﴿جَٰهَدُواْ﴾، فتفيدُ الواوُ حينئذٍ التَّشريكَ في الحكم، وتكون جملةُ ﴿وَلَمۡ يَتَّخِذُواْ﴾ داخلةً في حيِّز الصِّلةِ[1]، ولم يقل: (ولمّا يعلم اللّه الذين جاهدوا منكم والذين لم يتَّخذوا)؛ لأنَّ الكلامَ في جماعةٍ معيَّنةٍ هم المؤمنون، لتكونَ جملتا الصِّلةِ معًا قد أزالتا الإبهام الذي في الاسم الموصولِ، أي: لمّا يعلمِ اللّهُ الذين جمعُوا بين وصفَي الجهادِ وانتفاءِ اتِّخاذِ البطانةِ من المنافقين، فيكون من قبيل الجمعِ بينَ صفةٍ معنويَّةٍ وصفةٍ سلبيَّةٍ، للإشعارِ بانتفاءِ انفكاكِهما عند المخاطَبين المؤمنين، فإنَّ المجاهدَ قد يقاتلُ، ولا يكون مخلصًا بل يكون منافقًا، باطنُه خلافُ ظاهرِه، وهو الذي يتَّخذُ الوليجةَ من دونِ اللّهِ ورسولِه والمؤمنين، وهذا يقعُ عندَ ضعافِ النُّفوسِ في وقتِ الجهادِ، فبيَّن تعالى أنَّه لا يتركُهم إلَّا إذا أتَوا بالجهادِ مع الإخلاص خاليًا عن النِّفاقِ والرِّياءِ والتودُّدِ إلى الكفَّارِ وإبطالِ ما يخالفُ طريقةَ الدِّينِ[2]، وهذا الوجه يفيدُ المغايرة بين المعطوفين، ويحتمل أن يكون العطف على معنى التَّفصيلِ، فإنَّه لمّا قال: ﴿جَٰهَدُواْ﴾ أراد: جاهَدوا مخلصين؛ لأنَّ الأصلَ في الجهادِ ألَّا يكون إلَّا بإخلاصٍ، فعطف قوله: ﴿وَلَمۡ يَتَّخِذُواْ﴾ للبيانِ والإيضاحِ[3]، وتحتمل الواو أن تكون حاليَّةً[4]، والتَّقدير: الذين جاهدوا حالَ كونهم غيرَ متَّخذين وليجَةً، فيكون للاسم الموصول جملةُ صلةٍ واحدةٌ مقترنةٌ بجملةِ الحال؛ ليفيد المعنى أنَّ نفي الاتِّخاذ مقترنٌ بوقوعِ الجهاد، فيؤذنَ أنَّ الجهاد لا يسمَّى جهادًا إن لم يكن في حالِ نفي اتِّخاذ وليجةٍ من دون اللّه، فإنَّ اللّه لا يرضى أنْ يكونَ الباطنُ خلافَ الظَّاهرِ.

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/253، والفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 16/8، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل وأسرار التّأويل: 3/74، وأبو حيّان، البحر المحيط: 5/385.

(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/385.

(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/399.

(4) ابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 10/41، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 8/399، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/50.

فائدةُ تقديم الحال على المفعول به:

تقدَّم الحال في قوله: ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ على المفعول به ﴿وَلِيجَةٗ﴾ مع أنَّه في موضعِ البيان للوليجةِ؛ للاهتمامِ بهِ ولتعظيم شأنِه، ولإفادة التَّخصيصِ، بمعنى: لا ينبغي أن يتَّخِذَ المؤمنون وليجةً إلَّا اللهَ ورسولَه والمؤمنين.

بيان أن لا ينبغي أن يتَّخِذَ المؤمنون وليجةً إلَّا اللهَ ورسولَه والمؤمنين

دلالةُ حرف الجرِّ ﴿مِن﴾:

﴿مِن﴾ ابتدائيَّةٌ؛ للإشعارِ بأنَّ الوليجةَ التي تُتَّخذُ من دون الله ورسولِه والمؤمنين بعيدةٌ عن مبدئها، وهو الله ورسولُه والمؤمنون[1].

ابتعادُ من يتَّخِذ المنافقين وليجةً عن الله ورسولِه والمؤمنين

إيثارُ التَّعبير بقوله: ﴿مِن دُونِ﴾:

يأتي لفظ ﴿دُونِ﴾ بمعنى (غير) كما هو في الآية هنا، والتقدير: (من غيرِ الله)، ولم يقلْ: (من غيرِ الله)؛ لإفادة لفظِ ﴿دُونِ﴾ معنى القربِ، أي: الأقربُ لكم الذي تتَّخذونه وليجةً هو الله ورسولُهُ والمؤمنون، فيفيد الحثَّ على الأمرِ لقربِه، كما يشعرُ لفظ ﴿دُونِ﴾ بمعنى التَّجاوز، أي: لم يتجاوزوا اتِّخاذَ الوليجةِ دون الله ورسولِه والمؤمنين، ففيه إشعار بأنّ مَن يتَّخذ الوليجةَ من دون الله؛ فقد تجاوزَ أمرَ الله تعالى، وارتكبَ الخطيئةَ.

أو يقال: لمّا كان (دون) بمعنى (قُدَّام)، ودخلها معنى (غير)؛ صارَ كأنَّه قال: إذا وصلوا إلى غيرِ الله ورسولِه والمؤمنين لم يكتفوا به، ولم يتَّخذوه وليجةً، وطلبوا الله سبحانَه، ليشعرَ باعتراضِ وليجةِ السُّوء للمؤمنين عندَ جهادِهم في سبيل الله[2].

وليجةُ السُّوءِ تعترضُ المؤمنين عندَ جهادِهم

دلالةُ التَّرتيبِ بين لفظ الجلالة وما بعده من معطوفات:

قوله: ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾، دلَّ ذكرُ الاسمِ الجليلِ أوَّلًا على تراخي الرُّتَبِ عن مكانتِه سبحانه؛ لأنَّه المنفردُ

رفعةُ مقامِ الرَّسول ﷺ والمؤمنين بما انتسبوا به إلى الله تعالى

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/138.
(2) الرّضيّ، شرح الكافية: 2/24، والسّامرائي، معاني النّحو: 2/212.

بالكمال[1]، ثمَ لمّا ذكر ﴿رَسُولِهِۦ﴾ ثانيًا؛ دلَّ على رفعةِ مقامِه ﷺ، ولمّا أضيف إلى الضَّميرِ العائدِ إلى الاسمِ الجليلِ؛ دلَّ على أنَّ اتِّخاذَهُ وليجةً هو لكونِهِ رسولًا منه ﷻ، ثمَّ ذكر المؤمنين تشريفًا لهم وتكريمًا؛ إذ جعل وليجتَهم من وليجتِهِ سبحانه؛ لأنَّ التَّقديرَ: (المؤمنين باللّه ورسولِه).

نكتةُ التَّعبيرِ بلفظ ﴿رَسُولِهِۦ﴾ دون (نبيّه):

عُبِّرَ بلفظ ﴿رَسُولِهِۦ﴾ دونَ أن يقولَ: (من دون اللّه ولا نبيِّه) للتَّوسُّل إلى ذكر المؤمنين؛ لأنَّهم صاروا مؤمنين بمقتضى رسالتِه إليهم.

النبوّةُ ذاتيّةٌ خاصّة، والرّسالة متعدِّية لنفع المرسل إليهم

دلالةُ لفظ ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾:

أفاد التَّعبيرُ بالاسم المشتقِّ رسوخَ إيمانِهم، وعراقتَهُ فيهم، وحُذِفَ متعلَّقُ الاسم المشتَقِّ؛ للعلمِ به بما دلَّ عليه السِّياقُ، والتَّقديرُ: والمؤمنين باللّه ورسولِه، ولمّا كان المعنى على طلبِ أن يكونَ المؤمنون وليجةً؛ دلَّ على أنَّ المؤمن مؤتمَنٌ على الأسرارِ وخفايا الأمور، ويُعتمَد عليه.

المؤمنُ مؤتمَنٌ على الأسرارِ وخفايا الأمورِ، ومعتمَد عليه في ذلك

مناسبةُ تكرارِ ﴿وَلَا﴾ في الآية:

تكرَّرت ﴿وَلَا﴾؛ لإفادة تأكيد النَّفي، وللإيذان بأنَّ الوليجةَ تكونُ للّه ولرسولِه وللمؤمنين، بمعنى أنَّه لا بدَّ من اجتماعِها، وأنَّ لكلٍّ نوعٍ خُصوصيَّتَهُ في الوليجةِ.

تكرار الحرف تأكيد للمعنى المراد في الجملة السّياقية

بلاغةُ التَّعريض:

قوله: ﴿وَلَمْ يَتَّخِذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً﴾، في هذه الجملةِ تعريضٌ وطعنٌ بالمنافقين الَّذينَ اتَّخَذُوا الوَلَائِجَ، لَا سِيَّمَا عِنْدَ فَرْضِ القِتَالِ[2]، وتُشعر الصِّيغةُ بأنَّهم تمسَّكوا

سيُظهِرُ اللهُ تعالى سريرةَ المنافقين ويفضحُهم بين النَّاس

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/399.

(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/15، وأبو حيّان، البحر المحيط: 5/384.

بوشيجتِهم، وأنَّهم غيرُ تاركينَ لها على اجتهادٍ منهم في طلبِها وتكلُّفٍ في تحصيلِها[1]، وفي الكلامِ إشعارٌ بتوبيخِ كلِّ من يفعل هذا الفعلَ، وأنَّ اللّه تعالى سيُظهِر سريرتَهُ، ويفضحه بين النَّاس.

بلاغةُ الاستعارة في لفظ ﴿وَلِيجَةً﴾:

الوليجةُ المذمومة، إغراءُ العدوِّ بالمسلمين والإفضاءُ إليه بسرِّ المسلمين

شُبِّه المنافقُ المخادع الذي يكون في القومِ مخالطًا لهم بكثرةٍ، بحيث يكون مُعتمَدًا عليه، وهو ليس منهم، بالذي يدخل في مكمَنٍ، وهو لا يظهر على سبيلِ الاسْتِسْرَارِ، بجامعِ الاعتمادِ عليه، ومعرفةِ خفايا الأمورِ، ومباطنةِ الأسرارِ، ولمّا جاء لفظ ﴿وَلِيجَةً﴾ نكرةً في سياق النَّفي؛ دلَّ على عمومِ أفرادِه، ليشمل الخديعة وإغراء العدوِّ بالمسلمين، وليشمل اتِّخاذ أولياءَ من أعداء الإسلام يُخلَصُ إليهم، ويُفضَى إليهم بسرِّ المسلمين[2].

بلاغةُ التَّعبيرِ بجملة التَّذييل:

علمُ اللهِ محيطٌ بجميعِ أعمالِنا وأغراضِنا، وسيجازينا عليها يومَ القيامةِ

جملةُ ﴿وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ تذييلٌ لإنكار ذلكَ الحسبان، وتعجيبٌ من ظنِّهم، أي: لا تحسبوا ذلك مع علمكم بأنَّ اللّه خبيرٌ بكلِّ ما تعملون، وكيفَ تحسبونَه، واللّه خبيرٌ بما تعملونَ؟ كما أفادتْ إزاحةَ ما يُتوَهَّم من ظاهرِ قولِه تعالى: ﴿وَلَمَّا يَعۡلَمِ﴾ من عدم علمِه تعالى بخفايا الأمور وبواطنِها، فتكون الجملةُ إطنابًا في الكلام، ولمّا كان المقامُ مقامَ التَّرغيبِ في الإخلاص والزَّجرِ عن خلافِه؛ شمَلَ العلمُ المفادُ من قولِه: ﴿وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ﴾ علمَ العملِ وعلمَ الغرضِ منه، فيكون المعنى: واللّهُ يعلمُ جهادَكم وجميعَ أعمالِكم، ويعلم غرضَكم من الجهادِ ومن غيرِه من الأعمالِ، كما تفيدُ جملةُ التَّذييلِ الوعيدَ لمن يتركُ الجهادَ والمجازاةَ على تركِه، فإذا كانَ اللّه خبيرًا بما تعملون؛ فإنَّه سيجازيكم على أعمالِكم يومَ القيامةِ[3]. وقد جاءتِ

(1) الرّضيّ، شرح شافية ابن الحاجب: 1/109 - 110.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/138.
(3) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنّة: 5/315، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/50، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/139.

الجملةُ على معنى العموم بما يدلُّ عليه لفظُ ﴿بِمَا﴾ الموصولة، وحذفُ العائدِ من الفعل ﴿تَعۡمَلُونَ﴾، فأفادت الجملةُ كلِّيَّةَ المعنى؛ لأنَّ المعنى: واللّه خبيرٌ بكلِّ ما تعملونه، لتكونَ الجملةُ كالمَثَلِ الذي يجري في الكلامِ.

مجيءُ الخطابِ على خلافِ مقتضى الظَّاهر:

أعمالُ جميعِ النَّاس في علمِ الله تعالى، وإنْ أخفَوها

عَبَّرَ بصيغة الخطاب في قوله: ﴿تَعۡمَلُونَ﴾ وهو لا يريد مخاطَبًا معيَّنًا؛ ليعمَّ الخطابُ كلَّ مخاطبٍ على سبيلِ البدلِ، قصدًا إلى ظهورِ عملِهم عندَ اللّه تعالى، وأنَّه قد بلغَ النِّهاية في الانكشاف، بحيث إنَّ ظهورَ العملِ من جميعِ النَّاسِ في علمِ اللّه تعالى مثلُ ظهورِه في حالِ الخطابِ، ويدخلُ فيه المخاطَبون بالآية دخولًا أوَّليًّا[1].

توجيهُ قراءة الغيبة والخطاب في ﴿تَعۡمَلُونَ﴾:

القراءة بالغَيبة استدرارٌ لأسماعِ المخاطَبين، وتنبيه إلى إحاطةِ علمِ اللهِ بأعمالِهم

قَرَأَ الْجمهورُ بِالتَّاءِ عَلَى الخطَابِ في ﴿تَعۡمَلُونَ﴾ مناسَبَةً لقَولِه: ﴿أَمۡ حَسِبۡتُمۡ﴾، ليجري الكلامُ كلُّه على نسقِ الخطابِ، وَقَرَأَ الحسنُ، ويعقوبُ في روايةِ رُوَيسٍ وَسَلَّامٍ بِالياءِ (يَعْمَلُونَ) عَلَى الغَيبَةِ؛ ليكون التفاتًا يرادُ به استدرارُ أسماعِ المخاطَبين مزيدًا في إصغائِهم، ولِتنبيهِهم إلى إحاطةِ علمِ اللّهِ بجميعِ أعمالِهم[2].

توجيهُ المتشابهِ القرآنيِّ:

تقديمُ الوصفِ (خبير) وتأخيرُه على وَفْقِ مناسبةِ سياقِ الآيةِ وسباقِها

جاء في مواضعَ من القرآن قولُهُ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [البقرة: 234، 271/ آل عمران: 182]، بتقديم متعلِّق الخبر الجارِّ والمجرورِ ﴿بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ على خبرِ المبتدأ، وجاء في هذه الآية: ﴿وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾، بتأخير المتعلِّق، ومرجعيَّةُ الاختلاف في التقديم والتَّأخير إلى مناسبةِ السِّياقِ، وبيانه: أنَّه إذا كان السِّياق في بيان أعمالِ الخَلقِ من الذهابِ والمجيءِ، أو في طلبِ الامتثالِ لأوامرِ اللّهِ ونواهيه

(1) التّفتازانيّ، المُطَوّل، ص: 214 - 215.

(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/15، وأبو حيَّان، البحر المحيط: 5/385.

وغيرها، أو في بيانِ المجازاةِ على الأعمالِ والوعدِ والوعيدِ عليها؛ قُدِّمَ ﴿بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ على خبرِ المبتدأ؛ لِيفيدَ الرِّعايةَ والاهتمامَ بالأعمالِ، وأنَّها محطُّ الحكمِ في الآيةِ، وإذا كان السِّياق في بيان أوصافِ اللّٰهِ تعالى والتَّعريفِ به سبحانَه؛ قُدِّمَ الوصفُ ﴿خَبِيرٌ﴾ على الجارِّ والمجرورِ، كما أنَّ رعايةَ الفاصلةِ له مدخلٌ في التَّقديم والتَّأخير، ولمّا بدأتِ الآية هنا بالحسبانِ الذي هو أمرٌ قلبيٌّ، ثم بيَّنَ إحاطةَ علمِ اللّٰه بمَنْ يجاهدُ، ومَنْ لا يجاهدُ، ومَنْ غرضُه في جهادِه الامتثالُ للّٰه تعالى والإخلاصُ في جهادِه، ومن ليس كذلك؛ قُدِّمَ الوصفُ، فبيَّن أنَّه سبحانه يعلم خفايا بواطنِهم، كما يعلمُ ظواهرَهم، فقال: ﴿وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾، وأفاد التَّقديمُ رعايةَ الفاصلةِ كذلك، والمعنى: لا تحسبوا ذلك مع علمِكم بأنَّ اللّٰه خبيرٌ بكلِّ ما تعملونه.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

البطانةُ والوليجةُ:

البِطانةُ فيها معنى الانبساطِ، والوليجةُ فيها معنى الدُّخول

لمّا كان لفظُ البِطَانةِ مستعارًا من بطانةِ الثَّوب الذي يكون أقربَ شيءٍ إلى الجسد، ومن شَأْن النَّاس إخفاؤه، صار يطلقُ على الدُّخلاء الَّذين يقرِّبون، ويُنبسَط إِلَيْهِم، ويوثقُ بمودَّتهم، ويسكنُ إليهم ويُستبطَنون، فيختصُّون بالاطِّلاع على باطن الأمر، ولهذا يُقَال: فُلَانٌ بِطانةٌ لفُلَان، أَي: مُداخِلٌ لَهُ مؤانس، فالبِطانةُ أخصُّ من الوليجة التي تطلقُ على مَن تُطلِعُه على سرِّك وخفايا أَمرِك لمخالطتِه لك لمصلحةٍ ترجوها منه، وقد لا تنبسطُ له، ولا تثقُ بمودَّتِه؛ لأنَّ الوليجةَ من الولوجِ، وهو الدُّخول، وجاء على صيغة المبالغةِ (فعيلة) للإشعارِ بكثرة دخولِه[1].

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (بطن، ولج)، والكفويّ، الكلّيات، ص: 251.

﴿مَا كَانَ لِلۡمُشۡرِكِينَ أَن يَعۡمُرُواْ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلۡكُفۡرِۚ أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ وَفِي ٱلنَّارِ هُمۡ خَٰلِدُونَ ١٧﴾ [التوبة: 17]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

العلاقةُ بين عدم اتخاذ الوليجة من دون الله، وكون الإيمانِ أساس القبول والقرب

لمَّا حذَّر اللّه تعالى المؤمنين من اتِّخاذِ وليجةٍ من دونِه؛ شرعَ يبيِّنُ أنَّ الوليجةَ الَّتي يتَّخذُها بعضُهم لا تصلحُ للعاطفةِ، بما اتَّصفت به مِن محاسنِ الأعمالِ ما لمْ توضَعْ تلكَ المحاسِنُ على الأساسِ الذي هو الإيمانُ المبيَّنُ بدلائله، فكأنَّ قائلًا قال مستفهمًا: إنَّ فيهم مِن أفعالِ الخيرِ ما يدعو إلى الكفِّ عنهم مِنْ عمارةِ المسجدِ الحرامِ وخدمتِه وتعظيمِه، فقال في الجوابِ: ﴿مَا كَانَ لِلۡمُشۡرِكِينَ﴾[1].

وأيضًا: لمّا بدأ اللّهُ تعالى السُّورةَ بذكر البراءةِ عن الكفَّارِ، وبالغَ في إيجابِ ذلك، وذكر من أنواعِ فضائحِهم وقبائحِهم ما يوجبُ تلك البراءةَ؛ ردَّ عليهم في هذهِ الآية وما بعدها ما احتجُّوا به من الشُّبَهِ في أنَّ هذهِ البراءةَ غيرُ جائزةٍ، وأنَّه يجبُ أنْ تكونَ المخالطةُ والمناصرةُ حاصلةً، وذلك أنَّهم موصوفونَ بصفاتٍ حميدةٍ وخصالٍ مرضيَّةٍ، وهي توجبُ مخالطتَهم ومعاونتَهم ومناصرتَهم، ومن جملةِ تلكَ الصِّفاتِ كونُهم عامرين للمسجدِ الحرامِ[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَعۡمُرُواْ﴾: العِمَارَةُ: نقيضُ الخراب، يقال: عَمَرَ أرضَهُ يَعْمُرُهَا عِمَارَةً، وعمارة المكان تكون: إمَّا بالبناء فيه، وإمَّا بزيارتِه، أي: من العُمْرَةِ الَّتي هي الزِّيارةُ، وإمَّا بالإقامةِ فيه، من قولهم:

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/400.
(2) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 16/8.

عَمَرْتُ بمكان كذا، أي: أقمتُ به، ومنه: عَمَرَ المنزلَ: سكنَهُ، وعمرَ بيتَه: لَزِمه، ويقال أيضًا عَمَر الدَّارَ: بناها، ومعنى (يعمر مساجد اللّه): يدخلُ المساجدَ، ويمكث فيها، أو يرفعُ بناءها، ويصلحُ ما تهدَّم منها، أو يتعبَّدُ فيها بالطَّواف والصَّلاة بها[1].

2) ﴿حَبِطَتْ﴾: يدور معنى الحبطِ على الإبطال والألم، فأمَّا الإبطالُ؛ فمنهُ قولهم: حبِطَ عملُه، وذلك إذا عَمِل الرجلُ عملًا، ثمَّ أفسدهُ، وأمَّا الألمُ؛ فمنه: حبَطُ البعيرِ، وهو الوجعُ الذي يأخذه لكثرة الأكل حتى ينتفخَ بطنُه، والظَّاهر: أنَّ حَبْطَ العَمَلِ وبُطْلانَه مأخوذٌ من حَبَطِ البَطْنِ بمعنى الألم الَّذي يؤول إلى الهلاك؛ لِأَنَّ صَاحب الحَبَطِ يَهْلِكُ، وَكَذَلِكَ عَمَلُ المُنافق والمُشْرِك يَحْبَط، والفرقُ بينهما في اللفظ: أنَّ باء المصدر في حبْطِ العملِ ساكنةٌ، فيقال: حَبِطَ عملُه حبْطًا، وفي الحبَطِ الذي بمعنى الوجع متحرِّكَةً، فيقال: حَبِطَ البعيرُ بطنُهُ يَحْبَطُ حَبَطًا[2]، ومعنى ﴿حَبِطَتْ﴾: بطَلَت[3].

❁ المَعْنى الإِجْمالِيُّ:

ما صحَّ للمشركين أنْ يعمروا مساجِدَ اللّهِ، وهم شاهدون على أنفسِهم بالكفرِ، وما ينبغي لهم ذلك، أولئك المشركون الذين شهدوا على أنفسِهم بالكفرِ بطلتْ أعمالُهم التي يظنُّونها خيرًا، وذهبت أجورُها، وفي النَّار هم ماكثون أبدًا، لا أحياءً ولا أمواتًا، فالمساجد إنَّما تعمَرُ لعبادةِ اللّه فيها، لا للكفر به، فمن كان باللّه كافرًا، فليس من شأنِهِ أن يَعمُرَ مساجدَ اللّهِ[4].

المشركون لا يعمرون مساجِدَ اللهِ، بل إنّ أعمالهم باطلة؛ والمساجدُ تُعمَرُ بالإيمان لا بالكفران

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المُؤصّل: (عمر)، وأبو حيّان، البحر المحيط: 5/387.

(2) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (حبط).

(3) السجستاني، غريب القرآن، ص: 186، وابن الهائم، التّبيان في تفسير غريب القرآن، ص: 106.

(4) ابن جرير، جامع البيان: 14/165.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

مناسبةُ التَّعبير بـ ﴿مَا كَانَ﴾:

أعمالُ البرِّ للمشركين كالعدمِ عندَ الله؛ لكفرِهم به ﷻ

في قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُواْ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ﴾، لمّا كان لفظُ (ما) يأتي ردًّا على قول، أو ما نُزِّلَ هذه المنزلةَ، أو تصحيحًا لظنٍّ[1]؛ جاء التَّعبيرُ بـ ﴿مَا كَانَ﴾ ردًّا على ما قاله المشركون من أنَّهم عمَروا المسجدَ الحرامَ بناءً وسقايةً للحجيج، أو ما كانوا يظنُّونَهُ من أنَّهم عمَروا المسجدَ الحرامَ، فأفادَ أنَّ فعلَهم كالعدمِ لكفرِهم بالله تعالى.

دلالةُ ﴿مَا كَانَ﴾ في الآية:

إعمارُ المشركين مساجدَ اللهِ بمثابةِ العدمِ؛ لأنَّه لا يعتدُّ بهِ

الأصلُ في دلالة تركيب (ما كان) أنَّه يفيد نفيَ الوجود، ولمّا كان العَمَارُ حاصلًا وواقعًا، كما يدلُّ عليه قوله تعالى الآتي: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ - دلَّ على أنَّ المرادَ لازِمُه، ليطابقَ الواقعَ، والمعنى: ما صحَّ أو ما استقامَ، ويمكن الحمل على نفي اللِّياقة، أي: ما يليق للمشركين أن يعمروا مساجدَ الله، وليسوا أهلًا له، مثل قولِ القائل: (ما ينبغي)[2]، ويمكن اجتماعُ هذه المعاني في هذا المقام، فيكون المعنى: ما صحَّ للمشركين أن يعمروا مساجدَ الله، وما استقامَ لهم ذلك في دينِ الله وشرعِه، وما كان يليق بهم أن يعمروها، ونُكْتَةُ التَّعبير بـ ﴿مَا كَانَ﴾ دون أن يقول: (ما صحَّ) مثلًا؛ هو الإشعارُ أنَّ إعمارَ المشركين مساجدَ الله بمنزلةِ العدمِ، فيؤولُ المعنى إلى عدمِ الاعتدادِ به.

أو عَبَّرَ بهذا الأسلوب في النَّفي دون أن يقولَ: (ما صحَّ للمشركين أن يعمروا مساجد الله) مثلًا؛ لأنَّ النَّفي في مثل هذا التَّعبير يسمَّى

(1) السّامرائيّ، معاني النحو: 1/366.

(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/253، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل وأسرار التّأويل: 3/74، والشّهاب الخفاجيّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 4/538، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 9/177، والقنوجيّ، فتح البيان: 5/251.

نفي الشَّأن، وهو أبلغُ من نفي الفعل طبعًا أو شرعًا؛ لأنَّه نفيٌ له بالدَّليل، أي: بسببِ إشراكهم بالله وكفرِهم به[1] ﷻ.

دلالةُ التَّعريض في الآية:

في قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلۡمُشۡرِكِينَ أَن يَعۡمُرُواْ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ﴾، تعريضٌ بأنَّه كان على المشركين توحيدُ الله قبل عمارة بيوتِه؛ إذ إنَّ المصدر المؤوَّل ﴿أَن يَعۡمُرُواْ﴾ اسم لـ(كان) و﴿لِلۡمُشۡرِكِينَ﴾ خبرٌ لها؛ فلمَّا جاء الخبرُ بصيغة المشتقِّ؛ دلَّ ذلكَ على علِّيَّةِ المأخذِ وسببِ الحكمِ بنفي الصِّحَّةِ أو الاعتدادِ، والمعنى: سببُ نفيِ صحَّة عمارتِهم مساجدَ الله والاعتدادِ بها هو إشراكُهم بالله.

عـلى المشركين توحيدُ الله قبل البدءِ بعِمارةِ بيوتِهِ

سببُ إيثارِ التَّعبير بصيغة المشتقّ ﴿لِلۡمُشۡرِكِينَ﴾:

عُبِّرَ بالوصف دون الفعل؛ لأنَّ جماعةً ممَّن أشركَ أسلمَ بعد ذلكَ، فصارَ أهلًا لِمَا نفيَ عنهم؛ ليفيدَ أنَّ المرادَ: من اتَّصفوا بالشِّرك، وثبتوا عليه، فيخرجَ من الحكمِ من أشركَ، ثمَّ أسلمَ[2].

مـن أشـركَ ثـمَّ أسـلـمَ طـابَ عـمـلُـه، وصـحَّ إعـمارُه مساجدَ الله تعالى

مناسبةُ التَّعبيرِ بلفظ(المشركين):

قال الله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلۡمُشۡرِكِينَ﴾، ولم يقل: (ما كان للكافرين)؛ لأنَّ الكلامَ في عِمارةِ مساجد الله الَّتي هي موضعُ عبادة الله وتوحيده وتنزيهه، فذكرَ لفظَ الشِّرك المنافي لعمارتهم مساجد الله.

الإشـراكُ ينافي عِـمارةَ مساجدِ الـلـه تـعـالى؛ لأنَّـهـا مـوضـعُ عبادتِه وتوحيدِه

بلاغةُ تقديمِ المسند على المسند إليه:

قدِّمَ المسندُ ﴿لِلۡمُشۡرِكِينَ﴾ على المسندِ إليه ﴿أَن يَعۡمُرُواْ﴾ لإفادةِ التَّخصيصِ والاهتمامِ، بمعنى: نفيُ صحَّةِ عمارة مساجد الله والاعتداد بها مختصٌّ بالمشركين، وفي هذا الحصرِ كنايةٌ، وبيانُه: أنَّه لمّا كانت القسمةُ ثنائيَّةً، - أي: إنَّ قسيمَ المشركين هم المسلمون -

إعمارُ المسلمين مساجدَ اللهِ صحيحٌ ومعتدٌّ به عندَ الله

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/50، ومحمد رضا، تفسير المنار: 10/186.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/400.

دلَّ على أنَّ للمسلمين أن يعمروا مساجدَ اللّه، بمعنى صحَّةِ إعمارهم والاعتداد به عندَ اللّهِ، وأنَّه سبحانَه سيَجزيهم عليه جزاءً حسنًا.

دلالةُ لفظِ ﴿يَعۡمُرُواْ﴾:

عمارةُ المساجدِ ببنائِها، والمكثِ فيها للعبادةِ والذِّكرِ

ذهبُ بعضُ المفسِّرين إلى أنَّ المرادَ من اللَّفظِ بناءُ المساجدِ وإقامةُ جدرانِها، أي: تعميرُها، وذهب آخرونَ إلى أنَّ المرادَ الحضورُ في المساجدِ والعبادة فيها؛ لأنَّها إنَّما وضعت للعبادة، فإعمارها بمَنْ يحلُّ فيها من المتعبِّدين، ويؤيِّده مجيءُ قوله تعالى: ﴿وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾، ويمكن الجمعُ بينهما: بأنْ يكون المرادُ البناءَ والحضورَ فيها بالعبادةِ، أي: على سبيلِ الجمع بين العمارة الحسية والمعنوية، فكلُّ ذلك مرادٌ هنا؛ لأنَّ اللَّفظَ يدلُّ عليه والمقامَ يقتضيه، كما يمكن أن يكونَ على سبيل البدلِ، والمعنى: نفيُ صحَّةِ بنائهم مساجدَ اللّه والعبادة فيها بسببِ كفرِهم، ونفي صحَّةِ عملِ كلٍّ واحدٍ منهما على الانفراد من قبلِ المشركين بسبب كفرِهم كذلك[1].

نكتةُ التَّعبيرِ بصيغة الجمع في لفظ: ﴿مَسَٰجِدَ﴾:

المسجدُ الحرامُ قِبلةُ المساجدِ وإمامُها، وعامِرُه كأنَّما عَمَرَ مساجدَ الله كلَّها

لمّا كان المرادُ هو المسجدَ الحرامَ - إذْ هو الذي عَمَرَهُ المشركون قبل نزولِ القرآنِ - كان مجيءُ صيغةِ الجمع على خلاف مقتضى الحال، والنُّكتةُ فيه: أنَّه لمّا كانَ قِبلةَ المساجد وإمامَها، فعامرُه كأنَّه قد عمرَ مساجدَ اللّه كلَّها، أو يقالُ: جاء اللَّفظُ بصيغةِ الجمعِ؛ لأنَّ كلَّ ناحيةٍ من نواحيه المختلفةِ الجهاتِ مسجدٌ على حيالِه، بخلاف سائرِ المساجدِ، إذْ ليسَ في نواحيها اختلافُ الجهةِ، ويؤيِّدُه القراءةُ بالإفراد، كما سيأتي، أو يقالُ: لمّا كان الجمعُ المضافُ في سياقِ النَّفي دخلَ فيه المسجدُ الحرامُ دخولًا أوَّليًّا، وهو آكدُ من أنْ يصرِّحَ بالمسجد الحرامِ؛ إذْ نفيُ الجمعِ يدلُّ على النَّفي عن كلِّ فرد، فيلزم

(1) البغويّ، معالم التّنزيل: 2/323، والفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 16/9، وأبو حيّان، البحر المحيط: 5/385، ومحمد رضا، تفسير المنار: 10/187، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/140.

نفيُه عن الفردِ المعيَّنِ بطريق الكنايةِ، كما لو قلت: فلانٌ لا يقرأُ كتابَ اللّه، كنت أَنْفَى لقراءتِه القرآنَ من تصريحِك بذلك، وأيضًا لمّا كان المعنى: ما كان للمشركين أنْ يعمروا شيئًا من مساجدِ اللّه، كان الأَولى ألّا يُمَكَّنوا من عمارةِ المسجدِ الحرامِ الذي هو أشرفُ المساجدِ وأعظمُها[1].

دلالةُ الإضافة:

التَّعجيبُ مِنْ حالِ من يعمرُ مساجد الله الأحد، وهو المشرك الألَدّ

في قوله تعالى: ﴿مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ﴾، جاءتِ الإضافةُ على معنى اللَّام؛ لِيفيدَ تخصيصَ المساجدِ باللّه تعالى، كما أنَّ في ذكر الاسم الجليلِ تشريفًا للمساجد بإضافتِها إليه سبحانه، وفي الإضافةِ إلى الاسمِ الجليلِ (اللّه) إيذانٌ بأنَّه المنزَّهُ عن الشَّريك، المتَّصفُ بصفاتِ الكمالِ، ففيه تعجيبٌ من حالِ المشركين، إذ يعمرون مساجد اللّه الواحدِ الأحدِ، وهم مشركون به سبحانه.

توجيهُ قراءتَي ﴿مَسَٰجِدَ﴾ و﴿مَسْجِدَ﴾:

الإفرادُ على أنَّه المسجدُ الحرامُ، أو الجنس، والجمع على تعدُّدِ جهاته

قرأ ابنُ كثيرٍ وأبو عمرٍو ويعقوبُ: ﴿أَن يَعۡمُرُواْ مَسۡجِدَ ٱللَّهِ﴾ بتوحيد ﴿مَسَٰجِدَ﴾، أي: بإفرادِه، وَقَرَأَ الْبَاقُونَ بِالْجَمْعِ، أي: ﴿مَسَٰجِدَ﴾[2]، وتقدَّم نكتةُ التَّعبير بلفظِ الجمعِ، وأمَّا وجهُ الإفرادِ؛ فهو أنْ يكونَ المرادُ المسجدَ الحرامَ، وعليه الجمهورُ، وهو الأولى بأنْ يتَّصِف بأنَّه مسجدُ اللّهِ، والأحقُّ بهِ، ويؤيِّد قراءةَ الإفرادِ قولُه تعالى في السِّياقِ نفسِه: ﴿أَجَعَلۡتُمۡ سِقَايَةَ ٱلۡحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ كَمَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَجَٰهَدَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾ [التّوبة: 19]، ويحتمل أنْ يرادَ بالإفراد الجنسُ، فيعمَّ المساجدَ كلَّها، فيكون موافقًا لقراءة الجمع

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/253، والفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 16/9، وأبو حيّان، البحر المحيط: 5/385، والنّيسابوري، غرائب القرآن: 3/442، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/50، والقاسميّ، محاسن التّأويل: 5/362.

(2) الأزهريّ، معاني القراءات: 1/448، وابن مجاهد، السبعة في القراءات، ص: 313، وابن الجزريّ، النّشر: 2/278.

في المعنى، ولا يمنعُ من إرادةِ الجنسِ إضافتُه، فيدخلُ تحت الجنسِ المسجدُ الحرامُ دخولًا أوَّليًّا، إذْ هُوَ صَدْرُ ذَلِكَ الجِنْسِ ومُقَدِّمَتُهُ[1].

دلالةُ الحالِ في جملة الشّهادة على أنفسهم بالكفر:

الكفرُ مبطلٌ للأعمالِ إذا اقترن بها، وبه تحبط القربات

قوله: ﴿شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم﴾، فيه أنّه لما كان قولُهُ: ﴿شَٰهِدِينَ﴾ حالًا من الضَّمير في ﴿يَعۡمُرُواْ﴾ وكان الحالُ على معنى الاقترانِ بصاحبه؛ دلَّ على أنَّهم كانوا شاهدين على أنفسِهم بالكفر في حالِ إعمارهم مساجدَ اللّهِ، ليكونَ تقريرًا لما تقدَّم من أنَّ التَّعبير بالمشركين هو بيانٌ لسبب الحكم بنفي الصِّحة والاعتدادِ وتأكيدًا له، وفائدةُ مجيءِ الحالِ هو الإيذانُ بعظم كفرِهم، وبيانُه: أنَّه لمّا كان الكفرُ مبطلًا للأعمالِ الثَّابتةِ الصَّحيحة؛ إذا تعقَّبَها كان اقترانُ الكفر بها أكثر إبطالًا وأشدَّ، فدَلَّ الحالُ على أنّهُم قارِنُون بين العِمارةِ والشّهادةِ بالكُفرِ على أنفُسِهم في حال واحِدة، وذلك مُحال غيرُ مُستقيم[2].

بلاغةُ الاستعارةِ:

الشَّهادةُ بالكفرِ العمليّ، أصرحُ منها بالقولِ اللّفظيّ

قوله: ﴿شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلۡكُفۡرِۚ﴾، ليس المرادُ أنَّهم شهدوا على أنفسِهم بالمقال بكونِهم كافرين، ولكنَّه جاء بطريق الاستعارةِ؛ ليكونَ الكلام مقترنًا بالحجَّةِ والدَّليلِ على كفرِهم، فقد شُبِّهوا حالَ إظهارِهم آثارَ الشِّركِ من نصبِ الأوثان حول البيتِ والعبادةِ لها بمن يشهدُ على نفسِه بالقولِ بالكفرِ، على طريق الاستعارة التَّصريحيَّة التَّبعيَّة؛ فإنَّ من أظهرَ فعلًا؛ فكأنَّه شهدَ به على نفسِه، وإن أبَوا أن يقولوا: نحن كفَّارٌ، بل هذا أقوى من الشّهادةِ بالقولِ، فنكتةُ تقييد الحال بالكفرِ بيانُ أنَّه كفرٌ صريحٌ معترفٌ به لا يمكن المكابرةُ فيه[3].

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/15، والفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 16/9، وأبو حيّان، البحر المحيط: 3/385، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: 6/29.

(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/254، وأبو حيّان، البحر المحيط: 5/386.

(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/50، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 9/178، ومحمد رضا، تفسير المنار: 10/188.

نكتةُ التَّعبيرِ بلفظ ﴿شَٰهِدِينَ﴾:

شهادةُ الشَّاهدِ على نفسِه، أعلى مراتبِ الإقرارِ

لمّا كانتِ الشَّهادةُ بمعنى الإقرارِ عُبِّرَ بها، فإذا كانتِ الشَّهادةُ على النَّفسِ؛ كانت أعلى مرتبةً من مراتب الإقرار، والمعنى: شاهدين على أنفسِهم بإظهار آثارِ الشِّركِ من نصب الأوثان حول البيتِ والعبادةِ لها، فإنَّ ذلك شهادةٌ صريحةٌ على أنفسِهم بالكفرِ، وإن أبَوا أن يقولوا: نحن كفَّارٌ.

دلالةُ الباءِ في قوله: ﴿بِٱلۡكُفۡرِۚ﴾:

المبالغةُ في بيانِ شدَّةِ كفرِ الكافرين ولصوقِهِ بهم

لمّا كان أصلُ معنى الباء هو الإلصاقَ والاختلاطَ[1]؛ دلَّ على أنَّ المعنى: (شاهدين على أنفسهم بالتصاقِ الكفرِ واختلاطه بهم)؛ ليكونَ الالتصاقُ على المعنى المجازي للباءِ، تشبيهًا لكفرِهم بالشَّيء الذي يُلْزَقُ، ويلصقُ، إشعارًا بشدَّةِ كفرِهم وتوغُّلِه فيهم، وعدم انفكاكِه منهم وقتَ عمارتهم المسجدَ الحرامَ، ليكونَ من أظهرِ الشَّهاداتِ وأصرحِها.

نكتةُ التَّعبير بلفظ ﴿بِٱلۡكُفۡرِۚ﴾:

أشدُّ الكفرِ قبحًا، الجمعُ بين الإشراكِ باللهِ تعالى والكفرِ به

لمّا قال اللّه تعالى: ﴿شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلۡكُفۡرِۚ﴾ آذنَ أنَّهم جمعوا بين إشراكِهم باللّه وكفرهم به، وهو أشدُّ الكفرِ وأقبحُه، كما أنَّه لمّا جعل شهادتهم على أنفسهم؛ ناسَبَ أن يأتي بلفظ (الكفر) للإشعار بأنَّهم غطَّوا فطرتهم الَّتي في أنفسِهم عن الإيمانِ باللّه.

دلالةُ اسم الإشارة: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾:

تمييزُ الكافرين بأوضحِ أوصافِهم، ليتجنَّبَها المؤمنون

عُبِّرَ باسم الإشارة، لتميُّزهم بوصفِ الشَّهادةِ على أنفسِهم بالكفرِ أكملَ تمييز، وللإيذانِ بأنَّ المشارَ إليهم هم المشركون الذين يدَّعون عمارةَ المسجدِ وما يضاهيها من أعمال البِّرِ مع ما بهم من الكفر، ليكون اسمُ الإشارةِ بمنزلةِ بيانِ السَّبب للإخبار عنهم بحبْطِ

(1) سيبويه، الكتاب: 4/217.

عملِهم، أي: شركُهم وكفرُهم أبطلَ أعمالَهم وأذهبَ ثوابَها[1]، ولمّا كان اسمُ الإشارة ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ للبعيد؛ دلَّ على بُعدِهم عن الخير وعن قَبولِ العمل والإثابةِ عليه.

بلاغةُ الاستعارة:

بطلانُ أعمالِ الكافرين ناشئٌ من ذاتِها؛ لأنَّ أساسَها قائمٌ على الكفر بالله

في قوله تعالى: ﴿حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ﴾، عبَّرَ عن بطلانِ أعمالهم وعدم إنتاج ثمرتها بالحبْطِ على طريق المجاز؛ ليكونَ استعارةً تصريحيَّةً تبعيَّةً، فشبَّه حالَ من عمل أعمالَ البرِّ، فلم يجد لها أثرًا نافعًا بالماشية الَّتي تأكل الخَضِرَ شهوة للشَّبع، فيؤول عليها بالهلاكِ لما يصيبها من الحبَطِ، وهو وجع البطنِ؛ للإشعارِ بأنَّهم كانوا يتلذَّذون بأعمالِهم، ويفتخرون بها كما يتلَذَّذ الحيوانُ بالأكلِ، وهو غيرُ نافعٍ، والحبوطُ يفيدُ البطلانَ الذي يكون ناشئًا من ذات العمل، فبطلانُ أعمالهم ناشِئٌ من ذاتها؛ لأنَّ أساسَها قائمٌ على الكفر باللّٰه[2].

بلاغةُ الكنايةِ في الاستعارةِ:

حبْطُ الأعمال بمعنى عدم الانتفاعِ بآثارها في الدُّنيا وبالثَّواب في الآخرة

في استعارة لفظ ﴿حَبِطَتۡ﴾ كنايةٌ عن عدم الانتفاع بأعمالِهم، وبيانُه: أنَّه لمّا كانت أعمالهم قد وَقَعت ووُجِدت مثل إعمار المسجدِ الحرامِ والسِّقاية وغيرهما؛ دلَّ على أنَّ المرادَ من حبْطِ أعمالِهم لازمُهُ، وهو زوالُ آثارها المجعولة المرتَّبة عليها شرعًا وعدم انتفاعِهم بها، فيشمَلُ عدمَ انتفاعهم بآثارِها في الدُّنيا وبالثَّواب في الآخرة، والمعنى: أذهبَ الشركُ ثوابَ أعمالهم[3].

سببُ إيثار صيغة الجمعِ في قولِهِ: ﴿أَعۡمَٰلُهُمۡ﴾:

عبَّرَ بصيغة الجمعِ للإشعار بعمومِ جميعِ ما صدر عنهم من

(1) الزّجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 2/437، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 6/3251.
(2) الزّمخشريّ، أساس البلاغة: (حبط)، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 8/410، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/332، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 6/3251.
(3) الزّجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 2/437، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/332.

الكفرُ مُحبِطٌ لجميعِ الأعمالِ، ومفسد لمختلف القربات

أعمال البرِّ، مثل: إكرام الوالدين، وبناء الرِّباطات، وإطعام الجائع، وإكرام الضَّيف، فكلُّ ذلك باطلٌ؛ لأنَّ عقابَ كفرِهم زائدٌ على ثواب هذه الأشياء، فلا يبقى لشيءٍ منها أثرٌ في استحقاق الثَّواب والتَّعظيم مع الكفر، كما يفيدُ جمعُ الأعمال أنَّهم كانوا يعظِّمونَها[1].

سببُ حذفِ صفة ﴿أَعۡمَٰلُهُمۡ﴾:

الكفَّارُ يستندون على أعمالِ البرِّ رجاءَ الثَّواب وهي عندَ الله باطلة

تقديرُ الكلام: حَبِطَت أعمالُهم التي يفتخرون بها[2]؛ لأنَّ الإحباط يكون لأعمالِ البرِّ التي يُرجى ثوابُها في الدُّنيا والآخرةِ لا للأعمالِ القبيحةِ المنكرة، فحذفت الصِّفةُ للإيجاز، وللإشعارِ بأنَّهم كانوا يستندون على هذه الأعمال في رجاء الثَّواب، فكأنَّ غيرَها ليست بأعمالٍ.

بلاغةُ حذف المتعلَّق في قولِه: ﴿حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ﴾:

بطلانُ جميعِ أعمالِ الكافرين في الدُّنيا والآخرة، وعدم انتفاعهم بها

لمّا حُذِفَ متعلَّقُ الفعل ﴿حَبِطَتۡ﴾؛ دلَّ على عموم الزَّمانِ والمكانِ، ليكون التَّقديرُ: حَبِطت أعمالهم في الدُّنيا والآخرة وفي جميع الأماكنِ؛ ليتناولَ حَبْطَ آثارِها في القبرِ وما بعدَه، وأمَّا حبْطُ أعمالِهم في الآخرة؛ فقد دلَّ عليه قوله: ﴿وَفِي ٱلنَّارِ هُمۡ خَٰلِدُونَ﴾، وأمَّا حبطُها في الدُّنيا؛ فقد أشعرَ به الأمرُ بمقاتلتهم وما يلاقونَه من التَّعذيب والخزي والذُّلِّ ونصر المؤمنين عليهم؛ ليدلَّ على أنَّ عمارتهم المسجد الحرام وما صدرَ منهم من أعمالِ البِرِّ ما كانت لتغنيَ عنهم.

دلالةُ الواو في قوله ﴿وَفِي ٱلنَّارِ﴾:

الكفرُ سببُ كلِّ الآفاتِ، ومَعقِد كلّ المخالفات

قوله: ﴿وَفِي ٱلنَّارِ هُمۡ خَٰلِدُونَ﴾، الواوُ فيه عاطفةٌ؛ لتفيدَ جمعهم بين حبْطِ العملِ وخلودهم في النَّار، كما أفادتِ الواوُ التَّرتُّب، بمعنى ترتُّبِ خلودهم في النَّار على حبْطِ أعمالِهم، فيكون المعنى في الآية:

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 16/10، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/50.
(2) البيضاويّ، أنوار التّنزيل وأسرار التّأويل: 3/74.

ترتَّبَ حبطُ أعمالِهم على إشراكِهم وكفرِهم، ثمَّ كان حبْطُ العمل المترتِّبُ على إشراكِهم وكفرِهم سببًا لخلودِهم في النَّار، وعليه فقد أفادتِ الجملةُ الاسميَّةُ المعطوفة بالواو تحقيقَ ثبوت خلودِهم في النَّار والمبالغةَ فيه.

فائدةُ تقديمِ الجارِّ والمجرورِ:

اختصاصُ خلودِ الكافرين في النَّار، دليل على أنْ لا مفرّ لهم منها

قُدِّمَ متعلَّقُ الخبر ﴿وَفِي ٱلنَّارِ﴾ على المبتدأ؛ للاهتمام به؛ إذْ إنَّ فيه تعجيلَ المساءةِ للكفَّار إذا سمعوه، ولإفادة الاختصاص، بمعنى: في النَّار هم خالدون، وليس في غيرِها، وأفاد التَّقديمُ تأكيدَ مضمونِ الجملة وتقريرَها، كما أنَّ في التَّقديم رعايةً للفاصلةِ[1].

فائدةُ التَّعبيرِ بالضّمير ﴿هُمْ﴾:

الكافرون مقيمون في النَّار، إقامةَ خلودٍ وبقاء

لمّا كان الضَّمير عائدًا على المشركين الموصوفين بشهادتهم على أنفسهم بالكفر؛ دلَّ على تقرير سبب خلودِهم في النَّار وتأكيدِه، أي: هم مقيمون في دار العذابِ - التي تسمَّى النَّار دون غيرِها - إقامةَ خلود وبقاء، لكفرِهم المحبط لأعمالهم الحسنة[2].

مناسبةُ مجيءِ الجملتين على الاستئناف:

الجمعُ بين نفي استتباعِ الثَّوابِ، ونفي استدفاع العذابِ للكافرين

جاءتِ الجملتان مستأنِفتَين لتقريرِ النَّفي السَّابق، فأفادتِ الجملة الأولى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ﴾ تقريرَ نفي صحَّة عمارةِ المشركين مساجدَ اللّٰهِ من جهة نفيِ استتباعِ الثواب لحبطِ العمل، وأفادت الجملة الثانيةُ ﴿وَفِي ٱلنَّارِ هُمۡ خَٰلِدُونَ﴾ نفيَ الصِّحَّةِ من جهة نفي استدفاع العذاب[3].

(1) السّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: 6/30، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/50، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/141، والشّوكانيّ، فتح القدير: 2/393.

(2) محمد رضا، تفسير المنار: 10/189.

(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/50.

﴿إِنَّمَا يَعۡمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمۡ يَخۡشَ إِلَّا ٱللَّهَۖ فَعَسَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُهۡتَدِينَ ١٨﴾ [التّوبة: 18]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

المناسبة بين نفي تعمير المساجد بالكفر، وبين أحقّية المؤمنين بعمارتها

لمّا نفى اللّه تعالى عن الكافرين أهليَّةَ عمارةِ مساجدِ اللّه بيَّن من يصلحُ أن يعمرَها، فذكر صفاتِ عُمَّار مساجدِ اللّه، فقال: ﴿إِنَّمَا يَعۡمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ﴾ الآيةَ، لبيانِ ضرورة عمارة مساجدِ اللّه[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾: الهدى ضدُّ الضَّلال، والهدايةُ هنا بمعنى توفيق اللّه الذي يختصُّ به من اهتدى، وهو المعنيُّ بقولِه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ زَادَهُمۡ هُدًى﴾ [محمد: 17]، وقولِه: ﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ هُدًىۗ﴾ [مريم: 76]، وكلُّ هداية ذكرَ اللّه ﷻ أنَّه منع مِنها الظَّالمين والكافرين؛ فهي هدايةُ التَّوفيق الذي يختصُّ به المهتدون، ولفظ المهتدي يفيد أنَّه حصَلَ البذلُ مِنَ الهَادِي في الهدايةِ، وحصَلَ القبولُ المفيدُ من المحلِّ، ولهذا يقال: هداهم اللّهُ، فاهتدَوا، والاهْتِدَاءُ هنا: هو تحرِّي الهداية وقبولُها والعملُ بها حتَّى تصيرَ وصفًا ثابتًا لمن يتحرَّاها[2].

المَعْنى الإِجْمالِيُّ:

عُمَّارُ مساجدِ اللّه، هم أهل الإيمان باللّه، والإخلاص له دون سواه

إنَّما يعمُرُ مساجد اللّه، ويُعتدُّ بعمارتِه، ويثابُ عليها، مَن آمنَ باللّه وحده وآمن باليوم الآخر موعدًا ومصيرًا، وحسابًا وجزاءً، وأدَّى الصَّلاةَ على وجهِها المشروعِ في مواقيتِها، وأعطى الزَّكاةَ بأنواعِها ومقاديرِها لمستحقِّيها، وَفْقًا لِمَا جاءَ به الرَّسولُ ﷺ وامتثالًا

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 15/518، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 8/401.
(2) الرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (هدى).

لأَمرِه وإيمانًا به، ولم يخَفْ في الحقِّ غيرَ اللّهِ تعالى، فأولئك خليقٌ بهم أن يكونوا هم المهتدين إلى الحقِّ[1].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ الاستئناف البيانيّ:

لا بدَّ من إعمارِ مساجدِ الله بالبناء وإقامةِ العباداتِ فيها

لمّا نفى اللّهُ تعالى عن الكافرينَ صحَّةَ عمارتِهم مساجدَ اللّه، وبيَّنَ عدمَ أهليَّتهم للأمر؛ اقتضى سؤالًا في نفوسِ السَّامعينَ، مفادُه: إذا كان الكفَّارُ لا يعمرونَ مساجدَ اللّهِ، وكان لا بدَّ من عمارتهم، فمن يعمرُها؟ إشعارًا بأنَّه لابدَّ من إعمارِ مساجدِ اللّه سواءٌ كان بالبناء أم بالعبادة والقيامِ عليها، فكان قولُه تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعۡمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ﴾ مفيدًا الجوابَ على السُّؤال المقدَّر.

دلالةُ القصرِ بأداة الحصر ﴿إِنَّمَا﴾:

قصرُ عُمَّارِ مساجدِ الله على المؤمنين، فيه مزيدُ تكريمٍ لهم

عبَّرَ بـ ﴿إِنَّمَا﴾ لإفادة تأكيد المعنى وتقريرِه، والتقدير: ما يعمرُ مساجدَ اللّه إلَّا من آمن باللّه واليوم والآخر، وللدَّلالة على تقريرِ معنى تحقُّقِ العمار ووجودِه، أي: إنَّما يَعْمُرُها بالحقِّ والواجبِ، ويَسْتَقيمُ وقوعُها، ويصحُّ فيمَنِ اتَّصَفَ بهذه الأوصاف، فالمراد من القصرِ ههنا أنَّ عمارةَ مساجدِ اللّه مقصورةٌ على المذكورين بالفعلِ والتَّحَقُّقِ لا بمجرَّد الجوازِ والاستحقاق واللِّياقة، وهو الَّذي يقتضيه مقامُ الإيجابِ المخالفُ لمقامِ السَّلب في الآية السَّابقة[2].

بلاغةُ أسلوب القصرِ بلفظ ﴿إِنَّمَا﴾:

عِمارةُ المؤمنين مساجدَ اللهِ دونَ غيرِهم أمرٌ واضحٌ

لمّا كان التَّعبيرُ بـ ﴿إِنَّمَا﴾ يسلك مع مخاطَبٍ لا يصرُّ على خطئِه، أو يجب عليه ألَّا يصرَّ على خطئِه لوضوح الحكمِ وجلائِه، وأنَّه معلومٌ للجميعِ، ولا يحتاج إلى دليلٍ؛ دلَّ على وضوحِ قصرِ الصِّفةِ - وهي عمارة مساجد اللّه - على المؤمنين، أي: لا يعمرُها إلَّا مَن آمن باللّه

(1) ابن جرير، جامع البيان: 14/167، ومجمع البحوث، التّفسير الوسيط: 3/1671.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/51، ومحمد رضا، تفسير المنار: 10/189.

واليوم الآخر، وأنَّ الأمرَ من الجلاء بحيثُ إنَّ المخاطب الذي ظنَّ خلافَهُ إذا سمع هذا الخطابَ لايدفعُ صحَّتَه، وتلقَّاه بالقبولِ، ورجعَ إلى الصَّواب، ولمَّا كان هذا الأسلوبُ لردِّ المخاطَب عن خطأٍ وقع فيه ظنًّا أو عملًا؛ أفادَ تأكيدَ عدمِ صحَّةِ أن يعمرَ المشركون مساجدَ اللّه، فأفادَ القصرُ بـ ﴿إِنَّمَا﴾ تقريرَ معنى الآيةِ السَّابقة، وإفادةَ قصرِ وصفِ الإعمار على المؤمنين، وأنَّ هذا الخبرَ يعلمُه المخاطبون، ويقرُّون به، ولا ينكرونه بحالٍ، ولمّا أفادَ القصرُ نفيَ صحَّةِ عمارةِ المشركين مساجدَ اللّهِ، وأبطلَ أهليَّتَهم، وأثبتَها للمؤمنين؛ دلَّ على أنَّ عمارة مساجدِ اللّه أمرٌ لا بدَّ من حصولِه ووقوعِه[1].

فائدةُ التَّعبير بصيغة المضارعِ ﴿يَعۡمُرُ﴾:

عُبِّرَ بصيغة المضارع لإفادة تجدُّد الحدث واستمرارِه حالًا فحالًا، ففيه حثٌّ على استمرارِ عمارة مساجدِ اللّه ببنائها والعبادة فيها.

الحثُّ على استمرارِ عمارة مساجدِ اللهِ، ببنائِها والقيامِ بحقِّها

دلالةُ جملة عمران مساجد الله تعالى:

دلّ قولُهُ: ﴿يَعۡمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ﴾ على أنَّ عمارةَ المساجد تتناول رمَّ ما استرمَّ منها، وقمَّها وتنظيفَها، وتزيينَها بالفُرُش وتنويرَها بالمصابيحِ، وتعظيمَها، واعتيادَها للعبادةِ والذِّكرِ، ومن الذِّكرِ درسُ العلمِ، بل هو أجلُّه وأعظمُه، ومن عمارتِها صيانتُها عَمَّا لَمْ تُبْنَ لَهُ من حديثِ الدُّنيا ممَّا لا علاقةَ له بأمورِ الدِّين[2].

عمارةُ المساجدِ ببنائِها وإصلاحِها والقيامِ بحقِّها

بلاغةُ إقامةِ الظَّاهر مُقَامَ الضَّميرِ:

لم يقل: (إنَّما يعمرها) معَ قربِ ذكر ﴿مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ﴾ في الآية السَّابقة، فأعادَ الاسمَ الظَّاهرَ في مقامِ وضعِ الضَّمير؛ ليكونَ الكلامُ على خلافِ مقتضى الظَّاهر؛ ليفيدَ الحكمُ عمومَ المعنى، لئلَّا يُتَوهَّمَ أنَّه مختصٌّ بعمارة المسجد الحرامِ، فيكونَ اللَّفظ شاملًا

كفرُ الكافرِ باللهِ يتنافى مع إعمارِه مساجدَ اللهِ

(1) الجرجانيّ، دلائل الإعجاز، ص: 331، والسّكاكيّ، مفتاح العلوم، ص: 291 - 295، وأبو حيّان، البحر المحيط: 5/387.

(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/254، وأبو حيّان، البحر المحيط: 5/387.

لجميعِ المساجدِ، ويكونَ من بابِ ذكرِ العامِّ بعدَ الخاصِّ، فاقتضى إعادةَ ذكرِه، كما أنَّه لمّا جاء بأداة القصر ﴿إِنَّمَا﴾ وكان في سياق بيانِ وضوحِ الخبر وجلائهِ كرَّر ﴿مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ﴾؛ للإشعارِ بأنَّ إعمارَ مساجدِ اللّٰه إنَّما يكونُ إعمارًا لها إذا كان الذي يعمُرُها هو المؤمنَ، فأمَّا الكافرُ؛ فإنَّ كفرَهُ باللّٰه يتنافى مع إعمار مساجدِ اللّٰه التي تكون لعبادتِه وتوحيده.

دلالةُ الجملةِ الخبريَّةِ على الطَّلبِ:

جاء قوله: ﴿يَعۡمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ﴾ بصيغة الجملة الخبريَّة، للإخبار عمَّن يعمرُ مساجدَ اللّٰهِ، وتضمَّنت أمرَ المؤمنين بعمارةِ المساجدِ، فأفادت أنَّ على المسلمين عمارةَ المساجدِ، كما أفادت أنَّ عمارةَ المساجدِ تكون بهم لا بغيرهم، وهم من ينبغي أن يعمروها[1]، ولمّا تضمَّن الخبرُ هنا معنى الطَّلب، ولم يقل مثلًا: (اعمروا مساجدَ اللّٰه)؛ كان الكلامُ على خلافِ مقتضى الظَّاهر، وفائدتُه هو قصدُ التَّفاؤل بوقوعِ عمارِها، وإظهارُ الرَّغبةِ في وقوعِها والرِّضا عنه، للإخبارِ عن حصولِهِ في الحالِ وفي المستقبلِ، وفيه حملُ المؤمنين على عمارتها بأبلغِ عبارةٍ وألطفِها، وفيه إشعارٌ كذلك بأنَّهم يتسابقونَ إلى عمارتها، ويعمُرونها قبل الأمرِ بها، فيكون مدحًا لهم[2].

المؤمنونَ يتسابقون إلى عمارة المساجدِ، والقيامِ بحقِّها، تقرُّبًا إلى الله تعالى

سببُ عدمِ ذكر الإيمانِ بالرَّسول في الآية:

قد يقالُ: هلَّا ذَكَرَ الإيمانَ برسولِ اللّٰه ﷺ، فإنَّه أهمُّ من إقامةِ الصَّلاة وإيتاء الزَّكاة؟! وجوابُه: أنَّه لمَّا عُلِمَ، وشُهِرَ أنَّ الإيمانَ برسولِ اللّٰه ﷺ مقترنٌ بالإيمانِ باللّٰه تعالى؛ لاشتمال كلمة الشَّهادة والأذانِ والإقامةِ وغيرِها عليهما مقترنين مزدوجَين؛ كأنَّهما شيءٌ واحدٌ غيرُ منفكٍّ أحدُهما عن صاحبِه، انطوى تحت ذِكْر الإيمان

الإيمانُ باللّٰه يقتضي الإيمانَ برسولِه ﷺ

(1) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنّة: 5/317، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/15، وأبو حيّان، البحر المحيط: 5/387.

(2) السّكاكيّ، مفتاح العلوم، ص: 324 - 325.

باللّه تعالى الإيمانُ بالرسول ﷺ، كما أنَّ ذِكْرَ ﴿وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ﴾ يتضمَّن الإيمانَ بالرَّسولِ؛ إذْ لا يُتَلَقَّى ذلك إلَّا منه ﷺ، وأيضًا ذكرُ إقامة الصَّلاة وإيتاء الزَّكاة دليلٌ على ذِكر الرَّسول؛ لأنَّه قامَ ببيانِهما وتحديدِهما، وإقامةُ الصَّلاةِ تستلزمُ ذكرَه بوصفِ الرِّسالة أيضًا[1].

وأيضًا لمّا كان المشركون يقولون: إنَّ محمَّدًا ﷺ إنَّما ادَّعى الرِّسالةَ طلبًا للرِّئاسة ناسبَ أنْ يذكر ههنا الإيمان باللّهِ واليوم الآخر، ويُتركَ ذكرُ النُّبوةِ، لِما يفيدُه عُمَّارُ مساجد اللّه من معنى الشَّرفِ والرِّئاسةِ، فكأنَّه يقولُ: ليس مطلوبي من تبليغ الرِّسالة إلَّا الإيمانَ بالمبدأ والمعادِ، فذكرَ المقصود الأصليَّ، وحذفَ ذكرَ النُّبوَّةِ؛ تنبيهًا للكفَّارِ على أنَّه لا مطلوبَ له ﷺ من الرِّسالةِ إلَّا هذا القدر[2].

أو يقال في بيانِ السَّببِ: إنَّه لمّا كان الكلامُ في عمارةِ مساجدِ اللّهِ ناسبَ التَّصريحَ بما يُحتاجُ إليه من الأحكام العلميَّة والعمليَّة في عمارتِها، ولاسيَّما أنَّ المقامَ مقامُ إيجازٍ، فذكرَ الإيمانَ باللّه؛ لأنَّه الأصلُ، وعطفَ عليه اليومَ الآخر لبيانِ أنَّ المؤمنين إنَّما يعمرونها رجاءَ الثَّواب عندَ اللّه يومَ القيامةِ لا للتَّفاخر بها في الدُّنيا؛ ليكونَ ردًّا على ما فعلَه الكافرون عندَ عمارةِ المسجدِ الحرام، ولهذا لم يَذكرِ الإيمانَ بالملائكة ولا بالكتابِ، كما لم يَذكرِ الإيمانَ بالرَّسولِ، فالكلامُ لا تعلُّقَ له بالإيمانِ برسالةِ الرَّسول ﷺ، وإن كانَ مضمَّنًا فيما ذكر، فلا يصحُّ أصلُ الإيمانِ إلَّا بالإيمانِ به وبرسالتِه ﷺ، كما أنَّه ذكرَ إقامةَ الصَّلاة وإيتاء الزَّكاةِ لبيانِ أهمِّ الأحكامِ العمليَّة التي يفعلها عُمَّار مساجدِ اللّه، فعمارة المساجد ليست مقصودةً لذاتها، بل لِلدلالة على رسوخ الإيمان، فناسبَ ذكرُ إِقَامَةِ الصَّلَاةِ؛ لأَنَّ المَقْصُودَ مِنْ بِنَاءِ المَسَاجِدِ وَعِمَارَتِهَا هُوَ كَوْنُهَا مُجْتَمَعًا لِإِقَامَةِ الصَّلَوَاتِ فِيهَا وَالتَّعَبُّدَاتِ مِنَ الذِّكْرِ وَالاعْتِكَافِ وَغَيْرِهِمَا، وَنَاسَبَ ذِكْرُ إِيتَاءِ الزَّكَاةِ مَعَ عِمَارَةِ المَسَاجِدِ أَنَّهَا لَمَّا كَانَتْ مَجْمَعًا لِلنَّاسِ بَانَ فِيهَا أَمْرُ الغَنِيِّ وَالفَقِيرِ، وَعُرِفَتْ أَحْوَالُ مَنْ يُؤَدِّي الزَّكَاةَ وَمَنْ يَسْتَحِقُّهَا[3]، فلم يذكر في الكلامِ إلَّا ما يوفي به المعنى المرادُ، فلكلِّ

(1) الزّجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 2/438، والزّمخشريّ، الكشّاف: 2/255.
(2) ابن عادل، اللّباب في علومِ الكتاب: 10/46، والنّيسابوريّ، غرائب القرآن: 3/443.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/387، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 8/402.

سياقٍ خَصوصيَّتُه في المعاني والألفاظ التي يحتاج إليها المخاطب للإقرارِ والإذعان.

سببُ إيثار التَّعبيرِ بالاسم الموصول ﴿مَنْ﴾:

عُبِّرَ بـ ﴿مَنْ﴾ دون (الذي)؛ لأنَّه أعمُّ معنى وأكثرُ استغراقًا، والتَّقديرُ: إنَّما يعمرُ مساجدَ الله كلُّ مَنْ آمنَ باللهِ واليومِ الآخرِ، فقد يكون مفردًا أو جمعًا، وقد يكون ذكرًا أو أنثى.

عمارةُ مساجدِ الله من علاماتِ الإيمان العميق بالله

كما أنَّ لفظ "مَن" وما فيه من إبهام وعموم ينسجم مع عمارة القلوبِ بالإيمان؛ حيث إنَّه لا يطَّلع على ما فيها إلَّا اللهُ تعالى، ولكنَّ عمارتَها بقلوب المؤمنين وقوالبِهم، علامةٌ على ذلك الإيمان.

روى أبو سعيد الخدري رضي الله عنه عنِ النَّبي ﷺ أنَّه قال: «إذا رأيتم الرَّجل يعتاد المسجدَ، فاشهدوا له بالإيمان، فإنَّ الله تعالى يقول: ﴿إِنَّمَا يَعۡمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾»[1].

بلاغةُ مجيءِ الكلامِ بطريقِ ذكر الموصولِ وصلتِه:

وضوحُ أوصافِ من يعمرُ مساجدَ الله، وسهولةُ الاتِّصافِ بها

عُبِّرَ بأسلوب الموصولِ وصلتِه في قوله: ﴿مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمۡ يَخۡشَ إِلَّا ٱللَّهَۖ﴾؛ للإشعارِ بأنَّ جملةَ الصِّلة - وهي الجمل الفعليَّة الأربع - معلومةُ الانتساب إلى معيَّنينَ يعرفهم المخاطَبون بحكم اتِّصافهم بما ذكر في جملةِ الصِّلة؛ لظهورِ هذه الأوصافِ فيهم، ففيهِ تنبيهٌ إلى وضوح هذه الأوصافِ وسهولةِ الاتِّصافِ بها، كما أنَّ جملةَ الصِّلَةِ أومأت إلى سببِ أن يكونَ المذكورون هم الذين يعمرون مساجد الله دونَ غيرهم، فالسَّببُ هو اتِّصافُهم بالأوصافِ المذكورة، وفي الصِّلة تعريضٌ بتفخيم شأنِ عمارةِ مساجدِ الله وتعظيمِ شأنِ الإيمان بالله، كما أنَّ تخصيصَ

(1) أخرجه الترمذي في سننه، برقم: (3093)، وقال: حديث حسن غريب، وأحمد في المسند: 3/68، برقم: (11651)، والدارمي في مسنده، برقم: (1259)، وابن خزيمة في صحيحه، برقم: (1502)، وابن حبان في صحيحه، برقم: (1721).

الصَّلاة والزَّكاة بالذِّكر تفخيمٌ لشأنِهما وحثٌّ على التَّنبُّهِ لهما، كما أفادت الصِّلةُ أنَّ خشية الله وحده هي طريق المهتدين.

فائدةُ التَّعبيرِ بالفعل الماضي، والمضارع المنقلب إلى الماضي بالجزم:

مدحُ من يعمرُ مساجدَ الله بالإقبالِ وتحقُّقِ الامتثالِ

قوله: ﴿ءَامَنَ﴾، ﴿وَأَقَامَ﴾، ﴿وَءَاتَى﴾، ﴿وَلَمْ يَخْشَ﴾، عبِّرَ بصيغة الماضي في أفعال جملة الصِّلة؛ للإيذانِ بتحقُّق إيمانِهم وإقامتهم الصَّلاةَ وإيتائهم الزَّكاةَ، وكونِهم لم يخشوا إلَّا الله على جهة الجزمِ؛ ليكونَ في سلكِ المقطوعِ بوقوعِه، مدحًا لهم وإشعارًا بالإقبالِ والمبالغةِ في الامتثال، وعبَّر في الفعل ﴿يَخْشَ﴾ بصيغة المضارع المنفي بـ ﴿وَلَمْ﴾ لِخَصوصيَّة إفادةِ الحصرِ، كما سيأتي.

دلالةُ الواوِ في قوله: ﴿وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾:

الإيمانُ أصلُ الأوصافِ النَّبيلةِ، وبه قيامُها وتحقُّقها

عُطِفَ ﴿وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ على الاسم الجليل بالواو؛ لإفادةِ التَّشريك في حكم الإيمانِ، ولم يقل: (من آمن بالله وآمن باليوم الآخر) فلم يكرِّرِ الفعلُ؛ للإشعارِ بأنَّ المعطوفَ والمعطوفَ عليه أَمرٌ واحدٌ في مقتضى الإيمانِ، فكلاهما تصديقٌ قلبيٌّ، فجاء على الأصلِ في العطفِ، كما أنَّ الكلامَ جاء على طريقِ الإيجاز، وقدِّمَ الإيمانُ بالله على سائر الأوصافِ؛ لأنَّه أصلُها، وبهِ قيامُها وتحقُّقها.

مناسبةُ العطفِ في جملة: ﴿وَلَمْ يَخْشَ﴾:

من بنى المسجدَ رياءً وسمعةً لم يكن عامرًا له

لمّا جاءتِ الجملةُ في سياق الرَّدِّ على المشركين الذين كانوا يتفاخرونَ ببناء المسجدِ الحرامِ وسقايتِهم الحجَّاج وغيرِها من أعمالِ البرِّ، دلَّ التَّعبير على عموم المعنى، أي: من يعمرُ مساجدَ الله لا يخشى إلا الله، ويدخل فيه دخولًا أوَّليًّا من يبني المسجدَ لله، لا لأجل رياء ولا سمعة، ولكن يبنيه لمجرَّد طلَبِ رضوان الله، ففيه كنايةٌ أنَّ من بنى مسجدًا رياءً وسمعة، لم يكن عامرًا له، وفيه نكتةٌ لطيفة أخرى، وهي: أنَّه لمّا كانَت الخشيةُ تُرجَّح في حال الصِّحَّة والقوَّة، والرجاء يُرجَّح في حال المرض والضَّعف؛ ناسب أن يذكر الخشيةَ

لِما يصاحبُ عمارةَ المساجدِ من القوَّة غالبًا، وأيضًا لمّا كان السِّياق السَّابق في الحثِّ على مقاتلةِ المشركين النَّاكثين عهودَهم اندرج فيه عدمُ الخشيةِ عند القتال ونحوُ ذلك، كما أنَّ قولَهُ: ﴿وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ يشيرُ إلى أنَّه لا يكفي في الإيمان مجرَّد الإقرار باللِّسان، بل لا بدَّ في ذلك من إيجادِ التَّصديقِ - حقيقةً - المثمرِ لخشية الله[1].

دلالةُ الحصرِ:

المؤمنُ لا يخافُ في الله لومةَ لائمٍ

قد يقالُ: المؤمن يخشى المحاذيرَ، ولا يتمالكُ ألَّا يخشاها، والخشيةُ أمرٌ طبعيٌّ لا يمكن دفعه عن النَّفس، فما وجهُ الحصرِ في قولِهِ: ﴿وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾؟ وجوابُه: أنَّ الحصرَ إضافيٌّ، وليس حقيقيًّا، فالمرادُ بالخشية الخشيةُ في أبواب الدِّين وليس الخشيَة الغريزيَّة، كخشية أسباب الضَّرر الحقيقيَّةِ، فإنَّ هذا لا ينافي خشية الله، فليس المرادُ من الخشيةِ أنَّهم لا يخافونَ شيئًا غيرَ الله، فإنَّهم قد يخافون الأسدَ، ويخافون العدوَّ، ولكن معناه: إذا تردَّد الحال بين خشيتهم الله، وخشيتهم غيرَه؛ قدَّموا خشيةَ اللهِ على خشيةِ غيرِه، وألَّا يختار على رضا الله رضا غيره لتوقُّع مخوفٍ[2].

بلاغةُ التَّعريض:

ترغيبُ المؤمنين في ترجيح الخشيةِ على الرَّجاءِ، عندَ مقامِ الرَّدِّ على المتفاخرين

وفي هذا الكلام تعريضٌ بالمؤمنين ولطفٌ بهم وترغيبٌ لهم في ترجيح الخشيةِ على الرَّجاء ورفْضِ الاغترار بالله تعالى، لمناسبةِ المقامِ مقامَ الخشية من الله ألَّا يُقبلَ عملُهم، ليكونَ ردًّا على المتفاخرين بأعمالِ البرِّ[3].

توجيهُ متشابهِ القرآن:

قال الله تعالى: ﴿فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ١٣﴾

(1) ابن عادل، اللّباب في علومِ الكتاب: 10/46، والنّيسابوريّ، غرائب القرآن: 3/443، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 8/402، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/51، والآلوسيّ، روح المعاني: 5/260.

(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/255، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل وأسرار التّأويل: 3/75، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/142.

(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/255، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/51.

لكلِّ آيةٍ مقامُها وسياقُها، فيختلفُ نظمُها لفظًا ومعنًى

[التّوبة: 13] وقال هنا: ﴿وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾، ولكلِّ آيةٍ مقامُها ومعناها، وبيانه: أنَّه في الآية الأولى جاء الكلامُ بطريق الإثباتِ، أي: إثباتِ أنَّ اللّه أحقُّ أنْ يُخشَى؛ لأنَّه لمّا أنكر عليهم خشيتَهم من الكافرين في قوله: ﴿أَتَخْشَوْنَهُمْ﴾، دلَّ على ثبوتِ الخشيةِ عندهم، فعرَّفهم بأحقِّيَّةِ موضعِ الخشية، وأين ينبغي أن تصرفَ، فقال: ﴿فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾، فجاء على طريقِ الإثباتِ، وإنْ تضمَّن الكلامُ معنى الحصرِ، وأمَّا في هذه الآية؛ فإنَّه جاء بطريق النَّفي والإثبات، وهو أبلغ؛ لكونه نفى نفسَ الخشيةِ على العمومِ، ثمَّ أثبتَها للّه تعالى، للإيذانِ بأنَّ المشركين الذين كانوا يعمرون المسجد الحرامَ متباهين متفاخرين لم يخشوا اللّه وحده، وأنَّهم كانوا مصرِّين على خطَئِهم هذا، فناسب أن يقول هنا: ﴿وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾؛ ليكونَ الكلامُ على خلافِ مقتضى الظَّاهر؛ لِمَا فيه من التَّعريض بالمشركين[1].

دلالةُ الفاءِ في قوله: ﴿فَعَسَىٰٓ﴾:

الاتِّصافُ بأوصافٍ من يعمُرُ مساجدَ اللهِ سببٌ إلى الاهتداء

تفيدُ الفاءُ معنى السببيَّةِ، بمعنى ترتُّب توقُّع الَّذين يعمرون مساجدَ اللّه اهتداءَهم على اتِّصافِهم بالنُّعوت المذكورة، للإيذانِ بالمبادرة إلى الاتِّصاف بهذه الأوصاف الجميلة؛ لأنَّه سببٌ في رجائهم المذكور.

دلالةُ ﴿فَعَسَىٰٓ﴾:

المشركون بعيدونَ عن الاهتداءِ بالكفران، والمؤمنون يرجون الفوزَ به بالإيمان

أفادتْ (عسى) التّبعيدَ للمشركين عن مواقف الاهتداءِ، وحَسْمَ أطماعهم مِنَ الانتفاع بأعمالهم التي استعظموها، وافتخروا بها، وأمَّلُوا عاقبتَها، كما أفادت (عسى) الرَّجاءَ الراجعَ للعبادِ، فكأنَّ المعنى: إنَّ الذين يأتون بهذه الطَّاعات إنَّما يأتون بها على رجاء الفوز بالاهتداءِ لقولهِ تعالى: ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ [السجدة: 16]، وذهب

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/403.

بعضُ المفسِّرين إلى أنَّ ﴿فَعَسَىٰٓ﴾ هنا بمعنى الحصولِ والوقوع؛ لأنَّها من اللّٰه واجبةٌ، وإنَّما عبِّرَ بصيغة الرَّجاء والتَّوقُّع ردًّا على المشركين، وقطعًا لأطماعهم في الاهتداء والانتفاع بأعمالهم وتوبيخًا لهم بالقطع بأنَّهم مهتدون، فإذا كانَ الذين جَمَعوا هَذِهِ الخِصَالَ الأَرْبَعَةَ جُعِلَ اهتداؤهم دائرًا بين عسى ولعلَّ، فحالهم مرجوَّة، فما ظنُّك بأضدادهم المشركين الذين يقطعون أنَّهم مهتدون ونائلون عند اللّٰه الحسنى، وليس لهم حظٌّ من هذه الأوصافِ؟ وفي التَّعبير بـ ﴿فَعَسَىٰٓ﴾ منعٌ للمؤمنين أنْ يغترُّوا بأحوالهم، ويتَّكِلوا عليها، وأيضًا: لمَّا كانت حقيقةُ الرجاء ظنَّ حصولِ أمرٍ وقعت أسبابُه، واتُّخِذَتْ وسائلُه من مبتغيه، ولم يبقَ لحصوله إلَّا أن تكون وقعت على وجهها المؤدِّي إلى الغاية، وألَّا تعارضَها الموانعُ التي تكون راجحةً على المقتضى، أفادَ أنَّ مَنِ اتَّصف بهذه النُّعوتِ حقيقٌ بأن يكونَ من المهتدين، ولكن لا يمكن أن يجزم بذلك لمعرفتِه باللّٰه وخشيتِه له، فناسبَ ذلك التعبيرُ بلفظٍ يفيد طمعَهم في حصول الاتِّصاف بوصفِ المهتدين ورجاءَه بعدَ الأخذِ بأسبابِه[1].

دلالةُ اسم الإشارة: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾:

عُبِّرَ باسم الإشارة لتمييز المنعوتين بتلك النُّعوت الجميلة أكملَ تمييز، وللإشعارِ بأنَّها من أكمل النُّعوتِ، ولبيانِ أنَّها نعوتٌ واضحةٌ سهلةُ التَّحصيلِ، وللتَّنبيه على أنَّهم استحقُّوا هذا التَّوقُّع فيهم بسبب تلك الأعمال التي عُدَّتْ لهم، وعلى أنَّ المطلوب تحصيلُها على جهة اجتماعِها فيهم، وجاء باسم الإشارة الَّذي للبعيد للإشعارِ بعلوِّ مكانتِهم ورفعتِهم بما اتَّصفوا به[2].

علوُّ مكانةِ من يَعمُرُ مساجدَ اللّٰه ورفعةُ أوصافِهِ

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/255، والفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 16/11، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل وأسرار التّأويل: 3/75، وأبو حيّان، البحر المحيط: 5/378، ومحمد رضا، تفسير المنار: 5/362.

(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 5/260، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/142.

دلالةُ ﴿أَن﴾ المصدرّية:

أفادَ التَّعبيرُ بـ﴿أَن﴾ المصدريّة أنَّ كونَهم مهتدين هو فيما يُستقبل من الزَّمان، ليناسبَ (عسى) التي وضعت لمقارنة المستقبل[1]، أي: لتفيدَ توقُّعَ الحصولِ وقربَهُ في المستقبل.

ملازمةُ من يعمرُ مساجدَ الله، تفيد قربَ التمكُّن من الاهتداء

دلالةُ ﴿مِنَ﴾ في الآية:

في قوله تعالى: ﴿فَعَسَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾، تفيد (مِن) التَّبعيض، ولم يقل: (فعسى أولئك أنْ يَكُونُوا مُهْتَدِينَ)، بَلْ جُعِلُوا بَعْضًا مِنَ الْمُهْتَدِينَ، وَكَوْنُهُمْ مِنْهُمْ أَقَلُّ فِي التَّعْظِيمِ مِنْ أَنْ يُجَرَّدَ لَهُمُ الْحُكْمُ بِالْهِدَايَةِ، وسببُ مجيء الوصف على التَّبعيض هو أنَّهم لمَّا أتَوا بالنُّعوت الَّتي تؤهِّلهم للاهتداء؛ قويَ الأملُ في أنْ يستقرُّوا على وصفِ الاهتداء، ويصيرَ خُلُقًا لهم، فيكونوا من أهله، ففيه حثٌّ على الاستزادةِ من هذا الاهتداءِ، وتحذيرٌ من الغرورِ والاعتمادِ على بعض العملِ الصالحِ باعتقادِ أنَّ بعضَ الأعمالِ يُغني عن بقيَّتِها، وفيه إشعارٌ بأنَّ الاهتداء يكونُ بأعمالٍ أخرى من العباداتِ والطَّاعاتِ[2].

التَّحذيرُ من الغرورِ بالاعتمادِ على بعض العملِ الصّالحِ والاكتفاء به

نكتةُ التَّعبيرِ بلفظ ﴿ٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾:

عُبِّرَ بصيغة (افتعل) للإشعارِ بأنَّهم مجتهدون في الاهتداء، وطالبون له، كما أنَّ في الصِّيغة معنى المبالغة في طلبِ الاهتداء، ولمَّا كانَ (اهْتَدَى) مُطَاوِعَ (هدى)، ومطاوعُ الشَّيْءِ لَا يكون مُخَالِفًا لَهُ فِي أصل الْمَعْنَى، أي: هديتُه، فاهتدى؛ دلَّ على أنَّ الهدايةَ قُدِّمت لهم، فهم على طمعِ حصولِ الاهتداء واتِّصافِهم به قريبًا، وفي التَّعبير بلفظ ﴿ٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾ مدحٌ لهم[3].

المؤمنُ مجتهدٌ في الاهتداء، وطالبٌ له في السّراء والضّراء

(1) الأنباريّ، أسرار العربيّة، ص: 109.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/387، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/142.
(3) الرّضيّ، شرح شافية ابن الحاجب: 1/110، والكفويّ، الكلّيّات، ص: 952.

سرُّ تعليق اهتداءِ مَنْ آمن بالله واليوم الآخر، بلفظ ﴿فَعَسَىٰٓ﴾:

المهتدي مَن ثبتَ له وصفُ الاهتداء وتمكَّنَ منه

قد يقالُ: إنَّ الذي اتَّصفَ بالأوصافِ المذكورة قد هديَ، ولولا أنَّه قد هُدي لَمَا آمن بالله واليومِ الآخر، وأقامَ الصَّلاة وآتى الزَّكاةَ، فكيف يعلَّقُ اهتداؤه على رجاء الوقوع والطَّمع فيه؟ وجوابُه: أنَّه لمّا عُبِّرَ بصيغة اسم الفاعل المشتقِّ ﴿ٱلْمُهْتَدِينَ﴾ آذنَ بأنَّ المرادَ ليس أصلَ الاهتداء - أي: الهدايةَ - بل ثبوتُ وصفِ الاهتداء عندهم، وتمكُّنُه فيهم، وهو يأتي بعدَ هدايتِه للإيمانِ بالله وما عطِفَ عليه، فيكون المهتدي أرقى مقامًا وأرفعَ درجةً، "فحالُ هؤلاء المؤمنين حال مرجوَّةٌ؛ لأن يكونوا من المهتدين"[1]، وهذه الحالُ هي حالُ الاتِّصاف بصفة التَّوفيق من الله تعالى، وهي أعلى مراتبِ الاهتداء في الدُّنيا[2]، ويشعرُ الكلامُ بأنَّ استمرارَهم في هذه الأعمال الشَّريفة وتجدُّدَها منهم سبيلٌ إلى أنْ يكونوا من المهتدين.

بلاغةُ حذفِ متعلَّق ﴿ٱلْمُهْتَدِينَ﴾:

فائدةُ حذفِ المتعلَّق دائرةٌ بين ثبوتِ الوصفِ وإفادةِ العموم

لمّا كان الأصلُ أن يقالَ: اهتدى إلى كذا؛ دلَّ على أنَّ المحذوفَ هو الغاية التي يطلبُها المهتدي، فحُذفَ المتعلَّقُ؛ للإشعار بأنَّ المرادَ ثبوتُ وصفِ الاهتداء لهم وتمكُّنُه فيهم، بحيث يكون الاهتداءُ سجيَّةً لهم، وهو الظَّاهر، كما تقدَّم، ويحتملُ أن يكون المحذوف مقدَّرًا من السِّياق، والمعنى: فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين إلى الله وإلى مُوجِباتِ رحمتِه وإلى مَباغِيهم من الجنَّةِ وَمَا فِيْهَا منْ فنونِ المطالبِ العليَّةِ، فيكون الحذفُ لإفادة العموم[3].

سرُّ إيثار مجيء ﴿فَعَسَىٰٓ﴾ فعلًا ناقصًا:

تقريرُ قربِ اهتداءِ المتَّصفينَ بالأوصاف المذكورةِ، والمبالغة في مدحهم

عُبِّرَ بطريقة الفعل النَّاقص الذي يقتضي اسمًا وخبرًا، فكان ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ اسمًا لـ ﴿فَعَسَىٰٓ﴾، والمصدرُ المؤوَّلُ خبرُها، ولم يقل:

(1) ابن المُنَيِّر الإسكندريّ، الانتصاف من الكشّاف: 2/255، والقاسميّ، محاسن التّأويل: 5/362.
(2) الرّاغب، المفردات: (هدى).
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/51.

(فعسى أنْ يكون أولئك من المهتدين)، والسَّببُ هو: أنَّه لما اقترنَ بالكلامِ الإنكارُ على عُمَّار المشركين، وحَصَرَهُ بالمتَّصفين بالأوصاف المذكورةِ؛ ناسبَه تقوِّي الحكم بنفس الإسناد فيما يترتَّب على الاتِّصاف المذكور، فجاء الخبرُ مصدرًا مؤوَّلًا، كما أنَّ في الإخبار بالمصدر المؤوَّل مزيدَ مبالغةٍ؛ لأنَّه أخبر بالحدثِ عن الذَّاتِ، أي: عن ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾، فيكونُ من باب (زيدٌ عدْلٌ)[1]؛ فكأنَّ كلَّ الاهتداء فيه؛ ليفيدَ مدحهم، والمرادُ تحقيق رجاء فوزِهم بالاهتداء عندَ السَّامعين، وذهب البقاعيُّ: إلى أنَّ السَّببَ هو أنَّه عندما يقوى المعنى الذي سَيْقَتْ له من طمعٍ أو إشفاق، يُجعَلُ خبرُها اسمًا؛ تنبيهًا على أنَّها الآن بمنزلةِ (كان) لِمَا اشتدَّ من شبهِها لَها بذلك[2].

(1) خالد الأزهريّ، التّصريح على التّوضيح: 1/282.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/413.

﴿۞أَجَعَلۡتُمۡ سِقَايَةَ ٱلۡحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ كَمَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَجَٰهَدَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ لَا يَسۡتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٩﴾ [التوبة: 19]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا بيَّن اللّه تعالى مَن يَصلُحُ لعمارةِ المسجدِ الحرامِ من غيرِه؛ أنكرَ على مَنْ لمْ يُفرِّقْ بين الصِّنفينِ، فأخبر اللّه بالتَّفاوت بينهما في هذه الآية[1].

العلاقة بين عمارة المؤمنين للمساجد، وبين جعل السّقاية والعمارة مع الكفر، كالإيمان والجهاد

وأيضًا: لَمَّا وقع الكلامُ على أنَّ المؤمنين همُ الأحقَّاءُ بعمارةِ المسجدِ الحرامِ من المشركينَ؛ دلَّ ذلكَ الكلامُ على أنَّ المسجدَ الحرامَ لا يحِقُّ لغيرِ المسلم أنْ يباشرَ فيه عملًا مِنَ الأعمالِ الخاصَّةِ به، فكان ذلك مثارَ ظنٍّ بأنَّ القيامَ بشعائرِ المسجدِ الحرامِ مساوٍ للقيامِ بأفضلِ أعمالِ الإسلامِ[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿سِقَايَةَ﴾: مصدرٌ مِن (سقى) مثل: الرِّعاية والحمايةِ، ويحتمل: أن يكون اللَّفظ اسمًا للحرفة والصِّناعة، أي: السَّقي من ماء زمزم، ولذلك أضيفت السِّقايةُ إلى الحاجِّ، كما تطلقُ على الموضع الَّذي يُتَّخذ فِيهِ الشَّرَاب في موسمِ الحجِّ وَغَيرِه، وأصلُ (سقي): إشرابُ الشَّيءِ الماءَ وما أشبهَه، وسقاية الحاج بمعنى: سَقْي الحجيج الماءَ وما أشبهه[3].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/416.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/143.
(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (سقي)، ومحمد رضا، تفسير المنار: 10/196، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/134.

2) ﴿وَعِمَارَةَ﴾: إمَّا أن يكونَ اللَّفظ مصدرًا للفعل (عمر) بمعنى تعمير شيء بالإصلاح والمعاهدة والقيام بما يبقي عمارَهُ على امتدادِ الزَّمن، فالعِمارةُ: نَقيضُ الخَرابِ، وأصلُ (عمر): يدلُّ على بقاءٍ، وامتدادِ زمانٍ، وإمَّا أن يكون اسمًا لِلحرفة والصِّناعة[1].

3) ﴿يَهْدِى﴾: الهداية دلالةٌ بلطفٍ، والمراد بالهداية هنا: الدِّلالةُ الموصِلَةُ إلى الله، أو خلْقُ التَّوفيق الذي يختصُّ به من اهتدى إلى الحقِّ، وكلُّ هدايةٍ ذَكَرَ اللهُ ﷻ أنَّه منع الظالمين والكافرين منها؛ فهي بهذا المعنى[2].

❁ المَعْنى الإجْمالِيُّ:

الإيمانُ بالله واليوم الآخر والجهاد في سبيله، هي أعلى الأعمال وأرقاها عند الله

أَجَعَلْتم - أيُّها القوم - ما تقومون به من سقي الحجيج وعِمارة المسجد الحرام، كإيمانِ مَن آمن بالله واليوم الآخر، وجاهد في سبيل الله؟ لا تتساوى حالُ المؤمنين وحالُ الكافرين عند الله؛ لأنَّ الله لا يقبلُ عملًا بغير الإيمانِ، واللهُ سبحانه لا يوفِّقُ لأعمالِ الخير القومَ الظَّالمين لأنفسِهم بالكفر، فأعلمهم جلَّ ثناؤُه أنَّ الفخرَ في الإيمانِ بالله واليوم الآخر والجهاد في سبيله، لا في الذي افتخروا به من السِّقاية والعمارة[3].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

نكتةُ التَّعبير بلفظ ﴿أَجَعَلْتُمْ﴾:

الاعتقادُ الفاسد مُورِثٌ لآثارٍ سيّئة في القولِ والعمل

عبَّرَ بالجعل عن الاعتقاد[4]؛ لأنَّ اعتقادهم كان له آثارٌ في القولِ أو في الفعلِ، ونكتةُ التَّعبيرِ بالجعلِ: هو الإيذانُ بأنَّهم هم الذين أوجدوا هذا الجعلَ، وهو في الواقع غيرُ صحيح، ثمَّ اعتقدوه،

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، والرّاغب، المفردات: (عمر)، ومحمد رضا، تفسير المنار: 10/196، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/134.

(2) الرّاغب، المفردات: (هدى)، والكفويّ، الكلّيّات، ص: 954.

(3) ابن جرير، جامع البيان: 14/169، ونخبة من أساتذة التفسير، التفسير الميسر، ص: 189.

(4) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 9/182.

وحكمُوا بصيرورةِ سقايتهم الحاجَّ وعمارةِ البيتِ مثلَ من آمن باللّه واليومِ الآخر مع بطلانِ هذا الاعتقادِ.

بلاغةُ الاستفهامِ المجازي:

بطلانُ التَّسوية في الاعتقاد، بين عمارةِ الكفّار المسجدَ الحرام، والإيمانِ بالملك العلّام

في قوله تعالى: ﴿أَجَعَلْتُمْ﴾، همزةُ الاستفهام للإنكار المفيد معنى التَّوبيخ، والمعنى: إنكارُ اعتقادكم وحكمكم بتشبيهِ سقايةِ الحاج وعمارة المسجد الحرام بمن آمنَ باللّه واليوم الآخر، وجاهدَ في سبيل اللّه، ولمّا تضمَّن الإنكارُ هنا معنى النَّهي؛ دلَّ على أنَّ المعنى: لا تعتقدوا هذا التَّشبيه لبطلانِه وعدمِ صحَّتِه، فدلَّ الإنكارُ على لازمه كذلك، وهو بطلانُ التَّسويةِ بينهما في الواقعِ[1].

دلالةُ الخطاب بين الالتفات أو الدّلالة على مقتضى الظَّاهر:

توبيخُ المشركين، وبيانُ مكانة المؤمنين المجاهدين عند الله تعالى

الخطابُ إمَّا أن يكونَ للمشركين؛ ليكونَ على طريقةِ الالتفاتِ، بعدَ أن خاطبَهم على طريقِ الغَيْبة في قوله: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُواْ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: 17]، وهو المتبادر؛ فإنَّه لمّا ذكر الإيمانَ باللّه واليومِ الآخر في جانب المشبَّه به؛ دلَّ على أنَّ المشبَّه مفتقِدٌ له، فيكون المرادُ المشركين، وفائدةُ الالتفاتِ: توبيخُ المشركين وتقبيحُ جعلِهم المذكور؛ ليكونَ على طريقِ الخطابِ الذي يكون أكثرَ تأثيرًا في نفوسِ المخاطَبين، ومدارُ الكلام على إنكار تشبيهِ المشركين أنفسَهم وما اتَّصفوا به من سقاية الحاجِّ وعمارة المسجد الحرام بالمؤمنين وما اتَّصفوا به من الإيمان والجهاد، وإما أنْ يكونَ الخطابُ لبعضِ المؤمنين المؤثِرين للسِّقايةِ والعِمارةِ ونحوِهما على الهجرةِ والجهادِ ونظائرِهما، فيكون على مقتضى الظَّاهر، وهو المناسبُ؛ للاكتفاء في الرَّدِّ عليهم ببيان عدمِ مساواتِهم عند اللّه للفريق الثاني، وبيانِ أعظميَّةِ درجتِهم عند اللّه تعالى على وجه يُشعِرُ بعدم حِرمانِ الأوَّلين بالكليَّة[2].

(1) ابن جرير، جامع البيان: 14/168، والنّسفيّ، مدارك التّنزيل: 1/670.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/52.

سببُ إيثارِ ذكر ﴿سِقَايَةَ ٱلۡحَآجِّ﴾:

الحاجةُ إلى سقايةِ الحاجِّ، أعمُّ من سائر الضِّيافةِ وأهمُّ منها

ذكرَ سقايةَ الحاجِّ دون غيرِها كالضِّيافة مثلًا؛ لأنَّ الحاجةَ إلى السِّقاية عامَّةٌ، فيظهر فضلُها وبرُّها؛ إذ مِن المعلوم أنَّ الحجَّاج كانوا وما زالوا أحوجَ إلى الماء في الحرم من الزَّاد؛ لأنَّ كلَّ حاجٍّ كان يمكنه أنْ يحمل من الزَّادِ ما يكفيه مدَّةَ سفرِه إلى الحَرَم، وعودتِه بعد أداءِ المناسكِ، ولا سيَّما العربيُّ القنوع القليل الأكلِ، ولكن لا يمكنه أنْ يحملَ من الماءِ ما يكفيه كلَّ هذه المدَّةِ ولا نصفَها[1].

دلالة (أل) في لفظ ﴿ٱلۡحَآجِّ﴾:

الحاجّ من أدّى الشّعيرة، وطَهُرَتْ منه السّريرة

(أل) هنا جنسيَّةٌ، لتفيد العمومَ، قصدًا إلى أنَّهم كانوا يستكثرون عملَهم.

براعةُ التَّشبيهِ:

مجيئُه على طريقِ الاحتباك، لتكثيرِ المعنى

براعةُ التَّشبيه في الآية جاءت من تشبيه المَصْدَرين (السقايةِ والعِمارةِ) بالأعيانِ في قوله: ﴿كَمَنۡ ءَامَنَ﴾، والحالُ أنَّه لا يُتصوَّرُ تشبيهُ الحدثِ بالأعيان؛ لِعَدمِ اتِّحادِ المشبَّهِ والمشبَّهِ به والمسندِ والمسندِ إليه، فذهب جمهورُ المفسِّرين إلى أنَّه لا بُدَّ من تقدير مضافٍ في أحد الجانبين، فإمَّا أن يقدَّر مضافٌ بمعنى الذَّاتِ في جانب المشبَّهِ ليوافقَ المشبَّهَ به، فيكونَ من تشبيهِ الذَّاتِ بالذَّاتِ، والتقديرُ: أجعلتم أهلَ سقاية الحاجِّ وأهلَ عمارة المسجد الحرام كمن آمن باللّٰه، وإمَّا أن يقدَّر مضافٌ في جانب المشبَّهِ به بمعنى الحدثِ ليوافق المشبَّهَ، فيكونَ من تشبيهِ الحدثِ بالحدثِ، والتَّقدير: أجعلتم سقاية الحاجِّ وعمارةَ المسجد الحرامِ كفعلِ من آمن باللّٰه[2]، وعلى كلا التَّقديرين في التَّشبيه فإنَّ كلًّا منهما يستلزم الآخر؛ لأنَّ

(1) محمد رضا، تفسير المنار: 10/197.

(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/256، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/16، والفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 16/13، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/52.

إنكارَ تشبيه المشركين يستلزم إنكارَ تشبيهِ أعمالِهم المحبطةِ؛ إذ الأعمالُ بفضيلتِها هي وجه الشَّبهِ، وإنكارُ تشبيه الأعمالِ يستلزمُ إنكارَ تشبيه الذَّواتِ لتعلُّق الأعمالِ بهم واتِّصافِهم بها[1].

والأولى أن يكون التَّشبيهُ على معنى الاحتباك[2]؛ ليكونَ من بابِ تكثير المعنى بتقليلِ اللَّفظ، ومثلُ هذا النَّوع من التَّشبيهِ من ضروب الإيجاز المعهودة في بلاغةِ القرآن، كقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ﴾ [البقرة: 177]، ومعنى الاحتباك في التَّشبيه هنا: أنَّه حذفَ العمل من المشبَّه به لدلالة المشبَّهِ عليه، وحذف الذَّاتَ من المشبَّه لدلالة المشبَّه به عليه، وتقدير الكلام: أجعلتم سقايةَ الحاج وعمارةَ المسجدِ الحرام، كالإيمان بالله واليوم الآخر والجهاد في سبيل الله، وجعلتُم سُقاةَ الحاجِّ وعُمَّار المسجد كالمؤمنين والمجاهدين في سبيل الله، والمعنى: إنكارُ أنْ يُشبَّه المشركون وأعمالُهم المحبَطَةُ بالمؤمنين وأعمالِهم المثبتةِ، ونكتةُ مجيء التَّشبيه على الاحتباك: بيانُ أنَّ هذا الفعل ليس كالفعل الآخر، وأنَّ الفاعل لكلٍّ منهما ليس كالآخر، بل بينهما من التَّفاوت والدَّرجات، فلا يساوي الفريق الأوَّلُ الفريقَ الثاني في صفته، ولا في عمله في حكم الله، ولا في مثوبته وجزائه عنده في الدُّنيا ولا في الآخرة، فضلًا عن أن يَفضُلَه، كما توهَّم بعضُ المسلمين، وكما يزعُم كُبَراءُ مشركي قريش الذين كانوا يتبجَّحون بخدمة البيت، ويتفاخرون على النَّاس به[3].

نكتةُ التَّعبير بالاسم الموصول ﴿كَمَنۡ﴾:

عبِّرَ بالاسم الموصول ﴿كَمَنۡ﴾ دون (الذي)؛ لأنَّه أعمُّ وأكثرُ

ملمح العمومِ واتصالِ العمل بصاحبه قلبًا وقالبًا

(1) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 9/182.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/416، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/146.
(3) البيضاويّ، أنوار التّنزيل وأسرار التّأويل: 3/75، ومحمد رضا، تفسير المنار: 10/196، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/176.

شمولًا ولإفادة أنَّ من آمن باللّه واليومِ الآخر هو أمَّة، وإن كان وحده، ففيه حضٌّ على الإيمان المقترنِ بالعمل؛ كي يُقتدى به.

فائدةُ مجيءِ الاسم الموصول وصلته، مقابلَ السّقايةِ والعمارة:

الحثُّ على الاتِّصاف بالإيمان والجهادِ في سبيلِ الله

نلحظ أنَّ القرآن قد أنكر عليهم تسويتَهم بين سقاية الحاجِّ وعمارة المسجدِ الحرام (وهي أعمال)، وبين ﴿كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَجَٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ (وهم أناسٌ قاموا بهذه الأعمال)؛ للإيذانِ بأنَّ هذه الأوصافَ معلومةُ الانتسابِ إلى قومٍ معيَّنين، فيكون مدحًا لهم، وللإشعارِ بأنَّ إنكارَ الجعْلِ هو بسبب اتِّصافِ المشبَّه به بالإيمانِ باللّه واليوم الآخر وجهادهم في سبيل اللّه، وفيه تعريضٌ بتعظيم هذه الأوصاف؛ حثًّا على الاتِّصافِ بها.

مناسبةُ ذكرِ الجهادِ لردّ العدوان، دون غيره من الأعمال:

المؤمنُ لا يتنصَّلُ من مأمور الله، وإن كانَ مشغولًا بأمورِ العبادةِ

ذُكِرَ الجهادُ في سبيل اللّه هنا دونَ غيرِه من أعمالِ البرِّ؛ للإيذانِ بأهميَّتِه وليَدلَّ على أنَّه لا يجوز للمؤمنِ التَّنصُّلُ منه، وإنْ كان مشتغلًا بأمرٍ عظيمٍ من أمورِ العبادة ونفعِ النَّاس، مثلِ سقايةِ الحاجِّ وعمارةِ المسجدِ الحرام، وأيضًا فيه إيماءٌ إلى أنَّه لولا الجهادُ لما كان أهلُ السِّقايةِ وعمارةِ المسجدِ الحرام مؤمنين، فإنَّ إيمانَهم كانَ من آثارِ غزوةِ فتحِ مكَّةَ وجيشِ الفتحِ؛ إذْ آمنَ العبَّاسُ بنُ عبدِ المطَّلبِ، وهو صاحبُ السِّقايةِ، وآمنَ عثمانُ بنُ طلحةَ، وهو صاحبُ عمارةِ المسجدِ الحرام[1].

دلالةُ جملة ﴿لَا يَسْتَوُۥنَ﴾ بين الاستئنافِ والحال:

أعمالُ الكفَّار من البرِّ، لا تساوي أعمالَ المسلمين، فلا تكون فاضلةً عليها

تحتملُ الجملةُ أن تكونَ استئنافًا بيانيًّا، لتكونَ بتقدير جوابِ لسؤالٍ مُفادُه: لمَ لا يُشبَّهُ أحدُ الفريقين بالآخر؟ فجاء الجوابُ: ﴿لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ﴾؛ لتقرير الإنكارِ في قوله: ﴿أَجَعَلْتُمْ﴾، وتأكيدِه، ولمّا كانت دعوى المفتخِرين بالسِّقاية والعمارةِ من المشركين والمؤمنين؛

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/145.

إنَّما هي في الأفضليَّةِ دون التَّساوي والتَّشابهِ كان نفيُ التَّساوي والإنكارُ فيما سلفَ للمبالغة في الرَّدِّ عليهم؛ فإنَّ نفيَ التَّساوي والتَّشابهِ نفيٌ للأفضليَّة بالطريق الأَولى، أي: إذا لم تبلغ أعمالُ الكفَّارِ إلى أن تكونَ مساويةً لأعمال المسلمين، فكيف تكون فاضلة عليها كما يزعمون؟ ويحتمل أن تكون الجملة حالًا من مفعولي الجَعْل، والرَّابطُ هو الضَّميرُ كأنَّه قيل: أسوَّيتم بينهم حال كونِهم متفاوتين عنده تعالى؟ فيفيد الحالُ تقويةَ الإنكارِ وتقريرَه ببيانِ الحجَّة والدَّليل[1].

بلاغةُ مجيء تساوي الأعمال عند الله تعالى:

لمّا كان نفيُ التَّسوية بين الكافر والمؤمن لا يصحُّ، فلا يُجمع بين الكافر والمؤمن فيقالَ: لا يستويان عند اللّه؛ لأنَّه إنَّما يقابلُ الشَّيءُ بالشَّيءِ؛ إذا قرُبَ بعضُه من بعض، وأمَّا عند البعدِ منه؛ فلا يقالُ ولا يقابَلُ، فلا مقاربةَ بين الكافرِ والمؤمن أصلًا، وإن أتى الكافرُ بمحاسنِ الأفعال[2]، فلمَّا كان الأمرُ كذلك؛ دلَّ على أنَّه إنَّما نفى التَّسوية فيما اعتقدوه؛ لأنَّهم كانوا يعتقدون قربَهم وقربَ أعمالِهم من المؤمنين وأعمالِهم، فشبَّهوا أنفسَهم بالمؤمنين، ففي نفي التَّسوية تقريرٌ للإنكار على ما اعتقدوه؛ لأنَّ الواقعَ لا يحتملُ تقاربَهما، فكيف بالتَّشبيه بينهما؟

في نفي التَّسوية تقريرٌ للإنكار على ما اعتقده المشركون

فائدةُ تقييد ﴿لَا يَسْتَوُۥنَ﴾ بقولِه: ﴿عِندَ ٱللَّهِۗ﴾:

لمّا قُيِّدَ نفي التَّسوية بين الفريقين بقولِه: ﴿عِندَ ٱللَّهِۗ﴾؛ دلَّ على أنهما لا يستويان عندَ اللّه في الدُّنيا ولا في الآخرة، وأفاد التَّقييدُ أنَّ المعتبرَ في التَّساوي أو عدمِه ليس ما في اعتقادكُم، وإنَّما ما يكونُ عندَ اللّه تعالى.

ميزان الله في التّقييم أعدل من موازين البشر الجائرة

(1) البيضاويّ، أنوار التّنزيل وأسرار التّأويل: 3/75، والسّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 6/32، والنّيسابوريّ، غريب القرآن: 3/444، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 8/416، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/52، والقنوجيّ، فتح البيان: 5/256.

(2) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنّة: 5/318.

بلاغةُ التَّذييل:

انتفاء المساواة بين الكافرين والمؤمنين؛ ينفي أفضليَّة الكافرين من بابِ أولى

قوله: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، لمّا حُكمَ على المشركين في هذه الجملةِ بأنَّهم مع ظلمهم بالإشراك ومعاداةِ الرَّسول ﷺ غيرُ مهتدين، ولمّا كانَ الظُّلم عبارةً عن وضعِ الشَّيءِ في غير موضعِه، دلَّ على أنَّ تسويتَهم ظلمٌ بعدَ ظلمهم بالكفر، وأنَّهم بتشبيههم وتسويتِهم لا يهتدون إلى الحقِّ وإلى تمييزِ الرَّاجحِ من المرجوح، وأنَّ وضعَ السِّقاية والعمارة في موضعِ الإيمانِ بالله واليوم الآخر والجهاد في سبيل الله ظلمٌ وضلالةٌ، ففي جملة التَّذييل زيادةُ تقريرٍ لعدمِ التَّساوي بينهم، وفيها بيانٌ له بالحجَّةِ كذلك بما تضمَّنته من معنى التَّعليل لنفي المساواة بين الفريقين؛ فكيف يتساوى الكافرون الظَّالمون مع المؤمنين؟ فإذا انتفت المساواة؛ انتفت الأفضليَّةُ من بابِ الأولى[1].

دلالةُ نفيِ الهدايةِ على عدمِ وصولِهم إلى المطلوبِ:

الظَّالمون لا يصلون إلى الاهتداء، بسبب ظلمِهم الغشوم

في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، أفاد نفيُ الهدايةِ عدمَ وصولِهم إلى المطلوبِ، فهمْ لم يهتدوا إلى الله، كما أنَّ فيه كنايةً عن نفيِ حصولِ الغرضِ من سقاية الحاجِ وعمارةِ المسجد الحرام، والمعنى: والله لا يقبل من القوم المشركين أعمالهم، ولا يوصلُهم إليه بسبب ظلمِهم[2].

فائدةُ مجيءِ الخبر جملة فعليَّةً:

تقويةُ المعنى وتحقيقُهُ بمجيءِ الخبرِ جملةً فعليَّةً

أفادتِ الجملة الفعلية ﴿لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ التي وقعت خبرًا للمبتدأ تقويةَ الحكم وتقريرَه، أي: تحقيقَ أنَّ الله لا يهدي القومَ الظَّالمين.

---

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/256، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل وأسرار التّأويل: 3/75، وابن عادل، اللّباب: 10/51، وأبو السّعود، إرشاد العقل السليم: 4/52.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/147.

دلالةُ ﴿لَا يَهۡدِي﴾:

تفيدُ ﴿لَا﴾ هنا استمرارَ النَّفي، بمعنى: استمرارِ نفي هداية الله للقومِ الظَّالمين بسبب شركهم بالله وظلمهم، وأفادَ التَّعبيرُ بالفعل المضارعِ استمرارَ الحدثِ المنفيِّ وتجدُّدَه باستمرارِ الظُّلم وتجدُّدِه.

استمرارُ نفي هداية الله للظَّالمين باستمرارِ ظلمِهم

مناسبةُ التَّعبير بوصف الْقَوْمِ بـ ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾:

عَبَّرَ بالمنعوت ونعتِه، ولم يقل: (والله لا يهدي الظَّالمين)؛ ليفيد بلفظ ﴿ٱلۡقَوۡمَ﴾ تعاونَهم على الظُّلم مراعاتَهُم له، وقيام بعضهم مع بعضٍ فيه، كما تعاونوا في السِّقاية والعمارة والإشراكِ بالله، فالقوم الظالمون أشدُّ إسرافًا في الظُّلمِ من الأفرادِ، وأبعدُ عن الهدى بغرورِهم بقوَّتِهم وتناصرِهم، كما أنَّ مجيءَ النَّعتِ بصيغة المشتقِّ ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ يفيد عراقتهم في الظُّلمِ، وثباتَه فيهم، فقد ظلموا أنفسَهم بشركِهم، وظلموا المسجدَ الحرام أيضًا، فإنَّه تعالى خلقَهُ ليكون موضعًا لعبادةِ الله تعالى، فجعلوه موضعًا لعبادة الأوثان، فكان هذا ظلمًا[1].

القومُ المتعاونونَ على الظُّلمِ، أشدُّ إسرافًا في الظُّلمِ من الأفرادِ

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 16/13، وابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 10/49، ومحمد رضا، تفسير المنار: 10/197.

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ أَعۡظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ٢٠﴾

[التّوبة: 20]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

التَّصريحُ بعدَ التَّلميحِ أثبتُ للمعنى في نفوسِ المخاطَبين

لَمَّا نفى عنهم المساواةَ من غير تصريحٍ بأهلِ التَّرجيحِ؛ ليشتدَّ التَّشوُّفُ إلى التَّصريحِ، فيكونَ أثبتَ في النَّفسِ وأوقرَ في القلب، كانَ كأنَّه قيل: فمَنِ الرَّاجحُ؟ فقال: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ أَعۡظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ﴾[1].

وأيضًا: لمّا ذكر ترجيحَ الإيمان والجهاد على السِّقاية وعمارة المسجد الحرام، على طريق الرَّمز بنفي التَّساوي بين الطَّرفين، وذكَرَ الطَّرفَ المرجوحَ في قوله: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أتبعَهُ بذكر الطَّرفِ الرَّاجحِ على سبيل التَّصريح؛ ليُظْهِرَ للنَّاس أوصافَهم، وليُعلَمَ سببُ رجحانِهم على غيرِهم، فجاءت هذه الآية[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَهَاجَرُواْ﴾: الهجرُ: ضدُّ الوصلِ، والمُهاجرَةُ: مصارمةُ الآخرِ ومتاركتُهُ بحدَّةٍ ومغاضبةٍ، والهَجْرُ والهِجْرَان: مفارقة الإنسان غيره، إمَّا بالبدن، أو باللِّسان، أو بالقلب، ومنه الهاجرةُ: نِصفُ النَّهار عند اشتداد الحر، وسمِّيت هاجرةً؛ لأنَّ النَّاس يستكنُّون في بيوتهم، كأنَّهم قد تهاجروا، وسُمِّيَ الإفحاشُ في القولِ هُجْرًا؛ لأنَّه من المهجور الذي لا خيرَ فيه، وأُطلقتِ الهِجرةُ على ترك الموطن

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/417.
(2) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 16/13.

والحلول ببلد آخر، ومعنى ﴿وَهَاجَرُواْ﴾: تركوا مكَّةَ إلى المدينة خوفًا على دينهم، وأَمنًا على أَنفسِهم من أَذى المشركين[1].

2) ﴿دَرَجَةً﴾: يدور معنى الدَّرج على ضمٍّ أو احتواءٍ في مَضَمٍّ للنَّقل أو معه، برفق، أي: شيئًا بعد شيء، ففي اللَّفظ معنى الانتقال ببطءٍ ومهلٍ، يقال: درجَ الصَّبيُّ، إذا ابتدأ في المشي، ومنه دَرَجُ البناء مراتبُ بعضها فوق بعض، ودَرَجُ السُّلَّم التي يرتقى بها إلى غرفةٍ أو سطحٍ شيئًا فشيئًا، ومن المعنويِّ الدَّرَجَة نحو المنزلة، لكن يقال للمنزلة: دَرَجَة إذا اعتُبرت بالصُّعود دون الامتداد على البسيطة، كدَرَجة السَّطح والسُّلَّم، ويُعبَّر بها عن المنزلة الرفيعة عند الله، ويقال: فلان يتدرَّج في كذا، أي: يتصعَّد فيه درجة درجة[2].

3) ﴿ٱلْفَآئِزُونَ﴾: الفوزُ هو الظَّفرُ بالخير مع حصول السَّلامةِ، كما يطلقُ على النَّجاة من الهلاكِ وإن لم يظفر بشيءٍ، يقال: فاز يفوز، وهو فائزٌ؛ إذا نجا من عبور الصَّحراء، وخلصَ منها، ومنه قالوا: الفوز النَّجاةُ، وفاز بالأمر؛ إذا ذهب به وخلص، وما جاء في القرآن الكريم من لفظ الفوز ومشتقَّاتِه هو الفوز بمعنى النَّجاة وما يلزمها من التنعُّم بنعمِ الجنَّة[3].

المَعْنى الإِجْمالِيُّ:

الذين آمنوا بالله، وصدَّقوا بتوحيدِه، وهاجروا دُورَ قومهم، وجاهدوا المشركين في دينِ الله بأموالِهم وأنفسِهم أعظمُ درجةً عند الله، وأرفعُ منزلةً عندَه، مِنْ سُقَاةِ الحاجِّ وعُمَّارِ المسجدِ الحرامِ، وأولئكَ الذين وصفْنا صفتَهم، أنَّهم آمنوا، وهاجروا، وجاهدوا هم الفائزونَ بالجنَّةِ، النَّاجونَ من النَّارِ[4].

التَّفاوتُ في الأوصافِ يوجبُ التّمايز في الدّرجاتِ في الدُّنيا والآخرة

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والراغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (هجر).
(2) الرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (درج).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة والراغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (فوز).
(4) ابن جرير، جامع البيان: 14/173.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ الاستئنافِ:

تكريمُ المؤمنين ببيانِ مقامِهم عندَ اللهِ

جاءتِ الآيةُ على طريق الفصل؛ وبيانُ مناسبتِه: أنَّه لمّا بيَّن عدمَ استوائهم مع الكافرين وذكر الفريق المرجوحَ، وبيَّن أنَّ الله لا يهدي القومَ الظَّالمين، وأنَّ اتِّصافَهم بالظُّلم هو سببُ عدم اهتدائهم، فكأنَّ سائلًا سألَ: هذا ما أعدَّ الله للذين ظلموا أنفسَهم بالكفرِ، وظلموا غيرَهم بالصَّدِّ عن سبيلِه، فماذا أَعدَّ الله للفريق الآخر؟ فبيَّنَ الله تعالى ما أعدَّه للمؤمنين بذكرِ درجتِهم عندَه سبحانه؛ للإعلام بفضلِ مرتبَتِهم ودرجتِهم[1].

دلالةُ التَّعبير بالاسمِ الموصول وصلتِه:

تفضيلُ خصالِ المؤمنين وتعظيمُ شأنِ الدَّرجة عندَ الله

عُبِّرَ بالاسم الموصول وصلتِه في قولِه: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ﴾ للإيذانِ بأنَّ جملةَ الصِّلةِ معلومةُ الانتسابِ عندَ المخاطبين، وللإيماء إلى أنَّ الخبرَ المبنيَّ عليه من جنسِ المدحِ والثَّواب، كما أفاد ذكرُ الصِّلة بيانَ سبب بناء الخبر على المبتدأ، أي: هم بسببِ اتِّصافِهم بهذه الأوصافِ الجميلة أعظم درجةً عند الله، فالمقصود تفضيلُ خصالِهم، وفي التَّعبيرِ تعريضٌ بتعظيمِ الأوصاف الجليلة وتعظيم شأنِ الخبرِ، بالإيماء إلى أنَّ الخبر المذكور ممَّا لا يكونُ لأيِّ أحدٍ، بل هو لقومٍ مخصوصين[2].

مناسبةُ ترتيبِ الأوصاف، في جملة الصِّلة:

أصلُ الأعمالِ وأساسُها، هو الإيمانُ بالله تعالى

جاءتِ الأوصافُ مرتَّبةً على وَفْقِ ترتيبِها في الوقوع، فإنَّ الإيمانَ هو الأصل، ثمَّ إنَّ المؤمنين وقتَ نزول القرآن هاجروا، ثم جاهدوا في سبيلِ الله بأموالِهم وأنفسهم، وزيادةُ الهجرة وتفصيل نوعَي الجهاد على ما ذكِرَ في الآية السابقةِ للإيذان بأنَّ ذلك من لوازم الجهاد[3].

---

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/53.

(2) السكاكيّ، مفتاح العلوم، ص: 181 - 182، والتّفتازانيّ، المطوّل، ص: 220.

(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/53، والآلوسي، روح المعاني: 5/262.

نكتةُ مجيءِ الفعل بصيغة الماضي:

جاءت الأفعالُ ﴿ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ﴾ بصيغة الماضي؛ للإشعار بأنَّهم أوقعوا هذه الأفعالَ، وتحقَّقوا بها.

دلالةُ صيغةِ المفاعلة:

المشاركةُ وبيانُ المشقَّةِ وبذل الجهد

واشتقَّ لها صيغةَ المفاعلة (هاجَرُوا)؛ لبيان شدَّةِ المفارقة والمجاذبة؛ لاختصاصها بالهجر القويِّ، وهو هجر الوطن.

فائدةُ حذْفِ متعلَّق الفعلين ﴿ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ﴾:

لا إيمانَ غيرُ الإيمانِ بالله وحده المعروفِ المعهود في الأذهانِ

لم يقل: (آمنوا بالله)، فحذف المتعلَّق؛ لدلالةِ السِّياقِ عليه، وليفيدَ أنَّه لا إيمان غيرُ الإيمانِ بالله وحده المعروف المعهود في الأذهانِ؛ لما تدلُّ عليه جملة الصِّلة من كونِها معلومة الانتساب عند المخاطَبين، وأنَّه إنْ وُجِدَ غيرُ هذا الإيمان المعهودِ فهو عدمٌ بالنِّسبة إليه[1]، كما أفادَ الحذفُ العمومَ، والمعنى: آمَنُوا باللهِ ومَلائِكَتِه وكُتُبِه ورُسُلِه واليَومِ الآخِرِ، وصدَّقوا بجميعِ ما أخبرَ به الرَّسولُ محمَّدٌ ﷺ وبجميعِ ما دعا إليه[2]، ومثلُه ﴿وَهَاجَرُواْ﴾ فقد أفادَ عمومَ ما يُهجَرُ في سبيلِ الله، أي: هجروا جميع ما تحبُّه أنفسُهم وتهواه، وتميلُ إليه القلوبُ، ويدخل فيه هجرةُ الأوطانِ وتركُ الأقاربِ دخولًا أوَّليًّا.

توجيهُ المتشابهِ اللَّفظيّ:

مناسبةُ كلِّ آيةٍ نظْمَها وسياقَها في التَّقديم والتَّأخير

جاء في سورة الأنفال تقديمُ آلات الجهاد على قوله: ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، فقال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [الأنفال: 72]، وقال هنا: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾، فقدَّم بيانَ السَّبب ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ على ذِكر آلاتِ الجهادِ، وبيانُه: أنَّه لمّا كان الكلامُ في سورة الأنفال على النَّفل والفيءِ، وجاء فيها إنكارُ الله تعالى على من

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/417.
(2) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنّة: 5/319.

يريد عرضَ الدُّنيا من المالِ والدَّعة والرَّاحة على الآخرة؛ ناسب تقدُّمَ الأموال والأنفس في آية الأنفال، بخلاف سورة التَّوبة التي أبطلَ اللّه فيها ما أَتى به المشركون من عِمارةِ المسجدِ الحرامِ، وسِقايةِ الحاجِّ من المقامِ على الكُفْر، فإنَّ سقايتَهم الحاجَّ وعمارتهم المسجدَ الحرامَ كانت للتَّفاخر، وليست في سبيل اللّه، فكان المندوبُ إليه في آية التَّوبة بعدَ الإيمان باللّهِ الجهادَ في سَبيلِ اللّه، ثم ذكرَ تفصيلَ الأمر بذكر آلاتِ الجهاد، فقال سبحانه بَعْده مادحًا لِمَن تلقَّى بالطاعةِ أَمْرَه: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾، فناسبَ كلَّ آيةٍ ما ذُكِر، ولم يُناسِب العَكْس[1].

ويقالُ أيضًا: الأصل أن يُقدَّم ذِكرُ ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ على ذكرِ آلاتِ الجهادِ، فالإخلاصُ شرطٌ في القبول، ولمّا كان المقصودُ في سُورةِ الأَنفالِ مع المِدْحةِ تعظيمَ الواقعِ منهم من الإيمانِ والهجرةِ، والجِهادِ بالأموالِ والأنفسِ، وتَغبيطَهم بما مَنَّ اللّهُ عليهم به مِن ذلك، وتفخيمَ فِعْلِهم المُوجِبِ لموالاةِ بعضِهم بعضًا؛ قُدِّم ذِكْرُ الأموالِ والأَنفُس؛ للاهتمامِ بها والعنايةِ بشأنِها؛ فإنَّهم بادَروا بها على حُبِّها، وشُحِّ الطِّباعِ بها، وليس تأخيرُ هذا المجرورِ كتقديمِه؛ لأنَّه إنَّما يُقدَّمُ حيثُ يُقصَدُ اعتناءٌ وتخصيصٌ وتنبيهٌ على مَوقِعه؛ فإنَّما قُدِّمَ هذا تغبيطًا لهم، وإعظامًا لفِعلهم، أمَّا آيةُ سُورةِ التَّوبةِ؛ فقد جاء على الأصلِ؛ لأنَّه تعريفٌ بأمرٍ قدْ وقَع، مبنيٍّ على التَّعريفِ بالمُفاضَلةِ بين سِقايةِ الحاجِّ وعِمارةِ المسجدِ الحرامِ، وبَين مَن آمَن، وهاجَرَ، وجاهَدَ في سبيلِ اللّه بمالِه ونَفْسه؛ بقَصْد رَدِّ مَن ظنَّ أنَّ السِّقايةَ وعِمارةَ المسجدِ الحرامِ أفضلُ، وعَرَف أنَّ الإيمانَ، وما ذُكِر معه أعظمُ درجةً عند اللّهِ، فلم يَعرِضْ في آية التَّوبة داعٍ إلى تَقديم ما قُدِّم في آية الأنفال، فوَجَب بمقتضى اللِّسانِ أنْ يُقدَّم في آيةِ الأنفال قولُه: بـ﴿بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾ [الأنفال: 72]، ويُؤخَّرَ في سورة التَّوبةِ؛ ليناسبَ ما ذُكِر، وبذلك ظَهَر وجهُ تَخصيصِ ما وَقَع في كلٍّ من السُّورتَين بموضعِه[2].

وقيلَ: لمّا كانت آيةُ الأنفال أوائلَ الأمر بعد وقعةِ بدر في السَّنة الثَّانية من الهجرة، وكان الحالُ إذ ذاك شديدًا جدًّا، والأموالُ في غاية القلَّة، والأعداء لا يُحصَون، ناسبَ تقديمُ المالِ والنَّفس للاهتمامِ بشأنِهما ترغيبًا في بذلهما، وأمَّا سورةُ التَّوبة؛ فنزلت في

(1) الإسكافيّ، درّة التّنزيل: 2/696 - 698.

(2) الغرناطيّ، ملاك التّأويل: 1/225.

غزوة تبوك في أواخر سنة تسع، فكان المال قد اتَّسع، والدِّينُ قد عزَّ وضخم وقوي وعظم، وأسلم غالبُ الناس، فبعدت مواضع الجهاد، فعظمت المشقَّة، وتواكلَ النَّاس بعضهم على بعض، ورغبوا في الإقبال على إصلاح الأموال، فناسب بداءةُ في آية التَّوبةِ بالسَّبيل[1].

دلالةُ ﴿فِي﴾ بين السّببيّة والظرفيّة:

قوله تعالى: ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، ﴿فِي﴾ سببيَّة؛ لبيانِ سببِ جهادِهم، والمعنى: جاهدوا من أجلِ سبيلِ الله حتَّى لا يصدَّ عنه صادٌّ، فتظهرَ محاسنُه، ويسهلَ المرور فيه من غيرِ قاطع، ولعلَّه عَبّر بـ ﴿فِي﴾ الظَّرفيَّة إعلامًا بأنَّه ينبغي أن يكون المجاهدُ متمكِّنًا مِنَ السَّبيل تمكُّنَ المظروفِ من ظرفهِ، حتَّى يكونَ الدِّينُ غالبًا عليه، لا يخرجُ عنه بوجهٍ من الوجوهِ[2].

الجهادُ لايكونُ مقبولًا إلَّا إذا كانَ في سبيلِ الله

دلالةُ الإضافةِ:

في قولهِ تعالى: ﴿سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، الإضافةُ على معنى اللَّام؛ لِتفيدَ تخصيصَ السَّبيلِ، أي: هو سبيلٌ للّه لا لغيرِهِ، وفيه تشريفٌ للسَّبيلِ وتعظيمٌ له بإضافتِه إلى الاسمِ الجليل.

كلّ ما يضاف إلى الجليل فهو جليل

مناسبةُ تقديمِ الأموال على الأنفس:

في قوله تعالى: ﴿بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾، قَدَّمَ ذكرَ الأموال على الأنفسِ في كلِّ المواضعِ التي ورد فيها ذكرُ الجهادِ بالأموالِ والأنفسِ لأسبابٍ، منها: أنَّ الأموالَ كانت في غايةِ العزَّةِ في أوَّلِ الأمرِ، وأنَّ الجهادَ بالمالِ أخفُّ على النُّفوسِ مِن الجهادِ بالنَّفس، فسلَك في ذلك مسلكَ الترقِّي مِن الأدنَى إلى الأعلَى، وأنَّ من بذلَ مالَه في سبيل اللّهِ كلَّه؛ لم يبخَلْ بنفسِه؛ لأنَّ المالَ قِوامُها، كما أنَّ الأموالَ هي التي يُبدأُ بها في الإنفاقِ، والتجهُّزِ إلى الجهادِ، فرتَّب الأمرَ كما

الجهادُ بالمالِ أخفُّ على النُّفوسِ مِن الجهادِ بالنَّفس، والمالُ أوَّلُ آلاتِ الجهادِ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/337 - 338.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/337.

هو نفسُه، وأيضًا ضرورةُ الجهادِ بالمالِ أكثرُ مِن ضرورتِها بالنَّفسِ، حتى إنَّ الذي يجاهدُ بنفسِه محتاجٌ إلى المالِ، فما الذي يُوصلهُ إلى ميدانِ القتالِ إلَّا الأموالُ[1]؟

دلالةُ التَّعبيرِ بلفظ ﴿أَعْظَمُ﴾:

وصفُ الأعظم يكون من جهاتٍ متنوِّعةٍ، منها: أنَّ درجتَهم أعلى رتبةً وارتفاعًا، وأنَّها أوفى فخامةً وأكثر كرامةً ممَّن لم يتَّصف بها كائنًا مَنْ كان، وإن حاز جميعَ ما عداها من الكمالات التي من جملتها السِّقايةُ والعمارة[2].

تعظيمُ الدَّرجةِ يدلُّ على علوِّ الرُّتبةِ وفخامتِها، وكثرةِ ثوابِها عندَ الله

بلاغةُ الاستعارة:

قوله: ﴿أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِۚ﴾، لمّا كانت حقيقةُ الدَّرجةِ أنَّها جزءٌ من مكانٍ يكون أعلى من جزءٍ آخرَ متَّصلٍ به، بحيثُ تتخطَّى القدمُ إليه بارتقاءٍ من المكان الذي كانت عليه بصعودٍ؛ كان التَّعبيرُ بلفظِ ﴿دَرَجَةً﴾ عن الرِّفعةِ والمكانةِ العالية على سبيل الاستعارة المكنيَّة؛ إذ شبَّه المزيَّة في علوِّ الفضلِ ووفرةِ الثَّواب بدرجة السُّلَّم المرتفعة الثَّابتة والتي تكون لأهلِ الشَّأن؛ ونكتةُ التَّعبير بالاستعارة هنا الإشعار بأنَّهم ارتقوا في درجتهم، وصعدوا إليها بما قدَّموه في سَيْرِهم من المحاسن والأعمالِ الفاضلةِ[3].

ارتقاءُ الدَّرجاتِ عندَ اللهِ، بمحاسنِ الأعمالِ وصلاحِها

دلالةُ تنكيرِ ﴿دَرَجَةً﴾:

أفادَ التَّنكيرُ هنا تعظيمَ الدَّرجة وتفخيمها فالدّرجة عند الله مقام ورفعة.

فائدةُ وضْعِ الظَّاهر موضع المضمر:

كان الظَّاهر أن يقول: (وجاهدوا في سبيل الله بأموالِهم

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/337، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 8/153، وابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/327، والآلوسيّ، روح المعاني: 13/319، والشَّوكاني، فتح القدير: 5/264.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/417، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/53.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/401.

وأنفسهم أعظم درجة عنده)، لكنَّه كرَّر الاسمَ الجليل مع قربِ ذكرِه، فقال: ﴿أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِۚ﴾؛ ليكون على خلافِ مقتضى الظَّاهر، لِما يفيدُه تكرير الاسمِ الجليل من مزيدِ ترغيبٍ في تحصيلِ هذه الصِّفاتِ لخطر المقام وصعوبة المرام، ولِمزيدِ مهابةٍ في تعظيم الدَّرجةِ[1].

تعظيمُ الدَّرجة بتعليقِها بالاسم الجليل، زيادةً في المهابةِ

سببُ عدمِ ذِكْرِ الطَّرف المرجوح، في آية أعظميّة الدّرجة:

لم يقلِ الله تعالى: (أولئك أعظم درجةً من المشتغلين بالسِّقاية والعمارة) مثلًا؛ لأنَّه لو خصَّصَ المتعلَّق فعيَّن ذكرهم؛ لأوهَمَ أنَّ فضيلتَهم إنَّما حصلت بالنِّسبة إلى الطَّرفِ الآخر، فكانت الفضيلةُ مخصوصةً، ولمَّا ترك ذِكْرَ المرجوح، دلَّ ذلك على عموم المتعلَّقِ، فأفادَ أنَّهم أفضلُ من كلٍّ من سواهم على الإطلاق، لأنَّه لا يعقل حصولُ سعادةٍ وفضيلةٍ للإنسان أعلى وأكملَ من هذا الصِّفاتِ[2]، كما أنَّه ليس للكافرين درجة عند الله حتى يقالَ: المؤمنُ أعظم درجةً من الكافر عندَ الله، فيكون ذِكْرُ الدَّرجة على طريق أنَّهم أوهموا أنفسَهم بأنَّ لهم درجةً بالعمارةِ والسَّقي، فخاطبهم على ما قدَّروه في أنفسهم، ليكونَ الكلامُ أوقعَ حجَّةً على الكافرين وأروحَ لنفوسِ المؤمنين، ويحتمل أن يكون التَّفضيل بين المؤمنين أنفسِهم، ويَكُونُ التَّقْدِيرُ: أولئك أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا، وَلَمْ يُهَاجِرُوا، وَلَمْ يُجَاهِدُوا، ويحتمل كذلك أن تكونَ صيغةُ ﴿أَعْظَمُ﴾ ليست على بابها من التَّفضيل، فكأنَّه قال: عظيمو الدَّرَجَةِ[3]، ويكون نكتةُ التَّعبير بصيغة أفعل التَّفضيل هي بيانَ أنَّ هذه الدَّرجَةَ لا مرتبةَ فوقَها ولا مزيَّةَ بعدها.

أعظمُ سعادةٍ للإنسانِ، الاتِّصاف بالإيمانِ والهجرةِ والجهادِ في سبيل الله

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/418.
(2) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 16/14.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/389.

فائدةُ الظَّرف في المركّب الإضافي:

قوله: ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾، لمّا كان (عندَ) ظرفًا للقربِ؛ أفادَ أنَّ الدَّرجة العظيمة الرفيعة في مكانتِها هي درجةُ قربٍ من اللّه، كما أفادت إضافة الظَّرف إلى الاسم الجليل رفعةَ هذه الدَّرجة القريبةِ، وأنَّها عند اللّه بمقامِ الرِّضا والتَّشريف بسبب الإضافة التي تفيد التَّخصيص أيضًا[1].

الدَّرجةُ العظيمة هي درجة قربٍ عندَ اللّه، وهي في مقامِ الرِّضا والتَّشريفِ

فائدةُ التَّعبيرِ باسم الإشارةِ ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ﴾:

أفادَ اسم الإشارةِ أنَّهم استحقُّوا الفوزَ لأجل تلك الأوصافِ التي ميَّزتهم أكملَ تمييزٍ، وهي الإيمانُ والهجرة والجهاد بالأموال والأنفس، كما نبَّه مجيءُ اسمِ الإشارةِ الَّذي للبعيدِ على بُعدِ منزلتِهم في الرِّفعةِ والمكانةِ وعلوِّها بما اتَّصفوا به مِنَ الخِصالِ الجميلةِ[2].

علوُّ مكانةِ المتَّصفين بالأوصافِ النَّبيلةِ

دلالةُ ضميرِ الفصل ﴿هُمُ﴾:

في قوله تعالى: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ﴾، أفادَ ضميرُ الفصلِ تأكيدَ معنى المسندِ إليه وتقريرَه، وليفيدَ كذلك تأكيدَ قصرِ المسندِ على المسندِ إليه كما تقدَّم.

تأكيد الفوز بضمير الفصل، ضمان ممّن بيده الفصل

بلاغةُ الحصرِ:

في قوله تعالى: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ﴾، لمّا جاء المسندُ والمسند إليه معرفتين وتوسَّطهما ضميرُ الفصلِ؛ كان الكلامُ على أسلوبِ الحصرِ، لِتقرير المعنى وتمكينِه في الذِّهن، وأفاد الأسلوبُ قصرَ وصفِ ﴿ٱلۡفَآئِزُونَ﴾ وتخصيصَه بـ ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ الموصوفين بالإيمان والهجرة والجهادِ في سبيل اللّه، وفي هذا القصرِ وجهان: أحدُهما أن يكونَ بالنَّظر إلى المؤمنين، فيكونَ المرادُ كمالَ الفوز، فإنَّه لمّا كان بعضُ المؤمنين لم يتسنَّ لهم الهجرةُ والجهاد؛ دلَّ على أنَّ القصر

إنَّما الفوزُ للمؤمنين ولا فوزَ للمشركين

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/148.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/53، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/149.

هنا من قصرِ الكمال، والمعنى: أولئك هم الكاملون في الفوز، وهو على هذا الوجه قصرُ إفرادٍ؛ بمعنى: يزيل شِرْكَةَ فريقِ المؤمنين الذين لم يهاجروا، ولم يجاهدوا في سبيل الله من كمالِ الفوز، والوجه الثاني: أن يكون بالقياسِ إلى المشركين، بأنْ تكونَ المفاضلةُ وقعت بين من لم يُؤمن بالله وبين من آمن بالله، فيكونَ قصرًا إضافيًّا، والمعنى: أولئك هم الفائزون دونَ المشركين، والقصر على هذا الوجه إمَّا أن يكون قصرَ قلبٍ؛ ليفيدَ قلبَ ما توهَّمه المشركون من أنَّهم هم الفائزون دونَ غيرِهم لما قاموا به من سقاية الحاجِّ وعمارة المسجدِ الحرام، فيكون المعنى: أولئك هم الفائزون لا أنتم، وإمَّا أن يكون قصرَ إفرادٍ إنْ كان المشركون يظنُّون أنَّهم شاركوا المؤمنين في أعمالِ البرِّ، وأنَّهم فائزون أيضًا بهذا العمل، فيكون معنى القصر: أولئك هم الفائزون دونكم أيُّها المشركون، والمراد من الفوز على هذا الوجهِ مطلقُه، ويحتمل أن يكون القصر ادِّعائيًّا للمبالغة في عظم فوزهم، حتى إنَّ فوزَ غيرهم بالنِّسبةِ إلى فوزِهم يُعدُّ كالمعدومِ، وعلى جميعِ وجوهِ القصرِ لا فوز للمشركينَ أصلًا[1].

دلالةُ صيغة اسم الفاعل في لفظ: ﴿ٱلۡفَآئِزُونَ﴾:

أفاد التَّعبيرُ بصيغةِ اسم الفاعل أنَّهم متَّصفون بالفوز، حتَّى صارَ سجيَّةً لهم، كما دلَّت الصِّيغةُ على دوامِ اتِّصافِهم به؛ ليفيدَ دوامَ مدحهم والثَّناء عليهم.

من وصفه الله بالفوز، صار له سجيّةً، واتّصل به وصفُه

نكتةُ حذفِ متعلَّق اسم الفاعل:

لمّا كان الأصلُ أنْ يكونَ لفظُ الفوزِ له متعلَّقٌ يبيِّن المحصَّلَ بالفوز، وكانَ محذوفًا هنا؛ دلَّ على عمومِ المتعلَّق بمعنى عمومِ فوزِهم، ويؤيِّده مجيءُ (أل) الاستغراقيَّة التي تفيدُ نيلَهم كلَّ ما يرغبون

الفائزونَ همُ الظَّافرونَ بنعيمِ اللهِ، والنَّاجونَ من عذابِهِ في الدُّنيا والآخرةِ

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/256، والنّسفيّ، مدارك التّنزيل: 1/670، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 9/183، والآلوسيّ، روح المعاني: 5/263، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/148.

فيه ونجاتَهم من كلِّ مهلكةٍ يتوقَّعونها، أي: هم الظَّافرون بنعيم اللّٰه وكرامته، والناجون من عذاب اللّٰه ونقمته، كما يفيد اللَّفظُ عمومَ الزَّمانِ كذلك، أي: هم الفائزون بالخيرِ في الدُّنيا والآخرة[1].

سببُ اختيار لفظ ﴿ٱلۡفَآئِزُونَ﴾ خبرًا:

لَمَّا كانتِ النَّفسُ والمالُ محبوبَ الإنسان، والإنسانُ لا يُعرِضُ عن محبوبِه إلَّا لنيلِ ما هو أفضلُ وأعظمُ؛ دلَّ على أنَّ طلبَ الفوزِ أتمُّ عندهم من النَّفس والمالِ، وأنَّهم عالمون بموضعِ الفوزِ عارفونَ به[2].

طلبُ الفوزِ عندَ الله أهمُّ عند المؤمنين من طلبِ راحةِ النَّفس وكثرةِ المالِ

(1) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنّة: 5/320، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/17، والبقاعي، نظم الدّرر: 8/418.

(2) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 16/13.

﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۚ إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾ [التوبة: 21 - 22]

مُناسَبَةُ الآيَتينِ لِما قَبْلَهُما:

العلاقة بينَ العدل في الجزاء، والبشارة بالرَّحمة والرِّضوان، وعظيمِ العطاء

لـمَّا بَيَّنَ اللهُ ﷻ جَزاءَ أهلِ الإيمانِ المهاجرينَ المجاهدينَ، في قوله سُبحانَهُ: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللَّهِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [التوبة: 20]؛ فَسَّر تعالى فَوْزَهُمْ وأوضَحَهُ بقوله: ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۚ إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾[1]، فهو سوف يشملهم برحمته، ويخصُّهم برضوانه، ويُدخلهم جنَّاته، خالدِين فيها على الأبد، لأنَّ الله عنده الأجر العظيم، الذي لا نهاية لمداه[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يُبَشِّرُهُمْ﴾: (الباءُ والشِّين والرَّاء): تدور اشتقاقاتُها على مَعْنَى ظُهورِ الشَّيء مَعَ حُسْنٍ وجَمال[3]، والفِعْلُ ﴿يُبَشِّرُهُمْ﴾: فِعْلٌ مضارِعٌ، مِنَ البِشارةِ - بكَسْرِ الباء -، وهي: كلُّ خبرِ صِدْقٍ تتغيَّر بَشرةُ الوجهِ بهِ، وبِناءً على هذا؛ فإنَّ البِشارَةَ تُستعْمَل في الخَيْرِ والشَّرِّ، إلَّا أنَّها في الخَيْرِ أغلَبُ، وذهبَ بعضُ أهلِ العِلْمِ إلى أنَّ البِشارةَ هي الخَبَرُ السَّارُّ وحدَهُ، واستعمالُه في غيرِهِ هو ضربٌ مِن ضُروبِ التَّهَكُّم[4]، والبِشارَةُ في قوله ﷻ: ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ﴾، مُسْتَعْمَلَةٌ في الخَيْرِ قَطْعًا؛ بِقَرينَةِ السِّياقِ واللَّحاق.

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 8/418.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 8/418، ولجنة من علماء الأزهر، المنتخب في تفسير القرآن الكريم، ص: 261 (بتصرّف).
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (بشر).
(4) الشَّريف الجرجانيّ، التَّعريفات، ص: 45، والمُناويّ، التَّوقيف على مهمَّات التَّعاريف، ص: 78.

2) ﴿وَرِضْوَانٍ﴾: (الرَّاءُ والضَّادُ والحرفُ المعتلُّ): تدلُّ تصاريفُهُ على ضِدِّ السُّخْطِ[1]، ومنه الرِّضا: خلافُ السُّخْطِ، والرِّضا مِنَ اللّهِ سبحانَه صفةٌ فعليَّةٌ حقيقيَّةٌ، تتعلَّقُ بمشيئَتِهُ تعالى، والثَّوابُ دليلٌ على ثُبوتِ الرِّضا، وليس هو عَيْنَهُ[2]، و"يقال في لغة: رجلٌ مرضوٌّ عنه؛ لأنَّ الرِّضا في الأصل مِن بنات الواو، وشاهدُه الرِّضوان، وهو اسم موضوع مِنَ الرِّضا، قال تعالى: ﴿إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَانِ ٱللَّهِ﴾ [الحديد: 27]"[3]، والرِّضْوانُ – بكسر الرَّاءِ وضَمِّها – هو الرِّضا الكَثيرُ، وهو المرادُ في قول اللّه تعالى: ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ﴾، ولـمَّا كانَ أَعْظَمُ الرِّضا رِضا اللّهِ ﷻ؛ خُصَّ الرِّضْوانُ في القُرْآنِ الكريمِ بما كان منه سبحانَه[4].

3) ﴿نَعِيمٌ﴾: (النُّون والعَيْنُ والميمُ): تَدورُ تصريفاتُها على ترفُّهٍ وطِيْب عَيْشٍ وصلاحٍ[5]، ومنه النَّعْمَةُ: وهو ما يترفَّهُ به الإِنْسان مِن مأكلٍ أو مَشْرَبٍ أو مَلْبَسٍ[6]، والنِّعْمَة: اليد والصَّنيعة والمنَّة، وما أُنْعِمَ به عليك[7]، "يقال: فلان واسع النِّعْمَة، أي: واسع المال، كما في الصّحاح. قال الرَّازيُّ: النِّعْمَة: المنفعة المفعولة على جهة الإحسان إلى الغير"[8]، والنَّعيمُ: الخَفْضُ والدَّعَةُ[9]، ويُرادُ به: النِّعْمَةُ الكَثيرَةُ[10]، وهو المرادُ في قوله تعالى: ﴿لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ﴾.

4) ﴿مُّقِيمٌ﴾: (القافُ والواوُ والميمُ): تدلُّ اشتقاقاتُها علَى انْتِصابِ شَيْءٍ إلى أَعْلَى على وجْهِ الثُّبوتِ، ومنه: قامَةُ الإِنسانِ وقيامُهُ[11]، ويُطْلَقُ المُقيمُ على الأمْرِ الدَّائِمِ المُسْتَمِرِّ[12]،

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (رضي).
(2) حصَّة بنتُ عبد العزيز الصَّغير، إفراد أحاديث أسماء الله وصفاته: 3/282.
(3) الخليل، العين: 7/57.
(4) الرَّاغب، المفردات: (رضي).
(5) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (نعم).
(6) ابن دريد، جمهرة اللُّغة: (نعم).
(7) الرّازيّ، مختار الصّحاح: (نعم).
(8) الزّبيديّ، تاج العروس: (نعم).
(9) الخليل، العين: (نعم).
(10) الرَّاغب، المفردات: (نعم).
(11) جبل، المعجم الاشتقاقيُّ المؤصَّل: (قوم).
(12) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/150.

ومنه قولُه تعالى: ﴿لَّهُمۡ فِيهَا نَعِيمٞ مُّقِيمٌ﴾؛ فإنَّ معناهُ: الدَّائمُ الذي لا يزولُ ولا يَبْرَحُ[1]، قال الشَّاعر في جبلٍ يُسَمَّى عَسيبًا، وفيه كناية عنِ الثُّبوت والانتصاب، وعدمِ التَّحوُّل:

أَجَارَتَنَا إِنَّ الخُطُوبَ تَنُوبُ *** وإنِّي مُقِيمٌ ما أَقَامَ عَسِيبُ[2]

5) ﴿خَٰلِدِينَ﴾: (الخاءُ واللَّامُ والدَّالُ): تدلُّ تَصْريفاتُها على الثَّبات والمُلازَمَةِ[3]، ومنه الخُلْدُ والخلودُ، وهو البَقاء والدَّوام، وهو في الأَصْلِ: المُكْثُ الطَّويل، ولا يَلزَمُ منه الدَّوامُ، ولذا يُقيَّدُ في مواضِعَ بِالتَّأبيدِ، مِن بابِ التَّمْييز لا التَّأْكيد[4]، كالوارد في قوله سبحانَه: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ﴾ [النّساء: 57]، والخُلْد: مِن أسماء الجِنان، والخُلود: البقاء فيها، وهم فيها خالدون ومخَّلدون[5]، ودارُ الخُلْد: دار الإقامة، وقد خَلَدَ يَخْلُد خُلْدًا وخُلودًا، فهو خالدٌ: إذا أقام فلم يَبْرَحْ[6]، وقال تعالى: ﴿يَطُوفُ عَلَيۡهِمۡ وِلۡدَٰنٞ مُّخَلَّدُونَ ١٧﴾ [الواقعة: 17]، معناه: باقون، دائِمٌ شبابُهُم، لا يَتغيَّرون عن تلك السِّنِّ[7].

6) ﴿أَجۡرٌ﴾: (الهَمْزَةُ والجيم والرَّاءُ): تدورُ تَصاريفُها على معنى: الكِراء على العَمَل، وجَبْرِ العَظْم الكَسيرِ، وبينَ هذَين المَعْنَيَيْنِ نِظامٌ يَجْمَعُهما؛ وذلكَ أنَّ الأُجرةَ بمنزلةِ الشَّيءِ الذي تُجبَرُ بها حالُ العاملِ، مقابِلَ ما أصابَهُ مِن كَدٍّ وجُهْدٍ في عَمَلِه[8]، والأَجْرُ: ما يعود مِن ثواب العمَلِ دُنيَويًّا كان أو أُخْرويًّا، ولا يُستعمَلُ إلَّا في النَّفْعِ دونَ الضُّرِّ[9]، والأَجْرُ في قولِ اللّهِ سبحانَه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ﴾، هو ثَوابُ العمَلِ الأُخرَويُّ.

المَعْنى الإجْماليُّ:

يُبَشِّرُ اللّهُ تعالى هؤلاءِ الذينَ آمَنوا وهاجَروا وجاهَدوا في سَبيلِهِ، أنَّهُ قَدْ رَحِمَهُمْ رحمةً

(1) الواحديّ، التَّفسير البسيط: 10/340.
(2) ابن دريد الأزديّ، جمهرة اللُّغة: (عسب)، والبيت لامرئ القيس بن حجر، وقد ورد هذا البيت مع بيتٍ ثانٍ لامرئ القيس، ينظر: ديوان امرئ القيس، ص: 357، والأنباريّ، الزَّاهر في معاني كلمات النّاس: 2/175.
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (خلد).
(4) أبو البقاء الكفويّ، الكلِّيَّات، ص: 434، وابن القيِّم، شفاء العليل، ص: 257، وابن عثيمين، شرح العقيدة الواسطيَّة: 1/265.
(5) الخليل، العين: (خلد).
(6) كُرَاع النَّمل، المُنَجَّد في اللُّغة، ص: 78.
(7) الأنباريّ، الزَّاهر في معاني كلمات النَّاس: 2/83.
(8) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (أجر).
(9) الرَّاغب، المفردات: (أجر).

واسعةً، وأنَّه قَد رَضيَ عَنْهُمْ رِضْوانًا لا سخطَ بعْدَهُ، بسببِ طاعَتِهم إيَّاهُ، ويُبشِّرُهُمْ - أيضًا - بجنَّاتٍ فيها نعيمٌ عظيمٌ لا يَزولُ ولا يَبيدُ، وهُمْ ماكِثونَ في هذه الجِنانِ مُكوثًا دائمًا لا نهايةَ لَهُ، إنَّ اللهَ سبحانَه عِنْدَهُ لهؤلاءِ المؤمنينَ ثَوابٌ جزيلٌ عظيمٌ في الآخِرَةِ[1].

مَنْ قدَّم مرضاةَ اللهِ في دنياه، نالَ البُشرى بالنَّعيمِ الخالدِ في أُخْراه

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

عِلَّةُ فَصْلِ قولِه: ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم﴾ عمَّا قبلَه:

فُصِلَ قولُ اللهِ ﷻ: ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ﴾ عمَّا قبلَهُ؛ لوقوعِه بيانًا لَهُ، وذلك أنَّ اللهَ تعالى لـمَّا قال: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ۝٢٠﴾ [التوبة: 20]؛ بيَّنَ في الآية بعدَها تلك الدَّرجةَ العظيمَةَ، وهي عنايَتُهُ سبحانَه بعبادِه، بإدخالِ السُّرورِ عليهم، وتحقيقِ فوزِهم، وإحلالِه رَحْمَتَهُ بهم، ورضْوانَهُ عَلَيْهم، وما أعدَّ لَهُمْ مِنَ النَّعيمِ الذي لا انقطاعَ فيه بوجهٍ مِنَ الوجوهِ، وعلى هذا يكون بينَ الجُمْلَتينِ كمالُ الاتِّصال؛ ولوقوعِ هذه الجملة بيانًا للجملةِ التي قبلَها[2].

عظيمُ عِنايَةِ اللهِ سبحانَه بعبادِهِ المؤمنينَ، تُحيط بهم في كلِّ حين

نُكْتَةُ التَّعْبيرِ بالفعل المضارعِ:

وقعَ التَّعبيرُ عنِ التَّبشيرِ ﴿يُبَشِّرُهُمْ﴾ بصيغَةِ المضارعِ، مِن قولِ اللهِ سبحانَه: ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ﴾؛ لإفادةِ التَّجدُّدِ، وذلك مشْعِرٌ بتجدُّدِ الخَيْراتِ وتعاقُبِ المسرَّاتِ عليهم؛ إذْ إنَّ تجدُّدَ البشارَةِ دالٌّ على أنَّ ما يُبشَّرونَ بهِ أمرٌ لَمْ يكُنْ معلومًا لهُمْ، وإلَّا لكانَ الإخبارُ به مِن بابِ تحصيلِ الحاصلِ[3]، وهو تعالى "يخبرهم بالنِّهاية السَّارَّة التي سوف يصلون إليها، ليتحمَّلوا مَشَقَّة التَّكاليف

تَجَدُّدُ الخَيْراتِ وتَعاقُبُ المَسَرَّاتِ على أَهْلِ الإيمانِ في الآخِرَةِ

(1) ابن جرير، جامع البيان: 14/174 - 175، ونخبة مِنَ العلماء، التَّفسير الميسَّر، ص: 190.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/149.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/149.

التي يأمرهم بها المنهجُ"[1]، وهذه المسألة تُعَجِّل بها البشارةُ وتتجدَّد؛ لتطمَئِنَّ قلوبُ المؤمنين على مصائرهم، فتتوالى لهم البُشْرى في الحياة الدُّنيا ويومَ يقوم الأشهاد، وهذا لطفٌ مِنَ اللّٰه، وكَرَمٌ منه على عباده الصَّالحين.

دلالَةُ التَّعْبيرِ بالبِشارَةِ:

البِشارَةُ مِنَ الله عطاءٌ لا ينتهي، وجزاءٌ لا ينقضي

التَّعْبيرُ بالبِشارَةِ في قولِ اللّٰهِ ﷻ: ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ﴾ دونَ الإخبارِ بعينها وتحديدِ معالمها، معَ أنَّ ما وُعِدُوهُ قد عَرَفوه في الدُّنيا مِنَ القُرْآنِ الكريم، وممَّا أخبرَهُمْ بهِ رسولُ اللّٰهِ ﷺ؛ لِكَوْنِ البشاراتِ التي عَلِموها كانت على جِهَةِ الإجمالِ، وما كان منها مُفَصَّلًا لَمْ يكُنْ مُسْتَوعِبًا لجميعِ ما يُعْطَوْنَهُ في الجنَّةِ، فقد قال النَّبيُّ ﷺ فيما يرْويه عن ربِّهِ ﷻ: «أَعْدَدْتُ لِعبادي الصّالِحينَ ما لا عَيْنٌ رَأَتْ، ولا أُذُنٌ سَمِعَتْ، ولا خَطَرَ على قَلْبِ بَشَرٍ»[2]، فيكونُ التَّبشيرُ الواردُ في الآيةِ، إنَّما هو الإخبارُ بحصولِ مرتبَةٍ مِن مراتبِ السَّعاداتِ التي لَمْ يَعرِفوها قَبْلُ، والبِشارَةُ عَن أُمورٍ لا تَصِلُ العقولُ إلى وصفِها، وفي هذا: إشعارٌ بعظيمِ جزائِهِم عند اللّٰهِ تعالى[3].

توجيه قراءة: (يَبْشُرُهُم)، وأثرُها في المعنى:

خِفَّةُ البِشارَةِ وفُجاأَتُها، مُتَلائِمٌ مع وَقْعِها في النُّفوس

قرأ حمزةُ: (يَبْشُرُهُم) بفتح الياء، وضَمِّ الشِّين[4]، مِن بَشَر يَبْشُر، أي: أخبرهم بما يَسُرُّهم، وفاجأَهُم بما أَعَدَّه لهم، ممَّا لم يخطُر لهم على بال؛ وتخفيفُ الفعلِ هنا - وإن كان لغةً مِن لُغات العرب - يُشير إلى اختصاصهم بتلك البِشارَة، المشتملةِ على المفاجأة، والتَّضْعيفُ في (يُبَشِّر) مِنَ التَّضْعيفِ الدَّالِّ على التَّكْثيرِ، فيما قال بعضُهم، ولا يَتَأَتَّى التَّكْثيرُ فيه إلَّا بالنِّسْبَةِ إلى المفاعيلِ؛ لأنَّ البِشارَةَ أَوَّلُ خَبَرٍ

(1) الشَّعراويّ، تفسير الشّعراوي: 8/4972.
(2) رواه البخاريُّ في صحيحه، برقم: 3244، ومسلم في صحيحه، برقم: 2824.
(3) الرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 16/16.
(4) ابن مجاهد، السَّبعة: ص 205، وابن الجزريّ، النَّشر: 2/239.

يَسُرُّ أو يُحْزِنُ على المختارِ، ولا يَتَأَتَّى التَّكْثِيرُ فيه بالنِّسْبَةِ إلى المفعولِ الوَاحِدِ؛ فبالنِّسْبَةِ إليهِ يكُونُ فِعْلٌ فيه مُغْنِيًا عن فِعْلٍ؛ لأنَّ الذي يَنْطِقُ به مُشَدَّدًا غيرُ العربِ الذينَ يَنْطِقُونَ به مُخَفَّفًا[1].

دلالَةُ التَّعْبيرِ بِاسْمِ الرُّبوبيَّة:

عِنايَةُ اللهِ تعالى ورِعايَتُهُ لِأَهْلِ الإيمانِ، تربيةً لهم وإنعام

جاءَ التَّعبيرُ في قولِ اللهِ ﷻ: ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ﴾ باسمِ الرَّبِّ؛ وفيه مِنَ اللَّطافَةِ شَيءٌ عظيمٌ، وذلك أنَّ اسْمَ الرَّبِّ مُشتقٌّ مِنَ التَّربيَةِ، ومعناها يرجِعُ إلى تدبيرِ المربوبِ والرِّفْقِ به واللُّطْفِ، فكأنَّهُ قال: إنَّ الذي اعْتَنَى بكُمْ، وربَّاكُم في الدُّنيا بالنِّعَمِ التي لا حدَّ لها ولا حصْر؛ يُبشِّرُكُم بخيراتٍ عظيمةٍ، وسعاداتٍ غيرِ متناهيةٍ[2].

دِلالَةُ الإضافَةِ في لفظ ﴿رَبُّهُم﴾:

تَشْريفُ اللهِ تعالى لأَهْلِ الإيمانِ، بما حبَاهم مِن رحمة ورضوان

أُضِيفَ اسْمُ الرَّبِّ إلى الضَّميرِ الرَّاجِعِ إلى المؤمنين، في قولِ اللهِ سبحانَه: ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ﴾؛ لإرادَةِ تشريفِهِمْ وتكريمِهِم، ففي الإضافة تشريفٌ للمضاف إليه، وهو يقول في هذا المضمار، مُذَكِّرًا بما أنعم عليهم: "وهؤلاءِ يبشِّرهم اللهُ تعالى برحمته الواسعة التي تشملهم، ويخصُّهم برضاه، وهو أكبر جزاء، وسيدخلهم يوم القيامة جنَّاتٍ لهم فيها نعيمٌ قائمٌ ثابتٌ دائم"[3].

نُكْتَةُ تقديمِ ذِكْرِ المؤمنينَ على ذِكْرِ اللهِ تعالى:

إظهارُ كَرامَةِ أهلِ الإيمانِ، وبيانُ مكانتِهم المرموقة عند الرَّحمن

نُظِمَتِ الآيَةُ الكريمةُ على وجْهٍ قُدِّمَ فيها ذِكْرُ المؤمنينَ على ذِكْرِ اللهِ تعالى، فقال سبحانَه: ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ﴾، دونَ أَنْ يَرِدَ النَّظْمُ القرآنيُّ: (ربُّهُم يُبَشِّرُهُم)، وفي ذلك مزيدُ إظهارِ كرامَةِ أهلِ الإيمانِ عند اللهِ ﷻ[4].

(1) أبو حيَّان، البحر المحيط: 1/180.

(2) الرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 16/16، والآلوسيّ، روح المعاني: 5/263، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/149.

(3) إبراهيم الأبياريّ، الموسوعة القرآنيَّة: 10/13.

(4) الرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 16/16.

إيثار التَّعبير بلفظ (رحمة)، ومناسبتُه للسِّياق:

أُوثِرَ التَّعبير بالرَّحمة في قوله: ﴿بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ﴾، للدّلالة على طمأنَة قلوبِهم بأعظمِ نعمةٍ، وأنسبِ مكافأةٍ، فيها سكنُهُم وإصلاحُ بالهم، جزاءَ إيمانهم وهِجْرتهم وجهادهم في سبيل اللّه، ورحْمَتُه بعبده: أَن يزيلَ عن قَلْبِهِ الِالْتِفَاتَ إلى غير هذه الحالةِ، ويجعلَه راضِيًا بِقَضَائِهِ[1]؛ لأنَّ الرَّحمة ضِدُّ الشَّقاء، وهي وحدَها نعمةٌ؛ لأنَّ الخروج مِنَ الضَّلال إلى الهدى، والشُّعورَ بالحقِّ، وأنَّه اهتَدَى إليه وخرجَ مِنَ الضَّلال إلى نُور الهداية، هو وحدَه رحمةٌ ونعمةٌ، فأوَّلُ جزاءٍ للمؤمن ما يأخذه مِنَ الإيمان نفسِه، فيَشعرُ باستقرارٍ لَا اضطرابَ فيه[2].

البُشرى بالرَّحمة كَقَطْرِ النَّدى على الزَّهْرة الظَّمأى

سِرُّ تَنْكيرِ لفظ (رَحْمَةٍ):

نُكِّرَ لَفْظُ (رَحْمَةٍ) مِنْ قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ﴾؛ لإظْهارِ عَظَمَتِها[3]، والمَعْنَى: يُبشِّرُهُمْ ربُّهُمْ برحمةٍ لا يبلُغُها وصفُ واصفٍ، وزادَها تعظيمًا بيانُ مصْدَرِها، وأنَّها رحمَةٌ مِن عِنْدِه[4]، فقال سبحانَه: ﴿بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ﴾، وناهيكَ برحْمَةٍ صادِرَةٍ مِن ربِّ العِزَّةِ والجَلالِ!.

عَظَمَةُ الرَّبِّ ﷻ وعَظَمَةُ أَوْصافِهِ، دلائلُ على هَيْمَنَتِه وكمالِه

و"هؤلاءِ الذين جمعوا الصّفاتِ الحميدةَ، يبشِّرهم اللّهُ تعالى برحمته الواسعة التي تشملهم، ورضوانٍ كامل مِن لدنْه، وهو أكبر جزاءٍ، وسيُدخلهم يومَ القيامة جنَّاتٍ، لهم فيها نعيمٌ ثابتٌ دائم"[5].

نُكْتَةُ تَنْكيرِ (رِضْوانٍ):

نُكِّرَ (رِضْوان) مِن قول اللّه ﷻ: ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ﴾، للدّلالَةِ على تَفْخيمِه وتعظيمِه، فهو رضْوانٌ عظيمٌ،

رِضْوانُ اللهِ تَعالَى الأسمى، أَعْظَمُ مِن كُلِّ ثَوابٍ مادِّيٍّ وأَرْضَى

(1) الرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 16/16.
(2) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 6/3259.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/390.
(4) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 8/418.
(5) إبراهيم القطّان، تيسير التَّفسير: 2/125.

لا يُدْرَكُ كُنْهُهُ، ولا مُنْتَهى لحُسْنِهِ، وذلك لأنَّ الرِّضْوانَ مِنَ اللهِ سبحانَه أعظمُ مِن كلِّ جزاءٍ مادِّيٍّ، ولذا قال اللهُ ﷻ: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [التّوبة: 72][1].

عَظَمَةُ الرِّضا الحاصلِ لأَهْلِ الإيمانِ مِنَ الله في الآخِرَةِ

دلالَةُ التَّعْبيرِ بِالرِّضْوانِ:

في التَّعبير بالرِّضْوانِ في قول اللهِ ﷻ: ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ﴾ دونَ الرِّضا، دلالَةٌ على عظيم الرِّضا الذي يقَعُ عليهِمْ؛ وذلكَ أنَّ الرِّضْوانَ: هو الرِّضا الشَّديدُ الكاملُ، كما تُشْعِرُ بذلك الصِّيغةُ التي بُنِيَت عليها الكَلِمَةُ، فإنَّها تدلُّ على المبالغَةِ، مِثْلُ: العِصْيانِ، وكذا الشُّكْران والغُفْران[2]؛ إذْ في الرِّضْوانِ لغتانِ: كَسْرُ الرَّاءِ (قرأ بها الجمهورُ)، وضَمُّها (قرأ بها شُعبةُ عن عاصمٍ)[3].

سِرُّ تقديمِ الرَّحْمَةِ على الرِّضْوانِ:

بُدِئَ بالرَّحْمَةِ قَبْلَ الرِّضْوانِ في قولِ اللهِ ﷻ: ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ﴾؛ لكَوْنِ الرَّحْمةِ الوصفَ الأعَمَّ الحاصِلَ لأهل الإيمانِ، والرِّضوانِ الوصفَ الأخَصَّ الحاصِلَ لِلْكُمَّلِ مِنْهُمْ، فكان في ذِكْرِ الرِّضْوانِ بَعْدَ الرَّحْمَةِ تَرَقٍّ بهذا الاعتبارِ.

الرِّضْوانُ وَصْفٌ خاصٌّ حاصِلٌ لِلْكُمَّلِ مِنَ المُؤْمِنينَ، والرَّحمةُ عامَّة لهم

دلالَةُ تَنْكيرِ (جَنَّاتٍ):

نُكِّرَتْ كَلِمَةُ (جنَّاتٍ) مِن قولِ اللهِ سبحانَه: ﴿وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ﴾؛ لوقوع المبشر به وراء صفةِ الواصف، وتعريفِ المعرِّف[4]، ولإرادَةِ التَّعظيم والتَّفخيم، وذلكَ لقرائِنَ ثلاثٍ[5]: أوَّلُها: سياقُ الآيةِ الدَّالُّ على عظيمِ المِنَّةِ بالمذكورات. وثانيها: قولُهُ سبحانَه: ﴿مِّنْهُ﴾؛ فإنَّه مُصَرَّحٌ بهِ معَ الرَّحْمَةِ، ومقدَّرٌ معَ الرِّضْوانِ والجنَّاتِ، والتَّقديرُ: برحمةٍ مِنْهُ،

الجَزاءُ الصَّادِرُ مِنَ اللهِ تعالى بالِغٌ في الفَخامَةِ والعَظَمَةِ مَبْلَغًا لا يُقادَرُ قَدْرُهُ

(1) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 6/3259.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/149.
(3) ابن الجزريّ، النَّشر في القراءات العشر: 2/238.
(4) النَّسفيّ، مدارك التَّنزيل وحقائق التَّأويل: 1/671.
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/150.

ورضوانٍ مِنْهُ، وجنَّاتٍ مِنْهُ، وحسْبُكَ بالجزاءِ الصَّادرِ مِنَ اللهِ ﷻ. وثالثُها: كَوْنُ الجنَّاتِ مذكورةً في سياقِ الأشياءِ المبشَّر بها. فهذه القرائنُ الثَّلاثُ تقتضي أن يكونَ تنكيرُ (جَنّاتٍ) دالًّا على التَّفخيم والتَّعظيم.

سِرُّ جَمْعِ (جَنّاتٍ):

تَفاوُتُ الجزاءِ بحسَبِ تَفاوُتِ الأَعْمالِ، يَنمُّ عن سعة عطاء ذي الجلال

جُمِعَتِ الجنَّاتُ في قول اللهِ ﷻ: ﴿وَجَنَّٰتٍ لَّهُمۡ فِيهَا نَعِيمٞ مُّقِيمٌ﴾؛ إشعارًا بكَثْرَتِها وتعدُّدِها؛ فإنَّ في الآخِرةِ جنَّاتٍ متنوِّعَةً بحسبِ أعمالِ العامِلينَ ودَرَجاتِهِم، والجنَّاتُ الموصوفةُ باحتوائها على النَّعيم المقيم، تحوي "مِن كلِّ ما اشتهَتْهُ الأنفسُ، وتَلَذُّ الأعينُ، ممَّا لا يعلم وَصْفَه ومِقْداره إلَّا اللهُ تعالى"[1].

دلالَةُ تقديمِ ما حقّه التأخير:

كُلُّ نَعيمٍ آيِلٌ إلى الفَناءِ إلَّا نَعيمَ الجَنَّةِ، فَإِنَّهُ باقٍ لا يزول

في قول اللهِ ﷻ: ﴿وَجَنَّٰتٍ لَّهُمۡ فِيهَا نَعِيمٞ مُّقِيمٌ﴾ تقديمُ ما حَقُّهُ التَّأخيرُ مِن وجهين؛ أحدهما: ﴿لَّهُمۡ﴾، والآخَرُ: ﴿فِيهَا﴾، وذلك أنَّ أصلَ التَّركيبِ: (نعيمٌ مقيمٌ فيها لَهُمْ)، فأمَّا تقديمُ الجارِّ والمجرور ﴿لَّهُمۡ﴾؛ فَلِإرادةِ الحَصْرِ والقَصْرِ، أي: أنَّ الجنَّاتِ المشْتَمِلَةَ على النَّعيم المقيم، خاصَّةٌ بأهلِ الإيمانِ المهاجرين المجاهدينَ في سبيلِ اللهِ تعالى، وهذا قصرٌ غيرُ حقيقيٍّ؛ لأنَّ مَن لم يهاجِرْ ويجاهِدْ مِن أهلِ الإيمانِ موعودٌ - أيضًا - بالجنَّةِ، إلَّا أنَّ درجتَهُ أَدْنَى مِن درجَةِ المهاجرِ المجاهِدِ، فكان القصْرُ في قولِ اللهِ جلَّ وعلَا: ﴿وَجَنَّٰتٍ لَّهُمۡ فِيهَا نَعِيمٞ مُّقِيمٌ﴾ قَصْرًا غيرَ حقيقيٍّ، وصِيغَ جزاؤُهم وثوابُهُمْ بطريقَةِ الحصْرِ؛ للإيماءِ إلى عظيمِ هذا الثَّوابِ، واختصاصِهِمْ بأعلاهُ، وأمَّا تقديمُ الجارِّ والمجرور ﴿فِيهَا﴾؛ فَلِقَصْدِ القَصْرِ أيضًا، مِنْ جِهَةِ أنَّ النَّعيمَ الدَّائِمَ لا يكونُ إلَّا في الجنَّةِ، وأمَّا نعيمُ الدُّنيا فآيِلٌ إلى الزَّوالِ، كما قال اللهُ ﷻ: ﴿كُلُّ مَنۡ عَلَيۡهَا فَانٖ﴾ [الرَّحمن: 26]، وكما قال لَبيدُ بنُ ربيعةَ العامِريُّ رضي الله عنه:

(1) السَّعديّ، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 332.

أَلَا كُلُّ شَيْءٍ ما خَلا اللّهَ باطِلُ *** وكُلُّ نَعيمٍ لا مَحالَةَ زائِلُ[1]

أي: مِنْ نعيمِ الدُّنيا.

نُكْتَةُ تَنْكيرِ لفظ ﴿نَعِيمٌ﴾:

خُلوصُ نَعيمِ الجَنَّةِ عن كُلِّ ما يُكَدِّرُ صَفْوَهُ

نُكِّرَ لَفْظُ ﴿نَعِيمٌ﴾، مِن قول اللّهِ تعالى: ﴿وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ﴾؛ لإرادَةِ التَّعظيم والتَّفخيم، والمرادُ: لهُمْ في الجنَّةِ نعيمٌ عظيمٌ، فَخْمٌ خالِصٌ عَنْ كُلِّ ما يُكَدِّره[2]، "وهنا يريد الحقُّ ﷻ، أن يلفتنا إلى أنَّ جنَّة الآخِرة، ليس فيها مُنغِّصاتُ الدُّنيا، بل هي صفاءٌ واستمتاع، يعطي فيها الحقُّ ﷻ لعبده ما تشتهيه نفسُه، ويُبْعِد عنه جميعَ المنغِّصات، وقد يخاف الإنسانُ ألَّا يدوم مثلُ هذا النَّعيم؛ لذلك يُطَمْئِن الحقُّ العبدَ المؤمن أنَّه ﴿نَعِيمٌ مُّقِيمٌ﴾"[3].

دلالَةُ وَصْفِ النَّعيمِ بِكَوْنِهِ مُقيمًا:

بِشارَةُ اللهِ تعالى لِأَهْلِ الإيمانِ، بِالنَّعيمِ العَظيمِ الدَّائمِ الامتنان

وُصِفَ النَّعيمُ بِكَوْنِهِ مُقيمًا في قول اللّهِ ﷻ: ﴿وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ﴾، تَطْمينًا لقلوبِ عبادِهِ المؤمِنينَ، فإنَّ ما عرفوهُ مِنَ النَّعيم الدُّنيَويِّ، صائِرٌ إلى الزَّوالِ، فقَدْ يقَعُ في الوَهْم أنَّ نعيمَ الجنَّةِ كذلكَ؛ فدُفِعَ ذلكَ بقولِه: ﴿مُّقِيمٌ﴾؛ للدّلالةِ على دوامِه، وعَدَمِ انقطاعِه عَنْهُمْ. وقد عُبِّر عن دوام النَّعيم بثلاثِ عباراتٍ: أوَّلُها: ﴿مُّقِيمٌ﴾؛ فإنَّ معناهُ هنا: الدَّائمُ المستمرُّ الذي لا انقطاعَ لَهُ. وثانيها: وصفُ أهلِ الإيمانِ بالخلودِ في الجَنَّةِ، بقولِه سبحانَه: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ﴾، وذلكَ يقتضي خلودَهُم في النَّعيم؛ إذ النَّعيمُ ملازِمٌ لِلجنَّةِ. وثالثُها: التَّنصيصُ على الأبديَّةِ في قولِه: ﴿أَبَدًا﴾. فكان مجموعُ ذلك مقتضيًا أنَّ اللّهَ ﷻ يبشِّرُ هؤلاءِ المؤمِنينَ المهاجرينَ المجاهِدين في سَبيلِه، بالنِّعَمِ الخالِصَةِ الدَّائمَةِ، المقرونَةِ بالتَّفخيم والتَّعظيم[4].

(1) لبيد بن ربيعة، ديوان لبيد بن ربيعة، ص: 132.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/419.
(3) الشَّعراويّ، تفسير الشّعراوي: 8/4976.
(4) الرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 16/15.

بَلاغَةُ الِاسْتِعارَةِ:

إبرازُ المَعْنَويِّ في صورةِ المَحسوسِ أقربُ إلى الفَهْمِ وأعلقُ بالنُّفوس

في قول اللّه ﷻ: ﴿وَجَنَّٰتٞ لَّهُمۡ فِيهَا نَعِيمٞ مُّقِيمٌ﴾ استعارَةٌ؛ وذلك أنَّ الإقامة: هي جَعْلُ الشَّيءِ قائمًا، والقيامُ في الأصلِ: انتصابُ شيءٍ إلى أعْلَى، على وجْهِ الثُّبوتِ[1]، ثُمَّ استُعيرَ ذلكَ للأَمْرِ المسْتَمِرِّ[2]؛ تصويرًا للدَّوام - وهو معنويٌّ - في صورة الأمْرِ المنتَصِبِ - وهو حسِّيٌّ - وذلك أعلَقُ بالذِّهْنِ والنَّفس، وأقربُ إلى الفَهْمِ والإدْراكِ.

بَلاغَةُ أُسْلوبِ التَّدَلِّي مِنَ الأعلى إلى الأدنى:

حيازة الرَّحمة والرِّضوان، أعْلَى مَسَرَّاتِ أهْلِ الجنان

اشتَمَلَ قولُ اللّهِ ﷻ: ﴿يُبَشِّرُهُمۡ رَبُّهُم بِرَحۡمَةٖ مِّنۡهُ وَرِضۡوَٰنٖ وَجَنَّٰتٖ لَّهُمۡ فِيهَا نَعِيمٞ مُّقِيمٌ﴾، علَى ضُروبٍ مِنَ الدَّرجاتِ العاليَةِ، رُتِّبَتْ بَدْءًا مِنَ الأَعْلَى فما بَعْدَهُ في الرُّتْبَةِ، وهي على النَّحْوِ الآتي: أوَّلُها: كون تلكَ البِشارةِ حاصلةً مِنَ اللّهِ تعالى بالرَّحْمَةِ والرِّضْوانِ[3]، وهذا تعظيمٌ وإجلالٌ مِنَ اللّهِ سُبحانَهُ. وثانيها: ذِكْرُ كَوْنِ الجنَّاتِ لَهُمْ؛ فيه إيماءٌ إلى حصولِ المنافِعِ العظيمَةِ لَهُمْ. وثالثُها: التَّنصيصُ على ما فيها مِنَ النَّعيمِ إشارَةٌ إلى كَوْنِ المنافِعِ خالصةً عنْ أيِّ مُكدِّرٍ[4]، وفي البَدْءِ بأعْلَى الجزاءِ تعجيلٌ لأعْلَى المسَرّاتِ لَهُمْ، وهوَ ملائمٌ لسياقِ البشارَةِ.

بلاغة أسلوب اللَّفِّ والنَّشْرِ:

الجَزاءُ مِن جِنْسِ العَمَلِ، ويتنوَّعُ الجزاءُ بتنوُّعِ الأعمال

في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿يُبَشِّرُهُمۡ رَبُّهُم بِرَحۡمَةٖ مِّنۡهُ وَرِضۡوَٰنٖ وَجَنَّٰتٖ لَّهُمۡ فِيهَا نَعِيمٞ مُّقِيمٌ﴾، لَفٌّ ونشْرٌ غيرُ مُرتَّبٍ؛ وذلك لأنَّ اللّه سبحانَه، وصفَ المؤمنينَ بثلاثِ صفاتٍ في قوله جلَّ وعلا: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ﴾، وهذه الصِّفاتُ

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيُّ المؤصَّل: (قوم).
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/150.
(3) أسلوب التَّدلّي في الآيَةِ هو بالنَّظر إلى أنَّ الرَّحمةَ والرِّضوانَ مرتبَةٌ واحدةٌ مِن مراتبِ البِشاراتِ، أمَّا إذا نُظِرَ إلى الرَّحمةِ والرِّضْوانِ علَى أنَّهما أمرانِ متباينانِ مبَشَّرٌ بهما؛ فبينَهُما ترَقٍّ - كما تقدَّمَ.
(4) الرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 16/15.

هي: الإيمانُ، والهِجْرَةُ، والجهادُ في سبيلِ اللّهِ تعالَى بالمالِ والنَّفْسِ، وقَدْ قوبِلَت هذه الأوصافُ الجليلَةُ بالثَّوابِ الجليلِ، فبُدِئَ بالرَّحْمَةِ في مقابلَةِ الإيمانِ؛ لتوقُّفِها عليه، ولكونِها أعمَّ النِّعَمِ وأَسْبَقَها، كما أنَّ الإيمانَ هو السَّابقُ، وثُنِّيَ بالرِّضْوانِ في مقابلة الجهادِ الذي فيه بَذْلُ المالِ والنَّفْسِ، وثُلِّثَ بالجنَّاتِ في مقابَلَةِ الهِجْرَةِ، وذلكَ أنَّهم لـمَّا ترَكوا أوطانَهُمْ، أبْدَلَهُمُ اللّهُ تعالى بدارِ الكُفْرِ جنَّاتٍ مشتملةً على نعيمٍ مقيمٍ[1]، يهنأ به أهلُه دونَ انقطاعٍ مُفسد، ولا تنغيصٍ مُقْلِق، فكان ما تقدَّم لفًّا ونشْرًا غيرَ مرتَّبٍ[2]؛ لأنَّ النَّشْرَ لَمْ يَرِدْ على ترتيبِ اللَّفِّ، ولَمْ يقَعِ التَّعيينُ؛ ثِقَةً بأنَّ السَّامع يُمَيِّزُ ما لِكُلٍّ واحدٍ مِنْها، فَيَرُدُّه إلَى ما هوَ لَهُ[3].

دلالَةُ التَّعْبيرِ بِالخلودِ:

عُبِّرَ بالخلودِ في قوله سبحانَه: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ﴾، بعدَ التَّعبيرِ عنِ النَّعيمِ بكونِهِ مقيمًا، في قوله تعالى: ﴿لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ﴾، وذلك دالٌّ على الدَّوامِ أيضًا؛ ليكونَ التَّصريحُ بلَفْظِ الخُلودِ أَقَرَّ للنَّفْسِ[4]، و"الخلودُ نعمةٌ فوق نعمة الجنَّة ذاتِها، فإنَّ الإحساس بدوام النِّعمة نعمةٌ، وليس في مقابل الدُّنيا الفانية"[5].

التَّصْريحُ بِما فيه طَمْأَنَةُ أَهْلِ الإيمانِ، مِن لطف الله ذي الإحسان

دلالَةُ التَّعْبيرِ بلفظ ﴿أَبَدًا﴾:

في التَّنصيص على التَّأبيدِ في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾، تأكيدٌ للخُلودِ؛ زيادةً في توضيح المرادِ مِنْهُ، ودَفْعًا لما قَدْ يُتوَهَّمُ مِن

الإحساسُ بِدَوامِ النِّعْمَةِ نِعْمَةٌ في قِمَّةِ النِّعمة

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 5/264.

(2) قال أبو حيَّان: "لما كانت الأوصاف التي تحلَّوا بها وصاروا بها عَبيدَه حقيقةً هي ثلاثة: الإيمان، والهجرة، والجهاد بالمال والنفس، قوبلوا في التبشير بثلاثة: الرّحمة، والرضوان، والجنّات. فبدأ بالرحمة لأنّها الوصف الأعمُّ الناشئ عنها تيسير الإيمان لهم، وثنّى بالرضوان لأنه الغاية من إحسان الرّبّ لِعَبده، وهو مقابل الجهاد، إذ هو بذل النفس والمال، وقُدِّم على الجنّاتِ لأنّ رضا الله عن العبد أفضلُ من إسكانهم الجَنَّةَ". ينظر: أبو حيّان، البحر المحيط: 5/389 - 390.

(3) صافي، الجدول في إعراب القرآن: 10/306 - 307.

(4) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 8/419.

(5) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 6/3259.

أنَّ لفظَ الخلودِ يُقْصَدُ بِهِ الْمُكْثُ الطَّويلُ[1]، فكانَ ذِكْرُ التَّأْبيدِ بمنزلَةِ الاحتراسِ، والمبالغَةُ في إثباتِ الدَّوامِ لنعيمِ الجنَّةِ إنْعامٌ آخَرُ؛ وذلكَ لأنَّ الإحساسَ بدوامِ النِّعْمَةِ نِعْمَةٌ[2]، وذِكْرُ التَّأبيدِ بعد الخلود، يتَّفق وعِظَمَ البُشرى مِنَ اللّه تعالى: ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم﴾، فذِكْرُ التَّأبيدِ زيادةُ تكريم؛ ولأنَّه ذَكَر لهم أعمالًا عظيمة؛ كالإيمان والهجرة والجهاد، كما أنَّ في ذِكْرِ التَّأبيد تعريضًا بالمنافقين المُتعلِّقين بحبال الدُّنيا الزَّائلة، ففيه إشارةٌ لطيفةٌ إلى خُسْران هؤلاء المنافقين؛ إذ إنَّهم آثَروا الحياة الدُّنيا على الآخرة.

عِلَّةُ فَصْلِ قولِه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٌ﴾ عَمَّا قَبْلَهُ:

فُصِلَ قولُ اللّهِ ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٌ﴾ عمَّا قَبْلَهُ؛ لوقوعِهِ استئنافًا، إيذانًا مِنَ اللّه تعالى بمزيد كَرمِهِ وجزيلِ جزائِهِ لأهلِ الإيمانِ، وجملَةُ الاستئنافِ واقعَةٌ أيضًا تعليلًا لما تقدَّمَها[3]، ومعناه: "لا قَدْرَ عندَه لأُجور الدُّنيا، أو للأعمال التي في مقابلته"[4].

جَزاءُ اللهِ تَعالى لِأَهْلِ الإيمانِ وتَكْريمُهُ لَهُمْ لا مُنْتَهَى لَهُ

سِرُّ تَعْريفِ المُسْنَدِ إليه بِالْعَلَمِيَّةِ:

جاءَ المسنَدُ إليهِ (اللّه) معرَّفًا بالعلميَّةِ في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٌ﴾؛ للإشْعارِ بجليل الثَّوابِ والجزاءِ عند اللّهِ تعالى، وذلك لأنَّ الاسْمَ الأحْسَنَ (اللّه) جامعٌ لصِفات الجلال والجمال والكمال، وذلك مُشْعِرٌ بعظمَةِ ما يُضافُ إليه سبحانَه، وأُكِّدَ ذلك بـ (إنَّ) واسميَّةِ الجُمْلَةِ؛ زيادَةً في تَقْويَةِ هذا المعنى وتوثيقِهِ، و"لا تُسْتَغربُ كثرتُهُ على فضل اللّه، ولا يُتعَجَّبُ مِن عِظَمِه وحُسْنه، على مَن يقول للشَّيء: (كُنْ فيكون)"[5].

عِظَمُ الجَزاءِ والثَّوابِ عند اللهِ تعالى، ممَّا تَقَرُّ به أعينُ المؤمنين

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/53، والآلوسيّ، روح المعاني: 5/264.
(2) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 6/3259.
(3) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 8/419، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/53.
(4) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/53.
(5) السَّعديّ، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 332.

دلالَةُ تَقْديمِ ﴿عِندَهُۥٓ﴾ في الآية:

اخْتِصاصُ اللهِ ﷻ بِالأَجْرِ العَظيمِ؛ لعدم إمكانيَّة ذلك مِن سواه

قُدِّمَ الظَّرْفُ ﴿عِندَهُۥٓ﴾ في قول اللّهِ ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٌ﴾؛ لإفادَةِ القَصْرِ والاختصاصِ، فالأَجْرُ العظيمُ عند اللّهِ تعالى لا عند غَيْرِهِ، وما يُعَظِّمُهُ النَّاسُ مِنَ الأجور الدُّنيويَّةِ عند الخَلْقِ، إنَّما هو مِنْهُم تعظيمٌ لِغَيْرِ عظيمٍ، والأَجْرُ العظيمُ على الحقيقَةِ عِنْدَ اللّهِ سبحانَه لا غير.

نُكْتَةُ تَنْكيرِ لفظ ﴿أَجۡرٌ﴾:

الأُجور عند اللهِ تعالى بقدر عَظَمَة المعطي، لا بقدر حاجة الطَّالب

نُكِّرَتْ كَلِمَةُ ﴿أَجۡرٌ﴾ مِن قول اللّهِ ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٌ﴾، للدّلالَةِ على تفخيمِه وتعظيمِه، فهو أَجْرٌ عظيمٌ لا تُدْرَكُ حقيقتُه، ولا تُحيطُ به عقولُ أهل الدُّنيا، ولا قَدْرَ عِنْدَهُ لِلْأُجورِ الدُّنيويَّةِ أوِ الأعمالِ التي في مقابَلَتِهِ[1].

سِرُّ وصْفِ الأَجْرِ بِالعَظَمَةِ:

اجْتِماعُ العِظَمِ الذَّاتيِّ والعِظَمِ الإضافيِّ في الأَجْرِ الموعود

وُصِفَ الأجرُ بِالعَظَمةِ في قول اللّهِ ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٌ﴾؛ مُبالغَةً في تعظيمِ هذا الأَجْرِ وتفخيمِه، وحَسْبُكَ بما يصِفُهُ العظيمُ ﷻ بالعِظَمِ[2]، فاجتَمَع في هذا الأَجْرِ العِظَمُ الذَّاتيُّ المستفادُ مِن تنكيرِ الكلِمَةِ، والعِظَمُ الإضافيُّ المستفادُ مِن وصْفِهِ بالعظَمَةِ، فَيَكونُ وَصْفُ الأجْرِ بالعظَمَةِ بِمَنْزِلَةِ التَّوكيدِ المَعْنَويِّ له.

بلاغة التَّذْييلِ:

الحَثُّ على الازْديادِ مِنَ الأَعْمالِ المرضيَّةِ؛ لِتَحْصيلِ الدَّرَجاتِ العليّةِ

قولُ اللّهِ ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٌ﴾، تذييلٌ جارٍ مجْرَى المثَلِ؛ لاستقلالِهِ بالإفادَةِ، وعدمِ افتقارِهِ إلى ما قَبْلَهُ، في إدْراكِ تمامِ المرادِ منه، والمرادُ بالتَّذْييلِ: التَّنويهُ بشَأْنِ المؤمنينَ المهاجرينَ المجاهِدينَ؛ وذلك لأنَّ مضمونَ هذه الجُمْلَةِ يَعُمُّ مضمونَ ما قَبْلَها وغيرَهُ، وفيه الإشْعارُ بأنَّ ما ذُكِرَ مِنَ الجزاءِ، هو بعضُ ما عند اللّهِ

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/53، وأبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 6/3260.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 8/419.

سبحانَه، فيكونُ ذلك داعيًا إلى الازْدِيادِ مِنَ الأعمال الصَّالحة، لتحصيلِ الدَّرجاتِ العاليَةِ عند اللّهِ[1] ﷻ.

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الأَجْر، والثَّواب، والجَزاء:

الجَزاءُ: لمقابلةِ الخَيْر والشَّرِّ، والأجرُ: لمُقابَلَةِ الخير دائمًا، والثَّوابُ: لمُقابَلَته غالبًا

تدلُّ مادَّةُ الأجرِ (الهمزةُ والجيم والرَّاء) على مَعْنَيَيْن؛ وهُما: الكِراءُ على العمل، وجَبْرُ العَظْم الكَسير، ويُجْمَعُ بينَهُما: بأنَّ أُجرة العاملِ بمنزلة الشَّيءِ الذي تُجبَرُ بها حالُهُ، فيما أصابَهُ مِن كَدٍّ في عملِهِ[2]، وأمَّا الثَّواب: فدالٌّ على العَود والرُّجوع، والمرادُ به: ما يعود على الإنْسان مِن جَزاء عملِهِ[3]، وأمَّا الجزاءُ: فأصله الغَناءُ والكفايةُ، ويُرادُ به: الكفاية مِنَ المُقابلة؛ إنْ خيرًا فخيرٌ، وإنْ شرًّا فشرٌّ[4].

والفَرْقُ بينَها[5]: أنَّ الثَّوابَ يُستعمل في الجزاء بالخَيْرِ غالبًا، واستعمالُهُ في الشَّرِّ أقلُّ. وأمَّا الجزاءُ: فهو المقابلة على الخَيْرِ بالثَّواب، وعلى الشَّرِّ بالعقاب. وأمَّا الأجرُ: فلا يُستعمل إلَّا في النَّفع دون الضُّرِّ، ويتضمَّن معنى المعاوضةِ، فالأجرُ أخصُّ مِنَ الثَّواب والجزاءِ، من جهةِ اختصاصه بالخير، بخلاف الثَّواب والجزاء، فَهُما أعمُّ؛ لجريانِهما في الخير والشَّرِّ، والثَّوابُ أخصُّ مِنَ الأجر والجزاء، مِن جهة أنَّهُ لا يُستعمل في المنافع المادِّيَّة أو الدُّنيويَّة، بخلاف الأَجْرِ والجزاء؛ فإنَّهما يَقَعانِ على المنافع الدُّنيَويَّة، والمنافع الأُخْرَويَّة.

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/150.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (أجر).
(3) القاضي عياض، مشارق الأنوار: (ثوب).
(4) الرَّاغب، المفردات: (جزا).
(5) محمَّد داود، معجم الفُروق الدّلالية في القرآن الكريم، ص: 46 - 48، ومحمَّد ياس الدُّوريّ، دقائق الفروق اللُّغويَّة في البيان القرآنيّ، ص: 164 - 166.

المحتويات

الجزء التاسع 7

سورة الأنفال 9

- [الأنفال: 27] 10
- [الأنفال: 28] 22
- [الأنفال: 29] 30
- [الأنفال: 30] 40
- [الأنفال: 31] 53
- [الأنفال: 32] 66
- [الأنفال: 33] 78
- [الأنفال: 34] 88
- [الأنفال: 35] 102
- [الأنفال: 36 - 37] 112
- [الأنفال: 38] 136
- [الأنفال: 39 - 40] 149

الجزء العاشر 167

- [الأنفال: 41] 168
- [الأنفال: 42] 193
- [الأنفال: 43 - 44] 207
- [الأنفال: 45] 226
- [الأنفال: 46 - 47] 234
- [الأنفال: 48] 257
- [الأنفال: 49] 274
- [الأنفال: 50 - 51] 286
- [الأنفال: 52] 302
- [الأنفال: 53] 312
- [الأنفال: 54] 321
- [الأنفال: 55] 335
- [الأنفال: 56] 343
- [الأنفال: 57] 351
- [الأنفال: 58] 358
- [الأنفال: 59] 367
- [الأنفال: 60] 372
- [الأنفال: 61] 385
- [الأنفال: 62 - 63] 396
- [الأنفال: 64 - 66] 414
- [الأنفال: 67 - 69] 439
- [الأنفال: 70] 458
- [الأنفال: 71] 477
- [الأنفال: 72] 488
- [الأنفال: 73] 512
- [الأنفال: 74] 521
- [الأنفال: 75] 535

سورة التّوبة 547

- [التّوبة: 1] 560
- [التّوبة: 2] 570
- [التّوبة: 3] 579
- [التّوبة: 4] 594
- [التّوبة: 5] 603
- [التّوبة: 6] 616
- [التّوبة: 7] 626
- [التّوبة: 8] 642
- [التّوبة: 9] 658
- [التّوبة: 10] 668
- [التّوبة: 11] 675
- [التّوبة: 12] 685
- [التّوبة: 13] 701
- [التّوبة: 14 - 15] 713
- [التوبة: 16] 729
- [التوبة: 17] 741
- [التّوبة: 18] 752
- [التوبة: 19] 765
- [التّوبة: 20] 774
- [التوبة: 21 - 22] 785

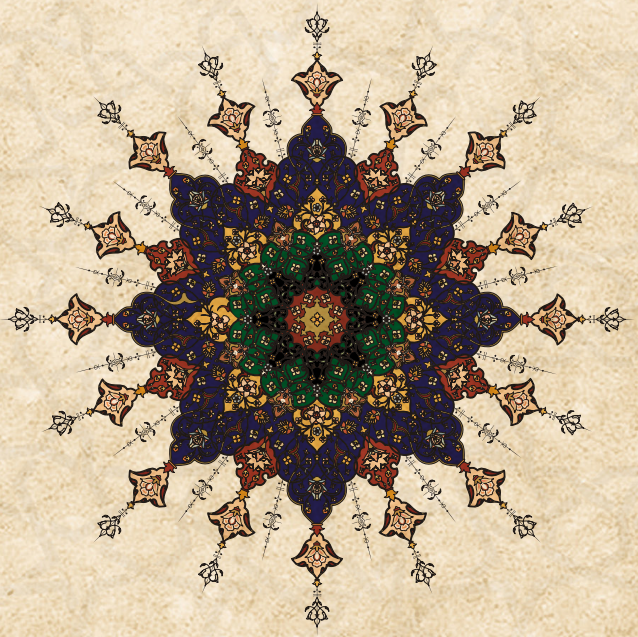

مجمع القرآن الكريم بالشارقة

موسوعة التفسير البلاغي

المُجَلَّدُ السَابِعَ عَشَرَ

سورة التوبة من الآية 23 إلى الآية 86

موسوعة التفسير البلاغي

Government of Sharjah حكومة الشارقة
مجمع القرآن الكريم بالشارقة
HOLY QURAN ACADEMY IN SHARJAH

موسوعة التفسير البلاغي

المُجَلَّدُ السَابِعَ عَشَرَ

سورة التوبة من الآية 23 إلى الآية 86

نُخْبَةٌ مِنْ عُلَماء مَجْمَعِ القُرْآنِ الكَرِيمِ بِالشّارِقَةِ

منشورات القاسمي
AL QASIMI PUBLICATIONS
20/24

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد السابع عشر، سورة التوبة من الآية 23 إلى الآية 86
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد السابع عشر، سورة التوبة من الآية 23 إلى الآية 86 [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 17 ، 808 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-14-2
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 17 : المجلد السابع عشر، سورة التوبة من الآية 23 إلى الآية 86.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-768-14-2
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-4716310 بتاريخ 2024/01/24م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الجُزْءُ العَاشِرُ

سُورَةُ التَّوبَةِ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمۡ وَإِخۡوَٰنَكُمۡ أَوۡلِيَآءَ إِنِ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡكُفۡرَ عَلَى ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٢٣﴾ [التَّوبة: 23]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

العلاقة بين الجزاء الأبديّ لمَن وَالَى اللهَ، والنَّهيُ عن موالاة الكافرين به

لمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى العاطِفَةَ بِمَحاسِنِ الأَعْمالِ؛ شَرَعَ في بيانِ العاطفةِ بالأنسابِ والأَمْوالِ، وقَدَّمَ الأَعْمالَ؛ إيماءً إلى أنَّ التَّجانُسَ فيها مقدَّمٌ على المجانسَةِ في جميعِ الأحوالِ، ثُمَّ إنَّه لمَّا كان محطُّ الموالاةِ هي المُناصَرَةَ، وكانَ الانتِصارُ بِالآباءِ والإِخْوانِ أَعْظَمَ مِنَ الانْتِصارِ بِغَيْرِهِم؛ اقتصرَ عليه، فقال سبحانَه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمۡ وَإِخۡوَٰنَكُمۡ أَوۡلِيَآءَ إِنِ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡكُفۡرَ عَلَى ٱلۡإِيمَٰنِۚ﴾[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تَتَّخِذُوٓاْ﴾: (الهمزَةُ والخاءُ والذَّالُ): تدلُّ اشتقاقاتُها على مَعْنَى حيازَةِ الشَّيءِ وجَمْعِه[2]، وهذا المعنى يكونُ تارةً بالتَّناوُلِ، كقولِ اللهِ ﷻ: ﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأۡخُذَ إِلَّا مَن وَجَدۡنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ﴾ [يوسف: 79]، وتارةً بالقَهْرِ والغَلَبَةِ، كقولِ اللهِ سبحانَه: ﴿لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ﴾[3] [البقرة: 255]، ومِن هذا البابِ وُرودُ المادَّةِ مُرادًا بها التَّحصيلُ، كقولهم: اتَّخذَ فلانٌ مالًا، أي: كسَبَهُ، وفِعْلُ (اتَّخذَ) هو افتعالٌ مِنَ الأخذِ، والمرادُ به: الأخذ للنَّفْسِ[4]، والاتِّخاذُ الواردُ في قولِ اللهِ ﷻ: ﴿لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمۡ وَإِخۡوَٰنَكُمۡ أَوۡلِيَآءَ إِنِ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡكُفۡرَ عَلَى ٱلۡإِيمَٰنِۚ﴾، يُرادُ به: الجَعْلُ والتَّصْييرُ، أي: لا تُصيِّروهم ولا تَجْعَلوهم أولياءَ.

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 8/420.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (أخذ).
(3) الرَّاغب، المفردات: (أخذ).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصَّل: (أخذ).

2) ﴿أَوْلِيَآءَ﴾، ﴿يَتَوَلَّهُم﴾: (الواوُ واللَّامُ والياءُ): تدلُّ اشتقاقاتُها على معنى القُرْبِ، ومنه: الوَلْيُ، وهو القُرْبُ، تقولُ العربُ: تباعَدَ فلانٌ بعْدَ ولْيٍ، أي: بَعْدَ قُرْبٍ، وجلسَ ممَّا يَليني، أي: يُقاربُني. ومنه: المَوْلَى، وهو يُطْلَقُ على معانٍ؛ منها: المُعْتِقُ والمُعْتَقُ، والحليفُ، والنَّاصِرُ، والجارُ، وفي كلِّها مَعْنَى القُرْبِ، كما هو بيِّنٌ[1]، ومِن أسماءِ اللهِ سبحانَه: الوَليُّ، ومَعْناهُ: النَّاصِرُ، أو هو المُتولِّي لأمورِ الخلائقِ، القائمُ بها[2]، و﴿أَوْلِيَآءَ﴾ في قول اللهِ سبحانَه: ﴿لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ﴾، أي: بطانَةً وأَنْصارًا، و﴿يَتَوَلَّهُم﴾ بمعنى: يتَّخِذْهُم أولياءَ.

3) ﴿ٱسْتَحَبُّواْ﴾: (الحاءُ والباءُ) تدلُّ تصاريفُها على معنى تَجمُّعِ شيءٍ دقيقٍ أو لطيفٍ، ومنه: الحُبُّ، وهو ضِدُّ البُغْضِ؛ وهو راجِعٌ إلى معنى التَّجَمُّعِ والتَّلازُمِ، لِكَوْنِ الحُبِّ تَعَلُّقَ القَلْبِ بِالْمَحْبوبِ، ومُلازمَتَهُ إيَّاه، ماديًّا أو فِكْريًّا[3]، والفِعْلُ منه: أَحَبَّ، يُقال: أَحْبَبْتُ الشَّيءَ، فهو مُحَبٌّ، والفاعِلُ: مُحِبٌّ، واسْتَحَبَّ مِثْلُ أَحَبَّ، والاسْتِحْبابُ: الاستحسانُ[4]، وهو المرادُ في قول اللهِ تعالى: ﴿إِنِ ٱسْتَحَبُّواْ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَٰنِ﴾، فإنَّ معناهُ: آثروهُ، والشَّيءُ يُؤْثَرُ على غَيْرِهِ: إذا استحْسَنَهُ المُؤْثِرُ.

4) ﴿ٱلظَّٰلِمُونَ﴾: (الظَّاء واللَّام والميمُ): تدلُّ تصاريفُها على حَجْبِ ما يَنْبَغي أو ما يُسْتَحقُّ؛ أي: مَنعِهِ أو انتِقاصِهِ[5]، ومنه: الظَّلامُ؛ لحَجْبِهِ الرُّؤْيَةَ، والأرضُ المظلومةُ: التي لم ينلْها المطرُ[6]، والظَّالِمُ: المُتَّصِفُ بالظُّلْمِ، والظُّلْمُ: وَضْعُ الشَّيءِ في غير مَوْضِعه المُخْتَصِّ به، إمَّا بنُقْصانٍ أو بزيادَةٍ، وإمَّا بعدولٍ عن وقْتِه أو مكانِه[7]، ومنه: وصفُ الظُّلْمِ في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾؛ لكونِهِمْ قد وضعوا الوِلايَةَ في غير مَوْضِعِها.

---

(1) الفيُّوميّ، المصباح المنير: (نصر)، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/486.
(2) ابن الأثير، النِّهاية في غريب الحديث والأثر: (ولي).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيُّ المؤصَّل: (حب).
(4) الفيّوميّ، المصباح المنير: (حب).
(5) جبل، المعجم الاشتقاقيُّ المؤصَّل: (ظلم).
(6) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة: (ظلم)، والزَّبيديّ، تاج العروس: (ظلم).
(7) ابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم: (ظلم)، والرَّاغب، المفردات: (ظلم).

المَعْنى الإجْماليُّ:

نداء المؤمنين لنبذ المُعاندين بالكُفر، وتركِ موالاتهم، ولو كانوا أولي قُربى

يا أيُّها الذينَ صَدَّقوا اللهَ تعالى ورَسولَهُ ﷺ، وعَملوا بشَرْعِه، لا تَتَّخِذوا أَقْرِباءَكُمْ مِنَ الآباءِ والإخْوانِ وغَيْرِهِم، بطانَةً وأَصْدِقاءَ، تُفْشونَ إليهم أَسْرارَكُم، وتُطلِعونَهُم على عَوْرَةِ الإسْلامِ وأَهْلِه، وتَسْتَشيرونَهُم في أمورِكُم، وتُؤْثِرونَ المُكْثَ بينَ أَظْهُرِهِم على الهِجْرَةِ إلى دارِ الإسْلامِ، ما داموا قَدِ اخْتاروا الكُفْرَ باللهِ سبحانَه على التَّصْديقِ به والإقْرارِ بتَوْحيدِه، ومَن يتَّخِذْهُم مِنْكُم بطانةً وأَصْفياءَ فَقَدْ ظلَمَ نَفْسَهُ ظُلْمًا عَظيمًا، بوَضْعِه الوِلايَةَ في غيرِ مَوْضِعِها[1].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

عِلَّةُ فَصْلِ قولِه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ﴾ عمَّا قَبْلَهُ:

تقريعُ أَهْلِ النِّفاقِ ومَنْ يَتَوَلَّاهُمْ، ملمحٌ ضروريٌّ لكفِّ شرورهم

فُصِلَ قَوْلُ اللهِ ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمْ﴾ عَمَّا قَبْلَهُ؛ لوقوعِه استئنافًا ابتدائيًّا، بقصْدِ افْتِتاحِ غرضٍ آخَرَ مِنَ القَوْلِ، وهو تقريعُ أهلِ النِّفاقِ ومَن يتَولَّاهُمْ، وذلك لأنَّهُ لـمَّا كانَ أوَّلُ السُّورةِ واردًا في طريقة التَّعامُلِ مع مَنْ أظهَرَ الكُفْرَ؛ تهيَّأَ المقامُ للكلامِ عن طريقَةِ التَّعامُلِ مع مَن أبطَنوا الكفْرَ، وأظْهَروا الإيمانَ[2].

نُكْتَةُ النِّداءِ بِـ(يا)، في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾:

إظْهارُ العِنايَةِ بالنَّهيِ عَن تَوَلِّي غَيْرِ أَهْلِ الإيمانِ

جاء النِّداءُ بِـ (يا)، في قول اللهِ ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، وهي في الأصل لنداء البَعيد، ونداءُ اللهِ سُبحانَه لعبادِه نِداءٌ مِنَ الخالِقِ إلى المَخْلوقين، فَجديرٌ أَنْ يَكونَ بأداةِ النِّداء لِلْبَعيد، وفي التَّعبير بأداة النِّداء لِلْبَعيد نِكاتٌ؛ أولاها: بُعْدُ ما بينَ الخالِقِ والمَخْلوقِ مِنَ المَكانةِ. وثانيها: أنَّه نِداء مِنَ الخالِقِ، وهو مُقْتَضٍ أعلى العُلوِّ وأبعدَهُ. وثالثها: عِظَمُ شأنِ موضوع النِّداءِ، وإظهارُ العنايَةِ بهِ، والمُبالغَةُ في حَثِّهِم على المُحافظَةِ عليه.

(1) ابن جرير، جامع البيان: 14/175 - 176، ونخبة مِنَ العلماء، التَّفسير الميسَّر، ص: 190.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/150.

سِرُّ النِّداءِ بِـ ﴿يَـٰٓأَيُّهَا﴾:

النِّداءُ بـ ﴿يَـٰٓأَيُّهَا﴾ في قولِ اللّهِ جلَّ وعلا: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ فيهِ ضَرْبٌ مِن تَقْوِيَةِ النِّداءِ، ووَجْهُ ذلك: أنَّ (أيّ) لا يُفْهَمُ المرادُ منه إلَّا باسمٍ بعَدَهُ يُزيلُ غُموضَهُ، وفي هذا انتقالٌ مِنَ الإبْهام إلى الإيضاحِ والبَيانِ، وفي هَذا نَوْعُ توكيدٍ، وفي اقترانِهِ بـ (ها) التَّنبيهِ: زيادةٌ في التَّوكيدِ؛ إذِ النِّداءُ في الأصل يُرادُ به التَّنبيهُ.

الِانْتِقالُ مِنَ الإبْهامِ إلى الإيضاحِ والبَيانِ، مِنْ مُقَوِّيَاتِ المَعاني

دلالة النِّداءِ بِاسْمِ الإيمانِ:

وقَعَ النِّداءُ باسْمِ الإيمانِ في قول اللّهِ تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾؛ إيذانًا بأنَّ ما سيُلْقَى إلَيْهِمْ مِنَ الوصايا، هو مِنْ مقتضَياتِ الإيمانِ شرعًا، ومِنْ شَعائِرِهِ ومعالِمِه[1]، وفي التَّعبير باسْمِ الإيمانِ مناسبَةٌ لطيفَةٌ؛ وهي أنَّ وصفَ الإيمانِ مُشْعِرٌ بِالاسْتِعدادِ لامتِثالِ ما يأمرُهُم اللّهُ تعالى به؛ وذلك لأنَّهُ أخصُّ أوصافِهِمْ تُجاهَ أوامرِ اللّهِ ﷻ، كما قالَ سبحانَه: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ [النّور: 51].

أَخَصُّ أَوْصافِ أَهْلِ الإيمانِ، امْتِثالُهُمْ أَوامِرَ اللّهِ تعالى ونَواهيَهُ

نُكْتَةُ مَجيءِ جُمْلَةِ الصِّلَةِ فِعْلًا ماضيًا:

جاءتْ جملَةُ الصِّلَةِ فِعْلًا ماضيًا، هو ﴿ءَامَنُواْ﴾ في قول اللّهِ سبحانَه: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾؛ لإفادةِ التَّجدُّد والحدوثِ؛ حثًّا لِلْمُخاطَبين على تَجْديدِ إيمانِهِم والاستمرارِ عليه، وفي الإتْيانِ بها فِعْلًا ماضيًا هاهنا إشعارٌ بِأنَّ وَصْفَ الإيمانِ ثابتٌ لَهُمْ، وأنَّهُمْ مُتَحَقِّقونَ به.

حَثُّ أَهْلِ الإيمانِ على تَجْديدِ إيمانِهِمْ والثَّباتِ عَلَيْهِ

فائِدَةُ حَذْفِ مُتَعَلَّقِ الإيمانِ:

حُذِفَ متعلَّقُ الفعلِ (آمَنوا) مِنْ قول اللّهِ سبحانَه: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، وهو المُؤْمَنُ به، وفي ذلك مَسْلَكانِ؛ أحدهما: ظهورُ أفرادِ المؤمَنِ

حَقيقَةُ الإيمانِ مُسْتَقِرَّةٌ في نُفوسِ المُؤْمِنينَ، وهُمْ مُقِرّونَ بِجَميعِ ما يَجِبُ الإيمانُ بِهِ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/151.

به؛ وذلك لأنَّ الإيمانَ لَهُ حقيقَةٌ شَرْعيَّةٌ مَعْروفةٌ، فإذا أُطْلِقَ لفظُ الإيمانِ، انصرَفَ الذِّهْنُ إلى تلكَ الحَقيقةِ، مِن غَيْرِ افتقارٍ إلى التَّنصيصِ على مُتَعَلَّقِهِ. والآخر: إرادَةُ العموم؛ وذلك لأنَّ حَذْفَ المَعْمولِ مُؤْذِنٌ بالْعُمومِ، والمعنى: آمَنوا بِجَميعِ ما يجبُ الإيمانُ به شرعًا.

غَرَضُ النَّهْيِ في قوله: ﴿لَا تَتَّخِذُوٓاْ﴾:

تَحْريمُ اتِّخاذِ الكُفّارِ أَوْلياءَ، مِنْ مُقْتَضَياتِ الإيمانِ بِاللهِ ﷻ

النَّهيُ في قول اللهِ سبحانَه: ﴿لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمۡ وَإِخۡوَٰنَكُمۡ أَوۡلِيَآءَ﴾، باقٍ على أصله في الدّلالَةِ على الإلْزام بالتَّرْكِ؛ إذِ التَّباعُدُ عنِ اتِّخاذِ الكُفَّار أولياءَ وأصْفياءَ ممَّا شاع عِلْمُهُ في دين الإسلام، وهو مِن مقتضياتِ الإيمانِ باللهِ تعالى، فكان النَّهْيُ عنِ اتِّخاذِ الكُفَّارِ أولياءَ يُرادُ به التَّحريمُ، ومُفادُه: "لا تتَّخذوا أقرباءكم - مِنَ الآباء والإخوان وغيرِهم - أولياءَ، تُفْشون إليهم أسرارَ المسلمين، وتستشيرونهم في أموركم، ما داموا على الكفر معادين للإسلام، ومَن يتَّخِذْهم أولياءَ، ويُلْقِ إليهم المودَّة، فقد عصى اللهَ تعالى، وظلم نفسَه ظلمًا عظيمًا"[1].

دلالَةُ التَّعْبيرِ بِالاتِّخاذِ:

وُجوبُ إجابَةِ داعي الإيمانِ، ولو تَعارَضَ مع داعي غرائز الإنسان

في التَّعبير بالاتِّخاذِ في قول الله سبحانَه: ﴿لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمۡ وَإِخۡوَٰنَكُمۡ أَوۡلِيَآءَ إِنِ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡكُفۡرَ عَلَى ٱلۡإِيمَٰنِۚ﴾، إيماءٌ إلى وجوبِ التَّباعُدِ عن منازعَةِ النُّفوسِ، إلى ما تدعو إليه الطِّباعُ مِنَ الرُّكونِ إلى الآباء والإخْوانِ؛ إذ معنى: ﴿لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمۡ وَإِخۡوَٰنَكُمۡ﴾: لا تتعَمَّدوا وتتكَلَّفوا ذلك[2]؛ لما يتجاذَبُهُ نداءُ الإيمانِ مِنْ عَدمِ تولِّيهِم، وما يدعو إليه الطَّبْعُ مِنَ المَيْلِ إليهم.

نُكْتَةُ تَخْصيصِ الآباءِ والإخْوانِ بِالذِّكْرِ:

خُصَّ الآباءُ والإخوَةُ بالذِّكْرِ في قول الله ﷻ: ﴿لَا تَتَّخِذُوٓاْ

(1) نخبة مِن أساتذة التَّفسير، التَّفسير الميسَّر: ص 190.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 8/420.

﴿ءَابَآءَكُمۡ وَإِخۡوَٰنَكُمۡ أَوۡلِيَآءَ إِنِ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡكُفۡرَ عَلَى ٱلۡإِيمَٰنِۚ﴾؛ لأنَّه لا قرابَةَ أقربُ منها[1]، فإذا نُهيَ عن اتِّخاذِ هؤلاءِ أولياءَ؛ فالنَّهْيُ عن اتِّخاذِ غَيْرِهِمْ من بابٍ أَوْلَى وأَحْرَى، ولَمْ يُنَصَّ على الأبْناءِ مع شدَّةِ قُرْبِهِم؛ إذِ الأبناءُ تبعٌ لآبائِهِم، ولهذا السَّبَبِ - كذلك - لَمْ يُذْكَرِ الأزواجُ؛ لكونِهم تابعينَ لأزواجِهِم، والتّابِعُ لا يَقْعُدُ بَعْدَ مَتْبوعِهِ[2].

النَّهْيُ عن اتِّخاذِ الكفرةِ مِنَ القرابةِ أَوْلياءَ، ناهيكَ عَنْ غَيْرِ القرابةِ

دلالَةُ جَمْعِ الآباءِ والإخْوانِ:

جُمِعَ الآباءُ والإخْوانُ في قولِ اللّهِ سبحانَه: ﴿لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمۡ وَإِخۡوَٰنَكُمۡ أَوۡلِيَآءَ إِنِ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡكُفۡرَ عَلَى ٱلۡإِيمَٰنِۚ﴾؛ لِمَكانِ الجَمْعِ في صدْرِ الآيةِ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾؛ ليَكونَ النَّهْيُ متوجِّهًا لكلِّ فَرْدٍ مِن أفرادِ المخاطَبينَ عَن موالاةِ كُلِّ فَردٍ مِن أفرادِ المشركينَ، ووجهُ ذلك: أنَّه قد قُوبِلَ الجَمْعُ في الآباءِ والإخْوانِ بالجَمْعِ في (آمَنوا)، والمتقرِّرُ في القواعدِ: أنَّ مقابلَةَ الجَمْعِ بالجَمْعِ، تقتَضي القِسْمَةَ آحادًا، فلا يُرادُ بالنَّهْيِ في الآيةِ، النَّهْيُ عن موالاةِ طائفَةٍ مِنْهُمْ؛ فإنَّ هذا وإن كان صحيحًا في ذاتِهِ، إلَّا أنَّ الآيةَ إنَّما تدلُّ عليه بالدّلالَةِ لا بالعِبارَةِ[3].

النَّهْيُ عَنْ موالاةِ أَهْلِ الكُفْرِ أَفْرادًا وجَماعاتٍ

دلالَةُ تَعْليقِ الشَّرْطِ بِالحرفِ (إن):

عُلِّقَ الشَّرْطُ بـ ﴿إِنِ﴾ في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿إِنِ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡكُفۡرَ عَلَى ٱلۡإِيمَٰنِۚ﴾، لِكَوْنِ (إنْ) مَوْضوعةً في الأصلِ لِعَدَمِ الجَزْمِ بوُقوعِ مَدْخولِها[4]؛ وذلِكَ لأنَّ اسْتحبابَ الآباءِ والإخْوانِ الكُفْرَ على الإيمانِ ليس مقطوعًا بأنّه يقعُ منهم، بَلْ قد لا يقع منهم، ويكونونَ مِنْ كُمَّلِ أَهْلِ الإيمانِ.

دِقَّةُ اخْتيارِ أَدَواتِ الشَّرْطِ بِما يُناسِبُ سياقاتِها

دلالَةُ تَقْييدِ النَّهْيِ بِالشَّرْطِ:

قُيِّدَ النَّهيُ عنِ اتِّخاذ الآباء والإخْوانِ أولياءَ، بحالِ اسْتِحْبابِهِمُ

(1) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 8/94.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/151، وطنطاويّ، التَّفسير الوسيط: 6/236.
(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/54، والآلوسيّ، روح المعاني: 5/264.
(4) بهاءُ الدِّين السُّبكيّ، عروس الأفراح: 1/323.

الكُفْرَ على الإيمان، فقال سبحانَه: ﴿لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمۡ وَإِخۡوَٰنَكُمۡ أَوۡلِيَآءَ إِنِ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡكُفۡرَ عَلَى ٱلۡإِيمَٰنِۚ﴾؛ إذْ لا يُرادُ المَنْعُ مِن اتِّخاذِهم أولياءَ مُطلقًا، وإنَّما المَنْعُ مقيَّدٌ بالشَّرْطِ المذكورِ، فإن لم يفعلوا ذلك؛ لم يكُنِ اتِّخاذُهم أولياءَ ممنوعًا منه، بل إنَّ ذلك حَسَنٌ[1].

المَنْعُ مِن اتِّخاذِ الآباءِ والإخوانِ أَوْلياءَ، مَشْروطٌ بِإيثارِهِمُ الكُفْرَ على الإيمانِ

دلالَةُ السِّينِ والتَّاءِ في ﴿ٱسۡتَحَبُّواْ﴾:

في قولِه: ﴿إِنِ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡكُفۡرَ عَلَى ٱلۡإِيمَٰنِۚ﴾، السِّينُ والتَّاءُ في ﴿ٱسۡتَحَبُّواْ﴾، يجوزُ أن يكونَ المرادُ بِها التَّأكيدَ، كالّتي في نحو: اسْتَبشرَ، واستجابَ[2]، ويجوزُ أن تكون بمعنى الطَّلبِ، على ما هو الغالِبُ فيها، والمَعنَى: طلبوا محبَّةَ الكُفْرِ، حتَّى أدركَوا هذه الطِّلْبَةَ، والمرادُ: أنَّهم أحبُّوهُ بشدَّةٍ وتعصُّبٍ، فكانوا مُغْرقينَ في الكُفْرِ، مُتعنِّتينَ فيه وفي عداوَةِ أهلِ الإيمانِ[3]، ولا تعارُضَ بينَ الدّلالَتينِ، بَلْ إنَّ إحدَاهُما تُقَوِّي الأُخرَى وتُؤَيِّدُهَا.

إغْراقُ الكُفَّارِ في كُفْرِهِمْ وتَعَنُّتِهِمْ، في عَداوَةِ أَهْلِ الإيمانِ

نُكْتَةُ التَّعْبيرِ بِـ﴿ٱسۡتَحَبُّواْ﴾:

في التَّعبير بصيغَةِ الاستفعالِ: ﴿ٱسۡتَحَبُّواْ﴾ دونَ (أحبّوا)، في قول اللّهِ ﷻ: ﴿إِنِ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡكُفۡرَ عَلَى ٱلۡإِيمَٰنِۚ﴾، إيماءٌ إلى أنَّ الإيمانَ لكثْرَةِ فضائلِه وظهورِ محاسنِه، وقوَّةِ أدِلَّتِه، محبوبٌ بالطَّبْعِ، فلا يكادُ يَتْرُكُهُ أحدٌ إلَّا بضَربٍ مِن ضروبِ المعالَجَةِ والتَّكلُّفِ والمكابرَةِ، لما تقتضيه العقولُ السَّليمَةُ[4].

كَثْرَةُ فَضائِلِ الإيمانِ وظُهورُ مَحاسِنِهِ وقُوَّةُ أَدِلَّتِهِ

دلالَةُ التَّضْمينِ:

في قول اللّهِ ﷻ: ﴿إِنِ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡكُفۡرَ عَلَى ٱلۡإِيمَٰنِۚ﴾ أسلوبُ تَضْمينٍ؛ حيثُ ضُمِّنَ الفعْلُ: ﴿ٱسۡتَحَبُّواْ﴾، معنى: فضَّلوا واختاروا

مغبَّةُ اسْتِحْبابِ المعانِدينَ الكُفْرَ، وعاقبةُ تَفْضيلِهِمْ له على الإيمانِ

(1) مكّي بن أبي طالب، الهداية إلى بلوغ النِّهاية: 4/2955 - 2956.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/151.
(3) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 6/3262.
(4) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 8/420.

وآثَروا، ولذا عُدِّيَ الفِعْلُ بحرف الجرِّ (على)، فصار المعنى: استحبُّوا الكُفْرَ وفضَّلوه على الإيمانِ، أو آثَروه عليه، أو اختاروه عليه[1].

سِرُّ التَّعْبيرِ بِصيغَةِ التَّفَعُّلِ: ﴿يَتَوَلَّهُم﴾:

مـــوالاةُ مَـن عـادى دينَ الله ورسـولَـه ظلـمٌ وحسرةٌ وضياع

في التَّعبير بصيغة التَّفَعُّلِ ﴿يَتَوَلَّهُم﴾ في قَوْلِ اللهِ ﷻ: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾، دلالةٌ على التَّكَلُّفِ، وإشْعارٌ بأنَّ موالاةَ القريبِ المُعادي للدِّينِ، المنابِذِ لأهلِهِ، على خلافِ الأمرِ السَّهْلِ الموافِقِ لِشريعَةِ الإسْلامِ، مِن اعتبارِ الدِّينِ أصلًا في الوَلاءِ والبَراءِ، فقولُهُ تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ﴾، أي: يتكلَّف أن يَفْعَلَ في شأنِهِم ما يفْعَلُهُ القَريبُ مع قريبِهِ[2].

نُكْتَةُ إِفْرادِ الضَّميرِ في ﴿يَتَوَلَّهُم﴾:

المُبالَغَةُ في الزَّجْرِ عَـن تَـوَلِّي مَـن جاهـر بالـكُفْرِ، احتراسٌ ووقاية

أُفْرِد الضَّميرُ في ﴿يَتَوَلَّهُم﴾ من قول اللهِ ﷻ: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾، فَلَمْ يَرِدِ النَّظْمُ القرآنيُّ: (ومَنْ يتَوَلَّوهُم)؛ مراعاةً لِلَفْظِ (مَنْ)، وإنَّما اختير مراعاةُ لَفْظِ (مَنْ) دونَ مُراعاةِ معْناها؛ للإيذانِ باستقلالِ كُلِّ فَرْدٍ مِنهُم، في الاتِّصافِ بالظُّلْمِ[3]، وهذا أَبلَغُ في الرَّدْعِ والزَّجْرِ عن تَولِّي أهلِ الكُفْرِ.

دلالَةُ (مِنْ) في ﴿مِّنكُمْ﴾:

تَرْكُ وِلايَةِ الحَقِّ إلى وِلايَةِ الباطِلِ ضلالٌ وتيه

حرفُ الجرِّ (مِنْ) في ﴿مِّنكُمْ﴾، مِن قولِ اللهِ ﷻ: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾، يُرادُ بها الجِنْسُ لا التَّبعيضُ[4]، وفيها إشارَةٌ إلى أنَّ فيه تَرْكَ ولاية الحقِّ إلى ولاية الباطلِ، وذلك لأنَّ ﴿مِّنكُمْ﴾ تُومِئُ إلى أنَّ الأصل هو ولايتُهم لَكُمْ لا العَكْسُ[5].

(1) ابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 3/17 - 18، وأبو حيَّان، البحر المحيط: 5/391.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 8/420.
(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/54.
(4) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/54.
(5) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 6/3262.

تَوْجيهُ المُتَشابِهِ اللَّفْظيِّ:

بَراعَةُ استعمالِ حُروفِ المعاني في مَواضِعِها المُناسِبَةِ لِسياقاتِها

قال اللّه ﷻ: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [التوبة: 23]، وقال سُبْحانَهُ: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۝٩﴾ [الممتحنة: 9]، والاختلافُ بينَ الآيتينِ في زيادَةِ ﴿مِّنكُمْ﴾ في آية التَّوبَةِ، ووجهُ ذلك: أنَّ آيةَ التَّوبةِ، صُدِّرت بقولِه سبحانَه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّواْ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَٰنِۚ﴾، فلمَّا كانت قرابَةُ هؤلاءِ شديدةً؛ كان الأنسبُ مزيدَ تنبيهٍ وتخصيصٍ بذِكْرِ ﴿مِّنكُمْ﴾، بخلاف آية الممتحنة، فقد صُدِّرت، بقوله ﷻ: ﴿إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُواْ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْۚ﴾ [الممتحنة: 9]، فلمَّا بُدِئَ بأداة الحصْرِ ﴿إِنَّمَا﴾، وكانتِ القرابَةُ معدومةً، والعداوةُ بيِّنَةً، اكتُفيَ بذلكَ التَّنبيهِ عن ذِكْرِ ﴿مِنكُمْ﴾.

دلالةُ التَّعْبيرِ بِاسمِ الإشارَةِ:

انفصالُ المُتَوَلِّي لِأهلِ الكُفرِ عن جماعةِ المُسلِمين ومُباينتُه لهُم

في التَّعْبيرِ باسْمِ الإشارَةِ ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ من قول اللّهِ تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ نُكاتٌ[1]؛ أولاها: تَمْييزُ المشارِ إليْهِمْ أشدَّ تَمْييزٍ. وثانيها: التَّنبيهُ على أنَّ استحقاقَهُم الحُكْمَ المَذْكورَ بَعْدَ اسْمِ الإشارةِ، إنَّما هوَ بسبَبِ استحبابِهِمُ الكُفْرَ على الإيمانِ. وثالثُها: الإيماءُ إلى انْفصالِ المُتَوَلّي لأهلِ الكُفْرِ، عَن جماعَةِ المُسْلِمينَ ومبايَنَتِهِ لَهُمْ.

دلالَةُ التَّعْبيرِ بِإشارَةِ البُعْدِ ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾:

خَطَرُ تَوَلِّي مَن يحادّ اللهَ ورسولَه، باعتباره مِنَ الظُّلْمِ العَظيمِ

في اختيارِ اسْمِ الإشارَةِ ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ في قولِه: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾، وهوَ دالٌّ على البُعْدِ؛ إشعارٌ بذَمِّهِمُ المفيدِ بُعْدَ مكانَتِهِم في الظُّلْمِ، وأنَّهم متوغِّلونَ فيه غايةَ الإيغالِ، وأنَّهُمْ مُبْعَدونَ عَنِ الحَضَراتِ الإلهيَّةِ[2].

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/152، وأبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 6/3262.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 8/420.

دلالَةُ ضَميرِ الفَصْلِ ﴿هُمُ﴾:

ضميرُ الفصلِ ﴿هُمُ﴾ في قول الله ﷻ: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾، لا يُرادُ به دلالتُهُ على القَصْرِ، وإنَّما المرادُ به: تأكيدُهُ وتقويَتُهُ؛ لأنَّ القصرَ مستفادٌ مِن تعريفِ طَرَفَي الإسنادِ، وأُكِّدَتِ الجملةُ بإيرادِها اسميَّةً؛ لأنَّ الجملةَ الاسميَّةَ، آكَدُ مِنَ الفعليَّةِ، وأدلُّ على الثُّبوت واللُّزوم، ففيه إيماءٌ إلى اسْتِمْرارِ المذكورين على الظُّلْمِ، ما داموا مُقيمينَ على تَوَلِّي أهلِ الكُفْرِ، ولو كانوا أُولي قُرْبَى.

تَلَبُّسُ العَبْدِ بِالظُّلْمِ نِتَاجُ تولِّيه غيرَ اللهِ ورسولِه

بَلاغَةُ القَصْرِ:

في قول اللهِ ﷻ: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾، أُسْلوبُ قصْرٍ، وهو مِن قصر الصِّفَةِ على الموصوف، وطريقُه: تعريفُ جُزْأَي الإسْنادِ: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ و﴿ٱلظَّٰلِمُونَ﴾، ففيهِ قصْرُ الظُّلْم على أولَئِكَ المَذْكورينَ؛ لأنَّ المقصورَ بتعريفِ طرفَي الإسنادِ هو المُعرَّفُ باللَّام، سواءٌ أكان مُقدَّمًا أم مؤخَّرًا، وهذا القصرُ ادِّعائيٌّ؛ إذ إنَّ ظاهرَ قولِه سبحانَه: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾، يَقْتَضي نفيَ كونِ غَيْرِهم ظالمًا، وليس الأمرُ كذلك؛ فإنَّ الظُّلْمَ مراتِبُ ودرجاتٌ وأَصْنافٌ، فدلَّ هذا على أنَّ القصرَ ادِّعائيٌّ، وليس حقيقيًّا تَحْقيقيًّا، والمعنى: إنَّهم هُمُ الظَّالمونَ البالغونَ في الظُّلْمِ غايتَهُ، حتَّى كأنَّ ظُلْمَ غيرِهم بالنِّسبةِ إلى ظُلْمِهم ليس بشيءٍ؛ وفي هذا مِنَ الزَّجْرِ والرَّدْعِ عَن موالاةِ الكفَرَةِ ما فيه[1].

زَجْرُ أهْلِ الإسْلامِ ورَدْعُهُمْ عن موالاةِ أعداءِ الله وأعوانِهم

دلالَةُ (ال) في لفظ ﴿ٱلظَّٰلِمُونَ﴾:

اللَّامُ في ﴿ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ مِن قول اللهِ ﷻ: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾، تدلُّ على الكَمالِ، أي: هُمُ الكاملونَ في الظُّلْم، الغارِقون فيه، والمعنى: أولئك المتوَلّون هُمُ الظَّالمون، بوضعهِمُ الموالاةَ في غير موضعِها، كأنَّ ظُلْمَ غيرِهم كَلَا ظُلْمٍ عند ظُلْمِهم[2]، حيث ارتكبوا الظُّلم البَواح،

تَوَلِّي أَهْلِ الجحودِ مِنْ أَعْظَمِ الظُّلْمِ، بِحُكْمِ رَبِّ الوجود

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 5/264، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/151.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/54.

بممالأة الكفر الصُّراح، فأشار اللّهُ تعالى إلى عِظَم ذلك الظُّلم، وكانوا مشارًا إليهم بوصفهم بذلك، فقال تعالى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾.

بَراعَةُ التَّذْييلِ:

قولُ اللّهِ سبحانَه: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾، تذييلٌ غيرُ جارٍ مجرَى المَثَلِ؛ لعَدَمِ استقلالِهِ، وعَدَمِ فَهْمِ تمامِ المرادِ مِنْهُ إلَّا بما قَبْلَهُ، والمرادُ بجملَةِ التَّذييلِ: وعيدُ مَن يَفْعَلُ ذلك وتهديدُهُ[1].

تَهْديدُ مَنْ يَتَوَلَّى الكُفّارَ ووَعيدُهُ حِكْمةٌ مِنَ الله وعدلٌ

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

التَّوَلِّي، والموالاة:

التَّولِّي أخصُّ مِنَ الموالاةِ مُطْلَقًا، فكلُّ تَوَلٍّ موالاةٌ، وليسَتْ كُلُّ موالاةٍ تَوَلِّيًا، ووَجْهُ هذا الخُصوصِ: أنَّ التَّوَلِّي يُفيدُ معنى الاتِّخاذِ والالتزامِ الكامِلِ، بِمَنْ يتولَّاهُ، بخلافِ الموالاةِ، فهيَ دالَّةٌ على المحبَّةِ والمتابَعَةِ، بدرجاتٍ متباينَةٍ، فإن قَويَتْ واشتَدَّت صارَتْ تَولِّيًا[2]؛ ولذا يُطْلِقُ جماعَةٌ مِنْ أهلِ العِلْمِ على التَّوَلِّي: الموالاةَ الخاصَّةَ، وعلى الموالاةِ: الموالاةَ العامَّةَ[3].

التّولّي أخصُّ من الموالاةِ، وكلُّ تولٍّ موالاة، وليست كُلُّ موالاة تولّيًا

(1) طنطاويّ، التَّفسير الوسيط: 6/236.
(2) البدرانيّ، الولاء والبراء والعداء في الإسلام، ص: 38 - 40.
(3) محماس الجلعود، الموالاة والمعاداة في الشَّريعة الإسلاميَّة: 1/33.

﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [التّوبة: 24]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لـمَّا توعَّد اللّهُ سبحانَه مَن وضَعَ المَوَلاةَ في غَيْرِ مَوْضِعِها، فقال ﷻ: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾، وكانتِ النُّفوسُ مختلفَةَ الهِمَمِ، متباينَةَ الشِّيَمِ، ليسَتْ في الانقيادِ إلى الشَّرْعِ على طريقَةٍ واحدَةٍ، وكان ذلك التَّهديدُ قد لا يَرْدَعُ أصنافًا مِنَ النَّاسِ؛ أتبَعَهُ بتهديدٍ أبلَغَ مِنْهُ وأشَدَّ، فقال ﷻ: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ﴾[1]، "فهدَّدهم بأن يتربَّصوا أمرَ اللّهِ فيهم، وينتظروا عقابَه ونَكَالَه بهم، واللّهُ تعالى لا يهدي الفاسقين الخارجين عن طاعته سواءَ السَّبيل"[2].

الأمر بترك موالاةِ غيرِ الله، والتَّنديد بمَن آثَر القرابةَ والمتاعَ، على حُبِّ الله ورسوله

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَعَشِيرَتُكُمْ﴾: (العَيْنُ والشِّينُ والرَّاءُ): تدورُ اشتقاقاتُها على أصْلَيْنِ؛ أحدهما: عَددٌ معلومٌ، ثُمَّ يُحْمَلُ عليهِ غيرُهُ مِنَ المعاني، والآخَرُ: المخالَطَةُ والمُداخَلَةُ[3]، ومنه: العِشْرَةُ، وهي المخالَطَةُ، ويُطْلَقُ العشيرُ على زَوْجِ المرأَةِ؛ لكونِهِ يُخالِطُها، ومَعْشَرُ الرَّجُلِ: أَهْلُهُ، والمَعْشَرُ: الجماعَةُ والنَّفَرُ الذين تَجْمَعُهُم رابطَةٌ ما[4]،

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 8/421.
(2) أسعد حومد، أيسر التَّفاسير، ص: 1260.
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (عشر).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقيُّ المؤَّصل: (عشر).

وعشيرةُ الرَّجلِ: بنو أبيه الأقربون، أو قبيلته وأهلُه، ومنه قولُه تعالى: ﴿وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ ٢١٤﴾ [الشّعراء: 214][1]، وسُمِّيت عشيرةُ الرَّجلِ: لمعاشرة بعضِهم بعضًا[2]، والعَشيرَةُ في قوله تعالى: ﴿قُلۡ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ وَإِخۡوَٰنُكُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ وَعَشِيرَتُكُمۡ﴾، هُمُ الأَهْلُ الأَدْنَونَ؛ لكونِهم يُعاشِرونَ المَرءَ[3].

2) ﴿ٱقۡتَرَفۡتُمُوهَا﴾: (القافُ والرَّاءُ والفاءُ): تدورُ اشتقاقاتُها على مخالَطَةِ الشَّيءِ وملابَسَتِهِ[4]، ومنه: مُقارفَةُ الخطيئَةِ، وهي مخالَطَتُها بالتَّلبُّسِ بها فِعْلًا[5]، ومنه: قولُ اللّه ﷻ: ﴿وَلِيَقۡتَرِفُواْ مَا هُم مُّقۡتَرِفُونَ ١١٣﴾ [الأنعام: 113]، أي: ليَعْمَلوا ما هُمْ عامِلونَ مِنَ الآثام والذُّنوبِ[6]، ومِن هذا المعنى: يَرِدُ الاقْتِرافُ بمعْنَى الاكْتِسابِ، وذلِكَ لأنَّ مَن اكتسَبَ شيئًا كأنَّه لابَسَهُ وادَّرَعَهُ[7]، وهو المعنى المُرادُ في قول اللّهِ تعالى: ﴿وَأَمۡوَٰلٌ ٱقۡتَرَفۡتُمُوهَا﴾؛ فإنَّ المقصودَ: وأموالٌ اكتسَبْتُموها[8].

3) ﴿تَخۡشَوۡنَ﴾: (الخاءُ والشِّينُ والحرفُ المعتلُّ): تدلُّ تصريفاتُها على معنى الخَوْفِ والذُّعْرِ[9]، ومنه: الخشْيَةُ، وهي الخَوْفُ، وخَصَّ الرَّاغِبُ الخَشْيَةَ بالخوفِ المَشوبِ بالتَّعظيم، وأَكْثَرُ ما يَكونُ ذلك عَن عِلْمٍ بما يُخْشَى منه[10]، ويقال: هذا المكانُ أخشى مِن ذلك، أي: أشدُّ خوفًا، ومِنَ المجاز قولُهم: خشيتُ، بمعنى: علمت. قال الشَّاعر[11]:

وَلَقَدْ خَشِيتُ بِأَنَّ مَنْ تَبِعَ الْهُدَى *** سَكَنَ الْجِنَانَ مَعَ النَّبِيِّ مُحَمَّدِ

ومِن هذا المعنى: الخشيةُ الواردَةُ في قولِ اللّه ﷻ: ﴿وَتِجَٰرَةٞ تَخۡشَوۡنَ كَسَادَهَا﴾؛ فإنَّ المرادَ: تَخافونَ إذا هاجَرْتُم عنها أن تَكْسُدَ ولا تَروجَ[12].

(1) أحمد مختار عمر، معجم اللُّغة العربيَّة المعاصرة: (عشر).
(2) الخليل، كتاب العين: (عشر).
(3) الواحديّ، التَّفسير البسيط: 10/341.
(4) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (قرف).
(5) الزَّمخشريّ، أساس البلاغة: (قرف)، وابن الأثير، النِّهاية في غريب الحديث والأثر: (قرف).
(6) الزَّبيديّ، تاج العروس: (قرف).
(7) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (قرف).
(8) السَّمعانيّ، تفسير القرآن: 2/297.
(9) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (خشي).
(10) الرَّاغب، المفردات: (خشي).
(11) البيت بلا نسبة، الجوهريّ، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللُغة، ومجمل اللُغة، وابن منظور، لسان العرب، والزَّبيديّ، تاج العروس: (خشي).
(12) الشَّنقيطيّ، العذب النَّمير: 5/361.

4) ﴿كَسَادَهَا﴾: (الكافُ والسِّينُ والدَّالُ): تدلُّ اشْتِقاقاتُها على الشَّيءِ الدُّونِ الذي لا يُرْغَبُ فيه[1]، والمعنى الجامِعُ لِتَصاريفِ الكلِمَةِ: يدورُ حولَ جُمودِ الأشياءِ المُتَفَرِّقةِ الأَفْرادِ وتكدُّسِها، بحيثُ لا تَتَسيَّبُ ولا تَنْصَرِفُ، ومنه: يُقالُ لِلْمَتاعِ الذي عُرِضَ للبيْعِ فَلَمْ يَنْفُقْ: كاسِدٌ[2]، والكسادُ في قولِ اللهِ ﷻ: ﴿وَتِجَٰرَةٌ تَخۡشَوۡنَ كَسَادَهَا﴾، يُرادُ به عدَمُ الرَّواجِ[3].

5) ﴿فَتَرَبَّصُواْ﴾: (الرَّاءُ والباءُ والصَّادُ): تدلُّ اشتقاقاتُها على معنى الانتِظارِ، ومنه: التَّربُّصُ[4]، وحقيقَتُهُ: الانتظارُ بالشَّيءِ؛ سلْعَةً كانَت يُرادُ بها الغَلاءُ أوِ الرُّخْصُ، أو أمْرًا يُنتظَرُ حصولُهُ أو زوالُهُ[5]، ومنه: قولُهُم: تَرَبَّصْتُ بالرَّجُلِ، بمعنى: انتظارِ خَيْرٍ أَو شَرٍّ يَحُلُّ بِهِ[6]، كقوله سبحانَه: ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا رَجُلُۢ بِهِۦ جِنَّةٞ فَتَرَبَّصُواْ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٖ﴾ [المؤمنون: 25]، والتَّربُّصُ في قولِ اللهِ ﷻ: ﴿فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦۗ﴾، يُرادُ بِهِ: الانتظارُ والتَّمهُّلُ.

6) ﴿ٱلۡقَوۡمَ﴾: (القافُ والواوُ والميمُ): تدلُّ تصريفاتُها على معْنَيَيْنِ كُلِّيَّيْنِ؛ أحدهما: جماعةُ ناسٍ، والآخرُ: انتصابٌ أو عَزْمٌ[7]، والقَوْمُ عند جمعٍ مِن عُلَماءِ العربيَّةِ: اسْمٌ يشمَلُ الرِّجالَ والنِّساءَ[8]، وخَصَّهُ آخرونَ بالرِّجالِ؛ إذْ لَفْظُ (القَوْم) في الأصل: مَصْدَرٌ وُصِفَ به، ثُمَّ غَلَبَ على الرِّجالِ دونَ النِّساءِ؛ لِكَوْنِهِم قوَّامينَ عليهِنَّ بالأمورِ التي ليس لَهُنَّ أن يَقُمْنَ بها[9]، ويُؤيِّدُ هذا: أنَّ لفظَ (القوم) يُقابَلُ بلفظ (النِّساءِ)، كما في قوله تعالى: ﴿لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّۖ﴾ [الحجرات: 11]، وفي قول زُهيرِ بن أبي سُلْمى[10]:

وَما أَدْري، وسَوْفَ إِخالُ أَدْري *** أَقَوْمٌ آلُ حِصْنٍ أَمْ نِساءُ؟!

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (كسد).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيُّ المؤصَّل: (كسد).
(3) الجرجانيّ، دَرْج الدُّرر: 2/868.
(4) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (ربص).
(5) الرَّاغب، المفردات: (ربص).
(6) ابن دُريد، جمهرة اللُّغة: (ربص).
(7) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (قوم).
(8) ابن دُريد، جمهرة اللُّغة: (قوم).
(9) ابن الأثير، النِّهاية في غريب الحديث والأثر: (قوم).
(10) ديوان زهير بن أبي سُلمى، ص: 17.

وإذا ذُكِرَ القومُ على جهةِ الانفرادِ دخل النِّساءُ فيهِ، ليس بِمُقْتَضَى الوَضْعِ، وإنَّما على سَبيل التَّبَع؛ كما في قول اللّهِ ﷻ: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾.

7) ﴿ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾: (الفاءُ والسِّينُ والقافُ): تدلُّ على خُروجٍ عن مُحيطٍ، كالْكِمام لِلثَّمَرَةِ، والجُحْرِ لِلْفَأْرَة[1]، ومنه أُطْلِقَ الفِسْقُ على الخُروجِ عَنِ الطَّاعة[2]، وتقول العربُ: فَسَقَت الرُّطَبَةُ؛ إذا خرجت مِنْ قِشْرِها[3]، والغالِبُ فيما يُستعْمَلُ فيهِ لفظُ الفاسقِ، إطلاقُهُ على مَنِ التزَمَ حُكْمَ الشَّرع وأقرَّ به، ثُمَّ خرَجَ عنه قليلًا كان خُروجُهُ أو كثيرًا، أمَّا الكافِرُ الأصليُّ فَيُقالُ عنه فاسقٌ باعتبارِ إخلالِهِ بما اقتضتْهُ الفِطْرَةُ ودلَّ عليه العقلُ[4]؛ لأنَّ هذَين هُما اللَّذانِ يَصِحُّ أن يُقال خرجَ عَنْهُما، أمَّا الشَّرْعُ فلم يدخُلْ فيهِ حتَّى يقالَ: إنَّه قد خرج عَنْهُ، اللَّهُمَّ إلَّا إذا أُريدَ بالخروجِ عَنِ الشَّرع ما أخذهُ اللّهُ تعالى مِنَ الميثاقِ - على بني آدَمَ وهُمْ في صُلْبِ أَبيهم - الواردِ في قول اللّهِ سبحانَه: ﴿وَإِذۡ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ وَأَشۡهَدَهُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَلَسۡتُ بِرَبِّكُمۡۖ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدۡنَآۚ﴾ [الأعراف: 172].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

دعـــوةٌ إلـــى الهجرة، وعدمِ جَعْـل القرابةِ ومتـاعِ الدُّنيا أحـبَّ مِـنَ الله ورسوله ودينه

قُلْ يا أيُّها الرَّسولُ الكريمُ ﷺ لِلْمُتَخَلِّفينَ عَنِ الهِجْرَةِ إلَى دارِ الإسْلام، المُقيمينَ بِدارِ الشِّرْك: إنْ كانَ مُقامُكُمْ معَ آبائِكُمْ وأَبْنائِكُمْ وإخْوانِكُمْ وأَزْواجِكُمْ وقرابَتِكُم، وكانَتِ الأمْوالُ التي اكْتَسَبْتُموها والتِّجارَةُ التي تخافونَ عدَمَ رواجِها، والبيوتُ الفارِهَةُ التي أقَمْتُمْ بها؛ أحَبَّ إلَيْكُمْ مِنَ الهِجْرَةِ إلى اللّهِ تعالى ورَسولِهِ ﷺ، ومِنَ الجِهادِ في سَبيلِهِ؛ فانْتَظِروا حتَّى يَحُلَّ بِكُمْ

(1) المُناويّ، التَّوقيف على مهمَّات التَّعاريف، ص: 260.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (فسق).
(3) الأنباريّ، الزَّاهر في معاني كلمات النَّاس: 1/120.
(4) الرَّاغب، مفردات ألفاظ غريب القرآن الكريم، ص: 636.

عقابُ اللّهِ تعالى وغضَبُهُ، واللّهُ سبحانَه لا يوفِّقُ لِلْخَيْرِ الخارِجينَ عن طاعَتِهِ[1].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

عِلَّةُ فَصْلِ قولِه: ﴿قُلْ إِن كَانَ﴾ عَمَّا قَبْلَهُ:

وُجوبُ تَحَمُّلِ مَضارِّ الدُّنْيا، مِنْ أَجْلِ سَلامَةِ الدِّينِ

فُصِلَ قولُ اللّهِ ﷻ: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ﴾ عمَّا قَبْلَهُ؛ لوقوعِهِ جوابًا عن سُؤالٍ، وذلك أنَّ اللّهَ سبحانَه لمَّا بيَّنَ وجوبَ البراءَةِ مِنْ أهلِ الكُفْرِ، ولو كانوا أقربَ الأقرباءِ في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّواْ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَٰنِۚ﴾؛ أورَثَ ذلكَ سؤالًا في نفوسِ جماعةٍ مِنَ المُسْلِمينَ، فقالوا: كيفَ تتأتَّى البراءَةُ منهم بالكلِّيَّةِ، وهذه البراءَةُ تقتَضي انقطاعَنا عن آبائنا وإخوانِنا وعشيرتِنا، وكسادَ تجارَتِنا، وخَرابَ ديارِنا؟ فبيَّنَ اللّهُ ﷻ في هذه الآيةِ، أنَّ الواجبَ تحمُّلُ جميعِ المضارِّ الدُّنيَويَّةِ مِنْ أجْلِ إبقاءِ الدِّينِ سالمًا، وذكَرَ ﷻ أنَّهُ إذا كانت رعايةُ المصالحِ الدُّنيويَّةِ أَوْلَى عِنْدَكُم من طاعةِ اللّهِ سبحانَه وطاعةِ رسولِهِ ﷺ، ومِنَ الجهادِ في سبيلِ اللّهِ تعالى؛ فانتَظروا عقوبَةَ اللّهِ سبحانَه، إن عاجِلًا أو آجِلًا[2].

نُكْتَةُ تَنْويعِ الأُسْلوبِ:

الِانْتِقالُ مِنْ أُسْلوبِ الإِقْبالِ إلى مَقامِ الإِعْراضِ، مُشْعِرٌ بِالزَّجْرِ والتَّرْهيبِ

في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ﴾ الآية، تنويعٌ لِلْخِطابِ؛ وذلكَ أنَّ اللّهَ سبحانَه وجَّه الخطابَ أوَّلًا إلى المؤمنينَ، في قولِه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّواْ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَٰنِۚ﴾، ثُمَّ خاطبَ نبيَّهُ ﷺ آمِرًا إيَّاهُ أن يُخاطِبَهُم، فكانَ في هذا انتقالٌ مِنْ أُسلوبِ الإِقْبالِ، إلى مقامِ الإِعْراضِ المُشْعِرِ بزَواجِرِ الغَضَبِ[3].

---

(1) ابن جرير، جامع البيان: 14/177، ونخبة مِنَ العلماء، التَّفسير الميسَّر، ص: 190.

(2) الرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 16/17.

(3) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 8/421.

دلالَةُ تَصْديرِ الخِطابِ بِـ ﴿قُلْ﴾:

أَهَمّيَّةُ الخِطابِ وتَقْريعِ المُخاطَبِ، بغرضِ التّخويفِ من العواقبِ

صُدِّر الخِطابُ في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ﴾ بـ ﴿قُلْ﴾؛ للإشارَةِ إلى أهمِّيَّتِهِ وغِلَظِهِ، ولإرادَةِ التَّوبيخِ بمضْمونِهِ[1]، وهو يقول له: قُلْ يا أكملَ الرُّسل للمؤمنين الذين يقصدون موالاةَ أنسابِهم، إن كانَ أولئكَ الأقربون، وتلكَ المحيزات الفاتنة، والمتاعُ الغُرُور، أحبَّ إليكم مِنَ اللّه وأَجْرِه، ومِنَ الرَّسول وهَدْيه، فانتظروا سُوء العُقبى، وشَرَّ المصير.

دلالَةُ تَعْليقِ الشَّرْطِ بِـ ﴿إِن﴾:

الاِسْتِرْسالُ في إيثارِ المحابِّ الدُّنْيَويَّةِ على مَحابِّ اللهِ تعالى صَنيعُ المُنافِقينَ

عُلِّقَ الشَّرْطُ في قول اللّهِ سبحانَه: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ﴾، بِـ ﴿إِن﴾؛ لِكَوْنِ المخاطَبينَ جماعةَ المؤمنينَ، الذين قَصَّروا في بعضِ ما وجبَ عليهم، أو الذين يُتوقَّعُ منهم التَّقصيرُ، ولذا عُلِّقَ الشَّرْطُ بِحَرْفِ الشَّرط ﴿إِن﴾، المفيدِ الشَّكَّ في وقوعِ مدخولِهِ، ويُفْهَمُ منه أنَّ المسْتَرْسِلَ في ذلك، المُلابِسَ له هو مِنْ أهلِ النِّفاقِ، وهُمُ الذينَ وقعَ عليهم التَّهديدُ في خاتِمَةِ الآيةِ، في قول اللّهِ تعالى: ﴿فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦۗ﴾[2].

نُكْتَةُ تَقْديمِ الآباءِ على الأَبْناءِ:

تعظيمُ الآباءِ في بابِ التَّوْقيرِ والاِحْتِرامِ، أمرُ اللهِ وشَرْعُه

قُدِّمَ الآباءُ على الأبناء في قولِ اللّه ﷻ: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ﴾؛ لِكَوْنِ الآباءِ أشدَّ المذكوراتِ في بابِ التَّوقيرِ[3].

سِرُّ ذِكْرِ الأَبْناءِ في مَوْضِعٍ وعَدَمِ ذِكْرِهِم في المَوْضِعِ قَبْلَه:

ذُكِرَ الأَبْناءُ في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ﴾ دونَ الآيةِ التي قَبْلَها، وهي قولُهُ سبحانَه:

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/152.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/152.
(3) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 8/421.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمۡ وَإِخۡوَٰنَكُمۡ أَوۡلِيَآءَ إِنِ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡكُفۡرَ عَلَى ٱلۡإِيمَٰنِۚ﴾؛ وذلكَ لأنَّ قولَهُ تعالى: ﴿قُلۡ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ وَإِخۡوَٰنُكُمۡ﴾ إلى قوله: ﴿أَحَبَّ إِلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٖ فِي سَبِيلِهِۦ﴾، ذُكرَتْ فيهِ المحبَّةُ؛ والأَبْناءُ أَعْلَقُ بالنَّفْسِ، بخلافِ الآيةِ الأُخْرَى، فإنَّ الأَبْناءَ لَم يُذكَروا فيها؛ لكونِ المقصودِ منها الرَّأْيَ والمشورَةَ[1].

رُقيُّ البَيانِ القُرْآنيِّ، في ذِكْرِ الأَلْفاظِ وحَذْفِها، بِما يُلائِمُ المعاني

نُكْتَةُ ذِكْرِ الأَزْواجِ في مَوْضِعٍ، وعَدَمِ ذِكْرِهِم في مَوْضِعٍ قَبْلَه:

نصّ على الأزواج في قوله: ﴿قُلۡ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ وَإِخۡوَٰنُكُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ﴾ ولَم يُنصَّ على الأزواجِ في الآية المتقدِّمَةِ، وهي قولُهُ ﷻ: ﴿لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمۡ وَإِخۡوَٰنَكُمۡ أَوۡلِيَآءَ إِنِ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡكُفۡرَ عَلَى ٱلۡإِيمَٰنِۚ﴾؛ لِكَوْنِ ذلكَ واردًا في الأولياءِ، وهُمْ أهلُ المشورَةِ والرَّأيِ، والأزواجُ تَبَعٌ في هذا ولَيْسوا أصْلًا، ثُمَّ إنَّ مولاتَهُمْ غيرُ معتادَةٍ، بخلافِ هذه الآيَةِ ﴿قُلۡ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمۡ﴾؛ فإنَّها واردَةٌ في المحبَّةِ، والأزواجُ لهم مدخَلٌ عظيمٌ فيها[2].

لِلأَزْواجِ مَدْخَلٌ عَظيمٌ في بابِ المَحَبَّةِ الدَّاعيَةِ لِموالاتِهِمْ

بلاغة مُراعاةِ النَّظيرِ:

في قول اللهِ ﷻ: ﴿قُلۡ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ وَإِخۡوَٰنُكُمۡ﴾ مراعاةُ النَّظيرِ؛ حيثُ جُمِعَ بينَ الآباءِ والأَبْناءِ والإخْوانِ، وهُم كُلُّهُم مِنَ القَراباتِ، فالآباءُ أصولٌ، والأبناءُ فروعٌ، والإخْوانُ حَواشٍ، وجميعُهم مِمَّن لَهُمْ في المحَبَّةِ مِقدارٌ عَظيمٌ، على تفاوُتٍ بينَهُمْ فيها.

اشْتِراكُ القَراباتِ في أَصْلِ المَحَبَّةِ، مَعَ التَّفاوُتِ في مِقْدارِها

نُكْتَةُ اخْتيارِ لَفْظِ (العَشيرَةِ):

اخْتيرَ لفظُ العَشيرَةِ دونَ القَبيلَةِ مثلًا، في قولِ اللهِ ﷻ: ﴿قُلۡ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ وَإِخۡوَٰنُكُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ وَعَشِيرَتُكُمۡ﴾؛ لِكَوْنِ العشيرَةِ أَقَلَّ جماعَةٍ مترابِطَةٍ تُوصَفُ، وذلك أنَّ أكبَرَ الجَماعاتِ هي

دِقَّةُ اخْتيارِ المُفْرَداتِ المُناسِبَةِ لِلْمَقامِ مِن بلاغةِ البيانِ

(1) أبو حيَّان، البحر المحيط: 5/391.

(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/54، والآلوسيّ، روح المعاني: 5/264.

الشُّعوبُ، ثُمَّ القبائِلُ، ويتفرَّعُ عَنِ القبائِلِ فروعٌ، بعضُها أخصُّ مِن بعضٍ، وآخِر ذلِكَ: العَشيرَةُ، فـ "ليسَ بعدَ العَشيرَةِ جَماعَةٌ تُوصَفُ"[1]، فاختيارُ لفظِ العَشيرَةِ: إشعارٌ بشدَّةِ القُرْبِ الذي لا يَنْبَغي أن يكون محبوبًا حُبًّا أشدَّ مِنَ اللّه تعالى ورسولِه ﷺ، فغيرُها مِن فُروعِ القبائِلِ البُعْدَى مِنْ بابٍ أَوْلَى وأَحْرَى.

سِرُّ تَأْخيرِ ذِكْرِ المالِ:

أُخِّرَ ذِكْرُ المالِ على ذِكْرِ جُمْلَةِ الصِّلاتِ، في قولِه سبحانَه: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا﴾؛ لِكَوْنِ الصِّلاتِ المذكورةِ أَوْلَى بالمُراعاةِ، عِنْدَ أهلِ الهِمَمِ العَوالي، مِنَ الأموالِ[2].

الفَرْق بين صِلات القَرابَةِ والأَمْوالِ، كالفرق بين المادَّة والمعنى

دلالَةُ وَصْفِ الأَمْوالِ بالاقتراف:

وُصِفَت الأموالُ بالاقْتِرافِ، وهوَ الاكْتِسابُ، في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا﴾؛ للإيماءِ إلى عِزَّتِها في قُلوبِهم؛ لكونِهم قَدْ حصَّلوها بِكَدِّ اليَمينِ وعَرقِ الجبينِ، وإذا كانَ هذا الضَّرْبُ مِنَ المالِ الحاصِلِ بالجُهْدِ والتَّعَبِ لا يجوزُ أن يُفضَّلَ على محابِّ اللّهِ تعالى ورسولِه ﷺ، فغَيْرُهُ مِن أَنْواعِ المالِ الحاصِلِ دونَ ذَلِكَ مِنْ بابٍ أَوْلَى[3].

مكانة الأَمْوالِ في قُلوبِ أَصْحابِها، لا تُوجِبُ إيثارَها على مَحابِّ اللهِ تعالى

دلالَةُ تَنْكيرِ الأَموالِ والتِّجارَةِ والمَساكِنِ:

في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ﴾، نُكِّرَتِ الأموالُ والتِّجارَةُ والمساكِنُ لبيان وصفِها بما يخصِّصها؛ تكثيرًا وتعظيمًا وتفخيمًا لشأنِها، فهيَ أموال كثيرةٌ، وتجارَةٌ عظيمَةٌ، ومساكِنُ فَخْمَةٌ، وكُلُّ ذلكَ موجِبٌ لِلرُّكون

مكانة الأَمْوالِ والتِّجاراتِ والمَساكِنِ، مَظِنَّةٌ لِركونِ النُّفوس إِلَيْها ومَحَبَّتِها

(1) العسكريّ، التَّلخيص في معرفة أسماء الأشياء، ص: 104 - 105.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 8/421.
(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/54، والآلوسيّ، روح المعاني: 5/265.

إليها ومحبَّتِها، إلَّا أنَّه لا يَنْبَغي أن تُقدَّم هذهِ المحْبوباتِ على مَراضي اللّهِ ورَسولِه ﷺ.

دلالَةُ الأَوْصافِ للأموال والتّجارة والمساكن:

في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ﴾، وُصِفَت كُلٌّ مِنَ الأموالِ والتِّجارَةِ والمساكِنِ بالأوصافِ المذكورةِ؛ فالأموال وُصِفت بالاقتراف، وهو الاكتساب، وذلك "إيماءٌ إلى عزَّتها عندهم، لحصولها بكدِّ اليمين، والتَّجارة وُصِفت بالخشية على كسادها؛ لتعلُّقها بتقلُّبات السُّوق، والرَّواج والكَسَاد، والمساكنُ وُصِفت بأنَّها مرضيَّة؛ لأنَّ بناءها وحيازتها كانت بغرض الاطمئنان فيها، والرِّضى عنها، إذا كانت مُحقِّقَة للغاية، مُوفيَة بالغرض[1]، وذلك للإعْلامِ بأنَّ اللَّوْمَ على محبَّتِها ليسَ لتناسي ما تشْتَمِلُ عليهِ مِن مبادئِ المحبَّةِ، ومقتضَياتِ الرَّغبَةِ فيها، وإنَّما للتَّنبيه على أنَّ ما فيها مِن ضُروبِ المحاسنِ وموجِباتِ المحبَّةِ، لا يجوزُ أن يَطْغَى على العَبْدِ، فتغلِبَ محبَّتُها على محابِّ اللّهِ سبحانَه ورسولِه[2] ﷺ.

لا يَنْبَغي أنْ تَطْغَى الأُمورُ الدُّنْيَويَّةُ بما فيها مِنْ مغرياتٍ على المؤمن

بَراعَةُ التَّرْتيبِ والتَّرقِّي في المعاني:

جاءَ التَّرتيبُ في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ﴾، في غايَةِ البَراعَةِ؛ حيثُ صُدِّرَ بالآباءِ لكونِهِمْ أشدَّ المذكورينَ في بابِ التَّوقيرِ، ولأنَّ الواجبَ برُّهُم وإكرامُهُم وحبُّهُمْ، وثُنِّيَ بالأبناءِ؛ لكونِهم أَعْلَقَ بالقلوبِ، ثُمَّ ثُلِّثَ بالإخوانِ؛ لأنَّه بَعْدَ اسْتيفاءِ طَرَفَي النَّسَبِ بذِكْرِ الأصولِ والفروعِ؛ ناسَبَ أن يُذْكَرَ الحواشي، وأقْرَبُهُم: الإخوةُ، ثُمَّ ذُكِرَ الأَزْواجُ، وهُنَّ

تَحْصيلُ المَساكِنِ الفارِهَةِ، هوَ غايَةُ أَسْبابِ الاِسْتِرْواحِ والتَّجَمُّلِ

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/54 (بتصرُّف).

(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/54 - 55.

في الحُبِّ والإيثارِ بِمَنْزِلَةِ الأَبْناءِ، ثُمَّ ذُكِرت العَشيرَةُ، وهي جامِعَةٌ للذُّكورِ والإناثِ، وهي أَبْعَدُ في القرابَةِ مِنَ المذكوراتِ قَبْلُ، ولـمَّا ذَكَر اللّٰهُ سبحانَه هذه القراباتِ؛ أتبعَهُ بذِكْرِ المالِ الحاصِلِ في اليَدِ؛ لأنَّ المخالَطَةَ المتقدِّمَةَ تُوصِلُ إلى إبقاءِ هذا الضَّرْبِ مِنَ الأموالِ، وأعقبَهُ بذِكْرِ صِنْفٍ آخرَ مِنَ الأمْوالِ، وهي الأموالُ غيرُ الحاصِلَةِ، وإنَّما التي يُتَوقَّعُ رِبْحُها بالتِّجارَةِ، وخُتِمَ ذلكَ بذِكْرِ المَساكِنِ؛ وهي الغايَةُ؛ لكونِ ما تقدَّمَ مِنْ أَسْبابِ الاسْتِرْواحِ فيهِ والتَّجمُّلِ بهِ[1].

دلالَةُ التَّعْبيرِ بِاسْمِ التَّفْضيلِ ﴿أَحَبَّ﴾:

في قولِ اللّٰهِ ﷻ: ﴿أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾، أفادَ اسْمُ التَّفضيلِ: ﴿أَحَبَّ﴾، مِنْ أنَّه إذا حصلَ تعارُضٌ بينَ مرادِ اللّٰهِ تعالى، وما تَجُرُّ إليهِ العلائِقُ المذكورَةُ قَبْلُ في الآيَةِ؛ فالواجِبُ على أهلِ الإيمانِ قطْعُ هذه العلائِقِ، وإرضاءُ اللّٰهِ سبحانَه، ووَجْهُ إفادَةِ اسْمِ التَّفضيلِ ﴿أَحَبَّ﴾ هذا المعنى: أنَّ اسْمَ التَّفضيلِ في المحبَّةِ يقْتَضي إرضاءَ أقْوَى المحبوبَينَ، فكان التَّعبيرُ بهِ تحذيرًا مِنَ التَّساهُلِ في واجباتِ الدِّيانَةِ أوِ التَّهاوُنِ بها، مع الكِنايَةِ عن جعْلِ ذلك التَّساهُلِ والتَّهاوُنِ مسبَّبًا عن تَقْديمِ محبَّةِ تلكَ العلائِقِ على محبَّةِ اللّٰهِ سبحانَه[2].

التَّحْذيرُ مِنَ التَّساهُلِ في واجباتِ الدِّيانَةِ أَوِ التَّهاوُنِ بِها

نُكْتَةُ تَعْليقِ الوَعيدِ على تَفْضيلِ المَحَبَّةِ:

عُلِّقَ الوعيدُ والتَّهديدُ في قولِ اللّٰهِ ﷻ: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ﴾، على تَفْضيلِ المحبَّةِ دونَ المساواةِ فيها، مع أنَّ تعليقَ الوعيدِ على المُساواةِ قَد يكونُ أَبْلَغَ في الرَّدْعِ؛ لاقتضائِهِ الوعيدَ على التَّفضيلِ، بطريقةِ الأَوْلَى والأجدر،

لا تستوي مَحَبَّةُ اللّٰهِ ورسولِه ﷺ، مع مَحَبَّةِ غَيْرِهِما

(1) الرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 16/18، وأبو حيَّان، البحر المحيط: 5/391، والبقاعيّ، نظم الدُّرر: 8/422.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/153.

وذلك لأنَّ محبَّةَ اللهِ سُبحانَهُ، ليسَ بينَها وبينَ محبَّةِ غيرِهِ مساواةٌ أصلًا، بخلافِ مَن سواهُ، فقد تَسْتَوي المحبَّةُ فيهِ، أمَّا في هذا المقامَ فلا تُتَصَوَّرُ المُساواةُ أصلًا؛ وذلك لأنَّ العَبْدَ إذا رجَّحَ الجهادَ، فقد رَجَحَت محبَّتُهُ للّه تعالى على محبَّةِ غيرِهِ، وإن رَكَنَ إلى القعودِ وتَرْكِ الصَّلاةِ؛ فقد رَجَحَت محبَّتُهُ غيرَ اللّه تعالى[1].

سِرُّ التَّعْبيرِ بِالِاسْمِ الأَحسن ﴿ٱللَّهِ﴾:

جاءَ التَّعبيرُ بالِاسْمِ الأَحْسَنِ ﴿ٱللَّهِ﴾، في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿أَحَبَّ إِلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾؛ لزيادَةِ المهابَةِ، وبيانِ عِظَمِ جُرْمِ تقديمِ العلائقِ الدُّنيويَّةِ على محبَّةِ اللّهِ سبحانَه؛ إذْ كَيْفَ يجرُؤُ أحدٌ على تقْديمِ محبَّةِ أمرٍ ما، على محبَّةِ اللّهِ سبحانَهُ، الجامعِ لصفاتِ الجلالِ والجمالِ والكمالِ، وهو المُنْعِمُ بتِلْكَ المحابِّ الدُّنيويَّةِ على الحقيقَةِ؟![2].

شَناعَةُ تَقْديمِ العَلائِقِ الدُّنْيَويَّةِ، على مَحَبَّةِ اللهِ العُلْويَّة

نُكْتَةُ الإِضافَةِ في ﴿وَرَسُولِهِۦ﴾:

أُضِيفَ الرَّسولُ ﷺ، إلى الضَّميرِ العائِدِ على اللّهِ سبحانَه، في قوله تعالى: ﴿أَحَبَّ إِلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾؛ لإرادَةِ التَّعظيمِ والتَّفخيمِ والتَّشريفِ، وهذهِ الأغراضُ راجِعَةٌ إلى المضافِ، لا إلى المضافِ إليهِ، وفي ذلك إدخالُ المهابَةِ على النُّفوسِ، وإيماءٌ إلى شناعَةِ مخالفَةِ محابِّهِ ﷺ.

عِظَمُ جُرْمِ مُخالفَةِ مَحابِّ النَّبيِّ الأُسوةِ ﷺ، ومخالفةِ سنَّته وهَدْيه

دلالَةُ الإيجازِ بالحذف:

في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿قُلۡ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ﴾ إلى قوله: ﴿أَحَبَّ إِلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ إيجازٌ بالحذْفِ، والتَّقديرُ: أحبَّ إليكُم مِن امتثالِ أوامرِ اللّهِ سبحانَه، وأوامرِ رسولِهِ ﷺ، في تَرْكِ دارِ الكُفْرِ إلى دارِ الإسْلامِ[3]، وفي هذا الإيجازِ تفخيمٌ لهذا الأمْرِ، وتعظيمٌ

مَحَبَّةُ امْتِثالِ أوامِرِ اللهِ سبحانَه، مَحَبَّةٌ لله ﷻ

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/299.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 8/422.
(3) أبو حيَّان، البحر المحيط: 5/391 - 392.

لشأنِه، حيثُ جُعِلَتْ محبَّةُ امتثالِ أمرِ اللّهِ تعالى محبَّةً للّه سبحانَه؛ ليكونَ ذلك أبْلَغَ في إدخالِ المهابَةِ على قلوبِ المُتَلقِّينَ لِلْخِطابِ.

بَراعَةُ الإطْنابِ:

التَّنْويهُ بِشَأْنِ مقاوميِ المعتدين، وما فيه من تضحيةٍ ونُبل

في تَخْصيص الجهادِ في سبيل اللّهِ تعالى - على القول بتقديرِ محذوفٍ - بالذِّكْرِ، مِن جُملَةِ ما يُحبُّه اللّهُ ﷻ مِنْهُمْ في قولِه: ﴿أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ﴾؛ تنويهٌ بشأنِ الجهادِ، وتفخيمٌ لأمْرِه، وذلك لأنَّ ما فيه مِنَ المخاطِرِ على النَّفْسِ، ومِن إنفاقِ المالِ، ومفارَقَةِ المحبوباتِ، مظِنَّةٌ للقُعودِ عنه، خصوصًا وأنَّ هذه الآياتِ نزلَتْ عَقيبَ غَزْوَةِ تَبوكَ، التي تخلَّف عنها المنافِقونَ، وبعضُ أهلِ الإسلامِ[1].

نُكْتَةُ الإضافَةِ في المركَّبِ الإضافيِّ ﴿سَبِيلِهِۦ﴾:

سُلوكُ سَبيلِ اللّهِ تعالى موصِلٌ إلى رَحْمَتِهِ

في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ﴾، جاءت إضافةُ السَّبيلِ إلى الضَّميرِ الرّاجعِ إلى ﴿ٱللَّهِ﴾ لِقَصْدِ تَعْظيمِ السَّبيلِ وتَفْخيمِه، والإعلامِ بأنَّ مَن سلَكَهُ فَقَدْ وصَلَ إلى رَحْمَةِ اللّهِ سبحانَه، ولازِمُ ذلك: تعظيمُ المُجاهِدينَ السَّالكينَ هذا السَّبيلَ، المُؤْثِرينَ إيَّاهُ على سائِرِ المَلاذِّ الدُّنيَويَّة.

سِرُّ ذِكْرِ النَّفيرِ مع مَحَبَّةِ اللهِ ورَسولِهِ ﷺ:

مَحَبَّةُ المنافحةِ عن دينِ اللهِ، راجِعةٌ إلى مَحَبَّةِ اللهِ تعالى، ومحبَّةِ رَسولِهِ ﷺ

قولُ اللّهِ ﷻ: ﴿أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ﴾، يَجوزُ أن يكونَ باقيًا على دلالَتِه الظَّاهرَةِ في عدمِ تقديرِ محذوفٍ، ويكونُ ذِكْرُ الجهادِ مع حُبِّ اللّهِ تعالى ورسولِه ﷺ؛ لتفخيمِ أَمْرِه، والإيماءِ إلى أنَّه يجبُ أَنْ يُحبَّ، وأنَّ محبَّتَهُ تَرجِعُ إلى محبَّتِهما؛ وذلك لأنَّ الجهادَ عبارةٌ عَن قِتالِ أعدائِهما؛ لأجلِ عداوَتِهِمْ لَهُما، فمَنْ أحبَّهُما فإنَّه يجبُ أن يُقاتِلَ مَن ينْصِبُ لَهُما العداء[2].

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/153.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/55.

دلالَةُ الأَمْرِ في قولِه: ﴿فَتَرَبَّصُواْ﴾:

فِعْلُ الأمْرِ ﴿فَتَرَبَّصُواْ﴾ مِن قولِ اللّه ﷻ: ﴿فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦۗ﴾، لا يُرادُ بِهِ حقيقَتُهُ مِن قَصْدِ الإلْزامِ والوجوبِ، وإنَّما هو خارِجٌ عن أصلِهِ، إلى معنى التَّهديدِ والتَّخويفِ[1]، والقَرينَةُ الصّارِفَة عنِ الإلْزامِ والوُجوبِ: ظُهور أَنْ ليس المُرادُ طَلَبَ انْتِظارِهِم العذابَ؛ والعَلاقَةُ بين المعنى الحَقيقيِّ والتَّهديدِ هي التَّضادُّ، وذلك لأنَّ الأصل في المَأْمورِ به أن يَتَحَتَّم فِعْلُهُ، وأمَّا المُهَدَّدُ عليه فهو الممنوعُ فِعْلُهُ[2].

تَهْديدُ مَن يُؤْثِرُ المَحابَّ الدُّنْيَويَّةَ، على مَراضي اللهِ الشَّرعيَّة

دلالَةُ تَعْريفِ المُسْنَدِ إليه بِالْعَلَمِيَّةِ ﴿ٱللَّهُ﴾:

عُرِّفَ المسنَدُ إليه بالعلميَّةِ ﴿ٱللَّهُ﴾، في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦۗ﴾، لزيادَةِ إدخالِ المهابَةِ في القُلوبِ، ترهيبًا وتخويفًا من عذابِ اللّهِ ﷻ وعقابِهِ؛ إذ هو عقابُ اللّهِ سبحانَه الذي جمعَ صفاتِ الجلالِ والكمالِ، ولا يصدُرُ مِنَ العظيمِ إلَّا عَظيمٌ.

إدْخالُ المَهابَةِ في القُلوبِ، تَخْويفًا مِنْ عَذابِ اللهِ الشَّديد

نُكْتَةُ التَّعْبيرِ بِالْأَمْرِ:

جاءَ التَّعبيرُ بالأمْرِ في قولِ اللّه ﷻ: ﴿فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦۗ﴾، دونَ العذابِ ونحوِهِ؛ لكَوْنِ لفظِ الأَمْرِ مُبْهَمًا، يُرادُ به الشَّيْءُ والشَّأْنُ، فكان في ذلك صلاحيَّةٌ لِقَصْدِ التَّهويلِ؛ لتذهَبَ نفوسُ المُهَدَّدين كُلَّ مذهَبٍ، في تصوُّرِ ما هُدِّدوا بِهِ، فيَهْجُم على أذهانِهِم إرادَةُ العذابِ أو القتْلِ أو نحوِهِما مِنَ المُخَوِّفاتِ، فهوَ أمرٌ لا تبْلُغُه أوصافُ المهدَّدينَ ولا تحْتَمِلُهُ قواهُم[3].

الإبْهامُ في التَّهديدِ أَدْخَلُ في التَّهويلِ مِنْ تَعْيينِهِ

بَراعَةُ الإيجازِ:

في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦۗ﴾ إيجازٌ، والتَّقديرُ: فتربَّصوا حتَّى يأتيَ اللّهُ بأمْرِهِ، فيُصيبَكُم بقارعَةٍ لا

مُصادَمَةُ الهِدايَةِ ومُنابَذَتُها، مُفضيةٌ إلى أعْظَمِ العَذابِ وأشَدِّهِ

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 8/422، والخازن، لباب التَّأويل: 2/344.
(2) عبد الله المعزبيُّ اليمانيّ، تشحيذ الأفهام في إطلاقات الأمر والنَّهي والاستفهام، ص: 56 - 57.
(3) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 8/422، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/154.

تُطيقونَها، أو عذابٍ لا تهتدون إلى دَفْعِهِ وصَدِّهِ؛ لكونِكُم قد اخترْتُمْ لأنفُسِكُم مصادَمَةَ الهدايةِ ومنابَذَتَها[1].

بَلاغَةُ وضْعِ المُظْهَرِ في مَوْضِعِ المُضْمَرِ:

في قولِ اللهِ ﷻ: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾، إظهارٌ في محلِّ الإضْمارِ، وذلك لأنَّ مقتضَى الظَّاهِرِ أَنْ يَرِدَ النَّظْمُ القرآنيُّ: (وهو لا يَهْدي القومَ الفاسقين)؛ لتقدُّمِ ذِكْرِ الاسمِ الأعظمِ ﴿وَٱللَّهُ﴾، في قوله سبحانَه: ﴿فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦۗ﴾، ونُكْتَةُ الإظْهارِ: تعظيمُ شأْنِ هذه العقوبَةِ، وهو عَدَمُ هدايةِ الفاسقين؛ لكَوْنِها صادرةً عمَّن جمعَ صفاتِ الجلالِ والجمالِ والكمالِ، وفي الإظْهارِ نُكْتَةٌ أُخْرَى، وهي أن تخرُجَ الجملَةُ مَخْرَجَ التَّذْييلِ الجاري مجْرَى المثَلِ.

مِنْ أَعْظَمِ الحرمان، عَدَمُ تَحْصيلِ الهَدايَةِ مِنَ الدَّيَّان

دلالَةُ مَجيءِ المُسْنَدِ فِعْلًا مُضارِعًا:

جيءَ بالمُسْنَدِ ﴿يَهۡدِي﴾ فِعْلًا مضارِعًا، في قولِ اللهِ ﷻ: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾، لإرادَةِ التَّجدُّدِ والاستِمْرارِ، فما داموا مُقيمين على فِسْقِهم فإنَّ اللهَ ﷻ لا يَهْديهم، وجيءَ به مؤخَّرًا لقصْدِ التَّأكيدِ، وذلك لما في تأخيره مِن تَكْرارِ النِّسْبَةِ، ووَجْهُ ذلكَ: أنَّ فِعْلَ الهدايَةِ أُسْنِدَ إلى الاسمِ الأحسَنِ (اللهِ)، وأُسْنِدَ أيضًا إلى الضَّميرِ المسْتَتِرِ فيه، الرَّاجعِ إلى اللهِ سبحانَه، وفي هذا تقويَةٌ للإسْنادِ، وتأكيدٌ لمضمونِ هذه الجُمْلَةِ المشتملَةِ على هذا التَّهديدِ العظيمِ، وزادَها قوَّةً إيرادُ الجملةِ اسميَّةً، فإنَّ الجملَةَ الاسميَّةَ آكَدُ مِنَ الجملةِ الفعلِيَّةِ.

الإقامَةُ على الفِسْقِ والاسْتِمْرارُ فيهِ، مُقْتَضٍ عَدَمَ اسْتِحْقاقِ الهِدايَةِ الرَّبّانيَّةِ

دلالَةُ (ال) في لفظ ﴿ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾:

اللَّامُ في ﴿ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ مِنْ قَوْلِ اللهِ ﷻ: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾، دالَّةٌ علَى الكَمالِ، والمعنى: واللهُ لا يَهْدي القومَ الكامِلينَ في الفِسْقِ، المُسْتَمِرِّينَ عليه، لا أَرَبَ لَهُمْ في معرِفَةِ الحقِّ واتِّباعِهِ.

تَرْكُ التَّعَرُّفِ على الحَقِّ، والمروقُ مِنَ الالتزام به فسقٌ

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 8/422.

بَلاغَةُ التَّذْييلِ:

قولُ اللّهِ ﷻ: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾، تذييلٌ جارٍ مَجْرَى المثَلِ؛ لاستقلالِهِ بالإفادَةِ، وعَدَمِ افتقارِهِ إلى ما قَبْلَهُ في فَهْمِ تمامِ المرادِ مِنْهُ، والغرضُ مِنْ جملَةِ التَّذْييلِ: زيادَةُ التَّهديدِ بعدَ التَّهديدِ السَّابقِ في قوله تعالى: ﴿فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦۗ﴾، وفي جملةِ التَّذْييلِ تعريضٌ بِمَنْ آثرَ محبَّةَ القراباتِ والأموالِ، على محبَّةِ اللّهِ تعالى ورسولِهِ ﷺ بأنَّهُمْ مِن جُملَةِ الفاسقين[1].

مِنَ الفِسْقِ: إيثارُ مَحَبَّةِ الأَمْوالِ والقَرابَاتِ، على مَحَبَّةِ ربِّ الكائنات

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/154.

﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ۝٢٥﴾ [التّوبة: 25]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

العلاقة بين النَّهي عن إيثار غيرِ محبَّة الله، وامتحانِ الانكسارِ بدايةَ يومَ حُنَين

لـمَّا هدَّدَ اللّٰهُ ﷻ مَن آثَرَ القراباتِ والأموالَ على محبَّةِ اللّٰهِ سُبحانَهُ ومحبَّة رسولِهِ ﷺ، وكانَت بعضُ النُّفوسِ قد يَعْتَريها مِنَ الغُرورِ بِالْكَثْرَةِ ما يَجْعَلُها تَغْفَلُ عن هذا التَّهديد؛ ساقَ اللّٰهُ تعالى قصَّةَ غَزْوَةِ حُنَيْنٍ دليلًا على الـمُبْهَمِ مِنَ التَّهديدِ، وأنَّ مِن جملَةِ ما هُدِّدوا به الهَوانَ والانكسارَ، وصورةُ ذلك: أَن يُسلِّطَ اللّٰهُ سبحانَه عَلَيْهِمْ - وإِنْ كانوا عددًا كثيرًا - أَقْوياءَ غَيْرَهُمْ، فقالَ ﷻ: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا﴾[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿نَصَرَكُمُ﴾: (النُّونِ والصَّادِ والرَّاءِ): تَدورُ حَوْلَ معنى إِتْيانِ خيرٍ وإيتائِه، بما فيه زيادةُ مناسِبةٍ وقوَّةٍ، ولازِمُهُ: دَفْعُ الضُّرِّ[2]. ومنه سُمِّيَ المطرُ نَصْرًا[3]، والنَّصْرُ على العَدوِّ: إعانَةُ الخَصْمِ عليه في حَرْبٍ أو غَيْرِها؛ بقوَّةِ النَّاصر وغَلَبَتِه[4]، واستنصره على عدوِّهِ: سأله أن ينصُرَه عليه، وتناصَر القومُ: نَصَر بعضُهم بعضًا، و(انتصر) منه: انتقم[5]، وقولُ اللّٰهِ تعالى: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّـهُ﴾، أي: أعانَكُم اللّٰهُ على عدوِّكُمْ، فظَفِرْتُمْ في حَرْبِكُمْ إيَّاهُ.

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 8/423.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (نصر)، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل وأسرار التّأويل: 1/79، وجبل، المعجم الاشتقاقيُّ المؤصَّل: (نصر).
(3) الزَّمخشريّ، أساس البلاغة: (نصر).
(4) الفيُّوميّ، المصباح المنير: (نصر)، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/486.
(5) الرَّازيّ، مختار الصّحاح: (نصر).

2) ﴿حُنَيْنٍ﴾: اسمُ وادٍ بينَ مَكَّةَ والطَّائف، كانَتْ بِهِ وقْعَةُ أَوْطاسٍ[1]، و(حُنَيْنٌ): يُذكَّر ويُؤنَّث؛ فإن أُريدَ به البَلْدَةُ والبُقْعَة فَهوَ مؤنَّثٌ، ويُمْنَعُ مِنَ الصَّرف لِلْعَلَميَّة والتَّأنيث، وإن أُريدَ بِهِ الموضِعُ والبَلَدُ فهو مذكَّرٌ، ولا موجِبَ لمنعِهِ مِنَ الصَّرف حينَئذٍ[2]، وقال السُّهيلي: عُرِفَ هذا الموضعُ بحُنين بنِ نائبةَ بنِ مهليائل، مِنَ العمالقة، بينَه وبينَ مكّة بضعةَ عشرَ ميلًا، وقيل: سُمِّي بأخي يثربَ حُنين[3]، قال الشَّاعر[4]:

نَصَرُوا نَبِيَّهُمُ وَشَدُّوا أَزْرَهُ *** بحُنينَ، يَوْمَ تَوَاكَلَ الأَبْطَالُ

3) ﴿تُغْنِ﴾: (الغَينُ والنُّون والحَرْفُ المعتلُّ): تدور كثيرٌ مِن اشتقاقاتِها على مَعْنَى الكِفايَةِ، ومِنْهُ قولُهم: فلانٌ لا يُغْني غَناءَ فُلانٍ، أي: لا يكفي كفايَتَهُ[5]، والغَناءُ: الكفايَةُ والإجْزاءُ[6]، يقال: لي عن هذا غُنيَة، وأنا عنه غنيٌّ، (وهو أغنى عنه مِنَ الأقرع عنِ المِشْط)، وقد تغانَوا، قال الشَّاعر[7]:

كِلَانَا غَنِيٌّ عَنْ أَخِيهِ حَيَاتَهُ *** وَنَحْنُ إِذَا مِتْنَا أَشَدُّ تَغَانِيَا

ومعنى قولِ اللّهِ تعالى: ﴿فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا﴾: لَمْ يُجْزِئْ عنكُمْ ولَمْ تَنْفَعْكُمْ.

4) ﴿رَحُبَتْ﴾: (الرَّاءُ والحاءُ والباءُ): تدلُّ تصريفاتُها على معنى السَّعَةِ، ومنه قولُهُم: مكانٌ رَحْبٌ، أي: واسعٌ، وقولُهُم: مَرْحَبًا، أي: أَتَيْتَ سعَةً[8]، ومِن هذا قولُ اللّهِ ﷻ: ﴿وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾، أي: بِما اتَّسَعَتْ[9].

5) ﴿مُّدْبِرِينَ﴾: (الدَّالُ والباءُ والرَّاءُ): تدلُّ تصريفاتُهُ على آخِرِ الشَّيءِ وخَلْفِهِ[10]، ومنه: الدُّبُرُ؛ وهو نَقيضُ القُبُل مِن كُلِّ شَيْءٍ[11]، ومنه: أدبارُ السُّجودِ؛ وهي أواخرُ الصَّلواتِ، وإدْبارُ

(1) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة: (حن)، وياقوت الحمويّ، معجم البلدان: 2/313.
(2) الجوهريّ، الصّحاح: (حنن).
(3) الزَّبيديّ، تاج العروس: (حنن).
(4) البيت لحسَّان بن ثابت الأنصاري ﷺ، ينظر: الجوهريّ، الصّحاح، والرَّازيّ، مختار الصّحاح: (حنن).
(5) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (غني).
(6) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة: (غني).
(7) الرَّازيّ، مختار الصّحاح، وابن منظور، لسان العرب: (غني).
(8) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (رحب).
(9) أبو عُبيد الهرَويّ، الغريبين في القرآن والحديث: (رحب).
(10) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (دبر).
(11) نشوان الحميريّ، شمس العلوم: (دبر).

النُّجوم: عند الصُّبْحِ في آخِرِ اللَّيْلِ[1]، وَوَلَّاهُ دُبُرَهُ: كِنايَةٌ عَنِ الهزيمَةِ والفِرارِ مِنَ المعرَكَةِ[2]، ومنه قولُ اللّهِ سبحانَه: ﴿ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

التَّذكير بانكسار المؤمنين في حُنين، رغم كثرةِ العَدَدِ، وقُوَّة العُدَدِ

يقول: لقد نَصَرَكُمُ اللّهُ سبحانَه أيُّها المُؤْمِنون، في مواقِعَ كَثيرَةٍ، حين أَخَذْتُم بالأسبابِ، ووَطَّنْتُم أَنْفُسَكُم على لِقاءِ عَدوِّكم، وتَوَكَّلْتُم على اللّهِ ﷻ، وفي يومِ حُنَيْنٍ غَرَّتْكُمُ الكَثْرَةُ فلم تَنْفَعْكُمْ، وظَهَرَ عَلَيْكُمْ عَدوُّكُم، فلم تَجِدوا مَلْجَأً في الأَرْضِ على سَعَتِها، فَفَرَرْتُم مُنْهَزِمينَ[3].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

عِلَّةُ فَصْلِ قولِه: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ﴾ عَمَّا قَبْلَهُ:

تَسْليطُ الهَوانِ والانْكِسارِ على المُخالِفين لِلأوامِرِ، مِن عَدْلِ اللهِ القاهر

فُصِلَ قولُ اللّهِ ﷻ: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ﴾ عَمَّا قَبْلَهُ؛ لكونِهِ واقعًا استئنافًا ابتدائيًّا، وذلك أنَّ الآيَةَ مسوقَةٌ لبيانِ شواهدِ ما تقدَّم مِنْ نَصْرِ اللّهِ سبحانَه أهلَ الإيمانِ في مواطنَ كثيرةٍ، وتذكيرٍ باقترانِ التَّأييد الرَّبَّانيِّ لحالِ الامتثالِ لأمرِهِ سبحانَه[4]، ويَجوزُ أن تَكونَ عِلَّةُ الفَصْلِ كونَ الآيةِ واردَةً جوابًا عن سُؤالٍ يُفْهَمُ مِنَ الأُوْلَى، وذلك أنَّ اللّهَ سبحانَه لمَّا هدَّدَ المُؤْثِرينَ القراباتِ والأموالَ على محابِّ اللّهِ تعالى ورسولِهِ ﷺ، وأبْهَمَ ذلكَ التَّهديدَ في قولِهِ: ﴿فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ﴾؛ أَوْرَثَ ذلك سؤالًا وهو: ما الأَمْرُ الذي يُتَرَبَّصُ لإتيانِهِ، ويُخْشَى مِنْهُ؟ فكأنَّه قيلَ جوابًا عن ذلك: هو الهَوانُ والانكسارُ، فبَعثَ هذا سُؤالًا آخَرَ في نفس المُتَلَقِّي، وهو: وكيف يكونُ ذلك؟ فجاءَ الجوابُ: بأنَّ اللّه سبحانَه يُسَلِّطُ

(1) الخليل، العين: (دبر).
(2) الفيُّوميّ، المصباح المنير: (دبر).
(3) ابن جرير، جامع البيان: 14/178 - 179، ونخبة مِنَ العلماء، التَّفسير الميسَّر، ص: 190.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/154.

عليكُمْ أقوياءَ غيرَكُمْ، وإنْ كانَ عدَدُهم قليلًا، كما سلَّطَكُمْ - وكنتُمْ كذلكَ - حتَّى صِرْتُمْ إلى ما آلَ إليهِ أمرُكُمْ[1].

نُكْتَةُ التَّوْكيدِ:

تَحْقيقُ النَّصْرِ والتَّذْكيرُ بِهِ، دليلٌ على ألطاف اللهِ تعالى وعَظَمَته

في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ﴾، اللَّامُ في ﴿لَقَدْ﴾ مُوطِّئَةٌ للقسَمِ، والتَّقدير: واللهِ لَقَدْ نصرَكُمْ[2]، و(قَدْ) مِنْ جملَةِ مؤكِّداتِ الجملَةِ الفِعْليَّةِ، فاجتَمَعَ في قولِ اللهِ ﷻ: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ﴾ ثلاثَةُ مؤكِّداتٍ؛ وهي: القسَمُ، واللَّامُ، وقَدْ، والنُّكْتَةُ في هذا التَّأكيد: تحقيقُ هذا النَّصْرِ؛ وذلك أنَّ القَوْمَ كانوا كأنَّهُمْ نسُوهُ، فنُزِّلوا منزلَةَ مَن يحتاجُ إلى توكيد الخبَرِ وتقويَتِهِ[3].

سِرُّ تَعْريفِ المُسْنَدِ إليه بِالْعَلَميَّةِ:

مِنْ صوَرِ عَظَمَةِ نَصْرِ اللهِ: النَّصْرُ مَعَ ضَعْفِهِمْ، وقوَّةِ أَعْدائِهِم

عُرِّفَ المسنَدُ إليهِ بالعلَميَّةِ، في قول الله سبحانَه: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ﴾؛ لبيانِ قوَّةِ هذا النَّصْرِ وعَظَمَتِهِ، فهو نصرٌ مِنْ عِنْدِ مَن جمَعَ صفاتِ الجلالِ والجمالِ والكمالِ، والصَّادرُ مِنَ العظيمِ عظيمٌ، ومِنْ أَوْجُهِ عظَمَةِ هذا النَّصْرِ: وقوعُهُ مَعَ شدَّةِ ضَعْفِ المَنْصورينَ، وقوَّةِ المَنْصورِ عليهم[4].

نُكْتَةُ الإظْهارِ في مَوْضِعِ الإضْمارِ:

محبَّةُ اللهِ تعالى آثر وأولى، ومَن تخلَّى عنِ الله تخلَّى اللهُ عنه

في قول اللهِ ﷻ: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ﴾ إظْهارٌ في مَوضِعِ الإضْمارِ، وذلك لأنَّ مقتضَى الظَّاهِرِ أَنْ يَرِدَ النَّظْمُ القرآنيُّ: (لقَدَ نصرَكُمْ في مواطِنَ كثيرةٍ)، بإسْنادِ الفعل إلى الضَّمير المسْتَتِرِ فيه؛ وذلكَ لتقدُّمِ ذِكْرِ الاسمِ الأحسَنِ (اللهِ)، في قوله سبحانَه: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾، ونُكْتَةُ الإظْهارِ: تعظيمُ شأْنِ هذا النَّصْرِ، ولإظهار أنَّ إيثار محبَّةِ اللهِ سبحانَه، وإن كان قد يُفَوِّتُ

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 8/423.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 8/423.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/155.
(4) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 8/423.

شيئًا مِنَ الحظوظِ الدُّنيويَّةِ، إلَّا أنَّ فيهِ حَظَّ الآخرةِ، وحُظوظًا أُخرَى مِنَ الدُّنيا، كالنَّصرِ، وما يتْبَعُهُ مِنَ المغانمِ، وصيانَةِ بَيْضَةِ الإسْلامِ من اعتداءِ أعدائِه[1].

بَراعَةُ تَلْوينِ الكَلامِ:

الإيماءُ إلى ما وقعَ في يومِ حُنَيْنٍ، مِنْ قِلَّةِ الثَّباتِ أوَّلَ الأَمْرِ

﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ﴾ مِنْ قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ﴾، مَعْطوفٌ على محلِّ: ﴿فِي مَوَاطِنَ﴾، وصِيغَ الأوَّلُ بذِكْرِ المكانِ ﴿مَوَاطِنَ﴾، والآخَرُ بذِكْرِ الزَّمانِ، ونُكْتَةُ تَلْوينِ الكلامِ وتغْييرِه: الإيماءُ إلى ما وقعَ في يومِ حُنَيْنٍ مِن قِلَّةِ الثَّباتِ في بادئِ الأَمْرِ[2].

نُكْتَةُ العَطْفِ بالواو في: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ﴾:

مَواطِنُ الحُروبِ تَسْتَلْزِمُ زَمانًا تَقَعُ فيه الحَرْبُ، وتخلَّد به على المدى

عُطِفَ ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ﴾ مِن قول اللّهِ سبحانَه: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ﴾ على محلِّ: ﴿فِي مَوَاطِنَ﴾، والتَّقديرُ: ونصَرَكُم يومَ حُنينٍ، وهو من جمْلَةِ المواطِنِ التي نُصِرْتُمْ فيها؛ وذلك لأنَّ مواطِنَ الحَرْبِ تسْتَلْزِمُ زمانًا تقعُ الحَرْبُ فيها، فلفظُ المواطِنِ دالٌّ على الأيَّامِ، ولَفْظُ الأيَّامِ دالٌّ على المواطِنِ، فلمَّا أُضيفَ اليومُ إلى مكانٍ وهوَ حُنَيْنٌ؛ دلَّ على أنَّه من جُملةِ مواطِنِ النَّصْرِ، ولذا عُطِفَ عليه بالواو، ولو لَمْ يُعْطَفْ لَتوُهِّمَ أنَّ المواطِنَ كُلَّها كانَتْ في يومِ حُنَيْنٍ، وليس الأَمْرُ كذلك[3].

سِرُّ عَطْفِ الخاصِّ على العامِّ:

ظَفَرُ المؤمنين يومَ حُنَيْنٍ بَعْدَ يَأْسٍ، وحُلولُ الفَرَجِ عَلَيْهِمْ بَعْدَ شِدَّةٍ

يَجوزُ أَن يُعتبَرَ الحذْفُ في جانب المعطوفِ عليه لا المعطوفِ، وهو قولُهُ تعالى: ﴿فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ﴾، والتَّقديرُ: لقد نصرَكُمُ اللّهُ في أيَّامِ مواطِنَ كثيرَةٍ، ويكونُ على هذا الوَجْهِ: عطفُ ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ﴾ مِنْ بابِ عطفِ الخاصِّ على العامِّ؛ إذْ إنَّ يومَ حُنَيْنٍ مِنْ جُملَةِ أيَّامِ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/155.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/55، والآلوسيّ، روح المعاني: 5/266.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/155.

المواطِنِ التي نُصِروا فيها، ونُكْتَةُ هذا العَطْفِ: التَّنويهُ بشأْنِ الفَرْدِ الخاصِّ، وهو يومُ حُنَيْنٍ؛ لكونِ أَمْرِهِ عجيبًا، والواقعِ فيه غريبًا، وهو الظَّفَرُ بعدَ يأسٍ والفرَجُ بعدَ شدَّةٍ[1]، فَتَخْصيصُ يومِ حُنَيْنٍ بالذِّكْرِ لما فيهِ مِنَ العِبْرَةِ بِحُصولِ النَّصْرِ، عِنْدَ امْتِثالِ أَوامِرِ اللهِ ورَسولِهِ ﷺ، وحصولِ الهزيمَةِ والانكسارِ عند إيثارِ الحظوظِ الدُّنيويَّةِ على امتثالِ الأوامرِ الشَّرعيَّةِ، وليسَتْ نُكْتَةُ تخصيصِهِ عِظَمَ الثَّوابِ وكَثْرَتَهُ؛ لأنَّ يومَ بَدْرٍ أَعْظَمُ مِنْهُ وأَفْخَمُ[2].

بلاغة الاِحْتِباكِ:

في قولِ اللهِ ﷻ: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ﴾ احتباكٌ، وذلك لأنَّ قولَهُ تعالَى: ﴿فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ﴾ دالٌّ علَى المَكانِ صراحَةً، ويُشْعِرُ بالزَّمانِ لزومًا، وقولُهُ سُبحانَهُ: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ﴾ دالٌّ على الزَّمانِ صراحَةً، ويُشْعِرُ بالمكانِ لُزومًا، فمجموعُ الجُملَةِ يُفيدُ حذفًا مُتقابِلًا، والتَّقديرُ: لقَدْ نصرَكُمُ اللهُ في مواطنَ كثيرةٍ وأيّامِها، وفي يَوْمِ حُنَيْنٍ ومَوْطِنِهِ، فحُذِفَ مِنْ كُلٍّ موضعٍ ما دلَّ عَلَيْهِ مُقابِلُهُ[3].

مِن روعةِ القرآنِ، التَّفَنُّنُ في الحَذْفِ وما يدلّ عليه من سياق البيان

نُكْتَةُ إِضافَةِ الإِعْجابِ إلى الجميع:

أُضيفَ فِعْلُ الإعجابِ إلى الجَميعِ في قولِ اللهِ سبحانَه: ﴿إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا﴾، مع أنَّ الإعْجابِ صادِرٌ عن بعضِهِم، أو واحدٍ مِنْهُمْ؛ وذلك للإيماءِ إلى أنَّهم لِعُلوِّ قَدْرِهم ومكانَتِهِم يَنْبَغي ألَّا يكونَ منهم مَن تصدُرُ منه مِثْلُ تلكَ المقالَةِ[4].

عُلوُّ قَدْرِ الصَّحابَةِ ورَفيعُ مَكانَتِهِمْ، خلّدهم في القرآن

دلالة موقعِ قولِه: ﴿إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ﴾:

لِقَوْلِ اللهِ سبحانَه: ﴿إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ﴾ موقِعٌ عَجيبٌ بديعٌ، وذلك أنَّهم في أثناءِ المجابهة للكافر المعتدي، وهذا مِن جليلِ

خَطَأُ التَّعْويلِ على الكَثْرَةِ، وعواقبُ الإعجابِ بها

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 5/266.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/155.
(3) الشَّعراويّ، تفسير الشّعراوي: 8/4994 - 4995.
(4) أبو حيَّان، البحر المحيط: 5/392، والبقاعيّ، نظم الدُّرر: 8/424.

الأعمالِ الصَّالحَةِ، عاوَدَ بعضَهُمْ إيثارُ شيءٍ مِن حظوظِ الدُّنيا، على امْتِثالِ أمرِ اللهِ ﷻ وأمْرِ رسولِهِ ﷺ، فاقْتَرَنَ ضِدَّانِ: إيثارُ أمْرِ اللهِ سبحانَهُ بالجِهادِ، وإيثارُ الحظوظِ الدُّنيَويَّةِ، فجاءَ قولُهُ ﷻ: ﴿إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ﴾، تنبيهًا على خطئِهِمْ في هذا الإعجابِ، وأنَّه ما كان ينبغي لهم أن يُعَوِّلوا على الكثْرَةِ[1].

دلالَةُ تَنْكيرِ لفظ ﴿شَيْـًٔا﴾:

نُكِّرَتْ كلِمَةُ ﴿شَيْـًٔا﴾ مِنْ قولِ اللهِ ﷻ: ﴿فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا﴾؛ للدّلالَةِ على التَّقليلِ والتَّحقير، أي: لَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ كثرَتُكُم شيئًا قليلًا حقيرًا، فنَفْيُ إغناءِ الكثرةِ عنهم فوقَ ذلك مِن بابِ أَوْلَى وأَحْرَى، "فولَّوا مُدْبرين، حتَّى ضاقت عليهمُ الأرض على سعتها، مِن شدَّة فَزَعهم، فلم يهتدوا إلى النَّجاة سبيلًا، ولم يثبت منهم إلَّا عددٌ قليل مع الرَّسول ﷺ، وكان ذلك ابتلاء مِنَ اللهِ لهم على عُجْبِهم بكثرتهم"[2]، فكان في هذه الدّلالَةِ إفادَةٌ للعُمومِ، وذلك لأنَّ النَّكِرَةَ في سياقِ النَّفْيِ تُفيدُهُ.

التَّحذيرُ مِنَ الاعْتِدادِ بِالْكَثْرَةِ الغُثائيَّة، وأنَّها لا تُغْني مِنَ الأمرِ شيئًا

دلالَةُ الباءِ في ﴿بِمَا﴾:

الباءُ في ﴿بِمَا﴾، مِن قولِ اللهِ ﷻ: ﴿وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾ للمُلابَسَةِ، والتَّقديرُ: (ضاقَت عليكُمُ الأرضُ حالَ كوْنِها مُلابسَةً لرُحْبِها وسعَتِها)، أي: لا ضيقَ فيها[3]، ويحْتَمِلُ أن تكونَ الباءُ بمعنى (معَ)، أي: ضاقَتْ عليكُم الأرضُ مع اتِّساعِها[4]، وهذا يَرْجِعُ إلى معنى الملابسَةِ، كما أَوْمأَ إليه الآلوسيُّ[5]، ويجوزُ أن تكون الباءُ بمعنى (في)، فيُقال: ضاقَت الأرض برُحْبِها، وضاقَتِ الأرضُ في رُحْبِها[6].

أَثَرُ حروفِ المعاني في إِثْراءِ البيانِ القُرْآنيِّ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/156.
(2) أسعد حومد، أيسر التَّفاسير، ص: 261.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/157.
(4) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 8/424، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/55.
(5) الآلوسيّ، روح المعاني: 5/268.
(6) ابن الجوزيّ، زاد المسير: 2/246.

بَلاغَةُ الِاسْتِعارَةِ:

إبْرازُ المَعْنَوِيِّ في صورَةِ المَحْسوسِ، أَوْضَحُ لِلذِّهْنِ وأَبْلَغُ في التَّصْويرِ

في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾ استعارَةٌ، حيثُ شُبِّهَ عَدَمُ وُجْدانِ مكانٍ يسْتَقِرُّونَ فيه مطمئِنِّينَ بالضِّيقِ؛ لأنَّ الموضِعَ الضَّيِّقَ لا يُستَقَرُّ فيه، فهي استعارةٌ تصريحيَّةٌ تبعيَّةٌ[1]، وغرض الاستِعارَةِ هنا: إبْرازُ المَعْنَويِّ في صورةِ المحسوسِ؛ لِكَوْنِهِ أوضَحَ لِلذِّهْنِ، وأعْلَقَ بالقَلْبِ، وأبْلَغَ في التَّصويرِ، وقد يُلْمَح فيها تمثيلٌ لِحالِ المُسْلِمينَ، عند اشْتِداد البَأْسِ عليهم، واضْطِرابِهِم في حُنَيْنٍ، وعدَمِ اهْتِدائِهِم لِطَريقِ دَفْعِ عَدوِّهم عَنْهُم، بِحالِ مَن يَرى الأَرْضَ الواسِعَةَ الرَّحْبَةَ ضَيِّقَةً، فالضِّيقُ مجازيٌّ غيرُ حقيقيٍّ، بقرينة قوله تعالى: ﴿بِمَا رَحُبَتْ﴾، أي: مع كونِها في واقعِ الحالِ رَحْبَةً واسعةً، فالآية استعارةٌ تمثيليَّةٌ لحالِ مَن لا يَقْدِرُ على الخَلاصِ مِنْ شدَّةٍ ما، بسببِ اختلالِ التَّفكيرِ، بحالِ مَن كان في مكانٍ ضيِّقٍ يُريد الخلاصَ بِالْخُروجِ مِنْهُ، فلا يقدِرُ علَى مجاوَزَتِهِ أو الانتقالِ منه[2].

دلالَةُ حَرْفِ العَطْفِ ﴿ثُمَّ﴾:

تَوْلِيَةُ الأَدْبارِ فِرارًا مِنَ الحَرْبِ، مِنْ أَعْظَمِ الشُّرورِ

حرفُ العَطْفِ ﴿ثُمَّ﴾ في قول اللّهِ ﷻ: ﴿ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾، دالٌّ على التَّراخي، وهو تراخٍ رُتْبيٌّ، والتَّقديرُ: وأعْظَمُ ممَّا نالَكُمْ مِنَ الشَّرِّ أَنَّكُم ولَّيتُم مُدْبِرينَ[3]، وفيه أيضًا: إيماءٌ إلى البُعْدِ المَعْنَويِّ، بينَ إرادَةِ النَّصْرِ والفِرارِ[4].

بلاغة الكِنايَةِ:

مَعْنى تَوْلِيَةِ الأَدْبارِ: الفِرارُ مِنَ العَدوِّ قَبْلَ الانتصار

تَوْلِيَةُ الأَدْبارِ في قول اللّهِ ﷻ: ﴿ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾، كنايَةٌ عَنِ الفرارِ مِنَ الأعداءِ، بقرينَةِ ذِكْرِهِ في سياقِ ذِكْرِ الحَرْبِ وما فيها مِن ملاقاةِ العَدوِّ؛ فتَوْلِيَتُهُمْ مُدْبِرينَ: مستعمَلٌ في لازِمِ مَعْناهُ، مع

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 5/268.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/157.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/157.
(4) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 6/3266.

بعضِ معناهُ الأصليِّ؛ وذلك لأنَّ صَرْفَ الظَّهْرِ إلى العَدوِّ بعْدَ النَّصْرِ، للانْصِرافِ إلى المعسكَرِ مِنَ الضَّروراتِ، وإلَّا لَزِمَ مِنْهُ أن يَبْقَى المُسْلِمونَ مواجهينَ جيشَ عَدوِّهِمْ مواجهةً دائمَةً، فدلَّ هذا على أنَّ المرادَ بتوليَتِهِم مُدْبِرينَ فِرارُهُم مِنْ عُدوِّهِمْ قَبْلَ النَّصْرِ.

نُكْتَةُ إِسْنادِ التَّوَلِّي إلى الجميع:

عُلُوُّ شَأْنِ الصَّحابَةِ، يقْتَضي تَرَفُّعَهُمْ عَن وُقوعِ التَّوَلِّي منهم

أُسْنِدَ فِعْلُ التَّوَلّي إلى الجميع، في قول اللّهِ سبحانَه: ﴿ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾، مع أنَّ التَّولِّي صادِرٌ عَنْ أَكْثَرِهِم[1]؛ للإيماءِ إلى أنَّهم لِعُلوِّ شأنِهِم ومكانَتِهِم، يَنْبَغي ألَّا يصدُرَ منهم هذا التَّولِّي، لا سيَّما وأنَّه يترتَّب عليهِ انكشافُ ظَهْرِ رسولِ اللّهِ ﷺ للأَعْداءِ.

سِرُّ التَّعْبيرِ بِالْإِدْبارِ بَعْدَ ذِكْرِ التَّوَلِّي:

اسْتِبْعادُ الِانْكِسارِ اتِّكالًا على الكَثْرَةِ والقُوَّةِ، مِن سُوءِ التَّقدير

جيءَ بالإدبارِ بعدَ ذِكْرِ التَّولِّي، في قول اللّهِ سبحانَه: ﴿ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾، تحقيقًا لمعنى الانْهِزامِ والانْكِسارِ؛ للإيماءِ إلى ما كان لديهم مِن استبْعادِهِ اتِّكالًا على الكَثْرَةِ والقُوَّةِ[2]، والمعنى: "﴿ثُمَّ وَلَّيْتُم﴾، أي: الكفَّارَ ظهورَكم، على أنَّ (ولَّى) متعدِّية إلى مفعولين، وقوله تعالى: ﴿مُّدْبِرِينَ﴾ حالٌ مؤكِّدة، وهو مِنَ الإدبار، بمعنى الذَّهاب إلى خلف، والمراد مُنهزمين"[3]، وقد كانت الهزيمة نتيجةً منطقيَّة للغُرور بالكَثْرة الكاثرة، والقُوَّة الظَّاهرة، حتَّى: "ضاقت عليكم الأرض برُحْبِها وسعتها، فلم تجدوا لكم فيها مذهبًا ولا مُلْتَحدًا، ثمَّ ولَّيتُم مُدْبرين، أي: ولَّيتم ظهوركم لعدوّكم مدبرين، لا تلوون على شيء"[4].

(1) أبو حيَّان، البحر المحيط: 5/393.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 8/425.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 5/268.
(4) محمد رضا، تفسير المنار: 10/220.

﴿ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦﴾﴾ [التَّوبة: 26]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

العلاقة بين حيثيَّاتِ الانكسار، ومآلاتِ التَّثْبيت والانتصار

لـمَّا ذكر اللّهُ سبحانَه حالَ المؤمنينَ في غزوةِ حُنَيْنٍ أوَّلَ الأمرِ مِنَ الانكسارِ والانْهزامَ، وكان ذلك رُبَّما يُوهِمُ أنَّ هذه الحالَ هي آخِرُ أحوالِهم؛ ذَكَرَ في هذه الآيَةِ ما آلَ إليه أَمْرُهُم مِنَ النَّصْرِ والتَّأييدِ والظَّفَرِ، وما آلَ إليهِ أَمْرُ أعدائِهم مِنَ الهزيمَةِ والتَّعْذيب، "فأذْهَبَ روعَهم، وأزال حيرتَهم، وأعاد إليهم شجاعتَهم، واستنصر الرَّسولُ ربَّه، فأنزل اللّهُ جنودًا مِنَ الملائكة، لم يرها المسلمون بأبصارهم، بل وجدوا أثرَها في قلوبهم، بما عاد إليها مِن رباطة جَأْشٍ، وشِدَّة بأس"[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿سَكِينَتَهُۥ﴾: (السِّينُ والكاف والنُّونُ): تدورُ اشتقاقاتُها على ضدِّ الحركَةِ والاِضْطِراب[2]؛ فهي دالَّةٌ على الاِستقرار[3]، ومنه: قولُهم لكُلِّ شيءٍ ماتَ: قد سَكَنَ[4]؛ لذَهاب حركتِه، ومنه: سُمِّيت النَّارُ سَكَنًا؛ لأنَّها مُعِيْنَةٌ على الاِسْتِقْرارِ والإقامةِ؛ إذْ بها يُعدُّ الطَّعامُ ويُستَدفأُ ويُستضاءُ[5]، وسكَنَ بالمكانِ: أقامَ فيهِ[6]، والسَّكينَةُ: الأَمْنُ

(1) حومد، أيسر التَّفاسير، ص: 262.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (سكن).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيُّ المؤصَّل: (سكن).
(4) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة: (سكن).
(5) جبل، المعجم الاشتقاقيُّ المؤصَّل: (سكن).
(6) ابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم: (سكن).

والطُّمَأنينَةُ[1]، وزَوالُ الرُّعْبِ[2]، وذلك لما في الرُّعْبِ والخَوْفِ مِنَ الاضْطِرابِ الحاصِلِ في القَلْبِ، ومِن هذا قولُ اللهِ سبحانَه: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ﴾.

2) ﴿جُنُودًا﴾: (الجيمُ والنُّونُ والدَّالُ): تدورُ تصاريفُها على مَعْنَى التَّجمُّعِ والنُّصْرَةِ، ومنه: الجُنْدُ؛ وهُمُ الأعوانُ والأنْصارُ[3]، وذهبَ بعضُ أهلِ العِلْمِ بالعربيَّةِ، إلى أنَّ أصلَ المادَّةِ دالٌّ على صلابَةِ الشَّيءِ وغِلَظِهِ، ومنه: الجَنَدُ، وهي الأرضُ الصَّلْبَةُ، ومنه: سُمِّيَ العسْكَرُ جُنْدًا؛ لِما فيهم مِنَ الغِلْظَةِ[4]، والجُنودُ جَمْعُ جُنْدٍ؛ إذِ الجُنْدُ يُجْمَعُ على جُنودٍ وأجنادٍ[5].

3) ﴿جَزَآءُ﴾: (الجيم والزَّاي والياءُ): تدلُّ اشتقاقاتُها على قيامِ شيءٍ مَقامَ غيرِهِ، ومكافأَتِهِ إيَّاهُ[6]، ومنه قولُهم: جَزَى عنِّي هذا الأَمْرَ، أَيْ: قَضاهُ[7]، والجَزاءُ: ما فيه الكِفايَةُ مِنَ المُقابَلَةِ، خيرًا كان ذلك أو شرًّا[8]، ومنه قولُ اللهِ سبحانَه: ﴿وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾، وجزيتُ فلانًا بما فعل جزاءً، إذا كافَأْتَه، قال الله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ ۝٣٦﴾ [فاطر: 36][9]، وقد جَرَى على ألسُن العرب: (جَزاء سِنِمَّار)، يقال ذلك للرَّجل قد عمل خيرًا فكُوفِئَ بالشَّرِّ، قال الشَّاعر[10]:

جَزَانِي جَزَاهُ اللّهُ شَرَّ جَزَائِهِ *** جَزَاءَ سِنِمَّارٍ بِمَا كَانَ يَفْعَلُ

المَعْنى الإجْمالِيُّ:

خاطب اللّهُ تعالى المؤمنين فقال: ثُمَّ مِنْ بَعْدِ ما ضاقَتْ عليكمُ الأَرْضُ مع سَعَتِها،

(1) ابن الجوزيّ، تذكرة الأريب في تفسير الغريب، ص: 136.
(2) الرَّاغب، المفردات: (سكن).
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (جند).
(4) الرَّاغب، مفردات ألفاظ غريب القرآن، وجبل، المعجم الاشتقاقيُّ المؤصَّل: (جند).
(5) ابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم: (جند).
(6) ابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم: (جند).
(7) الجوهريّ، الصّحاح: (جزي).
(8) الرَّاغب، المفردات: (جزا).
(9) نشوان الحميريّ، شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم: (جزيت).
(10) ابن دريد الأزديّ، جمهرة اللُّغة: (باب ما جاء على فعلال). والسِّنِمَّارُ، بِكَسْر السِّين والنُّونِ وشَدّ المِيم، يُنظر: الزبيدي، تاج العروس: 12/95، ونقل الأزهري في تهذيب اللّغة: 13/108، وابن منظور في اللسان: 4/382، قولَ أبي عبيد فيه أنّ سِنِمَّارَ اسمُ إِسْكافٍ بَنَى لبعض الملوك قَصْرًا؛ فلمّا أَتَمَّهُ أَشرف به على أَعلاه، فرماه منه غَيْرَةً منه أَنْ يَبْنِيَ لغيره مثله، فضُرب ذلك مثلًا لكلّ مَنْ فَعَل خيرًا فجوزيَ بضدّه.

وتَوْلِيَتِكُمُ الأعْداءَ أَدْبارَكُم؛ كشَفَ اللهُ سبحانَه ما نزَلَ مِنَ البلاءِ عليكُم، فأنزلَ الأَمْنَ والطُّمأنينَةَ على رسولِهِ ﷺ وعلى المُؤمِنين، فثَبَتوا، وأمدَّهُم اللهُ ﷻ بجنودٍ مِنَ الملائكَةِ لَمْ يرَوْها، فنصرَهُم علَى أعدائِهِم، وعذَّب الجاحدينَ وحْدانيَّتَهُ ورسالَةَ رسولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ، وهذا الذي فعلهُ اللهُ تعالَى بِهِمْ، هو عقوبَةُ الصَّادِّينَ عَنْ دينِهِ، المكذِّبينَ رسولَهُ[1] ﷺ.

نـزولُ السَّكينة على المؤمنين، وإمـدادُهـم بالملائكة والنَّصرِ المبين

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالَةُ ﴿ثُمَّ﴾ في قوله: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ﴾:

﴿ثُمَّ﴾ مِنْ قولِ اللهِ ﷻ: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾، حرفُ عطْفٍ دالٌّ على التَّرتيب والتَّراخي، وفي العَطْفِ بِهِ إشارَةٌ إلى عُلوِّ مَنْزِلَةِ ذلك الثَّباتِ، واسْتِبْعادِ أَنْ يَقَعَ نظيرُهُ في العادَةِ[2]، والتَّراخي في ﴿ثُمَّ﴾ على أَصْلِه؛ لأنَّه كانَتْ ثَمَّتَ مُدَّةٌ بينَ الاضْطِرابِ وحُلولِ السَّكينَةِ، وهي وإنْ لَمْ تَكُنْ شديدةَ الطُّولِ إلَّا أنَّه قد نُزِّلَ هذا الفاصِلُ الزَّمَنيُّ - لعِظَمِ الشِّدَّةِ الواقعَةِ فيه، وهَوْلِ المُصيبَةِ - مَنْزِلَةَ مَن طالَتْ مُدَّتُها؛ إذْ زَمَنُ الشِّدَّةِ يُخَيَّلُ طويلًا وإنْ قَصُرَ[3].

عَـظَـمَـةُ الثَّباتِ الذي أَنْزَلَهُ اللهُ سبحانَه على المؤمنينَ في حُنَيْنٍ

دلالَةُ تَعْريفِ المُسْنَدِ إِلَيْهِ بِالْعَلَمِيَّةِ:

عُرِّفَ المسنَدُ إليهِ بالعلَميَّةِ، في قولِ اللهِ سُبحانَهُ: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾؛ لبيانِ عِظَمِ هذهِ السَّكينَةِ وجليلِ مَنْزِلَتِها، فهيَ سكينَةٌ مِن عند الذي لَهُ الإحاطَةُ بِصفاتِ الجَلالِ والكمالِ والجَمالِ[4]، وما صدَرَ مِنَ العَظيم عظيمٌ، ومِنْ أَوْجُهِ عَظَمَةِ هذا النَّصْرِ: وقوعُهُ مع شدَّةِ ضَعْفِ المَنْصورينَ، وقوَّةِ المَنْصورِ عَلَيْهِمْ، وقد كان الرَّسول ﷺ في حاجة إلى هذه السَّكينة؛ لأنَّه أصابَه الحزنُ

تتجلَّى عَظَمَةِ النَّصْرِ في ضَعْفِ المَنْصورينَ وقُوَّةِ المدحورين

(1) ابن جرير، جامع البيان: 14/189، ونخبة مِنَ العلماء، التَّفسير الميسَّر، ص: 190.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 8/425.
(3) ابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 3/20، والتَّحرير والتَّنوير: 10/158، وزهرة التَّفاسير: 6/3268.
(4) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 8/425.

والأسى، للفرار الجماعيِّ الذي حصل لأصحابه، حين مالتِ الكِفَّةُ لأعدائهم، وزُلزِلوا بالمفاجأة ببَوادر الانكسار، وكان المؤمنون الّذين ثَبتوا مِن حوله في حاجةٍ إلى هذه السَّكينة؛ ليزدادوا ثباتًا على ثباتهم، وإيمانًا على إيمانهم[1].

بَلاغَةُ وَضْعِ المُظْهَرِ مَوْضِعَ المُضْمَرِ:

تَعْظيمُ شَأْنِ السَّكينَةِ وتَفْخيمُها، دليلٌ على أهميَّتها

قولُ اللّهِ ﷻ: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾، فيه إظْهارٌ في مَوضِعِ الإضْمارِ، وذلك لأنَّ مقتضَى الظَّاهِرِ أَنْ يَرِدَ النَّظْمُ القرآنيُّ: (ثُمَّ أَنْزَلَ سكينَتَهُ على رسولِهِ ﷺ)، بإسْنادِ الفِعْلِ إلَى الضَّمير المسْتَتِرِ فيه؛ وذلك لتقدُّمِ ذِكْرِ الاسْمِ الأعظم (اللّه) في قوله سبحانَه: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ﴾، ونُكْتَةُ الإظْهارِ: تَعْظيمُ شأْنِ هذه السَّكينَةِ وتَفْخيمُها؛ إذْ في إسنادِ الفِعْلِ إلى صريحِ الاسْمِ الأحسَنِ مِنَ المهابَةِ والجلالِ، ما ليس في إسنادِهِ إلى الضَّميرِ العائِدِ إليه.

دلالَةُ الإضافَةِ في ﴿سَكِينَتَهُۥ﴾:

التَّنْويهُ بِشَأْنِ السَّكينَةِ، والإيماءُ إلى خُروجِها عنِ المألوفِ المعتادِ

في إضافةِ السَّكينَةِ إلى الضَّميرِ الرَّاجِعِ إلى اللّهِ سبحانَه، في قوله ﷻ: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، تنويهٌ بشأنِها وبرَكَتِها، وإيماءٌ إلى أنَّها سكينَةٌ خارِجَةٌ عن مألوفِ العِبادِ؛ لكونِها ممَّا ليسَ لهُ سببٌ ظاهرٌ، ولا مُقَدِّمَةٌ بيِّنَةٌ، وإنَّما حصَلَتْ بمحضِ تقديرِ اللّهِ ﷻ وتَكْوينِهِ[2].

بَراعَةُ الإظْهارِ في مَحَلِّ الإضْمارِ:

وَصْفا الرِّسالَةِ والإيمانِ، عِلَّتانِ في الانْتِصارِ وحُلولِ السَّكينَةِ

في قولِ اللّهِ سبحانَه: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ إظْهارٌ في محَلِّ الإضْمارِ، وذلك لأنَّ مقتضَى الظَّاهِرِ أَنْ يَرِدَ النَّظْمُ القرآنيُّ: (ثُمَّ أَنْزَلَ سكينَتَهُ عَلَيْهِمْ)، فيعود الضَّمير في

(1) طنطاويّ، التَّفسير الوسيط: 6/242، (بتصرّف).
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/158.

(عَلَيْهِم)، علَى المذْكورينَ قَبْلُ، في قوله ﷻ: ﴿إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾؛ ونُكْتَةُ الإظْهارِ: الإعْلامُ بأنَّ وَصْفَي الرِّسالةِ والإيمانِ علَّتانِ في الانتصارِ بَعْدَ الفِرارِ، وحلولِ السَّكينَةِ بَعْدَ الخَوْفِ والرُّعْبِ[1].

بلاغة الكِنايَةِ:

في قولِ اللهِ ﷻ: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ كنايَةٌ؛ وذلك أنَّ العَبْدَ إذا خافَ فَرَّ ورجَفَ، وقَلْبُهُ مضْطَرِبٌ متحرِّكٌ، فإذا أَمِنَ سَكَنَ وثَبَتَ قَلْبُهُ، فلمَّا كان الأَمْنُ موجبًا للسُّكونِ؛ جُعِلَت السَّكينَةُ كنايةً عَنْهُ[2].

الأَمْنُ مِن موجِباتِ السَّكينةِ، والخَوْفُ جالِبٌ لِلاضْطِرابِ

دلالَةُ التَّعْبيرِ بِالرَّسولِ دونَ النَّبيِّ ﷺ:

في قولِه سبحانَه: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾؛ عُبِّر بالرَّسولِ دونَ النَّبيِّ؛ لأنَّ المقامَ لمَّا كان للرِّسالَةِ، وكان تأييدُ مُدَّعيها مِنْ علاماتِ صِدقِه في دَعْواهُ إيَّاها، وأنَّ مُرْسِلَهُ قادِرٌ على ما يُريد، خصوصًا إذا كان تأييدُهُ على وجْهٍ مخالفٍ لما جرَتْ بِهِ العادَةُ؛ جاءَ التَّعبيرُ بوصفِ الرِّسالَةِ دونَ وصفِ النُّبوَّةِ[3].

تَأْييدُ مُدَّعي الرِّسالَةِ مِنْ عَلاماتِ صِدْقِهِ في دَعْواهُ إيَّاها

نُكْتَةُ ذِكْرِ الرَّسولِ ﷺ:

ذُكِرَ الرَّسولُ ﷺ في سياقِ إنْزالِ السَّكينَةِ، في قوله سبحانَه: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، مع أنَّ النَّبيَّ ﷺ لَمْ يَصْدُرْ منه ما يُخالِفُ الثَّباتَ؛ وذلكَ زيادَةً في تعظيمِ الامْتِنانِ بِهِ؛ لأنَّ النُّفوسَ أَمْيَلُ إلى ما أُعْطيَهُ رسولُ اللهِ ﷺ، والقلوبَ عَلَيْهِ أَقْبَلُ؛ لاعتقادِ عظيمِ منزِلَتِهِ ورفيعِ شرَفِهِ[4]، ويَجوز أن يكون المرادُ إنزالَ سكينَةٍ زائدةٍ، على ما كان مستقِرًّا في قَلْبِهِ الشَّريفِ ﷺ.

النُّفوسُ أَمْيَلُ إلى ما أُعْطيَهُ الرَّسولُ ﷺ، والقُلوبُ عليه أَقْبَلُ

(1) الطِّيبيّ، فتوح الغيب: 7/209.
(2) الرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 16/19، والخازن، لباب التَّأويل: 2/348.
(3) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 8/425.
(4) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 8/426.

سِرُّ تَقْديمِ ذِكْرِ الرَّسولِ الأكرم على المؤْمِنينَ:

تَكْريمُ النَّبيِّ ﷺ ورَفْعُ شَأْنِهِ، مقرونان بكثرة ذِكْره في القرآن

في قَوْلِه: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، قُدِّمَ ذِكْرُ الرَّسولِ ﷺ على ذِكْرِ المؤمنينَ في هذه الآية الكريمة؛ تكريمًا لنبيِّهِ ﷺ، وإجابةً لندائِهِ النَّاسَ[1]، ولِكَوْنِهِ أَشْرَفَ المؤمنينَ، ومِنْ مُقتضَياتِ التَّقديمِ تقديمُ الأَشْرَفِ.

دِلالَةُ تَكْرارِ حَرْفِ الجَرِّ (عَلَى):

السَّكينَةُ النَّبويَّة سَكينَةُ اطْمِئْنانٍ عَلَى أَهْلِ الإيمانِ الذينَ مَعَهُ

أُعيدَ حَرْفُ الجرِّ ﴿وَعَلَى﴾، بعد حرفِ العَطْفِ، في قوله سبحانَه: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾؛ للإيماءِ إلى ما بَيْنَ السَّكينَتَيْنِ مِنَ التَّفاوُتِ، فسَكينَةُ رسولِ اللّهِ ﷺ سكينَةُ اطمئنانٍ على أهلِ الإيمانِ الذين معه، وسكينةُ ثقةٍ بالنَّصْرِ، بخلافِ سكينَةِ المؤمنينَ، فهي سكينَةُ ثباتٍ وشَجاعَةٍ، بعد الخَوْفِ والجَزَعِ[2]، وفي تَكرارِ حرف الجرِّ أيضًا: إشْعارٌ بِأَنَّ السَّكينَةَ عامَّةٌ وليسَتْ خاصَّةً[3]، وأُكِّدَتْ في جانِبِ المؤمنينَ؛ لكونِهم أَحْوَجَ إلى السَّكينَةِ، للخَوْفِ الطَّارِئِ عَلَيْهِم، بخلافِ رسولِ اللّهِ ﷺ، فلم تغادِرِ السَّكينَةُ قَلْبَهُ.

دلالَةُ التَّعْبيرِ بِوَصْفِ الإيمانِ:

إيمانُ القُلوبِ، واطْمِئْنانُ النُّفوسِ بِالإيمانِ، عِلَّةٌ لِإِنْزالِ السَّكينَةِ

في التَّعبير بوصفِ الإيمانِ في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، إشْعارٌ بِعِلَّةِ إنزالِ السَّكينَةِ، وهو الإيمانُ[4]، وعُبِّرَ بوصفِ المؤمنينَ دونَ المُسْلِمينَ للإيماءِ إلى أنَّ هذه السَّكينَةَ اختصَّتْ بِمَنْ آمَنَتْ قلوبُهم، واطمأنَّت نفوسُهُم بالإيمانِ[5].

سرُّ العدولِ عن ذكر الضَّمير المتَّصل إلى الاسم الظَّاهر:

الاحتراز مِن وجود المنافقين في صفوف المؤمنين، احتياطٌ وتحفُّظٌ

وإنَّما قَالَ: ﴿وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ ولم يَقُلْ: (وعَلَيْكُم)؛ لأنَّ الْخِطَابَ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/158.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/56، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/158.
(3) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 6/3268.
(4) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/56.
(5) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 6/3268.

لِلْجَمَاعَةِ، وفيهم بَقِيَّةٌ مِنَ الْمُنَافِقِينَ وَضُعَفَاءِ الْإِيمَانِ، فيَالَلَّهِ الْعَجَبُ مِن هَذِهِ الدِّقَّةِ فِي بَلَاغَةِ الْقُرْآنِ[1].

دِلالَةُ تَنْكِيرِ ﴿جُنُودًا﴾ وجَمْعِها:

نُكِّرت كَلِمَةُ ﴿جُنُودًا﴾ مِنْ قولِ اللهِ ﷻ: ﴿وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾؛ للإيماءِ إلى عَظَمةِ هذه الجُنودِ، فإنَّ الجُنودَ كانوا ملائكةً[2]، وقد يُفيد التَّنكير مع التَّعظيم التَّنويع؛ فتشمل غيرَ الملائكة، نحو تكثيرهم في أعين أعدائهم[3]، وجُمِعَت للإشْعارِ بكثْرَتِهِمْ، دونَ تحديدٍ لعددهم[4].

عَظَمَةُ الجُنودِ التي أَنْزَلَها اللهُ سُبْحانَهُ، دليلُ عظمتِه

دلالة جملة: ﴿لَّمْ تَرَوْهَا﴾:

وقعت جملة ﴿لَّمْ تَرَوْهَا﴾ نعتًا للجنود، فأفادت إظهارَ فضلِ اللهِ تعالى، وبيانَ عظيمِ رحمته في تثبيت المؤمنين، وفيها إعطاءُ العُذر لكلِّ من لم يرَ، ويكفي أنَّ اللهَ قال؛ ليكون هذا حقيقةً واقعة، والحقُّ ﷻ يقول: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر: 31][5]، أي: وأنزل مع هذه السَّكينة جنودًا مِنَ الملائكة لم تروها بأبصاركم، ولكنَّكم وجدتم أثرَها في قلوبكم، حيث عاد إليكم ثباتُكم وإقْدامُكم[6].

فضلُ اللهِ ورحمتُه في تثبيت أوليائه المصطَفَين

سرُّ الجمع في قوله: ﴿لَّمْ تَرَوْهَا﴾:

الدّلالَةُ على نفي رؤيتهم تلك الجنود في حالة اجتماعهم، أي: لم تروْها مجتمعين، فهناك مَن لمحها، وهناك مَن لم يرها[7]، "وهناك أشياءُ كثيرةٌ في الكون، موجودةٌ وتزاول مهمَّتها، ونحن لا نُدْرك كيفيَّة هذا الوجود، وليس معنى عدمِ إدراكنا لها، أنَّها غيرُ موجودة،

عدمُ رؤيةِ الغيبيَّاتِ في الكون، لا يعني عدمَ وجودِها

(1) محمد رضا، تفسير المنار: 10/221.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 8/426.
(3) الماورديّ، النُّكت والعيون: 2/350.
(4) فقد ذَكَر جَمْعٌ مِنْ أهل العِلْمِ - مِنْهُم سعيدُ بن جُبيرٍ - أنَّهم كانوا خَمْسَةَ آلافِ مَلَكٍ، ينظر: الواحديّ، التَّفسير البسيط: 10/350.
(5) الشَّعراويّ، خواطر الشَّعراويِّ: 8/5005.
(6) طنطاويّ، التَّفسير الوسيط: 6/242.
(7) الشَّعراويّ، خواطر الشَّعراويِّ: 8/5007.

وكلُّ الاكتشافات التي قدَّمها لنا العِلْمُ المعاصر كانت موجودةً، ولكنَّنا لم نكن نُدركُ كيفيَّة وجودِها من قبل، ... ويكفي أنَّ اللّه قال؛ ليكون هذا حقيقةً واقعةً"[1].

سِرُّ التَّعْبيرِ بِالاِسْمِ المَوْصولِ:

الكُفْرُ مِن أَسْبابِ اسْتِحْقاقِ العَذابِ

في التَّعبير بِالاِسْم المَوصولِ مِن قول اللّهِ ﷻ: ﴿وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾، إيماءٌ إلى عِلَّةِ استحقاقِهِم التَّعذيبَ، وهو الكُفْرُ، و﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ هم المقصودون بالعذاب، "ولقد ساقوا أموالَهم كلَّها ليَثورَ حماسُهم برؤيتها، فَغَنِمَها المسلمون جميعَها، فكأنَّهم ساقوها ليأخذَها المسلمون غنيمةً باردةً، وساقوا نساءَهم وأولادَهم؛ ليزدادوا حماسةً برؤيتهم، فسباهُمُ المسلمون، وأذلُّوهم بسببهم، فكأنَّهم كانوا يُعِدُّون المائدةَ للمؤمنين"[2].

عِلَّةُ إيرادِ الاِسْمِ المَوْصولِ جَمْعًا:

دليلُ قُدْرَةِ اللهِ سبحانَه، وشَديدِ بَطْشِهِ بمن عاداه

إيرادُ الاِسْم المَوصول جَمْعًا، في قول اللّهِ ﷻ: ﴿وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾، فيهِ إشْعارٌ بِكَثْرَةِ أهلِ الكُفْرِ الذينَ وقعَ عَلَيْهِمُ التَّعذيبُ، وذَلِكَ يقْتَضي عظيمَ قُدْرةِ اللّهِ سبحانَه، وشديدَ بَطْشِهِ بأعداءِ دينِهِ.

سِرُّ مَجيءِ الصِّلَةِ فِعْلًا ماضيًا:

تَحَقُّقُ وصْفِ الكُفْرِ في أَعْداءِ الدِّينِ، مِنَ المنكِرين والجاحِدين

جِيءَ بجملة صِلةِ الموصولِ، مُصَدَّرةً بفعلٍ ماضٍ، وهو ﴿كَفَرُواْ﴾، مِن قولِهِ سبحانَه: ﴿وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾؛ للدّلالَةِ على تحقُّقِ وصْفِ الكُفْرِ في أعداءِ دين اللّهِ سبحانَه، وأعداءِ رَسولِهِ ﷺ، وأنَّهم يستحقُّون ما نزل بهم، "فكان تعذيبُهم بالهزيمة والقتل، واستيلاءِ المسلمين على نسائهم وأولادهم وأموالهم"[3]، وفي التَّعبير بالصِّلَةِ فِعْلًا، إشْعارٌ بأنَّ فيهِمْ مَن آمَنَ بَعْدَ ذلِكَ، ولم يسْتَمِرَّ على كُفْرِه[4].

(1) الشَّعراويّ، خواطر الشَّعراويِّ: 8/5005.
(2) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 6/3269.
(3) السَّعديّ، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 332.
(4) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 8/426.

نُكْتَةُ حَذْفِ مُتَعَلَّقِ الكُفْرِ:

إغْراقُ أَهْلِ الكُفْرِ في الباطِلِ، بِتَكْذيبِهِم جَميعَ ما أَوْجَبَ اللهُ تعالى الإيمانَ بِهِ

حُذفَ متعلَّقُ الفعلِ ﴿كَفَرُواْ﴾ مِن قول اللّهِ سبحانَه: ﴿وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾، وهو المَكْفورُ بِهِ؛ لإرادَةِ العُمومِ؛ وذلك لِأَنَّ حَذْفَ المَعْمولِ مؤذِنٌ بذلك، والمعنى: كفَروا بِجَميعِ ما يَجِبُ أن يُؤْمِنوا بِهِ شَرْعًا، والكفرُ مناوأةٌ للّه العليِّ، بإنكار شَرْعِه النَّقيِّ، والتَّنكُّب عن هديه الجَليِّ، والتَّصدِّي للرَّسول ﷺ والمؤمنين، بالحرب الضَّروس، وتأليب النُّفوس، ومحاولةِ استئصال شَأْفَة الدِّين، والمسارعةِ إلى إطفاءِ نورِه المبين، وقد كان عذابهم كبيرًا ؛ لاتِّساع دائرةِ كُفْرِهم، وتفاقُم أذاهم، في ذلك الأوانِ.

سِرُّ تَعْريفِ المُسْنَدِ إِلَيْهِ بِالْإِشارَةِ:

تَمْييزُ جَزاءِ الكافِرينَ أَكْمَلَ تَمْييزٍ وأَبْيَنَهُ

عُرِّفَ المسنَدُ إليهِ بالإشارَةِ، في قولِ اللّه ﷻ: ﴿وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾، ليتميَّزَ جزاؤُهُمْ أكملَ تمييزٍ؛ إذِ الإشارَةُ في (ذَلِكَ)، إلى ما حلَّ بهم مِنَ التَّعذيبِ، فإذا تميَّزَ جزاؤُهُم؛ تبيَّنَ موجِبُ ذلك مِنَ الكُفْرِ المذكورِ بَعْدُ، أَبْلَغَ بيانٍ.

نُكْتَةُ التَّعْبيرِ بِاسْمِ الإِشارَةِ الدَّالِّ على البُعْدِ:

شِدَّةُ العَذابِ الحالِّ بِالْكافِرينَ، مِن عدلِ اللهِ في عقابِهِم وَرَدْعِهِم

في قَوْلِ اللّهِ تعالى: ﴿وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾، أُوْثِرَ التَّعبيرُ فيه باسْمِ الإشارَةِ، الدَّالِّ على البُعْدِ ﴿وَذَٰلِكَ﴾، في قول اللّهِ ﷻ: ﴿وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾؛ إيماءً إلى عَظَمَةِ العذابِ الذي حلَّ بِهِمْ، وإيذانًا ببُعْدِ درجَتِهِ في الشِّدَّةِ والفظاعَةِ؛ والإشارَةُ راجِعَةٌ إلى العذابِ المُستفادِ مِنَ الفِعْلِ ﴿وَعَذَّبَ﴾[1].

بلاغةُ التَّذْييلِ:

بَيانُ جَزاءِ مَنْ كانَ عَريقًا في الكُفْرِ، موغِلًا فيهِ

قولُ اللّهِ ﷻ: ﴿وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ تذييلٌ غيرُ جارٍ مَجْرى المَثَلِ؛ لعَدمِ استقلالِهِ، ولافتقارِهِ إلى ما قبله، في الكشْفِ عَنْ تمامِ المرادِ منه، وقد ورَدَت جُملَةُ التَّذييلِ تعميمًا لحُكْمِ عذابِ الكافرينَ،

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/158.

وذلك أنَّ اللّٰه سبحانَه لـمَّا ذَكَرَ ما عذَّب بهِ الكَفَرَةِ في حُنيْنٍ؛ أَتْبَعَهُ ببيانِ جزاءِ كُلِّ مَنْ كان عريقًا في الكُفْرِ، موغِلًا فيهِ[1].

دلالَةُ الخَبَرِ:

التَّهديدُ البَليغُ، والوعيدُ الأَكيدُ، على مُطْلَقِ الكُفْرِ

الجُمْلَةُ في قولِ اللّٰهِ ﷻ: ﴿وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾، جُمْلَةٌ خبريَّةٌ، يُرادُ بها إعلامُ المخاطَبِ بالحُكْمِ الذي تضمَّنَتْهُ، معَ ضميمَةِ مَعْنًى آخرَ، وهو التَّهديدُ البليغُ على الكُفْرِ، ووَجْهُ ذلك: أنَّه إذا كانَ هَذا الوعيدُ والتَّهديدُ بالعذابِ، على مَن أَوْجدَ كُفْرًا في زمنٍ ما، فكيفَ بِمَن رسَخَ فيه؟![2].

دلالَةُ اللَّامِ في لفظ ﴿ٱلْكَٰفِرِينَ﴾:

مَن لا يَدينُ بالإِسْلامِ - وقد بلغتْهُ الدَّعوة - فجزاؤُه العذابُ في الآخِرة

اللَّامُ في ﴿ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ مِن قول اللّٰهِ سبحانَه: ﴿وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾، يُرادُ بها الاستغْراقُ، أي: أنَّ لكلِّ الكُفَّارِ الجزاءَ المَذكورَ؛ لما تَقرَّر في الشَّريعَةِ مِن أنَّ كلَّ مَن لا يَدينُ بدينِ الإِسْلامِ - وقد بلغتْهُ الدَّعوة بصورة صحيحة - فإنَّه مُعَذَّبٌ إذا ماتَ على ذلك، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾﴾ [النّساء: 48]، ويجوزُ أن تكون اللَّامُ لِلْكَمالِ، والمعنى: وذلك جزاءُ الرَّاسِخينَ في الكُفْرِ، الكامِلينَ فيهِ، الذين آثَروا محبَّةَ الأقاربِ والأموالِ، على محبَّةِ اللّٰهِ سبحانَه ومحبَّةِ رسولِهِ[3] ﷺ، ولا تعارُضَ بينَ المَعْنَيَيْنِ، بل يَجوزُ إرادَتُهُما معًا، ويكون المعنى: وذلكَ العذابُ جزاءٌ للكافرينَ الكامِلينَ في الكُفْرِ كُلِّهِمْ.

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 8/426.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 8/427.
(3) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 8/426.

﴿ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٢٧﴾ [التَّوبة: 27]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

العلاقة بين جزاء الكافرين، وقبول توبة مَن شاء، لله ربِّ العالمين

لمَّا ذكر اللّهُ تعالى في الآيات السَّابقة، ما جرى على الكافرين مِنَ الخُذلان، بقتلهم وأَسْرهم، وأَخْذِ أموالهم، وسَبْي ذراريهم، بقوله: ﴿وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾؛ جزاءً وفاقًا لكفرهم، جاءت هذه الآية لتُبيِّن أنَّ اللّه ﷻ تفضَّل عليهم، بأن وفَّقهم للإسلام، وأزال دواعيَ الكراهيةِ مِن قلوبهم. وممَّا يُذكَر في المناسبة أيضًا، أنَّه لمَّا بيَّن اللّهُ سبحانَه في الآية السَّابقة أنَّ العذابَ هو جزاءُ الكافِرينَ المعدُّ لهم، في قوله ﷻ: ﴿وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾؛ بيَّن هنا أنَّه يتوبُ على مَن يشاءُ منهم، هم وكُلُّ مَن عَلِمَ اللّهُ تعالى منه قابليَّةَ الإيمانِ، وإنْ كان شديدَ الكُفْرِ عظيمَهُ، فقال جلَّ وعلا: ﴿ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۗ﴾[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَتُوبُ﴾: (التَّاءُ والواوُ والباءُ): تدلُّ تصريفاتُهُ على معنى الرُّجوعِ، تقول: تابَ مِن ذَنْبِه؛ أي: رجع عنه[2]، وأصلُ التَّوب: تركُ الذَّنب على أجمل الوجوه، وهو أبلغ وجوهِ الاعتذار؛ لأنَّ الاعتذار على ثلاثة أوجهٍ؛ منها: فعلتُ وأسأتُ وقد أقلعتُ، وهذا المعنى موافقٌ لمعنى التَّوبةِ في الشَّرع؛ لأنَّها تعني: تَرْكَ الذَّنب لِقُبْحه، والنَّدمَ على ما فَرَطَ منه، والعزيمةَ على تَرك المعاودة، وتداركِ ما أمكنه أن يتدارك مِنَ الأعمال، بالإعادة على وجهها الصَّحيح[3]، وتابَ

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 8/427.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (توب).
(3) الرَّاغب، المفردات: (توب).

العَبْدُ إلى اللّهِ تعالى: عادَ إليه بالطَّاعَةِ بعدَ المَعْصيَةِ[1]، وتَوْبَةُ اللّهِ سبحانَه على العِبادِ، الواردَةُ في قولِه ﷻ: ﴿ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۗ﴾، تعني: الرُّجوعَ إليهم بالهدايةِ إلى الإسلامِ، والمَغْفِرَة لذنوبِهم[2].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

بيَّنت هذه الآيةُ تفضُّلَ اللّهِ ﷻ، بتوفيقِ مَن يشاءُ، فَيَهْديه إلى الإسْلامِ، ويَقْبَلُ منه إنابتَهُ وَتَوْبَتَهُ، مِن بَعْدِ عذابِهِ الذي نزل بِهِ في الدُّنيا، واللّهُ سبحانَه يستُرُ ذَنْبَ مَن تابَ إليه، ويتجاوَزُ عنه؛ رَحيمٌ بِهِ فلا يُعَذِّبهُ بَعْدَ تَوْبَتِهِ، ولا يُؤاخِذُهُ بِهِ بعْدَ إنابَتِهِ[3]. والسِّياق يذكر هنا التَّوبةَ على مَن بقي مِن قبائل هَوازِنَ، فيهديهم إلى الإسلام، وقد قَدِموا على رسول اللّه ﷺ مُسْلِمين، ولَحِقوا به في مكَّة، في مكانٍ يُعْرَف بالجِعرانة، وذلك بعد الموقعة بعشرين يومًا[4].

توبةُ اللهِ مِن بعدِ الهزيمةِ والنَّكالِ، على بقايا هَوَازِنَ في هدايتهم إلى الإسلام

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالَةُ ﴿ثُمَّ﴾ في الآية:

حَرْفُ العَطْفِ ﴿ثُمَّ﴾ مِنْ قول اللّهِ ﷻ: ﴿ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۗ﴾، عَطَفَ هذه الجملةَ على قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾، وهو دالٌّ على التَّراخي الرُّتْبيِّ[5]، وذلك للإشارة إلى إسلام هَوازِنَ، بعد تلك الهزيمة النَّكراء الَّتي أصابتهم، وجاؤوا لرسول اللّه مسلمين تائبين، وفيه إيماءٌ إلى البُعْدِ ما بينَ الكُفْرِ المتوعَّدِ عليه قَبْلُ، والتَّوبَةِ الجالِبَةِ رحمةَ اللّهِ سبحانَه ومغفرتَهُ[6].

شتّانَ ما بَيْنَ الكُفْرِ المُفضي إلى العَذابِ، والتَّوْبَةِ الموسومةِ بالمَغْفِرَةِ والرَّحْمَةِ

(1) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة: (توب).
(2) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة: (توب)، والسَّعديّ، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 332، والهرريّ، حدائق الرَّوْحِ والرَّيحان: 11/200.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 14/190، ونخبةٌ مِنَ العلماء، التَّفسير المُيسَّر، ص: 191.
(4) حومد، أيسر التَّفاسير، ص: 1263.
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/158.
(6) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 6/3269.

نُكْتَةُ التَّعْبيرِ بِالْفِعْلِ المُضارِعِ:

عُمومُ تفضُّلِ اللهِ بالتَّوبة على كُلِّ مَن أخلص له الأَوْبَةَ

قولُه تعالى: ﴿ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۗ﴾، جاءَ فيه التَّعبيرُ عَنْ توبةِ اللّهِ سبحانَه على مَن يشاءُ بالفِعْلِ المُضارعِ؛ للإيماءِ إلى تجدُّدِ التَّوبَةِ على كلِّ مَنْ صَدَقَ في توبَتِهِ إلى اللّهِ سبحانَه، ولا يختصُّ ذلكَ بهَوازِنَ، وذلكَ لأنَّ توبةَ هوازنَ، قَدْ عَلِمَها المُسْلِمونَ، فكانَ مقتضَى الظَّاهِرِ أَنْ يَرِدَ النَّظْمُ القرآنيُّ: (ثُمَّ تابَ اللّهُ مِنْ بعد ذلكَ)، إلَّا أنَّه عُدِلَ عَن ذلك، لِلْإِعْلام بأنَّه سبحانَه يُعامِلُ بمِثْلِ ذلكَ كُلَّ مَن تابَ وأنابَ إليهِ[1]، وفيه إشْعارٌ بأنَّ ما وقعَ في حُنَيْنٍ، مِن إيمانِ أكْثَرِ مَن بَقيَ مِنَ الذين غُلِبوا؛ سيقَعُ مثلُهُ، وشواهِدُ الحالِ تُؤَيِّدُ ذلكَ؛ فإنَّهُ ما مِن حربٍ مِن حروبِ المسلمينَ الدِّينيَّةِ المَشْروعَةِ إلَّا كانَ مآلُها كذلك[2]، ويُضاف إلى ذلك أنَّ التَّعبير بالفعل المضارع، يدلُّ على امتداد زمن التَّوبة في الحال والاستقبال، وهذا دليلٌ على حُبِّ اللّه تعالى لتوبة عباده، وفيه إشارةٌ إلى أنَّ الغرض هو تحصيل التَّوبةِ مِن غير تقييدٍ بزمنٍ ترغيبًا فيها، فبابُ التَّوبة لا يُغْلَق حتَّى تطلع الشَّمسُ مِن مَغربها.

دلالَةُ تَعْريفِ المُسْنَدِ إليه بِالْعَلَميَّةِ:

عَظَمَةُ تَوْبَةِ اللهِ سبحانَه؛ لِصُدورِها مِنَ العَظيمِ ﷻ

عُرِّفَ المسنَدُ إليهِ بالعلَميَّةِ في قولِ اللّه سبحانَه: ﴿ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۗ﴾؛ لبيانِ عَظَمَةِ هذِهِ التَّوبَةِ وشرَفِها، إذْ هي توبَةٌ مِن عندِ مَن لَهُ صفاتُ الجَلالِ والجَمالِ والكَمالِ، وله الإحاطَةُ عِلْمًا وقُدْرَةً، وما يَصْدُرُ مِنَ العظيمِ عظيمٌ[3]، وعَظَمَة الخالقِ أنَّه يفتح البابَ دائمًا لعباده، وهذه مسألةٌ منطقيَّةٌ؛ لأنَّ الذي يَكفر، والذي يَعصي، لا يَضُرُّ اللّهَ شيئًا، ولكنَّه يُؤذي نفسَه، ويحاولُ أن يَفتريَ على نواميس الحقِّ، وحين يعلمُ العاصي أنَّه لا مَلْجَأ له إلَّا

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/159.
(2) محمد رضا، تفسير المنار: 10/221.
(3) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 8/427.

اللّه، فاللّه ﷻ يفتح له بابَ التَّوبة على مِصْراعيه؛ ليعودَ إلى مولاه، ويلتزمَ نورَه وهُداه[1].

نُكْتَةُ الإِظْهارِ في مَوْضِعِ الإِضْمارِ:

توبَةُ اللهِ تعالى على العِبادِ، مِن فواضل كَرَمِه المعتاد

قولُ اللّهِ ﷻ: ﴿ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۗ﴾، فيه إظْهارٌ في مَوضِعِ الإضْمارِ، وذلك لأنَّ مقتضَى الظَّاهِرِ أن يَرِدَ النَّظْمُ القرآنيُّ: (ثُمَّ يتوبُ مِنْ بَعْدِ ذلكَ علَى مَنْ يشاءُ)، بإسْنادِ فِعْلِ التَّوبَةِ إلى الضَّمير المُستَتِر فيه؛ وذلكَ لتقدُّمِ ذِكْرِ الاسمِ الأعظم (اللّه)، في قوله سبحانَه: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودٗا لَّمۡ تَرَوۡهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ﴾، وعُدِلَ إلى الإظْهارِ: تعظيمًا لشأْنِ هذِه التَّوبَةِ.

دلالَةُ ﴿مِنۢ﴾ في الآية:

أَثَرُ تَنَوُّعِ دِلالاتِ حُروفِ المَعاني في إِثْراءِ ما في القرآن من المَعاني

﴿مِنۢ﴾ في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ﴾، أفادَتْ مَعْنَيين؛ أحدُهُما: تَوْكيدُ المعنى وتَقْويَتُهُ، وهذا هو المعنى الغالِبُ على (مِنْ) الواقِعَةِ مَعَ (قَبْلُ) و(بَعْدُ)، والآخَرُ: الإيماءُ إلى أنَّ توبَةَ أحدٍ مِنَ العبادِ، لا يُمْكِنُ أن تستغْرِقَ الزَّمانَ المستَقبَل المُشارَ إليه بـ (بَعْد)[2]، وتحديد الزَّمن بالبَعْديَّة، دليلٌ على أنَّ التَّوبة كانت بَعْدَ تلاحق الأحداث، وأنَّها فُرِضَت عليهم فرضًا، وأنَّهم تابوا بعد أن قَهَرتهم قوَّةُ اللّه، التي جاءت نصرًا للمؤمنين، وسَحقًا للكفَرَة المحاربين، "لقد كان أهل الطَّائف مِن ثَقيفٍ وهَوازنَ، أشدَّ النَّاس اغترارًا بقوَّتهم ومالِهم، وكانت فيهم غِلْظَةٌ وجفوةٌ دونَ غيرِهم مِنَ العرب، فلمَّا عَضَّتهم الحربُ، فَكَّروا في أمرهم مُسْترشدين"[3]، واللّهُ يقبل التَّوبةَ عن عباده، ويتوبُ على مَن يشاء مِن بعد ذلك.

(1) الشَّعراويّ، تفسير الشّعراوي: 8/5008 (بتصرُّف).
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 8/428.
(3) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 6/3270.

نُكْتَةُ التَّعْبيرِ بِاسْمِ الإشارَةِ ﴿ذَٰلِكَ﴾، عنِ العذاب:

شِدَّةُ العَذابِ النَّازِلِ بِالْكافِرينَ، مَظْهَرٌ مِن مظاهر عدلِه المَكِين

في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۗ﴾، جاءَ التَّعبيرُ بِاسْمِ الإشارَةِ الدَّالِّ على البُعْدِ ﴿ذَٰلِكَ﴾ في الآية الكريمة؛ إيماءً إلى عَظَمَةِ العذابِ[1]، الذي حلَّ بِهِمْ مِن قَبْلُ على أيْدي المُؤمِنينَ، وإيذانًا ببُعْدِ درجَتِهِ في الشِّدَّةِ والفظاعَةِ، وفيه إشارةٌ إلى عدم التَّصريح بذِكْر العذابِ مرَّةً ثانيةً؛ لأنَّ التَّوبة تمحو المعصية وأثرَها، وهذا مِنَ الجمال النَّفسيِّ الذى فيه مُراعاةٌ لمجيء إسلام هَوَازِنَ، بعد تلك الهزيمة النَّكراء.

بَلاغَةُ الإيجازِ بالحذف:

طَيُّ الكَلامِ الذي دَلَّتِ القَرينَةُ عليه؛ لونٌ مِنَ الاقتصادِ في الأَلْفاظِ

قولُ اللّهِ ﷻ: ﴿ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۗ﴾، فيه إيجازٌ بالحذْفِ، حيثُ حُذِفَ مفعولُ المَشيئَةِ، والتَّقديرُ: (ثمَّ يتوبُ اللّهُ مِن بَعْدِ ذلك على مَن يشاءُ أن يَتوبَ عليه)، وإنَّما حُذِفَ اكتفاءً بدلالَةِ صَدْرِ الآيَةِ عليه، ذلك أنَّ مآل النَّاسِ في التَّوبة أو تَرْكِها مرتبطٌ بالمشيئة، والمعنى: أن يتوبَ عليه منهم لحكمةٍ تقتضيه، أي: يوفِّقَه للإسلام[2]، ومُفادُ ذلك: أنَّ اللّه يقبل توبةَ مَن يشاء مِن عباده، فيغفرُ له زلَّتَه، ويمحو حَوْبتَه، إذا رجع عن ذنبه ذلك مُخلِصًا، لأنَّ اللّه عظيم المغفرة، واسع الرَّحمة[3].

سِرُّ التَّعبير بلفظ (التَّوبة)، عن دخولهمُ الإسلامَ:

الإسلام توبةٌ إلى الله، بالانصراف الكليِّ عمَّا سواه

في قولِه تعالى: ﴿ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۗ﴾، آثَر القرآنُ الكريم التَّعبير بالتَّوبة، عن هدايته لهم للإسلام؛ للإشارة إلى أنَّ ذلك كان بتوفيق اللّه تعالى لهم؛ فهو الذي فتح لهم البابَ،

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 8/428.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/56.
(3) لجنةٌ من علماء الأزهر، المنتخب في تفسير القرآن الكريم، ص: 262.

ولـمَّا كان «الإسلام يَجُبُّ ما قبلَه، والتَّوبةُ تَجُبُّ ما قبلَها»[1]، عبَّر بالتَّوبة للقاسم المشترَك بينَها وبينَ الإسلام، ولأنَّ الإسلامَ رجعةٌ من الكفر إلى اللّه، والتَّوبةَ رجعةٌ مِنَ الذَّنب إليه، وكلاهما لا معنى له إلَّا مع صِدْق التَّوجُّه، ومع قبول الطَّرف المرجوع إليه، كان هذا التَّشاركُ في المعنى هو علَّة استخدام لفظ (التَّوبة)، دليلًا على معنى الدُّخول إلى الإسلام، "وحين يعلمُ العاصي أنَّه لا مَلجَأَ له إلَّا اللّهُ، فاللّهُ ﷻ يفتح له بابَ التَّوبة"[2]، ولا شَكَّ أنَّ أكبر معصيةٍ يُطلَب منها التَّوبةُ، إنَّما هي الكفر، وأكبرَ توبةٍ تتجلَّى في الاعتقاد والعمل، إنَّما هي الإسلام.

بـابُ الـلـهِ في القبول لا يُغْلَق عـلى طـالـب السُّول

دلالة التَّعبير بالحرف ﴿عَلَىٰ﴾:

في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۗ﴾، آثر التَّعبير بـ ﴿عَلَىٰ﴾ الَّتي تُفيد الاستعلاءَ على غيرها؛ للإشارة إلى امتنان اللّه تعالى على مَن تاب عليهم، وللدَّلالة على أنَّ أمر التَّوبة شرعٌ علويٌّ، ليس مِن اختصاصات البشر، والتَّوبةُ تتجدَّد بتوبة مَن تاب إلى اللّه في كلِّ الأزمنة، وهو قانونٌ سماويٌّ، يعامِلُ به اللّهُ البشرَ، وعطاءٌ لا حولَ لهم فيه ولا قوَّةَ، ولكنَّ اللّه يُفيضُه عليهم مِن عليائه، ولا يستثني مِن ذلك أحدًا، وقد رُوِيَ عن أبي هريرة رضي الله عنه، عنِ النَّبيِّ ﷺ قال: «قال اللّهُ ﷻ: عَبْدِي عِنْدَ ظَنِّهِ بِي، وَأَنا مَعَهُ إذا دَعاني، وَإِنْ ذَكَرَني في نَفْسِهِ، ذَكَرْتُهُ في نَفْسِي، وَإِنْ ذَكَرَني في مَلَإٍ، ذَكَرْتُهُ في مَلَإٍ خَيْرٍ مِنْهُمْ وَأَطْيَبَ، وَإِنْ تَقَرَّبَ مِنِّي شِبْرًا، تَقَرَّبْتُ مِنْهُ ذِراعًا، وَإِنْ تَقَرَّبَ ذِراعًا، تَقَرَّبْتُ باعًا، وَإِنْ أَتاني يَمْشِي،

(1) عن عمرو بن العاص رضي الله عنه، أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال له: «يا عمرو بايع، فإنَّ الإسلام يَجُبُّ ما كان قبلَه، وإنَّ الهجرة تَجُبُّ ما كان قبلَها» أحمد، المُسْنَد، برقم: (17812)، وعند مسلم في صحيحه: «أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ الإِسْلام يَهْدِمُ مَا كَانَ قَبلَهُ، وَأَن الهجرَةَ تَهدمُ مَا كَانَ قبلَها، وأَنَّ الحَجَّ يَهدِمُ مَا كانَ قبلَهُ»، برقم: (121).

(2) الشَّعراويّ، تفسير الشّعراوي: 8/5008.

أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً»[1]، واللّهُ تعالى يُعامِل بمثل ذلك كلَّ عبدٍ كان على الكفر فأسلم، أو كان على الذَّنب فأحجم، فهو يتوب عليهم، ويتوبُ على مَن يشاء إذا شاء.

دلالة التَّعبير بـ ﴿مَن﴾:

الموصولُ الدَّالُّ على العموم، يُعَمَّم به معنى صلتِه بعدَه

آثر القرآن التَّعبير بـ ﴿مَن﴾، في قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ مَن يَشَآءُۗ﴾؛ لإفادة العموم في أمر التَّوبة؛ فهي عامَّة، وليست قاصرةً على مَن أسلم مِن هَوازنَ وثَقيفٍ، بل هي شرع اللّه لكلِّ مَن خرج مِن شِرْكه وكُفْره إلى الإسلام، واللّهُ يتوب على مَن يشاء، فهو "يعفو عنِ الذُّنوب العظيمة للتَّائبين، ويرحمُهم بتوفيقهم للتَّوبة والطَّاعة، والصَّفحِ عن جرائمهم، وقبولِ توباتهم، فلا ييأسَنَّ أحدٌ مِن مغفرته ورحمته، ولو فعل مِنَ الذُّنوب والإجرام ما فعل"[2].

نُكْتَةُ الإظْهارِ في مَوْضِعِ الإضْمارِ:

تَفْخيمُ صِفَتَي المَغْفِرَةِ والرَّحْمَةِ الصَّادِرَتَيْنِ عنِ اللهِ سبحانَه

في قولِ اللّهِ سبحانَه: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾، إظهارٌ في محلِّ الإضْمارِ، وذلكَ أنَّ مقتضَى الظَّاهِرِ أن يَرِدَ النَّظْمُ القرآنيُّ: (وهو غفورٌ رحيمٌ)؛ لتقدُّمِ ذِكْرِ الاسْمِ الأعظم (اللّه)، في قولِه: ﴿ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ﴾ ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾، وظاهرٌ أنَّ غُفرانَ اللّهِ متاحٌ في زمانه، وفي كلِّ عصرٍ مِنَ العصور، فصفاتُه تعالى صفاتٌ أزليَّةٌ خالدةٌ، لا تَحُوْل ولا تزول، والآية تُؤكِّد ذلك بِرُسوِّ المعنى وخلوده، وما فيها مِن معنى الكمال والبقاء والعَظَمَة.

دلالَةُ التَّعْبيرِ بِصيغَتَي المُبالَغَةِ:

لا نهايةَ لعَظَمَةِ اللهِ ﷻ وغُفرانِه، ولا حدودَ لتسامي رحمتِه وإكرامه

في بِناءِ اسْمَي اللّهِ تعالى: (الْغَفورِ)، و(الرَّحيم)، مِن قولِ اللّه ﷻ: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾، على أمثلَةِ المبالغَةِ دَلالَة على قوَّةِ المغفرَةِ وسَعَةِ الرَّحمَةِ وكثرَتِهما، فبِناءُ المبالَغَةِ مستَعمَل باعتبار كثرَةِ المخاطَبينَ، وعِظَمِ المغفرَةِ والرَّحْمَةِ.

(1) أحمد في المُسْنَد، برقم: (10229)، وابن حبَّان في الصَّحيح، برقم: (812).
(2) السَّعديّ، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 332.

دَلالَةُ خَتْمِ الآيَةِ بِاسْمَيِ: ﴿غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾:

خُتِمَتِ الآيَةُ باسْمَيِ اللّهِ سبحانَه: (الغفورِ) و(الرَّحيم)، فقال سبحانَه: ﴿ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾، وذلك لمناسبَةِ الاسْمَيْنِ لِسياقِ التَّوبةِ[1]، وللإعْلامِ بأنَّ من آثار تَوبةِ اللّهِ ﷻ على عبادِهِ، أنْ يغفِرَ لهم ويرحمَهم.

مِنْ آثارِ تَوْبَةِ اللهِ تعالى على العِبادِ: غلبةُ مَغْفِرَتِهِ، وعمومُ رَحْمَتِه

بلاغةُ أسلوبِ التَّذْييلِ:

قولُ اللّهِ ﷻ: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾، تذييلٌ جارٍ مَجْرَى المثَلِ؛ لِاستقلالِهِ وعَدَمِ افتِقارِهِ إلى ما قبلَهُ، والنُّكتَةُ في ذلك: تعظيمُ شَأنِ الوَصفَينِ اللَّذَينِ دَلَّ عَلَيهِما اسمَا اللّهِ: (الغَفورُ) و(الرَّحيمُ)؛ وهُما المغفِرَةُ والرَّحمةُ، فَفُخِّمَ حالُهُما وَقَدرُهما؛ إذ هُما صادِران ممَّن جمعَ صِفاتِ الجلالِ والجَمالِ والكمالِ، وفيهِ إيماء إلى عِظَمِ مغفرةِ اللّهِ تعالى؛ لكونِها مغفرةَ شَديدِ الغُفرانِ، الرَّحيم بعبادِهِ، والجملَةُ واردَةٌ - أيضًا - تأكيدًا لما تقدَّمَ في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۗ﴾، ولِإفادَةِ أنَّ مَغْفِرَتَهُ مِن شَأنِهِ سبحانَه، وأنَّهُ رَحيمٌ بِالْعِبادِ، إنْ رجعوا إليهِ وَأَنابوا وتَرَكوا مساخِطَهُ[2].

مَغْفِرَةُ اللهِ تعالى وَرَحْمَتُهُ بِالْعِبادِ، منوطةٌ بالرُّجوعِ إليه، والإقلاعِ عن مَساخِطِهِ

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

المَغْفِرَة والرَّحْمَة:

الفَرْقُ بينَهما مِن أَوْجُهٍ؛ **أوَّلُها**: أنَّ أصلَ الغَفْرِ في اللُّغَةِ: السَّتْرُ[3]، وأصلَ الرَّحْمَةِ: الرِّقَّةُ والعَطْفُ[4]. **وثانيها**: أنَّ أحدَهما سبَبٌ في الآخَرِ، ومَالَ ابنُ عَرفةَ إلى أنَّ الرَّحمة سببٌ في المغفرة؛ لأنَّ الرِّقَّةَ والعطفَ تُوجِبانِ عادةً سَتْرَ الزَّلَلِ[5]، إلَّا أنَّ ظاهِرَ القرآنِ الكريم

ظاهِرُ القرآنِ الكريمِ، أنَّه غالبًا ما يَستعمِلُ المغفرةَ سببًا في الرَّحمة

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 8/428.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/159.
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (غفر).
(4) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (رحم).
(5) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/435، 2/258.

عكسُه؛ وهو كونُ المغفرةِ سببًا في الرَّحمة، كما قال الله تعالى: ﴿لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾﴾ [النَّمل: 46]. **وثالثُها**: أنَّ المغفرةَ والرَّحمةَ إذا جُمِعا في محلٍّ واحدٍ؛ انصرفَتِ المغفرةُ لسَتْرِ ما مضى مِنَ الذُّنوبِ، والرَّحمةُ لِلْعِصْمة مِنْها فيما يُستقبَلُ[1]، إذا كان ذلكَ جزاءً في الدُّنيا؛ لأنَّ الآخرةَ لا يُتصوَّرُ فيها ذُنوبٌ، حتَّى يُحتاجَ إلى العصمةِ منها. **رابِعُها**: أنَّ المغفرةَ فيها زَوالُ المَكْروه مِن آثار الذُّنوب، والرَّحمةَ فيها تحصيلُ المَطْلوب[2]. **خامسُها**: أنَّ المغفرة تخليةٌ، والرَّحمةَ تحليَةٌ، وأيضًا لأنَّ المغفرةَ سلامةٌ، والرَّحمةَ غنيمةٌ، وبهذا يكون للمغفرة معنًى يُميِّزها عنِ الرَّحمة.

(1) ابن عثيمين، شرح ثلاثة الأصول وأدلَّتها، ص: 19.

(2) ابن عثيمين، تفسير الفاتحة والبقرة: 3/66.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡمُشۡرِكُونَ نَجَسٞ فَلَا يَقۡرَبُواْ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ بَعۡدَ عَامِهِمۡ هَٰذَاۚ وَإِنۡ خِفۡتُمۡ عَيۡلَةٗ فَسَوۡفَ يُغۡنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦٓ إِن شَآءَۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٢٨﴾ [التّوبة: 28]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

المناسبة بينَ دَحر أعداء الله، وبينَ صيانة المسجد الحرام عن نجس الشِّرك وأهلِه

لـمَّا ذكر اللّهُ في بَدْء السُّورة الكريمة البراءةَ مِنَ الكفَّار، وشَدَّد في ذلك بذكر بعضِ فضائحِهم وقبائحِهم الَّتي تُوجِبُ البراءةَ منهم، بيَّن في هذه الآية العِلَّة الَّتي دعت إلى هذه المباينة وهذه المقاطعة، أنَّهم نجسٌ.

ومِنَ المناسبة - أيضًا - أنَّه بعد أن أبطلَ اللّهُ ﷻ شُبْهَتَين مِنَ الشُّبَهِ الَّتي يُبْديها مَن ضَعُفَ عَنِ امتثالِ أمرِه، بِمُباينَةِ أهلِ الشِّرْكِ والبراءَةِ منهم؛ ذكرَ سبحانَه إبطالَ شُبْهَةٍ ثالثةٍ، وذلك أنَّ النَّبيَّ ﷺ لـمَّا أمرَ عليَّ بنَ ابنَ أبي طالبٍ رضي الله عنه، أَنْ يَقرأَ على مُشْركي مكَّةَ أوَّلَ سورةِ التَّوبةِ، وما تضمَّنتْهُ مِنْ نَبْذِ عَهْدِهم إليهم، وأنَّ اللّهَ بريءٌ منهم ورسولُهُ ﷺ؛ قال ناسٌ: يا أهلَ مكَّةَ سَتَعْلَمونَ ما تلقوْنَهُ مِنَ الشِّدَّةِ؛ لانقطاعِ السُّبُلِ، وفَقْدِ الحُمولاتِ، فقالَ اللّهُ سبحانَه ردًّا على هذه الشُّبْهَةِ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡمُشۡرِكُونَ نَجَسٞ فَلَا يَقۡرَبُواْ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ بَعۡدَ عَامِهِمۡ هَٰذَاۚ وَإِنۡ خِفۡتُمۡ عَيۡلَةٗ فَسَوۡفَ يُغۡنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦٓ إِن شَآءَۚ﴾[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلۡمُشۡرِكُونَ﴾: (الشِّينُ والرَّاءُ والكافُ): تدورُ اشْتِقاقاتُها على لُزومِ شَيءٍ شَيْئًا؛ إمْساكًا بِجامِعٍ دَقيقٍ، ومنه: شِراكُ النَّعْلِ؛ لكونِهَ

(1) الرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 16/20 - 21.

ملازمًا للنَّعْلِ، مُمْسِكًا إيَّاها، وكذا شَرَكُ الصَّيْدِ، ومِنْ هذا التَّلازُم: الشَّرِكةُ؛ وهي خُلْطَةُ المِلْكَيْنِ[1]، والإشراك بالله جلَّ وعلَا: مصدرُ أشركَ إشراكًا، وهو أن يدعوَ لله شريكًا[2]، ودخلتِ (الباء) في قول الله تعالى: ﴿أَشْرَكُواْ بِٱللَّهِ﴾ [آل عمران: 151]؛ لأنَّ معنى (أشرك بالله): قرن بالله غيرَه، وفيه إضمارٌ، والباءُ للإلصاق والقِران[3]، وحقيقَةُ الشِّرْكِ شَرْعًا: تَسْوِيَةُ غَيْرِ اللهِ بِاللهِ، في شيءٍ مِن خَصائِصِ اللهِ تعالى، وهو الشِّركُ العظيم، والمُشْرِكونَ هُمُ المُتلبِّسونَ بهذا الشِّرْكِ[4]، يقال: أشرك فلانٌ بالله، وذلك أَعْظَمُ كفرٍ، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾ [النساء: 48].

2) ﴿نَجَسٌ﴾: (النُّونُ والجيمُ والسِّينُ): تدورُ تصريفاتُها على ضِدِّ الطَّهارَةِ، يُقال: شيءٌ نَجسٌ - بِفَتْحِ الجيم وكَسْرِها - هو القَذَرُ[5]، والنَّجاسَةُ: القذارَةُ؛ وهي نوعان؛ أحدهُما: ما يُدْرَكُ بِالْحَواسِّ. والآخَرُ: ما يُدْرَكُ بِالْبَصيرَةِ، ومِنْ هذا قولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾[6]، وثوبٌ نَجِسٌ، بالكسر: اسمُ فاعل، وبالفتح: وصفٌ بالمصدر للمُبالغة، وفي اللِّسان: النَّجْسُ والنِّجْسُ والنَّجَس: القَذِرُ مِنَ النَّاس ومِن كُلِّ شَيء[7]، والجمع: أنجاس، وقيل: النَّجَس يكون للواحد والاثنين والجمع والمؤنَّث بلفظ واحد، فإذا كَسَروا ثَنَّوا وجمعوا وأنَّثوا، فقالوا: أنجاسٌ ونجِسة[8].

3) ﴿ٱلْحَرَامَ﴾: (الحاءُ والرَّاءُ والميمُ): تدورُ تصريفاتُها على المَنْعِ والتَّشديد، ومنه: الحَرامُ وهوَ ضِدُّ الحَلالِ[9]؛ وذلك أنَّ الحلالَ مأذونٌ في إتْيانِه، بخلافِ الحرام فيُمْنَعُ منه، ومنه قولُهُم: ذو رَحِمٍ مُحَرَّم، وهو الذي لا يَحِلُّ نِكاحُهُ، ومنه سُمِّيَ مسْجِدُ الكعْبَةِ: المَسْجِدَ الحَرامَ، كما في قوله سبحانَه: ﴿فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ﴾؛ لكَوْنِهِ لا يحِلُّ انتِهاكُهُ[10].

---

(1) الرَّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيُّ المؤصَّل: (شرك).
(2) ابن دريد، جمهرة اللُّغة: (شرك).
(3) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة: (بوأ).
(4) ابن قاسم العاصميّ، حاشية كتاب التَّوحيد: ص 15، ومحمد الخميِّس، شرح الرِّسالة التَّدمريَّة، ص: 89.
(5) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (نجس).
(6) الرَّاغب، المفردات: (نجس).
(7) الشَّافعيّ، المسند: 1/21.
(8) ابن سيده، المحكم: (نجس).
(9) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (حرم).
(10) الفيُّوميّ، المصباح المنير: (حرم).

4) ﴿عَيْلَةً﴾: (العَيْنُ والياءُ واللَّامُ): تدلُّ اشْتِقاقاتُها على معنى الحاجَةِ والفَقْرِ والفاقَةِ[1]، ومنه قولُ اللّهِ تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ۝٨﴾ [الضّحى: 8]، وقولُ النَّبيِّ ﷺ في حَديثِ جبريلَ المَشْهورِ: «وأَنْ تَرَى الحُفاةَ العُراةَ العالَةَ رِعاءَ الشّاءِ، يَتَطاوَلونَ في البُنْيانِ»[2]، فالعالَةُ: الفقَراءُ، وهيَ جَمْعُ عائِلٍ[3]، ومنه قولُهُم: عالَ الرَّجُلُ؛ إذا افْتَقَرَ[4]، ومِنْ هذا البابِ: العَيْلَةُ، في قول اللّه سبحانَه: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ﴾، وهيَ الفَقْرُ[5]، قال الشّاعر[6]:

فَمَا يَدْرِي الفَقِيرُ متى غِناهُ *** وما يَدْرِي الغَنِيُّ متى يَعِيلُ؟

وفي آخر حديث وصيَّة سعدِ بن أبي وقاص رضي الله عنه، مرفوعًا قال: «**إِنَّكَ أَنْ تَدَعَ وَرَثَتَكَ أَغْنِياءَ**، خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَدَعَهُمْ عالَةً يَتَكَفَّفونَ النّاسَ»[7]، والعالة: جمع عائل، وهو الفقير، يقال: عال يعيل عَيْلَةً، أي: افتقر.

5) ﴿يُغْنِيكُمُ﴾: (الغَينُ والنُّون والحَرْفُ المعتلُّ): تدور كثيرٌ مِن اشتقاقاتِها على معنى الكِفايَةِ، ومنه قولُهم: فلانٌ لا يُغْني غَناءَ فُلانٍ، أي: لا يكفي كفايَتَهُ[8]، والغَنَاءُ: الكِفايَةُ والإجْزاءُ[9]، وقولُ اللّهِ سبحانَه: ﴿فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ﴾ أي: يكْفيكُمْ حاجاتِكُمْ، فلا يقَعُ عليكُمُ الفَقْرُ؛ إذِ الفقْرُ ملازِمٌ لِلْحاجَةِ.

6) ﴿فَضْلِهِۦٓ﴾: (الفاءُ والضّادُ واللَّامُ): تدور اشتقاقاتُها حولَ الزِّيادة في الشَّيء[10]، واسْتِعْمالُ هذا الأصلِ: في الخَيْرِ[11]، فالفَضْلُ: الزِّيادَةُ في الخَيْرُ[12]؛ حِسِّيَّةً كانتِ الزِّيادةُ

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (عيل).
(2) مسلم في صحيحه، الحديث برقم: (8).
(3) نشوان الحميريّ، شمس العلوم: (عيل)، وابن الأثير، النِّهاية في غريب الحديث والأثر: (عيل).
(4) ابن الأنباريّ، الزّاهر في معاني كلمات النَّاس: 1/141.
(5) أبو عُبيد الهروي، الغريبين في القرآن والحديث: (عيل).
(6) البيت لم يُعْزَ لقائل، وقيل: هو لأحيحة بنِ الجلَّاح، من قصيدة في جمهرة أشعار العرب، ص: 647، وفي معاني القرآن: 1/255، وينظر: ابن دريد، جمهرة اللُّغة: (علي).
(7) أخرجه البخاريُّ في صحيحه، برقم: (2591).
(8) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (غني).
(9) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة: (غني).
(10) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (فضل).
(11) أبو حيَّان، البحر المحيط: 1/302.
(12) ابن عادل، اللُّباب في علوم الكتاب: 2/45.

أو معنويَّةً[1]، وذهب الرَّاغبُ إلى أنَّ الفَضْلَ لا يخْتَصُّ بالخَيْرِ، بَلْ يقَعُ الفضْلُ محمودًا ومذمومًا، واستعمالُهُ في المحمودِ أكْثَرُ وأَغْلَبُ[2]، وقولُ اللهِ ﷻ: ﴿فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾، معناهُ: يتفضَّلُ عليكُم بما هو أَوْسَعُ وأَكْثَرُ[3].

المَعْنى الإجْماليُّ:

في هذه الآية نادى اللهُ تعالى على أهل الإيمان؛ يا مَعْشَرَ مَن آمَنَ باللهِ تعالى، وصدَّق رسولَه ﷺ، ما المشركونَ إلَّا نجسٌ وقَذَرٌ، فلا تُمكِّنوهُم مِنَ الاقترابِ مِنَ المسجِدِ الحرامِ، بدخولِهِم الحرَمَ بعَد الذي نادَى فيهِ عليُّ بنُ أبي طالبٍ رضي الله عنه بسورةِ براءَة، وهو العامُ التَّاسِعُ مِنَ الهِجْرَةِ، وإن خِفتُم فاقةً وَفقرًا، بسَبَبِ مَنْعِ المُشْركينَ مِنْ أَنْ يَقْرَبوا المَسْجِدَ الحرامَ؛ فإنَّ اللهَ ﷻ سَيُعَوِّضُكُم عنها، ويَكْفيكُم مِن فَضْلِهِ إنْ شاءَ، إنَّ اللهَ سبحانَه عَليمٌ بِحالِكُمْ، حَكيمٌ في تَدْبيرِ شُؤونِكُم[4].

مَنْعُ المشركين مِن دخول الحَرَم، مع عدم الخوف مِنَ الفقر؛ لأنَّ الله تعالى هو المُغْني

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

عِلَّةُ الفَصْلِ والاستئناف:

فُصِلَ قولُ اللهِ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ عمَّا قَبْلَهُ؛ لوقوعِهِ اسْتِئْنافًا بقَصْدِ الرُّجوعِ إلى غَرَضِ إبْعادِ المُشْرِكين عنِ المسجِدِ الحرامِ، الذي دلَّ عليه قولُ اللهِ سبحانَه قَبْلُ: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُواْ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ﴾ [التَّوبة: 17]، ولتأكيد الأَمْرِ بإقصائِهِم عنِ المسجِدِ الحرامِ، مع التَّنصيص على عِلَّةٍ أُخْرَى تقتضي هذا الإقْصاءَ؛ وهيَ كَوْنُهم نجَسًا، وحيثُ إنَّ المسجد الحرام رمزٌ للطُّهر والقداسة، وقد قال

التَّنْصيصُ عَلى عِلَّةِ إقْصاءِ المُشْرِكينَ عنِ المَسْجِدِ الحَرامِ

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيُّ المؤصَّل: (فضل).
(2) الرَّاغب، المفردات: (فضل).
(3) الواحديّ، التَّفسير البسيط: 10/356.
(4) ابن جرير، جامع البيان: 14/190 - 192، ونخبة مِنَ العلماء، التَّفسير الميسَّر، ص: 191.

تعالى لإبراهيم عليه السلام: ﴿وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ١٢٥﴾ [البقرة: 125]، ولـمَّا أُنزِل فيه الوحيُ الخاتم، وعمَّ الإسلام شِبْهَ الجزيرةِ العربيَّة برُمَّتها، وطُهِّرتِ الكعبةُ مِن رجس الأصنام، وطُهِّر الحرمُ مِن نجس الطُّقوس الّتي كانت تُمارَس في الجاهليَّة، أُنزِلَ الحُكمُ بمنع المشركين مِن ارتياد المسجدِ الحرام، بعد نزول هذه الآية.

سِرُّ اختلافِ التَّعبير في الموضوع الواحد:

تنوُّعُ الأسلوبِ القرآنيِّ في التَّعبير عنِ الأحكام، ثراءٌ وإيضاحٌ وبيانٌ

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا﴾، وقوله تعالى السَّابق: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُواْ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ﴾ [التّوبة: 17]، اختلف التَّعبير فيهما، مع كونهما في موضوع واحد، هو منع المشركين مِن دخول المسجد الحرام، ففي كلا الموضعين منعٌ للمشركين مِنَ المسجد الحرام، وإن اختلفت صورةُ المنع؛ ففي الآية الأولى: منعٌ مِنَ العِمَارة، وفي الثَّانية: نهيٌ عنِ القُرْب، مع اختلاف العلَّة في كلٍّ منهما؛ ففي الموضعِ الأوَّلِ: عُلِّلَ إبعادُهُم بكونِهم شاهدينَ على أَنْفُسِهم بالكُفْرِ، فلَمْ يكونوا أهلًا لعِمَارةِ المسْجِدِ الحرامِ، الذي بُنِيَ أَصالةً لإقامَةِ التَّوحيدِ[1]، وعلى هذا فلا يَجوز تمكينُهم مِنْ عمارَته؛ لطهارَته، وعُلِّلَ في الثَّاني: بأنَّهم نجسٌ، في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾؛ فلا يقربوه فضلًا عن عمارته، فالنَّهي عنِ القرب، يَلْزَم منه النَّهيُ عنِ العمارة.

نُكْتَةُ النِّداءِ بِـ (يا):

إظهارُ العِنايَةِ بالحَثِّ على تطهير المَسْجِدِ الحَرامِ مِنَ المُشْرِكينَ

في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾، جاءَ النِّداءُ بِـ (يا) في قولِ اللّه ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾، وهي في الأصل لِنداء البَعيدِ، ونداءُ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/159.

اللّٰهِ سبحانه لِعبادِهِ، نداءٌ مِنَ الخالِقِ إلى المَخْلوقين، فَجديرٌ أَنْ يَكونَ بأداةِ النِّداء لِلْبَعيدِ، وفي التَّعبير بأداة النِّداءِ لِلْبَعيد نكاتٌ؛ أولاها: بُعْدُ ما بين الخالِقِ والمَخْلوقِ مِنَ المَكانةِ. وثانيها: أنَّه نِداءٌ مِنَ الخالِقِ، وهو مُقْتَضٍ أعلى العلوِّ وأبعدَهُ. وثالثها: عِظَمُ شأنِ موضوع النِّداءِ، وهو الحَثُّ على إبعاد المُشْرِكينَ عَنِ المَسْجِدِ الحَرامِ.

سِرُّ النِّداءِ بِـ ﴿يَـٰٓأَيُّهَا﴾:

النِّداءُ بـ ﴿يَـٰٓأَيُّهَا﴾ في قول اللّٰهِ جلَّ وعلا: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾، فيه ضَرْبٌ مِن تَقْوِيَةِ النِّداءِ، وَوَجْهُ ذلك: أنَّ لفظَ (أَيّ) لا يُفْهَمُ المرادُ مِنْهُ إلَّا باسم بعَدَهُ يُزيلُ غُموضَهُ، وفي هذا انتقالٌ مِنَ الإبْهام إلى الإيضاحِ والبَيانِ، وفي هذا نَوْعُ توكيدٍ، وفي اقترانِهِ بـ (ها) التَّنبيهِ: زيادةٌ في التَّوكيدِ؛ إذِ النِّداءُ في الأصْلِ يُرادُ به التَّنبيهُ.

الانْتِقالُ مِنَ الإبْهامِ إلى الإيضاحِ والبَيانِ، مِنْ مُقَوِّياتِ المَعاني

بَراعَةُ النِّداءِ بِوصْفِ الإيمانِ:

وقَعَ النِّداءُ بوصْفِ الإيمانِ في قول اللّٰهِ تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾؛ لكَوْنِه يَقْتَضي تَعْظيمَ شعائِرِ الإسْلام، ومنها: الشَّعائِرُ الزَّمانيَّةُ والمَكانيَّةُ، ومِن أَعْظَمِ معالِمِ الإسْلامِ المَكانيَّةِ المَسْجِدُ الحَرامُ، فالنِّداءُ بوصْفِ الإيمانِ تحريضٌ على تعظيمِه وتوقيرِه، ومِن صوَرِ تَعْظيمِهِ: إبعادُ المُشْرِكينَ عنه؛ وذلك لما يُشْعِرُ بِهِ وصفُ الإيمانِ مِنَ الاسْتِعدادِ لامتِثالِ ما يأمرُهُم اللّٰهُ تعالى به؛ وَذلك لأنَّهُ أخصُّ أوصافِهِمْ تُجاهَ أوامرِ اللّٰهِ ﷻ، كما قالَ سبحانَه: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ [النّور: 51].

الإيمانُ يقتضي الالتزامَ الصَّارِمَ بالأَوامِرِ، والاجتنابَ القاطِعَ للنَّواهي

نُكْتَةُ مَجيءِ جُمْلَةِ الصِّلَةِ فِعْلًا ماضيًا:

جاءتِ جملةُ الصِّلَةِ فِعْلًا ماضيًا، في قول اللّٰهِ سبحانَه: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾؛ حثًّا لِلْمُخاطَبين على تَرسيخ إيمانِهِم، والاستمرارِ عليه، وفيه: إشعارٌ بِأنَّ وصْفَ الإيمانِ ثابتٌ لهم، وأنَّهُمْ مُتَحَقِّقونَ

حَثُّ أَهْلِ الإيمانِ على تَرسيخِ إيمانِهِمْ، والثَّباتِ عليه

به، وإشارةٌ إلى انصرام زمنِ المغالبة، بالحَرْب الضَّروس، والكَيْدِ المتلاحِقِ، الذي كان عند الكفَّار يملأ النُّفوس، وقد جاء الفتحُ، فانبجس عهدُ التَّمكين للإسلام وأهلِه، فكان طبيعيًّا أن تُصانَ حُرْمةُ الحَرَم، وأن يُطَهَّر المسجدُ الحرامُ مِنَ الدَّنس، باعتبار ذلك إيذانًا بعهدٍ جديدٍ، طُوِيتْ بمقْدَمِه صفحةُ الماضي المرير.

فائِدَةُ حَذْفِ مُتَعَلَّقِ الإيمانِ:

حَقيقَةُ الإيمانِ مُسْتَقِرَّةٌ في نُفوسِ المؤْمِنينَ، وَهُمْ مُقِرُّونَ بِجَميعِ ما تقتضيه

حُذِفَ مُتعلَّقُ الفعلِ (آمَنوا)، مِن قول اللهِ سبحانَه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾، وهو المُؤْمَنُ به، وفي ذلك مَسْلَكانِ؛ أحدهما: ظهورُ أفرادِ المؤمَنِ به؛ وذلك لأنَّ الإيمانَ له حقيقَةٌ شَرْعيَّةٌ مَعْروفةٌ، فإذا أُطْلِقَ لفظُ الإيمانِ، انصرَفَ الذِّهْنُ إلى تلك الحَقيقةِ، مِن غَيْرِ افتقارٍ إلى التَّنصيصِ على مُتَعَلَّقِه. والآخَرُ: إرادَةُ العُموم؛ وذلك لأنَّ حَذْفَ المَعْمولِ مُؤْذِنٌ بالعُموم، والمعنى: آمَنوا بِجَميعِ ما يَجِبُ الإيمانُ به شَرْعًا.

بلاغَةُ القَصْرِ بِلفظ: (إنَّما):

نَجاسَةُ المُشْرِكينَ أَمْرٌ بَيِّنٌ، لا يَنْبَغي جَهْلُهُ أو التَّغاضي عنه

القَصْرُ في قولِه ﷻ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾، قصرُ موصوفٍ على صفةٍ، وهو قصرٌ مجازيٌّ؛ لِعَدَمِ وجودِ القَصْرِ الحَقيقيِّ في قَصْرِ المَوْصوفِ على الصِّفة، والقصْدُ منه: المبالغَةُ في نجاسَةِ المُشْرِكينَ، فكأنَّه لا صفَةَ لهم إلَّا النَّجاسَةَ، وأمَّا قولُ الرَّازيِّ: "كَلِمَةُ (إنَّما) لِلْحَصْرِ، وهذا يَقْتَضي أن لا نَجَسَ إلَّا المُشْرك"[1]؛ فمَحَلُّ نَظَرٍ؛ لأنَّ هذا الكَلامَ، إنَّما يَرِدُ لَوْ كانَ القصْرُ قصْرَ صفةٍ على الموصوفِ، بأن يَرِدَ النَّظْمُ القرآنيُّ: (إنَّما النَّجَسُ المُشْرِكونَ)، والواقِعُ أنَّ قولَهُ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾، مِن قَصْرِ المَوْصوفِ على الصِّفَةِ، وليس فيه نفيُ النَّجاسَةِ عن غيرِ المُشْرِكينَ، وقد عبَّر القرآنُ الكريم بأداة القصْرِ (إنَّما) في قوله سبحانَه: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾؛ لبيانِ أنَّ

(1) الرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 16/22.

نجاسَتَهُمْ أمرٌ واضحٌ بيِّنٌ، لا يَنْبَغي لِأَهْلِ الإيمانِ أن يجْهَلوهُ؛ لأنَّ أصلَ استعمالِ (إنَّما)، هو في الشَّيءِ الذي لا يجْهَلُهُ المخاطَبُ ولا يُنْكِرُهُ[1]، ولا يتردَّد فيه؛ فكأنَّهم لا وَصْفَ لهم إلَّا النَّجاسة.

دلالَةُ (ال) في لفظ: ﴿ٱلْمُشْرِكُونَ﴾:

اتِّصافُ جَميعِ المُشْرِكينَ بِالنَّجاسَةِ المَعْنَويَّةِ، حكمٌ مُستوعِبٌ لكلِّ مَن أشرك

اللَّامُ في ﴿ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ مِن قول اللهِ سبحانَه: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾، يُرادُ بِها الاستغْراقُ، أي: أنَّ جميعَ أهلِ الشِّرْكِ نجَسٌ في كلِّ دينٍ ومِلَّةٍ؛ لأنَّهم يَجمعون بينَ الكفر والشِّرك، ولذلك يرى بعضُ العلماء أنَّ المشركين في سورة التَّوبة يُراد بهم الكفَّار، ويَجوزُ أن تَكونَ اللَّامُ دالَّةً على تماديهم في الشِّرك، فصار عنوانًا لهم، بِدَليلِ اسْتِمرارِهِم عليه[2]، فيَخْرُجُ منه ما ليس متماديًا فيه، وهو كُلُّ مَن تلَبَّسَ بشيءٍ مِن أفرادِ الشِّرْكِ الأصْغَرِ، ولا تَعارُضَ بينَ المَعْنَيَيْنِ، بل تَجوزُ إرادَتُهُما معًا، ويكونُ المعنى: إنَّما المُشْرِكونَ الذين تمادَوا في الشِّرْكِ نَجَسٌ كُلُّهُمْ.

سِرُّ إيرادِ الوَصْفِ مَصْدَرًا:

لُزومُ النَّجاسَةِ للمُشركين، وعَدَمُ انْفِكاكِها عَنْهُمْ في كلِّ حينٍ

ورَدَ الوصْفُ ﴿نَجَسٌ﴾ بصيغَةِ المَصْدَرِ، في قول اللهِ ﷻ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾؛ مبالغَةً في اتِّصافِهِم بالنَّجاسَةِ، فكأنَّهم عَيْنُها، ويَجوزُ أن يكون ذلك على حذفِ مضافٍ، والتَّقديرُ: إنَّما المُشْرِكونَ ذَوو نجَسٍ، وذلك لِخُبْثِ بواطِنِهم، وفسادِ عقائِدِهم[3]، ويَحْتَمِلُ أن تَكونَ كلمَةُ ﴿نَجَسٌ﴾ صِفَةً مشبَّهَةً، وهي اسمٌ لما كانت النَّجاسَةُ صفةً ملازِمَةً له، لا تَنْفَكُّ عنه بحالٍ[4]، ولا تنافيَ بينَ هذهِ الدَّلالاتِ؛ إذْ كُلُّها دالٌّ على لُزومِ النَّجاسَةِ لَهُمْ، ولصوقِها بِهِمْ.

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/160.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 8/429.
(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/57، والآلوسيّ، روح المعاني: 5/269.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/159.

دلالة التَّعبير بالمصدر ﴿نَجَسٌ﴾ بصيغة المفرد:

الدِّينُ رمزُ الطُّهر والنَّظافة، والانسلاخُ منه خبثٌ ونجاسةٌ

جاء التَّعبيرُ القرآنيُّ بالمصدر: ﴿نَجَسٌ﴾، دونَ الجمع: (أنجاس)، مع سبق ما يدعو لذلك مِنَ السِّياق، في قوله: ﴿ٱلْمُشْرِكُونَ﴾، وباللَّحاق في قوله: ﴿فَلَا يَقْرَبُواْ﴾ بصيغة الجمع؛ لأنَّ التَّعبير بالمصدر أبلغ، ولأنَّه يشمل المفردَ والمثنَّى والجمع والمذكَّرَ والمؤنَّثَ، وقد "وُصِفُوا بالمصدر مبالغةً، كأنَّهم عينُ النَّجاسة، أو همُ ذَوو نجسٍ لخُبث باطنِهم، أو لأنَّ معهم الشِّركَ الذي هو بمنزلة النَّجَس، أو لأنَّهم لا يتطهَّرون ولا يغتسلون، ولا يجتنبونَ النَّجاساتِ"[1].

بَلاغَةُ التَّعبير بينَ الحقيقة والمَجاز:

الشِّرْكُ نجسٌ كلُّه، لا فرقَ فيه بينَ ظاهرٍ وباطنٍ

في قول الله ﷻ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾، ذهب بعضُ العلماء، إلى أنَّ النَّجاسَةَ نجاسَةٌ معنَويَّةٌ، وليسَتْ حسيَّةً، بقَرينَةِ تعليقِ هذا الوصْفِ بهم بوصْفِ الشِّرْكِ[2]، وفي هذا مجازٌ بالاستِعارَةِ؛ حيثُ شُبِّهَ خُبْثُ الباطِنِ وفسادُ الاعْتِقادِ، بالنَّجاساتِ القَذِرَةِ، بجامِعِ الفسادِ وعدَمِ الصَّلاحِ في كلٍّ، فيكون هذا استعارَةً تصريحيَّةً أصليَّةً، إذا كان لفظُ النَّجَسِ مصدرًا، أو تبعَيَّةً إذا كان صفةً مشبَّهَةً[3]، وجوَّزَ بعضُ أهلِ العِلْمِ أن تَكونَ النَّجاسَةُ حقيقيَّةً، وذلك لكونِهم لا يتطَّهرونَ، ولا يجتَنِبونَ النَّجاساتِ، فكانَتِ النَّجاساتُ ملابِسَةً لهم[4]، ولهذا نهى اللهُ ﷻ المؤمنينَ عن نكاح المشركات، في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُواْ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّۚ﴾ [البقرة: 221]، وعن إنكاح المُشركين في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُنكِحُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُواْۚ﴾ [البقرة: 221]، كما نهى عن تناول طعامهم.

---

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/57.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/159.
(3) القاسميّ، محاسن التَّأويل: 5/374.
(4) الآلوسيّ، روح المعاني: 5/269.

براعَةُ التَّصْويرِ في قوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾:

بَراعَةُ تَصْويرِ القُرْآنِ الكَريمِ لِلْمَعاني، مِن أرفعِ التَّصوير

في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾، تصْويرٌ بديعٌ، حيثُ جُعِلَ المُشْرِكونَ كأنَّهم بأرْواحِهم وماهيَّاتِهم، نَجَسٌ يمْشي على الأرضِ، فيتجنَّبهُ المتطَهِّرونَ ويتَحاشَوْنَهُ[1]، والعلماءُ في نجاسة المشرك على مذهبين؛ الأوَّل: أنَّ المشرك نَجِسُ الذَّات، كما رُوِيَ عنِ ابن عبَّاس رضي الله عنهما، والحسن البَصريِّ رحمه اللّه، وذهب إليه بعض الظَّاهرية والزَّيديَّة، وقد استدلُّوا على ذلك بقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾. والثَّاني: وهو قول الجمهور مِنَ السَّلف والخَلَف، ومنهم أبو حنيفةَ ومالكٌ والشَّافعيُّ وأحمدُ بنُ حنبل، إلى أنَّ الكافر غيرُ نَجِس الذَّات، ودليلُهم على ذلك: أنَّ اللّه تعالى أحلَّ للمؤمنين أكل طعامهم، في قوله: ﴿وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ﴾ [المائدة: 5]، وثبتَ عنِ النَّبيِّ ﷺ ما يفيد عدمَ نجاسة ذواتِهم، حيث إنَّه أكلَ في آنيتهم، وشَربَ منها، وتوضَّأ فيها، وأنزلهم في مسجده، وما وَجَدَ في ذلك حرجًا[2].

دلالَةُ الخَبَرِ في الآية:

تَحْقيرُ المُشْرِكينَ وَإِهانَتُهُمْ، بِإِبْعادِهِمْ عَن مَجامِعِ الخَيْرِ

قولُ اللّهِ سبحانَه: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ جُمْلَةٌ خبريَّةٌ، يُرادُ بِها مَعَ الإعلامِ بِمَضْمونِها، تحقيرُ المُشْرِكينَ وإهانَتُهُم، بإبْعادِهِم وإقصائِهِم عَن مَجامِعِ الخَيْرِ، وذلكَ لأنَّ خُبْثَ الاعتِقادِ، أَقْرَبُ لِتَحْقيرِ صاحِبِها مِن قَذارةِ الذَّاتِ[3]، ويُذْكَر أنَّ "النَّبيَّ ﷺ أَمَرَ أبا بكر رضي الله عنه، إذ أَمَّرَهُ على الحَجِّ سنةَ تسع، أن يُبَلِّغ النَّاسَ أنَّه لا يَحُجُّ بعدَ ذلك العام مُشْرِكٌ، ثمَّ أَمَر عليًّا رضي الله عنه أن يَتْبَع أبا بكر، فيقرأَ على النَّاس أوائلَ سورةِ براءَة، يومَ الحَجِّ الأكبر، وأن يُنادِيَ بألَّا

(1) طنطاويّ، التَّفسير البسيط: 6/244.
(2) الشَّوكانيّ، فتح القدير: 2/399.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/160.

يَحجَّ بعدَ ذلك العامِ مشركٌ، وقد كانت هذه الآيةُ أبلغَ مِن مَنْعِ المشركين مِنَ الحَجِّ"[1].

سِرُّ التَّعبير بلفظ: ﴿نَجَسٌ﴾، دون: (يَتَنَجَّسونَ):

الشِّركُ نجسٌ، يخوض في وَحْله سفهاءُ العقائد والعقول

في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾، نجد أنَّ التَّعبير آثرَ لفظ ﴿نَجَسٌ﴾، دونَ (يتنجَّسونَ) أو (ينْجَسونَ)؛ لأجل عقيدة إشراكه، فالنَّجَس وَصْفٌ لازم له، بملازمة الشِّرك له؛ فلا ينفكُّ عنه إلَّا بزوال الشِّرك، أمَّا الفعل: (ينْجَسون) أو (يتَنَجَّسونَ)، فلا يؤدِّي هذا المعنى؛ لأنَّه قد يكون جسُده نظيفًا لا يُسْتَقْذر، وقد يكون على غير ذلك، بأن يكون جسدُهُ مُلطَّخًا بالنَّجاسات، فهذا يناسبه الفعليَّة؛ لأنَّه أوقع النَّجاسةَ على نفسه، أو اكتسبها مِن خلال عوائدِهم وبيئتِهم.

سِرُّ التَّعبير بلفظ: ﴿فَلَا يَقْرَبُواْ﴾، دون: (فَلا يَدْخُلواْ):

تدقيقُ استعمالِ اللَّفظ في السِّياق، يَعْكِس سُموَّ الإعجازِ البيانيِّ

قوله تعالى: ﴿فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ﴾، آثر سياقُها التَّعبير بالنَّهي عنِ القُرب دون الدُّخول؛ لأنَّه أبلغ، فلو جاء التَّعبير بالنَّهي عنِ الدُّخول، لكان مقصورًا على أمر الدُّخول فقط للمسجد الحرام، وهذا غيرُ مُراد، بل المرادُ ألَّا يَحُجُّوا ولا يعتمروا، كما كانوا يفعلون في الجاهليَّة، وبعضُ شعائرِ الحجِّ ليست داخلةً في المسجد الحرام، بل هي خارجة عنه؛ كالوقوف بعرفة، والمبيتِ بالمزدلفة، ورمي الجمرات، ونحو ذلك، ولهذا فتعبيرُ القرآنِ بالنَّهي عنِ القُرب هو الأبلغ، وفيه دلالة على أنَّه يجب تطهيرُ ما حولَ المسجدِ مِن مظاهر الشِّرك، فضلًا عنِ المشركين.

دلالَةُ (الفاءِ) في قولِه: ﴿فَلَا يَقْرَبُواْ﴾:

الشِّركُ باللهِ تعالى سَبَبُ إبعادِ المشركين عنِ المَسْجِدِ الحَرامِ

الفاءُ في قولِ اللهِ ﷻ: ﴿فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا﴾ تَفْريعيَّةٌ؛ لترتيبِ ما بَعْدَها على ما قَبْلَها، فقَدْ فُرِّعَ على

(1) محمد رضا، تفسير المنار: 10/240.

نجاسَتِهم النَّهْيُ عَن قُرْبانِ المسْجِدِ الحرام، والمعنى: إذا كانوا نَجَسًا بسَبَبِ شِرْكِهم؛ فلا يَنْبَغي لهم دخولُ المسْجِدِ الحرامِ[1].

دلالَةُ النَّهْيِ في قولِه: ﴿فَلَا يَقْرَبُواْ﴾:

المُبالَغَةُ في مَنْعِ المُشْرِكينَ مِن قُرْبِ المَسْجِدِ الحَرامِ

(لا) في قولِ اللهِ ﷻ: ﴿فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا﴾ ناهيَةٌ؛ بدَليلِ جَزْمِ المُضارعِ بَعْدَها، والمرادُ بالنَّهي: المبالغةُ، أو المنعُ مِن دخول الحَرم، أو النَّهي عنِ الدُّخول مطلَقًا، أو المنعُ عنِ الحَجِّ والعُمرة[2].

نُكْتَةُ إخراجِ صورة النَّهي للمسلمين في صورة نَهي المشركين:

تلوينُ الأساليبِ في الخطابِ القرآنيِّ يُؤكِّد إعجازَه وتَفَرُّدَه

قوله تعالى: ﴿فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا﴾، هذا النَّهْيُ الواردُ في هذه الآية الكريمة، ظاهرُهُ أنَّه للمُشْرِكينَ عن قُرْبِ المسْجِدِ الحرام، إلَّا أنَّ هذا الظَّاهِرَ غيرُ مرادٍ، والمقصودُ: نَهْيُ المسلمينَ عن تَمْكينِهم مِنْ ذلك، كما يَدلُّ عليه سياقُ الآيَةِ، فإنَّها قَدْ صُدِّرت بنداءِ المؤمنينَ، فقال سبحانَه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾، والغرضُ مِن هذا النِّداء، المبالغَةُ في النَّهْيِ، بأن يَمْنَعوهُمْ مَنْعًا باتًّا قاطِعًا، ووجهُ ذلك: أنَّهُمْ جُعِلُوا مُكلَّفينَ، بانْكِفافِ المُشْرِكينَ عَنْ قُرْبِ المَسْجِدِ الحَرامِ، فهو مِن بابِ قولِ العَرَبِ: (لا أَرَيَنَّكَ هُنا)[3].

النَّهْيُ عَن قُرْبِ المَسْجِدِ الحَرامِ بَيْنَ الحَقيقَةِ والمَجازِ:

نَهْيُ المُشْرِكينَ عن دُخولِ المَسْجِدِ الحَرامِ، هو نَهْيُ مُقارَبَتِهِمْ له

قولُ اللهِ تعالى: ﴿فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا﴾، فيه النَّهْيُ عَن قُرْبِ المشْرِكينَ مِنَ المسجِدِ الحرام، يجوزُ أن يُرادَ بِهِ حقيقتُهُ، وإنَّما جاءَ النَّهْيُ عَنِ المقاربَةِ خوفًا مِنَ المواقعَةِ، كالذي في قولِ اللهِ ﷻ: ﴿وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾﴾

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 5/269، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/160، وأبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 6/3273.

(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/57.

(3) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 8/429، والقاسميّ، محاسن التَّأويل: 5/376، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/160 - 161، وأبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 6/3273.

[الإسراء: 32]، ويجوزُ أن يكونَ النَّهيُ عَن قُرْبِ المسْجِدِ الحرام مُرادًا بِهِ النَّهيُ عَنِ الحجِّ والاعتمارِ، فمَعْنَى: ﴿فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ﴾، أي: لا يَحُجُّوا ولا يعتَمِروا، وعلى هذا: يكونُ في الآيةِ مجازٌ مُرْسَلٌ علاقتُهُ الملزوميَّةُ، فقد أُطْلِقَ المَلْزومُ وأُريد لازِمُهُ[1]، والأوَّلُ أَظْهَرُ؛ لأنَّه الأَنْسَبُ لِمَقامِ تَحْقيرِهِم، والأَنْسَبُ لِبَيانِ مكانَةِ المَسْجِدِ الحَرامِ.

دلالَةُ الوَصْفِ في الآية:

بَيانُ عَظَمَةِ المَسْجِدِ الحَرامِ، وخصوصيَّتِه عندَ العظيم العلَّام

وُصِفَ المسجِدُ بـ﴿ٱلْحَرَامَ﴾، في قولِ اللهِ ﷻ: ﴿فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا﴾؛ لإرادَةِ تَبْيينِهِ وتَمْييزِهِ عن غيرِه؛ إذِ الحُكْمُ بالنَّهْيِ ليس عن قُرْبِ المساجِدِ كُلِّها، بَلْ عن قُرْبانِ مَسْجِدٍ خاصٍّ، وهو مسْجِدُ الكَعْبَةِ، ويُضافُ إلى ذلك معنى المدْحِ والتَّعظيم، فلا يَنْبَغي أن يَقْرَبَ هؤلاءِ الأنْجاسُ هذا المسْجِدَ العظيمَ القَدْرِ، الجَليلَ المكانَةِ، وإن كان بعضُ العلماءِ ذهب إلى مَنْعِهم مِن كلِّ المساجد، ولكنَّه خِلافُ الأولى؛ لأنَّ الرَّسول ﷺ، لَقِيَ وَفدَ نَصارَى نَجْران في المسجد، وهم على شِرْكهم.

سِرُّ التَّعبير بلفظ: ﴿ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ﴾:

الكعبة المشرَّفة هي البيتُ الحَرام، والمسجد الحَرام ما يُحيط بالكَعْبَة

في قوله تعالى: ﴿فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ﴾، آثرَ القرآنُ الكريم التَّعبيرَ بقوله: ﴿ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ﴾، دونَ: (البيت الحرام)، مع استعماله للبيت الحرام في قوله تعالى: ﴿وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ﴾ [المائدة: 2]، وفي قوله: ﴿جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ﴾ [المائدة: 97]؛ لأنَّ المسجد الحرام أعمُّ في الاستعمال مِنَ البيت الحرام؛ فالبيتُ الحرام يُطلق على الكعبة المشرَّفة، بما فيها مِنَ الحِجْرِ الشَّريف؛ بخلاف المسجد الحرام، فإنَّه يُطلق على المكان المحيط بها، مِن كلِّ الجهات، بل ويجوز إطلاقُه على كلِّ حدود الحَرم، والدَّليل على ذلك أنَّ موضع التِّجارات ليس في

(1) الزَّمخشريّ، الكشَّاف: 2/261.

داخل المسجد، فلو كان المقصودُ المنعَ مِنَ المسجد خاصَّةً لما خافوا بسبب هذا المنع مِنَ العَيْلَة، وإنَّما يخافون مِن وقوع العَيْلة إذا مُنِعوا مِن حضور الأسواق والمواسم، وهذا يدلُّ على أنَّ المسجد الحَرام أوسع نطاقًا مِنَ البيت الحَرام، وممَّا يُؤكِّد ذلك توسعتُه بهذه المساحات الكبيرة؛ فالمسجدُ الحَرام أعمُّ مِنَ البيت الحَرام، وهذا هو المناسبُ لسياق الآية، في نَهْي قُربان المشركين عنِ المسجد الحَرام، في كلِّ معالمه وشعائِره.

نُكْتَةُ حَذْفِ حَرْفِ الجَرِّ:

المَنْعُ مِن قُرْبِ المُشْرِكينَ المَسْجِدَ الحَرامَ، يستغرق جَميعَ الزَّمن بإطلاق

حُذِفَ حرفُ الجرِّ (مِنْ) مِن قولِ اللهِ سبحانَه: ﴿فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا﴾، فَلَمْ يَرِدِ النَّظْمُ القرآنيُّ: (فلا يقرَبوا المسْجِدَ الحرامَ مِنْ بَعْدِ عامِهِم هذا)؛ لئلَّا يُخَصَّ بزَمانٍ مُعيَّنٍ، فإسْقاطُ الجارِّ يَقْتَضي اسْتِغْراقَ الزَّمانِ[1]، وفيه إشارةٌ إلى تحديد المدَّة، بمعنى أنَّه بعد انقضائها لا يجوز للمشركين أن يقتربوا مِنَ المسجد الحرام.

سِرُّ التَّعْبيرِ بِلفظ (عام) دونَ لفظ (سنة):

أهميَّةُ دِقَّةِ البَيانِ القُرْآنيِّ، في اخْتيارِ الأَلْفاظِ المُلائِمَةِ لِسياقاتِها

جاءَ التَّعبيرُ بالعام دونَ السَّنَةِ، في قول اللهِ ﷻ: ﴿فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا﴾، تَنْبيهًا لهم على حُسْنِ الزَّمانِ، واتِّساعِ الخَيْرِ؛ إذْ لَفْظُ العام مُشْعِرٌ بالخَيْرِ ورَغَدِ العَيْشِ، بخلافِ لَفْظِ السَّنَةِ[2]، وعَبَّر بالعام دونَ السَّنة؛ لأنَّ المراد به موسمُ الحجِّ؛ فأُمْهِلوا إلى بقيَّة العام؛ لأنَّ نهايته بانسلاخ ذي الحِجَّة؛ لأنَّ هذه الآية نزلت في العام التَّاسع مِنَ الهجرة، والمشركون قد حضروا موسمَ الحَجِّ فيه، وأُعْلِنَ لهم فيه أنَّهم لا يعودون إلى الحَجِّ بعد ذلك العام؛ لذلك كان التَّعبير بالعام هو المناسب لهذا المعنى.

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 8/429.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 8/429.

دلالَةُ إِضافَةِ لفظ (عام) إلى الضَّمير العائد على (المشركين):

الحُكْمُ القطعيُّ منذ ذلك العامِ، بمنع المشركين مِن دخول المسجد الحَرام

في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَاۚ﴾، أُضِيفَ العامُ إلى الضَّمير الرَّاجِعِ إلى المُشْرِكينَ، لمَزيدِ اختصاصِهِمْ بحُكمٍ عظيمٍ هائلٍ في ذلك العامِ، وهو إبعادُهم عَنِ المسْجِدِ الحَرامِ وإقصاؤُهُم عنه[1]، ودلَّت هذه الإضافةُ على أنَّ الزَّمن كان قبل ذلك للمشركين، وهذا الإعلان مرحلةٌ فاصلة بانتهاء عهد الشِّرك في مكَّة ؛ فلم يَعُد لهم بعدَ هذا العام تَعلُّقٌ بموسم الحَجِّ، وأصبح التَّاريخ بعد ذلك للمسلمين، وفيه دلالة على سماحة الإسلام، في تعامله معَ المشركين بإعطائهم فرصة، وإلَّا كان مِنَ الممكن أن يُنَفَّذَ النَّهيُ في نفس العام، وقد يُعْقِب ذلك إراقةٌ للدِّماء، وانتهاكٌ لحُرمة المكان، وهذا ما لا يريدُه الإسلامُ.

دلالَةُ اسْمِ الإشارَةِ (هَذا):

الأَحْكامُ العَظيمَةُ تَحْتاجُ مَزيدَ بَيانٍ، لِتَحْقيقِ الأَمْرِ وَإِزالَةِ اللَّبْسِ

اسْمُ الإشارَةِ (هذا) مِن قول اللّهِ ﷻ: ﴿فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَاۚ﴾، في محَلِّ جَرٍّ، عَطْفُ بَيانٍ لِـ (عام)، أو بَدَلٌ مِنْهُ، ونُكْتَةُ إيرادِهِ زيادَةُ تمييزِهِ وبيانِه، وَتحقيقُ الأَمْرِ وإزالَةُ اللَّبْسِ[2]، وكأنَّه صار مرحلةً جديدةً في الزَّمن، يَتميَّز فيها عنِ الزَّمن السَّابق.

دلالَةُ تَعْليقِ الشَّرْطِ بِـ (إِنْ) دونَ (إذا):

الجَزمُ بِأَنَّ الرِّزْقَ مِنَ اللهِ تعالى، يُنافي الخَوْفَ مِنَ الفقر

عُلِّقَ الشَّرْطُ في قولِ اللّهِ سبحانَه: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ﴾ بـ (إِنْ) الدَّالَّةِ على الشَّكِّ في وقوعِ مَدْخولِها، دونَ (إذا) المُقْتَضيَةِ تحقُّقَ وقوعِ الشَّرْطِ، معَ أنَّ خَوْفَهُمُ العَيْلَةَ أمرٌ كانَ حاصِلًا؛ للإشْعارِ إلى أنَّ هذا الخَوْفَ لا يَنْبَغي أَنْ يقَعَ مِنْ أهلِ الإيمانِ؛ ليَقينِهِم بأنَّ الرِّزْقَ مِنَ اللّهِ سبحانَه وَحْدَهُ، ولا يَصِحُّ أن يُرادَ بِها مَعْنَى (إِذْ)، على أنَّ المقصودَ: وإذْ خِفْتُمْ عَيْلَةً، لعَدَمِ وُرودِ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/160.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 8/429، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/160.

هذا المعنى في لسان العربِ، حتَّى إنَّ ابنَ عطيَّة قال عَمَّن زَعَمَ فيها هذا المعنى: "وهذه عُجْمَةٌ، والمعنى بارِعٌ بِـ (إِنْ)"[1].

سرُّ التَّعبير بالخوف:

آثر السِّياقُ التَّعبير بالخوف، في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ﴾ دون غيره؛ لأنَّ الخوفَ تَوَقُّعُ المكروهِ في المستقبل، وذلك مِن خلال مَنْعِ المشركين الذين يَفِدون إلى موسم الحَجِّ للتِّجارة، وهذا يُؤَدِّي إلى الكساد وعدمِ تبادلِ المنافعِ بينَهم وبينَ المسلمين؛ فَراعَى القرآنُ الكريم الجانبَ النَّفْسيَّ عند المؤمنين بهذا التَّعبير؛ ليُطَمْئِنَ قلوبَهم بأنَّ اللّه ﷻ يعلم ما يختلج في صدورهم، فقال: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ﴾ فقرًا وحاجةً مِن منع المشركين مِن قُربان المسجد الحَرام، بأن تنقَطِعَ الأسبابُ الّتي بينَكم وبينَهم مِنَ الأُمور الدُّنيَويَّة، فاعلموا أنَّ اللّه سوف يُغنيكم مِنْ فَضْلِهِ الواسع، ويرزقُكُم مِن عطائه الذي لا ينقضي[2].

لا يُغْلَق بابُ اللّه، إذا بخلَ بالعطاء سواه

دلالةُ التَّعبير بالجَمْع:

دلَّ التَّعبيرُ بالجَمْع، في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ﴾، على أنَّ أهل مكَّة أصبحوا جميعًا مسلمين، ولا مكانَ للشِّرك فيها، وأنَّ النَّهيَ مُوجَّهٌ فيها للقبائل الّتي كانت تَفِد إلى الحَجِّ، وما يحملونه مِنَ التِّجارات والمنافع، "قال ابن عبَّاس: كان المشركون يَجيئون إلى البيت، ويَجيئون معهم بالطَّعام، يتَّجِرون فيه، فلمَّا نُهُوا أن يأتوا البيتَ، قال المسلمون: فمن أينَ لنا الطَّعام؟ فأنزل اللّه: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً﴾ الآيةَ، قال: فأنزل اللّهُ عليهم المطرَ، وكَثُر خيرُهم حين ذهبَ المشركون عنهم، وأسلمَ أهلُ اليمن، وجاءَهم النَّاس مِن كُلِّ فَجٍّ"[3].

التَّذكيرُ الجماعيُّ للأُمَّة يُصَوِّبُ النَّهْجَ، ويُصَحِّحُ العقيدةَ

دلالة التَّعبير بالماضي:

في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً﴾، عُبِّر بالماضي الذي يُفيد

(1) ابن عطيَّة، المحَرّر الوجيز: 3/21.
(2) ابن عطيَّة، المحَرّر الوجيز: 3/21، والسّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن: 2/654.
(3) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 10/89.

تَحقُّقَ الوقوعِ؛ لأنَّ المؤمنين خافوا بانقطاع المشركين عن دخول الحَرم، انقطاعَ تجارتِهم، وقالوا: مِن أينَ لنا الإتيانُ بالطَّعام؟ فكان التَّعبير بالماضي مخبرًا بالخاطر النَّفسيِّ وإن لم ينطقوا به، وهو أيضًا إخبارٌ بخبايا الأنفس، وهواجسِ الأوهام، والخوفِ مِنَ الزَّمان وتقلُّباته وأحوالِه.

لا خوفَ مِن تأخُّر الأرزاقِ، فاللهُ هو الضَّامِنُ الرَّزَّاقُ

سِرُّ التَّعبير بلفظ (العَيْلَة) دونَ لفظ (الفقر):

قولُه تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً﴾، آثَر السِّياق فيه التَّعبيرَ بـ (العَيْلَة) دون (الفقر)، وإن كان بينهما اشتراكٌ في المعنى؛ لأنَّ العَيْلَة أخصُّ مِنَ الفقر؛ فيُقال: عال الرَّجل، إذا افتقر، يقال: يَعيل عَيْلَةً، فهو عائل؛ فكأنَّ الحاجةَ هنا جاءت مِن كثرة ما يَعيل، وأيضًا أنّه يأتي بمعنى فقدان القُدْرة على الإنفاق، بخلاف الفقر، فمعانيه متعدِّدَةٌ؛ فيُطلق على عدم المقتنيات، وعلى فَقْر النَّفس، وعلى عدم وجود الحاجة الضَّروريَّة، وإلى الافتقار إلى اللّه ﷻ، كما في قوله: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾﴾ [القصص: 24]، وهذه المعاني لا تتأتَّى معَ العَيْلَة.

انتقاءُ المفردَةِ الأكثرِ ملاءَمَةً للمعنى، مِن بيان القرآن الأسمى

نُكْتَةُ تَنْكيرِ ﴿عَيْلَةً﴾:

نُكِّرتَ كلِمَةُ ﴿عَيْلَةً﴾ في قول اللّهِ ﷻ: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ﴾؛ لقصْدِ التَّعظيم، أي: وإن خِفْتُم عَيْلَةً عظيمَةً، فسَوْفَ يُغْنيكُمُ اللّهُ تعالى مِنْ فضْلِه، فكَيْفَ إذا كانَتِ العَيْلَةُ المَخوفَةُ دونَ ذلِكَ؟! وفيه دلالة على العموم في أمر العَيْلَة، قليلةً كانت أو كثيرةً، كانت بسبب وُفُود المشركين للحَجِّ، أو بسبب فقدانِكُم لكَسْب المال بمنعهم مِن ورود المسجد الحَرام؛ فاللّهُ يُغنيكم مِن فضله.

قَصْدُ تَعْظيمِ العَيْلَةِ؛ تَهْوينًا لِشَأْنِ ما دُونَها

سِرُّ اقْتِرانِ الجَوابِ بِلفظ: (فسَوْفَ):

جوابُ الشَّرْطِ في قول اللّهِ سبحانَه: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ﴾، جملَةٌ خبَريَّةٌ، اقْتَرَنَتْ بحَرْفِ الاستقبالِ ﴿فَسَوْفَ﴾،

اقْتِلاعُ الخَوْفِ مِن قُلوبِ المُؤْمِنينَ، مِن رَأْفَةِ الله بهم

وهو دالٌّ على تأكيدِ وُقوعِ مَضْمونِ الخَبَرِ في المُسْتَقْبَلِ[1]، وهو إغْناءُ اللّهِ تعالى إيَّاهُمْ مِنْ فضْلِهِ، ونُكْتَةُ التَّأكيدِ: اقْتِلاعُ الخَوْفِ الذي ألقاهُ الشَّيطانُ في قلوبِهِمْ، مِنْ أَصْلِهِ.

سرّ التّعبير بقوله: ﴿فَسَوْفَ﴾ دون (السّين):

قوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَۚ﴾، آثر السّياق التّعبير بلفظ (سوف) دون(السّين)، وإن كانت للقرب ؛ لأنّ قوله: ﴿فَسَوْفَ﴾ تدلّ على وجود زمن يمرّ ولكنّه زمن قريب؛ لأنّ الإغناء الّذى سيأتى، له أسباب كثيرة، كفيلة بتحقيقه، كأن يعوّضهم اللّه عمّا كان يأتي به الكفّار، من نزول الماء من السّماء، فينبت به النّبات، وهذا يحتاج إلى زمن، أو أن تحمل إليهم التّجارات من بعض القبائل الّتي أسلمت وحملتها إلى مكّة، وحدثت بعد ذلك الفتوحات الإسلاميّة، فكان التّعبير بقوله: ﴿فَسَوْفَ﴾، للدّلالة على امتداد زمن العطاء.

وعد اللّه بالتّكفّل بالإغناء من فضله، يسع الزّمان كلّه

سِرُّ التَّعبير بقوله: ﴿يُغْنِيكُمُ﴾ دون (يَكْفِيكُمْ):

في قوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَۚ﴾، آثَر التَّعبيرَ بقوله تعالى: ﴿يُغْنِيكُمُ﴾ دون (يَكْفِيكُمْ)؛ لأنَّ الغنى يُقال على ضروب مُتعدِّدة؛ أحدها: عدمُ الحاجات، وليس ذلك إلَّا للّه تعالى، وهو المذكور في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ۝١٥﴾ [فاطر: 15]، الثَّاني: قِلَّةُ الحاجات، وهو المذكور في قوله تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ۝٨﴾ [الضّحى: 8]، الثَّالث: كَثْرَةُ المقتنياتِ بسبب ضروب النَّاس، قال تعالى: ﴿وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْۖ﴾ [النّساء: 6]، وقوله تعالى: ﴿يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ﴾ [البقرة: 273]، أي: لهم غنى النَّفس، أمَّا الكفاية: فتُطلَق على ما فيه سَدُّ الخَلَّة، وبلوغُ المرادِ في

الغنى مِن فضل اللّه مَديدٌ، واللهُ هو الغنيُّ الحميد

(1) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 6/3274.

الأمر، قال تعالى: ﴿وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ﴾ [الأحزاب: 25]، والكُفْيَةُ مِنَ القُوت: ما فيه كفايةٌ[1]، ومِن خلال هذه المعاني يتَّضِحُ أنَّ لفظ الغنى أعمُّ، والكفايةِ أخصُّ؛ لذلك آثرَ القرآنُ الكريم التَّعبيرَ بالغنى في قوله تعالى: ﴿يُغْنِيكُمُ﴾، لما يحملُه مِن هذه المعاني الّتي تُطَمْئِنُ نفوسَ المؤمنين؛ وهذا ما حدث لهم، حيثُ أرسل اللّهُ السَّماء عليهم مدرارًا، وفتحَ أبوابَ العطاءِ، وَوَفَّق أهلَ نَجْدٍ وتَبَالةَ[2] وجُرْشٍ[3]، فأسلموا وحملوا إليهم الطَّعامَ، وما يحتاجون إليه في معاشهم[4].

دلالَةُ تَعْريفِ المُسْنَدِ إِلَيْهِ (الله) بِالْعَلَمِيَّةِ:

عُرِّفَ المسنَدُ إليهِ بالعلَميَّةِ، في قولِ اللّه ﷻ: ﴿فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ﴾؛ لبيانِ عَظَمَةِ هذا الإغْناءِ وفخامَتِه، فهوَ إغناءٌ لا فَقْرَ ولا عَيْلَةَ بَعْدَهُ؛ إذْ هوُ إغْناءٌ مِنْ عند ذي الجلالِ والإكْرام[5]؛ مَن لَهُ صفاتُ الجَلالِ والجَمالِ والكَمالِ، والصَّادِرُ مِنَ العَظيمِ عظيمٌ.

إغْناءُ اللهِ تعالى لِعِبادِهِ عَظيمٌ، لا يَطالُهم مِن بَعْدِه الفَقْرَ الفقرُ الذَّميم

دلالَةُ (مِنْ) في قوله: ﴿مِن فَضْلِهِۦٓ﴾:

يُحْتَمَلُ في (مِنْ) في قولِ اللّه سبحانَه: ﴿فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ﴾ ثلاثَةُ أَوْجُهٍ[6]؛ أحدُها: أن تكون ابتدائيَّةً. ثانيها: أن تكون تبعيضيَّةً، وهذانِ المَعْنيانِ يَتأَتَّيانِ إذا حُمِلَ الفَضْلُ في قوله ﷻ: ﴿مِن فَضْلِهِۦٓ﴾، على معنى العَطاءِ، والمعنى: يُغْنيكُمُ اللّهُ سبحانَه غناءً مِنْ جُملَةِ ما عِنْدَهُ مِنَ العطاءِ الكثيرِ، أو أنَّ هذا الإغْناءَ مُبتدَأٌ وصادِرٌ مِنْ عِنْدِهِ سبحانَه. ثالثُها: أن تكون سَبَبيَّةً، إذا حُمِلَ الفضْلُ

أَثَرُ مَعاني الحُروفِ في بَيانِ الدَّقائِقِ القُرْآنيَّةِ

(1) الرَّاغب، المفردات: (غنى، كفي).
(2) موضع ببلاد اليمن. يُنظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان: 2/9.
(3) من مخاليف اليمن من جهة مكَّة، وهي في الإقليم الأوَّل، وقيل: إنَّ جُرْش مدينة عظيمة باليمن وولاية واسعة. ياقوت الحموي، معجم البلدان: 2/126.
(4) الآلوسيّ، روح المعاني: 10/77.
(5) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 8/433.
(6) الآلوسيّ، روح المعاني: 5/270.

في قوله تعالى: ﴿مِن فَضۡلِهِۦٓ﴾ على معنى التَّفضُّل، والمرادُ: يُغْنيكُمُ اللّٰهُ سبحانَه بسبَبِ تفضُّلِهِ عليكم بوجهٍ آخرَ مِنْ أَوْجُهِ الرِّزْقِ، وهذهِ المعاني متكامِلَةٌ غيرُ مُتَنافيَةٍ، فيجوزُ أن تُحْمَلَ الآيَةُ عليها جميعًا، مِنْ بابِ حَمْلِ اللَّفْظِ على جَميعِ مَعانيه التي دلَّ عليها.

سِرُّ التَّعبير بالفضل:

فضلُ الله عطاءٌ ومَـــدَدٌ، يناله صاحبُه وإن طال الأَمَد

أُوثِر التَّعبيرُ بالفضل في قوله تعالى: ﴿فَسَوۡفَ يُغۡنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦٓ إِن شَآءَۚ﴾؛ لأنَّه يحمل معنى العطاء، ويأتي بمعنى الإحسان بلا عِوض؛ وفي هذا تكريمٌ للمؤمنين، وإعلانٌ بسعة العطاء؛ حتَّى تندحر وساوسُ الشَّيطان مِن نفوسهم. وفضلُه تعالى له أشكال مِنَ العطاء اللَّامحدود، وهو رزقٌ بالأسباب، أو رزقٌ مِن حيثُ لم يحتسبوا، والواقع أنَّهم لـمَّا خافوا انقطاعَ الرِّزق بمنعِ المشركين مِن دخول الحَرم، طمأَنَهم على مصيرهم، "فوعدهم اللّٰهُ بأنْ يغنيَهم مِن فضله، قال الضَّحَّاكُ: ففتح عليهم بابَ أَخْذِ الجزية مِن أهل الذِّمَّة، وقال عِكْرِمَةُ: أغناهم بإدرار المطر عليهم، قال القاضي أبو محمَّد: وأسلمتِ العربُ فتمادى حَجُّهم وتَجْرُهم، وأغنى اللّٰهُ مِن فضله بالجهاد والظُّهور على الأمم"[1].

دلالَةُ الإضافةِ:

اخْتِصاصُ رِزْقِ الـعِـبـادِ بِـاللـهِ سبحانَه، ضمانٌ لـلـرِّزق مَـدى الحياة

أُضيفَ الفَضْلُ إلى الضَّميرِ العائدِ إلى اللّٰهِ ﷻ، في قوله سبحانَه: ﴿فَسَوۡفَ يُغۡنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦٓ إِن شَآءَۚ﴾؛ لِلْإِشْعارِ بأنَّ مَن أَلْقَى هذهِ الشُّبْهَةَ، وهذا التَّشْكيكَ والخَوْفَ في قلوبِكُمْ لا يَرْزُقُكُم، وإنَّما الرَّزَّاقُ هو اللّٰهُ سبحانَه؛ يَرزُقُ العبادَ مِن فضْلِهِ وعَطائِهِ وإحسانِهِ[2]، والرِّزقُ مسطور في القَدَر، قال الشَّاعر[3]:

(1) ابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 3/21.
(2) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 6/3274.
(3) البيت منسوب للإمام الشَّافعيّ، ينظر: نضرة النَّعيم في مكارم أخلاق الرَّسول الكريم: 3/371.

لا تَعْجَلَنَّ فَلَيْسَ الرِّزْقُ بِالعَجَلِ *** الرِّزْقُ في اللَّوْحِ مَكْتوبٌ مَعَ الأَجَلِ
فلَوْ صَبَرْنا لَكانَ الرِّزْقُ يَطْلُبُنا *** لَكِنَّهُ خُلِقَ الإِنْسانُ مِنْ عَجَلِ

دلالَةُ الجملة الخَبَرِيّة:

إزالَةُ الخَوْفِ وإحلالُ الطُّمَأْنينَةِ على قُلوبِ العِبادِ، من رحمة الله عليهم

قولُ اللّهِ ﷻ: ﴿فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ﴾، جملةٌ خَبَرِيَّةٌ، يُرادُ بها إعلامُ المخاطَبِ بما تضمَّنَتْهُ هذه الجملَةُ مِنَ الغَيْبِ المستقْبَلِ على جِهَةِ الجَزْمِ في أمرٍ عظيمٍ، ويُرادُ بها أيضًا: إزالَةُ الخَوْفِ وإحلالُ الطُّمأنينَةِ على قلوبِ العِبادِ، فكانَتِ الجملَةُ جاريَةً على مَعْناها الأَصْليِّ، مع ضميمَةِ مَعْنًى فَرْعيٍّ، فهي بالاعتبارِ الثَّاني مجازٌ مرسَلٌ مركَّبٌ، وقد وقع الأمرُ مطابقًا للخَبَرِ، فكان ذلكَ مِنَ الإعْجازِ[1].

نُكْتَةُ تَعْليقِ الإِغْناءِ بِالْمَشيئَةِ:

تَعْليمُ العِبادِ رِعايَةَ الأَدَبِ، وأن يتَّقوا ويُجمِلوا في الطَّلب

عُلِّقَ إغناءُ اللّهِ ﷻ إيَّاهُمْ على مشيئَتِهِ، فقال سبحانَه: ﴿فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ﴾، مع أنَّ تعليقَ ذلِكَ على المشيئَةِ قد يَمْنَعُ مِن إفادَةِ غرضِ الخبَرِ، وهو إزالةُ الخَوْفِ مِنَ الافْتِقارِ، وفي ذلك نِكاتٌ[2]؛ أوَّلُها: التَّنْبيهُ على أنَّ ذلكَ محضُ تفضُّلٍ منه سبحانَه على عبادِهِ المُؤمِنينَ. وثانيها: لأجلِ أَنْ يقطَعوا النَّظَرَ عن غيرِ اللّهِ تعالى، وتَنْقَطِعَ الآمالُ إلى اللّهِ ﷻ، فيكون العبدُ دائمَ التَّضرُّعِ إلى اللّهِ سبحانَه في طلب الخَيْراتِ ودَفْعِ الشُّرورِ والآفاتِ. وثالثُها: الإيماءُ إلى أنَّ هذا الإغناءَ، ليس مُطَّردًا بحسَبِ الأفرادِ والأحوالِ والأزمانِ. ورابعُها: تعليمُ العبادِ رعايَةَ الأدبِ معَ اللّهِ ﷻ، كالواردِ في قوله تعالى: ﴿لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ [الفتح: 27].

(1) الرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 16/23.
(2) الرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 16/23، والبقاعيّ، نظم الدُّرر: 8/433، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/57، والآلوسيّ، روح المعاني: 5/270.

دلالَةُ إيجازِ الحَذْفِ:

في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿فَسَوۡفَ يُغۡنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦٓ إِن شَآءَۚ﴾، إيجازٌ بالحذْفِ، حيثُ حُذِفَ مَفْعولُ المشيئَةِ، والتَّقديرُ: فسوفَ يُغْنيكُمُ اللّهُ مِنْ فضلِه إن شاءَ إغْناءَكُمْ؛ وإنَّما حُذِفَ اكتفاءً بدلالَةِ صَدْرِ جُملَةِ الشَّرْطِ عليه.

طَيُّ الأَلْفاظِ الَّتي دَلَّتِ القَرائِنُ عليها، نوعٌ مِنَ الاقْتِصادِ في الكَلامِ

عِلَّةُ الفَصْلِ في الآيةِ:

فُصِلَ قولُ اللّهِ ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾؛ لوقوعِهِ تَعْليلًا لإظْهارِ عِلَّةِ ما قَبْلَهُ[1]، وذلك أنَّ الإغْناءَ بَعْدَ انقطاعِ أسبابِهِ المألوفَةِ المادِّيَّةِ قد يكونُ مُسْتَبْعَدًا، فاحتيجَ إلى بيانِ العِلَّةِ زيادَةً في تَطْمينِ قُلوبِ العِبادِ.

عَظيمُ فَضْلِ اللهِ تعالى بالنَّصِّ على العِلَّةِ؛ زيادَةٌ في تَطْمينِ قُلوبِ عِبادِهِ

سِرُّ تَأْكيدِ الجُمْلَةِ:

أُكِّدَتِ الجملَةُ في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ بـ (إنَّ)، وأوردت اسميَّة، وصُدِّرت بالاسم الأعظم (اللّه)؛ تقويَةً لوَعْدِ اللّهِ سبحانَه[2]، وترسيخًا لأثَرِ هذينِ الاسمَيْنِ الحُسْنَيَين في قلوبِ العبادِ، وإزالَةً لِما قَدْ يعرِضُ في قلوبِهِم مِنَ الشَّكِّ والتَّرَدُّدِ في إغناءِ اللّهِ تعالى إيَّاهُم بعد انقطاعِ الأسبابِ الظَّاهِرَةِ.

تَرْسيخُ أَثَرِ اسْمَيِ اللهِ تعالى: (العَليمِ) و(الحَكيمِ) في قُلوبِ العِبادِ

نُكْتَةُ الإظْهارِ في مَوْضِعِ الإضْمارِ:

في قولِ اللّهِ سبحانَه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾، إظهارٌ في مَوْضِعِ الإضْمارِ، وذلك أنَّ مقتضَى الظَّاهِرِ أَنْ يَرِدَ النَّظْمُ القرآنيُّ: (إنَّهُ عليمٌ حكيمٌ)؛ لتقدُّمِ ذِكْرِ الاسْمِ الأعظمِ (اللّه)، في قولِه: ﴿فَسَوۡفَ يُغۡنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦٓ إِن شَآءَۚ﴾، والنُّكْتَةُ في ذلك: تعظيمُ شَأْنِ الوَصْفَيْنِ اللَّذَيْنِ دَلَّ عَلَيْهِما اسْما اللّهِ: العليمُ والحكيمُ؛ وهُما: العِلْمُ والحِكْمَةُ، فَفُخِّمَ حالُهُما وَقَدْرُهُما، بإسنادِهِما إلى صريحِ

تَفْخيمُ صِفَتَيِ العِلْمِ والحِكْمَةِ، ودلالَةُ وَصْفِهِ ﷻ بهما

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 8/433.
(2) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 6/3274 - 3275.

الاسْمِ الأَعظم دونَ الضَّميرِ الرَّاجِعِ إليه، فَهُما وصْفانِ عظيمان؛ لصدورِهِما ممَّن جمعَ صِفاتِ الجلالِ والجَمالِ والكمالِ.

دلالَةُ التَّعْبيرِ بِصيغَتَيِ المُبالَغَةِ:

في بِناءِ اسْمَيِ اللّهِ تعالى: (العَليم) وَ(الحكيم)، من قولِ اللّه ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾، علَى أمثلَةِ المبالغَةِ، دِلالَةٌ على سعَةِ العِلْمِ وعِظَمِ الحِكْمَةِ وكثْرَتِهِما، ومن رحمة اللّه بالعباد، أنَّه عليم بأحوالهم، وبما يصلح لهم، ومتصرِّف بحكمته في تسيير القدر، وفي العطاء والمنع لما يحتاجه البشر، وذلك محض اللُّطف بهم، وقد قيل: "من أناخ بعقوة[1] كرم مولاه، واستمطر سحابَ جُوده، أغناه عن كلِّ سبب، وكفاه كلَّ تعب، وقضى له كلَّ سُؤلٍ وأرَب، وأعطاه مِن غير طلب"[2].

اللهُ ﷻ واسِعُ العِلْمِ، وعظيمُ الحِكْمَةِ، وفي ذلك نفعُ البشر

بَراعَةُ التَّذْييلِ:

قولُ اللّهِ ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ تذْييلٌ جارٍ مجرَى المثَلِ؛ لاستِقْلالِهِ بالإفادَة، وعَدَمِ احتياجِهِ إلى ما قبلَه في فهمِ تمامِ المُرادِ منه، وفيه إشْعارٌ بِسَعَةِ عِلْمِ اللّهِ ﷻ ودَقيقِ حِكْمَتِهِ سبحانَه، فقولُهُ تعالى: ﴿عَلِيمٌ﴾ أي: عليمٌ بِكُلِّ شَيْءٍ، ﴿حَكِيمٌ﴾ يَضَعُ الأُمورَ في مَواضِعِها اللَّائقَةِ بِها.

سَعَةُ عِلْمِ اللهِ وَحِكْمَتِهِ سبحانَه، يستوعبان العطاءاتِ والألطافَ

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

العامُ والسَّنَةُ:

العامُ والسَّنَةُ بِمَعْنًى مُتَقارِبٍ؛ إذْ كلاهُما دالٌّ علَى مُدَّةٍ مَخْصوصةٍ مِنَ الزَّمَنِ، تَسْتَغْرِقُ اثْنَيْ عشَرَ شهْرًا، إلَّا أنَّهُ يُغايَرُ بينَهُما في غَلَبَةِ الاسْتِعْمالِ، فالغالِبُ اسْتِعْمالُ السَّنَةِ في الحَوْلِ الذي فيه الجَدْبُ والشِّدَّةُ، ولِذا يُطْلَقُ على الجدْبِ: السَّنَةُ، كما

(1) العَقْوةُ والعَقَاةُ: السَّاحة وما حوْلَ الدَّارِ والمَحَلَّة. يُنظر: ابن منظور، لسان العرب: (عقا).
(2) القشيريّ، لطائف الإشارات: 6/3274 - 3275.

تُستخدم (السَّنَةُ) للتَّعبير عن الجَدْبِ والشِّدَّةِ، ويُستعمل (العام) للسَّعة والخِصب

قالَ اللّهُ سبحانَه: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ﴾ [الأعراف: 130]، أي: بالقَحْطِ والجَدْب، والغالِبُ في لفظِ العامِ استعْمالُهُ في الرَّخاءِ والخَيْرِ والخِصْب[1]، ويَجْمَعُ ذِكْرَ العامِ والسَّنَةِ قولُ اللّهِ ﷻ: ﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ۝٤٧ ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ۝٤٨ ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ۝٤٩﴾ [يوسف: 47 - 49]، فعُبِّر بالسِّنينَ عن زَمَنِ الاجْتِهادِ في الزَّرْعِ، مَعَ عَدَمِ الاسْتِمْتاعِ الكاملِ بما حُصِدَ منه، استِعْدادًا للأَزْمِنَةِ القادِمَةِ، ثُمَّ عُبِّر عن الأزْمِنَةِ الشِّدادِ بالسِّنينَ أيضًا في قوله: ﴿سَبْعٌ شِدَادٌ﴾، أي: سَبْعُ سِنينَ؛ لحذْفِ التَّاءِ في العَدَدِ، فذلكَ مُقْتَضٍ أنَّ مفرَدَ المعدودِ مؤنَّثٌ، وهو لفظُ سنَةٍ، ثُمَّ عُبِّر عن الزَّمَنِ الذي يكونُ فيه الفرَجُ بالعامِ، فقال سُبحانَهُ: ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾، وقد اجتَمَعَ ذِكْرُ العامِ والسَّنَةِ أيضًا في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾ [العنكبوت: 14]، فعُبِّر بلفظِ السَّنَةِ ذَمًّا لأيّامِ الكُفْرِ والتَّكذيبِ، وبلفظِ العامِ في الاسْتِثْناءِ إيماءً إلى أنَّ زمَنَ حَياةِ نوحٍ عليه السلام بَعْدَ إغْراقِهِمْ؛ كانَ عيشًا رَغيدًا واسِعًا حَسَنًا، بإيمانِ المُؤمنينَ، وخِصْبِ الأَرضِ[2].

(1) الرَّاغب، المفردات: (عوم)، والسُّيوطيّ، الإتقان: 2/368، والهرريّ، حدائق الرَّوح والرَّيحان: 21/356.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 14/404.

﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ ٢٩﴾ [التّوبة: 29]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

المناسبة بين أحكام المعاملة مع المشركين، والمعاملة مع أهل الكِتاب

مناسبةُ هذهِ الآيَةِ لما قَبْلَها، مِن وَجْهين؛ أحدُهُما: أنَّ اللهَ ﷻ لمَّا ذكَر في الآيات السَّابقة حُكْمَ المُشْرِكينَ في المعاملَةِ بينَهُمْ وبينَ المسلمينَ؛ مِن إظْهار البراءَةِ منهم، وإقصائِهم عنِ المَسْجِدِ الحَرام؛ أعْقَبَهُ في هذه الآية ببيانِ حُكْمِ المعاملَةِ بينَ المُسْلِمينَ وبينَ أهل الكِتابِ مِنَ اليهودِ والنَّصارى؛ وهو: أن يُقاتَلوا إلى أنْ يُعْطوا الجِزْيَةَ لأهلِ الإسْلام[1]. والآخَرُ: هو أنَّ اللهَ ﷻ لمَّا ذَكَرَ أنَّه يُغْني أهلَ الإسْلام مِنْ فضْلِه، وكان ذلك مَوْضِعَ تَعجُّبٍ؛ لِوروده بَعْدَ ظنِّهِمُ انقطاعَ أسبابِ الإغْناءِ الحسِّيَّة؛ بيَّنَ أنَّ من جُملَةِ طُرُقِ إغْناءِ اللهِ تعالى إيَّاهُمْ، ما يُحصِّلونَهُ مِنَ المغانِمِ عِنْدَ قِتالِ الكَفَرَةِ[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَدِينُونَ﴾، ﴿دِينَ﴾: (الدَّالُ والياءُ والنُّون): تدورُ اشتقاقاتُها على معنى اللُّزوم، وتأتي في العربيَّةِ على أَوْجُهٍ تَرْجِعُ كلُّها إلى شيءٍ يَلْزَمُ الإنسانَ أو يَلْزَمُه الإنسانُ[3]، وأَرْجَعَ ابنُ فارسٍ هذهِ المادَّةَ إلى جِنْسٍ مِنَ الانقيادِ والذُّلِّ[4]، وهذا والذي قبلَهُ مُتَلازِمانِ، والدِّينُ: يقال للطَّاعة والجزاء، واستُعير للانقياد للشَّريعة، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ﴾ [آل عمران: 19]، وأُطلق لفظُ الدِّين في القُرآنِ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/162، والزُّحيليّ، التَّفسير المنير: 10/173.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 8/434.
(3) العسكريّ، الوجوه والنّظائر، ص: 217.
(4) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (دين).

الكريمِ علَى أَوْجُهٍ، بلغَ بها ابنُ الجَوْزيِّ إلى أحَدَ عَشَرَ وجْهًا[1]، وقولُ اللّهِ ﷻ: ﴿وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ﴾ أي: لا يَخْضَعونَ لِدينِ الحَقِّ، ولا ينقادونَ له، ولا يُطيعونَ طاعَةَ أهلِ الإسْلامِ[2].

2) ﴿ٱلْجِزْيَةَ﴾: (الجيم والزَّاي والياءُ): تدلُّ تصْريفاتُها على معنى قيامِ شيءٍ مَقامَ غيرِهِ، ومكافأَتِهِ إيَّاه[3]، ومنه قولُهم: جَزَى عنِّي هذا الأَمْرَ، أي: قَضاهُ[4]، ومنه: الجِزْيَةُ؛ وهي ما يُؤخَذُ مِن أهلِ الذِّمَّةِ، وسُمِّيَتْ بذلك للاجْتِزاءِ بها عن حَقْنِ دِمائِهِم، وإقامَتِهِم بديارِ الإسْلامِ[5]، وقيل: "الجِزْيَة: ما يأخذُه الإمامُ مِن أهل الذِّمَّة في كلِّ عام، والجمع: جِزَى، بكسر الجيم. قال اللّه تعالى: ﴿حَتَّىٰ يُعْطُواْ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ۝٢٩﴾"[6]، قال الرَّاغب: سُمِّيت بذلك، للاجتزاء بها عن حقن دمهم، وقال ابن الأثير: "الجزية عبارة عنِ المال الذي يَعْقِد الكتابيُّ عليه الذِّمَّة"[7].

3) ﴿صَٰغِرُونَ﴾: (الصَّادُ والغَيْنُ والرَّاءُ): تدورُ تصاريفُها على معنى القِلَّةِ والحقارَةِ، ومنه: الصِّغَرُ وهو خلافُ الكِبَرِ[8]، والصِّغَرُ قد يُطْلَقُ باعتبارِ الذَّاتِ، وتارةً باعتبار القَدْرِ والمكانَةِ[9]، فالأوَّلُ: صِغَرٌ حسِّيٌّ، والآخَرُ: مَعْنَويٌّ، ومِنَ المَعنويِّ: الصَّغارُ؛ وهو الذُّلُّ والهَوانُ[10]، يقال: قُم مِن غير صُغْرِك وصَغَرِك، وقُمْ غير صاغر، قال اللّه تعالى: ﴿سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ﴾ [الأنعام: 124][11]، وقال سبحانَه: ﴿حَتَّىٰ يُعْطُواْ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾، أي: أذِلّاءُ حَقيرونَ[12].

المَعْنى الإجْماليُّ:

بيَّنَتْ هذه الآيةُ أمرَ اللّه تعالى للمؤمنين بقوله: يا مَنْ آمَنَ باللّهِ سبحانه وصدَّقَ رسولَهُ

(1) ابنُ الجوزيّ، نُزهة الأعين النَّواظر، ص: 297 - 299.
(2) السَّمرقنديّ، بحر العلوم: 2/51، والواحديّ، التَّفسير الوسيط: 2/489.
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (جزي).
(4) الجوهريّ، الصّحاح: (جزي).
(5) الرَّاغب، المفردات: (جزي)، والعاصمي، حاشية الروض المربع: 4/302.
(6) نشوان الحميريّ، شمس العلوم: 2/1079.
(7) الزَّبيديّ، تاج العروس: (جزي).
(8) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (صغر).
(9) الرَّاغب، المفردات: (صغر).
(10) ابن الأثير، النِّهاية: (صغر).
(11) نشوان الحميريّ، شمس العلوم: (صغر).
(12) أبو عبيدةَ، مجاز القرآن: 1/256، والأزهريّ، تهذيب اللُّغة: (صغر).

الأمرُ بالمنافحة عنِ الإيمان، ومواجهةِ أهلِ العُدوان، أو معايشتِهم معَ دفعِ الجزيَة

المغانم مَوردٌ مشروعٌ للانتفاع والحيازة، بعد أن تَضَعَ الحربُ أوزارها

ﷺ قاتِلوا الذين لا يُؤمِنونَ باللهِ تعالى، ولا يُصدِّقونَ بجنَّةٍ ولا بنارٍ، ولا يَجْتَنِبونَ ما نَهَى اللهُ ورسولُه عنه، ولا يَلْتَزِمونَ أحكامَ الإسلامِ، حتَّى يَدْفَعوا الجِزْيَةَ لِلْمُسْلِمينَ وهُم أَذِلّاء مَقْهورونَ[1].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

عِلَّةُ الفَصْلِ في الآية:

فُصِلَ قولُ اللهِ ﷻ: ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ عمَّا قبلَه؛ لوقوعِهِ اسْتِئْنافًا بيانيًّا، وذلك لأنَّ الإغناءَ لمَّا كان مع انْقِطاع أسبابِهِ الظَّاهِرةِ موضِعَ تعجُّبٍ؛ أورثَ سُؤالًا في نفوس المُخاطَبينَ، وهو: مِنْ أينَ يكونُ الغِنَى؟ فجاءَ الجَوابُ: بأنَّ مِن جُمْلَةِ ما يحصُلُ بهِ الإغْناءُ، ما يُحصِّلُهُ المُسْلِمونَ مِنَ الغَنائِمِ عند مقاتَلَتِهِمُ الكُفَّارَ، فقال سبحانَه: ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾[2]. وممَّا يُذْكَر في سبب الفصل: وقوعُ الجُمْلَةِ استِئْنافًا ابتدائيًّا، فلا يَكونُ ثَمَّتَ سُؤالٌ مُقدَّرٌ، فالكلامُ جاءَ انتقالًا مِن غرضِ نبذِ العَهْدِ مَع أَهْلِ الشِّرْكِ وأَحْوالِ المُعاملَةِ بينَهُمْ وبينَ أهلِ الإسْلام، إلى غَرَضِ المعاملَةِ بينَ أهلِ الإسْلامِ وبينَ أهلِ الكِتابِ[3].

دلالَةُ الأَمْرِ:

مواجهةُ مَن بَدَرَ منهم ما يُوجب القتالَ، حمايةً للدِّين والأُمَّة

﴿قَٰتِلُواْ﴾ مِنْ قولِ اللهِ سبحانَه: ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ فعلُ أَمْرٍ، جارٍ على أَصْلِهِ في الدّلالَةِ على الإلْزامِ والإيجابِ، وهو أَمْرٌ لأهل الإسْلامِ بقتال الكَفَرة، إن بَدَرَ منهم ما يُوجِب القتالَ، بنقضِ عَهْد، أو إثارةِ العدو ومعاونتِه على المسلمين، حتَّى يُسْلِمُوا أو يعطوا الجزية. والمعنى: أنَّهم لا يؤمنون باللهِ الإيمانَ الذي يعطي اللهَ جلالَ الصِّفات وكمالَها، كما يختلف إيمانُهم باليوم الآخِرِ عنِ الإيمان الحَقِّ به؛

(1) ابن جرير، جامع البيان: 14/199 - 200، ونخبة مِنَ العلماء، التَّفسير الميسَّر، ص: 191.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 8/434.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/162.

لأنَّه إيمانٌ لا يتَّفق مع مُرادات اللّه تعالى[1]، ولذا نجدُهم يصادمون المسلمين، ويحاربون اللّهَ ورسولَه، ويسعون في الأرض فسادًا، والإسلام يُسَالِمُ مَن يُسَالمه، ويحمي مَن يحتمي به، ولكنَّه لا يتساهل معَ مَن يَكِيد له كَيدًا، ويُعلن الحربَ عليه علانيَةً، ويريد أن يستأصِلَ شأْفَتَه.

سرُّ التَّعبير بلفظ: (القتال) دونَ (الجهاد):

في قوله تعالى: ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾، جاءَ التَّعبيرُ بالقتال دونَ الجهاد؛ لوجود فَرْق بينهما؛ فالجهاد والمجاهَدَة: استفراغُ الوُسْعِ في مُدافَعَة العَدُوِّ، وهو على أضرب: مجاهدةُ العَدوِّ الظَّاهر، ومجاهدةُ الشَّيطانِ، ومجاهدة النَّفس، وتدخل هذه الثَّلاثةُ في قوله تعالى: ﴿وَجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾ [التَّوبة: 41]، والمجاهدة تكون باليد واللِّسان؛ أمَّا القتل فهو إزالة الرُّوح عنِ الجسد، فهو جزءٌ مِنَ الجهاد، وعلى هذا: فلفظُ الجهادِ أعمُّ والقتالِ أخصُّ، والمناسبُ هنا التَّعبير بالقتال؛ لحماية بيضَة الإسلام مِنَ العَدُوِّ الخارجيِّ الذي يُهَدِّد كيانَ الدَّولة المسلمة، وممَّا يُذْكَر في هذا المقام أنَّ لفظ الجهاد بمفهومه الشَّرعيِّ مِن مبتَكَرات القرآن الكريم، فلم تكن العربُ تعرفه بهذا المعنى.

القتالُ ما كان حمايَةً للأُمّة، مِن كلِّ سَطْوٍ جائِرٍ، أو فتنةٍ مُلِمَّة

نُكْتَةُ التَّعْبيرِ بالموصولِ وصِلَتِهِ:

جاءَ التَّعبيرُ بالموصولِ وصِلَتِهِ في قول اللّه سبحانَه: ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾؛ بيانًا للذَّنْبِ الذي أَوْجَبَ العقوبَةَ المذكورةَ، ولذا أعَقَبَهُ ببيانِ عَدَمِ إيمانِهم باليومِ الآخرِ، تأكيدًا للذَّنْبِ في جانبِ الاعتقادِ، ثُمَّ ذكرَ ذنبًا يتعلَّقُ بمخالفَةِ الأعمالِ في قوله: ﴿وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾، ثُمَّ أشارَ إلى تأكيدِ عصيانِهم بالانحِرافِ والعِنادِ في قوله: ﴿وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ﴾[2]، فالتَّعبيرُ

قِتالُ الذين لا يؤمنون بالله ومجابهتهم؛ لِلإخْلالِ بِحَقِّ اللهِ، والاعتداءِ على عباده

(1) الشَّعراويّ، تفسير الشّعراوي: 8/5024.
(2) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 8/110.

بالاسْمِ الموصولِ قائمٌ مقامَ التَّعْليلِ للأَمْرِ بالعقوبَةِ، فكأنَّ المعنى: قاتِلوا هؤلاءِ لأنَّهم لا يُؤمِنونَ باللّٰه ولا باليومِ الآخرِ، إلى آخر ما ذُكِرَ، وفي ذلك أيضًا إغْراءٌ شديدٌ بقتالِهم وجِهادِهم؛ حيثُ أخلُّوا بأَعْظَمِ الحقوقِ.

سِرُّ إيرادِ الصِّلَةِ فِعْلًا مُضارِعًا:

استمرارُ أَهْلِ الكُفْرِ في الغُلوِّ في اعْتِقاداتِهِمُ الزَّائغة، مَفْسَدةٌ وضلالٌ

جيءَ بجُمْلَةِ الصِّلَةِ فِعْلًا مضارعًا، في قول اللّٰه ﷻ: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ﴾؛ للإيماءِ إلى اسْتِمرارِهم في هذِهِ الطَّريقَةِ الفاسدَةِ والاعتقاداتِ الرَّديئَة، وأنَّهُمْ مُتوغِّلونَ في ذلك، غالونَ فيه، لا يَرْعَوونَ ولا يَرْتدِعونَ، وفيه دلالة على أنَّهم دُعُوا إلى الإيمان باللّٰه ورسوله واليوم الآخر ومع ذلك ما استجابوا، فكان التَّعبير بالمضارع دليلًا على توجيه الدَّعوة لهم بالإيمان، ولكنَّهم أَصرُّوا واستمرُّوا على عدم إيمانهم.

سرُّ العُدول عن قوله: (قاتِلوا الكُفّارَ)، إلى قوله: ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾:

الدَّعوة بلِين القَول، تنفتح لها القلوبُ، ويكون أثرُها أمكنَ

آثر القرآنُ الكريم التَّعبيرَ بوصْفهم بعدم الإيمان، بدلًا مِن وَصْفهم بالكُفر؛ مِن باب الملاطفة في الدَّعوة، ولحثِّهم على الدُّخول في الإسلام، ولأنَّ الكلام في سياق أهلِ الكتاب، وهم في زعمهم أنَّهم مؤمنون، فجاراهم على زعمهم ترغيبًا لهم في الإسلام.

نُكْتَةُ تَعْليقِ الإيمانِ بِاسم الجلالة (الله):

تَرْكُ الإيمانِ باللهِ ﷻ مِن أَشْنعِ الفعلِ وَأَبْشَعِه

عُلِّقَ فِعْلُ الإيمانِ باسم الجلالة (اللّٰه)، في قوله سبحانَه: ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾؛ تعظيمًا للإيمان الذي كَفَرَ به هؤلاء، وهذا يقتَضي شناعَةَ صنيعِهم، وبشاعَةَ فِعْلَتِهم في تَرْكِهِمُ الإيمانَ الصَّحيح، بِمَنْ له جميعُ صفاتِ الجلالِ والجمالِ والكمال[1]، فقد وَصَفوا اللّٰهَ بصفات تُنافي صفاتِ الأُلوهيَّة، مِن قولهم: ﴿يَدُ ٱللَّهِ

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 8/434.

مَغْلُولَةٌۚ﴾ [المائدة: 64]، وقولِهم: ﴿عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ [التَّوبة: 30]، وقولِهم: ﴿ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِۖ﴾ [التَّوبة: 30]، ونحوِ ذلك مِن صور تحريف الإيمان[1].

بلاغة المجاز المرسَل:

تَوَسُّعُ العَرَبِ في تَسْمِيَةِ أَجْزاءِ الأَزْمِنَةِ، من بابِ: تسميَةِ الشَّيءِ باسْمِ مُجاوِرِهِ

المُرادُ باليوم الآخِرِ، في قول اللهِ سبحانَه: ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾، يومُ القيامَةِ، وسُمِّيَ بذلك لكونه آخرَ أيَّام الدُّنيا، بمعنى أنَّهُ مُتَّصِلٌ بآخِرِ أيَّامِها؛ إذْ إنَّه ليس منها حتَّى يُجْعَلَ آخِرَها، فيكونُ في تَسْمِيَةِ يوم القيامَةِ باليوم الآخِرِ، مجازٌ مرسَلٌ بعلاقَةِ المجاوَرَةِ[2]؛ لأنَّه تسميةٌ للشَّيءِ باسْمِ مُجاوِرِهِ، وذلكَ أنَّ طريقةَ العَرَبِ في الأَزْمِنَةِ التي لها جُزْآنِ: أنَّهم رُبَّما سَمَّوْا أوَّلَ الجُزءِ الثَّاني باسْمِ الجُزْءِ الأوَّلِ؛ لأجلِ المقارَبَةِ والمجاوَرَةِ، ومنه قيلَ عن صلاةِ المَغْرِبِ: «وِتْرُ النَّهارِ»[3]، مع أنَّها في زَمَنِ اللَّيْلِ؛ لِلْعِلَّةِ المذكورَةِ قَبْلُ.

نُكْتَةُ تَكْرارِ حَرْفِ النَّفْيِ (لا):

شِدَّةُ انْحِرافِ إيمانِ أَهْلِ الكِتابِ بِاليومِ الآخِرِ، مُنَزَّلٌ مَنْزِلَةَ كُفْرِهِمْ بِهِ

كُرِّرَ حرفُ النَّفْيِ (لا) في قول اللهِ ﷻ: ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾؛ لتأكيدِ كُفْرِهم باليوم الآخِرِ، وذلك لأنَّ أهلَ الكِتابِ صدَّقوا باليومِ الآخرِ في الجُمْلَةِ، على ما في إيمانِهم مِنَ الانحرافِ بما نسجوه مِن أكاذيب وتخيُّلات تُنافي حقيقةَ الإيمان باليوم الآخر، بقولهم: ﴿وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾ [البقرة: 80]، فلمَّا كانت عَقيدَتُهُم باليوم الآخر شديدَةَ الانْحرافِ؛ جُعِلوا بمنزِلَةِ مَنْ لا يُؤمِنُ بِهِ أَصْلًا[4].

سِرُّ التَّنصيص على عدم إيمانهم بالله وباليوم الآخِر:

الإيمانُ باللهِ واليومِ الآخرِ لا يُقْبَلُ أحدُهما دونَ الآخَرِ

نصَّ القرآنُ الكريم على عدم إيمانهم باللّه واليوم الآخر؛ لأنَّها

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتّنوير: 10/163.
(2) عبد الله النَّبراويّ، حاشيَة على الأربعين النَّوويَّة، ص: 39.
(3) أخرجه التِّرمذي في سننه، برقم: (552) عن ابن عمر رضي الله عنهما، وقال: حديث حسن.
(4) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 6/3275.

المقصود الأعظم مِنَ الإيمان، فمن آمن بالله واليوم الآخر، آمنَ بكُتبه ورسله وشرائعه؛ لعلمه بمصيره في هذا اليوم، وفيه دلالة على عدم إيمان أهل الكتاب بالنَّبيِّ ﷺ وبشريعته، وعلى هذا، فإيمانُهم لن يكون صحيحًا إلَّا بالإيمان بنبوَّته ﷺ.

دلالةُ اقترانِ (الباء) بلفظ الجلالة وباليوم الآخر:

الإيمان بالله واليوم الآخر مُتلازمان، ولا يكتمل أحدُهما دونَ الآخر

في قوله تعالى: ﴿لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾، دلَّ اقترانُ (الباء) في كلٍّ منهما، على أصالة كلِّ ركنٍ منهما في أصل الإيمان؛ فلمَّا نُفِيَ عنهم زال وصفُ الإيمان بكامله؛ لأنَّهم فقدوا المقصود الأعظم مِنَ الإيمان، ومعنى العبارة يُفهَم منه عدمُ إيمانهم، مع أنَّ أهل الكتاب مؤمنون، فهل في ذلك تناقض؟ والجواب عليه مِن وجهين؛ "أحدهما: أنَّهم لا يُؤمنونَ بِالله والْيَوْم الآخر كَإِيمانِ المُؤمنِينَ؛ فَإِنَّهُم قالوا: ﴿عُزَيۡرٌ ٱبۡنُ ٱللَّهِ﴾، وقالوا: ﴿ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ ٱللَّهِ﴾، وقالت اليَهود: "لا أكْلَ وَلا شُرْب في الجنَّة". والجَواب الثَّاني: أنَّ كُفْرهم كَكُفر مَن لا يُؤمن بِالله والْيَوْم الآخِر، فِي عِظَم الجُرم"[1].

سِرُّ عدمِ ذِكْر الإيمانِ بالرَّسول ﷺ:

لا سبيلَ إلى الله في الاعتقاد والعمل، إلَّا باتِّباع هَدْيِ آخرِ الرُّسل

في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾، لم تَنُصَّ الآيةُ صراحةً على عدم إيمانهم بالرَّسول ﷺ؛ لدلالة الجملةِ عليه لزومًا؛ فالإيمان بالله واليوم الآخِر لا يكون صحيحًا وكاملًا إلَّا إذا تَوفَّر فيه مَلْمَحُ الإيمان برسول الله، ولا بلاغَ للإيمانَين إلَّا بهما، والرَّسولُ مُبَلِّغٌ عنِ الله، ومع عدمِ الإيمانِ به ينعدم الإيمانُ بالله واليوم الآخر، لأنَّه أوَّلُ المؤمنين، ولأنَّه الشَّهيد على الأُمَّة في إيمانها ذلك.

تَوْجيهُ المُتَشابِهِ اللَّفْظيِّ:

النَّظرُ إلى التَّشابه اللَّفظيِّ بينِ قول الله ﷻ: ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾ [التَّوبة: 29]، وقولِه سبحانَه: ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ

(1) السَّمعانيّ، تفسير القرآن: 2/301.

يَلُونَكُم مِّنَ ٱلۡكُفَّارِ﴾ [التَّوبة: 123]. ووجهُ التَّغايُرِ بينَهُما: أنَّ الآيةَ الأولَى تَقَدَّمها قولُ اللهِ ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡمُشۡرِكُونَ نَجَسٞ فَلَا يَقۡرَبُواْ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ بَعۡدَ عَامِهِمۡ هَٰذَاۚ وَإِنۡ خِفۡتُمۡ عَيۡلَةٗ فَسَوۡفَ يُغۡنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦٓ إِن شَآءَۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٞ﴾، وكان ظاهرُ السِّياق أن يَرِدَ النَّظْمُ القُرآنيُّ: (قاتِلوا المُشْرِكين)، لكن لمَّا ذَكَرَ كَوْنَهُم نجَسًا؛ ناسبه أن يُذكَرَ سبَبُ ذلك، بذِكْرِ صفاتِهم، فقال تعالى: ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ﴾، ولمَّا كانَ أَهْلُ الكِتاب أكثرَ المُشْرِكينَ عِلْمًا؛ ناسبَه أن يُخصُّوا بالذِّكْرِ بقوله سبحانَه: ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾، وأمَّا الآيةُ الأُخرَى: فتقدَّمها قولُ اللهِ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ لَا يُصِيبُهُمۡ ظَمَأٞ وَلَا نَصَبٞ وَلَا مَخۡمَصَةٞ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوۡطِئٗا يَغِيظُ ٱلۡكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنۡ عَدُوّٖ نَّيۡلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٞ صَٰلِحٌۚ﴾ [التَّوبة: 120]، فلمَّا خُصَّ الكَفَرَةُ بالذِّكْر، وكان قِتالُ مَن قُرِبَ أَوْلَى مِن قتالِ مَن بَعُد، ناسبَهُ قولُه ﷻ: ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلۡكُفَّارِ﴾.

دِقَّةُ انْتِقاءِ البَيانِ القُرْآنيِّ لِلْأَلْفاظِ المُلائِمَةِ لِسِياقاتِها، مِن بَدِيعِ الاستعمال

دلالة الواو في قوله: ﴿وَلَا يُحَرِّمُونَ﴾:

(الواو) في قوله تعالى: ﴿وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾ عاطفةٌ؛ لأنَّها عطفت هذه الجملةَ على قوله تعالى: ﴿لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾؛ لأنَّ عدمَ الإيمان ينتج عنه الجُرأَة على شرع اللّه، بتحليل ما حرَّم اللّهُ ورسولُه، مثل: تحليلِهم للرِّبا والخَمْر، وهما مُحرَّمان عندهم، وكونُهم لا يُحرِّمون ما حَرَّم اللّهُ؛ "أي: ما ثبت تحريمُه بالوحي مَتلوًّا أو غيرَ متلوٍّ، وقيل: المرادُ بـ ﴿وَرَسُولُهُۥ﴾ الرَّسولُ الذي يزعُمون اتِّباعَه، أي: يُخالِفون أصلَ دينهم المنسوخِ، اعتقادًا وعملًا"[1].

عدمُ الإيمان يؤدِّي إلى الجُرأَة على شرع الله، وانتهاكِ محارِمِه

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/58.

سِرُّ ترتيب صفة عدمِ تحريم المحرَّمات، بعد نفي الإيمان عنهم:

مِن أكبر الجُرم انتهاكُ ما حَرَّم اللهُ، وعدمُ الانتِهاء عن مَنهيَّاتِه

في قوله تعالى: ﴿وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾، ذكر القرآنُ الكريم هذه الصِّفة، بعد نفي الإيمان عنهم؛ لشِدَّة التَّلازم بينَ الوصفَين، وذلك لأنَّ الوصف الأوَّلَ ناتجٌ عن عدم توحيدهمُ الكاملِ لله ربِّ العالمين، وذلك بقولهم: (عزيرٌ ابن الله)، و(المسيح ابن الله)، وجاء الوصف الثَّاني، ليُؤكِّد عدمَ إيمانهم؛ لأنَّهم اتَّخذوا أحبارَهم ورُهبانَهم أربابًا مِن دون الله، يُحِلُّون ويُحَرِّمون كما يشاءون.

دلالةُ التَّعبيرِ بـ (ما):

مِن أكبر الآثام تجاوزُ الحدودِ، بعدم تحريمِ ما حرَّمه اللهُ على النَّاس

في قوله تعالى: ﴿وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾، جاءَ التَّعبيرُ بـ (ما) دونَ غيرها؛ لإفادة العموم، وفي هذا دليلٌ على أنَّهم لا يكترثون بأحكام الله في التَّحليل والتَّحريم في القرآن والسُّنة، أو في التَّوراة والإنجيل، فكلُّ ما حَرَّمَه اللهُ يفعلون نقيضَه بالتَّحليل، وهذا دليلٌ على جُرأتهم على شَرْع الله، ثمَّ إنَّ معنى الجملة: ﴿وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾: "أنَّهم يجعلونه غيرَ حرامٍ، والمراد: أنَّهم يجعلونَه مباحًا، والمقصود من هذا تشنيعُ حالِهم، وإثارةُ كراهيَتِهم لهم، بأنَّهم يستبيحون ما حَرَّمَه اللهُ على عباده"[1]، فكلُّ ما حرَّمَه اللهُ ورسولُه في الكتاب المتلوِّ والسُّنَّة الصَّحيحة، فهو حرامٌ، ومَنِ انتهكَهُ بالإتيان، أو قارفَهُ بالعصيان، فقدِ اعتَدَى على حدود الله، ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدۡ ظَلَمَ نَفۡسَهُۥ﴾ [الطلاق: 1].

سِرُّ التَّعبيرِ بالمضارع:

انتهاكُ المحرَّمات مُتَجَدِّدٌ ومُستَمِرٌّ في كلِّ الأوقات

في قوله تعالى: ﴿وَلَا يُحَرِّمُونَ﴾، جاءَ التَّعبيرُ بالفعل المضارع الذي يفيد التَّجدُّد والحدوث؛ للدّلالة على أنَّ انتهاكهم لما حرَّم اللهُ أمرٌ مُتَجَدِّدٌ عندهم ومستَمرٌّ، وفي هذا إشارة إلى أنَّ هذه الصِّفةَ صارت مِن طبائعهم؛ لتَجَدُّد فعلِهم لها، علمًا بأنَّ معاصي

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتنوير: 10/165.

أهل الكتاب كانت منذ القديم، لايَنفكُّونَ عنها، ولا تَنفَكُّ عنهم، فهم عريقون في العصيان، وذلك ما يَتَجَدَّد بتَجَدُّد أحوالِهم وأخلاقِهم وحاجاتهم.

سِرُّ التَّعبيرِ بالماضي ﴿حَرَّمَ﴾:

تشريعُ اللهِ قديمٌ أزلًا، وهو يُبرِزه إلى النَّاس، بإرادته الحكيمة

في قوله تعالى: ﴿وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾، جاءَ التَّعبيرُ بالفعل الماضي: ﴿حَرَّمَ﴾، الذي يدلُّ على تحقُّق الوقوع؛ لأنَّ أمر التَّحليل والتَّحريم قَدَّرَه اللهُ أزلًا، لعلمه بمصالح العباد، وليس أمرًا طارئًا، كما يفعل البشرُ عندما تَجِدُّ أحداثٌ في حياتهم، ويحتاجون فيها إلى تشريع التَّحليل والتَّحريم.

سِرُّ تَعْريفِ المُسْنَدِ إليه بِالْعَلَمِيَّةِ:

تَشْنيعُ صَنيعِ الكَفَرَةِ بِمُحادَّتِهِمُ اللهَ تعالى في أَحْكامِهِ

عُرِّفَ المسنَدُ إليهِ بالعلَميَّةِ في قول الله ﷻ: ﴿وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾؛ لبيانِ عَظَمَةِ ما حرَّمَهُ اللهُ سبحانَه، فهو تحْريمٌ صادرٌ مِن عند المَلِكِ الأعْلَى، الذي له الأمرُ كُلُّهُ، وله جَميعُ صفاتِ الجَلالِ والجَمالِ والكَمالِ[1]، ولازِمُ ذلِكَ: تشْنيعُ صنيعِ الكُفَّارِ بمحادَّةِ اللهِ تعالى في أحكامِهِ، وإظْهارُ عظيمِ جُرْمِهِم.

بَديعُ الطِّباقِ:

كلُّ ما حَرَّمَهُ اللهُ سبحانَه قَبيحٌ مُنْكَرٌ؛ لا يستَحِلُّهُ إلَّا سفيهٌ فاسدُ الرَّأي

في قول اللهِ سبحانَه: ﴿وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ طباقٌ بينَ قوله: ﴿وَلَا يُحَرِّمُونَ﴾، وقولِه: ﴿مَا حَرَّمَ﴾، وهو طباقُ سَلْبٍ، ونُكْتَةُ إيرادِهِ: بيانُ شِدَّةِ مُصادَمَةِ هؤلاء الكفَرَةِ لِلْأَحْكامِ الإلهيَّةِ، ومضادَّتِهم لها، فكانَ المَقْصودُ مِن بِناءِ الجُمْلَةِ على الطِّباقِ تشنيعُ حالِهِم وإثارَةُ كراهيَّتِهم لهم، وذلك لأنَّ ما حرَّمَهُ اللهُ ﷻ لمَّا كان قبيحًا مُنْكَرًا؛ كانَ مَن استباحَهُ فاسِدَ العَقْلِ، وكانَ أَهْلًا لِرَدْعِهِ عن هذا الباطِلِ[2].

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 8/434.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/165 - 166.

دِلالَةُ الإضافَةِ:

تشريعُ رسولِ اللهِ ﷺ، تشريفٌ له، وتكريمٌ لمقامه

في قولِهِ ﷻ: ﴿وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾، أُضيفَ الرَّسولُ إلى الضَّميرِ الرَّاجِعِ إلى اللّهِ سبحانَه؛ تشريفًا لَهُ وتكريمًا، وللإيماءِ إلى صَدْقِ تَبْليغِهِ ما أَوْحاهُ اللّهُ تعالى إليه، والدّلالَةِ على أنَّ اللّهَ سبحانَه لَمْ يُحرِّمْ على لِسانِ رسولِهِ ﷺ إلَّا ما هو جديرٌ بالتَّحريمِ، فالإضافَةُ عَهْديَّةٌ؛ وذلِكَ لما تَقرَّر مِنْ أنَّ الإضافَةَ تنقَسِمُ إلى ما تنقسِمُ إليه اللَّامُ، ولا تتعيَّنُ الإضافَةُ لِكَوْنِها لِلْعُمومِ.

سِرُّ التَّعبيرِ بلفظ ﴿وَرَسُولُهُۥ﴾ مُفردًا:

الإشارة إلى أنَّ تشريعَ الرَّسولِ ﷺ وَحْيٌ يُوْحَى

في قوله: ﴿وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾، آثر القرآنُ الكريم التَّعبيرَ بلفظ: ﴿وَرَسُولُهُۥ﴾ دون (ورسله)؛ لأنَّ المراد هُنا سيِّدُنا مُحَمَّدٌ ﷺ، كَما هو مُتعارَفُ القرآنِ الكريمِ، إذْ لو أُريدَ غيرُهُ مِنَ الرُّسُلُ؛ لَجُمِعَ ذلك فقال: (وَرُسُلُه)[1]، ولِنَعلمَ "أنَّ كلَّ رسولٍ جاء بالعقائد الثَّابتة، وبالأحكام التي تناسب الزَّمان، إلى أن بَعَثَ اللّهُ محمَّدًا ﷺ، فكان النَّبيَّ الخاتمَ إلى أن تقوم السَّاعةُ، ولا بدَّ أن يكون الحقُّ الذي جاء به هو الحقُّ الثَّابت الذي لا يتغيَّر؛ لأنَّه خاتَمُ الأنبياء والمرسلين، فلا رسولَ بعدَه"[2]، فلا عجبَ أن يُذْكَر بصفته مُشَرِّعًا، لأنَّ ما جاء به وَحيًا، وما قَرَّرهُ سُنَّةً، هو الحقُّ المبين، الذي لا مِريَة فيه.

بَلاغَةُ الإدْماجِ:

التَّشْنيعُ على حالِ أَهْلِ الكِتابِ، وَبَيانُ انْحِرافِهِم في الدِّينِ

قولُ اللّهِ سبحانَه: ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ﴾ إدْماجٌ؛ وهو أن يُضَمَّنَ الكلامُ الذي سِيقَ لمعنًى، مَعْنًى آخرَ غيرَ مُصَرَّحٍ بِهِ، فالمقْصودُ: هو الأمرُ بِقِتالِ أَهْلِ الكِتابِ، وأمَّا الصِّفاتُ الأَرْبَعُ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/166.
(2) الشَّعراويّ، تفسير الشّعراوي: 8/5028.

المذكورَةُ فسِيقَتْ تشنيعًا لحالِهِمْ، وليس لبيانِ أنَّ القِتالَ مقتصِرٌ على مَنِ اجتمَعَتْ فيهم هذهِ الصِّفاتُ الأربَعُ كُلُّها[1].

دلالة (الواو) في قوله: ﴿وَلَا يَدِينُونَ﴾:

الواو في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ﴾ عاطفةٌ، حيثُ عطفت هذه الجملةَ على ما سبقها مِنَ الصِّفات، وذلك لما بينَها مِن شِدَّة الاتِّصال؛ فهي صفاتٌ متعدِّدةٌ لموصوفٍ واحدٍ، إن تجمَّعَتْ فيه هذه الصِّفاتُ وجبت مقاتَلَتُه، والصِّفاتُ المذكورةُ عِلَّةٌ للأمر المبسوط في السِّياق، واجتماعُها مع بعضها متواليَةً يزيد الحُكمَ وضوحًا ووثوقًا، حتَّى لا يَظُنَّ ظانٌّ أنَّ في الأمر مبالغةً أو تحاملًا؛ لأنَّهم يَستحقُّون ما أُمِرَ المؤمنون أن يَفعلوه بهم، ويَصدُق عليهم قولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [يونس: 44]، وفي المثل العَربيِّ: (يداكَ أَوْكَتا، وفُوكَ نفخ).

مَن أعرض عنِ الدِّين الحقِّ، عُومِلَ بما يَستَحِقُّه بالحقِّ

سِرُّ التَّعبير بقوله: ﴿وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ﴾:

جاءَ التَّعبيرُ بنفي التَّديُّن عنهم في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَدِينُونَ﴾ دون غيره؛ لأنَّ المقصود ذَمُّ هؤلاء بعدم الانقياد والاستسلام لشَرْع اللّه تعالى، فضلًا عنِ الاعتناق له، وفيه دلالةٌ على أنَّهم لا يُلْزِمُونَ أنفسَهم بأيِّ شرعٍ أو تكليفٍ. وهناك معانٍ لقوله: ﴿وَلَا يَدِينُونَ﴾، منها؛ أوَّلًا: أنَّهم لا يدينون اللّهَ بدينه الحقِّ الكاملِ الأخيرِ المُكَمَّلِ، والمبيِّنِ لما اختلفوا فيه مِن قبل، والنَّاسخِ لما لا يصلُحُ للبشر منه فيما بعد، وهو الإسلام. وثانيًا: أنَّ الدِّين الذي يتقلَّدُه كلٌّ منهم، إنَّما هو دينٌ تقليديٌّ، وَضَعَهُ لهم أحبارُهم وأساقفتُهم، بآرائهم الاجتهاديَّة، وأهوائِهم المذهبيَّة، لا دينَ اللّهِ الحقَّ الذي أوحاه إلى موسى وعيسى[2] عليهما السلام.

مَن دانَ بغير ما أراد اللهُ، ضَلَّ عن سَواء السَّبيل وتَاه

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/164.
(2) محمّد رضا، تفسير المنار: 10/253.

سِرُّ التَّعبيرِ بالمضارع:

التَّعبيرُ بالمضارع في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ﴾، يدلُّ على أنَّهم سيَظلُّون على هذا المسلَكِ، في عَدَم تَدَيُّنِهم بالدِّين الحَقِّ، وهذا ما أَكَّدَه الواقعُ في عدم إيمانهم بالرَّسول ﷺ وبرسالته، وفيه إشارةٌ إلى تحليل القرآن لنَفسيَّة هؤلاء، بأنَّهم لا يَتَّبعون الدِّينَ الصَّحيحَ، بل يَتَّبِعون أهواءَهم.

إخبارُ القرآن عن الغيب المتجَدِّد، مِن إعجازه القاهِرِ الباهِر

نُكْتَةُ إضافَةِ الدّين إلى الحقّ:

أُضيفَ الدِّينُ إلى الحَقِّ في قوله ﷻ: ﴿وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ﴾؛ تعظيمًا لهذا الدِّين، وإبرازًا لشَرَفِه، حيث كان منسوبًا إلى الحَقِّ، سواءٌ أَحُمِلَ ذلك على معنى الحقِّ الذي هو خلافُ الباطِلِ، أَمْ على إرادَةِ كونِهِ اسمًا مِن أسماءِ اللهِ سبحانَه، ولازِمُ هذا التَّشْريفِ والتَّعظيمِ بيانُ شناعَةِ عَدَمِ التَّدَيُّنِ بِهِ، وفيه تَعْريضٌ بأنَّ ما هُم عليه مِنَ الدِّينِ، دينٌ باطِلٌ؛ وذلك أنَّهم لمَّا عدَلوا عَنِ الحقِّ وقعوا في الباطِلِ؛ إذ ليس بعد الحقِّ إلَّا الضَّلال.

لازِمُ تَعْظيمِ دِينِ اللهِ تعالى وَتَشْريفِهِ، شَناعَةُ تَرْكِ الالتزامِ بدينه

سِرُّ التَّعبيرِ بقوله: ﴿دِينَ ٱلۡحَقِّ﴾، دون: (الدِّين الصَّحيح):

جاءَ التَّعبيرُ بالدِّين الحقِّ في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ﴾، دونَ الصَّحيح؛ لأنَّ الحقَّ يُقابَلُ بالباطل، وعلى هذا: فمَا هُم عليه مِن دينٍ، حُكِمَ عليه بالبُطلان، بخلاف التَّعبير بالصَّحيح الذي يقابله السَّقيم، وهو غير مُراد في هذا السِّياق، ولأنَّ أَمْرَ الصِّحَةِ مَحلُّ خِلاف في الحُكم عليه؛ نظرًا لتَعَدُّدِ المفهُوم في الحُكم على الشَّيء، مِن ناحية الصِّحَّة وعَدَمِها.

الدِّينُ الحقُّ وَحْيٌ صدوق، وما خالَفَه فباطلٌ زَهوق

بَلاغَةُ الإطْنابِ:

في قولِ اللهِ ﷻ: ﴿وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ﴾ عَطْفٌ للعامِّ على الخاصِّ، في قول الله ﷻ: ﴿وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾؛ لكَوْنِ التَّدَيُّنِ أَعَمَّ مِن تحريمِ الحَرامِ، وذلك لأنَّ تحريمَ الحَرامِ

انحرافاتُ أَهْلِ الكِتابِ مُتعدِّدَةٌ، تَطَالُ عمومَ أَبْوابِ الدِّيانَةِ

مِن جُملَةِ أُمورِ الدِّيانَةِ، والنُّكْتَةُ في ذلك: إبرازُ تَعَدُّدِ انحرافاتهم، فبُيِّنَ أوَّلًا انحرافُهُم في بابِ التَّحريمِ، ثُمَّ بُيِّنَ انحرافُهُم في الدِّيانَةِ بِرُمَّتِها.

دلالَةُ الحرفِ (مِنْ) في قوله: ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾:

في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾، الحرفُ (مِنْ) بيانيَّةٌ، وهي التي تُبيِّنُ الموصولَ الذي قَبْلَها[1]، وعلى هذا يكونُ المعنى: قاتِلوا الذين أُوتوا الكِتابَ، وإنَّما أُورِدَ الكلامُ مُعرَّفًا بأوصافِ مَنْ يُقاتَلونَ، ثُمَّ بُيِّنَ بعدَ ذلكَ بـ (مِنْ)؛ للإعْلامِ بأنَّ هذهِ الصِّفاتِ موجِبَةٌ للكُفْرِ والعنادِ أوَّلًا، وللإشارةِ إلى تمرُّدِهِم عَنِ الحقِّ ثانيًا، ولِكَوْنِ البيانِ بَعْدَ الإجْمالِ يُرَسِّخُ المعنى فَضْلَ تَرْسيخٍ ثالثًا[2].

الإيماءُ إلى تَمَرُّدِ أَهْلِ الكِتابِ عَنِ الحَقِّ، تصويرٌ لواقعهم عبرَ العُصور

نُكْتَةُ بِناءِ الفِعْلِ لِلْمَفْعولِ:

بُنِيَ الفِعْلُ ﴿أُوتُواْ﴾ لِلْمَفْعولِ في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾؛ إشْعارًا بِهَوانِهِمْ عِنْدَ اللّهِ تعالى، وبراءَتِهِ سبحانَه منهم[3]، فلم ينسِبِ فِعْلَ الإيتاءِ إلى صريحِ الاسمِ الأَجَلّ، أو الضَّميرِ الرّاجِعِ إليه، بأن يَرِدَ النَّظْمُ القرآنيُّ: (مِنَ الذينَ آتاهُمُ اللّهُ الكِتابَ)، أو (مِنَ الَّذين آتَيْناهُم الكتابَ)؛ لما في نِسبَةِ فِعْلِ الإيتاءِ إلى اللّهِ تعالى مِنَ الكرامَةِ لهم؛ والمقامُ لا يُلائِمُهُ.

بَيانُ هَوانِ أَهْلِ الكِتابِ على اللهِ سبحانَه، وَبَراءَتِهِ منهم

سِرُّ البَيانِ في قوله: ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾:

قولُ اللّهِ ﷻ: ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾، بيانٌ لِلْمَوْصولِ في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾، وفائدَةُ ذِكْرِ هذا البَيانِ: التَّنديدُ عليهم بأنَّهم أُوتوا الكِتابَ، ولكنَّهم لم يَدِينوا دينَ الحقِّ الذي جاءَهُمْ بِهِ كتابُهُمُ الذي أُوتوه، وإنَّما دانوا بما حرَّفوهُ مِن هذا الكتابِ[4].

تَوْبيخُ أَهْلِ الكِتابِ على تَرْكِهِمْ دينَ الحَقِّ، وَتَدَيُّنِهِمْ بِما حَرَّفوهُ منه

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/58، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/163.
(2) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 6/3277.
(3) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 8/434 - 435.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/165.

مَلْمَحُ إيتاءِ الكِتابِ يُحدِّد الحكمَ ونوعَ المعاملة معَ المعتدين مِن أهل الكتاب

سِرُّ التَّعبيرِ والتَّقييد بقوله: ﴿أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾، دون: (أهل الكتاب):

النَّاظر في آيات القرآن التي تتحدَّث عن بني إسرائيل، يجد عباراتٍ متعدِّدة؛ منها: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ [البقرة: 40]، ومنها: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ [آل عمران: 65]، ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾، وكلُّ وَصْفٍ له سياقُه؛ فإذا أراد بيانَ نسبِهم قال: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾، كما يقال: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ﴾ [الأعراف: 26] نسبةً إلى أبي البشريَّة، وإذا أراد دعوتهم إلى الإسلام خاطبهم بـ ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ [آل عمران: 71]، وهذا وارد في آيات كثيرة، مِن باب التَّرغيب في دخولهم الإسلام، قال تعالى: ﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا﴾ الآيةَ [آل عمران: 64]، وقد يَرِد التَّعبيرُ بـ ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ [آل عمران: 71] من باب ذَمِّهم وتقريعهم على التَّقصير والتَّحريف، والآياتُ في هذا كثيرة؛ منها: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوۡرَىٰةُ وَٱلۡإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ﴾ [آل عمران: 65] الآية، وقولُه تعالى: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَلۡبِسُونَ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ﴾ [آل عمران: 71] الآية، ويشترك معه في هذا التَّعبير: ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾، فغالبُ استعمالاته تأتي في ذمِّهم وتوبيخهم، على كتمانهم لصِفَة نُبوَّته ﷺ، ودلَّ التَّقييد بقوله: ﴿أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ على تمييزهم عن المشركين في الحُكم؛ لأنَّ الواجب في المشركين القتالُ أو الإسلامُ، أمَّا مع أهل الكتاب: فالحُكم القتالُ أو الإسلامُ أو الجزيَةُ[1].

معاملةُ أهلِ الكِتابِ على حسب ما يصدر منهم، محاربةً أو مُسالمةً

دلالَةُ (حَتَّى):

(حتَّى) في قولِ اللّه ﷻ: ﴿حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ﴾، حرفٌ دالٌّ على الغايَةِ، والمرادُ: أنَّ الأمرَ بقتالِ أهلِ الكِتابِ مستمرٌّ وُجوبُهُ إلى أن يُعْطوا الجِزْيَةَ[2]، وفيه دلالة على أنَّه "إذا وُجِد مِن أهل الكتاب

(1) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 8/241.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/166.

مَن يؤمن بالله واليوم الآخر، ويُحرِّم ما حَرَّم اللهُ ورسولُه إليهم، فإنَّهم لا يدخلون في هذا الحُكم"[1].

سِرُّ التَّعبير بلفظ: (الإعطاء)، دون: (الإيتاء):

الإعطاءُ تعبيرٌ عنِ المنح في المعتاد، ويكون العطاءُ معَ الرَّغبة أو مِن دُونها

جاءَ التَّعبيرُ بلفظ: (الإعطاء) دونَ (الإيتاء) في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ﴾؛ لوجود فرق بينهما، فالإعطاء يكون للقليل، وهو المناسب لمقدار الجزيَة هنا، كما أوضَحَتْهُ السُّنَّةُ وكتبُ الفقه، وأيضًا لأنَّ الإعطاء لا يكون عن حُبٍّ غالبًا، بل قد يكون عن عدم رغبة، وهذا مناسب لموقف أهلِ الكتاب مِنَ الجزية، وفيه دليلٌ على تحليل القرآن لنفسيَّة أهلِ الكتاب في إعطائهم الجزية على غير رغبتهم؛ والإيتاءُ بخلاف ذلك كلِّه.

دلالَةُ (أل) في لفظ ﴿ٱلۡجِزۡيَةَ﴾:

الجِزْيَةُ مالٌ يُؤْخَذُ مِن أَهْلِ الكِتابِ، مُقابِلَ حمايتهم وحَقْنِ دِمائِهِمْ

(ال) في لفظ ﴿ٱلۡجِزۡيَةَ﴾ مِن قول اللهِ ﷻ: ﴿حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ﴾، لِلْعَهْدِ العِلْميِّ؛ وهو مقدارٌ مِنَ المالِ يُؤْخَذُ مِن أهلِ الكِتابِ، مقابِلَ إقامَتِهِم في بلادِ الإسلام، وحَقْنِ دمائِهِم، وهي مشتقة مِن (جَزَى يَجْزِي): إذا قضى ما عليه، وفي هذا إشارة إلى أنَّ ذلك حقٌّ ينبغي الالتزامُ به في مقابل ما يكون له مِنَ الدِّفاع عنه، والحمايةِ له، والاستفادةِ ممَّا تُقَدِّمُه دولةُ الإسلام لأهل الذِّمَّة مِن خدمات، وقد شرع اللهُ الجزية في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ﴾، من باب إعطائهم فرصةً للتَّأمُّل في محاسن الإسلام، والنَّظر فيه، لعلَّهم يؤمنون.

سِرُّ تخصيص إعطاء الجِزيَة بأهل الكتاب:

الجِزيَة حمايةٌ مِنَ الأذى، ومعايشةٌ دونَ حَربٍ ولا عِدَاء

خَصَّ اللهُ أهلَ الكتابِ بالجِزيَة في قوله تعالى: ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ﴾؛ لأنَّهم في الظَّاهر ألصقوا أنفسَهم بموسى وعيسى عليهما السلام، وادَّعَوا أنَّهم يعملون بالتَّوراة والإنجيل؛ فلأجل

(1) محمد رضا، تفسير المنار: 10/249.

تعظيم هَذَين الرَّسولَين المُعَظَّمَين وكتابَيهما، وتقديرًا لأسلاف هؤلاء اليهود والنَّصارى؛ لأنَّهم كانوا على الدِّين الحقِّ، لكلِّ ذلك حَكَم اللّهُ بقبول الجزيَة منهم[1]، وممَّا يُذْكَر في هذا أنَّ الجزيَة لم تكن ضَربًا مِنَ التَّحكُّم، ولا نَزْعةً مِن نَزَعات القَهْر والتَّسلُّط، إنَّما هي دعوةٌ حكيمَةٌ مِن دعوات الإسلام، مِن أجل التَّفكُّر في محاسن الإسلام كما سبق.

الجِزْيَةُ مِنْ أَهْلِ الكِتابِ، نفعُها مردودٌ إليهم

بَلاغَةُ المَجازِ المُرسل:

في التَّعبير بـ (اليَدِ) في قول اللّهِ ﷻ: ﴿حَتَّىٰ يُعْطُواْ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ﴾، مجازٌ مرسَلٌ، وفي ذلكَ مَسْلَكانِ؛ أحدُهَما: أن يكون ذلكَ مجازًا عنِ قُوَّة دولة الإسلام وسَطْوَتها؛ لكونِ اليَدِ آلَةَ البَطْش، والمُرادُ: حتَّى يُعْطوا الجِزْيَةَ عَن قَهْرٍ منكم لهم، والآخَرُ: أن يكون ذلك مجازًا عنِ الإنْعام، ووَجْهُ ذلكَ: أنَّ قبولَ الجِزْيَةِ والكَفَّ عن قَتْلِهم، إنْعامٌ مِنَ المُسْلِمينَ عليهم[2]، ولا تنافي بينَ الدّلالَتَيْن، ويَصِحُّ أَنْ يُجْمَعَ بينَهما، والمعنى: حتَّى يُعْطوا الجِزْيَةَ عن قَهْرٍ مِنْكُم لهم في أَخْذِها، وهذا الأخذُ منكُم عَيْنُ الإنعام عليهم؛ لأنَّ الغرض مِن ذلك ليس التَّعالي والتَّكَبُّر مِنَ المسلمين عليهم، وإنَّما هو إثارةٌ لدوافع الإنسانيَّة عندهم، بتحريك رغبتِهم نحوَ التَّخلُّص مِن هذا الوضع الذي هم فيه، وذلك بمراجعة معتقدِهم مِن جهةٍ، والنَّظر في محاسن الدَّعوة الإسلاميَّة مِن جهةٍ أُخرى.

عدمُ الإنابة في دفع الجِزيَة، وتكليفُ صاحبِها بدفعها لأهمِّيَّتها

بلاغة الكِنايَة في قوله: ﴿عَن يَدٍ﴾:

قولهُ سبحانَه: ﴿عَن يَدٍ﴾، يجوزُ أن يكون كنايةً عَنِ النَّفْس، وذلك لأنَّ المقصودَ مِنَ الجِزْيَةِ المالُ؛ واليَدُ أَعْظَمُ أسبابِه، فكان المعنى: حتَّى يُعْطيَ كُلُّ واحدٍ منهم الجزْيَةَ عن نفسِه، أي: أنَّهُمْ

(1) ابن عادل الدِّمشقيّ، اللُّباب في علوم الكتاب: 10/70.
(2) السَّمرقنديّ، بحر العلوم: 2/52.

يُعْطونَها بأيديهم لا بأيْدي غيرِهم، فيُمْنَعونَ مِنَ التَّوْكيلِ فيها؛ لمنافاتِهِ الغرضَ مِن فَرْضِ الجِزيَةِ[1].

دِلالَةُ إيرادِ جُمْلَةِ الحالِ اسميَّةً:

مُلازمَةُ الذُّلِّ والصَّغارِ لمن كان مِن أهلِ الكِتابِ مِنَ الكفَّار

الواوُ في قولِ اللهِ ﷻ: ﴿وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾ حاليَّةٌ، والجملةُ بعدَها: في محلِّ نصْبٍ حالٌ، وقد جِيءَ به جُمْلَةً اسميَّةً للإشْعارِ بأنَّ صَغارَهُمْ لازِمٌ لهم، ما داموا مُقيمينَ على الكُفْرِ باللهِ تعالى واليومِ الآخِرِ، وأنَّه لا عِزَّةَ لهم إلَّا بالانقِطاعِ عن مُوجِبِ الصَّغارِ، وهوَ الكفرُ، والإسلامُ يريد منهم ألَّا يكونوا مُتمرِّدين على دولته، بل يعيشون منقادينَ مُؤتلفين، غيرَ مُجاهِرين بالعداوة، وليس مرادُ المسلمين امتهانَ أهلِ الذِّمَّةِ وإذلالَهم، كما يتصوَّرون، بقدر ما هو تحريضٌ للمسلمين على اكتساب القُوَّة والاحتفاظِ بها، حتَّى لا يكونوا يومًا ما في منزلة المغلوب النَّازل على حُكم غالبه، وهذا يعني: أن يحتفظ المسلمون دائمًا بتلك القوَّة التي مكَّنت لهم ما هم فيه[2].

سِرُّ التَّعبيرِ بلفظ: (الصَّغار)، دون: (الذِّلَّة):

يُستعمَل (الصَّغار) في القرآن الكريم في معنى المهانة والإذلال، و(الذِّلُّ) يقابل العِزَّ

في قوله تعالى: ﴿وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾، جاء التَّعبيرُ بالصَّغار دونَ الذُّلِّ؛ لوجود فرقٍ بينهما، فالصَّغار: لا يقع في القرآن إلَّا في موضع المهانة، كما قال في حَقِّ إبليسَ: ﴿فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ١٣﴾ [الأعراف: 13]، وممَّا يدلُّ على أنَّ الصَّغار يُستعمل بمعنى الإذلال والمهانة؛ كلام امرأةِ العزيزِ في حقّ يوسفَ عليه السلام، قال تعالى: ﴿لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ٣٢﴾ [يوسف: 32]، واستعمالُه معَ الجِزْية في هذه الآية يُدلِّل على ذلك، أمَّا الذُّلُّ فَضِدُّ العِزِّ، وهو: خضوعُ الإنسانِ لغيره على سبيل القَهْر، قال تعالى: ﴿وَجَعَلُوٓاْ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً﴾ [النَّمل: 34]، وقد يكون الذُّلُّ محمودًا؛ كما في قوله تعالى: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة: 54]. وعلى هذا:

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 5/271.
(2) الخطيب، التَّفسير القرآنيُّ للقرآن: 4/738.

فالصَّغارُ يفترق عنِ الذُّلِّ؛ لأنَّه يُعَبِّر عنِ الإهانة والضَّيم والاستعباد، وسُمِّيَ بذلك لأنَّ الإنسان يُصَغِّر نفسَه، وممَّا يُؤكِّد الفرقَ بينَهما وقوعُ الذُّلِّ والصَّغار حالَين لسياق واحد، قال تعالى: ﴿وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [النَّمل: 37]؛ فجُمِعَ بينَهما للدّلالة على أنَّ الصَّغار يدلُّ على معنًى زائدٍ عنِ الذُّلِّ، حيث يكونُ عن قَهْرٍ واستعباد[1].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الإيتاء والإعْطاء:

الإيتاءُ والإعْطاءُ مَعْناهُما واحدٌ عندَ كَثيرٍ مِن أَصْحابِ المُعْجَماتِ[2]، وفرَّق آخرونَ بينَهُما، وحاصِلُ التَّفريقِ راجعٌ إلى ثلاثَةِ أوجهٍ[3]؛ **أَحَدُها**: أنَّ الإيتاءَ لا مُطاوِعَ لفعلِهِ، فتقول: آتاني شيئًا فأخذتُه، بخلاف الإعطاءِ، فإنَّ له مطاوعًا، فتقول: أعطاني، مطاوعٌ مِنَ الأفعال أَضْعفُ في إثْباتِ مَفْعولِه، مِمَّا لا مطاوِعَ له. **وثانيها**: أنَّ الإيتاء يُستعمَلُ غالبًا فيما له ثباتٌ وقرارٌ، بخلاف الإعطاءِ، فإنَّ الغالبَ استعمالُهُ فيما يَنتقِلُ منه بعد قضاء الأَرَبِ منه. **وثالِثُها**: أنَّ في الإعْطاءِ دليلًا على التَّمَلُّك بخلاف الإيتاءِ.

الإيتاءُ أقوَى مِنَ الإعطاء، والإيتاءُ لم يُستعمَلْ إلَّا للشَّيْءِ العظيمِ الشَّأْنِ

وأمَّا في خصوصِ الاسْتِعْمالِ القُرآنيِّ لِلَفْظَتَي: (الإيتاء) و(الإعْطاء)؛ فإنَّ بينَهُما فرقًا مِن جِهَتَيْنِ[4]؛ إحْداهُما: أنَّ الإيتاءَ لَم يُستعمَلْ إلَّا لِلشَّيْءِ الكَثير والعظيم الشَّأْنِ، كالقرآنِ الكريم، والتَّوراةِ، والمُلْك، والرَّحمة، بخلاف الإعطاءِ؛ فإنَّهُ يُستعمَلُ لِلشَّيْءِ القليلِ، ولم يَرِد الإعطاءُ مُرادًا به الشَّيءُ الكثيرُ إلَّا بقيدِ ما يدلُّ على الكثرَةِ. والأُخْرَى: أنَّ الإيتاءَ إذا صدَرَ مِنَ العَبْدِ، يكون عن طيبِ نَفْسٍ، بخلاف الإعْطاءِ فَهوَ مُطْلَقٌ.

(1) محمَّد ياس الدُّوري، دقائق الفروق اللُّغويّة في البيان القرآنيّ، ص: 180.
(2) الخليل، العين، والجوهريّ، الصّحاح: (أتى).
(3) العسكريّ، الفروق اللُّغويَّة، ص: 87، والكَفويّ، الكلِّيَّات، ص: 212.
(4) محمَّد داود، معجم الفروق الدّلاليَّة في القرآن الكريم، ص: 27 - 29.

﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ عُزَيۡرٌ ٱبۡنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ ٱللَّهِۖ ذَٰلِكَ قَوۡلُهُم بِأَفۡوَٰهِهِمۡۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوۡلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبۡلُۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۖ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ٣٠﴾ [التّوبة: 30]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

العلاقةُ بينَ بواعث تأديب الظّالمين مِن أهل الكتاب، وبينَ مقولاتهمُ المشركةِ بالله سِواه

لـمَّا أمَرَ اللّهُ ﷻ بِقِتالِ المعتدين مِنَ اليهودِ والنَّصارَى، وَوَصَفَهُمْ بالأوصافِ الباعِثَةِ على ذلك القِتالِ في قوله تعالى: ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾؛ عطَفَ عليه بعضَ مقالاتِهِمُ المُهَيِّجَةِ للمُؤْمِنينَ الذين يغارونَ لربِّهم سبحانَه ولدينِه على قِتالِهم وبذْلِ الوُسْعِ في ذلك، فقال سبحانَه: ﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ عُزَيۡرٌ ٱبۡنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ ٱللَّهِۖ﴾[1].

ولـمَّا حكم اللّهُ في الآية السَّابقة على أهل الكتاب بأنَّهم لا يؤمنون باللّه، جاءت هذه الآية لإقامة الدَّليل على ذلك؛ فذكرت هذه الآية أنَّ اليهود والنَّصارى ادَّعَوا للّه الولدَ، بقولهم: ﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ عُزَيۡرٌ ٱبۡنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ ٱللَّهِۖ﴾، ومن فعل ذلك فهو في الحقيقة غير مؤمن باللّه.

ومن المناسبة أيضًا: أنّه لـمَّا تكلَّمتِ الآيةُ السَّابقة عنِ المشركين، وما يتعلَّق بهم مِن أحكام، بيَّن اللّهُ تعالى في هذه الآية لحاقَ اليهودِ والنَّصارى بهم؛ لأنَّهم اشتركوا معهم في الشِّرك، وإنِ اختلفت طُرقُه؛ فلا فرق بينَ عابد وَثَنٍ وصنمٍ، وبين عابدٍ للمسيح عليه السلام؛ فالكلُّ شِرْكٌ.

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 8/437، والسَّعديّ، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 334.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلْمَسِيحُ﴾: (الميمُ والسِّينُ والحاء): تدُلُّ تصريفاتُها على معنى إمْرارِ شيءٍ على شَيْءٍ بَسْطًا[1]، ويُطْلَقُ المسْحُ على إزالَةِ الأثَرِ[2]، ومنه قولُهُمْ للمريضِ: مسحَ اللّهُ تعالى ما بك، أي: أزالَ عنكَ المرضَ[3]، والمَسيحُ في قول اللّهِ ﷻ: ﴿وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ [التَّوبة: 30]، هو عيسَى ابنُ مَرْيَمَ عليه السلام، سُمِّيَ بذلك لأنَّه كان لا يَمْسَحُ على ذي عاهَةٍ إلَّا بَرِئَ بإِذْنِ اللّهِ تعالى[4]، وذُكِرَ في سبَبِ تَسْميَتِهِ بذلك أَقْوالٌ عديدَةٌ[5].

2) ﴿يُضَٰهِـُٔونَ﴾: (الضَّادُ والهاءُ والياءُ): تدورُ اشْتِقاقاتُها على معنى مشابَهَةِ شيءٍ لشيءٍ[6]، أو هي: خُلوُّ الشَّيءِ عمَّا يتميَّزُ بِهِ عن غَيْرِه، ثُمَّ استُعْمِلَ في معنى المشابهَةِ؛ لكونِ ذلكَ لازِمًا لعَدَمِ التَّمْييزِ[7]، ومنه: قولُ النَّبيِّ ﷺ: «أَشَدُّ النّاسِ عَذابًا يَوْمَ القيامَةِ الَّذينَ يُضاهونَ بِخَلْقِ اللّه»[8]، ومعناهُ: يُعارِضونَهُ، ويُشَبِّهونَ أَنْفُسَهُمْ بِاللّهِ تعالى في صُنْعِها أو صَنْعَتِهِمْ لَها[9]، والمُضاهاةُ في قول اللّهِ ﷻ: ﴿يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبْلُ﴾، بمعنى: المُشابَهَةِ والمُحاكاةِ.

3) ﴿قَٰتَلَهُمُ﴾: (القاف والتَّاء واللَّامُ): تدُلُّ تَصاريفُها على معنى الإِذْلالِ والإماتَةِ[10]، ومن الثَّاني: القَتْلُ؛ وهو إزْهاقُ النَّفْسِ، ومِنَ الأوَّلِ على جِهَةِ الاستعارةِ قولُهُم: قتَلَ المسألَةَ بحْثًا؛ إذا استَوْعَبَها، كأنَّه ذلَّل كلَّ ما فيها مِنْ مُعضِلاتٍ وألغازٍ[11]، وقولُهُ: ﴿قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ﴾ بمعنى: لَعَنَهُمْ، وليس مِنَ القتالِ الذي هو المحاربَةُ[12]، والمُرادُ: أنَّهم صاروا بمنزِلَةِ مَنْ يُحارِبُ اللّهَ تعالى، ومَن قاتَلَ اللّهَ فهو مَقْتولٌ، ومَن غالبَهُ فهوَ مغلوبٌ[13].

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (مسح).
(2) الرَّاغب، المفردات: (مسح).
(3) الخليل، العين: (مسح).
(4) الأنباريّ، الزَّاهر في معاني كلمات النَّاس: 1/388.
(5) اليَفُرَني، الاقتضاب في غريب الموطأ وإعرابه على الأبواب: 1/242.
(6) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (ضهي).
(7) جبل، المعجم الاشتقاقيُّ المؤصَّل: (ضهأ).
(8) أخرجه البخاريُّ في صحيحه، برقم: (5954)، ومسلم في صحيحه، برقم: (2107).
(9) ابن قُرْقول، مطالع الأنوار على صحاح الآثار: (ضه).
(10) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (قتل).
(11) جبل، المعجم الاشتقاقيُّ المؤصَّل: (قتل).
(12) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة: (قتل).
(13) الرَّاغب، المفردات: (قتل).

4) ﴿يُؤْفَكُونَ﴾: (الهمْزَةُ والفاءُ والكافُ): تدورُ اشتقاقاتُها علَى معنى قَلْبِ شيْءٍ وصَرْفِهِ عَن وَجْهِه[1]، ومنه قولُهُم: أَفَكَهُ عَنِ الشَّيءِ، بمعنى: صرَفَهُ وقلَبَهُ وغيَّر وِجْهَتَهُ إليه[2]، وقولُ اللّهِ تعالى: ﴿أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ معناهُ: مِن أَيْنَ يُصْرَفونَ عَنِ الحَقِّ؟![3].

المَعْنى الإجْماليُّ:

استنكارُ مشابهةِ أهلِ الكتابِ للمُشركين، وتقريعُهم على زَعْمِهم بُنُوَّةَ عُزَيرٍ والمسيحِ لله

بيَّن اللّهُ في هذه الآية أنَّ اليهود أشركوا باللّه عزَّ جلَّ، عندما زَعَموا أنَّ عُزَيْرًا ابنٌ للّه تعالى، وأشْرَكَ النَّصارَى عندما ادَّعَوا أنَّ المسيحَ عيسَى ابنٌ للّه سبحانَه، وهذه المقالَةُ اختلَقوها مِنْ قِبَلِ أَنْفُسِهِم، لا بُرْهانَ لهم عليها، وهم بذلكَ يُحاكونَ قولَ المُشْرِكينَ قبلهم، الزَّاعمينَ أنَّ الملائكَةَ بناتُ اللّهِ سبحانَه، قاتَلَ اللّهُ المُشْرِكينَ كُلَّهُمْ وأَهْلَكَهُمْ، كيفَ يَعْدِلونَ عَنِ الحقِّ ويُصْرَفونَ عنه إلى الباطِلِ؟![4].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالَةُ (الواوِ) في قوله: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ﴾:

انْخِراطُ أَهْلِ الكِتابِ في سِلْكِ أَهْلِ الشِّرْكِ، سفاهةٌ منهم وضلالةٌ

الواوُ في قول اللّهِ ﷻ: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾، عاطفَةٌ ما بَعْدها على جملَةِ: ﴿وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ﴾، والتَّقديرُ: قاتلوا أهلَ الكتاب؛ لأنَّهم كفروا بما وصفناهم به، وقالتِ اليهودُ مِنهُم: عُزيرٌ ابن اللّهِ! وقالتِ النَّصارى مِنْهُم: المسيحُ ابنُ اللّهِ! تَشْنيعًا على قائلِ ذلكَ مِن أهلِ الكتابِ، بأنَّهم قَدْ بلَغوا الغايَةَ في الكُفْرِ، حتَّى اسْتَوَوْا في كُفْرِهِمْ مَعَ المُشْرِكينَ[5]. ويجوزُ أَنْ تكونَ الواوُ اسْتِئنافيَّةً، والجملَةُ بعْدَها مبتدأَةً، سِيقَتْ لتقريرِ ما تقدَّم ذِكْرُهُ، مِن عَدَمِ إيمانِ

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (أفك).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيُّ المؤصَّل: (أفك).
(3) ابن الجوزيّ، تذكرة الأريب في تفسير الغريب، ص: 137.
(4) نخبة من العلماء، التَّفسير الميسَّر، ص: 191.
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/167.

أهلِ الكِتابِ باللّهِ ﷻ، وانْخراطِهم بذلك في سِلْكِ أهلِ الشِّرْكِ[1]، وعلى ذلك تكون هذه الآية مُبَيِّنَةً لحالهم، بأنَّهم بمنزلة المشركين في الشِّرك.

سِرُّ التَّعبير بـ (القول) دون غيره:

في قوله: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ﴾ ﴿وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى﴾، أُوثِرَ التَّعبيرُ بلفظ: ﴿وَقَالَتِ﴾ دونَ غيره؛ لأنَّه أعمُّ، فيُقال: للمُتَصَوَّر في النَّفس قبلَ الإبراز باللَّفظ، قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ لَوۡلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُۚ﴾ [المجادلة: 8]، فجَعَل حديثَ النَّفس قولًا، ويُقال للاعتقاد نحو: (فلانٌ يقول بقول أبي حنيفة)، ويقال: للدّلالة على الشَّيء، ويقال: للعناية الصَّادقة بالشَّيء، إلى غير ذلك مِنَ المعاني التي ذكرها الرَّاغب في مفرداته، وكلُّها مناسبةٌ لسياق الآية؛ فقول اليهود والنَّصارى قبل الإعلان باللَّفظ كان حديثًا في النَّفس، ثمَّ تَحوَّل ذلك إلى اعتقاد، وحاولوا إقامةَ الدَّليل عليه، وبذلوا مِن أسباب العناية للحفاظ على زَعْمِهم الكَثيرَ والكَثيرَ، مِن أجل صِحَّة اعتقاد قولهم.

كلُّ قولٍ ينكرُه العقلُ، ويخالفُهُ الوحيُ، فهو باطلٌ وضلالٌ

دلالَةُ إسناد القول إلى عموم اليهود:

نُسِبَ القولُ في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ إلى عمومِ اليهودِ، مع أنَّ قائِلَ هذا القولِ جَماعَةٌ، أو واحدٌ مِنْهُم، وإنَّما أُسْنِدَ القولُ إلى الجميعِ تجوُّزًا، كما تقولُ العرَبُ: (فلانٌ يَرْكَبُ الخيولَ)، وقد لا يكون له إلَّا فرسٌ واحدةٌ[2]، فهو مجازٌ مُرْسَلٌ، علاقَتُهُ: العموميَّةُ؛ إذْ أُطْلِقَ اللَّفْظُ العامُّ، وأُريدَ بعضُ أفرادِهِ. ويَجوزُ أن يكون نُسِبَ القولُ إلى جميعِهِم، معَ أنَّ القائلَ بعضُهُم؛ لكونِ هذا القولِ فَشا فيهم، ولَمْ يُنْكِروهُ على قائلِهِ، فكانوا بمنزلَةِ مَن قالَهُ.

التَّقاعُسُ عنْ إنكارِ الأَقْوالِ الباطِلَةِ، هو بِمَنْزِلَةِ قولِها واعْتِقادِها

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/59، والقاسميّ، محاسن التَّأويل: 5/390.

(2) الواحديّ، التَّفسير البسيط: 10/368، والرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 16/28، والبقاعيّ، نظم الدُّرر: 8/438.

سِرُّ العُدُول عن عبارة: (الَّذِينَ أوتوا الكِتابَ):

لم يَلتَزِمِ اليهودُ ولا النَّصارى بمتطلَّبات وَصْفِهم بأهل الكتاب

عَدَلَ القرآنُ الكريم عن عبارة: (الَّذِينَ أوتوا الكِتابَ)، كما في الآية السَّابقة، إلى ذِكْر الفريقين: ﴿ٱلۡيَهُودُ﴾ و﴿ٱلنَّصَٰرَى﴾، ومجموعُهما: (أهل الكتاب)؛ لبشاعة الجُرْم الذى ارتكبه كلُّ فريقٍ منهم؛ فهم وإن جمعهم وَصْفُ الكتاب، إلَّا أنَّ بينهما خلافًا في المعتَقَد؛ فاليهود يقولون: عزيرٌ ابن الله، والنَّصارَى يقولون: المسيح ابن الله، وفي هذا دليلٌ على أنَّ كلَّ فريق يتحمَّل عاقبة جُرْمِه.

تَوْجيهُ القِراءاتِ في قوله: ﴿عُزَيۡرٌ﴾:

التَّكامُلُ الدّلاليُّ لِلْقِراءاتِ القُرْآنيَّةِ، مفيدٌ في تجلِيَة المعنى ودقَّتِه

قُرِئَتْ كلمَةُ: ﴿عُزَيۡرٌ﴾ مِن قولِ الله ﷻ: ﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ عُزَيۡرٌ ٱبۡنُ ٱللَّهِ﴾ بوجْهَيْنِ؛ أحدهُما: بِالتَّنوين، وقد قَرأَ بِهذا عاصِمٌ والكِسائيُّ وَيَعْقوبُ. والآخَرُ: بحذفِ التَّنوين، وقرأَ بِهِ باقي العَشَرَةِ[1].

فتَرْكُ تَنْوين ﴿عُزَيۡرٌ﴾ على أنَّ كلِمَةَ ﴿ٱبۡنُ﴾ صفةٌ، والخبرُ محذوفٌ، والتَّقديرُ: قالتِ اليهودُ عُزَيْرُ ابنُ اللهِ معبودُنا[2]، وعلى تنوينِهِ، يكونُ ﴿ٱبۡنُ﴾ خبَرًا، ولا حذْفَ في الجُمْلَةِ، وحُذِفَ الخبَرُ على الوَجْهِ الأوَّلِ؛ لشَناعتِه، كما ذكَرَ أهلُ العِلْمَ نظيرَ ذلك في قول الله سبحانَه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ ٱلۡعِجۡلَ﴾ [الأعراف: 152]، أيْ: معبودًا، وحُذِفَ لبشاعَتِهِ وشناعَتِه.

سِرُّ تقديمِ مقولةِ اليهود على مقولة النَّصارى:

مراعاةُ التَّرتيب الزَّمانيِّ في سرد الأحداث وتحليلها

قدَّم القرآنُ الكريم مقولةَ اليهود الشَّنعاء، في زعمهم بُنُوَّة عُزَير لله، على مقولة النَّصارى في بُنوَّة عيسى لله، مع اشتراكهما في هذا الزَّعم الكاذب؛ مراعاةً للتَّرتيب الزَّمنيِّ، لأنَّ اليهود أسبق في الوجود مِنَ النَّصارى.

(1) ابن الجزريّ، النَّشر في القراءات العشر: 2/279.
(2) الرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 16/29.

شُبهَةُ اليهودِ في زعمهم بُنوَّة عُزَير لله:

إلصاقُ وَصْف البُنوَّة بالله، يتناقض مع تنزيهه عن مشابهة المخلوقين

قوله: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾، تعدَّدت أقوالُ المفسّرين في سبب زعم اليهود هذا؛ فمنهم مَن قال: إنَّ الله بعثه مِن بين الموتى، بعد أن أماته مئةَ عام، يُشير إلى ذلك قولُه تعالى: ﴿أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ ۖ﴾ [البقرة: 259]؛ فاعتَبَروا هذه المعجزةَ دليلًا على بُنوَّته، ومنهم مَن قال: إنَّ التَّوراة قد ضاعت أيَّام الأسر البابليِّ، وضاع أكثرُها مِن علمائهم، ووقعوا في حَيْرة وقلق، بعد أن أعادوا بناء الهيكل، وكان الهيكل في نظرهم أشبَهَ بجسدٍ لا رُوحَ فيه، وهم في هذه الحيرة، طلَعَ عليهم عزيرٌ، وقال لهم: إنَّ الله قد ملأ صدرَه نورًا، فإذا التَّوراةُ محفوظةٌ في قلبه، تجري كلماتُها على لسانه، ثمّ جمع أحبارَهم، وأملى عليهم التَّوراةَ مِن حِفْظِه، إلى غير ذلك من الرِّوايات[1].

بطلانُ زَعْمِ النَّصارى بُنوَّة عيسى لله:

ميلادُ عيسى معجزةٌ باهرةٌ، ولكنَّها لا تستعصي على قدرة الله القاهرة

أخبر الله تعالى عن مقولة النّصارى في المسيح ابن مريم عليه السلام، فقال: ﴿وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ﴾، فقد زعم النَّصارى بُنوَّةَ عيسى ابن مريم لله؛ لأنَّه وُلِدَ مِن رَحِم امرأةٍ لم تتَّصل برَجُل، وجهلوا أنَّ هذا الميلاد، وإن كان عجيبًا خارجًا على مألوف الحياة، فإنَّه ليس خارجًا عن قدرة الله التي لا يُعجزُها شيءٌ، ولا يُقيِّدها قيد[2]، وهم قد قالوا ذلك بأفواههم، و"لم يقيموا عليه حجَّةً، ولا برهانًا، ومَن كان لا يُبالي بما يقول، لا يُستَغْرَب عليه أيُّ قولٍ يقولُه، فإنَّه لا دِينَ ولا عقلَ يحجزُه، عمَّا يريد مِنَ الكلام"[3].

سِرُّ التَّعبير بلفظ: (الابن)، دون: (الولد):

لا يَصِحُّ التَّعبيرُ في حَقِّ الله سبحانه وتعالى، بالابن أو الولد؛ لتَنزُّهِه عن كلِّ

(1) الرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 8/245، والخطيب، التَّفسير القرآنيُّ للقرآن: 4/440.
(2) الرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 8/245، والخطيب، التَّفسير القرآنيُّ للقرآن: 4/440.
(3) السَّعديّ، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 334.

ذلك، أمَّا زَعْمُهم في اختيار لفظ البُنوَّة، باعتبار أنَّ لفظ (الابن) يُذْكَر على سبيل التَّشريف، فهذا زعمٌ باطل؛ لأنَّ التَّشريف الحقيقيَّ في تنزيه المولى سبحانه عنِ الابن والولد والصَّاحبة؛ لقوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ [الشُّورى: 11].

تتجلَّى قُدسيَّة مقامِ الأُلوهيَّة، في تنزيه اللهِ تعالى عنِ الولد

عِلَّةُ فَصْلِ قوله: ﴿ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ﴾ عمَّا قبله:

فُصِلَ قولُ اللّه ﷻ: ﴿ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ﴾ عمَّا قبله؛ لوقوعِه استئنافًا بيانيًّا، وذلك أنَّ اللّهَ سبحانَه لمَّا حكَى مقالَةَ اليهودِ والنَّصارى، في قوله: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ﴾؛ أَوْرَثَ ذلك سؤالًا في نُفوسِ المُتَلَقِّينَ، وهو: فما حقيقَةُ هذه المقالَةِ؟ فجاء الجوابُ في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ﴾؛ للإشْعارِ بأنَّها مقالَةٌ قالوها مِن قِبَلِ أنفُسِهم، ليس لها وَجْهٌ مِنَ الصِّحَّةِ والاعتبارِ.

شَناعَةُ مَقالَةِ أَهْلِ الكِتابِ في جَراءَتِهِمْ على مَقامِ الأُلوهيَّةِ

سِرُّ تَعْريفِ المُسْنَدِ إِلَيْهِ بِالْإِشارَةِ:

عُرِّفَ المسنَدُ إليه بالإشارَةِ، في قول اللّه ﷻ: ﴿ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ﴾؛ لتَتميَّزَ مقالَتُهُمْ أَكْمَلَ تَمْييزٍ؛ إذِ الإشارَةُ في ﴿ذَٰلِكَ﴾، إلى ما تقدَّمَت حكايتُهُ عَنْهُمْ، مِن مقالَةِ الكُفْرِ، ونِسْبَةِ الولَدِ إلى اللّهِ سبحانَه، فإذا تميَّزَتْ مقالَتُهُم؛ تبيَّنَ ما ترتَّب عليه مِنَ الجزاءِ المذكورِ بَعْدُ، أَبْلَغَ بيانٍ.

تَمْييزُ مَقالَةِ أَهْلِ الكِتابِ؛ لإحقاقِ الحقِّ، وإبطالِ الباطلِ

نُكْتَةُ التَّعْبيرِ بِاسْمِ الإِشارَةِ الدَّالِّ على البُعْدِ:

جاءَ التَّعبيرُ بِاسْمِ الإشارَةِ الدَّالِّ على البُعْدِ ﴿ذَٰلِكَ﴾، في قول اللّهِ ﷻ: ﴿ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ﴾؛ للإشارة إلى ما صدر عنهم من العظيمتين؛ (وهما القول ببُنوَّة العُزَير، وبُنوَّة عيسى عليه السلام للّه سبحانه)، وفيه إيماءٌ إلى عظَمَةِ مقالَتِهم في الكُفْرِ وشَناعتِها، وإيذانٌ ببُعْدِ درجَتِها في الفظاعَةِ، وبُعْدِها مِنَ العُقولِ، وتكذيبها لِلْمَنْقولِ[1].

مَقالَةُ أَهْلِ الكِتابِ بعيدةٌ عنِ المعقولِ، مناقضةٌ لِلْمَنْقولِ

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 8/438، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/59.

دِلالَةُ التَّعْبيرِ بِالْأَفْواهِ:

مَقالَةُ أَهْلِ الكِتابِ قولٌ بالأفواه، مُجرَّدٌ مِنَ البُرْهانِ على ألوهيَّة غيرِ الله

جاءَ التَّعبيرُ بالأَفْواهِ في قوله سبحانَه: ﴿ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾ مع أنَّ كلَّ قولٍ إنَّما يُقالُ بالفَم، وَفي ذلكَ نِكاتٌ[1]؛ إحْداها: الإيماءُ إلى بُطلانِ هذهِ المقالَةِ، وأنَّها مقالَةٌ لا تُجاوِزُ في حقيقَتِها الأفواهَ إلى العقولِ؛ لأنَّه لا يَتَصوَّرُها أيُّ عاقلٍ؛ فهي مجرّد كلام يُلْقَى على عواهنه، مِن غير أن يُحتَكَمَ فيه إلى عقل أو منطق. وثانيها: سُقوطُ هذه المقالَةِ، وأنَّها مقالَةٌ مُهْمَلَةٌ مجرَّدَةٌ عنِ البُرْهان، فهي بمنزِلَةِ أصواتِ البهائِمِ العُجْمِ، فلا يتحقَّقُ لها أيُّ معنًى. وثالثُها: تأكيدُ نسبَةِ القَوْلِ المذكورِ إليهم، وأنَّه صادِرٌ منهم حقيقةً، فلم يَحْكِه أحدٌ عنهم، أو ينطق به شاهد الحال عليهم، إنَّما هو قولٌ قالوه بأفواههم، لا يستطيعون دفعَه أو إنكاره[2]. ورابعُها: الإشْعارُ بأنَّ هذا القولَ مختارٌ لهم قَصْدًا، وأنَّه قد بلَغَ بهِمُ الإجْرامُ إلى أنَّهُم لا يتحاشَوْنَ التَّصريحَ بهِ، وذلك أنَّ المَرْءَ رُبَّما يُنبِّهُ على مَذْهَبِهِ كِتابَةً أو كنايَةً، فإذا صرَّحَ وذَكَرَهُ بلسانِهِ؛ كان ذلك غايةً في التَّنْويه، باختيارِهِ وقَصْدِهِ إليهِ. وخامِسُها: الإشارةُ إلى أنَّهُمْ دَعَوُا الخَلْقَ إلى قولهم هذا، حتَّى تداولَتْهُ الأفواهُ والألسِنَةُ.

بلاغة المجاز المُرسل:

التَّعبيرُ بلفظ: (الأفواه) على (الألسن)، مِن دِقَّة السِّياق

مَن يقرأ القرآنَ الكريم، يجد في بعض الآيات إسنادَ القولِ للألسُن، كما في قوله: ﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ [الفتح: 11]، وفي بعضها يُسْنَد للأفواه، كما في قوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: 167]، وكما هنا في هذه الآية: ﴿ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾، ومعلوم أنَّ اللِّسان جزءٌ مِنَ الفَم، فأَطْلَق الأفواهَ وأراد

(1) الزَّمخشريّ، الكشَّاف: 2/264، والرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 16/29 - 30، والبقاعيّ، نظم الدُّرر: 8/438 - 439، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/59، والآلوسيّ، روح المعاني: 5/275، وأبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 6/3281.

(2) الخطيب، التَّفسير القرآنيُّ للقرآن: 5/741.

الأَلسُنَ، وهذا مجاز مرسلٌ علاقتُه الكليَّة، حيث أُطْلِق الكلُّ، وهو الأفواه، وأُريدَ الجزءُ، وهو الألسُن، ولعلَّ السِّرَّ في ذلك إبرازُ حرصِهم على ما يقولون، ومحاولةُ إظهارِ أنَّهم على الحقِّ، فيستجمعون هذا القولَ الكاذبَ في جميع أفواههم؛ فكأنَّ كلَّ جُزءٍ مِنَ الفَم عند كلِّ فَرْدٍ منهم، يتكلَّم بهذا الكذب، وليس اللِّسانُ وحدَه.

دلالةُ (الباء) في قوله: ﴿بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾:

دلَّتِ الباءُ في قوله تعالى: ﴿بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾، على شِدَّة الالتصاق؛ فكأنَّ أفواهَهم لا تنطِق إلَّا بهذا القول، وفي هذا تصويرٌ لشِدَّة التِصاقِ اللِّسان بالأفواه، وما يردِّدُونَه هو "قول تُردِّدُه أفواهُهم بألسنتهم، ولا يُدركِونَ له حقيقةً يتصوَّرُونها، فهم يُردِّدُون: الواحدُ ثلاثةٌ، والثَّلاثةُ واحدٌ، وإذا سألتَهم عن مميِّزات كلِّ واحدٍ، وكيف يجتمعون، لم يَحِيْرُوا جوابًا إلَّا أن يقولوا: هذه غيبيَّاتٌ يُصَدِّقُها العقلُ الدِّينيِّ، ولا يُصَدِّقُها العقلُ والمنطقُ"[1].

مَن أوغلَ في الضَّلال وأسرفَ، صار يَهرِف بما لا يَعْرِف

عِلَّةُ فَصْلِ قولِه: ﴿يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ عمَّا قبلَه:

فُصِلَ قولُ اللهِ ﷻ: ﴿يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ﴾ عمَّا قبلَه؛ لوقوعِه استئنافًا بيانيًّا، فبينَ الجُمْلَتين شِبْهُ كمالِ الاتِّصالِ، ووَجْهُ ذلك: أنَّ قولَ اللهِ سبحانَه: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾ يَبْعَثُ في نَفْسِ المُتَلَقِّي سؤالًا، وهو: ما لهم إذا كان هذا حالَهُم فيما قالوه؟ فجاء الجوابُ في قوله ﷻ: ﴿يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ﴾.

انْحِرافُ أَهْلِ الكِتابِ، مع نَصاعةِ الهُدى وبُروزِه

سِرُّ التَّعبيرِ بقوله: ﴿يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾:

عبَّر القرآنُ الكريم بالفعل: ﴿يُضَٰهِـُٔونَ﴾؛ للدّلالة على أنَّهُم قومٌ طُبِعوا على التَّشبُّهِ بِمَنْ يَفْعَلُ المفاسدَ، كما أنَّهم حاكَوْا عبدَةَ الأوْثانِ، فانحرَفوا عَنِ الهُدَى، والأنبياءُ بينَ أظْهُرِهِم، يَدْعونَهُمْ إلى الحقِّ،

التَّشبُّهُ بالضَّلال مَفْسدةٌ في الأقوال والأفعال

(1) الخطيب، التَّفسير القرآنيُّ للقرآن: 5/741.

وكتابُهُم يُنادي بمثل ذلك[1]، "ولا شَكَّ أنَّ وصفَ الذين كفروا ينطبق عليهم، وهم يشابهونهم في أنَّهم أشركوا في العبادة غير الله، كما أشرك أولئك الأوثان"[2].

دلالَةُ الإيجازِ بالحذف:

مُبالَغَةُ أَهْلِ الكِتابِ في مُحاكاةِ ضلالِات المُشْرِكينَ

في قولِ اللهِ ﷻ: ﴿يُضَٰهِـُٔونَ قَوۡلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبۡلُۚ﴾ إيجازٌ بالحذْفِ، والمعنى: يُشابِهُ قولُهُم قولَ الذين كفَروا؛ لظهورِ أنَّ المقصودَ ليس مشابَهَةَ ذواتِهِم لمقالَةِ الكُفَّارِ، وإنَّما مشابهَةُ القولِ القَوْلَ، فحُذِفَ المضافُ وأُقيمَ المضافُ إليه مُقامَهُ[3]، ونُكْتَةُ الإيجازِ: الإيماءُ إلى مبالغَتِهِمْ في محاكاةِ طريقةَ المُشْرِكينَ.

نُكْتَةُ التَّعبيرِ بِجُملة الصِّلَةِ:

أَهْلُ الكِتابِ سائرون في طَريقِ الكُفْرِ، غالون في مسالكه ودُروبه

في التَّعبير بالاسْمِ الموصولِ وصِلَتِه: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾، زيادَةُ تشنيعٍ لمقالَةِ أهلِ الكتابِ، وأنَّ الذي حمَلَهُمْ على تلك المقالَةِ، هو الكُفْرُ ومُشابَهَةُ أهْلِهِ، وأنَّهُمْ سائِرونَ في طريقِ الكُفْرِ، غالونَ فيه.

سِرُّ مجيءِ جُمْلَةِ الصِّلَةِ فِعْلًا ماضيًا:

ثُبوتُ كُفْرِ أَهْلِ الكِتابِ، بالأقاويلِ والمضاهاةِ والغِلَابِ

في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾، جاءتْ جملَةُ الصِّلَةِ فِعْلًا ﴿كَفَرُواْ﴾ في قول اللهِ ﷻ: ﴿يُضَٰهِـُٔونَ قَوۡلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبۡلُۚ﴾؛ للدّلالَةِ على تجدُّدِ الكُفْرِ فيهم، وأنَّ كُفْرَ أهلِ الكِتابِ مِنَ اليهودِ والنَّصارى الذين قالوا تلك المقالَةَ الشَّنيعَةَ، متجدِّدٌ فيهم كَتَجَدُّدِهِ فيمَنْ ضاهَوْهُ، وفي الإتيانِ بجملَةِ الصِّلَةِ فِعْلًا ماضيًا إشعارٌ بأنَّ وَصْفَ الكُفْرِ ثابتٌ لهم، مُتَحَقِّقٌ فيهم.

نُكْتَةُ حَذْفِ مُتَعَلَّقِ الكُفْرِ:

مُنتَهى الكُفْرِ التَّكْذيبُ بجميعِ ما أَوْجَبَ اللهُ تعالى الإيمانَ به

حُذِفَ مُتَعلَّقُ الفعلِ (كَفَروا) مِن قولِ اللهِ سبحانَه: ﴿يُضَٰهِـُٔونَ قَوۡلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبۡلُۚ﴾ وهو المَكْفورُ بهِ؛ لإرادَةِ العُمومِ؛ وذلك

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 8/439.
(2) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 6/3281.
(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/59، والآلوسيّ، روح المعاني: 5/275.

لأنَّ حَذْفَ المَعْمولِ مُؤذِنٌ بذلك، والمعنى: كفَروا بِجَميعِ ما يَجِبُ أن يُؤْمِنوا به شَرْعًا.

دلالَةُ المراد باسْمِ المَوْصولِ ﴿ٱلَّذِينَ﴾:

الكُفْر ما يَرِثُه أغرارٌ مِنَ الأخلاف، عن سُفهاءَ مِنَ الأسلاف

تَعَدُّدُ المرادِ باسم الموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾ من قول اللّهِ ﷻ: ﴿يُضَٰهِـُٔونَ قَوۡلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبۡلُۚ﴾؛ فذهب قومٌ إلى أنَّها لِلْعَهدِ، والمرادُ بهُ: ناسٌ مَخْصوصونَ، وهُمْ مُشْرِكو أهلِ مكَّةَ وأمثالُهم؛ الذين زعموا أنَّ المَلائِكَةَ بناتُ اللّهِ تعالى، أوِ المُرادُ بهم: قُدَماءُ أهلِ الكتابِ، والمعنى: أنَّ اليهودَ والنَّصارى الذين كانوا في عصْرِ النَّبيِّ ﷺ شابَهَ قولُهم في عُزَيْرٍ وعيسَى، قولَ آبائِهِم الأقْدَمينَ، فوَرِثوا الكُفْرَ كابرًا عَنْ كابرٍ، وذهب بعضُهم: إلى أنَّها لِلْجِنْسِ الدَّالِّ على العُموم، والمرادُ: جميعُ الأممِ التي ضلَّتْ وانحرفَتْ عنِ الهُدَى والحقِّ، وأشْرَكَت مع اللّهِ تعالى غيْرَهُ، وهذا الوَجْهُ أَوْلَى[1].

دلالَةُ (مِنْ)، في قوله: ﴿مِن قَبۡلُۚ﴾:

تَغْييرُ مُشْرِكي العَرَبِ دينَ إبْراهيمَ عليه السلام، حقيقةٌ لا ريبَ فيها

في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿يُضَٰهِـُٔونَ قَوۡلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبۡلُۚ﴾، (مِنْ) أفادَتْ مَعْنَيينِ؛ أحدُهُما: توكيدُ المعنى وتَقْوِيَتُهُ، وهذا هو المعنى الغالِبُ على (مِنْ) الواقِعَةِ مع (قَبْلُ) و(بَعْدُ). والآخَرُ: الإيماءُ إلى كُفْرِهم لم يسْتَغْرِق الزَّمَنَ السَّابقَ، فمعنى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبۡلُۚ﴾ أي: الذين كَفَروا مِن قَبْلِ أَنْ يحْدُثَ منهم هذا القولُ، وفي هذا دليلٌ على أنَّ مُشْرِكي العرَبِ قد غَيَّروا دينَ إبراهيمَ[2] عليه السلام.

دلالَةُ الخَبَرِ في قوله: ﴿قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۖ﴾:

الدُّعاءُ على أَهْلِ الكِتابِ بِالإهْلاكِ، والتَّعَجُّبُ مِن شَناعَةِ مَقالَتِهِم

جُمْلَةُ: ﴿قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۖ﴾، خَبريَّةٌ في لَفْظِها، والمُرادُ بها: الدُّعاءُ، ثمَّ كَثُر استعمالُهم لها، حتَّى قالوها على جهة التَّعجُّب في الخير والشَّرِّ، وهم لا يريدون الدُّعاء، فالجُمْلَةُ مجازٌ مُرسَلٌ مُركَّبٌ، وفيها

(1) طنطاويّ، التَّفسير الوسيط: 6/259.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 8/439.

دعاءٌ عليهم بالإهْلاكِ وأنواعِ الشُّرورِ، وتعجُّبٌ مِن شناعَةِ مقالَتِهِمْ وفظاعَتِها[1]، فهم أحقَّاء بأن يُقال لهم هذا، وصيغَةُ المُفاعلَةِ: ﴿قَٰتَلَهُمُ﴾ يُرادُ بها المُبالَغَةُ في الدُّعاء، والمُراد: قَتَلَهُم اللّٰهُ قَتْلًا شَديدًا[2]، فهي ليست مِن باب المفاعلة[3].

نُكْتَةِ تَعْريفِ المُسْنَدِ إليه بالعلميَّةِ:

الدُّعاءُ بمقاتلة اللهِ للمارقين، يُفْضِي إلى مصيرٍ مَهين

عُرِّفَ المسنَدُ إليه بالعلَميَّةِ، في قولِ اللّٰه ﷻ: ﴿قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ﴾؛ لبيانِ عَظَمَةِ هذهِ المُقاتَلَةِ وشِدَّتِها، إذْ هي مقاتَلَةُ المَلِكِ الأَعْظَمِ الذي جمع صفاتِ الجَلالِ والكَمالِ، وله الإحاطَةُ عِلْمًا وقُدْرَةً؛ ومَن قاتَلَهُ لَمْ يَنْجُ[4].

دلالَةُ الاِسْتِفْهامِ:

التَّعَجُّبُ والتَّعْجيبُ مِنْ حالِ أَهْلِ الكِتابِ في اتِّباعِ الباطِلِ

قولُ اللّٰهِ سبحانَه: ﴿أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ جملَةٌ إنشائيَّةٌ استفهاميَّةٌ، ولا يُرادُ بها حقيقتَها؛ مِن طَلَبِ العِلْمِ بشيءٍ لم يكُنْ معلومًا مِن قبلُ، فإنَّ اللّٰهَ ﷻ محيطٌ بكلِّ شيءٍ عِلْمًا، وإنَّما خرجَ هذا الاسْتِفْهامُ عن أَصْلِهِ إلى معنى التَّعجُّب والتَّعجيبِ مِن حالِهِم في الاتِّباعِ الباطِلِ، حتَّى كأنَّ المكانَ الذي يُصْرفونَ إليهِ بعَقيدَتِهِم الفاسدَةِ، بمنزِلَةِ المكانِ المجهولِ الذي مِن شأْنِهِ أن يُسأَلُ عَنْهُ باسْمِ الاستفهامِ عَنِ المكانِ[5].

سِرُّ التَّعبيرِ بقوله: ﴿يُؤْفَكُونَ﴾ دون (يُصْرَفونَ):

استخدم القرآنُ لفظَ: (الإفك) في الذَّمِّ والتَّقريعِ والتَّوبيخ

جاء التَّعبيرُ بلفظ: (الإفك) دون (الصَّرف)؛ لأنَّ الإفكَ كَذِبٌ يقلِبُ الأوضاع ويقلب الحقائق، ويُقال: أَفِكَ الرَّجلُ عن كذا، إذا عَدَلَ عنه، ومنه: الأَفَّاكُ الذي يصرِف النَّاسَ عنِ الحقِّ، بخلاف الصَّرف، فيُستعمَل في القرآن في مطلق التَّحويل والتَّنقُّل مِن حالٍ

(1) أبو حيَّان، البحر المحيط: 5/403، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/60، والآلوسيّ، روح المعاني: 5/275 - 276.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/169.
(3) أبو حيَّان، البحر المحيط: 5/32.
(4) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 8/441.
(5) أبو حيَّان، البحر المحيط: 5/403، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/169.

إلى حالٍ، وعلى هذا، فالإفكُ يختلف عنِ الصَّرف، في أنَّه مِن فصيلة الكذب، وهذا هو المناسبُ لسياق الآية؛ لأنَّ اليهود والنَّصارى كذبوا في زَعْمِهم هذا، بل وقلبوا الحقائقَ، فجعلوا ما للبشر مِنَ الولد للّه سبحانه، وهذا كُفْرٌ بَواحٌ، وممَّا يؤكِّد الفرقَ بينهما، أنَّ القرآن استخدم الإفكَ في مواضع الذَّمِّ والتَّقريع والتَّوبيخ، وهذا واضحٌ في آيات القرآن الكريم؛ بخلاف الصَّرف[1].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

أَفَكَ وصَرَفَ:

الإفْكُ أَخَصُّ مِنَ الصَّرف؛ وهو صَرْفٌ وتحويلٌ، باستعمالِ الإفْكِ وسيلةً لذلك

وَرَدت مادَّة (أفك) في السِّياقاتِ القرآنيَّةِ، في ذَمِّ الكفَّار والمكذِّبين، كما في قولِ اللّه سبحانَه: ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [المائدة: 75]، وقوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۖ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [التوبة: 30]، وقوله ﷻ: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْحُبُكِ ﴿٧﴾ إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ﴿٨﴾ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ﴿٩﴾﴾ [الذّاريات: 7 - 9]، ووردَت هذه المادَّةُ كذلك في موضعٍ واحدٍ، حكايةً لقولِ الكُفَّار في مخاطبتهم هودًا عليه السلام، كما قال تعالى: ﴿قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٢﴾﴾ [الأحقاف: 22]، وذلك لكونِهمْ كانوا مُكذِّبين له، كما يَدلُّ عليهِ آخرُ الآية: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾، في حين أنَّ الصَّرْفَ استُعمِلَ في القرآن الكريم لمُطْلَقِ التَّحويلِ والرَّدِّ، وأُسْنِدَ ذلك إلى اللّهِ سبحانَه، كما في قوله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن

(1) الرَّاغب، المفردات: (أفك، صرف).

يُرِيدُ ٱلدُّنۡيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۚ ثُمَّ صَرَفَكُمۡ عَنۡهُمۡ لِيَبۡتَلِيَكُمۡۖ وَلَقَدۡ عَفَا عَنكُمۡۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٥٢﴾﴾ [آل عمران: 152]، وقولِه تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [يوسف: 24]، وفي هذه المواضِعِ وغيرِها لا يجوزُ أنْ يَرِدَ فيها لَفظُ الإفِكِ بدلًا مِنَ الصَّرْفِ؛ لأنَّ المقصودَ في جميعِها ردُّ الشَّيءِ مِنْ حالٍ إلى حالٍ، أو إبدالُهُ بغَيْرِهِ، وليس فيهِ تَقْييدُهُ بوصفِ الكذِبِ، كالتي وردَ فيها لفْظُ الإفْكِ[1].

(1) محمَّد داود، معجم الفروق الدلاليَّة في القرآن الكريم، ص: 62 - 64.

﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ٣١﴾ [التَّوبة: 31]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

المناسبة بين بشاعة نسبة الولد إلى الله تعالى، واتّخاذهم الأحبارَ والرُّهبان أربابًا

لمَّا ذكر اللهُ تعالى في الآية السَّابقة المقالةَ الشَّنيعة التي قالها اليهودُ والنَّصارى، في زَعْمِهم أنَّ لله تعالى ولدًا، وعَجَّبَ مِن صنيعِهم كيف يُصرَفون عنِ الحقِّ إلى الباطِلِ، ذكر في هذه الآية بيانَ سَبَبِ هذا الضَّلالِ، وهو أنَّهم اتَّخذوا أحبارَهُم ورهبانَهُم بمنزِلَةِ الأربابِ، في تحليلِ الحرامِ وتحريمِ الحلالِ، وتشريعِ الأقوالِ المنافيَةِ لدِينِ الرُّسُلِ عليهم السلام، فيتَّبِعونَهُمْ ويَتْرُكونَ الحقَّ الذي جاءَتْ به الرُّسُلُ[1]. وممَّا يُذكَر في المناسبة أيضًا، أنَّه لمَّا ذَكَرتِ الآيةُ السَّابقة شِركَ أهلِ الكتاب في عبادتهم للمسيح عليه السلام، جاءت هذه الآيةُ بلونٍ آخَرَ مِنَ الشِّرك في أحكامه، حيث اتَّخذوا علماءَهم وعُبَّادَهم أربابًا مِن دون اللهِ؛ في تحليل الحرام وتحريم الحلال.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَحۡبَارَهُمۡ﴾: (الحاءُ والباءُ والرَّاءُ): تدورُ اشْتِقاقاتُها على أثَرٍ في حُسْنٍ وبهاءٍ، ومنه: الشَّيءُ المُحَبَّرُ؛ وهو المُزيَّنُ، والحِبْرُ: هو المِدادُ الذي يُكْتَبُ بِهِ؛ لما فيه مِن أثَرٍ على الورَقِ ونَحْوِه، ويُقالُ لِلَّذي يكتُبُ بالحِبْرِ: حِبْرٌ وحَبْرٌ، وهو العالِمُ، وجَمْعُهُ: أحبارٌ[2]، وسُمُّوا أحبارًا لما يَبْقَى مِن أثرِ علومِهم وآثارِ أفعالِهم الحسَنَةِ المُقْتَدَى بِها

(1) السَّعديّ، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 334.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (حبر).

في قلوب الخَلْقِ، ومنه قولُ اللهِ ﷻ: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾[1]، والمُرادُ بِهِم هُنا: عُلَماءُ اليَهودِ[2].

2) ﴿وَرُهۡبَٰنَهُمۡ﴾: (الرَّاءُ والهاءُ والباءُ): تدلُّ تَصْريفاتُها على أَصْلَيْنِ؛ أحدهُما: الخَوْفُ، والآخَرُ: الدِّقَّةُ والخِفَّةُ[3]، ومِنَ الأوَّلِ قولُهُم: رَهِبْتُ الشَّيءَ أَرْهَبُهُ رَهْبَةً ورَهَبًا، أي: خِفْتُهُ[4]، والرَّهْبَةُ: هي الخَوْفُ المقرونُ بالعَمَلِ[5]، ومنه: الرَّاهِبُ؛ وهوَ عابِدُ النَّصارَى[6]، وسُمِّيَ بذلك لأنَّ الذي حَمَلَهُ على الانْقِطاعِ إلى العبادَةِ، هو الخَوْفُ مِنَ اللهِ تعالَى، ويُجْمَعُ على: رُهْبانٍ، ورهابينَ، ورَهابنَة، ورَهْبانين[7].

3) ﴿أَرۡبَابٗا﴾: (الرّاءُ والباءُ): تَدورُ تَصاريفُها على مَعانٍ، منها: إِصْلاحُ الشَّيءِ والقيامُ عليه، ومنه يُقال: رَبَّ فلانٌ ضَيْعَتَهُ؛ إذا قامَ على إصْلاحِها[8]، ومنه: التَّربيَةُ؛ وهي إنشاءُ الشَّيءِ حالًا بعْدَ حالٍ إلى حَدِّ التَّمام، ولا يكونُ ذلكَ إلَّا بإصْلاحٍ وعنايَةٍ[9]، ومنه: سُمِّي الرَّبَّانيُّونَ بِهَذا الاسْمِ؛ لقيامِهِم بتَدْبير أُمورِ النَّاسِ وإصْلاحِها[10]، ويُطْلَقُ الرَّبُّ بِمَعْنَى: المعبودِ؛ وذلك لما فيه مِن وصْفِ إصْلاحِ عابديهِ، وقيامِه على تدْبيرِ شؤونِهم، ولا يُطْلَقُ مُعرَّفًا باللَّامِ إلَّا على اللهِ سبحانَه، ومِنْ هذا المعنى: قولُ اللهِ ﷻ: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾؛ فإنَّ معناهُ: اتَّخذوهُمْ معبوداتٍ يَلْتَزِمونَ أوامرَهُمْ ونواهيَهُم.

المَعْنى الإجْماليُّ:

أخبر اللهُ تعالى في هذه الآية أنَّ اليهود والنَّصارى اتَّخذوا العلَماءَ والعُبَّادَ أربابًا، يَشْرَعونَ لهم مِنَ الشَّرائِعِ والأقوالِ المُنافيَةِ لدينِ الرُّسُل، فَيَتَّبِعونَهُم عليها ويتْركونَ

(1) الرَّاغب، المفردات: (حبر).
(2) الخضيريّ، السِّراج في بيان غريب القرآن، ص: 76.
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (رهب).
(4) الخليل، العين: (رهب).
(5) ابن عثيمين، شرح ثلاثة الأصول وأدلتها، ص: 59.
(6) الفيوميّ، المصباح المنير: (رهب).
(7) الزَّبيديّ، تاج العروس: (رهب).
(8) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (رب).
(9) الرَّاغب، المفردات: (رب).
(10) نَشوان الحِمْيَريّ، شمس العلوم: (رب).

الشَّرْعَ المُنزَّلَ، واتَّخذوا المسيحَ عيسَى عليه السلام إلَهًا، فعَبَدوه مِن دون اللّهِ سبحانَه، وقد أمَرَهم اللّهُ ﷻ بعبادَتِه وَحْدَهُ دونَ ما سواهُ، فهو الإلَهُ المستحقُّ للعِبادَةِ، لا إلهَ إلَّا هوَ، تَنَزَّه وتَقَدَّس وتَعالَت عَظَمَتُهُ عَن شِرْكِهم وافْترائِهم[1].

بيانُ اتِّخاذِ النَّصارى واليهود أربابًا مِن دون الله المعبود

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

عِلَّةُ فَصْلِ قولِه: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا﴾ عمَّا قبلَه:

فُصِلَ قولُ اللّهِ ﷻ: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا﴾ عمَّا قبلَهُ؛ لوقوعِه استِئنافًا بيانيًّا، فبيْنَ الجُمْلَتينِ شِبْهُ كمالِ الاتِّصالِ، وذلكَ أنَّ اللّهَ سبحانَه لـمَّا حكَى مقالةَ أهلِ الكتابِ مِنَ اليهودِ والنَّصارى، في زَعْمِهم أنَّ للّه تعالى ولدًا؛ أَوْرَثَ ذلك في نفوسِ المُتَلقِّين سؤالًا؛ وهو: فما سَبَبُ اتِّفاقِ أُمَّةٍ كبيرةٍ كثيرةِ العَدَدِ على هذا القَوْلِ البَيِّنِ البُطْلانِ؟ فبيَّنَ اللّهُ سبحانَه سبَبَ ذلكَ، وهو أنَّهم: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا﴾ يَشْرَعونَ لهم مِنَ العقائدِ والأعمالِ والأقوالِ المُنافيَةِ لما جاءَتْ بهِ الرُّسُلُ، فَيَتَّبِعونَهُم عليها[2].

سَبَبُ ضَلالِ أَهْلِ الكِتابِ، اتِّخاذُهُمْ الأَرْبابَ مِن دون العليِّ الوهَّاب

دلالَةُ الخَبرِ في قولِه: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ﴾:

الجملةُ الخبريَّةُ في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا﴾ واردةٌ مُرادًا بها زيادَةُ التَّشْنيعِ عليهم، وبيانُ شِدَّةِ جراءَتِهِمْ على الباطِلِ، وفيها: زيادَةُ تقريرٍ لما سلَفَ مِنْ كُفْرِهِمْ باللّه تعالى[3].

زيادَةُ التَّشْنيعِ على أَهْلِ الكِتابِ؛ لجَراءَتِهِم على الباطِلِ

دلالَةُ التَّعْبيرِ بِالاتِّخاذِ:

عُبِّرَ بالاتِّخاذِ في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾، ومعناه: حَوْزُ الشَّيءِ وتحصيلُه، وهو بصيغَةِ الافْتِعالِ التي تَدُلُّ على التَّكلُّفِ في فعلِ الشَّيءِ، وفي هذا دلالةٌ على أنَّ فِعْلَهُمْ

شِدَّةُ انْحِرافِ أَهْلِ الكِتابِ، بالرُّكونِ لمشرِّعين سواه

(1) السَّعديّ، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 334، ونخبة مِنَ العلماء، التَّفسير الميسَّر، ص: 191.
(2) السَّعديّ، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 334.
(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/60، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/169.

مناقِضٌ لِلْفِطْرَةِ السَّليمَةِ، ومخالِفٌ للشَّرائعِ المستَقيمَةِ؛ حيثُ إنَّهم قَدْ كَلَّفوا أنفسَهُمُ العدولَ عن توحيد اللّهِ تعالى وعبادته، القادرِ على كلِّ شيءٍ، إلى مَن هو مِنْ جنْسِهم في الخِلْقَةِ[1]، وهذا يدلُّ على أنَّ الأَتْبَاعَ تمسَّكُوا بأحبارهم ورُهبانهم، وجعلوا لهم الكلمةَ فيهم، والعقلَ المُدَبِّرَ لهم؛ فكلامُهم وأحكامُهم لا مُعَقِّبَ عليها عندَهم، وهذا دليلٌ على فساد عقيدتهم، وشدَّةِ انْحِرافِهِمْ، وعظيمِ مُعانَدَتِهم؛ حيثُ إنَّ داعيَ الفِطْرَةِ يَدْعوهُم إلى الحقِّ، والشَّرائعَ تُنبِّهُهُم على مواطِنِ الخَيْرِ، ومع ذلك نازعَتْهُمْ نفوسُهُم الخبيثَةُ إلى مخالفَةِ ذلكَ ومُنابذَتِه.

دلالَةُ التَّعْبيرِ بالفِعْلِ الماضي:

عُبِّر بالفعْلِ الماضي: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ﴾، مِن قولِ اللّهِ سبحانَه: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾؛ للإيماءِ إلى تحقُّقِ هذا الفِعْلِ الشَّنيعِ منهم، وأنَّهم حَقيقونَ بالذَّمِّ والتَّوبيخِ.

بلاغة اللَّفِّ والنَّشْرِ:

في قول اللّهِ ﷻ: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ لَفٌّ ونَشْرٌ مُرتَّبٌ، ووجهُ ذلكَ: أنَّ لفظَ الأَحْبارِ، يختصُّ في عُرْفِ الاسْتِعْمالِ بعلماءِ اليهودِ، ولفظَ الرُّهْبانِ بعُبَّادِ النَّصارى[2]، فكانَ قولُ اللّهِ ﷻ: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ﴾ راجعًا إلى اليهودِ والنَّصارى المذكورين قبلُ، في قوله سبحانَه: ﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ عُزَيۡرٌ ٱبۡنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ ٱللَّهِۖ﴾، على إرادَةِ التَّوزيعِ، والمعنى: اتَّخذَ اليهودُ أحبارَهُمْ أربابًا مِنْ دونِ اللّهِ سبحانَه، واتَّخذَ النَّصارَى عُبَّادَهُم أربابًا مِنْ دونِ اللّهِ تعالى، وتُرِكَ بيانُ ذلكَ ثِقَةً بأنَّ السَّامِعَ يَردُّ كُلَّ مَعْنًى إلى موضِعِهِ.

فَداحَةُ صَنيعِ أَهْلِ الكِتابِ، جَعَلَتْهُمْ مُستَحِقِّينَ للذَّمِّ والتَّوْبيخِ والعِتاب

حكمةُ البيانِ وروعتُه، في رَدِّ كلِّ معنًى إلى موضعه مِنَ السِّياق

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 8/441.

(2) الرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 16/30 - 31، والبقاعيّ، نظم الدُّرر: 8/441.

دلالةُ التَّعبير بضمير الجماعة:

دلَّ التَّعبير بضمير الجماعة في ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ﴾ على أنَّ هذا الشِّركَ في أمر الأحكام، من ناحية التَّحليل والتَّحريم، هو مسلكٌ جماعيٌّ تبنَّاه جميعُ أهلِ الكتاب، وهذا يدلُّ على فساد طبيعتهم، فضلًا عن عقيدتهم؛ لغياب مَن يأمر بالمعروف وينهى عنِ المنكر، قال تعالى: ﴿كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ٧٩﴾ [المائدة: 79].

لايُحلِّل ويُحرِّم إلَّا الخالقُ البصير، لأنَّه أعلمُ بمن خلق، وهو اللَّطيف الخبير

دلالَةُ تَقْديمِ الأَحْبارِ على الرُّهْبانِ:

قُدِّمَ ذِكْرُ الأحْبارِ على الرُّهْبانِ، في قولِ اللهِ ﷻ: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾؛ ليُناسِبَ ذلكَ تقديمَ اليهودِ على النَّصارَى، المذكورَ قَبْلُ؛ وذلك لما عُلِمَ مِن أنَّ الأحبار عُلماءُ اليهودِ، والرُّهْبانَ عُبَّادُ النَّصارى، وفي تقديم الأحْبارِ - وهُمُ العلَماءُ - زيادَةٌ في تشنيعِهم وتوبيخِهم؛ لأنَّ الأصْلَ أنَّ العُلَماءَ أَعْرَفُ الخَلْقِ بالحقِّ، فلا تَقعُ مِنْهُمْ منافاةٌ له، وهؤلاء الأحبارُ قد صَدَرَ منهم ما يُخالِفُ أصلَ التَّوحيدِ، بنِسْبَتِهم الولدَ للّه تعالى، فكان فِعْلُهم أقْبَحَ، وصنيعُهم أشْنَعَ، وفيه دلالة على أفضليَّة العلماء على العُبَّاد، إذا هم قاموا بدورهم في الإرشاد والبيان.

مُخالَفَةُ العُلَماءِ لِلْحَقِّ المبين، مُنتَهى القُبْحِ والنُّكوصِ المهين

دلالةُ الإضافةِ في (الأحبار) و(الرُّهبان):

دلَّتِ الإضافةُ في أحبارهم ورهبانهم، في قوله تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ﴾، على أنَّهم همُ الذين صنعوهم، وأَعْطَوْهم هذه المكانةَ؛ فهي إضافةُ اكتسابٍ ومنافع، وليست مِن باب الاصطفاء والاختيار، وليُفَرَّق بينَ مَن كان على المنهج الصَّحيح، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَا ٱلتَّوۡرَىٰةَ فِيهَا هُدٗى وَنُورٞۚ يَحۡكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسۡلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلۡأَحۡبَارُ بِمَا ٱسۡتُحۡفِظُواْ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ عَلَيۡهِ شُهَدَآءَۚ﴾ [المائدة: 44]، وبينَ مَن كان على الباطل.

كانت الرَّهبنَةُ قَداسةً، فانقلبت إلى تزييفٍ وخساسةٍ

سِرُّ التَّعبير بلفظ: ﴿أَرْبَابًا﴾:

كلُّ مَن ادَّعَى الرُّبوبيَّة العليا مِن بني الإنسان، هَلَكَ وتوارى في تلافيف النِّسيان

قولُه تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾، عبَّر ضِمنَه بلفظ: ﴿أَرْبَابًا﴾ ليُشيرَ إلى ما كان لهم مِن دَوْرٍ واضح، وسلطانٍ مبسوط على أتباعهم، بحيث جَعَلُوا إلى أيديهم أمرَ هؤلاءِ الأتباع، فيما هو من صميم العقيدة، فيَغْفِرون لمَن شاؤوا مِنَ المذنبين، ويَحْرِمُون مَن شاؤوا مِن هذا الغُفران، وقد أدَّى ذلك إلى أن أصبح الأحبارُ والرُّهبان آلهةً، يُطْلَبُ رضاها، ويُتَقَرَّب إليها بالقُرُبات، حتَّى تُنَال منهم المغفرةُ والرِّضوان، ولمَّا كان هذا الوضع يُشبِهُ الوضعَ بينَ المؤمنِ وربِّه، عُبِّرَ عنهم بالأرباب؛ نظرًا لهذه الحالةِ، أو لهذا الوضع الذي يكون بينَ الأحبار والرُّهبان وأتباعهم[1].

سِرُّ تَقْديمِ لَفْظِ: ﴿أَرْبَابًا﴾ في الآية:

هنالكَ فَرْقٌ بينَ ربوبيَّة التَّعاليم، وربوبيَّة العبادة

قُدِّمَ لفظُ ﴿أَرْبَابًا﴾ في قولِ الله سبحانَه: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ﴾، فَلَمَ يَرِدِ النَّظْمُ القرآنيُّ: (اتَّخَذوا أَحْبارَهُمْ وَرُهْبانَهُمْ أَرْبابًا مِنْ دونِ الله)؛ لئلّا يُفْهَمَ مِنْ ذلك أنَّ الرُّبوبيَّةَ التي اتَّخذوها كانَت واحدةً في الجميعِ، والواقِعُ أنَّ اتِّخاذَهُم المسيحَ ربًّا، كانت رُبوبيَّةَ عبادَةٍ، بخلافِ اتِّخاذِهِم الأحبارَ والرُّهْبانَ أربابًا، فهيَ ربوبيَّةُ تعاليمَ[2]، كما قُدِّمَ قولُه تعالى: ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ على المسيح؛ للإشارة إلى أنَّهم اتَّخذوه بمرتبةٍ مِنَ الرُّبوبيَّة التي نحلوها له، غيرَ ما اتَّخذوه مِن أربابهم، فما نحلوه له مِن ربوبيَّةٍ كان عبادةً له، وما اتَّخذوا مِن أحبارهم مِن ربوبيَّة كان أخذًا للتَّعاليم منهم[3]، قال عديُّ بنُ حاتم: "أتيتُ رسولَ اللهِ ﷺ وهو يقرأ سورةَ براءة، فلمَّا انتهى إلى قوله تعالى:

(1) الخطيب، التَّفسير القرآنيُّ للقرآن: 4/443.
(2) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 6/3284.
(3) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 6/3283.

﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾، قلتُ: يا رسولَ اللّه، لم يكونوا يعبدونهم، فقال ﷺ: «أليس يُحرِّمون ما أحلَّ اللّهُ فتُحرِّمونَهُ، ويُحِلُّون ما حَرَّم اللّه فتَستَحِلُّونَه؟»، فقلتُ: بلى، قال: «ذلكَ عبادتُهم»"[1].

دلالَةُ تَخْصيصِ عيسَى عليه السلام بِالذِّكْرِ:

قولُ اللّهِ ﷻ: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ﴾، خُصَّ فيه عيسَى عليه السلام بالذِّكْرِ؛ للإيماءِ إلى أنَّ اليهودَ لم يفْعَلوا ذلك بِعُزَيْرٍ[2]، وللتَّفريق بينَ اتِّخاذِ اليهودِ واتِّخاذ النَّصارى؛ فكلٌّ منهم مختلفٌ عنِ الآخر؛ فربوبيَّةُ المسيحِ عند أَتْبَاعِه لها وضعٌ خاصٌّ غيرُ الوضعِ الذي للأحبار عندَ اليهود، والرُّهبانِ عند النَّصارى، فهولاءِ الأحبارُ والرُّهبانُ ليسوا أربابًا عند أَتْباعِهم بصورته القاطعة، وإنَّما هم أشبهُ بالأرباب، أمَّا المسيحُ فهو عند أتباعه رَبٌّ بمعنى الكلمة.

اخْتِصاصُ النَّصارَى بالإنْحِرافِ؛ لاتِّخاذِهم الأربابَ مِنْ دونِ اللهِ تعالى

نُكْتَةُ تَأْخيرِ ذِكْرِ عيسَى عليه السلام:

أُخِّرَ ذِكْرُ عيسى عليه السلام في قولِ اللّه ﷻ: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ﴾، مع أنَّ اتِّخاذَهُم لعيسى عليه السلام ربًّا معبودًا أقوى مِن مُجرَّدِ الطَّاعةِ في تحليلِ الحرامِ وتحريمِ الحلالِ؛ لكَوْنِهِ مُخْتصًّا بالنَّصارى، لم يشْرَكْهُمْ في ذلك اليَهودُ[3].

دِقَّةُ البَيانِ القُرْآنيِّ في التَّصَرُّفِ في الأَلْفاظِ تَقْديمًا وَتَأْخيرًا

دلالَةُ نِسْبَةِ عيسى عليه السلام إلى أُمِّهِ:

نُسِبَ عيسى عليه السلام إلى أُمِّه، في قول اللّهِ ﷻ: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ﴾؛ للإشارَةِ إلى كَوْنِهِ

إبطالُ ألوهيَّةِ عيسى عليه السلام، وأنَّه عبدُ الله ورسولُه

(1) قال الرَّبيع: "قلتُ لأبي العاليَة: كيف كانت تلك الرُّبوبيَّةُ في بني إسرائيلَ؟ قال: إنَّهم ربَّما وجدوا في كتاب الله تعالى ما يخالف أقوالَ الأحبارِ، فكانوا يأخُذون بأقوالهم، ويترُكون حُكمَ كتابِ الله". يُنظر: أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/60.

(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/60.

(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/60.

إنسانًا، وأنَّهُ قد وُلِدَ كما وُلِدَ غَيْرُهُ مِن بني آدَمَ، وإنِ امْتازَ عنهم بكونِهِ مِن غَيْرِ أَبٍ، فكان في ذلك إشْعارٌ بكونِهِ مَرْبوبًا، والمربوبيَّةُ منافيَةٌ للرُّبوبيَّةِ، وفي هذا كُلِّه إيذانٌ بكمالِ سخافَةِ عقولِهِم، والحُكْمِ عليهم بغايَةِ الجَهْلِ والحُمْقِ[1].

طَيُّ الألْفاظِ التي دَلَّ الكَلامُ على تَعْيينِها اقْتِصادًا في اللَّفْظِ

دلالَةُ الإيجازِ في الآية:

﴿وَٱلْمَسِيحَ﴾ مِن قولِ اللّهِ سبحانَه: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾، معطوفٌ على ﴿أَحْبَارَهُمْ﴾، ومفْعولُه الثَّاني بالنِّسْبَةِ لِلْمَسيحِ محذوفٌ، والتَّقديرُ: اتَّخذوهُ ربًّا مِنْ دونِ اللّهِ تعالى[2]، وحُذِفَ المفعولُ الثَّاني لدلالَةِ المذكورِ عليه.

مُخالَفَةُ اليَهودِ والنَّصارَى لِلْأَحْكامِ الشَّرْعيَّةِ، استخفافٌ بالبَراهينِ النَّقْليَّةِ والعَقْليَّةِ

نُكْتَةُ بِناءِ الفِعْلِ لِلْمَفْعولِ:

بُنِيَ الفِعْلُ ﴿أُمِرُوٓاْ﴾ لِلْمَفْعول مِنْ قولِ اللّه ﷻ: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾؛ للعِلْمِ بهِ، وتعظيمًا لشَأْنِه، والمعنى: فَعَلَ اليهودُ والنَّصارى ما فعَلوه، والحالُ أنَّ الذي له كُلُّ الأمْرِ مِنَ الأدلَّةِ النَّقليَّةِ والعقليَّة، قَدْ أَمَرَهُمْ أَنْ لا يَعْبُدوا إلَّا الإلَهَ الواحِدَ الحقَّ[3].

التَّوحيدُ مأمورٌ اللّه لجميعِ العابدين، في كلِّ حين

سِرُّ التَّعبير بالضَّمير، في قوله: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ﴾:

عُبِّرَ بالضَّمير دون الظَّاهر، في قوله تعالى: ﴿أُمِرُوٓاْ﴾؛ لإفادة العموم، لأنَّه يعود إلى اليهود والنَّصارى والأربابِ الذينَ اتَّخذوهم، مِنَ الأحبار والرُّهبان والمسيح ابن مريم، فهؤلاءِ جميعًا مأمورون أن يعبدوا إلهًا واحدًا، لا إلهَ إلَّا هو، سبحانَه عمَّا يشركون.

دلالَةُ القَصْرِ:

في قَوْلِ اللّهِ جلَّ وعلا: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾، قصرُ أَمْرِهِمْ على عبادَةِ الإلَهِ الواحدِ، وهو مِن قصرِ الصِّفَةِ على الموصوفِ،

تَوْحيدُ اللّهِ ﷻ أَعْظَمُ ما بُعِثَتْ بِهِ الرُّسُلُ لِصَلاحِ البشريَّة

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/60، وأبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 6/3284.
(2) طنطاويّ، التَّفسير الوسيط: 6/262.
(3) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 8/442.

قصرًا حقيقيًّا ادِّعائيًّا، كأنَّهم لم يُؤمَروا إلَّا بأمرٍ واحدٍ، ومع ذلك فقد أخلُّوا بهِ إخلالًا عظيمًا، وجاءَ القَصْرُ بالنَّفْيِ والاسْتِثْناءِ، وهو مُسْتَعْملٌ في الأَصْلِ لما يُنْكِرُه المُخاطَبُ، مع أنَّ أمرَ اللّهِ تعالى لهُم بالتَّوحيدِ لا يَخْفَى عليهم؛ لِكَونِه أعظمَ ما بُعِثَتِ الرُّسُل بِهِ؛ تَنْزيلًا لهم مَنْزِلَةَ المُنْكِرينَ بِعُدُولِهِم عنه إلى الشِّرْكِ باللّهِ تعالى.

دلالَةُ جُمْلَةِ الحالِ:

قولُ اللّهِ ﷻ: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ﴾، في محلِّ حالٍ مِنَ الواوِ في ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ﴾، وهذِهِ الجُمْلَةُ هي محطُّ التَّشْنيعِ والإِنْكارِ عليهم، بأنَّه لا عُذْرَ لهم فيما زَعَموه؛ وذلك لأنَّ وصايا كُتُبِهِم مَليئَةٌ بالتَّحْذيرِ مِن عِبادَةِ غيرِ اللّهِ سبحانَه[1].

لا عُذْرَ في الشِّرك لأَهْلِ الكِتابِ؛ وكُتُبُهُمْ طافِحَةٌ بِالتَّحْذيرِ منه والعتاب

عِلَّةُ فَصْلِ قولِه: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ﴾ عمَّا قبلَهُ:

فُصِلَ قولُ اللّهِ تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ﴾ عمَّا قبلَهُ؛ لوقوعِهِ استِئْنافًا بيانيًّا، فَبَيْنَ الجُمْلَتينِ شِبْهُ كمالِ الاتِّصالِ، والغرضُ: تَعْليلُ الأَمْرِ بِعِبادَةِ اللّهِ تعالى وحدَهُ؛ لكونِهِ سبحانَه الإِلَهَ الحقَّ، وهو المُسْتَحِقُّ لِلْعِبادَةِ شرعًا وعقلًا[2].

اللّهُ ﷻ مُسْتَحِقٌّ لِلْعِبادَةِ، بالأدلَّة الشَّرعيَّة والعقليَّة

دلالَةُ القَصْرِ:

في قولِ اللّهِ جلَّ وعلا: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ﴾ قصرُ الألوهيَّة الحقَّةِ على اللّهِ سبحانَه، وذلك لأنَّ خبَرَ (لا) النَّافيةِ للجِنْسِ محذوفٌ، والتَّقدير: (لا إلهَ حقٌّ إلَّا هوَ)، فالقَصْرُ حقيقيٌّ تحقيقيٌّ، وقَدِ اسْتُعْمِلَ فيه أقوى طُرُقِ القَصْرِ، وهو النَّفْيُ والاسْتِثْناءُ؛ لِكَوْنِ الجُمْلَةِ تَقْريرًا لِأَعْظَمِ حَقيقَةٍ في الكَوْنِ، وهي تَوْحيدُ اللّهِ ﷻ.

أَعْظَمُ حَقيقَةٍ في الكَوْنِ، هي توحيدُ اللهِ ربِّ الكون

سِرُّ التَّعبير بالضَّمير (هو):

في قوله تعالى: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ﴾، عُبِّرَ بالضَّمير ﴿هُوَۚ﴾ الذي يعود

اليقين باستحقاق اللهِ للعبادة ممَّا اقتضته الفطرة، وأجمعت عليه الشَّرائع

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/170.
(2) طنطاويّ، التَّفسير الوسيط: 6/262.

على اللّه تعالى؛ للدّلالة على حضوره ﷻ؛ فلا يغيب عن شيء، وهو حاضرٌ في كلِّ شيء، وفيه تأكيدٌ لمعنى قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ﴾.

تَوْجيهُ المُتَشابِهِ اللَّفْظيِّ:

وُجوبُ العُدولِ عن إرْضاءِ المَخْلوقينَ، إلى إرْضاءِ اللهِ ربِّ العالَمين

قال اللّهُ ﷻ: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ﴾ [التَّوبة: 31]، وقال سبحانَه: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾ [البيِّنة: 5]، ووجه المغايَرة بينهما: أنَّ آيةَ التَّوبةِ صُدِّرت بقولِ اللّهِ تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ﴾، فلمَّا كان في هذا إيماءً إلى تعدُّدِ مَعْبوداتِهم؛ ناسَبَهُ بيانُ أَمْرِهم بِقَصْرِ العُبوديَّةِ على إلَهٍ واحدٍ، وهو اللّهُ سبحانَه بقوله: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ﴾، وأُكِّدَتْ وَحْدانيَّتُهُ بقوله ﷻ: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ﴾، أمَّا آيةُ سورةِ البَيِّنَةِ، فتقدَّمَها قولُ اللّهِ تعالى: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَةُ﴾، فناسبَ ذلك الإرشاد إلى تصفية العمل من النفاق لئلّا يقع التَّفرُّقُ، فقالَ تعالى: ﴿مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾.

عِلَّةُ فَصْلِ قولِه: ﴿سُبۡحَٰنَهُۥ﴾ عمَّا قبلَهُ:

اتِّخاذُ الأربابِ هو عَيْنُ الشِّرْكِ لدى أهل الكتاب

فُصِلَ قولُ اللّهِ ﷻ: ﴿سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ عمَّا قبلَهُ؛ لوقوعِهِ استئنافًا يُرادُ به تَنْزيهُ اللّهِ سبحانَه، والتَّبرِّي ممَّا افتراهُ أهلُ الكتابِ عليهِ، والتَّصريحُ بأنَّ صنيعَهُم عَيْنُ الشِّرْكِ المناقِضِ للتَّوحيد[1].

دلالَةُ التَّعْبيرِ بالفعلِ المُضارِعِ:

إيغالُ أَهْلِ الكِتابِ في الشِّرْكِ، ووُلُوغُهم فيه حالًا بَعْدَ حالٍ

جاءَ التَّعبيرُ بالْفِعْلِ المُضارِعِ ﴿يُشۡرِكُونَ﴾، مِن قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ للدّلالَةِ على اسْتِمْرارِهِم في هذا الشِّرْكِ، وإيغالِهِم فيهِ، وإحْداثِ أَصْنافٍ منه حالًا بَعْدَ حالٍ.

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/171.

تَوْجيهُ المُتَشابِهِ اللَّفْظيِّ:

دِقَّةُ البَيانِ القُرْآنيِّ في التَّصَرُّفِ في الأَلْفاظِ، بِما يُلائِمُ المعاني

قال اللّهُ سبحانَه: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝٣١﴾ [التَّوبة: 31]، وقالَ ﷻ: ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝٦٨﴾ [القصص: 68]، ووجهُ المغايَرةِ بَيْنَهُما: أنَّ آيةَ التَّوبةِ، تقدَّمها قولُ اللّهِ تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾، فلمَّا كان ذلك هو اللّهَ سبحانَه؛ ناسَبَهُ أَنْ يَعودَ الضَّميرُ عليه بقوله: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾، بِخِلافِ آيَةِ القَصَصِ؛ فقد صُدِّرتْ بِقَوْلِ اللّهِ ﷻ: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ﴾، فكانَ الظَّاهِرُ أَنْ يَرِدَ النَّظْمُ القُرْآنيُّ: (ﷻ)، ولَكِنْ لمَّا كانَتِ الرُّبوبيَّةُ أَكْثَرَ تَعَلُّقًا بالعَطاءِ والإِنْعامِ والتَّربيَةِ، وكان الاِسْمُ الأَعظم (اللّه) جامِعًا لِصِفاتِ الجلالِ والجَمالِ والكَمالِ؛ ناسَبَهُ العدولُ عنِ التَّعْبيرِ بِالْمُضْمَرِ، إلى التَّصْريحِ بِالاِسْمِ الأَعظم (اللّه)، فَقالَ سبحانَه: ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ٣٢﴾ [التوبة: 32]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

استمرارُ عداوةِ الكافرين، وإتمامُ اللهِ هذا الدِّين

لمَّا أخبَر اللهُ عن جِنايةِ اليهودِ والنَّصارى في إفسادِ دِينِهم؛ باتِّخاذِهمْ أحبارَهُم ورُهبانَهم أربابًا مِن دون الله، وغُلُوِّهم في عُزَيرٍ وعيسى عليهما السلام، وباستغراقِهم في خِصالِ الشِّرك، أخبرَ هنا في هذه الآيةِ عن جِنايتِهم في محاولةِ إبطالِ دينِ الإسلام، الذي جاء به محمَّدٌ ﷺ، فلمَّا أفسدوا دينَهُم انتقلوا لإفسادِ دينِ المُسلمين؛ حَسَدًا مِنْ عند أنفُسِهم.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿لِيُطْفِـُٔواْ﴾: أصلُ (طفأ) خُمُودُ النَّارِ، بانقطاع ما يَخْرج منها مِن لَهَبٍ وحرارةٍ؛ حتَّى ينقطعَ تأثيرُها مِنَ الإشراقِ والإحراق، والمرادُ به هنا: إبطالُ دِينِ الإسلام، بمواجهتِه ومُكايَدَةِ رسولِه وأتباعِه؛ لإزالةِ أنوارِه وانتشارِه، كما تُزالُ أنوارُ النَّارِ النَّافعة بإطفائها وإبطالِ إسْراجِها[1].

2) ﴿وَيَأْبَى﴾: مِنَ الإباء، وهو أشدُّ الامتناع، ويدور معناه حول الامتناع عنِ الشَّيء امتناعًا تامًّا؛ كراهةً له، أو إحساسًا بالاستغناء عنه وعدم الحاجة إليه، والمراد بقوله: ﴿وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ﴾ أي: يمتنع بكلِّ السُّبل ألَّا يَتِمَّ نورُ الله، أي: إنَّ الله سبحانَه يَعْظُم ويَجِلُّ سلطانُه عن أن يَعُوقَ تمامَ نورِه عائقٌ، ولا يَقدِر شيءٌ ولا يتأتَّى لشيء أو أمرٍ ما، أن يَمْنَع إتمامَ اللهِ نُورَه[2].

(1) ابن منظور، اللِّسان، وجبل، المعجم الاشتقاقيُّ المؤصَّل: (طفأ).
(2) الرَّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيُّ المؤصَّل: (أبى).

المَعْنى الإجْماليُّ:

يُتِمُّ اللهُ أمرَ دينِه، ويبْطِلُ كيدَ الكافرين

يريدُ أهلُ الكتاب والمشركون أنْ يُفسِدوا دينَ الإسلام، ويَمْحُوْهُ مِن قلوبِ أتباعه؛ بعزْمِهم على التَّكذيبِ والمُكايَدةِ لرسولِ الإسلام؛ بالقدْحِ في براهينِه، وإذهالِ العقولِ عنه بالشَّهواتِ والشُّبهات؛ حتَّى يَنْطَفِأَ برقُه، وتزولَ أنوارُه مِن قلوبِ المُصَدِّقين به، واللهُ لا يريدُ ولا يرضَى إلَّا أن يُتِمَّ نورَه بإظهارِ دلائلِه، والاستمرارِ في كَشْفِه وتجليتِه للنَّاس؛ لِيَهْلِكَ مَن هَلَكَ عن بيِّنةٍ، ويَحْيَى مَن حَيَّ عن بيِّنةٍ، ولو كَرِه ذلك المُغرِضون الجاحدون.

وترشدُ الآيةُ الكريمةُ إلى وعْدِ اللهِ تعالى للمؤمنين بإظهار دينِهم وإعلاءِ كلمتِهم؛ لكي يمضوا قدُمًا إلى تنفيذ ما كلَّفهم اللهُ به بدون إبطاء أو تَثاقل، وهي في الوقت نفسِه تتضمَّن في ثناياها الوعيدَ لهؤلاء الضالين وأمثالِهم[1].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

موقع جُملة ﴿يُرِيدُونَ﴾ ممَّا قبلَها:

الكافرون متشابهون في أحوالهم، وإنْ تعدَّدَتْ مِلَلُهم

قولُه: ﴿يُرِيدُونَ﴾ استئنافٌ ابتدائيٌّ يُقرِّرُ وصفًا آخَرَ، ينضمُّ إلى أوصافهم السَّابقة، في سياقِ تعديد أفعالِهم القبيحة، فَقَرَّر آنفًا انحرافَهم في اعتقادِهم في ربِّهم، وانحرافَهم في اعتقادهم في رسُلِهم، وقَرَّر هنا انحرافَهم في المُكايَدةِ لدينِ الإسلام؛ لزيادةِ إثارةِ غيظ المسلمين على أهلِ الكتاب، بكشفِ ما يضمرونه للإسلام من الممالاة، والتألُّبِ على مناوأةِ الدِّين، حين تحققوا أنه في انتشارٍ وظهورٍ، فثار حسدُهم وخشوا ظهورَ فضله على دينهم، فالضميرُ في قوله: يريدون عائد إلى ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ [التوبة: 29][2]، فيكون معنى الاستئناف جاريًا على جهةِ التَّعديدِ والتَّفصيل والتَّنقُّل في

(1) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 6/264.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/171.

أحوالهم. ويَصِحُّ أن يكونَ الاستئنافُ جاريًا على جهةِ التَّعليلِ لِما قبلَهُ مِن أقوالهم وأفعالِهم، أي: فعلوا ما فعلوا، وقالوا ما قالوا، مِن خصال الشِّرك والغُلُوِّ؛ لأنَّهم يريدون إبطالَ الدِّينِ الحقِّ، وزوالَ سُلطانِه وهيمنتِه على الدِّينِ كلِّه، وعليه: فيجوزُ إجراؤه استئنافًا بيانيًّا ممَّا قبلَه، كأنَّه قيل: ما غرضُهم مِن شِرْكِهم وغُلُوِّهم في أحبارهم ورهبانِهم؟ فأُجيبَ: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ﴾[1].

بلاغةُ التَّعبيرِ بالمضارع:

للمشركين عزمٌ مستمِرٌّ في مُدافعةِ الحقِّ ومعارضته

مجيءُ قوله: ﴿يُرِيدُونَ﴾ بصيغة المضارع يُصوِّر أنَّهم ذَوُو عمَلٍ وعزْمٍ متواصِلٍ في مُدافَعةِ الحقِّ ومُعارضتِه، فالمُضارعةُ في فِعل الإرادةِ يُوحِي بأنَّها إرادةٌ فاعِلةٌ مُوظَّفَةٌ في مقاصِد الإفساد، وليستْ إرادةً حبيسةَ الصُّدورِ لا تتعدَّاها بشَرٍّ أو أذًى، فالتَّجَدُّدُ الزَّمنيُّ الذي أفاده المُضارع، مُؤذِنٌ بتوالي حصولِ فِعلِ الإرادة فيما تعلَّقتْ به، وهذا التَّوالي عبارةٌ عنِ التَّصميم والعَزْم، وعبارةٌ عن ظهور أَثرِه في السُّلوك والعمل، بالتَّدبير والكَيْد، وعبارةٌ عن عدم انقطاع المُحاوَلاتِ في سبيل ذلك، بل تبايُنِها وتكرارِها، وتجريبِ كافَّة أنماطِها وطرائقِها، فأفادت المضارعةُ في ﴿يُرِيدُونَ﴾ بأنه ما تزالُ نفوسُهم مُنْفَعِلَةً بإرادة السُّوء، واجتراحِ المكْرِ والزُّور.

نكتةُ العدولِ عنِ المصدر الصَّريح إلى المؤوَّل:

فَشَلُ الكافرين في النَّيل مِن دين الله وعَرْقلةِ مسيرته

قولُه: ﴿أَن يُطْفِـُٔواْ﴾ أبلغُ في موقعِ النَّظم مِن قولِ: (يريدون إطفاءَ نورِ اللّه)؛ لدلالة المصدر المؤوَّل على ذَواتِهم، في واو الفاعلين في: ﴿يُطْفِـُٔواْ﴾، فحصل بذلك أن دَلَّ على ذواتهم مَرَّتين؛ مَرَّةً في ﴿يُرِيدُونَ﴾، ومَرَّةً في ﴿يُطْفِـُٔواْ﴾، ولو قال: (يريدون إطفاءَ) لكان استحضارُهم بأشخاصِهم في الإرادة دونَ أثرِها مِنَ العمل، وهو الإطفاء، واستحضارُهم بذواتهم في حال الانفعال بالإرادة وفي

(1) ابن عادل، اللُّباب: 10/75، والبقاعيّ، نظم الدُّرر: 8/443، والخطيب، التَّفصيل في الإعراب: 5/158.

حال إنفاذِها بالفِعل ﴿يُطْفِـُٔواْ﴾، مُعتَبَرٌ في التَّسجيلِ عليهم بقُصور ذَواتِهم في القَصدِ والكَسْبِ الذَّاتيِّ، فيما هم بصدده مِنَ الخُصومةِ مع الحَقِّ، بالإضافة إلى ما في المصدر المؤوَّل مِنَ الدّلالة على استمرار محاولاتهم الفاشلة.

غرضُ الاستعارة التَّصريحيَّة:

في قوله: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾ استعارة تصريحية تبعية وأصلية، وهي على النحو الآتي:

نورُ اللهِ غالِبٌ على كلِّ سعيٍ باطِلٍ يحاولُ طَمْسَه

أوَّلًا: الاستعارة التَّصريحيَّة التَّبعيَّة في الإطفاء، حيثُ شَبَّهَ معارضتَهم وكُفرانَهم بالإطفاء، بجامع الإزالة والطَّمْسِ في كلٍّ.

ثانيًا: الاستعارة التَّصريحية الأصليَّة في النُّور، حيثُ شَبَّهَ الحُجَجَ والبراهينَ اليَقينيَّةَ بالنُّور، بجامع الوضوح وشِدَّة الظُّهورِ في كُلٍّ، أو معنى الدّلالةِ في كلٍّ، أو لأنَّ كليهما - المشبَّهَ والمشبَّهَ به - ظاهرٌ في نفسه، مُظْهِرٌ لغيره، والسِّرُّ في ذلك انحصارُ إمكانِ الإزالةِ في نورها. والمرادُ بنور الله سبحانَه: إمَّا حُجَّتُه النَّيِّرةُ الدَّالَّةُ على وحدانيَّتِه وتَنزُّهِهِ عنِ الشُّركاء والأولادِ، أو القرآن العظيم النَّاطقِ بذلك، أي: يريد أهلُ الكِتابَيْنِ أن يَردُّوا القُرآنَ ويُكَذِّبوه فيما نطَق به مِنَ التَّوحيد والتَّنزُّه عنِ الشُّركاء والأولادِ والشَّرائعِ، التي مِن جُملتها ما خالفوه مِن أَمْرِ الحِلِّ والحُرمَة[1].

وغرضُ الاستعارةِ التصريحيةِ في هذا القولِ هو التهكُّم والسُّخريةُ من المكذِّبين بدين الله، وإظهارُ تناقضِهم وعجزِهم عن إبطال نور الإسلامِ وإشراقِه وهداياته، فمَثَلُهم في ذلك كمَن يريدُ أن يُطفئَ شعاعَ الشمسِ بنَفْخه عليه، وهذا أمرٌ مستحيلٌ دونه خَرْطُ القتاد.

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/61.

ثالثًا: المجاز المرسلُ في قوله: ﴿بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾، حيثُ ذَكَر المحلَّ (الأفواه)، وأراد الحالَّ فيها، مِن أقوال الشِّرك والتَّكذيب والإثم[1]، والغرضُ مِنَ المجاز هنا: أنَّ أقاويلَهم الباطلةَ، الخارجةَ مِن أفواههم، ليس لها مِصْداقٌ تنطبقُ عليه، أو أصلٌ تستند إليه[2].

براعة الاستعارة في مجموع التَّركيب:

في قوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾ استعارةٌ تمثيليَّةٌ؛ في تشبيهِ حالٍ بحالٍ وهيئةٍ بهيئة، فَشَبَّه حالَ مَن يحاول إبطالَ دينِ الإسلام بالتَّكذيب والكيْد، بحالِ مَن يَنفخُ بِفِيْهِ في نورٍ عظيمٍ مُشِعٍّ في الآفاق، يريد أن يُطفِئَهُ بِنَفَسِه الضَّعيف[3].

الاستعارةُ التَّمثيليَّةُ إذا أمكَنَت كانت أَولى مِن إيراد غيرها

فائدةُ المقابلة المعنويَّة بينَ المشبَّه والمشبَّه به:

التَّركيبُ التَّمثيليُّ في قوله: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾ مُقابلةٌ بينَ أجزائه، فمِن حيثُ سَمَّى الوَحْيَ نُورًا سَمَّى محاولةَ إفسادِه إطفاءً، فالمقابلةُ بينَ النُّور وإطفائه، والإطفاءُ بالفَم يُناسِبُ الأنوارَ الضَّئيلةَ مُقابِلَ النُّورِ العظيم التَّامِّ، الذي زادَه اللهُ وأظهرَه، وهيئتُهم في النَّفْخ ومحاولةِ الإطفاء حيلةٌ ضعيفةٌ تُعبِّرُ عنِ التَّفريط، مُقابِلَ إفراطِ النُّورِ وقُوَّةِ سُطُوعِه وانتشارِه، فالإفراطُ مقابلَ التَّفريط[4].

كلُّ الحِيَلِ لا قيمةَ لها أمامَ إرادةِ اللهِ العزيز

نكتةُ المجازِ في إسناد الإطفاء إلى النُّور:

في إسناد الإطفاء إلى النُّور في قوله: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ﴾ مجازٌ؛ لأنَّ حقيقة الإطفاء في إخماد ضَوءِ النَّارِ، ثمَّ استُعمِل

اللهُ يُخرِج ما ينفع ممَّا يَضُرُّ ويُؤذي، فلولا النَّارُ المُحرِقةُ ما كان الضَّوءُ والنُّورُ

(1) البيضاويّ، أنوار التّنزيل وأسرار التّأويل: 3/79، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاوي: 9/209، ومحمد رضا، تفسير المنار: 10/333.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/61.
(3) البيضاويّ، أنوار التّنزيل وأسرار التّأويل: 3/79، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاوي: 9/209.
(4) أبو حيَّان، البحر المحيط: 5/405، والشِّهاب الخفاجيّ، عِنايةُ القاضي وكِفايةُ الرّاضي على تفسيرِ البيضاوي: 4/321.

في كلِّ نُورٍ وضَوءٍ، ولو كان مِن غير النَّار؛ تغليبًا للغرضِ الشَّائعِ مِن إطفاء النَّار، وهو إذهابُ نورِها، فاستُعمِلَ في كلِّ نُور[1].

وجهُ الكناياتِ في مجموع التَّركيب:

في قوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾ كناياتٌ لاستعمال اللفظِ في معنى غير معناه الأصليِّ، بناءً على دليلٍ يربطُ بينهما، فَذِكْرُ الأفواهِ كنايةٌ عنِ التَّقوُّلِ بما لا بُرهانَ عليه، وكنايةٌ عن قِلَّةِ الحِيْلة وضَعْفِ النُّفوذ إزاءَ ما لا طاقةَ لهم بدَفْعِه، كَمَن يُحاوِل أمرًا جسيمًا بسَعْيٍ ضعيف، وجميعُها كناياتٌ عن صفةٍ في الموصوف[2]. فالنورُ هو الكنايةُ عن الإسلام والهُدى، والمعنى أنهم يريدون أن يبطلوا الإسلامَ والهُدى بأقوالهم الباطلة، والدليلُ هو الشَّبهُ بين النور والإسلام في الإنارة والبيان.

لو تَعَوَّدتِ الأفواهُ الصَّمتَ لاحتَجَبَتْ عنِ الزُّورِ والبُهتان

دلالة تقييدِ الإطفاء بالأفواه:

إسناد الإطفاء إلى الأفواه لتضمينه معنى النَّفْخ، وهو مِن بابِ إسنادِ الفعلِ إلى آلَتِه التي يقع بها غالبًا، وإلَّا فالإطفاءُ قد يَحصُل بغير الفَم. والكلامُ تمثيلٌ لمحاولةِ نصارى الشام الهجومَ على المدينة بحالِ مَن يحاولُ إطفاءَ نور بنفخ فمه عليه، فهذا الكلامُ مركبٌ مستعمل في غير ما وضِعَ له على طريقة تشبيه الهيئة بالهيئة، ومن كمال بلاغته أنه صالح لتفكيك التَّشبيه بأن يشبَّه الإسلام وحده بالنور، ويشبَّه محاولو إبطاله بمريدي إطفاءِ النور، ويشبَّه الإرجافُ والتكذيب بالنفخ، ومن الرشاقة أنَّ آلةَ النفخ وآلةَ التكذيب واحدةٌ وهي الأفواه[3].

فَاهُ الإنسانِ - على ضَعفِه - قد يُورِدُهُ مواقعَ الخطَر

نُكْتَةُ التَّعبيرِ بـ (الإطفاء) دونَ (الإخماد):

الإطفاء أبلغُ مِنَ الإخماد، فهو إزالةُ عينِ النَّار بِذهاب لَهبِها

إطفاءُ النَّار أبلغُ مِن إخمادها، فالتعبيرُ به دلالةٌ على بلوغهم الغايةَ في الحِيْلة

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/61.
(2) أبو حيَّان، البحر المحيط: 5/405.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/171.

واشتعالها، مع زوال جَذْوتِها الكائنةِ في الجَمْر المُتَّقِد، وأمَّا الإخماد: فهو إزالة اللَّهَبِ فقط، فكأنَّه عَبَّر بالإطفاء ليَدُلَّ على بلوغهم الغايةَ في الحِيْلة، ومع ذلك فهم قاصِرون صاغِرونَ عن إنفاذِ إرادتِهم[1].

دلالة إضافةِ النُّور إلى اسم الجلالة:

الإضافةُ إلى الله تعالى تشريفٌ ورفعة للمضاف

إضافة النُّور إلى الاسم الجليل تعظيمٌ للنُّور؛ لكونِه مُضافًا إلى الذاتِ الإلهية، وهي ذاتُ اللهِ الكاملةُ، التي لا يُضافُ إليها ناقصٌ أو ضئيل، ولا يُضافُ إليها شيءٌ إلَّا كَمُلَ وتَمَّ، وازدانَ واستقام.

براعةُ التَّعبير بالإباء دونَ نفي الإرادة:

لله على أعدائِه فِعلٌ بالقَهْرِ والإرغام

معنى التَّركيبِ في قوله تعالى: ﴿وَيَأۡبَى ٱللَّهُ إِلَّآ﴾، أي: (لم يُرِد إلَّا كذا)[2]، ومع ذلك عَبَّر بالإباء دون الإرادة؛ للإيذانِ بمعنى الامتناع الذي يُشعِر بالمُغالبةِ والإرغام، فالتَّعبيرُ بالإباء أفاد ثلاثَ دلالات؛ الأُولى: أنَّ هناك إرادةً مُضادَّة، واللهُ يمنعها، ويُنفِذُ إراداتَه، وهذا المُضادُّ الممنوعُ مذكورٌ في صَدر الآية: ﴿يُرِيدُونَ﴾. الثَّانية: المبالغة في نفي الإرادة، فإنَّ قولك: أبيتُ أن أفعل كذا، ليس كقولك: لم أُرِدْ أنْ أفعل، فالإباء يُصَوِّر معنى العَزمِ والتَّصميم في نفي الأمر ودَفْعه، ونفيُ الإرادةِ مُجرَّدُ نفيٍ للقَصْد. الثَّالثة: الإيجاز اللَّفظيُّ مع كَثرةِ المعنى، ذلك أنَّ ﴿وَيَأۡبَى﴾ لفظٌ واحد، و(لم يُرد) لفظان، فَعُبِّر بالأوجزِ لفظًا الأكثرِ معنًى، وعُدِلَ عنِ الأقلِّ معنًى الأكثرِ لفظًا.

غرضُ مقابلةِ الفِعل الأدنى بضدِّه الأعلى:

في مقام المُغالبَةِ: القويُّ يَأْبَى، والضَّعيفُ يُريد

في قوله: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطۡفِـُٔواْ﴾ جاء التَّعبير عن قَصْدهم بفعل الإرادةِ المُوجَب، وقابَل إرادتَهم بإرادةِ الله، ولكن لم يُعبَّر عن إرادة اللهِ بنفس اللَّفظ، ولا بتركيبه المُوجَب في معناه، فلم يَقُل: (يريدون كذا، ويريد اللهُ كذا)، بل قابل إرادتَهم بفعل الإباء المُتَمَحِّض في

(1) محمد رضا، تفسير المنار: 10/335.

(2) الفرَّاء، معاني القرآن: 1/433، وابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 3/26، والزَّمخشريّ، الكشاف: 2/149، 6/469، والهمدانيّ، الفريد في إعراب القرآن المجيد: 2/462.

المنع، وجاء به موجَبًا لفظًا؛ ليوافِقَ فِعلَ ﴿يُرِيدُونَ﴾ في صورته الموجَبة، وإن كان ﴿وَيَأۡبَى﴾ منفيًّا معنىً، بقرينة تفريغ الاستثناء الذي لا يكون مُفرَّغًا إلَّا بنفيٍ أو ما في معنى النَّفي، فقوله: ﴿وَيَأۡبَى﴾ أي: يمنع كذا أو ينفي كذا، أو (لم يُرِد كذا)، فثبتَ بذلك أنَّ جملة: ﴿يُرِيدُونَ﴾ قُوبِلتْ بما هو أعلى منها في الدّلالة والمعنى، فالإباءُ أعلى مِنَ الإرادة، وقُوبِلَت بما هو أمكَنُ منها وأثبتُ لفظًا؛ لأنَّ تركيب الاستثناء المُفَرَّغ يتضمَّن ثبوتَ الشَّيء بنفي ما سواه ثبوتًا حصريًّا، أي: لم يُرِد في شأن تلك الخصومة، أو في شأن تقرير الدِّين إلَّا تمامَ نورِه، فقولُكَ: فلانٌ يريد كذا، وأنا في ذاتِ الشأن لا أريد إلَّا كذا، كانت إرادتُك في التَّعبير أثبتُ مِن إرادته؛ لأجل تفاوتِ التَّركيب في التَّعبير عنِ الإرادتين. والخلاصةُ: أنَّ مُقابل ﴿يُرِيدُونَ﴾ اجتمع فيه: عُلوُّ المعنى، وعُلوُّ اللَّفظ، وعُلوُّ التَّركيب في نظيره المقابل، وهو قوله: ﴿وَيَأۡبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ﴾[1].

نُكْتَةُ المُغايرة بينَ التَّعبير عن إرادتهم، والتَّعبيرِ عن إرادة الله:

المُغايرةُ بينَ التَّعبير عن إرادتهم والتَّعبير عن إرادة اللّه في التَّركيب؛ لأنَّ إرادة اللّهِ واقعةٌ موقِعَ صَدِّ الخصومة ورَدِّ الكيْد، المفهوم مِن ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطۡفِـُٔواْ﴾، فصِيغَ بما هو أعلى في معناه منه؛ لِتقعَ إرادةُ اللّهِ موقعَ الحسم والبَتِّ والتَّحدِّي لمُشاكسَتِهم وسُوء فِعالِهم، فقُوبِلَتْ إرادتُهم بما يقطعُها ويُزيلُها مِن إرادة اللّه العالية، والمغايرة أيضًا: إعراضًا عن مُتابعةِ إرادتهم بمُقابلٍ مِن لفظها، فكأنَّه لم يقل: (يريدون كذا ويريد اللّه كذا)؛ ليدلَّ على أنَّ إرادة اللّه كما هي بعيدةٌ عن إرادتهم معنىً ورتْبةً، فهي بعيدةٌ كذلك بإزائها لفظًا.

اللهُ يُعرِضُ عنِ الكافرين، فلا يُجري أفعالَه على غِرارِ لفْظِ أفعالِهم

الفرق بينَ قوله: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطۡفِـُٔواْ﴾، و﴿يُرِيدُونَ لِيُطۡفِـُٔواْ﴾:

قولُه: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطۡفِـُٔواْ﴾ المصدر المؤوَّلُ مفعول الإرادة، أي:

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/172.

يقصدون إطفاءَ نورِ اللّه، فإرادتهم مُتَّجِهةٌ إليه أصالةً وابتداءً، وأمَّا قولُه: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔواْ﴾ [الصف: 8] فإرادتُهم فيه ليستْ متوجِّهَةً للإطفاء رأسًا، بل متوجِّهةً لأمرٍ يتوسَّلون به للإطفاء، فمفعولُ الإرادة محذوفٌ، وجملةُ ﴿لِيُطْفِـُٔواْ﴾ مُعلَّلةً عنِ المفعول المحذوف، أي: يريدون ردَّ الرِّسالة لأجل أن يُوصلَهم ذلك لإطفاء نورِ اللّه، فإطفاءُ نورِ اللّه ليس مقصودًا أوليًّا، بل هناك مقصود سابق عليه، وجيءَ بهذا التركيبِ هنا لشِدّةِ مماحكةِ أهلِ الكتاب وتصلُّبِهم في دينهم، ولم يجَأ به في سورة الصف إذ قال: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ﴾ [الصّف: 8]؛ لأنَّ المنافقين كانوا يكيدون للمسلمين خِفيةً وفي لين وتملُّق[1].

مَن يُعادِي اللهَ يُبَدِّدُ نفْسَهُ على غير طائل

الغرضُ السِّياقيُّ لصيغةِ التَّركيب:

إنَّما جاء قولُه: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔواْ﴾ على هذا النَّسق التَّركيبيِّ، بجعلِ إبطالِ الدِّين غايةً أصيلةً، بإيقاعها مفعولًا مباشرًا لإرادتهم؛ لأنَّ السِّياق هنا في أهل الكتاب، والسِّياق في سورة الصَّفِّ للمنافقين والمشركين، وأهلُ الكتاب أَشَدُّ مُجادلةً ومنازعة مِنَ المنافقين، لِأثَارةِ العِلْم التي عندهم، بما يحملُهم على الكِبْرِ والإعجاب بما لديهم من الدراسةِ والعلم، وأمَّا المنافقون والكافرون فأُمِّيُّونَ لا عِلْمَ لهم، فهم أَخَفُّ وأخْفَى في نزاعِهم مِن أولئك؛ إذِ المنافقون يَكيدون في تَمَلُّقٍ واستتار، فاختارَ أقوى التَّركيبين لأصعبِ الطَّائفتين[2].

اختيارُ أقوى التَّركيبين لأصعبِ الطَّائفتين

دلالة التَّعبير بالإتمام دونَ الإبقاء:

عبَّر في قولِه تعالى: ﴿يُتِمَّ نُورَهُۥ﴾ بالإتمام، لا بالإبقاء ونحوه، مع أنَّ الكلامَ جارٍ فيما يريدون إزالتَه وإبطالَه، وهو ما عَبَّر عنه بالإطفاء، وعَكْسُ إزالةِ الشَّيءِ إبقاؤُه وتثبيتُه، ومع ذلك لم يقل: (إلَّا

إتمامُ الشَّيء أبلغُ مِن إبقائه

(1) الرَّاغب، المفردات: (طفى)، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/172.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/172.

أنْ يُبقِي نورَه أو يُديمَه أو يَصُونَه)؛ لأنَّ الإتمامَ زيادةٌ على الإبقاء، فقد يُبقيه ولا يُتمُّه، لكنْ لا إتمامَ بغير إبقاء، ذلك أنَّ الإتمام مُؤْذِنٌ بالزِّيادَةِ والانْتِشارِ، ويُفيد الزِّيادة على الموجود، فهو إبقاء الشَّيء في أرفع حالٍ له، وهو حال التَّمام[1].

بلاغة المصدر المؤوَّل:

نورُ اللهِ تامٌّ في نفسِه، ويَستمرُّ إظهارُ تمامِه إلى يومِ الدِّين

أفادَ التَّعبيرُ بالمصدر المؤوَّلِ في قوله: ﴿أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ﴾، الدّلالةَ على المعنى الجُمَلِيِّ التَّركيبيِّ الحاصلِ بالإسناد، ويَتَضَمَّن ذلك الدّلالةَ على الزَّمن بصيغةِ الفعل، والدّلالةَ على الفاعل والمفعول، وأمَّا المصدرُ الصَّريح فهو مُفردٌ يَدُلُّ على مُجرَّد الحدثِ، فدلالةُ المصدر المؤوَّل أوسع مع نيابته عنِ المصدر الصَّريح، ونُكْتَة التَّعبير به هنا: استحضارُ الصُّورةِ الزَّمنيَّة لفعل الإتمام، التي تُلْقِي في القلوب شُهودَ عَمَلِ اللهِ في أقدارِه وتدبيره، بإتمام دِينِه في الزَّمان والمكان، فهو سبحانَه يُتِمُّه بِحسْبانٍ مُتَجَدِّدٍ في الأزمان، مِن خلال مُجرياتٍ هو يُدبِّرُها، وأحداثٍ هو يُقدِّرُها، وليكون فِعلُ الإتمامِ جاريًا في الزَّمنِ بحسبِ كلِّ جيلٍ، فيشهدُه كلٌّ في زمانه، ويَرى مَظاهِره وأسبابَه، ولو عَبَّر بالمصدر كأن يقال: (إلَّا إتمامَ نوره) لم يكن دالًّا على حركةِ الفعلِ في الزَّمن الذي هو أدلُّ على آثارِ اللهِ، وسُنَنِه المتجَدِّدَةِ في خَلْقِه[2].

موقعُ جملةِ الاستثناء المُفَرَّغ ممَّا قبلَها:

الصِّفاتُ على قَدْرِ الذَّوات، وإراداتُ البشَرِ جميعًا راجعةٌ إلى إرادةِ الله

قوله تعالى: ﴿وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ﴾ معطوفةٌ على جملة: ﴿يُرِيدُونَ﴾، كأنَّه ردَّ إرادتَهم لإرادته، فوصَل الإرادتينِ بالعطف على جهة المُغايرة، بينَ ما لِذواتِهم وذاتِ اللهِ مِن صفة الإرادة، فالصِّفات على قَدْر الذَّوات، والأدنى مردودٌ للأعلى ومشمولٌ بهيمَنَتِه وآثارِ صِفَتِه[3].

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/172.
(2) فاضل السامرائي، معاني النحو: 3/146.
(3) صافي، الجدول: 10/326.

الموقع البلاغيُّ لجملة الاستثناء ممَّا قبلَها:

جملةُ: ﴿وَيَأۡبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ﴾ ترشيحٌ للاستِعارة التَّمثيليَّةِ في قوله قبلَه: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطۡفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفۡوَٰهِهِمۡ﴾؛ لأنّ قوله: ﴿يُتِمَّ نُورَهُۥ﴾ مُتَضَمِّنٌ لوصفٍ يُناسِبُ المشبَّهَ به في الاستعارة ويُلائمه، وهو تمامُ النُّور، بزيادته وانتشاره، وهو تفريعٌ على المشبَّهِ به، وترشيحٌ للاستعارةِ فيه[1].

نورُ اللهِ مُستَمِرٌّ في الظُّهور، وظلماتُ أهلِ الكتاب والمشركينَ إلى أُفُول

دلالَة حَذْفِ مفعولِ الإباء:

تفريغ الاستثناءِ وحَذْفُ مفعولِ الإباء، فلم يقل: (ويأبى اللّهُ كذا)؛ للمبالغة في تأكيد معنى الخبر، وهو الوعد بالإتمام، ويكفي في هذا التَّأكيد ما أوحاه الاستثناء المُفَرَّغ مِنَ المعنى، فكأنَّ اللّهَ فَرَّغَ إرادتَه في هذا الشَّأن لشيءٍ واحد فقط، وهو إتمامُ نورِه، فلم يجعل رِضاه وإرادتَه تتعلَّق إلَّا به[2].

لا شيءَ أرضَى عندَ اللهِ، مِن تَجليةِ شرعه ودينه لِخَلْقِه

سرُّ الإظهار في مقام الإضمار:

في كلمة (النُّور) مِن قوله تعالى: ﴿إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ﴾ عدولٌ عن الإضمارِ للإظهار، فلو اطَّرد السِّياقُ لقيل: (يُريدون أنْ يُطفِئوا نورَ اللّهِ بأفواهِهم ويأبى اللّهُ إلا أنْ يُتمَّه)، ولكنْ أظهَرَهُ لثلاثِ نِكاتٍ: الأولى: إعادةُ إضافتِه لضميرِ العَظَمَةِ ﴿نُورَهُۥ﴾؛ لتأكيدِ تعظيمِ النُّور في حقيقتِه، وتعظيمِه في نِسْبَتِه، للإشعار بعِلَّةِ الإتمام والظُّهور، وهو كونُ هذا النُّورِ مُضافًا إلى اللّه ومنسوبًا إليه، وفيه زيادةٌ في الاعتناء بشأنه. الثَّانية: مِن بديع المعنى وشَرَفِ النَّظْم عدمُ الاكتفاء بإظهار النُّورِ في جانبِ النَّقص، وهو جانبُ محاولةِ إطفاءِ الكافرين له، فأظهرَهُ - أيضًا - وصرَّح به في جانب الكمال، وهو الإخبار بإتمام اللّه له؛ ليَدُلَّ بذلك على أنَّ نُورَه ظاهِرٌ على كلِّ حالٍ، فأيَّدَ ذلك

تمامُ الأشياءِ موكولٌ إلى الله، لا تَتِمُّ إلَّا بإرادته سبحانه

(1) ابن التّمجيد، حاشيته على تفسيرِ البيضاوي: 9/210، والشِّهاب، عِنايةُ القاضي وكِفايةُ الرّاضي على تفسيرِ البيضاوي: 4/321.

(2) محمد رضا، تفسير المنار: 10/337.

بإظهارِه اللَّفظيِّ في التَّركيب أيضًا. الثَّالثة: أنَّ إظهارَ النُّورِ في مقام الإضمار يتَّسِقُ ويأتَلِفُ مع مقصود اللهِ في إظهارِ نورِه على الدِّيْنِ كلِّه، وهو المفهوم مِن إتمامه، ومِن قوله في الآيةِ بعده: ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾، فكما هو ظاهِرٌ في الحقيقةِ والواقع، ناسَبَ إظهارَه في تركيب الكلام عنه؛ ليستحضِرَ السَّامِعُ والقارئُ ظهورَ نُورِ الله في الذِّكْرِ والفِكْرِ والخبَرِ والواقِع. وهذا مِن موافقاتِ الأسلوب التَّعبيريِّ لمقاصِد المعنى، ومُرادِ المُتكلِّم.

دلالةُ الشَّرط بـ(لو)، وأثرُها في رَبْط الكلام:

إرادةُ اللهِ نافِذةٌ لا يُؤثِّر فيها كُرْهُ مُبْغِضٍ أو مُوالاةُ مُحِبٍّ

(لو) في قوله: ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ له دلالَتان؛ الأُولى: المبالغة في الأحوال؛ ولذا كانت الواو في ﴿وَلَوْ كَرِهَ﴾ حاليَّةً، أي: لا يرضى اللهُ إلَّا أن يُتِمَّ نورَه، ولو في حالِ كَرِه الكافرون ذلك، والمبالغةُ مُتوجِّهَةٌ لجملة الشَّرط بعد ﴿وَلَوْ﴾. الثَّانية: أنَّ (لو) أفادتِ الوَصْلَ والرَّبطَ بينَ ما قبلَها وما بعدَها، أي: بين قوله: ﴿وَيَأْبَى ٱللَّهُ﴾، وقولِه: ﴿كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾، والرَّبطُ هنا في مقامِ تأكيدٍ ومبالغة كما سبق، ولذا يَصِحُّ تخريجُ معنى الواوِ على أنَّها للعطف على محذوفٍ في موضع الحال، والمعطوفُ على الحالِ حالٌ، والتَّقديرُ: يُتِمُّ اللهُ نورَه على كلِّ حالٍ، ولو في حالِ كُرْهِ الكافرين له، وفائدة ﴿وَلَوْ﴾ على هذا التَّقدير: استقصاءُ الأحوالِ، واستقصاءُ غايَةِ ما يُتوقَّعُ معهُ انتفاءُ حُكْمِ ما قبلَها، فيَذْكُرُه المتكلِّمُ لِقصْدِ تَحقُّقِ الحُكم في جميع الأحوال التي تعترضُه أو تطرأُ عليه[1].

معنى الكُرْهِ وبلاغتُه:

الكَراهِيَةِ: كنايةٌ عن لوازِمها مِن أعمال العدوان والكَيْد

الكَراهِيَةُ في قوله: ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾، ليستِ الكَراهِيَةَ السَّاذَجةَ التي هي ضِدُّ الحُبِّ، بل هي الكراهِيَةُ بجميع لوازِمها

(1) ابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 2/504، وأبو حيَّان، البحر المحيط: 5/277، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 3/306، 9/273.

الدَّاعيةِ لمَنْع إتمامِ ظهورِ دينِ اللّه وانتشارِه، بمقاومتِه بضِدِّه مِنَ الكافرين، فكأنَّ المعنى: إنَّ اللّهَ يُتِمُّ نورَهُ وإن قَاوَمَ الكافرون ذلك بمحاربته، المُعَبَّرِ عنها بمحاولةِ إطفائه. فالكراهِيَةُ هنا كنايةٌ عن لوازمِها، أمَّا مجردُ الكراهِيَةِ مِن غير مُحاربةٍ فمعناها غيرُ واردٍ هنا؛ لأنَّها جُعلتْ غايةً بالِغةً لنفوذِ إرادة اللّه فيها، فكيف يُتَحَدَّى بإرادةِ اللّهِ على غايةٍ مُجرَّدة لا خَطَر فيها ولا أثَر؟ فثَبَتَ أنَّ الكراهِيَةَ المذكورةَ هي التي لا تكون عن مُسالَمَةٍ ومُصالحة، بل عن محاربةٍ ومقاومةٍ وإفساد[1].

بلاغةُ الختْمِ بمضمون جملة الشَّرط:

إرادةُ الله تشمَلُ ما يرضَى عنه وما لا يَرضاه سبحانه

الختْمُ بقوله: ﴿وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ مُشْعِرٌ بمعنى المقابلةِ مع الجملة قبلَه، وهي قوله تعالى: ﴿وَيَأۡبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ﴾، فقوله: ﴿وَلَوۡ كَرِهَ﴾ تذييلٌ على جملة الاستثناء، التي هي ترشيحٌ للاستعارةِ في الجملة قبلَها، وهذا التَّذييل جاء في مُقابلةِ قوله: ﴿وَيَأۡبَى ٱللَّهُ﴾؛ إذْ هو مُبيِّنٌ للإرادة المفهومة مِنَ الفعل (يأبَى)، وأنَّها إرادةٌ خاصَّة على وجْهِ الرِّضا، وليست الإرادةَ العامَّةَ، وذلك بقرينة التَّذييل بكراهِيَةِ الكافرين: ﴿وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾، فقد دَلَّ بمفهومه: على أنَّ إتمامَ نورِ اللّه محلُّ رضًا ومحبَّةٍ مِنَ اللّه؛ إذْ جُعِلَ محلًا لكراهِيَة الكافر[2].

علَّةُ اصطفاء لفظ الفاصلة:

الكُفرُ ظُلُماتٌ في النَّفْس، يحملُها على كُرْه النُّور

لفظ الفاصلة: ﴿ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾، خِتامٌ لُوحِظَ فيه مَطلَعُ الآية: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطۡفِـُٔواْ﴾، فلَفْظُ الكُفرِ يُناسبُ لفظَ الإطفاءِ في السَّتْر والإزالة، وهذا سِرُّ مجيءِ جملةِ الفاصلة تذييلًا على ترشيح الاستعارة، فجاءَ تركيبُ هذه الآية يُسْلِمُ بعضُه إلى بعضٍ في تناسُبِ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 9/273.
(2) الشِّهاب، عِنايةُ القاضي وكِفايةُ الرَّاضي على تفسيرِ البيضاوي: 4/321.

أجزائِه[1]، وتناسبُ معنى السَّتْر والإزالة في بداية الآيَة وآخِرها نوعٌ مِنَ التَّوشيح[2].

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الإطفاء والإخماد:

الإطفاءُ أتَمُّ مِنَ الإخماد

الإطفاءُ والإخمادُ: مِن أطْفَأ وأخْمَد، وأصلُهما: طَفِئَ وخَمَدَ اللَّازِمَيْن، وأصلُ استعمالِهما في النَّار، وإطفاءُ النَّارِ: هو إذْهابُ لَهَبِها وزوالُ الحرارةِ عن جَمْرِها، وإخمادُ النَّار: إسْكانُ لَهَبِها مع عدمِ انطفاءِ جَمْرِها، فالأصل في الإخمادِ: سكونُ حركةِ النَّارِ، وسقوطُ عمودِها، وهي شُعْلَتُها المُمْتَدَّة، مِن غير أن يَبْرُدَ جمْرُها، فإذا بَرَدَ جمْرُها وزالتْ حرارتُه كانت مُنْطَفِئَةً لا خامدةً، وعليه: فالخُمُودُ هو مُقدِّمَةُ الانطفاء، فلا يكون الانطفاءُ إلَّا بعدَه، ولذا فالإطفاءُ أتَمُّ مِنَ الإخماد[3].

الإباء والامتناع:

الإباءُ أَخَصُّ مِنَ المنْع، ولا يكون إلَّا بعَزْمٍ وعَمْدٍ وكَراهِيَةٍ للفعل

أصل الإباءِ: شِدَّةُ الامتناعِ معَ كراهيتِه، والامتناعُ مِنَ المنْع، وأصلُه: الحَجْزُ بينَ شيئين، ولذا يُستعمَل في خِلافِ الإعطاء؛ لأنَّه حَجْزٌ بينَ المُعطَى والعَطيَّة.

وحاصِلُ الفَرْقِ بينَهما: أنَّ الإباء أَخَصُّ مِنَ المنْع، في كونِه منْعًا مُوصوفًا بالشِّدَّة، التي تُعَبِّر عنِ العزيمةِ في القَصْدِ لِمنْعِ الشَّيء، فالإباءُ لا يكون إلَّا بعزْمٍ وعَمْدٍ، وأمَّا الامتناعُ فقد يقع مِن غير قَصْدٍ وعَمْدٍ، ولا تَحرٍّ لِمَنْعِه. والإباءُ يقترِنُ بكراهِيَةِ الشَّيء الذي يُمْتَنَعُ عنه، ولذلك سَمَّوا النَّاقةَ بالآبِيَةِ؛ إذا كانت تَعافُ الماءَ، أي: تمتنعُ عنه

(1) ابن التّمجيد، حاشيته على تفسيرِ البيضاوي: 9/210، والشِّهاب، عِنايةُ القاضي وكِفايةُ الرّاضي على تفسيرِ البيضاوي: 4/321.

(2) سُمِّيَ هذا البابُ توشيحًا لكون معنى أوَّل الكلام يدلُّ على لفظ آخره، فيتنزل المعنى منزلةَ الوِشاح، ويتنزّل أوَّل الكلامِ وآخِرُه منزلةَ العاتقِ والكَشْح، اللَّذَين يجول عليهما الوِشاح.

(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (خمد)، وابن منظور، اللِّسان، وجبل، المعجم الاشتقاقيُّ: (خمد، طفأ).

لكَراهِيَتِه، ويقولون: فلانٌ أخَذَهُ أُبَاءٌ مِنَ الطَّعام، على وزن فُعَال، أي: كَراهَةٌ، وأمَّا الامتناعُ فأعمُّ مِن ذلك، فقد يَمْنَعُ الإنسانُ شيئًا لا يَكرَهُهُ، فلا يُشترطُ فيه اقترانُ الكراهِيَةِ به؛ لأنَّه مُطلَقُ الحَجْزِ بينَ شيئين[1].

(1) الرَّاغب، المفردات: (أبى)، والسّمين الحلبي، عمدة الحفَّاظ: (منع)، والفيروزاباديّ، القاموس، وجبل، المعجم الاشتقاقيُّ: (أبى).

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ ٣٣﴾ [التَّوبة: 33]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

مِن أعظم آيات إتمامِ هذا الدِّين بِعثةُ خاتمِ النَّبيِّين محمَّدٍ ﷺ

لـمَّا أخبَرَ اللهُ في الآيةِ السَّابقةِ عن قَصْدِ الكافرين وإرادتِهم في إزهاقِ الحقِّ والنُّور الذي جاء به الرَّسولُ ﷺ، وأنَّه سبحانَه يأبَى إلَّا أن يُتِمَّ نورَه، بيَّنَ هنا في هذه الآيةِ كيفيَّةَ هذا الإتمام، وأنَّه سبحانَه قَضَى بالأسبابِ الظَّاهرة والمعجزاتِ الباهِرة إظهارَ هذا الإتمام لخلْقِه، بأن أرسلَ رسولَه بالهُدى ودِينِ الحقِّ؛ لِيُظْهِرَه على الدِّينِ كُلِّه[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿لِيُظۡهِرَهُۥ﴾: أصلُه مِن (ظهر)، ويدلُّ على قُوَّة وبُروز وانكشاف، ولذلك سُمِّيَ وقتُ الظُّهر والظَّهيرةِ بذلك؛ إذ هو أظهرُ أوقاتِ النَّهار وأضوؤُها، والأصل في ذلك كلِّه: ظَهْرُ الإنسان، وهو خِلاف بَطْنه، وهو يَجْمَع البُروزَ والقُوَّة والظُّهور، والظَّهيرُ: العَوْنُ والمعينُ، والمرادُ هنا: أرسلَ رسولَه لِيُعلِيَهُ بدينِه على سائر الأديان، فيَبْرُزَ ويَظْهَرَ عليها ظهورَ الغالِبِ المؤيَّد[2].

المَعْنى الإجْماليُّ:

إرسالُ اللهِ رسولَه محمَّدًا ﷺ إعلاءٌ وإظهارٌ لهذا الدِّين

اللهُ ﷻ هو الذي أرسل رسولَه محمَّدًا ﷺ بالقرآن العظيم، الذي اشتملَ على البيِّناتِ الهادِيَةِ والدَّالَّةِ على دين الحقِّ الإسلام، وقد فعل سبحانَه هذا الإرسالَ لِيُعلِيَ رسولَه على سائر أهلِ الأديان، ويُظْهِرَ دِيْنَهُ بما فيه من الحُجج والبراهينِ والأحكامِ

(1) الرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 16/32.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرَّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيُّ: (ظهر).

على سائر الأديانِ كُلِّها، رَغْمَ أنْفِ المُشركين وكراهَتِهم لذلك بالمُناوَئَةِ والمُعاداة.

وترشد الآية الكريمةُ إلى انتشارِ الإسلامِ في مشارقِ الأرضِ ومغاربها، وقد جاءت أخبارٌ كثيرةٌ تدلُّ على هذا المعنى، كقولِ النبيِّ ﷺ: «**إنَّ** اللّٰه زَوى لي الأرْضَ، فَرَأَيْتُ مَشارِقَها ومَغارِبَها، وإنَّ أُمَّتي سَيَبْلُغُ مُلْكُها ما زُوِيَ لي مِنْها»[1]. وإلى أنَّ ما بَعَث اللّٰه به نبيَّه وخاتمَ رسلِه محمدًا ﷺ مشتملًا على بيانِ الحقِّ من الباطل في أسماء اللّٰه وأوصافِه وأفعالِه، وفي أحكامِه وأخبارِه، والأمرِ بكلِّ مصلحةٍ نافعةٍ للقلوب والأرواحِ والأبدانِ، من إخلاص الدِّين للّٰه وحده، ومحبةِ اللّٰه وعبادتِه، والأمرِ بمكارمِ الأخلاقِ ومحاسنِ الشّيَم، والأعمالِ الصالحة، والآدابِ النافعة، والنهي عن كلِّ ما يضادُّ ذلك ويناقضُه من الأخلاقِ والأعمالِ السيئةِ المضرةِ للقلوبِ والأبدانِ والدنيا والآخرة[2].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالة فَصْلِ جملة: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ﴾ عمَّا قبلَها:

بيانُ كيفيَّةِ الإتمامِ المذكور قبلَها، بخاتمة الرِّسالات، والشَّرائعِ الإلهيَّة المُنَزَّلة

قولُه تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ بيانٌ وتقريرٌ لمضمون جملة: ﴿وَيَأۡبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ﴾، وفَصْلُها عمَّا قبلَها لِكمالِ الاتِّصال بينَ المُبَيِّنِ والمُبَيَّن، والمراد بالبيان: بيانُ كيفيَّةِ الإتمام المذكور في قوله: ﴿إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ﴾، ووجْهُ البيان: تفسيرُ الإتمام المذكور بأنَّه ليس الإتمام الذي ينشأ عن قِلَّةٍ ونقْص، فدُفِع بهذا التَّفسيرِ هذا الإيهامُ؛ لأنَّ نورَ اللّٰهِ المَضافَ إليه هو تامٌّ في نفسه، فلا يحتاج لإتمامٍ بمعناه المعروف، فعُرِفَ أنَّ إتمامَه هو إظهاره ﴿لِيُظۡهِرَهُۥ﴾، والإظهار: ليس

(1) أخرجه مسلم في صحيحه، برقم: (2889).

(2) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 192.

تكميلًا، بل هو دليلٌ على الكمال، والذي يُعينُ على هذا التَّوجيهِ أنَّه قال: ﴿لِيُظۡهِرَهُۥ﴾، ولم يقل: (ليُتِمَّه)، ويَصِحُّ حمْلُها على الاستئناف البيانيِّ كذلك، باستحضار سؤالٍ: كيفَ أتمَّ اللهُ نورَه؟ فيُجاب: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ﴾. وعلى اعتبارها استئنافًا بيانيًّا فبَيْن الجُملتين شِبْهُ كمالِ اتِّصَال؛ لأنَّ الاستئناف البيانيَّ مَشوبٌ بالانقطاع؛ لأنَّ السُّؤال إنشاء، والجوابَ خبر، فبينَهما انقطاعٌ، ولكنْ بالنَّظر إلى المعنى فالسُّؤالُ والجوابُ متَّحِدان في المعنى، إذْ هما واردانِ على معنًى واحد، فكانت جملةُ الاستئنافِ البيانيِّ أقربَ إلى كمال الاتِّصال؛ لِكونِ اتِّصالِ المعنى أقوى مِن انقطاع اللَّفظ[1].

بلاغةُ الاستِهلالِ بالضَّمير والموصول:

توفُّرُ النَّظْمِ على تعظيمِ شأنِ الرَّسولِ ﷺ

افتتاحُ الجملةِ بضمير الجلالة ﴿هُوَ﴾، والموصول ﴿ٱلَّذِيٓ﴾، أفاد القَصْرَ في الحُكم، أي: هو الذي أرسل وحدَه لا غيرُه، والقَصْرُ يُفيد تفخيمَ أمْرِ الإرسال، وأنَّه شأنٌ عظيم لا يَصِحُّ إمْكانُه إلَّا لله وحدَه، ولذا استَحَقَّ قَصْرَه عليه، والإتيانُ بالموصول ﴿ٱلَّذِيٓ﴾ أفاد أنَّ مضمون الصِّلة - وهو الحُكم بالإرسال - مُترتِّبٌ على الحُكم بالإتمام في قوله: ﴿وَيَأۡبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ﴾، فالموصولُ مُشْعِرٌ بعلِّيَّة الحُكم، والعِلِّيَّة بينَ تلك الجملةِ وما قبلَها، ليستْ مُستفادةً مِنَ الموصولِ استقلالًا، بل الموصولُ مُشْعِرٌ بها، بمعونةِ أنَّ جملةَ الإرسالِ بيانٌ لجُملةِ الإتمام.

ووجْهُ استفادةِ العِلِّيَّة مِنَ الموصول: دلالةُ الموصولِ على تفخيم الذَّات، وأنَّها لِعظَمَتِها وهيْمَنَتِها مَنوطةٌ بأسبابِ القُدْرةِ التي يتوقَّفُ عليها إتمامُ الدِّين، فكأنَّ العِلِّيَّةَ مُستفادةٌ مِنَ التَّفخيم الذي أفادَه الموصول، فكان الموصول دالًّا على كِلَيْهِما[2].

(1) الرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 16/32، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/61، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاوي: 9/211، والدُّسوقيّ، حاشيته على مختصر المعاني: 2/504.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/173.

نُكْتَةُ العُدُول عنِ اسم الذَّاتِ الظَّاهر إلى الضَّمير:

الضَّميرُ رابطٌ بينَ الجُملتين، وفيه استنهاضُ الفِكْر لتَدَبُّر السِّياق

في قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ﴾ افتَتَحَ الآيةَ بضمير الجلال، دونَ الاسم الظَّاهر، فلم يَقُل: (اللّه الذي أرسل)؛ لكمالِ الرَّبطِ بينَ الجُملتين، هذِه وما قبلَها، لأنَّه لو افتَتَحَ بالاسم الظَّاهرِ لأوهَمَ انقطاعًا بينَ الجُملتين، فلِكَمالِ الاتِّصال بدأ بالضَّمير، لوصلِه بمرجِعِه في الجملة التي قبلَها: ﴿وَيَأۡبَى ٱللَّهُ﴾، وفي التَّعبير بالضَّمير (هو) استنهاضٌ للفكر؛ لتدبُّر السِّياق، إذ إنَّ إرسال اللّه رسولَه أَمَارةٌ مِن أَمَارات إرادةِ اللّه في إكمال الدِّين وشرائعِه وإتمام نُورِه وانتشاره في العالمين، على الرُّغم مِن محاولات الكافرين.

بلاغةُ جِناسِ الاشتقاق:

الرِّسالةُ هي أشرفُ وَصْفٍ للرَّسول ﷺ

في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ﴾، جاء لفظُ الرَّسولِ - وهو المفعول - مِن مادَّة الفِعل: (أرسل)، ولم يقل: (أرسل مُحمَّدًا، أو نبيًّا، أو عبْدَه)؛ لإجراء وَصْفِ الرِّسالةِ عليه، لِتعيينِ أنَّه مُرسَلٌ لتلك الوظيفة، لِدفْعِ أن يكون إرسالُه إرسالًا عامًّا، فلا يَلزَمُ منه أن يَختصَّ بوصْفِ الرِّسالة، وفيه نوعُ إلزام واحتجاج على أهل الكتابِ السَّابِق ذِكْرُهم، فمَجِيءُ التَّركيب: ﴿أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ﴾ مِن أصل الاشتقاقِ هو من المحسِّنات البديعيَّة، وفيه تأكيدُ معنى الإرسالِ، المؤكِّدِ معنى الواسطة بينَ اللّهِ والخَلْق.

دلالةُ إضافةِ لفظ (الرَّسول) لضمير الجلالة:

اللّهُ يُضيفُ رسولَه إليه؛ لِيُخبِرَ بتأييدِه وَوِلايتِه له

أضافَ اللّهُ سبحانه الرسولَ إليه بقوله: ﴿أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ﴾؛ وذلك للنَّصِّ على معنى انتساب الرَّسول ﷺ إلى اللّه سبحانه، وللتَّنويه على ما يَستَتْبِع ذلك مِن ولايةِ اللّهِ له، ونُصرتِه إيَّاه، كأنَّ المعنى: أرسلَه ليَنصُرَه ويُؤَيِّدَهُ، إذْ هو رسولُه، وما أفادتْهُ الإضافةُ مِن معنى الانتساب المُستَلْزِم للتَّأييد، لازِمٌ مِن لوازمِ الإباء المذكور في قوله: ﴿وَيَأۡبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ﴾، وتابِعٌ له، ومترتِّبٌ عليه، ولا يخفى أنَّ

إضافةَ لفظِ الرَّسولِ لضمير الجلال، تشريفٌ لشأن الرَّسول، وتعظيمٌ لقدْره، وتنويهٌ بمكانته، إذِ المضافُ للعظيم لا يكونُ إلَّا عظيمًا[1].

دلالةُ تعدِيَةِ الإرسال بالباء:

الباء في قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ﴾ للمصاحبة، أي: مصاحبةِ الهُدى واشتراكه معَ الرَّسول في الإرسال، ولا يلزمُ مِنَ المصاحبةِ والمعيَّة التَّزامُنُ بينَ الهُدى والرَّسول حالَ الإرسال، أو الباءُ للإلصاق، فيكون الهُدى حالَ إرسالِ الرَّسولِ لَصِيقًا به[2].

تعظيمُ شأنِ الرَّسول بوصْفِ الرِّسالة ووظيفةِ الهدايةِ وإبلاغ الحقِّ

سِرُّ تعديَةِ الإرسال إلى (الهُدى)، دونَ (النُّور):

تعديَةُ الإرسالِ للهُدى في قوله: ﴿أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ﴾، ولم يَقُل: (أرسل رسولَه بالنُّور)؛ اطِّرادًا مع قوله قبلَه: ﴿وَيَأۡبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ﴾؛ للدّلالةِ على عموم النُّور وخُصوصِ الهُدى، ولذَا أُضيفَ النُّور لاسم الذَّات ﴿ٱللَّهُ﴾، فالهُدى بعضُ هذا النُّورِ، ودِينُ الحَقِّ أثَرٌ مِن آثار هذا النُّور، فالهُدى ودينُ الحَقِّ مِنَ النُّور، لا أنَّهما النُّورُ[3].

نورُ اللهِ مِنْ صِفَاتِه، والدِّينُ والهُدى مِن آثارِ نورِه

معنى العطف:

عَطْفُ الدِّين الحَقِّ على الهُدى في قوله تعالى: ﴿أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ﴾ مِن باب عطفِ العامِّ على الخاصِّ، وعطفِ الشَّيءِ على صِفَته، فالدِّينُ الحَقُّ لا يكون إلَّا هاديًا، ولا يتّصِفُ بالهُدى إلَّا الدِّين الحَقُّ، والعطفُ لتعديدِ الصِّفات، فكأنَّه قيل: (أرسل رسوله بدينِ الهُدى ودِين الحَقِّ)، أي: الدِّينِ المُتَّصِفِ بهما[4].

الدِّينُ الحَقُّ لا يكون إلَّا هاديًا

نُكْتَةُ تقديمِ (الهُدى) على ﴿دِينَ ٱلۡحَقِّ﴾:

جاء الهُدى مُقَدَّمًا على الدِّين الحَقِّ، تسجيلًا على اليهود والنَّصارى أنَّهم على ضلالة فيما زَعَمُوه بشأنِ عُزَيْرٍ وعيسَى عليهما السلام،

تقديمُ الدَّرْءِ والتَّخْلِيَةِ على التَّحسينِ والتَّحلِيَة

(1) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 6/3287.
(2) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 6/3287.
(3) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاوي: 9/211.
(4) أبو حيَّان، البحر المحيط: 5/406.

فكأنَّهُ يقول لهم: لسْتُم على الهُدى فيما افتَرَيْتُمُوه، ثمَّ قرَّرَ لهم ما ينبغي أن يكونوا عليه، وهو الدِّين الحَقُّ، فكأنَّه يُخاطبُهم باستدفاع ضلالتِهم بالهُدى أوَّلًا، ثمَّ اعتناق الحَقِّ ثانيًا، فهو من بابِ تقديم الدَّرْءِ والتَّخْلِيَة، على التَّحَقُّقِ والتَّحْلِيَة.

بلاغةُ اصطفاءِ التّركيبِ:

في جملة: ﴿بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ﴾ مُراعاةٌ لتكوين الفِطرةِ في الإنسان، فإنَّ الإنسانَ لا يعتنِقُ الدِّينَ الحَقَّ، ولا يَثْبُتُ عليه، إلَّا بالاهتداءِ إليه بِحُسْنِ التَّوجيهِ والدّلالة، وتَبَيُّن الجِهةِ المستقيمةِ، فالهُدى: هو العلمُ النافعُ، الذي هو آلةُ الوصول للدِّين الحَقِّ، ففي التَّركيبِ جمْعٌ بينَ الدَّليل (الهُدى)، والمدلولِ عليه: (دين الحقِّ)، الذي هو العملُ الصالحُ، وفي التَّركيب - أيضًا - جمْعٌ بينَ ما يُورِثُ سَكِيْنَةَ الباطنِ بالهُدى، وثباتَ الظَّاهِر بالحَقِّ، وفيه: تعليمٌ بأنَّ الحقَّ مُلْتَمَسٌ بأسبابِه الهادِيَة مِنَ الحُجَجِ والبراهين المستقيمة، ومَجيءُ التَّركيب على تلك الصُّورة فيه إيماءٌ إلى توافُقِ الباطنِ مع الظَّاهر، فالهُدى ألصقُ بالباطن، والدِّينُ الحَقُّ ألصق بالظَّاهر، والذي يُعينُ على هذا التَّوجيه: أنَّ الهُدى يَنْبني في أصله على اتِّباع الدّلالةِ، وموافقةِ الاتِّجاه، ولا يكون ذلك إلَّا باتِّجاه الدَّاخِلِ نحوَ المُراد، وأمَّا الدِّينُ الحَقُّ: فهو الثَّابت، والثُّبوتُ: صِفةٌ ظاهرةٌ، والمُتَّصِفُ به مُتلَبِّسٌ به على نحوٍ ظاهر، وهيئةٍ ظاهرة، ولذا قد يُرَى الشَّخْصُ على الدِّين الحَقِّ، وهو غيرُ مُهْتَدٍ به في حقيقةِ الأمر[1].

التَّدَيُّنُ الحقيقيُّ ما يَجتمعُ فيه سكينةُ الباطِن مع صَلاح الظَّاهِر

دلالة اللَّام في قوله: ﴿لِيُظۡهِرَهُۥ﴾:

جُملة: ﴿لِيُظۡهِرَهُۥ﴾ تعليليَّةٌ لِما قبلَها، وهي بيانٌ للغايةِ مِن إرسال الرَّسول، واللَّامُ الجارَّة للتَّعليل أو للعاقبة، وعلى أنَّها للتَّعليل يكون

إذا أراد اللهُ شيئًا هيَّأ أسبابَه، وحَقَّقَ عواقِبَه

(1) الماورديّ، النُّكت والعيون: 2/355، والرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 16/32، وأبو حيَّان، البحر المحيط: 5/406.

المعنى: أنَّه أرسله لِيُظْهِرَهُ على الدِّين، فإرسالُ الرَّسولِ عِلَّةٌ للإظهار، ومعنى أنَّها للعاقبة، أي: جَعَلَ عاقبةَ الإرسالِ أن يُظهِرَه على الدِّين كلِّه. والفَرْقُ بينَ اللَّامَيْن: أنَّ لام العاقبة أَعمُّ، فقد يكون ما قبلَها سببًا لمدخولها، وقد لا يكون، ولامُ التَّعليلِ لا يكون ما قبلَها إلَّا سببًا لمدخولها[1].

معنى تَعْديَةِ الإظهارِ بحرف ﴿عَلَىٰ﴾:

تَعْدِيَةُ الإظهارِ في قوله: ﴿لِيُظْهِرَهُۥ﴾ بحرف ﴿عَلَىٰ﴾؛ لِتضمينِه معنى النَّصر والتَّفضيل والغَلَبَةِ والهَيْمَنَة، بما أفاده حرف ﴿عَلَىٰ﴾ مِنَ الاستعلاء المجازيِّ، فهو دينٌ يَغلِبُ غيرَه مِنَ الأديان في صِدْقِ حُجَجِه، وسلامةِ دلائلِه، وفي التَّعدِيَة بحرف الاستعلاء بُشرى للمؤمنين بالإسلام، إذِ الإخبارُ باستعلاء الدِّيْن مِنْ شأنِه أنْ يُفرِح أتْباعَه، والخبَر مِنَ اللّٰه بما يقع في المستقبل وَعدٌ مُحَقَّقٌ، يُقوِّي الرَّجاء، ويُثَبِّتُ القلوب[2].

الدِّينُ الحقُّ يَغلِبُ غيرَه في صِدْقِ حُجَجِهِ وسلامَةِ دلائله

دلالةُ التَّعبير بالمصدر المؤوَّل:

تركيبُ ﴿لِيُظْهِرَهُۥ﴾ مُكوَّنٌ مِن: لام التَّعليل الجارَّةِ، و(أنْ) المصدريَّةِ المحذوفة جوازًا، والفعلِ (يُظْهِر)، والمصدرُ المؤوَّل مِن (أنْ والفعل) في محلِّ جَرٍّ باللَّام، ونُكْتَةُ التَّعبير بالمصدر المؤوَّل - هنا - تخليصُ الفعلِ للاستقبال، فـ (أنْ) إذا دخلتْ على المضارع خَلَّصَتْهُ للاستقبال، وفائدةُ ذلك: تنزيلُه منزِلَةَ الوعد، وغَرَضُ التَّركيب: إرادةُ الزَّمَنِيَّة؛ ليستحْضِرَ المؤمنُ حركةَ المعنى جاريةً في الزَّمن، وهو أحضُّ على الاعتبارِ وزيادةِ الإيمان، بشهودِ الوعدِ يتحَقَّق ويَسْتَمِرُّ، بخلافِ المصدر الصَّريح (الإظهار)، فإنَّه دَالٌّ على مجرَّد الحَدَث، فدلالتُه مُصمَتَةٌ، وأمَّا المصدر المؤوَّل فذو حيويَّةٍ في عمَلِه وجريَانِه[3].

اللهُ وعَدَ عبادَه أنْ يُرِيَهُم آياتِ إظهارِ دينِه

(1) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 6/3287.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/173.
(3) صافي، الجدول: 10/327، والخطيب، التَّفصيل في الإعراب: 5/161.

مَرجِعُ الضَّمير في قوله: ﴿لِيُظۡهِرَهُۥ﴾:

الرِّجالُ وسائطُ اللهِ في تبليغ دينِه

الضَّمير في قوله: ﴿لِيُظۡهِرَهُۥ﴾ إمَّا أن يعود على أقرب مذكور: ﴿وَدِينِ ٱلۡحَقِّ﴾، وإمَّا أن يعود على (الرَّسول) على قول ابْنِ عَبّاسٍ رضي الله عنهما، والأَوْلَى أنْ يعود على (الرَّسول)؛ لأنَّه مفعول الإرسال، والدِّين معَه، فبإظهاره يَظهر الدِّين، ولا يكون إظهارُ الدِّين إلَّا به، ولا يخفى أنَّ الدِّين يظهر بالرِّجال، فلا بدَّ مِن أنْ يَظهرَ بواسِطةٍ لا بنفسِه، فثبَتَ أنَّ أصل الظُّهور للواسِطةِ لا له.

وأمَّا عَوْدُ الضَّمير على (دين الحقّ) فيُلاحظُ فيه أنَّ الدِّين معطوفٌ على (الهدى)، فكلاهما مع الرَّسول في إرساله، وقد تقرَّر أنَّهما متغايران، فالرَّسول جاء لإظهار الهدى، وإظهارِ الدِّين كذلك، فكلاهما مقصودٌ بالإظهار، ولم يقل في الآية: (لِيُظهرَهما)، وليس عَوْدُ الضَّمير على أحدهما بأَولى مِن عَوْده على الآخر، فلو قيل: إنَّ الضَّمير عائد على دين الحَقِّ، فلِمَ لا يُقال: إنَّه عائد على لفظ (الهدى)، فكان عَوْدُه على (دين الحقِّ) قلقًا في موضِعِه، فكان عَوْدُه على لفظ: ﴿رَسُولَهُۥ﴾ أَولى[1].

بلاغة التَّركيب في قوله: ﴿لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى﴾:

الإسلامُ دينٌ مَنيعٌ لا يُغالَب

التَّعبير بالظُّهور في قوله: ﴿لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى﴾ أفاد أنَّه يُغالِبُ طرَفًا آخَرَ موجودًا حاضِرًا، وهو سائر الأديان، ونُكْتَةُ ذلك: أنَّه لا يَلزمُ مِن ظهور الإسلام أنْ يَنْتَفِيَ نُفُوذُ الأديانِ الأُخرى وانتشارها، فضلًا عنِ انقراضِها وزوالِها، بل المفهومُ أنْ يُغالِبَها الإسلامُ في نفوذِها بنفوذِه، ويَدحرَ سلطانَها بسلطانِه وبُرهانِه، فتَخُورُ أمامَه ليَظْهرَ عليها أو يَصمدَ أمامَ نفوذِها، فلا تَظهَرُ هي عليه[2].

(1) ابن الجوزيّ، زاد المسير: 2/254، وأبو حيَّان، البحر المحيط: 5/406.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/174.

دلالة (ال) في قوله: ﴿ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾:

ما مِنْ دينٍ إلَّا ودِينُ الإسلام يَعلوه

(ال) في قوله: ﴿عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ لاستغراق الجنس، والاستغراقُ هنا استغراقٌ حقيقيٌّ، بمعنى: أنَّه ما مِن دينٍ إلَّا والإسلامُ يَعلُوه، ولأجل هذه الاستغراقيَّةِ جُعِل اسمُ الدِّين خالصًا في مُسمَّاه وحقيقتِه في الإسلام، في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران: 19]، كأنَّه بِظهورِه على سائرِ الأديان لم يُبْقِ لِدِيْنٍ منها حظًّا في اسمِه، فسَلَبَ منها معنى الدِّيْن في الاسم والمُسمَّى، والمراد بالدِّين: إمَّا الدِّينُ نفسه، أو أهلُ الدِّين، على حَذْف مضاف، والتَّقدير بحذف المضافِ مُتوجِّهٌ على اعتبار عَوْدِ الضَّمير في قوله: ﴿لِيُظْهِرَهُۥ﴾ على (الرَّسول)، أي: أرسل الرَّسولَ ليُظْهِرَهُ على أهلِ الأديانِ الأُخرى فيَخْذُلَهم، فتُخْذَلَ بخِذْلانِهم أفكارُهم وأديانُهم، فيكون ظهورُه عليهم ظهورًا على الدِّينِ كلِّه[1].

بلاغة التَّوكيد وأثرُه في المعنى:

لا غُنْيَةَ في دينٍ وضعيٍّ أو كِتابيٍّ عن الإسلام الدِّينِ الحقّ

التَّوكيدُ بلفظ (كلِّه) في قوله: ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ للمبالغة في الاستغراق الحاصل مِن (ال) في ﴿ٱلدِّينِ﴾، ونُكْتَةُ الإتيانِ بالتَّوكيد مع حصولِ الغُنْيَةِ عنه باستغراق الجنس في لفظ ﴿ٱلدِّينِ﴾ لِسببَيْن؛ الأوَّل: لِدَفْعِ تَوهُّم أن تكون (ال) في ﴿ٱلدِّينِ﴾ لغير الاستغراق، كأن تكون للعَهْد، فتفيدُ الخصوصَ وليس العمومَ، فلمَّا أكَّد ذلك بصيغةِ العموم، ثبَتَ أنَّ (ال) للاستغراق من غير إيهام. الثَّاني: أنَّ لفظ ﴿كُلِّهِۦ﴾ جعل لفظَ ﴿ٱلدِّينِ﴾ يتناولُ الأديانَ جميعًا، فيدخلُ فيه كلُّ دين له أصلٌ صحيح، كالشَّرائع السَّماويَّة كافَّة، ويدخل فيه ما ليس دِيْنًا في أصلِه، ولا أصلَ له، بل هو دِيْنٌ بحسَبِ اعتبارِ مُعتَنِقِيه له؛ كالأديان الوضعيَّة التي تملأ الأرض، ولا صِلةَ لها

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 5/277.

بمصادرِ الدِّيْن الحقيقيَّة، فجاء التَّأكيدُ ليتناولَ الأديانَ في معناها الشَّرعيِّ والوضعيِّ.

دلالة تكرارِ جملةِ الشَّرط:

مَنْ يُعادِي اللهَ لا يُحتَرَم

تكرارُ جملةِ الشَّرط: ﴿وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ﴾، بعد قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ﴾؛ مُراعاةً لِمضمون السِّياق، فهو مُشتَمِلٌ على التَّحدِّي والمُغالبَة، والوعدِ بإظهار الإسلام على سائر الأديان، وإظهارِ الرَّسول ﷺ على رؤساء المِلَلِ وأتباعِها، وفي هذا ما يستدعي كراهِيَةَ الخصوم، ويَستفِزُّ فيهم مشاعرَ الغيظِ والبُغْض، فأُعِيْدَ الشَّرطُ بنحوِه السَّابق في الآية السابقة في قوله: ﴿وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾؛ لتوفُّرِ دَاعِيْهِ الذي يَقتضيه، إتْباعًا لحُكم الإظهارِ المذكور، بدَفْعِ ونقْضِ ما هو مَظِنَّةُ نَقْضِه واعتراضِه، وهو حال كَراهِيَة الخصومِ لذلك.

بلاغة خَتْمِ الفاصلة:

الـمُشْرِكُ أَعْنَدُ مِنَ الكافِرِ وأظهرُ خصومةً؛ لكون الآيـةِ في معنى الغَلَبةِ والدَّفْعِ

في خَتْمِ الفاصلةِ بلفظِ: ﴿ٱلۡمُشۡرِكُونَ﴾ ثلاثُ دلالات؛ الأُولى: اطِّرادًا معَ السِّياق في تقرير ما تضمَّنَه مِن معنًى، فالآياتُ واردةٌ في الحديثِ عن أنماطِ الشِّرك وأصناف المُشركين، فهناكَ المشركون الوثنيُّون الذين لا أصلَ لدينِهم، فوثنِيَّتُهم أشْبَهُ بالدِّيانات الوضعيَّة اليوم، وقد قال الله فيهم: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُشۡرِكُونَ نَجَسٞ﴾، وهناكَ المشركون مِنَ اليهود والنَّصارى، الذين وَصَفَهم بالشِّرك فقال: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾، وقال هنا: ﴿وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ﴾، أي: أصحاب تلك الدِّياناتِ مِنَ الوثنيِّين المشركين، الذين يُمثِّلون الأديانَ التي لا أصلَ سَماوِيَّ لها، واليهودُ والنَّصارى المشركون الذين يُمثِّلون الدِّين ذا الأصلِ السَّماويِّ. الثَّانية: إنَّما اختارَ هنا وَسْمَهُم بوَصْفِ الشِّرك دونَ لفظِ

الكُفر، كما في جملة الشَّرط السَّابقة: ﴿وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾، أو لم يجعل أحدَ الوصْفَين مكانَ الآخَر؛ لأنَّ لفظ الكُفْر عامٌّ، فختَمَ به المرادَ العامَّ، وهو قوله: ﴿وَيَأۡبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ﴾، فإتْمامُ اللّهِ لنُورِه حاصِلٌ رَغْمَ أَنْفِ كلِّ كافرٍ، كَرِه ذلك أو لم يَكْرَهْ، وأمَّا المُشرك فهو أَخَصُّ مِنَ الكافِر؛ لأنَّ الكافِر قد يَجْحدُ ويُنْكِر من غير أنْ يَتَّخِذَ معبودًا آخَرَ يُشرِكُه معَ اللّه، ولذا كان المُشْرِكُ أكثرَ عِنادًا، وأظهرَ خصومةً، لأنَّه يكفر بالرَّحمن، ثُمَّ يَتّخِذُ نِدًّا يَعْبُدُهُ، فكأنَّه يُعانِد بهذا النِّدِّ، وكان الختْمُ به أنسبَ هنا؛ لأنَّ الآية في معنى الغَلَبةِ والدَّفْع، الذي تضمَّنَه قولُه: ﴿لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾، فلا بُدَّ لهذا المعنى مِن مَغلوبٍ، كان يُخاصِم ويُعانِد ويتَصَدَّر كَطَرَفٍ مُنازِعٍ، حتَّى يُظْهَرَ عليه ويُغلَبَ، فاصطفى الوصفَ بالإشراك للدّلالة على هذا المعنى. الثَّالثة: أنَّ وَصْفَهم بالشِّركِ بعدَ وَصْفِهم بالكُفرِ، للدّلالة على أنَّهم ضَمُّوا الكفْرَ بالرَّسولِ إلى الكفرِ باللّه، وهو الإشراك[1].

علَّةُ ذكر المشركين، واختصاص الآية السابقة بذكر الكافرين:

مناسبة كراهة المشركين لظُهور الدِّين، وكراهةِ الكافرين لإتمام نورِ الله مِن قديم الدَّهر

وخُصَّ المُشرِكونَ في قوله: ﴿وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ﴾ بالذِّكر؛ لأنّها كَراهَةٌ مُختَصَّةٌ بظُهورِ دين مُحَمَّد ﷺ، وخُصَّ الكافِرونَ قَبلُ؛ لأنَّها كَراهَةُ إتمامِ نورِ اللّه في قَديم الدَّهرِ وباقيه، يَعُمُّ الكَفَرَةَ مِن لَدُن خَلقِ الدُّنيا إلى انقِراضِها، ووقعتِ الكَراهَةُ والإتمامُ مِرارًا كثيرَةً[2].

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

لِيُظْهِرَهُ ولِيُعلِيَهُ:

الظُّهور: خِلافُ الخفاء، والعُلُوُّ: خِلافُ السُّفْل

إعلاءُ الشَّيءِ: جَعْلُه بمقامِ العُلُوِّ، وإظهارُه: جَعْلُه بمقامِ الظُّهور، والعُلُوُّ: هو ارتفاع الشَّيءِ فوقَ شيءٍ تَحتَه أو أدناه، والظُّهور: هو بُروزُ

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 8/445، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/62.
(2) أبو حيَّان، البحر المحيط: 5/407.

الشَّيء عنِ الشَّيءِ، بحيثُ يكون ظاهرًا منه ومُنْكَشِفًا عنه، فالشَّيءُ الظَّاهِر: هو الذي حصَلَ جِهةَ الظَّهْر، بحيث لا يَخفَى، سواء كان مُرتفعًا أم غيرَ ذلك، والشَّيء العالي: هو المرتفعُ، سواء كان ظاهرًا أم مُستَتِرًا، فالجِهةُ بينَ العُلُوِّ والظُّهور مُنْفَكَّة؛ لِكونِ الظُّهورِ خلافَ الخفاء، والعُلُوِّ خِلافَ السُّفْلِ، إلَّا أنَّ (ظَهَرَ) إذا عُدِّيَ بـ (عَلَى) ضُمِّنَ معنى العُلُوِّ والارتفاع، مع دلالتِه الزَّائدةِ على الظُّهور والانكشاف والبُروز، فمعنى: (ظَهَرَ عليه) إذا علاه عُلُوًّا لا يَخفى، بل ينكشفُ ويَبْـرُز، والظُّهور مِن هذه الجِهةِ الخاصَّةِ أَخَصُّ مِنَ العُلُوِّ، إذِ الأَخيرُ لا يَلزَمُ عنهُ انكِشافٌ أوِ اسْتِتَارٌ، معَ اشتراكِ كُلٍّ مِنَ الظُّهور والعُلُوِّ في الجانب المعنويِّ والحسِّيِّ، فالعُلُوُّ منه حِسِّيٌّ ومعنويٌّ، والظُّهور كذلك[1].

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرَّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيُّ: (ظهر، علو).

﴿۞يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡأَحۡبَارِ وَٱلرُّهۡبَانِ لَيَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۗ وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ٣٤﴾ [التَّوبة: 34]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

كثيرٌ مِن علماء اليهود ورُهبان النَّصارى يبيعون دينهم بدنياهم محاولينَ إطفاء نور الله

هذه الآيةُ مُتّصِلةٌ بسياق الكلامِ في أهلِ الكتابِ؛ وقد تَقَدَّم في هذا السِّياقِ أنَّ اليهود والنَّصارى اتخذوا أحبارَهم ورهبانَهم أربابًا مِن دون الله، وأنَّهم أشركوا باللهِ فعبَدوا غيرَه مِنْ دونه، وأنَّهم يريدون أنْ يُطفئوا نورَ الله الذي أفاضَه على عبادِه برسالةِ محمَّدٍ ﷺ، وأنَّ اللهَ يأبى إطفاءَه؛ بل يُريد إتمامَه وقد فَعَل، فناسَبَ هنا أنْ يُبيِّن مع هذا شيئًا مِنَ السِّيرةِ العمليَّة لجُمهورِ هؤلاء الرُّؤساء الدِّينيِّين؛ لِيعرفَ المسلمون حقيقةَ حالِهم، والأسبابَ التي تَحمِلُهم على محاولةِ إطفاءِ نُور الله تعالى، وأنَّ أكثرهم يعبدون أهواءَهم وشَهواتِهم[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَكۡنِزُونَ﴾: مِنَ الكَنْز، وهو اسمٌ على المال العظيم، ويأتي مصدرًا، بمعنى: تَخْبِئَةُ النَّقْدَين (الذهبِ والفِضّةِ) وادِّخارُهما، فَلَفْظُ الكنْزِ يَدُلُّ على الجَمْعِ والادِّخارِ والتَّخْبِئَة؛ ولذا يُقال الكنْزُ للمالِ المَدفونِ تحتَ الأرض، ثُمَّ استُعمِل في كلِّ مَخْبُوءٍ في حِرْزٍ، وإن لم يكنْ في الأرض، والمراد هنا: يجمعون الأموال ويُخْفونَها في الادِّخار، ولا يُنفِقونَها في مصارفِها المستحقَّة[2].

(1) محمد رضا، تفسير المنار: 10/343.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، وابن منظور، اللِّسان، والسّمين الحلبي، عمدة الحفَّاظ: (كنز).

❁ المَعْنى الإجْمالِيُّ:

تنبيهُ المؤمنين وتحذيرُهم مِنَ الاغترار بعلماء أهل الكِتاب وعُبَّادِهم

يُنادي اللهُ عبادَه الذين آمنوا، شاهِدًا لهم بالإيمانِ مادِحًا لهم به، مُخبِرًا إيَّاهم - على جِهةِ التَّنبيهِ والموعظة - أنَّ كثيرًا مِن علماء أهل الكِتابِ وعُبَّادِهم لَيَأْخذونَ أموالَ النَّاس بغير حَقٍّ، باسمِ مناصِبِهم الدِّينيَّة؛ كالرِّشْوَةِ لِتخفيفِ الأحكام، والرِّبا، وغيرِهما، ويمنعونَ النَّاس مِن اتِّباع النَّبيِّ ﷺ؛ لِيبقى نفوذُهم على أَتْباعِهم، وهناك كذلك الذين يُمْسِكون المالَ، ويَدَّخرونَهُ ولا يُنفقونه في مَصارِفِه الواجبةِ والمُسْتَحَقَّة، فأولئكَ مُبشَّرونَ بالعذاب الموجِعِ الأليم[1].

وترشدُ الآية الكريمةُ إلى ألَّا يَثِقَ المؤمنون بأحبار اليهودِ ورهبانِ النَّصارى بما يلبَسونه من طُقوسٍ ومُسوحٍ يُلْقون بها بين الناس المهابةَ منهم والثقةَ، فيبيِّن اللهُ للمؤمنين أنهم يَتَّجرون بعلمهم، ويأخذون الرِّشا وسُحتَ المالِ، والاتجارُ بالعلمِ في ذاته غيرُ جائزٍ، فكيفَ إذا كان الثمنُ رِشًا وبراطيلَ وسُحتَ المال؟

وتحذِّرُ مَن يتعلمون أحكامَ الإسلام ويعلِّمونه بألَّا يتخذوه متجرًا يتَّجرون به، فدينُ الإسلام أعلى ما ورثهُ العلماءُ من نبيِّهم ﷺ، فلا يبيعونه ويشترون به ثمنًا قليلًا من الدنيا؛ كي لا يكونوا من علماء السُّوءِ وعبَّادِ الضَّلالِ، كما قال سفيان الثوري: مَن فَسَد مِن علمائنا كان فيه شَبَهٌ من اليهود، ومَن فَسَد من عُبَّادنا كان فيه شَبَهٌ من النَّصارى[2].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

موقعُ جملةِ النِّداء ممَّا قبلَها:

لا عُذْرَ للتَّابِعِ في تقليدِه أئمَّةَ السُّوءِ

قوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ استئنافٌ ابتدائيٌّ؛ غرضُه إنشاءُ التَّحذيرِ والنَّذير، بتقريرِ حالةٍ مِن أحوالِ الانحرافِ المادِّيِّ عند رؤساء أهل الكتاب، مِنَ الأحبار والرُّهبان بعد تقريرِ حال العَوامِّ

(1) نخبة من العلماء، التفسير الميسَّر، ص: 192.

(2) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/138، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 6/3286.

والأتباع، في اتِّخاذِهم أحبارَهم ورهبانَهم أربابًا مِن دون الله؛ لِيسْتَتِمّ بتلك الجملةِ حالَي الأتباعِ والمتبوعين، فالأتباعُ غارِقون في إذلالِ أنفسِهم وإضلالها بالشِّركِ وعبوديَّةِ الإنسان، والمتبوعون راغبون عنهم، مُستخدِمين لهم في تحصيل الأموال والمنافعِ وتعزيزِ النُّفوذ، فكلُّ فريقٍ يبتغي مِنَ الآخَرِ منفعتَه، بطريق الباطل والدَّنِيئةِ والزُّور[1].

سِرُّ مَجيء التَّركيبِ على أسلوبِ الإنشاء الطَّلَبيِّ:

جاء الإخبار عن حالِ أكثر علماءِ أهل الكتابِ - في القرآن الكريم - مُصَدَّرًا بأسلوب النِّداءِ للمؤمنين لأغراضٍ أربعة؛ الأوَّل: إطْلَاعُ المؤمنين على أحوالهم؛ ليَحْذَروهم عند مُخالطتهم، لِئَلَّا ينخدعوا أو يُغْبَنوا فيهم[2]. الثَّاني: نَهْيٌ ضِمْنِيٌّ للمؤمنين عنِ التَّورُّطِ في مِثْلِ مَزالِقِهم ونقائصِهم؛ ليحفظوا على أنفسِهم مقامَ الإيمان الذي ناداهُمُ اللهُ به. الثَّالث: إجراءُ وَصْفِ الإيمان على المُخْبَر عنه بالأسلوب المباشر، وهو النِّداء لهم مباشرةً مِنَ الله دون واسطة تشريفًا لهم، ولذا لم يقل: (قل للذين آمنوا) تعريضًا بأهل الكتاب الذين اتّخذوا أحبارَهم ورهبانَهم وسائطَ شِركيَّةٍ بينَهم وبينَ الله، فكأنَّ الله هنا يُنادي المؤمنين ليقولَ: إنَّ الله ينادي عبيدَه بما يشاء مِن غير واسطة، فأَوْلَى بهؤلاء المنحرفين أن يقصِدوه مِن غير وسائطهم التي اتَّخذوها أربابًا مِن دونه. الرَّابع: تضمينُ الخبرِ الذي سيُتْلَى عليهم معنى الإنشاءِ؛ لأنَّ النِّداء إنشاءٌ طلبيٌّ بما استوجبه مِن معنى طلَبِ الإقبال، فإذا كان الطَّلبُ المذكور لأجْل الإخبار بما له تعلُّقٌ بالأحكام التَّكليفيَّة، كان النِّداءُ حينَئِذٍ إنشاءً طلبيًّا، اقترن بما يستلزِم تكليفًا، والتَّكليفُ إمَّا أمرٌ أو نَهيٌ، وذلك إنشاءٌ، فكانتِ

كلُّ خبَرٍ عنِ انحرافِ غيرِ المؤمنين، هو تحذيرٌ للمؤمنين من هذا الانحراف

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 8/445، والآلوسيّ، روح المعاني: 5/279، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/174.

(2) الآلوسي، روح المعاني: 5/279.

الجملةُ الخبريَّة ﴿إِنَّ كَثِيرًا﴾ الواقِعة جوابًا للنِّداء، مُتضمِّنَةً معنى الإنشاء، أي: لا تكونوا مِثْلَهم في أكْلِ الحَرام.

نُكْتَةُ تخصيصِ المؤمنين بالخِطاب:

المؤمنون خيرُ النَّاس اتِّباعًا لدِينِهم

افتُتِحَ الخَبرُ عن علماءِ أهل الكتابِ وعُبَّادهم بنداء المؤمنين، دون أن يأتيَ مُجرَّدًا عنِ النِّداء بالكُليَّة، فلم يقل: (ولو كره المشركون، إنَّ كثيرًا مِنَ الأحبار)؛ لِمناسبةِ المقامِ الذي يُخبِر عنِ الأتباع الذين كان انحرافُهم ذريعةً لرؤساءِ دينِهم، أنْ يأكلوا أموالهم بالباطل، فلمَّا كان كلُّ المؤمنين أتباعًا لدِين الإسلام، وقَع ذِكْرُهم بالنِّداء في هذا السِّياق لمُحاكاتِهم المَذكورين في مقامِ الاتِّباع، فقيل لهم: كونوا أتباعًا لدينِكم، لا كَهَؤلاءِ الأتباعِ لِدينِهم.

دلالةُ الموصول وصيغةُ الماضي في جملةِ النِّداء:

النِّداءُ بالصِّفة المحمودة تزكيةٌ للمُنَادَى بها

قولُه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ نُودِيَ على المؤمنين باسم الموصول: (الذين)؛ تمييزًا لذواتِهم المتَّصِفَة بمضمون الصِّلةِ تمييزَ تشريف، فهو أبلغُ في المعنى مِن أن يُقال: (يا أيّها المؤمنون)؛ لأنَّ في الموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾، وصِلتِه بالفعلِ الماضي ﴿ءَامَنُوٓاْ﴾، تزكيةً لذواتِهم، وتزكيةً لأعمالِهم، فقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ عَبَّر فيه بالاسم الموصول؛ ليَدُلَّ عليهم بذواتهم، فيُجري وصفَ الإيمان عليها، وفيه إشعارٌ بعِلَّةِ تشريفِهم بالنِّداء الإلهيِّ، وهو أنَّهم ذواتٌ مؤمِنة، والتَّعبير بتركيب ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾، أبلغُ مِن اسم الفاعلين (المؤمنون)؛ لدلالته على الذَّات والفِعلِ بطريق المنطوق المتعدِّد (الموصول وصِلَتِه)، لا الصِّيغةِ الأُحاديَّة (اسم الفاعل)؛ جريًا على التَّفصيل والإطناب الذي اقتضاه المقام، في سَردِ الأوصافِ وذِكْرِها مُحقَّقَة، وإيرادِ فِعلِ الإيمانِ بصيغةِ الماضي، مِن دلائل تحقيقِ وصفِهم بالإيمان؛ لِتَقَع تزكيَتُهم بالإيمان موقِعَ الجزمِ واليقين.

عِلَّةُ إسنادِ الحُكم إلى كثيرٍ مِنَ الأحبار والرُّهبان دونَ جميعِهِم:

أحكامُ اللهِ عادلةٌ مع خَلْقِه، ودليلٌ على فشوِّ هذا المسلك فيهم وانتشارِه بينهم

أسندَ هذه الجريمةَ إلى الكثير من الأحبار والرُّهبان دونَ جميعِهِم، اتِّباعًا لِمسْلَكِ التَّحرِّي والمطابقةِ، والإنصاف في إطلاق الأحكام، تنزُّهًا عن شوائبِ الجَوْرِ، وهذا مبدأٌ قرآنيٌّ تقرَّر على وجه العمومِ في قوله: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ۚ﴾ [المائدة: 8]، وتقرَّر على وجه الخصوص في أهل الكتابِ بقوله تعالى: ﴿لَيْسُوا۟ سَوَآءً ۗ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾﴾ [آل عمران: 113] فاللّه لا يحكم على الأُمَّة الكبيرة بفساد جميع أفرادها أو فسقهم أو ظلمهم؛ بل يسند ذلك إلى الكثير أو الأكثر، أو يطلق اللَّفظ العامَّ ثمَّ يستثني منه، فمِن الأوَّل: قولُه تعالى في اليهود: ﴿وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾ [المائدة: 62]، ومِنَ الثَّاني: قوله تعالى: ﴿وَلَـٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٤٦﴾﴾ [النساء: 46]، وأيضًا: لأنَّهم لم يَخْلُوا مِن وجودِ الصَّالحين فيهم، مِثْلِ عبدِ اللّه بنِ سَلَام رضي الله عنه، وفي التَّعبير بالكَثْرة إلماحٌ لِصفاتِ اللّهِ العُليا، مِنَ العدل والعِلْم والحِكْمة[1].

وفي التعبيرِ بكثرةِ الأحبارِ والرهبانِ الذين يأكلون أموالَ الناسِ بغير حقٍّ شرعيٍّ، دليلٌ على فشوِّ هذا المسلك فيهم وانتشارِه بينهم، وفيه الإلماحُ إلى عدم قَصْرِه في زمن دون زمنٍ من عهودِهم، بحيث كان مستديمًا فيهم ومتطاولًا حُقُبًا متعاقِبةً، وكأنَّ هذا القبضَ الماليَّ المشبوهَ أصبح سائغًا لهؤلاء العلماءِ والعُبَّادِ - مع علمهم بحُرمته وبَشَاعته - لطولِ العهد وقلَّةِ التقوى فيهم، والرغبةِ منهم في التصدُّر والرئاسة الدينية، ولكثرةِ إلْفِ من يُعطيه لهم من الأتباعِ الرِّعاع، بحيثُ غدا منهم حقًّا مشروعًا مقتطعًا من أموالِهم - من

(1) محمد رضا، تفسير المنار: 10/344، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/175.

غير نَكارةٍ له منهم - لهذه المجموعةِ القابضةِ بالظُّلم والعُدوانِ، وفيه التحذيرُ منهم ومن شرِّهم المستطيرِ ومن ضلالهم الكبير.

دلالة التخصيص بلَقَبي الأحبار والرُّهبان:

الوصفُ بالمَنْصِبِ الكريم إذا اقترنَ بسُوء الفِعل يكون قَدْحًا لِصاحبِه

اقتُصِرَ النَّظمُ الكريمُ في الذِّكْر على الأحبار والرُّهبان، دونَ التَّعبير باليهود والنَّصارى؛ لِقصدِ التَّخصيص، لأنَّه أراد طائفةَ الرُّؤساء من العلماءِ والعُبَّاد منهم، ولو قال: (اليهود والنَّصارى)؛ لدخَلَ فيهم العوامُّ والأتباع ومَن تُؤكَلُ أموالُهم؛ إيذانًا بأنَّ هؤلاء الرؤساءَ كانوا يرتكبون النَّقائصَ ويأكلون الحرام، بمُوجَبِ ما يقتضيه وَصْفُهم بالأحبار والرُّهبان، فكونُهم موصوفين بذلك هو ذريعتُهم التي بها "يأخذون مِن أموال أتباعهم، ضرائبَ وفروضًا باسمِ الكنائس والبِيَع وغيرِ ذلك؛ ممَّا يُوهِمونَهم أنَّ النَّفقةَ فيه مِنَ الشَّرع والتَّزلُّفِ إلى الله"[1].

وفي إيرادِ تلك التَّسمِيَةِ إشارةٌ إلى تحقيرهم؛ لأنَّه وَصَفَهم - بين أقوامهم - بأرفعِ المناصِب التي يَتوسَّلون بها لِأَخَسِّ المطالب، فانحطُّوا مِن رُتْبَةِ المقامِ العالي الذي أقاموا فيه أنفسَهم، بشُؤمِ ما اجترحوه مِن خِصالِ الضَّعَةِ والخِسَّة[2].

نُكْتَةُ تقديم الأحبار على الرُّهبان:

مُراعاةُ قواعدِ السِّياقِ والمقام مِن مقاصِد البيانِ العالي

قدَّمَ الأحبارَ على الرُّهبان اطِّرادًا معَ السِّياق المقالي والسِّياق المقامي، فوافَقَ السِّياقَ السَّابقَ في قوله: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا﴾، ووافَقَ السِّياقَ الواقعيَّ الخارجيَّ، وهو كونُ الأحبارِ مُتقدِّمين على الرُّهبانِ زمَنًا؛ لِكونِ اليهودِ قبل النَّصارى.

دلالة تسميتهم بالأحبار والرُّهبان:

تسمِيَتُهُم بالأحبار دليلٌ على قُدرتِهم المتفوِّقَة في تحبيرِ المعاني

(1) ابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 3/27.

(2) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 8/122، والبقاعيّ، نظم الدُّرر: 8/446.

بِحُسْنِ البيانِ عنها، فهم يُنتِجونَ في العِلمِ آثارًا حسنةً، تدلُّ على مَلَكَتِهِم العلميةِ الرَّاسِخةِ، والرُّهْبان: جمْع راهِب، واشتقاقُه مِنَ الرَّهْبَة، وهو وَصْفٌ يدلُّ على حال التَّنَسُّك والزَّهَادة والاعتزال في الصَّوامع[1]، وعليه: فيُؤخَذ من هذينِ اللَّفظَينِ عِدَّة دلالات؛ أوَّلًا: أنَّ الغالب في اليهود أنَّهم أعلَم، والنَّصارى أعبَد. ثانيًا: أنَّ معنى اللَّفظينِ ممدوح، فلمَّا اقترنا بما يَسُوء ويَشِيْن، وهو أَكْل أموالِ النَّاس بالباطِل، صار اللَّفظانِ أمْكَنَ ما يكونُ في الذَّمِّ، كقولك: فلانٌ الغَنِيُّ يَسْرِق، وفلانٌ القَويُّ يُؤذي الضَّعيف. ثالثًا: أنَّ تسميَتَهما بذلك (أَسماءُ مَملَكَةٍ في غَيرِ مَوضِعِها)[2]، وهي تسميةٌ مُعطَّلَة فارِغة، وليستْ على معنى التَّحَقُّق، فهي لهم كَمَنْ اسمُهُ: (صالِح)، ويُفسِدُ في الأرض.

لا خيرَ في العالِم إذا لم يعمل، ولا في العامِل إذا لم يَعلَم

دلالة دخول اللَّام على الفعل المضارع:

اللَّام في قوله: ﴿لَيَأْكُلُونَ﴾ لامُ الابتداء التي تزحلَقتْ لتتَّصلَ بالخبر[3]؛ لوجودِ مؤكِّدٍ آخَر اقترن بالمبتدأ، وهو (إنَّ)، فانفردَ به عنِ اللَّام، ووظيفتُها معنويَّةٌ، وهي: تأكيد العلاقةِ الإسناديَّة بينَ المبتدأ والخَبر، والمبالغةُ في معنى الخَبر وتوكيده، و(يأكلون) خبر (إنَّ)، و﴿كَثِيرًا﴾ اسمُها، وهو المبتدأ، وتأكيدُ الخبر باللَّام يُفيد تمكُّنَ الفِعلِ منهم، وشِدَّة إدمانِهم له.

الانحرافُ المادِّيُّ إذا لم يُداوَ تَفقِدُ معه النَّفْسُ استشعارها لِحُرمتِه

بلاغة الإخبار عنهم بلفظ الأكل:

الإخبارُ عن الأحبارِ والرهبانِ بلفظِ الأكل فيه إيماءٌ إلى تحقيرِهم وتهوينِ ذَواتِهم، ووجْه ذلك: أنَّه أخبر عنهم بفِعلٍ مِن أفعالِ الأفواهِ والبُطُون، وهو (الأكل)، فكأنَّه يقول: وَصْفُهم بالأحبار

التَّفرُّغُ لإشباعِ فضولِ الغرائز مَنْقَصَةٌ قادِحة

(1) الرَّاغب، المفردات: (حبر، رهب)، والآلوسيّ، روح المعاني: 5/276.

(2) اقتباسًا من بيت أبي الحسن علي بن عبد الغني الفِهْري الحُصْريّ، الشاعر الأندلسي المشهور رحمه الله.

(3) درويش، إعراب القرآن: 4/93.

والرُّهبان الذي يقتضي العِلمَ والعبادة، والتنزَّهَ عن الشُّبهات والمحرَّمات لم ينفعهم في شيء؛ لأنَّهم قومٌ مُتفرِّغون لشهواتِهم، وما تَؤُزُّهم إليه غرائِزُهُم، ومجيءُ الخبر بصيغة المضارع (يأكلون) يُصوِّر شراهتَهم وهيئتَهم القبيحةَ، في نزوعِهم المُتكَرِّر والمستمرِّ في استباحةِ أموالِ طبقاتِ مجتمعهم ونسيجه المتنوِّع بالباطل.

بلاغة إسناد الأكْل إلى الأموال:

الأكْلُ هو أكثرُ ما تُنْفَقُ الأموالُ فيه

إسناد الأكل إلى الأموال مجازٌ مرسل في الأخْذ والتَّناول، علاقتُه المُسَبَّبيَّة؛ إذِ الأخْذُ سببُ الأكل، فَذَكر المُسَبَّب وأراد السَّبب، أو عَبَّر عنِ الشَّيء بأعظمِ مقاصده؛ لأنَّ الأكل هو المقصود الغالب مِن جمْع الأموال، أو التَّركيبُ استعارةٌ تمثيليَّةٌ، حيثُ شبَّه أَخْذَهُم وتعاطيهم للحرامِ مِن غير تمييز، بمَن يأكلُ ما ليس له مِن غير تمييز[1].

دلالةُ إضافة الأموال إلى النَّاس:

تحصيلُ الانتفاعِ مِنَ المِلْكِيَّاتِ بغيرِ رِضَا أصحابِها إثْمٌ وعُدوان

إضافة الأموال للنَّاس في قوله: ﴿أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ﴾ لتعريف الأموالِ، فهي أموالٌ خالِصةٌ لأصحابها، اكتسبوها بعَرَقِ جَبينهم وبأنواعِ الصَّفْقِ المختلفة، فهي مُتعيِّنةٌ لهم، داخِلةٌ في حيازتِهم، فالإضافة لإظهار معنى السَّطوِ والاستيلاءِ عليها مِن قِبَل الأحبار والرُّهبان، ولِنفْي أيِّ شُبهةٍ مُحتَمَلة لأحقِّيَتِهم فيها.

معاني الباء في قوله: ﴿بِٱلْبَٰطِلِ﴾:

مسؤوليَّةُ تناولِ الشَّيء بالباطل لازِمَةٌ في الذِّمَّة

الباء في قوله: ﴿لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ﴾ هي باءُ الحال، وهي مع مدخولها تتعلَّق بمحذوف حال، ومعناها الإلصاقُ والملابسة: أي يأكلون مُتلَبِّسينَ بالباطل، فأكْلُهم ملاصِقٌ للباطل لا ينفكُّ عنه. أو الباء للاستعانة، أي: يأكلون مُستعِينِين بالباطل،

(1) الزَّمخشريّ، الكشَّاف: 2/266، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/62، والرّازيّ، مفاتيح الغيب: 16/34، والآلوسيّ، روح المعاني: 5/279، والشِّهاب، عِنايةُ القاضِي وكِفايةُ الرّاضِي على تفسيرِ البيضاوي: 4/322.

وهذا يتوجَّه باعتبار أنَّهم كانوا يأكلون أموال النَّاس بعد أن يُروِّجوا لهم الأكاذيبَ التي تُغْريهم على دَفْع أموالِهم لهم، فالباطِلُ آلَتُهُم ووسيلتُهم وأداتُهم في انتزاع المال مِن غير حَقِّه. أو الباءُ للسَّببيَّة، أي: أنَّهم يتَّخذون الباطلَ سببًا للأكل. والفَرْق بينَ هذه المعاني: أنَّ القَصْد والتَّعمُّد ظاهِرٌ على معنى الاستعانة والسَّببيَّة، غيرَ لازم على معنى الإلصاق والمُلابسة؛ لأنَّ الاستعانة بالشَّيء واتِّخاذَه سببًا للغَرَض يجعلهم قاصدين مُتعمِّدين لركوب الباطلِ، وتحرِّي طرائقِ الحرام لكسْبِ المال، أمَّا الملابسةُ والإلصاق فلا يلزم منه التَّعمُّد، بل يَلْزم منه عدمُ الاكتراث فقط، فهو يأكل من غير تمييز، وهذا يُوَرِّطُه في الباطل، وقد لا يُوَرِّطُه إذا لم يُصادِف باطلًا، ولكن هنا نُكتةٌ فريدة: وهو أنَّ الملابسة والإلصاق وإنْ لم يَلْزم منهما التَّعمُّد والقَصْد في اتِّخاذ الباطل كأداة، إلَّا أنَّ إفادةَ ذلك لعدم الاكتراث وعدمِ التَّمييز هو أكلٌ بالباطِل، فَعَدمُ التَّمييز نفْسُه هو مِنَ الباطل، سواء صادَفَ باطلًا أم لم يُصادِف؛ لأنَّ تَحرِّيَ الحرامِ والحلالِ في تناول الشَّيء واجبٌ، وتناولُه كيفما اتَّفق حرامٌ.

لطيفةُ تقديمِ أكل الأموال على الصدِّ عن سبيل الله:

إفادةُ الاختصاص والأهمية، وإدخالُ الأموالِ والمكتسباتِ في حَوْزتهم والانتفاع بها في أيِّ مجالٍ

قدَّمتِ الآية الكريمةُ انتهابَ الأحبارِ والرُّهبانِ أموالَ الناس على الصدِّ عن سبيل الله؛ دلالةً على إفادة الاختصاص والأهمية، أي: إنَّ كثيرًا من الأحبار والرُّهبانِ يختصُّون ويَعْتنُون ويَحْرِصُون ويهتمُّون بأكل أموال الناس بغير طريقٍ سائغٍ مقبولٍ، بحيث يكون إدخالُ الأموالِ والمكتسباتِ في حوَزْتهم والانتفاعُ بها في أيِّ مجالٍ؛ ولذا ورد لفظ (الباطل) في السِّياق الكريم عامًّا ليشملَ كلَّ ما يتصوَّر دخولُه فيه، بحيثُ يتناولُ وجوهًا كثيرة، منها تغييرُ الأحكامِ الدينية لموافقةِ أهواءِ الناس، ومنها القضاءُ بين الناس بغيرِ إعطاءِ صاحبِ الحقِّ حقَّه المعيَّن له في الشريعة، ومنها جحدُ الأماناتِ عن أربابها أو عن

ورثتِهم، ومنها أكلُ أموالِ اليتامى، وأموالِ الأوقافِ والصَّدَقات[1]، وتنوُّعُ هذه المقبوضاتِ من عموم الناسِ يدلُّ على شناعةِ فعلِ الأحبارِ والرُّهبانِ وخطورةِ صنيعهم القبيح.

سرُّ حَذْفِ المفعول:

الكافِرُ عَدُوٌّ نفْسِه قبلَ أن يكون عَدُوًّا للمؤمنين

حَذَفَ المفعولَ في قوله: ﴿وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾، فلم يُحدِّد مَنْ يَصدّونَ لغرضَين؛ الأوَّل: لإرادة التَّعميم وعدمِ التَّعيين، فهم يَصدُّون كلَّ أحَدٍ يَقْدِرون على صَدِّه، فيَصُدُّون المؤمنَ بردِّه عن دينِه، ويَصُدُّون الكافرَ بتثبيتِه على ضلالِه، وفي التَّعميم المذكور إيذانٌ بتنويع وسائلِهم في الصَّدِّ، واتِّساعِهم في استخدامِ أدَواتِه. الثَّاني: لاحتمالِ أنْ يكون (يصدُّون) لازمًا غير مُتَعَدٍّ، على معنى: (يُعرِضون)، فهم الذين يَصُدُّون ذَواتَهم، ولعلَّ هذه نُكْتَةُ مجيءِ المضارع مضمومَ العينِ من: صدَّ يَصُدُّ؛ لأنَّه وإن كان الفعل لازمًا إلَّا أنَّه في معنى المتعدِّي؛ لأنَّ الفاعل يَصُدُّ نفسَه ويمنع ذاتَه، ولذا جاء الفعل مضمومَ العينِ، بناءً على أنَّ القياس في المُتعدِّي ضَمُّ العين[2].

دلالةُ صيغة المضارع:

لا يَنفَكُّ الكافرون عن مُزاولةِ الصَّدِّ عن دينِ الله

التَّعبيرُ بصيغة المضارع في قوله: ﴿وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ﴾ يُفيد تَفَرُّغَهم للصَّدِّ، واستمرارَهُم عليه، وتكرارَهُ منهم، وهو مُؤْذِنٌ بصَبْرِهم على مُزاوَلَةِ الشَّرِّ، وإدمانِهم لارتكابِه[3].

علةُ إضافةِ السَّبيل إلى الاسم الجليل:

سبيلُ الله هو كلُّ ما يُوصِلُ إليه ممَّا يُحبُّه ويرضاه

أفادت إضافةُ السَّبيل إلى لفظ الجلالة ﴿ٱللَّهِ﴾ أنَّ صُدُودَهم أو صَدَّهم غيرَهم، كان عن خصومتِهم معَ الله جلَّ وعلَا، وكراهيتِهم لكلِّ ما له نِسبَةٌ إلى الله، والإضافةُ قرينةٌ للاستعارة، فسبيلُ اللهِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/175.
(2) ابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 3/27، وأبو حيَّان، البحر المحيط: 5/411، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاوي: 9/212، والآلوسيّ، روح المعاني: 5/279، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/175.
(3) محمد رضا، تفسير المنار: 10/348.

مُستعارٌ لدِيْنِه، وهي استعارةٌ أصليَّةٌ تصريحيَّةٌ، والإضافةُ إلى اسم الذَّات تُفيد أنَّ مُحاولةَ صَدِّهم عبَثٌ لا يُفيد، وسَعْيٌ على غير طائل، فهم يُمانِعون شيئًا مُضافًا إلى القادرِ القاهِر الجبَّار، الذي لا يُمانِعُه أحدٌ إلَّا وغَلَبَتْه قدرةُ الجليلِ وردَّتْهُ صاغِرًا[1].

دلالة عطفِ: ﴿وَيَصُدُّونَ﴾ على ما قبلَها:

فِعلُ السُّوءِ دعوةٌ إلى كراهيَةِ الحقِّ

جملة: ﴿وَيَصُدُّونَ﴾ معطوفةٌ على جملة: (يأكلون)، ونُكْتَةُ الوصلِ بالواو: تحقُّقُ الجامعِ السَّبَبِيِّ أو اللُّزوميِّ بينَ المتعاطِفَين، فالصَّدُّ عن سبيل الله مُترتِّبٌ عن أكلِهم أموالَ النَّاس بالباطل، كأنَّه قال: يَصُدُّون عنه بأَكْلِهم الأموالَ بالباطل، فأَكْلُهُمُ الباطلَ أدَّى إلى تنفير النَّاس وصَدِّهم عن دين الله. أوِ الجامعُ بينَ المتعاطفَين: هو جَمْعُهم بينَ الشَّغَفِ بالمالِ، والشَّغَفِ بالجاه، فالأوَّل: يُبيِّنُه قولُه: ﴿لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ﴾، والثَّاني: يُبيِّنُه قولُه: ﴿وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، فإنَّهم بعد استيلائهم على الأموال باسم مناصبِهم الدِّينيَّةِ، يمنعونَ النَّاس مِن اتِّباع الرَّسولِ ﷺ؛ لِكَونِ ذلك سيَحْجُبُ عنهم غنائمَ المالِ الباطلةِ، ويُذهِبُ عنهم سُلْطةَ الرُّتْبَة، ونفوذَ المنصِب[2].

موقع جملةِ: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ﴾ ممَّا قبلَها:

الافتِتانُ بالمادِّيات مُؤذِنٌ بِخرابِ الدِّين

جملة: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ﴾ معطوفة على ما قبلَها، عَطْفُ القِصَّةِ على القِصَّة، والخبرِ على الخبر، أي: حالهم كذا وكذا، فيكون قولُه: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ﴾ مِن تمام أوصاف الأحبار والرُّهبان، أي: يأكلون المالَ بالباطل، فيَتَرتَّبُ على ذلك صَرْفُ النَّاس عن دين الله، ويَترتَّبُ عن ذلك اكتنازُهم للمال بعدَ جمعِه وأخْذه، ويظهر في هذا الوجْهِ قُوَّةُ المناسبةِ بينَ الأفعال المذكورة: (يأكلون، ويصدُّون، ويكنزون). أوِ الواوُ للاستئناف النَّحويِّ، وسببُ الاستئنافِ: تضمينُ الموصولِ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/175.

(2) الرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 16/34، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاوي: 9/212.

معنى الشَّرطِ، لإدخال الفاء في جوابه في قوله: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾، فهو استئنافٌ ابتدائيٌّ، وَوَصْلُه بالواو مع ما قبلَه لِحُسْنِ المناسبة، لا لِمُوجِبٍ يُشْتَرطُ معه الوصلُ، ووجْهُ حُسْنِ المناسبةِ في النَّظْم: أنَّه لـمَّا كان حالُ مَنْ أمْسَكَ مالَ نفسِه بالباطل كذلك، فما ظَنُّكَ بحالِ مَن سَعَى في أخْذِ مالِ غيرِه بالباطلِ والخديعة[1]؟

دلالة التَّعبيرِ بالموصول دونَ اسم الفاعل:

فَضْحُ ذَوِي الجنايات العظيمةِ بأوصافهم؛ للوقايةِ والتَّحذير منهم

في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ﴾، جاء التَّعبيرُ بالموصول دونَ اسم الفاعل، فلم يقل: (والكانِزونَ الذَّهبَ والفِضَّةَ)؛ للدّلالةِ عليهم بذَواتِهم، فكأنَّه يُحدِّدُهم ويُعَرِّفُهُم ويُميِّزُهم أكملَ تمييزٍ، تجسيدًا للخطاب، وتهوينًا لذواتهم، فكأنَّ الاسم الموصول (الذين) جَعَلَهم أجسامًا بلا أرواحٍ، وأشخاصًا بلا أسماء، وأفرادًا بلا اعتبارٍ، فلا يستحقُّونَ ذِكْرَ أسمائِهم، أو نَسَبِهم، أو صفاتِهم، بل يكفي ذِكْرُ حالتِهم الجَشِعَةِ، وتصويرُ نفوسِهم المَوتورةِ الهائجةِ حينَ اكتَنزوا المالَ، "فالموصولُ مُرادٌ به قومٌ معهودون، يعرفونَ أنَّهم المرادُ مِنَ الوعيد، ويَعْرِفُهم المسلمون"[2]، وأيضًا للإشارة إلى عِلَّة الحُكم، ووجْهِ بناءِ الخبر في قوله: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾، فالموصولُ ضُمِّنَ معنى الشَّرطِ ورُبِطَ خبرُه بالفاء؛ لإفهام التَّسبيبِ والعِلّةِ بينَ الكنْزِ والعذاب، ولو قال: (والكانِزُونَ) لخَلا التَّركيب مِن تلك المقاصد، ولخلا عن تصوير ذواتِهم وهي ترتكب الفِعلَ وتُزاوِلُه.

نكتةُ العُدولِ مِنَ الفعليَّة إلى الاسميَّة:

وَصْفُ الجاني بجريمتِه يُنبِئُ عن عَراقتِه فيها، وإدمانِه على مُزاوَلَتِها

لم يَطَّرِد السِّياقُ مع ما قبلَه في الفعليَّة، فلم يقل: (ويكنزون الذَّهب)، كما قال: ﴿لَيَأۡكُلُونَ﴾، و﴿وَيَصُدُّونَ﴾، بل عدلَ إلى الاسميَّة في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ﴾؛ لبيانِ ثُبوتِ ذلك الوَصْفِ

(1) النَّيسابوريّ، غرائب القرآن: 3/460، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاوي: 9/212.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/176.

ودَوامِه، بإيراد التَّركيب على الاسميَّة، معَ اشتِمال الجملة الاسميَّة على صِلَة الموصول، وهي الجملة الفعليَّة في قوله: ﴿يَكۡنِزُونَ﴾، فاجتمع في التَّركيب اتِّحادُ دلالةِ الاسمِ مع دلالة الفعل[1].

الدّلالةُ المعنويَّة للموصول:

الاسم الموصولُ في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ﴾ يُرادُ به العمومَ، فيدخلُ فيه أهلُ الكتابِ وغيرُهم مِنَ المسلمين، "لأنَّه لو أراد أهلَ الكِتاب خاصَّة، لقال: (ويكنزون)، بغير (والذين)، فلمَّا قال: ﴿وَٱلَّذِينَ﴾ فقد استأنف معنًى آخَرَ، يُبَيِّن أنَّه عطفُ جملةٍ على جملة"[2]، وهذا أَولى مِن اعتبار التَّعريف في الموصول للعهْد الذِّكْريِّ، والمعهودُ إمَّا الأحبارُ والرُّهبان، أو الذين آمنوا، المخاطَبون بالنِّداء.

حمْلُ الخطابِ في المقامِ الخاصِّ على العموم أولى؛ فيما يَصلُح عمُومُه

وجهُ التَّعبيرِ بـ ﴿يَكۡنِزُونَ﴾ دون غيره:

لو عَبَّر بغير الكَنْز، فقال: (يجمعُون) أو (يَحوزُون)، لَمَا لزِمَ عنه عدمُ الإنفاق، فلمَّا قال: ﴿يَكۡنِزُونَ﴾ أفاد جمْعَ الذَّهب والفضة مع إمساكِها وعدمِ إنفاقها، والحرصَ على عدم وصولِه إلى غيرهم، فالمعنى المصدَريُّ للكَنْزِ هو حِفْظُ الشيء في باطن يُمسكه ويستُره، ومنه اسمُ الكَنْز، وهو المالُ المدفونُ تحتَ الأرض، كما قال تعالى: ﴿وَكَانَ تَحۡتَهُۥ كَنزٞ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحٗا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبۡلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسۡتَخۡرِجَا كَنزَهُمَا﴾ [الكهف: 82]؛ لأنَّ الذي يَكنِزُ شيئًا يُخفيه عنِ الأنظار، ويُطِيلُ حِفْظَه في مُسْتودَعِه المُدَّخَر فيه، ولِهذه الإطالة فهو لا يُؤدِّي حَقَّه، ولذا سَمَّوا المالَ الذي لا تُؤَدَّى زكاتُه كنْزًا لهذا المعنى المفهوم، ومنه حديث المصطفى عليه صلواتُ اللّٰه وسلامُه: «إنَّ الَّذي لا يُؤدِّي زَكاةَ مالِه يُمثَّلُ له يَومَ القيامَةِ شُجاعٌ أقرَعُ له زَبيبَتانِ قال: يَلْزَمُه، أو يُطَوِّقُهُ قال: يقولُ له: أنا كَنْزُكَ، أنا كَنْزُكَ»[3].

جمْعُ المالِ من طرقه المشروعة مُباحٌ، وكَنْزُه مذمومٌ

(1) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاوي: 9/212.

(2) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 8/123.

(3) أخرجه أحمد في مسنده، برقم: (6209)، وإسناده صحيح على شرط مسلم، وبنحوه الترمذيُّ في سننه، برقم: (3012) مطوّلًا، والنسائيُّ في سننه، برقم: (2441)، وابن ماجه في سننه، برقم: (1784).

وعليه: فقولُه تعالى: ﴿وَلَا يُنفِقُونَهَا﴾ تأكيدٌ لهذا المضمون؛ للمبالغةِ في وَصْفِ حالِهم مِنَ الشَّرَهِ والنَّهَم.

نُكْتَةُ تخصيصِ الذَّهَبِ والفِضَّةِ بالذِّكْر دونَ غيرهما، وتقديمِ الذَّهب:

الذَّهَبُ والفِضَّةُ قِيَمٌ ثابتةٌ، وبهما تقدَّرُ أصولُ أثْمانِ الأشياء، والذَّهبُ أكثرُ نُدرةً وقيمةً

خَصَّ اللهُ سبحانَه الذَّهَبَ والفِضَّةَ بالذِّكْرِ مِن بين سائرِ الأموالِ؛ لأنَّهما أصولُ أثْمانِ الأشياء، وغيرَهما مِنَ الأموال يُقَدَّرُ بهما مِن غير عكس، ولأنَّ امتلاكَهُما يَدُلُّ على امتلاك الأموال، ولا يَلْزَم عن امتلاك الأموال امتلاكُهما، فهما دليلٌ على وجودِ غيرِهما، ولأنَّ الكَنْزَ يكون فيهما غالبًا؛ لأنَّهما ممَّا لا يُطَّلَعُ عليه، فيكون امتلاكُهما في خفاء، بخلافِ سائر الأموال[1]. وهما مصدرٌ للزِّينة والثَّروة، وكان الذَّهبُ يستخدمُ في النِّظام النَّقْديِّ الدوليِّ معيارًا للعُملات الورقيةِ، إلَّا أنَّ هذا النظامَ عُدِل عنه الآن، بحفظِ المصارفِ المركزيةِ والحكوماتِ للذَّهبِ بوصفهِ مالًا احتياطيًا للحمايةِ من الاضطراباتِ الاقتصاديةِ العالمية.

والذهبُ والفضةُ يعتبران من المعادن الثمينةِ التي لها قيمةٌ عاليةٌ واستخداماتٌ متعددة، إلَّا أن الذَّهبَ أكثرُ ندرةً واستقرارًا وقيمةً من الفضة، وهو ما يشير إلى سبب تقديمِه في الآية الكريمةِ على الفضة.

عِلَّةُ تسميةِ الذَّهَبِ والفِضَّة بهذا الاسم:

ساعٍ إلى الذَّهَبِ ليس كَسَاعٍ إلى الفِضَّة

سُمِّيَ الذَّهَبُ ذهَبًا لأنَّه يَذْهَب، ووجْهُ ذَهابِه: أنَّه يَذهبُ مِن هيئَتِه التي وُجِدَ عليها فيتحَوَّلُ إلى سبائكَ وحُلِيٍّ، أو "لِذَهَابِه في الأرض، أي: غيابِه فيها قبلَ التقاطِه، أو لذهابِه بينَ النَّاس، أي: جَريانِه بينَهم لقبولهم إيَّاه، أو لذهابه في الحَجَر امتدادًا"[2]، أي: الحَجَر الذي يُستخرَجُ مِنْه، والفِضَّة لأنَّها تَنْفَضُّ فتَتَفَرَّق، ووجْهُ

(1) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 8/123.
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيُّ المؤصَّل: (ذهب).

انفضاضِها: أنَّها تُوجَد في الأرض على هيئة قِطَع متفرِّقَة، وشَذَراتٍ مُتناثِرة، فأجزاؤها مُنْفَضَّةٌ ومُقَسَّمَة، أو لأنَّ النَّاس إذا اختاروا بينَها وبينَ الذَّهَب، انفضُّوا عنها إلى الذَّهَب.

مَرجِعُ الضَّمير في: ﴿وَلَا يُنفِقُونَهَا﴾، وأثرُه في المعنى:

الضَّميرُ في قوله: ﴿وَلَا يُنفِقُونَهَا﴾ للجمْع، وفي ذلك عدولٌ عن التَّثنيَة، فلو اطّردَ السِّياق على ظاهِرِه لقال بضمير التَّثنية: (ولا ينفقونهما)، عَوْدًا على المكنوزَيْن الاثنين: الذَّهب والفِضَّة، ولكن عَبَّر بضمير الجمع عَوْدًا على المدلول المعنوي، والمراد: أنواعُ الذَّهَب والفِضَّة، أو الكُنوزُ أوِ الأموالُ مِنَ الذَّهَب والفِضَّة، ونُكْتَةُ العدولِ عن ضمير التَّثنيَة: استحضارُ الصُّورةِ الواقعيَّة الدَّالَّة على الجَمْع، فإنَّه عَبَّر بالجمع فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ﴾ فكلُّ فَرْدٍ مِنَ الجماعةِ المذكورة يَكْنِزُ ذهبًا وفِضَّة، فصار المُكتَنَزُ جمْعًا في الواقع وفي المعنى، بالنَّظر إلى أفراد الكانزين وأفرادِ الشَّيء المكنوز، فاعتُبِر المعنى فَجُمِعَ الضَّمير، ولم يُلْتَفَتْ إلى صورة التَّركيب اللَّفظيّة الواردة على اثنين، وأيضًا: "المراد بالذَّهَب الدَّنانيرُ، وبالفِضَّة الدَّراهمُ، المضروبةُ مِن كلٍّ منهما، لا جِنسَ الذَّهَب والفِضَّة ومَعدِنهما، الذي يَصدُقُ بالحُلِيِّ المباح وغيره، فإنَّ الدَّراهم والدَّنانير هي المُعَدَّةُ للإنفاق، وكلُّ مَثنًى له أفرادٌ لكلٍّ مِنْ نَوْعَيْه، يجوز إرجاعُ الضَّمير بعدَه إلى جملةِ الأفراد مِن نَوْعَيْه"[1].

كَنْزُ الذَّهَبِ والفِضَّةِ دليلٌ على استكثارِ أصحابِها من أنواعِها وامتلائِهم

بلاغةُ عدمِ تثنيةِ الضَّمير: ﴿وَلَا يُنفِقُونَهَا﴾:

ثمَّتَ نُكْتَةٌ دلاليَّة في عدم تثنية الضَّمير في قوله: ﴿وَلَا يُنفِقُونَهَا﴾؛ وهو دفْعُ توهُّم أن يكون الوعيد المذكور مشروطًا باجتماعهما في عدم الإنفاق، فيكونُ الوعيدُ لِمَن امتلكَ الاثنين وأمْسَكَ الاثنين، وهذا غير مراد؛ لأنَّ الواو في قوله: ﴿يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ﴾ أفادتِ الجمْعَ بينَ الذَّهَب والفِضَّة في حُكْمِ الكَنْز، وليس الجمعُ بين أعيانهما في

مَنْ يَبْخَلْ بأَحَدِ الكَنْزَينِ يُعاقَبْ عليه، وإن لم يمتلكْهُما معًا

(1) محمد رضا، تفسير المنار: 10/350.

الكنْز، فالتَّقدير: يكنزون الذَّهبَ ويكنزون الفِضَّة، فلو كُنِزَ أحدُهما دون الآخَر، لاستُحِقَّ الوعيدُ على المكنوز منهما[1].

نكتةُ حَذْفِ (مِنْ) مع فعل الإنفاق:

لم يقل: (ولا يُنفِقون منها)، كما قال: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً﴾ [التوبة: 103]، وكما قال: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣﴾ [البقرة: 3]، لثلاثة وجوه؛ الأوَّل: أنَّ الذَّهب والفِضَّة في الآية موصوفان بأنَّهما مِنَ الكُنوز، فهم يَكتَنِزُونهما، والكَنْز: فائضٌ يَفضُل عن أصول الأموال، فأموالُهم باقية، ليس فيها هنا إنفاق، فأمَرَ بإنفاق الفائض جميعًا، واستبقاءِ الأصول لِنفَقَته ومتاعِه. الثَّاني: على مراعاة المُناسبة بينَ الصِّفات المذكورة، فالكَنْزُ المذكور هنا: هو مِن أموال النَّاس المأكولة بالباطل، في قوله: ﴿لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ﴾، ثمَّ قال: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ﴾، أي: والذين يكنزون الذَّهبَ والفِضَّة مِنْ أولئك الذين يأكلون أموال النَّاس، فهو يَكْنِزُ مِن مالِ النَّاس بالباطل، وما كُنِزَ بالباطلِ والحرام فلا بُدَّ أن يُنْفَقَ جميعُه، لا أن يُنْفَقَ منه، ولذا لم يقل: (ولا يُنفِقون منها). الثَّالث: أنَّ قوله: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣﴾ [البقرة: 3]، وقولَه: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ﴾ [التوبة: 103] أي: البعضَ الذي يفيض مِنَ الرِّزق، والبعضَ الذي يفيض مِن أموالهم، فبَقِي بعضٌ في الرِّزق غيرُ فائضٍ، وبعضٌ في أموالهم كذلك، وأمَّا قولُه: ﴿يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ﴾ فجميعُه فائضٌ لا بعضُه.

المالُ الذي اكتُسِبَ مِنَ الحرام يُخرَجُ كُلُّه، فالانتفاع بشيءٍ منه باطلٌ

دلالة إسناد الإنفاق إلى سبيل الله:

أفاد إسنادُ الإنفاق إلى سبيل الله في الآية، تقييدَ النَّفي في: ﴿وَلَا يُنفِقُونَهَا﴾، فمفهومُه: إثباتُ أنَّهم يُنفقون، لكنَّ نفقتَهم في غير سبيل الله، فالتَّركيبُ ينفي عنهم الإنفاقَ على جِهَة التَّقييد، فيُثبِتُ لهم إنفاقَ المعاصي وأغراضِ النَّفْس، وينفي عنهم إنفاقَ التَّعبُّدِ والاحتساب[2].

المالُ الذي لا يُنْفَق في سبيل الله سيُنْفَقُ حتمًا في غير سبيله

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 8/447.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 5/279.

موقعُ جملة: ﴿فَبَشِّرۡهُم﴾ ممَّا قبلَه:

تبشيرُهم بالعذاب مِن جِنسِ استبشارِهم بالمال لمَّا كَنَزُوه

جملة: ﴿فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٖ﴾ خبرُ الموصولِ في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ﴾، والفاءُ رابطةٌ بينَ جملةِ الابتداء والخبر؛ لِتَضَمُّن الموصولِ معنى الشَّرط، وجملةُ الفاء ومدخولُها جوابُ ما يُشبِه الشَّرطَ، ومعناها السَّببيَّة، أي: فبِسَببِ ذلك بَشِّرْهم بعذاب، فَضَميرُ الجمعِ في (بشِّرهم) عائدٌ على (الذينَ يَكْنِزُون). ويَصِحُّ أن تكون الفاءُ فصيحةً؛ وهي لِعطفِ مدخولِها على شرطٍ مُقدَّر، ويكون ضميرُ الجمع في (بشِّرهم) عائدًا على جميع المذكورين السَّابقين، أي: الذين يأكلون الأموال بالباطل والذين يصدُّون عن سبيل الله والذين يكنزون، والتَّقدير: إذا علمتَ أحوالَهم واطَّلعتَ على نُعوتِهم، فبشِّرهم بعذابٍ أليم[1].

بلاغة جملة الفاصلة في دلالتها على مفهوم المخالفة:

لا يكون الكَنْزُ مَذمومًا إذا رُوعِيَ فيه حَقُّ اللهِ وحَقُّ النَّاسِ

قولُه: ﴿فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٖ﴾، بعد قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ فيه تفريعُ بِشارةِ العذابِ على الكَنْز وعدمِ الإنفاق، ومفهومُ ذلك أنَّه لا بأس بالكَنْز لو أَنفَقَ منها في سبيل الله ما وَجَبَ فيها، إمّا وُجُوبًا مُسْتَمِرًّا كالزَّكاة، وإمّا وُجُوبًا عارِضًا كالنَّفَقَةِ في الحَجِّ الواجِب، والنَّفَقَةِ في نَوائِبِ المُسْلِمِينَ مِمّا يَدْعُو النّاسَ إلَيْهِ وُلاةُ العَدْلِ[2].

غرضُ الالتفات في قوله: ﴿فَبَشِّرۡهُم﴾:

الحكم بالعذاب على مُعيَّنٍ مِن أعمالِ الغَيْب، فلا يَثْبُتُ إلَّا بوحي

في قوله تعالى: ﴿فَبَشِّرۡهُم﴾ التفاتٌ مِنَ الغَيْبَة لخطاب رسولِ الله ﷺ، إذ لم يقل: (والذين يكنزون ولا ينفقون فيُبَشَّرون)؛ لأنَّ الحُكم بالعذاب مِن أعمالِ الغَيْب، فلا يُباشِرُه النَّاسُ إلَّا بوحْي، وليس في النَّاس غيرُ الرَّسولِ يُوحَى إليه[3].

(1) صافي، الجدول: 10/329، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/178.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/178.
(3) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 6/3228.

التَّبشير بالعذاب استعارةٌ تهكُّمِيَّةٌ لعلاقة التّضادِّ، أَو مجازٌ مرسلٌ لعلاقة الإطلاق والتَّقييد

وجهُ إجراءِ البِشارة على المجاز والحقيقة:

التَّعبير بالبِشارة في جانب العذاب، استعارةٌ تهكُّمِيَّةٌ للتَّنبيهِ على أنَّ أَسَرَّ وأَفْرَحَ ما يَسمعُونَه مِنَ الأخبار الخبرُ بما يَنالُهم مِنَ العذاب، فشَبَّه انتشارَ الحَزَنِ والغَمِّ على بَشَرَةِ المُخْبَرِ بالعذاب انقباضًا، بانتشار الفَرحِ والسُّرورِ على بَشَرَةِ المتفائلِ بالخَبر السَّعيد انبساطًا، بجامعِ الظُّهور والتَّغيُّرِ في البَشَرَةِ عند كليهما، ووجْه التَّهَكُّم: استعمالُ البِشارةِ في ضِدِّ حقيقتِها، إذِ استعمالُها في الأصل فيما يُفرِحُ، والإخبارُ بالعذاب ضِدُّ ذلك، وتشبيهُ الضدِّ بضِدِّه لا يَروج في عقلِ أحدٍ إلَّا على معنى التَّهكُّم، وغَرضُ التَّهكُّم مِن جَعْلِ عذابِهم مَحلًّا للبُشْرَى: الزِّيادةُ في تعذيبهم وإذْلَالهم، بابتداء الخَبر بما يُطمِعُهم ويُرَجِّيهم بقوله: ﴿فَبَشِّرْهُم﴾، فإذا انتبهوا للبِشارة وتوقَّعوها، انتهى بهم إلى اليأسِ والقُنوط، بِجَعْل العذابِ مَضمونَ البُشْرى، على غِرار قولِه تعالى: ﴿وَإِن يَسْتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ﴾ بأيِّ شيء؟ ﴿بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ﴾ [الكهف: 29]، فيُجْمَعُ عليهم عذابَان، عذابٌ عند إخبارهم بالعذاب، وعذابٌ عند ملابستِهم له، واستعمالُ البُشْرى في جانب العذابِ قد يجري على معنى الحقيقة لا المجاز باعتبار أمرين؛ الأوَّل: أنَّ الأصل في البُشْرى كلُّ ما يُؤثِّر في البَشَرة مِنَ القَبْض أو البَسْط، وهذا في الخير والشَّرِّ، واستعمالُه في الخير على سبيل التَّغليب فقط. الثَّاني: مُلاحظةُ القيد، فمتى أُطلِقتْ البِشارة كانت في الخير، ومتى قُيِّدتْ بما يَسُوء كانتْ على حقيقتِها؛ للاحتراز بالقيْد عن الإلباس الذي يقضي بقول المجاز فيها[1].

دلالةُ التَّنكير:

التَّنكير في قوله: ﴿بِعَذَابٍ﴾؛ لتهويل العذابِ وتعظيمِ أَمْره،

(1) الرَّاغب، المفردات: (بشر)، وابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 3/28، ومحمد رضا، المنار: 10/137، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 3/207، والشَّعراويّ، تفسير الشَّعراويِّ: 8/4868.

ولِتهوينِ ذَواتِهم وإذلالِهم، فتنكيرُ اللَّفظِ مُشْعِرٌ بإهانتِهم وإخزائِهم أبلغَ إهانةٍ وخِزْيٍ.

نُكْتَةُ وَصْفِ العذابِ بـ ﴿أَلِيمٍ﴾:

وَصْفُ العذابِ بالأليم دون غيره؛ لاقتضائِه ما بعدَه، وهو قولُه: ﴿يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ﴾، فالإحماءُ والكَيُّ ممَّا يُغْرِقُ الأجسامَ ألمًا وإيجاعًا.

تنكيرُ لفظِ العذاب مُؤْذِنٌ بحقيقتِه المُنْكَرَة

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

يَكْنِزُون ويَجْمَعون:

أصلُ الكَنْزِ: تَجَمُّعٌ في شيء، وأصل الجَمْعِ: تَضامُّ الشَّيءِ إلى الشَّيء، والفَرْق بينَهما: أنَّ الكَنْزَ جمْعُ الأشياءِ بعضِها إلى بعضٍ في وعاءٍ وحِرزٍ أو نحوِهما، ولذا قُيِّدَ الكنْزُ بتَخْبِئَةِ الأموالِ في أوعِيتِها، بغرضِ ادِّخارِها والمُحافظة عليها، ولذا وَصَفَ اللهُ الكانزينَ بعدم الإنفاق؛ لأنَّ كنوزَهم مخبوءةٌ محفوظةٌ للادِّخار فلا تُنْفَق، وأمَّا جمْعُ المال: فهو مُراكَمَةُ أجناسِه وضَمُّ نقودِه، بتقريبِ بعضِها إلى بعض، ولا يَلْزم عن ذلك ادِّخارُه أو إيداعُه في حِرزٍ، أو تَخْبِئَتُه في وِعاءٍ، أو عدمُ إنفاقِه للمحافظةِ عليه، فَقَيْدُ الادِّخار والإخفاء غيرُ لازمٍ في جَمْعِ المال، ولذا قال تعالى - فيمَن كان همُّه جمعَ المال وتَعْداده -: ﴿ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ ۝٢﴾ [الهمزة: 2] أي: ضَمَّ بعضَه إلى بعض، ثمَّ أحصى عدَدَه قليلًا كان أو كثيرًا. هذا، والجَمْعُ لا يُقالُ للمالِ إلَّا إذا أُسنِدَ إليه أو قُيِّد به، كأن يُقال: جَمَعَ المالَ، أو جَمْعُ المالِ، وإلَّا فهو عامٌّ في كلِّ جمْعٍ من مالٍ أو ناسٍ أو أغراضٍ، ونحو ذلك، وأمَّا الكَنْزُ: فهو اسمٌ على المالِ الكثيرِ المَخبوءِ في مُستودَعِه للادِّخار، فيَصْدُق على المال ولو لم يُسنَد إليه، والجمْع ليس كذلك، وإذا قيل: جمَعَ مالًا، فقد يتناولُ ذلك القليلَ والكثير، وأمَّا إذا قيل: كَنَزَ مالًا، فلا يُقال إلَّا للكثير[1].

قُيِّدَ الكَنْزُ بتَخْبِئةِ الأموالِ في أوعِيتِها بغَرضِ ادِّخارِها

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرَّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيُّ: (جمع، كنز)، وابن منظور، اللِّسان، والسّمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (كنز).

﴿يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ ۖ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [التَّوبة: 35]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

كانِزُ المالِ يُعذَّب بالنَّار يومَ القيامة بما يتناسب وعملَه السَّيِّءَ في الدُّنيا

لـمَّا أخبر اللّهُ جلَّ وعلَا في الآية السَّابقةِ عن جرائم كثيرٍ مِن رؤساء أهل الكتابِ، في أَكْلِ أموالِ النَّاسِ بالباطل والصَّدِّ عن سبيل اللّه، وأخبرَ عن كانِزي الذَّهبِ والفِضَّةِ منهم ومِن غيرهم، الذين يبخلون بإنفاقها ويَكْنِزونها، وبَشَّر في الدُّنيا هؤلاء الكانزين بالعذاب الأليم؛ أخبر هنا في هذه الآية عن كيفيَّةِ ومَشْهَدِ تعذيبِهم بهذه الكُنوزِ في الآخرة.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يُحْمَىٰ﴾: مِنَ الحَمْي، وهي الحرارةُ المُتوَلِّدَةُ مِنَ الجواهِر المَحميَّة، كالنَّار والشَّمس، ومنه الإحماءُ على الحديدِ والمعادن، أي: الإيقادُ عليها بالنَّار حتَّى تَسْخَنَ، فيصيرَ لها حَمْوٌ أو حَمْيٌ، أي: حرارةٌ شديدة تمنع مِنَ الاقتراب منها، والمراد هنا: إدخالُ الكُنوزِ النَّارَ لِيُوقَد عليها، حتَّى تَحمَى وتشتدَّ حرارتُها للعذاب[1].

2) ﴿فَتُكْوَىٰ﴾: مِنَ الكَيِّ، وهو إحراقُ الجِلْدِ بحديدةٍ ونحوِها، وهو مِنَ الألفاظ التي تَخْتَصُّ بالنَّار وما في معناها مِنَ الأجرام السَّاخنة، والكَيُّ هنا بالكُنوز يعني: إلصاقَها وهي مُلْتَهِبَةٌ حامِيَةٌ بجِلودِهم، حتَّى تَصِلَ إليها حرارتُها وتؤثِّرَ فيها؛ للتَّعذيب[2].

(1) الرَّاغب، المفردات، وابن منظور، اللِّسان: (حما)، وجبل، المعجم الاشتقاقيُّ: (حمو).
(2) ابن منظور، اللِّسان، والسّمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (كوي).

المَعْنى الإجْماليُّ:

كيفية عذاب الله يومَ القيامة لِمن كَنز الذهبَ والفضةَ من غير إنفاق

بَشِّرْ - أيُّها الرَّسولُ الكريمُ - هؤلاء الكانِزينَ الأشِحَّاءَ بما آتاهمُ اللهُ مِن فَضْلِه، بعذابٍ أليم، يُعذِّبُهُمُ اللهُ به في يوم يُوقَدُ فيه بالنَّار على تلك الكُنوز حتَّى تَحْمَى وتشتَدَّ حرارتُها، فيُحرقُونَ بها على جِباهِهم ونواصيهم التي هي أشرفُ أعضائهم، كما تُحرَقُ بها جُنوبُهم وظهورُهم وسائرُ أجسادهم، ويُقال لهم تحسيرًا وتوبيخًا: هذا المالُ الذي تُعَذَّبونَ به، هو ما كَنزتُمُوه لأنفسِكم وخَصَصْتُمُوها به فلم تُنفِقوه؛ ظَنًّا منكم أنَّ كَنْزَه نافِعٌ لكم، ولكنَّه صار أَضرَّ شيءٍ يكون على صاحبِه، فأنتُم اليومَ تُعذَّبونَ به، فذُوقُوا أَلَمَه وعقوبتَهُ، كما ذُقْتُم لَذَّتَهُ وهَنَاءَتَه.

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

موقع قولِه: ﴿يَوْمَ يُحْمَىٰ﴾ ممَّا قبلَه:

الظَّرْفُ في قوله: ﴿يَوْمَ يُحْمَىٰ﴾، مُتَعلِّقٌ بقوله: ﴿بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾، كأنَّه قال: يُعذَّبُون يومَ يُحمَى، ولا يُقال: إنَّه مُتعلِّقٌ بقوله: ﴿فَبَشِّرْهُم﴾؛ لأنَّ البِشارةَ لا تكون في ذلك اليومِ بل في الدُّنيا، ويُستَفادُ مِن هذا: أنَّ مُتَعَلَّقَ البِشارةِ محذوفٌ للتَّعميم والاختصار، فلم يُحدِّد في أي مكانٍ أو زمنٍ تكون البِشَارةُ، وعليه: فقوله: ﴿يَوْمَ يُحْمَىٰ﴾ ليس مُتَعَلَّقًا له[1].

إهانَةُ الكانزينَ في الدُّنيا بِبِشارة العذاب، وتعذيبُهم في الآخِرةِ بما كَنَزوه بُخْلًا وما كَسَبوهُ نَهْبًا

براعةُ استِهلالِ الآيةِ بالظَّرف:

استهلَّتِ الآيةُ في قوله: ﴿يَوْمَ يُحْمَىٰ﴾ بالظَّرفِ الدَّالِّ على اليوم الآخِر، تعظيمًا لشُؤونِه التي تكون فيه، وهو الوعيدُ بتعذيبِهم بِما اكْتَنَزُوا، فتعظيمُ المظروفِ لازِمٌ عن عَظَمَةِ الظَّرفِ الذي وقَع فيه.

يومُ القيامةِ عظيمٌ في أحداثِه وشؤونِه

دلالةُ الفِعل بصيغة المبنيِّ لِمَا لم يُسَمَّ فاعِلُه:

سِيْقَ الفِعلُ ﴿يُحْمَىٰ﴾ بصيغة المبنيِّ للمفعول؛ لتَوفُّر العنايةِ

(1) ابن جرير، جامع البيان: 14/229.

والغَرَضِ على الفعلِ ومفعولِه الذي وقع عليه دونَ الفاعِل، فالغَرَضُ: هو الإخبارُ بأداةِ التَّعذيب والمُعذَّب بها، وأمَّا الفاعِلُ: فعِرفانُه يُغني عن تعريفِه في التَّركيبِ بإظهاره، فالذي يُحمِي النَّارَ هو اللَّهُ ﷻ أو خزَنَةُ النَّارِ بإذنٍ مِنَ اللّه، وإسنادُ الإحماءِ إلى النَّار مجازٌ عقليٌّ؛ لأنَّ النَّار لا تَحمَى بنفسِها، بل لا بُدَّ مِن فاعِلٍ يُحمِيها ويُذْكِيهَا.

الفاعلُ الحقيقيُّ لآثارِ الأشياء هو اللهُ الذي أعطى كلَّ شيءٍ خلْقَه

دلالةُ تذكيرِ الفعل:

الذي يَحمَى هو صفائحُ الذَّهب والفِضَّة التي اكتنزوها، والإحماءُ هو الإيقاد، فالنَّارُ تُوقَدُ، أي: تشتعلُ بالحرارةِ والسُّخونةِ والإحراق، فينتقِلُ أثرُها إلى الأجسام التي تَلتَصِقُ بها، فتَحْمَى تلك الأجرامُ وتَسْخُن، فجُمْلَةُ: ﴿يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا﴾ أصلُها: يوم تُحمَى الكُنوزُ بالنَّار، بدليل التَّأنيث بعدَها في قوله: ﴿فَتُكْوَىٰ﴾ أي: بالمعادن المَكنوزة، ولكنَّه هنا عدَلَ عن تأنيث الفِعل (تُحمَى) إلى تذكيره ﴿يُحْمَىٰ﴾؛ لأنَّه جعلَ الإحماءَ للنَّارِ مبالغةً، فكأنَّه قال: يومَ يُحمَى على النَّار، "فليس المرادُ أنَّ تلك الأموال تَحمَى على النَّار، بل المراد أنَّ النَّار تَحمَى على تلك الأموال التي هي الذَّهب والفِضَّة"، فكأنَّ هناك نارًا تُحمِي النَّارَ التي تُحيطُ بما اكتنزوه، ووجْه المبالغة في إسناد الإحماء إلى النَّار: أنَّ النَّار أصلًا ذاتُ حَمْيٍ، فهي حاميَةٌ في ذاتِها، فإذا قلتَ: إنَّكَ أحمَيتَها على ما فيها، ولم تقل: إنَّك أحمَيْتَ ما فيها بها، كان ذلك في معنى قوله: أشعلتُ المشتَعِلَ، ولَيْلٌ أَلْيَل، وظِلٌّ ظليل؛ لأنَّه إذا كانت مادَّة الإحراقِ هي التي تُحمَى، فكيف بما فيها؟! ووجْهُ العدولِ مِن تأنيث الفعل إلى تذكيره: أنَّه حَذفَ النَّارَ وأسندَ الفعلَ ﴿يُحْمَىٰ﴾ إلى الجار والمجرور ﴿عَلَيْهَا﴾؛ تنبيهًا على أنَّ المقصود مِنَ المبالغة في إحماء النَّارِ، هو إحماءُ ما فيها مِنَ الكنوز والأموال الباطلة، فانتقل مِن صيغة التَّأنيث إلى صيغة التَّذكير؛ لأنَّ النَّار تأنيثُها لفظيٌّ، والفعلُ غيرُ مُسنَدٍ في الظَّاهر إليها، بل إلى قوله: ﴿عَلَيْهَا﴾

زيادةُ إحماء النارِ من مضاعفة العذابِ التي تقابلُ كنزَ الأموالِ ومنعَ نفقته الواجبة

فذكَّر الفِعلَ مع جواز الوجهين، لئَلَّا يَطّرِدَ مع تأنيث الفعل في قوله: ﴿فَتُكْوَىٰ﴾، لِتبْقَى الدّلالةُ على إحماء النَّار مع إحماء الكنوز؛ لتهويل المنظرِ، كأنَّه قال: النَّارُ تَحمَى والكُنوزُ كذلك، فهو إحماءٌ مُغلَّظٌ لا يتعلَّق بالكنوز فقط، ولو قال: (تحمَى) لدَلَّ على إحماءٍ واحد، هو إحماءُ الكنوزِ، دونَ اقترانِه بمعنى المبالغة بإحماء النَّار كذلك[1].

معنى الجارِّ والمجرور، ودلالتُه:

الجارُّ والمجرور في قوله: ﴿يُحْمَىٰ عَلَيْهَا﴾، يعود على الأموال المكنوزة مِنَ الذَّهب والفِضَّة، والجرُّ بـ (على) أفاد الاستعلاءَ المجازيَّ المُتَضَمِّنَ لمعنى استيلاءِ الحَمْيِ، وهو شِدَّة الحرارة على معادِن الكُنوز، فكأنَّ النَّارَ لـمَّا أحاطتْ بها مِن كلِّ جانبٍ بحَمْيِها وحرِّها، وغابت تلك الكُنوزُ في باطنِها، كانتْ كالمُطبَقِ عليه الذي لا يَجِدُ مَنْفَسًا ولا بَحبُوحَة، ممَّا قد استولى عليه وأطبَق[2].

النَّارُ تَعلُو كُنُوزَهُم التي اسْتَعلَوا بها في الدُّنيا على الخَلْق

نُكْتَةُ مجيءِ الضَّمير على معنى الجَمْع:

جاء الضَّمير في قوله: ﴿يُحْمَىٰ عَلَيْهَا﴾ على معنى الجَمْع، والمراد به: كنوزُ الذَّهَبِ والفِضَّة، ولم يَقُل: (يُحمَى عليهما) بالتَّثنيَة، أي: الذَّهَب والفِضَّة، فهما شيئان؛ لأنَّ المرادَ بهما دنانيرُ ذهبٍ ودراهمُ فضةٍ كثيرة، كما قال علي رضي اللّه تعالى عنه: "أربعة آلاف وما دونها نفقة وما فوقها كنز"[3]؛ و"لأنَّه ليس المرادُ بهما مِقدارًا مُعيَّنًا منهما، ولا الجنسَ الصَّادقَ بالقليل والكثير، بل المرادُ الكثيرُ مِنَ الدَّنانير والدَّراهم، لأنَّه الذي يكون كَنْزًا، فأتى بضمير الجَمْع للدّلالةِ على الكَثْرةِ، ولو أتى بضمير التَّثْنية احتمَل خلافَه"[4].

يَغلِبُ إطلاقُ (الكَنْزِ) على الكَثْرةِ الكاثِرة في النُّقود

(1) الزَّمخشريّ، الكشَّاف: 2/268، والرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 16/39، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل وأسرار التّأويل: 3/79، والطِّيبيّ، فتوح الغيب: 7/237، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاوي: 9/215، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/178.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/178.

(3) البيضاويّ، أنوار التّنزيل وأسرار التّأويل: 3/80.

(4) الآلوسيّ، روح المعاني: 5/280.

دلالة حرفِ الوِعاء (في):

مَآلُ الكانزينَ مع كنوزِهم إلى تَغْييبِهم في جهنَّم، بعد ظُهورِهم وشُيوعِ صِيتِهم في الدُّنيا

في قوله: ﴿يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾ تصويرٌ لاستغراقِ النَّارِ بإحراقِها وحَرِّها كلَّ جُزءٍ مِن أجزاء الذَّهب والفِضَّة التي اكتنزوها، استغراقِ المُستولي على مَن يَنْتَهِبُه، فالنَّار تنتَهبُ أموالَهم وتستولي عليها، وذلك بدلالة حرفِ الاستعلاء، ثمَّ يزداد الموقِفُ هَوْلًا، بدلالة حرف الوعاء (في)، من قوله: ﴿فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾، فلم يقل: (يُحمَى عليها فتكوى بها)؛ لِظُهور أنَّ الإحماء والاكتواء لا يكون إلَّا بالنَّار، فلمَّا عبَّر بحرف الوعاءِ (في) أفاد أنَّ الإحماء عليها حاصِلٌ، وهي مشمولةٌ في النَّار، والنَّارُ وِعاءٌ لها يستوعبُها، والكنوزُ بداخِله غائبةٌ في باطنِه، وهو مُبالغةٌ في وَصْفِ درجةِ التَّعذيب الذي سيقَعُ بها؛ لِبلوغِها الغايةَ في إحمائِها[1].

بلاغةُ المُبالغة في إضافة النَّار إلى جهنَّم:

تَحوُّلُ الكانزينَ مِن بُعْدِ المنزلةِ في الدُّنيا إلى بُعدِ القَرارِ في قَعْرِ جهنَّم

وَردَ السِّياق بإضافة النار إلى جهنَّم، إذ لم يقل: (يُحمَى عليها في النَّار)، بل أضاف المُسَمَّى إلى الاسم، مِن بابِ إضافةِ الشَّيءِ إلى نفسِه عند اختلافِ اللَّفظين، فالنَّارُ وجهنَّم شيءٌ واحد، إلَّا أنَّ اختلاف لفظَيهما أنزلَهُما منزلةَ المُتغايرَين، فَحَسُنَتِ الإضافةُ لذلك، وهي إضافةٌ شبيهةٌ بالمَحضة، وغرضُها: المبالغةُ في حقيقةِ النَّار وإحمائِها، ومِن بديع النَّظم: اختيارُ إضافةِ النَّار إلى (جهنَّم) خاصَّة، دون غيرها مِن أسماء النَّار؛ لدلالة جهنَّم على بُعدِ القَعْر وعُمْقِ الجوف، الذي يُؤذِنُ بمعنى الإطباق والإحاطة، وغيابِ الشَّيء في باطنها، بما يتَّفِق ويُناسِبُ مدلولَ حَرْفَي الاستعلاءِ والوعاءِ في: ﴿يُحْمَىٰ عَلَيْهَا﴾، و﴿فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾، فسبحانَ مَن أجرى كلامَه بحسابٍ ومِيزان[2].

---

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/178.

(2) الفرَّاء، معاني القرآن: 1/55، والهرويّ، إسفار الفصيح: 1/215، والأنباريّ، الإنصاف: 2/436، وابن يعيش، شرح المفصَّل: 3/10، وابن مالك، شرح الكافية: 2/242، وابن مالك، شواهد التوضيح، ص: 248، وجبل، المعجم الاشتقاقيُّ: (جهنم).

موقعُ جملةِ: ﴿فَتُكْوَىٰ بِهَا﴾ ممَّا قبلَه:

جملة: ﴿فَتُكْوَىٰ﴾ معطوفةٌ على جملة: ﴿يُحْمَىٰ عَلَيْهَا﴾، فالفاء عاطفة، وسببُ الوصل بالفاء دون غيرها: الإسراعُ بتعذيبِهم بها فورَ إحمائها، وهو مِنَ الاستطراداتِ المُتتابِعة في هذه الآيةِ، التي تتوفَّر على المبالغةِ في العذاب، في كلِّ مرحلةٍ مِن مراحله، بكلِّ لفظٍ مِن ألفاظها، والعياذ بالله. واصطفاءُ العطفِ بالفاء؛ لِلإشعار بأنَّ الكَيَّ مُترتِّبٌ عنِ الإحماءِ تَرتُّبَ النَّتيجةِ عن سببِها، فكأنَّ المعنى: أُحمِيَ عليها لِكَيِّهم بها، فالإحماءُ جُعِلَ سببًا للكَيِّ، ولا يَخفى ما فيه مِنَ التَّهويل والتَّرهيب العظيم[1].

الكَنْزُ كان سببًا في بَسْطَةِ أجسادهم، فآلَ سببًا في إتلافِها

مرجِعُ الضَّمير في قوله: ﴿بِهَا﴾، وأثرُه في المعنى:

الضَّمير في قوله: ﴿فَتُكْوَىٰ بِهَا﴾ يعودُ على الكنوزِ التي أُحْمِيَ عليها، أو على أقرب مذكورٍ، وهو ﴿جَهَنَّمَ﴾[2]. وعلى الأوَّل: فالباء للتَّعديَة والنَّقل؛ لأنَّ الكيَّ مُضَمَّنٌ معنى الإحراق، فهو في معنى: أحرقَهم بها، فالباء تُحاكي همزةَ التَّعدِيَة، أو الباءُ بمعنى الاستعانة؛ لدخولها على الواسطة التي حصل بها الفعل، فآلةُ الكَيِّ هي الكُنوزُ التي دَلَّ عليها الضَّمير. وعلى الثَّاني: فالباء بمعنى الظَّرفيَّة، أي: تُكْوى في جهنَّم، وعلى كلا المعنيين أفادتِ الإلصاقَ الحقيقيَّ؛ لأنَّ الكَيَّ بالشَّيء، يعني: إلصاقَه بأجسادهم حتَّى تَحترِقَ، والعِياذُ بالله.

لا خيرَ في مُعِيْنٍ وظَهيرٍ عاقِبَتُه إلى النَّار

نُكْتَةُ إسنادِ الكَيِّ إلى الأعضاء المذكورة دونَ غيرها:

تخصيص الجِباه والجُنُوب والظُّهور بالذِّكر دون غيرِها؛ لأنَّ كلَّ عضوٍ مِن تلك الأعضاء له مَدخَلٌ في عدمِ الإنفاق، وكلَّ عضوٍ منها يُصوِّر هيئةً مِن هيئاتِ الكانِزِ المُمْسِكِ في إعراضه عنِ الإنفاقِ بإخراج حَقِّ المال، فَعَذَّبَهم بما كان سببًا في مَنْعِهم وإعراضِهم[3]، وتفصيلُه ما يلي:

بِئْسَ الظَّهْرُ إذا استقوى بالحرام، وبِئْسَتِ الجِباهُ إذا استشْرفَتِ الباطِل

(1) صافي، الجدول: 10/331.
(2) الخطيب، التَّفصيل في الإعراب: 5/166.
(3) الشَّعراويّ، تفسير الشَّعراويّ: 8/5069.

أوَّلًا: أنَّ الأعضاء المذكورة تستغرق الجهاتِ الأربعَ، فأخبر أنَّ العذاب مُحدِقٌ بهم مِن جميع الجهات، فالجِباهُ كنايةٌ عنِ الأمام، والظُّهور كنايةٌ عنِ الخَلْف، والجُنُوب كنايةٌ عنِ اليمينِ واليسار؛ فهي أصولُ الجهاتِ الأربعِ التي هي مقاديمُ البدنِ ومآخيرُه وجنباه[1].

ثانيًا: أنَّ هذه الأعضاء هي مَجْمَعُ كمالِ الجسدِ في جمالِه وقُوَّتِه، "فإذا وقع الكَيُّ في الجَبْهة، فقد زال الجمالُ بالكليَّة، وأمَّا القُوَّة فمَحَلُّها الظَّهْرُ والجَنْبان، فإذا حصل الكَيُّ عليها فقد زالتِ القُوَّة عنِ البدن، فالحاصل: أنَّ حصول الكيِّ في هذه الأعضاء الثَّلاثة يُوجِب زوالَ الجمال وزوالَ القُوَّة، والإنسانُ إنّما طَلبَ المالَ لحصول الجمالِ ولحصول القُوَّة"[2]، و"لأنها أشرف الأعضاء الظاهرة فإنها المشتملة على الأعضاء الرئيسية التي هي الدماغ والقلب والكبد"[3].

ثالثًا: أنَّ هذه الأعضاءَ تَحكِي هيئة الغنيِّ الكانِز، وهو مانِعٌ شحيح، فالجَبَهة يَستقبل بها الفقيرَ، فإذا سأله أعرَضَ بها عنه، وهو في إعراضه على هيْئَتين، فهو إمَّا أن يُعرِضَ بِجَنْبِه، كما يَفْعَلُ مَنْ عنده مُسْكَةٌ مِن اكْتِراث؛ لأنَّ الجَنْبَ يُعبِّر عنِ الاستدارةِ الجُزئيَّة، وإمَّا أن يُعرِضَ بظَهرِه، وهي استدارةٌ تامَّة وإعراضٌ مُشِين، يُصوِّر المبالغة في عدمِ رعايتِه واكتِراثِه. فهي تحكي ازْوِرارَهم عن السائل وإعراضَهم عنه وتوليتَه ظهورهم.

رابعًا: أنَّ الأعضاء المذكورة هي أساسُ الجسد ومركزُ بنائِه، فلا يقوم الجسدُ إلَّا بها، فهي معظمُ الجَسَد وأظهَرُ ما فيه، ولا وجودَ للجسد إلَّا بِها، بخلاف سائر الأعضاء، فلا جسدَ بدون جَبْهة، ولا جسد بدون ظَهْر، ولا جسدَ بدون جنْب، بخلاف الأيدي والأرجُل، فلا يَنحلُّ الجسدُ بانحلالِها عنه.

خامسًا: أنَّ هذه الأعضاءَ كنايَةٌ عنِ الأحوال الظَّاهرة والباطنة، التي تتحصَّل للمَلِيء الشَّحيح، بقُوَّةِ كَنْزِه ومالِه، فالجَبْهةُ تعلوها المَسَرَّةُ والنَّضْرَة، والظَّهْر يَقوى ويشتدُّ بِمَسْنَدِه مِنَ المال المكنوز، والجَنْبُ يتقلَّبُ ليلَ نهارٍ في النَّعيم والتَّرف، أي: إنَّ جَمْعَهم وإمساكَهم للمال كان لطلبِ الوجاهةِ بالغِنى والتنعُّمِ بالمطاعمِ الشَّهية والملابس البهيَّةِ[4].

(1) البيضاويّ، أنوار التّنزيل وأسرار التّأويل: 3/80.
(2) الرَّازيُّ، مفاتيح الغيب: 16/39.
(3) البيضاويّ، أنوار التّنزيل وأسرار التّأويل: 3/80.
(4) البيضاويّ، أنوار التّنزيل وأسرار التّأويل: 3/80.

سِرُّ ذِكْرِ هذه الأعضاء على هذا التَّرتيب:

التَّرقِّي في التَّحذير، والتَّنبيه على تدارك الأمر قبلَ فواتِ الأوان

نَلْحَظُ في الآية الكريمة ترتيبَ الأعضاء التي كانت سبَبًا في عذاب صاحبها، ولو استدركَ أمرَه قبلَ حلول العذاب، لكان أسعدَ النَّاسِ بها، والكلامُ وإن كان عن كثير مِنَ الأحبار والرُّهبان، ولكنَّ المؤمنين مقصودون؛ بقرينة ندائهم قبل ذلك، فلْيَحذروا أن يكونوا مثلَ هؤلاء الكانزين، ولْيَتداركْ كلُّ واحدٍ منهم أَمْرَه، فإن فاته استقبالُ الفقيرِ، وعَبَسَ في وجهه، فلا يَفُوتَنَّه عدمُ الإعراض عنه بجنبه أو بالكلِّيَّة، وإن فاتَهُ الإعراضُ عنه، فلْيَتداركْ أَمْرَه قبلَ لقاءِ رَبِّه، فالذي ضَيَّع وفَرَّط في حياته الماضية ينبغي عليه أن يُفِيق؛ فإنَّ العُمُرَ يمرُّ كما تَمُر هذه الأيامُ والشُّهور، ولا يبقى للإنسان إلَّا عملُه الصَّالح. وقُدِّمَتْ الجباهُ لِشرفها، ولكونها مُقَدَّمَ الجسدِ، وأوَّلُ ما يُلْمَحُ عند استقبالِه، وأُخِّرَتِ الظُّهورُ لِموضِعِها المُؤخَّرِ في الجسد، فهي في الخَلْف، وهي آخِرُ ما يُلمَحُ مِنَ الإنسانِ إذا وَلَّى، وجاءتِ الجُنُوب بينَهما لِتَوسُّطِها بينَ المُقدَّم والخَلْف، أو لِتَوسُّطها في الجسد، أو أنَّه رُوعيَ حال إعراضِ الغَنيِّ عنِ الفقير السَّائل، فإنَّه يُعرِض عنه بوجهه، ثمَّ بجنبه، ثمَّ يولِّيهِ ظَهْرَه؛ "لأنَّ كلَّ جارحة مِن هذه الجوارح لها مَدْخَلٌ في عدم إنفاق المال في سبيل الله، ولذلك لا بدَّ أن تُعذَّب؛ فَتُكْوَى الجباهُ والجُنوبُ والظُّهور"[1]. وفي ذكْر الأعضاء على هذا التَّرتيب مراعاةٌ لانتظام الإيقاع الصَّوتيِّ للتَّركيب، فقدَّمَ ما تشابه مخرجًا وصَوتًا، وهو الجِباه والجُنوب، وأخَّر ما تَبايَن معهما، وهو الظُّهور، بخلاف ما لو أتى التَّركيبُ على غير هذا التَّرتيب، لكان ثَمَّةَ نَفْرةٌ في الإيقاع، وتَعَثُّرٌ في سلاسةِ الصَّوت.

بلاغةُ الإطناب في تعديدِ مواضع الكَيِّ:

تصويرُ أنواعِ العذابِ المتعدِّدة في كلِّ عضوٍ مذكور

جاء قولُه تعالى: ﴿فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ﴾

(1) الشَّعراويّ، خواطر الشَّعراويّ: 8/5069.

على جهةِ الإطنابِ، في تعديد وسرْدِ مواضع التَّعذيب، دونَ الإيجاز والاكتفاء بأنْ يقول: (فتكوى بها أجسادُهم)؛ لِيستَطرِدَ النَّظْمُ في رَصْدِ العذابِ في جميع أحواله ومراحله، مُبالغةً في التَّرهيب منه، ووجْه المبالغةِ في الإطناب بالتَّعديد هنا: إخبارُ السَّامع أنَّ تلك الأعضاء متفاوتةٌ في إحساسها بالألم، فيَتصوَّر أصنافًا متعدِّدةً مِنَ الألمِ مع كلِّ عضوٍ منها؛ ليَذْهَل بخاطرِه ووجدانِه مع كلِّ جُزءٍ مِن أجزاءِ التَّعذيبِ، فيَنفعِلَ لها مَرَّاتٍ وكَرَّات[1].

موقع جملة: ﴿هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ﴾:

جملة: ﴿هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ﴾ في محلِّ رفع نائبُ فاعلِ مَقولِ قولٍ محذوف، وفِعلُ القولِ المحذوفِ متعلِّقٌ بالظَّرف، والتَّقدير: (يُقالُ لهم يومَ يُحمَى عليها: هذا الذي تُكوون به ما جمعتم لأنفسكم وبَخلتم به عن حقِّ الله)، وإضمارُ القولِ كثيرٌ في القرآن الكريم[2].

إذا سِيقَ القولُ لِمَنْ يَعلمُه، فهو إمَّا تذكيرٌ أو تَحسِير

معنى اسمِ الإشارة، ودلالةُ افتتاحِ جملة مَقولِ القول به:

قوله: ﴿هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ﴾ مقولُ القولِ مُفتَتَحٌ باسم الإشارة للقريب؛ إيماءً إلى حضورِ المُشارِ إليه وقُربِه، وهو مع قُربِه منهم ونزولِه بهم يُشير إليه تبكيتًا لهم، وإمعانًا في تعذيبهم بالقولِ بعد تعذيبهم بالفِعل؛ لِيَجْمعَ إلى تعذيبِهم الجسديِّ تعذيبَهم النَّفسيِّ، بالإشارةِ إلى ما هم مُتلبِّسينَ به، كَمَن يُذَكِّر إنسانًا بعيبٍ فيه لا يَخْفَى عليه، فيَزيدُه حسرةً، واسم الإشارة يعود إلى الكنوز المَحْمِيِّ عليها، أو يعود إلى الفعل النَّازِلِ بهم، وهو التَّعذيبُ بالكَيِّ[3].

يحصُل العذابُ بالقول والفِعل، كما تتألَّم النَّفْسُ بالقولِ والفِعل

دلالة التَّعبير بصيغة الماضي:

مجيءُ صِلة الموصول على تركيب الماضي ﴿كَنَزْتُمْ﴾، مُشْعِرٌ بفواتِ الفُرصة وانقضاء الأمْر، وتصويرٌ لعمَلٍ مُحقَّقٍ فعلوه وفَرَغوا منه،

تذكير الجاني بِسَببِ عقوبتِه لإقامةِ الحُجَّة عليه وانتهاره

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/179.
(2) الواحديّ، التّفسير البسيط: 10/404، وصافي، الجدول: 10/331.
(3) صافي، الجدول: 10/331.

وخِطابُهم بتلك الصيغة جارٍ مجرى إشهادِهم على أنفسِهم بما تحقَّقَ عندهم؛ تذكيرًا للمُجرِم بأنَّ ما استحقَّه مِنَ العقوبة هو مِن جَرَّاء ما ارتكبه عمْدًا، وهو مُحقَّقٌ له، مُتمكِّنٌ منه، وفي قوله: ﴿كَنَزْتُمْ﴾ على الماضي إشعارٌ بأنَّهم لم يتوبوا، وأنَّهم ماتوا على هذا الفِعل.

بلاغة الإطناب بذِكْر المتعلَّق:

قد يَضِرُّ الإنسانُ نفسَه أبلغَ الضَّرر مِن حيثُ يريد نفْعَها

لا يَنْفَكُّ النَّظمُ الكريم في هذه الآية الجليلة عن مُتابعةِ أولئك المُسيئِينَ في إدارةِ أموالِهم، بالتَّبكيتِ والتَّحسير في كلِّ لفظةٍ مِن ألفاظه، فقوله: ﴿لِأَنفُسِكُمْ﴾ زيادةٌ في جُرعةِ العذابِ والألَم، وفيه: مُقابلةٌ بديعةٌ بينَ قصدِهم مِنْ فِعلِهم، وما آلَ إليه حالُهم، فتركيبُ ﴿لِأَنفُسِكُمْ﴾ اللَّام فيه لِتعليلِ قَصْدِهم مِن فِعلِهم، وأنَّهم ما كَنَزُوا إلَّا بقصدِ نفْعِ أنفسِهم وإمتاعِها، والسَّعي في لَذَّتِها وراحتِها، ولكنَّهم جلَبوا لِهذه الأنْفُس عاقبةَ الألَمِ بعدَ اللَّذَّة، والعناءَ المُقيمَ بعدَ الرَّاحة الواهِمَة، فقولُه: ﴿لِأَنفُسِكُمْ﴾ يستدعي حالَين متقابلتَين؛ أحسنُهما مَضَتْ وانقضتْ، وأسوأُهما ما هُم فيه مِنَ العذاب والألم، وهو تنديمٌ وتجزيعٌ وفسْخٌ لعزْمِ النَّفْس، حين تُوضَع بينَ تصوُّر حالِها القديمة العزيزة، وحالِها الحاضرةِ البائسة، ويزدادُ الألمُ حين تكون نفْسُ الإنسانِ هي التي جَنَتْ عليه بذلك، وأنَّه المُتسبِّب والمُباشِر في هذا التَّحوُّل المشؤوم، الذي لا رجوع فيه ولا تَدَارُك، والعياذُ باللّه. ويَصِحُّ أن تكون اللَّام في قوله: ﴿لِأَنفُسِكُمْ﴾ هي لامُ العاقبة والصَّيرورة، باعتبار أنَّ هذا القول ﴿هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ﴾ يُقالُ لهم يومَ القيامة، وما كَنَزُوه تحوَّل عن صُورتِه مِن أداة إمتاعٍ إلى أداة تعذيب، فكأنَّه يقول لهم: هذا ما كنزتموهُ لإضرارِ أنفسِكم، تمامًا كقوله تعالى: ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ [القصص: 8][1].

(1) البيضاويّ، أنوار التّنزيل وأسرار التّأويل: 3/80، والطِّيبيّ، فتوح الغيب: 7/239، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/179.

موقع جملة: ﴿فَذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَكۡنِزُونَ﴾:

إيكالُ الجاني إلى مُلابَسَةِ عِقابِه تَيْئِيْسًا له

الفاء في قوله: ﴿فَذُوقُواْ﴾ هي الفصيحة، وهي لِرَبْطِ مَدْخولِها بشرطٍ محذوفٍ تقديره: (إنْ كَنَزتُم ولم تُنفِقوا فذوقوا...)، فقوله: ﴿فَذُوقُواْ﴾ في محلِّ جزمٍ جوابُ الشَّرط المُقدَّر، أو الفاء عاطفةٌ لرَبطِ المُسبَّبِ بالسَّبب، فهي تفريعٌ عن جملة: ﴿هَٰذَا مَا كَنَزۡتُمۡ لِأَنفُسِكُمۡ﴾، فهو عطفُ توبيخٍ على تنديم[1].

براعةُ الاستعارةِ:

انفعالُ الجوارحِ لما تَحُسُّه تَذوُّقٌ له بما يُناسِبُ وظيفتَها في الشُّعور

أصل الذَّوق: الإحساسُ بطعم الشَّيء، وهو في قوله تعالى: ﴿فَذُوقُواْ﴾، مُستَعارٌ للإحساسِ بالألَم، حيثُ شَبَّه إحساسَه الأليم بسُوء عاقبتِه، بذَوقِ الطَّعام الكريهِ الذي لا يُسِيغُه الآكِل، على سبيل الاستعارة المكنيَّة التَّبعيَّة، فالمشبَّه به محذوفٌ، ولازمُ المُشبَّه به - وهو ذَوقُ الطَّعْم - مُثْبَتٌ للمُشَبَّه على جهة الاستعارة التَّخَيُّليَّةِ، فكأنَّه قيل لهم: ذُوقوا طَعمَ ما كنتم تَكْنِزون[2].

دلالةُ ﴿مَا﴾ في قوله: ﴿مَا كُنتُمۡ﴾، وأثرُها في المعنى:

أصعبُ ما يُواجِهُ الجاني أنْ يتَذَكَّر جنايتَه، ويَعْجِزَ عن تَدارُكِها

﴿مَا﴾ في قوله: ﴿فَذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَكۡنِزُونَ﴾ اسمُ موصول، أو حرفٌ مصدريٌّ يُؤَوَّل مع مدخولِه بمصدر، وجملة: ﴿مَا كُنتُمۡ تَكۡنِزُونَ﴾؛ على الأوَّل: صِلةُ الموصول الاسميِّ، والعائدُ محذوفٌ، والمعنى: ذُوقوا ما تَكنِزونَه. وعلى الثَّاني: صِلة الموصول الحرفيِّ، ولا عائدَ، والمعنى: ذوقوا كَنْزَكُم. وعلى اعتبار أنَّ ﴿مَا﴾ موصولةٌ، يكون الغَرضُ مِنَ الموصول التَّنبيهَ والدّلالةَ على غَلَطِهم فيما كَنَزوا، وأنَّهم غُبِنُوا فيه؛ وذلك بقصد تحسيرِهم وإيلامِهم، تتْميمًا لمعاني التَّوبيخ المُتَسَلْسِلَةِ في تركيب النَّظم الجليل. وعلى اعتبار أنَّ ﴿مَا﴾ مصدريَّةٌ، ففائدةُ المصدرِ المؤوَّل منها ومن مدخولها: إرادةُ

(1) صافي، الجدول: 10/331، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/179.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 5/281، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/180.

المَصدريَّةِ مع الفعل؛ إذِ الموصولُ الحرفيُّ ﴿مَا﴾ وُصْلَةٌ معنويَّة بينَ المصدر والفعل؛ لإرادةِ مَدلولَيْهِما معًا، مِن إفادةِ مجرَّد الحَدَث، وثُبُوتِ العِبْرةِ وديمومتِها المستفادةِ مِن معنى المصدر، وهو كونُهم كانزين، وإفادةِ زمانِه لاستحضارِ هيئتِهم العامِلَة؛ لأنَّه عمَلٌ استَحَقُّوا جزاءَه، فَرُوعِيَ فيه الزَّمَن ﴿كُنتُمْ﴾، و﴿تَكْنِزُونَ﴾، والفِعليَّةُ والاسميَّةُ كلاهما مُرادٌ مِنَ المصدر المؤوَّل الذي تُوسِّلَ إليه بالحرف المصدريِّ، ولو عَبَّر بالمصدر الصَّريح لخلا التَّركيب مِنَ الدِّلالة على الزَّمنيّة، ولَمَا حصل الاحتمالُ في كون ﴿مَا﴾ موصولةً، فيَضِيْقُ المعنى بالمصدر الصَّريح[1].

نُكْتَةُ حَذْفِ المضافِ:

الأعيانُ المَكنوزة تَنْقلِبُ أداةً للألَم بعدَ أنْ كانت أداةً لِلَّذّة

الكلام في قوله: ﴿فَذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ﴾ على حذف مضافٍ يقتضيه المقام، والتَّقدير على موصوليّة ﴿مَا﴾: فذوقوا جزاءَ الذي كنتم تكْنِزون، والتَّقدير على مصدريَّة ﴿مَا﴾: فذوقوا جزاءَ كَنْزِكُم، أو جزاء كونِكم كانزين. ونُكْتَةُ حذفِ المضاف وعدمِ التَّصريح به: الإيجازُ؛ لِوضوحِه وعدم خفائه، ولِلإسراع بِهم في اقتحام ما يُعذَّبونَ به مِنَ الكَنْز ومُلابسته، فلا يُفْصَلُ بينَهم وبينَه بلفظِ المُضاف، أو لإرادةِ المالِ المكنوز نَفْسِه مِن غير تقدير مُضاف؛ لأنَّهم يتذوَّقونَ هذه الأعيانَ المكنوزةَ نفْسَها، وهم يُعذَّبون بها، فهي مَذُوقَةٌ لهم حين تَنْقَلِبُ عليهم في الآخِرةِ وبالًا ونَكالًا[2].

سرُّ دخولِ فِعل الكون: ﴿كُنتُمْ﴾:

لا فُرصَةَ للجاني في الإنكار؛ إذا وُوْجِهَ بما يُحقِّقُ جِنايتَه

جاء بفِعل الكون ﴿كُنتُمْ﴾ في قوله: ﴿فَذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ﴾، وكان يَصِحّ أن يُقال: (فذوقوا ما تكنِزون)؛ للدّلالة على ثبوتِ

(1) السُّهيليّ، نتائج الفكر، ص: 180، 186، وابن القيم، بدائع الفوائد: 1/157، والسّمين الحلبي، الدُّر المصون: 5/559، وصافي، الجدول: 9/174.

(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 5/281، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاوي: 9/217، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/180.

خبرها لاسمها[1]، ولِتحقيقِ وَصْفِهم بالعمل الذي استحقُّوا الجزاءَ عليه، فَحَقَّقَ اتّصافَهم بالعمل لِتأكيدِ استحقاقِهم لِعقابِه، وفي إيراد ﴿كُنتُمْ﴾ بصيغة الماضي مع ﴿تَكْنِزُونَ﴾ بصيغة المضارع نُكْتَةٌ بديعة، وهو الجمْع بين الدّلالة على تحقيقِ أفعالِهم في الماضي بدلالةِ لفظ ﴿كُنتُمْ﴾، والدّلالة على استحضار هذه الأفعال وهم يُزاوِلونَها ويُكَرِّرونها، ويُجَدِّدون وقوعَها مَرَّةً بعد مَرَّةٍ، بدلالة المضارعة في ﴿تَكْنِزُونَ﴾، ففي هذا التَّركيب البديع دَمْجٌ للحال الماضية مع الحال الحاضرة وقتَ حدوث الفِعل، قبلَ أن يَمضِيَ وينقضِيَ، ولا يَخفى ما في التَّعبير بـ ﴿كُنتُمْ﴾ في هذا التَّركيب مِنَ الدّلالة على ذواتِهم، واستحضارِ هيئتِهم وهم يَكنِزون.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الإحماء والإيقاد:

الإحماءُ هو نتيجة الإيقاد

الإحماءُ: هو الإيقادُ والإشعالُ على الشَّيء بالنَّار حتَّى يَلْتهبَ ويَحمَى، فيَصيرَ ساخِنًا شديدَ الحرارةِ مُحرِقًا، وأمَّا الإيقاد: فهو مِنَ الوَقود، وهو مادَّة حياةِ النَّار، أي: اشتعالها، ولذا يُقال على الحطَب، الذي يكون سببًا في تكوُّنِ الاشتعالِ وإنتاجِ اللَّهَب، ويُقال على اللَّهَب ذاتِه، والشُّعلَةِ نفْسِها، فالإحماءُ هو نتيجةُ الإيقاد، كما أنَّ تولُّدَ الحرارةِ هو نتيجة التَّسخين، فلا إحماءَ للأجرام مِن غير إيقادٍ عليها. هذا، والوَقودُ له حرارة وحَمْيٌ في ذاتِه؛ لأنَّه مادّة النَّار، إلَّا أنَّه ذُو اشتعالٍ أيضًا، وأمَّا الحَمْيُ فلا يلزم أن يكون مُشتعِلًا، بل قد يكون حارًّا مَحمومًا مِن غير اشتعال[2].

(1) عضيمة، دراسات لأسلوب القرآن: 8/336.

(2) الرّاغب، المفردات، وابن منظور، اللِّسان، وجبل، المعجم الاشتقاقيُّ: (حمى، وقد).

﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثۡنَا عَشَرَ شَهۡرٗا فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوۡمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ مِنۡهَآ أَرۡبَعَةٌ حُرُمٞۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُۚ فَلَا تَظۡلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمۡۚ وَقَٰتِلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ كَآفَّةٗ كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمۡ كَآفَّةٗۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ ٣٦﴾ [التَّوبة: 36]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لـمَّا أُخْبِرَ في الآياتِ السَّابقة عنْ جناياتِ أهلِ الكتاب في العقيدةِ والسُّلوك، وكان منها ما يتعلَّق بالتَّاريخ والتَّقويم؛ كالجِزْيَةِ، والكَنْز الذي يُطلَق شرعًا على ما لم تُؤَدَّ زكاتُه، وكانت تَنْبَنِي في مجموعها على عدم الإيمان بالله، وعدمِ تحريم ما حرَّم اللهُ ورسولُه، أخبر هنا أيضًا عن جنايةٍ مِن جنايات المشركين، تتعلَّق كذلك بالتَّاريخ وبتغيير أحكام الله فيه، وعدمِ تحريم ما حرَّم اللهُ ورسُولُه، فمُشْركو العربِ - الذين تقدَّم الأمرُ بالبراءةِ منهم - قد أَحدَثوا في الأشهرِ بالنَّسِيء الذي أُمِروا أن يُنادُوا في الحَجِّ بإبطاله، مِمَّا نَتَجَ عنه تغييرُ السِّنين عن موضعها الذي وضعَها الله عليه، فضَاهَوا بذلك فعلَ أهلِ الكتاب في دينِهم، بالتَّحليل والتَّحريمِ مِن رؤسائهم كما أرادوا[1].

جرائمُ أهل الكتاب كثيرةٌ، وقد ضاهاهم المشركون في بعضها

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿عِدَّةَ﴾: العِدَّةُ: هي الشَّيءُ المعدود، فإذا أُضيفَتْ للمعدودِ، فمعناها: العددُ المنسوبُ لهذا الشَّيء، فهو عددٌ مضبوطٌ بِحُكْمِ ما أُضيف إليه، ولذا "تأتي العِدَّةُ مَلْمُوحًا فيها المُمَاثِل في العَدَد"، فهي القيمةُ المُماثِلة للعدد، وليست مُجرَّدَ الوحداتِ الحسابيَّة مِنَ الآحاد والعَشَراتِ والمئات[2].

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 8/449.

(2) الرَّاغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحفاظ، وجبل، المعجم الاشتقاقيُّ: (عدد).

2) ﴿كَآفَّةً﴾: مِنَ الكَفِّ، وهو المنْعُ، ولفظ (كافَّة): يُطلَقُ على الجماعةِ التي تتَّصِف بالكَفِّ، فتَكُفُّ نفسَها عنِ الزِّيادةِ عليهم أو النَّقْصِ منهم - لِما في الكَفِّ مِن معنى القبْضِ والانقباض - وتَكُفُّ غيرَها عنِ العُدوان عليها أو الإضرارِ بها، ولهذا صَحَّ اعتبارُه اسمَ فاعِل، وتاؤه للمبالغة، أي: كافِّين، فهي جماعةٌ أفرادُها كافِّين لغيرهم، ولِمعنى الاجتماعِ صَحَّ اعتبارُه مَصدرًا، أي: جميعًا، والمراد هنا: قاتلوا المشركين جميعًا على جِهةِ الكَفِّ والرَّدْعِ لهم[1].

❁ المَعْنى الإجْمالِيُّ:

بيانٌ مِنَ الله بعِدَّة الشُّهورِ، وتغليظُ النَّهيِ عن مخالفة أَمْرِ اللهِ في الحُرُم منها

يُقرِّر اللهُ في هذه الآيةِ حُكْمًا بعدد الشُّهور القمريَّة التي يتألَّف منها العام، ويُخبِر أنَّه حُكْمٌ ثابتٌ عندَه في تقديره وعِلمه، ومستَقِرٌّ فيما كَتَبَ في اللَّوح المحفوظ، بأنَّها اثنا عشرَ شهرًا، يومَ خلق السَّماواتِ والأرضَ، منها أربعةٌ حُرُم - ثلاثةٌ متصلةٌ وواحدٌ فَرْدٌ - وهي: (ذو القعدة، وذو الحجَّة، والمحرَّم، ورجب)؛ حرَّم اللهُ فيهنَّ القتال، ذلك هو الدِّين المستقيم، فلا تظلموا فيهنَّ أنفسَكم بإيقاعِ القتالِ فيها، وهتكِ حرمتها؛ لزيادةِ تحريمها واختصاصِها بالتَّفضيل على سائر الشُّهور، وكَوْنِ الظُّلْم فيها أَشَدُّ منه في غيرها، لا أنَّ الظُّلْمَ في غيرها جائز، وقاتلوا المشركين جميعًا، كما يقاتلونكم جميعًا، واعلموا أنَّ الله معَ أهل التَّقوى بتأييده ونَصْره[2].

وترشدُ الآيةُ إلى مضاعفةِ السيئاتِ في الأشهرِ الحرم، وإلى قبحِ الذُّنوب فيها، والحرصِ على تقوى اللهِ في السرِّ والعَلن، خصوصًا عند قتال الكفارِ؛ لأنَّ المؤمنَ يتقي اللهَ في كلِّ أحواله، وبالتقوى ينالُ صفةَ المعيةِ لله تعالى، وهي معيةٌ خاصةٌ بالنصرِ والتأييدِ لأهل تقواه.

(1) الرَّاغب، المفردات، وابن منظور، اللِّسان، والسّمين الحلبي، عمدة الحفاظ، وجبل، المعجم الاشتقاقيُّ: (كفف، كفكف).

(2) نخبة من العلماء، التفسير الميسَّر، ص: 192.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالة الاستئنافِ الابتدائيِّ:

جرائمُ المُخالِفين مُتَّفِقَةٌ في نقْضِ أحكامِ الله

جملة: ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ﴾ استئنافيَّةٌ ممَّا قبلَها؛ لِبَدءِ التَّمهيد لِجنايةٍ جديدة تتعلَّق بالمشركين، في إخلالِهم بنظامِ الأشهر ومواقيتِها المُستقرَّة، وابتداعِهم النَّسِيء في الشُّهور لتغيير أحكامِ اللّٰه التي تتعلَّق بها، فالجملة الكريمة تمهيدٌ لِنوعٍ آخَر مِن جرائم المشركين، بعدَ الفراغ مِن تعديد قبائحِ اليهود والنَّصارى، فالاستئنافُ متَّصِلٌ بما قبلَه في نوع المُناسبة، مُنفصِلٌ عنه في المضمونِ والموضوع[1].

نُكْتَةُ الاستِهلال بحرف التَّوكيد:

أحكامُ اللهِ حَرِيَّةٌ بالتَّوكيدِ والتَّشديد

استُهِلَّ الكلامُ بحرف التَّوكيد في قوله: ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ﴾؛ للاهتمام بمضمونه، وإيقاظِ الأسماع إليه، وأخْذِ ما فيه بقوَّةٍ في العمل والامتثال، كما سِيقَ لَفْظُه بقُوَّةٍ في التَّقرير والتَّوكيد[2].

دلالةُ التَّعبير بوزن: (فُعُول) دونَ (أفْعُل):

مُراعاةُ صِيَغِ الألفاظ يُفيدُ في الفَصْلِ بينَ المعاني

آثر السِّياقُ التَّعبيرَ بجَمْعِ الكَثْرة: (فُعُول)؛ لكونِ الأشهرِ المذكورة في عددٍ كثيرٍ تجاوَز العَشَرة، وهي الواردةُ في قوله: ﴿ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا﴾، ولذا لمَّا نَزَلَتْ عن العَشَرَةِ في قوله: ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ﴾ [التوبة: 5] عَبَّر بوزْنِ (أفْعُل) الدالِّ على القِلَّة.

وجهُ التَّعبيرِ بلفظ: (العِدّة) دونَ (العدد):

لفظُ العِدَّة يُلْحَظُ فيه نِسبَةُ العددِ إلى الشيءِ المعدود وحُكمه

لم يقل في السِّياق الكريم: (إنَّ عددَ الشُّهور)؛ للفرق بينَ العدد والعِدَّة، فالعَدَدُ: هو الوَحَداتُ الحسابيَّةُ المجرَّدَةُ، التي يُقاس بها حِسابُ الأشياء، وأمَّا العِدَّة: فهي الشَّيء المعدود، الذي قُيِّمَ بالعدد، فالعِدَّة يُلاحَظُ فيها نِسْبَةُ العددِ إلى الشَّيء المعدود، فيُلمَحُ فيها مُماثِلُ العددِ

(1) صافي، الجدول: 10/334، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاوي: 9/217.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/180.

الذي قُدِّر به، فالعَدَدُ هو مِقياسُ العِدَّة، والعِدَّةُ هي المَقيس، فلمَّا قال الله: ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ﴾ عُرِفَ من ذلك أنَّ الله يريد منَّا مُلاحظةَ القيمةِ والحُكمِ الذي تعلَّق بتلك الشُّهور عند ذِكْرِ عَدَدِها، وليس مُجرَّدَ الإخبارِ بالعدد، فالعِلْمُ في العِدَّة مُتَّجِهٌ إلى المعنى الذي تعلَّق بالمعدود عند نِسبتِه لِلعدَد، وليس مُتَّجِهًا إلى مجرَّد العِلْم بالعدد[1]، كما وردَ الأمرُ بإتمام صيامِ شهر رمضان كاملًا، ولئلَّا يتوهَّمَ متوهمٌ أنَّ صيامَ رمضانَ يحصلُ المقصودُ منه بصيامِ بعضِه، دفعَ هذا الوهمَ بالأمرِ بتكميلِ عِدَّته بقوله: ﴿وَلِتُكْمِلُواْ ٱلْعِدَّةَ﴾ [البقرة: 185].

معنى العِندِيَّة، وبلاغةُ المجازِ فيها:

ما كانَ عِنْدَ الله فهو معصومٌ مِنَ الخَلَلِ والزَّيْغ

في قوله تعالى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ﴾ ظَرْفُ العِندِيَّة مُتعلِّقٌ بعِدَّةِ الشُّهور، والعِندِيَّة مجازٌ في الحُكم والتَّقدير والعِلْم، أي: عِدَّةُ الشُّهور في حُكْمِه وعِلمِه[2]. وفائدة التَّقييد بالعِندِيَّةِ وإضافتِها لله، تعظيمُ الحُكم بعِدَّة الشُّهور، وإبطالُ مفهوم التَّركيب، وهو عِدَّةُ الشُّهور عند غير الله[3]، مِنَ المشركين الذين أَخَلُّوا بتلك العِدَّة، وحَرَّفوا فيها، ففيه تعريضٌ بانحراف المشركين في شأنها، وإهدارُ فِعلِهم فيها. ويَصِحُّ حَمْلُ الظَّرف على الحقيقة، باعتبار قولِه بعده: ﴿فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾؛ لأنَّ الحُكْم ثابتٌ في الكتاب، وهو اللَّوحُ المحفوظ، والكتابُ عند الله، ويكون المرادُ مِن عِدَّة الشُّهور: الحُكْمُ بعِدَّتِها، الثَّابتُ في الكتاب الذي هو عند الله، مُستقِرًّا وحاضِرًا عنده على وجْهٍ لا يعلمه إلَّا هو سبحانَه.

نُكْتَةُ تقديم الظَّرف على العَدد:

توطئَةُ النُّفوسِ بمعرفة مَصْدرِ الحُكم، أَدْعَى إلى قَبولِ الحُكْم وطَرحِ ما سِواه

لم يَقُل في السِّياق الكريم: (إنَّ عِدَّة الشُّهور اثنا عَشَر شهرًا عند الله) فقدَّم الظَّرف على الخبَر؛ إسراعًا في تقرير أنَّ الخبَر المحكومَ

(1) الرَّاغب، المفردات: (عد)، وجبل، المعجم الاشتقاقيُّ: (عدد).
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/182.
(3) الشَّعراويّ، تفسير الشَّعراويِّ: 8/5075.

به هو حُكْمٌ مِنَ اللّه، لِتَتَهيَّأ النُّفوسُ للإذعانِ له، ففي تقديم الظَّرف تقديمٌ لِمصْدَر الحُكم وجِهتِه على الحُكم ذاتِه؛ ليُعلَم أنَّ الحُكْمَ الذي سيُقَرَّر لا مُعقِّبَ له، وفيه إشارةٌ إلى أنَّ الغاية مِنَ الحُكْم ليستْ إحصاءَ عَدَدِ الأشهر، أو العِلمَ بعددها، بل المُراد هو إقامةُ الحُكْمِ الذي تَعلَّق بهذا العدد والامتثال به لأنَّه مِن عند اللّه.

نُكْتَةُ التَّمييز:

جاء قولُه: ﴿شَهْرًا﴾ تمييزًا للعدد المذكور، وهو تمييزٌ مؤكِّد لصِحَّة الاستغناء عنه؛ لِدلالة مضمون جملةِ: ﴿عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ﴾ عليه، فَلَفْظُ: (الشُّهور) يُبيِّنُ أنَّ المعدودَ المقصود بالعددِ هو الشَّهر، لكنَّ التَّمييزَ هنا سِيْقَ لِنُكْتَةٍ بديعةٍ في النَّظم، وهو بيانُ أنَّ الشُّهور المعدودةَ باثْنَيْ عشَرَ مُتمايزةٌ فيما بينَها، فكلُّ شهرٍ منها ليس كنظيرِه في سائر الشُّهور، بل كلُّ شهرٍ له خَصِيْصَتُه ونِظامُه وهُوِيَّتُه، التي يتمايزُ بها عن سائر الشُّهور، بدليل أنَّ لكلِّ شهرٍ منها اسْمًا مستقِلًّا به، ولو قال: ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ﴾ مِن غير التَّمييز بلفظ: ﴿شَهْرًا﴾؛ لَأَوْهَمَ أنَّها اثنا عشر شَهرًا بنظامٍ واحدٍ، يَتكَرَّر اثْنَتَيْ عَشْرَة مَرَّةً مِن غير مُمايزةٍ بينَها. فلمَّا جاء بالتَّمييز بَعْدَ العَدَد، عرفنا أنَّها إذا تجاوزتِ الاثْنَي عَشَرَ، صار ما زاد على هذا العدد مُماثِلًا لنظيره السَّابق في وقت حُلُولِه، فاعتُبِر شيئًا مُكَرَّرًا، ولذا لم تَزِد على هذا العدد[1].

تمييزُ الشَّيء قد يَتعلَّقُ بإبهامٍ لازِمٍ عنه، أو إبهامٍ ذاتِيٍّ فيه

دلالة توالِي الجارِّ والمجرور:

قوله: ﴿فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ متعلِّق بمحذوفٍ، صِفةٌ للخبر، وهو قولُه: ﴿ٱثْنَا عَشَرَ﴾، أي: اثنا عَشَر شهرًا ثابتةٌ في كتابِ اللّه، أو مكتوبةٌ في كتاب اللّه، أو الجار والمجرور مُتعلِّقٌ بظرف العِنديَّة، على أنَّه بدَلٌ منه، ونُكْتَةُ الإتيانِ بهذه الجملة: ﴿فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾، رَغْمَ أنَّه أخبر

ما وُصِفَ بأنَّه مِن عِنْد الله، فهو مَشْمُولٌ في عِلْمِه وتقديره

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/183.

قبلَها باستقرار هذا الحُكم عند اللّه؛ لأنَّ الإخبار بكونه ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ لا يَلْزم منه كونُه في كتابه، فكثيرٌ "مِنَ الأشياء يُوصَفُ بأنَّه عندَ اللّه، ولا يُقال: إنَّه مكتوبٌ في كتابِ اللّه، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ [لقمان: 34]"[1]، فأخبر بالعِنْدِيَّةِ دونَ ثُبوتِه في كتابِه، ولا يخفى ما في الجمْع بينَ الأمرين هنا، في الظَّرف والجارِّ والمجرورِ، مِنَ المبالغة في تقرير الحُكم وتثبيتِه مِن جميع الوجوه.

أثرُ مُتعلَّق الظَّرفِ في تعيين معنى الكتاب:

يُطلَقُ كِتابُ اللهِ على حُكْمِ الله؛ لإجراء الحُكْم مَجرى المكتوبِ في ثُبوتِه

الظَّرف في قوله: ﴿يَوۡمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾ مُتعلِّقٌ بمعنى الثُّبوتِ، الذي تعلَّق به الجارُّ والمجرور في قوله: ﴿فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾، أي: ثابتةٌ في كتابِ اللّه في ذلك اليوم، وهذا على اعتبار أنَّ الكتاب اسمُ عَيْنٍ على اللَّوح المحفوظ، أو مُتعلِّقٌ بالكتاب إنْ جُعِل الكتابُ معنىً لا عينًا، فيكونُ مصدرًا لا اسمًا، أي: الشُّهور اثنا عَشَر شَهرًا في حُكمِ اللّهِ الذي أوجبَه في ذلك اليوم[2].

نُكْتَةُ التَّعقيب بالظَّرف الزَّمنيِّ:

أزليَّةُ حُكْمِ اللهِ في ضَبْطِ نظامِ التَّكاليف قبلَ الزَّمَنِ والخَلْق، واستمرارُه بعدَ الزَّمَن والخَلْق

جاءت جملة: ﴿يَوۡمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾ إطنابًا، بعد الجارِّ والمجرور، وظَرفِ العِنديَّة في جملة: ﴿فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾، وجملة: ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾، وغرضُ الاستطراد بالظَّرف الزَّمنيِّ: ﴿يَوۡمَ خَلَقَ﴾ مِن جهتين؛ الأُولى: الدَّلالة على أنَّ هذا الحُكم حُكمٌ أزليٌّ قديمٌ؛ لثُبوتِه عند اللّه، وفي كتابِه قبلَ الخَلْقِ، غيرَ مُقيَّدٍ بزمانٍ، ولهذا جعله منوطًا أوَّلًا بقوله: ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾، وقولِه: ﴿فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾؛ ليُستفادَ منهما أنَّه حكمٌ ثابتٌ في نفسِه. الثَّانية: الدَّلالة على استمرار هذا الحُكم بتعلُّقِه بحيِّز الزَّمَن، ولكي يَدُلَّ على معنى استمراره الزَّمنيِّ أتى بقوله: ﴿يَوۡمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾، فثبتَ مِنَ التَّراكيبِ الثَّلاثة

(1) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 8/132.
(2) البيضاويّ، أنوار التنزيل: 3/80، وصافي، الجدول: 10/333.

الدّلالةُ على أزليَّة الحُكم قبلَ الزَّمنِ والخَلْق، واستمرارِه بعدَ الزَّمن والخَلْق، ولا يَخفى ما في هذا الإطناب مِنَ التَّشديدِ على مضمون الحكم الذي اقتضى ضبْطَ نِظامِ الشُّهور بما قضاه اللّهُ؛ لتَرتُّبِ ضَبْطِ نظامِ الأحكام والتَّكاليف وكافَّة المصالحِ والمقاصدِ عليه[1].

وجهُ عطفِ الأرض على السَّماوات:

لم يَقْتَصِر في النَّظْم الكريم على ذِكْر السَّماواتِ دون الأرض؛ لكون نظام الشُّهورِ القَمريَّة حاصلًا مِن مجموع نِظامِ السَّماوات ونِظامِ الأرضِ معًا، فالشُّهور التي تبدأ وتنتهي بحسبِ دورةِ القَمر، وتأثيرِ الشَّمسِ فيه بانعكاس ضوئها عليه في الجهةِ التي يُقابِلُ فيها الأرض، فتلك الحركةُ العُلْوِيَّة لهذه الأفلاك والأجرام السَّماويَّة، إنَّما تحصُل بحسبِ نِسبتِها وتأثيرها في الأحوال الأَرضيَّة، وليستِ الشُّهور إلَّا حالٌ زمنيَّة للوضعِ الأرضيِّ، فالشُّهور جاريةٌ أصلًا على نظام الأرضِ ومَن فيها، فلا جرَمَ أنْ عَطَفَ الأرضَ على السَّماوات، وقرنَهما معًا في الذِّكْر لاقترانِهما معًا في إنتاجِ حركةِ الزَّمَن[2].

الشُّهورُ القَمريَّة حاصلةٌ مِن مجموع نِظامِ السَّماوات ونظامِ الأرضِ معًا

دلالةُ التَّقييد:

وَصْفُ الأربعةِ الأشهرِ بأنَّها حُرُمٌ في قوله: ﴿مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌۚ﴾، دليلٌ على اصطفائِها وتفضيلها على سائرِ الشُّهور، فلفظُ: ﴿حُرُمٌۚ﴾ جمع حرام، فهي ذاتُ حُرمَةٍ، ووَصْفُها بذلك: لتحريم القتالِ فيها، ولأنَّ العبادةَ فيها مُعظَّمةٌ، والحسناتِ والسَّيئاتِ فيها مُضاعَفَةٌ، فهي مُحترَمَةٌ بِفعلِ القُرُبات، ومُحرَّمَةٌ بِمنْع اقترافِ الجنايات.

الأشهرُ الحُرمُ مُعظَّمَةٌ بتحريمِ انتهاكِها، ومضاعفةِ الحسنةِ والسيِّئةِ فيها

دلالةُ اسمِ الإشارةِ، ومعنى مَرجِعِه:

الإشارة في قوله: ﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُۚ﴾ تعود إلى مجموع الكلام السَّابق، وهو الحُكْم بعِدَّة الشُّهور وتحريمِ أربعةٍ منها، واسمُ الإشارةِ

(1) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاوي: 9/218.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/183.

بما اقترن به مِن لامِ البُعدِ وكافِ الخطابِ للدّلالة على بُعدِ المُشارِ إليه في المنزلةِ، ففي الإشارة تعظيمٌ لحُكْم اللّه المذكور، وتفخيمٌ لشأنِه، وإيذانٌ بِخَطَرِه، بما يُحرِّضُ على الإذعانِ له، والتَّحذير مِن تحريفِه أو تبديله[1].

تـوافُـقُ الـسُّـنَّـةِ الـكـونـيَّـةِ مـعَ السُّنَّةِ الشَّرعيّة في خِطابِ الدِّين

معنى لفظِ الدِّين، وبلاغةُ المجازِ فيه:

المرادُ بـ (الدِّين) في قوله: ﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُۚ﴾ أي: المِلَّةُ التي تُطاعُ أحكامُها، ويُدانُ لشَرعِها، أوِ الحُكْمُ والتَّشريع المستقيم، أوِ الحسابُ المستقيم، لا حسابُ المشركينِ مِنَ النَّسيء، وعُبِّرَ عنِ الحُكْم المذكور بأنَّه الدِّين - رَغم أنَّه بعضُ الدِّين - مُبالغةً في تعظيمِه، لِكوْنِ الدِّينِ لا يَتِمُّ إلَّا بإقراره، وهو مجازٌ مُرسل علاقتُه الكُليَّة؛ حيث أُطْلِق الكُلُّ وأُرِيدَ الجُزءُ، أو التَّعبيرُ عنه بالدِّين لكونِ كلِّ حُكمٍ مِن أحكام الدِّين يُسمَّى دِينًا؛ لانضوائِه تحتَ مُسمَّى الدِّين، والفَرْعُ يأخذُ اسمَ أصلِه، وعَبَّر بالدِّينِ، ولم يقل: (ذلك الحُكْمُ القَيِّمُ)؛ لِتضمينِه معنى العقيدةِ، التي لا تُقبَل الأعمالُ إلَّا بإقرارها، ولم يَقُل: (ذلك الحسابُ القيِّم)؛ لِكونِه حسابًا يَترتَّبُ عليه تشريعٌ وتكليفٌ، وليس مُجرَّدَ سَردٍ للحسابِ والعَدَد[2].

الـفـرعُ يـأخُـذُ اسـمَ أصـلِـه الـذي يَـنْـضَـوي تحتَه مُبالغةً في تعظيمِه

دلالة التَّعبير بالصِّفة المُشَبَّهة:

قولُه: ﴿ٱلۡقَيِّمُۚ﴾ نعتٌ لـ ﴿ٱلدِّينُ﴾، و﴿ٱلۡقَيِّمُۚ﴾ صفةٌ مُشبَّهةٌ بمعنى اسم الفاعل، أي: المُستقيم أو القَويم، أو بمعنى اسم المفعول، أي: المُقَوِّم لأحوال المؤمنين به، ومجيءُ اللَّفظِ على بناءِ الصِّفة المشبَّهة هو مبالغةٌ في وصف الدِّين بالاستقامة؛ للدّلالة على ثُبوتِ ذلك الوصفِ ولُزومه للدِّين في جميعِ الأحوال؛ فلا يَنْفَكُّ عنه ولا يُفارِقه، فهو لُزومٌ ذاتيٌّ، فالدِّين في ذاتِه قويم ومستقيم، ومقوِّمٌ

دِيـنُ الـلـهِ مـسـتـقـيـمٌ في ذاتِه، وتستقيمُ بـه أحـوالُ الآخِذِين به

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 5/283.
(2) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 6/3300.

لأحوال مَن تمسَّك وأخذ به بصِدْق، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ۝٦٦﴾ [النساء: 66] ولا يكون الدينُ إلَّا كذلك[1].

نُكْتَةُ الاستئناف:

الأخبارُ إذا ترتَّبَتْ عليها الأحكام تضمَّنتْ معنى الإنشاء

جملة: ﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ استئنافيَّةٌ ممَّا قبلَها، وهو استئنافٌ نحويٌّ في الصِّناعةِ دونَ المعنى، وغَرضُ الابتداء بها بعدَ قولِه: ﴿يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ تقريرُ الجَعلِ التَّشريعيِّ بها للحُكم المذكور، أي: ذلك الحُكم هو وَضْعٌ شَرعيٌّ دِينيٌّ، بعد أن كان حُكْمًا كونيًّا ثابتًا بأصل الخِلْقة، فقولُه: ﴿يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ لتقرير ثُبوتِه بالوضع الكَونيِّ الوجوديِّ، وقولُه: ﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ لتقرير ثُبوتِه بالوضع الشَّرعيِّ التَّكليفيِّ[2].

دلالةُ الفاء في: ﴿فَلَا تَظْلِمُواْ﴾:

وظيفةُ الشرطِ المُقَدَّر الدّلالةُ على استثمار شَرفِ الزَّمانِ في تزكيَةِ النَّفْس

الفاءُ في جملة: ﴿فَلَا تَظْلِمُواْ﴾ هي الفصيحةُ؛ تَعطِفُ مدخولَها على شرطٍ مُقدَّر محذوف، يدلُّ عليه ما قبلَه، أي: إنْ عَلِمْتُم تفضيلَ اللهِ للأشهر الأربعةِ بتحريمها، فلا تظلموا فيهنَّ أنفسَكم، فهي تفريعٌ على مضمون قوله: ﴿مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ﴾[3].

مَرجعُ الضَّمير وبلاغتُه:

تخصيصُ الأزمانِ بالتَّفضيل يقتضي تخصيصَها بالتَّكليف

في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَظْلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ﴾، الضَّمير في ﴿فِيهِنَّ﴾ عائدٌ على الاثني عشَر شهرًا، في قولِ ابن عباس رضي الله عنهما، والمعنى: لا تجعلوا حلالًا حرامًا، ولا حرامًا حلالًا كفعل النَّسيء، ويؤيِّدُه كونُ الظلمِ منهيًّا عنه في كلِّ وقتٍ لا يختصُّ بالأربعِ الحُرم[4].

(1) فاضل السَّامرائيّ، الأبنية العربيَّة، ص: 66.
(2) صافي، الجدول: 10/334، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/186.
(3) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 4/97.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/415.

والأرجحُ أن يعود الضميرُ إلى جملة: ﴿مِنۡهَآ أَرۡبَعَةٌ حُرُمٞۚ﴾، وليس عائدًا إلى الأشهر الاثْنَي عَشَر؛ لأنَّه لو عاد إلى ﴿ٱثۡنَا عَشَرَ شَهۡرٗا﴾ لكان كأنَّه قال: (فلا تظلموا أنفسَكم أبدًا)، أو (لا تظلموا أنفسكم)، فلا يكون لإقحام الضَّمير فائدة؛ لأنَّه سيكون نهيًا مطلقًا؛ لأنَّ النَّهيَ المطلق كائنٌ في كلِّ الشُّهور، فلا حاجةَ لِضميرٍ يعود عليها؛ إذ لا معنى له، فضلًا عن أنَّ وصلَ الجملة بالفاء في قوله: ﴿فَلَا تَظۡلِمُواْ﴾ عَقِب قوله: ﴿مِنۡهَآ أَرۡبَعَةٌ حُرُمٞۚ﴾ مؤذِنٌ بأنَّ النَّهيَ مُتَرتِّبٌ عن تفضيلها بالتَّحريم، فتحريمُها عِلَّةٌ في النَّهي، وعليه: فالنَّهيُ في قوله: ﴿فَلَا تَظۡلِمُواْ﴾ نَهيٌ خاصٌّ، مُفرَّعٌ عن سببٍ خاصٍّ[1].

نكتةُ العدول عن إفراد الضَّمير إلى جَمْعِه:

جَمْعُ الضَّميرِ قد يُؤذِنُ بأفضليَّةٍ في مَرجِعِه

في قوله: ﴿مِنۡهَآ أَرۡبَعَةٌ حُرُمٞۚ﴾ جاء الضَّميرُ العائدُ على عِدَّة الشُّهور الاثْنَى عَشَر بالإفراد التَّأنيثيِّ، ولكنَّه عدَلَ عنه إلى الجمع التَّأنيثيِّ في قوله: ﴿فَلَا تَظۡلِمُواْ فِيهِنَّ﴾، وسببُ العدولِ: أنَّ الضَّمير في الموضع الأوَّل يعود إلى جمع الكَثْرة، وهو ما كان فيما زاد عنِ العَشَرة، وهي الشُّهور الاثْنَى عَشَر، ولذا أُفْرِدَ الضَّمير لِتناسُبِ إفرادِ الضَّمير معَ الكَثْرةِ الجمعيَّة؛ لأنَّ جَمْعَ الكَثْرة غيرُ محدودٍ، أو شبيهٌ بغير المحدود، وجمْعُ الضَّمير العائدِ عليه يُحدِّدُه ويُوحِي بِقِلَّته وحَصْره، وأمَّا الضَّمير ﴿فِيهِنَّ﴾ في قوله: ﴿فَلَا تَظۡلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمۡۚ﴾ فعائدٌ على الأربعة الحُرُم، وهو جمعُ قِلَّة، فيُجمَعُ ضميرُه لعكسِ السَّبَبِ السَّابق[2].

بلاغة التَّعبير بالظُّلم دونَ الفِسْق:

الظُّلمُ أنسب للسِّياق وأعمُّ مِنَ الفِسْق

لم يَقُل في السِّياق الكريم: (فلا تفْسُقوا فيهنَّ)؛ لإجراء الظُّلْم على الأنْفُس، لأنَّه لا يُقال: (فلا تَفْسُقوا أنفسَكم أو على أنفسِكم)؛

(1) ابن جرير، جامع البيان: 14/240.

(2) أبو حيَّان، البحر المحيط: 5/416، والبقاعيّ، نظم الدُّرر: 8/451، والشَّعراويّ، تفسير الشَّعراويِّ: 8/5081.

لأنَّ الفِسْقَ يكون مِنَ الإنسان على نفسِه لا على غيرِه، وأمَّا الظُّلْم فمُتضَمِّنٌ معنى الاعتداءِ الذي يكون مِنَ الإنسانِ على نفسِه وعلى غيره مِن أَنْفُسِ النَّاس، فعَبَّر بالظُّلْم ليتناولَ الاثنين معًا، وأيضًا لأنَّ الظُّلْمَ ألصقُ في معناه بالأشهر الحُرُم الأربعة، لأنَّها محرَّمٌ فيها القتالُ والعُدوان، فكأنَّه بالتَّعبير بالظُّلم يَنْهَى عن ضِدِّ معناها، كأنَّه قال: فلا تَنْقُضُوا حُرمَتَها بالاعتداء فيها.

دلالة إضافةِ الأنفُس إلى كافِ خطابِ الجماعة:

الأصلُ في العلاقاتِ الالتزامُ بحقِّ الأمْنِ لجميع أطرافِها

أَسْنَدَ النَّهيَ عنِ الظُّلْم إلى الأنفسِ المُضافة إلى كافِ خطاب الجمع؛ ليشملَ ذواتَهم وذواتَ غيرِهم، وللتَّنبيه على أنَّ المسلمين جميعًا كالجسد الواحد؛ إذ جميعُهم مِن نفْسٍ واحدة، فلا فرقَ بينَهم في حَقِّ أمانِهم مِنَ الظُّلْم والاعتداء عليهم، إلَّا مَن اعتدى منهم، كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾ [النور: 61]، وقال: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْۚ﴾ [النساء: 29]. فقولُه: ﴿أَنفُسَكُمْۚ﴾ يدلُّ على أنَّها أنفسٌ غيرَ ظالِمة، ولذا نَهَى عن ظُلْمِها بالاعتداء عليها، ومِثْلُ هذا تقرَّر في قوله تعالى: ﴿فَمَا ٱسْتَقَٰمُواْ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُواْ لَهُمْۚ﴾ [التوبة: 7]، وقولِه: ﴿ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْحُرُمَٰتُ قِصَاصٌۚ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْۚ﴾ [البقرة: 194][1].

موقع قولِه: ﴿وَقَٰتِلُواْ﴾:

حُرمَةُ الإنسان فوقَ حُرمَةِ الزَّمان

الواو في جملة: ﴿وَقَٰتِلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ لعطفِ مدخولها على مضمون النَّهي السَّابق، وَوُصِلَتْ بما قبلَها للاحتراس مِن تَوَهُّم أنَّ النَّهيَ عنِ الظُّلْم والعُدوان على الأنفس في الأشهر الحُرُم قد يكون مانِعًا مِن قتال المشركين إذا اعتدَوا فيها، ولذا علَّقَ الإذنَ في قِتالِهم على قوله: ﴿كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةًۚ﴾[2].

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/186.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/186.

دلالةُ التَّقييد بلفظ: ﴿كَآفَّةً﴾، وأثرُها في المعنى:

لا تُسَمَّى الجماعةُ (كافّةً) إلَّا إذا كانت مَنيعَةً في نفسِها، وعلى مَنْ سِواها

لفظ: (كافَّة) مِنَ الألفاظ الواسعة في معناها، فيَصِحُّ أن تكون مصدرًا - بوزن اسم الفاعل - كالعاقِبة والعافِية، والمعنى: قاتِلوهم جميعًا، ولم يأتِ النَّظْمُ بلفظِ (جميعًا)؛ لدلالةِ ﴿كَآفَّةً﴾ على جَمْعِيَّةٍ خاصَّة، وهي التي تَتَضَمَّن معنى الكَفِّ والمَنْع، أي: قاتلوهم جميعًا بِكَفٍّ ومَنْعٍ، وهي حال مِنَ الفاعل: أي: قاتلوهم حالَ كونِكُم جميعًا، أو حالٌ مِنَ المفعول، أي: حالَ كَونِهم جميعًا، أو حالٌ مِنَ الفاعل والمفعول معًا، أي: قاتلوهم حالَ كَونِكُم جميعًا وكَونِهم جميعًا، أي: في حالِ كان كُلٌّ منكم على هيئة الاجتماع. ويَصِحُّ أنْ تكون (كافَّة) اسمَ فاعلٍ، أي: (كافٌّ)، والتَّاءُ فيه للمبالغة، كلفظِ: (رَاوِيَة) و(ساقِيَة)، أي: راوٍ وساقٍ، وتاءُ التَّأنيث للمبالغة، والمعنى: قاتلوهُم حالَ كَونِكُم كافِّينَ ورادِعين لهم، كما يقاتلونَكُم كافِّينَ لكم. أو تكون (كافَّة) اسمًا بمعنى الجماعة، أي: جماعةٌ كافَّة، وسُمِّيتِ الجماعةُ بذلك، لأنَّها تَكُفُّ غيرَها وتمنعُه مِن استِباحتِهم، وتَكُفُّ أفرادَها عن الانشقاقِ والافتراق، ولم يُعَبَّر بلفظ الجماعة في النَّظْم لتخصيصها بمعنى الكَفِّ والمَنْعِ، فكَافَّة جماعةٌ خاصَّة[1].

براعةُ الإطناب:

مُجابَهةُ الخصومِ في الدِّيانةِ بنظيرِ أفعالِهم

تَكَرَّر لفظُ (كافَّة) في الآية مرَّتين، وفي غير النَّظم الجليل كان يمكن أن يُقال على سبيل الإيجاز: (وقاتِلوا المشركين كافَّة كما يُقاتِلونكم كذلك) مِن غير تَكْرَارٍ لِلَّفظِ، ونُكْتَةُ ذلك: أنَّه لو جاء التَّركيب بالإشارة: (كما يقاتلونكم كذلك) دونَ تَكْرَارٍ لِلَّفظِ، لكانَ مُوهِمًا؛ لاحتمال أنْ يُراد: قاتلوهم كافَّة كما يقاتلونكم، فيُفْهَمُ عَوْدُ الإشارةِ على القتال فقط، كأنَّه قال: قاتِلوهم كافَّة كما يُقاتِلونكم

(1) الفرَّاء، معاني القرآن: 1/436، وأبو حيَّان، البحر المحيط: 5/41، والشِّهاب الخفاجيّ، عِنايةُ القاضِي وكِفايةُ الرّاضِي على تفسيرِ البيضاوي: 4/325.

كذلك مُتفرِّقين أو مجتمعين، فلمَّا صَرَّح باللَّفظِ مرَّةً ثانيةً في جانبِهم، عُلِمَ أنَّ التَّماثُل ليس في الفِعل فقط، بل في الفِعل والهيئة.

معنى (الكاف) في قوله: ﴿كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمۡ﴾ وبلاغتُها:

المعلولُ يُشْبِهُ عِلَّتَه لوقوعه على مِثالِه

أصلُ (الكاف) في جملة: ﴿كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمۡ كَآفَّةٗ﴾ للتَّشبيه، فهي اسمٌ بمعنى: (مِثْل)، وهي مُستعارةٌ هنا لِتَعليلِ التَّشبيه، فهي في معنى السَّببيَّة مع لزوم معنى التَّشبيه لها، أي: قاتِلوهم بسببِ قتالِهم لكم، فجاء بكاف التَّشبيه لِكونِ المُسبَّبِ يُشْبِه سَبَبَه، لوقوعه على مِثالِه، فلِمعنى التَّناظُر والمُماثَلة بينَهما رُبِطَ بالكاف[1].

بلاغة (ما) وأثرُها في المعنى:

الموصولُ الحَرفيُّ وُصْلَةٌ معنويَّةٌ بينَ المصدر والفعل

المصدر المؤوَّل مِنْ (ما) ومدخولِها في قوله: ﴿كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمۡ﴾ في محلِّ جرٍّ بالإضافة إلى الكاف، أي: مِثْلَ قِتالِهم لكم، وفائدة (ما) في النَّظْم الجليل: الرَّبْطُ بينَ معنى المصدريَّة ومعنى الفِعليَّة، وإرادةُ مَدلُولَيْهما معًا في التَّركيب؛ لِيُجْمَع بينَ ثُبوتيَّة المصدر بدلالته على معنى الحَدَث المجرَّد، وزَمَنيَّة الفِعل وحركَته المُتَجَدِّدة، فَتَركيبُ ﴿كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمۡ﴾ تَوَالَى عليه معنيانِ في آنٍ؛ معنى المصدر بتأويل: (كقِتالِهم)، ولفظ الفِعل: ﴿يُقَٰتِلُونَكُمۡ﴾، لِيُفيدَ امتزاجُ المعنيين معًا أنَّ قِتالَ المشركين للمسلمين أمرٌ ثابتٌ لن يتغيَّر، وهو مُؤْذِنٌ بثُبوت العداوةِ والخُصومَة بينَ الفريقين، ويُفيدَ أنَّه أمرٌ مشهودٌ يَظهر في أعمالهم وأفعالهم ويتكرَّرُ منهم، ولو عَبَّر بالمصدر الصَّريح لضاقَ المعنى عن ذلك[2].

موقع جملة: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ﴾:

مَنْ حازَ مَعِيَّةَ اللهِ فلا يَضرُّه أحدٌ

جملة: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ معطوفةٌ على جملة: ﴿وَقَٰتِلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾، وسيقَتْ بعدها للتَّثبيتِ والإعانة على ما أُمِروا

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/188.

(2) السُّهيليّ، نتائج الفكر، ص: 180، 186، وابن القيم، بدائع الفوائد: 1/157، والسّمين الحلبي، الدُّر المصون: 5/559، وصافي، الجدول: 9/174.

به في شأنِ القِتال، فكأنَّه دَلَّهم على السَّببِ الذي يدفع عنهم الوَهَنَ والخوفَ، إذا باشروا ما هو مَظِنَّةُ ذلك، ولا يخفى ما في الابتداء بـ (اعلموا) مِن قرعِ الأسماعِ وإيقاظِ القلوب؛ للانتباه إلى مضمون ما سَيُلَقى بعدَه؛ إيذانًا أنَّ الوعدَ بالمعيَّة أمرٌ عظيم يجب الاهتمام به والإصغاء له[1].

فائدةُ استِهلال الجملةِ بِفعل اليقين:

مَعيَّةُ اللهِ الخاصَّة مشروطةٌ بالعِلْم والعمل

افتَتَحَ الكلامَ بقوله: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ﴾ تأكيدًا لحصولِ المعيَّة المذكورة متى تحقَّقَ شرطُها، وإيذانًا بأنَّ تلك المعيَّةَ هي مَعيَّةُ تأييدٍ ونَصرٍ ومعونةٍ خاصَّة، فلا ينبغي أنْ يُرتابَ فيها، وإيماءً إلى أنَّ تلك المعيَّة حاصِلةٌ بشرطِها مِنَ اليقينِ والعِلم، كما هي حاصلة بشرطها مِنَ التَّقوى، فكأنَّه جعل شرطين للمعيَّة؛ الأوَّل: العِلْمُ واليقين، والثَّاني: العمَلُ بالتَّقوى[2].

دلالة إطلاق المعيَّة، وعدمُ تعيينِ مَجالِها:

التَّقوى هي أشرفُ الأحوال وأثْمَنُ المكاسِب

تذييلُ الآية الكريمةِ بمعية اللهِ لأهل التقوى منبَهَةٌ للحرص على استعمالِ تقوى الله في سرِّكم وعلنِكم وعندَ القيام بطاعته، خصوصًا وقت قتالِ الكفارِ؛ فإنه في هذه الحالِ ربما تركَ المؤمنُ العملَ بالتقوى في معاملةِ الكفارِ الأعداءِ المحاربين[3]، إلَّا أنَّ السِّياقَ الكريم لم يُحدِّد مجالَ المعيَّة، فلم يقل: اللهُ معَ المتَّقين في أيِّ شيء؟ أو أيِّ زمن؟ أو في أيِّ شأن؟؛ لِيُفيدَ العمومَ في كلِّ الأحوال، وللدّلالةِ على أنَّ الأمر بالتَّقوى أعمُّ مِنَ الأحداث والشُّؤون، فهي حالٌ مأمور بها في كلِّ وقت، وتُجْنَى آثارُها الطَّيِّبةُ في كلِّ شأن[4].

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/64، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/188.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 5/285، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/188.
(3) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 192.
(4) الآلوسيّ، روح المعاني: 5/285.

بلاغةُ وَضْعِ المُظْهَر موضِعَ المُضمَر:

لو اطَّرَد الكلامُ على سياقِه لجَرى على ضمير الخطاب، فيُقال: (وقاتلوا المشركين كافَّة كما يقاتلونكم كافَّة واعلموا أنَّ الله معكم)، ولكنَّه عَدَل عنِ الضَّمير للاسم الظَّاهر (المتّقين)، لِوجوه؛ الأوَّل: لإجراء وَصْفِ التَّقوى في الكلام مَدْحًا لهم بها، فكأنَّه يَشْهَد لهم بالتَّقوى. الثَّاني: تحريضُ القاصرين عن هذا الوصف أن يَنهضوا ويتَّقُوا ويفوزوا بمضمون الوعد؛ ليستأهِلوا معيَّةَ الله. الثَّالث: لِقطعِ تَوَهُّمِ المُحاباةِ بينَ الله وخَلْقِه، فلو قال: (واعلموا أنَّ اللهَ معَكُم) لأوهَمَ أنَّ المعيَّةَ قد تحصُل بغير شرطِها مِنَ العمل، فلمَّا قال: ﴿مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾، عُلِمَ أنَّ المعيَّةَ لها شَرْطٌ ينبغي أنْ يُعلَمَ ويُعمَل به، فلو قال: (معكم) لخلا التَّركيب عنِ الشَّرط، وأيضًا: لمَّا قال: ﴿مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾، دَلَّ على أنَّ المُمْتَثِلَ منهم فقط بمضمون الأوامر السَّابقة في قوله: ﴿فَلَا تَظْلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْۚ﴾، وقولِه: ﴿وَقَٰتِلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً﴾ هو المُتَّقِي الذي يستحِقُّ المعيَّةَ، ومَن لم يمتثِل ويعمل فليس بمُتَّقٍ ولا مَستَحِقٍّ للوعد. الرَّابع: لإجراء هذا التَّركيب: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ مجرى المَثَلِ السَّائر، والقانونِ المُطَّرِد الذي يَعُمُّ الأحوالَ والظُّروفَ، ولا يَختَصُّ بواقعٍ مُعيَّن أو حالةٍ مُحدَّدة، بل يَعْمَلُ في كلِّ واقعٍ وَوَضْعٍ، ولو قال: (واعلموا أنَّ اللهَ معَكُم) لم يُفِد هذا العُمُومَ، ولم يَجرِ مَجْرى السُّنَّةِ الثَّابتة[1].

المُتَّقونَ هُمُ الرَّابِحون

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

العِدَّة والعَدَد:

العِدَّةُ هي الشَّيءُ المعدود، والعَدَدُ: هو الوَحَداتُ الرَّقْمِيَّةُ التي تُحسَبُ بها الأشياءُ وتُحصَى أفرادُها، وهذه الوَحَداتُ هي المكَوِّنَةُ

العِدَّةُ: هي عَدَدُ الأعيان، والعَدَدُ: الوَحَداتُ الرَّقْمِيَّةُ التي تُحسَبُ بها

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/64، والآلوسيّ، روح المعاني: 5/285، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/188.

مِنَ الآحاد والعَشَرات والمئات...، والفَرْقُ بينَهما كالفَرْقِ بينَ الميزانِ والموزون، والعِدَّة لا تُطلَقُ على العَدَد إلَّا إذا اقترنَ بها الشَّيءُ المعدودُ، فيقال: عِدَّةُ الشُّهور، يعني: عددَ الشُّهور، فهي عَدَدٌ مَلحُوظٌ فيه ذاتُ الشَّيءِ المعدود ومعناه، فلا تُطْلَق على العَدَد مِن غير إضافة، وأمَّا العَدَد: فيأتي مُجرَّدًا ومُضافًا، وحاصل ذلك: أنَّ العِدَّة هي الشَّيءُ بعدَ عَدِّه، ولا تُقالُ قبل العَدِّ، والعَدَد: المعيار في قِياس ذلك[1].

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرَّاغب، المفردات، وابن منظور، اللِّسان، والسّمين الحلبي، عمدة الحفاظ، وجبل، المعجم الاشتقاقيُّ: (عدد).

﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٞ فِي ٱلۡكُفۡرِۖ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُحِلُّونَهُۥ عَامٗا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامٗا لِّيُوَاطِـُٔواْ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّواْ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُۚ زُيِّنَ لَهُمۡ سُوٓءُ أَعۡمَٰلِهِمۡۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٣٧﴾ [التّوبة: 37]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا دلَّتِ الآيةُ السَّابقةُ على عِدَّة شهورِ السَّنة عند اللهِ، وأنَّ منها أربعةً حُرُمًا، فُهِمَ من هذا إبطالُ النَّسيءِ؛ لأنَّه فِعلُ أهلِ الجاهليَّة، فكأنَّه قيل: أفما في النَّسيءِ تقوى؟ فإنَّ سببَهُ إنَّما هو الخوفُ مِن انتهاك حُرمةِ اللهِ بالقتال في الشَّهر الَّذي حرَّمهُ، فقد كانوا أصحابَ غاراتٍ وحروبٍ، ويحترمونَ الأشهرَ الحُرُمَ في عدم القتال، حتى لو رأى الإنسانُ قاتِلَ أبيه لم يعرِض له، وكان يشقُّ عليهم تَرْكُ ذلك ثلاثةَ أشْهرٍ متواليةً، فجعلوا النَّسيءَ لذلك، فصرَّحَ هنا بما أفهَمَهُ ما مضى[1].

العلاقة بين حرمة الأشهر الحرم، وإشعار المؤمنين بأنّ التّقوى في تحريم القتال فيها

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلنَّسِيٓءُ﴾: المعنى المحوريُّ: دفْعُ الشَّيءِ المقبِل عن محضَرِهِ تأخيرًا إلى أثناءٍ، يجتمع فيها[2] والنَّسْءُ: تأخيرٌ في الوقت، ومنه: نُسِئَتِ المرأةُ؛ إذا تأخَّر وقتُ حيضِها، فرُجِيَ حَملُها، يقال: نسأَ اللهُ في أجلِكَ، ونسأَ أجَلَكَ، والنَّسيءُ: بيعُ الشَّيءِ بالتَّأخير، وهو فعيلٌ بمعنى مفعول، والنَّسيءُ الذي كانتِ العربُ تفعَلُه: هو تأخيرُ بعضِ الأشهر الحُرُمِ إلى بعضٍ آخرَ، فيُحِلُّون المحرَّمَ، فيقاتِلون فيه، ويحرِّمون بدلَه صفرًا[3]، وهو المراد هنا.

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 3/308.
(2) جبل: المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (نسأ).
(3) الرّاغب، المفردات، ومجمع اللغة العربية بمصر، معجم ألفاظ القرآن الكريم: (نسأ).

2) ﴿لِّيُوَاطِـُٔواْ﴾: وَطَأَ: الواو والطَّاء والهمزةُ: كلمةٌ تدلُّ على تمهيدِ شيءٍ وتسهيلِه، ويواطِئوا: يطابقوا[1]، والمعنى المحوريُّ: الدَّوسُ بِثِقَلِ الحِمْلِ كلِّهِ على الشَّيءِ، ويلزمُ ذلك انخفاضُه، ومنهُ استُعمِلَ الوطْءُ في الغزوِ والقتْلِ؛ لأنَّ مَن وَطِئَ الشَّيءَ بِرِجْلِه، فقدِ استقصى في إهلاكِهِ وإهانتِهِ، ومنهُ: واطأَهُ على الأمرِ: وافقَهُ، كأنَّ كلًّا منهما وطِئَ ما وطِئَهُ الآخرُ[2]. والمواطأَةُ: الموافقةُ على أمرٍ يوطِّئُهُ كلُّ واحدٍ لصاحبِهِ[3]، وهو المرادُ هنا.

❁ المَعْنى الإِجْماليُّ:

جرأة العربِ في الجاهليّة على تحريمِ القتالِ في الأشهُرِ الحُرُم، بأهوائهم

تخبر الآيةُ الكريمة عمَّا كانتِ العربُ تفعله في الجاهلية من تحريم القتالِ في الأشهُرِ الحُرُم، فإذا احتاجوا إلى القتال فيها؛ قاتلوا فيها، وحرَّموا غيرَها، فإذا قاتلوا في المحرَّم؛ حرَّموا بدلَه شهرَ صَفَرٍ، فيؤخِّرون بعضها أو يقدِّمونه ويجعلون مكانه من أشهر الحلِّ ما أرادوا حسب حاجتهم إلى القتال، فكان ذلك نوعًا من زيادة كفرِهم؛ إذ كانوا يُحلُّون الشَّهرَ الحرامَ عامًا بإبدالِهِ، ويحرِّمونهُ عامًا؛ ليوافقوا العددَ من تحريم أربعة أشهر من السَّنة في الشُّهور المحرَّمةِ، وهذا من تزيينِ الشَّيطان لأعمالهم، ومنها ما ابتدعوه من النسيء؛ لأنَّ الَّذي يُحَلِّلُ، ويُحَرِّم هو اللّٰهُ وحدَه[4]، واللّٰه لا يوفِّق الكافرين المُصِرِّين على كفرهم.

وترشد الآيةُ الكريمة إلى ما في التحليل والتحريم للأشهر من المحاذير؛ منها: أنهم ابتدعوه من تلقاء أنفسهم، وجعلوه بمنزلة شرع اللّٰه ودينه، واللّٰه ورسوله بريئان منه. ومنها: أنهم قَلبوا

(1) مجمع اللّغة العربيّة بمصر، معجم ألفاظ القرآن الكريم: (وطأ).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (وطأ).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (وطأ).
(4) ابن جزيّ، التّسهيل لعلوم التّنزيل: 1/358، وحجازيّ، التّفسير الواضح: 2/69.

الدِّين، فجعلوا الحلالَ حرامًا، والحرامَ حلالًا. ومنها: أنهم مَوَّهوا على اللّه بزعمهم وعلى عباده، ولبَّسُوا عليهم دينَهم، واستعملوا الخداع والحِيْلة في دين اللّه. ومنها: أن العوائدَ المخالفةَ للشرع مع الاستمرار عليها، يزولُ قبحها عن النفوس، وربما ظُنَّ أنها عوائدُ حسنة، فيحصل من الغَلط والضَّلال ما يحصل، ولهذا قال: ﴿يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا لِّيُوَاطِـُٔواْ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾ أي: ليوافقوها في العدد، فيحلُّوا ما حرَّمَ اللّه[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

الاستئنافُ البيانيُّ ودلالتُه:

بيانُ المقاصدِ يحتاجُ إلى مقدِّماتٍ

الآيةُ الكريمةُ استئنافٌ بيانيٌّ ناشِئٌ عن قولهِ تعالى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ﴾، فإنَّه كالمقدِّمة إلى المقصودِ، وهو إبطالُ الشَّيءِ، وتشنيعُه[2]، كأنَّ الآيةَ السَّابقةَ أثارت تساؤلًا: ماذا فعلوا فيما شرعَهُ اللّهُ في تحريم الأشهرِ الأربع؟ فجاءتِ الآيةُ مجيبةً عن قُبحِ ما فعلوهُ.

وجوهٌ أُخَرُ مِنَ الاستئنافِ البيانيِّ في الآية:

الأوَّلُ: لمَّا ذكرَ اللّهُ في الآيةِ السَّابقةِ أنَّ أمرَهُ الكونيَّ بعدَّة الشُّهورِ عندَه، وأمرَهُ الشَّرعيَّ بتحريم أربعةٍ منها، هو الدِّين القَيِّمُ، وكان ذلك دينَ محمَّدٍ ﷺ وأُمَّته؛ أبانَ أنَّ النَّسيءَ إلحادٌ فيهِ، فهو زيادةٌ في الكُفرِ تخليصًا للدِّين ممَّا شابوهُ، وتبرئةً له ممَّا عابوهُ.

الثَّاني: أنَّه لما نَهى عن ظُلْمِ المؤمنين أنفسَهم في الأشهرِ الحُرُم؛ أبانَ أنَّ ما عليهِ المشركون - وقتذاك - مِنَ النَّسيءِ هو من أضرِّ الظُّلم وأشدِّه، وأنهكِه وأهتكِه، وأرداهُ وأخزاهُ.

الثَّالث: أو أُريدَ بيانُ أنَّ معيَّةَ اللّهِ للمؤمنين - أي: المعيَّةُ الخاصَّةُ بالنَّصرِ والتَّأييدِ والتَّوفيقِ والتَّسديدِ - المتَّقين المذكورةَ تذييلًا للآية

(1) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 193.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/188.

المتقدِّمة، تبلغُ أوجَ كمالِهَا إمدادًا إرفادًا وإسعادًا إنجادًا للمزدادين إيمانًا على إيمانٍ وتقوًى إلى تقوى، فقُوبِلَ ذلك لتمليَتِهِ وتجليتِهِ بصورةٍ من صورِ الزِّيادة في الكفر انتكاسًا وارتكاسًا، وتوغُّلًا وتسفُّلًا على ما بالأوَّل مِنَ التَّحفيز، وما في الثَّاني مِنَ التَّقزيز.

الرّابع: الاستئنافُ البيانيُّ في الآية معجزٌ، وأنَّه لا حدَّ لإعجازه، وليس شيءٌ ممَّا قيل فيه، وتقدَّم بأولى من شيءٍ لم يقل بعد قَد يُقال، فإنَّه لمَّا ذكر بآخِرِ الآية يُعْلِمُهُم أنَّ اللّٰه مع المتَّقينَ؛ ذكر بأوَّل تاليتها ما هو أدخلُ في التَّقوى من باب عدَّة الشُّهور الَّذي تقدَّم، وما هو أجمعُ للعقل والقلبِ والجوارح على التَّقوى، وأبعدُ عن النَّزَقِ والخَرَق والتَّهاوي في الضَّلال المزلِّ والانفلات المشين المُهين المُرْدي المخلِّف الآلامَ الجسام بتقَحُّم العِظام.

الخامس: ومن غريب نظمِ هذه الآيةِ الطَّريفِ المعجب، اللَّطيفِ المطربِ الملهبِ؛ أن يُرتِّب استهلالًا بخبرٍ يعطي الفائدةَ إفادةً على تذييلٍ بخبرٍ يعطي لازمُها إجادةً، بما يخرقُ مألوفَ البلغاءِ عادةً، أن يتقدَّم مفيدُ الفائدة إعلامًا، ثم يتلوهُ مفيدُ لازمِها إتمامًا، لكنَّه قال هنا مقدِّمًا: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾، أتبعَهُ بقولِهِ مُتمِّمًا: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٞ فِي ٱلۡكُفۡرِۖ﴾، فَسَدَّدَ السِّهامَ، وَطَيَّشَ الأحلامَ، وأبْدعَ في الإعلامِ.

السَّادسُ: وهو - ﷻ جَلَّ وعزَّ - إذِ اقتضاهُمُ العملُ تأسيسًا على لازم فضيلةِ العلمِ، فبلغَ بهمُ الإلهابُ الغايةَ، والاستحثاثُ النِّهايةَ حتى بلغَ بهم الحماسُ مبلغَ احتماءِ الأنفاس، ومعَ توجيههم لنبْذِ عوائدِ النَّسيء الفاسدةِ، وردمِ أخاديدِهِ البائدةِ، ومنْعِ تعاطيهِ وإبطالِ تناديه، والصِّياح المُجلِب على أهليه ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٞ فِي ٱلۡكُفۡرِۖ﴾، فانكفُّوا، وعلى الدِّين القيِّم ائتلفوا، والْتَفُّوا.

وهي صُوَرٌ تمثِّلُ الاستئنافَ البيانيَّ في الآيةِ، ولا تستوفيهِ، وتقُصُّ منه، ولا تستقصيه، وأنَّى للواقف على الثَّرى أن يلمسَ الثُّريَّا؟ وفضلُ كلامِ اللّٰه على سائر الكلام، كفضلِ اللّٰه على خلقهِ.

بلاغةُ أسلوبِ القصرِ:

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٞ فِي ٱلۡكُفۡرِۖ﴾، عبَّر بأسلوبِ القَصْرِ بطريق الأداة ﴿إِنَّمَا﴾ الَّتي تُستخدم فيما لا يجهلُه المخاطَبُ، ولاينكرهُ، وفيه تعريضٌ بغباءِ الكافرين،

وفضْحٌ لتصرُّفاتهم، وكشْفٌ عن مقاصدِهم وسوءِ مَغَبَّتِهم، "وصيغةُ القصرِ تقتضي أنَّه لا يُجاوز كونَهُ من أثرِ الكفرِ لمحبَّة الاعتداءِ والغارات، فهو بهذا قصْرٌ حقيقيٌّ، ويلزمُ من كونهِ زيادةً في الكفرِ: أنَّ الذين وضعوه ليسوا إلَّا كافرين، وما هم بمصلحين، وما الَّذين تابعوهم إلَّا كافرون كذلك، وما هم بمتَّقين"[1].

حصْرُ الضَّلالاتِ والمنكَراتِ، في حكمٍ واحدٍ أبلغُ في رفْضِها

نكتةُ إيثارِ أسلوب قصرِ النَّسِيء على الزِّيَادَة فِي الْكُفْرِ:

ومن الملامح المهمَّةِ المطامِنةِ أنفسَ المؤمنين، هذا القصْرُ الحقيقيّ الجاري تدفُّقًا في أسلوبهِ في الآية يَكبِتُ النَّاسِئَ المجترئَ، فإنَّه لما كان لا يقدِمُ عليه إلَّا وهو ممتلِئٌ كِبْرًا وعُجْبًا بالنَّفس وغرورًا؛ قمَأَهُ اللّه، وأخزاهُ لينفيَ عنه ما تنفجِرُ به مِنَ الأَشَرِ والبَطَرِ، ورآهُ لنفسه منَ الزَّعامة والصَّدارة، فجعلَه يبدو متلطِّخًا بحمَأِ فِعْلَتِهِ الوضيعةِ الشَّنيعةِ ذامًّا افتخارَهُ بإجرامهِ دالًّا على تَمحُّضِ فعلهِ للذَّمِّ، والتَّثريب، والهدْمِ والتَّعييب، فكفى اللّهُ المؤمنين المقاولةَ والمنازلةَ بهذهِ المساجَلَةِ.

كفايةُ اللهِ المؤمنين، وغَيرتُهُ على عبادهِ الصَّالحين

تفضيلُ أداةِ القصرِ ﴿إِنَّمَا﴾:

وإنَّما فُضِّلتْ ﴿إِنَّمَا﴾ - هنا - بافتتاحِها بالتَّوكيد، وإيجازِ الاختصار، فهي أقلُّ كلماتٍ وأخصرُ عبارةٍ، ولِما فيها من إيثار البِدارِ إلى المبادَأَةِ بالحُكم العُلويِّ من اللّهِ العليِّ، ولما تشير بهِ من أخْذِ المنذَرين بالحكْم على غِرَّةٍ، ودلالتُها أنَّ المقامَ مقامُ فرضٍ لا عَرْضٍ، واستغناءِ الأسلوبِ عن التَّعليل، وقصدِ المقام عن التَّطويل؛ وذلك أدخلُ في التَّهويل وأنكى في التَّنكيل.

وجوهٌ بلاغيَّةٌ رائقةٌ فائقةٌ، في أداة القَصْر

إعجازُ اللَّفظِ المنْتقَى بعنايةِ الواقعِ مقصورًا أو محصورًا:

والمقصورُ هنا هو لفظ ﴿ٱلنَّسِيٓءُ﴾ بما يدلُّ عليهِ من كلِّ معناه، وهو يعني تأخيرَ حكمِ الشَّهر الحرامِ المنسوءِ، فيكون دالًّا على

كلماتُ القرآنِ لا يسدُّ غيرُها مسدَّها، ولايؤدِّي مؤدَّاها

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/191.

المصدر، والمصدرُ هو اللَّفظ الَّذي تجتمِعُ فيه مادَّةُ الحدثِ مجرَّدةً عنِ اعتبار الزَّمن، وعدمُ اعتبار الزَّمن في الحدث المذْموم أدلُّ على ثباتِ القدْحِ فيه واستقرارِ ذمِّهِ كيفما كان، وأينما كان، فهذا يجعلُ الحكمَ كالقاعدةِ القانونيَّة عند الحكَّام والشُّرَّاحِ المقابلةِ بالفقهاءِ علماء الشَّريعة عند جلاوِزَةِ النُّظُم وجهابذةِ القانون، والكلامُ هنا بيانٌ إلهيٌّ موحٍ عن تجاوز حدودِ الكفرِ؛ إذ هو المنطلقُ لهذا الإجرام والتَّجاوزِ، إلى ما ليس إلَّا زيادةً في لُجَّةِ الكفرِ وسويدائهِ، وعن غلظِ قلبهِ وقساوته، وفسادِ طبعهِ وشقاوتهِ، ينبعثُ شَقِيٌّ مُشْقٍ إلى ما لا رادَّ له ولا صادَّ، هائجًا كالثَّور، حتى يلقى حتفَه، فهذا وحدَه الَّذي يكفّه بانقطاع وَتينِهِ، وانقماع يمينهِ.

أو يكونُ (فَعِيل) هنا على معنى (مَفْعول)، فهو إذًا المنسوءُ، وذلكم المؤخَّرُ الَّذي بُغِيَ عليه، فأُرجِئَ حكمُ تحريمهِ عبثًا عاريًا عن الحكمةِ، وفسادًا جائرًا عن الصِّحَّة، وهوًى فارضًا، ضاربًا أطنابَهُ، تغلغُلًا في الأحناء والأطواء، فما لقائلٍ أن يقولَ في معنيَين كبيرين لا يؤدَّى أيٌّ منهما إلَّا بمزيدِ عباراتٍ تُبسَطُ، وجملٍ تُمْهَدُ، وخزائنَ تُفتَحُ، قد أدَّاهما التَّنزيل العزيزُ بكلمة في جملتها كانت مع الاقتصادِ والاعتصادِ جامعةً مؤدِّيةً على غاية الإفصاحِ والإيضاح والاستملاحِ والاستنصاحِ؟

القراءاتُ المتواترةُ لـ ﴿ٱلنَّسِيٓءُ﴾، وأثرُها في المعنى:

ومن لطيفِ ما يُتَأَمَّل في كلمة ﴿ٱلنَّسِيٓءُ﴾ أنَّها وإن عنَتْ بأصلِ معناها: التَّأخيرَ والمؤخَّرَ؛ فإنَّ الحاملَ على هذا التأخيرِ تعجُّلُ النَّهبِ والسَّلبِ والغارة، والإيقاعُ بالمعتدَى عليهم، فجاءتِ القراءتانِ المتواترتانِ مُعبِّرَتَينِ عنِ الأمرَين أصدقَ تعبير، فالقراءةُ الأولى لورشٍ وأبي جعفرٍ بإبدال الهمزةِ ياءً وإدغامِ الياء الَّتي قبلَها فيها، فيصيرُ اللَّفظُ بياءٍ مشدَّدٍ دالًّا - كلفظه - على الإنهاء السَّريع دونَ تريُّثٍ ولا أناةٍ هكذا: ﴿ٱلنَّسِيٓءُ﴾، بينما تشير القراءةُ الأخرى لقالونَ وابنِ كثيرٍ وأبي عمرو

القراءاتُ حافلةٌ بالمعاني الدَّالَّةِ، على أنَّها تنزيلٌ من حكيمٍ حميدٍ

ويعقوبَ وابنِ عامرٍ وعاصمٍ وحمزةَ والكسائيِّ وخلفٍ بالهمزةِ والمدِّ المتَّصلِ الواجبِ دالَّةً بأدائها الصَّوتيِّ على الامتدادِ الرَّائعِ البيانِ بامتدادِ الصَّوت بحرْفِه الجوفيِّ الهوائيِّ المتسفِّلِ على التَّأخير الكامن في اللَّفظ المؤدِّي، الجليِّ في المعنى المؤدَّى عنه بأبلغِ الأداء الذي لا تملكُ العباراتُ الوفاءَ بهِ على هذا النَّحوِ إلَّا بعضَ هذا الوفاءِ من غير اعتبارِ مقارنةٍ، وإلَّا فالقرآنُ يعلو، ولا يُعلى عليه، وهو يَحْطِمُ ما تحتَهُ.

سرُّ التَّعبيرِ بالخبرِ نكرةً:

التَّعبيرُ بالخبرِ بلفظ ﴿زِيَادَةٌ﴾ فيه زيادةُ تشنيعٍ عليهم، وبيانٌ لقُبحِ الكفر، إذ هو الحاملُ على فعل الشَّنائعِ، والتَّنكيرُ يفيدُ التَّضخيمَ والتَّهويلَ بقرينةِ السِّياق المقالي القائم على تقبيحِ النَّسيءِ.

التَّعبيرُ بالزِّيادةِ تقبيحٌ للقَبيحِ

ويدلُّ على أنَّ الزِّيادةَ المذكورةَ هنا مطلقةٌ، لا تنتهي إلى حدٍّ معيَّنٍ تقفُ عندَهُ، فهي مطَّرِدَةٌ لاتزالُ أبدًا، وهذا الوصفُ مطابقٌ أتمَّ مطابقةٍ للواقع، وهو من أبلغِ ما يُعبَّر بهِ، لما أنَّ النَّسيءَ لا حدَّ لمفاسدِهِ، بما يتجدَّد به من سفك الدِّماء، وقطْعِ الطُّرقِ وإخلالِ الأمْنِ، وترويع الكافَّة، وإشاعةِ الذُّعر، وانتهابِ الأموال، وسبيِ النِّساء في الغارات، إلى ما لا يكادُ ينحصِرُ مِنَ المثالبِ والعواثرِ المتجدِّدةِ والآلام المبرحَةِ والمصائب المقيمةِ، والمفاسد المتتابعةِ المتتايعةِ، فكان هذا التعبيرُ كُفُؤًا للدَّلالة عليها أبلغَ ما يؤدَّى به عنها إفصاحًا يتضمَّنُ التَّكريهَ والتَّفنيد، ترهيبًا منها وترغيبًا عنها، فَجَمَعَ جَنَاحَي الدَّعوةِ في كلمةٍ.

بلاغةُ التَّعبيرِ بحرف الجرِّ ﴿فِي﴾:

عبَّرَ بحرفِ الوعاءِ ﴿فِي﴾ بدلَ حرفِ الاستعلاءِ (على)؛ تنبيهًا إلى نوعِ الزِّيادةِ وقبحِها، فإنَّ الزِّيادةَ إذا كانت داخلَ الشَّيءِ تلبَّستْ بهِ، ولم تنفصِل عنْهُ، واختلطَتْ بهِ اختلاطًا أصيلًا، وهو ما يتَّسقُ معَ سياقِ التَّقبيح، ولو عبَّرَ بـ (على) لما أدَّى هذا المعنى لما فيهِ من الاستعلاءِ الموهِمِ الالتصاقَ بأعلى الشَّيءِ.

الزِّيادةُ حينما تكونُ من جنسِ الشَّيءِ، تخالطُهُ مخالطةَ الأصلِ

دلالة لفظ ﴿ٱلنَّسِيٓءُ﴾:

تشرُّبُ الكافرين لارتكاب المعاطِب، هو سجيَّةٌ في قلوبِهم

ولأنَّ النَّسيءَ حامِلُ أهلِ الجاهليّة على ارتكاب المفاسدِ والمعاطب والفظائعِ والانتهاباتِ والانتهاكاتِ الَّتي لولاهُ ما كانت، ولا قامت، فهو فيهم بمكانِ القلبِ الحامل على الفعل، واللُّبِّ المنفعل بجرثومته، وذلك ملمحٌ فيهم إلى شَبَهٍ بهم ممَّن أُشرِبوا في قلوبِهم العجلَ بكفرِهم، حُبَّهُ وعبادتَهُ، وأيضًا؛ فللدِّلالةِ على أنَّهم استبطنوا هذه الزِّيادةَ، وأيضًا؛ فللدِّلالةِ عِبءٌ عليهم إذ ماتتِ الضَّمائرُ، وفسدتِ القلوبُ والسَّرائرُ، وأنَّها حاملتُهم على ما يسيلُ عليه لُعابُهم منَ الشَّرِّ، لا أنَّهم حاملوها على ما بِهم منَ الضُّرِّ.

وجوهٌ أُخَرُ مِن كونِ النَّسيءِ زيادةً في الكفر:

ومع ما تبيَّنَ من دقَّةِ معنى الخبر: ﴿زِيَادَةٌ فِي ٱلۡكُفۡرِۖ﴾ وبلاغةِ مطابقتِه أتمَّ مطابقةٍ للواقعِ، وحُسْنِ موقعِه من نفس المتلقِّي إشباعًا للمعنى وإقناعًا وإمتاعًا به، فإنَّ هناك وجوهًا أُخَرَ تبدو للمتأمِّل من فائدةِ ورودِه خبرًا هكذا دونَ الاقتصادِ على كونِه كفرًا، ومن تِلكُمُ الوجوهِ:

تظافرُ المظروفين (النسيء) و(في) يُجلِّي زيادةَ الكفرِ

إنَّ العاملَ والعملَ مظروفان، وإنَّ الزَّمانَ ظرفُهُ، والنَّسيءُ تحكُّمٌ في الظَّرفِ، وهو أشدُّ افتراءً، وأعظمُ اجتراءً من التَّحكُّم في المظروف، فإن يكنِ المتحكِّمُ قدِ اتَّبعَ هواهُ بغير هدًى مِنَ اللّٰهِ، فتحكُّمُه في المظروفِ على هذا النَّحوِ كفرٌ، وفي الظَّرف أشدُّ كفرًا؛ فهو زيادةٌ في الكفرِ.

العبثُ بالشَّعائرِ الزَّمانيَّةِ، خطرُه جَللٌ

وأنَّه ظاهرُ المضادَّةِ للّٰه، والمحادَّةِ له في مُلكِه وحُكمِه، وقد نَزَّلَ الشَّارعُ مَن سبَّ الدَّهرَ منزلةَ مَن سبَّ اللّٰه تعالى إذ ليس الأمرُ لأحدٍ غيرِه ﷻ ولذلك جاء في الحديثِ المتَّفق عليه، قالَ رسولُ اللّٰه صلَّى اللّٰه عليه وآلِه وسلَّم: «قال اللّٰه ﷻ: يُؤْذِينِي ابنُ آدمَ؛ يَسُبُّ الدَّهْرَ، وَأَنَا الدَّهْرُ، بِيَدِي الْأَمْرُ، أُقَلِّبُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ»[1].

(1) البخاريّ في صحيحه، برقم: (4791، 4826)، ومسلم في صحيحه، برقم: (2246).

"وحُرمةُ الأزمانِ والبقاعِ إنَّما تُتَلَقَّى عنِ الوحي الإلهيِّ؛ لأنَّ اللّٰهَ الَّذي خلقَ هذا العالمَ هو الَّذي يَسُنُّ له نظامَهُ، فبذلك تستقرُّ حُرمَةُ كلِّ ذي حُرمةٍ في نفوسِ جميعِ النَّاس، إذ ليس في ذلك عملٌ لبعضِهم دونَ بعضٍ، فإذا أُدْخِلَ على ما جعلَهُ اللّٰهُ من ذلك تغييرٌ؛ تَقَشَّعتِ الحرمةُ من النُّفوس؛ فلا يرضى فريقٌ بما وضعه غيرُهُ من الفِرَقِ، فلذلك كان النَّسيءُ زيادةً في الكفر؛ لأنَّهُ منَ الأوضاعِ الَّتي اصطلح عليها النَّاسُ، كما اصطلحوا على عبادةِ الأصنام"[1].

ثُمَّ إنَّ الكُفْرَ ضلالٌ مبينٌ، والنَّسيءُ قَدْرٌ منْهُ زائدٌ عليهِ؛ إذ لا يصدرُ إلَّا مِن كافرٍ متجذِّرِ الكفرِ، فلذا قال اللّٰه في وصفه: ﴿يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾.

وممَّا يفيدُه وصفُ النَّسيءِ بأنَّه ﴿زِيَادَةٌ فِي ٱلْكُفْرِ﴾ القَطْعَ بأنَّ أهلَهُ أدخلُ في العقابِ والعذابِ، وأكثرُ استنزالًا لهُ على أنفسِهم، وأشدُّ استحقاقًا لهُ من غيرِهم، إذِ الكفرُ وحدَهُ موجبٌ، فكيفَ بما زادَ عليه من أفعاله؟

دلالةُ ذِكْرِ ﴿ٱلْكُفْرِ﴾ دونَ غيرِه:

آثر السّياقُ الكريمُ التّعبير بالكفر دونَ غيرِه مِنَ الألفاظِ كالفسقِ والظُّلمِ والضَّلالِ ونحوها، مع نكتةِ تعريفِ الكفرِ هنا باللَّام دونَ تعريفِه بالإضافةِ إليهم ألَّا يقتصِرَ فيما يُسَجَّلُ عليهم منه ما يُتَحَدَّث عنهم بهِ، ويبقى في ذاكرة الرُّوَّاة والوعاة، إذًا لذهبَ عنهم وَصْمتُهُ وعارُهُ بأكثرِ ما اجترحوهُ، وأفجرِ ما اقترفوهُ، من جهةٍ، ولكانَ كُفرُهم محدودًا بهم مقيسًا بما يُظَنُّ بهم من الطوْقِ والاقتدار؛ إذ يكونون آنئذٍ هم المعروفين بالكفر، بينما الأسلوبُ القرآنيُّ يجعلُ الكفرَ المطلقَ المتصاعِدَ في الشَّرِّ، معروفًا بهم لا يقفُ أحدٌ على حدِّ ضلوعِهم فيه، واستزادتِهم منه.

بلوغُ أولئكَ الكافرين مبلغًا بعيدًا، لا نظيرَ له في العتوِّ الكبيرِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/195.

ولأنَّ هذا اللفظَ المنتخبَ أجمعُ لوصف الظُّلم والفسقِ والفجورِ والضَّلال، ولأنَّ تلكمُ المعاني الَّتي تدلُّ عليها هذه الأسماءُ قد توجدَ من غير الكافر، على حين أنَّ الكفرَ لا يوجدُ أبدًا بدونِها، فهي لازِقةٌ له؛ لذا كان ذكرُ الكفرِ مغنيًا عن ذكرها جميعًا، بدلالتهِ عليها كلِّها، حيثُ لا تَطَّرد دلالتُها جميعُها عليه، فأوثِرَ بالمقام على أنَّ الضَّلالَ مذكورٌ تَبَعًا بعدُ.

سرُّ التَّعبيرِ بـ ﴿يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾:

بيانُ استحقاقِهم، بتبشيعِ أحوالِهم

جملةُ ﴿يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ فيها وجوهٌ إعرابيَّةٌ ثريَّةٌ، بالإثاراتِ الفكريَّةِ، للدُّرَرِ البلاغيّة، فمن ذلك أنَّها خبرٌ ثانٍ عن ﴿ٱلنَّسِيٓءُ﴾، والتَّعبيرُ بالمضارع دلالةٌ على تجدُّدِ ضلالهم، واستمرارِه[1]، وفي هذا بيانٌ ثانٍ لقُبحِ النَّسيء، وتشنيعٌ زائدٌ عليه، وفي وقوع هذه الجملةِ خبرًا ثانيًا تشنيعٌ على التَّشنيع السَّابقِ في وصفهِ بأنَّهُ زيادةٌ في الكفرِ، وفيه تحوُّطٌ شديدٌ لأجل صيانةِ الدِّماء، وحرمةِ الشَّهر الحرام؛ إذ النَّسيءُ مدخلٌ لسفكِ الدِّماء، وهو بابٌ إلى الضلالِ كبيرٌ. وكم في الآية من خبرٍ بعد خبرٍ! وكم فيه من صريحٍ ومن مستنبطٍ مقدَّرٍ! تُستخرَجُ ضِمنًا من قوله: ﴿يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا﴾، وفيها تهوُّكٌ مُزِلٌّ، وتخبُّطٌ مضِلٌّ، وتناقضٌ صارخٌ، ومن قوله: ﴿فَيُحِلُّواْ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُۚ﴾، وما ترتَّبت عليه، وفيها مجازفةٌ عمياءُ ومسارعةٌ خرقاءُ، ومغامرةٌ باسِرةٌ، وكَرَّةٌ خاسِرةٌ، تظنُّ أن يُفعَلَ بها فاقرةٌ، ومن قوله: ﴿زُيِّنَ لَهُمۡ سُوٓءُ أَعۡمَٰلِهِمۡۗ﴾، وفيها: تضليلٌ طائشٌ وتخييلُ أباطيلَ، وأخيرًا فمن جملةِ: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ وفيها: خِذْلانٌ لازمٌ وحرمانٌ دائمٌ، ونحوُ ذلك.

أثرُ تعدُّدِ الخبرِ في المتلقِّين:

القرآنُ الحكيمُ يهدف من توالي الإخبار عن الشَّيء الواحدِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/192، ودرويش، إعراب القرآن وبيانه: 4/98.

إخباراتٍ متعدِّدةً مزيدَ الهداية بالإبانة، وفي الإبانة نوعُ إعانةٍ ليقيمَ الحُجَّةَ، ويقطعَ المعذرةَ، ويأخذَ بيد من يتلمَّسُ هدايةَ اللهِ، وليزلزلَ العقائدَ الفاسدةَ، والتَّقاليد البائدةَ، والأفكار المنحرفةَ، وليخلِّصَ أسرى الوهْم من طوامِّ الأوهامِ وخرافاتِ الأوباشِ والطُّغام، وليُزادَ المؤمنون يقينًا على يقينهم، وليربطَ على قلوبِهم، ويثبِّتَ به الأقدامَ.

مزيدُ الأخبارِ تُجلِّي رحمةَ الهدايةِ، وهداية الرَّحمةِ

أثر إعرابِ ﴿يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ حالًا:

ومن تعدُّدِ معاني القرآنِ العظيم الخالدةِ الباقيةِ تلكمُ المعاني القيِّمَةُ النَّاشئةُ عن تعدُّدِ وجوه إعرابه في جُمَلِه وكلماته، فمِنَ الوجوهِ الإعرابيَّةِ المثريةِ في جملةِ ﴿يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ إعرابها حالًا؛ لما يؤولُ إليه الخبرُ من معنًى مقدَّرٍ من جملةِ مدلولِه، إذ تقديرُ ﴿زِيَادَةٌ فِي ٱلۡكُفۡرِۖ﴾ يؤولُ إلى أنَّه (كفرٌ أكبرُ) فهذا كالمطابقةِ لمضمونِ الخبرِ الَّذي هو (أكبر في الكفر) وعليه، فالضَّلالُ لازمٌ مصاحبٌ، والإضلالُ لا ينفكُّ؛ لأنَّه مقيمٌ غيرُ متعاقِبٍ.

الكافرُ في ضلالٍ دائمٍ، واضطرابٍ مطّرد

فهذا ضربٌ من البيانِ يجلِّي لنا ما يكون عليه الكافرُ من تخبُّطٍ؛ لأنَّ الكفرَ ظلماتٌ بعضُها فوقَ بعضٍ، وإذ لم يجعلِ اللهُ له نورًا فما له من نورٍ، فهو في ضلالٍ مديمٍ وعذابٍ مقيمٍ، كما قال سبحانه وبحمده: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَا يَهۡدِيهِمُ ٱللَّهُ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ١٠٤﴾ [النّحل: 104].

تنوُّعُ القراءاتِ في ﴿يُضَلُّ﴾ وأثرهُ في المعنى:

قرأَ من العشَرةِ: حفصٌ وحمزةُ والكسائيُّ وخلفٌ ﴿يُضَلُّ﴾ بالبناءِ للمفعولِ، وقرأ نافعٌ وأبو جعفرَ وابنُ كثيرٍ وأبو عمرٍو وابنُ عامرٍ وشعبةُ بالبناءِ للمعلومِ ﴿يَضِلُّ﴾[1]، وقرأ يعقوبُ: ﴿يُضِلُّ﴾ من (أضلَّ) الرُّباعي المتعدِّي بهمزةِ التَّعديةِ، فمضارعُهُ ﴿يُضِلُّ﴾ بضمِّ أوَّلِه وكسرِ الضَّاد[2].

القراءاتُ كاشفةٌ عن كونهم ضالّين مُضِلّين

(1) ابن الجزريّ، النّشر في القراءات العشر: 2/379.

(2) الثعلبيّ، الكشف والبيان: 13/367، والسّمين الحلبيّ، الدّر المصون: 6/47.

وهي قراءاتٌ مُتعاضِدةٌ تنمو بالنَّصِّ القرآنيِّ إلى علوِّ كعب البيان والفصاحة، فقراءة جمهور القرَّاء: ﴿يَضِلُّ﴾ المسوقةُ للمفعولين توَضِّحُ وُقوعَ الضَّلال عليهم، وإجراءَهُ فيهم فتنةً لهم، وتبصِرَةً لدنوِّ حيلتِهم، وقراءةُ يعقوبَ: ﴿يُضِلُّ﴾ المبنيَّةُ على الرُّباعي (أضل): كاشفةٌ عن تشبُّعهم بالإضلال وانفعالِهم بهِ، حتَّى صاروا من حبِّهم له يُضِلُّون غيرَهم، فالأُولى كاشفةٌ عن السَّببِ، والثانية كاشفةٌ عنِ الأثرِ، وفي ذلك حمْلُهم أوزارَ غيرِهم.

وفي تنوُّعِ القراءات تشنيعٌ على النَّسيء ما بعدَهُ تشنيعٌ، وللقراءتين ببناءِ الفعلِ للمفعول تارةً، وللفاعل أخرى فيما تواترَ، نظائرُ في تتمَّة الآية، كما جاء: ﴿زُيِّنَ﴾ مبنيًّا للمفعولِ، و﴿يُحِلُّونَهُۥ﴾ ﴿وَيُحَرِّمُونَهُۥ﴾ ﴿لِّيُوَاطِـُٔواْ﴾ ﴿فَيُحِلُّواْ﴾ مبنيًّا للفاعل.

أمَّا قراءةُ البناءِ للمفعول الَّتي يقرأُ بها حفصٌ وموافقوه: ﴿يُضَلُّ﴾ فالمعنى: أنَّ الضَّلالَ يقصدُهم، فإذا انتهى إليهم؛ وقفَ عندَهم، فلم يجاوزْهم إلى غيرِهم، فَهُم مكامِنُهُ ومعادِنُهُ، وكأنَّهم في حيِّز المُتَلَعَّبِ بهم غيرِ المُبالَى بهم بَالَةً، وهكذا نطقَ الوحيُ: ﴿ٱللَّهُ يَسۡتَهۡزِئُ بِهِمۡ وَيَمُدُّهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ١٥ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ﴾ [البقرة: 15، 16]، وكما قال: ﴿وَأُمۡلِي لَهُمۡۚ إِنَّ كَيۡدِي مَتِينٌ ١٨٣﴾ [الأعراف: 183، القلم: 45].

سرُّ تقديمِ الجار والمجرورِ:

قدَّمَ الجارّ والمجرور ﴿بِهِ﴾، على ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾، زيادةَ عنايةٍ بالمقدَّم لبيان أثرِهِ في الكافرين، فقدَّمَ المؤثِّرَ على المتأثِّر، ويقوِّي ذلك جرُّه بباء السَّببيَّةِ، فيكونُ ذلك تعظيمًا لدور السَّبب، وكان حقُّهُ التَّأخيرَ.

العنايةُ ببيانِ ضررِ العملِ القبيحِ يدفعُ للإقلاعِ عنهُ

دلالةُ مجيءِ الاسم الموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾:

وفي التَّعبير بالاسم الموصول اجترارٌ لإيرادِ جملةِ الصِّلةِ فعلًا ماضيًا إعلانًا عن تجذُّرهم في الكفرِ واستقرارِهم فيه وإطباقِهم

عليه، ولو قيل: يُضَلُّ به الكافرونَ؛ لما ألاحَ لهذا المعنى، وإيثارُ التَّنزيلِ العزيزِ إيرادَ الاسمِ الموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾ بجمع المذكَّرِ الدَّالِّ على الجمع بين الآمرين والمأمورين، وبينَ ابتداءِ الأمرِ وانتهائهِ؛ ليفيدَ معنى تقديرِ الجُرمِ، وملاحقةِ المجرمين ومطاردتِهم، وتقديرِ المسؤوليَّةِ، وأنَّ المشايعةَ فيه أو الاجتماعَ عليها لا يمنعُ الإحصاءَ، ولا يُوقفُ العقابَ، وأنَّ اللهَ يعلمُهم أينما كانوا مهما تفرَّقتْ بِهِمُ السُّبُلُ، وانقطعت بهمُ الحِيَلُ، وتقطَّعت بهم الأسبابُ: ﴿لَّقَدۡ أَحۡصَىٰهُمۡ وَعَدَّهُمۡ عَدّٗا ٩٤ وَكُلُّهُمۡ ءَاتِيهِ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَرۡدًا﴾. [مريم: 94، 95].

بيان معنى تقدير الجرم النّاتج عن الكفر، واستحقاقهم ذلك لكنودهم

بلاغةُ كمالِ الاتِّصال:

وقعت جملةُ ﴿يُحِلُّونَهُۥ عَامٗا﴾ ممَّا قبلَها موقعَ كمالِ الاتِّصال، إذ هي مُبيِّنةٌ لِما قبلَها، شارحةٌ له، وفي هذا الموقع البديع تفصيلٌ لقُبحِ النَّسيء، وتفصيلُ القبيحِ دعوةٌ للإقلاع عنه، وعلى هذا "فهي تفسيريَّةٌ للضَّلالِ"[1]، ويمكن أن تكونَ جملةً حاليَّةً[2]، وعليه فلا كمالَ اتِّصالٍ، ويكونُ المعنى على الحاليَّة: مصاحبةُ مضمونِ الجملة معناها؛ لمعنى سابقتِها، مصاحبةٌ لازمةٌ، فهي لها كالهيئة، وتلكم منها كالذَّات، وبهذا تُفارِق الاعتبارَ الأوَّل الَّذي هو كمالُ الاتِّصال، إذ فيه لا تكون الثَّانيةُ كالقيد اللَّازم، وإنَّما تكونُ عينَ الأولى، عُبِّر عنها بتعبيرٍ آخرَ، والتعبيران المتعدِّدانِ هما عن حقيقةٍ واحدةٍ بوجهيها، والحالُ فَضْلَةٌ عند أكثرِ النُّحاة، وكمالُ الاتِّصال قائمٌ مقامَ سابقه فيما يكون فيه، فإن كان عُمدةً؛ فعمدةٌ، وإن كان فضلةً؛ فهو بمنزلتِه، فمن ثَمَّ كان الذَّهابُ إليه أقوى في الكلام رصفًا، وفي الإفهام وصفًا، ولا سيَّما إذا طاب مَنْزِعُه، ولذَّ موقعُه، والقولُ هنا بالحاليَّةِ فائقٌ رائقٌ وعذْبٌ زُلالٌ.

التَّفاصيلُ في بيانِ القُبحِ، تحريضٌ على الإقلاعِ عنهُ

(1) السّمين الحلبيّ، الدّر المصون: 6/48، وابن عادل، اللّباب: 10/88.
(2) السّمين الحلبيّ، الدّر المصون: 6/48.

والأَولى أن تكون كمالَ اتِّصالٍ؛ لأنَّ العنايةَ هي ببيان أثرِ النَّسيءِ، وبيانِ آثارِهِ الَّتي من أهمِّها، وأبشعِها تنزيلُ النَّاسئ نفسَه منزلةَ الإلهِ الخالقِ في التَّحليل والتَّحريم.

سرُّ التَّعبيرِ بالمضارعة:

تجديدُ الجريمةِ المستمرُّ يبُشِّعُ أصحابَها

قوله: ﴿يُضَلُّ﴾ ﴿يُحِلُّونَهُۥ﴾ ﴿وَيُحَرِّمُونَهُۥ﴾ ﴿لِّيُوَاطِـُٔواْ﴾، نجد اختيار السِّياق الكريم، صيغة المضارعِ لهذه الأفعال؛ لدلالتهِ على التَّجدُّد والاستمرار، أي: هم في ضلالٍ متجدِّدٍ مستمرٍّ بتجدُّدِ سببهِ، وهو تحليلهُ عامًا، وتحريمُهُ عامًا، ومواطأةُ عدَّةِ ما حرَّمَ اللّٰهُ[1] بتحليلهم ما حرَّمَ اللّٰهُ.

علةُ التَّعبيرِ بالضَّمير:

وقوعُ الحُكْمَين المتناقِضَين على محلٍّ واحدٍ بالهوى آيةٌ على الضَّلالِ

في قوله: ﴿يُحِلُّونَهُۥ﴾ ﴿وَيُحَرِّمُونَهُۥ﴾، تعبيرٌ بالضَّميرِ العائدِ على النَّسيءِ في الفعلين، كاشفٌ عن تناقُضِ أفعالهِم، وإيقاعِهم الحُكْمَين المتناقِضَين على محلٍّ واحدٍ بالهوى، وذلك من أضلِّ ما يكونُ. وإضمار الاسم وهو النسيءُ فيه الإشارة إلى نَكارته، والتحقير منه، فهو صنيعٌ مذموم ومحرم في الإسلام.

بلاغةُ التَّعبيرِ بالطِّباقِ:

التَّناقضُ المستمرُّ إصرارٌ على الباطلِ، يدعو أولي العقلِ بالعودةِ إلى الأصل

في قوله: ﴿يُحِلُّونَهُۥ﴾ ﴿وَيُحَرِّمُونَهُۥ﴾، تعبيرٌ بالطِّباق، أبرزَ التَّناقضَ وبيَّنهُ بيانًا يدعو للعَجَبِ، فكما قيل: وبضدِّها تتميَّز الأشياءُ، وكأنَّه تناقضٌ ظاهرٌ للعِيان، وفي ذلك تبشيعٌ لارتكابه، وإقامةُ الحجَّةِ على مرتكبهِ من ذات صنيعهِ، فإنَّه إن يكنِ النَّسيءُ - وهو بمعنى المفعول هنا - مُسْتَحِقًّا التَّحليلَ، ففيمَ حرَّمَ؟ أو قمينًا بالتحريم فعلامَ أُحِلَّ؟ فهذا في الآية توبيخٌ معنويٌّ، وتسفيهٌ للعقول البلهاءِ الَّتي أقدمت على تقحُّم ذلك وتجشُّمِه دون مقتضى، وحطٌّ من رتبةِ متَّبعِ هواهُ، بغير هدًى مِنَ اللّٰهِ.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/192.

علَّةُ الإجمالِ في ﴿ٱلنَّسِيٓءُ﴾، دونَ التفصيلِ:

ما عُصِيَ اللهُ بهِ لا يستحقُّ الإطنابَ فيه

ممَّا يؤدِّب القرآنُ به المؤمنين؛ بسْطُ القولِ في الفضائلِ الَّتي تنفرجُ لها الأساريرُ، وتتبشبشُ لها الوجوهُ، ويحلو وقعُها في الأسماع، والاقتصارُ على ما تحصلُ به العِبرةُ من المخالفاتِ والمساءات، فهذا الَّذي هنا كذلك. وأيضًا؛ فإنَّ عمومَ العلمِ بكيفيَّة النَّسيء، وشيوعِ خبرِه، والقصَّةِ بهِ مغنٍ عن ذكرِه لعدم الحاجَةِ الماسَّة وقلَّةِ الفائدة المرتقبةِ، ولأنَّ النَّاسئين خرَّجوهُ مَخرجَ المباهاةِ والتَّفخُّر تمدُّحًا به في الأشعارِ، وتبجُّحًا به في الوقائعِ، فكان الإعراضُ عن تفصيلِه غضًّا له، وإزراءً به، ومعاملةً لباغي الشَّرِّ بنقيض مقصودِه، وفيه أدبُ القرآنِ في الإغضاءِ، وميلِه إلى الاقتصار في ذكرِ المُنكَرِ على ما يحصل بهِ الانكفافُ عنه، والكراهةُ له، وليدلَّ على أنَّ سائرَ ما أدَّى إلى النَّسيء؛ فهو سواءٌ في الجُرمِ، وله حكمُه؛ لأنَّ كلَّ ما أدَّى إلى الحرامِ؛ فهو حرامٌ مأثمًا ومَغرمًا، وليتقرَّرَ الاعتناءُ بنبْذِه في الجملةِ دونَ توقُّفِ نظرٍ إلى التَّفاصيل.

سرُّ تنكيرِ المفعولِ فيه ﴿عَامًا﴾:

التَّنويعُ دالٌّ على المراوغةِ

"التَّنكيرُ في قوله: ﴿عَامًا﴾ للنَّوعيَّةِ، أي: يحلُّونه في بعضِ الأعوامِ، ويحرِّمونهُ في بعض الأعوامِ"[1]. فإنَّ ناسئَهم كان يجعلُ بعضَ الشُّهور في غير موقعهِ بين شهريهِ، ويسمِّيه بغير ما عُرِفَ بهِ، فإذا أرادَ أن ينزِعَ عن المحَرَّم ما ألبَسَهُ اللهُ من ثوبِ الحُرمةِ - استطالةً أن تتوالى عليهم أشهرٌ ثلاثةٌ حرُمٌ - سمَّاه باسم شهرٍ حلالٍ، فقال: هو رمضانُ أو صفرٌ أو ربيعٌ أو جُمادى إلى غير ذلك، ثم جعل اسمَهُ الأصيلَ (المحرَّم) على شهرٍ آخرَ من عامهِ نفسِه، ليتَّفِقَ له في عامهِ أربعةُ أشهرٍ حُرُمٍ، لا بدَّ عندَهم من هذا، وهذه موافقةُ العددِ الَّتي سمَّاها القرآنُ مواطأةَ المُدَّةِ. وبالنَّظرِ إلى مجموعِ الأعوامِ يُلحَظُ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/193، 192.

اختلافُ مواضعِ الأشهرِ الحُرُمِ، وتنقُّلُها من مواضعها تبعًا لأهواءِ مَن يُحلُّون، ويُحرِّمون ناسئين.

وعبارةُ ابنِ عاشورٍ: "والتَّنكيرُ والوحدةُ في قوله: ﴿عَامًا﴾ في الموضعَيْن للنَّوعيَّة، أي: يُحلِّونه في بعضِ الأعوام، ويُحرِّمونه في بعض الأعوامِ. ليس المرادُ أنَّ النَّسيءَ يقع عامًا غَبَّ عامٍ، كما ظنَّه بعضُ المفسِّرين"[1].

إنَّ (عامًا) الثَّانيةَ، هي الأولى نفسُها مُعادَةً، ما دامَ التَّنكيرُ والوحدةُ في الموضعيْنِ للنَّوعيَّةِ، لأنَّ "قولهم: النَّكرةُ إذا أُعيدت نكرةً؛ كانت غيرَ الأولى، يريدون بهِ التَّنكيرَ المقصودَ منهُ الفردُ الشَّائعُ، لا التَّنكيرُ المرادُ بهِ النَّوعيَّةُ"[2].

فالنَّسيءُ كلُّهُ مِن تحليلِ أَشهرٍ حُرُم وإلباسِ ثَوبِها أشهرًا حلالًا وموافَقَتِهِمُ العَدَدَ أنَّ السَّنةَ اثنا عشرَ شهرًا، منها أربعةٌ حرُمٌ كلَّ عام؛ ليوافقوا عددَ الأشهرِ الحُرُمِ فيه نفسِه، وإن غيَّروها، وبدَّلوها، فكلُّ عامٍ قائمٌ بنفسِهِ مستقلٌّ بعددهِ من أشهرٍ حُرمٍ وحلالٍ، هذا المعنى لا معنى غيرُهُ، وهو الصَّوابُ، هُدِيَ إليهِ من هُدِيَ، وضلَّ عنهُ من ضلَّ، والحمد للّه ربِّ العالمين.

سرُّ اقترانِ الفعلِ ﴿لِّيُوَاطِـُٔواْ﴾ باللَّامِ:

رَبْطُ الأفعالِ بِعِلَلِها بيانٌ للحقائقِ والدَّواعي

اللَّامُ للتَّعليل، والمعنى: ليوافِقوا، ويشابِهوا، وفي اللَّام وجهانِ أنَّها متعلِّقةٌ بـ ﴿وَيُحَرِّمُونَهُۥ﴾، أو أنَّها متعلِّقةٌ بـ ﴿يُحِلُّونَهُۥ﴾[3]، والذي يقتضيه العقلُ والعلمُ أنَّ اللَّام متعلِّقةٌ بهما جميعًا، لما يقتضيهِ العَطْفُ من إدخال المعطوفِ في حُكم المعطوفِ عليه؛ إذ العطفُ مِنَ التَّوابعِ كالنَّعتِ والتَّوكيد، فلا ينفردُ بالتعلُّقِ أحدُ الفعلين سيَّما وهما

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/193.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/128.
(3) السّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون 6/48، وابن عادل، اللّباب 10/89.

متماثلان في المضارعةِ، والعاطِفُ بينهما الواوُ الدَّالَّةُ على مطلق الجمعِ مع المشاركةِ في الحُكم كما لا يخفى.

وفي استخدام اللَّام مقترنةً بالفعلِ كَشْفٌ عن البواعثِ والدَّواعي الخبيئاتِ، وهو فَضْحٌ لهم، وبيانٌ لعنايتهم بالشَّكل دونَ المضمون، وأنَّ الاتِّجاه هو إلى التَّوافق في العددِ دونَ حقيقةِ الأشهرِ.

بلاغةُ تأكيدِ الذَّمِّ بما يُشبِهُ المدحَ في المواطأة:

ظاهرُ حرصهم يترتَّبُ عليه ما ذُكِرَ بعدُ، من مزيدِ إجرامِهم في التّحريم

مِن محاسنِ القرآنِ إنصافُ الخُصوم - ولو كانوا كفَّارًا - حتى إنَّهُ لَيَذْكُرُ مناقبَ أهْلِ المثالِب والمعائِب، وإنْ آلُوا إلى المعاطب.

وظاهرُ قوله تعالى: ﴿لِّيُوَاطِـُٔواْ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾ أنَّ بأنفسِهم حِرْصًا على توفيةِ الأَشهر الحرُم عددَها المُخبَرَ عنه، المنصوصَ عليه، المعهودَ للبشريَّةِ منذ وجِدَت، فكأنَّ الكلامَ مُخرَّجٌ مَخرجَ ذِكْرِ عذرِهم بما يشبَهُ التأوُّلَ لهم بذكرِ القصدِ الحسن بما يخرجُه عن أن يكونَ مشنَّعًا به عليهم، أو مُثَرَّبًا، على حين أنَّه مذكورٌ ليترتَّبَ عليه ما ذكرَ بعدُ من مزيدِ إجرامِهم في قوله: ﴿فَيُحِلُّواْ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُۚ﴾، فقد احتفظوا بعددِ الأَشْهُرِ الحُرُمِ الَّذي هو تَبَعٌ تابعٌ لتحريمها، وترَكوا الأصلَ الأصيلَ، وهو وقوعُ تعظيمِ الحُرمَةِ على أعيانها وذواتها، لا على أعدادِها من غيرِها، وزادوا على ذلك من غَلْواءِ الجريرةِ، وفسادِ السَّريرةِ، وتهوُّرِ الانتهالِ، وتصدُّرِ الارتباك تحريمَ الأشهرِ الحلالِ بعدَّةِ ما أحلُّوا من أشهُرٍ حرامٍ، فقد احتفظوا بالعددِ، وأفسدوا المعدودَ[1].

والذي يستوقِفُ المتدبِّرَ - ولا ينقضي منه العجَبُ - حُسنُ مرامي القرآنِ، منه: إجراءُ ذمِّهم مجرى المدحِ؛ ليقرِّرَ مبادِئَهُ مِن تشبُّثِهِ بإقرارِ العَدلِ، ولو كان فيه مُنْتَهَضٌ بإنعاشِ الخصومِ، استحثاثًا للتَّوبة

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/193.

والمراجعةِ، وإشعارًا بتقريبِهِ العفوَ من المُقلِعين عن الذُّنوب - وإن عَظُمت - المُنيبين وإن كانوا بعدَ ذهابِ القوَّة وذبولِ العنفوانِ، وسقوطِ التَّماسُكِ، وتأكيدُ علمِ اللهِ بالمغيَّبات، ومنها بواطنُ الأنفس، وتقريرُ العدل الإلهيِّ الَّذي لا يظلم مثقالَ ذرَّةٍ، ولو كانت هاجسًا حابسًا أو محبوسًا، والفضلُ الإلهيُّ بمضاعفةِ الحسنةِ، ولو كانت قليلةً يسيرةً، وضئيلةً نزيرة، وقوَّةُ دينِ اللهِ الَّذي لا يخشى ذِكْرَ مناقبِ أهلِ المثالبِ، فإنَّها لا تضيرُه، ولا تُشغّبُ على أنَّ له الحجَّةَ البالغةَ الدَّامغةَ، فإذا الباطلُ زاهقٌ، ومكبوبٌ على أُمِّ رأسِهِ من شاهقٍ.

فهل رأى أحدٌ أو سَمِعَ قبلَ هذا التَّنزيل العزيز مثل هذا الجلالِ، ولو كان في وحيٍ سابقٍ، أو بعدَهُ من بَدْعٍ مُنمَّقٍ مزوَّقٍ إنسيٍّ أو جنِّيٍّ لاحقٍ؟

فائدةُ التَّعبيرِ بالمفعولِ به:

العنايةُ بالشَّكلِ وحدَهُ لا تُجدي، والسّرُّ في اللُّبِّ لا في القشور

قوله تعالى: ﴿عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾، جاءَ المفعولُ به بلفظ ﴿عِدَّةَ﴾؛ لبيان أنَّ عنايتَهم اتَّجهت بالحُرمةِ للعددِ، وهو أنّهم يريدون أنْ يوافقوا عددَ الأشهر الأربعة التي حرَّمها اللّه تعالى في السَّنة، وانصرفت عن حقيقة اعتبارِها للمعدودِ أعيانِ الأشهر الحُرُم.

سرُّ التَّعبيرِ بالمضافِ إليهِ اسمًا موصولًا:

الجرأةُ على تحريمِ ما أحلَّ اللهُ، أبشعُ الجرائمِ عنده

قوله تعالى: ﴿عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾، جاء المضافُ إليهِ اسمًا موصولًا عامًّا - هو أدخلُ الموصولاتِ في الإبهام، وأعمُّها - زيادةَ تبشيعٍ لجرمِهم، وبيانًا لنهجِهم في الجرأةِ على التَّحريم، ويزيد عملَهم قبحًا إسنادُ الفعلِ إلى الاسم الجليلِ الأعظم؛ لبيان اعتدائِهم على المقامِ الجليل، كما أنَّ "الإتيانَ بالموصول في قولِهِ جلَّ وعزَّ: ﴿عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾ دونَ أن يعبِّرَ بنحو: عدَّة الأشهرِ الحُرُم؛ للإشارة إلى تعليلِ عملِهم في اعتقادِهم بأنَّهم حافظوا على عدَّة الأشهرِ الَّتي حرَّمها اللّه تعظيمًا، ففيه تعريضٌ بالتَّهكُّمِ بهم"[1].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/194.

معنى التَّعبيرِ بالفاء ودلالة الفعل ﴿فَيُحِلُّواْ﴾:

تتابعُ الجرائمِ، يَزيدُ من قُبحِ صورةِ المجرمِ

الفاءُ هنا هي فاءُ التَّعقيب، العاقبةُ التي تطوي الزَّمنَ دلالةً على سُرعة ظهورِ الأثرِ، وفي التَّعبير بالمضارعِ تجديدٌ مستمرٌّ للاعتداء على حدود اللّهِ في تحليل ما حرَّم اللّهُ، وفي إسناد الفعل إليهم تجريمٌ لعملِهم.

نكتةُ التَّعبيرِ بالطِّباقِ:

الجريمةُ تظهرُ في صورة كاملةٍ ببيانِ ضدِّها

في قوله تعالى: ﴿فَيُحِلُّواْ﴾، ﴿حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾ طباقٌ، وقد أسهمَ إسهامًا كبيرًا – هاهنا – في الكشْفِ عن الجريمةِ ممَّا زادَها قبحًا وشناعةً.

ويُجلِّي ذلك أنَّ الطِّباق بينَ مضارعٍ يَحْدُث ويتجدَّدُ، ففيه الاجتراءُ وعدمُ الارعواءِ، وبين ماضٍ تقدَّمَ حُكمهُ، واطَّرد، وكان عليه الخلقُ كلُّهم، ممَّا يُبرزُ خروجَ المخالفِ عنِ السَّنَن المرضيِّ والنَّاموس الأزليِّ الأبديِّ، وقلَّة حيائه وشديدِ تبلُّده، وتقحُّمه المهالِكَ دون اضطرارٍ، فالكونُ كلُّهُ مِن قبلِ استحداثِ النَّسيءِ بما فيه من الخليقةِ لا يرون حاملًا عليهِ ولا داعيًا مقتضيًا لَهُ، فكيفَ بالتَّبجُّحِ والتَّوقُّع والتَّفخُّر به؟

بلاغةُ التَّعبيرِ بالإظهارِ في مقامِ الإضمارِ:

التَّصريحُ بالتَّشنيعِ أظهرُ في بيانِ القُبْحِ

"والإظهارُ في قوله: ﴿فَيُحِلُّواْ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُۚ﴾ دون أن يقال: فيحلُّوه، لزيادةِ التَّصريح بتسجيل شناعةِ عملِهم، وهو مخالفتُهم أمرَ اللّه تعالى وإبطالُهم حرمةَ بعضِ الأشهرِ الحُرم، تلك الحُرمةُ التي لأجلها زعموا أنَّهم يُحرِّمون بعضَ الأشهرِ الحلالِ حفاظًا على عدَّةِ الأَشهُرِ الَّتي حرَّمها اللّهُ تعالى"[1]، والمعنى: "فيحلُّوا بمواطأةِ العدَّةِ وحدَها من غير تخصيصٍ ماحرَّمَ اللّهُ مِنَ القِتالِ، أو مِن ترْكِ الاختصاصِ للأشهرِ بعينِها"[2].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/194.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/516.

شِبْهُ كمالِ الاتِّصالِ في: ﴿زُيِّنَ لَهُمْ﴾ ممَّا قبلَهُ:

"لمّا انهتكت (انفضحت) بهذا البيانِ قباحةُ فعلِهم، كأنَّهُ قيل: إنَّ هذا لعجبٌ ما حملَهم على ذلك؟ فقيل: زُيِّن.."[1]، فالجملةُ واقعةٌ ممَّا قبلَها موقعَ شِبهِ كمال الاتِّصال، غرضُه بيانُ العلَّةِ في ارتكابهم هذهِ المرتكباتِ، "وفي هذا الاستئنافِ معنى التَّعليلِ لحالهم العجيبةِ، حتى يزولَ تعجُّبُ السَّامعِ منها"[2]، والتَّزيينُ تخييلُ القَبيحِ حُسنًا، وذلك من جرأتِهم على تقحُّمِ ما تقحَّموه من مضادَّة اللهِ، وتجشُّمِ ما تجشَّموه من محادَدَتِهِ جلَّ في علاه.

تتابعُ فضحِ القَبائحِ دعوةٌ للتَّساؤلِ والعَجَبِ

سرُّ التَّعبيرِ بالبناءِ للمفعولِ:

أجمعتِ القراءاتُ المتواترةُ على قراءةِ ﴿زُيِّنَ﴾ مبنيًّا للمفعول، والفاعلُ محذوفٌ هو الشَّيطان؛ استئناسًا بما ذُكِرَ صريحًا في أكثرَ مِن موضعٍ في الكتاب العزيز بإسنادِ التَّزيين إليهِ، ويكونُ في البناء للمفعول إشارةُ اشتهارِ الفاعلِ بهذا الفعلِ، كما في سورة الأنعام: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [الأنعام: 43] وقوله: ﴿وَإِذۡ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ [الأنفال: 48][3]، والتَّزيينُ تلبيسٌ؛ لأنَّه لا يغيِّرُ الشَّيءَ عن حقيقتهِ، وفي وقوعِ ﴿سُوٓءُ﴾ نائبَ فاعلٍ زيادةُ تقبيحٍ لفعلِهم، وفي إضافتهِ إلى ﴿أَعۡمَٰلِهِمۡۖ﴾ تقبيحٌ على تقبيحٍ؛ لأنَّ العملَ القبيحَ أقبحُ من القولِ السيِّئ.

لا سبيلَ إلى ارتكابِ القُبْحِ إلَّا بالتَّزيين، وتخيُّلِهِ حَسَنًا

بلاغةُ الكنايةِ والإيجازِ:

في قولهِ: ﴿سُوٓءُ أَعۡمَٰلِهِمۡۖ﴾ لطيفةٌ دقيقةٌ، وهو أنَّ الآيةَ جعلت التَّعبيرَ بسوءِ أعمالِهم المُزيَّنِ كنايةً عمَّا أرادت ذمَّهُ، وهو النَّسيءُ، فأظهرتِ المعنى بدليلِهِ، ولم تقفْ بلاغتُها عند هذا الحدِّ، بل إنَّ

مِن إعجازِ القرآنِ تضمُّنُ الكلماتِ القصارِ للمعاني الكبار

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 3/309.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/194.
(3) السّمين الحلبيّ، الدّر المصون: 6/49، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 3/309، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 10/194.

إطلاقَ القولِ المشعرِ بالعمومِ في جميعهِ والمُطلقِ في سائرهِ بسوء أعمالِهم المضافةِ إليهم قد جمعَ بين المؤثِّرِ: وهو النَّسيءُ، وبين أثرهِ الممتدِّ غيرِ المحدودِ جُرمًا وغُرمًا وإثمًا؛ إذ القولُ بالنَّسيء قصدَ منه نفسَهُ، وما يترتَّبُ عليه من جرائِمِ القِتالِ والإغارةِ، والنَّهبِ والسَّلبِ والتَّرويعِ وإزهاقِ الأرواحِ وتأييمِ النِّساء وتيتيمِ الأطفال واعتلالِ الأبدان بالجروحِ والأشلاءِ واختلالِ الأوضاعِ واضطرابِ الأمنِ وفشوِ الأمراض وكثرةِ ذوي العاهاتِ وكثرة العالةِ في المجتمعِ وانتهاكِ الأعراضِ بسبي النِّساءِ وتشرُّدِ الفارِّين والفارَّاتِ، فجمعَ القرآنُ الحكيمُ في جملةٍ من أربعِ كلماتٍ لخَّصَت كلمتانِ منها هذهِ المأساةَ وتوابعَها في إيجاز رائعٍ عجيبٍ.

وجهُ العطفِ بحرف (الواو):

عُطِفَت جملةُ: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ على ما قبلَها لتأكيد أنَّهم أهلُ استحقاقٍ للعذاب؛ إذ فُطِروا على الضَّلال لقبحِ طينتِهم، فقد "فعلَ اللّٰهُ بِهم ذلك لما عَلِمَ من طبعِهم على الكفرِ، فلم يهدِهم"[1].

بيانُ أنّ ما طُبِعَ عليه بعضُ خلقهِ، مؤكِّدٌ لاستحقاقِهم قبحَ المآلِ

لطيفةُ تقديم المسند إليه، على خبرهِ الفعليِّ:

قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾: عبَّر النَّظمُ الكريمُ بالاسمِ الجليلِ إدخالًا للمهابةِ على النُّفوس تناسبًا مع السِّياق الذي بيَّن اجتراءَ المشركين على مقامِ الألوهيَّة في التحليل والتحريم، وقدَّم الاسمَ الجليلَ على الخبر الفعليِّ لقصرِ عدمِ هدايةِ الكافرين على اللّٰهِ وحدَهُ؛ إذ أمسك عنهم اللُّطفَ والتوفيق، اللذينِ بهما يتفطن الضالُّ لضلاله فيقلعُ عنه، جزاءً لهم على ما أسلفوه من الكفر، فلم يزالوا في دركاتِ الضلال إلى أقصى غاية[2].

مَن أضلَّهُ اللهُ؛ فلا هاديَ لَهُ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 3/309.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/195.

سرُّ التَّعبيرِ بالإظهار في مقامِ الإضمارِ:

"الإظهارُ في مقامِ الإضمارِ بقولِه: ﴿ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ لقصدِ إفادةِ التَّعميم الَّذي يشمَلُهم وغيرهم"[1]، فاللَّام في لفظي: ﴿ٱلْقَوْمَ﴾ و﴿ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ للجنسِ، وعبَّر بالجمع لبيانِ أنَّ كُلًّا منهم يُعينُ الآخرَ على الكفرِ والبقاءِ عليهِ.

القصدُ التّعميم فهذا شأنُ اللهِ مع جميعِ الكافرين

ومِن ذلك المالأةُ والمتابعةُ والمشايعةُ والمواضعةُ، ومنه الرِّضا بما هم عليه، وعدمُ معارضتهم فيما يظهرون من الكفرِ ومخالفةِ الدِّين، واللهُ تعالى قد أمرَ المؤمنين بالدَّعوة إليه وبيان شرعهِ وحُكمهِ بالحِكمةِ والموعظة الحسنةِ، وإقامة الحجَّةِ، وتحبيبِ الناسِ في شرعِ الله ودينه.

براعةُ ختمِ الآية:

خُتِمَتِ الآيةُ الكريمةُ: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ بهذا الختمِ؛ لبيان أنَّ منشأَ كلِّ قُبْحٍ يكون مِنَ الكافرين الَّذين عَلِمَ اللهُ منهم أزلًا عدمَ الهداية، فطَبَعَ على قلوبِهم؛ فقد انصبغَ الكفرُ والتكذيب في قلوبهم، فلو جاءتهم كلُّ حجة ودلالة، لم يؤمنوا.

عدمُ هدايةِ الكافرين حكمٌ عامٌّ يشملهم جميعًا

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

عام، وسنة، وحول:

أمَّا (حول)؛ فلا تنضبطُ بعددٍ قطعيٍّ ثابتٍ، بل تقريبيٍّ، فلا تؤدِّي أداءَ عامٍ منضبطٍ بشهورِهِ المعدودةِ، فلم يبقَ إلَّا النَّظرُ بين (سنة) و(عام)، وقد كان أصلُ الاستعمالِ تبعًا للحقيقة العرفيَّةِ - أوَّلُ الوضعِ ومُدَدًا بَعْدَه - أنَّ السَّنةَ تُستَعمَلُ في العام الجدْبِ، وأنَّ العامَ يُذْكَرُ في السَّنة الرَّخاءِ، ثمَّ تُنوسيَ هذا الأصلُ، وتعاورَ اللَّفظان في الكلام، وساعدَ على ذلك استملاحُ التَّضمينِ،

السَّنةُ تُستَعمَلُ في العام الجدْبِ، والعامُ يُذْكَرُ في السَّنة الرَّخاءِ، ثمَّ تُنوسيَ هذا الأصلُ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/195.

واعتبارُ النِّسبيَّةِ فيما يعبَّرُ عنه بأحدِهما، واستحسانُ المجاز، والاعتدادُ بما يَستبطِنُ من المعاني.

وجاء في التّنزيل العزيز ذِكْرُ السَّنةِ والعام، في الشِّدَّة والرَّخاء على حدٍّ سواء، فمِنَ السَّنةِ في الجدْبِ: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ﴾ [الأعراف: 130]، ومنها في الرَّخاء: ﴿أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ۝٢٠٥﴾ [الشعراء: 205]، و﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا﴾ [يوسف: 47].

ومن استعمال العام فيما يسوءُ: ﴿أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِى كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ﴾ [التوبة: 126]، وفيما يُبهجُ ويُسِرُّ: ﴿ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ۝٤٩﴾ [يوسف: 49].

ومِن استعمالِهما جميعًا استعمالًا واحدًا: ﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ۝١١﴾ [الكهف: 11]، وتفسيرُها بآخرِ القصَّةِ: ﴿وَلَبِثُوا۟ فِى كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِا۟ئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُوا۟ تِسْعًا ۝٢٥﴾ [الكهف: 25] مع قوله: ﴿فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِا۟ئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِا۟ئَةَ عَامٍ﴾ [البقرة: 259].

ومن التَّعبيرِ عنِ الجدْبِ والرَّخاء، والسَّارِّ والضَّارِّ كلِّهِ جمَعَهُ معًا بتعبيرٍ واحد، قولُهُ جلَّ وعزَّ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ﴾ [يونس: 5].

فجازَ إذًا على هذا استعمالُ السَّنةِ والعامِ - أيٍّ منهما - دونَ غضاضةٍ ولا استكناهٍ، بَيدَ أنَّ القرآنَ العظيم له مرام بعيدةٌ حِسانٌ كاشفةٌ عن أسرارٍ مثريةٍ للعقل والوعي والإدراك، وإذ هو يُبطِلُ النَّسيءَ عودًا بالسَّنة على بَدءِ الزَّمان، فإذا هي اثنا عشر شهرًا منها أربعةٌ حرُمٌ: ثلاثةٌ سَرْدٌ، وهي: ذو القَعْدة وذو الحِجَّة والمُحَرَّمُ، وواحدٌ فردٌ، وهو: رجبُ مُضَرَ الَّذي بين جُمَادَى وشعبانَ، وذكر رجبَ مضافًا إلى مضرَ احترازًا من رمضانَ، فقد كانت ربيعةُ تسمِّيه رجبًا وتحرِّمه، وإنَّما هو رمضانُ، فلمَّا أرادهم على العود إلى الأصل، ونبذِ ما اتَّبعوه ممَّا ابتدعوه؛ ناسبَ أن تكونَ كلماتُه المختارةُ للتعبير بها عن ذلك، مُرَاعًى فيها الأصلُ، فاختارَ (العام) هنا، ودلالتُه بأصل الاستعمال على اليسرِ والخير والخصبِ والنَّماءِ، كأنَّهُ يعلِّمُنا بما هو كالتَّصريح: أنَّ أولئك النَّاسئين لم يكن ليحمِلَهم على النَّسيءِ

تلبُّثًا ولا تلوُّثًا، ولا تلبُّسًا ولا تَهَوُّسًا؛ فاقةٌ أو ضُرٌّ يضطرُّهم لَذْعُهُ وأساهُ أن يُحِلُّو ماحرَّم اللّهُ من حرمةِ الأشهرِ ليُتاحَ لهم الانتهابُ، ويراحَ بهم على الاستلابِ، إنَّما هو الْأَشَرُ والبَطَرُ، والتَّرَف والسَّرَف والمَخِيلةُ، والطَّبعُ الظَّالم، والفَجّع الغاشم.

فخصَّ العامَ بالذِّكر هنا تنبيهًا على ذلك، واستدعاءً له. فالقرآن يَقرِنُ بين التَّشريعِ، والتَّطبيع، ويوردُ طرَفًا من الطِّباع ونُبَذًا من الاجتماعِ؛ لأنَّه وعاءُ العلم وذاكرةُ الأُمَّة إلى أن يرثَ اللّه الأرضَ ومَن عليها، حتى تعلمَ أبعادَ هداياتهِ في حنايا الرُّوح آمادَ الحياةِ، ومن أُوليات ذلك دواعٍ ومقتضياتٌ: "ذمُّ ما يحصل في عمل النَّسيء من تغييرِ أوقات الحجِّ المعيَّنة من اللّه في غير أيَّامها في سنينَ كثيرةٍ، ومن تغيير حُرمةِ بعضِ الأشهر في أعوامٍ متطاولةٍ"[1].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/193.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمۡ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلۡتُمۡ إِلَى ٱلۡأَرۡضِۚ أَرَضِيتُم بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٞ ٣٨﴾ [التوبة: 38]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الرّبط بين تصحيح انحرافهم العقائديّ، وعتاب المتخلّفين عن غزوة تبوك

لمَّا قبَّح اللّهُ سبحانه فعلَ المشركين، بتحريمهم وتحليلهم بما يخالفُ أمرَ اللّه، وأبانَ سبحانه بآية: ﴿وَقَٰتِلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ كَآفَّةٗ كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمۡ كَآفَّةٗۚ﴾ [التوبة: 36]. أنَّ الجهادَ لا يَختصُّ به شهرٌ دونَ شهرٍ؛ عاتبَ المؤمنين الذين شغلَهم حبُّ الدُّنيا عن اتِّباع أمرِ الرَّسول ﷺ في الخروج للجهادِ في غزوة تبوكَ، وكان ابتداؤها في شهرِ رجبٍ سنةَ تِسعٍ"[1]، وأيضًا " أنَّه تعالى لمَّا شرحَ معايبَ هؤلاءِ الكفَّارِ، وفضائحَهم عاد إلى التَّرغيب في مقاتلتِهم"[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱنفِرُواْ﴾: النُّونُ والفاءُ والرَّاءُ: أصلٌ صحيحٌ يدلُّ على تجافٍ وتباعُدٍ، ويومُ النَّفْرِ: يومَ ينفِرُ النَّاسُ عن مِنى[3] والنَّفْرُ: الانزعاجُ عنِ الشَّيءِ وإلى الشَّيءِ، كالفزع إلى الشَّيءِ وعنِ الشَّيءِ، والنَّفْرُ: مفارقةُ مكانٍ لمكانٍ، لأمرٍ هاجَ على ذلك[4]، والاستنفارُ: حثُّ القومِ على النَّفَر إلى الحرب[5]، وهو المرادُ هنا.

2) ﴿ٱثَّاقَلۡتُمۡ﴾: من (ثَقُلَ) والثَّاء والقافُ واللَّام: أصلٌ واحدٌ يتفرَّع منه كلماتٌ متقاربةٌ، والثِّقَلُ كـ(العِنَب): ضدُّ الخفَّةِ، ولذلك

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 3/317.
(2) الفخر الرازيّ، مفاتيح الغيب: 16/60.
(3) الجوهريّ، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (نفر).
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 3/317.
(5) الرّاغب، المفردات: (نفر).

سمِّي الإنسُ والجنُّ: الثَّقَلين لكثرة العدَدِ. وأمَّا الثَّقَلُ فمتاعُ السَّفرِ وحشمُهُ، وكلُّ شيءٍ نَفيسٍ مَصونٍ، وجمعُهُ: أثقالٌ[1]. والثِّقَلُ والخِفَّةُ مُتقابِلانِ، فكلُّ مايترجَّحُ على مايُوزَنُ بهِ، أو يُقدَّرُ به، يقال: هو ثقيلٌ، وأصلُه في الأجسام، ثم يُقالُ في المعاني، نحوِ: أثقلَهُ الغُرْمُ والوِزْرُ، والثَّقيلُ يُسْتَعْمَلُ في الأجسام المرجَّحةِ إلى أسفلَ، ومن هذا الثِّقَلُ قوله تعالى: ﴿ٱثَّاقَلۡتُمۡ إِلَى ٱلۡأَرۡضِۚ﴾[2]، والثِّقَلُ هنا يعني: الرُّكونَ"[3]، واثَّاقلتُم هنا معناها: تباطأْتُم وتكاسَلْتم.

3) ﴿أَرَضِيتُم﴾: رَضِيَ: الرَّاءُ والضَّادُ والحرفُ المعتلُّ أصلٌ واحدٌ يدلُّ على خلافِ السُّخْط، وأرضيتُه عنِّي، ورضَّيتُه فرَضِيَ[4]. والمعنى هنا: آثرتم حُظوظَكم.

❁ المَعْنى الإجْمالِيُّ:

حـثُّ المؤمنين وتقويةُ عزائمهم على قتالِ أهل الكتاب والمشركين، دون تخلٍّ عن ذلك

يا أيُّها الّذين اتَّصفْتُم بالإيمان، واهتديْتُم بالقرآن الكريم، ما لكم حينَ قال لكم رسولُكم الأمينُ: اخرجوا إلى الجهاد في سبيل اللّه لقتال أعدائكم تكاسلْتم ولزمتم مساكنَكم؟ ماذا عرضَ لكم ممَّا يتنافى مع الإيمان وكمالِه؟ أتباطأْتم عنِ النُّهوض وحرصتم على البقاءِ في الأَرض التي أَنتم بها، وراحتِها ولذَّتِها مائلين إلى لذائذ الدنيا وشهواتها السريعة الفناءِ، وكرهتم مشاقَّ الغزو ومتاعبه، وتعلَّلتم للتخلف بِأَعذار ليس من شأْنها أَن تمنعكم من شرف الجهاد؟ هل آثرتم حظوظَكم الدنيويةَ ولذَّتَها الفانيةَ وَعَرَضَها الزَّائلَ بدلًا من سعادةِ الآخرةِ ونعيمها المقيمِ؟ إن كان الأمرُ كذلك؛ فقد استبدلْتُم الذي هو أدنى بالذي هو خيرٌ، فما متاعُ الحياةِ الدُّنيا المشوبُ بالهمِّ والحُزنِ في جانب الآخرة ونعيمِها

(1) الخليل، العين، والجوهريّ، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (ثقل).
(2) الرّاغب، المفردات: (ثقل).
(3) الكبيسيّ، الكلمة وأخواتُها في القرآن الكريم: 3/306.
(4) الجوهريّ، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (رضي).

الدَّائمِ والرِّضوانِ الإلهيِّ العظيم فيها إلَّا شَيءٌ قليلٌ لايُعْبأُ به، ولا ينبغي أن يحرص عليه[1].

وسببُ نزول هذه الآية وما بعدها: أَنَّ النبي ﷺ استنفَر أَصحابَه ليَخرجوا معه في غزوةِ تبوكَ، وكان الحرُّ شديدًا وبالناس عُسرٌ وقَحْط، وقد نضِجَت ثمارُ المدينة وطابت ظلالُها، وكانت تبوكُ بعيدةَ المسافة عن المدينة، والعدوُّ قويٌّ وكثيرٌ، فشقَّ عليهم ذلك وتباطؤوا في الاستجابة[2].

وترشد الآيةُ الكريمةُ إلى وجوبِ الخروجِ إلى الجهاد إذا دعا الإمامُ بما يعرف بالتعبئةِ العامَّة، أو النفير العام، وإلى أنه يجبُ أن يكون النفيرُ في سبيل الله وحدَه، وإلى بيانِ حقارةِ الدنيا وضآلتها أمامَ الآخرة[3].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

سرُّ افتتاحِ النِّداءِ بصيغة ﴿يَـٰٓأَيُّهَا﴾:

في الافتتاحِ بالنِّداء تلطُّفٌ بطلبِ الإقبال على اللهِ، وخلْعِ ما سواهُ؛ تحريضًا للمؤمنين على الجهادِ "بطريقةِ العتاب على التَّباطؤ بإجابةِ دعوةِ النَّفير إلى الجهادِ"[4].

تجلِّي اللُّطفِ الإلهيِّ في عتابِ المؤمنين، بأسلوب مشفق لطيف

علةُ وصفِ المُنادَى بالاسمِ الموصولِ:

وُصِفَ المُنادَى (أيُّ) بالاسم الموصولِ؛ لينبني عليهِ جملةُ صِلةِ ﴿ءَامَنُوٓاْ﴾ بصيغةِ الماضي، زيادةَ تلطُّفٍ بهم بوصفِهم بالوصفِ الغالي ممَّا يحثُّهم على الاستمساكِ به والاجتهادِ في العمل بمقتضاهُ.

الإغراءُ بالتَّحلِّي بما وُصِفوا بهِ

بلاغةُ التَّعبيرِ بالاستفهامِ المجازيِّ:

في قولهِ: ﴿مَا لَكُمۡ إِذَا قِيلَ﴾، وفيه ﴿مَا﴾: استفهامٌ إنكاريٌّ،

(1) حجازيّ، التّفسير الواضح: 10/72، ومجمع البحوث، التّفسير الوسيط: 3/1701.
(2) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/153.
(3) الجزائريّ، أيسر التّفاسير: 2/370.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/195.

الإنكارُ والتَّوبيخُ من طرائقِ العتابِ، المؤديّة للمراد بدقّة

والمعنى: أيُّ شيءٍ، و﴿لَكُمْ﴾: خبرُ الاستفهامِ، أيْ: أيُّ ثبْتٍ لكم؟[1] أو استفهامٌ معناهُ: التَّقريرُ والتَّوبيخُ، التَّقديرُ: أيُّ شيءٍ يمنعُكم عن كذا؟ كما تقول: ما لكَ عن فلانٍ مُعرِضًا؟[2]، ويؤيِّده أنَّ الآيةَ نزلت في عتابِ من تخلَّفَ عن رسولِ اللّٰه في غزوةِ تبوك[3]، والاستفهامُ المجازيُّ من سُبُلِ العِتابِ.

سرُّ التَّعبيرِ بـ﴿إِذَا﴾ في: ﴿إِذَا قِيلَ﴾:

تعليقُ التَّباطُؤِ على مجرَّدِ القولِ، أقذعُ العِتابِ

"إذا: ظَرْفٌ تَعَلَّقَ بمعنى الاستفهامِ الإنكاريِّ، على معنى أنَّ الإنكارَ حاصِلٌ في ذلك الزَّمانِ الذي قيل لهم فيه: انفروا"[4]، "وبُني (قيل) للمفعول، والقائلُ هو الرَّسول ﷺ وإن كان المُبَلِّغُ عنه بعضَ أصحابِهِ، لم يُذْكرْ إغلاظًا، ومخاشنةً لهم، وصونًا لذكرِهِ؛ إذ أخْلَدَ إلى الهُوينى والدَّعَةِ مَن أخلدَ، وخالفَ أمرَهُ ﷺ"[5].

وجهُ التَّعبيرِ بفعل الأمر بمقولِ القول:

الاستجابةُ لأمرِ اللهِ بجدٍّ ونشاطٍ، يدلُّ على صدقِ الإيمانِ

قوله: ﴿ٱنفِرُواْ﴾، أي: اخرُجوا مسرعين بجدٍّ ونشاط جماعاتٍ ووُحْدَانًا، إمدادًا لحزبِ اللّٰهِ ونصرًا لدينِهِ؛ تصديقًا لدعواكم الإيمانَ"[6]، وذلك لما في دلالة الفعل من الانتقالِ من مكانٍ إلى مكان.

دلالةُ التَّعبيرِ بحرفِ الوِعاءِ ﴿فِي﴾ بدلَ حرفِ الانتهاءِ (إلى):

الانغماسُ في الجهادِ في سبيلِ اللهِ، مرغوبٌ فيهِ

عبَّرَ النَّظمُ الكريمُ بالظَّرفِ ﴿فِي﴾، والفعلُ (نفر) يتعدَّى بـ (إلى)؛ لأنَّه انتقالٌ من مكانٍ إلى مكانٍ على سبيلِ الإهاجةِ، إلَّا أنَّ التَّعدِّيَ بالظَّرفِ هنا ألاحَ إلى ضرورةِ تلبُّسهم بالجهادِ تلبُّسَ مَن أحاطَ بهِ الشَّيءُ من كلِّ جانبٍ، ولو عبَّر بـ (إلى) لما أدَّى هذا المعنى.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/197.
(2) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 10/206.
(3) الثعلبيّ، الكشف والبيان: 13/369.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/197.
(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/44.
(6) البقاعيّ، نظم الدّرر: 3/317.

بلاغةُ الاستعارة التّصريحيّة:

بروز معاني الدِّين ومعالمه كاملة، في مقارعة العِدا

النفرة في سبيل الله هو الجهادُ[1]، ويمكن أن يكون قوله: ﴿ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ مرادًا به الدِّينُ كلُّه على سبيل الاستعارةِ التصريحيَّةِ؛ باستخدام اللفظ في غير معناه الأصلي، بناء على وجود علاقة مشابهة بين المعنيين، بجامع تحمُّل المشاقِّ في تَحْصِيل المَطْلُوب، تظهر فيها دلالةٌ على فوائدَ كثيرةٍ، منها: تنزيهُ المؤمنين عن إرادةِ الدُّنيا بجهادِهم من متاعٍ أو رياشٍ أو استكثارٍ، وذِكْرُ ﴿سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ هنا إلهابٌ وتحميسٌ، واستهانةٌ بما يلاقونَ من ظمأٍ ونَصَبٍ ومخمصةٍ وتعبٍ وعَنَتٍ، وما ينفقون في ذلك من نفقاتٍ، ويقطعونَ من وديانٍ وبرارٍ وقِفارٍ، ويعانون من مكابدةِ الحرِّ الشَّديد أو البرد القارسِ، وما يفارقون أهليهم وأبناءَهم المُدَدَ الطِّوالَ.

كما أنَّه يشعرُهم بمراقبةِ الله لهم واطِّلاعه ومعيَّتِه، فيعوِّدُهم الانضباطَ رعايةً لحدوده، ووفاءً بعهدِه، واتِّباعًا لشرعِه، ويقوِّي فيهم رابطةَ الأخوَّةِ الإيمانيَّةِ، ويستخرجُ منهم مواقفَ الانفعالِ بها، والاعتمال لها، بما يعوِّدهم الإيثارَ والتَّضحية، والتَّعاونَ على البرِّ والتَّقوى، ويليِّنُ قلوبَهم وطباعَهم لقبولِ التَّناصحِ وإبدائه، ويجمعُ آمالَهم على الرَّغبِ إلى الله وطلبِ ماعندَهُ من منازلِ الآخرةِ، ويُرَخِّصُ الدُّنيا في أعينِهم، فتتساقطُ زهرتُها ذابلةً عن إغرائِهم وإغوائِهم، فيحيونَ للقِيَمِ ومكارمِ الأخلاق التي بعثَ رسولَهم ليتمِّمَها، ويرونَه ﷺ إمامَهم في ذلك كلِّه، يتقدَّمُهم في الجهادِ، حتَّى إنَّهم ليتَّقوا بهِ، وإنَّ الشُّجاعَ منهم لَلَّذي يحاذي به، فتَحَلُّوا لهمُ الأسوةُ فيه والامتثالُ له، كلُّ ذلك وتضاعيفُ أضعافهِ ممَّا يندرِجُ تحتَ قولهِ: ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ في موضعِها من الآية.

(1) ابن جرير، جامع البيان: 11/458.

غرضُ التَّعبيرِ بالمجازِ:

التَّقاعسُ والسُّكونُ إلى الرَّاحةِ، وتركُ الجهادِ من أعظم المذامِّ

قوله: ﴿ٱثَّاقَلۡتُمۡ إِلَى ٱلۡأَرۡضِۚ﴾، وفيه صيغة ﴿ٱثَّاقَلۡتُمۡ﴾ التي تجسِّدُ بمعناها الصَّوتي وإيقاعِها الجَرْسيِّ المعنى الَّذي تحملُهُ، وهو المعنى الحسِّيُّ الذي يكون فيه الجسمُ متراخيًا ثقيلًا، وقد عُدِّي التَّثاقلُ بـ(إلى)، والأصل فيه أن يتعدَّى بـ(عن)، وهذه اللَّطيفةُ تفيدُ تضمينَ (اثَّاقل) معنى (مالَ)، كأنَّ المعنى: (مِلْتُم إلى الأرضِ مع تباطؤٍ شديدٍ)، فكأنَّهم من تقاعسِهم يطلبونَ الوصولَ إلى الأرضِ للقعودِ والسُّكونِ بها، مائلين إلى الدُّنيا ولذائذِها كارهين الجهادَ ومشاقَّهُ، "والتَّثاقلُ: تكلُّفُ الثِّقَلِ، أي: إظهارُ أنَّه ثقيلٌ لايستطيع النُّهوضَ، والثِّقَلُ: حالةٌ في الجسم تقتضي شدَّةَ تطلُّبِهِ للنُّزول إلى أسفلَ، وعُسْرَ انتقالِه، وهو مُسْتعملٌ هنا في البُطْءِ مجازًا مرسلًا"[1]؛ بما حلَّ فيهم من جُبْنٍ وخَوَرٍ وإخلادٍ إلى الأرض المعبَّرِ عنها في السُّورةِ في قوله: ﴿وَمَسَٰكِنُ تَرۡضَوۡنَهَآ أَحَبَّ إِلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٖ فِي سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ٢٤﴾ [التوبة: 24].

أو باعتبارِ ما جذبَهم من برد الظِّلال وطيبِ الهواء ونضْج الثِّمار وظلال المساكنِ حتى (كانوا أرضيِّين في سفولِ الهِمَمِ لا سمائيِّين في طهارة الشِّيم) على حدِّ عبارةٍ للبقاعيِّ رحمه الله[2].

أو باعتبارِ ما كانَ من ثِقْلَةٍ وتشبُّثٍ، وقَعْدَةٍ وتلبُّثٍ، أو باعتبارِ ما سيكونُ المعبَّرُ عنهُ تفسيرًا بالجمعِ بينَ الآيةِ، وما يزيدُ في ثناياها للتَّفسير بقول عليِّ بنِ أبي طالبٍ رضي الله عنه: ﴿أَرَضِيتُم بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِۚ﴾ بدلًا، وبالذُّلِّ والهوان من العزِّ خلفًا[3]؟ أو أنَّ ذلك كنايةٌ عن عدمِ الانبعاث بما يُخلِّف من جثومِ همومٍ وإحاطةِ غمومٍ وارتخاءِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/197.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/197.
(3) ابن الأثير، الكامل في التّاريخ: 2/698.

أعضاءٍ وخذلان قوًى، وعن خَوَرِ النَّفس وثِقَلِ الأوزارِ والأكدار بسوءِ الظَّنِّ بالنَّبيِّ وأتباعهِ المجاهدين معه على نحو ما في سورة الفتح: ﴿بَلۡ ظَنَنتُمۡ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ﴾ إلى قوله: ﴿وَكُنتُمۡ قَوۡمَۢا بُورٗا ١٢﴾ [الفتح: 12]، أو تكونُ استعارةً تمثيليَّةً من تشبيهِ معافًى بمريضٍ خانتْهُ قواه، وأخلفتْهُ سابقَ عهدهِ ومألوفِهِ منها رِجلاهُ.

"وفيهِ تعريضٌ بأنَّ بُطْأَهم ليس عن عجزٍ، ولكنَّه عن تعلُّقٍ بالإقامةِ في بلادِهم وأموالِهم، ومجموعُ قولهِ: ﴿ٱثَّاقَلۡتُمۡ إِلَى ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ تمثيلٌ لحال الكارهين للغزوِ المتطلِّبين للعذرِ عن الجهاد كسلًا وجُبْنًا بحال من يُطلب منه النُّهوضُ والخروجُ، فيقابلُ ذلك الطَّلبَ بالالتصاقِ بالأرضِ، والتَّمكُّنِ من القعودِ، فيأبى النهوضَ فضلًا عن السَّير"[1].

حُسنُ موقعِ الجِناسِ اللَّفظيّ:

قوله تعالى: ﴿ٱلۡأَرۡضِۚ أَرَضِيتُم﴾، فيها الجناس، وقد أعانَ القرآنُ الكريمُ - بحلاوةٍ له، وطلاوةٍ عليه، وعذوبةِ ألفاظِه، وخلابةِ ألحانِه، وجمالِ تَهَدِّيه، وجلالِ تَمَشِّيه في الأسماع، واستهوائهِ العقولَ، وخلْبِهِ الألبابَ - أُمَّةَ النَّبيِّ، ولا سيَّما المتذَوِّقين منهم للبيان، العالمين بأسرارهِ إلى ترديدهِ والتَّغنِّي بهِ، والتَّلذُّذِ بترتيلهِ؛ ممَّا جعَلَهم يتشبَّعون بهداياتهِ، ويتَملَّؤُونَ بحقِّهِ، وتسطعُ عليهم لائحةُ أنوارهِ، ومِن ذلك خصائصُهُ اللَّفظيَّة والصِّياغيَّةُ الَّتي لا يقدِرُ على مثلِها، وإن اجتمعَ لها مصاقيعُ الأقوال الحسانِ من الإنسِ والجانِّ. وفي السِّياق الكريم ورد التعبيرُ بلفظين متشابهين في النطق ومختلفين في المعنى، وهما: ﴿ٱلۡأَرۡضِۚ أَرَضِيتُم﴾، وهو جناسٌ لفظيٌّ غير تامٍّ بين كلمتي: ﴿ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ و﴿أَرَضِيتُم﴾، فهما متفقتان في نوع الحروف وهيئتها، ومختلفتان في معناها؛ فكلمة ﴿ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ تعني: الراحةَ وشهواتِ الدنيا الفانية، والإقامةَ بالدِّيار، وكراهةَ الجهاد في سبيل

التّثاقلُ عن الجهاد في سبيل الله خسران، والتّمسُّك بالدّنيا ذُلٌّ وهوان

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/469.

اللّه مع أنه ذِرْوة سَنام الإسلام، وكلمة ﴿أَرَضِيتُم﴾ فعل ماضٍ يدلُّ على الرضا والتباطؤِ عن الجهاد، والتعجيبِ من ركون المخاطبين إلى الدّنيا، مع أنَّ إيمانَهم يتنافى مع ذلك، والمعنى البلاغيُّ من هذا الجناس هو التنبيهُ على أنَّ من تثاقلَ عن الجهاد في سبيل اللّه وتمسَّك بالدنيا، فقد رضي بالذُّلِّ والخُسْران.

لطيفةُ الاستفهامِ المجازيِّ:

التَّوبيخُ بابٌ مِن أبوابِ العِتابِ، واستخدامُ الاستفهامِ في النَّهي تلطُّفٌ

قوله: ﴿أَرَضِيتُم﴾ استفهامُ إنكاريٌّ توبيخيٌّ[1]، فلا يليقُ بالمؤمنين أن يرضوا بالدُّنيا بدلًا عنِ الآخرةِ، ويمكنُ أن يكونَ معناهُ النَّهيَ، فكأنَّ التقديرَ: لا ترضوا بها، فإنَّ ذلك أسفهُ رأيٍ وأفسدُه[2]، ويؤيِّد هذا المعنى قولُه: ﴿فَمَا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾؛ فإنَّه تعليلٌ لهذا النَّهي، وإهاجةٌ على التَّركِ.

بلاغةُ التَّعبيرِ بالإظهارِ، في مقامِ الإضمارِ:

التَّقريرُ وتثبيتُ المعنى، يؤدِّي إلى الإقلاعِ عن غيرِ المرغوبِ فيهِ

قولُه: ﴿فَمَا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾، إظهارٌ في مقامِ الإضمارِ، إذ مقتضى ذكرِ الحياة الدنيا في السِّياق الكريم بقوله: ﴿بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾، أن يكونَ التركيبُ على وجه الإضمار: (فما متاعُها)، لكنه عَدَل إلى الإظهار في هذا المقام؛ لزيادةِ التَّقريرِ، أي: فما التَّمتُّعُ بلذائذِها في جَنْبِ لذائذِ الآخرة إلَّا قليلٌ، والمرادُ بهذا الأسلوبِ الاستفهامُ عن قيمة المتاعِ وقِلَّته وزواله، والغرضُ منه التحقيرُ والتنبيهُ والتحذيرُ من الانشغال بالدنيا عن الآخرة، كما أنَّ في الإظهار توجيهًا للعناية بالمعنى، وإبرازًا له.

معاني حرفِ الجرِّ:

تنوُّعُ الدِّلالةِ ثراءٌ في المعنى، وتصويرٌ للخِسَّة في الاختيار

تظاهرَتْ أقوالُ المعربينَ والمفسِّرين على أنَّ ﴿مِنَ﴾ في الآية الكريمة: ﴿مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِۚ﴾ بمعنى (بدلَ)، كقولهِ: ﴿لَجَعَلۡنَا مِنكُم

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/198.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 3/318.

مَّلَٰٓئِكَةً﴾ [الزخرف: 60] أي: بدلَكم[1]، وفي معنى البدليَّة إشارةٌ إلى استبدالِهم الخسيسَ بالنَّفيس، والغَارَّ الفاني بالخالدِ الباقي، ويمكنُ أن تكونَ لابتداء الغايةِ، كأنَّ المعنى: أنَّ إقبالهم على الدُّنيا كأنَّه مبتدئٌ من إعراضِهم عن الآخرة، كأنَّه قيل: أرضيتُم بالميلِ إلى الدُّنيا مبتدئينَ مِنَ الإعراض عن الآخرة[2]؟

موقعُ قولِهِ: ﴿فَمَا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ ممَّا قبلَهُ:

وقعتْ هذهِ الجملةُ ممَّا قبلَها موقعَ التَّعليلِ؛ لما أثارَهُ الاستفهامُ الإنكاريُّ التَّوبيخيُّ المفيدُ النَّهيَ، كأنَّ الجملةَ جاءتْ بمنزلةِ التَّعليل للنَّهي السَّابق، والتَّعليلُ عقيبَ النَّهي يُهيِّجُ النَّفسَ إلى الإقلاعِ عن المنهيِّ عنهُ وتركِهِ.

التَّعليلُ يُعينُ النَّفس على التَّركِ، ويُلْهِبُها على الإقلاعِ

معنى الفاءِ في قولِهِ: ﴿فَمَا﴾:

الفاءُ هنا للإفصاحِ عن شرطٍ مقدَّرٍ؛ لأنَّها تُفْصِحُ عن شرطٍ مقدَّرٍ تقديرهُ: إذا كنتُم رضيتُم ذلك؛ فما متاعُ الحياةِ الدُّنيا في الآخرةِ إلَّا قدرٌ قليلٌ ضئيلٌ.

وظيفةُ الفاء الفصيحة الإبانةُ عن شرطٍ مقدَّرٍ

سرُّ التَّعبيرِ بأسلوبِ القصرِ:

قولهُ: ﴿فَمَا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾، جاءت فيه الجملةُ التّعليليَّةُ في ثوبِ أسلوبِ القصرِ، واصطفى النَّظمُ من طُرُقِ القصرِ النَّفيَ والاستثناءَ، وهما يساقانِ في مواجهةِ إنكارِ المخاطَبِ، لذا عدَّهُ البلاغيُّون مِن أقوى طُرُقِ القصرِ، واصطفاءُ أسلوبِ القصر في هذا السِّياق هو الملائمُ للمقام؛ لما فيه من توكيدِ المعنى وتمكينهِ في النَّفس، فقياسُ متاعِ الحياة الدُّنيا بالحساب إلى الآخرةِ قليلٌ، وهو من أساليب الحِجاجِ؛ لأنَّه تضمَّنَ في طيَّاته مقايسةً وطباقًا بين الحياةِ الدُّنيا والآخرةِ.

تمكينُ المعنى وتقويتُهُ، يقنِعُ العقولَ، ويُعلي الحُجَّةَ

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/518، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 10/207، والسّمين الحلبيّ، الدّر المصون: 6/50.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 3/318.

دلالةُ حرفِ الجرّ على المقايسةِ:

من أساليبِ الإقناعِ في الحوارِ: الظَّرفيَّةُ المجازيَّةُ

اصطفى النَّظمُ الكريمُ حرفَ الجرِّ ﴿فِي﴾؛ ليدلَّ بهِ على المقايسة، وقد جعلوا المقايسةَ من معاني (في) - كما في التَّسهيل[1] والمغني[2] واستشهدوا بهذه الآية - وهو في التَّحقيق من معاني، أي: متاعُ الحياةِ الدُّنيا إذا أُقحِمَ في خيرات الآخرةِ؛ كان قليلًا بالنِّسبةِ إلى كثرة خيرات الآخرة. فالتَّحقيقُ أنَّ المقايسةَ معنًى حاصلٌ لاستعمال حرفِ الظَّرفيَّة، وليس موضوعًا له حرفُ (في)[3]، لذا قالوا: قولُهُ: ﴿فِي ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ متعلِّقٌ بمحذوفٍ من حيثُ المعنى، تقديرهُ: فَما متاعُ الحياةِ الدُّنيا محسوبًا في الآخرةِ[4].

وعبارة ابن مالك رحمه الله بأن المقايسةَ هي: "الدَّاخِلَةُ بَين مفضول سَابق وفاضل لَاحق"[5]، نَحْو الآيةِ الكريمة، فهي مثالٌ على المقايسة الخفيَّة؛ إذ وازن الله تعالى بين الحياة الدنيا - وهي المفضول السَّابق - والحياة الآخرة - وهي الفاضل اللّاحق - في معنى المتاع أو النعيم، وأظهرَ الفرقَ الشاسعَ بينهما، والتفضيلَ البيِّنَ للآخرة على الدنيا. والغرضُ من هذه المقايسةِ هو التنبيهُ والتحذيرُ من الانشغال بالدنيا عن الآخرة، والترغيبُ والتشويقُ للآخرةِ وما عند الله للمتقين في جنانه.

بلاغةُ استخدامِ الطِّباقِ:

التَّضادُّ: جهةٌ جامعةٌ في مباني العقولِ، وهو أنسبُ للحجاجِ

اقتضى أسلوبُ المقايسةِ في قولهِ: ﴿ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ﴾، - وهو أقوى أساليبِ التَّعليل، وأعلى وسائلِ الإقناعِ في الحِجاج - استخدامَ الطِّباقِ هاهنا، وكلُّ ذلك يعاونُ في بيان قلَّةِ متاعِ الدُّنيا، ويناصرُ النَّهيَ عنِ الإخلادِ إليها، والطِّباقُ بين الدُّنيا والآخرةِ، لكنَّه ذكرَ

(1) ابن مالك، شرح تسهيل الفوائد: 3/156.
(2) ابن هشام، مغني اللبيب، ص: 225.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 10/198.
(4) السّمين الحلبيّ، الدّر المصون: 6/51.
(5) ابن مالك، شرح تسهيل الفوائد: 3/156.

الدُّنيا وصفًا للحياة، ولم يَذكُرْ في المقابلِ الحياةَ موصوفًا للآخرة، تسليطًا على المدَّةِ القصيرة ذكرَ الحياةَ موصوفًا للدُّنيا، وحذفَها في الآخرة إلماعًا إلى عدمِ ارتباطِها بالزَّمن، فهي دارُ الخلودِ، ولم يذكر "متاعَ الآخرةِ لكثرتِه، ولأنَّ الإيمانَ بها في ذاتِه سعادةٌ غيرُ محصورةٍ، فهي علوٌّ في إدراكِ النَّعيم المقيم الثَّابت الدَّائم"[1].

دلالةُ التَّنكيرِ:

التَّنكيرُ في لفظ ﴿قَلِيلٌ﴾ يفيدُ التَّقليلَ والتَّحقيرَ مُدَّةً، وهو استعمال اللفظ في صورة النكرة بدل المعرفة، أي أنَّ متاع الدنيا لا يستحقُّ أن يعرَّف بالألف واللام، بل هو قليلٌ حقيرٌ صغيرٌ سريعُ الزوال، لا يقاس بمتاع الآخرةِ الذي هو خير وأبقى وأعظم. وكيفَ وهو مناسبٌ لسياق التَّزهيدِ في الدُّنيا وذمِّ الإخلادِ إليها؟

القلَّةُ والحقارةُ وصفانِ ملازمانِ للحياةِ الدُّنيا:

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

رضي، وآثر، وفضَّل:

آثرَ: آثرْتُكَ: أي: فضَّلْتُك، وقوله تعالى: ﴿وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝٣٨﴾ [النازعات: 38]: فضَّلها، أي: تمسَّك بها واستبقاها[2]، "والإيثارُ في اللُّغةِ: تقديمُ الشَّيءِ، واختصاصُه بالفضل"[3].

التَّفضيلُ في اللُّغةِ: الزِّيادةُ في الفضل والخير، وقد راعى القرآنُ الكريمُ السِّماتِ الدِّلاليَّةَ الخاصَّةَ لكلا اللَّفظين، فاستعملَ الإيثارَ بمعنى: تقديمِ الشَّيءِ على غيرِه، سواءٌ استحقَّ التَّقديمَ أم لم يستحقَّ، فممَّا يستحقُّ التَّقديمَ ما وردَ في قولِ الله تعالى: ﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا﴾ [يوسف: 91]، وممَّا لا يستحقُّ التَّقديمَ ماورد في قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ۝٣٧ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝٣٨ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ

الرِّضا خلافُ السُّخطِ، والإيثارُ تقديمُ الشَّيءِ، والتَّفضيلُ الزِّيادةُ في الفضل والخير

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 3306/6.
(2) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (أثر).
(3) محمّد داود، معجم الفروق الدّلاليّة، ص: 31.

ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ [النازعات: 37 - 39]، فهذا من تقديم الأَدْنى على الأعلى، أمَّا التَّفضيلُ؛ فقدِ استُعمِل - حيثُما وردَ في القرآن الكريم - بمعنى الزِّيادة في الفضل والخيرِ، ومن ذلك قولهُ تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [البقرة: 253]، ﴿فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً﴾ [النساء: 95][1].

رضي: المعنى المحوريُّ: تشبُّعُ النَّفسِ، وامتلاؤها بَلَالًا، ورِقَّةً أخذًا مِن (رضض)، ومِن مِثل: أراضَ: شرِب علَلًا بعدَ نَهَلٍ حتى نَقَع رِيًّا، والرِّضا خلافُ السُّخطِ: رضيتُ به، ورضيتُ عنه[2]، وقد اختيرَ فعلُ ﴿رَضِيتُم﴾ هنا دون (آثرتم) مبالغةً في الإنكارِ؛ لأنَّ الفعلَ (رضي) يدلُّ على انشراحِ الصَّدرِ[3] وتشبُّعِ النَّفْس وامتلائِها، أمَّا الإيثارُ؛ فتفضيلٌ وتمسُّكٌ.

ولم يكونوا؛ ليؤثروا الدُّنيا على الآخرةِ، فيما يُدْعَون إليه - واستجاب الخُلَّص له - ولأن الرضا بالحياة الدنيا من شأن الكفار، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُواْ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّواْ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾ أُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٨﴾﴾ [يونس: 7 - 8].

(1) محمد داود، معجم الفروق الدّلاليّة، ص: 32، 31.

(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (رضي).

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/198.

﴿إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبۡكُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيۡـٔٗاۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ٣٩﴾ [التوبة: 39]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

ترغيبُ النُّفوس في دواعي الجهاد، والتّلويح عند التّخلف، بالاستبدال وسوء المآل

"لمَّا رغَّبَهم في الآية الأولى في الجهادِ بناءً على التَّرغيبِ في ثواب الآخرةِ؛ رغَّبهم في هذه الآية في الجهاد بناءً على أنواعٍ أُخَرَ من الأمور المقوِّية للدَّواعي"[1]، ويرى البقاعيُّ الانتقالَ من الوعدِ والتَّرغيب إلى الوعيدِ والتَّرهيب[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَيَسۡتَبۡدِلۡ﴾: مِن (بدل): الباءُ والدَّالُ واللَّام أصلٌ واحدٌ، وهو قيامُ الشَّيءِ مقامَ الشَّيءِ الذَّاهب، يقال: هذا بدلُ الشَّيءِ وبديلُهُ، ويقولون: بَدَّلْتُ الشَّيءَ؛ إذا غيَّرتُهُ، وإن لم تأتِ له ببدلٍ، قال الله تعالى: ﴿قُلۡ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلۡقَآيِٕ نَفۡسِيٓۖ﴾ [يونس: 15][3] "الإبدالُ والتَّبديلُ والتَّبدُّل والاستبدالُ: جعلُ شيءٍ مكانَ آخرَ، وهو أعمُّ مِنَ العِوَض، فإنَّ العِوضَ هو أن يَصيرَ لك الثاني بإعطاءِ الأوَّل، والتَّبديل: قد يقال للتَّغييرِ مطلقًا، وإن لم يأتِ ببدَلِهِ"[4]، والمرادُ هنا: إهلاكُهم والإتيانُ بقومٍ غيرِهم.

2) ﴿تَضُرُّوهُ﴾: من (ضرَّ): الضَّادُ والرَّاءُ ثلاثةُ أصولٍ؛ الأوَّلُ: خلافُ النَّفع، والثَّاني: اجتماعُ الشَّيءِ، والثالثُ: القوَّةُ... فالآيةُ من الأوَّلِ، الضَّرُّ ضدُّ النَّفع، ويقال: ضَرَّهُ يضرُّهُ ضَرًّا، ثمَّ يُحمَلُ على هذا كلُّ ما جانسَهُ أو قاربَهُ، وأمَّا الأصلُ الثَّاني: فضَرَّةُ الضَّرْع: لحمَتُه، وضَرّةُ الإبهام:

(1) الفخر الرازيّ، مفاتيح الغيب: 14/63.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 3/319.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (بدل).
(4) الرّاغب، المفردات: (بدل).

اللَّحمُ المجتمع تحتها، وأمَّا الثالثُ؛ فالضَّرير: قوَّةُ النَّفس، ويقالُ: فلانٌ ذو ضريرٍ على الشَّيءِ، إذا كان ذا صبرٍ عليهِ ومقاساةٍ[1]، والضُّرُّ: سوءُ الحالِ، إمَّا في نفسِه، وإمَّا في يديه، وإمَّا في حالةٍ ظاهرةٍ من قلَّةِ مالٍ وجاهٍ، يقال: ضرَّهُ يضرُّه: جلبَ إليه ضُرًّا، وقوله: ﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى﴾ ينبِّههم على قلَّةِ ما نالهم من جهتِهم، ويؤمِّنُهم من ضررٍ يلحقُهم"[2]، والمعنى المرادُ هنا: أنَّ اللّهَ لا يضرُّه شيءٌ، ولا أيُّ نوعٍ من أنواعِ الضَّررِ، ولارسولَهُ حينما يعذِّبُكم، ويهلِكُكم، ويأتي بآخرين.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

هذا إنذارٌ عامٌّ خالدٌ يشمَلُ العصورَ كلَّها منَ اللّه لكلِّ الذين يتركونَ الجهادَ، ولاينفِرون في سبيل اللّهِ؛ فقد أنذرَ في هذه الآيةِ بالعذاب والسُّخط والهلاكِ، وبإتيانه بقومٍ آخرين ينفِرون إذا استُنْفِروا، ويطيعون اللّه ورسوله، وأنَّه لا ضررَ على اللّه ورسوله[3] شيئًا بتولِّيكم عن الجهاد؛ فهو الغنيُّ عنكم وأنتم الفقراء إليه، فهو - جلَّ وعزَّ - على كلِّ شيءٍ قديرٌ.

التّهديدُ لمَن يتركون الجهاد، لأنّه ضمانٌ للحفاظ على الدّين، وحماية الأمّة

وترشدُ الآيةُ الكريمة إلى أنَّ سُنَّةَ اللّه مَضَتْ بأنه لا بقاءَ للأمم التي تتثاقلُ عن الدفاع عن نفسها، وحفظِ حقيقتِها وسيادتِها، ولا تتمُّ فائدةُ القوة الدفاعية والهجومية إلا بطاعة الإمام، فكيف إذا كان الإمام والقائدُ هو النبيُّ الموعود من ربه بالنصر[4]؟

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

موقعُ الآيةِ ممَّا قبلَها ودلالتُه:

هذا تهديدٌ ووعيدٌ لتاركِ النَّفير[5] "هذا وعيدٌ وتهديدٌ عَقِبَ الملامِ

تعقيبُ اللَّومِ بالتَّهديدِ، أكبرُ زَجْرٍ عنِ العودِ للمَنهيِّ عنهُ

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ضر).
(2) الرّاغب، المفردات: (ضر).
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 3307/6.
(4) محمد رضا، تفسير المنار: 595/10.
(5) ابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 10/93.

السَّابق؛ لأنَّ اللَّومَ وقعَ على تثاقُلٍ حصلَ، ولمّا كان التَّثاقلُ مُفضيًا إلى التَّخلُّف عنِ القتالِ؛ صرَّح بالوعيدِ والتَّهديدِ إن يعودوا لمثلِ ذلك التَّثاقل، فهو متعلِّقٌ بالمستقبلِ، كما هو مقتضى أداةِ الشَّرط، فالجملةُ مستأنفةٌ لغرض الإنكارِ بعدَ اللَّوم"[1].

بلاغةُ التَّعبيرِ بجملةِ الشَّرط:

قوله: ﴿إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبۡكُمۡ﴾، وفيه اصطفاءُ أسلوبِ التَّعليقِ في التَّهديد بيانٌ لهم أنَّ العذابَ الذي سيقعُ بهم سيكونونَ هم سببُه؛ لأنَّهم أخلُّوا بالشَّرط، فتسبَّبوا في إيقاعِ العذابِ بأنفسِهم، كما أنَّ في استخدامِ أسلوب الشَّرط تخفيفًا لوطأةِ التَّهديد لما في التَّعليق من عدمِ المعاجَلَةِ.

العذابُ سببُهُ ممَّن وقعَ بهِ لا مِن غيرِهِ

سرُّ التَّعبيرِ بفعلِ الشَّرطِ ﴿تَنفِرُواْ﴾:

اصطفاءُ النَّظم الكريم فعلَ الشَّرطِ ﴿تَنفِرُواْ﴾ ينادي على آيةِ اللَّوم؛ ليتناسبَ اللَّومُ مع التَّهديد، وليكونَ ضدَّ التَّثاقلِ موطنِ اللَّومِ السَّابق، وفيه إلماعٌ إلى أنَّه لا يُزيلُ اللَّومَ ترْكُ الفعلِ موطنِ اللَّومِ فحسبُ، ولكن بالعملِ بضدِّه، وهو ما يحقِّقُ المطلبَ الشَّرعيَّ.

لا يُزيلُ اللَّومَ إلَّا فِعلُ ضدِّ ما أدَّى إليه

وجهُ التَّعبيرِ بالمضارعِ، في طرفي جملةِ الشَّرطِ:

في قولهِ: ﴿إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبۡكُمۡ﴾، جاءَ التَّعبيرُ بالمضارعِ في طرفي جملة الشَّرطِ من الفعلِ والجواب؛ دلالةً على تجدُّدِ عذابِ اللّه في الدنيا بإنزال المصائب بكم، وفي الآخرة بنار جهنم كلَّما تجدَّد عدمُ النَّفير للجهاد، وهو ألصقُ بمقام التَّهديد، ويؤيده حديث المصطفى - ﷺ المبيِّنِ لمعاني الذكر الحكيم - بقوله: «إذا تبايَعْتُم بالعِينةِ، وأخذتُم أذنابَ البقرِ ورضِيتُم بالزَّرعِ، وتركتُم الجهادَ، سلَّط اللّهُ عليكم ذُلًّا لا ينزِعُه حتى ترجِعوا إلى

الجهادُ عظيمُ الشَّأنِ، ويناسبُه تجديدُ الوعيدِ، بتركه واستمرارُهُ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/199.

دينِكم»[1]، كما أنَّ أسلوب الشرط في الآية أَبَرُّ بسياق الحثِّ على الجهادِ في سبيلِ اللّهِ.

سرُّ تنكيرِ لفظ ﴿عَذَابًا﴾:

التَّنكيرُ المفيدُ التَّنويعَ والتَّهويلَ، ألصقُ بمقامِ التَّهديدِ

وقعَ لفظُ ﴿عَذَابًا﴾ مفعولًا مطلقًا؛ لبيان أنَّه عذابٌ حقيقيٌّ لا مجازيٌّ، و" ذكر العذابَ منكَّرًا مطلقًا، والتَّنكيرُ لتعظيمِ هذا العذابِ، وأنَّه شديدٌ يتطابقُ في شدَّتِهِ مع التَّثاقلِ عن الجهادِ عند وجودِ موجبِهِ، ودعوةِ الإمام الحقِّ إليه، وإطلاقُهُ يفيدُ تعدُّدَهُ، وكثرَتَهُ، فهو يشمَل الغزوَ من الأعداءِ، والذِّلَّةَ والمهانةَ والصَّغارَ، هذا في الدُّنيا، أمَّا يومُ القيامةِ، فنارُ الجحيم وغضبُ اللّهِ، وسخطُه، وبعدُه عنهُ"[2]، ففي التَّنكيرِ شمولٌ وعمومٌ لكلِّ أنواعِ العذابِ في الدُّنيا والآخرة.

نكتةُ وصفِ العذابِ بـ ﴿أَلِيمًا﴾:

المبالغةُ في التَّهديدِ، تدعم الإقلاعَ عنِ المنهيِّ عنهُ

وصْفُ المفعولِ المطلقِ المنَكَّرِ الذي أفادَ التَّهويلَ والتَّنويعَ بالألَم؛ زادَ في التَّهديد وأعلى منهُ، وهو فعيلٌ بمعنى فاعلٍ، وهو مجازٌ عقليٌّ حيثُ أسندَ الإيلامَ إلى العذابِ، والمجازُ العقليُّ هاهنا يفيدُ قوَّةَ المعنى والمبالغةَ فيه، فالمعنى: العذابُ - المهدَّدُ به - كلُّه هولٌ، وأنواعُه كثيرةٌ، وكلُّها مؤلمٌ، وهذا مما يُلهِبُ على الإقلاعِ عنِ المَنْهيِّ عنهُ.

بلاغةُ التَّعبيرِ بالاستبدال بقوم آخرين:

تنويعُ أساليبِ التَّهديدِ محفِّزٌ ومُعينٌ، على الإقلاعِ عنِ المنهيِّ عنهُ

بقوله: ﴿وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾، عُطِفَت هذه الجملةُ على ما قبلَها، إشعارًا بإنَّ الإهلاكَ لا يكونُ إلَّا بعدَ العذابِ بصنوفٍ وألوانٍ في الدُّنيا، ثمَّ يكونُ المحوُ والتَّبديلُ والتَّغيير، والسِّين والتَّاء للتَّأكيد، وللانتقاء الَّذي يُعبَّر عنه بالاختيارِ، والاصطفاءِ والاستخلاصِ

(1) أخرجه أبو داود في سننه، برقم: (3462)، والبزّار في المسند، برقم: (5887)، وصحّحه الألبانيُّ بمجموع طرقه، السّلسلة الصحيحة: (11).

(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 3307/6.

والاصطناعِ، والبدلُ هو المأخوذُ عوضًا، كقولهِ: ﴿وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلۡكُفۡرَ بِٱلۡإِيمَٰنِ﴾ أي: ويستبدلْ بِكم غيرَكم.

فضلُ معنى عطْفِ الجملتين بالواو:

نفاذُ التَّهديدِ إلى كلِّ فردٍ بعينهِ، كأنَّه موجَّهٌ إليه خاصَّة

التَّهديدُ بعدمِ الإهمال بالاستئصالِ بعدَ التَّعذيبِ قاضٍ باستيفائِهم آجالَهُم فيه، وهذا لا شكَّ مختلفٌ متفاوتٌ، وكلٌّ منهم بحسْبِهِ فيما قدَّرَ له، لينفِّذَ التَّهديد إلى كلِّ فردٍ فيهم، فإفادةُ الواو مطلقَ الجمعِ معَ المشاركةِ في الحكم قاضٍ باستيعابهِم على التَّنويعِ فيهم.

سرُّ عدمِ ذِكْرِهم في الاستبدال:

عدمُ الذِّكرِ أجمعُ للبَلاغِ، وأرعى لمقامِ الخطابِ، وأبلغُ في غرضِهِ

لم تقلِ الآيةُ: (ويستبدل"بكم" قومًا غيرَكم) فكانَ عدمُ ذِكرِهم على هذا النَّحوِ مفيدًا معنى أنَّ اللّهَ لا ينظرُ إلى صورِهم وأجسامِهم، ولكنَّه ينظر إلى قلوبِهم وأعمالِهم وأحلامِهم، وهذهِ قد عُلِمَ فسادُها، فلم يَعُدْ لها أثرٌ يستحقُّ النَّظرَ، وفي هذا من التَّهديدِ أنَّهُ لم يبالِ بِهم، وأنَّ التَّهديدَ هو بعذابٍ يعمُّهم، لا يغادرُ منهم أحدًا، وفيه الإيماءُ إلى مسؤوليَّة مخالطيهم - وليسوا منهم - عن وعظِهم وتذكيرِهم وزجرِهم.

علةُ اختصاصِ الآيةِ لفظَ ﴿قَوۡمًا﴾:

القرآنُ كتابُ الحقِّ والعدلِ، يضع الشَّيءَ في موضعِهِ بدقَّةٍ وإحكامٍ

ذكرَ السِّياقُ الكريم ﴿قَوۡمًا﴾ دون (أمَّةٍ) ودونَ الاكتفاءِ منه بوضعهِ ﴿غَيۡرَكُمۡ﴾، بل جمع بين اللفظتين؛ لأنَّه لو ذكرَ (أمَّةً)، أو أغفلَ ذكرَ القومِ؛ لدخلَ بالذِّكر، واحتملَ بالتَّركِ دخولُ النِّساء والأطفال والعجَزَةِ المعذورين؛ إذ ليس على النِّساء جهادٌ بالاستنفارِ في تلك الغزوةِ، ولا فيما يكفي فيه الرِّجال، لما أنَّ (قومًا)، تعني: (جماعةَ الرِّجالِ) كما تقرَّرَ، وكانوا هم المقصودين دونَ غيرِهم بالوعيد خصَّهم القرآنُ بهِ، فلم يُعَدِّهم إلى غيرِهم؛ حرصًا منه على إقامةِ العدلِ ووضع الجزاءِ موضعَهُ دونَ تزيُّدٍ ممَّا يفعلُه الفجَرَةُ المتغَطْرِسون، فهذا دليلٌ آخرُ أنَّه مِن عندِ اللّه.

وثَمَّ فائدةٌ أخرى لذلك تستحقُّ التَّأمُّلَ: أنَّ القرآنَ لا يبغي للبشريَّةِ حُوبًا، ولا من شأنه أن يسارعَ إلى العقوبةِ تشفِّيًا، بل إنَّه ليفرَحُ بالتَّوبةِ، ويسارعُ إلى المنيبِ يتلقَّفُه بتودُّدٍ، وفتْحِ مغاليقِ أبوابِ الأملِ في وجهِه، كما قال تعالى: ﴿مَّا يَفۡعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمۡ إِن شَكَرۡتُمۡ وَءَامَنتُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمٗا ١٤٧﴾ [النِّساء: 147].

ومن هذا القبيل يُنَوِّعُ الإشاراتِ والإلماحاتِ للعصاةِ المتقحِّمين ليراجِعوا أنفسَهم وما هُم عليه قبلَ فوات الأوان، ومن هذا القبيلِ ما ألمحَ لهم هنا بذكرِهِ ﴿قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ﴾، وهم رجالٌ، فالمعنى المستبطِن: أنَّهم سيخلِّفونكم على نسائِكم وأبنائِكم وأموالكم، فيكون أمضى في الإلهابِ وَأحَدَّ في التَّحفيز، وأجَدَّ في الانبعاث، وأدخلَ للكآبة والهمِّ على المُرتابَةِ قلوبُهم، فَهُم في ريبِهم يتردَّدون.

سرُّ تنكيرِ المفعولِ بهِ:

التَّنويعُ والإبهامُ والوصفُ بالغيريَّةِ، تهديدٌ لمن لم يستجِبْ للنَّفير في سبيلِ الله

وقعَ لفظُ ﴿قَوۡمًا﴾ مفعولًا به منكَّرًا لإفادةِ التَّنويعِ، أي: نوعًا آخرَ، وتقديرُ المعنى: "يستبدلْ بكم قومًا غيرَكم خيرًا منكم وأطوعَ"[1]، كما أنَّ في التنكير إبهامًا لتذهبَ النَّفسُ، فيمن يكون خيرًا منهم كلَّ مذهبٍ، وقد وُصِف المفعولُ به بـ ﴿غَيۡرَكُمۡ﴾ "أي: ذوي بأسٍ ونجدةٍ مخالفين لكم في الخِلالِ الَّتي كانت سببًا للاستبدالِ لولايتِه ونصرِ دينِه"[2]، وفي ذلك تأكيدٌ أنَّهم لن يكونوا منهم، وهو المناسبُ لسياقِ تهديدِ مَن لم يَنْفُر إلى الجهادِ في سبيلِ الله.

فائدةُ التَّعبيرِ بـ ﴿وَلَا تَضُرُّوهُ شَيۡـٔٗاۗ﴾:

تأكيدُ القدرةِ على الضَّررِ وإيقاعِ الهلاكِ بهِم

والواو يمكنُ أن تكونَ حاليَّةً "أي: يعذِّبْكم، ويستبدلْ قومًا غيرَكم في حالِ ألَّا تضرُّوا اللهَ شيئًا بقعودِكم"[3]، والأعلى أنَّها للعطْفِ، و"(لا تضرُّوه) عطْفٌ على (يستبدِلْ) والواوُ فاعلٌ والهاء مفعولٌ بهِ،

(1) الثعلبيّ، الكشف والبيان: 10/373.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 3/318.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/200.

وشيئًا: مفعولٌ مطلق، أي: شيئًا مِنَ الضَّرر"[1]، والمناسبةُ بين هذه الجملة وما عُطِفَت عليه أنَّه "لمّا هدَّدهم بما يضرُّهم؛ أخبرَهم أنَّهم لايضرُّون بفتورِهم غيرَ أنفسِهم"[2]، وقد عبَّرَ بـ (لا) دلالةً على نفي وقوعِ أيِّ ضررٍ حالًا أو استقبالًا، ولو عبَّرَ بـ (لن)؛ لأوهمَ أنَّ النَّفيَ متَّجِهٌ للمستقبل، وعبَّرَ بالفاعل ضميرًا تحاشيًا من ذكرهم صراحةً، بُغضًا لفعلِهم واستقباحًا لوصفِهم، فَهُم متثاقلونَ مخلَّدون إلى الأرض، راكنونَ إلى الدُّنيا.

ووجهٌ ثانٍ دالٌّ على إعجازِ القرآنِ، وأنَّه من عند الله: ذلك أنَّ عدمَ المستجيبين للنَّفْرِ العامِّ مع رسولِ اللهِ وصفوةِ المؤمنين به الخارجينَ معَهُ، قد أسرُّوا في أنفسِهم أنَّ قعودَهم عن الخروجِ لنصرتهِ وتكثيرِ سوادِ مَن مَعَهُ، أمكنُ للأعداءِ منهُ، أن يُوقِعَ الضَّررُ بهِ من جرَّاء ذلك، فأفصحَ القرآنُ بنفي ما أسرُّوهُ، وأبطنوهُ بقوله: ﴿وَلَا تَضُرُّوهُ شَيۡـٔٗاۗ﴾، وإذا أريدَ بالضَّمير النَّبيُّ - كما يرى الزَّجاجُ - بأنَّ الله أعلمَ أنَّه يستبدل لِنَصْرِ دينه ونبيِّه قوماً غيرَ مُثاقِلين عنِ النَّصْرِ إلى أعدائه؛ إذ أعلمهم الله ﷻ أنهم إن تركوا نصره فلن يَضُرَّهُ ذلك شيئاً، كما لم يضرره إذ كان بمكةَ لا ناصرين له[3].

ويمكن أنه أُريدَ بهِ اللهُ، فقد نزَّل اللهُ منزلَهُ إرادةَ الضُّرِّ بنبيِّه أنَّه إرادةُ ذلكَ لَهُ، على حدِّ قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ﴾ [الأحزاب: 57]، وقوله في الحديثِ الشَّريفِ: «قال الله ﷻ: يؤذيني ابنُ آدمَ يَسُبُّ الدَّهْرَ: وأنا الدَّهْرُ، بيَدِي الأمْرُ، أُقَلِّبُ اللَّيْلَ والنَّهارَ»[4]. وكون النِّداء في صدرِ الآية السَّابقة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ مع ما هم عليهِ من إخلاءٍ ذُمُّوا به، ونيَّاتٍ سيِّئةٍ هُدِّدوا عليها، هو بحَسَبِ ما أظهروهُ من ذلك، فعُوملوا بهِ، وخُوطِبوا على أساسهِ.

تنوُّعُ مرجعِ الضَّميرِ ودلالتُه:

الضَّميرُ (الهاء) في ﴿وَلَا تَضُرُّوهُ﴾ إمَّا أن يعودَ إلى الاسم الجليلِ، وهو أقربُ مذكورٍ في الآية السَّابقة ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، وإمَّا أن يعودَ إلى رسولِ الله ﷺ[5]، وهو حاضرٌ في

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 4/101.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 3/317.
(3) الزجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 2/448.
(4) أخرجه البخاري في صحيحه، برقم: (7491)، ومسلم في صحيحه، برقم: (2246).
(5) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 10/210.

نفوس المخاطبين، وفي ذلك إشارةٌ إلى ظهورِ أمرهِ ﷺ ونصرتِه، ودحرِ أعدائِه، وعدمِ وصولِهم إلى ضررِه، والمعنى: متعانِقٌ، وفي ذلك تعظيمٌ لقدرِ رسولِ الله ﷺ فمَن أرادَ ضرَّهُ، كمَن أرادَ الضُّرَّ باللهِ، وهو محالٌ.

لا يستطيعُ أحدٌ إلحاقَ أدنى ضررٍ باللهِ ولا برسولِهِ

لطيفةُ تنكيرِ المفعولِ المطلقِ:

نكَّرَ المفعولَ المطلقَ ﴿شَيۡـٔٗا﴾، أي: شيئًا مِنَ الضَّررِ، وفي هذا التَّنكيرِ تعميمٌ وشمولٌ للإعلانِ عن طلاقةِ القدرةِ، فاللهُ هو الَّذي يملِكُ النَّفعَ والضُّرَّ ويوقعُهما وحده سبحانه، واحتجبَ عن خلقه بعزِّه، ووصلت إليهم نعمُهُ برحمتِه، وبلغت نقمتُه وسخطُه من أغضبَه.

عمومُ النَّفي مُعلِنٌ عن طلاقةِ القدرةِ

وجهُ التَّعبيرِ بالاسمِ الجليلِ (اللهِ)، مسندًا إليه:

عبَّر بالاسمِ الجليلِ (اللهِ) وهو أهيبُ أسماءِ اللهِ ﷻ إدخالًا للمهابةِ على النُّفوس، وسياقُ السِّباقِ واللَّحاقِ في التَّهديد والوعيد يناسبُهُ التَّعبيرَ بالاسمِ الجليلِ مسندًا إليه.

إدخالُ المهابةِ يلائِمُ سياقَ الوعيدِ والتَّهديدِ

علةُ تقديمِ الجارِّ والمجرورِ، على الخبرِ في السّياق:

قدَّمَ الجارَّ والمجرورَ ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ﴾على الخبرِ ﴿قَدِيرٌ﴾ لبيانِ إحاطةِ القدرةِ الإلهيَّةِ وشمولِهَا، مع ما في ﴿عَلَىٰ﴾ من معنى الاستعلاءِ والقهْرِ، وما في ﴿كُلِّ﴾ من العمومِ، ومافي لفظ ﴿شَيۡءٖ﴾ من العمومِ، وكلُّ ذلك مع التَّقديم ينصرُ الدِّلالةَ على شُمولِ القدرةِ الإلهيَّةِ وإحاطتِها، ويدخُل في ذلك دخولًا أوَّليًّا إيقاعُ المهدَّدِ بهِ على وجهِ الواردِ المخوفِ، ونصرِ نبيِّه، وإعلائِه، وحفظِه، وكلاءتِه على النَّحو المستنفِرِ له المؤمِّلِ، وهو الملائمُ سياقَ التَّهديدِ والوعيدِ.

القدرةُ الإلهيَّةُ لايحدُّها حدٌّ، ولايُعجِزُها شيءٌ

سرُّ الختْمِ بإقرارِ لله بالقدرة:

قوله: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾، والمناسبَةُ بين هذه الجملةِ وسابقتِها أنَّه "لمَّا أثبت بذلك قدرتَهُ على ضُرِّه لهم، وقصورَهم عن

الختمُ ببيانِ عمومِ القدرةِ، ملائِمٌ سياقَ التّهديدِ والوعيدِ

الوصولِ إلى ضُرِّهِ؛ كان التَّقديرُ: لأنَّه قادرٌ على نَصْرِ دينهِ ونبيِّهِ بغيرِكم، فعطفَ عليه تعميمًا لقدرته؛ ترهيبًا من عظمِ سطوتِه"[1].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

يضرُّونَ، ويؤذونَ:

يؤذونَ: "الإيذاءُ يكونُ معنويًّا بالقولِ المؤلِمِ، ويكونُ حسِّيًّا بالضَّربِ ونحوِهِ، وكلُّ ما جاءَ في القرآنِ مِنَ الأذى والإيذاء، فمعناهُ الإيلامُ النَّفسيُّ (التَّكرُّهُ) أو البدنيُّ غيرُ المبرَّحِ، إلَّا ما ذكرَ اللّٰهُ تعالى مرادًا به، فمعناه: المخالفةُ عن أمرِه، ومضادَّةُ حُكمِهِ، وإيذاءُ رسولِهِ صلى اللّٰه عليه وآله وسلم، وكونُ الأذى البدنيِّ غيرَ مبرَّحٍ يناسب التَّهوينَ من شأنِ مكروهِهِ بالنِّسبة للضَّررِ، كما قد يُؤخَذُ مِن قولِهِ تعالى: ﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى﴾ [آل عمران: 111] والأذى: هو المكروهُ اليَسيرُ، والشَّرُّ الخفيفُ"[2].

الضَّررُ أعمُّ من الأذى، والأذى يقعُ غالبًا بالقولِ، وعلى اليسيرِ مِن الأشياءِ

تضرُّوه: الضُّرُّ: ضدُّ النَّفعِ، وهو يعمُّ في الشَّأنين المادِّي والمعنويِّ: فضرَّه: ألحقَ بهِ أذًى، أو مكروهًا، وكذا ضرَّ به، وأضرَّهُ، وأضرَّ بهِ، وضارَّهُ سبَّبَ له نقصًا أو ضيقًا، ومن الضُّرِّ في القرآنِ: الحاجةُ إلى الطَّعامِ والميرةِ، والمرضِ وخوفِ الغرقِ والهلعِ والفزعِ ونحوه، وليس في الاستعمالات القرآنيَّةِ للتركيبِ مايخرجُ عن معنى الضِّيقِ وما يلزمه، "وما جاء في القرآن، من قولِهِ سبحانه وبحمده: ﴿لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗا﴾ [آل عمران: 176 - 177، محمّد: 32] وقولِهِ جلَّ وعزَّ الَّذي معنا في الآية: ﴿وَلَا تَضُرُّوهُ شَيۡـٔٗا﴾، وقولِهِ تعالى وتقدَّس: ﴿وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيۡـٔٗا﴾ [هود: 57] فالمعنى: لن تبلغوا بُغْيتكم من القضاء على دينه بل هو باقٍ إلى يوم القيامةِ: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغۡلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٞ ٢١﴾ [المجادلة: 21][3].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 3/318.
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (أذى).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (ضرَّ).

والظَّاهِرُ من الفَرْقِ بينهما أنَّ الضَّررَ أعمُّ من الأذى، وأنَّ الأذى يقع غالبًا بالقولِ، وعلى اليسيرِ مِنَ الأشياءِ، أمَّا الضَّررُ؛ فيكونُ بالفعلِ والقولِ والكبيرِ والصَّغيرِ، واليسيرِ والكثيرِ، فاصطفى النَّظمُ القرآنيُّ ما هو ألصقُ بسياقِ التَّهديدِ وعمومِ النَّفي الَّذي يقوِّيهِ ما بعدَهُ مِن تنكيرِ المفعولِ المطلقِ ﴿شَيۡـٔٗا﴾.

﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾ [التوبة: 40]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

ترغيبُ المؤمنين ثانيةً في الجهاد في سبيل الله، والذّبّ عن دينه وحماه

هذا ذكرُ طريقٍ آخرَ في ترغيبِهم في الجهاد، وذلك لأنَّه تعالى ذكرَ في الآية الأولى أنَّهم إن لم ينفروا باستنفار رسول الله لهم، ولم يشتغلوا بنُصرتِه؛ فإنَّ اللهَ ينصرهُ بدليلِ أنَّ اللهَ نصرَهُ، وقوَّاهُ حالَ ما لم يكن معهُ إلَّا رجلٌ واحدٌ[1]، ولمَّا وصف سبحانه نفسَه العليَّةَ بما هو أهلٌ له من شُمولِ القدرةِ، وعظيمِ البأسِ والقوَّةِ، أتبعَ ذلك بدليلٍ يتضمَّنُ أنَّ المستنفرَ لهم، وهو نبيُّه ﷺ غيرُ محتاجٍ إليهم، ومتوقِّفٍ نصرُهُ عليهم، كما لم يَحْتَجْ إليهم - بحِياطةِ القادرِ له - فيما مضى من الهجرةِ التي ذكرها[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تَنصُرُوهُ﴾: نَصَرَ: النُّونُ والصَّادُ والرَّاء أصلٌ صحيحٌ يدلُّ على إتيان خيرٍ وإيتائه، ونصْرُ اللهِ المسلمين: آتاهم الظَّفَرَ على عدوِّهم ينصُرُهم نصْرًا، وانتصر: انتقمَ، وهو منهُ[3]، و"النَّصرُ والنُّصْرةُ: العونُ. ونُصرةُ اللهِ للعبد ظاهرةٌ، ونُصرةُ العبدِ لله هو نُصرتُه لعبادِه، والقيامُ بحفظِ حدودِه، ورعايةِ عهودِه، واعتناقِ أحكامه،

(1) الفخر الرازيّ، مفاتيح الغيب: 16/64.
(2) البقاعيّ، نظم الدرر: 3/319، 318.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نصر).

واجتنابِ نهيهِ. والتَّناصرُ: التَّعاونُ ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ۝٢٥﴾ [الصافات: 25]"[1]. والمعنى هنا: اللّه ناصرٌ نبيَّه على كلِّ حال.

2) ﴿أَخْرَجَهُ﴾: خَرَجَ: "الخاءُ والرَّاءُ والجيمُ أصلانِ، وقد يمكنُ الجمْعُ بينهما، إلَّا أنَّا سلكْنا الطَّريقَ الواضحَ، فالأوَّلُ: النَّفاذُ عن الشَّيء، والثَّاني: اختلافُ لونين. والخروجُ: خروجُ السَّحابة"[2]، وخرجَ خروجًا: برزَ من مقرِّهِ أو حالهِ سواءٌ كان مقرُّهُ دارًا أو بلدًا أو ثوبًا، وسواءٌ كان حالُه حالةً في نفسِهِ، أو في أسبابهِ الخارجةِ، قال تعالى: ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ﴾. والإخراجُ: أكثرُ ما يكونُ في الأعيانِ نحو: ﴿أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ﴾، ﴿كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ﴾[3]، وهو المرادُ هنا.

3) ﴿ٱلْغَارِ﴾: غَار: الغَينُ والألفُ والرَّاء، والألفُ في هذا البابِ لا تكونُ إلَّا مبدلةً، ويُطلَقُ على معانٍ متعدِّدَةٍ، فالغارُ: نباتٌ طيِّبٌ، والغارُ لغةً في الغَيرة، والغارُ: الجيشُ العظيمُ، والغارُ: غارُ الفَمِ، والغارُ: أصلُ الرَّجل وقبيلتُه، والغارُ: الكهف"[4]، والأخير هو المعنى المرادُ هنا.

4) ﴿لِصَٰحِبِهِۦ﴾: صَحِبَ: الصَّاحبُ الملازِمُ، ولا فرقَ بين أن تكونَ مصاحبتُهُ بالبدنِ، وهو الأصلُ والأكثر، أو بالعنايةِ والهمَّة، ولايقال في العُرف إلَّا لمن كَثُرت ملازمتُهُ، ويقالُ للمالِكِ للشَّيءِ هو صاحبُه، وكذلك لمن يملك التَّصرُّفَ فيه... والمصاحبةُ والاصطحابُ أبلغُ من الاجتماعِ؛ لأجلِ أنَّ المصاحبةَ تقتضي طولَ لُبْثِهِ، فكلُّ اصطحابٍ اجتماعٌ، وليس كلُّ اجتماعٍ اصطحابًا"[5]، والمرادُ هنا سيِّدُنا أبو بكر رضي الله عنه لكثرة ملازمتهِ الرَّسولَ ﷺ.

5) ﴿وَأَيَّدَهُۥ﴾: قال اللّه ﷻ: ﴿أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾ فعَّلتُ مِنَ الأيْدِ، أي: القوَّةُ الشَّديدةُ، وقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ أي: يُكثِرُ تأييدَهُ[6]. وقد ورد التأييد في القرآن الكريم تسع مرات، وُصِل ثلاثَ مرات بروح القدس، وكانت بشأن سيدنا عيسى

(1) الرّاغب، المفردات: (نصر).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (خرج).
(3) الرّاغب، المفردات: (خرج).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة:، والرّاغب، المفردات: (غار).
(5) الرّاغب، المفردات: (صحب).
(6) الرّاغب، المفردات: (أيد).

عليهم السلام، وثلاثًا بنصر الله بشأن سيدنا محمد ﷺ وعلى جميع النبيين[1]. والمعنى هنا: قوَّاه الله ونصره.

6) ﴿كَلِمَةَ﴾: كَلَمَ: الكاف واللَّامُ والميمُ أصلان: أحدُهما يدلُّ على نطقٍ مُفْهِم، والآخرُ على جراحٍ، ثم يتَّسِعون فيُسَمُّون اللَّفظةَ الواحدةَ المُفهِمَة: كلمةً، والقصَّةَ كلمةً، والقصيدةَ بطولها كلمةً، ويجمعونَ الكلمةَ كلماتٍ وكَلِمًا[2] وقد وردَ لفظُ (كلمة) عدَّةَ مرَّاتٍ في الذِّكرِ الحكيمِ، ومعنى ﴿كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾: الشِّركُ، ﴿وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ﴾: التَّوحيدُ.

7) ﴿ٱلسُّفْلَىٰ﴾: سَفَلَ: "السِّين والفاءُ واللَّام أصلٌ واحدٌ، وهو ما كان خلافَ العلوِّ، فالسُّفل سُفْلُ الدار وغيرها، والسُّفول: ضدُّ العلوِّ، والسَّفِلةُ: الدُّون من النَّاس، يقال: هو من سَفِلَة النَّاس، والسَّفال: نقيضُ العَلاء"[3] السُّفْلُ: ضدُّ العلوِّ، وسُفُلٌ، فهو سافلٌ، قال تعالى: ﴿فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا﴾، وأسفلُ ضدُّ أعلى، قال تعالى: ﴿وَٱلرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾ وسفُل: صارَ في سُفْلٍ، وقال تعالى: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ﴾، وقال: ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفْلَىٰ﴾[4]. والمعنى هنا: حقيرةً مَقهورةً.

8) ﴿ٱلْعُلْيَا﴾: عَلَوَ: العَينُ واللَّام والحرفُ المعتلُّ ياءً كان أو واوًا أو ألفًا أصلٌ واحدٌ يدلُّ على السُّموِّ والارتفاع، لايشذُّ عنه شيءٌ، ومِن ذلك العلاءُ والعلوُّ، قال الخليل: أصلُ هذا البناءِ العُلُوُّ، فأمَّا العَلاءُ؛ فالرِّفْعةُ، وأمَّا العُلوُّ؛ فالعظمةُ والتَّجبُّرُ، ويقال لكلِّ شيءٍ يعلو: علا يعلُو، فإن كان في الرِّفْعة والشَّرفِ، قيل: عَلِيَ يَعْلَى، ومن قهَر أمرًا؛ فقدِ اعتلاه، واستعلى عليه، وبهِ... والسَّموات العُلَى الواحدة عُلْيا[5]، العلوُّ: ضدُّ السُّفْل، والعُلْويُّ والسُّفليُّ: المنسوبُ إليهما، والعلُوُّ: الارتفاعُ، وقد علا يعلو علوًّا، وهو عالٍ[6]. والعليا: ضدُّ السُّفلى. والمعنى هنا: الغالِبةُ المنصورةُ على الشِّركِ وأهْلِه.

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (أيد).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (كلم).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سفل).
(4) الرّاغب، المفردات: (سفل).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (علو).
(6) الرّاغب، المفردات: (علا).

المَعْنى الإجْمالِيُّ:

تكفُّل اللهِ بنصرة رسوله الأكرم، على أعداء دينه، وإظهاره عليهم

تخاطبُ الآيةُ الكريمةُ أصحابَ رسول الله ﷺ إن لم تنصروهُ، ولم تطيعوه للجهادِ في سبيل الله، فسينصرهُ اللهُ بقدرته وتأييده، كما نصره وقتَ أن أجمع المشركون على الفتكِ به، أو إخراجهِ من بلده أو حبْسِه؛ نصرَهُ الله في ذلك الوقت، ولم يكن معه أنصارٌ ولاجيشٌ، بل حالُ كونهِ ثانيَ اثنين وواحدًا منهما هو وأبو بكر الصديق رضي الله عنه، إذ هما في الغارِ المعروفِ في جبل ثورٍ؛ إذ يقولُ لصاحبه أبي بكرٍ رضي الله عنه حين فزِعَ لمّا رأى المشركينَ، وقال يارسولَ الله: واللهِ لو نظر أحدُهم تحتَ قدمه لأبصرَنا، يقول له النَّبيُّ ﷺ: «**لا تحزنْ إنَّ اللهَ معنا**»[1]، فأنزل اللهُ الطمأنينةَ في قلب رسول الله ﷺ، أو على أبي بكرٍ حتى هدأَ روعُه، وقد أيَّد اللهُ نبيَّه ﷺ بجنودٍ من عندِه - وهم الملائكة - لم يرها أحدٌ من البشر، وجعلَ اللهُ كلمةَ الكافرين ودولَهُم سفلى حقيرةً مَقهورةً، وكلمةُ اللهِ ودولتُهُ الغالبةُ المنصورةُ على الشِّركِ وأهْلِه، واللهُ عزيزٌ غالبٌ لايغلبُه أحدٌ، وحكيمٌ يضعُ الأمورَ في نصابِهَا[2].

وترشد الآيةُ الكريمةُ إلى مَنقبةٍ عظيمةٍ لأبي بكر الصديق رضي الله عنه، وإلى علوِّ منزلته، وقوةِ إيمانه، وشدةِ إخلاصه لله تعالى ولرسوله ﷺ، وأظهر الصدِّيقُ رضي الله عنه خلالَ مصاحبته للرسول ﷺ الكثيرَ من ألوان الوفاء والإخلاصِ وصدقِ العقيدة[3].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

النُّصرةُ الفارطة بلا نفيرٍ ولا رجالٍ، تؤكِّد النُّصرةَ لدين اللهِ ورسولهِ في كلِّ الأحوال

دلالة الاستئناف البيانيّ:

هذا استئنافٌ بيانيٌّ لقوله: ﴿وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا﴾ لأنَّ نفْيَ أن يكونَ قعودُ أصحابِ رسول الله ﷺ عن النَّفير مُضِرًّا باللهِ ورسوله؛ يثيرُ

(1) أخرجه البخاري في صحيحه، برقم: (3652)، ومسلم في صحيحه، برقم: (2009).
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/203، وحجازيّ، التّفسير الواضح: 10/74، 73.
(3) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 6/290.

في النَّفس سؤالًا عن حصول النَّصر بدونِ نصيرٍ، فبيَّن بأنَّ اللّٰهَ ينصرهُ كما نصرَهُ حين كان ثانيَ اثنين لاجيشَ معهُ، فالَّذي نصرهُ حين كان هو وأبو بكر الصديق ﵁ في الغار وحدهما قديرٌ على نصرهِ، وهو في جيشٍ عظيم، فتبيَّن أنَّ قعودَهم عن النَّفيرِ لا يضرُّ اللّٰهَ شيئًا[1]، والظَّاهر أنَّ الآيَةَ الكريمةَ ممَّا قبلَها تشبهُ موقعَ تأكيدِ تهديدِ المتثاقِلين بطريقٍ آخرَ، وهو نصرتُه ﷺ مِن غيرِ حاجةٍ إلى رجال، والاستدلالُ بالماضي من حالهِ ﷺ حين الهجرةِ، ولم يكنْ معه سوى أبي بكرٍ، وقد أجلبَ المشركون بخيلِهم ورَجِلِهم، وجدُّوا في طلبه، ولم ينالوا شيئًا، والغرضُ من ذلك تأكيدُ حصولِ ذلك مستقبلًا، فليس النَّفيرُ للجهاد بعائدٍ خيرُهُ على دين اللّٰه ورسوله، وإنَّما عوائدُهُ على من استُنْفِرَ، فنفَرَ، ولبَّى.

بلاغةُ التَّعبيرِ بجملةِ الشَّرطِ:

تعليقُ حصولِ النَّصرِ على عدمِ نصرتِهم إيَّاه، جعلٌ للعدمِ سببًا للوجودِ

افتُتِحَتِ الآيةُ الكريمة - كسابقتها - بأسلوبِ الشَّرط، في مقام التَّهديد والوعيدِ باصطفاء أسلوبٍ حجاجيٍّ بالغِ القوَّةِ، وهو الارتكازُ على الماضي من التَّاريخ في تأكيدِ تحقيقِ النُّصرة بلا حاجةٍ لنفير ولارجال، وقد جاءَ فعلُ الشَّرط مضارعًا منفيًّا بـ (لا)، واقترنَ جوابُه بـ (قد)، تأكيدًا لحصول النَّصرِ مِنَ اللّٰهِ عند عدمِ مناصرتهِ منهم، وهو ربْطٌ عجيبٌ للوجود بالعدم، فقد جُعل أسلوبُ الشَّرط عدمَ نصرِهم رسولَ اللّٰه ﷺ سبيلًا لنصرةِ اللّٰهِ له، فنصْرُه هو الأعلى، وعونُهُ وتأييدُه لنبيِّه هو الأوفى.

فائدةُ حذفِ جوابِ الشَّرط:

تأكيدُ تحقيقِ النَّصرِ بحذفِ الجوابِ، لتوفيرِ العنايةِ على الدَّليل

الشَّرطُ في الآيةِ جوابُه محذوفٌ، واكتُفي بما يدلُّ عَليهِ وهو قوله: ﴿فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ﴾، والتَّقديرُ: إلَّا تنصروهُ؛ فسينصرُهُ اللّٰهُ، أو التَّقدير: إلَّا تنصروهُ؛ فهو غنيٌّ عن نصرتِكم بنصرِ اللّٰه إيَّاهُ؛ إذ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/201، 200.

قد نصرَهُ في حين لم يكن معَهُ إلَّا واحدٌ، فكما نصرَهُ يومئذٍ ينصرهُ حين لا تنصرونهُ، فالمذكورُ عِلَّةٌ للمحذوف؛ لأنَّ المذكورَ ماضٍ ﴿فَقَدۡ نَصَرَهُ﴾، ولا يصلح جوابًا للمستقبلِ ﴿تَنصُرُوهُ﴾[1]، ففي حذْفِ الجواب، والاكتفاءِ بنصب الدَّليل عليه تأكيدٌ لتحقُّق النَّصرِ، كما تحقَّقَ من قبلُ، وشَدٌّ لعقولِ المثَّاقلين.

وقولُه تعالى: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ﴾ فعلٌ مضارع، زمنه هو الزمن الحالي، ولكن الحقَّ يتبع المضارع بفعلٍ ماضٍ هو: ﴿فَقَدۡ نَصَرَهُ ٱللَّهُ﴾، فهل يكون الشرط حاضرًا أم مستقبلًا، والجواب ماضيًا؟ المعنى: إلَّا تنصروه فسينصرُه اللّٰه؛ بدليل أنه قد نصره قبل ذلك. وهذا ليس جوابَ شرطٍ، وإنما دليلُ الجواب، فحين يكونُ دليلُ الجوابِ ماضيًا، فهو أدلُّ على الوثوق من حدوثِ الجواب، فحين دعاهم اللّٰهُ لينفِروا فتثاقلوا، أوضحَ لهم سبحانه: أتظنون أن جهادَكم هو الذي سينصرُ محمدًا وينصرُ دعوتَه؟ لا؛ لأنه سبحانه قادرٌ على نصره بدونكم، والدليلُ على ذلك أنَّ اللّٰه قد نصرَه من قبلُ في مواطنَ كثيرةٍ، وأهمُّ موطنٍ هو النصرُ له في الهجرة، وقد نصره برجلٍ واحدٍ هو أبو بكر الصديق رضي الله عنه على قريشٍ وكلِّ كفار مكة، وكذلك نصره في بدرٍ بجنود لم تروها، فسابقةُ النَّصر من اللّٰه لرسوله سابقةٌ ماضيةٌ[2].

دلالةُ اقتران جوابِ الشَّرط بـ (قد)، وإسنادِ الفعل للاسمِ الجليل:

الفاءُ للرَّبط، وقد دخلت (قَدْ) على الفعلِ الماضي؛ تأكيدًا لتحقيق حصولِ ذلك سابقًا، ممَّا يؤكِّد حصولَه لاحقًا، وممَّا يستدعيه المقامُ، وإن كان تصديقُه راسخًا عند الكافَّة؛ لأنَّ النُّفوسَ تُقبِلُ عليه كلَّما جاء ذكرُه؛ لأنَّه مذهلٌ من فرط ما فيه من خرقِ العادةِ، وما

عدمُ النُّصرةِ من النَّاس، سبيلٌ لنصرِ اللهِ لهُ بيقين

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/519، وأبو حيّان، البحر المحيط: 5/45 والفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/64، وابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 10/94، والسّمين الحلبيّ، الدّر المصون: 6/51، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/201.

(2) االشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 8/5124.

تَرتَّبَ عليه من عِظَمِ الأثرِ، وما تخلَّلَه من مفاجآتٍ تحبِسُ الأنفاسَ، فلا يزال المستمِعُ مصغيًا للملقي إليه خبرَها وتفاصيلَه أبدًا.

وقد أُسنِدَ الفعلُ إلى الاسم الجليلِ إدخالًا للمهابة والجلالِ على نفوس المتثاقِلين، وإعلانًا لتفرُّدِه سبحانه بالنُّصْرة، وكلُّ ما في الدليل تعودُ فائدتُهُ على المدلول عليه المحذوفِ.

سرّ تتابع ظرفِ الزَّمان، ودلالتُهُ:

التَّذكيرُ بالأوقاتِ الثّلاثة، مؤكِّدٌ حصولَ النُّصرةِ مِنَ اللهِ بلا حاجةٍ للنَّاس

اصطفى النَّظمُ القرآنيُّ ظرفَ الزَّمان (إذ) ثلاثَ مرَّاتٍ ﴿إِذْ أَخْرَجَهُ﴾، ﴿إِذْ هُمَا فِي ٱلْغَارِ﴾، ﴿إِذْ يَقُولُ﴾، يفيدُ الظَّرفُ هاهنا استرجاعَ زمنِ النُّصرة، والظرفُ الأوَّلُ يصفُ حالَه ﷺ وقتَ الخروجِ لا أحدَ معه سوى أبي بكرٍ، والظَّرفُ الثَّاني يُذكِّرُ بأصعبِ حالٍ حين كان سويًّا في غارٍ ضيِّقٍ لا مخرجَ له سوى من طريقِ الأعداءِ، ولامهربَ منه، والظَّرف الثَّالثُ تذكيرٌ بوقتِ قولِه لأبي بكرٍ حين استشعرَ رضي الله عنه الحزنَ، والملحوظُ أنَّ ترتيبَ هذه الظروفِ بدأتْ مِنَ الأوسعِ (وقتُ الخروجِ) إلى الأضيقِ (وقتُ البقاءِ في الغار) إلى الأضيقِ منه (وقتُ وصولِ الكفَّار ووقوفِهم على فمِ الغار) وكلُّ ذلك ممَّا يجلِّي فضلَ اللهِ في نصرةِ أوليائِه، ودحْرِ أعدائِه.

بلاغةُ القيدِ بظرفِ الزَّمانِ (إذ):

التَّذكيرُ بالأوقاتِ الثّلاثة العصيبةِ يجلِّي عظمةَ التَّأييدِ الإلهيِّ لأوليائِهِ وقتَ الشَّدائدِ

الظَّرفُ متعلِّقٌ بالفعل ﴿نَصَرَهُ﴾، ومضافًا إلى الجملةِ ﴿أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ﴾، يعني: قد نصرَهُ اللهُ في الوقتِ الَّذي أخرجَهُ الذين كفروا من مكَّة، وهذا الظَّرفُ يسترجعُ زمنَ إخراجِه ﷺ من مكَّة، والجملةُ فعليَّةٌ فعلُها ماضٍ؛ ليتضمَّن ما مضى من فعلِهم الشَّنيعِ من إخراجِه مِن مكَّةَ، وأعظمُ الفِتَنِ الإجبارُ على تَرْكِ الوطنِ، فقد جعلَهُ اللهُ عِدْلَ قتلِ النَّفسِ، ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ ٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ أَوِ ٱخْرُجُواْ مِن دِيَٰرِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ﴾ [النّساء: 66] وقد جاء المسندُ إليه اسمًا موصولًا لتنبنيَ عليه جملةُ الصِّلةِ الدَّالَّةِ على القسوةِ والغِلَظِ

وشراسةِ العداءِ في استحكامِ المفارقةِ والمنافاةِ بين الطَّرفَين بما لا يقبلُ المجامعةَ في بلدٍ، وقدَّم المفعولَ به، الضَّميرَ في ﴿أَخْرَجَهُ﴾ على الفاعلِ لبيانِ أنَّ عنايتَهم انصبَّت عليه في التَّخلُّص منه بأيِّ سبيلٍ، ممَّا يَبينُ عن عَداوتِهم، وكلُّ ذلك ممَّا يصوِّرُ عظمةَ عونِ اللّٰه له، ونصرتِهِ إيَّاه في مقابل تلك العداوةِ، "وأسندَ الإخراجَ إلى الكفَّارِ، كما أسندَهُ إليهم في قولِه: ﴿مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَتْكَ﴾ [محمّد: 13]؛ لأنَّهم حين همُّوا بإخراجِهِ أَذِنَ اللّٰهُ له في الخروج - كرامةً لِنَبيِّه بصيانته عن المطاردةِ، وإظهارًا لما له عندَهُ من الحِفظ، وليكونَ أَوَّلَ بادِرَةِ إيناسٍ في هجرتِه، لإظهارِهِ إحباطَ كيدِهم لهُ، وإفشالَ سعيهم ضدَّهُ، بتولِّيه أَمرَه - فكأنَّهم أخرجوه"[1]، فهو إسنادٌ مجازيٌّ[2]، وفيه أيضًا بيانٌ لجريمتِهم، فمن كان سببًا في الفعل؛ تحمَّلَ وِزرَهُ.

لطيفةُ قيدِ المفعولِ به بالحالِ:

قولهُ: ﴿ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ﴾ نصْبٌ على الحال من الضَّميرِ في ﴿أَخْرَجَهُ﴾، والثَّاني: كلُّ مَن كانَ بهِ العددُ ثانيًا، وهو اسمُ فاعلٍ مضافٌ إلى الاثنين على معنى (مِنْ) أي: ثانيًا مِن اثنين، ولا ثالثَ لهما[3]، والمعنى: أخرجوهُ منفردًا من جميعِ النَّاس إلَّا مِن أبي بكرٍ، أي: نصرَهُ منفردًا، ونصرَهُ أحدُ اثنين[4]، وهذه الحالُ تصوِّرُ انفرادَهُ ﷺ مع قوَّةِ المُطارِدِ ممَّا يؤكِّدُ أنَّ نصرَ اللّٰهِ له كانَ مؤزَّرًا.

تأكيدُ نصرِهِ ﷺ فردًا بلا ظهيرٍ

بلاغةُ التَّعبيرِ بظرفِ الزَّمانِ بدلًا:

قولهُ: ﴿إِذْ هُمَا فِي ٱلْغَارِ﴾، والغار: نقْبٌ في أعلى جبلِ ثورٍ، والظَّرفُ بدلٌ من ﴿إِذْ أَخْرَجَهُ﴾ بدلَ بعضٍ من كلٍّ[5]، وقد أُضيفَ الظَّرفُ إلى

اللّٰهُ ناصرٌ نبيَّه والصّديق، مهما كانتِ الشِّدَّةُ والضِّيقُ

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/520.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/45.
(3) الثّعلبيّ، الكشف والبيان: 13/373، والفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 16/65، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/202.
(4) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 10/211.
(5) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/520، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/66.

جملةٍ اسميَّةٍ دلالةً على الاستقرار والثُّبوت، وزمنُ الخروجِ مُتَّسِعٌ، وهذا الموقعُ الإعرابيُّ بديعٌ؛ إذ يصوِّر التَّدرُّجَ في المشقَّةِ، ويربطُ مسارَها بأوَّلِهَا، وجمعُ المشاقِّ - في سياق واحدٍ - له أثَرٌ بالغٌ في الكشْف عن قيمةِ النَّصر.

نكتة الجمعِ بينَ النَّبيِّ والصِّدِّيقِ في ضميرٍ واحدٍ:

منزلةُ أبي بكرٍ الصِّديقِ وفضيلتُهُ على الخليقةِ، بعد النَّبيِّينَ والمرسلين

أظهرَ جمعُ الضَّميرِ في قوله: ﴿هُمَا﴾ منزلةً سَنيَّةً، ورفعةً حظيَّةً لأبي بكرٍ الصِّدِّيق رضي الله عنه وكونُ المتكلِّم بهذا هو اللّهُ تعالى له شأنٌ أعظمُ، ومقامٌ أفخمُ، وأكرمُ، ذلك أنَّ جمْعَ الضَّمير بين النَّبيِّ المتبوعِ المطاعِ الآمرِ، وبين أبي بكرٍ التَّابع الطَّائعِ المستجيبِ، لا يظهرُ منه تقدُّمُ الرَّسولِ على أبي بكرٍ، والواقعُ أنَّه مقدَّمٌ، فهذهِ تزكيةٌ مِنَ اللّه لأبي بَكرٍ، إذ لو عَلِمَ اللّهُ منه أنَّ ذلك سيرتفعُ بأبي بكرٍ في نفسِهِ ليرى نفسَهُ بمحاذاةِ رسولِ اللّهِ في الفضلِ ما أنزلَ ذلك، لكن لمَّا كان لأبي بكرٍ من قوَّةِ اليقينِ وصحَّةِ الاعتقاد وحُسْنِ التَّوقير لرسولِ اللّه ﷺ وكان مأمونًا عليهِ الفتنةُ؛ أنزلَ اللّهُ هذا الثَّناءَ عليه.

ومأْخَذُ ذلك ومَلْحظه من حديثِ عديِّ بنِ حاتمٍ رضي الله عنه أنَّ رجلًا خطبَ عندَ النَّبيِّ - صلّى اللّه عليه وآله وسلَّم - فقال: "من يُطِعِ اللّهَ وَرَسُولَهُ؛ فَقَدْ رَشَدَ، ومن يعصهما؛ فقد غَوَى"، فقالَ رسولُ اللّهِ ﷺ: «بِئسَ الخطيبُ أنتَ، قل: ومن يعصِ اللّهَ ورسولَه»[1]. فهو إنَّما أنكرَ عليه لتشريكهِ في الضَّمير المقتضي للتسويةِ، وأمرَهُ بالعطفِ تعظيمًا للّه تعالى بتقديم اسمهِ، قالَهُ النَّوويُّ نقلًا عن القاضي عياضٍ وجماعةٍ[2].

وهذا لا يُعارَض بكلامِ الشَّارع في نحوِ حديث: «أن يكونَ اللّهُ

(1) أخرجه مسلم في صحيحه، برقم: (870)، وأبو داود في سننه، برقم: (4981)، والنّسائي في سننه، برقم: (3279).

(2) النّوويّ، شرح صحيح مسلم: 6/159.

ورسولُه أحبَّ إليه ممَّا سواهما»[1]؛ لأنَّ كلامَ الشَّارعِ غيرُ كلامِ المكلَّفين، كما أقسمَ اللّهُ بمخلوقاتِه، وليس لأحدٍ أن يَحْلِفَ إلَّا باللّهِ.

بلاغةُ التَّعبيرِ بظرفِ الزَّمان بدلًا ثانيًا:

التَّذكيرُ بأخلَكِ المواقفِ، مع انتفاءِ المدافعِ، بيانٌ لعظيمِ نصْرِ اللهِ نبيَّهُ

قولُه: ﴿إِذۡ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ﴾ بدلٌ ثانٍ، وهو بدلُ اشتمالٍ[2]، وقد أُضيفَ إلى الظَّرف جملةٌ فعليَّةٌ، وعبَّرَ بالفعل المضارعِ بدلَ الماضي، استحضارًا للحالةِ الماضيةِ؛ كشفًا لنعمةِ المَعُونةِ الإلهيَّةِ، وفيها تذكيرٌ بأشدِّ الحالات في طريقِ الهجرةِ، ووقوع الظَّرفِ بدلًا ثانيًا لربطِ أوَّلِ الشِّدَّةِ بأعقدِها حالةً وأشدِّها ضيقًا، والمسندُ إليه ضميرٌ مستَتِرٌ لحضورِه في القلوب والأذهانِ، وعبَّر بقولِه: ﴿لِصَٰحِبِهِۦ﴾، والتَّعبيرُ عن أبي بكرٍ رضي الله عنه بهذا الوصفِ، ألمعَ إلى بعضِ العلماءِ أن يقولَ: من أنكرَ صحبةَ أبي بكرٍ؛ فقد كفرَ، لإنكارِه كلامَ اللّهِ تعالى وليس ذلك لسائرِ الصَّحابةِ - رضوان اللّه عليهم[3]. والحقُّ أنَّ الكنايةَ عن أبي بكر بالصحبةِ بيانٌ لعظيم مكانِه، وعلوِّ قدْرِه عندَ ربِّه، "فإن قيلَ: إنَّ اللّهَ تعالى وصفَ الكافرَ بكونِه صاحبًا للمؤمن في قولِه: ﴿قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرۡتَ﴾ [الكهف: 37]، فالجوابُ: أنَّ هناك وإنْ وصفَه بكونِه صاحبًا إلَّا أنَّه أردَفَهُ بما يدلُّ على الإهانةِ والإذلالِ، وهو قولُه: ﴿أَكَفَرۡتَ﴾؟ أمَّا ههنا؛ فبعد أن وصفَهُ بكونِه صاحبًا ذكرَ بعدَهُ ما يدلُّ على الإجلالِ والتَّعظيم، وهو قولُه: ﴿لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ﴾، فأيُّ مناسبةٍ بينَ البابَين؟"[4].

غرضُ التَّعبيرِ بمقولِ القولِ، بجملةٍ إنشائيَّةٍ:

البشارَةُ بذهابِ المؤثِّرِ، عن طريقِ الانتهاءِ عنِ الأثرِ

في قوله: ﴿لَا تَحۡزَنۡ﴾، عبَّرَ بمقولِ القولِ بجملةٍ إنشائيةٍ في صورةِ

(1) أخرجه البخاري في صحيحه، برقم: (16)، ومسلم في صحيحه، برقم: (43).

(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 5/520 وأبو حيّان، البحر المحيط: 5/45، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/203.

(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/45.

(4) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 16/51، وابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 10/95.

النَّهي بـ (لا)، وقد توجَّهَ النَّهيُ لِلْفِعْلِ الَّذي لا يمكنُ الانتهاءُ عنه؛ لأنَّ الحُزْنَ أمرٌ وجدانيٌّ لا شعوريٌّ يحدُثُ جبْرًا بسببٍ خارجيٍّ لا اختيارًا، وما لا يقعُ اختيارًا لا يمكنُ الانتهاءُ عنهُ، فيكون المرادُ: لا تجعلْ لِلحزنِ إليك سبيلًا؛ لأنَّ اللّهَ سيُزيلُ أسبابَهُ، فيكونُ نهيًا بطريقِ الأبلغِ، فهو نهيٌ عنِ الأثرِ يُنبَّه بهِ على ذَهاب المُؤَثِّر.

نكتةُ تعليلِ النَّهي، بكونهما بمعيّة الله تعالى:

التَّعجيلُ بإزالةِ آثارِ الحُزْنِ، بعدَ الإخبارِ بمعيَّةِ اللهِ لهما

نلحظ أنّه أعقبَ النَّهيَ بجملةٍ تعليليَّةٍ مؤكَّدةٍ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ﴾؛ بيانًا لسببِ النَّهي عمَّا لا ينتهي عنه عادةً، وفي ذلك بشارةٌ كُبرى بتأييد اللّهِ ونصرِهِ، وقد بُنِيَ التَّعليلُ بأسلوبٍ بليغٍ؛ إذ أُكِّدَ بـ (إنَّ) واسميَّةِ الجملةِ تنزيلًا لأبي بكرٍ ﵁ منزلةَ المتردِّدِ ممَّا يحثُّه سريعًا إلى إزالةِ آثارِ الحُزنِ، ولإنهاءِ البِشارة بأوكدِ الأساليبِ لطرافة البِشارة وغرابتِها، وفضلِ ما فيها على ما ماثلَها مِنَ البِشاراتِ، وإحلالِ السَّكينةِ والطُّمأنينةِ محلَّ الحُزنِ، ولتعليلِ النَّهي أثرٌ بالغٌ في إزالة المنهيِّ عنهُ، فكلَّما كان التَّكليفُ مُعلَّلًا؛ كان أقنعَ للمُخاطَبِ، "والمعيَّةُ هنا: معيَّةُ الإعانةِ والعنايةِ، كما حكى اللّهُ تعالى عن موسى وهارونَ: ﴿قَالَ لَا تَخَافَآۖ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ ۝٤٦﴾ [طه: 46]، وقوله: ﴿إِذۡ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمۡ﴾ [الأنفال: 12]"[1].

علوُّ معيَّةِ اللهِ للنَّبيِّ وأبي بكرٍ، عَلَى معيَّتِهِ لموسى ﵇:

انفرادُ موسى بالمعيَّةِ دونَ أمَّتِهِ، وإشراكُ النَّبيِّ أمَّتَهُ معَهُ فيها، دليل الخصوصيّة

جاءَ في التَّنزيل العزيزِ الخبرانِ: الخبرُ عن معيَّةِ اللّهِ لموسى ﵇ والخبرُ عن معيَّةِ اللّه لمحمَّدٍ ﷺ أمَّا معيَّةُ اللّهِ لموسى؛ فقد كانت حينَ أسرى موسى بقومِهِ ليلًا، فأتبعهم فرعونُ بجنودِه مُشرِّقًا: ﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلۡجَمۡعَانِ قَالَ أَصۡحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدۡرَكُونَ ۝٦١ قَالَ كَلَّآۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهۡدِينِ ۝٦٢﴾ [الشُّعراء: 61، 62]

على حين أنَّ معيَّةَ اللّهِ لسيِّدنا محمَّدٍ ﷺ حين كانَ - وأبو بكر معَهُ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/203.

- في الغارِ، وجاء المشركونَ، فصعِدوا الجبلَ، وارتقوا فوقَ الغارِ، وكانت فتحةُ بابِ الغارِ تحتَ أقدامِهم، فقال أبو بكرٍ رضي الله عنه: "يا رسولَ اللّه، واللّه لو نظر أحدُهم تحتَ قدمَيه لأبصرَنا"، فقال لهُ النَّبيُّ ﷺ: «يا أبا بكرٍ ما ظنُّكَ باثنينِ، اللّهُ ثالثُهما؟ يا أبا بكرٍ، لا تحزنْ إنَّ اللّهَ معنا»، وقد روى القرآنُ لنا هذا الحديثَ الشَّريفَ في معرضِ الإدلالِ به والإنعامِ والإكرامِ، يخبرُ اللّهُ به عَنْ مقولِ نبيِّه تخليدًا وتمجيدًا، وتأكيدًا وتأييدًا، فما الفارقُ بين المَعيَّتَينِ مِنَ العبارَتَين؟

إنَّ الفارقَ بينَ المعيَّتَين غيرُ منحصرٍ، فلنجتزِئْ منه بعضَ المعالمِ، فمِن ذلك:

أنَّ موسى قدَّم ذكرَ نفسِه، فقال: ﴿إِنَّ مَعِيَ رَبِّي﴾، ومحمَّدٌ ﷺ قدَّم ذِكْرَ رَبِّه فَقالَ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾، وأنَّ موسى عليه السلام أفردَ نفسَهُ بالمعيَّةِ، فقال: ﴿مَعِيَ﴾ ومحمَّدٌ ﷺ جمعَ صاحبَه وأمَّتَهُ، فقال: ﴿مَعَنَا﴾، وأنَّ موسى عليه السلام ذكرَ اللّهَ بلفظِ الرُّبوبيَّةِ الدَّالِّ على الرِّعايةِ والنَّجاة مِن ملاحقةِ فِرعونَ ومَن مَعهُ من الجندِ، ومحمَّدٌ ﷺ ذكرَ اللّهَ باسمِه الأجلِّ الَّذي يستدعي جميعَ الأسماءِ الحُسنى والصِّفاتِ العُلا صفاتٍ لهُ، وأنَّ موسى عليه السلام خصَّ المعيَّةَ بالهدايةِ، وسيِّدُنا محمَّدٌ - صلَّى اللّه عليه وآله وسلَّم - جعلَها مطلقةً غيرَ مقيَّدةٍ بوصفٍ، وأنَّ موسى عليه السلام محّضَ المعيَّةَ للاستقبالِ بالمضارعِ والسِّين، أمَّا سيِّدُنا محمَّدٌ ﷺ فقد جعلَها عامَّةً كلَّ وقتٍ في الحال والاستقبالِ، وأنَّ موسى عليه السلام جعلَ المعيَّةَ متجدِّدةً بالفعل ﴿سَيَهْدِينِ﴾، ومحمَّدٌ ﷺ جعلَها اسميَّةَ الجملةِ، فهي ثابتةٌ لا تنقضُّ، ولا تنقضي.

فما أسعدَ هذهِ الأمَّةَ الآخرةَ بنبيِّها صلَّى اللّه عليه وآله وسلَّم!

نزولُ السَّكينةِ طوى زمنَ الشَّدائدِ، وعجَّلَ بإزالةِ المخاوفِ

دلالةُ التَّعبيرِ بالفاءِ في قولِهِ: ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ﴾:

طوتِ الفاءُ الأحداثَ طيًّا، وابتلعتِ المخاوفَ والقلقَ، والشَّدائدَ والضِّيقَ، وكأنَّها لم يكن لها وجودٌ أصلًا، وللفاءِ أثرٌ بالغٌ في بيانِ

هذه المعاني، وهو مؤذِنٌ بأنَّ السَّكينةَ أُنزِلت عَقِبَ الحلولِ في الغارِ وأُنزِلت مترتِّبةً على قول النَّبيِّ لصاحبه الصِّدِّيق: ﴿لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ﴾، "وتلك السَّكينةُ هي مظهرٌ من مظاهرِ نصْرِ اللهِ إيَّاهُ، فيكونُ تقديرُ الكلام: فقد نصره الله فأنزل السكينةَ عليه وأيَّده بجنود حينَ أخرجه الذين كفروا، وحينَ كان في الغار، وحينَ قال لصاحبه: ﴿لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ﴾"[1].

وجهُ البلاغةِ في تعلُّقِ الظُّروفِ الثَّلاثةِ بـ ﴿نَصَرَهُ﴾:

يمكنُ أن تكونَ الظُّروفُ الثَّلاثةُ: ﴿إِذۡ أَخۡرَجَهُ﴾، ﴿إِذۡ هُمَا فِي ٱلۡغَارِ﴾، ﴿إِذۡ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ﴾؛ متعلِّقةً بفعلِ ﴿نَصَرَهُ﴾ على التَّرتيب المتقدِّم، "وهي كالاعتراض بين المفرَّعِ عنه والتَّفريع، وجاء نظمُ الكلامِ على هذا السَّبكِ البديعِ للمبادَأةِ بالدِّلالةِ على أنَّ النَّصرَ حصلَ في أزمانٍ وأحوالٍ ما كان النَّصرُ يحصلُ في أمثالِها لغيرِه لولا عنايةُ اللهِ به، وأنَّ نصرَهُ كان معجزةً خارقًا للعادةِ"[2].

ذِكْرُ الأوقاتِ الحوالكِ تعظيمٌ لمنَّةِ اللهِ على نبيِّه ﷺ

بلاغةُ التَّعبيرِ بالفعلِ الماضي مسندًا إلى الاسمِ الجليلِ:

في قوله تعالى: ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ﴾، نلحظ أنّ الله عبَّرَ بالماضي، والمقامِ للمضارعِ، تناسبًا مع ما سبق ﴿يَقُولُ﴾، ﴿لَا تَحۡزَنۡ﴾؛ لتحقيقِ الوقوعِ عقيبَ القولِ، وعبَّر بـ ﴿فَأَنزَلَ﴾ لبيانِ علوِّ قدْرِ السَّكينةِ، وتفرُّدِ الحقِّ بتحقيقِ ذلك؛ لأنَّ النَّصرَ مِن عندِ الله وحدَهُ، وأسندَ الفعلَ إلى الاسمِ الجليل لبيان قدْرِ المُنَزَّلِ من السَّكينةِ، فهو ممَّن تفرَّد بالألوهيَّةِ فهي سكينةٌ متفرِّدةٌ عظيمةُ الأثرِ بالغةُ القدْرِ، وقدِ ازدادَ القدْرُ قدْرًا بإضافة السَّكينةِ إلى الضَّميرِ العائدِ للاسمِ الجليل، ففي الإضافةِ تشريفٌ ومضاءُ أمرٍ وتعظيمُ أثرٍ وإشعارٌ بالحمايةِ والوقايةِ والحفظِ والتَّأييدِ والإغناءِ والكفايةِ وسَعةِ الفضل.

التَّعجيلُ بالبشارةِ يُزيلُ كلَّ المتاعبِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/203.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/204.

تنوُّعُ مرجعِ الضَّميرِ ﴿عَلَيۡهِ﴾ ودلالتُهُ:

طولُ الصُّحبةِ، والملازمَةِ توحِّدُ النُّفوسَ

"الضَّميرُ عائِدٌ على صاحبِهِ، أو على الرَّسولِ ﷺ قاله الجمهورُ، أو عليهما، وأفردَهُ لتلازمِهما"[1]، وقد رجَّح بعضُ المفسّرين أن يكونَ الضَّميرُ عائدًا على أبي بكرٍ؛ لأنَّه أقربُ مذكورٍ، ولئلَّا يلزمَ خوفُ الرسولِ ﷺ وهو ممَّا لا يليقُ بهِ[2]، ولا يمنعُ هذا من أن يعودَ الضَّميرُ إلى رسولِ اللّهِ ﷺ لأنَّ ذِكْرَ أبي بكرٍ رضي الله عنه جاء عَرَضًا، وذِكْرُهُ ﷺ هو الأصلُ، وذلك بمراعاةِ تعلُّقِ الظَّرف ﴿إِذۡ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ﴾ بالفعل الأوَّلِ ﴿نَصَرَهُ ٱللَّهُ﴾"[3].

دلالةُ عطفِ الجملةِ بالواو:

تعدُّدُ مواقفِ نصرِ الله لنبيِّه الأكرم، يُجيزُ كلَّ وجوهِ العَطْفِ

قولِه: ﴿وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٖ لَّمۡ تَرَوۡهَا﴾، نجد أنّه اختُلِفَ فيما عُطِفت عليه هذه الجملةُ، "فيجوز أن تكونَ الجملةُ معطوفةً على جملة ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيۡهِ﴾ عطْفَ تفسيرٍ، ويكونَ المرادُ بالجنودِ الملائكةَ الذين ألقوا الحَيْرةَ في نفوس المشركين، فصرفوهم عنِ استقصاءِ البحثِ عنِ النَّبي ﷺ وإكثارِ الطَّلبِ وراءَهُ والترصُّدِ له في الطُّرق المؤدِّيةِ والسُّبل الموصلةِ. ويجوز أن تكونَ معطوفةً على جملة ﴿أَخۡرَجَهُ﴾ والتقديرُ: وإذ أيَّدهُ بجنودٍ لم تروها، أي: بالملائكةِ يومَ بدرٍ، ويومَ الأحزابِ، ويومَ حُنينٍ"[4]، وجُلُّ المفسِّرين على أنَّ الجملةَ معطوفةٌ على ما قبلَها، غيرَ أنَّهم ذكروا أنَّ الضَّميرَ في ﴿وَأَيَّدَهُۥ﴾ عائدٌ على النَّبيِّ ﷺ كما ذكروا أنَّ المرادَ بالجنودِ الملائكةُ الَّذين كانوا يومَ بدرٍ، وينصرُ رأيَهم ما جاء في سورتَي آل عمران والأنفال مِنَ التَّأييد بالملائكة يومَ بدرٍ، وبأنَّه سمَّاهُ يومَ الفرقانِ، بهِ فرَّق اللّهُ بين الحقِّ والباطلِ، وجعل كلمتَهُ هي العليا، وكلمةَ الَّذين كفروا هي

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/45.
(2) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 16/68.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/204.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/205، 204.

السُّفلى[1]، وكلُّ هذه الوجوهِ لاتتعارَضُ لكونِهَا مجتمعةً في مواقفَ أيَّد اللّهُ فيها نبيَّهُ ﷺ ونصرَهُ، وفي سياقاتِ الذِّكر الحكيمِ ما يؤيِّدُ كلَّ ذلك، وهذا من بلاغة توجيهِ العطف.

سرُّ التنكير والوصف بالجملة:

جنودُ اللهِ لا حصرَ لهم، ولا يمكنُ رؤيتُهم، ولا الإحاطة بهم

قوله: ﴿بِجُنُودٍ﴾، الغرضُ مِنَ التَّنكيرِ التَّكثيرُ والتَّعظيمُ، وقد وصفَهم النَّظمُ الكريمُ بجملة فعليَّةٍ ﴿لَّمْ تَرَوْهَا﴾، وقد دلَّت هذهِ الجملةُ على أنَّ من خصائصِ هذه الجنودِ أنَّها غيرُ ممكنةِ الرُّؤيةِ للبَشرِ، ممَّا يجعلُها أكثرَ تأييدًا، وأقوى نُصْرةً، وهذه الجملةُ حملت المفسِّرين على تفسيرِ الجنودِ بالملائكة. ويؤيِّدُ هذا المعنى ما ورد عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قوله عن يوم بدر: «بَيْنَما رَجُلٌ مِنَ المُسْلِمِينَ يَومَئذٍ يَشْتَدُّ في أَثَرِ رَجُلٍ مِنَ المُشْرِكِينَ أَمامَهُ، إذْ سَمِعَ ضَرْبَةً بالسَّوْطِ فَوْقَهُ وَصَوْتَ الفارِسِ يقولُ: أَقْدِمْ حَيْزُومُ، فَنَظَرَ إلى المُشْرِكِ أَمامَهُ، فَخَرَّ مُسْتَلْقِيًا، فَنَظَرَ إلَيْهِ فَإذا هو قدْ خُطِمَ أَنْفُهُ، وَشُقَّ وَجْهُهُ، كَضَرْبَةِ السَّوْطِ، فاخْضَرَّ ذلكَ أَجْمَعُ، فَجاءَ الأَنْصارِيُّ، فَحَدَّثَ بذلكَ رَسولَ اللّهِ ﷺ، فَقالَ: صَدَقْتَ؛ ذلكَ مِن مَدَدِ السَّماءِ الثّالِثَةِ، فَقَتَلُوا يَومَئذٍ سَبْعِينَ، وَأَسَرُوا سَبْعِينَ»[2].

وفائدةُ قولِه: ﴿لَّمْ تَرَوْهَا﴾ يردُّهم إلى تصديق المخبِرِ، فلم يبقَ لهم إلّا الانقيادُ له في جميع ما أمرَ، ومنه النَّفْرُ خِفافًا وثِقالًا، كما سيأتي عقيب هذهِ.

براعةُ التَّعبيرِ بعطف النّتيجة، وبالفعل الماضي:

الوقائعُ تقلِبُ أفكارَ النّاسِ، لِتعلُّقِ الأقدارِ بربِّ البشرِ

قوله: ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفْلَىٰۗ﴾، هذا العطفُ يشبهُ أن يكونَ عطْفَ نتيجةٍ، والتَّعبيرُ بالفعل (جعل) ماضيًا يفيدُ حتْميَّةَ

(1) ابن أبي زمنين، تفسير القرآن العزيز: 2/206، والزّمخشريّ، الكشّاف: 3/521، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/36، والفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 16/68 وابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 10/97، 96، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 3/321.

(2) أخرجه مسلم في صحيحه، برقم: (1763).

سُفول كلمةِ الكافرين، حتَّى وإن بدا للنَّاس كثرةُ عَددِهم، وعُددِهم ممَّا يؤدِّي وجودُه في فِكرِ البَشَرِ إلى الغَلبَة، لذا عبَّر بالفعلِ ﴿وَجَعَلَ﴾ تعبيرًا عن تحويل مُعتقدِهم المُتَّكِئ على كثرةِ العَدد والعُدد؛ "لأنَّ أمْرَ المشركين كانوا مَظِنَّة القوَّةِ والشِّدَّة"[1].

دلالةُ وقوعِ ﴿كَلِمَةَ﴾ مفعولًا بهِ أوَّلَ، مضافًا إلى الاسم الموصولِ:

سُفُولُ الكلمةِ دليلٌ على سُفُولِ أصحابِها

وقعَ لفظُ كلمةٍ التي للكفار (والمراد به هنا كلمةُ الشِّركِ) مفعولًا به أوَّلَ؛ للدِّلالة على تمامِ الهزيمةِ وتدنِّي السُّفول الذي تخطَّى المؤمنين بها، إلى قولهم الذين يؤمنونَ بهِ، ويحارِبونَ دونَهُ، وهذا أبلغُ ممَّا لو قيل: (وجعل الذين كفروا سافلين)، فالتعبيرُ الذي في سياق الآية الكريمة أبلغُ، فلم يبقَ لكلمتِهم شأنٌ، فكيف بأصحابِها؟ فقد كنَّى عن سُفول الكافرين بسُفول كلمتِهم، وقد زاد من تحقيرِ الكلمة إضافتُها للاسم الموصولِ الذي اقتضى بناءَ جملةِ صلةٍ تؤكِّد استحقاقَهم الهزيمةَ والسُّفول، وفيه المناداةُ على ذِلَّتهم وهوان شأنِهم.

بلاغةُ التَّعبيرِ بالمفعول به الثّاني، معرَّفًا باللّام:

السُّفولُ كلُّه مآلُ كلمةِ الكافرين، لأنّ الكفرَ هوانٌ وضعةٌ

﴿ٱلسُّفۡلَىٰۗ﴾، أي: الحقيرةُ المقهورةُ الساقطةُ؛ لأنَّ السُّفلَ يُكنَّى به عن الحقارة، وقد عبَّر بها معرَّفةً باللام، فلم يقل: وجعل كلمةَ الذين كفروا سُفلى، وإنَّما جعل السُّفولَ كلَّه لها، وصرفَهُ إليها تناسُبًا مع حقارةِ مَن أُضيفت إليهم الكلمةُ ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾، فأذل اللّه الشرك وأهله، وخذلهم ودحرهم.

معنى الواوِ الاستئنافية:

الاستئنافُ آيةً على استقلالِ المعنى

في قوله: ﴿وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلۡعُلۡيَاۗ﴾، الواوُ استئنافيَّةٌ، وليست عاطفةً، ويؤيِّده أنَّ الجملةَ اسميَّةٌ، وما قبلها جملةٌ فعليَّةٌ، وفي ذلك دلالةٌ على أنَّ كلمةَ اللّهِ هذا شأنُها أبدَ الآبدين، ويؤيِّد ذلك قراءةُ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/205.

العشَرةِ ما عدا يعقوبَ بالرَّفعِ[1] وقولُهم: إنَّه الأوجَهُ، أي: الأليقُ بالمعنى لما فيهِ مِنَ الإطلاقِ، وهذا الاستئنافُ " بمنزلة التَّذييلِ للكلام؛ لأنَّه لمّا أخبرَ عن كلمة الذين كفروا بأنَّها صارت سُفلى؛ أفادَ أنَّ العَلاء انحصرَ في دينِ اللّه وشأنِه"[2]، وعلى قراءة يعقوبَ بنصب تاء التَّأنيثِ هو تذكيرٌ للمؤمنين بالنَّصر، وتعييرٌ ومُراغمةٌ للكافرين بالهزيمة في واقعةِ الهجرة.

دلالةُ إضافةِ الكلمةِ للاسمِ الجَليل، ووضعِ المُظهَرِ موضعَ المُضْمَرِ:

أُضيفَتْ ﴿وَكَلِمَةُ﴾، ومعناها هنا: كلمةُ التَّوحيدِ، ودينُه الذي شرعه لعباده إلى الاسم الجليل في مقابلِ إضافةِ نظيرتِها للذين كفروا، إيذانًا بالمبايَنَةِ التَّامَّةِ بين الكلمتين، وتشريفًا بالإضافة، وزيادةَ تشريفٍ بـ "وضْع المظهَرِ موضِعَ المُضْمَرِ؛ إذ الوجهُ أن يقولَ: وكلمتُه"[3]، فقد أدخلَ إظهارَ الاسمِ العظيم المهابةِ والجلالِ على الكلمة.

أشرفُ كلمةٍ هي الّتي أُضيفَتْ لله، فاكتسبت الوقار والعظمة

سرُّ التَّعبيرِ بأسلوب القصرِ؛ بتعريفِ الطَّرفين:

قوله: ﴿وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلْعُلْيَاۗ﴾، الضَّميرُ ﴿هِيَ﴾ من الآية الكريمة، ضميرُ فصلٍ أو مبتدأ، "وفيها تأكيدُ فضْلِ كلمةِ اللّه في العلوِّ، وأنَّها المختصَّةُ به دونَ سائرِ الكلم"[4]، فقولهُ: ﴿هِيَ ٱلْعُلْيَاۗ﴾ أسلوبُ قصرٍ بطريقِ تعريف الطَّرفين، فقد قصرَ العلوَّ على كلمةِ اللّهِ وحدَها دونَ غيرِها، ومنِ اتَّبع العلوَّ؛ علا، وأتباعُ كلمةِ التَّوحيد في علوٍّ ما قامُوا بحقِّها، والتَّعبيرُ بالجملة الاسميَّة يفيدُ الثُّبوتَ والدَّوام والاستعلاء على الزَّمنِ.

العلوُّ مخصوصٌ بكلمةِ (التّوحيد) دونَ غيرِها

دلالةُ التَّعبيرِ بالطِّباقِ:

في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفْلَىٰۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ

الصُّورةُ لا تظهر إلَّا ببيانِ ضدِّها

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/521، وابن الجزريّ، النّشر في القراءات العشر: 2/279، وابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 10/97.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/205.
(3) ابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 10/97.
(4) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/522.

﴿ٱلۡعُلۡيَاۗ﴾، بين (السُّفلى والعليا) طباق، والطِّباقُ هنا - في الجمع بين الشّيء وضدِّه في الكلام - يصوِّرُ التَّصادُمَ بينَ أتباعِ كلمةِ الشِّركِ وأتباعِ كلمةِ التَّوحيدِ، وقد بدأَ ببيان شأنِ الأدنى، وثنَّى ببيانِ شأنِ الأعلى إلماعًا إلى عموم النُّصرة، وعلوِّ كلمةِ التَّوحيد وأهلِه.

وقد جعل الطِّباقُ أهلَ كلمةِ التوحيد، وأهلَ كلمةِ الشِّرك في صورةٍ واحدةٍ جامعةٍ للمتباينَيْن؛ فأذلَّ اللّه الشرك وأهله، وخذلَهم ودحرَهم، وأعلى كلمةَ التّوحيدِ: لا إله إلا اللّه، ودينَه الذي شرعه لعباده، وجعلها هي الغالبةَ المنصورةَ على الشّرك وأهله.

براعة التّذييل، وسرُّ الختْمِ بالعزة والحكم:

خُتِمَتِ الآيةُ بهذه الجملة: ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾، وقد جاءت اسميَّةً مستعليةً على الزَّمن، خاليةً من أيِّ توكيدٍ شأنَ سَوقِ الحقائق المقرَّرةِ، والبيِّناتِ الواضحةِ، فهو "المحيطُ بكلِّ شيءٍ قدرةً وعلمًا، الغالبُ لكلِّ شيءٍ، لايُنْقَضُ شيءٌ من مرادِه، لما يُنصَبُ منَ الأسباب التي لا مطمحَ لأحدٍ في مقاومتها، فلا محيصَ من نفوذِها"[1]، وهي "تذييلٌ لمضمون الجملتين ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ﴾...﴿وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ﴾؛ لأنَّ العزيزَ لا يغلبُهُ شيءٌ، والحكيمُ لايفوتُه مقصَدٌ، فلا جرمَ تكون كلمتُه العليا، وكلمةُ ضدِّه السُّفلى"[2].

العزَّةُ غلبةٌ، والحكمةُ تحقيقُ مرادٍ، لمن بيده نواصي العباد

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

أيَّد، ونصر، وآزر، وأعانَ:

هذه الكلماتُ متقاربةُ المعاني، وكلُّها وردت في الذِّكر الحكيم، ولكلٍّ منها خصوصيَّةٌ، نبيِّنها فيما يلي:

أيَّدَ: فعَّل مِنَ الأيْدِ، أي: القوَّةِ الشَّديدةِ، ﴿وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصۡرِهِۦ مَن يَشَآءُۚ﴾ أي: يُكثِرُ تأييدَه[3].

النَّصر نتيجةٌ، والمؤازرة، والمعاونة والتَّأييد سبيلٌ للنَّصر

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 3/321.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتنّوير: 10/206.
(3) الرّاغب، المفردات: (أيد).

ونصرَ: النَّصْرُ والنُّصرةُ: العونُ، ونصرةُ اللّهِ للعبد ظاهرةٌ[1]، النُّون والصَّاد والراءُ: أصلٌ صحيحٌ يدلُّ على إتيان خيرٍ وإيتائهِ، ونصرُ اللّهِ المسلمين: آتاهم الظَّفرُ على عدوِّهم[2].

آزرَ: آزرَه: أعانَه، وقوَّاه، وأصلُهُ مِن شَدِّ الإزارِ، وآزرْتُهُ: قوَّيتُ أسافلَه، وآزرْتُهُ ووازرْتُهُ صرْتُ وزيرَهُ[3].

وأعانَ: عَوَنَ: العونُ المعاونةُ والمظاهرةُ، يقال: فلانٌ عوني، أي: مُعيني، والتَّعاونُ: التَّظاهرُ[4]. ويتَّضِحُ من بيان هذه المعاني أنَّ النَّصرَ نتيجةٌ، وأنَّ المؤازرةَ، والمعاونةَ والتَّأييدَ سبيلٌ للنَّصر، وأنَّ التَّأييدَ أقوى معاني أسبابِ النَّصرِ، كما يتبيَّن مِنَ المعنى اللُّغوي، ويتبيَّن من ذلك أنَّ الآيةَ الكريمةَ بدأت بالنَّتيجةِ معبِّرةً عنها بالفعل الماضي إلماعًا إلى تحقُّقِها ﴿فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ﴾، ثمَّ ذكرَ أسبابَها في قولهِ: ﴿وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ﴾.

السُّفلى والدُّنيا:

السُّفلى: يقال: سَفُل فهو سافلٌ، قال تعالى: ﴿فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا﴾، وأسفلُ ضدُّ أعلى، قال تعالى: ﴿وَٱلرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾، وسَفَل: صارَ في سُفْلٍ، وقال تعالى: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ﴾، وقال: ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفْلَىٰ﴾[5].

السُّفلى من السُّفْل: ضدُّ العلوِّ، والدُّنيا: من الدّنوّ، وهو القربُ بالذَّاتِ أو بالحكمِ

الدُّنيا: دنا: الدنوُّ القربُ بالذَّاتِ أو بالحكم، ويستعملُ في المكانِ والزَّمانِ والمنزلةِ، ويُعبَّر بالأدنى عن الأصغرِ والأرذلِ، وعن الأقربِ، فيُقابَلُ بالأقصى: ﴿إِذْ أَنتُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلدُّنْيَا وَهُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلْقُصْوَىٰ﴾ [الأنفال: 42][6].

(1) الرّاغب، المفردات: (نصر).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نصر).
(3) الرّاغب، المفردات: (أزر).
(4) الرّاغب، المفردات: (عون).
(5) الرّاغب، المفردات: (سفل).
(6) الرّاغب، المفردات: (دنا).

وواضِحٌ منَ المعنيَينِ أنَّ السُّفلى ملازمةٌ لمعنى الحقارةِ، وهذا بيِّنٌ مِن سياقاتِ الاستعمالِ القرآنيِّ، لكنَّ الدُّنيا أوسعُ استعمالًا، فاصطفى النَّظمُ الكريمُ تسميةَ الأحقرِ في مقابلةِ الأوفى علوًّا.

العليا والقصوى:

لفظ العليا لفظ يدلُّ على سموِّ المكانة، ولفظ القُصوى على بُعد المكان

العليا: عَلَوَ: العينُ واللامُ والحرفُ المعتلُّ ياءً كان أو واوًا أو ألفًا أصلٌ واحدٌ يدلُّ على السُّموِّ والارتفاع لايشذُّ عنه شيءٌ، ومن ذلك العلاءُ والعلوُّ، قال الخليل: أصلُ هذا البناءِ العُلُوُّ، فأمَّا العَلاءُ فالرِّفعةُ، وأمَّا العُلوُّ؛ فالعظمَةُ والتَّجبُّرُ[1].

والقُصوى: القَصَا: البُعدُ، والقصِيُّ: البعيدُ، وأقصيتُ: أبعدْتُ، والمكانُ الأقصى والناحيةُ القصوى من هذا المعنى[2].

وواضحٌ أنَّ الصِّيغةَ هذه خاصَّةٌ بالمكانِ والمسافةِ، أمَّا الأُولى؛ فخاصَّةٌ بالمكانةِ والقيمةِ، فاصطفى النَّظمُ ما هو ألصقُ بالسِّياق وأبرُّ بالمقامِ.

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (علو).
(2) الرّاغب، المفردات: (قصا).

﴿ٱنفِرُواْ خِفَافٗا وَثِقَالٗا وَجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٤١﴾ [التّوبة: 41]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

المناسبة بين العتاب على التّثاقل، والاستنهاض للنّفرة بالأموال والأنفس في سبيل الله

الآيةُ الكريمة ناظرةٌ نازلةٌ إثْرَ قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمۡ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلۡتُمۡ إِلَى ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ مُعقِّبَةٌ عليها، فإنَّ ماجاء بعدَها من الآيات مُنبنٍ عليها ذِكْرًا، مُفرِّعٌ لها مَعْنًى، حيث بدأ المعنى في الآية الأولى بالتَّوبيخ على التَّثاقُلِ عنِ الخروجِ، ثمَّ أتبعه في الآية الثَّانية ﴿إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبۡكُمۡ﴾ بالوعيد والتَّهديد، ثم انتقل هنا إلى الأمر الصَّريح بضِدِّ ما تَوَعَّدَ عليه، و"لمّا توَعَّد الله تعالى مَنْ لا ينفِر مع الرَّسول ﷺ لِتَبوكَ، وضرب له من الأمثال ما فيه أعظَمُ مُزْدَجَر؛ أتبعه بهذا الأمر الجَزِم، فقال سُبحانه: ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافٗا وَثِقَالٗا﴾"[1]، ذلك أنَّهُ "لمَّا بلغت هذه المواعظ من القلوب الواعية مَبْلَغًا؛ هيَّأها به للقبول؛ أقبل عليها سبحانه بالأمر"[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿خِفَافٗا﴾: مِنْ "خفَّ، ويُطْلَقُ الخفيف بإزاء الثَّقيل، ويُقال ذلك باعتباراتٍ، مِنْها: المُضايفَة بالوزن وقياس شيئين أحدهما بالآخر، نحو قولِهم: درهمٌ خفيفٌ، ودرهمٌ ثقيل، وقولهُ تعالى: ﴿خَفَّتۡ مَوَٰزِينُهُۥ﴾، وقوله سُبحانه: ﴿ثَقُلَتۡ مَوَٰزِينُهُۥ﴾. ومِنْها: المُضايفَة بالزَّمان، كقولهم: فرسٌ خفيفٌ، وفرسٌ ثقيلٌ إذا عُدَّ أحدهما أَكْثَرَ عَدْوًا، وأسرَعَ بلوغًا من الآخر في زمان واحدٍ، ويُقال:

(1) القاسميّ، محاسن التَّأويل: 5/420.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 3/321.

خفيفٌ فيما يستخفُّه النَّاسُ، وثقيلٌ فيما يستَرْذِلُه النَّاسُ، فيكون الخفيف مدْحًا، والثَّقيل قَدْحًا، ويُقال: خفيفٌ فيمن يطيشُ، وثقيلٌ فيما فيه وَقارٌ أو رزانَةٌ أو رجحان"[1]، وقد تعني ﴿خِفَافًا﴾: رُكبانًا؛ لأنَّ ما يركبونه يُخفِّف عنهم[2]، و﴿خِفَافًا﴾ أيضًا، أي: شُبَّانًا، و﴿خِفَافًا﴾، أي: من المال[3]، والمراد من ﴿خِفَافًا﴾ في الآية، أي: واجدين ما تُحملونَ عليه، وأنتُم غيرُ أولي ضررٍ مُعيقٍ أو جهدٍ مُنْهِك حائلٍ، ﴿وَثِقَالًا﴾ عكسُهُ في وجدانِ ما يُحمَلُون عليه، إذا وجدوا ما يعْتقبونَه من دوابَّ ورواحِلَ، انفروا أصحَّاء؛ نُشَّاطًا وكسالى، فصار المراد بـ ﴿خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ أي: انفروا على كلِّ حالٍ، قادرين أو غير قادرين دون عجزٍ بدنيٍّ أو اعتلالِ جِسْمٍ، راغبين أو راغمين.

2) ﴿ثِقَالًا﴾: الثَّاء والقاف واللَّام أصل واحدٌ يتفرَّع منه كلماتٌ متقاربة، وهو ضدُّ الخفَّة، ولذلك سمِّي الجنُّ والإنس الثَّقَلين، لكثرة العَدَد، ولخفاء الجنِّ، فإنَّ ﴿ثَقُلَتْ﴾ [الأعراف: 187] معناها: خَفِيَتْ، بلغة قريش[4]، وأثقالُ الأرض: كنوزها، وأصله: دفائِنُها، فالكنوزُ بعض الدَّفائن، إذْ أثقالُ الأرضِ: كنوزها وأمواتها.

﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ﴾: أجسادكم، ويُقال: ارتحل القومُ بِثِقَلِهم، أي: بأمتعتهم[5]، والثِّقَلُ والخفَّةُ متقابلان، فكلُّ ما يترجَّحُ على ما يُوزنُ به، أو يُقدَّرُ به، يُقال: هو ثقيلٌ، وأصله في الأجسام، ثُمَّ تُحْمَلُ عليه المعاني.

وقوله ﷻ: ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا﴾، قيل: شُبَّانًا وشيوخًا، وقيل: فقراء وأغنياء، وقيل: غُرَباء ومُستوطنين، وقيل: نُشَّاطًا وكُسالى، وكل ذلك ممَّا يحتَمِلُهُ لفظُ الآية.

وقد فسَّر الدَّامغانيّ الثِّقال هنا قائلًا: "الثِّقال: الشُّيوخ، وأصحاب العيال، قوله تعالى في سورة التَّوبة: ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ يعني بالثِّقال: الشُّيوخ"[6].

(1) الرَّاغب، المفردات: (خف)، بِتصرُّفٍ قليلٍ.
(2) فوزي الهابط، معاجم ألفاظ القرآن الكريم: 1/362.
(3) الدَّامغانيّ، الوجوه والنّظائر: 1/321.
(4) ابن سلَّام، لغات القبائل في القرآن الكريم (بهامش الجلالين): 1/163.
(5) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (ثقل).
(6) الدَّامغانيّ، الوجوه والنَّظائر: 1/215.

المَعْنى الإجْماليُّ:

دعوة المؤمنين خفافًا وثقالًا، للتّضحية بالأموال والأنفس، توخّيًا لما هو خير

الَّذي عليه أكثرُ أهل العلم بالتَّفسير أنَّ هذه الآيات في غزوة تبوك، وقد كانت هذه الغزوة هي الرَّدع للرُّوم، لكيلا يضطهدوا المؤمنين في أرضهم، وأراد النَّبيُّ ﷺ أَنْ يكون العددُ كثيرًا، ولذا دُعِيَ الجميع: أَنِ انفروا في سبيل الله، وجاهدوا بالأموال والأنفس ما استطعتُم إلى الجهاد سبيلًا، لا فرق بين غنيٍّ حِمْلُه خفيفٌ، أو فقير مُثقَلٍ بالعيلة والأولاد، ولا فرقَ بين شابٍّ وشيخٍ، ولا فرق بين حال مَنْشَطٍ أو مَكرهٍ، وحال إقبال وحال إثقال واستكراه، انفروا جميعًا غيرَ متعلِّلين بأيَّة علَّةٍ، وابذلوا وُسْعَكُم بالنَّفس والمال، فالخير كلُّه في النَّفير[1].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

سرُّ بلاغةِ تصدير الآيةِ، بالأمر الصَّريح:

استنهاضُ الهِمَمِ، يُناسبه الصَّراحةُ والوضوح

اصطفى النَّظمُ الكريمُ من صُوَر الأمر صورةَ الفعل الصَّريح، فهو "تجريدٌ للأمر بالنُّفور بعد التَّوبيخ على تركه، والإنكار على المُساهَلة فيه"[2]، وفي ذلك ترقٍّ من التَّوبيخ والتَّهديد إلى الاستنهاض الصَّريح بهذا الفعل الدَّالِّ على النُّهوض والحركة والنَّشاط.

واقتصار الآية هنا على البدء بالأمر الصَّريح استهلالًا دون مُقَدِّمات، ودون التَّمهيد له مجدَّدًا بندائهم بالإيمان، مناسبٌ غايةَ المناسبةِ لمقام الإنهاء والبلاغ، المتضمِّن في طيِّه النُّذُر والزَّواجر، المُعْرِض قَصْدًا عن ذكرهم بالإيمان، تحقيقًا لمفاد علم الله به من كلٍّ بحسبه، على وجه الحقيقةِ المستقرَّة في الضَّمائر والأغوار، وبما يشبه التَّغاضي الحكيم عن ذِكْرِه، طلبًا لأثره، وتنبيهًا على أنَّ حيثيَّة إثباته تعود على المتَّصِفِ به على وجه الكمال، بحيث يكون أثرُ

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 6/3312، وحجازي، التّفسير الواضح: 10/75.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/67.

ذلك في نفسه التَّحفيزَ والاستفزاز للانبعاث والخروج، فلم يُذكر ثانية، وباعتبار جَعْلِ المبادرة لامتثال الأمر، كأنَّها هي المحِدَّة في اعتبار صِدقهِ من عدمه، وليكون الخطابُ بذلك في أشدِّ الحالات تحفيزًا، ولا يخفى أيضًا ما في ذلك مِنَ الإشعار بالعجلة وضيق المقام عن التَّلبُّث والتَّريُّث، والإيذان بدنوِّ الرَّحيل في النَّفير الذي أظلَّتْهُم ساعتُه، وليبقى عَدَمُ ذِكْرِهم بالإيمان في هذا الأمر داعيًا إلى استحضارِه واستقرائه فيما سبقَ تنزُّلِه فيه، فيُلْجِئُهم ذلك إلى ضميمة هذا النَّصِّ مع ما قبله، فيكون درسًا أوَّلَ لهم مِن دروس الجهاد: أنَّ الأوامر الميدانيَّة تَراتُبِيَّةٌ؛ ينبني تاليها على بادئها، وأَنْ لا شيءَ منها يقبلُ الإغفالَ وإن تقادم ذِكْرُه، أو يناله الإهمال وإن تناهى أمرُه، وأنَّ العمل بها أوَّلًا ابتداء، غير مُغْنٍ عن إعمالها دَوْمًا وآخرًا وانتهاءً.

سِرُّ اختيارُ فِعْلِ الأمر:

إحاطةُ اللَّفظ بالبدايات والنِّهايات، والمُنطلقات والغايات، شهادةٌ على التّفرّد المعجِز

اختيرَ للمقام فعل الأمر ﴿ٱنفِرُواْ﴾، وهو دالٌّ على تجافٍ وتباعد، وللتَّجافي والتَّباعد اعتباران اخْتُصَّا بمصدرين على التَّقسيم بحسب ما يُرادُ من المعنى، فالفعلُ (نَفَر) وأَمْرُهُ الواردُ في الآية ﴿ٱنفِرُواْ﴾، إذا رُوعي فيه التَّجافي باعتبار البداية؛ قيل: (نَفَرَ نُفورًا)، فهو مُدْبِرٌ نازعٌ عن مكانه، وإذا لوحظ المنطلَقُ إليهِ والغاية بحسب ما يَنْزِعُ إليه، ويرنُو له؛ قيل: (نَفَرَ نَفيرًا)، فاستعمل القرآنُ أمرًا واحدًا؛ لِيَدُلَّ على حَفْزِهم أن يخفُّوا للتَّجافي عمَّا هم فيه، بغاية الكُره للمقام في أطايبه من ظلالٍ، ومساكن، وطيب ثمار، ونحو ذلكَ، وذلك ما لا يتحقَّق لأحدهم إلَّا باستحضار مقارنةٍ بين هذا المتاع وبين نعيم الآخرة، الَّذي لا يعجله إلَّا الظَّفرُ بالشِّهادة.

وانظر إلى أثر الفعل عليهم من جهة دلالتهِ على النَّفير، وهم يعلمونَ اشتطاطَ الوِجهة، وتنائي المقصد، ودون ذلك سَفَرٌ مُكِدٌّ

مُرهِق، لا سبيل إلى صدِّ الهواجس المخذِّلة عنه إلَّا أن يستشعرَ الواحدُ منهم - ممَّا نزل، وممَّا لم ينزل بعدُ - المعانيَ المحفِّزاتِ، المالِئاتِ الأنفسَ يقينًا.

وإذ قدَّمنا بعضًا من إعجاز اختيار فعل الأمر من جهة إيحائهِ الحاثِّ على الانخلاع ممَّا هم فيه مِن عاجل المتاع انخلاعًا تامًّا عامًّا إلَّا ما لا بدَّ لهم مِن استصحابه مِن وسائل أوَّلًا، ثمَّ من جهة إيحائهِ بالتشوُّق لبلوغ الغاية حيث تعلَّقت نفوسُهم بالنَّيل من العَدُوِّ وتكبيدِه مرارات الفَجْع واللَّوع في سبيل الله إعزازًا لدينه وإعلاءً لكلماته ونصرًا لله ورسوله، وإسلام أنفسهم لله في ميدان الشَّرف والكرامة تمنِّيًا للشَّهادة وتشهِّيًا لمنازلها ومراتبها، تصديقَ ما بايعوا عليه وعاشوا من أجله ثانيًا، فإنَّنا نقدِّم ضربًا ثالثًا من إعجاز هذا الفعل منْ حيثُ تمحُّضُه بكل معناه للدِّلالة على الغزو دون غيرهِ من المعاني على الحقيقة النَّاصَّة المُساوية؛ إذْ هكذا هو في لغة هُذَيْل، وكنانة، فبهذا أخبر أبو عُبيد القاسم بن سلَّام وغيرُهُ[1]؛ ليبقى ما استُعمل فيه الفعلُ (نفر) ومادَّتُه - من وراء الدِّلالة على الغزو - ضربًا من المجاز فيه روعة التَّشبيه، وحسن الاستعارة، وبلاغةُ الإيجاز. فالفعل إذًا مناسبٌ من جهة أنَّ غيرَهُ لا يقوم مقامَهُ، ولا يؤدِّي مؤدَّاه؛ إذ هو مختصٌّ بالغزو حقيقة، وبما استَصْحَبَ حالهُ من المقامات التي يُطلب لها التَّجرُّدُ من حظوظ النَّفس، والإخلاصُ في الطَّلب، وإيثارُ المطلوب بالنَّفقة والبذل، والتَّضحية بكثيرٍ من الضَّروريات قدرَ الاستطاعة كالشِّبَع والنَّوم، فيستعملُ فيه تقريبًا له من أجواء الجهاد وروحانيَّته، كطلب العلم الشَّرعيِّ وجميع ما يحقِّق لأمَّة الإسلام الغِنى والكفاية، إقامةً لنصيح الدِّين وأداء واجب النُّصح والاحتياط للمسلمين، كما في آية: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ [التوبة: 122]، فهي إذًا روحُ الرُّجولة والشَّهامة والتَّضحية والفدائيَّة والبسالة وأخلاق الفرسان شجاعةً وإقدامًا، وتعفُّفًا عن المطامع، وترفُّعًا على الحطام، وتنزُّهًا عن المُغريات.

وملمحٌ آخر من إعجاز الفعل ما فيه من المصارحةِ والمفاتحةِ بالغاية والغرض، من غير

(1) ابن سلَّام، لغات القبائل في القرآن الكريم (بهامش الجلالين): 1/178، والسُّيوطيّ، الإتقان: 2/93، وابن حنُّون، اللُّغات في القرآن، ص: 29.

تكنية ولا تورية، وما يدلُّ الفعل عليه، ويشير إليه، لمن تلبَّس به ألَّا يبارحَ هيئتَهُ، وما دام قد تلبَّث؛ فلا عليه أن يتشبَّث؛ إذ في الجهاد الرِّزقُ الوفير والعِزُّ الكثير.

فلا حرج على النَّبِيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ولا جناح، جرَّاء الإفصاح؛ تنبيهًا للمُستَنْفَرين بالاستعداد الممكن، والتَّأهُّب المكين.

مغزى إسنادِ الفعل إلى واو الجميع:

استنفارُهم كافَّةً، ومن جهَّز غازيًا في سبيل الله؛ فقد غزا

كان من هَدْي الله وحكمته أن يقعَ الاستنفارُ بصيغة مُسنَدةٍ إلى الجميع؛ ليتحقَّق الإعلامُ بالقصد على سواء، فلا يكون الإعلامُ موجَّهًا لذي صفةٍ دون صفة، ولا لموصوف دون موصوف، وليكون الجميعُ مخاطَبًا مأمورًا، وليقع الإبهامُ مِن كُلٍّ بحسَبِه، وإنَّ الله ليُدخل بالسَّهم الواحد ثلاثةَ نفرٍ الجنَّة: صانعَه يحتسب في صنعته، ومُنَبِّلَه، والرَّاميَ به، وفي الحديث أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قال: «مَنْ جَهَّزَ غَازِيًا فِي سَبِيلِ اللهِ؛ فَقَدْ غَزَا، وَمَنْ خَلَفَهُ فِي أَهْلِهِ بِخَيْرٍ؛ فَقَدْ غَزَا»[1].

وفي إغفالِ الاعتباراتِ الخاصَّة لكبرائهم مِن صَفْوة المهاجرين والأنصار وفرسانهم يُعْلَم بأنَّهم يكتسبون حيثيَّات تُقدَّر إيمانيًّا بقدر بلائهم في إجابة الدَّاعي، وبلائهم المتتابع في السَّفر وفي الجهاد.

بلاغةُ التَّعبيرِ بالاستعارة:

وجوبُ النُّهوضِ للجهاد في سبيل الله على كلِّ حال

في قوله تعالى: ﴿خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ "حالان مِن ضمير المخاطَبين، أي: على أيِّ حال كان من يُسر وعسر"[2]، "والخِفَاف والثِّقالُ هنا مستعاران لما يشابههما من أحوال الجيش وعلائقه، فالخفَّة: تُستعار للإسراع إلى الحرب، وكانوا يتمادحون بذلك لدلالتها على الشَّجاعة والنَّجدة، فالثِّقل الذي يناسب هذا هو الثَّبات في القتال، كما في قول أبي الطيِّب:

(1) رواه البخاريُّ في صحيحه، برقم: (2843)، ومسلم في صحيحه، برقم: (1895)، واللفظ له.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/67.

ثِقَالٍ إذا لاقَوا، خِفَافٍ إذا دُعوا

وتُستعار الخفَّة لقلَّة العدد، والثِّقل لكثرة عدد الجيش، وتُستعار الخفَّة لقِلَّة الأزواد، أو قِلَّة السِّلاح، والثِّقَلُ لضِدِّ ذلك، وتُستعار الخفَّة لقلة العيال، والثِّقل لضدِّ ذلك، وتُستعار الخِفَّة للرُّكوب؛ لأنَّ الرَّاكبَ أخفُّ سيرًا، والثِّقل للمشي على الأرجُل، وكلّ هذه المعاني صالحةٌ للإرادة من الآية"[1]، وهذا من الإيجاز والبلاغة بمكان؛ إذ يَصْطَفِي النَّظمُ الكريمُ أقصرَ لفظ لأوسعِ عبارة.

ودلالةُ هذه المعاني المتنوِّعة المتعدِّدة الماثلة في أشخاص ذويها على المعنى: بأنَّ الله يريد أن تجتمع كلمةُ المستجيبين له مهما كانوا أضدادًا في التَّنوع والصِّفات أو متقابلين فيها؛ فإنَّ الخطر يُوَحِّدُهم مستهدفين له متآزرين لصدِّه وردِّه، وأن يكونوا صفًّا واحدًا، قد زال منه التَّفاوتُ بفضل ظهور خِلالِ المناصحة والصَّفاء والحبِّ والإيثار، والتَّعاضد والتَّساند لإعلاء كلمة الله، وإعزاز دينه، ودحض عدوِّه؛ إذ لا ينبغي لأحد منهم مهما بلغت درجةُ التَّباينِ بينه وبين أخيه، أَنْ يدعَ حظَّه ونصيبه من ذلك لغيره.

وهذا الاستنفارُ على هذا النَّحو البالغِ الدَّرجةَ القُصوى في التَّعبئة والحشد ممَّا لا يُسمح في مثله بالتَّخلُّف، وكلُّ ذلك فيه مِن أمارات النُّبوَّة ودلائلها ما فيه.

وأيضًا فإنَّ التَّعبئة العامَّة - بالاصطلاح العسكريِّ الحديث - يُراد منها استصحاب معنى الذَّود عن النِّساء والأطفال، وعن الحرمات الدِّينية والأرواح والأعراض والمُقدَّرات والأموال وعن استباحة البيضة وانتهاك الحُرْمة وسطوة العدوِّ إنْ تغلَّب، فيجاهد المؤمنون لئلَّا يقعَ بهم ذلك، وذلك يتطلَّبُ بذْلَ الغالي والرَّخيص، وإنفاق المضنون به المدَّخرِ، وذلك كنايةٌ عَن بذل كلِّ شيءٍ في سبيل الله.

دلالةُ عطفِ الأمرِ على الأمرِ:

العطفُ في قولِ اللهِ تعالى: ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾ من باب عطفِ الصَّريح على الضِّمْنِيِّ؛ إذِ الفعل ﴿ٱنفِرُواْ﴾ يتضمَّن الأمر بالجهاد، لكنَّ الفعل (جاهدوا) تصريح بالمطلوب، فكأنَّ النَّظم الكريم أمرهم مَرَّتين؛

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/207، 206.

التَّأكيدُ على طلبِ الخروجِ للجهاد في غزوة تبوكَ

الأولى: ضِمْنًا، والثَّانية: صراحةً، وهذا يُكسب المطلوبَ الشَّرعيَّ أهمِّيَّةً بالغة، ويُكسبه التَّأكيد على المطلوب، وهذا ملائم للمقام؛ لأنَّ الآياتِ في غزوة تبوك التي سُمِّيت ساعة العسرة.

ويجوزُ أن يكون قد أَوْعَبَهُم جميعًا بالبلاغ، كُلًّا بلهجته وبلُغَتِه، إذِ ﴿ٱنفِرُواْ﴾ تعني: اغزوا في لغة كِنانة وهُذيل، فذكرها ولم يقف عندها، وجاء بعدها بما هو من الجُهْدِ - بالضَّمِّ - على لغة الحجاز، وبفتح الجيم: على لغة غيرهم، ومعناها: الطَّاقة، فأمر بالجهاد، والتعليلان ماضيان ومتساوقان.

سرُّ الجمعِ بين الجهاد بالأموال، والجهاد بالأنفُس:

الجهادُ مطلوبٌ على كلِّ حالٍ ممكنةٍ

الجمع بين الجهاد بالأموال والجهاد بالأنفُس، في قوله تعالى: ﴿بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ﴾ "إيجابٌ للجهاد بهما إن أمكن، وبأحدهما عند إمكانهِ وإعْوازِ الآخر، حتَّى إنَّ مَن ساعدَه النَّفسُ والمالُ يجاهدُ بهِما، ومَن ساعدَه المالُ دونَ النَّفس يُغْزِي مكانَه مَن حالُه على عكس حالِه"[1]، فيجهِّزه، ويحقِّق أُهْبَتَهُ، ويَخْلُفُه في أهله ليَغْزُوَ عنه.

سرُّ تقديمِ الأموال على الأنفُس:

المالُ به قوامُ الأنفُس، وبه يحصُلُ التَّجهيز والتَّحصين

في قوله تعالى: ﴿بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ﴾، "قدَّمَ الأموالَ في الذِّكر؛ إذ هي أوَّل مَصرفٍ وقتَ التَّجهيز، فرتَّب الأمرَ، كما هو في نفسه"[2]، و"لأنَّ النَّظر إليه من وجهيْن:

أوَّلهما: بُعْدُ خُطورِه بالبال وعدم تَوارُدِه على القلب عند سماع الأمر بالجهاد، فلذلك أُحْضِر.والآخَرُ: قُوَّة تعلُّق النَّفس به وبذلُها الجِدَّ لِكَسْبِه.ومِنْ صور التَّعلُّقِ به: "محبَّة الإقامة في الحدائق؛ إيثارًا

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف، 3/523. وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/67.
(2) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 10/225.

للتَّمتُّع بها وخوفًا من ضياعها، مع أنَّ بها قوام الأنفس، فصار النَّظر إليها هو الحاملَ على الشُّحِّ بالأنفُس"[1].

سِرُّ العود إلى ذِكْرِ جُملة ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾:

مَفاداتٌ بَليغةٌ، مِن وراء التَّذكير بالهدف الأسمى

أعاد ذِكْرَ جُمْلَةِ ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾ هنا مع الجهاد، وكانت ذُكِرَتْ قبلُ مع الأمر بالنَّفير المُضَمَّن صريحَ التَّقريع على التَّثاقل عنه في قوله: ﴿مَا لَكُمۡ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلۡتُمۡ إِلَى ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ [التوبة: 38]، ولا ريبَ أنَّ علاقة الجهاد بالنَّفير في سبيل الله علاقةُ تلازم ومصاحَبَة، فاقتضى أحدُ الأمريْن المتلازمين المتصاحبَين ما اقتضاه مُلازمُه؛ مِنَ التَّصريح فيه بما صُرِّح في نظيره، ممَّا يدلُّ على الإخلاص لله، ومشروعيَّة العمل المبذول لأجله، وضرورة الاحتساب فيه، وتجريد النِّيَّة وتجديدها لإعلاء كلمةِ الله، وحطِّ كلمة الكفر، وتعاهد ذلك من النَّفس. ثُمَّ إنَّ الأمر بالنَّفير كان مطلقًا في النَّصِّ متروكًا لمعهودهم من تحقيق مثلِه؛ أمَّا هنا فمُقَيَّدٌ بما يُعْظِم المؤونةَ، ويُحْضِر المشقَّة، ويزيد الكُلْفة؛ إذْ ذُكِر فيهِ أموالُهم وأنفسُهم وسائلَ للغاية المجيدة والعاقبة الحميدة، فلمَّا ذُكِرَتِ الجملةُ فيما سبيلُ تحقيقِه حاصلٌ بالمشاركة مع القصد؛ لَزِمَ ذِكْرُها فيما لا يتحقَّق على جهة الكمال إلَّا مع الإحفاء في الاستقصاء ولتقوية حضور الاحتساب في الجهد والنَّفقة وطاقة النَّفس الذِّهنيَّة والبدنيَّة واستثمار العلاقات الاجتماعيَّة والحسب والجاه في تحقيق هدف الجهاد مِن النَّصر وقذف الرُّعْبِ في قلب العدوِّ. ولِيَلْفِتَ نظرَهم لفتًا يستحقُّه المقامُ أن يتطلَّعوا إلى الله وحده برجاء أجْرِه تعالى ومثوبته في جميع ما يجرون من الحقِّ، وما يجري عليهم من مقدور يُقابَل بالصَّبر، وألَّا يدخلَ عليهم الرِّياء ولا السُّمعة، فلا يكون شيء من جهادهم حميَّة أو نخوةً أو رياء، أو ليُرى مكانه، أو ليتمدح به،

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 3/322.

أو ليصيب ثأرًا له؛ لَحِقَهُ عِبْئُه في الجاهليَّة إلى غير ذلك. والأهمُّ أنَّ القتال مظنَّة القتل، والقتيلُ مُلاقٍ ربَّه، فَلْيَتملَّأ بهذا التَّذكير بأخلاق مُلاقي الله من الثَّبات والتَّضحية والقتال مُقبلًا غير مُدبرٍ، والحرصِ على الشَّهادة، والبلاءِ الحسن في قتاله، والصَّبر حين البأس، واستشفافِ روح التَّأسِّي بالنَّبيِّ ﷺ، وترقُّب النَّصْرِ مِنَ الله.

موقعُ قولِهِ: ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾، ممَّا قبلَهُ ودلالته:

التَّعليلُ الحسنُ للأمر الصَّعب، يُكسبه قبولًا

قولُ اللهِ تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ يُشْبِهُ أن يكون تعليلًا لطلب الجهاد بالمال والنَّفس، ردًّا على ما يَجْري في بعض العقول أنَّ الجهاد يترتَّب عليه نقصٌ في الأموال والأنفس، ووظيفَةُ هذه الجملة تصحيحُ المفاهيم، والتَّذكير بآثار النَّصر المرتقب مِنَ العزَّة في الدِّين والتَّمكين في الأوطان للعبادة وتبليغ الرِّسالة ونشر العلم وكفِّ المطامع عن الاعتداء، وتجديد الوعد الإلهيِّ تلويحًا لهم بعظيم الثَّواب المُعَدِّ للمجاهدين، والأهمُّ مِن ذلك: ما فيها من رَدِّهِم إلى الله يتحاكمون إليه، ويرجعون لبيانه.

سرُّ التَّعبيرِ باسم الإشارةِ الموضوع للبعيد:

منزلةُ الجهادِ في سبيل الله، أشرفُ المنازل، وأسمق المراتب

المشارُ إليه باسم الإشارة ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ هو الجهادُ المستفاد، من قوله: ﴿وَجَٰهِدُواْ﴾، وقد أفادَ اسمُ الإشارةِ أمرَيْن:

أحدُهُما: تعيينُ المقصودِ بالإشارةِ بإحضاره في الذِّهن؛ ليتمثَّل جرَّاء مثوله، ولينظر فيه مقرونًا بحسن عاقبتهِ، ومجيدِ عائدته، وكريم منزلته، فيذهب عنه ما بهم له من الكراهة، كما قال المولى سبحانه وبحمده: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة: 216].

والآخَرُ: ما أفادتْهُ اللَّامُ مِنْ معنى البُعْدِ المؤذِنِ ببُعْدِ منزلتِه في الشَّرفِ[1]، وفيه إعلامٌ بأنَّ المتَّصفين بوصفِ الجهادِ لهم حظوةٌ وقربٌ عِنْدَ اللهِ سُبحانه وحسنُ جوار في الآخرةِ.

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/67.

وقَرْنُ اسمِ الإشارةِ بالحرفِ الدَّالِ على المخاطَبينَ ﴿ذَٰلِكُمۡ﴾ يُرادُ به التَّخصيص، أي: خاصٌّ بكم، وقيمةُ ذلك أن يعلموا أنَّ التَّنويه بالجهاد إغراءٌ لهم به لفرط حاجتهم إليه، وتوقُّفِ عزَّتهم وكرامتهم في الدُّنيا عليه، وأنَّ الدَّرجاتِ العُلا من الجنَّة أُعدَّت لأصحابه، فلا يَقِفَنَّ بأحدهم هِمَّتُهُ عند حدود إسلامهِ وإيمانه دونه، وفائدةٌ أخرى هي أعظم: أنَّهم لَمَّا كُفُّوا عن الحديث عن الجهاد تورُّعًا عن الرِّياء وقطعًا لمداخل الشَّيطان إليهم فيه؛ زكَّاه اللهُ لهم على الوجه المأمورِ به، لِيُغْنَوا بثناء الله عن ثنائهم، وليتبارَوا متنافسين في إيقاعهِ على الوجه الذي يُحقِّق مرادَ الله، فيحصل لصاحبهِ رضوانُهُ جلَّ وعزَّ.

سِرُّ تنكير المُسنَد ﴿خَيۡرٞ﴾ والإخبار به:

الإبهامُ يفتح الآفاقَ، لتوَقُّع الخير بطريق أفسح وأرحب

الغرضُ من التَّنكير الإبهامُ؛ "لقصد توقُّع خير الدُّنيا والآخرة من شُعَبٍ كثيرة أهمُّها الاطمئنانُ من أن يَغْزُوَهم الرُّوم"[1]، فبهذا تسكن أنفسُهم إلى مزاولة أعمالهم ومعالجةِ شؤونهم في التِّجارة والحرث؛ إذ المدينة بلدُ زراعةٍ وحرثٍ وحوائطَ وبساتينَ، ومنابع مياه من آبارٍ مشهورة، ولِيَأْمَنوا في عمارتهم مساجدَهم وأداءِ عباداتهم وتعلُّم دينهم ونشر دعوتهم، وكلُّ ذلك من ثمار خروجهم لملاقاة الرُّوم؛ بُغْية تأديبهم وَكَسْرِ شوكَتِهم وفَلِّ حَدِّهم، سواءٌ أَتحقَّق لقاءٌ، أم لم يتحقَّقْ كما هو واقع الحال.

وإنَّما صحَّ أن يُقال: إن الجهادَ خيرٌ من القعود عَنْهُ، معَ أنَّه لا خيرَ في القعودِ؛ لوجهين: "الأوَّل: أنَّ لفظَ (خير) يُستعملُ في شيئين؛ أحدهما: بمعنى: هذا خيرٌ من الآخر، والثَّاني: أنَّه خيرٌ في نفسه، كقوله تعالى ذاكرًا دعاءَ موسى عليه السلام: ﴿إِنِّي لِمَآ أَنزَلۡتَ إِلَيَّ مِنۡ خَيۡرٖ فَقِيرٞ ٢٤﴾ [القصص: 24]، وعلى هذا سقط السُّؤال. والثَّاني: سلَّمنا أنَّ المرادَ كونُه خيرًا من غيره، إلَّا أنَّ التَّقدير: أنَّ ما يُستفاد من نعيم

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 10/208.

الآخرة بالجهاد خيرٌ ممَّا يَستفيده القاعدُ عنه مِن الرَّاحة والتَّنعُّم بها، ولذلك قال تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٤١﴾"[1]، بمعنى: أنَّ العِلْمَ مُفضٍ إلى إدراك أنَّ الجهادَ يحقِّق الأمْرين؛ فهو خير في نفسه بما يكسب من صفاتِ القوَّةِ والجلَدِ والشَّجاعة في مواجهة الأعداء، ونحو ذلك، ومِنْ جِهَة ما يعود به المنتصرُ مِنَ الأسلاب والغنائم والأجور الأخرويَّةِ، وهو خيرٌ منَ القعودِ؛ لِما فيه من الرُّقيِّ إلى سُدَّةِ العزِّ والسُّؤدد، وما يكون له من الهيبة بما كان له من العلوِّ.

مَغْزَى ذِكْر المتعلِّقِ ﴿لَّكُمْ﴾، مع كونه ليس قيدًا على الخيريَّة:

الجهاد عَلَمٌ بالغَلَبَةِ على المشروع منه، وهو خير كلُّه، فهو من دفع اللّه النَّاس بعضَهم ببعض، المنصوص في آياتهِ على منافعه وعظيم آثاره، وقد خَصَّتْ هذهِ الآيةُ المؤمنين المخاطَبين بالنُّبوَّة الخاتمة وبوحْيَيْها الخالدَيْن: القرآن الكريم، والسنَّة المشرَّفة، إرادةَ إعلامِهم أنَّهمُ المَعْنِيُّونَ أصالةً، وسائر مَن وراءهم، فهو يَليهم؛ إذْ هُمُ الأعلون بإيمانهم، وللإفضاء إليهم بحُبِّ اللّه لهم، وتشريعه الجهادَ - على ما فيه - لِرِفْعَةِ درجاتهم في الدُّنيا والآخرة، وليرُدَّهُم إلى طلب العلم بكلِّ ما يُتطَلَّعُ إلى العلمِ به منه سبحانه، فهو أعلم بهم من أنفسهم وأحكم لِما يُصْلِحُهم، ولذلك شرع الجهاد لِما تقدَّمَ ذِكْرُهُ مِن فائدته وعائدته عليهم في الدُّنيا والآخرة.

في الجملةِ تلويحٌ بحُبِّ الله لهم، وتولِّيه جميعَ أمورهم، بما فيها إرشادُهم

وفيه لفتُ نظرٍ إلى أنَّ العناية في تحقُّق الفائدة بتحصيل الثَّمرة هو بالنَّظر إلى المجموع لا إلى الجميع، فقد يكون منهم أفراد يُضارُّون من الجهاد بأنواع الأذى والجراحات ممَّا لا يجب أن يلتفتوا إليه، ولا أن يُضارُّوا بالتَّخلِّي عن الجهاد باعتباره.

وفيه استثمار غريزة حبِّ الخير للنَّفس المركوزة في الطِّباع

(1) ابن عادل، اللُّباب في علوم الكتاب: 10/99.

بطريقة فاضلة تَتبرَّأ من المثالب، وتتنزَّهُ عن المعايبِ، وتخلو من المعاطب مُستَعِدَّةً مستقيمةً بالغة إلى المناقب خالصةً إلى المراغب.

وفيه التَّلويح لهم بغِنى الله عنهم؛ إذِ الخيريَّةُ كلُّها لهم، وقد قال سبحانَهُ: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا﴾؛ [الفتح: 17]. وقال: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ۝٥٦﴾ [المائدة: 56]؛ ليبقوا على رَغَبٍ ورَهَبٍ، وليَتضَرَّعوا لربِّهم خوفًا وطمعًا في قَبول أعمالهم وحفظِ دينهم عليهم وتقواهم له.

سرُّ ختْمِ الآية بجملة شَرْطٍ محذوفِ الجوابِ:

خُتِمَتِ الآيةُ الكريمة بجملةِ شرطٍ محذوفِ الجواب، ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾، وتقدير المعنى: إن كنتم تعلمون أنَّه خيرٌ؛ فجاهدوا بأموالكم وأنفُسِكم، وفي هذا الختم استنهاضٌ للنُّفوس نحوَ الخير، والتَّعريض بمن لا يُدْرِكُ أنَّ الخير هو في تلبية دعوة الجهاد في سبيل الله، وفيهِ تعريضٌ بغباوة القاعدين "وفي اختيار فِعْلِ العلم دون الإيمان مثلًا؛ للإشارة إلى أنَّ من هذا الخير ما يخفى، فيحتاج متطلَّبَ تعيين شُعَبِهِ إلى إعمال النَّظر والعلم"[1]، كما أنَّ فيه "إشارةً إلى أنَّ هذا الأمر وإن كان عامًّا؛ فإنَّما يَنتفع به ذَوو الأذهانِ الصَّافية والمعالم الوافِيَة، فإنَّ العلم - ولا يُعدُّ علمًا إلَّا النَّافع - يحثُّ على العمل وعلى إحسانه بإخلاص النِّيَّة، وتصحيح المقاصد، وتقوية العزم، وغير ذلك، وضدُّه يورثُ ضدَّه"[2].

العلمُ النَّافع يحثُّ على العمل، مع صدق النِّيَّةِ، وعلوّ الهمّة

تخريجُ (إن) الشَّرطيَّةِ مخرجَ (إذ) الظَّرفيَّةِ:

من جمال اللُّغة العربيَّة وأسباب استعلائها على التَّآكل واستعصائها على فشو اللَّحن قواعدُها الصَّارمة ومرجعيَّتها الدَّقيقة المحكمة إلى الاستقراء التَّامِّ للأساليب الفصيحة على الفطرةِ أو السَّليقة والبداهة، وأعلاها شأنًا القرآنُ العظيم.

من روائعِ التَّفنُّن الآخذ بمجامع القلوب، أنْ يُؤَدِّي الحرفُ مؤدَّى الاسم

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/208.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 3/322.

وقد عُلِمَ بالاستقراء التَّامِّ، والاستقصاء العامِّ؛ أنَّ لكلِّ لفظٍ معنًى أصليًّا إذا جرى استعمالُه على القاعدة، ويخرج عن معناهُ الأصليِّ إلى معانٍ تبعيَّةٍ لعلاقة، إن توفَّر سببٌ من خروج، وظهرت قرينةٌ على الاتِّساع في الاستعمال.

ومن ذلك (إن) الشَّرطيَّةُ التي لا تُستعمل عندَ النَّحاة إلَّا فيما كان مشكوكًا في وجوده[1].

ولأنَّها جامعت (إذ) في دخولها على الماضي - والأصل أنَّها للاستقبال - وفي إفادتها التَّحقيقَ مغايَرةٌ للأصل، وفي اقتران جوابها عن تحقُّق شروطهِ بالفاء؛ استُعْمِلت (إن) بمعنى (إذ) عند الكوفيِّين قاطبةً، ووافقهم بعضُ نُحَاةِ البصرة، لا سيَّما أنَّ (إذ) تأتي للتَّعليل، وفي الشَّرط الَّذي في (إن) معنى التَّعْليل.

والمسألةُ طويلةُ الذُّيول، والَّذي يقتضيه السَّدادُ إعمالُ (إنْ) عملَ إذْ، وتخريجها عليها فيما خولِف فيه بعضُ شروط إعمالِ (إنْ)، ومِن ذلك ما نحن بصَدَدِهِ مِنَ الجملة الأخيرة في الآية، فبعد ما قدَّم اللهُ تعالى دليلَ جزاءِ الشَّرط المحذوف بقوله: ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾؛ ذكَر الشَّرْطَ وفِعْلَهُ، فإن قيل باقْتِصار الخطاب على الشَّاكِّين تغليبًا؛ فلم يكونوا الأغلبَ، ولا يكون الَّذي أخبر الله بخيريَّته خيرًا لهم في حالِ تلبُّسهم بشَكِّهم؛ لأنَّ الشَّكَّ فيما أخبر الله مُخْرِجٌ مِن المِلَّةِ.

لهذا تعيَّن القولُ بأنَّ (إنْ) الشَّرطيَّةَ جاءت بمعنى (إذ) الظرفيَّةِ في هذا المقام، أي: ما داموا قد حصَلَ لهم العلمُ الذي يقتضي مِنهم الاستجابةَ لكلِّ ما دعتهم إليه الآيَةُ.

ومن فوائد ذلك: أنَّ فيه إشراكَهم في استخلاص النَّتيجة، والتَّسليم بحتميَّة المخبَرِ بهِ من الخيريَّة.

وفيه المفارقة بين العِلْمَين؛ إذ الله سبحانه يَعْلَمُ ما كان وما سيكون، وما لم يكن لو كان كيف يكون، وفي ضِمْنِ ذلك عِلْمُه بالمآلات والمصائر كُلِّها، على حين أنَّ عِلْمَهُم مُخْتَصٌّ بنتائج التَّجارب ومستخلَص ما جرَّتْهُ عليهم الحوادثُ، وما أثروه من مواقفها مِن حِكَمٍ وأمثال.

(1) المبرّد، المقتضب: 1/126. وابن يعيش، شرح المفصّل: 5/113. والزّركشيّ، البرهان: 6/220.

تَوْجيهُ المُتشابِهِ اللَّفْظِيِّ:

دقَّةُ البيانِ القرآنيِّ في التَّصرُّفِ بمواقعِ الألفاظِ بما يلائم سياقاتها

قال اللهُ تعالى: ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٤١﴾ [التّوبة: 41]، وقال سُبحانَهُ: ﴿تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ١١﴾ [الصّفّ: 11]، وبين الآيتين الكريمتين ملامحُ اتِّفاقٍ ومعالمُ اختلافٍ، أمَّا الاتِّفاقُ؛ فقد خُتِمَتِ الآيتان بختامٍ واحدٍ هو قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾.

وأمَّا معالمُ اختلاف النَّظم بين الآيتين؛ ففي مَحَلَّين اثنين:

أوَّلهما: قُدِّم في آية التَّوبة ذكرُ ﴿بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ﴾ على قوله: ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾، وعكس ذلك في آية الصَّفِّ؛ فقدَّم ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ على قوله: ﴿بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ﴾.

والآخَرُ: أنَّ اللهَ تَعالى قال في آية التَّوبة: ﴿وَجَٰهِدُواْ﴾، على حين قال في آية الصَّفِّ: ﴿تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ﴾ [الصّف: 11].

ووجهُ هذا التَّغايُرِ؛ أنَّ آية التَّوبة قد سُبِقَتْ بآياتٍ تناولتْ موضوعَها بدْءًا من قولِ اللهِ سبحانَهُ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمۡ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلۡتُمۡ إِلَى ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ [التّوبة: 38]، وفيها ذُكِرَ الإيمانُ صلةً للموصول الَّذي نودوا به، وقُدِّمَ ذِكْرُ ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ فانْبَنى ما هاهنا عليه، وكان ذِكْر ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [التّوبة: 38] متعلِّقًا بمحذوفٍ صفةً للمفعول المطلق المبيِّن للنَّوع، وجاءت ﴿بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ﴾ - هنا - بيانًا للنَّفير من حيث كان معناه الغزوَ، ثُمَّ أُعيد ذِكْرُ ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾ عَقيبَ ذِكْرِ الأموال والأنفس اللَّذَيْنِ صارا محوطين بين يديْهما تسديدًا وتصويبًا، وبإثرهما تأييدًا وتعقيبًا، وكان ذلك فيه حسنُ الختامِ، وهو الأليقُ هنا بالمقام.

أمَّا سورةُ الصَّفِّ؛ فإنَّهُ لَمَّا كان المقام مُفتَتحًا بالتَّلطُّف، توصُّلًا باللِّين إلى الإعلام والإفهام، المعبَّر عنه بالدَّلالة، وهي من التَّوجيه والإرشاد، جاء بها مرتَّبة مقدِّمًا فيها ذِكْرَ ﴿سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أوَّلًا؛ لأنَّه من الإخلاص وتصحيح النِّيَّةِ، ثُمَّ ذُكِرَتِ الأموالُ والأنْفُس؛ لأنَّها المسالك العمليَّة والوسائل العضويَّة التي تؤدَّى بها الكيفيَّة، وهكذا ترتَّب العمل التَّعبُّديُّ على الإخلاص العقديِّ، ولا شكَّ أنَّ النَّظم على هذا أحكم، وأنَّ ترتيبَهُ على هذا النَّحْوِ ألزمُ، وهذا نَصُّ آيتي سورة الصَّفِّ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ۝١٠ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ [الصّف: 10- 11].

فسمَّى جميعَ العمل الصَّالح تجارةً، والعمل الصَّالِحُ مِنْ جملَةِ أفرادِ الإيمانِ والتِّجارة تقتضي اللَّجأَ إلى الله بالإخلاص وصدق التَّوكُّل، فقدَّم ذِكْرَ سبيل الله؛ لأنَّه المصحِّح للعمل المربِّح له، وليس وراءَ إعجازِ القرآن إعجازٌ ﴿كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۝١ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ إِنَّنِي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ ۝٢﴾ [هود: 1 - 2]، وسبحان من هذا كلامه.

﴿لَوۡ كَانَ عَرَضٗا قَرِيبٗا وَسَفَرٗا قَاصِدٗا لَّٱتَّبَعُوكَ وَلَٰكِنۢ بَعُدَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلشُّقَّةُۚ وَسَيَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ لَوِ ٱسۡتَطَعۡنَا لَخَرَجۡنَا مَعَكُمۡ يُهۡلِكُونَ أَنفُسَهُمۡ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ٤٢﴾ [التّوبة: 42]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الرّبط بين العتاب على التّخلّف عن الجهاد، وبين التّبكيت والتّقريع على التّقاعس عنه

"لمَّا كان هذا العتابُ مؤذِنًا بأنَّ فيهم من تَباطأ عن الجهاد اشتغالًا بنحو الأموال والأولاد؛ كان ما اشتملت عليه هذه الآياتُ من الأوامر والزَّواجرِ والمواعظ، جديرًا بأن يخفِّف كلَّ متثاقلٍ، وينشِّط كلَّ متكاسلٍ، فالتفت من لطف الإقبالِ إلى تبكيت المتثاقلين، بأسلوب الإعراض المؤذِنِ بالغضب المحقَّق، للسَّخط المبيِّن لفضائحهم"[1].

وفي مناسبة الآية لِما قَبْلَها وجهٌ آخرُ، وهُوَ أنَّهُ "لمَّا بالغ في ترغيبهم في الجهاد، وأمرهم بالنَّفير؛ عاد إلى تقرير كونهم متثاقلين"[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿عَرَضًا﴾: العَرَض - محرَّكةُ الرَّاءِ بالفتح -: ما يَعرِض ويزول، ممَّا لا ثبات له، فإذا سُكِّنت الرَّاءُ؛ ذهب المعنى إلى خلاف الطُّول، وهو في الآية على معانٍ منها: المطلبُ السَّهل[3]، والغنيمةُ الباردة[4]، والمتاع العارض لصاحبه[5] حقيقة أو تفكُّرًا، ومنه: المحمود والمذموم، ويحتملهما اللَّفظ في الآية، ويذهب المعنى تبعًا للهِمَّة والنِّيَّة، ومن المتمحِّض معنى في الممدوح قوله تعالى: ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنۡيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۗ﴾ [الأنفال: 67]، فهو مشورةُ الصِّدِّيق رضي الله عنه، وفعْل النَّبيِّ ﷺ،

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 3/322.
(2) ابن عادل، اللُّباب: 10/99.
(3) الرَّاغب، المفردات: (عرض).
(4) الدَّامغانيّ، الوجوه والنَّظائر: 2/75.
(5) الهابط، معاجم ألفاظ القرآن الكريم: 2/758.

والآية نزلت في صنيعهم بأسرى بدر، وقد قال ابن مسعود ﵁: لم أكن أظنُّ أحدًا من أصحاب محمَّدٍ يريد الدُّنيا حتَّى نزلت: ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنۡيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۚ﴾ [آل عمران: 152]، فذَكَرَ ما نزل في أُحُدٍ بعد الأولى بسنة؛ فلم يعهد الصحابيُّ من معنى الأولى عرَضًا منقوصًا أو مغموصًا على أصحابه، بل لِما ذُكِرَ في المشورة وأمضاه رسول الله ﷺ وكلُّه ممدوح، والمقابلة بين الدُّنيا والآخرة لا تقتضي خلافًا لِما تقدَّم؛ فتقديم بعض الأجر في الدُّنيا وتأخير بعضه في الآخرة هو خيرٌ، كما لو ادُّخِر كلُّه وبقي، لا سيَّما مع الضَّرورة الملجِئَة والحاجة الشَّديدة والجهد المضني، وفي قول النَّبيِّ ﷺ لعمر ﵁: «وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ اللهَ أَنْ يَكُونَ قَدِ اطَّلَعَ عَلَى أَهْلِ بَدْرٍ، فَقَالَ: اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ، فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ»[1]، دليلٌ على تحقُّق ما أراد الله لهم من الآخرة، فاجتمعت لهم الحُسْنَيَان.

2) ﴿قَاصِدًا﴾: "القَصْد: استقامةُ الطريق، يقال: قصدتُ قصدَهُ، أي: نحوتُ نحوهُ، وقوله: ﴿وَسَفَرًا قَاصِدًا﴾ أي: سفرًا متوسِّطًا، غير متناهي البُعد، وربَّما فُسِّر بقريب"[2]، والصَّحيح الأوَّلُ، والمعنى الذي تدورُ عليه مادَّةُ القافِ والصَّادِ والدَّال: هُو "توسُّط الشَّيءِ في حاله، أو توسُّطُهُ بالأَمِّ والاتِّجاه، ومنه: سفَرٌ قاصدٌ: سهلٌ قريب، فهو متوسِّط ليس بعيدًا ﴿وَسَفَرًا قَاصِدًا﴾، وطريق قاصدٌ: سهلٌ مستقيمٌ، أي: فهو أقرب"[3].

3) ﴿بَعُدَتۡ﴾: "البُعْد: ضدُّ القُرب، وليس لهما حدٌّ محدودٌ، وإنَّما ذلك بحسب اعتبارِ المكان بغيره، يُقال ذلك في المحسوس وهو الأكثر، وفي المعقول نحو قول اللهِ ﷻ: ﴿قَدۡ ضَلُّواْ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ١٦٧﴾ [النساء: 167]، وقوله ﷻ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوۡنَ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ ٤٤﴾ [فصلت: 44]، يُقال: بَعُد إذا تباعد، وهو بعيدٌ: ﴿وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدِۭ ٨٣﴾ [هود: 83] وأكثرُ ما يُستعمَلُ الفعْلُ (بَعِدَ) في الهلاك، نحو قول الله تعالى: ﴿بَعِدَتۡ ثَمُودُ ٩٥﴾"[4]، وَمعنى: "بَعُدَت: صارت بعيدة، ﴿وَلَٰكِنۢ بَعُدَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلشُّقَّةُۚ﴾"[5] أي: رأوا السَّفر شاقًّا، فتعلَّلوا بمشقَّته.

4) ﴿ٱلشُّقَّةُۚ﴾: مِنْ شَقَّ، والشَّقُّ: الخَرْمُ الواقعُ في الشَّيءِ، كقول الله تعالى: ﴿ثُمَّ شَقَقۡنَا

(1) رواه البخاريُّ في صحيحه، برقم: (3007)، ومسلم في صحيحه، برقم: (2494).
(2) الرّاغب، المفردات: (قصد).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (قصد).
(4) الرَّاغب، المفردات: (بعد).
(5) الهابط، معجم ألفاظ القرآن الكريم: 1/144.

﴿ٱلۡأَرۡضَ شُقَّةٗ﴾، والشُّقُّ بتشديدِ الشِّين مفتوحَةً ومكسورةً: المشقَّة والانكسار الَّذي يلحق النَّفسَ والبدنَ، وذلك كاستعارة الانكسار لها، قال الله ﷻ: ﴿لَّمۡ تَكُونُواْ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلۡأَنفُسِۚ﴾ [النحل: 7]، والفَتْحُ والكسر مصدران بمعنى واحدٍ هو المشقَّة، أو بالفتح: المصدر، وبالكسر: اسمٌ بمعنى النِّصف، كأنَّه ذهب نصف قُوَّته من النَّصب والتَّعَب، وبفتح الشِّين قرأ أبو جعفر، وبكسرها باقي العشرة[1]، والشُّقَّةُ: النَّاحيةُ التي تَلْحَقُك المشقَّةُ في الوصول إليها، وقال ﷻ: ﴿بَعُدَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلشُّقَّةُۚ﴾، والشِّقاق: المخالفة"[2]؛ لِما يوجِبُ من النَّفرة المفضية إلى التَّجافي والتَّباعد.

5) ﴿يُهۡلِكُونَ﴾: مِنْ هَلَكَ، والمصدرُ: الهلاكُ، والهلاكُ يَرِدُ على أوجهٍ: افتقاد الشيءِ عنك، وهو عند غيرك موجود، كقوله جلَّ وعلا: ﴿هَلَكَ عَنِّي سُلۡطَٰنِيَهۡ ٢٩﴾ [الحاقة: 29]، وهلاكُ الشَّيءِ: باستحالة وفساد، كَقولهِ سبحانَهُ: ﴿وَيُهۡلِكَ ٱلۡحَرۡثَ وَٱلنَّسۡلَۚ﴾ [البقرة: 205]، ويَرِدُ الهلاكُ بمعنى الموت، كقوله جلَّ شأنُهُ: ﴿إِنِ ٱمۡرُؤٌاْ هَلَكَ﴾ [النساء: 176]، ويُقال للعذابِ: هلاكٌ، ومنهُ قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَتِلۡكَ ٱلۡقُرَىٰٓ أَهۡلَكۡنَٰهُمۡ﴾ [الكهف: 59][3].

المَعْنى الإِجْماليُّ:

لو كان ما دعوتَ إليه المنافقين المتخاذلين عنِ الخُروج معك لغزو الرُّوم غنيمةً باردة أو سفرًا قاصدًا لا يَلْقَوْن فيه كَيْدًا، ولا يُواجهون فيه عدُوًّا، لأجابوك إلى ما دَعَوْتَهم، إيهامًا منهم أنَّهم مِنْكُم، غيرَ أنَّه لما اشتطَّ المقصد، ونأت الغايةُ، وطال السَّفر المقتضي بُطْءَ العودة؛ جَبُنوا عنِ الخروج، وأخلدوا إلى ما هُم فيهِ

لو كان الغزو غنيمة باردة، لسارعوا إليها، ولكن لمّا كثرت المشاقّ، انعدم الاشتياق

(1) ابن الجزريّ، النَّشر في القراءات العشر: 2/302.
(2) الرَّاغب، المفردات: (شقق).
(3) الدامغاني، الوجوه والنظائر: 2/303، 302، 301.

من متاعٍ زائل وعرَضٍ حائل، وسيحلفون لك عند عودتك مُتَنَصِّلين: أنْ ما كانوا مستطيعين الخروجَ بغاية الجهد والطَّوق والكُلفة غير مبالين بما يُعَرِّضون أنفسَهم للعذاب والتَّلف جرَّاء التَّخلُّف عنك، والكذب عليك، وما فاتهم من شرف الصُّحبة وبركة الأسوة وعزَّة الاجتماع والاتِّباع.

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ الاستئنافِ بأسلوب الشَّرط:

المنافقون يستحقُّون تخصيصَهم بخطابٍ وحدهم

الجملةُ في قول اللهِ تعالى: ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا﴾، "استئنافٌ لابتداءِ كلامٍ على حالِ المنافقين، وغزوة تبوك، حيثُ تخلَّفوا، واستأذن كثيرٌ منهم في التَّخلُّف، واعتلُّوا بعِلَلٍ كاذِبَةٍ، وهذا الاستئناف ناشئٌ عن قوله سُبحانَهُ: ﴿مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ﴾ [التّوبة: 38]"[1].

بلاغةُ التَّعبيرِ بأسلوب الشَّرط (لو):

استحالةُ بذلِ الجُهدِ من المنافقين، لانعدام الوازع، وغياب الحافز

صُدِّرَت الآيَةُ في قولِ الله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا﴾ بأسلوب الشَّرط بحرف الامتناع للامتناع (لو)؛ للتَّنبيهِ على استحالة اتِّباعهم رسولَ الله ﷺ، لاستحالة دعوته إلى العَرَض القريب، والمَغْنَم السَّهل المحَصَّل دون بذلِ الجهد، فهو بيانٌ للامتناع مبنيٌّ على امتناع ما عُلِّق عَلَيْهِ.

نُكتةُ إضْمارِ اسم كان:

ما لم يحصلْ في الواقع؛ يُحْذَفُ في البنيةِ اللُّغويَّةِ

(كان) مِنْ قولِ اللهِ سُبحانَهُ: ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا﴾ ناقصةٌ، اسمها محذوفٌ، والأصلُ: لو كان المدعوُّ إليه عرضًا، إلَّا أنَّ اسم كان حذِفَ ههنا، وفي حَذْفِه إشارةٌ إلى عدم وجودِ هذا المدعوِّ في الواقع أبدًا، فحُذِفَ مِنَ اللَّفْظِ لملاءمةِ البناءِ للواقع.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 10/208.

سِرُّ التَّعبيرِ بخبر كان نكرةً موصوفةً:

بيانُ حقارةِ المنافقين، وخسَّة غايتهم

جاء خبرُ كان ﴿عَرَضًا﴾ في قولِ اللّهِ تَعالى: ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا﴾ نكرةً، وهو ما يَعرض من منافع الدُّنيا، وتنكيرهُ للتَّحقير والتَّقليل كيفًا وكمًّا، واصْطُفِيَ هذا الاسمُ دون المتاع مثلًا؛ لبيان خُلُوِّه مِن أيِّ قيمةٍ، وعدَمِ حصولِ أيِّ متعةٍ به كشفًا عن دناءة نفوسِهم، وسُفول هِمَّتهم، ثمَّ زاد التَّحقيرَ تحقيرًا بالوصف ﴿قَرِيبًا﴾ أي: سهلُ المأخذِ قريبُ المنال، وكلُّ ذلك زيادةٌ في التَّحقير، وكلُّ تحقيرٍ في المرغوب فيهِ مِن المنافقين يعود بالتَّحقير عليهم أنفسِهم؛ إذِ النَّاسُ يُقاسون بما يَطْمَحون إليه.

سرُّ العطفِ على خبر كان:

التَّأكيدُ على حقارةِ هِمَّةِ المنافقين

عُطِفَ على خبرِ (كان) نكرةٌ موصوفةٌ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّاتَّبَعُوكَ﴾؛ تأكيدًا على حقارة هِمَمِهم، ودناءة غايتهم، إذ يَخْلُدون إلى تحصيل العرَض بالرَّاحة والدَّعَة، والتَّنكيرُ يُرادُ به التَّقليل، ووُصِفَ بـ ﴿قَاصِدًا﴾ أي: ذا قصد بين القريب والبعيد، والتَّعبيرُ هنا مجازٌ فيما سَهُلَ حصولُه[1].

جوابُ الشَّرط ودلالتُهُ:

استحالَةُ اتِّباع المنافقين لرَسولِ الله ﷺ

بُعَيْد أن بُسِط القولُ في بيان المعلَّق عليه؛ وقع الجوابُ موجزًا بليغًا ﴿لَّاتَّبَعُوكَ﴾ مؤكَّدًا، فقال سُبحانَهُ: ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّاتَّبَعُوكَ﴾، وفي ذلك تأكيدٌ لعدم اتِّباع المنافقين رسولَ اللّه ﷺ؛ لاستحالة ما عُلِّق عليه الاتِّباعُ، كما أنَّ في إطلاقه إشارةً لاستحالة اتِّباعهم على الإطلاق، "وتعليقُ الاتِّباعِ بكِلا الأمرين يدلُّ على عدَمِ تحقُّقه عند توسُّطِ السَّفر فقط"[2].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير، 10/208.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم، 4/67.

دلالةُ إفرادِ خاتم النَّبيين، بضَمير الخطابِ:

الرِّسالةُ واحدةٌ والرَّسولُ واحدٌ، من حين بُعِث وإلى قيام السَّاعة

إفرادُ النَّبيِّ صلَّى اللّه عليه وآله وسلَّم بالخطابِ في قولِ اللّهِ تَعالى: ﴿لَوۡ كَانَ عَرَضٗا قَرِيبٗا وَسَفَرٗا قَاصِدٗا لَّٱتَّبَعُوكَ﴾ فيه إثباتُ نبوَّته، وتعيينه وحدَه من قِبَلِ مُرْسِله، وأنَّه العَلَمُ الفَرْدُ، فلا يلتبِس على أحدٍ بغيره، وأنَّه لا يَسَعُ أحدًا إلَّا اتِّباعه، وكفايته وحده للبلاغ، وسعة هديه، ومأثور سننهِ، والأسوةُ الحسنة فيه وحدهُ.

وفي إفرادِ ضميرِ الخطابِ أيضًا: استحقاقُ رسولِهِ ﷺ التَّبجيلَ والتَّعظيم باعتناء اللّه بخطابه، وتأنيسه ومواساته عن مفارقةِ مَنْ فارق، وأنَّه لا يضرُّ المفارِقُ إلَّا نفسَهُ، وفيه تقريرُ الشَّرف في اتِّباعه، وفوات المزيَّة عليهم لعدم اتِّباعهم، وانضمام اللّه مع رسوله في موقف انصرافهم عنه وقعودهم إخلادًا دونه، وتولِّي اللّه المنافحةَ عنه بالتَّنديد على المتثاقلين بالتَّوبيخ، وانحصار الإمامة العامَّة التَّامَّة للكافَّة من الأمَّة قاصيها ودانيها فيه من وقت بعثته وإلى أبد الدَّهرِ وانقضاء الدُّنيا، وأنه المرضيُّ من ربِّه، المنصور به على كل من ناوَأ وخالف ولو داهنَ أو هادنَ نفاقًا، وانحصار سبيل النَّجاة والظَّفر في الولاءِ له وصدق اتِّباعه.

بلاغةُ الالتفاتِ:

الإعراضُ عن توجيه الخطاب للمقصِّرين، بخطاب الحضور، إشارةٌ إلى كُره حضورهم

من قوله تعالى: ﴿ٱنفِرُواْ﴾، إلى قوله: ﴿لَّٱتَّبَعُوكَ﴾، "انتُقِل مِنَ الخطاب إلى الغَيبة؛ لأنَّ المُتَحَدَّثَ عنهم هنا بعض المتثاقلين لا محالة، بدليل قوله بعد هذا: ﴿إِنَّمَا يَسۡتَـٔۡذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱرۡتَابَتۡ قُلُوبُهُمۡ﴾"[1]، فهو صرفٌ للخطاب عنهُم، وتوجيهٌ لهُ إلى رسول اللّه ﷺ تعديدًا لِما صدر عنهم مِن الهَنَاتِ قولًا وفعلًا عن طريق المُبَاثَّة، وبيانًا لدناءة هممهم، وسائر رذائلهم"[2].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/208.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/67.

دلالةُ الواو، في قوله: ﴿وَلَٰكِنۢ بَعُدَتۡ﴾:

موقعُ الواوِ في قولِ اللّهِ سُبحانَهُ: ﴿وَلَٰكِنۢ بَعُدَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلشُّقَّةُۚ﴾ ذو دلالةٍ بديعة، "والواو حاليَّة"[1]، والحال هنا كاشفٌ عن حقيقة تثاقلِهم والدَّاعي إلى عدم خروجهم، فهو تمهيدٌ لِما بَعْدَهُ، وتقريرٌ لما قبله لتقييد عدم خروجهم وسببه بحال واحدة لا سواها، والمعنى: "لم يتَّبعوك تثاقُلًا إلى الأرض، ورضًى بالفاني الحاضر، من الباقي الغائب فحسبُ، ولكن بعُدت عليهم المسافةُ التي تُطوى بالمسير، فيحصُل بها النّكال والمشقَّة، فلم يُوازِ ما يحصل لهم بها من التَّعَب ما يرجونهُ من العرَض فاستأذنوك، وفي هذا إشارةٌ إلى ذمِّهم بسفُول الهمم، ودناءة الشِّيَم بالعجز والكسل، والنَّهَم والثِّقل وإلى أنَّ هذا الدِّين متينٌ لا يحملُه إلَّا ماضي الهمّة، صادقُ العزم"[2].

هـذا الـدِّيـنُ لا يحملُه إلَّا ماضي الهـمَّةِ، صادقُ العزم

سِرُّ التَّعبير بحرف الاستدراكِ (لكنْ):

عبَّر في قول اللّه تعالى: ﴿وَلَٰكِنۢ بَعُدَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلشُّقَّةُۚ﴾ بحرف (لكن) وهو حرف استدراك، لإلغاء كلِّ تعلُّلٍ يَتَعَلَّل به المنافقون، وبيان ما دفعهم إلى عدم الخروج حقيقة، وفي هذا فضحٌ لِما في قلوبهم، وبيانٌ لحقيقة أمرهم، وفي هذا نصْرٌ للأمَّة ببيان حقيقة رجالها، لئلَّا يُستعانَ بأمثالهم في نصرة دين اللّه تعالى، وحتى يحذرَ النَّاس منهم.

بيانُ حقائق ما في الـنُّـفـوس، تمييزٌ للخبيثِ من الطَّيِّب

وفيهِ أَعْلى مقاصدِ الاستدراك في هذا المقام؛ وهُو تأسيفُهم وتنديمهم على قعودهم، وبيان أنَّ ما فاتهم من الخيريَّة والصُّحبة والفضل لا يُلْحَقُ نَفْسُهُ، ولا يُسْتَعاض عنه بغيره.

وفيه معجزةٌ أخرى من معجزات القرآن العظيم، تثبت - إلى غيرها - أنَّه من عند اللّه وحده العليم بذات الصُّدور وخبيء الطَّوايا

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 10/104.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 3/323.

ومُسْتَتِر الأنفس، وبواطن الأمور، حيثُ أخبرَ عنهم بما في أنفسِهم؛ وأنَّهم سيحلفون؛ فما أنكروا، ولا أعذروا.

بلاغةُ التَّعبيرِ بالفعل اللَّازم ﴿بَعُدَتۡ﴾:

الشُّقَّةُ في قولِ اللهِ سُبحانَهُ: ﴿وَلَٰكِنۢ بَعُدَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلشُّقَّةُۚ﴾: هي المسافة الشَّاقَّة، ومشَقَّتها هي بحسب استصعابِ النَّاظر فيها واستِسْهاله، فاصطفاءُ النَّظمِ الكريمِ التَّعبيرَ بالفعل اللَّازمِ هنا له دلالةٌ عجيبة؛ إذْ هو يصوِّر المكانَ نفسَهُ بكُرْهِهم، فابتعد عنهم، والسَّفر كأنَّه هو الكارِهُ تَلَبُّسَهُم به، فَبعُد عنهم، لتعاظمه عليهم، فهم لا همَّة لهم به، ولا نيَّةَ لهم فيهِ، فالذي بَعُد هو السَّفرُ والمسافةُ، فكأنَّهم أحقرُ من أن يَبْعُدوا عن الجدِّ، ولكنَّ الجدَّ هو الذي يَبْعُدُ عنهم.

الهممُ الحقيرةُ لا تطيقُ الأشياء، ومن فتر عزمه، ضعفت همّته

نكتةُ التَّعبيرِ بحرف الجرِّ ﴿عَلَيۡهِمُ﴾:

في قولِ اللهِ سُبحانه: ﴿وَلَٰكِنۢ بَعُدَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلشُّقَّةُۚ﴾ عُبِّر بحرف الجرِّ (على)؛ لتضمُّن (بَعُد) معنى (ثَقُل)، ولذلك حَسُنَ الجمعُ بين فعل (بَعُدَت) وفاعله (الشُّقَّة) مع تقارب معنييْهما، كأنَّه قيل: ولكن بعُد منهمُ المكان؛ لأنَّه شقَّةٌ، فشَقَّ عليهم السَّفر، فجاء الكلام موجزًا[1]، ويمكن أن يكونَ وراء اصطفاء النَّظمِ الكريمِ حرفَ الاستعلاء: تصويرٌ اسْتِعاريٌّ لاستعلاء السَّفر عليهم، وقهرِه لنُفوسِهم؛ إذْ هي بِجِبلَّتها خَسيسَةٌ، والسَّفر مشقَّةٌ وقطعةٌ من العذابِ، لا تنهض له النُّفوس الصِّغار.

المشقَّةُ تستعلي على الهمم الصِّغار

سِرُّ تقديم الجارِّ والمجرور على الفاعل:

قُدِّم الجارُّ والمجرور في قولِ اللهِ تعالى: ﴿وَلَٰكِنۢ بَعُدَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلشُّقَّةُۚ﴾ وأُخِّر الفاعلُ؛ للكَشْفِ عن سرٍّ عجيبٍ؛ إذْ باعدَ بين الفعلِ والفاعل دلالةً على بُعْدِهِ عليهم، فقُدِّم ﴿عَلَيۡهِمُ﴾ تأكيدًا لمعنى القَهْرِ

البغيضُ إلى النُّفوس يُؤَخَّر في الكلام، للكشف عمَّا في النَّفس

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 10/209.

والاستعلاء، وأُخِّر ما أخَّرته نفوسُهم وَهِمَمُهم، ولم تُطِق ذِكْره، فلاءم التَّرتيبُ في التَّركيبِ التَّرتيبَ في أحوال النَّفس.

وفي ذِكْرِ ما يفيد بُعْدَهُ عليهم على هذا النَّحو استجلاءٌ لحقيقة انفرادهم بالنَّظر في الاختيار لأنفُسِهم بحسب الاعتبارات البشريَّة والظُّروف الأرضيَّة، دون اعتبارٍ للرِّضا بخيرة اللهِ ورسولِه لهم، ودون اعتبارٍ للاستعانة بالخالق أو اللَّجأ إليه، عياذًا بالله من ذلك، ولذلك عُدَّت بعيدة عليهم هم دون رسولِ الله صلَّى الله عليه وآله وسلَّم وَمَن شَهِدَها معَهُ مِن أصحابه، ومَن خَلَّفه رسولُ الله ﷺ على المدينة، ومَن أتَوْهُ ليحمِلَهُم، وتولَّوا، وأعينُهم تفيض من الدَّمع حَزَنًا أن لم يجدوا ما ينفقون في الغزو، فرضي الله عنهم جميعًا.

بلاغة تأكيدِ الذَّمِّ بما يُشبهُ المدحَ:

قولُ المولى جلَّ وعلا: ﴿وَلَٰكِنۢ بَعُدَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلشُّقَّةُۚ﴾ فيهِ النَّعيُ عليهم بالخَوَرِ والوهن، والنُّكول، والجبن، والاستصعاب، والاستبعاد، والتَّوجُّسِ، وضعفِ العزيمة، وانحطاط الهمَّة، وعجزِ الرَّأي، وذهابِ الحيلة، وتلاشي المحاولة، وضيق الصَّدر، وعدمِ القدرة، وقفرِ المدارك، وفقْدِ البسالة، والشَّجاعةِ، والمروءة، والنَّخوة، والجِدِّ، والفروسيَّة، والفدائيَّةِ، والتَّضحية، والشَّهامة، والعزَّة، والكرامة، وإباء الضَّيم، والنُّفور من المعرَّةِ والعار؛ إذْ بَعُدَتْ عليهم وحدهم دونَ غيرِهم، ومع ذلك فإنَّ أسلوب القرآن العظيم أكَّد عليهم هذه المذامَّ التي فيهم بما يشبه المدح، كأنَّهم ما عاقهم، ولا قَعَدَ بهم إلَّا بُعْد الشُّقَّة التي تعكس ضعفَ الاحتمالِ، ورَهَقَ النَّفسِ، وعدمَ القدرةِ، فكأنَّه برغم ما شنَّع عليهم؛ رفَق بهم وستر عليهم وعاملهم بالحلم والإغضاء لتُصيبَهم رحمةُ النَّبيِّ ﷺ الرَّحمةِ للعالمين وَفقَ مُراد الله ومنَّته برسالته وبعثته، حتَّى يفسحَ المجال لمن أراد أن يتذكَّر ويُنيب، فيراجعَ ويقول: إنَّه لن يتخلَّف من بعدُ ثانية؛ إذْ لولا ضعفٌ به لا يلام

ضَعْفُ الهِمَمِ حِطَّةٌ، ومِنَ الأعذارِ ما هو أقبحُ مِنَ الصَّنائع

أصحابه عادةً عليه، إذ القدرة نِسبيَّة، والاحتمال نسبيٌّ، فيتذرَّع عن معرَّة الماضي، ويتورَّع في مكرَّة المستقبل، ومَنْ تاب؛ تابَ اللّٰهُ عليه.

وبلوغ الغاية مع بُعْدِ الشُّقَّة توفيقٌ، ورحمة متدارِكَة، ونعمة مُفاضَة، وشرف وسُؤدد، ونصر مبين، وعزٌّ بالغٌ، وتضحية في ذات اللّٰه، وقد شرَّف اللّٰه بها الخلصاء بالعمل، والخلصاء بالنِّيَّة، حتى قال لهم النَّبيُّ ﷺ في تبوك: «إِنَّ بِالْمَدِينَةِ أَقْوَامًا، مَا سِرْتُمْ مَسِيرًا، وَلا قَطَعْتُمْ وَادِيًا إِلَّا كَانُوا مَعَكُمْ، حَبَسَهُمُ الْعُذْرُ»[1]، فمَدارُ الأمرِ على القلوب وصدق النِّيَّةِ، وما النَّصرُ إلَّا من عند اللّٰه.

دلالةُ الواو، في قوله: ﴿وَسَيَحْلِفُونَ﴾:

الواو في قولِ اللّٰهِ تعالى: ﴿وَسَيَحْلِفُونَ﴾ استئنافيَّةٌ[2]، والاستئناف هنا يحقِّق معنى الكشف عن حقيقة ما في نفوسهم في الجملة السَّابقة، وإزهاق كلِّ أعذارهم، فجاء هذا الاستئنافُ بما سيكشف عَنْهُ واقعُ فعالِهم على حقيقة مانِعِهم من الخروج؛ لكبير دلالة كلِّ بلاغٍ على ما أُورِدَ له؛ إذِ الاكتفاءُ بخبر اللّٰه وتصديقه واليقين من حصوله على نحو ما قال اللّٰهُ تعالى يُحَقِّقُ مخالطةَ بشاشة الإيمان القلوبَ، وذلكم الإيمان بالغيب، وحصول حلفهم بعد توقُّعه وترقُّبه على النَّحو المُخْبَر به.

التَّأكيدُ على حقيقةِ مانِعِهم مِنَ الخروج، بما سيكون مِنْ أَفْعالِهم

بلاغَةُ التَّعبير بالمستقبل:

في التعبير بما سيكون في قوله تعالى: ﴿وَسَيَحْلِفُونَ﴾ إعجازُ الإخبارِ بالغيب، واصطفاء حرف الاستقبال (السّين) يدلُّ على قرب وقوع ما سيكون، وهو حافزٌ للتَّرقُّب العاجل، وفيه راحةٌ للمؤمنين، بقرب كشفِ الخبيث عن نفسهِ، وإبانته عن حقيقةِ أمره، حتَّى يُعْلَمَ الرِّجالُ من غيرهم، والنَّاصرون من الخاذلين، فالتَّعبيرُ بالمستقبل فيه إعجاز بفضحِ المنافقين أنفسَهم، وفيه بشارةٌ للمؤمنين.

الإخبارُ بالغيب فيه تعجيلٌ بفضح المنافقين، وبشارة للمؤمنين

(1) رواه البخاري في صحيحه، برقم: (4161) واللفظ له، ومسلم في صحيحه، برقم: (1911).
(2) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 10/104.

بلاغةُ إيرادِ لفظ الحلف دون القسم:

للقرآنِ انفرادَتُهُ بالعذوبة والحلاوة، وبُعدِ المفادات

لَمَّا آثر القرآنُ الكريم - في قوله ﴿وَسَيَحْلِفُونَ﴾ - اقترانَ الفعل بسينِ الاستقبال القريب، لم يكن لمادَّة القسم لفظًا أَنْ تدخل؛ إذِ اللَّفظ يكون عندئذٍ (وسَيُقْسِمون)، وفيه من الثِّقل والوعورة والنُّبوِّ ما يأنف البيانُ منه ويَنِدُّ - إلَّا متكرِّهًا - عن سماعِهِ، فتَلَطَّف القرآنُ بالحاسَّة وأشبع الذَّوق البيانيَّ حلاوة وطلاوةً ولذاذة، هذا برغم أنَّه أورد المادَّة حيث تَخِفُّ، ولا تثقل، فقال: ﴿وَأَقْسَمُواْ﴾، ﴿قُل لَّا تُقْسِمُواْ﴾، هذا من جهة.

ومن جهةٍ ثانية؛ فإنَّ في مادَّة القسَم اشتراكًا لفظيًّا مُنبئًا عن معنى القسمة، فيَحْسُنُ استعمالُ القسم حين يكون لما يقتضيه الاشتراكُ من القسمةِ وجودٌ، ويَشِفُّ ذلك، ويَخِفُّ، ويلطف، حتى لا يكاد في الأغلب الأعمِّ، وسواءٌ أكان المراعى فيه ذلك قسيمًا أم مقسومًا، فهذا وجهٌ ثانٍ معجزٌ؛ إذْ لا قسمةَ هنا يُقْسَمُ عليها ولا تقسيم، فكان العدولُ عن اللَّفْظِ إلى ما يُغني عنه في المقام عدولًا يقتضيه أرجحيَّةُ البيان، لعدم المناسبة.

ومن جهة ثالثة؛ فقد كان الذين تخلَّفوا - وسيحلفون من بَعْدُ تَنَصُّلًا - منهم عِلْيَةُ رؤوسٌ، ومنهم أذنابٌ وذيول وأعقاب، وشأنُ الكبراء والسَّادة أن يجريَ على لسانهم (القَسَم)؛ لأنَّه أرقى في التَّعبير، وأخصُّ بطبقة الكبراء وأساليبهم المتناغمة مع طبقتهم، المتخيِّرة من صنوف القول وتصاريفه، أمَّا الدَّهماء والغوغاء والسَّفلةُ، مِنَ الأذناب والأعقاب والذُّيول؛ فيجري على ألسنتهم الحَلِفُ؛ لأنَّه أكثر شيوعًا وأفشى استعمالًا مِنَ القسم، فيشبه أن يكون العدول عن مادَّةِ القَسَم إلى مادَّةِ الحلف تنزيلًا للكبراء على مألوف الدَّهماء؛ لأنَّهم تَسَفَّلوا فيما يُتَكَلَّف فيه، ويُتَصَنَّعُ له، ويُعْتنى به من الفعل، فكانوا مع القاعدين مِنَ الصِّبية والضَّعفة والنِّساءِ،

وكان اللَّفْظُ الواحد مؤذِنًا بِضَعَتهم وحقارتهم وخِسَّتهم ونقص موازينهم، ما تؤذن به الجملةُ، وتأمَّلْ في هذا المقام كيف قُرِنَت آيةٌ نزلت في مقامٍ آخرَ ومناسبةٍ مغايرةٍ مُنْذُ عهدٍ بعيدٍ، بين ﴿حَلَّافٍ﴾ و﴿مَّهِينٍ ۝١٠﴾ [القلم: 10]، مصدِّرةً اللَّفظَ الأوَّلَ بجعله مضافًا إليه، والمضافُ لفظُ ﴿كُلَّ﴾ المؤذنُ بأنَّ ذلك سَتَتَعَدَّد صُوَرُه وتكثر أمثاله، فقال: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ۝١٠﴾ [القلم: 10]، فلمَّا رضوا لأنفسهم الدُّونَ مِنَ الدُّنيا الدَّنِيَّة؛ كان كلُّ ما اتَّصلَ بِهِم لفظًا ومعنًى مُشْعِرًا لهم بذلك، ولغيرهم عنهم أنَّهم كذلك.

وانظر كيف جاء التَّعبيرُ بالقسم دون الحلفِ حين انفرادِ الكبراء بتصريف القول في مقام العدَّةِ بما يكون من الملأِ الذين يحقُّ عليهم القولُ في مواقفهِ الحاسمة، وينظر ما قولهم في الخطب الجديد: ﴿وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّۖ قُل لَّا تُقْسِمُواْۖ طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌۚ﴾ [النور: 53].

نكتةُ التَّعبيرِ بالمحلوف عليه:

تأكيدُ عُذْرِهم الكاذبِ، بِجَعْلِ اليمينِ وسيلةً لِذَلِكَ

(بالله) مِنْ قولِ اللهِ تعالى: ﴿وَسَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَوِ ٱسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ﴾ متعلِّقٌ بـ (يحلفون)، وقوله: ﴿لَوِ ٱسْتَطَعْنَا﴾ مقولُ قولٍ محذوفٌ، منصوب على الحال، أي: قائلين، وعليه تكون جملةُ ﴿لَخَرَجْنَا﴾ سادَّةً مسدَّ القسَمِ والشَّرْطِ جميعًا، و﴿مَعَكُمْ﴾ ظرفٌ متعلِّقٌ بـ (خرجنا)[1]، هذا التَّركيبُ الكثيف العجيب الَّذي اقترن فيه القسمُ بالشَّرط ورَدَ بيانًا؛ تأكيدًا للعُذر الكاذب بجعل اليمين جِسْرًا لذلك، وتعليق عدم الخروج على عدم الاستطاعة، وربط وجودهِ بوجودها؛ بيانًا لاستحالة خروجهم لامتناع استطاعتهم.

سِرُّ التَّعبيرِ بالظَّرف:

في قوله: ﴿مَعَكُمْ﴾، تعليقُ خروجهم بكونه معهم، "وتقييده

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 10/104.

بالمعيَّة إشعارٌ بأنَّ أمر الغزو لا يُهمُّهم ابتداءً، وأنَّهم إنَّما يخرجون - لو خرجوا - إجابةً لاستنفار النَّبيِّ ﷺ خروجَ النَّاصر لغيره"[1]، من غير أن يكون ذلك مُهِمًّا له أو يعنيه في نفسه.

النِّفاقُ يَقْعُدُ بالهِمَمِ عن مطامحِ الشَّرف

موقعُ قوله: ﴿يُهۡلِكُونَ أَنفُسَهُمۡ﴾ ودلالته:

الهلاكُ يُطلق في الأصلِ على الأضرار الجسميَّة، وإيقاعه على الأنفسِ مفعولًا به مبينٌ عن أخطر الأضرار، و"في هذه الجملة ثلاثةُ أوجهٍ، كلُّها من الوجوه النَّحويَّة لعلاقتها بما قبلَها، بما يجعلها جزءًا من الجملة السَّابقة:

تغزيرُ المعاني والعبارة واحدة، بلاغة آسِرة

أحدها: أنَّها حال من فاعل ﴿سَيَحۡلِفُونَ﴾، والمعنى: أنَّهم سيحلفون مُهْلِكين أنفسَهم بهذه الأَيْمان الفاجِرة، وهلاكُها تعريضُها لبأس الله وغضبه وعقابه وأليم عذابه.

ثانيها: أنَّها بدلٌ من الجملة قبلَها، وهي ﴿سَيَحۡلِفُونَ﴾.

ثالثُها: أنَّها حالٌ من فاعل ﴿لَخَرَجۡنَا﴾ والمعنى: لخرجنا مهلكي أنفسنا.

وقد قالوا بمرجوحيَّةِ الوجه الثَّاني؛ لِبُعْدِهِ؛ إذِ الإهلاك ليس مرادفًا للحَلفِ، ولا نوعًا منه، ويُجابُ بإمكانِ اعتباره بدلَ اشتمال؛ لأنَّ الحَلفَ سببٌ للإهلاك، فهو مشتمِلٌ عليه، فأبدل المسبَّبَ من سببه لاشتماله عليه.

واسْتُبْعِدَ الثَّالث؛ لكونه جاريًا على ضمير التَّكلُّم في ﴿لَخَرَجۡنَا﴾، والقولُ بأنَّه جاء بهِ على لفظ الغائب بعيدٌ؛ لأنَّه ليس مخبرًا عنهم بقول: ﴿لَوِ ٱسۡتَطَعۡنَا﴾، بل هو حاكٍ لفظَ قولهم، والحال ينبغي أن يكونَ من جُمْلةِ كلامِهم المحكيِّ[2].

والوجهُ الأوَّلُ - وإن كان هو الأَوْجَه - لشِدَّة ظهوره، وسطوع نوره،

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 10/209.

(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 10/525، 524، وأبو حيّان، البحر المحيط: 5/75، 74، والسّمين الحلبيّ، الدّرُّ المصون: 6/55، 54.

واقتضاب عبارته، ووضوح إشارته، واستبانته على وجازته، إلَّا أنَّ كُلَّ هذه المعاني وغيرِها مِن مِثْلِها ممكنةُ الاجتماع دون مزاحمةٍ، والمعنى ورود الهلاك عليهم بما كسبت أيديهم دون مُراحَمةٍ، فالحَلفُ سببُ الهلاك، والحَلفُ بعد العودة مِنَ الغزوة سَيُقارِنُه الهلاكُ، فيكون القولُ تهديدًا لَهُم، والهلاك مُسْتَشْعَرٌ مخوف أنْ سيقارن خروجهم لا محالة، فلذا امتنعوا عن الخروج بحسب ما قام بأنفسِهم مِنَ التَّوَهُّم الذي أبداه اللّه؛ فقد ﴿كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمۡ فَثَبَّطَهُمۡ وَقِيلَ ٱقۡعُدُواْ مَعَ ٱلۡقَٰعِدِينَ ٤٦﴾ [التوبة: 46]، وإرادته سبحانه ماضية كما شاء دون تَخَلُّف، وكل هاتِيك المعاني المتضافِرة المتكاثِرة، والجملةُ واحدةٌ لكن اختلاف مَطَارِحِ النَّظَر، ومطامح الفِكَرِ، في تعيين مواقعِ الإحالة المنتخَبَةِ في بِنْيَة الجملة على هذا النَّحو غزَّر الدَّلالات في اجتماعٍ بديعٍ، وهو من أعلى طبقات الإيجاز، وآيات الإعجاز.

وثَمَّ وجه رابعٌ: أنَّ تكونَ جملةً استئنافية أخبر اللّه عنهم بذلك[1]، وعليه فلا تكون الجملة من حكاية كلامهم، ويكون الاستئنافُ مسوقًا للتَّهديد والوعيد.

بلاغةُ الخَتْمِ بالجملة الحاليَّة:

أمرُ المنافقين مفضوحٌ، وفعلُهم مرصودٌ

الواو في قولِ اللّهِ سُبحانه: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ﴾ واو الحال، والمعنى: "والحالُ أنَّ الملك الأعظم المحيط علمًا وقدرة سبحانه ﴿يَعۡلَمُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ﴾، فقد جمعوا بين إهلاك أنفسهم، والفضيحة عند اللّه بعلمه بكذبهم في أنَّهم غيرُ مستطيعين"[2].

دلالةُ التَّعبير بالاسم الأعظم، مُسْنَدًا إليه خبره:

تأكيدُ علمِ الله زيادةٌ في التَّهديد والوعيد

جاءتِ الجملةُ الحاليَّةُ ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ﴾ جملةً اسميَّة، وجاء الاسم الجليل مُسْنَدًا إليه؛ لإدخال المهابة على القلوب، وهو

(1) السّمين الحلبيّ، الدّرُّ المصون: 6/55، 54.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 3/323.

المناسب للحديث عن المنافقين الذين يتصرَّفون كأنَّ اللّه لا يطَّلع على ما أسرُّوا في أنفُسِهم، واسْتَكْتموا في صدورِهم، أو يَرُوجُ عليه جلَّ وعزَّ باطِلُهم وزيفُهم وإن واراهُ حسنُ كلامهم، وسَوْقُ تعلُّلاتهم.

ووقعَ الخبر ﴿يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ جملةً فعليَّةً فعلُها مضارع إلماعًا إلى استمرار عِلْمِهِ سُبحانَهُ منذُ الأزلِ وإلى الأبَدِ، كلَّما أحدثوا شيئًا؛ فهُو لهم بالمرصادِ، وهذا الملائم لمقام الوعيد.

كما أنَّ في تقديم المُسْنَد إليه على خبره الفعليِّ تأكيدًا بإسناد العِلْم مرَّتين للاسم الجليل؛ مرَّةً بكون الخبَرِ جملةً فعليَّةً مضارعيَّة، وأخرى بكون فاعل (يعلم) ضميرًا مستترًا يعود على الاسم الجليل.

نكتةُ كسرِ همزة (إنّ) بعدَ فِعْلِ العلمِ المضارع:

تَيْئيسُ المُنافِقين والغِلْظَة عليهم وتَقْريعُهم

كان فتحُ همزةِ (أنَّ) بعد الفعلِ المضارع (يعلم) مُرْتَقَبًا مُتَوقَّعًا، لكنَّ البلاغ المفحِم، والبيان المعجز، والنَّظم الموحى عدَلَ عنه لنُكْتَة بيانيَّةٍ بالغة الحُسْن، فائقة التَّأثير، ذلك ليُضَمَّن العلم معنى القسم، فيكون كلُّ معلومِهِ تعالى المخبر به منزَّلًا منزلة المُقْسَم عليه تأييدًا وتوكيدًا، وتعلية وتقوية، ويكون - هنا - أبلغَ في تيئيس المنافقين، وأمثلَ في الغلظة عليهم، وأحمى في دفعهم وقرعهم؛ لإيغالهم في السَّفه.

ولأنَّ المنافقين أهلُ شكٍّ وريب؛ كان توكيدُ الكلام بشتَّى المؤكِّدات، كاسميَّة الجملة، والفِعْلِ (يعلم)، والفِعْل (يُقْسِم)، وكلُّ هذه المؤكِّدات في جملة واحدة، تجدِّد كُلَّ ذلك مع تجدُّدِ إحداثهم التَّوكيد الدَّاخل على المسند إليه، واللَّام الدَّاخلة على الخبر، ومجيء الخبر اسمَ فاعل.

للمنكرين نمَطٌ في الخطاب، يُبَيِّنُ حقيقةَ وصفِهم

سِرُّ توكيدِ الجملةِ التّي سدَّت مسدَّ مفعولَيْ: ﴿يَعْلَمُ﴾:

جاءتِ الجملة في قول اللّه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ مؤكَّدةً بمؤكِّداتٍ شتَّى، وهو الملائِمُ لخطاب المنكرين؛ لِما تَرْجَمَتْهُ

أفعالُ المنافقين وأقوالُهم الدَّالَّةُ على أنَّهم يُنْكِرون علمَ الله بِكَذِبِهم، وقُبْحِ مطاوي أنفسِهم، لذا أُكِّدَ الكلام بـ (إنَّ) واسميَّة الجملة التي تنتج معنى نفي الشَّكِّ في أنَّ الكذبَ صِفَتُهم المستمرَّة، وذلك لِما في اسميَّة الجملة مِنَ التَّجرُّد لبيان المعنى دون ارتباط بزمن، ثُمَّ جاءتِ اللَّام مؤكِّدًا ثالثًا، والقَسَمُ المقدَّر، واسمُ الفاعل في المسند الدَّالِّ على اطِّراد الوصف مستقبلًا دائمًا، ووقوعُ الجملةِ معمولًا لخبر الجملة الاسميَّة المصدَّرة بالاسم الأحسَن (اللّه)، وكونُ المتكلِّم بذلك هو اللّه، أهل الصِّدق كلِّهِ، وكونُ الخبرِ أُذيعَ وأُشيع في المعيَّنين، فَلَم يُنْكِر أحدٌ منهم، فهذه جملةٌ من المؤكِّدات الأسلوبيَّة اللَّفظيَّة والمعنويَّةِ ما لا يوجَدُ لَهُ نظيرٌ فيما عُهِدَ من البلاغةِ والبيانِ.

بلاغةُ التَّعريضِ بالتَّهديد:

الإعلامُ بِتَحَقُّق سبب العقاب، أبلغُ في التَّهديد من التَّصريح بالعقاب

قوله: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ﴾، القولُ كلُّه تعريضٌ بتهديدِ المنافقين؛ لأنَّ المرادَ ما يترتَّب على علمهِ سُبحانهُ بكذبهم، وإنَّما لم يَقُلْ: واللّه سيعذِّبهم على كذبهم؛ لأنَّ المذكورَ الذي عليهِ النَّظم أوقعُ في التَّهديد، وأشدُّ في الوعيد؛ لِما في ذِكْرِ السَّبب مِنْ قطع تعلُّق النَّفس بِجَدْوى مُحاولة نَفْيِه، ولِما في ذلك مِنَ التَّنديد عليهم به، ولِيَنْكَفُّوا عن محاولة الظُّهور بمظهر المُتَنصِّل أمامَ رسولِ اللّه ﷺ ومن مَعَهُ من أَتْباعه.

﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَتَعۡلَمَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ٤٣﴾ [التّوبة: 43]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لمّا بكَّتَهم على وجه الإعراض لأجل التَّخلُّفِ والحلْفِ عليه كذبًا؛ أقبلَ عليه ربُّه سبحانه وبحمده مهنِّئًا بالعَودِ الحميد والعزم الحديدِ، مقدِّمًا الدُّعاء ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ﴾ على العِتاب لشدَّةِ الاعتناء بشأنه، واللُّطْفِ به ﷺ"[1].

الرّبط بين إنكار تخلُّفهم بالمعاذير الوهميّة، وعتاب الرّسول على الإذن لهم بذلك

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَذِنتَ﴾: أذِن: استمَع، ومِنْهُ قولُ الله تعالى: ﴿وَأَذِنَتۡ لِرَبِّهَا وَحُقَّتۡ﴾، ويُستعمَل ذلك في العلم الذي يُتَوَصَّلُ إليه بالسَّماع، نحو قوله: ﴿فَأۡذَنُواْ بِحَرۡبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ﴾، والاستئذانُ طلبُ الإذن، ومِنْهُ قولُهُ سُبحانَهُ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِيَسۡتَـٔۡذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ وَٱلَّذِينَ لَمۡ يَبۡلُغُواْ ٱلۡحُلُمَ مِنكُمۡ ثَلَٰثَ مَرَّٰتٖۚ﴾ [النور: 58][2]، وَتَرِدُ أَذِن، بمعنى: أباح ﴿قُلۡ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمۡۖ﴾[3]، و"الإِذْنُ بالكَسْرِ، بمعنى: الإباحةِ أو القبول والتَّمكين، استأذنَ فلانًا في أمْرِ كذا، فأذِنَ له فيه، أي: أباحَه"[4]، وهو المعنى المرادُ هنا.

المَعْنى الإِجْماليُّ:

عِتابٌ مُفْتَتَحٌ بالعفو عن النّبيّ الأكرم، على قبوله أعذارهم قبل التّحقُّق من صحّتها

عفا اللّهُ عنك - أيُّها النَّبيُّ الكريمُ - عمَّا وقع منك مِن تَرْك الأَوْلى والأكملِ، وهو إذنُك للمنافقين في القُعود عنِ الجهاد، لأيِّ سببٍ أَذِنْتَ لهؤلاء بالتَّخلُّف عن الغَزْوَةِ؟ ما كان يَنْبَغي أن تَأْذَنَ لَهُم

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 3/323.
(2) الرّاغب، المفردات: (أذن).
(3) عبد الباقي، معجم ألفاظ القرآن الكريم: 2/43، 42.
(4) جبل، المعجم الاشتقاقيُّ المؤصّل: (أذن).

في التَّخَلُّف عنك؛ إذْ قالوا لك: (لو استطعنا لخرجنا معك)، حتَّى تَعْرِفَ مَن له العذْرُ منهم في تخَلُّفِه، ومَن لا عُذْرَ لَهُ مِنْهُم، فيكونَ إذْنُكَ لِمَنْ أَذِنْتَ له مِنْهُم على عِلْم مِنْكَ بِعُذْرِه، وتَعْلَمَ مَنِ الكاذبُ مِنْهُمُ المُتَخَلِّفُ نفاقًا وشكًّا في دينِ اللّهِ سُبحانَهُ[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالة موقع الجملةِ ممَّا قبلَها:

الإشارة إلى إكرام اللهِ تَعالى وتوقيرُه نبيَّهُ ﷺ ولطفُهُ به

ذكرَ العلماءُ لطائفَ في سِرِّ افتتاح الآية بالدُّعاء على وجهِ التَّلطُّفِ، منها: أنَّ اللّه تَعالى وقَّر نبيَّهُ ﷺ، وعظَّم أمرَه، ورفع شأنَهُ "بافتتاحِهِ الكلامَ بالدُّعاء له، كما يقول الرَّجلُ لمخاطِبِه إذا كان كريمًا عنده: عفا اللّه عنك، ما صنعتَ في حاجتي؟ ورضي اللّه عنك ألا زرتني"[2]، "وفي تصدير فاتحةِ الخطاب ببشارةِ العفوِ دون ما يُوهم العتابَ من مراعاة جانبِهِ ﷺ، وتعهُّده بحسن المفاوضةِ، ولُطْف المراجعةِ ما لا يخفى على أولي الألباب"[3]، وفيه "إكرامٌ عظيمٌ، ولطافةٌ شريفةٌ، فأخْبَرَهُ بالعفو قبل أن يباشرَهُ بالعتاب، وفي هذا الافتتاح كنايةٌ عن خِفَّةِ موجبِ العتابِ؛ لأنَّه بمنزلةِ أن يُقال: ما كان ينبغي"[4]، ويمكن أن يكون معناه: "أدامَ اللّه لك العفوَ"[5]، فهي جملة دعائيَّةٌ، وإنْ كانَ لفظُها خبرًا[6].

بلاغةُ التَّعبيرِ بالاستفهام الإنكاريّ:

زيادةُ التَّلطُّفِ بالنَّبيِّ ﷺ، مزيدٌ مِنَ التَّكريم والتَّعظيم

الاستفهامُ في قول اللّهِ تعالى: ﴿لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ إنكاريٌّ، وفيه تلطُّفٌ بالنَّبيِّ الكريم ﷺ على نهج العبارة المتقدِّمَةِ ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ﴾، فقد "ألقى إليه العتابَ بصيغة الاستفهامِ عنِ العلَّة؛ إيماءً إلى أنَّه ما

(1) ابن جرير، جامع البيان: 14/272 - 273، ونخبة من أساتذة التّفسير، التّفسير الميسر، ص: 194.
(2) الثّعلبيّ، الكشف والبيان: 13/390.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/69.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/210.
(5) الثّعلبيّ، الكشف والبيان: 13/391، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 10/227.
(6) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 10/104.

أَذِنَ لهم إلَّا لسببٍ تأوَّلَهُ، ورجا مِنْهُ الصَّلاح على الجملة، وهذا من صِيَغ التَّلطُّف في الإنكار أو اللَّوم ؛ بأَنْ يَظْهَرَ المُنْكِرُ نفسُه كالسَّائلِ عنِ العِلَّةِ التي خَفِيَتْ عليه"[1]، ومِن براعة الاستفهام أنَّه جاء في الإذن على العموم، فقوله: ﴿لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ "ليسَ فيه ما يدلُّ نصًّا وتصريحًا على أنَّ الإذن في أيِّ شيءٍ؟[2]، وقرائنُ السِّياق والسِّباق معلنةٌ عن الإذنِ؛ وأنَّ المرادَ بهِ: الإذنُ في القعود والتَّخلُّف[3].

والضَّمير في ﴿لَهُمْ﴾ عائدٌ إلى مَنْ استأذن للقعود أو التَّخلُّف، ولكنَّه جاء عامًّا دون نصٍّ على الإذن المعاتَب عليه صراحةً؛ زيادة تلطُّفٍ بالنَّبِيِّ الكريم ﷺ.

دلالةُ التَّعبير بـ﴿حَتَّىٰ﴾:

يجوز في ﴿حَتَّىٰ﴾ في قول اللّه تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَتَعۡلَمَ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾ أن تكون غايةً للفعل ﴿أَذِنتَ﴾؛ لأنَّه لمّا وقع في حيِّز الاستفهام الإنكاري كان في حكم المنفيِّ، ويكونُ المرادُ لا مقتضي للإذن لهم إلى أن يتبيَّنَ الصَّادِقُ مِنَ الكاذبِ.

في بيان العللِ والغاياتِ، رِفقٌ وتلطُّفٌ بسيّد السّادات

وخُصَّت ﴿حَتَّىٰ﴾ بالاستعمالِ في هذا المقامِ؛ لدلالتها على المُهلةِ والأجلِ، والتَّبيُّن الذي دلَّ عليه قولُه: ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ﴾؛ فإنَّ التَّبيُّنَ ممدودٌ إلى أجل مجيء الوحي إلى النَّبِيِّ صلَّى اللّه عليه وآله وسلَّم به، وبما عُطِفَ عليه مِنَ العلم، وعلمُه كلُّه وحيٌ، بل عِلْمُ أصحابه في هذا الشَّأن كذلك كلّه؛ لعموم إفادة قوله سبحانه: ﴿يَحۡذَرُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيۡهِمۡ سُورَةٞ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمۡۚ قُلِ ٱسۡتَهۡزِءُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مُخۡرِجٞ مَّا تَحۡذَرُونَ ٦٤﴾ [التوبة: 64]، فتكشف أقوالهم وأفعالهم عن مكنونات صدورهم.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/210.
(2) ابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 10/301.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/210.

سِرُّ التَّعبيرِ بالجارّ والمجرور، وتقديمه على الفاعل:

في التَّقديم والذِّكرِ زيادةُ عنايَةٍ وملاطفة للرَّسولِ الكريم

في تقديم ﴿لَكَ﴾ عنايةٌ بالرَّسول الكريم ﷺ؛ لأنَّه المقصودُ بهذا كلِّه، كما أنَّ في ذِكْرِه زيادةَ ملاطفةٍ بأنَّ العتاب ما كان إلَّا عن تفريطٍ في شيءٍ يعود نفعُه إليه[1].

ثُمَّ إنَّ من مفادات التَّقديم أَنَّ التَّبيُّن المرادَ تبيُّنٌ خاصٌّ به ﷺ لا يشركه غيره فيه إلَّا بلاغًا منهُ، وذلك التَّبيُّنُ هو بالوحي، فذلك سِرُّ التَّقديم هنا.

وفي التَّقديم نُكْتَةٌ أُخْرى؛ وهي بيانُ أنَّ اللهَ سُبحانَهُ سَيَكْشِفُ المعتذرين المبطلين له بالوحي اعتناءً بذلك، ولتبرئة الذين صدقوا ممَّن لَمَزَهم المنافقون، كما دلَّ على ذلك قولُ اللهِ تَعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَلۡمِزُونَ ٱلۡمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهۡدَهُمۡ فَيَسۡخَرُونَ مِنۡهُمۡ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنۡهُمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ٧٩﴾ [التوبة: 79].

وأيضًا؛ فَلِما في التَّقديم من معنى الاختصاص، كان ذلك رَمْزًا إلى معنًى يختَصُّ به النَّبيُّ ﷺ وَحْدَهُ، ويتوقَّف العِلْمُ به لدى سائر أصحابه على جهته، وهذا يُخْرِج التَّبيُّنَ وما عُطِف عليه عن أن يكون مُدْركًا بالحواسِّ مِن رؤية واستماع واستنباط بملكَةٍ إلى ما يكون خاصًّا بالنَّبيِّ ﷺ وحده وهو الوحيُ من اللهِ تَعالى، وما يتعلَّق به ممَّا هو مختصٌّ برسول الله ﷺ، كأسماء المنافقين، وعِلْم ما أَسَرُّوا في أنفسهم ممَّا يحذرون خروجَه إلى دائرة العِلْمِ وميادين القول والتَّحادث به.

سِرُّ التَّعبيرِ بالفعل ﴿يَتَبَيَّنَ﴾ عن الصّادقين، ﴿وَتَعۡلَمَ﴾ عن الكاذبين:

التَّبيُّن يكون بما يظهر في السُّلوك، والعلم بما تتمخّض عنه الأدلَّة

التَّعبيرُ عن ظهور الصِّدق بالتَّبيُّن، وعمَّا يتعلَّق بالكذب بالعلم في قولِ اللهِ تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَتَعۡلَمَ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾؛ لِما هو المشهور مِن أنَّ مدلولَ الخبر هو الصِّدق، والدَّلالات والوقائع

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/211.

طريقُها التَّبيُّن، والكذب احتمالٌ عقلِيٌّ، والاحتمالاتُ والأدلَّة طريقها العلمُ، وفي إسناد التَّبيُّنِ إلى الأوَّلين وتعليق العلم بالآخرين؛ لِما في الفريق الأوَّل من تصرُّفات وأعمال تظهر، فتدلُّ على حقيقة أمرهم، وأمَّا الفريقُ الثَّاني؛ فطريقُ معرفةِ حقيقتهم العلمُ[1].

سِرُّ تغييرِ الأسلوب بالتَّعبير:

استمرارُ الكَذِبِ في أَهْلِ القعود عن الجهادِ

في قول الله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَتَعۡلَمَ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾ عُبِّر عنِ الفريقِ الأوَّلِ بالاسْم الموصول الذي اقْتَضى فِعْلًا دالًّا على الحدوث، وعُبِّر عنِ الفَريق الثَّاني باسْمِ الفاعل المفيدِ الدَّوامَ، وذلك للإيذان بأنَّ ما ظهر مِنَ الأوَّلين صدقٌ حادث في أمرٍ خاصٍّ غير مصحِّحٍ لنظْمِهم في سلك الصَّادقين، وأنَّ ما صدرَ مِنَ الآخرين - وإن كانَ كذبًا حادثًا متعلِّقًا بأمر خاصٍّ - لكنَّه أمرٌ جارٍ على عادتهم المستمرَّة، ناشِئٌ عن رُسوخِهم في الكذبِ[2].

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/69.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/69، 68.

﴿لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾﴾ [التّوبة: 44]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

العلاقة بين الملاطفة العاتبة على الإذن بالتّخلّف، ووصف المبادرين للجهاد دون تردّد

وقعتِ الآيةُ الكريمة بعد الملاطفةِ في عتابهِ ﷺ على إذْنِهِ لَهُم قبل تَبيُّن الصَّادق من الكاذب، فجاءتِ الآية الكريمة بالأوصاف الكاشفةِ عمَّا في الضَّمائر، ببيان أنَّ من عادة المؤمنين بالله واليوم الآخر ألَّا يستأذنوا في أَنْ يُجاهدوا بأموالهم وأنفسِهم، وإنَّما يبادرون إلى ذلك كُلَّما دعا داعي الجهاد في سبيل الله فـ"لمّا فاته ﷺ معرفتهم بهذا الطَّريق؛ شرعَ العالمُ بما في الضَّمائر يصفهم له بما يُعوِّض عن ذلك، فقال على طريق الجواب للسُّؤال: ﴿لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ﴾ أي: يطلب إذنَك بغاية الرَّغبة"[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَسْتَـْٔذِنُكَ﴾: الهمزةُ والذَّال والنُّون تدورُ تصريفاتُها على أصلَيْن متقاربَيْن مَعْنًى، متباعدَين لفظًا، فالأوَّلُ: الأُذْن؛ كلُّ ذي أُذُن، والآخر: العِلْمُ، تقول: فعلَ فلانٌ كذا بإذْني، أي: بعِلْمي، ويجوزُ: فعلَهُ بأَمْري، ووجهُ التَّقارُبِ بينَ الأصلَيْنِ المذكورَيْنِ في المَعنى: أنَّ بالأذُنِ يَقَعُ عِلْمُ كلِّ مسموع[2]، واستأذن: طَلَبَ الإذْنَ، ومِنْهُ قول الله تعالى: ﴿فَلْيَسْتَـْٔذِنُوا۟ كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ﴾ [النّور: 59]، وقولُهُ ﷻ: ﴿لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۗ﴾[3].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 3/327.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (أذن).
(3) عبد الباقي، معجم ألفاظ القرآن الكريم: 1/44، 43.

المَعْنى الإجْماليُّ:

"إنَّ الذين يؤمنون باللّه واليوم الآخر لا يستأذنونك في القعود عن الجهاد؛ لأنَّهم يعلمون أنَّ الجهاد فريضةٌ، ولأنَّهم أعزَّاء في ذات أنفسهم، ولأنَّهم يعلمون أنَّ اللّه تعالى مُبتليهم بالخوف والجوع ونقص مِنَ الأموال والأنفُس، ولأنَّهم يصبرون في الشَّدائد، ولأنَّهم يعلمون أنَّهم في الجهاد يفوزون بإحدى الحُسنيَين: النَّصْرِ أو الشَّهادة، وفيهما الخير كلُّه، ولأنَّهم يعلمون أنَّ الدُّنيا متاعها إلى أجل محدود، وأنَّ الآخرة خيرٌ وأبقى، ولذا ذُكِرَ الإيمانُ باليوم الآخر بجوار الإيمان باللّه اعتمادًا على القويِّ المتين، والإيمانُ بالآخرة إيمانٌ بالجزاء والعِوض عن الحرمان والشَّهادة"[1].

مَن عمّر قلبه بالإيمان، من المؤمنين الصّادقين، لم يستأذن في الجهاد، بل سارع إليه

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالة الجملة، بين البيان والتّعليل والاستئناف:

الجملَةُ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ﴾ "واقعةٌ موقعَ البيان لجملة ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَتَعْلَمَ ٱلْكَـٰذِبِينَ﴾، وموقعَ التَّعليل لجملةِ ﴿لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾، أو هيَ استئنافٌ بيانيٌّ؛ لِما تثيرُه جملة ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَتَعْلَمَ ٱلْكَـٰذِبِينَ﴾، والاعتبارات متقاربةٌ، ومآلُها واحدٌ"[2]، وهذا التنوُّعُ يثري المعنى، فهذه الجملة تبيِّن الصَّادقين، وقد وقعت موقعَ التَّعليل للاستفهام، والمعنى: لِمَ أذنت لهم؟ والمؤمنون الحقُّ لا يستأذنون، وإنَّما يلبُّون دعوة الجهاد إيثارًا للآخرة على الدُّنيا، ويصحُّ أن تكون استئنافًا بيانيًّا، كيف يتبيَّن لي الصادقُ من الكاذب؟ فجاء الجواب.

دقّة الاستعمال لإبراز المراد، ممّا يُدرك ويُستفاد

سِرُّ التَّعبيرِ بالفعل المنفيّ:

آثَر النَّظمُ الكريم تصديرَ الآيةِ الكريمة: ﴿لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 6/3317.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/211.

واقعُ حال المؤمنين عدمُ الاستئذان، والسّعي بلا تقاعس للجهاد

﴿يُؤۡمِنُونَ﴾ بالفعلِ المنفيِّ؛ لبيان حقيقة المؤمنين الواقعة، فليس من شيمتهم الاستئذانُ في الخروج للجهاد، فصيغةُ الخبر أدلُّ على التصاقهم بهذه الصِّفة حتى صارت واقعًا يُخْبَرُ به عنهم، فـ "ليس من عادةِ المؤمنين أن يستأذنوك في أن يجاهدوا، وكان الخُلَّصُ من المهاجرين والأنصار يقولون: لا نَستأذِنُ النَّبيَّ ﷺ أبدًا، ولنُجاهدنَّ معه بأموالنا وأنفسنا"[1]، فطابق الإخبارُ عنهم، قال الزَّجَّاج: "أعلم اللهُ ﷻ نبيَّهُ ﷺ أنَّ علامةَ النِّفاق في ذلك الوقت الاستئذانُ"[2].

دِلالَةُ التَّعْبيرِ بِالفِعْلِ المُضارِعِ:

مُبادَرَةُ أَهْلِ الإيمانِ الصَّادِقينَ لِإجابَةِ داعي الجِهادِ

عُبِّرَ بالفعْل المضارِع ﴿يَسۡتَـٔۡذِنُكَ﴾ مِنْ قولِ اللهِ ﷻ: ﴿لَا يَسۡتَـٔۡذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡۗ﴾ لإفادَةِ التَّجدُّدِ والاستِمْرارِ، والمرادُ استمرارُ النَّفيِ لا نفيُ الاستِمْرارِ، بقرينَةِ مَدْحِهم وتعليقِ الفِعْلِ بوصفِهم بالإيمانِ، والمرادُ: أنَّهم مستمرُّونَ على تركِ الاستئذانِ في الجهادِ، بَلْ كُلَّما سمعوا داعيَهُ؛ أجابوا.

بلاغةُ تنوُّعِ مُتَعَلِّقِ الإذن:

تنوُّعُ التَّعلُّقِ يكسب مدح المؤمنين

قولُ اللهِ تَعالى: ﴿لَا يَسۡتَـٔۡذِنُكَ﴾ قيل: لا يستأذِنونَ في التَّخلُّف عَنِ الجهادِ، بَلْ يَخْرُجون للجهادِ، ويُبادرونَ إليهِ مِنْ غير تعَلُّلٍ بالأعذارِ، ويجوزُ أن يكونَ مُتَعَلِّقُ الاستئذانِ الجهادَ، والمعنى: لا يستأذنونك في الجهاد، بل يَمضون فيه غير متردِّدين، وهذا والذي قَبْلَهُ متآيلانِ.

ويَحْتَمِلُ أَنْ يكونَ مُتَعَلِّقُ الاستئذانِ محذوفًا، ويكونُ قولُهُ: ﴿أَن يُجَٰهِدُواْ﴾ مفعولًا مِن أجله، تقديره: لا يستأذنك المؤمنون في القعود؛ كراهةَ أن يجاهدوا، بل إذا أمرتهم بشيءٍ بادروا إليه، أو أن التَّقدير: لا يستأذنك هؤلاء في ألَّا يجاهدوا، إلَّا أنَّه حُذِفَ حرفُ النَّفْيِ، كما حُذِفَ في قولِهِ: ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ أَن تَضِلُّواْۗ﴾ [النساء: 176]، ويدلُّ على هذا

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/527.
(2) ابن الجوزيّ، زاد المسير: 3/445.

المحذوفِ أَنَّ ما قبلَ الآية وما بعدها يَدُلُّ على أنَّ هذا الذَّمَّ إنَّما كان على الاستئذان في القعود[1].

سِرُّ تقديمِ المفعولِ به على الفاعل:

تميّز الرّسول الأكرم، بكونه الآذِنَ في الجهاد، والمقصودَ بالخِطابِ

قُدِّم المفعولُ به، وهو الضَّميرُ العائد على الرَّسول الكريم ﷺ في قوله: ﴿لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾؛ لِمَزيد العناية به؛ إذ هو الدَّاعي إلى الجهاد، الآذِنُ فيه، فهو المقصودُ الأوَّل بالحديث، فقُدِّم على الفاعل تنبيهًا على أهمِّيَّته، وعِظَمِ مكانته في الجهادِ في سبيل اللّهِ تَعالى.

نُكْتَةُ التَّعبير بالفاعل اسمًا موصولًا:

إطالةُ صيغةِ المدحِ تعظيمٌ للمَمْدوحينَ

جاء الفاعلُ في قولِ اللّهِ تَعالى: ﴿لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾ اسمًا موصولًا؛ لتَنْبَني عليهِ جُمْلَةُ الصِّلَةِ؛ وهي مناطُ الرِّفْعَةِ وعِظَمِ المكانة، وجاءت جُملة الصِّلة فِعْلًا مُضارِعًا إشارةً إلى تَجَدُّد إيمانِهم واستمرارِه.

دلالة تَقْييدِ الإيمان باللهِ واليوم الآخِرِ:

الإحاطةُ في الوصفِ بأركانِ الإيمانِ دالٌّ على عِظَمِ قَدْرِ الموصوفين

قُيِّدَ فِعْلُ الإيمانِ بالاسْمِ الأحْسَنِ (اللّه) في قول اللّهِ تَعالى: ﴿لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾ تَعْظيمًا لِقَدْرِ إيمانهم، ولكونه الرُّكْنَ الأوَّلَ من أركان الإيمان، ثُمَّ عطفَ عليه (اليوم الآخر) وهو الرُّكن الخامسُ، وسِرُّ التقييد بذلك الإيماءُ إلى أنَّهم أحاطوا بأركان الإيمان؛ لكونِ الإيمانِ باللّه ﷻ إيمانًا بالمبدأ، والإيمانِ باليوم الآخر إيمانًا بالمَعَادِ؛ فَهُمَا الطَّرَفانِ، وما سِوَاهما داخلٌ فيهما، على قاعدةِ: أَنَّ البَيْنَ مُسْتَحْضَرٌ في الطَّرفَيْنِ، وفي ذلك مدْحٌ لهم، وبيانٌ لعظيم قَدْرِهم.

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/527، وابن عادل، اللّباب: 10/104، 103، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 10/229. والسّمين الحلبيّ، الدّر المصون: 6/57، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/70، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/211.

نُكْتَةُ تقديم الجهاد بالمال، على الجهادِ بالنَّفس:

من صفاتِ المؤمنين بذلُ المال الذّي تتعلَّقُ به النَّفسُ، في سبيل اللهِ تَعالى

في إضافة الأموال والأنفس إليهم في قوله تعالى: ﴿بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾ تخصيصٌ، وفي تقديمِ الأموال على الأنفس مع أنَّ بَذْلَ النَّفس هو الأشرفُ ؛ تنبيهٌ على إيثارهم أُخْراهم على دُنياهم، وعادةُ القرآنِ الكريم تقديمُ المال في الحديثِ عن زينة الحياة الدُّنيا، حتى إنَّهُ قُدِّمَ عَلى البَنين؛ وذلك لِما جُبِلت عليه النُّفوس من حبِّهِ والتَّعلُّق به، قال تعالى: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [الكهف: 46]، و﴿وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَٰدُهُمْ﴾ [التوبة: 85].

سِرُّ خَتْمِ الآيةِ بعِلْم الله بالمتقين:

شهادةٌ بأنَّهم انتظموا في سِلْكِ المتَّقين، لينالوا جزاءهم يوم الدّين

خُتِمَت هذهِ الآيَةُ بقولهِ سُبحانَهُ: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ﴾ تأكيدًا لمضمون الآية الكريمة "وتقريرًا لمضمون ما سبق، كأنَّهُ قيل: واللّهُ عليمٌ بأنَّهم كذلك، وإشعارًا بأنَّ ما صدَرَ عنهم مُعلَّلٌ بالتَّقوى"[1]، وَخُتِمت الآية الكريمة بالجملة الاسميَّة، ووقع المسند إليه بالاسم الجليل (اللّه) إشعارًا بالمهابة والجلال.

ووقع المسندُ صِفَةً من صفاتِه جلَّ وعزَّ، وهذه الصِّفةُ تناسبُ السِّياق؛ إذِ الحديثُ جارٍ في مطاوي النُّفوس وخبايا القلوب، ووقع الجارُّ والمجرور صِفَةً عُلْيا من صفات المؤمنين، وهذا الختمُ "شهادةٌ لهم بالانتظام في زمرة المَّتقين، وعِدَةٌ لهم بأجزل الثَّواب"[2].

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/70.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/527، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/70.

﴿إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [التّوبة: 45]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

علاقة المقابلة بين المؤمنين الّذين يجاهدون بلا استئذان، والمُخلَّفينَ المرتابة قلوبهم

لمّا برَّأَ المؤمنين من أن يستأذنوا في الجهاد؛ انتقل إلى بيان صفة المنافقين غير المؤمنين بالله واليوم الآخر، فالتَّناسب بين الآيتين تناسبُ تضادٍّ؛ وذلك لأنَّه لمّا "أخبر بالمُتّقين عرَّف بغيرهم على وجه الحصر؛ تأكيدًا لتحقيق صِفَةِ العلم بما أخبر به سُبحانَهُ، فصار الاستئذان مَنْفِيًّا عن المؤمنين مرَّتين، فثبت للمنافقين على أبلغ وجه ﴿إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ﴾"[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَٱرْتَابَتْ﴾: مِنَ الرَّيب، وفِعْلُه: رابَ، وأرابَ، يقال: رابني كذا، وأرابني، "والرَّيْبُ: أن تتوهَّم بالشَّيءِ أمرًا ما، فينكشِف عمَّا تتوهَّمهُ؛ ولهذا قال: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [البقرة: 2]، والإرابة: أن تتوهَّم فيه أمرًا، فلا ينكشف عمّا تتوهَمُه فيه، قال الله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ﴾ [الحج: 5]؛ تنبيهًا أن لا ريبَ فيه. وقولُهُ: ﴿رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴿٣٠﴾﴾ [الطور: 30]، سمَّاهُ رَيْبًا لا أنَّه مُشكِّكٌ في كَوْنِه، بل من حيث تُشكِّكَ في وقت حصوله، فالإنسانُ أبدًا في ريب المَنون من جهة وقتِه، لا من جهة كونِه، والارتيابُ يجري مجرى الإرابَة، ﴿أَمِ ٱرْتَابُوٓاْ أَمْ يَخَافُونَ﴾ [النور: 50]، ونفى عن المؤمنين الارتيابَ، فقال: ﴿وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾"[2]. والمعنى الذي تدورُ عليه هذه المادَّةُ: "أن يَنْزِلَ بالقارِّ السَّاكنِ ما يُزعجه، ولا يتمَيَّز له وجهُ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 3/327.
(2) الرّاغب، المفردات: (ريب).

الخلاص منه، ومنه الرَّيْبُ والرِّيبة: الشَّكُّ والظِّنَّةُ والتُّهمة، ينزل بالنَّفس السَّاكنة أمرٌ غيرُ مُتَبَيَّنِ الوجه، أو غير مُسَوَّغٍ، فيثيرها، أحقٌّ هو أم باطلٌ؟... وبهذا المعنى كلٌّ (ارتاب) ومضارعها، و(مرتاب)، ﴿وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ﴾، والشَّكُّ المريب: هو الذي تَصْحَبُهُ شُبْهَةٌ تَزيد الإلْباسَ"[1].

2) ﴿قُلُوبُهُمْ﴾: مِنَ الفِعْل (قلَبَ)، يقالُ: قَلْبُ الشَّيءِ؛ وهُوَ "تصريفُهُ وصرْفُهُ عن وجهٍ إلى وجهٍ، كقَلْبِ الثَّوْبِ وقلب الإنسان، وَقَلْب الإنسان؛ قيل: سمِّيَ به لكثرة تَقَلُّبه، ويُعبَّرُ بالقَلْبِ عنِ المعاني الَّتي تختصُّ به من الرُّوح والعِلم والشَّجاعة وغير ذلك، ﴿وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ﴾ [الأحزاب: 10] أي: الأرواح، وقال: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾ [ق: 37] أي: علم وفهمٌ"[2]. والمعنى المحوريُّ لمادَّةِ القافِ واللَّامِ والباءِ: باطن الشَّيءِ ولُبُّهُ، ومِنْهُ: القلوب، وأكثَرُ "ما في القرآن الكريم من كلمة (قلب) وجمعُها؛ متعلَّق الكلام فيها هو ما أسنده القرآنُ إلى القلبِ مِن وظائفِ الفقه والتدبُّر والإيمان وضدِّه... وما إلى ذلك، عدا آيتي: الأحزاب ﴿وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ﴾ [الأحزاب: 10]، وغافر ﴿إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ﴾ [غافر: 18]، فالمقصود فيهما المضغةُ عينُها"[3].

3) ﴿يَتَرَدَّدُونَ﴾: مِنَ الرَّدِّ، وهو: "صَرْفُ الشَّيْءِ بذاته أو بحالةٍ من أحواله، ويقال: رددْتُه فارتدَّ، ورِدَّةُ الإبِلِ أن تتردَّد إلى الماء"[4]. والمعنى المحوريُّ لمادَّةِ الرَّاءِ والدَّالِ: "صدُّ استرسالِ ما يمتدُّ أو ينتشرُ، فينعكس اتِّجاهه، أو يتراكم أو يتكاثفُ، وأرَدَّ البَحْرُ: كثُرت أمواجه وهاج؛ لارتداد أمواجه بأخرى أو بالرِّيح أو بالشاطئِ"[5]، ويتردَّدون في قولِ اللهِ تعالى: ﴿فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾ معناها: يتحيَّرون.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

إنَّما يستأذنك المنافقون الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر في القعود عن الجهاد

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (ريب).
(2) الرّاغب، المفردات: (قلب).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (قلب).
(4) الرّاغب، المفردات: (رد).
(5) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (ردد).

منتحِلين الأعذارَ، مُقْسِمين أحرجَ الأيمانِ وأغْلَظَها، واللّهُ يعلم إنَّهم لكاذبون، وهذا يقتضي عدمَ الإذن لهم بسرعة، فهم قدِ ارتابت قلوبهم، ومُلِئت شكًّا ونفاقًا، وهم في رَيْبِهِم يتردَّدون[1].

المتخلّفون عن الجهاد، لا إيمان لهم، لما في معاذيرهم من زَيْف، وما في قلوبهم من حَيْف

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

شبهُ كمالِ الاتِّصال ودلالة السّياق على الاستئناف البيانيّ:

وقعت هذه الجملةُ ﴿إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ﴾ ممَّا قبلَها موقعَ الجوابِ عن سؤالٍ مقدَّر، أثارته الجملةُ السَّابقة، والتَّقديرُ: مَنِ الذي يستأذن؟ فجاءَ الجواب في قولِهِ: ﴿إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ﴾، فـ "الجملةُ مستأنَفَةٌ استئنافًا بيانيًّا، نشأ عن تبرئة المؤمنين من أن يستأذنوا في الجهاد، ببيان الذين شأنُهم الاستئذان في هذا الشَّأن"[2].

براءةُ المؤمنين يؤكِّدها ذِكْرُ صفةِ غيرهم

بلاغةُ أسلوبِ القصر:

جاء التَّعبيرُ بأسلوب القصر في قولِه تعالى: ﴿إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ﴾ لقوَّة المعنى وتمكينه؛ لأنَّ القصرَ يفيد مفاد خبرين: بإثباتِ أَمْرٍ، ونفي غَيْرِه، فهي تؤكِّد جملةَ ﴿لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾، وقد كانت هذه الجملة مُغْنِيَةً عنِ الجملة السَّابقة، إلَّا أنَّ في ذِكْرِها تنويهًا بفضيلة المؤمنين[3]، ألا ترى أنَّه لو قيل عقب ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ﴾: ﴿إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ﴾؛ لأفاد أنَّ المؤمنين ليس من صفاتهم الاستئذانُ، لكن ما جاء عليه النَّظم الكريم نوَّه بفضيلة المؤمنين مرَّتين؛ الأولى بالتَّصريح، والأخرى: بالإشارةِ والتَّلميح، وكلُّ فضيلة تُذْكَرُ للمؤمنين تزيد المنافقين قُبْحًا، فإنَّ كثرة المحاسن في طرفٍ تَكْشِفُ كثرةَ القبائح في مقابلِه.

تمكينُ معنى استئذانهم الكاشفِ عن نفاقهم

(1) محمود حجازي، التفسير الواضح: 10/80.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/212.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/212.

سرُّ التَّعبيرِ بأداة القصر ﴿إِنَّمَا﴾:

الاستئذانُ من صفاتِ المنافقين الّتي لا تُنْكَرُ

من بلاغة النَّظم الكريم أنِ اصطفى أداةَ القصر (إنَّما) في قولهِ تعالى: ﴿إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ﴾، والمقرَّر عند البلاغيِّين أنَّ مِن مقاماتها الذِّكْرَ فيما لا يُنْكِرُه المخاطَب، ودلالتها في هذا الموضع نفيسةٌ؛ لأنَّها صوَّرت استئذانَ المنافقين في صورة الحقيقة النَّاصعة الواضحة التي لا تَحْتاجُ تأكيدًا، فاستئذانُهم وصفٌ ثابتٌ بيقين، معروف لكلِّ النَّاس.

دلالةُ حذف مُتَعَلِّقِ الاستئذان:

في الحذف تعميمٌ؛ لقصدِ التَّنفير مِنَ الاستئذان في الجهادِ

حُذِفَ مُتَعَلِّقِ الاستئذان في قول اللّه تعالى: ﴿إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ﴾؛ لإرادَةِ العموم، تَزْهيبًا مِنَ الإذن في الجهاد بوجهٍ عامٍّ، والمتعلِّق قُدِّر في قوله تَعالى قَبْلُ: ﴿لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ أَن يُجَٰهِدُوا۟﴾ بما يُلائم صفةَ المؤمنين المبادرين إلى الجهاد، الباذلين في سبيله المالَ والنَّفس، فقُدِّر على مُوجب السِّياق من المدح، ولكنَّ السِّياق في قوله سُبحانَهُ: ﴿إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ﴾ سياقُ ذمٍّ، بقرينةِ نفيِ الإيمان عنهم، وتمكُّن الشَّكِّ في قلوبهم، فيقدَّر المتعلِّق الاستئذان على الذَّمِّ بمعونةِ السِّياق، "والمعنى: إنَّما يستأذنك في التَّخلُّف مطلقًا، أو لكراهة الجهاد"[1].

سِرُّ تقديم المفعول به على فاعلِهِ:

الرَّسولُ الكريم ﷺ، هو موضِعُ خوفِ المنافقين

قُدِّم المفعولُ به في ﴿يَسْتَـْٔذِنُكَ﴾ على الفاعل، فقال سُبحانَهُ: ﴿إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ﴾؛ لبيان أنَّ المصطفى ﷺ هو موضِعُ خَوْفِ المنافقين؛ إذ هو الظَّاهر أمام أعينهم، والنَّفع والضُّرُّ مِنْهُ عِنْدَهُم، فلا التفات عندهم للّه سُبحانَهُ، لكنَّ التفاتَهم وعنايتهم بالظَّواهر، كما قالَ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/70، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/212.

اللّهُ تَعالى في نُظرائِهم: ﴿يَسۡتَخۡفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسۡتَخۡفُونَ مِنَ ٱللَّهِ﴾ [النساء: 108].

سِرُّ التَّعبيرِ بالفاعل اسمًا موصولًا:

المبالَغَةُ في تَقْبيحِ المنافقين وذَمِّهِم

التَّعبيرُ بالاسم الموصول في قول اللّهِ تعالى: ﴿إِنَّمَا يَسۡتَـٔۡذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾ اقتضى ذِكْرَ جملةِ الصِّلة، وهي المناطُ والدَّافع لكلِّ أفعال القُبْحِ، كما أنَّ في التَّعبير بالموصول إطالةً للكلام بذِكْرِ ما يُقَبِّحُ الفاعل، ويعود عليه بالذَّمِّ، تأمُّلُ كلِّ ذلك سيفوتُ لو قيل: إنَّما يستأذنُك المنافقون الذين ارتابت قلوبهم، وقد جاءت جملة الصِّلة "﴿لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ بصيغة المضارع للدِّلالة على تجدُّد نفي إيمانهم"[1].

نُكْتَةُ تخصيص الإيمان ﴿بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾:

الإيمانُ باللهِ واليوم الآخر، الباعثُ على الجهادِ والإصلاح والتّقوى

خُصَّ الإيمانُ باللّه واليوم الآخرِ في قول اللّه تعالى: ﴿إِنَّمَا يَسۡتَـٔۡذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾ إيذانًا "بأنَّ الباعثَ على الجهاد ببذلِ النَّفس والمال، إنَّما هو الإيمانُ بهما؛ إذْ بهِ يَتَسَنَّى للمؤمنين، استبدال الحياة الأبديَّة والنَّعيم المقيم الخالد بالحياة الفانية والمتاع الفاسد"[2].

بلاغةُ المقابلة:

المقابلةُ تميِّزُ بوضوحٍ الخبيثَ من الطَّيِّب

قابل النَّظْمُ الكريم بين هذه الآية ﴿إِنَّمَا يَسۡتَـٔۡذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾، والآية السَّابقة ﴿لَا يَسۡتَـٔۡذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾، فنُفِيَ الاستئذانُ قَبْلُ في ﴿لَا يَسۡتَـٔۡذِنُكَ﴾، وهنا أثبتَهُ بتمكُّن ﴿إِنَّمَا يَسۡتَـٔۡذِنُكَ﴾، وأثبتَ في الآية المتقدِّمَة الإيمانَ باللّه واليوم الآخر ﴿يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾، ونفاهُ ههنا في قولِه: ﴿لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾، والمقابلةُ أسلوبٌ يمتِّنُ ترابطَ المعاني، ويجعل المعنيَين يُنظران في مرآةٍ واحدة، تعكس التَّمييزاتِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/213.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/70.

والعلاماتِ الفارقاتِ بين الفريقين، وذلك له أثرٌ بالغ في التَّعجيل بالإقلاع عنِ الخسيس والاسْتِمْساكِ بالرَّفيع.

سِرُّ العطفِ على جملة الصِّلة:

تمكُّنُ الرَّيْبِ في قلوبِ المنافقين مِنْ ظهور أمْرِ النَّبِيِّ الأكرم

قولُ اللهِ ﷻ: ﴿وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ "عطفٌ على الصِّلة، وإيثار صيغة الماضي؛ للدِّلالة على تحقُّق الرَّيب وتقرُّره"[1]، وهذا العطفُ "يدلُّ على أنَّ المراد بالارتيابِ الارتيابُ في ظهور أمر النَّبِيِّ ﷺ، فلأجل ذلك الارتياب كانوا ذوي وجهين معه، فأظهروا الإسلامَ؛ لئلَّا يَفوتَهُم ما يحصُل للمسلمين مِنَ العِزِّ والنَّفع على تقديرِ ظهورِ أمر الإسلام، وأبطنُوا الكفرَ حفاظًا على دينِهم الفاسد، وعلى صلتهم بأهل ملَّتهم"[2].

نُكتَةُ إسنادِ الارتيابِ إلى القُلوبِ:

الارتيابُ مستقِرٌّ في القلب استقرارًا مَكينًا

في إسناد الارتياب إلى القلوب في قولِ الله تعالى: ﴿وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ مجازٌ عقليٌّ، من إسناد الفعلِ إلى مكانِه، فالقلبُ هو محلُّ الطُّمأنينة، وموضع الرِّيبة، وذلك ممَّا يدلُّ على استقرار الرَّيب وتمكُّنه في قلوبهم، فهو محرِّكُهم ودافِعُهم في كلِّ تصرُّفاتهم.

بَراعَةُ التَّفريعِ:

ربْطُ الأسبابِ بِمُسَبَّباتِها، يؤكِّد تفسيرَ التَّصرُّفات

"فُرِّع قولُه: ﴿فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾ على قوله: ﴿وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ تفريعَ المسبَّب على السَّبب؛ لأنَّ الارتيابَ هو الشَّكُّ في الأمر بسبب التَّردُّد في تحصيله، فَلِتَرَدُّدِهم لم يصارحوا النَّبِيَّ ﷺ بالعصيان لاستنفاره، ولم يَمْتَثِلوا له، فسلكوا مَسْلَكًا يصلُح للأمرين، وهو مسلك الاستئذان في القُعود، فالاستئذانُ مسبَّبٌ على التَّردُّد، والتَّردُّد مُسبَّبٌ على الارتياب، وقد دلَّ هذا على أنَّ المقصود مِن صِلَةِ الموصول في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/70، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/213.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/213.

هو قوله: ﴿وَٱرۡتَابَتۡ قُلُوبُهُمۡ فَهُمۡ فِي رَيۡبِهِمۡ يَتَرَدَّدُونَ﴾؛ لأنَّه المنتج لانحصار الاستئذان فيهم"[1].

بلاغةُ الاستعارة في حرف الجَرِّ (في):

الشَّكُّ المحيطُ بالنَّفس، يُغيِّبُها عنْ حقائق الأشياء

استُعيرَ حرف الجرِّ (في) في قول اللّه تَعالى: ﴿فَهُمۡ فِي رَيۡبِهِمۡ يَتَرَدَّدُونَ﴾؛ لِما في معناه من الإحاطةِ والتَّمكُّن، وفي الاستعارة تصويرٌ للمعاني المعقولة في مبانٍ محسوسةٍ، ممَّا يمَكِّن المعنى ويقوِّيه، فقد أحاط بهم الشَّكُّ من كُلِّ جانب إحاطةَ الظَّرف بمظروفه، فلا خلاصَ لهم منه ولا مَخْرَجَ.

سرُّ التَّعبيرِ بالكناية في ثوب الاستعارة التَّمثيليَّةِ:

الحَيْرَةُ صفةٌ دائمةٌ مستمرَّةٌ للمنافقين

جاء قولُ اللّهِ تعالى: ﴿يَتَرَدَّدُونَ﴾ فعلًا مضارعًا؛ وهُوَ دالٌّ على استمرارِ حَيْرَتِهم وتجدُّدِها، وذِكْرُ التَّردُّدِ كنايةٌ عَنِ الحيرة والتَّشتُّتِ، "فإنَّ التَّردُّد دَيْدَنُ المُتحيِّر، كما أنَّ الثَّبات دَيْدَنُ المُستبصر"[2]، وقد جاءت هذهِ الكِناية في ثوب الاستعارة التَّمثيليَّةِ؛ "فالتَّردُّد حقيقتُه: ذَهابٌ ورجوعٌ متكرِّرٌ إلى محلٍّ واحدٍ، وهو هنا تمثيلٌ لحال المتحيِّر بين الفعلِ وعدمه بحال الماشي والرَّاجع، وقريبٌ منه قولهم: يُقدِّم رِجلًا ويُؤخِّر أخرى"[3]، وفي ذلك مِنْ إبرازِ المعاني المعقولَةِ في قالبِ الصُّورِ المحسوسَةِ؛ ترسيخًا لهذه المعاني في نفوسِ المُتَلقِّينَ.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/213.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/70.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/214.

﴿۞ وَلَوۡ أَرَادُواْ ٱلۡخُرُوجَ لَأَعَدُّواْ لَهُۥ عُدَّةٗ وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمۡ فَثَبَّطَهُمۡ وَقِيلَ ٱقۡعُدُواْ مَعَ ٱلۡقَٰعِدِينَ ٤٦﴾ [التّوبة: 46]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الرّبط بين الادّعاء والواقع، وأنّهم ما أرادوا الخروج ولا أعدّوا له، فثبّطهم الله

هذه الآيةُ جاءت لتؤكِّدَ معنى الآية السَّابقة، وَتُبيِّن علامةَ استئذان المنافقين، فلقد كانت الآية السَّابقة عليها كاشفةً عنِ العلَّة الباطنةِ في الخُروج، فبيَّنت هذه الآيةُ العلامةَ الظَّاهرةَ الكاشفةَ عنِ العلَّة الباطنة، فاتَّسقت في التَّرتيب بعدها، فكانَتْ تمامًا لمعناها.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿عُدَّةٗ﴾: العِدَّةُ - بِكَسْرِ العين - هي الشَّيءُ المعدود، كما قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلۡنَا عِدَّتَهُمۡ﴾ [المدثر: 31] أي: عددهم، وقوله: ﴿فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَۚ﴾ [البقرة: 184] أي: عليه أيامٌ بعدد ما فاتَه من زمان آخرَ غير زمان شهر رمضان، والعِدَّة: عِدَّة المرأة، وهي الأيَّامُ التي بانقضائها يحِلُّ لها التَّزوُّجُ. والعُدَّة - بضَمِّ العين -: أُهْبةُ السَّفَرِ، وما يحتاجه المجاهدُ في سبيل الله مِنَ المال والسِّلاح، والإعداد الذي هو تهيئةُ النَّفْسِ، وله عُدَّةٌ، أي: شيءٌ كثيرٌ يُعدُّ من مالٍ وسلاحٍ وغيرها[1].

2) ﴿ٱنۢبِعَاثَهُمۡ﴾: أصلُ البَعْثِ: إثارةُ الشَّيءِ وتوجيهُه، يقال: بعثتُه فانبعث، وقوله ﷻ: ﴿وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمۡ﴾ أي: تَوَجُّهَهُم للخروج ومُضِيَّهُم"[2].

3) ﴿فَثَبَّطَهُمۡ﴾: أي: ثقَّلَ عليهم الخروجَ، وحَبَسَهم عنه، قال الله تعالى: ﴿فَثَبَّطَهُمۡ﴾: حبسهم وشَغَلَهُم، يُقال: ثبَّطهُ المرضُ وأثبطه؛ إذا حبسه، ومنعهُ، ولم يكد يفارقه"[3].

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عدد). والرّاغب، المفردات: (عدّ).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (بعث)، والكفويّ، الكلّيات، ص: 202.
(3) الرّاغب، المفردات: (ثبط).

4) ﴿ٱلۡقَٰعِدِينَ﴾: قعَد: القعود يُقابلُ به القيام، والقَعْدَةُ للمَرَّةِ، والقِعْدَةُ: للحال التي يكون عليها القاعد، والقعود قد يكون جمع قاعِد، قال تعالى: ﴿فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا﴾ [النساء: 103]، ويُعبَّرُ عن المتكاسلِ في الشَّيءِ بالقاعدِ، نحو قوله تعالى: ﴿لَّا يَسۡتَوِي ٱلۡقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ غَيۡرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ﴾ [النساء: 95]، والقاعدةُ: مَن قعَدت عن الحيض والتّزَوُّج، والقواعد: جمعها، قال تعالى: ﴿وَٱلۡقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ [النور: 60][1].

المَعْنى الإجْماليُّ:

كشف نيّة المنافقين بعدم النّية وعدم الاستعداد للخروج، والإعتذار بما ليس بحقّ

المنافقون لم يريدوا الخروجَ ابتداءً، ولو أرادوا الخروجَ لبَدَتْ أماراتُه فأعدُّوا العدَّة والسِّلاح، وما تحتاجُ إليه حربٌ شديدةٌ، وكره اللّه تَعالى أن يخرجوا لَمَّا علم أنَّهم يُريدون الخَبَال والاضطراب للمُؤْمِنين، فخذَلَهم، وأوقع في نُفوسِهم نزوع الكَسَل والضَّعف، وأزال رغبتهم في النُّهوض إلى النَّفير مع جَيْشِ الإيمان، وما ذلك إلَّا للمَصْلَحَةِ المترتِّبة على مَنْعِهم مِنَ الخروج، فكانتِ المصلحَةُ في ألَّا يخرجوا حمايةً لجيش الإيمان من الفتن، وإثارة الخلاف[2].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

موقعُ الواو ودلالته:

التَّعليلُ للمعنى بالعِلَلِ البيِّنة إقناعٌ وإمتاعٌ

الواوُ في قول اللّهِ تَعالى: ﴿وَلَوۡ أَرَادُواْ ٱلۡخُرُوجَ﴾ إمَّا أن تكون عاطفةً ما بعدَها على ما قبلها من باب عطف المعنى على المعنى، ويكون المرادُ: الذين يستأذنونك لا يؤمنون باللّه واليوم الآخر، ولا يستعدُّون للخروج، ولا يُعِدُّون له العدَّة.

وإمَّا أن تكون استئنافيَّةً، ويكون المعنى: لا يستأذنك إلَّا الذين لا

(1) الرّاغب، المفردات: (قعد).
(2) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير، ص: 3320.

يؤمنون بالله واليوم الآخر، وعلامةُ ذلكَ ودليلُهُ: عدمُ استعدادِهم للخروج، ولا التأهُّل لذلك الخروج، وما يحتاجه من الأُهْبَةِ والسِّلاح وغيرهما، والاستئنافُ أوقَعُ مَعْنًى مِنَ العطف، وإنْ كانا غيرَ متعارِضَيْن، فيجوزُ حَمْلُ اللَّفظِ عليهما معًا، ويكونُ هذا مِنْ بابِ الإيجازِ والإعجازِ.

نُكْتَةُ تعليقِ الشَّرْطِ بـ (لو):

المعلَّق على المَمْنوع ممنوعُ الحُصولِ

عُبِّر بأسلوب الشَّرْطِ في قولِ اللهِ تعالى: ﴿وَلَوْ أَرَادُواْ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّواْ لَهُۥ عُدَّةً﴾، واصطفى من أدواته (لو)؛ لبيان استحالَةِ خُروجِهم، وذلك لاستحالَةِ اسْتِعْدادِهم وأُهبتهم، والمعلَّقُ على الممتنع ممتنعٌ مِثْلُهُ، وأسلوبُ التَّعليق هو الملائِمُ لتَحْقيقِ الإقْناعِ.

سِرُّ التَّعبيرِ بالفعل الماضي:

امتناعُ الإرادة أبلغُ مِن امتناعِ الفعل

اخْتير الفعلُ الماضي ﴿أَرَادُواْ﴾ في قول الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَرَادُواْ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّواْ لَهُۥ عُدَّةً﴾ مبالغةً في بيانِ امتناعِهم عن الخروج، ولو ورد النَّظْمُ القرآنيُّ: (ولو خرجوا)، لفاتَتْ هذه الدِّلالَةُ، إلَّا أنَّهُ أرادَ نفيَ أَدْنى درجاتِ الهَمِّ مِنْهُم، وهو الإرادَةُ، فإذا نُفيَتْ عنهم الإرادَةُ؛ كان نفيُ الفِعْلِ عَنْهم مِنْ بابٍ أَوْلى وأَحْرى.

براعةُ التَّعبيرِ بالمفعولِ به مُعَرَّفًا باللَّام:

المنافقون أحقرُ مِن أنْ يُشاركوا في أيِّ خروجٍ مَمْدوحٍ

جاء المفعولُ به (الخروج) مِنْ قول اللهِ تعالى: ﴿وَلَوْ أَرَادُواْ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّواْ لَهُۥ عُدَّةً﴾ معرَّفًا باللَّام؛ للدَّلالة على خروجٍ معروفٍ، فاللَّام لِلعهد العِلْميِّ؛ وهو الخروجُ لغزوةِ تبوكَ، ولم يُنَصَّ على هذا الخروج بأن يَرِدَ النَّظْمُ القرآنيُّ: (ولو أرادوا الخروج لتبوك)؛ لِشُهْرَته ومعرفته، وللدَّلالة على أهمِّيَّته، وحاجة المسلمين للتَّكثير، كما أنَّ في الإطلاق إيذانًا بأنَّهم أقلُّ من أن يكونوا أهلًا لأيِّ خروجٍ مَمْدوحٍ.

سِرُّ التَّعبيرِ بالجواب:

وقعتِ اللَّامُ في جواب الشَّرط في قولِ اللهِ سُبحانَهُ: ﴿وَلَوْ أَرَادُواْ

الإعدادُ يَتِمُّ قبلَ الخروج، لا في وقت حصوله

﴿ٱلۡخُرُوجَ لَأَعَدُّواْ لَهُۥ عُدَّةٗ﴾، وجاءَ التَّعبيرُ بالفعل (أَعَدّوا) ماضيًا؛ للإشارَةِ إلى أنَّ العَزْمَ على الخروج يَقْتَضي سَبْقَ الإعداد؛ لأنَّ الإعدادَ يكونُ قَبْلَ حُلول وقته، فَتَرْكُهُمُ العُدَّةَ دليلٌ وأمارةٌ على إرادتهم التَّخَلُّفَ، ويَحْتَمِلُ أن يكونَ في هذا إيماءٌ إلى أنَّهم كانوا قادرين على تحصيل الأُهْبَة والعُدَّة، ولكنَّهم تَرَكوا ذلك[1].

نُكْتَةُ تقديم الجارِّ والمجرور على المفعول بِهِ:

تحديدُ الأغراضِ والمقاصد، ضرورةٌ في إتقان العمل وإنجازه

قُدِّمَ الجارُّ والمجرورُ ﴿لَهُۥ﴾ على المفعول به ﴿عُدَّةٗ﴾ في قول اللّه سُبحانه: ﴿وَلَوۡ أَرَادُواْ ٱلۡخُرُوجَ لَأَعَدُّواْ لَهُۥ عُدَّةٗ﴾؛ لبيان الاهتمام بالغرض مِنَ الإعداد، وذلك لِما للأغراض والمقاصد مِنَ التَّأثيرِ في الاستعداد لها، والضَّميرُ في ﴿لَهُۥ﴾ يعود للخروج.

سِرُّ تنكيرِ المفعولِ بِهِ:

بذلُ الوُسْعِ، وصدْقُ العزم، مقدَّمٌ على العمل

وقعَ المفعولُ بِهِ ﴿عُدَّةٗ﴾ مُؤَخَّرًا ونَكِرَةً في قولِ اللّه تعالى: ﴿وَلَوۡ أَرَادُواْ ٱلۡخُرُوجَ لَأَعَدُّواْ لَهُۥ عُدَّةٗ﴾، وفي التَّنكير بيانُ أنَّ المطلوب في العُدَّة بذلُ الجهدِ على قَدْرِ الباذلِ، فلا يُكلَّف أحدٌ بما فوق وُسْعِه، كما أنَّه جاء مُؤَخَّرًا تقديمًا للغَرَضِ على المطلوبِ تحقيقُه؛ لبيانِ مكانة صِدْق العزمِ مِنَ العمل.

دلالةُ الواو، وسِرُّ العطف على محذوفٍ:

بيانُ أسبابِ الامتناع الحقيقيَّةِ، فَضْحٌ للمنافقين

الواو في قولِ اللّهِ سُبحانَهُ: ﴿وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمۡ﴾ عاطفةٌ على محذوفٍ، كأنَّه قيل: "ما خرجوا، ولكن كرِهَ اللّه انبعاثهم"[2]، والعطفُ هُنا لربْطِ سبَبِ عدم إعْدادِهِم العُدَّةَ، ودافِعِهم إلى الامتناع عنِ الخروج والتَّخلُّف.

وسِرُّ حذف المعطوفِ عليه الإيماءُ إلى عدَمِ إثبات أيِّ عزمٍ لَهُمْ

(1) الفخر الرازيّ، مفاتيح الغيب: 16/80.

(2) ابن عادل، اللّباب: 10/105، والسّمين الحلبيّ، الدّر المصون: 6/58، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/71.

على الخروج، ولَوْ كان الفعلُ مَنْفِيًّا، ففي الحذفِ مبالغةٌ في بيان تخلُّف المنافقينَ.

بلاغةُ التَّعبيرِ:

عُبِّرَ في قول اللهِ سُبحانَهُ: ﴿كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمۡ﴾ بالفعل (كَرِهَ)، للدَّلالَةِ على أنَّهم ليسوا أهلًا لهذا الشَّرف؛ لِما سبق في عِلْمِ اللهِ تعالى أنَّهم كذلكَ.

ما سبقَ في علمِ اللهِ تعالى، لا سبيلَ لمخالفتِهِ

وفي إسنادِ الفِعْلِ للاسم الجليل (اللهِ) إدخالٌ للمَهابَةِ والجلالِ في النُّفوس.

سِرُّ التَّعبيرِ بالانْبِعاثِ دونَ الخُروجِ:

كان مقتضى الظَّاهر أَنْ يَرِدَ النَّظْمُ القرآنيُّ: (ولو أرادوا الخروج لأعدُّوا له عدَّة، ولكن كره اللهُ خروجهم)، ولكن عُدِلَ عَنْ ذلكَ، وعُبِّر بالانْبعاثِ، فقال سُبحانَهُ: ﴿وَلَوۡ أَرَادُواْ ٱلۡخُرُوجَ لَأَعَدُّواْ لَهُۥ عُدَّةٗ وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمۡ﴾، والأبلغُ ما جاء عليهِ النَّظْمُ الكريم، لأنَّه إثباتٌ لكُرْهِ اللهِ سُبحانَهُ لأيِّ حركَةٍ للمنافقين، وفيهِ مِن تقبيحِ صورَتِهم ما فيه؛ لأنَّ أصلَ البَعْثِ: إثارةُ الشَّيءِ وتوجيهُه، يقال: بَعَثْتُه فانْبَعَث، فَفيهِ مِن عموم الحركةِ، فالتَّعبيرُ بالانْبعاثِ إيماءٌ إلى أنَّ الموتَ أَوْلى بِهِم، وأنَّ السُّكون طَبْعُهم ودَيْدَنُهم.

كلُّ تحرُّكٍ للمنافقين، منبوذٌ مِن ربِّ العالمين

نُكْتَةُ التَّعبيرِ بالفاء:

الفاءُ في قول اللهِ تعالى: ﴿فَثَبَّطَهُمۡ﴾ عاطفةٌ، وهي لِلعطف الرُّتبي، فهو انتقال عاجلٌ دون مُهْلةٍ من رتبةِ البُغْض إلى الفعل المُبين عنِ الكُره.

الكُرْهُ يعقبُه أثرٌ سريعٌ

بلاغةُ التَّعبيرِ بالفعلِ الماضي:

عُبِّرَ بالفعل الماضي (ثبَّط) مِنْ قولِ اللهِ تعالى: ﴿وَلَوۡ أَرَادُواْ ٱلۡخُرُوجَ لَأَعَدُّواْ لَهُۥ عُدَّةٗ وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمۡ﴾ تأكيدًا لتَحَقُّقِ ذلك كُلِّهِ قبل الدَّعوة للخروج؛ لِما ثَبَتَ في عِلْمِ اللهِ سُبحانَهُ مِن كون

المنافقون ممنوعون من نيل الفضائلِ منعًا لا زوالَ لَهُ

طبائعهم مستعصيةً على نَيْلِ الشَّرف، واصطفى النَّظمُ القرآنيُّ الفعلَ (ثَبَّط) وهو مِن فرائد السُّورة الكريمة؛ لدلالته على الحبْسِ غيرِ المُفارَق والمنع التَّامِّ، فهو أبلغُ مِمَّا لو جاءَ النَّظْمُ القرآنيُّ بـ (فَحَبَسَهُم) أو (كسَّلَهُمْ).

نُكْتةُ التَّعبيرِ بالفعل المبنيِّ للمَفْعولِ:

المنافقُ يُطيعُ كُلَّ قائلٍ يَدْعوهُ إلى القُعود

عُبِّرَ بالفعل المبني للمفعول (قيلَ) في قولِ اللهِ سُبحانَهُ: ﴿وَقِيلَ ٱقْعُدُواْ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ﴾؛ ليَحْتَمِل التَّقديرُ كلَّ فاعلٍ ممكنٍ، ويجوزُ أن يكون القائلُ هُنا الشَّيطان عن طريقِ الوَسْوَسَة، فهو إمامهم في الحياة وقائدهم في كلِّ مساعيهم، ويجوزُ أن يكون القائِلُ بَعْضَهُم لبعضٍ، فَبَعْدَ ما خلا الشَّيطان بأفرادهم؛ حَمَلَهُم على الاجتماع؛ لِيَقولَ بَعْضُهُم لبعضٍ ذلك القولَ أو ما في معناه، ويجوزُ أن يكون القائِلُ هُو سيِّدُنا رسولُ الله ﷺ، وفيه بيانٌ لمعنى الإذْنِ على سبيل السُّخْرِيَّة بالمنافقينَ، وكأنَّهم ذهبوا إليه لِيستأذِنوهُ مِن بَعْدِ ما تَشاوَروا. ويَحْتَمِلُ أَن يكون القائلُ هُو اللهَ تعالى على سبيلِ الزَّجر والتَّوبيخ[1]. ولا تنافيَ بينَ كلِّ هذهِ المعاني، بَلْ إنَّ بعضَها يأخذُ بِحُجَزِ بعضٍ ويُقَوِّيهِ ويؤكِّدُهُ. كما أنَّ في التَّعبير بالبناء للمفعول "إشارةً إلى أنَّهم يُطيعون الآمِرَ بالقعود حقيقةً أو مجازًا، كائنًا مَن كان"[2]، ولو صُرِّحَ بالفاعل؛ لفاتَتْ كُلُّ هذه المعاني، لكنَّها بلاغةُ الإيجازِ والإعجازِ.

دِلالةُ الأمْرِ:

التَّوبيخُ بتوجيه الأمـر بالفعل المذموم، زاجِرٌ للمأمورِ مِنْهُ

فعلُ الأمر في ﴿ٱقْعُدُواْ﴾ مِنْ قولِ الله سُبحانَهُ: ﴿وَقِيلَ ٱقْعُدُواْ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ﴾ خرجَ عن أصلِ دلالتِهِ؛ وهو الإلزامُ بالفِعْلِ، إلى مَعْنًى مجازيٍّ؛ وهُوَ التَّوبيخ والزَّجر؛ وذلك لِما في القعود مِن الذَّمِّ الذي

(1) ابن الجوزيّ، زاد المسير: 3/446، والفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 16/82، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/40، وابن عادل، اللّباب: 10/107.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/491.

يُلازِمُه غالبًا، ولا يدلُّ على غير المعنى المذموم إلَّا إذا قارَنَهُ ما يَدْفَعُ عَنْهُ الذَّمَّ، كقوله تعالى: ﴿لَّا يَسْتَوِي ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ﴾ [النساء: 95].

براعَةُ أسلوبِ التَّتْميم:

المبالغةُ في ذَمِّ المنافقينَ، بِنَظْمِهِم في سِلْكِ مَن شَأْنُهُم القُعود

خُتِمَت هذه الآيةُ بقول اللّهِ تعالى: ﴿مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ﴾؛ تبكيتًا لِلمُنافِقين، ففيهِ ذمٌّ لهم، وتعجيزٌ، وإلحاقُهُم بِمَنْ شأنُهُم القعود، وفي هذا كنايةٌ عَن تَباطُئِهِم عَنِ داعي الخَيْرِ، وأنَّهم تشبَّهوا بالنِّساء والصِّبيان[1]، وفي هذا التَّبكيت ما لا يَعْلَمُ مقدارَهُ إلَّا أولو الهِمَمِ العليَّة والأنفس الأبيَّة، وكان الاكتفاءُ بقوله: ﴿ٱقْعُدُواْ﴾ ممكنًا لإفادَةِ أَصْلِ المَعْنى؛ لكنْ لَو اقْتُصِر على الأمْرِ بالقعودِ؛ لم يدُلَّ على مَعْنى نَظْمِهِم في سِلْكِ النِّساء والصِّبيان والمرضى والزَّمْنى والمعتوهين[2].

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/276، وأبو حيّان، البحر المحيط: 5/429، والسّمين الحلبيّ، الدّر المصون: 3/469، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/210.

(2) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 10/109.

﴿لَوۡ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمۡ إِلَّا خَبَالٗا وَلَأَوۡضَعُواْ خِلَٰلَكُمۡ يَبۡغُونَكُمُ ٱلۡفِتۡنَةَ وَفِيكُمۡ سَمَّٰعُونَ لَهُمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ٤٧﴾ [التّوبة: 47]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الرّبطُ بين تبكيتِ المخلَّفين، وبين كونِ خروجِهم فتنةً وضلالًا وتثبيطًا

جاءتِ الآيةُ الكريمة لبيان الحكمة في أنَّ اللّهَ سُبحانَهُ ثبَّطهم، فلم يخرجوا، فقال سبحانه: ﴿لَوۡ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمۡ إِلَّا خَبَالٗا﴾ أي: لو خرجوا في جَمْعِكُم المؤمنِ المجاهد، وساروا لا يُجاهِدون، ولَكِنْ يَسيرون على ما كانوا عليه بَيْنَكُم مِنَ التَّشكيك في خُروجِكُم وفي قُوَّتِكُم، وفي ذلك إشاعَةُ العَناء والخوَرِ والضَّعف[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿خَبَالٗا﴾: الخبالُ: الفسادُ الذي يَلْحَقُ الحيوانَ فيُوَرِّثُه اضْطِرابًا، كالجنون والمرض المُؤَثِّر في العقل والفِكْرِ، وقوله: ﴿مَّا زَادُوكُمۡ إِلَّا خَبَالٗا﴾ أي: فَسادًا وشَرًّا، وأصلُ مادَّةِ الخاءِ والباءِ واللّام: يدلُّ على فَسادٍ[2].

2) ﴿وَلَأَوۡضَعُواْ﴾: الوضع: أعمُّ مِنَ الحطِّ، ومنه الموضعُ، قال اللّهُ تعالى: ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ [النّساء: 46]، وَوَضَعَتِ الدَّابَّةُ تَضَعُ في سَيْرِها: أَسْرَعَت، ومِنْهُ قولُ اللّه ﷻ: ﴿وَلَأَوۡضَعُواْ خِلَٰلَكُمۡ﴾، والوضعُ في السَّيْر: استعارةٌ، كقولهم: ألقى باعَهُ وثِقَلَهُ[3].

3) ﴿خِلَٰلَكُمۡ﴾: الخلَلُ: فُرْجةٌ بين شَيْئَيْن، وجمعه: خِلالٌ، كخلَلِ الدَّار والسَّحاب والرَّمادِ ونحوها، قال تعالى في صفة السَّحاب:

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 6/3322، 3321.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (خبل).
(3) الرّاغب، المفردات: (وضع).

﴿فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ﴾ [النور: 43]، وقال سُبحانَهُ: ﴿فَجَاسُواْ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِۚ﴾ [الإسراء: 5]، وقال الله ﷻ: ﴿وَلَأَوْضَعُواْ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ﴾ أي: سَعَوا وسطَكم بالنَّميمة والفساد، والخلل في الأمر كالوَهْن فيه، تشبيهًا بالفرجة الواقعة بين شَيْئَين[1].

4) ﴿يَبْغُونَكُمُ﴾، أي: يطلبون لكم ما تُفتَنُون به، والباء والغَيْنُ والياءُ تدورُ تصريفاتُها على مَعْنى طلب الشَّيءِ، ومنه قولُهُمْ: بَغَيْتُ الشَّيء أبغيهِ، أي: طَلَبْتُهُ[2].

5) ﴿ٱلْفِتْنَةَ﴾: الفاء والتَّاء والنُّون تدورُ تصريفَاتُهَا علَى إذابة مادَّةِ باطنِ الشَّيءِ وتحويلِها؛ بإدخالها نارًا حارَّةً، ومِنْهُ إذابة الذَّهب والفضَّة، ومِنْهُ: تحويلٌ معنويٌّ؛ كالافتتان بالنِّساء، وذلك بِرِقَّةِ القلوب نحوهِنَّ حتَّى يقع المرءُ في المحظورِ[3]، والفتنةُ في قول الله تعالى: ﴿يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ﴾: الشِّركُ والنِّفاقُ[4].

6) ﴿سَمَّٰعُونَ﴾، أي: مطيعون قابلون لكلامهم، أو عيونٌ يتجسَّسون لهم الأخبار، ويَنْقُلُونها إليهم، وأصل (سمع) يدلُّ على إيناسِ الشَّيءِ بالأُذن[5].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

لو خرجوا معكم - أيُّها المؤمنون - فلن يزيدوكم بخروجهم إلَّا شرًّا وفسادًا، وإيقاعَ الاضطرابِ بينَكُم، وَلَأَسْرَعوا المشْيَ بَيْنَكُم بالنَّميمة والبغضاء، وفيكم - يا أهلَ الإيمانِ - مَن يَسْمَعُ كلامَهم، فيقبلُهُ، ويستجيبُ له، ويطيعُه، واللهُ عليمٌ بالظَّالمين، ولِعِلْمِهِ الأزَلِيِّ بهم مَنَعَهُم الخروجَ معكم.

خروج المنافقين شرّ لازب، ومفسدة محقّقة، ولذلك لم يوفّقهم الله إليه

(1) الرّاغب، المفردات: (خلّ).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (بغي)، والرّاغب، المفردات: (بغي).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (فتن).
(4) الواحديّ، التّفسير البسيط: 10/473.
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (سمع).

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

علَّةُ فصْلِ قوله: ﴿لَوۡ خَرَجُواْ﴾ عمَّا قَبْلَهُ:

في تقريرِ المفاسدِ، تأكيدٌ لبيانِ المصلحة في عدم الخروج

قولُ اللّه تعالى: ﴿لَوۡ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمۡ إِلَّا خَبَالٗا﴾ جملَةٌ مستأنَفةٌ؛ لبيان أنَّه معنًى جديدٌ، والكلام مسوقٌ لتقرير المفاسد المترتِّبَةِ علَى خروجهم، والمرادُ التَّأكيدُ على أنَّ الخير في عدم خروجهم، فالجملة "استئنافٌ بيانيٌّ لجملة ﴿كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمۡ﴾؛ لبيان سِرِّ كراهيَة اللّه انبعاثَهم، وهي إرادةُ اللّهِ سلامةَ المسلمين[1].

نُكْتَةُ تعليق الشَّرطِ بـ (لو):

امْتَنَعَ فسادُ المنافقين لامتناع خُروجِهم

عبَّر النَّظْمُ الكريم بأسلوب الشَّرط في قولِ اللّه تعالى: ﴿لَوۡ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمۡ إِلَّا خَبَالٗا﴾ عَقِبَ التَّعبيرِ بأسلوب الشَّرْطِ وبالأداة نفسِها في قولِه تعالى: ﴿وَلَوۡ أَرَادُواْ ٱلۡخُرُوجَ لَأَعَدُّواْ لَهُۥ عُدَّةٗ﴾؛ لِمُتابعَةِ أُسْلوبِ الإقناع بطريقِ الاحتجاجِ بأُسْلُوب التَّعليق، وباسْتِخْدام أداة الامتناع للامتناع، مِمَّا يُؤَكِّد أنَّ المصلحةَ كانت في مَنْع المنافقين مِنَ الخُروج مع المسلمين.

سِرُّ إيثار التَّعبير بـ (في)، دون (مَع):

الإفسادُ مِنَ الدَّاخل أثرُهُ أَخْطَرُ

عَبَّر النَّظْمُ الكريم بحَرْفِ الجرِّ (في) دُونَ الظَّرْفِ (مع)، فقال سُبحانَه: ﴿لَوۡ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمۡ إِلَّا خَبَالٗا﴾؛ لبيانِ تخلُّلهم في المسلمين وانغماسِهم فيهم، ممَّا يجعلُ أثرَهم الفاسدَ بَالغًا داخلَ القوم، والفسادُ حينما يَحْصُلُ في القَلْبِ مِنَ الجيش يُفْسِدُه كلَّهُ.

كما يوحي اصطفاءُ حَرْفِ الجرِّ (في) بعناية المنافقين بفساد الجَمْعِ، ويؤكِّد هذا المعنى دخولُ (في) على ضمير المخاطَبين ﴿فِيكُم﴾ أي: لأنَّكم مقصودُهم مِنَ الخروج، وليس الغزوَ ولا

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/71، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/216.

الجهادَ، فهم لا يخرجون إلَّا لتعمُّد إفْسادِكُم. وشبهُ الجملةِ "﴿فِيكُم﴾: حال، وتقدير المعنى: مُخالطين لكم"[1].

بلاغةُ التَّعبير بجواب الشَّرط، في ثوب أسلوبِ القصر:

تعظيمُ المصالح بيانٌ لنعمة الله على المسلمين، بمنع المنافقين مِن الخروج

جاءَ التَّعبيرُ بأسلوب القَصْرِ في جملَةِ جواب الشَّرط في قول اللهِ تَعالى: ﴿مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا﴾، وهو أسلوبٌ يُفيد تمكينَ المعنى وقُوَّتَهُ؛ لأنَّه بمنزلَةِ جُمْلَتَيْنِ، مع ما فيه مِنَ الإيجاز، وفي ذلك تأكيدٌ لبيان ثبوتِ المصلحةِ في مَنْعِهِم مِنَ الخروج. وقدِ اصْطُفِيَ مِنْ طرُقِ القَصْرِ النَّفيُ والاستثناء، وهو الملائِمُ لِما يُنْكِرُهُ المخاطَبُ، وله أثرُه في إزالَةِ الإنكار.

دلالةُ الاستثناء بين الانقطاع والاتِّصال:

تَنَوُّع المعاني القُرآنيَّةِ، بِتَنَوُّع الاعتبارات اللَّفظيَّة

قولُ اللهِ تعالى: ﴿مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا﴾ استثناءٌ مُفرَّغ، وهو إمَّا أن يكون مُنْقَطِعًا، وتقدير المعنى: ما زادوكم خيرًا ولا قُوَّةً إلَّا خبالًا؛ لأنَّ الاستثناء المنقطعَ يكون المستثنى مِنْ غَيْرِ جِنْسِ المستثنى مِنْهُ، وهذا يُبْعِد أَن يُراد المسلمون بزيادَةِ الخبال، ويكون المرادُ مِن قوله سُبحانَهُ: ﴿وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ﴾ أي: جواسيسُ.

وعلى اعتبار كونهِ استثناءً مُتَّصلًا؛ يكون المستثنى منه مَحْذوفًا أَيْضًا، ويُقدَّرُ عامًّا، والمعنى: ما زادوكم شَيْئًا إلَّا خبالًا، وهذا يُدْخِلُ بعضَ المسلمين في زيادة الخبالِ، ويُؤَيِّد هذا المعنى ما جاء بعدُ: ﴿وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ﴾[2]، ويكون المرادُ بالضَّمير في ﴿وَفِيكُمْ﴾ بَعْضَ المسلمين، وفي هذا الموقع إِثْراءٌ للمعنى مَع وَجَازةِ الأسلوب.

بلاغةُ التَّعبيرِ بالمستثنى منكَّرًا:

جيءَ بِصيغة التَّنكير في المستثنى ﴿خَبَالًا﴾ مِنْ قولِ اللهِ ﷻ: ﴿لَوْ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/71.

(2) ابن الجوزيّ، زاد المسير: 3/448، والفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 16/83، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/40، والسّمين الحلبيّ، الدّر المصون: 6/58، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/71.

التَّعميمُ يزيدُ النِّعمة فَضْلًا

﴿خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا﴾ للدَّلالة على عموم الفساد بكُلِّ معانيه، وفي التَّعميم زيادةٌ في بيانِ فَضْلِ اللّهِ تَعالى على المسلمين؛ إذْ وقاهُمْ شرَّ هذا الخبالِ المُسْتطير.

مع ما في التَّعبير بلفظِ الخبالِ مِنْ مَعْنًى دقيقٍ؛ إذِ الخبالُ هُوَ الفساد الذي يلحقُ الحيوانَ، فَيُوَرِّثُه اضطرابًا، كالجنون والمرض المُؤَثِّر في العقل والفِكْرِ، وهذا المعنى يفوت لو عُبِّر بدلَ الخبالِ بـ: ضعفًا أو فسادًا، ولم ترد لفظة (خبالًا) في القرآن إلَّا في موضعين: سورة آل عمران في قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا﴾ [آل عمران: 118]، وفي هذا الموضع.

دِلالةُ العطفِ في الآية:

بيانُ وجوهِ الخبالِ والفسادِ، تَفْصيلٌ لِلمُجْمَلِ المستفاد

قولُ اللّهِ سُبحانَهُ: ﴿وَلَأَوْضَعُواْ خِلَٰلَكُمْ﴾ معطوفٌ على جوابِ الشَّرْطِ ﴿مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا﴾، وهذا العطفُ يبيِّن وجوهَ الخبالِ الذي كان مِنَ المنافقين لو خرجوا، وفي تفصيل وجوهِ الفساد العامِّ تأكيدٌ لِنِعْمَةِ اللّهِ تَعالى على المسلمين في مَنْعِهِ المنافقين مِنَ الخروجِ.

بلاغةُ الاستعارة التَّمثيليَّة:

تجسيدُ فتنةِ المنافقين، وإيراد المعاني في قالب المحسوساتِ، يَكْشِفُ خطورتهم

في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿وَلَأَوْضَعُواْ خِلَٰلَكُمْ﴾ استعارةٌ تمثيلية "لحالة المنافقين حين يبذلون جُهدهم لإيقاع التَّخاذلِ والخوف بين جيش المؤمنين، وإلقاءِ الأخبار الكاذبة عن قوَّة العدد، بحال من يُجْهِدُ بعيرَهُ بالسَّير لإبلاغ خبرٍ مهمٍّ، واختير هُنا ذِكْرُ الإيضاع؛ لعِزَّةِ هذا المعنى، ولِما فيه مِنَ الصَّلاحيَّة لتفكيك الهيئة، بأَنْ يُشبَّهَ الفاتِنون بالرَّكْبِ، ووسائل الفتنة بالرَّواحل.

وفي ذكر ﴿خِلَٰلَكُمْ﴾ ما يَصْلُحُ لتشبيه استقرائِهم الجماعاتِ والأفرادَ بِتَغَلْغُلِ الرَّواحل في خلال الطُّرق والشِّعاب"[1].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/217، 21، باختصار.

نُكْتَةُ حذف المفعول به:

في حذف مفعولِ الفعل (أوضع) مِنْ قول اللّه تعالى: ﴿وَلَأَوْضَعُواْ خِلَٰلَكُمْ﴾ "إشارةٌ إلى أنَّ مُرادَهم الإيضاعُ نفسُهُ، لا بِقَيْدِ دابَّة، وعُبِّر بالإيضاع؛ لأنَّه للرَّاكب، وهو أَسْرَعُ للماشي"[1]، ففي حذف المفعول به توفيرٌ لِلعِنايَةِ عَلى الفِعْلِ في حدِّ ذاتِه، والمرادُ: المبالغة في الإسراع بالنَّمائم"[2]، وكلُّ ذلك تجسيدٌ لعَمَلِ المنافقين في المسلمين لَو خَرَجوا، وفيهِ مِنْ بيانِ فَضْلِ اللّهِ سُبحانَهُ على المسلمين ما فيهِ.

الإسراعُ في إلقاء الفتنة بين المسلمين، دَأْبُ المنافقين

سِرُّ تقييدِ الإيضاع بالجُمْلَةِ الحاليَّة:

قولُ اللّهِ تعالى: ﴿يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ﴾ جملة حاليَّةٌ من فاعلِ (أوضعوا)، والمعنى: لأَسْرَعوا فيما بينَكُم باغينَ الفتنَةَ، وهذا القَيْدُ حدَّد مَقاصِدَ المنافقين، وبيَّنَ الحالَ التي يتلبَّسون بها حينَ خُروجِهم، مِمَّا يُبصِّر المسلمين بِخَطَرِهم.

القَيْدُ يحدِّد مقصدَ الفاعل، ويكشِفُ هَدَفَهُ الحقيقيَّ، ويُبَصِّرُ المسلمين بالخَطَرِ

فائدَةُ حَذْفِ حَرْفِ الجَرِّ مِنَ الفعل:

قولُ اللّهِ ﷻ: ﴿يَبْغُونَكُمُ﴾ أصله: يبغونَ لَكُمْ، لَكِنْ حُذِفَ الجارُّ، وفي حذْفِهِ وَتَوْجيهِ الفِعْلِ للمفعول بهِ مباشرةً؛ بيَّنَ مقاصد المنافقين، فالمسلمون كلُّهم مَقْصودونَ لَهُم، فَهُمْ يُريدونَ أن يكونَ المسلمون هُمُ الفِتْنَةَ نَفْسَها.

شدَّةُ مَكْرِ المنافقين بِأَهْلِ الإسْلامِ

دلالة الواو بينَ الحالِ والاستئناف:

الواوُ في قول اللّهِ تعالى: ﴿وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ﴾ إمَّا أن تكون واوَ الحالِ[3]، فتكون الجملةُ الاسميَّةُ حالًا من المفعول به في ﴿يَبْغُونَكُمُ﴾ أو من فاعله، والمعنى: وفيكم سمَّاعون لهم يتجَسَّسون عليكم، وينقُلون إِلَيْهِم أخبارَكم، ويَكْشِفون لهم خُطَطَكم، ومجيءُ

دأْبُ المنافقين التَّجَسُّسُ، وضَعْفُ بَعْضِ النُّفوس يَجْعَلُها عُرضةً لسماع المنافقين

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/491.

(2) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 16/63، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/71، وابن عادل، اللّباب: 10/107.

(3) ابن عادل، اللّباب: 10/109 والسّمين الحلبيّ، الدّر المصون: 6/61.

جملة الحالِ اسميَّةً يبيِّن أنَّ دأبَ المنافقين إيقاعُ الفِتْنَةِ بالتَّجَسُّس والعَمَلِ بالنَّمائم.

ويجوز أن تكون الواوُ استئنافيَّةً[1] وتكون في بعض المسلمين، وعليه تكون الجملة "اعتراضًا؛ للتَّنبيه على أنَّ بَغْيَهم الفتنةَ أشدُّ خَطَرًا عَلى المسلمين؛ لأنَّ في المسلمين مَن تَنْطَلي عليهم حِيَلُهم"[2]، ومن بديعِ البلاغة أنَّ الجملة واحدةٌ، وَلَكِنَّ موقعَها الإعرابِيَّ بيَّن تعدُّدَ معانيها حَسَبَ مَوْقِعِها، وهو ضَرْبٌ مِنَ الإيجاز، لتعَدُّد المعنى، والرَّسْمُ واحدٌ.

بلاغةُ تقديم الخبر على المبتدأ:

زيادةُ التَّحذير، تَقْتَضي تقديمَ المُحَذَّر مِنْهُم

قُدِّمَ الخبرُ على المبتدأ في قوله: ﴿وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْۗ﴾ لبيانِ انغماس المنافقين في المسلمين، ومبالَغَتِهم في معرفة دَواخلِ نُفوسِهم، وفي التَّقديم إشارةٌ إلى شِدَّةِ الحذَرِ مِنْهُم، ومعاملتهم ظاهرًا دون مخالطتهم، واستخدام حَرْفِ الجرِّ (في) يُرَشِّح القول بأنَّ المرادَ بِهِمُ المنافقون لا بعضُ المسلمين الذين خُدِعوا بمقالاتِ المنافقينَ؛ لأنَّه لو كان مُرادًا؛ لجاء النَّظْمُ القرآنيُّ: (ومنكم سماعون لهم).

وجاء قوله: ﴿سَمَّٰعُونَ﴾ بصيغة المبالغة للدَّلالة على أنَّ اسْتِماعَهُم تامٌّ، وهو الاستِماعُ الذي يقارنه اعتقادُ ما يُسْمَعُ[3].

بلاغةُ التَّذييلِ:

تقريرُ المعنى المتقدِّم وتأكيدُه، يَزيدُ النَّفْسَ قناعةً ويقينًا

قولُ اللهِ ﷻ: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾ تَذْييلٌ يُقَرِّر كُلَّ ماضٍ، ويؤكِّدُه، فهُوَ جلَّ وعزَّ يَعْلَم أحوالَهم ظاهرَها وباطنها، ويُحيط بِضَمائِرِهم، وما فعلوا فيما مَضى، وما يَتَأَتَّى مِنْهُم فيما سيأتي، والمقصود مِن هذا التَّذييل "إعلامُ المسلمين بأنَّه يعلَمُ أحوالَ

(1) ابن عادل، اللّباب: 10/109، والسّمين الحلبيّ، الدّر المصون: 6/61.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/218، بتصرف.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/218.

المنافقين الظَّالمين، ليكونوا منهم على حَذَرٍ، وليتوسَّموا فيهم ما وَسَمَهُم القرآنُ به، ولِيَعْلَموا أنَّ الاستماعَ لَهُمْ ضربٌ مِنَ الظُّلم"[1].

بلاغةُ التَّعبيرِ بالجملةِ الاسميَّةِ:

اخْتيرتِ الجملةُ الاسميَّةُ في قولِ اللّه سُبحانَهُ: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾ للدَّلالة على ثبوت علمه بِظُلْمِهم، وإحاطته بهم، وقد عُبِّر بالاسم الأحْسَن (اللّه) لإدخالِ المهابَةِ والجلال.

وقَدَّمه على الخَبَرِ تعجيلًا لِتلكَ المهابة، وجيءَ بِالخبر وَصْفًا جليلًا للاسْمِ الجليلِ بما يُلائم مقامَ التَّخويف والتَّحذير.

إحاطةُ اللهِ بالظَّالمين ثابتةٌ مُستَمِرَّةٌ، وعِلْمُهُ بحقائِقِهم دائمٌ لا يَنْقَطِع

نُكْتَةُ وضع المُظْهَرِ موضعَ المُضْمَرِ:

قوله: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾، وُضِعَ المُظْهَرُ موضِعَ المضمر في قول اللّهِ سُبحانَهُ: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾، وكان مقتضى الظَّاهر أن يَرِدَ النَّظْمُ القرآنيُّ: (واللّه عليم بهم)، لَكِن عُدِلَ عَنْ ذلك إلى الإظْهار؛ للتَّسْجيل عليهم بالظُّلم، والتَّشْديدِ في الوعيد، بترَتُّبِه على الظُّلم، ويكونَ شامِلًا للفريقَيْنِ: السَّمَّاعين والقاعدين[2].

التَّسجيلُ عليهم بوصف الظُّلْمِ، يحقِّقُ الوعيد والتَّهديدَ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/218، بتصرف.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم، 4/71.

﴿لَقَدِ ٱبۡتَغَوُاْ ٱلۡفِتۡنَةَ مِن قَبۡلُ وَقَلَّبُواْ لَكَ ٱلۡأُمُورَ حَتَّىٰ جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَظَهَرَ أَمۡرُ ٱللَّهِ وَهُمۡ كَٰرِهُونَ ٤٨﴾ [التّوبة: 48]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

المناسبةُ بين تقاعُسِ المنافقين وفتنتِهمُ المتأصِّلةِ، حتّى جاء الحقُّ والنّصرُ على كُرْهٍ منهم

لَمَّا تقدَّمَ الآيةَ الكريمة تسليتُهُ ﷺ، بقوله تعالى: ﴿لَوۡ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمۡ إِلَّا خَبَالٗا﴾ [التّوبة: 47] في أمرٍ لم يكن واقعًا؛ عقَّب بأمر واقعٍ شاهدٍ؛ ش لأنَّ التَّسليةَ بالواقع أقوى منها بالمقدرة، فهي تقريرٌ لما قُرِّرَ وقُوعُهُ[1]، فَذكرَ في هذه الآيةِ نوعًا آخرَ مِن مَكْرِ المنافقين وخُبْثِ باطنهم[2]، وهي أيضًا تعليلٌ لقولهِ: ﴿يَبۡغُونَكُمُ ٱلۡفِتۡنَةَ﴾ [التّوبة: 47]؛ لأنَّها دليلٌ بأنَّ ابتغاءهم الفِتْنَةَ للمسلمين ديدنٌ لهم من قَبْلُ وعادة[3].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱبۡتَغَوُاْ﴾: بَغَيْتُ الشَّيءَ أَبغيه بُغاءً، وابتغيته: طلبتُه[4]، فأصلُ الابتغاءِ الدَّلالةُ على طلب الشَّيء، وكذلك صيغة (بَغَى) الَّتي ليست لمعنى التَّجاوز. "بَغَى الضَّالَّةَ والحاجة، وكذلك ابتغى الشَّيء، وتبغَّاه واستبْغاه، والبُغْية - بالكسر والضَّم -: الحاجة المَبْغِيَّة"[5].

وقد خُصَّ الابتغاءُ بالاجتهاد في الطَّلب، فمتى كان الطَّلب لشيء محمودٍ، فالابتغاء فيه محمودٌ[6]، ومتى كان لمذمومٍ كما في (ابتغاء الفِتْنة) هنا؛ فهو مذمومٌ.

2) ﴿وَقَلَّبُواْ﴾: القلبُ: باطنُ الشَّيء ولُبُّه، وقَلْبُ الأرض إخراجُ

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/311.
(2) الفخر الرَّازي، مفاتيح الغيب: 16/65.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/219.
(4) الخليل، العين: (بغي).
(5) جبل، المعجم الاشتقاقي المُؤَصّل: (بغى).
(6) الرّاغب، المفردات: (بغي).

لباطنها، ومنه الدَّلالة "على ردِّ شيء من جهة إلى جهة"[1]. فقَلْبُ الشَّيء: تصريفُهُ وصرْفُهُ عن وجه إلى وجه، كقلْبِ الثَّوب، وقلب الإنسان، أي: صرفُه عن طريقتهِ، وسمِّي القلبُ قلبًا لكثرة تقلُّبه[2]، وتقليب الأمر في الآية: تصريفُه وترديدُه لأجل التَّدبُّرِ والتَّأمُّلِ فيه[3]، والاجتهادِ في المكر والحيلة، يُقالُ للرَّجل المتصرِّف في وجوه الحِيَل: حُوَّلٌ، وقُلَّبٌ أي: اجتهدوا، ودبَّروا لك الحِيلَ، والمكايدَ، ودوَّروا الآراءَ في إبطال أمرك[4].

❁ المَعْنى الإِجْماليُّ:

تسليةُ النَّبيِّ ﷺ عن تخلُّف المنافقين، وسعْيِهم إلى الفِتْنةِ باطّرادٍ

الآيةُ تحريضٌ للنَّبيِّ ﷺ على المنافقين بأنَّهم أعملوا فكرَهم، وأجالوا آراءَهم في كيدك وكيد أصحابِك وخذلان دينك، وذلك في أوَّلِ مَقْدَم النَّبيِّ ﷺ المدينة رُميَ عن قوس واحدةٍ، وحاربتْهُ يهود المدينة ومنافقوها، فلمَّا نصرَهُ الله يوم بدر وأعلى كلمته، قال عبد الله بن أُبيٍّ وأصحابه: هذا أمر قد تَوَجَّه، فدخلوا في الإسلام ظاهرًا، ثم كلَّما أعزَّ الله الإسلام وأهله؛ غاظَهم ذلك، وساءهم[5].

وهي أيضًا تسليةٌ "للرَّسول ﷺ والمؤمنين عن تخلُّف المتخلِّفين، وبيانُ ما ثبَّطهم الله تعالى لأجله، وهتَك أستارَهم، وكشَفَ أسرارَهم، وإزاحةِ أعذارِهم تداركًا لما عسى يفوت بالمبادرة إلى الإذن، وإيذانًا بأنَّ ما فات بها ليس ممَّا لا يمكن تلافيه تهوينًا للخَطب"[6].

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (قلب).
(2) الرّاغب، المفردات: (قلب).
(3) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 16/65.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/72.
(5) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/161.
(6) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/72.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دَلالةُ اللَّام في قولِه: ﴿لَقَدِ﴾:

قد يُستغنى بجواب القَسَم عنِ القَسَم، فيكونُ الجوابُ دليلًا على القَسَم المحذوفِ، وتدلُّ عليه اللَّامُ الواقعةُ في جواب القَسَم المصدَّرِ بفعل ماضٍ غير جامد، فيكون الجواب باللَّام مع (قد) مُفيدًا توكيدَ التَّقرير والإثبات، وتحقيق معنى الجملة، وإزالة الشَّكِّ؛ والموطن هنا فيه ردٌّ وإنكارٌ على طلبهم الشَّديد لإشاعة الفِتْنة بين المسلمين.

التَّوطِئةُ للقسَم والتَّأكيدِ، تجليةٌ لبيانِ الآيةِ الكريمةِ

سِرُّ الافتتاحِ بحرف التّحقيقِ (قد):

لا ينفكُّ التّحقيقُ عن (قد)، إذا دخلتْ على الفعل الماضي، ومعنى التَّحقيق ههنا: أنَّ ابتغاءَهم الفِتْنةَ واقعٌ، وثابتٌ، ومتيقَّنٌ، ومتحقَّقٌ لا محالةَ، ذلك أنَّهم مارسوه فعلًا من قبلُ، ورسخ فيهم صنيعًا.

طلبُهم الفِتْنةَ واقعٌ متحقَّقٌ، رسخَ في عقيدتِهم وأفعالِهم

سِرُّ إيثارِ ﴿ٱبۡتَغَوۡاْ﴾ دونَ غيرِه:

الابتغاءُ: طلبُ تجاوزِ الاقتصاد فيما يُتحرَّى، يُقال: بغَيْتُ الشَّيءَ؛ إذا طلبتُ أكثرَ ما يجبُ، والابتغاءُ مذمومٌ إذا تجاوز الحقَّ إلى الباطل؛ كما في طلب المنافقين الشَّديدِ للفتنة، والسَّعْيِ الحثيثِ إليها، والإصرار القويِّ عليها.

تجاوزُهم في فتنتِهمُ الحدَّ، طيشٌ وجهلٌ بالعواقبِ

نُكتة عودِ الضَّمير في ﴿ٱبۡتَغَوۡاْ﴾، وأثرُه في المعنى:

الضَّميرُ يعود إلى الَّذين استأذنوا من النَّبيِّ ﷺ، وثبَّطوا المؤمنين، وهم المنافقون[1]، والتَّعبيرُ عنهم بالإضمار بدلَ التَّصريح تقليلٌ لشأنهم، وحطٌّ من قدْرِهم.

التَّكنيةُ عنهم حطٌّ لقدْرِهم، وازدراءٌ لحالهم التّعيسِ

نُكتةُ استعمالِ ﴿يَبۡغُونَكُمُ﴾ و﴿ٱبۡتَغَوۡاْ﴾:

قال قبل هذه الآية: ﴿يَبۡغُونَكُمُ ٱلۡفِتۡنَةَ﴾، وقال هنا: ﴿لَقَدِ ٱبۡتَغَوۡاْ ٱلۡفِتۡنَةَ﴾، فعبَّر أوَّلًا بالأصلِ، وهنا بالمطاوع، والسِّرُّ في ذلك أنَّ

البيانُ بعد الإجمالِ، توخٍّ للمشابهةِ، وإبرازٌ للدَّلالةِ

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 6/3323.

(ابتغى) أخصُّ من (بغى)؛ فعبَّر بالإبغاء في الأولى، وبالأخصِّ في الثَّاني ليكون بيانًا عَقِيبَ إجمالٍ[1].

دَلالةُ لفظ ﴿ٱلۡفِتۡنَةَ﴾:

فتنتُهم تخذيلٌ وصَدٌّ، وردٌّ إلى الكُفرِ والنُّكرانِ

ذهبَ القونويُّ إلى أنَّ المرادَ بالفِتْنة في هذه الآية دون ما ذُكرَ فيما سبق، موضِّحًا تفسيرَ البيضاويِّ للفتنة بـ(تشتيت أمرك، وتفريق أصحابك)، أي: طلبوا صدَّ أصحابِك عن الدِّين وردِّهم إلى الكفر، وتخذيل النَّاس عنك قبل هذا اليوم[2].

وَجهُ إفرادِ ﴿ٱلۡفِتۡنَةَ﴾ وجمعِ ﴿ٱلۡأُمُورَ﴾:

أسبابُ الفِتْنةِ عند المنافقين متعدِّدةٌ، تتجدّدُ بتجدُّدِ مآربِهم الخَسيسةِ

الأصلُ إفرادُ الأمور وجمعُ الفِتْنة؛ لأنَّ الفِتْنَةَ مصدرٌ محدودٌ بالتَّاء الدّالّة على الواحدة، والأمرُ جنس فيه، ويدلُّ على القليل والكثير، لكنَّه عكس؛ لأنَّ الأمرَ أسبابٌ للفتنة، والفِتْنة غَيْرٌ عنها[3]. واختلاق الأسباب متعدِّدٌ لديهم، متنوِّعةٌ وجوهُه.

بَلاغةُ الإيجازِ:

تأريخُ المنافقين مُخزٍ شنيعٌ، منذُ انبثاقِ الدَّعوةِ النَّبويّةِ، في المدينةِ المرضيّةِ

المرادُ بقوله: ﴿مِن قَبۡلُ﴾، أي: من قبْلِ غزوةِ تبوكَ الّتي كانت آخرَ غزوة غزاها رسول الله ﷺ، أي: إنَّ ما صدر عن هؤلاء المنافقين من مسالكَ خبيثةٍ خلال هذه الغزوة ليس هو الأوَّل من نوعه؛ إذ لهم في هذا المضمار تاريخٌ مُظلم مُخزٍ، بدأ منذ أوائل عهدِ الدَّعوة الإسلاميَّة بالمدينة المنوَّرة[4].

دَلالةُ الواو العاطفةِ، في: ﴿وَقَلَّبُواْ﴾:

العطفُ على ما قبلَها، لتأكيدِ إصرارِهم على الفِتْنةِ، وتشبُّثِهم بها

الواو لمُطلَق الجمعِ، وتقتضي ههنا تحقيقَ فعل ابتغاءِ الفِتْنة المتقدِّم، وتأكيدَ إصرارِهم على إيقاعها بين المسلمين، وفيه مزيدُ التَّقرير لسوء صنيعِهم.

---

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/312.

(2) البيضاويّ، أنوار التّنزيل وأسرار التّأويل: 3/83، والقونويّ وابن التّمجيد، حاشيتان على البيضاويّ: 9/244.

(3) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/312.

(4) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 6/311.

تَوجيهُ التَّشديدِ في لفظة ﴿وَقَلَّبُواْ﴾:

تفنُّنهم في إبداء وُجوهِ الأذى، دليلٌ على كُفرهم وسَفهِهم

وقولُه تعالى: ﴿وَقَلَّبُواْ﴾ بتشديد اللَّام، مضاعفُ (قلب) المخفَّفِ، والمضاعفةُ للدَّلالة على قوَّة الفعل، وإصرارهم عليه، ومبالغتهم فيه وتمعُّنهم في القيام به[1]. وتقليبُ الأمر: تصريفُه، وترديدُه، وإجالةُ الرَّأي فيه، والنَّظرُ إليه من كلِّ نواحيه: لمعرفة أيِّ ناحيةٍ منه توصلُ إلى الهدف المنشود، ليكون فعلُهم بيانًا لتفنُّنهم في وجوه الأذى للنَّبيِّ[2] ﷺ. ومُمالأة الكافرين، ومعاونتهم على مبتغاهم.

دلالة وجه المبالغةِ:

الدِّلالةُ على مبالغتِهم في تقليب الأمورِ، كمًّا أو شكلًا

يجوز في ﴿وَقَلَّبُواْ﴾ أنْ يكونَ حقيقةً من قلَّبَ الشَّيء؛ إذا تأمَّل باطنَهُ وظاهرَه ليطَّلِع على دقائق صفاتِه، فتكونُ المبالغةُ راجعةً إلى الكمِّ، أي: كثرة التَّقليب، أي: تردَّدوا آراءهم، وأعْمَلوا المكائد والحيل للإضرار بالنَّبيِّ ﷺ والمسلمين، ويجوز أن يكونَ ﴿وَقَلَّبُواْ﴾ مبالغةً في قلب الأمر؛ إذا أخفى ما كان ظاهرًا منه، وأبدى ما كان خفيًّا، كقولهم: قلبَ له ظهرَ المِجَنِّ[3].

بَلاغةُ الاستعارة أوِ المجاز:

التَّفتيشُ يُشابِهُ التَّقليبَ، في الإحاطةِ والتَّنقيبِ

ويجوزُ أن يكون ﴿وَقَلَّبُواْ﴾ من (قلَّبَ) بمعنى: فتَّش وبحث، استُعيرَ التَّقليبُ للبحث والتَّفتيش؛ لمشابهة التَّفتيش للتَّقليب في الإحاطة بحال الشَّيء، كقوله تعالى: ﴿فَأَصۡبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيۡهِ﴾ [الكهف: 42]، فيكون المعنى: أنهم بحثوا وتجسَّسوا للاطِّلاع على شأن المسلمين وإخبار العدوِّ به[4]، ويحتمل قوله: ﴿وَقَلَّبُواْ لَكَ ٱلۡأُمُورَ﴾، أي: المكايد، وتقليبها مجازٌ عن تدبيرها، أو الآراء وهو مجازٌ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/219.
(2) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 6/311.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/219.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/219.

عن تفتيشها، وإجالتها، أي: دبَّروا لك المكايدَ والحيل، أو دوَّروا الآراء في إبطال أمرك[1].

تَوجيهُ قراءةِ ﴿وَقَلَّبُواْ﴾ بتخفيف اللَّام:

الدّلالةُ على واقع المنافقين من تغييرِ الحقائقِ قولًا وفِعْلًا

قرأَ مَسْلمةُ بن مُحارب ﴿وَقَلَّبُواْ﴾ بتخفيف اللَّام[2]، أي: أداروا الأمور؛ ليصيرَ ظاهرُها باطنًا، وباطنُها ظاهرًا.والتَّعبيرُ بصيغة (فعَل) في هذه القراءة يشير إلى مآل تدبيرِهم ومكرهم وما تآمروا عليه، فكم من مرَّةٍ تسبَّبوا في إيذاء الرَّسول ﷺ والمسلمين، قولًا وفعلًا! كخذلانهم يوم الأحزاب، وتآمرهم مع اليهود ضدَّهم.

فكأنَّ القراءةَ المتواترة تقصُّ حالَ المنافقين، حين تآمرهم وكيدهم ومكرهم، وسعيهم ضدَّ المسلمين، والقراءة الأخرى تشير إلى ما انتهى إليه تآمرُهم من نكثِ العهد معهم، وخذلانهم.

دَلالةُ اللَّامِ في: ﴿لَكَ﴾:

التَّعليلُ لبيان تعمُّدِهم الإضرارَ بالنَّبيِّ ﷺ والمؤمنين

اللَّام في قوله: ﴿لَكَ﴾ على وجهَي الحقيقَةِ، في قلَّبوا، والاستعارة والمجاز لام العلَّة، أي: لأجلك، وهو مجملٌ يبيِّنُه قوله: ﴿لَقَدِ ٱبۡتَغَوُاْ ٱلۡفِتۡنَةَ مِن قَبۡلُ﴾، فالمعنى: اتَّبعوا فتنةً تظهر منك، أي: في أحوالك، وفي أحوال المسلمين[3].

دَلالةُ التّعريفِ:

الجمعُ والعمومُ تلميحٌ بالذَّمِّ، وكشفٌ لما يَنفثونَه من سُمٍّ

﴿ٱلۡأُمُورَ﴾ جمع أمْرٍ، وهو اسمٌ مُبْهَمٌ مثلُ (شيء)، والألف واللام فيه للجنس، أي: أمورًا تعرفون بعضَها، ولا تعرفون بعضَها الآخر[4]. والجمع تلميحٌ بالذَّمِّ؛ بما يُشير إليه من تكرار المحاولات، وكثرة اختلاقِ المكايد، والدَّسائس، والحِيَل.

---

(1) الشّهاب، عناية القاضي: 4/331، والآلوسيّ، روح المعاني: 5/304، والقاسميّ، محاسن التّأويل: 5/430.

(2) هي قراءة شاذّة، ينظر: ابن خالويه، المختصر، ص: 53، والزّمخشريّ، الكشّاف: 2/42، وأبو حيّان، البحر المحيط: 5/50.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/219.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/220.

وَجْهُ التَّعبيرِ بـ﴿حَتَّىٰ﴾ دونَ (إلى):

الدَّلالةُ على اعتيادِهم الفِتْنةَ وتقليبَ الأمورِ، وتمادِيهم في ذلك المِضمارِ

وجاءت ﴿حَتَّىٰ﴾ هُنا على قَاعِدتها في كَوْن ما بعْدَها وقَع عليه الحُكمُ الّذي وقَع على ما قبلَها، وفي كَون ما بعْدَها آخرًا لما قبلها، وأقلَّ منه في الكمِّيَّة[1]، معنى ﴿حَتَّىٰ﴾ هنا أنَّ تقليبهم الأمور وتآمرهم ومكرهم لم ينتهِ برغبتهم، لولا مجيءُ الحقِّ وظهورُ أمر اللّٰه؛ لاستمرُّوا في ذلك؛ لأنَّ مخزون الغلِّ والحقد في قلوبهم جدُّ كبير.

ولم تكن (إلى)؛ لأنَّها لانتهاء الغاية، إشارةً إلى تعوُّد ذواتهم على ذلك عند ظهوره، وأنَّهم لم يرتدعوا حتى ظهرَ أمرُ اللّٰه[2]، وفي هذا ترسيخٌ للذَّمِّ، والتَّحقير البادي من سوء صنيعهم.

وتحتمل (حتى) أن تكونَ حرفَ ابتداءٍ، تُستأنف بعده الجملة كما في هذه الآية[3].

عِلَّةُ التَّعبيرِ عن مجيءِ الحقِّ، وظهورِ أمرِ الله بـ﴿جَآءَ﴾:

مجيءُ الحقِّ، وظهورُ أمرِ الله، واقعٌ لا محالةَ

يدلُّ التَّعبيرُ بالماضي على وقوع الفعل، وحتميَّةِ تحقُّقه، فدلَّ مجيءُ الحقِّ وظهورُ أمر اللّٰه تعالى على حصولهما واستقرارهما، وناسب التَّلميحَ بزوال ضعف المسلمين وانكشاف أمر المنافقين[4].

نُكتةُ التَّعبيرِ بفعل المجيء ﴿جَآءَ﴾، دون (أتى):

يُعبَّرُ بالمجيء اعتبارًا بالحُصولِ، وقد تحقَّقَ مجيءُ الحقّ بالظّهورِ والانتصارِ

ذكر أبو حيَّانَ أنَّ لفظة ﴿جَآءَ﴾ مشعِرةٌ بأنَّ الأمرَ كان قد ذهب[5]، وذلك يوحي بشدَّةِ سعيهم إلى معاداة دين اللّٰه، وقوَّةِ محاولاتهم إفشالَ الرِّسالة - خابوا وخسئوا - ولذلك عبَّرَ بفعل المجيء ماضيًا؛ لكونهِ أعمَّ من الإتيان، فهو قد يُقال باعتبار القصدِ، وإن لم يكن منه

(1) ابن فرحون، العُدّة: 2/459.
(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/312.
(3) صافي، الجدول في إعراب القرآن: 10/354.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/220.
(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/52.

الحصولُ، والمجيءُ يُقال اعتبارًا بالحصول[1]، وهو ما ترسَّخَ بصيغة الماضي الدَّالِّ على تحقُّق مجيئه، ووقوعه.

إيثارُ لفظِ ﴿وَظَهَرَ﴾:

ووُصِفَ أمرُ الله بالظُّهور؛ لأنَّه كان كالمستور، أي: غلب وعلا دينُ الله[2]، ويُستعملُ لفظ الظُّهور في كلِّ بارزٍ مُبْصَرٍ بالبَصَرِ والبصيرة، وعلى كل كثيرٍ شائعٍ غالب[3]. وذلك حقيقٌ بوصف دين الله تعالى تجليًّا، وانكشافًا، وشيوعًا، وعلوًّا، وتمكُّنًا في الأرض.

دينُ اللهِ غالبٌ على الدِّين كلِّه، وعنايةُ الله تَقيه منَ الاضْمِحلالِ

سِرُّ تعريفِ الأمرِ بالإضافة إلى اسمِ الجلالة:

المرادُ بظهور أمرِ الله نصرُ المسلمين، وغلبتُهم بفتح مكَّةَ ودخولِ النَّاس في الدِّين أفواجًا، وذلك يكرهُه المنافقون[4]. وإضافتُه إلى اسم الله الأعظم تشريفٌ لهذا الدِّين، وإعلاءٌ لشأنه، وإيذانٌ بانتشاره، وظهوره على الدِّين كلِّهِ، ولو كره المشركون، ودبَّروا الحيلَ والمكائد.

دينُ الله عالٍ شأنُه، بسببِ نِسبتِه إلى جنابِ المولَى العليِّ

دَلالةُ (الواو) على الحال:

قوله: ﴿وَهُمْ كَٰرِهُونَ﴾، (الواو) حاليَّةٌ، وهي تدلُّ على الاجتماع؛ إذ كان حُكمُ الحال أنْ تكون مصاحبةً لذي الحال، فهي مجتلبةٌ لضمِّ جملةٍ إلى جملةٍ، وتفيد أنَّ اتِّصاف الحالِ بالموصوف أمرٌ ثابتٌ؛ فالكُرهُ للحقِّ ولأمرِ الله، حالتُهم المستقرَّة قبلًا، وأنَّ تلكَ الحال المستمرَّة الدَّائمة من الكُرْه هي سببُ سعيهم إلى الإرجاف، والنِّفاق، والفِتْنة، فضْلًا عن دلالة جملة الفاصلة الاسميَّة على مجيء الحقِّ، وأمر اللهِ، وهم في حالٍ كارهون فيها هذا الأمرَ.

كُرْهُ المنافقين للحقِّ ولِدينِ الله، هو حالُهمُ الثّابتُ، ودَيْدنُهم الرّاسخُ

(1) الرّاغب، المفردات: (جاء).
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/52.
(3) الرّاغب، المفردات: (ظهر).
(4) ابن عاشور، التّحرير والتنّوير: 10/220.

سِرُّ صَوْغِ جملةِ الفاصلةِ اسميَّةً لا فعليّةً:

قولُه تعالى: ﴿وَهُمْ كَٰرِهُونَ﴾ جملةٌ اسميَّةٌ دالَّةٌ على الثُّبوت؛ والتَّعبيرُ عنها بصيغة الجملةِ الاسميَّةِ للدَّلالة على تمكُّن كرههم، أي: كرهًا لا محبَّةً بعده؛ ذلك أنَّهم لمّا تكرَّر منهم الكُرهُ بما أظهروهُ من تجدُّد فتنتِهم؛ صارَ كالوصف الثَّابت فيهم، وجعل كالحال المستمرَّة الملازمة لهم؛ فهم قومٌ عادتهم الكرهُ، وديدنهم البغضُ.

تمكُّنهم في الكُره، حتّى وصلوا مبلغًا لا يعرفون الحُبَّ من بعدِهِ

والمراد بيانُ كمال وصفهم بالكُره لِمَا أنزل اللّه تعالى، وسعيهم إلى خلق الفِتْنة بين المسلمين.

نُكتةُ التَّعبيرِ عن كُرْهِهم، بصيغة اسمِ الفاعلِ:

رسَّخ وصفُ ﴿كَٰرِهُونَ﴾ المُصاغ باسم الفاعل ديمومةَ صفةِ الكراهية وثباتِها فيهم، وأنَّ أمرَ الكُره بمنزلة الحاصلِ الثابتِ المستقرِّ، وأنَّ حالَ هؤلاء النَّاس حالُ إعراضٍ دائمٍ عن الحقِّ، فليس كرهُهُم لمجيء الحقِّ، وظهور دين اللّه أمرًا عارضًا لحالٍ وقتيَّة اقتضته، بل الكُرهُ صفةٌ مستمرَّةٌ لهم لا تنفصلُ دائمًا عن تفكيرهم.

مآلُ الإعراضِ الدَّائمِ عنِ الحقِّ، التّلبُّسُ بالكُرهِ له، والأيلولةِ إلى الهلاك

بَلاغةُ حذْفِ متعلَّقِ الكُرهِ:

يحتمل الاستغناءُ بالمذكور، وحذْفُ ما يكرهونه فضلًا عن المذكور من ظهور الحقِّ وأمر اللّه؛ إعمامَ كرههم ليتعدَّاهما إلى بغضِهم كلَّ شأنٍ يخصُّ المسلمين.

عمومُ كُرْهِهم كلَّ شأنٍ للمسلمين، دليلٌ على مرضِ قلوبِهم

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الابتغاءُ والطّلبُ:

"الطَّلَبُ: مُحاولةُ وجدانِ الشَّيء، والطِّلبة: ما كان لك عندَ آخَر من حقٍّ تُطالِبهُ بهِ"[1]. فالطَّلب ابتغاءٌ مجرَّدٌ للحاجة دون قيد

اجتهادُهم في طلب الفِتْنةِ، تصويرٌ لسوءِ طباعِهم، وشنيعِ أفعالِهم

(1) الخليل، العين: (طلب).

الاجتهاد، ومنه قوله تعالى: ﴿أَوۡ يُصۡبِحَ مَآؤُهَا غَوۡرٗا فَلَن تَسۡتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبٗا ٤١﴾ [الكهف: 41].

أمَّا الابتغاءُ؛ فقد خُصَّ بالاجتهاد في الطَّلب، فيما كان خيرًا أو شرًّا، وقد تقدَّم أنَّه طلبُ تجاوزِ الاقتصاد فيما يُتحرَّى، تجاوزَه أم لم يتجاوزْهُ[1].

ومن خلال بيانِ الفروق يتبيَّن دقَّةُ اختيار لفظ الابتغاء؛ لكونه يتضمَّنُ الاجتهادَ في طلب الفِتْنة، ليناسبَ قديمَ فعلهم، وإصرارَهم بتقليب الأمور، وكرههم لمجيء الحقِّ، وظهور أمر اللّه تعالى.

الظُّهورُ، والبروزُ، والتَّجلِّي، الجهرُ:

الظُّهور: أصلٌ صحيحٌ واحدٌ يدلُّ على انكشافٍ بقوّةٍ وبروزٍ[2]، ويُلمَح في الظُّهور صفاتُ التِّبيان، والغلبة، والعلوِّ، والشِّدَّة، والقوَّة، والقهر[3]، وقد يكون بِقصدٍ وَبغير قصد، تَقول: استتر فلَانٌ ثمَّ ظهر، وَيدلُّ هَذَا على قصد للظُّهور، وَيُقَال: ظهرَ أَمرُ فلَانٍ، إن لم يقْصد لذَلِك، وقد يدلُّ على الحدوث، كقَوْله تَعَالَى: ﴿ظَهَرَ ٱلۡفَسَادُ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ﴾، وَكَذَلِكَ قَوْلك: ظَهرت فِي وجههِ حُمرَةٌ، أَي: حدثت، وَلم يعنِ أَنَّهَا كَانَت فِيهِ، فظهرت[4].

والبروزُ: الظُّهور بعد الخفاءِ، والخروجُ، والبُدوُّ[5]، وهو: خلوصُ الشَّيء أو ظهورهُ ظهورًا قويًّا، أي: نفاذه من بين ما يكتنفُهُ بجَهدٍ وقوَّة: كما يخلصُ الذَّهب ممَّا هو شديدُ الامتزاج به[6].

والجَهْر: عُمُوم الإِظْهَار وَالْمُبَالغَة فِيهِ، ألا ترى أَنَّك إِذا كشفتَ

دينُ اللهِ الإسلامُ بيِّنٌ عالٍ، وغالبٌ قويٌّ، جعله الله ظاهرًا على كلِّ الأديان

(1) الرّاغب، المفردات، والزّبيديّ، تاج العروس: (بغي).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ظهر).
(3) الجوهريّ، الصّحاح، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (ظهر).
(4) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 287.
(5) الخليل، العين، والجوهريّ، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (برز).
(6) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (برز).

الْأَمر للرَّجل وَالرَّجلَيْن قلتَ: أظهرْتَه لَهما، وَلَا تَقول: جهرْتُ بِهِ، إِلَّا إِذا أظهرتَهُ للْجَمَاعَة الْكَثِيرَة، فيزول الشَّكُّ، وَلِهَذَا قَالُوا: ﴿أَرِنَا ٱللَّهَ جَهۡرَةً﴾، أَي: عيَانًا لَا شكَّ مَعَه، وَأَصله: رفْعُ الصَّوْت، يُقَال: جهر بِالْقِرَاءَةِ؛ إِذا رفع صَوته بهَا، ولذلك كان نقيضًا للهمس.

والبُدُوُّ: مَا يكون بِغَيْر قصد، تَقول: بدا الصُّبْح، وبدتِ الشَّمْس، وبدا لي فِي الشَّيء؛ لِأَنَّك لم تقصد للبدوِّ[1].

وعمومُ دلالة الظُّهور، واجتماعُ دلالات: التِّبيان، والغلبة، والعلوِّ، والشِّدَّةِ، والقوَّةِ، والقهر فيه فضلًا عن الحدوث يجعله أنسبَ لاصطفائه في مقام الحديث عن ظهور دين الله المتَّصف بتلكم الصِّفات.

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 286.

﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّيٓۚ أَلَا فِي ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُواْۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةُۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٩﴾﴾ [التوبة: 49]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

العلاقةُ بين ابتغاء المنافقين الفتنةَ، والاستئذانِ للتخلّفِ بدعوى الفتنةِ بالخروج

أصَّلتِ السُّورةُ الكريمةُ حديثَها عن هؤلاء المنافقين، فحكت جانبًا من أعذارِهم الكاذبة، ومن أقوالِهم الخبيثة[1]، ذلك أنَّهم لما أجْمَلُوا في هذا الحكم، وكان قد أشير إلى أنَّ منهم مَنْ كان قد استأذن في الخروج توطئةً للاعتذار عنه، شرعَ بتفصيلهم، وبدأ بمَنْ صرَّح بالاستئذان[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿سَقَطُواْۗ﴾: "السِّين والقاف والطَّاء أصلٌ واحدٌ يدلُّ على الوقوع، وهو مطَّرد"[3]. وهو طرحٌ للشَّيء من مكان عالٍ إلى مكان منخفضٍ كسقوط الإنسان من السَّطح[4]، ومعنى اللَّفظة: وقعوا في الفِتْنة بنفاقهم، وأُلقوا في الهلاك[5].

المَعْنى الإجْماليُّ:

التّعلّلُ بالاحتْرازِ مِنَ الوقوعِ في الفِتْنةِ، وهُم واقعون فيها، بتخلُّفِهم عن أمرِ الله

المعنى: ومن هؤلاءِ المنافقين الَّذين لم ينتهِ الحديثُ عنهم بعد ﴿مَّن يَقُولُ﴾ لك: يا محمَّد ﴿ٱئْذَن لِّي﴾ في القعود بالمدينة، ﴿وَلَا تَفْتِنِّيٓۚ﴾، أي: ولا تُوقعْني في المعصيةِ والإثم بسببِ خُروجي معك إلى تبوكَ، ومُشاهدتي لنساء بني الأصفر، نزلت في الجدِّ بن قيسٍ المنافقِ، قال رسولُ الله ﷺ: "هل لك في جهادِ بني الأصفر؟ يعني: الرُّومَ، تتَّخذ منهم سراريَ ووُصفاءَ.

(1) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 6/312.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/494.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سقط).
(4) الرّاغب، المفردات: (سقط).
(5) الواحديّ، التّفسير الوسيط: 2/502، والرّازيّ، مفاتيح الغيب: 16/65.

فقال: ائذن لي في القعود عنك، ولا تَفْتِنِّي بذكر النِّساء؛ فقد علمَ قومي أنِّي مغرمٌ بهنَّ، وأنِّي أخشى ألَّا أصبرَ عنهنَّ[1].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بَلاغةُ الوصل:

قولهُ تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ﴾، عُطِفَ على قوله: ﴿لَقَدِ ٱبْتَغَوُاْ﴾، شروعًا في تفصيل ما أُجمِل الحديثُ عنه من ابتغاء الفِتْنة، وتقليب الأمر، وبدأ المفصلين بمن صرَّح بالاستئذان في القعود[2]، ويصحُّ أن تكون الواوُ للاستئناف، والجملةُ مستأنفةً.

تفصيلُ ما أُجمِلَ الحديثُ عنه، في مذرجِ السّياق السّابقِ

سِرُّ التَّعبير بقولِهِ: ﴿وَمِنْهُم﴾:

(من) هاهنا تبعيضيَّةٌ، وفيها إشارةٌ إلى أنَّ مَنْ طلبَ الإذنَ عددٌ منهم، وليس كلَّهم، وهذا إنصافٌ منَ القرآن لهؤلاء المنافقين؛ فمهما يكنْ من خلافٍ بينَهم وبين المسلمين؛ فإنَّ سيِّئاتِ بعضِهم لا تعمُّهم، وهو ما يرجِّحُ روايةَ سبب النُّزول بأنَّ الطَّالبَ الإذنَ هو الجدُّ بنُ قيس الأنصاري، وضمير الجمع المجرور عائدٌ إلى ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾ [التوبة: 45].

إنصافُ القرآنِ في الأحكامِ، وبيانُ أصنافِ المنافقين الشّانِئين

نُكتةُ التَّعْبيرِ عن فعلِ القولِ بصيغة المضارع:

قولهُ تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ﴾، أي: "في جبلَّتِه تجديدُ هذا القول من غير احتشام"[3]، فهو مستمرٌّ على تَكرارِهِ فعلًا وقولًا، مصرٌّ على ذلك مواربةً منْ غيرِ حياءٍ، أو تأدُّبٍ في الخطاب.

تجدُّدُ القولِ والفعلِ، دليلُ قُبْحِ خصالِهم، وسَيِّءِ طباعِهم

وقد عَبَّر عن قولهِ بالفعل المضارع لاستحضار تلك الحالِ لغرابتها، فإنَّ مثلَهُ في نفاقهِ وفجوره لا يخشى على نفسِهِ إثمَ الافتتان بالنِّساء؛ إذ لا يجد من دينه مانعًا من غشيان الشَّهوات

(1) الواحديّ، التّفسير الوسيط: 2/502.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/494.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/494.

الحرام بالتَّمتُّع بهنَّ، وهو يحبُّهنَّ، بل شأن ذلك أنْ يكون مُرغِّبًا له في هذه الغزوة[1].

دَلالةُ الطَّلبِ في فعلِ الأمر ﴿ٱئۡذَن لِّي﴾، والنَّهي ﴿وَلَا تَفۡتِنِّيٓ﴾:

الطَّلبان: ﴿ٱئۡذَن لِّي وَلَا تَفۡتِنِّيٓ﴾ ظاهرهُما أنَّهما أمرٌ، ولكنَّهما هنا ليسا أمرًا؛ لأنَّ الأمرَ إذا جاء من الأدنى إلى الأعلى؛ فلا يُقال: إنَّه أمرٌ، بل هو دعاء أو رجاء، وإنْ جاء من المُساوي يُقال: (مُساوٍ له)، أمَّا إنْ جاء من الأعلى إلى الأدنى؛ فهو الأمرُ، وكلُّها طلبٌ للفعل[2].

تخريجُ الأمرِ على الدُّعاءِ أوِ الرَّجاءِ، للتّعبيرِ عنِ المرادِ منَ السّياقِ

بَلاغةُ المجاز العقليّ:

في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَفۡتِنِّيٓ﴾، إسنادُ الفِتْنة إلَى النَّبيِّ ﷺ مجازٌ عقليٌّ من قبيل الإسناد إلَى السَّبب؛ أي: لا تكُنْ سببًا لوقوعي في الفِتْنة، أي: العصيان؛ بألَّا تأذن لي[3]، وذلك سوءُ أدبٍ في خطاب النَّبيِّ ﷺ.

من سوءِ الأدبِ، إسنادُ الفِتْنةِ إلى السَّبب

فائِدةُ التَّصدير بـ (ألا):

أفاد تصديرُ جملة ﴿أَلَا فِي ٱلۡفِتۡنَةِ سَقَطُواْۗ﴾ بأداة التَّنبيه تحقيقَ سقوطهم في الفِتْنة؛ ذلك أنَّها تدلُّ على تحقُّق مضمون ما بعدها إنْ كان خبرًا لتوجيه السَّمع والقلب له[4]، وفي الإتيان بأداة الاستفتاح أيضًا تنبيهٌ على أنَّ ما بعدها من عجيب حالهم الدَّاعي إلى التَّأمُّل؛ إذ عاملهم الله بنقيض مقصودِهم، فهم احترزوا عن فتنة، فوقعوا في الفِتْنة[5].

حقَّقت (ألا) سقوطَهم، ونبَّهت على عجيبِ حالِهم الدَّاعي إلى التَّأمُّلِ

دَلالةُ (في) على الظَّرفيَّةِ المكانيَّةِ:

أفادت (في) في قوله تعالى: ﴿فِي ٱلۡفِتۡنَةِ سَقَطُواْۗ﴾ الظَّرفيَّةَ

انغماسُهم في الفِتْنةِ، وكأنَّها وعاءٌ لهم ومُستقَرٌّ

(1) رضا، تفسير المنار: 10/412.
(2) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 9/5169.
(3) القونويّ وابن التّمجيد، حاشيتان على البيضاويّ: 9/246.
(4) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 7/264، ورضا، تفسير المنار: 10/412.
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/221.

المكانيَّةَ؛ فصارت ظرفًا لهم، فوضعوا أنفسَهم بذلك في جهنَّمَ[1]، فكأنَّها صارت محلًّا لهم، ووعاءً يضمُّهم، وسقوطهم واقعٌ فيه مكانًا، ومستقرًّا.

سِرُّ تقديمِ الجارِّ والمجرور على الفعل:

الدَّلالةُ على حصْرِ سقوطِهم في الفتنة، وصيرورةِ المنجَى مَهلَكًا

وتقديمُ الجارِّ والمجرور ﴿فِي ٱلْفِتْنَةِ﴾ على عامله ﴿سَقَطُوا۟﴾ إيذانٌ بأنَّهم وقعوا فيها، وهم يحسبون أنَّها منجى من الفِتْنة، وللدَّلالة على الحصر، والتَّخصيص، أي: فيها لا في غيرها قد سقطوا، وأنَّ عملهم مقصورٌ على الفِتْنة، ولا يكون غيرها؛ لأنَّ عذرهم كاذبٌ ساقطٌ في ذات نفسه، وبهذا القول هوَوا إلى قاع سحيق[2]، وتردَّوا في هاوية الفِتْنة بأوسع معناها، لا في شيء آخر من شبهاتها أو مشابهاتها، من حيث يزعمون اتِّقاء التعرُّض لشبهةِ نوعٍ من أنواعِها، وهو الإثمُ بالنَّظرِ إلى جمال نساء الرُّوم، واشتغال القلب بجمالهنَّ، فتردَّوا في شرٍّ ممَّا اعتذروا به[3].

إيثارُ التَّعبيرِ بلفظِ (الفِتْنة):

ورودُ البيانِ بالمشاكلةِ لعُذْرِهم، والفضْحِ لكَذِبِهم

يُشير الطِّيبيّ إلى أنَّ " أصلَ الفَتْنِ: إدخالُ الذَّهبِ النَّارَ لتظهر جودتُه من رداءته، واستُعمل في إدخالِ النَّاسِ النَّارَ، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ ﴿١٣﴾﴾ [الذاريات: 13]، وسُمِّي ما يحصل عنه العذاب فتنةً، قال تعالى: ﴿أَلَا فِي ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟﴾ [التوبة: 49]، ويُستعملُ في الاختبار، قال تعالى: ﴿وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا﴾ [طه: 40]، وجُعِلت الفِتْنةُ كالبلاء في أنَّهما يُستعملان فيما يُدفع إليه الإنسان من شدَّةٍ ورخاء، وهما في الشدَّةِ أكبرُ معنًى وأكثر استعمالًا، وقد قال تعالى فيهما: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: 35]، وقال في الشَّرِّ: ﴿عَلَىٰ خَوْفٍ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/494.

(2) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 7/264، والقاسميّ، محاسن التّأويل: 5/431، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 6/3325.

(3) رضا، تفسير المنار: 10/412.

مِّن فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِمۡ أَن يَفۡتِنَهُمۡۚ﴾، أي: يبتليهم، ويعذِّبهم"[1]. ويبيِّن هذا التفصيلُ علَّةَ إيثار لفظ الفِتْنة في موطنِ الشِّدَّة الّذي أوقعوا أنفسَهم فيه؛ تخلُّفًا، وظهورًا لكفرهم، ونفاقهم.

دَلالةُ تعريفِ لفظِ ﴿ٱلۡفِتۡنَةِ﴾:

الإرشادُ إلى عِظَمِ الفتنةِ، وخطَرِ فُشوِّها في الصّفوفِ

التَّعريفُ في الفِتْنة ليس تعريفَ العهد؛ إذ لا معهود هنا، ولكنَّه تعريفُ الجنس المُؤْذِن بكمال المعرَّف في جنسه، أي: في الفِتْنة العظيمة سقطوا، فأيُّ وجهٍ رشحَ في المراد من الفِتْنة حين قال قائلهم: ﴿وَلَا تَفۡتِنِّيٓۚ﴾ كان ما وقع فيه أشدَّ ممَّا تفصَّى منه وأعظم، فإنْ أراد فتنةَ الدِّين؛ فقد وقع في فتنة الشِّرك والنِّفاق، وإنْ أرادَ فتنة سوء السُّمعة بالتخلُّف؛ فقد وقع في أعظم منه بافتضاح أمر نفاقِهم، وإنْ أراد فتنةَ النَّكد بفراق الأهلِ والمال؛ فقد وقعَ في أعظم نكدٍ بكونه ملعونًا مبغوضًا للنَّاس[2].

إيثارُ التَّعبيرِ بلفظِ ﴿سَقَطُواْۗ﴾:

لفظُ السُّقوطِ دلالةُ تَردِّيهم، وانحطاطِ منزلتِهم بلُزومِ الفِتْنةِ

يُنبئُ التَّعبيرُ عنِ افتتانهم بالسُّقوط تمكُّنَ وقوعِهم في الفِتْنة، والمبالغةِ في ذلك[3]؛ إذ يدلُّ اللَّفظُ على لزومهم الفِتْنة، وانتشابهم في أشراكها انتشابًا سريعًا قويًّا؛ وصار يَعْسُر خلاصهم معه[4].

وفي التَّعبيرِ عن (الافتتان) بالسُّقوط في الفِتْنة، تَنَزُّلٌ لها منزلةَ المهواة المُهلكة، المفصحةِ عن تردِّيهم في درجات الرَّدى أسفل سافلين[5]؛ لما في اللَّفظة من احتمال دلالة الانحطاط والتَّردِّي وعدم الفائدة، ومنه قولهم: "سَقَط المتَاع"، أي: رَدِيئُه وحَقِيرُه[6].

(1) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 7/547.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/221.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/432، ورضا، تفسير المنار: 10/412.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/494.
(5) القاسميّ، ومحاسن التّأويل: 5/431.
(6) ابن الأثير، النّهاية: (سقط).

بلاغةُ الاستعارةِ التّبعيّة:

قوله: ﴿سَقَطُواْ﴾، السُّقوط مُستعمَلٌ مجازًا في الكَوْنِ فجأةً على وجه الاستعارةِ التَّبعيَّةِ؛ شُبِّهَ ذلك الكونُ بالسُّقوط في عدم التَّهيُّؤ له، وفي المفاجأة باعتبار أنَّهم حصلوا في الفِتْنة في حال أمنِهم من الوقوع فيها، فهم كالسّاقط في هوَّةٍ على حين ظنَّ أنَّه ماشٍ في طريق سهل[1].

السّقوطُ في الفتنة، هو الهُوِيُّ من غير تحسُّبٍ لذلك أو تهيُّؤٍ

بَلاغةُ المجازِ:

في قوله تعالى: ﴿أَلَا فِي ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُواْ﴾ مجازٌ مرسلٌ علاقتهُ الحاليَّةُ، أي: في جهنَّمَ، فأُطلق الحال وأُريد المحلُّ؛ لأنَّ الفِتْنةَ لا يسقط فيها الإنسان؛ إذ هي معنى من المعاني، وإنَّما يحلُّ في مكانها، فاستعمال الفِتْنة في مكانها مجازٌ أُطلق فيه الحال، وأُريد المحلُّ[2].

أُطلِقَ لفظُ الفِتْنةِ، وأُريدَ جهنَّمُ

دَلالةُ استعمالِ الدّليلِ المستدلِّ به للنّقض، من باب قلْبِ النُّكتةِ:

يذهبُ ابن عرفةَ إلى أنَّ قوله تعالى: ﴿أَلَا فِي ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُواْ﴾ "من باب قلب النُّكتةِ، وهو أن يستدلَّ الخصمُ بدليل، فيأخذَ خصمَهُ بذلك الدَّليل، ويستدلَّ على نقض مُدَّعاه، كقوله تعالى: ﴿لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّۚ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾"[3]. إذ نُقِضَ ادِّعاؤهم بما استدلُّوا به ليتخلَّفوا، فوقعوا فيما هو أشدُّ منه.

نقْضُ ادِّعائِهم بما استدلُّوا به، من بلاغةِ السّياقِ

نُكتةُ لفظ ﴿لَمُحِيطَةٌۢ﴾، بين المجازِ والحقيقةِ:

إحاطةُ جهنَّمَ بهم إمَّا يومَ القيامة، وإمَّا في الدُّنيا على سبيل المجاز؛ لأنَّ أسبابَ الإحاطة معهم، فكأنَّهم في وسطها، أو لأنَّ مصيرهم إليها[4]. ووجهُ إحاطة أسبابِها بهم في الدُّنيا النَّعيُ عليهم بالنِّفاق وإفشاء الأسرار وهتك الأستار وتحقير المقدار، وأمَّا

إحاطةُ جهنَّمَ بهم حقيقيَّةٌ في الآخرة، أو مجازٌ في الدُّنيا

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/221.
(2) صافي، الجدول في إعراب القرآن: 10/356.
(3) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/312.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/432.

في الآخرة فلمآلِ حالهم إلى الدَّرك الأسفل من النَّار[1]. أو تكون (محيطة) مَجَازًا، من حيثُ استعمالها في الاسْتقْبَال؛ إذ إنَّ اسمَ الفَاعل حَقيقَةٌ في الحال؛ فيكون مَجَازًا لغويًّا في جهنَّم، ذكر المسبَّب، وأُريد السَّببُ، ولا يبعد أن يكون مَجَازًا في الحذف[2]، ويصحُّ حملُها على الحقيقةِ؛ لأنَّ جهنَّم محيطةٌ بالكافرين على الحقيقةِ.

بَلاغةُ الكنايةِ في لفظِ ﴿لَمُحِيطَةٌۢ﴾:

وإحاطةُ جهنَّم مرادٌ منها عدمُ إفلاتِهم منها، فالإحاطةُ كنايةٌ عن عدم الإفلات[3]، فهي مُحدِقةٌ بهم من جوانبها كلِّها، فلا قدرةَ على التَّفلُّت منها، أو الهروب، أو المحيص.

وجْـهُ الإحـاطـةِ عـدمُ الإفـلات، واسـتـحـالـةُ الـتّـدارُكِ بـعْـدَ الفواتِ

بَلاغةُ الاستعارةِ التّمثيليَّةِ المحتملة:

ويذهب القونويّ إلى أنَّ الأظهرَ في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ كونُه اسْتعَارَةً تمثيليَّةً شبَّهَ جمعَ النَّار إيَّاهم بحَيْثُ لا يُرجى خلاصُهم بجمع المحيطِ المُحاطَ بحَيْثُ لا يقدِّر الخلاص، فاستعمل اللَّفْظ المركَّب الموضوع للمشبَّه به في المشبه، ووجه الشَّبه عدم التمكُّن من النَّجاة والسَّلامة[4]؛ إذ لا يكون لهم منها مهربٌ أو مفرٌّ.

شبَّهَ جمعَ النَّار إياهم بحَيْثُ لا يُرجَى خلاصُهم

وقد يُشبَّه حالُهم في إحاطة الأسباب بحالهم عند إحاطةِ النَّار، وكون الأعمال التي هم فيها هي النَّار بعينها، لكنَّها ظهرت بصورة الأعمال في هذه النَّشأة، وتظهر بالصورة النَّارية في النشأة الأخرى، كما قيل نظيره في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلۡيَتَٰمَىٰ ظُلۡمًا إِنَّمَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ نَارٗاۖ﴾[5][النّساء: 10].

(1) النّيسابوريّ، غرائب القرآن: 3/480.
(2) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 9/247.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/221.
(4) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 9/247.
(5) صافي، الجدول في إعراب القرآن: 10/356.

سِرُّ العُدولِ عنِ الضّمير إلى الاسمِ الظَّاهرِ:

بيانُ سببِ عذابِ الكافرين، للتَّنبيهِ على شَناعةِ الكُفرِ المهينِ

في قوله تعالى: ﴿لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلۡكَٰفِرِينَ﴾؛ العُدولِ عنِ الإتيانِ بالضّمير المعبِّرِ عنهم، إلى الإتيان بالاسم الظَّاهر: ﴿بِٱلۡكَٰفِرِينَ﴾؛ لبيان أنَّ سببَ هذا العذاب الأليم هو الكفر[1]، وإثبات إحاطة جهنَّم بهم بطريق شبيه بالاستدلال؛ لأنَّ شمولَ الاسم الكليِّ لبعض جزئيَّاته أشهرُ أنواع الاستدلال[2]. فهو تعميمٌ وتنبيهٌ على الوصف الذَّميم الَّذي حملهم على ذلك[3]، ووعيد لهم على الفِتْنة الَّتي تردَّوا فيها، وَضَعَ فيه المُظهَر موضعَ ضميرهم، للنصِّ على أنَّ عقابهم بإحاطة جهنَّم بهم عقاب على الكفر الَّذي حملهم على ذلك الاعتذار، الَّذي هو ذنبٌ في نفسهِ كان أقصى عقابِهِ مسَّ النار دون إحاطتها، لو لم يكن سببُهُ الكفرَ بتكذيب الرسول ﷺ فيما جاء به من حكم الجهاد وثوابه والعقاب على تركه، أو الشَّكِّ[4].

دَلالةُ ورودِ لفظِ (الكافرين)، بصيغة الجمعِ:

بيانُ إحاطةِ جهنَّمَ، ودفعُ التّوهُّمِ أنَّ إحاطتَها بالقليلِ لا بالكثيرِ

جاء بلفظ (الكافرين) على طريق جمع السَّلامة؛ لأنَّ المرادَ بهم جميعُ الكافرين؛ ولدفع توهُّم أنَّ الإحاطةَ تكون بالقليل لا بالكثير، ويندرجُ في ضمنهم المتحدَّث عنهم لثبوت كفرهم بقوله: ﴿إِنَّمَا يَسۡتَـٔۡذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾ [التّوبة: 45][5].

نُكتةُ التَّعبيرِ عنِ الكافرين باسْمِ الفاعلِ:

الدّلالةُ على سببِ عذابِهم، وسوءِ مَصيرِهم في جهنّمَ

في قولِه تعالى: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ أُوثرَ التَّعبيرُ بصيغة اسمِ الفاعل في (الكافرين)؛ ليكونَ دالًّا على سبب استحْقاقِهم العذابَ، وملازمتِهم الكفرَ حياتَهم كلَّها ومفارقةِ الدُّنيا وهم كافرون، فلم يتوبوا، ولم يرجعوا.

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 6/3325.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/221.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/495.
(4) رضا، تفسير المنار: 10/412.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/221.

وفي ذلك إشارةٌ إلى عدلِ اللّه تعالى، ﴿مَن كَفَرَ فَعَلَيۡهِ كُفۡرُهُۥۖ وَمَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا فَلِأَنفُسِهِمۡ يَمۡهَدُونَ ٤٤ لِيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن فَضۡلِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٤٥﴾ [الرُّوم: 44- 45].

دَلالةُ صيغةِ اسمِ الفاعلِ:

تأكُّدُ دخولِهم النَّارَ، حتَّى كأنَّه واقعٌ مُشاهَدٌ، لا مناصَ عنه ولا فرارَ منه

وعبَّر عن إحاطة جهنَّم بهم وجمعِها لهم يومَ القيامة بصيغة اسم الفاعل الدّالِّ على الحال ﴿لَمُحِيطَةٌۢ﴾؛ لإفادة تحقُّقِ ذلك حتَّى كأنَّه واقعٌ مُشاهَد[1]، أي: إنَّهم مؤكَّدون داخلون فيها، وستحيط بهم يوم القيامة، وذكرت الآن لتأكُّد وقوعها، كقولِه تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ﴾ [النَّحل: 1]، فهو تأكيدٌ لما سيقع بتصويره كأنَّه واقعٌ وقوعًا مؤكَّدًا[2].

تَوجيهُ إعرابِ جملةِ الفاصلةِ:

مصيرُ الكافرين النَّارُ، وبئسَ القرارُ

وجملةُ ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ معترضةٌ، والواو اعتراضيّةٌ، أي: وقعوا في الفِتْنة المُفضيةِ إلى الكفر، والكفرُ يستحقُّ جهنَّم[3].

بَراعةُ التَّعبيرِ عنِ الوقوعِ في جهنَّمَ، بحشْدِ المؤكِّداتِ:

حشدُ المؤكِّدات، تحقيقٌ راسخٌ لمصيرِهم في الآخرةِ

وقد أكَّد ﷺ الوقوعَ في جهنَّم يومَ القيامة بحشْدٍ من المؤكِّدات: "أوّلها: الجملةُ الاسميَّة، ثانيها: (إنَّ) الدَّالَّة على توكيد الخبر، وثالثها: بيان أنَّها محيطةٌ بهم إحاطة الدَّائرة بقُطْرها لَا يخرجون عمَّا تحيط به، ورابعها: باللَّام المؤكَّدة في قوله تعالى: ﴿لَمُحِيطَةٌۢ﴾"[4].

(1) رضا، تفسير المنار: 10/413.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 6/3325.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/221.
(4) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 6/3325.

﴿إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُواْ قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّواْ وَّهُمْ فَرِحُونَ ۝٥٠﴾ [التّوبة: 50]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الرّبْطُ بين تفاصيلِ عداوةِ المنافقين، وإظهارِهم الفرحَ لما يسوءُ الرّسولَ والمؤمنين

هذا نوعٌ آخر من كيْدِ المنافقين ومن خُبْثِ بواطنهم[1]، فبعد أنْ بيَّن الحقُّ ﷻ كيف حاول المنافقون الهروبَ من الحرب مختلقين أعذارًا متعدِّدة، أراد ﷻ أن يزيد الصُّورة توضيحًا في إظهار الكراهية الَّتي تُخفيها قلوب المنافقين بالنِّسبة للمؤمنين[2]، فبيَّن تعالى عدواتَهم، زيادةً في تشهير مساوئهم[3]. فالجملةُ بمنزلة البيان لجملة ﴿إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ﴾ [التوبة: 45]، وما بين الجملتين استدلالٌ على كذبهم في ما اعتذروا به، وأظهروا الاستئذانَ لأجلِه، وبيَّن هنا أنَّ تردُّدَهم؛ لكونهِم يخشون ظهورَ أمر المسلمين، فلذلك لا يصارحونهم بالإعراض، ويتمنَّونَ خيبةَ المؤمنين، فلذلك يكرهون الخروج معهم[4].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تَسُؤْهُمْ﴾: ساءه يسوؤُهُ سوءًا: شانَه، وأحزنَه، وفَعَل به ما يكرهُ، وهو نقيضُ سَرَّهُ[5]. فالسُّوءُ: كلُّ ما يغمُّ الإنسان من الأمور الدُّنيويَّة، والأخرويَّة، ومن الأحوال النَّفسيَّة، والبدنيَّة، والخارجة، من فوات مال، وجاهٍ، وفقْدِ حميم[6]. ومعناه في الآية: (تحزنهم، وتغمُّهم)، قبالةَ فرحهم؛ إذا ما سمعوا بمصاب المسلمين.

(1) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 16/66.
(2) الشّعراويّ، تفسير الشّعراوي: 9/5171.
(3) القاسميّ، محاسن التّأويل: 5/431.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/222.
(5) الجوهريّ، الصّحاح، وابن سيده، المحكم، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (سوأ).
(6) الرّاغب، المفردات: (سوأ).

2) ﴿أَخَذْنَآ أَمْرَنَا﴾: هذا الاستعمالُ فريدٌ في القرآن؛ فلم يرد أَخْذُ الأَمْر بمعنى الاستعداد والتَّلاقي إلَّا في هذا الموضع، وقريبٌ منه أَخْذُ الحِذْر[1]، وأصل (الأَخْذ): حَوْزُ الشَّيْءِ وَجَبْيُهُ وَجَمْعُهُ، تَقُولُ: أَخَذْتُ الشَّيْءَ آخُذُهُ أَخْذًا، قَالَ الْخَلِيلُ: هُوَ خِلَافُ العَطَاءِ، وَهُوَ التَّنَاوُلُ[2]، وَالأَمْرُ: الحَالُ المُهِمُّ صَاحِبَهُ، أَيْ: قَدِ اسْتَعَدَدْنَا لِمَا يُهِمُّنَا، فَلَمْ نَقَعْ فِي المُصِيبَةِ، وذكر الفيروزآبادي أوجهَ الأَخْذِ المذكورة في القرآن[3]، وكلُّ ذلك وغيرُه يرجع إلى أصل الأَخْذِ، وهو حوْزُ الشَّيء وتناولُه حقيقةً أو مجازًا، كما سنبيِّنه بعدُ إن شاء الله.

❁ المَعْنى الإِجْماليُّ:

الكلامُ موجَّهٌ لرسول الله ﷺ: إنْ يُصِبْكَ في بعض غزواتك ظفَرٌ وغنيمةٌ؛ تَسُؤْهُمْ لفرط حسدهم، وَإِنْ يُصِبْكَ في بعضها كسرٌ أو شدَّةٌ، كما أُصيبَ يوم أُحُد تبجَّحوا بانصرافهم، واستحمدوا رأيهم في التَّخلُّف، وَيَتَوَلَّوْا وَهُمْ مسرورون[4]، فلا انتماء للإسلام، ولا مبالاةَ بشأنه، ولا اهتمام بأمره، ولا بادرة للإيمان به ونُصْرته، فحالهُم نفاقٌ وإرجاف.

لا يَحزنُ لما يَسُرُّ، ويَفرحُ بما يُسيءُ، المؤمنينَ البررةَ، إلّا المنافقون الفَجرةُ

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

سِرُّ التَّعبيرِ بـ(إنْ) دون (إذا):

لا تُستعمَلُ (إنْ) الشَّرطيَّةُ إلّا مع المشكوك فيه، وغيرِ المتيقَّن

التّأثّرُ بما ليس متحقّقَ الوقوعِ، أملٌ في سرابٍ لا يُلحقُ

(1) وقد ورد الأمر بأخْذ الحِذْر في قوله تعالى: ﴿خُذُواْ حِذْرَكُمْ فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعًا ﴿٧١﴾﴾ [النساء: 71]، وقوله: ﴿وَخُذُواْ حِذْرَكُمْۗ إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٠٢﴾﴾ [النساء: 102].

(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (أخذ).

(3) الفيروزابادي، بصائر ذوي التَّمييز: 2/104، وخلاصته: أنَّ الأَخْذَ قد ورد في القُرْآنِ على خَمْسَةِ أَوْجُهٍ: الأَوّل بمعنَى القَبُول، كقوله: ﴿وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِيۖ﴾، والثَّاني، بِمَعْنى الحَبْس، كقوله: ﴿فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓۖ﴾، والثَّالِث بِمَعْنى العَذابِ والعُقُوبة، كقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾﴾ [هود: 102]، والرَّابِع بِمَعْنى القَتْل، كقوله: ﴿وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍۭ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُۖ﴾ [غافر: 5]، والْخَامِس بِمَعْنى الأَسْرِ، كقوله: ﴿فَٱقْتُلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ﴾ [التوبة: 5].

(4) البيضاويّ، أنوار التّنزيل وأسرار التّأويل: 3/84.

حصولُهُ. وأُوثرَ استعمالُها هنا دون (إذا)، إشارةً إلى تأثُّرهم، ولو بما لا يتحقَّقون من وقوعه[1].

إيثارُ التَّعبيرِ بلفظِ (الإصابة) دونَ (المسِّ):

الإصابةُ أعمُّ منَ (المسِّ)؛ لاستعمالها في الحسِّيِّ، وفي المعنويِّ، و(المسُّ) خاصٌّ بالمحسوسات[2]، فالمسُّ اتِّصالُ أحدِ شيئين بآخرَ على وجه الإحساس، فهو أقلُّ تمكُّنًا من الإصابة بوصفه أقلَّ درجاتها. وأصلُ الإصابة من إصابة السَّهم، ثم اختصَّت بالنائبة، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ﴾ [الشُّورى: 30]، وتُستعمل الإصابةُ في الخير والشَّرِّ كالآية هنا؛ فالإصابةُ في الخير اعتبارًا بالصَّواب، أي: المطر، وفي الشَّرِّ اعتبارًا بإصابةِ السَّهم، ومنه يُعلم أنَّ الإصابةَ أبلغُ من المسِّ؛ لأنَّه وإن اعتُبِرَ فيه التَّأثيرُ، لكنَّ تأثيرَ هذا لمَّا كان كالمطر أو السَّهم؛ كان أقوى وأشدَّ[3]، والحديثُ في الآية الكريمة عن تحقُّق النَّصر، والتَّعرُّض للانكسار، أي: الخير والشَّرُّ، وهو ما يناسبهُ لفظ الإصابة، فضلًا عن أنَّ حزنهم، وفرحهم مرتبطٌ بتحقُّق الأمرَيْن فعلًا موجبًا للتَّأثير.

الحديثُ عنِ الخير والشَّرِّ، يناسبُ لفظَ الإصابةِ

وَجْهُ التَّعبيرِ بلفظَيِ (الحسنة) و(المصيبة) وتنكيرِهما:

الحسنةُ هي الحادثةُ الَّتي تحسنُ لمن حلَّت به واعترتْه، والمرادُ بها في الآية النَّصرُ، والغلبةُ، والغنيمة، والمرادُ بالمصيبة الغلبةُ، والهزيمةُ وخُصَّتْ في اللّغة بالحادثة الَّتي تعتري الإنسانَ فتغمُّه، والنَّازلة الَّتي تسوؤه، والشِّدَّة الَّتي تُحزنه، ولذلك عبَّر عنها بالسَّيِّئة في قوله تعالى: ﴿وَإِن تُصِبۡكُمۡ سَيِّئَةٞ يَفۡرَحُواْ بِهَاۖ﴾ [آل عمران: 120]. وأصلها من (أصاب)، ولكنَّها بالتَّاء غلبت في الشَّدائد، والكوارث،

الدَّلالةُ على تأثُّرِهم، بأدنى وُجوهِ نصرِ المؤمنين وغلَبِهم

(1) البسيليّ، التّقييد الكبير، ص: 564، وابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/313.
(2) البسيليّ، التّقييد الكبير، ص: 564.
(3) الشّهاب، عنايه القاضي: 2/190، والسّيوطيّ، نواهد الأبكار: 3/53.

والنّكبات[1]. ونكَّر الحسنة والمصيبة تقليلًا، مشيرًا إلى تأثُّرهم لأدنى شيء من وجوههما[2].

نُكتةُ تقديمِ (الحسنةِ)، على (المصيبة):

رفْعُ المؤلِمِ، آكدُ من جلْبِ المُلائِم

وقدَّم الحسنةَ؛ لأنَّ تأثُّرَ العدو بالحسنة الّتي تحصلُ لعدوِّه أشدُّ من فرحته لمصيبةٍ نزلت به؛ لأنَّ رفْعَ المؤلِمِ آكدُ من جلب المُلائم[3].

تَوجيهُ المقابلةِ بين جُملتَي الشَّرْطِ:

بيانُ فرطِ تَشفِّيهم بالمؤمنين، وما تُخفيهِ صدورُهم منَ الحسدِ الدّفينِ

جعلَ الحسنةَ موجِبةً لوصْفٍ واحدٍ ﴿تَسُؤۡهُمۡ﴾، وجعل المصيبةَ موجِبةً لوصفَيْن (القول، والتَّولِّي فرحين)؛ لأنَّ الإنسان إذا علِمَ بحسنةٍ نالت عدوَّهُ؛ فإنَّه يغتمُّ لذلك، ويتألَّم، ويُخفيه، ولا يتحدَّث به حسدًا له، وإذا علم بمصيبةٍ نالت عدوَّهُ؛ فإنَّه يفرح لذلك، ويُظهره للنَّاس قولًا وفعلًا تشفِّيًا فيه[4].

فضلًا عمَّا يحتملُه الموقف من المبالغة في فرط سرورهم مع الإيذانِ بأنَّهم في معزل عن إدراك سوء صنيعِهم لاقتضاء المقام ذلك، أو إنَّ إسنادَ المساءة إلى الحسنة والمسرَّة إلى أنفسهم؛ للإيذان باختلاف حالهم حالتي عروضِ المساءة والمسرَّة بأنَّهم في الأولى مُضطرُّون، وفي الثَّانية مُختارون[5].

بيانُ المتشابِهِ اللَّفظيِّ:

لا تزيدُ الشِّدَّةُ رسولَ اللهِ إلَّا ثباتًا وثوابًا

في قوله تعالى: ﴿إِن تُصِبۡكَ حَسَنَةٞ تَسُؤۡهُمۡ وَإِن تُصِبۡكَ مُصِيبَةٞ يَقُولُواْ قَدۡ أَخَذۡنَآ أَمۡرَنَا مِن قَبۡلُ وَيَتَوَلَّواْ وَّهُمۡ فَرِحُونَ﴾ قُوبلتِ الحسنةُ بالمصيبة، ولم تُقابل في قوله سبحانه في سورة [آل عمران: 120]: ﴿وَإِن تُصِبۡكُمۡ سَيِّئَةٞ يَفۡرَحُواْ بِهَا﴾؛ " لأنَّ الخطابَ هنا للنَّبيِّ ﷺ وهو

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/222، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 6/3326.
(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/313.
(3) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/313، و(الملائم): اسم فاعل من لاءم، والمُلائِم: هو ما يلائم الإنسانَ من الأعمال الصالحة وتحصيل الخير، وهو دينيٌّ أو دنيويٌّ.
(4) البسيليّ، التّقييد الكبير، ص: 564، وابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/313.
(5) الآلوسيّ، روح المعاني: 5/305.

هناك للمؤمنين، وفرَّق بين المخاطَبَين، فإنَّ الشِّدَّةَ لا تزيده ﷺ إلَّا ثوابًا، فإنَّه المعصومُ في جميع أحوالهِ ﷺ، وتقييد الإصابة في بعض الغزوات لدلالة السِّياق عليه، وليس المراد به بعضًا معيَّنًا هو هذه الغزوة الّتي استأذنوا في التَّخلُّف عنها"[1]. ممَّا يعني أنَّ المصيبةَ أشدُّ وقعًا، وأقوى تأثيرًا من السَّيئة.

بَلاغةُ الاستعارةِ:

الأخْذُ في قولهم: ﴿قَدۡ أَخَذۡنَآ أَمۡرَنَا مِن قَبۡلُ﴾ حقيقتُه التَّناوُلُ، وهو هنا مستعارٌ للاستعداد والتّلاقي، والابتهاجِ بموافقة أعمالهم ما فيه سلامتُهم، فيزعمون أنَّ يقظتَهم وحزمَهم قد طابقا المِحَزَّ؛ إذِ احتاطوا له قبلَ الوقوع في الضُّرِّ[2].

بيانُ الاغترارِ بتمكُّنِ المنافقين منَ الاحتياط من قبلُ، بالتّخاذُلِ والتّخلُّفِ

نُكتةُ إيثارِ لفظِ ﴿وَيَتَوَلَّواْ﴾:

يصحُّ أن يكونَ ﴿وَيَتَوَلَّواْ﴾ بمعنى: يُعرضوا عن الرَّسول ﷺ، غيرَ مُقبلين عليه مُظهرين خبيئةَ نفوسِهم، وفي هذا ما يفيد أنَّهم جرؤوا عليه، وحسبوا أنَّ الغدَ لهم، وما هي إلَّا جولةٌ، حتّى يكون الغَلَبُ لهم[3].

بيانُ شدَّةِ الإعراضِ والجُرأةِ في غيرِ الحقِّ، الّتي اتّسَمَ بها المنافقون

بَلاغةُ الاستعارة التّمثيليَّةِ:

التَّولّي حقيقتهُ الرَّجوعُ، وهو هنا تمثيلٌ لحالهم في تخلُّصِهم منَ المصيبة الَّتي قد كانت تحلُّ بهم لو خرجوا مع المسلمين، بحال مَنْ أشرفوا على خطر، ثم سَلِمُوا منه، ورجعوا فَرِحين مسرورين بسلامتهم وبإصابة أعدائهم[4].

بيانُ شِدَّةِ فرحِهم بسلامتِهم، ظنًّا أنّهم نجَوا بصورةٍ دائمةٍ

وَجْهُ عطْفِ جملةِ التّولّي، على جملة القولِ:

قوله تعالى: ﴿وَيَتَوَلَّواْ﴾، معطوفٌ على ﴿يَقُولُواْ﴾، أي: وينصرفون

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 5/305.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/222.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 6/3327.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/222.

كشْفُ بواطنِهم، بالصَّوت قولًا، وبالصُّورة إعراضًا وفعْلًا

إلى أهليهم وأصحابهم يتحدَّثون في أمر هذه النَّكبةِ، وهم في فرحٍ بها؛ لأنَّها أصابت هوًى في نفوسِهم، فلم يكتفوا بالقول حسبُ، أو التَّولي من غير كلام، وإنَّما جمعوا بين الإعراضِ والقول، وفي ذلك إصرارٌ على الغيِّ، وإظهارٌ للعيِّ بعدم الاهتداء لوجه المراد، ولذا قال تعالى: ﴿وَّهُمْ فَرِحُونَ﴾، أي: والحال أنَّهم فرحون فرحًا غمرهم[1].

سِرُّ تقديمِ فعلِ القولِ على فعلِ التَّولّي:

القولُ السَّيِّئُ أبينُ من تولّي المنافقين، وأعظمُ أثرًا في نفوس المُصابين

قدَّمَ فعلَ قولِهم على فعل تَولّيهم؛ لبيان شدَّة فرحهم، وعِظَم سرورِهم حتَّى سبقَ إلى أفواههم القولُ الَّذي هو أيسرُ إجراءً، وأقوى بدارًا، وأظهرُ بيانًا من الفعل، والقولُ أيضًا أدلُّ على خبايا السَّرائر، وما تُخفيه الأنفسُ، وبه تتَّضح، وتُستبانُ. وقولُ المنافقين هنا ذو أثرٍ بالغٍ في نفوس المؤمنين المصابين؛ إذ إنَّه جمعَ بين الخُذلان والشَّماتةِ، في الوقت الّذي ينتظرُ فيه المصابُ التَّعزيةَ والتَّسريةَ، فكان تقديمُ القول على فعل التّولّي تسليةً للنَّبيِّ ﷺ ومَنْ معه من المؤمنين، وإخبارًا بأنَّ اللّه مطَّلعٌ على أخباركم، وسيجزي هؤلاءِ وهؤلاء عمَّا قريبٍ.

دَلالةُ (الواو) على الحالِ في جملةِ الفاصلةِ:

دَيْدنُ المنافقين الفرحُ بمُصابِ المسلمين، والتّنصّلُ منهم عند الأزماتِ

قوله: ﴿وَّهُمْ فَرِحُونَ﴾، (الواو) حاليَّةٌ، وهي تدلُّ على الاجتماع، وتفيدُ هنا أنَّ اتِّصاف الحال بالموصوف؛ ففَرَحُ المنافقين بما يسوء النَّبيَّ ﷺ والمسلمين من الأذى والهزيمة؛ حالهُم وديدنهم المتكرِّر المُلازِم لضُرِّهم وأذاهم وغَلَبَتهم، وأنَّ حال تولِّيهم المصحوب بقولهم، والمقترن بحديثهم، كان حال فرحٍ وسعادة وحبور، قال الآلوسيُّ: "والجملةُ في موضع الحال من الضَّمير في ﴿يَقُولُواْ﴾، و﴿وَيَتَوَلَّواْ﴾؛ فإنَّ الفرحَ مقارنٌ للأمرين معًا"[2].

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 6/3327.

(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 5/305.

تَوجيهُ اسميَّةِ جملةِ الفاصلة، وأثرُها في المعنى:

جاءت جملةُ الفاصلة ﴿وَهُمْ فَرِحُونَ﴾ اسميَّةً دلالةً على الثُّبوت؛ لإظهار تمكُّنِ فرحِهم، والدّلالةِ على كمال وصْفِهم بالفرح؛ فهم قومٌ عادتُهم الفرحُ بأذى المسلمين.

دأبُ المنافقِ الشَّماتةُ في المؤمنين، والتَّشفّي بما يقع لهم، بين الحينِ والحينِ

نكتة التَّعبيرِ عن الفرحِ بصيغة (فَعِل):

يُلجَأ إلى التَّعبير بصيغة (فَعِل) في المعاني العارضةِ لِلَّذات غيرِ الرّاسخِ أو المستقرِّ فيها، فهو عارضٌ، ثمَّ يذهب، أي: يحصلُ، ويسرع زواله، ويلمح فيه الاتِّسام بظاهرة الهَيَج، والخفَّة[1]. وهو اختيارٌ بليغٌ مقصودٌ في هذا الموضع بقوله: ﴿فَرِحُونَ﴾؛ إذ يُلمح فيه خفَّةُ عقولهم، واضطراب مشاعرهم، وسوء سرائرهم ونيَّاتِهم، و"هكذا صفةُ الحسود، يتصاعد أنينُ قلبهِ عند شهود الحسنى، ولا يسرُّ قلبَهُ غيرُ حلول البلوى، ولا دواء، لجروح الحسود، فإنَّه لا يرضى بغير زوال النِّعمة،... وإنَّ اللّٰه تعالى عجَّل عقوبةَ الحاسد، بحزن قلبهِ بسلامة محسوده"[2]، وكذلك هو حال غبطتِهم، وفرحُهم وإن كان عادةً لهم إلا أنَّه وقتيٌّ ملازمٌ لضرر المسلمين وأذاهم، وسرعان ما سيزول بنصرهم وتمكينهم وتوكُّلهم على اللّٰه، ومن هنا يُؤذنُ التَّعبير بأنَّهم سيعيشون هذا الأذى النَّفسيَّ، والحال الشَّقيَّة باستمرار؛ لأنَّ نصْرَ اللّٰه تعالى مُحقَّقٌ واقع؛ فلن يُخلف اللّٰه وعْدَه، وأنَّ المؤمنَ متوكِّلٌ على ربِّه موقنٌ أنَّ كلَّ أمرهِ له خيرٌ، فإذا علموا أنَّ النَّبيَّ ومَنْ معه من المؤمنين لن يحزنوا لما أصابهم - بحسب ما سيتبيَّن في الآية القادمة - زال فرحهم.

حالُ سرورِهم وقتيٌّ، مُلازمٌ لمصاب المسلمين

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الفرحُ، والسّرورُ، والسّعادةُ، والحُبورُ، والاستبشارُ:

الفرحُ: انشراحُ الصَّدر بلذَّةٍ عاجلة، وأكثرُ ما يكون ذلك في

فرحُ المنافقين زائلٌ ومُؤذٍ، ليس فيه نفعٌ ولا لذَّةٌ

(1) السّامرائيّ، معاني الأبنية في العربيّة: 81 - 82.
(2) القشيريّ، لطائف الإشارات: 2/33.

اللَّذات البدنيَّةِ الدُّنيويةِ[1]، فهو لازمٌ لذهاب الغلظ والثِّقل من النَّفس أو القلب، فينشرحُ الصَّدرُ، وقيل: إنَّه نقيض الحزن[2]. والصَّواب أنَّ الحزنَ نقيضٌ للسُّرور؛ لأنَّه يكون بالفوائد وما يجري مجراها من الملاذ.

أمَّا الفرحُ؛ فنقيضه الغمُّ؛ فقد يغتمُّ الإنسان بضررٍ يتوهَّمُه من غير أن يكون له حقيقةٌ.

فالسُّرُور: ما ينكتم من الفرح، وهو الأمرُ الخالي من الحزن[3]. ولا يكون إلَّا بما هو نفعٌ أو لذَّةٌ على الحقيقَةِ، وقد يكون الفرحُ بما ليس بنفع ولا لذَّة، كفرح الصَّبي بالرَّقص والعَدْوِ والسِّباحة وغير ذلك ممَّا يتعبُه، ويؤذيه[4].

أمَّا السَّعَادَةُ؛ فأصلها يدلُّ على خير وسرور، وهو خلافُ النَّحس[5]. وهي: معاونةُ الأمور الإلهيَّة للإنسان على نيل الخير، ويضادُّه الشَّقاوة، وهي في الأصل ضربان: سعادة أخرويَّة، وسعادة دنيويَّة، ثمَّ السَّعادة الدُّنيويَّة ثلاثة أضرب: سعادةٌ نفسيَّة وبدنيَّة وخارجيَّةٌ، وكذلك الشَّقاوةُ على هذه الأضرب[6].

والحبورُ: الأثر المُسْتحسَن، والنِّعْمَة الحسَنَة، وهو السُّرور من قَوْلك: حبَّرتُ الثَّوْبَ؛ إذا حسَّنْتَهُ، وقوله ﷻ: ﴿فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ۝١٥﴾ [الرُّوم: 15]، أي: يُنعَّمون، ويُكرَّمون، ويُسرُّون، ويفرحون حتى يظهر عليهم حَبارُ نعيمِهم[7].

والجذلُ: هُوَ السُّرُور الثَّابِت مَأْخُوذ من قَوْلك: جاذلٌ منتصبٌ ثَابت لَا يبرح مَكَانَهُ، وجذْلُ كلِّ شَيْءٍ أَصلُهُ[8].

والاستبشارُ: هُوَ السُّرُور بالبشارة وصيغة الاستفعال للطَّلب، والمستبشرُ بِمَنْزِلَة مَنْ طلب السُّرُور فِي البشَارَة فَوجدَه، وأصل البِشارَة من ذَلِك؛ لظُهُور السُّرُور فِي بَشَرَةِ الوَجْه[9].

---

(1) الرّاغب، المفردات: (سعد).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (سعد).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (سعد).
(4) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص 266.
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سعد).
(6) الرّاغب، المفردات: (سعد)، و(شقا).
(7) الجوهريّ، الصّحاح، والرّاغب، المفردات: (حبر)، والعسكري، والفروق اللّغويّة، ص: 266.
(8) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 266.
(9) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 265.

ولا يخفى انطباقُ دلالةِ الفرح على صفات المنافقين، وصنيعِهم مع المسلمين؛ إذا أصابتهم مصيبةٌ؛ بما تتضمَّنه اللفظة من معنى انشراح الصَّدرِ بلذَّة عاجلة بَدَنِيَّةٍ دنيويَّة تتعبُه، وتُؤذيه، ليس فيها نفعٌ.

﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوۡلَىٰنَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٥١﴾ [التّوبة: 51]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

بيانُ الجوابِ على قولِ المنافقين، بإعلان التّوكّلِ على الله الواقي من كلِّ أذًى

الآيةُ الكريمةُ تلقينُ جوابٍ لقولهم: ﴿قَدۡ أَخَذۡنَآ أَمۡرَنَا مِن قَبۡلُ﴾ المُنبِئِ عن فرحِهم بما ينال المسلمين من مصيبةٍ؛ بإثبات عدم اكتراث المسلمين بالمصيبة وانتفاء حزنِهم عليها؛ لأنَّهم يعلمون أنَّ ما أصابهم ما كان إلَّا بتقدير الله لمصلحة المسلمين في ذلك[1].

المَعْنى الإجْماليُّ:

تسليمُ الأمرِ لله، والتَّوكُّلُ عليه، حمايةٌ من كلِّ منافقٍ حاقدٍ

أرشدَ اللهُ تعالى رسولَه صلواتُ الله وسلامُه عليه إلى جواب هؤلاء المنافقين الذين تُفرحُهم مصيبتُه، وتسوؤهم نعمتُه وغنيمتُه، بالقول: لن يصيبنا إلَّا ما كتبه اللهُ لنا، وأوجبه علينا بوعده في كتابه، وتقديرهُ لنظام سننهِ في خلقه، من نصرٍ وغنيمة وتمحيص وشهادةٍ، وضمان لحسن العاقبة هو وحدَه مولانا يتولَّانا بالتَّوفيق والنَّصر، ونتولَّاه باللُّجوء إليه، والتَّوكُّل عليه، فلا نيأس عند شدَّةٍ، ولا نبطر عند نعمة[2].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

وَجْهُ الافتتاح بفعل الأمرِ ﴿قُل﴾:

تحقيقُ التَّوكُّلِ والتَّسليمِ، ودفعُ شُبهةِ بَشريَّةِ القول، عنِ الرّسولِ الكريمِ

شاءَ الله تعالى أن يبلِّغَ خطابَهُ سبحانه للخلق عن طريق رسوله الله ﷺ، وهو الأمينُ في البلاغ عن الله تعالى، لا يترك كلمةً واحدة من الوحي دون أن يبلِّغَها للبشر، وما دام الحقُّ ﷻ هو الَّذي أمره، فهو يبلِّغ ما أُمِرَ به، حتى لا تُحرَمَ آذانُ خلقِ الله تعالى من كلِّ لفظٍ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/223.
(2) رضا، تفسير المنار: 10/413.

صدرَ عن الله سبحانه[1]، والأمر هنا منه تعالى تحقيقٌ لحكم التَّوكُّل والتَّسليم، ودفعٌ لشبهة بشريَّةِ القول بوصفه تقريرًا لحكم غيبيٍّ، لا يعلم كُنْهه إلَّا الخالقُ جلَّ في علاه.

نُكتةُ النَّفْيِ بـ﴿لَّن﴾:

تأكيدُ التَّسليمِ والانقيادِ، إلى حقيقةِ وقوعِ ما كتبَ الله وقدّرَ

تدخلُ (لن) على الفعل المضارع، فتخلِّصُه للاستقبال، وتنْفيه نفيًا مؤكَّدًا مشدَّدًا، ونفيُ المستقبل بها قد يكون ممتدًّا متطاولًا كما في جملة: ﴿لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا﴾، فإيثارُ استعمالها هاهنا لتأكيد التَّسليم بأنَّ المكتوبَ مِنَ الله واقعٌ، مُحقَّقٌ، مُتمكِّنٌ منهم.

إيثارُ لفظِ الإصابةِ بقوله: ﴿لَّن يُصِيبَنَآ﴾:

توكُّلُ المؤمنين على الله مُطلقٌ، مهما يكنْ عِظَمُ المصيبةِ وهولُها

عبَّرَ بلفظ الإصابة؛ لكونها تُستَعملُ في الخير والشَّرِّ - كما مرَّ آنفًا؛ فالإصابةُ في الخير اعتدادٌ بالصَّواب، أي: المطر، وفي الشَّرِّ اعتبارٌ بإصابة السَّهم، وهي مظنَّةُ التَّأثيرِ القويِّ والشَّديدِ، ومن هنا كانت مناسبةً لاصطفائها في هذا المقام بوصف المكتوب متضمِّنًا للخير، ولما يُظنُّ أنَّه شرٌّ مع أنَّه للمسلم خير، فضلًا عمَّا يتضمَّنُه السِّياق، ومعنى لفظ الإصابة من الدَّلالة على مطلق التوكُّل، فهم متوكِّلون على الله رِبّهم مهما عظُمَ تأثيرُ المصيبة.

وَجْهُ التَّعبيرِ بصيغة المضارع:

زمنُ الإصابةِ ممتدٌّ، لِيشملَ الحالَ والاستقبالَ

في قوله: ﴿يُصِيبَنَآ﴾، التَّعبيرُ عنِ الفعل مضارعًا فيه دلالةٌ على امتداد زمن الإصابةِ منَ الحال، وخلوصِه إلى الاستقبال بأمارة (لن)، فأنَّى تكرَّرت مستقبلًا؛ فإنَّ التَّسليمَ واقعٌ، والتَّوكُّلَ حاضرٌ.

بَلاغةُ الإيجاز بالحذفِ:

تعدُّدُ دلالاتِ تقديرِ المكتوب، أمارةُ التَّسليمِ المطلَقِ

أوجزَ في التَّعبير مكتفيًا بالمذكور تاركًا تقديرَ المكتوب ممَّا يصيبُ محتملًا مختلفَ الدّلالات، أوجزها الرَّازيّ بثلاثة أقوال:

(1) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 10/5905.

أوَّلها: أنَّه لن يصيبنا خيرٌ ولا شرٌّ، ولا خوف ولا رجاء، ولا شدَّةٌ ولا رخاء، إلَّا وهو مقدَّرٌ علينا مكتوبٌ معلوم عند الله، مقضيٌّ به عنده. وثانيها: أنَّه لن يصيبنا في عاقبة أمرنا بعد الغمِّ والهمِّ إلَّا الظَّفرُ بالعدوِّ، والاستيلاءُ عليهم وحكمهم؛ فيكون ذلك اغتياظًا للمنافقين، وردًّا عليهم في ذلك الفرح. وثالثها: إذا صرنا مغلوبين؛ صرنا مستحقِّين للأجر العظيم، والثَّواب الكثير، وإن صرنا غالبين؛ صرنا مستحقِّين للثَّواب في الآخرة، وفُزنا بالغنائم والثَّناء الجميل في الدُّنيا، وعليه فإنَّ المصائب والمحزِنات كلَّها مُتحمَّلة في جنب هذا الفوز بهذه الدَّرجات العالية[1].

بَلاغةُ القصْرِ بالنَّفْيِ والاستثناء:

في الحصْرِ مبالغةٌ في التَّوكُّل، إذ لا مُتوكَّلَ عليه سِوى الله تعالى

أدَّتِ الجملةُ المتضمِّنةُ للنَّفي بـ(لن)، والاستثناءِ بـ(إلا) ههنا معنى قصْرِ الإصابة على ما كتبَ الله تعالى بما تدلُّ عليه بالوضع اللُّغويِّ، والغرض المبالغةُ في التَّوكُّل على الله تعالى، والتَّسليم له، والتَّعريض بالمنافقين من حيث حزنُهم؛ إذا أُنعِمَ على المسلمين، وفرحهم؛ إذا أصابهم سوءٌ، في حين أنَّ المسلم متوكِّلٌ على الله في رخائه وشدَّتِه، فهو في رضًا دائم.

عِلَّةُ التَّعبيرِ عنِ الكتابة بالفعل الماضي:

وقوعُ ما كتبَ اللهُ محقَّقٌ ثابتٌ، من كلِّ نازلٍ أو نابتٍ

اخْتُلِفَ في تأويل معنى الكتابة بالجعلِ والقضاء بين المثبَّت في اللَّوح المحفوظِ ممَّا هو كائنٌ، أو المذكور في القرآن الكريم[2]، والتَّعبيرُ عنه ههنا بصيغة الماضي يدلُّ على وقوع الكتابة، وصدق تحقُّق حدثها، ولزوم الإصابة بما دُوِّن منها بمشيئة الله تعالى، واختياره، وعلمه، وإرادته جلَّ في علاه.

(1) الرّازي، مفاتيح الغيب: 16/67.
(2) الرّازي، مفاتيح الغيب: 5/272.

سِرُّ التَّعبيرِ بقولِهِ: ﴿لَنَا﴾ ودَلالةُ اللَّام:

كلُّ ما يصيبُ المسلمَ نفعٌ محضٌ له، مهما آلمَهُ أو حرمَه

وذكر (لَنَا) في قوله: ﴿إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا﴾، ولم يقل: (علينا)؛ تنبيهًا على أَنَّ كلَّ ما يصيبُنا نعدُّه نعمةً لَنَا، ولا نعدُّه نقمةً علينا[1]. "فلم يكتب سبحانه الأمور علينا، بل لنا، و(لنا) تفيد الملكية؛ إمَّا: تأديبًا وإمَّا تكفيرًا عن ذنوب، وإمَّا اتِّجاهًا إلى الحقِّ بعد زيغ الباطل، وكلُّ ذلك لصالحنا"[2]. واللَّام مفيدةٌ معنى الاختصاص، كأنَّه قيل: لن يُصيبنا إلَّا ما اختصَّنا اللّه به بإثباته وإيجابه من النُّصرةِ عليكم أو الشَّهادة[3]. "فهو نفعٌ محضٌ كما تدلُّ عليه تعديةُ فعلِ (كَتَبَ) باللام المؤذنة بأنَّه كتبَ ذلك لنفعهم"[4].

بَلاغةُ الفصْلِ، في جملةِ: ﴿هُوَ مَوْلَىٰنَا﴾:

لن يكتبَ اللهُ للمسلمِ إلَّا ما فيه خيرُهُ ونفعُه، وصلاحُ أمرِه

قصرُ الولايةِ في قوله: ﴿هُوَ مَوْلَىٰنَا﴾ عليه ﷻ بتقديمِ الضَّمير (هو)، وهي جملةٌ في موضع الحال من اسم الجلالة، أو معترضةٌ، أو تعليليَّة، أي: لا يصيبنا إلَّا ما قدَّره اللّه لنا، ولنا الرَّجاء بأنَّه لا يكتب لنا إلَّا ما فيه خيرُنا العاجل أو الآجل؛ لأنَّ المولى لا يرضى لمولاه الخزي[5].

إيثارُ لفظِ ﴿مَوْلَىٰنَا﴾، في السّياق:

الإقرارُ بالولاية، أمارةُ التّسليمِ، لقدَرِ اللهِ الحكيمِ

أي: متولٍّ أمورَنا الدِّينيَّةَ والدّنيويّةَ، ومعتمَدُنا في جَلْب المصالحِ، ودَفْعِ المَضارِّ، وثقتنا في تحصيل المطلوب، ومَن حالُهُ كذلك لزامٌ عليه الرِّضا بأقداره، والتَّسليم لمشيئته، فليس في يديه منَ الأمر شيءٌ[6].

عِلَّةُ الإظهارِ، في مقام الإضمار:

إظهارُ اسمِهِ الأعظمِ جلَّ شأنُهُ، قرينُ مواضعِ القُدرة

أظهرَ الاسمَ الجليلَ في مقام الإضمارِ؛ لقصد التبرُّكِ به،

(1) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 9/5179.
(2) الفيروزابادي، بصائر ذوي التّمييز: 4/332.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/278.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/223.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/223، وصافي، الجدول في إعراب القرآن: 10/223.
(6) السّعدي، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 339 - 340.

والتَّلذُّذِ بذِكْره[1]، وفيه دلالةٌ على زيادة التَّفخيم؛ إذ من عادات القرآن قصْدُ إظهار اسمهِ الأعظم في مواطن القدرة، والإمكان، والجلال باستحضار عظمةِ اللّه تعالى بما يحويه اسمُ الجلالة من معاني الكمال، ولتكونَ الجملة مستقلَّةً بنفسها، فتكون جاريةً مجرى الأمثال والكلم الجوامع[2].

نُكتةُ التَّعبيرِ بالموصول (ما):

لا يَقدرُ على كتابة تفاصيلِ القدَرِ، إلّاخالقُ الوجودِ، وربُّ البشرِ

المكتوب عامٌّ غيرُ مخصَّصٍ بتفصيل، مجهولٌ غير معلومٍ عند البشر، ولذلك اختيرَ الموصولُ الَّذي يُناسبه، الدَّالُّ على الاستغراق، والعمومِ، وإجراء الوصف بالموصولِ على اسم الجلالة لزيادة التَّفخيم؛ لأنَّ كتابةَ كلِّ شيء، ما دقَّ منه، وتناهى في الصِّغر صفةٌ عظيمة لا يقدر عليها إلَّا اللّه تعالى. وللتَّنبيهِ على أنَّ التَّوكُّل من آثارِ رحمته، ومظاهرِ عنايته، وكمال قدرتهِ.

تَوجيهُ العطفِ بالواو، في جملةِ التوكُّلِ على الله الأجلِّ:

جملةُ التَّوكُّلِ تحتملُ الإخبارَ المباشرَ، أو أنَّها تتمَّةٌ لجملة القولِ

وجملةُ ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ يجوزُ أن تكونَ معطوفةً على جملةِ ﴿قُل﴾؛ فهيَ من كلام اللّه تعالى خبرًا في معنى الأمر، أي: قل ذلك، ولا تتوكَّلوا إلَّا على اللّه دون نُصْرة هؤلاءِ، أي: اعتمدوا على فضلهِ عليكم.

ويجوز أن تكونَ معطوفةً على جملة ﴿لَّن يُصِيبَنَآ﴾، أي: قل ذلك لهم، وقل لهم: إنَّ المؤمنين لا يتوكَّلون إلَّا على اللّه، أيْ: يؤمنون بأنَّه مؤيِّدهم، وليس تأييدهم بإعانتكم، وتفصيلُ هذا الإجمال في الجملة الَّتي بعدها[3].

(1) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 9/250، وصافي، الجدول في إعراب القرآن: 10/358.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/282.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/223.

سِرُّ تقديمِ شِبْه الجملةِ، على طرفَي الإسنادِ الفعلِ والفاعلِ:

توكُّلُ المسلمين في جميع الأمورِ، مختصٌّ باللهِ وحده دونَ سواه

قدَّمَ الجارَّ والمجرور ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ﴾، على الفعلِ وفاعلِه ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ لإفادة القصْرِ، والحصْرِ[1]. والتَّوكُّلُ على الله تفويضُ الأمور إليه، والمعنى: أنَّ من حقِّ المؤمنين أنْ يجعلوا توكُّلهم في جميع أمورهم مختصًّا بالله سبحانه لا يتوكَّلون على غيره[2]. وهذا كالتَّنبيهِ على أنَّ حال المنافقين بالضِّدِّ من ذلك، وأنَّهم لا يتوكَّلون إلَّا على الأسباب الدُّنيويَّةِ واللَّذات العاجلة الفانية[3].

دَلالةُ الفاءِ، في الفعْلِ ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ﴾:

سببيَّةُ الفاءِ توجبُ التَّوكُّلَ، وجزائيَّتُها تُشعِرُ بالتَّرتُّبِ

الفاءُ في ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ﴾ سببيَّةٌ، والأصلُ: ليتوكَّلْ، وأُدخلت ههنا للدَّلالة على إيجابِهِ تعالى للتوكُّل، كما في قوله: ﴿وَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ﴾[4]. وهي تدلُّ على محذوف مفرَّعٍ عليه اقتضاه تقديمُ المعمول[5]، ولفصلِ فعل الأمر عن الإخبار[6].

ويرى الطَّيبيُّ أنَّ الفاءَ جزائيَّةٌ تُشعر بالتَّرتُّب، أي: إذا كان لن يصيبنا إلَّا ما اختصَّنا الله تعالى به من النُّصرةِ أو الشَّهادة، وأنَّه يتولَّى أمرنا، فلنفعل ما هو حقُّنا من اختصاصه بالتَّوكُّل، كأنَّه قابلَ قولَ المنافقين: (قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا الذي نحن متَّسمون به من الحذرِ والتيقُّظ والعمل بالحزم)، بدأب المؤمنين على ألَّا يتوكَّلوا على حزْمِهم وتيقُّظ أنفسِهم، كما هو دأبُ المنافقين ذلك، بل أن يتوكَّلوا على الله وحده، ويفوِّضوا أمورهم إليه[7].

---

(1) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 16/67.
(2) القِنَّوجيّ، فتح البيان: 5/319.
(3) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 16/67.
(4) القِنَّوجيّ، فتح البيان: 5/319.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/223.
(6) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 6/3328.
(7) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 7/267.

نُكتةُ التَّعبيرِ عنِ التَّوكُّل، بصيغة المضارع المسبوقِ بلام الأمر:

قوله: ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ﴾، تعبير عنِ التّوكُّل على اللّه بصيغة أمرِ المؤمنين؛ ربْطًا على قلوبهم، وتثبيتًا لنفوسِهم لكيلَا يأسَفوا من أذى المنافقين؛ فإنَّ ذلك لن يضرَّهم؛ فإنَّ عزَّة المؤمن ونصرَهُ وتمكينَهُ بالتَّوكُّل على اللّه[1].

عِزَّةُ المؤمنِ بالتَّوكُّلِ على الله تعالى، ومَنْ توكّلَ عليه كفاه وحمَاه

بديعُ إيثارِ المُظْهَرِ على المُضْمَرِ:

وضعَ المؤمنين على إرادةِ الجنس موضعَ ضميرِ المتكلِّم، فأظهرَ اللَّفظَ، ولم يقل: وعلى اللّه فليتوكَّلوا؛ ليؤذِنَ بأنَّ شأنَ المؤمن، وديدنه، ومعتادَ فِعْلِهِ اختصاصُ التوكُّل باللّه[2]. ولما في لفظ (المؤمنون) من العموم الشَّامل للمخاطَبين وغيرهم، ولتكونَ الجملةُ مستقلَّةً، فتسري مسرى المثل[3].

التوكُّلُ لا يَنفكُّ عنِ الإيمان، بل إنّ التّوكّلَ مَظهرٌ من مظاهرِه

وَجْهُ تعريفِ لفظِ ﴿ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ وجمعِه:

(أل) في ﴿ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ جنسيَّةٌ، رسَّخ دلالتَها على الشُّمول جمعُ السَّلامة، فشأنُ التَّوكُّلِ على اللّه، والتسليم له، والخضوع لأمره يخصُّ كلَّ المؤمنين، بل تخصُّ عموم المخاطَبين بحسب ما ذُكرَ.

شأنُ التوكُّلِ يخصُّ كلَّ مؤمنٍ، ويهمّمه ويُهمّه في عاجلِ أمرِه وعاجله وآجلِه

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/282.
(2) الطّيبّي، فتوح الغيب: 7/267.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/282.

﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ ۖ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا ۖ فَتَرَبَّصُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [التوبة: 52]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

العلاقةُ بين اليقينِ بنفعِ الله وحدَه وضُرِّه، وبين مصيرِ منْ آمن، وجزاءِ منْ كفرَ

الآيةُ جوابٌ ثانٍ عن فرح المنافقين بمصائبِ المؤمنين بما يُخرسُ ألسنتَهم، ويُزيلُ فرحتَهم[1]؛ إذ تتنزَّل منزلةَ الإيضاح، والكشف، والبيان لما تضمَّنته جملةُ ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا﴾[2]. فلمَّا تبيَّن لهم أنَّ سرَّاءهم وضرَّاءهم لهم خيرٌ من حيث إنَّ الرِّضا بمرِّ القضاء موجبٌ لإقبال القاضي على المقضيِّ عليه بالرَّأفة والرَّحمة، صرَّح بذلك في قوله: ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ﴾[3].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تَرَبَّصُونَ﴾. التَّربُّص بالشَّيْء هُوَ انتظارك بِالرَّجلِ خيرًا أَو شرًّا يحلُّ بِهِ[4]. فـ" الراء والباء والصاد أصل واحد يدلُّ على الانتظار"[5]. والمُكْث، والانْتِظار بالشَّيء، سلعةً كانت يقصد بها غلاءً، أو رخصًا، أو أمرًا يُنتظر زوالُه، أو حصولُه[6]، وسائر ما جاء في القرآنِ من التَّركيب؛ فهو بمعنى الثَّبات انتظارًا مع حدَّة[7]، وشيء مِنَ الترقُّب والتَّوتُّر.

(1) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 16/67، وطنطاويّ، التّفسير الوسيط: 6/314.
(2) القِنَّوجيّ، فتح البيان: 5/319، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/224.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/497.
(4) ابن دريد، جمهرة اللّغة: (ربص).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ربص).
(6) الرّاغب، المفردات، وابن الأثير، النّهاية: (ربص).
(7) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: 2/745.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

تحقيقُ إحدى الحُسنيَين أمنيَّةُ المؤمنين، والدّخرُ والخسارُ للكفرةِ المارقين

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيِّه محمَّدٍ ﷺ: قُلْ لهؤلاء المنافقين الَّذين وصفتُ لك صفتَهم، وبيَّنت لك أمرَهم: هل تنتظرون بنا إلَّا إحدى الخلَّتين اللَّتين هما أحسن من غيرهما: إمَّا ظفرًا بالعدوِّ، وفتحًا لنا بما فيها من الأجر والغنيمة والسَّلامة، وإمَّا قتلًا من عدوِّنا لنا، ففيه الشَّهادة، والفوزُ بالجنَّة، والنَّجاة من النَّار، وكلتاهما ممَّا نُحبُّ، ولا نكرهُ، ونحن ننتظر بكم أن يصيبكم اللّه بعقوبةٍ من عنده عاجلةٍ، تهلككم، أو بأيدينا؛ فنقتلَكم؛ فانتظروا إنَّا معكم منتظرون ما اللّه فاعلٌ بنا، وما إليه صائرٌ أمرُ كلِّ فريقٍ منَّا ومنكم[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بَلاغةُ الفصْل في الآيةِ:

الآيــةُ بيـانٌ لما قبلَها، وفيها إبـــرازُ كـمـالِ العنايةِ بالمأمورِ به

تُنَزَّلُ الآيةُ منزلةَ البيان لما تضمَّنتْه جملةُ ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا﴾ في الآيةِ السَّابقةِ هو علَّةُ فصلِها عنها، والعُدولُ عن عطفها عليها، والمبين هو إجمال ﴿مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا﴾ [التّوبة: 51][2]. فالجملةُ إن كانت من تمامِ الكلامِ المأمورِ به؛ لإبراز كمالِ العنايةِ بشأن المأمورِ به والإشعارِ بما بينه وبين ما أُمر به أوَّلًا من الفرق في السِّياقِ؛ إذ فيها نوعُ بيانٍ لما أُبهِم في الجوابِ الأوَّل، وكشفٌ لحقيقة الحالِ بإعلام أنَّ ما يزعُمونه مضرَّةً للمسلمين من الشَّهادة أنفعُ مما يعُدُّونه منفعةً من النَّصر والغنيمةِ[3].

عِلَّةُ الافتتاحِ بفعل القولِ ﴿قُل﴾:

اللهُ تعالى فوق الجميعِ، ولا يكونُ نفعٌ أو ضررٌ، إلّا بحكمةٍ وقدَرٍ

أمرَ اللّه تعالى نبيَّه أنْ يقولَ لهم هذا القولَ، ولم يسندْهُ تعالى إلى نفسه؛ لأنَّه فوق الجميعِ، إنَّما جعلَ الرَّسولَ يُسنِده

(1) ابن جرير، جامع البيان: 14/291.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/224.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/73.

إلى نفسه؛ لأنَّه من أحد الفريقيْن المتربِّصيْن، وإن كان اللّه تعالى مع المؤمنين[1].

نُكتةُ العُدولِ عنِ العطف بالواو:

دفعُ التّوهُّم بتلافي العطفِ، وتأكيدِ مصدرِ الإصابةِ بالخير أوِ الشّرِّ

لم تُعطَفِ الآيةُ بالواو، وهو من تمام قولِه تعالى: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا﴾؛ لأنَّك إذا قلتَ: إنْ جاءك زيدٌ؛ فأعطِه درهمًا، أو أكرمه؛ اقتضى الجمع والإفراد، وهنا لو عطف بالواو؛ لتُوهِّمَ أنَّه يخرج من عهدته، بأن يقولَ: هم أشدُّ الشَّيئيْن فقط[2].

سِرُّ العُدولِ من صريحِ النَّفْيِ إلى الاستفهام:

الاستفهامُ يَقتضي الموافقةَ، ويُسفرُ عنِ المعنى في إطار تنْويعِ الأسلوبِ

وعدل من صريح النَّفْيِ بـ(لن) في الآية السَّابقة إلى مجازِه المستفادِ منَ الاستفهام؛ لأنَّ الاستفهامَ يقتضي الموافقةَ، إذ لَا يقول: هل زيد إلَّا قائمٌ؟ إلّا مَنْ يعلم أنَّه يوافقك[3].

إيثارُ حرفِ الاستفهام (هل):

تربّصُ المؤمنين لإحدى الحُسنَيَيْن، مقابلَ تربُّصِهم لأعدائِهم بأحدِ الهلاكَيْن

أوثِرَ استعمال حرف الاستفهام (هل) إشارة إلى تحقيق مدخولها: إمَّا النَّصر المؤزَّر، وإمَّا الفوزُ بأسمى أماني المجاهدين في سبيل اللّه، وأعلى درجاتهم ألا وهي الشَّهادة[4]. والنَّفي بـ (هل) ليس نفيًا محضًا، بل هو استفهامٌ أُشرِب معنى النَّفي المصحوب بالتّعجُّب والاستنكار، "فقوله تعالى مثلًا: ﴿هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ﴾ يختلف عن قولنا: (ما تربَّصون بنا إلَّا إحدى الحُسنين) فإنَّ الأُولى ليست نفيًا خالصًا، فإنَّ فيها من التَّحدِّي والاستخفاف ما لا يؤدِّيه النَّفي المحضُ"[5].

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 6/3329.
(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/313.
(3) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/313.
(4) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 2/17.
(5) السّامرائي، معاني النّحو: 4/243.

سِرُّ العُدولِ من صريحِ النَّفْيِ وحقيقتِه إلى مجازِه:

التّعبيرُ بالاستفهامِ بإشراكِ المخاطَبِ في الأمر، بانتظارِ الجوابِ منه

وعدلَ من صريحِ النَّفيِ وحقيقتِه إلى مجازِه؛ لأنَّ الاستفهامَ يَقتضي أنَّ المُسْتَفْهِمَ موافقٌ، ألا ترى أنَّه لَا يجابُ بنعم، ولا بلا، فلا تقول: هل زيد إلَّا قائمٌ؟ إلّا لمن تعلم أنَّه يوافقك، فإن لم يوافقك، قلت: ما زيدٌ إلَّا قائم، والمنافقون يوافقون على أنَّهم ما يتربَّصون بهم إلَّا لأحد أمرين[1]. ثم إنَّ النَّفيَ الصَّريح إنَّما هو إقرارٌ من المخبر، فإذا قلت: (ما تربَّصون بنا إلا إحدى الحُسنيَيْن)، كان هذا إخبارًا من المتكلِّم، أمَّا إذا قلتَهُ بطريق الاستفهام، فإنَّ المقصودَ إشراك المخاطَب في الأمر، فهو يريدُ الجواب منه، فالنَّفي ابتداءٌ يفيد أنَّ المتكلِّم يقول الأمر من نفسِه، وأمَّا في الاستفهام؛ فإنَّه يدع ذلك للمخاطَب ليقولَهُ[2].

بَلاغةُ الاستفهامِ:

توبيخُهم والإنكارُ عليهم التّربّصَ بأذَى المؤمنين

الاستفهامُ في الآية للتَّقريع والتَّوبيخ مع الإنكارِ، وهو مستعمَلٌ في النَّفيِ بقرينة الاستثناء، ومعنى الكلام توبيخُهم، وتخطئة تربُّصهم؛ لأنَّهم يتربَّصون بالمسلمين أن يُقتلوا، ويغفلون عن احتمال أن يُنصروا، فكان المعنى: لا تتربَّصون بنا إلَّا أن نُقتلَ أو نُغلبَ، وذلك إحدى الحُسنيين[3].

والإنكارُ الحصريُّ ظاهرٌ فيه؛ فليس أمام المؤمنين في جهادهم إلَّا النَّصرُ أو الشَّهادة، وهما أمران بلغا الغايةَ في الفضل والكمال، وقد يترتَّبُ على هذا إفحامُ الخصم، وتبكيتُهُ، وردِّ كيده في نحره[4].

من دلالاتِ الاستفهامِ التَّسهيلُ والتَّخفيفُ

والاستفهامُ مُستعمَلٌ أيضًا في التَّسهيلِ والتَّخفيف، أي: هَلْ تَنْتَظِرُون أَنْ يَنَالَنا إلَّا إحْدَى الْحُسْنَيَيْن: الشَّهادة وهي لطيفة النّزع، أو النَّصر وهو سَليلُ السَّعة والتيسير؟

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/314.
(2) السّامرائيّ، معاني النّحو: 4/243.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/224.
(4) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 2/17.

ويحتمل الاستفهامُ أيضًا التَّقريرَ والتَّحقيق، أي: هل تربَّصون بنا أيُّها الجاهلون إلَّا إحدى العاقبتيْن اللَّتيْن كلٌّ واحدة منهما حُسْنى العواقب وفُضلاها: النُّصرةُ المضمونة للجماعة، والشَّهادةُ المكتوبة لبعض الأفراد[1].

من دلالاتِ الاستفهامِ التَّقريرُ والتَّحقيقُ

إيثارُ لفظِ التَّربُّصِ على الانتظارِ:

التَّربُّص: طولُ الانتظار، ويُسمَّى المتربِّص بالطّعام وغيره متربِّصًا؛ لأنَّه يُطيل الانتظار لزيادة الرِّبح[2]، وهو التمكُّثُ مع انتظار مجيءِ شيءٍ خيرًا كان أو شرًّا[3]، والتمهُّل في انتظار ما يُرجى، أو يُتمنَّى وقوعُهُ[4]، والتمسُّك بما يُنتظر به مجيءُ حينِهِ، ولذلك قيل: فلانٌ يتربَّص بالطعام؛ إذا تمسَّك به إلى حين زيادة سعره، وكثرَ اقترانُه بالشَّرِّ، يُقال: فلانٌ يتربَّص بفلان الدَّوائر، وإذا كان ينتظرُ وقوعَ مكروهٍ بهِ[5].

التَّربُّص: طولُ الانتظار، مُقترنًا بالشَّرِّ والبَوارِ

وأكثرُ استعماله؛ أنْ يكون انتظارَ حصولِ شيءٍ لغير المُنْتَظِر، ولذلك كثرَتْ تعديةُ فعل التربُّصِ بالباء؛ لأنَّ المتربِّص ينتظر شيئًا مصاحِبًا لآخرَ هو الّذي لأجله الانتظارُ[6].

بيانُ التَّعبيرِ عنِ التَّربُّص، بصيغةِ التَّفعُّلِ:

والتَّربُّص: الانتظارُ انتظارًا عظيمًا[7]، تفعُّلٌ من الرَّبص حُذِفَت إحدى التَّاءيْن في تربَّصون، وهذا الحذفُ يؤذِنُ بتعجُّلهم خبرَ ما يحسبونه أذًى للمؤمنين، وتلهُّفهم إلى سماعه فرحين به.

شِدَّةُ انتظارهم، أَمارةُ تعجُّلِهم خبرَ الأذَى

(1) رضا، تفسير المنار: 10/414.
(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 76.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/73.
(4) رضا، تفسير المنار: 10/414.
(5) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 16/68.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/224.
(7) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/497.

بَلاغةُ الاستثناء:

مآلُ مَنْ ضحّى بنفسِه في سبيل الله، فوزٌ محقَّقٌ بإحدى الحُسْنيَيْن عند مَولاه

قولُه تعالى: ﴿إِلَّآ إِحۡدَى ٱلۡحُسۡنَيَيۡنِۖ﴾ مُسْتَثْنَى من عموم الأحوال التي في سياق النَّفي؛ إذ (هل) للاستفْهَام الإنكاريّ[1]، والجملةُ تفيدُ الحصرَ، أي: لا شيءَ يُنتظر لنا غيرُ هاتيْن العاقبتيْن ممَّا كتب لنا ربُّنا، وأنتم تجهلون[2]. فـ" قُصِرَ الموصوفُ، وهو مآلُ المجاهدين في سبيل الله تعالى على صفة الحُسن البالغ، والكمال الكريم"[3].

عِلَّةُ الإتيانِ بأداة الحصْرِ، مع الحُسنيَيْن دونَ الإصابةِ:

حالُ المنافقين غيرُ مُنحصرٍ، في أنْ يُصيبَهمُ العذابُ

أتى في الأوَّلِ بأداة الحصر دون الثَّاني، فقال: ونحن نتربَّصُ بكم من غير حصْرٍ؛ لأنَّ المسلمين لا يخرج حالهم عن إحدى الحُسنيَيْن: النَّصرِ أو الشَّهادةِ، أمَّا المنافقون؛ فحالهم غيرُ منحصرٍ في أنْ يصيبَهم العذاب؛ إذ قد يقولون: فلا يصيبهم العذابُ بوجهٍ، أو أن يُسْلِمُوا، فيَحْسُنَ حالهم[4]؛ "لجواز أنْ يتُوبُوا عن نفاقهم، ويصحَّ إيمانهم، وقد تاب بعضهم، واعترفوا بما كانوا عليه بعد ظهور أمرِهم، كالَّذين أخبرَهم النَّبيُّ بما ائتمروا به من اغتياله ﷺ، ومن المعقول أن يكونَ أكثرُ الباقين قد تابوا بعد أنْ أنجزَ اللهُ لرسوله جميعَ ما وعده به، ووقع ما كانوا يحذرونه من تنزيل سورةٍ تُنْبِئُهم بما في قلوبهم، ومنها فضيحتُه تعالى لزعيمهم الّذي مات على كفره، ولو ذكرَ ذلك في التَّنزيل بصيغة الحصرِ؛ لكان خبرًا بخلاف ما سيقع، وهو هلاكهم بكفرِهم بدون الشَّرط الّذي بُيِّنَ"[5].

بَلاغةُ الاحتباكِ:

الحذفُ لإثباتِ، من براعةِ النَّظْمِ في السّياقِ القرآنيِّ

في الآية فنُّ الاحتباك؛ إذ حذفَ أوَّلًا الإصابةَ للدَّلالة عليها

(1) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 9/250.
(2) رضا، تفسير المنار: 10/414.
(3) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 2/18.
(4) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/313، 314.
(5) رضا، تفسير المنار: 10/415.

بما أثبت ثانيًا، وحذفَ ثانيًا إحدى السَّوْءَيَيْنِ للدَّلالة عليها بإثبات الحُسنيَيْن أوَّلًا[1].

وَجْهُ تأنيثِ لفظِ الحُسْنى:

وجهُ التأنيث في الحسنى؛ لكونها صفةً للعاقبة، ويجوز كونُها صفةً للخصلة أو الحالة، وكونُها صفةً للعاقبة أمسُّ بالمقام، فإنَّ الانتظارَ يلائمُ العاقبةَ[2].

الانتظارُ يُلائمُ العاقبةَ، ممّا يُناطُ في المنتهَى بالأجيالِ المتعاقبةِ

بيانُ وجْهِ الأحسَنيَّةِ بين المصيرَيْن:

الحُسْنيان مُثَنَّى الحسنى، وهي اسم التّفضيل للمؤنَّث، ولذلك تقتضي التَّفضيلَ بأنَّها أحسنُ العواقب، لكنَّهما ههنا مستويان؛ فالمقصودُ بيانُ أحسنيَّةِ كلٍّ منهما مع جميع ما عداه من العواقب الكائنةِ في الحروف، ولا يلزم أن يكونَ كلٌّ منهما أحسنَ من الآخر من وجهٍ، ويجوز أن يكونَ أحدُهما أفضلَ، وهو الموتُ مجاهدًا[3].

القصدُ بيانُ أحْسَنيَّةِ كلِّ مصير، وهو قدرٌ محتومٌ لا مفرَّ منه

بَلاغةُ الكنايةِ، في التَّعبيرِ عنِ الحُسْنيَيْن:

كنَّى عنِ التَّعبيرِ بالشَّهادةِ، أو النَّصرِ بلفظ ﴿ٱلۡحُسۡنَيَيۡنِۖ﴾، لما في الوصف من تشريفٍ، وتكريم، فالتَّعبيرُ بإحدى الحسنيَيْن عَلَى إطلاقه مع أنَّ المُرَاد (النُّصرة أو الشَّهادة)، فيه ما لا يخفى من التَّفْخيم والتَّنْبيه، عَلَى أنَّها ممَّا لا يدخل تحت وصفِ الواصفين[4]، ففي الأولى إحرازُ الغنيمة، والظَّفر بالأعداء، وفي الثّانية إبقاءُ الذِّكْر والفوز بنعيم الآخرة[5].

في الوصْفَيْن تشريفٌ وتفخيمٌ وتنبيهٌ

عِلَّةُ وصْفِ حالَتَي المؤمنين دونَ المنافقين:

وصفَ حالتَي المؤمنين بالحُسْنيَيْن، وعيَّنَ حالتَيْ حالِ المنافقين،

لم يُذْكرِ المنافقون كُنْهَ الحُسْنيَيْن، ولا أنَّ الشَّهادةَ حياةٌ أبديَّةٌ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/498.
(2) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 9/250.
(3) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/314، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 9/250.
(4) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 9/250.
(5) النّيسابوريّ، غرائب القرآن: 3/482 - 483.

ولم يصفْهما بـ(السَّوءَتَيْنِ)، أو(السَّوءَيَيْنِ) تثنية (سَوْءَى)، مؤنَّثُ (أسوأ) كحُسنى؛ لأنَّ المنافقين كانوا يزعمون أنَّ موتَ أحد المؤمنين ليس بِحَسَنٍ، وكذلك ظَفَرُهم بالمؤمنين، فعبَّر عن هذيْن الوصفيْن الأخيريْن بالحُسنيَيْن، ولما كان نفسُ الوصفيْن الأخيريْن غيرَ قبيحيْن عند المنافقين؛ لم يحتج إلى وصفها بالقبيحيْن اكتفاءً بنفْيهما[1].

العُدولُ عن المقابلة، لغرَضِ التَّخصيصِ، والتَّعيينِ:

غيَّرَ الأسلوبَ مغادرًا حسنَ المقابلة؛ لكونِ السُّوء وصفًا مشتركًا بين جميع القبائح؛ فعدل إلى ما المُرَاد من التَّفْصيل والتَّعيين، لانتفاء نُكتة الإبهامِ في الجملة[2].

السّوءُ وصفٌ مشتركٌ بين جميع القبائحِ المعهودةِ لدى العُصاةِ

بَلاغةُ العطفِ بالواو:

وجملةُ ﴿وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ﴾ معطوفةٌ على جملة الاستفهام؛ عطفَ الخبر على الإنشاء: بل على خبرٍ في صورة الإنشاء، فهي من مَقول القول، وليس فيها معنى الاستفهام، والمعنى: وجودُ البوْن بين الفريقيْن في عاقبة الحربِ في حالتَي الغلبةِ والهزيمة[3].

بين الفريقين بَونٌ شاسِعٌ، في عاقبةِ الحرْبِ

نُكتةُ تقديمِ الضَّميرِ ﴿وَنَحْنُ﴾:

تقديمُ الضَّمير (نحن) في قوله: ﴿وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ﴾ عَلَى الخبر الفعلي، إمَّا للحصر؛ فيكونُ تغييرُ الأسلوبِ للتَّفنُّن الَّذي من شُعُبِ البلاغة، وإمَّا لتقوية الحكم فقط، فأمْرُ التَّغيير واضح[4].

حَصرَ التّربُّصَ بهم، وقوَّى الحُكمَ، لمزيدٍ منَ البيانِ والإيضاحِ

سِرُّ التَّعبيرِ عن تربُّصِ المؤمنين، بالجملةِ الاسميَّةِ:

وجُعِلَتْ جملةُ ﴿وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ﴾ اسميَّةً؛ فلم يَقُلْ: (ونتربَّص بكم)، بخلاف الجملة المعطوف عليها: لإفادة تقويّة التربُّص ثباتًا، وقوَّةَ رجاءٍ، وديمومةَ حالٍ.

التّربُّصُ المذكورُ ثابتٌ على الدّوام، في كلّ العصورِ

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/313، 314.
(2) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 9/250.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/224 - 225.
(4) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 9/250.

بلاغةُ الكنايةِ:

تقويةُ التّربُّصِ، تُفيدُ قوّةَ الرَّجاءِ

وجملةُ ﴿وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ﴾ كنايةٌ عن تقوية حصول المُتربَّص؛ لأنَّ تقوية التَّربُّص تفيد قوَّةَ الرَّجاءِ في حصول المتربَّص؛ فتفيد قوَّةَ حصوله، وشدَّةَ وقوعهِ، وهو المُكنَّى عنه[1].

سِرُّ التَّعبيرِ بشِبْهِ الجملةِ ﴿بِكُمْ﴾:

نـزولُ العذابِ بهم، هو جزاءٌ لِفعلِهم

عبَّرَ بشبْهِ الجملة ﴿بِكُمْ﴾ في قوله تعالى: ﴿نَتَرَبَّصُ بِكُمْ﴾؛ للإشارة إلى أنَّ ما ينزل بهم عقابٌ في مقابلِ ما حَكى عنهم في قوله تعالى: ﴿تَرَبَّصُونَ﴾[2].

نُكتةُ التَّعبيرِ بالمصدرِ المؤوَّل:

الكلامُ مخصَّصٌ لحدَثِ الإصابة فحَسْبُ

المصدر المؤوَّلُ يفيدُ الدَّلالةَ على الزَّمن، بخلاف المصدر الصَّريحِ، ودخولُهُ على المضارع ﴿يُصِيبَكُمُ﴾ يدلُّ على الحال، أو الاستقبال، فضلًا عن دلالته على مجرَّدِ معنى الحدث دون احتمالٍ زائدٍ عليه، ففي ﴿أَن﴾ تحصينٌ من الإشكال، وتخليصٌ له من شوائب الإجمال[3]. فالتَّربُّصُ أن يصيبَهم العذابُ بالمصدر المؤوَّل مخصَّصٌ في حدث الإصابة حسبُ، ولو عُبِّرَ عنه بالمصدر الصَّريح (إصابتكم)؛ لاحتملَ الكلامُ معاني التَّربُّص بكيفيَّات الإصابة، وحالاتها، سرعتِها، أو بُطئِها...إلخ، وهو ما لا فائدةَ فيه في هذا الموضع؛ إذِ المقصودُ الحدثُ.

وَجْهُ إظهارِ اسْمِ الجلالة (الله):

تهويلُ عذابِهم المرتقبِ، جزاءُ الانحراف وسوءِ الأدبِ

أُظهرَ لفظُ الجلالة (اللّه) في موضع العذابِ، وأكَّدَ إصابتَهم به ﴿مِّنْ عِندِهِۦٓ﴾ تفظيعًا لهذا العذاب المُرتقب، والعقاب المستحقِّ، وتهويلًا لشأنهِ[4].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/225.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 6/3329.
(3) السّامرائي، معاني النّحو: 147 - 148.
(4) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 2/18.

تَوجيهُ التَّنكيرِ، في لفظِ ﴿بِعَذَابٍ﴾:

زيادةُ التَّفظيعِ، وتنويعِ العذاب، في سياقِ الآيةِ البليغةِ

نكَّرَ العذابَ في قوله: ﴿بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦ﴾؛ ليدلَّ على عموم معنى العذاب، وواسعِ مُحتملاته، واستغراقه لجميع صنوفهِ؛ كالموت بأخَذاتِ الأسف، أو نازلة منَ السَّمَاء كصاعقة ثمودَ وريحِ عادٍ، ويحتمل أن يكون توعُّدًا بعذاب الآخرة، أو يريد أنواع المصائب والقوارع[1].

تَوجيهُ إضافةِ العذابِ إليه تعالى:

إظهارُ الله تعالى غضبَهُ، على أهل النّفاقِ والكفرِ، للتّخويفِ منَ المصير

وإضافةُ العذابِ إليه ﷻ، ينزلُه من عندِه فيه إظهارٌ لغضبه تعالى، وسخطِه عليهم، الّذي يبوؤون به، كما باءَ من قبلُ إخوانٌ لهم في النِّفاق من اليهود ومَنْ يواليهم، والأمر الثّاني عذابٌ من المؤمنين يُنزلونه ظافرين بهم، بتمكين اللّه تعالى منهم[2].

بَلاغةُ الكنايةِ في ﴿مِّنْ عِندِهِۦ﴾:

تحتملُ العنديَّةُ تنوُّعَ العذابِ المتوقَّعِ

وكونُه من عنده تعالى كنايةٌ عن كونهِ منه جلَّ شأنُه بلا مباشرة البشر، ويُظهر ذلك المقابلةُ بقوله سبحانه: ﴿أَوْ بِأَيْدِينَا﴾[3]، وتحتملُ عنديَّتُهُ متنوِّعَ التَّأويلات، ومتعدِّدَ الدّلالات: غضبًا، وسخطًا، ونوعَ عذاب سيحلُّ بهم.

توجيهُ العطفِ بـ(أو):

في تغايُرِ العذابَيْن مزيدُ ذمٍّ، للتّذكيرِ بهوْلِ المصيرِ

العطفُ بـ (أو) يفيدُ فصْلَ العذاب الَّذي من عند اللّه منَ العذاب الَّذي يقعُ بأيدي المسلمين، ولو عطفَ بالواو؛ لاحتملَ أن تكون إصابةُ العذابِ واحدة، وسبيل تحقُّقها أيدي المسلمين، فالعطفُ بـ(أو) فرَّق صنفي العذاب.

دَلالةُ جملةِ: ﴿بِأَيْدِينَا﴾:

تأييدُ المؤمنين وتمكينُهم، من مُعاقبةِ المنافقين

قولُه تعالى: ﴿أَوْ بِأَيْدِينَا﴾، يريد: القتلَ[4]، والإشارةُ فيه إلى

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/44، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 9/251.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 6/3329.
(3) الآلوسيّ، رُوح المعاني: 5/306.
(4) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/44.

القتال - الَّذي يكون بالأيدي الّتي تبطشُ - إقرارٌ بقوَّة المؤمنين المؤيَّدة بنصر الله تعالى العزيز الحكيم، وتشريفٌ لهم بإظهار هذه القدرة والتَّمكين من لدن الله تعالى[1].

بَلاغةُ المجازِ المرسَلِ:

إطلاقُ الجُزءِ، وإرادةُ الكلِّ، من بليغِ البيانِ

في قوله تعالى: ﴿أَوۡ بِأَيۡدِينَاۖ﴾ مجازٌ مرسلٌ علاقتهُ الجزئيَّةُ؛ إذ أُطلق الجزء (الأيدي)، وأُريدَ الكلُّ، ولهذا الجزء مزيدُ اختصاصٍ بالعذاب؛ لأنَّ اليدَ هي الّتي تحملُ السِّلاح، وتستعملُه في المعركة[2].

تَوجيهُ الحذْفِ في جملةِ ﴿بِأَيۡدِينَاۖ﴾:

إظهارهُم الكفرَ عِلَّةُ عذابِهم بأيْدي المؤمنين

المرادُ بقوله تعالى: ﴿بِأَيۡدِينَاۖ﴾ تقدير معنى: (بعذاب كائن بأيدينا كالقتل على الكفر إن ظهر نفاقكم)؛ لأنَّ نفاقَهم إذا ظهر؛ كانوا كسائرِ المشركين في كونهم حربًا للمؤمنين[3]، وفيه إشارةٌ إلى أنَّهم لا يُقتلون حتى يُظهروا الكفرَ، ويُصرُّوا عليه؛ لأنَّ المنافق لا يُقتل مع إظهاره الإيمانَ[4].

دَلالةُ الفاءِ في: ﴿فَتَرَبَّصُوٓاْ﴾:

عاقبةُ المؤمنين الحُسنَى، وعاقبةُ المنافقين السّوءى

الفاءُ في قوله تعالى: ﴿فَتَرَبَّصُوٓاْ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ﴾ فاءُ الإفصاح المنبِّهةُ عن شرط مُقدَّر، أي: إذا كان هذا أمرنا، وأمركم في التَّربُّص، فتربَّصوا بنا ما هو عاقبتُنا وعاقبتكم؛ إن أصررتم على كفركم، وظهر أمركم، ممَّا نحن فيه على بيِّنة من ربِّنا، ولا بيِّنة لكم، فلن نشاهد إلَّا ما يسوؤكم، ولن تشاهدوا إلَّا ما يسرُّنا، وفي هذه الجملة تهديدٌ لهم بسوء عاقبتهم، وبيان حسن عاقبة المؤمنين، فالله تعالى بعزَّته ناصرُ جنده، وخاذلُ عدوِّه[5].

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 6/3330.
(2) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 2/18.
(3) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 16/68.
(4) الآلوسيّ، رُوح المعاني: 5/306.
(5) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/74، والآلوسيّ، رُوح المعاني: 5/306، ومحمد رضا، تفسير المنار: 10/415، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 6/3330.

تَوجيهُ الأمرِ في قوله: ﴿فَتَرَبَّصُوٓاْ﴾:

ترقُّب المصيبةِ وانتظارُها، أشدُّ على النُّفوس وأنْكى

الأمرُ في قوله تعالى: ﴿فَتَرَبَّصُوٓاْ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ﴾ للتَّحضيض المجازيّ، ومع إفادته قلَّةَ الاكتراث بتربُّصهم، إلا أنَّه يحتمل التَّهديد، والوعيد، والتَّحسير؛ لأنَّ ترقُّبَ المصيبة، وهولَ شرِّها أنكى على النُّفوس من وقوعها، فهو كالموت البطيء في شدَّةِ الإيلام[1].

دلالةُ المعيَّةِ:

المعيَّةُ للمشاركةِ في وصْفِ التَّربُّصِ المذكورِ في السِّياقِ

المعيَّةُ في قوله تعالى: ﴿إِنَّا مَعَكُم﴾ معيَّةٌ في التَّربُّص، أي: صائرون معكم في التَّربُّص، أو معيَّةٌ في زمانه، فهي للمشاركة في وصف التَّربُّص[2].

تَوجيهُ الفصْلِ في جملةِ الفاصلةِ:

الجملةُ علَّةٌ للحضِّ على التَّربّصِ المذكورِ في السِّياقِ

وفُصِلَتْ جملةُ ﴿إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ﴾ عن الجملة الَّتي قبلَها، ولم تُعطف؛ لأنَّها كالعلَّة للحضِّ[3].

سِرُّ التَّوكيدِ في جملةِ الفاصلةِ:

تنزيلُ غيرِ المُنْكِرِ مَنزلةَ المُنْكِرِ

وتأكيدُ الخبر بـ (إنَّ) في قوله تعالى: ﴿إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ﴾؛ لتنزيل المخاطَبين منزلةَ مَنْ يُنكرُ أنَّه يَتَرَبَّصُ بهم كما يَتربَّصُون به؛ لأنَّهم لغرورهم اقتصروا على أنَّهم يتربَّصون به ليروا هلاكَه، فهذا من تنزيل غير المُنْكِر منزلةَ المُنْكِر[4].

بَلاغةُ جِناسِ الاشتقاقِ:

في المحسَّنِ البديعيِّ شوقٌ وترقُّبٌ، إلى ما سيُصارُ إليه

ووجْهُهُ إعادةُ لفظة التّربُّص هنا أربع مرات: ﴿تَرَبَّصُونَ﴾، و﴿نَتَرَبَّصُ﴾، و﴿فَتَرَبَّصُوٓاْ﴾، و﴿مُّتَرَبِّصُونَ﴾، وحُسنُ الإفادةِ في الجناس هنا يكمن في مؤدَّى الكلمة المكرَّرة لمعنى جديد، مع أنَّ

(1) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 16/68، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/225، والمطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 2/18.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/225، و27/63.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/225.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/62.

الصُّورةَ توهمُ السَّامع في أوَّل أمرِها أنَّها لم تأتِ بجديد، وأنَّها مكرِّرةٌ لمعنى سابقتها، وفي ذلك متعةٌ للنَّفس، وحمْلٌ للسَّامع على الإصغاء، وميلٌ إلى المقيلِ[1]. وترقُّبٌ إلى ما سيقع، ولهفةٌ مع الانتظار، وشوقٌ إلى ما سيُصار، أضفاه لفظ (التَّربُّص) وتَكراره.

فنُّ التّعطُّف أوِ المشاركةِ[2]:

في التَّكرارِ تفنُّنٌ في النَّظمِ، وبراعةٌ في البيانِ

فقد أتى التعطُّفُ من صدر الآية في قوله ﴿تَرَبَّصُونَ بِنَآ﴾، ومن عجُزِها في قوله: ﴿فَتَرَبَّصُوٓاْ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ﴾ مع تجنيس الازدواج[3]، فأفادَ الفنُّ ما أفاد الجناس من تشويقٍ إلى المآل، بما تحمله اللَّفظةُ المكرَّرة من معنى جديد.

بَلاغةُ المقابلةِ المعنويَّةِ:

الاستغناءُ بالمذكور، اقتصادٌ في اللَّفظ، وتكثيفٌ للمعنى

في الآية الكريمة مقابلةٌ معنويَّةٌ، خرج الكلامُ فيها مخرجَ إيجاز الحذف، فإنَّ مقتضى البلاغة أن يكونَ تقديرُ ترتيبِ اللَّفظ (قُلْ: هل تربَّصون بنا إلا إحدى الحسنيَيْن: أن يُصيبنا اللّه بعذاب من عنده أو بأيديكم، ونحن نتربَّص بكم أن يُصيبَكم اللّه بعذابٍ من عندِه أو بأيدينا)، فحُذِفَ لتوخِّي الإيجازِ تفسيرَ الحُسنيَيْن من الجملةِ الأولى، وأثبتَه في الجملة الثَّانية فرارًا من تكرار اللَّفظ وتكثيره، كما حذف الحُسنيَيْن من الجملة الثَّانية استغناءً بذكرها أوَّلًا طلبًا للاختصار والإيجاز، فحصلَ في الآية المقابلةُ والإيجاز والتَّفسير، فاكتملت فيها أربعةُ أضرب من البديع مع فنِّ التَّعطُّف[4].

(1) المطعنيّ، خصائص التّعبير القرآنيّ: 2/441.
(2) تحرير هذا الفنِّ هو: أنْ يُعْلِنَ المتكلِّمُ لفظة من الكلام بمعنى، ثم يردَّها بعينها ويعلِّقها بمعنى آخر، وهما مفترقتان، كلُّ لفظة منهما في طرف من الكلام.
(3) ابن أبي الأصبع، تحرير التّحبير، ص: 259، وصافي، الجدول في إعراب القرآن: 10/360.
(4) صافي، الجدول في إعراب القرآن: 10/360 - 361.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

التربُّص، والانتظارُ، والتَّرقُّبُ، والتّرصُّدُ:

وقـوعُ المصائبِ عـلى فـتراتٍ، مَـظِـنَّـةُ طـولِ الانتظارِ

تقدَّم أنَّ التَّربُّص: طولُ الانتظار في خيرٍ وشرٍّ، والثَّباتُ انتظارٌ مع حدَّةٍ، والتَّمهُّل في انتظار ما يُرجى، أو يتمنَّى وقوعه والتلبُّث في انتظاره طويلًا[1]، وأكثرُ استعماله أنْ يكون انتظارَ حصولِ شيءٍ لغير المُنْتَظِر، فالمتربِّص ينتظر شيئًا مصاحبًا لآخرَ هو الّذي لأجله الانتظار[2].

ورقبَ الشَّيءَ، وتَرَقَّبَ: انتظر، ورصدَ راقبًا متوقِّعًا، محترزًا، مراعيًا له وحاذرًا منه، وحارسًا له، وحافظًا[3].

والتَّرصُّدُ: الاستعداد للتَّرقُّب، مع تحفُّزٍ للأخْذ أو الإصابة[4].

والانتظارُ: طلبُ مَا يُقدَّر أَن يَقع، وهو مقرونٌ بما يقعُ فيه النَّظر، وَيكون في الخَيْرِ والشَّرِّ، وَيكون مَعَ شكٍّ ويقين؛ لأنَّ أصلَه من تقليب البَصَرِ والبصيرةِ لإدرَاكِ الشَّيءِ ورؤيَتِهِ، وقد يُرادُ به التَّأَمُّلُ والفَحْصُ[5].

ومن هنا يتبيَّن أنَّ التربُّص أنسبُ لسياق الآية من حيثُ إنَّ المصائب في الغالب لا تقع دفعةً واحدة، وإنَّما تقع على فتراتٍ، وذلكم مظنَّةُ طول الانتظار، مع دلالة الثَّبات الّتي تلمح بحتميَّةِ تحقُّق ما يُتربَّصُ به.

---

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 76، ورضا، تفسير المنار: 10/414، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (ربص).

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/224.

(3) الخليل، العين، وابن سيده، المحكم، والرّاغب، المفردات: (رقب).

(4) الرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (رصد).

(5) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 75 - 76، والرّاغب، المفردات: (نظر).

﴿قُلْ أَنفِقُواْ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ۝٥٣﴾ [التّوبة: 53]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

العلاقةُ بين ما يتربّصُ له الطّرفان، ومآلِ التّقاعُسِ بردِّ صدقاتِهم، ووصْفِهم بالفِسْقِ

لمَّا ذكرَ اعتذارَ المنافقين بالمعاذير الكاذبة، وتعلُّلاتِهم الباطلةِ، في التَّخلُّف عن القتال، وذكرَ ما يجولُ في نفوسِهم بتربُّصهم بالمؤمنين؛ أردف ذلك ببيان أنَّ نفقاتهم على الجهاد في هذه الحال، طوعًا أو كرهًا، لن يتقبَّلها اللّه تعالى، ولا ثوابَ لهم عليها، لما يبطنونه في صدورهم من الكفر والفسوق عن أمر اللّه تعالى[1]. وكذلك لمَّا كان جملةُ ما يصيبُهم من العذاب الإنفاقَ بتزكية ما طهر من أموالهم بإعانة المسلمين، في جهادهم في سبيل اللّه؛ خوفًا من اتِّهامهم بالنِّفاق في أقوالهم ليفتدوا أنفسَهم به من السَّفر معهم، قال: ﴿قُلْ أَنفِقُواْ﴾[2].

المَعْنى الإِجْماليُّ:

لا يَقبلُ اللّه تعالى إلّا الطَّيِّبَ، ولا معنى للإنفاقِ، منَ العُصاة الفُسّاقِ

رُوي أنَّ المستأذنَ في التّخلُّف هو الجَدُّ بن قيس، من بني سَلِمة، قائلًا: (وأنا أُعينُكَ بمالي)، وكان منافقًا، فجاءهُ الجوابُ على لسان رسول اللّه ﷺ أمرًا من ربِّه: أنفقوا من أموالكم ما شئتُم في الجهاد، أو في غيره من النَّفقات الَّتي أمر اللّه بها، وحثَّ في شرعه عليها حال التَّطوُّع تقيةً وحفظًا للنَّفس وكرهًا وخوفًا من العقوبة، فمهما أنفقتم، فلن يُتقبَّلَ منكم ما دمتم في شكٍّ ممَّا جاء به الرَّسول من الدِّين والجزاء على الأعمال في الآخرة؛ لأنَّكم قومٌ فاسقون، أي: خارجونَ من دائرةِ الإيمانِ، واللّه إنَّما يتقبَّل مِن المؤمنين[3].

(1) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 11/278.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/498.
(3) البيضاويّ، أنوار التّنزيل وأسرار التّأويل: 3/84، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/225، والهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 11/291.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

وَجْهُ العُدولِ عنِ العطف:

القولُ جوابٌ عمَّن استأذنَ بالتّخلُّفِ

فصل مستغنيًا عن العطف مع أنَّه إرشادٌ بالقول على صيغة الأمر (قل)؛ لكونِه جاء جوابًا عن قول بعض المستأذنين منهم في التَّخلُّف[1].

تَوجيهُ التَّعبيرِ بالأمرِ ﴿أَنفِقُواْ﴾:

ذكرَ البلاغيُّون أنَّ صيغةَ الأمر موضوعةٌ لطلب الفعل استعلاءً لتبادر الذِّهن عند سماعِها إلى ذلك، وتوقُّف ما سواه على القرينةِ، وقد تُستعمل صيغةُ الأمر في غير طلب الفعل بحسب مناسبةِ المقام، كما في الصِّيغة المستعملة في قوله: ﴿أَنفِقُواْ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾، فقد حُمِلت على الوجوه الآتية:

الأمرُ بمعنى الشَّرطِ والجزاء

إنَّه لفظُ أمْرٍ ومعناه معنى الشَّرط والجزاء، والمعنى: إنْ أنفقتُم طائعين، أو مُكرَهين؛ فلَنْ يُتَقَبَّلَ مِنْكُمْ، ومثل هذا من الشِّعر قولُ كُثَيِّر[2]:

أَسِيئي بنا أَو أَحْسِنِي لا مَلومةً *** لَدَيْنا ولا مَقْلِيَّةً إنْ تَقَلَّتِ

فلمْ يأمرْها بالإساءَة، ولكن أعلَمَها أنَّها إن أساءَت، أو أحسَنَتْ؛ فهو على عهدِهَا، فإن قال قائلٌ: كيف كان الخبرُ في معنى الأمر؟ قيل: هو كقولك: غفر اللّه لزيدٍ، ورحم اللّه زيدًا. فمعناه: اللّهمَّ ارحمْ زيدًا[3]. وردَّه أبو حيَّانَ لعدم وجودِ الفاء في جواب الشَّرط؛ لأنَّ (لن) لا تقع جوابًا للشَّرط إلا بالفاء، فكذلك ما ضُمِّن معناه[4].

الأمرُ بمعنى الخبرِ

وذهب الزّمخشريُّ إلى أنَّه أمرٌ في معنى الخبر، كقوله تعالى: ﴿قُلْ مَن كَانَ فِي ٱلضَّلَٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا﴾، ومعناه: لن يَتقبَّلَ منكم نفقاتِكم، سواء أنفقتم طوعًا أو كرهًا.

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/225.

(2) ديوان كُثيّر عزّة، ص: 101.

(3) الزّجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 2/453، والشّوكانيّ، فتح القدير: 2/421.

(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/433.

وجوَّزَ نحوَ هذا دلالةُ الكلام عليه، كما جاز عكسُهُ في قولك: (رحم اللّه زيدًا، وغفر له)، والنُّكتةُ هي توخِّي إظهارِ نَفْيِ أن تتفاوت الحالُ في أمرٍ ثابتٍ يزاول المخاطَبُ خلافه[1]. وفائدته: المبالغةُ في تساوي الإنفاقيْن في عدم القبول، كأنَّهم أمروا بأن يُمتحَنوا، ويُجرَّبُوا؛ فينفقوا في الحاليْن، وينظروا هل يُتَقبَّل منهم؟ فيشاهدوا عدمَ القبولِ[2].

فائدةُ معنى الخبر نفيُ التّفاوتِ، والمبالغةِ في تَساوي الإنفاقَيْن

وذهبَ آخرون إلى أنَّه ليس أمرًا بالإنفاق، بل هو: توبيخٌ، وتهديدٌ، ووعيدٌ، مثلما تقول لإنسانٍ: اصبرْ، فذلك ليس أمرًا بالصَّبر، ولكن تهديد بمعنى: اصبر، فَستَرى منِّي هولًا كثيرًا. وهذا مثلُ قولهِ تعالى: ﴿فَٱصۡبِرُوٓاْ أَوۡ لَا تَصۡبِرُواْ﴾ [الطُّور: 16][3].

خرجَ لفظُ الأمرِ، إلى التَّوبيخِ والوعيدِ

نُكتةُ العطفِ بـ(أو):

أفادت (أو) هاهنا: التَّخييرَ؛ وفَائدَةُ تعبير الخبرِ بالأمر مع ذكر الحاليْنِ المُخالفَيْنِ بلفظة (أو): المُبَالَغَةُ في تساوي الإنفاقيْن في عدم القَبول[4].

المبالغةُ في تساوي الإنفاقَيْن، في عدمِ القَبولِ

توجيهُ القراءة في ﴿كَرۡهًا﴾:

قرأَ حمزةُ والكسائيُّ وخلفُ (كُرْهًا) بضمِّ الكافِ ها هنا، وفي النِّساء والأحقاف، وقرأ عاصم وابن عامر، ويعقوب، وابن ذكوان في الأحقاف بالضَّمِّ من المشقَّة، وفي النِّساء والتَّوبة بالفتح من الإكراهِ، والباقون بفتح الكاف في جميع ذلك، والكُرهُ بالضَّمِّ: المشقَّةُ، وبالفتح ما أُكرِهتَ عليه[5]، وتحتمل اللَّفظةُ في الآية الدِّلالتيْن، فهم مُكرَهون، مُنفِقون في مشقَّةِ الإلزام.

الكُرْهُ بالضَّمِّ المشقَّةُ، وبالفتحِ ما أُكرهتَ عليه

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/279، والطّيبيّ، فتوح الغيب: 7/270.
(2) البيضاويّ، أنوار التّنزيل وأسرار التّأويل: 3/84، والآلوسيّ، روح المعاني: 5/307.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/433، والشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 9/5182.
(4) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 9/251.
(5) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 16/68، وابن الجزريّ، النّشر: 2/248.

بَلاغةُ الاستعارة، في جُملة الأمرِ:

شبَّهَ حالَهم في النَّفقة بحالِ مَن يُؤمرُ بفعْلٍ لِيجرِّبَه، فيظهرُ له عدمُ جَدْواه

في جملة الأمر استعارةٌ تمثيليَّةٌ شُبِّهتْ حالُهم في النَّفقة، والهيئة المنتزعةِ من إنفاقهم طوعًا أو كرهًا وعدمِ قَبولها بوجه منَ الوجوه؛ لانتفاء شرطها؛ بحال مَنْ يُؤْمَر بفعل ليجرِّبَهُ، فيظهرُ له عدمِ جدواه، فلا يتوهَّم أنَّه إذا أُمر بالإنفاق؛ كيف لا يُقبل؟ أو بحال من أُمرُوا بالإنفاق لا لطلب الفِعْل منهم، بل ليمتحنوا، فينفقوا، هل يُتقبَّل منهم أم لا[1]؟

دَلالةُ التَّعبيرِ عنِ الطّواعيةِ والكُرهِ بالمصدرِ:

أفادَ التَّعبيرُ بالمصدريَّةِ، المبالغةَ والتّوسُّعَ في المعنى

أشار معظمُ المفسِّرين إلى أنَّ قولَهُ ﴿طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾، معناهُ: (طائعين أو كارهين) أي: هو بمعنى المشتقِّ[2]، لكن يبدو أنَّ المصدرَ هنا مرادٌ لغرضيْن[3]:

الأوَّلُ: المبالغةُ، فإنَّ المصدرَ هو الحدثُ المجرَّدُ، والوصف هو الحدث مع الذَّاتِ، فـ(طائع) و(كاره) يدلَّان على الحدث وذات الفاعل، أمَّا المصدر (طوع)، و(كره)؛ فهو الحدث المجرَّدُ من الذَّات والزَّمن، والمعنى: أنَّهم لو تحوَّلوا إلى إنفاقِ كَرْه أو طَوْع، ولم يبقَ فيهم شيءٌ من عنصر الذَّات، بل تحوَّلوا إلى حدث مجرَّدٍ؛ فلن يُقبل منهم، وفي هذا مبالغةٌ.

والثّاني: التوسُّع في المعنى، وذلك أنَّك إذا عبَّرت بالوصف؛ فقد أردت معنى واحدًا ليس غيرُ، ولكن إذا عبَّرت بالمصدر اتَّسع المعنى، وكسبتَ أكثر من قصدٍ وغرض، فقد تكسب معنى المصدريَّة والحاليَّة؛ فقوله: ﴿كَرْهًا﴾ يحتملُ المفعوليَّةَ المطلقة، ويحتمل الحاليَّة، فقد كسبتَ معنييْن مُراديْن معًا، قال ابن عاشور: "وانتصب ﴿طَوْعًا﴾

(1) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 9/251، والآلوسيّ، روح المعاني: 5/307.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/279 - 280.
(3) ذكر فاضل السّامرائيّ في كتابه معاني النّحو: 2/288 - 290: "غرضَي العُدول من الوصف إلى المصدر، وأفيدَ ممّا ذكر في توجيه قصديَّة استعمال المصدر في الآية".

أو ﴿كَرْهًا﴾ على النِّيابة عن المفعول المطلق بتقدير: إنفاقِ طوعٍ، أو إنفاقِ كرهٍ، ونائب فاعل يُتقبَّل: هو ﴿مِنكُمْ﴾، أي: لا يُتقبَّل منكم شيءٌ، وليس المقدَّرُ الإنفاقَ المأخوذَ من أنفقوا؛ بل المقصودُ العمومُ"[1].

علَّةُ تسميّةِ الإلزام إكراهًا:

وسُمِّيَ الإلزامُ كُرهًا؛ لأنَّهم منافقون، فكان إلزامُ اللّه تعالى إيَّاهم الإنفاقَ شاقًّا عليهم كالإكراهِ[2]، فهم ليسوا كالمؤمنين في أنْ يُنفقوا عن طوعٍ ورغبة ونشاط قلبٍ، بل هم كالمُكرَهين فيه[3]، والكُره أشدُّ الإلزام، وبينه وبين الطَّوع مراتبُ تُعلَمُ إرادتُها بالأَوْلى[4].

إلزامُ الله تعالى إيَّاهم الإنفاقَ شاقٌّ عليهم كالإكراهِ

نكتةُ النَّفْيِ بـ﴿لَّن﴾:

دخولُ (لن) على فعل التَّقبُّل المضارع المبني للمفعول أخلصَهُ للاستقبال الممتدِّ المتطاول، ونفاه نفيًا مؤكَّدًا مشدَّدًا، فإيثارُ استعمال ﴿لَّن﴾ ههنا لتأكيد نفي تقبُّل اللّه ما ينفق المنافقون رياءً على الدَّوام، طوعًا كان إنفاقهم، أو كرهًا.

أكَّدَ نفيَ تقبُّلِ ما يُنفقون رياءً على الدَّوامِ

سِرُّ الاستغناءِ عنِ الفاءِ في ﴿لَّن﴾:

لم يربط الجوابَ بالفاء بل قال: ﴿لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ﴾؛ لأنَّ سببَ الإعراض عنهم كفرُهُم لا إنفاقهم، أي: لن يقع تقبُّلٌ لشيءٍ، يأتي من قِبَلِكم أصلًا من أحدٍ كائنًا مَنْ كان[5].

سببُ الإعراضِ عنهم، كفرُهُم لا ما يُنفقونَ

سِرُّ تشديدِ فعْلِ عدمِ التَّقبُّلِ:

التَّعبيرُ بصيغة التَّفعُّل يرادُ بهِ المبالغةُ في نفي التَّقبُّل، والتَّشديدُ على عدم قَبول ما يُنفقونه بوجهَيْه، أو كأنَّ قبولَه منهم كان ظاهرًا لا باطنًا[6].

التَّشديدُ للمبالغةِ، في نفْيِ قَبولِ الإنفاقِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/226.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/280، والرّازيّ، مفاتيح الغيب: 16/69.
(3) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 7/271.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/226.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/498.
(6) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/498.

غرَضُ نفْيِ التّقبُّلِ، والتَّعبيرِ عنه بالمبني للمجهولِ:

نفيُ التَّقبُّلِ يحتملُ عدمَ الأخذِ منهم، أو عدمَ الإثابةِ عليه

والغرَضُ في نفْيِ التَّقبُّل تركُ رسول الله ﷺ تقبُّلَه منهم، وردُّ ما يبذلون منه عليهم، أو هو غيرُ مقبولٍ عند الله تعالى ذاهبًا هباء لا ثواب له[1]، أي: إنَّ نفي التَّقبُّل يحتمل أنْ يكون بمعنى عدم الأخذ منهم، ويحتمل أن يكون بمعنى عدم الإثابة عليه، وكلٌّ من المعنيَيْن واقعٌ في الاستعمال، فقبولُ الناس له أخْذُه، وقَبول الله تعالى ثوابُه عليه. ويجوز الجمع بينهما[2]، ولذلك عبَّرَ عنه بالمبنيِّ للمفعول لعدم قَبوله من الاثنيْن، وبناه للمفعول أيضًا؛ لأنَّ قلوبَهم كارهةٌ ليست لها نيَّةٌ صالحة في الإنفاق ولا في غيره[3].

وَجْهُ الفصْلِ في جملةِ الفاصلةِ:

بيانُ التّعليل لما قبْلَها؛ من ردِّ الإنفاقِ، ونفْيِ التّقبُّلِ

وقوله سبحانه: ﴿إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾ جملةٌ منفصلة عن سابقتها؛ لأنَّها تعليلٌ لها، ووجهُ التَّعليل ردُّ الإنفاق، ونفي التقبُّل؛ ولأنَّ الجملةَ الأولى طلبيَّةٌ، والثانية خبرية[4].

نُكتةُ التَّعبيرِ بـ(إنَّ):

الكافرُ لا يُتقبَّل منه عملُ البرِّ

وقعت (إنَّ) المفيدةُ لمعنى فاء التَّعليل في جملةِ ﴿إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾ الواقعةِ في موضع العلَّةِ لنفي التَّقبُّل؛ لأنَّ الكافر لا يُتقبَّلُ منه عملُ البرِّ[5].

سِرُّ التَّعبيرِ بالفعْلِ (كان):

صفةُ الفسوقِ مركوزةٌ في نفوسِ المنافقين

يدلُّ قولُه تعالى: ﴿كُنتُمْ﴾ على الحصول المطلق، وعلى الاتِّصاف بالحدث في الزَّمن الماضي على وجه الثُّبوت، واستمرار مضمون الخبرِ، وحيث أخبرَ به عن صفات الآدميِّين، فالمرادُ التَّنبيهُ على أنَّ

(1) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 2/279 - 280.
(2) البيضاويّ، أنوار التّنزيل وأسرار التّأويل: 3/84، والآلوسيّ، روح المعاني: 5/307.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/498.
(4) الآلوسيّ، روح المعاني: 5/307، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/226، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 6/3332.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/226.

هذه الصِّفاتِ طبيعةٌ فيهم، مركوزة في نفوسهم، فهم قوم متَّصفون بالفسقِ، ركزَ في نفوسِهم، وتمكَّن منهم، فعَمُوا عن الحقِّ، وصمُّوا، وأنَّ الفسق فيهم جبلَّةٌ وطبْعٌ[1].

عِلَّةُ استِحْضارِ لفظِ القومِ منكَّرًا:

الفُسوقُ من مُقوِّمات قوميَّتهم، تأصُّلًا، ومخالطةً للنَّفس

إجراءُ الوصْفِ على لفظ قومٍ يومِئُ إلى أنَّ ذلك الوصفَ سجيَّةٌ فيهم، ومن مكمِّلات قوميَّتهم، فإنَّ للقبائل والأمم خصائصَ تميِّزها، وتشتهر بها، كما قال تعالى: ﴿وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ۝٥٦﴾ [التَّوبة: 56]، واستحضارُهم بعنوان القوميَّة في الفسق يؤذن بأنَّ الفسوقَ من مقوِّمات قوميَّتهم، أي: تأصَّل فيهم، وخالط نفوسَهم، فدفعهم إلى أمثال تلك الأقوال، والأفعال[2]، وزاد التَّنكيرُ وجهَ الحطِّ من قدرِهم، والاستهانةِ بهم.

دَلالةُ الفِسقِ:

تنوُّعُ دَلالاتِ الفِسْقِ، ومآلُها كلُّها إلى الكُفرِ

اختُلِفَ في دَلالةِ الفِسق في الآية، فقيل: إنَّه العُتوُّ والتّمرُّد، ويُعترضُ عليه: أنَّه عُلِّلَ مع الكفرِ بالفسقِ الَّذي هو دونه، وكيف صحَّ ذلك مع التَّصريح بتعليلِه بالكفر في قوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ﴾؟ وقد يرادُ به ما هو الكامل، وهو الكفرُ، ويكون هذا منه تعالى بيانًا وتقريرًا لذلك[3]، أو يرادُ بهِ: الخروجُ، وهم بالحكم عليهم بأنَّهم فاسقون، يكون محكومًا عليهم بأنَّهم خارجون عن الجماعة بشعورهم، وإنْ كانوا فيها بأجسامِهم، وذلك مع كفرهم[4]. وذهب الشَّيخ الشعراويُّ إلى أنَّ الفسق في هذه الآية الكريمة، ليس هو الخروج عن مُطلَق الطّاعةِ، ولكنَّه فسقٌ من نوع خاصّ؛ لأنَّ هناك فسقًا محدودًا، وهو

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/498.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/89.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 5/307، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/226.
(4) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 6/3332.

أن يخرج الإنسانُ عن مجرَّدِ تكليفٍ، ولكنَّ الفسقَ الكبير هو أن يكفرَ الإنسان بالله، ولذلك جاءت بعد هذا الآيةُ الكريمة: ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ﴾[1].

سِرُّ العُدولِ عن لفظِ الكافرين إلى الفاسقين:

الفاسقونَ يُظهرون الإسلامَ، ويُضمِرون الكُفرَ

وإنَّما اختيرَ وصفُ الفاسقين دون الكافرين؛ لأنَّهم يُظهرون الإسلامَ، ويُبطنون الكفر، فكانوا كالمائلين عن الإسلام إلى الكفر، والمقصود من هذا تأييسهم من الانتفاعِ بما بذلوهُ من أموالهِم، فلعلَّهم كانوا يحسبون أنَّ الإنفاق في الغزو ينفعهم على تقدير صدق دعوة الرَّسول ﷺ، وهذا من شكِّهم في أمر الدِّين، فتوهَّموا أنَّهم يعملون أعمالًا تنفع المسلمين يجدونها عند الحشر على فرض ظهورِ صدْقِ الرَّسولِ، ويبقون على دينهم، فلا يتعرَّضون للمهالك في الغزو ولا للمشاقِّ، وهذا من سوء نظرِ أهل الضَّلالة، كما حكى اللهُ تعالى عن بعضهم: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾﴾ [مريم: 77]؛ إذ حسب أنَّه يُحشَرُ يوم البعث بحالته التي كان فيها في الحياة؛ إذا صدقَ إخبارُ الرَّسول ﷺ بالبعث[2].

تَوجيهُ التَّعبيرِ بحشْدِ المؤكِّدات:

فِسْقُهم راسخٌ فيهم فعلًا، ودَيْمومةً

وقد أكَّد الله ﷻ ذلك الحكمَ بعدَّة مؤكِّدات، أوَّلُها بالجملة الاسميّة، وثانيها بـ (إنَّ) الحرف الدَّالِّ على التَّوكيد، وثالثها بـ (كان) الدالَّةِ على استمرارهم في الفسق والخروج عن الجماعة وعدم الشُّعور بشعورها[3]. ورابعها: التَّعبيرُ باسم الفاعل المجموع الدَّالِّ على ديمومة فسقهم وعراقتهم فيه بالغين أنهى غاياته[4].

(1) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 9/5186.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/226.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 6/3332.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/498.

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الكُرهُ، والغصبُ، والقهرُ:

تقدَّم أنَّ الكَرْهَ: المشقَّةُ التي تنال الإنسان من خارجٍ فيما يحمل عليه بإِكْرَاهٍ، والكُرْهُ: ما يناله من ذاته، وهو يعافه، والإِكْرَاهُ: يُقال في حمْلِ الإنسان على ما يكرهه[1]، وأنَّ معناه أشدُّ الإلزام.

الكُره: حمْلُ المرءِ على ما يَكرهُ، أو ما ينالُه من ذاتِهِ وهو يَعافُه

والغَصْبُ: أخْذُ شيءِ الآخَرِ والاستيلاء ظلمًا، وقهرًا، وعدوانًا[2].

والقهرُ: الغلبة، والأخذُ من فوق، يُقالُ: أخذهم قَهْرًا، أيْ: من غير رضاهم، فأصلُ الكلمة يدلُّ على غلبة وعلوٍّ، وتذليل معًا، ويُستعمل في كلِّ واحدٍ منهما[3]، فالقهرُ غلبةٌ، وإكراهٌ مع تسلُّطٍ.

يتبيَّن أن في الكُرْه دلالتيْن محتملتَيْن: حملُ المرءِ على ما يكره، أو ما يناله من ذاته، وهو يعافه. والمعنيان يحتملُهما السِّياقُ بحسب ما مرَّ من توجيهِ قراءتَيْ فتحِ الكاف، وضمِّها. أمَّا الغصبُ، والقهرُ؛ فلا يحتملان إلَّا دلالةً واحدة؛ قوامُها تسلُّطٌ خارجيٌّ فيه غلبةٌ، واستيلاءٌ على الحقوق.

(1) الرّاغب، المفردات: (كره).

(2) الجوهريّ، الصّحاح، والرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ، وابن منظور، لسان العرب: (غصب).

(3) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (قهر).

﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ ٥٤﴾ [التّوبة: 54]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الآيةُ تقريرٌ للمانعِ منَ القَبولِ، بعد بيانِ علّةِ المنعِ منَ الكُفران والامتنانِ

لمّا وضَّح في الآية السَّابقة أنَّ عراقتَهم في الفسق وبلوغَهم أنهى غاياتهِ في الخروج عن الطَّاعة؛ بيَّنه في قوله: ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ﴾، أي: باطنًا[1].

وجعل الفسقَ في الآية السَّابقة علَّةً في عدم القبول، وقرَّر هنا المانع من القبول، فالمنع من وجودِ المفسدةِ أقوى من العلَّة في عدمها؛ لأنَّ المانع دافعٌ لها بعد أن كانت في مادَّةِ الثُّبوت، ولهذا استدلَّ بثلاثة أمور، وهي: الكفر، والكسل في الصَّلاة، وكراهة الإنفاق[2].

المَعْنى الإجْمالِيُّ:

فُقدانُ شروطِ القَبولِ، يمنعُ صاحبَه منَ القَبولِ، ومن فقدَ الإخلاصَ، حُرِمَ الخلاصَ

وما منع هؤلاء المنافقين أن تُقبَلَ منهم نفقاتُهم الّتي ينفقونها في سفرهم معك، وفي غير ذلك من السُّبل إلا كفرُهم بالله ورسوله، وإتيانهم الصَّلاة متثاقلين بها؛ لأنَّهم لا يرجون بأدائها ثوابًا، ولا يخافون بتركِها عقابًا، وإنَّما يُقيمونها مخافةً على أنفسهم بتركها من المؤمنين، فإذا أمِنُوهم لم يُقيموها، ولا يُنفقون من أموالهم شيئًا في الوجه الَّذي ينفقونه فيه، ممَّا فيه تقويةٌ للإسلام وأهله، إلَّا وهم كارهون أن ينفقونَهُ[3]. فلمَّا "فقدوا الإخلاصَ في أموالهم؛ عدموا الاختصاصَ في أحوالهم، وحرموا الخلاصَ في عاجلِهم وفي مآلِهم"[4].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/498.
(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/315.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 14/294 - 250.
(4) القشيريّ، لطائف الإشارات: 2/35.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ الوصلِ بواو العطفِ:

وُصلت هذه الآيةُ الكريمة بالآية السَّابقة بالعطف على جملة ﴿إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾؛ لأنَّها تتميمٌ للسَّبب الَّذي منعَ تقبُّل ما يُنفقون[1]، ببيان ما في التَّعليل بالفسق من إجمال[2]، وبيان تعليل عدم قَبولِ نفقاتِهم بزيادة ذكر سببيْن آخريْن مانعيْن من قبولِ أعمالهم هما من آثار الكفرِ والفسوق، وهما: أنَّهم لا يأتون الصَّلاة إلا وهم كسالى، وأنَّهم لا يُنفقون إلا وهم كارهون[3].

تتميمٌ للسَّببِ الّذي منعَ تقبُّلَ ما يُنفقون

بيانُ الفرقِ بين ﴿يُتَقَبَّلَ﴾، و﴿تُقْبَلَ﴾:

أُوثرَ التَّعبيرُ هنا بقوله تعالى: ﴿أَن تُقْبَلَ﴾؛ للدَّلالة على علَّة عدم قَبولِ نفقاتهم، فتخفيف الفعل ﴿تُقْبَلَ﴾؛ لأنَّه إخبارٌ عنِ المنع، فلم يكن لهم أدنى قَبولٍ.

وفي الآية السَّابقة بقوله تعالى: ﴿أَنفِقُواْ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ﴾ بصيغة ﴿يُتَقَبَّلَ﴾؛ للدَّلالة على استنفادِ الطَّاقة، واستفراغ الوُسع، وجَهْدِ محاولاتهم في أن تُتَقَبَّل منهم صدقاتُهم، ولأنَّهم كانوا يظنُّون أنَّ أيَّ إنفاقٍ يُقدِّمونه؛ يُتقبَّلُ برغبةٍ من النَّبيِّ وأصحابه، فإنَّ صيغة التَّقبُّل تدلُّ على القبول برغبةٍ، كما قال تعالى في نَذْر مريم: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ﴾[4].

الظّنُّ بأنَّ أيَّ إنفاقٍ يقدِّمونه، يُتقبَّلُ برغبةٍ منَ النَّبيِّ وأصحابِه

دَلالةُ فعْلِ ﴿أَن تُقْبَلَ﴾:

قولُه تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ﴾، وفيه نجد أنّ فعل القَبول في هذه الآية: ﴿تُقْبَلَ﴾ من أصل القبول، وسببُ المنع هو أصلُ القبول، ولو كان المنعُ من التَّقبُّل؛ لكان أصلُ القبولِ غيرَ ممنوع[5].

سببُ منعِ قَبولِ النّفقاتِ، هو أصلُ القَبولِ المعبَّرِ عنه بأصلِ الفعلِ

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 6/3332.
(2) رضا، تفسير المنار: 10/416.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/227.
(4) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 6/3332.
(5) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 6/3332.

تَوجيهُ القراءةِ في: ﴿أَن تُقْبَلَ﴾:

النَّفقاتُ في معنى الإنفاقِ، أو أنَّ الفعلَ مُسندٌ إلى مؤنَّث

قرأ ابن كثير ونافع وابن عامر وعاصم: ﴿أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَتُهُمْ﴾، وقرأ حمزة والكسائيُّ وخلف فيما روي عنه: ﴿أَن يُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَتُهُمْ﴾ بالياء[1]. ووجه القراءة بالياء أنَّ النَّفقات في معنى الإنفاق، كقوله: ﴿فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ﴾، ووجهُ مَنْ قرأ بالتَّأنيث أنَّ الفعل مُسنَدٌ إلى مؤنَّث[2]، أيْ: إنَّ القراءةَ بالياء على التَّذكير؛ لأنَّ تأنيث النَّفقات غيرُ حقيقيٍّ، والباقون بالتَّاء على التَّأنيث، أي: تأنيثُ النَّفقات لفظيٌّ لا حقيقيّ، فيجوزُ تذكيرُ فعلِه؛ لأنَّ جمْعَ غيرِ المؤنث الحقيقيِّ يجوز فيه التَّذكيرُ وضدُّه[3].

سِرُّ بناءِ فعل ﴿أَن تُقْبَلَ﴾ للمفعول:

قَبولُ العملِ معلّقٌ على ما يَنطوي عليه القلبُ، من إخلاصٍ وتَقوى

بناءُ فعل التَّقبُّل على هيئة ما لم يُسمَّ فاعلُه، تركيزٌ للعنايةِ بحدث عدمِ قَبولِ إنفاقِهم بصرف النَّظر عن مُحْدِثه، أو نوع النَّفقة وهيئةِ إنفاقها؛ فالمقصود ردُّ نفقاتهم، وكشْفُ نِيَّاتِهم، وذمُّهم وتقبيح صنيعهم، فضلًا عمَّا يوحي به فعل التَّقبُّل وعدمه من تعليق قَبول العمل على ما ينطوي عليه القلبُ من إخلاصٍ، وصدقٍ، وتقوى.

علَّةُ العُدولِ عنِ المفعولِ الصَّريح إلى المؤوَّل:

الدّلالةُ على حدَثِ عدمِ التَّقبُّل، مع كونِه مجرَّدًا من أيِّ احتمالٍ زائدٍ عليه

المصدر المؤوَّلُ ﴿أَن تُقْبَلَ﴾ يفيدُ الدّلالة على الحدث مقترنًا بالزَّمن الماضي وممتدًّا إلى المستقبل، فضلًا عن دلالتهِ على مجرَّد معنى حدث عدم التَّقبُّل دون احتمالٍ زائد عليه، فالتَّعبيرُ عن الحدث بالمصدر المؤوَّلِ خصَّصَ التَّعبير في حدث عدم القبول حَسْبُ، ولو عُبِّرَ عنه بالمصدر الصَّريح (قبول)؛ لاحتملَ الكلامُ معاني كيفيَّاتِ عدمِ التَّقبُّل، وحالاتِها، وهو ما لا فائدةَ فيه في هذا الموضع.

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/45، وابن الجزريّ، النّشر: 2/279.
(2) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 16/70.
(3) الشّربينيّ، السّراج المنير: 1/621.

دَلالةُ تَعْدِية فعلِ التقبُّل بالحرف (مِن):

بيانُ أنّه لم تُقبلْ نفقاتُهم منهم ابتداءً

وفعل (قَبِلَ) يتعدَّى بـ (من) الابتدائيَّةِ، كما في الآية هنا، ومنه قوله: ﴿فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡ أَحَدِهِم مِّلۡءُ ٱلۡأَرۡضِ ذَهَبٗا﴾ [آل عمران: 91]، فيفيد معنى الأخذِ للشَّيء المقبولِ، صادرًا من المأخوذ منه[1]، وأفادت هنا عدمَ قبولِ نفقاتِهم ابتداءً.

نُكتةُ تقديمِ شِبْهِ الجملةِ على النَّفقاتِ:

خُصِّصَ عدمُ التَّقبُّلِ بهم

وقدَّمَ شِبْهَ الجملة منَ الجارِّ والمجرور: ﴿مِنۡهُمۡ﴾ على ﴿نَفَقَٰتُهُمۡ﴾ لتخصيص عدمِ التّقبُّل بهم، فهم المقصودون بعدم القبول، والمعنيُّون بالأمرِ، وفي ذلك ذمٌّ لهم، وحطٌّ من شأنهم، وخسارة بالمال والمآل.

علَّةُ جمْعِ النَّفقاتِ، ونِسبتِها إلى المنافقين:

التَّقليلُ من شأنِ ما ينفقون، تهوينٌ من شأنِهم

جمعُ المؤنَّث السَّالم من جموع القلَّةِ، وجمعُ النَّفقاتِ على هيئةِ الجمعِ هذه في الآية يدلُّ على التَّقليل من شأنِ ما ينفقون، وقلَّة جدواه، ونفعه للمسلمين، وخصَّص النَّفقات بنسبتها إليهم؛ ليدلَّ أنَّ غير المتقبَّل من النَّفقات هو العائدُ إليهم.

التَّعبيرُ عن كُفرِهم بالتَّأويلِ بالمصدرِ:

المجيءُ بعلَّةِ عدمِ قَبولِ نفقاتِهم مُؤكَّدًا

عدل عنِ المصدر الصَّريح (إلَّا كفرُهم) إلى المصدر المؤوَّل ﴿إِلَّآ أَنَّهُمۡ كَفَرُواْ﴾ للمجيء بعلَّةِ عدم قبولِ نفقاتهم مؤكَّدًا بأنَّ وجملتِها الاسميَّةِ الدَّالَّةِ على الثُّبوت، والمُصاغة بهيئة المصدر المؤوَّل الدّالِّ على التوكيد، والحصر بأداة الاستثناء، وهيئة الماضي الدّالِّ على وقوع الفعل، وتحقُّقِه.

إظهارُ اسمِ الجلالة ﴿بِٱللَّهِ﴾:

تعظيمُ جُرْمِ المنافقين، وفسادِ غرائزِهم بيقينٍ

قولهُ تعالى: ﴿كَفَرُواْ بِٱللَّهِ﴾، أيْ: الّذي له جميعُ صفاتِ الكمال من الجلالِ والجمال، وإظهارُ اسمه الأعظم بيانٌ لفساد جبلَّاتهم وسوء غرائزهم، وفيه مذمَّتُهم، وتقبيحُ فعلهم[2].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/89.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/499.

علَّةُ تَكرارِ حرف الجرِّ (الباء):

إشعارٌ بأنَّ كلَّ منَ الكُفرِ بالله تعالى وبرسوله الأكرم، مانعٌ للقَبولِ

ولمَّا كان قبولُ النَّفقات مُهَيَّئًا للطهارة التي هي عمادُ الصَّلاة؛ كان السِّياقُ لعدم قبولها أبلغَ؛ لأنَّه أدلُّ على الخبث، مع الإلماح بأنَّ ذلك سببٌ للنَّهي عنِ الصَّلاة عليهم؛ فأكَّد كفْرَهم بزيادة الجارّ (الباء) إشعارًا بأنَّ الكفر بالله تعالى وبرسوله ﷺ كلٌّ على حياله مانعٌ؛ فالكفرُ بالله كفرٌ، والكفر بالرَّسول كفرٌ أيضًا، فقال: ﴿وَبِرَسُولِهِۦ﴾[1].

بيانُ المتشابهِ اللَّفظيِّ في باء ﴿وَبِرَسُولِهِۦ﴾:

الإيجابُ بعد النَّفي، مَظنَّةُ توكيدِ الخبرِ

زاد (باءً) في قوله: ﴿وَبِرَسُولِهِۦ﴾، وحذَفَها من قوله: ﴿كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [التّوبة: 80، و84]، وكلاهما في السُّورة نفسها؛ لأنَّ الكلامَ في الآية الأولى إيجابٌ بعد نفي، فصار الخبرُ أوكدَ، وإلى أمارتِه أحوجَ، وهو الغايةُ في باب التَّأكيد، فأكَّد أيضًا المعطوفَ على الله بتكرار (الباء)؛ ليكونَ الكلُّ على منهاج واحد، وليس كذلك الآيتان بعدهما، فإنَّهما خَلَتا من التَّأكيد بالإيجابِ بعد النَّفي[2].

دَلالةُ عطفِ أعمالِهم بالواو:

الجمعُ بين الأعمالِ الثَّلاثةِ نفاقٌ: (الكفرُ، والكسلُ عن الصّلاة، وكراهةُ الإنفاقِ)

ذكرَ السَّببَ الّذي هو بمفردِهِ مانعٌ من قَبولِ نفقاتِهم، وهو الكفرُ، وأتبعَهُ بما هو ناشئٌ عنِ الكفرِ ومستلزمٌ له، وهو دليلٌ عليهِ، وذلك هو إتيانُ الصَّلاة وهم كسالى، وإيتاءُ النَّفقة، وهم كارهون، فعطف بالواو للدَّلالة على أنَّهم جمعوا بين هذه الأعمالِ، فالكسلُ في الصَّلاة وتركُ النَّشاط إليها وأخذها بالإقبال من ثمرات الكفر، فإيقاعُها عندهم لا يرجون به ثوابًا، ولا يخافون بالتَّفريط فيها عقابًا، وكذلك الإنفاقُ للأموال لا يكرهون ذلك إلَّا وهم لا يرجون به ثوابًا[3].

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/499.

(2) الإسكافيّ، درّة التّنزيل: 2/671 - 672، والكرمانيّ، غرائب التّفسير: 1/456.

(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/435.

علَّةُ التَّخصيصِ بالصَّلاةِ والنَّفقةِ:

ذَكَرَ مِن أعمال البِرِّ العملَيْن الجليلَيْن: الصَّلاةَ والنَّفقةَ، واكتفى بهما، وإن كانوا أفسدَ حالًا في سائر أعمال البِرِّ؛ لأنَّ الصَّلاةَ أشرفُ الأعمال البدنيَّة، والنَّفقة في سبيل الله أشرفُ الأعمال الماليَّة، وهما وصفان المطلوب إظهارهُما في الإسلام، ويُستدلُّ بهما على الإيمان[1].

الصَّلاةُ أشرفُ الأعمالِ البدنيّةِ، والنَّفقةُ أشرفُ الأعمالِ الماليّةِ

إيثارُ لفظِ ﴿وَلَا يَأۡتُونَ﴾:

منَ المعلوم أنَّ الإتيانَ قد يُقالُ باعتبار القصْدِ، وإن لم يكن منه الحصولُ، والمجيء يُقال اعتبارًا بالحصول[2]، ولذلك كان اختيارُ إتيان الصَّلاة تعبيرًا عن تثاقلهم وتقاعسهم عن قصد الصَّلاة ابتداءً قبلَ الدُّخول فيها، وأدائها، وذلك أبلغُ في الإنكار عليهم، وذمِّهم، وتشنيع فعلهم.

الدَّلالةُ على تثاقُلِهم عن قصْدِ الصَّلاةِ ابتداءً

بَلاغةُ تغييرِ الأسلوبِ منَ الماضي إلى المضارع:

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأۡتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ وما عُطِفَ عليه مَعْطُوفٌ عَلَى ﴿كَفَرُواْ﴾، وتغييرُ الأسلوب بالتَّعبير عن كفْرِهم بالماضي وعن إتيانهم الصَّلاةَ كسالى بالمستقبل يحتمل أن يكونَ لإفادة الاستمْرَار التَّجدُّديّ أو لحكاية الحال المَاضية واستحْضَارها، فمهما تجدَّدت صلاتُهم؛ فإنَّ التَّثاقلَ حالهُم الثَّابتةُ في أدائها، فجملةُ ﴿وَهُمۡ كُسَالَىٰ﴾ جملةٌ حاليَّةٌ مؤوَّلة بالمفرد، أيْ: متثاقلين[3].

إفادةُ الاسْتمْرَارِ التجدُّديِّ، أو لحكايةِ الحالِ الماضيةِ

إيثارُ لفظِ الكسلِ هيئةً، وجمعًا:

الكَسَلُ: التَّثاقلُ عمَّا لا ينبغي التَّثاقلُ عنه، والقعودُ عن إتمامِه أو عنه، أوِ الفتورُ في أدائه، ولأجل ذلك صار مذمومًا[4]، فالكسلان:

حالُ كسَلِهم عارضةٌ أثناءَ الصَّلاةَ؛ دلالةً على سوءِ بواطنِهم، وحقيقةِ نفاقِهم

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/435.
(2) الرّاغب، المفردات: (جاء).
(3) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 9/252 - 253.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (كسل).

الهابطُ الحركةِ، المتثاقلُ عمَّا ينبغي النَّشاط فيه[1]، وتقاعسُه أنَّه يأتي الصَّلاةَ على كُرْهٍ لا عن طيبةِ نفس ورغبة؛ إذ لا يرجو على فعلها ثوابًا، ولا يرهبُ من تركها عقابًا، وفعلُهُ بزِنَة فَرِحَ، أي: كَسِلَ، الدَّالُّ على الحال العارضة المتَّسمة بالهيجان، والخفَّة، والمستعملة فيما يُكرَهُ أمرُهُ في الغالب كعَسِر، وشَكِس، وأَشِر، وقَلِق... وغيرها، وفي استحضار الفعل على هذا الوزن مجموعًا ههنا ﴿كُسَالَىٰ﴾ دلالةٌ على أنَّهم ليسوا بكسالى؛ لكنَّها حالٌ عارضة تُصيبهم أثناء إتيانِهم الصَّلاةَ، ليعبِّر عن سوء بواطنهم، وحقيقة نفاقهم. وذكرَ الكسلَ في الصَّلاة مع أنَّه لا صلاةَ لهم أصلًا؛ لأنَّ الذَّمَّ واقعٌ على الكفر الَّذي يبعثُ على الكسلِ، فإنَّ الكفرَ مُكَسِّلٌ، والإيمانَ مُنَشِّطٌ[2].

بَلاغةُ الكِنايةِ في لفظِ ﴿كُسَالَىٰ﴾:

يحتمل لفظُ ﴿كُسَالَىٰ﴾ الكنايةَ عن السَّآمةِ والملالة والإكراه؛ لكونها من لوازمهِ وروادفه، ومظاهر الاتِّصاف به.

ملمحُ الكنايةِ عنِ السَّآمةِ والإكراه، بلفظِ الكسلِ

وجهُ التَّعبيرِ عنِ الإنفاق بالمضارع:

في قوله تعالى: ﴿وَلَا يُنفِقُونَ﴾، عَبَّر عنِ الإنفاق بالمضارع بما يُفيدهُ منَ الاستمرار التّجدُّديِّ، فضلًا عنِ استحضار حالِهم يفيد أنَّهم مهما يكن من تجدُّدِ إنفاقِهم، فإنَّ الكرهَ حالهم الثَّابتةُ.

مهما تجدَّدَ إنفاقُهم؛ فإنَّ الكُرهَ حالُهمُ الثَّابتةُ

بَلاغةُ التَّعبيرِ بالاستثناءِ المفرَّغِ:

وقد رسَّخَ الاستثناءُ المفرَّغُ بأداة الحصرِ، وتصديرُ الجملة بالضَّمير (هم) الدّالِّ على التَّخصيص، والتَّعبيرُ عنِ الكُرْهِ بصيغة اسم الفاعل؛ الدَّلالةَ على ثبوت صفةِ كراهة الإنفاق فيهم، ودوامها، وتمكُّنها منهم، وذكر ابن عرفة أنَّ فائدةَ الحصر: احتمالُ كون

فضْحُ طويَّتِهم، وكشْفُ بواطنِهم الفاسدةِ حالَ إنفاقِهم وصلاتِهم

(1) رضا، تفسير المنار: 5/382، والشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 1/438.
(2) الخلوتيّ، روح البيان: 3/448.

المانع من القبول قصْدَهم بالنَّفقة الرِّياءَ والسُّمعة، مع كفرِهم وكسلهم في الصَّلاة[1].

علَّةُ الاقتصارِ على ذكْرِ فعلَيْن مع الكُفرِ:

والكفرُ وإنْ كان وحدَهُ كافيًا في عدم القَبول، إلا أنَّ ذِكْرَ وصْفَي التَّكاسلِ في الصَّلاة، وكرهِ الإنفاق؛ إشارةٌ إلى تمكُّن الكُفر من قلوبهم وإلى مذمَّتِهم بالنِّفاق الدَّالِّ على الجُبن والتَّردُّدِ، فذِكْرُ الكفرِ بيانٌ لذِكْر الفسوق، وذِكْرُ التَّكاسلِ عنِ الصَّلاة لإظهار أنَّهم متهاونون بأعظم عبادة، فكيف يكون إنفاقُهم عن إخلاصٍ ورغبة، وذِكرُ الكراهيةِ في الإنفاق لإظهار عدم الإخلاص في هذه الخصلةِ المتحدَّثِ عنها[2].

ذِكْرُ الكُفرِ بيانٌ لذكْرِ الفُسوق، والتَّكاسُلِ لتهاوُنِهم، وكراهيَةِ الإنفاق لعدمِ إخلاصِهم

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الكسل، والثقل، والقعس:

الكَسَلُ: التَّثاقُلُ والفتورُ عمَّا لا ينبغي التَّثاقلُ عنه، والقعودُ عن إتمامه أو عنه، ولأجل ذلك صار مذمومًا[3]، وتَقَاعَسَ الرَّجلُ عنِ الأمر، أي: تأخَّرَ، ولم يتقدَّم فيه[4].

والتَّثاقُلُ التَّباطُؤ، والفتور[5]، وتثاقلَ القَوْمُ: استُنهضوا لنجدةٍ، فَلم ينهضوا إلَيْهَا، وجاء في التَّنْزيل: ﴿ٱثَّاقَلۡتُمۡ إِلَى ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ [التوبة: 38]، بمعنى: فَقْدِ الحماسِ للجهاد، والميل إلى الدُّنيا[6].

ومن هنا فإنَّ دلالةَ لفظ الكسل أنسبُ لحكم أداء الصَّلاة بوصْفِها عمودَ الدِّين، والفيصلَ بين الإيمان والكفر، والتَّثاقُلُ عنها فتورٌ عمَّا لا ينبغي التَّثاقُلُ عنه.

التَّثاقلُ عنِ الصَّلاةِ، فتورٌ عمَّا لا ينبغي التَّثاقُلُ عنهُ، بوصْفِها عمودَ الدِّين

---

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/315.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/227.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (كسل).
(4) الجوهريّ، الصّحاح: (قعس).
(5) الخليل، العين، والجوهريّ، الصّحاح: (ثقل).
(6) ابن سيده، المحكم، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (ثقل).

﴿فَلَا تُعۡجِبۡكَ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُمۡۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَتَزۡهَقَ أَنفُسُهُمۡ وَهُمۡ كَٰفِرُونَ ٥٥﴾ [التّوبة: 55]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الرَّبطُ بينَ فضحِ صفاتِ المُنافقينَ، والتَّنبيه إلى أنَّ حالَهُم استدراجٌ للهلاكِ

هذه الآيةُ مُرتبِطةٌ تمامًا بالسِّياقِ السَّابقِ في الحديثِ عن المُنافقينَ وصفاتِهم وفضحِهم وكشفِ مَواقفِهم، وقد أمرَ اللّه نبيَّهُ ﷺ في الآياتِ السّابقةِ بأن يبلِّغَهُم بأنَّ إنفاقَهُمُ الطَّوعيَّ أو الإلزاميَّ لن يُقبَلَ منهُم: ﴿قُلۡ أَنفِقُواْ طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهٗا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمۡ إِنَّكُمۡ كُنتُمۡ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ ٥٣ وَمَا مَنَعَهُمۡ أَن تُقۡبَلَ مِنۡهُمۡ نَفَقَٰتُهُمۡ إِلَّآ أَنَّهُمۡ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأۡتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمۡ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمۡ كَٰرِهُونَ ٥٤﴾ [التّوبة: 53 - 54]، فجاءَت هذه الآيةُ؛ لِتُحذِّرَ المؤمنينَ مِنَ الاغترارِ بوفرةِ أموالِ المُنافقينَ، وتَوفُّرِ أسبابِ الدُّنيا بينَ أيديهم، فما كانَ ذلكَ لهُم إلَّا تَعجيلًا في عذابِهم وهلاكِهم.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تُعۡجِبۡكَ﴾: مِن (عجب)، والتَّعجُّبُ حالةٌ تعرضُ للإنسانِ عندَ الجهلِ بسببِ الشَّيءِ، ولهذا قِيلَ: العَجبُ مَا لا يُعرَفُ سببُهُ، وقِيلَ: لا يَصحُّ على اللّهِ التَّعجُّبُ؛ إذ هو علَّامُ الغيوبِ، لا تخفى عنه خافيةٌ.. ويُقالُ: أعجبني كذا؛ أي: راقني[1]، وقالَ بعضُهُم: التَّعجُّبُ زيادةٌ في وصفِ الفاعلِ خَفيَ سببُها، وخَرجَ المُتعجَّبُ منهُ عن نظائرِه[2].

والعجيبُ: الأمرُ يُتَعَجَّبُ منهُ، وكذلك العُجابُ بالضَّمِّ، والعُجَّابُ بالتَّشديدِ أكثرُ منهُ، وكذلك الأعجوبةُ، وقولُهُم: (عَجَبٌ عاجِبٌ)، كقولِهم: (ليلٌ لائلٌ) يُؤكَّدُ به، والتَّعاجيبُ: العجائبُ، لا واحدَ لها مِن

(1) سميح عاطف الزّين، تفسير مفردات ألفاظ القرآن الكريم: (عجب).
(2) السّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (عجب).

لفظِها[1]، وزعمَ الخليلُ أنَّ بينَ العجيبِ والعُجابِ فرقًا، فَأمَّا العَجِيبُ والعَجَبُ مِثلُهُ فَالأمرُ يُتَعَجَّبُ مِنهُ، وأمَّا العُجَابُ فالَّذي يُجَاوِزُ حدَّ العَجِيبِ، قَالَ: وَذلكَ مِثلُ الطَّويلِ والطُّوَالِ[2]، وأعجبَني هذا الشَّيءُ، وقد أُعجبتُ بهِ، وشَيءٌ مُعجِبٌ؛ إذا كانَ حَسَنًا جدًّا.

2) ﴿وَتَزْهَقَ﴾: زهقَتْ نفسُهُ زُهُوقًا: "خرجَت وهَلَكَت، وماتَت (كزَهِقَت، كسَمِعَ)، لغتان ذكرَهُما ابنُ القُوطِيَّةِ والهَرَويُّ، ورجَّحا الكسرَ، وأبو عبيدٍ رجَّحَ الفتحَ، وفي حديثِ الذَّبيحةِ: «وأقِرُّوا الأنفُسَ حَتَّى تَزْهَقَ»[3]؛ أي: حتَّى تَخرُجَ الرُّوحُ منها، ولا يَبقَى فيها حركةٌ، ثمَّ تُسلَخُ، وتُقطَعُ"[4]، وقولُهُ تعالى: ﴿وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ﴾ [التّوبة: 55]، يُقالُ: زَهَقَت نفسُهُ؛ أي: فاضَت أسفًا[5]، والمعنى هنا: أنَّ اللّهَ يقولُ لِنبيِّهِ: لا تُعجِبْكَ كثرةُ أموالِ هؤلاءِ المُنافقينَ، ولا كثرةُ أولادِهِم، فاللّهُ يريدُ أن يعذِّبَهم بها في الدُّنيا، فَتَجِدُهُم في تعبٍ وضنكٍ وإرهاقٍ، ويبتليهم خلالَها بالمَصائبِ الَّتي تُصَبُّ عليهم صبًّا، ثمَّ لا يلبثونَ إلَّا قليلًا، حتَّى يَموتوا على كفرِهِم، فينصرمَ وجودُهُم في هذه الحياةِ، وتُزهَقَ نفوسُهُم، وتخونَهُمُ الأيَّامُ، فلا يرون فيها سرورًا ولا حبورًا.

❁ المَعْنى الإِجْماليُّ:

تذكير الرَّسولِ الأكرمِ ﷺ كي لا ينساقَ وراءَ الانبهارِ بما يحوزُ هؤلاءِ الكفرة مِن أموالٍ، وما عندَهُم مِن أولادٍ، ومَا يَرتعونَ فيهِ مِن نَعماءَ وخيراتٍ، فإنَّها ستكونُ عليهم حسراتٍ، لا يَنتفعونَ بها في دنياهُم، ولا في أُخراهُم، ثمَّ يميتُهُمُ اللّهُ على الكفرِ، فتُزهَقُ

التَّحذيرُ مِنَ الإعجابِ بِزخرفِ الأولادِ والأموالِ؛ لأنَّها استدراجٌ ووبالٌ

(1) الجوهريّ، الصّحاح: (عجب).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عجب).
(3) من حديث عثمان بن عفّان ﷺ: أمر مُناديًا فَنادَى: «أَنَّ الذَّكاة في الحَلقِ واللَّبَّةِ لمن قدر، وأقرُّوا الأَنْفس حَتَّى تزهق». يُنظر: أبو بكر بن أبي شيبة، الكتاب المُصنّف في الأحاديث والآثار: رقم: (19832): 4/255، وابن قتيبة، غريب الحديث: 2/68.
(4) الزّبيديّ، تاج العروس: (زهق).
(5) السّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (زهق).

أرواحُهُم، وهُم في الغيِّ يَعمهونَ، وسوف يُفارقونَ الحياةَ، وهُم في الباطلِ يَرتعونَ، فيكونُ ذلك أشدَّ نكالًا في العاجلةِ، وأعمقَ إيلامًا في الآجلةِ؛ لأنَّ بهرجَ الأموالِ، وعزوةَ الأولادِ، إنَّما هي بلاءٌ شديدٌ، وامتحانٌ مَديدٌ، واستِدراجٌ مُرْدٍ، ومَصيرٌ بائسٌ، لِمَن فارقَ الحياةَ على الكفرِ، ولم يرجعْ عن غيِّهِ وسفاهتِهِ وسُوءِ أعمالِهِ.

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالةُ (الفاءِ) وأثرُها في: ﴿فَلَا تُعۡجِبۡكَ﴾:

قولُهُ: ﴿فَلَا تُعۡجِبۡكَ أَمۡوَٰلُهُمۡ﴾ تفريعٌ على مَذمَّةِ حالِهِم في أموالِهِم، وأنَّ وفرَةَ أموالِهِم لا تُوجِبُ لَهُم طُمَأنينَةَ بَالٍ[1]، والفاءُ للإفصاح؛ لأنَّها تُفصِحُ عن شرطٍ مُقدَّرٍ، يَقتضيهِ سياقُ البيانِ؛ أي: "إن كانَت هذه الأموالُ لا يُنفقونَها في سبيلِ اللهِ - ذكرَهُما ابنُ القوطيَّةِ والهرويُّ - فلماذا يُعطونَها؟ فقالَ تعالى: ﴿فَلَا تُعۡجِبۡكَ أَمۡوَٰلُهُمۡ﴾ الآية؛ أي: لا يُثِرْ عجبَكَ كثرَةُ أموالِهِم وأولادِهِم وأنصارِهِم، ممَّا أُعطوا مع كفرِهِم ونفاقِهِم واستهانتِهِم بالحقِّ والتَّنفيرِ منهُ، وتأليبِ المُبطلينَ، لا يُغرنَّكَ هذا.. إنَّما هي فِتنةٌ لَهُم واستدراجٌ[2]، وعليه فالفاءُ إمَّا استئنافيَّةٌ، وإمّا رابطةٌ لجوابِ شرطٍ مُقدَّرٍ: (إنْ نظرتَ إليهم؛ فلا تعجبْكَ أموالُهُم)[3]، ولا شكَّ أنَّ هذا الرَّأيَ وَجيهٌ، ويتلاءَمُ مع السِّياقِ؛ فقد قالَ بعدَها: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَتَزۡهَقَ أَنفُسُهُمۡ وَهُمۡ كَٰفِرُونَ﴾، فكأنَّها جاءَت تَعليلًا لِلأمرِ بتركِ النَّظرِ إلى ظاهرِ أحوالِهِم.

بلاغةُ التَّلميحِ والتَّعريضِ: ﴿فَلَا تُعۡجِبۡكَ أَمۡوَٰلُهُمۡ﴾:

ظاهرُ النَّهي في الآيةِ الكريمةِ مُوجَّهٌ لِلنَّبيِّ ﷺ، ولكنَّ القرائنَ

النَّهيُ عنِ الاغترارِ بظاهرِ الأحوالِ، إذا لم تُقبَلْ حَصائِلُ الأعمالِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/227.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 6/3335.
(3) صافي، الجدول: 10/363.

المعنويَّةَ المتعلِّقةَ بمَقامِ النُّبوَّةِ عندَ اللهِ تعالى، تَستوجِبُ حملَ الخطابِ إلى أمَّتِه، وهو بابٌ مِن أبوابِ التَّعريضِ أو التَّلميحِ، ينطبقُ عليهِ قولُهم: (إيَّاك أعني، واسمعي ياجارة)[1]، وعليه "فالخطابُ لِلرَّسول ﷺ، أو لكلِّ مَن سمعَ القولَ أو بلَغَهُ، والكلامُ مُرتَّبٌ على ما قبلَهُ، كأنَّهُ يقولُ: إذا كانَ هذا شأنُهم في مظنَّةِ ما يَنتفعونَ بهِ مِن أموالِهم، لا يقبلُ اللهُ منهُ صَرفًا ولاعَدلًا، فلا تُعجبْكَ أيُّها الرَّسولُ، أو أيُّها السَّامعُ، أموالُهُم ولا أولادُهُم الَّتي هي في نفسِها مِن أكبرِ النِّعَم وأجلِّها، ولا تَظُنَّ أنَّهُم - وقد حُرِموا مِن ثوابِها في الآخرةِ - قد صَفَا لَهُم نعيمُها في الدُّنيا"[2].

النَّهيُ مُوجَّهٌ لإرشادِ المؤمنينَ؛ لِتصحيحِ الفهمِ، وحُسنِ العَملِ

دلالةُ النَّهي في: ﴿فَلَا تُعۡجِبۡكَ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُمۡۚ﴾:

الأصلُ حمْلُ النَّهي على وجوبِ التَّركِ على جهةِ الاستعلاءِ، ولكن لكونِ الإعجابِ أمرًا قلبيًّا، ولكون ظاهرِ الخطابِ في الآيةِ الكريمةِ موجَّهًا لِلنَّبيِّ ﷺ، ولِلفئةِ المُؤمنةِ معه، فلا مانعَ مِن حمْلِ النَّهي حينَئذٍ على معنى الإرشادِ والتَّوجيهِ، أو الاستدامةِ على امتثالِهم لِمضمونِ هذا النَّهي، وهذا المَلمَحُ في النَّهي شبيهٌ بقولِه تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيۡنَيۡكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعۡنَا بِهِۦٓ أَزۡوَٰجٗا مِّنۡهُمۡ زَهۡرَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا لِنَفۡتِنَهُمۡ فِيهِۚ وَرِزۡقُ رَبِّكَ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰ ١٣١﴾ [طه: 131]، أو قولِه: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ١٩٦ مَتَٰعٞ قَلِيلٞ ثُمَّ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ١٩٧﴾ [آل عمران: 197].

النَّهيُ بغرضِ الإرشادِ والتَّوجيهِ إلى دوامِ التَّركِ لِلمَنهيِّ عنهُ

نكتةُ تقديمِ الأموالِ على الأولادِ:

وذلك في قوله: ﴿فَلَا تُعۡجِبۡكَ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُمۡۚ﴾ ولكن مِن عادةِ القرآنِ الكريمِ أنَّهُ يُقدِّمُ فتنةَ المالِ على فتنةِ الأولادِ في كُلِّ

اشتغالُ النَّاسِ بأموالِهم أكبرُ، وفتنةُ الأولادِ في الحياةِ أخطرُ

(1) وهو شطرٌ مِن بيتِ شعرٍ يُنسَبُ لسهلِ بنِ مالكٍ الفزاريِّ:
يا أختَ خَيرِ البَدوِ والحَضارَهْ *** كَيفَ تَرَينَ في فَتَى فَزارَهْ
أصبَحَ يَهوَى حُرَّةً مِعطارَهْ *** إيّاكِ أعنِي واسمَعِي يا جارَهْ
يُنظر: النّيسابوريّ، مَجمَع الأمثال: 1/49.

(2) محمد رضا، تفسير المنار: 10/418.

المَواضِعِ الَّتي يجتمعان فيها، نحو قولِهِ: ﴿وَمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُم بِٱلَّتِي تُقَرِّبُكُمۡ عِندَنَا زُلۡفَىٰٓ﴾ [سبأ: 37]، وقولِهِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ﴾ [المنافقون: 9]، وقولِهِ: ﴿إِنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ١٥﴾ [التّغابن: 15]، وقولِهِ: ﴿ٱلۡمَالُ وَٱلۡبَنُونَ زِينَةُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَٱلۡبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيۡرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابٗا وَخَيۡرٌ أَمَلٗا ٤٦﴾ [الكهف: 46]؛ وذلك لأنَّ فتنةَ المالِ أعمُّ مِن فتنةِ الأولادِ، وأثرها يعمُّ الأولادَ وغيرَهُم، بل هي السَّببُ في الرَّغبةِ في الحصولِ على الأولادِ، ولم يتقدَّمْ ذكرُ الأولادِ على المالِ إلَّا في قولِهِ: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلۡبَنِينَ وَٱلۡقَنَٰطِيرِ ٱلۡمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلۡفِضَّةِ وَٱلۡخَيۡلِ ٱلۡمُسَوَّمَةِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ وَٱلۡحَرۡثِۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلۡمَـَٔابِ ١٤﴾ [آل عمران: 14]؛ لأنَّها جاءَت في وصفِ أصولِ الزِّينةِ الَّتي جَبَلَ اللّه النَّاسَ عليها؛ لذلك بُنِيَ فعلُ الزِّينةِ فيها لِمَا لَم يُسمَّ فاعلُهُ؛ لأنَّ أصلَ تزيينِها في النُّفوسِ مِنَ اللّه، ثمَّ يأتي دورُ الشَّيطانِ بعدَ ذلكَ في جعلِها سببًا في الفتنةِ والإغواءِ، فبناءُ الفعلِ لِمَا لم يُسمَّ فاعلُهُ بلاغةٌ في تركِها بحسبِ المُزيَّن، وقد جاءَ فيها تقدُّمُ ذكرِ زينةِ البنين على المالِ؛ لأنَّ الإنسانَ بطبعِهِ لا يُقدِّمُ المالَ على بنيه، بل يَحرِصُ على جمعِهِ لأجلِ إسعادِهِم، وهُوَ على استعدادٍ لِأنْ يَفتديَهُم بِهِ، فجاءَ التَّرتيبُ بحسبِ الأصلِ، وما يتَّفِقُ معَ الفطرةِ.

نكتةُ إعادةِ ذكرِ حرفِ النَّفي ﴿وَلَآ﴾:

التَّكرارُ في القرآنِ يُنشِئُ معنًى جديدًا؛ إذْ هو ليسَ تَرديدًا

أعادَ القرآنُ ذِكْرَ ﴿وَلَآ﴾ النَّافية بعدَ حرفِ العطفِ مع الأولادِ في قوله: ﴿وَلَآ أَوۡلَٰدُهُمۡۚ﴾؛ للإشارةِ إلى استقلالِ كُلِّ فتنةٍ عنِ الأخرى، وبأنَّها لا تَقلُّ خطرًا عنها، وقيلَ: إنَّ تكرارَها كانَ للإيماءِ بأنَّ ذِكْرَ الأولادِ كانَ كالتَّكملةِ والاستطرادِ[1]، ثمَّ إنَّ كليهما نعمةٌ وفتنةٌ، والنَّاسُ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 5/228.

مُتفاوتونَ فيهما، فهُناكَ مَنِ ابتُلِيَ بفتنةِ المالِ، فعصى به الخالقَ، وطغى بهِ على الخلائقِ، وهناك مَنِ ابتُلِيَ بفتنةِ الأولادِ، فهامَ بحبِّهِم في كُلِّ وادٍ، ونسيَ مِن أجلِهِم ربَّ العبادِ، واجتلبَ لَهُمُ العيشَ الكريمَ مِن حلِّ الرِّزقِ وحرامِهِ إرضاءً لَهُم، وتلبيةً لِمَرغوباتِهِم، فَهَلَكَ بذلِكَ، وهناك مَنِ ابتُلِيَ بفتنةِ المالِ والأولادِ معًا، فكانَت نعمتُهُ أكثرَ، وفتنتُهُ أكبرَ، ونموذجُ ذلك واضحٌ في الوليدِ بنِ المُغيرةِ الَّذي قرَّعَهُ السِّياقُ القرآنيُّ؛ لأنَّهُ كَفَرَ مَعَ اكتمالِ النِّعمةِ بوجودِ المالِ والولدِ عندَهُ، قالَ تعالى: ﴿ذَرۡنِي وَمَنۡ خَلَقۡتُ وَحِيدٗا ١١ وَجَعَلۡتُ لَهُۥ مَالٗا مَّمۡدُودٗا ١٢ وَبَنِينَ شُهُودٗا ١٣ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمۡهِيدٗا ١٤ ثُمَّ يَطۡمَعُ أَنۡ أَزِيدَ ١٥ كَلَّآۖ إِنَّهُۥ كَانَ لِأٓيَٰتِنَا عَنِيدٗا ١٦﴾ [المدّثّر: 11 - 16].

بلاغةُ الحذفِ في ذكرِ الأموالِ والأولادِ:

فتنةُ الأموالِ والأولادِ شديدةٌ ومُتشعِّبةٌ

قولُهُ تعالى: ﴿فَلَا تُعۡجِبۡكَ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُمۡۚ﴾، دلَّ ذِكرُ الأموالِ والأولادِ على مَحذوفاتٍ؛ تقديرُها: فَلا تُعْجِبْكَ كثرةُ أموالِهِم، ووفرَتُها بينَ أيديهِم، وسهولةُ تحصيلِها، وتنوُّعُ أصولِها وفصولِها، ولا كثرةُ أولادِهِم وقُوَّتُهُم ومُناصرتُهم لهم، وهكذا تذهبُ النُّفوسُ في تقديرِ هذه المحذوفاتِ كُلَّ مَذهَبٍ.

نكتةُ الفصلِ في الآيةِ:

الجملةُ التَّعليليَّةُ تُبيِّنُ المعنى المتضمّنَ في سياقِها

قولُهُ: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾، فُصِلَت هذه الجملةُ عن سابقتِها؛ لأنَّها جاءَت استئنافًا بيانيًّا، جوابًا عن سُؤالٍ مُقدَّرٍ: (لماذا كانَ النَّهيُ عنِ الإعجابِ بها؟)، فهي جملةٌ تعليليَّةٌ لهذا النَّهي، ويُضافُ إلى ذلك أنَّها جملةٌ خبريَّةٌ، وما سبقَها جملةٌ إنشائيَّةٌ؛ فالفصلُ مُتحقِّقٌ لكمالِ انقطاعِها عنها.

بلاغةُ أسلوبِ القصرِ:

تضمَّن قوله: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا﴾ قصرًا بـ(إنَّما) الَّذي يُؤتَى بهِ لغيرِ المُنكِرِ، أو لِمَن يُنزَّلُ هذه المنزلةَ، والخطابُ هنا لِلنَّبيِّ

الإشارةُ إلى طمأنةِ المؤمنينَ، وتثبيت قلوبِهم بهلاكِ أعدائِهم

ﷺ، ولِلفئةِ المؤمنةِ معهُ، وهُم يَعرفونَ هذا، ولا يُنكِرونَهُ، وهو قصرٌ موصوفٌ على صفةٍ، وهو قصرٌ إضافيٌّ؛ لأنَّ وفرَةَ هذه الأموالِ والأولادِ بينَ أيديهم له حِكَمٌ أخرى، غيرُ ما ذُكِرَ، ويمكنُ حملُهُ على قصرِ القلبِ؛ لأنَّ وفرةَ هذه الأموالِ والأولادِ بينَ أيدي المنافقينَ، لم تكنْ إلَّا وَبالًا عليهم، وليسَ كما هو ظاهرٌ لَهُم.

نكتةُ التَّعبيرِ بالمضارعيَّةِ في ﴿يُرِيدُ﴾ و﴿لِيُعَذِّبَهُم﴾:

سنَّةُ اللهِ في تعذيبِ المنافقينَ ماضيةٌ إلى يومِ القيامةِ

دلَّ التَّعبيرُ بالفعلَين المُضارعَين على استحضارِ صورتِهم، وهُم يظنُّونَ أنَّ أموالَهُم وأولادَهُم ستكونُ سببًا في عزَّتِهم، وعلوِّ شأنِهم، فإذا بها تكونُ سَببًا في شقائِهم، فضلًا عن دلالةِ المضارعِ على التَّجدُّدِ الاستمراريِّ، لهذه السُّنَّةِ الإلهيَّةِ في كلِّ حينٍ حتَّى قيامِ السَّاعةِ، ومِن شأنِ هذه الجملةِ الخبريَّةِ حينَئذٍ أن تثبِّتَ قلوبَ المؤمنينَ.

نكتةُ حذفِ مفعولِ الإرادةِ:

فعلُ الإرادةِ هنا تعبيرٌ عن يقينِ وقوعِ مُرادِ المريدِ، فيما يُريدُ

قولُهُ: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا﴾ تقديرُ الكلامِ: إنَّما يريدُ اللهُ إعطاءَهُم الأموالَ والأولادَ لِيعذِّبَهُم بها، فالحذفُ لِلإيجازِ لِوجودِ مَا يدُلُّ عليه، واللَّامُ هنا للتَّعليلِ[1]؛ أي: لأجلِ أن يعذِّبَهُم بها، واللَّامُ تغني هنا عن مَفعولِ الإرادةِ، ويكثرُ وقوعُها بعدَ فعلِ الإرادةِ[2]، كقولِهِ: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ [النِّساء: 26].

معنى (الباء) في: ﴿بِهَا﴾:

أبلغُ العذابِ أن تصبحَ المنحةُ محنةً، وأن تصيرَ النِّعمةُ عذابًا

الباءُ هنا سببيَّةٌ؛ أي: بسببِ كثرةِ الأموالِ والأولادِ، والمُرادُ بالعذابِ المُلمَحِ إليه بقولِهِ: ﴿بِهَا﴾: ما ينالُهُم مِنَ المَشقَّةِ في تحصيلِها، والسَّعي الشَّديدِ في ذلك.. فالأموالُ والأولادُ قد صارَت وَبالًا عليهم، ومِن وبالِها تعلُّقُ قلوبِهم بها، وارتباطُ إرادتِهم بها،

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 10/171.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 5/229.

فتكونُ مُنتهى المطلوبِ، وغايةَ المرغوبِ، بحيث لا يبقى في قلوبِهم لِلآخرةِ نَصيبٌ، فيكونُ زُهْقُ أنفسِهم بانتقالِها إلى الآخرةِ، وهُمْ على الكُفرِ[1].

نكتةُ التَّقديمِ والتَّأخيرِ في: ﴿فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾:

يحتملُ أن يكونَ نظمُ الآيةِ في أصلِ التَّرتيبِ: فلا تعجبْكَ أموالُهُم ولا أولادُهُم في الحياةِ الدُّنيا، فيتعلَّقُ قولُهُ: ﴿فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ بقولِه: ﴿تُعۡجِبۡكَ﴾، فيكون تقديمُ قولِه: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا﴾من بابِ تعجيلِ المَسرَّةِ لِلمُؤمنينَ، ويحتملُ أن تكونَ الآيةُ على نظْمِها الَّذي جاءَت عليهِ، ويكونَ عذابُهُم حينَئذٍ في الدُّنيا قبلَ الآخرةِ، ويكونَ تعلُّقُ شبهِ الجملةِ بقولِه: ﴿لِيُعَذِّبَهُم﴾ لِما أنَّهم يُكابِدونَ المَتاعبَ بجَمعِها وحِفظِها، ويُقاسُونَ فيها الشَّدائدَ والمَصائبَ، وليسَ عندَهُم مِنَ الاعتقادِ بثوابِ اللّٰه تعالى ما يُهَوِّنُ عَليهِم مَا يَجِدُونَهُ، أو يُعذِّبهم بها في الدُّنيا، بأخذِ الزَّكاةِ مِنهُم والنَّفقةِ في سبيلِ اللّٰه، مع عدمِ اعتقادِهِمُ الثَّوابَ على ذلك، أو تَعذيبُهُم بأن تكونَ أموالُهُم غنيمةً لِلمُسلمينَ، وتعذيبُهُم بأولادِهِم بأنَّهم قد يُقتَلونَ في الحربِ، فَيَجزَعونَ لِذلِكَ أشدَّ الجَزعِ، حيثُ لا يَعتَقِدونَ شَهادَتَهم، أو تعذيبَهُم بهم، بأن يكونَ أولادُهُم سببًا في قتلِهِم إنْ أظهَرُوا الكفرَ[2]، وفي هذا أيضًا تسريةٌ عَنِ المؤمنينَ ووَعيدٌ لِلمُنافِقينَ.

تثبيتُ أفئدةِ المؤمنينَ مَقصدٌ مُهمٌّ في السِّياقِ المُبينِ

معنى(أل) في لفظِ ﴿ٱلۡحَيَوٰةِ﴾:

عهديَّةٌ يُرادُ بها الحياةُ الأولى الَّتي يعيشونَها على الأرضِ، والَّتي أبرزَها السِّياقُ بالتَّعريفِ والوصفِ، والحياةُ الدُّنيا نعمةٌ، والمالُ والبنونَ نعمةٌ أيضًا، ولكنَّها قد تَطغى على الشُّعورِ الإنسانيِّ عندَ المُؤمِنِ، فينشغلُ بالنِّعمةِ، وينسى المُنعِمَ، وقد يؤولُ ذلك إلى الكفرانِ

الحياةُ الدُّنيا برقٌ خُلَّبٌ، والعذابُ فيها شقاءٌ وبلاءٌ وضيقٌ

(1) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 340 (بتصرّف).
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 10/171.

وترك الشُّكرانِ، والمالُ والولدُ في الحياةِ الدُّنيا قد يكونان سببين في أن يخافَ الإنسانُ ترْكَ الدُّنيا. ... والَّذي لا يُؤمنُ باليومِ الآخرِ؛ فالدُّنيا هي كلُّ زمنِهِ؛ وإنْ فاتَها كانَ ذلك مصيبةً له، وإنْ فاتَتهُ كانَ ذلك مُصيبةً عليه[1]، فأمرُهُ كلُّهُ مُتعلِّقٌ بهذهِ الحياةِ الفانيةِ الَّتي طالما سرَّت وغرَّت، ثمَّ انقلبَت على صاحبِها، فضرَّت.

فائدةُ العطفِ ﴿وَتَزۡهَقَ أَنفُسُهُمۡ﴾:

الواو عاطفةٌ، والجملةُ مَعطوفةٌ على قولِهِ: ﴿لِيُعَذِّبَهُم﴾، وهي داخلةٌ معَها في حيِّزِ الإرادةِ والتَّعليلِ؛ فاقتضَت إرادتُهُ أن يُعذِّبَهم بأموالِهم وأولادِهم، وأن يموتوا على الكُفرِ، فكلُّ أفعالِ العبادِ خيرِها وشرِّها، إنَّما تقعُ بمشيئةِ اللّٰه وإرادتِه، لكنَّ الأفعالَ القبيحةَ منها تقعُ بإرادتِهِ سبحانَهُ دونَ مَحبَّتِه ورضاه؛ فالأفعالُ مِنَ اللّٰه خَلْقًا ومِنَ العبادِ اكتِسابًا، كما هو مُقرَّرٌ في عقائدِ أهلِ السُّنَّةِ[2].

وبالُ فتنةِ المالِ والأولادِ راجعٌ بالمساءةِ في الدُّنيا وعندَ المَعادِ

بلاغةُ الكنايةِ في: ﴿وَتَزۡهَقَ أَنفُسُهُمۡ﴾:

مادَّةُ (زهق) تقومُ على المضيِّ والذَّهابِ بمَشقَّةٍ، ولم تَردْ في القرآنِ الكريمِ إلَّا في ثلاثةِ مَواضِعَ: مَوضِعان منهما تقدَّمَ الحديثُ عنهما في هذه السُّورةِ، والمَوضِعُ الثَّالثُ في سورةِ الإسراء في قولِهِ: ﴿وَقُلۡ جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَزَهَقَ ٱلۡبَٰطِلُۚ إِنَّ ٱلۡبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقٗا ٨١﴾ [الإسراء: 81]؛ أي: مُضمحِلًّا لا ثباتَ لهُ في كلِّ آنٍ[3]، فقولُهُ في آيتَي سورةِ التَّوبةِ ﴿وَتَزۡهَقَ أَنفُسُهُمۡ﴾، هو كنايةٌ عن موتِهم بسببِ مُضيِّ أرواحِهم ونفوسِهم بمَشقَّةٍ.

زُهوقُ الأنفسِ مُفارقةُ أرواحِهم أجسادَهم بمشقَّةٍ وعسرٍ

غرضُ التَّعبيرِ بالفعلِ المضارعِ في: ﴿وَتَزۡهَقَ أَنفُسُهُمۡ﴾:

دلَّ الفعلُ المضارعُ هنا على استحضارِ صورتِهم لحظةَ النَّزعِ مِن ناحيةٍ؛ لِمَا تدُلُّ عليه لفظةُ ﴿وَتَزۡهَقَ﴾ مِن معاني خروجِ الرُّوحِ بشدَّةٍ

السِّياقُ الفعليُّ يُعينُ على تجليَةِ المعنى، وإبرازِ بيانِهِ

(1) الشَّعراويُّ، تفسير الشّعراويّ: 9/5191.
(2) الأشعري، الإبانة، ص: 187، وابن تيمية، درء تعارض العقل والنقل: 1/68.
(3) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 16/205.

وضيقٍ مِنَ الجسدِ، وتدُلُّ كذلكَ على تجدُّدِ الموتِ فيهم، واستمراريَّتِهِ على حالِهِم هذهِ.

نكتةُ المجازِ العقليِّ في إسنادِ الزَّهقِ إلى الأنفسِ:

في إسنادِ الفعلِ ﴿وَتَزۡهَقَ﴾ إلى الأنفسِ مَجازٌ عقليٌّ أو حكميٌّ، فإزهاقُ هذه الأنفسِ مِن فعلِ اللّٰه، وليسَ مِن فعلِها، وإنَّما أسندَهُ إليها؛ لأنَّها مَحلُّ وقوعِ إرادةِ اللّٰه فيها.

اللّٰهُ يَتوفَّى الأنفسَ، وإليه الرُّجعى والمصير

معنى الواو في قولِهِ: ﴿وَهُمۡ كَٰفِرُونَ﴾:

قولُهُ تعالى: ﴿وَهُمۡ كَٰفِرُونَ﴾ الواو حاليَّةٌ؛ والمعنى: تَزهَقُ أنفسُهم، وحالُهُم أنَّهُم على الكُفرِ، والجملةُ الاسميَّةُ بعدَ الواو في محلِّ نصبٍ؛ حال من ضميرِهِم المضافِ إليهِ في قولِهِ: ﴿أَنفُسُهُمۡ﴾.

الجملةُ مُنبئةٌ عن حالِ مُعتقدِهِم حينَ زهْقِ أنفسِهِم

دلالةُ التَّعبيرِ بالجملةِ الاسميَّةِ ﴿وَهُمۡ كَٰفِرُونَ﴾:

دلَّتِ الجملةُ الاسميَّةُ على ثباتِهِم على الكُفرِ، وإصرارِهِم على النِّفاقِ، حيثُ تَزهَقُ أنفسُهُم، فيأتي عليهم الموتُ وهُم كافرونَ، فيكونون مُنشغلِينَ بالتَّمتُّعِ عنِ النَّظرِ في العاقبةِ، فيكونُ ذلك لهم نقمةً لا نعمةً.

الثَّباتُ على الكفرِ قلَّةٌ في العقلِ، وجهلٌ بالعواقبِ

بلاغةُ المتشابِهِ اللَّفظيِّ بين آيتي التَّوبة:

يَتشابهُ نظمُ هذه الآيةِ، وهي قولُهُ تعالى: ﴿فَلَا تُعۡجِبۡكَ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُمۡۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَتَزۡهَقَ أَنفُسُهُمۡ وَهُمۡ كَٰفِرُونَ﴾، مع قولِهِ تعالى في السُّورةِ نفسها: ﴿وَلَا تُعۡجِبۡكَ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَأَوۡلَٰدُهُمۡۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِي ٱلدُّنۡيَا وَتَزۡهَقَ أَنفُسُهُمۡ وَهُمۡ كَٰفِرُونَ ٨٥﴾ [التوبة: 85]، خلا أنَّ الآيةَ الثَّانيةَ كانَ العطفُ فيها بالواو دونَ الفاءِ الَّتي جاءَت هنا مُتناسِبةً مع الآيتَينِ السَّابقتَينِ اللَّتين تحدَّثتا عن نفقاتِهِم وعدمِ قبولِها منهُم بسببِ كفرِهِم باللّٰه ورسولِهِ، وفعلِهُمُ الطَّاعاتِ وسائرَ النَّفقاتِ، وهُم كارهون، فجاءَت هذه الآيةُ مُتفرِّعةً عمَّا تقدَّمَها، أو جاءَت رابطةً لجوابِ شرطٍ مُقدَّرٍ،

ورودُ كُلِّ آيةٍ منهما مُتناسِبةٌ في نظْمِها، معَ السِّياقِ الَّذي وردَت فيهِ

كما تقدَّمَ، بخلافِ المَوضعِ الثَّاني، حيثُ جاءَت مُجرَّدَ عاطفةٍ بينَ صفاتِهم ومَواقفِهم المُختلفةِ، لذا لم تحظَ الآيةُ الثَّانيةُ بمزيدٍ مِنَ التَّوكيدِ بإعادةِ حرفِ النَّفي بعدَ العطفِ، كما في الأولى، وبلامِ التَّعليلِ، وبذكرِ الموصوفِ، وهو ﴿ٱلْحَيَوٰةِ﴾؛ لِتقدُّمِ ذكرِهِ في الأولى، ولأنَّه سَبَقَها قولُهُ: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨٤﴾﴾ [التّوبة: 84]، فقد أشارَت إلى حالِهِم في الحياةِ، فلم يكُنْ هناك داعٍ لإعادتِها في الآيةِ الَّتي تلَتها.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الموتُ والوفاةُ والقتلُ والهلاكُ والإزهاقُ:

تشتركُ ألفاظُ الموتِ في ذهابِ القوَّةِ مِنَ الجسدِ، وتختصُّ كلُّ لفظةٍ بما يوافقُ سياقَها

الموتُ: ذهابُ القوَّةِ مِنَ الشَّيءِ[1]، وقد سمَّاهما اللّهُ تعالى مَماتًا، واشتقَّ منها، كما في قولِهِ تعالى: ﴿إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ﴾ [الإسراء: 75]. فقال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ﴾ [الأنعام: 60]، وعلى هذا فالموتُ يأتي على معنى فقدانِ الحياةِ مِنَ الحيِّ، ويأتي على معانٍ مَجازيّةٍ أخرى[2]، وأمَّا الوفاةُ فتدلُّ على الإتمامِ والكمالِ، ومنه: الوفاةُ تكونُ لاستيفاءِ المدَّةِ الَّتي قدَّرَها اللّه[3]، وأمَّا القتْلُ فأصلُ القَتْلِ عندَ الرَّاغب: إزالةُ الرُّوحِ عنِ الجسدِ كالمَوتِ، لكنْ إذا اعتُبِرَ بفعلِ المُتَوَلِّي لِذلِكَ؛ يُقالُ: قَتْلٌ، وإذا اعتُبِرَ بفَوتِ الحياةِ يُقالُ: مَوتٌ[4]، وقد جمعَ اللّه بينَ لفظتَي القتلِ والمَوتِ في أكثرِ مِن مَوضعٍ في سورةِ آل عمران: ﴿وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [آل عمران: 157]، وقوله: ﴿وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى ٱللَّهِ تُحْشَرُونَ ﴿١٥٨﴾﴾ [آل عمران: 158]. والهلاكُ: يَدُلُّ عَلَى كَسْرٍ

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (موت).
(2) الرّاغب، المفردات: (موت).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (وفى).
(4) الرّاغب، المفردات: (قتل).

وسُقوطٍ[1]، والهلاكُ: الموتُ، كقولِهِ: ﴿إِنِ ٱمۡرُؤٌاْ هَلَكَ﴾ [النّساء: 176][2]، ويأتي الهلاكُ في القرآنِ الكريمِ وَصفًا لِمَن مَاتَ، وليسَ له وَارثٌ مِن صُلبِهِ، أو مَن ماتَ ولم يتركْ وراءَهُ مَن يُكمِلُ مَسيرَتَهُ، فقد قالَ عنِ الكلالةِ: ﴿يَسۡتَفۡتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفۡتِيكُمۡ فِي ٱلۡكَلَٰلَةِۚ إِنِ ٱمۡرُؤٌاْ هَلَكَ لَيۡسَ لَهُۥ وَلَدٞ وَلَهُۥٓ أُخۡتٞ فَلَهَا نِصۡفُ مَا تَرَكَۚ وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمۡ يَكُن لَّهَا وَلَدٞۚ﴾ [النّساء: 176]، وقوله على لسانِ مُؤمِنِ آلِ فِرعونَ: ﴿وَلَقَدۡ جَآءَكُمۡ يُوسُفُ مِن قَبۡلُ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلۡتُمۡ فِي شَكّٖ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلۡتُمۡ لَن يَبۡعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعۡدِهِۦ رَسُولٗاۚ﴾ [غافر: 34]، فظاهرٌ مِن كلامِهِ انقطاعُ دعوةِ يُوسفَ عليه السلام وزوالُ أثرِها، وبهذا يتَّضحُ أنَّ لفظةَ ﴿وَتَزۡهَقَ﴾ قد جاءَت هنا لِتُعبِّرَ عَنِ الموتِ أو الهلاكِ الَّذي أصابَهُم مِن خلالِ مُفارقةِ نفوسِهِم لِأجسادِهِم مَع ضيقٍ وأسفٍ؛ لأنَّهم لم يُحقِّقُوا مَا طمحُوا إليه بكثرةِ أموالِهِم وأولادِهِم، فجاءَ هذا اللَّفظُ دونَ غيرِهِ كنايةً عنِ الموتِ؛ لأنَّه الأليقُ بالسِّياقِ ومعنى الآياتِ.

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (هلك).

(2) الرّاغب، المفردات: (هلك).

﴿وَيَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمۡ لَمِنكُمۡ وَمَا هُم مِّنكُمۡ وَلَٰكِنَّهُمۡ قَوۡمٞ يَفۡرَقُونَ ٥٦﴾ [التّوبة: 56]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

العلاقةُ بينَ وصفِ المنافقين ومصيرِهم، وبينَ زيفِ أيمانِهم وادِّعائِهمُ الإيمانَ

هذه الآيةُ معطوفةٌ على الآيةِ السَّابقةِ، ضِمنَ سياقٍ طويلٍ، كشفَ زيفَ هذه الشَّخصيَّةِ المنافقةِ، وفَضَحَ مواقفَها ومُعتقداتِها، وأبرزَ سلوكاتِها وانفعالاتِها إزاءَ المواقفِ المُختلِفةِ الَّتي عُرِضَت لها، وقد ناسبَ تقريرَ السِّياقِ السَّابقِ في نفي قَبولِ نفقاتِهم وسائرِ طاعاتِهم، لِكفرِهم وإكراهِهم على فعلِها، ونهى المؤمنينَ عنِ الاغترارِ بها؛ ناسبَ ذلكَ كلَّه أن يبيِّنَ حرصَهُم على إثباتِ ولائِهم لِلمُؤمنينَ مِن خلالِ حَلِفِهم الكاذبِ لَهُم.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَيَحۡلِفُونَ﴾: أصلٌ يدُلُّ على المُلَازمَةِ؛ لأنَّ الحَلِف يقتضي الالتزامَ به[1]، والمعنى المحوريُّ الَّذي تدورُ عليه الاستعمالاتُ اللُّغويَّةُ لهذه المادَّةِ هو: حدَّةٌ في الشَّيءِ تكونُ مِن ظاهرِهِ (خارجه)، ومِن ذلك المعنى المحوريُّ: "الحِلْف - بالكسرِ: العَهْد بينَ القوم، والمحالفةُ: مُعاقدةٌ ومُعاهدةٌ "على التَّعاضدِ والتَّساعُدِ، والحَلِفُ - بالكسرِ وككتف -: القَسم، وهو تقويَةٌ للكلام؛ أي: لمحتواهُ بشيءٍ خارجٍ عنه، وهو اليمينُ[2]، ولم تبتعدِ المعاني الاصطلاحيَّةُ عن هذا في تعريفِهم الحَلِفَ بالقسَم[3]، وقد نهى الشَّرعُ عن الحَلِفِ الكاذبِ، وخصوصًا في البيعِ، فقالَ ﷺ، يقولُ: «**إيَّاكم وكثرةَ الحَلِفِ في البيعِ**، فإنَّه يُنفِّقُ، ثمَّ يَمحَقُ»[4]، وقالَ: «إنَّ هَذا البَيْعَ يَحْضُرُهُ الحَلِفُ والكَذِبُ، فشُوبُوه

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حلف).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (حلف).
(3) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (حلف).
(4) الحديث أخرجُهُ مُسلم، برقم: (1607)، ويُنظر: المخلّص، المخلصيَّات وأجزاء أخرى: 1/403.

بالصَّدقةِ»[1]، وسُمِّي الحَلِفُ يمينًا؛ لأنَّ المتحالِفَين كأنَّ أحدَهما يُصفِّقُ بيمينِهِ على يمينِ صاحبِهِ[2].

2) ﴿يَفْرَقُونَ﴾: مِنَ الفرَقِ؛ بمعنى: الفَزَع، وأصلُهُ: يدُلُّ على تَمييزٍ وتَزييلٍ بَينَ شَيئَينِ، مِن ذَلِكَ الفَرقُ: فَرْقُ الشَّعرِ، يُقالُ: فَرَقْتُهُ فَرْقًا، والفِرقُ: القَطيعُ مِنَ الغَنَمِ[1]، والفِرقُ يقاربُ الفِلْقَ، لكنَّ الفِلقَ يُقالُ اعتدادًا بالانشقاقِ، والفِرْقَ يُقالُ اعتدادًا بالانفصالِ، ومِنَ الأصلِ "الفَرَق – محرَّكةً –: الفزع ﴿قَوْمٌ يَفْرَقُونَ﴾: يَفزعون؛ لأنَّ الفَزِعَ الخائِفَ يُفارِقُ ما يخافُهُ؛ أي: يهربُ، ولا يواجهُهُ[2]، تقولُ: فَرِقتُ منكَ، ولا تقُل: فَرِقتُكَ، وامرأةٌ فَروقةٌ، ورجل فروقة أيضًا، ولا جمعَ له، وفي المثل: "رُبَّ عَجَلَةٍ تَهَبُ رَيثًا، ورُبَّ فَروقَةٍ يُدعى ليثًا"[3].

❁ المَعْنى الإِجْماليُّ:

يخاطبُ اللّه المؤمنينَ بأنَّ هؤلاءِ المنافقينَ لشدَّةِ خوفِهِم وهلعِهِم يَحلفونَ لَهُم كَذبًا وزُورًا بأنَّهُم منهُم، والحقُّ أنَّهم ليسوا منهم، ولكنَّهم قومٌ جبناءُ، لا يستطيعونَ مُصارحتَهُم بالعداوةِ، ولا يجرؤون على مجابهتِهِم بما تخفيهِ قلوبُهُم لَهُم مِن بغضاءَ[6].

بيانُ حقيقةِ تظاهرِ المنافقينَ بالإيمانِ، وهُم أهلُ شكٍّ وخداعٍ وكفرانٍ

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ العطفِ في: ﴿وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ﴾:

الواو هنا عطفَت هذه الآيةَ على ما تقدَّمَها في الإخبارِ عن أحوالِ المنافقينَ وصفاتِهِم الَّذين أخذَتِ السُّورةُ على عاتقِها

النِّفاقُ آفةٌ كبرى وجريمةٌ

(1) الحديث أخرجه الحميديّ في مسنده: 1/208، والتّرمذيّ في البيوع: 3/505، وأبو داود في البيوع: 3/242، والنّسائيّ في الإيمان: 7/14، والبيوع أيضًا: 7/247، وابن ماجة في التّجارات: 2/725، وأحمد في مسنده: 4/6، 280، والحاكم في مستدركه: 2/5، والخطّابيّ، غريب الحديث: 2/280.

(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حلف).

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (فرق).

(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (فرق).

(3) الجوهريّ، الصّحاح: (فرق).

(6) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 6/321.

فضْحَ أساليبِهم، وتعريةَ شخصيَّتِهم أمامَ المؤمنين؛ لِمَا تمثِّلُهُ هذه الشَّخصيَّةُ مِن أثرٍ كبيرٍ في زعزعةِ أمنِ المجتمعِ المُسلم.

نكتةُ التَّعبيرِ بالفعلِ المضارعِ ﴿وَيَحۡلِفُونَ﴾:

الإكثارُ مِنَ الأيمانِ شأنُ المنافقين في كلِّ الأزمانِ

الحَلفُ يمينٌ فيه التزامٌ من جهةِ الحالِفِ، لذا يكثرُ استعمالُهُ في سياقِ الكلامِ عنِ المنافقينَ في القرآنِ الكريمِ، دونَ ألفاظِ القسمِ الأخرى؛ لأنَّ الحَلِفَ فيه معنى الحدَّةِ والقطعِ، فكأنَّ الحالِفَ بيمينِهِ يقطعُ الخصومةَ، والمنافقونَ يَلجؤونَ لهذه الأيمانِ؛ لتوكيدِ أقوالِهم، وقطعِ دابرِ الشَّكِّ فيها، وجاءَت مادَّةُ (حلف) هنا بالمضارعيَّةِ؛ لاستحضارِ صورتِهم في تأديتِهم هذه الأيمان، ولبيانِ تجدُّدِ هذه الأيمانِ واستمراريَّتِها معَهُم، كلَّما دعَت إليها حاجةٌ.

بلاغةُ الإضمارِ:

الإيجازُ، والإشارةُ إلى التَّقليلِ مِن شأنِهم، والتَّهوينِ مِن أمرِهم

الآيةُ مُرصَّعةٌ بضمائرِ الغَيبةِ والخطابِ الَّتي تعودُ على المنافقين والمؤمنين، ولو أُظهرَتِ الضَّمائرُ لطالتِ الآيةُ، ولكنَّ مُقتضى بلاغةِ القرآنِ، تقتضي إضمارَ ما يدُلُّ السِّياقُ عليه إيجازًا، إضافةً إلى أنَّ الإشارةَ إلى المنافقين بضمائرِ الغيبةِ فيه، تقليلٌ مِن شأنِهم، وتهوينٌ مِن أمرِهم، فطوى التَّصريحُ باسمِهم قولَهُ: ﴿وَيَحۡلِفُونَ﴾، ﴿إِنَّهُمۡ﴾، ﴿هُم﴾، ﴿وَلَٰكِنَّهُمۡ﴾، ﴿يَفۡرَقُونَ﴾.

الباء بين التَّعديَةِ والسَّببيَّةِ في قولِهِ: ﴿وَيَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ﴾:

الحَلِفُ باللهِ يمينٌ، لاينكثُهُ إلَّا مُنافِقٌ مُهينٌ

الباءُ للتَّعديةِ أو للنَّقلِ، وهي كالهمزةِ في تصييرِها الفعلَ اللَّازمَ مُتعدِّيًا؛ فيصير بذلك الفاعلُ مَفعولًا، والمعنى: أنَّهم أحلفوا اللهَ، بأنَّهم لَمِنَ المؤمنين، ويمكن أن تكونَ باءُ السَّببيَّةِ على معنى أنَّهم يحلفونَ لِلمُؤمنينَ - بسببِ اللهِ الَّذي شرعَ لهم الأيمانَ - إنَّهم لمنهم.

نكتةُ فصلِ جملةِ ﴿إِنَّهُمۡ لَمِنكُمۡ﴾:

هذه الجملةُ هي جوابُ حَلِفِهم لِلمؤمنينَ، ويمكنُ أن تكونَ

فُصِلَت عن سابقتِها؛ لأنَّها وقعَت جوابًا عن سؤالٍ مُقدَّرٍ: ماذا حلفوا لِلمؤمنين؟ فيكون الفصلُ للاستئنافِ البيانيِّ.

قَسَمُ المنافقين بأنَّهم مؤمنون تبرئةٌ لأنفسِهم مِنَ الكُفرِ

غرضُ تتابعِ المؤكِّداتِ في قولِهِ: ﴿إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ﴾:

حظيتِ الجملةُ السَّابقةُ بثلاثةِ مُؤكِّدَاتٍ: (إنَّ، الجملة الاسميَّة، اللَّام المُزحلَقة)، فضلًا عن وقوعِها في جوابِ حَلفِهِم؛ وذلك لرغبةِ المُنافِقينَ الجامحةِ في الدِّفاع عن أنفسِهم باستعمالِ سائرِ المُؤكِّداتِ والأيمانِ؛ وذلك لِتيقُّنِهم بأنَّهُم في مَوضِعِ الشُّبهةِ أمامَ المُؤمنينَ، ممَّا يَستوجِبُ عليهم أن يُدافِعُوا عن أنفسِهم، وأن يُقدِّمُوا ما يلزمُ ذلك مِن أساليبِ التَّوكيدِ المُمكنةِ[1].

السِّياقُ يُعالجُ عدمَ الثِّقةِ بالنَّفسِ، ويزيلُ الشُّكوكَ مِن نفوسِ المؤمنينَ

معنى (من) التَّبعيضيَّة في: ﴿لَمِنكُمْ﴾:

(من) هنا تبعيضيَّةٌ، والهدفُ منها أن يُؤكِّدَ المنافقونَ لِلمُؤمنينَ بأنَّهُم جزءٌ منهُم، وعلى هذا فَهُم يتَّصفونَ بالإيمانِ مثلَهُم، وبهذا يسعَونَ لإبطالِ شكوكِهِم بهِم، ويُبعدونَ عن أنفسِهم نظراتِ الرِّيبةِ الَّتي تلاحقُهُم[2].

تجسيدُ حرفِ المعنى (من) لدقَّةِ القرآنِ وإعجازِهِ

معنى (الواو) في: ﴿وَمَا هُم مِّنكُمْ﴾:

الواو هنا حاليَّةٌ، والجملةُ بعدَها في محلِّ نصبٍ على الحالِ[3]، والمعنى: يَحلفونَ إنَّهُم لَمنكُم، والحالُ أنَّهُم لَيسُوا مِنكُم؛ أي: إنَّهم "يَحلِفونَ أنَّهُم مِنَ المؤمنينَ في الدِّينِ والشَّريعةِ، ثمَّ أخبرَ تَعالى عنهُم عَلى الجملةِ لا على التَّعيينِ، أنَّهُم لَيسُوا مِنَ المؤمنينَ، وإنَّما هُم يَفزَعُونَ مِنهُم، فَيُظهِرُونَ الإيمانَ، وهُم يُبطِنُونَ النِّفاقَ"[4].

مَنْ أسرَّ سريرةً ألبسَهُ اللهُ رداءَها

دلالةُ التَّخصيصِ في ﴿وَمَا هُم مِّنكُمْ﴾:

مُقرَّرٌ في علم المعاني، أنَّ النَّفيَ إذا تقدَّمَ المُسندَ إليه والمسندَ

ليس الإيمانُ بالادِّعاء، ولكن بالإخلاصِ والصَّفاءِ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 10/229.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 5/229.
(3) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 4/116.
(4) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/45.

الفعليَّ، فإنَّهُ يُفيدُ التَّخصيصَ؛ أي: نفيُ كونِهم مِنَ المؤمنينَ، وإثباتُ هذه الصِّفةِ لِغيرِهِم؛ والمعنى: ليسُوا مُؤمِنينَ منكُم، ولكنَّ غيرَهُم مُؤمِنٌ.

معنى الواوِ في: ﴿وَلَٰكِنَّهُمۡ قَوۡمٞ يَفۡرَقُونَ﴾:

ظاهرةُ النِّفاقِ نبتَت في أوجِ قوَّةِ الإسلامِ خوفًا مِنَ المواجهةِ

الواو هنا عاطفةٌ، عطفَت هذه الجملةَ على سابقتِها، فكانَ المعنى: "لَيسُوا على دينِكُم، ﴿وَلَٰكِنَّهُمۡ قَوۡمٞ يَفۡرَقُونَ﴾ القَتلَ، فَأظهرُوا الإيمانَ، وأسَرُّوا النِّفاقَ، وهو كقولِهِ تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوۡاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمۡ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمۡ إِنَّمَا نَحۡنُ مُسۡتَهۡزِءُونَ ١٤﴾ [البقرة: 14][1].

معنى ﴿وَلَٰكِنَّهُمۡ﴾، وبلاغةُ الحذف في: ﴿وَلَٰكِنَّهُمۡ قَوۡمٞ يَفۡرَقُونَ﴾:

كلَّما كانَ الإيجازُ بارزًا في السِّياقِ كانَ الكلامُ أدقَّ وأفصحَ

(لكنّ) حرفٌ مشبَّهٌ بالفعلِ يُفيدُ الاستدراكَ، وهو مِنَ النَّواسخِ[2]، مِن أخواتِ (إنَّ)، واسمُها الضَّميرُ العائدُ إلى المُنافقينَ، وخبرُها ﴿قَوۡمٞ﴾، و﴿يَفۡرَقُونَ﴾نعتٌ، ومُقتَضى الاستدراكِ هُنا في أنَّهُم لَيسُوا منهُم؛ أي: إنَّهم كافرون، فَحُذِفَ المُستَدرَكُ اكتفاءً بأداةِ الاستدراكِ، وذُكِرَ مَا هُوَ كالجوابِ عَن ظاهرِ حالِهِم مِنَ الإيمانِ، بأنَّهُ تَظاهُرٌ بَاطِلٌ، وبأنَّ الَّذي دَعاهُم إلى التَّظاهُرِ بالإيمانِ في حالِ كفرِهِم: هو أنَّهم يَفرَقُونَ مِنَ المؤمِنينَ، فَحَصَلَ إيجازٌ بَدِيعٌ في الكلامِ؛ إذِ استُغنِيَ بالمَذكورِ عَن جملتَينِ مَحذُوفتَينِ[3].

نكتةُ مادة الفَرَق والمضارعيّة:

نكتةُ التَّعبيرِ بـ (يفرقون) مادَّةً وصيغةً

في قوله تعالى ﴿وَلَٰكِنَّهُمۡ قَوۡمٞ يَفۡرَقُونَ﴾، دلَّت مادَّةُ (فرق) على التَّمييزِ والفصلِ بينَ الأشياءِ الحسِّيَّةِ والمعنويَّةِ، ودلَّت هنا على مُفارقةِ القلبِ مِن حالةِ الأمنِ إلى حالةِ الخوفِ، أو هُوَ انزعاجُ

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 16/74.
(2) صافي، الجدول: 5/365.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 5/230.

النَّفسِ بِتَوَقُّعِ الضَّرَرِ[1]، فالفَرَقُ: شدَّةُ الخوفِ، والتَّعبيرُ بالمضارعِ هو لاستحضارِ الصُّورةِ ولِلتّجدُّدِ الاستمراريِّ.

فائدةُ حذفِ مُتعلَّقِ ﴿يَفْرَقُونَ﴾:

حُذِفَ مُتعلَّقُ ﴿يَفْرَقُونَ﴾ لِلدَّلالةِ على لزومِهم حالةَ الفَرَقِ، وكأنَّهُ فِعلٌ لازمٌ، وللإشارةِ إلى عُمومِ خوفِهِم؛ لِمَا في قلوبِهِم مِنَ النِّفاقِ المُناقِضِ لِلفطرةِ السَّليمةِ، أو لِظهورِهِ؛ أي: يَخافُونَ مِن عَداوَةِ المُسلِمينَ لَهُم، وقِتالِهِم إيَّاهُم أو إخراجِهِم[2]، أو: يَخافونَ مِنكُم أن تَفعَلوا بِهِم مَا تَفعَلوهُ بالمُشرِكينَ، فَيُظهِرُونَ الإسلامَ تَقِيَّةً، ويُؤَيِّدُونَهُ بالأيمانِ الفاجِرَةِ[3].

الإسلامُ يريدُ قلوبًا خاشعةً، لا قوالبَ خاضعةً

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الحَلِفُ والقَسَمُ واليمينُ:

القَسَمُ أبلغُ من الحَلِفِ؛ لِأَنَّ معنى قَوْلِنا: أقسَمَ باللّه، أنَّه صارَ ذا قسمٍ باللّه، والقسَمُ النَّصيبُ، والمرادُ أنَّ الَّذي أقسمَ عليهِ مِنَ المالِ وغَيرِهِ، قد أحرزَهُ، ودفعَ عَنهُ الخَصمَ باللّه، والحَلِفُ من قَولِكَ: سيفٌ حَليفٌ؛ أي: قاطعٌ ماضٍ، فَإذا قلتَ: حلفَ باللّه، فكأنَّك قُلتَ: قطعَ المُخاصمَةَ باللّه، فالأوَّلُ أبلغُ؛ لأنَّهُ يتَضَمَّنُ معنى الآخرِ، مَعَ دفعِ الخصمِ، فَفيهِ مَعنيانِ، وقَولُنا: حَلَفَ يُفيدُ معنًى واحِدًا، وهوَ قَطعُ المُخاصمَةِ فَقَط"[4]، فعَبَّرَ في قولِهِ تعالى: ﴿وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ﴾ بالحَلِفِ؛ تعبيرًا عن أنَّهُم أرادُوا قَطعَ المُخاصَمةِ بإظهارِ أنفسِهِم مَظهرَ الصَّادقِ.

القَسَمُ أبلغُ مِنَ الحَلِفِ دلالةً، والحَلِفُ أنسبُ في المُخاصمَةِ مُمارَسةً

الفَرَقُ والخوفُ والكلماتُ المقاربةُ:

استعملَ القرآنُ الكريم ألفاظًا كثيرةً للتَّعبيرِ عن هذا الخوفِ،

(الفرَق) معنًى بينَ (الفزعِ) و(الخوفِ)، وقد وردَ في القرآنِ مرَّةً واحدةً بصيغةِ الفعلِ

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 10/172.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 5/230.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 10/230.
(4) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 56.

وعندَ التَّدقيقِ في دلالاتِهَا المعجميَّةِ واستعمالاتِها السِّياقيَّةِ في القرآنِ الكريمِ، نجدُ أنَّ لكلِّ لفظةٍ منها خصوصيتَّها الَّتي تميِّزُها عمَّا تشتركُ بهِ مع غيرِها، ومِن هذه الألفاظِ الَّتي استعملَها القرآنُ الكريمُ:

الرَّهبةُ: الرَّهبةُ طولُ الخوفِ واستمرارُهُ، ومِن ثمَّ قِيلَ لِلرَّاهبِ: راهِبٌ؛ لأنَّهُ يُديمُ الخوفَ[1]، والرَّهْبةُ مَخافَةٌ مَعَ تَحَرُّزٍ واضطرابٍ[2].

الجَزَعُ: هو حُزنٌ يَصرِفُ الإنسانَ عمَّا هُوَ بصَدَدِهِ، ويَقطَعُهُ عنهُ، وأصلُ الجزعِ: قَطعُ الحبلِ مِن نِصفِهِ، يُقالُ: جزعتُهُ، فانجزَعَ، وهو خلافُ الصَّبرِ[3].

الحذرُ: والحذرُ توقِّي الضَّررِ سواءٌ كانَ مَظنونًا أومُتيقَّنًا، والحذرُ يَدفعُ الضَّررَ، والخوفُ لا يدفعُهُ[4]، فهُوَ احترازٌ عَن مُخيفٍ، يُقالُ: حَذِرَ حَذَرًا، وَحَذِرتُهُ، وحَذارِ؛ أي: احذَرْ[5].

الخَشيةُ: خَوفٌ يَشُوبُهُ تَعظيمٌ، وأكثرُ ما يكونُ ذلكَ عن علمٍ بما يُخشَى منهُ[6].

الخوفُ: تَوقُّعُ مَكروهٍ عن أمَارَةٍ مَظنُونةٍ أو مَعلُومَةٍ، كما أنَّ الرَّجَاءَ والطَّمعَ تَوقُّعُ مَحبُوبٍ عن أمَارَةٍ مَظنُونَةٍ أو مَعلُومَةٍ، ويُضَادُّ الخوفَ: الأمنُ، ويُستعمَلُ ذلكَ في الأمورِ الدُّنيَويَّةِ والأُخرويَّةِ، قالَ تعالى: ﴿وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓۚ﴾ [الإسراء: 57]. والخوفُ مِنَ اللّٰه لا يُرَادُ بهِ مَا يَخطُرُ بالبَالِ مِنَ الرُّعبِ، كاستشعَارِ الخَوفِ مِنَ الأسدِ، بَل إنَّما يُرَادُ به الكَفُّ عنِ المَعاصِي، واختيارُ الطَّاعاتِ؛ ولِذلكَ قِيلَ: لا يُعَدُّ خائفًا مَن لم يكُنْ لِلذُّنوبِ تَارِكًا. والتَّخويفُ مِنَ اللّٰه تعالى: هو الحَثُّ على التَّحرُّزِ، وعلى ذَلكَ قولُهُ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥۚ﴾ [الزُّمر: 16][7].

الرُّعبُ: الانقطاعُ مِن امتلاءِ الخَوفِ، يُقال: رَعَبتُهُ فَرَعَبَ رُعبًا، فَهُوَ رَعِبٌ، والتِّرعابةُ: الشَّديدُ الخوفِ والفزعِ، وقد جاءَ هذا اللَّفظُ في القرآنِ في خمسةِ مَواضِعَ فقط، منها: قولُهُ تعالى: ﴿سَنُلۡقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعۡبَ﴾ [آل عمران: 151][8].

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 271.
(2) الرّاغب، المفردات: (رهب).
(3) الرّاغب، المفردات: (جزع).
(4) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 270.
(5) الرّاغب، المفردات: (حذر).
(6) الرّاغب، المفردات: (خشي).
(7) الرّاغب، المفردات: (خوف).
(8) الرّاغب، المفردات: (رعب).

الرَّوعُ: إصَابَةُ الرَّوعِ (القلب)، واستُعملَ فيما أُلقِيَ فيهِ مِنَ الفَزَعِ، يُقالُ: رُعْتُهُ وَروَّعْتُهُ، وريعَ فُلانٌ: فَزِعَ، والأروَعُ: الَّذي يَرُوعُ بحسنِهِ، كأنَّهُ يُفزِعُ، وقد جاءَ هذا اللَّفظُ في القرآنِ مرَّةً واحدةً، وذلك قولُهُ تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ﴾ [هود: 74]؛ أي: الخوف[1].

الفرَقُ: الفزَعُ، وتَفرُّقُ القلبِ مِن شدَّةِ الخوفِ، يُقالُ: فَرِقَ فلانٌ؛ إذا جزِعَ، واشتدَّ خوفُهُ، وقد جاءَ هذا اللَّفظُ في القرآنِ مرَّةً واحدةً بصيغةِ الفعلِ، وذلك قولُهُ سبحانَهُ في وصفِ المنافقينَ: ﴿وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ۝٥٦﴾ [التَّوبة: 56]؛ أي: يَخافونَ أن يُظهِروا مَا هُم عليهِ[2].

الفزَعُ: الفَزَعُ مفاجأةُ الخَوفِ عِندَ هجومِ غارةٍ أَو صَوتِ هدَّةٍ، وما أشبهَ ذَلِك، وهوَ انزعاجُ القلبِ بتوقُّعِ مَكروهٍ عاجلٍ، وانقباضٌ ونِفارٌ يَعتري الإنسانَ مِنَ الشَّيءِ المُخِيفِ، وهُوَ مِن جنسِ الجَزَعِ: ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ﴾ [الأنبياء: 103]، وقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [النَّمل: 87][3].

الهلَعُ: أسوأُ الجزعِ والضَّجرِ، وهذا اللَّفظُ لم يَرِد في القرآنِ إلَّا مرَّةً واحدةً فقط، وذلك قولُهُ تعالى: ﴿۞إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ۝١٩﴾ [المعارج: 19][4].

الوجفُ: الاضطرابُ، وسُرعَةُ السَّيرِ[5]، يُقالُ: وَجَفَ الشَّيءُ يَجِفُ وَجفًا: اضطربَ، ووجفَ القلبُ: خفقَ؛ ووجَفَ فلانٌ؛ إذا سقطَ مِنَ الخَوفِ، فهو وَاجِفٌ، وهذا اللَّفظُ بهذا المعنى، لم يَرِدْ في القرآنِ إلَّا مرَّةً واحدةً فقط، وذلك قولُهُ تعالى: ﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ۝٨﴾ [النَّازعات: 8]، وأمَّا قولُهُ تعالى: ﴿فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ﴾ [الحشر: 6] فالمرادُ بـ (الإيجاف) هنا: الإسراعُ في السَّيرِ، يُقالُ: وجَفَ الفرسُ يجِفُ وَجِيفًا، وهو: سرعةُ السَّيرِ؛ وأوجفَهُ صاحبُهُ؛ إذا حملَهُ على السَّيرِ.

الوَجَلُ: استشعارُ الخَوفِ، يُقالُ: وَجِلَ يَوْجَلُ وَجَلًا: خَافَ وفَزِعَ، فهو وَجِلٌ، قالَ تعالى: ﴿قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ۝٥٢﴾ [الحِجر: 52]، وقالَ سبحانَهُ: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ [المؤمنون: 60][6].

---

(1) الرّاغب، المفردات: (روع).
(2) الرّاغب، المفردات: (فرق).
(3) الرّاغب، المفردات: (فزع).
(4) ابن الأثير، النّهاية: 5/269.
(5) الرّاغب، المفردات: (وجف).
(6) الرّاغب، المفردات: (وجل).

﴿لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا أَوْ مَغَـٰرَٰتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْا۟ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ۝٥٧﴾ [التّوبة: 57]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

العلاقةُ بينَ اضطرابِ المنافقينَ وتوصيفِ شدَّةِ خوفِهم، وتداعيَاتها

الآيةُ متَّصلةٌ تمامًا بالآيةِ السَّابقةِ؛ لأنَّها جاءَت مُبيِّنةً لِلخوفِ الَّذي وُصِفُوا بهِ، فهي مُفسِّرةٌ لِفرَقِهم، ومُوضِّحةٌ لهُ بالتَّمثيلِ على شدَّةِ هذا الخوفِ الَّذي يعيشُهُ المنافقونَ، "وهُم يَضيقونَ بكُم، ويَكرهونَ معاشرتَكُم، ولو يَجدون حصنًا أو سراديبَ في الجبالِ، أو جُحورًا في الأرضِ يَدخلونَ فيها؛ لانصرفوا إليها مُسرِعينَ"[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مَلْجَـًٔا﴾: اللَّجَأُ والمَلجَأُ: المَكانُ يُلتَجَأُ إليه[2]، والملجأُ: المعقلُ، وهو ما يتحصَّن به قلعةً ونحوها، ويُطلَقُ على الأناسيِّ أيضًا، فيُقالُ: فلانٌ مَلجَأُ فلانٍ؛ أي: يحوطُهُ ويحويه، ويُقالُ: لجأْتُ إليه ألجأُ لجَأً - بفتحِ العينِ - وملجَأً، والتجأْتُ إليه بمعنى الأوَّلِ، والمَوضِع: لجَأٌ ومَلجَأٌ. والتَّلجِئةُ: الإكراهُ، وألجأْتُه إليه: أكرهتُه عليه، وألجأْتُ أمري إلى اللّه: أسندتُه إليه؛ فلجأَ مَنقولٌ، إمَّا مِنَ المصدرِ أو مِنَ المكانِ[3]، وقالوا: اللَّجأُ: الموضعُ المنيعُ مِنَ الجبلِ، والجمع: ألجاءٌ، والملاجِىء، الواحد: مَلجَأٌ، وهو كلُّ ما لجأْتَ إليهِ مِن مكانٍ أو إنسانٍ[4].

2) ﴿مَغَـٰرَٰتٍ﴾: جمع مَغارةٍ، وهي الكهفُ في الجبلِ، وما يغرُّ فيه مِنَ الأرضِ؛ أي: يُدخَلُ، ويُستترُ بهِ، وكلُّ ما دخلتَهُ لِيَقيك؛ فهو غارٍ ومغارٍ، المعنى المحوريُّ لمادَّة: (غور)، كما جاء في المعجم الاشتقاقيِّ:

(1) لجنة من علماء الأزهر، المنتخب في تفسير القرآن الكريم، ص: 269.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (لجأ).
(3) السّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (لجأ).
(4) ابن دريد، جمهرة اللّغة: (جلواي).

هو الغَؤُور والدُّخولُ بامتدادٍ ودقَّةٍ، ويلزمُهُ اللُّصوقُ والتّغطِّي، كما أنَّ التَّلاصُقَ صورةٌ من صوَرِ تداخلِ المتلاصقين بعضهما في بعضٍ، وكما في الغارِ: المغارة في الجبلِ[1]، والمعنى في الآية: لو تَجدونَ جُبًّا أو تَغورونَ فيه، وتَستترونَ بهِ.

3) ﴿مُدَّخَلًا﴾: مُفتعلٌ مِنَ الدُّخولِ، نقيضُ الخروجِ، ويُستعمَلُ ذلكَ في المكانِ، والزَّمانِ، والأعمالِ، المعنى المحوريُّ: وُلوجُ الشَّيءِ أو تغلغلُهُ في أثناءِ شيءٍ، ومِن ذلك: داخِلةُ الأرض: خَمَرُها وغامِضُها، (يُدخَلُ فيها فتَسْتُر، أو تَسترُ ما وراءَها، كأنَّه دخلٌ فيها)، وداخلُ كلِّ شيءٍ: باطنُهُ، والدُّخولُ: نقيضُ الخروجِ. ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجۡنَ فَتَيَانِۖ﴾ [يوسف: 36]، ﴿لَوۡ يَجِدُونَ مَلۡجَـًٔا أَوۡ مَغَٰرَٰتٍ أَوۡ مُدَّخَلٗا لَّوَلَّوۡاْ إِلَيۡهِ وَهُمۡ يَجۡمَحُونَ ٥٧﴾ [التَّوبة: 57]: نَفَقًا يندسُّونَ فيهِ[2].

4) ﴿يَجۡمَحُونَ﴾: مِنَ الجِماح، وهوَ ذَهابُ الشَّيءِ قُدُمًا بِغَلَبَةٍ وقُوَّةٍ، يُقالُ: جَمَحَ الدَّابَّةُ جِمَاحًا؛ إذا اعتزَّ فارِسَهُ حَتَّى يَغْلِبَهُ[3]، والفرسُ الجَموحُ يندفعُ ولا يلينُ؛ والمعنى: أنَّهم يُسرِعونَ إسراعًا لا يردُّهم شيءٌ[4]، وجَمَحَتِ السَّفينةُ جُمُوحًا: تَرَكَت قَصدَها، فلم يَضبطْها الملَّاحون، وكلُّ شيءٍ مَضَى لوجهِهِ على أمرٍ فقد جَمَحَ، قيل:

إذا عَزَمْتَ عَلَى أَمْرٍ جَمَحْتَ بِهِ *** لا كالَّذي صَدَّ عَنْهُ ثُمَّ لَمْ يَثِبِ[5]

وقالَ الفرَّاءُ في قولِ اللهِ ﷻ: ﴿لَّوَلَّوۡاْ إِلَيۡهِ وَهُمۡ يَجۡمَحُونَ﴾؛ أي: ولَّوا إليه مُسرِعينَ، وقالَ الزَّجّاجُ: وهُم يَجمَحُونَ، قالَ: يُسرِعونَ إسراعًا لا يردُّ وجوهَهم شيءٌ، وقالَ أبو زيد: جَمَحَتِ المرأةُ مِن زوجِها تَجمَحُ جِماحًا، وهو خروجُها مِن بيتِهِ إلى أهلِها قبلَ أن يُطَلِّقَهَا، وَمِثْلُهُ طَمَحَتْ طِمَاحًا[6].

المَعْنى الإِجْمالِيُّ:

إنَّ هؤلاءِ المنافقين من شدَّةِ خوفِهِم يَتمنَّون لو يَجدونَ حصنًا يَلتجِئُون إليه، أو مغاراتٍ

(1) ابن دريد، جمهرة اللّغة: (غور)، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (غور).
(2) الرّاغب، المفردات: (دخل)، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (دخل).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (جمح).
(4) النَّسفي، تفسير النّسفي: 1/687.
(5) البيتُ لايوجدُ له قائلٌ، واستُشهدَ به في لسانِ العربِ، غير مَنسوبٍ إلى أحدٍ. ينظر: الخليل، العين: (جمح).
(6) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (جمح).

يَستخفُّونَ فيها، أو سردابًا في الأرض يَنجحرونَ فيه؛ لأقبلوا نحوَهُ مُسرِعينَ أشدَّ الإسراعِ دونَ أن يردَّهُم شيءٌ، كالفرس الجموحِ الَّذي عجزَ صاحبُهُ عن منعِهِ مِنَ النُّفورِ والعَدوِ[1].

تصويرُ فرارِ المنافقينَ مِن بأسِ المؤمنين، كأنَّهُ لجوءٌ لِلكهوفِ والمَغاراتِ

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

نكتةُ الفصلِ في: ﴿لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا﴾:

قولُهُ تعالى: ﴿لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا﴾، لم تُعطَفْ هذه الآيةُ على الآيةِ السَّابقةِ؛ لأنَّها مُتَّصلَةٌ بها تمامًا، مِن حيثُ كونُها جاءَت مُفسِّرةً لمعنى الفَرَقِ والخَوفِ الَّذي وصفَتهُم بهِ الآيةُ السَّابقةُ، ويمكنُ أن يكونَ سببُ فصلِها أنَّها جاءَت استئنافًا بيانيًّا جوابًا عن سُؤالٍ مُقدَّرٍ بعدَ الآيةِ السَّابقةِ: كيفَ يكونُ خوفُهُم؟ أو ما دليلُ خوفِهم؟ فجاءَت هذه الآيةُ لِتُبَيِّنَ حالَهُم.

استعمالاتُ الفصلِ والوصلِ، تضبطُ المعنى وتجلِّيه

معنى ﴿لَوْ﴾ في: ﴿لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا﴾:

(لو) حرفُ شرطٍ غير جازمٍ، كما هو مُقرَّرٌ في علمِ النَّحو، حيث يُعلَّقُ جوابُ شرطِهِ على حدوثِ فعلِ الشَّرطِ، ويدخلُ على الماضي والمُستقبلِ، وقد يفيدُ مع عملِهِ هذا معنى التَّمنِّي؛ لإبرازِ المُتمنَّى بصورةِ الأمرِ صعب الوقوعِ، كما هو مُقرَّرٌ في علمِ المعاني، وقد أفادَ هنا تمنِّيَهُم أن يَجدُوا ما يَلوذونَ بهِ مِن شدَّةِ الخوفِ، فامتنعَ عليهم الالتجاءُ لامتناعِ المَلاذِ عنهُم.

جوابُ الشَّرطِ مُعلَّقٌ على وقوعِ فعلِ الشَّرطِ

فائدةُ التَّعبيرِ بالجملةِ الشَّرطيَّةِ:

في قوله تعالى ﴿لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا﴾ وقوله سبحانه ﴿لَّوَلَّوْاْ إِلَيْهِ﴾، علَّقت (لو) تولِّيهم إلى الملجأِ والمغاراتِ على عِلْمِهِم بوجودِ الملاذِ لَهُم في المُستقبلِ، فامتنعَ جوابُ الشَّرطِ لامتناعِ فعلِهِ، وأفادَ الشَّرطُ هنا معنى التَّمنِّي، ولكنَّهُ - التَّمنِّي - صعبُ الوقوعِ أو محالُهُ؛ إذ لا

دلَّ أسلوبُ الشَّرطِ على استحالةِ تحقُّقِ أمنيَّتِهم

(1) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 6/321.

عاصمَ يعصمُهُم مِن أمرِ اللّهِ إنْ وَقَعَ عليهم، فدلَّ هذا الأسلوبُ على أنَّ أمنيَّتَهم عزيزةٌ، ولا يمكنُ أن تتحقَّقَ لهم.

فائدةُ التَّعبيرِ بـ ﴿يَجِدُونَ﴾ مادَّةً وصيغةً:

يأتي الوجودُ في اللُّغةِ دالًّا على الوجودِ الحسِّيِّ، بإحدى الحواسِّ الخمسِ، ويأتي بمعنى الوجودِ العقليِّ بمعنى العلمِ، فيتعدَّى بالمعنى الثَّاني إلى مفعولَين[1]. ولا مانعَ في الآيةِ هنا مِن حملِه على المعنيَيْن: المادِّيّ والمعنويِّ، فمِن شدَّةِ خوفِهم يتمنَّونَ أن يجدوا بحواسِّهم أو بعِلمِهم الملاذَ الآمنَ الَّذي يحميهم.

خوفُ المنافقين يدفعُهُم إلى اللُّجوءِ إلى أماكنَ آمنةٍ

والتَّعبيرُ بصيغةِ المضارعيَّةِ، يُفيدُ استحضارَ صورتِهم، وهُم يَفرُّونَ إلى هذه المَلاجِئِ فضلًا عن إفادةِ تجدُّدِ هذه الأمنيةِ فيهم.

فائدةُ التَّرتيبِ بينَ المَلاذاتِ الثَّلاثةِ:

في قوله: ﴿مَلْجَـًٔا أَوْ مَغَـٰرَٰتٍ أَوْ مُدَّخَلًا﴾ بدأتِ الآيةُ بذكرِ المَلجَأ، ثمَّ المَغاراتِ، ثم المُدَّخَلِ، ولعلَّ السِّرَّ في ذلك أنَّها جاءَت مِنَ الأعمِّ إلى الأخصِّ، فهُم يَتمنَّونَ ابتداءً أيَّ مكانٍ يَلوذونَ بهِ، فإنْ لم يكُنْ فمَغارةٌ في جبلٍ أو أيُّ مُدَّخَلٍ يختبئونَ فيهِ، وهذا التَّرتيبُ يدلُّ على شدَّةِ فَزعِهم وخوفِهم.

لا مَلجَأَ ولا مَنجَى مِنَ اللهِ إلَّا إليهِ

معنى ﴿أَوْ﴾ وتكراره:

أفادَت ﴿أَوْ﴾ في قوله: ﴿أَوْ مَغَـٰرَٰتٍ أَوْ مُدَّخَلًا﴾ معنى العطفِ والتَّخييرِ بينَ المعطوفاتِ؛ بمعنى: "لو وجدوا مَفرًّا، يَتحصَّنونَ فيه آمنينَ على أنفسِهم منكُم، لَفرُّوا إليهِ ولَفارقوكُم، ولو وجدوا مَلجَأً؛ أي: مَكانًا يَتحصَّنُ فيه أو مغارةً؛ أي: كهفًا في الجبالِ، أو مُدَّخَلًا؛ أي: سربًا تحتَ الأرضِ كالآبارِ والقنواتِ، لولَّوا إليه؛ أي: رجعُوا إليهِ مِن أحدِ هذه المَواضِعِ، مع أنَّها شرُّ الأمكنةِ"[2].

الفِرارُ مِنَ الحقِّ النَّاصعِ مِن سَفَهِ الرَّأيِ، وقلَّةِ العقلِ

(1) الرّاغب، المفردات: (وجد).
(2) الزّحيليّ، التّفسير المنير: 10/255.

نكتةُ إفرادِ ﴿مَلْجَـًٔا﴾ ﴿مُدَّخَلًا﴾ وجمعِ ﴿مَغَٰرَٰتٍ﴾:

تصويرُ نفسيَّةِ المنافقينَ عندَ الخوفِ وتمنِّي الفِرارِ

الملجأُ والمُدَّخلُ، إمَّا أن يكونا مَصدرَين أو اسمَي مكان، فعلى المصدريَّة فإنَّ الإفرادَ فيه والجمعَ سواءٌ، في دلالتِه على معاني الالتجاءِ والدُّخولِ، أمَّا المغاراتُ فهو جمعُ مؤنَّثٍ سالمٌ، ويدلُّ على تمنِّيهم كثرةَ هذه المغاراتِ، وربَّما كانَ ذلك لِرغبتِهم في أن يكونَ لها أكثرُ مِن مَدخَلٍ ومَخرَجٍ، حتَّى يتمكَّنوا فيه مِنَ الدُّخولِ والخروجِ بأريحيَّةٍ تامَّةٍ، وهذا يَليقُ بطبيعةِ النِّفاقِ، وسببُ الاشتقاقِ لاسمِهم مِن نافقاءِ اليربوعِ الَّذي يحفرُ لنفسِه في الأرضِ مَداخلَ عِدَّةً، كما هو حالُ الشَّخصيَّةِ المُنافِقةِ في تعاملاتِها، وقد تكونُ نكتةُ الجمعِ بينَ صيغِ الإفرادِ والجمعِ في شأنِ المَلاذاتِ، ناشِئةً عن رغبتِهم بالاحتماءِ بأيِّ نوعٍ مِن أنواعِ الملاذاتِ الَّتي يَتمنَّونَ الفِرارَ إليها عندَ خوفِهم.

فائدةُ تنكيرِ ﴿مَلْجَـًٔا أَوْ مَغَٰرَٰتٍ أَوْ مُدَّخَلًا﴾:

كلُّ المخابِئِ قد تحمي مِنَ البشرِ، ولكنْ مِنَ اللهِ لا مَفرَّ

أفادَ التَّنكيرُ هنا التَّعميمَ أو التَّحقيرَ؛ ليشمَلَ كلَّ ما مِن شأنِه أن يكونَ كذلك، حتَّى يحتموا به، مهما يكنْ حقيرًا، ويمكن حملُ التَّنكيرِ على التَّفخيمِ والتَّعظيمِ لأمنيَّتِهم بأن يكونَ هذا المَلاذُ عظيمًا لِيحقِّقَ الأمنَ لَهُم.

معنى اللَّامِ في: ﴿لَّوَلَّوْاْ إِلَيْهِ﴾:

مَن ولَّى إلى مَلجَأٍ غيرِ اللهِ باءَ بالفشلِ وخابَ مَسعاهُ

هي اللَّامُ الواقعةُ في جوابِ الشَّرطِ، ولا محلَّ لها مِنَ الإعرابِ، وتُفيدُ التَّوكيدَ، ومعنى ﴿لَّوَلَّوْاْ إِلَيْهِ﴾: (وَلَّوْا)؛ أي: انطلقوا إليه، وقد شغلَهُمُ الإسراعُ للذَّهابِ إلى المكانِ عن أيِّ شيءٍ آخر[1]، أو "لَصَرَفُوا وجوهَهُم، وأقبَلُوا، وقُرِئَ (لوالَوا)؛ أي: لالتجأوا ﴿إِلَيْهِ﴾؛ أي: إلى أحدِ مَا ذُكِرَ"[2] مِنَ المَلاجئِ الَّتي يَظنُّونَ أنَّها سوفَ تحميهم، وتقيهم مِن مَغبَّةِ نفاقِهم البئيسِ.

(1) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 9/5209.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/75.

نكتةُ إفرادِ الضَّميرِ وتذكيرِهِ: ﴿لَّوَلَّوْاْ إِلَيْهِ﴾:

مراعاةُ التَّغليبِ في التَّذكيرِ مِن أساليبِ العربِ الفصيحةِ

إفرادُ الضَّميرِ وتذكيرُهُ هنا؛ لأنَّهُ يعودُ على أحدِ الملاذاتِ الثَّلاثةِ، وليسَ على مجموعِها؛ لأنَّ (أو) أفادَت معانيَ التَّسويةِ والتَّخييرِ، وأمَّا تذكيرُهُ فبحسبِ الغالبِ منها، والجملةُ هنا جوابُ الشَّرطِ، والضَّميرُ في قولِهِ: ﴿إِلَيْهِ﴾ يربطُ بهِ المعنى بينَ السِّياقِ السَّابقِ واللَّاحقِ، والمعنى: أنَّهم "يَتمنَّونَ الفِرارَ منكُم، والعيشَ في مكانٍ يَعتصمونَ فيهِ مِن انتقامِكُم منهم، فلو استطاعوا السُّكنى في الحصونِ والقلاعِ، أو في كهوفِ الجبالِ ومَغاراتِها، أو في أنفاقِ الأرضِ وأسرابِها، لَولَّوا إليها مُسرِعينَ، كالفرسِ الجموحِ لا يردُّهُم شيءٌ"[1].

دلالةُ توجيهِ القراءاتِ في: ﴿أَوْ مُدَّخَلًا﴾:

من شروطِ صحَّةِ القراءةِ المتواترةِ أن توافقَ العربيَّةَ ولو بوجهٍ

قرأَ يعقوبُ بفتحِ الميمِ وإسكانِ الدَّالِ (مَدْخَلا)، على أنَّهُ مَصدرٌ أو اسمُ مَكانٍ، وقرأَ البَاقونَ بضمِّ الميمِ وفتحِ الدَّالِ، مع تشديدِها ﴿مُدَّخَلًا﴾[2]، فهو اسمُ مكانٍ، لكنَّ قراءةَ التَّشديدِ أفادَت معنى الافتعالِ والمبالغةِ في اللُّجوءِ.

معنى الواو في: ﴿وَهُمْ يَجْمَحُونَ﴾:

لا أصلحَ مِنَ الجملةِ الحاليَّةِ في وصفِ صاحبِ الحالِ

الواو حاليَّةٌ، والجملةُ الاسميَّةُ بعدَها: في محلِّ نصبٍ على الحالِ؛ أي: لولَّوا، والحالُ أنَّهم يَجمحونَ، وتفصيلها أنَّ قولَهُ: ﴿وَهُمْ يَجْمَحُونَ﴾ مُكوَّنةٌ مِنَ الواو الحاليَّةِ، وجملةُ ﴿يَجْمَحُونَ﴾ خبرُ المبتدأ، والجملةُ الاسميَّةُ ﴿وَهُمْ يَجْمَحُونَ﴾ في محلِّ نصبٍ على الحالِ[3].

فائدةُ التَّعبيرِ بالجملةِ الاسميَّةِ ﴿وَهُمْ يَجْمَحُونَ﴾:

مَن لم يَخفِ اللهَ خوَّفَهُ اللهُ مِن كلِّ شيءٍ

أفادتِ الجملةُ الاسميَّةُ في فاصلةِ الآيةِ معنى التَّوكيدِ والثَّباتِ في وصفِهِم بهذهِ التَّوصيفاتِ، ومعنى: ﴿وَهُمْ يَجْمَحُونَ﴾؛ أي: "يُسرِعونَ الخُطا لِشدَّةِ خوفِهِم، وعظيمِ بُغضِهِم لِلإسلامِ وأهلِهِ.. (ثمَّ) إنَّ

(1) أسعد حومد، أيسر التَّفاسير، ص: 1293.
(2) ابن الجزريّ، النّشر: 2/279.
(3) الدّعّاس وآخران، إعراب القرآن الكريم: 1/463.

هذه الأماكنَ الَّتي ذكرَها القرآنُ، هي شرُّ الأماكنِ وأضيقُها، ومع هذا لو وجدَ المنافقونَ واحدًا منها لأسرَعوا إليهِ، واختفوا فيهِ، وهذا تصويرٌ في مُنتهَى الرَّوعةِ؛ لتوضيحِ مَدى حنقِهم على المُسلمينَ، وخوفِهم منهُم"[1]، وهو ما يتلاءمُ مع قولِهِ تعالى: ﴿وَهُمْ يَجْمَحُونَ﴾.

إشعارُ التَّولِّي مع الجماحِ بكمالِ عتوِّهِم وطغيانِهِم

نكتةُ التَّعبيرِ بـ ﴿يَجْمَحُونَ﴾ مادَّةً وصيغةً:

أفادَتْ مادَّةُ (جمح) معانيَ الاندفاعِ بسرعةٍ وقُوَّةٍ؛ لشدَّةِ الفزعِ، والتَّعبيرُ بالمضارع أفادَ معانيَ استحضارِ صورتِهِم أثناء جماحِهم، فضلًا عن تجدُّدِ هذا الفعلِ فيهم؛ كلَّما دعَت إليه حاجةٌ.

سياقُ القرآنِ إيجازٌ وإعجازٌ وبيانٌ

بلاغةُ الاستعارةِ: ﴿يَجْمَحُونَ﴾:

شبَّهتِ الآيةُ الكريمةُ سرعةَ المنافقين في تولِّيهم، مع شدَّةِ خوفِهم بحالِ الفَرسِ إذا جَمَحَتْ، بجامعِ النُّفورِ والاضطرابِ على سبيلِ الاستعارةِ التَّصريحيَّةِ، وهذا الاستعمالُ البديعُ للَّفظِ ﴿يَجْمَحُونَ﴾ مِن أروعِ التَّصويرِ؛ إذ لو قالَ: (لَولَّوا مُسرِعينَ مُصمِّمينَ غيرَ مُنثَنِينَ)[2] لَما عبَّرَ بتلك الألفاظِ جميعِها عن لفظٍ واحدٍ، هو ﴿يَجْمَحُونَ﴾ الَّذي استوفى المعنى بدقَّةٍ وبلاغةٍ.

(1) الكواريّ، تفسير غريب القرآن: 9/57.
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/46.

﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنْ أُعْطُواْ مِنْهَا رَضُواْ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْاْ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ۝٥٨﴾ [التّوبة: 58]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

ربطُ ما سَلَفَ مِن حالِ المنافقينَ بسُوءِ تصرُّفاتِهم معَ النَّبيِّ الكريمِ

الآيةُ مَعطوفةٌ على ما سبقَها مِنَ الآياتِ في وصفِ حالِ المنافقينَ، وفي بيانِ مَواقفِهم إزاءَ التَّحدِّياتِ والمؤثِّراتِ المختلفةِ الَّتي يمرُّون بها، ومِن ذلك أنَّ بعضَ هؤلاء المنافقين لا يفتؤونَ يعيبونَ الرَّسولَ ﷺ بالطَّعنِ عليهِ في قسمةِ الصَّدقاتِ والغنائمِ؛ إذ لا همَّ لَهُم إلّا حُطامُ الدُّنيا، فإن أعطيتَهُم ما يَرغبونَ منها رضوا عن عملِكَ، وإنْ لم تُعطِهم تعجَّلُوا بالسُّخطِ عليكَ.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَلْمِزُكَ﴾: اللَّمْزُ هوَ العَيْبُ[1]، واللُّمَزَةُ: الكثيرُ اللَّمزِ، واللَّمزُ: الاغتيابُ وتتبُّعُ المعايبِ، والمعنى المحوريُّ: الدَّفعُ في البدنِ بشدَّةٍ وحِدَّةٍ، ومنه قِيلَ: "لَمَزَهُ: عابَهُ ووقَعَ فيهِ" ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ۝١﴾ [الهُمزة: 1]. ﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ [التّوبة: 58]؛ أي: مَن يعيبُكَ في قَسْمِ الصَّدقاتِ، وهي نزغةٌ مُنافِقٍ مُتَعَلِّقُه تحميل الدُّنيا ومحبَّة المالِ[2]، "اللَّمْزُ، كالغمزِ في الوجهِ تَلمِزُهُ بفيكَ بكلامٍ خفيٍّ، وقولُهُ: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ﴾؛ أي: يُحَرِّك شفتيهِ بالطَّلبِ، ورجلٌ لُمَزَةٌ: يعيبُكَ في وجهِكَ لا مِن خلفِكَ، وهو مِنَ اللَّمزِ، ورجلٌ هُمَزَةٌ: يعيبُكَ مِن خلفِكَ"[3].

2) ﴿ٱلصَّدَقَٰتِ﴾: الصَّادُ والدَّالُ والقافُ أَصلٌ يَدُلُّ على قوَّةٍ في

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (لمز).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (لمز).
(3) الخليل، العين: (لمز).

الشَّيءِ قَولًا وغَيرَهُ، مِن ذَلِكَ الصِّدقُ: خِلافُ الكَذِبِ، سُمِّيَ لِقوَّتِهِ في نَفسِهِ، ولأَنَّ الكَذِبَ لا قُوَّةَ لَهُ، هوَ بَاطِلٌ، وأَصلُ هذا مِن قَولِهِم: شَيءٌ صَدقٌ؛ أي: صُلْبٌ. ورُمحٌ صَدْقٌ، والصَّدَاقُ: صَدَاقُ المَرأَةِ، سُمِّيَ بِذَلِكَ لِقُوَّتِهِ، وأَنَّهُ حَقٌّ يَلْزَمُ، قالَ اللّٰه تعالى: ﴿وَءَاتُواْ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحۡلَةٗ﴾ [النّساء: 4]، ومِنَ البابِ الصَّدَقَةُ: ما يَتَصَدَّقُ بِهِ المَرءُ عَن نَفسِهِ ومالِهِ[1]، لكنَّ الصَّدَقَةَ في الأصلِ، تُقالُ لِلمُتَطَوِّعِ بِهِ، والزَّكاةُ لِلواجِبِ، وقد يُسمَّى الواجبُ صَدَقةً إذا تَحَرَّى صاحِبُها الصِّدقَ في فِعلِهِ[2].

3) ﴿يَسۡخَطُونَ﴾: السُّخطُ: ضدُّ الرِّضا، سخِطَ الشَّيءَ: كَرِهَهُ، تسخَّطَ عطاءَه: استقلَّهُ، كلَّما عملتُ له عملًا؛ تسخَّطَهُ؛ أي: لم يرضَهُ، والمعنى المحوريُّ: الغضبُ (الشَّديد) استنقاصًا لِما يُقَدَّمُ من عملٍ أو عطاءٍ، والسُّخطُ: الكراهةُ المُفرِطةُ[3]، فالسُّخطُ اصطلاحًا: الغضبُ الشَّديدُ المُقتَضي لِلعقوبةِ[4]، وسَخِطَ؛ أي: غَضِبَ، وبابُهُ طَرِبَ؛ فهو سَاخِطٌ، وأسخَطَهُ: أغضَبَهُ، وتَسَخَّطَ عَطاءَهُ: استَقَلَّهُ[5]، وفي حديث هِرقل: «**وسَأَلْتُكَ أَيَرتَدُّ أَحَدٌ سَخْطَةً لِدينِهِ بَعدَ أَنْ يَدخُلَ فيهِ؟**»[6]، السَّخَطُ والسُّخْطُ: الكراهيةُ لِلشَّيءِ وعدمُ الرِّضا بِهِ، ومنه الحديثُ: «**إنَّ اللهَ يَسخَطُ لَكُم كَذا**»[7]؛ أي: يَكرَهُهُ لَكُم، ويمنعُكُم منهُ، ويُعاقِبُكُم عليهِ، أو يَرجِعُ إلى إرادةِ العُقوبَةِ عليهِ[8].

المَعْنى الإِجْماليُّ:

خاطبَ السِّياقُ نبيَّ الرَّحمة، فقالَ لهُ: يا محمَّدُ، مَن يُعيبُكَ، ويَطعنُ عليكَ في قِسمةِ الصَّدقاتِ والغنائم، ويَزعمُ أنَّك لَستَ عَادِلًا في قسمتِكَ، إنَّما هُمُ المنافقونَ، الَّذين إذا أعطيتَهُم مِن تلكَ الصَّدقاتِ رضوا عنكَ، وإنْ لَم تُعطِهم منها سَخِطُوا عليكَ، واتَّهمُوكَ

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (صدق).
(2) الرّاغب، المفردات: (صدق).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (سخط).
(4) الرّاغب، المفردات: (سخط).
(5) الرّازيّ، مختار الصّحاح: (سخط).
(6) هذا الحديث الطّويل ذكرَهُ البخاريّ، عن عبدالله بن عبّاس، سألَ فيه أبا سفيان بن حربٍ عن حوارِهِ مع هرقل عظيمِ الرّومِ: (باب الإيمان)، الحديث رقم: (58)، وابن الأثير، النّهاية: (سخط).
(7) هذا الحديث ذكرَه مُسلم في الصّحيح، عن أبي هريرة، كتاب الأقضيةِ، باب النّهي عن كثرةِ المسائلِ مِن غير حاجةٍ، والنّهي عن منع وهات، وهو الامتناعُ من أداءِ حقٍّ لزمَهُ أو طلبِ ما لا يستحقُّه. الحديث رقم: (4481).
(8) ابن منظور، لسان العرب: (سخط).

زورًا وبُهتانًا، "وهُم لا يَفعلونَ ذلك سخطًا لِلدِّين، ولا غَيرةً على مَصلحةِ المُسلمينَ، وإنَّما يَفعلونَهُ سعيًا وراءَ مَنافعِهم الخاصَّةِ، ومزاياهُمُ الذَّاتيَّةِ، واللهُ يَعلمُ خباياهم، ويُطلعُكَ عليها"[1].

التَّنديدُ بالطَّاعنينَ في توزيعِ رسولِ اللهِ ﷺ لِلصَّدقاتِ لِأطماعِهم فيها

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ العطفِ بحرفِ (الواو)، وأثرُها في المعنى:

الواو في قولِهِ: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ﴾ عاطفةٌ، وهي مِن عطفِ القصَّةِ على القصَّةِ؛ لأنَّ الآياتِ لا زالَت تتحدَّثُ عنِ المُنافقينَ وصفاتِهم، والمقصودُ مِن هذا شرحُ نوعٍ آخرَ مِن قبائحِهم وفضائحِهم، وهو طعنُهُم في الرَّسولِ ﷺ بسببِ أخذِ الصَّدقاتِ مِنَ الأغنياءِ، ويَقولونَ: إنَّهُ يُؤثِرُ بها مَن يَشاءُ مِن أقاربِهِ وأهلِ مَوَدَّتِهِ، ويَنسُبُونَهُ إلى أنَّهُ لا يُراعِي العَدلَ[2].

بيانُ اللَّمزِ المشينِ بالطَّعنِ في أمانةِ النَّبيِّ الأمينِ

معنى (مِن) في قولِهِ: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ﴾:

(مِن) هنا: تبعيضيَّةٌ على معنى: أنَّ بعضَهم مَن يفعلُ هذا، وبعضهم يفعلُ غيرَهُ، وهذا الَّذي لمزَ النَّبيَّ ﷺ، وَرَدَ عن أبي سعيد الخدريِّ، قال: بينا النَّبيُّ ﷺ يَقسِمُ، جاءَ عبدُ اللهِ بن ذي الخُويصرة التَّميميُّ، فقال: اعدلْ يا رسولَ اللهِ، فقالَ: «ويحَكَ، ومَن يعدلُ؛ إذا لم أعدلْ»، قال عمر بن الخطاب: ائذنْ لي، فأضربَ عُنُقَهُ، قالَ: «دَعْهُ، فإنَّ لهُ أصحابًا يَحقِرُ أحدُكُم صلاتَهُ مع صلاتِهِ، وصيامَهُ مع صيامِهِ، يَمرُقونَ مِنَ الدِّينِ كما يَمرُقُ السَّهمُ مِنَ الرَّمية»[3].

مَن تجرَّأَ على رسولِ اللهِ ﷺ باللَّمزِ خَسِرَ الدُّنيا والآخرةَ

معنى الموصولِ ﴿مَّن﴾ وصلتِهِ في قولِهِ: ﴿مَّن يَلْمِزُكَ﴾:

﴿مَّن﴾ هنا اسمُ موصولٍ بمعنى: (الَّذي)، والاسمُ الموصولُ مُبهَمٌ

ذمُّ المنافقينَ، والنَّعيُ عليهم؛ لِما بَدَرَ منهُم مِن لَمزٍ أثيمٍ

(1) أسعد حومد، أيسر التّفاسير، ص: 1294.

(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 16/755.

(3) الحديثُ مَرويٌّ عن أبي سعيد الخدريّ، أخرجه البخاريّ، الحديث رقم: (3610)، ومُسلم، الحديث رقم: (1064)، ورُوِيَ أيضًا عن جابر بن عبد الله، أخرجه: ابن ماجة، سننه، الحديث رقم: (142)، ويُنظر في أسبابِ نزولِ الآيةِ: المزينيّ، المحرّر في أسباب نزول القرآن من خلال الكتب التّسعة: 1/589.

مُفتقِرٌ إلى جملةِ صلةِ الموصولِ الَّتي تُزيلُ إبهامَهُ، كما أنَّهُ مُفتقِرٌ إلى عائدٍ ظاهرٍ أو مُقدَّرٍ يعودُ عليهِ، وأفادَ الاسمُ الموصولُ هنا معنى الذَّمِّ والتَّحقيرِ لهذا الصِّنفِ مِنَ المنافقينَ، والجملةُ هنا صلةُ الموصولِ لا محلَّ لها مِنَ الإعرابِ، والعائدُ فيها ضميرٌ مُقدَّرٌ يعودُ على هذا الصِّنفِ اللَّامزِ.

فائدةُ التَّعبيرِ بالمضارعِ في ﴿مَّن يَلۡمِزُكَ﴾:

قولُهُ: ﴿وَمِنۡهُم مَّن يَلۡمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ﴾، واللَّمزُ يشمَلُ العيبَ باللَّفظِ الصَّريحِ، ويشمَلُ العيبَ بالتَّعريضِ والتَّلميحِ، ويشمَلُ كذلك الوخزَ في الكلامِ.. وقالوا: إنَّ اللُّمَزَةَ مَن يعيبُ في وجهِ مَن يعيبُهُ، ولو بلَحْنِ القولِ، وقد استعملَ السِّياقُ الفعلَ المضارعَ لِلدَّلالةِ على بشاعةِ التَّطاولِ على مَقامِ النُّبوَّةِ السَّاميِّ، ودلَّ التَّعبيرُ بالمضارعِ، هنا على استحضارِ صورتِهِم القبيحةِ، وهُم يَلمزونَ الرَّسولَ والمؤمنينَ، فضلًا عن دلالتِها على تجدُّدِ هذا اللَّمزِ فيهم، واستمراريَّتِهِ عندَهُم.

استبشاعُ لمزِ النَّبيِّ الأمينِ، مُتجدِّدٌ في كلِّ عصرٍ وحينٍ

بلاغةُ الحذفِ في: ﴿يَلۡمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ﴾:

أُدخِلَت ﴿فِي﴾ على الصَّدقاتِ، وإنَّما اللَّمزُ في توزيعِها لا في ذواتِها؛ لأنَّ الاستعمالَ يدُلُّ على المرادِ، فهذا شائعٌ مِن إسنادِ الحُكمِ إلى الأعيانِ، والمُرادُ أحوالُها[1]، وعلى هذا فيكونُ تقديرُ الجملةِ: ومنهُم مَن يلمزُكَ في شأنِ الصَّدقاتِ، أو في قسمتِها، ولكنَّ إسنادَ الحرفِ (في) إلى الصَّدقاتِ أفادَ عمومَ لَمزِهِم في كافَّةِ شؤونِها.

دلَّ السِّياقُ على عمومِ طعنِهِم في شأنِ الصَّدقاتِ على إطلاقِها

معنى (ال) في: ﴿فِي ٱلصَّدَقَٰتِ﴾:

يحتملُ أن تكونَ (الـ) هنا عهديَّةً، والمرادُ بها الصَّدقاتُ المعروفةُ الَّتي وزَّعها النَّبيُّ ﷺ على بعضِهِم، في مُناسبةٍ مُحدَّدةٍ، تبعًا لِمَا جاءَ في مُناسباتِ نزولِ هذه الآيةِ، والأَولَى حمْلُها على الجنسِ لِيُرادَ منها

العِبرَةُ بعمومِ لفظِ الصَّدقاتِ لا بخصوصِ سببِ النُّزولِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/232.

كافَّة الصَّدقاتِ الَّتي يتصرَّفُ فيها النَّبيُّ ﷺ، والَّذي يُؤكِّدُ هذا الرَّأي مجيئُها على هيئةِ الجمعِ دونَ الإفرادِ.

معنى الفاءِ في: ﴿فَإِنْ أُعْطُواْ مِنْهَا رَضُواْ﴾:

الفاءُ عاطفةٌ أفادَتِ التَّفريعَ والتَّعقيبَ، و"(الفاء) تدُلُّ على أنَّ ما بعدَها بيانٌ أو إشارةٌ إلى نوعِ عينِهم، وهو بيانٌ لنفوسِهم، إنْ أُعطوا مِنَ المالِ بحقٍّ؛ رضوا واطمأنُّوا، وقالُوا: إنَّها قِسمةٌ عادلةٌ، واستقامُوا على الطَّريقة، وإنْ لم يُعطوا لِعدمِ استحقاقِهم سَخِطوا، فهُم طامعونَ في أن يأخذوا بغيرِ حقٍّ"[1].

جوهرُ الإيمانِ الرِّضا بأحكامِ اللهِ في العطاءِ والمَنعِ

دلالةُ (إنْ) الشَّرطيَّة:

أفادَ استعمالُ (إنْ) في قوله: ﴿فَإِنْ أُعْطُواْ مِنْهَا رَضُواْ﴾ معنى الشَّرطِ، ويُؤتَى بها لإبرازِ فعلِ الشَّرطِ، على أنَّه في حكمِ نادرِ الوقوعِ، أو ما هو في حكمِهِ، كما هو مُقرَّرٌ في علمِ المعاني، فدلَّ استعمالُها هنا على أنَّ إعطاءَهُم ينبغي أن يكونَ لهُ حكمُ النَّادرِ.

أسوأُ الرِّضا ما كانَ مَشروطًا بالعطاءِ، وجودًا وعدمًا

فائدةُ التَّعبيرِ بالجملةِ الشَّرطيَّةِ في: ﴿فَإِنْ أُعْطُواْ مِنْهَا﴾:

أفادَ استعمالُ الجملةِ الشَّرطيَّةِ هنا الدَّلالةَ على ربطِ مواقفِهم وردودِ أفعالِهم، بأسبابٍ مُحدَّدةٍ، ومُقدِّماتٍ مُقرَّرةٍ، فهذا الأسلوبُ يُصوِّرُ نفسيَّاتِهم الَّتي تربطُ الأسبابَ بالنَّتائجِ، فقد ربطَتِ الآيةُ هنا رضاهم بإعطائِهم الصَّدقاتِ، ويكثرُ استعمالُ أسلوبِ الشَّرطِ في سياقِ الحديثِ عنِ المنافقينَ، ولاسيَّما في هذه السُّورةِ، كما في قولِهِ: ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّٱتَّبَعُوكَ وَلَٰكِنۢ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ ٱلشُّقَّةُۚ وَسَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَوِ ٱسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ﴾ [التَّوبة: 42]، وقولِهِ: ﴿۞وَلَوْ أَرَادُواْ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّواْ لَهُۥ عُدَّةً﴾ [التَّوبة: 46]، وقولِهِ: ﴿لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُواْ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ﴾

ربطُ صفاتِ المنافقينَ ومواقفِهم بالاشتراطِ تماشيًا مع نفسيَّاتِهم

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 6/3339.

[التَّوبة: 47]، وقولِه: ﴿إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُواْ قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا مِن قَبْلُ﴾ [التَّوبة: 50].

نكتةُ بناءِ صيغةِ الفعلِ لِمَا لم يُسمَّ فاعلُهُ في ﴿أُعْطُواْ﴾:

المنافقونَ أشدُّ حرصًا على المَكاسِبِ مِنَ الانشغالِ بمَن يُقدِّمُها

دلَّ بناءُ الفعلِ لغيرِ فاعلٍ مُعيَّنٍ على أنَّهم يَطلبونَ حصولَ هذا الفعلِ لهم دونَ النَّظرِ إلى فاعلِه، فالمهمُّ في الأمرِ أن يتحقَّقَ إعطاؤُهُم دونَ الاهتمامِ بنوعِ المُعطِي، وهذا يكشفُ نفسيَّتَهُم في طلبِ المَنافعِ والسَّعي لها.

دلالةُ عودِ الضَّمائرِ في الجملةِ الشَّرطيَّةِ:

تنوُّعُ مآلاتِ الضَّمائرِ، يُكسبُها معانيَ كثيرةً

الظَّاهرُ أن تعودَ الضَّمائرُ في ﴿أُعْطُواْ﴾و﴿رَضُواْ﴾ إلى اللَّامِزين أنفسِهم؛ أي: إنْ أُعطي اللَّامِزُونَ رضوا، ويحتملُ أن تعودَ إلى الضَّميرِ في قولِه: ﴿وَمِنْهُم﴾؛ أي: إلى مجموعِ المنافقين، فيصير المعنى: إنْ أُعطِيَ المُنافقونَ رَضِيَ اللَّامِزُونَ، وإنْ أُعطِيَ غيرُهم سَخِطُوا؛ فالمعنى: أنَّهُم لا يُريدونَ الصَّدقاتِ إلَّا إلى فقرائِهِم[1].

معنى (من) في: ﴿فَإِنْ أُعْطُواْ مِنْهَا رَضُواْ﴾:

هوى النَّفسِ الغالبُ يقودُ العبادَ إلى ما يُعابُ

(مِنْ) هنا يمكنُ أن تكونَ تبعيضيَّةً على معنى: إنْ أُعطوا بعضَ الصَّدقاتِ، وهو الظَّاهرُ، ويمكنُ أن تكونَ بيانيَّةً تبيِّنُ ما يُرضيهم[2]، "إذًا: فموازينُهم مُختلَّةٌ، وليسَت موازينَ حقٍّ ثابتٍ، بل هي موازينُ هوى النَّفسِ، لكنَّ موازينَ الحقِّ لا تَتبَعُ، ولا تَتوقَّفُ على هوى النَّفسِ، بل هي موازينُ ثابتةٌ، يعدلُ فيها الإنسانُ حتَّى مع ألدِّ أعدائِه"[3].

سرُّ استعمالِ صيغةِ الماضي ﴿رَضُواْ﴾:

الإسلامُ رضًا وإقناعٌ، وليس مُقايضةً للانتفاعِ

للدَّلالةِ على أنَّ الرِّضا وإظهارَ الإسلامِ، كان يكون لأجلِ العطاءِ في وقتِه، وينقضي، فلا يعدُّونهُ نعمةً يتمنَّونَ دوامَ الإسلامِ لِدوامِها[4].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/232.
(2) صافي، الجدول: 5/366.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/232.
(4) محمد رضا، تفسير المنار: 10/421.

و"هؤلاء النَّاسُ تختلفُ انفعالاتُهُم باختلافِ مَصلحتِهِم، إذا أَخَذوا رضوا، وإذا مُنِعوا سخِطوا؛ لأنَّ ميزانَهُم هو المصلحةُ الخاصَّةُ البعيدةُ عن كلِّ عَدلٍ"[1].

سرُّ الحذفِ في التَّركيبِ، وعلاقتُهُ بالإيجازِ والتَّعميمِ:

التَّقديرُ تنويعٌ للتَّعبيرِ، وتحريكٌ لسوانحِ التَّفكيرِ

لم يقلِ القرآنُ: رضوا عنك، أو رضوا عنِ المؤمنين؛ لأنَّه مفهومٌ مِنَ السِّياقِ، فالحذفُ لِلإيجازِ، ويمكن أن يكون الحذفُ؛ لأنَّهم في حقيقةِ الأمرِ مهما أُعطُوا فلن يرضَوا عنِ النَّبيِّ ولا عنِ المؤمنينَ، فعبَّرَ القرآنُ الكريمُ عن ذلكَ بحصولِ حالةِ الرِّضا عندَهُم بسببِ الإعطاءِ لا بسببِ المُعطِي، أو أنَّ الفعلَ أُجرِيَ مَجرَى اللَّازمِ؛ أي: صارَت لهم حالةٌ مِنَ الرِّضا.

بلاغةُ العطفِ في: ﴿وَإِن لَّمۡ يُعۡطَوۡاْ﴾:

مَلمَحُ الإطنابِ والاحتراسِ في السِّياقِ

جاءتِ الجملةُ الشَّرطيَّةُ الثَّانيةُ في قوله: ﴿فَإِنۡ أُعۡطُواْ مِنۡهَا رَضُواْ وَإِن لَّمۡ يُعۡطَوۡاْ﴾ معطوفةً على الأولى بحرفِ الواو؛ لمزيدِ البيانِ في وصفِ حالِهم في حبِّ الأخذِ دونَ العطاءِ؛ ليبيِّنَ موقفَهُم السَّاخطَ في حالِ عدمِ إعطائِهم؛ لأنَّه قد يظنُّ ظانٌّ أنَّهُ إذا أُعطوا رَضوا، وإذا لم يُعطَوا قد لا يَرضون، ولا يَسخطون، فبيَّنَ حصولَ السُّخطِ منهم، فالعطفُ للإطنابِ والاحتراسِ.

بلاغةُ إعادةِ التَّعبيرِ بالشَّرطيَّةِ ﴿فَإِنۡ أُعۡطُواْ مِنۡهَا﴾ ﴿وَإِن لَّمۡ يُعۡطَوۡاْ﴾:

تتغايرُ ردودُ الأفعالِ بتغايرِ الأحوالِ

عَبَّرَ عن حالِهم في حالِ عدمِ إعطائِهم مِنَ الصَّدقاتِ، بما عَبَّرَ فيهِ عن حالِهم حالَ إعطائِهم، بنفسِ النَّظمِ وأسلوبِ الشَّرطِ؛ لِلدَّلالةِ على تغايُرِ ردودِ أفعالِهم بناءً على تغايرِ أحوالِهم.

بديعُ المقابلةِ:

إظهارُ التَّقلُّبِ في أحوالِ المنافقينَ حسبَ الهوى والمَنفعةِ

قولُهُ: ﴿فَإِنۡ أُعۡطُواْ مِنۡهَا رَضُواْ وَإِن لَّمۡ يُعۡطَوۡاْ مِنۡهَآ إِذَا هُمۡ يَسۡخَطُونَ﴾، هناك مقابلةٌ بين الإعطاءِ في قولِهِ: ﴿فَإِنۡ أُعۡطُواْ مِنۡهَا﴾، والمنعِ في

(1) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 9/5217.

قولِهِ: ﴿وَإِن لَّمْ يُعْطَوْاْ مِنْهَآ﴾، وبينَ الرِّضا في قولِهِ: ﴿رَضُواْ﴾، والسُّخطِ في قولِهِ: ﴿يَسْخَطُونَ﴾ على التَّرتيبِ؛ لِلدَّلالةِ على شدَّةِ سيطرةِ المالِ على قلوبِهِم؛ وتلوُّنِهِم حسبَ الهوى.

معنى ﴿إِذَا﴾ الفجائيَّةِ في: ﴿إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾:

سُخطُ المنافقينَ لا مَنطقَ لهُ، فلا غرابةَ في غرابتِهِ

﴿إِذَا﴾ هنا فجائيَّةٌ، وتدلُّ على أنَّ سَخَطَهُم هنا أمرٌ يُفاجِئُ العاقلَ حِينَ يَشهَدُهُ؛ لأنَّه يكونُ في غَيرِ مَظِنَّةِ سَخَطٍ، وشَأنُ الأمورِ المُفاجِئَةِ أن تكونَ غَرِيبةً في بابِها[1]، "و (إذا) - تدلُّ على أنَّ سخطَهُم أمرٌ لا يرتبطُ بمنطقِ الأمورِ، فهُم فاجَؤوا أهلَ الحقِّ به، والدَّليلُ على المفاجأةِ (إذا)؛ فهي تدلُّ على المفاجأةِ. والمفاجأةُ تدلُّ على أنَّهُ غيرُ مَنطقيٍّ؛ لأنَّ مَن يَرضَى بالحقِّ عندَ العطاءِ، لا يصحُّ أن يغضبَ إنْ مُنِعَ بحقٍّ"[2].

موقعُ جملةِ ﴿هُمْ يَسْخَطُونَ﴾ في سياقِ الآيةِ الكريمةِ:

للضَّمائرِ دورٌ أساسيٌّ في ربطِ اللَّاحقِ مِنَ الجُملِ بالسَّابقِ

دلَّ التَّعبيرُ بالجملةِ الاسميَّةِ ﴿هُمْ يَسْخَطُونَ﴾ على استقرارِ هذا الوصفِ فيهم، حتَّى باتَ اسمًا لهم؛ فالجملةُ الاسميَّةُ تدلُّ على الثَّباتِ، وتفيدُ التَّوكيدَ أيضًا؛ لِتكرُّرِ ذكرِ المُسندِ إليه فيها مرَّةً بكونِهِ المبتدأ ﴿هُمْ﴾، ومرَّةً بكونِهِ فاعلَ الفعلِ ﴿يَسْخَطُونَ﴾.

نكتةُ التَّعبيرِ بالمضارعِ في ﴿يَسْخَطُونَ﴾:

التَّعبيرُ بالمضارعِ لاستحضارِ الصُّورةِ، وتجدُّدِ الفعلِ واستمراريَّتِهِ

دلَّ الفعلُ المضارعُ هنا على استحضارِ حالةِ السُّخطِ عندَهُم، فضلًا عن دلالتِها على تجدُّدِ فعلِ السُّخطِ فيهم عندَ كُلِّ مَنعٍ، فعَبَّرَ عَن سُخطِهِم بـ(إذا) الفُجائيَّةِ، وبِفعلِ المُضارِعِ؛ للدَّلالَةِ على سُرعَتِهِ واستمرارِهِ، وهَذا دَأبُ المُنافِقينَ وخُلُقُهم في كُلِّ زَمانٍ ومَكانٍ، كَما نَراهُ بالعيانِ، حتَّى مِنْ مُدَّعي كَمالِ الإيمانِ والعِلمِ والعِرفانِ[3].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/232.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 6/3340.
(3) محمد رضا، تفسير المنار: 10/421.

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الهَمْزُ واللَّمزُ:

عبَّر القرآنُ عن اللَّمزِ بالطَّعنِ جهارًا في شأنِ تقسيمِ النَّبيِّ لِلصَّدقاتِ

فرَّق القرآنُ بينَ الهمزِ واللَّمزِ، لمّا جَمَعَ بينَهُما في قولِهِ: ﴿وَيۡلٞ لِّكُلِّ هُمَزَةٖ لُّمَزَةٍ ١﴾ [الهُمزة: 1]، ورأى أبو هلالٍ العسكريُّ أنَّ الهمزَ هوَ أن يهمزَ الإنسانُ بقولٍ قَبيحٍ من حَيثُ لا يسمعُ، أو يحثّهُ، ويوسِّده على أمرٍ قَبيحٍ؛ أي: يغريه بِهِ، واللَّمزُ أجهَرُ مِنَ الهَمزِ، وفي القُرآن ﴿هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ٩٧﴾ [المؤمنون: 97]، ولم يقُلْ: لمزاتٌ؛ لأنَّ مكايدةَ الشَّيْطان خفيَةٌ[1]. فاللَّمزُ: العيبُ والطَّعنُ في الوجهِ، والهمزُ: الطَّعنُ في الغَيبةِ، وأصلُهُ الإشارةُ بالعينِ ونحوها، فهو أخصُّ مِنَ الغمزِ؛ إذ هوَ الإشارةُ بالعينِ ونحوها، سواءٌ كان على وجهِ الاستنقاصِ أم لا، وأمَّا اللَّمزُ فهو خاصٌّ بكونِهِ على وجهِ العيبِ[2].

السُّخط والغضب:

السُّخط غضبٌ لاحتقارِ أمرٍ ما، فناسبَ الغضبَ على الصَّدقاتِ هنا

فرَّق بينهما أبو هلال؛ بأنَّ الغَضَبَ يكونُ مِنَ الصَّغيرِ على الكَبيرِ، ومِنَ الكَبيرِ على الصَّغيرِ، والسُّخطُ لا يكونُ إلَّا مِنَ الكَبيرِ على الصَّغيرِ، يُقالُ: سَخِطَ الأَميرُ على الحاجِبِ، ولا يُقالُ: سَخِطَ الحاجِبُ على الأَمير، ويُستَعملُ الغَضَبُ فيهما، والسُّخطُ إذا عدَّيتَهُ بِنَفسِهِ؛ فَهوَ خلافُ الرِّضا، يُقالُ: رضيه، وسَخِطه، وإذا عدَّيتَهُ فَهو بِمَعنى الغَضَب، تَقول: سخِطَ اللّه إذا أَرادَ عِقابَهُ[3]، والَّذي يظهرُ أنَّ السُّخطَ مِن أشدِّ أنواعِ الغضبِ، وهو ناشِئٌ عنِ استقلالِ ما يُقدَّمُ لصاحبِهِ واستحقاره، فبينَ اللَّفظَتَينِ عمومٌ وخصوصٌ.

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 53 - 54.
(2) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 11/314.
(3) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 114.

﴿وَلَوۡ أَنَّهُمۡ رَضُواْ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤۡتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ٥٩﴾ [التّوبة: 59]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

ربطُ اللَّمزِ في الصَّدقاتِ بالاكتفاءِ بأحكامِ اللهِ ورسولِهِ في كلِّ الحالاتِ

هذه الآيةُ معطوفةٌ على الآيةِ السَّابقةِ: ﴿وَمِنۡهُم مَّن يَلۡمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ [التّوبة: 58] باعتبارِ ما تَفرَّعَ عليها مِن قولِهِ: ﴿فَإِنۡ أُعۡطُواْ مِنۡهَا رَضُواْ وَإِن لَّمۡ يُعۡطَوۡاْ مِنۡهَآ إِذَا هُمۡ يَسۡخَطُونَ﴾، عطفًا يُنْبِئُ عنِ الحالةِ المَحمودَةِ، بعدَ ذِكرِ الحالةِ المَذمُومَةِ[1]؛ أي: ذكرتِ الآيةُ هنا ما كانَ ينبغي أن يفعلوهُ، بعد أن بيَّنتِ الآيةُ السَّابقةُ قُبحَ ما فعلُوهُ.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿حَسۡبُنَا﴾: كافينا، يُقالُ: أحسبَني الطَّعامُ يحسبني إحسابًا؛ إذا كَفاني، ومِن ذَلِك قَولهُم لِلظَّالم: حسيبُك اللّهُ؛ أَي: كافيك، وقد قِيلَ فيهِ: محاسبُك اللّهُ[2]، و﴿حَسۡبُنَا ٱللَّهُ﴾؛ أي: محسِبُنا وكافينا، والدَّليل على أنَّهُ بمعنى المحسِبِ: قولهُم: (هذا رجلٌ حسبُك)، على أنَّه صفةٌ للنَّكرةِ؛ لكونِ الإضافةِ غيرَ حقيقيَّةٍ، وهي إضافةُ اسمِ الفاعلِ إلى معمولِهِ، وقولُهُ: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ٦﴾ [النّساء: 6]؛ أي: محاسِبًا وكافيًا[3]، ومِن ذلك قولُ امرىء القيسِ:

فَتَملأُ بَيتَنا أَقِطًا وسَمنًا *** وحَسبُكَ مِنْ غِنًى شِبَعٌ وَرِيُّ[4]

أي: يكفيك الشَّبعُ والرِّيُّ، ومنه قولُهُ ﷻ: ﴿جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا ٣٦﴾ [النَّبأ: 36]؛ معناه: عطاءً كافيًا[5].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/233.
(2) الميورقيّ، تفسير غريب ما في الصّحيحين البخاريّ ومسلم، ص: 338.
(3) الكفويّ، الكلّيّات، ص: 398.
(4) البيتُ لامرئ القيس، ورد في ديوانه، ص: 137، ويُنظر: ابن سلّام، طبقات فحول الشعراء، ص: 81، وابن قتيبة، الشّعر والشّعراء، ص: 105، والسيوطي، شرح شواهد المغني، ص: 21.
(5) الكفويّ، الكلّيّات، ص: 398.

2) ﴿رَٰغِبُونَ﴾: ذكرَ ابنُ فارس أنَّ الرَّاءَ والغينَ والباءَ أصلان: أحدُهما طلبٌ لِشيءٍ، والآخرُ سَعَةٌ في شيءٍ، فالأوَّلُ الرَّغبةُ في الشَّيءِ: الإرَادةُ لَهُ. رغبتُ في الشَّيءِ، فإذا لم تُرِدْهُ قلتَ: رغبتُ عنهُ، والآخرُ الشَّيءُ الرَّغيبُ: الوَاسِعُ الجَوفِ، يُقالُ: حَوضٌ رَغِيبٌ، وسِقَاءٌ رَغِيبٌ، وَيُقالُ: فَرَسٌ رَغِيبٌ، والجمعُ رَغَائِبُ، والرَّغَابُ: الأرضُ الوَاسِعَةُ[1]، والرَّغبةُ: العطاءُ الكثيرُ؛ إمَّا لكونهِ مَرغوبًا فيه، فتكونُ مُشتقَّةً مِنَ الرَّغبةِ، وإمَّا لِسعتِهِ، فتكونُ مُشتقَّةً مِنَ الأصلِ[2]، ويمكنُ القولُ بأنَّ المادَّةَ تدورُ حولَ "قَبولِ الجوفِ رِخْوًا مُستحبًّا بكثرةٍ"[3]، ومِن ذلك الرَّغبَةُ: الحرصُ على الجمعِ، والطَّمعُ في الشَّيءِ، ورَغِب فلانٌ (فرح ورَغْبة): حَرَص على شيءٍ، وطَمِع فيهِ، (طلبَ أخذَهُ في حوزَتِهِ)، وأمَّا رَغِب عنِ الشَّيءِ: تركَهُ مُتعمِّدًا، وزَهِد فيهِ، فهذا المعنى يرجعُ إلى معنى المجاوزةِ في (عن)، كأنَّه طلبَ شيئًا آخرَ مُتجاوزًا هذا، قالَ تعالى: ﴿وَمَن يَرۡغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبۡرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفۡسَهُۥۚ﴾ [البقرة: 130][4].

المَعْنى الإجْماليُّ:

ولو أنَّ هؤلاءِ الَّذين يَعيبونَكَ في قِسمةِ الصَّدقاتِ؛ رَضوا بما قسَمَ اللهُ ورسولُهُ لَهُم، وقالُوا: حسبُنا اللهُ، سيُؤتينا اللهُ مِن فضلِهِ، ويعطينا رسولُهُ ممَّا آتاهُ اللهُ، إنَّا نرغبُ أن يُوسِّعَ اللهُ علينا، فَيُغنينا عَنِ الصَّدقةِ، وعن صدقاتِ النَّاسِ، لو فعلوا ذلك؛ لكانَ خيرًا لهم وأجدى[5].

لو رضيَ المنافقون بما قَسَمَ اللهُ لهم، وكما طبَّقَهُ رسولُهُ؛ لكانَ خيرًا لَهُم

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ العطفِ في: ﴿وَلَوۡ أَنَّهُمۡ رَضُواْ﴾:

الواو في قولِهِ: ﴿وَلَوۡ أَنَّهُمۡ رَضُواْ﴾ عاطفةٌ؛ عُطِفت هذه الآيةُ على

الرِّضا بحُكْمِ اللهِ فيما شرعَ وأبانَ خيرٌ وأنفعُ للإنسانِ

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (رغب).
(2) السّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (رغب).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (رغب).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (رغب).
(5) نخبة من أساتذة التّفسير، التّفسير الميسّر، ص: 196.

الآيةِ السَّابقةِ، وهدفُ العطفِ أن تجمعَ لهم بينَ حالَين: حالٍ وقعُوا فيه، وهو رضاهُم عندَ العطاءِ، وسخطُهُم عندَ المنعِ، وبينَ حالٍ كانَ الأصلُ أن يفعلوهُ بأن يَرضوا في الحالَين.

معنى ﴿وَلَوْ﴾ في: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُواْ﴾:

في حرفِ الشَّرطِ (لو)، يمتنعُ الجوابُ لامتناعِ الشَّرطِ

(لو) حرفُ شرطٍ غير جازمٍ، كما هو مُقرَّرٌ عندَ النُّحاةِ، حيث يعلَّقُ جوابُ شرطِهِ على حدوثِ فعلِ الشَّرطِ، ويدخلُ على الماضي والمُستقبلِ، ويكونُ المعنى: لو أنَّ هؤلاءِ المنافقين، كانوا راضينَ بما قَسَمَ اللّهُ لهم، وهو قسمةُ رسولِهِ، تطبيقًا لأحكامِ اللّهِ، وطابَت نفوسُهُم بهِ، لكانَ خيرًا لهم، وقدِ امتنعَ جوابُ الشَّرطِ لامتناعِ فعلِهِ، فامتنعَ عودُ الخيريَّةِ عليهم، لِامتناعِ رضاهُم بما آتاهُمُ اللّهُ ورسولُهُ.

بلاغةُ حذفِ جوابِ الشَّرطِ في سياقِ الآيةِ:

الحذفُ إيجازٌ لِلعلمِ بالمحذوفِ، والدَّلالةِ على التَّعظيمِ والتَّهويلِ

يقولُ الرَّازيُّ: واعلمْ أنَّ جوابَ ﴿وَلَوْ﴾ محذوفٌ، والتَّقديرُ: لكانَ خيرًا لهُم وأعودَ عليهم؛ وذلك لأنَّهُ غَلَبَ عليهمُ النِّفاقُ، ولَم يَحْضُرِ الإيمانُ في قُلوبِهم، فيَتوَكَّلُوا على اللّه حَقَّ تَوَكُّلِهِ، وتَرْكُ الجَوابِ في هَذا المَعرِضِ أَدَلُّ على التَّعظيمِ والتَّهويلِ، وهو كَقَولِكَ لِلرَّجُلِ: لَو جِئتَنا، ثُمَّ لا تَذكُرُ الجَوابَ؛ أَي: لَو فَعَلتَ ذَلِكَ لَرَأَيتَ أمرًا عَظِيمًا[1]، وإنَّما حُذِفَ جَوابُ الشَّرطِ لِلعلمِ بِهِ مِنَ القَرينَةِ، وتَفصيلُ المَعنَى: ولَو أَنَّهُم رَضوا مِنَ اللّهِ بِنِعمَتِهِ، ومِنَ الرَّسولِ بِقِسمَتِهِ، وعَلَّقوا أَمَلَهُم ورَجاءَهُم بِفَضلِ اللّهِ وكِفايَتِهِ، وما سَيُنعِمُ اللّهُ بِهِ في المُستَقبَلِ، وبِعَدلِ الرَّسولِ ﷺ في القِسمَةِ، وانتَهَت رَغبَتُهُم في هَذا وغَيرِهِ إلى اللّهِ وحدَهُ، لكانَ خَيرًا لَهُم مِنَ الطَّمَعِ في غَيرِ مَطمَعٍ، ولَمزِ الرَّسولِ المَعصومِ مِن كُلِّ مَلمَزٍ ومَهمَزٍ، صَلواتُ اللّهِ وسلامُهُ عليهِ[2].

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 16/76.
(2) محمد رضا، تفسير المنار: 10/422.

نكتةُ تتابعِ المؤكِّداتِ في: ﴿وَلَوۡ أَنَّهُمۡ رَضُواْ﴾:

في قولِهِ: ﴿وَلَوۡ أَنَّهُمۡ رَضُواْ﴾ جاءَ فعلُ الشَّرطِ جملةً اسميَّةً مُؤكَّدةً بـ(أنَّ)؛ لِيتناسبَ ذلكَ مع شكِّهِم وقلَّةِ إيمانِهِم باللّهِ؛ فإنَّ المؤكِّداتِ يُؤتَى بها لِلشَّاكِّ أو المُرتابِ، بحسبِ مِقدارِ شكِّهِ، وحالُهُم هنا كما وصفَتهم الآيةُ السَّابقةُ، أنَّهُم قدِ ارتبطَ رضاهُم وسخطُهُم بما يُعطَى لَهُم، مع أنَّ الأصلَ أن يَرضوا في الحالتَين.

التَّعامُلُ مع أحكامِ الشَّرعِ تُبنَى على اليقينِ لا على الشَّكِّ

دلالةُ ﴿مَآ﴾ الموصولةِ في: ﴿مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾:

(ما) في قولِهِ: ﴿مَآ ءَاتَىٰهُمُ﴾ موصولةٌ، وجملةُ ﴿ءَاتَىٰهُمُ﴾ جملةُ صلةِ الموصولِ، لا محلَّ لها مِنَ الإعراب[1]، وغرضُ التَّعبيرِ بالاسمِ الموصولِ هنا يفيدُ التَّعميمَ والإبهامَ؛ ليشمَلَ القليلَ والكثيرَ؛ لأنَّ (ما) مِن ألفاظِ العُمومِ، وإنْ كانَ السِّياقُ يخصِّصُ هذا العمومَ بالصَّدقةِ أو الغَنيمةِ[2]، ويمكن حملُهُ على التَّعظيمِ والتَّفخيمِ، فكلُّ عطاءِ اللّهِ شأنُهُ كذلك.

حرفُ المعنى قد يفيدُ معانيَ مُتنوِّعةً بحسبِ السِّياقِ

نكتةُ تقديمِ المفعولِ بِهِ:

قولُهُ: ﴿مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ تَقدَّمَ المفعولُ به، وهو الضَّميرُ العائدُ عليهم على الفاعلِ، وهو لفظُ الجلالةِ وما عُطِفَ عليه؛ وذلك لأنَّ مدارَ الحديثِ عنهُم وعن مواقفِهِم وصفاتِهِم، فتقديمُهُم لِلامتنانِ عليهم بحصولِ العطاءِ مِنَ اللّهِ ورسولِهِ.

تتلاءمُ رتبةُ اللَّفظِ في التَّركيبِ تقديمًا وتأخيرًا مع أهمِّيَّتِه في السِّياقِ

فائدةُ عطفِ لفظِ ﴿وَرَسُولُهُۥٓ﴾ على لفظِ الجلالةِ:

عطفتِ الجملةُ الرَّسولَ على لفظِ الجلالةِ، إمَّا للإشارةِ إلى أنَّ له إيتاءً خاصًّا غيرَ إيتاءِ اللّهِ، بما يؤتيهم مِنَ الغنائمِ، والصِّلاتِ، والعطايا، غيرَ إيتاءِ اللّهِ لهم مِنَ الصَّدقاتِ، وإمَّا أن يكونَ إيتاؤُهُ لَهُم هو عينُ إيتاءِ اللّهِ تعالى لَهُم، ويكون غرضُ العطفِ المُشعِرِ

عطاءُ الرَّسولِ ﷺ مصدرُهُ نعمةُ اللّهِ وعطاؤُهُ

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 4/117، وصافي، الجدول: 5/396.

(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 10/174.

بالتَّغايرِ هنا الإشارةَ إلى أنَّ ما عيَّنَهُ الرَّسولُ لَهُم، هو عينُ ما عَيَّنَهُ اللّٰهُ لَهُم[1].

بلاغةُ العطفِ في قولِهِ: ﴿وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ﴾:

الجملةُ مَعطوفةٌ على قولِهِ: ﴿رَضُواْ﴾، فتكونُ داخلةً في حيِّزِ الشَّرطِ، على معنى: (فلو أنَّهم رَضوا وقالوا)، فيكونُ غرضُ العطفِ الجمعَ بينَ الرِّضا القلبيِّ، والرِّضا القوليِّ، "(وقالوا: حسبنا اللّٰهُ)، سيؤتينا اللّٰهُ مِن فضلِهِ، ويعطينا رسولُهُ ممَّا آتاهُ اللّٰهُ، إنَّا نرغبُ أن يوسِّعَ اللّٰهُ علينا، فيغنينا عنِ الصَّدقةِ، وعن صدقاتِ النَّاسِ، لو فعلُوا ذلك؛ لكانَ خيرًا لهم وأجدى"[2].

الجملةُ داخلةٌ في حيِّزِ الشَّرطِ للجمعِ بينَ رضا القلبِ، ورضا القولِ

بلاغةُ الكنايةِ في التَّعبيرِ عنِ الرِّضا بالقول:

القولُ هنا مُرادٌ به الكلامُ مَعَ الاعتقادِ، فهوَ كِنايةٌ عنِ اللَّازمِ مَعَ جَوازِ إرادةِ المَلزُومِ، فَإذا أضمَرُوا ذلكَ في أنفسِهِم؛ فَذَلِكَ مِنَ الحالَةِ المَمدُوحَةِ، ولَكِنْ لَمَّا وَقَعَ هَذا الكلامُ في مَقابَلَةِ حِكايةِ اللَّمزِ في الصَّدقاتِ، واللَّمزُ يكونُ بالكلامِ دَلالةً على الكَراهيةِ؛ جَعَلَ ما يدلُّ على الرِّضا مِنَ الكلامِ كِنايةً عنِ الرِّضا[3].

جعَلَ ما يدلُّ على الرِّضا مِنَ القولِ دلالةً على الرِّضا

معنى قولِهِ تعالى: ﴿وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ﴾:

وَ(حَسْبُ) اسمُ فِعلٍ بِمَعنَى كَفَى... ومَعناها: إنَّهُمُ اكتَفَوا باللّٰه ناصِرًا، وإنْ كانُوا في قِلَّةٍ وضَعفٍ[4]، ومعنى ﴿حَسۡبُنَا ٱللَّهُ﴾: "إنَّ اللّٰهَ كافينا، أعطانا هنا ما رَضينا بهِ، وسيعطينا إنِ احتجْنا، وما أخذناهُ يكفينا... وفيه مِن معاني التَّفويضِ والتَّوكُّلِ على اللّٰهِ ورجاءِ ما عندَهُ ما لا تُدركُهُ إلَّا القلوبُ المؤمنةُ المتبتِّلةُ الضَّارِعةُ له ﷻ وحدَهُ"[5]، وجملة

الجملةُ الاسميَّةُ إقرارٌ بضرورةِ الاكتفاءِ بما قَسَمَ الله

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/234.
(2) نخبة من الأساتذة، التفسير الميسر: 1/196.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/234.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 4/170.
(5) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 6/3342.

﴿حَسۡبُنَا ٱللَّهُ﴾ جملةٌ اسميَّةٌ دلَّت على الثُّبوتِ، وهي جملةُ مَقولِ القولِ مُكوَّنةٌ مِن مبتدأ وخبر يَصحُّ كلٌّ منهُما أن يكونَ في مَوضِعِ الآخرِ[1].

علّة فصلِ: ﴿سَيُؤۡتِينَا﴾:

فُصِلَ قوله: ﴿سَيُؤۡتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ﴾ عمّا سبقه؛ إمَّا لكمال اتِّصالِه به؛ لأنَّه مُفسِّرٌ لقولِهم: ﴿حَسۡبُنَا ٱللَّهُ﴾ أو مُؤكِّدٌ لِمَضمونِه، وإمَّا لأنَّه وقعَ استئنافًا بيانيًّا جوابًا عن سؤالٍ مُقدَّرٍ: (كيف سيكفيكُمُ اللهُ؟).

كمالُ الاتِّصالِ والاستئنافِ البيانيّ ذات أثر في الإبانةِ عنِ المرادِ

نكتةُ تقديمِ المفعولِ على الفاعلِ في: ﴿سَيُؤۡتِينَا ٱللَّهُ﴾:

تقدَّمَ ضميرُهم العائدُ عليهم في قولِهم: ﴿سَيُؤۡتِينَا﴾ على الفاعلِ، وهو لفظُ الجلالةِ؛ لأنَّه جاءَ في مَعرِضِ حديثِهم عن أنفسِهم، وما يحصُلُ لَهُم مِنَ المَنافعِ، وقولُهُ: ﴿سَيُؤۡتِينَا﴾ هذه الجملةُ عبَّرَت عنِ اعتبارِ ما كانَ يجبُ أن يُقالَ، وذلكَ لو أنَّهُم رَضوا، ولكنَّهُم مَوصوفونَ بغيرِ ذلكَ، فهُم لَمَّازون سَاخطونَ، وليسُوا شاكرينَ أوَّابينَ، وهُم لا يَعرفونَ للهِ وَقارًا، ولذلكَ كانَ سياقُ كلامِهم على منوالِ عادتِهم في تقديمِ الضَّميرِ الدَّالِّ على الذَّاتِ.

مَن آتاهُ اللهُ كفاهُ، ومَن أعطاهُ أغناهُ

معنى حرف الجرّ ﴿مِن﴾:

في قوله: ﴿سَيُؤۡتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ﴾ يمكنُ أن تكونَ ﴿مِن﴾ هنا ابتدائيَّةً على معنى أنَّ الإيتاءَ يبدأُ مِن فضلِ اللهِ، أو تبعيضيَّةً على معنى أنَّ الإيتاءَ هو بعضُ فضلِ اللهِ.

فضلُ اللهِ عطاءٌ بكمالِهِ، لا نهايةَ لأفضالِهِ

نكتةُ إضافةِ الفضلِ إلى لفظِ الجلالةِ:

قولُهُ: ﴿سَيُؤۡتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ﴾، إضافةُ الفضلِ إلى لفظِ الجلالةِ، مِن بابِ التَّشريفِ لهذا الفضلِ، وهو مِن إطلاقِ المصدرِ وإرادةِ المفعولِ؛ أي: المُعطَى.

فضلُ اللهِ على قدرِ تفضُّلِهِ، وفضلُهُ واسعٌ كريمٌ

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 4/117.

فائدةُ مجيءِ شبهِ الجملةِ ﴿مِن فَضۡلِهِۦ﴾:

الإيتاءُ يكونُ بفضلِ اللهِ لا باستحقاقِ البشرِ

شِبهُ الجملةِ هنا مُتعلِّقةٌ بقولِه: ﴿سَيُؤۡتِينَا﴾؛ فهي صفةٌ مُوضِّحةٌ لهذا الإيتاءِ، وليسَت قيدًا له مفهوم مخالفة، على معنى أنْ يكونَ هناك إيتاءٌ مِن غيرِ فضلِ اللّٰه، ولكنَّها مِن بابِ الوصفِ المقارَنِ غالبًا لهذا الإيتاءِ.

نكتةُ عطفِ الرَّسولِ على لفظِ الجلالةِ:

عطاءُ الرَّسولِ فيضٌ مِن فيوضاتِ عطاءِ اللهِ المُتدفِّقِ

عُطِفَتِ الجملةُ ﴿وَرَسُولُهُۥٓ﴾ على لفظِ الجلالةِ؛ إمَّا للإشارةِ إلى أنَّ له إيتاءً خاصًّا مُستقلًّا غيرَ إيتاءِ اللّٰه، بما يؤتيهم مِنَ الغنائم، والصِّلاتِ، والعطايا، وإمَّا أن يكونَ إيتاؤُهُ لَهُم هو عيْنُ إيتاءِ اللّٰهِ تعالى لَهُم، ويكون غرضُ العطفِ المُشعِرِ بالتَّغايرِ هنا الإشارةَ إلى أنَّ ما عيَّنَهُ الرَّسولُ لهم هو عيْنُ ما عيَّنَهُ اللّٰهُ لَهُم.

غرضُ الحذفِ في قولِه: ﴿وَرَسُولُهُۥٓ﴾:

إيتاءُ الرَّسولِ مَدَدٌ مِن عطاءِ اللهِ المأمولِ

قولُهُ: ﴿سَيُؤۡتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ﴾ يمكنُ أن يكونَ قولُهُ: ﴿وَرَسُولُهُۥٓ﴾ مَعطوفًا مُباشرةً على لفظِ الجلالةِ، وتقدَّمَ عليه شبهُ الجملةِ ﴿مِن فَضۡلِهِۦ﴾؛ لبيانِ صفةِ هذا الإيتاءِ، وإمَّا أن يكونَ قولُهُ: ﴿وَرَسُولُهُۥٓ﴾ مبتدأً، وخبرُهُ محذوفٌ إيجازًا، وتقديرُهُ: ورسولُهُ سَيُؤتينا كذلكَ.

الموقعُ البيانيُّ لقولِه: ﴿إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ﴾:

الفصلُ بغرضِ تعليلِ الجملةِ السَّابقةِ مِن فصيحِ البيانِ

الجملةُ مَفصولةٌ عن سابقتِها؛ لأنَّها وقعَت تعليلًا لها على سبيلِ الاستئنافِ البيانيِّ، جوابًا عن سؤالٍ مُقدَّرٍ: لماذا نقولُ ذلكَ؟ لأنَّنا نظنُّ أنَّنا إلى اللّٰهِ راغبون.

نكتةُ تتابعِ المؤكِّداتِ:

الرَّغبةُ إلى اللهِ غايةُ المأمولِ، ومنتهى السُّؤلِ

أُكِّدَت فاصلةُ الآيةِ في قولِه: ﴿إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ﴾ بـ(إنَّ) والجملةِ الاسميَّةِ؛ لأنَّها جاءَت لِتقرِّرَ لَهُم ما ينبغي أن يقولوهُ، ويفعلوهُ عندَ توزيعِ الصَّدقاتِ، ولِتحملَ في طيَّاتها معانيَ الأمرِ لَهُم، بأن يكونَ هذا ديدنَهم وشأنَهُم في أن يَرغبوا إلى اللّٰه لا إلى سِواهُ.

غرضُ تقديمِ شبهِ الجملةِ:

تقديمُ شبهِ الجملةِ في قولِهِ: ﴿إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ﴾ يفيدُ القصرَ؛ أي: إلى اللّه رَاغِبونَ لا إلى غيرِهِ، والكلامُ على تقديرِ مَحذوفٍ هو المضافُ، وتقديرُهُ: إنَّا رَاغِبونَ إلى ما عيَّنَهُ اللّه لَنا، لا نَطلُبُ إعطاءَ ما ليسَ مِن حَقِّنا[1].

مَن رغِبَ إلى اللهِ لم يَلتفتْ إلى سِواهُ

غرضُ التَّعبيرِ بالجملةِ الاسميَّةِ ﴿إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ﴾:

دلَّتِ الجملةُ الاسميَّةُ على معنى الثَّباتِ والدَّوامِ في الرَّغبةِ إلى اللّه، والَّتي ينبغي أن يدومَ عليها حالُهُم، والجملةُ الاسميَّةُ دعوةٌ "بأن يوجِّهَ المخاطَبُ قلبَهُ إلى ربِّهِ، ولا يرغبُ إلَّا إليهِ في شيءٍ مِن رغائبِهِ الَّتي وراءَ كسبِهِ وحقوقِهِ الشَّرعيَّةِ"[2].

دوامُ الرَّغبةِ إلى اللهِ أمانٌ وضمانٌ واطمئنانٌ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/234.

(2) محمد رضا، تفسير المنار: 10/422.

﴿۞إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡعَٰمِلِينَ عَلَيۡهَا وَٱلۡمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمۡ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَٱلۡغَٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِۖ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٦٠﴾ [التّوبة: 60]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

المناسبةُ بينَ لَمْزِ المنافقينَ في الصَّدقاتِ، وتفصيلِ مصارفِها بالزَّكاةِ

يقولُ البقاعيُّ: ولمَّا أخبرَ عَن لَمْزِهم في الصَّدقاتِ، وقَرَّرَ مَا هو خيرٌ لَهُم إرشادًا إلى النَّجاةِ، علَّلَ فعلَ رسولِ اللهِ ﷺ فيها، وبيَّنَ أنَّهُ لا يَفعلُ غَيرَهُ؛ لأنَّهُ الحَقُّ الَّذي لا يَجوزُ في شرعِهِ الأكمَلِ غيرُهُ، لَمَزوا أو رَغِبوا، فقالَ مُعبِّرًا بأداةِ القصرِ على ما ذُكِرَ: ﴿۞إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ﴾؛ أي: هذا الجنسُ بجميعِ ما صَدَقَ مِن أفرادِهِ[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَٱلۡعَٰمِلِينَ عَلَيۡهَا﴾: عرَّفَهُمُ الرَّاغبُ بأنَّهُمُ المُتَوَلُّونَ على الصَّدقةِ[2]، أو السُّعاةُ لِجبايَةِ الصَّدَقَةِ، وهَؤُلاءِ يُعطَونَ مِنَ الصَّدَقاتِ بِقَدرِ أُجورِ أَعمالِهِم[3].

2) ﴿وَٱلۡمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمۡ﴾: الهَمزَةُ واللَّامُ والفاءُ أَصلٌ واحِدٌ، يدُلُّ على انضِمامِ الشَّيءِ إلى الشَّيءِ، وهي الأَشياءُ الكَثيرَةُ أَيضًا، وكُلُّ شَيءٍ ضَمَمتَ بَعضَهُ إلى بَعضٍ فَقَد أَلَّفتَهُ تَأليفًا[4]، و﴿وَٱلۡمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمۡ﴾ هُمُ الَّذينَ تُؤَلَّفُ؛ أَي: تُؤَنَّسُ نُفوسُهُم لِلإِسلامِ مِنَ الَّذينَ دَخَلوا في الإِسلامِ بِحِدثانِ عَهدٍ، أَو مِنَ الَّذينَ يَرغَبونَ في الدُّخولِ في الإِسلامِ؛ لأَنَّهُم قارَبُوا أَن يُسلِمُوا[5].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/504.
(2) الرّاغب، المفردات: (عمل).
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 16/85.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ألف).
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/236.

3) ﴿ٱلرِّقَابِ﴾: الرِّقابُ جمعُ رقَبة، وهي: اسمٌ لِلعضوِ المَعروفِ، ثمَّ يُعبَّرُ بها عنِ الجملةِ، وجُعِلَ في التَّعارُفِ اسمًا للمماليك، كما عُبِّرَ بالرَّأسِ وبالظَّهرِ عنِ المَركوبِ، وفي الرِّقابِ؛ أي: المُكاتبِين منهم، فَهُمُ الَّذين تُصرَفُ إليهمُ الزَّكاةُ[1].

4) ﴿وَٱلْغَٰرِمِينَ﴾: الغَينُ والرَّاءُ والميمُ أَصلٌ صَحيحٌ يدُلُّ على مُلازَمَةٍ ومُلَازَّةٍ، مِن ذَلِكَ الغَريمُ، سُمِّيَ غَريمًا لِلُزومِهِ وإلحَاحِهِ..وغُرمُ المالِ مِن هَذا أَيضًا، سُمِّيَ لأَنَّهُ مالُ الغَريم[2]، والغارِمُونَ: المَدينُونَ الَّذينَ ضاقَت أَموالُهُم عَن أَداءِ ما عَلَيهِم مِنَ الدُّيونِ، بحيثُ يُرزَأُ دائِنوهُم شَيئًا مِن أَموالِهِم، أو يُرزَأُ المَدينونَ ما بَقيَ لَهُم مِن مالٍ لإقامَةِ أَوَدِ الحَياةِ، فَيَكونُ مِن صَرفِ أَموالٍ مِنَ الصَّدَقاتِ في ذلكَ رَحمَةٌ لِلدَّائِنِ والمَدينِ[3].

5) ﴿سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾: السَّبيلُ هو الطَّريقُ، قالَ تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾ [يوسف: 108]، ويُعبَّرُ بهِ عنِ المَذهَبِ، ومنهُ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ﴾ [العنكبوت: 12]؛ أي: طريقتنا في ديننا[4]، وقِيلَ: المقصودُ بقولِهِ: ﴿سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾: هُمُ المجاهدونَ في سَبيلِ اللّه؛ أَي: يُصرَفُ مِن أَموالِ الصَّدَقاتِ ما تُقامُ بِهِ وسائِلُ الجِهادِ مِن آلاتٍ وحِراسَةٍ في الثُّغورِ، كُلُّ ذَلِكَ بَرًّا وبَحرًا[5].

6) ﴿وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾: هو المسافرُ: جُعِلَ ابنَ الطَّريقِ لِمُلازمتِهِ إيَّاهُ[6]، وابنُ السَّبيلِ: الغَريبُ بِغَيرِ قَومِهِ، أُضيفَ إلى السَّبيلِ، بِمَعنَى الطَّريقِ؛ لأَنَّهُ أَولَدَهُ الطَّريقُ الَّذي أَتَى بِهِ، ولَم يَكُنْ مَولودًا في القَومِ، فلِهَذا المَعنَى أُطلِقَ عليهِ لَفظُ (ابنِ السَّبيلِ)[7].

7) ﴿فَرِيضَةً﴾: الفاءُ والرَّاءُ والضَّادُ أَصلٌ صحيحٌ يدُلُّ على تَأثيرٍ في شَيءٍ مِن حَزٍّ أو غَيرِهِ، فالفَرضُ: الحَزُّ في الشَّيءِ، يُقالُ: فَرَضتُ الخَشَبَةَ، والحَزُّ في سِيَةِ القَوسِ: فَرضٌ، حَيثُ يَقَعُ الوَتَرُ، والفَرضُ: الثُّقبُ في الزَّندِ في المَوضِعِ الَّذي يُقدَحُ مِنهُ، والمِفرَضُ: الحَديدَةُ

(1) الرّاغب، المفردات: (رقب).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (غرم).
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/237.
(4) السّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (سبل).
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/237.
(6) السّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (سبل).
(7) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/237.

الَّتي يُحَزُّ بها، ومِنَ البابِ اشتِقاقُ الفَرضِ الَّذي أَوجَبَهُ اللّه تعالى، وسُمِّيَ بذلِكَ؛ لأنَّ لَهُ مَعالِمَ وحُدودًا[1].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

بيانُ مصارفِ الزَّكاةِ الشَّرعيَّةِ الثَّمانيَةِ بالتَّرتيبِ حسب الأولويَّةِ

بيَّن اللّه ﷻ أنَّ الصَّدقاتِ الّتي يَتطلَّعُ إليها المنافقونَ، والَّتي كانُوا يلمزونَ بها المؤمنين، ينبغي أن لا تُعطَى إلَّا لِلأصنافِ الثَّمانيَةِ الَّتي ذكرتهُمُ الآيةُ، فذكرتِ الآيةُ هنا المَصارِفَ الَّتي يجبُ أن تتوجَّهَ إليها الصَّدقاتُ دونَ غيرِها، فريضةً مِنَ اللّه الَّذي يتَّصفُ بالعلمِ والحكمةِ، فيعلمُ ما يُصلِحُ شأنَ عبادِهِ، ويضعُ الشَّيءَ في مَوضعِهِ الأحقِّ بهِ.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ الفصلِ:

آيةُ المصارفِ استطرادٌ اعتراضيٌّ أثناءَ الحديثِ عنِ المُنافقينَ

هذه الآيةُ اعتراضٌ بينَ جملةِ ﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ﴾، وجملةِ ﴿وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ﴾، وهو استطرادٌ نشأَ عن ذكرِ اللَّمزِ في ذكرِ الصَّدقاتِ أُدمِجَ فيه تَبيينُ مَصارفِ الصَّدقاتِ[2]، فهذه الآيةُ توسَّطتِ الآياتِ الَّتي تتحدَّثُ عن صفاتِ المنافقينَ ومواقفِهم المختلفةِ، جاءَت على سبيلِ الاعتراضِ الإطنابيِّ، في بيانِ حقيقةِ الوجوهِ الَّتي ينبغي أن تُنفَقَ فيها الصَّدقاتُ الَّتي لمزوا بها. ويمكنُ على معنًى مِنَ المعاني أن تكونَ استئنافًا بيانيًّا عن سُؤالٍ مُقدَّرٍ بعدَ الآيةِ السَّابقةِ، تقديرُهُ: لماذا يجبُ أن يَرغبوا إلى اللّه، ويُسلِّموا أمرَ توزيعِ الصَّدقاتِ إليهِ؟

بلاغةُ القصرِ الإضافيِّ ونوعه:

التَّعبيرُ عن مصارفِ الزَّكاةِ بالقصرِ؛ لضبطِ مَصارفِ إنفاقِها

في قولِهِ: ﴿۞إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ﴾ قصرٌ موصوفٍ على صفاتٍ ثمانيَةٍ، وهو قصرٌ إضافيٌّ؛ أي: لا ينبغي أن تُصرَفَ هذه الصَّدقاتُ

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (فرض).
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/234.

إلَّا لِمَن كانَ وصفُهُ أحدَ هذه الأصنافِ الثَّمانيةِ دونَ غيرِهم، يقولُ الزَّمخشريُّ: قصرٌ لجنسِ الصَّدقاتِ على الأصنافِ المعدودةِ، وأنَّها مُختصَّةٌ بها لا يتجاوزُها إلى غيرِها، كأنَّه قِيلَ: إنَّما هِيَ لَهُم لا لِغيرِهم[1]، وجاءَ القصرُ هنا بـ ﴿إِنَّمَا﴾ دونَ غيرِها؛ لأنَّ هذا الأمرَ ثابتٌ مُقرَّرٌ، لا ينبغي الشَّكُّ فيه مِن قبلِ المُخاطَبينَ، وفي توجيهِهِ لِلمُنافقينَ يكونُ قصرَ قلبٍ لمعتقداتِهِم، في أنَّه ينبغي أن تكونَ هذه الصَّدقاتُ لهم.

معنى(ال) في: ﴿۞إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ﴾:

أفادَت(الـ) هنا الجنسَ؛ أي: جنسُ الصَّدقاتِ كُلِّها، ويمكن حمْلُها على العهديَّةِ في أنَّها يُرادُ بها الصَّدقاتُ الَّتي تقدَّمتِ الإشارةُ إليها بقولِهِ: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ﴾.

الصَّدقاتُ لأصحابِ الحاجاتِ، كما فصَّلَ في المصارفِ المذكوراتِ

نكتةُ التَّعبيرِ عنِ (الزَّكاةِ) بلفظِ ﴿ٱلصَّدَقَٰتُ﴾:

يقولُ الشَّعراويُّ: ما دامَ الحقُّ ﷻ، قد حدَّدَ لها مصارفَ، فهي الزَّكاةُ، ولسائلٍ أن يَسألَ: لماذا لم يَقُلِ الحقُّ ﷻ: الزَّكاة، وقالَ: الصَّدقة؟

ونقولُ: ألَا ترى - في المجتمعاتِ غيرِ الإيمانيَّةِ المُلحدةِ - أنَّ مِنَ النَّاسِ مَنْ يفكِّرونَ في إنشاءِ مُؤسَّساتٍ اجتماعيَّةٍ لرعايةِ الفقراءِ؟ إنَّ عطْفَ الإنسانِ على أخيهِ الإنسانِ، هو أمرٌ غريزيٌّ خلقَهُ اللهُ فينا جميعًا، ولذلك كان يجبُ أن نفهمَ أنَّ الزَّكاةَ صدقةٌ، ولو لم يُشرعْها اللهُ لكانَ يجبُ أن يُقدِّمَها الإنسانُ لأخيه الإنسانِ، وحوادثُ الكونِ كلُّها تدُلُّ على صِدقِ وصفِ الحقِّ ﷻ للزَّكاةِ بأنَّها صَدقةٌ؛ لأنَّها تأتي تَطوُّعًا مِن غيرِ المؤمنِ، وغيرِ المُلتزمِ بالتَّشريعِ، ويحسُّ القادرُ بالسَّعادةِ، وهو يعطي لغيرِ القادرِ، وهي غريزةٌ وضعَها اللهُ في خلقِهِ؛ لِيخفِّفَ مِنَ الشَّقاءِ في الكونِ[2].

الزَّكاةُ صدقةٌ لِما فيها مِن معاني الصِّدقِ والإحساسِ الإنسانيِّ

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/282.

(2) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 9/5220 - 5221.

معنى اللَّامِ في: ﴿لِلۡفُقَرَآءِ﴾:

قولُهُ تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ﴾، اللَّامُ هنا يمكنُ أن تفيدَ معنى الاستحقاقِ أو التَّخصيصِ أو التَّمليكِ بناءً على المعاني الَّتي يمكنُ أن تُحمَلَ عليها الآيةُ، وعلى حقيقةِ القصرِ فيها، ولذلك تنوَّعَت آراءُ الفقهاءِ في معناها[1].

الفقيرُ مَن له أدنى شيءٍ، وهو مَن لا يملكُ قوتَ عامِهِ

معنى(أل) في لفظَي: ﴿لِلۡفُقَرَآءِ﴾ و﴿وَٱلۡمَسَٰكِينِ﴾:

الأفضلُ حمْلُها على الجنسِ؛ أي: جنس الأصنافِ المذكورةِ لِمَن انطبقَ عليهم هذا الوصفُ، لا أن يُرادَ بهم فئاتٌ مُحدَّدةٌ مَعروفةٌ؛ فإنَّ العِبرَةَ بعمومِ اللَّفظِ لا بخصوصِ السَّببِ.

العِبرَةُ بعمومِ اللَّفظِ، لا بخصوصِ السَّببِ

الموقعُ الصَّرفيُّ لِلأصنافِ الخمسةِ:

قولُهُ تعالى: ﴿لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡعَٰمِلِينَ عَلَيۡهَا وَٱلۡمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمۡ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَٱلۡغَٰرِمِينَ﴾، هذه الأسماءُ الخمسةُ، هي صفاتٌ مُشبَّهةٌ وأسماءُ فاعلين، جاءَت في حالةِ الجمعِ؛ أي: المتَّصفينَ بالفقرِ أو المَسكَنَةِ، أو العملِ عليها وغير ذلك.

تُصرَفُ الصَّدقاتُ لِلأصنافِ المذكورةِ، كما تفصِّلُهُ السُّنَّةُ المأثورةُ

نكتةُ استعمالِ الحرفِ (على) في: ﴿وَٱلۡعَٰمِلِينَ عَلَيۡهَا﴾:

اختيارُ حرفِ (على) في هذا المقامِ لِما يُشعِرُ به أصلُ مَعناهُ مِنَ التَّمكُّنِ؛ أي: العامِلينَ لأجلِها عملًا قَويًّا؛ لأنَّ السُّعاةَ يَتَجَشَّمونَ مَشقَّةً وعملًا عَظيمًا، ولعلَّ الإشعارَ بذلكَ لِقصدِ الإيماءِ إلى أنَّ عِلَّةَ استحقاقِهِم مُركَّبةٌ مِن أمرَينِ: كَونُ عملِهِم لِفائدةِ الصَّدقةِ، وكَونُهُ شاقًّا، ويَجوزُ أن تكونَ (على) دالَّةً على الاستعلاءِ المَجازيِّ، وهو استعلاءُ التَّصَرُّفِ، كَما يُقالُ: هُوَ عامِلٌ على المدينةِ؛ والمعنى هنا: أي: العامِلينَ لِلنَّبيِّ أو لِلخليفةِ على الصَّدقاتِ؛ أي: مُتَمَكِّنينَ مِنَ

لِلعامِلينَ على الزَّكاةِ الثَّمن منها، لِما يَتَجشَّمونَهُ مِن مَشقَّةٍ

(1) الفقراءُ والمساكينُ في هذه الآية صنفان مُتفاوتان، فالفقيرُ أشدُّ حاجةً مِنَ المسكين، لأنَّ اللهَ بدأَ بهم، ولا يبدأُ إلَّا بالأهمِّ فالأهمِّ، ففُسِّرَ الفقيرُ بأنَّه الَّذي لا يجدُ شيئًا، أو يجدُ بعضَ كفايتِهِ دونَ نصفِها. والمسكينُ: الَّذي يجدُ نصفَها فأكثر، ولا يجدُ تمامَ كفايتِهِ، لأنَّه لو وجدَها لكانَ غنيًّا، فيعطون مِنَ الزَّكاةِ ما يزولُ به فقرُهُم ومَسكَنَتُهُم. ينظر: السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 341.

العملِ فيها[1]، ولا شكَّ أنَّ حرفَ الاستعلاءِ فيهِ توجيهٌ لِلعامِلينَ عليها بضرورةِ التَّمكُّنِ منها والسَّيطرةِ على مَداخلِها ومَخارجِها؛ لأنَّها حقٌّ للَّهِ في مالِ الأغنياءِ، ويُعطَى لِلمُستحقِّينَ.

نكتةُ بناءِ ﴿وَٱلۡمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمۡ﴾:

الإسلامُ تأليفُ قلوبٍ، لا إخضاعُ جوارحَ

بُني قولُهُ: ﴿وَٱلۡمُؤَلَّفَةِ﴾على المفعولِ، و﴿قُلُوبُهُمۡ﴾نائبُ فاعلٍ؛ وذلك لأنَّ الفاعلَ مَعروفٌ مُقرَّرٌ، فاللّٰه تعالى يقولُ: ﴿لَوۡ أَنفَقۡتَ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مَّآ أَلَّفۡتَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيۡنَهُمۡۚ﴾ [الأنفال: 63]؛ فحذفُ الفاعلِ للإيجازِ، وللانشغالِ بهذهِ الصِّفةِ دونَ النَّظرِ لِمَن وصفَهُم بها.

نكتةُ العدولِ مِن استعمالِ اللَّامِ إلى استعمالِ (في):

تغايرُ استعمالِ الحروفِ، يدلُّ على قوَّةِ استحقاقِ كلِّ صنفٍ منهم

ذكر صاحبُ (إعراب القرآنِ وبيانه) في قولِهِ تعالى: ﴿۞إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ﴾: أنّه عدلَ عن (اللَّام) إلى (في) في الأربعةِ الأخيرةِ، وذلك لسرٍّ يخفى، وهو أنَّ الأصنافَ الأربعةَ الأوائلَ - وهُمُ الفقراءُ، والمساكينُ، والعاملونَ عليها، والمؤلَّفةُ قلوبهم - مُلَّاكٌ لِما عساهُ يَدفعُ إليهم، فكانَ دخولُ اللَّامِ لائقًا بهم، وأمَّا الأربعةُ الأواخرُ فلا يملِكونَ ما يُصرَفُ نحوهم، بل ولا يُصرَف إلى أيديهم ولكن يُصرف في مَصالحَ تتعلَّقُ بهم، فالمالُ الَّذي يُصرَفُ (في الرِّقاب) إنَّما يتناوَلُهُ السَّادةُ المُكاتِبونَ والبائعونَ، فلَيسَ نَصيبُهم مَصروفًا إلى أيديهم، حتَّى يُعَبَّرَ عن ذلكَ باللَّامِ المُشعِرَةِ بتملُّكِهم لِمَا يُصرَفُ نحوَهُم، وإنَّما هُم مَحالٌّ لِهذا الصَّرفِ والمصلحةِ المتعلِّقةِ به، وكذلك (الغارمون) إنَّما يُصرَفُ نَصيبُهم لِأربابِ دُيُونِهم تخليصًا لِذِمَمِهم لا لَهُم، وأمَّا ﴿سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ فواضحٌ فيه ذلك، وأمَّا ﴿وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِۖ﴾ فكأنَّهُ كانَ مُندرِجًا في سبيلِ اللّٰهِ، وإنَّما أُفرِدَ بالذِّكر تنبيهًا على خُصُوصيَّتِهِ[2][3].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/236.

(2) محمد رضا، تفسير المنار: 10/4436.

(3) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 4/118 - 119، ويُنظر: محمد رضا، تفسير المنار: 10/4436.

وقد ذكرَ الزَّمخشريُّ نكتةً أخرى لهذا العدولِ في استعمالِ الحرفَين، فقال: "فإنْ قلتَ: لمَ عدلَ عن اللَّام إلى (في) في الأربعةِ الأخيرةِ؟ قلتُ: للإيذانِ بأنَّهُم أرسخُ في استحقاقِ التَّصدُّقِ عليهم ممَّن سبقَ ذكرُهُ؛ لأنَّ (في) للوعاءِ، فنبَّهَ على أنَّهُم أحقَّاءُ بأن تُوضعَ فيهم الصَّدقاتُ، ويُجعلوا مظنَّةً لها ومَصبًّا، وذلك لِما في فكِّ الرِّقابِ مِنَ الكتابةِ أو الرِّقِّ أو الأسرِ، وفي فكِّ الغارمينَ مِنَ الغُرمِ مِنَ التَّخليصِ والإنقاذِ، ولجمعِ الغازي الفقيرِ أو المُنقَطِعِ في الحجِّ بينَ الفقرِ والعبادةِ، وكذلك ابنُ السَّبيلِ جامعٌ بينَ الفقرِ والغربةِ عنِ الأهلِ والمالِ[1].

نكتةُ حذفِ المضافِ وإقامةِ المضافِ إليه مكانَهُ في ﴿وَفِي ٱلرِّقَابِ﴾:

قولُهُ: ﴿وَفِي ٱلرِّقَابِ﴾ هناك مضافٌ محذوفٌ لدلالةِ المضافِ إليه عليه، وهو (فكُّ)، وتقديرُهُ: (وفي فكِّ الرِّقابِ)، وحذفُهُ للإيجازِ، "ونقولُ: لم يأتِ الإسلامُ بالرِّقِّ؛ لأنَّ الرِّقَّ كانَ موجودًا قُبيلَ البعثةِ المحمَّديَّةِ، وجاءَ الإسلامُ بالعتقِ ليُصفَّى الرِّقُّ، فجعلَ مِن فَكِّ الرَّقبةِ كفَّارةً لبعضِ الذُّنوبِ، وجعلَ مِن مَصارفِ الزَّكاةِ عتقَ العبيدِ، وقد نَزَلَ القرآنُ وقتَ أن كانَت منابعُ الرِّقِّ مُتعدِّدَةً"[2].

الإسلامُ صفَّى نظامَ الرِّقِّ تدريجيًّا، وشجَّعَ على تحرير العبيد

نكتةُ عدمِ تكرارِ ﴿وَفِي﴾:

يقولُ الزَّمخشريُّ: وتكريرُ (في) في قولِهِ: ﴿وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾، فيه فضلُ ترجيحٍ لهذين على الرِّقابِ والغارمينَ[3]، ومعنى كلامِهِ أنَّ الكلامَ كانَ يمكنُ أن يكونَ: وفي الرِّقاب والغارمينَ وسبيلِ اللّٰه وابنِ السَّبيل، فلمَّا جيءَ بـ (في) مرَّةً ثانيَةً، وفُصِلَ بها بينَ الغارمينَ وبينَ سبيلِ اللّٰهِ، عُلِمَ أنَّ ﴿سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أوكدُ في استحقاقِ النَّفقةِ.

التَّلميحُ إلى أنَّ (سبيل الله) أوكدُ في استحقاقِ الصَّدقةِ

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/283.
(2) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 9/5223.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/283.

نكتةُ عطفِ ﴿وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِۖ﴾ على: ﴿وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾:

قالَ الآلوسيُّ: وأمَّا ابنُ السَّبيلِ فكأنَّهُ كانَ مُندرجًا في سبيلِ اللّه، وإنَّما أُفرِدَ بالذِّكرِ تنبيهًا على خصوصيَّتِهِ مع أنَّهُ مُجرَّدٌ مِنَ الحرفَين جميعًا[1]، ويُعمَّمُ في ذلك الحكم، فابنُ السَّبيل هو كلُّ غريبٍ صادفَتهُ ظروفٌ صعبةٌ، ولا يجدُ ما يعودُ به إلى بلدِهِ[2]، فالمفروضُ أن تُمدَّ لهُ يدُ المعونةِ، ولو كان غنيًّا في بلدِهِ؛ لأنَّه ربَّما انقطعَت بهِ السُّبلُ، ولا مالَ لهُ، فلا معنى لِغناهُ في بلدِهِ، إذا كانَ لا يملِكُ ما يُنفقُ، في مكانِ إقامتِهِ في حالِ سفرِهِ.

يُصرَفُ لابنِ السَّبيلِ مِنَ الزَّكاةِ، ولو كانَ غنيًّا في بلادِهِ

نكتةُ إفرادِ ﴿وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِۖ﴾:

جاءَ ابنُ السَّبيلِ في قولِهِ: ﴿وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِۖ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ﴾ مُفردًا دونَ بقيَّةِ الأصنافِ في الآيةِ الكريمةِ، وقد علَّلَ ابنُ عرفةَ ذلك بقولِهِ: فإنْ قلتَ: لِمَ جمعَ الكلَّ، وأفردَ ابنَ السَّبيل؟ قلْنا: لِكثرتِهِم باعتبارِ الوجودِ الخارجيِّ، وقلَّةِ ابنِ السَّبيلِ[3]. ويقولُ الآلوسيُّ: ابنُ السَّبيلِ؛ أي: المُسافرُ - كما قالَهُ مجاهد - وسُمِّي بذلكَ لِمُلازمتِهِ الطَّريقَ في السَّفرِ أو لأنَّ الطَّريقَ تبرزُهُ، فكأنَّها ولدَتهُ، وكأنَّ إفرادَهُ لانفرادِهِ عن أحبابِهِ ووطنِهِ وأصحابِهِ، فهو أبدًا يَتوقُ إلى الجمعِ، ويَشتاقُ إلى الرَّبعِ، والكريمُ يحنُّ إلى وطنِهِ حنينَ الشَّارفِ إلى عَطَنِهِ، أو لأنَّه لمَّا لم يكُنْ بينَ أبناءِ السَّبيلِ والمُعطيَ تَعارُفٌ غالبًا، يَهُونُ أمرُ الإعطاءِ، ويرغبُ فيه أفرادُهم لِيهونَ أمرُ إعطائِهِم، ولِيشيرَ إلى أنَّهم وإنْ كانُوا جمعًا ينبغي أن يُعتَبروا كنفسٍ واحدةٍ، فلا يضجرُ مِن إعطائِهِم لِعدمِ مَعرفتِهِم، وبُعدِ مَنفعتِهِم، فَليُفهَمْ[4].

إفرادُ ابنِ السَّبيلِ يدلُّ على مصاعبِ غربتِهِ

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 10/180.
(2) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 9/5228.
(3) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/210.
(4) الآلوسيّ، روح المعاني: 1/443 - 444.

بلاغةُ الاستعارةِ في: ﴿وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِۖ﴾:

استعمالُ المجازِ في السِّياقِ، يزيدُ الصُّورةَ جمالًا ووضوحًا

إضافةُ الابنِ هنا للسَّبيلِ مجازيَّةٌ؛ حيثُ شبَّهتِ الآيةُ السَّبيلَ بالأمِّ الَّتي تَلِدُ بجامعِ المُلازمةِ وعدمِ المفارقةِ، على سبيلِ الاستعارةِ المكنيَّةِ التَّخييليَّةِ.

بلاغةُ التَّرتيبِ بينَ الأصنافِ الثَّمانيةِ:

دلَّ التَّرتيبُ في ذكرِ الأصنافِ الثَّمانيةِ على تقديمِ الأهمِّ فالأهمِّ

يقولُ صاحبُ (تفسير المنار): "والتَّرتيبُ في هَذِهِ الأَصنافِ لِبَيانِ الأَحَقِّ فالأَحَقِّ لِلصَّدَقاتِ، على القاعِدَةِ الغالِبَةِ عِندَ فُصَحاءِ العَرَبِ في تَقديمِ الأَهَمِّ فالأَهَمِّ على ما دونَهُ في المَوضوعِ، وإِنْ كانَتِ الواوُ لا تُفيدُ التَّرتيبَ في مَعطوفاتِها، فالفُقَراءُ والمَساكينُ أَحَقُّ مِن غَيرِهِم بِهَذِهِ الصَّدَقاتِ؛ لأَنَّهُمُ المَقصودونَ بِها أَوَّلًا وبالذَّاتِ، بِدَليلِ الحَديثِ المُتَقَدِّمِ: «**تُؤخَذُ مِن أَغنيائِهِم**، فَتُرَدُّ في فُقَرائِهِم»، ويَليهِمُ العامِلونَ عليها؛ لأَنَّهُم هُمُ الَّذينَ يَقومونَ بِجَمعِها وحِفظِها، وقالَ بَعضُ الفُقَهاءِ: إِنَّهُم أَوَّلُ مَن يُعطَى عُملَتَهُ مِنها إِلَّا إِذا كانَ لَهُم رَواتِبُ مِن بَيتِ المالِ، أَو رَأَى ولِيُّ الأَمرِ إِعطاءَهُم عمالَتَهُم مِنهُ، ويَليهِمُ المُؤَلَّفَةُ قُلوبُهُم عِندَ الحاجَةِ إِلَيهِم، وهُم يُعطَونَ مِنَ الغَنائِمِ أَيضًا، فالحاجَةُ إِلَيهِم عارِضَةٌ لا كالعامِلينَ على الصَّدَقاتِ، ويَليهِم مَصلَحَةُ فَكِّ الرِّقابِ والعِتقِ، وهيَ المَصالِحُ مِنَ الاجتِماعيَّةِ الكَماليَّةِ لا الضَّروريَّةِ، فإِنَّ تَأخيرَها لا يُرهِقُ مَعوزًا كالفَقيرِ، ولا يُضَيِّعُ مَصلَحَةً تَشتَدُّ الحاجَةُ إِلَيها كَتأليفِ القُلوبِ، ويَليها مُساعَدَةُ الغارِمِ على الخُروجِ مِن غُرمِهِ، فَهوَ دونَ مُساعَدَةِ الرَّقيقِ على الخُروجِ مِن رِقِّهِ، ويَليهِمُ المَصلَحَةُ العامَّةُ المُعَبَّرُ عنها بِسَبيلِ اللهِ، فهيَ مِن قَبيلِ العامِّ الَّذي يُرادُ بِهِ ما وراءَ ذَلِكَ الخاصِّ ممَّا قَبلَها الَّذي تَكثُرُ الحاجَةُ إِلَيهِ، وأَمَّا ابنُ السَّبيلِ فهو دونَ جَميعِ ما قَبلَهُ لِنُدرَةِ وُجودِهِ"[1].

(1) محمد رضا، تفسير المنار: 10/436.

دلالةُ الموقعِ النَّحويِّ والصَّرفيِّ لقولِهِ: ﴿فَرِيضَةً﴾:

قولُهُ: ﴿فَرِيضَةً﴾ هنا مَفعولٌ مطلقٌ لفعلٍ محذوفٍ؛ أي: فرضَ اللّهُ ذلك فريضةً، ويجوزُ إعرابُها حالًا مِنَ الفقراءِ ومَن بعدَهُم؛ أي: إنَّما الصَّدقاتُ كائنةٌ لهم حالَ كونِها فريضةً، وهي فعيلةٌ بمعنى مَفروضة، وإنَّما دخلَتها التّاءُ، وحقُّها أن يَستويَ فيها المذكَّرُ والمؤنَّثُ؛ لِجريانِها مَجرَى الأسماءِ كالنَّطيحةِ[1].

معنى (فريضة) على وزنِ (فعيلة) بمعنى (مَفعولة)؛ أي (مَفروضة)

معنى ﴿مِّنَ﴾ في: ﴿مِّنَ ٱللَّهِۗ﴾:

﴿مِّنَ﴾ هنا ابتدائيَّةٌ على معنى أنَّ هذه الفريضةَ ابتدأَت مِنَ اللّه، ومَوقعُ شبهِ الجملةِ هنا على أنَّها صفةٌ لِلفريضةِ، و"هذا التَّشريعُ، هو فرضٌ مُحكَمٌ فرضَهُ اللّهُ على المُسلمينَ، وأوجبَ عليهم أداءَهُ، على هذا الوجهِ الَّذي شرعَهُ"[2].

كلُّ ما فرضَهُ اللّهُ رحمةٌ وحكمةٌ ونفعٌ

معنى الواو في: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾:

الأظهرُ أن تكونَ الواو هنا لِلحالِ على معنى: أنَّ ما تقدَّمَ مِن توزيعِ أنصبةِ الزَّكاةِ كانَ فريضةً مِنَ اللّه، والحالُ أنَّهُ عليمٌ فيما يُصلِحُ أحوالَكُم، حكيمٌ في تقديرِ هذه الأنصبةِ، يضعُ الشَّيءَ في مَوضِعِهِ.

علمُ اللّهِ وحكمتُهُ، يُعطي اليقينَ بصلاحيَّةِ أحكامِهِ لِمقاصدِهِ

نكتةُ التَّذييلِ بـ ﴿عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾:

التَّذييلُ بصفةِ العلمِ ناسبَ علمَهُ ﷻ بما يُصلِحُ شأنَ عبادِهِ، وعِلمَه بما يَلمزُ بهِ المنافقونَ في شأنِ الصَّدقاتِ، وأمَّا صفةُ الحكمةِ فهي الأليقُ بتقسيمِ الصَّدقاتِ إلى ثمانيةِ أقسامٍ جاءَت وَفقَ هذا التَّرتيبِ.

إتمامُ الخطابِ بشمولِ علمِهِ بالمَصارفِ، وعلوِّ حكمتِهِ بأحكامِهِ

نكتةُ تقديمِ العلمِ على الحكمةِ وتنكيرِهِما:

تتقدَّمُ صفةُ العلمِ على صفةِ الحكمةِ في أغلبِ مَواضِعِ اقترانِهما

العلمُ والحكمةُ صفتانِ للّهِ تمثِّلانِ كمالَ الوصفِ، وروعةَ الإيجازِ

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 4/118.
(2) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 5/820.

في القرآنِ الكريمِ؛ لأنَّ العلمَ يسبقُ الحكمةَ، ويتقدَّمُ عليها، والحكمةُ لا تكونُ إلَّا وفقَ علمِ اللّه الأزليِّ، ونذكرُ هنا أيضًا تنكيرَ الاسمَين الجليلَين، وقد أفادَ تنكيرُ هذَين الاسمَين هنا معانيَ التَّعظيمِ لِلعليِّ العظيمِ.

﴿وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌۚ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ٦١﴾ [التّوبة: 61]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

بعدَ بيانِ اللَّمزِ في الصَّدقاتِ، ومَصارفِ أدائِها، نَدَّدَ بمَن يُؤذي رسولَهُ

يقولُ البقاعيُّ: ولَمّا بيَّنَ الصِّنفَينِ السَّالفَينِ، وخَتَمَ أمرَهُما بصفَتَي العلمِ والحكمةِ، أتبَعَهُما بصنفٍ آخرَ يُؤذي بما يَجعَلُهُ نَقصًا في صِفاتِ الرَّسولِ ﷺ، فَلْيَزَمُ الطَّعنَ في عِلمِ مُرسلِهِ وحِكمَتِهِ فقالَ: ﴿وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ﴾؛ أي: الّذي أعلى اللّهُ مِقدارَهُ، فَهو يُنبِئُهُ بما يُريدُ سبحانَهُ مِن خَفايا الأسرارِ[1]، فالآيةُ هنا مَعطوفةٌ على ما سبقَها مِن صفاتِ المنافقينَ ومَواقفِهم مِن عطفِ القصَّةِ على القصَّةِ، فهي مَعطوفةٌ على قولِهِ: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ﴾، وآيةُ مَصارفِ الزَّكاةِ الَّتي توسَّطَت بينَ الآيتَينِ كانَتِ اعتراضًا كما تَقدَّمَ.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يُؤْذُونَ﴾: مِنَ الأذى، وهوَ الشَّيءُ تَتَكَرَّهُهُ، وَلا تَقِرُّ عليهِ، تَقولُ: آذَيتُ فُلانًا أوذِيهِ، ويُقالُ: بَعيرٌ أَذٍ وَنَاقَةٌ أَذِيَّةٌ؛ إذا كانَ يَقِرُّ في مَكانٍ مِن غَيرِ وَجَعٍ، وكأَنَّهُ يَأذَى بِمَكانِهِ[2]. والأذى عندَ الرَّاغبِ: ما يَصِلُ إلى الحيوانِ مِنَ الضَّررِ، إمَّا في نفسِهِ أو جسمِهِ أو تَبعاتِهِ دُنيَويًّا كانَ أو أُخرَويًّا[3].

2) ﴿أُذُنٌ﴾: الهَمزَةُ والذَّالُ والنُّونُ أَصلانِ مُتَقارِبانِ في المَعنَى، مُتَباعِدانِ في اللَّفظِ، أَحَدُهُما أُذُنُ كُلِّ ذي أُذُنٍ، والآخَرُ العِلمُ،

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/508.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (أذي).
(3) الرّاغب، المفردات: (أذى).

وعَنهُما يَتَفرَّعُ البابُ كُلُّهُ، فأمَّا التَّقارُبُ فبالأُذُنِ يَقَعُ عِلمُ كُلِّ مَسموعٍ. وأَمَّا تَفرُّعُ البابِ فالأُذُنُ مَعروفَةٌ مُؤَنَّثَةٌ. ويُقالُ لِذي الأُذُنِ: آذَنُ، ولِذَاتِ الأُذُنِ: أَذناءُ، ويُقالُ لِلرَّجُلِ السَّامِعِ مِن كُلِّ أَحدٍ: أُذُنٌ، قالَ اللّه تعالى: ﴿وَمِنۡهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٞۚ﴾ [التَّوبة: 61][1]، والأذنُ الجارحةُ يُعبَّرُ بها عمَّن كَثُرَ استماعُهُ وقَبولُهُ لِما يُقالُ لهُ. فيُقالُ: فلانٌ أذنُ خَيرٍ لكُم؛ أي: يقبلُ مَعاذيرَكم، ويصفحُ عن مُسيئِكُم، كأنَّهُم يَقولونَ: إذا بلغَهُ عنَّا ما يكرهُهُ؛ حَلفْنا لهُ، فَيَقبَلُنا، فإنَّما هو أُذُنٌ[2].

❁ المَعْنى الإجْمالِيُّ:

النَّبيُّ أُذُنُ خيرٍ، وقُدوَةُ هدايةٍ، ومَن آذاه ذاقَ العذابَ الأليمَ

ومِن هؤلاءِ المنافقين: قومٌ يُؤذونَ النَّبيَّ ﷺ فيقولونَ عنهُ: إنَّهُ كثيرُ السَّماعِ والتَّصديقِ لكلِّ ما يُقالُ لهُ بدونِ تمييزٍ بينَ الحقِّ والبَاطِلِ، وقولُهُ: ﴿قُلۡ أُذُنُ خَيۡرٖ لَّكُمۡ﴾ ردٌّ عليهم بما يُخرِسُ ألسنتَهُم، ويُكبتُ أنفسَهُم، والمعنى: قُلْ لهم يا محمَّدُ على سبيلِ التَّوبيخِ والتَّبكيتِ: سلَّمنا كما تَزعمونَ أنِّي كثيرُ السَّماعِ والتَّصديقِ لِمَا يُقالُ، لكنَّ هذه الكثرةَ ليسَت لِلشَّرِّ والخيرِ بدونِ تمييزٍ، وإنَّما هي لِلخيرِ، ولِمَا وافقَ الشَّرعَ فحسب[3].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

تجلِّي مَلامحِ التَّعبيرِ الفنِّي في السِّياقِ في عطفِ القصَّةِ على القصَّةِ

بلاغةُ العطفِ في: ﴿وَمِنۡهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱلنَّبِيَّ﴾:

هذه الآيةُ معطوفةٌ بحرفِ الواوِ، لكنَّها ليسَت معطوفةً على الآيةِ السَّابقةِ، لِعدمِ تعلُّقِها المباشرِ بها، ولكنَّها معطوفةٌ على قولِه: ﴿وَمِنۡهُم مَّن يَلۡمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ﴾، أو إنَّها معطوفةٌ على أحوالِ المُنافقينَ الَّذين أكثرتِ السُّورةُ مِن ذكرِها، وهو كما يُسمَّى مِن عطفِ القصَّةِ على القصَّةِ.

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (أذن).
(2) السّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (أذن).
(3) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 6/333.

معنى الحرفِ (من) في: ﴿وَمِنۡهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱلنَّبِيَّ﴾:

أفادَتْ (من) هنا معنى التَّبعيضِ؛ أي: بعضُهم مَن فعلَ ذلك، ويؤيِّدُ ذلك أنَّ السَّورةَ الكريمةَ فَصَّلَت في أحوالِهم وأنواعِهم إزاءَ المَواقِفِ المختلفةِ، ويقصدُ أنَّ "مِنَ المنافقينَ جماعةً يَتعمَّدونَ إيذاءَ النَّبيِّ ﷺ، فيتَّهمونَهُ بأنَّه يَسمعُ مِن كلِّ أحدٍ ما يقولُهُ، ويُصدِّقُهُ، وأنَّهُ يُخدَعُ بما يَسمَعُ"[1].

إيذاءُ النَّبيِّ الأكرمِ نكرانٌ لِنعمةِ اللهِ ببعثتِهِ

الموقعُ النَّحويُّ والبيانيُّ لقولِهِ: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱلنَّبِيَّ﴾:

الاسمُ الموصولُ (الَّذي) مبتدأٌ مُؤخَّرٌ، و﴿يُؤۡذُونَ﴾ جملةُ صلةِ الموصولِ لا محلَّ لها مِنَ الإعرابِ، وشبهُ الجملةِ ﴿وَمِنۡهُمُ﴾ خبرٌ مُقدَّمٌ أو مُتعلِّقةٌ بخبرٍ مُقدَّمٍ، والغرضُ البيانيُّ مِن مجيءِ الاسمِ الموصولِ هو الذَّمُّ والتَّحقيرُ لَهُم.

الوصفُ بإيذاءِ النَّبيِّ تلويحٌ بفعلِهِمُ القبيحِ

غرضُ تقديمِ الخبرِ الجارّ والمجرور ﴿وَمِنۡهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ﴾:

تقدُّمُ الخبرِ على المبتدأِ هنا لإبرازِ مَواقِفِ المنافقينَ وفضائِحِهم في السُّورةِ الكريمةِ، فمَدارُ الاهتمامِ في التَّقديمِ؛ لأجلِ أنَّ السِّياقَ الطَّويلَ الَّذي جاءَت فيه الآيةُ، إنَّما هو في الحديثِ عنهُم، وعن مَواقفِهم وأصنافِهم وسائرِ أحوالِهم، فقدَّمَ الضَّميرَ العائدَ عليهم؛ لأنَّهم مدارُ الكلامِ ومناطُهُ، ويمكنُ أن يكونَ تقديمُها مُفيدًا لِلتَّخصيصِ على معنى أنَّ مَن يفعلُ هذا الفعلَ القبيحَ منهم لا مِن غيرِهم.

تقدُّمُ ضميرِ المنافقينَ لِتخصيصِهِم بالنَّعي والذَّمِّ

نكتةُ التَّعبيرِ بالمضارعيَّةِ في جملةِ صلةِ الموصولِ ﴿يُؤۡذُونَ﴾:

التَّعبيرُ بالفعلِ المضارعِ على أمرٍ قد مضى في أذاهُم للنَّبيِّ ﷺ إنَّما يفيدُ أوَّلَ ما يفيدُ استحضارَ صورتِهم القبيحةِ، وتصويرَها للقارئِ كأنَّها رأيُ عيْنٍ، فضلًا عن أنَّ مِن أغراضِها الأخرى بيانَ استمراريَّةِ هذا الأذى، مِن قِبَلِ المنافقينَ في كلِّ زمانٍ ومَكانٍ، حتَّى

أهمِّيَّةُ الفعلِ المضارعِ في الاستحضارِ أو التَّجدُّدِ أو هما معًا

(1) إبراهيم القطّان، تيسير التّفسير: 2/148.

مَعَ النَّبيِّ ﷺ، مِن خلالِ ذمِّهِ ومحاربةِ سنَّتِهِ وأوليائِهِ، بدليلِ أنَّهُ قالَ بعدَها: ﴿وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌۚ﴾، فعبَّرَ بالمضارعِ في زمانِ قولِهِم.

معنى(أل) في لفظِ ﴿ٱلنَّبِيَّ﴾:

أفادَت (أل) هنا العهدَ الصَّريحَ، والمُرادُ به النَّبيُّ ﷺ؛ لِتقدُّمِ ذكرِهِ في قولِهِ: ﴿وَلَوۡ أَنَّهُمۡ رَضُواْ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤۡتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ﴾، وفي السِّياقِ تصريحٌ بكونِهِم "استمرُّوا على إيذاءِ النَّبيِّ ﷺ بأقوالٍ كاذبةٍ، ويفتُّونَ في عَضُدِ الجماعةِ الإسلاميَّةِ، ويَشيعونَ فيها بما يفرِّقُها، ويَرجعونَ بالقولِ، فإذا تَسامعَ النَّاسُ بها، وعلموا أنَّها وصلَت إلى مَسامعِ النَّبيِّ ﷺ لا يُبالونَ، ﴿وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌۚ﴾"[1].

الأذيَّةُ باللِّسانِ مِن أشقِّ ما يتحمَّلُهُ الإنسانُ

نكتةُ الإظهارِ في مَوضِعِ الإضمارِ في لفظِ ﴿ٱلنَّبِيَّ﴾:

كانَ مُقتضَى الظَّاهرِ أن يُقالَ: (ومِنهُمُ الَّذينَ يُؤذُونَكَ)، فَعَدَلَ عنِ الإضمارِ إلى إظهارِ وصفِ النَّبيِّ؛ للإيذانِ بشناعةِ قولِهِم، ولِزيادةِ تنزيهِ النَّبيِّ بالثَّناءِ عليه بوصفِ النُّبوَّةِ، بحيثُ لا تُحكَى مقالَتُهم فيهِ إلَّا بعدَ تقديمِ ما يُشيرُ إلى تنزيهِهِ، والتَّعريضِ بِجُرمِهِم فيما قالُوهُ[2].

عَمِلَ السِّياقُ على إبرازِ شناعةِ القولِ، والتَّعريضِ ببشاعةِ الفريةِ

معنى (الواو) في قولِهِ تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌۚ﴾:

الواو هنا عاطفةٌ، عطفَتِ الخاصَّ على العامِّ؛ فإنَّ قولَهُم: هو أذنٌ، ما هو إلَّا بعضُ أذاهُم، لكنَّ عطفَ الخاصِّ على العامِّ، يكونُ لِلإشادةِ بالخاصِّ، بإنزالِ التَّغايرِ العنوانيِّ مَنزلةَ التَّغايرِ الذَّاتيِّ؛ فقولُهُم هذا هو مِن أشدِّ الأذى بحقِّ النَّبيِّ ﷺ.

أهمِّيَّةُ السِّياقِ في كونِهِ عَطفًا لِلخاصِّ على العامِّ

بلاغةُ الكنايةِ والمَجازِ المُرسَلِ في قولِهِ: ﴿هُوَ أُذُنٌۚ﴾:

أرادُوا بقولِهِم هذا الإخبارَ بأنَّه آلةُ سَمعٍ، فهو يُصدِّقُ كلَّ ما يَسمعُ

(1) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 6/3350.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/241.

مِن دونِ تمييزٍ بينَ المقبولِ والمردودِ، فهي كنايةٌ عَن صفةٍ، ويمكنُ أن تكونَ مَجازًا مُرسَلًا حيثُ أطلقَ الجزءَ، وأرادَ الكُلَّ، أو مجاز مرسل علاقتُهُ الإطلاقُ والتَّقييدُ؛ إذ إنَّه أبطلَ أن يكونَ (أُذُنٌ) بالمعنى الّذي أَرادوُهُ مِنَ الذَّمِّ؛ فإنَّ الوصفَ بالأُذنِ لا يَختصُّ بمَن يَقبَلُ الكلامَ المُفضيَ إلى شَرٍّ، بل هُوَ أعمُّ مِن ذلكَ، فَلِذلكَ صَحَّ تَخصيصُهُ هنا بِما فيهِ خَيرٌ، وهذا إعمالٌ في غيرِ المُرادِ مِنهُ[1].

وَصفُ المنافقينَ النَّبيَّ بأنَّه أُذُنٌ مِنَ التَّطاولِ المقيتِ

بلاغةُ التَّشبيهِ البليغِ في: ﴿هُوَ أُذُنٌ﴾:

يُسمَّى هذا التَّشبيهُ في علمِ البيانِ بحسبِ ما استقرَّ عليهِ رأيُ المتأخِّرينَ بالتَّشبيهِ البليغِ؛ وذلكَ لِحذفِ أداةِ التَّشبيهِ ووجهِ الشَّبهِ، فهو أبلغُ مِن ذكرِهما؛ لأنَّهُ يجعلُ المُشبَّهَ كأنَّهُ عينُ المُشبَّهِ بهِ دونَ حاجزٍ بينَهُما، ووجهُ الشَّبهِ تَذهَبُ النَّفسُ في تقديرِهِ هنا كلَّ مَذهَبٍ، فقد يكونُ باجتماعِ المُشبَّهِ بالمُشبَّهِ بهِ في سرعةِ النَّقلِ والتَّمريرِ، أو بعدمِ الإفادةِ ممَّا يُسمَعُ؛ لِكونِهما آلةَ نقلٍ فقط.

التَّشبيهُ بالأُذنِ مِنَ المنافقينَ، كانَ لِلذَّمِّ والقدحِ المهينِ

نكتةُ تنكيرِ لفظِ ﴿أُذُنٌ﴾ في سياقِ الآيةِ:

أفادَ تنكيرُ ﴿أُذُنٌ﴾ على لسانِ المنافقينَ الذَّمَّ والتَّحقيرَ لِمقامِ البشيرِ النَّذيرِ، وهُم قدِ استصغروا هيبةَ النُّبوَّةِ، وازدروا صاحبَها في سَفهٍ ولجاجةٍ وسُوءِ أدبٍ، واتَّهمُوهُ بأنَّهُ "يَسمَعُ كلَّ ما قِيلَ مِن غيرِ أن يَتدبَّرَ فِيهِ، ويُميِّزَ بينَ ما يَليقُ بالقَبُولِ، لِمُساعدةِ أَماراتِ الصِّدقِ لَهُ، وبينَ ما لا يَليقُ بهِ، وإنَّما قالُوهُ؛ لأنَّه ﷺ كانَ لا يُواجِهُهم بِسُوءِ ما صَنَعُوا، ويَصفَحُ عنهُم حِلمًا وكَرَمًا، فَحَمَلُوهُ على سَلامَةِ القلبِ، وقالُوا ما قالُوا"[2].

إيذاءُ النَّبيِّ والتَّعريضُ به، نكسةٌ لِلعقلِ، ونكبةٌ لِلضَّميرِ

نكتةُ التَّعبيرِ بالجملةِ الاسميَّةِ في قولِهِم: ﴿هُوَ أُذُنٌ﴾:

دلَّ التَّعبيرُ بالجملةِ الاسميَّةِ بزعمِهِم، معنى الثَّباتِ والدَّوامِ؛

الرَّسولُ لم يكُنْ أُذُنًا، وقد كانَ مُنزَّهًا بالعصمةِ عن كُلِّ نقيصةٍ

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 10/182 - 183، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/242.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/77.

فشأنُهُ ثابتٌ مُستقرٌّ على هذا الوصفِ لا يَنزاحُ عنهُ، "وإنَّما قالُوا ذلكَ؛ لأنَّه كانَ ﷺ، يعاملُهُم بأحكامِ الشَّريعةِ، كما يُعامِلُ عامَّةَ المؤمنينَ بالبناءِ على الظَّاهرِ"[1]، وقد كانَت أخلاقُه جميلةً، وشمائلُهُ جليلةً، وكانَت مُلازِمةً له في كُلِّ مَراحلِ عمرِهِ، وما حادَ عنها، ولا بدَّلَها تبديلًا، فكانَ ظاهرُهُ كباطنِهِ، ومعاملاتُهُ لا تصنُّعَ فيها، ولا تكلُّفَ، فتوهَّموا أنَّهُ كما وَصفُوهُ، ولكن حاشاهُ أن يكونَ كذلك.

نكتةُ الفصلِ في: ﴿قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ﴾:

الرَّسولُ الكريمُ أُذُنُ خيرٍ وهدًى لِلعالَمينَ على المَدَى

الجملةُ مُستأنَفةٌ استئنافًا ابتدائيًّا على طريقةِ المقاولةِ والمُحاورةِ؛ لإبطالِ قولِهِم بقلبِ مَقصدِهِم إغاظةً لهم، وكمدًا لِمَقاصدِهِم، والجملةُ ردٌّ على ما قالُوهُ بأفواهِهِم، ولاكوهُ "كما تلوكُ الكلابُ قِطَعًا مِنَ العظمِ الرَّميمِ..فكانَ ذلك فَضحًا لَهُم على الملأِ، وخزيًا مُتنقِّلًا معَهُم في كلِّ مَكانٍ، يُنادَى عليهم بالذِّلَّةِ والمَهانةِ والصَّغارِ"[2].

دلالةُ الأمرِ بالفعلِ ﴿قُلْ﴾:

فحوَى البَلاغِ الدَّقيقِ لِلمُنزَلِ على مَنْ هو بهِ حقيقٌ

أفادَ الأمرُ هنا العنايةَ بمضمونِ ما يأتي بعدَهُ، وهو أسلوبٌ يكثرُ في القرآنِ الكريمِ، يهدفُ إلى أنْ يتولَّى النَّبيُّ ﷺ الأمرَ بنفسِهِ، لا أنْ يَكِلَهُ لِغيرِهِ، وهذا يدلُّ على مدى عنايةِ القرآنِ الكريمِ بمضمونِهِ.

غرضُ حذفِ المسندِ إليه في: ﴿قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ﴾:

دلالةُ الإيجازِ وسرعةُ الرَّدِّ على المتقوِّلين علَّةٌ لِلحذفِ

قولُهُ: ﴿أُذُنُ﴾؛ خبرٌ لمبتدأٍ محذوفٍ، تقديرُهُ: هو أو النَّبيُّ، والحذفُ هنا أفادَ الإيجازَ مِن ناحيةٍ لتقدُّمِ ذكرِهِ، وأفادَ مِن ناحيةٍ أخرى سرعةَ الرَّدِّ وإيجازَهُ؛ ليكونَ قويًّا حاسمًا مُلاصِقًا لِقولِهِم، فما احتاجَ إلى إعادةِ ذكرِهِ سرعةً في الرّدِّ وحَسمًا لِلتُّهمةِ، وقَطعًا لِدابرِها على الفَورِ.

(1) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 10/147.
(2) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 5/821.

بلاغةُ الأسلوبِ الحكيمِ في قولِهِ: ﴿قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ﴾:

يُعَدُّ الرَّدُّ عليهم بهذه الطَّريقةِ مِنَ الأسلوبِ الحكيمِ الَّذي يحملُ فيه المُخاطَبُ كلامَ المُتكلِّمِ على غيرِ ما يريدُهُ؛ تنبيهًا لهُ على أنَّهُ الأَولى بأن يُرادَ؛ فاقتضى الأسلوبُ الحكيمُ مُوافقتَهُم في وصفِ أنَّه ﴿أُذُنُ﴾، ولكنَّهُ حملَها على مَحمَلِ الخيرِ لا على المعنى الَّذي أرادُوهُ.

ردُّ القرآنِ على المنافقين بأنَّ النَّبيَّ أُذُنُ خيرٍ

معنى اللَّامِ في ﴿لَّكُمْ﴾ مِن قولِهِ: ﴿قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ﴾:

اللَّامُ الجارَّةُ هنا يمكنُ أن تكونَ لامَ التَّخصيصِ؛ أي: إنَّهُ أُذُنٌ مُخصَّصٌ لكُم، ويمكنُ أن تفيدَ الاستحقاقَ أيضًا، وقد انتفعوا بهذا التَّخصيصِ في قولِهِ: ﴿لَّكُمْ﴾، "ومعنى ﴿أُذُنُ خَيْرٍ﴾: أنَّهُ يَسمعُ مَا يَبلُغُهُ عنكُم، ولا يُؤاخِذُكُم، ويَسمَعُ مَعاذِيرَكُم، ويَقبَلُها مِنكُم، فَقَبُولُهُ ما يَسمعُهُ يَنفَعُكم، ولا يَضُرُّكم، فَهَذا أُذُنٌ في الخيرِ؛ أي: في سَماعِهِ والمعامَلَةِ بهِ، وليسَ أُذُنًا في الشَّرِّ"[1].

النَّبيُّ الخاتمُ رحمةٌ مُهداةٌ، ونعمةٌ مُسداةٌ

نكتةُ الفصلِ في: ﴿يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾:

فُصِلَت هذه الجملةُ عن سابقتِها؛ إمَّا لاتِّصالها التَّامِّ بها؛ لأنَّها مُفسِّرةٌ لِكونِهِ ﷺ أُذُنَ خيرٍ، وإمَّا أن تكونَ استئنافًا بيانيًّا؛ لِكونِها جاءَت في مَقامِ التَّعليلِ والإجابةِ عن سؤالٍ مُقدَّرٍ: كيفَ كانَ أُذُنَ خيرٍ لكُم؟

الفصلُ بينَ الجملِ إمَّا لكمالِ اتِّصالِها وإمَّا لشبهِهِ، وإمَّا لِكمالِ انفصالِها

نكتةُ مجيءِ ﴿يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ﴾:

قولُهُ: ﴿يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ﴾ تمهيدٌ لقولِهِ بعدَها: ﴿وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾؛ إذ هوَ المقصودُ مِنَ الجوابِ لِتمحُّضِهِ لِلخيرِ وبُعدِهِ عنِ الشَّرِّ، بأنَّهُ يُؤمِنُ باللهِ، فَهُوَ يُعامِلُ النَّاسَ بما أَمَرَ اللهُ بهِ مِنَ المعاملةِ بالعفوِ والصَّفحِ، والأمرِ بالمعروفِ، والإعراضِ عنِ الجاهِلِينَ، وبألَّا يؤاخِذَ أحدًا إلَّا بِبيِّنَةٍ[2]، ومعنى الباءِ في قولِهِ: ﴿بِٱللَّهِ﴾ الباءُ هنا للتَّعديةِ والنَّقلِ.

الرَّسولُ أوَّلُ المؤمنين، وأكثرُهُم عبوديَّةً للهِ ربِّ العالَمين

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/242.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/243.

نكتةُ العدولِ في الحروفِ في: ﴿وَيُؤۡمِنُ لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾:

الاختلافُ في استعمالِ الحروفِ مع الإيمانِ ناشئٌ عنِ المعنى المرادِ منهُ

الإيمانُ لِلمُؤمنينَ هنا؛ يعني: تصديقَهُم فيما يُخبرونَهُ، وهو معنًى مغايرٌ لمعنى الإيمانِ باللّه، لِذلكَ عُدِّيَ باللَّام دونَ الباءِ، كما في قولِهِ تعالى على لسانِ إخوةِ يُوسفَ: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤۡمِنٖ لَّنَا وَلَوۡ كُنَّا صَٰدِقِينَ ١٧﴾ [يوسف: 17]، فتصديقُه إيَّاهُم؛ لأنَّهم صَادِقونَ لا يَكذِبونَ؛ لأنَّ الإيمانَ وَازِعٌ لَهُم عَن أن يُخبِرُوهُ بالكذبِ، فقولُهُ: ﴿وَيُؤۡمِنُ لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ ثناءٌ عليهِ بذلكَ[1]، يقولُ الرَّازيُّ: فَإِنْ قِيلَ: لِمَ عَدَّى الإيمانَ إلى اللّه بالباءِ، وإلى المُؤمِنينَ باللَّام؟

قُلْنا: لِأَنَّ الإيمانَ المُعَدَّى إلى اللّه المُرادُ مِنهُ التَّصديقُ الَّذي هوَ نَقيضُ الكُفرِ، فَعَدَّى بالباءِ، والإيمانُ المُعَدَّى إلى المُؤمِنينَ، مَعناهُ الاستِماعُ مِنهُم، والتَّسليمُ لِقَولِهِم، فَيَتَعَدَّى باللَّام، كما في قَولِهِ: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤۡمِنٖ لَّنَا﴾ [يوسف: 17]، وقولِهِ: ﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٞ مِّن قَوۡمِهِۦ﴾ [يونس: 83] وقولِهِ: ﴿أَنُؤۡمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلۡأَرۡذَلُونَ ١١١﴾ [الشُّعراء: 111]، وقولِهِ: ﴿ءَامَنتُمۡ لَهُۥ قَبۡلَ أَنۡ ءَاذَنَ لَكُمۡۖ﴾ [الشّعراء: 49][2].

بلاغةُ العطفِ في: ﴿وَرَحۡمَةٞ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡۚ﴾:

الرَّسولُ رحمةٌ لِلعالَمينَ، وهو بالمؤمنينَ رَؤوفٌ رحيمٌ

يمكن أن تكونَ معطوفةً على قولِهِ: ﴿أُذُنُ خَيۡرٖ لَّكُمۡ﴾، أي: هو أُذُنُ خيرٍ ورحمةٍ[3]، ويمكنُ أن تكونَ معطوفةً على جملتَي ﴿يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤۡمِنُ لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾؛ لأنَّ كونَهُ رحمةً للَّذينَ يُؤمنونَ بعدَ علمِهِ بنفاقِهِم أثرٌ لإغضائِهِ عَن إجرامِهِم، ولإمهالِهِم حتَّى يَتَمَكَّنَ مِنَ الإيمانِ مَن وفَّقَهُ اللّه لِلإيمانِ مِنهُم[4].

توجيهُ القراءاتِ المُتواترةِ لِقولِهِ: ﴿وَرَحۡمَةٞ﴾:

الاختلافُ ناشئٌ عن وجهِ العطفِ، وكلتا القراءتَين تعضدُ الأخرى

قرأَ حمزةُ بكسرِ التَّاءِ فيها معَ التَّنوينِ (ورَحْمَةٍ)، وقرأَ الباقونَ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/243.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 16/90.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 10/184.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/243.

بضمِّ التَّاءِ معَ التَّنوينِ ﴿وَرَحۡمَةٌ﴾[1]، وحجَّةُ مَن كسرَها أنَّهُ عطفَها على ﴿خَيۡرٖ﴾؛ أي: أذنُ خيرٍ ورحمةٍ، وحجَّةُ مَن رَفَعَها: أنَّه جَعَلَها مَعطوفةً على ﴿أُذُنُ﴾؛ أي: هو أذنُ خيرٍ ورحمةٌ، ويمكنُ أن تكونَ خبرًا لمبتدأ محذوفٍ، والتَّقدير: (وهو رحمةٌ لكُم)، والمعاني مُتقاربةٌ على اختلافِ القراءاتِ.

معنى اللَّامِ في قولِهِ تعالى: ﴿وَرَحۡمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡۚ﴾:

اللَّامُ هنا يمكنُ أن تكونَ للتَّخصيصِ أو الاستحقاقِ، فالرَّحمةُ لا تكونُ إلَّا لَهُم لا لِغيرِهِم مِنَ الكفَّارِ، وهُم يَستحقُّونَها أيضًا، "وخصَّصَ الرَّحمةَ لِلَّذينَ آمَنوا؛ إذ هُمُ الَّذين نَجَوا بالرَّسولِ، وفَازُوا بِهِ"[2]، وقد يكونُ المعنى: "هو رحمة بطريقِ إطلاقِ المصدرِ على الفاعلِ للمبالغةِ ﴿لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡۚ﴾؛ أي: للَّذين أظهرُوا الإيمانَ مِنكُم، وهُمُ المنافقونَ، حيثُ يقبلُهُ منهُم، لَكِن لا تصديقًا لَهُم في ذلكَ، بل رِفقًا بهم، وتَرَحُّمًا عَليهم، ولا يَكشِفُ أسرارَهُم، ولا يَهتِكُ أستارَهُم"[3].

الرَّسولُ رحيمٌ بكلِّ مَن أظهرَ الإيمانَ

نكتةُ التَّعبيرِ بالاسمِ الموصولِ ﴿لِّلَّذِينَ﴾:

أفاد التَّعبيرُ بالاسمِ الموصولِ هنا الثَّناءَ والمدحَ والتَّعظيمَ لِلمُؤمنينَ؛ لأنَّ الاسمَ الموصولَ اقتضى إبهامًا، ثمَّ إعلامًا، فَتَشوَّقَتِ النَّفسُ إلى مَعرفةِ هذا المُبهَمِ، فجاءَت جملةُ صلةِ الموصولِ ﴿ءَامَنُواْ﴾ لِتُزيلَ هذا الإبهامَ، ولِتثنيَ عليهم بصفةِ الإيمانِ.

أفادَ الاسمُ الموصولُ هنا معنى المدحِ والثَّناءِ

فائدةُ مجيءِ جملةِ صلةِ الموصولِ ﴿وَرَحۡمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ فعليَّةً:

أفادتِ الجملةُ الفعليَّةُ معنى تجدُّدِ الإيمانِ وزيادتِهِ فيهم؛ فالإيمانُ يزدادُ بالطَّاعاتِ، ويَنقصُ بالمعاصي، "وإسنادُ الإيمانِ

مَن أخلصَ الإيمانَ نالَتهُ رحمةُ اللهِ بسيِّدِ ولدِ عدنانَ

(1) ابن مجاهد، السّبعة، ص: 315 - 316، وابن الجزريّ، النّشر: 2/280.
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/53.
(3) إ سماعيل حقّي، روح البيان: 3/457.

إليهم بصيغةِ الفعلِ بعدَ نسبتِهِ إلى المؤمنينَ بصيغةِ الفاعلِ المُنبِئَةِ عَنِ الرُّسُوخِ والاستمرارِ؛ لِلإيذانِ بأنّ إيمانَهُم أمرٌ حَادِثٌ، ما لهُ مِن قَرارٍ"[1]، فإنِ التزمُوا بهِ، وتابُوا توبةً نصوحًا؛ فهُم مِنَ المؤمنين، وتُبَدَّلُ سَيِّئَاتُهُم حسناتٍ، وإنْ لم يكُنْ ذلكَ، فَيعاملونَ بحقيقةِ إيمانِهِم.

معنى (مِن) في: ﴿لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ﴾:

مَن كانَ مِنَ المؤمنين عُومِل بظاهرِ ما عُلِمَ منهُ

الظَّاهرُ أنَّها تبعيضيَّةٌ بمعنى أنَّ بعضَكُم مَن آمنَ، وبعضَكُم مَن كَفَرَ، ويمكنُ أن تكونَ ابتدائيَّةً على معنى: لِمَن آمنَ ابتداءً منكُم، وقِيلَ: ﴿لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ﴾؛ "أي: مِن أهليكُم وذوي قرابتِكُم، ومَن كانوا في الأصلِ منكُم، وهداهُمُ اللّٰهُ تعالى، فلا يَكشِفُ عن نفاقِكُم بإظهارِ القَبولِ لِكلامِكُم، وإن كانَ يعلمُ أنَّكُم لَكاذِبونَ لِكيلا يُضارَّ هؤلاءِ"[2].

بلاغةُ العطفِ في قولِهِ: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾:

أفادَ السِّياقُ هنا بحكمِ العطفِ تغايُرًا في الوصفِ والأثرِ

قولُهُ: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ معطوفٌ على قولِهِ: ﴿وَمِنۡهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱلنَّبِيَّ﴾، والأصلُ في العطفِ أن يقتضيَ التَّغايرَ، وظاهرُ الأمرِ أنَّه لا يوجدُ تغايرٌ بينَهُما، لكنَّهُ لَمَّا طالَ الفاصِلُ عن بيانِ جزاءِ مَن يُؤذِي النَّبيَّ؛ جاءَ بالواوِ مع إعادةِ مَضمونِ الجملةِ وتغييرِ وصفِ النُّبوَّةِ بالرِّسالةِ، فالعطفُ هنا اقتضى تغايرًا بينَ الجملتَين؛ فالأولى بيَّنَت أنَّ مَن يُؤذونَ النَّبيَّ منهُم لا مِن غيرِهِم، وهنا بيَّنَت أنَّ مَن يُؤذونَ رسولَ اللّٰه لهم عذابٌ أليمٌ.

نكتةُ التَّعبيرِ بالاسمِ الموصولِ ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ﴾:

مَن يُهنِ اللهُ فما لَهُ مِن مُكرِمٍ سِواهُ

أفادَ التَّعبيرُ بالاسمِ الموصولِ هنا التَّحقيرَ والذَّمَّ لَهُم، وذَكَرَهُم بالاسمِ الموصولِ دونَ وصفِهِم أو اسمِهِم، حتَّى لا يُبْرِزَ لهم قيمةً، ولا

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/77.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/77.

يَرفعَ لهم شأنًا، "وإيذاءُ المنافقين لِرسولِ اللّه ﷺ لم يكُنْ بالمواجهةِ؛ لأنَّهُم أعلنوا كلمةَ الإيمانِ، وكانَ الإيذاءُ لِرسولِ اللّه ﷺ مِنَ المنافقينَ في قلوبِهِم، وفيما بينَهُم في مجالسِهِم، ولِذلكَ لم يكُنْ الإيذاءُ منهُم مباشرةً قطُّ"[1].

نكتةُ التَّعبيرِ بالمضارعِ في جملةِ صلةِ الموصولِ ﴿يُؤْذُونَ﴾:

المضارعُ هنا يقتضي استحضارَ صورتِهِم لِلقارئ، كما يقتضي تجدُّدَ هذا الفعلَ فيهم، وعدمَ انقضائِهِ حتَّى بعدَ وفاةِ النَّبيِّ ﷺ، ولا شكَّ أنَّ الإيذاءَ قد وَاكبَ الدَّعوةَ الإسلاميَّةَ منذُ نباتِها في بيئةِ الكفرِ الغالبةِ، ولمّا كَثُرَ عددُ المسلمينَ ازدادَ البلاءُ، وكَثُرَتِ التَّقوُّلاتُ، وردَّ القرآنُ على كلِّ الأباطيلِ والشُّبهاتِ، وبَقِيَ الإيذاءُ للنَّبيِّ الأكرمِ في العصورِ اللَّاحقةِ، ولا تزالُ رماحُ الإيذاءِ مُشرعةً إلى عصرِنا هذا، ولن تنتهيَ المواجهةُ الشَّرسةُ ما دامَ الصِّراعُ قائمًا بينَ الحقِّ والباطلِ، وهذا أمرٌ قدريٌّ لا نهايةَ لهُ.

سيبقى إيذاءُ النَّبيِّ الخاتمِ في كلِّ عهدٍ، يتجدَّدُ ولا يتبدَّدُ

نكتةُ العدولِ عن وصفِ النُّبوَّةِ إلى وصفِ الرِّسالةِ:

يقولُ الآلوسيُّ: وإيرادُهُ ﷺ بعُنوانِ الرِّسالةِ، مَعَ الإضافةِ إلى الاسمِ الجليلِ لِغايةِ التَّعظيمِ والتَّنبيهِ على أنَّ أذيَّتَهُ ﷺ رَاجعةٌ إلى جَنابِهِ ﷻ، مُوجبةٌ لِكمالِ السُّخطِ والغَضَبِ منهُ سبحانَهُ[2]، ويمكنُ أن يُقالَ: إنَّ الأذيَّةَ الأولى بقولِهِم: ﴿أُذُنٌ﴾ كانَت في حياتِهِ ﷺ، وأنَّ الوعيدَ هنا على مُطلَقِ الإيذاءِ لهُ بوصفِ الرِّسالةِ قائمٌ حتَّى قيامِ السَّاعةِ.

وصفُ النُّبوَّةِ في القرآنِ يَتعلَّقُ بالمكانةِ، ووصفُ الرِّسالةِ بالوظيفةِ

فائدةُ إضافةِ الرِّسالةِ إلى لفظِ الجلالةِ في ﴿يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾:

إضافةُ لفظِ ﴿رَسُولَ﴾ في الآيةِ إلى لفظِ الجلالةِ أفادَ تشريفًا ما بعدَهُ تشريفٌ لِمقامِ النُّبوَّةِ مِن ناحيةٍ، وأفادَ وَعيدًا لِمَن يُؤذونَ مَقامَ

رسالةُ محمَّدٍ مِنَ اللهِ أكسبَتْهُ مكانةً لم ينلْها أحدٌ سِواهُ

(1) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 9/5253.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 10/185.

رسولِهِ ﷺ، وضمُّ وصفِ الرَّسولِ بالرِّسالةِ إلى اللهِ تنبيهٌ إلى أنَّ اللهَ هو الَّذي أرسلَهُ إلى البشريَّةِ قاطبةً بالهدى ودينِ الحقِّ، وأنَّ إيذاءَ الرَّسولِ هو إيذاءٌ للهِ ربِّ العالَمين، وهو أمرٌ مَعهودٌ في كلِّ الأعرافِ في الدُّنيا: أنَّ الرَّسولَ يُكرَمُ ولا يُؤذَى، فما بالُكَ إذا كانَ هذا الرَّسولُ مُبلِّغًا عنِ اللهِ، وكانَ لهُ مكانُ التَّميُّزِ والعلوِّ، وأُوتِي ما لم يُؤتَ أحدٌ مِنَ العالَمين؟ وقد قالَ حسَّان بن ثابتٍ:

وضَمَّ الإلَهُ اسمَ النَّبيِّ مَعَ اسمِهِ *** إذا قالَ في الخَمسِ المُؤَذِّنُ: أَشهَدُ
وشَقَّ لَهُ مِن اسمِهِ ليُجِلَّهُ *** فَذو العَرشِ محمودٌ وهَذا محُمَّدُ[1]

نكتةُ التَّعبيرِ بالجملةِ الاسميَّةِ في فاصلةِ الآيةِ:

صيغةُ استمرارِ الوعيدِ وتجدُّدِهِ، ترويعٌ وتقريعٌ لأهلِ الأذى

أفادتِ الجملةُ الاسميَّةُ الَّتي خبرُها جملةٌ اسميَّةٌ كذلك معانيَ الثَّباتِ والتَّوكيدِ في وعيدِ مَن يفعلُ ذلكَ، وعليه فالَّذين" يُؤذُونَ رَسولَ اللهِ؛ أي: بأيِّ نوعٍ مِنَ الإيذاءِ كانَ، وفي صيغةِ الاستقبالِ المُشعِرَةِ بترتُّبِ الوَعيدِ على الاستمرارِ على ما هُم عليهِ، إشعارٌ بِقَبولِ تَوبتِهِم ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾"[2]، وذِكرُ العذابِ الأليمِ إشارةٌ إلى احتمالِ بقائِهِم على الإيذاءِ، وعدمِ توبتِهِم إلى ربِّ الأرضِ والسَّماءِ.

نكتةُ تقديمِ شبهِ الجملةِ في قولِهِ: ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾:

بئسَ العاقبةُ عندَ العظيمِ المصيرُ إلى العذابِ الأليمِ

أفاد توكيدُها تعجيلَ المضرَّةِ والإنذار لهم، ولا مسوِّغَ لحملِهِ على التَّخصيصِ، فالوعيدُ في كتابِ اللهِ جاءَ لَهُم ولِغيرِهِم، "وفي تَكريرِ الإسنادِ بإثباتِ العذابِ الأليمِ لَهُم، ثمَّ جَعَلَ الجملةَ خَبَرًا ما لا يَخفَى مِنَ المبالغةِ"[3]، والآيةُ هاتِهِ جملةٌ مُستقلَّةٌ هي خبرٌ لِما قبلَها، وفي هذا تأكيدٌ لِمضمونِهَا، قالَ صاحبُ (المنار): "والآيةُ وما في معناها دليلٌ

(1) البيتان لحسّان بن ثابت الأنصاريّ، ينظر: ديوانه، ص: 338، والبخاريّ، التّاريخ الصّغير: 1/13، والزّرقانيّ، شرح الزّرقانيّ على المواهب اللّدنيّة بالمنح المحمديّة: 8/111.

(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 5/317.

(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 5/317.

على أنَّ إيذاءَ الرَّسولِ ﷺ كفرٌ، إذا كانَ فيما يتعلَّقُ بصفةِ الرِّسالةِ؛ فإنَّ إيذاءَهُ في رسالتِهِ يُنافي صِدقَ الإيمانِ بطبيعتِهِ"[1].

نكتةُ تنكيرِ لفظِ ﴿عَذَابٌ﴾ مِن قولِهِ: ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾:

العذابُ الأليمُ لاحقٌ كلَّ مُؤذٍ للنُّبوَّةِ أثيمٍ

أفادَ تنكيرُ لفظةِ ﴿عَذَابٌ﴾ معنى التَّعظيم، وقد يفيدُ التَّنويعَ أيضًا على معنى أنَّه عذابٌ ليسَ كأيِّ عذابٍ آخر يعرفونَهُ، والتَّنكيرُ يُفسحُ الدِّلالةَ لاستحقاقِ كلِّ مَن يعتدي على المقامِ المحمَّديِّ، لِما يناسبُ جرمَهُ مِنَ العذابِ الأليمِ، فقد " صرَّحَ بعضُ العلماءِ بأنَّ إيذاءَهُ ﷺ بعدَ انتقالِهِ إلى الرَّفيقِ الأعلى، كإيذائِهِ في حالِ حياتِهِ الدُّنيا، ومنه: نِكاحُ أزواجِهِ مِن بعدِهِ، قالَ بعضُهُم: ومنه: الخوضُ في أبويهِ وآلِ بيتِهِ، بما يعلمُ أنَّه يؤذيهِ لو كانَ حيًّا، ولكنَّهُم جعلوهُ ذنبًا لا كفرًا"[2].

نكتةُ وصفِ العذابِ بأنَّهُ ﴿أَلِيمٌ﴾:

الوصفُ بـ ﴿أَلِيمٌ﴾ مصروفٌ عن مُؤلِمٍ

(أليم) على وزن (فعيل)؛ مَصروفٌ عن اسم الفاعلِ (مُؤلِم)، والأَليمُ: هوَ المُوجِعُ، ومَعناهُ: ولَهُم عَذابٌ مُؤلِمٌ، فَصَرَفَ (مُؤلِم) إلى (أَليم) كَما يُقالُ: ضَربٌ وجيعٌ بمَعنَى مُوجِعٌ[3]، "والأليمُ فعيلٌ بمعنى مَفعول؛ لأنَّ الأكثرَ في هذه الصِّيغةِ أنَّ الرُّباعيَّ بمعنى مُفْعَل، وأصلُهُ عذابٌ مُؤلَمٌ بصيغةِ اسم المفعول؛ أي: مُؤلَم مَن يُعذَّبُ بهِ على طريقةِ المجازِ العقليِّ؛ لأنَّ المُؤلَمَ هو المعَذَّبُ دونَ العذابِ، كما قالوا: جدَّ جَدُّه، أو هو فعيلٌ بمعنى فاعل، مِن أَلِمَ بمعنى صارَ ذا ألم، وإمَّا أن يكونَ فعيل بمعنى مُفْعِل؛ أي: مُؤْلِمٌ بكسرِ اللَّام[4]، وأُوثِرَ وصفُ العذابِ بكونِهِ أليمًا؛ ليكونَ الجزاءُ مِن جنسِ العملِ؛ فقد آلَمُوا النَّبيَّ ﷺ في نفسِهِ وأهلِهِ وأصحابِهِ.

(1) محمد رضا، تفسير المنار: 10/449.
(2) محمد رضا، تفسير المنار: 10/449.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 1/291.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/282.

بلاغةُ المتشابِهِ اللَّفظيِّ في وصفِ العذابِ:

التَّغايرُ في ذكرِ أوصافِ العذابِ، يجعلُ كلَّ صفةٍ تلائمُ السِّياقَ الَّذي وردَت فيهِ

وردَت مادَّةُ (عذب) ومُشتقَّاتُها في القرآنِ الكريمِ، ما يزيدُ عن (370) مرَّةً، وجاءَ هذا العذابُ مَوصوفًا بصفاتٍ كثيرةٍ، بعضُها أكثرُ ورودًا مِن بعضٍ، ومِن هذه الصِّفاتِ: (العذابُ العظيمُ، الأليمُ، الشَّديدُ، المهينُ، القريبُ، المقيمُ، النُّكرُ، القريبُ) وغيرها، ومِن حيثُ المبدأُ يمكنُ أن نقولَ: إنَّ كلَّ صفةٍ مِن هذه الصِّفاتِ تُغايرُ أختَها، فلا تَرادُفَ بينَها ألبتَّةَ، ولا تَسدُّ صفةٌ منها مَسدَّ أختِها، وليس التَّغايرُ في ذكرِها تلوينًا في الخطابِ، ولا افتنانًا في الكلامِ، إنَّما تأتي كلُّ صفةٍ منها مُتلائمةً مَعَ السِّياقِ الَّذي جاءَت فيهِ، فمثلًا جاءَ وصفُ العذابِ بأنَّهُ (مُهين) في قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمۡ عَذَابٗا مُّهِينٗا ٥٧﴾ [الأحزاب: 57]، في سياقِ الحديثِ عمَّن اجترؤوا فيهِ على اللّٰه ورسولِهِ، فظنُّوا أنَّهُم مِنَ العظمةِ والكِبَرِ، بحيثُ يَقدِرونَ على فِعلتِهم هذه، فجاءَ العذابُ مِن جنسِ العملِ، ووُصِفَ بأنَّهُ عذابٌ مُهينٌ؛ لِينزعَ عنهُم كلَّ ذرَّةٍ مِن كِبرٍ وخُيلاءٍ، وجاءَ وصفُ العذابِ بالعِظَمِ في مَواضِعَ استوجبَت ذلكَ مِن مثلِ قولِهِ تعالى في شأنِ قصَّةِ الإفكِ حولَ أمِّ المؤمنين: ﴿وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ لَمَسَّكُمۡ فِي مَآ أَفَضۡتُمۡ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ١٤ إِذۡ تَلَقَّوۡنَهُۥ بِأَلۡسِنَتِكُمۡ وَتَقُولُونَ بِأَفۡوَاهِكُم مَّا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞ وَتَحۡسَبُونَهُۥ هَيِّنٗا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٞ ١٥ وَلَوۡلَآ إِذۡ سَمِعۡتُمُوهُ قُلۡتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبۡحَٰنَكَ هَٰذَا بُهۡتَٰنٌ عَظِيمٞ ١٦﴾ [النّور: 14 - 16]. فالبُهتانُ العظيمُ شأنُهُ عندَ اللّٰه عظيمٌ؛ لذا استوجبَ هذا العذابَ العظيمَ، وجاءَ وصفُهُ بالشِّدَّةِ في سياقاتٍ استوجبَت هذا الوصفَ مِن مثلِ قولِهِ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِي ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا ٱسۡتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمۡ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمۡ وَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ وَلَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٌ ١٦﴾ [الشّورى: 16]، فمثلُ

هذه المُحاجَّةِ بعدَ أن استُجيبَ لَهُ، تَستوجبُ عذابًا يُوسَمُ بالشّدَّةِ، وفي الآية هنا استوجبَ العذابُ وصفَهُ بالشّدَّةِ؛ لأنَّهُم جمعُوا بينَ الاعتداءِ والاحتيالِ، وعدم الاستجابةِ للوعظِ، وكذلك الحالُ في وصفِهِ بـ(أليم)، مِن مثلِ: ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلۡسِنَتُكُمُ ٱلۡكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٞ وَهَٰذَا حَرَامٞ لِّتَفۡتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ لَا يُفۡلِحُونَ ١١٦ مَتَٰعٞ قَلِيلٞ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ١١٧﴾ [النّحل: 116 - 117]، فإنَّك مهما تأمَّلتَ وصفًا للعذابِ يفوقُ كونَهُ أليمًا لهذه المَواضعِ، فلن تجدَ، وكذلك الحالُ في وصفِهِ بالقُربِ، كقولِهِ تعالى: ﴿يَوۡمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ صَفّٗاۖ لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنۡ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَقَالَ صَوَابٗا ٣٨ ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمُ ٱلۡحَقُّۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا ٣٩ إِنَّآ أَنذَرۡنَٰكُمۡ عَذَابٗا قَرِيبٗا يَوۡمَ يَنظُرُ ٱلۡمَرۡءُ مَا قَدَّمَتۡ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلۡكَافِرُ يَٰلَيۡتَنِي كُنتُ تُرَٰبَۢا ٤٠﴾ [النَّبأ: 38 - 40]، فالتَّذكيرُ بمشاهدِ الآخرةِ في سياقِ إبرازِ النَّدمِ على ما فاتَ مِنَ الأعمالِ في يومٍ لا ينفعُ فيهِ مثلُ هذا النَّدمِ، يناسبُهُ وصفُ العذابِ بالقُربِ؛ لِتنزجرَ النُّفوسُ، ولا تغترَّ بالمتاعِ سريعِ الانقضاءِ.

﴿يَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمۡ لِيُرۡضُوكُمۡ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرۡضُوهُ إِن كَانُواْ مُؤۡمِنِينَ ٦٢﴾ [التّوبة: 62]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

العلاقة بين تنزيه النّبيّ عن الأباطيل، وتقبيحِ زيف المُنافقين وحلفهم الكاذب

لمّا ذكرَ من أخلاقِ المُنافقين شَنائعَ، أتْبَعها بشَنيعةٍ أفظعَ وهي استهانَتُهم باللّه ورسُولِه، بالحَلِفِ كذِبًا وزورًا لقصْدِ إرضاءِ المُؤمنين لتعَلُّقِ مصالحِهم بهم، والاسْتِهتارِ بالتَّبرّعِ بأيْمانِ اللّه دونَ طلَبٍ منهم. "وهذا نوعٌ آخرُ من قبائحِ أفعالِ المُنافقين، وهو إقدامُهم على الأَيمانِ الكاذبةِ"[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَحۡلِفُونَ﴾: "الحلِفُ - بالكَسْرِ، ككَتِفٍ -: القَسَمُ، تَقْوِيَةً لِلْكَلَامِ، أي: لِمُحَتواهُ بشيءٍ خارجٍ عنه، وهو: اليمينُ. ﴿يَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمۡ لِيُرۡضُوكُمۡ﴾ يُؤَكِّدُونَ بالحَلِفِ إنكارَهم أنَّهم آذَوْا الرّسولَ ﷺ، أو يُؤَكِّدُونَ بالحَلِفِ أنّهم كانوا ذَوِي أعْذارٍ في التّخلُّف عن تبوكَ، أو أنّهم مع المُؤمنين في كلِّ أمْرٍ وحربٍ"[2].

"والحَلِفُ أصلُه اليمينُ الذي يأخذُ بعضُهم من بعضٍ بها العهْدَ، ثمّ عبّرَ به عن كلِّ يمينٍ، قال اللّه تعالى: ﴿وَلَا تُطِعۡ كُلَّ حَلَّافٖ مَّهِينٍ ١٠﴾ [القلم: 10]، أي: مِكثارٌ للحَلِفِ، وقال تعالى: ﴿يَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُواْ﴾ [التوبة: 74]... والمُحَالَفَةُ: أن يحْلِفَ كلٌّ للآخَرِ، ثم جُعلتْ عبارةً عنِ المُلازمةِ مُجرّدًا، فقيلَ: حِلْفُ فلانٍ وحَلِيفُه، وقال ﷺ: «لا حِلْفَ في الإسلامِ»"[3].

(1) ابن عادل، اللباب في علوم الكتاب: 10/131.
(2) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (حلف).
(3) البخاري، صحيح البخاري، كتاب الكفالة، بابُ قَوْلِ اللّهِ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ عَقَدَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ فَـَٔاتُوهُمۡ نَصِيبَهُمۡۚ﴾ [النساء: 33] برقم: (2294).

2) ﴿لِيُرْضُوكُمْ﴾: أي: لِيُقنِعوكم، "ورِضَا العبدِ عنِ اللّه: ألا يكرهَ ما يجري به قضاؤُه، ورِضَا اللّه عنِ العبدِ هو أن يراه مُؤتمرًا لأمرِه، ومُنتهيًا عن نهْيِه"[1]، و"الرِّضَا – مقصورٌ–: ضِدُّ السَّخَطِ. وَفِي حَدِيثِ الدُّعَاءِ: اللهمَّ إنِّي أَعوذُ برِضَاكَ مِنْ سَخَطِكَ[2]، والرِّضَا؛ والسَّخَطُ مِنْ صِفَاتِ القَلْبِ"[3]، و"وأرضاه: أعطاه ما يُقنعه ويُرضيه، سبحان من أرضى العبادَ بما أراد حكمة"[4].

3) ﴿أَحَقُّ﴾: "الحَقُّ: خِلَافُ البَاطِلِ. وَهُوَ مَصْدَرُ حَقَّ الشَّيْءُ مِنْ بَابَيْ ضَرَبَ وَقَتَلَ، أي حقَّ يَحِقُّ، وحَقَّ يَحُقُّ: إذَا وَجَبَ، وَثَبَتَ، وَحَقَّتِ القِيَامَةُ: أَحَاطَتْ بِالخَلَائِقِ، فَهِيَ حَاقَّةٌ، وَحَقَقْتُ الأَمْرَ أَحُقُّهُ إذَا تَيَقَّنْتُهُ، أَوْ جَعَلْتُهُ ثَابِتًا لَازِمًا، وَفُلَانٌ حَقِيقٌ بِكَذَا بِمَعْنَى: خَلِيقٍ، وَهُوَ مَأْخُوذٌ مِنَ الحَقِّ الثَّابِتِ، وَقَوْلُهُمْ: هُوَ أَحَقُّ بِكَذَا يُسْتَعْمَلُ بِمَعْنَيَيْنِ: أَحَدُهُمَا: اخْتِصَاصُهُ بِذَلِكَ مِنْ غَيْرِ مُشَارَكَةٍ، نَحْوُ: زَيْدٌ أَحَقُّ بِمَالِهِ، أَيْ: لَا حَقَّ لِغَيْرِهِ فِيهِ. وَالثَّانِي: أَنْ يَكُونَ أَفْعَلَ التَّفْضِيلِ؛ فَيَقْتَضِي اشْتِرَاكَهُ مَعَ غَيْرِهِ، وَتَرْجِيحَهُ عَلَى غَيْرِهِ"[5]. والحقُّ: "مُوجدُ الشّيءِ بسببِ ما تقتضيه الحِكمةُ"[6].

4) ﴿مُؤْمِنِينَ﴾: "أصلُ الأَمْن: طُمأنينةُ النّفسِ وزوالُ الخوفِ، والأَمْنُ والأَمَانَةُ والأَمَانُ في الأصل مصادرُ، ويُجعلُ الأمانُ تارةً اسْمًا للحالة التي يكون عليها الإنسانُ في الأمن، وتارة اسْمًا لما يؤمنُ عليه الإنسانُ، وآمَنَ: إنّما يقال على وجهين: أحدُهما مُتعدٍّ بنفسِه، يقال: آمنته، أي: جعلتُ له الأمنَ، ومنه قيل للّه: مُؤمنٌ، والثاني: غيرُ مُتعدٍّ، ومعناه: صار ذا أمْنٍ، والإيمانُ: يُستعملُ تارةً اسْمًا للشّريعةِ التي جاء بها محمّدٌ ﷺ، ويُوصفُ به كلُّ من دخل في شريعتِه مُقِرًّا باللّه وبنُبوّتِه، وتارةً يُستعملُ على سبيل المدْحِ، ويُراد به إذعانُ النّفسِ للحقّ على سبيل التّصديقِ، وذلك باجتماعِ ثلاثةِ أشياءَ: تحقيقٌ بالقلبِ، وإقرارٌ باللّسان، وعملٌ بِحسب ذلك بالجوارح، ويقال لكلِّ واحدٍ منَ الاعتقاد والقولِ الصّدقِ

(1) الرّاغب، المفردات: (رضي).
(2) مسلم، صحيح مسلم، كتابُ الصّلاة، بابُ ما يُقالُ في الرُّكوع والسُّجُود، الحديث رقم: (486).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (رضي).
(4) أحمد مختار، معجم اللغة العربية المعاصرة: (رضو).
(5) الفيّومي، المصباح المنير: (حقق).
(6) الرّاغب، المفردات: (حق).

والعملِ الصّالحِ: إيمانٌ، وجعلَ النّبيُّ ﷺ أصلَ الإيمان ستّةَ أشياءَ في خبرِ جبريلَ حيث سألَه فقال: ما الإيمانُ؟ والخبرُ معروفٌ. ويُقالُ: رجلٌ أَمْنَةٌ وأَمَنَةٌ: يثقُ بكلِّ أحدٍ، وأَمِينٌ وأَمَانٌ يؤمن به"[1].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

أقْبحُ أفعالِ المُنافقين اليمينُ الكاذبةُ، لِما فيها منَ الاسْتِهتارِ باللهِ، إرضاءً لسواه

الخطابُ للمُؤمنين خاصّةً بأنَّ المُنافقين إنّما يحْلِفون باللّه ليُرْضُوكم فيما بلغَكم عنهم من أذاهُم رسولَ اللّه ﷺ، وذِكْرِهم إياه بالطّعْنِ عليه والعَيْبِ له، والأيْمانِ الفاجرةِ، وأنّهم ما فعلُوا ذلك، وأنّهم لَعَلَى دينِكم ومعكم على من خالَفَكم[2]، يَبتغون بذلك رضَاكُم، واللّه ورسولُه أحقُّ أن يَرضُوه بالتّوبةِ والإنابةِ ممّا قالوا ونطَقُوا إنْ كانوا مُصدِّقين بتوحيدِ اللّه، مُقرّين بوعدِه ووعيدِه[3]. و"كان المُنافقون يتكلّمون بالمطاعنِ، أو يَتخلّفون عنِ الجهاد، ثم يأتونَهم فيَعتذرون إليهم، ويُؤكِّدون معاذيرَهم بالحلِفِ، لِيَعذُروهم ويَرضَوْا عنهم، فقيل لهم: إنْ كنتم مُؤمنين كما تزعُمون فأحقُّ من أرضَيْتُم: اللّهُ ورسولُه بالطّاعة والوفاقِ"[4]"وَفِي الآيَةِ عِبْرَةٌ لِلْمُنَافِقِينَ فِي زَمَانِنَا كَكُلِّ زَمَانٍ، وَعِبْرَةٌ بِحَالِهِمْ لِمَنْ يَرَاهُمْ يَكْذِبُونَ وَيَحْلِفُونَ عِنْدَ الحَاجَةِ إلى تَأْكِيدِ أَخْبَارِهِمْ فِيمَا يُحَاوِلُونَ بِهِ إِرْضَاءَ النَّاسِ"[5].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دَلالةُ الاسْتِئنافِ في: ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ﴾:

الحَلِفُ الكاذبُ نقيصةٌ تقتضِي التّأسِيسَ

كانتِ الآياتُ السّابقةُ تَحكي قبائحَ شتّى لطوائفَ منَ المُنافقين، ثمّ "عَدَلَ عَنْ أُسْلُوبِ الحِكَايَةِ عَنْهُمْ بِكَلِمَةِ ﴿وَمِنْهُمْ﴾؛ لِأَنَّ مَا حُكِيَ

(1) الرّاغب، المفردات: (أمن).

(2) وقيل: "نزلت في رهطٍ من المنافقين تخلفوا عن غزوة تبوك، فلما رجع رسول الله ﷺ مِن تبوك أتوا إلى المؤمنين يعتذرون إليهم من تَخَلُّفِهِم، ويَعْتَلُّون ويحلفون، فأنزل الله تعالى ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ﴾". ينظر: الثعلبي، الكشف والبيان عن تفسير القرآن: 13/455.

(3) ابن جرير، جامع البيان: 14/329.

(4) الطيبي، فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب: 7/290.

(5) محمد رضا، تفسير المنار: 10/452.

هُنَا حَالٌ مِنْ أَحْوَالِ جَمِيعِهِمْ. فَالجُمْلَةُ مُسْتَأْنَفَةٌ اسْتِئْنَافًا ابْتِدَائِيًّا، لِإِعْلَامِ الرَّسُولِ ﷺ وَالْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ الْمُنَافِقِينَ يَحْلِفُونَ الأيمانَ الكَاذِبَةَ، فَلَا تَغُرُّهُمْ أَيْمَانُهُمْ. فَضَمِيرُ ﴿يَحْلِفُونَ﴾ عَائِدٌ إلى الَّذين يُؤْذُونَ النَّبِيء"[1].

عِلّة إيثارِ لفظ (الحَلِفِ):

المُنافقُ يَحلِفُ كاذبًا، والمُؤمنُ يُقْسِمُ صادقًا

درجَ الذِّكْرُ الحكيمُ على التَّعبيرِ عنِ اليمينِ الكاذبةِ الفاجرةِ بـ (الحَلِف)، ويصفُ به أَيْمانَ المُنافقين والكاذبين عُمومًا، وعلى التَّعبيرِ باليمين الصّادقةِ البارَّةِ بـ (القَسَم) ويُعبّرُ به عن أَيْمانِ المُؤمنين، وما يُنَزَّلُ منزلةَ الأيمانِ الصّادقةِ، وقد يُطلقُ على اليمينِ الكاذبةِ أيضًا[2].

فإذا آثرَ النظمُ الكريمُ هنا لفْظَ (الحَلِف) فإنه يُؤْذِنُ ابتداءً بِكذِبِ الحالفين فيما يَحلِفون عليه أيًّا كان هو، ويُوحِي بأنَّ أَيْمانَهم فاجرةٌ وأنّهم يَشْترون بها ثمنًا قليلًا؛ فلا ينبغِي للمؤمنين أن يُصدِّقُوهم فيها، وأنّها ستظلُّ في حيِّز (الحَلِف) الفاجرِ مهما بالغُوا في توكيدِها، ومهما أظهرُوا أنّهم جادُّون فيها؛ لذلك - واللّه تعالى أعلم - لم يُعبَّرْ عن أيْمانِهم بالقَسَم فيقال: يُقْسِمون باللّه؛ فمادّةُ القَسَم تُستعملُ - كما سبَقَ القولُ - فيما يُطابقُ الواقعَ وما يُنَزَّلُ هذه المنزلةَ.

دَلالةُ التَّصريحِ بالمَحلوفِ به (الله):

تَبشِيعُ الحَلِفِ الكاذبِ، بالتّصريحِ بالمَحلوفِ به

أكثرت هذه السُّورةُ الكريمةُ منَ التَّعبيرِ عن أَيْمانِ المُنافقين بصِيغةِ (الحَلِف)، وكلُّها "تُندِّدُ بحلفِ المُنافقين كذبًا لإرضاءِ رسولِ اللّه ﷺ والمُسلمين منها: ﴿وَسَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَوِ ٱسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ﴾ [التوبة: 42]، ﴿وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/244.
(2) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 9/5254.

وَلَٰكِنَّهُمۡ قَوۡمٞ يَفۡرَقُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [التوبة: 56]، ﴿يَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمۡ لِيُرۡضُوكُمۡ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرۡضُوهُ﴾، ﴿يَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُواْ وَلَقَدۡ قَالُواْ كَلِمَةَ ٱلۡكُفۡرِ﴾ [التوبة: 74]، ﴿سَيَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمۡ إِذَا ٱنقَلَبۡتُمۡ إِلَيۡهِمۡ لِتُعۡرِضُواْ عَنۡهُمۡۖ﴾ [التوبة: 95]"[1] فالتّصريحُ باسْمِ الجلالةِ مُباشرةً قد أحْدثَ في نفس التّالي والمُتلقِّي صَدْمةَ بشاعةِ الخطيئةِ، والفرقُ بين مواضعِ التَّصريحِ بالمحْلوفِ به تعالى والمَوضعِ غيرِ المُصرَّحِ به فيه - واللّه تعالى أعلم بمراده - أنّ غايةَ المُنافقين؛ إذ صَرَّحوا ﴿بِٱللَّهِ﴾ كانت ﴿لِيُرۡضُوكُمۡ﴾، إرضاءً مُمَلًّى عليكم، وأنَّ طريقَ ذلك النّصُّ على المحلوفِ به وذكرَه صراحةً: ﴿بِٱللَّهِ﴾، وفي الآخِرِ كانت غايتُهم تحقيقَ رِضا المسلمين النّابعِ من نُفوسِهم ﴿لِتَرۡضَوۡاْ﴾، وذلك يقتضِي الاحْتِشادَ لليمينِ وبأيِّ صِيغةٍ أفلحتْ في تحقيقِ الغَرَض.

دَلالةُ التّعْبير بصِيغةِ المضارعةِ: ﴿يَحۡلِفُونَ﴾:

تجديدُ الحَلِفِ الكاذبِ، يزيدُ مِنَ المبالغةِ في وصْفِ النّفاقِ

صِيغةُ المضارعةِ هنا تُفصحُ عن عدَمِ تورُّعِ المُنافقين، وعن تماديهم في الضّلالِ؛ لأنّهم يُجَدِّدون حَلِفًا ﴿بِٱللَّهِ﴾ تعالى كلّما تَجدَّدَ منهم ما يُوجبُ شَكَّ المُسلمين في صِدْقِ كلامِهم وصدْقِ نِيَّتِهم، وأنّهم كلّما تَجدَّدَ ذلك منهم تَأصَّلَ فيهم، وكان مقتضَى تطاوُلِ ذلك منهم أن يُفِيقوا إلى الصّوابِ، وإلى التّوبة والإنابةِ.. وما أخْطرَ الغفلةَ التي لا تنتفعُ بالإمْهالِ!

والتّعبيرُ بالمضارع؛ لأنّهم يَحْلِفون في الحالِ لا في الماضِي، وفيه إشارةٌ إلى أنَّ الحَلِفَ شأنُهم الدّائمُ المُتجدّدُ، وكلّما كذبُوا حلَفُوا، وكلّما تخلّفُوا بأعذارٍ غيرِ صادقةٍ حلفُوا، فالحَلِفُ دَيْدَنُهم[2].

دَلالةُ العُدولِ عن أسلُوبِ التّصْنيفِ ﴿وَمِنۡهُمۡ﴾ إلى ﴿يَحۡلِفُونَ﴾:

الحَلِفُ الكاذبُ، صِفةُ المُنافقين وطبعهم

عدلَ عن أسلوبِ الحكايةِ عنهم بكلمة (ومنهم)، كما قد ورد أوّلاً

(1) شحاتة، تفسير مقاتل بن سليمان: 1/385.
(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 6/3354.

في قوله: ﴿وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ﴾ [التوبة: 61]؛ لأنَّ ما حُكيَ عنهم هنا حالٌ من أحوالِ جميعِ المنافقين[1].

نُكتةُ حذْفِ المحْلوفِ عليه:

المُنافقون جديرُون بالذّمِّ، لأنّهم كاذِبُون في كلِّ حَلِفٍ يؤدّون

أمسكتِ الآيةُ الكريمةُ عن ذِكْرِ المحْلوفِ عليه ماذا يكونُ؟ فأفادتْ بذلك الحذْفِ عُمومَ كذِبِ المنافقين في كلِّ يمينٍ، ومن ذلك محلُوفُهم هنا وهو "أذاهُم رَسولَ الله ﷺ، وذِكرُهم إيّاه بالطّعن عليه والعَيْبِ له، ومُطابقتُهم سِرًّا أهلَ الكُفرِ عليكم"[2]، وصِدْقُ اعتناقِهم الإسلامَ وتصديقُهم الرّسولَ ﷺ؛ لأنّها قضيةُ القضايَا التي عليها مدارُ الدّينِ الجديدِ، وقرينةُ الإمساكِ عنها في اليمين لفظاً: العلمُ بها وتعيُّنُها. فتَحقَّق - فضلًا عن إفادة شُيوعِ كذِبِهم في كلِّ أَيْمانِهم - إيجازٌ يُوَفِّرُ عِنايةَ المُتلقِّي على البصَرِ بدواعِي ذمِّهم.

سِرُّ تَقييدِ الحَلِفِ بالجارِّ والمجرور ﴿لَكُمْ﴾:

غايةُ المُنافقين خِداعُ المؤمنين، لا إرضاءُ ربِّ العالَمين

تَقييدُ الفعْلِ ﴿يَحْلِفُونَ﴾ بالجارّ والمجرور ﴿لَكُمْ﴾ إشارةٌ إلى أنّ مَن معهم مِنَ العُشراءِ والجيرانِ منَ المؤمنين همُ المقصودون[3]. وهو يتناغَمُ بِقوَّةٍ مع اصْطفاءِ مادّةِ الحَلِفِ قبْله من جهةٍ، ومع عِلَّةِ الحَلِف بعده ﴿لِيُرْضُوكُمْ﴾ مِنَ الجهةِ الأُخرَى؛ ذلك أنّهم أهلُ كتابٍ يعلمون أنّ الله يعلمُ كذِبَهم؛ ولذلك أنكرَ تعالى عليهم في الآيةِ الآتية، ذلك الحَلِفَ الكاذبَ ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ فتوجُّهُهم باليمين كان لأجْلِ المسلمين لا لأجْلِ الدّين، ولا لأجْلِ الله تعالى، ثم إنّ الجارَّ مع مجروره ﴿لَكُمْ﴾ يُهَيِّئُ بقوّةٍ للجارّ والمجرور المُؤَوَّلِ بعده ﴿لِيُرْضُوكُمْ﴾، أي: لإرضائكم. فالآيةُ بدون الجارِّ والمجرور الأوّلِ هكذا: يحلِفون بالله ليُرضوكم تَفْتَقِدُ التّناسُبَ الجميلَ، فالحَلِفُ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 10/244.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 14/329.
(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 6/3354.

مُوجّهٌ لهم والحَلِفُ كان لأجْلِ إرضائِهم، وبذلك تعاضدتِ العناصرُ اللّغويّةُ في الأسلوبِ على تقطيعِ الجُرمِ، وبيانِ وجْه الذّمِّ.

من بَلاغةِ القيْدِ ﴿لِيُرْضُوكُمْ﴾:

غايةُ المُنافقين دَنيئةٌ، ومقاصدهم وضيعة

هذا القيْدُ فصيحٌ في بيانِ عِلَّةِ الحَلِفِ الكاذبِ الصّادرِ منَ المنافقين للمسلمين، وهو عَلَمٌ في اخْتِلال وجْهةِ المنافقِ؛ إذ إنَّ وِجْهتَه لا تكونُ صحيحةً حين يجعلُ رضا النّاسِ غايتَه، بل لا بدَّ من مُراقبةِ اللّه تعالى واعْتبارِ رضوانِه غايةَ الغاياتِ مهما كانتِ اليمينُ مُوجَّهةً إلى مخلوقٍ. ولذلك لا يُقيمُ الدِّينُ وزنًا لقَبولِ العبْدِ يمينَ العبد أو ردَّه إياها؛ فَرِضَا العبادِ بالإيمان ليست غايةً وليست نهايةً؛ لذلك كان النّصُّ على غايةِ المنافقين هنا من أهمِّ العناصرِ التّركيبيّةِ على بيانِ الوجوه الكاشفةِ عن وجْهِ الإنكارِ وإيجابِ المَذمّةِ لهؤلاء واسْتِحقاقِهم الدّرْكَ الأسفلَ منَ النّار - والعياذُ باللّه تعالى من حالِ أهلِ النّارِ - .

دَلالةُ اللّامِ في لفظ ﴿لِيُرْضُوكُمْ﴾:

تعليل الحنث في القسم، بإرْضاء المخلوق دون الخالق

ذكرَ الزّجّاجُ أنَّ بعضَ النّحويّين يرى أنّ هذه اللّامَ بمعنَى القَسَم، أيْ: يَحْلِفُون باللّه لكم لَيُرْضُنَّكُمْ. وردَّ قولَهم هذا؛ لأنهم إنَّما حَلَفُوا أنَّهُمْ مَا قالُوا ما حُكِي عنهُمْ ليُرْضُوكُمْ باليمين، ولم يَحْلِفُوا أنَّهُمْ يُرضُون في المستقبلِ[1]. وضعّفَ ابنُ الجَوزيِّ تَخطئةَ الزّجاجِ بناءً على ما ذكره مقاتلٌ: بأنّ عبدَ اللّه بنَ أُبيّ، حلَفَ لا يتخلّفُ عن رسولِ اللّه ﷺ ولَيكونَنَّ معه على عدوِّه[2].

والأرجحُ أنّها تعليليّةٌ، "أي: أنّ الباعثَ لهم على هذا الحلفِ الكذبِ إرضاؤكم، وإزالةُ الوحْشةِ بينكم وبينهم، وزوالُ النّفرةِ التي تحسُّونَها منهم"[3].

(1) الزّجاج، معاني القرآن وإعرابه: 2/458.
(2) ابن الجوزيّ، زاد المسير: 2/273.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 6/3354.

دَلالةُ التّعبيرِ بالمضارعِ ﴿لِيُرۡضُوكُمۡ﴾:

تناسُبُ تجدُّدِ كلِّ حَلِفٍ، مع تجدُّدِ الرّغبةِ الدّنيئةِ، مُبالغةً في الذّمِّ

صياغةُ علّةِ الحَلِف ﴿لِيُرۡضُوكُمۡ﴾ جُملةً مضارعةً مع إمكانِها مُفرداً مُؤوّلاً (لإرضائكم) مع إيجازه، يُتيحُ جملةً منَ الدّلالاتِ الباهرةِ، المُتآزرةِ مع النَّظْمِ المُمتدِّ للآيةِ الكريمةِ.

ذلك أنَّ المُضارعةَ صِيغةٌ تُتيحُ تكافُؤَ الفعْلِ ﴿يَحۡلِفُونَ﴾، فيكونُ بإزاءِ كلِّ حَلِفٍ تَجَدَّدَ رَغْبَة بإرضاءِ المنافقين لهم تتجدّدُ، كما تُتيحُ الجملةُ إسنادَ هذا الفعلِ الذّميم (يرضوا) إلى الفاعلِ الذّميم (ضميرِ جملةِ المنافقين)، ثمّ تتيحُ إيقاعَ ذلك الفعلِ على ضميرِ المخاطَبين فيتناغمُ السّياقُ بذكْرِ الجارِّ والمجرور الأوّل (لكم) وضميرِ المفعولِ ثانيًا ﴿لِيُرۡضُوكُمۡ﴾

سِرُّ التّعبيرِ بجُملةِ القيْدِ بالحالِ:

تأخيرُ البيانِ عن وقتِ الحاجةِ، وإيثار رضا غير الله، كلاهما لا يجوزُ

قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرۡضُوهُ﴾، وفيه أردفَ النّظْمُ الكريمُ جملةَ التّعليلِ ﴿لِيُرۡضُوكُمۡ﴾ جُملةَ تصحيحِ الوجهةِ ﴿وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرۡضُوهُ﴾؛ لِتُبْطِل الثّانيةُ صِحَّةَ الأولى مباشرةً دون إمهالٍ، ولِتُثبتَ الحُكمَ الصّحيحَ لِوجْهَةِ الإيمانِ وهو أنَّ الحقَّ الذي لا شكَّ فيه أنَّ اللّه تعالى ورسولَه ﷺ أحقُّ بالإرضاء؛ وكذلك أُلْحِقتْ جملةُ الحال بجملةِ الاستنكارِ؛ لأنّ تأخيرَ البيانِ عن وقت الحاجة لا يجوز - كما يقولُ الفقهاءُ - واللّه تعالى أعلم. ومجيءُ الجملةِ الحاليةِ لغرَضِ توبيخِهم على إيثارِهم رضَا النَّاسِ على رضَا اللّه ورسولِه، أي: هم يَحلِفون لكم، والحالُ أنَّ اللّه ورسولَه أحقُّ بالإرضاء منكم؛ لأنَّ اللّه تعالى هو خالِقُهم ورازقُهم ومالكُ أمْرِهم، وهو العليمُ بما ظهرَ وبطنَ من أحوالِهم، ولأنّ رسولَه ﷺ، هو المُبلِّغُ لوَحْيِه ﷻ"[1].

بَلاغةُ عطْفِ اسم الرّسول الأكرم، على اسْمِ الجلالةِ الأعظم:

العطْفُ في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرۡضُوهُ﴾ يُوحِي

(1) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 6/336.

ببَراءتِه ﷺ من قَبولِ ذلك الحَلِفِ الكاذبِ منَ المنافقين، و"إنّما أفردَ إرضاءَهم بالتّعليل ﴿لِيُرۡضُوكُمۡ﴾ مع أنَّ عُمدةَ أغراضِهم إرضاءُ الرّسولِ ﷺ لله للإيذانِ بأنّ ذلك بمعْزِلٍ عن أن يكون وسيلةً لإرضائِه ﷺ، وأنّه ﷺ إنّما لم يُكَذِّبْهم رِفقًا بهم، وسَترًا لعيوبِهم، لا عن رضًى بما فعلوا، وقبولٍ قلبيٍّ لِما قالوا"[1]، كما أنّ مِن المخاطَبين بهذا الذّكرِ الحكيمِ المسلمين الذين سيَتتابعون على حمْلِ الرّسالةِ إلى يوم القيامة، جيلاً بعد جيلٍ إزاءَ المنافقين إلى يومِ القيامةِ أيضًا جيلاً بعد جيل، ولن يكونَ الرّسولُ ﷺ ماثِلًا بينَهم كما كان بين ظَهرانيِّ صحابتِه الأطهار.

الرّسولُ المعصوم، مُبَرَّأٌ من الميْل إلى أهل الضَّلالِ، ومَن يُمالِئُونَهم

في توسيط لفظ: ﴿وَرَسُولُهُۥٓ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرۡضُوهُ﴾، بين لفْظ الجلالةِ، وبين الخبر ﴿أَحَقُّ﴾ وتقديمه على الخبر، تنبيهٌ إلى مكانةِ الرّسولِ ﷺ عند الله تعالى، ولفْتٌ إلى تعظيمِه صلواتُ الله عليه، ورِفْعةِ شأنِه[2].

مَكانةُ الرّسولِ ﷺ عاليةٌ، وشأنُه رفيعٌ

نُكتةُ حذْفِ المُسنَدِ الثّاني، وتوحيدِ الخبرِ في السّياق الكريم:

قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرۡضُوهُ﴾، ظاهرُ تركيبِ هذه الجملةِ يقتضِي إفرادَ خبرٍ خاصٍّ عنِ الله تعالى قبْلَ إيرادِ الخبرِ الخاصِّ بالرّسولِ ﷺ، ليصيرَ النّظْمُ - في غيرِ القرآن الكريم -: والله تعالى أحقُّ أن يُرضُوه، ورسولُه ﷺ أحقُّ أن يرضُوه أيضًا، أو أنْ يُثَنَّى الخبرُ عنه تعالى وعن الرّسولِ ﷺ فيكونَ مُطابقًا هكذا: والله ورسولُه أحقُّ أن يُرضُوهما، وإذا كان "الضَّميرُ مَوْضُوعًا مَوْضِعَ اسْمِ الإشَارَةِ، وأنَّهُ يُشَارُ بِهِ إلى الوَاحِدِ وَالمُتَعَدِّدِ"[3]، أو كما قال بعضُهم بأنَّ "رجوعَ الضّميرِ على أحدِ المُتعاطفَينِ اكتفاءً به، لأَنَّ الآخَرَ مفهومٌ منه، أسلوبٌ عربيٌّ معروفٌ كثيرٌ في القرآنِ العظيمِ"[4].

جعل إرضاء الرّسول الأكرم، إرضاء له تعالى، دليل مكانته عند ربّه

(1) الآلوسي، روح المعاني: 5/317.
(2) طنطاوي، التفسير الوسيط: 6/336.
(3) الشوكاني، فتح القدير: 2/429.
(4) الشنقيطي، العذب النمير من مجالس الشنقيطي في التفسير: 5/603.

فإنّ له هنا وجوهًا كثيرةً ودلالاتٍ غزيرةً، وكلُّها بارعةٌ ومُعتبَرةٌ، منها "تَعْظِيمُ الجَنَابِ الإِلَهِيِّ"[1]؛ لِـ "أَنَّهُ تعالى لَا يُذْكَرُ مَعَ غَيْرِهِ بِالذِّكْرِ المُجْمَلِ، بَلْ يَجِبُ أَنْ يُفْرَدَ بِالذِّكْرِ تَعْظِيمًا لَهُ، ومنها أَنَّ المَقْصُودَ بِجَمِيعِ الطَّاعَاتِ وَالعِبَادَاتِ هُوَ اللّه فَاقْتَصَرَ عَلَى ذِكْرِهِ"[2]، فلا يُشركُ معه أحدٌ في ضميره، ومنها أنَّ الحقَّ واحدٌ هو للّه تعالى، وأنَّ مَهمّةَ الرّسولِ ﷺ تنْضوِي تحت مِظلّةِ حقِّ اللّه تعالى، وتسعَى إلى تحقيقِه وإقامتِه، وأنّه ﷺ لا ينفردُ بِحَقٍّ، وأنّه "وُحِّدَ الضّميرُ؛ لأنّه لا تَفَاوُتَ بين رضَا اللّه تعالى ورضَا رسولِه ﷺ، فكانا في حُكمِ مَرْضِيٍّ واحدٍ"[3]، و"لِأَنَّ إرضاءَ الرّسولِ ﷺ لا ينفكُّ عن إرضاء اللّه تعالى ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ﴾ [النساء: 80]؛ فَلِتَلَازُمِهِما جُعلا كشَيءٍ واحدٍ، فعاد إليهما الضّميرُ المفرد"[4].

تقديم إرضاء الرسول ﷺ مفتاح باب مرضاة الله

ومنها أنّ تقديمَ ذكْرِ الرّسول ﷺ على الخبرِ يُوحِي بـ "أهمّيةِ إرضاءِ رسولِ اللّه ﷺ؛ خَشيةَ أن تنصرفَ النّفوسُ إلى إرضاء اللّه تعالى وتتوانَى في شيءٍ من أمْرِ رسولِ اللّه ﷺ، فنبّهَ بهذا التّقديم على أهمّيةِ إرضاءِ رسولِ اللّه ﷺ، وأنّه ﷺ منَ اللّه تعالى بمكانٍ"[5]، فـ "أدخلَ اللّهُ تعالى رسولَه في الخبرِ عنه تعالى تعظيمًا للنّبيّ ﷺ"[6]، أو أنَّ الضّميرَ راجعٌ إلى الرّسولِ ﷺ لِـ "أنّ الكلامَ إنّما هو في إيذاء الرّسولِ ﷺ وإرضائِه، فذكرَ اللّهَ تعظيماً لجانبِ الرّسولِ"[7]، وهذا تعظيمٌ ما بعْدَه تعظيمٌ.

ومنها "أَنَّ العَالِمَ بِالأَسْرَارِ وَالضَّمَائِرِ هُوَ اللّه تعالى، وَإِخْلَاصُ

(1) الشوكاني، فتح القدير: 2/429.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 16/91.
(3) الزمخشري، الكشّاف: 2/285.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 5/317.
(5) أبو موسى، خصائص التراكيب - دارسة تحليلية لمسائل علم المعاني، ص: 275.
(6) ابن الأنباري، الزاهر في غريب ألفاظ الشافعي، ص: 189.
(7) ابن عجيبة، البحر المديد في تفسير القرآن المجيد: 2/399.

القَلْبِ لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا اللّه، فَلِهَذَا السَّبَبِ خَصَّ تعالى نَفْسَهُ بِالذِّكْرِ"[1]، واللّه تعالى أعلم.

وقد يقول قائلٌ: كان يكفي اسْمُ الجلالة مُنفردًا في المبتدأ ليكونَ بإزاءِ توحيدِ الخبرِ ﴿أَحَقُّ﴾ مُنفردًا.. وجوابُ ذلك أنّ عَطْف الرّسولِ ﷺ في شِقِّ المبتدأ يَتَّسقُ مع قولِه تعالى في السّياقِ الآخَرِ: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ﴾ [الحشر: 7]، كذلك يُوحِي ذكرُ الرّسولِ ﷺ بين لفْظ الجلالةِ وخبرِه بـ "أنّ في رضَى اللّه تعالى رضَى الرّسولِ ﷺ، ومعناه: واللّه أحقُّ أن يُرضُوه، ورسولُه أحقُّ أن يُرضوه"[2].

توحيد الضمير (يرضوه) دليل على وحدانية التشريع وترسيخ عظمته في النفوس

ولو ثُنِّيَ الضّميرُ عنهما معا، أو ذُكِرَ المُسنَد الثّاني، وأُفردَ كلّ من اللّه تعالى ورسوله ﷺ بخبرٍ خاصٍّ لِتَتَحَقَّقَ المطابقةُ، لارتُكِبتْ محاذيرُ خطيرةٌ، منها: أنّ الفصل بين كلا الحَقَّيْن سيُوحِي بأنَّ لكلٍّ منهما حقًّا مُستقلًّا قد يختلفُ عنِ الحقِّ الآخَرِ، وذلك فاسدٌ، أو أنّ إرضاءَ كلٍّ منهما في غير ما يكون به إرضاءُ الآخَر، فضلًا عمّا فيه من الرّكاكةِ والتّطويلِ[3].

ومنها تَسويّةُ حقِّ الرّسولِ ﷺ مع حقِّ اللّه تعالى الخالقِ العظيم، لو ثُنِّي الخبرُ عنهما في مثْلِ: اللّه تعالى ورسولُه ﷺ أحقُّ أن يُرضوهما، وذلك أيضًا قبيحٌ مردودٌ، واللّه تعالى أعلم.

سِرُّ التّعبيرِ بمادّةِ التّفضيلِ ﴿أَحَقُّ﴾، صيغةً ومادّةً لُغويةً:

الجديرُ بالحقِّ في الإرضاءِ باليمينِ، هو الله تعالى ربّ العالمين

تُوحي صيغة التفضيل ﴿أَحَقُّ﴾ بأن إرضاء المنافقين المسلمين حقٌّ، وأن الأحقَّ منه إرضاءُ اللّه تعالى ورسوله ﷺ. لكن صيغة التفضيل هنا تتمحَّض للمعنى الآخر المفرَّغ من دلالة التفضيل،

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 16/92.
(2) السّمرقنديّ، بحر العلوم: 2/69.
(3) محمد رضا، تفسير المنار: 10/451.

وهو "اخْتِصَاصُهما بِذَلِكَ مِنْ غَيْرِ مُشَارَكَةٍ"[1]، وأن المعنى المقصود: أن إرضاء الله تعالى ورسوله ﷺ هو الحق المقبول لدى الله تعالى ورسوله ﷺ، والمقبول لدى المسلمين. وقد قالت عائشة رضي الله تعالى عنها: «مَنْ أَرْضَى النَّاسَ بِسَخَطِ الله، وَكَلَهُ الله إلى النَّاسِ، وَمَنْ أَسْخَطَ النَّاسَ بِرَضَا الله كَفَاهُ الله النَّاسَ»[2].

أمّا كلمة ﴿أَحَقُّ﴾ فأفصحُ، وأوضحُ في وجوبِ ذلك الحقِّ - أي الإرضاء - لله تعالى ولرسولِه ﷺ؛ لأنَّ الله تعالى هو الحقُّ الثّابتُ الذي لا يتغيّرُ، وأنَّ دينَ الله تعالى هو الحقُّ الثّابتُ الذي لا يتغيّرُ: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [آل عمران: 85].

بَلاغةُ القيْدِ بالشّرطِ في جُملةِ: ﴿إِن كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾:

وجملةُ القيْدِ ﴿إِن كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ أتاحتِ النَّصَّ على التّقييدِ بـ ﴿إِن﴾ القائلةِ بالشكِّ في حصولِ الإيمانِ للمنافقين، وأنّه منهم لا يُتصوَّرُ إلَّا على سبيلِ الافتراضِ؛ وفي ذلك إزراءٌ عليهم، وحطٌّ من شأنِهم، وهمُ الذين يَرون أنفُسَهم خيْرَ النّاسِ بانتمائِهم إلى أمّةِ موسَى عليه السلام.

الإزراءُ على المُنافقين، بِبيانِ أنّ إيمانَهم مَشكوكٌ فيه

من بَلاغةِ القيْدِ بالماضِي في ﴿كَانُوا۟﴾:

القَيْدُ بماضي (الكون) كثيرٌ في فواصلِ آيِ الذِّكرِ الحكيمِ؛ وأحسبُ أنَّ دَلالتَه المقصودةَ هي إثباتُ الحدَثِ المتعلِّقِ به أو نفيُه في الزّمن الماضي، والحدَثُ هنا هو الإيمانُ، وكأنّي بصِيغةِ الماضي تُشيرُ إلى اسْتبعادِ حصولِ الإيمانِ منهم في المستقبَلِ كما عُدِمَ منهم في الماضِي، وفي ذلك إلْهابٌ لهم واسْتثارةٌ لمكامنِ الإيمانِ في قلوبِهم، واسْتِحثاثٌ لهم نحوَ الإيمانِ النّقيِّ الصَّافي الخالي منَ النّفاقِ.

الشّكُّ في الحدَثِ الماضِي، تحفيزٌ على تحْقيقِه في الحاضرِ

(1) الفيوميّ، المصباح المنير: (حقق).

(2) رواه ابن الجعد في مسنده، الحديث رقم: (1593)، من حديث عائشة رضي الله عنها، موقوفًا عليها، وإسناده صحيح.

بَلاغةُ حذْفِ مُتعلَّق الخبرِ: ﴿مُؤْمِنِينَ﴾:

يَنبغي ألّا يَنصرفَ الإيمانُ حين يُذكَرُ، إلّا إلى اللهِ تعالى الواحد الأكبر

لم يُفصِحِ الذّكرُ الحكيمُ عن مُتعلَّقِ الإيمان في الخبر ﴿مُؤْمِنِينَ﴾ ما هو؟ وقد قدَّرَ العلماءُ أنّه "توحيدُ اللّه تعالى ووعدُه ووعيدُه"[1]، لكنّ الذّكْرَ الحكيمَ طواه لِما في طَيِّه وعدَمِ التّصريح به منَ الإيحاءِ بتَعَيُّنِه، وأنّه حين لا يُذْكرُ لا ينصرفُ الذِّهنُ إلّا إليه، وأنَّ مفهومَ الإيمانِ الصّادقِ النّقيِّ لا ينبغي إلَّا له.

بَلاغة الإيجازِ بحذْفِ جوابِ شرْطِ ﴿إِن كَانُواْ مُؤْمِنِينَ﴾:

حذْفُ الجوابِ إذا كان في الكلامِ السّابقِ ما يَدلُّ عليه، فصيح مفيد

"جَوَابُ ﴿إِن كَانُواْ مُؤْمِنِينَ﴾ مَحْذُوفٌ، تقديره: (إنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ فَلْيُرْضُوا اللّه وَرَسُولَهُ)"[2]، فإنّهما أحقُّ بالإرضاء بما ذُكرَ، فحذفَ جوابَه تعويلاً على دَلالةِ ما سبَقَ عليه[3]. ومثلُ هذا الأسلوبِ في الذِّكْرِ الحكيم يَكتفِي بما قبْلَ جُملةِ الشّرطِ عن ذِكْرِ جُملةِ الجزاءِ؛ لأنَّ ما يسبقُ الشَّرطَ يتضمّنُ معنى الجزاءِ فيُغنِي عن ذِكرِه.. وما دامَ الكلامُ السّابقُ - على الشّرطِ - يُغنِي عن ذِكْرِ الجزاءِ فيكونُ ذكرُه عِبْئًا لا داعيَ له، وهو ما يَعُدُّه البلاغيّون في دواعِي الحذْفِ احْترازًا عنِ العبَثِ بناءً على الظّاهرِ.

ومن فضائلِ ذلك الحذْفِ هنا توفيرُ عِنايةِ صاحبِ التّلاوةِ والمُتلقّي على تدبُّر جُملةِ الشّرطِ المذكورةِ دون انْشغالٍ بجملةِ الجزاءِ المحذوفةِ؛ لِما يُقصَدُ في الشّرطِ من إلهابٍ واستثارةٍ يَفْتُران وتنحلُّ عُقْدَتُهما في النّفسِ بِذِكْرِ جُملة الجزاء؛ لأنها تُشْغِلُ حينئذٍ عنهما، وتأخذُ منَ الذّهنِ مساحةً يَحرِصُ النَّظْمُ الكريمُ على توفيرها؛ لِيَتَحَقَّق التّأثُّرُ المطلوبُ بجُملةِ الشّرطِ المذكورةِ.

(1) ابن جرير، جامع البيان: 14/329.
(2) الشّوكاني، فتح القدير: 2/429.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/78.

تَواثُقُ العناصرِ اللّغويّةِ:

ترابُطُ التّراكيبِ وتواثُقُها، سِمةٌ في التّظاهُرِ على بيانِ المعاني

وهكذا جاءتِ الآيةُ الكريمةُ مُتواثِقةَ العناصرِ، مُجتمعةَ التّركيبِ، تبدأُ برأسِ الجُملةِ ﴿يَحْلِفُونَ﴾ ثم تُتْبِعُها بجُملةِ قيودٍ، حتى تنتهيَ بجُملةِ شرطٍ أغنتْ عن ذِكْرِ جوابِها، فجاءت - وهي اثنتَا عشْرةَ كلمةً - بخلافِ الحروفِ الرّوابطِ من باءِ قسَمٍ ولامِ تعليلٍ، وواوِ عطْفٍ، إلخ - جاءت كالكلمةِ الواحدةِ، مُتّسقةَ التّركيبِ مُتواثقةَ البناءِ، مُتناغمةَ المعاني، مُحقّقةً الغرَضَ؛ حتى لَتُوضَعُ في النّفسِ وَضْعًا واحدًا، وتُفرغُ في القلْبِ إفراغًا واحدًا.. وهذا من سِماتِ الذِّكرِ الحكيمِ، وسُبحانَ مَن هذا كلامُه!

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

القسَمُ والحَلِفُ:

القسم يمين بالله لتأكيد أمر أو نفيه، وهو أبلغ من الحلف

"أَنَّ **القسمَ** أبلغُ منَ الحَلِفِ؛ لِأَنّ معنَى قَوْلنَا: أُقسمُ بِاللّه أَنّه صَار ذَا قسَم بِاللّه، وَالقسمُ: النَّصِيب، وَالمرَادُ أَنّ الَّذِي أقسمَ عَلَيْهِ منَ المَال وَغَيرِه قد أحرزَه وَدفع عَنهُ الخصْمَ بِاللّه. وَالحلِفُ من قَوْلك: سيفٌ حَلِيفٌ أَي: قَاطعٌ مَاضٍ، فَإِذا قلتَ حلَفَ بِاللّه فكأنّك قلتَ: قَطَعَ المُخَاصمَةَ بِاللّه. فَالأول أبلغُ؛ لِأَنَّهُ يتَضَمَّن معنى الآخَرِ مَعَ دفْعِ الخصْمِ فَفِيهِ مَعْنيانِ. وَقَوْلُنَا: حَلَفَ يُفِيد معنى وَاحِدًا وَهُوَ قطعُ المُخَاصمَة فَقَط"[1]، فضلًا عمّا أشيرَ إليه آنِفًا من أنّ اليمينَ الكاذبةَ الفاجرةَ يُعبّرُ عنها بـ (الحَلِف)، ويُعبّرُ عنِ اليمينِ الصّادقةِ البارَّةِ بـ (القسَم)، وقد يُطلقُ على اليمينِ الكاذبةِ أيضًا، ولمّا كان السّياقُ في حلِفِ المُنافقين الكاذبِ ناسبَ اختيارَ لفْظِ الحَلِفِ.

الإسْلامُ والإيمانُ:

الإيمان الهدى واليقين، وهو أبلغ في الشّمول من الإسلام

"الإسلامُ أعمُّ منَ الإيمانِ مُطلقًا، إنّ الإيمانَ يشاركُ الإسلامَ، والإسلامُ لا يشاركُ الإيمانَ، والإسلامُ: شهادةُ أن لا إله إلا اللّه،

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 56.

والتّصديقِ برسولِ اللّه ﷺ، به حُقنتِ الدماء، وبه جرتِ المناكحُ والمواريثُ، وعلى ظاهرِه جماعةُ النّاس. والإيمانُ: الهُدى، وما يثبتُ في القلوب من صِفةِ الإسلام وما ظهرَ منَ العمل، والإيمانُ: أرفعُ منَ الإسلامِ بدرجةِ أنَّ الإيمانَ يشاركُ الإسلامَ في الظّاهرِ، والإسلامَ لا يُشاركُ الإيمانَ في الباطنِ وإن اجتمعَا في القولِ والصّفةِ"[1]، ولأنّ صدْقَ القولِ، والإخلاصَ في العمل - اللذينِ من مصاديقِهما صدْقُ اليمينِ، ورضَا اللّه ورسولِه قبْلَ رضا النّاسِ - مَظِنّةُ صفاءِ الباطن قبْلَ الظّاهر كان وصْفُ الإيمان أليقَ لسِياق الآيةِ، وأنسبَ لمقامِها.

(1) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 317، 318.

﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدًا فِيهَاۚ ذَٰلِكَ ٱلْخِزْيُ ٱلْعَظِيمُ ٦٣﴾ [التّوبة: 63]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الحلِفُ بالكذب والافتراء، يلائمُه التّقريعِ والتّوبيخِ الوارد في الآية

هذه الآيةُ الكريمةُ شديدةُ الارتباطِ بالّتي قبْلَها؛ لأنّ هذه تقريعٌ وتوبيخٌ للمنافقين الذين يحلِفون كذِبًا لإرضاء النّاسِ، وهو ما فضحَتْه الآيةُ السّابقةُ من أمْرِ المنافقين، قال ابنُ عاشورٍ: "هَذِهِ الجُمْلَةُ تَتَنَزَّلُ مِنْ جُمْلَةِ ﴿وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ﴾ مَنْزِلَةَ التَّعْلِيلِ"، والتّعليلُ شديدُ الارْتباطِ وثيقُ المُناسبةِ بالمُعلَّلِ.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يُحَادِدِ﴾: "الحدُّ: الحاجزُ بين الشّيئين الذي يمنعُ اختلاطَ أحدِهما بالآخَر، يقال: حَدَدْتُ كذا: جعلتُ له حدًّا يُميّزُ، وقولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ [المجادلة: 5]، أي: يمانِعون، فذلك إمّا اعتبارًا بالمُمانعةِ وإمّا باستعمالِ الحديدِ، والحديدُ معروفٌ"[1]، و"المُحَادَّةُ مُفَاعَلَةٌ مِنَ الحَدِّ وَهُوَ طَرَفُ الشَّيْءِ، كَالمُشَاقَّةِ مِنَ الشِّقِّ، وَهُوَ بِالكَسْرِ: الجَانِبُ، وَنِصْفُ الشَّيْءِ المُنْشَقِّ مِنْهُ، وَكِلَاهُمَا بِمَعْنَى المُعَادَاةِ مِنَ العُدْوَةِ وَهِيَ بِالضَّمِّ جَانِبُ الوَادِي؛ لِأَنَّ العَدُوَّ يَكُونُ فِي غَايَةِ البُعْدِ عَمَّنْ يُعَادِيهِ عَدَاءَ البُغْضِ وَالشَّنَآنِ، بِحَيْثُ لَا يَتَزَاوَرَانِ وَلَا يَتَعَاوَنَانِ، فَشُبِّهَ بِمَنْ يَكُونُ كُلٌّ مِنْهُمَا فِي حَدٍّ وَشِقٍّ وَعُدْوَةٍ، كَمَا يُقَالُ: هُمَا عَلَى طَرَفَيْ نَقِيضٍ، وَكَذَلِكَ المُنَافِقُونَ يَكُونُونَ فِي الحَدِّ وَالجَانِبِ المُقَابِلِ لِلْجَانِبِ الَّذِي يُحِبُّهُ اللّٰهُ لِعِبَادِهِ وَالرَّسُولُ لِأُمَّتِهِ مِنَ الحَقِّ وَالخَيْرِ وَالعَمَلِ الصَّالِحِ"[2].

(1) الرّاغب، المفردات: (حدّ).
(2) محمد رضا، تفسير المنار: 10/452.

و"المُحَادَّةُ: المُخَالَفَةُ، وَمَنْعُ مَا يَجِبُ عَلَيْكَ"[1]، و"حادَّه: غاضَبه وعصاه، عاداه وخالَفه ومنه قولُ اللّه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ كُبِتُواْ﴾"[2]، فَحَادَّهُ: "شَاقَّهُ وَحَارَبَهُ وَخَالَفَهُ، وَكَانَ فِي حَدٍّ وَاللّه وَرَسُولُهُ فِي حدٍّ".

2) ﴿جَهَنَّمَ﴾: "جَهَنَّمُ: من أسماءِ النّارِ التي يُعذّبُ بها اللّه تعالى عبادَه، ولا يجري للمعرفة والتأنيثِ. ويقال هو فارسيٌّ معربٌ"[3]، و"جَهَنَّمُ - كَ: عَمَلَّسٍ - أَي: بَعِيدَةُ القَعْرِ"[4]، والعياذُ باللّه تعالى منها.

3) ﴿خَٰلِدًا﴾: "الخُلُودُ: هو تَبرّي الشّيءِ مِن اعتراضِ الفسادِ، وبقاؤُه على الحالة التي هو عليها، وكلُّ ما يتباطأُ عنه التّغييرُ والفسادُ تصفُه العربُ بالخلود، ويقال: خَلَدَ يَخْلُدُ خُلُودًا، والخُلُودُ في الجنّة: بقاءُ الأشياءِ على الحالةِ التي عليها من غير اعتراضِ الفسَادِ عليها، قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٨٢﴾ [البقرة: 82]، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٣٩﴾ [البقرة: 39]"[5].

4) ﴿ٱلۡخِزۡيُ﴾: "خَزِيَ الرّجلُ: لحقَه انكسارٌ، إمّا من نفْسِه، وإمّا من غيرِه. فالذي يَلحَقُه من نفسِه هو الحياءُ المُفرطُ، ومصدرُه الخَزَايَةُ، ورجلٌ خَزْيَان، وامرأةٌ خَزْيَى، وجمعُه خَزَايَا. وفي الحديثِ: «اللهمّ احْشُرنا غيرَ خزايا ولا نادمين»[6]، والذي يلحقُه من غيره يقال: هو ضربٌ منَ الاسْتخفافِ، ومصدرُه الخِزْيُ، قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ لَهُمۡ خِزۡيٞ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ﴾ [المائدة: 33]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡخِزۡيَ ٱلۡيَوۡمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ٢٧﴾ [النحل: 27]، وقولُهم: ذلّ وهان، متى كان من الإنسان نفسِه يقال له: الهَوْنُ والذُّلُّ، ويكونُ محمودًا، ومتى كان من غيره يقال له: الهُونُ، والهَوَانُ، والذُّلُّ، ويكونُ مذمومًا"[7].

5) ﴿ٱلۡعَظِيمُ﴾: "عَظُمَ الشّيءُ أصلُه: كَبُر عظْمُه، ثم استُعِير لِكلّ كبيرٍ، فأُجرِي مَجراه - محسوسًا كان أو معقولًا، عيْنًا كان أو معنى - قال اللّه تعالى: ﴿عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ١٣﴾ [الزمر:

(1) الرازي، مختار الصحاح: (حدد).
(2) أحمد مختار عمر، معجم اللغة العربية المعاصرة: (حدد).
(3) الجوهري، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية: (جهنم).
(4) الزبيدي، تاج العروس: (جهنم).
(5) الرّاغب، المفردات: (خلد).
(6) رواه أحمد، المسند، الحديث رقم: (15492)، بلفظ: «وَأَلْحِقْنَا بِالصَّالِحِينَ غَيْرَ خَزَايَا وَلَا مَفْتُونِينَ».
(7) الرّاغب، المفردات: (خزي).

13]، ﴿قُلْ هُوَ نَبَؤٌاْ عَظِيمٌ ٦٧﴾ [ص: 67]، والعظيمُ إذا استُعمِل في الأعيان فأصلُه: أنْ يُقالَ في الأجزاءِ المتَّصِلةِ، والكثيرُ يُقالُ في المُنْفَصِلةِ، ثمّ قد يُقالُ في المنفصِلِ: عظيمٌ"[1].

المَعْنى الإجْماليُّ:

هَذِهِ الآيَةِ بيانٌ لعقوبة المُنَافِقِينَ، والمعنى: "أَلَمْ يَعْلَمْ هَؤُلَاءِ المُنَافِقُونَ أَنَّ الشَّأْنَ وَالأَمْرَ الثَّابِتَ الحَقَّ هُوَ: أَنَّ مَنْ يُعَادِي اللّٰهَ وَرَسُولَهُ بِتَعَدِّي حُدُودِ اللّٰهِ، أَوْ بِلَمْزِ الرَّسُولِ فِي أَعْمَالِهِ كَقِسْمَةِ الصَّدَقَاتِ أَوْ أَخْلَاقِهِ وَشَمَائِلِهِ كَقَوْلِهِمْ: هُوَ أُذُنٌ - فَجَزَاؤُهُ أَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا يَوْمَ القِيَامَةِ خَالِدًا فِيهَا لَا مُخْرِجَ لَهُ مِنْهَا، ذَلِكَ الخِزْيُ العَظِيمُ. أَيْ: ذَلِكَ الصَّلْيُ الأَبَدِيُّ هُوَ الذُّلُّ وَالنَّكَالُ العَظِيمُ، الَّذِي يَتَضَاءَلُ دُونَهُ كُلُّ خِزْيٍ وَذُلٍّ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا"[2]، "وكان النّبيُّ ﷺ طالَ مُكْثُه فيهم، وكثُر تحذيرُه إياهم عنِ المعصيةِ، وترغيبُه في الطّاعةِ"[3] فلم يَنتفعُوا بذلك.

مـن حـادَّ اللـه ورسُولَه، فمآلُه جـهـنَّـم، مع الخِزيِ العظيمِ

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

بَلاغةُ الفصْلِ: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ﴾:

الآيةُ السّابقةُ كانت جُملةً خبريّةً، تكشفُ للمسلمين حقيقةَ أنَّ المُنافقين يحلفون لكم ليرضوكم، ثم جاءت هذه الآيةُ إنشائيةً اسْتفهاميّةً تُنكرُ على المنافقين تلك الجريمةَ المُركَّبَةَ منَ الحَلِفِ الكاذبِ، وابتغاءِ رضَا غيرِ اللّٰه تعالى بهذا الحَلِفِ.

زَجْـرُ المُنافِقِين عـن سُلوكِهم الماثل، في الحَلِفِ بالباطل

وقدِ اقتضَى ذلك التّغايُرُ بين الأسلُوبَين الفصْلَ بينَهما كما جاءتِ التِّلاوةُ الكريمةُ، ويُعرف ذلك بكمالِ الانقطاعِ بين الجُملتَين، وهو انقطاعٌ في الظّاهر فقط؛ لأنّ الآيتين مُتواثقتان في الهدف،

(1) الرّاغب، المفردات: (عظم).
(2) محمد رضا، تفسير المنار: 10/452.
(3) النيسابوري، غرائب القرآن ورغائب الفرقان: 3/496.

مُتعاضدَتان على تحقيقِه، والهدفُ زَجْرُ المنافقين عن هذا السّلوكِ المُشين لينتهُوا، وقد جاءت هذه الآيةُ - كما سبقَ عنِ ابنِ عاشورٍ - تعليلًا للآيةِ السّابقةِ، فصار بينَهما بهذا الاعتبارِ كمالُ اتِّصالٍ، وسُبحانَ من يجمعُ كلامَه بين الكمالَيْن.

الغَرَضُ منَ التَّعبيرِ الإنشائيِّ بطريقِ الاسْتِفهامِ المجازيّ:

التّسجيلُ عليهم إيقاظٌ لهم من الغفلة، وتعليمهم من الجهالة

كان بالإمكانِ صياغةُ الفكرةِ في صُورةٍ خبريةٍ مثل: إنّه من يحادِدِ اللّهَ ورسولَه فإنَّ له نارَ جهنّمَ؛ فيطَّردُ الأسلوبُ منَ الآيةِ الخبريّةِ السّابقةِ إلى هذه الآية. غيرَ أنَّ التَّحوُّلَ بالأسلوبِ إلى الاستفهامِ يُوقِظُ المُتلقّي؛ فيجعلُه شريكًا في الكلام؛ لأنّه أسلوبٌ طلَبيٌّ يطلبُ إليه تنفيذَ شيءٍ، حتى، وإنْ خرجَ عن غَرَضِ الاسْتفهامِ الحقيقيِّ إلى غرضٍ آخرَ كما هنا؛ إذ إنَّ غرَضَ الاسْتفهام هنا مَجازيٌّ لا يَطلبُ جوابًا بتحصيلِ صُورةِ المُستفْهَم عنه؛ لأنَّ السّائلَ هنا تعالى لا تخفَى عليه خافيةٌ فيَستفهمُ، فالغَرضُ "التّوبيخُ على ما أقْدمُوا عليه منَ العظيمةِ مع علْمِهم بما سمِعُوا منَ الرّسولِ ﷺ بوخَامةِ عاقبتِها"[1] لِعدمِ جدوَى العلْمِ فيهم، والتقريرُ لهم بالعلْمِ بعقوبةِ مَن يُحادِدُ اللّه تعالى ورسولَه ﷺ، وهم أهلُ كتابٍ يعلمون عقوبتَه لا شكَّ، إن لم يكن من ديانتِهم فمِن ديانةِ النّبيّ ﷺ الذي مكث فيهم يدعُوهم ويعلّمُهم عددَ سنينَ، والمُرادُ توبيخُ المنافقين الّذين يحلِفون كذِباً لإرضاء النّاس في مغضبةِ اللّه تعالى، والمُسْتَنْكَرُ عليهم أهلُ كتابٍ لديهم عِلمٌ بعُقوبة ذلك، وهم أعلمُ - حينئذٍ - بأنَّ مَن يُحادِدِ اللّه تعالى ورسولَه ﷺ فإنّ مأواه جهنّم خالداً فيها، فالاستفهامُ يُلزمُهم الحُجّةَ، ويُحقّقُ عليهم جريمتَهم، ويُوقظُها في نفوسِهم، ويَستدعِي عِلْمَهم الّذي صار وَبالًا عليهم.

(1) الآلوسي، روح المعاني: 5/318، وخان، فتحُ البيان في مقاصد القرآن: 5/335.

سِرُّ التّعبيرِ بالمُحادَدَةِ في الفعل: ﴿يُحَادِدِ﴾:

معنى يُحادِدُهُ أي: "يُجانِبُه ويُعادِيه، وحقيقتُه أنه يُقال: حادَّ فلانٌ فلاناً، أي: صار في حَدٍّ غيرِ حَدِّه"[1]، ويعني أيضًا: "مجاوزةَ حدودِها"[2]، فمِن إشاراتِ مادّةِ (حادَدَ) - وهي مصوِّرةٌ بطبْعِها اللُّغويِّ المجرَّدِ - أنّها تُقيمُ في النّفسِ صورةَ حَدٍّ فاصلٍ بين جهتَيْن، وتجعلُ المنافقين في الجهةِ المُعاديةِ لدينِ اللّه تعالى ولرسولِه ﷺ، وتجاوُزِهم تلك الحدودَ. إلى ما في مادّةِ (حادد) من معنى الحدِّ الصّارمِ، كما يتجلَّى في وَصِيَّةِ الرّسولِ اللّه ﷺ في مُدْيَةِ التَّذْكِيَةِ: «وَلْيُحِدَّ أَحَدُكُمْ شَفْرَتَهُ، فَلْيُرِحْ ذَبِيحَتَهُ»[3].

المنافقون يُواجهون الدِّينَ والأمّةَ، بكلِّ حدَّةٍ وشِدَّةٍ

بَلاغةُ المَجازِ المُرسَلِ، في لفظِ ﴿يُحَادِدِ﴾:

ومن إشاراتِ إيثارِ لفْظِ المُحادَدَةِ أيضًا أنّها: "مأخوذٌ من حديدِ السّلاحِ لاستعمالِه في المُعاداةِ"[4]، ففيها مجازٌ مرسلٌ علاقتُه الآليّةُ، وهي بهذا المفهومِ تستجمعُ صُورتَين: اللُّغويّةَ المُجرّدةَ والبيانيّةَ المُصوِّرةَ، وهكذا المنافقون يَحتدُّون ضِدَّ الدِّين، ويُعادونَه بحدٍّ بَتّارٍ.. ولا يكونُ شيءٌ أحدَّ وأقطعَ للدِّين والأمّةِ ولا أضرَّ عليهما من خيانةِ المُنافقين، وتدبيرِهم بِخُبْثٍ خَفِيٍّ لا يَفْطِنُ له المسلمون، والمسلمون بِخاصَّةٍ لِبَرَاءَةِ نفوسِهم، وغفْلَتِهم عن نفاقٍ لَمْ يُجرِّبوه.

لا أضرَّ على الأمّةِ والدِّين، من خيانةِ المُنافقين المرجفين

بَلاغةُ الاسْتِعارةِ في لفْظِ ﴿يُحَادِدِ﴾:

في قولِه تعالى: ﴿أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ اسْتعارةٌ؛ إذ إنّ المُحادَدَةَ على الحقيقةِ هي التّقارُبُ بالحدودِ، وذلك من صفاتِ الأجسامِ ذواتِ الحدودِ والأقطارِ، فالمرادُ بالمُحادَدَةِ هنا كونُ الإنسانِ

المنافقُون بمنأى عن حدِّ الرُّسل الكرام، وهم منهم برآء

(1) مكيّ، الهداية الى بلوغ النهاية: 4/3055.
(2) الماوردي، النكت والعيون: 2/378.
(3) مسلم، الجامع الصحيح، بابُ الأمر بإحسان الذّبح والقتل، وتحديد الشّفرة، الحديث رقم: (1955).
(4) الماوردي، النكت والعيون: 2/378.

في غير الحدِّ الّذي فيه رُسُلُ اللّه تعالى؛ فكأنّه في حدٍّ ورسلُ اللّه في حدٍّ آخرَ[1].

سِرُّ التّعْبيرِ بضَميرِ القِصَّةِ قبْلَ بيانِها:

التَّعظيمُ والتّهويلُ، بيانٌ لشأْنِ المُعظَّمِ

ضميرُ القصّةِ هنا في كلمةِ ﴿أَنَّهُۥ﴾ من جُملةِ ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّهُۥ﴾ وإلى هنا ليس للضّميرِ المُتّصلِ بِـ (أنّ) مَرْجعٌ يعودُ عليه، ممّا يَستفزُّ ذهنَ تالي الذِّكرِ الحكيمِ وذهنَ مُتَلَقِّيه ومُسْتمعِيه، ويَستثيرُه نحو معرفةِ هذا المجهولِ الذي يتحدّثُ عنه قبْلَ تحديدِه ماذا يكونُ؟ وهذا من لَطائفِه؛ "وفائدُتُه إلى ذلك مَزيدُ التَّعظيمِ والتَّهويلِ" للشّأنِ المقصودِ والقصّةِ قبْلَ إيرادِها، ولذلك يُؤْتَى به في المَقاماتِ المُهمّةِ، بلِ المُهمَّةِ جدًّا، مِثلِ قولِه تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ [الإخلاص: 1]، فلا أهمَّ من قضيّةِ التّوحيدِ، التي من أجلِها خلَقَ اللّه تعالى الثَّقَلين المُكلَّفين ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾ [الذّاريات: 56]، وكذلك الأمرُ هنا خطيرٌ؛ فهو مُعاداةٌ ومُحادَّةٌ لدِين اللّه تعالى ولرسولِ اللّه ﷺ.

سِرُّ خطابِ المسلمين، بوعيدِ المنافقين دونَهم، وهُمْ بين أَظْهُرِهم:

المنافقون جديرون بالتَّجاهُل منَ المُسلمين دوما

هذا الاسْتفهامُ الإنكاريُّ التّوبيخيُّ حقُّه أن يُصَبَّ فوق رؤوسِ المنافقين خطابًا لهم مُباشِرًا، وبخاصّةٍ أنّهم مُنْدَسُّون بين المسلمين، لكنَّ الذّكرَ الحكيمَ يَحُطُّ من شأنِهم بصرْفِ الخطابِ عنهم وإنْ كان وعيدًا ويَعتبرُهم غائبين؛ إبعادًا لهم عن ساحةِ الطُّهْرِ، وإقصاءً لهم إلى حيث يَستحقّون هنالك في أودية النّفاقِ المَقيتةِ، ولقد ظلَّ هذا النّمَطُ المُخْزِي للمنافقين - مِن أهل الكتاب - في تراكيبِ السّورةِ الكريمةِ - التي تُسَمَّى سورةَ المنافقين الكبرى[2] - قبل هذه

(1) محمد عفيف، الشامل في بلاغة القرآن: 2/494.

(2) قال الثعلبي: "كانت تسمى هذه السورة الفاضحة والمثيرة والمبعثرة، أثارت مخازيهم ومثالبهم. قال الحسن: كان المسلمون يسمّون هذه السورة الحفّارة، حفرت ما في قلوب المنافقين فأظهرته". ينظر: الثعلبي، الكشف والبيان عن تفسير القرآن: 5/64.

الآيةِ الكريمةِ بصفحاتٍ إلى نهاية السّورةِ الكريمةِ - في حوالي اثنتي عشرةَ صفحةً، كلِّها حَديثًا مُوجَّهًا إلى الرّسولِ ﷺ وصحابتِه الأخيارِ ما بين توجيهٍ وإرشادٍ، وما بين أمرٍ ونهْيٍ، وما بين تعريضٍ بالمنافقين وتصريحٍ بمخازِيهمُ الشّنيعةِ دون توجيهِ الخطاب لهم، وفي ذلك التّجاهُلِ لشأنِهم وَجْهُ تناسُبٍ بين طيِّهم خُبْثَهم وعقوبتِهم العاجلةِ بإهمالِهم طيَّ النّسيانِ؛ ولا شكَّ أنَّ لهذا الإبعادِ أثرًا نفسيًّا يذبحُهم، وبخاصّةٍ وهم يَرون أنفُسَهم هم النّاسَ، وأنّهم أهلُ العلْمِ وأهلُ الكتابِ المُتميّزون بين أهل الدّين الجديدِ الأُمِّيِّين البُدَاةِ، ولذلك يقولُ القُشَيريُّ: "من كفر باللّه وأشرك في توحيده بإثبات موهومٍ اسْتَحقَّ ما هو حقٌّ للّه؛ تَعَجَّل عقوبتَه في الحال بالفُرْقَةِ، وفي المالِ بالخلودِ في الحُرْقَة"[1]، "وقُرِئَ (أَلم تعلموا) بالتّاء على الالتفاتِ؛ لِزيادة التّقريعِ والتّوبيخِ إذا كان الخطابُ للمنافقين لا للمؤمنين"[2]، وكلُّهم - طبعًا - عربٌ يفهمون مراميَ الكلام، ويقفون فيه بالفِطرةِ على أضعافِ ما نقفُ نحن بالتّعلُّم، و"(أَلم تعلم) خِطابٌ لِمن عَلِم شيئًا ثمّ نَسِيَه، أو أنكره، فيقال له: ألم تعلم أنّه كان كذا وكذا؟ ولمَّا طال مُكْثُ رسولِ اللّه ﷺ بين أظهُرِ المؤمنين والمنافقين وعلَّمَهم مِن أحكام الدِّين ما يحتاجون إليه؛ خاطبَ المُنافقين بقوله: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ﴾"[3].

بَلاغةُ التَّعريفِ بالموصولِ ﴿مَن﴾:

في التَّعريفِ بالاسْم الموصولِ (مَنْ) في قولِه تعالى: ﴿مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾، فضيلةٌ بلاغيّةٌ لا يُتيحُها غيرُه من أدواتِ التّعريفِ، هي كونُه يَفتحُ بابَ التّركيبِ لصياغةِ جُملةٍ جديدةٍ ذاتِ تفاريعَ دلاليةٍ ثَريّةٍ، تَطوِي إشاراتٍ معنويةً فاعلةً في تعزيز الأغراض،

التّعبيرُ بالموصولِ، مفْضٍ إلى أنّ المحادَدة هي مَحلُّ الجُرْمِ

(1) القشيري، لطائف الإشارات: 2/42.
(2) الآلوسي روح المعاني: 5/318.
(3) الخازن، لباب التأويل في معاني التنزيل: 2/378.

فالموصولُ هنا أتاحَ صِيغةَ المضارعةِ بعطائِها الحيِّ المُتجدِّدِ، الذي يكشفُ عن تتابُعِ المُعاداةِ وتَجدُّدِها منَ المنافقين المُبغِضين لدينِ اللّه تعالى ولرسولِه الكريمِ ﷺ ولصحْبِه الأخيارِ. وقد امتدَّت منهم تلك المُحادَدَةُ إلى سنواتٍ حتى تَطهَّرت منهمُ المدينةُ المنوّرةُ، واستتبَّ لها النّظامُ والأمانُ، كما أتاح الموصولُ تعميمَ الحُكمِ: ﴿مَن يُحَادِدِ﴾، وتثبيتَه لكلِّ مَن يستحقُّه، كذلك هيَّأ ذكرُ الموصول لصِيغةِ المضارع التي تستحضرُ علمَ المنافقين بأنَّ محادَّةَ دينِ اللّه تعالى ورسولِه ﷺ تُوجبُ لهم نارَ جهنّمَ، وما تَستلزمُه مِنَ الخِزيِ العظيمِ.

وَجْهُ فَكِّ الإدغامِ في ﴿يُحَادِدِ﴾:

فـكُّ الإدغـامِ يُناسبُ تعديدَ المُنافقين

في فكِّ إدغامِ الدّالِ المُشدّدةِ في ﴿يُحَادِدِ﴾ تَناسُبٌ جَليٌّ لِتعديدِ المنافقين وتَكريرِهم أيْمانَهم الكاذبةَ، ويُؤازرُ صِيغةَ المضارعةِ التي صُبَّت فيها مادّةُ المُحاددةِ. "وَلَمْ يُدْغَمَا لِأَنَّهُ وَقَعَ مَجْزُومًا، فَجَازَ فِيهِ الفَكُّ وَالإِدْغَامُ، وَالفَكُّ أَشْهَرُ وَأَكْثَرُ فِي القُرْآنِ، وَهُوَ لُغَةُ أَهْلِ الحِجَازِ، وَقَدْ وَرَدَ فِيهِ الإِدْغَامُ نَحْوَ قَوْلِهِ: ﴿وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ﴾ [الحشر:4] فِي قِرَاءَةِ جَمِيعِ العَشَرَةِ وَهُوَ لُغَةُ تَمِيمٍ"[1].

براعةُ حذْفِ المضافِ، وإقامةِ المُضاف إليه مَقامَه:

معـاداةُ دينِ اللـه، ورسولِه المبلّغِ الأمـين، مُعاداةٌ لله ربّ العالمين

لا أحدَ يَجْرؤُ على أن يُحادِدَ اللّه تعالى، أو أنْ يحادِدَ عبادَ اللّه، ومن يحادِدُهم في المدينةِ المنوّرةِ - مثلًا - «أَذَابَهُ اللّهُ فِي النَّارِ ذَوْبَ الرَّصَاصِ، أَوْ ذَوْبَ المِلْحِ فِي المَاءِ»[2]، فلا يقدرُ أحدٌ على مُحادّةِ اللّه تعالى، غيرَ أنّ إيقاعَ الفعْلِ ﴿يُحَادِدِ﴾ على لفْظِ الجلالة ﴿ٱللَّهَ﴾ - وهو في الحقيقةِ إنّما يُوقَعُ على دينِ اللّه تعالى وعلى رسولِ اللّه ﷺ وعلى عبادِ اللّه - يَنْقُلُ القضيّةَ إلى أفُقٍ لا طاقةَ لأحدٍ به؛ فناسبَ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 10/246.

(2) مسلم، صحيح مسلم، بابُ فضل المدينة...، وبيان تحريمها، وتحريم صيدها وشجرها، وبيان حُدُود حرمها، الحديث رقم: (3163).

حذْفُ المُسنَد إليه وربطُ المُحادّةِ باللّه تعالى مباشرةَ فظاعةِ الجُرْم؛ لأنّ دينَ اللّه تعالى ولأنّ رسولَ اللّه ﷺ ولأنّ عبادَ اللّه أجمعين إنّما يَستمدُّون خَطَرَ الاعتداءِ عليهم من إضافتِهم ونِسْبَتِهم إلى اللّه تعالى؛ فكان في حذْفِ المضاف وإقامةِ المُضاف إليه مقامَه تفظيعٌ لهذا الصّنيعِ العظيمِ يحملُ على مُجانبتِه والحذَرِ منه.

بَلاغةُ عطْفِ الرّسولِ ﷺ على لفْظِ الجلالةِ:

العطفُ في جُملةِ: ﴿يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ مِن تكريمِ اللّه تعالى لرسولِه ﷺ، وقد تكرّرَ في الذّكرِ الحكيمِ حوالَيْ ثمانينَ مرّةً، وفي ذلك العطفِ - فضلًا عن كونِه تَشريفًا وتكريمًا لرسولِ اللّه ﷺ - إضفاءٌ للهيْبةِ على الرّسولِ ﷺ، وابرازُ هيبَتِه ﷺ يكونُ في كلِّ مقامٍ بحسبِه، فالهيْبةُ هنا وعيديَّةٌ تهديديّةٌ، ومثلُه قولَه تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ﴾ [البقرة: 279]. وقد تكونُ الهيبةُ تكريميةً كقوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ [الأنفال: 20]، وقولِه تعالى: ﴿وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ [التّوبة: 29]، ولو ذُكِرَ المضافُ فكان السّياقُ: من يحادِدْ دينَ اللّه، أو: من يحادِدِ الدّينَ والرّسولَ لَافْتُقِدَتْ تلك الهيبةُ، مع كونِه رسولًا مُكرَّمًا، لكنّها تَعْظُمُ حين يُحيطُ ذِكْرُ اللّه تعالى باسْمِ رسولِه ﷺ من جهتَيْه: مرَّةً قبْلَه بالاسْمِ الظّاهرِ ﴿ٱللَّهَ﴾، ومرّةً بعدَه بالضّميرِ ﴿وَرَسُولَهُۥ﴾، وكأنّها الحصانةُ والأمانُ يَحُوطانِه ﷺ ويَشملانِه ويُضْفيانِ عليه المَهابةَ ﷺ.

اللّه تعالى يحفظُ رسولَه الخاتم، ويُحيطُه بالمَهابةِ والتّكريمِ

دَلالةُ (الفاءِ) الدّاخلة على أداة التّوكيد ﴿فَأَنَّ﴾:

العطفُ بالفاء في ﴿فَأَنَّ﴾ للإيذان بأنّ ما بعدَها مُسبّبٌ عمّا قبْلَها، فالخلودُ في نارِ جهنّمَ اسْتحقَّ عليهم بما قدّمُوه من نفاقٍ ومُحادّةٍ للّه ورسولِه[1].

استحقاقُ الخُلود في النّارِ، بما كسبَتْه أيْدِي المنافقين والكفّار

(1) المطعني، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 2/19.

من بَلاغةِ التّوكيدِ في الجُملةِ المصدّرة بلفظ ﴿فَأَنَّ﴾:

النّفاقُ متأصّلٌ في المنافقين، فنُزِّلوا مَنزلةَ من يجهلُ الحقائقَ

قالُوا هنا: "لَمَّا طالَ الكلامُ أُعيدَ ﴿فَأَنَّ﴾ ليكونَ أوْكدَ، ويجوزُ كَسْرُ (فإنّ) على الاسْتِئناف بعدَ الفاء"[1]، على أنَّه منَ المعلومِ أنّ "البُعْدَ لَا يَمْنَعُ مِنْ صِحَّةِ العَطْفِ"[2]، وعليه فإنّ النَّظْمَ الكريمَ قد آثرَ تَكرارَ التَّوكيدِ ليتكاثرَ في العبارةِ، ولِتتآزرَ عناصرُه فيَتقرَّرَ الحُكمُ على المنافقين، ولعلَّه يكونُ أجْدَى في إزاحةِ الخُبْثِ من نفوسِهم؛ فتستقرُّ حياةُ المسلمين، وتطهُرُ الأمَّةُ من شرورِهم، ولكنْ هيهاتَ! وبهذا يكشِفُ اللّه تعالى للأمّةِ تَمَكُّنَ النّفاقِ من نفوسِ المنافقين برغْمِ تكاثُفِ عناصرِ التّوكيدِ في معْرضِ تهديدِهم وزجْرِهم. وتوكيدُ الخبرِ بـ (أنّ) واسْميّةِ الجملة؛ لأنَّ المنافقين مع علْمِهم بهذه الحقيقةِ نُزّلُوا منزلةَ من يجهلُها ويُنكرُها لعدَمِ جَرْيِهم في الاعتقادِ والسّلوكِ وَفْقَ ما يَقتضِيه علْمُهم[3].

بَلاغةُ تقديمِ الجارِّ والمجرورِ ﴿لَهُۥ﴾:

الحُكْمُ على المُنافقين بالنّارِ، مُحَقَّقٌ لا شكَّ فيه

قوله تعالى: ﴿فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ﴾، التّقديمُ هنا يَقْضِي في ظاهرِه باختصاصِ هذا الذي يُحادِدُ اللّه تعالى ورسولَه ﷺ بالنَّارِ، وقَصْرِها عليه دونَ سِواه، وهذا صحيحٌ إنْ مات كافرًا ولم يَتُبْ من نفاقِه، وأصلُ التّركيبِ لُغويًّا: فإنَّ نارَ جهنّم له؛ أي: مُستحَقّةٌ ثابتةٌ مقطوعٌ له بها، غيرَ أنَّ النَّظْمَ الحكيمَ تصرَّف في ترتيب تلك العناصرِ بما يَدْعمُ الغَرضَ؛ فقدّم الجارَّ والمجرورَ ﴿لَهُۥ﴾، وكأنَّ نارَ جهنّمَ إنّما خُلقت له وحْدَه، وخُصَّتْ به لا يُشاركُه فيها غيره.

والقرآنُ الكريمُ يقولُ صراحةً: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾، لكنْ باعتبارِ أنَّ النّارَ أيضًا عقوبةُ

(1) الواحديّ، التفسير البسيط: 10/531.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 16/91.
(3) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 2/19.

تَهْذيبٍ للمُوحِّدِ العاصِي - واللّهَ تعالى نسألُ العفْوَ والمغفرةَ لنا جميعًا - يكونُ عطاءُ التّقديمِ توكيدَ تعذيبِ المُنافقِ، والقطعَ له بذلك بِغَضِّ النَّظرِ عن غيرِه، وأنّه لن ينجُوَ منَ النّار بِحال. وقد بدأَ اللّه تعالى بالمنافقين في الحُكْمِ بالنّار في قولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾﴾ [النساء: 140] والعِياذُ باللّه من حالِ أهلِ النّارِ.

وجْهُ المناسبةِ بين لفْظِ ﴿جَهَنَّمَ﴾، وجريمةِ النِّفاقِ ومُقترفِها:

قال ابنُ عاشور: "وَجَهَنَّم عَلَمٌ عَلَى دَارِ العِقَابِ المُوقَدَةِ نَارًا... مُشْتَقٌّ مِنَ الجَهْمِ وَهُوَ الكَرَاهِيَةُ"(1)، و"أَهْلُ اللُّغَةِ يَحْكُونَ عَنِ العَرَبِ أَنَّ البِئْرَ البَعِيدَةَ القَعْرِ تُسَمَّى الجِهِنَّامَ عِنْدَهُمْ، فَجَازَ فِي جَهَنَّمَ أَنْ تَكُونَ مَأْخُوذَةً مِنْ هَذَا اللَّفْظِ، ومعنى بُعْدِ قَعْرِهَا: أَنَّهُ لَا آخِرَ لِعَذَابِهَا"(2).

النّفاقُ مَخفيٌّ في سُوَيْداءِ القلْبِ فيَستحقُّ عقوبةً في قاعِ النّارِ

فإيثارُ النّظْمِ الكريمِ هنا اسْمَ ﴿جَهَنَّمَ﴾ - دونَ غيرِه من أسماءِ النّارِ - يُحقِّقُ المناسبةَ بين طبيعةِ الجريمةِ المُستكِنّةِ في قلوبِ المنافقِين وبين تَغْييبِهم في قاعِ الجحيم، ويتَّسقُ مع ذلك تمامَ الاتِّساقِ قولُ اللّه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [النساء: 145]، وكذلك يُحقّقُ المُناسبةَ بين معنى الجهْمِ - وهو الكراهيةُ - وبين ذميمِ النّفاقِ الكريهِ لدى اللّه تعالى ولدَى رسولِه ﷺ ولدى المسلمين جميعًا، والعياذُ باللّه تعالى.

سِرُّ القيْدِ بالحالِ ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ﴾:

هذا القيْدُ بالحالِ يَتَّسِقُ - في دَلالةِ القطْعِ بالخُلودِ في نار جهنَّمَ للمنافقين - مع دَلالةِ تقديمِ الجارِّ والمجرور ﴿لَهُمْ﴾، ويُوَجِّهُ دَلالةَ تقْديمِه إلى إفادة القصْرِ، وأنَّ الخلودَ في نار جهنَّمَ مُختصٌّ بِمن يُحادِدِ اللّه تعالى ورسولَه ﷺ؛ لأنَّ الخلودَ فيها - كما سبقَ القولُ -

المُنافقُ خالدٌ في نارِ الآخِرةِ، لا يُفارقُها قطُّ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/271.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 16/92.

يَختصُّ بالكافرِ المُعادِي لدين اللّه تعالى ولرسولِ اللّه ﷺ، لا يَتعدَّاه إلى المُوَحِّدِ العاصِي، الذي قد يُغْمسُ في النّارِ للتَّطْهيرِ لا للتَّخْليد.

نُكتةُ إفرادِ ﴿لَهُۥ﴾ و﴿خَٰلِدًا﴾:

الإفرادُ في ﴿لَهُۥ﴾ و﴿خَٰلِدًا﴾ من قولِه تعالى: ﴿فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدًا فِيهَآ﴾ مرادٌ به العمومُ؛ إذِ المُعوّلُ عليه في هذا المصيرِ المُؤلِمِ هو الصّفةُ، فمن تحقّقتْ فيه فهو المُتوعَّدُ بالخلودِ في نارِ جهنّم[1].

عِلّةُ صياغةِ الحالِ ﴿خَٰلِدًا﴾ اسمَ فاعلٍ:

آثَرَ النّظْمُ الكريمُ اسْمَ الفاعل ﴿خَٰلِدًا﴾ دونَ اسْمِ المفعول: مُخَلَّدًا؛ وذلك يُلْمِحُ إلى أنّ هذا المنافقَ هو من اسْتوجبَ بنفسِه لنفسِه الخلودَ في النّارِ، وأنّها لم تُفْرضْ عليه قَسْرًا من قِبَلِ اللّه تعالى؛ فلا يَتَعَلَّلَنَّ أحدٌ بأنّ الخلودَ في النّار مكتوبٌ مقدورٌ عليه، وأنّه جُبِرَ عليه جبْرًا ولا ذنْبَ له فيه، وهكذا وردَ كلُّ قيدٍ بالحال في الذّكرِ الحكيم مُشابِهًا لهذا القيْدِ، جمْعًا كان أو مُفردًا، جمْعًا: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ﴾، ومُفردًا: ﴿خَٰلِدًا فِيهَآ﴾، وسواءً أكان هذا الحالُ من أصحاب الجنّةِ أم كان من أصحابِ النّارِ؛ وكأنّي بتلك الصِّيغةِ تُحيلُ على صاحبِها سَببيَّةَ خلودِه في النّارِ إن كان السّياقُ للتّعذيبِ، وتُحيلُ على صاحبِها سببيَّةَ خلودِه في الجنّةِ إن كان السّياقُ للتّكريم، فضْلًا عن دَلالتِه، أي: (اسم الفاعل: خالدا) على حالة الخلودِ، والبقاءِ الأبديِّ بما يتضمّنُه اسْمُ الفاعل من معنَى الدّوامِ التّجدُّدِيِّ، وتَجَدُّدِ الحدوثِ وتَكرارِه.

دَلالات عَوْدِ الضَّميرِ المجرورِ ﴿فِيهَآ﴾:

ضَميرُ المؤنّثِ المجرورِ في لفْظِ: ﴿فِيهَآ﴾ يُطابقُ الـ ﴿نَارَ﴾ كما يُطابقُ ﴿جَهَنَّمَ﴾؛ لأنَّ كلتيهما تُوصَفان بالمؤنّث، قال تعالى: ﴿فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا﴾ [النساء: 93]، وقال اللّه تعالى: ﴿تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ۝٤﴾

من تحقّقتْ فيه صفةُ النّفاقِ، فإنَّ مصيرَه إلى النّارِ، وبئس القرار

المُنافقُ هو الّذي اسْتوجبَ النّارَ بنفْسِه، ولم تُفرَضْ عليه

الهَلكةُ والضّياعُ مآلُ المنافقين، بما اقترفوا من إثم مبين

(1) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 2/19.

[الغاشية: 4]، وإمكانُ تطابُق ضميرِ المؤنّث: ﴿فِيهَآ﴾ لهذين العُنْصُرَين يَجعلُ الـ ﴿نَارَ﴾ مُستقرًّا لِخلوده كما يجعلُ ﴿جَهَنَّمَ﴾ مُستقرًّا لخلودِه، وذلك يَقضِي عليه بالهَلكةِ والضَّياعِ قطْعًا؛ وهذا التَّضافُرُ يتآزرُ مع بقيّةِ عناصرِ التّركيبِ، في تقريرِ الحُكمِ؛ فهو إذن من خصائصِ التّركيبِ الخادمةِ بقُوّةٍ.

بَلاغةُ الفصْلِ في: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْخِزْىُ ٱلْعَظِيمُ﴾:

تقريرُ الإهانةِ والافْتِضاحِ، جزاء نفاقهم بالغدوّ والرّواح

هذه "الجملةُ تذييلٌ لِمَا سَبقَ"[1]، فُصِلتْ عمّا قبْلَها لِما بينَهما مِن كمالِ اتِّصالٍ في المعنَى؛ لأنَّ معنَى الجُملةِ الثّانيّةِ منهما مُقَرِّرٌ لِمعنَى الأُولَى؛ إذِ الأُولَى تُفيدُ خُلودَ المنافقِ المُحادِدِ في نار جهنّم، والثّانيّةُ تُفيدُ أنَّ ذلك الخلودَ فيها هو الخِزيُ العظيمُ، فالتقتِ الجُملتان على تقريرِ تعذيبِه وإهانتِه وافتضاحِه، وكذلك بينَهما من وجْهٍ آخرَ كمالُ انْقطاعٍ في اللّفظ؛ إذِ الأُولَى إنشائيّةٌ نوعُها اسْتفهامٌ، والثّانيّةُ خبريّةٌ، فتباينَتا من هذا الوجْهِ فوجبَ كذلك الفصْلُ بينَهما لكمالِ الانقطاعِ.

دَلالةُ الإشارةِ في: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْخِزْىُ﴾:

اختصارٌ بالإشارة لِما مضَى، ومبالغة في فظاعةِ الخِزيِ وهوله

من فضائلِ اسْمِ الإشارةِ (ذا) أنّه يَجمعُ أطرافَ الحديثِ السّابقِ مهما تكاثرتْ، ويَضغطُها كلَّها في حرفين (ذا) لِيُصَبَّ عليها كلِّها الحُكمُ بالخبرِ دَفْعةً.

والذي سبقَ هنا هو تفاصيلُ وعيدِ المنافقين، والحُكمُ هو خلودُهم في نار جهنّم؛ فجاءتِ الإشارةُ لِتُلَمْلِمَ تفاصيلَ ذلك، وتُفرِغَ عليه الحُكمُ عن قُربٍ بأنّه خِزيٌ، بل ﴿ٱلْخِزْىُ﴾ المَهُولُ، والعياذُ باللّه تعالى من حالِ أهل النّارِ. وفي ﴿ذَٰلِكَ ٱلْخِزْىُ﴾، إشارةٌ بالبعيدِ دونَ القريبِ؛ لتهويلِ الخِزْيِ، وللإيذان ببُعْدِ درجتِه في الشّناعةِ والفظاعةِ، وبلوغِه

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 5/319.

الغايةَ فيهما، وقد قامَ اسْمُ الإشارةِ مَقامَ العاطفِ الرّابطِ بين جوابِ الشّرطِ المُتقدّمِ على هذه الجُملةِ وبيّنَها[1].

نكتة إيثارِ لفظ ﴿ٱلۡخِزۡيُ﴾:

"الخِزْيُ بالكَسْرِ ذُلٌّ في النَّفْسِ طَارِئٌ عَلَيْهَا فَجْأَةً لِإِهَانَةٍ لَحِقَتْهَا، أَوْ مَعَرَّةٍ صَدَرَتْ مِنْهَا، أَوْ حِيلَةٍ وَغَلَبَةٍ تَمَشَّتْ عَلَيْهَا وَهُوَ اسْمٌ لِمَا يَحْصُلُ مِنْ ذَلِكَ"[2]، ولمَّا كان ﴿ٱلۡخِزۡيُ﴾ يَحملُ معنَى المَهانةِ والانْكسارِ والانقِماعِ كانتْ مادَّتُه اللّغويّةُ، مادّةً مُصَوِّرةً بطبيعتِها المجرّدةِ منَ التَّصويرِ البَيانيِّ؛ فهي تُقيمُ في النّفسِ صورةَ شخْصٍ مُنكسِرٍ مقْموعٍ؛ ولذلك كان الخِزْيُ فوقَ الذُّلِّ افتِضاحًا وهَوانًا؛ كما يقولُ صاحبُ الفُروقِ.

(الخِزْيُ) أشدُّ منَ الذُّلِّ وأقسَى، وفيه معنى الهوان والضّعة

نُكتةُ تعريفِ ﴿ٱلۡخِزۡيُ﴾، ودلالته:

تعريفُ ﴿ٱلۡخِزۡيُ﴾ في هذا المقامِ - مقامِ مُحادَدَةِ اللّه تعالى ورسولِه ﷺ - قائلٌ: إنّه أقصَى ما يُمكنُ أن يكونَ من أنواعِ الخِزْيِ والذُّلِّ والهَوانِ وأقْسَاه على النّفوسِ، وذلك هو ﴿ٱلۡخِزۡيُ﴾ الذي يَتجرّعُه المنافقُ، والتّعريفُ يُوحِي بأنَّ خِزْيَ هؤلاء هو ﴿ٱلۡخِزۡيُ﴾ الذي لا خِزيَ فوقَه، وأنّ أنواعَ ﴿ٱلۡخِزۡيُ﴾ كلَّها إذا قِيسَتْ به لا تُعَدُّ خِزْيًا؛ لذلك وَصفَه النّظمُ الكريمُ - هنا بخاصّةٍ - بـ ﴿ٱلۡعَظِيمُ﴾ كما سيأتي بيانُه قريبًا إن شاءَ اللّه تعالى.

جزاءُ المُنافقِ (الخِزْيُ) يومَ القيامةِ الّذي لا يُقارَنُ

سرُّ وصْفِ ﴿ٱلۡخِزۡيُ﴾ بـ ﴿ٱلۡعَظِيمُ﴾:

وصَفَ الذّكرُ الحكيمُ ﴿ٱلۡخِزۡيُ﴾ هنا بـ ﴿ٱلۡعَظِيمُ﴾، ولم يرِد موصوفًا به إلّا في هذا الموضعِ؛ لأنّه المَقامُ الذي جَمعَ بين ذِكْرِ مُحادَّةِ اللّه تعالى ورسولِه ﷺ - والمُحادّةُ في الأصل عملُ الكفّارِ المُتبجِّحين

الحَلِفُ بالعظيم كَذِبًا، يَجرُّ إلى الخِزْيِ (العظيم)

(1) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 2/19، ومحمّد عفيف، الشّامل في بلاغة القرآن: 2/494.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/591.

بكُفرِهم[1] - وبين الحَلِفِ كذبًا نِفاقًا للمسلمين وعدَمِ اكتراثٍ بِجلالِ اليمينِ من قِبَلِ المنافقين - وهم أهلُ كتابٍ يُفترَضُ أنّهم يعلمون خطَرَ الاسْتهانةِ بيمين اللّه تعالى - وهما أعظمُ جريمتَيْن تكونان من مخلوقٍ تجاهَ الخالقِ العظيم تعالى؛ لذلك جَمعَ النّظمُ الكريمُ لهما ﴿ٱلْخِزْىُ﴾ مع وصْفِ ﴿ٱلْعَظِيمُ﴾، ووصْفُ ﴿ٱلْعَظِيمُ﴾ يَرِدُ في الذّكرِ الحكيمِ لِلفَوْز والنَّعيم، كما يقعُ للخزي والعذابِ، فإذا وقع للفوزِ والنّعيمِ انصرفَ إلى معنى العَظَمَةِ والجمالِ، وإذا وقع للخِزي والعذابِ انصرف إلى مع معنى العِظَمِ والخطورةِ.

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الخِزْيُ والذّلُّ:

الخِزْيُ مَهانةٌ مع انْقِماعٍ وافْتِضاحٍ، والذّلُّ خضوع واستكانة

الخِزْيُ ذلٌّ مع افتضاحٍ، وقيل هو الانقماعُ لقُبحِ الفعْلِ، والخزايةُ: الاسْتحياءُ؛ لأنه انْقماعٌ عنِ الشّيء لِما فيه منَ العيْبِ، وهو: الإقَامَةُ على السُّوءِ"[2].

ويَحْملُ الخِزْي معنَى المَهانةِ والانكسارِ والانْقِماعِ، أمّا الذُلُّ: فأصلٌ واحدٌ يدلُّ على الخضوعِ، والاسْتكانةِ، واللّينِ، والانقيادِ كرهًا، وهو ضدُّ العزّ[3].

وبهذا يتبينُّ أنّ دلالةَ الخِزْي أقوَى في الذّمِّ، وأشدُّ في العقوبةِ؛ ولأجل ذلك اصْطُفيَ في الآيةِ الكريمةِ زيادةً في ذمِّ من يُحادِدِ اللّه ورسولَه؛ ولِيُناسبَ شنيعَ فعْلِهم.

(1) أحمد سعيد، من لطائف الملاءمة بين المقال والمقام في وصْفَي العذاب بالمهين والأليم في الذّكر الحكيم، مجلة قطاع كليات اللغة، العدد الثاني، 2008، ص: 1045.

(2) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 215.

(3) ابن فارس مقاييس اللّغة: (ذل)، والعسكري، الفروق اللغوية، ص: 250.

﴿يَحۡذَرُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيۡهِمۡ سُورَةٞ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمۡۚ قُلِ ٱسۡتَهۡزِءُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مُخۡرِجٞ مَّا تَحۡذَرُونَ ٦٤﴾ [التّوبة: 64]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

مُتابَعةُ كشْفِ خبايَا المُنافقين، وتحذيرِهم من مغبّة الاستهزاء بالدّين

ما زال السِّياقُ الكريمُ يُتابعُ كشْفَ خبايَا المُنافقين للمسلمين، ويُعَرِّي لهم جرائمَ نفاقِهم التي حاولُوا طويلًا تَغطيتَها ولو بالإيمانِ الكاذبةِ إرضاءً للمسلمين، حتى يبلغَ السّياقُ هنا مبلغَ التّصريحِ بذكْرِ المُنافقين مباشرةً - وَقَدْ بَلَغَ السَّيْلُ الزُّبَى - بعدَما طالَ الحديثُ عنهم بطريقِ الكنايةِ بذكْرِ قبائحِهم واحدةً واحدةً، وبعدَ تَكرارِ ذِكْرِ صنوفِهم المَقيتةِ بِلفْظِ: ﴿وَمِنۡهُمۡ﴾ من يفعلُ كذا ﴿وَمِنۡهُمۡ﴾ من يفعلُ وكذا.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَحۡذَرُ﴾: "الحَذَرُ: احترازٌ مِن مُخيفٍ، يقال: حَذِرَ حَذَراً، وحذرتُه، قال تعالى: ﴿يَحۡذَرُ ٱلۡأٓخِرَةَ﴾ [الزمر: 9]، وقال تعالى: ﴿خُذُواْ حِذۡرَكُمۡ﴾ [النساء: 71] أي: ما فيه الحَذَرُ مِنَ السّلاحِ وغيرِه"[1].

و"رجل حَذِرٌ وحَذُرٌ أي: متيقِّظ متحرّز... وقد وردَ الحَذَرُ في القرآن على ثلاثةِ أوجُهٍ: الأوّلُ بمعنى الخوفِ والخطرِ ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥۗ﴾ [آل عمران: 28، 30] أي: يُخوِّفُكم. الثّاني: بمعنى الإباءِ والامْتناعِ ﴿وَإِن لَّمۡ تُؤۡتَوۡهُ فَٱحۡذَرُواْۚ﴾ [المائدة: 41] أي: امتنعُوا. الثّالثُ: بمعنى كِتمانِ السّرِّ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مُخۡرِجٞ مَّا تَحۡذَرُونَ ٦٤﴾ [التوبة: 64] أي: مَظهرٌ ما تكتمُون"[2].

2) ﴿ٱلۡمُنَٰفِقُونَ﴾: يُقال: "نَفَقَ الشَّيْءُ: مَضَى ونَفِدَ، والنَّفَقُ، يَدّل

(1) الرّاغب، المفردات: (حذر).
(2) الفِيروزابادِيّ، بصائر ذوي التّمييز: (حذر).

على إخفاءِ الشيءِ وإغماضِه.والنِّفَاقُ، وهو الدّخولُ في الشَّرْعِ من بابٍ والخروجُ عنه من بابٍ، وعلى ذلك نبَّه بقولِه: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ۝٦٧﴾ [التوبة: 67] أي: الخارجون منَ الشَّرْعِ، وجعل اللّه المُنافقين شَرّاً منَ الكافرين فقال: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [النساء: 145]"[1].

3) ﴿سُورَةٌ﴾: "السُّورَةُ: المنزلةُ الرّفيعةُ... وسُورُ المدينةِ: حائطُها المُشتمِلُ عليها، وسُورَةُ القرآن تشبيهًا به لكونِها مُحاطًا بها إحاطةَ السُّورِ بالمدينةِ، أو لكونِها منزلةً كمنازلِ القمرِ، ومن قال: سُؤرةٌ فمن أسأرتُ، أي: أبقيتُ منها بقيّةً، كأنّها قطعةٌ مُفردةٌ من جُملةِ القرآن، وقولُه: ﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَٰهَا﴾ [النور: 1]، أي: جُملةٌ من الأحكامِ والحِكمِ، وقيل: أسأرتُ في القدحِ، أي: أبقيتُ فيه سؤرًا، أي: بقيّةً"[2].

و"سورةُ – بالهمز وبتركه –، بغير الهمْزِ من سَوْرة الأَسد، وسَورةِ الشّرابِ، بمعنى القُوّةِ؛ لأَنَّ قوَّةَ السُّورةِ أَكثرُ من قوّة الآيةِ؛ أَو منَ السُّور بمعنى الجماعةِ، يقال: لفلانٍ سُورٌ منَ الإبل أَي: جماعة؛ لأَنَّ السُّورةَ مُشتمِلةٌ على جماعة الآياتِ، أَو منَ السُّورِ المحيطِ بالأَبنيّةِ؛ لأَنَّ السُّورةَ مُحيطةٌ بالآياتِ، والكلماتِ، والحروفِ، مُشتملةٌ على المعاني منَ الأَمرِ والنَّهْيِ، والأَحكامِ، وإذا قلتَ بالهمْزِ فيكونُ من سُؤرِ الكأْس – وهو ما يبقَى فيه منَ الشّراب – لأَنَّ كلَّ سُورةٍ منَ القرآن بقيَّةٌ منه. ويُقالُ: إنَّ السُّورَ (بلا همز) بمعنى الرَّفعةِ والمنزلةِ، وسُوَرُ القرآن هكذا مُتفاوتةٌ: بعضُها فوق بعضٍ من جهة الطُّولِ، والقصْرِ، وفي الفضلِ، والشّرفِ، والرُّتبةِ"[3]، وسُورةُ هنا تعني: "قطعةٌ منَ القرآن شديدةُ الانتظام"[4].

4) ﴿تُنَبِّئُهُم﴾: "**النَّبَأُ**: خبرٌ ذو فائدةٍ عظيمةٍ يحصلُ به علْمٌ أو غَلَبَةُ ظنٍّ، ولا يقالُ للخبرِ في الأصلِ نَبَأٌ حتى يتضمّنَ هذه الأشياءُ الثّلاثةُ، وحقُّ الخبرِ الذي يقالُ فيه نَبَأٌ أن يَتعرَّى عن الكذبِ، كالتّواتُرِ، وخبَرِ اللّه تعالى، وخبرِ النّبيِّ ﷺ. ولِتضمُّن النَّبَإِ معنَى الخبرِ يقالُ: أَنْبَأْتُهُ بكذا كقولك: أخبرتُه بكذا، ولِتضمُّنِه معنى العِلْمِ قيل: أَنْبَأْتُهُ كذا، كقولك: أعلمْتُه كذا. قال اللّه تعالى: ﴿قُلْ هُوَ نَبَؤٌا۟ عَظِيمٌ ۝٦٧ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ۝٦٨﴾ [ص 67، 68]... فتنبيهُ أنّه

(1) الرّاغب، المفردات: (نفق)، والفِيروزابادي، بصائر ذوي التّمييز: (نفق).
(2) الرّاغب، المفردات: (سور).
(3) الفيروزابادي، بصائر ذوي التّمييز: 1/84.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 8/515.

إذا كان الخبرُ شيئًا عظيمًا له قدْرٌ فحقُّه أن يتوقّفَ فيه، وإن علِمَ وغلَبَ صِحّتَه على الظّنِّ حتى يُعادَ النّظرُ فيه، ويتبيّنَ فضْلَ تبيُّنٍ، يقال: نَبَّأْتُهُ وأَنْبَأْتُهُ. قال تعالى: ﴿أَنۢبِـُٔونِي بِأَسۡمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٣١﴾ [البقرة: 31]... ويدلُّ على ذلك قولُه تعالى: ﴿فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتۡ مَنۡ أَنۢبَأَكَ هَٰذَاۖ قَالَ نَبَّأَنِيَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡخَبِيرُ ٣﴾ [التحريم: 3]، ولم يقُلْ: أَنْبَأَني، بل عَدَلَ إلى نَبَّأَ الّذي هو أبلغُ تنبيهًا على تحقيقِه وكوْنِه من قِبَلِ الله، وكذا قولُه: ﴿قَدۡ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنۡ أَخۡبَارِكُمۡ﴾"[1].

5) ﴿قُلُوبِهِمۡۚ﴾: جمعُ قَلْبٍ، و"قَلْبُ الشّيءِ: تصريفُه، وصَرْفُه عن وجْه إلى وجهٍ... والانْقِلابُ: الانصرافُ، قال: ﴿ٱنقَلَبۡتُمۡ عَلَىٰٓ أَعۡقَٰبِكُمۡۚ وَمَن يَنقَلِبۡ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِ﴾ [آل عمران: 144]... وقَلْبُ الإنسانِ قيل: سُمّيَ به لكثرةِ تَقَلُّبِه، ويُعبَّرُ بالقلْبِ عنِ المعاني التي تختصُّ به منَ الرُّوحِ والعلْمِ والشّجاعةِ وغيرِ ذلك، وقولُه: ﴿وَبَلَغَتِ ٱلۡقُلُوبُ ٱلۡحَنَاجِرَ﴾ [الأحزاب: 10] أي: الأرواحُ. وقال: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكۡرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلۡبٌ﴾ [ق: 37] أي: علْمٌ وفهْمٌ... وتَقْليبُ الله القلوبَ والبصائرَ: صرْفُها من رأيٍ إلى رأيٍ، قال: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفۡـِٔدَتَهُمۡ وَأَبۡصَٰرَهُمۡ﴾ [الأنعام: 110]، وتَقْليبُ اليدِ: عبارةٌ عنِ النّدمِ ذكْرًا لحالِ ما يوجدُ عليه النّادمُ، قال: ﴿فَأَصۡبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيۡهِ﴾ [الكهف: 42] أي: يُصفّقُ ندامةً"[2].

6) ﴿ٱسۡتَهۡزِءُوٓاْ﴾: "الهُزْءُ: مَزْحٌ في خِفْيَة، تقول: هَزِئْتُ من فُلانٍ، وهزِئْتُ بِهِ... هُزْءاً وهُزُؤاً، سَخِرْتُ. وهَزَأْتُ به أيضاً، وقد يُقال الهُزْؤ لِمَا هو كالمَزْح؛ فممّا قُصِدَ به المَزْحُ قولُه تعالى: ﴿أَتَتَّخِذُنَا هُزُوٗاۖ﴾ [البقرة: 67]، وقولُه: ﴿وَإِذَا عَلِمَ مِنۡ ءَايَٰتِنَا شَيۡـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًاۚ﴾ [الجاثية: 9]، عَظَّمَ تَبْكيتَهم ونَبَّهَ على خُبْثِهم من حيثُ إنَّه وصَفَهم بأنَّهم بعْدَ العِلْم بها والوُقوفِ على صِحَّتِها يَهْزَؤُون بها.

وإن كان قد يُعَبرُّ به عن تَعاطِي الهُزْءِ، كالاستِجابَةِ في كَوْنِها ارْتِياداً للإجابة، وإن كان قد يَجْرِي مَجْرَى الإجابةِ. وقال الله تعالى: ﴿قُلۡ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمۡ تَسۡتَهۡزِءُونَ ٦٥﴾ [التوبة: 65]"[3].

7) ﴿مُخۡرِجُ﴾: "خرَجَ فلانٌ وغيرُه: بَرَزَ مِن موْضِعِه أو مَقَرِّه وظهرَ، ضدُّ دخَلَ:

(1) الرّاغب، المفردات: (نبأ).
(2) الرّاغب، المفردات: (قلب).
(3) الفِيروزابادِيّ، بصائر ذوي التّمييز: (هزء).

﴿وَٱلۡبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخۡرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذۡنِ رَبِّهِۦۖ﴾ [الأعراف: 58]، وخرَجَ العملُ إلى النُّور: ظهرَ، وأخرجَ الشَّيءَ: أبرزَه وأظْهرَه... وأخرجَ اللّهُ ما في قلبه: أظهره: ﴿أَمۡ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخۡرِجَ ٱللَّهُ أَضۡغَٰنَهُمۡ ٢٩﴾ [محمد: 29]"[1]، و﴿إِنَّ ٱللَّهَ مُخۡرِجٞ مَّا تَحۡذَرُونَ﴾ أي: مُظهِرٌ ما تكتمون"[2].

المَعْنى الإجْماليُّ:

معنَى الآيةِ الكريمةِ: يترقَّبُ المُنافِقون بِتَوَجُّسٍ أن يَفضَحَ اللّه تعالى سرائرَهم، وأن يَكشفَ للمسلمين قبائِحَهم، في سُورة - يُنَزِّلُها على رسولِه ﷺ - تَصُبُّ عليهم الخِزيَ والعارَ؛ وقد كانوا "يَقُولُونَ القَوْلَ بَيْنَهُمْ، ثُمَّ يَقُولُونَ: عَسَى اللّه أَلَّا يُفْشِيَ عَلَيْنَا سِرَّنَا هَذَا"[3]؛ فهدّدَهم اللّه تعالى بأمرٍ غاضِبٍ ﴿قُلِ ٱسۡتَهۡزِءُوٓاْ﴾ بأنّه "سَيُنْزِلُ عَلَى رَسُولِهِ مَا يَفْضَحُكُمْ بِهِ، وَيُبَيِّنُ لَهُ أَمْرَكُمْ"[4].

يترقَّبُ المُنافقون فضْحَ سَرائرِهم، بالوحي الكاشف لـلاسـتـهـزاء الخفيّ

وكان ذلك التّهديدُ جديرًا بأن يرُدَّهم عنِ الكيْدِ للدّين، ولكنَّ النّفاقَ أعمَى قلوبَهم حتى تحقّقَ فيهم التَّهديدُ، وأظْهرَ اللّه تعالى أضْغانَهم، فأجْلاهُمُ الرّسولُ ﷺ منَ المدينةِ المنورةِ، ومَزَّقهم أشتاتًا إلى حيث يَستحِقُّون.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دَلالةُ الاسْتئنافِ بلفظ ﴿يَحۡذَرُ﴾:

فُصِلتْ جُملةُ ﴿يَحۡذَرُ﴾ عن جُملةِ ﴿أَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ أَنَّهُۥ﴾؛ لأنَّ جُملةَ ﴿يَحۡذَرُ﴾ خبرٌ، والسّابقةُ كانت إنشاءً نَوْعُه اسْتفهامٌ، كذلك جُملةُ ﴿يَحۡذَرُ﴾ "اسْتِئْنَافٌ ابْتِدَائِيٌّ لِذِكْرِ حَالٍ مِنْ أَحْوَالِ جَمِيعِ المُنَافِقِينَ...

إظْهارُ الإيمانِ بالمُعجزاتِ، يَكشفُ خوْفَ المُنافقين منَ الفَضْحِ

(1) أحمد مختار، معجم اللّغة العربيّة المعاصرة: (خرج).
(2) الفِيروزابادي، بصائر ذوي التّمييز: (حذر).
(3) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/170.
(4) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/171.

وَهُوَ إِظْهَارُهُمُ الإيمانَ بِالْمُعْجِزَاتِ، وَإِخْبَارُ اللهِ رَسُولَهُ ﷺ بِالْمُغَيَّبَاتِ"[1]؛ لذا وجبَ الفصْلُ لكمالِ الانقطاعِ.

بَلاغةُ الكِنايةِ في لفْظةِ ﴿يَحْذَرُ﴾:

المُنافقونَ يَعلَمُونَ أنَّ الدِّينَ حَقٌّ، وَلَكِنَّ العِنادَ غشّى على بصائرهم

جُملةُ "﴿يَحْذَرُ﴾ خبرٌ عن حالِ قلوبِهم، أو عمَّا يُظهرونَه للمسلمين تَصَنُّعًا، وحَذَرُهُم إنّما هو أن تُتلَى سُورةٌ، ومُعتقدُهم أَتَنْزِلُ أم لا؟ ليس بِنَصٍّ في الآيةِ لكنّه ظاهرٌ، فإن حُمِلَ على مُقتضَى نِفاقِهم واعتقادِهم أنّ ذلك ليس من عندِ اللهِ تعالى فوجْهٌ بَيِّنٌ، وإن قيل: إنّهم يعتقدون نزولَ ذلك من عندِ اللهِ وهم يُنافقون مع ذلك فهذا كُفْرُ عِنادٍ"[2]. قال الطّبريُّ: "المنافقون كانوا إذا عابُوا رسولَ اللهِ ﷺ وذكرُوا شيئًا من أمره وأمْرِ المسلمين قالوا: لعلَّ اللهَ لا يُفشي سِرَّنا؛ فنزلتِ الآيةُ في ذلك"[3]، "وهذا يقتضِي أنّه كفرُ العِنادِ"[4]، ففي كلمةِ ﴿يَحْذَرُ﴾ كنايةٌ عن أنّهم مُوقِنون بأنَّ هذا الدّينَ من عندِ اللهِ تعالى قطْعًا، وأنَّ محمّدًا رسولُ اللهِ حقًّا.. فهم إذن لا يُكذِّبون بالدِّين، وإنّما يَجْحَدون رسولَ اللهِ ﷺ، ويَرفضُون قَبولَ الإسلامِ؛ لأنّه لم يَنزلْ فيهم على رجلٍ منهم.

إيثَارُ لفْظِ ﴿تَحْذَرُونَ﴾ دُونَ غيرِه:

المُنافقون عاجِزون عنِ النَّجاةِ بأنفُسِهم

وآثرَ النَّظمُ الكريمُ مادّةَ الحَذَرِ التي تُفيدُ أنّهم يعيشون التّوتُّرَ الظّاهريَّ كما يعيشون الخوفَ والتّوجُّسَ الدّاخليَّ، وقد "كانوا يَستهزئون بالإسلامِ وأهلِه، وكانوا يَحذَرون أن يفضَحَهمُ اللهُ تعالى بالوحْيِ فيهم، حتى قال بعضُهم: واللهِ لا أُرانا إلا شرَّ خلْقِ اللهِ، لَوَدِدْتُ أنّي قُدِّمتُ فجُلِدتُ مائةَ جلدةٍ، وألّا ينزلَ فينا شيءٌ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/247.
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/54.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 14/331.
(4) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/55.

يفضَحُنا"[1]، وذلك يُقَرِّرُ تصْديقَهم الرّسولَ ﷺ في دعواهُ الرّسالةَ السّماويّةَ، وأنّه حقًّا رسولٌ يُوحَى إليه منَ اللّه تعالى، وإلا فماذا يَخْشَوْن من رَجُلٍ لا يَطَّلِعُ على أخبارِهم، ولا يَكشفُ اللّه تعالى له خبايَاهُم، ولا يُطْلِعُه على ذمِّهم إيّاه، ولَمْزِهم دينَه الجديدَ الذي يزعُمُ إن كانوا صادقِين؟ وهكذا يَنْتَقِي الذّكرُ الحكيمُ ألفاظَه المُصَوِّرَةَ بطبْعِها، والحذرُ وإن كان يدْفعُ الضَّرَرَ - وَلِهَذَا يُقَال: خُذْ حِذْرَك[2] - فإنَّ المنافقين معه إزاءَ تَنَزُّلِ سُورةٍ تفضحُهم عاجزون عنِ التَّوَقِّي والنّجاةِ؛ لأنَّ الأمرَ فوق أنْ يَتَوَقَّوْه؛ لأنّه ينزلُ منَ السماء.

نُكتةٌ صَوتيّةٌ تتعلّق بالفعْلِ ﴿يَحْذَرُ﴾:

البِناءُ الصّوتيُّ يَحكِي تَردُّدَ المُنافقين ويُصوِّرُ توتُّرَهم

وإلى ذلك يُحِسُّ المُتلقِّي أنَّ الإيقاعَ الصّوتيَّ للفعل ﴿يَحْذَرُ﴾ يُناسبُ حالتَهم، ويَختلفُ أكثرَ عنِ الإيقاعِ الصّوتيِّ للفعل: يخافُ؛ في أنَّ السّكونَ في وسَطِ ﴿يَحْذَرُ﴾ يَحكِي التّوتّرَ والتّردُّدَ الذي يعالجُه المنافقون ويعانونَه في دواخِلِهم، أمّا الفعلُ يخاف فوسَطُه مَدٌّ يُتيحُ تنفيسَ قَدْرٍ منَ ذلك التّوتّرِ والرُّعبِ، وإخراجَ بعْضِ كُرْبتِهم المكبوتةِ.

سِرُّ التّعبيرِ بالفعْلِ المضارع ﴿يَحْذَرُ﴾:

المُنافِقُونَ أَضْعَفُ النَّاسِ، وَإِنْ أَبْدَوا التَّجَلُّدَ

المضارعةُ هنا تُصوِّرُ تيقُّظَ المنافقين المتجدِّدَ، بلا فتورٍ ولا توقُّفٍ؛ ترقُّبًا لِنزولِ أخبارٍ منَ السّماءِ تفضَحُهم وتكشفُ سَترَهم للرّسولِ ﷺ والصّحبِ الأخيارِ، فلا قرارَ لهم ولا راحةَ، وقد وقعُوا في رسولِ اللّه ﷺ، وفي دينِه الحنيفِ، وفي أتباعِه المؤمنين، جُبْنًا وضآلةً، وتلك حالةُ المنافقين أبدًا؛ يُكابدون إخفاءَ نفاقِهم وحقْدِهم وإن أظهرُوا للمؤمنين التّجلُّدَ، وذلك دليلُ ضعْفِهم وجُبْنِهم.

الغرَضُ من وضْعِ المُظْهَرِ مَوضِعَ المُضْمَرِ:

منَ اللّافتِ أنَّ المنافقين لم يُذكَروا في القرآن الكريمِ ضميرًا

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/286.
(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 240.

مُتّصلًا بالفعل هكذا: الّذين نافقوا إلّا في موضعَيْن فقط[1]، أمّا في غيرِهما فقد وردَ ذِكرُهم بالاسْمِ الصّريحِ المنافقون، والمنافقات، وبلغَ ذلك حوالي إحدى وثلاثين مرّةً.

أعظَمُ جُرْمٍ للمُنافِقينَ، الإستهزاء بدين اللهِ تعالى لإرْضَاءِ المَخْلُوقِينَ

في حين جاء ذكرُ الكافرين في القرآن الكريم ضميرًا مُتّصلًا بالفعْلِ هكذا: الذين كفروا كثيرًا[2]، وأكثرُ منه وردَ ذِكرُ المؤمنين ضميرًا متّصلًا بالفعْلِ هكذا: الذين آمنوا[3].

وهذا هو الموضعُ الأوّلُ الذي يُذكرُ فيه المنافقون صراحةً في سُورةِ التّوبةِ، بعد أنْ عرَّض الذّكرُ الحكيمُ بِهم دونَ تصريحٍ مِن بِدايةِ السّورة الكريمةِ، وكأنّهم هنا قد بلغُوا الذّروةَ في الجُرْمِ بالحَلِفِ الكاذبِ، مُسْتهينِين بأيمانِ اللّه تعالى لِغايةٍ دنيئةٍ هي إرضاءُ المخلوقين في مغضَبَةِ اللّه تعالى، وإن كانوا صحابةَ رسولِ اللّه ﷺ.

سِرُّ التّعبيرِ باسْمِ الفاعل المصوغ من النّفاق في السّياق:

الثّباتُ على النّفاقِ، أقْبحُ وصْفٍ، وأسوأ خلق

تَذكُرُ السّورةُ الكريمةُ المنافقين باسْمِهم الصّريحِ - ذُكُورَهُم وإناثَهم - في هذه الصّفحةِ وحدَها سِتَّ مرّات، وكلُّها بصيغةِ اسْمِ الفاعلِ القائلِ بالثَّبَات على مبدأِ النِّفاقِ، بحيث إنّهم لا يَنفكُّون عنه ولا ينفكُّ عنهم على امتدادِ سنواتِ الرّسالةِ في المدينةِ المنوّرةِ، بل إنَّ القرآن الكريمَ يَقطعُ في هذا الحُكم العامِّ الصّريحِ بأنّ هذا دَيْدَنُ المنافقين ما بَقِيتِ الدّنيا، حتى لَيَقولُ: ﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍۚ﴾ [التوبة: 67]، وكأنّهم يتناسلونَ النّفاقَ، ويَتوارثونَه كما يتناسلُونَ الذَّراري: ﴿مِّنۢ بَعْضٍۚ﴾ ويَستبعدُ النّظمُ الكريمُ هنا التَّعبيرَ عنهم بالضّميرِ المتّصلِ بالفعْلِ؛ لأنَّ الفعلَ لا يُترجِمُ عن تَرَسُّخِ النّفاق في نفوسِهم، وتَشَبُّعِ نفوسِهم وقلوبِهم به تشبُّعًا يَجْعلُه

(1) هما قول الله تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْۚ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ قَٰتِلُواْ﴾ [آل عمران: 167]، وقوله تعالى: ﴿۞أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ [الحشر: 11].

(2) في حوالي مائتي موضع بحسب العدّ الآلي.

(3) في حوالي مائتين وستة وستين موضعًا بحسب العدّ الآلي أيضًا.

مخلوطًا بخلايا عقولِهم ونفوسِهم، بحيثُ يَصعُبُ تَغْييرُه، ولا يُناسبُه أن يُعبِّرَ عنه بالضّميرِ المتَّصلِ بالفعل؛ لأنّ الفعلَ فيه عُنصرُ الزّمن، "وَالزَّمَان غيرُ قَارِّ الذَّاتِ"[1] ولا مُستقرِّها.

الغرَضُ منَ التّعبيرِ بالمجازِ، في الفعلِ ﴿تُنَزَّلَ﴾:

نُـزُولُ الـقُـرْآنِ الكَرِيمِ بِفَضَائِحِ المُنَافِقِينَ، شَدِيدُ الوَطْأَةِ عَلَيْهِمْ

التَّنزيلُ في أصْلِ وضعِه اللّغويِّ يُستعملُ في المحسوسات، يقال: "نَزَّلَ الشَّخصَ، ونَزَّل الشَّيءَ: أنزلَه، وجعله يَهْبِطُ، ونَزّلَ الصَّغيرَ مِن فوقِ الدّراجةِ، ونَزّل اللّهُ المطرَ، ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا﴾ [ق: 9]"[2]، لكنّ القرآنَ الكريمَ يَستعملُه كثيرًا في المعقولات كما هنا؛ فيُضْفِي عليها صِفَةَ المحسوسات؛ ويمنحُها صفةَ التّجسيدِ؛ ليُحقِّقَ المبالغةَ في تَمَايُزِ المُنَزَّلِ الشّريفِ، ويُجَلِّيَه أمامَ بَصرِ القلوبِ، فيصيرَ كأنّه كُتْلةٌ محسوسةٌ تُدرَكُ بالحواسِّ الظّاهرةِ.

وفي ذلك التّصويرِ هنا مَزيدُ تَهديدٍ للمنافقين؛ بِتَجْسِيدِ السّورة - التي يَحذرون أنْ تُنَزَّل عليهم لِتفضَحَهم - بتشبيهِها بالشّيءِ الحِسِّيِّ الثَّقيلِ، الذي يَسقطُ مِن عُلْوٍ؛ فيَكسرُ ما يُنَزَّلُ عليه.

نُكتةُ التّعبيرِ بالفعْلِ ﴿تُنَزَّلَ﴾، مُضعّفًا بالتّشديدِ:

الـتَّـضـعـيـفُ يَـحـكِي شِـدّةَ المُـنـزَّلِ، فضْحًا للمنافقين

والتَّشديدُ في الفعْلِ ﴿تُنَزَّلَ﴾ يَحكي ثِقَلَ المُنَزَّلِ وشِدَّةَ وطْأتِه عليهم، وما يسبِّبُه من إهلاكِهم، والإهلاكُ هنا يُحتملُ أن يكون حقيقيًّا بأنْ يقتلَهم الرّسولُ ﷺ، ويُزهقَ أرواحَهم، وهذا ما لم يفعَلْه الرّسولُ ﷺ رحمةً بهم برغْمِ تَفاقُمِ جرائمِهم؛ وحتى لا يَمحُوَ أمّةً قد يُخرجُ اللّه تعالى مِن أصلابِهم مَن يُوَحِّدُه، ويُحتملُ أن يكونَ قتلًا معنويًّا، بأنْ يُخرجَهم من أرضِهم وديارِهم وأموالِهم، ويَكشفَ سَترَهم ويُخزيَهم - كما فعل ﷺ بهم - وحكاه القرآن الكريم: ﴿وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾﴾ [الأحزاب: 27].

(1) الكفويّ، الكلّيّات، ص: 827.
(2) أحمد مختار، معجم اللّغة العربيّة المعاصرة: (نزّل).

بلاغة حَذْفِ الفَاعِلِ فِي ﴿تُنَزَّلَ﴾:

المُخزِي خوف المُنافِقِينَ مِن الفَضِيحَةِ الدُّنْيَوِيَّةِ لَا الأُخْرَوِيَّةِ

منَ المسلَّم أنَّ الذي يُنَزِّلُ السّورةَ باعتبار الأمْرِ هو اللّه تعالى، وباعْتِبارِ التّنفيذِ هو سفيرُ الوحْيِ جبريلُ، وعليه فلا داعِيَ لذِكْرِ فاعلِ التَّنزيلِ، فحُذفَ الفاعلُ وبُنِيَ الفعلُ لغيْرِ فاعلِه، ومنَ الإشاراتِ البلاغيّةِ لِبناء الفعل ﴿تُنَزَّلَ﴾ لغيْرِ فاعلِه - إلى ذلك - أنَّ المنافقين ليسُوا مِنَ الشَّرَفِ والمكانةِ بحيث يُنَزِّلُ اللّه تعالى عليهم شيئًا، حتى إنّهم ليسُوا منَ الشّرفِ بحيث يُنَزِّلُ عليهم جبريلُ - وهو أمينُ الوحْيِ - شيئًا، وإن كان هذا الشيءُ سُورةً تفضَحُهم، فاستبعدَ النّظمُ الكريمُ نسبةَ تنزيلِ السّورةِ عليهم إلى فاعلِه الحقيقيِّ حتى ولو كانت سُورةً فاضحةً، أو كانت بمثابةِ قذيفةِ عذابٍ مُهلكةٍ، وإلى ذلك أيضًا يُفسِحُ حذفُ الفاعل للذِّهْنِ ليركِّزَ على المفعول به الـ ﴿سُورَةٌ﴾ الذي صار نائبَ فاعلٍ؛ لأنَّ المحذورَ هنا هو المنزَّلُ لا المنزِّلُ؛ فحُذفَ الفاعلُ للعنايةِ بإبرازِ الخطرِ المُتأججةِ نارُ حذرِه في نفوسِهم إزاءَ تلك الـ ﴿سُورَةٌ﴾ المحذورةِ.

بَلَاغَةُ التّعبيرِ بالمَجَازِ المُرسَلِ، فِي تَنْزِيلِ السُّورَةِ ﴿عَلَيْهِمْ﴾:

المُنافِقُونَ لَيْسُوا أَهْلًا لِأَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ شَيْءٌ مِنَ اللهِ تعالى

تنزيلُ السُّورةِ لا يكونُ حقيقةً إلّا على الرّسولِ ﷺ؛ لأنّه النَّبِيُّ المُرسَلُ، والمنافقون - كما سبقَ قريبًا - ليسُوا منَ الشّرف بمثابةِ أن يُوقِع النّظمُ الكريمُ التّنْزيلَ عليهم من قِبَل اللّه تعالى ولو كان المُنَزَّلُ عليهم من قِبَلِه تعالى عقوبةً، فأصلُ هذا التّركيبِ: أنْ تُنزَّلَ بِسببِهم على رسولِ اللّه ﷺ سُورةٌ تفضحُهم، فَزُحْزِح التّنزيلُ مِن أنْ يكونَ على رسولِ اللّه ﷺ إلى أن يكون عليهم، فَفِي ﴿عَلَيْهِمْ﴾ مَجازٌ مرسَلٌ عَلاقتُه السَّببيَّةُ؛ لأنّهم سَببُه.

و"السُّورَةَ إِذَا نَزَلَتْ فِي مَعْنَاهُمْ فَهِيَ نَازِلَةٌ عَلَيْهِمْ"[1]؛ فما دام

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 16/93.

غايةُ تنزيلِ الـ ﴿سُورَةٌ﴾ أن تفضحَهم، وقد تتسبَّبُ في قتْلهم حِسِّيًّا أو معنويًّا بإخراجِهم خَزايَا مِن أرضِهم وديارِهم وأموالِهم - كما حدث بالفعل - فإنّها ليستْ سورة تشريفٍ وإنّما هي سورة عُقوبةٍ، والعقوبةُ حقُّها أن تنزَّلَ عليهم هم مباشرةً؛ فكان في التَّعبيرِ عن ذلك المعنى بأن تُنزَّلَ السّورةُ ﴿عَلَيْهِمْ﴾ هُمْ مناسِبًا مُتَّسقًا أتمَّ مَناسبةٍ وأبْينَها.

بَلَاغَةُ تَقْدِيمِ الجَارِّ وَالمَجْرُورِ ﴿عَلَيْهِمْ﴾:

تحقُّقُ الرُّعبِ في نفوسِ المنافقين، واهتزاز موقفهم مع المؤمنين

يتآزرُ تقديمُ الجارِّ والمجرورِ ﴿عَلَيْهِمْ﴾ على نائبِ الفاعل ﴿سُورَةٌ﴾ مع عطاءِ التّركيبِ في لَفْتِهم ابتداءً قَبْلَ ذِكرِ المُنزَّلِ، وفيه عِدَّةُ إشاراتٍ كلُّها فاعلةٌ في نفوسِ المنافقين:

إحْدَاها: أنّ هذا السّاقطَ من أعلَى سيكونُ ﴿عَلَيْهِمْ﴾ هم دونَ المؤمنين؛ إذ كانوا يُشيعُون أنّهم أهلُ الحقِّ وأهلُ الجنّةِ، وأنَّ المسلمين هم أهلُ الباطلِ وأنّهم أهلُ النّار الهالكون، فقلَبَ عليهمُ الذّكرُ الحكيمُ ذلك الزّعْمَ.

ثانيتُها: تقريرُ نسبةِ الإيقاعِ أنّه ﴿عَلَيْهِمْ﴾ هم وتأكيدُه قبْلَ الوصولِ على المنزَّلِ، وأنّهم لا مناصَ لهم منَ الفضيحةِ، وربّما منَ الهلاكِ أيضًا.

ثالثتُها: أنّ الأخْذَ بأبصارِهم إلى الأعلَى - من خلال حرفِ الاسْتِعلاء على - يُحقِّقُ الرُّعبَ في نفوسِهم، ويُفيضُ التّوتّرَ على ظواهرِهم؛ إذ يأخذُ بأبصارِهم إلى أعلَى، ويشدُّها إلى فوقٍ، وكأنّ شيئًا خطيرًا سيسقطُ عليهم ويُهلكُهم.

سِرُّ التّنكيرِ في لفظ ﴿سُورَةٌ﴾:

المنافقون أهلُ فزَعٍ وهلَعٍ، من أقلِّ شيءٍ يقع

السورة "قطعةٌ منَ القرآن شديدةُ الانتظام"[1]، وقد آثرَ النّظمُ الكريمُ التّعبيرَ بها هنا لما تُوحِي به منَ الإحاطةِ بكلِّ ما في قلوبِهم

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/515.

إحاطةَ السُّورِ بما يُسوِّره، بحيث لا يَبقَى في قلوبِهم شيءٌ مخفيٌّ لا يُفضَحُ، وذلك ممّا يُضاعفُ على المنافقين الضّغطَ لينتهُوا عن نفاقِهم، ويُخلصُوا للّه تعالى دينَهم، وقد جاءت مُنكّرةً؛ لبيانِ أنَّ أقلَّ قدْرٍ يُخيفُهم، وأنّهم أهلُ فزعٍ وهلَعٍ.

تفاصِيلُ وصْفِ السُّورةِ، زيادةُ تفزيعٍ للمنافقين الفجرة

سِرُّ القَيْدِ بِجُمْلَةِ الصِّفَةِ ﴿تُنَبِّئُهُم﴾:

جُملةُ القيْدِ بالصّفةِ ﴿تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمْۚ﴾ تتضمّنُ فضلًا عن وصْفِ السّورةِ غايةَ إنزالِها، وتتَّسِعُ لِتستوعبَ جُملةً أصغرَ في حيِّزِها هي جملةُ الصِّلةِ ﴿بِمَا فِي قُلُوبِهِمْۚ﴾، وكلتاهما تتآزرانِ على بيانِ مُحتوَى الـ ﴿سُورَةٌ﴾ ومهامِّها بتفاصيلَ بارعةٍ في تحقيقِ الغرَضِ.

أَحْقَادُ المُنَافِقِينَ مِنْ القُلُوبِ فِي السَّوَيْدَاءِ؛ تَفْجَؤُهُمْ بوحي من السَّمَاءِ

الدِّقَّةُ في اصْطِفاءِ كلمةِ ﴿تُنَبِّئُهُم﴾:

جُملةُ ﴿تُنَبِّئُهُم﴾ جملةُ صِفةٍ، وهي جُملةٌ كبرَى وقعَ في حيِّزِها جملةٌ صُغرَى، لذلك صارتْ متكاثفةَ الدَّلالات والإشاراتِ، فالفعلُ ﴿تُنَبِّئُهُم﴾ يقرِّرُ أنَّ الـ ﴿سُورَةٌ﴾ سَتكشِفُ للمنافقين منَ المعاني الخبيثةِ المُستكنّةِ في قلوبِهم ما يُفاجِئُهم؛ لأنّها ليست أخبارًا مُعتادةً، وإنّما هي أنباءٌ تُبهرُهم بدقائقَ لا يعلمُها إلا هم؛ لأنّهم "لم يُظهرُوا عليه أحدًا من غيرهم، أو أحدًا مُطلقاً، ولعلَّ هذا الصّنفَ كانوا يُسلفون الأيمانَ لعلّها تُشكِّكُ بعضَ الناس أو تخفِّفُ عنهم إذا نزلَ ما يَهتِكُهم"[1].

قال أبو السّعود: "ومعنى تَنْبِئَتِها إيّاهم بما في قلوبِهم مع أنّه معلومٌ لهم - وأنَّ المَحذورَ عندهم اطِّلاعُ المُؤمنين على أسرارِهم لا اطلاعُ أنفُسِهم عليها - أنّها تُذيعُ ما كانوا يُخفُونه منْ أسرارِهم فتنتشرُ فيما بين النّاسِ فيسمعونُها من أفواه الرِّجالِ مُذاعةً، فكأنّها تُخبرُهم بها، أوِ المرادُ بِالتَّنْبِئَةِ المبالغةُ في كوْنِ السّورةِ مُشتملةً على

(1) البقاعي، نظم الدرر: 8/515.

أسرارِهم كأنّها تَعلمُ من أحوالِهم الباطنةِ ما لا يعلمونَه فتُنبِّئُهم بها، وتنْعِي عليهم قبائِحَهم"[1].

فكان اصْطفاءُ ﴿تُنَبِّئُهُم﴾ دون (تُخبرُهم) أنّ السّورةَ تغوصُ على تلك الخبيئاتِ في أعماقِهم، ولذلك "كان المسلمون يُسمُّون هذه السّورةَ الحفَّارةَ، حفرت ما في قلوبِ المنافقين وأظْهرتْه"[2]؛ وهم لِشدّةِ إخفائِهم تلك الدّقائقَ الماكرةَ لا يتوقّعون أن يُمكنَ الوصولُ إليها، لكنّها وإن كانت ممّا يخفَى على النّاسِ قطْعًا لا تخفَى على اللّه تعالى، الذي يعلمُ السّرَّ وأخفَى، فمهما يُخْفُوا تلك القبائحَ فإنّها تظهرُ، وتتجلَّى، ويَفضْحُها اللّه تعالى، ويَكشِفُها حتى يكونَ في كشْفِها مفاجأةٌ لهم لا يتوقّعونَها، وبها تنزلُ السّورةُ.

دَلالةُ التَّعبيرِ بالمضارعِ، فِي الفِعْلِ ﴿تُنَبِّئُهُم﴾:

تتناغمُ المضارعةُ في الفعل ﴿يَحْذَرُ﴾ مع سِياقِ الآيةِ الكريمةِ؛ إذ تُترجِمُ عن أنّ الحَذَرُ لدى المنافقين يَتجدَّدُ، وأنَّ التّوتّرَ والتّوجُّسَ فيهم يتصاعدُ، وأنّ السورة تكشِفُ في المقابلِ خِزَاياتِهم، وتَفْضَحُ مُضْمراتِهم الدّنيئةَ أوَّلًا بأوّلٍ، وأنّه كلّما تجدَّدت فيهم أو لدَيْهم خبيثةٌ جَدَّدتِ السورة لها فضْحًا، وكأنّ السورة لن تتوقّفَ عنِ التنزُّلِ بفضائِحِهم. فالمضارع لِذلك عنصرٌ يُثيرُ في نفوسِهم الذُّعْرَ لِينتهُوا عن إضمارِ مكائدَ للإسلام أو تدبيرًا ضِدَّ المسلمين.

السُّورَةُ الفَاضِحَةُ المُرْتَقَبَةُ مِنَ المُنَافِقِينَ، لَاتَتَأَخَّرُ عَنْ فَضْحِهِمْ

المَجَازُ العَقْلِيّ فِي إِسْنَادِ الفِعْلِ ﴿تُنَبِّئُهُم﴾ لـ ﴿سُورَةٌ﴾:

معنى ﴿تُنَبِّئُهُم﴾ "تُذِيعُ أَسْرَارَهُمْ إِذَاعَةً ظَاهِرَةً، فكأنّها تُخبرُهم"[3]، ففي إسنادِ الفعْلِ ﴿تُنَبِّئُهُم﴾ لـ ﴿سُورَةٌ﴾ مَجازٌ عَقْلِيٌّ علاقتُه السّببيَّةُ؛ لأنّ الذي يُنبِّئهم حقيقةً هو الرّسولُ ﷺ بِخَبَرٍ ينزلُ في السّورة منَ اللّه تعالى. والنّبيُّ ﷺ هو الذي يُوحَى إليه

الإذاعةُ الظّاهرةُ لِما في قلوبِهم، أبلغُ فاضِحٍ لخباياهم

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السليم: 4/79.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 8/516.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 16/93.

لا المنافقون، والسّورةُ إنّما تُنَزَّلُ على رسولِ اللّه ﷺ بما فيها من تفاصيلِ خبيئاتِهم الشّنيعةِ، ممّا يَحِيكُونَه بينَهم، وتكونُ السّورةُ السببَ المباشرَ في وقوف النّبيِّ ﷺ على تلك المَخازِي، ومحلًّا لتلك التّفاصيلِ، وكأنّ السّورةَ لِقُوَّة بيانِها عن جرائمِهم المَخْفِيَّةِ في قلوبِ المنافقين صارت بحيث تَنطقُ وتُنَبِّئُ وتَفضحُ قبْلَ أن يُنَبِّئَهم رسولُ اللّه ﷺ بما فيها، و"كأنّها تقولُ لهم: في قلوبِكم كيْتَ وكيْتَ، يعني أنّها تُذيعُ أسرارَهم عليهم حتى يسمعُوها مُذاعةً مُنتشرةً فكأنّها تُخبرُهم بها"[1].

بَلاغةُ الاستعارة، في كون السّورة تنبّئهم:

مَعرفةُ بواطنِ المنافقين، أصلٌ - في معاملتِهم - مكينٌ

في قولِه تعالى: ﴿سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ "اسْتعارةٌ؛ لأنّ السّورةَ نُطقُها من جهة البَرهانِ لا من جهةِ اللّسانِ، فكأنّه سُبحانه أراد أنّ النّاسَ يعلَمون بهذه السّورةِ النّازلةِ في المنافقين بواطِنَ نفوسِهم، وعقائدَ قلوبِهم"[2].

سِرُّ القيْدِ بالجارِّ والمجرورِ في جُملةِ ﴿بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾:

المنافقون لهم تاريخٌ أسودُ يَخشَوْن افْتِضاحَه

عبّرَ النّظمُ الكريمُ بالاسْمِ الموصولِ (ما) وهو أعَمُّ الموصولاتِ، وأدخَلُها في الإبهامِ، وفيه منّ التّهديدِ بالفضْحِ الشّاملِ التّامِّ ما فيه، وقد حذَفَ متعلّقَ الجارِّ، وتقديرُه استقرَّ أو مُستقِرٌّ، وفي الحذْفِ إيجازٌ، وفي هذا النّمَطِ منَ البناءِ كشْفٌ عنِ اطْمئنان المنافقين لِما استقرَّ في قلوبِهم، وتَوهُّمِ عدَمِ كشْفِه وبيانِه من أحدٍ.

دَلالةُ التّعبيرِ بحرفِ الوِعاءِ ﴿فِي﴾:

قُلُوبُ المُنَافِقِينَ أَوْعِيَةٌ تَحْوِي أَقْذَارَ النِّفَاقِ، مِنَ الكَرَاهِيَةِ وَالكَيْدِ

الظّرفيّةُ في الجارِّ والمجرور ﴿فِي قُلُوبِهِمْ﴾ يُصوِّرُ قلوبَ المنافقين أوعيةً عميقةً، يُخبِّئون فيها أحقادَهم المَقيتةَ على الدّينِ الحنيفِ وعلى الرّسولِ ﷺ وعلى المؤمنين، وكأنَّ السّورةَ التي تُنزَّلُ عليهم

(1) الزمخشري، الكشّاف: 2/286.
(2) الشّريف الرّضي، تلخيص البيان فى مجازات القرآن: 2/146.

صارتْ دَلْوًا يَمْتَحُ مِن صديدِ قلوبِهم العَفِنةِ، وينْشرُ من فضائحِهم أمامَ النّاس ما استقرَّ في أعماقِها - والعياذُ باللّه تعالى - منَ النّفاقِ وأهْلِه.

سِرُّ التَّعبيرِ بلفْظِ ﴿قُلُوبِهِمْۚ﴾ جمْعًا:

المُنَافِقُونَ عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ مِنْهُمْ

جَمَع النّظمُ الكريمُ ﴿قُلُوبِهِمْۚ﴾ لِيُفيدَ عُمومَ الحُكم جميعَهم، وأنّهم وإن تعدّدت ﴿قُلُوبِهِمْۚ﴾ على المنهجِ نفسِه منَ النِّفاقِ والمكرِ والخِداعِ، وذلك لا يَدَعُ أحدًا منهم بِمأمنٍ منَ الافتضاحِ في الـ ﴿سُورَةٌ﴾ المُرتقَبةِ، ولا يَستثنِي أحدًا منهم منَ الحذرِ والخوفِ الذي أُفرِغَ في هذه القلوب إلى ما في التّطابُقِ بين جمْعِهم في أوَّل الآيةِ ﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾ وجمْعِ ﴿قُلُوبِهِمْۚ﴾ هنا؛ ممّا يُقرِّرُ أنَّ أفرادَهم وجماعاتِهم مُتورِّطون في اقترافِ تلك المخازِي.

دَلالةُ الاسْتِئناف بـ: ﴿قُلِ﴾:

تَهديدُ اللّه ووعيدُه للمستهزئين بآيات اللّه ورُسلِه

فُصِلتْ جملةُ ﴿قُلِ﴾ عمّا قبْلَها لاختلافِ طبيعتَيْهما، فهذه أمرٌ والسّابقةُ خبرٌ، وكذلك هذه تُعدُّ استئنافًا بيانيًّا بتنزيلِها منزلةَ جوابٍ لِسؤالٍ مُقدَّرٍ ينشأُ في قلْبِ المخاطَبِ تقديرُه: وما الموقفُ منهم وما العملُ معهم يا ربُّ؟ أو: وما الحُكمُ فيهم يا ربُّ؟ فأتى الجوابُ: ﴿قُلِ﴾.

بلاغَةُ الأَمْرِ بالفعل ﴿قُلِ﴾:

اَلذِّكْرُ الحَكِيمُ يُكَرِّمُ الرَّسُولَ الأَمِينَ، بِتَفْوِيضِهِ بتهْدِيدِ المُنَافِقِينَ

كان يُمكنُ صِياغةُ السّؤالِ بالأمْرِ لهم صياغةَ المضارع الغائبِ هكذا: فليَستهزئوا كما جاء في الآيةِ السّابقةِ، غيرَ أنّ ردَّ اعتباره ﷻ وردَّ اعتبار أصحابِه الأبرارِ ناسبَه صدورُ التّهديدِ منه ﷻ مباشرةً للمنافقين، وأن يواجهَهم هو ﴿ٱسْتَهْزِءُوٓاْ﴾ تهديدًا ووعيدًا، وإلى ذلك نلمسُ في الأمر ﴿قُلِ﴾ أنّ القضيّةَ قطعيّةٌ، وأنّها ليستْ اجتهاديّةً من رسولِ اللّه ﷻ أو أنّها مجرَّدُ تَوقُّعٍ وانتظارِ أن تُنَزَّل ﴿سُورَةٌ﴾ بل إنّ الأمر جدٌّ بموجبِ التّوكيد: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ﴾.

بَلَاغَةُ الأَمْرِ في لفظ ﴿ٱسْتَهْزِءُوٓاْ﴾:

أبلغُ التَّهديدِ، ما كان من جنْسِ العملِ

الأمرُ في ﴿ٱسْتَهْزِءُوٓاْ﴾ "لفظُه الأمرُ ومعناه التَّهديدُ"[1]، فخرجَ عنِ الغرَضِ الأصليِّ للأمرِ إلى أغراضِ التّهديدِ بالفَضْحِ، والوعيدِ بالعذابِ؛ ليَزدجِروا عن سلوكِهمُ المُشينِ منَ الاستهانة بيمينِ اللّه تعالى، والتّخلُّفِ عنِ الغزْوِ بِدون أعذارٍ، والذّمِّ في الرّسول ﷺ... إلخ.

على أنّ فعْلَ الاستهزاءِ لم يَسبقْ له ذِكرٌ، وإنّما هو توصيفٌ لِمكائدِهم السّابقةِ التي اعتذرُوا عنها بعُذْرٍ أقبحَ منها فقالوا: ﴿إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُۚ﴾، وهو منَ الآيةِ التّاليةِ التي تَضْطلِعُ بِوَجْهٍ من وُجوه الإعجازِ - هو الإخبارُ بالغيب، وأنّهم سيقولون ذلك القولَ في دفاعِهم التُّهمةَ لهم بالاستهزاء -، "وَإِنَّمَا العَجَبُ مِنْ أَمْرِهِمُ اسْتِمْرَارُهُمْ عَلَيْهِ مَعَ هَذَا الحَذَرِ"[2].

وَجْهُ الفَصْلِ بَيْنَ جُمْلَةِ التَّذْيِيلِ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ﴾:

تتابعُ التّهديدِ يخلعُ القلوبَ، وترتعد منه الفرائس

جُملةُ الفاصلةِ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ﴾ تذييلٌ غيرُ جارٍ مجرَى المَثلِ لارتباطه بسِياقه ومقامِه، وفُصِلتْ هذه الجُملةُ عمّا قبْلَها؛ لأنّ السّابقةَ إنشاءٌ ﴿قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓاْ﴾ وهذه خبرٌ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ﴾، وهكذا يتماوجُ السّياقُ بين الخبر والإنشاء ثم الخبرِ وهكذا، ومع ذلك تُعدُّ جُملةُ الفاصلةِ التّذييليَّةِ بِمثابة جوابِ الأمرِ، أي: استهزئوا يُخْرِجْ...؛ لأنّه لا يُعطَفُ الجزاءُ على الشّرط.

بَلَاغَةُ تَوْكِيدِ جُمْلَةِ الفَاصِلَةِ التَّذْيِيلِيَّةِ:

افْتِضَاحُ المُنافِقِينَ يقين، مَا لَمْ يَتُوبُوا، وإنْ سُتِرُوا حينا من الدّهر

﴿إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ﴾، أُكِّدَتْ جملةُ الفاصلةِ بـ ﴿إِنَّ﴾، واسْمِيَّةِ الجملةِ، واسْميّةِ الخبر ﴿مُخْرِجٌ﴾؛ ليتقرّر القطْعُ بِوقوعِ هذا الوعيدِ -وقد كان-، والاسْمُ ﴿مُخْرِجٌ﴾ يُمَحِّضُ الإخراجَ للاستقبال.

(1) ابن عطية، المحرّر الوجيز: 3/54.
(2) رشيد رضا، تفسير المنار: 10/455.

وفي هذا التّوكيدِ إيحاءٌ بأنّه مهما تَطاوَل بهم الزّمنُ مستورين فإنَّ الإخراجَ والكشْفَ عن فضائحِهم واقِعٌ لا محالةَ، وكان ذلك داعيًا المنافقين إلى التّوبةِ والإنابةِ، لكنّهم لم يتوبُوا؛ - تصديقًا عمليًّا عِنادُهم سَببٌ فيه - لإعجاز القرآنِ الكريمِ الذي أخبرَ بهذا المستقبَلِ قبْلَ وقوعِه، وقد بَقَوْا فِعلًا عاجزين عن تكذيبِه بالتّوبةِ برغم توفُّرِ حُرِّيةِ الاختيارِ لهم في هذه الدّنيا، وما زالتِ الفُرصةُ لائحةً لكلِّ منافقٍ إلى يوم القيامةِ فهلّا اقْتَنَصُوها!

بَلَاغَةُ إِسْنَادِ الخَبَرِ ﴿مُخْرِجٌ﴾، إلى اسْمِ الجَلَالَةِ ﴿ٱللَّهَ﴾ مُبَاشَرَةً:

بينما يَطوِي النّظمُ الكريمُ فاعلَ ﴿تُنَزَّلَ﴾ هناك يُصرِّحُ بالمُسنَدِ اليه ﴿ٱللَّهَ﴾ تعالى هنا، وقد رأينا البلاغةَ هناك تَكْمُنُ في الحذف، في حين لا تتحقَّقُ البلاغةُ هنا إلا بالذّكرِ؛ لأنّ ذكرَه تعالى يُقرِّرُ حصولَ الإخراجِ، و"أَنَّهُ مُخْرِجُهُ الآنَ بِتَنْزِيلِ هَذِهِ السُّورَةِ الَّتِي لَمْ تَدَعْ فِي قُلُوبِهِمْ شَيْئًا مِنْ مُخَبَّآتِ نِفَاقِهِمْ إِلَّا أَخْرَجَتْهُ وَأَظْهَرَتْهُ لَهُمْ وَلِلْمُؤْمِنِينَ"[1]؛ وهو تعالى لا يُخْلِفُ الميعادَ، فإذا أُسنِد إليه الإخراجُ صراحةً تأكَّدَ الحصولُ، وتقرَّرَ الحدَثُ مُستقبَلا كما تقرَّر ماضيًا.

اللهُ تعالى لِلْمُنَافِقِينَ بِالمِرْصَادِ؛ في الدّنيا، ويوم المعاد

بَلَاغَةُ التَّصْوِيرِ البَيَانِيِّ فِي الخَبَرِ ﴿مُخْرِجٌ﴾:

الإخراجُ يكونُ لِشيءٍ محسوسٍ، لكنّه هنا مُستعمَلٌ في الأمرِ المعقولِ - وهو مُضمراتُ نفوسِ المنافقين - فهُو مستعمَلٌ في معنى (الوصْفِ)؛ لِيُضفِي على مُضمراتِهم ثوبَ التّشخيصِ؛ لِيُفهِمَهم أنَّ ما يُخفونَه في نفوسِهم مِنَ التَّميُّزِ والتَّحَدُّدِ بمكانٍ، وكأنَّ مُضمراتِهم صارت مُشَخَّصَاتٍ يَقعُ عليها الإخراجُ، وهم وإن كانوا يَفهمون أنَّها إنّما تُحكَى وتُوصَفُ لكنَّ التّعبيرَ بالإخراجِ يَزيدُها حتْمًا وُضوحًا، وكأنّها صارتْ جُسومًا لن تَخفَى معالِمُها ولا تَشْتَبِهُ أوصافُها أمامَ النّاسِ.

ما يَستُرُه المنافقون، سيُخرجُه الله مُجسَّدًا مُحدّدًا واضحًا

(1) محمد رضا، تفسير المنار: 10/455.

سرّ التّعبير باسْمِ الفاعل ﴿مُخْرِجٌ﴾:

لله تعالى القُدرةُ المطلقةُ على إظهارِ الحقائقِ، والأسرارِ

عُبّر باسْمِ الفاعل ﴿مُخْرِجٌ﴾ المُنكَّر دونَ المضارع (يُخرجُ) ناسبًا الإخراجَ إليه تعالى باسْمِه الصّريحِ الأعظَمِ الدّالِّ على كمالِ قُدرتِه، لِيدلَّ على قُدرتِه المطلَقَةِ المُستمرّةِ على إظهارِ الحقائقِ، والأسرارِ مهما خَفيتْ.

ثم إنَّ ﴿مُخْرِجٌ﴾ اسْمٌ والاسْمُ يدلُّ على الثُّبوتِ؛ فجاء بالصِّيغةِ الاسْميّة لِما تقتضِيه من دَلالةِ ثُبوتِ صفةِ قُدرتِه المُطلقةِ على إخراجِ خفايَا النّفوسِ، وخبايَا أسرارِها.

سِرُّ إيثَارِ الاِسْمِ المَوْصُولِ ﴿مَا﴾:

أَضْغَانُ المُنَافِقِينَ جَمِيعُهَا عُرْضَةٌ لِلِافْتِضَاحِ، طال الزّمان أو قصر

من فضائلِ التَّعبيرِ بالاسْمِ الموصول ﴿مَا﴾، في قولِه تعالى: ﴿مَّا تَحْذَرُونَ﴾ أنّه يَستوعبُ كلَّ ما يدخلُ تحت جُملةِ صِلتِه، وهو هنا يُلَمْلِمُ كلَّ "الشَّرِّ الَّذِي يُسِرُّونَهُ فِي أَنْفُسِهِمْ، وَالأَضْغَانِ الَّتِي يُخْفُونَهَا فِي قُلُوبِهِمْ"[1]، ولا يَدعُ منها شيئًا يَنِدُّ عنِ الافتضاح، وذلك يزيدُهم فَرَقًا ورُعْبًا، كما أنّ من لطائفِ هذا " العُدولِ إلى التَّعْبِيرِ بِالمَوْصُولِ فِي قَوْلِهِ: ﴿مَّا تَحْذَرُونَ﴾... أَنَّ الأَهَمَّ مِنْ تَهْدِيدِهِمْ هُوَ إِظْهَارُ سَرَائِرِهِمْ لَا إِنْزَالُ السُّورَةِ، فَذِكْرُ الصِّلَةِ وَافٍ بِالأَمْرَيْنِ: إِظْهَارِ سَرَائِرِهِمْ، وَكَوْنِهِ فِي سُورَةٍ تَنْزِلُ، وَهُوَ أَنْكَى لَهُمْ، فَفِيهِ إِيجَازٌ بَدِيعٌ"[2].

بَلَاغَةُ رَدِّ العَجُزِ عَلَى الصَّدْرِ:

رَبْطُ أطرافِ الكلامِ، يُوثّقُ عُراه، ويُقوِّي رَوابطَه

رَدُّ العَجُزِ على الصّدْرِ هنا كفيلٌ بأن يَجمَعَ أطرافَ الكلامِ ويَربط آخرَها إلى أوّلها، يُوثِّقُ عُرى الكلامِ، وبه يَشتدّ وَثاقُه؛ فيوضعُ في النّفسِ وضعًا واحدًا، ويُفرَغُ إفراغًا واحدًا.. العجُزُ هنا ﴿تَحْذَرُونَ﴾ في آخرِ الآيةِ الكريمةِ، وهو يَرتبطُ ارتباطًا لفظيًّا جَليًّا بصدْرِها ﴿يَحْذَرُ﴾، ومن دقيقِ بلاغتِه أنّ الصّدرَ والعجُزَ كليهما فعلان،

(1) محمد رضا، تفسير المنار: 10/454.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 10/249.

وكلاهما مُضارعان، وفاعلُ كليهما واحدٌ هو المنافقون؛ لذا كان رابطًا قويًّا بين طَرَفَي الآيةِ الكريمةِ؛ حتى صارتْ كالكلمةِ الواحدةِ لا يُمكنُ الاستغناءُ عن أيٍّ من عناصرِها.

دَلالةُ تَكرارِ فعْلِ الحذرِ مضارعًا، وحذْفِ مُتعلّقِه:

لم يَنفعِ الحَذرُ مِن إخراجِ المُضمَرِ، فالله مخرج

وفائدةُ تَكرار فعْلِ الحذرِ بصِيغةِ المضارع تقريرُ أنّ تجدُّدَ حَذرِهم لم ينْفعْهم في إخفاءِ ما تُكنُّ قلوبُهم، وما تكتمُه سرائرُهم، وأنّه تعالى مُظهرٌ ذلك ومُخرجُه. وناسبَ صِيغةَ المضارع حذْفُ متعلّقِه لِيدلّا معًا على الاستغراقِ في إرادة تصويرِ إظهارِ ما يَحْذرونَه، واسْتِحضارِه في ذهنِ السّامعِ.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الخَوْفُ والحَذَرُ والاحْترازُ:

الخَوْفُ تَوقُّعُ الضَّرَرِ، والحذرُ تَوقِّيه، والاحترازُ التَّحفُّظُ ممّا يسبّبه

"إنّ الخَوْف تَوقُّعُ الضَّرَر المَشْكُوكِ في وُقُوعه، وَمن يتَيَقَّن الضَّرَرَ لم يكن خَائفًا لَهُ. وَكَذَلِكَ الرَّجَاءُ لَا يكونُ إلَّا مَعَ الشَّكِّ، وَمن تَيَقّن النَّفْعَ لم يكن راجيًا لَهُ. والحذرُ: تَوقِّي الضَّرَر، وَسَوَاءً كَانَ مظنونًا أَو مُتيقَّنًا، والحذرَ يدْفعُ الضَّرَر، وَالخَوْفُ لَا يَدْفَعُهُ؛ وَلِهَذَا يُقَال: خُذْ حِذْرَك، وَلَا يُقَال: خُذْ خوفَك"[1]. أمّا الاحترازُ فهو: "التَّحفُّظُ منَ الشَّيْء المَوْجُودِ والحَذرُ هُوَ التَّحفظُ مِمَّا لم يكن إذا عُلِم أَنّه يكونُ، أَو ظُنَّ ذَلِك"[2].

ولمّا كان الحَذرُ تَوقِّيًا للضَّرَر، سَوَاءً كَانَ مظنونًا أَو مُتيقَّنًا اصْطُفيَ لفظًا في الآيةِ الكريمةِ ليدلَّ على خوف المنافقين، وخَشْيتِهم منِ انكشافِ ما في قلوبِهم.

المزاحُ والاسْتهزاءُ:

الاسْتهزاءُ مَظِنّةُ التَّحقيرِ، المُزاحُ لَا يَقْتَضِي ذلك

" المُزاحُ لَا يَقْتَضِي تحقيرَ مَن يمازحُه، وَلَا اعْتِقَادَ ذَلِك؛ أَلا ترَى

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 240.
(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 240.

أَنَّ التَّابِعَ يُمازحُ المَتْبُوعَ منَ الرّؤساءِ والملوكِ وَلَا يقتضِي ذَلِك تحقيرَهم، وَلَا اعْتِقَادَهم تحقيرَهم، ولكن يَقْتَضِي الِاسْتِئْنَاسَ بهم... والاستهزاءُ يَقْتَضِي تحقيرَ المُستهزإ بِهِ واعتقادَ تحقيرِه"[1]. ولمّا كان في صنيعهم تحقيرٌ للرّسولِ ﷺ بأذيّتِه، فضلًا عن محاداتِّه اللّهَ تعالى ورسولَه ﷺ، كان لفظُ الاستهزاءِ أنسبَ للسّياقِ.

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 254.

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [التّوبة: 65]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الرّبط بين خشية الافتضاح، وادّعائهم الخوض واللّعب بآيات الله

"لَمَّا وصَفَهم بالنّفاقِ حقَّقَه بعدَم مُبادرتِهم إلى التّوبةِ الّتي هي فعْلُ المؤمنين، وباجْترائِهم على الإنكارِ مع كوْنِ السّائلِ لهم مَنْ بلغَ الغايةَ في الجلالِ والوقارِ والكمالِ، فقال: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ﴾ أي وأنتَ مَن يَجبُ أن يُصَدِّقَه مَسؤولُه عمّا أخرجتِ السّورةُ ممّا أظهرُوا بينَهم منَ الكفرِ، وذلك حين قال بعضُهم: انظرُوا إلى هذا الرّجلِ يَظنُّ أنّه يَفتحُ قصورَ الشّامِ وحصونَها! هيهاتَ هيهاتَ! فأعلَمَه اللّه تعالى"[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿نَخُوضُ﴾: الخَوْضُ "هو الشّروعُ في الماء والمُرورُ فيه، ويُستعارُ في الأمورِ، وأكثرُ ما ورد في القرآن ورد فيما يُذمُّ الشّروعُ فيه، نحوَ قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾ [التوبة: 65]"[2]، "والخَوْضُ... من الكَلامِ: مَا فِيه الكَذِبُ والبَاطِلُ"[3]، وفي الأساسِ: "ومنَ المجاز: خاضُوا في الحديث وتخاوضُوا فيه، وهو يخوضُ مع الخائضين أي: يُبْطِلُ مع المُبْطِلين"[4]، فمرادُهم بـ ﴿نَخُوضُ﴾: "نهزلُ غيرَ جادّين في سلوكنا"[5].

2) ﴿وَنَلْعَبُ﴾: لعِبَ الشَّخصُ: عمِل عملاً لا ينفعُ، وعكسُه: جَدَّ. وقوله تعالى: ﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا﴾ [الزخرف: 83]، و﴿مَا يَأْتِيهِم

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/516.
(2) الرّاغب، المفردات: (خوض).
(3) الزّبيديّ، تاج العروس: (خوض).
(4) الزّمخشريّ، أساس البلاغة: (خوض).
(5) الجمل، معجم وتفسير لغوي لكلمات القرآن: (لعب).

﴿مِّن ذِكۡرٖ مِّن رَّبِّهِم مُّحۡدَثٍ إِلَّا ٱسۡتَمَعُوهُ وَهُمۡ يَلۡعَبُونَ ۝٢﴾ [الأنبياء: 2]، أي: يَستهزؤون، ويَهزلون، ولعِبَ الصبيُّ: تسلّى وقام بما يُلْهيه، لعب مع أصدقائه[1].

3) ﴿وَءَايَٰتِهِۦ﴾: الآيات جمعُ: الآية، و"الآيةُ: العَلامةُ، والآيةُ: مِن آيات اللّه، والجميعُ: الآيُ... والآياتُ"[2]، "وآياتٌ بيّناتٌ: أي: علاماتٍ وحُجَجًا، والآيةُ منَ القرآن: كلامٌ متَّصِلٌ إلى انقطاع، وقال اللّه تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱجۡعَل لِّيٓ ءَايَةٗۖ﴾ [آل عمران: 41] أي علامةً: ﴿قَالَ ءَايَتُكَ﴾: علامتُك. والآيةُ: الشّيءُ العجبُ من قوله تعالى: ﴿يُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ﴾ [غافر: 13]، أي: عجائبَه، يقال: فلانٌ آيةٌ منَ الآيات أي عَجَبٌ مِن العَجَبِ"[3].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

"ولئن سألتَ يا محمّدُ هؤلاء المنافقين عن سببِ اسْتِهزائِهم بتعاليمِ الإسلام لَيقولُنَّ لك على سبيل الاعتذار: إنّما كنّا نفعلُ ذلك على سبيل المُمازحة والمُداعبةِ لا على سبيلِ الجِدِّ... فقل لهم يا محمّدُ - على سبيل التَّوبيخِ والتَّجهيل - ألم تجدُوا ما تَستهزئون به في مُزاحِكم ولَعِبكم - كما تزعمون - سوى فرائضِ اللّه تعالى وأحكامِه وآياتِه ورسولِه الذي جاء لهدايتِكم وإخراجِكم منَ الظّلماتِ إلى النّور؟"[4].

الاعتذارُ بالمُمازحةِ والمُداعبةِ، لايُعفِي منَ التّبعة والعقابِ

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

سِرُّ عطْفِ ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُمۡ﴾، على قوله ﴿يَحۡذَرُ﴾:

عُطِفتْ جملةُ ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُمۡ لَيَقُولُنَّ﴾ على التي قبْلَها للتّوسُّطِ

سَوْقُ الأخبارِ مَظنّة الوصْلِ، واستجلاء الكوامن المخبوءة

(1) أحمد مختار عمر، معجم اللغة العربية المعاصرة: (لعب).
(2) الخليل، العين: (أيا).
(3) البَندنيجي، التّقفية في اللغة، ص: 705.
(4) طنطاوي، التفسير الوسيط: 6/340.

بين الكمالين - كمالِ الاتّصال وكمالِ الانقطاعِ -؛ لأنهما خبريَّتان يسوقُهما الذّكرُ الحكيمُ إلى النّبيِّ ﷺ من أخبار المنافقين، ويقولُ له: هؤلاء من أخبارِهم كذَا وكذَا.

بَلاغةُ التّعبيرِ بالقسَمِ، وجوابِه:

أسلوبُ القسَمِ في ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ﴾ وتوكيدُ الجوابِ في ﴿لَيَقُولُنَّ﴾؛ هو للنّعْيِ من أوّلِ الأمرِ على المنافقين، بأنّهم لن يتردّدُوا في الكذبِ الذى هو بضاعتُهم الرّائجةُ مع تغليظِ ذلك الكذبِ؛ بإخراجِه في أسلوبٍ قصْريٍّ مُؤكَّدٍ: ﴿إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾[1].

المنافقون لن يتردّدُوا بالكذِبِ، لأنّهم ألفوه واستمرؤوه

سِرُّ تَقْيِيدِ سُؤَالِهِ تعالى بِأَدَاةِ الشَّكِّ (إِنْ):

أداةُ الشّرطِ إنْ مِنَ المرونةِ بحيثُ تتفاعلُ مع المَقاماتِ والسّياقاتِ بما يُحقّقُ الأغراضَ، وهنا يُقيِّدُ النّظمُ الكريمُ سؤالَ الرّسولِ ﷺ المنافقين بإنْ التي تُوحِي بدَلالتَيْن جَليلَتَيْن:

لا ينبغي للمُسلمِ أن يُضيِّعَ وقْتَه مع المنافقين، إذْ لا أمل في هدايتهم

الأُولى: موافقةُ حالِ الرّسولِ ﷺ في التّعاملِ مع المُسيئين إليه مِن غَضِّ الطرْفِ وعدَمِ الاسْتقصاءِ، وقَبولِ الأعذارِ، ففيها حكايةُ طبيعتِه وأخلاقِه ﷺ، فقد كان حَيِيًّا لا يجرحُ أحدًا ولا يُخزيه بما فيه، ولعلّ هذا ما أغراهُم أنْ يقولوا: ﴿هُوَ أُذُنٌ﴾؛ ولأنّه ﷺ كان يقبلُ الأعذارَ ولا يتتبّعُ الأسرارَ.

الثّانيةُ: نَشْتَمُّ من إنْ توجيهًا قرآنيًّا مُغلَّفًا للرّسول الله ﷺ بعدَمِ تضْييعِ وقْتِ الدّعوةِ الثّمينِ في عتابِ المنافقين، بل عليه عدَمُ الاكتراث بهم، وإهمالُ شأنِهم؛ لأنّهم ليسُوا جديرين بالتّقدير، ومجرَّدُ تَوَجُّهِ الرّسول ﷺ إليهم بالسّؤالِ شرفٌ لا يَرْقَوْن إليه.

سِرُّ التّوكيدِ في جُملةِ ﴿لَيَقُولُنَّ﴾:

توكيدُ جوابِ الشّرطِ ﴿لَيَقُولُنَّ﴾ مِن جهتَيْه - باللّام في أوّله

(1) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 2/20 - 21.

القسَمُ يَشحذُ الذِّهنَ ويجعلُ النّفسَ أكثرَ ترقُّبًا

وبالنّون المُشدّدةِ في آخره - يَجعلُ مِن مَقولِ هذا القول جريمةً عظيمةً، ويَشحذُ الذِّهْنَ ويَشحِنُ النّفسَ لترَقُّبِ القولِ ماذا يكونُ؟ وإحاطةُ قوْلِهم من حوالَيْه بالتّوكيدِ يُزيلُ كلَّ احتمالٍ بطُهرِ نفوسِهم بأيِّ قَدْرٍ منَ الطُّهر، وذلك ممّا اقتَضَى حذْفَ المسؤولِ عنه قبْلَه كما سيأتي إنْ شاء اللّه تعالى.

بَلاغةُ حذْفِ المسؤول عنه في سياق السّؤال:

العِللُ الكاذبةُ يُناسبُها الحذْفُ لا الذِّكرُ

جُملةُ: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ﴾، وفيه "حُذِفَ مُتَعَلِّقُ السُّؤَالِ لِظُهُورِهِ مِنْ قَرِينَةِ قَوْلِهِ: ﴿إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾. وَالتَّقْدِيرُ: وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ عَنْ حَدِيثِهِمْ فِي خَلَوَاتِهِمْ، أَعْلَمَ اللّه رَسُولَهُ بِذَلِكَ وَفِيهِ شَيْءٌ مِنْ دَلَائِلِ النُّبُوءَةِ. وَيَجُوزُ أَنْ تَكُونَ الآيَةُ قَدْ نَزَلَتْ قَبْلَ أَنْ يَسْأَلَهُمُ الرَّسُولُ، وَأَنَّهُ لَمَّا سَأَلَهُمْ بَعْدَهَا أَجَابُوا بِمَا أَخْبَرَتْ بِهِ الآيَةُ"[1].

فسِياقُ الآيةِ الكريمةِ قرينةُ الحذْفِ هنا؛ ففي الآياتِ السّابقةِ صرَّحَ النّظمُ الكريمُ بأنّهم يَحلِفون كذِبًا، والسُّنّةُ الشّريفةُ تُعيِّنُ المحلوفَ عليه، وهو تَعلُّلُهم بعَلَلٍ كاذبةٍ في التَّخلُّفِ عنِ الغزوِ مع الرّسولِ ﷺ، وذِكْرُهم الرّسولَ ﷺ وأصحابَه الأطهارَ بالسُّوء، وبالكذبِ في أيمانِهم، والظّاهرُ أنَّ المسؤولَ عنه هنا طُوِي ولم يُذكَرْ للمُسارعة إلى ذِكْرِ العُذرِ الذي هو أقبحُ منَ الذَّنْبِ، وهو قولُهم ﴿إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾.

الغرَضُ منَ التَّعبيرِ بأسلوبِ القصْرِ:

المنافقُ لا يجدُ ما يَستُرُ به كذِبَه إلّا الكذِبَ

قوله تعالى على لسانهم: ﴿إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾، هذه الجملةُ مقولُ قولِهم المُؤكَّد ﴿لَيَقُولُنَّ﴾، وهي جُملةُ اعتذارٍ يَعتذرُ بها المنافقون عمّا أظهرَه القرآنُ الكريمُ من تورُّطِهم في الأيمان الكاذبةِ وغيرِها، وهذا عُذْرٌ أقبحُ مِن ذنبٍ - كما سبق -، و"هكذا المنافقُ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/250.

لا يجدُ ما يسترُ به نِفاقَه إلا الكذبَ، فهو كذِبٌ يَسترُ كذِبًا، ونفاقٌ يُداري نفاقًا"[1].

ويزيدُ هذا الاعتذارَ قُبْحًا تصديرُه بأداة القَصْرِ ﴿إِنَّمَا﴾ إذ تُفيدُ أنَّ ما كان منهم لم يَخرج عن كونِه ثرثرةَ مَسيرٍ "كَمَا يَخُوضُ الرَّكْبُ لِقَطْعِ الطَّرِيقِ"[2]، "وَأَنَّهُ مِمَّا يَحْتَاجُهُ الْمُتْعَبُ مِنَ الِارْتِيَاحِ إلى المَزْحِ وَالحَدِيثِ فِي غَيْرِ الجِدِّ"[3]، فلا أساسَ له من واقعٍ قلبيٍّ، كما تفيدُ ﴿إِنَّمَا﴾ إلى ذلك أنَّ كوْنَ ما ظاهرُه إساءةً ما هو إلَّا خوضٌ ولعبٌ، وأنَّ ذلك أمرٌ بيّنٌ لا يُشكُّ فيه، وأنّه منَ الأمور المُقرّرةِ في مثلِه؛ وعليه لم يحتشِدُوا له بالتّوكيد بطريق النّفْيِ والاستثناءِ مثلًا.

والقصرُ هنا للقلب؛ لأنَّ المنافقين يَردُّون به اعتقادَ الرّسولِ ﷺ وأصحابِه ويعكسُونَه، ويُنفون التّهمةَ بأنّهم كانوا جادّين قاصدِين إساءةَ الأدب، واختلاقَ العُذرِ للتخلُّف عنِ الغزو وغيرَهما، فضلا عمّا رآه التّحرير والتّنوير من أنّ "القَصْر هنا لِلتَّعْيِينِ: أَيْ: مَا تَحَدَّثْنَا إِلَّا فِي خَوْضٍ وَلَعِبٍ دُونَ مَا ظَنَنْتَهُ بِنَا مِنَ الطَّعْنِ وَالأَذَى"[4].

دَلالةُ التّعبير بالفعْلِ ﴿كُنَّا﴾ في سياق الآية:

جُملةِ ﴿إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾، يبدو أنَّ خُبْثَ المنافقين استَجْلبَ الفعلَ الماضي ﴿كُنَّا﴾ الّذي يفيدُ الإسهامَ في إبعاد زمن الجرائم، وأنّه كان ولم يَعُدْ له في نفوسهم أثرٌ، وأنّهم استقامُوا على الطريقةِ، وإلّا لَقالوا: إنّما نخوضُ ونلعبُ بالمضارعة المَحْضةِ، وذلك ما يَتَحاشَوْنَه ولا يُريدون إشعارَ المخاطَبين منَ المؤمنين به؛ لِذلك زادُوا في الكلام الفعلَ ﴿كُنَّا﴾.

المنافقون يُراوِغون في كلامِهم؛ فيجبُ التّيقُّظُ لمَرامِي كلامِهم

(1) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 5/834.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 16/94.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 10/251.
(4) ابن عاشور، التحرير والتّنوير: 10/250.

بَلاغةُ الاسْتعارةِ التّبَعيّةِ في لفظةِ: ﴿نَخُوضُ﴾:

المنافقون لا يُوفَّقون في الاعْتِذارِ دائمًا

في لفظ ﴿نَخُوضُ﴾ اسْتعارةٌ تبعيّةٌ شَبَّه فيها لهْوَهم، ولعِبَهم بالاغتيابِ الآثمِ والاسْتهزاءِ الشّنيعِ بالخوضِ في الماء بجامعِ التّسليةِ، والعبَثِ، والمَرَحِ في كلٍّ منهما[1].

و"أصلُ الخوْضِ الدّخولُ في مائع مثلِ الماءِ والطّينِ، ثمّ كثُر حتى صار اسْمًا لِكلِّ دخولٍ فيه تلويثٌ وإيذاءٌ، فالمنافقون أرادوا: إنّما نلعبُ ونتلَهّى لِتَقْصُرَ مسافةُ السّفرِ بالحديثِ والمداعَبةِ كما يفعل الرّكْبُ ذلك لِقطْعِ الطّريق، ولم يكنْ ذلك مِنَّا على طريق الجِدِّ"، فاسْتعارُوا الخوضَ لِتَجاذُبِ أطْرافِ الحديثِ على سبيل الفَضفَضةِ غيرِ مُنْعَقِدَةِ النيّةِ والقصدِ على ما يكون فيها من حديثٍ.

ولأنّ الخوضَ "لا يُستعملُ مجازًا إلّا في الباطل؛ لأنّ التّصرّفَ في الحقِّ إنّما هو على ترتيبٍ ونظام، وأمورُ الباطل إنّما هي خوضٌ"[2]؛ ولأنّ "الخَوْضُ... في الكَلامِ مَا فِيه الكَذِبُ والبَاطِلُ"[3] - لذلك يُعدُّ اعتذارُهم بِلفظ الخوْض جريمةً في حدِّ ذاتِه، وكأنّهم لِسُوء نيَّتِهم وتغلغُلِ الكذبِ في نفوسهم قد ذهلُوا - أمام صدمةِ المُفاجأةِ بكشْفِ أسرارِهم - فلم يُحسنوا اختيارَ لفْظِ الاعتذار؛ وسبقَ لسانُهم: ﴿إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ﴾ تعبيرًا عمّا تحُوكُه دواخِلُهم، وَيُضْمِرُه وِجدانُهم، ولا شكّ أنّهم عربٌ يفقهون دلالاتِ الكلماتِ؛ ولا يفوتُهم جُرمُ الخوضِ (المجازيّ) الذي صاروا إليه؛ فما كانوا ليقولوه واعِين.

بَلاغةُ التّوكيدِ، بعطْفِ ﴿وَنَلْعَبُ﴾ على ﴿نَخُوضُ﴾:

تَشتيتُ القضيّة، وصرْفُ المخاطَب عنها، منهجُ المنافقين

مِن خُبث المنافقين في قولِهم ﴿إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾ محاولةُ التّمويهِ بتشتيتِ التُّهمِ.. فبدأوا بالفعْلِ ﴿كُنَّا﴾ - كما سبقَ

(1) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 2/21.
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/57.
(3) ابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس: (خوض).

التّوضيحُ-، ثم ثَنَّوْا بالفعْلِ ﴿نَخُوضُ﴾، ثم ثلَّثُوا بالفعْلِ ﴿وَنَلْعَبُ﴾.. يُحاولون بذلك حَلَّ عُقدةِ الإشكالِ القائمِ بتشتيتِ التّركيزِ، وإلا فعَطْفُ ﴿وَنَلْعَبُ﴾ على ﴿نَخُوضُ﴾ يَزيدُهم ورْطةً بعد ورطةٍ؛ فقد أذنبُوا ثمّ حلَفُوا كذِبًا، ثم اعتذرُوا قُبحًا، ثمّ زادوا الطّينَ بِلَّةً بعطْفِ اللَّعِب على الخوْضِ، ولا يُتوقّعُ منهمُ الغباءُ بِتوريط أنفُسِهم إلى هذا الحدِّ المُزْرِي.

وجْهُ الفصْلِ في جُملةِ المصدّرة بلفظ ﴿قُلْ﴾ والاستفهام:

فُصِلتْ جملةُ ﴿قُلْ أَبِٱللَّهِ﴾... ﴿تَسْتَهْزِءُونَ﴾ عمّا قبْلها للاستئنافِ البيانيِّ؛ إذ يُوجِّهُ اللّه تعالى رسولَه ﷺ إلى الردِّ الأمْثلِ على اعتذارهم المُخادعِ، إذ يُثِيرُ الكلامُ السّابقُ في نفس الرّسول ﷺ سُؤالًا: وما الحُكْمُ فيهم؟ أو: وما العملُ معهم حين يقولون ذلك؟ فجاء الجواب: ﴿قُلْ أَبِٱللَّهِ﴾.

بيانُ وجْهِ الجُرمِ الحقيقيِّ رادِعٌ للمُجرمين

من بلاغةِ الاسْتِفهامِ ﴿أَبِٱللَّهِ﴾ في السّياق:

يُنكر على المنافقين استهزاءَهم ذلك، ويوبِّخُهم عليه، مُعَنِّفًا "أفهذا مقامٌ يخوض فيه الخائضون ويلعبُ اللّاعبون؟"[1]، والمنافقون لم يستهزئُوا باللّه تعالى، وإنّما كانت استهانتُهم بالأيمان الكاذبة؛ وبـ "القُرْآنُ، وَسَائِرُ مَا يَدُلُّ عَلَى الدِّينِ"[2]؛ إرضاءً للمؤمنين.

الاسْتِهزاءُ بآياتِ اللّه تعالى، استهزاءٌ باللّه تعالى، وهو أمرٌ عظيمٌ

تَوجيهُ حذْفِ المضافِ في الآيةِ:

أصلُ التّعبيرِ في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَبِٱللَّهِ﴾: أَبِيَمِينِ اللّه... تستهزئون؟ لكنَّ النّظْمَ الكريمَ آثرَ حذْفَ المضافِ وإدخالَ همزةِ الاستفهامِ الإنكاريِّ التّوبيخيِّ على المضاف إليه مسبوقًا بحرف الجرِّ ﴿أَبِٱللَّهِ﴾ مباشرةً، وذلك مع تقديمِه يُفاقِمُ على المنافقين التَّوبيخَ، ويُحقِّقُ عليهمُ الجريمةَ الكبرَى بذكْرِ لازمِ الاستهزاءِ بالأيمان -

مَن يَستهزئُ بالرّسولِ الكريم، فقد استَهزأَ باللّه العظيم

(1) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 5/834.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 16/95.

وهو الاستهزاءُ باللّه تعالى - وهكذا يُوحِي حذفُ المضافِ وإقامةُ المضاف إليه مَقامَه بأنَّ مَن يستهزئُ بيمين اللّه تعالى ومن يَستهزئُ برسولِ اللّه ﷺ يكونُ حُكمُه حُكمَ من استهزأ باللّه تعالى مباشرةً؛ فـ "الاسْتِهْزَاءُ بِاللّه وَبِآيَاتِهِ إِلْزَامٌ لَهُم؛ لأنّهم استهزأوا بِرَسُولِهِ وَبِدِينِهِ، فَلَزِمَهُمُ الاسْتِهْزَاءُ بِالَّذِي أَرْسَلَهُ بِآيَاتِ صِدْقِهِ"[1].

بَلاغةُ تقديمِ الجارِّ والمجرور، في السّياق:

الاستهزاءُ بآياتِ الله تعالى، من أَسْوأِ الذّنوبِ الّتي يَرتكبُها المنافقون

أصلُ تركيبِ هذه الجملةِ: قل أكنتم تَستهزئون باللّه وآياتِه ورسولِه؟ غيرَ أنَّ جُرمَ الاستهزاءِ وخُطورتَه إنّما يتضاعفُ حين يتعلّقُ الاسْتهزاءُ بهذا المتعلِّق بخاصّةٍ: ﴿أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ﴾؛ "كَأَنَّهُ يَقُولُ هَبْ أَنَّكَ قَدْ تُقْدِمُ عَلَى الاسْتِهْزَاءِ وَلَكِنْ كَيْفَ أَقْدَمْتَ عَلَى إِيقَاعِ الاسْتِهْزَاءِ فِي اللّه"[2]، فكان صدْرُ الجملةِ عقيبَ همْزةِ الاستفهام مكانَه الأنسبَ؛ لذلك وَلِيَ الهمزةَ مباشرةً.

ومنَ اللّافتِ أنّهم لم يقولوا: كنّا نَستهزئُ.. لِيأتي اللّومُ: كنتم تَستهزئون، وإنّما ذُكرَ لازِمُ الخوضِ واللّعبِ وهو الاسْتهزاءُ من بابِ الكنايةِ عنِ الصّفةِ؛ لأنّ أمرَ الدِّين جِدٌّ كلُّه لا يحتملُ الخوضَ واللّعبَ.. فإذا خاضُوا ولعبُوا وأقرُّوا بذلك اعتذارًا قبيحًا كان دليلَ الاسْتهزاءِ وعدَمِ التّقدير، ولا حولَ ولا قوّةَ إلّا باللّه العليّ العظيم.

ويُفيدُ تقديمُ المُتعلِّق ﴿أَبِٱللَّهِ﴾ عقبَ همزةِ الاسْتفهامِ الإنكاريِّ التّوبيخيِّ قلْبَ دعْواهُمُ الخوضَ واللّعبَ ويُقرّرُ كذِبَهم؛ في مقابلةِ قصْرِهم ما كان منهم على الخوضِ واللّعبِ، وقد سبقَ أنَّ قَصْرَهم في ﴿إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُۚ﴾ كان للقلْب.

نُكتةُ التّقابُلِ بين ﴿كُنَّا نَخُوضُ﴾، و﴿كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ﴾:

جاءتِ التّلاوةُ الكريمةُ بتقديمِ الفعْلِ ﴿كُنتُمْ﴾ في جُملةِ ﴿كُنتُمْ

(1) ابن عاشور، التحرير والتّنوير: 10/251.

(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 16/94.

اللّومُ والتّوبيخُ على وَفْقِ الاعتذارِ الكاذبِ

﴿تَسْتَهْزِءُونَ﴾ ليكونَ بإزاءِ تقديمِهم الفعْلَ ﴿كُنَّا﴾ حيث قالوا: ﴿كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾؛ فوقع اللّومُ والتّوبيخُ على وَفْقِ الاعتذارِ الكاذبِ؛ لذا فإنَّ هذا التّقديمَ يُشيرُ إلى مَكْمنِ الخطرِ في استهزائِهم، ويُفْصِحُ عن أنَّ الاقترابَ من هذه المنطقةِ محظورٌ، وكيف يَتجرّؤون على الاسْتهزاءِ بيمينِ اللّه تعالى، وبآياتِه الكريماتِ، وبرسولِه ﷺ؟ وهذا النّسَقُ النّظميُّ يتضمّنُ مَنهجًا في حوارِ الخُصومِ، هو التقاطُ خيوطِ توريطِهم وإلزامِهم الحُجّةَ من كلامِهم؛ إذ لمّا قدّموا ﴿كُنَّا﴾ قدّم جوابًا عليهم ﴿كُنتُمْ﴾، وهذا يذكّرنا بمَنهجِ رسولِ اللّه ﷺ إذ كان لا يَلتمسُ إسكاتَ الخصْمِ إلا بما يَعرفُه الخصْمُ[1].

(1) الرافعي، السُّمُوُّ الرّوحيّ الأعظمُ والجمالُ الفنّيُّ في البلاغة النّبويّة، ص: 13.

﴿لَا تَعۡتَذِرُواْ قَدۡ كَفَرۡتُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡۚ إِن نَّعۡفُ عَن طَآئِفَةٖ مِّنكُمۡ نُعَذِّبۡ طَآئِفَةَۢ بِأَنَّهُمۡ كَانُواْ مُجۡرِمِينَ ٦٦﴾ [التّوبة: 66]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

عاقبةُ الاستمرارِ في الأكاذيبِ، التّيئيسُ الصّارم من قبولِ الاعْتِذارِ

"لَمَّا كَانَ قَوْلُهُمْ: ﴿إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُۚ﴾ [التَّوْبَة: 65] اعْتِذَارًا عَنْ مُنَاجَاتِهِمْ، أَيْ إِظْهَارًا لِلْعُذْرِ الَّذِي تَنَاجَوْا مِنْ أَجْلِهِ، وَأَنَّهُ مَا يَحْتَاجُهُ الْمُتْعَبُ: مِنَ الِارْتِيَاحِ إِلَى الْمَزْحِ وَالْحَدِيثِ فِي غَيْرِ الْجِدِّ، فَلَمَّا كَشَفَ اللَّهُ أَمْرَ اسْتِهْزَائِهِمْ، أَرْدَفَهُ بِإِظْهَارِ قِلَّةِ جَدْوَى اعْتِذَارِهِمْ إِذْ قَدْ تَلَبَّسُوا بِمَا هُوَ أَشْنَعُ وَأَكْبَرُ مِمَّا اعْتَذَرُوا عَنْهُ، وَهُوَ التِبَاسُهُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِظْهَارِ الإيمان. فَإِنَّ اللَّهَ لَمَّا أَظْهَرَ نِفَاقَهُمْ، كَانَ مَا يَصْدُرُ عَنْهُمْ مِنَ الِاسْتِهْزَاءِ أَهْوَنَ"[1]، أي: لمّا حقَّقَ استهزاءَهم أنتجَ قولَه: ﴿لَا تَعۡتَذِرُواْ﴾ الآية، وبعد أنْ كشفَ فضائحَهم في الحلفِ الكاذبِ وأعقبَه بالكذبِ في اعتذارِهم، جاء بهذه الآية تيئيسًا لهم ممّا طلبُوه من رضا الخلْقِ بالحلفِ الكاذبِ، والاعتذارِ الكذوبِ.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿لَا تَعۡتَذِرُواْ﴾: "العُذْرُ: تَحرّي الإنسانِ ما يمحُو به ذنوبَه - ويقال: عُذْرٌ وعُذُرٌ - وذلك على ثلاثة أضْرُبٍ: إمّا أن يقول: لم أفعل، أو يقولَ: فعلتُ لأجلِ كذا، فيذكرَ ما يُخرجُه عن كونِه مُذنبًا، أو يقولَ: فعلتُ ولا أعودُ، ونحوَ ذلك منَ المقال. وهذا الثالثُ هو التّوبةُ، فكلُّ توبةٍ عُذْرٌ وليس كلُّ عُذْرٍ توبةً، واعْتذَرْتُ إليه: أتيت بعُذْرٍ، وعَذَرْتُهُ: قَبِلْتُ عُذْرَهُ. قال تعالى: ﴿يَعۡتَذِرُونَ إِلَيۡكُمۡ إِذَا رَجَعۡتُمۡ إِلَيۡهِمۡۚ قُل لَّا تَعۡتَذِرُواْ﴾ [التوبة/94]، والمُعْذِرُ: من يرى أنّ له عُذْراً ولا عُذْرَ له. قال تعالى: ﴿وَجَآءَ ٱلۡمُعَذِّرُونَ﴾ [التوبة/90]، وقرئ ﴿ٱلۡمُعۡذِرُونَ﴾"[2].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 10/251.
(2) الرّاغب، المفردات: (عذر).

2) ﴿طَآئِفَةٍ﴾: "الطَّوْفُ: المشيُ حولَ الشّيءِ، طاف حول الكعبةِ يطُوفُ طَوْفًا وطَوافًا وطَوَفانًا... والطائفةُ منَ الشّيء: القطعةُ منه. وقولُه تعالى: ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، قال ابنُ عبّاس: الطائفةُ: الواحدُ فما فوقَه، فمن أَوقعَ الطَّائفةَ على الواحد يريدُ النّفسَ الطّائفةَ. وقال مجاهدٌ: الطائفةُ: الرّجلُ الواحدُ إلى الأَلْف. وقال عطاءٌ: أَقلُّها رجلان"[1].

المَعْنى الإجْماليُّ:

المعاذيرُ الكاذبةُ غيرُ مقبولةٍ، ومن أصرّ على النّفاق جوبه بالعذاب

الخطابُ للمنافقين، وتحريرُه: "لا تشتغلُوا بتلك المعاذيرِ الكاذبةِ فإنّها غيرُ مقبولةٍ؛ لأنّكم بهذا الاستهزاءِ باللّه تعالى وآياتِه ورسولِه قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمانِكُمْ. أي: قد ظهرَ كُفرُكم وثبتَ، بعد إظهارِكم الإيمانَ على سبيل المُخادَعةِ، فإذا كنّا قبْلَ ذلك نُعاملُكم معاملةَ المسلمين بمقتضَى نُطقِكم بالشّهادتَيْن فنحن الآن نُعاملُكم معاملةَ الكافرين بسببِ اسْتهزائِكم باللّه تعالى وآياتِه ورسولِه ﷺ... إِنْ نَعْفُ عَنْ طائِفَةٍ مِنْكُمْ - أيها المنافقون - بسببِ توبتِهم وإقلاعِهم عنِ النّفاق - نُعَذِّبْ طائِفَةً أخرى منكم بسببِ إصْرارِهم على النّفاق، واسْتمرارِهم في طريق الفُسوقِ والعِصيانِ"[2].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

مَوقعُ جملةِ ﴿لَا تَعْتَذِرُواْ﴾ من سابقتها:

التّوبيخُ معنًى قائمٌ برأْسِه، مستقلّ بذاته

"جُمْلَةُ ﴿لَا تَعْتَذِرُواْ﴾ مِنْ جُمْلَةِ القَوْلِ الَّذِي أُمِرَ الرَّسُولُ ﷺ أَنْ يَقُولَهُ، وَهِيَ ارْتِقاءٌ في تَوْبِيخِهِمْ، فَهِيَ مُتَضَمِّنَةٌ تَوْكِيدًا لِمَضْمُونِ جُمْلَةِ ﴿أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [التَّوْبَة: 65]، مَعَ زِيَادَةِ ارْتِقَاءٍ فِي التَّوْبِيخِ، وَارْتِقَاءٍ فِي مَثَالِبِهِمْ بِأَنَّهُمْ تَلَبَّسُوا بِمَا هُوَ أَشَدُّ وَهُوَ

(1) الفِيروزابادِيّ، بصائر ذوي التّمييز: (طاف).
(2) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 6/341.

الكُفْرُ، فَلِذَلِكَ قُطِعَتِ الجُمْلَةُ عَنِ الَّتِي قَبْلَهَا، عَلَى أَنَّ شَأْنَ الجُمَلِ الوَاقِعَةِ فِي مَقَامِ التَّوْبِيخِ أَنْ تُقْطَعَ وَلَا تُعْطَفَ؛ لِأَنَّ التَّوْبِيخَ يَقْتَضِي التَّعْدَادَ، فَتَقَعُ الجُمَلُ المُوَبَّخُ بِهَا مَوْقِعَ الأَعْدَادِ المَحْسُوبَةِ نَحْوَ وَاحِدٌ، اثْنَانِ، فَالمَعْنَى لَا حَاجَةَ بِكُمْ لِلِاعْتِذَارِ عَنِ التَّنَاجِي فَإِنَّكُمْ قَدْ عُرِفْتُمْ بِمَا هُوَ أَعْظَمُ وَأَشْنَعُ"[1].

بَلاغَةُ النَّهْيِ والفصل: ﴿لَا تَعْتَذِرُواْ﴾:

ليس بعْدِ الكُفرِ ذنْـبٌ؛ استهزاءً كان أو غيرَه

"لَمَّا كَشَفَ اللهُ أَمْرَ اسْتِهْزَائِهِمْ، أَرْدَفَهُ بِإِظْهَارِ قِلَّةِ جَدْوَى اعْتِذَارِهِمْ، إِذْ قَدْ تَلَبَّسُوا بِمَا هُوَ أَشْنَعُ وَأَكْبَرُ مِمَّا اعْتَذَرُوا عَنْهُ - وَهُوَ التِبَاسُهُمْ بِالكُفْرِ بَعْدَ إِظْهَارِ الإِيمَانِ -، فَإِنَّ اللهَ لَمَّا أَظْهَرَ نِفَاقَهُمْ كَانَ مَا يَصْدُرُ عَنْهُمْ مِنَ الاسْتِهْزَاءِ أَهْوَنَ، فَجُمْلَةُ لَا تَعْتَذِرُوا مِنْ جُمْلَةِ القَوْلِ الَّذِي أُمِرَ الرَّسُولُ أَنْ يَقُولَهُ، وَهِيَ ارْتِقَاءٌ فِي تَوْبِيخِهِمْ، فَهِيَ مُتَضَمِّنَةٌ تَوْكِيدًا لِمَضْمُونِ جُمْلَةِ ﴿أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ﴾، مَعَ زِيَادَةِ ارْتِقَاءٍ فِي التَّوْبِيخِ وَارْتِقَاءٍ فِي مَثَالِبِهِمْ بِأَنَّهُمْ تَلَبَّسُوا بِمَا هُوَ أَشَدُّ وَهُوَ الكُفْرُ، فَلِذَلِكَ قُطِعَتِ الجُمْلَةُ عَنِ الَّتِي قَبْلَهَا، عَلَى أَنَّ شَأْنَ الجُمَلِ الوَاقِعَةِ فِي مَقَامِ التَّوْبِيخِ أَنْ تُقْطَعَ وَلَا تُعْطَفَ؛ لِأَنَّ التَّوْبِيخَ يَقْتَضِي التَّعْدَادَ، فَتَقَعُ الجُمَلُ المُوَبَّخُ بِهَا مَوْقِعَ الأَعْدَادِ المَحْسُوبَةِ نَحْوَ وَاحِدٌ، اثْنَانِ، فَالمَعْنَى لَا حَاجَةَ بِكُمْ لِلِاعْتِذَارِ عَنِ التَّنَاجِي فَإِنَّكُمْ قَدْ عُرِفْتُمْ بِمَا هُوَ أَعْظَمُ وَأَشْنَعُ"[2].

والاعتذارُ منَ الذّنْبِ والتّوبةُ منه أمرٌ مندوبٌ إليه، تَضافرتْ عليه النّصوصُ الشّرعيّةُ، وتواترتْ به. وعلى ذلك فالنّهيُ عنه هنا يكونُ خارجًا إلى غرَضٍ بلاغيٍّ هو هنا التّيئيسُ من قَبولِه، والتّنبيهُ على أنّ الاعتذارَ لن يُفيدَهم شيئًا، وقال بعضُهم: "النَّهْيُ مُسْتَعْمَلٌ فِي التَّسْوِيَةِ وَعَدَمِ الجَدْوَى"[3].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/251.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/251.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/252.

والنّهْيُ عنِ الاعتذارِ يُفيدُ بمفهومِ المُخالَفةِ أنّهم توقّعُوا الفتْكَ بهم فجاؤوا مُعتذرين، ومجيؤُهم مُعتذرين كان جديرًا بإقالتِهم مِن عَثْرَتِهم، أمّا وقد نهاهُم عنِ الاعتذارِ فقد دلَّ على أنّه اعتذارٌ كاذبٌ، لم يخرجْ منَ القلب على سبيل التّوبةِ النّصوحِ، وإنّما هو في حدِّ ذاتِه ضربٌ آخرُ من ضروبِ الخِداعِ التي زادت طينتَهم بِلَّةً.

دَلالةُ وصْفِ الاسْتهزاءِ بالكفرِ:

الحُكمُ على الاستهزاء بأنّه كُفرٌ "يَدُلُّ عَلَى بُطْلَانِ قَوْلِ مَنْ يَقُولُ: الكُفْرُ لَا يَدْخُلُ إِلَّا فِي أَفْعَالِ القُلُوبِ"[1]، و"الجِدُّ واللّعِبُ في إظهار كلمةِ الكُفرِ سواءٌ، ولا خلافَ بين الأئمّةِ في ذلك"[2]، "قَالَ الحَسَنُ: المُرَادُ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمُ الَّذِي أَظْهَرْتُمُوهُ، وَقَالَ آخَرُونَ: ظَهَرَ كُفْرُكُمْ لِلْمُؤْمِنِينَ بَعْدَ أَنْ كُنْتُمْ عِنْدَهُمْ مُسْلِمِينَ، وَالقَوْلَانِ مُتَقَارِبَانِ"[3].

كلمةِ الكُفرِ، جدّها جدّ، وهزلها جدّ

بَلَاغَةُ تَوْكِيدِ الخَبَرِ بـ ﴿قَدْ﴾ فِي السّياق:

﴿قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾، اقتضَى مقامُ توهُّمِ المنافقين قَبولَ أعذارِهم الكاذبةِ وأيمانِهم الفاجرةِ؛ توكيدَ الحُكمِ عليهم بالكفرِ حُكمًا قطعيًّا، بـ ﴿قَدْ﴾ التي دخلت على الماضي ﴿كَفَرْتُم﴾ فتآزرَا على القطْعِ بتحقُّقِ الكُفرِ فيهم، والقطْعِ بوقوعِه لهم.. ومعلومٌ أنّ "الاسْتِهْزَاءَ يَدُلُّ عَلَى الاسْتِخْفَافِ، وَالعُمْدَةُ الكُبْرَى فِي الإيمانِ تَعْظِيمُ اللّه تعالى بِأَقْصَى الإِمْكَانِ، وَالجَمْعُ بَيْنَهُمَا مُحَالٌ"[4].

الاسْتهزاءُ اسْتِخفافٌ، ومُرتكزُ الإيمانِ التّعظيمُ

سِرُّ تَقْييدِ الفعْلِ بالظّرفِ ﴿بَعْدَ﴾:

تقييدُ كُفْرِ المنافقين بالظّرفِ ﴿بَعْدَ﴾ في قولِه تعالى ﴿قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾ وإن فسَّره العلماءُ بأنّ معناه: "بعد إظهارِكمُ الإيمانَ"[5]؛ فإنَّ ظاهرَه يزيدُهم توبيخًا؛ إذ يُصرّحُ بأنَّ كفرَهم كان

الانتكاسُ إلى الكُفرِ بعد الإيمانِ، جُرمٌ خطيرٌ، وخِذلانٌ كبيرٌ

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 16/95.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 5/320.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 16/96.
(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 16/95.
(5) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/286.

بعد مخالطةِ الإيمانِ قلوبَهم؛ فيُسجِّلُ عليهم جريمةَ الانتكاسِ.. ففيه تصريحٌ بأنّ الكُفرَ بعد مخالطةِ الإيمانِ القلوبَ وتذوُّقِ طعْمِه بلسان القلْبِ جُرمٌ خطيرٌ وخِذلانٌ كبيرٌ، لا يُضاهِيه جُرمٌ ولا خِذلانٌ؛ و"التّعبيرُ بذلك أشنعُ في الذّمِّ، ولا سيّما عند العربِ؛ لأنّهم يتمادَحون بالثَّباتِ على أيّ أمرٍ اختارُوه، ويتذامُّون بالطّيشِ"[1].

تَوجِيهُ الإضافةِ في ﴿إِيمَٰنِكُمۡۚ﴾:

قيل إنّ المنافقين "لَمْ يُؤْمِنُوا إِيمَانًا صَادِقًا، وَالْمُرَادُ بِإِيمَانِهِمْ: إِظْهَارُهُمُ الإيمانَ، لَا وُقُوعُ حَقِيقَتِهِ. وَقَدْ أَنْبَأَ عَنْ ذَلِكَ إِضَافَةُ الإيمان إلى ضَمِيرِهِمْ دُونَ تَعْرِيفِ الإيمان بِاللَّامِ الْمُفِيدَةِ لِلْحَقِيقَةِ، أَيْ: بَعْدَ إِيمَانٍ هُوَ مِنْ شَأْنِكُمْ، وَهَذَا تَعْرِيضٌ بِأَنَّهُ الإيمانُ الصُّورِيُّ غَيْرُ الحَقِّ"[2]. فما أضيفَ إليهم من إيمانٍ يفيدُ أنّه إيمانٌ خاصٌّ بهم، ليس إيمانَ الرّسولِ ﷺ وصحْبِه الكرامِ، الإيمانَ الصّحيحَ الذي يرضاهُ اللّه تعالى لعباده. كما يُوحِي ظاهرُ إضافةِ الإيمان إليهم بمزيدِ التّوبيخ؛ من حيث إنّه كان يُفترضُ أنّهم أحقُّ به وأوْلى؛ فهُم أهلُ كتابٍ؛ ولذلك أتَى به اسْمًا في مقابَلة الكُفرِ فعْلًا: ﴿كَفَرۡتُم﴾... ﴿إِيمَٰنِكُمۡۚ﴾، ولم يَقُل كفرتُم بعد أن آمنتُم، وهذا ممّا يضاعفُ جرائمَهم التي اقْترفوها، وهكذا يُسجِّلُ القرانُ الكريمُ عليهم الجرائمَ المُتراكبةَ المَقيتةَ.

المنافقون لهم إيمانُهمُ الصُّوريُّ، وهو عكس الإيمانِ الصّادقِ

نُكتةُ التّقْيِيدِ بـ ﴿إِن﴾:

قُيِّدَ العَفْوُ بأداةِ الشّرطِ المُشكِّكِ ﴿إِن﴾ في قولِه تعالى: ﴿إِن نَّعۡفُ عَن طَآئِفَةٖ مِّنكُمۡ﴾: لتحقيقِ مَزيدٍ منَ الضَّغطِ على المنافقين للعودةِ إلى حظيرةِ الإيمانِ النّقيِّ الصّافي. وبرغْمِ ما في هذا الخبرِ منَ التّلويحِ بمُواربةِ بابِ التّوبةِ واحتمالِ العفْوِ عن بعضِهم؛ تُرسلُ ﴿إِن﴾

عفْوُ اللّه تعالى عنِ العاصِي، لائحٌ لمن يَصْدُقُ التّوبةَ، وإنْ كان مُنافقًا

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/519.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/252.

إشارتَها بأنّ حصولَ العفْوِ عن طائفةٍ منهم يَظلُّ في حَيِّزِ البعيدِ المشكوكِ في حصولِه، وهذا يثيرُ في نفوسِهم الأملَ واليأسَ معًا، ويجعلُهم مترددِّين بين الخوفِ والرّجاء، وبهذا تدفعُهم ﴿إن﴾ نحوَ التّوبةِ النّصوحِ دفعًا، واللّه تعالى يحبُّ لعبادِه النّجاةَ، ويدعُوهم إلى الخيْرِ، فمنِ اهتدَى فلنفْسِه ومن ضلَّ فإنّما يَضلُّ عليها.

دَلالةُ حذْفِ جوابِ الشَّرْطِ:

الإخبارُ بما يدُلُّ على الجزاءِ، أعلَى منَ الإخبارِ بالجَزاءِ

قوله ﷻ: ﴿إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةً﴾، فإنْ قيل: "كيف يصحُّ أن يكونَ ﴿نُعَذِّبْ طَآئِفَةً﴾ جوابًا للشّرْط ﴿نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ﴾... فالجواب أنَّ الجزاءَ محذوفٌ مسبَّبٌ عنِ المذكور، أي: فلا ينبغِي أن يَفترُوا أو فلا يَفتروا فلا بدَّ من تعذيب طائفةٍ... فإنْ قيل: هذا التّقديرُ لا يفيدُ سببيّةَ مضمونِ الشَّرطِ لمضمونِ الجزاء. قلتُ: يُحملُ على سببيّتِه للإخبار بمضمونِ الجزاءِ أو سببيّتِه للأمْرِ بعدمِ الاغترارِ قياسًا على الإخبار"[1].

سِرُّ التّعبيرِ بالجارِّ والمجرور، وسر التعبير بالعفو:

تغليبُ جانبِ العفْوِ على جانبِ التَّعذيبِ فضْلٌ من ربِّ العالَمين

وهنا يبدُو تغليبُ جانبِ العفْوِ من الرّحمن الرّحيم عنِ المُذنبين على جانب التَّعذيب فذُكِر الجارُّ والمجرور ﴿مِّنكُمْ﴾ في جُملة الشّرطِ ﴿نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ﴾، وحُذِف منَ الجُملةِ الثّانيةِ جُملةُ الجواب ﴿نُعَذِّبْ طَآئِفَةً﴾، ولم يُقيّد بـ ﴿مِّنكُمْ﴾ وكأنَّ الطّائفةَ المُعذَّبةَ ليست منهم، وذلك يُعرِّضُ بفتح بابِ الأملِ في النّجاةِ، ويَستثيرُ العَشمَ في نفوسِهم في نَيْل عفْوِ الرحمن الرحيم؛ فيُسرعُ بهم ذلك إلى التّوبةِ والإنابةِ، فإذا لم يتوبُوا بعد ذلك ويعودُوا إلى اللّه تعالى دلَّ على تملُّكِ النّفاقِ قلوبَهم وتغلغُلِه في نفوسِهم كالمرض حين يَفْتِكُ بالجسْمِ ويَتمكّنُ فلا يُجدِي معه علاجٌ.

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 5/320.

بَلاغةُ التّضادِّ بين ﴿نَّعْفُ﴾ و﴿نُعَذِّبْ﴾:

العفوُ محضُ فضلٍ، وتَعذيبُ المُجرمين مَحضُ عدلٍ منه تعالى

يَنُصُّ النّظمُ الكريمُ على فِعْلَي العفْوِ والعذاب مُتطابقَيْن متواجهَيْن، فيمنحُ عقولَ المنافقين وقلوبَهم فرصةَ المُوازَنةِ بين هذين الضِّدَّيْن عن قُربٍ؛ لعلّهم يَفزعون إلى التّوبةِ يرجُون أن يدخلُوا في طائفةِ العفْوِ، وينجُوا من أن يكونوا من طائفة العذاب؛ والمقصودُ "إِنْ نَعْفُ عَنْ طائِفَةٍ مِنْكُمْ بإحداثِهم التّوبةَ وإخلاصِهم الإيمانَ بعد النّفاقِ نُعَذِّبْ طائِفَةً بِأَنَّهُمْ كانُوا مُجْرِمِينَ"[1].

دَلالةُ التَّعبيرِ بالمضارع، في ﴿نَّعْفُ﴾، و﴿نُعَذِّبْ﴾:

استِحضارُ الحالِ، خيْرُ مُعينٍ على الارْتداعِ

المضارعةُ هنا تستحضرُ للمنافقين المآلَيْن: مآلَ العفْوِ، ومآلَ التّعذيب، وتصوِّرُ لهم تجدُّدَ هذا وتجدّدَ ذاك، كلٌّ على طائفته وكلٌّ بحسبه، فهذا يُنَعّمُ ويتجدّدُ تَنعُّمُه بالعفْوِ، وهذا يصْطلِي العذابَ ويتجدّدُ اصْطلاؤُه بالعقوبةِ.

نُكتةُ إسْنادِ العفْوِ والعذابِ، إليه تعالى:

مقامُ العفْوِ مُعظّمٌ، ومقامُ العذابِ مَهُولٌ

وأسندَ اللّه ﷻ كلًّا منَ (العفوِ)، و(العذابِ) إليه سُبحانه تعظيمًا لمقام العفْوِ، وتشريفًا لأهلِه، وبِشارةً، وتهديدًا بأهلِ العذابِ، وتَهويلًا لشأنِه[2].

بَلاغةُ أسلُوبِ الاكْتفاءِ، في السّياق الحكيم:

الفضْلُ لله وحدَه، والتَّوفيقُ منه وحدَه

اكْتفاءُ النّظْمِ الكريمِ بِذِكْرِ سببِ عدَمِ العفْوِ عنِ الطّائفةِ الثّانيةِ عن ذكْرِ سببِ العفْوِ عنِ الطّائفةِ الأُولَى؛ ببيانِ أنَّ عدَمَ العفْوِ عنِ الثّانيّةِ أنّهم كانوا مُجرمين - وذلك مذكورٌ في الآيةِ الكريمةِ -، وسببُ العفْوِ عنِ الطّائفةِ الأُولى أنّهم أحدثُوا التّوبةَ؛ وهذا لم يُذكرْ؛ تنويهًا بأنَّ الفضْلَ إنّما هو للّه تعالى، وأنَّ سببَ العفْوِ في الأصلِ توفيقُ اللّه تعالى إيّاهم إلى التّوبةِ النّصوحِ، ويصيرُ العفْوُ محْضَ

(1) الزمخشري، الكشّاف: 2/286.
(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 7/3362.

كرمٍ منه تعالى، ومع ذلك يكونُ للعفوِ عن طائفةٍ سببُه التّوفيقُ، ولتعذيب الأخرَى سببُه الإجرامُ؛ فـ"المَقَامُ دَالٌّ عَلَى أَنَّ ذَلِكَ لَا يَكُونُ عَبَثًا وَلَا تَرْجِيحًا بِدُونِ مُرَجِّحٍ، فَمَا هُوَ إِلَّا أَنَّ طَائِفَةً مَرْجُوَّةُ الإيمان، فَيُغْفَرُ عَمَّا قَدَّمَتْهُ مِنَ النِّفَاقِ، وَأُخْرَى تُصِرُّ عَلَى النِّفَاقِ حَتَّى المَوْتِ، فَتَصِيرُ إِلى العَذَابِ"[1].

و"الذي عُفِيَ عنه رجلٌ واحدٌ وهو مَخْشِيّ بنُ حُمَيِّر الأشْجعيُّ... كان يضحكُ، ولا يخوضُ، وكان يَمشي مُجانباً لهم ويُنكرُ بعضَ ما يسمعُ... ولعلّه أُطلقَ الطائفة عليه تعظيماً له، وسَتراً عليه، وتبشيراً بتوبة غيرِه، ولعلَّ مَخشيًّا كان مؤمناً، ولكنْ كان إيمانُه مُزلزلاً فلذا عبَّرَ هنا بقولِه ﴿أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾"[2].

وفي النّصِّ على العفوِ والتّعذيب معًا دلالةٌ "عَلَى أَنَّ مَنْ خَاضَ فِي عَمَلٍ بَاطِلٍ، فَلْيَجْتَهِدْ فِي التَّقْلِيلِ فَإِنَّهُ يُرْجَى لَهُ بِبَرَكَةِ ذَلِكَ التَّقْلِيلِ أَنْ يَتُوبَ اللّه عَلَيْهِ فِي الكُلِّ"[3]، و"إشارةٌ إلى أنّ بابَ التّوبةِ والقَبولِ لا يُقفلُ أبدًا... وأنَّ هؤلاء المنافقين الذين كفرُوا بعد إيمانِهم ليسُوا على حالٍ... فالذين يتوبون إلى اللّه تعالى، ويَرجعون إليه مِن قريبٍ مِن هؤلاء المُنافقين سيلْقَون منَ اللّه سبحانَه، عفوًا، ومغفرةً، وأنّ الذين يُصرّون على هذا النّفاق الذي هم فيه سيلْقَون منَ اللّه ما أعدَّ للكافرين والمُنافقين من عذابٍ ونَكالٍ"[4].

لَطيفةٌ في وصْفِ لفظ ﴿طَآئِفَةً﴾ الثّانيةِ بالإجرامِ:

في التّخصيصِ بالوصْفِ، تغليظٌ وتَقبيحٌ

في تخصيصِ الطّائفةِ الثّانيّةِ بالإجرام "تَنْبِيهٌ عَلَى أَنَّ جُرْمَ الطَّائِفَةِ الثَّانِيَةِ كَانَ أَغْلَظَ وَأَقْوَى مِنْ جُرْمِ الطَّائِفَةِ الأُولَى، فَوَقَعَ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/252.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/519.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 16/96.
(4) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقران: 5/836.

التَّعْلِيلُ بِذَلِكَ الجُرْمِ الغَلِيظِ، وَأَيْضًا فِيهِ تَنْبِيهٌ عَلَى أَنَّ ذَلِكَ الجُرْمَ بَقِيَ وَاسْتَمَرَّ، وَلَمْ يَزَلْ، فَأَوْجَبَ التَّعْذِيبَ"[1].

معنَى الباءِ في لفظ ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ من سياق الآية:

إجرامُهم عِلّةُ تَعذِيبِهم، وذلك عدل الله تعالى

(الباء) في مطلعِ جُملةِ الفاصلةِ ﴿بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾؛ للسّببيّةِ[2]، تُظْهِرُ عِلّةَ تعذيبِ المنافقين، وتَنفي الظّلْمَ عنه سُبحانه: ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٨﴾﴾ [النَّحل: 118].

دَلالةُ الختْمِ بالفاصلةِ:

مَن اعتذرَ عنِ الكذبِ بالكذِبِ لا يُغفَرُ له، وإنّما يُغفرُ للصّادقِ

تأتي فاصلةُ الآيةِ الكريمةِ ﴿بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾، كاشفةً عن سببِ تعذيبِ الطّائفةِ المُعذَّبَةِ، وتُصرِّحُ بأنّ إجرامَهم هو سببُ تعذيبِهم؛ فقد كانوا مُجرمين في إضْمارِهم النّفاقَ، ومجرمين في أيمانِهم الفاجرةِ التي هي من لوازمِ الاسْتهزاءِ بالرّسول ﷺ وبالدِّين، وذلك بدوْرِه من لوازمِ الاسْتهزاءِ باللّه تعالى، ومُجرمين بِتخلُّفِهم عنِ الغزوِ في سبيلِ اللّه تعالى، إلى آخرِ ما فضحتْه هذه السّورةُ الفاضحةُ من مخازِيهم المَخفيّةِ. و"في هذه الآيةِ يأخذُ اللّه تعالى المنافقين بِنِفاقِهم، فلم يَقبلْ لهم عُذرَهم الذي اعتذرُوا به؛ لأنّه كذِبٌ إلى كذِبٍ، ونفاقٌ إلى نفاقٍ"[3]، أمّا الذين يتوبون بصدْقٍ فأولئك الذين وعدَهم اللّه تعالى بالعفْوِ.

بَلاغةُ حشْدِ المؤُكِّداتِ، في جُملةِ الفاصلةِ:

إجرامُ المنافقين مُترسِّخٌ، مُستمِرٌّ

بيّن سُبحانَه العذابَ، بقولِه تعالى: ﴿بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ الذّنْبَ الكبيرَ الذي يكون له جرمٌ، وتفعلُه الجوارحُ، وتكتسبُه النّفسُ، مُشيرًا سُبحانَه إلى أنّهم مُستمرّون على إجرامِهم ولم يتوبُوا، ولذلك يتأكّدُ إجرامُهم واسْتمرارُهم عليه، وعدمُ انخلاعِهم منه، وذلك بتأكيدِ

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 16/97.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/253.
(3) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 5/835.

الإجرامِ بالجُملةِ الاسْميّةِ، و(أنَّ) الدّالّةَ على تأكيدِ ما بعدَها، و(كان) التي تُؤكّدُ القولَ، وتدلُّ على استِمرارِه[1].

دَلالةُ التَّعبيرِ باسْمِ الفاعلِ ﴿مُجْرِمِينَ﴾:

إجرامُهم ثابتٌ مُتجذِّرٌ فيهم تجذُّرَ نفاقِهم، وهم مُداوِمون على النّفاقِ والإجرامِ لا يتوبون منهما، وأنّ أمْرَ إجرامِهم بمنزلةِ الحاصلِ الثّابتِ المُستقرِّ.

تَجذُّرُ النّفاقِ فيهم، واسْتقرارُهُ وثَباتُهُ

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

العَبَثُ واللّعِبُ واللهوُ:

"العَبَثُ: مَا خلا منَ الإرادات إلَّا إرَادَةَ حُدُوثِه فَقَط، وَاللهوُ واللّعبُ يَتَنَاوَلهَا غيرُ إرَادَةِ حُدوثهما إرَادَةً وَقعَا بهَا لهوا وَلَعِبًا، أَلا ترى أَنه كَانَ يجوزُ أَن يقعا مَعَ إرادةٍ أُخْرَى فيخرجَا عَن كَونِهمَا لهوًا وَلَعِبًا، وَقيل اللّعبُ: عملٌ للذّةٍ لَا يُرَاعى فِيهِ دَاعِي الحِكْمَة كعملِ الصَّبِيّ لِأَنَّهُ لَا يعرفُ الحَكِيمَ وَلَا الحِكْمَةَ وَإِنَّمَا يعمل للذّة"[2].

اللّعِبُ واللهوُ انْشغالٌ بما لا يُغْنِي، والعبث إضاعة الوقت بلا فائدة

و"اللهْوُ واللّعِبُ يَشْتركانِ في أنّهما اشْتِغالٌ بِمَا لَا يعْنِي من هَوًى أَو طَرَبٍ حَرَامًا أَو لَا، قيلَ: واللهْوُ أَعَمُّ مُطْلقاً، فاسْتِماعُ المَلاهِي لَهْوٌ لَا لَعِبٌ، وقيلَ: اللّعِبُ مَا قُصِدَ بِهِ تَعْجيلُ المَسَرَّةِ والاسْتِرْواحِ بِهِ، واللهْوُ مَا شغلَ من هَوًى وطَرَبٍ وَإِن لم يُقْصَد بِهِ ذلكَ"[3].

قال العسكريُّ: "اللهو: ما يُشغلُ الإنسانَ عمّا يُعنيه ويُهمُّه، واللّعبُ: طلبُ المزحِ بما لا يحسُنُ أن يُطلَبَ به. قيل: واشتقاقُه اللّعابُ، وهو المرورُ على غير استواءٍ كَلُعَابِ الطّفلِ"[4]، وفي الكلّيات: "اللهو: صرفُ الهَمِّ بِمَا لَا يحسُنَ أَن يُصرفَ بِهِ، واللّعبُ: طلبُ الفَرحِ بِمَا لَا

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3362.
(2) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 254.
(3) الزبيدي، تاج العروس: (لهو).
(4) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 470.

يحسُنُ أَن يطْلب بِهِ. وَقيل: اللهوُ الاسْتِمْتَاعُ بلَذّاتِ الدُّنْيَا، واللّعبُ: العَبَثُ، وَقيل: اللهوُ: الميْلُ عَنِ الجِدِّ إلى الهزْلِ، واللّعبُ: تركُ مَا ينفعُ بِمَا لَا ينفعُ. وَقيل: اللهوُ: الإعراضُ عَنِ الحقِّ، واللّعبُ: الإقبالُ على البَاطِلِ"[1].

ولمّا كان اللهوُ عمَلَ لذّةٍ لَا يُرَاعى فِيهِ دَاعِي الحِكْمَةِ، ويَشتركُ مع اللهْوِ في أنّهما اشْتِغالٌ بِمَا لَا يُعْنِي من هَوًى، وهزْلٍ، وعبثٍ اصْطُفيا في الآية تعبيرًا تعذَّرَ به المنافقون عن حَلِفِهم.

(1) الكفويّ، الكلّيّات، ص: 799.

﴿ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتُ بَعۡضُهُم مِّنۢ بَعۡضٖۚ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡمُنكَرِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَقۡبِضُونَ أَيۡدِيَهُمۡۚ نَسُواْ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمۡۗ إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ٦٧﴾ [التّوبة: 67]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

تعليلُ عدَمِ العفوِ، ببيانِ الطّبائعِ المُحقّقة، في المُنافقين الفسقة

"لما بيَّن تعالى أفعالاً وأقوالاً لطوائفَ منَ المنافقين - منهم من كان معه ﷺ في العسْكرِ - هي في غايةِ الفسَادِ، كان ذلك ربّما اقتضَى أنْ يُسألَ عنِ المُتخلِّفين لو خرجُوا ما كان يكونُ حالُهم؟ فقال جواباً عن ذلك واسْتِدلالاً على أنَّ إجْرامَ الذين لم يَعْفُ عنهم منهم خُلُقٌ لازِمٌ: ﴿ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتُ﴾، أي: الذين أظهرُوا الإيمانَ وأبطنُوا الكفرانَ"[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَأۡمُرُونَ﴾: يقال: "أمَرْتُه: إذا كلّفتُه أنْ يفعلَ شيئًا، وهو لفظ عامٌّ للأفعالِ والأقوالِ كلِّها، وعلى ذلك قولُه تعالى: ﴿وَإِلَيۡهِ يُرۡجَعُ ٱلۡأَمۡرُ كُلُّهُۥ﴾ [هود: 123]، ... والأمرُ: التّقدُّمُ بالشّيءِ سواءً كان ذلك بقولهم: افعلْ ولْيَفعلْ، أو كان ذلك بلفظِ خبرٍ نحوَ: ﴿وَٱلۡمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصۡنَ بِأَنفُسِهِنَّ﴾ [البقرة: 228]، أو كان بإشارةٍ أو غيرَ ذلك، ألا ترى أنّه قد سَمّى ما رأى إبراهيمُ في المنام من ذبْحِ ابنِه أمرًا حيث قال: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ﴾ [الصافات: 102]"[2].

2) ﴿بِٱلۡمُنكَرِ﴾: "المُنْكَرُ: كلُّ فِعْلٍ تَحكُمُ العقولُ الصّحيحةُ بقُبحِه أَو تتوقَّفُ في اسْتِقباحِه العقولُ فتحكمُ الشَّريعةُ بقُبْحِه، وإلى هذا

(1) البقاعي، نظم الدرر: 8/519.
(2) الرّاغب، المفردات: (أمر).

القَصْدُ في قولِه تعالى: ﴿ٱلْآمِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ [التوبة: 112]"[1]، "وكلُّ مَا نفرتَ مِنْهُ وكرهْتَه فَهُوَ مُنكرٌ"[2].

3) ﴿وَيَنْهَوْنَ﴾: "النّهيُ: الزّجْرُ عنِ الشّيءِ، قال تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ۝٩ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ۝١٠﴾ [العلق: 9 - 10]، وهو من حيث المعنَى لا فرْقَ بين أن يكونَ بالقول أو بغيره، وما كان بالقولِ فلا فرْقَ بين أن يكون بلفظةِ افعلْ نحو: اجتنبْ كذا، أو بلفظة لا تفعلْ. ومن حيثُ اللّفظُ هو قولُهم: لا تفعلْ كذا، فإذا قيل: لا تفعلْ كذا فنَهْيٌ من حيث اللّفظُ والمعنَى جميعًا. نحوَ قولِه تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾ [البقرة: 35]... وكذا النّهيُ عنِ المنكرِ يكونُ تارةً باليد، وتارةً باللّسان، وتارةً بالقلب. قال تعالى: ﴿أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾ [هود: 62] وقولُه: ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ﴾ إلى قولِه تعالى: ﴿وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ﴾ [النحل: 90]، أي: يحثُّ على فعْلِ الخيرِ ويزجُرُ عنِ الشّرّ، وذلك بعضُه بالعقل الذي ركّبَه فينا، وبعضُه بالشّرع الذي شرعَه لنا، والانتهَاءُ: الانزجارُ عمّا نهَى عنه، قال تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال: 38]... والنُّهيَةُ: العقلُ النّاهِي عنِ القبائحِ. جمْعُها: نُهًى. قال تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِى ٱلنُّهَىٰ ۝٥٤﴾ [طه: 54]"[3].

4) ﴿ٱلْمَعْرُوفِ﴾: "العُرْفُ: ما استقرَّت النّفوسُ عليه بشهادةِ العقولِ، وتلقّته الطبائعُ بالقبول"[4]، "والمَعْروفُ: ضِدُّ المُنْكَرِ"[5]، "وَعُرْفُ الشَّرْعِ: مَا فَهِمَ مِنْهُ حَمَلَةُ الشَّرْعِ وجعلُوه مَبْنَى الأَحْكَام"[6].

5) ﴿وَيَقْبِضُونَ﴾: "القَبْضُ: تناول الشيء بجميع الكفّ. نحو: قَبَضَ السّيفَ وغيرَهُ. قال تعالى: ﴿فَقَبَضْتُ قَبْضَةً﴾ [طه: 96]، فَقَبْضُ اليدِ على الشّيءِ جمعُها بعد تناوُلِه، وقَبْضُهَا عنِ الشيء جمْعُها قبل تناوُلِه، وذلك إمساكٌ عنه، ومنه قيل لإمساك اليدِ عنِ البذْلِ: قَبْضٌ. قال تعالى: ﴿وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ﴾ [التوبة: 67]، أي: يمتنِعون منَ الإنفاق، والانْقِبَاضُ: جمْعُ الأطرافِ، ويُستعملُ في ترْكِ التّبسُّطِ"[7].

---

(1) الفِيروزابادِيّ، بصائر ذوي التّمييز: (نكر): 5/120.
(2) الكفويّ، الكلّيّات، ص: 804.
(3) الرّاغب، المفردات في غريب القرآن: (نهى).
(4) الجرجاني، التعريفات، ص: 149.
(5) الفِيروزابادِيّ، القاموس المحيط: (عرف).
(6) الكفويّ، الكلّيّات، ص: 617.
(7) الرّاغب، المفردات: (أمر).

6) ﴿نَسُواْ﴾: "النِّسيانُ: تَرْكُ الإنسان ضَبْطَ ما اسْتُودِعَ، إمّا لضَعْفِ قَلْبِه، وإمّا عن غَفْلَةٍ، وإمّا عن قَصْدٍ حتى يرتفعَ عن القَلْبِ ذِكْرُه. نَسِيتُه نِسْياناً وتَناسَيْتُه، وأَنْسانِيهُ شَيْطانٌ ونَسّانِيه، قال تعالى: ﴿فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ١١٥﴾ [طه: 115]، وقوله تعالى: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ٦﴾ [الأعلى: 6] إخبارٌ وضَمانٌ منَ اللّه تعالى أَنَّه يجعلُه بحيث إنَّه لا يَنْسَى ما يسمعُه منَ الحقِّ.

وكلُّ نِسْيان منَ الإنسان ذمَّهُ اللّه تعالى به فهو ما كان أَصلُه عن تَعَمُّدٍ منه لا يُعْذَرُ فيه، وما عُذِرَ فيه فإنَّه لا يُؤاخَذُ به نحوَ قولِه ﷺ: «رُفِعَ عن أُمَّتي الخَطَأُ والنِّسيانُ»[1]، فهو ما لم يكن سببُه منه. وقولُه تعالى: ﴿فَذُوقُواْ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ﴾ [السجدة: 14] هو ما كان نَسْيُه عن تعمّدٍ منهم وتركُه على طريقِ الإهانة. وإذا نُسِب ذلك إلى اللّه تعالى فهو تَرْكُه إيّاهم استهانةً بهم ومُجازاةً لما تركوه... ويُقال: نسيتُ الشَّيءَ أي: تركْتُه، ومنه قولُه تعالى: ﴿نَسُواْ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾"[2].

7) ﴿ٱلْفَٰسِقُونَ﴾: "**الفِسْقُ**: العِصْيَانُ وَالتَّرْكُ لأَمر اللّه ﷻ وَالخُرُوجُ عَنْ طَرِيقِ الحَقِّ"[3]، "وَهُوَ فِي القُرْآن على وُجُوه بِمَعْنى الكفْرِ نَحْوَ: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا﴾ [السجدة: 18] وَالمَعْصِيَة نَحْوَ: ﴿فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ٢٥﴾ [المائدة: 25]، وَالكذبِ نَحْوَ: ﴿وَلَا تَقْبَلُواْ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ٤﴾ [النور: 4]... وَالإِثْم نَحْوَ: ﴿وَإِن تَفْعَلُواْ فَإِنَّهُۥ فُسُوقٌۢ بِكُمْ﴾ [البقرة: 282]، والسّيّئَاتِ نَحْوَ: ﴿وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ﴾ [البقرة: 197]. وَكلُّه رَاجعٌ فِي اللُّغَة إلى الخُرُوج من قَوْلهم: فسقتِ الرّطبَة عَن القشْرِ، ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ﴾ [الأنعام: 121]: أَي خُرُوجٌ عَنِ الحق. وَيخْتَلف الخُرُوجُ فَتَارَة خُرُوجٌ فعلًا، وَأُخْرَى خُرُوجٌ اعتقادًا وفعلًا"[4].

المَعْنى الإِجْماليُّ:

المنافقون بعضُهم "يُشبهُ بعضًا في الشّكِّ والنّفاقِ والارتيابِ، ولكن لا صلةَ بينهم ولا تآلُفَ؛ إذِ الولايةُ والصّلةُ والأخوّةُ هي من صفاتِ المؤمنين أصحابِ العقائدِ الرّاسخةِ،

(1) الحديث أخرجه ابن ماجه في سننه، الحديث رقم: (2043) من حديث أبي ذرّ بلفظ: «إنّ الله قد تجاوز عن أمتي الخطأ، والنسيان، وما استكرهوا عليه»، والعلماء بين مصّحح له ومضعّف.

(2) الفِيروزابادِيّ، بصائر ذوي التّمييز: (نسى).

(3) ابن منظور، لسان العرب: (فسق).

(4) الكفويّ، الكلّيّات، ص: 692.

المنافقون على شاكلة واحدة، أمرًا بالمنكر، ونهيًا عن المعروف

ولذا يقولُ اللّه فيهم: ﴿وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ﴾ ولايةَ النُّصرةِ في الدّفاعِ عنِ الحقِّ...، وبالعكسِ المنافقون يأمرون بالمنكرِ ويَنهوْنَ عنِ المعروفِ، ولا غرابةَ فهاتان الصّفتانِ من أبرزِ صفاتِ المؤمنين"[1] أنّهم "يأمرون غيرَهم بكلِّ ما تستنكرُه الشّرائعُ، وتستقبِحُه العقولُ، ويَنهونَه عن كلِّ أمْرٍ دعتْ إليه الأديانُ، وأحبَّتْه القلوبُ السّليمةُ... بخلاءُ أشحَّاءُ عن بَذْلِ المالِ في وجوهِه المشروعةِ... تركُوا طاعةَ اللّه وخَشيتَه ومراقبتَه، فتركَهم سبحانه وحرمَهم من هدايتِه ورحْمتِه وفضْلِه... فهمُ الكاملون في الخروجِ عن طاعةِ اللّه، وفي الانْسلاخِ عن فضائلِ الإيمان، ومكارمِ الأخلاق...، إنَّ تلك العقوبةَ الشّديدةَ كافيةٌ لإهانتِهم وإذلالِهم بسببِ فسوقِهم عن أمْرِ ربّهم... فطردَهم وأبعدَهم من رحْمتِه ولُطفِه، ولهم عذابٌ دائمٌ لا ينقطعُ، فهمُ في الدّنيا يعيشون في عذابِ القلَقِ والحذَرِ من أن يطّلِعَ المسلمون على نفاقِهم، وفي الآخرةِ يذوقون العذابَ الذي هو أشدُّ وأبقَى، بسببِ إصْرارِهم على الكُفرِ والفسُوقِ والعِصيانِ"[2].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بَلاغةُ الفصْلِ:

العفْوُ لايَطالُ كلَّ المنافقين، وبيانُ أحوالِهم يُؤكِّدُه

"يظهرُ أن تكُون هذِهِ الآيةُ احتراسًا عن أن يظُنّ المُنافِقُون أنّ العفو المفرُوض لِطائِفة مِنهُم هُو عفو ينالُ فرِيقًا مِنهُم باقِين على نِفاقِهِم، فعقّب ذلِك بِبيانِ أنّ النِّفاق حالة واحِدة وأنّ أصحابهُ سواء؛ لِيُعلم بِذلِك أنّ افتِراق أحوالِهِم بين عفو وعذاب لا يكُونُ إلّا إذا اختلفت أحوالُهُم بِالإيمان والبقاءِ على النِّفاقِ.

(1) حجازي، التفسير الواضح: 1/905.
(2) طنطاوي، التفسير الوسيط: 6/343.

إلى ما أفادتهُ الآيةُ أيضًا مِن إيضاحِ بعضِ أحوالِ النِّفاقِ وآثارِهِ الدّالّةِ على استِحقاقِ العذابِ، ففصل هاتِهِ الجُملة عنِ الّتي قبلها: إمّا لأنّها كالبيانِ لِلطّائفةِ المُستحِقّةِ العذاب، وإمّا أن تكون استِئنافًا ابتِدائيًّا في حُكمِ الاعتِراضِ كما سيأتي عِند قولِه تعالى: ﴿كَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ﴾ [التّوبة: 69] وإمّا أن تكون اعتِراضًا هِي والّتي بعدها بين الجُملةِ المُتقدِّمةِ وبين جُملةِ ﴿كَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنكُمۡ قُوَّةً﴾ [التَّوْبَة: 69]"[1].

نُكتةُ الالْتفاتِ:

وهنا يَلتفتُ السّياقُ من خطابِ المنافقين إلى خطابِ الرّسولِ ﷺ وأصحابِه ﷺ، ويُغيِّبُ ﴿ٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتِ﴾، ويَذكُرهُم بأسلوبِ الغائبِ، وبِوصْفِ النِّفاقِ الصّريحِ؛ ليُثْبِتَ لهم جرائمَ جديدةً بعد الأخبارِ السّابقةِ.

بَعْدَ الإخبارِ بجرائِمِهم السّابقةِ، أثبتَ لهم جَرائمَ جديدَةً

عِلّةُ التّصريحِ بذكْرِ ﴿وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتُ﴾:

ومنَ اللّافتِ هنا التّصْريحُ بذكْرِ ﴿وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتُ﴾ وعطْفِهنّ على ﴿ٱلۡمُنَٰفِقِينَ﴾، وكان يُفترضُ أن يُغلَّب لفظُ ﴿ٱلۡمُنَٰفِقِينَ﴾ فيُطلقُ على أهلِ النّفاقِ رجالًا ونساءً؛ لذلك كان النّصُّ على ذكْرِ ﴿وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتُ﴾ بعدَهم يُشيرُ إلى خطورتِهنّ أيضًا في بابِ النّفاقِ أيضًا، فهنّ يُعاوِنَّ الرّجالَ على اسْتِكمالِ خُططِ النّفاقِ، واسْتِوائِهن مع الرّجالِ في الإضرارِ بالدِّين، وكذلك يُوحِي التَّصريحُ بذكْرِهنّ باستواءِ مصيرِهم جميعًا في الدّركِ الأسفلِ منَ النّارِ.

النِّساءُ يُعادِلنَ الرّجالَ في خطَرِ الإضْرارِ بالدِّينِ

دَلالةُ التّعبيرِ بالجُملةِ الاسْميّةِ ﴿ٱلۡمُنَٰفِقُونَ﴾:

الجُملةُ الاسْميّةُ ﴿ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتُ بَعۡضُهُم مِّنۢ بَعۡضٍۚ﴾ تُفيدُ ثبوتَ المنافقين على نفاقِهم، ودوامَهم عليه؛ وذلك لأنّ الزّمن - غيرَ القارِّ - لا يدخلُ فيها؛ فتتمحَّضُ للحدَثِ الثّابتِ بلا تغيُّرٍ،

النّفاقُ مُتمكِّنٌ منَ المنافقين، ثابتٌ فيهم، دائمٌ عليهم

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/253 - 254.

والحدَثُ هنا هو النِّفاقُ، وهو مأخوذٌ "مِنْ نُفَقاءِ اليربوعِ، وهو حيوانٌ يُشبهُ الفأرَ ويسكنُ في الصّحراء ويحفِرُ لنفسِه نفَقًا في الأرض؛ له بابان، وإنْ ترصَّدَ له الصّائدُ عند أحدِهما خرجَ منَ الثّاني، وهكذا ترى أنّ المنافقَ له وجْهانِ"[1]. وصفاتُ المنافقِ مجموعةٌ في الحديث الشّريف: «إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ، وَإِذا وَعَدَ أَخلَفَ، وَإِذَ خَاصَمَ فَجَرَ، وَإِذَا عَاهَدَ نَقَضَ، لَا يَأْتِي الصَّلَاةَ إِلَّا دُبُراً وَلَا يَذْكُرُ اللّه إِلَّا هَجْراً»[2].

دَلالةُ تعريفِ المُسنَدِ إليه ﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ﴾:

المنافقون والمنافقاتُ أعلامٌ في بابِ النّفاقِ

تعريفُ المُسنَدِ إليه ﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ﴾ يُوحِي بأنّهم كاملُو النّفاقِ، بالغون فيه مبلغَ الأعلامِ في بابِهم، الذين اشتهرُوا في تخصُّصاتِهم، وصارُوا بحيث إذا ذُكرَ وصفُهم انصرفَ إليهم فورًا دونَ سِواهم.

دَلالةُ عطْفِ ﴿وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ﴾ على ﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾:

خطرُ (المنافقات) و(المنافقين) سيّان، وكلاهما يعاقب في الدّارين

و"ذِكْرُ ﴿وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ﴾ خصوصًا، بعد المنافقين عمومًا تَنْصِيصٌ عَلَى تَسْوِيَةِ الأَحْكَامِ لِجَمِيعِ المُتَّصِفِينَ بِالنِّفَاقِ: ذُكُورِهِمْ وَإِنَاثِهِمْ، كَيْلَا يَخْطُرَ بِالبَالِ أَنَّ العَفْوَ يُصَادِفُ نِسَاءَهُمْ، وَالمُؤَاخَذَةَ خَاصَّةٌ بِذُكْرَانِهِمْ، وليَعْلَمَ النَّاسُ أَنَّ لِنِسَاءِ المُنَافِقِينَ حَظًّا مِنْ مُشَارَكَةِ رِجَالِهِنَّ فِي النِّفَاقِ فَيَحْذَرُوهُنَّ"[3].

دَلالةُ الإطْنابِ في صِيغةِ الخبرِ:

تناقُلُ النّفاقِ بين أهلِه، مِثْلُ تناسُلِ الذّرّيةِ بين النّاسِ

من لطائفِ التَّعبيرِ بهذه الصِّيغةِ المُطْنَبَة ﴿بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍۚ﴾ - مع إمكانِ اسْتِبدالها بصِيغةٍ أوْجزَ هي (متشابهون) - تحقيقُ

(1) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 9/5267.

(2) الماورديّ، النّكت والعيون: 2/380، هكذا هو عند الماوردي عن مكحول عن أبي الدّرداء.
والمشهورُ الصّحيحُ منه ما في صحيح البخاري، كتاب المظالم والغصب، الحديث رقم: (2459)، عن عبد الله بن عمرو ﷺ، مرفوعا: «إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ، وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ».

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/254.

الاتّساقِ والتّناسُبِ بين اللّفظِ والمعنى؛ ذلك أنّ المعنَى هنا صريحٌ في تَناسُلِ شَيءٍ من شَيءٍ، وتَوَلُّدِ شيءٍ من شيءٍ، واللّفظُ بإزائه تمامًا، بأداةِ التّبعيض ﴿مِّنۢ﴾، الفصيحةِ في انفصالِ جُزءٍ من كلٍّ؛ لذلك كان التّعبيرُ ﴿بَعۡضُهُم مِّنۢ بَعۡضٖۚ﴾ دقيقًا ومُنسجِمًا، ومُصوِّرًا للمعنى بهذه اللّغةِ المُجرّدةِ، فتناقُلُ النّفاقِ بين أهلِه مثلُ تناسُلِ الذّرّيةِ بين النّاسِ. والمنافقون ليسُوا منَ المؤمنين في شيءٍ،

"لمَّا تقدّمَ قبلُ ﴿وَمَا هُم مِّنكُمۡ﴾ حسُنَ هذا الإخبارُ"[1]، فكوْنُ بعضِ المنافقين من بعضٍ يُلمِحُ إلى أنّهم "ليسوا منَ المؤمنين؛ لأنّ المنافقين... يأمرون بالكُفرِ بالنّبيِّ ﷺ... ويَنهوْن عنِ الإيمان به... ولا يتصدَّقون ولا يُزَكُّونَ"[2]، فبعضُهم من بعضٍ في "الحُكمِ والمنزلةِ منَ الكُفرِ"[3] وهذا أمرٌ مَعنويٌّ، مثلَ أنَّ أفرادَ الجنْسِ بعضُهم منسولٌ من بعضٍ، وهذا أمرٌ حسّيٌّ.

دَلالةُ التّبعيضِ في ﴿بَعۡضُهُم مِّنۢ بَعۡضٖۚ﴾:

التّعبيرُ بـ ﴿بَعۡضُهُم مِّنۢ بَعۡضٖۚ﴾ تُفيدُ أنّ المنافقين مُتناسلُو الأفكار، متوالدُو الأحقادِ على الدّينِ والأمّة، "متشابِهُون في النّفاقِ كتشابُهِ أبعاضِ الشّيءِ الواحدِ"[4] وكأنَّ حامضَ النّفاقِ النّوويَّ يُتوارَثُ فيما بينَهم تَوَارُثَ حامضِ البَشرِ النّوويِّ، "والمرادُ الاتّحادُ في الحقيقةِ والصّفةِ"[5].

المنافقون مُتناسِلُو الأفكارِ، مُتوالدُو الأحقادِ على الدِّين والأمّة

"هكذا همُ المنافقون، وذلك هو مجتمعُهم، لا ينضحُ بغيرِ الإثمِ والمنكرِ، ولا يلدُ إلّا البغْيَ والفجورَ، فـ ﴿بَعۡضُهُم مِّنۢ بَعۡضٖۚ﴾، أي: على طبيعةٍ سواءَ يجمعُهمُ النّفاقُ، ويؤلّفُ بينهم، من رجالٍ ونساءَ، حتى لكأنّهم أفرادُ أسرةٍ واحدةٍ، تجمعُها لُحمةُ النّسبِ والقرابةِ،

(1) ابن عطية، المحرّر الوجيز: 3/56.
(2) الزّجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 2/460.
(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/56.
(4) الآلوسيّ، روح المعاني: 5/322.
(5) القاسميّ، محاسن التّأويل: 5/450.

وتُؤلّفُ بينها مشاعرُ الحبِّ والولاءِ.. وذلك أنذَ المنافقَ لا يجدُ المرعَى الخصيبَ الذي يُغذّي فيه نِفاقَه، ويُحقّقُ به وجودَه، ويُرضي فيه مشاعره، إلّا في بيئةٍ مُنافِقةٍ، تتجاوبُ معه، وتُروِّجُ لهذه البضاعةِ التي يتعاملُ بها"[1].

فـ"بعضُهم يأخذ نفاقَه من بعضٍ"[2]، و"المنافقُ بالمنافقِ يتعاضَدُ، وطيورُ السّماء على أُلّافِها تقعُ، فالمنافقُ لصاحبِه أُسٌّ، بِه قِوامُه، واصِلٌ به قيامُه، يُعينُه على فسادِه، ويُعَمِّى عليه طريقَ رشادِه"[3]، ويترتّبُ على ذلك أنّ بعضَهم من بعضٍ "في الحُكمِ والمنزلةِ منَ الكُفرِ"[4].

موقعُ جُملةِ ﴿يَأۡمُرُونَ بِٱلۡمُنكَرِ﴾ ودَلالتُه:

أخطرُ جرائمِ النّفاقِ، مُعاداة الخيْرِ، ومُعاضَدةُ الشّرِّ

هذه الجُملة واللّتان بعدَها أحوالٌ منَ المنافقين والمنافقات، وهو كلامٌ "مُسْتَأْنَفٌ مُفَسِّرٌ لِمَا قَبْلَهُ"[5]، "مُفسِّرٌ لمُضادّةِ حالِهم لحالِ المؤمنين، وكذا ما عُطِف عليه"[6]، وهذه الجُملةُ والتي بعدَها تُلخِّصان أفظعَ جرائمِ المنافقين؛ إذ إنّهما دليلُ انتكاسِ الفِطرة - التي فطرَ اللّه تعالى النّاسَ عليها - فيهم، وأنّ المنافقين قد بلغُوا من اختلالِ المنهجِ وخُبْثِ النّفوسِ بحيث يدْعُون النّاسَ بل يأمرونَهم أمْرًا بعملِ المُنكرِ، وينهَونَهم نهْيًا عن عملِ المعروف، وذلك دليلُ خُلُوِّ قلوبِهم من أيِّ خيرٍ، وآيةُ عُمْرانِها بالنّفاقِ وإرادةِ الضُّرِّ للحقِّ وأهلِه، والنّصُّ على ذلك هنا وعلى ضدّه للمؤمنين - بعد صفحةٍ - يَعقِدُ المقابَلةَ الكاشفةَ عن بُعْدِ ما بينَهما؛ هؤلاء في الشّرِّ وأولئك في الخيْرِ، فـ "وصَفَهم بما يدلُّ على مُضادَّةِ حالِهم لحالِ المؤمنين

(1) الخطيب، التّفسير القرآني للقرآن: 5/836.
(2) الماورديّ، النّكت والعيون: 2/379.
(3) القشيريّ، لطائف الإشارات: 2/43.
(4) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/56.
(5) العكبريّ، التّبيان في إعراب القرآن: 2/650.
(6) الهمذانيّ، الكتاب الفريد في إعراب القرآن المجيد: 3/293.

﴿يَأۡمُرُونَ بِٱلۡمُنكَرِ﴾ بالكُفرِ والمعاصي ﴿وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمَعۡرُوفِ﴾ عن الإيمانِ والطّاعاتِ ﴿وَيَقۡبِضُونَ أَيۡدِيَهُمۡۚ﴾ شُحًّا بالمَبارِّ والصّدقاتِ والإنفاقِ في سبيلِ اللّه تعالى"[1].

مِن بلاغةِ تعريفِ ﴿ٱلۡمَعۡرُوفِ﴾، و﴿بِٱلۡمُنكَرِ﴾:

يُوحِي تعريفُ المنكر والمعروف هنا بمعنَى العُمومِ والاسْتِغراقِ والجنْسِ، فكلُّ خيرٍ، وكلُّ معروفٍ تعارف عليه النّاسُ، وعرّف الشّرعُ الحنيفُ حُسْنَه وتحسينَه وقَبولَه فإنّ المنافقين له بالمرصادِ، وهذا الذي وصلُوا إليه منَ الضّلال يُفقدُ الثّقةَ في صلاحِهم، ويُؤْذِنُ بمصيرِهم الأليمِ، المذكورِ في الآية الاتيةِ؛ فهذه الآيةُ تُبِينُ عن نهايةِ النّهايةِ في الضّلالِ الذّاتي للمنافقين؛ وتكشفُ عن مدَى انتكاسةِ الفِطرةِ لديهم، وأنّها انْحطّتْ إلى أحطِّ دركاتِ الضَّلالِ.

المعروفُ ما عرّفَه الشّرعُ وحسَّنَه، والمُنْكَرُ ما أنكرَه الشّرعُ وقبّحَه

دَلالةُ التَّعْبيرِ بالمضارعِ ﴿يَأۡمُرُونَ﴾، و﴿وَيَنۡهَوۡنَ﴾:

تُشيرُ صِيغةُ المضارعةِ في ﴿يَأۡمُرُونَ﴾، و﴿وَيَنۡهَوۡنَ﴾ إلى تجدُّدِ نشاطِ المنافقين في تفعيلِ باطلِهم في واقعِ النّاسِ، وعدَمِ توانِيهم في نشْرِ أباطيلِهم، بل وفرْضِها فرضًا على المجتمع بقوّة الأمْرِ ﴿يَأۡمُرُونَ﴾، والنّهي ﴿وَيَنۡهَوۡنَ﴾.

المنافقون لا يألُونَ جُهْدًا، في الكيْدِ للدِّين وأهْلِه

سِرُّ التّعْبيرِ بالجارِّ والمجرورِ ﴿بِٱلۡمُنكَرِ﴾:

إنّ "بضاعةَ المنافقين بضاعةٌ خبيثةٌ، وطعامٌ فاسدٌ عَفِنٌ لا تقبلُه إلّا النّفوسُ المريضةُ، ولا تستطْعمُه إلّا الطّبائعُ الخبيثةُ، إنّه عُمْلةٌ زائفةٌ، لا تروجُ إلّا في الظّلام، ولا يتعاملُ المُتعاملون بها إلّا في أوكارِ اللُّصوصِ"[2]، فما يُقدِّمُ المنافقون للأمّةِ إلّا الخرابَ والضَّياعَ، نُصحًا كان، أو أمْرًا، أو نهيًا؛ فنصيحتُهم مدخولةٌ، وتوجيهاتُهم مَسمومَةٌ.

نصيحةُ المنافقين مدخولةٌ، وتوجيهاتُهم مَسمومَةٌ

(1) الزّمخشريّ، الكشّف عن حقائق غوامض التّنزيل: 2/287.

(2) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 5/837.

بَلاغةُ إيثارِ الأمْرِ والنّهيِ الصّريحَيْن:

من علاماتِ المنافقين الأمْرُ بالمُنكرِ، والنّهيُ عنِ الخيْرِ، والإمسَاكُ عنه

في صورةِ الأمْرِ والنّهي الصّريحَيْن المعكوسةِ المنكوسَةِ إيذانٌ بأنّ للمنافقين سُلطانًا على الدَّهماءِ بفصاحةِ ألسنَتِهم، وربّما بكثرةِ أموالِهم؛ وبذلك يتضاعفُ جُرْمُهم. بل إنّ المنافقين والمنافقات يغلِبُهم نفاقُهم قطْعًا فيَكشِفُهم؛ وذلك بأنّ نفاقَهم يحملُهم حمْلًا على الأمرِ بالمنكرِ والنّهي عنِ المعروف بصورةٍ، أو بأخرَى، وكأنّي بالقرآن الكريمِ هنا يُوجّهُ المؤمنين إلى أبرزِ علامةٍ من علاماتِ النّفاقِ التي يمكنُ أن يَستدلّوا بها على كلّ منافقٍ ومُنافقةٍ، إنَّ المنافقين والمنافقات "لا يهنؤُهم هذا الطّعامُ الخبيثُ العَفِنُ - طعامُ النّفاقِ - حتى يَستكثرُوا له منَ الأيْدِي التي تُشاركُهم فيه، ومنَ الأفواهِ التي تمضَغُه معهم... ومن دعا إلى مُنكرٍ وأمَرَ به، وحرَّض عليه، فهو ناهٍ - ضِمْنًا بمفهوم المخالفة - عن معروفٍ، صادٌّ عن خيْرٍ، ولكنَّ القومَ لا يقِفون عند هذا، بل إنّهم حين يدْعُون إلى المنكرِ، يقومُون بدعوةٍ أخرى، هي تَبْغِيضُ الحلالِ إلى النّاسِ، وتزهيدُهم في الخيْرِ، وذلك إذا تأبَّوْا عليهم ولم يَستجيبُوا لدعوتِهم إلى المُنكرِ، وحسبُهم في هذا أن يَصْرِفوا وجوهَ المؤمنين عنِ الإيمان، ويكُفُّوا أيدِيَهم عنِ التّعامُلِ بالخيْرِ"[1].

بَلاغةُ المقابَلةِ بين الأمر بالمعروف، والنّهي عن المنكر:

المنافقون لا يكْتفُون بالأمْرِ بالمنكرِ، حتّى ينهَوا عنِ المعروفِ

بين الجُملتَين: ﴿يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ﴾ مقابَلةٌ تزيدُ الجُرمَ بشاعةً؛ إذ لا يكتفِي ﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ﴾ بأمْرِ النّاسِ بالمنكرِ حتى يَنهوْهم عنِ المعروف، وفي ذلك حَرْبٌ صريحةٌ ضدَّ دينِ اللّه تعالى ولرسولِه ﷺ، وللمؤمنين في كلّ زمان ومكانٍ، ومُناهضةٌ لكلِّ قِيَمِ الحقِّ والمُثُلِ القويمةِ.

وإذا بلغَ المنافقُ هذا المبْلغَ من أمْرِ غيرِه بِتَبَنِّي المُنكرِ، واحتضانِه،

(1) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 5/837.

والدّعوةِ إليه، والذَّوْدِ عنه، وأمْرِه بمحاربةِ المعروفِ، والكيْدِ له، فهذا دليل خُلوصِه للشّرِّ، وتغلغُلِ الفسادِ في نفسِه، وعدَمِ الطّمعِ في عودتِه إلى الحقِّ، وذلك يُؤذِنُ بالنّهايةِ الأليمةِ التي تجلَّت في الآية الآتيةِ: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ﴾.

بَلاغةُ حذْفِ مفعولِ ﴿يَأْمُرُونَ﴾ و﴿وَيَنْهَوْنَ﴾:

المنافقون يُطلِقون حمْلةَ الأمْرِ بالمُنكرِ والنّهي عنِ المعروفِ

لم يُفْصِحِ النّظمُ الكريمُ عن مأمورِ المنافقين ومَنْهيِّهم؛ وذلك لِتوفيرِ عِنايةِ التّالي والمُستمعِ على تأمُّلِ ما وصلُوا إليه من انْحطاطٍ، ولِتوثيقِ نسْبةِ الأمْرِ بالمنكرِ والنّهْيِ عنِ المعروفِ إليهم بغَضِّ النّظرِ عن إيقاعِهما على مأمورٍ معيَّنٍ، وعلى مَنهيٍّ معيَّنٍ، وللإيحاءِ بأنَّ ذلك منهم مُتحقِّقٌ لِكلِّ مَن يُتاحُ لهم أمرُه ونهيُه.

فكلُّ أحدٍ من أهلِ الصَّلاحِ، وكلُّ باب من أبواب الخيْرِ مَحَلٌّ لأمْرِهم بالمنكرِ ونهْيِهم عنِ المعروفِ، ويَتّخذون في سبيلِ تحقيقِ أهدافِهم المشؤومةِ كلَّ وسيلةٍ وكلَّ تدبيرٍ، فما أعْجبَ اجتهادَ أهْلِ الضّلالِ في نشْرِ ضلالِهم!

بَلاغةُ الكِنايةِ في قبض اليد عن الشّح:

المنافقون يُفْرِطُون في نشْرِ كلِّ شرّ، ويُمْسِكون عن فِعْلِ أيِّ خير

قوله تعالى: ﴿وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ﴾، هو الجملةُ الثّالثةُ من أحوال المنافقين المُتعاطفةِ، و"قبْضُ اليدِ كنايةٌ عنِ الشُّحِّ"[1]، "كما أنَّ بسْطَها كنايةٌ عنِ الجُودِ؛ لأنَّ من يُعطي يَمُدُّ يده بخلافِ مَن يمنعُ"[2]، والشّحُّ هو البُخلُ في أقبحِ صُوَرِه؛ فلمّا كان البَسْطُ أمارةَ الجُودِ جُعِلَ القَبْضُ دليلَ الإمساكِ والشُّحِّ؛ ولذلك لم يُذْكرِ القبضُ مع بسْطِ اللّه تعالى الرّزقَ لعبادِه في القرآن الكريم قطُّ؛ لأنَّ اللّه تعالى لا يقبضُ حتى عنِ الكافرِ، وإنّما يَقْدِرُ أي: يُنزلُ الرّزقَ بحسبِ مصالحِ العبادِ بتقديرِ الحكيمِ الخبيرِ.

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/80.
(2) القاسميّ، محاسن التّأويل: 5/451.

وللعلماء في المقبوضِ عنه معانٍ: منها القبضُ "عنِ الإنفاق في سبيل الله تعالى... وعن كلِّ خيرٍ...، وعنِ الجهادِ مع النّبيِّ ﷺ...، وعن رفْعِها في الدّعاء إلى الله تعالى"[1].

سِرُّ البدْءِ بالأمْرِ بالمنكرِ، على النّهي عنِ المعروف:

الأمرُ بالمنكرِ أمَسُّ بطبيعةِ المنافقين وأحوالهم

لَفْظُ المُنْكَرِ يَدْخُلُ فِيهِ كُلُّ قبيحٍ، وذميمٍ إلّا أنَّ المنكرَ الأعظمَ هاهنا تَكْذِيبُ الرَّسُولِ ﷺ، والنَّهيُ عَنِ المَعْرُوفِ، وَلَفْظُ المَعْرُوفِ يَدْخُلُ فِيهِ كُلُّ حَسَنٍ إِلَّا أَنَّ المعروفَ الأَعْظَمَ هاهنا الإيمانُ بِالرَّسُولِ[2] ﷺ.

ويُلْمِحُ تقديمُ الأمْرِ بالمنكرِ على النّهي عنِ المعروف إلى أنّ طبيعةَ النّفسِ المنافقةِ تقفزُ على باب الشّرِّ أوّلًا، تأمرُ به، وتدعُو إليه، وتزيّنُه. وأنَّ منطقةَ المنكرِ أحبُّ إليها منَ الاقتراب من ساحةِ المعروفِ ولو على سبيلِ النَّهْيِ عنه، إنّها هنالك حيثُ الكيدُ للدِّين، والإضرارُ بعبادِ الله تعالى الصّالحين، كذلك يُحقِّقُ هذا التَّقديمُ التّوازيَ الأسلوبيَّ بين صفات المنافقين هنا وصفاتِ المؤمنين هناك؛ فالمنافقون يأمرون أوّلًا ثمّ ينهَون ثانيًا، وفي المقابل نجدُ المؤمنين يأمرون أوَّلًا وينهَوْن ثانيًا كذلك، لكنْ شتَّانَ بين أمرِ هؤلاء ونَهْيِهم، وأمرِ أولئك ونهْيِهم!

بَلاغةُ التّعبيرِ بالمجازِ في ﴿نَسُواْ﴾:

تقبيحُ التّركِ بوصْفِه بالنِّسْيانِ

ذِكرُ الله تعالى "مُستلزمٌ لإطاعتِه؛ فجعلَ النّسيانَ مجازًا عنِ التّرك، وهو كنايةٌ عن تركِ الطّاعةِ"[3]، فقد "تركُوه حين تركوا نبيَّه وشِرْعتَه؛ فتركَهُم حين لم يَهْدِهم، ولا كفاهُم عذابَ النّارِ، وإنّما يُعبّرُ بالنّسيان عنِ التّركِ مبالغةً إذا بلغَ التّركُ الوجْهَ الذي يقترنُ

(1) الماورديّ، النّكت والعيون: 2/379.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 16/97.
(3) القاسمي، محاسن التأويل: 5/451.

به نسيانٌ"[1]، و"إنَّمَا حَسُنَ جَعْلُ النِّسْيَانِ كِنَايَةً عَنْ تَرْكِ الذِّكْرِ لِأَنَّ مَنْ نَسِيَ شَيْئًا لَمْ يَذْكُرْهُ، فَجَعَلَ اسْمَ المَلْزُومِ كِنَايَةً عَنِ اللَّازِمِ"[2].

من بلاغةِ المجازِ والمُشاكلةِ، في سيّاق الآية الكريمة:

الجزاءُ من جِنْسِ العمَلِ، ومَنْ يعملْ سُوءًا يُجْز به

قوله تعالى: ﴿نَسُواْ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمۡۚ﴾، في هذه الجملةِ مُشاكلةٌ بديعةٌ، والمعنى: "فتركَهُم من رحْمتِه وفضْلِه وخَذَلَهم، والتَّعبيرُ عنه بالنِّسيانِ للمُشاكلةِ"[3]، فأسندَ النِّسيانَ إلى الله تعالى - و﴿لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ۝٥٢﴾ [طه: 52] - لوقوعِ مُجازاتِه في صُحبةِ نسيانِهم إيّاه، وإنّما "جُعلَ النِّسيانُ مَجازًا لاستحالةِ حقيقتِه عليه تعالى، وامتناعِ المُؤاخذةِ على نسيانِ البشَرِ"[4]، "ولا بُدَّ من حمْلِ الكلامِ على المجازِ المُرسَلِ والعلاقةِ اللّازميّةِ، فالمرادُ لازمُ النِّسيانِ وهو التّركُ، أي أنّهم أغفلُوا ذِكْرَ الله تعالى فتركَهُم من رحمتِه وفضْلِه، أو يقال: فيه فنُّ المشاكلةِ؛ لأنَّ النّسيانَ الحقيقيَّ لا يصحُّ إطلاقُه على الله تعالى، وإنّما أُطلقَ عليه هنا من باب المُشاكلةِ، أي تركُوا ما أمرَهُم به فتركَهم من رحْمَتِه وفضْلِه"[5]. ونسيانُ الله تعالى إيّاهُم مَجازٌ عن أنّ الله تعالى يُخَلِّيهم إلى أنفُسِهم، ولا يمنحُهمُ التّوفيقَ، ولا يُسدّدُهم، بل يُهملُ شأنَهم ويُغَيِّمُهم في عذاب النَّفْسِ الّتي تُعاني عبءَ النّفاقِ في الدّنيا، ولا يتدارَكُهم برحْمتِه وعفْوِه ومغفرَتِه في الآخِرةِ، "فنَسِيَهُمْ أي: منَ الخيْرِ، ولم ينْسَهُم منَ الشّرِّ"[6]. و"جازاهُم على نِسيانِهم، فسمّى جزاءَ النِّسيانِ نِسيانًا..﴿وَتَرَكَهُمۡ فِي ظُلُمَٰتٖ لَّا يُبۡصِرُونَ ۝١٧﴾ [البقرة: 17]"[7].

(1) ابن عطية، المحرّر الوجيز: 3/56.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 16/97.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السليم: 4/80.
(4) القاسمي، محاسن التأويل: 5/451.
(5) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 4/130.
(6) ابن عطية، المحرّر الوجيز: 3/56.
(7) القشيريّ، لطائف الإشارات: 2/43.

دلالة موقع الجُملةِ المؤكّدة بـ ﴿إِنَّ﴾، ممّا قبلَها:

الفِسْقُ في أقبَحِ صُوَرِه، دليلُ النّفاقِ وعلامةُ أهْلِه

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾، فُصِلتْ هذه العبارةُ عمّا قبلَها؛ لأنّها تُنزّلُ منها مَنزلةَ التّوكيدِ منَ المُؤكّدِ، فلا حاجةَ إلى رابطٍ يربطُهما وهذه المرّةُ الثّالثةُ لذكْرِ المنافقين في هذه الآية الكريمةِ والرّابعةُ في الصّفحة نفْسِها من بين ستّةِ مواضعَ في نفْسِ الصّفحةِ، وبهذا العددِ لم يجتمعْ للمنافقين ذكرٌ في القرآن الكريم قطُّ وذلك يَعني أنّهم هنا بلغُوا الذّرْوةَ في الفسادِ والإفسادِ وفي خرابِ النّفوسِ، وتَخريبِ نفوسِ غيرِهم، والعِياذُ باللّه من حالِ أهلِ النّارِ.

نُكتةُ الاقتصارِ على (المنافقين) دونَ (المنافقات):

الفُسوقُ في المنافقين، أعلى منه في المُنافقاتِ

منَ اللّافتِ هنا بقوّةٍ أنَّ النَّظمَ الكريمَ يُثبتُ الفسوقَ للمنافقين، دونَ المنافقات، برغْمِ أنّه ذكرهُنَّ معهم في أوّلِ الآيةِ الكريمةِ، وسيَذكرُهنَّ معهم في الآيةِ الكريمةِ الآتية، وذلك من دِقّةِ القرآن، ووُجوهِ إعجازِه.

ولعلّ وجْهَ المناسبةِ في السّكوتِ عنِ المنافقات هنا في سِياقِ ذكْرِ الفُسوقِ وذكْرِ المنافقين فقط، هو ما يُمثّلُه الفرقُ بين طبيعةِ الرّجالِ المنافقين، وما يختصّون به من فجورِ الفُسوقِ، وتبجُّحِ الخروجِ، دونَ النّساءِ المنافقاتِ، إذ إنّ المرأةَ المنافقةَ مهما كانت ستظلُّ في الأغلبِ الأعمِّ امرأةً، تتّصفُ بضعْفِ بدنِها، وخَوَرِ عزيمتِها، ورجْفةِ قلبِها في الشّدائدِ طبعًا وعادةً، وليس كذلك الرّجلُ المنافقُ طبعًا وعادةً؛ لذلك اختصَّه الذّكرُ الحكيمُ بنسبةِ الفُسوقِ إليه وإثباتِه له.

بَلاغةُ إظْهارِ اسْمِ ﴿ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾، في مَوضِعِ الإضْمارِ:

التّقريرُ وتأكيدُ المعنَى، يُناسبُه الإظْهارُ

الموضعُ هنا لذكْرِ ﴿ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ بالضّميرِ (هم) فيقال - في غيرِ القرآن الكريم -: أولئك همُ الفاسقون - مثلًا -، غير أنّ النَّظمَ الكريمَ آثرَ التَّعبيرَ بالاسْمِ الظّاهرِ مباشرةً "لزيادةِ التَّقريرِ"[1] -

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السليم: 4/80.

تقريرِ نسْبةِ الفسوقِ في أفْظعِ مُستوياتِه على الإطلاقِ إليهم؛ ولذلك أيضًا دعَّمَ التّقريرَ بضميرِ الفصْلِ ﴿هُمُ﴾.

من بلاغةِ القصْرِ الإدّعائيّ في جُملةِ الفاصلةِ:

﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾، وفيه أنّ ضميرَ الفصْلِ ﴿هُمُ﴾، يتآزرُ مع تعريفِ ﴿ٱلْفَٰسِقُونَ﴾، في توكيدِ الخبرِ، وهو من بابِ القصْرِ، وهو "قَصْرٌ ادِّعَائِيٌّ لِلْمُبَالَغَةِ؛ لِأَنَّهُمْ لَمَّا بَلَغُوا النِّهَايَةَ فِي الفُسُوقِ، جُعِلَ غَيْرُهُمْ كَمَنْ لَيْسَ بِفَاسِقٍ"[1]، ويُشيرُ إلى أنَّ فِسْقَهم في ميزانِ الشّرعِ، هو الفِسقُ، بحيث إذا قِيس به كلُّ فسقٍ غيرُه، لم يُعَدَّ فِسْقًا، وأنّهم دون سواهُم "هُمُ الكَامِلُونَ فِي الفِسْقِ"[2]، كلُّ هذا وغيرُه ممّا يفوحُ به ضميرُ الفصْلِ، مع التّعريفِ.

الفِسْقُ البالغُ مستوى كبيرًا، دليلُ النّفاقِ وسوءِ الأخلاقِ

سِرُّ التّعبيرِ بوصْفِ ﴿ٱلْفَٰسِقُونَ﴾:

الفِسقُ في الدِّين هو "التّمرُّدُ في الكفرِ، والانْسِلاخُ عن كلِّ خيْرٍ، وكفَى المسلمَ زاجرًا أن يُلِمَّ بِما يُكسِبُه هذا الاسْمُ الفاحشُ، الذي وصفَ اللّه تعالى به المنافقين حين بالغَ في ذمِّهم، وإذا كرِهَ رسول اللّه ﷺ للمسلمِ أن يقول (كسلت)؛ لأنّ المنافقين وُصِفُوا بالكسلِ في قوله تعالى: ﴿كُسَالَىٰ﴾ [النساء: 142]، فما ظنُّكَ بالفِسْقِ؟"[3].

النّفاقُ يُفسدُ صاحبَه، كما يُفسِدُ الثّمرةَ خروجُها من قِشْرتِها

بَلاغةُ التَّعبيرِ باسْمِ الفاعلِ ﴿ٱلْفَٰسِقُونَ﴾:

التَّعبيرُ باسْمِ الفاعلِ ﴿ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ يقْطعُ بأنَّ الفِسْقَ صارَ مُلازِمًا لهم، مُتمكِّنًا منهم، مُختلِطًا بخلايا أبْدانِهم وعقولِهم ونفوسِهم بحيث لا يَنفكُّ عنهم.. وهكذا تتضافرُ كلُّ هذه العناصرِ - من: إنّ، واسْميّةِ الجُملةِ، وضميرِ الفصْلِ، وصِيغةِ اسْمِ الفاعلِ في الكافرون وفاسقون - على تقريرِ الحُكمِ عليهم، واقتضاءِ العقوبةِ لهم، وذلك منَ التّناسُبِ في الصّميمِ؛ بما تكاثفَ في نفوسِهم منَ الشّرِّ والضّلالِ والإضْلالِ.

الفِسْقُ ثابتٌ فيهم، مُتمكِّنٌ منهم

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/255.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 16/97.
(3) القاسمي، محاسن التأويل: 5/451.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الفِسْقُ والظُّلْمُ والكُفْرُ والفُجُورُ:

الفِسْقُ إقرارٌ بحُكْمِ الشّرْعِ وإخلالٌ بمقاصده

إنَّ الفِسْقَ أعمُّ منَ الكُفرِ، والفِسقُ يقعُ بالقليلِ منَ الذّنوبِ وبالكثيرِ، لكنْ تُعُورف فيما كان كثيرًا، وأكثرُ ما يقالُ الفاسقُ لمنِ التزم حُكْمَ الشّرعِ وأقرَّ به، ثم أخلَّ بجميع أحكامِه أو ببعْضِها، وإذا قيلَ للكافرِ الأصليِّ: فاسقٌ، فلِأنه أخلَّ بحُكْمِ ما ألزَمَه العقلُ واقتضتْه الفِطرةُ، فالفاسقُ أعمُّ منَ الكافرِ، والظّالمُ أعمُّ منَ الفاسقِ، والفاجرُ يُطلقُ على الكَافِرِ وَالفَاسِقِ[1].

ولِعُمومِ لفْظِ الفِسْقِ ودَلالتِه على الإخلالِ بحُكْمِ الشّرعِ مع معرفتِه به ناسبَ أن يُختارَ في الآية وصْفًا للمنافقين والمنافقات بوصْفِهم يأمرُون بالمنكرِ، وينْهَون عن المعروف مع معرفتِهم بمنْعِ الشّارعِ له، وحجْمِ ضررِه.

(1) الكفويّ، الكلّيّات، ص: 693.

﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلۡكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ هِيَ حَسۡبُهُمۡۚ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُۖ وَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّقِيمٞ ٦٨﴾ [التّوبة: 68]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الرّبط بين مواصفات المنافقين، ومآلهم في اللّعنة وسوء العذاب

لمّا بيّنَ كثيرًا من أحوالِهم اشتدَّ التّشَوّفُ إلى مآلِهم، فجاءتِ الآيةُ الكريمةُ مُبيِّنةً مآلَهم، وأنّهم في الآخرةِ هُمْ والكفّارُ سواءٌ في الخلودِ في جهنّمَ والمقامِ الدّائمِ في العذابِ.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَعَدَ﴾: "الوَعْدُ يكون في الخير والشّرّ. يقال وَعَدْتُهُ بنفْعٍ وضُرٍّ وَعْداً ومَوْعِداً ومِيعَاداً، والوَعِيدُ في الشّرِّ خاصّةً. يقال منه: أَوْعَدْتُهُ"[1]، "قال الفرّاءُ: إذا أَسْقَطُوا (المفعول وهو)[2] الخيرَ والشَرَّ قالوا في الخَيْر: المَوْعِد والعِدَة، وقالوا في الشرّ: الوَعِيدُ والإيعاد"[3].

2) ﴿حَسۡبُهُمۡۚ﴾: "حسبُ: في أَسماءِ اللّه تعالى الحَسِيبُ: هُوَ الكَافِي، فَعِيلٌ بِمَعْنَى مُفْعِل، مِن أَحْسَبَنِي الشّيءُ إِذَا كَفاني... وحَسْبُه، أَي: قَدْرُه، وَكَقَوْلِكَ: عَلَى حَسَبِ مَا أَسْدَيْتَ إِلَيَّ يكون شُكْري لَكَ. تَقُولُ أَشْكُرُكَ عَلَى حَسَبِ بَلَائِكَ عِنْدي، أَي عَلَى قَدْر ذَلِكَ. وحَسْبُ – مَجْزُومٌ، أي: ساكن الوسط – بِمَعْنَى كَفَى؛ قَالَ سِيبَوَيْهِ: وأَمَّا حَسْبُ، فَمَعْنَاهَا الاكْتِفاءُ. وحَسْبُكَ دِرْهمٌ أَي كَفاكَ، وَهُوَ اسْمٌ"[4].

3) ﴿مُّقِيمٞ﴾: أي دائمٌ ثابتٌ، يقال: "قَامَ كذا، وثبتَ، وركزَ بمعنًى. وقوله تعالى: ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبۡرَٰهِـۧمَ مُصَلّٗىۖ﴾ [البقرة: 125]... والإِقَامَةُ

(1) الرّاغب، المفردات: (وعد).
(2) هذه الزيادة كما في كتاب: مجموعة من العلماء، التفسير الوسيط للقرآن الكريم: 16/32.
(3) الفِيروزاباديّ، بصائر ذوي التّمييز: (وعد) ولم يوقف على ما عُزي إلى الفراء في كتابه معاني القرآن.
(4) ابن منظور، لسان العرب: (حسب).

في المكان: الثّباتُ، ويُعبَّرُ بالإقامةِ عنِ الدّوام، نحوَ: ﴿عَذَابٌ مُّقِيمٌ ۝٣٩﴾ [هود: 39]، وقُرِئَ: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي مُقَامٍ أَمِينٍ ۝٤٨﴾ [الدخان: 48][1]، أي: في مكانٍ تدومُ إقامتُهم فيه... والمُقَامةُ: الإقامةُ، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِيٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [فاطر: 35] نحو: ﴿دَارُ ٱلْخُلْدِ﴾ [فصّلت: 28]"[2].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

"حملتْ هذه الآيةُ أشدَّ وعيدٍ لأهلِ النّفاقِ والكُفرِ؛ إذ توعَّدهمُ الربُّ تعالى بنارِ جهنَّمَ خالدِين فيها، وبالعذابِ المُقيم، الذي لا يُبارِحُهم، ولا يتركُهم لحظةً أبدَ الأبَدِ، وذلك بعْدَ أن لعنَهمُ اللّه تعالى، فأبعَدَهم، وأسْحقَهم من كلِّ رحْمةٍ وخيْرٍ، وفي ذلك ما يَعمُرُ النّفوسَ بُغْضًا للنّفاقِ والمنافقين، وما يَحملُ النّاسَ على الخوفِ منه، والحذَرِ منهم، وما هو كفيلٌ بتَثْبيتِ الفزَعِ والفرَقِ في نفوسِ المنافقين من هذا الوعيدِ الشّديدِ.

المنافقون جزاؤهم الخُلودُ في العذاب الهون، في الدّرك الأسفل من النّار

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ الاسْتِئْنافِ في: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ﴾:

"هَذِهِ الجُمْلَةُ... اسْتِئْنَافٌ بيانيٌّ ناشئٌ عَنْ قَوْلِهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾، ... ومُبَيِّنَةٌ لجملةِ ﴿فَنَسِيَهُمْ﴾؛ لِأَنَّ الخُلُودَ فِي جَهَنَّمَ وَاللَّعْنَ بَيَانٌ لِلْمُرَادِ مِنْ نِسْيَانِ اللّه إِيَّاهُمْ"[3].

تَمَسُّكُ المنافقين بِنفاقِهم، مع العلْمِ بِعُقوبتِه، يَستحقُّ الوَعْدَ بها

"وَالوَعْدُ أَعَمُّ مِنَ الوَعِيدِ، فَهُوَ يُطْلَقُ عَلَى الإِخْبَارِ بِالتِزَامِ المُخْبِرِ لِلْمُخْبَرِ بِشَيْءٍ فِي المُسْتَقْبَلِ نَافِعٍ أَوْ ضَارٍّ... وَالوَعِيدُ خَاصٌّ بِالضَّارِّ"[4]، وآثرَ النّظمُ الكريمُ الوعْدَ مع تمحُّضِ السّياقِ للشّرِّ فكان بالوعيدِ أَوْلى - لاستعمالِ الوعْدِ هنا في التّهكُّم الذي اقتضاه رِضاهُم

(1) ابن الجزري، النشر: 2/371، وهي قراءة نافع وابن عامر وأبي جعفر، وبحسب العد المدني.
(2) الرّاغب، المفردات: (قوم).
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 10/255.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 10/255.

بالنّفاقِ والكُفرِ، وكأنّهم ينتظرون الشّرَّ مكافأةً، فكافأَهُمُ اللّه تعالى به وحقّقَه لهم، بذلك المصيرِ الأليمِ مصيرِ النّفاقِ الذّميمِ.

التّعبيرُ بالماضي ﴿وَعَدَ﴾، في سيّاق الآية الكريمة:

التّعبيرُ بالماضي يُرَسِّخُ في النّفسِ ثُبوتَ الحُكْمِ على المنافقين بالخلودِ في العذابِ؛ فصِيغةُ المُضيّ تقولُ بتحقُّقِ الوقوعِ، وإلى ذلك إذا كان الفعْلُ صادرًا عنِ اللّه تعالى فسيزدادُ القطْعُ بالحُكْمِ قطعًا؛ ممّا يَقرّرُ أنّه تعالى "وعدَهمُ النّارَ في الآخرةِ، ولهمُ العذابُ المقيمُ في الحاضرةِ، فمؤجَّلُ عذابِهم الحُرْقةُ، ومُعجَّلُه الإبعادُ والفُرقةُ"[1].

آجلُ عذابِ المنافقين الحُرْقةُ، وعاجلُ عذابِهم الإبعادُ والفُرقةُ

ووعيدُ اللّه تعالى لا يَتخلَّفُ، قال ابنُ عاشورٍ: "وفعْلُ المُضيّ هنا: إمّا للإخبار عن وعيدٍ تقدّمَ وعَدَه اللّه المنافقين والمنافقات تذكيرًا به لزيادة تحقيقِه وإمّا لصَوْغِ الوعيدِ في الصِّيغةِ التي تَنْشأُ بها العقودُ مثل (بعت ووهبت) إشعارًا بأنّه وعيدٌ لا يتخلّفُ مثلُ العَقْدِ والالتزامِ"[2].

بَلاغةُ الإظْهارِ، في مقامِ الإضْمارِ:

أظهرَ في مَقَامِ الإضْمَارِ في قَوْلِهِ تعالى: ﴿ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ﴾؛ مع سبْقِ الحديثِ عنهم طويلا؛ "لِزِيَادَةِ تَقْرِيرِهِمْ في الذِّهْنِ لِهَذَا الحُكْمِ، وَلِتَكُونَ الجُمْلَةُ مُسْتَقِلَّةً حَتَّى تكونَ كالمثَلِ"[3]، وعن "ابن عبّاسٍ: كان المنافقون بالمدينةِ منَ الرّجالِ ثلاثَمائة، ومنَ النّساء سبعين ومائةَ امرأة"[4]، أي: أنّهم كانوا معلومين لدَى المؤمنين بنفاقِهم مُعيَّنةً أفرادُهم؛ وذلك من سُوءِ النِّذارةِ لهم بمكانٍ.. ونسألُ اللّه تعالى العظيمَ صدْقَ الإيمان، وسَتْرَ الآثام، وفلاحَ الحالِ والمآلِ.

المُجتمعُ اليَقِظُ الواعِي، يَعرفُ المنافقين فيَحذرُهم

(1) القشيريّ، لطائف الإشارات: 2/44.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 10/255.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 10/255.
(4) الماورديّ، النّكت والعيون: 2/379.

الكُفّارُ والمنافقون في سُوءِ العاقبةِ سَواءٌ، والمنافقون همُ الأسْوأُ

سِرُّ زيادةِ ﴿وَٱلْكُفَّارَ﴾:

و"زِيَادَةُ ذِكْرِ ﴿وَٱلْكُفَّارَ﴾ هُنَا لِلدَّلَالَةِ عَلَى أَنَّ الْمُنَافِقِينَ لَيْسُوا بِأَهْوَنَ حَالًا مِنَ الْمُشْرِكِينَ؛ إِذْ قَدْ جَمَعَ الْكُفْرُ الفَرِيقَيْنِ"[1]، ويُفهَمُ من هذا التّرتيبِ أنَّ المنافقين أعْرقُ في الكيدِ للإسلامِ وأهلِه؛ إذِ الكافرُ يُواجِهُ فيُفطَنُ له ويُحذَرُ، وقد يكونُ الكافرُ عقيدةً فيما بينه وبين ربِّه تعالى مُسالمًا للمسلمين، أمّا المنافقُ فظاهرُهُ سَلامٌ، وباطنُه تدبيرٌ كائدٌ.

وتلتقي مع هذا التّرتيبِ آيةُ سورةِ النّساء: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾﴾ [النساء: 140]. وكان مُقتضَى تقديمِ الكُفرِ بالآيات ﴿يُكْفَرُ بِهَا﴾ في الآيةِ الكريمةِ على الاستهزاءِ - الذي هو من صفاتِ المنافقين ﴿وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا﴾ - كان مقتضَى هذا التّرتيبِ أن يُقدَّمَ الكافرون في العقوبةِ على المنافقين، لكنَّ النّظْمَ الكريمَ قدَّمَ المنافقين وبهم بدأ فقال: ﴿جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ﴾؛ لكوْنِهم أعظمَ كُفرًا، وأخبَثَ عقيدةً، وهذا يتناسَبُ بوضوحٍ مع الزّجِّ بالمنافقين في الدّركاتِ السُّفلَى تحت الكافرين ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِي ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾﴾ [النساء: 145]، والعياذُ باللّه تعالى من مصيرِهم جميعًا.

عـذابُ المنافقين مُتكاثفٌ خطيرٌ، لا يُطاقُ ولايفتر

وَجْهُ التَّعبيرِ بالمفعولِ به ﴿نَارَ جَهَنَّمَ﴾ مُضافًا:

"هذا هو الجزاءُ الذي أعدّه اللّه لأهْلِ النّفاقِ والكُفرِ، ﴿نَارَ جَهَنَّمَ﴾"[2]، وأضاف ﴿نَارَ﴾ إلى ﴿جَهَنَّمَ﴾ وإن كانت إحداهُما لَكافيةً؛ لكونِه العذابَ المتكاثفَ المُتراكبَ، الذي لا يُطاقُ؛ ولأنّه لا يقومُ له

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/256.
(2) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 5/838.

شيءٌ يَجعلُ اللّه تعالى أجسامَ أهلِ النّار عظيمةً، كما جاءت به السّنةُ الشّريفةُ؛ إذ يقولُ الرّسول ﷺ: «إِنَّ أَهْلَ النَّارِ يَعْظُمُونَ فِي النَّارِ حَتَّى يَصِيرَ أَحَدُهُمْ مَسِيرَةَ كَذَا وَكَذَا، وَإِنَّ ضِرْسَ أَحَدِهِمْ لَمِثْلُ أُحُدٍ»[1]، وعن ابن مسعود: «لَا يَكُونُ رَجُلٌ يَكْنِزُ فَيَمَسُّ دِرْهَمٌ دِرْهَمًا وَلَا دِينَارٌ دِينَارًا، يُوَسَّعُ جِلْدُهُ حَتَّى يُوضَعَ كُلُّ دِينَارٍ وَدِرْهَمٍ عَلَى حِدَتِهِ»[2]. وهذا الخبرُ ممّا لا يُجتهدُ فيه؛ فلا بُدَّ مِن أنْ يكون له أصلٌ في الدّين استنْبطَه منه ابنُ مسعودٍ، وتعظيمُ جسْمِ الكافر لازِمٌ توسيعَ جِلْدِهِ في نار جهنّمَ، وإنّ جلْدَه لَيُوسَّعُ حتى لَتُرَضَّ الدّراهمُ صغيرةُ القيمةِ لتكثُرَ - لا الدّنانيرُ عظيمةُ القيمةِ فتقلَّ - على جلْدِه بحيث يكونُ بينها مسافاتٌ - كنايةً عن عِظَمِ جسْمِه، وضخامةِ بنيتِه، فهنالك فقط يتهيّأُ حطبًا لـ ﴿نَارَ جَهَنَّمَ﴾، والعِياذُ باللّه من حالِ أهْلِ النّارِ.

دَلالةُ التَّعبيرِ بالحالِ ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ﴾:

صِيغةُ اسْمِ الفاعل ﴿خَٰلِدِينَ﴾ تشتملُ على سببيّةِ المنافقين أنفُسِهم في خلودِهم في النَّارِ، وأنّهم لا يكونون مُخلَّدِين بفَرْضٍ يُفرضُ عليهم كما يزعُمُ بعضُ النّاسِ، وإنّما يكونون خالدِين بفعْلِهم هم، وكأنَّ الخلودَ صارَ رغبةً منهم واختيارًا لهم، وذلك يتَّسقُ مع نصوصِ الشّرعِ المُتكاثرةِ على أنَّ ﴿مَّنِ ٱهۡتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيۡهَاۚ﴾ [الإسراء: 15]، و﴿مَّنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا فَلِنَفۡسِهِۦۖ وَمَنۡ أَسَآءَ فَعَلَيۡهَاۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ٤٦﴾ [فصلت: 46].

الخلودُ في النّارِ، مَصيرُ المنافقين والكُفّارِ، وبئس القرار

وَجْهُ التَّعبيرِ بحرفِ الظّرفيّةِ (في):

التَّعبيرُ بحرف الظّرفيّةِ (في) صريحٌ في أنّ النّارَ تصيرُ بِجبالِها،

نارُ جهنّمَ، ستكونُ لأهلها وِعاءً عَميقًا، لا يُمكنُهمُ الخروجُ منه

(1) ابن أبي شيبة، مصنف ابن أبي شيبة، كِتَابُ ذِكْرِ النَّارِ، مَا ذُكِرَ فِيمَا أُعِدَّ لِأَهْلِ النَّارِ وَشِدَّتِهِ، الحديث رقم: (34153): 7/53، وإسناده ضعيف، لضعف أبي يحيى الطويل، وأبي يحيى القتات.

(2) الهيثميّ، مجمع الزّوائد ومنبع الفوائد، كتاب الزكاة، بَابُ فَرْضِ الزَّكَاةِ، الحديث رقم: (4349): 3/65، من حديث ابن مسعود، موقوفا عليه. قال الهيثميّ: "رواه الطبّرانيّ، وَرِجَالُهُ ثِقَاتٌ". وأما مرفوعا فلا يصحّ.

وأوْدِيتِها ومجاهِلِها وظُلمَتِها وِعاءً عميقَ القاعِ للمنافقين والمنافقات خصوصًا والكُفّارِ عُمومًا، بحيث تَسقطُ فيها أصنافُهم ولا يُمكنُهمُ الخروجُ منها أبدًا.

عـذابُ المنافقين والـكُـفّـارِ، لا يزولُ عنهم، ولا يَنفكُّونَ عنه

سِرُّ إيثارِ لفْظِ ﴿حَسْبُهُمْ﴾:

"جُملةُ ﴿هِيَ حَسْبُهُمْ﴾ في محلِّ نصْبِ حالٍ من نار جهنّمَ"[1]، وفي إيثارِ النّظْم الكريم مُفردةَ (حَسْب) إشارةٌ إلى "أَنَّهَا مُلَازِمَةٌ لَهُمْ. وَأَصْلُ حَسْبُ أَنَّهُ بِمَعْنَى الكَافِي، وَلَمَّا كَانَ الكَافِي يُلَازِمُهُ المُكَفِّي كُنِّيَ بِهِ هُنَا عَنِ المُلَازَمَةِ، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ حَسْبُ عَلَى أَصْلِهِ، وَيَكُونُ ذِكْرُهُ فِي هَذَا المَقَامِ تَهَكُّمًا بِهِمْ، كَأَنَّهُمْ طَلَبُوا النَّعِيمَ، فَقِيلَ: حَسْبُهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ"[2]. ففي كلمةِ ﴿حَسْبُهُمْ﴾ "دلالةٌ على عِظَمِ عذابِها، وأنّه لا شيءَ أبلغَ منه، وأنّه بحيث لا يُزادُ عليه"[3].

المُـنَـافِـقُـونَ وَالـكُـفَّـارُ، مَحَلُّ سُخْرِيَةٍ وَتَهَكُّمٍ يَوْمَ القِيَامَةِ

بَلاغةُ الاستِعارةِ التَّهكُّميّةِ في ﴿حَسْبُهُمْ﴾:

"﴿هِيَ حَسْبُهُمْ﴾ أي: هي كلُّ ما لهم عندَ اللّه تعالى"[4]، و"كأنْ يكونَ هناك إنسانٌ شرِّيرٌ وأنت تريدُ أن تؤدِّبَه، فيأتي إنسانٌ قويٌّ ويقولُ لك: اتركْه لي، أنا وحدي كفيلٌ أن أؤدّبَه. فتقولُ: هذا حسْبُه، أي يكفيه هذا؛ لِيتمَّ التأديبُ المطلوبُ. كذلك النّارُ"[5]، فـ "لو تمنّى أحدٌ لهم عذابًا لكان ذلك عندَه حسْبًا لهم"[6] وفي ذلك تهكُّمٌ بهم، وإزراءٌ عليهم، ممّا يتوافقُ مع قولِه تعالى: ﴿فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾ هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [المطففين: 34 - 36]. وهذا يَشفي صدورَ المؤمنين فوْقَ كونِه يَغْلِي في قلوبِ المنافقين؛ لِفظاعةِ ما عانَوْه منهم، و"إذا قيلَ للمعذّبِ:

(1) صافي محمود، الجدول في إعراب القرآن: 10/385.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/256.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/287.
(4) الخطيب، التّفسير القرآني للقرآن: 5/838.
(5) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 9/5272.
(6) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/56.

كفَى، دلَّ على أنّه بلغَ غايةَ النِّكايةِ"[1]، فهذه النّارُ "كافيةٌ لإهانَتِهم وإذلالِهم بسببِ فُسوقِهم عن أمْرِ ربّهم"[2].

سِرُّ عطْفِ جُملةِ ﴿وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُۖ﴾:

معنَى "﴿وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُۖ﴾ أبْعدَهُم من رحمتِه وأهانَهم"[3]، و"طردَهم من طاعته، فلا يَقبلُ لهم توبةً ولا عودةً؛ لأنّ مكانَ التّوبة هو الدّنيا، وأمّا بعدَ الموت والآخرةِ فلا محلَّ فيهما لتوبةٍ ولا رجوعٍ عن معصيةٍ"[4]، و"لا فرَجَ لهم"[5]؛ منَ العذابِ و"التَّحْقِيرِ وَالغَضَبِ"[6]، و"الذَّمّ"[7]، وهذه الجملةُ "بيانٌ لبعض ما تضمّنَه الخلودُ في النّارِ، فإنّ النّارَ المخلَّدَ فيها مع كوْنِها كافيةً في الإيلام - تتضمَّنُ شدائدَ أُخَرَ منَ اللّعنِ والإهانةِ وغيرِهما"[8]، فقد "جعلَهم مذمومين، مُلحَقِين بالشّياطين المَلاعين"[9].

نُكتةُ التّعبيرِ بالفعْلِ الماضِي ﴿وَلَعَنَهُمُ﴾:

"فِعْلُ المُضِيِّ هُنَا إِمَّا لِلْإِخْبَارِ عَنْ وَعِيدٍ تَقَدَّمَ وَعَدَهُ اللّه المُنَافِقِينَ وَالمُنَافِقَاتِ تَذْكِيرًا بِهِ لِزِيَادَةِ تَحْقِيقِهِ، وَإِمَّا لِصَوْغِ الوَعِيدِ فِي الصِّيغَةِ الَّتِي تَنْشَأُ بِهَا العُقُودُ مِثْلَ (بِعْتُ وَوَهَبْتُ) إِشْعَارًا بِأَنَّهُ وَعِيدٌ لَا يَتَخَلَّفُ مِثْلَ العَقْدِ وَالِالتِزَامِ"[10].

سِرُّ التَّعبيرِ بالاسْمِ الجليلِ ﴿ٱللَّهُ﴾، مُسْنَدًا إليه:

لم يبنِ النّظْمُ الكريمُ فعْلَ اللّعنةِ للمفعول كما في قولِه تعالى - مثلًا -: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ٱلۡغَٰفِلَٰتِ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ لُعِنُواْ فِي

للمنافقين عذابان حِسِّيٌّ في النّار، ومَعنويٌّ باليأْسِ منَ الفرار

لعْنُ اللّه تعالى المُنافقين والكافرين، مَقطوعٌ به لا مَحالةَ

إيقاعُ اللّعْنِ منَ الله تعالى، يَقطعُ بعذابِ الملعونين الشّديدِ الدّائمِ

(1) الخفاجيّ، عناية القاضي وكفاية الرّاضي: 4/341.
(2) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 6/344.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/81.
(4) الشّعراويّ، تفسير الشّعراوي: 9/5272.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/521.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/256.
(7) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 16/98.
(8) حقّي، روح البيان: 3/461.
(9) النّسفي، مدارك التّنزيل وحقائق التأويل: 1/692.
(10) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/255.

ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿٢٣﴾﴾ [النّور: 23]؛ لكوْنِ إسْنادِ اللّعْنِ إلى اللّه تعالى مباشرةً يُقرّرُ ضَياعَهم، ودوامَ العذابِ عليهم، ففيه مِن عِظَمِ التَّخويفِ والزَّجْرِ ما شأنُه أنْ يَرُدَّ عنِ النّفاق في الدّنيا؛ لأنّ الذي يَلعنُهم هو اللّه تعالى. فـ "في إظْهارِ الاسْمِ الجليلِ منَ الإيذانِ بشدّةِ السُّخطِ ما لا يَخفَى"[1].

تَوجِيهُ الختْمِ بالعذاب المقيم:

عـذابُ المنافقين لا يَـنـقـطـعُ، جَزعٌ في الدّنيا، وجـحـيـمٌ في الآخرةِ

في قولِه تعالى: ﴿وَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّقِيمٌ﴾، لفظ الـ ﴿مُّقِيمٌ﴾ هو الـ "مؤبّدُ الذي لا نقلةَ له"[2]، و"لا ينقطعُ"[3]. وخُتِمتْ جملةُ العقوبات بوصْفِ العذاب بالـ ﴿مُّقِيمٌ﴾ تيْئيسًا للمنافقِ منَ الخلاص منه، مهما طالتْ عليه الأحقابُ والتَّغييبُ هنالك في مجاهلِ أوْديةِ الجحيمِ إلى غيرِ نهايةٍ، ممّا يُكبِّدُه المعاناةَ النّفسيّةَ هنا قبْلَ أن يَرحلَ إلى ﴿نَارَ جَهَنَّمَ﴾.. ثمّ إنّ للمنافقِ من وراء جهنّمَ وعذابِها لعْنةَ اللّه القائمةَ عليهم، وعذابًا مقيمًا لا يُفتَّرُ عنهم، وهم فيه مُبلِسون[4]. "وَالعَذَابُ المُقِيمُ: إنْ كَانَ المُرَادُ بِهِ عَذَابَ جَهَنَّمَ فَهُوَ تَأْكِيدٌ لِقَوْلِهِ: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ هِيَ حَسۡبُهُمۡۚ﴾ لِدَفْعِ احْتِمَالِ إطْلَاقِ الخُلُودِ عَلَى طُولِ المُدَّةِ، وَتَأْكِيدٌ لِلْكِنَايَةِ فِي قَوْلِهِ: ﴿هِيَ حَسۡبُهُمۡۚ﴾، وَإِنْ كَانَ المُرَادُ بِهِ عَذَابًا آخَرَ تَعَيَّنَ أَنَّهُ عَذَابٌ فِي الدُّنْيَا وَهو عَذَابُ الخِزْيِ وَالمَذَلَّةِ بَيْنَ النَّاسِ"[5].

عِلّةُ تَقديمِ المُسنَدِ ﴿وَلَهُمۡ﴾، على المُسنَدِ إليه ﴿عَذَابٞ﴾:

العـذابُ المقيمُ مُقرَّرٌ للمنافقين والـكُـفّـارِ، ولا مندوحة عنه ولا فرار

تقديمُ الجارِّ والمجرور ﴿وَلَهُمۡ﴾ على المبتدأ ﴿عَذَابٞ﴾ يُفيدُ القصْرَ الحقيقيَّ التَّحقيقيَّ؛ لأنّه لا يَخْلُدُ في النّارِ إلّا المنافقون والمنافقات والكفار، وأنَّ ذلك لا يتجاوَزُهم إلى غيرهم من عُصاةِ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/81.
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/56.
(3) القاسميّ، محاسن التأويل: 5/451.
(4) الخطيب، التّفسير القرآني للقرآن: 5/839.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/256.

الموحِّدين، الذين قد يُغمسُ بعضُهم في العذابِ للتَّطهيرِ لا للتَّخليدِ، وأدلَّةُ الشّرعِ تواترتْ بهذا الحُكمِ، كما في الحديثِ الشّريفِ الذي يرويه أبو هريرة ﵁ عنِ الرّسول ﷺ: «فَيَخْرُجُونَ قَدْ امْتُحِشُوا وَعَادُوا حُمَمًا، **فَيُلْقَوْنَ فِي نَهَرِ الحَيَاةِ**، فَيَنْبُتُونَ كَمَا تَنْبُتُ الحِبَّةُ فِي حَمِيلِ السَّيْلِ»[1].

نُكتةُ تَنكيرِ المُسنَدِ إليه ﴿عَذَابٌ﴾:

عـذابُ المنافقين والـكـافـريـن، مَـنْـكـورٌ نَـكـارةَ نِفاقِهم وكُفْرِهم

يُفيدُ تنكيرُ لفْظِ ﴿عَذَابٌ﴾ تهويلَ شأْنِ العذابِ، وخُطورةَ النّارِ التي سيخلُد فيها المنافقون والمنافقاتُ والكافرون، وأنّها نارٌ مُستفْظَعَةٌ منكورةٌ، لا عهْدَ لهم بها، ولا قِبَلَ لهم بها؛ فتنكيرُه ناسبَ نَكارةَ نفاقِهم وكُفرِهم من جهةٍ، كما ناسبَ جهْلَهم بِكُنْهِه وفظاعَتِه منَ الجهةِ الأُخرَى.

سِرُّ وصْفِ الـ ﴿عَذَابٌ﴾ بـ ﴿مُّقِيمٌ﴾:

عـذابُ المنافقين مُـقـيـمٌ عليهم فـمُـعـجَّـلٌ في الدّنيا، ومُؤجَّلٌ في الآخرةِ

وصْفُ العذابِ هنا بـ ﴿مُّقِيمٌ﴾ يَقتضِيه السّياقُ اقتضاءً واضحًا؛ إذ إنّ نِفاقَهم مُترسّخٌ فيهم، متمكِّنٌ منهم، ملازِمٌ لهم. وهو في حدِّ ذاتِه ﴿عَذَابٌ﴾ "مقيم معهم في الدّنيا، لا يَنفكُّ عنهم، وهو ما يقاسُونَه من تعبِ النِّفاقِ الذي هم منه في بَلِيَّةٍ دائمةٍ، لا يأمَنون ساعةً من خوفِ الفضيحةِ ونُزولِ العذابِ إنِ اطَّلعَ عن أسرارِهم"[2] أحدٌ، وبخاصّةٍ من له سُلطانٌ عليهم مثلُ الرّسولِ ﷺ.

وقد ذُكرَ وصْفُ ﴿مُّقِيمٌ﴾ بعد الحالِ ﴿خَٰلِدِينَ﴾ "تأكيدًا له؛ لأنَّ الخلودَ والدّوامَ بمعنًى واحدٍ"[3]، فلا تَكْرارَ؛ ولأنَّ المقصودَ "أَنَّ لَهُمْ نَوْعًا آخَرَ مِنَ العَذَابِ المُقِيمِ الدَّائِمِ سِوَى العَذَابِ بِالنَّارِ وَالخُلُودِ المَذْكُورِ أَوَّلًا، وَلَا يَدُلُّ قوله: لهم نار جهنم عَلَى أَنَّ العَذَابَ بِالنَّارِ

(1) البخاري، الجامع الصّحيح، الحديث رقم: (6560).
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/81.
(3) حقّي، اسماعيل، روح البيان: 3/461.

دَائِمٌ. أما قَوْلُهُ: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ فيَدُلُّ عَلَى أَنَّ لَهُمْ مَعَ ذَلِكَ نَوْعًا آخَرَ مِنَ العَذَابِ... أو أن العذاب المقيم هو العَذَابُ العَاجِلُ، الَّذِي لَا يَنْفَكُّونَ عَنْهُ. وَهُوَ مَا يُقَاسُونَهُ مِنْ تَعَبِ النِّفَاقِ، وَالخَوْفِ مِنِ اطِّلَاعِ الرَّسُولِ ﷺ عَلَى بَوَاطِنِهِمْ، وَمَا يَحْذَرُونَهُ أَبَدًا مِنْ أَنْوَاعِ الفَضَائِحِ"[1]، و"ما هم مقهورون به من سطْوةِ الإسلامِ وجنودِه الكرامِ الأعلامِ، وفي الآخرة بما لا يعلَمُه حقَّ علْمِه إلّا اللّه تعالى"[2].

الغَرَضُ منَ المجازِ العقليِّ ﴿مُّقِيمٌ﴾:

عـذابُ المنافقين والـكـافـريـن مُتعشِّقٌ لهم، مُتشَبِّثٌ بهم

العذابُ لا يُقيمُ ولا يَدومُ مِن تِلقائِه على المنافقين، وإنّما يُقيمُه اللّه تعالى عليهم؛ غيرَ أنّ إسْنادَ الإقامةِ إلى العذابِ يُعطِي إيحَاءَ أنّ العذابَ نفسَه مُغْتاظٌ منهم؛ فهو مُتشبِّثٌ بهم، لا يريدُ ترْكَهم هانِئين لحظةً بدونِ تألُّمٍ ومعاناةٍ، والعياذُ باللّه تعالى من حالِ أهلِ النّارِ. والمجازُ في وصْفِ العذابِ بـ ﴿مُّقِيمٌ ﴿٦٨﴾﴾ "عقليٌّ... فهي كما في قولِه تعالى: ﴿عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾﴾ [الحاقة: 21] والمجازُ هنا في وصْفِ العذابِ بالإقامةِ"[3] "فهم في الدّنيا يَعيشون في عذابِ القلَقِ والحذَرِ من أن يطَّلِعَ المُسلمون على نفاقِهم، وفي الآخرةِ يَذوقُون العذابَ الذي هو أشدُّ وأبْقَى، بسببِ إصْرارِهم على الكُفرِ والفُسوقِ والعِصيانِ"[4].

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 16/98.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/521.
(3) صافي، الجدول في إعراب القرآن: 10/385.
(4) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 6/344.

﴿كَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنكُمۡ قُوَّةٗ وَأَكۡثَرَ أَمۡوَٰلٗا وَأَوۡلَٰدٗا فَٱسۡتَمۡتَعُواْ بِخَلَٰقِهِمۡ فَٱسۡتَمۡتَعۡتُم بِخَلَٰقِكُمۡ كَمَا ٱسۡتَمۡتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُم بِخَلَٰقِهِمۡ وَخُضۡتُمۡ كَٱلَّذِي خَاضُوٓاْۚ أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ٦٩﴾ [التَّوبة: 69]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

مناسبة الوعيد بعذاب المنافقين، وكونهم كالكفّار السّابقين حالا ومصيرا

لَمَّا بيَّن ﷺ في الآيات السَّابقة العقاب الشَّديد الّذي يستقبلُ الكافرين، ومنهم المنافقون؛ لأنَّهم كفَّارٌ أَخِسَّاءُ حرصوا على طلب الدُّنيا وأَعرضوا عن الآخرة، بيَّن في هذه الآية حصول المشابهة بين الفريقين في طلب الدُّنيا والإعراض عن الآخرة وتكذيب الأنبياء والمكر والخديعة بهم، وفي العقاب الأُخرويِّ بحُبُوطِ أعمالِهم وخسرانِها.

ومن المناسبة أنَّه لَمَّا كانَ حالُ المنافقين - فيما تقدَّم - الإقبالَ على العاجلةِ؛ لكونِها حاصلة، والإعراضَ عنِ الآخرة؛ لأنَّها غائبةٌ، مشابهًا لحالِ مَنْ كانَ قبلَهم منَ الأُمَمِ الخاليةِ والقرونِ الماضية، بيَّن لهم ذلكَ في هذه الآية، وختمَ ببيانِ سوءِ أحوالِهم وقُبْحِ مآلهم بتلاشي أعمالِهم، فقال: ﴿كَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ﴾ الآية، مُلتفتًا إلى أسلوبِ الخطاب؛ لأنَّه أوقعُ في بابِ العتاب، وأقعدُ في اسْتجلابِ المصالحِ للمتاب[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَشَدَّ﴾: الشَّدُّ: العَقدُ القويُّ، يُقالُ: شدَدْتُّ الشَّيء: قوَّيتُ عَقْدَه، قالَ اللّهُ تعالى: ﴿وَشَدَدۡنَآ أَسۡرَهُمۡۖ﴾ [الإنسان: 28]، وقالَ سبحانه: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثۡخَنتُمُوهُمۡ فَشُدُّواْ ٱلۡوَثَاقَ﴾ [محمَّد ﷺ: 4]. والشِّدَّةُ تُستعملُ في

(1) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 8/522.

العُقَد، وفي البَدَن، وفي قُوَى النَّفس، وفي العذاب، قالَ تعالى: ﴿وَكَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗۚ﴾ [فاطر: 44]. وأَشدُّ: صيغةُ مبالغة[1]، وهي هنا كذلك في قولِه تعالى: ﴿كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنكُمۡ قُوَّةٗ﴾، أي: أولئكَ الكفَّارُ من قبلُ كانوا أشدَّ قوَّةً من هؤلاءِ المنافقينَ والكفَّارِ المعاصرينَ للنَّبيِّ ﷺ[2].

2) ﴿فَٱسۡتَمۡتَعُواْ﴾: المُتوعُ: الامْتدادُ والارْتفاع، يُقالُ: مَتَعَ النَّهارُ ومَتَعَ النَّبات: إذا ارتفعَ في أوَّلِ النَّهار. والمتاعُ: انْتفاعٌ ممتدُّ الوقت، يُقالُ: مَتَّعهُ اللّٰهُ بكذا، وأَمْتَعَه، وتمتَّعَ به، قالَ تعالى: ﴿وَمَتَّعۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ حِينٖ ٩٨﴾ [يونس: 98]. وكلُّ موضعٍ ذُكرَ فيه (تمتَّعوا) في الدُّنيا فعلَى طريقِ التَّهديد، وذلكَ لما فيه من معنى التَّوسُّع، قالَ تعالى: ﴿فَمَا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ٣٨﴾ [التَّوبة: 38]. واسْتمتَعَ: طلبَ التَّمتُّعَ[3]، كما هنا في قولِه تعالى: ﴿فَٱسۡتَمۡتَعُواْ بِخَلَٰقِهِمۡ﴾، أي: تمتَّعوا بنصيبِهم وملذَّاتِ الدُّنيا الَّذي قدَّره اللّٰهُ لهم، ورضوا بها عوضًا من الآخرة[4].

3) ﴿بِخَلَٰقِهِمۡ﴾: الخَلاقُ: "النَّصيب الَّذي هو عند صاحبه وافرُ الحظِّ"[5]. أو ما اكتسبه الإنسان من الفضيلة بِخُلُقِه، ويُطْلَقُ على النَّصيبِ؛ لأنَّه قد قُدِّرَ لكلِّ أحدٍ نصيبُه، ومنه قولُه تعالى: ﴿لَا خَلَٰقَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ [آل عمران: 77][6]. ومنه قولُه تعالى هنا: ﴿فَٱسۡتَمۡتَعُواْ بِخَلَٰقِهِمۡ﴾[7].

4) ﴿وَخُضۡتُمۡ﴾: الخَوْضُ: هو الشُّروعُ في الماءِ والمرورُ فيه، ويُستعارُ في الأمور، وأكثرُ ما وردَ في القرآنِ ورَدَ فيما يُذَمُّ الشُّروعُ فيه[8]، كما في قولِه تعالى: ﴿وَخُضۡتُمۡ كَٱلَّذِي خَاضُوٓاْۚ﴾ أي: شَرعتُم في المنكراتِ والضَّلالاتِ كما شَرعوا فيها من قبل، وخُضْتُم مِثلَهم في الكذِبِ والباطل[9].

(1) الرّاغب، المفردات، ص: 447، وابن منظور، اللِّسان: (شدد).
(2) الشَّوكانيُّ، فتح القدير: 2/540.
(3) الرّاغب، المفردات، ص: 757، وابن منظور، اللِّسان: (متع).
(4) أبو عبيدة، مجاز القرآن: 1/263، وابن جرير، جامع البيان: 10/175.
(5) الزَّجَّاج، معاني القرآن وإعرابه: 2/460.
(6) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: 2/214، والرَّازيّ، مختار الصِّحاح: (خلق).
(7) تقدَّمَ بيانه في المفردة السَّابقة: (فاستمتعوا).
(8) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: 2/229، والرّاغب، المفردات، ص: 302.
(9) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 2/335، والشَّوكانيُّ، فتح القدير: 2/540.

5) ﴿حَبِطَتْ﴾: جذرُه (حبط)، وهو أصلٌ واحدٌ يدُلُّ على بُطلانٍ أوْ ألم، وأصل الحَبْطِ من الحَبَطْ: أن تُكثِر الدَّابَّة أكلًا حتى ينتفخ بطنها؛ فتموت، يُقالُ: أَحْبَطَ اللّٰهُ عملَ الكافرِ، أي: أَبْطَلَه، قالَ اللّٰهُ تعالى: ﴿حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ﴾ [المائدة: 54][1]. وحَبْطُ العملِ على أَضْرُب؛ الأوَّل: أن تكون الأعمال دنيويَّةً فلا تُغْني في القيامة غناءً كما أشار إليه قوله تعالى: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾﴾ [الفرقان: 23].

الثَّاني: أن تكون أعمالًا أُخرويَّةً لكن لم يَقْصدْ بها صاحبها وجه اللّٰه تعالى، كما في الحديث في شأن الَّذي يقاتل والمُتَصَدِّق وقارئ القرآن، وكلُّ ذلك لغير وجه اللّٰه فيُؤْمَر بهم إلى النَّار.

الثَّالث: أن تكون أعمالًا صالحةً ولكن بإزائها سيئات تزيد عليها، وذلك هو المُشار إليه بِخِفَّةِ الميزان[2].

ومعنى قولِه تعالى - هنا - : ﴿أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ أي: بَطَلتْ أعمالُهم بعدَ التَّعبِ فيها، فأصابَهمُ المَقتُ من المؤمنين في الدُّنيا، وفسدتْ أعمالُهم عليهم، وفي الآخرةِ بأن لا تنفعَهم؛ بل يقعُ عليهم جزاؤها[3].

6) ﴿ٱلْخَٰسِرُونَ﴾: جذرُه (خسر)، وهو أصلٌ واحدٌ يدلُّ على النَّقص، أي: انتقاص رأس المال، ويُنْسَبُ ذلك إلى الإنسان، ويُقال خَسِرَ فلانٌ، وإلى الفعل فيُقال: خَسِرَتْ تجارتُه، قال تعالى: ﴿تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ﴿١٢﴾﴾ [النّازعات: 12]، ويُسْتَعْمَلُ ذلك في المقتنيات الخارجة كالمال والجاه في الدُّنيا، وهو الأكثر، وفي المقتنيات النفسيَّة كالصِّحَّةِ والسَّلامة والعقل والإيمان والثَّواب، وهو الذي جعله اللّٰه تعالى الخُسرانَ المبينَ، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٥﴾﴾ [الزُّمر: 15][4]. و﴿ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ أي: المتمكِّنونَ في الخُسران الكاملونَ به في الدُّنيا والآخرة[5].

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: 2/129، والرّاغب، المفردات، ص: 216.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: 2/129، والرّاغب، المفردات، ص: 216.
(3) الرّاغب، المفردات: (حبط).
(4) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: 2/182، والرّاغب، المفردات: (خسر).
(5) الشَّوكانيُّ، فتح القدير: 2/540.

❁ المَعْنى الإجْمالِيُّ:

حالُ المنافقينَ كحالِ مَنْ سبقوهم في الكُفْرِ والنِّفاقِ، وسوء العاقبة

يقولُ تعالى واصفًا حالَ المنافقين: إنَّ حالَكم - أيُّها المنافقون- كحالِ أمثالِكم ممَّن سبقوكم إلى النِّفاقِ والكفر، وقد كانوا أشدَّ بأسًا منكم وأقْوى عَريكةً، وأكثرَ أموالًا وأولادًا، اسْتمتَعوا بنصيبِهمُ الَّذي قدَّره اللهُ لهم من حظوظِ الدُّنيا ومُتَعِها، وأعْرضوا عن ذكرِ اللهِ وتَقْواه، وقابَلوا أنبياءَهم بالاسْتخفاف، وصدُّوا عن سبيل اللهِ. وقدِ اسْتمتعتُم بما قُدِّرَ لكم من ملاذِّ الدُّنيا، كما اسْتمتَعوا، وخُضْتُم فيما خاضوا من الفجورِ والمنكَرات. وكما بَطَلتْ أعمالُهم فلم تنفعْهم شيئًا في الدُّنيا والآخرة، فأنتُم كذلكَ مثلُهم في سوءِ الحالِ والمآل[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ فصلِ الآيةِ عمَّا قبلَها:

مشابهة المنافقين بالكفرة السّابقين، في الحاضر والمصير

فُصِلَ قولُه تعالى: ﴿كَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ﴾ عمَّا سبق؛ لأنَّه من بقيَّةِ القولِ المأمورِ الذي يُبلِّغُه النَّبيُّ ﷺ إيَّاهم من قولِه تعالى: ﴿قُلۡ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمۡ تَسۡتَهۡزِءُونَ ۝٦٥﴾ [التَّوبة: 65]، فيكونُ ما بينهما اعتراضًا بقولِه تعالى: ﴿ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتُ بَعۡضُهُم مِّنۢ بَعۡضٖۚ﴾ [التَّوبة: 67].

دلالة الخطاب على تشبيه الحال في المآل:

ذِكْرُ الكُفَّار والمنافقين مع فَنَائهم، يُومئ إلى أنَّهم جميعا إلى فَناء

قوله تعالى: ﴿كَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ﴾ الخطابُ للكفَّار والمنافقين، وذِكْرهم مع فَنَائِهم، يُومئ إلى أنَّهم سيكونون مِثْلهم في الفَنَاء، وأنَّ الحياة الدُّنيا الّتي آثروا مُتَعَها فانية، ويكون الكلامُ على مُقتضَى الظَّاهرِ بدونِ التفات، والكلامُ مَسوقٌ لتشبيهِ حالِهم في مصيرِهم إلى النَّار[2].

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 2/335، والسَّعديُّ، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 294.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/257.

نكتةُ الالتفاتِ في الضَّمائرِ على أحدِ الوجوهِ:

إبراز القصدِ إلى الموعظةِ، والتّنبيه إلى عدمِ الاغترارِ بالإمهالِ

الخطابُ في الآيةِ التفاتٌ عن ضمائرِ الغَيبَةِ الرَّاجعةِ إلى المنافقين، إلى خطابِهم لقصدِ التَّفريعِ والتَّشديدِ والتَّهديدِ بالموعظة، والتَّذكير عنِ الغُرورِ بما هُم فيه من نعمةِ الإمهالِ بأنَّ آخرَ ذلكَ حَبْطُ الأعمالِ في الدُّنيا والآخرة، وأنْ يحقَّ عليهمُ الخُسران[1].

بلاغةُ الموقع الإعرابيِّ لكاف التَّشبيه:

التَّشبيه بذميم الصِّفات مدعاةٌ للذَّمِّ والتّقريع

كافُ التَّشبيهِ في قولِه تعالى: ﴿كَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ﴾، في موضعِ الخبرِ عن مبتدأٍ محذوفٍ دلَّ عليه ضميرُ الخطاب، تقديرُه: أنتم كالَّذين من قبلِكم، أو الكافُ في موضعِ نَصْبٍ بفعلٍ مقدَّر، أي: فعلتُم كفعلِ الَّذينَ من قبلِكم، فهو في موضعِ المفعولِ المطلَقِ الدَّالِّ على فعلِه[2]. والتَّعبير بكاف التَّشبيه إيماءٌ بوجود صفاتٍ مشتركة بين المُشبَّه، والمُشبَّه به بأسلوب جليٍّ موجز، وهو في الآية مبعثُ ذمٍّ.

سرُّ التَّعبير بحرف (الكاف):

بيان أنّ الشَّبه بين الطَّرفين، في بعض الوجوه لا كلِّها

آثرَ التَّعبير بالكاف في قوله تعالى: ﴿كَٱلَّذِينَ﴾ دون (مِثْل)؛ لوجود فَرْق بينهما؛ فالمثليَّة تعني الاتفاق في الذَّات والصِّفة، وهذا غير مُراد في هذا السِّياق لعدم تحقُّق ذلك، أمَّا الكاف فتعني التَّشبيه بين الطَّرفين في بعض الوجوه، ولا يلزم في الوجوه كلِّها؛ لذلك كان التَّعبير بالكاف هو المناسب في تشبيه حال الكافرين والمنافقين بحال مَنْ سبَقهم من الأمم في الكُفر والنِّفاق والاستمتاع بالدُّنيا والإعراض عن الآخرة؛ لأنَّه الغرض المنشود من التَّشبيه وليس كل الوجوه الَّتي تعني المثليَّة.

بلاغة التَّشبيه التّمثيليّ، في مطلع الآية الكريمة:

إبراز حال المنافقين البئيسة، وعاقبة الكافرين التّعيسة

تظهر بلاغة التَّشبيه في مطلع الآية، بأنَّه تفسيرٌ لشُبَهِهم،

(1) أبو حيَّان، البحر المحيط: 5/456، وأبو السُّعود، الإرشاد: 2/574، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/256.

(2) النَّحّاس، إعراب القرآن: 2/127، والزَّمخشريُّ، الكشَّاف: 2/201.

أي: للَّذين كانوا قبلَهم، وتمثيلٌ لفِعْلِهم بفعلِهم، فهو تشبيهٌ تمثيليٌّ يوضِّحُ حالَ هؤلاء بأنَّه كحالِ أولئكَ الَّذينَ من قبلِهم[1] في الاسْتمتاعِ والخَوْض، والغفلة.

نكتةُ حذفِ المُشبَّه، في سياق الآية الكريمة:

التَّشبيه بالحال دون الشُّخوص، موعظةٌ وتذكير بعدم الاغترار

لم تذكرِ الآية المُشبَّهَ وإنَّما جاءَ مُقدَّرًا بـ (أنتُم كالَّذين) أو (فعلتُم كفعلِ الَّذين)؛ لأنَّ المنافقينَ لَمَّا تقدَّمَ التَّصريحُ بهم أغنَى ذلك عن إعادةِ ذِكْرِهم، وهم أقلُّ شأنًا من التَّصريحِ بهم مرَّةً ثانية[2]؛ وأيضًا؛ لأنَّ القصدَ من هذا البيانِ هو التَّشبيهُ لتمثيلِ حالِهم بحالِ مَنْ كانَ قبلَهم تهديدًا لهم بالموعظة، وتذكيرًا لهم بأنْ لا يغتَرُّوا بالإمهالِ فيغفلوا عن حقيقةِ المآل.

سرّ التَّعبيرِ بالاسْمِ الموصول (الَّذين):

الاسْمُ الموصولُ أشملُ للأممِ المتقدِّمة، وأدْعَى للاعْتبارِ بهلاكِهم

الإتيانُ بالاسْمِ الموصولِ (الَّذين) في قوله تعالى: ﴿كَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ﴾؛ لأنَّه أَشْملُ وأَجْمعُ للأُممِ الَّتي تقدَّمتْ مثلَ: عادٍ وثمود، ممَّن ضُرِبَ بهمُ المثلُ في القوَّة، فلْينظروا نَظَرَ اعْتبارٍ إلى مآلِهم، فإنِ اسْتمرَّ هؤلاء على ما هم عليه من الكفرِ والنِّفاقِ فسيكونُ مآلُهم كمآلِ مَنْ سَبقَهم[3].

معنَى ﴿مِن﴾ في قولِه: ﴿مِن قَبۡلِكُمۡ﴾:

ينطبق على المنافقين، حالُ مَنْ سبقهم بالاستمتاع

﴿مِن﴾ في قولِه تعالى: ﴿مِن قَبۡلِكُمۡ﴾ بيانيَّةٌ تفسيريَّة، أي: أنتم مِثْلُ الَّذين من قَبلِكم[4]، ومن جنسهم، ويجوز أن تكون ابتدائيَّة، ويكون المُراد: أنتم كالَّذين سبقوكم بالكفر والطُّغيان من بني إسرائيل وإن لم يَجرِ لهم ذِكْر، لكن ينطبق عليهم الاستمتاع بالمال والولد والكفر والنِّفاق، وممّا يؤكّد ذلك أنَّ القَبْلِيَّة في قوله تعالى:

(1) الفرَّاء، معاني القرآن: 1/446، وأبو حيَّان، البحر المحيط: 5/456.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/257.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/257.
(4) الزَّمخشريُّ، الكشَّاف: 2/201، وأبو السُّعود، الإرشاد: 2/574.

﴿مِن قَبۡلِكُمۡ﴾ يجوز إطلاقها على الزَّمان والمكان؛ فمن ناحية الزَّمان تَصْدُق عليهم، ومن ناحية المكان تَصْدُق عليهم.

دلالةُ اعتراضيَّةِ جملةِ، اعتبارهم أشدّ منهم قوّة:

المخاطَبون أوْلى وأحقُّ، بأنْ يُصيبهم ما أصابهم

جملةُ: ﴿كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنكُمۡ قُوَّةً﴾ اعْتراضيَّةٌ، بين قوله تعالى: ﴿كَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ﴾ وهي تفسيرٌ للتَّشبيه؛ لأنَّ قوله تعالى: ﴿كَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ﴾ تشبيهٌ مُبهَم، لم يُعلم فيم شُبِّهوا بمن قبلهم فبيَّن بقوله تعالى: ﴿كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنكُمۡ قُوَّةً﴾ الآية، ووجهُ الشَّبَهِ هو القوَّة والمال، ولبيان وجه الشَّبَه بين المخاطَبين ومَنْ قَبلهم فلا محلَّ لها من الإعراب، وفيه إيذانٌ بأنَّ المخاطَبين أوْلى وأحقُّ بأنْ يُصيبَهم ما أصابَهم[1].

دلالة التَّعبير بالفعل ﴿كَانُوٓاْ﴾، على المُكْنة الحضاريّة:

صيغة الماضي إشارة إلى قوّة العمران عبر الزّمان

دلّ التَّعبير بالفعل ﴿كَانُوٓاْ﴾ في قوله تعالى: ﴿كَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنكُمۡ قُوَّةً﴾، على شِدَّة تَمَكُّنِ الأمم السَّابقة في هذا الوصف، وأنَّه متأصِّلٌ فيهم؛ فهم أشدُّ قوَّةً وأكثرُ أموالًا وأولادًا منكم، يؤكِّد هذا قول الله تعالى عن قوم عاد: ﴿وَقَالُواْ مَنۡ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةًۖ﴾ [فصلت: 15]، ووصفهم بقوله: ﴿أَتَبۡنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعۡبَثُونَ ١٢٨ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمۡ تَخۡلُدُونَ ١٢٩﴾ [الشعراء: 128 - 129]، ومن ذلك كلام القرآن عن فرعون ومَلَئِه بكثرة أموالهم وأولادهم، وآيات القرآن في هذا واضحة.

سرُّ التَّعبير بـ: ﴿أَشَدَّ﴾:

يتضمَّن لفظ (أشدَّ) معنى المبالغة في القوَّة، في الجوهر والهيئة

عبَّر بقوله تعالى: ﴿أَشَدَّ مِنكُمۡ﴾ للدَّلالة على بيان فَرْط قوَّتهم، وللإشارة إلى أنَّه لا يقصد وصف الشِّدَّة بذاتها، بل وصف القوَّة؛ فكأنَّ المعنى: الأمم الَّتي قبلكم قوّتها أشدُّ، واختار ﴿أَشَدَّ﴾ لِتَضَمُّنِها معنى المبالغة في القوَّة في الجوهر والهيئة؛ ولأنَّ الشِّدَّة ليست من

(1) الطِّيبيُّ، فتوح الغيب: 7/300، والآلوسيُّ، روح المعاني: 10/34.

قبيل القدرة، ولهذا لا يُقال: (اللّه شديد)، أمَّا القوَّة فهي من قبيل القدرة، قال تعالى: ﴿أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً﴾، وقال تعالى: ﴿ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ۝٥٨﴾ [الذاريات: 58][1].

نكتةُ تقديمِ شبهِ الجملة ﴿مِنكُمْ﴾:

اختصاصُ المخاطَبينَ بالتَّشبيهِ والتَّنبيه، مزيد من البيان والتّوضيح

قُدِّمَ شبهُ الجملةِ ﴿مِنكُمْ﴾، في قولِه تعالى: ﴿أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً﴾؛ لأنَّ المنافقينَ المخاطَبينَ همُ المَعنيُّون بهذا التَّشبيهِ، فقُدِّموا بقولِه: ﴿مِنكُمْ﴾ لاخْتصاصِ السِّياقِ بهم، وللتَّنبيهِ على أنَّهم أضعفُ قوَّةً، أو أقلُّ بأسًا، ممَّن كانَ حالُهم كحالِهم، ومع ذلكَ ما أَغْنَى عن أولئكَ قوَّتُهم شيئًا، لَمَّا كانوا مخالفينَ لأمرِ اللّه، مغرورينَ بإمهالِ اللّهِ لهم.

دلالة التَّنكيرُ للألفاظ: ﴿قُوَّةً﴾ و﴿أَمْوَٰلًا﴾ و﴿وَأَوْلَٰدًا﴾:

أسباب القوّة بلا إيمان، نكال ووبال وهوان

هذه الألفاظ جاءت منصوبةً على التَّمييز؛ فقولُه: ﴿قُوَّةً﴾ تمييزٌ بـ ﴿أَشَدَّ﴾ في قولِه تعالى: ﴿أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً﴾، وقولُه: ﴿أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا﴾ تمييزٌ عُطف على ﴿أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً﴾[2].ودلَّ التَّنكيرُ فيهم على شدَّة القوَّة وتَنَوُّعِها وكثرة المال والولد وهما من أسباب القوَّة.

سرُّ إيثار: ﴿وَأَكْثَرَ﴾ مع الأموال والأولاد:

لفظ (الأكثر) مناسبٌ للمال والولد، باعتبار العدد

اختار القرآن الكريم التَّعبيرَ بلفظ ﴿وَأَكْثَرَ﴾ مع الأموال والأولاد، دون غيره؛ لأنَّ الكثرة تكون فيما له عدد، وهو المناسب هنا لذِكْرِ المال والولد باعتبار العدد فيهما.

توجيه التَّعبير بـ ﴿وَأَكْثَرَ﴾، على زِنَة أَفْعَل التَّفضيل:

بيان كثرة أموال المنافقين والكَفَرَة، سابقًا ولاحقًا

عبّر القرآن الكريم بلفظ ﴿وَأَكْثَرَ﴾ بصيغة أفعل التّفضيل دون (كثير)؛ للدّلالة على إثبات الأموال والأولاد للسّابق واللّاحق من الكَفَرة والمنافقين؛ لكنهما مع السّابقين أكثر، وهذا دليلٌ على صدق القرآن الكريم في عرض تاريخ الأمم ردًّا على مقولة المشركين

(1) العسكريُّ، الفروق اللُّغويَّة، ص: 22.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/257، ودرويش، إعراب القرآن: 4/129.

المعاصرين لرسول الله ﷺ عندما قالوا: ﴿نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ۝٣٥﴾ [سبأ: 35].

نكتةُ ورود (الأموالِ والأولادِ) بصيغة الجمع:

الإشارة إلى كثرة الأموالِ والأولادِ، لتلوّن أسبابِها، وتنوّع مواردها

جُمعتِ (الأموالُ) و(الأولادُ) في قوله تعالى: ﴿وَأَكْثَرَ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا﴾؛ لكَثرةِ مواردِها وأسبابِها، فكثرةُ الأموالِ من أسبابِها طيبُ الأرضِ للزَّرعِ والغَرْسِ ورَعْيِ الأنعام، وَوَفْرةُ التِّجارة، واشتمالُ الأرضِ على المعادنِ من الذَّهبِ والفِضَّةِ والحديد، والموادِّ الصِّناعيَّةِ والغذائيَّةِ من النَّباتِ بأنواعِه الكثيرة.

وكثرةُ الأولادِ تأتي أيضًا من الأمْنِ بسببِ بقاءِ الأنفُس، ومن الخِصْبِ المؤثِّرِ، وقوَّةِ الأبدانِ والسَّلامةِ من المجاعات، والأَوْبئةِ المُهلِكة[1].

وفيه إشارة إلى اجتماع زينة الحياة الدُّنيا لهم، قال تعالى: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [الكهف: 46].

سرّ تقديم (الأموال) على (الأولاد):

الأمـــوال هي الأســـاس في تحقيقِ ملذّاتِ الدُّنيا وشهواتها

لَمّا شبَّهَ تعالى المنافقينَ في عُدولِهم عن طاعةِ اللهِ تعالى لأجلِ طلبِ لذّاتِ الدُّنيا بمَن قبلَهم، وصفَهم بحيازتِهم ما يُحقِّقُ لهم تلكَ اللَّذاتِ، وأوَّلُ ما يحقِّقُها هو كَثْرةُ الأموال، وهي الَّتي تكونُ سببًا للزَّواج ثمَّ الإتيانِ به بالأولاد، ولذلك جاءَ التَّرتيبُ بتقديم (الأموالِ) على (الأولادِ) مراعاةً لهذه الأَوْلَويَّةِ في واقعِ الحال[2].

سرُّ التّعبير بلفظ (الأولاد)، دون لفظ (الأبناء):

خصوص دلالة لفظ (الولد)، على مظنّة رفاهية عيشهم وهنائه

آثرَ التَّعبيرَ ب(الأولاد) دون (الأبناءِ) في قوله تعالى: ﴿وَأَكْثَرَ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا﴾؛ لوجود فرق بينهما؛ فالابن أعمُّ من الولد؛ لأنَّه يُطلَق على كلِّ ما ترتَّبَ على غيرِه بالسَّببيَّة أو التبعيَّة أو الملازمة

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/257.
(2) الفخر الرّازيُّ، مفاتيح الغيب: 16/98.

أو المشابهة، و(الابن) يُفيد الاختصاصَ ومداومةَ الصُّحبة، ولهذا يُقال: (ابن الفَلاة) لمَن يُداوم سلوكها، و(ابن اللَّيل) لمَنْ يُكثر السَّير فيه، وقولنا: "هو ابن فلان" يقتضي أنَّه منسوبٌ إليه، ولهذا يُقال: "النَّاس بنو آدم"؛ لأنَّهم منسوبون إليه، وكذلك بنو إسرائيل، أمَّا (الولد) فيُطلَق على كلِّ ما وُلِدَ: ذكرًا أو أنثى، والولد يقتضي الولادة ويقتضي والدًا، وهذه المعاني لا تتأتَّى في الابن[1].

وبناءً على هذا فاختيار التَّعبير بالأولاد دون الأبناء؛ دلالةٌ على كثرة النّسل عن طريق الزّواج، وفي هذا إشارة إلى رفاهية الحياة الَّتي كانوا يعيشون فيها وقوَّة أبدانهم.

فائدةُ حذفِ شِبْه الجملةِ ﴿مِنكُمْ﴾، مع الأموالِ والأولاد:

اكْتُفِيَ بذِكْرِ ﴿مِنكُمْ﴾ من قبل، لأنّه معلوم من السّياق

حُذِفَ شبهُ الجملةِ ﴿مِنكُمْ﴾ مع الأموالِ والأولادِ، اكْتفاءً بذِكْرِه من قبلُ في قولِه تعالى: ﴿أَشَدَّ مِنكُمْ﴾، فهو معلوم من السّياق، وأيضًا لاندراجِ الأموال والأولاد في القوَّة الّتي سبق ذكرُها.

سرُّ ذِكْرِ (الأموال والأولاد) بعد ذِكْر (القوَّة) في السّياق:

الأموال والأولاد، من مظاهر القوّة والعزوة، في الحياة الدّنيا

ذكرت الآية القرآنيّة كثرة أموالهم وأولادهم مع سبْق ذِكر شدَّة قوَّتهم في قوله تعالى: ﴿كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً﴾؛ من باب عطف الخاصِّ على العامِّ؛ فالأموال والأولاد جزءٌ من القوَّة؛ لأنَّها تكون بالقوَّة البدنيَّة والقوَّة المعنويَّة.

نكتة استخدام (الفاءِ) التّفريعيّة، في قوله: ﴿فَٱسْتَمْتَعُواْ﴾:

لا يمنع التّفريعِ بالفاء، أن يكون المقصدُ هو التَّشبيه

آثرَ التّعبير بالفاء دون غيرها، في قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ﴾؛ لأنّها دلّت على تفرُّعِ قولِه تعالى: ﴿فَٱسْتَمْتَعُواْ بِخَلَٰقِهِمْ﴾ على ما أفادَه حرفُ (الكاف) بقولِه: ﴿كَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ من معنَى التَّشبيه، ولذلكَ لم تُعطَفْ جملةُ ﴿فَٱسْتَمْتَعْتُم﴾ بواوِ العطف؛

(1) العسكريّ، الفروق اللُّغويَّة، ص: 315.

لأنَّها لا تؤدِّي هذا المعنى، فإنَّ هذه الجملةَ هي المقصدُ من التَّشبيهِ وما تفرَّعَ عليه[1]. ويجوز أن تدلَّ على ترتيب ما بعدها على ما قبلها تَرَتُّبَ محاكاةٍ واتِّباعٍ؛ فطلبتم ما طلبوا وحاكيتموهم فيما فعلوا، ولذلك قال بعدها: ﴿كَمَا ٱسۡتَمۡتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُم بِخَلَٰقِهِمۡ﴾[2].

دلالة التَّعبير بلفظ: ﴿فَٱسۡتَمۡتَعُواْ﴾:

المبالغة في التّمتّع، وإدامة مظاهره، ملمح للبيان والتّذكير

جاء التّعبير بقولِه تعالى: ﴿فَٱسۡتَمۡتَعُواْ﴾ الَّتي جاءت على صيغة الاستفعال دون (تمتَّعوا) للمبالغةِ في قوَّةِ تمتُّعِهم، وأنّ حصولَ التَّمتُّعِ من جهتِهم لجميعِ لذائذِ الدُّنيا دونَ اكْتراثٍ منهم لما أُحِلَّ أو حُرِّمَ من تلكَ اللَّذائذ، ففي صيغةِ (الاسْتفعال) ما ليس في صيغةِ (التَّفعُّل) من الاسْتزادةِ والاسْتدامةِ في التَّمتُّع[3]، فهم مستزيدون من تلكَ المُتَع دائبون عليها.

دلالة الطّلب بالفعل (استمتع)، في السّياق:

الإشارة إلى السّعي إلى التّمتّع بالملذّات بأنفسهم

وفي دلالة الطَّلب الّتي هي مِن أهمِّ معاني صيغة الزِّيادة هذه بـ (الألف، والسِّين، والتَّاء)، ما يدلّ على أنّهم طلبوا التَّمتُّع، وسَعَوْا إليه، وبالغوا في تحصيل موارده، وأسبابه، طلبًا للدُّنيا وهروبًا مِنْ تكاليفِ الدّينِ.

دلالة (الباء)، في: ﴿بِخَلَٰقِهِمۡ﴾:

التّمسّك بملذّات الدّنيا، يفضي إلى الإعراض عن الآخرة

الباءُ في ﴿بِخَلَٰقِهِمۡ﴾ تدلّ على الإلصاق؛ لأنّ ما يستمتعون به ملاصقٌ لهم لا ينفكُّ عنهم، والمعنى: فاستمتعتُم بنصيبِكم من ملذّاتِ الدُّنيا كما اسْتمتَعوا، للدَّلالةِ على حرصهم التّامِ وعدم انفكاكهم عن لذائذِ الدُّنيا وانْصرافِهم بها عن طلبِ الآخرةِ والعملِ لها، واسْتعلائهم بها على الرّسل دون توظيف لها في طاعة اللّه تعالى واتِّباع رسله في الإيمان بشرع اللّه.

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/258.
(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 7/3267.
(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/574، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/258.

نكتةُ إضافةِ (خَلاقِ) إلى الضَّميرِ (هم):

بيانُ حالةِ التَّشبيهِ، بمَنْ تقدَّمَهم من الكُفّار

أُضيفتْ كلمةُ (خلاق) إلى الضّميرِ (هم) في قوله تعالى: ﴿بِخَلَٰقِهِمۡ﴾ دون التّعبير بالظّاهر (الكفّار)؛ لأنَّ المقصودَ إدخالُ (الخَلاقِ) في الحالةِ المشبَّهِ بها وهم القومُ الَّذين سبقوهم بالكُفْرِ والاسْتمتاعِ بنصيبِهمُ الَّذي قدَّرَه اللّهُ لهم من مُتَعِ الحياةِ الدُّنيا دون الالتفاتِ لأوامرِ اللّهِ، وطلب الآخرة[1]. وفي إضافةِ (خَلاقِ) إلى الضَّمير (هم) أيضا، ذمُّ الأوَّلينَ باسْتمتاعِهم بحظوظِهمُ الخَسيسةِ من الشَّهواتِ الفانيةِ والتهائِهم بها عنِ النَّظرِ في العواقبِ الحَقَّةِ واللَّذائذِ الحقيقيَّة، تمهيدًا لذمِّ المخاطَبين بمُشابهتِهم إيّاهم واقْتفائهم أَثَرَهم[2].

نكتةُ إضافةِ (خلاقِ)، إلى ضميرِ المخاطَبين ﴿بِخَلَٰقِكُمۡ﴾:

ذمُّ اتّباعِهم سَنَنَ مَنْ قبلَهم، في المادّة لا في القيم

دلّت الإضافة إلى ضميرِ المخاطَبينَ، في قولِه: ﴿بِخَلَٰقِكُمۡ﴾، على ذمّ المُخاطَبينَ بمُشابهتِهم إيّاهم، واقْتفائِهم أَثَرَهم[3]، واتِّباعِهم سَنَنَ مَنْ قبلَهم، في طلبِ الدُّنيا والإعراضِ عن الآخرة.

نكتةُ الإطْنابِ، في تكرارِ لفظ الاسْتمتاعِ:

ذمُّ الأوَّلينَ بانْغماسِهم في مَلاذِّهم، ومَنْ تَبِعوهم ورَضوا بفِعلِهم

في تكرارِ الاسْتمتاعِ مع الأوَّلينَ مرَّتَيْن ومعهم مرَّةً واحدةً في قولِه تعالى: ﴿فَٱسۡتَمۡتَعُواْ بِخَلَٰقِهِمۡ فَٱسۡتَمۡتَعۡتُم بِخَلَٰقِكُمۡ كَمَا ٱسۡتَمۡتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُم بِخَلَٰقِهِمۡ﴾ فائدةٌ جليلةٌ وحكمةٌ مفيدة، وهي أنَّ اللّهَ أرادَ أنْ يُبالغ ذمَّ الأوَّلينَ بالاسْتمتاعِ بما أُوتوا من حُظوظِ الدُّنيا ورِضاهم بها، والتهائِهم بشهواتِهمُ الفانيةِ عنِ النَّظرِ في العاقبةِ وطلبِ الفلاحِ في الآخرة، وأنْ يُخِسَّ أمرَ الاسْتمتاعِ ويُهجِّنَ أمرَ التَّراضي به، ثمَّ يُشبِّهَ بعدَ ذلكَ حالَ المخاطَبينَ بحالِهم، كما تريدُ أنْ تُنبِّه بعضَ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/258.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/574.
(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/574.

الظَّلَمةِ على سَماجةِ فعلِه فتقول: أنت مِثْلُ فرعونَ، كان يقتلُ بغيرِ جُرْمٍ ويُعذِّبُ ويَعسِفُ وأنت تفعلُ مِثْلَ فِعْلِه[1]. " ففي التّكرير تأكيدٌ ومبالَغةٌ في ذمّ المخاطبين، وتقبيحِ حالِهم واستهجانِ أمرِهم"[2].

دلالة تَكرار التَّشبيهِ، في سياق الآية الكريمة:

نبّهَ على جزء مخصوص من التّشبيه، تقعُ فيه الموعظةُ والتَّذكير

تكرَّرتِ الكاف في قوله تعالى: ﴿كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ﴾ تأكيدًا للتَّشبيهِ الواقعِ في قولِه تعالى: ﴿كَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ إلى قولِه تعالى: ﴿فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ﴾؛ للتَّنبيهِ على أنَّ ذلكَ الجزءَ بخصوصِه من بين الحالةِ المشبَّهةِ والحالةِ المشبَّهِ بها، هو محلُّ الموعظةِ والتَّذكير، فلا يُغْرِهم ما هم فيه من نعمةِ الإمهالِ والاسْتدراج، فقدَّم قولَه: ﴿فَٱسْتَمْتَعُواْ بِخَلَٰقِهِمْ﴾ وأتى بقولِه: ﴿كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ﴾ مؤكِّدًا له دونَ أن يقتصرَ على هذا التَّشبيهِ الأخير؛ ليتأتَّى التَّأكيدُ، ولأنَّ تقديمَ ما يُتمِّمُ تصويرَ الحالةِ المشبَّهِ بها المركَّبةِ قبلَ إيقاعِ التَّشبيه، أشدُّ تمْكينًا لمعنَى المشابهةِ عند السّامع[3].

فائدةُ الإظهارِ في موضعِ الإضمارِ، في السّياق:

قلّة النَّظر إلى النَّفس مُستَلْزِمٌ لِقِلَّة العقل

أفاد التَّعبير بإظهارِ ما حقُّه الإضمارُ في قولِه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ﴾ فلم يقُلْ: (كما استمتعوا) فائدةً جليلةً، وهي التَّنبيهُ على ذمِّهم بقلَّةِ النَّظرِ لنَفْسِهم المُسْتلزم لقلَّةِ عقولِهم؛ إذ كانوا دونَهم في القوَّةِ أبدانًا وأموالًا وأولادًا لم يكفّوا عنِ الاستمتاعِ والخَوْضِ خوفًا ممّا محقَ أولئكَ الأحزابَ على قوَّتِهم من العذابِ من غيرِ أن ينفعَهم سببٌ من الأسباب، وفي ذلكَ أيضًا دَلالةٌ على التَّحقيرِ لشأنِ المذكورين، كقولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾﴾ [مريم: 44][4].

(1) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 2/201، وأبو حيّان، البحر المحيط: 5/456.
(2) صافي، الجدول في إعراب القرآن: 10/387.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/258.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/457، والبقاعيُّ، نظم الدُّرر: 8/522 - 523، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/574.

نكتةُ إضافةِ الألف والسّين والتّاءِ، في الفعل ﴿ٱسۡتَمۡتَعَ﴾:

بيانُ شغف المتقدِّمين لِمُتَعِ الدُّنيا، ومُداومتِهم عليها، وانغماسِهم فيها

قد مرّ ذِكرُ أنَّ إضافةَ الألف والسّين والتّاءِ، في قولِه تعالى: ﴿ٱسۡتَمۡتَعَ﴾ للمبالغةِ، ولبيانِ أنَّ المتقدِّمينَ طلبوا المتاعَ والانْتفاعَ في الدُّنيا بغاية الرَّغبةِ والاسْتزادةِ والاستدامةِ مُعرِضينَ عن العُقبَى[1].

فائدةُ التَّعبيرِ بالاسْمِ الموصولِ ﴿ٱلَّذِينَ﴾:

المبالغةُ في ذمِّ حالِ المُتقدِّمين، وفي مشابهةِ المتأخِّرينَ لهم

عبَّر القرآن الكريم بالاسمِ الموصولِ ﴿ٱلَّذِينَ﴾، في قولِه تعالى: ﴿كَمَا ٱسۡتَمۡتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُم بِخَلَٰقِهِمۡ﴾، للمبالغةِ في ذمِّ حالِهم، وسوءِ أفعالِهم، وإظهارِهم بمظهرِ مَن خَفَّتْ عقولُهم، مع ما أعطاهُمُ اللهُ من قوَّةِ الأجسادِ وكَثْرةِ الأموالِ والأولاد، وفيه إشارة إلى تشخيصهم وتعيينهم بهذه الحالة في الاستمتاع بملذَّات الدُّنيا، والإعراض عن الآخرة.

دلالة المبالغة لبيان المشابهة، في السّياق:

بيان وجه المشابهة مع السَّابقين، في سوءِ الحالِ والمآل

قوله تعالى: ﴿كَمَا ٱسۡتَمۡتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُم﴾، جاءَ وصفُهم بهذه المبالغةِ في الآية الكريمة؛ لبيانِ مشابهةِ هؤلاءِ المتَّبِعينَ بأولئكَ المتَّبَعينَ في سوءِ الحالِ والمآل[2].

دلالة ﴿مِن﴾ في قولِه: ﴿مِن قَبۡلِكُمۡ﴾:

أزمنة المشبَّهين في السّياق، بعضٌ من الزّمان المنصرم

ذمَّ الأوَّلين والمخاطَبينَ لاشْتراكِهم في الانْغماسِ في مُتَعِ الدُّنيا. ولمَّا كان المُرادُ القرونَ الَّتي تَقدّم ذِكر إهلاكها، وكانت أزمنتهم بعض الزّمان الماضي، وليس كلّها أتى بالجارِّ فقال: ﴿مِن قَبۡلِكُمۡ﴾.

سرُّ التَّعبير بـ(الخَلاق):

إلف النّعمة، حجاب دون شكر المنعم

آثرَ القرآن الكريم التَّعبير بـ ﴿بِخَلَٰقِهِمۡ﴾ ثلاث مرّات في الآية، مع اختلاف المُخاطَب فيها دون التَّعبير بالنَّصيب؛ لأنَّهم كانوا حريصين على الاستمتاع بملذّات الدّنيا مُعرضين عن الآخرة؛ فلا يسعون لها

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 8/522، وأبو السُّعود، الإرشاد: 2/574.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 8/522.

ولا يطلبونها، وهذا دليلٌ على سوء أخلاقهم؛ لذلك ناسب التَّعبير بـ ﴿بِخَلَٰقِهِمۡ﴾ للدّلالة على أنَّ ذلك نابع من أخلاقهم، وصار طبعًا لهم.

بلاغةُ العطفِ بالواو، في قولِه: ﴿وَخُضۡتُمۡ﴾:

قولُه تعالى: ﴿وَخُضۡتُمۡ كَٱلَّذِي خَاضُوٓاْۚ﴾ معطوفٌ على ما تقدَّمَه، وذلك لبيان مُبالغتِهم في الدُّخولِ في الباطلِ وخوضِهم في الكفرِ ومحادَّةِ اللّهِ ورسولِه ﷺ، فهم قد اسْتغرَقوا في الشَّهواتِ ولذائذِ الدُّنيا وزادوا عليها خوضَهم في الضَّلالِ والبُعدَ عنِ الهُدَى[1].

مبالغتهم في خوض الباطلِ، كمبالغتهم في اتِّباعِ الشَّهوات

بلاغةُ تشبيهِ الخوض في الباطل، من اللّاحقين بالسّابقين:

قوله تعالى: ﴿وَخُضۡتُمۡ كَٱلَّذِي خَاضُوٓاْۚ﴾، في الآية تشبيهٌ لخوضِ المنافقينَ بخوضِ أولئك، وهو الخوضُ الَّذي حُكيَ عنهم في قولِه: ﴿لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلۡعَبُۚ﴾ [التَّوبة: 65] والمعنى: تشابهت أحوالكم مع أحوال مَنْ سبقوكم في الخوض في آيات اللّه والاستهزاء برسوله.

أحوال المنافقين المعاصرين، تشبه أحوال الغابرين، في الخوض المهين

بلاغة الإيجاز في التَّشبيه:

جاء التَّشبيه في قوله تعالى: ﴿وَخُضۡتُمۡ كَٱلَّذِي خَاضُوٓاْۚ﴾ موجزًا دون إطناب كما في قوله: ﴿فَٱسۡتَمۡتَعُواْ بِخَلَٰقِهِمۡ﴾؛ لبساطةِ هذا التَّشبيه؛ لذلك لم يُؤْتَ فيه بمثلِ الأسلوبِ الَّذي أُتيَ به في التَّشبيهِ السّابقِ له، بأنْ يُقال: وخُضتُم في الكُفرِ والاسْتهزاءِ بآياتِ اللّهِ ورسولِه كالخَوْضِ الَّذي خاضوه في ذلك، فأنتم وهُم سواء، فيوشِكُ أنْ يحيقَ بكم ما حاقَ بهم. وفيه إشارةٌ إلى سهولة التَّعبير ليفهمه التَّالي ويعقله السَّامع دون صعوبةٍ في معرفة المقصود منه[2].

سرعة الوصول إلى المُراد، من بيان السّياق القرآنيّ

بلاغةُ الاسْتعارةِ في لفظِ الخَوْض:

قولُه تعالى: ﴿وَخُضۡتُمۡ كَٱلَّذِي خَاضُوٓاْۚ﴾ مُستعارٌ من الخَوْضِ في الماء، ولا يُستعمَلُ إلَّا في الباطل؛ لأنَّ التَّصرُّفَ في الحقِّ إنَّما هو

الخوضُ في الباطلِ، مسلك مريب، مآله الصّراع والهلاك

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/574.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/259.

خوض، فَمَن يخوضُ في الماءِ قد يغرقُ ويهلك، وكذلكَ مَنْ يخوضُ في أمورِ الباطلِ ويَدَعُ أمورَ الحقِّ سَيهلِكُ لا مَحالة[1]، والخوضُ في الباطلِ مُستعارٌ من الخوضِ في الماء بجامعِ المآل وهو الهلاك.

نكتةُ التَّعبيرِ بالاسمِ الموصولِ المفردِ ﴿كَٱلَّذِى﴾:

عائدُ الصِّلةِ ضميرُ جمعٍ، فتأوَّلَ الَّذي بالجَمْعِ، في السّياق

جاءَ التَّعبيرُ بالاسْمِ الموصولِ المفردِ، في قولِه تعالى: ﴿وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓاْ﴾، فلم يقُل: (وخُضْتُم كخوضِهم)، ذلكَ أنَّ عائدَ الصِّلةِ هنا ضميرُ جمعٍ تعيَّنَ أنْ يكونَ المرادُ بـ ﴿كَٱلَّذِى﴾ تأويله بالفريقِ أوِ الجَمْعِ، ويجوزُ أنْ يكونَ ﴿كَٱلَّذِى﴾ هنا أَصْلُه (الَّذين) فخُفِّفَ بحذفِ النّونِ على لغةِ هُذَيْل وتَميمَ. ويمكنُ أنَّ (الَّذي) معَ ما بعدَها يُسْبَكُ منهما مصدَر، أي: كخوضِهم[2]. ويكون التّركيز على خوضهم، لا عليهم أنفسهم؛ فالأصل الأعمال لا الأشخاص.

بلاغةُ توالي التَّشبيهاتِ:

بيان سوء حال المنافقين، في اتّباعهم لمَنْ سبقهم من الكافرين

توالتِ التَّشبيهاتُ في الآيةِ الكريمة، وهذا التَّوالي يدُلُّ على أمرَيْنِ جديرَيْنِ بالانْتباه، أحدُهما: بيانُ سوءِ حالِ المنافقينَ في اتِّباعِهم لسَنَنِ مَنْ سَلَفَهم من الكافرينَ في الانْغماسِ في الشَّهواتِ والملذَّاتِ الدُّنيويَّةِ والخَوْضِ في الاسْتهزاءِ بآياتِ اللّهِ ورسولِه. والآخر: التَّنبيهُ على أنَّهم بسببِ ما ذَكَرَه اللّهُ من وصْفِ حالةِ المُشَبَّهِ بهم من الأُممِ البائدةِ كانوا جديرينَ مع مَنْ شابَهَهم ممَّن أتى بعدَهم بإحْباطِ أعمالِهم وخُسرانِهم[3].

سرُّ التَّعبير بالفعل الماضي ﴿وَخُضْتُمْ﴾:

الخوض في آيات الله، ينطبع في العقل والنّفس، حتّى يصير طبعًا لهم

آثر القرآن الكريم التّعبير بالفعل الماضي ﴿وَخُضْتُمْ﴾، مع المخاطبين دون المضارع للدّلالة على تمكُّنهم في فعل الخوض في

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/457، والبقاعيّ، نظم الدُّرر: 8/523.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/457، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/259.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/259.

آيات اللّه والاستهزاء برُسُله، وثبوت ذلك الخوض لهم، وأنَّ ذلك صار من طبائعهم.

نكتةُ فصلِ قولِه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ﴾:

فُصل قولُه تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ﴾ بيانًا لعاقبةِ أمرِهم ونتيجةً لازمةً لمقدِّماتها السّابقةِ؛ لذا جاءَت هذه الجملة بيانًا لفسادِ أعمالِهم وبُطلانِها بزوالِها عنهم في الدُّنيا ونسيانِ لَذَّاتِها، وفي الآخرةِ سيُحاسبونَ عليها ويُعذَّبونَ بها[1].

بيانُ عاقبة الانْغماس في الدُّنيا، والعزوف عن الآخرة

ولأنَّ هذه الجملة جاءت بذكر الجزاء المُعدِّ لهؤلاء المخاطبين، تُرِكَ العطفُ وفُصِلَت الجملة عمَّا قبلها.

فائدةُ التَّعبيرِ باسْمِ الإشارة ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾:

صُدِّر قولُه تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ﴾ باسْمِ الإشارةِ للبعيد ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾؛ لتقريرِ وبيانِ أنَّ مَنْ تقدَّمتْ أوصافُهم من المُشَبَّهينَ والمُشبَّه بهم همُ البُعداءُ من الخير، والمُقْصَوْنَ عن رحمةِ اللّه[2].

تحقير شأن الموصوفين، وتوبيخهم بما يستحقّون

دلالة التَّعبير بالمفرد، في ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾:

جاء التَّعبير القرآنيُّ مفردًا في قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارةً إلى المتَّصفين بالأوصاف المعدودة من المُشبَّهين والمُشَبَّه بهم، لا إلى الفريق الأخير فقط؛ فإنَّ ذلك يقتضي أن يكون حُبُوط أعمال المُشبَّهين وخُسرانهم مفهومينِ ضمنًا لا تصريحًا؛ لذلك كان التَّعبير بـ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ دون (أولئكم)[3].

الجمْعُ بين المُشبَّهين والمُشبَّه بهم

بلاغةُ الاسْتعارةِ في حَبْطِ الأعمال، في سياق المقال:

الحَبْطُ: الزَّوالُ والبُطلانُ وأصلُه من الحَبَطِ - بفتح الباء - وهو انْتفاخٌ في بُطونِ الإبلِ من كَثْرةِ الأكلِ، فتموتُ من ذلك، فإطلاقُهُ

تشبيهُ أصحاب الأعمالِ المستقبحة، بالأنعامِ الَّتي ماتت بأكلها النّهَم

(1) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 8/523.
(2) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 8/523، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/574.
(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/81.

على إبطالِ الأعمالِ تمثيل؛ لأنَّ الإبِلَ تأكلُ الخَضِرَ شَهوةً للشِّبَع فيؤولُ عليها بالموت، فشبَّهَ حالَ مَنْ عملَ الأعمالَ الصّالحةَ لنفعِها في الآخرة، فلم يجدْ لها أَثَرًا بالماشيةِ الَّتي أكلتْ حتَّى أصابَها الحَبَط، ولذلكَ لم تُقيَّدِ الأعمالُ بالصّالحاتِ لظهورِ ذلكَ التَّمثيل[1].

بلاغة الخطاب في صلاحيّته لتعدّد المراد:

الإشارةُ إلى كلا الفريقيْنِ، والتّعريضُ بكلِّ مَن يصلُحُ للخطاب

تظهر بلاغة الخطاب في قولِه تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ﴾، في صلاحيّته لتعدُّد المُراد به؛ فيجوز أن يكون موجَّهًا إلى الرّسول ﷺ، ويكون الغرض منه تسليّته ﷺ على موقف هؤلاء من دعوته، ويجوز أن يكون لكلِّ مَنْ يَصلح له الخطاب، ويكون الغرض منه تحذيرهم من سلوك مَسلكهم، ويكون المعنى: أولئكَ الموصوفونَ بما ذُكِرَ من الأفعالِ الذَّميمة، وفي هذا كلِّه تذكِرةٌ للنَّبيِّ ﷺ والمؤمنينَ بأنْ لا يظنّوا أنَّ اللّهَ لمّا أمهلَ المنافقينَ فقد أَعْرضَ عنهم[2].

دلالة التَّعبير بالفعل الماضي ﴿حَبِطَتۡ﴾:

لا تقبل الأعمال من غير إسلام، مهما عظم شأنها في الأنام

دلّ التَّعبير بالفعل الماضي ﴿حَبِطَتۡ﴾ في قولِه تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ﴾ على تحقُّق وقوع الحُبُوط. وفي ذلك زجرٌ للمعاندين من أهل الكُفر عمّا يتوهّمون في قبول أعمالهم الّتي كانوا يعملونها من عمارة المسجد الحرام وسُقيا الحجيج من غير إسلام؛ فجاء التّعبير بالماضي ليقطع هذا التوهّم عندهم. يؤكِّد هذا قوله تعالى في حقِّهم: ﴿مَا كَانَ لِلۡمُشۡرِكِينَ أَن يَعۡمُرُواْ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلۡكُفۡرِۚ أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ﴾ الآية.

دلالة إيثار التَّعبير: ﴿أَعۡمَٰلُهُمۡ﴾:

خُلوُّ الأعمال من الإيمان، يفرغها من روحها، وبركة نفعها

آثر التّعبير بالأعمال دون غيرها كالأفعال في قوله تعالى: ﴿حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ﴾؛ لوجود فَرْق بين الأفعال والأعمال من ناحية

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 2/332.

(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/574، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/260.

العموم والخصوص؛ إذ يتميّز العمل بالقصد وامتداد الأثر؛ لذلك كان المراد لأعمالهم الَّتي كانوا يستحقُّون بها أجورًا حسنة لو كانت مبنيَّة على الإيمان؛ لكنها لمَّا خلت من الإيمان ضاعت وبطلت بالكلِّيَّة ولم يترتّب عليها أثرٌ صالحٌ لهم في الدُّنيا والآخرة.

دلالة الإضافة في: ﴿أَعۡمَٰلُهُمۡ﴾:

خصُّ بطلان الأعمال بالكافرين، لأنّ الكفر محبط للعمل

دلّتِ الإضافة على خصوصية بطلان أعمالهم دون أعمال المؤمنين الّذين آمنوا باللّه ورسله، وفي هذا ذمٌّ للكافرين وبشارة للمؤمنين.

فائدةُ ذكرِ: ﴿فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ﴾:

زوالُ آثارِ الأعمالِ، يكونُ في الدُّنيا والآخرة

لمّا ذكرَ بيانُ اللّهِ تعالى حَبَطَ الأعمال، وهذا يعني زوالَ آثارِها المجهولةِ مُرتَّبةً عليها شرعًا، فشملَ بذلكَ آثارَها في الدُّنيا؛ لأنّ ما يترتّب على أعمالهم فيها من الصّحة والسّعة وغير ذلك حسبما يُنبئ عنه قوله ﷻ: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيۡهِمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ فِيهَا وَهُمۡ فِيهَا لَا يُبۡخَسُونَ ١٥﴾ [هود: 15] ليس ترتُّبه عليها على طريقة المثوبة والكرامة بل بطريق الاستدراج، وأمَّا في الآخرة فالأمر ظاهرٌ[1]؛ لذلكَ خُتِمَ حَبَطُ الأعمالِ بقولِه تعالى: ﴿فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ﴾[2].

دلالة التَّعريف بـ (الْ)، في لفظي: ﴿ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ﴾:

المُراد باللّفظين (الدُّنيا والآخرةُ)، المعهودتان عند النّاس

الدُّنيا والآخرةُ كلاهما اسْما عَلَم: الأولى هي الدُّنيا المعهودةُ عند النّاس، وهي وعاءُ الأحداث والأزمانِ والأمكنةِ الحاضرةِ الموجودةِ على سطحِ الأرضِ الَّتي تضمُّ الأُمَمَ والبَشَر، سواءٌ أكانوا نُصراءَ أم أعداء.

والثّانية: الآخرةُ وهي الدّار الغائبةُ ولكنَّها المعهودةُ الَّتي تكونُ فيها نهايةُ البشرِ وخاتمتُهم وجزاؤهم وحسابُهم بما أخبرَنا به اللّهُ تعالى في كتابِه، والرَّسولُ ﷺ في سُنَّته، وكلاهما وحيٌ من اللّه.

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/81.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 2/332.

نكتةُ الطِّباقِ، في قولِه: ﴿ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ﴾:

سرُّ التَّقابل اختلافُ آثارِ الأعمالِ في الدُّنيا، وثوابِها في الآخرة

جاءَ الطِّباق[1] في مُفرَدَتي: الدُّنيا والآخرة، لتقابلِهما في المعنى، واختلافِ كلٍّ منهما عن الأُخرى، والمرادُ هنا: اخْتلافُ آثارِ الأعمالِ في الدُّنيا وثوابِها في الآخرة، وهو سرُّ التَّقابل هنا في قولِه تعالى: ﴿ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ﴾ ففي الدُّنيا الأعمال، وفي الآخرةِ الحسابُ على تلكَ الأعمال، وأولئك المنافقون المتَّبِعونَ لسَنَنِ مَنْ قبلَهم أتعبوا أنفسَهم بأعمالٍ مخالفةٍ لشرعِ اللّه، فحبِطتْ وضاعت، وخسِروا ثوابَها في الآخرة[2].

فائدةُ العطْفِ في جملة الإشارة، للوصف بالخسارة:

بيانُ ما ترتَّبَ على المُقدِّماتِ السَّيِّئة، من نتائجَ أسوأ

قولُه تعالى: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ عطفٌ على جملةِ الجزاءِ الأوَّل، وهو قولُه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ﴾ إذِ الأمورُ بخواتِمها، فقد ترتَّبَ على ما تقدَّمَ على الاسْتمتاعِ بشهواتِ الدُّنيا بلا حساب، والخوضِ في النِّفاقِ والكفرِ والاسْتهزاءِ بآياتِ اللّهِ ورسولِه ﷺ أمران: حَبَطُ الأعمال، والخُسْران[3].

فائدةُ إعادةِ ذِكْرِ اسْمِ الإشارةِ للبعيد:

سببُ خُسرانهم، هو سوءُ أعمالهم، وتلك نتيجة حتميّة

أعادَ القرآن الكريم اسْمَ الإشارة ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ للاهْتمامِ بتمييزِ المُتحدَّثِ عنهم لزيادةِ تقريرِ أحوالِهم في ذِهْنِ السّامع، وجاءتِ الإشارةُ للبعيدِ لبيانِ أنَّهم بُعداءُ من الخَيْر بسَبب ما تقدَّمَ من حالِ انْغماسِهم في لذائذِ الدُّنيا، وتركِهم لطلبِ الآخرة، وخَوْضِهم مع الخائضينَ في الكُفْرِ والاسْتهزاءِ بآياتِ اللّه[4]، وأنَّهم أحْرياءُ بالعقوبة الّتي ذكرها القرآن لهم.

---

(1) الطِّباق: هو الجمعُ بين لفظَين مُتقابلَيْن في المعنى، وهو نوعان: حقيقيٌّ واعْتباريٌّ، ولكلٍّ منهما أنواعٌ تدخل تحته، ويكون الطِّباق بين: اسْمَيْن: كالدُّنيا والآخرة، والأوَّل والآخر، والظّاهر والباطن. وبين فعلَيْن: كأضحكَ وأبْكى. وبين حرفين: كـ(لهُنَّ) و(عليهن)، و(لها) و(عليها)، يُنظر: ابن الأثير، المثل السّائر في أدب الكاتب والشّاعر: 1/251، والخطيب القَزوينيّ، الإيضاح في علوم البلاغة: 1/110.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 2/332.

(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 2/333.

(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/260.

تكرار إيرادِ اسمِ الإشارةِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾، في الموضِعَيْن:

تقبيح أفعال المنافقين والكافرين، في كلّ الأزمنة

تكرَّرَ اسْمُ الإشارةِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ في قولِه تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ﴾ وقولِه تعالى: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ للإشعارِ بعِلّيَّةِ الأوصافِ المُشارِ إليها للحُبوطِ في أعمالِهم وخُسرانِهم[1]. وأيضًا للاهتمام بتمييز المتحدَّث عنهم لزيادة تقرير أحوالهم في ذهنِ السَّامع.

سِرُّ التَّعبير بالاسميَّةِ، دون الفعليَّة، في السّياق:

ثباتُ وصفِ حالةِ خُسرانِهم، ومُلازمتِها لهم

خُتمتِ الآيةُ الكريمةُ بالجملةِ الاسميَّة ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ دون الفعليَّة (خسروا)، للدَّلالةِ على ثباتِ هذا الوصفِ في حقِّهم، وأنَّ حالَتَهم في تلكَ الخسارةِ حالةٌ لازمةٌ لهم لا تنفكُّ عنهم، وللتَّعبير عن عموم الخسارة وشيوعها فيهم وعدم تقييدها بزمن.

بلاغةُ القَصْرِ بضميرِ الفصل ﴿هُمُ﴾، وتعريف طرفي الإسناد:

المبالغةُ في وصفِهم بالخسارة في الدَّارين، مفصحة عن المقصد

في قوله تعالى: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾؛ لمّا كانتْ خسارتُهم جَسيمةً جُعِلَ غيرُهم من الخاسرينَ كَلا خاسرين، فَحُصِرَتِ الخسارةُ في هؤلاءِ دونَ غيرِهم بضميرِ الفَصْلِ ﴿هُمُ﴾ وتعريفِ طَرفي الجُملةِ: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ و﴿ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ قَصْرًا مقصودًا به المبالغةُ في وصفِهم بالخسارة[2].

سِرُّ التَّعبير بالخُسران في الفاصلة:

سُوء أفعالهم عصف بأعمالهم، فضرّهم ولم ينفعهم

آثر القرآنُ التَّعبير بالخُسران دون غيره، في قوله تعالى: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾؛ لأنَّه يأتي بمعنى النَّقص والضَّلال، وهو ما يتوافق مع سياق الآيات في فعل المنافقين والكافرين من الأفعال المذمومة والصِّفات السَّيئة الَّتي ذهبت برؤوسِ أموالهم الَّتي هي أعمالهم فيما ضرَّهم ولم ينفعهم قطّ، ولو أنَّها ذهبت فيما لا

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/576.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/260.

يضرُّهم ولا ينفعهم لكفى به خسرانًا؛ فكيف إذا كان فيما يضرُّهم ولا ينفعهم، فذلك هو الخسران المبين.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الاسْتمتاعُ والانْتفاعُ:

الاسْتمتاعُ بمُتعِ الدُّنيا ولذائذِها، والانْتفاعُ ما يُسْتَعانُ به في الوصولِ إلى الخير العميم

الاسْتمتاعُ: الانْتفاعُ بما قدَّرَه اللهُ من مُتعِ الدُّنيا ولذائذِها، وذلك إنَّما يكون بوجود اللَّذة أو بما يكون معه، نحو المال الجليل والمُلك النَّفيس. والمتاعُ أيضًا: انْتفاعٌ ممتدُّ الوقت، يُقالُ: متَّعهُ اللهُ بكذا، وأَمْتعَهُ، وتمتَّعَ به، قالَ تعالى: ﴿فَٱسْتَمْتَعُواْ بِخَلَٰقِهِمْ﴾ [التَّوبة: 69] أي: تمتَّعوا بنصيبِهم من لذائذِ الدُّنيا[1].

والنَّفعُ هو: ما يُسْتَعانُ به في الوصولِ إلى الخيرات، وما يُتوصَّلُ به إلى الخيرِ فهو خير، فالنَّفعُ خيرٌ، وضدُّه الضُّرّ، قالَ تعالى: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾ [الأعراف: 188][2]. وقد يكون النَّفع بما تتأجَّل به اللَّذة نحو إصلاح الطَّعام وتبريد الماء لوقت الحاجة إلى ذلك[3]. ولمّا كان الاستمتاع قرينَ الانتفاع بمتاع الدّنيا المقدّر من الله تعالى أُختيرَ في الآية لمناسبته ما رُزقوا من أموال وأولاد، وغير ذلك ممّا يُنتفع به.

الخَلاقُ والنَّصيبُ:

فالخلاقُ الحظّ اللّائق بالخُلُق، والنَّصيبُ الحظُّ المُعيَّن، وهو أعمّ وأشمل

الخلاق: النَّصيبُ الوافرُ من الخيرِ خاصَّة، أو هو النصيب من العمل الصَّالح؛ لذا كثر استعماله في الجزاء بالجنَّة في الآخرة، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُواْ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ﴾ [البقرة: 200] إلى غير ذلك من الآيات، واستعماله في الخير؛ لأنَّه مشتقٌّ ممّا اكتسبه الإنسان من الفضيلة بخُلُقه؛ فالخلاقُ: الحظّ اللّائق بالخُلُق، وخلاقُ

(1) الرّاغب، المفردات، ص: 757، وابن منظور، اللِّسان: (متع).
(2) الرّاغب، المفردات، ص: 819، وابن منظور، اللِّسان: (نفع).
(3) العسكريّ، الفروق اللُّغوية، ص: 222.

المرء: الشَّيء الّذي هو به خَليق، وقد يُستعمل في مَنْ ترك نصيبه من الآخرة واستمتع بخلاق الدَّنيا كما في هذه الآية: ﴿فَٱسْتَمْتَعُواْ بِخَلَٰقِهِمْ﴾ الآية، وهذا ما اسْتمتعَ به المنافقون بما يُسخِطُ اللّه.

والنَّصيبُ: الحظُّ المنصوب، أي: المُعَيَّن، ويكونُ في المحبوبِ والمكروه، يُقالُ: وفّاهُ اللّهُ نصيبَه من النَّعيم أو مِنَ العذاب، والنَّصيبُ: ما نُصِبَ له لينالَه سواءٌ أكانَ محبوبًا أم مكروها. والنَّصيبُ: ما يُصيبُ الإنسانَ من مُقاسَمة، سواءٌ ارْتفعَ به شأنُه أمْ لا.

واستُعمل (النَّصيب) في القرآن في آيات المواريث، وعلى هذا فالنَّصيب أعمُّ من الخلاق؛ لأنَّه يأتي في الجزاء بالأجر والثَّواب في قوله تعالى: ﴿مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا﴾ [النساء: 85] وفي الجزاء بالعذاب، قال تعالى: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴿٤٧﴾﴾ [غافر: 47]، وعلى هذا فالنَّصيب يكون في المحبوب والمكروه[1].

ويهدي هذا الاستقراء إلى أنَّ الخلاق إذا فُسِّرَ بالنَّصيب بمعنى القَدْر، فملحوظٌ فيه خصوص دلالته على جزاء ما يكسب الإنسان بخُلُقِه ومسعاه. ويكون النَّصيب بدلالة أعمَّ، فيأتي بمعنى القَدْر من كسب الخُلُق والعمل، ويأتي كذلك بمعنى القَدْر المفروض، والحظِّ المقسوم[2]. ولخصوص دلالة الخلاق على جزاء ما يكسب بمسعاه اصطُفي في الآية ليُناسب لفظ الاستمتاع الدّالّ على طلب التّمتّع والسَّعي إليه.

البُطلانُ، والحُبُوطُ:

يُقالُ: أَحْبَطَ اللّهُ عملَ الكافر، أي: أَبْطَلَه، قالَ تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ﴾ [التَّوبة: 69] أي: بَطَلتْ أعمالُهم بعدَ التَّعَبِ فيها[3].

الحبوط أَصْلٌ يدلُّ على البُطلان، الّذي هو فسادٌ يُظنّ به صلاح الأمر

(1) الدّوريّ، دقائق الفروق اللُّغوية في البيان القرآنيِّ، ص: 146.
(2) عائشة عبد الرَّحمن، الإعجاز البيانيُّ للقرآن ومسائل ابن الأزرق، ص: 404.
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: 2/129، والرّاغب، المفردات، ص: 216.

وعلى هذا فالحُبُوط يدور على أمرين: بطلان العمل وسبب ذلك أنَّه بُنيَ على غير أساس صحيح ولا أصلٍ ثابت، والثَّاني: فساده بعد الوقوع والصِّحَّة، ومنشأ الحبوط هنا، فسادٌ في الشّيء الصَّالح يأتي عليه من وجهٍ يُظنُّ به صلاحُه.

أمَّا البُطلان: فهو عامٌّ في العملِ وفي غيرِه، في الاعْتقادِ والقضاء، قالَ تعالى: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا﴾ [آل عمران: 191]. وذلك لأنَّ الباطلَ: نقيضُ الحقِّ، وهو ما لا ثَباتَ له عندَ الفحص عنه، قالَ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ﴾ [الحجّ: 62][1].

ولأنَّ الاستمتاع بملذَّات الحياة أموالًا، وأولادًا، وزينةً لا أصلَ ثابتًا له مع كونها من حاجات الحياة الأساس من حيثُ لم تُستثمر في سبيل مرضاة اللّه تعالى، ونُصرة دينه. كان لفظ البُطلان أنسب من غيره في التَّعبير عن هذا المعنى بوصفه فسادًا في الشّيء الصَّالح يأتي عليه من وجهٍ يُظنّ به صلاحه.

(1) الرّاغب، المفردات، ص: 129، وابن منظور، لسان العرب: (بطل).

﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ وَأَصْحَٰبِ مَدْيَنَ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتِ ۚ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٧٠﴾﴾ [التَّوبة: 70]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

العلاقة بين تشبيه المنافقين ومن سبقهم، بذكر نماذج ستّة منهم

لَمَّا شبَّه اللّهُ تعالى المنافقينَ بالكُفّارِ المُتقدِّمينَ في الرَّغبةِ في الدُّنيا، وفي تكذيبِ الأنبياءِ، والمبالغةِ في إيذائهم، وكان في لفظ ﴿كَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ إبهامٌ، بيَّنَ في هذه الآيةِ الكريمةِ أولئكَ الكفّارَ المتقدِّمين بذكرِ هؤلاءِ الطَّوائفَ السِّتَّة في هذه الآية.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿نَبَأُ﴾: النَّبأ: خبرٌ ذو فائدة، عظيمٌ يحصل به علمٌ أو غلبة ظنٍّ، ولا يُقالُ للخبر في الأصل (نبأ) حتى يتضمَّن هذه الأشياء الثلاثة، وحقُّ الخبر الَّذي يُقال فيه (نبأ) أن يتعرَّى عن الكذب كالتَّواتر، وخبر الله تعالى، وخبر نبيه ﷺ، ولتضمُّن النَّبأ معنى الخبر، يُقال: أنبأته بكذا، كقولك: أخبرتُه بكذا، ولتضمُّنه معنى العِلم: أنبأته بكذا[1].

2) ﴿وَأَصْحَٰبِ مَدْيَنَ﴾: مَدْيَنُ: اسْمُ قريةِ نبيِّ اللّهِ شُعَيْبٍ عليه السلام وأصحابُ مَدْيَن: هم قومُ شُعَيب عليه السلام فإضافةُ (أصحابِ) إلى (مَدْيَنَ) باعْتبارِ إطلاقِ اسْمِ (مَدْيَنَ) على الأرضِ الَّتي كان يقطنُها بنو مَدْيَن، فكما أنَّ (مَدْيَن) اسْمٌ للقبيلةِ كما في قولِه تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ﴾ [الأعراف: 85]، كذلكَ هو اسْمٌ لموطنِ تلكَ القبيلة[2].

(1) الرّاغب، المفردات: (نبأ).

(2) الرّازيّ، مختار الصِّحاح: (مدن)، والزَّمخشريّ، الكشّاف: 2/201، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/261.

3) ﴿وَٱلۡمُؤۡتَفِكَٰتِۚ﴾: الإفْكُ: كلُّ مصروفٍ عن وَجْهِه الَّذي يَحقُّ أنْ يكونَ عليه، ومنه قيل للرّياحِ العادلةِ عن المَهابِّ: مُؤتَفِكَة، قالَ تعالى: ﴿وَٱلۡمُؤۡتَفِكَةَ أَهۡوَىٰ ۝٥٣﴾ [النّجم: 53] وقالَ ﷻ: ﴿وَٱلۡمُؤۡتَفِكَٰتُ بِٱلۡخَاطِئَةِ ۝٩﴾ [الحاقّة: 9]، ومنه الإفكُ الَّذي اسْتُعمِل في أشدِّ الكَذِبِ، كما قالَ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلۡإِفۡكِ عُصۡبَةٞ مِّنكُمۡۚ﴾ [النّور: 11][1]. وقولُه في الآية: ﴿وَٱلۡمُؤۡتَفِكَٰتِۚ﴾ مدائنُ وقُرَى قومِ لوطٍ عليه السلام وقد كانوا يَسكنونَ في مدائن، وفي آيةٍ أُخرى: ﴿وَٱلۡمُؤۡتَفِكَةَ أَهۡوَىٰ ۝٥٣﴾ [النّجم: 53] أي: الأمَّةَ المؤتَفكةَ وهي سَدوم، أهلَكهمُ اللّهُ بأنْ قَلَبَ عاليَ أرضِهم سافلَها[2].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

ذكر طوائف من الكفّار الهالكين، وظلمهم أنفسهم، بتكذيب المرسلين

يقولُ اللّهُ تعالى واعظًا هؤلاءِ المنافقينَ المكذِّبينَ للرُّسُل في هذه الآية: أَلَمْ تُخبَروا خبرَ مَنْ كانَ قبلَكم من الأُمَمِ المكَذِّبةِ للرُّسلِ: ﴿قَوۡمِ نُوحٖ﴾ وما أصابَهم من الغرَقِ العامِّ لجميعِ أهلِ الأرضِ إلّا مَنْ آمنَ بعبدِه ورسولِه نوحٍ عليه السلام، وعادٍ كيفَ أُهلكوا بالرّيحِ العقيم لمّا كذَّبوا هودًا عليه السلام، وثمودَ كيف أخذتْهُمُ الصَّيحةُ لمّا كذَّبوا نبيَّهم صالحًا عليه السلام وعَقَروا النّاقة، وقومِ إبراهيمَ كيف نصَرَه اللّهُ عليهم، وأيَّدَه بالمعجزاتِ الظّاهرةِ وأَهْلكَ مَلِكَهم نمرودَ بنَ كنعانَ بن كُوش الكنعانيّ - لعنَه الله -، وأصحابِ مَدْيَنَ وهم قومُ شُعَيبٍ عليه السلام وكيفَ أصابتْهمُ الرَّجفَةُ وعذابُ يوم الظُّلَّة، والمؤتفكاتِ قومِ لوطٍ، وقد كانوا يسكنونَ في مدائن، وكيف أَهلَكهمُ اللّهُ عن آخرِهم بتكذيبِ نبيِّهم وإتيانِهمُ الفاحشةَ الَّتي لم يسبقْهم إليها أحدٌ من العالمين، أَتَتْهُم رُسلُهم بالحُجَجِ والدَّلائلِ القاطعات، فما كانَ اللّهُ ليظلِمهمْ بإهلاكِه إيّاهم؛ لأنَّه أقامَ عليهمُ الحُجَّةَ بإرسالِ الرُّسُلِ وإزاحةِ العِلَل، ولكنَّهم

(1) الرّاغب، المفردات، ص: 79.
(2) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 2/201، والفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 16/99.

ظلموا أنفُسَهم بتكذيبِهمُ الرُّسُلَ، ومُخالفتِهمُ الحقَّ، فصاروا إلى ما صاروا إليه من العذابِ والدَّمار[1].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ فصْلِ هذه الآية عمّا قبلها:

تقريرُ خسارةِ المنافقين والكافرين، ومَنْ على شاكلتهم في كلّ حين

فُصِلتْ هذه الآيةُ عمَّا قبلها؛ لأنَّها استئناف ابتدائيٌّ عاد الكلام فيه على المنافقين؛ فضمير قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ﴾، وقوله تعالى: ﴿مِن قَبْلِهِمْ﴾ عائدان إلى المنافقين الَّذين عاد عليهم الضَّمير في قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾.

بلاغةُ الاستفهامِ في صدرِ الآية الكريمة.

إقامةُ الحُجَّةِ على المخاطَبين، بتلقّيهم البلاغ المبين

صُدِّرتِ الآيةُ بالاستفهام في قولِه تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ﴾ لِمَنْ نزَلَتْ فيهم الآياتُ من الكفَّار والمنافقين تحذيرًا لهم، بحيثُ يكونُ كالاستشهادِ عليهم بأنَّهم أتاهم نبأُ الَّذين من قبلِهم، فلا مناصَ لهم في عَدَمِ العِظَةِ والاعْتبار[2]، وفي هذا دليلٌ على تأكيدِ الخبر.

نكتةُ الالتفاتِ من ضمائرِ الخطابِ، إلى ضمائرِ الغَيْبةِ:

ازدراءُ المنافقينَ والاستهانةُ بهم، بذكر اتّباعهم للهالكين

تحوَّلتِ الضَّمائرُ في هذه الآيةِ إلى الغَيْبَةِ بعد أنْ كانتْ في صدرِ الآيةِ السّابقةِ للخطاب؛ إذِ اكْتُفِيَ بالإشارةِ لما مضَى من حالِ تلكَ الأمم فيما حلَّ بها من العذابِ والعقابِ والاستئصالِ، وعَوْدُ الكلامِ على المنافقينَ في قولِه: ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ﴾، و﴿مِن قَبْلِهِمْ﴾ بالغيبة، ومجيئُها على الغَيْبةِ مع ذكرِ عذابِ اسْتئصالِ تلكَ الأقوام المحادَّةِ المكذِّبةِ للّهِ ولرسُله، تعبيرٌ عن ازْدرائهم وقلَّةِ شأنِهم عند اللّهِ تعالى، وكذلكَ هو حالُ المنافقينَ المتَّبعينَ لهم، ليس لهم عندَ اللّهِ تعالى شأنٌ، وهُم أَجْدَرُ بالاسْتهانةِ والازْدراءِ والتَّبكيت[3].

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 2/336، والشَّوكانيّ، فتح القدير: 2/540 - 541.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 8/540، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/260.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/260.

بلاغةُ الاستعارةِ في تشبيهِ، بلوغِ النَّبأِ بإتْيانِه:

حصولُ النَّبأِ ووقوعُه بعدَ أنْ لم يكن، من بليغِ البيان

الإتْيانُ هنا مُستعملٌ في بلوغِ الخبر؛ كقولِه تعالى: ﴿يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ﴾ [المائدة: 41]، وهو استعارةٌ؛ فقد شُبِّه حصولُ الخبرِ عند المُخبَرِ بإتيانِ الشَّخص، بجامعِ الحصولِ بعدَ عَدمِه، ومن هذا القبيلِ قولُهم: (بَلَغَه الخبرُ)، قالَ تعالى: ﴿لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَۚ﴾ [الأنعام: 19][1].

بلاغة المَجاز العقليّ في إسناد (الإتيان)، إلى (النَّبأ):

تفخيم شأن ما حلّ بتلك الأقوام، من هلاك وآلام

"إسناد الإتيان إلى النَّبأ في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ مجاز عقليٌّ؛ لأنَّ النَّبأ طريقه السَّماع والرِّواية النَّاقلة، وعلاقته المفعوليَّة. وسرُّه البلاغيُّ تعظيم وتفخيم شأنِ ما حلَّ بتلك الأقوام حتَّى لكأنَّه يسعى بنفسه لِيَرْوِيَ حكايتَه لهم"[2].

نكتة التّعبير بـ(الإتيان)، دون غيره من الألفاظ:

أمرُ الإنباء عن الأمم السَّابقة يسيرٌ، وخاصّة إذا كان وحيا من العليم القدير

آثَرَ القرآن الكريم التّعبير بـ(الإتيان) دون غيره في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ﴾؛ للإشارة إلى سهولة الإنباء عمّا حدث للأمم السَّابقة مع امتداد الزَّمان وتعدُّد المكان، وفي هذا ردٌّ على مَنْ يستبعد أمر الإنباء لصعوبة حصوله.

سرُّ التّعبير بـ(النَّبأ) دون (الخبر):

هلاك الأمم السَّابقة، يحمل معنىً عظيمًا، لم يدركه الكافرون والمنافقون

آثَرَ التّعبير بـ(النَّبأ) دون (الخبر)، في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾؛ لأنَّه يحمل معنىً عظيمًا في هلاك الأمم السَّابقة لم يطّلع عليه الكافرون والمنافقون في عهده ﷺ إلا من خلال إخبار القرآن عن أحوال هذه الأمم مع رسلهم؛ لذلك كان التَّعبير بالنَّبأ هو المناسب للسِّياق.

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/260.
(2) المطعنيّ، التَّفسير البلاغيّ للاستفهام: 2/22.

وجه إضافة (النّبأ) إلى الموصول الظّاهر دون المُضمَر:

جاء التّعبير بقوله تعالى: ﴿نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ دون (نبئهم)؛ ليشمل ما فعلوه وما فُعل بهم؛ فهم فعلوا التّكذيب وفُعل بهم الهلاك[1]. والإضافة للاختصاص، أي: النَّبأ الخاصّ بهم[2].

هلاك السّابقين، لكونهم كذَّبوا، فأتاهم العذاب من حيث لم يحتسبوا

نكتةُ التَّعبيرِ بالاسْمِ الموصولِ ﴿ٱلَّذِينَ﴾:

جاءَ التَّعبير بالاسْم الموصولِ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ في قولِه تعالى: ﴿أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ﴾ للمُبالغة في وصفِ شأنِ المُتقدِّمين وتأكيدِ تَنبئِهم فيما فعلوه من المنكراتِ واعْتقادِ الكُفْرِ باللّهِ ورسُلِه، وما حلَّ بهم من العذاب والهلاك[3]، وهذا المعنى لا يتأتَّى من غير استعمال اسم الموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾؛ ففيه إثباتُ النَّبأ إلى مَنْ قبلهم؛ زيادةً في تقرير ذمّهم.

المبالغةُ والتَّأكيدُ في نبأ المتقدِّمين، من البيان المبين

معنَى ﴿مِن﴾، في قولِه ﴿مِن قَبۡلِهِمۡ﴾:

﴿مِن﴾ في قولِه تعالى: ﴿مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ تفسيريَّةٌ بيانيَّة، أفادتْ بيانَ حالِ الأقوامِ السّابقينَ مع أنبيائهم، في تكذيبِ دعوتِهم وإيذائِهم لهم، وما أصابَهم من العذابِ الوَبيلِ واسْتئصالِ شَأْفَتِهم. ويجوز أن تكون ابتدائيَّة، ويكون المعنى: ألم يأتهم نبأ الَّذين من قبلهم ليشمل الحديث بأحوال بني إسرائيل وما حدث لبعضهم من مسْخٍ ورفع الجبل فوقهم، ونحو ذلك مِمَّا أصابهم من العقاب، وإنْ كان ليس استئصالًا كما كان مع الأمم المذكورة في الآية.

بيانُ حال الأقوام السَّابقة، وما حدث لهم، للعبرة والادّكار

موقعُ قولِه: ﴿قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَ﴾ ممَّا تقدَّمها:

جملةُ ﴿قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَ﴾ اعتراضيَّةٌ فصَّلتْ ذكرَ إجمال الأقوامِ السّابقين بين الاسْتفهامِ الَّذي صُدِّرت به الآيةُ ﴿أَلَمۡ يَأۡتِهِمۡ﴾

من مظاهر البيانِ التَّفصيلُ بعد الإجمال

(1) الجمل، حاشية الجمل: 2/298.
(2) المطعنيّ، التَّفسير البلاغيّ للاستفهام: 2/22.
(3) الشَّوكانيّ، فتح القدير: 2/540 - 541.

وجملةِ: ﴿أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم﴾ الَّتي عادَ الضَّميرُ فيها (هُم) على هذه الأُمَم المذكورة.

وجميع مَنْ ذُكر في قوله تعالى: ﴿قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ﴾ في موقعِ البَدَلِ من قوله: ﴿مِن قَبْلِهِمْ﴾[1] بدل بعضٍ من كلٍّ؛ فقوله تعالى: ﴿وَعَادٍ﴾ إلى آخره معطوفات كلُّها على ﴿قَوْمِ نُوحٍ﴾ لا على ﴿نُوحٍ﴾ إلا ﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتِۚ﴾ فهي على حذف مضاف؛ لأنَّها ليست من الَّذين خلوا حتى تكون من جملة البدل[2].

نكتةُ حذفِ ﴿قَوْمِ﴾، مع ﴿وَعَادٍ﴾ و﴿وَثَمُودَ﴾:

تقدّمُ الذِّكر أغنى عن الإعادة، وأجزأ عن الإطناب

حُذِفَ لفظُ ﴿قَوْمِ﴾ مع عادٍ وثمود؛ لأنَّه لَمّا ذُكِر قومُ نوحٍ عليه السلام من قبلُ أغنَى ذلكَ عن إعادةِ ذِكْره مع ما عُطِفَ عليه، فَفُهِم من السّياق أنَّ المُرادَ: قومُ نوحٍ وقومُ عادٍ وقومُ ثمود.

فائدةُ إضافةِ كلمةِ ﴿وَأَصْحَٰبِ﴾ إلى ﴿مَدْيَنَ﴾ دونَ غيرِها:

(مَدْيَنُ) هي الأرضُ الَّتي كان يَقطنُها بنو مَدْيَن

إضافةُ ﴿وَأَصْحَٰبِ﴾ إلى ﴿مَدْيَنَ﴾ باعْتبارِ إطلاقِ اسْمِ مَدْيَنَ على الأرضِ الَّتي كان يَقْطُنُها بنو مَدْين، فكما أنَّ مَدْينَ اسْمٌ للقبيلة، كما في قولِه تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًاۚ﴾ [الأعراف: 85] كذلك هو اسْمٌ لموطنِ تلكَ القبيلة[3]. مَدْيَنُ: اسْمُ قريةِ نبيِّ اللّهِ شُعَيْبٍ عليه السلام. وأصحابُ مَدْيَن: هم قومُ شُعَيب عليه السلام فإضافةُ (أصحابِ) إلى (مَدْيَنَ) باعْتبارِ إطلاقِ اسْمِ مَدْيَنَ على الأرضِ الَّتي كان يقطنُها بنو مَدْيَن، فكما أنَّ مَدْيَن اسْمٌ للقبيلةِ كما في قولِه تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًاۚ﴾ [الأعراف: 85]، كذلكَ هو اسْمٌ لموطنِ تلكَ القبيلة[4].

(1) ابن عطيَّة، المُحرَّر الوجيز: 3/58، والبقاعيّ، نظم الدُّرر: 8/540.
(2) حاشية الجمل: 2/298.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/261.
(4) الرّازيّ، مختار الصِّحاح: (مدن)، والزَّمخشريّ، الكشّاف: 2/201، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/261.

معنَى (أل) للتّعريف والعهد، في لفظ ﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتِ﴾:

بيان نبأ القُرى الّتي خُسِفَ بها للتّذكير، لأنّه معروفٌ مشهورٌ

(أل) في قولِه: ﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتِ﴾ للتَّعريفِ والعهدِ بتلكَ القُرَى الَّتي انقلبتْ على أهلِها حيث خُسِفَ بها وصارَ عاليَها سافلَها، ونبأُ هؤلاءِ معروفٌ مشهورٌ، وهو خبرُ هلاكِهم واسْتئصالِهم بحوادثَ مَهولة[1].

نكتةُ ذكرِ ﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتِ﴾:

قُرَى قومِ لوط عليه السلام هي الّتي انقلبتْ رأسًا على عَقِب

اكْتفَى بيانُ اللهِ بذِكْرِ ﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتِ﴾ دون ذِكْر (أصحاب) أو (قوم) كما تقدَّمَ في ﴿قَوْمِ نُوحٍ﴾ و﴿وَأَصْحَٰبِ مَدْيَنَ﴾؛ لأنَّ المرادَ: القُرى نفسُها الَّتي انقلبتْ على أهلِها فاستأصلَ اللهُ شأفتَهم بذاك الانْقلابِ بجعلِ عاليَ أرضِ تلك القُرى سافلَها، وذلك بسببِ إعراضِهم عن صيانةِ أعراضِهم في اتِّباع لذائذِ أغراضهم، فأَثْمَر لهم فعلُهم بعدَ الخَسْفِ عمومَ انْقراضِهم[2]. ويجوز أن يكون المُراد: قرى المكذِّبين المُتمرِّدين مطلقًا، ويكون الائتفاك من باب المَجاز، والمُراد: انقلاب حالها من الخير إلى الشَّرِّ على طريق الاستعارة[3].

فائدة التَّرتيب في ذكرِ الأقوامِ السّابقة:

ترتيبُ ذِكْرِ الأقوامِ بناءً على التَّرتيبِ الزَّمنيّ، مراعاةً لأحوالهم وظروفهم

جاءَ ترتيبُ ذكرِ الأقوامِ السّابقة - قومِ نوحٍ، وعادٍ، وثمودَ، وقومِ إبراهيمَ، وأصحابِ مَدْينَ، والمؤتَفِكات - مراعاةً للتَّرتيب الزَّمنيِّ في تعاقُبهم إثْرَ بعضِهم إلا أصحاب مَدْين فقُدّمت على قوم لوط وهُم بَعدَهم في الزَّمان؛ لأنَّ هذا في شأن مَنْ وُصفوا بأنَّهم لم يجدوا ما يحميهم ممَّا هم فيه من العذاب. وممَّا يُذكر في سرِّ التَّرتيبِ أنَّه بدأ بقوم نوح، لطول أعمارهم وامتداد آثارهم، وثَنَّى بقوم عادٍ لقوَّة أبدانهم وعظيم شأنهم في بُنيانهم ومصانعهم، وذَكَر بعد ذلك ثمود لتمكُّنهم من نحت الجبال، وقوم إبراهيم في مُلك جميع

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/261.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 8/540، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/576.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 10/135.

الأرض، وأصحاب مدين في جمع الأموال ومدِّ الآمال ونقص الميزان والمكيال، والمؤتفكات في إعراضهم عن صيانة أعراضهم؛ فالمُلاحَظ أنّ التَّرتيب رُوعي فيه ما تميزَّ به كلُّ قومٍ عن غيرهم[1].

سرّ تخصيص هؤلاء الأقوام بالذِّكْر:

أخبار القوم معروفة؛ لقُرْب ديارهم، وتواتر آثارهم

خصَّ القرآن ﴿قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ وَأَصْحَٰبِ مَدْيَنَ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتِۚ﴾ بالذِّكر، لمعرفة العرب بأخبارهم وأحوالهم وقُرب ديارهم منهم. فضلًا عن عجيب شأنهم، وتنوُّع أخبارهم، وغرابة الأحداث الَّتي عاشوها، وصلاحيتها لِلعظة، والعبرة.

نكتةُ فصلِ قولِه: ﴿أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم﴾:

مهامُّ الرُّسل الإتيانُ بدلائلِ الصِّدقِ والحقّ

جاءتْ جملةُ ﴿أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِۖ﴾ اسْتئنافًا بيانيًّا نشأَ عن قولِه تعالى: ﴿نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾، أي: أَتَتْهم رُسُلُهم بدلائلِ الصِّدقِ والحقّ، ويمكنُ أنْ تكونَ جملةُ ﴿أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم﴾ تعليلًا لِما تقدَّمها في الآية[2].

سِرُّ التَّعبير بالإتيان: ﴿أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم﴾:

منهجُ الرُّسل مناسب للفطرة، والإتيان بالمعجزات دعمٌ للرّسالات

جاء التَّعبير بالإتيان في قوله تعالى: ﴿أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم﴾ للدّلالة على سهولة منهج الرُّسل في حدِّ ذاته، فضلًا عن سهولة الإتيان بالمعجزات الَّتي طلبوها وهي خارقة للعادة، كما طلب قوم ثمود من صالحٍ النَّاقةَ وأجابهم إلى ذلك.

إيثار لفظ (الرُّسل) دون (الأنبياء):

رسلُ الله ذوو مقامات عالية، وهم جاؤوا بمبادئ سامية

جاء التَّعبير القرآنيُّ بلفظ الرّسل دون الأنبياء في قوله تعالى: ﴿أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم﴾؛ للدّلالة على عُلوّ شأن الرُّسل ورفعة مكانتهم فيما أمَروا به قومهم من التَّشريعات الإلهيَّة الَّتي كَذَّبوا بها، بل وآذوا الرُّسل ورفضوا دعوتهم؛ بخلاف لفظ الأنبياء فلا يتأتَّى معه التَّشريعات الإلهيَّة، بل يدعون إلى شريعة مَنْ كان قبلهم.

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 3/356 - 357.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/261.

فائدةُ إضافةِ (الرُّسُلِ)، إلى ضميرِ (هم): ﴿رُسُلُهُم﴾:

أُسندَتْ كلمةُ (الرُّسُل) إلى الضَّمير (هم) لإثباتِ إرسالِ رسولٍ إلى كلِّ أُمَّةٍ من الأُمَم، مِصداقُ قولِه تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النَّحل: 36][1]. وفيه إشارة إلى مزيد العناية بهم من حيث إنّ الرُّسل جاءت إليهم خاصَّة وخاطبتْهُم بما يهديهم إلى الحقّ.

ما مِنْ أُمَّةٍ إلّا خَلا فيها نذير، وجاءها بالهداية بشير

معنَى (الباء) في: ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾:

الباءُ في ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ للمُصاحَبة، أي: أَتَتْهُم رُسُلهم مُتلبِّسينَ بالبيِّنات، أي: مُصاحبينَ لها، حيث إنَّ البيِّناتِ هي الحُجَجُ الواضحاتُ والمعجزاتُ الباهراتُ المؤيِّداتُ للرُّسُلِ في صِدْقِ دعواهُمُ الرِّسالة[2].

مجيء الرّسل قرينٌ بالبيّنات الظّاهرة، والمعجزات الباهرة

سِرُّ التَّعبير بلفظ (البيِّنات):

آثر التَّعبير بالبيِّنات دون المعجزات؛ لأنَّ المراد هنا المعجزات الواضحات جدًا بسبب أنهم ارتكبوا من القبائح ما أوجب دمارهم، ولأنَّ بعض المعجزات قد تكون خفيَّة على بعض النَّاس، والمقام هنا مقام إظهار وإعلان فناسبَهُ التّعبير بالبيِّنات.

اقتضى مقام الإظهار التَّعبير بالبيِّنات

دلالة (الفاء) في سياق نفي الظّلم ﴿فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾:

الفاءُ في قولِه تعالى: ﴿فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾ للتَّفريع، أي: تفريعُ جملتِها على جملةِ ﴿أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم﴾[3]. ويجوز أن تكون الفاء للعطف على مُقدَّرٍ ينسحب عليه الكلام، ويستدعيه النِّظام. تقديره: (فكذَّبوهم فأهلكهم الله تعالى) ﴿فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾[4].

احتمال الفاء للتّفريع أو العطف، دليل على تنوّع المعنى

دَلالةُ الجملة - بعد الفاء - في سياق الآية الكريمة:

قولِه: ﴿فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾، لمّا كانتِ الفاءُ للتَّفريع، جاءتِ

ظلمُ الأقوامِ لأنفسِهم بالكفرِ وتكذيبِ الرُّسُل، سفهٌ منهم وطيشٌ

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 8/541.
(2) سامي القدّوميّ، التَّفسير البيانيّ، ص: 89.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/261 - 262.
(4) الآلوسيّ، روح المعاني: 10/135.

الجُملةُ بعدَها تفريعًا على جُملةِ ﴿أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم﴾، والمفرَّعُ هو مجموعُ الجُملةِ إلى قولِه: ﴿يَظْلِمُونَ﴾؛ لأنَّ الَّذي تفرَّعَ على إتْيان الرُّسُل: أنَّهم ظلموا أنفُسَهم بالعنادِ والمكابرة، والتَّكذيبِ للرُّسُل، وصَمِّ الآذانِ عنِ الحقّ، فأخذهمُ اللّهُ بذلك[1].

نكتةُ تقديمِ النَّفيِ على المُسنَدِ إليه، والمُسنَد الفعليّ:

تقدَّم النَّفيُ على المُسنَدِ إليه والمُسنَدِ الفعليِّ في قولِه: ﴿فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾؛ لتأكيدِ نفيِ الظُّلمِ عنِ اللّهِ تعالى بأبلغِ وَجْه، وتحقيق نَفيِ هذا الظُّلمِ في أيِّ وجهٍ من الوجوهِ الَّتي يمكن أنْ تخطُرَ على الذِّهن[2].

تأكيدُ نَفْيِ الظُّلمِ عنِ اللهِ تعالى، بأبلغِ وجه، وأوفى عبارة

فائدةُ دخولِ فعلِ الكَوْنِ، على لفظِ الجلالةِ في نَفْيِ الظُّلم:

جاءَ نظمُ الكلامِ في قوله تعالى: ﴿فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾ على هذا الأسلوبِ البديعِ؛ للمبالغةِ في تنزيهِ اللّهِ تعالى عن الظُّلم، أي: ما صَحَّ وما اسْتقامَ له تعالى أنْ يظلمَهم ولكن ظلموا أَنفُسَهم[3]، وهذه المبالغة دلَّل عليها الإتيان بفعل (كان) الَّذي يدلُّ على استمرار نفي الظُّلم؛ فليس من شأن اللّه تعالى أن يظلمهم.

المبالغةُ في نَفْيِ ظُلمِ اللهِ لهم، لأنّه منزّه، ولا يظلم أحدا

فائدةُ دخولِ لامِ الجُحودِ، بعد فعلِ الكَوْنِ المنفيّ:

اقترن النَّفيُ في قولِه تعالى: ﴿فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾ بما النَّافية ثمَّ بلامِ الجُحودِ في قولِه: ﴿لِيَظْلِمَهُمْ﴾، وهذا يُعدُّ أبلغَ وَجْهٍ من وجوهِ نَفْيِ الظُّلمِ عنِ اللّهِ تعالى نفيًا تامًّا قاطعًا[4].

نَفْيُ الظُّلم عن اللهِ تعالى نفيًا قاطعًا، أمر معلوم محتوم

نكتةُ التَّعبيرِ بالمضارعِ المنفيّ، في السّياق:

صيغَ الظُّلمُ بصيغةِ المضارعِ في قوله تعالى: ﴿فَمَا كَانَ ٱللَّهُ

الاستمرارُ في نفي ظُلمِ اللهِ لهم، إذ يستحيل في حقّه الظّلم

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/261.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/262.
(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/576.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/262.

﴿لِيَظۡلِمَهُمۡ﴾؛ للدَّلالةِ على التَّجدُّدِ والتَّكرُّر، أي: اسْتمرارِ عدمِ ظُلمِ اللّهِ لهم، ودوام تنزُّهه[1].

دلالة الواو في قوله: ﴿وَلَٰكِن﴾:

(الواو) في قولِه: ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ﴾ عطفَتْ جُملةَ الاسْتدراك على ما تقدَّمَها وأفادتْ تحقُّقَ ما بعدَ الاسْتدراكِ على ما قبلَه[2].

مـا بـعـد الاسـتـدراك مُحقّقٌ على ما قبله

بلاغةُ القَصْرِ، في ثنايا سيّاق الآية الكريمة:

في قوله تعالى: ﴿فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾ جاءَ القَصْرُ في ذَيْلِ الآيةِ مُبتدِئًا بقولِه: ﴿فَمَا كَانَ﴾ ومنتهيًا بقولِه: ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ﴾ لقَصْرِ المظلوميَّة التّامَّةِ الكاملةِ عليهم، كما في قولِه تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ٣٣﴾ [النّحل: 33]، وآياتٌ كثيرةٌ غيرَها نَزَّه اللّهُ نَفْسَه فيها عنِ الظُّلمِ وقصَرَ الظُّلمَ على تلكَ الأممِ المكذِّبة لِرُسُلِه[3].

قصرُ الظُّلمِ على الأقـوامِ الّـتي كذبتْ رُسُلَ الله

دلالة الاستدراك بـ ﴿وَلَٰكِن﴾:

جاءَ الاسْتدراكُ بـ ﴿وَلَٰكِن﴾ ليُسجِّل بيان اللّهِ فَرْطَ ظُلمِهم لأنْفُسِهم، وذلك بسوءِ صنيعِهم من كِبْرِهم وعنادِهم حتَّى جُعِلَ ذلكَ كلُّه هو المفرَّعُ عليهم والمُتلَبِّسُ بهم في صورةِ الاسْتدراك[4].

تـسـجـيـلُ فَـرْطِ ظُـلمِهم لأنْفُسِهم

فائدةُ دخولِ فعلِ الكَوْنِ الماضي في جملة الفاصلة:

في قوله تعالى: ﴿كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾ أثبتَ بيانُ اللّهِ ظُلْمَهم أنفُسَهم بأبلغِ وجهٍ؛ إذْ أُسْنِدَ إليهم بصيغةِ الكَوْنِ الماضي الدّالِّ على تمكُّنِ الظُّلمِ منهم وتحقُّقِه فيهم منذُ زمانٍ مضَى[5].

تـمـكُّـنُ الـظُّـلـمِ منهم منذُ أمدٍ مديد

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/476.
(2) الدَّرويش، إعراب القرآن: 4/133.
(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/576.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/262.
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/262.

نكتةُ تقديمِ المفعولِ ﴿أَنفُسَهُمْ﴾:

اختُصَّت أنفُسهم بالظُّلم حدّ التلبُّس

قُدِّمَ المفعولُ ﴿أَنفُسَهُمْ﴾ في قوله تعالى: ﴿كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾، وحقُّهُ التَّأخيرُ للاهْتمامِ به، ولبيانِ اخْتصاصِ أَنْفُسِهم بالظُّلم، لا غيرَ أنفسهم وتلَبُّسِ الظُّلمِ بأَنْفُسِهم مع مراعاةِ الفاصلةِ في الآيةِ القرآنيَّة[1]، ولبيان شناعة ما يفعلونه بأنفسهم وهو ما استحقوا به العقاب، فوبالُ ظلمِهم راجعٌ إليهم.

سرّ الجمعِ بينَ صيغتي الماضي والمضارعِ، في الآية:

إفادة استمرارِ ظُلمِهم وتمكُّنِه منهم

جمعَ القرآن الكريم بين صيغتي الماضي والمضارعِ في قولِه تعالى: ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ للدَّلالةِ على اسْتمرارِ ظُلمِهم من الزَّمانِ الماضي إلى حاضرِهم؛ إذ لم يزالوا يُعرِّضونها للعقابِ بالكُفرِ والتَّكذيب[2].

توجيه التَّذييل بجملة الفاصلة:

نفيُ ظلمهم، يستلزم تسبيب ما حلَّ بهم بأيديهم

قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ "تذييلٌ مُقرِّرٌ لمعنى الكلام قبله؛ لأنَّ نَفْيَ ظلمهم عن اللّه يقتضي أنَّهم هم الذين استوجبوا بكفرهم ما حلّ بهم من كوارث"[3].

بلاغة المجاز في تسميّة العقاب ظلمًا:

عقابهم كان سببُه ظلم أنفسهم، وذلك أسوأ الظّلم

"وفي تسمية العقاب ظلمًا مجاز مرسل باستعمال السّبب في المسبَّب؛ لأنَّ عقابهم كان سببه ظلم أنفسهم بكفرهم وتكذيبهم رسل اللّه إليهم"[4].

بيانُ المتشابه اللَّفظيِّ بين آيتي: التوبة وإبراهيم:

تشابهت هذه الآية وهي قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ وَأَصْحَٰبِ مَدْيَنَ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتِ ۚ أَتَتْهُمْ

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/576.
(2) المطعنيّ، التَّفسير البلاغيّ للاستفهام: 2/22.
(3) أبو السُّعود إرشاد العقل السّليم: 2/576، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/262.
(4) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/576، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/262.

التَّعبير بالغيبة أمارة الإعراض عنهم بما أعرضوا عن الهدى

رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾ [التَّوبة: 70]، مع قوله تعالى في سورة إبراهيم: ﴿أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ لَا يَعۡلَمُهُمۡ إِلَّا ٱللَّهُۚ جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ [إبراهيم: 9]. فالنَّاظر في الآيتين يجد بينهما تشابهًا في الأسلوب واختلافًا في بعضه، وذلك أنَّ آية سورة التَّوبة جاءت بأسلوب الغيبة في قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ يَأۡتِهِمۡ﴾﴿أَتَتۡهُمۡ رُسُلُهُم﴾ في حين موضع سورة إبراهيم جاء بالخطاب ﴿أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ﴾، بالمجيء بدلًا من الإتيان في قوله تعالى: ﴿جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم﴾، ولعلَّ السَّبب في ذلك يظهر من السِّياق؛ فسياق سورة التَّوبة عُدِل فيه عن الخطاب إلى الغيبة، بسبب ما فعلوه من الصِّفات الذَّميمة والأفعال القبيحة، فأدَّى ذلك إلى الإعراض عنهم فناسَبَه التَّعبير بالغيبة في قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ يَأۡتِهِمۡ﴾.أمَّا موضع سورة إبراهيم فيسبقه قوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكۡفُرُوٓاْ أَنتُمۡ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ۝٨﴾ [إبراهيم: 8] فهو مبنيٌّ على الخطاب من موسى عليه السلام لقومه، فناسب التَّعبير بالخطاب بعده لقوله تعالى: ﴿أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ﴾.

وأمَّا عن سرِّ التّعبير بالإتيان في قوله تعالى: ﴿أَتَتۡهُمۡ رُسُلُهُم﴾ في التَّوبة والمجيء في سورة إبراهيم بقوله تعالى: ﴿جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم﴾ أنَّ السِّياق في سورة إبراهيم أعمُّ منه في سورة التَّوبة؛ لذلك ناسبه التَّعبير بالمجيء الَّذي هو أعمُّ من الإتيان.

﴿وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرۡحَمُهُمُ ٱللَّهُۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ٧١﴾ [التَّوبة: 71]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

المقابلة بين وعيد المنافقين بالعذاب، ووعد المؤمنين برحمة الله العزيز الحكيم

لَمّا وصف اللّهُ تعالى المنافقينَ في الآية السَّابقة بالأعمالِ الفاسدةِ والأفعالِ الخبيثة، ثمَّ ذكرَ عَقيبَه أنواعَ الوعيدِ في حقِّهم في الدُّنيا والآخرة، ذكرَ بعدَه في هذه الآية كونَ المؤمنينَ موصوفين بصفاتِ الخيرِ وأعمالِ البرِّ، على ضدِّ صفاتِ المنافقين، ثمَّ ذكرَ تخصيصهم برحمته، وذلك بما أعدَّه لهم من الثَّوابِ الدّائم والنَّعيم المقيم[1].ومن المناسبة أيضًا أنَّه لمّا بيَّن سبحانه فيما سبق أنَّ المنافقين والمنافقات بعضُهم من بعض في ارتكاب الصِّفات الذَّميمة والأفعال القبيحة بيّن في هذه الآية حال المؤمنين والمؤمنات وأنّ بعضهم أولياء بعض يتحابُّون في اللّه ويتعاطفون فيما بينهم، وذلك بصفاتهم الطَّيِّبة وأفعالهم الحسنة الّتي ذكرَتها الآية.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَوۡلِيَآءُ﴾: ولي: الواوُ واللَّامُ والياءُ أصلٌ صحيحٌ يدُلُّ على قُرْب، ويُطلَق على الصَّاحب والحليف. والوَلْيُ: القُرْب، يُقال: تباعَدَ بعد وَلْيٍ، أي: قُرب، والصّاحبُ، والحليفُ، وابنُ العمِّ، والنّاصرُ، والجارُ، كلُّ هؤلاء من الوَلْيِ، وهو القُرب، وكلُّ مَنْ وَلِيَ أمرَ آخرَ فهو

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 16/100.

وليُّه[1]. وقولُه تعالى هنا: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ أي: متناصرون، مُتحابُّون، مُتعاطفون[2].

2) ﴿بِٱلْمَعْرُوفِ﴾: المعروفُ: اسْمٌ لكلِّ فعلٍ يُعرَفُ بالعقلِ أوْ بالشَّرعِ حُسْنُه، وهو ضدُّ المنكَر[3]، كما قالَ تعالى هنا: ﴿يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ أي: بما هو معروفٌ في الشَّرعِ غيرُ منكَرٍ من توحيدِ اللّه وعبادتِه دون سواه[4]. ويُطلقُ المعروفُ على الاقْتصادِ في الجودِ والإحسان، كما قالَ تعالى: ﴿وَلِلْمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾. ويُطلق المعروفُ كذلكَ على ما تطمئنُّ إليه النَّفْسُ وتَسْكُن، وسُمّي بذلكَ العُرْفُ معروفًا؛ لأنَّ النَّفْسَ تسكُنُ إليه[5].

3) ﴿ٱلْمُنكَرِ﴾: نكر: النّونُ والكافُ والرّاءُ أصلٌ صحيحٌ يدُلُّ على خلافِ المعرفةِ الَّتي يَسْكُنُ إليها القلب. ونَكِرَ الشَّيءَ وأَنْكَرَه: لم يقبلْه قلبُه، ولم يعترفْ به لسانُه. والإنكارُ: ضدُّ العِرفان. والمُنْكَرُ: كلُّ فعلٍ تحكُمُ العقولُ الصَّحيحةُ بقُبحِه، أو تتوقَّفُ في اسْتقباحِه واسْتحسانِه العقول، فتحكُمُ بقُبحِه الشَّريعة، وإلى ذلكَ قُصِدَ بقوله: ﴿ٱلْآمِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ [التَّوبة: 112]، وقولِه – هنا –: ﴿يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾[6].

4) ﴿عَزِيزٌ﴾: عزَّ، يَعِزُّ، عِزًّا، والعِزُّ: ضدُّ الذُّلِّ. والعِزَّةُ: حالةٌ مانعةٌ للإنسانِ من أنْ يُغلَب، من قولِهم: أرضٌ عَزاز، أي صُلبة، قالَ تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ١٣٩﴾ [النِّساء: 139]. وقالَ تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: 8][7]. والعزيزُ: الغالبُ على كلِّ شيءٍ القادرُ عليه، وهو الَّذي يَقْهَرُ ولا يُقْهَر، وهو معنَى قولِه هنا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[8].

5) ﴿حَكِيمٌ﴾: حكم: الحاءُ والكافُ والميمُ أصلٌ واحدٌ، وهو المَنْع، وأوَّلُ ذلكَ الحُكْم، وهو المنعُ من الظُّلم، ويُقالُ: حكَمتُ السَّفيهَ وأَحْكَمْتُه: إذا أخذتُ على يَدَيْه، ومنه سُمِّيَ

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: 6/141، وابن منظور، اللِّسان: (وَلِيَ).
(2) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 2/336، والشَّوكانيّ، فتح القدير: 2/542.
(3) الرّاغب، المفردات، ص: 561.
(4) ابن جرير، جامع البيان: 10/179.
(5) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: 4/281، والرّاغب، المفردات، ص: 561.
(6) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: 5/476، والرّاغب، المفردات، ص: 823، والشَّوكانيّ، فتح القدير: 2/542.
(7) الرّاغب، المفردات، ص: 563، والرّازيّ، مختار الصِّحاح: (عزز).
(8) الرّاغب، المفردات، ص: 563، والزَّمخشريّ، الكشّاف: 2/202.

اللِّجام: حَكَمةَ الدّابَّة؛ لأنَّها تمنعُها. والحكمةُ: هذا قياسُها؛ لأنَّها تمنعُ من الجَهْل، والمُحَكِّمُ: المُجرِّبُ المنسوبُ إلى الحكمة. والحِكْمةُ: إصابةُ الحقِّ بالعلمِ والعقل، فالحكمةُ من اللّهِ تعالى: علمُ الأشياءِ وإيْجادُها على غايةِ الإحكام، ومن الإنسان: معرفةُ الموجوداتِ وفعلُ الخَيْرات[1]. وقولُه تعالى - هنا -: ﴿حَكِيمٌ﴾ واضعٌ كلًّا مَوْضِعَه على حَسَبِ الاسْتحقاق[2].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

المؤمنون يتناصرون، ويتعاونون على البرّ والطّاعة، فتشملهم رحمة الله

بيّن اللّه تعالى في هذه الآية أنَّ المؤمنين والمؤمنات يتناصرونَ ويتعاضدون فيما بينهم، فهم كالجَسَدِ الواحدِ في توادِّهم وتراحُمِهم، ويأمرونَ بالمعروف الَّذي في الشَّرْعِ أنَّه معروف، ويَنْهونَ عن المنكَرِ الَّذي أنكرَه الشَّرْع، ويُقيمونَ الصَّلاةَ حقَّ إقامتِها، ويُؤدّون الزَّكاةَ حقَّ أدائها في مصارِفها الَّتي بيَّنَها الشَّرع، ويُطيعونَ اللّهَ ورسولَه حقَّ الطّاعةِ في الأمرِ والنَّهي[3]. وقد جعل اللّه للمُتّصفينَ بهذه الصِّفات الجزاءَ العظيمَ فيرحمُهمُ ويُعزُّهم في الدُّنيا والآخرة، وهو ﷻ عزيز لا يُغلب، حكيمٌ في قِسمتِه هذه الصِّفاتِ لهؤلاءِ المؤمنين والمؤمنات[4].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ عَطْفِ الآيةِ على ما تَقدَّمها:

بيانُ حُسْنِ حالِ المؤمنين، إثْرَ بيانِ سوءِ حالِ المنافقينَ

قولُه تعالى: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ﴾ الآية، عَطْفٌ على قولِه تعالى: ﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ﴾ [الآية: 67] والجامع بينهما التّضادُّ في الأقوال والأفعال وما بينَهما جُمَلٌ تَسَلْسَلَ بعضُها عن بعض، والغرض

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: 2/91، والرّاغب، المفردات، ص: 248 - 249.
(2) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 2/202.
(3) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 2/336.
(4) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 2/336.

بيانٌ لحُسْنِ حالِ المؤمنينَ والمؤمناتِ، حالًا ومآلًا إثْرَ بيانِ قُبْحِ حالِ أضدادِهم عاجلًا وآجلًا[1].

بلاغةُ المقابَلاتِ بين جُمَلِ هذه الآية، والَّتي تقدَّمتْها:

رِفعةُ أهلِ الإيمان، وخسَّةُ أهلِ النِّفاق

بينَ هذه الآيةِ والآيةِ (67) المتقدِّمةِ مجموعةٌ من المقابَلاتِ الَّتي تدلُّ على بلاغةٍ جليلةٍ فائقةٍ، فقد جاءَ قولُه تعالى: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ﴾، مقابلةً قولِه: ﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ﴾، وقولُه: ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ مُقابِلٌ قولَه في المنافقين: ﴿بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ﴾، وقولُه تعالى: ﴿يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ مقابِلٌ قولَه: ﴿يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ﴾، وزِيدَ في وصفِ المؤمنين هنا ﴿وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ تنويهًا بأنَّ الصَّلاة هي أعظَمُ المعروف. وقولُه تعالى: ﴿وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ مُقابِلٌ قولَه في المنافقين: ﴿وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ﴾. وقولُه تعالى: ﴿وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ مُقابِلٌ قولَه في المنافقين: ﴿نَسُوا۟ ٱللَّهَ﴾؛ لأنَّ الطّاعةَ تَقْتضي مُراقبة المُطاع، فهي ضدُّ النِّسيان. وقولُه تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ﴾ مُقابِلٌ قولَه في المنافقين ﴿فَنَسِيَهُمْ﴾[2]. والتَّقابل الدّلاليُّ بين هذه التراكيب يُجلِّي بوضوحٍ صورتي الذَّمّ، والمدح لكلٍّ من المنافقين والمؤمنين، وكونهما على طرفي نقيض. ويُرسّخ أحقِّيَّة الموصوفين بما كِيل لهم من صفاتٍ تستوجب الذَّمَّ، وخصالٍ تستحق الثناء.

بلاغةُ الطِّباقِ بين ألفاظِ هذه الآية الكريمة:

التَّحفيزُ للاتِّصافِ بصفاتِ المؤمنينَ والمؤمنات

جاءَ الطِّباقُ في قوله: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ﴾ وهو من المحسِّناتِ البديعيَّةِ - بذكرِ ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ و﴿وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ﴾ بيانًا لحالِهم من الإيمانِ بما جاءهم عن ربِّهم ترغيبًا في التَّوبةِ وطمعًا في مِثْلِ حالِهم للاقتداء بهم، فإنَّ الإيمانَ باللّٰه تعالى رأسُ الأمرِ كلِّه.

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 8/543، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/575.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/575، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/263.

المؤمنون متعاضدون في نَهْيهم عن المنكر، لا يُحابُون أحدًا

ومن الطِّباق في الآية قوله تعالى ﴿يَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ﴾، أنَّه جاءَ بوصفَيْنِ مُتقابِلَيْنِ من أوصافِ أهل الإيمان ﴿يَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾ و﴿وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ﴾ لبيانِ أنَّ كلَّهم قائمونَ على وجهٍ من التَّعاضُدِ والتَّناصُرِ بالمعروف، والنَّهيِ عن المنكَرِ لا يُحابونَ أَحَدًا[1].

دلالة (أل) في ﴿وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ﴾:

استغراق المدح جنس المؤمنينَ والمؤمناتِ استحقاقًا

(أل) في ﴿وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ﴾ موصولة لدخولها على اسم الفاعل، والمُراد جنس المؤمنين والمؤمنات الَّذين تَمكّن فيهم الإيمان فتفرّعت عنه تلكَ الصِّفاتُ الواردةُ في الآيةِ الكريمة.

سرُّ التَّعبير بـ (الإيمان):

في لفظ الإيمان حَيْدةٌ لأهل النِّفاق

آثر القرآن الكريم التَّعبير بـ ﴿وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ﴾، دون (المسلمين والمسلمات)؛ لأنَّ بعض المنافقين يُعلنون أنَّهم من أهل الإسلام، ومع ذلك يأمر بالمنكر، وينهى عن المعروف ولا يقوم إلى الصَّلاة إلّا وهو كسلان، ويبخل بالزَّكاة ويتخلَّف بنفسه عن الجهاد، وإذا أمره الله تَثبّط وثبّط غيره، أمَّا المؤمنون والمؤمنات فصفاتهم ضدَّ هذه الصِّفات؛ لذلك كان التَّعبير بالإيمان لإخراج أهل النِّفاق.

نكتةُ تغايُرِ وصفِ المؤمنينَ، عن وصفِ المنافقين:

ولايةُ المؤمنينَ والمؤمناتِ لا تَنْفصِمُ عُراها، بخلافِ ولايةِ المنافقين

النَّاظر في الآية القرآنيَّة في جانبِ المؤمنينَ والمؤمناتِ يجد وصفهم بأنَّهم ﴿بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ﴾؛ في حين وُصِفَ المنافقون بأنّهم ﴿بَعۡضُهُم مِّنۢ بَعۡضٖۚ﴾؛ لأنَّ الولاية تقتضي المحبَّة والنُّصرة، وهذا يعني أنَّ اللُّحمةَ الجامعةَ بينَهم هي وَلايةُ الإسلام، فهُم فيها على السَّواء، ليس واحدٌ منهم مُقلِّدًا للآخَرِ ولا تابعًا له على غيرِ بصيرة، لما في معنَى الوَلايةِ من الإشْعارِ بالإخلاصِ والتَّناصُرِ

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 8/543 - 544.

بخلافِ المنافقين لا يُحبُّون أحدًا ولا يُوالون غيرهم، بل يتربَّصون بالنَّاس الدَّوائر، فلا ولاية بينهم ولا شفاعة لهم ولا يدعو بعضهم لبعض فكأنَّ بعضَهم ناشئٌ من بعضٍ في مَذامِّهم[1] وهذا يدلُّ على أنَّ نفاق الأتباعِ وكفرهم حصل بسبب التَّقليد لأولئك الأكابر في زعمهم من أهل الكفر والنِّفاق[2].

دلالة الجَمْع بين المؤمنين والمؤمنات:

تكاليف الله للجميع واحدة، إلّا ما استثني بالخصوصيّة

آثرَ التَّعبير القرآنيُّ الجمع بين المؤمنين والمؤمنات في هذه الآية ولم يكتفِ بذكر المؤمنين فقط للدّلالة على مساواة النِّساء للرِّجال في أمر الإيمان والالتزام بصفاته، وهذا يعني أنَّ التَّكاليف في شرع اللّه للرَّجل والمرأة على حدٍّ سواءٍ إلا فيما استثناه الشرَّع من أمور خاصة بالنِّساء، كأمر الصَّلاة والجهاد ونحو ذلك.

دلالة حذف متعلَّق الوَلاية، في ثنايا الآية:

أفاد الحذف عموم الولاية، فضلًا عن خصوصها

حُذف متعلَّق الوَلاية في قوله تعالى: ﴿بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ﴾؛ لإفادة العموم، فتشمل الولاية بمعناها العامِّ ومعناها الخاصِّ من ولاية الأخوَّة والمودَّة والنّصرةِ مع التأكيد على أنّ نصرة النِّساء تكون فيما دون القتال من إنفاق للأموال، ومساعدة للجَرْحى ونحو ذلك.

سرُّ التَّعبير بـ ﴿أَوۡلِيَآءُ﴾:

رباط المؤمنين متين، وتعاونهم فيما بينهم مكين

آثرَ القرآن الكريم التّعبير بوصف الأولياء في قوله تعالى: ﴿بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ﴾ دون غيره؛ لإفادة العموم فهو يشمل النّصرة وغيرها، وللإشارة إلى أنّ المؤمنين والمؤمنات جَمعتْهم المودَّة والرَّحمة والإخلاص للّه تعالى ولحقِّ هذه الأمَّة على المؤمنين. وفيه دلالة على أنَّ الرِّباط بينهم رباطٌ قويٌّ لا تنفصم عُراهُ؛ لأنَّه مربوطٌ بالعروة الوُثقى لا انفصام لها[3].

(1) ابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 3/58، والدُّرُّ المَصون: 6/85، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/262.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/70.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/371.

بلاغة الاستئناف البيانيّ، في جملة الأمر والنّهي:

تحقُّق الإيمان بفعل المعروف، وترك المنكر

قولُه تعالى: ﴿يَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ﴾، استئنافٌ بيانيٌّ جوابًا لسؤال استدعاه السِّياق؛ فكأنَّ سائلًا سأل عن دليل تحقُّق ولاية المؤمنين بعضِهم لبعض فكان الجواب قوله تعالى: ﴿يَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ﴾، فهذان الرُّكنان من أعظمِ لوازمِ الإيمان، فكلُّ ما ذكرَ اللّهُ في القرآنِ من الأمرِ بالمعروف فهو دعاءٌ من الشِّرك إلى الإسلام، وكلُّ ما ذُكِرَ من النَّهْيِ عنِ المنكَرِ فهو نَهْيٌ عن عبادةِ الأوْثانِ والشَّياطين[1].

دلالة البدء بالأمر بالمعروف، والنَّهي عن المنكر معًا:

أثر الأمر والنّهي، في صلاح الفرد والمجتمع

بدأ القرآن الكريم بهما دون غيرهما من بقية الصِّفات؛ لأنَّهما من أخصّ صفات المؤمنين الّتي يمتازون بها على المنافقين وعلى غيرهم من الكُفَّار؛ فهما سياج لحفظ الفضائل ومنع وقوع الرَّذائل، وفضَّل اللّه بهما أُمَّة محمد ﷺ على سائر الأمم؛ فقال تعالى: ﴿كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ تَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَتَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ﴾ [آل عمران: 110].

فائدةُ تقديمِ الأمرِ على النَّهيِ:

تحقُّقُ الأمرِ بالمعروفِ، سبيلٌ لانْتفاءِ المنكَر

الأمرُ بالمعروفِ والنَّهيُ عن المنكَرِ كلاهما مطلوبٌ لذاتِه، وهما فضيلةٌ كالصِّدق والعَدلِ والحقّ؛ بل هذه الأمورُ بدأ بها الكتابُ والسُّنَّة آمرًا بها ناهيًا عن خلافِها، ولذلك كانَ الأمرُ بالمعروفِ مُقدَّمًا على النَّهيِ عن المنكر؛ لأنَّه الأصل ولعموم معناه؛ فإذا تحقَّق قيامُ الرُّكنِ الأوَّلِ انْتفَى الثّاني ولو كان تدريجيًّا؛ فهما السّياجان اللَّذان يُحيطانِ بالإيمانِ ويُحافظانِ عليه[2]، وللدّلالة على مدح المؤمنين والمؤمنات في العمل على حفظ المجتمع من السُّوء، وهذا دليل على الدَّور العمليِّ الذي يقوم به أهل الإيمان.

---

(1) ابن جرير، جامع البيان: 10/179، وابن أبي حاتم، تفسير القرآن العظيم: 6/1831، كلاهما عن أبي العالية، وابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 3/58.

(2) الزُّهيريّ، شرح أصول اعْتقاد أهل السُّنَّة للّالكائي: 22/24.

نكتةُ التَّعبيرِ بالمضارعِ في ﴿يَأۡمُرُونَ﴾، و﴿وَيَنۡهَوۡنَ﴾وغيرها:

أثر تجدُّد معاني هذه الأفعال واستمرارها بين المؤمنينَ والمؤمناتِ

اصطفى بيانُ اللّهِ الأفعالَ المضارعةَ ﴿يَأۡمُرُونَ﴾، و﴿وَيَنۡهَوۡنَ﴾ والأفعالَ المعطوفةَ عليها؛ لأنَّها تفيدُ التَّجدُّدَ والتَّكرارَ والاسْتمرار، وهذه كلُّها تُجلِّي حالَ المؤمنينَ والمؤمناتِ، فهم يَدأَبون على الأمرِ بالمعروفِ والنَّهيِ عنِ المنكرِ وإقامِ الصَّلاةِ وإيتاءِ الزَّكاة، هذا همُّهم وهذا شُغلُهمُ الشَّاغل، وحياتُهم قائمةٌ على أمرِ اللّهِ في كلِّ شيء، كما قالَ تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحۡيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٦٢ لَا شَرِيكَ لَهُۥۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرۡتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ١٦٣﴾ [الأنعام: 162 - 163]، وهذا يعني أنّ مسألة الأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر خصوصًا لها دور رئيس في حماية المجتمع كلَّما جدَّ ما يدعو لذلك قاموا به على الوجه الأكمل، وفي هذا حفظ للدِّين من التَّحريف والتَّبديل، وأمَّا بقية ما ذُكر بعدهما فهو مبنيّ على التَّجدُّد والاستمرار في ذاته وقد يتعدَّى لغيره.

دلالة (أل) في ﴿بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾ و﴿ٱلۡمُنكَرِ﴾ و﴿ٱلصَّلَوٰةَ﴾ و﴿ٱلزَّكَوٰةَ﴾:

المعروفُ والمنكَرُ يشملان كلَّ أوامر الشّارع ونواهيه

دلّت (أل) في ﴿بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾ و﴿ٱلۡمُنكَرِ﴾ وما عُطِفَ عليهما على الاستغراقِ الَّذي يُفيدُ العمومَ بحَسَبِ ما ينتهي إليه العِلمُ والمقدرة، فيشبهُ الاسْتغراقَ العُرفيّ[1]، فالمعروفُ يشملُ كلَّ ما أمرَ به الشّارع، والمنكَرُ يشملُ كلَّ ما نَهى عنه الشّارع، وبابُ الأمرِ والنَّهي فيهما لا يَختصّانِ بجانبٍ واحدٍ من الحياة؛ بل يَعُمّانِ جوانبَ الحياة جميعَها[2].

الاستغراق يُفيدُ عُموم الصَّلواتِ المفروضةِ، ومصارف الزّكاة

و(أل) في الصَّلاةِ والزَّكاةِ لاستغراق الصَّلواتِ المفروضةِ والمسنونةِ والتَّطوُّع، والزَّكاةُ بمصارفِها وزكاةِ الفريضةِ والفِطْرِ والصَّدقاتِ باعتبارِ أنَّ فيها تزكيةً للمالِ بالمعنَى العام، ويكون المُراد

(1) ابن عاشور، التَّنوير والتَّحرير: 4/40.

(2) ابن جرير، جامع البيان: 7/105، والعمريّ، الأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر، ص: 52، وأحمد الزَّهرانيّ، التَّفسير الموضوعيّ للقرآن الكريم، ص: 116.

الصَّلاةُ المعهودةُ بأركانِها وشُروطِها وهيئاتِها وسُنَنِها، والزَّكاةُ المعهودةُ بمصارفِها وشروطِها ونِصابِها.

معنَى (الباء) في لفظ ﴿بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾، من الآية الكريمة:

أفعالُ أهلِ الإيمان مقترنة بالأمر بالمعروف، والنَّهي عن المنكر

الباءُ في قولِه تعالى: ﴿بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾ للمُلابَسة، وهذا يعني أن الأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر مُلابِسانِ لأهل الإيمان لا ينفكّانِ عنهم؛ فهم يأمرونَ النّاسَ بما عليه الشَّرعُ الحنيف، وما تعرفُه العقولُ السّالمةُ المجرَّدةُ من الانْحيازِ إلى الأهواءِ أوِ العاداتِ أوِ التَّعاليم الضّالَّة، وذلك هو الحُسْنُ المعروف، وإذا قلنا: الشّرع، فهذا يعني: ما جاءَ به الشَّرعُ نصًّا أو قياسًا أو اقتضَته المقاصدُ الشَّرعيَّةُ أو المصلحةُ العامَّةُ الَّتي ليس في الشَّرعِ ما يُعارضُها[1].

علَّةُ التَّعبير عن أداءِ الصَّلاةِ بالإقامة:

صفة المؤمن الحقِّ، كمال أداء الصَّلاة في الظَّاهر والباطن

جاءَ التَّعبيرُ عن أداءِ الصَّلاةِ بالإقامةِ في قولِه تعالى: ﴿وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ لبيانِ الصِّفةِ المترسِّخةِ في المؤمنينَ والمؤمناتِ من أنَّهم يؤدّون الصَّلاة على صفةٍ تقتضي قيامَها بجميعِ أركانِها وشروطِها وحدودِها مراقبةً لربِّهم واسْتعانةً بذلك على جميعِ ما ينوبُهم، وفي هذا التَّعبيرِ كذلكَ تنويهٌ وتنبيهٌ على ضرورةِ إقامةِ الصَّلاةِ على تلكَ الشّاكلةِ لعمومِ المؤمنينَ والمؤمناتِ ممَّن يُقصِّرونَ في أدائها على الوجهِ المطلوب[2].

فائدة التَّنصيص على إقامة الصَّلاة والزَّكاة:

علاج المجتمع من الهموم والآفات، بما في العبادة من تجلّيات

نصّ القرآن الكريم على إقامة الصَّلاة والزَّكاة بعد الأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر، وذلك لما لهم من أساسٍ في تحقيقهما في المجتمع؛ فالصَّلاة والزَّكاة علاجٌ لما في جِبلّة الإنسان من الهلع والجُبن الحاجِم له عن الإقدام في الدِّفاع عن الحقِّ وإعلاء كلمة

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/643.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 8/544.

اللّه ومن الشُّحِّ الصّادِّ له عن الإنفاق في سبيل اللّه، ولذلك كان المنافقون أجبنَ النَّاس وأبخلهم.

سِرُّ تخصيص هذه الصِّفات بالذِّكر دون غيرها:

الصّفات الأربع عون للمؤمنين، على التزام الشّرع المستبين

اختار القرآن هذه الصِّفات الأربع؛ لأنَّها كانت عونًا للمؤمنين في الإذن لهم بقتال مَنْ يُقاتلونهم ويُعادونهم في الدِّين وسببًا لنَصْرهم وتَمكينهم في الأرض بالمُلك والسِّيادة، يؤكِّد ذلك ما قاله اللّه تعالى في الإذن لهم بالقتال بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ﴾ [الحج: 41] فبهذه الصِّفات فتح المسلمون الفتوحاتِ ودانت لهم الأمم[1].

علّة استحضار الطَّاعة، بعد ذِكْر الفرائض السَّابقةِ:

المؤمنون مُقبِلون على ربِّهم مُطيعون لأوامره

جاء التَّعبير بقوله تعالى: ﴿وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ﴾ بعد ما سبق من الفرائض؛ لتشمل النَّوافل والمندوبات، وللدَّلالة على أنَّهم يؤدُّون هذه الفرائض بحبٍّ ورضا؛ فقلوبهم مطيعةٌ قبل جوارحهم يُنفِّذون أوامر اللّه ونواهيه دون تلكُّؤ أو تمَلمُل.

دلالة الفَصلِ في الجملة المصدّرة بقولِه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾:

مَنْ تحقَّقتْ فيهمُ الصِّفاتُ الواردةُ، فهم أهلٌ لرحمةِ اللهِ بهم

فَصَلَ البيان القرآنيُّ قولَه تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرۡحَمُهُمُ ٱللَّهُۗ﴾ عمّا سبقه، إشارةً إلى مكانةِ تلكَ الصِّفاتِ الفاضلةِ الَّتي تحلَّى بها المؤمنونَ والمؤمناتُ، ولبيانِ أنَّ تحقُّقَهم بتلكَ الصِّفاتِ يستدعي إحاطتَهم برحمةِ اللّهِ الغامرةِ وتأييدَهم بنُصرتِه ونِعَمِه الوافرة.

دلالة التَّعبيرِ باسْمِ الإشارةِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ على البعيد:

إلماح السّياق إلى علوِّ درجةِ المؤمنينَ والمؤمناتِ، بصفاتِهم في الفَضْل

في قولِه تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرۡحَمُهُمُ ٱللَّهُۗ﴾ اسْتخدمَ البيان القرآنيُّ الإشارةَ بـ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ للبعيد؛ وذلكَ لأنَّ معنَى البُعدِ فيه للإشعارِ ببُعدِ درجتِهم في الفضلِ وعُلوِّها في المنزلةِ بما اتَّصفوا به من الصِّفاتِ الجليلةِ الحميدة[2].

(1) رشيد رضا، تفسير المنار: 10/472.

(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/575.

نكتةُ دخولِ (السِّينِ)، على الفعلِ ﴿سَيَرۡحَمُهُمُ﴾:

تأكيدُ وقوعِ الرَّحمة تفضُّلًا من الله العليّ الأعلى

صُدِّرَ فعلُ الرَّحمةِ بالسِّين في قولِه تعالى: ﴿سَيَرۡحَمُهُمُ ٱللَّهُۗ﴾ لتأكيدِ حُصولِ الرَّحمةِ ووقوعِها في المستقبلِ لا مَحالة، فحرفُ الاسْتقبالِ يدلُّ على تخليص المضارع للاستقبال، ولمّا كانت الرَّحمة هنا عبارة عمّا يترتَّب على تلك الأعمال الصَّالحة من الثَّواب والعقاب في الآخرة؛ أتى بالسِّين الّتي تدلُّ على استقبال الفعل، وهى تفيدُ معَ المضارعِ ما تُفيدُ (قد) مع الماضي من التَّحقُّق، كقولِه تعالى: ﴿وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ ۝٥﴾ [الضُّحى: 5]؛ فهي رحمةٌ خاصَّة، وهي ما خبَّأه اللّهُ لهم في الآخرة[1].

فائدةُ التَّعبيرِ بالمضارعةِ في ﴿سَيَرۡحَمُهُمُ﴾:

رحمة الله بالمؤمنين والمؤمنات، متجدّدة دوما، ولا تنقطع

كما هو المعهودُ في الفعلِ المضارعِ في أنَّه يفيدُ التَّجدُّدَ والاسْتمرار، فكذلكَ هنا ما يُفيدُه الفعلُ ﴿سَيَرۡحَمُهُمُ﴾ من تجدُّدِ واسْتمرارِ الرَّحمةِ بهم من اللّهِ تعالى، وهذه الرَّحمةُ حاصلةٌ في الدُّنيا، وذلك بتآزرهم وتوادِّهم ومظلِّلَةٌ لهم في الآخرة.

سِرُّ التَّعبير بالرَّحمة دون المغفرة:

الرَّحمة تُناسب وصف الإيمان

آثر القرآنُ التَّعبير بالرَّحمة في قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرۡحَمُهُمُ ٱللَّهُۗ﴾؛ لأنَّ الرّحمة أخصُّ من المغفرة، فكلُّ رحمة من اللّه تتضمَّن المغفرة، ولأنَّ المقام هنا مع الرَّاسخين والرَّاسخات في صفة الإيمان فناسب الإيمان أن يتنزّل عليهم بالرَّحمة، ولأنَّ المغفرة تَخْلية والرَّحمة تَحْلية، فناسَب هنا مقام التَّحلية.

سِرُّ التَّعبير بلفظ الجلالة ﴿ٱللَّهُ﴾، في سيّاق الرّحمة:

لا يردّ عطاءَ الله أو يمنعه مانعٌ، فكلّ شيء بأمره وتدبيره

قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرۡحَمُهُمُ ٱللَّهُۗ﴾، عبّر القرآن الكريم بلفظ الجلالة في للدّلالة على عظمة هذه الرَّحمة وجلالها في تحقُّقها في

(1) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 2/202، وابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 3/58، وأبو حيّان، البحر المحيط: 5/71، والسَّمين الحلبيّ، الدُّرُّ المصون: 6/85، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/263.

الدُّنيا والآخرة، وفي هذا طمأنةٌ للمؤمنين والمؤمنات بأنَّ عطاء اللّه لا يمنعه مانعٌ ولا يُعارضه مُعارضٌ؛ لأنَّه صاحب العطاء.

بلاغةُ فَصْلِ قولِه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾:

نُصرة اللهِ لأوليائه على أهل الكفر والنِّفاق، وعد لا يتخلّف أبدًا

جاءَ قولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ تَذْييلا قُصِدَ منه خَتْمُ الآيةِ بما يُشيرُ إلى أنَّ الَّذينَ يُوالونَ اللّهَ وحِزبَه لا يزالونَ منصورينَ على كلِّ مُفْسِدٍ ظالمٍ مُتكبِّرٍ ما داموا على هذه الخِلالِ من الموالاةِ وما معها من حميدِ الخصال، حكيمٌ في أفعالِه وأحكامِه لا يقدِرُ أحدٌ على نَقْضِ ما يُحكِمُه، ويَحْكُمُ به، وحلِّ ما يُبرِمُه[1].

بلاغةُ الإظهارِ في موضعِ الإضمارِ، في فاصلةِ الآية:

مهابتُه تعالى، نابعة من جلال عزّته، وكمال حكمته

أفادَ إظهارُ الاسْمِ الجليلِ ﴿ٱللَّهَ﴾ دون أن يُذكَرَ بالضَّميرِ الَّذي يعودُ إليه؛ لبيانِ أنَّ الموالاةَ فقيرةٌ إلى الإعانة، ولا أحدَ قادرٌ عل على إعانةِ أوليائه إلّا اللّهُ ﷻ، وهي تفيدُ المبالغةَ في إحاطةِ اللّهِ الكاملةِ بكلِّ شيءٍ، فهو غالبٌ غيرُ مغلوب، قادرٌ على نَصْرِ مَنْ يُواليه، وفي إظهارِ لفظِ الجلالةِ ما فيه من المهابةِ، والَّذي يُضْفي على سياقِ الآيةِ جَلالَ عزَّتِه وكمالَ حكمته[2] ﷻ.

نكتةُ التَّوكيدِ بـ ﴿إِنَّ﴾ والاسْميَّةِ في الفاصلة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾:

تأكيدُ عزَّةِ اللهِ وحكمتِه ﷻ

حرفُ ﴿إِنَّ﴾ يفيدُ تأكيدَ ما يدخُلُ عليه، وخاصَّةً أنَّه - هنا - قد أُخبرَ عن لفظِ الجلالةِ باسْمَيْنِ جليلَيْنِ من أسمائه الحُسْنَى ﴿عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾؛ فاجتمعَ مؤكِّدان: الأوَّلُ: ﴿إِنَّ﴾، والثّاني: الجملةُ الاسْميَّةُ الَّتي تفيدُ التَّأكيدَ والثَّباتَ لعزَّتِه وحِكْمتِه؛ لأنَّ العزيز هو الذي لا يُمنع من مُراده في عباده من رحمة أو عقوبة، والحكيم هو المُدبِّر أمر عباده على ما تقتضيه الحكمة[3].

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 8/545.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 8/545.
(3) ابن عادل، اللُّباب: 10/144.

فائدةُ التَّذييلِ باسْمَيْنِ جليلَيْن، هما ﴿عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾:

تعليلٌ لوعدِ اللهِ برحمتِه لأوليائه، ووعيدِهِ لأعدائه

قولُه تعالى في خاتمةِ الآية: بذِكْرِ هذَيْنِ الاسْمَيْنِ الجليلَيْنِ العظيمَيْنِ تعليلٌ لجملةِ ﴿سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُۗ﴾ تعليلٌ للوَعد، أي: قويٌّ قادرٌ على إعزازِ أوليائِه وقهرِ أعدائِه، حكيمٌ يبني أحكامَه على أساسِ الحكمةِ الدَّاعيةِ إلى إيصالِ الحقوقِ من النِّعمةِ والنَّقمةِ إلى مُستحقِّيها من أهلِ الطّاعةِ وأهلِ المعصية، وهذا وعدٌ للمؤمنينَ مُتضمِّنٌ لوعيدِ المنافقين[1].

(1) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 2/202، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/575.

﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾﴾ [التَّوبة: 72]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

العلاقة بين أوصاف المؤمنين المرضيين، وجزائهم بالجنّات والرّضوان

لَمّا أعقب المنافقين والمنافقات فيما سبق بذكر عقابهم بنار جهنَّم، أعقب المؤمنين والمؤمنات بذِكْر ما وعدهم من نعيم الجنَّات؛ فقال: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾.

وأيضًا لَمَّا ذكر صفات المؤمنين والمؤمنات ورحمته لهم بالإجمال بيَّن ما وعدهم في هذه الآية من الجزاء المُفصَّل برحمته في مقابلة ما أوعد به المنافقين والكفَّار فيما سبق[1].

ومنها لَمَّا ختمَ البيانُ القرآنيُّ الآيةَ السّابقةَ بوصفِ العزَّةِ والحكمةِ المناسبِ لافْتتاحِها بالموالاةِ وتعقيبِها بآيةِ الجهاد، وذلكَ بعدَ الوعدِ بالرَّحمةِ إجمالًا، أتبعَها بما هو أشدُّ التئامًا بها بيانًا للرَّحمةِ وتفصيلًا لها، ترغيبًا للمؤمنينَ بالإنعام عليهم بكلِّ ما رامَهُ المنافقونَ بنفاقِهم في الحياةِ الدُّنيا، وزادَهم بأنَّه دائم، وأخبرَ بأنَّ ذلكَ هو الفوزُ لا غيره، وأيُّ فوزٍ أعظمُ وأَمتعُ من جنّاتِ الإقامةِ الدّائمةِ وفوقها وأعلى منها ﴿وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ فلا يسخطُ عليهم بعدَه أبدًا[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَمَسَٰكِنَ﴾: السُّكونُ: ثبوتُ الشَّيء بعد تحرُّك، ويُستعمَلُ في الاسْتيطان، نحو: سكنَ فلانٌ مكانَ كذا، أي: اسْتوطنَه، واسْمُ

(1) محمد رضا، تفسير المنار: 10/423.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 8/545.

المكان: مَسْكن، والجمعُ: مساكن، قالَ تعالى: ﴿لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمۡۚ﴾ [الأحقاف: 25]، ويُقالُ: سَكَنتُه، وأَسْكنتُه، قالَ تعالى: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي﴾ [إبراهيم: 37][1]. ومعنى قولِه تعالى: ﴿وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ﴾ أي: قصورًا ومنازلَ طيِّبةَ القَرار[2].

2) ﴿طَيِّبَةٗ﴾: طابَ الشَّيءُ يطيبُ طَيْبًا، فهو طيِّبٌ، والطَّيبُ: ضدُّ الخَبيث، قالَ تعالى: ﴿فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ [النِّساء: 3]، وأصلُ الطَّيِّب: ما تستلذُّه الحواسّ، وما تستلذُّه النَّفس، قالَ تعالى: ﴿كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ﴾ [البقرة: 172]، ومنه قولُه تعالى - هنا -: ﴿وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ﴾، أي: طاهرةً زكيَّةً مُستلذَّة[3].

3) ﴿جَنَّٰتِ عَدۡنٖۚ﴾: الجنَّةُ: كلُّ بستانٍ ذي شجَرٍ يسترُ بأشجارِه الأرض، وتُسمَّى الأشجارُ السّاترةُ: جَنَّة[4]. وعَدَنَ بمكانِ كذا: استقرَّ وأقامَ به، ومنه المَعْدِنُ: لمستقرِّ الجواهر[5]، ومنه قولُه تعالى - هنا -: ﴿فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٖۚ﴾، أي: اسْتقرارٍ وثباتٍ وإقامةٍ دائمةٍ[6].

4) ﴿ٱلۡفَوۡزُ﴾: الفَوْزُ: الظَّفَرُ بالخيرِ مع حصولِ السَّلامة، يقالُ: فازَ يفوز، إذا نَجا، وهو فائز، وفازَ بالأمر، إذا ذهبَ به وخلص، ويُقالُ لمن ظَفَرَ بخيرٍ وذهبَ به، قالَ اللّٰهُ تعالى: ﴿فَمَن زُحۡزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدۡخِلَ ٱلۡجَنَّةَ فَقَدۡ فَازَۗ﴾ [آل عمران: 185][7]، ومنه قولُه تعالى - هنا -: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ أي: دونَه كلُّ فَوْزٍ ممّا يعدُّه النّاسُ فَوْزًا[8].

المَعْنى الإجْماليُّ:

يُخبرُ اللّٰهُ تعالى في هذه الآية بما أعدَّه للمؤمنينَ والمؤمناتِ من الخيراتِ والنَّعيم المقيم في جناتٍ تجري من تحتِها الأنهارُ خالدين فيها، ومساكنَ حَسَنةَ البناءِ طيِّبةَ القَرار،

(1) الرّاغب، المفردات، ص: 417، وابن منظور، لسان العرب: (سكن).
(2) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 2/202، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 2/337.
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: 3/435، والرّاغب، المفردات، ص: 527.
(4) الرّاغب، المفردات، ص: 204، والرّازيّ، مختار الصِّحاح: (جنن).
(5) أبو عُبيدة، مجاز القرآن: 1/263 - 264.
(6) ابن جرير، جامع البيان: 10/179، والرّاغب، المفردات، ص: 553، والرّازيّ، مختار الصِّحاح: (عدن).
(7) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: 4/459، والرّاغب، المفردات، ص: 647.
(8) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 2/202، والشَّوكانيّ، فتح القدير: 2/542.

ورِضَا اللهِ عنهم أكبرُ وأجلُّ وأعظمُ ممّا هم فيه من النَّعيم، وذلكَ هو الفوزُ الَّذي لا يُضاهيه فوزٌ ويَقصُرُ عنه أيُّ فَوْز[1].

ما أعدَّه الله لعباده في الجنَّة، يُبْهِرُ العقول، ويبلغ المؤمن به منتهى السُّول

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ فصلِ هذه الآيةِ عن سابقتِها:

جملةُ قولِه تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ اسْتئنافٌ بيانيٌّ ناشئٌ عن قولِه تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ﴾ [التَّوبة: 71] وفي هذا الاستئنافِ نشوءُ وعدٍ عن وعدٍ سابقٍ مؤكِّدٍ لمكانةِ المؤمنينَ والمؤمناتِ ورفيعِ منزلتِهم عندَ اللهِ ﷻ[2].

تأكيدُ وعدِ اللهِ للمؤمنينَ والمؤمنات، بعُلُوِّ منزلتهم

بلاغةُ التَّقابُلِ بين صفات المؤمنين وصفات المنافقين:

جاءَ قولُه ﷻ: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ الآية، في مقابَلةِ قولِه تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ﴾ [التوبة: 68]، وذلكَ ترغيبًا للمؤمنينَ بكلِّ ما رامَه المنافقونَ بنفاقِهم في الحياةِ الدُّنيا، وبما سيكونُ عليه مآلُهم وحالُهم في نارِ جهنَّمَ خالدينَ فيها ولهم فيها عذابٌ مقيمٌ، في حين جاءَ الوعدُ بالرَّحمةِ بما هو أشدُّ التئامًا بها بيانًا لتلكَ الرَّحمةِ وتفصيلًا له وتحفيزًا للمؤمنينَ والمؤمناتِ ليكونوا من أهلِ هذه الرَّحمة المستحقّينَ لها الحائزينَ على نعيمِها الدَّائم[3].

ترغيبُ المؤمنينَ في رحمةِ اللهِ، وتنفيرُهم من مسالكِ النّفاق

دلالة التَّعبير بلفظ ﴿وَعَدَ﴾، في السّياق:

جاء التَّعبير القرآنيُّ بالوعد في قوله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ حثًّا لهم في الالتزام بأوامر الله ونواهيه حتى تتحقَّق لهم الرَّحمة الّتي وُعِدوا بها والنَّعيم كما ذكرته الآية.

تحفيز السَّامع على بذل الجهد، لنيل الخير النّمير، والمقام الأثير

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 2/336 - 337.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/263.
(3) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 8/545.

نكتةُ التَّعبيرِ بالفعلِ الماضي في ﴿وَعَدَ﴾:

تأكيدُ تحقُّقِ الوعدِ للمؤمنينَ والمؤمناتِ، بدخولِ الجنَّات

صُدِّرتِ الآيةُ الكريمةُ بالفعلِ الماضي ﴿وَعَدَ﴾، إمّا لأنَّه إخبارٌ عن وَعْدٍ تقدَّمَ في آيِ القرآن، قُصِدَ منه الإخبارُ والتَّذكيرُ به لتحقيقِه، وإمّا أن يكونَ قد صيغَ هذا الوعدُ بلفظِ المُضيِّ على طريقةِ صيَغِ العقود، مِثل: (بِعتُ، تصدَّقتُ) لكونِ تلكَ الصّيغةِ معهودةً في الالتزامِ الَّذي لا يتخلَّف. والأمرانِ كلاهما سائغانِ علَّةً للتَّعبيرِ بالفعلِ الماضي في ﴿وَعَدَ﴾، والنَّتيجةُ فيهما واحدةٌ وهي تحقُّقُ وَعْدِ اللّه، ووعدُ اللّهِ تعالى لا يتخلَّف[1].

دلالةُ إسناد الوعد للفظ الجلالة في السّياق:

عظمة الوعد وعلوُّ قدْره، بنسبته إلى من لا يخلف الميعاد

أُسْند الوعدُ في قوله سبحانه: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ إلى لفظ الجلالة لتأكيد عظمته؛ لأنَّه جاء من العظيم سبحانه، وأنَّه واقعٌ لا محالة لعدم تعرُّضِه للموانع الّتي تعتري فعل البشر لعجز أو لضعف، أمَّا وعد اللّه فلا يتخلَّف لقدرته وعزَّته.

دلالة التَّعبير بالاسميَّة ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾:

رسوخ صفة الإيمان فيهم، تكرمة وعلوّ

جاء التَّعبير القرآنيُّ بالجملة الاسميَّة ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ دون الفعليَّة لما تحمله من كمال الإيمان ورسوخه في قلوبهم، وثباتهم عليه. وهذا هو المناسب لهذا النَّعيم الَّذي أعدَّه اللّه لهم، أمَّا التَّعبير بـ (الذين آمنوا) فإنه يدلّ على مَنْ اتّصف بالإيمان ولو كان إيمانه قليلًا.

علّة الإظهارِ في مَوْضعِ الإضمارِ:

زيادةُ التَّقريرِ بعليَّةِ وصفِ الإيمانِ، لحصولِ متعلَّقِ الوعد

جاءَ بيانُ اللّهِ بذكرِ المؤمنينَ والمؤمنات، وكانَ يمكنُ أنْ يُقال: (وعدَهمُ اللّهُ)، فجاءَ الإظهارُ في مقامِ الإضْمارِ، لتقريرِهم في ذهنِ السّامعِ؛ ليتمكَّنَ تعلُّقُ الفعلِ بهم فَضْلَ تمكُّنٍ في ذهنِ السّامع، وليعلمَ مكانةَ المؤمنينَ والمؤمناتِ ومقامَهم عندَ اللّهِ تعالى،

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/264.

وفي ذلك زيادةُ التَّقريرِ والإشعارُ بعليَّةِ وصفِ الإيمانِ لحصولِ ما تعلَّقَ به الوعد[1].

دلالة جمع والتنكير ﴿جَنَّٰتٍ﴾:

كثرة الجِنان على حسب استحقاق العاملين

جاء التَّعبير القرآنيُّ بصيغة الجمع لكلمةِ ﴿جَنَّٰتٍ﴾ نكرةً لتُفيدَ عمومَ الجنّات، فهي مُشتملةٌ على جِنانٍ كثيرةٍ مُرتَّبةً على حَسَب اسْتحقاقاتِ العاملينَ، لكلِّ طبقةٍ منهم جنّاتٌ من تلك الجِنان[2]، فهي ليستْ جنَّةً واحدة، وإنَّما هي جنّاتٌ: جنَّةُ الفِرْدوس، وجنَّةُ عَدَن، وجنَّةُ النَّعيم، وجنَّةُ دارِ الخُلْد، وجنَّةُ المأوَى، وجنَّةُ دارِ السَّلام، وجنَّة علّيين[3].

بلاغة المجاز في إسناد الجري إلى الأنهار:

جريان النّهر صورة جميلة، تبين المتعة بالجزاء، في قمّة العطاء

أُسنِد الجري إلى الأنهار، في قوله تعالى: ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾، مع أنَّ الّذي يجري في الحقيقة هو الماء؛ لأنَّ النَّاظر إلى الماء، وهو يجري لا يرى النَّهر، ولكن يرى الماء، ولذلك اختفى النَّهر في جريان الماء، وأصبح النَّاظر لا يرى غير الماء، وهذا الإسناد من باب المجاز.

فائدةُ وصفِ الجنّات، بجريان الأنهار:

دوامُ خُضرةِ الجنّات، تأمين لدوام المتعة بها

في قولِه تعالى: ﴿جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ كنايةٌ عن دوامِ خُضرتِها، وبَهجتُها نَضِرةٌ تسُرُّ أهلَها وسُكّانَها تمامَ السُّرور وغايةَ الحُبور[4].

فائدةُ الفعل المضارعِ ﴿تَجْرِى﴾:

جريانُ الأنهارِ من تحتِ الجنّاتِ، دائمٌ لا ينقطع

دلَّ استعمال البيانِ الإلهيِّ للفعلِ المضارعِ ﴿تَجْرِى﴾ على دوامِ واسْتمرارِ جريانِ الأنهارِ من تحتِ الجنّات، وهذا يدلُّ على تمامِ

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/575، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/264.
(2) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 2/257.
(3) الرّاغب، المفردات، ص: 204.
(4) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 8/545.

النَّعيمِ ودوامِه؛ فالنَّفس لا تَملُّ ولا تسأم من رؤية الأنهار؛ لأنَّ المتعة فيها متجدِّدةٌ، وفيها إشارةٌ علميةٌ إلى أنَّ الجري للأنهار العذبة يحافِظ عليها من التَّعَفُّن.

معنَى ﴿مِن﴾ في: ﴿مِن تَحۡتِهَا﴾:

من صور مُتعة الرَّائي استحضارُ صورة جَرْي الأنهار

﴿مِن﴾ في قولِه: ﴿مِن تَحۡتِهَا﴾ ابْتدائيَّة، فهي إمّا من تحتِ أشجارِها وإمّا من تحتِ عليّاتِها، وإمّا من تحتِها بالإضافة إلى مبدأ، أي: مَبْدئِها، كما تقولُ في دارَيْنِ متجاورتَيْنِ متساويتي المكان: هذه تحت هذه، وفيها إشارة إلى تصوير حالة الرَّائي بمُتعته في استحضار صورة جَرْي الأنهار، ويمكنُ أن تكونَ ﴿مِن﴾ بيانيَّةً، أي: بيانَ وجودِ هذه الأنهار[1].

دلالة الضَّميرِ في: ﴿تَحۡتِهَا﴾:

تصوير الجنّات تقريبيّ، وحقيقتها مالا يخطر على بال

يعودُ الضَّميرُ في قولِه: ﴿تَحۡتِهَا﴾ على الجنّات أي: تجري الأنهارُ من تحتِ الجنّات، وذلكَ باعْتبارِ مجموعِها المشتَملِ على الأشجارِ والأرضِ النَّابتةِ فيها، ويجوزُ عَوْدُ الضَّميرِ إلى الجنَّاتِ باعْتبارِ الأشجار؛ ولأنَّها أهَمُّ ما في الجنَّات[2].

دلالة (أل) في لفظ ﴿ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾:

إرادةُ جميعِ أنهارِ الجنَّة، تشويقٌ لنعيمها اللّامحدود

في تعريفِ ﴿ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ بـ (أل) إفادةُ إرادةِ الجِنْس، كما تقولُ: لفلانٍ بستانٌ فيه الماءُ الجاري والتِّينُ والعِنَبُ وألوانُ الفواكه، تُشيرُ إلى الأجناس الَّتي في علمِ المخاطَب، أو يرادُ: أنهارُها، فعوَّضَ التَّعريفَ باللّامِ من تعريفِ الإضافةِ كقولِه تعالى: ﴿وَٱشۡتَعَلَ ٱلرَّأۡسُ شَيۡبٗا﴾ [مريم: 4].

أو يُشارُ باللّامِ إلى الأنهارِ المذكورةِ في قولِه تعالى: ﴿فِيهَآ أَنۡهَٰرٞ مِّن

(1) ابن عطيَّة، المُحرَّر الوجيز: 3/58.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/354.

مَّآءٍ غَيۡرِ ءَاسِنٖ وَأَنۡهَٰرٞ مِّن لَّبَنٖ لَّمۡ يَتَغَيَّرۡ طَعۡمُهُۥ﴾ [محمّد ﷺ: 15][1]؛ فتكونُ اللّامُ لامَ التَّعريفِ العَهديّ، أي: ما عُهِدَ من أنهارِ الجنَّةِ المذكورة، ويمكنُ أنْ يكونَ الدّاعي إلى التَّعريفِ هو التَّفنُّن؛ لئلّا يُعادَ التَّنكيرُ مرَّةً ثانيةً، فَخولِفَ بينَهما في اللَّفظِ اقْتناعًا بسُورَة التَّعريف[2].

فائدةُ ذِكْرِ ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾:

لَمَّا كانَ النَّعيمُ لا يكمُلُ إلّا بالدَّوام، قالَ ﷻ: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ تطمينًا لأهلِ الجنَّةِ ونُزلائها بأنَّ هذا النَّعيمَ الَّذي أقامَهم اللّهُ فيه هو نعيمٌ موصولٌ لا يَنفصِل، ودائمٌ لا يَنقطِع، وذلكَ تفريقًا بين نعيم الدُّنيا ونعيم الآخرة؛ لأنَّ نعيم الدُّنيا مُعرَّضٌ للانقطاع؛ لذلك كانَ موقعُ ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ حالًا من ﴿ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ﴾ لأصحابِ الجنَّة، مُعبِّرًا عن إقامتِهمُ الدّائمةِ فيها، لا كَرْبَ فيها ولا تَنْغيصَ من أحد[3].

نعيمُ أهلِ الجنَّةِ لا يكمُلُ إلّا بدوامِه

عَوْدُ الضَّمائرِ في: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾:

يعودُ الضَّميرُ في قولِه: ﴿خَٰلِدِينَ﴾ إلى المؤمنينَ والمؤمنات، ويعودُ الضَّميرُ في قولِه: ﴿فِيهَا﴾ إلى الجنّات، أي: المؤمنونَ والمؤمناتُ خالدون في جنّاتٍ تجري من تحتِها الأنهار.

المؤمنونَ والمؤمناتُ، يُتمُّ اللهُ عليهم النّعمة بالخلود في الجنّات

معنَى الظَّرفيَّة (في)، في هذا الموضع:

أفادَ حرفُ (في) معنَى الظَّرفيَّةِ المكانيَّة، بدليلِ ما تَقدَّمَه من ذكرِ الموضعِ وهو: ﴿جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾، وهذا دليلٌ على تمكُّنهم من النَّعيم وتمكُّن النَّعيم منهم كتَمَكُّنِ الظَّرف في المظروف.

الظَّرفيَّة مكانيَّةٌ، وهي داخلُ الجنّات

فائدةُ عَطْفِ جملة ﴿وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ﴾، على الجنَّات:

عطفَ بيانُ اللّهِ قولَه: ﴿وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٖۚ﴾ على

(1) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 2/259.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/355.
(3) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 8/545، ودرويش، إعراب القرآن وبيانه: 4/134.

في الجنّاتِ قصورٌ ومساكنُ طيِّبة، تزيد في المتعة بالجنّة

قولِه: ﴿جَنَّٰتِ﴾ للدَّلالةِ على أنَّ للمؤمنينَ والمؤمناتِ في الجنّاتِ قصورًا ومساكنَ طيِّبةً[1]، وفي هذا إشارة إلى أنَّ هذا العطف يُفيد أنَّ ذِكْر الجنَّات بما فيها من جَرْي الأنهار والخضرة للرفاهيَّة، أمَّا المساكن فتأتي للخصوصيَّة؛ فكأنَّ الآية تشير إلى أنَّ المؤمن له في الجنَّة مكان رفاهيَّة، ومكان سكنٍ خاصٍّ يأوي إليه.

نكتةُ تنكيرِ ﴿وَمَسَٰكِنَ﴾، وجمعِها:

الدَّلالةُ على عمومِ وتنوُّعِ المساكن، في جنّات الله العامرة

جاءَ التَّنكيرُ والجمعُ في ﴿وَمَسَٰكِنَ﴾ للدَّلالةِ على عُمومِها وكثرتِها وتنوُّعِها؛ فهي قصورٌ ومنازلُ ودورٌ من اللُّؤلؤِ والزَّبرجَدِ والياقوتِ الأحمر[2].

فائدةُ وصفِ المساكنِ بأنَّها طيِّبةٌ:

مساكنُ الجنَّةِ تستطيبُها النُّفوس، ليس فيها خُبْثٌ ولا نَجَسٌ

وصفَ بيانُ اللهِ مساكنَ الجنَّةِ بأنَّها طيِّبةٌ فقالَ تعالى: ﴿وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً﴾ للدَّلالةِ على أنَّ منازلَها تستطيبُها النُّفوس، ويَطيبُ فيها العيش، وليس فيها شيءٌ من خُبْثِ المساكنِ من الأوْساخِ وآثارِ علاجِ الطَّبخِ ونحوِه، نَظير قولِه تعالى: ﴿وَلَهُمۡ فِيهَآ أَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞۖ﴾ [البقرة: 25][3].

دلالة إعادة ﴿جَنَّٰتِ عَدۡنٖۚ﴾:

التَّفنُّنُ بالتَّعبيرِ والتَّنويهِ بالجنّات، وبيانُ شأنِها العظيم

ذَكرَ بيانُ اللهِ ﴿فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٖۚ﴾ بهذا اللَّفظِ من الإظهارِ في مقامِ الإضْمارِ؛ إذْ تقدَّمَ ذِكرُها من قبلُ مع التَّفنُّنِ في التَّعبيرِ

---

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/464.

(2) أبو السُّعود، الإرشاد: 2/577، وورد في حديث رسولِ اللهِ ﷺ ما يدلُّ على ذلك بما رواه أبو هريرة وعمرانُ بن حُصَين عن رسولِ اللهِ ﷺ أنَّهما قالا: سألنا رسولَ الله ﷺ عن ذلك، أي: عن قوله تعالى: ﴿وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٖۚ﴾ [التوبة: 72] فقال ﷺ: «قصرٌ في الجنَّةِ من لؤلؤةٍ فيه سبعون دارًا من ياقوتةٍ حمراء، في كلِّ دارٍ سبعون بيتًا من زُبَرْجَدَةٍ خضراء، في كلِّ بيتٍ سبعون سريرًا، على كلِّ سريرٍ سبعون فراشًا من كلِّ لون...» الحديث، أخرجه ابن المبارك في الزُّهد، ص: 550، والطَّبرانيّ في المعجم الكبير: 18/160، الحديث رقم: (353)، وأورده المنذريّ في التَّرغيب والتَّرهيب: 4/285، وقال الهيثميّ في مجمع الزَّوائد: 7/31، وفيه جِسر بن فرقد، وهو ضعيف، وقد وثَّقه سعيد بن عامر، وبقيَّةُ رجال الطَّبرانيِّ ثقات.

(3) أبو السُّعود، الإرشاد: 2/577، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/264.

والتَّنويهِ بالجنّات، وزيادةِ الاهْتمامِ بها لشأنِها العظيمِ ومُقامِها الكريم، ولذلك لم يَقُل: (ومساكنَ طيِّبةً فيها)[1].

نكتةُ إضافةِ الجنّاتِ إلى ﴿عَدۡنٖ﴾:

أضافَ بيانُ اللّهِ الجنّاتِ إلى ﴿عَدۡنٖ﴾ فقالَ تعالى: ﴿جَنَّٰتِ عَدۡنٖ﴾. وهذه الإضافةُ تدلُّ على أنَّ هذه الجنّاتِ هي دارُ الخُلدِ والاسْتقرارِ المستمرِّ مع صحَّةِ البدن وطيبِ المَقرِّ والموطنِ والمَنبت[2].

الجنّات خُلودٌ دائمٌ لا ينقطع، ونعمة مستقرّة لا تنتهي

فائدةُ العطفِ في قولِه تعالى: ﴿وَرِضۡوَٰنٞ﴾:

عطفَ بيانُ اللّهِ تعالى: ﴿وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۚ﴾ على قولِه تعالى في صدرِ الآية: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ﴾؛ لبيان أنَّه كما وعدَ اللّهُ المؤمنينَ والمؤمناتِ جنّاتٍ تجري من تحتِها الأنهار، كذلك وعدَهم رضوانًا منه ﷻ، فهو وعدٌ بوعدَيْن[3].

الجمع بين الحُسْنَيَيْن، من إغداق المنعم على أهل الجنّة

نكتةُ العُدولِ الإعرابيِّ في لفظ ﴿وَرِضۡوَٰنٞ﴾:

جاءَ قولُه تعالى: ﴿وَرِضۡوَٰنٞ﴾ بالرَّفعِ وحقُّه النَّصب؛ لأنَّه معطوفٌ على ﴿جَنَّٰتِ﴾ الَّذي هو مفعولٌ به مبتدأ، وساغَ الابْتداءُ به؛ لأنَّه وُصِفَ بقولِه: ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ و﴿أَكۡبَرُۚ﴾: خبرُه، ولم يَسلُكه في نظامِ الموعودِ به؛ لأنَّه متحقِّقٌ في ضمنِ كلِّ موعودٍ، ولأنَّه قُصارَى ما ترقَى إليه آمالُ النُّفوس[4].

الرِّضوان قُصارَى ما ترقَى إليه آمالُ النُّفوس

نكتةُ تنكيرِ ﴿وَرِضۡوَٰنٞ﴾:

تنكيرُ قولِه تعالى: ﴿وَرِضۡوَٰنٞ﴾ للتَّنويع، يدُلُّ على جِنْسِ الرِّضوان، وإنَّما لم يُقْرَنْ بلامِ تعريفِ الجِنْسِ ليُتوَسَّلَ بالتَّنكيرِ إلى الإشعارِ بالتَّعظيم، فإنَّ رضوانَ اللّهِ تعالى عظيم[5].

تعظيمُ رِضوانِ اللهِ، من حيث أنّه الرّضوان على الحقيقة

(1) الشَّوكانيّ، فتح القدير: 2/542، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/264.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 8/546، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/264.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/264.
(4) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 4/134.
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/264.

دلالة ﴿مِّنَ﴾ في: ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾:

إنَّ شيئًا يسيرًا من رضوانٍ، أكبرُ من نعيم الجِنان كلّه

﴿مِّنَ﴾ في قولِه تعالى: ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ ابتدائيَّةٌ بيانيَّةٌ، فمبدأُ الرِّضوانِ من اللّهِ، وبيانٌ أنَّ شيئًا يسيرًا من رضوانٍ أكبرُ من ذلك كلِّه؛ لأنَّ رضاهُ تعالى هو سببُ كلِّ فَوْزٍ وسعادة؛ ولأنَّهم ينالونَ برضاهُ عنهم تعظيمَه وكرامتَه، والكرامةُ أكبرُ أصنافِ الثَّواب، ولأنَّ العبدَ إذا علمَ أنَّ مولاهُ راضٍ عنه، فهو أكبرُ في نفسِه ممّا وراءه من النِّعم، وإنَّما تتهنَّأُ له هذه النِّعمُ برضاهُ ﷻ [1].

نكتةُ إظهارِ لفظِ الجلالةِ (الله) في موضعِ إضمارِه:

المقامُ مَقامُ تشريفٍ وتكريم

أظهرَ بيانُ اللّهِ لفظَ الجلالةِ الكريمِ (اللّه) بقولِه: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ وكانَ يمكنُ إضمارُه فيقولُ: ورضوانٌ منه أكبر؛ وذلكَ لأنَّ المقامَ هنا مَقامُ تشريفٍ وتكريمٍ وتعظيم، واللّهُ ﷻ هو أصلُ الخيرات، ورضوانُه أعظمُ وأكرمُ وأشرفُ مَطْلبٍ ومَنال.

نكتةُ حذفِ متعلَّقِ ﴿أَكْبَرُ﴾:

متعلَّقُ (أكبر) ظاهرٌ من المقام، فهو أكبرُ من الجنّات

قولُه تعالى: ﴿أَكْبَرُ﴾ تفضيلٌ لم يُذكرْ معه المفضَّلُ عليه لظُهورِه من المَقام، أي: أكبرُ من الجنّات؛ لأنَّ رضوانَ اللّهِ أصلٌ لجميع الخيرات، ولا شيء من النِّعم وإنْ جلَّتْ وعَظُمتْ يماثلُ رضوانَ اللّه، وفيه دليلٌ جَليٌّ على أنَّ السَّعاداتِ الرُّوحانيَّةَ أَعْلَى وأَشْرفُ من الجُثمانيَّة[2].

نكتةُ فَصلِ: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾:

تقريرُ ما تقدَّمَ في سياقِ الآية، وتأكيدُه

جاءَ فصلُ: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ لتقريرِ ما تقدَّمَه وتأكيدِه

---

(1) الزَّمخشري، الكشّاف: 2/202، وأبو السُّعود، الإرشاد: 2/577، وأخرج البخاريُّ ومسلم رحمهما الله من حديث أبي سعيد الخدريّ ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ اللهَ يقول لأهل الجنَّة: يا أهل الجنَّة، فيقولون: لبَّيكَ ربَّنا وسَعْدَيْك والخيرُ في يَديْك، فيقول: هل رضيتم؟ فيقولون: ما لنا لا نرضَى وقد أعطيتنا ما لم تُعطِ أحدًا من خَلْقك، فيقول: ألا أعطيكم أفضل من ذلك؟ قالوا: يا ربَّنا وأيُّ شيءٍ أفضل من ذلك؟ قال: أُحلُّ عليكم رضواني، فلا أسخط عليكم بعده أبدًا»، يُنظر: صحيح البخاريّ: الحديث رقم: (7518)، وصحيح مسلم: 9/2829.

(2) الشَّوكانيّ، فتح القدير: 2/542، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/265.

من أنَّه هو الفوزُ العظيمُ لا غيرُه، والخَتْمُ بهذا التَّقريرِ للتَّشويقِ إلى القيامِ بما يُحقِّقُ هذا الفوزَ العظيم، وفيه ترغيبٌ في الجهادِ المأمورِ به بعدَها؛ لكونِه من أفرادِ الأمرِ بالمعروفِ والنَّهيِ عن المنكر، والدّاعيَ الأَعْظمَ إلى الموالاة، ودخولِ الجنّاتِ والفوزِ بالرِّضوان[1].

دلالة التَّعبير باسْمِ الإشارةِ ﴿ذَٰلِكَ﴾:

تفخيم النَّعيم وتعظيمه، من مقاصد المعنى هنا

﴿ذَٰلِكَ﴾ في قولِه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ إشارةٌ إلى جميعِ ما ذُكِرَ من الجنّاتِ والمساكنِ وصفاتِهما والرِّضوانِ الإلهيّ، وما فيه من معنَى البُعدِ؛ للإيذانِ ببُعدِ درجتِه في العِظَمِ والفخامة[2]. وعلوِّ مكانته، وارتفاع درجته.

بلاغةُ القَصْرِ في فاصلةِ الآية:

الفَوْزُ العظيم لا فوز بعده

وردَ القَصْرُ في فاصلةِ الآيةِ الكريمةِ بضميرِ الفصلِ ﴿هُوَ﴾ وتعريفِ طرفي الجملةِ بـ ﴿ذَٰلِكَ﴾، و(أل) التَّعريف في ﴿ٱلْفَوْزُ﴾ و﴿ٱلْعَظِيمُ﴾، فكانتْ هذه الأركانُ كلُّها محقِّقةً لمفهومِ القَصْرِ ومعناه؛ وهو قصرٌ حقيقيٌّ باعْتبارِ وَصْفِ الفَوْزِ بعظيم[3]، والمعنى: لا فوز للمؤمنين والمؤمنات أعظم من هذا الفوز.

دلالة وَصْفِ الفَوْزِ بالعظَيم:

بيان أنّ الفوز، يقصُرُ أمامَه كلُّ فَوْزٍ ويُسْتَصْغَر

جاءَ وصفُ الفَوْزِ بأنَّه عظيمٌ في قولِه تعالى: ﴿ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ لبيانِ أنَّه وحدَه هو الفَوْزُ دون ما يعدُّه النّاسُ فَوْزًا من حظوظِ الدُّنيا الَّتي تُسْتَصغَرُ أمامَه، وتهونُ في كلِّ شيءٍ من أمورِها مُقابلَ عَظَمتِه وجليلِ شَأْنِه[4].

ولمّا كان رضوان اللّه تعالى هو قِمَّة الفوز الَّذي لا فوز غيره ناسبه التَّعبير بقوله: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾؛ بخلاف وصف

(1) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 2/202، والبقاعيّ، نظم الدُّرر: 8/546.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 8/546، وأبو السُّعود، الإرشاد: 2/577.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/265.
(4) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 2/202، والبقاعيّ، نظم الدُّرر: 8/546.

الفوز بالكبير الَّذي جاء في سورة البروج بقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡكَبِيرُ ١١﴾ [البروج: 11] فإنَّه جاء مناسبًا لقصَّة أصحاب الأخدود الَّذين حشروا المؤمنين والمؤمنات في حفرة ضيِّقة صغيرة؛ فناسَبَ التَّعبير أن يوسِّع اللّٰه عليهم في الجنَّات بالفوز الكبير مناسبة للحفرة الضَّيِّقة.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٣﴾﴾ [التوبة: 73]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الأَمْرُ بِصدِّ أهلِ الكُفْرِ والنِّفاق عن الاعتداء وزرع الشِّقاق

لمّا حفَّز اللّهُ سُبحانَهُ المؤمنينَ على موالاةِ بعضِهم بعضًا، وذكر ما أعدَّ لهم من جنَّات ورضوان وفوز، وأقرَّ ذلك في آياته البليغة، في مثل قولِهِ تعالَى: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ﴾ [التوبة: 71]؛ أعطى للمؤمنين حقَّ الدِّفاعِ عن أنفسهم، ودفْعِ صولةِ من يجتاح بلادهم، أو يمسُّ مقدَّساتهم، أو يعتدي على حرماتهم، على نحو ما تقرُّه مواثيقُ العلاقات الإنسانيَّة، في الجمع بين التَّعايش الإيجابيِّ من جهة، والمحافظة على كيان الأمَّة واحترام قيمها وسيادتها من جهة أخرى، وذلك بالأمر الإلهيِّ، بأن يدفع النَّبيُّ والمؤمنون معه الاعتداءَ الجائر، والاكتساح الغادر، باتِّخاذ ما يلزم من طُرق المجاهدةِ الشَّريفة، والدِّفاع عن الدِّيار، والذَّود عن الغمار، بما يقتضيه ذلك من قوَّةٍ ماديَّة أو معنويَّة، تحفظ للأمَّةِ هيبتَها، وللدِّين وقارَهُ، دون عدوان ولا هوان، ممَّا يتناسب مع سماحة الإسلام وعزَّتِهِ، وذلك منهجٌ فريدٌ في حفظ العلاقات، وصدِّ الاعتداءات، بعيدًا عن الظُّلم المشين، وتحسُّبًا للعدوان الجائر المهين.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿جَٰهِدِ﴾: الجيمُ والهاءُ والدَّالُ تَدُلُّ تَصريفاتُهُ على المشقَّة[1]، ويأتي بِمَعْنى الطَّاقةِ والوُسْعِ[2]، والمُجاهَدَةُ تُطلَقُ في الشَّرْعِ على استِفْراغ الوُسع في مُدافَعَةِ العَدوِّ، وهو ثلاثةُ أضربٍ: مجاهدةُ العدوِّ

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (جهد).
(2) الرّاغب، مفردات ألفاظ القرآن: (جهد).

الظَّاهِرِ، ومُجاهَدَةُ الشَّيطان، ومجاهدةُ النَّفس[1]. وغالبُ مُراداتِ الشَّرع في الجهادِ: أنَّهُ محاربةُ أهل الكفر والعدوان، وسُمِّيَ بذلكَ؛ لِما فيهِ مِنِ استِفْراغِ ما في الوُسع والطَّاقةِ من قولٍ أو فعلٍ[2]، ولِما في ذلك مِنَ المشقَّةِ على النُّفوس، ومادَّة (جَهَدَ) حيثما وُجِدت، ففيها معنى المبالغةِ[3]، وهو في الشَّرع: عبارةٌ عن قتال من يمثِّل خطرًا على الأمَّةِ، أو يبادرها باعتداء، أو يضطرُّها لدفع صولته، أو اتِّقاء بأسه، وذلك لنصرة الدِّين، وحماية بيضةِ المسلمين، وفي الحديث: «لا هجرةَ بعد الفتح، ولكنْ جهادٌ ونيَّةٌ، وَإِذا اسْتُنْفِرْتُمْ؛ فانْفِروا»[4]، والمراد بالنِّيَّة: إخلاصُ العمل للّه تعالى[5]، وقولهم: جاهدَ في سبيل اللّه: جادَ بنفسه، قال تعالى: ﴿يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖۚ﴾ [المائدة: 54]، ومجاهدةُ النَّفس: جهادٌ روحيٌّ للنَّفس بفطامِها عن الشَّهوات، والرِّضا بمشيئة اللّه ربِّ الأرض والسَّماوات[6]، والغاية هي إصلاحُ المجتمعات، وردع النَّزوات، وكفُّ الاعتداءات، وتحقيقُ العدل والمساواة، وحمايةُ القيم والمعتقدات.

2) ﴿وَٱغۡلُظۡ﴾: الغَيْنُ واللَّامُ والظَّاءُ تدلُّ اشْتِقاقاتُها على عِظَمِ الجِرْمِ وتَجَسُّمِه معَ صَلابَةٍ، ويدلُّ لازِمُهُ علَى الشِّدَّةِ والقوَّةِ[7]. وأَصْلُ الغِلْظَةِ اسْتِعْمالُها في الأَجْسام، وقَدْ تُسْتَعْمَلُ لِلمَعاني، كقَوْلِ اللّهِ سُبحانَهُ: ﴿وَلۡيَجِدُواْ فِيكُمۡ غِلۡظَةٗۚ﴾ [التّوبة: 123]، أي: خُشونَةً[8]، والغِلْظَةُ في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡۚ﴾، هي الشِّدَّةُ البالِغَةُ مَعَ الحِدَّةِ[9]، ونقل ابنُ سيده قولهم: أغلظَ له في القول: خشَّنَ، وهو مجاز، ولا يقال فيه: غَلَّظ[10]، وأغلظ لفلانٍ في القول: خاطبه بعبارات جافَّةٍ وقاسيَةٍ، وغليظٌ جمعُه غِلاظٌ، وهو القاسي الشَّديد، قال تعالى: ﴿وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَۖ﴾ [آل عمران: 159]، فالأصلُ اللِّين وخفضُ الجناح، من رسول الرَّحمة والسَّماح، ولا شدَّةَ إلَّا مع المفسدين، قال الشَّاعر:

---

(1) الرّاغب، مفردات ألفاظ القرآن: (جهد).
(2) ابن الأثير، النِّهاية في غريب الحديث والأثر: (جهد).
(3) شمس الدّين البعليّ، المطلع على ألفاظ المقنع، ص: 247.
(4) الحديث رواه البخاريّ، برقم: (2783)، وذكر أحمد بن حنبل مطلعه بدون زيادة العبارة آخره، يُنظر: المسند: 17/258.
(5) الزَّبيديّ، تاج العروس: (جهد).
(6) أحمد مختار عمر، معجم اللغة العربية المعاصرة: (جهد).
(7) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (غلظ).
(8) الرّاغب، المفردات: (غلظ).
(9) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصل: (غلظ).
(10) الزَّبيديّ، تاج العروس: (غلظ).

وَما هوَ إلَّا الوَحْيُ أَوْ حَدُّ مُرْهَفٍ *** تُميلُ ضُبَاهُ أَخْدَعَيْ كُلِّ مائِلِ
فَهذا دَواءُ الدَّاءِ مِنْ كُلِّ عالِمٍ *** وذاك دَواءُ الدَّاءِ مِنْ كُلِّ جاهِلِ[1]

3) ﴿وَمَأْوَىٰهُمْ﴾: الهَمْزَةُ والواوُ والياءُ تَدورُ تصريفاتُها على مَعْنَيَيْنِ؛ هُما: التَّجمُّع، والإشْفاقُ[2]، ومِنَ الأوَّلِ: التَّأوِّي؛ وهو التَّجمُّع، وقولُ العربِ: تأوَّتِ الطَّيرُ؛ إذا انضمَّ بعضُها إلَى بعضٍ[3].

والمَأْوى: المكانُ الذي يُنْصَرَفُ إليه، ويُقامُ فيه[4]، ليلًا أو نهارًا، وقد أوى فلان إلى منزله يأوي أُوِيًّا، على فُعُولٍ، وإواءً، ومنه قوله تعالى: ﴿قَالَ سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٖ يَعۡصِمُنِي مِنَ ٱلۡمَآءِۚ﴾ [هود: 43][5]، وَمِنْه قَوْلُهُ ﷺ للأَنْصار: «أُبايعكُم على أَن تُؤوني وتنصروني»[6]، وَقولُ اللهِ ﷻ: ﴿وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ﴾، أَيْ: مَساكِنُهُم فيها، يَأْوونَ إِلَيْها، ويَرْجِعونَ يَوْمَ القيامَةِ[7].

المَعْنى الإجْماليُّ:

بَيانُ حُكْمِ المنكرين والمخاتلين في الدُّنْيا، ومآلِهِم المخزي في الآخِرَةِ

يوجِّهُ السِّياقُ الأمرَ إلى النَّبيِّ الكَريم ﷺ، بأن يحميَ حمى الدِّين، وأن يذبَّ عن أكناف الأمَّةِ، فيواجهَ من يضرُّ بالكيان، ويصدَّ من يريد هدْمَ الأركان، من الكفَرَةِ الجاحدين، وأهل النِّفاق المتآمرين، بكلِّ وسائل الرَّدعِ المتاحة له، بالمواجهة والسِّنان، وبالمحاجَجَةِ والبرهان، ليمنعَ عدوان هؤلاء، ويحصِّنَ الأمَّة من سموم أولئك في حزمٍ زاجر، وخطاب قاهرٍ، يحولُ بينهم وبين ما يسعَون إليه من مفاسدَ ماحقةٍ، أو ضلالات ساحقة، علمًا بأنَّهم سيؤولون إلى مأوًى

(1) البيتان لأبي تمَّام من قصيدته في مدح المعتصم، الدّيوان: 3/79، والتي مطلعها:
غَدا المُلْكُ مَعْمور الحِمَى والمنازلِ *** مُنَوَّرَ وَحْفِ الرَّوْضِ عَذْبَ المَناهِلِ
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (أوى).
(3) الخليل بن أحمد، العين: (أوى).
(4) ابن أبي نصر الحُميديّ، تفسير غريب ما في الصَّحيحين، ص: 266.
(5) الجوهريّ، الصّحاح: (أوا).
(6) الزّمخشريّ، الفائق في غريب الحديث والأثر: 1/64.
(7) ابن جرير، جامع البيان: 14/360.

في الآخرة بئيسٍ، وإلى مصير في النَّار تعيسٍ، ليُعذَّبوا فيها أبدًا، ولا يظلم ربُّك أحدًا.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

عِلَّةُ فَصْلِ الآية عَمّا قَبْلَهَا:

الانتقالُ من بَيانِ ولاية أَهْلِ الإيمانِ إلى التَّحفيز عَلى مدافعة أهل الكفران

فُصِلَ قولُ اللّه ﷻ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ عَمَّا قَبْلَهُ؛ لوقوعه استئنافًا ابتدائيًّا؛ إذ المَقْصودُ مِنْهُ الإقبالُ على خطاب النَّبيِّ ﷺ بأَمْرٍ يتعلَّقُ بأحْوال الكفَّار والمنافِقينَ بَعْدَ أَن كانَ الكلامُ عَن ولاية أَهْلِ الإيمان بَعْضِهِم بَعْضًا، وما وعدهم اللّهُ تعالَى به من الجَزاءِ، وقد كان الفصل أيضًا، لعلَّةِ الإشعار بأهمِّيَّة هذه المواجهة بين الكفرِ والفسقِ والنِّفاق من جهةٍ، وبين الإيمان والالتزام بفضائل الأخلاق من جهةٍ أخرى، فجاء السِّياق ليفصلَ بين الحالين، ويستأنفَ الكلام بما يقتضيه المقام.

نُكْتَةُ النِّداءِ بـ (يا) في: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾:

عَظَمَةُ اللهِ ﷻ، تتجلَّى في عظَمة خطابه لأوليائه وأعدائه

جاء التَّعبيرُ في النِّداء بـ (يا) في قولِ اللّهِ سُبحانَهُ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾، وهيَ في الأصل لِنداء البَعيدِ، ونداءُ اللّه ﷻ لرُسله وأنبيائِه، نِداءٌ مِنَ الخالق إلَى المَخْلوقينَ، فقَمِنٌ أن يكونَ بأداةِ النِّداء المكرَّسة للبعيد، وَفي التَّعبير بها نِكاتٌ: أولها: بُعْدُ ما بَيْنَ الخالِقِ والمخلوق مِنَ المَكانةِ. وثانيها: أنَّه نِداء من الخالق سُبحانَهُ، وهو مُقْتَضٍ أعلى العلوِّ. وثالِثُها: عِظَمُ شَأْنِ موضوع النِّداء؛ وهو الكلامُ عن جِهادِ المُنابِذينَ لشرع اللّهِ تعالى المُعادينَ إيَّاهُ، فإنَّ لَهُ شأنًا خَطيرًا، واهتمامًا جديرًا، علمًا بأنَّ نداءَ اللّه لنبيِّه وحيٌ يوحى، وأحكامٌ تشرَّعُ، وتبيانٌ منه تعالى لما تقتضيه العبوديَّةُ للّه، من التزامٍ بأحكامه، وتطبيق لمراده في التَّعامل مع المؤالفِ والمخالف، لضمان استقرار المجتمع الإسلاميِّ وتوازنه في العلاقات الدَّاخليَّة والخارجيَّة.

سِرُّ النِّداءِ بِـ ﴿يَـٰٓأَيُّهَا﴾:

مُضاعَفَةُ التَّنْبيهِ إيماءٌ إلى عَظَمَةِ مضمون النِّداءِ وأَهَمِّيَّتِهِ

في قولِ اللّهِ تَعالَى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ﴾، نجدُ النِّداء قد جاء متميِّزًا بقوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا﴾ مصدَّرة لسياق الآية الكريمة، وبها افتُتحت الجملة، وفي ذَلكَ ضَرْبٌ مِن تَقْوِيةِ النِّداءِ، وَوَجْهُ ذلكَ: أنَّ لفظ (أَيّ)، تُعربُ منادًى نكرة مقصودة، وهو مبنيٌّ على الضَّمِّ، في محلِّ نصبٍ، ولا يُفْهَمُ المرادُ بها إلَّا باسم بعَدَها يُزيلُ غُموضَها، ويكون بدلًا من (أيُّ)، أو عطفَ بيان يتبعه في الرَّفع لفظًا، وفي هذا انتقالٌ مِنَ الإبْهام إلى الإيضاح والبَيانِ، وذلكَ ضربٌ مِنْ ضُروبِ التَّوكيدِ، وفي اقترانِ (أَيّ) بِـ (ها) التَّنبيهِ: زيادةٌ في التَّوكيدِ؛ إذِ النِّداءُ في الأَصْلِ يُرادُ به التَّنبيهُ، فاجتمَعَ في هذا النِّداءِ الخاصِّ تَنْبيهانِ؛ إيماءً إلى عَظَمَةِ مضمونِهِ وكبيرِ أهمِّيَّتِهِ.

سِرُّ النِّداءِ بِالوَصْفِ دونَ الاسم: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ﴾:

بيانُ جلالِ قَدْرِ النَّبيِّ ﷺ عِنْدَ رَبِّهِ الرَّحمن

مِن طرائقِ القُرآن الكريم في نداء النَّبيِّ ﷺ: أن يُنادَى بالوَصْف لا بالاسم، فلَم يَرِد في النَّظْم القرآنيِّ قطُّ: (يا مُحَمَّدُ)، وإنَّما يَرِدُ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ﴾، و﴿۞يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ﴾ [المائدة: 41]، وذلكَ لبيانِ رفعَةِ قَدْرِ النَّبيِّ ﷺ عند ربِّهِ سُبْحانَهُ، وبيانِ عَظيم كرامَتِهِ عنده[1]، وفيهِ أَيْضًا تَعْليمُ العبادِ الأدبَ معَهُ ﷺ، وقد ذكر علماءُ الشَّمائل: أنَّ نداء النَّبيِّ بالصِّفة دون الاسم، تأكيدٌ على أنَّه مخلوق أزلًا لمهمَّة البلاغ عن اللّه، وقد كان مخصوصًا بأنَّه آخرُ أُذُنٍ استمعت إلى وحي اللّه بالحقِّ، ولسانُ الصِّدق الَّذي بلَّغ عن الحقِّ مراده من الخلق، بينما نُوديَ الرُّسل بأسمائهم، فقيل: ﴿يَـٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ﴾ [البقرة: 35]، وقيل: ﴿يَـٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَـٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَـٰتٍ عَلَيْكَ﴾ [هود: 48]، وقيل: ﴿وَنَـٰدَيْنَـٰهُ أَن يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ﴾، [الصَّافات: 104 - 105]، وقيل: ﴿يَـٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ

(1) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 9/5328.

﴿١٠﴾ [النّمل: 10]، وقيل: ﴿يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ [آل عمران: 55].. وهكذا دواليك.

نُكْتَةُ وَصْفِ النَّبيِّ بالنُّبوَّةِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾:

التَّرْغيبُ في التَّلَقِّي مِنَ النَّبيِّ الرَّسول لإنبائهِ بِكُلِّ مَعْنًى جَليلٍ

في قولِهِ سُبحانَهُ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾، وصْفُ بالنُّبوَّةِ دون الرِّسالة، معَ تحقيقِ الوصفَيْنِ لِمقصد بَيانِ منزلة النَّبيِّ ﷺ الرَّفيعَةِ؛ لكون لفظ النُّبوَّةِ مُشْعِرًا بأنَّه ﷺ مُنْبَأٌ من اللّه سُبحانَهُ، وفي هذا إيماءٌ إلى التَّرغيبِ في التَّلقِّي منه ﷺ؛ إذْ إنَّ اللّهَ سُبحانَهُ، قد أنبأه بكلِّ جليلٍ من المعاني، فمعنى قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾: أيُّها العالي المكانَةِ بما لا يزالُ يتجَدَّدُ لَهُ من اللّه سُبحانَهُ من الأنباء والمعارف الإيمانيَّةِ[1]، وهو يمتاز مع ثلَّةٍ من الرُّسلِ الَّذين جمعوا بين النُّبوَّةِ والرِّسالة، بأفضليَّةٍ ومكانة، تتناسب مع عظم المهمَّة المنسوبة إليه، والَّتي تحمَّلها بجدارة ومهارة، ونجح في المواءمة بين الصِّفتين، وهما صفتا كمالٍ وجلال، تؤهِّلانه للاصطفاء والشَّفاعة، وقد قيل: (كلُّ رسول نبيٌّ، وليس كلُّ نبيٍّ رسولًا).

دِلالَةُ (ال) في لفظ ﴿ٱلنَّبِيُّ﴾:

تفرُّدُ النَّبيِّ مُحَمَّدٍ بِالنُّبوَّةِ وَقْتَ النُّزولِ، مُغْنٍ عَنْ تَعْيينِ اسمه المنقول

في قولِ اللّه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾، نجد اللَّامَ في ﴿ٱلنَّبِيُّ﴾ مِنَ الآية الكريمة، دالَّا على العهد العلميِّ، والمرادُ بِهِ النَّبيُّ مُحَمَّدٌ ﷺ، ويجوزُ أن تَكونَ اللَّامُ للعهد الحضوريِّ، أي: النَّبيُّ الحاضِرُ وقت نزولِ هذا الخِطابِ، ومن المعلوم أَنْ لا نَبيَّ في الأرضِ حيٌّ وقتَ نُزولِ هذا الخِطاب إلَّا محمَّدٌ ﷺ، والوجهان متآيلان.

دِلالَةُ تَخْصيصِ النَّبيِّ بِالخِطابِ:

في قولِ اللّه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾: خُصِّصَ النَّبيُّ ﷺ بالخطاب؛ لكونه قائدَ الأمَّةِ، ومبلِّغَ شَرْعِ اللّه تعالى إليها، وإلَّا فإنَّ أمَّتَهُ مِن بَعْدِهِ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/547.

داخلةٌ في هذا[1]، ويكون الأَمْرُ في قوله سُبْحانَهُ: ﴿جَٰهِدِ﴾ مرادًا به العُمومُ؛ لخُروجِ ضمير الخطاب المُسْتَتِر عن أصله في الدِّلالَةِ علَى المُعَيَّن إِلَى إرادَةِ العُموم علَى سبيل البَدَليَّةِ لا على سبيل التَّناوُلِ، دَفْعَةً واحِدَةً، ولا حاجَةَ - على هذا - إلى تَقْديرِ مَحْذوفٍ، وهوَ: جاهِدْ بالمُؤْمِنينَ الكُفَّارَ[2]؛ لإغناء التَّوجيه السَّابق عنه من غير افتقارِهِ إِلَى هذا المَحْذوفِ، لا سيَّما وأنَّ دَعْوى الحَذْفِ علَى خِلافِ الأَصْلِ، ناهيك عن كون الصِّراع مع فئتَي الكفر والنِّفاق، هو صراع خطير وكبير، يقتضي تضافرَ الجهود، وتجميع طاقات الأمَّةِ، لتحقيق مراد اللّه في استئصال شأفةِ المرض العقديِّ المستشري في المجتمع المسلم، والَّذي يجب أن يعالجَ ابتداءً بالدَّعوة والحوار، وتقديم طرائقِ الإقناع، فإذا انسدَّتِ الأبوابُ، وكَبُرَ الخطرُ، وتعاظم الضَّررُ، فلا مندوحة آنئذٍ من استعمال وليِّ الأمر للوسائل الشَّرعيَّة والقانونيَّة الَّتي تفرض الأمن، وتتيح للكافر أن يرتدعَ، وإلى المنافق أن يندحرَ، وهو أمرٌ حرصَ عليه النَّبيُّ في الأوان الأوَّل، وأعانه عليه جيلُ الصَّحابة الرَّائد، مع ضمان آليَّات ذلك في ظلِّ العدل والإنصاف، وتحرِّي مراحلِ العلاج للظَّواهر النَّابتة، والقضايا المتجدِّدة والثَّابتة، ممَّا تعانيه الأمَّة في كلِّ العصور، فيكون الحلُّ متدرِّجًا في أناة وثقة، حتَّى إذا بلغ السَّيلُ الزُّبى، ووصل الحزام الطُّبيَين؛ كان آخرُ الدَّواء الكيَّ.

خطابُ النَّبيِّ ﷺ يطالُ أُمَّتَهُ باعتبارِهِ القدوةَ

دِلالَةُ الحقيقة والمجاز في قَوْلِه: ﴿جَٰهِدِ﴾:

الجِهادُ في قول اللّه ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ﴾، يَخْتَلِفُ معناه باختلاف مُتَعَلَّقِه، وذلك أنَّه تَعَلَّق بطائفتين: إحْداهُما: الكفَّار. والأُخْرَى: المُنافِقون. والمُرادُ بِهِ في جانب الكُفَّار هو المَعْهودُ

كَفُّ النَّبيِّ عن العقاب، حتَّى لا يُتَّهم بأذيّة الأصحاب

(1) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 8/204.
(2) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 8/204.

في خطاب الشَّرْعِ عند إطْلاقِهِ، وهو جهادُ المواجهة بالسِّنانِ، بِخِلافِهِ في المُنافقين؛ فإنَّ المُرادَ به جهادُ الحُجَّة والبيانِ؛ لِما عُلِمَ في الشَّرْعِ مِن كفِّ النَّبيِّ ﷺ عَن مناجزة المُنافِقينَ؛ خَشْيَةَ أَنْ يُظَنَّ أنَّه يَقْتُلُ أَصْحابَهُ؛ لخفاءِ كُفْرِ المنافقين، وعلى هذا؛ فاللَّفظ مُسْتَعْمَلٌ في حَقيقَتِهِ ومجازه[1]، وهو ضَرْبٌ مِن استعمال اللَّفظ المُشْتَرَكِ في معانيهِ، ولكنَّنا لا نفتأ نذكِّر بأنَّ الإسلام دينُ سلام، وأنَّه يقدِّم الحوارَ على النِّفار، وأنَّه لم يُقْدِم على حرب في مسار الغزوات النَّبويَّةِ إلَّا دفعًا لمظلمة، أو ردًّا لغبن، أو دفعًا لصولة صائل، أو صونًا للدِّين من هجمات الغادرين، ولذلك قيل: (الإسلامُ انتصر على السَّيف، ولم ينتصر بالسَّيف)، والدَّليل على ذلك أنَّ ما يقرب من ثلثي العالم الإسلاميِّ الآنيِّ، في أقصى آسيا وبلاد الأناضول، وأدغال إفريقيا، لم يدخلْها الإسلامُ بالجنود الغزاة، بل دخلها بالتُّجار الدُّعاة، حيثُ كانت الأخلاق العالية، والشَّمائل الزَّاكية، والمعاملة الطَّيبة، وإبداء اللُّطف والرِّفق، والتزام الأمانة والصِّدق، هي السَّبب في دخول شعوبٍ بأكملها إلى الإسلام.

سِرُّ الجَمْعِ بَيْنَ لفظي ﴿ٱلْكُفَّارَ﴾ وَ ﴿وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾:

مجابهةُ المُنافِقينَ تقطَعُ دابِرَهُمْ، وتكْسِرُ شَوْكَتَهُمْ

في قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾، فائدةُ الجَمْعِ بين الكُفَّار والمُنافقين في هذا النَّصِّ المتين، وهو لإخافتهم وزلزلةِ كيانهم، وإشعارهم بأنَّ مكرَهم معلوم، وكيدهم مكشوفٌ، عند من لا تخفى عليه خافيةٌ، ولا شكَّ أنَّ استثمارَ دور اللِّسان في مواجهة المنافقين، فيما يسمَّى في عصرنا بالحرب الإعلاميَّة، له دورٌ كبير في هذا الصِّراع المرير بين الحقِّ والباطل، ومطلوبٌ منه أن يكون صادقًا معهم، فلا يقابل نفاقًا بنفاق، بل إنَّ من أُسس مجابهة أهل النِّفاق: "ألا يبشَّ لهم، حتَّى يطمعوا في خداعه، بل يشعرهم بأنَّه

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/266.

في حَذَرٍ منهم.. يستنكر أفعالهم بيده، فإن لم يستطعْ فَبِاكْفهرار وجهه، وفي الجملة يسدُّ عليهم بابَ خديعتهم"[1]، خصوصًا وأنَّ كُلَّ واحِدٍ منهم يخشى أن يُفْضَحَ أَمْرُهُ، فيُعامَلَ مُعامَلَةَ الكفَّار الحربيِّين، فيكونُ الأَمْرُ بذلك كاسِرًا شَوْكَتَهُمْ[2].

نُكْتَةُ تَقْديمِ الكُفَّارِ عَلَى المُنافِقينَ:

في قول الله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَـٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ﴾، قُدِّم لفظُ ﴿ٱلْكُفَّارَ﴾ على ﴿وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ﴾، لكون السِّياق في الأَمْرِ بالمجالدة الحربيَّة، وهي أَدْخَلُ في المُصارِحينَ بِالمُخالَفَةِ، فكانَ الكُفَّارُ أولَى بذلك؛ لشدَّة شَكيمَتِهِم، وقوَّةِ أَنْفُسِهِم، ولِذا بُدِئَ بِهِمْ في الذِّكْرِ، ثُمَّ ثُنِّيَ بالمُنافِقينَ؛ لكونهم أَخْوَفَ وأَضْعَفَ نَفْسًا، وأَهْوَنَ قَدْرًا، ولِذا فإنَّهم لَم يَجْرُؤوا علَى إِظْهارِ المُخالَفَةِ[3].

المُنافِقونَ أَضْعَفُ وَأَهْوَنُ من أن يَتَجاسروا عَلَى إِظْهارِ المُخالَفَةِ

دِلالَةُ (ال) في لفظَي الجمع: ﴿ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ﴾:

الألف واللَّامُ في لفظَي ﴿ٱلْكُفَّارَ﴾ و﴿وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ﴾، مِنْ قَوْلِ اللهِ ﷻ: ﴿جَـٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ﴾، يُرادُ بها الاستغْراقُ، أي: جاهِدْ جميعَ أهل الكفر والنِّفاق، وَيَجوزُ أن تَكونَ اللَّامُ للكمال، والمعنى: جاهِدِ الكفَّارَ الكامِلينَ في الكُفْرِ الرّاسِخينَ فيه - فيَخْرُجُ مِنْهُ مَنْ لَيْسَ كامِلًا في الكُفْرِ، وهوَ كُلُّ مَن تلَبَّسَ بشيءٍ مِنْ أفرادِ الكُفْرِ الأَصْغَرِ - وجالِدِ المُنافِقين الكامِلينَ في النِّفاقِ المُغْرِقينَ فيه، فَلا يتَناوَلُ الخطابُ مَنْ ليس كامِلًا في النِّفاق؛ وهوَ كُلُّ مَن وَقَعَ في بَعْضِ خِصالِ النِّفاق الأصغر، أو وقع منه سهوٌ أو خطأ غير متعمَّد، ممَّا تقتضيه ممارسةُ الحياة، وتداعياتُ الصِّراع الَّتي تتماوج بها مشاكل النَّاس تموُّجًا، وتمور به معاملاتهم مورًا، ومثال ذلك ما روي في

الأَمْرُ بِمجالدة الكُفَّارِ والمُنافِقينَ، لدفع الخطر، واجتناب الضَّرر

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3375.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 10/266.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/547.

الحديث الشَّهير: «نافق حنظلة...»[1]، ولا تَعارُضَ بين المعنيَين، بل تجوز إرادَتُهُما معًا، ويكون المعنى: جاهِدْ جَميعَ الكُفَّار والمُنافِقينَ الكامِلين في الكفر والنِّفاق.

دِلالَةُ الأَمْرِ بِالغِلْظَةِ بَعْدَ الأمر بالجهاد:

إبـــرازُ عَـظَـمَـة رِفْـقِ النَّبيِّ ﷺ وَرَحْمَتِهِ

في قولِهِ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡۚ﴾، ذُكِرَ الأَمْرُ بالغِلظة بعد الأمر بالجهاد في هذه الآيةِ الكريمة، مع أنَّ الجهادَ ملازِمٌ عادةً للغِلْظَةِ؛ لكون النَّبيِّ ﷺ مَطْبوعًا على الرِّفقِ مجبولًا على الرَّحمة، فأُمِرَ هَهُنا بالتَّخلِّي عن جِبِلَّتِهِ في حقِّ الكفَّار والمُنافقين، وألَّا يُعامِلَهُمْ بِمِثْلِ ما يعامِلُهُم به من اللِّين، وألَّا يُغْضيَ عنهم، كما كان شَأْنُهُ مِنْ قَبْلُ[2]، وعلَّة الأمر بمواجهة ظاهرةِ الكفر والنِّفاق: أنَّ مواجهةَ استشراءِ هذا الدَّاءِ العضال، لا بدَّ منها، وهي سنَّةٌ كونيَّةٌ نافذة، لا مفرَّ منها، ولا مندوحةَ عنها، وقد أمر اللهُ بمواجهة المشركين الكفرةِ، وتغليظِ القول للمنافقين الفَجَرَةِ، ويكون التَّغليظُ لإيضاح المصير الَّذي ينتظرهم؛ لأنَّ الكافرَ عابدٌ للدُّنيا، ويخاف أن تضيعَ منه؛ لأنَّه لا يؤمن بالآخرة، وما فيها من حسابٍ وعذابٍ، وعليه فيُغْلِظُ عليه في التَّخويف والنِّذارة بالآخرة، وما ينتظر الكافرَ والمنافق من عذاب وهوان، سوف تشيب من هوله الولدانُ، فيكون تخويفُهُ والتَّشديدُ عليه، وتهويل الأمر له؛ ردعًا

(1) الحديث بنصّه هو: عن حنظلة الأسيديّ قال: - وكان من كتَّاب الوحي للرَّسول ﷺ -: «لقيني أبو بكر، فقال: كيف أنت يا حنظلة؟ قلت: نافق حنظلة، قال: سبحان الله! ما تقول؟ قال: قلت: نكون عند رسول الله ﷺ، يذكِّرنا بالنَّار والجنَّة، حتَّى كأنَّا رأي عين، فإذا خرجنا من عند رسول الله ﷺ، عافسنا الأزواج والأولاد والضَّيعات، قال أبو بكر: فو الله! إنَّا لنلقى مثل هذا، فانطلقت أنا وأبو بكر حتَّى دخلنا على رسول الله ﷺ، قلت: نافقَ حنظلة يا رسول الله! فقال رسول الله ﷺ: وما ذاك؟ قلت: يا رسول الله! نكون عندك تذكِّرنا بالنَّار والجنَّة، حتَّى كأنَّا رأي عين، فإذا خرجنا من عندك، عافسنا الأزواج والأولاد والضَّيعات، فنسينا كثيرًا، فقال النَّبيُّ ﷺ: والذي نفسي بيده! أن لو تدومون على ما تكونون عندي، وفي الذِّكر، لصافحتكم الملائكة على فرشِكم وفي طرقكم، ولكن يا حنظلةُ! ساعة وساعة»، [أخرجه مسلم في صحيحه: باب فضل دوام الذّكر، حديث رقم: (4937)].

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/547، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/267.

لكفران من كفر، وزجرًا لنفاق من تلوَّنَ بالنِّفاق وفجر، خصوصًا وأنَّه ليس خالدًا في هذه الدُّنيا الغرور، وما ينتظره في الآخرة قاصمٌ للظَّهر من العذاب المهول[1]، ومعاملة العدوِّ المحارب باللِّين والرَّحمة، وضع لهاتين الصِّفتين في غير موضعهما، قال الشَّاعر:

وَوَضْعُ النَّدَى في مَوْضِعِ السَّيْفِ في العُلا ***
مُضِرٌّ كَوَضْعِ السَّيْفِ في مَوْضِعِ النَّدَى[2]

بلاغةُ الاسْتِعارَةِ في: ﴿وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡۚ﴾:

الغِلْظَةُ نقيضُ الرِّقَّةِ، والأصلُ استعمالُها في الأجسام، وهي في قول الله ﷻ: ﴿وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡۚ﴾ مُسْتَعْمَلَةٌ في المعاني[3] على جهة الاستِعارةِ التَّصريحيَّةِ التَّبعيَّة، وفي ذلكَ: إخْراجٌ للمعاني المَعْقولَةِ في قالب الصُّوَرِ الحسِّيَّة؛ زيادَةً في الأَمْرِ بالشِّدَّة عليهم، ومُبالغَةً في إلقاء الرُّعْبِ في قلوب الكُفَّار والمُنافقين.

المُبالَغَةُ في التَّغليظ على الكُفّارِ والمُنافِقينَ، لردعهم عن غوايتهم

دِلالَةُ الوَصْلِ (بالواو) في: ﴿وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ﴾:

الواوُ في قول الله ﷻ: ﴿وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ استئنافيَّةٌ، والجُمْلَةُ بَعْدَها مُسْتَأْنَفَةٌ لبيان آجلِ حالهم، بَعْدَ بيان عاجله في قوله: ﴿جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡۚ﴾[4]، وجُمْلَةُ ﴿وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ﴾ مَحْمولَةٌ على المعنى؛ وهو أنَّهُ قد اجتَمَعَ لهم عذابُ الدُّنيا بالجهاد والغِلْظَةِ، وعذابُ الآخِرَةِ بكون جَهَنَّمَ مَأْواهُم، ويُحْتَمَلُ أن تكون الواوُ حاليَّةً، والجملةُ بعدها حالٌ، والمعنى: جاهِدْهُم، واغْلُظْ عليهم في حال استحقاقهم جَهَنَّمَ، ويَجوزُ أن تكون الواو مُنَبِّهَةً على إرادة فِعْلٍ مَحْذوفٍ، والتَّقديرُ: جاهِدْهُم واغْلُظْ عليهم، واعْلَمْ أَنَّ مأواهم جهنَّم[5].

اجتِماعُ عَذابِ الدُّنيا وعذابِ الآخِرَةِ من أشنع البلاء

(1) لمزيد من التَّوضيح في هذا الملمح، ينظر: تفسير الشّعراويّ: (الخواطر): 9/5335.
(2) الواحديّ، شرح ديوان المتنبّي، ص: 266، رضا، تفسير المنار: 10/474.
(3) الرّاغب، المفردات: (غلظ).
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/84.
(5) الآلوسي، روح المعاني: 5/327.

بَيانُ عَظيمِ جَزاءِ الكُفَّارِ والمُنافِقينَ وَشَناعَةِ مَآلِهِمْ

دِلالَةُ التَّقْديمِ والتَّأْخيرِ في: ﴿وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ﴾:

المُخْتارُ أَنْ يكون لفظ ﴿جَهَنَّمُ﴾ مُبْتَدأً مُؤَخَّرًا، و﴿وَمَأْوَىٰهُمْ﴾ خَبَرًا مُقدَّمًا في قول الله ﷻ: ﴿وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ﴾؛ لكون المأوى أعمَّ، وجهنَّمَ أخصَّ، ففيه تقديمٌ لِما حقُّه التَّأخيرُ، والمرادُ القصرُ والحَصْرُ، والمعنى: لا مأوى لهم إلَّا جَهَنَّم، وفي هذا بيانٌ لِعَظيمِ جَزائِهِم وشَناعَةِ مَصيرِهِم ومُسْتَقَرِّهم؛ حَيْثُ لَم يَكُنْ لَهُمْ مُسْتَقَرٌّ ومأوًى إلَّا النَّار[1]، "والمعنى: أنَّه قد اجتمع لهم عذاب الدُّنيا بالجهاد والغلظة، وعذاب الآخرة، فيجعل جهنَّمَ مأواهم، قال السَّمين: ولا حاجة إلى هذا كلِّهِ بل هذه جملةٌ استئنافيَّة"[2]، وكونها استئنافيَّةً، فهي تقرِّر أنَّ المأوى هو جهنَّم، وهو بذلك مرعبٌ للنُّفوس الَّتي تنتظر المأوى الحسن هناك، فتُفْجَعُ بتأكيد سوءِ المصير، خصوصًا وأنَّه آخر المطاف، ونهاية التَّطواف، وأنَّه لا مقامَ بعده، ولا فرصة للتَّحوُّل منه، ولا للنَّأي عنه، ولكون مأواهم جهنَّم، فهو رمزُ المعاناةِ اللَّامتناهيَةِ، والعذاب الخالد المقيم.

التَّهكُّمُ مِنْ أَشَدِّ أَلْوانِ العَذابِ النَّفْسيِّ

بَلاغَةُ الاسْتِعارَةِ التَّهَكُّميَّةِ في: ﴿وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ﴾:

أصلُ المأوى: المكانُ الَّذي يُنْصَرَفُ إليه، ويُقامُ فيه[3]، وإنَّما يُؤْوَى إلى مكانٍ فيه استقرارٌ وراحَةٌ واطمئنانٌ، فمجيءُ التَّعبيرِ القرآنيِّ عن جهنَّم بالمأوَى في قوله سُبْحانَهُ: ﴿وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ﴾ مِن بابِ الاسْتِعارَةِ التَّهكُّميَّةِ[4]، وهذا أشدُّ وقعًا على النُّفوسِ؛ لِما فيهِ مِنَ الإنزال لِقَدْرِ المخاطَبِ، والحطِّ مِنْهُ[5]؛ لأنَّ المأوى يأوي إليه الإنسان، ليجد فيه المستقرَّ والرَّاحة والاطمئنان، فذِكْرُ المأوى في هذا المقام

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/319.
(2) القِنَّوجيّ، فتحُ البيان في مقاصد القرآن: 5/350، والسّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 6/86.
(3) ابن أبي نصر الحُمَيْديّ، تفسير غريب ما في الصَّحيحين، ص: 266.
(4) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3377.
(5) يحيى العلويّ، الطِّراز لأسرار البلاغة: 1/127.

تهكُّمٌ عليهم، كقوله تعالى: ﴿فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ٢١﴾ [آل عمران: 21][1]، وكذلك ما ورد في سورتَي [التَّوبة: 34] و[الانشقاق: 24] بنفس اللَّفظ والمعنى.

نُكْتَةُ الجَمْعِ بَيْنَ المأْوَى والمَصيرِ في: ﴿وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾:

في قول الله ﷻ: ﴿وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾، جُمِعَ بينَ المَأْوَى والمَصيرِ، والمأوَى: هوَ المَكانُ الَّذي يُنْصَرَفُ إليْهِ، ويُقامُ فيه[2]، والمَصيرُ: هو المكان الَّذي يَصيرُ المَرْءُ إليه، أي: يَرْجِعُ، فالاختلاف بين المَأْوَى والمَصيرِ، هو بالاعتبار فَحَسْبُ، فيكون الجَمْعُ بَيْنَهُما مِن بابِ التَّفَنُّنِ في التَّعْبير[3]، والتأكيد على سوء مصيرهم وشَنيعِ عاقِبَتِهِمْ.

التَّأكيدُ على سوءِ عاقِبَةِ الكُفَّارِ والمُنافِقينَ وَقَبيحِ مَآلِهِمْ

بَراعَةُ التَّذْييلِ: ﴿وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾:

قَوْلُ الله ﷻ: ﴿وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ تَذْييلٌ غَيْرُ جارٍ مَجْرى المثل؛ لعدم استغنائه عَمَّا قَبْلَهُ في إدراك تَمام المُرادِ مِنْهُ، وهو تقرير الجَزاءِ المَذْكورِ قَبْلُ في قوله تَعالَى: ﴿وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ﴾ وتَثْبيتُهُ في الأَذْهانِ؛ زيادَةً في الوعيد والتَّهديد، والمَخْصوصُ بِالذَّمِّ محذوفٌ، والتَّقديرُ: بِئْسَ المَصيرُ جَهَنَّمُ[4]، وعليه فإنَّهم "لا مأوى لهم يلجؤون إليه إلَّا دار العذاب الَّتي لا يموتُ من أوى إليها، ولا يحيا حياةً طيِّبة، وبئس المصيرُ هي، قال تعالى: ﴿إِنَّهَا سَآءَتۡ مُسۡتَقَرّٗا وَمُقَامٗا ٦٦﴾ [الفرقان: 66][5].

المُبالَغَةُ في تَهْديدِ الكُفَّارِ والمُنافِقينَ وَوَعيدِهِمْ، مفيدٌ في بابه

المتشابِهُ اللَّفظيُّ:

قال اللهُ ﷻ: ﴿وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾، وقال سُبْحانَهُ: ﴿مَتَٰعٞ قَلِيلٞ ثُمَّ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ١٩٧﴾ [آل عمران: 197]، ووَجْهُ المغايرة بينهما أنَّ آيةَ آل عمران تقدَّمها قولُ الله تعالى: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ١٩٦﴾ [آل عمران: 196]، فلمَّا كانت

دِقَّةُ البَيانِ القُرْآنيِّ في انتِقاءِ الأَلْفاظِ وَحُروفِ المَعاني المُلائِمَةِ لِسياقاتِها

(1) محمّد أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3377.
(2) ابن أبي نصر الحُمَيْديّ، تفسير غريب ما في الصَّحيحين، ص: 266.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/267.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/84.
(5) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 10/164.

شِدَّةُ التَّقَلُّبِ تجعل أصحابَها في حاجَةٍ إلى مكان يكون مُمَهَّدًا لَهُمْ لأجل الرَّاحة، وكانت جَهَنَّمُ هي مهادهم؛ ناسَبَهُ قَوْلُهُ سُبْحانَهُ: ﴿ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾﴾ [آل عمران: 197]، بخلافِ آية التَّوبة؛ فَإِنَّها قَد صُدِّرت بقول الله تعالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾، فلَمَّا كان بين قوله تَعالَى: ﴿جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾، وقولِهِ ﷻ: ﴿وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ﴾ اتِّصالٌ مِنْ جِهَةِ كونهما خِطابًا لِلنَّبيِّ ﷺ، وحَديثًا عَنِ الكُفَّار والمنافقين، وانفِصالٌ مِن جِهَةٍ أخرى لاختلاف الجملتين خَبَرًا وإِنْشاءً؛ عُطِفَ بَيْنَهُما بالواو، ولَمَّا كانَ مَن أَوَى إِلَى مَكانٍ قَد يَصيرُ إِلَى غيره، وكانَتْ جَهَنَّمُ هيَ مصيرهم الأبدي؛ ناسَبَهُ قولُ اللهِ سُبْحانَهُ: ﴿وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾، وعُطِفَت آيةُ آل عمران بِـ ﴿ثُمَّ﴾؛ لأَنَّ تَقَلُّبَ الكفَّار في البلاد يَسْتَغْرِقُ زَمَنًا، وإِنْ كانَ قَليلًا، فَذُكِرَ حَرْفُ العطف الدَّالُّ على التَّراخي، وَهوَ (ثُمَّ)، بخلاف آية التَّوبة، فقد عُطِفَت بالواوِ؛ لأنَّها لم تَتَضَمَّنْ ما يدُلُّ عَلَى التَّراخي أو وجود فاصِلٍ زَمَنيٍّ، فكانَ الأَنْسَبُ العَطْفَ بالواو[1].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

المأْوَى والمثْوَى:

المَأْوى أَعَمُّ مِنَ المَثْوى عُمومًا مُطْلَقًا، وفي كليهما معنى الإيواء

ذهَب بعضُ أهل العلم إلى أنَّ المأوَى والمَثْوَى بمعنًى واحِدٍ[2]، وفرَّق بينهما جَماعَةٌ، وحاصِلُ الفرقِ بَيْنَهُما مِن وَجْهَيْنِ: أحدهما: أنَّ المأوى أعمُّ من المثوى؛ لأنَّ المثوى يتضمَّنُ معنى الإقامة، بخلاف المأوى[3]؛ فقد يدلُّ على معنى الإقامة، وقد لا يدلُّ عَلَيْها؛ ولذا قد يأوي الإنسانُ إلى مكانٍ عارضٍ، ولذا جاء في الحديثِ قولُ النَّبيِّ

(1) محمّد محمَّد داود، معجم الفروق الدّلالية في القرآن الكريم، ص: 592.

(2) ابن جرير، جامع البيان: 14/77، والواحديّ، التفسير البسيط: 20/232، والدَّقيقي، اتفاق المباني وافتراق المعاني، ص: 255.

(3) الآلوسي، روح المعاني: 2/301، ومحمّد الأمين الهرَريّ، حدائق الرَّوح والرَّيحان: 5/222.

ﷺ: «انْطَلَقَ ثَلاثَةُ رَهْطٍ مِمَّنْ كانَ قَبْلَكُمْ حَتَّى أَوَوا المَبيتَ إِلَى غارٍ»[1] - في القصَّة المَشْهورَة - فعبَّر عَن مَبيتِهم العارِضِ في غارٍ بالإيواءِ، والآخَرُ: أنَّ الإقامةَ التي دلَّ عليها لفظُ (المَأْوَى) تُفارق الإقامةَ الَّتي يدلُّ عليها لفظُ (المَثْوَى)؛ لأنَّ الإقامةَ في المثوَى إقامةٌ مع دوام، بخِلافِها في المأوى[2]، فالمأوى قد يُقيم فيه المرءُ إقامةً طَويلَةً، ولكنَّ المثوَى يقتضي الإقامةَ الدَّائمةَ[3]، وقد جُمِعَ بين المَأْوَى والمَثْوَى في آيةٍ واحدةٍ، وهي قول اللّٰه تعالى: ﴿وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّٰلِمِينَ ١٥١﴾ [آل عمران: 151]، وهو يؤيِّدُ أنَّ في المثوى أمرًا زائدًا على المأوَى، ففي ذِكْر المثوى بعد المَأْوَى إشارةٌ إلى خُلودِهِمْ، ولذا قُدِّم المَأْوَى؛ بالنَّظر إلى التَّرتيبِ الوُجوديِّ؛ فإنَّ الكافرَ يَأْوي ثُمَّ يَثْوي[4].

(1) رواه البخاريّ، الجامع الصحيح، الحديث رقم: (2272)، ومسلم، صحيح مسلم، الحديث رقم: (100)، واللفظ للبخاري.

(2) عبد الجبّار فتحي زيدان، الفروقُ اللُّغويَّة في القرآن الكريم، ص: 167 - 168.

(3) محمّد أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 3/1450.

(4) القِنَّوجيّ، فتح البيان: 2/352.

﴿يَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُواْ وَلَقَدۡ قَالُواْ كَلِمَةَ ٱلۡكُفۡرِ وَكَفَرُواْ بَعۡدَ إِسۡلَٰمِهِمۡ وَهَمُّواْ بِمَا لَمۡ يَنَالُواْۚ وَمَا نَقَمُوٓاْ إِلَّآ أَنۡ أَغۡنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضۡلِهِۦۚ فَإِن يَتُوبُواْ يَكُ خَيۡرٗا لَّهُمۡۖ وَإِن يَتَوَلَّوۡاْ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمٗا فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۚ وَمَا لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ ٧٤﴾ [التوبة: 74]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

سَوْقُ الأَدِلَّةِ عَلى ضلال النِّفاقِ، ومفاسدِ مَن لم يتب من أهل الشِّقاق

في مُناسَبَةِ هذِهِ الآيَةِ لِما قَبْلَها وَجْهانِ: أحدهما: أنَّ اللهَ ﷻ لمّا ذَكَرَ الدَّليلَ العامَّ على إجرامهم وأنَّ فيهم كُفْرًا عَظيمًا ونِفاقًا، أَتْبَعَهُ بذِكْرِ الدَّليلِ الخاصِّ على ذلك الإجرام، فقالَ ﷻ: ﴿يَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُواْ وَلَقَدۡ قَالُواْ كَلِمَةَ ٱلۡكُفۡرِ﴾[1]. والآخَرُ: أنَّه لمَّا كانَ مُعْظَمُ ما أُخِذَ عَلَى أَهْلِ النِّفاقِ كَلِماتٍ دالَّةً علَى الطَّعْنِ في النَّبيِّ ﷺ وَفي أَهْلِ الإيمان، ونَحْوِ ذلك مِن أدلَّة الكفر، وكانوا إذا نُقِلَ عَنْهُم ذَلِكَ؛ أَنْكَروا نِسْبَتَها إِلَيْهِم بالأَيْمانِ الكاذِبَةِ؛ أَعْقَبَ اللهُ تعالَى آيَةَ الأَمْرِ بمجالدتهم، بِالتَّنْبيهِ علَى أنَّ إِنْكارَهُم كان كاذِبًا، وأنَّهُ لا ثِقَةَ بأَيمانهم، وأنَّ ما صَدَرَ منهم هوَ صَريحُ الكُفْرِ، ومحض الضَّلال[2]، ولا عبرةَ بحلفانهم، ولا بغليظ أيمانهم.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَحۡلِفُونَ﴾: الحاءُ واللَّامُ والفاءُ، تَدُلُّ تَصْريفاتُها علَى مَعْنَى المُلازَمَةِ، ومِنْهُ قَوْلُهُم: حالَفَ فُلانٌ فلانًا؛ إذا عاهَدَهُ، وذَلِكَ لِما في المُعاهَدَةِ مِن معنى المُلازَمَةِ، ومن هذا المعنى: الحَلِفُ بِمَعْنَى القَسَمِ؛

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/547.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 10/268.

لأنَّ الإنْسانَ؛ إذا أقسَمَ؛ لزِمَهُ الثَّباتُ على ما أقسم به[1]، وأَصْلُ الحَلِفِ: اليَمينُ الذي يَأْخُذُ بَعْضُهُم مِنْ بَعْضٍ بِها العَهْدَ، ثُمَّ اسْتُعْمِلَت في كُلِّ يَمينٍ، ومنه قول اللّه سُبْحانَهُ: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ۝١٠﴾ [القلم: 10]، أَيْ: كَثيرِ الحَلِفِ - وَهوَ القَسَمُ - ومنه قول اللّهِ ﷻ: ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُواْ﴾[2].

2) ﴿وَهَمُّواْ﴾: الهاءُ والميمُ تَدورُ اشْتِقاقاتُها على ذوبان شَيْءٍ مُتَسَيِّبًا مِمَّا يَجْمَعُهُ لحرارة أَو شِدَّة، ومِنْهُ الهَمُّ: وَهوَ الحُزْنُ، سُمّي بذَلِكَ؛ لأنَّه يُذيبُ الإنسانَ، ومِنْهُ قَوْلُهُم: هَمَّ بالشَّيءِ؛ إذا نَواهُ وعزَمَ عليه، وسُمِّيَتِ الإرادَةُ والعَزيمَةُ هَمًّا؛ كأنَّما تَحَلَّبَت إرادتُه وهَواه بشدَّة نَحْوَ أمرٍ ما، كَما يَسيلُ اللُّعابُ إلَى الطَّعامِ شَهْوَةً، وأهمَّني كذا، أي: حملني على أن أهمَّ به، قال تعالى: ﴿وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ﴾ [آل عمران: 154][3]، وهمَّ بالشَّيء همًّا؛ إذا خطر بباله أن يفعلَهُ، ولم يعزمْ، قال اللّه تعالى: ﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا﴾ [آل عمران: 122][4]، ومِنْ هذا قَوْلُ اللّهِ ﷻ: ﴿وَهَمُّواْ بِمَا لَمْ يَنَالُواْ﴾[5].

3) ﴿يَنَالُواْ﴾: النُّونُ والواوُ واللَّام، تَدُلُّ اشْتِقاقاتُها على معنى الإعطاء، تَقولُ: نوَّلْتُهُ، أَيْ: أَعْطَيْتُهُ، والنَّوالُ هو العَطاءُ[6]، وحَقيقَتُه: ما يناله الإنْسانُ من الصِّلة[7]، ناله يناله نَيْلًا؛ إذا أصابه، قال اللّه تعالى: ﴿وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا﴾ [التّوبة: 120][8]، والمُرادُ بِقَوْلِ اللّه ﷻ: ﴿وَهَمُّواْ بِمَا لَمْ يَنَالُواْ﴾: هَمُّوا وعزَموا عَلَى شَيْءٍ لَم يُحَصِّلوهُ، وَلَمْ يُمَكَّنوا مِنْهُ.

4) ﴿نَقَمُوٓاْ﴾: النُّونُ والقافُ والميمُ، تَدورُ تَصْريفاتُها علَى إنْكارِ شَيْءٍ وَعَيْبِهِ، تَقولُ: نَقَمْتُ عليه؛ إذا أَنْكَرْتَ عليه فِعلَهُ، ومِنْهُ: النِّقمةُ مِنَ العَذابِ، والانتقام، قيلَ لَهُ ذلك؛ لِأنَّه كالذي أَنْكَرَ ما عليه، فَعاقَبَهُ[9]، ويَرِدُ فِعْلُ نَقَمَ يَنْقِمُ بمعنى: العِتابِ والكَراهةِ والإنْكارِ

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حلف).
(2) الرّاغب، المفردات: (حلف).
(3) سميح عاطف الزّين، تفسير مفردات ألفاظ القرآن الكريم: (همم).
(4) نشوان بن سعيد، شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم: (همّ).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (همّ)، والرّاغب، المفردات: (همم)، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (همم).
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نول).
(7) الرّاغب، المفردات: (نيل).
(8) نشوان، شمس العلوم: (نال).
(9) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نقم).

والسُّخْطِ[1]، والنِّقمة: المكافأة بالعقوبة، والجمع: نِقَمٌ، وقال ابن جني: نِقمةٌ، ونِقَمٌ: وكان القياسُ أن يقولوا في جمع: نقمة: نَقِم، على حدِّ: كلمة وكَلِم، فعدلوا عنه إلى أن فتحوا المكسور، وكسروا المفتوح[2]، وقولُ اللّه ﷻ: ﴿وَمَا نَقَمُوٓاْ إِلَّآ أَنۡ أَغۡنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضۡلِهِۦۚ﴾ معناهُ: وَما أنكَروا، ولا عابوا إلَّا ما هوَ قَمِنٌ بالمدح والثَّناءِ؛ وهو إغناء اللّه تعالَى لهُمْ مِنْ فضْلِه[3].

5) ﴿وَلِيّ﴾: الواوُ واللَّامُ والياءُ، تدلُّ اشتقاقاتُها على معنى القُرْبِ، وَمِنْهُ: الوَلْيُ وهو القُرْبُ، تقولُ العربُ: تباعَدَ فلانٌ بعد وَلْيٍ، أي: بعد قُرْبٍ، وجلسَ ممَّا يَليني، أي: يُقاربُني، ومنه المولى، وهوَ يُطْلَقُ على معانٍ، مِنْها: المُعْتِقُ والمُعْتَقُ، والحليفُ، والنَّاصر، والجار، وفي كلِّها معنى القُرْبِ كما هوَ بَيِّنٌ[4]، ومِن أسماءِ اللّهِ سُبحانَهُ: الوَليُّ، ومَعْناهُ النَّاصِرُ، أَوْ هوَ المتوَلِّي لأمور الخلائق القائمُ بها[5]. والوَليُّ في قول اللّه سُبحانَهُ: ﴿وَمَا لَهُم مِّن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ﴾، بمعنى: المُنْقِذ، والمرادُ: ما لَهُم مِن مُنْقِذٍ يُنْقِذُهُم ولا نَصيرٍ يَنْصُرُهُم.

6) ﴿نَصِيرٖ﴾: تَدورُ مادَّةُ النُّون والصَّاد والرَّاء، حول معنى إتيان خيرٍ وإيتائِه بما فيهِ زيادةٌ مناسبةٌ وقوَّةٌ، ولازِمُهُ: دَفْعُ الضُّرِّ[6]، وَمِنْهُ سمِّيَ المطرُ: نصرًا[7]، والنَّصْرُ على العَدوِّ: إعانَةُ الخصم عليه في حَرْبٍ أو غيرها؛ بقوَّةِ النَّاصر وغَلَبَتِه[8]، ومنه قول اللّه تعالى: ﴿وَمَا لَهُم فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ﴾، ونُصراءُ: صيغةُ مبالغةٍ من نصَرَ: كثير التَّأييد والعون بدعم وقوَّة، ومنه قوله تعالى: ﴿فَنِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ [الحج: 78]، والنَّصيرُ: اسمٌ من أسماء اللّه الحسنى، ومعناه: الذي لا يخذل وليَّهُ[9].

المَعْنى الإجْماليُّ:

يُقْسِمُ المُنافِقونَ بِاللّهِ سُبْحانَهُ: إنَّهُم ما قالوا شيئًا يُسيءُ إلى رسول اللّه ﷺ وإلى

(1) بطّال الرَّكبيّ، النّظم المستعذب في تفسير غريب ألفاظ المهذّب: 2/256.
(2) ابن سيده المرسيّ، المحكم والمحيط الأعظم: (نقم).
(3) الشّوكانيّ، فتح القدير: 2/437.
(4) الفيّوميّ، المصباح المنير: (ولي)، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/486.
(5) ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث والأثر: (ولي).
(6) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (نصر)، والبيضاويّ، أنوار التَّنزيل: 1/79، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصَّل: (نصر).
(7) الزَّمخشريّ، أساس البلاغة: (نصر).
(8) الفيّوميّ، المصباح المنير: (نصر)، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/486.
(9) أحمد مختار عمر، معجم اللغة العربية المعاصرة: (نصر).

المُؤْمِنين، والحالُ أَنَّهُم قالوا ذلك، وإِنَّهُمْ لكاذبون، وقدِ ارتدُّوا بمَقالتهم هَذِهِ عَنِ الإِسْلام.

تَهديدُ أهلِ النِّفاق بالعَذابِ الموجِعِ في الدُّنيا، وَبِنارِ جَهَنَّمَ في الآخِرَةِ

وقَدْ عَزموا على الإِضرار برَسولِ اللهِ ﷺ، فلم يُمَكِّنْهُمُ اللهُ ﷻ من ذلك، وَلَم يجد هَؤُلاءِ المُنافِقونَ شَيْئًا يَعيبونَهُ، وينتقدونه، إِلَّا أَنَّ اللهَ سُبْحانَهُ تَفَضَّل عليهم، فَأَغْناهُم بما فتح على نَبيِّه ﷺ مِنَ الخير والبركة، فَإِنْ يَرْجِعْ هَؤُلاءِ الكفَّارُ إِلَى الإيمان والتَّوبة؛ يكُنْ خَيْرًا لهم، وإِنِ اسْتَمَرُّوا علَى حالهم في الإِعْراض، يُعَذِّبْهُمُ اللهُ تَعالَى العَذابَ الموجِعَ في الدُّنْيا علَى أَيْدي عباده المُؤْمِنينَ، وَفي الآخِرَةِ بِنارِ جهَنَّمَ، ولَيْسَ لَهُمْ مُنْقِذٌ ينقذهم، ولا ناصِرٌ يَدْفَعُ عنهم العذاب[1].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

عِلَّةُ أسلوب الفَصْلِ في: ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُواْ﴾:

بَيانُ عِلَّةِ الأَمْرِ بِجِهادِ المُنافِقينَ والإِغْلاظِ عليهم

فُصِلَ قَوْلُ اللهِ ﷻ: ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُواْ﴾ عَمَّا قَبْلَهُ؛ لوقوعِهِ استئنافًا بيانيًّا، فيكون بين الجُملَتينِ شِبْهُ كمالِ الاتِّصالِ، وذلك لأنَّ قول اللهِ سُبحانَهُ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ يَبْعَث في نَفْسِ المُتَلَقِّي سؤالًا؛ وهوَ: أمَّا جِهادُ الكُفَّار؛ فالأمْرُ فيه ظاهِرٌ، وأمَّا المنافقون؛ فما صورَةُ جِهادِهِم؟ وهُم يتكلَّمون بلفظ الإيمان، ويُظهِرون أفعالَ المُسْلِمين، مع مُشاهدَةِ ظاهِرِ أحوالهم، مِنَ التَّنصُّل مِمَّا نُقِلَ عَنْهُم، فجاءَ الجَوابُ: لأنَّهم يحلفون كذبًا إِنَّهم ما تلفَّظوا بما يُحْكَمُ به عَلَيهِم بالكُفْرِ، والحالُ أنَّهم قَد قالوا ذلِكَ، وكَفروا، بعد إِظْهارِهِمُ الإسلامَ[2]. ويجوز أن تكونَ الجملَةُ لبيانِ عِلَّةِ الأمْرِ بجهادِهِم، إن جُعِلَ المَقْصود مِنَ الجملَةِ قولُهُ تعالَى: ﴿وَلَقَدْ قَالُواْ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ﴾، وإِنَّما أُخِّرَ اهتمامًا بتكذيبِهِم ابتداءً، ويقوِّي هذا الوجهَ أنَّ ما في هذه الجملَةِ، هوَ أدلَّةُ كُفْرِهم ونقضهم عَهْدَ

(1) نخبة من العلماء، التّفسير الميسّر، ص: 199.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/548، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/84.

الإسلام؛ وذلك لأنَّه لو كان المقصودُ بيانَ خصوصِ تكذيبِهم فيما أَقْسَموا عليه؛ لكان الأنسبُ الاقتصارَ على إثْبات مُقابِلِه، وهو ﴿وَلَقَدْ قَالُواْ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ﴾، ولَم يكن لِما بعْدَهُ تَعَلُّقٌ به، وعَلى كِلا الوجهين؛ فإنَّ قولَهُ سُبْحانَهُ: ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُواْ﴾، مستحقٌّ الفصْلَ دونَ الوصل بالواو[1].

نُكْتَةُ التَّعْبيرِ بِالفِعْلِ المُضارِعِ ﴿يَحْلِفُونَ﴾:

جَراءَةُ المُنافِقينَ عَلَى اللهِ ﷻ بِالحَلِفِ الكاذِبِ

في قولِ اللّه تعالى: ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُواْ﴾، عُبِّر بالفعل المضارع ﴿يَحْلِفُونَ﴾، مع أنَّ حَلِفَهُم متقدِّمٌ على نُزول الآيَةِ الكريمَةِ؛ لاستحضار حالهم العجيبَةِ من الجراءة على اللّه تَعالى، بالحَلِف الكاذِبِ، وللإيماءِ إلى تَكْرار هذا الفعل منهم[2]، وأنَّ طَبْعَهُم القسَمُ الكاذب، وإذا كان يَصْدُر مِنْهُمُ الكَذِبُ مقرونًا بالقسم، فكَيْفَ يوثقُ بما قالوه مِن غير قسم أصلًا؟ والَّذين يحلفون كذبًا وزورًا، هم عبد اللّه بن أبيِّ بن سلول، وأضرابه، وهم كثر، ولكنَّهم معروفون عند الرَّسول ﷺ، وهم نماذج لمسوخ بشريَّةٍ، لا همَّة لهم ولا نخوة، ولا إيمانَ لهم ولا ضميرَ، وهم يفعلون الأفاعيل، ويتكلَّمون بأبشع الأقاويل، ولا يتورَّعون عن الكذب الصُّراحِ، ولا عن العمل الوقاحِ، ويفيد الفعلُ المضارع ﴿يَحْلِفُونَ﴾ تجدُّدَ القول منهم في زمان تنزُّلِ القرآن، وتجدُّد الفعل في كلِّ عصر وأوان.

بلاغةُ إِسْنادِ فِعْلِ الحَلِفِ إِلَى ضَميرِ الجَمْعِ في: ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ﴾:

الرَّاضي بِالجُرمِ كفاعِلِهِ، وإن لم يكن في الأصلِ فاعلًا

أُسْنِدَ فِعْلُ الحَلِفِ إِلَى ضمير الجمع - واو الجماعة - في قولِ اللّه ﷻ: ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُواْ﴾؛ لأنَّ هذا الحَلِفَ صَدَر مِن جماعةٍ، كما جاءَ في بعض الأخبار في سَبَبِ نُزول هذه الآية، فالإسنادُ إلى الجماعةِ ظاهِرٌ بيِّنٌ، وأمَّا إذا كان الحالِفُ واحدًا - كما في رواياتٍ أخرَى - فيكونُ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/268.
(2) الآلوسيُّ، روح المعاني: 5/328.

إسْنادُ فِعْل الحَلِف إلى الجَماعة عَلى خلاف الظَّاهِر، لأنَّ الحالفَ - وإن كان واحدًا - إلَّا أنَّ الباقينَ راضونَ بذلكَ الحَلِفِ الكاذِبِ، معَ عِلْمِهم بِكَذِبِه، فيَكون هذا مجازًا عقليًّا، من إسناد الفِعْلِ إلى سَببِهِ، ويجوزُ أن يكون قد نُزِّلَ رضاهُمْ به منزلَةَ فِعْلِهم لَهُ[1]، فيَكونُ هَذا مِن قَبيل الاستعارة؛ إذْ شُبِّهَ رضاهُم بالفِعْلِ بجامعِ وجودِ الإرادَةِ في كُلٍّ مِنْهُما، فحذِفَ المشبَّهُ به وصُرِّحَ بالمشبَّهِ على طريقة الاستعارة التَّصريحيَّةِ.

دِلالَةُ التَّعْبيرِ بِالاِسْمِ الأَعظم (اللهِ) في: ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُواْ﴾:

جاءَ التَّعبير بالاسم الأحْسَنِ (اللّه) في قَوْلِ اللّهِ ﷻ: ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُواْ﴾ وهو الاسْمُ الجامِعُ لصِفاتِ الجلال والجمال، ومزايا العَظَمَةِ والكَمالِ، تَشْنيعًا للحلفِ الصَّادر مِنْهُم، وأنَّه بَلَغَت بِهِمُ الجراءَةُ والجُرْمُ، أنْ تجرَّؤوا على مَقامِ الألوهيَّةِ، فأَقْسَموا باسمِ اللّه تَعالى العَظيم بالكذب والمين، والَّذي يفتري على اللّه الكذب، لا يؤمن باللّه جبَّارًا، ولا يرجو له وقارًا، وقد اصطدمَ الجُلاسُ بن سويد بن الصَّامت، وقيل: معه وديعةُ بن ثابت، مع عامرِ بن قيس، حيث احتكمَ معه إلى رسول اللّه، فأنكرَ الجُلاسُ ماقاله من قبلُ، وحلف كاذبًا، بأنَّه ما قال ذلك إطلاقًا، فرفع عامرُ بن قيس يديه إلى السَّماء، وقال: (اللهمَّ أنزِل على عبدك ونبيِّك تصديقَ الكاذبِ، وتكذيبَ الصَّادقِ)[2]، فنزل هذا المقطع القرآنيُّ بهذا السِّياق البليغ في أوانه، ليبقى خالدًا مخلَّدًا إلى أن يقومَ النَّاسُ لربِّ العالمين، وفيه تبكيتٌ لهذا الكذوبِ الكنودِ الَّذي أنكر فعلتَهُ، وتنصَّل من جرمه وجريرته[3].

التَّشْنيعُ على المُنافِقينَ في الحَلِفِ بِاللهِ تَعالَى كَذِبًا وبهتانًا

(1) الآلوسيُّ، روح المعاني: 5/328.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/84.

(3) "وقيل: إنَّ هذه الآية نزلت في عبد الله بن أبيٍّ رأس المنافقين، لَمَّا قال: ما مثلنا ومثل محمَّدٍ إلَّا كما قال القائل: سمِّن كلبَك يأكلْكَ، لئن رجعنا إلى المدينة، ليخرجنَّ الأعزُّ منها الأذلَّ، فأُخبِرَ النَّبيُّ ﷺ بذلك، فجاء عبد الله بن أبيّ فحلف إنَّه لم يقله". ينظر: القِنَّوجي، فتحُ البيان في مقاصد القرآن: 5/351.
وكان هذا قبل توبته، فقد رُوي أنه تاب وحسنت توبته، يُنظر: ابن سعد، الطبقات الكبرى: 4/314، وابن حجر: الإصابة: 1/599.

سِرُّ حَذْفِ مُتَعَلَّقِ الفِعْلِ ﴿قَالُواْ﴾:

المُنافِقونَ مَجْبولونَ عَلَى الكَذِبِ، ولا يَرون فيه غضاضةً

في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُواْ﴾، حذْفُ لمتعَلَّق فعل القول، وهو المفعول، وإنَّما حُذِفَ لدلالةِ قول اللّه ﷻ: ﴿وَلَقَدْ قَالُواْ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ﴾عليه[1]، ويجوز أن يكون الفعل المُتَعَدِّي ﴿قَالُواْ﴾ مُنَزَّلًا مَنْزِلَةَ اللَّازم، فمعنى ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُواْ﴾، أي: ما صدر منهم قولٌ، والنُّكْتَةُ في ذلك: تعميمُ المفعول، للإيماءِ إلى أنَّهم مهما عُنِّفوا على مقالةٍ ما أيًّا كانَتْ؛ فإنَّهم يُبادِرونَ إلى القَسَمِ الكاذِبِ على نَفْيِه؛ لأنَّهُمْ جُبِلوا على أَعْلى الكَذِبِ وأعظمه[2]. ويجوزُ وجهٌ ثالثٌ؛ وهو تقدير المفعول في قوله: ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُواْ﴾، أي: ما قالوا فيكَ شَيْئًا يَسوؤُكَ[3]، ونكْتَةُ حذفِه: شناعَتُهُ وقُبْحُهُ، فطَوَى اللّهُ سُبحانَهُ ذِكْرَهُ حفْظًا لمقامِ النُّبوَّةِ، وتعليمًا للعبادِ ألَّا يُشيعوا المقالاتِ الباطلَةَ في حقِّ النَّبيِّ ﷺ.

دلالَةُ (الواوِ): ﴿وَلَقَدْ﴾:

كَذِبُ المُنافِقينَ وافتراؤُهُم وجراءتُهُم في حَلِفِهِمْ، سوءُ طبعٍ وخُلقٍ

الواوُ في قول اللّه ﷻ: ﴿وَلَقَدْ قَالُواْ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ﴾ حاليَّةٌ، والجملة بعدها في محلِّ نَصْبٍ حالٌ، والغرضُ من تَعْقيبِ الجُمْلَةِ الأولَى بجُملةِ الحالِ، إثباتُ كَذِبِهم وافْترائِهم وجَراءَتِهم في قَسَمِهم على نفي قولهم المقالةَ الباطِلَةَ[4].

سِرُّ التَّأْكيدِ في: ﴿وَلَقَدْ قَالُواْ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ﴾:

تَحْقيقُ إثْباتِ كَذِبِهِمْ فيما أَنْكَروهُ مِنْ مَقالَةِ الكُفْرِ

أُكِّدَ قولُ اللّهِ ﷻ: ﴿وَلَقَدْ قَالُواْ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ﴾ بالقسَمِ المحذوفِ، واللَّامِ، وقَدْ؛ وذلِكَ لِنُكْتَتَيْنِ: إحداهُما: تحقيقُ تكذيبِهم في الَّذي أَنْكَروه[5]، والأخرى: تأكيدُ صدورِ كَلِمَةِ الكُفْرِ مِنْهُم؛ ليُناسِبَ تأكيدُهُم نفْيَ صدورها منهم، ولذا جاءَ التَّأكيدُ بالقَسَمِ؛ ليكونَ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/268.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/548.
(3) جمال الدّين القاسميّ، محاسن التّأويل: 5/456.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/548.
(5) الماورديّ، النّكت والعيون: 2/383.

تكذيبُ مقالتهم مساويًا لقولهم في تأكيد نفيها، بَلْ إنَّ جملةَ ﴿وَلَقَدْ قَالُواْ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ﴾، زادَتْ عليها في التَّوكيدِ باللَّام وقد[1]، وهو" عرضٌ لحالٍ من أحوال المنافقين، وكشْفٌ لوجهٍ من وجوههم المنكرة..وهو أنَّ من دأبهم أن يحلفوا كذبًا وزورًا، أنَّهم ما قالوا هذا القول المنكرَ الَّذي كان سرًّا بينهم، ففضحَهم اللّه به، وأطلعَ النَّبيَّ والمسلمين عليه"[2]، وفي ذلك فضيحةٌ سافرة، لتعرية نيَّاتِهم السَّيِّئَة، وأقوالهم المسمومة الَّتي ما أرادوا بها إلَّا أذيَّةَ الرَّسول ﷺ، وبَثَّ البلبلةِ في المجتمع المسلم النَّقيِّ لبلوغ مآربِهم الآثمة.

دلالَةُ الطِّباقِ بين: ﴿مَا قَالُواْ﴾، و﴿وَلَقَدْ قَالُواْ﴾:

في قول اللّه ﷻ: ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُواْ وَلَقَدْ قَالُواْ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ﴾، طباقُ سَلْبٍ بينَ ﴿مَا قَالُواْ﴾، وهو منفيٌّ بـ ﴿مَا﴾، وبينَ ﴿قَالُواْ﴾ الأخرى، وهي مثبتَةٌ، والتَّعبيرُ بالطِّباقِ ههنا مُنادٍ عَليهم بالكذِبِ، وأنَّ ما أثبتَ اللّهُ سبحانَهُ أنَّهم قالوُه، هوَ عَيْنُ الَّذي حلَفوا باللّهِ تَعالى كذبًا وبهتانًا أنَّهُمْ لَمْ يقولوهُ؛ لئلَّا يُظَنَّ أنَّ الَّذي أثبتَهُ اللّهُ ﷻ غيرُ الَّذي نَفَوْهُ.

النِّداءُ عَلَى المُنافِقينَ بِالكَذِبِ والإفْتِراءِ للتَّحقيرِ والإزراء

دِلالَةُ لَفْظِ ﴿كَلِمَةَ﴾ بَيْنَ الحَقيقَةِ والمَجازِ:

أصلُ الكلِمَةِ: قولٌ مفردٌ، أو هي لفظ دالٌّ على مَعْنًى مُفْرَد، والكلمة في قول اللّه ﷻ: ﴿وَلَقَدْ قَالُواْ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ﴾، يُرادُ بها الكلامُ المفيدُ؛ لظهور أنَّهُمْ لم يتلفَّظوا بكلمة واحدة؛ لعدم تمام الإفادة بها، فضلًا عَنْ أن يُحْكَمَ عليهم بسَبَبِها بِالكُفْرِ، فيكونُ في الآيةِ مجازٌ مرسَلٌ، علاقتُهُ الجزئيَّةُ، والتَّحقيقُ أنَّ إطلاقَ الكلمَةِ على الكلامِ هوَ حقيقَةٌ لغويَّةٌ[3]، وأمَّا إطلاقُ الكلمَةِ مُرادًا بها القولُ المفردُ؛ فهو

إذا أَمْكَنَ حَمْلُ اللَّفْظِ عَلَى مَعْناهُ الحَقيقيِّ مِنْ غَيْرِ تكلُّفٍ؛ تَعَيَّنَ ذَلِكَ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/268.
(2) عبد الكريم الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 5/846.
(3) ابن تيميّة، مجموع الفتاوى: 12/103 - 105، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/268.

اصطلاحٌ حادِثٌ بعد زمَنِ التَّنزيلِ، وجُعِلَ ذلِكَ اصطلاحًا للنُّحاة ومَن شاكلهم، فلا يَصْلُحُ حَمْلُ النَّصِّ القرآنيِّ على هذا المعنى، بل يُحْمَلُ على المعنى الَّذي تَعْرِفُه العرَبُ في لسانها، وهو الكلام، فيَكونُ استعمال لفظ الكَلِمَةِ في الآيةِ، مِن قَبيلِ الحقيقَةِ اللُّغويَّةِ، وإن كانَ ذلك مجازًا عُرْفيًّا خاصًّا في عُرْفِ النُّحاةِ.

نُكْتَةُ الإضافَةِ في: ﴿وَلَقَدْ قَالُواْ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ﴾:

(كَلِمَةُ الكُفْرِ) جِنْسٌ لكلِّ تكذيبٍ للنَّبيِّ ﷺ

إضافَةُ الكَلِمَةِ إلى الكُفْرِ في قولِ اللّه ﷻ: ﴿وَلَقَدْ قَالُواْ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ﴾، يُرادُ به الجنسُ، الشَّامِلُ لكلِّ كلامٍ فيهِ تكذيبٌ للنَّبيِّ ﷺ، كما أُطْلِقَتْ كلمَةُ التَّوحيدِ على شَهادَةِ أَنْ لا إلهَ إلَّا اللّهُ، فما يَصْدُرُ مِنَ المُنافِقين مِنْ كلماتٍ على اختلافِها، ما هيَ إلَّا أفرادٌ من هذا الجنس، ويجوزُ أن تَكون الإضافَةُ للعَهْدِ؛ لِما تقرَّر مِن أنَّ الإضافَةَ تنقسم إلى ما تَنْقَسِمُ إليه اللَّام، فكما أنَّ اللَّامَ تَرِدُ للعهد؛ فإنَّ الإضافةَ كذلك تَرِدُ له، والمرادُ بكلمة الكفر: كلمةٌ مخصوصةٌ صدرت من بعض المنافقين، فيها إخْلالٌ بمقامِ النُّبوَّةِ، وما تَقْتَضيهِ مِن وُجوبِ الإيمانِ[1].

دِلالَةُ (ال) في لفظ ﴿ٱلْكُفْرِ﴾:

مَنْ تَنَقَّصَ مِنْ قَدْرِ النَّبيِّ ﷺ؛ فقدْ تلبَّس بالكُفْرِ

اللَّام في ﴿ٱلْكُفْرِ﴾ من قول اللّه ﷻ: ﴿وَلَقَدْ قَالُواْ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ﴾، يَجوزُ أَن تَكونَ دالَّةً على العموم، وذلك لأنَّ مَن أخلَّ بمقام النُّبوَّة، فكذَّبَ ما يجب الإيمانُ به، أو تَنَقَّص من قَدْرِ النَّبيِّ ﷺ؛ قدِ ارْتَكَب كُلَّ كُفْرٍ[2]، ويجوز أَن تَكون اللَّامُ دالَّةً على الكمال، والمعنى: ولقد قالوا: كلمَةَ الكُفْرِ الَّذي لا أَكْبَرَ في الكُفْرِ منه؛ وهو تكذيبُ رسول اللّه ﷺ[3]، وهي كافيةٌ لطردهم من رحمة اللّه، واستحقاقهم نارَ جهنَّم،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/269.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/552.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/548.

وهي الكلمةُ الَّتي أوقعتهم في حضيض الكفر"[1]، "والمرادُ بكلمة الكفر، هو الكلام الَّذي تحدَّثوا به فيما بينهم، وتناولوا فيه النَّبيَّ بالهزءِ والسُّخريَّة، وقالوا حين سُئلوا: ﴿إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُۚ﴾ [التّوبة: 65]، وذلك منهم هو الكفر الصُّراح.. فلو كان في قلوبهم شيءٌ من الإيمان، لما حدَّثتهم أنفسُهم بهذا السُّوء، ولما طاوعتهم ألسنتُهم على النُّطق بهذا المنكرِ من القول"[2].

دِلالَةُ التَّعْبيرِ بِالفِعْلِ الماضي في: ﴿وَكَفَرُواْ﴾:

تَحَقُّقُ كُفْرِ المُنافِقينَ وَثُبوتُهُ لَهُمْ من مقاصدِ السِّياق

جاءَ التَّعبيرُ عَن كُفْرِ المنافِقينَ بالفِعْلِ الماضي ﴿وَكَفَرُواْ﴾ من قول اللّه ﷻ: ﴿وَكَفَرُواْ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ﴾؛ للإشارَةِ إلى تحقُّقِ كُفْرِهِم وثبوته لهم، ولفظ ﴿وَكَفَرُواْ﴾ يشير إلى أنَّ " في التَّعبيرِ عن كلمات السُّوء بكلمة الكفرِ، إشارةً إلى أنَّ حصيلةَ هذا الكلام الكثير الَّذي دار على ألسنتهم، هو كلمةٌ واحدة، هي الكفر، الَّذي دُمِغوا به ظاهرًا، بعد أن كان يعيشُ في كيانهم متخفِّيًا مستبطِنًا[3].

بلاغةُ الاسْتِعارَةِ في: ﴿وَكَفَرُواْ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ﴾:

يَتَرَتَّبُ الحُكْمُ الأُخْرَويُّ على الكفرِ الظَّاهر والباطن

قولُ اللّهِ سُبحانه: ﴿وَكَفَرُواْ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ﴾، أي: أظهروا كُفْرَهُم، وإلَّا فإنَّ المُنافِقين كفَّارٌ في حقيقةِ الأمْرِ، ولكِنَّهم أَخْفَوا هذا الكُفر، حتَّى ظهَرَ على فَلَتاتِ أَلْسِنَتِهِم، فَيَكون في قولِهِ ﷻ: ﴿وَكَفَرُواْ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ﴾، مجازٌ بالاستعارَةِ؛ إذ قد شُبِّهَ إظهارُهُمُ الكفرَ الَّذي أبطنوه قَبْلُ بالكفر الَّذي أَنْشَؤوهُ، بجامع أنَّ كلَيْهِما يترتَّب عليهِ الحُكْمُ الأخرويُّ عندَ اللّهِ سبحانَهُ، فيكون ذلك اسْتِعارةً تصريحيَّةً تبعيَّةً، والنُّكْتَةُ في ذلكَ المبالغَةُ في إظهار شناعَةِ صنيعِهم؛ حيثُ إنَّ الَّذي يكفُرُ بعد إسلامٍ، أقبَحُ مِمَّن

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3378.
(2) عبد الكريم الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 5/846.
(3) عبد الكريم الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 5/846.

يُظْهِرُ كُفْرًا كامِنًا في نفسه؛ لأنَّ الأوَّل ذاقَ مِن حلاوة الإيمان ما يَنْبَغي أن يردَعَهُ عَنِ الارْتِدادِ عَنْهُ.

دِلالَةُ التَّعْبيرِ بِالإِسْلامِ دونَ الإيمانِ في: ﴿إِسْلَٰمِهِمْ﴾:

قال الله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ قَالُواْ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُواْ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ﴾، فجاء التَّعْبيرُ بالإسلام دونَ الإيمانِ؛ إذْ لم يَرِدِ النَّظْمُ القرآنيُّ: (وَكَفَروا بَعْدَ إيمانِهِمْ)؛ للإيماء إلى أنَّ إقْرارَهُم بالإيمان في الظَّاهر كذبٌ، وأنَّ أفعالَهُمْ صوَرٌ لا حقائقَ لها، وأنَّ ما صدر منهم هو شَيْءٌ لم يتجاوَزْ ألسنتَهُم، فكان معنى قوله سُبْحانَهُ: ﴿وَكَفَرُواْ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ﴾: أنَّهم أظهَروا الكُفْرَ بِما ظهر من قبيح أفعالِهم وشَنيع أقوالِهم[1]، ذلك " أنَّهم أظهروا الكفر بالقول، وهمُّوا بشرِّ ما يغري به من الفعل، وهو الفَتْكُ برسول الله ﷺ، وقد أظهره الله على ذلك، وأنبأه بأنَّهم سينكرونه إذا سألهم عنه، ويحلفون على إنكارِهم ليُصدَّقوا كدأْبِهم الَّذي سبق"[2].

دِلالَةُ الإضافَةِ في ﴿إِسْلَٰمِهِمْ﴾:

أُضيفَ الإسْلامُ إلى الضَّمير الرَّاجعِ إلى المنافقين في قولِ الله سُبحانه: ﴿وَكَفَرُواْ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ﴾ للدِّلالة على أنَّه ليس الإسلامَ المطلوبَ مِنْهُم شرعًا، وإنَّما المعنى: بعدَ إظْهارِهمُ الإسلامَ، ولِذا لم يَرِدِ النَّظْمُ القرآنيُّ في هذا الموضع، مُعَرِّفًا لَفْظَ الإسلام باللَّام المفيدَةِ الحقيقةَ، والمرادُ في الآيَةِ: بعد إسلام، هو مِن شأنكم وعادَتِكُم، وهوَ تعريضٌ بأنَّه إسلامٌ صوريٌّ غيرُ الإسلامِ الحقِّ[3]، وقوله: ﴿بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ﴾، ولم يقل بعد إيمانهم؛ لأنَّ ذلك لم يتجاوز ألسنتهم[4]، ولطالما سترهم النَّبيُّ الأكرم، وتجاوز

ما يُظْهِرُهُ المُنافِقونَ مِنْ أَفْعالٍ وَأَقْوالٍ، صُوَرٌ زائِفَةٌ مصطنعةٌ

الإِسْلامُ الَّذي يُظْهِرُهُ المُنافِقونَ، هوَ صورَةُ الإِسْلامِ لا حَقيقَتُهُ

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/60، والبقاعيّ، نظم الدرر: 8/549.
(2) محمّد رشيد رضا، تفسير المنار: 10/476.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/252.
(4) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/60.

عن أقوالهم وتصرُّفاتهم، لعلَّهم يرعوون عن غيِّهم، ولكنَّهم ازدادوا كفرًا، وزاغوا، فأزاغ الله قلوبهم، وعرَّى نيَّاتِهم، وأبان عن دواخلهم، فأصبحوا كالإبل الجُرْب، لا يحظونَ بودٍّ ولا قربٍ، ويكفيهم عارًا وشؤمًا أن خلَّد الله مساءتهم، وأبان عن مثالبهم في القرآن المحفوظِ بحفظ الله إلى يوم القيامةِ، وذلك أكبرُ الخزي، وأشنعُ العار.

بَراعَةُ الإيجازِ في: ﴿وَكَفَرُواْ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ﴾:

شَناعَةُ كُفْرِ المُنافِقينَ بِسَبَبِ أَقْوالِهِمْ وَأَفْعالِهِمُ المستقبحة

في قولِ الله ﷻ: ﴿وَكَفَرُواْ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ﴾ إيجازٌ بالحَذْفِ، وذلك أنَّه لم يَقَعْ منهم حقيقةُ الإسلام أصلًا، بَلْ صورتُهُ فحسبُ، فكان معنى ﴿بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ﴾ أي: بعد الحُكْم بإسلامِهم، وفي إيقاعِ إسلامهم محلَّ الحُكْم به: زيادَةُ تشنيع كُفْرِهم؛ بِسَبَبِ مقالَةِ السُّوء الَّتي قالوها وأفعالِ الضَّلال الَّتي ارْتَكَبوها[1]، والآفة فيما وصفوا به من النِّفاق، هو أنَّهم أظهروا ما في قلوبِهم منَ الكفر، وما في بواطنهم من الضَّغينة بعد إظهارِهم الإسلامَ، وادِّعائهم أنَّهم دخلوا فيه، وعُدُّوا من أهليه، ولكنَّهم كانوا على العكس من ذلك، يشبهون الأجسامَ الغريبةَ النَّشازَ، وسط النَّسيج المتضامِّ المتراصِّ، وكفْرُهم بعد الإسلام يزيد من مسؤوليَّتهم الأدبيَّة، ومن تفاقم دورهم التَّخريبيِّ؛ لأنَّهم يهدِّدون حصونَ الأمَّة من الدَّاخل، ويسعون في الأرض فسادًا، والله لا يصلح عملَ المفسدين.

دِلالَةُ التَّعْبيرِ بِالفِعْلِ الماضي ﴿وَهَمُّواْ﴾:

اجْتِماعُ أَنْواعِ الكُفْرِ القَوْليَّةِ والفِعْليَّةِ والاعْتِقاديَّةِ في المُنافِقينَ

جاء التَّعْبيرُ بالفِعْلِ الماضي ﴿وَهَمُّواْ﴾ مِن قول الله ﷻ: ﴿وَهَمُّواْ بِمَا لَمْ يَنَالُواْۚ﴾، للدِّلالة على تحقُّق صُدورِ هذا الهمِّ مِنْهُم، وتردُّدِه في نفوسِهم، ورغبتِهم في تنفيذِهِ، وذلك أنَّ أَعْلى شَغَفِ الإنسانِ بأمرٍ ما أن تُحدِّثَهُ نفسُهُ فيه بما لا يصِلُ إليه، فيكونُ ذلك لَوْنًا مِن ألوانِ

(1) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 8/207.

الهَوَسِ، وفي ذِكْرِ الهمِّ بعد ما تقدَّمَ إشعارٌ بأنَّهم جمعوا أنواعَ الكُفْرِ كُلَّها؛ قولًا وفعلًا واعتقادًا[1].

نُكْتَةُ التَّعْبيرِ بِالِاسْمِ المَوْصولِ: ﴿بِمَا﴾:

حِفْظُ النُّبوَّة مِنْ كيد المُنافِقينَ المهين بكيده تعالى المتين

(ما) في قول الله سُبحانه: ﴿وَهَمُّواْ بِمَا لَمْ يَنَالُواْۚ﴾ اسمٌ موصولٌ بمعنَى الذي، وفي الاسمِ الموصولِ إبهامٌ، ولذا يفتقِرُ إلى الصِّلة لرفعِ إبهامِهِ، ولم يُصرَّح بالذي هَمُّوا به - وهو الفَتْكُ برسولِ اللهِ ﷺ [2] - استعظامًا للتَّصريح بهِ، وإيماءً إلى أنَّه بعيدُ المنالِ عنهم، فكما لم يُذكر ذَلكَ لَفْظًا؛ فلَن يتحقَّق واقِعًا، والمقصود بقوله: ﴿وَهَمُّواْ بِمَا لَمْ يَنَالُواْۚ﴾، هو الشُّروع في تنفيذ الجريمة الَّتي خطَّطوا لها من قبلُ، وهي الفتْكُ برسول الله ﷺ، متى صعد على العقبة باللَّيل، وهو شروعٌ في القتل، مع سبق الإصرار والتَّرصُّد، ولكنَّ اللهَ حمى نبيَّه، وفشلت هاته العمليَّة فشلًا ذريعًا، وأصيب منفِّذوها بخيبة الأمل، وحمى الله نبيَّه من كيدِ أعداء الله ورسوله، وكان في ذلك إعلانٌ صريح، بأنَّ الله عاصمُ نبيِّه من أذى البشر، فلا يقدرون على أذاته، وقد عصمَهُ الله من كيد أعداء الدِّين[3].

دِلالَةُ الواوِ في: ﴿وَمَا نَقَمُوٓاْ﴾:

تَصَرُّفاتُ المُنافِقينَ مُنْبِئَةٌ عَنْ كَراهيَّتِهِمْ لِلإِسْلامِ وَأهله

الواوُ في قول الله ﷻ: ﴿وَمَا نَقَمُوٓاْ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦۚ﴾ عاطفَةٌ، فقد عَطَفَت هذه الجملَةَ على جملةِ الحالِ في قوله سُبحانه قبلُ: ﴿وَلَقَدْ قَالُواْ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ﴾، والمعنى: وكَفَروا بعد إسلامهم وهَمُّوا بقَتْلِ رَسولِ اللهِ ﷺ، والحالُ أنَّهم ما يَنْقِمون على النَّبيِّ ﷺ، ولا على دُخولِ الإسلامِ المدينَةَ شيئًا يَدْعوهم إلى هذا الَّذي يصدُرُ منهم مِن آثار الكراهيَّة والعداوَةِ إلَّا أن أَغْناهُمُ اللهُ ورَسولُه مِن فَضْلِه[4].

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/549.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/291.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/291.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/270.

بَلاغَةُ تَأْكيدِ المَدْحِ بِما يُشْبِهُ الذَّمَّ:

الدِّينُ الإسلاميُّ خَيْرٌ عميمٌ، وعطاءٌ كريم

في قول الله ﷻ: ﴿وَمَا نَقَمُوٓاْ إِلَّآ أَنۡ أَغۡنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضۡلِهِۦۚ﴾، تأكيدٌ للمَدْحِ بِما يُشبِهُ الذمَّ[1]، كما قال الشَّاعر:

وَلا عَيْبَ فيهِمْ غَيْرَ أَنَّ سُيوفَهُمْ *** بِهِنَّ فُلولٌ مِنْ قِراعِ الكَتائِبِ[2]

وذلك أنَّ الاستثناءَ في الآيةِ استثناءٌ مفرَّغٌ مِن أعَمِّ المفاعيلِ، أَيْ: وما كَرِهوا شَيْئًا مِنَ الأشْياءِ الَّتي أَتَتْهُم مِنَ اللهِ سُبحانَهُ إلَّا ما حقُّه أن يُشْكَرَ[3]، وهو إغناءُ اللهِ تَعالى إيَّاهُم، وهَذا مِن تَأْكيدِ المَدْحِ بِما يُشْبِهُ الذَّمَّ؛ وذلكَ لأنَّ اللهَ تَعالى نَفى أَن يَكونَ عندهم شيءٌ يصلحُ أن يَنْقِموا به، ولازمُ هذا مدحُ ما جاءَهُم به اللهُ تَعالى مِنَ الإيمان وتوابعِه، فلمَّا جاءَ حرفُ الاستثناء (إلّا) كان السَّامعُ مُتَرَقِّبًا شيئًا يُمكنُهم أن يَنْقِموا به فيكون ذمًّا للإيمان وتوابِعِه، لكنَّ الواردَ بعدَ حرف الاستثناء مدحٌ آخَرُ، وهو قولُه: ﴿أَغۡنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضۡلِهِۦۚ﴾، فكانَ في هذا تأكيدٌ للمدْح بما يُشبه الذَّمَّ، فهو كقولهم: ما لي عندكَ مِنْ ذنبٍ إلَّا أنَّني أحسنتُ إليكَ[4]، ونُكْتَةُ ذلك: إظْهارُ أَنَّ المتكلِّمَ كأنَّه يبحث عن شيءٍ ينقضُ به حكمَهُ الخبريَّ ونحوَهُ، فيورِدُ أمرًا آخرَ هوَ مِن

(1) أوَّل من انتبه إلى هذا اللَّون من البديع المعنويِّ، عبد الله بن المعتزِّ، وعدَّه من محاسن الكلام، وسمَّاه: (تأكيد المدح بما يشبه الذَّمَّ)، ومن البلاغيين من يسمِّيه: (الاستثناء)، ناظرين إلى أن حُسْنه ناشئ من أثر أداة الاستثناء الَّتي يبنى عليها، وتسميَةُ ابن المعتزِّ أدلُّ، ومن أمثلته البديعة قول حاتم الطَّائيِّ:

وَما تَشْتَكيني جارَتي غَيْرَ أَنَّني *** إذا غابَ عَنْها بَعْلُها لا أَزورُها
سَيَبْلُغُها خَيْري وَيَرْجِعُ أَهْلُها *** إِلَيْها وَلَمْ تُقْصَرْ عَلَيَّ سُتورُها

يُنظر: عبد العزيز عتيق، علم البديع، (فصل تأكيد المدح بما يشبه الذّمّ).

(2) البيت للشَّاعر النَّابغة الذُّبيانيِّ، والشَّاهد النحوي في البيت نصب: (غير) على الاستثناء المنقطع، وهو موجود في همع الهوامع: 1/232، وخزانة الأدب: 3/327، وشرح أبيات المغني: 3/16، وكذلك: شرح الشَّواهد الشِّعريَّة في أمَّات الكتب النَّحويَّة: 1/168.

(3) ابن عطيَّة، المحرّر الوجيز: 3/60، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 16/105، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 8/549.

(4) الآلوسيُّ، روح المعاني: 5/329.

مؤكِّدات الحُكْم ومثبِّتاتِه للإشعار بأنَّه قدِ اسْتَقْصَى، فَلَم يجِدْ ما يُبْطِلُ ذلك الحُكْمَ[1].

دِلالَةُ تَعْريفِ المُسْنَدِ إِلَيْهِ بِالعَلَمِيَّةِ في قَوْلِه: ﴿وَمَا نَقَمُوٓاْ إِلَّآ أَنۡ أَغۡنَىٰهُمُ ٱللَّهُ﴾:

عُرِّفَ المسنَدُ إليه بالعلَميَّةِ في قولِ اللّه سُبحانَهُ: ﴿أَغۡنَىٰهُمُ ٱللَّهُ﴾؛ لبيان عَظَمَةِ هذا الإغناءِ وشرفه، إذ هوَ إغْناءٌ صادِرٌ عَمَّنْ له جميعُ صفاتِ الجلالِ والجمال والكمال، وهوَ الغنيُّ عنِ العالَمين، وجميعُ ما يَصْدُرُ مِنَ العظيمِ عظيمٌ[2].

إغناءُ اللهِ سُبْحانَهُ لِخَلْقِهِ؛ عطاء ممدودٌ بلا حدود

سِرُّ الإضافَةِ في: ﴿وَرَسُولُهُۥ﴾:

في قولِه: ﴿إِلَّآ أَنۡ أَغۡنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضۡلِهِۦٓ﴾ أُضيفَ لفظُ الرَّسولِ إلى الضَّمير الرَّاجعِ إلى اللّه ﷻ في الآية الكريمة، تعظيمًا لَه ﷺ، وبيانًا لرفعةِ شأنه وقدرِه عند ربِّه سُبحانَه؛ إذْ هوَ ﷺ أحقُّ الخلقِ بحيازة عَظَمةِ الإضافةِ إلى اللّه ﷻ[3]، وبالنَّظر إلى حال المخاطَبين، فهم ما عابوا من رسول اللّه إلَّا أن أغناهمُ اللّه من فضله الواسع، وعطائه المتدفِّق، بعد أن كانوا فقراءَ معوزين، وهذا من عجيب التَّعامل، وغريب التَّصرُّف، أن يستهينوا بمن كان سببًا لإخراجهم من الظُّلمات إلى النُّور، وانتشالهم من الفقر والكآبة إلى الغنى والرَّحابة، فهل حقُّه عليهم إلَّا أن يجازوه بالتَّعظيم، ويكافئوهُ بالتَّكريم، فيؤمنوا بهديه المنْزَل، ويعرفوا له قدرَهُ ومقامه، وفضلَهُ ومكانه؟ فاجتمع بذلك، الدَّاعي الدِّينيُّ من جهةٍ، وداعي المروءة الإنسانيَّة من جهةٍ أخرى[4].

بَيانُ عَظَمَةِ النَّبيِّ وقدره، وَرِفْعَةِ شَأْنِهِ عِنْدَ رَبِّهِ

دِلالَةُ عَطْفِ الرَّسولِ عَلى الاِسْمِ الأَعْظَمِ في قَوْلِه: ﴿إِلَّآ أَنۡ أَغۡنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾:

عُطِفَ الرَّسولُ عَلى الاِسْمِ الأَعظم ﴿ٱللَّهُ﴾ في فعل الإغناءِ في

النَّبيُّ ﷺ سَبَبٌ في إغْناءِ المسلمين وعزوتهم

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/270.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/549.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/549.
(4) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن: 1/344.

قول الله ﷻ: ﴿وَمَا نَقَمُوٓاْ إِلَّآ أَنۡ أَغۡنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضۡلِهِۦۚ﴾؛ لكونِه السَّبَبَ المباشرَ الظَّاهِرَ لهذا الإغناء، واللهُ ﷻ هو المقدِّرُ ذلكَ ومسبِّبُهُ، وَوَجْهُ كَوْنِ النَّبيِّ ﷺ سَبَبًا في ذلك أنَّ اللهَ ﷻ أغناهُم بما جَلَبَهُ حلولُ النَّبيِّ ﷺ بينهم، مِن أَسْباب الرِّزْقِ بِكَثْرَةِ عمَلِ المُهاجرينَ، ووَفْرَة المغانم في الغزوات، وبالأَمْنِ الَّذي جاء به الإسلامُ؛ إذْ صيَّر المؤمنينَ إخوةً، فزالَتْ بينهمُ الأحقادُ والثَّاراتُ[1].

دِلالَةُ ﴿مِن﴾ في: ﴿إِلَّآ أَنۡ أَغۡنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضۡلِهِۦۚ﴾:

حرفُ الجرِّ ﴿مِن﴾ في قول الله ﷻ: ﴿وَمَا نَقَمُوٓاْ إِلَّآ أَنۡ أَغۡنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضۡلِهِۦۚ﴾ دالٌّ على مَعْنى الابتداءِ، أي: إنَّ هذا الإغْناءَ مُبتدَأٌ مِنْ فضل الله ﷻ، وفي جَعْلِ هذا الإغْناء مِنَ الفَضْلِ كنايَةٌ عَن وفرةِ ما أُغْنيَ بهِ؛ وذلك لأنَّ صاحِبَ الفضْلِ يُعْطي الجَزْلَ[2].

صاحِبُ الفَضْلِ يُعْطي الجَزْلَ ويوفي البذل

نُكْتَةُ تَأْخيرِ الجارِّ والمَجْرورِ ﴿مِن فَضۡلِهِۦۚ﴾:

لمّا كانَ قولُ اللهِ ﷻ: ﴿وَمَا نَقَمُوٓاْ إِلَّآ أَنۡ أَغۡنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضۡلِهِۦۚ﴾ واردًا على سَبيلِ الذَّمِّ لِلمُنافقينَ؛ أخَّر الجارُّ والمجرورُ ﴿مِن فَضۡلِهِۦۚ﴾؛ لكونِ هذا التَّأخيرِ أَدْخَلَ في ذمِّهِمْ وَأَقْعَدَ[3].

دِقَّةُ البَيانِ القُرْآنيِّ في التَّصَرُّفِ بِالأَلْفاظِ تَقْديمًا وَتَأْخيرًا

سِرُّ إِفْرادِ الضَّميرِ في: ﴿فَضۡلِهِۦۚ﴾:

أُفرد الضَّمير في ﴿فَضۡلِهِۦۚ﴾ مِنْ قَوْلِ اللهِ ﷻ: ﴿وَمَا نَقَمُوٓاْ إِلَّآ أَنۡ أَغۡنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضۡلِهِۦۚ﴾، وكان مُقْتَضى الظَّاهر: (إلَّا أن أَغْناهُمُ اللهُ ورَسولهُ مِن فَضْلِهما)، للإشْعارِ بأنَّ الفَضْلَ فضلُ اللهِ سُبْحانَهُ وحْدَهُ، وما كانَ لِلنَّبيِّ ﷺ من الفضْلِ؛ فهو مِن فضْلِ الله ﷻ[4]، ومعنى ذلك: وَما عابوا عليه إلَّا أَنْ أَغْناهُمُ الله وَرَسولُهُ من فضْلِهِ، أي: أثراهم

الفَضْلُ للهِ ﷻ وَحْدَهُ في كلِّ نعمةٍ ومنَّةٍ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/270.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/270.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/549.
(4) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 9/5344.

بالغنائم بعد شدَّةِ حاجتهم[1]، و"هو تسفيهٌ لهم، واستنكار لهذا المنكر الَّذي هم فيه.. وأنَّهم لم يتَّخذوا هذا الموقف المنحرف اللَّئيم من اللّه ورسوله، إلَّا لِما أفاءَ اللّه ورسوله به عليهم، من فضله.. وهكذا أصحاب الطِّباع السَّيِّئة، والنُّفوس المريضة، تنقلب حقائقُ الأشياء عندهم، فإذا النُّور ظلامٌ، والحقُّ باطلٌ، والنِّعمةُ نقمةٌ"[2].

دِلالَةُ الفاءِ في: ﴿فَإِن﴾:

الجَمْعُ بَيْنَ الوَعْدِ والوَعيدِ، والتَّرْغيبِ والتَّرْهيبِ، من بيان القرآن

الفاءُ في قَوْلِ اللّهِ ﷻ: ﴿فَإِن يَتُوبُواْ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْۖ﴾، دالَّةٌ على التَّفريعِ، فَجملةُ ﴿فَإِن يَتُوبُواْ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْۖ﴾، تَفْريعٌ على قولِهِ سبحانَهُ قَبْلُ: ﴿جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْۚ﴾، على عادَةِ القُرْآن الكَريمِ في إيرادِ الوعيدِ بعد الوعْد، والعكس؛ وذلكَ أنَّ اللّهَ ﷻ، لمّا أمرَ بجهادهم والغِلْظَةِ عليهم، وهدَّدهُم بالنَّار وتوعَّدهم بها؛ فرَّع على ذلك الإخْبار بأنَّ بابَ التَّوبةِ مَفْتوحٌ لَهُم، وأنَّ بإمكانهم استدراكَ حالهم؛ إذِ القَصْدُ مِنَ الأمْرِ بجِهادِهِم والغلظَةِ عليهم هو قَطْعُ دابرِ مضرَّتهم، أو أن يصلُحَ حالُهُم[3].

دِلالَةُ تَعْليقِ الشَّرْطِ بِـ (إنْ) في: ﴿فَإِن﴾:

شِدَّةُ الانْحِرافِ عَنِ الحَقِّ، لا تَمنعُ من الرُّجوعِ إِلَيْهِ

عُلِّق الشَّرطُ بـ (إنْ) في قول اللّه سُبْحانَهُ: ﴿فَإِن يَتُوبُواْ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْۖ وَإِن يَتَوَلَّوْاْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا﴾؛ لكون (إنْ) مفيدَةً عدمَ القطْعِ بوقوع مَدْخولِها، وهي جاريَةٌ على أصلِها في هذه الدِّلالَةِ؛ لأنَّ توبَتَهُمْ ليس مَقْطوعًا بها؛ إذ قد يَسْتَمرُّونَ في باطلهم ونِفاقِهِم، وكذا الشَّأْنُ في تَولِّيهم عَنِ التَّوبة واستمرارِهم في كُفْرِهِم؛ فإنَّه مَشْكوكٌ بِهِ؛ إذ قد تَحْصُلُ منهم التَّوبةُ والرُّجوعُ عن ذلك إلى طاعةِ اللّهِ سُبْحانَهُ واتِّباع رَسولِه ﷺ، والإقلاع عن نفاقِهِم، ثُمَّ إنَّ استعمالَ

(1) الزّحيليّ، التّفسير المنير: 10/309.
(2) عبد الكريم الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 5/847.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/271.

حَرْفِ الشَّرط (إنْ) هوَ الملائمُ لبابَي الوَعْدِ والوعيدِ؛ لإبقاءِ ما يترتَّب على كلٍّ مِنَ التَّوبة والتَّولِّي مُمْكِنَ الحصولِ.

نُكْتَةُ تَقْديمِ التَّوْبَةِ: ﴿فَإِن يَتُوبُواْ﴾ على التولي ﴿وَإِن يَتَوَلَّوْاْ يُعَذِّبْهُمُ﴾:

قُدِّم ذِكْرُ التَّوبةِ على ذِكْرِ التَّولِّي في قول اللّه ﷻ: ﴿فَإِن يَتُوبُواْ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْۖ وَإِن يَتَوَلَّوْاْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا﴾؛ للإشْعار بأنَّ أمرَ اللّهِ تَعالى نبيَّه ﷺ بجهادهم والصَّرامة معهم، وأنَّ ما توعَّدَهُمُ اللّهُ تَعالى بِهِ مِن عذاب النَّار، ليس مَقْصودًا به ذواتُهُم، بَل بسبب ما هم عليه مِنَ الضَّلال والانحراف، وأنَّ الشَّرعَ يتشوَّفُ إلى توبتهم ورجوعهم إلى الحقِّ مع ما يَتَرَتَّب عَلى ذَلِكَ مِنَ الخَيْرِ العَظيم لَهُم أَكْثَرَ مِن ترقُّبِهِ استمرارَهُم على باطِلِهم.

الشَّرْعُ يَتَشَوَّفُ إلى تَوْبَةِ المُخالِفينَ وَرُجوعِهِمْ إلى الحَقِّ

دِلالَةُ التَّعْبيرِ بِفِعْلِ الكَوْنِ في: ﴿يَكُ﴾:

جيءَ بفعْلِ الكَون في جَواب الشَّرط، فقال اللّهُ ﷻ: ﴿فَإِن يَتُوبُواْ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْۖ﴾، دون أن يَرِدَ النَّظْمُ القرآنيُّ: (**فَإِنْ يَتوبوا فهو خيرٌ لَهُم**)؛ وذلكَ لِقَصْدِ توكيدِ وُقوع الخير عند إيجادهمُ التَّوبةَ، والإيذانِ بِأنَّ الخيْرَ لا يكونُ إلَّا عِنْدَ التَّوبةِ، وذَلك لأنَّ فِعْلَ الكَوْنِ مُشْعِرٌ بذلكَ[1]، و" هو تنبيهٌ لهؤلاء الضَّالِّين، وإشارة مضيئةٌ تطلع في ليلهم المطبق عليهم، رجاء أن يتوبوا إلى اللّه، ويستقيموا على طريقِ الحقِّ، فإن فعلوا؛ رشدوا، وأَمِنوا، وإن أَبوا؛ ضلُّوا، وهلكوا"[2].

لا خَيْرَ للإنسان إلَّا في التَّوْبَةِ وَطاعَةِ الدَّيان

بلاغةُ الاقْتِطاعِ في: ﴿يَكُ﴾:

في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿فَإِن يَتُوبُواْ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْۖ﴾، ضربٌ مِن ضُروب إيجاز الحَذْفِ، وهوَ المسمَّى: الاقتطاعَ[3]، وذلك في حَذْفِ النُّون من

شَدُّ ذِهْنِ السَّامِعِ إلى مَعْرِفَةِ حالِهِ في التَّوْبَةِ مهمٌّ في البيان

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/271.

(2) عبد الكريم الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 5/848.

(3) والاقتطاع: حقيقتُهُ: حذف بعض حروف الكلمةِ، وهو ذكر حرف من الكلمة وإسقاط الباقى، كقوله تعالى: ﴿وَٱمْسَحُواْ بِرُءُوسِكُمْ﴾ [المائدة: 7]، فقيل: إنّ الباء هنا أوّل كلمة: (بعض)، ثمّ حذف الباقى. ينظر: إبراهيم الأبياريّ، الموسوعة القرآنيّة: 3/83.

وقيل: "ومن أقسام الحذف: الاقتطاع: وهو ذكر حرف من الكلمة وإسقاط الباقي، وقد جعل منه بعضهم فواتح السُّور، لأنَّ كلَّ حرف يدلُّ على اسم من أسماء الله تعالى". يُنظر: الكفويّ، الكلّيات، ص: 385.

﴿يَكُ﴾؛ إذِ الأصلُ: يكُنْ، فحُذِفَتِ النُّونُ تخفيفًا، وحسَّنَ هذا الحَذْفَ أنَّ المقامَ فيه ما يشُدُّ السَّامِعَ إلى معرفة حاله فيه، فكان في حَذْفِ النُّونِ تنبيهٌ عَلى ذَلك[1]، وتعجيلٌ للمسرَّةِ الحاصلَةِ بسبَبِ التَّوبةِ، وللإيضاح فيما روي في الرِّوايات الصِّحاح، "قيل: لمَّا تلاها رسول الله ﷺ، قال الجُلاسُ: يا رسولَ اللهِ لقدْ عرض اللهُ عليَّ التَّوبةَ، والله لقد قلت وصدق عامرٌ، فتاب الجلاسُ وحسُنت توبتُه"[2].

بَيانُ مَرْجِعِ الضَّميرِ وَوَجْهِ تَذْكيرِهِ في: ﴿يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ﴾:

فائدةُ عَوْدِ الضَّميرِ عَلى مُذَكَّرٍ لَفْظًا وَمَعْنًى أَوْ لَفْظًا فَقط

اسمُ كانَ مِن قول اللهِ ﷻ: ﴿فَإِن يَتُوبُواْ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ﴾، ضميرٌ مستترٌ تقديرهُ: هوَ، راجعٌ إلى ﴿يَتُوبُواْ﴾ باعْتِبار المَصْدَرِ المستَكِنِّ في الفِعْلِ لا إلى ذات الفعلِ؛ إذْ لا يَكونُ مَرْجِعُ الضَّميرِ فعلًا، فالمعنى: تَكنِ التَّوبةُ خيرًا لهُمْ، وقُدِّر الضَّميرُ (هوَ) مذكَّرًا؛ لأنَّه الملائِمُ لتذكير الفعل ﴿يَكُ﴾، وفي ذلكَ تَخْريجاتٌ: أوَّلُها: أنَّ مرجعَ الضَّميرِ مذكَّرٌ، وهو التَّوْبُ، والتَّقدير: فإن يَتوبوا؛ يكُ التَّوبُ خيرًا لَهُم، والتَّوبُ مصدرٌ كالتَّوبة. وثانيها: أنَّ مرجِعَ الضَّمير هوَ التَّوبة، ولا يَضُرُّ تذكيرُ الفعلِ مع ما هو مؤنَّثٌ لفظًا؛ لأنَّ مثلَ هذا مغتفَرٌ في المصادِرِ. وثالثُها: أن يكونَ تذكيرُ الفعل باعتبار الخَبَرِ لا باعتبارِ الاسم، والخبَرُ وهو ﴿خَيْرًا﴾ مُذَكَّرٌ[3].

دِلالَةُ الخَبَرِ في: ﴿فَإِن يَتُوبُواْ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ﴾:

إخسانُ اللهِ بفتحِ بابِ التَّوْبَةِ للأنام، رغم جرائمهم العِظامِ

قولُ اللهِ ﷻ: ﴿فَإِن يَتُوبُواْ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ جُمْلَةٌ خبريَّةٌ؛ إذِ التَّحقيقُ في جملة الشَّرْطِ، أنَّهُ يُنظَرُ إليها باعتبار جوابِها، فإنْ كانَ جوابُها خبرًا؛ فهي خبريَّةٌ، وإنْ كانَ جوابُها إنشاءً؛ فهي إنشائيَّةٌ، والجوابُ في قولِ اللهِ سُبحانَهُ: ﴿يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ خبرٌ، فالجملَةُ خبريَّةٌ، والقَصْدُ من

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/550.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/85.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 5/329.

الخبر استعطافُ قلوبِهم بَعْدَ ما صدَرَ عَنْهُم من الجناياتِ العَظيمَةِ، وهَذا من عَظيمِ إحْسانِ اللّه تعالى إليهم ورِفْقِه ولُطْفِه بِهِم؛ حيثُ فَتَحَ لَهُم بابَ التَّوبةِ بعد جرائمهم العِظامِ[1]، فقد "دعاهم تعالى إلى التَّوبة بقوله: ﴿فَإِن يَتُوبُواْ﴾، أي: من الكفر والنِّفاق، ﴿يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ﴾"[2].

نُكْتَةُ تَضْعيفِ الفِعْلِ ﴿يَتَوَلَّوْاْ﴾:

في النُّفوسِ داعيَةٌ شَديدَةٌ - بِأَصْلِ الفِطْرَةِ - إلى التَّوْبَةِ

ضُعِّفَ الفِعْلُ ﴿يَتَوَلَّوْاْ﴾ في قول اللّه ﷻ: ﴿وَإِن يَتَوَلَّوْاْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا﴾؛ لأنَّ في النُّفوس مِنْ أصلِ فطرَتِها الأولى داعيةً شَديدةً إلى التَّوبةِ، وفي القُرآنِ الكريم زاجرًا عظيمًا عَنِ الانحراف، فكانَ في تَضْعيفِ الفِعْلِ ﴿يَتَوَلَّوْاْ﴾ إيماءٌ إلى أنَّ العدول عن التَّوبةِ، لا يكونُ إلَّا بِمُخالَفَةِ داعية النَّفْسِ، وزَواجر القُرآن الكريم، ولا يكونُ هَذا إلَّا بأَنْ يُكَلِّفوا أنفسَهُم الإعراضَ عن التَّوبة[3].

دِلالَةُ الإيجازِ بِالحَذْفِ في: ﴿وَإِن يَتَوَلَّوْاْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا﴾:

شَناعَةُ الإعْراضِ عَنِ التَّوْبَةِ والإيمانِ

في قول اللّه ﷻ: ﴿وَإِن يَتَوَلَّوْاْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا﴾، إيجازٌ بالحَذْفِ، فقد حُذِفَ متعلَّقُ الفعلِ ﴿يَتَوَلَّوْاْ﴾، والتَّقدير: فإن يتولَّوا عن التَّوبةِ والإيمانِ[4]، وفي حذْفِ ذلكَ إشعارٌ بِشناعَةِ ما يصْنَعونَهُ مِنَ الإعراض والتَّولِّي، وأنَّه أمرٌ لا يَحسُنُ ذِكْرُه في اللَّفظ، فكيف حالُهُ إذا صار واقعًا؟

وفي قوله تعالى: ﴿وَإِن يَتَوَلَّوْاْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا﴾، حَذْفٌ مِن جهة أخرى، وذلك لأنَّ اللّه تَعالى ذكرَ احتمالَ تولِّيهم عَنِ الإيمانِ، ولازِمُ ذلكَ إصرارُهم على الكُفْرِ والنِّفاق، فمعنى قوله سبحانَهُ: ﴿وَإِن يَتَوَلَّوْاْ﴾، أي: إن يُعْرِضوا عنِ التَّوبة والإيمان، ويُصرُّوا على النِّفاقِ والكُفْرِ[5].

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 16/105، وأبو حيّان، البحر المحيط: 5/466.
(2) القاسميّ، محاسن التّأويل: 5/458.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/550.
(4) ابن الجوزيّ، زاد المسير: 2/280.
(5) الخازن، لباب التّأويل: 2/386.

دِلالَةُ تَعْريفِ المُسْنَدِ إِلَيْهِ بِالعَلَمِيَّةِ:

بيانُ عَظَمَةِ العَذابِ الَّذي يُعَذَّبُ بِهِ المُخالِفونَ لِرَسُولِ الله

في قولِ اللّه تعالى: ﴿وَإِن يَتَوَلَّوْاْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا﴾، عُرِّفَ المسنَدُ إليه بالعلَميَّةِ في قول اللّه سُبحانَهُ: ﴿يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ﴾؛ وهو أعرف المعارف؛ لأنَّه علمٌ على واجب الوجود، بكلِّ معاني الكمال فيه، وقد جيء به لبيانِ عَظَمَةِ هذا العذابِ وشدَّتِهِ، ﴿وَإِن يَتَوَلَّوْاْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ في الدُّنْيا بالقتل والهمِّ والغمِّ، والآخِرَةِ بالنَّارِ وغيرها من ألوان العذابِ الصَّاعقة لمن يصطلي به[1]؛ إذْ هوَ عذابٌ صادرٌ مِنْ عِنْدِ مَنْ جَمَعَ صفاتِ الكمالِ والجلالِ، وهوَ المحيطُ بكلِّ شيءٍ قُدرةً وعلمًا بحَوْلِهِ وقوَّتِهِ[2].

دِلالَةُ تَنْكيرِ لفظ ﴿عَذَابًا﴾:

بيانُ شِدَّةِ العَذابِ الأُخْرَويِّ المهول الذي يَنالُ المُنافِقينَ

نُكِّرت كلمةُ ﴿عَذَابًا﴾ مِنْ قَوْلِ اللّهِ ﷻ: ﴿وَإِن يَتَوَلَّوْاْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ لإفادَةِ التَّعظيم، فهوَ عذابٌ عظيمٌ شديدٌ، ويجوزُ أن يَكون التَّنكيرُ لبيانِ النَّوعيَّةِ، أي: يُعذِّبهُم اللّهُ سبحانَهُ عذابًا لَيْسَ مِن جِنْسِ العذاب الَّذي أَلِفوه، ولا تعارُضَ بينَ الدِّلالَتَيْنِ، بَل إحْداهُما تقوِّي الأخرى، ووَصْفُ العذابِ بالأليم في قَوْلِه ﷻ: ﴿يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا﴾، بمنزلةِ التَّأكيدِ المعنويِّ؛ لأنَّ شدَّة العذابِ وإيلامَهُ وشدَّتَه، مستفادَةٌ مِن تنكيرِ لفظِ العذاب.

دِلالَةُ الطِّباقِ في: ﴿فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ﴾:

العذابُ الشَّديدُ عَلى المُنافِقينَ متواصلٌ في الدَّارين

في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿وَإِن يَتَوَلَّوْاْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ﴾ طباقُ إيجابٍ بينَ ﴿ٱلدُّنْيَا﴾ و﴿وَٱلْآخِرَةِ﴾، وفيه إشعارٌ باسْتِمْرار العَذابِ الشَّديد عليهم وعدم انقطاعه عنهم، بَل فيهِ إيماءٌ إلَى أنَّهم يُعذَّبونَ أيضًا في قبورهم، إمَّا لكون العذاب في القُبور مِن أحوالِ الآخرةِ، أَوْ لأنَّ أحوالَ القبرِ بَرْزَخٌ بينَ الدُّنيا

(1) القاسميّ، محاسن التّأويل: 5/458.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/550.

والآخرَةِ، والقاعدَةُ تقتضي أنَّ البَيْنَ مستحضَرٌ في الطَّرفين، فذِكْرُ الدُّنيا والآخرةِ يقتضي أنَّ ما بينَهُما داخِلٌ فيهما.

دِلالَةُ الواوِ في: ﴿وَمَا لَهُمْ﴾:

يُغْتَفَرُ في التَّوابِعِ ما لا يُغْتَفَرُ في المتبوعاتِ

الواوُ في قول اللهِ سُبْحانَهُ: ﴿وَمَا لَهُم فِي ٱلْأَرْضِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ عاطفَةٌ؛ عطفَت ما بعدها عَلى جُملةِ: ﴿يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا﴾، فتكون جوابَ شَرْطٍ ثانيًا، ولا يُشْكِلُ عَلى هَذا كَوْنُ الجملة اسميَّةً، ولم تقترِنْ بالفاء الرَّابطَةِ؛ لأنَّه يُغْتَفَرُ في التَّابع ما لا يُغتفرُ في المَتْبوع، فإنَّ حرفَ العطفِ يَكفي في رَبْطِ الجُمْلَةِ تبعًا للجُمْلَةِ المعطوف عليها[1].

نُكْتَةُ التَّعْبيرِ بِلفظ ﴿ٱلْأَرْضِ﴾:

سُفولُ هِمَمِ المُنافِقينَ وانْحِطاطُ عَزائِمِهِمْ دليلٌ على هوانهم

في قول الله ﷻ: ﴿وَمَا لَهُم فِي ٱلْأَرْضِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾، نجد لفظ ﴿ٱلْأَرْضِ﴾، وفيه الإيماءُ إلى سُفول هِمَمِ المنافقينَ وانحطاطِ عزائمهم[2]، والمُرادُ بالأرضِ: الدُّنيا، أي: ما لَهُم في هَذه الدُّنيا من وليٍّ ولا نصيرٍ، ووجهُ انعدام الوليِّ والنَّصير عَنْهُم: أَنَّ أخَصَّ ما يتميَّز به المنافق، هو فُقْدانُهُ الإخلاص، فلا يُخلِصُ لأحدٍ قريبًا كانَ أو بعيدًا، ولذا لا يكونُ أحدٌ وليًّا له ونصيرًا؛ لأنَّ ذلكَ لا يكونُ إلَّا بالثِّقَةِ، ولا يوثَقُ بمنافقٍ[3].

دِلالَةُ (ال) في لفظ ﴿ٱلْأَرْضِ﴾:

لا منقذَ لِلمُنافِقينَ مِنَ العَذابِ لا بِالشَّفاعَةِ ولا بالغلاب

في قولِ الله تعالى: ﴿وَمَا لَهُم فِي ٱلْأَرْضِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ اللَّامُ في ﴿ٱلْأَرْضِ﴾ مِن الآية الكريمة، لامُ الجنسِ المفيدَةُ عمومَ البقاع المُندرِجة في لفظها، وفي هَذا دِلالَةٌ عَلى حُلول العَذاب الشَّديد عَلى المُعْرِضينَ عن التَّوبةِ المتولِّين عَنِ الإيمانِ، وأَن لا ناصرَ لهم ينقذهم من العذاب بالشَّفاعةِ أو المُدافعةِ، فقولهُ ﷻ: ﴿وَمَا لَهُم فِي ٱلْأَرْضِ﴾

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/271.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/550.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3381.

أي: ليسَ لَهُم في الأرض مع سَعَتِها وتباعُد أَقْطارِها، وكَثْرةِ أهلِها، مَن يُنْقِذُهم مِن العَذاب[1].

دِلالَةُ ﴿مِن﴾:

حرفُ الجرِّ ﴿مِن﴾ في قول الله ﷻ: ﴿وَمَا لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾، صِلَةٌ يُرادُ بِها تأكيدُ عُموم النَّفْي، ونقلُهُ مِنَ الظُّهورِ إلى النَّصِّيَّةِ، وذلك لأنَّه لو ورد النَّظْمُ القرآنيُّ: (وما لَهُم في الأَرْضِ وَليٌّ ولا نصيرٌ)؛ لأفاد هذا العُمومَ الظَّاهِرَ، مع احتمالِ إرادَةِ الخصوصِ، لكن لَمَّا دخلَ حرفُ الجرِّ (مِنْ) نقَلَ هذا العمومَ من كونه ظاهرًا في العموم، إلى كونه نصًّا فيه، فلا يحتَمِلُ إرادَةَ الخصوصِ، فكان في قولِه سُبحانه: ﴿وَمَا لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾، التَّصريحُ بنفي الشَّافع للمنافقينَ، والمدافع عنهم نَفْيًا قاطِعًا.

لا تغني الشَّفاعةُ في المصير، ولا ينفع وليٌّ ولا نصير

نُكْتَةُ عَدَمِ ذِكْرِ السَّماءِ: ﴿وَمَا لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾:

صُرِّحَ بِذِكْرِ الأرض، ولم تُذكَرِ السَّماء في قولِ الله ﷻ: ﴿وَمَا لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾؛ لأنَّ المُنافقينَ أَقَلُّ شأنًا مِن أَن يَطْمَعوا من السَّماء بوليٍّ أَوْ ناصرٍ، وأَغْلَظُ فِكْرًا مِن أن يرتَقيَ بهم فِكْرُهُم إلى ما في السماء مِنْ عجائبَ وما بِها مِن جُنودٍ[2]، ولأنَّ طلبهم النُّصرة، إنَّما يكون من الأرض لا من السَّماء؛ لأنَّ اعتقادهم في نصرة السَّماء كان معدومًا، وكانوا يرون الاتِّصال المباشر بالله مستحيلًا، وأنَّهم يعبدون الأصنام لتقرِّبهم إلى الله زلفى، وهم القائلون: ﴿۞هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ۝٣٦ إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ۝٣٧﴾ [المؤمنون: 36 - 37]، ولذلك تلاءم التَّعبيرُ عن الأرض دون السَّماء، مع المراد في السِّياق.

انْحِطاطُ شَأْنِ المُنافِقينَ نتاجُ سوء تقدير العواقب

سرُّ انقطاعِ الولاية بين غير المؤمنين:

قوله: ﴿وَمَا لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾، يُشيرُ إلى أنَّ اللهَ تعالى

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/85، والآلوسي، روح المعاني: 5/329.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/551.

حصر ولاية الأخوَّة والمودَّة وولاية النَّصر في المؤمنين والمؤمنات دونَ المنافقين والمنافقاتِ، فلَنْ يجدوا بعد الآن أحدًا من المسلمين يتولَّاهم، أو ينصرُهم بما يظهرون من النِّفاق، ولا من عصبيَّةِ الجاهليَّةِ، فقد أبطلَها الإسلامُ، ولا من الجوار والحلف فقد ضاع أدراجَ الرِّياح، ولا من أهل الكتاب، فقد ضاعَ سلطانُهم، وتلاشوا في تلافيف الزَّمان، وليس لهم ذلك في الدُّنيا ولا في الآخرةِ، وهو من بليغِ التَّعبيرِ، وجميلِ الإشارة إلى التَّغيُّرات الكبرى في المصائرِ والعلاقات، والجزمِ بما هو منطوٍ في تلافيفِ الغيبِ، ممَّا لا يحيط به إلَّا علَّامُ الغيوب، ولذلك انتهت الآية بهذا النَّفي الجازمِ الفصيح، لتيئيسِ الكفرةِ والمنافقين، من أيِّ ولاية أو نُصرةٍ، قد يطمعون في اللُّجوء إليها؛ إذا حلَّ بهم العقابُ في الدُّنيا، أو قدموا للعذاب في الآخرة[1].

من اعتصمَ بغير الله؛ ضلَّ، ومن احتمى بغيره؛ ذلَّ

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

نَقَمَ وأَنْكَرَ:

بين (نَقَم) و(أنكرَ) عمومٌ وخصوص مطلق، فالفعل (نَقَمَ) أخصُّ من (أَنْكَرَ)؛ وذلك أنَّ قولَ القائلِ: أَنكرتُ مِنْهُ كذا، يَدلُّ على أنَّه لم يُجَوِّزْ صنيعَهُ، ويُفيدُ أيضًا أنَّ المُنْكِرَ بيَّنَ أنَّ ذلك ليس بِصَلاحٍ، بخلافِ قَوْلِ القائل: نَقَمَ مِنْهُ، فإنَّه يدلُّ على أنَّه أَنْكَرَ عليه إنكار مَنْ يُريدُ العقابَ، ويدلُّ لِذلكَ قولُ اللهِ سُبحانه: ﴿وَمَا نَقَمُواْ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝٨﴾ [البروج: 8]؛ فإنَّهُم أنكروا منهم توحيدَهُمُ اللهَ تعالَى، وعذَّبوهُم عَلى ذَلك في الأُخْدودِ، ويدلُّ لِذلك أيضًا قولُ اللهِ ﷻ: ﴿وَمَا نَقَمُوٓاْ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦۚ﴾، فإنَّهم أَنْكَروا ما جاءَهُمْ به الرَّسولُ ﷺ باطنًا، وهمُّوا بقتله أو إخراجه[2].

الفِعْلُ (نَقَمَ) أخصُّ من الفعل (أَنْكَرَ)، وفي النِّقمة إرادةُ العقوبة دون الإنكار

(1) محمّد رشيد رضا، تفسير المنار: 10/481، (بتصرّف).
(2) أبو هلال العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 47.

﴿۞وَمِنۡهُم مَّنۡ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنۡ ءَاتَىٰنَا مِن فَضۡلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ
وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ٧٥ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضۡلِهِۦ بَخِلُواْ بِهِۦ
وَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعۡرِضُونَ ٧٦ فَأَعۡقَبَهُمۡ نِفَاقٗا فِي قُلُوبِهِمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ
يَلۡقَوۡنَهُۥ بِمَآ أَخۡلَفُواْ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُواْ يَكۡذِبُونَ ٧٧﴾

[التّوبة: 75 - 77]

❁ مُناسَبَةُ الآياتِ لِمَا قَبْلَها:

عِظَمُ بُخلِ المُنافِقينَ وَجَراءَتِهِمْ عَلى أَقْبَحِ الكَذِبِ وَأَشْنَعِهِ

لَمَّا أقامَ اللّهُ ﷻ الدَّليلَ الخاصَّ على إجرام المنافقينَ، وخَتَم ذلكَ بأنَّه أغناهُمْ من فضلِهِ؛ أتبعَ ذلكَ بإقامة الدَّليلِ علَى هذا الإغْناءِ، وأنَّهم لم يَقوموا فيهِ بحقِّ اللّهِ سبحانَهُ، وأنَّهم قابلوا إنْعامَ اللّهِ تَعالى عليهم بقَبْضِ أَيديهِم عَنِ الإنفاق واجترائهم عَلى أَقْبَحِ الكَذِبِ وأشنعه، فقال ﷻ: ﴿۞وَمِنۡهُم مَّنۡ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنۡ ءَاتَىٰنَا مِن فَضۡلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ﴾[1]، والحال أنَّ "من المنافقين من أعطى اللّه عهدَهُ وميثاقه، لئن أغناه اللّه من فضله، وأعطاه مالًا وثروةً، ليشكرَنَّ اللّه على نعمتهِ بالصَّدقَةِ منها، وليعملنَّ عمل أهل الصَّلاح، من صلةِ الرَّحم والإنفاق في سبيل اللّه"[2]، لكنَّه أخلفَ الوعد، ولم يلتزم بالعهد، وأظهر نفاقَه وكَذِبَهُ.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿عَٰهَدَ﴾: أصلُ العَهْدِ: حِفْظُ الشَّيء ومراعاتُه حالًا بعدَ حالٍ[3]، وهذه المُراعاةُ حالًا بَعْدَ حالٍ هيَ الَّتي عبَّر عَنْها الخليلُ بقولِهِ: إحداثُ العَهْدِ بِالشَّيء[4]، ومِنْ هذا البابِ: العهدُ الذي هو الوصيَّةُ[5]؛

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/268.
(2) أسعد حومد، أيسر التّفاسير: 13/11.
(3) الرّاغب الأصفهانيّ، المفردات، ص: 591، والسَّمين الحلبيّ، عمدة الحُفّاظ: (عهد).
(4) الخليل بن أحمد، العين: (عهد).
(5) الجوهريّ، تاج اللّغة وصحاح العربيَّة: (عهد).

لكونها مِمّا تُحْفَظُ، وتُراعى حتَّى تَنْفُذَ، وللعهد معانٍ كثيرةٌ جدًّا، منها: الأمانُ، واليَمينُ، والذِّمَّة، ورعاية الحقِّ، والمَنْزِل[1]، وكلُّها راجعةٌ إلى الأصل المذكور، والمُعاهَدَةُ في قولِ اللّه ﷻ: ﴿۞وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ﴾ معاقَدَةٌ بعزيمةٍ تتحقَّق بذِكْرِ اللّه تعالى[2]، والعَهْد العقدُ، يُقال: عاهَدَ، أي: عقد عقدًا أوجب على نَفسه القيامَ به، وهو عكسُ الغدر[3]، العهد هُنا الميثاقُ، ومنه قوله تعالى: "﴿وَأَوْفُواْ بِٱلْعَهْدِۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ٣٤﴾ [الإسراء: 34]، وقوله: ﴿فَأَتِمُّوٓاْ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْۚ﴾ [التّوبة: 4]، والعهد: الحفظ، ورعايةُ الحقِّ، وهو مصدر، وفي الحديث: «أنَّ عجوزًا دخلت على النَّبيِّ ﷺ، فسألَ بها وأحفى، وقال: إنَّها كانت تأتينا أيامَ خديجة، وإنَّ حُسْنَ العهد من الإيمان»[4].

2) ﴿بَخِلُواْ﴾: الباءُ والخاءُ واللَّام، تَدورُ تَصْريفاتُها عَلى معنى إمساكِ ما يُتَطَلَّبُ، ويُمْكِنُ إخْراجُهُ[5]، وحقيقَةُ البخل - كما قال الرَّاغِبُ -: إمْساكُ المُقْتَنَياتِ عمَّا لا يَحِقُّ حَبْسُها عنه[6]، ويُعرَّفُ أيضًا بأنَّهُ: مَنعُ الواجِب في دينٍ أَو مُروءةٍ أو عادةٍ[7]، وقد (بَخِلَ) بكذا من باب فَهِمَ وطَرِبَ، وبُخلًا أيضًا بالضَّم، فهو باخلٌ وبخيل، وبخَّلَهُ نسبَهُ إلى البُخْلِ[8]، ويقال: «الولدُ مبخلةٌ مجبنةٌ»[9]، والبُخْلُ في قولِ اللّه ﷻ: ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُواْ بِهِۦ﴾، هوَ إمساكُهُم فضلَ اللّهِ تعالى الَّذي آتاهُم، فَلَمْ يتصدَّقوا مِنْهُ، ولَم يَصِلوا بهِ قرابةً، ولم يُنْفِقوا منه في حَقٍّ مِن حُقوق اللّهِ سُبْحانَهُ[10].

3) ﴿فَأَعْقَبَهُمْ﴾: العَيْنُ والقافُ والباءُ، تدُلُّ اشْتِقاقاتُها عَلى معنيَين كُلِّيَّيْنِ؛ أحدُهما:

(1) القاسم بن سلّام، غريب الحديث: (عهد)، والأزهريّ، تهذيب اللُّغة: (عهد)، ونشوان الحِمْيَريّ، شمس العلوم، (عهد).
(2) الواحدي، التفسير البسيط: 10/558.
(3) الميورقيّ، تفسير غريب ما في الصّحيحين البخاريّ ومسلم، ص: 426.
(4) أخرجه الحاكم في المستدرك: 1/15 - 16، والشّهاب القضاعيّ في مسنده، الحديث رقم: (971)، والحديث مذكور في النّهاية: 3/325، وذكره كذلك: نشوان بن سعيد، شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم: (عهد).
(5) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (بخل).
(6) الرّاغب، المفردات: (بخل).
(7) أبو موسى المديني، المجموع المغيث في غريبي القرآن والحديث: (بخل).
(8) الرّازيّ، مختار الصّحاح: (بخل).
(9) والحديث ورد بهذه الصّيغة، وبصيغة فيها زيادة، وهي قوله: «الوَلَد مَبْخَلَة مَجْبَنَة مَحْزَنَة مجهلَة»، وقد رواه بصيغته المختصرة ابن ماجه عن عبد الله بن سلام، قال: جاء الحسن والحسين يستبقان إلى النّبيّ ﷺ فضمّهما إليه، وذكره، وللعسكريّ والحاكم عن الأسود بن خلف أنّ النّبي ﷺ أخذ حسنًا فقبّله، ثمّ أقبل عليهم، فقال: «إنّ الولد مجبنة مبخلة»، ينظر: الثّعالبيُّ، الجواهر الحسان في تفسير القرآن: 5/440.
(10) ابن جرير، جامع البيان: 14/369.

تأخيرُ شَيْءٍ ومجيئُه بَعْدَ غيره، والآخرُ: ارتِفاعٌ وشِدَّةٌ وصُعوبةٌ[1]، ومِنَ الأوَّل قَوْلُهم: أَعْقَبَ الشَّيْءُ الشَّيْءَ؛ إذا صارَ مكانَهُ؛ لأنَّه يَكونُ متأخِّرًا عَنْهُ[2]، ومِنْهُ سمِّيتِ العقوبةُ بذلكَ؛ لأنَّها تَكون آخرًا بعد الذَّنْبِ[3]، وقد قال الشَّاعر:

كَمْ مِنْ عَزيزٍ أَعْقَبَ الذُّلَّ عِزَّهُ *** فَأَصْبَحَ مَرْحومًا وَقَدْ كانَ يُحْسَدُ[4]

"وكلُّ شيءٍ يعقُبُ شيئًا، فهو عقيبُه، كقولك: (خَلَف يخلُفُ) بمنزلة اللَّيل والنَّهار، إذا قضى أحدهما عقب الآخر، فهما عقيبان، كلُّ واحدٍ منهما عقيبُ صاحبه، ويعتقبان، ويتعاقبان: إذا جاء أحدُهما؛ ذهب الآخر، وقولُ اللّه ﷻ: ﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا﴾، أيْ: عوَّضهم، وأبدلَهُمْ عقوبةً لَهُمْ"[5].

4) ﴿نِفَاقًا﴾: النُّون والفاءُ والقافُ، تَدُلُّ تَصْريفاتها على أَصْلَيْنِ؛ أحدُهما: انقطاعُ الشَّيء وذهابُه، والآخَرُ: إخفاءُ شَيْءٍ وإغماضُهُ[6]، ومِنَ الثَّاني: النِّفاقُ؛ وهوَ إظهارُ الإسْلام مَعَ إبْطانِ الكُفْرِ وإخفائِهِ[7]، وهو مأخوذٌ مِن نافِقاء اليَرْبوعِ؛ وهو جُحْرٌ يَخْرُجُ مِنْهُ إذا سُدَّ الجُحْرُ الَّذي دخَل مِنْهُ بِحَجَرٍ، فيُقال: نَفَقَ ونافقَ، فشُبِّهَ فعلُ المنافق بفعل اليَرْبوع؛ لأنَّه يدخُل مِن باب، ويَخْرُج مِن آخرَ، وكذلكَ المُنافقُ يَدْخُل في الإسلامِ باللَّفْظِ، ويَخْرُج مِنْهُ بالاعْتِقادِ[8].

المَعْنى الإجْماليُّ:

يذكر السِّياقُ أنَّ مِن هَؤلاءِ المُنافقين جماعَةً مِنَ الفُقَراء، يَقولُ أحدهم: لَئِنْ أَعْطانا اللّهُ تَعالى مِن فَضْلِه، ورَزَقَنا مالًا، لَنُخْرِجَنَّ الصَّدقةَ مِن ذَلِكَ المالِ الَّذي رَزَقَنا إيَّاه، ولَنَعْمَلَنَّ فيه بعَمَل أهلِ الصَّلاح بأَمْوالِهم، مِن صِلَةِ الرَّحم بهِ، وإنْفاقِه في سَبيلِ اللّهِ تَعالى، فلمَّا رزقهم اللّه، وآتاهُم مِن فَضْلِهِ؛ لَم يتصدَّقوا مِنْهُ، ولم يصلوا مِنْهُ قرابةً،

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عقب).
(2) نشوان الحميريّ، شمس العلوم: (عقب).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عقب).
(4) الخليل بن أحمد، كتاب العين، وابن سيده المرسيّ، المحكم والمحيط الأعظم، وابن منظور، لسان العرب: (عقب).
(5) ينظر: كتاب العين: (عقب).
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نفق).
(7) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (نفق).
(8) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 29.

ولم يُنْفِقوه في أوجُهِ الخير، وأدبروا عن عَهْدِهم، فكانَ جزاءُ بُخْلِهم بحقِّ اللّهِ تَعالى الَّذي فرضه عليهم، فيما آتاهُم مِن فَضْلِه، وإخْلافِهم الوعْدَ الَّذي وعدوا اللّه تعالى، ونَقْضِهم عَهْدَه في قلوبهم: أن زادَهُم نِفاقًا عَلى نفاقهم، لا يَقْدِرون على الانفكاك منه إلى أن يَلْقَوُا اللّهَ عَلى تلك الحال، وذَلك بِسَبَبِ إخْلافِهِمُ العَهْدَ الَّذي عاهَدوا اللّهَ تَعالى عليه؛ مِنَ التَّصدُّق والإنْفاقِ في سَبيلِهِ، وبسبب نفاقهم وكَذِبهم في قيلِهِم[1].

المُنافِقونَ أَكْذَبُ النَّاسِ في القَوْلِ، وَأَشَدُّهُمْ خُلْفًا وغدرًا

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

دِلالَةُ الواوِ: ﴿وَمِنْهُم﴾:

الواوُ في قول اللّه ﷻ: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ﴾ استئنافيَّةٌ، والجملةُ بعدَهُ استئنافٌ[2] يُرادُ به بيانُ صِنْفٍ مِن أصنافِ المنافقينَ، بعد الأمر بجهاد عامَّتِهم والغِلْظَةِ عليهم.

بَيانُ حال صِنْفٍ مِنْ أَصْنافِ أَهْلِ النِّفاقِ

دِلالَةُ (مِنْ) في: ﴿وَمِنْهُم﴾:

حرفُ الجَرِّ (مِنْ) في قَوْلِ اللّهِ ﷻ: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ﴾ دالٌّ على التَّبعيضِ، والضَّميرُ (هُمْ) راجعٌ إلى المنافقينَ، وفي استعمال حَرْف الجرِّ (مِنْ) إيماءٌ إلى أدبٍ قرآنيٍّ راقٍ، وهوَ الإنصافُ ولَو مَعَ المخالفينَ المعادينَ لنا، فاللّهُ سُبحانه يُعلِّمنا الصِّدقَ في الأحْكام والإنصافَ فيها؛ لئلَّا نُسْرِفَ في القولِ، فنُعَمِّم القولَ في المَقاماتِ الخاصَّةِ[3].

أمرُ اللهِ تَعالى بالصِّدْقِ في الأَحْكامِ والإنْصافِ فيها

نُكْتَةُ التَّعْبيرِ بِالاسْمِ الأَعْظَم ﴿ٱللَّهَ﴾:

عُلِّقَ فعلُ المعاهدَةِ على الاسم الأعظم ﴿ٱللَّهَ﴾ في قول اللّه ﷻ: ﴿۞وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ﴾؛ تعظيمًا لهذه المعاهدَةِ؛ إذ هي مُعاهدَةُ

شَناعَةُ نَقْضِ العَهْدِ المُبْرَمِ مَعَ اللهِ ﷻ

(1) ابن جرير، جامع البيان: 14/369 - 370، ونخبة من العلماء، التّفسير الميسّر، ص: 199.
(2) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 4/138.
(3) محمّد أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3382.

الجامِعِ لصِفات الجَلال والجمال والكمال، والعظيم الَّذي لا أعظمَ منه[1]، ويترتَّب عَلى هذا تشنيعُ نقضهم لهذا العَهْدِ، وتَبْشيعُ خُلْفِهِمْ لهذا الوعد.

دِلالَةُ اللَّامِ في ﴿لَئِنْ﴾:

اضطرابُ قُلوبِ المُنافِقينَ في اليقين بعظمةِ ربِّ العالمين

اللَّامُ في ﴿لَئِنْ﴾ من قول اللّه ﷻ: ﴿لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ﴾ موطِّئةٌ لقسَمٍ مقدَّرٍ، وجوابُ القسم قولُهُ: ﴿لَنَصَّدَّقَنَّ﴾[2]، ففيه تأكيدٌ مِنْهُم للعهد الَّذي عاهدوا اللّهَ تعالى عليه، حيثُ بالغوا في العَزْمِ عَلى الوفاءِ بهِ بالقسَمِ، ومعَ هَذا التَّأكيدِ الشَّديدِ إلَّا أنَّهم نَقَضوهُ، وخالَفوهُ؛ لعدَمِ استقرار عظَمَةِ اللّهِ تعالَى في قُلوبِهِمْ.

نُكْتَةُ التَّعْبيرِ بِالإيتاءِ: ﴿لَئِنْ ءَاتَىٰنَا﴾:

طَمَعُ المُنافِقينَ في عَظيم العَطاءِ، وامتداد أملهم فيه بالرَّجاء

جاء التَّعبيرُ بالإيتاءِ دونَ الإعطاء في قول اللّه سُبْحانه: ﴿لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ﴾ لنكتتين:

إحْداهُما: تعظيمُ هذا العَطاء؛ لأنَّ الإيتاءَ في الاستعمال القرآنيِّ لا يكون إلَّا للشَّيء الكثيرِ والعَظيم القدْرِ، كالقُرآن، والتَّوراة، والمُلْك، والرَّحمَةِ، بخلاف الإعطاءِ[3]، فكأنَّهم طَمِعوا في عطاءٍ عظيم يَصْلُحُ معَهُ التَّعبيرُ بالإيتاءِ لِعَظَمَتِهِ، والأخرى: إيهامُ استحقاقهم فضْلَ اللّهِ سبحانَهُ، وأنَّهم له أهلٌ، ووجهُ ذَلِكَ: أنَّ الإيتاءَ يَرِدُ لِما يكون فيه العطاءُ عَن طيب نَفْسٍ.

دِلالَةُ الجارِّ والمجرورِ: ﴿مِن فَضْلِهِۦ﴾:

لا يَجِبُ عَلى اللهِ العليِّ، إلَّا ما أَوْجَبَهُ عَلى نَفْسِهِ في قَدَرِهِ الأزليِّ

قولُ اللّه ﷻ: ﴿۞وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ﴾، فيه قوله: ﴿مِن فَضْلِهِۦ﴾، وهو اعترافٌ مِن هَؤلاءِ المُنافقين، بأنَّ عطاءَ اللّهِ سُبحانه لعبادِهِ، لم يكن عَلى سبيل الإلزام عليهِ والإيجابِ،

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/552.
(2) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 6/358.
(3) محمّد محمَّد داود، معجم الفروق الدّلاليَّة في القرآن الكريم، ص: 27 - 29.

والمعلومُ عقيدةً وواقعًا أنَّه لا يَجِبُ عَلى اللهِ ﷻ، إلَّا ما أوجبه سُبحانَهُ عَلى نفسه، وأنَّ ذلك العطاء منه تكرُّمٌ وتفضُّلٌ، وهو متناسبٌ مع لفظ ﴿مِن فَضۡلِهِۦ﴾، وفي ذلك إيماءٌ مِنْهُمْ إلَى تنوُّعِ عطاءِ اللهِ ﷻ، وأنَّهم من المفروض أن يَرْضَوا به عن طواعية وسماحة، سواءٌ أكانَ عَن طَريق تِجارةٍ، أو غنيمةٍ، أو زراعَةٍ، أو نَحْوِ ذلك، أو كان تفضُّلًا منه دون سببٍ ظاهر، فعطاؤه كثيرٌ، وإنعامه أثيرٌ، وفضله لا نهاية له، وقد قال تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ١٨﴾ [النَّحل: 18].

سِرُّ التَّأْكيدِ في: ﴿لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ﴾:

في قولِ اللهِ ﷻ حكايةً عَن مقالةِ طائفةٍ مِنَ المُنافقين: ﴿لَئِنۡ ءَاتَىٰنَا مِن فَضۡلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ﴾ تأكيدٌ باللَّام الموطِّئة للقَسَم، وبالقَسَم المحْذوف، وبنونِ التَّوكيد الثَّقيلة أيضًا، وإنَّما كَثُرَ التَّأكيدُ في مقالةِ المنافقينَ؛ لأنَّهم كذَبَةٌ مارقون، وقَدْ جَرَتِ العادَةُ أنَّ الكاذب يظُنُّ أنَّ النَّاس يُكذِّبونَهُ[1]، فيُبالِغُ في دَفْعِ هذا ابتداءً لتَروجَ مقالَتُهُ.

الكاذِبُ يُبالِغُ في التَّأْكيدِ لِظَنِّهِ أَنَّ النَّاسَ تُكَذِّبُهُ

نُكْتَةُ التَّعْبيرِ بِـ(نَصَّدَّقُ) دونَ (نَتَصَدَّقُ):

عُبِّر بالفِعْل (نصَّدَّقُ) في قولِ اللهِ ﷻ: ﴿لَئِنۡ ءَاتَىٰنَا مِن فَضۡلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ﴾، دونَ أن يَرِدَ النَّظْمُ القرآنيُّ: (لَئِنْ آتانا مِن فَضْلِه لنتصَدَّقَنَّ)؛ لنكتتين: إحْداهما: كَوْنُ الأوَّلِ أَخَفَّ بالإدغام[2]، بخلافِ الآخَرِ ففيهِ ضربٌ مِنَ الثِّقَلِ، عِنْدَ اقترانِهِ بِنونِ التَّوكيد الثَّقيلَةِ، والأخرى: أنَّ قولَهُ تَعالى: ﴿لَنَصَّدَّقَنَّ﴾ فيهِ إيماءٌ إلى أنَّه تصدُّقٌ خالصٌ خالٍ مِنَ الرِّياء، وأَشْعَرَ بذلكَ الإدغامُ؛ إذ أصل (نصَّدَّقُ): (نَتَصَدَّقُ)، فأُخْفيَ حرفُ التَّاءِ

مَنِ ادَّعى الإحْسانَ؛ كذَّبته شواهدُ الامتحان

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/553.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/272.

بالإدغام[1]، فأشارَ هذا الإخفاءُ إلى إخفاء العمل عن المَخْلوقينَ، وهذه حقيقةُ الإخلاصِ.

سِرُّ التَّعْبيرِ بِفِعْلِ الكَينونة: ﴿وَلَنَكُونَنَّ﴾:

دَعْوَى المُنافِقينَ أَنَّهُمْ مَجْبولونَ عَلى الخَيْرِ، باطِلٌ وسفاهةٌ

جاء التَّعبيرُ بفعل الكون (نَكونَنَّ) في قول الله ﷻ: ﴿لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾، للإيهام بأنَّهم مَجْبولونَ على الخَيْرِ مطبوعونَ عليهِ[2]، والكينونة الَّتي يحملها لفظ (نَكونَنَّ)، تفيدُ تزييفَ الواقع الَّذي يعصف بوجدان المنافقين، ويوهم من يسمع كلامَهم أنَّهم جادُّون في التَّوق إلى الصَّلاح، والواقع غير ذلك، والدَّليل على زيف تلك الأقوالِ ما وقع منهم من سوء الأفعالِ.

نُكْتَةُ العُدولِ عن (وَلَنَكونَنَّ صالِحينَ):

اعْتِرافُ المُنافِقينَ الضِّمنيُّ، بِأَنَّهم غَيْرُ صالِحينَ

قال اللهُ ﷻ حكايةً لِمقالةِ المنافقينَ: ﴿وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾، دون أن يَرِدَ النَّظم القرآنيُّ: (وَلَنَكونَنَّ صالِحينَ)؛ لبيانِ أنَّهم يَعْلَمونَ من أنفسِهم كونهم ليسوا صالِحينَ، وإن أرادوا الإيهامَ بأنَّهم مجبولونَ على الخَيْرِ باستعمال فعل الكون، ولكنَّ حقيقةَ أمْرِهم أنَّهم يَشْعرونَ بأنَّهم ليسوا كذلك، وأنَّهم يَرْغَبون في العدولِ عَنِ الحالِ غير الصَّالحة إلى حالٍ أخرَى غير حالهم، فَيَنْدَرِجون في سِلْكِ الصَّالحينَ بَعْدَ أن لَم يَكونوا مِنْهُمْ[3].

دِلالَةُ (ال) في لفظ ﴿ٱلصَّٰلِحِينَ﴾:

ادِّعاءُ المُنافِقينَ بُلوغَهُمْ أَعْلى المَراتِبِ الفاضِلَةِ زيفٌ وتضليلٌ

في قولِهِ: ﴿وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾، الألف واللَّامُ في ﴿ٱلصَّٰلِحِينَ﴾، من قول الله ﷻ: ﴿لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ يُرادُ بها الكَمالُ، والمعنى: لنَكونَنَّ في زُمْرَةِ الصَّالحين الكامِلينَ في الصَّلاحِ الرَّاسِخينَ فيهِ.

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/553.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/553.
(3) محمّد أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3385.

دِلالَةُ (الفاءِ) في: ﴿فَلَمَّآ﴾:

الإيمانُ يوجِبُ الوَفاءَ، والنِّفاقُ يوجِبُ الإخْلافَ

الفاءُ في قَوْلِ اللّهِ ﷻ: ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾، دالَّةٌ على التَّرتيبِ والتَّعقيبِ، كما هو أصلُ دلالَتِها، فأفاد ذلكَ سُرعةَ استجابة اللّهِ سُبْحانه لهم؛ ليَظْهَرَ للنَّاس كَذِبُهُم في قيلِهم وخُلْفُهُم في وَعْدِهم ونقضُهم لِعَهْدِهم، وفيهِ ترتيبُ الإخلاف بالعهد؛ لأنَّ الحَلِفَ لا يَزيدُ أهلَ النِّفاقِ إلَّا خداعًا، ولا يُصيِّرُهُ مؤدِّيًا لِلْحَقِّ، فَحالُه على ضدِّ ما يوجبُهُ الإيمانُ؛ إذ الإيمانُ يوجِبُ الوفاءَ، والنِّفاقُ يوجبُ الإخلافَ[1].

نُكْتَةُ تَكْرارِ ﴿مِن فَضْلِهِۦ﴾:

عَطاءُ اللّهِ سُبْحانَهُ لِعِبادِهِ، مَحْضُ تَفَضُّلٍ وَتَكَرُّمٍ

في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿۞وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝٧٥ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾؛ كُرِّر الجارُّ والمجرور ﴿مِن فَضْلِهِۦ﴾، تقريرًا لما قالَهُ المعاهِدُ، وزيادَةً في تأكيدِ الإعلامِ، بأنَّ إعْطاءَ اللّهِ سُبحانَهُ أحدًا من عباده، هو محضُ تفضُّلٍ منه ﷻ وتكرُّمٍ[2]؛ إذْ لا يجبُ على اللّهِ سُبحانَهُ شيءٌ، إلَّا ما أوجبه هو تعالى عَلى نفسه تفضُّلًا منه وتكرُّمًا.

دِلالَةُ الفِعْلِ المُضَعَّفِ ﴿وَتَوَلَّوا۟﴾:

نفوسُ المُنافِقينَ ليست مَجْبولَةً عَلى الانْقيادِ إلى مَنْ أَحْسَنَ إلَيْها

في قولِه تعالى: ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟﴾. عُبِّر بالفعل ﴿وَتَوَلَّوا۟﴾، دلالة على أنَّهم كلَّفوا أنفسَهُمُ الإعْراضَ عَن طاعَةِ مَن تفضَّلَ عليهم بالعَطاءِ، مع معرفتهم قُبْحَ نقْضِ العَهْدِ وخُلْفِ الوَعْدِ[3]، "أي: أدبروا عن طاعةِ اللّه، وعن فعلِ الخير، وهم قومٌ دأبُهم التَّولِّي عن سماع الحقِّ، وشأنهم الانقيادُ للهوى والشَّيطان"[4].

نُكْتَةُ ذِكْرِ الإعْراضِ بَعْدَ التَّوَلِّي: ﴿وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾:

نُصَّ عَلى الإعْراضِ بَعْدَ ذِكْرِ التَّولِّي في قول اللّه ﷻ: ﴿وَتَوَلَّوا۟

(1) محمّد أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3384.
(2) البقاعيّ، نظم الدرر: 8/553.
(3) البقاعيّ، نظم الدرر: 8/553.
(4) طنطاويّ، التفسير الوسيط للقرآن الكريم: 6/358.

جمعُ المُنافِقينَ بين الانحرافِ بالقلب، والإعراضِ بالجوارح

﴿وَّهُم مُّعۡرِضُونَ﴾؛ لأنَّ التَّولِّيَ لمَّا كان قد يُطْلَقُ عَلى ما يَكونُ بالجسد فحسبُ؛ أُتبِعَ بذِكْرِ الإعراضِ؛ لبيانِ أنَّ ﴿وَتَوَلَّواْ﴾ بأَبْدانِهم، وأَعْرَضوا بقُلوبِهم[1]، فجمعوا في انحرافهم بينَ أعْمالِ القُلوب وأعمالِ الجَوارِحِ.

دِلالَةُ التَّعْبيرِ بِالجُمْلَةِ الاسْميَّةِ: ﴿وَّهُم مُّعۡرِضُونَ﴾:

الإعراضُ وَصْفٌ لازِمٌ لِلمُنافِقينَ؛ فَهُمْ لا ينفكُّون عنه

جاءَ التَّعْبيرُ بالجملة الاسميَّة، في قول الله ﷻ: ﴿وَّهُم مُّعۡرِضُونَ﴾؛ لبيانِ أنَّ الإعراضَ صفةٌ لازمَةٌ لَهُمْ، وليسَ وصفًا مُتجدِّدًا فيهم، فهوَ طَبْعٌ لَهُمْ وسجيَّةٌ، وقَد جرَتْ عادتُهُم عَلى الإعراض عن الطّاعات، فلا يُستَنْكَرُ منهم هذا[2].

دِلالَةُ (الواوِ): ﴿وَّهُم مُّعۡرِضُونَ﴾:

ديدنُ المُنافِقينَ، تَوَلِّيهِم بِإجْرامِهِمْ، وإعراضُهُم بِقُلوبِهِمْ

الواوُ في قَوْلِ الله ﷻ: ﴿وَّهُم مُّعۡرِضُونَ﴾ استئنافيَّةٌ، والجملَةُ بَعْدَها مستأنفَةٌ، ويجوزُ أن تَكونَ الواوُ حاليَّةً، والمعنى: تولَّوا بإجْرامِهم، والحالُ أنَّهم مُعْرِضونَ بقلوبِهم[3]، ويجوزُ أن تَكونَ هذهِ الجُمْلَةُ معترِضةً؛ لبيانِ عُموم حالهم وشأنهم، أي: تولَّوا وهُمْ قَوْمٌ عادَتُهُم الإعْراضُ[4].

بَراعَةُ التَّصْويرِ:

المُنافِقُ دائِمُ الانْفِلاتِ، فَلا ارْتِباطَ لَهُ بِوَعْدٍ وَلا عَهْدٍ

في قول الله ﷻ: ﴿۞وَمِنۡهُم مَّنۡ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنۡ ءَاتَىٰنَا مِن فَضۡلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ٧٥ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضۡلِهِۦ بَخِلُواْ بِهِۦ وَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعۡرِضُونَ ٧٦﴾، تصويرٌ بديعٌ لنفسِ البخيلِ الَّذي يُؤتيه اللهُ سُبحانَهُ مِن فضلِهِ، بعد أن أَخَذَ العَهْدَ بأنَّه يتصدَّقُ ويفعَلُ في هذا العطاء فِعْلَ أهلِ الصَّلاحِ، ووثَّقَ ذلك بأغلَظِ الأيمانِ، ثمَّ يكون مآلُهُ إلى نَقْضِ ذلك العَهْدِ، وخُلْفِ ذلكَ الوَعْدِ بخلًا بالمالِ وشُحًّا به،

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/553.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/553، والآلوسي، روح المعاني: 5/333.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 5/333.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/85.

فالمنافق لا يرتَبِطُ بوعْدٍ، ولا يلتَزِمُ بعَهْدٍ، بل نفسُهُ دائمَةُ الانفلات، عديمَةُ الاستقرار[1].

بَلاغَةُ أُسْلوبِ التَّرَقِّي:

كُفْرانُ نِعْمَةِ اللهِ تَعالى مَعَ تَقَدُّمِ العَهْدِ بِحِفْظِها، أَشَدُّ منه مَعَ عَدَمِ ذلك

جاءَ قولُ اللهِ سبحانَهُ: ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُواْ بِهِۦ وَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾، بعد تقدُّمِ قولِ اللهِ ﷻ: ﴿وَمَا نَقَمُوٓاْ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦ﴾، وذلك على سبيلِ التَّرقِّي؛ ووجهُ ذلك: أنَّ في الأولَى ذِكْرًا لكُفْرانِ نِعْمَةِ الغَنيِّ ﷻ، مِنْ غيرِ تقدُّمِ عهد منهم، وفي الثانية انتُقِلَ إِلَى الكلامِ عن كُفْرانِ نِعْمَةِ اللهِ سُبحانَهُ مع سبق عهد منهم على خلافِ ذلك؛ فكانَ هذا انتقالًا مِنَ الشَّديد والقبيحِ إِلَى الأَشَدِّ والأَقْبَحِ[2].

دِلالَةُ (الفاءِ) في: ﴿فَأَعْقَبَهُمْ﴾:

الجَزاءُ مِنْ جِنْسِ العَمَلِ، وكَما يَدين الفتى يدان

الفاءُ في قَوْلِ اللهِ سبحانَهُ: ﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ﴾، حرفٌ دالٌّ على التَّرتيب والتَّعقيب على ما هو الأصلُ فيه، وأفادَ ذلك تعجيلَ اللهِ ﷻ لَهُم العُقوبَةَ؛ لأنَّهم لمّا سارعوا في نقض عهدِهم، وخُلْفِ وعْدِهم الَّذي دلَّ عليهِ قولُ اللهِ ﷻ: ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُواْ بِهِۦ﴾؛ عجَّل اللهُ تَعالى لهم العقوبةَ، إذِ الجزاءُ مِنْ جنسِ العمَلِ[3].

بلاغةُ التَّضْمينِ في: ﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ﴾:

مقابلةُ الإتيان بالكُفْرانِ، جزاؤهُ غرسُ النِّفاق في الوجدان

الفعلُ (أَعْقَبَ) يتعدَّى لمفعولٍ واحدٍ، تقول: أعقبَ الشَّيءُ الشَّيءَ، ولكنَّه وردَ في قولِ اللهِ ﷻ: ﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ﴾، مُعَدًّى إلى مفعولين اثنين؛ إذ الأصلُ أن يَرِدَ النَّظْمُ القرآنيُّ: (أعقبَهُمْ بِنِفاقٍ)، فيتعدَّى للثَّاني بحرف الجرِّ لا بنفسِهِ، وإنَّما تعدَّى لمفعولَيْن؛ لأنَّه ضُمِّنَ مَعْنَى الفعل (آتَى) أو (أَعْطَى)[4]، فلمَّا آتاهُمُ اللهُ سبحانَهُ

(1) محمّد أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3384.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/553.
(3) محمّد أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3384.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/272.

مِنْ فضلِهِ، فَبَخِلوا بهِ؛ كان الأنسَبُ لحالِهِمْ أن يُؤتوا شيئًا آخرَ يصلُحُ لهم، وهوَ النِّفاقُ، فهو إيتاءٌ بدلَ إيتاءٍ.

بَيانُ مَرْجِعِ الضَّميرِ في: ﴿فَأَعْقَبَهُمْ﴾:

زيادَةُ التَّرْهيبِ مِنْ عَواقِبِ النِّفاقِ، والتَّخويفِ مِنْ مغبَّاتِهِ ومفاسده

في قولِ اللّه ﷻ: ﴿فَأَعْقَبَهُمْ﴾، ضميرٌ مستترٌ في محلِّ رفعٍ فاعلٌ، ومرجعُ الضَّميرِ هو: الاسمُ الأحْسَنُ (اللّه)، أي: فأعقبَهُمُ اللّهُ نفاقًا في قلوبهم، ويُؤيِّدُهُ قولُه سبحانه بعدُ: ﴿إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ﴾ فإنَّ الضَّميرَ هنا يَرْجِعُ إلى اللّهِ تَعالى؛ إذِ اللِّقاءُ الأخْرَويُّ إذا أُطْلِقَ؛ انصرفَ الذِّهْنُ إلى لقاء اللّه تعالى للحساب والجزاءِ، ويجوزُ أن يَعودَ الضَّمير على التَّمادي في البُخْلِ[1]، أي: إنَّ تماديَهُم على البُخْلِ؛ أورثَهُمْ نفاقًا مضافًا إلى نفاقِهِمْ، فيكون إسنادُ الإعقابِ إلَيْهِ مجازًا عقليًّا[2]، والأظهَرُ الأوَّلُ[3]؛ لأنَّ حملَ الكلامِ على الحقيقَةِ مُمْكِنٌ، وفيه زيادَةُ ترهيبٍ وتخويفٍ وتعظيم لهذا الإعقابِ؛ حيثُ صدرَ مِنَ الَّذي لا أعظمَ مِنْهُ، والَّذي يَصْدُرُ مِنَ العظيمِ عظيمٌ.

نُكْتَةُ تَنْكيرِ لفظ ﴿نِفَاقًا﴾:

المَعْصيَةُ تَوَلِّدُ المَعْصيَةَ، والنِّفاقُ يورِثُ النِّفاقَ

نُكِّرَ لَفْظُ النِّفاقِ مِن قول اللّه ﷻ: ﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ﴾، تعظيمًا لهُ، فالمعنى: أنَّ اللّهَ ﷻ أورثَهُمْ نِفاقًا عَظيمًا، ويَجوزُ أَنْ يُرادَ بالتَّنكيرِ الدِّلالَةُ على أنَّه نفاقٌ جديدٌ[4]؛ لأنَّه قَدْ تقدَّم بيانُ أنَّ هؤلاءِ منافقونَ، فلم يحصُلْ لَهُم أصلُ النِّفاقِ عقبَ فعْلَتِهم تلكَ، وإنَّما طرأَ عَليهم نفاقٌ آخرُ عَلى نفاقِهم الَّذي كان حاصِلًا وثابتًا، ولا تنافيَ بَيْنَ الدِّلالَتَيْنِ؛ لأنَّه يجوزُ أَنْ يكونَ المرادُ أنَّ اللّهَ ﷻ أعقبَهُمْ نفاقًا آخرَ زائدًا عَلى النِّفاق الَّذي كانوا متلبِّسين به، وهذا النِّفاق الجديدُ نفاقٌ عظيمٌ.

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/554.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/272.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 16/108.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/273.

دِلالَةُ حَرْفِ الجَرِّ ﴿فِي﴾:

أثرُ استِقرارِ النِّفاقِ في قُلوبِ المنافقين، وتَمَكُّنِه مِنْها بعمق

حرفُ الجرِّ ﴿فِي﴾ من قول الله ﷻ: ﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ﴾، دالٌّ على الظَّرفيَّة، وفيه إشارَةٌ إلى أنَّ النِّفاقَ الذي أعقبهم اللهُ سبحانَهُ إيَّاهُ في قُلوبِهم نفاقٌ ساكِنٌ قلوبَهُمْ متمكِّنٌ مِنْها؛ بألَّا يزالوا يَقولونَ ما لا يَفْعَلونَ[1]، فيكون المعنى: "وأورثهم ذلك البخلُ والتَّولِّي والإعراضُ عن الحقِّ والخير، نفاقًا راسخًا في قلوبهم، وممتدًّا في نفوسهم، إلى اليوم الَّذي يلقون فيه ربَّهم، فيعاقبهم عقابًا أليمًا على سوء أعمالهم"[2].

بَلاغَةُ الكِنايَةِ: ﴿إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ﴾:

التَّخويفُ مِنْ موافاةِ اللهِ تَعالى يَومَ القيامَةِ بِقَلْبٍ مُلِئَ نِفاقًا

المرادُ باليومِ الَّذي يَلْقَوْنَ فيه اللهَ سبحانه الوارِدِ في قوله ﷻ: ﴿إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ﴾، هو يومُ الحَشْرِ؛ لأنَّه يومُ لقاءِ اللهِ تَعالى للحسابِ والجَزاء[3]، فَفي ﴿يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ﴾ كنايةٌ، ونُكْتَةُ العدولِ عنِ التَّصريح بأنَّه يومُ الحَشْرِ إلى التَّعبير بيَوْمِ لِقاءِ اللهِ تَعالى: ما في التَّعبيرِ الكِنائيِّ مِنَ الرَّهْبَةِ والجلالِ والتَّخويف؛ إذ هو اليومُ الَّذي يَلْقى العبدُ فيهِ مَنْ له جَميعُ صفاتِ الجلالِ والكَمال، فكَيْفَ يَكون حالُ العبد؛ إذا وافَى اللهَ تعالَى بِنِفاقٍ عظيمٍ متأصِّلٍ في قلبِهِ، متمكِّنٍ مِنْهُ؟

دِلالَةُ (الباءِ) في: ﴿بِمَآ﴾:

أثَرُ حُروفِ المَعاني في بَيانِ الدَّلالاتِ القُرْآنيَّةِ

الباءُ في قول الله ﷻ: ﴿بِمَآ أَخْلَفُواْ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ﴾ دالٌّ على السَّببيَّةِ أو التَّعليلِ، أي: إنَّ اللهَ سُبحانه أورثَهم نفاقًا في قُلوبِهم بسببِ إخلافِهم وَعْدَ ربِّهم تعالَى وبِسَبَبِ كذبِهِمْ[4]، وقوله: ﴿بِمَآ أَخْلَفُواْ ٱللَّهَ﴾، أي: أخلفوا الوعدَ الَّذي وعدوه لله تعالى، وجعلَ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/554.
(2) طنطاويّ، التّفسير الوسيط للقرآن الكريم: 6/359.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/273.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/273.

الإخلافَ للّه ابتداءً لبيانِ جرمِهم فيما فعلوا؛ إذ إنَّهم أخلفوا اللّه تعالى خالقَهم وبارئهم ومالك أمرهم، وأيُّ نُكرٍ أشدُّ من ذلك؟

بَلاغَةُ الإظْهارِ في محلِّ الإضْمارِ: ﴿بِمَآ أَخۡلَفُواْ ٱللَّهَ﴾:

أَقْبَحُ صوَرِ إخْلافِ الوَعْدِ، هي إخلافُ الوعد مَعَ اللهِ سُبْحانَهُ

في قول اللّه ﷻ: ﴿بِمَآ أَخۡلَفُواْ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ﴾، إظهارٌ في مَوْضِعِ الإضْمارِ؛ لأنَّ مقتضى الظَّاهِرِ أن يرِدَ النَّظْمُ القرآنيُّ: (بما أَخْلَفوهُ ما وَعَدوهُ)؛ لأنَّه قَدْ تقدَّم ذِكْرُه صراحَةً في قوله: ﴿۞وَمِنۡهُم مَّنۡ عَٰهَدَ ٱللَّهَ﴾، ثمَّ أُعيدَت عليه الضَّمائرُ بعدُ: ﴿لَئِنۡ ءَاتَىٰنَا مِن فَضۡلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ٧٥ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضۡلِهِۦ بَخِلُواْ بِهِۦ وَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعۡرِضُونَ ٧٦ فَأَعۡقَبَهُمۡ نِفَاقٗا فِي قُلُوبِهِمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ يَلۡقَوۡنَهُۥ﴾، فلمَّا جاءَ هذا الموضِعُ وهو قولُهُ سُبحانَهُ: ﴿بِمَآ أَخۡلَفُواْ ٱللَّهَ﴾ أوردَ اسمًا مُظْهَرًا؛ لأنَّ التَّصريحَ به يُدْخِلُ المهابَةَ على نفسِ السَّامِعِ، ولبيانِ عظيمِ جرمهم؛ لأنَّهُ إذا كان خُلْفُ وعد آحاد النَّاسِ قبيحًا، فكيف حالُ هؤلاءِ، وقدَ أخلفوا الملِكَ الأَعْظَمَ الَّذي لا أعظمَ مِنْهُ، وهو الجامعُ لصِفاتِ الجَلال والكمالِ والجمالِ؟

نُكْتَةُ الجَمْعِ بَيْنَ إخْلافِ الوَعْدِ والكَذِبِ:

مُخْلِفُ الوَعْدِ لا يَتَحاشى الكَذِبَ عادَةً

في قولِ اللّهِ تَعالى: ﴿بِمَآ أَخۡلَفُواْ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُواْ يَكۡذِبُونَ﴾، ذَكَرَ اللّهُ سُبْحانَهُ سَبَبَيْنِ لإعْقابِهِمُ النِّفاق في قُلوبِهم؛ أَحَدُهُما: إخْلافُهُمُ الوَعْدَ، والآخَرُ: الكَذِبُ، فقال ﷻ: ﴿بِمَآ أَخۡلَفُواْ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُواْ يَكۡذِبُونَ﴾، وإنَّما نُصَّ على الكذِبِ بَعْدَ إخلاف الوَعْدِ؛ لأنَّ إخلافَ الوَعْدِ لَمَّا كان شديدَ القُبْحِ، وكان مرتكبُه لا يتحاشَى عادةً مِن مُطْلَقِ الكذب؛ قُرِنَ به[1].

نُكْتَةُ التَّعْبيرِ بِالفِعْلِ المُضارِعِ ﴿يَكۡذِبُونَ﴾:

تَجَدُّدُ الكَذِبِ مِنَ المُنافِقينَ، يكون مَقْرونًا بِالوَعْدِ أَوْ مُنْفَكًّا عَنْهُ

في التَّعبيرِ بالفعلِ المُضارعِ ﴿يَكۡذِبُونَ﴾ دونَ الماضي: (كَذَبوا) مِنْ قول اللّه ﷻ: ﴿بِمَآ أَخۡلَفُواْ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُواْ يَكۡذِبُونَ﴾

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/554.

إشعارٌ بأنَّ الكذبَ مِنْهُم يتجدَّدُ دائمًا، سواءٌ أكان مقرونًا مَعَ الوَعْدِ أَمْ مُنْفكًّا عَنْهُ[1].

سِرُّ التَّعْبيرِ بِفِعْلِ الكَوْنِ ﴿كَانُواْ﴾:

في التَّعبير بفِعْلِ الكَوْنِ ماضيًا في قول اللّه ﷻ: ﴿بِمَآ أَخۡلَفُواْ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُواْ يَكۡذِبُونَ﴾ إيماءٌ إلى كونِهم مُسْتَمِرّين عَلى الكذبِ في جميعِ المقالاتِ، ومِنْ جملتِها: وعدُهُم المذكورُ[2]. وفي قولِهِ: ﴿كَانُواْ يَكۡذِبُونَ﴾ جمعٌ بَيْنَ صيغَتَي الماضي - ﴿كَانُواْ﴾ - والمُضارِعِ - ﴿يَكۡذِبُونَ﴾ - فالماضي دالٌّ على أنَّ الكَذِبَ كائِنٌ فيهِم ومُتَمكِّنٌ مِنْهُم غايَةَ التَّمكُّنِ، والمضارع مفيدٌ تكرُّرَهُ وتجدُّدَهُ فيهم؛ فَبَلَغوا بذلكَ أسوأَ مراتبِ الكذِبِ[3].

تَمَكُّنُ الكَذِبِ في المُنافِقينَ غايَةَ التَّمَكُّنِ، شقاوةٌ ونكبة

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الإيتاءُ والإعْطاءُ:

الإيتاءُ والإعْطاءُ مَعْناهُما واحدٌ عندَ كَثيرٍ مِن أَصْحابِ المعجمات[4]، وفرَّق آخرونَ بينَهُما، وحاصِلُ التَّفريقِ راجعٌ إلى ثلاثَةِ أوجهٍ[5]: أَحَدُها: أنَّ الإيتاءَ لا مُطاوِعَ لفعله، فتقول: آتاني شيئًا فأخذتُه، بخلاف الإعطاءِ فإنَّ له مطاوعًا، فتقول: أعطاني شيئًا فَعَطَوْتُهُ، ويترتَّب على هذا أَنَّ الإيتاءَ أقوَى مِنَ الإعطاء؛ لأنَّ المتقرِّرَ أنَّ ما له مطاوعٌ مِنَ الأفعال أَضْعفُ في إثْباتِ مَفْعولِه مِمَّا لا مطاوِعَ له. ثانيها: أنَّ الإيتاءَ يُستعمَلُ غالبًا فيما له ثباتٌ وقرارٌ، بخلاف الإعطاءِ فإنَّ الغالبَ استعمالُهُ فيما يَنتقِلُ مِنْهُ بعد قضاء الأَرَبِ منهُ. ثالِثُها: أنَّ في الإعْطاءِ دليلًا على التَّمَلُّكِ بخلاف الإيتاءِ. وأمَّا في

الإيتاءُ لا مُطاوِعَ لفعله، ويرتبط بالثَّبات والتَّملُّك بخلاف الإعطاءِ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/554.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/86، والآلوسي، روح المعاني: 5/334.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 10/273، ومحمّد أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3386.
(4) الخليل بن أحمد، العين: (أتى)، والجوهريّ، تاج اللّغة وصحاح العربيّة: (أتى).
(5) أبو هلال العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 87، وأبو البقاء الكفويّ، الكلّيّات، ص: 212.

خصوصِ الاسْتِعْمالِ القُرآنيِّ للفظتَي (الإيتاء) و(الإعْطاء)؛ فإنَّ بينَهُما فرقًا مِن جِهَتَيْنِ[1]: إحْداهُما: أنَّ الإيتاءَ لَم يُستعملْ إلَّا للشَّيء الكَثير والعظيم الشَّأْنِ، كالقرآن الكريم، والتَّوراةِ، والمُلْكِ، والرَّحمة، بخلاف الإعطاءِ؛ فإنَّهُ يُستعمَلُ لِلشَّيْءِ القليلِ، ولم يَرِد الإعطاءُ مرادًا به الشَّيءُ الكثيرُ إلَّا بقيدِ ما يدلُّ على الكثرَةِ. والأخرى: أنَّ الإيتاءَ إذا صدَرَ مِنَ العَبْدِ يكون عَنْ طيبِ نَفْسٍ، بخلاف الإعْطاءِ؛ فَهوَ مُطْلَقٌ.

البُخْلُ والشُّحُّ والضِّنُّ:

البخلُ متعلِّقٌ بالمادِّيَّات، والضِّنُّ بالمعنويَّاتِ، والشُّحُّ حِرْصٌ في النَّفس على النَّفيس

هذه الألفاظُ الثَّلاثة تَرِدُ في الاستعمالِ القرآنيِّ مرادًا بِها معانٍ مختلفةٌ، فالبخلُ يَرِدُ في الجانِب المادّيِّ، وهوَ العرَضُ مِنْ أعراضِ الدُّنيا، بخلاف الشُّحِّ فإنه يُستعمَلُ لما يَنْبَعِثُ عن النَّفس مِنَ الحِرْصِ عَلى مَنْعِ الخير، وأمَّا الضِّنُّ؛ فهوَ بُخْلٌ معنويٌّ ناشِئٌ عَن نفاسة الشَّيْءِ المبخول به، فالبُخْلُ في اللُّغَةِ: منعُ الرَّجلِ سائلَهُ ما لديهِ من فضلٍ، وأمَّا في العُرْفِ الشَّرعيِّ؛ فهو منعُ الواجبِ، ومنهُ: منعُ الزَّكاةِ، ويُؤيِّدُ كونَ البُخْلِ شرعًا مَنْعَ الواجبِ، ترتيبُ العقابِ الأخرويِّ عليه، ويدلُّ على أنَّ البخلَ يُستعمَلُ في المادِّيَّاتِ قولُ اللّه سُبحانَهُ: ﴿وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسۡتَغۡنَىٰ ۝٨﴾ [اللّيل: 8]، فإنَّ المرادَ بِهِ البخلُ بالمالِ؛ لأنَّه وردَ مقابِلًا للعطاءِ في قوله قبلُ: ﴿فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥﴾ [اللّيل: 5]، ثُمَّ جاءَ التَّصريحُ في القرآنِ الكريم بأنَّ البخيلَ لا يُغْني عنه مالُهُ إذا دخل النَّار، فقال ﷻ: ﴿وَمَا يُغۡنِي عَنۡهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ ۝١١﴾ [اللّيل: 11]، أمَّا الشُّحُّ؛ فهو أعمُّ من أن يُبْخَلَ بالمالِ؛ إذْ هو أمرٌ يتعلَّق بالنَّفس الَّتي تَكونُ مطبوعَةً عليهِ في مَنْعِ الخير، سواءٌ أكان ذلكَ من مالِ العَبْدِ نفسهِ أَمْ مِنْ مال غيرِهِ، ويدلُّ لذلك اقترانُ الشُّحِّ بالنَّفسِ في مواضعَ من القرآنِ الكَريمِ، منها قولُ

(1) محمّد محمَّد داود، معجم الفروق الدّلاليَّة في القرآن الكريم، ص: 27 - 29.

اللّه سُبحانَهُ: ﴿وَأُحۡضِرَتِ ٱلۡأَنفُسُ ٱلشُّحَّۚ﴾ [النّساء: 128]، وقوله ﷻ: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ۝٩﴾ [الحشر: 9].وأمَّا الضِّنُّ؛ فهو مختصٌّ بالجانب المعنويِّ دون المادِّيِّ، واختصَّ بالمعنويِّ، ليكونَ دالًّا علَى نفاسة الشَّيءِ المبخول به، وقد وردَ لفظُ الضِّنِّ في القرآنِ الكَريمِ، في مَوْضِعٍ واحدٍ للدِّلالةِ على البُخْلِ بالعِلْمِ، وهو قولُ اللّهِ سُبحانه: ﴿وَمَا هُوَ عَلَى ٱلۡغَيۡبِ بِضَنِينٖ﴾[1] [التّكوير: 24].

(1) محمَّد ياس خضر الدّوريّ، دقائق الفروق اللّغويّة في البيان القرآنيّ، ص: 198 - 200.

﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ٧٨﴾ [التّوبة: 78]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

المناسبةُ بين الإعقابِ بنفاق القلوبِ، وإحاطةِ عِلم علَّام الغيوبِ

لَمّا كانتْ مُعاهَدَةُ المنافِقينَ سَبَبًا لِإغْناءِ اللّهِ تعالَى لَهُمْ في الظَّاهِرِ، ورُبَّما توهَّمَ مَنْ لا عِلْمَ عِنْدَهُ أنَّ ذلك كانَ بسببِ خفاءِ أمرِ البواطنِ عليهِ ﷻ، وكانَ اللّهُ سُبحانَهُ قد عاقبَهُمْ بأَنْ أورَثَهُمُ النِّفاقَ في قلوبِهم على وجهٍ لا يقدرونَ عَلى التَّخلُّصِ مِنْهُ، فكان في هذا أعظمُ دليلٍ على أنَّه ﷻ أعلَمُ بِما في كُلِّ قلبٍ مِن صاحبِ القَلْبِ نفسِهِ؛ - لَمَّا كان كذلك - أعقبَه بالإنكارِ على مَن لا يعْلَمُ هذا، وتوبيخِهِ وتقريعِهِ، فقال ﷻ: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿سِرَّهُمْ﴾: السِّين والرَّاء تدور تصريفاتُها على إخفاءِ الشَّيءِ، ومنه السِّرُّ، وهوَ ضدُّ الإعْلانِ[2]، والسِّرُّ هو الحَديثُ المَكْتومُ في النَّفْسِ[3]، والسِّرُّ: ما أسررْتَ، والسَّريرةُ: عملُ السِّرِّ من خيرٍ أو شَرٍّ، ويقال: سريرته خير من علانيَتِه. وأسررْتُ الشَّيء: أظهرته، وأسررْتُه: كتمْتُهُ[4]، والسِّرُّ: الَّذي يكتم، والجمع الأسرار. والسَّريرةُ مثله، والجمع السَّرائر. وفي المثل: (ما يومُ حليمةَ بسرٍّ)[5]، و"في

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/554.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سر).
(3) الرّاغب، المفردات: (سرر).
(4) الخليل بن أحمد، كتاب العين: (سر).
(5) المثل: (ما يوم حليمة بسرٍّ): يُضرب لكلِّ أمر متعالم مشهور، وهي حليمة بنت الحارث بن أبي شمر الغسَّانيِّ، لأنَّ أباها لما وجَّه جيشًا إلى المنذر بن ماء السَّماء، أخرجت لهم طيبًا في مركن فطيَّبتهم به، فنسب اليوم إليها، ينظر: الجوهريّ، الصّحاح تاج اللّغة وصحاح العربيّة: 2/681.

التَّنزيل ﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ﴾ [يونس: 54]، أي: أظهروها، وقال ثعلب: معناهُ أسرُّوها من رؤسائِهم، والأوَّل أصحُّ، وسارَّهُ مسارَّةً وسرارًا: أعلمَهُ بسرٍّ[1]، وهوَ المَعْنَى المراد بقول الله ﷻ: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ﴾؛ فإنَّ معناه: ما يَكونُ في نفوسِهم، ويَجْري في أذهانِهِمْ[2].

2) ﴿وَنَجْوَىٰهُمْ﴾: النُّون والجيمُ والحرف المعتلُّ تدلُّ تصاريفُها على أَصْلَيْنِ كُلِّيَّيْن، أحدهما: الكَشْطُ والكَشْفُ، والآخَرُ: السَّتْرُ والإخفاءُ[3]، والنَّجْوى: السِّرُّ الذي يكونُ بينَ اثْنَيْنِ[4]، وتخصيصُها بالاثْنَيْنِ جَرْيٌ على الغالِبِ، وإلَّا فقد تَرِدُ لأكثَرَ مِنْ ذلك، كما يدلُّ لذلك قول الله ﷻ: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُواْ﴾ [المجادلة: 7]، و(انتجاه) خصَّهُ (بمناجاته)، والاسم (النَّجوى)، وقولهُ تعالى: ﴿وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ﴾ [الإسراء: 47]، جعلهم هم النَّجوى، والنَّجوى فعلهم.. و(النَّجيُّ) على فعيل: الَّذي تُسارُّهُ والجمع (الأنجيَة)، قال الأخفش: وقد يكون النَّجيُّ جماعة كالصَّديق، قال الله تعالى: ﴿خَلَصُواْ نَجِيًّا﴾ [يوسف: 80][5]، والنَّجْوى في الآية قيدِ التَّفسير: هيَ مسارَّةُ بعضِهِمْ بعضًا، بالكلام الهامسِ، والصَّوت الخافتِ، دون المجاهرة به للآخرين.

3) ﴿ٱلْغُيُوبِ﴾: الغينُ والياءُ والباءُ، تدلُّ اشْتِقاقاتُها على تستُّر شيءٍ ما عنِ العيونِ، ومنهُ قَوْلُهم: غابَتِ الشَّمسُ؛ لكونِها عندَ مغيبِها تسْتَتِرُ عَنِ العيونِ[6]. والغَيْبُ: مَصْدَرُ غابَ يغِيبُ غَيْبًا، ويُطلَقُ مرادًا به اسمُ الفاعِلِ، أي: الغائبُ[7]، وبِهَذا المعنى يكونُ الغَيْبُ: كُلَّ ما غابَ عَنْكَ، وجمعُهُ: غُيوبٌ[8]. ويُطلق الغَيْبُ على المُطْمَئِنِّ مِنَ الأرضِ[9]، وهو ما انخفضَ مِنْها، وهو راجِعٌ إلى الأوَّلِ؛ إذِ الدَّاخِلُ في مُطمَئِنِّ الأرْض يكون غائبًا مَخْفيًّا

(1) ابن سيده المرسيّ، المحكم والمحيط الأعظم: (سرر).
(2) محمّد أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 6/3387.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نجو).
(4) الزّبيديّ، تاج العروس: (نجو).
(5) زين الدّين الرّازيّ، مختار الصّحاح: (نجا).
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (غيب).
(7) يجوز أن يكون بمعنى اسم المفعول، أي: المُغَيَّب. ينظر: محمود صافي، الجدول في إعراب القرآن: 1/36.
(8) الفيّوميّ، المصباح المنير: (غيب)، والفيروزابادي، القاموس المحيط: (غيب).
(9) الفيروزابادي، القاموس المحيط: (غيب).

عَنِ العيونِ[1]، والمُراد بالغُيوب في الآية، كلُّ ما غاب عن مدرك البشر وعلمهم، وعن إحساسهم وحواسِّهم، ممَّا لا يعلم حقيقتَهُ إلَّا علَّامُ الغيوب.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

أَلَم يَعْلَم هَؤلاءِ المُنافقونَ الَّذين يَكْفُرون باللهِ تَعالى ورَسولِه سرًّا، ويُظْهِرون الإيمانَ بِهِما لأهْلِ الإيمانِ جَهْرًا: أنَّ اللهَ سُبحانَهُ يَعْلَمُ ما يُخْفونَه في أَنْفُسِهم، وما يتحَدَّثون به خُفْيَةً في مجالسهم من الكيد والمَكْرِ لأهْلِ الإيمانِ، وأنَّ اللهَ تَعالى علَّامٌ بما غابَ عَن أسماعِ الخَلْقِ وأبصارِهم وسائِرِ حَواسِّهم؟[2].

إحاطَةُ عِلْمِ اللهِ تَعالى بِالظَّواهِرِ والبَواطِنِ دليلٌ على عظمته وجلاله

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

عِلَّةُ الفَصْلِ في: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ﴾:

فُصِلَ قَوْلُ اللهِ ﷻ: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ﴾، عَمَّا قَبْلَهُ؛ لوقوعِهِ اسْتِئْنافًا يُرادُ به تقريرُ المخاطَبِ عنهم؛ وذلكَ لأنَّ كونَهُمْ عالِمينَ بذلك معروفٌ لدى كُلِّ أَحَدٍ[3].

إحاطَةُ عِلْمِ اللهِ سُبْحانَهُ بِالظَّواهِرِ والبَواطِنِ، أمرٌ متيقَّنٌ لا ريب فيه

دِلالَةُ الاسْتِفْهامِ في: ﴿أَلَمْ﴾:

الهمزةُ في ﴿أَلَمْ﴾ مِن قول الله ﷻ: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ﴾ للاستفهام، وهذا الاستفهامُ ليس جاريًا على حقيقَتِهِ؛ لأنَّ حقيقةَ الاسْتِفْهام: طلبُ العِلْمِ بشيءٍ لَم يَكُن معلومًا مِن قبلُ، ومِنَ المعلوم أنَّ اللهَ سُبحانَهُ وسِعَ علمُهُ كلَّ شيءٍ، ولا يخفى عليه شيء، والاسْتِفْهام في الآيةِ يُرادُ به الإنكارُ عَلى مَن لا يعلَمُ ذلك، وتوبيخُهُ وتهديدُهُ، أي: أَلَم يَعْلَموا ذَلِكَ حتَّى اجترَؤوا على ما فَعَلوهُ مِن عظائم الأمورِ[4]؟ ويجوزُ أن يكونَ الاسْتِفهامُ مرادًا به التَّقريرُ والتَّنبيهُ عَلى

عَدَمُ اسْتِحْضارِ إحاطَةِ عِلْمِ اللهِ تَعالى، يُجَرِّئُ عَلى ارتكاب الجرائر

(1) ابن عطيّة، المحرَّر الوجيز: 1/84.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 14/381، ونخبة من العلماء، التّفسير الميسّر، ص: 199.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/274.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/554، ومحمّد أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3387.

أنَّ اللّه ﷻ يُؤاخِذُهُم ويُجازيهم، بما عَلِمَهُ سُبحانَهُ من أَعْمالِهِم[1]، ولا تنافيَ بَيْنَ المعنَيَيْن؛ لجواز الجَمْعِ بينَهُما[2]، والنِّكاتُ البلاغيَّةُ تتوارَدُ، ولا تتزاحَمُ.

دِلالَةُ تَعْريفِ المُسْنَدِ إِلَيْهِ ﴿ٱللَّهَ﴾ بِالعَلَمِيَّةِ:

في قولِ اللّهِ تَعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ﴾، عُرِّف المُسْنَدُ إِلَيْهِ بالعَلَمِيَّة في هذه الآية الكريمة، لتعظيم قَدْرِ هذا العلم؛ إذ هوَ عِلْمُ مَن له جميعُ صفاتِ الجلالِ والكَمالِ والجَمالِ، وصفاتُهُ ﷻ - ومِنْها عِلْمُه - لا مُنْتَهى لكمالِها.

عَظَمَةُ عِلْمِ اللهِ وكمال أَوْصافِهِ، تَملأُ القلبَ خشيةً ورجاء

سِرُّ إيرادِ المُسْنَدِ فِعْلًا: ﴿يَعْلَمُ﴾:

جيءَ بالمُسْنَد فِعْلًا في قولِ اللّه ﷻ: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ﴾؛ لتأكيد نسبةِ عِلْمِ اللّهِ ﷻ بالسِّرِّ والنَّجْوَى، وذلك لتكرُّرِ النِّسْبَةِ، ووجهُ ذلك: أنَّ فِعْلَ العِلْمِ - ﴿يَعْلَمُ﴾ - مسنَدٌ إلى الاسْمِ الأعظم ﴿ٱللَّهَ﴾، ومُسْنَدٌ أيضًا إلى فاعلِهِ، وهوَ الضَّميرُ المستترُ فيه، فكان في هذا تَكرارٌ للنِّسْبَةِ مرَّتين، وهو مفيدٌ التَّقويةَ والتَّأكيدَ.

أهمِّيَّةُ تأكيدِ عِلْمِ اللهِ سُبْحانَهُ بِالسِّرِّ والنَّجْوى

دِلالَةُ التَّعْبيرِ بِالفِعْلِ المُضارِعِ: ﴿يَعْلَمُ﴾:

جاءَ التَّعبيرُ بالفِعْلِ المُضارِعِ ﴿يَعْلَمُ﴾ مِن قولِ اللّه ﷻ: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ﴾؛ لإفادَةِ معنى الاستمرارِ والدَّوام، وذلكَ لأنَّ ﴿سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ﴾ تتجدَّدُ أفرادُها، فيتعلَّقُ عِلْمُ اللّهِ سُبحانَهُ بجميعِها، فالتَّجدُّدُ في أفرادِ السِّرِّ والنَّجْوى، وأمَّا علمُ اللّه سُبحانَهُ، فهو أَزَلِيٌّ يَعْلَمُ ما كانَ وما يكونُ.

يَعْلَمُ اللهُ ﷻ ما كانَ وَما يَكونُ، وهو بكلِّ شيءٍ عليمٌ

دِلالَةُ إِضافَةِ السِّرِّ والنَّجوى إلى الضَّميرِ: ﴿سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ﴾:

أُضيفَ السِّرُّ والنَّجْوَى إلى الضَّمير الرَّاجِعِ إلى المُنافِقين في قولِ اللّه سُبحانَهُ: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ﴾ لإرادَةِ

إرادَةُ عُمومِ المُنافِقينَ، لانتشارِهم وخطورتِهم في كلِّ حين

(1) الآلوسي، روح المعاني: 5/334.
(2) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 6/359.

العمُوم، أي: إنَّ اللّه ﷻ يَعْلَمُ جميعَ ما يُسرُّونَهُ مِنَ النِّفاق وغيرِه، ويعلَمُ جميعَ ما يتناجَوْنَ به، ويتحدَّثونَهُ فيما بينَهُمْ، مِنَ الطَّعنِ عَلى النَّبيِّ ﷺ، وعَلى أَصْحابِه، وعَلى دينِ الإسْلام[1].

نُكْتَةُ تَقْديمِ السِّرِّ عَلى النَّجْوى: ﴿يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ﴾:

قُدِّم السِّرُّ على النَّجْوى في قولِ اللّه ﷻ: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ﴾ لِنكاتٍ[2]: إحداها: كونُ العِلْمِ بالسِّرِّ أعظَمَ في الشَّاهدِ مِنَ العِلْمِ بالنَّجْوَى؛ لكونِ السِّرِّ أَخْفَى وأغمضَ، ثانيها: أنَّ في تقديمِ السِّرِّ وتَعليقِ العِلْمِ به تعجيلًا لِإدخالِ الرَّوعَةِ والمهابَةِ عَلى قلوبِ المتلقِّينَ، وثالِثُها: تحقيقُ أنَّ نِسبَةَ علمِهِ المحيطِ بالسِّرِّ والنَّجْوَى واحدةٌ عَلى أبلغِ وجهٍ وأكمله وآكده. ورابعُها: الإيذانُ بأنَّ رتبةَ السِّرِّ متقدِّمةٌ على رُتبة النَّجْوَى؛ إذْ ما مِن شيءٍ يقَعُ به التَّناجي إلَّا وهو أو مبادئُهُ القريبةُ أوِ البعيدةُ مُضْمَرٌ مِنْ قَبْلُ في النَّفسِ، فَتَعَلُّقُ علْمِ اللّهِ ﷻ به في حالِه الأولى مُتَقَدِّمٌ عَلى تَعَلُّقِه به في حالِه الثَّانيةِ، وفي عَطْفِ النَّجْوَى على السِّرِّ مع أنَّه أعمُّ: تنبيهٌ لَهُمْ باطِّلاعِه سُبحانَهُ عَلى ما يتناجَوْنَ بِهِ مِنَ المَكْرِ والكَيْدِ والطَّعْنِ[3].

العِلْمُ بِالسِّرِّ أَعْظَمُ في بَيانِ القُدْرَةِ الإلَهيَّةِ مِنَ العِلْمِ بِالنَّجْوى

نُكْتَةُ التَّأْكيدِ في: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾:

قولُ اللّه سبحانَه: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ معطوفٌ عَلى ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ﴾، أي: أَلَمْ يَعْلَموا أنَّ اللّهَ تَعالى علَّامُ الغُيوبِ؟ وأُكِّدَ ذلك بـ (أنَّ) لزيادَةِ تَقْريرِ عِلْمِ اللّه سُبحانَهُ بما غابَ عَن أَسْماعِ الخَلْقِ وأَبْصارِهِم وسائِرِ حَواسِّهم، وأنَّه ﷻ يَعْلَمُ ما اسْتَكَنَّ في نُفوسِهِم مِن إرادَةِ الكَذِبِ والنِّفاقِ[4].

زيادَةُ تَقْريرِ عِلْمِ اللّهِ ﷻ بِما غابَ عَنْ حَواسِّ الخَلْقِ

(1) القِنَّوجيّ، فتح البيان: 5/355، ومحمّد الأمين الهرريّ، تفسير حدائق الرّوح والرّيحان: 11/365.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/101، والآلوسي، روح المعاني: 5/334.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 5/334.
(4) محمّد أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3387.

سِرُّ الإِظْهارِ في مَوْضِعِ الإِضْمارِ في قَوْلِه: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ﴾:

تَضَمُّنُ الاسْمِ الأَعْظَمِ (اللهِ) لِصِفاتِ الجَلالِ والكَمالِ

في قولِ اللّه ﷻ: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾، إظهارٌ في مَوْضِعِ الإِضْمارِ، وذَلِكَ لأنَّ مُقْتَضى الظَّاهِرِ أن يَرِدَ النَّظْمُ القرآنيُّ: (وأنَّه علَّامُ الغُيوبِ)؛ لتقدُّمِ ذِكْرِ الاسمِ الأَحْسَنِ ﴿ٱللَّهَ﴾ في قوله سُبحانَهُ: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ﴾، وسِرُّ الإظهار: إلقاءُ الرَّوعَةِ وزيادَةُ المهابَةِ[1]؛ لتضمُّنِ الاسْمِ الأَحْسَنِ (اللّه) لصِفات الكمالِ والجَمالِ والجَلالِ.

دِلالَةُ التَّعْبيرِ بِصيغَةِ المُبالَغَةِ: ﴿عَلَّٰمُ﴾:

لا يَخْفى عَلى اللهِ سُبْحانَهُ مِنْ أَحْوالِ العِبادِ شَيْءٌ

عُبِّر بصيغَةِ المبالغَةِ ﴿عَلَّٰمُ﴾ في قولِ اللّه ﷻ: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾، لتأكيدِ عِلْمِ اللّهِ سُبْحانَهُ الَّذي لا يُغادِرُ صَغيرَةً ولا كَبيرَةً، وهوَ سُبحانَهُ يَعْلَمُ خافيَةَ الصُّدور، ومَكْنوناتِ النُّفوس، وإذا كانَ تَعالى عالمًا بِجَميعِ الأَشْياء، فكَيْفَ تَخْفى أحوالُ المنافقينَ عليه؟[2].

سِرُّ التَّنْويعِ في التَّعْبيرِ عَنِ العِلْمِ: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ﴾ ﴿يَعْلَمُ﴾ ﴿عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾:

دِقَّةُ البَيانِ القُرْآنيِّ في تَنْويعِ الصِّيَغِ، بِحَسَبِ مُقْتَضَياتِ الحالِ

أورِدَ العِلْمُ المتعَلِّق بِسِرِّهم ونَجْواهُم بصيغَةِ الفعلِ ﴿يَعْلَمُ﴾، والعِلْمُ المتعلِّقُ بالغُيوب الكثيرَةِ بالاسم ﴿عَلَّٰمُ﴾، فقال ﷻ: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾؛ لإفادَةِ الحُدوث والتَّجدُّدِ في الأوَّلِ، والدِّلالة عَلى الدَّوام والمبالغَةِ في الثَّاني، وفي ذَلكَ مِنَ الفَخامَةِ والجزالةِ الشَّيءُ الكثيرُ[3].

بديعُ جِناسِ الاشتقاق بين ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ﴾ ﴿يَعْلَمُ﴾ ﴿عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾:

زِيادَةُ التَّقْريرِ بِإِحاطَةِ عِلْمِ اللهِ سُبْحانَهُ بِكُلِّ مَعْلومٍ

في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾، جناسُ الاشتقاقِ بَيْنَ ﴿يَعْلَمُ﴾ و﴿عَلَّٰمُ﴾[4]، وفي تَكْرار مادَّةِ العِلْمِ زيادَةُ تقريرٍ لِشُمولِ عِلْمِ اللّهِ ﷻ.

---

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/86، والآلوسي، روح المعاني: 5/334.

(2) الخازن، لباب التّأويل: 2/388، ومحمّد أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3387.

(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/86.

(4) الزّحيليّ، التّفسير المنير: 10/318.

دِلالَةُ (ال) في لفظ ﴿ٱلْغُيُوبِ﴾:

عِلْمُ اللهِ ﷻ، لا يندُّ عنه غَيْبٌ في الوجود

اللَّامُ في ﴿ٱلْغُيُوبِ﴾ مِنْ قَوْلِ اللهِ ﷻ: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ لِلجِنْسِ، المفيدةُ استغراقَ جميعِ الأفرادِ المندرجَةِ تحتَها، فكلُّ ما يُسمَّى غَيْبًا؛ فإنَّ اللهَ ﷻ عالمٌ بِهِ، على أتَمِّ وجهٍ وأكمَلِهِ، ومِن جُمْلَةِ ذلكَ: عِلْمُهُ سُبحانَهُ بكلِّ ما هَمَّ به المُنافِقون، وأضْمَروهُ في أَنْفُسِهِم[1].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

السِّرُّ والنَّجْوى:

السِّرُّ والنَّجْوى يدُلَّان عَلى مَعْنى الخَفاء والخفوت في حديث نفسِك أو غيرك

يَشْتَرِكُ السِّرُّ والنَّجْوى في أنَّ كِلَيْهِما يدُلُّ عَلى مَعْنى الخَفاء في أَصْلِ اللُّغة[2]، والعلاقَةُ بَيْنَهُما العُمومُ والخصوصُ الوجهيُّ؛ فيفترقانِ في وجهٍ، ويشتركانِ في آخَرَ، وذلكَ أنَّ السِّرَّ يختصُّ بِحَديثِ النَّفْسِ، بخلاف النَّجْوَى؛ فَهوَ حديثُ الجَهْرِ، ويجتمعانِ فيما يُحدِّثُ به المَرْءُ بينَهُ وبين آخرَ بِحَيْثُ لا يسمَعُهُما غيرُهُما[3]. ويُفرَّقُ بينَهُما مِن وجهٍ آخرَ: وهوَ أنَّ السِّرَّ قد يَرِدُ في غَيْرِ المعاني عَلى سَبيلِ المجازِ، يُقالُ: فَعَلَ سِرًّا، بخلاف النَّجْوى؛ فإنَّها لا تَكون إلَّا كَلامًا[4].

(1) السّمرقنديّ، بحر العلوم: 2/76.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سر)، (نجو).
(3) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/320.
(4) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 63.

﴿ٱلَّذِينَ يَلۡمِزُونَ ٱلۡمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهۡدَهُمۡ فَيَسۡخَرُونَ مِنۡهُمۡ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنۡهُمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ٧٩﴾ [التّوبة: 79]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

العلاقةُ بين علمِ اللهِ بالسَّرائر، وتنديدهِ بلمزِ المنافقين للمتصدِّق المبادرِ

لمّا أخبرَ اللّه ﷻ أنَّهم لَم يَكْتَفوا بكُفْران نِعْمَةِ الغِنَى مِن غَيْرِ معاهَدَةٍ، حتَّى ارتكبوا كفرانَها معَ المعاهَدَةِ؛ بيَّنَ سُبحانَهُ أنَّهم لَم يكتفوا بذلك الإجْرام، حتَّى تَعَدَّوْهُ إلى عَيْبِ الكُرَماء الَّذين يبذلون ما لَيْسَ واجبًا عليهم، زيادَةً في التَّقرُّب إلى اللّهِ ﷻ، وحُبًّا في فِعْلِ الخير، ونفع النَّاس، فقال سُبحانَهُ: ﴿ٱلَّذِينَ يَلۡمِزُونَ ٱلۡمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ﴾[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَلۡمِزُونَ﴾: اللَّامُ والميمُ والزَّاي تدلُّ تصريفاتُها على مَعْنى العَيْبِ، يُقال: رجلٌ لَمّازٌ ولُمَزَةٌ، أي: عيَّابٌ[2]، واللَّمْزُ: الاغتيابُ وتتَبُّعُ المَعايبِ[3]، وذكر ابنُ سيدَه أنَّ اللَّمْزَ: هوَ العَيْبُ في الوَجْهِ بالعَيْنِ والرَّأْسِ والشَّفَةِ مع كلام خَفيٍّ، ويقال: "تلمِزُه بفيك بكلام خفيٍّ، وقوله تعالى: ﴿وَمِنۡهُم مَّن يَلۡمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ [التّوبة: 58]، أي: يحرِّكُ شفتَيه بالطَّلب، ورجل لُمَزَةٌ: يعيبُك في وجهك لا من خلفك، وهو من اللَّمْز، ورجلٌ هُمَزَةٌ: يعيبك من خلفك"[4]، واللَّمْزُ في قول اللّهِ ﷻ: ﴿ٱلَّذِينَ يَلۡمِزُونَ ٱلۡمُطَّوِّعِينَ﴾ هو العَيْبُ، والمعنى: الَّذين يَعيبونَ على المُتَطَوِّعينَ[5].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/555.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (لمز).
(3) الرّاغب، المفردات: (لمز).
(4) الرّاغب، المفردات: (لمز).
(5) الخضيريّ، السّراج في بيان غريب القرآن، ص: 79.

2) ﴿ٱلۡمُطَّوِّعِينَ﴾: الطَّاءُ والواوُ والعينُ تَدورُ اشْتِقاقاتُها على لُيونَةِ شَيْءٍ وتَأَتّيهِ لِما يُراد مِنْهُ، ومنهُ قولُهُمْ: لِسانُهُ لا يَطوعُ بكَذا، أي: لا يَنْقادُ لَهُ، فَيَنْطِقُ بِما يُريدُه، ومنه التَّطوُّعُ، كما قالَ تَعالى: ﴿فَمَن تَطَوَّعَ خَيۡرٗا﴾ [البقرة: 184]، أي: طَوَّع نفسَه، ولَيَّنها، ففَعَلَ مِن غَيْرِ أَن يُطْلَبَ إِلَيْهِ زيادةً في الطَّاعةِ[1]. و﴿ٱلۡمُطَّوِّعِينَ﴾ أصلُها: (المُتَطَوِّعينَ)[2]، والمطاوعةُ: الموافقةُ، والنَّحويُّون ربَّما سمَّوا الفعل اللَّازم مطاوعًا، ورجلٌ مطواعٌ، أي: مطيعٌ، وفلانٌ حسنُ الطَّواعيَة لك، مثال لفْظ الثَّمانية، أي: حَسَنُ الطَّاعةِ لكَ، وطاعَ له يطوعُ؛ إذا انقاد[3]، والمُتطوِّعُ في الآيةِ: هو المُتَصَدِّقُ تَطَوُّعًا، وقَد كانَ أَدَّى الفَرْضَ قَبْلُ[4].

3) ﴿جُهۡدَهُمۡ﴾: الجيمُ والهاءُ والدَّالُ تدلُّ تصريفاتُها على المشقَّةِ[5]، ويأتي بمَعْنى الطَّاقة والوُسْعِ[6]. ومِنَ الأوَّلِ الجَهْدُ - بفتح الجيم - وهو: المَشَقَّةُ، تقولُ: فَعَلْتُ هذا بِجَهْدٍ، أَيْ: بِمَشَقَّةٍ[7]. ومِنَ الثَّاني الجُهْدُ - بضمِّ الجيم - وهوَ الوُسْعُ والطَّاقَةُ[8]، والجهدُ أيضًا: "بلوغك غايةَ الأمرِ الَّذي لا تألو عن الجهد فيه، تقول: جهدْتُ جهدي، واجتهدت رأيي ونفسي، حتَّى بلغتُ مجهودي، قال ابن السِّكِّيت: الجهد: الغاية. وقال الفرَّاءُ: بلغتُ به الجهد، أي: الغاية، واجهد جهدَك في هذا الأمر، أي: أبلغ فيه غايتك"[9]، ومِنْهُ قول اللهِ ﷻ: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهۡدَهُمۡ﴾ أي: يُخْرِجونَ في الصَّدقة ما اسْتَطاعوا[10].

4) ﴿فَيَسۡخَرُونَ﴾: السِّينُ والخاءُ والرَّاءُ تدلُّ اشتقاقاتُها على مَعْنَى الاحْتِقار والاستِذْلالِ[11]، ومِنْهُ قَوْلُهم: سَخِرْتُ مِنْهُ، أي: هَزِئْتُ بِهِ، وتهكَّمْتُ[12]. وقولُ اللهِ ﷻ: ﴿فَيَسۡخَرُونَ مِنۡهُمۡ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنۡهُمۡ﴾، أي: يستَهزِئُونَ بِهم، ومعنى سُخْريَة اللهِ تعالى

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (طوع).
(2) اليَفُرَنيّ، الاقْتِضابُ في غريب الموطّأ وإعرابه على الأبواب: 1/204.
(3) الجوهريّ، الصّحاح: (طوع).
(4) محمّد أبو زهرة، زهرة التفاسير: 7/3388.
(5) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (جهد).
(6) الرّاغب، مفردات ألفاظ القرآن: (جهد).
(7) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 190.
(8) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (جهد)، وأبو عبيد الهرويّ، الغريبين في القرآن والحديث: (جهد).
(9) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (جهد).
(10) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 345.
(11) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سخر).
(12) الخطابيّ، غريب الحديث: 2/289.

بالمُنافِقينَ: أنَّه جَعَلَ لَهُم في الدِّين مِنَ الأحْكام المُدْخِلَةِ لَهُم في عِدادِ مَن يشملُهُ اسمُ الإسْلام، مَعَ عِلْمِهِ سُبحانَهُ بكذبِهِم، واطِّلاعِهِ عَلى خُبْثِ اعْتِقادِهم، فكانَ هذا مِن فِعْلِه بِهِم مُسْتَهْزِئًا، وبِهِم ساخرًا، فهو جَزاءٌ لَهُم عَلى سَبيلِ المقابلَةِ، ولَيْسَ هذا مِن بابِ المشاكَلَةِ في طَريقَةِ اعتقاد أهل السُّنَّة والحديث[1].

المَعْنى الإجْماليُّ:

مُجازاةُ اللهِ تَعالى العِبادَ مِنْ جِنْسِ أَعْمالِهِمْ، حكمةٌ وعدلٌ

مَعَ بُخْلِ هَؤلاءِ المُنافقينَ عَن بَذْلِ الخَيْرِ؛ فإنَّه لا يَسْلَمُ المتصدِّقون مِن أذيَّتِهم؛ فإنَّ المُنافِقينَ يَعيبونَ المُتَطَوِّعين، إذا تصدَّقوا عَلى أَهْلِ المَسْكَنَةِ والحاجَةِ بِما لَم يوجِبْهُ اللهُ تعالَى عليهم في أَمْوالِهم، ويَطْعَنون فيها عليهم، فإذا تَصَدَّق الأغنياءُ بمالٍ كثيرٍ ادَّعوا أنَّهم مُراؤونَ، وإذا تصدَّق الفُقَراء بِما في طاعَتِهم ووُسْعِهم؛ اسْتَهْزَؤوا بِهِم، وقالوا ساخِرينَ مِنْهُم: ماذا تُغْني صَدَقَتُهم هذِهِ؟ فجَزاهُم اللهُ تَعالى عَلى سُخْريَتِهم أَنْ سَخِرَ اللهُ تَعالى مِنْهُمْ، ولَهُم في الآخِرَةِ عذابٌ مُؤْلِمٌ موجِعٌ[2].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

عِلَّةُ الفَصْلِ: ﴿ٱلَّذِينَ يَلۡمِزُونَ﴾:

بَيانُ لونٍ آخَرَ مِنْ أَعْمالِ المُنافِقينَ القَبيحَةِ

فُصِلَ قَوْلُ اللهِ ﷻ: ﴿ٱلَّذِينَ يَلۡمِزُونَ ٱلۡمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ عَمَّا قَبْلَهُ؛ لوقوعِهِ استئنافًا ابتدائيًّا؛ لبيان نوعٍ آخرَ مِن أعمالِ المنافقينَ القبيحَةِ؛ وهوَ عيبُهُم وطعنُهُم في مَن يتصدَّقُ طَوْعًا[3]، "والمعنى: أنَّ المنافقين كانوا يعيبون المسلمين؛ إذا تطوَّعوا بشيء من أموالهم، وأخرجوه للصَّدقة، فكانوا يقولون: ما أغنى الله عن هذا! ويقولون: ما فعلوا هذا إلَّا رياء، ولم يكن لله خالصًا"[4].

(1) عزّ الدّين مرير، عقيدة أهل السّنة والجماعة في صفات الله تعالى الواردة على سبيل المقابلة والرّدّ على المخالفين، ص: 393 - 394.

(2) ابن جرير، جامع البيان: 14/381 - 382، ونخبة من العلماء، التّفسير الميسّر، ص: 199.

(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 16/110، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/274.

(4) القِنَّوجيّ، فتحُ البيان في مقاصد القرآن: 5/355.

دِلالَةُ الاِسْمِ المَوْصولِ: ﴿ٱلَّذِينَ﴾:

تَخَلُّقُ المُنافِقينَ بِالأَخْلاقِ الذَّميمَةِ الَّتي جَرَّأَتْهم على الطَّعْنِ في المؤمنين

جيءَ بالمُسْنَدِ إِلَيْهِ اسمًا مَوْصولًا في قَوْلِ اللّهِ ﷻ: ﴿ٱلَّذِينَ يَلۡمِزُونَ ٱلۡمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ﴾، ليعُمَّ جميعَ أفرادِ المُنافِقينَ؛ إذ الاسْمُ المَوْصولُ يفيدُ العمومَ، فكان في التَّعبيرِ به تعبيرٌ بصيغَةٍ تصلحُ لجميعِ ما مضَى مِنْ أصنافِهِم؛ لبيانِ أنَّهم كُلَّهُمْ كانوا متخلِّقين بهذا الخُلُقِ الذَّميمِ، وإن لم يُصرِّحْ بِهِ نُطْقًا إلَّا بعضُهُمْ[1].

دِلالَةُ الإيجازِ في: ﴿ٱلَّذِينَ يَلۡمِزُونَ ٱلۡمُطَّوِّعِينَ﴾:

لَمْزُ المُطَّوِّعينَ مِنَ الأَوْصافِ الَّتي يَسْتَحِقُّ صاحِبُها الذَّمَّ والتَّحْقيرَ

الاِسْمُ المَوْصولُ في قَوْلِ اللّهِ ﷻ: ﴿ٱلَّذِينَ يَلۡمِزُونَ ٱلۡمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ في محلِّ رفْعٍ على أنَّه خبرٌ لمبتدأٍ محذوفٍ، أي: هُمُ الذينَ، ويجوزُ أن يكونَ الاسْمُ المَوْصولُ في محلِّ نصبٍ على الذَّمِّ، والمَعْنى: أذمُّ الَّذين يَلْمِزونَ المطَّوِّعينَ، وثَمَّ وجهٌ آخرُ وهو أن يَكونَ في محلِّ جَرٍّ، على أنَّه بدلٌ مِنَ الضَّميرِ في ﴿سِرَّهُمۡ وَنَجۡوَىٰهُمۡ﴾[2]، وهذه الأوجهُ لا تنافيَ بينَها، بل بعضُها يُكمِّلُ بعضًا، ويزيدُ دلالتَهُ قوَّةً.

نُكْتَةُ التَّعْبيرِ بِالفِعْلِ المُضارِعِ ﴿يَلۡمِزُونَ﴾:

اسْتِمْرارُ المُنافِقينَ عَلى الأَفْعالِ الشَّنيعَةِ صَيَّرَها طَبْعًا فيهِمْ

في قولِ اللّهِ تَعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَلۡمِزُونَ ٱلۡمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ﴾، عُبِّر عَن فِعْلِ اللَّمْزِ بصيغَةِ المُضارِعِ ﴿يَلۡمِزُونَ﴾، للإيماءِ إلى أنَّ لَمْزَ هؤلاءِ المُنافِقين لِلمُتَطوِّعين مِن أَهْلِ الإيمانِ وسُخريَتَهُمْ مِنْهُم متكرِّرةٌ حينًا بعدَ حينٍ[3]، وليسَتْ أمرًا عرضَ مرَّةً، وانقطَعَ، بَلْ هَذا الخُلُقُ الذَّميمُ دأبُهُم وعادتُهُم، واللَّمزُ محرَّمٌ؛ لأنَّهُ لونٌ من الخديعة، تكون بخائنة الأعين، وبالإشارة الخفيَّةِ، بل هو من كبائرِ الذُّنوب في أمور الدُّنيا، وأمَّا اللَّمزُ في أمر الدِّين، ومتطلَّبات العبادةِ والطَّاعة، فأقبحُ وأقبح، ومنها: أنَّ من أطاع اللّهَ، وتطوَّع بخصلةٍ من

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/555.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/86، والآلوسيُّ، روح المعاني: 5/335.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/275.

خصالِ الخير، فإنَّ الَّذي ينبغي هو إعانتُه، وتنشيطُه على عملِه، وهؤلاء قصدوا تثبيطَهم بما قالوا فيهم، وعابوهم عليه[1].

نُكْتَةُ التَّعْبيرِ بِـ ﴿ٱلْمُطَّوِّعِينَ﴾:

إخفاءُ الأَعْمالِ الصّالِحَةِ عَنِ المَخْلوقينَ مبالغةٌ في الإخْلاصِ

في قولِ اللّهِ تَعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ﴾، جاء التَّعبيرُ بلفظ ﴿ٱلْمُطَّوِّعِينَ﴾ دونَ (المُتَطَوِّعينَ) في الآية الكريمة؛ لأنَّ في ﴿ٱلْمُطَّوِّعِينَ﴾ إشعارًا بأنَّهم يتصدَّقون، ويُحِبّونَ إخفاءَ صدقاتِهِمْ، كما يومئُ إلَى ذلكَ الإدغامُ؛ فإنَّ حرفَ التَّاءِ أُخْفيَ فيه، فأشْعَرَ هذا الإخفاءُ بإخفاءِ العمَلِ عنِ المَخْلوقين، وهذه حقيقةُ الإخلاصِ[2]، لما في الإخلاص من فضلٍ، لأنَّ الرِّياء هو الشِّرك الأصغر، وهو يبطل الأعمال، ويمحقُ الأجرَ، وإنفاق الأموال أهمُّ ما تُبتلى فيه الأنفسُ، وقد مدح القرآن من تطوَّعَ بالإنفاق، مبتغيًا وجهَ اللّه دونَ سواه بقوله: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ۝٨ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ۝٩﴾ [الإنسان: 8 - 9].

دِلالَةُ (ال) في لفظ ﴿ٱلْمُطَّوِّعِينَ﴾:

التَّنويهُ بالمُتَصَدِّقينَ بالكَثيرِ، توطئةٌ للتَّنويه بالمُتَصَدِّقينَ بالقَليلِ

اللَّامُ في ﴿ٱلْمُطَّوِّعِينَ﴾ مِنْ قَوْلِ اللّهِ ﷻ: ﴿ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ لاستغراق أفرادِ الجنسِ، فلفظُ ﴿ٱلْمُطَّوِّعِينَ﴾ يعُمُّ كُلَّ متصدِّقٍ، سواءٌ أكان المتصدَّقُ بِهِ كثيرًا أو قليلًا، إلَّا أنَّ المرادَ ههنا - في قولِ بعضِ أهلِ العِلْمِ - هوَ الخصوصُ، وهُمُ المتصدِّقونَ بالكثيرِ، بدليلِ أنَّ اللّه سُبحانه عطفَ المتصدِّقين بالقليلِ في قولِهِ: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ﴾[3]، فيكون في قَوْلِ اللّه ﷻ: ﴿ٱلْمُطَّوِّعِينَ﴾ مجازٌ مرسَلٌ، بعلاقةِ العموميَّة، ويجوزُ أن يَكونَ لفظُ ﴿ٱلْمُطَّوِّعِينَ﴾ عامًّا باقيًا على عمومِهِ، وهذا أَظْهَرُ؛ إبقاءً لدِلالَةِ اللَّفظ عَلى حقيقتِهِ.

(1) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن: 10/275.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/555.
(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/63.

دِلالَةُ (ال) في ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾:

اللَّامُ في ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ مِنْ قَوْلِ اللهِ ﷻ: ﴿ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ دالَّةٌ على الكَمالِ، فقوله: ﴿مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، أي: الكامِلينَ في الإيمانِ الرَّاسِخينَ فيهِ[1].

الإيماءُ إلى كَمالِ الإيمانِ والرُّسوخِ فيهِ، مقابلَ النِّفاقِ والغلوِّ فيه

دِلالَةُ حَرْفِ الجَرِّ ﴿فِي﴾:

حَرْفُ الجَرِّ ﴿فِي﴾ مِنْ قول الله ﷻ: ﴿ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ دالٌّ على الظَّرفيَّةِ، وهي ظرفيَّةٌ مجازيَّةٌ، بتنزيلِ سَبَبِ اللَّمْزِ منزلةَ الظَّرْفِ للمُسَبَّبِ[2]، وفيه إيماءٌ إلى شدَّةِ هذا الطَّعْنِ وبُعْدِ غَوْرِه.

بيانُ مبالغةِ المُنافِقينَ في الطَّعْنِ عَلى أَهْلِ الإيمانِ

بلاغةُ الإطْنابِ في: ﴿ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ﴾﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ﴾:

لفظُ ﴿ٱلْمُطَّوِّعِينَ﴾ في قولِ الله ﷻ: ﴿ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ﴾، عامٌّ باقٍ على عمومِهِ في الأظْهَرِ، فيشمَلُ المتصدِّقين طَوْعًا بالقَليلِ والكَثيرِ، فيعُمُّ الموسِرَ والمُعْسِرَ، ويكون الإطنابُ في قولِ اللهِ تَعالى بعدُ: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ﴾، وفيه تَنْصيصٌ على المُعسِرِ من بابِ عَطْفِ الخاصِّ على العامِّ؛ تنبيهًا على زيادَةِ فضلِه، وشرَفِ منزلَتِه، وفيه إيماءٌ إلى أنَّ الحثَّ على قليلِ الخيرِ ويسيرِهِ كالحثِّ على كثيرِهِ وعظيمِهِ[3].

الحَثُّ عَلى قَليلِ الخَيْرِ وَيَسيرِهِ، كالحَثِّ عَلى كَثيرِهِ وَجَليلِهِ

دِلالَةُ الفاءِ في: ﴿فَيَسْخَرُونَ﴾:

الفاءُ في قَوْلِ اللهِ ﷻ: ﴿فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ﴾ دالَّةٌ على التَّرتيبِ والتَّعقيبِ، وذلك مُشْعِرٌ بمسارعةِ أهل النِّفاق إلى عَيْبِ المُؤمنين والطَّعْنِ فيهم، والسُّخريَة مِنْهُمْ، فَوْرَ تصدُّقِهم، وهذا دالٌّ على خُبْثِ

ازدراءُ النَّاسِ وَطَعْنُهُمْ طَبْعٌ مُتَأَصِّلٌ في نُفوسِ المُنافِقينَ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/555.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/275.

(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/469، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 8/555.

بواطِنِهِمْ، وأنَّ العَيْبَ والطَّعْنَ صارَ طبعًا لَهُمْ، بحيثُ لا يقدرونَ علَى كَتْمِهِ وإخفائِهِ، بل لا يقدرونَ على التَّرَيُّثِ في إبْدائِهِ.

سِرُّ التَّعْبيرِ بِالفِعْلِ المُضارِعِ في: ﴿فَيَسْخَرُونَ﴾:

اسْتِمْرارُ المُنافِقينَ عَلى الأَفْعالِ المُستَقبَحةِ، فسادٌ في الطَّبعِ والخُلقِ

عُبِّرَ عَن فِعْلِ السُّخريَةِ بِصيغَةِ المُضارِعِ (يَسْخَرونَ) مِنْ قولِ اللهِ ﷻ: ﴿فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ﴾؛ للإشْعارِ بأنَّ سُخْريَّةَ هؤلاءِ المُنافِقينَ بِالمُتَطوِّعينَ، من أهلِ الإيمانِ، واستهزاءَهُمْ بِهِمْ، متكرِّرةٌ حينًا بعدَ حينٍ[1]، وليسَتْ مِنَ الأمورِ العارِضَةِ الَّتي مِن شأنِها أَنْ تَنْقَطِعَ، بَلْ هذِهِ الأَخْلاقُ الذَّميمَةُ عادتُهُم ودأبُهُمْ.

نُكْتَةُ تَعْريفِ المُسْنَدِ إِلَيْهِ بِالعَلَميَّةِ (الله):

إِظْهارُ فَداحةِ السُّخْريَةِ بالمنافقين جَرَّاءَ سُخْريَّتِهِمْ مِنَ المؤمنين

في قولِ اللهِ تَعالى: ﴿فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ﴾، عُرِّفَ المُسْنَدُ إِلَيْهِ بالعَلَميَّةِ في قولِ اللهِ ﷻ: ﴿سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ﴾، لإظْهارِ عظَمَةِ هذهِ السُّخريَّةِ الَّتي يُقابَلونَ بها؛ إذ هيَ صادِرَةٌ مِمَّنْ له جميعُ صفاتِ الجلالِ والكمالِ والجمالِ، وصفاتُهُ ﷻ، ومِنْها ما يكونُ على وجهِ المقابَلَةِ - كمالٌ في حقِّهِ تعالَى، ولا مُنْتَهَى لكمالِها.

بَراعَةُ المُقابَلَةِ: ﴿فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ﴾:

إِثْباتُ السُّخْريَّةِ للهِ تَعالى كَمالٌ في حَقِّهِ سُبْحانَهُ

في قولِ اللهِ ﷻ: ﴿فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ﴾، مقابلَةُ سخريَّةِ المُنافِقينَ مِنَ المُؤْمِنينَ بِسُخْريَّةِ اللهِ تعالَى مِنْهُمْ، ومَعْنَى سُخْريَّةِ اللهِ ﷻ مِنْهُم: أنَّه جَعَلَ لَهُم في الدِّينِ مِنَ الأَحْكامِ المُدْخِلَةِ لَهُم في عِدادِ مَن يشملُهُ اسمُ الإسلامِ، معَ عِلْمِهِ سُبحانَه بكذبِهِم، واطِّلاعِهِ على خُبْثِ اعْتِقادِهِم، فكانَ هَذا مِن فِعْلِهِ بِهِم مُسْتَهْزِئًا، وبِهِم ساخرًا، فهو جزاءٌ لَهُم عَلى سبيلِ المقابلَةِ، وليسَ هَذا مِن قَبيلِ المشاكَلَةِ، علَى ما هوَ الحقُّ، وهيَ طَريقَةُ أهلِ السُّنَّةِ والحديثِ[2]؛ لِما

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/275.

(2) عزّ الدين مرير، عقيدة أهل السّنة والجماعة في صفات الله تعالى الواردة على سبيل المقابلة والرّدّ على المخالفين، ص: 393 - 394.

يترتَّب عَلى القولِ بالمشاكَلَةِ - بمعناها في اصطلاحِ البلاغيِّينَ - مِنَ الفسادِ العقَديِّ.

دِلالَةُ الخَبرِ في: ﴿سَخِرَ ٱللَّهُ مِنۡهُمۡ﴾:

لا تُخْرَجُ الجُمْلَةُ الخَبَرِيَّةُ عَنْ أَصْلِ دِلالَتِها إِلَّا لِقَرِينَةٍ تُفيدُ ذَلِكَ

قولُ اللّهِ تعالَى: ﴿سَخِرَ ٱللَّهُ مِنۡهُمۡ﴾ جملَةٌ خبريَّةٌ لفظًا، يجوزُ أن تكونَ باقيةً على دِلالَتِها الخبَريَّة، ويَجوزُ أن تَكون إنشائيَّةً مَعْنًى يُرادُ بها الدُّعاءُ[1]، إلَّا أنَّ القولَ بإنشائيَّتِها يترتَّبُ عليهِ القولُ بجوازِ عطْفِ الخبَرِ على الإنشاءِ؛ لأنَّ اللّهَ سبحانه قال بعدُ: ﴿وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ وهي جملة خبريَّةٌ قَطْعًا إلَّا أنَّ هذا الإيرادَ يُدْفَعُ بأنَّ القولَ الصَّحيح جوازُ عطفِ الخَبَرِ على الإنشاءِ، والإنشاءِ على الخبَرِ، والقرآنُ الكريمُ طافحٌ بِهِ، ومع ذلك فحَمْلُ الجُمْلَةِ على كونِها خبريَّةً في المَعْنَى أَوْلى وأظهَرُ؛ لأنَّ إخراجَها عن هذا ضرْبٌ من ضروبِ المجازِ، والحقيقةُ ههنا ممكِنَةٌ، فتَتَعَيَّنُ.

نُكْتَةُ تَقْديمِ ما حَقُّهُ التَّأْخيرُ في: ﴿وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾:

الإيماءُ إلى أَحَقِّيَّةِ المُنافِقينَ بِالعَذابِ الأَليمِ

قُدِّمَ مُتَعَلَّقُ الخبرِ في قول اللّه ﷻ: ﴿وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾؛ للدِّلالةِ على الاختصاص، والإشارَةِ إلى كَوْنِهم أحقَّاءَ بالعَذابِ الأَليم؛ نَظَرًا لاخْتِصاصِهم بِجُرْمِ النِّفاقِ الَّذي فاقَ الكفرَ. فهذا النَّوْعُ مِنَ العَذابِ خاصٌّ بِهِمْ، ومَنْ دونَهُمْ مِنْ أصحابِ المَعاصي ممَّن تُوُعِّدَ بالعذابِ الأليمِ؛ لَهُمْ عَذابٌ دونَ عذابِ المُنافِقينَ.

سِرُّ تَنْكيرِ لفظ ﴿عَذَابٌ﴾:

فظاعةُ عَذابِ المُنافِقينَ عند الله يوم القيامة

نُكِّر لفظُ العذابِ مِنْ قولِ اللّه ﷻ: ﴿وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، للدِّلالةِ عَلى تَهْويلِ هذا العذابِ وتفخيمِهِ وتعظيمِهِ، أي: إنَّ للمُنافِقينَ عذابًا عظيمًا مَهولًا[2]، والَّذين يستحقُّون العذابَ، هم الَّذين عاقبهم اللّه بالسُّخريَّة منهم؛ لأنَّهم سخروا من المؤمنين، وقد كان ذلك الأمر

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/64.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/87.

جزاءً وفاقًا، لما قدَّمت أيديهم، فسقاهم اللّه من نفس الكأسِ الَّتي كانوا يسقونَ النَّاس منها، فإذا سخر ساخرٌ من الصَّدقات، واستهزأ بأهلها، سخر اللّه منه، واستهزأ به.. إنَّه عدوٌّ للّهِ محاربٌ له، وحسب من يعادي اللّه ويحاربُه، ضياعًا، وهلاكًا، وسوء مصيرٍ"[1].

بَلاغةُ المَجازِ العَقْليِّ في: ﴿أَلِيمٌ﴾:

قولُه: ﴿أَلِيمٌ﴾، من قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، واردٌ على وزانِ (فَعيل)، وَتأتي هذه الصِّيغةُ (فعيلٌ)، بمعنى اسم الفاعل، وبمعنَى اسم المَفْعول، واللَّفْظُ في الآية يَحْتَمِلُ الوَجْهَيْن: أحدُهُما: ﴿أَلِيمٌ﴾ بمعنى: مُؤْلِم، أي: هوَ عذابٌ يوجِعُ مَن يقَعُ عليه. والآخَرُ: ﴿أَلِيمٌ﴾ بمعنى مُؤْلَم، ويكون مَجازًا عقليًّا؛ لأنَّ المُؤْلَمَ هو المُعذَّبُ لا نفسُ العذابِ، والقَصْدُ مِنْهُ الإيذانُ بِبُلوغِ العذابِ الغايةَ في الإيلام، وكِلا الوَجْهَيْنِ حَسَنٌ، ولا مانِعَ مِن حَمْلِ لَفْظِ ﴿أَلِيمٌ﴾ عليهما معًا؛ حَمْلًا لِلْمُشْتَرَكِ على مَعْنَيَيْه.

عذابُ المُنافِقينَ غايةٌ في الإيلامِ، وعدلٌ من ربِّ الأنام

دِلالَةُ الجُمْلَةِ الاسْميَّةِ في: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾:

عُبِّر عَن ثُبوت العذابِ الأليم للمُنافِقينَ بالجملةِ الاسميَّةِ في قول اللّه ﷻ: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، للدِّلالَةِ على الدَّوامِ والاسْتِمْرارِ، وأنَّ العذابَ الحاصل للمُنافِقين في الآخِرَةِ لا انقطاعَ لَهُ[2]، ذلك أنَّهم لم ينقطعوا عن تثبيط المؤمنين عن فعل الخير بالتَّطوُّع بالصَّدقات، فتطاولوا بالقول على المعطي كثيرًا، واستهزؤوا بمن أعطى قليلًا، وهم على علم بأنَّ اللّهَ غنيٌّ عن صدقةِ المتصدِّق بالقليلِ والكثير، ولكنَّه تعالى أمر العباد بما هم مفتقرونَ إليه، ونظرًا لما في قول المنافقين هذا، من التَّثبيط عن الخير بما هو ظاهر بيِّنٌ، فقد كان جزاؤهم أن سخرَ اللّه منهم، وكافأهم من جنس ما قالوا، وفعلوا، وجعل لهم العذابَ الأليمَ[3].

تَعْذيبُ المُنافِقينَ أليمٌ؛ لأنَّه في الدَّرك الأسفل من النَّار

(1) عبد الكريم الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 5/854.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/87.
(3) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 345.

﴿ٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ أَوۡ لَا تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ إِن تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ سَبۡعِينَ مَرَّةٗ فَلَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَهُمۡۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ٨٠﴾ [التوبة: 80]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

رُسوخُ المنافقين في الكُفرِ قيمًا واعتقادًا

بَعدَ أنْ ذكَر ﷺ بُخلَ المنافقين وشُحَّهُم بأموالِهم - حتّى بعدَ أنْ عاهدوا اللّهَ على الصَّدقةِ؛ إذا آتاهُم مِنْ فضْلِهِ - أَرْدفَ ذلك ببيانِ أنّهم لَمْ يقتصروا في جُرمِهم على هذا الحدّ، بلْ جاوَزوا ذلك إلى لَمزِ المؤمنين وذمِّهم في صدقاتِهم غنيِّهم وفَقيرِهم، وأنَّهم بهذا قد وصلوا إلى حدٍّ لَمْ يَعُدْ لهم فيهِ أدنى حظٍّ مِنَ الإسلام، ولا أدنى نَفْعٍ مِن استغفارِ الرَّسولِ ﷺ ودعائِهِ لهم؛ لِرسوخِهم في الكفْرِ باللّه ورسولِهِ وعدم الرَّجاءِ في إيمانِهم[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱسۡتَغۡفِرۡ﴾: الغَفْرُ في الأصْلِ: التَّغْطيَةُ والسَّتْرُ، ويُرادُ بها التَّجاوُزُ عَنِ الذَّنْبِ وعَدَمُ المُؤاخَذَةِ بِهِ، يُقالُ: غَفَرَ اللّه ذَنْبَهُ غَفْرًا وَمَغْفِرَةً وَغُفْرانًا، أيْ: سَتَرَها وتَجاوَزَ عنْها[2]. والغُفْرةُ: ما يُغطَّى بِهِ الشَّيءُ[3]، والاسْتِغْفارُ: طَلَبُ ذلك بالمقال والفِعالِ، والغُفْرانُ والمَغْفِرَةُ مِنَ اللّه هو أنْ يَصونَ العَبدَ مِنْ أنْ يمسَّهُ العذابُ[4]. والمرادُ من الاستِغْفار في الآيةِ: طَلَبُ الغَفْرِ، أَيِ: السَّتْرِ لِلذُّنوبِ والتَّجاوز عنها.

2) ﴿مَرَّةٗ﴾: أَصْلُ المَرِّ يَدُلُّ على مُضيِّ شَيءٍ، مَرَّ الشَّيءُ يَمُرُّ، إذا مَضَى، ومَرُّ السَّحابِ: انْسِحابُهُ وَمُضيُّهُ[5]، والمَرَّةُ: فَعْلَةٌ مِنَ المُرورِ،

(1) المراغيّ، تفسير المراغي: 10/170.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (غفر).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (غفر).
(4) الرّاغب، المفردات: (غفر).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (مرّ).

غَلَبَتْ على مَعْنَى الفَعْلَةِ الواحِدَةِ مِنْ عَمَلٍ مُعيَّن يُعرَف بالإضافَة أَو بدلالَةِ المَقام[1]. ولَقيتُهُ مَرَّةً وَمَرَّتَيْنِ إنَّما هو عِبارةٌ عَنْ زَمانٍ قَدْ مَرَّ، وَيَقولونَ: لَقيتُهُ مَرَّةً مِنَ المَرِّ، ويَجْمَعونَ المَرَّةَ عَلَى المَرِّ[2]. والمقصود بالمرّة في الآية: الوَحْدَةُ مِنْ حَدَثٍ يَحدث.

3) ﴿ٱلْفَٰسِقِينَ﴾: أَصْلُ الفِسْق: الخُروجُ عَنِ الطّاعَة، ومنه قَوْلُهُم: فَسَقَ الرُّطَبُ، أيْ: خَرَجَ عن قِشْرِهِ[3]، والفِسْقُ: العِصْيانُ والخُروجُ عن الطَّاعَة، يُقال: فَسَقَ الرَّجُلُ، يَفْسُقُ، فِسْقًا، أيْ: عَصَى وأَذْنَبَ. والفِسْقُ: التَّرك لأمر اللّه[4]، وَكَذَلِكَ المَيْل عَن الطّاعَةِ إِلَى المَعْصيةِ كَما فَسَقَ إِبْليسُ عنْ أَمرِ رَبِّه[5]، والمقصودُ بالفاسِقين في الآيةِ: الخارِجونَ عنْ حدودِ الدّينِ والشَّريعةِ.

المَعْنى الإجْماليُّ:

يُخاطِبُ اللّه تعالى نبيَّه ﷺ، قائلًا له: استغفِرْ لهم - يا مُحمَّدُ - أوْ لا تستغفِرْ لهم، فلنْ يَغفِرَ اللّهُ لهم، فقد سبَقَ القولُ عليهم لكفرِهِمْ ونفاقِهِمْ، بعدمِ المغفرَةِ لهم؛ لِأَنَّ اللّهَ تعالى لا يغفرُ الكفرَ بِهِ، فلا تُجهِدْ نَفسَكَ وتستهلكْ عزيزَ وقتِكَ في الاستغفارِ لهُمْ؛ لأنَّهُ مهما بلغَ عددُ استغفارِكَ لهُمْ، ولو كان كثيرًا جدًّا لا يكادُ يُحصى، فلنْ يغفرَ اللّهُ لهم ولنْ يَعْفوَ عنهم؛ ذَلك بسبَبِ نفاقِهم وكُفرِهم باللّهِ ورَسولِه، واللّهُ لا يوفِّقُ للإيمانِ به وبِرَسولِه القَومَ الخارِجينَ عن طاعتِه، المُؤْثِرينَ للكُفرِ به، المصرّينَ على فِسْقِهم[6].

لا استغفارَ يُجدي مع الإصرارِ على النِّفاقِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/134.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والسَّمين، عمدة الحُفّاظ: (مرَّ - مرر).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (فسق).
(4) الخليل، العين، وابن منظور، لسان العرب: (فسق).
(5) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (فسق).
(6) ابن جرير، جامع البيان: 11/599، والشَّوكانيّ، فتح القدير: 2/441، والسّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 346.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

فائدةُ الاستئنافِ في الآيةِ:

توْجيهُ النَّبيِّ ﷺ بكلامٍ مستأْنَفٍ طلبًا بأنْ يتوقفَ عن الاستغفارِ للمُنافقينَ

قولُهُ: ﴿ٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ أَوۡ لَا تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ﴾ "اسْتِئْنافٌ ابْتِدائيٌّ لَيْسَ مُتَّصِلًا بِالكَلامِ السّابِقِ، وإنَّما كانَ نُزولُهُ لِسَبَبٍ حَدَثَ في أحْوالِ المُنافِقينَ المَحْكيَّةِ بِالآياتِ السّالِفَةِ، فَكانَ مِن جُمْلَةِ شَرْحِ أحْوالِهِمْ وأحْكامِهِمْ، وفي الآيَةِ ما يَدُلُّ عَلى أنَّ النَّبيَّ ﷺ كانَ يَسْتَغْفِرُ لَهم"[1].

دلالةُ الأمرِ في: ﴿ٱسۡتَغۡفِرۡ﴾:

النِّفاقُ خَصلةٌ تقتضي التَّيْئِيسَ

إنَّ الأمْرَ الموجَّهَ للرَّسولِ ﷺ هو في جوهَرِهِ خبرٌ قد جاءَ في صورةِ الأمرِ التَّخْييريِّ لهدفِ المبالَغةِ في التَّيْئِيسِ منَ المغفرةِ للمنافقينَ؛ إذِ القصدُ منْهُ: الإخبارُ بِأنَّ استغفارَه ﷺ لهُمْ وعدمَهُ سواءٌ[2]؛ وذلك ليَظهر عدمُ غفرانِهِ سبحانه لهُمْ غايةَ الظُّهورِ وعلى غايةِ التَّأْكيدِ[3]؛ وذلك لأنَّهُ إذا كانَ استغفارُه ﷺ لهُمْ مهْما بلغَ لنْ ينفعَهم شيئًا، فماذا يُمكنُ أنْ ينفعَهم بَعد هذا؟

ومِنْ دواعي مجيءِ الخبَرِ في هذه الصّورَةِ الطَّلَبيَّةِ التَّخييريَّةِ "وتصويرِهِ بصورةِ الأمرِ، المبالَغَةُ في بيانِ استوائِهما، كأنَّهُ ﷺ أُمر بامتحانِ الحالِ بأنْ يَستغفرَ تارةً ويَترُكَ أخرى ليظهرَ له جليَّةُ الأمرِ"[4].

أثرُ مقامِ التَّعليلِ في الفَهمِ العُمَريِّ لآيةِ الاستغفار

وأمّا ما رويَ مِنْ مُراجعةِ عمرَ رضي الله عنه للرَّسول ﷺ بقولِهِ: كَيف تَستغفر لِعَدوِّ اللّه وَقَدْ نَهاكَ اللّه عَنِ الاسْتِغْفارِ لَهُمْ؟

فَقالَ ﷺ: «ما نَهاني وَلَكِنَّهُ خَيَّرَني»[5]، فكَأَنَّ عمرَ قد فهِمَ منَ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/276.

(2) الجمل، حاشية الجمل على الجلالين: 3/288، وأبو حيّان، البحر المحيط: 5/471.

(3) التّفتازانيّ، حاشية السّعد على الكشّاف: 4/215.

(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/87.

(5) أخرجه البخاريُّ في الجنائز، بابُ الكفَن في القميصِ الّذي يكفّ أو لا يكفّ: (3/138)، وفي التفسير، سورة التوبة، بابُ ولا تُصلّ على أحد منهم: 8/337، واللّفظُ له، وفيه في قوله: استغفر لهم أو لا تستغفر لهم: 8/333، وفي اللّباس، بابُ لبس القميص: 10/266، ومسلم في فضائل عمر: (نووي): 15/167، وفي صفات المنافقين: (نووي): 17/121، والتّرمذيُّ في تفسير القرآن: 4/343، وقال حسن صحيح، والنّسائيُّ في المجتبى في الجنائز، بابُ القميص في الكفن: 4/36.

الآيةِ المذكورةِ ما هو الأكثرُ الأغلبُ مِنْ لسانِ العربِ منْ أنَّ (أو) ليستْ للتَّخييرِ، بل للتَّسويةِ في عدمِ الوصفِ المذْكورِ، أيْ: أنَّ الاستغفارَ لهُمْ وعدمَ الاستغفارِ سواءٌ. وفهِمَ عمرُ أيضًا مِنْ قولِهِ تعالى: ﴿سَبْعِينَ مَرَّةً﴾ أنَّها للمبالغةِ، وأنَّ العددَ المُعَيَّنَ لا مفهومَ لهُ، بلِ المرادُ نفيُ المغفرةِ لهُمْ ولو كثُرَ الاستغفارُ، فيَحصلُ مِنْ ذلك النَّهيُ عنِ الاِسْتغفارِ[1].

وليس ما فهِمَهُ عمرُ رضي الله عنه بعيدًا عن فهْمِ الرَّسول ﷺ - وحاشاه - ولكنَّهُ ﷺ فعلَ ذلك "إجراءً لَهُ على ظاهرِ حكمِ الإسلامِ... واسْتصْحابًا لظاهرِ الحُكمِ، ولِما فيه منْ إكرامِ ولدِهِ - أيْ: ولدِ هذا المنافقِ محلِّ الكلامِ - الَّذي تَحقَّقتْ صلاحيَتُهُ، ومصلحةِ الاستِئلافِ لقومِهِ... وقد كانَ ذلك قبلَ نزولِ النَّهي الصَّريحِ عنِ الصَّلاةِ على المنافقينَ"[2].

وقيلَ: لَفْظُهُ أَمْرٌ وَمَعْناهُ الشَّرْطُ، بِمَعْنَى: إِنِ اسْتَغْفَرْتَ أَوْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَنْ يَغْفِرَ اللهُ، فَيَكونُ مِثْلَ قَوْلِهِ: ﴿قُلْ أَنفِقُواْ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ﴾ [التّوبة: 53]، وَبِمَنْزِلَةِ قَوْلِ الشَّاعِرِ:

أَسيئي بِنا أَوْ أَحْسِني لا مَلومَةً *** لَدَيْنا وَلا مَقْلِيَّةً إِنْ تَقَلَّتِ[3]

السرُّ في عدمِ التَّصريحِ بالنِّداءِ لنبيِّنا ﷺ:

تنزيهُ مقامِ الرِّسالةِ والنُّبوَّةِ عن عدمِ الإجابةِ

ابتُدئت الآيةُ الكريمةُ بالخطابِ المباشرِ للرَّسولِ ﷺ في قولِهِ: ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾ دونَ ندائهِ ﷺ بنحوِ: (يا أيُّها النَّبيّ)، و(يا أيُّها الرَّسول)؛ لأسبابٍ أهمّها:

أولاً: تنزيهُ مقامِ الرِّسالةِ والنُّبوَّةِ عنْ أنْ يكونَ في نداءٍ لا يُجابُ فيه

(1) ابن حجر العسقلانيّ، فتح الباري: 8/335.
(2) ابن حجر العسقلانيّ، فتح الباري: 8/336.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/470، ديوان كُثَيّر عزّة، ص: 101.

طلبُهُ ﷺ، وقد كانَ القرآنُ حريصًا في خطابِهِ للنَّبيِّ ﷺ وندائِهِ بـ(يا أيّها الرَّسول) أو (يا أيّها النَّبيّ)، على أنْ يلفتَ النَّظَرَ إلى تشريفِهِ ﷺ بندائِهِ بهذا النِّداءِ، مهْما كان الغرضُ والسّياقُ، ولو كانَ غرضُ الخطابِ التَّكليفَ نحو: ﴿۞يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ﴾ [المائدة: 67]، أو حتّى في مقامِ العَتْبِ، فإنَّهُ لا يخلو في خطابِهِ إياهُ منْ إشْفاقٍ عليهِ، كما في قولِهِ سُبحانهُ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ تَبۡتَغِي مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ١﴾ [التحريم: 1]، وأوضحُ من هذا وأجْلى، هذا المثالُ الّذي عزَفَ فيهِ الخطابُ القُرآنيُّ عنْ أنْ يَسلبَ عنهُ لَفظًا مُشْتقًّا مِنَ اليُمْنِ فقالَ له: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلۡغَرۡبِيِّ إِذۡ قَضَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلۡأَمۡرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ٤٤﴾ [القصص: 44] ولَم يَقُل: (وما كنت بجانب الأيمن) مع أنَّهُ نَفْسُ الجانبِ الّذي قالَ اللّهُ تعالى فيهِ عنْ موسى عليه السلام: ﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنِ﴾ [مريم: 52] حتّى سمَّى الزَّركشيُّ هذا: "أعْجبَ احْتراسٍ وَقَعَ في القُرآن"[1].

ثانيًا: تَلقينُهُ ﷺ الردَّ المناسبَ لهؤلاءِ المنافقينَ الّذين قد يَسألونَهُ أنْ يستغفرَ لهُمْ، وإعلامُهُ – من أوّلِ الأمرِ – أنَّ استغفارَهُ لهُم وعدَمَهُ سواءٌ؛ لأنَّ اللّهَ لن يغفرَ لهمْ.

فالانتقالُ مِنَ الخبرِ عنهُمْ إلى خطابِه والحُكمِ عليهِمْ يُشير إلى هوانِهِم وعدمِ الاعتناءِ بهِمْ من جِهَةٍ، كما يدلُّ على تسْريَةِ النّبيِّ ﷺ من جهةٍ أُخرى؛ حتَّى لا يحزنَ عليهِمْ، فتَميلَ نفسُهُ المَجبولَةُ على الرّحمةِ إلى الإشفاقِ عليهمْ.

ثالثًا: ويَحْتَمِلُ عدمُ التّصريحِ بالنّداءِ لنَبيِّنا ﷺ دفعَ الارتباطِ بين المنافقينَ والاِسْمِ الشَّريفِ.

إيثارُ لفْظِ الاستغفار:

آثرَ الخطابُ القُرآنيُّ لفظَ الاستغفارِ، لأنّ المغفرةَ فرْعُ الاهتداءِ[2] والتَّوْبةِ، فإذا سوَّى اللّهُ بين استغفارِه لهم وعدمِه، فإنَّهم مَحرومون ممّا سواهُ مِنَ التَّوبةِ، وغيرِ ذلك.

وربما كان السببُ في إيثارِ لفظِ (الاستغفار) راجعًا إلى واحدٍ ممّا يأتي: أوّلًا: أنْ يكونوا قد طَلبوا منْهُ ﷺ أنْ يَستغفرَ لهم على سَبيلِ الرّياءِ والخِداعِ، كي لا يُشك في أمرِهم، على طريقةِ حِرصِهم على القيامِ للصَّلاةِ، وأجسادُهم مُتَلبِّسَةٌ بالكسَلِ، وقلوبُهم

(1) الزَّركشيّ، البرهان: 3/66.

(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 14/308.

مُنطويَةٌ على الرّياءِ، وقد كشفَهم اللّهُ تعالى بقولِه: ﴿إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمۡ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ [النساء: 142] وكما قالَ أيضًا: ﴿سَيَقُولُ لَكَ ٱلۡمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ شَغَلَتۡنَآ أَمۡوَٰلُنَا وَأَهۡلُونَا فَٱسۡتَغۡفِرۡ لَنَاۚ يَقُولُونَ بِأَلۡسِنَتِهِم مَّا لَيۡسَ فِي قُلُوبِهِمۡۚ﴾ [الفتح: 11].

دَلالَةُ لَفظِ الاستِغفارِ على استحالةِ التَّوبَة

ثانيًا: أنْ يكونَ الاستغفارُ لهم بتنزيلِهم مَنزلةَ مَن طَلبوا منْهُ ﷺ ذلك، أيْ: على تقديرِ مجيئِهم تائبين معتذرين مِن جناياتِهم[1].

فائدةُ التّعديَةِ باللّامِ، والتّعبيرِ بالإضمارِ في: ﴿ٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ﴾:

التّعبيرُ بالإضمارِ في قولِه تعالى: ﴿ٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ﴾ يدلُّ على أنّهم قومٌ مُعيَّنون، أمّا سَوقُ التّعديَة باللّامِ - تخصيصًا - فللدّلالَةِ على طلبِ هؤلاءِ القومِ مِنَ النَّبيِّ ﷺ الاستغفارَ، والأقْرَبُ أنَّ الَّذينَ كانوا يَلْمِزونَ هُمُ الَّذينَ طَلَبوا الاسْتِغْفارَ، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ[2].

سِيقَ الجمعُ بين الإضمارِ والتّعديَةِ باللّامِ للتَّخصيصِ

نَوعُ ﴿أَوۡ﴾ وأثرُها في المَعنى:

إنَّ ﴿أَوۡ﴾ للتَّخييرِ، دَلَّتْ عَلَى تَخْييرِ المُخاطَبِ في أَحَدِ الأَمْرَيْنِ مَعَ انْتِفاءِ الفائِدَةِ عَلَى كِلَيْهِما[3]، ويُحْتَملُ أنْ تكونَ للتّسْويَة، ومعناها أنَّ الاسْتغفارَ وعدَمَهُ سواءٌ[4].

التَّخييرُ بين أمرَيْن لا يستَلزِمُ قَبُولَ أحَدِهِما لانتفاءِ الفائدةِ مِنهُما

---

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 14/308.

(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 16/112.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/278.

(4) وقد استشكل بعضُ العلماءِ حديثَ عمرَ وابنِه، واستبعدوا أنْ يَفهمَ النَّبيُّ ﷺ مِنَ الآية التَّخييرَ، لأنَّ الظّاهرَ أنَّ: (أو) للتَّسويَة في عدم النَّفعِ، وأنْ يَفهمَ منْ ذِكْر السَّبعينَ التَّحديدَ، لأنَّ ظاهر السّياق أنَّها للتَّكْثير، فقال بعضُهم: إنَّه خبرُ آحادٍ لا يعوّلُ عليه، وأنكر بعضُهم صحَّتَهُ. ينظر: ابن حجر العسقلانيّ، فتح الباري: 8/272 - 273.

وكلُّ هذا وذاك غيرُ سديد، فالحديث صحيح رواه البخاريّ، ومسلم، والنَّسائيّ، وابنُ ماجه - وقد سبق تخريجُه - وكفى بهم أئمَّةً.

قال أبو شهبة: "والذي ظهر لي - والله أعلم - بَعد النَّظر والتَّأمل في الآية والأحاديث وما قاله الأئمَّةُ: أنَّ الآية تحتمل التَّسويَةَ، وهو الأظهرُ، وأنَّ المراد بالسَّبعينَ التَّكثيرُ لا التَّحديدُ، وهو الأظهرُ أيضًا، وفي رواية عمرَ السّابقةِ ما يدلُّ على أنَّ النَّبيَّ ﷺ كان يرى ذلك، فقد قالَ: «لَوْ أَعْلَمُ أَنِّي لَوْ زِدْتُ عَلى السَّبْعينَ يُغْفَرْ لَهُ، لَزِدْتُ». وتحتملُ أيضًا التَّخييرَ في: (أو)، وتحتملُ التَّحديدَ في لفظِ السَّبعين، وهما مرجوحان قطعًا". ينظر: أبو شهبة، السّيرة النَّبويَّة على ضوء القرآن والسُّنَّة: 2/534.

دلالةُ ﴿لَا﴾ في الآيةِ:

تَـرَدُّدُ (لا) بيْن النَّفْي والنَّهْي

إمّا أنْ تَكونَ (لا) نافيَةً، ويَكونَ جَزْمُ الفِعْلِ بَعْدَها لِكَوْنِه مَعْطوفًا عَلى فِعْلِ الأمْرِ، فَإنَّ فِعْلَ الأمْرِ مَجْزومٌ بِلامِ الأمْرِ المُقَدَّرَةِ عَلى التَّحْقيقِ، وهو مَذْهَبُ الكوفيّينَ واخْتارَهُ الأخْفَشُ مِنَ البَصْريّينَ، وابْنُ هِشامٍ الأنْصاريُّ وأبو عَليّ ابْنُ الأحْوَصِ، شَيْخُ أبي حَيّانَ، وهو الحَقُّ لِأنَّهُ لَوْ كانَ مَبْنيًّا لَلَزِمَ حالَةً واحِدَةً، ولِأنَّ أحْوالَ آخِرِهِ جاريَةٌ عَلى أحْوالِ عَلاماتِ الجَزْمِ فَلا يَبْعُدُ أنْ يَكونَ ذَلِكَ التَّقْديرُ مُلاحَظًا في كَلامِهِمْ فَيُعْطَفُ عَلَيْهِ بِالجَزْمِ عَلى التَّوَهُّمِ[1].

وإمّا أنْ تَكونَ صيغَةُ النَّهْيِ اسْتُعْمِلَتْ لِمَعْنى التَّسْويَةِ لِأنَّها قارَنَتِ الأمْرَ الدّالَّ عَلى إرادَةِ التَّسْويَةِ، ويَكونُ المَعْنى: أمْرُكَ بِالاسْتِغْفارِ لَهم ونَهْيُكَ عَنْهُ سَواءٌ[2].

دلالَةُ الكِنايَةِ في: ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾:

كِلا الفِعلَيْنِ لنْ يُغَيِّرَ مُرادَ اللهِ ﷻ فيهمْ

دلَّتِ العِبارةُ على كَونِ ﴿لَا﴾ ناهيَةً وهو الأظهرُ؛ لجزْمِ المضارِعِ بَعدَها، وتكونُ العبارةُ "كِنايَةً عَنْ كَوْنِ الآمِرِ والنّاهي لَيْسَ بِمُغَيِّرٍ مُرادَهُ فيهِمْ، سَواءٌ فُعِلَ المَأْمورُ أوْ فُعِلَ المَنهيُّ، ويَجوزُ أنْ يَكونَ الفِعْلانِ مَعْمولَيْنِ لِفِعْلِ قَوْلٍ مَحْذوفٍ، والتَّقْديرُ: نَقولُ لَكَ: اسْتَغْفِرْ لَهم، أوْ نَقولُ: لا تَسْتَغْفِرْ لَهم"[3].

دلالَةُ تَكرارِ مادَّةِ الاسْتِغْفارِ:

تَكرارُ مادَّةِ الاسْتِغْفارِ إشارةٌ لِلحَثِّ عَلَيهِ

في تَكرارِ مادَّةِ الاسْتغفارِ إشارةٌ لِحَثِّ المنافقينَ على الاسْتغفارِ، وذلك أنَّ تكرُّرَ اللَّفظِ وقرْعَهُ أسْماعَهُمْ، قد يُحدِثُ في وَعْيهم يَقظَةً وتَنَبُّهًا نحْوَ الرُّجوعِ إلى ربِّهم والاسْتغفارِ منْ ذنوبِهم.

كما أنَّ في تكرارِه أيضًا دلالَةً على حِرصِ النَّبيِّ ﷺ على

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/278.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/278.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/278.

هدايتِهم، ولَوْ سألوهُ الاسْتغفارَ لهُم لَفعَلَ، إلّا أنْ يكونَ هناك نَهيٌ صريحٌ.

الحرصُ النَّبَويّ على هدَايةِ النَّاس

في تَكرارِ لفْظِ الاسْتغفارِ مُتَقلِّبًا بيْن الصِّيَغِ المذْكورَةِ لَونٌ مِنَ البديعِ يُعرف بـ(جِناس الاشْتقاقِ) الكائنُ في تَكرارِ لفْظِ الاسْتغفارِ للتَّأكيدِ على حِرصِ النَّبيِّ ﷺ على هدايتِهم، ولَوْ سألوهُ الاسْتغفارَ لَهُم لَفعَلَ إلّا أنْ يكونَ هناك نَهيٌ صَريحٌ.

فائدةُ تَكرارِ ﴿لَهُمْ﴾:

تأكيدُ اخْتصاصِ المُنافقين بعَدَمِ المغْفرَةِ لَهُمْ، مع جَلالَةِ قَدْرِ المُسْتَغْفِرِ ﷺ

تكرَّرَ الجارُّ والمجرور ﴿لَهُمْ﴾ أربعَ مرَّاتٍ في قولِهِ تعالى: ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾ إشارةً إلى شِدّة غضبِ اللهِ عليهم، وتأكيدًا على عَظيم حِرصِ النَّبيِّ ﷺ على هدايتِهم، فنَلْحظُ أنَّ الجارَّ والمجرورَ قد تعلَّقَ بفعْلِ الاسْتغفارِ المُسنَدِ إلى النَّبيِّ ﷺ ثلاثَ مرّاتٍ، وتعلَّقَ بالفعلِ ﴿يَغْفِرَ﴾ المنفيِّ بـ(لن) مرَّةً واحدةً قاضيَةً عليهم.

معنى (لن) ودلالتُها:

المبالغةُ في الاستغفار لا تَستَلزِمُ المغفرةَ

حَرفُ النَّفي (لن) مِنْ أقوى أدواتِ النَّفْي دلالةً عليه، ومِنْ خصائصِهِ أنَّهُ يَدخُل على الفِعْل المُضارِع، فيُمحِّضُهُ للاسْتقبالِ مع تأكيدِ النَّفْي[1]؛ حتّى إنّه من شِدَّة دلالتِهِ على التَّأكيدِ، دَرَجَ الزَّمخشريُّ على جَعْلِهِ مفيدًا لتأْبيدِ النَّفْي، لا تأكيدِهِ فقط.

وفيه بَيانٌ لِعَدَمِ المَغْفِرَةِ وإنِ اسْتُغْفِرَ لهم حَسْبَما أُريدَ إثْرَ التَّخْيير، أوْ بَيانٌ لاسْتِحالَةِ المَغْفِرَةِ بَعْدَ المُبالَغَةِ في الاسْتِغْفارِ إثْرَ بَيانِ الاسْتِواءِ بَيْنَ الاسْتِغْفارِ وعَدَمِهِ[2].

طِباقُ السَّلْبِ ودلالَتُهُ:

هدفُ طباقِ السَّلبِ في قوله: ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾

(1) السّامرّائيّ، معاني النَّحو: 3/359.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 5/336.

التَّسويَةُ بيْن الضِّدَّين؛ وهما الاستغفارُ وعدَمُهُ، في تأْكيدِ انْتفاءِ حصولِ المغفِرَةِ.

تأكيدُ نَفْيِ حُصولِ المغفرَةِ للمُنافقين حالَ القيامِ بالِاسْتغفارِ لَهُمْ أَوْ عَدَمِهِ

وتفصيلُ ذلك: أنَّهُ جعلَ الاسْتغفارَ لَهُمْ حالَةَ كَونِهِ مَأمورًا بِهِ مُساوِيًا لِلاسْتغْفارِ لَهُمْ حالَةَ كَونِهِ مَنْهيًّا عَنْهُ؛ أي: الأمرُ بِهِ مُساوٍ لِلنَّهْيِ عنْهُ في عدَمِ الفائدَةِ، وهو أقوى، ومُساواةُ الاسْتغْفارِ لِلعَدَمِ؛ لِأنَّ الأمرَ والنَّهْيَ ضِدّانِ، والأمرُ بِالاسْتغفارِ لِمَنْ لا ينفعُ فيهِ الاسْتغفارُ مُساوٍ لِلنَّهْيِ عَنِ الاسْتغفارِ له[1].

فائدَةُ الشَّرْطِ وبَلاغَتُهُ:

القصدُ إلى تَقليلِ حُصولِ الاسْتغفارِ منْهُ ﷺ بَعدَ البَيانِ

تَصديرُ جُملةِ الشَّرطِ بـ ﴿إِن﴾ في قوله تعالى: ﴿إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾ دالٌّ على تقليلِ حُصولِ الاسْتغفارِ لَهُمْ منْهُ ﷺ، بَعدَ أنْ بانَ لَهُ الأمْرُ وعَلِمَ أنَّ اللّهَ تعالى لنْ يَغفرَ لَهُمْ بِحالٍ.

ومِن دلالاتِ الشَّرطِ كَذلكَ في قولِهِ تعالى: ﴿إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾ بَيانُ عَدَمِ المَغْفِرَةِ وإنِ اسْتَغْفَرَ لَهم، حَسْبَما أُريدَ إثْرَ التَّخْييرِ، أوْ بَيانٌ لِاسْتِحالَةِ المَغْفِرَةِ بَعْدَ المُبالَغَةِ في الاسْتِغْفارِ إثْرَ بَيانِ الاسْتِواءِ بَيْنَ الاسْتِغْفارِ وعَدَمِه[2].

تضمينُ الأمرِ بالاستغفارِ يستلزمُ التَّنبيهَ على قَصدِ عدمِ المغفرَةِ

وقيل: إنَّ الأَمْرَ إذا كانَ فيهِ مَعْنَى الشَّرْطِ كانَ الجَوابُ كَجَوابِ الشَّرْطِ، فَعَلَى هَذا يَقْتَضي أَنْ يَكونَ التَّرْكيبُ ﴿فَلَن يَغْفِرَ﴾ بالفاءِ؛ لأنَّ (لَنْ) لا تَقَعُ جَوابًا لِلشَّرْطِ إلَّا بِالفاءِ، فَكَذَلِكَ ما ضُمِّنَ مَعْناهُ[3].

إيثارُ ﴿إِن﴾:

القَصْدُ إلى مَنْعِ بيانِ وقوعِ ما يُتَوَهَّمُ وقوعُهُ

استُعمِلتْ ﴿إِن﴾ بَدل (إذا)؛ لأنَّ الأمرَ محتَمِلٌ لِلشَّكِّ، فهيَ تَدخُلُ على ما يَمتنعُ أو يُتَوَهَّمُ وقوعُهُ، بِخلافِ (إذا) الّتي تَدخُلُ على المجْزومِ بوقوعِهِ، أَوِ الرّاجِحِ وقوعُهُ.

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/320.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 5/336.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/434.

دلالَةُ لَفظِ ﴿سَبۡعِينَ﴾ وبَلاغَتُهُ:

المُبالَغَةُ في عَدَمِ القَبولِ بِصيَغِ التَّكثيرِ

في قولِهِ تعالى: ﴿إِن تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ سَبۡعِينَ مَرَّةٗ فَلَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَهُمۡۚ﴾ بَيانٌ لِعَدَمِ المَغفِرَةِ مِنَ اللهِ سُبحانَهُ لِلمُنافِقينَ، وَإِنْ أَكثَرَ النَّبيُّ ﷺ مِنَ الاستِغفارِ لَهُمْ، وَلَيسَ المُرادُ مِنْ هَذا أَنَّهُ لَوْ زادَ عَلَى السَّبعينَ لَكانَ ذَلِكَ مَقبولًا كَما في سائِرِ مَفاهيمِ الأَعدادِ، بَلِ المُرادُ بِهَذا: المُبالَغَةُ في عَدَمِ القَبولِ؛ فَقَدْ كانَتِ العَرَبُ تُجري ذَلِكَ مُجرَى المَثَلِ في كَلامِها عِنْدَ إِرادَةِ التَّكثيرِ، والمَعنَى: أَنَّهُ لَنْ يَغفِرَ اللهُ لَهُمْ وَإِنِ اسْتَغفَرَ لَهُمُ الرَّسولُ ﷺ اسْتِغفارًا بالِغًا في الكَثْرَةِ غايَةَ المبالَغةِ. وفيه مُبالَغَةٌ في اليَأْسِ من طَمَعِ المَغفِرَةِ[1].

سرُّ التَّعبيرِ بلَفْظِ ﴿مَرَّةٗ﴾:

المرادُ المبالَغَةُ في تَكثيرِ العَدَدِ، لا تَنوُّعُ صِيَغِ الاستِغفارِ

تَعليقُ السَّبعينَ بالمَرَّةِ مِنْ إِضافَةِ الصِّفَةِ إِلَى المَوْصوفِ، والقصدُ إلى تمييزِ العدَدِ لِتأْكيدِ نَفيِ المرّاتِ مهْما يَكُن عددُها بَلْه نَفيِ المُطلَقاتِ، أمّا إيرادُ المفعولِ المطلَقِ، فيُفيدُ تَأْكيدَ نَفيِ مَعنى الفِعلِ دونَ تَعَدُّدِهِ وكَثْرتِهِ؛ فليْس المرادُ انْتفاءَ فائدَةِ الاسْتِغفارِ المُتنوّعِ، بل انْتفاءَ فائدَتِهِ مهْما تَكُنْ كثْرتُهُ.

دلالَةُ الفاءِ في: ﴿فَلَن﴾:

الفاءُ لِرَبْطِ الجوابِ بالشَّرْطِ، وتُفيدُ التَّرتيبَ والتّعقيبَ والتّوكيد[2] لقَصد تَوكيدِ عَدمِ المغفِرَةِ مع كَثْرةِ الاسْتِغْفارِ.

سرُّ ابْتداءِ الجوابِ بـ ﴿فَلَن﴾:

نَفيُ المغفِرَةِ مع الإغراقِ في الاستِغفارِ

ابْتدأَ الخِطابُ بـ ﴿فَلَن﴾؛ لأنَّهُ من أقْوى حروفِ النَّفيِ؛ يَنفي المسْتَقبَلَ القَريبَ والبَعيدَ؛ أيْ أنَّ اللهَ لنْ يَغفرَ لَهُمْ إذا لَمْ يَتوبوا، ويَرجِعوا عنْ نِفاقِهم وكُفرِهم[3].

(1) البغويّ، معالم التّنزيل: 2/374.
(2) محمّد الهلال، تفسير القرآن الثّري الجامع: 10/155.
(3) محمّد الهلال، تفسير القرآن الثّري الجامع: 10/155.

سرُّ ذِكْرِ اسْمِ الجَلالَةِ ﴿ٱللَّهُ﴾:

القَصْدُ إلى تَقْريرِ الرَّوْعَةِ والمهابَةِ، والإشارَةُ إلى عَظيمِ جُرْمِ المنافقين

انْتِفاءُ المغفِرَةِ المُسْنَدَةِ إلى اللّهِ تعالى، يَدلُّ على عَظيمِ جُرْمِ هؤلاءِ الّذينَ فَقدوا رَحمَةَ الرَّحيمِ ﷻ، واستحقُّوا شِدَّةَ غَضبِ الحَليمِ الغَفّارِ عليهم. وإظهارُ اسْمِ الجَلالَةِ لإدْخالِ الرَّوْعَةِ وتَربيَةِ المهابةِ وتَأكيدِ عَدمِ هِدايتِهِ للفاسقينَ[1].

فَنُّ التَّسويَةِ في الآيةِ:

تَصويرُ الاسْتِغْفارِ بِصورَةِ الأمْرِ لِلمُبالَغَةِ في بَيانِ الاسْتِواءِ

في قولِهِ تعالى: ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ إخْبارٌ باسْتواءِ الأمرَينِ - الاسْتِغفار لَهُمْ وترْكه - في اسْتحالَةِ المغفِرَةِ، وتصويرُه بصورَةِ الأمرِ لِلمبالَغَةِ في بَيانِ اسْتوائِهما، كَأنَّهُ ﷻ أُمرَ بِامتحانِ الحالِ بِأنْ يستغفرَ تارَةً ويَتركَ أُخرى لِيَظهرَ له جَليَّةُ الأمرِ كَما ورَدَ في قولِهِ ﷻ: ﴿قُلْ أَنفِقُوا۟ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ﴾ [التوبة: 53][2].

خروجُ الأمْرِ والنَّهْيِ عنْ معناهُما الأصْليِّ إلى معنًى آخَر:

أسرارُ العدولِ عَنْ مَعْهوداتِ صيَغِ الأمْرِ والنَّهْيِ

صيغَةُ الأَمْرِ في قَوْلِه: ﴿ٱسْتَغْفِرْ﴾ مُسْتَعْمَلَةٌ في مَعْنَى التَّسْوِيَةِ المُرادُ مِنْها لازِمُها؛ وَهوَ عَدَمُ الحَذَرِ مِنَ الأَمْرِ المُباحِ، والمَقْصودُ مِنْ ذَلِكَ إفادَةُ مَعْنَى التَّسْوِيَةِ الَّتي تَرِدُ صيغَةُ الأَمْرِ لإفادَتِها كَثيرًا، وَعَدَّ عُلَماءُ أُصولِ الفِقْهِ في مَعاني صيغَةِ الأَمْرِ مَعْنَى التَّسْوِيَةِ، وَمَثَّلوهُ بِقَوْلِهِ تَعالَى: ﴿ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓا۟ أَوْ لَا تَصْبِرُوا۟﴾ [الطّور: 16]؛ وأَمَّا قَوْلُهُ: ﴿أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ فَمَوْقِعُهُ غَريبٌ، وَلَمْ يُعْنَ المُفَسِّرونَ والمُعْرِبونَ بِبَيانِهِ؛ فَإِنَّ كَوْنَهُ بَعْدَ (لا) مَجْزومًا يَجْعَلُهُ في صورَةِ النَّهْيِ، وَمَعْنَى النَّهْيِ لا يَسْتَقيمُ في هَذا المَقامِ؛ إِذْ لا يُسْتَعْمَلُ النَّهْيُ في مَعْنَى التَّخْييرِ والإباحَةِ، فَلا يَتَأَتَّى مِنْهُ مَعْنًى يُعادِلُ مَعْنَى التَّسْوِيَةِ الَّتي اسْتُعْمِلَ فيها الأَمْرُ، وَلِذَلِكَ لَمْ نَرَ عُلَماءَ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/151.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/87.

الأُصولِ يذكرونَ التَّسْويَةَ في مَعاني صيغَةِ النَّهْيِ كَما ذَكَروها في مَعاني صيغَةِ الأَمْرِ[1].

دلالَةُ اسْمِ الإشارَةِ ﴿ذَٰلِكَ﴾:

تَعليلُ الامْتناعِ عَنِ المغفِرَةِ مع كَثْرةِ الاسْتِغْفارِ

في قولِهِ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُواْ﴾ إشارَةٌ إلى اسْتِبْعادِ المَغْفِرَةِ لَهُمْ ولَوْ بَعْدَ المُبالَغَةِ في الاسْتِغْفارِ، فَبَيَّنَ أنَّ العِلَّةَ الَّتي لِأجْلِها لا يَنْفَعُهُمُ اسْتِغْفارُ الرَّسولِ ﷺ لَهُم - وإنْ بَلَغَ سَبْعينَ مَرَّةً - هي كُفْرُهم وفِسْقُهم، أيْ: ذَلِكَ الامْتِناعُ لَيْسَ لِعَدَمِ الاعْتِدادِ بِاسْتِغْفارِكَ، بل بسببِ أنَّهم ﴿كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۗ﴾[2].

فائدَةُ حَذْفِ المُشارِ إلَيْهِ بَعْدَ ﴿ذَٰلِكَ﴾:

القَصْدُ إلى الإيجازِ بحذفِ المعهودِ الذِّكْرِيِّ لمعْلوميَّتِه

المشارُ إليهِ هُنا هو انْتفاءُ الغُفرانِ المستَفادُ مِن قولِهِ: ﴿فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْۚ﴾[3] أيْ هو مَدلولٌ عليْهِ في العِبارَةِ السّابِقَةِ، ومَعهودٌ في الذِّكْرِ، بحيثُ لَمْ تَدْعُ حاجَةٌ إلى إعادَةِ ذِكْرِهِ والتَّصريحِ بِهِ.

فائدَةُ حَرْفِ الجرِّ الباءِ في: ﴿بِأَنَّهُمْ﴾:

حَشْدُ المؤَكِّداتِ بِأنّ المنافِقينَ جَحَدوا بِاللهِ

الباءُ في قوله: ﴿بِأَنَّهُمْ كَفَرُواْ﴾ لِلسَّبَبيَّةِ، وهي كاشِفةٌ عَنِ السَّبَبِ الّذي مِن أَجْلِهِ أَبى اللّهُ ﷻ أنْ يَقبلَ فيهمُ اسْتغفارَ رَسولِهِ ﷺ مع جَلالَةِ قَدْرِهِ عندَ ربِّهِ، وهو كَونُهم كُفّارًا، وقد قَضى اللّهُ تعالى بعَدمِ المغْفِرَةِ لِلكافِرِ، وفيما يَخُصُّ هؤلاءِ المنافقينَ قد قَضى عَليْهم في نَصٍّ أَبْلَجَ واضِحٍ بِأنَّهم في الدَّرْكِ الأسفَلِ مِنَ النّارِ، بقولِهِ فيهمْ: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِي ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ [النساء: 145].

وعليْهِ: فإنَّ العِلَّةَ الَّتي لِأجْلِها لا يَنْفَعُهُمُ اسْتِغْفارُ الرَّسولِ ﷺ لَهُم - وإنْ بَلَغَ سَبْعينَ مَرَّةً - هي كُفْرُهم وفِسْقُهم. وهَذا المَعْنى قائِمٌ في الزِّيادَةِ عَلى السَّبْعينَ، فَصارَ هَذا القَليلُ شاهِدًا بِأنَّ المُرادَ إزالَةُ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/277.
(2) أبو السّعود: إرشاد العقل السّليم: 4/87.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/279.

الطَّمَعِ أنْ يَنْفَعَهُمُ اسْتِغْفارُ الرَّسولِ ﷺ مَعَ إصْرارِهِمْ عَلى كُفْرِهِمْ، ويُؤَكِّدُ ذلك قولُهُ: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾[1].

دلالَةُ تَعدّي الفِعلِ ﴿كَفَرُواْ﴾ بِالباءِ:

عـظّـمَ كـبـيرةَ جـريـرتـهـم بالتأكيد

جاء لفظ (كفر) في القرآن الكريم لازمًا بلا تعدية في مواضع كثيرة، وفي مواضع أخرى جاء متعدّيا بالجارّ والمجرور، كما في قولِهِ تعالى: ﴿كَفَرُواْ بِٱللَّهِ﴾؛ وفائدته تأكيد كُفرِهم بِاللّهِ وجُحودِهم إيّاهُ. وهو ما كانَ علَّةً لانْتفاءِ أنْ يَغفرَ اللّهُ لَهُم.

دلالَةُ عَدمِ دُخولِ حَرْفِ الباءِ على ﴿وَرَسُولِهِۦۗ﴾:

سَـوقُ الـبـاءِ في المتعاطفَيْنِ لغايَةِ التَّوكيدِ وجودًا وعَدمًا

عُطِفَ لَفْظُ ﴿وَرَسُولِهِۦۗ﴾ على اسْمِ الجَلالَةِ دونَ إعادةِ الباءِ هُنا في قولِهِ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۗ﴾، وكذا بَعدَ ثلاثِ آياتٍ في قولِهِ: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٖ مِّنۡهُم مَّاتَ أَبَدٗا وَلَا تَقُمۡ عَلَىٰ قَبۡرِهِۦٓۖ إِنَّهُمۡ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُواْ وَهُمۡ فَٰسِقُونَ﴾ [التوبة: 84]؛ لأنّ الأمرَ فيهما لا يتعدَّى أنْ يكونَ تعليلًا لِما قَبْلَه، في حينِ دَخلتِ الباءُ على المعْطوفِ في قولِهِ تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَهُمۡ أَن تُقۡبَلَ مِنۡهُمۡ نَفَقَٰتُهُمۡ إِلَّآ أَنَّهُمۡ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ﴾ [التوبة: 54]؛ لِمناسَبَةِ التَّأْكيدِ الواردِ في السّياقِ غايَةَ التَّوْكيدِ، فأكَّد المتعاطفَينِ بالباءِ، لِيكونَ الكلامُ على نَسقٍ واحدٍ، بخلافِ الثّاني والثّالثِ لمَ يتقدَّمْها ذلك[2].

دلالَةُ إيراد الجُملةِ الاسْميَّةِ، مِن دون مؤكّداتٍ:

تَـقـريـرُ أسْـبـابِ عَدَمِ المغفِرَةِ بما في عِلْمِ اللهِ مِن طَبائعِ المنافقينَ

التّصدير بلَفظِ الجَلالَةِ، باعتبارِهِ مُسنَدًا إليْهِ، في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ دالٌّ على تَأكيدِ مَضْمونِ الجُمْلةِ، وإنْ وردتْ الجملة الاسمية بدون أساليب التأكيد، والتّصدير بلفظ الجلالة وحدَهُ يَكفي، في كَونِهِ سُبحانَهُ "لا يُقَدِّرُ لَهُم الهُدى إلى الإيمانِ لِأجْلِ فِسقِهِمْ، أيْ: بُعدِهِمْ عَنِ التَّأَمُّلِ في أدلَّةِ النُّبوَّةِ، وعنِ

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 16/112.

(2) زكريا الأنصاريّ، فتح الرّحمن بكشف ما يلتبس في القرآن: 1/231 - 232.

الإنْصافِ في الاعْترافِ بالحقِّ، فَمَنْ كانَ ذلك دَيْدنهُ طُبِعَ على قَلبِهِ فَلا يَقْبلُ الهُدى؛ فمَعنى لا يَهدي: لا يَخلُقُ الهُدى في قلوبِهِمْ"[1].

وفي ذلك تَمْهيدٌ لِعُذْرِ النَّبيِّ ﷺ في اسْتِغْفارِهِ قَبْلَ العِلْمِ بِالطَّبْعِ الَّذي لا يُمْكِنُ مَعَهُ رُجوعٌ[2].

علاقَةُ تَذييلِ الآيةِ بمَعناها:

في قولِهِ ﷻ: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ تذييلٌ مؤكِّدٌ لِما قَبلَهُ مِنَ الحُكمِ؛ فإنَّ مغفرةَ الكافرِ إنما هي بالإقْلاعِ عنِ الكفرِ والإقْبالِ إلى الحَقِّ، والمُنهَمكُ فيه المطبوعُ عليه بمَعْزِلٍ عن ذلك[3].

القصدُ إلى تأكيدِ الأحكامِ مِن حيثُ عَدمُ المغفِرَةِ مع وجودِ ما يَقتَضي

دلالَةُ حذف مُتعلّقِ الفِعلِ ﴿لَا يَهۡدِي﴾:

لَمْ يَقُلْ: (لا يهدي القوم الفاسقين إلى الإيمان)؛ ليُفيدَ نَفيَ عُمومِ الهِدايَةِ، ولإبرازِ أَثَرِ الفِعلِ، وهو عَدمُ هِدايَةِ الفاسِقينَ إلى أيِّ شيْءٍ نافِعٍ، دُنيويًّا كان أمْ أُخرويًّا.

عُمومُ نَفْيِ هِدايةِ الفاسِقينَ

دلالَةُ التَّعبيرِ بـ: ﴿لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾:

في ذِكرِ كلمَةِ ﴿ٱلۡقَوۡمَ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ بدلًا مِن أنْ يُقالَ: (واللّه لا يهدي الفاسقين) بَيانٌ لِكَونِ ما وُصِفَ به القَومُ هو سَجِيَّةً فيهمْ، وأنَّهُ قد وَصلَ بِهِمْ مَرتبةَ الغُلوِّ المُفْرِطِ، وأنَّهُ مِن مُكمِّلاتِ قَوميَّتِهِمْ، "فإنَّ لِلقبائلِ والأُمَمِ خَصائِصَ تُمَيِّزُها وتشْتَهِرُ بها، كَما قالَ تعالى: ﴿وَمَا هُم مِّنكُمۡ وَلَٰكِنَّهُمۡ قَوۡمٞ يَفۡرَقُونَ﴾ [التوبة: 56]"[4].

دَفعُ الرَّيبِ عن إدانَةِ الفَاسِقينَ بوصفِ فِسقِ السَّجايَا

وفيهِ أيضًا: إشارةٌ إلى أنَّ المرادَ بهذا: أنَّهم قَومٌ مَخصوصون وهُمُ المنافِقون الّذين تمرَّدوا على الحقِّ وفَسقوا عنْ أمرِ ربِّهِم،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/280.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/561.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/87.
(4) ابن عاشور: التّحرير والتّنوير: 2/89، مُستفاد منهُ رحمهُ اللهُ عندَ تفسيرِهِ لقولِهِ تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ﴾.. الآية [البقرة: 164].

وتَحالفوا على الضَّلالِ، وكُلَّما بَزغَ بيْنهُم داعي هُدى أَسْكتوه، وكُلَّما ظَهرَ لَهُم نورُ الحَقِّ أَطْفَؤُوهُ، فَهم قد تَعاوَنوا على الإثمِ والعُدوانِ[1].

إيثارُ لَفظِ الفاسِقينَ بدلًا مِن المنافِقينَ:

الفِسقُ يَقتَضي الخُروجَ المُتجدّدَ وعدَمَ الاسْتقْرارِ

إيثارُ لَفظِ الفاسِقينَ في قَوْلِه ﷻ: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ لأنّهُ أَنْسبُ لِحالِ المنافقينَ هُنا؛ حيْث إنَّ لَفظَ (الفاسِقينَ) يَقْتَضي تَجديدَ الخُروجِ ممّا يَنبغي الاسْتقرارُ فيه[2]، وهو أوْلى بِهِمْ؛ إذْ لَفْظُ الفِسْقِ أَعَمُّ هَذِهِ الأَلْفاظِ، فَكُلُّ كافِرٍ وَكُلُّ ظالِمٍ فاسِقٌ، وَلا عَكْسَ[3].

لَفظُ ﴿ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ بيْن العُمومِ والخُصوصِ:

القَصدُ إلى تَثبيتِ الإدانَةِ بِعِلَّةِ الفِسقِ عُمومًا أو خُصوصًا

وَصْفُهمْ بالفِسقِ إمّا مِن حَيْثُ هُم فاسِقونَ، وإمّا أنَّهُ لَفْظُ عُمومٍ يُرادُ بِهِ الخُصوصُ فيمَن يوافي عَلى كُفْرِهِ وفِسقِهِ، أَوْ عُمومٌ مُطلَقٌ على أنَّهُ لا هِدايَةَ مِن حيْثُ الفِسقُ[4].

المُتَشابِهُ اللّفْظيُّ:

مَجْموعُ الآيَتَيْنِ يُفيدُ بِلا مِراءٍ نَفْيَ المَغْفِرَةِ عنِ المُنافِقينَ مُطْلَقًا

أمّا آيةُ ﴿سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ أَسۡتَغۡفَرۡتَ لَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ لَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَهُمۡۚ﴾ [المنافقون: 6] فَظاهِرُها صَريحٌ في أنَّه لا يُغْفر لِلمنافِقينَ مُطلقًا.

وأمّا ظاهِرُ آيَةِ التّوْبَة: ﴿ٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ أَوۡ لَا تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ إِن تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ سَبۡعِينَ مَرَّةٗ فَلَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَهُمۡۚ﴾ [التوبة: 80] فإنّهُ يوهِمُ الطَّمَعَ في غُفرانِهِ لَهُم، إذا اسْتَغْفَر لَهُم رَسولُهُ ﷺ فوقَ سَبْعينَ مَرَّةً.

وممّا قيلَ في الجَمعِ بينَهُما ما يَلي:

أ - قالَ قَتادَةُ: نَزَلَتْ آيَةُ (المُنافِقونَ) بَعْدَ قَوْلِه: ﴿ٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ أَوۡ لَا تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ﴾ في سورَةِ التّوبَةِ وذلكَ لأنَّها لَمّا نَزلَتْ، قالَ رسولُ اللّه ﷺ: «خَيَّرَني رَبِّي، فَلَأزيدَنَّهُمْ عَلى السَّبْعينَ»، فَأنزَلَ اللّهُ تَعالى: ﴿لَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ٦﴾ [المنافقون: 6][5]

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3392.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/137.
(3) محمد رشيد رضا، تفسير المنار: 6/335.
(4) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/65.
(5) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 30/547.

أيْ: أنَّ قَتادةَ رحمَهُ اللّهُ يَرى أَنَّ آيةَ (المنافقون) مُبَيِّنةٌ وكاشِفَةٌ عمّا أَثارَتهُ آيَةُ (التّوبة) مِن ظَنِّ المغفِرَةِ لهُم لَو زيدَ عَلى السَّبعينَ.

ب - وقيلَ: الآيَةُ الأولى (التّوبة) نَزَلَتْ في اللّامِزينَ كَما ورَد عَنِ ابْنِ عَبّاسٍ وهو الأَوْفَقُ بِالسّياقِ، وهَذِهِ الآيَةُ (المنافقون) نَزَلَتْ في ابْنِ أُبَيٍّ وأَصْحابِهِ كَما نَطَقَتْ بِهِ الأَخْبارُ الصَّحيحَةُ ويَجْمَعُ الطّائِفَتَيْنِ النِّفاقُ. وعَلى هذا فَيَكونُ المُرادُ بِالآيَتَيْنِ هو عَدَم المَغْفِرَةِ لَهم مُطْلَقًا[1].

أَوْ يُقالُ: إنَّ آيَةَ (التّوبة): لَمّا نَزلتْ وحدَّدتْ سَبعينَ مَرَّةً؛ ظنَّ رَسولُ اللّهِ ﷺ أَنَّهُ إذا زادَ عَنِ السَّبْعينَ قد يَقبلُ اللّهُ؛ فَجاءَتِ الآيَةُ في سورَةِ (المنافقون) بِحسْمِ الأمرِ: لَنْ يَكونَ هناكَ اسْتِغفارٌ مَقْبولٌ لهُم؛ مهْما كانَ عَدَدُهُ ونَوعُهُ إذا لمَ يَتوبوا تَوبَةً صادِقةً، أَوْ تَوبة نصوحًا[2].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الاسْتِغفارُ والتَّوبَةُ:

لا شَكَّ أنَّ الاسْتِغْفارَ جُزءٌ مِنَ التَّوبَةِ، وهو مِن مُقدِّماتِها، وذلكَ أنَّ "الاسْتِغفارَ طَلبُ المغْفِرَةِ بالدُّعاءِ والتَّوْبةِ أَوْ بِغيرِهما مِنَ الطّاعَةِ. والتّوْبةُ: النّدمُ على الخَطيئَةِ مع العَزْمِ عَلى تَركِ المعاوَدَةِ، ومِنْ ثَمَّ لا يَجوزُ الاسْتِغفارُ مع الإصْرارِ؛ لِأَنَّهُ مسْلبَةٌ للّهِ ما ليْس مِن حُكمِهِ ومَشيئَتِهِ"[3].

التَّوبةُ أعَمُّ مِن الاستغْفارِ وهو مُتضمَّنٌ فيها

الفِسْقُ والنِّفاقُ:

الفاسِقُ: الخارِجُ عَنِ الحَقِّ، "الخارِجُ مِن طاعَةِ اللّه تَعالى، فَتارَةً يَكونُ ذلكَ بِكُفْرٍ، وتارَةً يَكونُ بِعصْيانٍ غيْرِ الكُفرِ"[4]، فَهو اسْمٌ

كُلّ نِفاقٍ فِسْقٌ، ولَيْس كُلّ فِسْقٍ نِفاقًا

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 5/336.
(2) محمّد الهلال، تفسير القرآن الثّري الجامع: 10/155.
(3) العسكريّ، الفروق، ص: 48.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 1/271.

عامٌّ يَشمَلُ الكُفرَ، والكَبائِرَ، وبَقيَّةَ المَعاصي، ولِذا يَقولُ الرّاغِبُ الأَصْفَهانيُّ: "والفِسْقُ يَقعُ بِالقَليلِ مِنَ الذّنوبِ والكَثيرِ"[1].

والنّفاقُ في الدّينِ: "أنْ يُظهِرَ الإسْلامَ مع خَواءِ قَلبِهِ أَوْ فَراغِهِ مِن الإيمانِ"[2].

وعَلى هذا، فالفِسقُ يَعني الخُروج عَنِ الحيّزِ، وهو مَعنًى عامٌّ يَشْملُ ما هو حِسِّيٌّ ظاهرٌ وما هو باطنٌ، أمّا النّفاقُ فهو فَراغُ الباطِنِ معَ سَلامَةِ الظّاهِرِ.

وبِذلكَ يَظهرُ: أنَّ النِّسْبةَ بَيْنهما هي العُمومُ والخُصوصُ المُطْلَق، فكُلّ نِفاقٍ فِسقٌ، وليْس كُلّ فِسقٍ نِفاقًا.

(يَهْدي) و(يُرْشِدُ):

الرُّشدُ يُقابَلُ بِالْغَيِّ، والهُدى يُقابَلُ بالضَّلالِ، قالَ تَعالى: ﴿وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾ [الأعراف: 146]، فالْغَيُّ ضدُّ الرُّشدِ، والإرْشادُ إلى الشَّيْءِ هوَ التّطْريقُ إليْهِ والتَّبْيينُ لَهُ، والهِدايَةُ هيَ التَّمَكُّنُ مِنَ الوُصولِ إليْهِ، وَقد جاءَتِ الهِدايَةُ لِلمُهتَدي في قَوْلِهِ تَعالَى ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: 6]، فَذَكرَ أَنّهم دَعَوا بِالهِدايَةِ وهم مُهْتدونَ لا مَحالَةَ وَلَم يَجِئْ مِثلُ ذَلِك في الإرْشادِ[3].

الفَرقُ بين الإرشَادِ والهدَايَةِ كالفَرقِ بَينَ تَعبيدِ المَسَالكِ وبُلُوغِ الغَايَات

وَيُقالُ أَيْضًا: هداهُ إِلَى المَكْروهِ كَما قالَ اللّهُ تَعالَى: ﴿فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ﴾ [الصافات: 23]، وَقالَ تَعالَى: ﴿إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الحج: 67]، والهُدى الدّلالَةُ، فَإذا كانَ مُسْتَقيمًا فَهوَ دلالَةٌ إلى الصَّوابِ[4].

(1) الرّاغب الأصفهانيّ، المفردات، ص: 572.
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (نفق).
(3) أبو هلال العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 209.
(4) أبو هلال العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 209.

﴿فَرِحَ ٱلۡمُخَلَّفُونَ بِمَقۡعَدِهِمۡ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓاْ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِي ٱلۡحَرِّۗ قُلۡ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرّٗاۚ لَّوۡ كَانُواْ يَفۡقَهُونَ ٨١﴾ [التوبة: 81]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

العَودُ إلى ذِكْرِ أَحوالِ الّذينَ تَخَلّفوا عَنِ القِتالِ

بَعدَ أنْ ذَكَرَ اللّهُ تَعالى بَعضَ سَوْءاتِ المُنافقينَ مِن اعْتذارِهم لِلمؤمِنينَ عَنِ الخُروجِ مَعهُمْ لِلقتالِ ولَمْزِهم في قِسْمَةِ الصَّدقاتِ وفي إعطائِها، عادَ إلى الكَلامِ في ذِكْرِ حالِ الّذينَ تَخَلَّفوا عَنِ القِتالِ في غَزْوةِ تَبوك وظَلّوا في المَدينَةِ[1]، واعْتَذَروا بِأعْذارٍ وعِلَلٍ كاذِبَةٍ، حَتّى أذِنَ لَهم، فَكَشَفَ اللّه لِلرَّسولِ ﷺ عَنْ أحْوالِهِمْ وأعْلَمَهُ بِسوءِ فِعالِهِمْ، فَأنْزَلَ اللّه عَلَيْهِ: ﴿فَرِحَ ٱلۡمُخَلَّفُونَ بِمَقۡعَدِهِمۡ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾ الآيَة، وبيَّنَ ما يَجبُ مِن مُعامَلةِ هؤلاءِ بَعدَ الرُّجوعِ إلى المدينةِ، وقد نَزَلَ ذلكَ في أثْناءِ السَّفَرِ[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَرِحَ﴾: أَصْلُ الفَرَحِ: يَدُلُّ على خِلافِ الحُزْنِ، والفَرَحُ: السُّرورُ، يُقال: فَرِحَ، يَفْرَحُ، فَرَحًا: إذا سُرَّ، فهو فَرِحٌ وفَرْحانٌ. والفَرْحَةُ والفُرْحَةُ: المَسَرَّةُ، وضِدُّه: الحُزْنُ[3]، والمرادُ بالفَرَحِ في الآيَة: السُّرورُ مع الغرورِ.

2) ﴿ٱلۡمُخَلَّفُونَ﴾: أصلُ (خلف): خِلافُ قُدّامٍ[4]، ويُقالُ: خَلَّفوا أَثْقالَهُم تَخْليفًا: خَلَّوْهُ وراءَ ظُهورِهِم[5]، والتَّخَلُّفُ: التَّأَخُّر[6]،

(1) المراغيّ، تفسير المراغي: 10/173.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/473.
(3) ابن عبّاد، المحيط في اللّغة: (فرح).
(4) ابن عبّاد، المحيط في اللّغة: (خلف).
(5) الفيروزباديّ، القاموس المحيط: (خلف).
(6) ابن الأثير، النّهاية، وابن منظور، لسان العرب: (خلف).

والخالِفُ: المتأخِّرُ لِنُقصانٍ أوْ قُصورٍ كالمُتَخلِّفِ[1]. والمُخَلَّفُ: المَتْروكُ، يُقالُ: خَلَّفَ فلانٌ فُلانًا وراءَهُ إذا تَرَكَهُ خَلْفَه[2]، وهذا هو المرادُ بـ ﴿ٱلْمُخَلَّفُونَ﴾ في الآيَةِ.

3) ﴿بِمَقْعَدِهِمْ﴾: أصلُ القُعودِ: الجُلوسُ، وهو نقيضُ القيامِ. قَعَدَ يَقْعُدُ قُعودًا ومَقْعَدًا، أَيْ: جَلَسَ[3] بَعدَ قيامٍ، والقَعْدةُ: المَرَّةُ الواحِدةُ[4]، والقِعْدَةُ: للحالِ الَّتي يكونُ عَليْها القاعِدُ[5]، والمَقْعَدُ: مكانُ القُعودِ، وجَمْعُه: مَقاعِد[6]، وهي: موضِعُ قُعودِ النّاسِ في الأَسْواقِ وَغَيْرِها[7]. والمَقْعَدُ هُنا مَصْدَرٌ ميميٌّ، أَيْ: بِقُعودِهِمْ. والمقصودُ بـ ﴿بِمَقْعَدِهِمْ﴾ في الآيَةِ: بِجلوسِهم في مَنازِلِهم[8].

4) ﴿خِلَٰفَ﴾: أصلُ (خلف): يدلُّ على مَجيءِ شَيءٍ بعدَ شيءٍ، وقيامِه مَقامَه، والخَلَفُ: ما جاءَ بَعْدُ. تَقولُ: قَعَدْتُ خِلافَ فُلانٍ، أَيْ: بَعْدَهُ[9]. وخِلاف: مَصْدَرٌ مِنْ قَوْلِ القائِلِ: خالَفَ فُلانٌ فُلانًا فَهوَ يُخالِفُهُ خِلافًا، كَما يُقالُ: قاتَلَهُ فَهوَ يُقاتِلُهُ قِتالًا[10]. والمقصودُ بـ ﴿خِلَٰفَ﴾ في الآيَةِ: بَعْدَ. أَيْ: بَعْدَ رَسولِ اللّهِ ﷺ.

5) ﴿وَكَرِهُوٓاْ﴾: أصلُ (كره) يَدُلُّ عَلَى خِلافِ الرِّضا والمَحَبَّةِ. يُقالُ: كَرِهْتُ الشَّيْءَ أَكْرَهُهُ كُرْهًا وكَرَهًا. والكُرْهُ الاسْمُ. والكَرْهُ: أَنْ تُكَلَّفَ الشَّيْءَ فَتَعْمَلَهُ كارِهًا[11]، والكَراهَةُ: المَشَقَّةُ والشِّدَّةُ، يُقالُ: قُمْتُ على كُرْهٍ، أَيْ: على مَشقَّةٍ[12]، ومِنْهُ سُمِّيَتِ الحَرْبُ: كَريهَةً[13]، والمَكارِهُ: الشَّدائِدُ، والمَكْروهُ: ما يَكْرَهُهُ الإِنْسانُ وَيَشُقُّ عليه[14]، والمقصودُ بالكَراهةِ في الآيَةِ: الكَراهيَةُ ونُفْرَةُ الطَّبْعِ مِنَ الشَّيْءِ.

(1) الرّاغب، المفردات: (خلف).
(2) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 6/365.
(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (قعد).
(4) الخليل، العين، والرّاغب، المفردات: (قعد).
(5) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (قعد).
(6) الرّاغب، المفردات: (قعد).
(7) ابن منظور، لسان العرب: (قعد).
(8) ابن جرير، جامع البيان: 11/602.
(9) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (خلف).
(10) ابن جرير، جامع البيان: 11/602.
(11) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (كره).
(12) ابن منظور، لسان العرب: (كره).
(13) ابن عبّاد، المحيط في اللّغة: (كره).
(14) ابن الأثير، النّهاية في غريب الحديث والأثر، وابن منظور، لسان العرب: (كره).

6) ﴿لَا تَنفِرُواْ﴾: أصلُ (نفر): يَدُلُّ على تَجافٍ وتَباعُدٍ[1]، وهو أيضًا: الإسْراعُ إلى الشَّيءِ، والانزِعاجُ عنِ الشَّيْءِ أوْ إليْهِ[2]. يُقال: نَفَرَ، يَنْفِرُ، نُفورًا ونِفارًا: إذا فَرَّ وذَهَبَ، وانطَلَقَ مُسرِعًا بِقوَّةٍ، ومنْهُ: نَفَرَ النّاسُ إلى العَدوِّ نَفْرًا: إذا أَسرَعوا في الخُروجِ لِقِتالِهِ، والمقصودُ بالنَّفيرِ في الآيَةِ: الخُروجُ السَّريعُ - إلى الجِهادِ - مِنْ مَوْضِعٍ إلى غَيْرِهِ لِأَمْرٍ يَحْدُثُ[3].

7) ﴿ٱلْحَرِّ﴾: أصلُ (حرر): خِلافُ البَردِ، يُقالُ: هذا يَومٌ ذو حَرٍّ، ويَومٌ حارٌّ. والحَرورُ: الرّيحُ الحارَّةُ تَكونُ بالنَّهارِ واللَّيْلِ[4]. والسَّمومُ: الرّيحُ الحارَّةُ بالنَّهارِ وقَدْ تَكونُ باللَّيْلِ، ومنْهُ الحِرَّةُ، وهو العَطَشُ[5]، والمرادُ بالحَرّ في الآيَةِ: نَقيضُ البَردِ.

8) ﴿يَفْقَهُونَ﴾: أَصْلُ الفِقْه: الفَتْحُ والشَّقُّ، ومنه سُمِّيَ العِلْمُ: فِقْهًا؛ لأنَّهُ يَحْمِلُ معنى التَّعَمُّقِ في الأَمْرِ والتَّبَصُّرِ فيه كَمَن يَشُقُّ الشَّيْءَ ليَكْتَشِفَ ما فيهِ[6]. ويأْتي الفِقْهُ بمعنى الفَهْمِ[7]، يُقال: فَقِهْتُ الحَديثَ، أيْ: فَهِمْتُهُ. والفِقْهُ أيضًا: الإدْراكُ والعِلْمُ بالشَّيْءِ، يُقالُ: فَقُهَ الرَّجُلُ، فَقاهَةً وفِقْهًا، إذا صار الفقه سجيَّةً له، وفَقَّهَهُ اللّهُ وتَفَقَّهَ، أيْ: تَعَلَّمَ[8]، وكُلُّ عِلْمٍ بِشَيْءٍ فهو فِقْهٌ[9]، ثمَّ خُصَّ بِهِ عِلْمُ الدّينِ لِشَرَفِهِ على جَميعِ العُلومِ[10]، وقيل الفِقْهُ: إدْراكُ دَقائِقِ الأُمورِ[11]. والمقصودُ بالفِقْهِ في الآيَةِ: فَهْمُ ما يَحتاجُ إلى إعمالِ فِكْرٍ.

المَعْنى الإجْماليُّ:

يخبِرُ اللّهُ تَعالى أنَّ المنافقينَ الَّذين حَمَلهمُ الكسَلُ والنِّفاقُ على الاعْتذارِ الكاذِبِ عَنِ الخُروجِ إلى غَزْوةِ تَبوكَ، قدْ فَرِحوا بِقعودِهم عَنِ الغَزْوِ بَعدَ خروجِهِ ﷺ وكَرِهوا أنْ

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نفر).
(2) المناويّ، التّوقيف على مهمّات التّعاريف، ص: 327.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/197.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حر).
(5) ابن منظور، لسان العرب: (حرر).
(6) ابن منظور، لسان العرب: (فقه).
(7) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (فقه).
(8) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (فقه).
(9) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (فقه).
(10) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (فقه).
(11) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (فقه).

وَصفُ حالِ المنافقينَ على جِهَةِ التَّوبيخِ واللَّومِ لَهُمْ

يُجاهِدوا بأَموالِهم وأَنفسِهم في سبيلِ اللّهِ، لا إيثارًا للرّاحةِ والسَّلامَةِ فحسْب، بَلِ استجابَةً أَيضًا لِما اسْتقَرَّ في قُلوبِهِمْ مِنَ النِّفاقِ، الَّذي أَوْرَثهُمْ بُغضَ الجِهادِ الَّذي تَتحقَّقُ بهِ أَشرفُ الغاياتِ، ولَم يَكتفوا بِتَخلُّفِهم عنِ الجِهادِ وفَرَحِهم بِهذا القُبحِ، بَل كانوا يُثبِّطون غَيرَهم عَنِ الخروجِ بِقولِهم: لا تَخرجوا في الحرِّ وتَترُكوا بيوتَكم، فإنَّكم لا تُطيقونَ شِدَّتَهُ، فَأَمرَ اللّهُ رَسولَهُ ﷺ أَنْ يَرُدَّ على جَهلِهم: قلْ - يا محمَّدُ - لِهؤلاءِ المنافِقينَ: نارُ جهنَّمَ الّتي يَدخُلُها في الآخرةِ مَن خالَفَ أَمْرَ اللّهِ، وعَصى رسولَ اللّهِ، أَشَدُّ حرارةً مِن حَرِّ الدُّنيا الَّذي لا تريدونَ النَّفرَ فيهِ، فاتَّقوها بالجِهادِ. ولكنَّهُم لا يَفقهونَ عنِ اللّهِ، فَهُم يَحذَرونَ مِن الحرِّ أَقَلَّهُ مَكروهًا وأَخَفَّهُ أَذًى، وهو حرُّ شَمسِ الدُّنيا، ويوافِقونَ أشدَّهُ مَكروهًا وأعظَمَه على مَن يَصلاهُ بلاءً، وهو حَرُّ نارِ جَهنَّم[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

سِرُّ فَصلِ الآيَةِ عمّا قَبلَها:

بَيانُ حالِ المنافِقينَ إثْرَ تَخلُّفِهم واستِغفارِ الرَّسولِ ﷺ لَهُمْ

تُعدُّ هذهِ الآيَةُ الكَريمَةُ اسْتِئنافًا ابْتِدائيًّا؛ إذْ إنّها بيانٌ لحالِ المنافِقينَ عَقيبَ تَخلُّفِهم عَن رَسولِ اللّهِ ﷺ، واسْتِغفارِهِ لَهُم، فمُناسَبَةُ فَصلِ هذهِ الآيةِ عمّا قَبلَها ووقوعِها في هذا المَوْضِعِ على اعْتبارِ أَنَّ فَرَحَ المنافقينَ بِتَخَلُّفِهِمْ قَدْ قَوِيَ لَمَّا اسْتَغْفَرَ لَهُمُ النَّبيُّ ﷺ وَظَنُّوا أَنَّهُمُ اسْتَغْفَلوهُ، فَقَضَوْا مَأْرَبَهُمْ، ثُمَّ حَصَّلوا الاِسْتِغْفارَ ظَنًّا مِنْهُمْ بِأَنَّ مُعامَلَةَ اللّهِ إيَّاهُمْ تَجْري عَلَى ظَواهِرِ الأُمورِ[2].

سِرُّ الإخبارِ عنِ المنافِقينَ بِأمورٍ غَيبيّة:

أَخبرَ اللّهُ تَعالى النَّبيَّ ﷺ بِأَحْوالِ المنافِقينَ القَلْبيَّةِ؛ لِتَثْبيتِ قَلْبِه

(1) ابن جرير، جامع البيان: 11/603، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/189، 191، والسّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 346، ومجموعة من العلماء، التّفسير الوسيط: 3/1740.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/280.

ﷺ، لأنَّه ﷺ ما كانَ لَهُ أنْ يَعلَمَ بِحالِهِمْ لَولا الوَحْيُ، فَلَولا أنَّ اللّٰهَ جَلَّى لَهُ أَمْرَهم لُطفًا به ﷺ، لَما عَلِم بِسَرائِرِهم أَحَدٌ. وفيهِ تَحذيرُ المؤمِنينَ مِنَ الوقوعِ في بَراثِنِ هؤلاءِ المنافقينَ.

تَكَشُّفُ المُغَيَّباتِ القَلْبيَّةِ لِقصْدِ دَفْعِ لَوازِمِها وتَأْكيدِ أَحْكامِها

تَلوينُ الخِطابِ مِنَ الإنْشاءِ إلى الخَبَرِ:

انْتقلَ الحَديثُ مِن خِطابِ رَسولِ اللّٰهِ ﷺ إلى الإخْبارِ عَن حالِ المنافقينَ، فَقولُهُ: ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ أُسلوبٌ في ظاهِرِهِ إنْشاءٌ؛ لأنَّ فيهِ أمرًا ونهيًا، ولَكنَّهُ في الحقيقةِ إخبارٌ بأنَّ اسْتِغْفارَك لَهُم وعدَمَهُ سَواءٌ، فَهؤلاءِ المنافقونَ الّذين تَحرص - يا رَسولَ اللّٰهِ - على هِدايتِهم، وتَلحُّ في الاسْتِغفارِ لهُم، لَن يَغفرَ اللّٰهُ لهُم، وانْظرْ إلى حالِهم بَعدَ تَخلُّفِهم عَنكَ، واسْتِغفارِك لَهُم، إنّهم فَرِحونَ بهذا التَّخَلّفِ والقُعودِ، فالانْتِقالُ مِن خِطابِ النَّبيِّ إلى الإخبارِ عَنهُم تَسْرِيَةٌ عَن قَلبِهِ الشَّريفِ؛ حتَّى لا يحزَنَ بَعدَ حُكمِ اللّٰهِ عَلَيهِمْ بِعدَمِ المَغْفرَةِ، وبَيانٌ لِفسادِ قلوبِهم، وسوءِ طَويَّتِهم.

قَصدُ التَّسليَةِ بالانْتِقالِ مِن مُخاطَبَةِ النَّبيِّ الرَّحيمِ إلى الإخْبارِ عَن جِنسٍ لَئيمٍ

سِرُّ التّعبيرِ بِلَفظِ (الفَرَح) واسْتِعمالِ صيغَةِ الماضي:

في التَّعبيرِ بـ ﴿فَرِحَ﴾ بِصيغَةِ الماضي دلالَةٌ عَلى تَحقُّقِ وقوعِ الفَرَحِ بِالتَّخلُّفِ في قُلوبِهم، الَّذي هو دَلالَةٌ عَلَى نِفاقِهِمْ؛ لِأَنَّهُمْ لَوْ كانوا مُؤْمِنينَ لَكانَ التَّخَلُّفُ نَكَدًا عَلَيْهِمْ وَنَغْصًا كَما وَقَعَ لِلثَّلاثَةِ الَّذينَ خُلِّفوا فَتابَ اللّٰهُ عَلَيْهِمْ[1]، كما أن فيها دلالةً على انقضاء فرحهم وعدم دوامه في قلوبهم لأنه فرحٌ بمعصية اللّٰه تعالى.

دَلالَةُ الفَرَحِ بِصيغَتِهِ الماضيَةِ عَلى تَحَقُّقِ وقوعِ الفَرَحِ في قُلوبِ المُنافِقِين وعدمِ دوامِهِ لأنه فرحٌ بمعصية

دلالَةُ (ال) في: ﴿ٱلْمُخَلَّفُونَ﴾:

(ال) في قولِهِ تَعالى: ﴿ٱلْمُخَلَّفُونَ﴾ لِلعَهْدِ، والمَعْهودونَ هُم قَومٌ مِنَ المُنافقينَ مَعروفونَ بِأَعْيانِهِمْ قد تَخلَّفوا عَن رَسولِ اللّٰهِ ﷺ، في غَزْوةِ تَبوك[2] بادِّعاءِ أَعْذارٍ لا وجودَ لَها، فَأذِنَ لَهُم النَّبيُّ ﷺ، ثُمَّ فَرحوا بِهذا التَّخَلُّفِ فيما كَشَفَه عَنهُمُ القُرآنُ الكَريمُ.

القَصدُ إلى كَشفِ حالِ المُنافقين بالإحالَةِ على المَعهُود

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/280.
(2) النّسفيّ، مدارك التّنزيل: 2/698.

ومَع إرادَةِ العَهْدِ في (ال)، فهيَ مَوصولَةٌ بمعنى (الَّذين)، وأوثِرَ التَّعبيرُ بها؛ لِدلالَتِها مَعَ اسْمِ المَفعولِ (مخَلَّفون) عَلى ثُبوتِ جَريمتِهم، وانْكِشافِ حالِهم، كَما دَلَّتْ عَلى تَحقيرِ المنافِقينَ، وإهمالِ شَأنِهم، حتّى لَكأنَّهم شَيْءٌ مِن سَقَطِ المتاعِ الَّذي يُخلَّفُ ويُترك ويُهْمَل؛ لأنَّه لا قيمَةَ لَهُ، أَوْ لأنَّ ضَرَرَه أَكْبرُ مِن نَفعِه،[1] فَخرَجَ مِن ذلكَ الثَّلاثَةُ وأَصْحابُ العُذْرِ[2].

إيثارُ لَفظِ ﴿ٱلْمُخَلَّفُونَ﴾ واستِعماله في صيغَةِ اسْمِ المفعولِ:

المَتروكُ لا يَستَحقُّ شَرَفَ الجِهادِ مَعَ النَّبيِّ ﷺ

في التَّعبيرِ عَنهُم بِاسْمِ المَفعولِ تَنزيلٌ لَهُم مَنزلَةَ مَن طُرِدوا مِن الرَّكْبِ لِعَدَمِ الرَّغبَةِ فيهم. و﴿ٱلْمُخَلَّفُونَ﴾ هُم الَّذين خُلِّفوا عَنِ الجِهادِ في غَزْوةِ تَبوك، وكانَت في أَشَدِّ الحَرِّ، وفي وَقتِ جَنْيِ الثِّمار والمَيْلِ إلى الرّاحَةِ في ظِلالِ الأشْجارِ، وهُم تَخَلَّفوا مُختارينَ، ولَم يَتَخَلَّفوا مُجبَرينَ، ولَكنْ عبّرَ عَنهُم بِاسْمِ المَفعولِ لِلإشارَةِ إلى أَنّ اللّهَ تَعالى لَم يُرِدِ انْبِعاثَهمْ كَما قالَ تَعالى: ﴿۞وَلَوْ أَرَادُواْ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّواْ لَهُۥ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُواْ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [التّوبة: 46]؛ ولِذا قالَ تَعالى: ﴿فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ﴾، ولَم يَقُل سُبحانَهُ: (المتخلفون)[3]، فحُرِموا شَرَفَ الجِهادِ مع النَّبيِّ ﷺ، وظَنّوا بِتَخلُّفِهم هذا أنَّهم قَد مَكروا وخادَعوا، في حينِ أنّهم قد مُكرَ بِهم، كَما قالَ تَعالى: ﴿وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [آل عمران: 54].

دلالَةُ الجارِّ والمجْرورِ ﴿بِمَقْعَدِهِمْ﴾:

الكَشفُ عن قَصدِ المُخالَفَةِ أَصالَةً والقُعودِ عَنِ الغزْوِ تَبعًا

قولُهُ تَعالى: ﴿بِمَقْعَدِهِمْ﴾، أيْ: قُعودهمْ عَن غَزْوةِ تَبوك، ولَعلَّهُ عبَّر بِهذا المَصْدَرِ لصَلاحِيَتِه لِموضِعِ القُعودِ؛ لِيكونَ بِدلالَتِه عَلى الفَرَحِ أَعْظمَ دلالَةً على الفرَحِ بِالموضوعِ، وهو مَرْويٌّ عَنِ ابْنِ عَبّاسٍ رضي الله عنهما[4].

(1) الطّنطاويّ، التّفسير الوسيط: 6/366.
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/65.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3392.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/561.

دلالَةُ المفْرَدِ في: ﴿بِمَقْعَدِهِمْ﴾:

دلالَةُ المقْعَدِ عَلى مَعنى القُعودِ أَوْ مَحلِّهِ تَجوّزًا

المَقْعدُ في قولِهِ تَعالى: ﴿بِمَقْعَدِهِمْ﴾ مَصْدرٌ ميميٌّ بِمَعْنى القُعودِ، وهو قُولُ الأكْثرينَ[1] أوْ هو اسْمُ مَكانٍ، والمرادُ بِهِ المَدينةُ[2]، والتَّعبيرُ بالمفْرَد لِإرادَةِ المَصْدرِ، فَيَشْمل المُخلَّفينَ جَميعًا.

إعْرابُ ﴿خِلَٰفَ﴾ وأَثَرُهُ عَلى المَعنى:

الأَوْجُهُ الإعْرابيَّةُ المحتَمَلَةُ ودلالاتُها

قولُهُ تَعالى: ﴿خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾ فيهِ ثَلاثَةُ أَوْجُهٍ إعرابيّة:

أحدُها: أنّهُ مَنصوبٌ على المصْدَرِ بِفعلٍ مُقَدَّرٍ مَدلولٍ عَلَيهِ بِقَولِهِ: ﴿بِمَقْعَدِهِمْ﴾؛ لِأنَّهُ في مَعنى: تَخَلَّفوا، أيْ: تَخَلَّفوا خِلافَ رَسولِ اللّهِ[3].

الثّاني: أنَّ ﴿خِلَٰفَ﴾ مَفعولٌ لِأجلِهِ، والعامِلُ فيهِ إمّا (فَرِحَ) وإمّا (مَقْعَد)، أيْ: فَرِحوا لِأجلِ مُخالَفَتِهم رَسولَ اللّهِ ﷺ، حيْثُ مَضى هو لِلجِهادِ وتَخَلَّفوا هُمْ عَنْه. أَوْ بِقعودِهِم لِمُخالَفَتِهم لَهُ، وإلَيهِ ذَهبَ الطَّبريُّ والزَّجّاج، ويُؤيِّدُ ذلكَ قِراءَةُ مَن قَرأَ: (خُلُفَ رَسولِ اللّهِ) بِضَمِّ الخاءِ واللّام[4].

الثّالِثُ: أنْ يَنْتصِبَ عَلى الظَّرفِ. أيْ: بَعدَ رَسولِ اللّهِ، يُقال: أقامَ زَيدٌ خِلافَ القَومِ، أيْ: تَخَلَّفَ بَعدَ ذهابِهم، و(خِلاف) يَكونُ ظَرفًا، وإلَيهِ ذَهبَ أبو عُبيدةَ وغيرُهُ، ويُؤيِّدُ هذا القِراءَةُ الشّاذَّةُ: (خَلْفَ رَسولِ اللّهِ) بِفتْحِ الخاءِ وسُكونِ اللّام[5].

فَوائدُ إيثارِ لَفظِ ﴿خِلَٰفَ﴾ والعُدولِ عَن غَيرِهِ مِن مُرادِفاتِهِ:

استِنفارُ النَّاسِ بِمَا يَدُلُّ عَلى مُخالَفَةِ المُرادِ الشَّرْعيِّ

إنّ (خِلاف) لُغَةٌ في (خَلْفَ). يُقالُ: أَقامَ خِلافَ الحَيِّ بِمَعْنَى:

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 5/339.
(2) القاسميّ، محاسن التّأويل: 5/466.
(3) سيّد طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 6/365.
(4) سيّد طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 6/365.
(5) السّمين، الدّرّ المصون: 6/91، وسيّد طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 6/365، وهي قِراءَةُ ابنِ عبّاسٍ، وأَبي حَيوَةَ، وعَمرِو بنِ مَيمون.

بَعْدَهُمْ، أَيْ ظَعَنوا وَلَمْ يَظْعَنْ، وَمِنْ نُكْتَةِ اخْتيارِ لَفْظِ ﴿خِلَٰفَ﴾ دونَ (خَلْفَ) أَنَّهُ يُشيرُ إِلَى أَنَّ قُعودَهُمْ كانَ مُخالَفَةً لِإرادَةِ رَسولِ اللّٰه حينَ اسْتَنْفَرَ النَّاسَ كُلَّهُمْ لِلْغَزْوِ[1].

الجِناسُ بيْنَ ﴿ٱلْمُخَلَّفُونَ﴾ و﴿خِلَٰفَ﴾:

تأنُّقُ الخِطَابِ القُرآنيِّ بما يحقِّقُ الإذْعَانَ

بَيْن قَولِهِ: ﴿ٱلْمُخَلَّفُونَ﴾ و﴿خِلَٰفَ﴾ مُحسِّنٌ بَديعيٌّ هو جِناسُ الاشْتقاقِ. وهو: سَوقُ المُتلاقيَينِ فيما يُشْبِه الاشتقاقَ مِن حيْثُ الجَمعُ بيْنَ لَفْظينِ وتَعليقُهما بِمَصْدرٍ واحِدٍ، وهذا مِن مُلحقاتِ الجِناسِ.

سِرُّ إيثارِ لَفظِ ﴿رَسُولِ ٱللَّهِ﴾:

التَّنبيهُ على مَقامِ الرِّسالَةِ الرَّبّانِيَّةِ الَّتي أَعرَضَ عَنها المنافِقون

أوثِرَ لَفظُ ﴿رَسُولِ ٱللَّهِ﴾ ﷺ على غَيرِهِ للدَّلالَةِ عَلى لَطيفَةٍ تُحيلُ على مَقامِ الرِّسالةِ الرَّبّانيَّةِ الَّتي تَقتضي إذْعانًا لَها وتعلُّقًا، وفي إعْراضِ المنافقينَ عَن هذا المقامِ إعراضٌ عَنِ اللّٰهِ تَعالى.

المُقابَلَةُ المَعنويَّةُ بيْنَ ﴿فَرِحَ﴾ و﴿وَكَرِهُوٓاْ﴾:

عَدمُ ثَباتِ قلوبِ المُنافقينَ بِالإيمانِ هو سَبَبُ فَرَحِهِمْ بِالقُعودِ وكَراهِيَتِهِمُ الجِهادَ

في مُقابَلَةِ فَرَحِ المنافِقينَ بِقعودِهم وكَراهِيَتِهِمُ الجِهادَ إيضاحٌ لِسَببِ ذَينِكَ الأمرَين، وهو عَدمُ إيمانِهم بِاللّٰهِ تَعالى ورَسولِهِ ﷺ والدّارِ الآخرةِ؛ لِأَنَّ الفَرَحَ مِنْ ثَمَراتِ المَحَبَّةِ[2]. وفرحُهم بِالإقامَةِ يَدلُّ عَلى كَراهِيَةِ الذّهابِ[3].

عَطفُ جُملةِ ﴿وَكَرِهُوٓاْ﴾ على ما قَبلَها:

سَوقُ العَطفِ لِقَصدِ تَعديدِ خِصالِ المنافِقينَ

ذلكَ أنَّ هؤلاءِ المنافِقينَ المُخَلَّفينَ قدْ جَمَعوا بَينَ الفَرَحِ بِالتَّخلُّفِ وكَراهِيَةِ الجِهادِ بِأَمْوالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ في سَبيلِ اللّٰه، فَكانتْ تِلكَ الكراهِيَةُ خَصْلَةً أُخْرَى مُسْتقِلَّةً مِنْ خِصالِ النِّفاقِ؛ لِأَنَّ اللّٰه أَمَرَ بِذَلِكَ في آيَةٍ مُتَقَدِّمَةٍ حيْثُ قالَ سبحانَهُ: ﴿وَجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [التَّوبة: 41]، وَلِكَوْنِها خَصْلَةً أُخْرَى جُعِلَتْ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/281 - 280.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/474.
(3) ابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 10/159.

جُمْلَتُها مَعْطوفَةً، وَلَمْ تُجْعَلْ مُقْتَرِنَةً بِلامِ التَّعْليلِ مَعَ أَنَّ فَرَحَهُمْ بِالقُعودِ سَبَبُهُ هوَ الكَراهيَةُ لِلْجِهادِ[1].

سِرُّ العدولِ عَنِ المصْدَرِ الصَّريحِ إلى المصْدَرِ المؤَوَّلِ: ﴿أَن يُجَٰهِدُواْ﴾:

الدَّلالَةُ عَلى كَراهِيَةِ المنَافقينَ الجِهادَ الحَقيقيَّ المُسْتَمرَّ

التَّعبيرُ بالمصْدَرِ المؤَوَّلِ: ﴿أَن يُجَٰهِدُواْ﴾ فيهِ تَصويرٌ لحالِ كَراهِيَتِهِمْ لِلمُشارَكَةِ في الجِهادِ والقِتالِ ومُعاناتِهِ مع المجاهِدينَ، وإنْ كانَتْ لَهم معَهُ مآربُ أُخرى مِنها: حِرصُهم عَلى وجودِ صورَتِهم مَع المجاهِدين؛ إذْ هُم حَريصونَ على الظُّهورِ؛ لِيوهِموا المؤمِنين أنَّهم مَعهمْ، لِيَنالوا مِن غنائمِهم حينَ النَّصْرِ، كَما كَشَفَهم اللّهُ تَعالى بِقولِه عَنهُم: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ﴾ [النساء: 141]، لكنَّهم في الواقعِ يَكْرهونَ أنْ يَكونوا مِنَ المجاهِدينَ حَقيقةً.

وكَذلك فَإنّ المصْدَرَ المؤَوَّلَ يَدفَع احْتمالَ الكَلامِ؛ فإذا قُلتَ: كَرِهوا مُجاهَدَتِهم، احْتَمَلَ أنْ تَكونَ نَفْسُ المجاهَدَةِ هي المكْروهَةَ، أوْ أنْ يكونَ المكروهُ مُجاهَدَةً خاصَّةً ذاتَ هَيْئَةٍ مُحدَّدةٍ "ففيهِ تَحصينٌ لِلمَعنى مِنَ الإشْكالِ، وتَخليصٌ لَهُ مِن شَوائِبِ الاحْتِمالِ"[2] وكَأنَّ الاحْتِمالَ مَع المصْدَرِ الصَّريحِ يُمكِنُ أنْ يَكونَ قائِمًا، فَدَفَعهُ بِالمصْدَرِ المؤَوَّلِ.

دلالَةُ الجِهادِ وصيغَةِ (يُفاعِل):

التَّحريضُ عَلَى المشارَكَةِ لِتَحصيلِ الرَّغائِبِ

قولهُ تَعالى: ﴿وَكَرِهُوٓاْ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، إيذانٌ بِأنَّ الجهادَ في سَبيلِ اللّهِ مِن أَجَلّ الرّغائبِ وأَشْرفِ المطالبِ الَّتي يَجِبُ أنْ يَتنافَسَ فيها المُتنافِسون، ومَع ذلكَ هؤلاءِ قد كَرِهوهُ، كَما فَرِحوا بِأقْبحِ القَبائحِ الَّذي هو القُعودُ خِلافَ رَسولِ اللّهِ ﷺ[3].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 10/281.
(2) السّهيلي، نتائج الفكر في النَّحو، ص: 97.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/88.

نُكتَةُ إيثارِ كَلِمةِ ﴿يُجَٰهِدُواْ﴾:

قد يكونُ سوءُ الاختيارِ مَعَ وضوحِ القَرارِ

أوثِرَ ما في النَّظمِ الكريمِ، وهو التَّعبيرُ بِالجهادِ ﴿يُجَٰهِدُواْ﴾ عَلى أنْ يُقال: و(كرِهوا أنْ يَخرجوا) مع رَسولِ اللّهِ ﷺ، إيذانًا بأنَّ الجهادَ في سبيلِ اللّهِ تَعالى مَع كَونهِ مِن أَجَلِّ الرَّغائبِ الَّتي يَنبَغي أنْ يَتَنافَسَ فيها المُتنافِسون، قد كَرِهوه، كَما فَرحوا بِأَقْبَحِ القَبائحِ، وهو القُعودِ خِلافَ رَسولِ اللّهِ ﷺ[1].

سِرُّ تَقْديمِ الأَموالِ على الأَنْفُسِ:

تَقديمُ المُجاهَدَةِ بِالأَموالِ عَلى الأَنْفُسِ بِاعْتبارِ السَّبْقِ بِالسَّبَبيَّةِ

قدَّمَ الأَموالَ على الأَنْفُس، لِما أنَّ المجاهَدَةَ بِالأَموالِ أكثرُ وقوعًا وأتمُّ دفعًا لِلحاجَةِ حيْثُ لا يُتصَوَّر المجاهَدَةُ بِالنَّفْسِ بِلا مُجاهَدَةٍ بِالمالِ[2]، ووَجهُ التَّقديمِ أنَّ الجِهادَ يَستَدعي تَقْديمَ إنفاقِ الأموالِ أوَّلًا؛ فهو مِن بابِ السَّبْقِ بِالسَّببيَّةِ[3].

دلالَةُ الجَمْعِ: ﴿بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾:

بَذلُ المُنافِقِ الجهْدَ لِحفْظِ ما يَملِكُ إيماءٌ إلى بُخْلِهِ وجُبْنِهِ

في سَوقِ الجَمْعِ لِما يُبذَل في الجِهادِ مِن تَركِ الأموالِ والأَنْفُسِ جُمْلةً وتَفْصيلًا، وبَذلِها كُلِّها لِلجِهادِ في سَبيلِ اللّه، دلالَةٌ على بُخْلِهِم في كُلِّ ما هو خَيْرٌ، وجُبْنِهِم جَميعًا.

الفَرْقُ بَينَ الجَمْعِ بِ(الأَنْفُس) وبِ(النُّفُوس):

سَوقُ مَا يَدُلُّ عَلَى قِلَّةِ المُخَلَّفينَ

الأَنْفُسُ جَمْعُ قِلَّةٍ (إلى عَشرة)، أمّا النّفوس فجمْعُ كَثْرةٍ؛ ولمّا كانَ أولئكَ عَددًا قَليلًا لا يُمَثِّلونَ ظاهِرَةً، إذا ما قيسوا بِجموعِ الصّحابةِ الَّذينَ كانوا يُقبِلون عَلى الجِهادِ مَع رَسولِ اللّهِ ﷺ غَيرَ هَيّابينَ المَوتَ ولا ضانّينَ بِالمالِ، اسْتخْدمَ (أَنْفُس) جَمْعَ القِلَّةِ.

سِرُّ تَقديمِ: ﴿بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾ على: ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ هنا:

لَمّا كانَ هذا في سِياقِ الأَموالِ، تارَةً بِالرِّضا بِنَيْلِها والسَّخَطِ

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 5/339.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/37.
(3) الزّركشيّ، البرهان في علوم القرآن: 3/256.

تَقديمُ الأَغْراضِ والحُظوظِ أوْ تَأْخيرُها بِحَسبِ مَوضِعِها مِن الاهْتمامِ

بِحِرْمانِها، وتارَةً بِقَبضِ اليَدِ عَن بَذلِها، وتارَةً بِالاسْتِمْتاعِ بِالخلافِ الَّذي هو النَّصيبُ الأعمُّ مِن أنْ يَكونَ بِالمالِ أَوِ النَّفسِ، وتارَةً بِعَيبِ الباذِلينَ، وغيرِ ذلكَ مِن شَأنِها، قدّمَ قَوْلَهُ: ﴿بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾ على قَولِهِ: ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، أيْ: طَريقِ المَلِكِ الَّذي لَهُ صِفاتُ الكَمالِ؛ لِأنَّهُ لَيْسَ فيهِمْ باعِثُ الإيمانِ وداعي الإيقانِ الَّذي بَعَثَ المُؤْمِنينَ[1].

وقد جاء الحديث عن الجهاد في سبيل الله بالأموال والأنفس في آيات كثيرة من كتاب الله ﷻ، وتارة يقدّم فيها ذكر الجهاد بالأموال والأنفس على متعلق الجهاد: (في سبيل الله)، وتارة يؤخّر، فمن ذلك قوله تعالى في سورَةِ التّوبة: ﴿فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓاْ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِي ٱلْحَرِّ ۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ۚ لَّوْ كَانُواْ يَفْقَهُونَ﴾ [التوبة: 81].

وقالَ تَعالى في سورَةِ الأنْفال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ ۚ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الأنفال: 72].

سورَة التّوبة قد تَقدَّم ذِكرُ الجِهادِ في سبيلِ اللّهِ مِن مثلِ قولِهِ تَعالى: ﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾ وقولِهِ: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُواْ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ وقولِهِ: ﴿۞أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَجَٰهَدَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ فقدّمَ ذِكْر ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ على الأموالِ والأنْفُس

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/562.

وهو المناسِبُ هَهُنا لِلجِهادِ كما قدّمَ الأمْوال والأَنْفُس هُناك لِأنَّه المناسِبُ لِلأمْوالِ[1].

أمّا في سورَةِ الأنْفال فقد قدّمَ الأمْوال على ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ لأنَّه تَقدّم ذكْرُ المالِ والفداءِ والغَنيمَةِ، في مِثل قولِه تَعالى: ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا﴾ [الأنفال: 67]، وهو المالُ الَّذي فَدى بِهِ الأسْرى أَنفُسَهم، وقولِه: ﴿لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [الأنفال: 68]، أيْ: مِنَ الفداءِ، فقدّمَ المال هَهُنا؛ لِأنَّ المالَ كانَ مَطلوبًا لَهم، حتّى عاتَبَهُم اللّهُ في ذلكَ فطلبَ أنْ يَبْدَؤوا بِالتَّضحِيَةِ بِهِ[2].

وعلى هذا نَقولُ: إذا كانَ المقامُ في جَمعِ وحِفظِ الأموالِ يبدَأ بِالتَّضْحِيَةِ به بِها، وإذا كانَ السّياقُ في القِتالِ وليْس في الأموالِ يقدّم ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ على الأمْوالِ[3].

فائدَةُ اسْتِعْمالِ المفْرَدِ ﴿سَبِيلِ﴾:

إيثارُ المفْرَدِ للدَّلالَةِ على الانْفرادِ في الكَمالِ

وحَّدَ الخِطابُ القُرآنيُّ سَبيلَهُ؛ لأنَّهُ في نَفسِهِ واحدٌ، لا تعدُّدَ فيه... كَما ثَبتَ أنَّ النَّبيَّ ﷺ خَطَّ خطًّا، ثُمّ قالَ: «هذا سَبيلُ اللّهِ»، ثُم خَطَّ خطوطًا عن يمينِهِ وعَن يَسارِهِ، ثُمّ قال: «هذهِ سُبُلٌ، عَلى كُلّ سَبيلٍ منها شَيطانٌ يَدْعو إلَيهِ»، ثُمّ قَرأَ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام: 153][4]، فسيقَ المفْرَدُ للدّلالَةِ على طَريقِ المَلِكِ الَّذي لَهُ صِفاتُ الكَمالِ[5].

دلالَةُ التّعريضِ بِجَميلِ صَنيعِ المؤمِنينَ في الآيَةِ:

التَّعريضُ بِشَرَفِ المؤمِنينَ مِن حيْثُ إيثارُهُمُ النَّعيمَ الأَبْقى والمقامَ الأَنْقى

في قَوْلِهِ تَعالى: ﴿أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾ تَعريضٌ

(1) السّامرائيّ، أسرار البيان في التّعبير القرآنيّ، ص: 48.
(2) السّامرائيّ، أسرار البيان في التّعبير القرآنيّ، ص: 48.
(3) السّامرائيّ، لمسات بيانيّة في نصوص من التّنزيل، ص: 729.
(4) ابن القيّم، طريق الهجرتين، ص: 177، والحديث صحيح الإسناد، رواه أحمد في المسند رقم: (4142، 4437).
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/562.

بالمؤمنينَ وبتَحمُّلِهمُ المَشاقَّ العَظيمَةَ، أَيْ: كالمُؤْمِنينَ الَّذينَ بَذَلوا أَمْوالَهُمْ وَأَنْفُسَهُمْ في الجِهادِ في سَبيلِ اللّه، وَآثَروا ذَلِكَ عَلَى الدَّعَةِ والخَفْضِ، وَكَرِهَ ذَلِكَ المُنافِقونَ، وَكَيْفَ لا يَكْرَهونَهُ وليس فيهم فيهِمْ ما في المُؤْمِنينَ مِنْ باعِثِ الإيمانِ[1].

وَجْهُ العَطفِ في: ﴿وَقَالُواْ﴾:

ورَدَ عَطفُ قولِهِ تَعالى: ﴿وَقَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ﴾، أي: قالَ بَعْضُهم لِبَعْضٍ؛ وكانوا أَرْبَعَةً وثَمانينَ رَجُلًا. وقيلَ: قالوا لِلْمُؤْمِنينَ، فلَمْ يَكْفِهِمْ ما هم عَلَيْهِ مِنَ النِّفاقِ والكَسَلِ حَتّى أرادوا أَنْ يكْسِبوا غَيْرَهم ويُنَبِّهوهم عَلى العِلَّةِ الموجِبَةِ لِتَرْكِ النَّفْرِ. قالَ ابْنُ عَبّاسٍ، وأبو رَزينٍ والرَّبيعُ: قالَ رَجُلٌ: يا رَسولَ اللّه، الحَرُّ شَديدٌ، فَلا تَنْفِر في الحَرِّ. وقالَ مُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ: هو رَجُلٌ مِن بَني سَلَمَةَ. انْتَهى. أَيْ: قالَ ذَلِكَ عَنْ لِسانِهِمْ، فَلِذَلِكَ جاءَ ﴿وَقَالُواْ﴾ بِلَفْظِ الجَمْعِ[2].

سَوقُ ما يدُلُّ على إجْماعِ المُخَلَّفينَ على عَدَمِ الخروجِ لِأَجْلِ (الحَرّ)

دلالَةُ الجَمعِ بيْنَ الأفْعالِ الثَّلاثَةِ في حَقِّ المنافقينَ: ﴿فَرِحَ﴾، ﴿وَكَرِهُوٓاْ﴾، ﴿وَقَالُواْ﴾:

جمعَ النَّظمُ في الآيةِ الكريمةِ بينَ الأفعالِ الثَّلاثَة المذكورة؛ للدَّلالَةِ على الخصالِ الثَّلاثِ الَّتي اتَّصفَ بها المنافقونَ مِن خِصالِ الكُفرِ والضَّلالِ، وهي الفرحُ بالقعودِ، وكَراهِيَةُ الجِهادِ، ونَهْيُ الغَيْرِ عَن ذلكَ[3].

ذِكْرُ الخِصالِ الَّتي اتَّصفَ بها المنافقونَ يَنضَحُ بِقُبْحِ سَرائِرِهِمْ

فهَؤُلاءِ ضَمّوا إلى سُرورِهِمْ بها كَراهيَةَ الطّاعَةِ، وقَدْ يَكْرَهُ ولا يَنْهى غَيْرَهُ، ولكن هَؤُلاءِ جَمَعوا إلى ذَلِكَ كُلِّهِ نَهْيَ غَيْرِهِمْ[4].

دلالَةُ حَذفِ المخاطَب في قول المنافقين: ﴿لَا تَنفِرُواْ فِي ٱلْحَرِّ﴾:

قالَ المنافقونُ ما قالوهُ لِإخْوانِهِمْ تَثْبيتًا لَهُم عَلى التَّخَلُّفِ والقُعودِ،

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/474.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/474.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/88.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/562.

وتَواصيًا فيما بَيْنَهم بالشَّرِّ والفَسادِ، أوْ لِلْمُؤْمِنينَ تَثْبيطًا لَهم عَنِ الجِهادِ، ونَهْيًا عَنِ المَعْروفِ، وإظْهارًا لِبَعْضِ العِلَلِ الدّاعيَةِ لَهم إلى ما فَرِحوا بِهِ مِنَ القُعودِ، فَقَدْ جَمَعوا ثَلاثَ خِلالٍ مِن خِصالِ الكُفْرِ والضَّلالِ وهي: الفَرَحُ بِالقُعودِ، وكَراهيَةُ الجِهادِ، ونَهْيُ الغَيرِ عَنْ ذَلِكَ[1].

حذفُ المخاطَب لِيستغرقَ تَثبيتَ المنافقينَ لإخوانِهم وتَثبيطَهُمُ المؤمنينَ

دلالَةُ تَكرارِ لَفظِ (النَّفْر):

سورَةُ التّوبة هي أَكثرُ سورَةٍ ذُكرَتْ فيها لفظَةُ (النَّفْر)، مِن ذلكَ ﴿ٱنفِرُواْ﴾ [التوبة: 38]، ﴿إِلَّا تَنفِرُواْ﴾ [التوبة: 39]، ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافًا﴾ [التوبة: 41]، ﴿لَا تَنفِرُواْ فِي ٱلۡحَرِّۗ﴾ [التوبة: 81]، ﴿لِّيَنفِرُواْ كَآفَّةٗۚ فَلَوۡلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرۡقَةٖ مِّنۡهُمۡ طَآئِفَةٞ﴾ [التوبة: 122]، وفي تَكرارِ الفِعلِ (نَفَرَ) الَّذي يَدلُّ عَلى الخُروجِ السَّريعِ مِن مَوْضِعٍ إلى غَيْرِهِ لِأَمْرٍ يَحْدُثُ، وأَكْثَرُ ما يُطْلَقُ عَلى الخُروجِ إلى الحَرْبِ، تَحريضٌ على الجِهادِ وتَنْديدٌ عَلى المقَصِّرينَ في شَأْنِه.

إثارَةُ هِمَمِ المخاطَبينَ نَحْوَ النَّفيرِ في سَبيلِ اللهِ بِتَكرارِ ذِكرِهِ

دلالَةُ النَّهْي: ﴿لَا تَنفِرُواْ فِي ٱلۡحَرِّۗ﴾:

ورَدَتْ صيغَةُ النَّهْيِ ومعها عِلَّتها، للدَّلالَةِ عَلى الاسْتَعْذارِ بِشِدَّةِ الحَرِّ وسَبَبِ تَرْكِ النَّفْرِ، حيْثُ قَصدوا إلى أنْ يَكْسِبوا غَيْرَهم، ويُنَبِّهوهُم عَلى العِلَّةِ الموجِبَةِ لِتَرْكِ النَّفْرِ[2].

تَلقينُ الآخَرينَ عِلَّةَ النَّهْيِ لإمدادِهِمْ بِعُذْرِ التَّخَلُّفِ

نوع (ال) في ﴿ٱلۡحَرِّۗ﴾، ودلالَتُها:

تَعْريفُ (الحرّ) للدّلالة على مَعهودٍ؛ لِأَنَّ غَزْوَةَ تَبوكَ كانَتْ في وقْتِ شِدَّةِ الحَرِّ وطيبِ الثِّمارِ والظِّلالِ[3].

الإحالَةُ على المَعهودِ لقصدِ البَيانِ المُعجِز

وَجْهُ الرَّدِّ عَليهِمْ:

قولُهُ تَعالى: ﴿قُلۡ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرّٗاۚ﴾ جُملَةٌ مُسْتَأْنَفَةٌ ابْتِدائيَّةٌ، خِطابٌ للنَّبيِّ ﷺ، والمَقْصودُ قَرْعُ أَسْماعِهِمْ بِهَذا الكَلامِ[4] وفي هذهِ

مَنْ تَصَوَّنَ مَشَقَّةَ ساعَةٍ تَأَبَّدَتْ مَشَقَّتُهُ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/88.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/474.
(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/65.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/281.

العبارَةِ اسْتجهالٌ لِلمنافقينَ؛ لِأنَّ مَن تَصوَّنَ مِن مشَقَّة ساعَةٍ، فَوقَعَ بِسبَبِ ذلكَ التَّصوّنِ في مشَقَّةِ الأَبَدِ، كانَ أَجهَلَ مِن كُلِّ جاهِلٍ[1].

الكِنايَةُ في: ﴿قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا﴾:

قولُهُ تَعالى: ﴿قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا﴾: تَذْكيرٌ بِطَريقِ الكِنايَةِ عَنْ كَوْنِهِمْ واقِعينَ في نارِ جَهَنَّمَ، لِأَجْلِ قُعودِهِمْ عَنِ الغَزْوِ في الحَرِّ، وهي كِنايَةٌ عُرْضيَّةٌ عَنْ كَوْنِهِمْ صائِرينَ إِلَى نارِ جَهَنَّمَ[2].

التّذكيرُ بِمَصيرِ المنافقينَ الحَتْميِّ بِدلالَةِ الكِنايَةِ العُرْضيَّةِ

سِرّ اسْتِخدامِ اسْمِ ﴿جَهَنَّمَ﴾:

قيلَ: إنَّ اسْمَ جَهَنَّمَ مُعَرَّبٌ وأَصْلُهُ فارِسيٌّ[3] وعلى القَولِ بأَنَّهُ عَربيٌّ، فَهو مُشتَقٌّ مِنَ الجَهْم أَوِ الجُهومَة، وهو الشَّيْءُ المخوفُ العابِسُ الكَريهُ[4] وعِندئذٍ يَكونُ ما يَحمِلُهُ لَفظُ ﴿جَهَنَّمَ﴾ مِن معنى الكَراهِيَةِ والبُغْضِ والخَوْفِ هو مُسَوِّغ اخْتيارِهِ هُنا؛ فَلِكَونِهم كَرِهوا الاسْتِجابَةَ لِرَبِّهم، والجِهادَ في سَبيلِهِ مُتَذَرِّعينَ بِحَرِّ الدُّنيا عوقبوا بـ ﴿جَهَنَّمَ﴾، فَلْيَتحَمَّلوا حرَّ نارِ جَهَنَّمَ الَّتي يَحْمِلُ اسْمُها صِفَةَ التَّجَهُّمِ والعُبوسِ جَزاءً وفاقًا.

تَوعُّدُ المُنافِقينَ بِالتَّجَهُّمِ فَوقَ العَذابِ بالألَمِ

سِرُّ مَجيءِ فِعلِ الأَمْرِ ﴿قُلْ﴾ في صَدْرِ الرَّدِّ علَيهِم، ودلالَتُهُ:

الخطابُ بِفِعلِ الأَمْرِ مُوجَّهٌ إلى النَّبيِّ ﷺ تَفْنيدًا لِقَولِ المنافقينَ وتَسْفيهًا لِحُلومِهم[5].

تَصديرُ الأَمرِ لِلإحالَةِ عَلى الرّدودِ القَطْعيَّةِ إِفْحامًا لِلمنافِقينَ وتَسْفيهًا لِأَحْلامِهِمْ

فائدَةُ إِضافَةِ ﴿نَارُ﴾ إلى ﴿جَهَنَّمَ﴾:

وَجْهُ إضافَةِ ﴿نَارُ﴾ إلى ﴿جَهَنَّمَ﴾ مِن بابِ إضافَةِ المَوْصوفِ إلى صِفَتِه؛ ولِهذا لا يُقال: جَهَنَّمُ نارٍ، ولَكِنْ يُقالُ: نارُ جَهَنَّمَ؛ فجَهَنَّمُ عَلَمٌ مِن بابِ اللَّقَبِ، ومَعْلومٌ أنَّ العَلَمَ اسْمٌ وكُنْيَةٌ ولَقَبٌ، فجَهَنَّمُ اسْمٌ عَلَمٌ،

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/296.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/281.
(3) الرّاغب، المفردات، والجوهريّ، الصّحاح: (جهنم).
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/272، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 10/326، والشّعراويّ، تفسير الشعراوي: 7/4138.
(5) رشيد رضا، تفسير المنار: 10/491.

تَعليقُ المَوْصوفِ بِصِفَتِهِ لِلدَّلالَةِ عَلى ما يُحقِّقُ الوَعيدَ المُرادَ

لَكِنَّه مِن بابِ اللَّقَبِ، والعَلَمُ اللَّقَبُ بِمَنْزِلَةِ الصِّفَةِ؛ يعني: بِمَنْزِلَةِ النَّعْتِ؛ لأنَّ اللَّقَبَ ما أَشْعَرَ بِمَدْحٍ أو ذَمٍّ، وبناءً على ذلك يَتَبَيَّنُ أنَّ مِثلَ هذا التَّركيبِ: ﴿نَارُ جَهَنَّمَ﴾ مِن بابِ إضافَةِ المَوْصوفِ إلى صِفَتِه[1].

وإضافَةُ النّارِ إلى جَهنَّم فيهِ زيادَةُ تَرْهيبٍ وشِدّةُ تَخويفٍ؛ لِاكْتِسابِ المُضافِ مَعنى المضافِ إلَيهِ، وجَهنَّمُ - والعياذُ بِاللّه - تَدلُّ عَلى شِدَّةِ بُعدِ قَعْرِها، وقد تَكَرَّر في الأَحاديثِ وصْفُها بِالعُمقِ السَّحيقِ، مِثْل قولِه ﷺ: «يَهوي بِها سَبعينَ خَريفًا»[2]، وقَد سمّاها اللّهُ ﷻ: هاويَة، فقالَ: ﴿فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ﴾ [القارعة: 9]، "والهاوية: كُلُّ مَهْواةٍ لا يُدْرَك قعرُها"[3].

وفي إضافَةِ النّارِ إلى جَهنَّمَ إشارةٌ إلى تَهديدِهِم بِالعذابِ المجانِسِ لِأعْمالِهم، كَما ذَكَرَهُ اللّهُ تَعالى في قولِهِ: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ [النساء: 145].

دلالَةُ لَفظِ ﴿أَشَدُّ حَرًّا﴾:

مُقابَلَةُ الحُجَّةِ بِالحُجَّةِ ذاتِها عَلى وَجْهٍ يُدِينُ المُنافِقينَ مِنْ أَفْواهِهِمْ

في قولِهِ ﷻ: ﴿قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا﴾ ردٌّ على أقْوالِ المنافقينَ القَبيحَةِ، وأفْعالِهِمُ الخَبيثَةِ، وقولٌ على سَبيلِ التَّهكُّمِ بِهم والتَّحقيرِ مِن شَأنِهم، أيْ: أنَّ نارَ جَهنَّم أَشَدُّ حَرًّا مِن هذا الحرِّ الَّذي تَخشَونَهُ وتَرونَهُ مانِعًا مِنَ النَّفيرِ، بلْ هي أشدُّ حرًّا مِن نارِ الدُّنيا[4].

وكذلكَ في قولِهِ تَعالى: ﴿قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا﴾ اسْتِجهالٌ لَهُمْ، لِأنّ مَنْ تَصَوّنَ مِن مَشقَّةِ ساعَةٍ فوقَعَ بِسبَبِ ذلكَ التَّصَوّنِ في مَشقَّةِ الأَبَدِ، كانَ أجْهلَ مِن كُلّ جاهِلٍ[5].

(1) ابن عثيمين، تفسير سورة فاطر، ص: 256.
(2) جزء من حديث أخرجه الترمذي، السّنن، برقم: (2314)، وأحمد، المسند، برقم: (7215).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (هوي).
(4) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 6/366.
(5) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/296.

فائدةُ حذفِ مُتعلّقِ ﴿أَشَدُّ﴾:

إنّ نارَ جهنَّمَ أشدُّ حرًّا ممّا يَحذَرُ المنافقونَ مِنَ الحرِّ المعْهودِ ويُحذّرونَ النّاسَ منهُ[1] وكَوْنُها أشَدَّ حَرًّا مِنْ حَرِّ القَيْظِ أَمْرٌ مَعْلومٌ لا يَتَعَلَّقُ الغَرَضُ بالإخْبارِ عَنْهُ[2].

وحذْفُ مُتَعلّقِ ﴿أَشَدُّ﴾ زيادَةٌ في التَّهويلِ؛ لِيشْمَلَ النَّفْرَ في الحرِّ، وهو المذْكورُ في قولِهم: ﴿لَا تَنفِرُواْ فِي ٱلْحَرِّۗ﴾، ويَشْمَلَ غيْرَ ذلكَ ممّا يُتَصَوَّر مِن حرٍّ في الدُّنْيا.

حَذْفُ مُتعلّقِ (أَشَدُّ) زيادَة في التَّهويلِ؛ لِيَشْملَ النَّفْرَ في الحرِّ وغيرِهِ

فائدَةُ ﴿لَّوْ﴾:

أَورَدَ الخطابُ حَرفَ ﴿لَّوْ﴾ لِمُجرَّدِ التّمَنّي المنبئِ عَنِ امْتناعِ تَحقُّقِ مَدْخولِها[3].

سَوقُ ما يَدلُّ في عِلمِ اللهِ عَلى امْتِناعِ تَحقُّقِ فِقْهِ المنافقين

فائدَةُ قولِهِ تَعالى: ﴿لَّوْ كَانُواْ يَفْقَهُونَ﴾، وبَلاغَتُهُ:

قولُهُ سبحانه: ﴿لَّوْ كَانُواْ يَفْقَهُونَ﴾ تَتْميمٌ، لِلتَّجْهيلِ والتَّذْكيرِ، أَيْ: يُقالُ لَهُمْ ذَلِكَ لَوْ كانوا يَفْقَهونَ الذِّكْرَى، وَلَكِنَّهُمْ لا يَفْقَهونَ، فَلا تُجْدي فيهِمُ الذّكْرى والمَوْعِظَةُ؛ إذ لَيْسَ المُرادُ: لَوْ كانوا يَفْقَهونَ أَنَّ نارَ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا؛ لِأَنَّهُ لا يَخْفَى عَلَيْهِمْ؛ وَلَوْ كانوا يَفْقَهونَ أَنَّهُمْ صائِرونَ إِلَى النَّارِ وَلَكِنَّهُمْ لا يفقهونَ ذَلِك[4].

بَلاغَةُ الإخبارِ بِالمعْلومِ بَداهَةً

بَلاغَةُ الاعْتراضِ التَّذييليّ في الآيَةِ:

قولُهُ: ﴿لَّوْ كَانُواْ يَفْقَهُونَ﴾ اعتراضٌ تَذْييليٌّ مِن جِهتِهِ ﷻ، غيرُ داخلٍ تَحتَ القولِ المأمورِ بِهِ، مؤكّدٌ لِمَضْمونِهِ[5].

دلالَةُ التّأْكيدِ بِالاعْتراضِ التَّذْييليّ على صَنيعِ المُنافِقين

دلالَةُ حَذفِ جوابِ الشَّرطِ لِفعْلِ الشَّرطِ: ﴿لَّوْ كَانُواْ يَفْقَهُونَ﴾:

حُذِفَ جَوابُ (لَو) لِلإشارَةِ إلى أنَّ المنافقينَ سَيَسْتقبِلونَ هَولًا

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/88.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/281.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 5/340.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/281.
(5) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/88.

عظيمًا يَنتَظِرُهم. والتّقديرُ: لَو كانوا يَفقَهونَ الأمورَ، لَوازَنوا بيْنَ ما يَسْتقبِلهم في تَخَلُّفِهم، واتِّقاءِ حَرِّ الدُّنيا، وبيْنَ ما يَلقَونَهُ بَعدَ البَعثِ مِن عذابِ جَهَنَّمَ الشَّديدِ حَرُّها، وإنَّهُ لآتٍ لا رَيْبَ فيه[1].

الدّلالَةُ على عِظَمِ الهَوْلِ الَّذي يَجْهَلُه المُخَلَّفون

دلالَةُ حَذفِ مَفعولِ: ﴿يَفْقَهُونَ﴾:

حُذِفَ مَفْعولُ ﴿يَفْقَهُونَ﴾ لِصلاحِيَةِ تَقديرِ لَوازِمِ جَهلِهم بِما يَفْقَهُهُ العُقلاءُ، أوْ تَنزيلًا لِلفِعْلِ المُتَعَدّي مَنزِلَةَ اللّازِمِ؛ فَلا جَوابَ ولا مَفْعولَ؛ ويَؤُولُ المَعْنى إلى أنَّهمْ ما كانوا مِن أهْلِ الفَطانَةِ والفِقْهِ، ويَكونُ الكَلامُ نَظيرَ قَوْلِهِ تَعالى: ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ وَمَا تُغْنِي ٱلْأٓيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾، وهو خِلافُ الظّاهِرِ أيْضًا[2].

تَنزيلُ الفِعلِ المُتَعدّي مَنزِلَةَ اللّازِمِ لِتَقريرِ نَفْيِ صِفَةِ الفَهْمِ عَنِ المنافقينَ

إيثارُ لَفظِ الفِقْهِ دونَ غَيْرِهِ مِن مُرادِفاتِهِ:

فُسِّرَ الفِقهُ بالعِلْمِ بالشَّيْءِ والفَهْمِ لَهُ، وَكَذا بالفِطْنَةِ، ويُراد بِهِ نَوْعٌ خاصٌّ مِنْ دِقَّةِ الفَهْمِ والتَّعَمُّقِ في العِلْمِ الَّذي يَتَرَتَّبُ عَلَيْهِ الانْتِفاعُ بِهِ، وأُوثِرَ بالذِّكرِ دونَ غَيرِهِ في هذا الموضِعِ؛ للدَّلالَةِ على أنَّ المنافقينَ لَمْ يُدْرِكوا كُنْهَ المُرادِ مِمَّا نُفِيَ فِقْهُهُ عَنْهُمْ، فَفاتَتْهُمُ المَنْفَعَةُ مِنَ الفَهْمِ الدَّقيقِ، والعِلْمِ المُتَمَكِّنِ مِنَ النَّفْسِ[3].

سَلْبُ ثَمَراتِ الفَهمِ النّافِذِ إلى اللُّبابِ بِإيثارِ لَفظَةِ الفِقْهِ

دلالَةُ صيغَةِ المُضارِعِ:

أوثِرَ الفِعلُ المضارِعُ ﴿يَفْقَهُونَ﴾ لِلدَّلالَةِ عَلى أنَّ عَدَمَ فِقهِهِمْ مُتَجَدِّدٌ ومُسْتمرٌّ.

سوقُ ما يَدلُّ عَلَى تجدُّدِ الذّمِّ واستمرارِ عدَمِ الفَهْمِ

سِرُّ العُدولِ عَن (لَوْ كُنتُمْ تَفْقَهونَ) إلى ﴿لَّوْ كَانُواْ يَفْقَهُونَ﴾:

﴿لَّوْ كَانُواْ يَفْقَهُونَ﴾: جُمْلَةٌ مُسْتقِلَّةٌ، وتَعقيبٌ عَلى ما قالَ المُخلَّفونَ، وعَلى ما أُمِرَ النَّبيُّ ﷺ بِأنْ يَقولَهُ لَهُم، والظّاهِرُ: أنَّهُ تَحويلٌ لِلكلامِ مِنَ المخاطَبِ إلى الغائِبِ، تَجاهُلًا لِوجودِهِمْ،

تَحويلُ الخطابِ إلى الغَيبَةِ تَجاهُلًا لِوجودِ المُخلَّفينَ لِعدَمِ أهلِيَّتِهِمْ لِلخطابِ

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3393.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 5/340.
(3) رشيد رضا، تفسير المنار: 9/352.

بِتَنزيلِهم مَنْزِلَةَ غَيرِ الموجودِ أصْلًا، لِكونِهم لَيسوا أَهلًا لِأَنْ يَتَشرَّفوا بِالخطابِ الشَّريفِ.

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الفَرَحُ والضَّحكُ والسُّرورُ:

لا شَكَّ أنَّ بيْنَ الفَرَح والسُّرور مُشْتَرَكًا وتَقارُبًا دلاليًّا، ولَكِن مِن دَقيقِ الفُروقِ بَيْنَهُما:

أنَّ السُّرورَ لا يَكون إلَّا بِما هوَ نَفْعٌ أَو لَذَّةٌ على الحَقيقَة، وَقد يَكونُ الفَرَح بِما لَيْسَ بِنَفْع وَلا لَذَّة، كَفَرحِ الصَّبيِّ بالرَّقْصِ والعَدْوِ والسِّباحَةِ وَغيرِ ذَلِك، مِمَّا يُتْعِبُه ويُؤذيه، وَلا يُسمَّى ذَلِك سُرورًا، ونَقيضُ السُّرور الحُزنُ، وَمَعْلوم أَنَّ الحُزْن يكونُ بالمَرازِئ، فَيَنْبَغي أَنْ يكونَ السُّرورُ بالفوائِدِ، وَما يجْري مَجْراها مِنَ الملاذِّ، ونَقيضُ الفَرحِ الغَمُّ، وَقد يَغتمُّ الإنْسانُ بِضَرَرٍ يَتوهَّمهُ مِن غَيرِ أَنْ يكونَ لَهُ حَقيقَة، وَكَذَلِكَ يَفرَحُ بِما لا حَقيقَةَ لَهُ[1].

الفَرَح أَعَمُّ مِنَ السُّرور، والضَّحِك ظُهورُ الثَّنايا مِنَ الفَرَحِ

في حينِ أنّ الضّحكَ: ظُهورُ الثَّنايا مِنَ الفَرَحِ[2]، وهو رَدُّ فِعلٍ خارِجيٌّ على مَوقِفٍ مُحدَّدٍ أوْ شَيءٍ آخَر، ومِن ثَمّ فهناك فَرَح أوْ سُرورٌ مِن دونِ ضَحِك، وضَحِكٌ مِن دونِ فَرَحٍ أوْ سُرورٍ.

(الخالفونَ) و(القاعِدونَ):

يُمكِنُ أنْ نُلَخِّصَ الفَرقَ بَينَ اللّفظَتَينِ في أنَّ (القاعدينَ) جاءَتْ مَع ذِكرِ كَسَلِ المنافِقينَ وإيثارِهمُ القعودَ رَغْبةً مِنْهُمْ، وهوَ ما يُعَبَّرُ عَنهُ في اللّغَةِ بالقعودِ، فَوافَقَ بهذا الاستِعمالَ اللُّغويَّ، ولَفظُ (الخالفين) جاءَ في سِياقِ بَيانِ عُقوبَةِ اللّهِ تَعالى لِلمنافِقينَ بِإلْزامِهمُ البَقاءَ مَع أَهلِ الأَعذارِ مَع رَغْبَتِهِمْ في الخروجِ؛ فَلمّا لَم توجَدْ بَواعِثُ الكَسَلِ عُبّرَ بِـ(الخالِفينَ).

القُعودُ لُصوقٌ بِالأَرضِ، ومِن لَوازِمِهِ التَّثاقُلُ عَنِ القِتالِ والتَّخلُّفُ عَنْهُ

(1) العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 265.
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (ضحك).

فالقُعودُ الرُّسوخُ واللُّصوقُ بِالأرْضِ، فَلَفظُ القعودِ يَدلُّ عَلى التَّثاقُلِ عَنِ القِتالِ والتَّخَلُّفِ عَنْهُ، والخالِفونَ الَّذينَ يَبْقَوْنَ بَعدَ الذّاهِبينَ إلى الغَزْوِ[1].

(خِلافَ) و(دونَ):

(دون) أَعـمُّ مِن (خِلاف)

تَتَّسِع دلالاتُ لَفْظَةِ (دون) حتَّى تَصِلَ إلى مَعانٍ كَثيرَةٍ، يُحدِّدُها السّياقُ[2]، تَنسَجِمُ في بَعضِها معَ مَعنى (خِلاف)، ممّا يُحيلُ عَلى نِسْبةِ العُمومِ والخُصوصِ المُطْلَقِ.

(بِمَقْعَدِهم) و(بِمَكانهم):

المـكـانُ أَوسَـعُ مَعنًى، والمَقْعَدُ هـو الـقُـعـودُ أَوْ مَوضِعُهُ

يَدلُّ المَقعدُ في القُرآنِ عَلى الثّبوتِ واللّبْثِ والاسْتِقرارِ، في حينِ أنَّ المكانَ مَفْعَلٌ مِنَ الكَونِ، ويَكونُ المقعدُ مَصْدرًا أوْ مَوضِعًا؛ وعَلَيهِ فإنّ الأَلْيَقَ بِالمَعنى القُرآنيِّ المَقْصودِ إيرادُ (مَقْعَد) لِتشوّفِ المنافِقينَ إلى اسْتِقرارِهم وثُبوتِهمْ مَع الخَوالِفِ.

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (خلف) و(قعد).

(2) فَتأتي: (دون) اسْم فِعلٍ بمعنى: الوعيد، كَقولِ السَّيِّد لخادمِه: دونَكَ عِصْياني، واسْم فِعلٍ بمَعنى: خُذْ، وتوصَل بِكافِ الخطابِ، فيُقال: دونَكَ الدِّرْهم، وظَرْف مكانٍ منصوبًا، وهو بِحسبِ ما يُضاف إليه، فيَكون بمَعنى: فوق. نحو: السَّماءُ دونَك، وبمعنى: قَبل. نَحو: دونَ قتْل الأَسَد أَهوالٌ، وبمعنى: تَحت، وأسْفل. كقولِك: دونَ قَدمِكَ بِساطٌ، وبمعنى: خَلْف. نَحو: جَلَسَ الوزيْر دونَ الأَميرِ، وبمَعنى: أَمام. نَحو: سارَ الرّائدُ دونَ الجَماعَة.

﴿فَلۡيَضۡحَكُواْ قَلِيلٗا وَلۡيَبۡكُواْ كَثِيرٗا جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ٨٢﴾

[التوبة: 82]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الإِخْبارُ عمّا يَؤولُ إليهِ حالُ المنافقينَ في الدّارَين بحسبِ جِنْسِ أَعْمالِهِمُ السّابِقَةِ

بَعدَ أَنْ ذَكرَ اللّهُ ﷻ ما كانَ مِن أَمرِ المنافقينَ مِنَ الفَرحِ بِالقُعودِ خِلافَ رَسولِ اللّهِ ﷺ وكَراهِيَتِهِم لِلجِهادِ مَعَهُ وتَثْبيطِهِم للمؤمنين، جاءَ الأَمْرُ إليهِمْ بِقِلَّةِ الضَّحِك في الحال وكَثْرَةِ البُكاءِ في المآلِ بِحسبِ ما تَقْتَضيهِ حالُهُم، وتَسْتَوجِبُهُ جَريمتُهُمْ، ولَوْ كانوا يَفْقَهونَ ما فاتَهُمْ - بالتَّخَلُّفِ والخِلافِ - مِن أَجْرٍ، وما سَيحْملونَ في الآخِرَةِ مِن وِزرٍ، وما يُلاقونَ في الدُّنيا مِن خِزيٍ وضرٍّ.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَلۡيَضۡحَكُواْ﴾: أَصْلُ الضَّحِكِ: انبِساطُ الوَجْهِ وتكشُّرُ الأسنانِ مِنْ سُرورِ النَّفْسِ. واستُعير الضَّحِكُ للسُّخرية، فقيل: ضَحِكْتُ منه، ورجلٌ ضُحَكَةٌ: يَضْحَكُ من النّاس، وضُحْكَةٌ: لمن يُضْحَكُ منه[1]. والضَّحْكَة: المرَّة الواحِدَةُ[2]. الضَّحِكُ يَختصُّ بالإنسان، وليس يوجد في غيره من الحيوان؛ ولهذا المعنى قال تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضۡحَكَ وَأَبۡكَىٰ﴾ [النّجم: 43][3]. والضَّحِكُ المقصودُ في الآيَةِ: كَيْفيَّةٌ في الفَمِ تَتَمَدَّد منها الشَّفَتانِ ورُبَّما أَسْفَرَتا عنِ الأَسنانِ، وهي حالةٌ تَعْرِضُ عند السُّرورِ والتَّعَجُّبِ مِنَ الحُسْنِ[4].

2) ﴿وَلۡيَبۡكُواْ﴾: أَصْلُ البُكاءِ: خُروجُ المائعِ مِنَ الجَوْفِ قَليلًا قَليلًا، يُقالُ: بَكَتْ عَيْنُهُ تَبْكي بُكاءً، أَيْ: خَرَجَ دَمْعُها، وبَكَتِ السَّماءُ

(1) الرّاغب، المفردات، والسّمين، عمدة الحفّاظ: (ضحك).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (ضحك).
(3) الرّاغب، المفردات: (ضحك).
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/282.

أَيْ: أَمْطَرَتْ[1]، وهو أيضًا: سَيَلانُ الدُّموعِ بِسَبَبِ حُزْنٍ ونَحْوِهِ[2]، وَمِنْهُ البَكَى، وَهوَ: شَجَرٌ أَوْ نَبْتٌ إذا قُطِعَ خَرَجَ مِنْهُ سائِلٌ أَبْيَضُ، والتَّباكي: تَكَلُّفُ البُكاءِ، وتَباكَى الشَّخصُ إذا تَظاهَرَ بِالبُكاء، والبَكِيُّ: الكَثيرُ البُكاء، على فَعيلٍ[3]. والمقصودُ بالبُكاء في الآيَة: كَيْفيَّةٌ في الوَجْهِ والعَينَيْنِ تَنْقَبِضُ بِها الوَجْنَتانِ والأساريرُ والأَنْفُ. ويَسيلُ بها الدَّمْعُ مِنَ العَيْنَيْنِ، وذلكَ يَعْرِضُ عند الحُزْنِ والعَجْزِ عن مُقاومةِ الغَلَبِ[4].

3) ﴿يَكْسِبُونَ﴾: أصلُ الكَسْبِ: يَدُلُّ عَلَى ابْتِغاءٍ وطَلَبٍ وإصابَةٍ. يُقالُ: كَسبتُ الشَّيءَ، أيْ: طَلبتُهُ، ومنه سُمّي طلَبُ الرِّزق كَسْبًا واكتسابًا[5]. والكَسْبُ يُقال فيما أخذه لنفسِهِ ولغيرِه؛ ولهذا قد يتعدّى إلى مفعولَين، فيُقال: كَسَبْتُ فلانًا كذا، والاكْتِسابُ لا يُقال إلَّا فيما استفدتَهُ لنفسِكَ، فكلُّ اكْتِسابٍ كَسْبٌ، وليس كلُّ كَسْبٍ اكتسابًا[6]. ويأتي الكَسْبُ بمعنى الشَّيء المُكتَسَب، وجمعُه: مَكاسِب. ويُطلَق أيضًا على الجَرحِ، أي: فِعل الشَّيءِ بالجارِحَة، والكواسِبُ: الجوارحُ مِن الإنسان والطَّير[7]. والمقصودُ بالكَسْبِ في الآية: ما يَنالُهُ المَرْءُ بسَعْيِه.

❁ المَعْنى الإجْمالِيُّ:

يتوعَّدُ اللّهُ تعالى المنافقينَ في الآيةِ، بأنَّهمْ وإنْ فرِحوا وضَحكوا طوالَ أعمارِهم في الدُّنيا، فهو قليلٌ بالنِّسبةِ إلى بُكائهم في الآخرةِ؛ لأنَّ الدُّنيا فانِيَةٌ والآخرةَ باقيةٌ، والمنقطعُ الفاني قليلٌ بِالنِّسبةِ إلى الدّائمِ الباقي[8].

الوعيدُ بِسوءِ مَصيرِ المنافقينَ، والإخبارُ عَن عاجِلِ أَمرِهِمْ وآجِلِهِ

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصل: (بكى).
(2) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (بكا).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (بكى).
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/282.
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (كسب).
(6) الرّاغب، المفردات: (كسب).
(7) الجوهريّ، الصّحاح، وابن منظور، لسان العرب: (كسب).
(8) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 6/367.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالَةُ الفاءِ في قولِهِ تَعالى: ﴿فَلْيَضْحَكُواْ﴾:

الفاءُ في قولِهِ تَعالى: ﴿فَلْيَضْحَكُواْ﴾ لِلإفصاحِ، لأنّها تُفصِحُ عَن شرطٍ مُقدَّرٍ؛ لأنَّ المعنى العامَّ: إذا كانوا قَد فرّوا مِنَ الغَزوةِ اتّقاءً لِلحرِّ في الوقتِ القَصيرِ، وأَهمَلوا ما يَستَقبِلهمْ مِن حَرّ جهنَّمَ الأشدِّ الَّذي يكونُ جَزاءَ التَّخلُّفِ، فقَدِ اسْتبدَلوا البُكاءَ الطَّويلَ بِضَحكٍ قَليلٍ[1].

لا يَستَبدِلُ العَاقِلُ البُكاءَ الطَّويلَ بِضَحكٍ قَليلٍ

وقيلَ: لِسَبَبيَّةٍ ما سَبَقَ لِلإخبارِ بِما ذُكِرَ مِنَ الضَّحِكِ والبُكاءِ لا لِنَفْسِهِما؛ إذْ لا يُتَصَوَّرُ السَّبَبيَّةُ في الأوَّلِ أصْلًا[2].

دلالَةُ اللّامِ في الفِعْلِ: ﴿فَلْيَضْحَكُواْ﴾:

اللّام في قولِهِ ﷻ: ﴿فَلْيَضْحَكُواْ﴾ لامُ الأَمْرِ، والصُّورَةُ وإنْ كانَ ظاهِرُها أَمرًا، لَكنَّهُ في الواقِعِ إخبارٌ عمّا يَكونُ عَليْهِ حالُهُم حينَ يَبدو لَهمْ ما لَم يَكونوا يَحْتَسبونَ، بِمُعايَنةِ جَهَنَّم، ثُمّ مواجَهَةِ مَصيرِهِمْ فيها.

لامُ الأَمرِ تُحيلُ المُضارِعَ إلى الأَمرِ، والأَمْرُ المُتَرَتِّبُ عَليْها في مَعْنى الإخْبارِ

سرُّ العدولِ عَنِ الأَمْرِ بَصيغَةِ (افْعَل) إلى لامِ الأَمرِ:

إنَّ العُدولَ عَنِ الأَمرِ الصَّريحِ بِصيغَةِ (افْعَل) إلى صيغَةِ المضارِعِ المَسْبوقِ بِلامِ الأَمرِ - فَضْلًا عَن كونِهِ يَدلُّ عَلى حَتْميَّةِ وقوعِ المَطْلوبِ، فيَشْتَرِكُ في ذلكَ مَع ما تُفيدُهُ صيغَةُ الأَمْرِ (افْعَل) - فَإنَّهُ يُضيفُ كذلك بُعدًا آخَر، ويُفيدُ مَعنًى لا تُفيدُهُ صيغَةُ الطّلَب (افْعَل)، وهو إفادَةُ تَجَدّدِ وقوعِ الفِعْلِ المَطلوبِ وتَكَرُّرِهِ.

الجَمعُ بَيْنَ خُصوصِيَّةِ طَلَبِ الفِعلِ، وتَّكَرُّرِه وتَجَدُّدِه

فالآيةُ إخبارٌ عمّا يؤولُ إليهِ حالُهم في الدُّنيا والآخِرةِ، أيْ: فسَيَضْحكونَ قليلًا، ويَبكونَ كثيرًا؛ إلّا أنَّه أَخْرَجَه على صيغةِ الأَمْرِ؛ للدَّلالةِ على أنَّه حَتْمٌ واجِبٌ، لا يكونُ غيرُه، وعلى تَحتُّمِ وقوعِ المُخبَرِ بِهِ؛ فإنَّ أَمْرَ الآمِرِ المُطاعِ ممّا لا يَكادُ يَتخلَّفُ عنْهُ المأمورُ[3].

---

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3394.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/88.

(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/89.

وأيضًا فإنّ لَفظَ (اضْحكوا) فِعلٌ كَلاميٌّ طَلَبيٌّ مُباشرٌ، غَرضُهُ الإنْجازيُّ التّهديدُ، تَضمَّن قوَّةً إنْجازيَّةً حَرفيَّةً بِدخولِ لامِ الأَمْر.

سرُّ العدولِ عَنِ الإخْبارِ إلى الإنْشاءِ في مَعنى الإخبارِ في الجُملَتَين:

﴿فَلْيَضْحَكُواْ قَلِيلًا وَلْيَبْكُواْ كَثِيرًا﴾:

حَتْميَّةُ وقوعِ مَا تَوَعَّدَ به المَولَى ﷻ

ذلكَ أنّهُ قد يُقال: لِمَ لمْ يُخبرْ مُباشرَةً عَن ضَحكِهِمْ قَليلًا، وبُكائِهِمْ كَثيرًا، فيَقول: (فسَيضحكونَ قليلًا ويَبكونَ كثيرًا).

فالجوابُ عَن هذا: إنَّ ورودَ الخَبرِ في صورَةِ الإنْشاءِ يَدلُّ على حَتميَّةِ وقوعِهِ، تَمامًا كَما أنّ مَجيءَ الإنشاءِ في صورَةِ الخبرِ يَدلُّ على المبالَغَةِ في وجوبِهِ والامْتِثالِ لَهُ، حتّى لَكأنّهُ قد وَقَع.

النُّكَتُ لا تَتزاحَم

إضافَةً إلى ما تَقدَّم، هناكَ فائدَةٌ أُخْرى؛ وهي: الابْتعادُ بالخَبرِ عَن تَأويلِهِ بِغيرِ ما دَلَّتْ عليهِ صيغَةُ الإنْشاءِ؛ لأنّ الصّيَغَ الإنْشائيَّةَ لِذاتِها لا تَحتَمِل الصِّدقَ والكَذبَ[1].

أمّا الخبرُ مِن حيْثُ هو خَبرٌ، فإنّهُ يَحتَملُ ذلكَ، وإنْ كانَ ذلكَ غيرَ واردٍ في أَخبارِ اللّهِ تَعالى مِن حيْثُ إنّها صادِرَةٌ عَمّن لا يَكذِب، لا مِن حيْثُ كونُها أخبارًا. وعَليْهِ؛ فإنّ الخَبرَ الواردَ بالصّيغَةِ الطّلَبيَّة يَكْتَسِبُ هذا البُعدَ الَّذي لا يُفيدُهُ الخَبرُ المَحْضُ.

سرُّ العدولِ عَن (فَلْيَفْرَحُوا) إلى ﴿فَلْيَضْحَكُواْ﴾:

إيثارُ لَفظِ الضّحك لِقَصدِ تَقريرِ اللّذاتِ العاجِلَةِ والرُّدودِ العارِضَةِ

الضَّحكُ: رَدُّ فِعلٍ خارجيٌّ على مَوقِفٍ مُحدَّد أوْ شيءٍ آخَر، ولَه هُنا إحدى دلالتين؛ كونُهُ كِنايَةً عَنِ الفَرَحِ، أوْ أنَّه أُريدَ ضَحِكُهم فَرَحًا لاعْتِقادِهِمْ تَرْويجَ حيلَتِهِمْ عَلى النَّبيّ ﷺ إذْ أذِنَ لَهم بِالتَّخَلُّفِ[2]، ولكنَّ مآلَهُ إلى خِلافِ ما ظَهر في الآخِرةِ.

الخِلافُ في إعْرابِ ﴿قَلِيلًا﴾ و﴿كَثِيرًا﴾ وأَثَرُهُ على المَعْنى:

قولُهُ ﷻ ﴿قَلِيلًا﴾، و﴿كَثِيرًا﴾ فيهِما وَجهانِ: أَظهَرُهُما: أنَّهما

(1) الشّهاب الخفاجي، حاشية الشّهاب: 4/350.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/282.

مَنصوبانِ على المَصدَرِ، أيْ: ضحِكًا قليلًا وبُكاءً كثيرًا؛ فحذفَ الموصوف، وهو أَحدُ المواضِعِ المُطَّردِ فيها حذفُ الموصوفِ وإقامةُ الصِّفَةِ مَقامَهُ مُقامَهُ[1].

تَعَدُّدُ المَعاني بِتَعاوُرِ المَصْدَرِيَّةِ أو الإِضافَةِ جمعًا بين كَثْرَةِ البُكاءِ وقِلَّةِ الضَّحِك

والثّاني: أنَّهما مَنصوبانِ عَلى الظَرفيَة الزّمانية، أيْ: زَمانًا قليلًا، وزَمانًا كثيرًا، والأوَّلُ أوْلى؛ لأنَّ الفعل يَدلُّ على المَصدَر بشَيْئين: بلفظِهِ ومَعناهُ، بخلافِ ظَرْفِ الزّمانِ فإنَّهُ لا يَدلُّ عَليْه بلَفظه، بلْ بهَيئته الخاصَّة[2].

فائدَةُ عَطفِ جُملَةِ: ﴿وَلْيَبْكُواْ كَثِيرًا﴾:

عَطفُ المتلازماتِ لبَيانِ حصولها حتمًا على الدَّوام

عطف جُملةِ ﴿وَلْيَبْكُواْ كَثِيرًا﴾ على ما قبلَها مِن عَطفِ اللّازِمِ عَلى المَلزوم، فالأمْرُ بالضَّحِكِ وبالبُكاءِ مُسْتَعْمَلٌ في الإخْبارِ بحُصولِهما قَطْعًا؛ إذْ جُعِلا مِن أمْرِ اللّه، أوْ هو أمْرُ تَكْوينٍ مِثْلُ قَوْلِه: ﴿فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُواْ﴾ [البقرة: 243]، والمَعْنى أنَّ فَرَحَهم زائِلٌ وأنَّ بُكاءَهم دائِمٌ مِن غيرِ انْفكاكٍ. والحاصِل أنَّ جُملةَ ﴿وَلْيَبْكُواْ كَثِيرًا﴾ معْطوفَةٌ عَلى: ﴿فَلْيَضْحَكُواْ قَلِيلًا﴾؛ للدَّلالَةِ عَلى الدَّيْمومَة[3].

بَلاغَةُ المُقابَلَةِ: ﴿فَلْيَضْحَكُواْ قَلِيلًا﴾، ﴿وَلْيَبْكُواْ كَثِيرًا﴾:

القَصدُ إلى الخُسرانِ بمُقابَلَةِ الضَّحِكِ للبُكاءِ، والقَليلِ للكَثيرِ

مِنَ المُحسّناتِ البَديعيَّةِ المَعنويّةِ في هذه الآيَةِ سَوقُ مَعنيَين، فأَتى بالضّحِكِ والقِلَّة، ثُمّ بما يُقابِلُهما مِنَ البُكاءِ والكَثْرةِ على التّرْتيب، ولا شَكَّ أنَّ مُقابَلَةَ حالِهمْ في قِلّةِ ضحِكِهم بحالِهم في كَثْرةِ بُكائِهمْ يَدلُّ على عَظيمِ خُسرانِهمْ وشِدّة جَهلِهمْ.

سِرُّ دُخولِ الفاءِ في الفِعلِ الأوّلِ، وعَدمِ دخولِهِ في الآخرِ:

الجمْعُ بينَ دلالَةِ الفاءِ لِتقريرِ السَّبَبيَّة، وبينَ جَماليَّةِ الجمْعِ بينَ المُتضادَّينِ عَطفًا

دَخَلتِ الفاءُ في قولِهِ ﷻ: ﴿فَلْيَضْحَكُواْ قَلِيلًا﴾ للكَشفِ عَن سَبَبيَّةِ ما سَبَقَ لِلإخْبارِ بما ذُكِرَ مِنَ الضَّحِكِ والبُكاءِ لا لِنَفْسِهما، إذْ لا يُتَصَوَّرُ السَّبَبيَّةُ في الأوَّلِ أصْلًا[4].

(1) ابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 10/160.
(2) ابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 10/160.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/282.
(4) الآلوسيّ، روح المعاني: 5/340.

وبما أنّ الجملتينِ اتَّفقَتا إنْشاءً، ووُجِدَ الجامعُ بينَهما - وهوَ اتِّحادُ المُسْنَدِ إليهِ فيهما، وتَناسُبُ المُسْنَدَيْنِ لما بينَ الضَّحكِ والبُكاءِ من التَّضادِّ معَ عَدَمِ وجودِ مانعٍ من العَطْفِ - آثرَ البيانُ القرآنيُّ الجمْعَ بينَ الجملتَينِ بحرفِ العَطفِ؛ والحالُ أنّ التَّضادَّ جهةٌ جامعةٌ لأنَّ التَّضادَّ عندَ الوَهْمِ كالتضايُفِ عندَ العقلِ، فكما لا يَنْفَكُّ أحدُ المُتَضايِفَيْنِ عن الآخَرِ عندَ العقلِ كذلكَ لا يَنْفَكُّ أحدُ المُتَضادَّيْنِ عن الآخَرِ عندَ الوَهْمِ؛ ولذلكَ الارتباطِ الوهميِّ تَجِدُ الضِّدَّ أقْرَبَ حضورًا في البالِ معَ الضِّدِّ الآخَرِ منْ سائرِ المغايِراتِ.

بَلاغَةُ الكِنايَةِ:

بيانُ ذلك: أنّه يَجوزُ أنْ يكونَ الضَّحِكُ كِنايَةً عَنِ الفَرَحِ والبُكاءُ كِنايَةً عَنِ الغَمِّ، والأوَّلُ في الدُّنْيا والثّاني في الأُخْرى أيْضًا، والقِلَّةُ عَلى ما يَتَبادَرُ مِنها، ولا حاجَةَ إلى حَمْلِها عَلى العَدَمِ كَما حُمِلَتِ الكَثْرَةُ عَلى الدَّوامِ[1].

دَلالَةُ (الضَّحِك) عَلى الفَرَحِ، و(البُكاء) عَلَى الغَمِّ، كِنايَةً

بَلاغَةُ خُروجِ الخَبَرِ على هَيْئَةِ الإنشاءِ (الأمْر):

هَذانِ الأمْرانِ مَعْناهُما الخَبَرُ، والمَعْنى: سَيَضْحَكونَ قَليلًا ويَبْكونَ كَثيرًا، وإنَّما جيءَ بِهِما عَلى لَفْظِ الأمْرِ لِلدَّلالَةِ عَلى أنَّ ذَلِكَ أمْرٌ مَحْتومٌ لا يَكونُ غَيْرُهُ؛[2] وذَلِكَ لِأنَّ صيغَةَ الأمْرِ لِلْوُجوبِ في الأصْلِ والأكْثَرِ، فاسْتُعْمِلَ في لازِمِ مَعْناهُ، أوْ لِأنَّهُ لا يَحْتَمِلُ الصِّدْقَ والكَذِبَ بِخِلافِ الخَبَرِ[3].

عُبِّرَ عَنِ الخَبَرِ بِالأمْرِ لِإفادَةِ لُزومِهِ ووُجوبِهِ مُبالَغَةً

وقيلَ: إنَّ الأمْرَ في الآيَةِ جاءَ بمَعنى الخَبرِ، لأنّهُ إنذارٌ بالجَزاءِ لا تَكليفٌ، وفي فائِدَةِ هذا التَّعبيرِ عَنِ الخَبرِ بالإنْشاءِ دلالَتُهُ على حَتْميَّتِه، فهو لا يَحتمِل الصِّدقَ والكذِبَ لِذاتِه كَما هو شَأنُ الخَبرِ؛ لأنّ الأصْلَ في الأمرِ أنْ يَكونَ للإيجابِ، وهو حَتْمٌ.

العُدولُ بِالخَبَرِ إلى قَصْدِ الإنْشاءِ لِتَقريرِ الحَتْمِ الَّذي لا يَحتَمِلُ الصّدقَ والكَذِبَ

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 5/340.
(2) الشّوكانيّ، فتح القدير: 2/442.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 5/340.

ويمكن أنْ يُقالَ: إنّ الأمْرَ بما ذُكر يَتَضمّن الإخبارَ بِسَببِهِ فيَكون مؤكِّدًا للخبرِ ببناءِ الحُكم عَليه، ويُقابِلُهُ التَّعبيرُ عَنِ الأمرِ بصيغَةِ الخَبرِ للتَّفاؤلِ بمضْمونِهِ كأنَّه وَقعَ بالفعلِ[1].

تَقريرُ مُقْتَضى الإنشاءِ بالخبرِ يُؤذِنُ بِحَتْميَّةِ وقوعِ الفِعلِ

إعْرابُ كَلِمةِ ﴿جَزَآءً﴾ ودلالَتُها:

(جَزاءً) مَفْعولٌ لَهُ لِلْفِعْلِ الثّاني، أيْ: ليَبْكوا جَزاءً، أو مَفْعولٌ لَهُ لِلْفِعْلَيْنِ، أوْ مَصْدَرٌ مِنَ المَبْني لِلْمَفْعولِ حُذِفَ ناصِبُهُ؛ أيْ: يُجْزَوْنَ مِمّا ذُكِرَ مِنَ البُكاءِ الكَثيرِ أوْ مِنهُ ومِنَ الضَّحِكِ القَليلِ جَزاءً بِما اسْتَمَرّوا عَلَيْهِ مِنَ المَعاصي[2].

الدَّلالَةُ على وَعيدِ الضَّحكِ القَليلِ والبُكاءِ الكَثيرِ

سرُّ اخْتِصاصِ سورَةِ التَّوبَةِ بِمجيءِ ﴿جَزَآءً﴾ قَبْلَ ﴿بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾:

مِنَ اللَّطائفِ المَنثورَةِ على هامِشِ ذِكْرِ الجزاءِ مُرتبطًا بما كَسبَ المنافقونَ، القَصْدُ إلى بَيانِ أنّ الجَزاءَ مِن جِنسِ ما اكْتَسبَ هؤلاءِ؛ فَقُوبِلَ ضَحِكُهم في الدُّنيا بِالحِرمانِ مِنْهُ يومَ القيامَةِ مَع تَحريرِ مُسمّى الارْتباطِ السَّبَبيِّ بَينهُما.

العُقوباتُ في كُلِّ بابٍ مِن جِنسِ ما اكْتَسَبَ العِبادُ

ومِنَ النُّكتِ كَذلك: أنّ تقديمَ الجَزاءِ على ما اكتُسِب لَم يوقَّتْ إلّا مَع الكافِرينَ؛ لأنّهمْ ظنّوا أنّهمْ بما فَعلوه مِنَ الكُفرِ والمعاصي أنّهُم كَسبوا بِتَفلُّتِهم مِنَ الدّينِ، وليسَ عَليهمْ أيُّ قَيدٍ أوْ حَظرٍ، أمّا تَقديمُ الجزاءِ على العَملِ، فَلَم يَأتِ إلّا مَع المؤمِنينَ، وذلكَ كَقولِهِ تَعالى: ﴿جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: 17].

الإشارَةُ إلى عُمْرِ الدُّنيا وعُمْرِ الآخِرَةِ في هذِهِ الآيَةِ:

رويَ: أنَّ أهْلَ النِّفاقِ يَكونونَ في النّارِ عُمْرَ الدُّنيا، لا يَرْقَأُ لَهم دَمْعٌ، ولا يَكْتَحِلونَ بِنَوْمٍ. والظّاهِرُ أنَّ قَوْلَهُ: ﴿فَلْيَضْحَكُواْ قَلِيلًا﴾ إشارَةٌ إلى مُدَّةِ العُمرِ في الدُّنيا، وقولُهُ: ﴿وَلْيَبْكُواْ كَثِيرًا﴾ إشارَةٌ إلى تَأْبيدِ الخُلودِ[3].

الدَّلالاتُ الإشارِيَّةُ المؤذِنَةُ بِعُمْرِ الدّنيا والآخِرَة

(1) محمد رشيد رضا، تفسير المنار: 10/492.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/89.
(3) أبو حيان، البحر المحيط: 5/475.

دلالَةُ الباءِ في قولِهِ: ﴿بِمَا﴾:

دلالَةُ الباءِ عَلى سَبَبيَّةِ الجَزاءِ

الباءُ في قولِهِ تَعالى: ﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ لِلسَّبَبيَّة، أيْ: جَزاءً على اسْتِمرارِ نِفاقِهِمْ وفِسْقِهم[1]. وقيلَ: لِلإلْصاقِ، والبَدليَّةِ[2].

ما يَتَرتَّبُ عَلى دلالَةِ (ما) مِنَ المَعنى:

الدَّلالَةُ على عُمومِ مَعاصي المُنافقينَ إيجازًا

(ما) اسْمٌ مَوصولٌ، أوْ مَصْدريَّةٌ[3]، واخْتيرَتْ في التَّعبيرِ عمّا كانوا يكسبونَ، وهو أَعمالُ نِفاقِهِمْ، لِأنَّها أَشملُ مَع الإيجازِ[4].

فائدَةُ دخولِ (كان):

دلالَةُ (كانَ) على تَمكُّنِ النِّفاقِ مِنَ المنافقينَ

أُثْبِتَتْ أفعالُهم لَهُمْ بِأَبْلَغِ وَجْهٍ؛ إذْ أُسْنِدَتْ إلَيْهِمْ بِصيغَةِ الكَوْنِ الماضي، الدَّالِّ عَلَى تمكُّنِ النِّفاق مِنْهُمْ مُنْذُ زَمانٍ مَضَى[5].

إيثارُ لَفظِ ﴿يَكۡسِبُونَ﴾ دونَ مُرادِفاتِهِ:

مُلازَمَةُ الكَسبِ لِعدالَةِ الجَزاءِ المُترتِّبِ

قَوْلُهُ: ﴿يَكۡسِبُونَ﴾ نَصٌّ في أنَّ التَكَسُّبَ هو الَّذي يَتَعَلَّقُ بِهِ الثَّوابُ والعِقابُ[6].

ثُمَّ إنّ الأصلَ اللُّغويَّ لِلكَسبِ يَدلّ على ابْتِغاءٍ وطَلَبٍ وإصابَةٍ، وهو فيما يتحرّاه الإنسانُ ممّا يَجلِب لَه النَّفعَ، وقد يُسْتَعمَل فيما تُظَنُّ مَنْفَعتُهُ، لَكنّه في حَقيقَتِه مضرّة؛ وقولُهُ تَعالى ها هُنا تهديدٌ لِلمنافقينَ الفَرِحينَ بِقعودِهِمْ عَنِ الجِهادِ مَع رَسولِ اللّهِ ﷺ، بِأنْ يَضحكوا في هذه الدّنيا الفانِيَةِ، فإنَّهمْ سَيَبكونَ طويلًا في الآخِرَة جَزاءَ ما كَسَبوهُ مِنَ الانْهماكِ في اللَّذّاتِ والسُّرورِ بالشَّهَواتِ والمعاصي، فَقد ظنَّ المنافقونَ المُتَخلِّفونَ أنّ في قُعودِهم عَنِ الجِهادِ تَحصيلًا لِلرّاحَةِ والطّمَأنينَةِ، لَكنّ ما ظَنّوهُ خَيرًا قادَهُمْ إلى ذُلٍّ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 8/74.
(2) محمد الهلال، تفسير القرآن الثّري الجامع: 10/157.
(3) محمد الهلال، تفسير القرآن الثّري الجامع: 10/157.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 10/282.
(5) التّحرير والتّنوير: 10/262.
(6) مجير الدّين المقدسيّ، فتح الرّحمن: 3/222.

الدّنيا وخَسارَةِ الآخِرةِ، ومِن هُنا كانَ التّعْبيرُ بـ ﴿يَكْسِبُونَ﴾ هوَ التَّعبيرَ الأَمثلَ عَن فِعلِهِمْ.

أمّا قولُهُ تَعالى: ﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [الأحقاف: 14] و[الواقعة: 24]، فورَدَ في سِياقِ ثَوابِ المؤمِنينَ الّذينَ اسْتَقاموا عَلى إيمانِهِمْ، والفِعلُ ﴿يَعۡمَلُونَ﴾ يَعمُّ كُلَّ فِعلٍ يُفعل في أَصلِ دلالَتِهِ اللّغَويَّة، سَواءٌ أَكانَ مِن أَفعالِ القُلوبِ أَمِ الجَوارحِ، كما لا يَكونُ إلّا عَنْ قَصدٍ، وبَعد فِكرٍ ورويَّةٍ، ويَقْترنُ العَملُ بِالعِلمِ، ولِهذا عرّفَهُ بَعضُهمْ بِقولِهِ: العَملُ ما دُبِّر بِالعِلمِ، وهذه المَعاني المُختَصَّةُ بـ(العَمل) تَتلاءَمُ مَع ما قَدَّمَه المؤمنونَ في الدّار الدّنيا مِن صالحاتٍ، فَقدْ حقَّقَ المَوعودونَ بِالجزاءِ المذكورِ في آيَتَي الأَحْقاف والواقِعَة الإيمانَ بِاللّهِ تَعالى بِالقلبِ وصَدَّقتْهُ الجوارحُ، وكانَ ما قدَّموهُ مِن عَملٍ صادرًا عَن نيَّةٍ صَحيحَةٍ؛ لِعِلْمهم بِما أَعدَّه اللّهُ تَعالى لِأَهْلِ طاعَتِه؛ لِذا اخْتَصّتْ هاتانِ الآيَتانِ بِلَفظِ ﴿يَعۡمَلُونَ﴾ دونَ (يَكسبون) الدّالِّ على تَحرّي النَّفع دونَ أنْ يُشتَرط حُصولُهُ عَن قَصدٍ ورويّةٍ.

دلالَةُ صيغَةِ المضارِعِ:

جاءَ التّعبيرُ بِصيغَةِ المُضارِعِ لِلدَّلالَةِ عَلَى التَّجَدُّدِ والتَّكَرُّرِ،[1] أي اسْتِمرارِ هذا الَّذي كانوا يَكسبونَهُ، وتَجدُّدِهِ آنًا بَعدَ آنٍ كُلَّما كانَ أَمرٌ جامِع، وكُلّما بَدا نِفاقُهم المُستَمرّ[2].

تَجدُّدُ خِصالِ المُنافقينَ بتجدُّدِ الأحداثِ والوقائعِ

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الكَسْبُ والعَملُ:

الكَسبُ يُستعملُ فيما يُتَحرّى نَفعُهُ، وهذا هو الأَصْلُ فيه، وقدْ يُطلَقُ إطلاقًا أَعمَّ لِيَشْمل: "الفِعْلَ العائِدَ على فاعِلِه بِنفْعٍ أَو ضرّ"[3].

الكَسْبُ يُقال باعْتِبارِ النَّتائِجِ، والعَمَلُ يَعُمُّ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 10/262.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3395.
(3) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 137.

أمّا العَملُ فَيَعمُّ كلَّ فِعلٍ يُفعل، ولا يَصدُرُ إلّا عَن قَصدٍ[1]. وعَلى هذا؛ فالكَسبُ مَنظورٌ فيهِ إلى نَتيجَةِ مضمونِهِ، أمّا العَملُ فيُطلَق على مُجرَّدِ الفِعْل الَّذي يَقومُ بِهِ، ولا يُشتَرطُ في إطلاقِهِ لَحظُ نَتائِجِهِ.

البُكاءُ والصّراخُ والصّياحُ والتَّألُّمُ:

البكاءُ هو: "انفِعالٌ باطِنيٌّ ناشِئٌ عَن حُزنٍ أوْ عَن خَوفٍ أوْ عَن شَوْقٍ"[2]، ويَكونُ بِدَمعِ العَيْنِ فقط، أوْ مَع صَوتٍ يَسيرٍ خَفيفٍ، وجاءَ: أنّ البُكى بِالقَصْرِ: خُروجُ الدَّمعِ مِنَ العَينِ بِلا صَوتٍ، والبُكاءَ بِالمدِّ: خُروجُ الدّمْعِ مَع الصّوتِ، قالَ الشّاعِرُ:

بَكَتْ عَيْني وحُقَّ لَها بُكاها *** وما يُغْني البُكاءُ ولا العَويلُ[3]

والصّياحُ رَفعُ الصَّوتِ بِما لا مَعنى لهُ، وربما قيلَ لِلنِّداءِ صياحٌ[4].

والصُّراخُ: صياحٌ حادٌّ نافِذٌ، كذلكَ الصّوتُ الَّذي يكادُ يَخرقُ الأذُنَ، ومنهُ: أَصْرَخَهُ: أغاثَهُ[5].

ومنْهُ قولُهُ تَعالى عَن أَهلِ جَهنَّم: ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ﴾ [فاطر: 37]، أيْ: يَصيحونَ بِشدَّةٍ.

والتَّألُّم: التّوجُّعُ، والأليمُ: المؤلِم الموجِعُ، فَإنَّ الأَلَمَ ضِدُّ اللَّذَّةِ. وَقَدْ عَرَّفَ الحُكَماءُ اللَّذَّةَ: بِأَنَّها الخَلاصُ مِنَ الأَلَمِ[6].

البُكاءُ دُموعٌ ورِقَّةٌ، والصّياحُ رَفعُ الصَّوتِ بِلا مَعْنى، والصُّراخُ شِدَّةُ الصّياحِ وارتِفاعُ الصَّوتِ، والتَّألّمُ التّوجُّعُ

(1) الرّاغب، المفردات: (عمل).
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/235.
(3) البيت من بحر الوافر، لكعب بن مالك، وهو في الدّيوان، ص: 252، ينظر: المبرّد، الكامل: 2/221، وابن منظور، لسان العرب: (بكى).
(4) أبو هلال العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 325.
(5) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصَّل: (صرخ).
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/271.

﴿فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا۟ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَـٰتِلُوا۟ مَعِىَ عَدُوًّا ۖ إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْخَـٰلِفِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [التوبة: 83]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

اسْتِصحابُ خِصالِ المُنافقينَ يُوجِبُ عَدَمَ اصْطِحابِهِمْ في الجِهادِ

لَمّا ذَكرَ اللّهُ تَعالى مَخازيَ المُنافقينَ وسوءَ طَريقَتِهِمْ بَيَّنَ بَعْدَ ذلكَ أنَّ الصَّلاحَ في ألّا يَسْتَصْحِبَهم النَّبيُّ في غَزَواتِهِ؛ لِأنَّ خُروجَهم مَعَهُ يوجِبُ أنْواعًا مِنَ الفَسادِ[1]؛ لأنهم ما كانوا يَخرجونَ إلّا كارهينَ لِلخروجِ، وكانوا فَرحينَ بِالقعودِ والتَّخلُّفِ. والكارِهُ لِلشَّيءِ والمُكْرَهُ عَليهِ لا يُنتَظر مِنهُ الإخْلاصُ ولا يُرجى مِنهُ النَّفعُ، ولَمّا "كانَ هذا الدّينُ مبنيًّا على العِزّةِ والغِنى، أَتبَع ذلكَ بِقَولِهِ مُسَبَّبًا عَن فَرَحِهم بِالتَّخَلُّفِ - وكَراهيَتِهم لِلخروجِ -: ﴿فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّـهُ﴾"[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿رَّجَعَكَ﴾: أصلُ الرُّجوعِ: العَوْدُ إلى ما كانَ منْهُ البَدْءُ، أوْ تَقديرُ البَدءِ مَكانًا كان أوْ فعلًا، أو قولًا، وبِذاتِه كانَ رُجوعُهُ، أو بجزءٍ مِن أجزائِهِ، أوْ بِفعلٍ مِن أَفعالِهِ. يُقال: رَجَعْتُ عن كذا رَجْعًا، ورَجَعْتُ الجَوابَ[3]. ورَجَعَ إلى مَكانِهِ، أيْ: عادَ إليْهِ، ومِن هُنا قيلَ: رَجَعَ في هِبَتِهِ: إذا أَعادَها إلى مِلْكِهِ. وأمّا المَقْصودُ بِقولِهِ: ﴿رَّجَعَكَ﴾ في الآيَةِ: فلَيْسَ المُرادُ منهُ الإرْجاعَ الحقيقيَّ، بَلِ المُرادُ المَجازيُّ، أَيْ: تَكَرَّرَ الخَوْضُ معهُم مَرَّةً أُخْرَى[4].

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 16/114.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/564.
(3) الرّاغب، المفردات، والسّمين، عمدة الحفّاظ: (رجع).
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/283.

2) ﴿طَآئِفَةٖ﴾: أصلُ (طوف) يَدُلُّ على دَوَرانِ الشَّيْءِ عَلى الشَّيْءِ، وأَنْ يُحَفَّ بِهِ. ثُمَّ يُحمَلَ عليْه، يُقالُ: طافَ بِهِ وبِالبَيْتِ يَطوفُ طَوْفًا وطَوافًا، وأطَافَ بِهِ، واسْتَطافَ، ثُمَّ يُقالُ لِما يَدورُ بِالأَشياءِ ويُغَشّيها مِنَ الماءِ: طوفانٌ. وأَمّا الطّائِفَةُ مِنَ النّاسِ فكأَنَّها جَماعَةٌ تُطيفُ بِالواحِدِ أَو بِالشَّيءِ. ولا تَكادُ العَرَبُ تَحُدُّها بِعَدَدٍ مَعْلومٍ، والمُرادُ بِالطّائِفَةِ في الآيَةِ: جَماعَةٌ مِنَ المُخَلَّفينَ[1].

3) ﴿فَٱسۡتَـٔۡذَنُوكَ﴾: الإذْنُ: مَصْدَرُ أَذِنَ، يَأْذَنُ، وأَصْلُه: رَفْعُ المَنْعِ، وإطلاقُ الفِعْلِ، والإباحَةُ، يُقالُ: أَذِنْتُ لَهُ في شَيْءٍ، أيْ: أَطْلَقْتُ له فِعْلَهُ[2]. ويُطْلَقُ الإذْنُ على الإعْلامِ، ومِنه الأذانُ: وهو الإعْلامُ بِدخولِ الوقتِ، وأَذِنْتُ بِالشَّيْءِ: عَلِمْتُ بِهِ. والاسْتِئْذانُ: طَلَبُ الإذْنِ[3]، والمرادُ بِالاسْتِئْذانِ في الآيَةِ: طَلَبُ الإذْنِ، أَي: في إباحَةِ عَمَلٍ وتَرْكِ ضِدِّهِ؛ لأَنَّ شأْنَ الإباحَةِ أَنْ تَقْتَضيَ التَّخْييرَ بَينَ أَحَدِ أَمْرَيْنِ مُتَضادَّيْنِ[4].

4) ﴿رَضِيتُم﴾: أَصلُ (رضي) يَدُلُّ على خِلافِ السُّخْطِ، تَقولُ: رَضيَ يَرْضَى رِضًا، وهو راضٍ، ومَفْعولُهُ: مَرْضيٌّ عَنْهُ[5]، والرِّضا: القَبولُ والموافَقَةُ، يُقال: رَضيَ بِالبَيْعِ، يَرْضَى، رِضًا ورِضْوانًا، أيْ: قَبِلَ ووافَقَ[6]. ويأْتي بِمعنى الاخْتيارِ والانْتِقاءِ، يُقال: رَضيَ بِهذا الطَّريقِ، أي: اخْتارَهُ. والمُرادُ بالرِّضا في الآيَةِ: القَبولُ بالشَّيءِ.

5) ﴿بِٱلۡقُعُودِ﴾: أصلُ القُعودِ: الجُلوسُ، وهو نَقيضُ القيام. قَعَدَ يَقْعُدُ قُعودًا ومَقْعَدًا، أَي: جَلَسَ[7]، والقُعودُ مَجازٌ عن الثَّباتِ في المَكانِ، والمُلازَمَةِ لَهُ؛ لِأَنَّ القُعودَ ثُبوتٌ شَديدٌ وَطَويلٌ[8]. والقَعْدَةُ: المَرَّةُ الواحِدَة[9]. والقِعْدَةُ لِلحالِ الَّتي يكونُ عَليها القاعِدُ[10]، والمَقْعَدُ:

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/283.
(2) المناويّ، التّوقيف على أمّهات التّعاريف، ص: 44، والزّبيديّ، تاج العروس: (أذن).
(3) الفيّوميّ، المصباح المنير: (أذن).
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/211.
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (رضي).
(6) ابن منظور، لسان العرب، والفيروزباديّ، القاموس المحيط: (رضي).
(7) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (قعد).
(8) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 10/115.
(9) الخليل، العين، والرّاغب، المفردات: (قعد).
(10) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (قعد).

مكانُ القُعودِ، وجمعُه: مَقاعِدُ[1]، وهي: موضِعُ قُعودِ النّاسِ في الأَسواقِ وَغَيْرِها[2]. والقعودُ في الآيَةِ: مَجازٌ عن الثَّباتِ في المَكانِ، والمُلازَمَةِ لَهُ، ومُستعملٌ في تَرْكِ الغَزْوِ تَشْبيهًا لِلتَّرْكِ بالجُلوسِ.

6) ﴿ٱلْخَٰلِفِينَ﴾: الخالِفُ: المتأخِّرُ لِنقصانٍ أو قصورٍ، ومَن يَخْلُفُ الرَّجلَ في مالِه وبيتِه[3]، والخالفُ أيضًا: الفاسِدُ مِنَ النّاسِ[4]. والخَوالِفُ: النِّساءُ المُتَخَلِّفاتُ في البُيوتِ، والخالِفةُ: عَمودُ الخيمَةِ المتأخِّر، ويُكْنَى بها عَنِ المَرأةِ لِتَخلُّفِها عنِ المُرتَحلينَ[5]. والمقصودُ بالخالِفينَ في الآيَةِ: جَمْعُ خالِفٍ، وهو الَّذي يَخلُفُ الغازيَ في أَهْلِهِ، وكانوا يُتْرَكونَ لِذَلِكَ[6].

المَعْنى الإِجْمالِيُّ:

لَنْ تُفلِحَ مَكائِدُ المنافِقينَ أَمامَ إِرادَةِ اللهِ القاهِرَةِ

يَقولُ اللّهُ تَعالى لنبيِّه محمَّدٍ ﷺ: إنْ أرجَعَك اللّهُ وردَّكَ - يا مُحمَّدُ - مِن غَزوةِ تَبوكَ، إلى جَماعةٍ مِن هؤلاءِ المُنافِقينَ - الّذينَ تخلَّفوا عَنك في المدينةِ بغَيرِ عُذرٍ، وفَرِحوا بذلك - فاستأذَنوكَ لِلخُروجِ مَعكَ لِلجِهادِ في غزوةٍ أُخرَى؛ فقُل لَهُم: لَنْ تخرُجوا معيَ أبدًا، ولنْ تُقاتِلوا معيَ عدوًّا؛ وذلكَ لِأنَّكم رَضيتُم بالتخَلُّفِ عنِ الجهادِ، حينَ دُعيتُم أوَّلَ مَرَّةٍ للخُروجِ معَي إلى تَبوكَ، فاقعُدوا مَع المتخَلِّفينَ عَنِ الجهادِ[7].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالَةُ الفاءِ في ﴿فَإِن﴾ وسرُّ ربْطِ الجُملتَين بِها:

تَتابُعُ مُعاقَبَةِ المنافقينَ بسَوقِ دلالَةِ التَّفريعِ

الفاءُ لِلتَّفريعِ عَلى ما آذَنَ بِهِ قَوْلُهُ: ﴿قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا﴾ [التوبة:

(1) الرّاغب، المفردات: (قعد).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (قعد).
(3) الرّاغب، المفردات: (خلف).
(4) ابن سيدَه، المحكم، وابن منظور، لسان العرب: (خلف).
(5) الرّاغب، المفردات: (خلف).
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/284.
(7) ابن جرير، جامع البيان: 11/608، والواحديّ، التّفسير البسيط: 10/579، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/192.

81]؛ إذْ فُرِّعَ على الغَضَبِ عَلَيْهِمْ وتَهْديدِهِمْ عِقابٌ آخَرُ لَهم، بِإبْعادِهِمْ عَنْ مُشارَكَةِ المُسْلِمينَ في غَزَواتِهِمْ[1].

إيثارُ (إنْ) على (إذا):

الدّلالَةُ على أنَّ ما اخْتَمَلَ الهلاكَ لا تَتَحَتَّمُ مآلاتُهُ

لمّا كانَ في السَّفرِ منَ الخَطَرِ ما كانَ؛ فإنّهُ يُحتاجُ للرُّجوعِ منْهُ إلى تَأييدٍ إلَهيٍّ، ولِذا أوثرَتْ كَلمةُ (إنْ) على (إذا)[2]؛ كما أنَّ (إنْ) مبَيِّنَةٌ أنَّ النَبيَّ ﷺ لا يَعْلَمُ بِمُسْتَقْبَلاتِ أمْرِهِ مِن أجَلٍ وغَيْرِهِ، إلّا أنْ يُعْلِمَهُ اللّه، ويُحْتَمَلُ أنْ يموتَ أولئكَ المنافقونَ قَبْلَ رُجوعِهِ[3].

سِرُّ التَّعبيرِ بِـ: ﴿رَّجَعَكَ﴾:

صيغَةُ (رَجَعكَ) أبلَغُ في البَيانِ وأظْهَرُ

أوثرَ التَّعبيرُ بِالرّجوعِ؛ لِأنّهُ أنسَبُ في التَّعبيرِ وأدَلُّ، فإنّهُ يجوزُ أنْ تَرْجِعَهُ مِن غيرِ كارِهَةٍ لَهُ، قالَ اللّهُ تَعالَى: ﴿فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ﴾، وَلا يجوزُ أنْ تردَّهُ إلّا إذا كَرِهتَ حالَهُ[4].

وفِعْلُ (رَجَعَ) يَكونُ قاصِرًا ومُتَعَدّيًا مُرادِفًا لِـ (أرْجَعَ). وهو هُنا مُتَعَدٍّ، أيْ: أرْجَعَكَ اللّه[5].

سِرُّ التَّعبيرِ بِالإرْجاعِ إلى طائفَةٍ مِنهُمْ موجزًا غَيْرَ مُفصَّلٍ:

دَلالَةُ الإرْجاعِ على تَكَرُّرِ الخوضِ مع المُنافقين مَرَّةً أُخرى

وجُعِلَ الإرْجاعُ إلى طائِفَةٍ مِنَ المُنافقينَ المُخَلَّفينَ عَلى وجْهِ الإيجازِ؛ لِأنَّ المَقْصودَ الإرْجاعُ إلى الحَديثِ مَعَهم في مِثْلِ القِصَّةِ المُتَحَدَّثِ عَنْها بِقَرينَةِ قَوْلِهِ: ﴿فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ﴾، ولَمّا كانَ المَقْصودُ بَيانَ مُعامَلَتِهِ مَعَ طائِفَةٍ، اخْتُصِرَ الكَلامُ، فَقيلَ: ﴿فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ﴾، ولَيْسَ المُرادُ الإرْجاعَ الحَقيقيَّ كَما جَرَتْ عَلَيْهِ عِباراتُ أكْثَرِ المُفَسِّرينَ وجَعَلوهُ الإرْجاعَ مِن سَفَرِ تَبوكَ مَعَ أنَّ السّورَةَ كُلَّها نَزَلَتْ بَعْدَ غَزْوَةِ تَبوكَ بَلِ المُرادُ المَجازيُّ، أيْ: تَكَرُّرُ الخَوْضِ مَعَهم مَرَّةً أُخْرى[6].

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/282.
(2) الطّنطاويّ، التّفسير الوسيط: 6/368.
(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/66.
(4) أبو هلال العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 114.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/283.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/283.

دلالَةُ التَّعبيرِ بِالمفْرَدِ ﴿رَّجَعَكَ﴾:

قالَ تعالى: ﴿فَإِن رَّجَعَكَ﴾، وهوَ خِطابٌ لِلرَّسولِ ﷺ، لِقصْدِ الحديثِ مَع المنافقينَ بِقَرينةِ: ﴿فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ﴾؛ فناسَبَ أنْ يكونَ التَّعبيرُ بِالمفْرَدِ[1]، أي: لِأنّ حوارَ المنافقينَ ومُراجَعَتَهمْ واستئذانَهُمْ لِلقعودِ وكُلَّ مُعامَلاتِهِمُ الرّسْميَّةِ، لَم تَكنْ إلّا مَع الرّسولِ ﷺ، لا مَعَ الصّحابَةِ رضي الله عنهم.

إفرادُ المخاطَبِ توطِئةً إلى استئذانِ المنافقينَ مِنْهُ ﷺ

دلالَةُ التَّعبيرِ بِالفِعلِ الثُّلاثيِّ ﴿رَّجَعَكَ﴾:

فِعْلُ (رَجَعَ) يَكونُ قاصِرًا ومُتَعَدّيًا مُرادِفًا لِـ (أرْجَعَ). وهو هُنا مُتَعَدٍّ، أيْ: أرْجَعَكَ اللّه[2].

وفي قولِهِ تعالى: ﴿رَّجَعَكَ﴾: الفاعلُ هُنا هو اللّهُ سُبحانه؛ أمّا (رجعتَ): فالفاعِلُ هو مُحَمّدٌ ﷺ. فكانَ التَّعبيرُ بِالمُتَعدّي (رجَعَكَ) مَقصودًا، فهو يَدلُّ على أنَّ الأمرَ بيَدِ اللّهِ تعالى، ولا خيارَ للنَّبيِّ ﷺ. أيْ أنَّه سُبحانه قَدَّر لَهُ الرّجوعَ بَعدَ غَزوَةِ تَبوكَ إلى طائفَةٍ مِن المُخلَّفينَ (المنافقين)؛ الّذينَ لَم يَتوبوا بَعدَ رُجوعِهِ إلى المدينَةِ، واسْتَمَرّوا على نِفاقِهِم[3].

حَملُ الرُّجوعِ على مُقتضَى ما قَضاهُ اللهُ تَعالى بِدلالَةِ الفِعلِ الثُّلاثيِّ المتَعدِّي

دلالَةُ التَّصريحِ بِاسْمِ الجَلالَةِ:

أظْهرَ اسْم الجَلالَةِ هُنا، لِيدلَّ على أنَّ زِمامَ مُحمَّدٍ ﷺ في الفِعلِ والتَّركِ ليْس بِيَدِهِ، وكأنَّه ﷺ يُوضِّح: إيّاكُم أنْ تنْسبوا الأَحداثَ إلى بَشريَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ، فإنّ مُحمَّدًا ﷺ إذا ذَهَبَ إلى مَكانٍ، فاللّهُ هو الَّذي أَذْهَبَهُ إليْهِ، وإنْ عادَ مِن مَكانٍ فَهو لا يَعودُ إلّا إذا أَرْجَعهُ اللّهُ منْهُ[4].

إظهارُ اسْمِ الجَلالَةِ لِلدّلالَةِ على أنَّ زِمامَ الأفْعالِ والأقْوالِ بِيَدِ اللهِ سُبحانَهُ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/283.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/282.
(3) محمد الهلال، تفسير القرآن الثّري الجامع: 10/158.
(4) الشّعراويّ، التّفسير: 9/5387.

دلالَةُ لَفظِ ﴿طَآئِفَةٍ﴾:

إنْصافُ القُرآنِ في الحُكْمِ على المُخَلَّفينَ

أوثِرَ التَّعبيرُ بـ ﴿طَآئِفَةٍ﴾ للدّلالَةِ على إنْصافِ القُرآنِ في الحُكمِ على هؤلاءِ المُخَلَّفينَ، فلَيسوا جميعًا منافِقينَ، وليسوا جميعًا كانوا كاذِبينَ في اعْتِذارِهِمْ، فَإنَّ تَخَلُّفَ بَعْضِهِمْ إنَّما كانَ لِعُذْرٍ عائِقٍ مَعَ الإسْلامِ، أوْ رجعكَ إلى مَن بَقيَ مِنَ المُنافِقينَ المُتَخَلِّفينَ بِأنْ ذَهَبَ بَعْضُهم بِالمَوْتِ، أوْ بِالغَيْبَةِ عَنِ البَلَدِ، أوْ بِأنْ لَمْ يَسْتَأْذِنِ البَعْضُ، وعَنْ قَتادَةَ: أنَّهم كانوا اثْنَيْ عَشَرَ رَجُلًا، قيلَ فيهِمْ ما قيلَ[1].

فائدَةُ قَيْدِ الطّائِفَةِ بِـ: ﴿مِّنْهُمْ﴾:

دلالَةُ ﴿مِّنْهُمْ﴾ على طائِفَةٍ مَخصوصَةٍ مِنَ المُتَخَلّفينَ

إنَّ الحقَّ ﷻ قيّدَ الطّائفَةَ بقولِه: ﴿مِّنْهُمْ﴾؛ لأنّه بِصدَدِ الحَديثِ عَنِ الطّائفَةِ الَّتي حَدَثَتْ مِنها المُخالَفةُ، فَهناكَ مَن بَقوا في المدينَةِ رَغمًا عَنهُمْ، ولَم يَكُنْ لَديْهِمْ ما يُنفِقونَهُ، أوْ لَم يَكن لَدى رَسولِ اللّهِ ﷺ ما يَحمِلُهمْ عَليه، كَذلك المَرْضى وكِبارُ السِّنّ الَّذين لا يَستَطيعونَ قِتالًا. وهؤلاءِ حَسُنَ إسلامُهُمْ وقَبِلَ اللّهُ ورَسولُهُ أعذارَهُمْ. ولَكنَّ الحقَّ سُبحانَهُ يَتحدَّثُ هُنا عَن الطّائفَةِ الَّتي تَخَلَّفَتْ عَنِ الجهادِ وهي قادِرَةٌ، والَّتي امْتَنَعَتْ عَنِ الخروجِ، وهي تملِكُ المالَ والسِّلاحَ وكلَّ مُقوّماتِ الجهادِ، هذِهِ الطّائفَةُ هي الّتي فَرِحَتْ بِالتّخَلُّفِ عَنِ القِتالِ. أمّا الطّوائفُ الأُخرى؛ فكانَتْ عيونُها تَفيضُ بِالدَّمعِ مِنَ الحزنِ على عَدَمِ اشْتراكِهم في الجهادِ، إذن: فالحَقُّ يَقصِدُ هُنا طائفَةَ المنافقينَ الَّذينَ اسْتَمَرّوا على نِفاقِهِمْ، فمَن تابَ مِنهُم قَبلَ نزولِ هذِهِ الآيَةِ قُبِلَتْ تَوبَتُهُ، ومَن ماتَ مِنهُمْ قَبلَ نُزولِ هذه الآيَةِ فإنّما حِسابُهُ على اللّهِ. وبَقيَتْ طائِفَةُ المنافقينَ الَّذينَ فرِحوا وضَحِكوا عِندما بَقوا في المدينَةِ، وكانَ عِقابُ اللّهِ لَهُم بِأنْ مَسَحَ أَسْماءَهم مِن ديوانِ المجاهدينَ في سَبيلِ اللّهِ، ومَنَعَهُمُ الثَّوابَ الكَبيرَ لِلجهادِ[2].

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/89.
(2) الشّعراويّ، تفسير الشعراوي: 9/5388.

دلالَةُ تَقييدِ الرّجوعِ بـ ﴿إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنۡهُمۡ﴾ دونَ البَلَدِ أوِ الجِهَةِ:

جُعِلَ الإرْجاعُ إلَى طائِفَةٍ مِنَ المُنافِقينَ المُخَلَّفينَ عَلَى وَجْهِ الإيجازِ؛ لِأَنَّ المَقْصودَ الإرْجاعُ إلَى الحَديثِ مَعَهُمْ في مِثْلِ القِصَّةِ المُتَحَدَّثِ عَنْها بِقَرينَةِ قَوْلِهِ: ﴿فَٱسۡتَـٔۡذَنُوكَ لِلۡخُرُوجِ﴾، وَلَمَّا كانَ المَقْصودُ بَيانَ مُعامَلَتِهِ مَعَ طائِفَةٍ، اخْتُصِرَ الكَلامُ، فَقيلَ: ﴿فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنۡهُمۡ﴾[1].

العُدولُ إلى الطّائِفَةِ في مَعرِضِ الرّجوعِ إلى الحديثِ مَعَ أَفْرادِها إيجازًا

دلالَةُ الفاءِ الدّاخِلَةِ على الفِعْلِ:

الفاءُ في قولِهِ: ﴿فَٱسۡتَـٔۡذَنُوكَ﴾ لِلتّرْتيبِ والتّعْقيبِ، أيْ: أنّهُ بِمجَرَّدِ أنْ تَرجعَ إليهِمْ يُفاجِئُونَكَ بِالاسْتِئْذانِ كَعادَتِهِم، وقدْ يُكَرِّرونَ في هذهِ الحالِ مَعاذيرَهُمُ الكاذِبَةَ، وهذا يَدلُّ على أنّ هذه الطّائفَةَ مِنهُمْ هي ذاتُ المعاذيرِ المُتَكَرِّرَةِ المُثَبِّطَةِ[2].

مُسارَعَةُ المُتَخَلِّفينَ إلى مَعاذيرِهِمُ الكاذِبَةِ

فائدَةُ مَجيءِ جُملَةِ ﴿فَٱسۡتَـٔۡذَنُوكَ﴾ بعدَ جُملَةِ: ﴿رَّجَعَكَ ٱللَّهُ﴾:

يَدلُّ سياقُ الآيَةِ ﴿فَٱسۡتَـٔۡذَنُوكَ﴾ على أنّ الفاءَ لِلتَّفْريعِ عَلى ما آذَنَ بِهِ قَوْلُهُ: ﴿قُلۡ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرّٗاۚ﴾ [التّوبَة: 81]؛ إذْ فُرِّعَ عَلى الغَضَبِ عَلَيْهِمْ وتَهْديدِهِمْ عِقابٌ آخَرُ لَهم، بِإبْعادِهِمْ عَنْ مُشارَكَةِ المُسْلِمينَ في غَزَواتِهِمْ؛ إخْراجًا لَهم عَنْ ديوانِ الغُزاةِ، وإبْعادًا لِمَحَلِّهِمْ عَنْ مَحْفِلِ صُحْبَةِ الرّسولِ ﷺ[3].

مُعاوَدَةُ عِقابِ المُنافِقينَ بِإخْراجِهِمْ مِن ديوانِ الغُزاةِ

جوابُ الشّرطِ ودلالَتُهُ:

جوابُ الشَّرطِ في قولِهِ تعالى: ﴿فَقُل لَّن تَخۡرُجُواْ مَعِيَ﴾ إهانَةٌ لِلمنافقينَ على أَتَمِّ وَجْهٍ[4]، وعُقوبَةٌ لَهم وإظْهارٌ لِدَناءَةِ مَنزِلَتِهِمْ وسوءِ حالِهِمْ[5] وإخراجٌ لهم عَن ديوانِ الغُزاةِ وإبعادٌ لِمحلّهمْ عَن مَحفِلِ صُحبةِ النَّبيِّ ﷺ[6].

القَصْدُ إلى إهانَةِ المنافقينَ بِمَنْعِهِمْ مِنَ الخروجِ معَ رَسولِ اللهِ ﷺ، عُقوبَةً لَهم

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/283.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3396.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/89، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/282.
(4) الآلوسيّ، روح المعاني: 5/341.
(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/476.
(6) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/89.

دلالَةُ تَعْديَةِ الفِعلِ ﴿فَٱسْتَـٔۡذَنُوكَ﴾ باللام:

إسقاطُ المنافقين مِنْ دِيوانِ الغُزاةِ عُقوبَةً لَهُم

عُدِّيَ الفعلُ ﴿فَٱسْتَـٔۡذَنُوكَ﴾ باللّام دونَ (في) لِلدّلالَةِ على أنَّهمْ طَلبوا الإذْنَ لِلخروجِ بعدَ غَزْوَةِ تَبوك، وليْس فيها، فالمَعنى: فاسْتَأْذَنوكَ لِلْخُروجِ، يَعْني: إلى غَزْوَةٍ بَعْدَ غَزْوَةِ تَبوكَ، وَكانَ إسْقاطُهُمْ مِنْ ديوانِ الغُزاةِ عُقوبَةً لَهُمْ عَلى تَخَلُّفِهِمُ الَّذي عَلِمَ اللّه تَعالَى أَنَّهُ لَمْ يَدْعُهُمْ إِلَيْهِ إلّا النِّفاقُ، بِخِلافِ غَيْرِهِمْ مِنَ المُخَلَّفينَ[1]، فاللّامُ بِمعنى العِلَّة، أيْ: لِأَجْلِ الخروجِ.

دلالَةُ صيغَةِ الجَمْعِ ﴿فَٱسْتَـٔۡذَنُوكَ﴾:

دلالَةُ الطّائفَةِ على جَماعَةٍ مِنَ المُخَلَّفينَ جَريًا عَلى المَعهودِ اللُّغَويِّ

دلالةُ الجَمعِ بِصيغَةِ ﴿فَٱسْتَـٔۡذَنُوكَ﴾ جَريًا على مَعهودِ الخِطابِ اللُّغَويِّ في لَفظَةِ الطّائِفَةِ الدّالَّةِ على جَماعَةٍ مِنَ المُخَلَّفينَ دَلَّ عَلَيْها قَوْلُهُ: ﴿فَٱسْتَـٔۡذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ﴾، أيْ: إلى طائِفَةٍ مِنهم يَبْتَغونَ الخُروجَ لِلْغَزْوِ[2]، والحَمْلُ على مَعنى الجَمعِ في ﴿طَآئِفَةٞ﴾ يُشيرُ إلى حِرصِ كُلّ واحدٍ مِن هذه الطّائِفَةِ على الاسْتِئْذانِ، واجْتِماعِهِمْ عَليهِ.

إيثارُ النَّفيِ بـ ﴿لَّن﴾:

نَفْيُ خروجِ المنافقينَ إلى الغَزْوِ مَعَ المُسلِمينَ مستقبلًا

تُفيدُ ﴿لَّن﴾ في قوله: ﴿لَّن تَخْرُجُواْ﴾ نَفْيَ الخروجِ مُستقبَلًا، والجَمْعُ بَيْنَ النَّفْيِ بِها وبَيْنَ كَلِمَةِ ﴿أَبَدًا﴾ تَأْكيدٌ لِمَعْنى ﴿لَّن﴾؛ لِانْتِفاءِ خُروجِهِمْ في المُسْتَقْبَلِ إلى الغَزْوِ مَعَ المُسْلِمينَ[3].

دلالَةُ تَكْرارِ ﴿لَّن﴾:

تَبْكيتُ المنافِقينَ بِتأكيدِ عَدمِ صُحْبَتِهِمْ

كُرِّرَتْ ﴿لَّن﴾ زيادَةً في تَبْكيتِهِمْ، وفي إهْمالِ شَأْنِهِمْ، وفي كَراهَةِ مُصاحَبَتِهِمْ، وذلكَ لِأَنَّهمْ لَو خرَجوا مَع المؤمنينَ ما زادوهُمْ إلّا خَبالًا، ولَو قاتَلوا مَعَهُم لَكانَ قِتالُهُمْ خالِيًا مِنَ الغايَةِ السّامِيَةِ الَّتي مِن أَجْلِها قاتَلَ المؤمِنونَ، وهيَ إعلاءُ كَلِمةِ اللّهِ، وكُلُّ قِتالٍ خَلا مِن تِلكَ الغايَةِ كانَ مآلُهُ إلى الهَزيمَةِ[4].

---

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/297.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/283.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/283.
(4) طنطاويّ، التّفسير المحيط: 6/369.

إيثارُ لَفظِ الخروجِ على الذّهابِ:

الذّهابُ: سَيرٌ يَبعُدُ بالسّائرِ قليلًا قليلًا حتّى يَمَّحيَ شَخصُه، والخُروجُ: الانْتِقالُ مِنَ المَقَرِّ إلَى مَكانٍ آخر قَريبٍ أَوْ بَعيدٍ[1]، والخروجُ يَدلّ على تَحوّلٍ عَنِ الاتّجاهِ أو الحالِ إلى عَكْسِه[2]، ولمّا كانَ لَفظُ (الخروج) يُلْحَظ فيه بِدايَةُ الانْطلاقِ، والذّهابُ يُراعَى فيه موضِعُ الانْتهاءِ، أوثِرَ التّعْبيرُ بالخروجِ لِلمبالَغَةِ في نَفْيِ قِتالِهِمْ بِنَفْيِ خروجِهم، ولِمُناسَبَتِه أَحوالَ المنافقينَ وصِفاتِهم، ولِأَنَّهُ شاعَ إطْلاقُ هذا المُصْطلَحِ عَلى السَّفَرِ لِلْغَزْوِ[3].

الخروجُ يُراعى فيهِ بِدايَةُ الانْطلاقِ، والذّهابُ يُراعى فيهِ مَوضِعُ الانْتِهاءِ

دلالَةُ التَّعبيرِ بِالمَصدَرِ الصَّريحِ ﴿لِلْخُرُوجِ﴾:

الحرفُ المصْدريُّ أضْعَفُ مِن صَريحِ المصْدَرِ، وقَد نَصَّ ابنُ مالِكٍ، عَلى أنَّ الحَرفَ المصْدَريَّ لا يُؤَكَّدُ بِهِ فِعلٌ[4]، فَأوثِرَ التَّعبيرُ بِالمَصْدَرِ الصَّريحِ (الخروج) لِلتّأْكيدِ، والتّنبيهِ على علَّةِ اسْتِئْذانِهم.

دلالَةُ المَصْدَرِ الصَّريحِ على تَأْكيدِ المَعنى

بَلاغَةُ جِناسِ الاشْتِقاقِ في ﴿لِلْخُرُوجِ﴾ و﴿لَّن تَخْرُجُواْ﴾:

تَتَجَلَّى بَلاغَةُ جِناسِ الاشْتِقاقِ في لَفْظَةِ ﴿لِلْخُرُوجِ﴾ و﴿لَّن تَخْرُجُواْ﴾ في أنّ البيانَ القُرْآنيَّ أَخرَجَ الفِعْلَ مِن مَصدرِه لِيَحْمِلَ عُنْصُرَ المُفاجَأةِ موهِمًا السّامِعَ بِالتَّكرارِ، لِيُدرِكَ بَعدَ ذلكَ أنَّ اللّفْظَ يَحْمِلُ مَعنًى غَيْرَ المَعْنى المُتَوَقَّعِ.

فهُمْ طَلَبوا الخُروجَ في اللَّفْظَةِ الأولى، ولَكنَّهُمْ مُنِعوا مِنَ الخروجِ في الثّانِيَةِ عُقوبَةً[5].

تَأَنُّقُ البَيانِ وتحميله عنصر المفاجأة

فائدَةُ قَيْدِ الظّرْفيَّةِ ﴿مَعِيَ﴾، ومجيئه مضافًا إلى ضمير المُفْرَدِ:

التَّقْييدُ بِالمَعيَّةِ، كَما يُؤْذِنُ بِاسْتِئْذانِهِمْ، يُخْرِجُ ما كانَ بَعْدَهُ ﷺ

نَفْيُ شَرَفِ المَعيَّةِ يُؤْذِنُ بِحِرْمانِ المُنافِقينَ مِن مَزِيَّةِ مُلازَمَةِ الرَّسولِ ﷺ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/481: 10/209.
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصَّل: (رجع).
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/209.
(4) المراديّ، الجنى الدّاني، ص: 407.
(5) عدد من المؤلّفين، مقال بعنوان: نماذج من جناس الاشتقاق في القرآن الكريم، المجلّة العالميّة للفكر الإسلاميّ، عام 2013م، العدد: 3، ص: 114.

مَعَ أَصْحابِهِ ﷺ مِن سَفَرِهِمْ وقِتالِهِمْ[1] والمَقْصودُ مِن خروجِهِمْ وقِتالِهِمْ أنْ يَكونوا مَعَ الرَّسولِ ﷺ، فهوَ يُرْشِدُهُمْ ويُدَبِّرُ شُؤونَهُمْ.

سِرُّ التَّعبيرِ بِالأَبَدِيَّةِ مَع لَفْظِ ﴿لَن﴾:

حَشْدُ ما يَدلُّ عَلى نَفْيِ المَعيَّةِ لِتَأكيدِ الحِرمانِ الأَبَديِّ

الجَمْعُ بَيْنَ النَّفْيِ بـ ﴿لَن﴾ وَبَيْنَ كَلِمَةِ ﴿أَبَدًا﴾ تَأْكيدٌ لِمَعْنَى لَنْ؛ لِانْتِفاءِ خُروجِهِمْ في المُسْتَقْبَلِ إِلَى الغَزْوِ مَعَ المُسْلِمينَ[2]، وبيانٌ لعدم إرادة معنى التأبيد بـ: ﴿لَن﴾ كما هو قول جمهور العلماء.

والاكتِفاءُ بِذِكرِ ﴿أَبَدًا﴾ في الجُملةِ الأولى دونَ إعادَتِها في الثّانيَةِ، لِكَونِها مَحْمولَةً عَليها، فمَعْناها سارٍ في الجُمْلةِ الثّانيَةِ، خُصوصًا مَع قَرينَةِ تَكرارِ ﴿وَلَن﴾.

دلالَةُ تَقديمِ شِبْهِ الجُملَةِ ﴿مَعِيَ﴾ في المَوْضِعَينِ:

اسْتِثْقالُ المُنافِقينَ بِحِرْمانِهِم مِنَ المَعِيَّةِ الشَّريفَةِ قَيْدٌ يُخرِجُ ما كانَ بَعدَهُ ﷺ

التَّقْييدُ بِالمَعيَّةِ يُؤذِنُ بِاسْتِثْقالِ المنافقينَ، وبِحِرْمانِهِم مِنَ التَّشَرُّفِ بِمُصاحَبَةِ رَسولِ اللهِ ﷺ، وتَقديمُ شِبهِ الجُملةِ ﴿مَعِيَ﴾ يُخْرِجُ ما كانَ بَعْدَهُ ﷺ مَعَ أَصْحابِهِ ﷺ مِن سَفَرِهِمْ وقِتالِهِمْ[3].

وفيهِ دلالَةٌ على أنَّ عدَمَ الخروجِ في صُحبَتِهِ ﷺ ومَعيَّتِهِ هو عُقوبةٌ كامِلةٌ، بِقَطْعِ النَّظَرِ عمّا يَتْبَعها أوْ يُلابِسها مِن حِرمانٍ مِنَ الغَنائمِ، ووَضْعِهِ في مَوضِعِ التُّهمَةِ، وغَيرِ ذلكَ.

دلالةُ عَطْفِ جُملَةِ ﴿وَلَن تُقَٰتِلُواْ﴾:

التَّشَوُّفُ إلى إِظْهارِ عَدَمِ الحاجَةِ إلى المنافِقينَ

عُطِفتْ جُملةُ ﴿وَلَن تُقَٰتِلُواْ﴾ على ما قَبلَها لِلدّلالَةِ على أنَّ القِتالَ هو المقصودُ مِنَ الخُروجِ، فلَو اقْتصرَ على إحداهما كَفى إِسْقاطًا لَهُم عَن مَقامِ الصُّحْبَةِ، ومقامِ الجِهادِ، أوْ عَن ديوانِ الغُزاةِ، وديوانِ المجاهدينَ، وإظهارًا لِكراهَةِ صُحبَتِهِمْ، وعدمِ الحاجَةِ إلى عدِّهِم

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/564.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/283.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/564.

مِنَ الجُندِ. أوْ ذكرَ الثّانية لِلتّأكيدِ، لأنَّه أَصرَحُ في المرادِ[1] وعلى هذا فقَد جُمع بينَ الجُملَتَين زيادةً في تَبْكيتِهم، وفي إهمالِ شَأنِهم، وفي كراهَةِ مُصاحَبَتِهم... فلَو أنَّهم خرجوا معَ المؤمِنينَ ما زادوهُمْ إلّا خَبالًا، ولَو قاتَلوا معَهُم، لَكانَ قِتالُهُم خاليًا مِنَ الغايَةِ السّاميَةِ الَّتي مِن أَجلِها قاتَلَ المؤمنونَ وهي إعلاءُ كَلِمةِ اللّهِ، وكلُّ قِتالٍ خَلا مِن تلكَ الغايَةِ كانَ مآلُهُ إلى الهَزيمَةِ[2].

دلالَةُ صيغَةِ المُفاعَلَةِ:

إيثارُ صيغَةِ المفاعَلَةِ لِلدّلالَةِ على نَفْيِ شَرَفِ المُشارَكَةِ في القِتالَ

قولُهُ: ﴿وَلَن تُقَٰتِلُواْ﴾ مِنَ المُقاتَلَةِ، لَفْظٌ مِن أَلفاظِ المفاعَلَةِ، وهوَ بَحسبِ الدّلالَةِ اللُّغويَّةِ يَدلُّ على مُشارَكَةِ طَرَفينِ، فهناكَ مَن يُقاتِلُ ظُلمًا وعُدْوانًا وهناكَ مَن يُقاوِمُ هذا الظُّلمَ.

سِرُّ تَنكيرِ لَفظِ ﴿عَدُوًّا﴾ وإفْرادِهِ:

دلالَةُ تَنكيرِ العَدوِّ لِقَصْدِ التّهويلِ مِن كُلِّ أَنواعِهِ التَّصَوّرِيَّةِ

التّنكيرُ في لَفْظِ ﴿عَدُوًّا﴾ يُفيدُ التّهويلَ والتّعْظيمَ لِأَخْذِ الحَذرِ مِنْهُ، أمّا إفْرادُهُ فَراجِعٌ إلى كَوْنِهِ على وَزنِ (فَعُولٍ) مِثْلِ قَبولٍ ونَحْوِهِ مِن مَصادِرَ قَليلَةٍ، ولكونِهِ عَلى زِنَةِ المَصادِرِ عومِلَ مُعامَلَةَ المَصْدَرِ فاسْتَوى في الوَصْفِ بِهِ المُذَكَّرُ والمُؤَنَّثُ والواحِدُ والمُثَنّى والجَمْعُ[3].

خروجُ الإخْبارِ مَخْرجَ النَّهْي:

صِدقُ الرِّسالَةِ المُحَمَّديَّةِ

خروجُ الإخْبارِ مَخرَجَ النَّهْي في قولِهِ تَعالى: ﴿لَّن تَخْرُجُواْ﴾ وقوله: ﴿وَلَن تُقَٰتِلُواْ﴾ لِلمُبالَغَةِ[4] ولِيَكونَ صِدْقُ النَّبيِّ ﷺ في إخْبارِهِ عَلَمًا مِن أَعْلامِ نُبوَّتِهِ وبُرْهانًا مِن بَراهينِ الرِّسالَةِ[5].

وذلكَ أنَّ قولَهُ تَعالى: ﴿فَقُل لَّن تَخْرُجُواْ مَعِيَ أَبَدًا وَلَن تُقَٰتِلُواْ مَعِيَ عَدُوًّا﴾ معْناهُ: قُلْ لَهُم بِصورَةِ الإخْبارِ هذا القَولَ؛ غَيرَ أنَّهُ في واقِعِهِ

(1) القاسميّ، محاسن التّأويل: 5/470.
(2) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 6/369.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/133.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/89.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/564.

مُتَضمّنٌ النَّهْيَ كَأَبْلَغِ ما يَكونُ، على ما هو مُقَرَّرٌ مِن كَونِ الخَبَرِ الَّذي يَأتي في مَعْنى الإنشاءِ أَبْلَغَ مِنَ الإنْشاءِ المَحْضِ، كَما مرَّ ذِكْرُه قريبًا في تَفسيرِ قَولِه: ﴿فَلْيَضْحَكُواْ قَلِيلًا وَلْيَبْكُواْ كَثِيرًا﴾.

ويَدلُّ لِكونِهِ خَبرًا في مَعنى النَّهي ورودُ القَرينَةِ الدّالَّةِ عَليهِ في قولِهِ: ﴿فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ﴾؛ فَإِنّهُ لا يُلائِمُ الإخْبارَ بِأنّكُم لَم تَخرجوا، معَ أنّهُمْ يُريدونَ الخروجَ، ويُؤيِّدُهُ أيْضًا التّعليلُ الآتي[1]، وهو قولُهُ: ﴿إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَٱقْعُدُواْ مَعَ ٱلْخَٰلِفِينَ﴾.

سِرُّ فَصلِ جُملَةِ: ﴿إِنَّكُمْ رَضِيتُم﴾:

فُصلتْ جُملَةُ ﴿إِنَّكُمْ رَضِيتُم﴾ عمّا قبلَها لِبيانِ سَبَبِ النَّهي والاسْتِئْنافِ؛ لِما بَيْنَها وبَينَ سابِقَتِها مِن (كَمالِ الاتِّصالِ)، أيْ: لَنْ يخْرُجوا مَع رَسولِ اللّهِ ﷺ ولَنْ يُقاتِلوا مَعَهُ لِأَنّهُم رَضُوا بِالقُعودِ والتَّخَلُّفِ أوَّلَ مَرَّةٍ[2].

تَعليلُ عَدَمِ الخُرُوجِ مَعَ رَسولِ اللهِ ﷺ

فائدَةُ الجُملَةِ التَّعْليليَّةِ: ﴿إِنَّكُمْ رَضِيتُم﴾، ودلالَةُ التَّأكيدِ:

جمْلَةُ: ﴿إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ تَعليلٌ لِما سَبَقَ مِنَ النَّهْيِ، فإنَّهُ يَتَضمَّنُ الإخْبارَ بِأنَّ مَنْعَكمْ ونَهْيَكُم عَنِ الخروجِ والقِتالِ حَسَنٌ لائِقٌ لِأنّكُمْ رَضيتُمْ، ولِهذا صُدِّر بِكَلمَةِ (إنَّ) واخْتيرَتِ الجُمْلَةُ الاسْميَّةُ[3]، وهيَ مُسْتَأْنَفَةٌ لِلتَّعْدادِ عَلَيْهِمْ والتَّوْبيخِ، أيْ: إنَّكُمْ تُحِبُّونَ القُعودَ وَتَرْضَوْنَ بِهِ فَقَدْ زِدْتُكُمْ مِنْه[4].

تَأكيدُ الخِطَابِ عَلَى قَصْدِ الاسْتِزادَةِ مِنَ القُعودِ والتَّخَلُّفِ تَوْبيخًا لِلمنافِقِينَ

نُكْتَةُ التَّعبيرِ بالرِّضا عَنِ القُعودِ:

التَّعبيرُ بالرِّضا في قولِهِ تعالى: ﴿رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ﴾ يَدُلُّ عَلى أنَّ ما ارْتَكَبوهُ مِنَ القُعودِ عَمَلٌ مِن شَأْنِهِ أنْ يَأْباهُ النّاسُ، حَتّى أُطْلِقَ عَلى

الرِّضا بِالقُعودِ تَأْنَفُهُ الفِطرَةُ السَّليمَةُ

(1) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاوي: 9/300.
(2) الشّوكانيّ، فتح القدير: 2/442.
(3) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاوي: 9/300.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/283.

ارْتِكابِهِ فِعْلُ (رَضيَ) المُشْعِرُ بِالمُحاوَلَةِ والمُراوَضَةِ، أيْ: أنَّهم جُعِلوا كالَّذي يُحاوِلُ نَفْسَهُ عَلى عَمَلٍ وتَأْبى حَتّى يُرْضيَها[1].

التَّفريقُ في خِطابِ اللهِ لِلمؤمِنِ والمُنافِقِ:

عِتابُ المؤمِنِ يُظاهِرُ تَوبيخَ المُنافِقِ تَوقيعًا وإيقاعًا

شَتّانَ بَينَ خِطابِ اللّهِ لِلمؤمِنِ وخطابِهِ لِلمنافِقِ: ﴿أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْـَٔاخِرَةِۚ﴾ [التوبة: 38] ﴿إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [التوبة: 83]، ففي قولِهِ تعالى: ﴿أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْـَٔاخِرَةِۚ﴾ عتابٌ لِلْمُؤْمِنينَ لتَّحْريضِهم عَلى الجِهادِ في سَبيلِ اللّه، بِطَريقَةِ العِتابِ عَلى التَّباطُؤِ بِإجابَةِ دَعْوَةِ النَّفيرِ إلى الجِهادِ[2]. أمّا في قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [التوبة: 83] ففيهِ تَوبيخٌ لِلمُنافقينَ بِتَقريعٍ شَديدٍ.

الجِناسُ بَينَ ﴿بِٱلْقُعُودِ﴾، و﴿فَٱقْعُدُواْ﴾:

تَفْريعُ الأَمْرِ بِالقُعودِ على مُسَمّى القُعودِ عُقوبَة

بيْنَ ﴿بِٱلْقُعُودِ﴾، و﴿فَٱقْعُدُواْ﴾: جناسٌ مُستَوفٍ؛ لِورودِ أَحدِ لَفظَيهِ اسْمًا في قَولِهِ ﷺ: ﴿رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ﴾ والآخَرِ فِعلًا ﴿فَٱقْعُدُواْ﴾ بِفاءِ تَفْريعِ الأَمْرِ بِالقُعودِ بِطَريقِ العُقوبَةِ عَلى ما صَدَرَ عَنْهم مِنَ الرِّضا بِالقُعودِ، أيْ: إذْ رَضيتُمْ بِالقُعودِ أوَّلَ مَرَّةٍ فاقْعُدوا مِن بَعْدُ[3].

دلالَةُ الفاءِ في: ﴿فَٱقْعُدُواْ﴾:

العُقوباتُ عَلى مُقتَضى أَجناسِ الأَعْمالِ

الفاءُ في ﴿فَٱقْعُدُواْ﴾ تَفْريعٌ عَلَى قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ﴾، أَيْ: كما اخْتَرْتُمُ القُعودَ لِأَنْفُسِكُمْ فاقْعُدوا الآنَ لِأَنَّكُمْ تُحِبُّونَ التَّخَلُّفَ[4].

دلالَةُ انْحصارِ ورودِ الفِعلِ ﴿فَٱقْعُدُواْ﴾ في سورَةِ التّوبةِ وَحدَها:

تَكثيرُ صيغَةِ القُعودِ أَمرًا في سورَةِ التَّوبَةِ لِإرادَةِ حِرْمانِهِم على الدَّوامِ

ورد لفظ (اقعدوا) في سورة التوبة ثلاث مرات وذلك في قوله سبحانه: ﴿وَٱقْعُدُواْ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍۚ﴾ [التوبة: 5]، وقوله تعالى: ﴿وَقِيلَ ٱقْعُدُواْ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ﴾ [التوبة: 46]، وقوله ﷻ: ﴿فَٱقْعُدُواْ مَعَ ٱلْخَٰلِفِينَ﴾ [التوبة: 83].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/283.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/195.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/89.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/284.

والورودُ الحصري لهذا الفعلِ ﴿فَٱقۡعُدُواْ﴾ في سورَةِ التّوْبَة للدّلالَةِ على أنَّ هذه العُقوبَةَ خاصَّةٌ بِهؤلاءِ المُخلّفينَ، الَّذينَ دَيْدَنُهُمُ القُعودُ والتَّخَلُّفُ دائمًا،[1] فدلَّتْ صيغةُ الأمرِ على العُقوبةِ على ما صدرَ عنهُم مِنَ الرّضا بِالقعودِ، أيْ: إذْ رَضيتُمْ بِالقُعودِ أوَّلَ مَرَّةٍ فاقعُدوا مِن بَعدُ[2].

فائدَةُ قولِهِ: ﴿أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾:

في قولِهِ تَعالى: ﴿أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ دلالَةٌ على الخَرْجَةِ إلى غَزْوَةِ تَبوكَ؛ كَأنَّهُ قيلَ: أوَّلَ خَرْجَةٍ دُعيتُمْ إليْها؛ لِأنَّها لَمْ تَكُنْ أوَّلَ خَرْجَةٍ خَرَجَها الرَّسولُ ﷺ لِلغَزاةِ، فَلا بُدَّ مِن تَقْييدِها؛ إذِ الأوَّليَّةُ تَقْتَضي السَّبْقَ. وقيلَ: التَّقْديرُ: أوَّلَ خَرْجَةٍ خَرَجَها الرَّسولُ ﷺ لِغَزْوَةِ الرّومِ بِنَفْسِهِ. وقيلَ: ﴿أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ قَبْلَ الاِسْتِئْذانِ[3].

فائدَةُ تَنكيرِ ﴿مَرَّةٍ﴾:

جاءَتْ ﴿مَرَّةٍ﴾ نَكِرةً لِلاسْتِغْراقِ، لِأنّها لمّا كانَتْ في زَمَنٍ مَعْروفٍ لَهم وهو زَمَنُ الخُروجِ إلى تَبوكَ ضُمِّنَتْ مَعْنى الزَّمانِ[4].

دلالَةُ حَذْفِ فِعلِ الشَّرْطِ في: ﴿فَٱقۡعُدُواْ﴾:

دلالَةُ حَذْفِ فِعْلِ الشَّرْطِ في ﴿فَٱقۡعُدُواْ﴾ لِبيانِ التّخَلُّفِ الدّائمِ؛ على معْنى: إذْا رَضيتُمْ بِالقُعودِ أوَّلَ مَرَّةٍ فاقْعُدوا مِن بَعْدُ ﴿مَعَ ٱلۡخَٰلِفِينَ﴾ أيِ: المُتَخَلِّفينَ، الَّذينَ دَيْدَنُهُمُ القُعودُ والتَّخَلُّفُ دائمًا[5].

سِرُّ التَّعبيرِ بِلَفْظِ القُعودِ دونَ التَّخَلُّفِ:

عُبّرَ بِلَفْظِ القعودِ ها هُنا؛ لأنَّ لَفظَ القُعودِ فيهِ مَعنى التَّثاقُلِ، وقد يُفَسرهُ قولُه تَعالى في مُعاتَبَةِ بَعضِ المؤمنينَ: ﴿مَا لَكُمۡ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلۡتُمۡ إِلَى ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ [التوبة: 38].

تَشوّفُ الخِطابِ إلى تَشْديدِ النَّكيرِ على مَن أعرَضَ عَن أمرِ اللهِ أوَّلَ مَرَّةٍ

تَرْكُ الأمْرِ أوَّلَ مَرَّةٍ كَتَرْكِهِ كُلّ مَرَّةٍ

حَذْفُ فِعْلِ الشَّرْطِ في (فاقعدوا) قَصدٌ إلَى بَيانِ التَّخَلُّفِ الدّائِمِ

إيثارُ القُعودِ لِلدَّلالَةِ على داعِيَةِ الكَسَلِ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/89.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/89.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/476.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/283.
(5) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/89.

فهذا التَّعبيرُ واردٌ في نفْسِ السّياقِ، وفي نَفْس الأشْخاصِ المُخلَّفينَ بغيرِ عُذْرٍ في غزوَةِ تَبوك[1] فهُمُ المَعْنيّونَ بِهِ، فيَكونُ (التّثاقُل) تَفْسيرًا دَقيقًا لِلقعودِ المَذْكورِ.

وهو شَأنٌ قَد تَميّز بِهِ المنافقونَ حتّى عِندَ أداءِ الصّلَواتِ تَظاهرًا معَ المؤمنينَ، فقَد كانوا يَقومونَ إليها مُتَثاقِلينَ كُسالى، كما أخبَرَ بذلكَ عَنهُم سُبحانه حين قال: ﴿وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ﴾ [النساء: 142].

ومِن أَسرارِ التَّعبيرِ بِالقُعودِ كذلك أنّ الّذي حَدا بِالمنافقينَ إلى تَرْك الجهادِ لَيْس ضَعْفَهم ولا قِلّةَ ما في أَيديهِمْ، بَل دَعاهُمْ داعي الكَسَلِ؛ فَرَكنوا إليْهِ فَلَم يُكلّفوا أَنْفُسَهم التَّظاهُرَ بِالاسْتِعدادِ، لِيَشْفع لَهم بِقبولِ أَعْذارِهِمْ، وهذا مِن خِذلانِ اللّهِ لَهم، ولمّا كانَتْ عِلّةُ التَّخَلُّفِ التَّكاسُلَ دونَ سِواهُ، ثبَّطَهم، فقيلَ لهُم: ﴿ٱقْعُدُواْ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ﴾ ذمًّا لَهُم وتَعجيزًا وإلحاقًا لَهم بمَن شَأنُهم القعودُ مِنَ المَرْضى والضُّعَفاء[2].

العُدولُ عَن ﴿ٱلْقَٰعِدِينَ﴾ إلى ﴿ٱلْخَٰلِفِينَ﴾:

عُبِّر بِلَفْظِ ﴿ٱلْخَٰلِفِينَ﴾ ها هُنا لأنّ تَخَلُّفَ المنافقينَ هذهِ المَرَّةَ عَن مَنْعٍ وإلْزام، تَنْكيلًا بِهِمْ وإظهارًا لِدناءَةِ نُفوسِهم، أيْ: أنَّهمْ أُلزِموا بِالبَقاءِ معَ أَهْلِ الأَعْذارِ مَع رَغْبَتِهمْ في الخُروجِ، فَلمّا لَم توجَدْ بواعِثُ الكَسَلِ عُبّرَ بِالخالِفينَ[3].

العُدولُ إلى الخالفينَ لِلدّلالَةِ على إلزامِهِمْ تَنْكيلًا لَهُمْ

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الرّجوعُ والعَودَةُ والرَّدُّ:

(الرّدُّ): إجبارُ الآخَرِ على العَوْدَةِ، حيْثُ لَم يَكُنْ مَحسوبًا ولا في الخطَّةِ، وإنّما يُكْرَهُ عَليهِ لِأَمْرٍ ما ولَم يَكُن في الحسْبانِ.

إيثارُ الرَّجعَةِ لقَصدِ تعميمِ العَود

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/65.
(2) ريم القحيز، بلاغة المتشابه اللّفظيّ في سورة التوبة، ص: 123.
(3) ريم القحيز، بلاغة المتشابه اللّفظيّ في سورة التوبة، ص: 123.

أمّا (الرّجوعُ) فهوَ العَوْدةُ مِن مهمّةٍ ما، ويكونُ فيما فيهِ قَصْدٌ في العَودَةِ وما لَيْس فيه[1]، ولِذا يُعبّر بِهِ عنِ البَعْث، كقولِهِ تَعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [البقرة 28]، أيْ: أنّنا جميعًا سنُرْجَعُ إلى اللّهِ تعالى بَعدَ أنْ قُمنا بِما هو مَطلوبٌ مِنّا وهو امتحانُ ربِّ العالمينَ لَنا أيُّنا أحْسَنُ عَملًا.

أمّا (العَودةُ) فهي العَودةُ إلى حالَةٍ ما سابِقَةٍ كانَتْ قَبلَ هذه الحالِ، كَما جاءَ في قولِهِ تعالى: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَقِيمُوا۟ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۚ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ [الأعراف: 29]؛ أيْ: أنَّنا سَنعودُ إلى الحالَةِ الّتي كنّا عَليها سابقًا وهي التُّرابُ.

(الطّائِفَةُ) و(الجَماعَةُ):

إيثارُ الطّائِفةِ للدّلالَةِ على الواحِدِ أو الجَماعَةِ

إنَّ (الطّائِفَةَ) في الأصْلِ: هي الجَماعَةُ الّتي مِن شَأنِها الطَّوفُ في البِلادِ لِلسَّفرِ، ويَجوزُ أنْ يَكونَ أَصْلُها الجَماعَةَ الّتي تَسْتوي بِها حَلْقَةٌ يُطافُ علَيها، ثُمّ كَثُر ذلكَ حتَّى سُمّي كُلُّ جَماعَةٍ طائِفَةً[2]، وتُطلَقُ الطّائفَةُ على الواحِدِ فَصاعِدًا، إلَى الألْفِ، وأقلُّها رَجُلانِ أَوْ رَجُل، فَتكونُ بِمَعْنى النَّفسِ. والطّائفةُ إذا أُريد بِها الجَمْع فَجمْعُ طائفٍ، وَإذا أُريدَ بِها الواحِدُ فَيَصحُّ أَنْ تَكونَ جَمعًا، وكُنِيَ بِهِ عنِ الواحِدِ[3].

و(الجَماعَةُ) في اللُّغةِ: المجتمِعونَ على الشَّيءِ، وجَمعُ الشَّيءِ عَنْ تَفْرِقَةٍ، وأصْلُ الكَلِمَةِ لإفادَةِ مَعنى الاجْتِماعِ في مُقابِلِ الافْتِراقِ، وقدْ جاءَ في نُصوصِ القُرآنِ والحديثِ اسْتعمالُ كَلِمَةِ الجَماعَةِ ضِدَّ الفُرْقَةِ والاجْتِماعِ ضِدَّ الافْتِراقِ.

(1) العسكريّ، الفروق، ص: 303.
(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 334.
(3) الكفويّ، الكلّيّات، ص: 585.

والجَماعَةُ أَعَمُّ مِنَ الطّائفَة؛ لأنّها تُطلَق بِمَلحَظِ الاجْتماعِ فَقط دونَ وَصفٍ زائدٍ على هذا. والطّائفَةُ أَخَصُّ، فَقد تُطلَقُ على الواحِدِ والاثْنَين.

الخُروجُ والذَّهابُ:

(الخُروجُ) انْتِقالٌ مِنَ المَقَرِّ إلى مَكانٍ قَريبٍ أوْ بَعيدٍ[1]، وهو يَدلّ على تَحوّلٍ عنِ الاتّجاه أو الحالِ إلى عَكْسِه[2]، و(الذَّهابُ) سيرٌ يَبْعُدُ بالسائرِ قليلًا قليلًا حتّى يَمَّحيَ شخصُه. مأخوذٌ من ذَهابِ الشَّيْءِ بِمَعنى: مُضيّه. يُقالُ: ذَهَبَ يَذْهَبُ ذَهابًا وَذُهوبًا[3].

الذَّهابُ أَوْسَعُ مَعْنًى ودلالَةً مِنَ الخُروجِ

ويُقال: ذهبَ بِهِ: اسْتَصْحَبَهُ وَمضى مَعَه، وَذهبَ عَليهِ: نَسيَه. وَعنهُ: تَركه، وَإِلَيْهِ: توجّهَ. وأذْهَبَهُ: أزالَهُ وَجعلَهُ ذاهِبًا[4].

وعلى هذا فالذّهابُ أَوْسَعُ معنًى ودلالَةً.

الرّضا والإيثارُ:

مَعنى (الرِّضا) سُكونُ النَّفسِ إِلَى الشَّيْءِ والارْتياحُ إِلَيْهِ[5]، و(الإيثارَ) على ما قيلَ هو: الاخْتيارُ المقدَّمُ، والشّاهد قولُهُ تعالى: ﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدۡ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا﴾، أيْ: قدَّم اختيارَكَ عَلَينا، وذلكَ أنَّهم كلَّهمْ كانوا مُختارينَ عِندَ اللّهِ تعالى[6].

(الإيثارُ) يَحمِلُ مَعْنى الاخْتيارِ والتَّقديمِ، و(الرِّضا) قد يكون عن غيرِ اختيارٍ

واخْتيرَ فِعْلُ ﴿رَضِيتُم﴾ دونَ نَحْوِ: (آثَرْتُمْ) أَوْ (فَضَّلْتُمْ) مُبالَغَةً في الإنْكارِ، لِأَنَّ فِعْلَ (رَضيَ بِكَذا) يَدُلُّ عَلَى انْشِراحِ النَّفْسِ[7].

وبِذلك يَظْهرُ أنّ (الإيثارَ) يَحملُ مَعنى الاخْتيارِ والتّقديم، و(الرِّضا) قدْ لا يكونُ عَنِ اخْتيارٍ، ولَكن يَصْحَبُهُ قَبولٌ وارْتياحٌ كَمَن يَرضى - إيمانًا - بِالبَلايا لِكَونِها مِن قَدَرِ اللّهِ.

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/481: 10/209.
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصَّل: (رجع).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ذهب).
(4) الكفويّ، الكلّيّات، ص: 463.
(5) الحمويّ، إيضاح الدّليل في قطع حجج أهل التّعطيل، ص: 143.
(6) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، بترتيب وزيادة، ص: 87.
(7) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/198.

(القاعِدُ) و(الخالِفُ):

(الخالِفُ) أَعمّ مِنَ (القاعِدِ)، فالخالِفُ: الّذي يَخلفُ الرَّجُلَ في أَهْلِهِ ومالِهِ، ويُقال: الخالِفُ الّذي خالَفَ قَومَهُ، ويُقال: الخالِفُ الفاسِدُ، ويُقال: الخالِفُ المَرْأَةُ، والخوالِفُ: النّساءُ[1]، والقُعودُ مَجازٌ عن الثَّباتِ في المَكانِ، والمُلازَمَةِ لَهُ، لِأَنَّ القُعودَ ثُبوتٌ شَديدٌ وَطَويلٌ[2]، والمُرادُ: تَخَلُّفُهم عَنِ الغَزوِ واقْترانُ ذلكَ بِالكَسَلِ، والالتِصاقِ بِالأَرْضِ، والتَّمَكُّنِ مِنَ القُعودِ، فَيَأْبَى النُّهوضَ فَضْلًا عَنِ السَّيْرِ.

(الخالِفُ) أَوْسَعُ مَعنًى وأَعَمُّ مِنَ (القاعِدِ)

وبِذلكَ يَظْهرُ: أنّ مَعنى (الخالِفِ) أَوْسَعُ وأَعَمُّ مِنَ مَعنى (القاعِدِ).

الرّضا والقَبولُ:

(الرِّضا): هو قَبولٌ بِالشّيءِ عَن يَقينٍ وخلوٍّ مِنَ التَّردُّدِ أوِ الشَّكِّ، وغالبًا ما يُرافِقُهُ السُّرورُ، و(القَبولُ): مُقَدَّمُ الشّيءِ الّذي يُتَّجَه إليهِ مِنْهُ؛ لِمُلاقاتِهِ أوِ النّفاذِ فيهِ[3]، سَواء أكانَ بِسرورٍ أمْ بِغيرِهِ.

القَبولُ أَعَمُّ مِنَ الرّضا

القعودُ والجلوسُ:

قَد فرّقَ بَيْنَهما بِأنّ الجلوسَ: هو الانْتِقالُ مِن سفْلٍ إلى عُلو، والقُعودَ: هو الانتِقالُ مِن عُلو إلى سفلٍ؛ فعَلى الأوَّل يُقال لِمَن هو نائمٌ: اجْلِس، وعلى الثّاني يقال لِمَن هو قائمٌ: اقْعُد[4].

إيثارُ القُعودِ لِلدَّلالَةِ عَلَى اتِّجاهِ الحَرَكَةِ

(1) السّمرقنديّ، بحر العلوم: 2/79.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/115.
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (قبل).
(4) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، بترتيب وزيادة، ص: 164.

﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنۡهُم مَّاتَ أَبَدٗا وَلَا تَقُمۡ عَلَىٰ قَبۡرِهِۦٓۖ إِنَّهُمۡ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُواْ وَهُمۡ فَٰسِقُونَ ٨٤﴾ [التوبة: 84]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

تَجديدُ الإهاناتِ لِمَن تَمَحَّضَ نِفاقُهُمْ

بَعدَ أنْ أَمَرَ اللّهُ رَسولَهُ بِإهانَةِ المنافقينَ وإذْلالِهِمْ بِمنعِهم مِنَ الخُروجِ مَعهُ إلى الغَزَواتِ، قَفّى عَلى ذلكَ بِذِكْرِ إهانَةٍ أُخْرى لَهُم، وهيَ مَنْعُ الرَّسولِ ﷺ أنْ يُصَلِّيَ عَلى مَن ماتَ مِنهمْ بَعدَ إعلامِهِ بِحقيقَةِ أمْرِهِمْ، وفي مُقدِّمَتهم زَعيمُهُمُ الأَكْبرُ عَبدُ اللّهِ بْنُ أُبَيّ والاثْنا عَشرَ الّذينَ أَرادوا اغْتيالَ الرّسولِ ﷺ [1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَلَا تُصَلِّ﴾: أصلُ الصَّلاةِ: الثَّناءُ والدُّعاءُ بالخَيْرِ، يُقال: صَلَّيتُ عليهِ، أيْ: أثنيتُ أو دَعَوتُ لَهُ، ومنهُ سُمّيتِ الصَّلاةُ بِذلكَ؛ لاشْتِمالِها عَلَيْهِما[2]. وقيلَ: مَأْخوذَةٌ مِنَ الصَّلا، وهو: العَظْمُ الَّذي عَلَيه الأَلْيَتانِ؛ لأنَّ المصلّيَ يُحرِّكُ صَلَوَيْهِ في الرُّكوعِ والسُّجودِ[3]. وقالَ الزَّجّاج: الأَصلُ في الصَّلاةِ اللُّزومُ[4]. وإليهِ ذَهبَ الأزهريُّ بِقَولِهِ: إنَّما الصَّلاةُ لُزومُ ما فرَضَ اللّهُ تَعالَى، والصلاةُ مِنْ أَعظمِ الفَرْضِ الَّذي أَمَرَ بلُزومِه[5].

2) ﴿وَلَا تَقُمْ﴾: أصلُ القيامِ: يدلُّ على انْتِصابٍ أَوْ عَزْمٍ. يُقالُ: قامَ، يَقومُ، قَوْمًا وقيامًا، أي: وقَفَ وانْتَصَبَ. والقَومَةُ: المَرَّةُ الواحِدَةُ، ويَكونُ قامَ بمعنى العَزيمَةِ، كما يُقالُ: قامَ بهذا الأَمْرِ، إذا اعْتَنَقَهُ،

(1) المراغيّ، تفسير المراغي: 10/175، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 16/115.
(2) الجوهريّ، الصّحاح، والرّاغب، المفردات: (صلا).
(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (صلا).
(4) الزّجّاج، معاني القرآن: 1/232.
(5) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (صلا).

وقامَ فلانٌ بأمرِ فُلانٍ إذا كفاهُ أَمْرَهُ وتولّاه. وهُم يَقولونَ في الأَوَّلِ: قيامُ حَتْمٍ، وَفي الآخِرِ: قيامُ عَزْمٍ[1]. وضِدُّه: الجُلوسُ. ويأْتي القيامُ بِمعنى الثَّباتِ، فيُقال: قامَ عِنْدَهُم الحَقُّ، أيْ: ثَبَتَ[2]، والمَقامُ: مَوْضِعُ القيامِ[3]. والمَقصودُ بِالقيامِ في الآيَةِ: قيامُ عَزمٍ، أيْ: ولا تَقِف عَلى قَبرِهِ عِند الدَّفنِ أوْ بَعدَه بِقصْدِ الزِّيارَةِ أوِ الدُّعاءِ لَهُ[4].

3) ﴿قَبْرِهِۦٓ﴾: أصْلُ (قبر): يَدُلُّ عَلَى غُموضٍ في شَيْءٍ وَتَطامُنٍ، مِنْ ذَلِكَ القَبْرُ: مَكانُ دَفْنِ الإنْسانِ، يُقال: قَبَرْتُ المَيْتَ، أَقْبُرُهُ، قَبْرًا، أيْ: دَفَنْتُهُ[5]. وكُلُّ مَكانٍ تُخْفَى فيهِ جُثَّةُ المَيْتِ فهو قَبْرٌ، ولَو في البَحْرِ. وجَمْعُهُ: قُبورٌ. والمَقْبَرَةُ: مَوْضِعُ القُبورِ[6]. والمقصودُ بالقَبْرِ في الآيةِ: الحُفْرَةُ الَّتي يوضَعُ فيها المَيِّتُ.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

بَيانُ ما شَرَعَهُ اللهُ تَعالى في شَأنِ مَنْ يَموتُ مِن هؤلاءِ المنافقينَ

أمرَ اللهُ تعالى رَسولَهُ ﷺ أنْ يَبْرأَ مِنَ المنافقينَ، وألّا يُصلّيَ على أحدٍ مِنهُم إذا ماتَ، أوْ يقِفَ على قَبرِهِ، لِيَسْتَغفر لَهُ، أوْ يَدعو لهُ؛ لأنَّهمْ كَفَروا بِاللهِ ورَسولِهِ، وماتوا وهُمْ فاسِقونَ، وهذا حُكْمٌ عامٌّ في كُلِّ مَن عُرِفَ نِفاقُه[7].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

وَجْهُ عَطفِ جُملَةِ: ﴿وَلَا تُصَلِّ﴾:

الجَمْعُ بَيْنَ المُراداتِ عَطْفًا لتَشريكِها في الأَحكَامِ

جُمْلَةُ ﴿وَلَا تُصَلِّ﴾ عَطْفٌ عَلى جُملَةِ ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ وهوَ عَطْفُ كلامٍ مُرادٍ إلحاقُهُ بِكلامٍ آخَرَ؛ لأنَّ القرآنَ يَنزِلُ مُراعًى فيهِ مَواقِعُ وَضْعِ الآيِ[8].

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (قوم).
(2) الكرمانيّ، لباب التّفاسير، ص: 217.
(3) الجوهريّ، الصّحاح، وابن منظور، لسان العرب: (قوم).
(4) الواحديّ، التّفسير البسيط: 6/370.
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (قبر).
(6) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة: (قبر).
(7) ابن جرير، جامع البيان: 11/610، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/192.
(8) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/284.

دلالَةُ النَّهْيِ:

النَّهْيُ في الآيَةِ الكَريمَةِ نَهْيٌ عَن فِعْلٍ لَم يَأتِ زَمَنُه[1]، وهو عُقوبَةٌ ثانِيَةٌ وَخِزْيٌ مُتَأَبِّدٌ عَلَيْهِمْ[2].

القَصْدُ إلى إيلامِ المنافقينَ بِذِكْرِ ما يُتَشَوَّفُ إِلَيهِ مِن عُقوباتٍ

فائدَةُ اسْتِعْمالِ الماضي لِلدّلالَةِ عَلى المُسْتَقبلِ:

وإنَّما قيلَ: ﴿مَّاتَ﴾، و﴿وَمَاتُواْ﴾ بلَفْظِ الماضي - والمَعْنى على الاسْتِقبالِ - على تقديرِ الكونِ والوجودِ؛ لأنَّه كائنٌ موجودٌ لا محالةَ؛ فموتُهم غيرُ مَوجودٍ في حالِ التَّكلُّمِ ولا قَبْلَه، وإنَّما جيءَ بصيغةِ الماضي؛ تَنْبيهًا على تحقُّقِ وقوعِ الموتِ لا محالَةَ[3].

اسْتِعْمالُ الماضي لِلدّلالَةِ على المُستقبل إيذانٌ بِتَحَقُّقِ المُسَمّى

سِرُّ تَنْكيرِ كَلِمَة ﴿أَحَدٍ﴾:

مَجيءُ كَلِمَةِ ﴿أَحَدٍ﴾ نَكِرَةً في سياقِ النَّهْيِ لِقَصْدِ إفادَةِ العُمومِ.

سَوْقُ التَّنكيرِ لِتَعْميمِ التَّرْكِ عَلى كُلِّ تَقْدير

فائدَةُ قولِهِ: ﴿مِّنْهُمْ﴾:

قولُهُ: ﴿مِّنْهُمْ﴾ لِلإحالَةِ عَلى المنافقينَ الّذينَ عُرفوا بِسيماهُم وأَعْمالِهِمُ الماضِيَةِ الذِّكرِ[4]، أيْ: مَن ماتَ حالَ كَوْنِهِ مِنهُم، أيْ: مُتَّصِفًا بِصِفَتِهِمْ وهي النِّفاقُ[5].

القَصْدُ إلى تَعْميمِ الأَحكامِ على كُلِّ مُتَّصِفٍ بِصفاتِ المُنافقينَ

والشّاهِدُ: أنّه لمّا نَزلتْ هذهِ الآيَةُ ما صَلَّى رَسولُ اللّهِ ﷺ عَلى مُنافِقٍ، ولا قامَ عَلى قَبْرِهِ بَعدَها[6].

السِّرُّ في اسْتعمال تعبير: ﴿أَحَدٍ مِّنْهُم﴾ في القرآن:

استعمل القرآن الكريم تعبير: ﴿أَحَدٍ مِّنْهُم﴾ بإرجاع الضمير لِأَهلِ الإيمانِ، وذلكَ في قولِهِ ﷻ: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ﴾ [البقرة: 136]، و﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: 84]، و﴿وَلَمْ

اسْتِعمالُ ما يُفيدُ تَعْميمَ الأَحْكامِ في الكُفرانِ أُسْوَةً بِما سيقَ أَصالَةً في بابِ الإيمانِ

(1) الشّعراوي، تفسير الشعراوي: 9/5390.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/477.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/299، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/89، وأبو حيّان، البحر المحيط: 5/478 - 477.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/284.
(5) الآلوسيّ، روح المعاني: 5/342.
(6) القنوجيّ، فتح البيان: 5/362.

﴿يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ﴾ [النساء: 152] مِن حَيْثُ إنَّ أَصْلَ (أحَد): وحَدٌ بِمَعْنى واحِدٍ.

وحَيْثُ وقَعَ في سياقِ النَّفْيِ عَمَّ واسْتَوى فيهِ الواحِدُ والكَثيرُ، وصَحَّ إرادَةُ كُلٍّ مِنهُما سواء كانوا أهل كفران أو أهل إيمان.

أمّا مَوْضع سورَةِ التَّوبَةِ في قوله: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٖ مِّنۡهُم مَّاتَ أَبَدٗا﴾؛ فسيقَ في مَعرضِ المَنْعِ مِنَ الصّلاةِ ومراسيمِها على المنافقينَ ومَنِ اتّصَفَ بِصِفاتِهم[1].

التّوجيهُ الإعرابي لجُملَةِ ﴿مَّاتَ﴾:

ارْتِباطُ الصِّفاتِ بِالنَّكِراتِ لِاسْتِغراقِ أَحْكامِ المتّصفين بها

وقوع لفظ: ﴿مَّاتَ﴾ بَعدَ قولِه ﴿أَحَدٖ مِّنۡهُم﴾ جعله في مَوْضع جَرٍّ؛ لأنّه صِفَةٌ لِلنَّكِرَة، كَأنّهُ قيلَ: عَلى أَحَدٍ مِنهُمْ مَيّت[2]؛ ومجيئُها بَعدَ قولِه تَعالى: ﴿أَحَدٖ مِّنۡهُم﴾ لِلدّلالَةِ عَلى أنَّ الموتَ كانَ حالَ كونِ الواحدِ مِنهُمْ، مُتَّصفًا بِصفةِ النِّفاقِ كقولِهم: (أنتَ منّي)، يَعْني على طَريقَتي[3].

مُتَعلّقُ قولِهِ: ﴿أَبَدٗا﴾ وسِرُّ تَأخيرِهِ:

تَأخيرُ المُتَعَلّقِ لِقَصدِ تَأْييدِ عَدمِ الصَّلاةِ على المُنافِقِين

قَوْلُهُ تَعالى: ﴿أَبَدٗا﴾ مُتَعَلِّقٌ بِقَوْلِه: ﴿تُصَلِّ﴾، والتَّقْديرُ: ولا تُصَلِّ أبَدًا عَلى أحَدٍ مِنهُم. ويَحْتَمِلُ تَأْبيدَ النَّفْيِ ويَحْتَمِلُ تَأْييدَ المَنفيِّ، والمَقْصودُ هو الأوَّلُ؛ لِأنَّ قَرائِنَ هَذِهِ الآياتِ دالَّةٌ عَلى أنَّ المَقْصودَ مَنعُهُ مِن أنْ يُصَلّيَ عَلى أحَدٍ مِنهُم مَنعًا كُلّيًّا دائِمًا[4].

فائِدَةُ عَطفِ جُملَةِ: ﴿وَلَا تَقُمۡ عَلَىٰ قَبۡرِهِۦٓۖ﴾:

النَّهْيُ عَنِ الفِعْلِ يَسْتَلزِمُ تَرْكَ لَوازِمِهِ

عُطفَتْ جُملَةُ ﴿وَلَا تَقُمۡ عَلَىٰ قَبۡرِهِۦٓۖ﴾ عَلى الّتي قَبلَها لِلدّلالَةِ عَلى أنَّ الوقوفَ لِلمُشارَكَةِ في دَفْنِ المنافِقِ كَالصَّلاةِ عَلَيه؛ فَتَرْكُ النَّبيِّ ﷺ الصَّلاةَ عَلَيه وحُضورَ دفْنِه، إعلانٌ بِكُفرِ مَن ترك ذلكَ لهُ[5].

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 1/393.
(2) الواحديّ، التّفسير البسيط: 10/582.
(3) السّمين الحلبيّ، الدّر المصون: 6/94.
(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 16/116.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/285.

دلالَةُ تَكرارِ النَّهْيِ بـ ﴿وَلَا﴾:

إنَّ حِرصَ النَّبيِّ ﷺ عَلى إسْلامِهم، قد يَجعَلهُ يَميلُ إلَيْهِمُ اسْتِعطافًا لَهُم، فَجاءَ التَّحْذيرُ والنَّهيُ مُكَرَّرًا لِلتّأكيدِ، فَبَيَّنَ اللّهُ تَعالى أَنّ كُلّ ما فَعَلوهُ لا يسوِّغُ العَطفَ عَلَيهِمْ، ولا رَجاءَ الخَيرِ مِنْهُم[1].

تَجديدُ تَكرارِ النَّهْيِ عَنِ استِعطافِ المُنافِقينَ لِقَصْدِ تَأْكيدِ مُقْتَضاهُ

سِرُّ فَصْلِ جُملةِ: ﴿إِنَّهُمْ كَفَرُواْ﴾:

جُمْلَةُ ﴿إِنَّهُمْ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ تَعْليليَّةٌ، جاءَتْ لِتَعْليلِ المَنعِ مِنَ الصَّلاةِ والقيامِ بِما يَقْتَضي الامْتِناعَ، وهو الكُفْرُ والموافاةُ عَلَيْه؛ ولِذَلِكَ لَمْ تُعْطَفْ، وقَدْ أغْنى وُجودُ (إنَّ) في أوَّلِها عَنْ فاءِ التَّفْريعِ كَما هو الاسْتِعْمالُ[2].

كَمالُ الاتِّصالِ بَيْنَ كُفرِ المُنافِقينَ والمَنعِ مِنَ الصَّلاةِ عليهم هوَ سِرُّ الفَصْلِ

دلالَةُ الانْتِقالِ مِنْ صيغَةِ المُفْرَدِ إلى صيغَةِ الجَمْعِ:

الانْتِقال مِنْ صيغَةِ المُفْرَدِ في ألفاظ: ﴿أَحَدٍ﴾، ﴿مَّاتَ﴾، ﴿قَبْرِهِۦٓ﴾ إلى صيغَةِ الجَمْعِ في ألفاظ ﴿إِنَّهُمْ﴾، ﴿كَفَرُواْ﴾، ﴿وَمَاتُواْ﴾، ﴿وَهُمْ﴾، وذلك أنّ الوَصف بالإفْرادِ في قَوْلِه: ﴿مَّاتَ﴾، ﴿قَبْرِهِۦٓ﴾ جَرى عَلى لَفْظِ المَوْصوفِ؛ لِأنَّ الأصْلَ في الصِّفَةِ مُطابَقَةُ المَوْصوفِ، والانْتِقالُ إلى صيغَةِ الجَمْعِ في قولِه تَعالى: ﴿إِنَّهُمْ﴾، ﴿كَفَرُواْ﴾، ﴿وَمَاتُواْ﴾، ﴿وَهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ لِكَونِها عائِدَةً إلى ﴿أَحَدٍ﴾ لِأنَّهُ عامٌّ؛ لِكَوْنِه نَكِرَةً في سياقِ النَّهْيِ، والنَّهْيُ كالنَّفْيِ[3].

الانْتِقالُ مِنَ الإفْرادِ إلى صيَغِ الجَمْعِ يَقْتَضي اجْتِماعَهُمْ على الكُفْرِ

وفي ذِكرِ الإفْرادِ - أوَّلًا - تَناسُبٌ مَع النَّهي ﴿وَلَا تُصَلِّ﴾؛ إذ إنَّهُ خِطابٌ لَهُ ﷺ، يتَّفِق وحِرصَه على كُلِّ واحدٍ مِنَ الأمَّةِ، ولعلّ بعضَ المنافقينَ يَبقونَ بَعْدَك يا رَسولَ اللّهِ، ولَو قالَ: (ولا تُصل عليهم إذا ماتوا ولا تَقم على قبورِهم) لَكانَ حُكمًا عامًّا.

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/401.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/285.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/285.

وفي ذِكْرِ الجَمْعِ بَعدَ ذلكَ في قَولِهِ: ﴿إِنَّهُمْ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُواْ وَهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ علَّةٌ للنَّهْيِ صَريحَةٌ في اجْتِماعِهِمْ عَلى الكُفْرِ.

وَجهُ عَطفِ قولِهِ: ﴿وَرَسُولِهِۦ﴾ عَلى اسْمِ الجَلالَةِ:

تَعْليلُ ما يُورِثُ الكُفْرَ إِفْرادًا أَوْ عَطْفًا

إنّ لِعَطْفِ ﴿وَرَسُولِهِۦ﴾ على اسْمِ الجَلالَةِ دلالَةً عَلى أنّ الكُفْرَ بِاللّهِ هو الشِّركُ بِالَّذي لَهُ العَظَمَةُ كُلُّها. ولَمّا كانَ المَوْتُ عَلى الكُفْرِ مانِعًا مِنَ الصَّلاةِ عَلى المَيِّتِ بِجَميعِ مَعانيها، لَمْ يُحْتَجْ إلى التَّأْكيدِ بِإعادَةِ الجارِّ فَقيلَ: ﴿وَرَسُولِهِۦ﴾، أي: الَّذي هو أَعْظَمُ النّاسِ نِعْمَةً عَلَيْهِمْ بِما لَهُ مِن نَصائِحِهِمْ بِالرِّسالَةِ[1]؛ على معنى: أنّ الكُفْرَ بِرَسولِهِ ﷺ جُحودٌ بِرِسالَتِهِ، أيْ: أنَّ جاحِدَ نُبُوَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ يُطلَقُ عَلَيه كافِرٌ[2].

دلالَةُ عَدَمِ تَكرارِ حَرْفِ الباءِ في: ﴿وَرَسُولِهِۦ﴾:

طَلَبًا لِلاخْتِصارِ، ودَفْعًا لِإيهامِ الفَصلِ بَيْنَ المُتَلازِمَينِ

إذا تَكَرَّرَ حَرْفُ الجَرِّ فكَأَنَّهُ يُكَرِّرُ المَعنى، فَإذا قُلت مَثلًا: مَرَرْتُ بِزيدٍ وعَمرٍو، فهذا مُرورٌ واحِدٌ كأنّما هُما في مَكانٍ واحِدٍ وأَنْتَ مَرَرْتَ بِهما، لَكِنْ إذا قُلت: مَرَرْتُ بِزيْدٍ وبِعَمرٍو فكَأَنَّكَ مَرَرتَ مُرورَينِ: مُرورًا بِزَيدٍ مُرورًا بِعَمرٍو، وقَد يَكونُ الاثْنانِ في مَكانٍ واحِدٍ، لَكِنَّك تُريدُ العِنايَةَ والاهْتِمامَ بِكُلٍّ مِنهُما، وفي قولِه تَعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ جَمْعٌ لِلكُفْرِ مَرَّةً واحِدَةً، وذلكَ لِطَلَبِ الاخْتِصارِ.

دلالَةُ الواوِ في ﴿وَمَاتُواْ﴾، وأَثَرُها في المعنى:

دَلالَةُ الآيَةِ عَلى اسْتِمرارِ ما كانَ عَلَيْهِ المُنافِقُون حتّى المَوْت

دلَّ دُخولُ الواوِ على الفعلِ في قولِهِ ﷺ: ﴿وَمَاتُواْ﴾ عَلى أنَّ المنافقينَ اسْتَمَرّوا عَلى الكُفْرِ بِاللّه تَعالى ورَسولِهِ صَلّى اللّه تَعالى عَلَيْهِ وسَلَّمَ مُدَّةَ حَياتِهِمْ[3].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/566.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/279.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3400.

دلالَةُ الواوِ في ﴿وَهُمْ﴾ وأثَرُها في المعنى:

إغْراقُ المنافقينَ في الفِسْقِ بِدلالَةِ دُخولِ الواوِ

دلَّ دُخولُ الواوِ على قولِهِ ﷻ: ﴿وَهُمْ﴾ عَلى أنّ المنافقينَ عَريقونَ في الفِسْقِ بِضَمائِرِهِمْ وظَواهِرِهِمْ[1].

سِرُّ الختمِ بِالجُمْلَةِ الاسْمِيَّةِ: ﴿وَهُمْ فَٰسِقُونَ﴾:

سَوقُ الجُملَةِ الاسْميَّةِ لِتَثْبيتِ قَضاءِ اللهِ في المُنافقينَ

أوثرَ التَّعبيرُ بالجُملَةِ الاسْميَّةِ في خِتامِ الآيَةِ الكريمَةِ ﴿وَهُمْ فَٰسِقُونَ﴾؛ لتأكيد فسقِهم حالَ موتِهم؛ فالتّعبيرُ بِها فيهِ تَأكيدٌ لِلحُكْمِ وإفادَةٌ لِلثُّبوتِ والدَّوامِ.

إيثارُ لَفْظِ ﴿فَٰسِقُونَ﴾ دونَ غَيرِهِ:

التَّأنُّقُ في المُراوَحَةِ بَيْنَ الأَلْفاظِ باعْتِبارِ المعاني المُرادَةِ

التَّعْبيرُ بـ ﴿فَٰسِقُونَ﴾ دونَ غيرِهِ تَفَنُّنٍ وتأنُّقٌ، والأَحْسَنُ أَنْ يُفَسَّرَ الفِسْقُ هُنا بالخُروجِ عَنِ الإيمانِ بَعْدَ التَّلَبُّسِ بِهِ، أَيْ: بِصورَةِ الإيمانِ فَيَكونُ المُرادُ مِنَ الفِسْقِ مَعْنًى أَشْنَعَ مِنَ الكُفْرِ ومِن غيرِهِ[2].

توجيه المُتَشابِهِ اللَّفْظيِّ:

الخُلْفُ في مَعاني المُتَشابِهاتِ اللَّفْظيَّةِ اعْتِباريٌّ

قدْ يَكونُ سياقُ الآيَتَينِ في قولِه: ﴿وَمَاتُواْ وَهُمْ فَٰسِقُونَ﴾، وقولِه: ﴿وَمَاتُواْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾، مِن بابِ التَّفَنُّنِ في العِبارَةِ واللَّفْظِ؛ لِيَكونَ الفِسْقُ والكُفْرُ وَجْهَينِ لِمَعنًى واحِدٍ، وقدْ يَكونُ الفَرْقُ نِسْبيًّا بِاعْتِبارِ سياقِ الآيَتَيْنِ:

ففي قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُواْ وَهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ خُروجٌ عَنِ الإيمانِ بَعدَ التَّلَبُّسِ بِصُورَتِه عَلى وَجْهٍ يَكونُ أَشْنَعَ مِنَ الكُفْرِ ومِنْ غَيرِهِ[3].

وفي قَوْلِهِ ﷻ: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾ [التوبة 124 - 125].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/566.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/285.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/285.

لَمّا أثْبَتَ الحقُّ سُبحانه أنَّ لِلسّورَةِ زيادَةً في إيمانِ بَعْضِ النّاسِ وأكْثَرَ مِنَ الزّيادَةِ - وهو حُصولُ البِشْرِ لَهم - ارْتُقيَ في الجَوابِ عَنْ مَقْصِدِهِمْ مِنَ الإنْكارِ بِأنَّ السّورَةَ لَيْسَتْ مَنفيًّا عَنْها زيادَةٌ في إيمانِ بَعْضِ النّاسِ فَقَطْ، بَلِ الأمْرُ أشَدُّ؛ إذْ هي زائِدَةٌ في كُفْرِهِمْ، فالقِسْمُ الأوَّلُ المُؤْمِنونَ زادَتْهم إيمانًا وأكْسَبَتْهم بِشْرًا فَحَصَلَ مِنَ السّورَةِ لَهم نَفْعانِ عَظيمانِ، والقِسْمُ الثّاني الَّذينَ في قُلوبِهِمْ مَرَضٌ زادَتْهم رِجْسًا إلى رِجْسِهِمْ وماتوا وهم كافِرونَ[1]؛ مِن بابِ مقابلَةِ مَعنى زيادَةِ الكُفرانِ بِمَعنى زيادَةِ الإيمانِ.

تَوجيهُ المُتَشابِهِ اللَّفْظيِّ:

بَيانُ ما شَرَعَهُ اللهُ في شَأْنِ مَنْ يَموتُ مِنَ المنافقينَ أُسْوةً بما شَرَعَهُ في الأحْياءِ مِنْهُمْ

في قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ تَصْريحٌ بِكَونِ النَّهْيِ عَنِ الصّلاةِ عَلَيهم والوقوفِ عَلى قَبرِهِم مُعَلَّلًا بِكُفْرِهم، وهذا بَيانُ ما شَرَعَهُ اللّهُ تَعالى في شَأنِ مَن يَموتُ مِنْ هؤلاءِ المنافقينَ، في إثْرِ ما شَرَعَهُ في شَأنِ الأحْياءِ مِنْهُم، وهو كَسابِقِهِ خاصٌّ بِمَن نَزَلَتْ فيهِمُ الآياتُ، [2] وهُم الّذينَ ثَبَتَتْ أدِلَّةُ كُفْرِهم؛ ومَوْتُهُمْ هُنا كانَ في حالِ خُروجِهِمُ السّابِقِ مِنْ حَظيرَةِ الإيمانِ، كَما تقدّم في قَوْلِه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۗ﴾ حيْثُ بَيَّنَ أنَّ العلَّةَ الّتي لِأجْلِها لا يَنْفَعُهُمُ اسْتِغفارُ الرّسولِ ﷺ وإنْ بَلَغَ سَبعينَ مَرَّةً إنّما هي كُفْرُهُمْ وفِسْقُهُمْ.

في عَطْفِ الرَّسولِ عَلى اسْمِ الجَلالَةِ دونَ إعادَةِ الجارِّ إشارَةٌ إلى أمْرَيْنِ

أوَّلهما: مَنْزِلَةُ الإيمانِ بِرَسولِ اللّهِ ﷺ، ومِصْداقُهُ: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ﴾ [النساء: 80]، ومَنْ يَكْفُرْ بِالرَّسولِ فَقدْ كَفَرَ بِاللّهِ.

والآخَر: لمّا كانَ السّياقُ في بَيانِ عِلَّةِ النَّهْيِ عَنِ الصَّلاةِ عَلَيهِمُ اكْتُفيَ بِتأكيدِ كُفْرِهِمْ بِاللّهِ فَقالَ: ﴿كَفَرُواْ بِٱللَّهِ﴾ ثُمّ عَطَفَ الرَّسولَ على اسْمِ الجَلالَةِ؛ إذْ إنّ كُفْرَهُم باللّهِ كافٍ، فقَد أفْضَوا إلى ما قَدّموا، ويَدخُل فيهِ كُفْرُهم بِرَسولِ اللّهِ مِن بابِ أوْلى.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/65.

(2) محمد رشيد رضا، تفسير المنار: 10/494.

وإعادَةُ الجارِّ في قولِهِ: ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ﴾ [التوبة: 54] يَدلُّ على تَعَلّقِ عَدمِ إيمانِهِمْ بالرَّسولِ ﷺ بعَدَمِ قَبولِ نَفَقاتِهم؛ إذْ إنّهُ المُبَلِّغُ عَن رَبِّهِ، والمُتَلقّي صَدَقاتِهم، فَلمّا أَعْلَن المنافقونَ رَفْضَهُم، وكَشَفوا عَنْ طَويَّتِهم وكُفْرِهم أُعيدَ الجارُّ في قَوله: ﴿كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ﴾، وهو "استِثْناءٌ مِن أَعمِّ الأشياءِ، أيْ: ما مَنَعَهم قَبولَ نَفَقاتِهم مِنْهمْ شيءٌ مِنَ الأَشْياءِ إلّا كُفْرُهمْ"[1].

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

أحدٌ، ورجلٌ، وفردٌ، وواحدٌ:

لَفْظُ (أحد) أَكْمَلُ مِن كُلِّ ما ذُكِر

جاءَ في (الإتقان) لِلسّيوطيِّ: قالَ أبو حاتمٍ في كِتابِ "الزّينَة": هو اسْمٌ أَكْمَلُ مِنَ الواحِدِ، أَلا تَرى أَنَّكَ إذا قُلت: فُلانٌ لا يَقومُ لَهُ واحِدٌ، جازَ في المَعنى أَنْ يَقومَ اثْنانِ فأَكْثَر بِخِلافِ قَولِك: لا يَقومُ لَهُ أَحَدٌ.

وفي الأَحَدِ خُصوصيَّةٌ لَيْستْ في الواحِدِ تَقولُ: لَيْس في الدّارِ واحِدٌ فَيَجوزُ أَنْ يَكونَ مِنَ الدّوابِّ والطَّيْرِ والوَحْشِ والإنْسِ، فَيَعُمّ النّاسَ وغَيرَهُمْ بِخلافِ: لَيْس في الدّارِ أَحَدٌ، فإنَّهُ مَخْصوصٌ بالآدَميّينَ دونَ غَيرِهم[2].

ومِنَ الفروقِ بَيْنَ الواحِدِ والأَحَدِ: أنَّ الأَحَدَ بُنيَ لِنَفْيِ ما يُذْكَر مَعَهُ مِنَ العَدَدِ، تَقول: ما جاءَني أَحَدٌ، والواحِدَ اسْمٌ بُنيَ لِمُفْتَتَحِ العَدَد، تَقول: جاءَني واحِدٌ مِنَ النّاسِ ولا تَقول: جاءَني أَحَدٌ، فالواحِدُ مُنْفَرِدٌ بالذّاتِ في عَدَمِ المِثْلِ والنَّظيرِ، والأَحَدُ مُنْفَرِدٌ بالمَعْنى.

أمّا الفَرْد فَيُفيدُ الانْفِرادَ مِنَ القَرْينِ، والواحِدُ يُفيدُ الانفِرادَ في الذّاتِ أَوِ الصِّفَةِ.

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السليم: 4/74.

(2) السّيوطي، الإتقان: 2/169.

وأمّا الرّجُلُ، فَهو الذَّكَرُ مِنَ نَوعِ الإنْسانِ خِلاف المرْأَةِ، وقيلَ: إنّما يَكونُ رَجُلًا فَوْق الغُلامِ، وذلكَ إذا احْتَلَم وشَبَّ[1].

وعليه: فإنّ الأنْسَبَ لِسياقِ الآيَةِ نَفيُ أَحَدٍ لِيَسْتَغرِق جَميعَ أَفْرادِهِ.

الصَّلاةُ والدُّعاءُ:

الصّلاةُ والدُّعاءُ هما سَواء في الحقيقةِ اللُّغويَّةِ، ثُمّ تَفترق عَنهُ (الصَّلاة) في حَقيقَتِها الشَّرْعيَّةِ

الصَّلاةُ: هيَ العِبادَةُ المَخْصوصَةُ بِأفْعالٍ وأقْوالٍ مُفْتَتَحةٌ بالتَّكبيرِ مُختَتَمَةٌ بالتَّسْليم وهذا التَّعريفُ يَشْمَل كُلَّ ما يُسَمّى صَلاةً، حتّى صَلاةَ الجنازَةِ المَعْنيَّةَ في الآيَةِ الكريمةِ: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا﴾، وقدْ بَيَّنَت الشَّريعَةُ الإسلاميَّةُ حُدودَ أوقاتِها؛ وَسُمّيَ الدُّعاءُ صَلاةً أيضًا؛ لأنَّهُ مِنْها، فبَيْنَهما عُمومٌ وخُصوصٌ مُطْلَقٌ، والصّلاةُ أَعَمُّ مُطلقًا باعْتِبارِ الحَقيقةِ الشَّرعيَّةِ.

المَوْتُ والوَفاةُ:

لَفظا التَّوفّي والمَوْتِ، كَلَفْظَي (الفَقير والمِسكين) إذا اجْتَمَعا افْتَرَقا وإذا افْتَرَقا اجْتَمَعا

لَفْظُ المَوْتِ يَدُلُّ لُغَةً عَلَى ذَهابِ القوَّةِ مِنَ الشَّيْءِ[2] ولَفْظُ التَّوفّي مِنَ التَّوْفِيَةِ، والوافي: الّذي بَلَغَ التّمامَ. يُقال: دِرهمٌ وافٍ، وكَيلٌ وافٍ[3]، ومنهُ قيلَ لِلموتِ: وَفاة؛ لأنَّهُ اسْتيفاءٌ لِلأرواحِ بِمَعنى اسْتِعادَةِ اللّه تعالى إيّاها[4].

والوَفاةُ مِنَ قَولِ القائلِ: وَفّى مالَهُ مِنَ الرَّجلِ، أي: اسْتَوفاهُ كامِلًا غَيْرَ مَنْقوصٍ، وقَبَضَهُ وأَخَذَهُ، ويُقال: تُوفّيَ فُلانٌ، كَأنَّه قُبِضَتْ روحُهُ كامِلةً غَيرَ مَنْقوصَةٍ.

والمَوتُ هوَ مُفارَقَةُ الحياةِ، وليْس فيه مَعنى القَبْضِ، ولِذلكَ يُسْتَعمَل لَفْظُ المَوتِ أَحْيانًا اسْتِعمالًا مَجازيًّا، يُقال: ماتَتِ الرّيحُ، أيْ: سَكَنَت وهَمدتْ، والّذي يَنامُ مُسْتَغرِقًا يُقال لهُ: ماتَ، إذا نامَ نَومًا عميقًا مُستغرِقًا. هذا السّكونُ مشابهٌ لِلمَوْتِ كأنَّ هذا الشَّيءَ الّذي يُفارِقُ جَسَدَ الإنسانَ بِالمفارَقَةِ مَوتٌ، والّذي تُوفّي تَقْبِضهُ مَلائكَةُ المَوْتِ.

(1) ابن منظور، لسان العرب: (رجل).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (موت).
(3) الرّاغب، المفردات: (وفى).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (وفى).

القيامُ والوقوفُ:

لا يَلْزَم مِنَ الوقوفِ القيامُ، بَلِ الوقوفُ هو التَّوقُّفُ عَنِ الحرَكةِ فيَكونُ مِن مَسيرٍ أوْ حَرَكةٍ، أمّا القيامُ فيَكونُ مِنْ جُلوسٍ أوْ سُكونٍ.

الوقوفُ يَكونُ بَعدَ حَرَكةٍ، والقيامُ يَكونُ مِن سُكونٍ أوْ جُلوسٍ

القَبْرُ والجَدَثُ:

الجَدَثُ هو القَبرُ في لُغَةِ هُذَيْل وهو مُفرَدُ أَجْداثٍ، والجَدَث هو قَريبٌ مِن لَفْظِ (الجَدَثة) وهو صوتُ الحافِرِ والخُفّ وغيرِه على الأرْض، وصَوتُ مَضْغِ اللَّحْم أيضًا. وربُّنا ﷻ لَم يَسْتعملِ الأَجداثَ إلّا عِندما يخْرجونَ مِنَ القَبْرِ سِراعًا كَما قالَ تعالى: ﴿خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ﴾ [القمر: 7]، ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ﴾ [المعارج: 43]، ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ﴾ [يس: 51]، يَنْسِلون يَعْني: يُسرِعونَ، فاسْتعملَ لَفْظَ الأجْداثِ في خُروجِهِمْ مُسرعينَ، وهذا يُشْبِه صَوتَ الخُفِّ وصوتَ الحافِرِ عِند الرَّكضِ، وهنالكَ أَمرٌ آخَر: أنّ (الجَدَثة) هو مَضْغُ اللَّحْم فالمعنى: يَخرجونَ وقدْ مَضَغَتهمُ الأرْضُ حَقيقَةً، يَخرجونَ مُسرعينَ وقدْ مَضَغَتْهمُ الأرْضُ لَم يَبْقَ مِنْهُمْ شَيْءٌ.

في حينِ لَم يسْتَعملِ القَبْر في هذا مُطْلقًا، وإنّما يَسْتَعملُهُ في حالِ السُّكونِ والهمودِ في كُلِّ القُرآنِ كَما في قَوله تعالى: ﴿كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْقُبُورِ﴾ [الممتحنة: 13]، وقولِه: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ﴾ [فاطر: 22]، وقوله: ﴿وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ﴾ [الانفطار: 4] كما تَقول بُعثِرتِ الصّناديقُ، بُعْثِرتِ الحاجاتُ، فلَم يذْكرِ الخُروج مِنْها، وكذلكَ قولُهُ: ﴿۞أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِى ٱلْقُبُورِ﴾ [العاديات: 9]. أمّا الأجْداثُ فقد ذُكِرَ الخُروجُ منها سِراعًا. فاسْتعْملَ القُبورَ في حالَةِ الهمودِ والسُّكون، والأَجْداثَ في حالَةِ الإخْراجِ والعَدْوِ والسُّرْعَة[1].

(1) فاضل السّامرائيّ، الفرق بين القبر والجدث. من مقالة له في صحيفة: (الراية القطريّة)، عدد الجمعة، بتاريخ 14/1/2022.

﴿وَلَا تُعۡجِبۡكَ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَأَوۡلَٰدُهُمۡۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِي ٱلدُّنۡيَا وَتَزۡهَقَ أَنفُسُهُمۡ وَهُمۡ كَٰفِرُونَ ٨٥﴾ [التوبة: 85]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

بَيانُ أَثَرِ حُبِّ المالِ في الإعْراضِ عَنْ آياتِ اللهِ

مُناسَبَةُ ذِكْرِ هَذا الكَلامِ هُنا: أنَّهُ لَمّا ذَكَرَ ما يَدُلُّ عَلى شَقاوَتِهِمْ في الحَياةِ الآخِرَةِ كانَ ذَلِكَ قَدْ يُثيرُ في نُفوسِ النّاسِ أنَّ المُنافِقينَ حَصَّلوا سَعادَةَ الحَياةِ الدُّنْيا بِكَثْرَةِ الأَمْوالِ والأَوْلادِ وخَسِروا الآخِرَةَ. ورُبَّما كانَ في ذَلِكَ حَيْرَةٌ لِبَعْضِ المُسْلِمينَ أنْ يَقولوا: كَيْفَ مَنَّ اللهُ عَلَيْهِمْ بِالأَمْوالِ والأَوْلادِ وهم أَعْداؤُهُ وبُغَضاءُ نَبِيِّهِ؟! ورُبَّما كانَ في ذَلِكَ أَيْضًا مَسْلاةٌ لَهم بَيْنَ المُسْلِمينَ، فَأَعْلَمَ اللهُ المُسْلِمينَ أنَّ تِلْكَ الأَمْوالَ والأَوْلادَ وإنْ كانَتْ في صورَةِ النِّعْمَةِ فَهي لَهم نِقْمَةٌ وعَذابٌ، وأنَّ اللهَ عَذَّبَهم بِها في الدُّنْيا بِأنْ سَلَبَهم طُمَأْنينَةَ البالِ عَلَيْها؛ لِأنَّهم لَمّا اكْتَسَبوا عَداوَةَ الرَّسولِ ﷺ والمُسْلِمينَ كانوا يَحْذَرونَ أنْ يُغْرِيَ اللهُ رَسولَهُ بِهِمْ فَيَسْتَأْصِلَهم، وحاصِلُ المُناسَبَةِ بَيْنَ المُتَأَخِّرِ والمُتَقَدِّمِ: أنَّهُ لَمّا كانَ مِن أَقْوى أسبابِ إعْراضِ المُنافِقينَ عَنْ آياتِ اللهِ كَثْرَةُ المالِ وطُغْيانُ الغِنى بَيَّنَ سُبْحانَهُ سوءَ عاقِبَةِ المالِ[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَلَا تُعۡجِبۡكَ﴾: أصلُ (عَجِبَ) يَدُلُّ عَلَى كِبْرٍ واسْتِكْبارٍ لِلشَّيْءِ، ومنه العُجْبُ، وهو أَنْ يَتَكَبَّرَ الإنْسانُ في نَفْسِهِ. تَقولُ: هوَ مُعْجَبٌ بِنَفْسِهِ[2]. والمُعْجَب: الإنسانُ المُعْجَب بِنَفْسِهِ أَو بالشَّيْءِ، تَقول: عجَّبتُ فلانًا بِشَيْءٍ تعجيبًا فعجِب مِنْهُ[3]. والعَجَبُ: النَّظَرُ إلى شيءٍ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/286.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عجب).
(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (عجب).

غَيْرِ مأْلوفٍ ولا مُعتادٍ، والمقصودُ بالعَجَبِ في الآيَةِ: انفعالٌ يَعْرِضُ لِلنَّفْسِ عِندَ مُشاهدةِ أَمْرٍ غيرِ مأْلوفٍ خَفِيَ سَبَبُهُ.

2) ﴿وَتَزْهَقَ﴾: أصلُ (زهق): يَدُلُّ على تَقَدُّمٍ ومُضيٍّ وتَجاوُزٍ[1]. مِنْ ذلكَ: زَهَقَتْ نفسُه، وهيَ تَزْهَقُ زُهوقًا، أيْ: ذَهَبَتْ، وكلُّ شيءٍ هَلَكَ وبَطَلَ فقد زَهَقَ[2]. وزَهَقَ الباطلُ: إذا غَلَبَهُ الحقُّ[3]. ويُقالُ: زَهَقَ الفَرَسُ أَمامَ الخَيْلِ، وذلكَ إذا سَبَقَها وتَقَدَّمَها. ويُقالُ: زَهَقَ السَّهْمُ، إذا جاوَزَ الهَدَفَ. وَمِنَ البابِ الزَّهَقُ، وهو قَعْرُ الشَّيءِ؛ لِأَنَّ الشَّيءَ يَزْهَقُ فيه إذا سَقَطَ، والزُّهوقُ، وهو البِئْرُ البَعيدَةُ القَعْرِ[4]. والمرادُ بالزُّهوقِ في الآيَةِ: الخُروجُ بِشِدَّةٍ وضيقٍ. وقدْ شاعَ ذِكرُه في خُروجِ الرّوحِ مِنَ الجَسَدِ[5].

المَعْنى الإِجْماليُّ:

النَّهْيُ عَنِ اسْتِحْسانِ بَعْضِ مَظاهِرِ المُنافِقينَ

لا تُفتَتِنْ أَيُّها العاقِلُ بِأَموالِ المنافقينَ الكَثيرَةِ، ولا تَسْتَحْسِنْ أَوْلادَهُمُ الَّذينَ يَعْتَزّونَ بِهِمْ، ولا يُداخِلْ قَلبَك شَيْءٌ مِنَ الإعجابِ بِما بَيْنَ أَيْديهِمْ مِنْ نِعَمٍ، فإنَّ هذه النِّعَمَ - الَّتي مِن أَعْظَمِها الأموالُ والأولادُ - إنَّما يُريدُ اللّهُ أنْ يُعذِّبَ المُنافقينَ بِها في حياتِهِمُ الدُّنيا، بِالهُمومِ والغُمومِ، بِأَخْذِ الزَّكاةِ مِنهُم، وبِما أُلزِموا بالإنفاقِ فيهِ، وبِما يَعْتري أموالَهُم وأولادَهمْ مِن مَصائِبَ وتعبٍ في جَمعِ الأَمْوالِ، ووَجَلٍ في حِفظِها، وخوفٍ مِن زَوالِها، وغَيرِ ذلكَ. ويريدُ اللّهُ أنْ تَخرُجَ أرواحُ المُنافِقينَ مِنْ أجسادِهِمْ بشدَّةٍ وضيقٍ، وهُم مُقيمونَ عَلى كُفرِهِمْ[6].

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (زهق).
(2) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة: (زهق).
(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (زهق).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (زهق).
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/229.
(6) ابن جرير، جامع البيان: 11/615، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 8/164، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/163، والسّعديّ، ص: 347، وطنطاويّ، التّفسير الوسيط: 6/372.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالَةُ الواوِ في ﴿وَلَا تُعۡجِبۡكَ﴾:

ناسَبَ السِّياقَ هُنا العَطْفُ بِالواوِ، وفي الأُخرى العَطْفُ بِالفاءِ

الواوُ في قَوله: ﴿وَلَا تُعۡجِبۡكَ﴾ عاطِفَةٌ، فقَد عَطفَتْ جُملةَ النَّهْي هذه، عَلى جُملَةِ النَّهْي السّابِقَةِ: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٖ مِّنۡهُم مَّاتَ أَبَدٗا وَلَا تَقُمۡ عَلَىٰ قَبۡرِهِۦٓۖ﴾ فَأصْبَح لَدَيْنا ثَلاثَة أَفْعالٍ مُتَناسِقَةٍ مَسْبوقَةٍ بِنَفْس النَّهْي هي: ﴿وَلَا تُصَلِّ﴾ ﴿وَلَا تَقُمۡ﴾ ﴿وَلَا تُعۡجِبۡكَ﴾ "وهذه الأفعالُ بِمُضيِّها وانْقِضائِها، لا تَكونُ شَرْطًا فَتُعقَبَ بِالفاءِ الّتي تَدلُّ عَلى الجَزاءِ، فَعُطفتِ الآيةُ بَعدَها على ما قَبلَها بِالواوِ، لِبُطلانِ المَعنى الّذي يَقْتَضي الفاءَ"[1].

وأمّا الآيَةُ الأُخْرى الوارِدُ فيها العَطْفُ بِالفاءِ ﴿فَلَا تُعۡجِبۡكَ أَمۡوَٰلُهُمۡ﴾ [التوبة: 55]؛ فَهو أَنسَبُ، حَيْثُ عَطْفُهُ بِالفاءِ لِمناسَبةِ تَعْقيبِ قَولِه: ﴿وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمۡ كَٰرِهُونَ﴾ [التوبة: 54] أيْ: كارهونَ لِلإنفاقِ، فَهُم مُعْجَبونَ بِكَثْرَةِ الأموالِ والأوْلادِ فَلِذلكَ نَهاهُ عَنِ الإعْجابِ بِفاءِ التَّعْقيبِ لِهذِه المُناسَبَةِ[2].

صاحِبُ الخِطابِ في: ﴿وَلَا تُعۡجِبۡكَ﴾:

سوقُ الخِطابِ لِرَسولِ اللهِ ﷺ والقَصدُ إلى مُخاطَبَةِ المؤمِنينَ

هذا الخِطابُ، وإنْ كانَ في الظّاهِرِ مُخْتَصًّا بِالرَّسولِ ﷺ، إلّا أنَّ المُرادَ مِنْهُ كُلُّ المؤمنينَ، أيْ: لا يَنْبَغي أنْ تُعجَبوا بِأموالِ هؤلاءِ المُنافِقينَ والكافرينَ، ولا بِأَولادِهِمْ ولا بِسائِرِ نِعَمِ اللّهِ عَلَيهِم، ونَظيرُهُ قولُهُ تَعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيۡنَيۡكَ﴾ [طه: 131][3].

فائِدَةُ التَّكرارِ في: ﴿وَلَا تُعۡجِبۡكَ﴾:

التَّحذيرُ مِنَ الإعجابِ بِكَثْرَةِ الخَبيثِ

قَد أُعيدَ قَوْله: ﴿وَلَا تُعۡجِبۡكَ﴾ لأنّ تجدُّدَ النُّزولِ لَهُ شَأنٌ في تَقريرِ ما نَزَلَ لَهُ وتَأكيدِهِ، وإرادَةِ أنْ يَكونَ على بالٍ مِنَ المُخاطَبِ لا

(1) الإسكافيّ، درّة التّنزيل: 2/715.
(2) السّمين، الدرّ المصون: 6/94.
(3) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 16/71.

يَنْساهُ ولا يَسْهو عَنْهُ، وأنْ يَعْتَقِدَ أنَّ العَملَ بِهِ مُهِمٌّ يَفْتَقِرُ إلى فَضلِ عِنايَةٍ بِهِ، لا سيَّما إذا تَراخَى ما بَيْنَ النُّزولَيْنِ، فَأشْبَهَ الشَّيءَ الّذي أهمَّ صاحِبَهُ، فهوَ يَرْجِع إلَيهِ في أَثْناءِ حَديثِهِ، ويَتَخَلَّصُ إلَيهِ، وإنّما أُعيدَ هذا المَعْنى لِقوَّتِهِ فيما يَجِبُ أنْ يُحذَّرَ مِنْهُ[1].

وقدْ يُنْظَر إلى المَوضِعَينِ على أنَّهُ لَيْس بَيْنَهما تَكرارٌ بِالمَعْنى الّذي قَد يَسْبِقُ إلى الفَهْمِ مِن لَفْظِ التَّكرارِ، فَقدِ افْتَرَقَتِ الآيَتانِ تَرْكيبًا وسياقًا وبُعدًا زَمَنيًّا في نُزولِ كُلٍّ مِنْهُما. "وإنّ هذا الاخْتِلافَ في الأَلْفاظِ هو تَصْريفُ القَولِ الّذي هوَ مِنْ أَسْبابِ الإعجازِ البَيانيِّ، كَما قالَ تَعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْآيَٰتِ﴾ [الأنعام: 105]، فهَلْ يُعَدُّ هذا مِنَ التَّكْرارِ؟ نَقولُ: إنَّه يَكونُ مِنَ التَّكرارِ إذا كانَتِ المُناسَبَةُ الّتي ذُكِرَتْ فيها الآيَتانِ واحِدَةً، أمّا إذا اخْتَلَفَتِ المُناسَبَةُ، فَإنّها تُغَيِّرُ المَقْصودَ، وإذا تَغَيَّرَ المَقْصودُ لا يَكونُ المَعْنى واحدًا مِن كُلِّ الوجوهِ"[2].

وقدْ قيلَ: إنّهُ أَرادَ بِالآيَةِ الأولى قَوْمًا مِنَ المنافِقينَ كانَ لَهُم أَمْوالٌ وأَوْلادٌ عِندَ نُزولِها، وبِالآيَةِ الأُخْرى أَقْوامًا آخَرينَ مِنْهُم[3].

إيثارُ لَفْظِ العجبِ دونَ غَيرِهِ:

أوثِرَ لَفْظُ الإعجابِ في الآيَةِ دونَ غَيرِهِ، لأنَّ وَصْفَ العَجيبِ يُقال لِما لَم يُعْهَد مِثْلُهُ[4]، وفيهِ معْنى الاسْتِحْسانِ المَشُوبِ بِالاسْتِغرابِ والسُّرورِ مِنَ المَرْئيِّ[5] وعَليْهِ، فَإيثارُ لَفْظِ الإعْجابِ هُنا؛ لأنَّ اعتقادَ المُعْجَبِ بِالشَّيْءِ أنَّ الشَّيْءَ طَريفٌ مُخالِفٌ لِلمَعْهودِ في بابِهِ[6].

قَد تَسْتَحسِنُ العَينُ شَيئًا يُستَدرَجُ بِهِ صاحِبُهُ

الجَمْعُ بَيْنَ النَّهي عَنِ الإعْجابِ هُنا وإثْباتِهِ في سورَةِ المنافقينَ:

في قولِهِ تَعالى: ﴿۞وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ﴾ [المنافقون: 4]

قَد يُعجِبُكَ المَظهَرُ، فَلا يَغُرَّنَّكَ ما هُمْ فيهِ مِنْ أَمْوالٍ وأَوْلادٍ

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/299.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3401.
(3) الخازن، لباب التّأويل: 2/393.
(4) الرّاغب الأصفهانيّ، المفردات، ص: 547.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/229.
(6) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (عجب).

أَثْبَتَ القُرآنُ أنّ المنافقينَ أحْسَنُ النّاسِ أجْسامًا؛ وأخْلَبُهم لِسانًا، وألْطَفُهم بَيانًا لِحُسْنِ مَنطِقِهِمْ وفَصاحَةِ كَلامِهِمْ؛ فالإعْجابُ في سورة (المنافقون) عَلى مُقْتَضى المَظاهِرِ؛ ولكنْ - في الواقِعِ - المنافقونَ أخْبَثُ النّاسِ قُلوبًا، وأضْعَفُهُم جَنانًا بما قَرَّرَهُ الشّرْعُ مِن أنّ مَظاهِرَهُم تُناقِضُ مَخابِرَهُم[1]، فَلا تَعارُضَ بَيْنَ إثْباتِ العجبِ هُناك، ونَفْيِهِ هُنا؛ لأنّ الجِهَةَ مُنْفَكَّةٌ؛ إذِ الإعْجابُ بِالمَظْهَرِ هناكَ خَبرٌ يُرادُ مِنْهُ التَّحْذيرُ مِن حَقيقَتِهِمُ الفاسِدَةِ؛ لِدَفْعِ إيهامِ مَنْ يَغُرُّهُ ظاهِرُ صوَرِهِمْ.

ولِذا أُتْبِعَ انْتِفاءُ فِقْهِ عُقولِهِمْ بِالتَّنْبيهِ عَلَى عَدَمِ الاغْتِرارِ بِحُسْنِ صوَرِهِمْ، فَإنَّها أجْسامٌ خالِيَةٌ عَنْ كَمالِ الأنْفُسِ[2].

سِرُّ تَقديمِ الأمْوالِ عَلى الأولادِ:

تَقْديمُ المَفْضولِ عَلى الفاضِلِ ضَرُورَة

قدّمَ الأمْوال عَلى الأوْلادِ؛ لأنَّ الأَموالَ تُلْهي أكْثَرَ مِنَ الأوْلادِ، فَإنَّ الانْشغالَ بها وبِتَنْميَتِها يَسْتَدعي وَقتًا طويلًا، وقدْ يَنْشَغِلُ المَرْءُ بها عَنْ أهْلِهِ، فَلا يَراهُمْ إلّا لِمامًا؛ فَقدّمَ الأمْوال لِذلِكَ، أيْ: قدّمَ المَفْضول عَلى الفاضِلِ، فالأوْلادُ أفْضَلُ مِنَ الأَموالِ، لأنّ المالَ إنّما يَكونُ في خِدْمَتِهِمْ ويُترَكُ لَهُم[3].

وهذا التَّرْتيبُ يَسْلُك مَنْهجَ التَّرَقّي فَيَبْتَدِئُ بالأدنى ثُمّ يَتَرَقّى إلى الأَشْرَفِ، ولا شَكَّ أنّ الأوْلادَ أشْرَفُ مِنَ الأمْوالِ، بَلْ الأَمْوالُ تُجمَعُ لِأَجْلِهِمْ، وقد تُسْتَباحُ الحُرُماتُ في سَبيلِ تَحْصيلِها لَهُمْ.

السِّرُّ في عَدَمِ إعادَةِ (لا النّافيَة) هُنا:

ذِكْرُ الأوْلادِ اسْتِطْرادًا وتَكْمِلَةً لَيْسَ كَذِكْرِهِمْ أَصالَةً وأُسْوَةً بِالأَمْوالِ باعْتِبارِ النَّفْي

السِّرُّ في عَطْفِ الأوْلادِ عَلى الأَمْوالِ دونَ إعادَةِ لا النّافيَة هنا، وتَكْرارِها في قَوله: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ﴾ [التوبة: 55] راجِعٌ

(1) ابن القيّم، مدارج السّالكين: 1/361.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/238.
(3) السّامرائيّ، لمسات بيانيّة من نصوص التّنزيل، ص: 181.

إلى اخْتِلافِ السِّياقِ بَيْنَ الآيَتَيْنِ؛ إذْ جاءَتِ الأولى في سياقِ القِتالِ والجِهادِ، أمّا الثّانِيَةُ فَهيَ في سياقِ الأمْوالِ والإنْفاقِ.

وذِكْرُ الأوْلادِ في [الآيَةِ: 55] كان لِمُجَرَّدِ التَّكْمِلَةِ والاسْتِطْرادِ؛ إذِ المَقامُ مَقامُ ذَمِّ أمْوالِهِمْ إذْ لَمْ يَنْتَفِعوا بِها، فَلَمَّا كانَ ذِكْرُ الأوْلادِ تَكْمِلَةً كانَ شَبيهًا بِالأمْرِ المُسْتَقِلِّ فَأُعيدَ حَرْفُ النَّفْيِ في عَطْفِهِم، بِخِلافِ مَقامِ هَذِهِ الآيَةِ فَإنَّ أمْوالَهُمْ وَأوْلادَهُمْ مَعًا مَقْصودٌ تَحْقيرُهُما في نَظَرِ المُسْلِمينَ[1].

فائدَةُ صيغَةِ الجَمْعِ في الأموالِ والأوْلادِ:

صيغَةُ الجَمْعِ في قَوْلِهِ تَعالى: ﴿وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَٰدُهُمْۚ﴾ مُؤَدّيَةٌ لِلمَعاني كُلِّها؛ لِأنَّ مِنْهُم مَنْ لَهُ مالٌ يَعتزّ بِهِ، ومنهُمْ مَن لهُ أَولادٌ كَثيرونَ هُم عِزْوَتُه، ومِنهُمْ مَن لهُ المالُ والوَلَدُ، لِذلكَ جاءَ القولُ بِصيغَةِ الجَمْعِ لِيَشْمَلَ مَن عِندهُ مالٌ فَقط، ومَن عِنْدهُ أَوْلادٌ فَقط، ومَن عِنْدهُ المالُ والولَدُ[2].

إيرادُ صيغَةِ الجَمْعِ في الأمْوالِ والأوْلادِ لِاسْتيعابِ مُفْرَداتِها التَّصَوُّرِيَّةِ

عِلَّةُ الفَصْلِ: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ﴾:

قَوْلُهُ تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم﴾ اسْتِئْنافٌ مُقَرِّرٌ ومُنَبِّهٌ عَلى أنَّ التَّعْليلَ في أحْكامِ اللّه تَعالى مُحالٌ، وأمّا عَنْ ورودِهِ بِاللّامِ في قَوْلِهِ: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [التوبة: 55] فاللّامُ فيهِ لَيْسَتْ لِلتَّعليلِ، ولَكِنَّها في مَعْنى (أنْ) وذلكَ أنَّهُ أيْنَما ورَدَ حَرْفُ التَّعْليلِ فَمَعْناهُ (أنْ) كَقَوْلِهِ: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ [البينة: 5]، أيْ: وما أُمِروا إلّا أنْ يَعْبُدوا اللّه[3].

تَعليلُ أحْكامِ اللهِ مُحالٌ

دلالَةُ التّأكيدِ بـ(إنّ)، وفائدَةُ (ما) الكافَّة: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ﴾:

(إنَّ) تُفيدُ تَوْكيدَ الكَلامِ، و(ما) الكافَّة تُقوّي هذا التَّوكيدَ، وتُثْبِتُ

حَشْدُ المُؤَكِّداتِ لِتَثْبيتِ المَعاني وحَصْرِها

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/287.
(2) الشّعراوي، تفسير الشعراوي: 9/5399.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 16/117.

مَعنى الكلام، فتُفيد ثبوتَ ذلك المَعنى المَذكورِ في اللَّفظِ خاصَّةً ثُبوتًا لا يُشاركهُ فيهِ غيرُهُ؛ أمَّا على قولِ الجمهورِ فإنَّ "ما" هي الكافَّةُ الّتي إذا دَخلتْ على "إنَّ" أفادَتِ الحصْرَ، هذا هو الصحيحُ[1].

سِرُّ التَّعبيرِ بالإرادَةِ، وإسْنادِها إلى اسْمِ الجَلالَةِ:

تَعليقُ الأشْياءِ كُلِّها بِإرادَةِ اللهِ تَعالى

عَبّر البَيانُ القُرآنيُّ بـ ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ﴾؛ لِلدّلالَةِ على أنّهُ يوقِعُ الإرادَةَ لَهمْ بِها المَلِكُ الَّذي لَهُ الإحاطَةُ بِجَميعِ الحِكْمَةِ كَما أنَّ لَهُ الإحاطَةَ بِتَمامِ القُدْرَةِ[2].

دلالَةُ صيغَةِ المضارِعِ: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ﴾:

القَصْدُ إلى تَجديدِ العَذابِ وتَنويعِهِ بِدلالَةِ المضارِعِ

عُبّر بِصيغَةِ المضارِعِ هُنا للدّلالَةِ عَلى تَجدُّدِ العذابِ واسْتِمرارِهِ.

سِرُّ التَّعبيرِ باسْمِ الجَلالَةِ الكَريمِ ﴿ٱللَّهُ﴾:

عَبّرَ القُرآنُ بِالاسْمِ الجليلِ لِتَخويفِهِمِ وتَرْبيَةِ المَهابَةِ في قُلوبِهِمْ عَسى أنْ يَنْتَبِهوا ويُفيقوا

أوثِرَ لَفْظُ اسْمِ الجَلالة الكَريم ﴿ٱللَّهُ﴾ دونَ لَفْظِ (الرّبّ)؛ لأنَّ الآيَةَ ذُكرتْ في مَقامِ التَّخويفِ الشّديدِ وفي مَقامِ التّكليفِ والتّهْديدِ، فتَناسَبَ ذِكرُ اسْمِ الجَلالَةِ ﴿ٱللَّهُ﴾ مَعَها، أمّا كَلِمَةُ (الرّبّ) فتَأتي بِصفةِ المالِكِ والسَّيّدِ والمُربّي والهادي والمُرشِدِ والمُعلِّم، وتَأتي عندَ ذِكرِ فَضلِ اللهِ على النّاسِ جميعًا مؤمنينَ وغيرَ مؤمنين فهو سُبحانه المتفضّلُ عَليهِم والّذي أنْشأهم وأوجَدَهم مِن عَدمٍ وأنْعَم عَليهِمْ[3].

المتشابِهُ اللَّفظيّ:

ذِكْرُ الألْفاظِ وسِياقاتِها بِحَسبِ مَقاماتِها

جاء التَّعبيرِ هُنا بِقَوله: ﴿أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِي ٱلدُّنْيَا﴾ وهُناك بِقَوله: ﴿لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [التوبة: 55]، ونُكْتَةُ إضافة الحياة في الآيَة السّالِفَة هي أنّها ذَكَرَتْ حالَةَ أمْوالِهِمْ في حَياتِهِمْ، فكانت هناك حاجةٌ إلى ذكر الحياة. وهُنا ذُكِرَتْ حالَةُ أمْوالِهِمْ بَعْدَ مَماتِهِمْ لِقَوْلِهِ: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا﴾ فَقَدْ صاروا إلى حَياةٍ

(1) ابن رجب الحنبليّ، التّفسير: 2/109 - 110.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/500.
(3) السّامرّائيّ، لمسات بيانية، ص: 586.

أُخْرى وانْقَطَعَتْ حَياتُهُمُ الدُّنْيا وأَصْبَحَتْ حَديثًا فلم تكن حاجةٌ إلى ذكر الحياة هنا[1]:

دلالَةُ باءِ السَّبَبيَّةِ في: ﴿يُعَذِّبَهُم بِهَا﴾:

تَعذيبُ المنافقينَ بِما شَأْنُهُ أنْ يَكونَ سَبَبًا لِنَعيمِهِمْ

بَيانُ ذلكَ: أنَّ اللّه كَشَفَ سِرًّا مِن أَسْرارِ نُفوسِ المُنافِقينَ، بِأَنَّهُ خَلَقَ في نُفوسِهِمْ شُحًّا وحِرْصًا عَلى المالِ وفِتْنَةً بِتَوْفيرِهِ والإشْفاقِ مِن ضَياعِهِ، فَجَعَلَهم بِسَبَبِ ذَلِكَ في عَناءٍ وعَذابٍ مِن جَرّاءِ أَمْوالِهِمْ، فَهم في كَبَدٍ مِن جَمْعِها. وفي خَوْفٍ عَلَيْها مِنَ النُّقْصانِ، وفي أَلَمٍ مِن إنْفاقِ ما يُلْجِئُهُمُ الحالُ إلى إنْفاقِهِ مِنها، فَقَدْ أرادَ اللّه تَعْذيبَهم في الدُّنْيا بِما شأْنُهُ أنْ يَكونَ سَبَبَ نَعيمٍ وراحَةٍ، وتَمَّ مُرادُهُ. وهَذا مِن أَشَدِّ العُقوباتِ الدُّنْيَوِيَّةِ وهَذا شَأْنُ البُخَلاءِ وأَهْلِ الشُّحِّ مُطْلَقًا[2].

تَوجيهُ التَّعبيرِ بِـ﴿فِي ٱلدُّنْيَا﴾:

قَدْ يُغْني ذِكْرُ الصِّفَةِ عَنِ الموصوفِ بِما هو مَعهودٌ

أمّا قولُهُ تعالى في الآيَةِ الأولى: ﴿فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ فَقد جَعلَ (الدُّنيا) صِفَةً لِلحياةِ، وقالَ في هذه الآيَةِ: ﴿فِي ٱلدُّنْيَا﴾ فَأَغْنى بِذِكرِ الصِّفَةِ عَن ذِكرِ الموصوفِ؛ لأنَّ الثّانية لمّا كانتْ بَعد الأولى، وقد نبّهَ في الأولى عَلى الموصوفِ، كانَ في ذِكرِهِ هُناك غنًى عَن ذِكرِهِ في هذا المكانِ، لا سيّما والدُّنيا كاسْم عَلَم لِلحياةِ الأولى ولِلدّارِ الدُّنيا، فَأَغْنى كُلّ ذلك عنْ ذِكرِ الحياةِ، والإتيانِ بالمَوصوفِ هنا، وهذهِ حالُ الصِّفَةِ[3].

إهْمالُ لَفْظِ (الحياةِ) والاقْتِصارُ عَلى لَفْظَةِ (الدُّنيا) لِلدّلالَةِ عَلى خِسَّتِها

وقد يَكون الفرْقُ في كَونهِ ذَكَرَ في الآيَةِ الأولى: ﴿فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾، وهَهُنا ذَكَر ﴿فِي ٱلدُّنْيَا﴾ وأَسْقَطَ لَفْظَ الحَياةِ؛ تَنْبيهًا عَلى أنَّ الحَياةَ الدُّنْيا بَلَغَتْ في الخِسَّةِ إلى أنَّها لا تَسْتَحِقُّ أنْ تُسَمّى حَياةً، بَلْ يَجِبُ الاقْتِصارُ عِنْدَ ذِكْرِها عَلى لَفْظِ الدُّنْيا؛ تَنْبيهًا عَلى كَمالِ دَناءَتِها[4].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 10/287.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/228.
(3) الخطيب الإسكافيّ، درّة التّنزيل وغرّة التّأويل: 2/718.
(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 16/117.

دلالَةُ الواوِ في ﴿وَتَزْهَقَ﴾:

عَطْفُ جُملةِ (وتَزْهَقَ) على جُمْلَةِ (يُعَذِّبَهم) يَستَغرِقُ التَّعْذيبَ بِالأَموالِ والأَوْلادِ

الواوُ في الآيةِ لِعَطفِ جُملة ﴿وَتَزْهَقَ﴾ على ﴿يُعَذِّبَهُم﴾ باعْتِبارِ كَوْنِهِ أرادَهُ اللّه لَهم عِنْدَما رَزَقَهُمُ الأَموالَ والأَوْلادَ، فَيُعْلَم مِنهُ: أنَّهُ أرادَ مَوْتَهم عَلى الكُفْرِ، فَيَسْتَغْرِقُ التَّعْذيبُ بِأَموالِهِمْ وأَوْلادِهِمْ حَياتَهم كُلَّها؛ لِأنَّهم لَوْ آمَنوا في جُزْءٍ مِن آخِرِ حَياتِهِمْ لَحَصَلَ لَهم في ذَلِكَ الزَّمَنِ انْتِفاعٌ ما بِأَموالِهِمْ ولَوْ مَعَ الشُّحِّ[1].

إيثارُ لَفْظِ ﴿وَتَزْهَقَ﴾:

التعبير بزُهوقِ النَّفْسِ لِلدّلالَةِ على شِدّةِ خروجِها

أوثِرَ لَفظُ ﴿وَتَزْهَقَ﴾ لِلدّلالَةِ على خروجِ أرواحِهِمْ بِشِدَّةٍ وضيقٍ؛ والظّاهِرُ: أنَّ زُهوقَ النَّفْسِ هُنا كِنايَةٌ عَنِ المَوْتِ. قالَ ابْنُ عَطيَّةَ: ويُحْتَمَلُ أنْ يُريدَ: وتَزْهَقَ أنْفُسُهم مِن شِدَّةِ التَّعْذيبِ الَّذي يَنالُهم[2].

فائدَةُ إسنادِ ﴿وَتَزْهَقَ﴾ إلى ﴿أَنفُسُهُمْ﴾:

أُسْنِدَ الفِعْلُ (وَتَزْهَقَ) إلى الأَنْفُس على سَبيلِ المَجازِ العَقليِّ

أُسْنِدَ الإزهاقُ إلى الأَنْفُس على سبيلِ المجازِ العَقليِّ؛ وكَأَنّ الأَنْفُس هيَ الّتي سَعَت إلى أنْ تَزْهقَ وعانَتْهُ مِن أجْلِ التَّخلُّصِ مِن عذابِ الدُّنيا الّذي أَرادَهُ اللّهُ لَهُم، إمّا بِسَببِ أَموالِهِمْ وأَوْلادِهِمْ والانْشغالِ بِهِمْ إلى حدَّ الهَمِّ الّذي يُكدِّرُ الصَّفْوَ ويُعَكِّرُ الأَمْزِجَةَ، وإمّا بِسَبب همومٍ أُخرى يُلْقيها اللّهُ عَلَيهم لِبُعْدِهِمْ عَن نَعيمِ الطّاعةِ وجَنَّةِ القُرْبِ مِنْهُ سُبحانهُ، أوْ لِهذا كُلّهِ جميعًا ولِغَيرِه أيضًا، عندَئذٍ تَسْعى النَّفْس إلى المَوتِ وتَطْلُبُهُ؛ ظنًّا مِنها أنَّ فيهِ الخلاصَ، كَما في قَولِ القائلِ:

أَلا مَوْتٌ يُباعُ فَأَشْتَريهِ *** فَهَذا العَيْشُ ما لا خَيْرَ فِيهِ

ويُساعِدُ على هذا الفهْمِ ما في كَلِمةِ ﴿وَتَزْهَقَ﴾ مِن دلالَةٍ عَلى مَعنى المُعاناةِ، فيُقال: "زَهَقَتْ نفسُهُ: خَرَجتْ مِنَ الأَسَفِ عَلى الشَّيْءِ"[3].

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/229.

(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/437.

(3) الرّاغب، المفردات: (زهق).

ويَجوزُ أنْ يَكونَ هذا الإسْنادُ لِلدّلالةِ على أنّ المنافقينَ يَموتون على الكُفْرِ لاشْتِغالِهِمْ بالتَّمَتُّعِ بالدّنيا والالتِهاءِ عَنِ النَّظَرِ والتَّدَبُّرِ في العَواقِبِ[1]، حتّى إنّ نفوسَهُم تَزْهَق على هذه الحالَةِ مِنَ الانْشِغالِ عَنِ الموتِ، فَتَبدو لِعَدمِ الاعْتناءِ بِهِ وكَأنّها هي الّتي طَلَبَتْهُ.

مُناقَشَةُ دَعْوى التَّقديمِ والتَّأخيرِ في النَّظْمِ الكَريمِ:

الاتِّساقُ في تَحْصيلِ مَعاني القُرآنِ عَلى مُقْتَضى التَّقْديمِ والتَّأْخيرِ

بَنى بَعضُ المُفسِّرينَ الآيَةَ ونَظيرتَها في نَفْسِ السُّورَةِ على التَّقْديمِ والتَّأْخيرِ، فذَكروا أنَّ قولَهُ سُبحانه: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾ [التوبة: 55]. وقولَه: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾ [التوبة 85] الأصلُ فيهما: (ولا تُعجِبْكَ أموالُهُم وأولادُهم في الدّنيا، إنّما يريدُ اللّهُ أنْ يعذّبهم بها في الآخرة)[2].

لَكنَّ القَوْلَ بِالتَّقديمِ والتَّأخيرِ دَعا القائلينَ بِهِ إلى تَقْديرِ مَحْذوفٍ يَلْتَئِمُ بِهِ الكَلامُ، حتّى يَظْهرَ سِرُّ كَونِ الأمْوالِ والأوْلادِ عَذابًا لَهُم في الآخِرَةِ؛ أيْ: سَبَبًا في هذا العَذابِ.

وإذا قُدِّرَ هذا المَحْذوفُ لَم تَبْقَ فائدَةٌ لِلقَولِ بالتَّقديمِ والتَّأخيرِ؛ "لِأنَّهُ يَصحّ أنْ يُقال: (يُريد اللّهُ أنْ يُعذِّبهم بها في الدُّنيا مِن حيْث كانَتْ سببًا لِلعذابِ)"[3]، فيُغْني تَقديرُ المَحذوفِ عَنِ القَولِ بِالتَّقديمِ والتَّأخيرِ.

كيفَ يُعذَّبُ المُنافِقُ بِمالِهِ ووَلَدِهِ في الدُّنيا؟

تَعْذيبُ المُنافقينَ بِالأموالِ والأوْلادِ مِن حَيْثُ الجَمْعُ والحِفْظُ والقيامُ عَليها

"سَببُ كَونِ المالِ والوَلدِ عَذابًا في الدُّنيا هو ما يَحصلُ مِنَ المَتاعِبِ والمَشاقِّ في تَحصيلِهما، فَإذا حُصِّلا ازْدادَ التَّعَبُ وتَحمُّلُ المشاقِّ في حِفْظِهما، ويَزدادُ الحُزنُ والغَمُّ بِسَببِ المصائِبِ الواقِعَةِ فيهما"[4].

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/90.
(2) ابن قتيبة، تأويل مشكل القرآن، ص: 131.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 72/16.
(4) الخازن، لباب التّأويل: 2/371.

عَجيبُ تَزْكيَةِ ومُجاهَدَةِ المُنافقينَ:

وَجْهٌ آخَرُ في تَصْويرِ تَعْذيبِ المُنافِقينَ بِالأموالِ والأوْلادِ

قيل: تَعْذيبُهم في الدُّنيا بِالأمْوالِ لِأخْذِ الزَّكاةِ مِنهم والنَّفَقَةِ في سَبيلِ اللّه تَعالى مَعَ عَدَمِ اعْتِقادِهِمُ الثَّوابَ عَلى ذَلِكَ، وتَعْذيبُهم فيها بِالأوْلادِ أنَّهم قَدْ يُقْتَلونَ في الغَزْوِ، فَيَجْزَعونَ لِذَلِكَ أشَدَّ الجَزَعِ، حَيْثُ لا يَعْتَقِدونَ شَهادَتَهم وأنَّهم أحْياءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقونَ، وأنَّ الاجْتِماعَ بِهِمْ قَريبٌ، ولا كَذَلِكَ المُؤْمِنونَ فيما ذُكِرَ[1].

هَلِ العَذابُ بِالأموالِ والأوْلادِ في الدُّنيا خاصٌّ بِالمنافقينَ؟

أورِد على هذا القولِ: أنّ هذا التَّعذيبَ حاصِلٌ لِكلِّ أحَدٍ مِن بني آدَمَ؛ مُؤمِنِهم وكافِرِهِمْ، فَما فائدَةُ تَخْصيصِ المنافقينَ بِهذا التَّعذيبِ في الدُّنيا؟

وأُجيبَ عَن هذا الإيرادِ: بِأنَّ المنافقينَ مَخصوصونَ بِزيادَةٍ مِن هذا العَذابِ؛ وهو أنَّ المؤمِنَ قَد عَلِم أنّهُ مَخلوقٌ لِلآخِرَة، ويعتقدُ أنَّهُ يُثابُ بِالمصائِبِ الحاصِلَةِ لهُ في الدُّنيا فَلَم يَكُنِ المالُ والولَدُ في حَقِّهِ عَذابًا في الدُّنيا. وأمّا المنافِقُ؛ فإنّهُ لا يَعْتَقِدُ كَونَ الآخِرَةِ لَهُ، وأنّهُ لَيْس فيها ثَوابٌ، فَبقِيَ ما يَحصلُ لَهُ في الدُّنيا مِنَ التَّعَب والشِّدَّة والغَمِّ والحزنِ على المالِ والوَلَدِ عذابًا عَليهِ في الدُّنيا، فَثَبتَ بِهذا الاعْتبارِ أنَّ المالَ والوَلَدَ عَذابٌ عَلى المنافقينَ في الدُّنيا دونَ المؤمنينَ[2].

السِّرُّ وراءَ ذِكْرِ ﴿ٱلدُّنۡيَا﴾ وحَذْفِ (الآخِرَةِ):

مُناسَبَةُ مَذَمَّةِ المنافِقينَ في الدُّنيا

ذِكْرُ ﴿ٱلدُّنۡيَا﴾ دونَ (الآخرةِ) تَأْكيدٌ على مآلِ هؤلاءِ المنافقينَ مِنْ كلِّ ذلكَ المتاعِ مِنَ الأَموالِ والأوْلادِ، وأنَّ ما هُمْ فيهِ ما هُوَ إلّا مَتاعٌ مؤَقَّتٌ في دارِ الدّنيا، ولَيس مَحلَّ إعْجابٍ.

ولَم تُذْكرِ الآخِرةُ؛ لأنّ سياقَ الآيَةِ في مذَمّةِ حالِ المنافقينَ في فَسادِ عَقيدَتِهِمْ، وعَدمِ إغْناءِ دُنياهمْ عَنْهم مِنَ اللّهِ شيئًا.

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 5/308.
(2) الخازن، لباب التّأويل: 2/371.

نُكْتَةُ التَّعبيرِ بِالكُفْرِ هُنا وبِالفِسْقِ في الآية السّابقة:

الفِسْقُ خُروجٌ عَنِ الإيمانِ بَعْدَ التَّلَبُّسِ بِهِ

أوثِرَ التَّعْبيرُ عَنِ المنافقينَ بِالكُفْرِ هُنا، وبِالفِسْقِ في الآية السّابقة؛ لأنَّ جُمْلَةَ ﴿وَمَاتُواْ وَهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ [التوبة: 84] مَعْطوفَةٌ عَلى عِلّةِ نَهْيِهِ عَنِ الصَّلاةِ عَلَيْهِمْ في قَولِهِ: ﴿إِنَّهُمْ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾، وقدْ ذكرَ فيها لَفْظ الكُفْرِ، والفِسْقُ هُنا الخُروجُ عَنِ الإيمانِ بَعْدَ التَّلَبُّسِ بِهِ، أَيْ: بِصورَةِ الإيمانِ، فَيَكونُ المُرادُ مِنَ الفِسْقِ مَعْنًى أَشْنَعَ مِنَ الكُفْرِ[1]، وهو أَنْسبُ لِتَجْليَةِ عِلّةِ النَّهْيِ.

والتَّعبيرُ بِالكُفرِ في قَولِه: ﴿وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾؛ لأنَّ جُمْلَةَ: ﴿وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾ في مَوْضِعِ الحالِ مِنَ الضَّميرِ المُضافِ إِلَيْهِ، لِأَنَّهُ إذا زَهَقَتِ النَّفْسُ في حالِ الكُفْرِ فَقَدْ ماتَ كافِرًا[2]. وجمعَ بَيْنَهُما لِلزِّيادَةِ في تَقْبيحِ أَمْرِهِمْ وتَحْقيرِ شَأْنِهِم؛ فَهُم لَم يَكْتَفوا بِالكُفْرِ وَحْدَه، وإنما أَضافوا إِلَيهِ الفِسْقَ، وهو الخُروجُ عَن كلِّ قولٍ طيِّبٍ وخُلقٍ حَسنٍ وفِعلٍ كَريمٍ[3].

سِرُّ اخْتِصاصِ سورَةِ التّوبَةِ بِورودِ: ﴿وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾:

كَشْفُ طَوِيَّةِ المنافقينَ وبَيانُ حُكْمِهِمْ لَو ماتوا عَلى ذلكَ

ورَدَ قَوله: ﴿وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾ في سورَةِ التّوبَةِ دونَ غيرِها مِن سوَرِ القُرآنِ الكَريمِ، في ثَلاثَةِ مواضِعَ:

الأوّل في قَوْله: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾ [التوبة: 55]

والثّاني في قَوله: ﴿وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَٰدُهُمْۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِي ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾ [التوبة: 85].

والثالث في قَوله: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾ [التوبة: 125].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/285.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/229.
(3) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 6/371.

ونَلحظُ في المواضعِ الثّلاثةِ أنَّ جُمْلةَ ﴿وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾ وقَعتْ حالًا؛ فهو حالُ المنافقينَ عند زُهوقِ أنْفُسِهم ومَوتِهم، وفيهِ وَعيدٌ شَديدٌ لَهُم، لا يَكاد يَحْتَمِلُهُ أَحدٌ.

واخْتصاصُ سورَةِ التّوبَة بورودِ ذلكَ؛ لِما فيهِ مِن بَيانِ حَقيقةِ هؤلاءِ المنافقينَ الّذينَ أضَرّوا بِالمُسلمينَ، وما يَضرّونَ إلّا بِأنْفُسهمْ، وهُم لا يَشعرونَ.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

العجبُ والحُبُّ:

المَحَبَّةُ تَسْتلزِمُ الإعجابَ، أمّا الإعْجابُ فَقد لا تَصْحَبُهُ المَحَبَّةُ

العجبُ بالشَّيْءِ: شدَّةُ السُّرورِ بِهِ حَتَّى لا يُعادلهُ شَيْء عِنْد صاحبِهِ، تَقول: هوَ مُعجبٌ بِفلانَةٍ؛ إذا كانَ شَديدَ السُّرورِ بها، وَهوَ مُعجَبٌ بِنَفسِهِ؛ إذا كانَ مَسْرورًا بِخِصالها، وَلِهَذا يُقال: أعْجَبهُ، كَما يُقال: سُرَّ بِهِ، فَلَيس العجبُ مِنَ الكِبْرِ في شَيْءٍ[1]، والإعْجابُ اسْتِحْسانٌ مَشوبٌ بِاسْتِغْرابٍ وَسُرورٍ مِنَ المَرْئيِّ[2].

وأصْلُ المحبّةِ المَيْلُ لِما يُوافِقُ المحبوب[3]، والمحبّة: إرادَةُ ما تَراهُ أوْ تَظنُّه خيراً[4]، والحُبّ يَدلّ على التَّجمُّعِ والتَّلازُمِ؛ إذْ هو تعلُّقُ القَلبِ بِالمحبوبِ، وملازَمَتُه إياهُ ماديًّا أوْ فكريًّا[5]، والنَّهيُ عَنِ الإعجابِ هُنا هو الأنْسَبُ لِلآيَةِ الكريمةِ؛ لِقَطْعِ طَريقِ الاسْتِحْسانِ؛ حتّى لا يَصِل إلى مَرْحلةِ الحُبّ والإرادَةِ.

والّذي يُمكنُ اسْتنتاجُهُ مِن عَرْضِ المعْنَيَين: أنّ المَحبَّة تَسْتَلزم الإعْجابَ، أمّا الإعْجابُ فَقد لا تَصْحَبُهُ المَحَبَّةُ؛ لأنَّ مُعتَمدَهُ الانْبِهارُ بِالشَّيءِ، وهو غَيرُ مُسْتَلزِمٍ لِمَحَبَّتِه.

(1) أبو هلال العسكريّ، الفروق اللّغويَّة، ص: 248.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/229.
(3) كما ذكره القاضي عياض.
(4) الرّاغب الأصفهانيّ، المفردات: (حب).
(5) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصَّل: (حب).

(يُريد)، و(يَطْلبُ):

كلُّ طَلَبٍ إرادَةٌ، ولَيسَت كُلُّ إرادَةٍ طلبًا

الإرادَةُ - على أحَد الاعْتبارات - مُلْزِمَةٌ باعتبارِها مَشيئَةً، وقدْ يَعتري الطّلَبَ التَّخَلُّفُ. وعَليهِ: فإنّ الأَلْيَقَ بالآيَةِ إيرادُ مُصْطَلحِ الإرادَةِ؛ حتَّى لا يَتَخَلَّفَ ما قَضاهُ اللّهُ ﷻ في حقِّ المنافقينَ.

(تَزهق)، (تَخرج)، (تَهلك):

الزُّهوقُ خُرُوجُ رُوحٍ مَخصُوص

الزّهوقُ: الخُروجُ بِشِدَّةٍ وضيقٍ. وقدْ شاعَ ذِكرهُ في خُروجِ الرّوحِ من الجَسَدِ. والزّهقُ هو الخروجُ بِصعوبَةٍ. فالفَرْق يَتَخرَّج عَلى أنَّ الخروجَ تَسْتوي فيهِ الشِّدَّة والسُّهولَةُ، أمّا الزّهوقُ فهو الخروجُ بِشِدّةٍ وضيقٍ؛ ويُحملُ الهَلاكُ على المَوتِ لِلإنْسانِ والفَناءِ لِلأشياءِ[1].

فالخُروجُ أَعَمّ مُطلقًا، والزّهوقُ أَخَصّ مُطلقًا، والهَلاكُ أَعمّ مِن وَجهٍ وأَخصّ مِن وَجهٍ آخَر.

الفِسْقُ والكُفْرُ:

الفِسْقُ أَعَمُّ مِنَ الكُفْرِ

الفِسْق: خُروجٌ عَن الطّاعةِ وتَظاهُرٌ بالمعاصي وإصْرارٌ عَلَيها، وأمّا الكُفْر فهو جُحودٌ لا يُؤمِنُ صاحِبُهُ بِاللّهِ، أوْ لا يُؤمِنُ بِرَسولِهِ ﷺ. وعَليهِ فالفِسْقُ أَعَمّ مِنَ الكُفرِ، فَكُلّ كُفْرٍ فِسْقٌ، ولَيسَ كُلّ فِسْقٍ كُفْرًا.

الإرادَةُ والمشيئَةُ:

الإرادَةُ أَعَمُّ مِنَ المَشيئَةِ باعتبار

الإرادَةُ: هيَ العَزمُ على الفِعْل أوِ التَّرْك بَعدَ تَصوُّرِ الغايَةِ المُتَرتِّبَةِ عَليهِ مِن خَيرٍ، أوْ نَفْع، أو لَذَّة ونَحوِ ذلك، وهي أخصّ مِنَ المشيئَةِ بهذا الاعتبارِ، لأنَّ المشيئَةَ ابتِداءُ العَزمِ على الفِعلِ، فَنِسْبتها إلى الإرادَةِ نِسْبةُ الضَّعفِ إلى القُوَّة، والظَّنِّ إلى الجَزمِ، فَإنّكَ ربّما شِئتَ شيئًا ولا تريدهُ، لمانِعٍ عَقْليٍّ أوْ شَرْعيٍّ، وأمّا الإرادَةُ فَمَتى حَصلَتْ صَدَرَ الفِعلُ لا مَحالَةَ، وقد يُطْلق كُلٌّ مِنْهما عَلى الآخَر تَوسُّعًا[2].

كَما أنَّ الإرادَةَ تَكونُ لِما يَتراخى وَقتُهُ ولِما لا يَتراخى، والمشيئَةُ لِما

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/37.

(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة بترتيب وزيادة، ص: 35.

لَم يَتراخ وَقتُهُ، وبهذا الاعتبارِ تكونُ الإرادةُ أعمَّ من المشيئةِ والشّاهِد أنَّك تَقول: فَعَلت كَذا شاءَ زيدٌ أَوْ أَبَى، فيُقابلُ بِها إباه، وذلكَ إنَّما يَكون عِند مُحاولَةِ الفِعلِ، وكذلكَ مَشيئَتُهُ إنّما تَكون بَدلًا مِن ذلك في حالِهِ[1].

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة بترتيب وزيادة، ص: 35.

﴿وَإِذَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٌ أَنۡ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُواْ مَعَ رَسُولِهِ ٱسۡتَـٔۡذَنَكَ أُوْلُواْ ٱلطَّوۡلِ مِنۡهُمۡ وَقَالُواْ ذَرۡنَا نَكُن مَّعَ ٱلۡقَٰعِدِينَ ٨٦﴾

[التّوبة: 86]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

بَعدَ أنْ بَيَّنَ اللّهُ سُبحانه أنَّ المنافقينَ رَكبوا الحيَلَ والْتَمسوا المعاذيرَ لِلتَّخلُّفِ عَن رَسولِ اللّهِ ﷺ، والقعودِ عَنِ الغَزْو، قفَّى عَلى ذلكَ بِذكْرِ دَقيقَةٍ أخْرى أَبانَ فيها أنَّه إذا أُنْزِلتْ سورَةٌ فيها أَمْرٌ بِالإيمانِ والجِهادِ مَع الرَّسولِ ﷺ، اسْتأذَن أولو الثَّرْوةِ والقُدْرَةِ مِنهُمْ في التَّخلُّفِ عَنِ الغَزْو، وقالوا لِرَسولِ اللّهِ ﷺ: دَعْنا نَكُنْ مَع الضُّعَفاءِ والزَّمْنى العاجِزينَ عَنِ القِتالِ، والسّاكِنينَ في البَلَدِ[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿سُورَةٌ﴾: أَصلُ كلمةِ السُّورَةِ مِنَ السَّوْرِ، وهو العُلوُّ والارْتِفاعُ، يُقالُ: سارَ يَسُورُ سَوْرًا، أَيْ: عَلا وارْتَفَعَ[2]. والسُّورةُ: المَنْزِلَةُ والرِّفْعَةُ[3]، تَقولُ: كانَتْ لَهُمْ سُورَةٌ جَليلَةٌ، أَيْ: مَنْزِلَةٌ، والجَمْعُ: سوَرٌ، وَمِنْهُ سورَةُ القُرْآنِ لأَنَّها مَنْزِلَةٌ بَعْدَ مَنْزِلَةٍ[4]، وَيَأْتي السّوْرُ بِمَعْنَى: الإحاطَة، وَمِنْهُ سُمّيَ الحائِطُ سُورًا؛ لارْتِفاعِهِ وَإحاطَتِهِ بِالشَّيْءِ[5]، وَتَأْتي السُّورَةُ بِمَعْنَى: ما طالَ مِنَ البِناءِ وَحَسُنَ[6]. والمقصودُ مِنَ السُّورة في الآيَةِ: طائفةٌ مُعيَّنَةٌ مِنْ آياتِ القُرآنِ ذاتُ مَبْدَأٍ وَنِهايةٍ.

2) ﴿أُوْلُواْ﴾: أولو بِمَعْنَى ذَوو، لا يُفْرد لَهُ واحِدٌ ولا يُتَكَلَّمُ بِهِ إلّا مُضافًا، كقولك: أولو بأْسٍ شَديدٍ وأولو كَرَمٍ، كأَنَّ واحِدَهُ أُلٌ، والواوَ لِلجَمْعِ، أَلا تَرى أَنَّها تَكونُ في الرَّفعِ واوًا وفي النَّصْبِ والجَرِّ ياءً؟[7]، وقيل: أُوْلوٌ، والمُؤَنَّثُ أُوْلاتٌ، والواحِدُ: ذو[8]، وأُولاتٌ للإناث واحِدَتُها

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 16/118، والمراغيّ، تفسير المراغي: 10/178.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سور).
(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (سور).
(4) ابن سيدَه، المحكم: (سور).
(5) الرّاغب، المفردات، والسّمين، عمدة الحفّاظ: (سور).
(6) الفِيروزاباديّ، القاموس المحيط، والزّبيديّ، تاج العروس: (سور).
(7) ابن سيدَه، المحكم، وابن منظور، لسان العرب: (أُلل).
(8) ابن عبّاد، المحيط في اللّغة: (أُلل).

ذاتُ، تَقولُ: جاءَني أولو الأَلباب وأولاتُ الأَحمال[1]. ولا يُقال إلّا لِلجميعِ منَ النّاس وما يُشبِهُهُ[2]. والمقصودُ بـ ﴿أُوْلُواْ﴾ في الآيَةِ: ذَوو، بِمَعنى: أصْحاب.

3) ﴿ٱلطَّوۡلِ﴾: أصلُ (طول) يَدُلُّ عَلَى فَضْلٍ وامْتِدادٍ في الشَّيْءِ، يُقال: لِفُلانٍ على فُلانٍ طَوْلٌ، أي: زيادَةٌ وفَضْلٌ[3]، ويأْتي الطَّوْلُ بِمعنى الغِنَى وسَعَةِ المالِ[4]، ومنه سُمِّيَت القُدْرَةُ على الصَّداقِ طَوْلًا؛ لأنَّه إذا قَدِرَ على صَداقِها فقد طالَ عليها وزادَ، ويأْتي بِمعنى الفَضْلِ والمَنِّ[5]. والمقصودُ بالطَّولِ في الآيَةِ: السّعَةُ في المالِ. و﴿أُوْلُواْ ٱلطَّوۡلِ﴾ مُرادٌ بِهِم مَنْ لَهُ قُدْرَةٌ على الجِهادِ بِصِحَّةِ البَدَنِ[6].

4) ﴿ذَرۡنَا﴾: أصلُ (وذر): القَذْفُ والتَّرْكُ[7]، يُقالُ: فُلانٌ يَذَرُ الشَّيءَ، أي: يَقذفهُ لِقلَّةِ اعتِدادِهِ بِهِ. فمعنَى قَولِهِ تعالى: ﴿ثُمَّ ذَرۡهُمۡ﴾ [الأنعام: 91] أي: اقْذفهُم وألقِهِمْ واتركهُم فلا اعتدادَ بِهِم. ومِن ذلكَ الوَذَرةُ: وهي قِطعةُ لحمٍ صغيرةٌ سُمّيت بذلِك لِقلَّة الاعتدادِ بِها، والجمعُ: وُذَر[8]. والعَرَبُ قد أَماتتِ المَصْدرَ مِن (يَذر) والفِعْلَ الماضيَ، واسْتَعْملتْهُ في الحاضِرِ والأمْرِ، فإذا أَرادوا المَصْدر قالوا: ذَرْهُ تَرْكًا[9]. والمقصودُ مِن ﴿ذَرۡنَا﴾ في الآيَةِ: أمرٌ مِن فِعلٍ مُماتٍ وهو (وَذَرَ) استغنَوا عنهُ بمرادِفِهِ وهو (تَرَكَ).

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

مِنْ عادَةِ المنافقينَ التَّهَرُّبُ مِنَ الجِهادِ

يقولُ اللّهُ تعالى لنبيِّهِ محمَّدٍ ﷺ: وإذا أُنزِلَتْ سورةٌ مِن القُرآنِ أوْ

(1) الجوهريّ، الصّحاح: (ألل).
(2) الخليل، العين: (ألل).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (طول).
(4) الخليل، العين: (طول).
(5) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن عبّاد، المحيط في اللّغة: (طول).
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/288.
(7) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، والسّمين، عمدة الحفّاظ: (وذر).
(8) السّمين، عمدة الحفّاظ: (وذر).
(9) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (وذر).

بعضُها فيها الأمرُ بالإيمانِ باللّه، وجهادِ الكُفّارِ معَ رَسولِ اللّه ﷺ، استأذَنَك في التَّخلُّفِ أصحابُ الأموالِ مِنَ المُنافقينَ، وقالوا لكَ: يا مُحمَّدُ، اترُكْنا نكُنْ مع القاعدينَ في بُيوتِهم؛ مِنَ الضُّعَفاءِ والمَرضى والعاجزينَ عن الجِهادِ[1].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالَةُ الواوِ في قَوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أُنزِلَتۡ﴾:

جاءَتِ الواوُ لِعَطْفِ غَرَضٍ عَلى غَرَضٍ قُصِدَ بِهِ الانْتِقالُ إلى تَقْسيمِ فِرَقِ المُتَخَلِّفينَ عَنِ الجِهادِ مِنَ المُنافِقينَ وغَيْرِهِمْ وبيانِ أنْواعِ مَعاذيرِهِمْ ومَراتِبِها في القَبولِ[2].

تَقسيمُ المُتَخَلِّفينَ بعَطْفِ الأَغْراضِ بَعْضِها على بَعْضٍ

التَّعْبيرُ بِأداةِ الشَّرْطِ ﴿وَإِذَآ﴾ دونَ (إن):

أوثِرَت ﴿وَإِذَآ﴾ دونَ (إن) لإفادَةِ حَتْميَّةِ الحَدَثِ، وكَثْرَتِهِ، أوِ المرجَّحِ وقوعُهُ، ولا تَقْتَضي تَكرارًا بِوَضْعِها[3].

القَصْدُ إلى حَتْميَّةِ الوقوعِ بِدلالَةِ (إذا)

تَوجيهُ اسْتِئثارِ هذا المَوْضِعِ بِتَعْبيرِ ﴿وَإِذَآ أُنزِلَتۡ﴾:

الآيَةُ الّتي وَرَدتْ في خاتِمَةِ السّورَةِ الكريمَةِ جاءَتْ بِزيادَةِ (ما) عَقِبَ (إذا) وزيادَتُها لِلتَّأْكيدِ، أيْ: لِتَأْكيدِ مَعْنى (إذا) وهو الشَّرْطُ؛ لِأنَّ هَذا الخَبَرَ لِغَرابَتِهِ كانَ خَليقًا بِالتَّأْكيدِ، ولِأنَّ المُنافِقينَ يُنْكِرونَ صُدورَهُ مِنهم بِخِلافِ هذه الآيَةِ لِأنَّ مَضْمونَها حِكايَةُ اسْتِئْذانِهِمْ وهم لا يُنْكِرونَهُ[4].

زيادَةُ التَّأكيدِ بِحَشْدِ (ما) بَعدَ (إذا) حالَ الإنْكارِ، وعَكْسُهُ بِعَكْسِهِ

سِرُّ التَّعْبيرِ بِصيغَةِ ﴿أُنزِلَتۡ﴾:

أوثِرَ التَّعبيرُ بِصيغَةِ الإنْزالِ دونَ التَّنْزيلِ في قَولِهِ: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ﴾؛ لِلدَّلالَةِ على أنّ إنزالَ السّورَةِ كانَ دَفْعيًّا لا تَدْريجيًّا،

صيغةُ الإنْزالِ تَدُلُّ على شَرَفِ القُرآنِ وعُلوِّهِ ورَبّانِيَّتِهِ

(1) ابن جرير، جامع البيان: 11/615، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/68، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 8/223.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/287.

(3) السّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 6/95، ومحمد الهلال، تفسير القرآن الثّري الجامع: 10/161.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/64.

ولعلَّ السِّرَّ في التّعبيرِ بالإنزالِ الّذي يُشعِر بالنُّزولِ معَ العُلوّ الإشارَةُ إلى أنَّ هذا القُرْآنَ مِن عِندِ اللّهِ تَعالى دفعًا للحجّة الواهية القائلة بأنّ القرآن هو كلام محمّد ﷺ.

فائدَةُ التّعْبيرِ بِصيغَةِ المبْنيِّ لِلمَفْعولِ:

دلالَةُ المَبْنيِّ لِلمَفْعولِ على شَرَفِ الفاعِلِ وعَظَمَتِهِ وتَفَرُّدِهِ بإنْزالِ القُرْآنِ

مِن فوائِدِ بِناءِ الفعلِ للمَفعولِ دلالتُهُ على عِظَمِ الفاعِلِ، وهو اللّهُ ﷻ، وأنَّه لا يَقومُ بِهذا الفعلِ أحَدٌ سواهُ، والإعلامُ بِأنَّه تَعالى مُتَفرِّدٌ بِإنزالِ السّوَرِ لا شَريكَ لَهُ في ذلِك. وَيَكأَنَّ طَيَّ ذِكْرِ الفاعِلِ كالواجِبِ لِأَمْرَيْن:

أَحَدُهُما: أَنَّهُ إِنْ تَعَيَّنَ الفاعِلُ وَعُلِمَ أَنَّ الفعْلَ ممَّا لا يَتَوَلَّاهُ إِلَّا هوَ وَحْدَهُ كانَ ذِكْرُهُ فَضْلًا وَلَغْوًا؛ والثّاني: الإيذانُ بِأَنَّهُ مِنْهُ غَيْرَ مُشارَكٍ وَلا مُدافِعٍ مُدافَعَ عَنِ الاسْتِئْثارِ بِهِ والتَّفَرُّدِ بِإيجادِهِ[1].

إيثارُ التّعْبيرِ بِلَفظِ ﴿سُورَةٌ﴾:

دلالَةُ السّورَةِ مَجازٌ مُتَّسَعٌ فيهِ كَإطْلاقِ الكِتابِ على القُرْآنِ

السُّورَةُ: طائِفَةٌ مُعَيَّنَةٌ مِنْ آياتِ القُرْآنِ لَها مَبْدَأٌ وَنِهايَةٌ، وَلَمَّا كانَت أَلْفاظًا وَأَقْوالًا صَحَّ بَيانُها بِبَعْضِ ما حَوَتْهُ وَهوَ الأَمْرُ بالإيمانِ والجِهادِ[2].

والمرادُ بها هذهِ السّورةُ، أيْ: سورَةُ بَراءَة، وإطلاقُ اسْمِ السّورَةِ عَليها في أثْنائها قَبلَ إكْمالِها مَجازٌ مُتّسَعٌ فيه كَإطْلاقِ الكِتابِ على القُرآنِ في أثْناءِ نزولِهِ في نَحوِ قَوله: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: 2] وقولِهِ: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ﴾ [الأنعام: 92]، فهذا الوصْفُ وَصْفٌ مُقَدَّرٌ شَبيهٌ بالحالِ المُقدّرَةِ[3].

دلالةُ تَنْكيرِ ﴿سُورَةٌ﴾:

إمّا لِلتّفْخيمِ، أوْ لِيَشْملَ كلَّ سورَةٍ قُرْآنيَّةٍ بِلا تَعْيينٍ

جاءَتْ ﴿سُورَةٌ﴾ نَكِرَةً في قولِهِ تعالى: ﴿وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ﴾ لإرادَةِ النَّوعِ، أيْ: أيَّ سورةٍ كانَتْ. أوْ أنَّ المرادَ بِها سورَةُ التّوبة وهو الأرْجَحُ،

(1) الزّركشيّ، البرهان في علوم القرآن: 3/145.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/288.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/288.

وحينئذٍ يَكونُ التَّنْكيرُ لِتَفْخيمِ شَأْنِها، ويُؤَيِّدهُ الجُملةُ التّفسيريَّةُ بَعدَها: ﴿أَنْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُواْ مَعَ رَسُولِهِ﴾، فمَطلوبُ السّورَةِ أمرٌ عَظيمٌ، هو الإيمانُ باللّهِ، ومؤازَرَةُ الرّسولِ ﷺ بالخروجِ معَهُ لِلجهادِ.

دلالَةُ ﴿أَنْ﴾ في ﴿أَنْ ءَامِنُواْ﴾ وأثَرُها في المعْنى:

تَعاوُرُ المَعاني بِتَنَوُّعِ دلالَةِ ﴿أَنْ﴾

قولهُ تعالى: ﴿أَنْ ءَامِنُواْ﴾ فيهِ وجْهان: أحَدُهما: أنّها تَفسيريَّةٌ؛ لِأنَّ قَبْلَها شَرْطَ ذَلِكَ. والثاني: أنَّها مَصدريَّةٌ على حَذْفِ حَرْفِ الجرِّ، أيْ: بِأنْ آمِنوا، أيْ: بالإيمانِ[1].

بَلاغَةُ حَرْفِ الجرِّ المَحذوفِ في ﴿أَنْ ءَامِنُواْ﴾:

حَذف الخافِضِ في (أن آمنوا) تَشَوُّفٌ لِلإيجازِ المُعجِزِ مَع سَعَةِ التَّقْديرِ

مَضى أنّ قولهُ تعالى: ﴿أَنْ ءَامِنُواْ﴾ يَحْتَملُ أنْ تَكونَ ﴿أَنْ﴾ فيهِ تَفْسيريَّةً بِمَعْنى أيْ، لِأنَّ قَبْلَها شَرْط ذَلِكَ، فَهي - عَلى هَذا - لا مَوْضِعَ لَها، ويَحْتَملُ أنْ تَكونَ مَصْدَريَّةً حُذِفَ عَنْها الجارُّ؛ وتَظْهرُ في حَذْفِ الجارِّ بِجوارِ الإيجازِ والاختِصارِ أغْراضٌ بَلاغيَّةٌ يَتَطلَّبها المَقامُ ويَقْتَضيها السِّياقُ؛ ولعلَّ أَبْرَزَ سِمَةٍ أُسْلوبيَّةٍ لِشواهِدِ نَزْعِ الخافِضِ المُطَّردِ معَ (أنَّ وأنْ) هي الإيجازُ في أَغلَبِ شواهِدِه، وإنْ ظَهرَ في قليلٍ مِن شواهدِهِ تَكْثيرُ الدلالةِ تَبعًا لاختلافِ حَرْفِ الجرِّ المَحذوفِ[2].

سِرُّ تَقديمِ الأمْرِ بالإيمانِ على الأمْرِ بالجِهادِ:

تَقديمُ الإيمانِ على الجِهادِ وَضْعًا لِتَقَدُّمِهِ طَبْعًا

قُدِّمَ الأمْرُ بالإيمانِ لِأنَّ الاشْتِغالَ بالجِهادِ لا يُفيدُ إلّا بَعْدَ الإيمانِ[3].

بَلاغَةُ الأمْرِ بالإيمانِ باللهِ والجِهادِ معَ رَسولِ اللهِ ﷺ:

مُلازَمَةُ الجِهادِ لِمُسَمّى الإيمانِ إذْعانٌ لِلدّيّانِ وإعزازٌ لِلدّينِ

الأمْرُ بالإيمانِ باللّهِ حقَّ الإيمانِ أمرٌ بالإذْعانِ لِكلِّ ما يُكَلِّفُهمْ إيّاهُ، وأنْ يَعلموا مؤمنينَ بِأنّهُ القادِرُ القاهرُ النّاصِر، المُعِزُّ المُذِلُّ، العَليمُ الخَبير، أيْ: يؤمنونَ بأنّه واحدٌ في ذاتِهِ وصفاتِهِ الّتي هي الكَمالُ المُطلَق، وأنَّهُ لا يُعبَد غَيرُهُ[4]، فاللّهُ يُريد إيمانًا بِالقلبِ

(1) السّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 6/95.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/90، وأبو حيّان، البحر المحيط: 5/479.
(3) الشّوكانيّ، فتح القدير: 2/444.
(4) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3402.

واللِّسانِ لِيَتّفِق السُّلوكُ معَ العَقيدَةِ. والأمْرُ بالجِهادِ معَ رَسولِ اللّهِ لإعزازِ دِينِهِ وإعلاءِ كَلمتِهِ[1] وهو تَعْبيرٌ عَمَليٌّ عَنِ الإيمانِ، لأنَّ الجهادَ والقِتالَ في سبيلِ اللّهِ شَرَفٌ لهُ ثوابٌ عظيمٌ. والامتناعَ عَنِ الجهادِ تَنازُلٌ عَنِ خيرٍ كبيرٍ، فالحَقُّ سُبحانَهُ يُعطي جَزيلَ الأجْرِ لِمَن جاهَدَ جهادًا حقيقيًّا[2].

ومَعنى الأمْرِ لِلمؤمنينَ بالإيمانِ: الدَّوامُ عَلَيه والتَّمَسُّكُ بِهِ في مُسْتقبلِ الأوقاتِ، معَ أنّ هذا أمرٌ عامٌّ يَدخُل فيهِ أمرُ المنافقينَ بالإيمانِ، ثُمّ الجهادِ؛ لِأنّه لا يَنْفعهمْ ذلِك معَ النِّفاق[3].

جوابُ الشَّرْطِ ودلالتُهُ:

التَّأنُّقُ البَيَانِيّ بتَقريرِ جَوابِ الشَّرْطِ بِأسلوبِ الالتِفاتِ

في قَوله: ﴿ٱسْتَـٔذَنَكَ﴾؛ التِفاتٌ مِن غَيْبةٍ إلى خِطابٍ، وذلِك أنّه قد تَقدَّم لفظُ ﴿رَسُولِهِ﴾، فلَو جاءَ على الأصْلِ لَقيلَ: اسْتَأذَنهُ[4].

سِرُّ التَّعبيرِ بالماضي في: ﴿ٱسْتَـٔذَنَكَ﴾:

دلالَةُ صيغَةِ الماضي على تَحقُّقِ الوقوعِ

التّعبيرُ بالماضي في قَوله: ﴿ٱسْتَـٔذَنَكَ﴾ دلالَةٌ عَلى تَحقُّقِ وقوعِ الحَدَثِ، حالَ نُزولِ السّورَةِ.

سِرُّ التّعبيرِ بِـ: ﴿أُوْلُواْ ٱلطَّوْلِ﴾:

بَعْضُ الأعْذارِ أقْبحُ مِنَ الذّنوبِ

أُولو الطَّولِ هم: ذَوو الفَضْلِ والسَّعةِ والقُدرَةِ عَلى الجِهادِ بَدَنًا ومالًا[5]. أوثرَ التَّعْبيرُ بقولِهِ: ﴿أُوْلُواْ ٱلطَّوْلِ﴾ وخصَّهم بالذِّكْرِ؛ لِسَبَبَيْن: الأوَّل: لأنَّ الذَّمَّ لَهمْ أَلْزَمُ لِأجْلِ كَوْنِهِمْ قادِرينَ عَلى السَّفَرِ والجِهادِ، فَبِوجودِ الطَّوْلِ انْتفى عُذرُهمْ، والثّاني: أنَّهُ تَعالى ذَكَرَ ﴿أُوْلُواْ ٱلطَّوْلِ﴾؛ لِأنَّ مَن لا مالَ لَهُ ولا قُدْرَةَ عَلى السَّفَرِ لا يَحْتاجُ إلى الاسْتِئْذانِ[6].

---

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/90.
(2) الشّعراويّ، تفسير الشعراوي: 9/5403.
(3) الواحدي، البسيط: 585/10.
(4) السمين، الدر المصون: 95/6.
(5) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/90.
(6) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 119/16.

إيثارُ لَفظِ ﴿أُوْلُواْ﴾:

إيثارُ لَفظِ (أولو) لِتَعلُّقِهِ بِالمَعْنويّاتِ

أوثِرَ لَفْظُ ﴿أُوْلُواْ﴾ دونَ غَيرِهِ لأنّ المضافَ إليْهِ شَيْءٌ مَعنويٌّ وهو الطَّولُ.

وأمّا التّعبيرُ بـ(أصحاب)، فَغيرُ مُناسبٍ؛ لأنّ الصّاحِبَ هو الملازِمُ؛ إنسانًا كانَ، أو حيوانًا، أو مكانًا، أوْ زمانًا[1] ومِن ثَمّ فما لَم تَكُن مُلازَمَةٌ، لا يُقالُ لها: صُحبَة، والطَّولُ - وهو القُدْرةُ البَدنيَّةُ والمادِّيَّةُ - شَيْءٌ عَرَضيٌّ، يَغدو ويَروحُ، ومَن سَرَّهُ بِهما زَمَنٌ ساءَتْهُ أزمانٌ.

فائدَةُ الجارِّ والمَجْرورِ ﴿مِنْهُمْ﴾:

تَخصيصُ المنافقينَ بِالذِّكرِ لِلإغْراقِ في ذَمِّهِم

قولُهُ تعالى: ﴿مِنْهُمْ﴾ تَخصيصٌ لَهم بِالذِّكرِ لِأنَّ الذَّمَّ لَهم أَلْزَمُ ولا سيَّما بَعْدَ سَماعِ القُرْآنِ[2]، لأنَّهُ كانَ المتَوَقَّعُ مِنهُم أنْ يَتَقدَّموا صفوفَ المجاهدينَ، لِأنَّهُمْ يَملِكونَ وَسائِلَ الجِهادِ والبَذْلِ، لا أنْ يتخاذلوا ويَعْتَذِروا، ويَقولوا ما قالوا ممّا يَدلُّ على جُبْنِهِم والْتِوائِهِمْ[3].

وهذا لَو كانَ النَّظرُ فيهِ إلى المُتَخاذِلينَ مِنَ المنافقين وغيرِهم؛ أمّا إذا كانَ المقصودُ خُصوصَ المنافقينِ، فَلا يُناسِبهُ هذا التّعليلِ، لِأنَّهم ما كانوا يَخْرجونَ لِلجِهادِ إلّا مُداراةً وطَمعًا في الغَنائمِ.

عَطْفُ جُملَةِ: ﴿وَقَالُواْ ذَرْنَا﴾ بالواو:

الزِّيادَةُ في المَعْطوفِ لِقَصدِ تَفْصيلِ المُجْمَلِ

عُطِفَت جُمْلَةُ ﴿وَقَالُواْ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَٰعِدِينَ﴾ عَلَى ﴿ٱسْتَـْٔذَنَكَ﴾ لِما بَيْنَهُما مِنَ المُغايَرَةِ في الجُمْلَةِ بِزيادَةٍ في المَعْطوفِ؛ لِأَنَّ الاسْتِئْذانَ مُجْمَلٌ، وَقَوْلَهُمُ المَحْكيَّ فيهِ بَيانُ ما اسْتَأْذَنوا فيهِ وَهوَ القُعودُ[4].

دلالَةُ الأَمْرِ في قولِهِ: ﴿ذَرْنَا﴾ وبَلاغَتُهُ:

الكَشْفُ عَنِ اسْتِخْفافِ المُنافِقينَ بِأوامِرِ اللهِ وفَضْحُ طَوِيَّتِهِمْ

في قَولِهِمْ: ﴿ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَٰعِدِينَ﴾ ما يَكشِفُ عَنِ اسْتِخفافِهِم

(1) الرّاغب، المفردات، ص: 457.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/570.
(3) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 6/374.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/289.

بِأمرِ اللّهِ، واسْتِرواحِهِمْ لِلتّحَلُّلِ مِنْهُ، حتّى لَيَهْنؤُهُمُ المقامُ، وتَطيبُ لهم الحياةُ، فيَقعدون مع القاعدينَ، ويَسمُرون معَ السّامرينَ، لاسيَّما مَعَ التَّعْبيرِ بـ: ﴿ذَرْنَا﴾ الَّذي تَدورُ مادَّتُهُ عَلى ما يُكْرَهُ[1].

تَلْفيقُ المنافقينَ لِلأعْذارِ الواهِيَةِ لِتَرْكِهِمْ في المَدينَةِ

الحاصِلُ: أنّ في نَظْمِ هذهِ الآيَةِ إيذانًا بِتَلْفيقِ مَعْذِرَتِهِمْ وأنَّ الحَقيقَةَ هي رَغْبَتُهم في القُعودِ، ولِذَلِكَ حُكيَ قَوْلُهم بِأنِ ابْتُدِئَ بـ ﴿ذَرْنَا﴾ المُقْتَضي الرَّغْبَةَ في تَرْكِهِمْ بِالمَدينَةِ بمَعيَّةِ القاعدينَ[2].

فائدَةُ قَوله: ﴿نَكُن﴾:

دلالَةُ صيغَةِ عُذْرِ المنافقينَ على ما يوافِقُ جِبِلَّتَهمُ السَّيِّئَةَ

أحالتِ الآيَةُ على ما تَضَمَّنَهُ اسْتِئْذانُهم مِنْ رَذائِلِ الأخْلاقِ ودَنايا الهِمَمِ المَحْكيِّ بِقَوْلِه: ﴿وَقَالُواْ ذَرْنَا﴾، أي: اتْرُكْنا ولَوْ عَلى حالَةٍ سَيِّئَةٍ ﴿نَكُن﴾ أيْ: بِما يوافِقُ جِبِلّاتِنا ﴿مَّعَ ٱلْقَٰعِدِينَ﴾، فالتّعْبيرُ بـ ﴿نَكُن﴾ يوحي بِطَبيعتِهِم المائلَةِ إلى القُعودِ، وجِبِلَّتِهِم الرّاكِنَةِ إلى التَّثاقُلِ والكَسَلِ.

دلالَةُ الظَّرفِ ﴿مَعَ﴾:

دلالَةُ المعِيَّةِ تُؤْذِنُ بِالإلْحاقِ والتَّبعِيّةِ

لَفْظَةُ ﴿مَعَ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ﴾ تُؤذِنُ بالإلحاقِ والتّبعيّةِ، أيْ: أنْ يَكون هؤلاءِ تَبَعًا لِلْقاعِدينَ الَّذينَ فيهِمُ العُجَّزُ والضُّعَفاءُ والجُبَناءُ[3].

ويُحتمَل أيضًا أنْ يكونَ هذا القولُ مِنهُم - بإيثارِ ﴿مَعَ﴾ - تمويهًا وتحايلًا، على مَعنى: نَحن لا نَتَعلَّل ولا نَخْتَلِق الأعذارَ، ولَيس قَصدُنا بالاستذان بالاسْتِئذانِ والقُعودِ التّخاذُلَ والرُّكونَ، بِدَليلِ أنّنا حالَ بَقائِنا في معيَّةِ القاعدينَ، سَنَقوم بِدورِنا تُجاهَهمْ، نَرعاهم ونَقوم على حِمايَتِهمْ ونَكونُ لَهم سَندًا وعضُدًا، ونَحو هذا مِنَ التَّبريراتِ الّتي يَسوقها أهلُ الخِذلانِ في المواقِفِ الجادَّةِ، لِيُبَرِّروا تَخاذُلَهُم وعدَمَ مروءَتِهِم.

(1) عبد الكريم يونس الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 861/4، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 570/8.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 289/10.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 289/10.

المُتشابِهُ اللَّفْظيُّ:

الزيادَةُ في مَباني الأخبارِ لِتأكيدِ غَرابَتِها

أمّا قولهُ تعالى: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ فَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ﴾ [التوبة: 124] فقد عُطِفَ عَلى قَوْلِهِ: ﴿وَإِذَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٌ أَنۡ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُواْ مَعَ رَسُولِهِ ٱسۡتَـٔۡذَنَكَ أُوْلُواْ ٱلطَّوۡلِ مِنۡهُمۡ﴾ [التوبة: 86]، وهذا عَوْدٌ إلى بَيانِ أحْوالِ المُنافِقينَ وما بَيْنَهُما اعْتِراضاتٌ، وهَذِهِ الآيَةُ المعطوفةُ زيدَتْ فيها (ما) عَقِبَ (إذا) وزيادَتُها لِلتَّأْكيدِ، أيْ: لِتَأْكيدِ مَعْنى (إذا) وهو الشَّرْطُ؛ لِأنَّ هَذا الخَبَرَ لِغَرابَتِهِ كانَ خَليقًا بِالتَّأْكيدِ، ولِأنَّ المُنافِقينَ يُنْكِرونَ صُدورَهُ مِنهم بِخِلافِ الآيَةِ السّابِقَةِ؛ لِأنَّ مَضْمونَها حِكايَةُ اسْتِئْذانِهِمْ وهم لا يُنْكِرونَهُ[1].

إعادَةُ جُملَةِ الشَّرْطِ لِبُعدِ ما بَيْنَ الجُملةِ المعْطوفَةِ وجُملةِ الجَزاءِ

وأمّا ما جاءَ في قولِهِ تعالى: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ نَّظَرَ بَعۡضُهُمۡ﴾ [التوبة: 127] فهو عَطْفٌ عَلى جُمْلَةِ ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ فَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمۡ زَادَتۡهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنٗاۚ﴾ [التوبة: 124]، وإنَّما أُعيدَتْ جُمْلَةُ الشَّرْطِ لِبُعْدِ ما بَيْنَ الجُمْلَةِ المَعْطوفَةِ وجُمْلَةِ الجَزاءِ، أوْ لِلْإشارَةِ إلى اخْتِلافِ الوَقْتِ بِالنِّسْبَةِ لِلنُّزولِ الَّذي يَقولونَ عِنْدَهُ: ﴿أَيُّكُمۡ زَادَتۡهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنٗاۚ﴾ [التوبة: 124]، وموجِبُ زيادَةِ (ما) بَعْدَ (إذا) في الآيَتَيْنِ مُتَّحِدٌ لِاتِّحادِ مُقْتَضيهِ[2].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الإنْزالُ والتَّنزيلُ:

الإنزالُ لِما يَكونُ دَفْعيًّا، والتَّنزيلُ لِما يَكونُ مُفرَّقًا مُتَدَرِّجًا

الإنزالُ: دَفْعيٌّ، والتَّنزيلُ: لِلتَّدْريجِ[3]، أيْ: أنّ كلمةَ (تنزيل) تَعْني النّزولَ عَلى عِدّةِ دُفْعاتٍ، وكلمةَ (إنزال) تَعْني: النّزولَ دُفْعَةً واحِدَةً، والتّنزيلُ لِلتَّكريرِ والتَّكثيرِ مِنَ الإنزالِ[4].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/64.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/68.
(3) العسكريّ، الفروق اللّغويّة بترتيب وزيادة، ص: 76.
(4) النّسفيّ، التّيسير في التّفسير: 1/252.

(أولو) و(ذَوو) و(أصحاب):

(أصحاب) يَكونُ لِلشَّيءِ المُلازِم، (وأولو) و(وذَوو) لِلعارِضِ

بِتدبُّرِ الفَرْقِ بَيْنَ (أولو) و(أصحاب) نَجِدُ أنَّ ما أُضيف إلى (أولو) هي أشياءُ مَعنويَّةٌ، ولَيْست مادّيَّةً، مِثل الألْبابِ والعِلم والقُربى والأرْحام والنُّهَى، أمّا ما أُضيف إلى (أصحاب) فَأشْياءُ مادّيَّةٌ مِثل: أَصحابِ مَدْيَن، الحِجْر، الكَهْف، السَّفينَة، الفيلِ، وحتّى أصْحاب السَّبْت.

أمّا لَفْظَةُ (ذوي) في قَولِهِ ﴿ذَوِي ٱلْقُرْبَىٰ﴾ [البقرة: 177] فقَدْ وَرَدتْ مَرَّةً واحِدةً، ولكنْ حينَ نَتدبَّرُ الصّيَغَ الأُخْرى الّتي وَرَدتْ فيها نَجِدُ: ذو عِلم، ذو الفَضْل، ذو انْتِقام، ذو الرَّحْمة، ذو عَدْل، ونجدُها جميعًا تَعْني: (الّذي لهُ كَذا أوِ الّذي عِنْدَهُ كَذا) فَذو العِلم هو مَنْ لَهُ وعِندهُ عِلمٌ.

ونَخلُص إلى أنّ (الصّاحب) يُطلَق عَلى المُلازِم؛ إنْسانًا كانَ، أوْ حيَوانًا، أوْ مَكانًا، أوْ زَمانًا[1] ومِن ثَمّ فما لَمْ تَكُنْ مُلازَمَةٌ لا يُقال لَها: صُحْبَة. بِخلافِ (أولي، وذوي) فيُضافانِ إلى الأَشياءِ العَرَضيَّة، فيُقال: أولو الألْبابِ، وذَوو مالٍ، ونَحوُ ذلِك ممّا لا تُضمَن مُلازَمَتُهُ مُلازَمَةَ الصّاحِب.

الطَّوْلُ والغِنى:

الـطَّـوْلُ مُطلَقُ القُدرَةِ والتّمَكُّنِ مِنَ الأشْياءِ

بَيْنَ الطَّولِ والغِنى عُمومٌ وخُصوصٌ مُطلَق؛ لأنّ مُسَمَّى الطَّوْل يَنْطَبِقُ على كلِّ مُفرداتِ الغِنى مِن حيْثُ كونُهُ زيادَةً وفَضْلًا، ويَرِد بِمعنى الغِنَى وسَعَةِ المالِ، ومنهُ سُمِّيَت القُدْرَةُ على الصَّداقِ طَوْلًا؛ لأنَّه إذا قَدِرَ على صَداقِها فقد طالَ عليها وزادَ، ويأْتي بِمعنى الفَضْلِ والمَنِّ.

(ذَرْ)، و(اتْرُكْ)، و(دَعْ):

الفِعلُ (ذرْ) يَدلّ على التّخلّي عَنِ الشَّيءِ إهمالًا لهُ؛ لِقلّة الاعتدادِ

(1) الرّاغب، المفردات، ص: 457.

انتِخَابُ ما يُفيدُ الـتَّـخَـلِّيَ مع الإهمال

بهِ، يُقال: فُلانٌ يَذرُ الشَّيءَ، أيْ: يَقذِفُهُ لِقِلَّةِ الاعْتِدادِ بِهِ، والوَذَرَة: قِطعَةُ اللّحْمِ، وتَسْميَتُها بذلك لِقِلّةِ الاعْتِدادِ بها[1].

والفِعلُ (دعْ) يَدلّ على تَرْكِ الشَّيءِ معَ الاهْتمامِ بِهِ والحِرصِ عَليهِ، ومنهُ الإيداعُ، والوَديعَةُ.

والتَّرْك أَعَمُّ؛ فهو مُطْلَقُ التَّخلّي عَنِ الشَّيءِ، سَواء أَكانَ المُتَخلّي حَريصًا عَلَيهِ، أمْ زاهِدًا فيهِ.

والفِعلُ (ترَك) مُتَصرِّفٌ تَصَرُّفًا تامًّا، والفِعلانِ (ذرْ) و(دَع) جاءَ مِنهُما المُضارِعُ والأَمْرُ، ولَم يَأتِ مِنهما الماضي في اللُّغَةِ المَشْهورَةِ، وقدْ جاءَ الماضي (وَدَعَ) في قِراءَةٍ شاذّةٍ: (مَا وَدَعَكَ) بِفَتْحِ الدّال والعَيْنِ المُخَفَّفَتَين[2].

(1) الرّاغب الأصفهانيّ، المفردات: (وذر).

(2) هي قِراءَةٌ شاذّة، نُسِبتْ إلى عُروة بنِ الزّبير، وابنهِ هِشام وأبي حيوة وأبي بحرية وابنِ أبي عبلة ومقاتل ويزيد النّحويّ ومجاهد وأبي البرهسم، وابنِ عبّاسٍ - فيما رواهُ عَنِ النَّبيِّ ﷺ - وعمر بنِ الخطّاب وأَنَس وأبي العالية وابن يعمر وأبي حاتم عن يعقوب، ينظر: عبد اللّطيف الخطيب، معجم القراءات: 10/479.

المحتويات

الجزء العاشر	**7**
سورة التّوبة	**9**
- [التَّوبة: 23]	10
- [التّوبة: 24]	21
- [التّوبة: 25]	36
- [التَّوبة: 26]	45
- [التَّوبة: 27]	55
- [التّوبة: 28]	64
- [التّوبة: 29]	88
- [التّوبة: 30]	107
- [التَّوبة: 31]	121
- [التوبة: 32]	132
- [التَّوبة: 33]	147
- [التَّوبة: 34]	159
- [التَّوبة: 35]	178
- [التَّوبة: 36]	191
- [التّوبة: 37]	207
- [التوبة: 38]	231
- [التوبة: 39]	243
- [التوبة: 40]	253
- [التّوبة: 41]	273
- [التّوبة: 42]	289
- [التّوبة: 43]	305
- [التّوبة: 44]	310
- [التّوبة: 45]	315
- [التّوبة: 46]	322
- [التّوبة: 47]	329
- [التّوبة: 48]	337
- [التوبة: 49]	348
- [التّوبة: 50]	357
- [التّوبة: 51]	366
- [التوبة: 52]	373
- [التّوبة: 53]	387
- [التّوبة: 54]	396
- [التّوبة: 55]	404
- [التّوبة: 56]	416
- [التّوبة: 57]	424
- [التّوبة: 58]	431
- [التّوبة: 59]	440
- [التّوبة: 60]	448
- [التّوبة: 61]	459
- [التّوبة: 62]	474
- [التّوبة: 63]	489
- [التّوبة: 64]	504
- [التّوبة: 65]	523
- [التّوبة: 66]	532
- [التّوبة: 67]	543
- [التّوبة: 68]	559
- [التَّوبة: 69]	569
- [التَّوبة: 70]	593
- [التَّوبة: 71]	606
- [التَّوبة: 72]	619
- [التوبة: 73]	631
- [التوبة: 74]	646
- [التّوبة: 75 - 77]	670
- [التّوبة: 78]	686
- [التّوبة: 79]	693
- [التوبة: 80]	702
- [التوبة: 81]	719
- [التوبة: 82]	739
- [التوبة: 83]	749
- [التوبة: 84]	767
- [التوبة: 85]	778
- [التّوبة: 86]	793

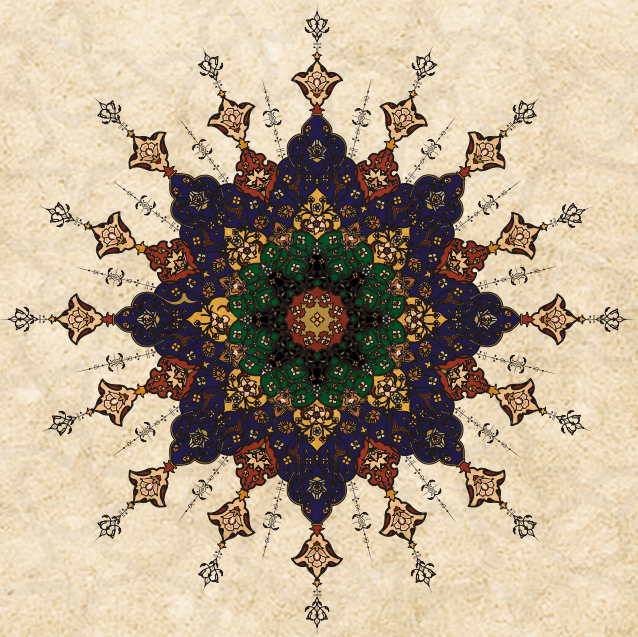

مجمع القرآن الكريم بالشارقة

موسوعة التفسير البلاغي

المُجَلَّدُ الثَامِنَ عَشَرَ

سورة التوبة من الآية 87 إلى سورة يونس الآية 14

موسوعة التفسير البلاغي

حكومة الشارقة
Government of Sharjah
مجمع القرآن الكريم بالشارقة
HOLY QURAN ACADEMY IN SHARJAH

موسوعة التفسير البلاغي

المُجَلَّدُ الثَّامِنَ عَشَرَ

سورة التوبة من الآية 87 إلى سورة يونس الآية 14

نُخْبَةٌ مِنْ عُلَماءِ مَجْمَعِ القُرْآنِ الكَرِيمِ بِالشّارِقَةِ

منشورات القاسمي
AL QASIMI PUBLICATIONS
2024

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثامن عشر، سورة التوبة من الآية 87 إلى سورة يونس الآية 14
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الثامن عشر، سورة التوبة من الآية 87 إلى سورة يونس الآية 14 [إشراف
مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 18 ، 800 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-15-9
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 18 : المجلد الثامن عشر، سورة التوبة من الآية 87 إلى سورة يونس الآية 14.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-768-15-9
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-0758707 بتاريخ 2024/01/31م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الجُزْءُ العَاشِرُ

سُورَةُ التَّوبَةِ

﴿رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلۡخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَهُمۡ لَا يَفۡقَهُونَ ٨٧﴾ [التّوبة: 87]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

كشفُ دواخِلِ المُتَخلِّفينَ عن الجِهَادِ، وربطه بعدم الفقه، والطّبع على القلوب

ذكرت الآيات السّابقة حال المُخلّفين عن الجهاد مع رسول الله ﷺ وفرحَهم بمقعدهم خِلَاف رسول الله، واستئذانَ أولي الطَّول منهم رسولَ الله ﷺ بأنْ يكونُوا مع القاعدين عن الجهاد، فجاءت هذه الآية لتَصِف دواخل نفوسهم؛ بأنّهم قد رضوا هذا الحال بأنْ يكونوا مع الخوالف، فأدّى ذلك إلى الطَّبع على قلوبهم المريضةِ.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿رَضُواْ﴾: جذر الكلمة هو (رضي)؛ رضيتُ الشَّيء ورضيتُ به رِضًا: اخترتُه وارتضيتُه[1]؛ والرِّضَا خلافُ السَّخَط[2]. قال تعالى: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ﴾ [المائدة: 119 والتّوبة: 100]، ورضا العبد عن الله أن لا يَكره ما يجري به قضاؤه، ورضا الله عن العبد أن يراه مؤتمِرًا لأمره، ومنتهيًا عن نهيه[3]. وقوله تعالى: ﴿رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلۡخَوَالِفِ﴾ هو الارتياح النّفسيُّ والاطمئنان للقعود عن الجهاد، واختيار معيّة الخوالف على معيّة الرّسول ﷺ.

2) ﴿ٱلۡخَوَالِفِ﴾: جذر الكلمة هو (خلف)؛ الخَلْفُ: ضدُّ قُدّام[4]. وخَلَفَ فلانٌ بعقب فلانٍ إذا خالَفَه إلى أهله[5]. قال تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ﴾ [الأعراف: 169]. ويُقال: هؤلاء خَلْفُ سوءٍ، وهذا خَلْفُ سوءٍ[6].

(1) الفيوميّ، المصبَاحُ المُنير، والرّازيّ، مختار الصّحاح: (رضي).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والفيوميّ، المصباح المنير: (رضي).
(3) الرّاغب، المُفردات: (رضي).
(4) الأزهريّ، تهذيبُ اللّغة: (خلف).
(5) الخليل، العين: (خلف).
(6) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (خلف).

وَفُلَانٌ خالِفةٌ من الْخَوَالِف إذا كَانَ لَا خير عِنْده[1].قال مجاهد وقتادة: الخَوالِفُ: النِّسَاء، وقال غيرهما: الخَوالِفُ: أخسَّاءُ بعضِ النَّاس وأردياؤهم، ووَجَدْتُّ الحيَّ خَلُوفًا أي: تخَلّفت نساؤهم عن رجالهم[2].

3) ﴿وَطُبِعَ﴾: الطبعُ؛ أي: الختمُ، ومنه قولهم: ضَعْ عليه طابعًا؛ أي: خاتمًا[3]. الطَّبْعُ: الوسَخُ الشّديدُ على السَّيف. والرّجُلُ إذا لم يكن له نفاذٌ في مكارِمِ الأُمور، كما يَطْبَعُ السَّيفُ إذا كَثُرَ عليه الصّدأ[4]. والطَّبْعُ: الختم على الشّيء. وطُبِعَ على القلوب: خُتِمَ عليها[5]. والمعنى في الآية: أنَّ السُّوء قد أصبح مقبولًا عندهم، مَرْضيًّا في نفوسهم، وكأنّه طَبْعٌ من طبائعهم.

4) ﴿يَفْقَهُونَ﴾: جذر الكلمة هو (فقه)؛ والفِقْهُ: العِلْم في الدّين. يُقالُ: فَقُهَ الرَّجلُ يَفْقُهُ فِقْهًا فهو فَقيهٌ. وفَقِهَ إذا فَهِمَ. وأفقهْتُه: بَيَّنْتُ لهُ[6]. وفقِه الشَّيءَ: عَلِمَه[7]. الفقه: فَهْمُ الشَّيءِ، قال ابن فارس: وكلُّ عِلْمٍ لشيءٍ فهو فِقْهٌ[8]. واشتقاق الفقه من الشَقِّ والفَتح للنَّفاذ إلى باطن الشَّيء[9]، والمعنى المحوريُّ للفقه: وصولٌ إلى حقيقةِ باطن الشَّيء[10]، والفِقهُ يكونُ نتيجة التّدبّر والتّفكُّر في الشَّيء.

المَعْنى الإجْماليُّ:

رضي المنافقون؛ الّذين إذا قيل لهم: ﴿ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُواْ مَعَ رَسُولِهِ﴾، بالتّخلّف عن رسول الله، وعن الجهاد معه، فأتى أهل الغِنَى

رضاء المُنافقين بالدّنايا من القول والعمل، أفضى إلى الطّبع على قلوبهم المريضة

(1) ابن دريد، جمهرة اللّغة: (خلف).
(2) الرّاغب، المفردات: (خلف).
(3) مُعمَّر بن المُثَنَّى، مجاز القرآن: (طبع).
(4) الخليل، العين: (طبع).
(5) الخليل، العين، وابن سِيده، المُحكم، والزّمخشريّ، أساس البلاغة: (طبع).
(6) الخليل، العين: (فقه).
(7) ابن سِيده، المُحكم: (فقه).
(8) الزّمخشريّ، أساس البلاغة: (فقه).
(9) ابن منظور، لسان العرب: (فقه)، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (فقه).
(10) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (فقه).

منهم يستأذنون الرّسول في التَّخلّف عن الغزو والخروج معه لقتال أعداء اللّه من المشركين، واختاروا أن يبقَوا في منازلهم مع الخَوالف من النّساء والوِلْدَانِ، وفرحُوا بما نالُوه من الرَّاحة؛ ظانّين أنَّه سبيلُ النّجاة، فكشفت الآية عن خبايا نفوسهم ودواخلهم، وبيّن سبحانه ما أحدثه هذا الاختيار في قلوبهم من الطَّبعِ عليها، وهو الختمُ وعدمُ التَّوفيق للإيمان، فصارَ النِّفاق طبعًا من طِباعهم، وفقدوا القُدرة على التّفكّر الّذي يؤدّي إلى الإنابة والتّوبةِ[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالة الاستئناف بـ: ﴿رَضُواْ﴾:

الرّضا بدناءة النّفس، والمُقام مع الخوالف، من السّفه والطّيش

وبيان ذلك أنَّ قوله: ﴿رَضُواْ﴾ موقعُه استئنافٌ، كأنَّه قيل: ما بالهم استأذنوا وهم أغنياء؟ فقيل: رضوا بالضَّعة والانتظام في جملة الخوالف[2]. فهو استئنافٌ قُصِدَ منه التَّعجيب من دناءة نفوسهم وقلّة رجولتهم؛ إذْ رضوا لأنفسهم أنْ يكونوا تبَعًا للنّساء[3]، أو في معيّتهم، دون عذرٍ يمنعهم من الخروج للقتال والدّفاع.

سرُّ العدول إلى الإخبار برضاهم، أنْ يكونوا مع الخوالف:

تخلُّفهم بسببِ رضاهم بالقعودِ مع الخالفين

عَدَلَ النَّظم الكريم عن الإخبار بالتَّخلُّف، إلى الإخبار بالرّضا، لبيان أنَّ تخلّف هؤلاء كان رضًا واختيارًا منهم، وهو يعكس دناءة أنفسهم، ورضاهم واختيارهم أن يفعلوا أفعال النّساء، أو أن يُوصفوا بأوصافهم، وأن يتخلّفوا عن أفعال الرّجال، من الجهاد والدّفاع والمَنَعَة، وهو من أقبح ما يكون.

إيثارُ التَّعبير بلفظ ﴿رَضُواْ﴾:

الفرق بين الرّضا والقبول: أنّ الرِّضا إنَّما يكون رغبة قلبيّة، وأمّا

(1) ابن جرير، جامع البيان: 14/412، والنّسفيّ: مدارك التّنزيل: 1/702.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/286.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/289.

القبول فقد يكون موافقةً دون تلك الرَّغبةِ القلبيّةِ، فقد يكون القبول موافقةً على مضَضٍ، ولذلك فقد أُوثر التّعبير بالرّضا دون القبول. "وفي اختيار فعل ﴿رَضُواْ﴾ إشعارٌ بأنّ ما تلبَّسُوا به من الحال من شأنه أن يتردّد العاقل في قبوله كما تقدّم في قوله تعالى: ﴿أَرَضِيتُم بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِۚ﴾ [التّوبة: 38]، وقوله: ﴿إِنَّكُمۡ رَضِيتُم بِٱلۡقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٖ﴾ [التّوبة: 83]"[1].

ما رضُوه لأنفسهم، يتردَّدُ العاقل في قبوله

دلالة تكرار وصف المنافقين، باللّفظ ﴿رَضُواْ﴾:

تضمّنت سورة التّوبة براءةً من المنافقين؛ واستحقاق البراءة منهم بيانٌ لما ارتضته أنفسُهم من الدّناءة، وما ارتاحت إليه دواخلهم؛ إذْ فضحت السّورةُ تلك السّرائر بألفاظٍ لم تَرِدْ في سور القرآن الكريم الأخرى، فذكر هنا ﴿رَضُواْ﴾ لبيان قناعة نفوسهم بعدم الإيمان واختيار سبيل الشَّيطان، وذلك هو الطّبعُ على القُلوب، فاستحقّوا البَراءَة من اللّه؛ ومنه سُمِّيت سورة التّوبة بسورة براءة. ولمَّا كان حالُهم كحال الكافرين بالآخرة ذُكر الفعل ﴿وَرَضُواْ﴾ أيضًا في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُواْ بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَٱطۡمَأَنُّواْ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ﴾ [يونس: 7].

سورة التّوبة هي سورة البراءة من المنافقين

دلالة (الباء) ومعناها: ﴿بِأَن﴾:

يتعدَّى الفعل (رضي) بالباء، فيُقال: رضي به، كما يتعدّى بنفسه، فيُقال: رضِيَه، ولم تُفَرِّق المعاجم بينهما، كما جاء في المصباح المنير: رَضِيتُ: الشيءَ ورَضِيتُ به رِضًا: اخترته[2].

تأكيد رضاهم بالقرار الفاسد الّذي اتّخذوه

ولكنَّ دخول الباء على المصدر المؤوَّل هنا ﴿بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلۡخَوَالِفِ﴾ يدلُّ على قَبولهم الدُّونيّة، واختيارهم ما يُحيط بكونهم من الخوالف؛ فهي تعكس إصرارهم على القَرارِ الذي اتّخذوه

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/289.
(2) الفيوميّ، المصباح المنير: (رضي).

بالرّضا، والنّاشئ عن الاعتقاد الفاسد بعدم الجدوى من الخُروجِ مع النّبيّ ﷺ والجهاد معه.

فائدة التّعبير بقوله: ﴿بِأَن يَكُونُواْ﴾:

فائدة التّعبير بقوله: ﴿بِأَن يَكُونُواْ﴾ هو لدلالة استحسان القُعود، واستحسان القُعود آتٍ من قناعتهم بعدم صدق الرّسالة والرّسول، فاختاروا عدم الخروج للقتال والدّفاع لِما رأوه واعتقدوه: بأنّ عدوّ الرّسول ليس عدوّهم، وقضيّة الإيمان والتّوحيد ليست قضيّتهم، فاختاروا ما يُحقِّقُ لهم الرّضا النّفسيَّ والاعتقاديَّ، وانحازوا بعيدًا عن معيّته ﷺ إلى معيّة الخوالف، وهكذا فإنّ (الكينونة) في الآية اختيار اعتقاديّ محض.

الكَينُونةُ هنا، اختيارٌ اعتقاديّ محضٌ

إيثار التّعبير بالظّرف ﴿مَعَ﴾:

أفاد التّعبير بـ ﴿مَعَ﴾ بشاعة ما اقترفَته نفوسهم من تركٍ لمعيّة الرّسول ﷺ والانحياز إلى معيّة الخوالف، فهم ليسوا في الأصل من الخوالف، فالخوالف هم النّساء اللّاتي جلسن في بيوتهن تاركاتٍ رجالهنَّ مع رسول الله ﷺ ليُقاتِلوا معه، فهؤلاء ﴿رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلۡخَوَالِفِ﴾؛ لأنّهم انضمّوا إلى الخوالف من النّساء بكلِّ رضًا وراحة نفسٍ، ورضوا بالقعود دون عذرٍ؛ واختاروا لأنفسهم أن يكونوا مع مَنْ شرّع لهم الله عُذر القعود لضعفهن وطبيعة خَلْقهن؛ وهنّ النّساء. ولذلك سبقها بـ ﴿مَعَ﴾ دون (من)، ولأنَّهُم هم المُخلّفون عن القتال دون عذرٍ أو حُجَّةٍ، على خلاف الخوالف، فهم ليسوا منهم بل هم معهم.

تـــرك مـعـيَّـة الرَّسُول الأكرم، والتّشبّث بمعيَّةِ الخَوالِف، تؤكّد عدم فقههم

سرّ اصطفاء صيغة الجمع في ﴿ٱلۡخَوَالِفِ﴾:

لفظة ﴿ٱلۡخَوَالِفِ﴾ أمكَنُ من (المُتخلِّفينَ)؛ إذْ هم مفعولٌ بهم ذلك، فخرج من ذلك الثّلاثةُ وأصحابُ العُذْر[1]. فلا يكون أصحاب

الـخَـوَالـف هـنَّ الـنِّـســاء أو الأطـفـال، ممّن لا قدرة لهم على القتال

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/474.

الأعذار من الرّجال كالمرضى والفقراء منهم، فـ ﴿ٱلۡخَوَالِفِ﴾ هم الذين أرغمتهم طبيعة خِلْقَتِهم على القعود وعدم الخروج للقتال مع رسول الله ﷺ وهنّ النّساء، فلا يدخل جنس الرّجال معهم.

دلالة (الْ) على التّعريف، في ﴿ٱلۡخَوَالِفِ﴾ وفائدتها:

الخوالف هنَّ النّساء اللّاتي لا يملكن سوى القعود في البيوت ومداراة الأولاد، قال تعالى: ﴿رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلۡخَوَالِفِ﴾، و(اللّام) في قوله: ﴿ٱلۡخَوَالِفِ﴾ للتّعريف، فالمعرفة لما هو محدّد معلوم أنّ الخوالف هنَّ النّساء اللّاتي يخلُفْنَ أزواجَهنَّ الّذين يذهبون إلى القتال. وفائدة التّعريف أنّ هؤلاء الخوالف معروفون في المجتمع فهذا هو شأنهم وهذه هي طاقتهم، فما بال الّذين يقدِرون على القتال أن يرضوا بأن يكونوا معهم، تاركين معيَّةَ الرّسول ﷺ والمجاهدين في سبيل الله من المؤمنين الصَّادقين. فقوله: ﴿رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلۡخَوَالِفِ﴾ تقريعٌ وإظهارُ شُنْعَةٍ، كما يُقال على وجه التَّعْيير: رضيتَ يا فلانُ كذا؟[1].

الخوالف هم الّذين لا يملكون، طاقة القتال في أصل خلقتهم

غرض التَّعبير بالكناية عن النّساء، ﴿ٱلۡخَوَالِفِ﴾:

في قوله تعالى: ﴿مَعَ ٱلۡخَوَالِفِ﴾؛ فـ (الْخَوَالِف) جمع خالفة، وهي المرأة، وليس في ذلك ذمًّا للمرأة في شيء؛ بل قد تكون في موضع مدحٍ لهنّ لما قدّمْنَ من عمل صالح وحفظٍ للرِّجَال في بيوتهم وأولادهم وأعراضهم، ولكنْ إذا وُصف الرِّجال بالخوالف فذلك تشنيعٌ بهم وتعييرٌ لهم. وقد يُقال للرّجل: خالِف وخالِفة، ولا يُجمع المُذكَّر على خوالف[2]. فـ ﴿ٱلۡخَوَالِفِ﴾ كنايةٌ عن النّساء[3]، اللّواتي يتخلّفْنَ عن المجاهدين، وهي كناية عن موصوف؛ إذْ ذكر صِفَتهم. وقوله تعالى: ﴿رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلۡخَوَالِفِ﴾ فيه وجهان:

وصف النّساء بلفظ (الخوالف)، لا يُنقص من قدرهنَّ شيئًا

(1) ابن عطيَّة، المُحرَّر الوجيز: 3/68.
(2) العُكبُريّ، التِّبيان في إعراب القرآن: 2/654.
(3) ابن عطيّة، المحرَّر الوجيز: 3/77.

الأوَّل: قال الفرّاء: الخوالف: النّساء اللّاتي تخلَّفنَ في البيت فلا يَبرحن، والمعنى: رضوا بأن يكونوا في تخلُّفهم عن الجهاد كالنِّساء"[1].

والثّاني: قال أبو جعفر النّحّاس: يُقال للرّجل الّذي لا خير فيه: خالفة، فهذا جمعه بحسب اللّفظ؛ والمراد: أخِسّةُ النّاس وأخَالفُهم، ﴿ٱلۡخَوَالِفِ﴾: مَن لا خير فيه[2]. قال الرّازيّ: "المقصود منه التَّنبيه على ذمِّهم وإلحاقهم بالنّساء والصّبيان والعاجزين الّذين شأنهم القعود في البيوت، وهم القاعدون"[3]. ولم يأتِ فاعلٌ صيغةُ جمعه فواعل، إلا حرفان: فارسٌ وفوارس، وهالكٌ وهوالك"[4]. وهذا القول هو الأَوْلى، لأنَّه أدلُّ على القلّة والذّلّة. وكان يصعب على المنافقين تشبيههم بالخوالف[5].

نكتة عدم التّصريح بلفظ (النّساء):

لم يُصرّح بالنّساء، ولكن كَنّى عنهن بالخوالف؛ لأنَّ بعض النّساء كُنّ يشاركن في القتال مع المجاهدين في تطبيب الجَرحى، وتأمين الطَّعام والأقواتِ لهم، أمّا الخوالف فهنّ اللّواتي يبقين في ديارهنَّ لمُدَارَاة الأطفال ورعاية شؤون المنزل؛ وحفظ بيوت أزواجهنّ في غيابهم.

ليس جميع النّساء من الخوالف، إذ منهنّ من كان لها دور في المعارك

الغرض من التَّعبير بالاستعارة في ﴿وَطُبِعَ﴾:

قوله: ﴿وَطُبِعَ﴾ في هذه الآية مستعارٌ، فلمّا كان (الطَّبع) على الصَّوَّان والكِتاب مانعًا منه، وحافظًا عليه، لا يُصيبه تغيير، فشبَّه القَلب الّذي قد غشيه الكُفر والضَّلال حتّى منع الإيمان والهُدى منه بالصَّوَّان المطبوع عليه، ومن هذا استعارة القُفل والكِنان للقلب[6]. استعارة مكنيّة أفادت ثبات قلوبهم على حالة الضّلال، فلا يُحتمل

الطّبعُ على القلوب، دلالة الإصرار على الضّلال

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 16/119.
(2) ابن عطيّة، المُحرَّر الوجيز: 3/77.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 16/62.
(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 16/119.
(5) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 16/119.
(6) ابن عطيّة، المُحرَّر الوجيز: 3/77.

أن تأتيها الهداية، وذلك لِمَا اختاروه لأنفسهم من الكُفر والضّلال ومجانبة الحقّ وأهله "قال الحسن: الطَّبع عبارةٌ عن بلوغ القلب في الميل في الكفر إلى الحدِّ الّذي كأنَّه مات عن الإيمان"[1]. "و(الطَّبع) تمثيلٌ لحال قلوبهم في عدم قبول الهُدى بالكتاب المختوم، والطَّبع مرادفُ الخَتْم"[2].

دلالة الواو العاطفة: ﴿وَطُبِعَ﴾:

قوله: ﴿رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾، الواو للعطف، وفائدة الوَصْل بينهما أنّ الأولى بيّنت ما هم فيه من الرّضا، بأخسّ ما يمكن أن يقع فيه الرّجال من الهوان والاطمئنان والرّكون إلى ذلك الحال، فبيّنت حالة النّفس ودواخلها؛ قال تعالى: ﴿رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ﴾، والجملة الأخرى قوله تعالى: ﴿وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾؛ بيّنت حالات القلوب التي نتجت عن ذلك الرّضا والهوان النّفسيِّ الّذي تحوّل إلى طبعٍ على القلوب وخَتْمٍ عليها، فلا يميزون بين حقٍّ وباطلٍ. فكانت الآيتان كالسَّبب والنَّتيجة. ويمكن أن تكون الواو للتفريع فيكون قد فرَّع على الطَّبع انعدام علمهم بالأمور الّتي يختصّ بعلمها أهل الأَفْهام، وهو العلم المُعبّر عنه بالفقه؛ أي: إدراك الأشياء الخفيّة؛ وذلك ممّا يُكرِمُ الله به عباده المؤمنين من أنوار القلوب؛ فقد آثر هؤلاء الدَّعَةَ على سُمعةِ الشّجاعة، والرّاحة على ثواب الجهاد؛ لأنّهم لا يفقهون ما يمكن أن يُصيبهم من الفضل بجهادهم مع رسول الله ﷺ؛ إذ لم يُدركوا إلاّ المحسوسات، فلم يكونوا فاقهين، وذلك أصل جميع المَضارِّ في الدَّارَيْن[3].

عطف الجملتين مع تكامل المعنى، يجعل الجملتين كالسَّبب والنَّتيجة

دلالة التَّعبير بحرف الاستعلاء ﴿عَلَىٰ﴾:

فائدة حرف الجرّ في قوله: ﴿عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ أنّه يجرُّ معاني

الخَتْم مُهيمنٌ على قلوبهم، وطامسٌ لبصائرهم

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 16/119.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/289 - 290.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/289 - 290.

الأفعال إلى الأسماء؛ أي: توصُّلها إليها[1]، فهو يُوصل معنى الخَتْم إلى القُلوب، فيكونُ الخَتْمُ مُهيمنًا على قلوبهم، وحرف الجرّ (على) للاستعلاء حقيقيًّا كان أم مجازيًّا، ولفظها يدلّ على ذلك؛ فهو من العُلوّ، وفي ذلك الاستعلاء معنى القوّة في الختم، ما يستدعي ثبات الخَتْمِ على تلك القلوب.

دلالة (الفَاء) في: ﴿فَهُمْ﴾:

الطّبع المنحرف، يُنتج عدم الفقه، وقلّة الفهم

تسبَّب الخَتْم على القلوب في حرمانهم، وحجز قلوبهم عن فقه الأمور على حقيقتها؛ فكأنّ القُلوب قد أُقفلت؛ قال تعالى: ﴿أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾؛ فلا يكون منها الفقه، ولا يكون منها الرّجوع ولا الإنابة.

الغرض من التَّعبير بالجملة الاسميَّة ﴿فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾:

الرّبطُ بين الطَّبع على القلب، وعدم الفقه

قوله: ﴿فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾، تذييلٌ لما سبق من الكلام، فاختُصر الطّبع بعدم الفقه، واختُصرت أفعالهم ممّا اقترفوه من الدَّناءة في حُبِّ القُعود مع الخَوالِف وتَرْكِهم معيّة الرّسول والخروج للجهاد بقوله: ﴿فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ فحِيل بين قلوبهم وبين الفقه، والفهم والوعي، وخسروا ما خسروه من الخير في دنياهم وآخرتهم، والغرض من التّعبير بالجملة الاسميّة وصفهم بعدم الفقه على الدّوام والاستمرار، وفيه تيئيسٌ من الطَّمع في هدايتهم.

سرُّ التَّعبير بلفظ ﴿لَا يَفْقَهُونَ﴾:

الفقه علمٌ ناتجٌ عن جهد يبذله الفرد، به تعرف الحقائق، ويدرك السّبيل

الفقه هو العلم النّاتج عن التّفكّر والتّدبّر في الأمور والأحداث على خلاف العلم، ولذلك فإنّ العلم من صفات اللّه، والتّفكّر ليس من صفاته سبحانه؛ بل هو من صفات العُقلاء من خلقه، فلمّا جاء الطَّبع بحسب البناء على ما لم يُسمّ فاعله ناسَبَ أنْ يُذكر الفقه دون العلم، وهذا على خلاف ما سيأتي من ذِكْر العلم مع تسمية الفاعل وهو اللّه تعالى في الآية (93).

(1) الرّضيّ، حاشية الرّضيّ: 2/354.

دلالة تقديم المُسنَد إليه ﴿فَهُمۡ﴾، على خبره الفعليّ ﴿لَا يَفۡقَهُونَ﴾:

القلوب المطبوعُ عليها، لا تفقه المكارمَ ولا تعي القِيَم

قُدِّمَ المسنَد إليه على خبره الفعليِّ و"جيء في إسناد نفي الفقاهة عنهم بالمُسنَد الفعليِّ للدّلالة على تقوّي الخبر وتحقيق نسبته إلى المُخبَر عنهم وتمكّنه منهم[1]. وجاءت تقوية الخبر من الإسناد مرتين: مرةً لخبر المبتدأ، ومرةً لإسناد الفعل إلى الضَّمير العائد على المُسْند إليه، والفعل المُضارع المنفيُّ لدلالة نفي احتمال فقهِهم في الاستقبال، فَوَقَع الطَّبْعُ على قلوبهم؛ فلا يتجدّد شيءٌ في قُلوبهم يُحدثُ الفقه وصحَّة النّظر.

الغرض من حذف مفعول ﴿يَفۡقَهُونَ﴾:

الطّبع على القلب، ينفي الإيمان، والمَيل إليه

وقوله: ﴿وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَهُمۡ لَا يَفۡقَهُونَ﴾؛ أي: لا يفقهون ما في الجهاد وموافقة الرَّسول من السَّعادة، وما في التّخلُّف عنه من الشَّقاوة[2]. فحُذف مفعول ﴿يَفۡقَهُونَ﴾، وهذا إيجازٌ بالحذف، وفائدته العموم، بانتفاء فِقههم كلّ نافعٍ يؤدّي إلى الإيمان والإنابة إلى اللّه تعالى.

بلاغة التَّعريض:

الإعراض عن معيّة الرّسول الأكرم، إعراضٌ عن الإيمان بالله وبرسالته

في الآية تعريضٌ بأنَّ القوم ليسوا من الإيمان باللّه تعالى في شيء، وإن لم يُعرضوا عنه صريحًا، فهم قد أعرضوا عن الإيمان، بإعراضهم عن الجهاد واستئذانهم في القعود[3].

توجيه المتشابه اللّفظيّ:

تنوّعُ أسباب الطّبع على القلوب ومظاهره

قوله تعالى في هذا الموضع من سورة التّوبة في قوله: ﴿وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَهُمۡ لَا يَفۡقَهُونَ﴾ [التّوبة: 87]، وبين ﴿وَنَطۡبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ﴾ [الأعراف: 100]، ﴿ثُمَّ كَفَرُواْ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَهُمۡ لَا يَفۡقَهُونَ﴾

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/290.
(2) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/92.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 5/344.

[المنافقون: 3]. ففي سورة الأعراف قال تعالى: ﴿فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ لأنّها سبقت بالإصابة بالذّنوب، قال: ﴿أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْۚ﴾؛ أي: إنّ ذنوبهم كثُرت وطغت على أعمال مُقترفيها، حتّى أصبحوا وكأنّ في آذانهم وقرًا، فلا يستمعون لقول الحقّ، وهذا وجهٌ من أوجه الطّبع على القلب، ومَظهرٌ من مظاهره. ومن دواعي الطّبع على القلب الكُفر بعد الإيمان، كما جاء في سورة المُنافقون، ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [المنافقون: 3]. فالكُفر بعد الإيمان هو سبب الطّبع على القلوب.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الرِّضَا والقَبولُ:

الرّضا فوق القبول، وهو مرحلة عاليةٌ عليه، فالرِّضا قَبول العقل مشفوعٌ بقَبول النّفس، وراحة داخليّة، أمَّا القبول فهو الإيجاب والموافقة من جهة العقل، وقد تكون النّفس راضية أو كارهة.

الرّضا قبول العقل، مشفوع بقبول النّفس وراحتها

الطَّبعُ والختْمُ:

الطَّبعُ أثرٌ يَثبت في المطبوع ويلزمه؛ فهو يفيد معنى الثّبات واللّزوم ما لا يُفيده الخَتْم، ولهذا يُقال: طَبَع الدّرهم طَبْعًا. وهو الأثر الّذي يتركه فيه فلا يزول عنه، كذلك أيضًا قيل: طَبْع الإنسان لأنّه ثابت غير زائل، وقيل: طُبع فلانٌ على هذا الخُلُق إذا كان لا يزول عنه، والطَّبع علامةٌ تدلُّ على كُنْه الشَّيء، وطَبْعُ الإنسان لدلالته على حقيقة مزاجه من الحرارة والبرودة، وطَبْعُ الدّرهم علامة جوازه[1]. أمّا الخَتْم فيُنبئ عن إتمام الشَّيء وقطع فعله وعمله؛ تقول: ختمتُ القرآن؛ أي: أتممتُ حفظه، وقرأتُه[2]. قال تعالى: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ

الطَّبع أثبتُ وألزَمُ من الخَتْم

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 336.
(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 212.

قُلُوبِهِمْ﴾ [البقرة: 7]، إشارة إلى ما أجرى الله به العادة؛ أنّ الإنسان إذا تناهى في اعتقاد باطل أو ارتكاب محظور - ولا يكون منه تلفّت بوجه إلى الحقّ - يُورثه ذلك هيئة تُمَرِّنه على استحسان المعاصي، وكأنّما يختم بذلك على قلبه[1].

(1) الرّاغب، المفردات، ص: 160.

﴿لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ جَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡخَيۡرَٰتُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ٨٨﴾ [التّوبة: 88]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

مناسبة ذِكْر المنافقين وحالهم البئيس، ثمّ ذِكْر جهاد النّبيّ والّذين آمنوا، للبشارة والتّأنيس

قال الفخر الرّازيّ: "لما شرح حال المنافقين في الفرار عن الجهاد بيّن أنَّ حال الرَّسول والّذين آمنوا معه بالضّدّ منه، حيث بذلوا المال والنَّفس في طلب رضوان الله والتَّقرُّب إليه" وقال البقاعيّ: [1]" ولمَّا افتتح القصّة بمدح المتَّقين لمسابقتهم إلى الجهاد من دون استئذان ختمها بذلك وذَكَر ما أُعدّ لهم، فقال مُعْلِمًا بالغِنَى عنهم بمَنْ هو الخير المحضُ تبكيتًا لهم وتقريعًا"[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿جَٰهَدُواْ﴾: جذر الكلمة هو (جهد): "الجَهْدُ: ما جَهَد الإنسانَ من مَرَضٍ، أو أمرٍ شاقٍّ فهو مَجهودٌ، والجَهْدُ: بلوغُكَ غايةَ الأمرِ الّذي لا تألو عن الجهد فيه. تقول: جَهَدْتُّ جَهْدي، واجتهدتُ رأيي ونفسي حتّى بلغتُ مجهودي. وجَهَدْتُ فلانًا: بلغتُ مشقَّته. وجاهدتُّ العدوَّ مُجاهدةً، وهو قتالُك إيّاه"[3] والجُهْد: الطّاقة[4]، وبلغ جُهْدَه ومجهوده؛ أي: طاقَته، وجُهَادَاك أنْ تفعل كذا؛ أي: جُهْدُك وغايتُك[5].

2) ﴿ٱلۡخَيۡرَٰتُۖ﴾: جذر الكلمة هو (خير)؛ الخير: ضدُّ الشَّر، وجمعه: خُيور[6]. وفي التَّنزيل ﴿مَا كَانَ لَهُمُ ٱلۡخِيَرَةُۚ﴾ [القصص: 68]، والخَيْرُ

(1) الفخر الرازيّ، مفاتيح الغيب: 16/119.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 8/570.
(3) الخليل، العين: (جهد).
(4) ابن سِيدَه، المُحكم: (جهد).
(5) الزّمخشريّ، أساس البلاغة: (جهد).
(6) ابن سِيدَه، المُحكَم: (خير).

ضدُّ الشَّرِّ وبابه: باع، قال تعالى: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡخَيۡرَٰتُۖ﴾ [التّوبة: 88]، جمع خَيْرَة وهي الفاضلة من كلِّ شيءٍ، وقال: ﴿فِيهِنَّ خَيۡرَٰتٌ حِسَانٌ﴾ [الرحمن: 70][1].

3) ﴿ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾: جذر الكلمة هو (فلح)؛ فلح: الفَلاحُ والفَلَحُ لغة: البقاء في الخَير[2]، وفَلاحُ الدَّهْر: بَقاؤه. وحَيَّ على الفَلاح؛ أي: هَلُمَّ على بقاء الخير"[3]. الفلح والفلاح: البقاء في النَّعيم والخير. وفي التّنزيل: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ [المؤمنون: 1]؛ أي: نالوا البقاء الدَّائم في الخير، وفلاح الدَّهر بقاؤه، يُقال: لا أفعل ذلك فلاح الدَّهر. والفَلاح: الفَوز بما يُغتبط به وفيه صلاح الحال. وأفلح الرَّجُل: ظفر. ويُقال لكلِّ مَنْ أصاب خيرًا: مُفْلِح[4]. وهذا هو المعنى المراد في قوله: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ [التّوبة: 88]؛ أي: أولئك الّذين أصابوا الخير.

المَعْنى الإِجْماليُّ:

وصفٌ لأرقى حالات الإيمان والالتزام، لدى النّبيّ الهمام، والمؤمنين الكرام

استدرك هنا بقوله: ﴿لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ﴾ بوصف الجماعة المؤمنة وهي تَلْتَفُّ حول قائدِها رسول الله ﷺ فيصوّر المشهد أرقى حالات الجهاد والتّماسك واليقين بالله تعالى، ويُقدّم أسمى صور الجهاد بالأموال والأنفُس، مُقبلين أصحابها غير مُدبرين، فيكون جزاؤهم الخيرات والجنّات؛ فلمَّا وصفهم بالمُسارعةِ إلى الجهادِ، ذَكَرَ ما حصل لهم من الفوائدِ، وهي أنواع، أوَّلها: قوله: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡخَيۡرَٰتُۖ﴾ والخيراتُ: المُسْتَحْسَنُ من كُلِّ شيءٍ[5]. ثم أشار إليهم بأنّهم هم المفلحون في الدنيا والآخرة لما حقّقوه من صدقٍ مع الله ورسوله.

(1) الرّازيّ، مختار الصّحاح: (خير).
(2) الخليل، العين، وابن سِيدَه، المُحكَم، والزّمخشريّ، أساس البلاغة: (فلح).
(3) الخليل، العين: (فلح).
(4) ابن سِيدَه، المُحكَم: (فلح).
(5) ابن عادل، اللُّباب: 10/167.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالة حرف الاستدراك، وعلاقته بما قبله:

(لكن) حرف استدراك[1]. وفيه إشارةٌ إلى الاستغناء عن نُصرة المنافقين بنُصرة المؤمنين لرسول الله ﷺ[2]. فقوله: ﴿لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ جَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡۚ﴾ استدراك لما فُهِمَ من الكلام، والمعنى: إنْ تخلّف هؤلاء ولم يُجاهدوا فلا ضَيْر؛ لأنَّه قد نهض على أتمّ وجهٍ مَنْ هو خير منهم، فهو على حدِّ قوله تعالى: ﴿فَإِن يَكۡفُرۡ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدۡ وَكَّلۡنَا بِهَا قَوۡمٗا لَّيۡسُواْ بِهَا بِكَٰفِرِينَ﴾ [الأنعام: 89]"[3].كما أنَّ افتتاح الكلام بحرف الاستدراك يُؤذن بأنّ مضمون هذا الكلام نقيض مضمون الكلام الّذي قبله أصلًا وتفريعًا. فلمّا كان قعود المنافقين عن الجهاد مسبّبًا على كفرهم بالرّسول ﷺ كان المؤمنون على الضِّدِّ من ذلك. فقوله: ﴿لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ﴾ مقابل قوله: ﴿ٱسۡتَـٔۡذَنَكَ أُوْلُواْ ٱلطَّوۡلِ مِنۡهُمۡ﴾ [التّوبة: 86]. وقوله: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡخَيۡرَٰتُۖ﴾ مقابل قوله: ﴿وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ﴾ [التّوبة: 87] كما تقدّم[4]. وقوله: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ مقابل قوله: ﴿فَهُمۡ لَا يَفۡقَهُونَ﴾.

الرّسول والمؤمنون معه، هم حصن هذا الدّين، ونقلة هديه المبين

نكتة التّعريض، بانتفاء الإيمان عن المُخلّفين:

وفي قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ﴾ تعريض بأنّ الذين لم يجاهدوا دون عذرٍ ليسوا بمؤمنين[5] فلو كانوا مؤمنين حقًّا لالتحقوا بالمُجاهدين من المؤمنين، والتحقوا بالرّسول ﷺ وحازوا الفوز بمعيَّته، ولم يُراود قلوبهم محاولات التّعذّر؛ إذ لا مُبرّر للتّعذّر بانتفاء الأعذار

الإيمان هو الدّافع للحرص على معيّة الرّسول ﷺ

(1) صافي، الجدول في إعراب القرآن: 10/415.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/290.
(3) ابن عادل، اللُّباب: 10/167، والآلوسيّ، روح المعاني: 5/344.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/290.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/290.

الحقيقيّة، هذا وقد أنزل في أهل الأعذار قرآنًا فقال تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾ [النّور: 61]؛ فلم يكن ثمَّةَ حرج على ذَوي الأعذار.

دلالة (الْ) في لفظ ﴿ٱلرَّسُولُ﴾، وأثرها في السّياق:

(اللام) هنا في قوله: ﴿ٱلرَّسُولُ﴾ للعهد، وفيها معنى التّفخيم والتّعظيم؛ إذْ أفادت تعظيم ما آل إليه المؤمنون من الكرامة؛ فقد حازوا مكانة سيغبطهم عليها عموم المؤمنين على مدى الدَّهر؛ ألا وهي معيّة الرّسول والجهاد معه، وسيكونون بتلك المعيّة؛ فهم الرّعيل الأوّل، والأنموذج المتَصدّر لكل مَكرُمة تُحقِّقها أو تطمح إليها الأجيال المؤمنة إلى قيام السّاعة.

المكانة الرّفيعة للمؤمنين، بمعيّة الرّسول ﷺ

الغرض من تقديم (الرَّسول)، في هذا الاستدراك، وبلاغته:

"ابتدأ وصف أحوالهم بوصف حال الرَّسول ﷺ لأنّ تعلّقهم به واتّباعهم إيّاه هو أصل كمالِهم وخيرِهم"[1]. فقال: ﴿لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ جَٰهَدُواْ﴾ فذكر الرّسول ﷺ لفائدة التّعريض بالذين أتَوا الرّسول ﷺ ليعتذروا منه عن الجهاد؛ فجعل ذِكْر الرّسول ﷺ أوّلًا ومعيّته محورًا لرسوخ الإيمان، فقدّم ذِكْره ليُعلم أن لا سبيل غير سبيل الرّسول ﷺ.

الرّسول ومعيّته هما محور الإيمان، وملمح العبادة بإيقان

دلالة استخدام ﴿ٱلرَّسُولُ﴾:

جاء لفظ ﴿ٱلرَّسُولُ﴾ دون (النّبيّ) لما يقتضيه المقام؛ ذلك بأنّ لفظ الرّسول يقتضي رسالة؛ لأنّ كلّ رسول يكون صاحب رسالة، وذلك على خلاف النّبي، فكلُّ رسولٍ نبيّ وليس العكس.

والجهاد - وهو أمر من اللّه تعالى - نصرٌ للرِّسالة السَّماويّة التي ارتضاها اللّه لعباده، فمَنْ أعرض عن هذه المُناصرة فقد أعرض عن الإيمان باللّه ورسوله ورسالته، ولذلك جاء لفظ (الرّسول).

الرَّسول هو الّذي خصّه الله بالرّسالة، والنّبيّ ليس كذلك

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/290.

سرُّ إيثار التَّعبير بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾:

تعظيم شأن المؤمنين، لإبراز أهميّة الإيمان، ودوره في رفع الشّان

معلوم أنّ الاسم الموصول ناقص الدّلالة لا يتّضح معناه إلا إذا وُصل بالصّلة، وفائدة التَّعريف هنا بالاسم الموصول في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ هو التّعظيم والتّفخيم، فذكر المؤمنين بالصِّلة المُعظّمة، ولتُعلم فخامة مكانتهم عند الله، وهذا لا يكون مع استعمال الصّفة دون الاسم الموصول.

دلالة عطف قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ﴾ على ﴿ٱلرَّسُولُ﴾:

تكامل المشهد وعناصر الإيمان والعمل، في هذا السّياق البليغ

فائدة عطف قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ﴾ على ﴿ٱلرَّسُولُ﴾ هو جمع منظومة الإيمان، فالرّسول ﷺ هو المحور ومورد الشّريعة ومصدر القوّة والعطاء، ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ﴾ هم ميدان الحَرَاك، والتَّفعيل، والنَّشاط، ومجتمع الشّريعة والإيمان، فيكتمل بذلك مشهد الحياة المؤمنة الفاعلة؛ باكتمال عناصر الإيمان.

توجيه المتشابه اللّفظيّ بين آية التّوبة، وآيات في سور أخر:

معيّة الرّسول الأكرم، وسام عظيم اختصّ به الصَّحابة رضي الله عنهم

جاء في عدَّة مواضع: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ﴾ [البقرة: 214]، ﴿لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ﴾ [التّوبة: 88]، ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥٓ﴾ [التحريم: 8]، وبين موضع: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ﴾ [الفتح: 29].

فآية البقرة جاءت في بيان عظيم شأن المعيّة مع الرّسول وما يُصيبهم من عظيم الاختبار والابتلاء، فمنزلة المعيّة عظيمة ومقتضاها عظيم، وفي سورة الفتح تندرج في تعداد أوصاف مَنْ هُم في معيّة الرّسول ﷺ؛ فمَنْ أراد أن يكون في معيّة رسول الله ﷺ فعليه أن يتّصف بهذه الصّفات، فلم يذكر الإيمان، وإنّما ذكر المعيّة لبيان أوصافهم، وأمّا سورة التّحريم فالسِّياق في بيان جزاء المعيّة يوم القيامة وحفاوة الله بهم، فذَكَر الإيمان وذَكَر المعيّة معًا، ثمَّ بيَّن جزاء ذلك. ولعلَّ مجموع ما ذُكر أنّ المعيَّة مع رسول الله ﷺ هي وسامٌ ومكانة عالية لم تكن حقيقة إلا للجيل الأوَّل الّذي هو خير الأجيال

والقرون، ونأمل ألّا يُحْرَم معية الرّسول ﷺ في الجنّة مَن أطاع الله والرّسول مصداقًا لقوله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا ٦٩ ذَٰلِكَ ٱلۡفَضۡلُ مِنَ ٱللَّهِۚ﴾ [النساء: 69 - 70].

سرُّ التّقييد بالجارّ والمجرور ﴿مَعَهُۥ﴾:

"و﴿مَعَهُۥ﴾ في موضع الحال من ﴿وَٱلَّذِينَ﴾ لتدلّ على أنّهم أتباعٌ له في كلّ حالٍ وفي كلّ أمر، فإيمانهم معه؛ لأنّهم آمنوا به عند دعوته إيّاهم، وجهادهم بأموالهم وأنفسهم معه، وفيه إشارةٌ إلى أنّ الخيرات المبثوثة لهم في الدُّنيا والآخرة تابعة لخيراته ومقاماته"[1].

خيرات المؤمنين هي من خيرات الرّسول، ومقامهم من مقامه ﷺ

والمعيّة فائدتها كُبرى لبيان عموم حياة المؤمنين مع رسول الله ﷺ وأنّهم في جميع أحوالهم وحياتهم، مُنسجِمون مع ما يُريد الله منهم؛ فكانت تلك المعيّة في أمور حياتهم كلّها سببَ ثباتِهم في ساعات الشّدّة، وسبب النّعيم الكبير في أوقات الرّخاء.

الغرض من التّعبير بالمُسنَد جملة فعليّة:

﴿لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ﴾ ابتداءٌ، ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ﴾ عطفٌ عليه، و﴿جَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡۚ﴾ في موضع الخبر، و﴿جَٰهَدُواْ﴾ فعلٌ ماضٍ مبنيٌّ على الضَّمّ، والواو فاعلٌ، وجملة ﴿جَٰهَدُواْ﴾ في محل رفع خبر المبتدأ[2]. والغرض من التَّعبير بالمُسْنَد جملة فعلية ﴿جَٰهَدُواْ﴾ بيان ما فعله الرّسول ﷺ والّذين آمنوا معه؛ إذ لم يُوقفهم الّذين كذّبوا الله ورسوله ممّن رضي بالقعود عن الجهاد، فالرّسول وصحابته هم أهل رسالة سماويّة، فقد أدّوا ما عليهم من الجهاد بالأموال والأنفس، كما يُفيد التّعبير بالجملة الفعليّة التأكيد على مجاهدتهم للإسناد مرتين: إسناد الخبر إلى المبتدأ، وإسناد الفعل

الرّسول والصّحابة معه، بذلوا الأموال والأنفس في سبيل الله

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/291.
(2) الدّعّاس، إعراب القرآن، ص: 474.

(جاهدوا) إلى الضمير العائد على الرسول ﷺ والذين آمنوا، وهذا التَّأكيد لا يتأتَّى إلا بالتّعبير بالمُسْنَد جملة فعليّة.

الغرض من تقديم الأموال على الأنفس، في السّياق:

المال يُبذل في حالات النّاس جميعها، والأنفس تُبذل في الجهاد

قدَّم الأموال على الأنفس لِما في ذكر الأموال من دلالة قوّة الجهاد بالمال في عموم الحياة، وأنّهم بذلوا المال وهم في معيّة رسول الله ﷺ في حياتهم اليوميّة، في ساعات الرّخاء، فلمّا جاء الجهاد في ساعات الشّدّة بذلوا الأنفس مع الأموال؛ ومَن لا يقدر على بذل المال، فإنّه لا يقدر على بذل النّفس؛ فكان بذل الأموال تربيةً دائمة لبذل النَّفس والجهاد بها.

العدول عن ذكر القَيْد: (فِي سَبِيلِ الله):

بيان أنّ معيّة الرّسول الأكرم، هي دلالة سبيل الله

في الآية اكتفاءٌ، إذ اكتفى بقوله: ﴿مَعَهُۥ﴾، دون أن يقول: (في سَبِيلِ الله)، فعندما أتى بقوله: ﴿مَعَهُۥ﴾؛ أي: مع رسول الله ﷺ؛ فلم يكن من الضّرورة بمكان بيان نوع الجهاد؛ إذ معلومٌ أنّ جهاد الرّسول هو في سبيل الله، فمَنْ جاهد معه ﷺ، فهو في أعلى حالات الجهاد ودرجاته؛ مُتَربِّعًا على سَنامها.

دلالة الوصل في ﴿جَٰهَدُواْ﴾:

تنوُّعُ الأوصاف، وتنوُّعُ الخيرات، دليل على أنّ العمل الصّالح يرفع عند الله

فقد "عُطفت جملة: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡخَيۡرَٰتُۖ﴾ على جملة ﴿جَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡۚ﴾، ولم تُفصل، مع جواز الفصل؛ ليُدَلّ بالعطف على أنّها خبر عن الّذين آمنوا؛ أي: على أنّها من أوصافهم وأحوالهم؛ لأنّ تلك أدلّ على تمكّن مضمونها فيهم من أن يُؤتى بها مستأنفةً؛ كأنّها إخبارٌ مستأنف"[1]. وعُطفت كذلك جملة: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ على جملة: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡخَيۡرَٰتُۖ﴾ للدّلالة على تنوّع ما هم فيه من الخيرات والفلاح، وتغاير الخيرات عن الفلاح فيصيبهم من الخير كلّه، ومن الفلاح أحسنه.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/291.

الغرض من التّعبير باسم الإشارة ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ﴾:

الصّحابة الكرام، من التّعظيم بأعلى مقام

الإتيان باسم الإشارة لإفادة أنّ استحقاقهم الخيرات والفلاح كان لأجل جهادهم"[1]. واسم الإشارة للبعيد ليعلم ما فعلوه في سالف حياتهم وأيّامهم في معيّة الرّسول ﷺ. ويُعلم أنّ أولئك القوم الّذين حازوا معيّة الرّسول ﷺ وجاهدوا معه هم قومٌ لا يتكرّر مثالهم. وعطف جملتَي (أولئك): ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ و﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡخَيۡرَٰتُۖ﴾ مع جواز الفصل كما أشرنا آنفًا لبيان ما استحقّه (أولئك) وما جُمع لهم من الخيرات والفلاح معًا، ففي التّعبير باسم الإشارة تمييزٌ لبيان مكانهم من التّعظيم.

غرض تقديم الجارّ والمجرور ﴿لَهُمُ ٱلۡخَيۡرَٰتُۖ﴾:

إبراز شأن المُكرَّمين بالخيرات، ومقامهم عند ربّ البريّات

قدّم ﴿لَهُمُ﴾ على ﴿ٱلۡخَيۡرَٰتُۖ﴾ لفائدة تخصيصهم بتلك الخيرات، وإبراز شأنهم فيها، وكأنّما قد أوجدت تلك الخيرات من النّعيم والجِنان من أجلهم، فهي لهم ولِمَنْ سار على نهجهم. وليُعلم أنّ أولئك القوم الّذين حازوا معيّة الرّسول ﷺ وجاهدوا معه قومٌ لا يتكرّر مثالهم في القرون الأخرى، وفيه تعريضٌ بأولئك الّذين استأذنوا رسول الله ﷺ بعدم الخروج معه لخُسرانِهم أعظم مكانة يمكن أنْ يحوزها إنسانٌ أو يُحقِّقها في هذه الحياة.

دلالة الجمع في لفظ ﴿ٱلۡخَيۡرَٰتُۖ﴾:

تعدُّد الخيرات وتنوُّعها، مسفرة عن إنعام الله اللّامحدود

تتعدّد دلالة صيغة الجمع في العربيّة، ويبقى السّياق هو الحاكم في هذا الأمر، فـ "الخيرات: جمع خَيْر على غير قياس، فهو ممّا جاء عَلى صيغة جمع التَّأنيث مع عدم التّأنيث؛ مثل: سرادقات وحمَّامات. وجَعَلَهُ كثير من اللّغويين جمع (خَيِّرَة) بتخفيف الياء مُخفّف (خَيِّرَة) المُشدّد الياء الّتي هي أنثى (خَيِّر)، أو هي مُؤنّث

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/291.

(خَيِّر) المخفّف الياء الّذي هو بمعنى (أَخْيَر). وإنّما أنّثوا وصف المرأة منه لأنّهم لم يُريدوا به التَّفضيل، وعلى هذا كلّه يكون (خيرات) هنا مؤوّلًا بالخصال الخيِّرة"[1]، والظَّاهر أنّ المُراد منافع الدُّنيا والآخرة. فجمع الخيرات لفائدة التّعدّد والتّكثير على خلاف المفرد الّذي يدلّ على القلّة إذا ما قُورنَ بالجمع.

فائدة تكرار اسم الإشارة ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ﴾:

بيان استحقاق المؤمنين من الخيرات والفلاح، ما يكرمهم به الله

في قوله تعالى: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾؛ كرَّرَ اسم الإشارة تنويهًا بشأنهم[2]. وتوكيدًا لما استحقّوه من الخيرات والفلاح.

سرُّ التَّعبير بالجملة الاسميَّة ﴿هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾:

الاختصاص بالفلاح، وديمومة المعيّة مع الرّسول الأواه، نجاحٌ ورباح

﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ رفع بالابتداء، ﴿هُمُ﴾ ابتداء ثانٍ، ﴿ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ خبر الثّاني والثّاني وخبره خبر الأوَّل، ويجوز أن يكون ﴿هُمُ﴾ زيادة، يُسمِّيها البصريُّون فاصلة[3]، ويُسمِّيها الكوفيُّون عمادًا[4]، و﴿ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ خبر ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ﴾[5] وَالتَّعْرِيفُ فِي ﴿ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ لِلْجِنْسِ وَهُوَ الْأَظْهَرُ إِذْ لَا مَعْهُودَ هُنَا بِحَسَبِ ظَاهِرِ الحالِ، بَلِ الْمَقْصُودُ إِفَادَةُ أَنَّ هَؤُلَاءِ مُفْلِحُونَ، وَتَعْرِيفُ الْمُسْنَدِ بِلَامِ الْجِنْسِ إِذَا حُمِلَ عَلَى مُسْنَدٍ إِلَيْهِ مُعَرَّفٍ أَفَادَ الِاخْتِصَاصَ فَيَكُونُ ضَمِيرُ الْفَصْلِ لِمُجَرَّدِ تَأْكِيدِ النِّسْبَةِ، أَيْ تَأْكِيدًا لِلِاخْتِصَاصِ. فَأَمَّا إِذَا كَانَ التَّعْرِيفُ لِلْجِنْسِ وَهُوَ الظَّاهِرُ فَتَعْرِيفُ الْمُسْنَدِ إِلَيْهِ مَعَ الْمُسْنَدِ مِنْ شَأْنِهِ إِفَادَةُ الِاخْتِصَاصِ غَالِبًا لَكِنَّهُ هُنَا مُجَرَّدٌ عَنْ إِفَادَةِ الِاخْتِصَاصِ الْحَقِيقِيِّ، وَمُفِيدٌ شَيْئًا مِنَ الِاهْتِمَامِ بِالْخَبَرِ، فَلِذَلِكَ جُلِبَ لَهُ التَّعْرِيفُ دُونَ التَّنْكِيرِ[6].ودلّت الجملة الاسميّة هنا على الثّبات؛ فهذا الحكم ثابتٌ دائمٌ إلى يوم القيامة.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/291.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 5/344.
(3) المُبرِّد، المُقتَضَب: 4/103.
(4) ثعلب، مجالس ثعلب، ص: 53.
(5) النَّحَّاس، إعراب القرآن: 1/27.
(6) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/246.

دلالة التّعبير بضمير الفصل ﴿هُمُ﴾:

الإشارة إلى أنّ هؤلاء (هم) الّذين حقّقوا معيّة الرّسول الأعظم

ضمير الفصل ﴿هُمُ﴾ أفاد حصر الفلاح بـ ﴿وَأُوْلَـٰٓئِكَ﴾ الّذين لهم الخيرات، و﴿وَأُوْلَـٰٓئِكَ﴾ الّذين جاهدوا بأموالهم وأنفسهم في معيّة رسول الله ﷺ. فلا يستحقّها أحدٌ غيرهم، وهي من أعظم ما يُحقّقه بَشرٌ من الخير على وجه الأرض، وهي أعظم الخيرات على الإطلاق.

سرُّ التّعبير باسم ﴿ٱلْمُفْلِحُونَ﴾، دون الفعل:

فلاح المؤمنين في الآخرة، إكرام لوجوههم النّاضرة

قوله: ﴿وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾، والمرادُ منه: التَّخلُّصُ من العقاب[1]. فمَن نجا من عقاب الله فقد أفلح، والتّعبير عن الفلاح بالاسم دون الفعل لدلالة الثّبات، وديمومة الفلاح واستقراره وأنّه لا يتغيّر ولا يذهب فلاحُهُم، وأنّه وعْدُ الله لهم، ولِمَن سار على نهجهم وهُداهم؛ فهو فلاحٌ مستقرٌّ في الآخرة، وقد خُتمت الآية بكلمة ﴿ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ تناسبًا مع ديمومة الفلاح في الآخرة، فآخر ما ذُكِر في الآية هو الفلاح وهو يُناسب فلاح الآخرة الدّائم.

توجيه المتشابه اللّفظيّ في: ﴿وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾:

تكرار العبارة في القرآن، منفسح لمعانٍ متنوّعة خصبة

قوله: ﴿وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ وردت في ستّة مواضع؛ هي: البقرة، آل عمران، التّوبة، النّور، الرّوم، ولقمان؛ لتدلّ على كمال الخير عند المؤمنين وأسباب فلاحهم. فقوله تعالى: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [البقرة: 5]؛ والآية نفسها تكرّرت في سورة [لقمان: 5] بيّن أنّ الهداية من عند الله وهي هداية الرّسالات السّماويّة، هي سبب الفلاح. وبيّن قوله تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: 104]؛ أنّ الدّعوة إلى الخير والصّلاح

(1) ابن عادل، اللُّباب: 10/168.

والأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر، هو صلاح الأمّة والمجتمع والفرد، لذلك فهو سبب الفلاح. وبيّن قوله تعالى: ﴿لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ جَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡخَيۡرَٰتُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ [التّوبة: 88] أنّ المعيّة مع الرّسول وصُحبته والجهاد معه هو سبب الفلاح. وبيّن قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوۡلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ أَن يَقُولُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ [النور: 51]؛ أنّ الاحتكام إلى شرع الله يعني صحّة الإيمان والتّسليم بما أمر الله به وذلك سبب الفلاح، وأخيرًا بيّن قوله تعالى: ﴿فَـَٔاتِ ذَا ٱلۡقُرۡبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلۡمِسۡكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجۡهَ ٱللَّهِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ [الروم: 38] أنّ إيتاء حقوق النّاس والعناية بالمساكين وأبناء السّبيل هو من أسباب الفلاح.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(المفلحون)، و(الفائزون):

الفوز خلاصٌ من مكروهٍ، ووصولٌ إلى محبوب، والفلاح هو أعلى درجةً من الفوز

الفلاح نيل الخير والنَّفع الباقي أثره، وسُمّي الشَّيءُ باقي الأثر فلاحًا، ويُقال للأكّار (فلّاح) لأنّه يشقُّ الأرض شقًّا باقيًا، ويُقال لكلّ مَن عقل وحزم وتكاملت فيه خلال الخير قد أفلح، ولا يُقال صَلحَ إلا إذا تغيَّر إلى استقامة الحال، والفَلاح لا يفيد التَّغيير، ويجوز أن يُقال الصَّلاح: وضع الشَّيء على صفةٍ ينتفع به سواء انتفع أو لا[1]. أمّا الفوز فهُوَ الْخَلَاص من الْمَكْرُوه مَعَ الْوُصُول إلى المحبوب؛ وَلِهَذَا سمَّى الله تَعَالَى الْمُؤمنِينَ فائزين لنجاتهم من النَّار ونَيْلِهم الْجنَّة[2].

فالفرْقُ بين الفلاح والفوز؛ أنّ الفوز خلاصٌ من مكروهٍ، مع

(1) العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 211.
(2) العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 210.

وصولٍ إلى محبوب وهو الجنَّة أو الخيرات، في حين أنّ الفلاح هو أعلى درجةً من الفوز؛ إذ لم يكن بهم ما يُخاف عليهم منه، فلا مكروه يُصيبهم؛ لأنّهم حقّقوا المعيّة مع رسول الله ﷺ قال تعالى: ﴿۞لَّقَدۡ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ يُبَايِعُونَكَ تَحۡتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ [الفتح: 18]، وفوق ذلك فإنّ لهم الخيرات.

﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٨٩﴾﴾ [التّوبة: 89]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

العلاقة بين إنعام الله على المؤمنين، ومآلهم إلى جنّات وتكريم، بنيل الفوز العظيم

بعد أنْ ذكر في الآية السّابقة ما للمؤمنين من الخيرات، وأنّهم أهل الفلاح، بيّن هنا طبيعة تلك الخيرات، وحقيقة ذلك الفلاح فقال: ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾؛ فجاءت الآية بيانًا لما قبلها.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَعَدَّ﴾: جذر الكلمة هو (عدد)؛ والإعداد من العَدِّ، فإذا قيل أعددتُّ هذا لك؛ أي: جعلتُه بحيثُ تَعُدُّهُ وتتناوله بحسب حاجتك إليه، قال تعالى: ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ﴾ [التّوبة: 100][1]. قال تعالى: ﴿إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا﴾ [مريم: 84]؛ يعني أنّ الأنفَاسَ تُحْصَى إحصاءً، ولها عَددٌ مَعْلُوم[2].

المَعْنى الإِجْماليُّ:

بيان ما أعدَّه الله للمؤمنين في الآخرة، حيث الفوز بالجنّة العامرة الآسرة

بيّنت الآية الكريمة ما أُعِدَّ للمؤمنين المجاهدين؛ إذ أعدَّ اللّه لرسوله محمد ﷺ وللّذين آمنوا معه ﴿جَنَّٰتٍ﴾، وهي البساتين التي وصفها بأنّها تجري من تحت أشجارها الأنهار، لابِثِينَ فيها، لا يموتون فيها، ولا يَظْعَنون عنها، وذلك هو النَّجاء العظيم، والحظّ الجزيل[3].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

الغَرَضُ من كمال الاتّصال في الجملة ﴿أَعَدَّ﴾ من السّياق:

بيانُ عظيم شأن الخيرات التّي وُعد بها المؤمنون المجزيّون

قوله: ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾ استئنافٌ لبيان كونهم مفلحين[4]. ويُحتمل

(1) الرّاغب، المُفردات: (عد).
(2) الخليل، العين: (عد).
(3) ابن جرير، جامع البيان: 14/415.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/91، والآلوسيّ، روح المعاني: 5/344.

أن يكون استئنافًا لجواب سؤالٍ ينشأ عن الإخبار في الآية السّابقة بقوله: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡخَيۡرَٰتُۖ﴾[1]. فتكون هذه الجنّات كالتّفسير للخيراتِ والفلاحِ[2]. ويكون بيانًا لِما لهم من المنافع الأخروية، ويخصُّ ما قبل بمنافع الدُّنيا بقرينة المقابلة[3]. "فتحمل الجنَّات على ثواب الآخرة، والفلاح على منافع الدُّنيا، كالغزو، والثَّروة، والقدرةِ، والغَلَبةِ"[4] فالجملة بمنزلة البَدَل مما قبلها، وهي بيانٌ لمعنى الفلاح.

توجيه المتشابه اللّفظيّ في آيتي التّوبة:

قوله تعالى: ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ في الآية 89 فقد سبقها قوله: ﴿لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ جَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡخَيۡرَٰتُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾، فقد أُعِدَّت هذه الجنّات الّتي تجري من تحتها الأنهار للرَّسول ﷺ ومَنْ معه، وهكذا هذه الصّيغة في القرآن الكريم كلّه، جاءت مع الرّسل والأنبياء، أمّا صيغة: ﴿تَجۡرِي تَحۡتَهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ وهي الوحيدة في القرآن؛ وسبقها قوله: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلۡأَوَّلُونَ مِنَ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحۡسَٰنٖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُ وَأَعَدَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي تَحۡتَهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ١٠٠﴾ [التّوبة: 100]، وهؤلاء لم يُذكر معهم الرّسول ولم يُذكر معهم أَحَد من الأنبياء. وقوله ﴿جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا﴾: منزلة عالية؛ إذ تكون الجنّات جارية من تحتهم، وحرف الجرِّ ﴿مِن﴾ لابتداء الغاية؛ إذ إنّ نبع الأنهار يكون من تحتها، في حين قوله: ﴿تَجۡرِي تَحۡتَهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ لا يشترط أن يكون نبع الأنهار من تحتها لكنّ جريان الأنهار يكون تحتها.

أعلى منازل الآخرة، هي منازل الأنبياء عليهم السلام

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/291.
(2) ابن عادل، اللُّباب: 10/168.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 5/344.
(4) ابن عادل، اللُّباب: 10/168.

وعليه فـ (من) في الآيات الأخرى لزيادة التَّأكيد؛ "إذ ليس لحرف (من) مع أسماء الظُّروف إلا التَّأكيد"[1]، وعدم ذِكْرها في سورة التَّوبة لحصول ما يُغني عنها من أدوات التَّوكيد، وذِكرُها في قراءة ابن كثير[2] يفيد زيادة التَّوكيد.

دلالة التَّعبير بالفعل الماضي ﴿أَعَدَّ﴾:

الإعداد تهيئة وعناية وتمكين

عبّر بـ ﴿أَعَدَّ﴾ لأنَّ الإعداد هو التّهيئة للشَّيء مصحوبًا بالعناية به، مع إمكان تناوله عند الحاجة إليه[3]؛ أي: التّمكين منه وقت ما يحتاج إليه، وفي لفظ الإعداد بيانٌ للاهتمام والتّشويق بلقائهم وإكرامهم، والعناية والاهتمام بشأنهم. وهذا لا يكون في غيرها من مرادفاتها.

والفعل من الماضي المُطلَق؛ فهو يصلح لجميع ما تقدّمك من الأزمنة[4]؛ إذ يدلّ الماضي ﴿أَعَدَّ﴾ على أنّ الأمر قد تمّ وانتهى؛ وعلى الالتزام الذي لا يتخلّف، وأنّ اللّه تعالى قد حكم في هذا الأمر، وأنّه قد أعدّ للمؤمنين في معيّة الرّسول ﷺ عظيم الأجر والثّواب، فيدلّ ذلك على ثبات المكافأة لهم.

الغَرَض من إسناد الإعداد، إلى الاسم الجليل ﴿ٱللَّهُ﴾:

ثبات وعد الله للمؤمنين، مسألة معلومة بيقين

في الإسناد إلى الاسم الجليل إشعارٌ بالمهابة وتحقيقٌ للوعد، وقد وقع كذلك في الآيتين، ليدلّ على العناية وثبات وعْدِ اللّه لهم، ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا﴾ [النّساء: 122].

الغرضُ من تقديم الجَارِّ والمجرور ﴿لَهُمْ﴾:

اختصاص المؤمنين بالجنّات، أرقى ما يَصِلون إليه من مقامات

فائدة تقديم الجَارِّ والمجرور الاختصاص، وكأنّ هذه الجنّات قد وُسمت بأسمائهم، فهُم الَّذين اختصّهم اللّه تعالى بهذه المكرُمة العالية التّي لا تنبغي إلّا لهم؛ فخصّهم بذلك.

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/19.
(2) ابن مجاهد، السَّبعة، ص: 317، وابن الجزريّ، النَّشر: 2/280.
(3) الرّاغب، المُفردات: (عد).
(4) ابن يعيش، شرح ابن يعيش: 8/110.

نكتة جمع لفظ ﴿جَنَّٰتٍ﴾:

الجمع للتَّكثير والتّعظيم، فهؤلاء المؤمنون قد اختصّهم اللّه بأعظم أجرٍ وأخْيَر ثواب؛ فأفاد جمع (جنّات) ذلك المعنى العظيم.

الثّواب العظيم للمؤمنين، عطاء مغدق من ربّ العالمين

سرُّ تقييد الجنَّات بالوصف، بجريان الأنهار من تحتها الجنّات:

قوله تعالى: ﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾، وصف الجنَّات بكونها تجري من تحتها الأنهار، إشارة إلى أنَّ المُراد بالجنَّة أشجارها وثمارها وغروسها، وأنَّ الماء يجري تحت هذه المذكورات[1]. وَمَعْنَى ﴿مِن تَحۡتِهَا﴾ مِنْ أَسْفَلِهَا وَالضَّمِيرُ عَائِدٌ إِلَى الْجَنَّاتِ بِاعْتِبَارِ مَجْمُوعِهَا الْمُشْتَمِلِ عَلَى الْأَشْجَارِ وَالْأَرْضِ النَّابِتَةِ فِيهَا، وَيَجُوزُ عَوْدُ الضَّمِيرِ إِلَى الْجَنَّاتِ بِاعْتِبَارِ الْأَشْجَارِ لِأَنَّهَا أَهَمُّ مَا فِي الْجَنَّاتِ، وَهَذَا الْقَيْدُ لِمُجَرَّدِ الْكَشْفِ فَإِنَّ الْأَنْهَارَ لَا تَكُونُ إِلَّا كَذَلِكَ وَيُفِيدُ هَذَا الْقَيْدُ تَصْوِيرَ حَالِ الْأَنْهَارِ لِزِيَادَةِ تَحْسِينِ وَصْفِ الْجَنَّاتِ[2].

مَعهود في الدّنيا، أنَّ الماء هو شريان الحياة

الغرض من التَّعبير بالمجاز العقليّ، في إسناد الجري إلى ﴿ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾:

وقع المجاز العقليّ في إسناد الجريان إلى الأنهار؛ فالأنهار لا تجري، وإنّما الماء فيها هو الّذي يجري، وعلاقته المحلّية، وفائدة هذا المجاز بيان عظمة ما هم فيه من نعيم مقيم في صبغة الجمال الفريد، فجريان الماء في الأنهار لا ينقطع، وكأنّ الأنهار نفسها هي التي تجري من تحتهم، أو تتحرّك من تحت أرجلهم، لما استحقّوه من الكرامة.

جمال حركة الماء في الأنهار، ممّا يسلب القلوب، ويأخذ بالأبصار

الغرض من تقديم ﴿مِن تَحۡتِهَا﴾ على الفاعل:

تقديم ﴿مِن تَحۡتِهَا﴾ على الفاعل لبيان تفرّد ما فيه تلك الجنّات من الجمال؛ وما تمتلكه تلك الجنّات من خصوصيّة وتفرّد، يُميّزها عن جمال جِنان الدُّنيا المعهودة لدى المُتلقّين؛ جذبًا للاهتمام،

تفرُّد جنّات الآخرة بجمال أخّاذ

(1) ابن بدران، جواهر الأفكار ومعادن الأسرار المُستخرجة من كلام العزيز الجبّار، ص: 121، 122.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/354.

وتشويقًا للسَّامعين، ورغبة في ورود تلك الجنّات وتملُّكها؛ فيرجعون إلى أسباب تملُّكها، فيكون منهم أهل همّة في تحصيلها ببلوغ الطَّاعات، وتحقّق الإيمان، والصِّدق والمثابرة في طاعة الله تعالى.

سرُّ التَّقييد بالحال: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ﴾:

الخلود يكون بعد دخول الجِنان

فائدة قوله: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ﴾ هو التّلبّس بحال الخلود، وهي حالٌ مقدَّرة، وهي المستقبليَّة، الّتي يكون وقوعها بعد زمن عامِلها؛ فالخلود في الجِنان حالة مستقبليّة؛ لأنّه سيكون بعد دخول الجِنان[1]. وكذلك كلّ وعدٍ بالجِنان في القرآن، وكلّ وعيدٍ بالنّار كقوله: ﴿نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ﴾ [التّوبة: 68] هو من قبيل الحال المُقدَّرة، وكأنَّ الخلود نعيمٌ يُضاف إلى النَّعيم السَّابق، والتَّعبير بالحال مناسبٌ للحديث عن التّنعُّم بطول الوقت غير المنقطع.

سِرُّ عدم ذِكر لفظ (أبَدًا):

خلود أهل المعيّة مع الرّسول الكريم، في نعيم الجِنان المقيم

حيث يذكر الفوز فهو مُغنٍ عن ذِكْر التَّأبيد، إلَّا أن يُقصد الإطناب، ولذلك لم يقع ذِكْر التَّأبيد في آية النِّساء[2] والأُولى من براءة[3] وسورة الحديد[4] والمجادلة[5]؛ إذ الفلاح فوز، فذِكْرُ الفوز أو الفلاح مُغنٍ عن ذكر التّأبيد، فلم يجمع بينهما، ولمَّا لم يَذكر في آية الطّلاق الفوزَ ولا ما يُرادفه لم يكن بدٌّ من ذِكر التَّأبيد، ولم يَذكر التّأبيد في آية المجادلة مع ما فيها من إطناب؛ لأنّه عَدَل إلى أوصاف حصل منها خصوص وإطناب، فوقع الاكتفاء بها[6].

---

(1) الصّبّان، حاشية الصّبّان: 2/194.

(2) قوله تعالى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِۚ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [النساء: 13].

(3) قوله تعالى: ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة: 89].

(4) قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾﴾ [الحديد: 12].

(5) قوله تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [المجادلة: 22].

(6) الغرناطيّ، مِلاك التَّأويل: 1/102.

وهنا في آية التَّوبة ذِكْر معيّة الرّسول والإيمان به وبرسالته والجهاد معه، وهذا كافٍ في ورودهم هذه الجِنان، وتملُّكها والخلود فيها، فلم يكن ثمَّة داعٍ إلى ذكر الخلود الأبديّ، فما دام أنَّ أحدًا سيخلد في تلك الجنان خلودًا أبديًّا؛ فمن باب أولى أن يكون أهل المعيّة والجهاد مع الرّسول هم أهل ذلك الخلود الأبدي، فهم السّابقون الأوّلون، قال تعالى: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٣ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ۝١٤﴾ [الواقعة: 13 - 14].

الغرض من كمال الاتِّصال ﴿ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾:

بيان شأن الفوز بالجِنان، بما يغمر النّاس من جزاء الرّحمن

قوله: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾، وقعت هذه الجملة من سابقتها موقع التّأكيد المعنويِّ مما قبلها للتّأكيد أنَّ هذا الفوز هو الفوز الّذي ليس بعده فوزٌ، ولاتّصال المعنى هذا الاتصال الوثيق استُغني عن الواو وغيرها من الروابط كشفًا عن وَثاقةِ ترابط المعنى.

الغرض من التَّعبير باسم الإشارة، الدّالّ على البُعد ﴿ذَٰلِكَ﴾:

عظيم شأن المُشار إليه، وهو الفوز في الآخرة

الأصل في أسماء الإشارة أن يُشار بها إلى الأشياء المحسوسة، واستعماله في غير ما يُدركه الحسّ مجازٌ، لتنزيله منزلة المحسوس المُشاهَد[1]، ومنه وصف جِنان الآخرة في القرآن الكريم كقوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِيٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٧٢﴾ [الزّخرف: 72]، وقوله هنا: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ الّذي هو فوز غير مُشاهد أو محسوس، واسم الاشارة ﴿ذَٰلِكَ﴾ للبعيد تعظيمًا لشأن ذلك الفوز وبيانَ كماله؛ وأنّ مَن ناله رفيع الشّأن، وعظيم الدّرجة عند اللّه سبحانه، كقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝١٥٧﴾ [البقرة: 157].

الفائزون بمعيّة الرّسول الأكرم، هم الفائزون بأعظم أجرٍ عند الله

سرُّ تقييد الفوز بالوصف بـ ﴿ٱلْعَظِيمُ﴾:

من تناسُب المَعاني إتْباعُ الفَوز بالعَظيم؛ لبيان أنّه ليس فوزًا عاديًّا

(1) الرّضيّ، الرّضيّ على الكافية: 2/30 و33.

كالّذي يحقِّقُه النّاس في الدّنيا، وإنّما هو فوز لائق بالّذين حقّقوا المعيّة مع رسول الله ﷺ أو مَن سار على نهجهم من المؤمنين واتّبعوا سبيلهم.

توجيه المتشابه اللّفظيّ بين ايات السورة المختومة بالفوز:

خطاب عموم المؤمنين، يختلف عن خطاب خاصّتهم، من الصّحابة الأكرمين

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ [التّوبة: 72]، ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ [التّوبة: 100]، ﴿وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ [التّوبة: 111]، تكرّرت الإشارة بجملة الفوز العظيم في سورة التّوبة، واختلفت في صياغتها، فمن المتشابه اللّفظيّ في الآية [72] والآية [111]، ذِكْر المؤمنين دون تخصيص بجيل من الأجيال، أو فترة زمنيّة محدّدة، فهُم المؤمنون مطلقًا؛ ففي الآية [72] ذِكْر وعد الله لعموم المؤمنين بالجنّات والفوز، وفي الآية [111] وصفهم بأنّهم يُضحّون بأموالِهم وأنفُسِهم في سبيل الله، فأكّد في الآيتين بذِكْر ضمير الفَصل ﴿هُوَ﴾ ليُعلم أنّ كلّ المؤمنين في كلّ وقت وعصر ممّن تحقّقت فيهم هذه الصّفات، يكونون مشمولين بهذا الكرم والعطاء، فأكّد لزيادة همّة مَنْ يَسْمَع ومَنْ يقرأ ومَنْ تَصِلُه أخبارهم، فقال في الموضعين: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾، أمّا في هذه الآية فقد سبقها تحديد جيل الصّحابة المحظوظ بمعيّة رسول الله ﷺ فلم يحتجْ أن يؤكّد في السّياق بضمير الفصل (هو)؛ فقال: ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾؛ فلا أحدَ يَصِلُ إلى ما قد وصل إليه أولئك القوم وهم أهل الصُّحبة والمَعيّة.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

أَعَدَّ وجَهَّزَ:

الإعداد هو التّهيئة مع الانتفاع، والتّجهيز إعدادٌ قد لا يَتبعه انتفاعٌ

سبق أن أشرنا إلى أنّ الإعداد هو التَّهيئة مع إمكان الانتفاع، أمّا التّجهيز فهو إعداد قد لا يتبعه انتفاع لعدم الاحتياج، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمۡ﴾ [يوسف: 70] فإخوة يوسف، وإن جُهّزوا بجهازهم لكنّهم لم ينتفعوا به، ﴿قَالَ ٱئۡتُونِي بِأَخٖ لَّكُم مِّنۡ أَبِيكُمۡۚ﴾ [يوسف: 59] والجهاز ما يُعدّ من متاعٍ وغيره، والتَّجهيز حَمْلُ ذلك أو بَعْثُه[1].

(1) الرّاغب، المفردات، ص: 115.

العظيمُ والكبيرُ:

العظيم مُستعار لكلّ كبير، محسوسًا كان أو معقولًا

إنَّ الْعَظِيم قد يكون من جِهَة الكَثْرَة وَمن غير جِهَة الكَثْرَة وَلذَلك جَازَ أَن يُوصف اللّهُ تَعَالَى بِأَنَّهُ عَظِيم وَإِن لم يُوصف بِأَنَّهُ كثير، وَقد يعظم الشَّيْء من جِهَة الْجِنْس وَمن جِهَة التَّضاعُف[1]. وعَظُم الشَّيءُ: أصلُه كَبُرَ عَظْمُه، ثمَّ استُعير لكلّ كبير، فأُجري مجراه محسوسًا كان أو معقولًا، عينًا كان أو معنىً. قال: ﴿عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الزمر: 13]، ﴿قُلْ هُوَ نَبَؤٌاْ عَظِيمٌ﴾ [ص: 67]. والْكَبِيرُ والصّغير من الأسماء المُتضايفة التي تُقال عند اعتبار بعضها ببعض، فالشَّيء قد يكون صغيرًا في جنب شيءٍ، وكبيرًا في جنب غيرِه، ويُستعملان في الأجسام، وذلك كالكثير والقليل، وفي العدد، والأصل أن يُستعمل في الأعيان، ثمَّ اسْتُعِيْرَ للمَعَاني نحو قوله: ﴿لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَاۚ﴾ [الكهف: 49]، وقوله: ﴿وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ﴾ [سبأ: 3]، وقوله: ﴿يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ﴾ [التّوبة: 3]؛ إنَّما وصَفَه بالأكبر تنبيهًا على أنّ العُمرة هي الحجّة الصّغرى، ومنه ما اعْتُبِرَ فيه المنزلة والرّفعة نحو: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً قُلِ ٱللَّهُ شَهِيدُۢ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْۚ﴾ [الأنعام: 19]، ونحو: ﴿ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ﴾ [الرعد: 9][2].

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 183 و361.

(2) الرّاغب، المفردات، ص: 696.

﴿وَجَآءَ ٱلۡمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ لِيُؤۡذَنَ لَهُمۡ وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ٩٠﴾

[التّوبة: 90]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

العلاقة بين المؤمنين الباذلين أنفسهم في سبيل الله، ومآل المنافقين المخلّفين من الأعراب

لمَّا شرح أحوال المنافقين الّذين كانُوا في المدينة، بيّن في هذه الآية أحوال المنافقين من الأعراب. فقال تعالى: ﴿وَجَآءَ ٱلۡمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ﴾ الآية، فبان أنّ موقفهم على غرار ما فعله منافقو المدينة. ثم إنّه بعد أن قابل بين حال المنافقين وحال الرّسول ﷺ والمؤمنين في الآيات السَّابقة؛ بيّن هنا ما فعله المُعذِّرون من الأعراب، وهم يطلبون الإذن من رسول الله لينصرفوا عن صحبته؛ ظانّين أنّ هذا هو الفلاح، وما ذاك إلا كفرًا منهم وانتفاءً للوعي والفقه عن قلوبهم.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلۡمُعَذِّرُونَ﴾: العُذْرُ: تحرِّي الإنسان ما يمحو به ذنوبه، والمُعْذِرُ: مَن يرى أنّ له عُذْرًا ولا عُذْرَ له[1]. والمُعذِّرون: من (عُذر في الأمر): إذا قصّر فيه، وتوانى ولم يَجِد، وحقيقته أنْ يُوهم أنَّ له عذرًا فيما يفعل ولا عذر له، ويُحتمل أن يكون من (اعتذر)، والأصل المعتذِرون، وقرأ يعقوب ﴿ٱلۡمُعۡذِرُونَ﴾ بالتَّخفيف[2]، ورُوي ذلك عن ابن عباس رضي الله عنهما فهو من: (أعذر) إذا كان له عُذر. و﴿ٱلۡمُعَذِّرُونَ﴾ بالتَّشديد من (تعذَّر) بمعنى: اعتذر[3].

2) ﴿ٱلۡأَعۡرَابِ﴾: الأعراب هم سكان البوادي خاصَّة، والنّسبة

(1) الرّاغب، المفردات: (عذر).
(2) ابن الجزريّ، النَّشر: 2/280.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 5/344.

إليهم (أعرابي) فهو اسم جنس[1]، والعَرَبِيُّ: المُفصِح[2]. ورجل أعرابيٌّ بالألف إذا كان بدويًّا صاحب نُجْعَةٍ وارْتِيادٍ لِلكَلَأ، وتتبُّعٍ لمساقط الغيث، وسواء كان من العَرب أو من مواليهم، والأعرابيُّ إذا قيل له: يا عربيّ؛ فرح بذلك وهشَّ له، والعربيُّ إذا قيل له: يا أعرابيّ؛ غضب له[3].

3) ﴿لِيُؤۡذَنَ﴾: جذر الكلمة هو (أذن)؛ "ويُسْتَعار لِمَن كَثُرَ استماعه وقَولُه لما يُسْمَعُ، قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌۚ قُلۡ أُذُنُ خَيۡرٖ لَّكُمۡ﴾ [التّوبة: 61]؛ أي: استماعه لما يعود بخيرٍ لكم"[4]. "وأذِن له في الشَّيءِ بالكسر إذْنًا، وأذِنَ بمعنى: عَلِمَ، ومنه قوله تعالى: ﴿فَأۡذَنُواْ بِحَرۡبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ﴾ [البقرة: 279]، وأَذِنَ له: استمع، ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَذِنَتۡ لِرَبِّهَا وَحُقَّتۡ﴾ [الانشقاق: 2]؛ وفي الحديث: «ما أذن اللّه لشيء كأَذَنِه لِنبيٍّ يتغنَّى بالقرآن يجهر به»[5]"[6].

4) ﴿وَقَعَدَ﴾: قَعَد خلاف قام[7]، والقَعْدةُ: المَرَّةُ الواحدة. والقَعَد: القَوْمُ الّذين لا ديوان لهم. والمُقْعَدُ والمُقْعَدَةُ اللّذان لا يطيقانِ المَشْيَ[8]. ومعنى (قعد) هنا: كلّ ما يُوصف به الفَردُ والقَومُ من السّلب والتّخلّف؛ وفي الآية معنى الإعراض عن الجهاد مع الرّسول ﷺ واختياره والإصرار عليه.

5) ﴿كَذَبُواْ﴾: جذر الكلمة هو (كذب)؛ تقول: كَذَبَك[9]كَذِبًا، أي: لم يَصْدُقْكَ، وقوله تعالى: ﴿لَّا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوٗا وَلَا كِذَّٰبٗا﴾ [النّبأ: 35]"[10]. والتَّكاذُبُ ضدُّ التَّصادُق[11].

6) ﴿سَيُصِيبُ﴾: جذر الكلمة هو (صوب)؛ الإصابة: مصدر أصاب، بمعنى: لم يخطئ، تقول: أصاب السَّهمُ الرَّميّة: لم يُخطئها، وصوَّبَ السَّهم: وجَّهه وسدَّده، وتأتي

(1) الزّبيديّ، تاج العروس، والرّاغب، المفردات: (عرب).
(2) الرّاغب، المفردات: (عرب).
(3) ابن منظور، لسان العرب: 4/2468.
(4) الرّاغب، المفردات: (أذن).
(5) الخليل، العين، والرّازيّ، مختار الصّحاح: (أذن).
(6) أحمد، مسند الإمام أحمد، باب مسند أبي هريرة، الحديث رقم: (9805)، 15/500.
(7) ابن سِيدَه، المُحكَم: (قعد).
(8) الخليل، العين: (قعد).
(9) الثّابت في المعاجم أنّ الفعل: (كذب) من باب: (ضرب)، فهو مفتوح العين في الماضي.
(10) الخليل، العين: (كذب).
(11) الرّازيّ، مختار الصّحاح: (كذب).

(أصاب) بمعنى: أخذ، تقول: أصاب من المال[1]. والصَّواب: ضدُّ الخطأ، والمُصابُ: مفعول مَن أصابَتْهُ مصيبة[2].

❁ المَعْنى الإجْمالِيُّ:

صورة أخرى من صور التّخاذُل والتّخلّف، وما يؤول إليه أصحابها من البوار والخسار

وجاء المُعذّرون من الأعراب إلى رسولِ الله ﷺ ليُؤذن لهم في التَّخلُّف عن الجهاد والقعود مع الخوالف، كما فعل المنافقون من أهل المدينة، ورضوا بالقعود عن المجيء إلى رسول الله ﷺ والجهاد معه، فوصفهم تعالى بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ﴾ [التّوبة: 90]، فقد قالوا الكذب واعتذروا، وتعذّروا بلا عذرٍ. فهؤلاء سيُصيب الّذين كفروا منهم عذابٌ أليم؛ إذْ جحدوا توحيد الله ونبوَّة نبيه محمد ﷺ، [3]. أو إنّ المُعذرين هنا طائفة من المؤمنين من أصحاب الأعذار، وليسوا منافقي الأعراب.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالة (الواو): ﴿وَجَآءَ﴾، وأثرها في المعنى:

يفرز حرف الوصل، معنيَيْن متناقضيْن، كلاهما واردٌ

قوله: ﴿وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ﴾ شروع في بيان أحوال منافقي الأعراب إثر بيان أحوال منافقي أهل المدينة[4]. و"عُطِفت جملة: ﴿وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ﴾ على جملة ﴿ٱسْتَـْٔذَنَكَ أُوْلُواْ ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ﴾ [التّوبة: 86]، وما بينهما اعتراض، فالمراد بالمُعذّرين: فريق من المؤمنين الصَّادقين من الأعراب، كما تدلّ عليه المقابلة بقوله: ﴿وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ﴾؛ فتحقَّق عنصر الاتّصال وعنصر المغايرة، وعلى هذا المعنى فسَّر ابن عبّاس، ومجاهد، وكثيرٌ

(1) عبد المنعم، معجم المصطلحات والألفاظ الفقهية، ص: 197.
(2) الرّازيّ، مختار الصِّحاح، ص: 375.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 14/416.
(4) الآلوسيّ، روح المعاني: 5/344.

وخالفهم قتادة"[1] فجعلهم المُعتذرين كذبًا، على أنّهم قومٌ آخرون غير الّذين قال فيهم: ﴿وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ﴾، فهم صنفٌ آخر من الكاذبين المُتخاذلين عن نصرة رسول الله ﷺ، فيتحقّق أيضًا بذلك عنصرا الاتّصال والمُغايرة.

سرّ اختيار لفظ ﴿ٱلۡمُعَذِّرُونَ﴾:

الاعتذار افتعال من باب ما استُعمل فيه مادة الافتعال للتكلّف في الفعل والتصرّف مثل الاكتساب والاختلاق. والعُذْر البيّنة والحالة الّتي يتنصَّل المُحتجُّ بها من تَبعة أو مَلام عند مَن يعتذر إليه. وصيغة ﴿ٱلۡمُعَذِّرُونَ﴾ من لطائف القرآن؛ إذْ شملت الَّذين صدقوا في العُذر والّذين كذبوا فيه. فإنْ كانوا المُحقِّين في العُذر فتقدير ﴿ٱلۡمُعَذِّرُونَ﴾: أنّ أصله المعتذِرون، مِن اعتَذَرَ؛ أدغمت التّاء في الذّال لتقارُب المخرجيْن لقصد التّخفيف، وإن كانوا الكاذبين في عذرهم فتقديرُ ﴿ٱلۡمُعَذِّرُونَ﴾: أنّه اسم فاعل مِن عَذَّر بمعنى: تكلّف العُذر. قال الأزهريُّ: ذهب إلى أنّهم الّذين يعتذرون بلا عُذر فـ(المُعَذَّر) بالتّشديد هو المُظهِر للعُذر اعتلالًا، وهو لا عُذر له[2].

من لطائف القرآن قبول لفظ (المعذِّرون)، معنيَيْن مُتناقضيْن

توجيه قراءة (المُعذِرون):

في قوله تعالى: ﴿وَجَآءَ ٱلۡمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ﴾، قرأ يعقوب: (المُعْذِرُونَ) بسكون العين وكسر الذَّال مخففةً[3] من (أعْذَر، يُعْذِر) كـ (أكْرَم، يُكْرِم)، وهم المبالِغون في العُذْرِ[4]. فـ (المُعْذِرُونَ) بالتَّخفيف هم الّذين أعذَروا، أي: جاءوا بعُذرٍ، يُقال: أعذَرَ الرّجل، إذا جاء بعُذرٍ ولم يُقَصِّر[5]، وهم الكاذبون في العُذر[6].

المُعْذِّرُون هم الّذين جاءوا بعذرٍ ولم يُقصِّروا

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/292.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/292.
(3) ابن الجزري، النّشر: 2/280.
(4) ابن عادل، اللُّباب: 10/168.
(5) الكرمانيّ، مفاتيح الأغاني في القراءات والمعاني، ص: 199.
(6) ابن عادل، اللُّباب: 10/169.

ومَنْ قَرَأَ ﴿ٱلْمُعَذِّرُونَ﴾ بتشديد الذّال فله وجهان: أحدهما: المتعذِّرون، أُدْغِمَتِ التَّاء في الذَّال، كأنَّهم يَعتَذرون، كأنَّ لهم عذرًا ولم يكن. وجائز أن يكون ﴿ٱلْمُعَذِّرُونَ﴾ الّذين تَوَهَّمُوا أنَّ لهم عُذرًا ولا عُذرَ لهم. والعربُ تقول للمُقَصِّر: مُعَذِّر[1]، وهي تحتمل وجهين: أن يكون وزنه (فعَّل) مضعّفًا، ومعنى التَّضعيف فيه التّكليف، والمعنى: أنّه توهَّم أنَّ لهُ عُذرًا، ولا عذر لهُ.

والثاني: أن يكون وزنه (افْتَعَل)، والأصلُ: (اعتذرَ)، فأدغمت التّاءُ في الذّال بأنْ قُلبت تاءُ الافتعال ذالًا، ونُقِلت حركتها إلى السَّاكن قبلها، وهو العين، ويدلُّ على هذا قراءةُ سعيد بن جُبير (المُعْتَذِرُونَ) على الأصل، وإليه ذهب الأخفشُ، والفرَّاءُ وأبو عُبيد، وأبو حاتم، والزَّجَّاجُ، وابن الأنباري، والاعتذار قد يكُون بالكذبِ، كما في قوله: ﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ﴾ [التّوبة: 94]، وكان ذلك الاعتذارُ فاسدًا، لقوله: (لا تَعْتَذِرُوا)، وقد يكون بالصِّدقِ. فقراءة ﴿ٱلْمُعَذِّرُونَ﴾ بتشديد الذّال، من (تعذَّرَ) بمعنى اعْتذرَ[2]، فمحتملة؛ لأنْ يكونُوا صادقين، وأن يكُونُوا كاذبينَ، قال ابنُ عبَّاسٍ: هم الَّذين تخلَّفُوا بعذرٍ بإذن رسُول الله ﷺ وهو قول بعض المفسِّرين أيضًا، قال: ﴿ٱلْمُعَذِّرُونَ﴾، كانوا صادقين؛ لأنَّه تعالى لمَّا ذكرهم قال بعدهم: ﴿وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾، فلمَّا ميَّزهم عن الكاذبين دلَّ على أنَّهم لَيْسُوا كاذبينَ[3].

معنى حرف الجرّ ﴿مِنَ﴾، ودلالته في سياق الجملة:

المعاني العديدة المُستفادة من حرف الجرِّ (مِن)، من مرامي البيان

قوله تعالى: ﴿وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ﴾، وفيه حرف الجرّ ﴿مِنَ﴾ هنا للتَّبعيض؛ لأنّ بعض المُعذّرين كانوا من الأعراب. أو هي

(1) الكرمانيّ، مفاتيح الأغاني في القراءات والمعاني، ص: 199.
(2) ابن عادل، اللُّباب: 10/168.
(3) ابن عادل، اللُّباب: 10/169.

لبيان الجنس؛ أي: جاء المُعذّرون من جنس الأعراب. وذكر الرَّضيُّ في شرحه على الكافية لبيان (من) الجنسيّة، قوله: نحو (أخذتُ عشرين من الدَّراهم)، فإذا أشرتَ بالدّراهم إلى دراهم معيّنة أكثر من عشرين فـ (من) مُبعّضة؛ لأنّ العشرين بعضها، وإذا كانت الدّراهم عشرين فهي مُبيّنة، لأنّك قصدت بالدّراهم الجنس[1]. وهذا المعنى يمكن رجعه إلى الابتداء أيضًا، كما يمكن رجعه إلى التّبعيض كما ذكر سيبويه[2].

إيثار لفظ ﴿ٱلۡأَعۡرَابِ﴾:

تُطلقُ الأعراب على أهل البوادي، على خلاف العرب التي هي لأهل الحَضَرِ من المدن والقرى. وقد ورد ذكرُهم في أكثر من موضع في القرآن الكريم، من ذلك قوله: ﴿۞قَالَتِ ٱلۡأَعۡرَابُ ءَامَنَّاۖ قُل لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا وَلَمَّا يَدۡخُلِ ٱلۡإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمۡۖ﴾ [الحجرات: 14]. ولعلّ آية الحُجُرات تأتي مفسِّرة لذكر الأعراب دون العرب في آية التّوبة، فالأعرابُ هم الّذين لمّا يدخل الإيمان في قلوبهم؛ وهذا هو الدّاعي لأنْ يكونوا من المُعذِّرين، فهم يأتون إلى رسول الله ﷺ يُقدِّمون الأعذار بأنواعها وأشكالها طلبًا للقعود عن الجهاد؛ خشيةَ القتل، وذلك دليلُ انتفاء الإيمان في القلوب.

ما يغلب على حال الأعراب، الغلظة والنّفاق، وشدّة الأخلاق

دلالة اللّام: ﴿لِيُؤۡذَنَ لَهُمۡ﴾، وأثرها في المعنى:

اللّام في قوله: ﴿لِيُؤۡذَنَ لَهُمۡ﴾ لام تعليل، والمعنى في الآية: جاء المعذّرون لكي يُؤذنَ لهم، فقد جاءوا لطلب الإذن فكانت هذه غايتهم، وأنّهم لا يريدون احتمالًا آخر، وهذا على خلاف الّذين سيأتي ذكرهم؛ إذ جاءوا رسول الله ﷺ ليحملهم ولكن لم يجدوا الحُملانَ عند رسول الله ﷺ.

غاية الأعراب، كانت التّخلّف عن القتال، فنالوا بذلك سوء المآل

(1) الرّضي، شرح الرّضي على الكافية: 2/357.
(2) السّامرائيّ، معاني النّحو: 3/68.

دلالة بناء الفعل للمفعول ﴿لِيُؤۡذَنَ﴾ في السّياق:

تنزيه الرَّسول عن موافقة المُعذّرين

لَمَّا لم يسمّ فاعله في قبول الأعذار، والفاعل المقصود هو رسول الله ﷺ فحُذف لتعظيمه ﷺ وتنزيهه عن أن يعطيَ موافقته للمخلّفين أو المُعذّرين، الّذين يطلبون القعود بلا عذرٍ مشروع.

سرُّ التَّعبير بالجملة الخبريَّة: ﴿وَجَآءَ ٱلۡمُعَذِّرُونَ﴾ في السّياق:

إظهار ما وصلت إليه نفوس المنافقين، من سفاهة وضلالة

فائدة الجملة الخبريّة هنا؛ إثبات مجيء هؤلاء الأعراب ليأذنَ لهم الرّسول بالقعود والتّخلّف عن الجهاد معه، ليتحقَّقَ من هذا الخبر لازم الفائدة؛ إذ قال: ﴿وَجَآءَ ٱلۡمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ﴾، ثمّ أتبعها بقوله: ﴿لِيُؤۡذَنَ لَهُمۡ﴾، فما داموا مُعذّرين فإنّهم سيطلبون الإذن والعُذر عن عدم مصاحبة النّبيّ في الجهاد، فيكون المُخاطب عالماً بمضمون الخبر؛ وهو طلب الإذن، أمّا الفائدة البلاغيّة في هذا الخبر؛ فهي إظهار دنوّ ما وصلت إليه نفوسُهم المريضة، طالبين الاعتذار عن معيّة الرّسول ﷺ ولا يفعل ذلك الفعل إلا مَن تجرَّد قلبه عن الإيمان. هذا إن كان المقصود بهم الكاذبين، أمّا إن أُريد بهم أصحابُ الأعذار الحقيقيّة؛ الّذين استحقّوا إعذارهم في عدم الخروج للجهاد؛ لوجود عذر شرعيّ حقيقيّ، وذلك الأمر يحصل مثيله في الأفعال الجماعيّة.

دلالة (الواو) في: ﴿وَقَعَدَ﴾:

بيانُ فريقٍ آخر قعدوا دون إعلام، النّبيّ ﷺ

جملة: ﴿وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ﴾ عُطفت على جملة: ﴿وَجَآءَ ٱلۡمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ﴾ وهذا فريق آخر من الأعراب هم خليط؛ فمنهم المسلمون ومنهم المنافقون، قال: ﴿كَذَبُواْ﴾؛ "قرأ الجمهور ﴿كَذَبُواْ﴾ بالتَّخفيف، أي: كذبُوا في أيمانهم. وقرأ الحسنُ في المشهور عنه وأُبيٌّ، وإسماعيل: (كذَّبُوا) بالتَّشديد؛ أي: لَمْ يُصدِّقُوا ما جاء به الرَّسولُ عن ربِّه ولا امتثلوا أمره"[1]. والمراد أنّهم كذبوا في الإيمان

(1) ابن عادل، اللُّباب: 10/169.

الّذي أظهروه من قبلُ، ويحتمل أنّهم كذبوا في وعدهم النّصر، ثم قعدوا دون اعتذار؛ لم يكن تخلّفهم مترقّبًا؛ الّذين اعتذروا قد علم النّبيّ ﷺ أنّهم غير خارجين معه بخلاف الآخرين فكانوا محسوبين في جملة الجيش، فكان تخلّفُهم أشدّ إضرارًا[1].

سرُّ التَّعبير بالفعل ﴿وَقَعَدَ﴾:

القعود لفظٌ محوريّ مشترك، جَمَع أصناف المخلّفين

في قوله: ﴿وَجَآءَ ٱلۡمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ لِيُؤۡذَنَ لَهُمۡ وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ﴾ شمول فئتين بينهما خصوص وعموم، أو بينهما تفصيل بعد إجمال، ومحور ذلك كلّه (القعود) فيكون المعنى: وجاء المُعذّرون يقصدون القعود عن الجهاد، فمجيء المُعذّرين عامٌّ قد يشتمل على مَن يكذب بعذره أو يَصْدُق؛ ولكنّه لمّا قال: ﴿وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ﴾ فقد أوضح خطورة هذا الصّنف منهم وخصّهم بكذبهم على الله والرّسول. أو هو إيضاحٌ بعدَ إبهام، ولو قال: (وتخلّف الّذين كذبوا) لحصل توهمُ التّخلُّف عن المجيء مع المُعذّرين، وكذلك لو قال: (امتنع)، فأفاد لفظ (القعود) ذلك المعنى دون غيره.

وإيثار لفظ القعود لأنّه من الرُّسوخ واللصوق بالأرض دلالة على التَّثاقل عن القتال والتخلّف عنه: ﴿وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ﴾ [التوبة: 90]، ﴿لَّا يَسۡتَوِي ٱلۡقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ غَيۡرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ وَٱلۡمُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [النساء: 95]، ﴿فَرِحَ ٱلۡمُخَلَّفُونَ بِمَقۡعَدِهِمۡ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: 81][2].

الغرض من التَّعبير بلفظ ﴿ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ﴾:

بيان شناعة ما وقع فيه المنافقون، من الكذب والإثم

الاسم الموصول يتّضح معناه إذا وُصِلَ بالصّلة، وفائدة التَّعريف هنا بالاسم الموصول في قوله: ﴿وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ﴾ هو التَّعريض،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/293.
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيُّ المؤصَّل: (قعد).

ومثاله أيضًا سبق ذكره في سورة التّوبة قوله: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّيٓ﴾ [التّوبة: 49]، فذكر المنافقين بالصِّلة تعريضًا بشناعة أفعالهم، وليُعلم انحدار شأنهم عند اللّه. وهذا لا يكون بقولنا: (وقعد الكاذبون)؛ أي: مع استعمال الصّفة دون الاسم الموصول.

دلالة تعدّي الفعل ﴿كَذَبُواْ﴾ بنفسه، وليس بحرف الجرّ:

يُقال: كذب فلانٌ فلانًا؛ أي: أخبره بشيء بخلاف ما هو عليه، وكذب عليه، أي: أخبر عنه بما لم يكن فيه، ففائدة تعدّي الفعل في قوله: ﴿كَذَبُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ بلا حرف جرّ دلالة على عظيم اجترائهم؛ إذ إنَّهم أخبروا رسول اللّه بخلاف ما هم عليه، ويعلمون أنَّه رسول اللّه والوحي يتنزَّل عليه.

يكذبون على اللّه، وهو أعلم بما تُكنُّه صدورهم

سِرُّ التَّصريح بمعمولِ الفعل ﴿ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾:

صرّح بمعمول فعل التّكذيب فقال: ﴿كَذَبُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ لبيان خطورة ما قد أقدموا عليه من شناعة القرار والاختيار، فلا أعظم ولا أشنع ممَّا يفعل هؤلاء، من إثم الكذب على اللّه سبحانه، وعلى رسوله ﷺ، فصرّح بالمعمول ليُفتضح الأمر ويُعلم كذبهم صريحًا على اللّه وعلى رسوله، فيحقّ عليهم القول، ويحقّ عليهم العذاب. فقال: ﴿سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

بيان شناعة الإقدام على الكذب، على اللّه وعلى رسوله

دلالة الجملة الخبريّة ﴿وَقَعَدَ﴾ في السّياق:

الجملة الخبريّة ﴿وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ فائدتها إثبات قعود الّذين كذبوا اللّه ورسوله، وبيان صفةٍ من صفاتهم، لا تحتمل الخطأ، فقد صَدَقَ عليهم وصفُ الكذب على اللّه ورسوله بقعودهم دون حجّة أو سبب شرعيّ. وذلك من أعظم الآثام الّتي تُورد أصحابها المهالك. وليعلم هؤلاء أنَّ اللّه قد أحاط بما أكنّوا في أنفسهم وأنَّ رسوله ﷺ قد أخبر بالوحي، فيتحقّق ما يُعرف بلازم الفائدة. وفي هذه العبارة الخبريّة ما فيها من التّقريع بأولئك القوم.

بيان علم اللّه وعلم رسوله، بخبايا صدورهم

المقابلة بين الجملتيْن الخبريّتيْن:

الآية تعرض فريقيْن مختلفيْن من المُخلّفين

﴿وَجَآءَ ٱلۡمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ لِيُؤۡذَنَ لَهُمۡ﴾ إذا كان المُراد بالمعذّرين فريق من المؤمنين الصَّادقين من الأعراب، ثمّ ذُكر فريقٌ آخر وهم القاعدون دون عذر شرعيّ يدلّ عليه قوله تعالى: ﴿وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ﴾؛ فيكون بين الآيتين مقابلة. وهذه المقابلة بين هذين الفريقيْن تعكس ما حصل من إرباكٍ في نفوس بعض النّاس؛ منهم مَن كان يرغب بالجهاد مع رسول الله ﷺ، منعتهم أعذارهم، وقوم آخرون غرّتهم الحياة الدّنيا وكرهوا أن يُجاهدوا معه ﷺ.

دلالة الاستئناف في: ﴿سَيُصِيبُ﴾:

بيان استحقاق الكافرين، عذاب الله الأليم

جملة: ﴿سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ مستأنفة لابتداءِ وعيد[1] وفُصلت عن سابقتها، ففي الجملة الأولى ذكر الله قعود الذين كذبوا الله ورسوله في ذلك الموقف الدُّنيويّ، بينما قال في الجملة الثّانية: ﴿سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾؛ فصار الحديث عن الآخرة والعذاب الّذي استحقّه الكافرون.

دلالة السّين في قوله: ﴿سَيُصِيبُ﴾:

الوعيد بالعذاب القريب، تخويف للمعذّرين وترهيب

السِّين وسوف يختصّان بالفعل المضارع، وهما حرفا استقبال، وتدلّ (سوف) على أنّ ما بعدها ليس بحاضر[2]، والاستقبال بـ(سوف) فيه بُعدٌ وتراخٍ، وهو أكثر تنفيسًا من السّين[3]، فيكون (السّين) للقريب، و(سوف) للتّنفيس البعيد، فأفاد (السّين) في قوله: ﴿سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ زيادة الوعيد بقُرب العذاب الّذي سيُصيب الّذين كفروا من هؤلاء.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/293.
(2) ابن قيّم الجوزيّة، بدائع الفوائد: 11/91 - 92.
(3) الرّضيّ، شرح الرّضيّ على الكافية: 2/248.

سرّ التّعبير بالإصابة، دون غيره من المرادفات:

دلالة الإصابة على التّسديد والأخذ

معنى (يصيب) أي: لم يخطئ، تقول: أصاب السّهم الرّميّة: لم يُخطئها، وصوَّب السّهم: وجهه وسدَّدَه[1]. فالتّعبير بالإصابة له دلالته الدّقيقة لِما سيأتي على الكافرين من العذاب. وأنّه واقع بهم لا محالة، فشبّه ما سيأتيهم من العذاب بتصويب السَّهم من الرّميّة. وتأتي (أصاب) بمعنى: أخذ، تقول: أصاب من المال، وهذا المعنى يدلّ على أنَّ العذاب سيأخذ الكافرين لشدّته وإحاطته بهم.

الغرض من التّعبير بالاسم الموصول ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾:

تحقير المتّصفين بالكفر، والتّهوين من شأنهم

فائدة التَّعريف بالاسم الموصول في قوله: ﴿سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ هو تحقير هؤلاء المَّتصفين بالكُفر، فذكر الكافرين بالصِّلة لشناعة ما هم عليه من مقام الكُفر، وتحقيرًا لهم وبيانًا لسوء عاقبتهم، وما سيصيبهم من العذاب الأليم. وهذا لا يكون بقولنا: (سيصيب الكافرين)؛ أي: مع استعمال الصّفة دون الاسم الموصول. أو المُراد بالموصول المُصرّون على الكُفر[2].

الغرض من تقديم المفعول به: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾:

اختصاص الكافرين بعذاب أليم

تقديم المفعول به: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ لفائدة اختصاص الكافرين بهذا العذاب الأليم؛ وكأنّه قد خُلق هذا العذاب لهم خاصّة، فأفاد ذلك تقوية المعنى وتوكيده.

سرُّ التَّعبير بالجارّ والمجرور ﴿مِنۡهُمۡ﴾:

إصابة الّذين كفروا بالعذاب لكُفرهم

"وضمير ﴿مِنۡهُمۡ﴾ يعود إلى المذكورين فهو شامل للّذين كذبوا اللّه ورسوله، ولِمن كان عذره ناشئًا عن نفاق وكذب"[3] قال ابن عادل: "وإنَّما قال ﴿مِنۡهُمۡ﴾؛ لأنَّه تعالى كان عالمًا بأنَّ بعضهم

(1) عبد المنعم، معجم المصطلحات والألفاظ الفقهية، ص: 197.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 5/345.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/293.

سيؤمن، فذكر بلفظة (مِنْ) الدَّالّة على التَّبعيض"[1] وذكر الآلوسيّ قوله: أنّ ﴿مِنْهُمْ﴾؛ أي: من الأعراب مطلقًا؛ وهم المنافقون منهم، أو من المعتذِرين، ووجه التَّبعيض أنَّ منهم مَن اعتذر لكسله لا لكفره؛ أي: سيُصيب المعتذرين لكُفرهم عَذابٌ أَليمٌ؛ وهو عذاب النَّار في الآخرة، ولا يُنافي استحقاق مَن تخلَّف لكسل[2].

دلالة تقديم المجرور ﴿مِنْهُمْ﴾، على الفاعل ﴿عَذَابٌ﴾:

في قوله تعالى: ﴿سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ إسناد الإصابة إلى العذاب، وذلك من قبيل إسناد الفعل إلى غير فاعله، وهذا من المجاز العقليّ بعلاقة المُسبّبيّة، فبسبب كفرهم سيأتيهم العذاب؛ ولأنَّ الله تعالى هو الذي سيُصيبهم بالعذاب، فأسند الفعل إلى العذاب لفائدة قرب العذاب منهم، وشدَّة الإصابة عليهم، وفي ذلك مبالغةٌ في المعنى زيادةً في التّرهيب.

الغرض من المجاز العقليّ، في إسناد الإصابة إلى العذاب

توجيه المتشابه اللّفظيّ، بين آيتي التّوبة، والمائدة:

الآية في سورة المائدة ورد قبلها قوله: ﴿لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ ۘ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ ثم أتبعها بقوله: ﴿وَإِن لَّمْ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ثم أتبعها بقوله: ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ فمن سياق الآيات يظهر أنّ الآية تناولت بيانًا لقضية الكفر عند النّصارى؛ إذ إنّهم قد كفروا لقولهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾، ثم جاء تبيين خطئهم في ذلك، وهو قول المسيح نفسه وبراءته من هذا الكفر، وتوعَّدَ مَن أصرَّ على هذا الكفر بالنّار، ثم بيّن وجهًا آخر

آيات المائدة حِجاجيّةٌ إقناعيّةٌ، وآيات التّوبة مظهرة منطق البراءة من الكفر

(1) ابن عادل، اللُّباب: 10/169.

(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 5/345.

من كفرهم فقال: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ﴾، ثم ردَّ كُفرهم بقوله سبحانه: ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾، فالآيات الكريمة موضع حجاج ونقاش وإقناع واستدلال، فقال بعدها: ﴿وَإِن لَّمْ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، فذكر المسّ دون الإصابة ترغيبًا لهم في الرّجوع إلى الإيمان والتّوبة عن أقوال الكفر، فقال بعدها: ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، فبيّن أنّ توبتهم مُرَحَّبٌ بها إنْ عادوا عن الكفر واستغفروا الله، فكان مناسبًا لهذا الحديث أن يذكر المسَّ دون الإصابة؛ لأنّ المسَّ يدلُّ على القِلَّة. أمَّا الإصابة في آية التّوبة قوله: ﴿سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [التّوبة: 90]، فقد عُلمت أحوال كفرهم وردّتهم عن نصرة الدّين، وترك الخروج مع رسول الله ﷺ والجهاد معه، ورضاهم بالقعود مع الخوالف، فناسب هنا الإصابة، لشدّة الموقف؛ إذ لا مقام للمحاججة والحوار والنّقاش حول قضيّة الإيمان والكفر، فهؤلاء قد أَخْفَوا الكفر وأظهروا الإيمان، ثمّ افتُضحوا في قضيّة الجهاد مع رسول الله ﷺ، فناسب ذكر الإصابة دون المَسِّ.

الغرض من تنكير لفظ ﴿عَذَابٌ﴾:

وتنكير ﴿عَذَابٌ﴾ للتّهويل والمراد به عذاب جهنّم[1]. فلا أعظم من عذاب الله يوم القيامة للمنافقين الّذين أظهروا الإيمان، وفي ساعة العُسرة افتضح أمرهم؛ فتخلّفوا وقعدوا عن الجهاد مع رسول الله ﷺ.

تهويل العذاب، فلا أعظمَ ولا أفظع، من عذاب جهنّم

سرُّ وصف العذاب بالألم:

قال: ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ دون (عظيم) أو (مهين)؛ وذلك لأنّ المقام يقتضي ذلك؛ لجُبنهم عن أن يصيبهم ضرر الجهاد؛ فكان وصف

العذاب الأليم مناسب لتركهم القتال، مع رسول الله ﷺ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/293.

العذاب بالألم مناسبًا لما يتصوّرونه من الخلاص من آلام القتال؛ قال تعالى: ﴿إِن تَكُونُواْ تَأۡلَمُونَ فَإِنَّهُمۡ يَأۡلَمُونَ كَمَا تَأۡلَمُونَۖ﴾ [النّساء: 104]. فإصابة العذاب هي كإصابة السّهم أو الرّمح أو السَّيف في المعركة، وألم العذاب هو كألم تلك الإصابات في المعركة، فناسب ذكر الأليم مع ما يصيب الجرحى في المعارك من آلام.

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

المجيءُ والإتيانُ:

الفرق بين (جاء فلان) و(أتى فلان): أنّ معنى (جاء فلان)، كلام تامٌّ لا يحتاج إلى صلة، ومعنى (أتى فلان) يقتضي مجيئه بشيء، ولهذا يُقال: جاء فلان نفسُهُ، ولا يُقال: أتى فلان نفسُهُ، ثمَّ كثر ذلك حتّى استعمل أحد اللّفظين في موضع الآخر[1].

المجيء يكون إتيانا من مكان، وقد استعمل أحدهما، في موضع الآخر

و"الإتيان مجيء بسهولة"[2]، وأصل المجيء انحدار، ومن هنا يتّضح مأتى استعمال: (أجاءه إلى كذا)؛ بمعنى: ألجأه واضطره، كأنّه أحْدره أو دفعه، إلى المجيء[3]. وعليه فإنّ اختيار لفظ المجيء مناسب لحال هؤلاء المعذّرين من تقديم خطوة وتأخير أخرى، وما في صدورهم من صراع وخوف وقلاقل.

القعودُ، والمكْثُ:

القُعودُ للعجز، والمكوثُ للانتظار، من أشقّ الأمور على النّفس

استعمل القعود لاشتراكه مع كلمة القواعد بالجذر نفسه، والقواعدُ هنَّ النّساء اللّاتي قَعَدْنَ عن التّزوّج، قال تعالى: ﴿وَٱلۡقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِي لَا يَرۡجُونَ نِكَاحٗا﴾ [النّور: 60]؛ وفائدة ذلك مناسبته لما ذكره في الآية السّابقة قوله: ﴿رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلۡخَوَالِفِ﴾؛ أي: النّساء. والمُقْعَدُ: مَن قَعَدَ عن الدّيوان ولن يعجز عن

(1) العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 152.
(2) الرّاغب، المفردات، ص: 60.
(3) جبل، المعجم الاشتقاقي: 1/264.

النهوض لزَمَانَة، والمُقْعَد: كناية عن اللئيم المتقاعِد عن المكارم[1]. أمّا (مكث) فالمُكْثُ: الانتظار. والماكِثُ: المنتظِر[2]. فالمُكْث لم يكن مُرادًا في الآية الكريمة.

الإصابةُ والمسُّ:

الاصابة للقوّة، والمسّ للتّحسُّس والتّأنّي

الإصابة فيها دلالة على القوّة، وفيه معنى الصّواب وتحقيق الهدف، وأصاب السّهمُ إذا وصل إلى المرمَى بالصَّواب[3]. أمّا المَسُّ فهو كاللّمس، لكنّ اللَّمسَ قد يُقال لطلب الشَّيءِ، أمّا المَسّ فيُقال فيما يكون معه إدراكٌ بحاسّة اللّمس[4].

(1) الرّاغب، المفردات، ص: 21.
(2) الخليل، العين: 5/353.
(3) الرّاغب، المفردات: (صوب).
(4) الرّاغب، المفردات: (صوب).

﴿لَّيۡسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلۡمَرۡضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُواْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦۚ مَا عَلَى ٱلۡمُحۡسِنِينَ مِن سَبِيلٖۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٩١﴾ [التّوبة: 91]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

المناسبة بين حال المعذّرين من الأعراب، وبين حال أصحاب الأعذار الصّادقين

بعد أن ذكر قعود المُخَلَّفين عن الجهاد مع رسول الله ﷺ وتوعدهم بالعذاب الأليم؛ استدرك هنا أنّ يبيّن أنَّ بعضًا من المخلَّفين مؤمنون راغبون في القتال مع رسول الله، ولكن أقعَدَهم العُذر، فهؤلاء لا حَرَجَ عليهم في ذلك، ولا سبيل عليهم، فالله سيغفر لهم قعودهم؛ فقال: ﴿لَّيۡسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ﴾ [التّوبة: 91]. قال الرّازيّ: "لما بيّن الوعيد في حقِّ مَن يُوهم العذر، مع أنَّه لا عُذر له، ذكر أصحاب الأعذار الحقيقيَّة، وبيَّن أنَّ تكليف الله تعالى بالغزو والجهاد عنهم ساقط"[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلضُّعَفَآءِ﴾: جذر الكلمة هو (ضعف)؛ والضُّعْفُ: خلاف القوّة[2]. ويُقال: الضَّعْفُ في العقل والرّأي، والضُّعْفُ في الجسد[3]. والضّعفاء: جمع ضعيف، وهو الذي به وَهْنُ القوّة البدنيّة من غير مرض.

2) ﴿ٱلۡمَرۡضَىٰ﴾: جمع مريض، وهو الذي به مرضٌ، ويُقْصَدُ به المرض العُضويّ؛ وهو ما يطرأ على العضو من جسد الإنسان من تغييرات في نظامه وأدائه، أو ما يطرأ من عجز على الإنسان، ومن المرض المزمنِ كالعَمى والزّمانة[4]، أو كَبَتْرِ أحد الأطراف مِمَّا يحول بينه وبين قتال العدوّ، والخروج للجهاد.

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 16/121.
(2) الخليل، العين، والزّبيديّ، تاج العروس: (ضعف).
(3) الخليل، العين: (ضعف).
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/294.

3) ﴿حَرَجٌ﴾: الحَرَج: الإثم أو المَأْثم. والحارِجُ: الآثِم[1]، ورجُلٌ حَرِج وحَرَج في معنى الضَيِّق الصَّدْر[2]. وقوله: ﴿يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾. وقد حَرِجَ صدرهُ: أيْ: ضاق ولا ينشَرِحُ لخَير، ورجلٌ مُتَحَرِّج: كافٌّ عن الإثم، ومن المَجاز: وقعَ في الحرج وهو ضِيقُ المأثم[3]. وحدِّث عن بني إسرائيل ولا حَرَج، وأحرجني فلان: أوقعني في الحرج[4].

4) ﴿نَصَحُواْ﴾: النّصح: نقيض الغِشِّ، ورجلٌ ناصِحُ الجَيْب: نقيُّ الصَّدر، لا غشَّ فيه[5]. والنُّصح: العمل النّافع للمَنصوح، قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ﴾ [الأعراف: 79]، والنُّصح: إخلاص العملِ من الغِشّ[6]. وأُطلق هنا على الإيمان والسّعي في مرضاةِ اللّه ورسوله والامتثال والسّعي في ما ينفع المسلمين، فإنّ ذلك يُشبه فعل المُوالي النّاصح لمنصوحه[7]. قال ﷺ: «"الدِّينُ النَّصيحَةُ" ثلاثًا. قالوا: لمنْ؟ قال: "للّهِ ولكتابِهِ ولرسُوله ولأئمَّةِ المسلمينَ وعامَّتهمْ"»[8].

5) ﴿ٱلْمُحْسِنِينَ﴾: جذر الكلمة هو (حسن)؛ الحُسْنُ ضدُّ القُبْح، والحَسَنُ ضدُّ القَبِيح[9]. قال تعالى: ﴿وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [البقرة: 83]. وقوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا﴾ [العنكبوت: 8]؛ أي: يفعل بهما ما يَحْسُنُ حسنًا[10]. والحُسنُ كلُّ مبهجٍ مرغوبٍ فيه، والفرق بين (الحسن) و(الحُسنى)؛ أنّ (الحَسَنَ) يُقال في الأعيان والأحداث، و(الحُسْنَى) لا يقال إلّا في الأحداث دون الأعيان[11].

6) ﴿سَبِيلِ﴾: جذر الكلمة هو (سبل)؛ السَّبيل: الطَّريق الذي فيه سُهولة وجمْعُه سُبُل، قال تعالى: ﴿وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا﴾ [النّحل: 15]، وقوله: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾ [الزّخرف: 10]؛ أي:

(1) الخليل، العين، وابن سِيدَه، المُحكَم: (حرج).
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/294.
(3) الخليل، العين، والزّمخشريّ، أساس البلاغة: (حرج).
(4) الزّمخشريّ، أساس البلاغة: (حرج).
(5) ابن سِيدَه، المُحكم: (نصح).
(6) ابن عادل، اللُّباب: 10/170.
(7) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/294.
(8) متّفق عليه. وهذه رواية مسلم، إسناده صحيح على شرط مسلم، كتاب: الإيمان، باب: بيان أن الدين النصيحة، الحديث رقم: (55).
(9) ابن دُرَيد، جمهرة اللّغة: (حسن).
(10) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (حسن).
(11) الرّاغب، المفردات: (حسن).

طُرُقًا سالكة، وقوله: ﴿لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [الزّخرف: 37] يعني: طريق الحقِّ. وقوله: ﴿مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍۚ﴾ [التّوبة: 91]؛ أي: مؤاخذة لهم، فليس على المحسنين من طريق لمؤاخذتهم. وابن السَّبِيلِ: المسافر البعيد عن منزله، نُسب إلى السّبيل لممارسته إيّاه، ويُستعمل (السَّبِيلُ) لكلّ ما يتوصّل به إلى شيءٍ خيرًا كان أو شرًّا، قال: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ﴾ [النحل: 125]، و﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ﴾ [يوسف: 108]، وكلاهما واحد لكن أضاف الأوّل إلى المبلّغ، والثّاني إلى السّالك بهم، وقوله تعالى: ﴿وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [الأنعام: 55][1].

المَعْنى الإِجْماليُّ:

لا حَرَج على أهل الأعذار، إذا ما خلّتهم الأقدار، بشرط إخلاص النّية والمحبّة

ذكر في هذه الآية أهل الأعذار الّذين منعتهم أعذارُهم من الخروج مع رسول الله ﷺ؛ فقال تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ﴾؛ يعني: الشيوخ والعَجَزَة، وأهل العَمَى، والعَرَج، والزّمَانَة ومَن كان موصُوفًا بمرضٍ يمنعه من التّمكُّن من المحاربة، وكذلك الفقراء؛ لأنَّ حضورَهُم يكون عِبئًا على المجاهدين، فلا يكون حرج في تخلّفهم عن الجهاد مع رسول الله ﷺ، ولا إثم عليهم. وقوله: ﴿إِذَا نَصَحُواْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦۚ﴾؛ بمعنى أن يكون مخلصًا في نفسه لدين الله، ونُصرة رسوله، والتّصديق بنُبُوَّتِهِ، والتزام طاعته في أمره ونهيه، وتعظيم سنَّته[2].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالة الاستئناف، في مطلع الآية الكريمة:

استيفاء أقسام المُخلّفين بعذرٍ، في بيان بليغ

قوله: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ﴾، استئناف بيانيٌّ لجواب سؤالٍ مقدّرٍ ينشأ عن تهويل القعود عن الجهاد مع رسول الله

(1) الرّاغب، المفردات: (سبل).
(2) ابن عادل، اللُّباب: 10/170.

ﷻ وما توجّه إلى المخلّفين من الوعيد، استيفاءً لأقسام المخلّفين من مَلُوم ومعذورٍ من الأعراب أو من غيرهم[1]. فإنّ فريقًا من المؤمنين قد حالت أعذارُهم بينهم وبين الخروج مع رسول الله ﷺ فاقتضى ذلك ذِكرَهم في الآية الكريمة.

وإنَّما وقع الاستئناف لأنّ الّذي قبلها كان حديثًا عن المُعذّرين والأعراب الطّالبين للإذن دون عذرٍ مشروع، وتحدّث عن قعود الكاذبين، ثم أنهى الكلام عنهم بما توعّدهم به الله من العذاب. وفي هذه الآية بدأ موضوعًا جديدًا بالحديث عن أولي الأعذار الصّادقة فقال: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ﴾؛ فاقتضى الفصل لعدم تعلّق الآية بما قبلها، ولو وصل فقال: (وليس على الضّعفاء) لأشكل أنَّه بيانٌ لِما قبلها أو استثناءٌ منها.

دلالة النَّفي بـ ﴿لَّيْسَ﴾:

النّفي بـ (ليس) يختلف عن النّفي بـ (ما)؛ فقد استعملت العرب (ليس) استعمال الأفعال، وعلى هذا فالجملة المبدوءة بها فعليّة، مقابل ذلك أنّ الجملة المنفيّة بـ (ما) اسميّة، والاسميّة أثبتُ من الفعليّة. فالجملة التي تنفي الحَرَج عن طائفةٍ مخصوصة من المؤمنين، إنّما يكون نفيُها محدودًا مؤقَّتًا، قد ينتهي حُكمُه على شريحةٍ منهم مع انتفاء الموانع، لكيلا يُتوسّع في اختراع الأعذار وتقديرها في غير موضعها ومحلِّها.

نفي الحرج عن بعض المؤمنين، محدود مُقنّن، بحكمة ودقّة

الغرض من الجملة الخبريّة:

وأفادت الجملة الخبريّة ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ﴾ إثباتَ أنّ لا مؤاخذة لأصحاب الأعذار المشروعة في كلّ حال؛ وأصبح ذلك

تعميم تشريع عدم مؤاخذة أصحاب الأعذار، وأهميّته في خدمة المستضعفين

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/294.

تشريعًا عامًّا في أمور المسلمين كلِّها؛ سواءً أكان ذلك في أمور الجهاد أم العبادات، فلا يكون حرجٌ في أمورهم، ولا يُكلّف اللّه نفسًا إلا وُسعها.

سرُّ اصطفاء صيغة الجمع: ﴿ٱلضُّعَفَآءِ﴾:

الضّعفاء هم أهل الضّعف البدنيّ أو المعنويّ

قوله: ﴿ٱلضُّعَفَآءِ﴾ يشمل الضّعاف ضعفًا معنويًّا وبدنيًّا ومادّيًّا، ومن ذلك مَنْ قد ألمَّ به مرضٌ نفسيٌّ يُقعده عن الجهاد. ووردت هذه اللفظة في قوله تعالى: ﴿وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ﴾ [البقرة: 266]، "وقرئ (ضِعَافٌ) وكلاهما جَمعُ: ضعيف كظَريف وظُرَفاء وظِراف، والمعنى ذريّة صِبيةٌ صغارٌ، ويحتمل أن يُراد بضعفاء: محاويج"[1].

والضّعاف تأتي في الأمور المعنويّة، والضُّعفاء في الماديّة والمعنويّة معًا، وقد ورد الضّعاف في القرآن الكريم مرّةً واحدةً فقط هي قوله تعالى: ﴿وَلۡيَخۡشَ ٱلَّذِينَ لَوۡ تَرَكُواْ مِنۡ خَلۡفِهِمۡ ذُرِّيَّةٗ ضِعَٰفًا خَافُواْ عَلَيۡهِمۡ فَلۡيَتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡيَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدًا﴾ [النّساء: 9]، الضعاف هنا الّذين لم يبلغوا سنّ الرّشد[2]. أمّا (ضعفاء) فقد وردت في القرآن الكريم أربع مرّات؛ منها قوله: ﴿لَّيۡسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلۡمَرۡضَىٰ﴾، والضّعفاء هنا الشّيوخ ومَن كان بدنه ضعيفًا لا يقوى على الخروج للقتال.

علّة تكرار ﴿وَلَا﴾ في العطف، وتكرار ﴿عَلَىٰ﴾ في الجرّ:

كلّ حالة تقدّر بقدرها، ولا تُكلّف نفسٌ إلّا وسعها

في قوله: ﴿لَّيۡسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلۡمَرۡضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ﴾ تكرار للنّفي (لا)، ولحرف الجر (على)، لبيان أنّ كلّ حالة من هذه الحالات لها حكمها الخاصُّ، أو أحكامها الخاصّة بها، فيؤخذ كلُّ فريق من هؤلاء بحسب حاله؛ وكلّ حالة تُقدّر بقدرها، وذلك لبيان عظيم شأن ما يُقدِم عليه هؤلاء من طلب

(1) عُضيمة، دراساتٌ في أسلوب القرآن: 7/486.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 3/120.

الإعذار، والتّخلّف عن الجهاد أوّلًا، ثمّ التّخلّف عن أداء العبادات على وجهتها في عموم حياتهم، ثمّ بيان عظيمِ شأن الشّرع وعالميّته؛ إذ لا حرج على المؤمنين ما داموا لا يقدرون على الأداء، ولا يُكلّف اللّه نفسًا إلا ما آتاها من اللّياقة والقُدرة. وذكر ابن عاشور حول إعادة حرف النّفي في عطف الضعفاء والمرضى أنّه لتوكيد نفي المؤاخذة عن كلّ فريق بخصوصه[1].

نكتةُ ترتيب المعطوفاتِ في ﴿ٱلضُّعَفَآءِ﴾، وما يعطف عليها:

التَّسلسل المنطقيُّ في ذِكر أصحاب الأعذار، من فصيح البيان

في ذكر الضّعفاء، والمَرْضى، والّذين لا يجدون ما يُنفقون بهذا التّسلسل ترقٍّ. ففي ذكر أصحاب الأعذار ترقٍّ من الأضعف وهم النّساء والعجائز الّذين يكون عجزُهم دائمًا، فهم غير مُكلّفين مع مرور الزّمن لأنَّ عجزهم دائم على مدى الحياة، ثمَّ المرضى الذين يُرْتَجى شفاؤهم؛ ولو شُفوا من أمراضهم فإنّهم لا عُذر لهم، والشّفاء من الأمراض قد يحتاج لزمن طويل، ومعالجة كلٍّ بحسب حالته ومرضه. ثمَّ الّذين لا يجدون ما يُنفقون، فلو أنّهم وجدوا ما يُعينهم على الجهاد لوجب عليهم، وانتفت الحُجّة والعُذْر.

نوع (اللّام) في ﴿ٱلضُّعَفَآءِ﴾، ﴿ٱلْمَرْضَىٰ﴾ ودلالته:

جنس الضُّعفاء والمرضى معذورون

نوع (ال) في ﴿ٱلضُّعَفَآءِ﴾، و﴿ٱلْمَرْضَىٰ﴾ هي (ال الجنسيّة)، وهي لفائدة ذكر جنس الضعفاء، وجنس المرضى، فلم يُحدّد نوعٌ من أنواع الضّعف أو المرض. ويبيّن ذلك كلّه قوله: ﴿إِذَا نَصَحُواْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦۚ﴾؛ أي: أن تكون دواخلهم ميّالة إلى المشاركة والحضور في المواطن الّتي يُحبُّها اللّه ورسوله، ويأمر بها الشّرع، ويُشارك فيها ويَحضُرها المؤمنون، ولكن منعتهم أمراضهم وضعفهم.

فائدةٌ في كلمة ﴿ٱلضُّعَفَآءِ﴾:

دلّت كلمة ﴿ٱلضُّعَفَآءِ﴾ في سورة التّوبة من قوله تعالى: ﴿لَّيْسَ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/294.

عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ﴾ الدلالة على الضّعف البدنيّ والصِّحّي الّذي قد يمنع صاحبه من أداء الأعمال الثّقيلة كالجهاد في سبيل اللّه، وهؤلاء لا سبيل عليهم ولا عتاب. أمّا ﴿ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ﴾ التي وردت في سورتي إبراهيم وغافر؛ فهم الّذين ضَعُفَتْ حجّتهم أمام اللّه يوم القيامة لاتّباعهم الّذين استكبروا، قال تعالى: ﴿وَبَرَزُواْ لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ ۚ قَالُواْ لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْ ۖ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴿٢١﴾﴾ [إبراهيم: 21]. وقال تعالى: ﴿وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِى ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴿٤٧﴾﴾ [غافر: 47]. وفي سورة التّوبة إشارة إلى الضّعفاء في الدّنيا، وفي سورتي إبراهيم وغافر فهم الضّعفاء في الآخرة، فالضّعفاء في الدّنيا قد يكونون على الحَقِّ، فحجّتهم ضعفُهم الّذي أقعدهم عن بعض الأعمال. أمّا الضّعفاء في الآخرة فهم الّذين حقّت عليهم كلمةُ العذاب فلا حجّة لهم تُنقذهم من عذاب اللّه تعالى، ولأنّهم استعانوا واستقوَوا في الدّنيا بالمُستكبرين.

التّمييز بين (الضُّعَفاء) في الدّنيا، و(الضُّعَفاء) في الآخرة

نكتة العدول إلى الاسم الموصول:

جاء في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ﴾ العدول عن ذكر الاسم الصّريح (الفقراء) إلى اسم الموصول ليُفيد إعطاء حكم للحالات الخاصّة؛ فقد تختلف أحوال النّاس من وقت لآخر، وقد لا يكون الإنسان فقيرًا في عموم حياته؛ لكنّه في وقتٍ من الأوقات لم يجد ما يُعينه على الجهاد أو أداء ما كُتب عليه، ثم إنّ في التّعبير اختصارًا عن ذكر أسماء الّذين جاؤوا يطلبون من الرّسول ما يحملهم عليه، أو يمكن أن يُفيد الموصول دلالة العموم، إذ تتكرّر مثل هذه الحالات في كثير من مواقف الحياة.

في اختلاف أحوال النّاس من وقتٍ لآخر، حكمة لله في خلقه

سِرُّ التعبير بالفعل المضارع: ﴿لَا يَجِدُونَ﴾:

بيان حال الصّادقين في البحث والمثابرة، استجابةً لأمر الله ورسوله

عبّر بالإيجاد في قوله: ﴿لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ﴾؛ لأنّه يُعبّر عن الغِنى بالوجدان والجِدَّة، فناسب أن يختار لفظ ﴿يَجِدُونَ﴾ دون غيره من الألفاظ لتناسبها مع الغِنى، ويُعبّر عن الضّالّة بالوجود. قال تعالى: ﴿مِّن وُجْدِكُمْ﴾ [الطّلاق: 6]؛ أي: تمكّنكم[1]. ويُفيد التّعبير بالمضارع المنفيِّ أنّه يدلّ على الحال[2]؛ أي: حالهم لا يجدون ما ينفقون، أو: حالهم حال الفقير، كما يدلّ المضارع على أنّ هؤلاء الفقراء الّذين لا يجدون ما ينفقون مستمرّون في البحث عمّا يُعينهم، فهو يفيد التّجدّد الزَّمنيَّ للفعل؛ فهم يحاولون بحثًا ومثابرة منهم بغية إيجاد ما يُؤهِّلهم لأداء هذا العمل، لكنّهم مع تلك المحاولة لا يَحصلون على مُبتغاهم، فهم حريصون على البحث والإيجاد مع الزّمن؛ لكنّهم لا يجدون. وهذه فائدة استعمال الجملة ﴿لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ﴾ بدلًا مِن (الفقراء)، فلو قال: ولا على الفقراء لاختُزلت تلك المعاني في معنى الفقر فحسب.

دلالة ﴿مَا﴾، وأثرها في المعنى:

الّذين لا يجدون نفقة يومهم، هم الفقراء المعوزون، لقلّة ذات اليد

في قوله: ﴿مَا يُنفِقُونَ﴾؛ ﴿مَا﴾ اسم موصول بمعنى (الّذي)؛ أي: الّذي ينفقون، لكنّها أفادت هنا الموصوليّة الاسميّة[3]؛ أي: بنفقتهم، فيحتمل المعنى لا يجدون نفقتهم في حياتهم اليوميّة، ولا يجدون الّذي ينفقون لغرض الجهاد والخروج مع رسول الله ﷺ.

دلالة التّعبير بالفعل المضارع المثبت ﴿يُنفِقُونَ﴾:

دلالة المضارع على الاستقبال، مفصحة عن المراد

دلالة الفعل المضارع على الحال والاستقبال[4]. ويُفيد المضارع دلالة التّجدُّد مع الزّمن، فهم يبذلون وُسعهم في إيجاد ما يُنفقون بُغية الخروج للجهاد.

---

(1) الرّاغب، المفردات، ص: 584.

(2) الرّضيّ، شرح الرّضي على الكافية: 2/256.

(3) السّامرّائيّ، معاني النّحو: 1/121.

(4) ابن يعيش، المُفصّل: 2/137، والمُبرّد، المُقتَضَب: 2/2.

سِرُّ اصطفاء لفظ ﴿حَرَجٌ﴾:

شمول الدّلالة ضيق النّفس، وضيق اليد

لعلّ فائدة اللفظة وفضلها على غيرها في هذا السّياق، ما دلّت عليه من ضيق الظّاهر والباطن، فهي تدلُّ على ضيق الصّدر كما دلّت على ضيق اليَد والقدرة على الإنفاق أو أداء الأعمال التّكليفيّة من جهادٍ وغيره، وقد نُفي في الآية أن يجعل اللّه حرجًا على ذوي الأعذار، وليس لأحدٍ أن يجعل عليهم حرجًا في ذلك.

الغرض من تنكير لفظ ﴿حَرَجٌ﴾ في السّياق:

الدّلالة على أقلّ الحرج، تفيد أهميّة ذلك في التّوسعة بالبديل

دلَّت على العموم لأنّها في دائرة النّفي، فالأرجح المراد أنّه تعالى لم يجعل شيئًا من جنس الحرج. وجاء في التّصريح أنّ النّكرة في سياق النّفي تعمّ[1]، ويكون فيها دلالة على الوحدة والجنسيّة[2]. وعلى العموم فإنّ التّنكير في قوله تعالى: ﴿حَرَجٌ﴾ للدّلالة على أقلّ الحرج.

الغرض من التّأخير والتّقديم، بين اسم ﴿لَّيْسَ﴾ وخبرها:

نَفْيُ التّكليف عن الضّعفاء، رحمةٌ من ربّ الأرض والسّماء

ليس على الضّعفاء حرجٌ؛ إذْ أفاد تقديم الخبر وهو الجارُّ والمجرور ﴿عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ﴾ تخصيص الضّعفاء بنفي التّكليف عنهم، ويُلحق بذلك المعطوفان ﴿ٱلْمَرْضَىٰ﴾ و﴿ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ﴾.

دلالة التّعبير بالظّرف المتضمّن معنى الشّرط، في ﴿إِذَا﴾:

النّصح بالنّيّات والأفعال، منهج في البلاغ مفيد

(إذا) تكون ظرفًا لما يُستقبل من الزّمان، مضمّنة معنى الشّرط، وتختصُّ بالدّخول على الجملة الفعليّة[3]. ومنه قوله تعالى: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ﴾[4]. وفائدة هذا الأسلوب إحاطة الضّعفاء بشرط النّصح للّه ورسوله، يراقبون أنفسهم، فلا يخرجون عن هذا الحيّز الإيمانيّ العمليّ العظيم.

(1) السّيوطيّ، الإتقان، ص: 190.
(2) العلويّ، الطّراز: 2/12.
(3) ابن هشام، مُغني اللّبيب: 1/92 - 93.
(4) ابن عطيّة، المُحرَّر الوجيز: 3/70.

إيثار التّعبير بلفظ النّصيحة: ﴿إِذَا نَصَحُواْ﴾:

النّصيحة لا تصحّ إلّا بنيّة صادقة

ليس على أهل الأعذار الصّحيحة من ضعف أبدانٍ أو مرضٍ أو زَمَانَةٍ أو عدم نفقةٍ إثمٌ، وقوله: ﴿إِذَا نَصَحُواْ﴾ يريد: بنِيّاتهم وأقوالهم سرًّا وجهرًا[1]. واختار النّصيحة، لأنّها لا تصحّ إلا بنيّة صادقة، فيتوافق فيها الظّاهر والباطن.

معنى اللّام ودلالتها ﴿نَصَحُواْ لِلَّهِ﴾:

النّصيحة لله ورسوله، واجبٌ مستحقٌّ على المؤمنين

اللّام حرف جرٍّ للاختصاص، إمّا بالملكيّة أو بغيرها[2]، وذَكَر سيبويه أنّ معناها الملك والاستحقاق[3]. فيكون المعنى أنّ تلك النّصيحة هي استحقاقٌ للّه ولرسوله ولدينه على المؤمنين جميعًا، ولكنّه خَصّ منهم هؤلاء الضّعفاء؛ لأنَّ عليهم أن يخدموا دين اللّه بالصّدق الّذي في قلوبهم، ثم ما يقدرون على فعله أو تقديمه. وقُرأت: ﴿نَصَحُواْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ﴾ بغير لامٍ وبنصب الهاء المكتوبة[4].

دلالة النّصح، ونكتة عطف ﴿وَرَسُولِهِۦٓ﴾:

النُّصح لله هو بذل الجُهد لنُصرة دينه

النّصح للّه والرّسول هو إخلاص النّيّة لنُصرة دين اللّه والعمل على ذلك بما أوتي الفرد من استطاعة، فلا يُكلّف اللّه نفسًا إلا ما آتاها، وعطف الرّسول على اسم الجلالة مع إمكان الاكتفاء باسم الجلالة؛ لأنّ المقام هو التّخلّي عن رسول اللّه، وعن معيّته ﷺ في الجهاد، فاقتضى ذكره لبيان أنّ النّصح للرّسول ﷺ إنّما هو نصح للّه تعالى.

دلالة تأخُّر جملة الشَّرط ﴿إِذَا نَصَحُواْ﴾:

النّصح لله ورسوله، من مُسلّمات الإيمان

قال: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ﴾ ﴿إِذَا نَصَحُواْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ﴾ ويمكن أن يكون القول: (ليس على الضّعفاء... إذا نصحوا حرج). وفائدة

(1) ابن عطيّة، المُحرَّر الوجيز: 3/70.
(2) الرّضيّ، شرح الرّضيّ: 2/364.
(3) سيبويه، الكتاب: 2/304.
(4) ابن عطيّة، المُحرَّر الوجيز: 3/70.

تأخير جملة الشّرط أن يُختم بالشّرط، فيكون محلّه التَّأخير ليبقى معناه عالقًا في أذهان المُخاطبين، وكذلك باعتبار أنّ النُّصح لله ورسوله ودين الإسلام هو من مُسلّمات الإيمان، فجعله هنا مؤخّرًا، لأنّه أمرٌ معروفٌ مُسَلّم به.

الاستعارة في سيّاق النّصح لله ورسوله:

الإيمان الصّادق كالنُّصح، لا يكون منه إلّا الصّدق والخير

"﴿إِذَا نَصَحُواْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦۚ﴾ بالإيمان والطَّاعة ظاهرًا وباطنًا كما يفعل المُوالي النَّاصح، فالنُّصح مستعار لذلك"[1]. فإيمان الرّجل وطاعته لله ولرسوله هو النّصح، فهي استعارة تصريحيّة لأنّ الإيمان كالنّصح بعلاقة المشابهة، فالمؤمن لا يكون منه إلا الخير الّذي ينفع المسلمين، فحذف المُشبَّه وأبقى المُشبَّه به.

موقع جملة: ﴿مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾، ودلالته:

ليس على المحسنين مؤاخذة، تخفيف من الله ولطف

وجملة: ﴿مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍۚ﴾ واقعة موقع التَّعليل لنفي الحَرَج عنهم، وهذه الجملة نُظِمت نَظْم الأمثال[2] فالجملة استئناف مقرِّرٌ لمضمون ما سبق على أبلغ وجه، وألطف سَبْك، ولذلك فقد فُصِلَت الجملة عن سابقتها، ومعناه: لا سبيل لعاتب عليهم؛ أي: لا يمرُّ بهم العاتب، ولا يجوز في أرضهم، فما أبعد العتاب عنهم، ويحتمل أن يكون تعليلًا لنفي الحرج عنهم[3]؛ إذ لا سبيل عليهم، وهم قد نصحوا لله ورسوله.

الغرض من إيجاز الحذف:

المحسنون جديرون بالنَّفع التّام

قوله: ﴿مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍۚ﴾ دليل على علّة محذوفة؛ والمعنى ليس على الضُّعفاء، ولا على مَنْ عُطف عليهم، حرج إذا نصحوا لله ورسوله؛ لأنّهم محسنون غير مُسيئين، وما على المحسنين من سبيل، فيكون في العبارة إيجاز حذف، والمعنى العامُّ

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 5/345 - 346.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 5/346.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 5/346.

هو المؤاخذة أو المعاقبة، والمحسنون الّذين فَعلوا الإحسان وهو ما فيه النّفع التامّ[1].

بلاغة أسلوب التّلميح في سياق الآية الفصيح:

وجوه الإحسان كثيرة في الحياة، وكلّها نفع وأجر عند الله

قوله تعالى: ﴿مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍۚ﴾، في هذه العبارة نوعٌ من البديع، يُسمَّى التَّلميع أو التَّلميح، وهو أن يُشارَ إلى قصّةٍ مشهورةٍ، أو مثل سائرٍ، أو شعرٍ نادرٍ، في فحوى كلامك من غير ذكره[2]. فكأنّ قوله: ﴿مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍۚ﴾ اشتُهر ما هو بمعناه بين النَّاس؛ فوجوه الإحسان كثيرةٌ في الحياة، فأشار إليه من غير ذِكر لفظه. ولا بُدَّ منه لأنَّه إذا ذكره بلفظه كان اقتباسًا وتضمينًا[3].

سِرُّ اصطفاء لفظ ﴿ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ في السّياق:

الإحسان أعلى مرتبةً من الإيمان

وقوله: ﴿مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍۚ﴾ على عمومه؛ أي: ليس عليهم حرج؛ لأنّه ما على جنس المحسنين سبيلٌ وهم من جُملتهم[4]، ولأنَّهم نصحوا لله ورسوله، وقد استدلّ الفقهاءُ من عموم هذا النّصِّ على أحكامٍ شرعيّةٍ أخرى؛ باعتبار أنّ الإحسان يكون في أغلب أمور الحياة. وقوله ﴿ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ دون المؤمنين، لما في كلمة الإحسان من معنى عميقٍ نابعٍ من الإيمان، وقد ورد في الحديث سؤال جبريل عليه السلام لرسول الله ﷺ عن الإحسان بعد أن سأله عن الإسلام وعن الإيمان؛ فقال: «الإحسان أن تعبد الله كأنّك تراه، فإن لم تكن تراه فإنّه يراك»[5]، فقد جاءت درجة الإحسان فوق مرتبَتَي الإسلام والإيمان.

الغرض من وضع المُظْهر ﴿ٱلْمُحْسِنِينَ﴾، موضع المُضْمَر:

شمول العبارة أنواع الإحسان في الحياة، توسعة على المحسنين

قوله: ﴿مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍۚ﴾؛ أي: ما عليهم سبيل؛

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/294.
(2) ابن عادل، اللُّباب: 10/171.
(3) ابن عادل، اللُّباب: 10/171.
(4) الآلوسيّ، روح المعاني: 5/346.
(5) حديثٌ متّفقٌ عليه.

فالإحسان: النّصح للّه تعالى ورسوله ﷺ، ووضع الظّاهر موضع ضميرهم اعتناءً بشأنهم، فلم يقل: (ما عليهم من سبيل)، بل قدّم وصفًا لهم بهذا العنوان الجليل، فوضع الظّاهر موضع المُضْمر في قوله: ﴿مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍۚ﴾[1]. فشملت العبارة أنواع الإحسان وجميع المحسنين المؤمنين.

دلالة (من) وفائدة دخول حرف الجرّ على النَّكرة:

تأكيد النّفي ليشمل كلَّ سبيل، فيعمّ النّفع والإحسان

قوله تعالى: ﴿مِن سَبِيلٍۚ﴾ فاعلٌ بالجارِّ قبله لاعتماده على النَّفْي، ويجوز أن يكون مبتدأ، والجارُّ قبله خبره. وعلى كِلَا القولين فـ ﴿مِن﴾ مزيدةٌ فيه للتأكيد؛ أي: ما على المحسنين سبيلٌ، والمعنى: أنَّهُ لا إثم عليه بسبب القعود عن الجهاد[2]، وهي مؤكِّدة أفادت شمول النّفي لكلِّ سبيل[3].

نكتة إيثار لفظ ﴿سَبِيلٍۚ﴾، والغرض من تنكيره:

من الإحسان النُّصحُ لله ورسوله، وهو أعلى النّصح وأرقاه

فائدة التّنكير للتّقليل والتّضييق على النّاس أن يُؤاخذ أحدهم هؤلاء؛ ثمّ بيّن علّة ذلك المنع؛ إذ لا يحقّ لآخرين أنْ يؤاخذوا المُحسنين بأيَّة طريقةٍ كانت، أو بأيّ أسلوب كان. والسَّبيل: أصله الطريق، ويُطلق على وسائل وأسباب المؤاخذة باللّوم والعقاب على سبيل الاستعارة؛ لأنّ تلك الوسائل تُشبه الطّريق الَّذي يصل منه طالب الحقّ إلى مكان المحقوق، ولمراعاة هذا الإطلاق جُعل حرف الاستعلاء في الخبر عن السَّبيل دون حرف الغاية، ونظيره قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُواْ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًاۗ﴾ [النّساء: 34]، وقوله: ﴿فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾ [النّساء: 90]؛ فدخل في المحسنين هؤلاء الّذين نصحوا للّه ورسوله[4].

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 5/346.
(2) ابن عادل، اللّباب: 10/171.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 5/346، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/295.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/295.

غرض تقديم الجارّ والمجرور ﴿عَلَى ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾، على ﴿مِن سَبِيلٖۚ﴾:

الرّعاية واجبٌ مجتمعيّ، يناط بأرباب المبرّة والإحسان

لم يقل: (ما مِن سبيلٍ على المحسنين)؛ بل قدّم المحسنين وذلك لاختصاصهم برعاية الله ووصيّته أن لا يؤاخذهم أحدٌ لأنّهم محسنون. فوصيّة الله برعاية المحسنين في المجتمع؛ لِما للإحسان من أثرٍ كبيرٍ في بناء المجتمع وإقامة العلاقات الصّادقة.

دلالة عبارة نفي المؤاخذة على المحسنين، بين العموم والخصوص:

دليل الإحسان إلى عموم المسلمين، في السّياق المبين

اختُلِفَ في قوله: ﴿مَا عَلَى ٱلۡمُحۡسِنِينَ مِن سَبِيلٖۚ﴾ في إفادتها للعموم؛ لأنَّ اللَّفظ مقصورٌ على أقوام مُعَيَّنينَ نزلت الآية فيهم، لكن لا مانع من إرادة العموم؛ لأنَّ العبرةَ بعموم اللَّفظِ لا بخصوصِ السَّببِ، والمُحسن هو الآتي بالإحسان، ورأس الإحسان لا إله إلّا الله، فكلُّ مَنْ قالها واعتقدها، كان من المسلمين، فاقتضت نَفيَ جميع المسلمين؛ فدلَّ هذا اللَّفظ بعمومه على أنَّ الأصلَ حُرمة القتلِ، وحُرمة أخذ المالِ وأن لا يتوجَّه عليه شيءٌ من التَّكاليفِ، إلا بدليلٍ مُنفصلٍ، فصارت هذه الآية بهذا الطَّريق أصلًا مُعتبرًا في الشَّريعة، في تقرير أنَّ الأصل براءة الذِّمة، إلى أن يَرِد نصٌّ خاصٌّ[1].

دلالة تذييل الآية، بقوله: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾:

كلُّ عاجزٍ محتاجٌ إلى المغفرة والرَّحمة، لا محالة

﴿وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ تذييل مؤيّد لمضمون ما ذكر، وفيه إشارة إلى أنّ كلّ أحدٍ عاجزٌ محتاجٌ إلى المغفرة والرّحمة؛ إذ الإنسان لا يخلو من تفريطٍ ما.

السِّرُّ وراء خلوّ ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾، من المؤكِّدات:

لا يُنكر أحدٌ مغفرة الله ورحمته بالمحسنين، في كلّ ظرف وحين

قوله: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ جاءت خاليةً من المؤكِّدات باعتبار أنَّهُ خبرٌ ابتدائيٌّ؛ يكون المُتلقّي له خالي الذِّهن عن محتواه، وقد ناسب الخبر الابتدائيّ هنا؛ لأنَّ الحديث عن المحسنين، فمعلوم أنّ الله

(1) ابن عادل، اللُّباب: 10/172.

غفور للمحسنين رحيمٌ بهم، فلم يحتج للمؤكِّدات، ولم يكن ثمَّةَ إنكار لمغفرة اللّه ورحمته.

فائدة حذف متعلّق صفَتَي المغفرة والرَّحمة:

الواو اعتراضيّة في جملة ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾؛ أي: شديد المغفرة، ومن مغفرته أن لم يؤاخذ أهل الأعذار بالقعود عن الجهاد، وهو شديد الرّحمة بالنَّاس؛ ومن رحمته أن لم يكلّف أهل الأعذار ما يَشق عليهم[1]. فأفاد حذف المتعلّق بصفتي المغفرة والرّحمة تعميم المقصود بهما.

الله شديد المغفرة بالمحسنين، وعمّت رحمته الخلق جميعًا

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الحَرَجُ والمشقّةُ والإثمُ:

الحَرَجُ: المَأْثم، والحارِجُ: الآثِم[2]، والحرج ضِيق لا مَنفذَ فيه، مأخوذ من الحرجة، وهي الشَّجر الملتفُّ حتى لا يمكن الدُّخول فيه، ولا الخروج منه، وقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: 78]؛ أنَّه أراد ضيقًا لا مخرج منه، وذلك أنَّه يتخلَّص من الذَّنب بالتّوبة[3].

الحرج متضمّنٌ لمعنى الإثم، والضّيق، والمشقّة، والإثم الفعل المبطئ عن الثَّواب

والمشقَّة والشِّقاق: المُعاداة والمغالظة، وشاققته مشاقَّةً وشقاقًا[4]. قال تعالى: ﴿لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ﴾ [النحل: 7] بمشقَّتها ومجهودِها. ووقع في شقٍّ من هذا الأمرِ ومشقَّةٍ ومَشاقٍّ. وشقَّ عليه ذلك. فالمشقَّة لا تحمل معنى الإثم، ويمكن أنْ تُستعمل المشقَّةُ في الأمور كلِّها خيرِها وشرِّهَا، على خلاف الحرج الّذي يتضمن معنى الإثم والتَّقصير في الأمر. والإثم والآثام اسمٌ للأفعال المبطئة عن الثَّواب،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/295.
(2) الخليل، العين: (حرج).
(3) العسكريّ، الفروق اللُّغوية، ص: 181.
(4) ابن دُرَيد، جمهرة اللُّغة: (شقق).

وجَمعُهُ: آثام، ولتضمُّنه معنى البُطء. قال تعالى: ﴿قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ [البقرة: 219]؛ أي: في تناولهما إبطاءٌ عن الخيرات[1].

النُّصحُ والإخلاصُ:

النُّصحُ تحرِّي فعلٍ أو قولٍ فيه صلاحُ صاحبِه. قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ [الأعراف: 79]، ﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِيٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ﴾ [هود: 34] وهو من قولهم: نَصَحْتُ له الوُدَّ. أي: أَخْلَصْتُهُ، ونَاصِحُ العَسَلِ: خَالِصُهُ[2]. فيكون النُّصح لفائدة الآخر خاصَّة قوْلًا أو فعلًا. أمَّا الإخلاص؛ فالخالص كالصَّافي إلا أنّ الخالِصَ هو ما زال عنه شَوبُه، بعد أن كان فيه، والصَّافي قد يُقال لِمَا لا شَوبَ فيه، ويُقال: خَلَّصته فَخَلَصَ. وقوله: ﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف: 24]، فإخلاص المسلمين أنّهم قد تبرّؤوا ممّا يدّعيه اليهود من التَّشبيه، والنَّصارى من التّثليث، قال تعالى: ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [الأعراف: 29][3]. فيكون الإخلاص عملًا ذاتيًّا فيه تنقية للنَّوايا والأعمال. وعادةً يكون من الأدنى إلى الأعلى؛ فيكون الإخلاص لله وللرّسول خاصّةً.

النُّصح تحرّي ما فيه الصَّلاحُ للآخر، والإخلاص تنقية للنّوايا، والأعمال الذَّاتيَّة

الإحسانُ والعدلُ:

"قوله تعالى: ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ﴾ [النحل: 90]، فالإحسان فوق العدل، وذاك أنّ العدل هو أن يُعطي ما عليه، ويأخذَ ما له، والإحسان أن يُعطي أكثر ممّا عليه، ويأخذ أقلّ ممّا له. فالإحسان زائدٌ على العدل، فتحرِّي العدل واجبٌ، وتحرّي الإحسان نَدْبٌ وتطوّعٌ، وعلى هذا قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ [النساء: 125]، وقوله ﷻ: ﴿وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ﴾

الإحسان أن يُعطي المحسن أكثر ممّا عليه، ويأخذ أقلّ ممّا له

(1) الرّاغب، المفردات: (أثم).
(2) الرّاغب، المفردات: (نصح).
(3) الرّاغب، المفردات: (نصح).

[البقرة: 178]، ولذلك عظّم الله تعالى ثواب المحسنين، فقال تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: 69]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: 195]، وقال تعالى: ﴿مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍۚ﴾ [التّوبة: 91]، ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌۚ﴾ [النحل: 30]"[1].

السَّبيلُ والطَّريقُ:

السّبيل أعمّ من الطّريق، وهي أغلب وقوعًا في الخير

الفرق بين الصِّراط والطَّريق والسَّبيل: أنَّ الصّراط هو الطّريق السّهل، والطّريق لا يقتضي السّهولة، والسّبيل اسم يقع على ما يقع عليه الطّريق، وعلى ما لا يقع عليه الطَّريق؛ تقول: سبيل الله، وطريق الله، وتقول: سبيلك أن تفعل كذا، ولا تقول: طريقك أن تفعل، والطَّريق كالإرادة. وقد يفرق بينهما بأنّ السّبيل أغلب وقوعًا في الخير، ولا يكاد اسم الطَّريق يراد به الخير إلّا مقترنًا بوصف أو إضافة تخلِّصه لذلك. كقوله تعالى: ﴿يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[2].

(1) الرّاغب، المفردات: (حسن).

(2) العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 313.

﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾﴾ [التّوبة: 92]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

تكملة بيان صنف آخر، من مجموعة أصحاب الأعذار، الّذين لا يجدون ما ينفقون

بعد أن بيّن بقوله: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ﴾، أضاف هنا صِنفًا جديدًا؛ وهم الَّذين أتوا رسول الله ﷺ يطلبون منه أن يحملهم للقتال معه، فلم يجد ما يحملهم عليه، تولَّوا وأعينُهُم تفيض من الدّمع حَزَنًا، فهؤلاء جميعًا واقعون في دائرة المحسنين إذا نصحوا لله ورسوله.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿لِتَحْمِلَهُمْ﴾: "الحَمْل يُطلقُ على إعطاء ما يُحمل عليه؛ أي: إذا أتوك لتعطيهم الحُمولة؛ أي: ما يركبونه ويحملون عليه سلاحهم ومُؤَنهم من الإبل"[1]. ويكون الحُمْلان أجْرًا لما يُحْمَل. والحُمْلان: ما يُحْمَلُ عليه من الدَّوابِّ في الهِبَة خاصَّةً[2]. وفي الآية أرادوا الدّابّة أو الخِفاف باعتبار أنّ مَن يلبس الخِفاف كمن يُحمل على الدّابّة؛ وهي أقلُّ ما يُقصد بالحَمل عَليه.

2) ﴿تَوَلَّوا۟﴾: تولَّى عنه، أعرض، وَوَلَّى هاربًا، أدبر[3]، والتّولّي بمعنى الانصراف، قال تعالى: ﴿تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ﴾ [التّوبة: 92]، ومثله قوله تعالى ﴿ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ﴾ [القصص: 24] أي: انصرف[4].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/295.
(2) الخليل، العين: (حمل).
(3) الرّازيّ، مختار الصّحاح: (ولي).
(4) ابن عادل، اللُّباب: 10/172.

3) ﴿تَفِيضُ﴾: جذر الكلمة هو (فيض)؛ فيض: فاضَ الماءُ والدَّمْعُ والمَطَرُ والخَيْرُ، يفيض فَيْضًا؛ أي: كَثُرَ[1]. وفاضَتْ عينُه، تفيض فَيْضًا؛ أي: سالت. وأفاضَ دمعَه يُفيضُه إفاضةً. وأفاضَ إناءَه حتى كادَ ينصَبُّ. ويُقال: ماؤها فَيْضٌ وغَيْضٌ. الفَيْضُ: الكثير[2]. أرض ذات فيوض: فيها مياه تفيض، وأرض ماؤها فيضٌ وغيضٌ، وحوض فائض: يفيض من جوانبه لامتلائه، وهذا مفيض الماء[3]. وفي الآية: ﴿وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ﴾؛ فهي كالحوض الفائض؛ أو هي كمفيض الماء.

المَعْنى الإجْماليُّ:

إضافة عنصرٍ آخر إلى أصحاب الأعذار، ممّن يذرفون الدّموع، لفقد القدرة على المشاركة

الآية نزلت في نفرٍ من المسلمين لُقّبوا بالبكّائين؛ لأنّهم بكَوا حزنًا لمَّا لم يجدوا عند رسول الله ﷺ ما يحملهم عليه؛ ليجاهدوا مع رسول الله ﷺ. فقد أضافت الآية مجموعةً أخرى من أهل العذر، وهم من الفقراء الَّذين لا يجدون ركوبًا، وقيل: إنّهم لم يسألوا رسول الله ﷺ إلَّا الحُمْلان على النّعال، فقالوا: احملنا على الخِفاف المرقوعة والنّعال المخصوفة نغزو معك؛ مبالغةً في القناعة، ومحبة للذَّهاب معه، فقال رسول الله ﷺ ما قال[4].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

نكتة انفراد هذا الصِّنف من المتخلّفين عن الأصناف الثّلاثة السَّابقة:

بيان حال من أتوا الرّسول الأكرم، ليَخرجوا معه، ولا يملكون القدرة الماديّة لذلك

وقد أخّر هذا الصِّنف وأفرد عن مجموعة أصحاب الأعذار باعتبارهم أضعف أصحاب الأعذار حجَّةً، فقد ورد ذكرهم مُسلسلًا من الذين هم أقوى حجة إلى أقلّهم حجة وعذرًا، وأنّ عذر هؤلاء قد ينتفي في أي وقت مع توافر ما يُحملون عليه، فأخّره لذلك على

(1) الخليل، العين، وابن سِيدَه، المُحكَم: (فيض).
(2) الخليل، العين: (فيض).
(3) الزّمخشريّ، أساس البلاغة: (فيض).
(4) الآلوسيّ، روح المعاني: 5/346.

طريقة ما يعرف بالتّدلّي. ثمّ إنّ أصحاب الأعذار السّابقين طلبوا القعود عن القتال بسبب أعذارهم، لكنّ هؤلاء طلبوا الخروج مع رسول الله ﷺ لأنَّهم أتَوه ليحملهم لا ليقعدوا مع الخالفين، وأنّ هؤلاء حزنوا، وفاضت أعينهم من الدّمع لعدم تمكُّنهم من الخروج؛ وهذا على خلاف السّابقين.

دلالة عطف قوله: ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ﴾، على ما قَبْلَه:

الصِّنفُ الرَّابع هم أخصُّ من الأصناف السَّابقة، لوجود العذر المقبول لهم

قوله: ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ﴾. فيه وجهان: أحدها: أن يكون معطوفًا على ﴿ٱلضُّعَفَآءِ﴾؛ أي: ليس على الضُّعفاءِ، ولا على الّذين إذا ما أتوكَ، فيكونون داخلين في خبر ﴿لَّيْسَ﴾ مُخْبرًا بمتعلّقهم عن اسمها، وهو ﴿حَرَجٌ﴾[1]. وإعادة حرف النَّفي بعد العاطف للنُّكتَةِ المتقدّمة هنالك[2]. الثَّاني: أنْ يكون معطوفًا على ﴿ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ فيكونون داخلين فيما أخبر به من قوله: ﴿مِن سَبِيلٍۚ﴾[3] وهو من قبيل عطف الخاصّ على العامّ اعتناءً بشأنهم، وجعلهم كأنَّهم لتميّزهم جنس آخر[4].

دلالة تصدير الجملة الخبريّة بالنّفي:

الاستغراق في نفي الحرج عن هذا الصِّنف المستثنى من العقاب

فائدة تصدير الجملة الخبريّة قوله: ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ﴾ نفيُ الحرج عنهم؛ أي: ولا حَرَجَ على الّذين إذا ما أتوك لتحملهم، و﴿وَلَا﴾ هنا نافية للجنس؛ أي: التي تفيد التّنصيص على نفي الجنس نصًّا، لا على سبيل الاحتمال، واستغراق النّفي كلّه؛ فدلّت هنا على نفي الخبر عن الجنس الواقع بعدها على سبيل الاستغراق. ونفي الجنس يستلزم نفيه عن أفراده جميعًا. فأفاد ذلك أنَّ كلَّ هؤلاء الّذين إذا ما أتوك طلبًا للخروج معك، ولا تجدُ ما تُعينهم فيه على الخروج، لا حَرَجَ عليهم.

(1) ابن عادل، اللُّباب: 10/172.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/295.
(3) ابن عادل، اللُّباب: 10/172.
(4) الآلوسيّ، روح المعاني: 5/346.

الغرض من التّعبير بالاسم الموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾:

عموم هذا الجنس لا حرج عليهم، لأنّ الله أورد عذرهم وقبله

قوله: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوۡكَ﴾، الاسم الموصول فيه، يُوصَل بكلام بعده، هو من تمام معناه، وذلك أنّ الاسم الموصول ناقص الدّلالة، لا يتّضح معناه إلّا إذا وصل بالصّلة، "فالموصول لا يتمّ بنفسه، ويفتقر إلى كلام بعده"[1]. ومن فوائده إرادة العموم، ففي الآية هنا قوله: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوۡكَ﴾؛ أراد عموم مَن أتى رسول الله ﷺ طلبًا للخروج معه، وهم يحتاجون إلى ما يحملون عليه.

دلالة التّعبير بجملة الصِّلة ﴿إِذَا مَآ أَتَوۡكَ﴾:

فحوى الصِّلة معهودة معلومة، عند رسول الله ﷺ

فائدة صلة الموصول إيضاحه وبيانه، والتّعبير عنهم بهذا الأسلوب المحقّق إتيانهم بالتّعبير بـ (إذا) ومدخولها الماضي فيه تأكيد على صدقهم وإخلاصهم، والصِّلَةُ معهودة للمُخاطَبِ معلومة عنده ﷺ، قال ابن يعيش: وينبغي أن تكون الجملة الّتي تقعُ صِلَةً معلومة عند المُخاطب، لأنّ الغرض بها تعريف المذكور بما يعلمه المُخاطب من حاله ليصحَّ الإخبار عنه بعد ذلك[2].

دلالة ﴿مَآ﴾ ومعناها:

توكيد نيّاتهم الصّادقة في الخُروج مع رسول الله ﷺ

﴿مَآ﴾ في قوله: ﴿إِذَا مَآ أَتَوۡكَ لِتَحۡمِلَهُمۡ﴾بعد الشَّرط هنا زائدة[3] للتَّوكيد، والتَّوكيد يكشف عن النّيّات الّتي أتوا بها، فإنّ هؤلاء جاءوا رسول الله ظانّين أنّهم سيُهيَّأ لهم رَكُوبٌ للقتال معه ﷺ، ولم يخطر ببالهم أنّهم سيتخلّفون عن معيّة الرّسول بسبب الرَّكُوب، فقال لهم رسول الله: ﴿لَآ أَجِدُ مَآ أَحۡمِلُكُمۡ عَلَيۡهِ﴾؛ ولذلك: تولّوا وأعيُنهم تفيض من الدّمع حزنًا. فجاء التّوكيد واصفًا إتيانهم بنيّاتهم الصّادقة.

---

(1) ابن يعيش، شرح ابن يعيش: 3/150.

(2) ابن يعيش، شرح ابن يعيش: 3/154.

(3) معنى زيادة: (ما)، أي: في الصّناعة النحويّة والإعراب، وليس في القرآن حرف زائد، بل كلٌّ له معنى، لا يمكن الاستغناء عنه.

إيثار التّعبير بالإتيان هنا، وبالمجيء هناك:

اختلاف النيّات، هو الفاصل بين الفريقين في الجزاء والمقامات

عبّر بالمجيء مع الأعراب قال: ﴿وَجَآءَ ٱلۡمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ لِيُؤۡذَنَ لَهُمۡ﴾ وعبّر هنا بالإتيان فقال: ﴿إِذَا مَآ أَتَوۡكَ لِتَحۡمِلَهُمۡ﴾ والفرق كبير بين الحالين، فالتّعبير الأوّل ذكر الّذين جاءوا رسولَ الله ﷺ لا يُريدون الخُروج معه؛ بل يُريدون التّخلُّف عن جيشه ومعيّته، فاستعمل لفظ ﴿وَجَآءَ﴾ الّذي يدلُّ على المجيء بشخصه دون شيء معه، أمَّا السِّياق الثّاني وهو سياق الإتيان فقال: ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوۡكَ لِتَحۡمِلَهُمۡ﴾ والإتيان هو المجيء بشيءٍ، وفائدته الدّلالة على أنَّهم أتوا رسول الله بشيءٍ مهمٍ على خلاف المُخلّفين، وهو رغبتهم في الخروج مع الرّسول ﷺ فكانت هنا النّوايا هي الفاصل بين الفريقين، فأوثر الإتيان هُنا على المجيء.

دلالة اللّام: ﴿لِتَحۡمِلَهُمۡ﴾:

طلب الحَمْل على الخِفَافِ، وهو لا يجد ما يحملهم عليه

فائدة اللّام التَّعليليّة، وهو تعليل حقيقيٌّ، إذ إنّهم أتوا رسول الله ﷺ ليحملهم على الدّوابّ المخصَّصة لذلك فعلًا؛ أو يحملهم على الخفاف، ويوحي استعمال لام التّعليل بكشف ما كان في قناعاتهم من أنَّ مطلبهم سيكون محقَّقًا عند رسول الله ﷺ، لكنّ رسول الله ﷺ قال لهم ما قال.

بلاغة التَّعبير بالمصدر المؤول: ﴿لِتَحۡمِلَهُمۡ﴾:

تصوير القناعة الدّاخلية لديهم، من بيان السّياق

فائدة المصدر المؤول في قوله: ﴿لِتَحۡمِلَهُمۡ﴾؛ الدّلالة على الزّمن فيحتمل المُضِيَّ والحال والاستقبال[1]. ففي المصدر المؤوّل إيجازٌ، فإنَّ ما اعتادوه من رسول الله ﷺ أنّه يتولَّى التّكفّل بأمور الفقراء الَّذين لا يجدون ما يُنفقون، فأفاد المصدر المؤوّل امتلاء صدور هؤلاء بالأمل أنّ رسول الله ﷺ سيحملهم حتمًا.

(1) السّامرّائيّ، معاني النّحو: 3/127.

دلالة قوله ﴿لِتَحۡمِلَهُمۡ﴾، ومعناه في السّياق:

يتنوّع الحمل بحسب أحوال النّاس، وظروفهم المتيحة أو المانعة

في المراد بالحمل ثلاثة أقوال: أحدها: أنَّهُ الدَّوابّ، قاله ابن عباس. والثَّاني: الزّاد، قاله أنس بن مالك. والثّالث: النِّعال، قاله الحسن[1]. وقال الحسن: نزلتْ في أبي موسى الأشعريّ وأصحابه، أتوا رسول الله ﷺ يستحملونه، ووافق ذلك منه غضبًا، فقال ﷺ: (والله ما أحملكم ولا أجد ما أحملكم عليه)؛ فتولوا وهم يبكون[2]. ومن المؤكَّد أنّ الحمل يتنوّع بتنوّع أحوال النّاس، فأفاد لفظ (الحمل) الإيجاز في تنوّع المطلوب منه.

موقع جملة ﴿قُلۡتَ﴾ ودلالتها:

اختلاف المعاني بتغيّر الإعراب، من اتّساع العربيّة ودقّتها

"قوله: ﴿قُلۡتَ﴾ فيه أربعة أوجهٍ، أحدها: أنَّهُ جواب ﴿إِذَا﴾ الشَّرطيَّة، و﴿إِذَا﴾ وجوابها في موضع الصِّلةِ، وقعت الصِّلةُ جملة شرطيّة، وعلى هذا؛ فيكونُ قوله: ﴿تَوَلَّواْ﴾ جوابًا لسؤال مُقدّر كأنَّ قائلًا قال: ما كان حالهم إذا أُجيبوا بهذا الجواب؟ فأُجيب بقوله: ﴿تَوَلَّواْ﴾[3]، أفاد ذلك معنى التّأثّر المباشر لهؤلاء بما وجدوه من جواب الرّسول، إذ لم يكن ذلك في حُسبانهم. الثّاني: أنَّه في موضع نصْب على الحال، من ﴿أَتَوۡكَ﴾، أي: إذَا أتوكَ، وأنت قائلٌ: لا أجدُ ما أحملكم عليه، و(قَدۡ) مُقدَّرة، عند مَن يشترطُ ذلك في الماضي الواقع حالًا[4]. الثّالث: أن يكون معطوفًا على الشَّرط؛ فيكون في محلِّ جرٍّ بإضافة الظَّرف إليه بطريق النَّسق وحذف حرف العطف، والتَّقدير: وقلتُ. ويمكن أن يقدَّر العاطف فاءً؛ أي: فقلت[5]. الرّابع: أن يكون مستأنفًا[6]. ويجُوزُ أن يكون قوله: ﴿قُلۡتَ لَآ أَجِدُ﴾ استئنافًا؛

(1) ابن الجوزيّ، زاد المَسير: 2/288.
(2) الرّازيّ، مفاتح الغيب: 16/122.
(3) ابن عادل، اللُّباب: 10/172، والسّمين الحلبيّ، الدّرُّ المَصون: 6/99.
(4) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/299، والسّمين الحلبيّ، الدُّرُّ المَصون: 6/99.
(5) ابن عادل، اللُّباب: 10/172.
(6) ابن عادل، اللُّباب: 10/172.

يعني مثل: ﴿رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلۡخَوَالِفِ﴾ [التّوبة: 93]، كأنَّه قيل: إذا ما أتوك لتحملهم تولَّوا، فقيل: ما لهُم تولَّوا باكينَ؟ قلتَ لا أجدُ ما أحملهم عليه، إلاَّ أنَّه وسطٌ بين الشَّرط والجزاء، كالاعتراض[1]. وهذا المعنى يدلُّ على خفاء ما جرى من الكلام بينهم وبين رسول الله ﷺ حتى إنّه لم يُعْلَمْ للآخرين سببٌ لتوليهم وأعينُهم تفيضُ من الدَّمع حزنًا.

دلالة التّعبير بضمير الخطاب: ﴿قُلۡتَ﴾:

عادة الصَّادقين التَّصديق، بقول الرّسول المصدوق ﷺ

المخاطَب هو رسول الله ﷺ والمعنى: إذا أتوك لتحملهم لم يكن عندك ما تحملهم عليه، فعبَّر عن هذا بقوله: ﴿قُلۡتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحۡمِلُكُمۡ عَلَيۡهِ﴾ لنكتة بديعة، وهي الإشارة إلى تصديقهم له، وأنَّهم اكتفوا من علمهم بعدم الإمكان بمجرد إخباره لهم بقوله: ﴿لَآ أَجِدُ مَآ أَحۡمِلُكُمۡ عَلَيۡهِ﴾ بخلاف ما لو قيل: لم يجدوا عندك ما تحملهم عليه؛ فإنّه يكون تَبْيين حُزنهم خارجًا عن إخباره، وكذلك لو قيل: لم تجد ما تحملهم عليه لم يؤدِّ هذا المعنى[2].

والكلمة التي قالها لأولئك الذين أتوا يطلبون الحُمْلان ليجاهدوا معه؛ كاشفة عن أنّه ﷺ عايشَ حالةً من العُسْرَةِ لا يقدِر معها على تجهيز مَن أتى يطلب الخروج معه بأبسط متطلّبات الخروج للقتال، وهي الخِفاف.

إيثار (لا) على (ما)، في قوله: ﴿لَآ أَجِدُ﴾:

بيان أنّ الحال عدم وجود سعة لحمل المقاتلين

دخول (لا) على الفعل المضارع هنا في قوله: ﴿لَآ أَجِدُ﴾ يدلّ على الحال، وأمّا إيثار (لا) على (ما) في قوله: ﴿لَآ أَجِدُ﴾، فيبيّن ذلك قول سيبويه: "وإذا قال: (هو يفعل)؛ أي: هو في حال فعل؛ فإنّ نفيه (ما يفعل)، وإذا قال: (هو يفعل) ولم يكن الفعل واقعًا فنفيه لا

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/299.
(2) ابن القيّم، بدائع الفوائد: 1/21.

يفعل"[1]. فرسول الله ﷺ لم يكن الإيجاد منه حاصلًا، ولهذا فقد صار النّفي بـ (لا) والمعنى: لا أجد الآن ما أحملُكم عليه. فالعبارة وصفت واقع الحال وما هو عليه من شِدَّةٍ.

كما أنَّ التّعبير بالمضارع في قوله: ﴿لَآ أَجِدُ﴾، يدلُّ على الحال تنصيصًا، وذلك لنفيه مع الإطلاق. فرسول الله ﷺ لم يجد حينها مطلق ركوب، يركبونه ليحملَهم عليه في الجهاد معه.

وفي إيثار ﴿لَآ أَجِدُ﴾ على (ليس) من تلطيف الكلام، وتطييب قول السّائلين ما لا يَخفى؛ وكأنَّ رسول الله ﷺ يطلب ما يسألونَهُ على الاستمرار فلا يجد، وذلك هو اللّائق بمن هو بالمؤمنين رؤوف رحيم ﷺ.

دلالة ﴿مَآ﴾: وفائدتها:

عبَّر بـ ﴿مَآ﴾ الموصولة في قوله ﴿مَآ أَحۡمِلُكُمۡ﴾ للدّلالة على انتفاء المحمول عليه على العموم، إذْ هي أعمُّ الموصولات وأدخلها في الإبهام، وهو الملائم لحال العُسْرَةِ الشَّديد، فمنهم مَن قال: بأنَّه الرّكوب من البهائم، ومنهم مَن قال: بأنَّها الخِفاف أو النِّعال.

عموم فقد المحمول عليه، دلالة على شِدَّةِ العُسْرَةِ

إيثار لفظ ﴿تَوَلَّواْ﴾:

اصطفى النَّظم الكريم التَّعبير بالتَّولي لأنّ التّولِّي هنا انصرافٌ مصحوبٌ برجاءٍ وأملٍ. ومنه قوله تعالى: ﴿مَا وَلَّىٰهُمۡ عَن قِبۡلَتِهِمُ﴾ [البقرة: 142]. فجميع هذه المواضع فيها دلالة على الانصراف مع مصاحبة مشاعر داخليّة وعاطفة جيّاشة تتمنَّى النّفس معها شيئًا جليلًا أو عظيمًا أو مهمًّا كانت تتُوق إلى تحقيقه، وهذا على خلاف المرادفات الأخرى كالإنصاف مثلًا.

الانصراف المصاحَب بالحزن، دليل على الإيمان والخشية

دلالة الجملة الاستئنافيَّة: ﴿تَوَلَّواْ﴾:

قوله سبحانه: ﴿تَوَلَّواْ﴾ مستأنفٌ استئنافًا بيانيًا، أو: هو الجواب،

(1) سيبويه، الكتاب: 1/460.

يأس الفقراء المعوزين من المشاركة، مع الرّسول الأمين

و(قُلْتَ) مستأنف، وأفاد الاستئناف تلاشي الظَّنِّ الّذي كانت في أذهانهم أنّ رسول الله ﷺ سيحملهم، مما يُتيح لهم فرصة الجهاد معه، فلمّا قال؛ لهم الرّسول ما قال تغيَّر حالهُم، فتولّوا وأعينُهم تفيض من الدّمع حَزنًا.

دلالة (الواو): ﴿وَّأَعۡيُنُهُمۡ﴾، وأثرها في المعنى:

بيان وصف حزن المحرومين الظّاهر، عند التّأخّر بالمانع القاهر

الواو حاليّة في قوله: ﴿وَّأَعۡيُنُهُمۡ تَفِيضُ﴾؛ أي: تولّوا وحالهُم؛ بلغ الغاية في الحُزن، والجملة في موضع الحال من ضمير ﴿تَوَلَّواْ﴾[1]. ومثله قوله: ﴿تَرَىٰٓ أَعۡيُنَهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ﴾ [المائدة: 83]، ويُجسّد واقع حالهم؛ رغبتهم وصدقهم في الخروج مع رسول الله ﷺ، ومدى الحسرات الّتي غمرتهم.

الغرض من التّعبير بالاستعارة، في الفعل ﴿تَفِيضُ﴾:

جُعلت العينُ كلّها كأنها دمع فائض، لبيان المراد، وتجلية الصّورة

"الفيض والفيضان: خروج الماء ونحوه من قراره ووعائه، ويُسند إلى المائع حقيقة. وكثيرًا ما يُسند إلى وعاء المائع، فيُقال: فاض الوادي، وفاض الإناء. ومنه: فاضت العين دمعًا، وهو أبلغ من: فاض دمعها، لأنّ العين جُعِلَتْ كأنّها كلّها دمع فائض، فقوله: ﴿تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ﴾ جرى على هذا الأسلوب"[2]. ثمّ مشهد آخر هو في قوله: ﴿تَفِيضُ﴾ من الاستعارة حيث شبَّه العينَ بالنّهر الجاري، ثم حَذَفَ المشبَّه به ورَمَزَ له بشيءٍ من لوازمه وهو الفيضان، وفيه بيانٌ عن غزارة دمع العين دلالةً على شِدَّة الحزن النَّاتج عن انقطاع الأمل.

دلالة ﴿مِنَ﴾ ومعناها، في شبه الجملة: ﴿مِنَ ٱلدَّمۡعِ﴾:

غاية الأسى والألم، فيضان العين دمعًا

و﴿مِنَ﴾ للأجَلِ والسَّبَب، وقيل: إنَّها للبَيَان، كقولك: أفديك من رجل[3]. وقوله: ﴿وَّأَعۡيُنُهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ﴾؛ وجعله تمييزًا، سلوكًا لطريق الإيضاح بعد الإبهام، ولأنّ العين جعلت كأنّها دمع فائض، ثمّ

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/484، وابن عادل، اللُّباب: 10/172.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/296.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/484، والآلوسيّ، روح المعاني: 5/347.

﴿وَأَعۡيُنُهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ﴾ أبلغ ممّا قبله بواسطة ﴿مِنَ﴾، فإنَّه جعل أعينهم فائضة، ثمَّ جرَّد الأعين الفائضة من الدَّمع باعتبار الفيض. وأنَّ ﴿مِنَ﴾ هنا للبيان لما قد أبهم ممّا قد يُبيَّن بمجرد التّمييز؛ لأنَّ معنى تفيض العين؛ أي: يفيض شيء من أشياء العين، كما أنَّ معنى قولك: (طاب زيد)؛ أي: طاب شيء من أشياء زيد، وهذا مجاز تكون علاقته الكُليّة لأنّه ذَكَرَ الكُلَّ وأراد الجزء، والتَّمييز رفع إبهام ذلك الشيء فكذا من الدمع فهو في محل نصب على التَّمييز[1]. وورد أيضًا من نظائر الآية قوله تعالى: ﴿تَرَىٰٓ أَعۡيُنَهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلۡحَقِّۖ﴾ [المائدة: 83]. ويمكن أن يكون معنى (من) الابتداء، وهو معنى معروفٌ من معانيها، وعليه يكون التَّشبيه مقلوبًا، لأنَّه جعل العينَ تفيضُ من الدَّمع، والأصل أنَّ الدمع يفيضُ من العين! وهو مثلُ قولِ الشاعر:

بان الصَّباحُ كأَنَّ غُرَّتَهُ *** وجهُ الخليفةِ حينَ يُمْتَدَحُ

والأصل تشبيه وجه الخليفة بالصُّبح وليس العكس.

موقع كلمة ﴿حَزَنًا﴾، ودلالته:

الجملة تعكس عظيم الحزن الّذي ألَمَّ بهؤلاء المحرومين

أحدها: أنَّهُ مفعولٌ من أجله، والعاملُ فيه ﴿تَفِيضُ﴾، فإنَّ (الفيض) مُسنَد للأعين، و(الحزنَ) صادرٌ من أصحاب الأعين، وإذا اختلف الفاعل وجب جرُّه بالحرف؛ لأنَّا نقول: إنَّ الحزنَ يُسندُ للأعين أيضًا مجازًا، يُقال: عين حزينةٌ وسخينةٌ، وعينٌ مسرورةٌ وقريرةٌ في ضدِّ ذلك. وفائدة ذلك التّشخيص وإبراز دور الأعين في التّعبير عن دواخل النّفوس، وما أصابها من الحزن، لما أحدثه ذلك الموقف من أثر كبير في دواخلهم، الثّاني: أنَّهُ في محلِّ نصبٍ على الحال، أي: تولَّوا حزينين، أو: تفيض أعينهم حزينةً، على ما تقدَّم

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 5/347.

من المجاز. فكما أنّهم حزينون - وهذا واقع حالهم - فإنّ أعينهم قد جسّدت ذلك الحزن في الأعين وكأنّها هي الحزينة، وهذا على المجاز، الثّالث: أنه مصدر ناصبُه مقدّرٌ من لفظه، أي: يحزنون حزنًا"[1]. وهذا يعكس شدّة الحزن الّذي ألمّ بهم.

الغرض من التّعبير، بقوله: ﴿أَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ﴾:

بيان أنّهم حزينون لأنّهم لا يجدون ما يُنفقون للخروج مع الرّسول الأكرم

قوله: ﴿أَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ﴾ مجرورٌ بلام جرٍّ محذوفٍ؛ أي: حَزَنوا لأنّهم لا يجدون ما يُنفقون[2]، فهو تعليل لما سبق ﴿وَّأَعۡيُنُهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ حَزَنًا﴾؛ وفيه تأكيد على صدق نيَّاتهم في الخروج مع رسول الله ﷺ وفيه في الوقت ذاته تشنيعٌ على أدعياء العذر.

دلالة التّعبير بالمضارع:

فقدان معيّة الرّسول، لأمرٍ غير مُتوقَّعٍ لديهم، ممّا يعظم عليهم

قوله: ﴿أَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ﴾، المضارع هنا يُفيد دلالة التّجدّد والاستمرار؛ ودلالة بحثهم عن شيء يُعينهم على الخُروج وهم مستمرّون في ذلك فلا يجدون، فتعكس مدى حرصهم على إيجاد ما يُنفقونه من أجل الخروج مع رسول الله ﷺ، ثم إنّها تُفيد تجدّد الحسرة لديهم؛ إذ إنّهم سيفقدون معيّة الرّسول لمجرّد أنّهم لا يجدون ما يُنفقون، إذ لم يكن ذلك مُتخيّلًا لديهم.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الإتْيانُ والمجيءُ:

الإتيان يكون عادة بشيء، والمجيء يكون بلا شيء

الإتيان بمعنى أن تأتي ومعك شيءٌ، والمجيء هو أن تجيء دون شيء، وقد تناولنا الفَرْق بين اللفظتين مفصّلًا في تفسير الآية.

(لا أجد)، و(لا أملك):

الوَجدُ لا يدلُّ على التّملّك، وهو بخلاف المُلك

قوله: ﴿لَآ أَجِدُ﴾؛ وجد مطلوبه يجِده، ووَجَدَ ضَالّته وِجْدَانًا، وأوْجَدَهُ الله مطلوبَه؛ أي: أظفَرَه به، وأَوْجَده: أَغناه[3]، أمّا (لا أملِكُ)؛

(1) ابن عادل، اللُّباب: 10/174، والآلوسيّ، روح المعاني: 5/347.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/296.
(3) الرّازيّ، مختار الصّحاح: (وجد).

المُلكُ للّه، ومَلَكُوت اللّه: سلطانُه. والمِلْكُ: ما ملكت اليد من مالٍ وخَوَل[1]. ودلالة (لا أملك) هو عدم ملك المتكلّم الشّيءَ، ولكنّه قد يُوجد عنده أو من حوله، أي: عند غيره، أمّا قوله: ﴿لَآ أَجِدُ﴾ فدلالتها عدم وجدان الشَّيء في المكان والزّمان الّذي قيلت عنده الكلمة.

التّوَلِّي والإعراضُ:

التّولّي انصرافٌ مصحوب برجاء وأمل، والإعراض رفضٌ وعدم رضًا

التّولّي هو الرّجوع عن الشّيءِ، قد يكون مصحوبًا بالرّضا، وفيه دلالة على عامل نفسيّ، أو قضيّة كبرى تطمح النّفس إلى تحقيقها، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ﴾ [البقرة: 150]؛ على خلاف الإعراض فهو الرّفض وعدم الرّضا، وترك المسألة، كقوله تعالى: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [الأعراف: 199]، أو قوله تعالى: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ﴾ [النّساء: 63].

الدَّمعُ، والبُكاءُ:

الدّمع عَرَضٌ من أعراض البكاء، والبكاء ذرف الدّموع، وقد يكون بإرادة أو بدونها

الدَّمع هو عَرَضٌ من أعراض البُكاء ونتيجة من نتائجه. والبكاء هو عارض من أعراض الحزن والألم وتأثّر النّفس؛ فالبُكاء فعل قد يصدر عن الفرد دون إرادته، والدّمع عَرَضٌ من أعراضه يدلّ عليه غالبًا.

(1) الخليل، العين: (ملك).

الجُزْءُ الحَادِي عَشَرَ

﴿۞إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسۡتَـٔۡذِنُونَكَ وَهُمۡ أَغۡنِيَآءُۚ رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلۡخَوَالِفِ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ٩٣﴾ [التّوبة: 93]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

المناسبة بين ذكر حال الفقراء المعذورين، وحال الأغنياء الّذين رضوا بالتّخلّف

لمَّا قال تعالى: ﴿مَا عَلَى ٱلۡمُحۡسِنِينَ مِن سَبِيلٖۚ﴾، قال في هذه الآية: ﴿۞إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسۡتَـٔۡذِنُونَكَ﴾ في التَّخلُّف: ﴿وَهُمۡ أَغۡنِيَآءُۚ﴾[1]. ولمّا نفت الآيتان السّابقتان أن يكون سبيلٌ ومؤاخذة على المؤمنين الضُّعفاء، والمرضى، والّذين لا يجدون ما يُنفقون، والّذين لم يجدوا حمولة، حصرت هذه الآية المؤاخذة على الّذين يستأذنون في التَّخلّف وهم أغنياء[2]. فهؤلاء قد أصابوا من الإثم والخُسران لجهلهم شناعة ما اقترفوه.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلۡخَوَالِفِ﴾: جذر الكلمة (خلف)؛ خَلَفَه: جاء بعده خلافة، وخَلَفَه على أهله فأحسن الخلافة. وخَلَفَه بخير أو شرّ: ذَكَرَه به من غير حضرته. وهو خَلَفُ صدق من أبيه وخَلَفُ سوء. وجلست خِلَاف فلان وخَلْفه أي: بعده[3]. وخَلَفَ خَلَافَةً بفتح الخاء: فَسَدَ، فهو خالِفٌ، أي: رديءٌ أحمق، ويُعبّر عن الرَّديء بخَلْفٍ نحو: ﴿۞فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [مريم: 59]، ويُقال لمن خَلَفَ آخر فسدَّ مسدَّه: خَلَف، والخِلْفَةُ يُقال في أن يخلف كلُّ واحدٍ الآخر، قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ خِلۡفَةٗ﴾ [الفرقان: 62]، وقيل: أمرُهم خِلْفَةٌ، أي: يأتي بعضه خلف بعض[4].

(1) ابن عادل، اللُّباب: 10/175.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/296.
(3) الزّمخشريّ، أساس البلاغة: (خلف).
(4) الرّاغب، المفردات: (خلف).

2) ﴿وَطَبَعَ﴾: جذر الكلمة هو (طبع)؛ الطَّبْعُ: أن تصوِّر الشَّيء بصورة مّا، كَطَبْعِ السِّكَّة، وطَبْعِ الدّراهم، قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَطۡبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾ [يونس: 74][1]. والطَّبْعُ: الوسَخُ الشّديد على السَّيف. والرّجُلُ إذا لم يكن له نفاذٌ في مكارِمِ الأُمور، كما يَطْبَعُ السَّيف إذا كَثُرَ عليه الصّدأ[2]، والطّبيعة الاسم بمنزلة السّجيّة والخليقة ونحوه. والطَّبْعُ: الخَتْم على الشَّيء. والطّابَعُ: الخاتَمُ. وطَبَعَ اللّه الخَلْقَ: خَلَقَهُم. وطُبِعَ على القلوب: خُتِمَ عليها[3].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

التّشنيع على مَنْ تقصّد عدم الخروج مع الرّسول الأكرم، من غير عذر ملزم

بيَّنت الآية مَن عليهم السَّبيل في مؤاخذتهم وإيقاعهم في الحَرَج؛ فقال تعالى: ﴿۞إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ﴾؛ أي: يقع الإثمُ ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ يَسۡتَـٔۡذِنُونَكَ﴾ في التّخلُّف ﴿وَهُمۡ أَغۡنِيَآءُ﴾؛ أي: لهم سعة للخروج. ﴿رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلۡخَوَالِفِ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ﴾، يعني: خَتَمَ، بحسب سُنَّة اللّه في أنَّ النُّفوس إذا أُشبعت بالأخلاق الرَّذيلة تفقد الاستعداد للأخلاق الفاضلة والإيمان الصَّحيح، ﴿فَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ شيئًا من ذلك، ولا يُدركون كُنهَ حالهم، ولا سوء مآلهم، ولا ما هو سبب ذلك من أعمالهم[4].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

الغرض من التَّعبير بأسلوب القصر، في السّياق الحكيم:

الإثم على الأصحّاء الأغنياء الّذين لا يعوقهم شيء

جملة القصر انتقال بالتَّخلُّص إلى العودة إلى أحوال المنافقين كما دلَّ عليه قولُه بعد ﴿يَعۡتَذِرُونَ إِلَيۡكُمۡ إِذَا رَجَعۡتُمۡ إِلَيۡهِمۡ﴾ [التّوبة: 94]، فالقصر إضافيٌّ بالنسبة للأصناف الّذين نُفي أن يكون عليهم

(1) الرّاغب، المفردات: (طبع).
(2) الخليل، العين: (طبع).
(3) الخليل، العين: (طبع).
(4) الموصليّ، أولى ما قِيل: 4/120.

سبيل[1]. وأفاد حصر الإثم والمؤاخذة على مَن اختار عدم الخروج مع رسول الله واختار القعود مع الخوالف، والقصر بمعونة السِّياق يؤكِّد سماحة الإسلام في الأمور المِفصليّة الكبرى بمَنْ لا يملكون الزّاد والرّاحلة وحصر الإثم على الأصحَّاء الأغنياء الّذين لا يعوقهم شيء عن الخروج مع رسول الله ﷺ. وفي هذا القصر تأكيدٌ للنَّفي السَّابق؛ أي: لا سبيل عقابٍ إلا على الّذين يستأذنونك وهم أغنياء. والمراد بهم المنافقون بالمدينة الّذين يكرهون الجهاد؛ إذ لا يؤمنون بما وعد الله عليه من الخيرات، وهم أولو الطَّول المذكورون في قوله: ﴿وَإِذَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٌ أَنۡ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ﴾ [التّوبة: 86]"[2]. أولئك الذين اختاروا لأنفسهم وأصغت أفئدتهم إلى دعوى القعود عن معيّة الرّسول في جهاده، فخرجوا عن دائرة الإيمان ودخلوا حيّز الكفر والنّفاق.

سرُّ اختيار (إنّما)، طريقًا لأسلوب القَصْر في السّياق:

اصطفى النَّظم الكريم (إنَّما) طريقًا للقصر لبيان أنَّ الأغنياء الأصحاء غير مأذون لهم في الاعتذار عن عدم الخروج للجهاد، وأنَّ هذا مما لا يجهله المخاطب ولا يُنكره، لذا جاء بأداة القصر الّتي تُستخدم فيما لا يجهله المخاطَب ولا يُنكره.

عدم قبول عذر الأصحَّاء الأغنياء، من الأمور البَدَهيَّة

دلالة (الْ) على العهد، في لفظ ﴿ٱلسَّبِيلُ﴾:

"التعريف باللّام في قوله: ﴿*إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ﴾ تعريف العهد، والمعهود هو السَّبيل المنفيُّ في قوله تعالى: ﴿مَا عَلَى ٱلۡمُحۡسِنِينَ مِن سَبِيلٖۚ﴾ على قاعدة النّكرة إذا أُعيدت مُعرَّفة؛ أي: إنّما السّبيل المنفيّ عن المحسنين مثبتٌ للّذين يستأذنونك وهم أغنياء. ونظير هذا قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظۡلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبۡغُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ [الشورى: 42]؛ فدلَّ ذلك على

السّبيل هو المؤاخذة والعقوبة، للمتخلّفين بلا عذر شرعيّ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/296.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/296.

أنَّ المراد بالسَّبيلِ: العذابُ"[1]. وهو هنا المؤاخذة واستحقاق العقوبة، وإخراجهم من دائرة الإيمان.

نكتة التَّعبير بالاستعارة، في لفظ ﴿ٱلسَّبِيلُ﴾:

"قوله: ﴿۞إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسۡتَـٔۡذِنُونَكَ وَهُمۡ أَغۡنِيَآءُۚ﴾، مستعار لمعنى السّلطان والمؤاخذة بالتّبعة، شبّه السّلطان والمؤاخذة بالطّريق لأنّ السّلطة يَتوصّل بها مَنْ هي له إلى تنفيذ المؤاخذة في الآخر[2]. والسَّبيل الّذي نفاه عن المحسنين، هو الّذي أثبته في هؤلاء المنافقين، وهو الّذي يختصُّ بالجهاد، والمعنى: أنَّ هؤلاء الأغنياء الّذين يستأذنونك في التّخلّف سبيل اللّه عليهم لازمٌ، وتكليفُه عليهم بالذَّهاب إلى الغزو متوجّه، ولا عذر لهم ألبتةَ في التَّخَلُّفِ[3].

سلطان الله وعقابه، واقع على المنافقين لا محالة

غرض استخدام حرف الجرِّ ﴿عَلَى﴾، استعارة في السّياق:

عبّر النَّظْم الكريم هنا بـ ﴿عَلَى﴾، وإن كان قد يصلُ بـ (إلَى)؛ لأنَّ ﴿عَلَى﴾ تدلُّ على الاستعلاء، وقلة مَنَعَة مَنْ تدخل عليه، نحو: لي سبيل عليك، بخلاف (إلى) فإذا قلت: لا سبيل عليك، فهو مُغايرٌ لقولك: لا سبيل إليك[4]. فـ "عُدّي بحرف (على) المفيد لمعنى الاستعلاء وهو استعلاء مجازيٌّ بمعنى التّمكُّن من التَّصرُّف في مدخول (على). فكان هذا التَّركيب استعارةً مكنيَّةً رُمز إليها بما هو من مُلائمات المشبَّه به وهو حرف (على). وفيه استعارةٌ تبعيَّةٌ"[5].

الاستعلاء المجازيّ في الحديث عن المنافقين، من بليغ البيان

سِرُّ التَّعبير بالاسم الموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾ في السّياق:

فائدة اسم الموصول هنا التّعريض بذِكْر الصّلة، مثل قوله: ﴿وَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ ٱئۡذَن لِّي وَلَا تَفۡتِنِّيٓۚ﴾ [التّوبة: 49]، كما أنّ في قوله هنا:

التّعريض باستئذان النّبيّ في التّأخّر عن الجهاد، بلا عذر شرعيّ مقنع

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/296 - 297.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/296.
(3) الرّازي، مفاتح الغيب: 16/123.
(4) ابن عادل، اللّباب: 10/176.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/296.

﴿ٱلَّذِينَ يَسۡتَـٔۡذِنُونَكَ﴾ تحقير فعلهم مثل قوله: ﴿كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ مِثۡلَ قَوۡلِهِمۡۚ﴾ [البقرة: 113].

دلالة التّعبير بالمضارع ﴿يَسۡتَـٔۡذِنُونَكَ﴾ في السّياق:

المنافقون حسموا أمر القعود، ولم يعبؤوا بالعواقب

دلّ الفعل المضارع هنا في قوله: ﴿يَسۡتَـٔۡذِنُونَكَ﴾ على الحال والاستقبال، وفائدة المُضارع التّجدُّد مع الزّمن، وما يدلّ ذلك على الإصرار والاستمرار على الاستئذان؛ لأنَّهم قد اتّخذوا قرارهم في عدم الخروج مع الرّسول، وارتاحت نفوسهم له، وأصغت أفئدتهم إلى دعوى التّخلّف عن رسول الله ﷺ.

سِرُّ التّقييد بالجملة الحاليّة ﴿وَهُمۡ أَغۡنِيَآءُۚ﴾، وأثرها في المعنى:

القُبح كلّه في الاستئذان للقعود، مع القدرة على النّهوض

قوله: ﴿وَهُمۡ أَغۡنِيَآءُۚ﴾ الواو للحال، و﴿وَهُمۡ﴾ مبتدأ، وأغنياء خبر، والجملة حالية[1]، أفاد هنا اختصاصهم بالغِنى فلا شكّ في غِناهم، وقد يَبِينُ ذلك من حالهم ومظهرهم، ولا شكّ في قدرتهم وتمكّنهم من الخروج معه ﷺ، لكنّهم اختاروا التّخلّف والقعود، ورضوا به، فالجملةُ الحالية تؤكِّد كذبهم في الاعتذار، وتُبيِّن قُبْح حالهم.

سرُّ التّغاير في اللّفظ بين ٱلۡأَغۡنِيَآءِ هنا، وأُولي الطّول في الآية (86):

تنوُّعُ حالات النّفاق، دليل على سريان هذا المرض في النّفوس

ذُكِر الأغنياء هنا؛ لأنَّ المقام مقام ذِكْر الفقراء الّذين لا سبيل عليهم، ولا حُجّة لمؤاخذتهم لفقرهم، فقابَل هؤلاء بأولئك الّذين أتوا يُريدون عدم الخروج وهم أغنياء؛ فلا حُجَّةَ لهم في الاعتذار. فلمّا ذكر (أولي الطَّوْل) وسياق الآيات فيها يبيّن التّجاوزات التي فضحت المنافقين وجرأتهم جاءت الآية تصف حال الَّذين قال فيهم: ﴿فَرِحَ ٱلۡمُخَلَّفُونَ بِمَقۡعَدِهِمۡ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓاْ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِي ٱلۡحَرِّۗ﴾ [التّوبة: 81]، وما يَليها من صفات المنافقين الّذين وصفهم القرآن بأنّهُم (أولوا الطَّول).

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 4/156.

دلالة الاستئناف في: ﴿رَضُواْ﴾:

الكشفُ عن السَّبب الحقيقيِّ فضحُ للمنافقين، وتعرية لمقاصدهم المخبوءة

وقعت الجملة استئنافًا تعليليًّا غرضه فضح المنافقين بالكشف عن حقيقة اعتذارهم بما هو مستكنٌّ في صدورهم؛ فالجملة "استئناف بيانيٌّ جواب لاستفهام مَن قال: لم استأذنوا؟ أو لم استحقوا ما استحقوا؟.. فأُجيب بأنهم ﴿رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلۡخَوَالِفِ﴾[1]. والسؤال " نشأ عن علَّة استئذانهم في التخلُّف وهم أغنياء؛ أي: بعثهم على ذلك رضاهم بأن يكونوا مع الخوالف من النِّساء"[2].

الغرض من التَّعبير بالكناية، في سياق الآية:

الخسَّة والدَّناءة، من صفات المنافقين المغروسة في أعماقهم

جملة ﴿رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلۡخَوَالِفِ﴾، وفيها، عبَّر عن خسَّة المنافقين ودناءتهم بأسلوب الكناية لما في طبيعة هذا الأسلوب من إثبات المعنى بالدَّليل، وهو أقوى من التّصريح بالصِّفة لأنَّ الّذي يعتذر مع القدرة أخسُّ وأدناُ وأقبحُ مقامًا؛ لذا عبّر عنهم بالرِّضا بالكون بمعيَّة النِّساء المُعبّر عنهم بصيغة الجمع الخاصَّة بهنَّ.

نكتة التّعبير بالفعل ﴿يَكُونُواْ﴾:

حصول شيء مستَغرَب، هو سبب معيَّتهم مع الخوالف

(كان) فعل ماضٍ ناقص؛ ليس فيه عنصر الحدث وإنّما تجرّدت للزَّمن فقط[3]. ففي قوله: ﴿رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلۡخَوَالِفِ﴾ يدلّ على شدَّة تَبكِيتِهم على رضاهم بأن يكونوا في معية الخوالف.

فالفائدة في إيراد مُطلق الحصول أولًا ثمَّ تخصيصه، مع فائدةٍ أخرى وهي دلالته على تعيين زمان ذلك الحصول المقيّد، ولو قلنا: (رضوا بالتّخلّف) لم تحصل هاتان الفائدتان معًا.

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 6/4.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/296.
(3) ابن يعيش، شرح ابن يعيش: 7/89 - 90.

سرُّ التّكرار في عبارة ﴿مَعَ ٱلۡخَوَالِفِ﴾:

بلغ المنافقون في اختيارهم أدنى ما يُمكن أن يُتصوّر

فائدة تكرار الجملة: ﴿رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلۡخَوَالِفِ﴾ لتوكيد ما هم فيه من دناءة الاختيار، وما أحاط بأنفسهم من عزلةٍ فلا يستشعرون الخير، وما أصاب أعينهم من الغشاوة فهم لا يُبصرون الحقّ، وما أصاب عقولهم وفكرهم من الضِّيق والانحسار، وذلك كلّه بسبب ما أصابهم من الطّبع على القلوب، فكرّر لتوكيد ذلك.

سرُّ بناء الفعل للمفعول ﴿وَطُبِعَ﴾، وللفاعل ﴿وَطَبَعَ﴾:

الطَّبع على القلب، فعلٌ لا يقدِر عليه إلّا خالق القلوب ومقلّبها

أسند الطَّبع إلى المفعول؛ إمّا للعلم بفاعله وهو الله، وإمّا للإشارة إلى أنّهم خُلِقُوا كذلك وجُبِلُوا عليه[1]. وذكر الكرمانيّ: قَوْله: ﴿وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ﴾ ثمَّ قَالَ بعده ﴿وَطَبَعَ ٱللَّهُ﴾؛ لِأَنّ قَوْله ﴿وَطُبِعَ﴾ مَحْمُول على رَأس المِئَة وهو قَوْله: ﴿وَإِذَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٌ﴾ مَبْنِيّ للمفعول. فناسب ما تقدّمه ليُناسب بالختام المَطْلَع. وَالثَّاني: مَحْمُول على مَا تقدّم من ذِكْر الله تَعَالَى مَرَّات فَكَانَ اللَّائِق ﴿وَطَبَعَ ٱللَّهُ﴾[2]. وقوله فيما بعدها: ﴿وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ فإنّه لم يقع قبلها ما يقتضي البناء فجاءت على الأصل[3].

سرّ التَّعبير باسم الجلالة ﴿ٱللَّهُ﴾ مُسنَدًا إليه:

الطَّبع على قلوب المنافقين، ترسيخٌ لاختيارهم المهين

وأُسند الطَّبعُ على قلوبهم إلى الاسم الجليل للإشارة إلى أنَّه طبعٌ غير الطَّبع الذي جُبلوا عليه؛ بل هو طبْعٌ على طبعٍ أنشأه الله في قلوبهم لغضبه عليهم؛ فحرَمَهم النّجاة من الطَّبعِ الأَصليِّ، وزادهم عَمَايَةً[4]. فالطَّبعُ على قلوب المُنافقين ترسيخٌ لما اختاروهُ ورضوا به، واستقرّت أفئدتهم عليه، ويؤكده اصطفاء التَّعبير بصيغة الماضي تحقيقًا لحصول ذلك.

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/289 - 290.
(2) الكرمانيّ، البرهان في توجيه متشابه القرآن، ص: 137.
(3) الزّركشيّ، البرهان في علوم القرآن: 3/145.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/296.

سِرُّ استعمال (الفقه) مع المَبنيِّ للمجهول، و(العِلمُ) مع المبنيِّ للمعلوم:

العلم من صفات اللّه، والفقه ليس من صفاته سبحانه؛ لأنّ الفقه يُستحصل بالتّفكّر والتّأمُّل والتّدبُّر، وهذا ليس من شأن اللّه، وإنّما هو من صفات خَلْقه من المُكلّفين، ولذلك فقد جاء ﴿يَعْلَمُونَ﴾ مع ذكر اسم اللّه، وجاء ﴿يَفْقَهُونَ﴾ مع البناء للمفعول، وعدم ذكر اسم اللّه تعالى. ثمَّ ختم كلَّ آيَة بِمَا يَلِيق بهَا فَقَالَ في الأولى: ﴿لَا يَفْقَهُونَ﴾، وَفي الثَّانِيَة: ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾؛ لِأَن العلم فَوق الفِقْه وَالفِعْل المُسْنَد إِلَى اللّه فَوق المُسْنَد إِلَى المَجْهُول"[1].

الفقه يقتضي التَّفكُّر والتَّأمُّل، وهُوَ لبُّ الوعي، وعنوانُ الإدراك

دلالة (الفاء)، في: ﴿فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾:

ولأجل هذا المعنى فرَّع عليه ﴿فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ لنَفْيِ أصل العلم عنهم[2]؛ فالفاء للتَّفريع، فمهما يسمعوا ويروا من دلالات العلم وحقائقه فإنّهم لا يُدركون قيمة ما هم فيه من خير المعيّة، وفرصة الجهاد معه ﷺ، فانتفى بذلك علمُهم عن كلِّ خير.

جهلُهم للقيمة العليا لمعيّة الرّسول الأكرم، أنهى عِلْمَهم بكلِّ خير

دلالة تقديم المُسنَد إليه ﴿فَهُمْ﴾، على خبره الفعليّ ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾:

قوله تعالى: ﴿فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾، وفيه اصطفى النَّظم الكريم تقديم المُسند إليه (هم) وتقديمه على الخبر الّذي هو جملة فعليّة ﴿لَّا يَعْلَمُونَ﴾ لتقوية نفي العِلم عنهم وتأكيده، وإنَّما حصل التَّأكيد من إسناد نفي العلم عنهم مرتين: الأولى بجملة الخبر، والثَّانية: بإسناد الضَّمير العائد على المُسنَد إليه للفعل المنفيِّ عنهم، فكأنَّه قيل: لا يعلم المنافقون لا يعلم المنافقون.

تأكيد انتفاء العِلم عن المنافقين، إذْ من جهل شيئًا عاداه

دلالة التّعبير بالمضارع ﴿يَعْلَمُونَ﴾:

دلَّ التّعبير بالفعل المضارع على استمرار جهل المنافقين وعدم علمهم على الدّوام حالًا واستقبالًا، وهذا من أشنع ما يكون من الصِّفات، كأنَّ الجهلَ جِبِلَّتُهم.

العلمُ منتَفٍ عن المنافقين، حالًا واستقبالًا

(1) الكرمانيّ، البرهان في توجيه متشابه القرآن، ص: 137.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/296.

دلالة حذف المفعول به من الفعل ﴿يَعْلَمُونَ﴾:

نَفْيُ العلم عن المنافقين، نَفْيٌ عن كلّ معلوم

حُذف المفعول به للعموم، ولقصد توفير العناية على نَفْي الفعل نفسه بغضِّ النَّظر عن المعلوم، فلا تتحقّق مقبوليّة العلم في قلوبهم وعقولهم؛ لأنَّهم قد عُزلوا بالطَّبع على قلوبهم عن حقائق ما أنزل اللّه في رسالته ووَحْيِهِ على نبيّه ﷺ.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

العِلمُ والفقهُ:

الفقه يكون لمَنْ لـه قـدرة، على التّفكير والتّأمّل من المخلوقين

الفقه هو العِلم بمقتضى الكلام على تأمُّله، ولهذا لا يُقال: إنَّ اللّه يفقه؛ لأنَّه لا يُوصف بالتّأمُّل، وتقول لمن تُخاطبه: تفقَّه ما أقوله؛ أي: تأمَّله لتعرفَهُ، ولا يُستعمل إلا على معنى الكلام، ومنه قوله تعالى: ﴿لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا﴾ [الكهف: 93]، وسُمِّي عِلمُ الشّرع فِقْهًا؛ لأنّه مبنيٌّ على معرفة كلام اللّه تعالى، وكلام رسول اللّه ﷺ[1].

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 412.

﴿يَعۡتَذِرُونَ إِلَيۡكُمۡ إِذَا رَجَعۡتُمۡ إِلَيۡهِمۡۚ قُل لَّا تَعۡتَذِرُواْ لَن نُّؤۡمِنَ لَكُمۡ قَدۡ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنۡ أَخۡبَارِكُمۡۚ وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ وَرَسُولُهُۥ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٩٤﴾ [التّوبة: 94]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

المناسبة بين حال المخلّفين الفقراء، وزيف معاذير أصحاب الغنى، الّذين ينبّئهم الله بما كانوا يعملون

تحدَّثتِ الآيةُ السَّابقةُ عن استئذانِ المنافقينَ وتخلُّفِهم عن الجهادِ مع قدرتِهم على الخروجِ؛ وجاءتْ هذه الآيةُ لتخبرَ عن حال المنافقينَ في تقديم الأعذارِ لرسولِ اللّهِ ﷺ عن عدمِ خروجهم، وبيَّنت عدمَ قبولِ اعتذارِهم لعدم صدقِهم فيما يقولونَ، وهو سبحانه عالمُ الغيبِ والشَّهادةِ، فلا يغيبُ عن علمِه شيءٌ، وفي ذلك تحذيرٌ لهم من كذبهم؛ لأنَّهم سيرَدُّون إلى عالمِ الغيبِ والشَّهادةِ، فيخبرُهم بما عملوا.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَعۡتَذِرُونَ﴾: الاعْتِذارُ مَصْدَرُ اعْتَذَرَ، وأَصْلُهُ مِنَ العُذْرِ، وهو: الحُجَّةُ التي يُعْتَذَرُ بها، وكُلُّ ما يَرْفَعُ اللَّوْمَ؛ فهو عُذْرٌ، يُقال: عَذَرْتُهُ عُذْرًا، أيْ: رَفَعْتُ عَنْهُ اللَّوْمَ، "وذلكَ على ثلاثةِ أضرُبٍ: إما أن يقولَ: لم أفعلْ، أو يقولَ: فعلتُ لأجلِ كذا، فيذكرُ ما يُخرجهُ عن كونه مُذنبًا، أو يقولَ: فعلتُ، ولا أعود، ونحو ذلكَ من المقالِ، وهذا الثّالثُ هو التَّوبةُ، فكلُّ توبةٍ عذرٌ، وليس كلُّ عذرٍ توبةً". واعْتَذَرَ من ذَنْبِه، وتَعَذَّرَ: إذا تَنَصَّلَ منه، واحْتَجَّ لِنَفْسِه، قال تعالى: ﴿يَعۡتَذِرُونَ إِلَيۡكُمۡ إِذَا رَجَعۡتُمۡ إِلَيۡهِمۡۚ﴾، واعْتَذَرَ أيضًا بمعنى: أَعْذَرَ، أيْ: صارَ ذا عُذْرٍ، ويُقال: اعْتَذَرَ إلى فُلانٍ، فَعَذَرَهُ، أيْ: أَزالَ ما كان في نَفْسِهِ عليه في الحَقِيقَةِ أو في الظّاهِرِ[1].

(1) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (عذر)، والجرجانيّ، التّعريفات، ص: 30، والكفويّ، الكليّات، ص: 308.

2) ﴿تُرَدُّونَ﴾: الرَّدُّ: صَرْفُ الشَّيْءِ بذاتِه أو بحالةٍ من أحوالِه، ومن الرَّدِّ بالذّاتِ قوله تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ﴾ [الأنعام: 28] ومن الرَّدِّ إلى حالةٍ كان عليها، قوله تعالى: ﴿يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ﴾ [آل عمران: 149]، ويأتي بمعنى: المَنْعِ والرَّفْضِ، وشَيْءٌ مَرْدُودٌ، أيْ: مَرْفوضٌ، ورَدَّ فُلانًا: خَطَّأَهُ، أيْ: لَمْ يَقْبَلْهُ، وَمِن مَعانيهِ أيضًا: الإعادَةُ والإرْجاعُ، فالرَّدُّ كالرَّجعِ[1]، تَقول: رَدَّهُ إلى مَنْزِلِهِ، أيْ: أَعادَهُ، ورَدَّ إلَيْهِ جَوابًا، أيْ: أَرْجَعَهُ وأَرْسَلَهُ[2].

3) ﴿عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾: الغيبُ: مصدرُ غابَ الشَّيءُ؛ إذا استترَ عن العينِ، واستُعمل في كلِّ غائبٍ عن الحاسَّةِ، وعمّا يغيب عن علمِ الإنسان بمعنى الغائبِ، ويقالُ للشَّيء: غيبٌ وغائبٌ باعتبارِهِ بالنّاس لا باللّهِ تعالى؛ لأنَّهُ لا يغيب عنهُ شيءٌ[3]، والمرادُ بالغيبِ ما لا يُدركُ بالحواسِّ ممَّا أَخبَر الرَّسولُ ﷺ صَريحًا بأنَّهُ واقعٌ، أو سَيَقَعُ مِثْل وجُودِ اللّه، وصِفاته، ووُجُودِ الملائكةِ، والشَّياطِينِ، وأَشْراطِ السّاعةِ، وما اسْتأثرَ اللّه بعلْمِه، والشَّهادةُ: ضِدُّ الغَيبِ، وهيَ الأُمورُ الَّتي يُشاهدها النّاسُ، ويتوصَّلون إلى علمها، يُقالُ: شَهِدَ، بِمَعْنَى: حَضَرَ، وضِدُّهُ غابَ، ولا تَخْرُجُ الموجُوداتُ عن الاتِّصافِ بِهذَيْنِ الوَصْفَيْنِ، فَكأنَّهُ قِيلَ: العالِمُ بِأَحْوالِ جَميعِ المَوْجُوداتِ[4].

❁ المَعْنى الإجْمالِيُّ:

يُخاطِبُ اللّهُ تعالى المؤمِنينَ قائلًا لهم: إنَّ المُنافِقينَ المُتخلِّفينَ عن الجهادِ بلا عُذرٍ، سيعتَذِرونَ إليكم؛ إذا رَجَعْتُم إليهم مِن سفَرِكم

الوحيُ يفضحُ كلَّ منافقٍ كذوبٍ، ويوم الدّين ينبّئ الله المعتذرين، عمّا كانوا يخفون

(1) الرّاغب، المفردات: (ردد).
(2) الجوهريّ، الصّحاح، وابن منظور، لسان العرب، والزَّبيديّ، تاج العروس: (ردد)، والكفويّ، الكليّات، ص: 476، والجرجانيّ، التعريفات، ص: 147.
(3) الرّاغب، المفردات: (غيب).
(4) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن الأثير، النّهاية في غريب الحديث والأثر: (غيب، وشهد)، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/229، و7/309.

وجهادِكم، فقلْ لهم يا محمَّد ﷺ: لا تعتَذِروا، لن نُصَدِّقَكم، قد أعلَمَنا اللهُ بأسرارِكم، وعَرَفْنا كذِبَكم في اعتذارِكم، وسيرى اللهُ عمَلَكم ورسولُهُ، ثمَّ تُرجَعونَ بعد مَوتِكم إلى عالِمِ كُلِّ سِرٍّ وعلانِيةٍ، وظاهرٍ وباطنٍ، فيُخبِرُكم بما كُنتم تَعمَلونَهُ في الدُّنيا، ويُجازيكم عليه.

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالةُ الفصلِ في: ﴿يَعْتَذِرُونَ﴾:

فُصلتِ الآيةُ الكريمةُ عن سابقتِها؛ لأنَّها استئنافيَّةٌ ابتدائيَّةٌ، ولأنَّ هذا الاعتذارَ ليس قاصرًا على الَّذين يستأذنونَ في التَّخلُّف، إنَّما هو من شِيَمِ المنافقين عمومًا، وإن وقع الاعتذارُ من بعضِهم فلمناسبةِ استئذانِ الَّذين قَعدوا عن الجهادِ؛ فإنَّ الإذنَ لهم يُغنيهم عن التَّبرُّؤ بالحلْفِ الكاذبِ[1] في زعمهم.

الاعتذاراتُ الكاذبةُ دأبُ المنافقينَ، والله لا تخفى عنه خافية

وفيه إشارةٌ إلى إخبارِهِ ﷻ والمؤمنين بما سيكونُ من هؤلاءِ المنافقينَ من تقديمِ الأعذارِ.

سرُّ التَّعبيرِ بـ ﴿يَعْتَذِرُونَ﴾:

آثرَ النَّظمُ الكريمُ التَّعبيرَ بالاعتذارِ في قولِه: ﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ﴾ دون (يتوبون)؛ لأنَّ الاعتذارَ أعمُّ من التَّوبةِ، فالعُذْرُ: الحُجَّةُ الَّتي يُعْتَذَرُ بها، وكُلُّ ما يَرْفَعُ اللَّوْمَ؛ فهو عُذْرٌ، "وذلك على ثلاثة أضربٍ: إمّا أن يقولَ: لم أفعل، أو يقول: فعلتُ لأجلِ كذا، فيذكرُ ما يخرجُهُ عن كونِهِ مُذنبًا، أو يقول: فعلتُ، ولا أعودُ، ونحو ذلك من المقالِ، وهذا الثّالثُ هو التَّوبةُ، فكلُّ توبةٍ عُذْرٌ، وليس كلُّ عُذْرٍ توبةً"[2]، والمُلاحظ أنَّهم يندرجونَ تحتَ النَّوعِ (فعلتُ لأجل كذا) لغرضِ رفعِ الملامةِ عنهم، وليس من بابِ التَّوبةِ، ولذلك لا يندرجونَ تحتَ

بعضُ الاعترافِ، لا يمحو - رغم أهميّته - دنسَ الاقترافِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/6.
(2) الرّاغب، المفردات: (عذر).

النَّوع الثّالثِ؛ لأنَّ اعتذارَهم دلَّلَ على اعترافِهم بالخطأ، وذلك لقوَّة المسلمين، وهذا يدلُّ على ضعف المنافقين.

وفيه إشارةٌ إلى أنَّهم لم يعتذروا إيمانًا ولا تصديقًا، بل ليُحسن المسلمون معاملتَهم فقط، أمّا التَّوبةُ؛ فتفيدُ النَّدم على ما صدرَ من المعاصي، وهم لم يفعلوا ذلكَ، ولأنَّهم يطلبون محو الذَّنب فقط؛ لأنَّ لفظَ الاعتذارِ من معانيه محوُ أثرِ الذَّنب، وأصله: إن تعذَّرت المنازل، أي: درست، وانمحت آثارها، ومن معاني العذرِ: القطعُ، يقولون: اعتذرتِ المياهُ، أي: انقطعتْ، فكأنَّ المعتذرَ يحاولُ قطعَ الذَّمِّ عنه، وهذا ما يهدف إليه المنافقون من هذا الاعتذارِ[1].

سرُّ التَّعبيرِ بالمضارعِ ﴿يَعۡتَذِرُونَ﴾:

عَبَّرَ بالفعلِ المضارعِ ﴿يَعۡتَذِرُونَ﴾ دلالةً على استمرارِ الاعتذارِ منهم وديمومتهِ وتكرارِ صفتهِ وتجدُّدِ حدوثِه؛ لإزالةِ الجُرمِ واللَّومِ عنهم، وممَّا يؤكِّد ذلك ما سبق ذكرُه من محاولة اعتذارهم عند استهزائِهم بآياتِ اللهِ ورسوله، وردَّ القرآنُ عليهم بقوله: ﴿لَا تَعۡتَذِرُواْ قَدۡ كَفَرۡتُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡۚ﴾ [التوبة: 66]، فإنَّ دأبَ هؤلاءِ الاعتذارُ عمومًا، ويحسبون أنَّ ذلك أمرٌ مقبولٌ يقبله النَّبيُّ ﷺ والمؤمنون، ولذلك أكثروا من الاعتذارِ، ولاسيِّما في أمرِ الجهاد، يصوِّر ذلك التَّعبيرُ بالفعل المضارع.

الاعتذارُ سمةٌ متجدِّدَةٌ من المنافقينَ الفجّار، لخداع المؤمنين الأبرار

نكتةُ إسنادِ الفعلِ للضَّميرِ، في لفظ: ﴿يَعۡتَذِرُونَ﴾:

أسندَ الفعل بالضَّميرِ في قوله: ﴿يَعۡتَذِرُونَ﴾ عن فريقٍ من المنافقينَ اعتذروا بعدَ رجوعِ النَّبيِّ والمؤمنين معه من غزوة تبوكَ، وهم الذين سبقَ ذكرُهم في قوله: ﴿وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ﴾ [التَّوبة: 90].

وذلك من بابِ تحقيرِهم والاشمئزازِ من ذكرِهم، وهذا الإضمارُ

تحقيرُ المنافقينَ والاشمئزازُ من ذكرِهم، ردع لهم

(1) ابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 10/138.

أيضًا يبرزُ طبعَهم في عدمِ الظُّهورِ بفعلتِهم، وهذا دأبُ المنافقين وسُلوكُهم مع المؤمنينَ، فهم يعتذرون في كلِّ مرَّةٍ عن تخلُّفِهم، ولا يعلنون عن أنفسهم إلّا في حالةِ ضعفِ المسلمين.

دلالةُ كافِ الخطابِ في: ﴿إِلَيْكُمْ﴾:

بيان حال قيادة الرَّسولِ ﷺ للمؤمنين في الحرب والسِّلمِ

والخطابُ في ﴿إِلَيْكُمْ﴾ إلى الرَّسولِ ﷺ والجمعُ للتَّعظيم؛ لأنَّ الاعتذارَ للرَّسولِ ﷺ هو اعتذارٌ لجميع المؤمنين؛ لأنَّهُ القائدُ والإمام الَّذي يؤتمُّ به، وقيل: له ﷺ ولأصحابه، وهذا هو الأَولَى؛ لأنَّهم كانوا يعتذرون للجميع، أي: يعتذرون إليكم في التَّخلُّف؛ إذا رَجَعْتُمْ من الغزو منتهين إِلَيْهِمْ[1]؛ لأنَّ المنافقين يقصدون بأعذارِهم النَّبيَّ ﷺ ويعيدونها مع جماعات المسلمين[2]، ويدلُّ أيضًا على أنَّ الاعتذارَ كان مشافهةً، وفي مواجهةِ المسلمين، فلم يرسلوا اعتذارًا، ولا أنابوا أحدًا عنهم، بل كانوا في موضع المهزومِ الَّذي ينتظرُ عفوَ المنتصرِ عنهم.

دلالةُ تعدِّي الفعلِ ﴿يَعْتَذِرُونَ﴾، بحرفِ الجرِّ (إلى):

الحرصُ على إعلانِ الاعتذارِ بأيِّ وسيلةٍ، لإقناعِ الرّسول والمؤمنين

قولِه: ﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ﴾، آثرَ تعدِّي الفعل ﴿يَعْتَذِرُونَ﴾ بحرف الجرِّ (إلى) دون اللّام؛ لأنَّ (إلى) معناها انتهاءُ الغاية، فهم يبحثونَ عن قبولِ اعتذارِهم بأيِّ وسيلةٍ ومن أيِّ جهةٍ من الجهاتِ سواءٌ كان ذلك بإعلانِ اعتذارِهم أو بالحلفِ عليه، بخلاف اللّام الَّتي تفيدُ الاختصاصَ أو الاستحقاقَ، والمنافقونَ لا يقرُّون بذلك في حقيقة أنفسِهم للمؤمنين، فهدفُهم فقط هو تقديمُ الاعتذارِ للحفاظِ على مصالحِهم.

دلالةُ التَّعبيرِ بـ ﴿إِذَا﴾:

الشَّرطُ مشعرٌ بتحقيقِ الوقوعِ، ويقين حصوله

قولِه: ﴿إِذَا رَجَعْتُمْ﴾، آثرَ التَّعبيرَ بـ ﴿إِذَا﴾ دون (إن)؛ لأنَّ إذا في كلامِ العربِ تُستعملُ للمقطوعِ بحصولِه، فقولُه: ﴿إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ﴾

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 6/4، والقنّوجيّ، فتح البيان: 5/374، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/6 - 7.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/7.

يدلُّ على تحقُّقِ اعتذارِ المنافقين من المؤمنينَ حالَ رجوعِهم من غزوتِهم، ولم يُعبِّر بـ (إن) الَّتي تفيدُ الشَّكَّ في الوقوعِ أو نُدرتَهُ؛ لأنَّها غيرُ مناسبةٍ في هذا الموقفِ الَّذي يحرصُ المنافقونَ فيهِ على الاعتذارِ، وفيه إخبارٌ بغيبٍ لم يقعْ بعدُ؛ لأنَّ السُّورةَ نزلتْ بعدَ القفولِ من غزوةِ تبوكَ، وجعْلِ الرُّجوعِ إلى المنافقين حاصلًا؛ لأنَّه المقصودُ من الخبر عند الرُّجوع[1] وفيه تنبيهُ المنافقينَ إلى تغييرِ موقفِهم منَ الرَّسولِ ﷺ من عدمِ الإيمانِ بهِ إلى تصديقهِ واتِّباعهِ والإيمان بالقرآنِ الَّذي فضحَ سرائرَهُم وكشفَ نيّاتِهم.

دلالةُ تعدّي الفعلِ ﴿رَجَعْتُمْ﴾ بالحرف (إلى):

إبـــرازُ الـفـلاحِ والفوزِ للمؤمنينَ

تعدَّى الفعلُ ﴿رَجَعْتُمْ﴾ بـ (إلى) الَّتي تدلُّ على انتهاءِ الغاية، للإشارةِ إلى الغايةِ الَّتي هي مرادُ اللّٰه لرسولهِ والمؤمنين بعودتهم سالمين، لا كما كانوا يظنُّونَ من قتلِ الرُّوم وتغلُّبهم على المسلمين، ويكونُ المعنى: ﴿رَجَعْتُمْ﴾ من الغزو منتهين ﴿إِلَيْهِمْ﴾[2].

دلالةُ التَّعبيرِ بالماضي ﴿رَجَعْتُمْ﴾:

البشارةُ بتحقُّقِ الـرُّجـوعِ إلى المدينةِ، ملمح من واقع المشهد

آثرَ النَّظمُ الكريمُ التَّعبيرَ بالماضي الَّذي يدلُّ على تحقُّقِ رجوعِهم إلى المدينةِ المنوَّرةِ سالمينَ غانمينَ؛ لأنَّ المنافقينَ ما كانوا يتوقَّعونَ أن يعودَ الرَّسولُ ﷺ وأصحابُهُ منتصرين، بل كانوا يتوقَّعونَ أنَّ الرُّومَ سيقضونَ عليهم، ولا تقومُ لهم قائمةٌ بعد ذلكَ، فخيَّبَ اللّٰهُ ظنَّهم بأنِ امتنَّ على الرَّسولِ ﷺ وأصحابهِ بالرُّجوعِ المظفَّرِ إلى المدينة.

سرُّ التَّعبيرِ بالضَّميرِ ﴿إِلَيْهِمْ﴾:

تسابقُ المنافقينَ إلى الاعـتـذارِ، دليل على قوّة الإسلام وهيبته

جاء التَّعبيرُ بقولهِ: ﴿رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ﴾ ولم يقلْ إلى المدينةِ؛ إيذانًا بأنَّ مدارَ الاعتذارِ هو الرُّجوعُ إليهم لا الرُّجوعُ إلى المدينة، فلعلَّ منهم مَنْ بادرَ إلى الاعتذارِ قبلَ الرُّجوعِ إليها[3].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/7.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/93.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/93.

وفيه إشارةٌ إلى تسابقِ المنافقينَ للاعتذارِ لدرجةِ أنَّهم خرجوا من المدينةِ؛ ليستقبلوا المسلمينَ بهذا الاعتذارِ، ولم ينتظروا وصولَهُم إليها، وفي هذا إعلانٌ لقوَّةِ المسلمين وخيبةِ المنافقينَ وإبراز جبنِهم في مواجهةِ المسلمين.

الغرضُ مِنَ التَّعبيرِ بالأمرِ بلفظ ﴿قُل﴾:

إعلانُ إمامتهِ وقيادتهِ ﷺ، للأمّة

جاءَ الخطابُ بقولِه: ﴿قُل﴾ لرسولِ اللّهِ؛ لأنَّهُ ﷺ رأسُهم والمتولِّي لما يرد عليهم من جهةِ الآخرين[1] وإن كان الاعتذارُ منهم كائنًا إلى جميعِ المؤمنينَ، وفيهِ تأييدٌ لنبوَّتِه ﷺ ورسالتِه بإبلاغِ قولِ اللّهِ لهم، وفيهِ إشارةٌ إلى أمرِ اللّهِ للمؤمنينَ بأن يفضحوا المنافقينَ على رؤوسِ الأشهادِ قائلينَ لهم: لا تعتذروا.

الغرضُ من أسلوبِ النَّهي في قولِه: ﴿لَّا تَعۡتَذِرُواْ﴾:

تأييسُ المنافقينَ من تصديقِ المؤمنينَ لهم

نهى اللّهُ المنافقينَ عن الاعتذارِ؛ لأنَّهُ كذبٌ، والتَّمادي في الاعتذارِ الكاذبِ تمادٍ في الكذبِ، والتَّمادي في الكذبِ فجورٌ، وهو غير مقبول[2].

وعلَّل الرَّازيُّ ذلك، فقالَ: إنَّ قوله تعالى: ﴿لَّا تَعۡتَذِرُواْ﴾ علَّةٌ للمنعِ من الاعتذارِ؛ لأنَّ غرضَ المعتذرِ أن يصيرَ عذرهُ مقبولًا، فإذا عُلِم بأنَّ القومَ يكذِّبونه فيه؛ وجبَ عليهِ تركُهُ.

ويدلُّ النَّهي أيضًا على رفضِ سماعِ الاعتذارِ لا قبولِه، فهناك فرقٌ بين إنسانٍ يعتذرُ إليك وتسمعُ عذرَهُ، ثمَّ بعد ذلك تقبلُهُ، أو ترفضُهُ، أمّا الَّذي معنا هنا، فهو رفضُ السَّماعِ، وهو أبلغُ في التَّيئيسِ ممَّا لو قيلَ: لا تقبلوا عذرَهُم.

"ليسَ النَّهيُ على أصلِه؛ لأنَّهُ وقعَ، وإنَّما نهوا عن ذلك؛ لأنَّ ما

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/93، والآلوسيّ، روح المعاني: 6/4، والقنوجيّ، فتح البيان: 5/374.

(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3416.

يزعمونَهُ معلومُ الكذبِ بيِّنُ البُطلان، فالآلوسيُّ - رحمه اللّه - يلمِّحُ بكلامِهِ هذا إلى أنَّ النَّهيَ أفادَ التَّيئيس[1].فالنَّهيُ لتأييسِ المنافقينَ من تصديق المؤمنينَ لهم؛ لِما جلّاه اللّه تعالى لهم من أخبارٍ، وفضْحِهِ سيِّئَ سرائرِهم.

دلالةُ الفصل في: ﴿لَن نُّؤۡمِنَ لَكُمۡ﴾:

عِلَّةُ النَّهي عن الاعتذارِ، فلا معنى لعذر لا يصدّق

فُصِلَ قولُهُ تعالى: ﴿لَن نُّؤۡمِنَ لَكُمۡ﴾ لِمَا بينهما من كمالِ الانقطاعِ، فالأولى إنشائيَّةٌ والثانيةُ خبريَّةٌ؛ فالثَّانية استئنافٌ تعليليٌّ لبيانِ موجبِ النَّهي في قولِهِ: ﴿لَّا تَعۡتَذِرُواْ﴾، فهو مبنيٌّ على سؤالٍ نشأَ من قِبَلِهم، مُتَفَرِّعٍ على ادِّعاءِ الصِّدقِ في الاعتذارِ، كأنَّهم قالوا: لِمَ لا نَعتَذِرُ؟ فقيل: لأنَّا لا نُصدِّقُكم أبدًا، فالجُملةُ عِلَّةٌ للنَّهي عَنِ الاعتذارِ؛ لأنَّ غرَضَ المعتَذِرِ أن يُصدَّقَ فيما يَعتَذِرُ بهِ، فإذا عَلِمَ أنَّه لا يُصدَّقُ؛ ترَك الاعتذارَ.

دلالةُ التَّعبيرِ بـ﴿لَن﴾ دون (لا) في السّياق:

بيان المبالغة في نفي الإيمانِ عنِ المنافقينَ

قوله: ﴿لَن نُّؤۡمِنَ﴾، وفيه عبَّر بـ﴿لَن﴾ دون (لا)؛ لأنَّ ﴿لَن﴾ تفيدُ تأكيدَ النَّفي، بخلافِ (لا)؛ لذلكَ عبَّر بـ﴿لَن﴾ الَّتي تفيدُ المبالغةَ في تأكيدِ نفي الإيمانِ عن هؤلاءِ المنافقينَ في الحالِ والاستقبالِ، وذلك لما فيها من دلالةٍ على زمنِ الاستقبالِ، وللإشارةِ إلى قطعِ الأملِ في قلوبِ المنافقينَ عن رواجِ الاعتذارِ عندَ المؤمنينَ، فلن يصدِّقوهم اليومَ، ولا بعدَ اليومِ، مهما أجهدوا أنفسَهم، وبذلوا وُسعَ طاقتِهم في محاولةِ إقناعِ المؤمنينَ بقبولِ أعذارِهم.

بلاغةُ التَّضمينِ في سياق نفي الإيمان لهم مستقبلا:

المرادُ في هذهِ الآيةِ، تأكيد امتناعهم عن التّصديق، بما يقدّمون من معاذير كاذبة

قولُه: ﴿لَن نُّؤۡمِنَ لَكُمۡ﴾: في الجملةِ الكريمةِ تضمينٌ؛ إذ ضمَّن الإيمانَ معنى الرِّضا والتَّسليم والإذعان، فعُدِّي باللَّام[2]؛ لأنَّ الفعلَ

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 5/320، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/7.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/302، وأبو حيّان، البحر المحيط: 5/489، والشّوكانيّ، فتح القدير: 2/449، والبقاعي، نظم الدّرر: 4/93.

(آمن) يدورُ معناهُ حولَ عدَّةِ معانٍ، تقول: (آمن) أي: اعتقدَ وصدَّقَ، مثل قولنا: (آمن باللّه)، ويقال: آمنَ بالشَّيء: صدَّقه، وآمن بكذا، أي: صدَّق ما قيل، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤۡمِنٖ لَّنَا وَلَوۡ كُنَّا صَٰدِقِينَ﴾ [يوسف: 17]، أي: لن تصدِّقَنا، والفعل (آمن) إذا تعدَّى بالباءِ؛ فمعناهُ الاعتقادُ، وإن تعدَّى باللّام؛ فمعناهُ التَّصديقُ، وهو المرادُ في هذهِ الآيةِ، وإن تعدَّى بغيرهما؛ فمعناهُ إعطاءُ الأمانِ، وآياتُ القرآنِ على هذهِ المَعاني واضحةٌ[1] فالمعنى: لن نأمنَ لكم، ولولا التَّعدِّي باللَّام لما تحقَّق هذا المعنى.

دلالةُ ضميرِ الجمعِ في: ﴿نُّؤۡمِنَ﴾:

استعمالُ ضميرِ المتكلِّمِ للمُبالغةِ

جمعَ ضميرَ المتكلِّم في ﴿نُّؤۡمِنَ﴾ من قولهِ: ﴿لَن نُّؤۡمِنَ لَكُمۡ﴾؛ للمُبالَغةِ في حَسْمِ أطماعِهم مِن التَّصديقِ رأسًا، ببَيانِ عدَمِ رَواجِ اعتِذارِهم عندَ أحَدٍ مِن المؤمِنين أصلًا[2]، فإنَّ تصديقَ بعضِهم لهم ربَّما يطمعُهم في تصديقِ الرَّسولِ ﷺ أيضًا بواسطة المصدِّقين، وللإيذانِ بافتضاحِهم بينَ المؤمنينَ.

وهذا المعنى ينطبقُ على سرِّ التَّعبيرِ بنونِ الجمعِ في قولهِ تعالى: ﴿قَدۡ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنۡ أَخۡبَارِكُمۡۚ﴾ دفعاً للتَّكرارِ في هذا الموضعِ[3].

سرُّ التَّعبيرِ بالإيمانِ: ﴿لَن نُّؤۡمِنَ لَكُمۡ﴾:

مجابهةُ المعتقدِ تكونُ إيمانًا أو كفرًا

آثرَ التَّعبيرَ بالإيمانِ دونَ التَّصديقِ لوجودِ فرقٍ بينهما، فالإيمانُ أخصُّ من التَّصديقِ؛ لأنَّهُ يُسْتَعْمَلُ على نحوٍ مخصوصٍ بخلاف التَّصديقِ، فهو أعمُّ؛ لأنَّ كلَّ مُخبِرٍ عن مشاهدةٍ أو غيبٍ، يقالُ له لغةً: صدقْتَ، ويقالُ له: كذبْتَ، ولذلك يقالُ للشُّهودِ: صدَّقناهُم، ولا يقالُ آمنّا لهم، وأيضًا أنَّ الإيمانَ يقابلُهُ الكفرُ، والتَّصديقُ يقابله

(1) الشّعرواي، تفسير الشّعراويّ، ص: 5421.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/93.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/93.

التَّكذيبُ، وعلى ذلك آثرَ القرآنُ الكريمُ التَّعبيرَ بالإيمانِ هنا دون التَّصديقِ، وإن وجد بينهما تقاربٌ في المعنى العامِّ، إلّا أنَّ القرآنَ يريد أن ينفي عنهم الإيمانَ، وهذا يلزمُ منه في المقابلِ الوصفُ لهم بالكفرِ، وأيضًا.

تقريعُهم وتوبيخُهم بأنَّهم ليسوا أهلًا للصِّدق؛ لأنَّهم لو كانوا صادقينَ حقيقةً؛ لصدقوا اللّهَ ورسولَهُ.

سرُّ التَّعبيرِ بـ ﴿نَبَّأَنَا﴾:

التَّشهيرُ بالمنافقينَ، وسيلةٌ مشروعةٌ لفضحِ سلوكِهم، والتّحذير منهم

قال: ﴿نَبَّأَنَا﴾، ولم يقل: (نبَّأني) إيماءً إلى أنَّ اللّه أمَرَ رسوله ﷺ أن يبلِّغ المؤمنين بأحوالِ هؤلاءِ المنافقين حتَّى يكونوا على بيِّنة من أمرِهم[1]، ولم يكن هذا النَّبأ خاصًّا بالنَّبيِّ ﷺ لأنَّ اعتذارَهم لجميع المؤمنينَ معَ الرَّسولِ ﷺ يقتضي أن يكونوا كلُّهم عالمين بما فضحَهم اللّهُ به، وإن كانَ المُبَلِّغُ لهم هو الرَّسول ﷺ بما له من الرِّياسةِ، وما لخبره من الثِّقةِ الَّتي لا يشكُّ فيها أحدٌ؛ لأنَّ نبأ الرَّسولِ عن ربِّهِ معصومٌ من كلِّ خطأٍ، وفي هذا من التَّشهيرِ بهم، والخزي لهم ما لا خفاءَ فيه[2].

الموقعُ البيانيُّ لقولِهِ: ﴿قَدْ نَبَّأَنَا﴾:

اعتذارُ المنافقينَ لا فائدةَ منه؛ لفضحِ اللّهِ كذبَهُم

الجملةُ تعليلٌ لنفيِ تَصْديقِهم، أي: قد نبَّأَنا اللّهُ مِن أخبارِكم بما يَقْتَضي تَكذيبَكم، وهذه الجُملَةُ عِلَّةٌ لانتفاءِ تَصْديقِهم؛ لأنَّ اللّهَ ﷻ إذا أوحَى إلى رسولِه الإعلامَ بأخبارِهم، وما في ضَمائرِهم مِن الشَّرِّ والفسادِ؛ لم يَستَقِمْ معَ ذلك تَصديقُهم في مَعاذيرِهم[3].

دلالةُ ﴿قَدْ﴾ في دخولِها على الماضي:

المنافقون ليسوا أهلًا للتّصديق في كلامهم، ولا في قبول معاذيرهم

دخلتْ (قد) على الفعلِ الماضي ﴿قَدْ نَبَّأَنَا﴾، فدلَّت على فِعليَّته،

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/302، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 16/123، وأبو حيّان، البحر المحيط: 5/489، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/7، وطنطاويّ، التّفسير الوسيط: 6/383.

(2) عبد الفتّاح لاشين، لغة المنافقين في القرآن الكريم، ص: 189.

(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/302.

وأفادتِ التَّحقيق، أي: إنَّ ما أنبأنا اللّهُ به ثابتٌ ويقينٌ ومُتحقِّقٌ، وفي هذا تعريضٌ بالمنافقين، وأنَّهم ليسوا أهلًا للتَّصديق في قبولِ أعذارِهم.

بلاغةُ الإيجازِ بحذفِ المفعولِ بهِ الثَّالثِ في: ﴿نَبَّأَنَا﴾:

نَبَّأَ في الجملةِ تعدَّت إلى مفعولين كَعَرَّفَ، نحو قوله: ﴿مَنْ أَنْبَأَكَ هَٰذَا﴾ [التّحريم: 3]؟ والثّاني هو ﴿مِنْ أَخْبَارِكُمْ﴾ أي: جُمْلَةً مِنْ أَخْبارِكُمْ، وقيل: (نَبَّأَ) بمعنى: أعلم المتعدِّية إلى ثلاثة، والثّالث محذوفٌ اختصارًا؛ لدلالةِ الكلامِ عليه، أي: من أخبارِكم كذبًا أو نحوه[1].

الحذف ملمح من ملامح البلاغة، تؤدّى به المعاني، في أوجز الألفاظ

سرُّ التَّعبيرِ بلفظِ الجلالةِ ﴿ٱللَّهُ﴾:

قوله تعالى: ﴿نَبَّأَنَا ٱللَّهُ﴾، آثرَ التَّعبير فيه بلفظِ الجلالةِ ﴿ٱللَّهُ﴾ الَّذي يجمعُ كلَّ صفاتِ الجمالِ والجلالِ والكمالِ؛ لأنَّ كلَّ ما يصدرُ عن الإنسانِ من قولٍ أو فعلٍ أو حركة؛ اللّهُ يعلمُها، ويخبرُ بها رسولَهُ والمؤمنين ليزدادوا إيمانًا مع إيمانِهم، وليوبِّخَ المنافقين على فعلتِهم وكذبِهم، فهوَ لا تخفى عَليهِ خافيةٌ، فليحذروا عقابَ اللّهِ في الدُّنيا والآخرة، ففي التَّعبيرِ بهِ إدخالٌ للمهابةِ على النُّفوسِ.

لفظ الجلالة منبّه لإحاطة الله بعلم كلّ شيء، لزجر المنافقين عن غيّهم

سرُّ التَّعبيرِ بـ ﴿مِنْ﴾:

جاء التَّعبيرُ بـ ﴿مِنْ﴾ في قولهِ: ﴿مِنْ أَخْبَارِكُمْ﴾؛ وهي إمَّا أن تكونَ للتَّبعيضِ، أي: قد نبَّأنا اللّهُ تعالى ببعض أخبارِكم، وهو ما يتَّصلُ بنيّاتكم وبقلوبِكم، وبالأفعالِ الَّتي تقصدونَ بها إفسادَ عزائمِ المؤمنين، وتخذيلِهم عن المجاهدينَ، وحقيقة ما تقصدونَ باعتذاراتِكم الكاذبةِ، وإمَّا أن تكونَ لبيان الجنسِ، ولا مانعَ أن يجتمعَ للحرفِ ﴿مِنْ﴾ معنى التَّبعيض وبيان الجنس؛ لأنَّ (مِنْ) البيانيَّة هي من ضروب (مِن) التَّبعيضيَّة، قال أبو حيَّان: ﴿مِنْ أَخْبَارِكُمْ﴾ أي: جملةً من أخبارِكم[2].

تعدُّدُ معاني الحروف، ثراءٌ للمعنى، وبيان للدّلالة

(1) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 7/330، وأبو حيّان، البحر المحيط: 5/489.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/489.

سرُّ التَّعبيرِ بالجمعِ ﴿أَخۡبَارِكُمۡۚ﴾:

من أسرّ سريرة ألبسه الله رداءها، ولا شيء يخفى على الله

آثرَ التَّعبيرَ بالجمعِ ﴿أَخۡبَارِكُمۡۚ﴾ دونَ المفردِ للإشارةِ إلى علمهِ ﷻ بكلِّ أخبارِ المنافقينَ عمومًا، وما يتعلَّقُ بأخبارِهم في أمرِ الجهادِ خصوصًا، وفي هذا إشارةٌ إلى مراقبتهِ ﷻ لكلِّ ما يصدرُ عنهم في الظَّاهرِ والباطنِ، من الأقوالِ والأفعالِ الَّتي يقصدون بها تثبيطَ عزائمِ المؤمنينَ، عن الجهادِ في سبيلِ اللّٰهِ.

دلالةُ العطفِ بالواوِ في: ﴿وَسَيَرَى﴾:

بيان أن لا فائدة في الاعتذار، وأنّه إنْ تُبتم فسيرى الله أعمالكم على حقيقتها

أفادَ عطفُ جملة: ﴿وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ﴾ بالواوِ على جملةِ لا تعتذروا، مطلقَ الجمعِ بين المعطوفِ والمعطوفِ عليه في معنًى واحدٍ، تقديرهُ: لا فائدةَ في اعتذاركم، فإن خشيتُم المؤاخذةَ فاعملوا الخيرَ للمُستقبلِ، فسيرى اللّٰهُ عملَكم ورسولُهُ إن أحسنتُم[1].

وفي اختيارِ العطف بالواو دونَ الفاءِ مثلًا إشارةٌ إلى إعطاء مهلةٍ للمنافقينَ للخروج ممّا هم فيه، وذلك بالانضمامِ إلى المؤمنينَ والخروج معهم للجهادِ.

بلاغةُ الكنايةِ في جملة ﴿وَسَيَرَى ٱللَّهُ﴾:

تحذيرُ المنافقينَ وترهيبُهم، ليدركوا أنّ الله لا يخفى عليه أمرهم

قوله تعالى: ﴿وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ﴾؛ عبَّرَ القرآنُ الكريمُ بالرُّؤيةِ لأنَّهم كانوا يظهرونَ من أنفسِهم عند ذكرِ المعاذيرِ حبًّا للرَّسولِ ﷺ والمؤمنين وشفقة عليهم ورغبة في نصرتِهم؛ فكانَ قولُ اللّٰهِ تعالى: ﴿وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ﴾ من بابِ تحذيرِهم إذا تركوا هذهِ الحالةَ الَّتي يظهرونها من الصِّدقِ وادِّعاءِ المحبَّة.

وفيه إشارةٌ إلى دعوتهم إلى ترك النِّفاقِ بأن يتوبوا ممّا هم فيه؛ لأنَّ اللّٰهَ مطلِّعٌ على نيّاتهم، فإن تابوا، وأنابوا؛ فاللّٰهُ يقبلُ توبتهم[2]، وفي ذلك إشارةٌ إلى ترغيبِهم في العملِ الصّالح، وترهيبِهم من الدَّوام على حالِ النِّفاق.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/7.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 8/366.

سرُّ إظهارِ لفظِ الجلالةِ ﴿ٱللَّهُ﴾ في موضعِ الإضمارِ:

غرض ورود اسم الله الأعظم، إدخالُ المهابةِ في قلوبِ المنافقين

إنَّ مقتضى ظاهرِ السِّياقِ يستدعي أن يُقالَ: (وَسَيَرَى عَمَلَكُمْ)، لكن وضعَ الاسمَ المظهرَ وهو لفظُ الجلالةِ (اللّه) موضعَ الضَّميرِ؛ لإدخالِ الرَّوعةِ والمهابة في نفوسِ المنافقينَ، ويضاف إلى ذلك أنَّ لفظَ الجلالةِ يجمعُ كلَّ صفاتِ كمالِ اللّه ﷻ، باعتباره اسمًا علمًا للذّات العليَّة.

سرُّ التَّعبيرِ بالسِّين في: ﴿وَسَيَرَى﴾:

عرضُ أعمالِ العبادِ على اللهِ ورسولِهِ، ملمح لانكشاف السّرائر عنده

(السِّين) لتأكيدِ وقوعِ الفعلِ في المستقبلِ القريبِ، فأتى بالسِّين لقربِ الجزاءِ والثَّواب، أي: إنَّهُ ليس لكم أن تتكلَّموا في الماضي، فاللّهُ تعالى قد عَلِمه من قبلُ، ونبَّأنا به، وإنَّما الأمرُ الحاضر. (وَسَيَرَى) أي: سيشاهدُ، أو سيعلم عِلم المشاهدةِ أو الواقع اللّه ورسوله[1].

إضافةً إلى ذلك أنَّ (قد) في قوله: ﴿قَدْ نَبَّأَنَا﴾ دخلت على الفعل الماضي، فقرَّبت زمنه إلى الحال، فلو وضعنا (سوف) بدلًا من السِّين في هذا النَّصِّ، فسيُحدث اضطرابًا دلاليًّا لبعد الشُّقَّة بين الحالِ وزمن الاستقبالِ البعيدِ، فالسِّين لقربها الزَّمني من الحالِ صحَّ العطفُ فيها على فعلٍ ماضٍ قريبٍ زمنُهُ من زمنِ الحالِ.

دلالةُ الفصلِ بين ﴿ٱللَّهُ﴾ و﴿وَرَسُولُهُۥ﴾ بقولِهِ: ﴿عَمَلَكُمْ﴾:

رؤيةُ اللهِ تعالى أعمالَ بني آدَمَ ليستْ كرؤيةِ رَسولِ اللهِ ﷺ

فُصِلَ بينَ المعطوفِ والمعطوفِ عليهِ؛ للدَّلالةِ على اختلافِ حالِ الرُّؤيتينِ، فالرُّؤيةُ صفةٌ ذاتيَّةٌ ثابتةٌ للّه ﷻ، وليست رؤيةُ اللّهِ تعالى أعمالَ بني آدَمَ كرؤيةِ رَسولِ اللّهِ ﷺ وإن كان اسمُ الرُّؤيةِ يقعُ على الجميعِ[2]، وللإشعارِ بأنَّ وراءَ الوعيدِ هو عِلمهُ ﷻ بأعمالهم[3]؛ لأنَّ

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 6/5، والقنّوجيّ، فتح البيان: 5/345، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3416.
(2) ابن تيميّة، جامع المسائل: 3/168، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 16/124، وابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/324، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/7، والسّقاف، صفات الله ﷻ الواردة في الكتاب والسّنة، ص: 184، و185.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/93، والآلوسيّ، روح المعاني: 6/5.

الرُّؤيةَ المُعدّاةَ إلى مفعولٍ واحدٍ، هي الإبصارُ، والمُعدّاةَ إلى مفعولينِ هي العِلمُ.

سرُّ التَّعبيرِ بلفظِ ﴿عَمَلَكُمْ﴾:

قولِه: ﴿وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ﴾، وفيه آثرَ التَّعبيرَ بلفظِ العمل دونَ الفعل؛ لأنَّ العملَ أخصُّ من الفعل، باعتبار أنَّهُ لا يصدرُ إلّا عن قصد؛ بخلافِ الفعلِ، فيكونُ بقصدٍ أو بغيرِ قصدٍ، وفي هذا إشارةٌ إلى أنَّ ما يفعله المنافقون من تثبيطِ المسلمين عن الخروجِ للجهادِ فضلًا عن عدمِ خروجِهم هم، هو عملٌ مقصودٌ يقصدونَ من ورائهِ إضعافَ المسلمينَ مادِّيًّا ومعنويًّا.

عمل المنافقين مكرّس في تثبيط المؤمنين، وزرع الوهن في صفوفهم

سرُّ التَّعبيرِ بالمفردِ بـ ﴿عَمَلَكُمْ﴾:

آثرَ التَّعبيرَ بالمفردِ ﴿عَمَلَكُمْ﴾ دونَ الجمعِ (أعمالكم)، مع أنَّ السِّياقَ موافقٌ للجمعِ، حيثُ سبق قولُهُ: ﴿مِنْ أَخْبَارِكُمْ﴾ بصيغةِ الجمعِ؛ لكنَّهُ آثرَ المفردَ؛ لأنَّهُ مصدرٌ، والمصدرُ يدلُّ على القليلِ والكثيرِ، وأيضًا للإشارةِ إلى أنَّ أعمالهم العدائيَّة تجاهَ رسولِ اللّهِ والمؤمنينَ واحدةٌ في الهدفِ، وإن تعدَّدت في الأسلوبِ.

أعمال المنافقين متشابهة، وإن تعدّدت الأساليب والوسائل

سرُّ اختيارِ التَّعبيرِ بـ ﴿وَرَسُولُهُۥ﴾:

آثرَ التَّعبيرَ بالرِّسالة دونَ النُّبوَّةِ؛ لأنَّ المقامَ هنا مقامُ إبلاغٍ من اللّهِ للمنافقينَ على لسانِ رسولهِ ﷺ بقولِه: ﴿قُل لَّا تَعْتَذِرُواْ﴾، فيناسبُ البلاغُ الرِّسالةَ، قالَ تعالى: ﴿۞يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾.

البلاغ مرتبط بالرّسالة، وما على الرّسول إلّا البلاغ المبين

سرُّ التَّعبيرِ بـ ﴿ثُمَّ﴾:

في قولِه: ﴿ثُمَّ تُرَدُّونَ﴾، آثرَ التَّعبيرَ بـ ﴿ثُمَّ﴾؛ لأنَّها للتَّرتيبِ والتَّراخي، والتَّراخي هنا في موضعه؛ لأنَّ فيه الانتقالَ مِن الدّارِ الفانيةِ إلى الدّارِ الباقيةِ، وفيهِ الانتقال من دارِ العملِ إلى دارِ الجزاءِ[1].

تذكير المنافقين بأنّ ردّهم إلى الله، مرتبط بحسابهم على جرائرهم

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3417.

دلالةُ التَّعبيرِ بـ: ﴿ثُمَّ تُرَدُّونَ﴾:

تخويفُ المعتذرينَ من أهلِ النِّفاقِ وتهديدُهم

آثرَ التَّعبيرَ بقولِه تعالى: ﴿تُرَدُّونَ﴾؛ لأنَّهُ يدلُّ على أمرين: أحدهما: أنَّهم يذهبونَ إلى هذهِ الدّارِ غيرِ مختارين، بل يردُّون إليها مدفوعينَ. ثانيهما: في التَّعبير بلفظِ ﴿تُرَدُّونَ﴾ما يفيدُ معنى الرُّجوع إليها بعد هذهِ الحياةِ، وكأنَّهم في الدُّنيا في سفرٍ يعودُ بعدَها المسافرُ إلى حيثُ إقامتُهُ وموطنه، فالإنسانُ ما خُلق عبثًا، إنَّما خُلِقَ لأجلِ البقاءِ في الآخرةِ، فهيَ وطنهُ الأصليُّ إمّا نعيمًا مقيمًا، وإمّا عذابًا أليمًا[1].

دلالةُ تعدِّي الفعلِ ﴿تُرَدُّونَ﴾ بالحرف ﴿إِلَىٰ﴾:

تهويلُ الأمرِ، وتَرْبِيَةُ المهابةِ، من مقاصدِ السّياق

تعدَّى الفعلُ بحرفِ الجرِّ ﴿إِلَىٰ﴾ في قولِه تعالى: ﴿إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾، ومعناهُ انتهاءُ الغايةِ، وعلى ذلك فالجارُّ والمجرورُ متعلِّقان بالفعل ﴿تُرَدُّونَ﴾، ومعنى الانتهاءِ في الآيةِ واضحٌ؛ إذ إنَّ مردَّنا جميعًا منتهٍ إليه سبحانه بعدَ مماتِنا، فهو سبحانه الَّذي يعلمُ السِّرَّ وأخفى، لا يخفى عليهِ بواطنُ الأمورِ وظواهرُها، قال البقاعيُّ: ثم تردُّون برادٍّ قاهرٍ لا تقدرونَ على دفاعهِ بعدَ استيفاءِ آجالِكم بالموتِ، وإن طالت ثمَّ البعثُ[2].

بلاغةُ وضعِ المظهرِ موضعَ المضمرِ:

السّياق ترغيبٌ للمُطيعينَ، وترهيبٌ للمُذنبينَ

قولُه: ﴿ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾، في الجملةِ الكريمةِ وَضَعَ المُظهَرَ ﴿عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ مَوضِعَ المُضمَرِ - حيثُ لم يَقُلْ: (إليه) - لِتَشديدِ الوَعيدِ؛ فإنَّ عِلمَهُ ﷻ بجَميعِ أعمالِهم الظّاهرةِ والباطنةِ، وإحاطتَه بأحوالِهم البارزةِ والكامِنةِ ممّا يوجِبُ الزَّجرَ العَظيمَ، ففي الإظهارِ تنبيهٌ على أنَّه لا يَعزُبُ عنه شيءٌ مِن أعمالِهم، زيادةً في التَّرغيبِ والتَّرهيبِ؛ ليعلَموا أنَّه لا يخفى على اللهِ شَيءٌ[3].

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3417.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 9/2.

(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 16/124، والطّيبيّ، فتوح الغيب: 7/331، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/93، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/8.

سرُّ التَّعبيرِ بلفظي ﴿عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾:

في وضع الوصفِ ﴿عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ عوضًا عن لفظ الجلالة، حيثُ لم يَقُلْ: (ثم ستُرَدُّون إلى اللّه، أو إليه)؛ لتَهويلِ الأمرِ، وتَرْبيَةِ المهابةِ، ولتشديدِ الوعيدِ، ففي هذا ما يدلُّ على كونهِ مُطَّلعًا على بواطنِهم الخبيثةِ، وفي ذلك تخويفٌ شديدٌ، وزجرٌ عظيمٌ.

أسماءُ اللهِ وصفاتُهُ عظيمةٌ، وقد استعملت دلالاتها ببلاغة وبيان

دلالةُ تقديمِ لفظ ﴿ٱلۡغَيۡبِ﴾، على لفظ ﴿وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾:

سرُّ تقديمِ لفظ ﴿ٱلۡغَيۡبِ﴾ على ﴿وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ لتحقيقِ أنَّ نسبةَ عِلمِ اللّهِ تعالى المحيطِ بكلِّ الأشياءِ في السِّرِّ والعَلن واحدٌ على أبلغِ وجهٍ وآكدِهِ، كيف لا وعلمُهُ تعالى بمعلوماتِهِ منزَّهٌ عن أن يكونَ بطريقِ حصولِ الصُّورة بل وجودُ كلِّ شيءٍ وتحقُّقُهُ في نفسِهِ علمٌ بالنِّسبةِ إليه؛ وفي هذا المعنى لا يختلفُ الحالُ بين الأمورِ البارزةِ والكامنةِ[1].

علمُ اللهِ ﷻ أزليٌّ، محيطٌ بكلِّ شيءٍ

دلالةُ التَّعريفِ بـ(الْ)، في لفظ ﴿ٱلۡغَيۡبِ﴾ و﴿وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾:

دلالةُ (أل) في قولهِ: ﴿عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ الاستغراقُ، أي: كلُّ غيبٍ وكلُّ شهادةٍ[2]، فلا يخرجُ عن علمهِ شيءٌ سواءٌ كان ذلك معلومًا أو غيرَ معلومٍ، موجودًا أو غيرَ موجودٍ، وكلُّ هذهِ المعلوماتِ تدورُ بين عالمِ الغيبِ وعالمِ الشَّهادةِ.

علم الله يطال كلّ واقع ومتوقّع، لا يعزب عنه شيء

سرُّ التَّعبيرِ بالفاءِ في: ﴿فَيُنَبِّئُكُم﴾:

آثرَ التَّعبيرَ بـ (الفاء) دونَ غيرِها؛ لأنَّ معناها التَّرتيبُ والتَّعقيبُ، إذ إنَّ الإنباءَ يكونُ عقبَ الرُّجوعِ إلى اللّهِ تعالى؛ وذلكَ دليلٌ على تأكُّدِ وقوعِ ما وعدَ بهِ وتحقُّقه، وأنَّه لا مفرَّ من قيام القيامةِ، ونزولِ ما وعدَ اللّهُ تعالى بهِ[3].

لا مندوحة من الرّجوع إلى الله، والخضوع للحساب بين يديه

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 6/5.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/8.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3417.

بلاغة الكنايةِ في: ﴿فَيُنَبِّئُكُم﴾:

قوله: ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، يرادُ بها الكنايةُ عن المجازاةِ عن أعمالِهم الَّتي عملوها في الدُّنيا، أي: تجدونها أمامَكم، والجملةُ الكريمةُ فيها إيماءٌ لهم بأنَّ بابَ التَّوبة لا يزال مفتوحًا لتداركِ الأمر، والرُّجوعِ إلى اللّهِ تعالى، والتَّرغيبِ لهم بعمل الصّالحات، والتَّرهيبِ من بقائِهم على حالهم[1] وهذه الجملةُ تفيدُ أمورًا ثلاثة: أوَّلها: أنَّه لا يصحُّ أن تشغلوا أنفسَكم بما استدبرْتُم من أمورٍ، بل اشغلوها بما تستقبلونَ من أمورِكم، ثانيها: التَّهديدُ بأنَّ اللّهَ تعالى ورسوله يعلمانِ أمورَكم في المستقبل علمًا مؤكَّدًا، لا مناصَ من أن تتخلَّصوا من تبعاتِه، وإنَّ اللّه تعالى سيحبطُ أعمالَكم، ثالثها: إذا أردْتُم أن يدخلَ الخيرَ في قلوبِكم؛ فتوبوا عمَّا أنتم عليهِ".

تهديد المنافقين بسوء المصير، أمام العليم القدير

سرُّ التَّعبيرِ بالمضارعِ ﴿فَيُنَبِّئُكُم﴾، على سبيل المجاز:

عبَّرَ بالمضارعِ؛ لأنَّ الإنباءَ في هذهِ الحالِ، ليسَ بالأقوالِ، ولكن بالرُّؤيةِ والأفعالِ، فهوَ على سبيلِ المجازِ، يرونَ أعمالَهم في نطقِ أيديهم وأرجلِهم بما كانوا يفعلونَ، وتشهدُ عليهم ألسنتُهم وجوارحُهم على ما يعملونَ؛ لذا عبَّر عن ذلكَ بالفعلِ المضارعِ الَّذي يفيدُ تجدُّدَ الإنباءِ بأعمالِهم، ويدلُّ هذا التَّعبيرُ على أنَّ النَّاسَ يعلمونَ ما فعلوا، ويرون جزاءَ ما عملوا حاضرًا مهيَّأً يستقبلُهم، ويستقبلونَهُ[2].

سيرى النَّاسُ في الآخرة، جزاءَ ما عملوا حاضرًا، بِقَضِّه وقَضِيضِه

دلالةُ التَّعبيرِ بـ (الباء):

آثرَ التَّعبيرَ بالباءِ في قولِه: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾؛ لأنَّها تدلُّ على أكثرَ من معنًى: الأوَّلُ: الإلصاقُ، والمرادُ بالتَّنبئةِ المبالغةُ في كونِ السُّورةِ مُشتملةً على أسرارِهم، كأنَّها تعلم من أحوالِهم الباطنةِ

حرف الإلصاقِ في السِّياقِ، دليل على أهميّة حروف المعاني

(1) الدّيلميّ، الأساليب البلاغيّة في سورتي الأنفال والتّوبة، ص: 212.

(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3417 - 3418.

ما لا يعلمونهُ، فتُنبِّئهم بها، وتنعى عليهم قبائحَهم[1]. الثّاني: أنَّ (الباء) بمعنى (عن)، والرّاجحُ بقاؤها على أصلِها، فهو أَولَى من القولِ بالتَّناوبِ، كما أنَّ بقاءها على الأصلِ يُشعرُ بأنَّ هذا الإخبارَ، وهذه الفضيحةَ ستتعدَّى ما كان صادرًا عنهم مِن نفاقٍ، لتصلَ إلى ما دقَّ في قلوبِهم من كُفرٍ وعداوةٍ أخفوها هي أعظمُ من الَّتي ظهرت منهم، وفي ذلك مزيدُ تخويفٍ لهم.

دلالةُ التَّعبيرِ بـ(ما) في: ﴿بِمَا﴾:

(ما) في قوله: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ موصولةٌ، أي: بما تعملونَهُ على الاستمرارِ في الدُّنيا من الأعمالِ السَّيِّئةِ السّابقةِ واللّاحقةِ، أو بعملِكم المستمرِّ؛ على أنَّ (ما) مصدريَّة[2].

نكتةُ ورود ﴿كُنتُمْ﴾، دالة على الزّمن الماضي:

(كان) هنا تدلُّ على اقترانِ مضمونِ الجملةِ بالزَّمنِ الماضي، والمنافقون متَّصفونَ بهذا الوصفِ ماضيًا وحالًا ومستقبلًا، وتقييدُ الفعلِ بالزَّمنِ لا يدلُّ على نفيهِ عن غيرِ ذلك الزَّمنِ.

فائدةُ التَّعبيرِ بالمضارعِ، في ﴿تَعْمَلُونَ﴾:

دلَّ التَّعبيرُ بالفعلِ المضارعِ (تعملون) على تجدُّدِ أعمالِهم المنافقةِ من الزَّمن الماضي، فهي تجري فيهم مجرى العادةِ؛ ولذلك أمرَ اللّهُ تعالى بعدمِ قَبولِ اعتذارِهم وتوبتِهم.

توجيهُ المتشابهِ اللَّفظيّ، بين آيتي سورة التّوبة:

عند تأمِّلِ قوله تعالى: ﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ ۚ قُل لَّا تَعْتَذِرُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ ۚ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ

من استمر على الضّلالة في الأعمال، انتهى إلى سوء المآل

دلالةُ اللّفظ على الماضي، لا يمنعُ دلالتَه على الحاضرِ والمستقبلِ

تجدُّدُ أعمالِ المنافقينَ، دليل على وجود ظاهرة النّفاق، في كلّ زمان

ورود وجوه الاختلاف بين الآيتين، دليل على دقة السّياق القرآنيّ في التّصوير

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/79.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/94، والبروسويّ، روح البيان: 3/487، والآلوسيّ، روح المعاني: 6/5.

تَعۡمَلُونَ﴾ [التّوبة: 94]. مع قولهِ تعالى: ﴿وَقُلِ ٱعۡمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ وَرَسُولُهُۥ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ [التوبة: 105]، النّاظرُ في هاتينِ الآيتينِ يجدُ بينهما تشابهًا في بعضِ المواطنِ واختلافًا في البعضِ الآخرِ، فمن ذلك أنَّ الآيةَ الأولى جاء فيها قولُهُ: ﴿وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ وَرَسُولُهُۥ﴾ بواو العطفِ، ولم يرد فيها ﴿وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۖ﴾، وقالَ فيها: ﴿ثُمَّ تُرَدُّونَ﴾.

أمّا الآيةُ الثّانيةُ؛ فجاءَ قولهُ: ﴿فَسَيَرَى ٱللَّهُ﴾ بالفاء، وجاءَ فيها ﴿وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۖ﴾، وقولهُ: ﴿وَسَتُرَدُّونَ﴾، وبذلكَ اختلفتِ الآيتانِ، فما سرُّ هذا الاختلافِ؟

النّاظرُ في سياقِ الآيتينِ يجد جوابًا على ذلكَ، فالآيةُ الأولى في المنافقين، وهم الَّذين يُبطنون الكفرَ، ويُظهرونَ الإيمانَ، والآيةُ الثّانيةُ في المؤمنينَ وطاعاتِهم.

وأمّا عن سببِ عدمِ ذكرِ ﴿وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۖ﴾ في الآيةِ الأولى، وذكرِها في الثّانية؛ لأنَّ الآيةَ الأولى تتعلَّقُ بأحوالِ المنافقينَ، والمؤمنونَ لا يعلمون بأحوالهم إلّا بإعلامِ رسولِ اللّه ﷺ لهم، يؤكِّد هذا ما ذكرهُ الكرمانيُّ في الآيتينِ، فقالَ: إنَّ "الآية الأُولى في المنافقين ولا يطَّلع على ما في ضمائرِهم إلّا اللّهُ تعالى، ثمَّ رسولُهُ بإطْلاعِ اللّهِ إيّاهُ عليها؛ لقولهِ: ﴿قَدۡ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنۡ أَخۡبَارِكُمۡۚ﴾ [التوبة: 94][1].

وممّا يُذكرُ في هذا المقامِ أنَّ اللّهَ ﷻ لم يذكر ﴿وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۖ﴾ ليعطي مساحةً للمنافقين في العودةِ إلى صفوفِ المسلمينَ، وذلك بقصرِ معرفةِ الإنباءِ على اللّهِ وعلى رسولهِ حتَّى لا يصابَ المجتمعُ بالعداوةِ والبغضاءِ؛ إذا ما انكشفَ أمرُهم للمؤمنينَ مباشرةً. والثانية: في المؤمنينَ وطاعاتِ المؤمنين، وعاداتُهم ظاهرةٌ للّهِ ولرسولهِ وللمؤمنين، يؤكِّدُ ذلك ما جاءَ في درَّةِ التَّنزيلِ أنَّ الآيةَ الثّانية: "فيمن أمرَ اللّهُ تعالى نبيَّه ﷺ وهم الَّذين أَوجَب عليهم الصَّدقاتِ بأن يقولَ لهم: اعملوا ما أمرَكُم اللّهُ بِهِ من الطّاعات كالصَّلوات والصَّدقات فإنَّ اللّهَ ورسولَهُ والمؤمنين يرون ذلك، وهذه الأعمالُ ممّا تُرى بالعَين خِلافَ أعمالِ المنافقين الَّتي تقتضي لهم النِّفاق لإضمارِهم خلافَ إظهارِهم، وهو ممّا لا يُرى بالعَين،

(1) الكرمانيّ، البرهان في توجيه متشابه القرآن، ص: 138.

وإنَّما يعلمه عالمُ الغيبِ؛ فلذلك لم يُذكر ﴿وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۖ﴾ في الأولى، وذُكروا في الثّانية"[1].

سرّ استعمال ﴿ثُمَّ﴾ في الآيةِ الأولى، بخلافِ الثّانيةِ:

وأمّا عن ورودِ ﴿ثُمَّ﴾ في الآيةِ الأولى، بخلافِ الآيةِ الثّانيةِ في قوله: ﴿وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ [التّوبة: 105]، ؛ فجاءَ بالواوِ في قولِه: ﴿وَسَتُرَدُّونَ﴾، وذلكَ لأنَّ الآيةَ الأولى في شأنِ المنافقين الَّذين يبطنونَ خلافَ ما يظهرونَ، فكانَ حرفُ ﴿ثُمَّ﴾ الَّذي يفيدُ معنى التَّراخي هو المناسبُ لهذا السِّياقِ، ولم تكنِ الواو لتعطيَ هذا المعنى في هذا السِّياقِ؛ لأنَّ الآيةَ الثّانية في سياقِ الحديثِ عن المؤمنينَ، فهو من بابِ الوعدِ، لذلك أتى بالواوِ والسِّين المُؤذِنَيْنِ بقُربِ الجزاءِ والثَّوابِ وبُعدِ العقابِ، أمّا المنافقون؛ فيؤخَّرُ جزاؤهم إلى موتِهم، فناسبَ ﴿ثُمَّ﴾ المؤذنة بالتَّراخي.

سرّ استعمال (الواو) في لفظ ﴿وَسَيَرَى﴾:

وأمّا عن ذكرِ الواو في قولِه: ﴿وَسَيَرَى﴾ بخلافِ الآية الثّانية، فجاءتْ بالفاءِ؛ لأنَّ الآيةَ الأولى في سياقِ التَّهديدِ للمنافقين حيثُ جاءت بعد قولِه: ﴿قَدۡ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنۡ أَخۡبَارِكُمۡۚ﴾ أي: أطلعنا اللّهُ على نفاقِكم وسوءِ سرائرِكم، ثمَّ قال: ﴿وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ وَرَسُولُهُۥ﴾، فهذا تهديدٌ عُطِفَ على مثْلِه، وقُصِدَ تعريفُهم بالمجموعِ ممّا استوجبوا به المقتَ، فلم يعطفْ بالفاءِ؛ إذ ليس ما تعطيهِ من المعنى مقصودًا هنا[2].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الرَّدُّ والرّجوعُ:

الرَّجعُ في اللُّغةِ: ردُّ الشَّيءِ إلى أوَّلِ حالِه، والرَّدُّ: صرفُ الشَّيء عن وجهِه، ولمّا كانا كذلك تضمَّن الرَّجعُ الإعادةَ مطلقًا بدون قيدٍ،

الرَّدُّ: الإعادة، مع كراهةٍ للمعاد، والرَّجعُ الإعادة مطلقًا بدون قيدٍ

(1) الاسكافيّ، دُرَّة التّنزيل: 2/726.
(2) الغرناطيّ، ملاك التّأويل: 1/234.

أمّا الرَّدُّ؛ فقد تضمَّن الإعادة، لكن على كراهةٍ له، لما فيه من معنى الصَّرف والتَّغيير، ويجوز لك أن ترجعَ الشَّيءَ من غير كراهةٍ له، قال تعالى: ﴿فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ﴾ [التّوبة: 83]، ولذلك سمِّي الرجوعُ عن الإسلامِ إلى الكفرِ ردَّةً وارتدادًا لما فيه من الكراهةِ، فضلًا عن التَّحريم، قال تعالى: ﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ [البقرة: 217]، ومن الملاحظِ أنَّك لا تجدُ موضعًا في القرآنِ يُذكرُ فيه الرَّدُّ في الغالب إلّا مقترنًا بمكروهٍ، كالرَّدِّ إلى أشدِّ العذابِ، أو الرَّدِّ إلى الحساب، والآياتُ في ذلك ظاهرةٌ[1].

وقد آثرَ النَّظمُ الكريمُ التَّعبيرَ بالرُّجوعِ دونَ الرَّدِّ في قوله: ﴿إِذَا رَجَعْتُمْ﴾؛ لوجودِ فرقٍ بينهما في الاستعمالِ، فالرُّجوعُ: العودُ إلى ما كانَ منهُ البدءُ مكانًا كان أو فعلًا أو قولًا، أمّا الرَّدُّ: فهو صرفُ الشَّيءِ بذاتِهِ أو بحالةٍ من أحوالِه، وعلى هذا، فالرُّجوعُ هو المناسبُ هنا لسياقِ الآية؛ لأنَّهُ يشير إلى العودِ إلى المكانِ الَّذي خرجوا منهُ، وهو المدينةُ المنوَّرةُ، وهم فرحونَ بعودتِهم سالمين، بخلافِ الرَّدِّ؛ فيفترقُ عن الرُّجوعِ بأنَّهُ وإن اشتركَ معهُ في العودِ، إلّا أنَّ الرَّدَّ يكونُ فيهِ كراهةٌ وشدَّةٌ، يؤكِّدُ ذلك استعمالُ القرآنِ الكريمِ لِلَّفظِ (الرد) في هذا السِّياقِ، قالَ تعالى: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ﴾ [البقرة: 85].

وممَّا يؤكِّد الفرقَ بين الرَّدِّ والرُّجوع استعمالُ اللَّفظين في قصَّة موسى عليه السلام ففي سورةِ طه، قالَ تعالى: ﴿فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ﴾ [طه: 40]، وفي سورةِ القصصِ، قال تعالى: ﴿فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ﴾ [القصص: 13]، فالملاحظُ أنَّ القرآنَ استعملَ الرُّجوع في سورةِ طهَ؛ لأنَّ السِّياقَ في السُّورَةِ ثناءٌ على نبيِّ اللّهِ موسى بدليلِ قولِه تعالى: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى﴾ [طه: 39]، بخلافِ سورةِ القصصِ، فالسِّياقُ فيها يتحدَّث عن الخوفِ على نبيِّ اللّه موسى من بطشِ فرعونَ، فكانَ التَّعبيرُ بلفظ ﴿فَرَدَدْنَٰهُ﴾ [القصص: 13] مشعرًا بحالةِ القلقِ والخوفِ الَّذي تعيشهُ أمُّ موسى، فناسبَ ذلك التَّعبير بلفظ الرَّدِّ دونَ الرُّجوعِ.

العملُ والفعلُ:

النَّاظرُ في بعضِ كتبِ اللُّغةِ يجدُ فرقًا بينَ الفعلِ والعملِ: فالفعلُ: هو التَّأثيرُ في الشَّيءِ

(1) الدّوريّ، دقائق الفروق اللّغويّة في البيان القرآنيّ، ص: 169.

من جهة مؤثِّرٍ، وأمَّا العملُ إيجادُ الأثرِ في الشَّيء، يُقالُ: فلانٌ يعملُ الطِّينَ خزفًا، ولا يُقالُ: يفعلُ ذلك؛ لأنَّ فِعْلَ ذلك الشَّيءِ هو إيجادُهُ على ما ذكرْنا، أي: إنَّ الفِعلَ عِبارةٌ عمّا وجد في حالٍ كانَ قبلَها مقدورًا سواءٌ كان عن سببٍ أو لا[1].

العملُ إيجادُ الأثرِ في الشَّيء، والفعلُ هو التَّأثيرُ في الشَّيءِ من جهة مؤثِّرٍ

أمَّا في آياتِ القرآنِ الكريمِ؛ فالأمرُ ظاهرٌ وجليٌّ، فلفظُ الفعلِ إذا وردَ في سياقِ الحديث عن القدرةِ الإلهيَّة؛ دلَّ على الوعيد الشَّديد، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ﴾ [الفجر: 6]، ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ﴾ [الفيل: 1]، فالملاحظُ استعمالُ الفعلِ في الإهلاك لقوم عادٍ ولأصحابِ الفيل من غير بطءٍ، هذا في جانبِ المولى ﷻ، أمّا إذا وردَ في جانبِ البشرِ؛ فمعناهُ يختلف؛ لأنَّه يصدرُ في الغالب من غيرِ قصدٍ، أمّا العملُ؛ فإنَّه يكون بقصدٍ، يؤكِّد ذلك ما وردَ في آياتِ القرآنِ الكريم من ارتباطِ التَّكليفِ بالعملِ، قال تعالى: ﴿ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [البقرة: 25].

وممَّا يذكرُ في الفرقِ بينهما: أنَّ دلالةَ العملِ تأتي لما فيه امتدادٌ من الزَّمن وإبطاء، قال تعالى: ﴿يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ﴾ [سبأ: 13][2].

وقد آثرَ التَّعبيرَ بالفعلِ ﴿تَعْمَلُونَ﴾ لما يحملُهُ من إثباتِ القصدِ للمنافقينَ في زعزعةِ صفوف المسلمينَ وتثبيطِ هممهم فضلًا عن ذلك، ففي الآيةِ ردُّ العجزِ على الصَّدرِ، حيثُ وافقت كلمة (تعملون)، وهي آخرُ كلمةٍ من الكلام، كلمة (عملكم) في صدرِه؛ للتَّأكيدِ على أنَّ اللهَ تعالى مطَّلعٌ على أعمالِهم وما تخفي صدورُهُم.

النَّبأُ والخبرُ:

النَّبأُ الخبرُ الَّذي له شأنٌ عظيمٌ، ولم يعرف من قبل، والخبر لا يشترط فيه ذلك

النَّبأُ: الخبرُ الَّذي له شأنٌ عظيمٌ، ومنه اشتقاقُ النُّبوَّةِ؛ لأنَّ النَّبيَّ مخبرٌ عنِ اللهِ تعالى، ويدلُّ عليه قولهُ تعالى: ﴿نَتْلُواْ عَلَيْكَ

(1) أبو هلال العسكريّ، الفروق، ص: 134.
(2) الدّوريّ، دقائق الفروق اللّغويّة في البيان القرآنيّ، ص: 167.

مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ﴾ [القصص: 2]. وقال الرّاغب: النَّبأ خبرٌ ذو فائدةٍ عظيمةٍ يحصلُ به علمٌ أو غلبةُ ظنٍّ، ولا يُقال للخبرِ: نبَأٌ؛ حتَّى يتضمَّن هذه الأشياء، وحقُّ الخبرِ الّذي يقال فيه: نَبَأٌ؛ أن يتعرَّى عن الكذبِ، كالتَّواتر، وخبرِ الله تعالى، وخبرِ النَّبيِّ ﷺ ولتضمُّن النَّبَأِ معنى الخبر، يقال: أَنْبَأْتُهُ بكذا، كقولك: أخبرتُهُ بكذا، ولتضمُّنِهِ معنى العلم قيلَ: أَنْبَأْتُهُ كذا، كقولكَ: أعلمتُهُ كذا، قال الله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ نَبَؤٌاْ عَظِيمٌ ۝٦٧ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ﴾ [ص: 67 - 68][1].

ومن خلالِ ما سبقَ ذكرهُ يظهر وجودُ فرقٍ بين النَّبأِ والخبرِ، وأنَّه لا ترادفَ بينهما، ويؤكِّد ذلك أنَّ القرآن الكريم عند ما يذكرُ أحوالَ الأمم الماضيةِ، يأتي بلفظ النَّبأ دونَ لفظِ الخبر، قال تعالى: ﴿۞وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ﴾ [يونس: 71]، ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الشعراء: 69] إلى غير ذلك من الآيات.

وممّا يؤكِّد الفرقَ بين النَّبأ والخبرِ: حديثُ القرآن عن يوم القيامة، والجزاء والحساب، وهذا أمرٌ لا يعلمه إلّا اللهُ وله عظمتهُ وأهميَّتهُ، قال تعالى: ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: 105] إلى غيرِ ذلك من الآيات.

وممَّا يؤكِّد الفرقَ أيضًا أنَّ القرآنَ خالفَ بين اللَّفظين في آيةٍ واحدةٍ، قال تعالى: ﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ ۚ قُل لَّا تَعْتَذِرُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ ۚ﴾.

وآثرَ النَّظمُ الكريمُ ﴿نَبَّأَنَا﴾ على (أخبرَنا) لوجودِ فرقٍ بينهما، فالنَّبأ يطلق على خبرٍ ذي فائدةٍ عظيمةٍ، يحصل به علمٌ أو غلبة ظنٍّ، ولا يقال للخبرِ في الأصلِ: نبأٌ؛ حتَّى يتضمَّن هذه الأشياءَ الثَّلاثة[2]. وعلى هذا يكونُ اصطفاءُ التَّعبيرِ هنا بالنَّبأِ، في قوله: ﴿نَبَّأَنَا﴾ يحمل فائدةً عظيمةً للمؤمنين بإخبارهِم بما في قلوب المنافقينَ.

وممّا يؤكِّدُ الفرقَ بينَ النَّبأ والخبرِ ورودُهما في هذه الآيةِ الَّتي معنا ﴿قَدْ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ ۚ﴾ حيثُ وصفَ إعلامَ اللهِ تعالى لعبادهِ بالإنباءِ الدَّالِّ على أهمِّيَّة النَّبأِ وعدم اطِّلاع المؤمنينَ عليهِ قبلَ ذلك، بينما وصفَ أحوالَ المنافقينَ بالأخبارِ؛ لأنَّها انكشفتْ،

(1) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 529، والرّاغب، المفردات، ص: 789.
(2) الرّاغب، المفردات: (نبأ).

وصارت معلومةً للرَّسول ﷺ وللمؤمنين، فاعتذارهم لم يكنْ مفاجأةً، بل كان معروفًا؛ لذلك كان لفظُ الخبرِ في قوله: ﴿مِنْ أَخْبَارِكُمْ﴾ هو الأوفقُ في هذا السِّياقِ.

وقد آثرَ التعبيرَ بقولهِ: ﴿فَيُنَبِّئُكُم﴾ دونَ يخبركُم؛ لأنَّ الإنباءَ لا يكونُ إلّا للإخبار بما لا يعلمه المُخْبَر، بخلاف الخبرِ؛ فقد يكونُ بما يعلمُهُ وما لا يعلمُهُ، وهذا المعنى يتوافقُ مع سياقِ آياتِ القرآنِ الكريم، ولا سيَّما في معرضِ الحديثِ عن يوم القيامة، وما يقعُ فيه من جزاءٍ وحسابٍ، يؤكِّد ذلك قولهُ تعالى: ﴿يُنَبَّؤُاْ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ [القيامة: 13] والآياتُ في هذا السِّياق كثيرةٌ.

وأيضًا لأنَّ الإنباءَ معناهُ: الإخبارُ والإعلامُ عن الشَّيءِ قبل وقتِ ظهورهِ، والمرادُ بالتَّنبئةِ بذلك المجازاةُ، وإيثارُها عليها لمراعاةِ المجانسةِ ممّا سبقَ من قولِه تعالى: ﴿قَدْ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ﴾، فإنَّ المنبَّأَ بهِ الأخبارُ المتعلِّقةُ بأعمالهم، وللإيذانِ بأنَّهم ما كانوا عالمينَ في الدُّنيا بحقيقةِ أعمالِهم، وإنَّما يعلمونها يومئذٍ.

﴿سَيَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمۡ إِذَا ٱنقَلَبۡتُمۡ إِلَيۡهِمۡ لِتُعۡرِضُواْ عَنۡهُمۡۖ فَأَعۡرِضُواْ عَنۡهُمۡۖ إِنَّهُمۡ رِجۡسٞۖ وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ٩٥ يَحۡلِفُونَ لَكُمۡ لِتَرۡضَوۡاْ عَنۡهُمۡۖ فَإِن تَرۡضَوۡاْ عَنۡهُمۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرۡضَىٰ عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ ٩٦﴾ [التّوبة: 95 - 96]

مُناسَبَةُ الآيَتَينِ لِمَا قَبْلَهما:

الرّبط بين أحوال المعتذرين، الّذين يحلفون، تطلّبا لرضا العباد، رغم سخط الخالق

لَمَّا حكى اللّهُ تعالى حالَ المنافقينَ في الآيةِ الأولى أنَّهم يعتَذِرونَ؛ ذكَرَ في هذه الآيةِ أنَّهم كانوا يؤكِّدونَ تلك الأعذارَ بالأيمانِ الكاذبةِ، فقال تعالى: ﴿سَيَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمۡ إِذَا ٱنقَلَبۡتُمۡ إِلَيۡهِمۡ لِتُعۡرِضُواْ عَنۡهُمۡۖ﴾.

ومن المناسبةِ أيضًا بين الآيتينِ أنَّه لَمّا بيَّنَ اللّهُ تعالى في الآيةِ السّابقةِ أنَّهم يحلِفونَ باللّهِ؛ ليُعرِضَ المسلِمونَ عن إيذائِهم؛ بَيَّنَ هنا أنَّهم يحلِفونَ لِيَرضى المسلِمونَ عنهم، ثمَّ إنَّه تعالى نهى المُسلِمينَ عن أن يَرضَوا عنهم، فقال: ﴿يَحۡلِفُونَ لَكُمۡ لِتَرۡضَوۡاْ عَنۡهُمۡۖ﴾[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿سَيَحۡلِفُونَ﴾: الحَلِفُ، ويُقال: الحَلْفُ، والحِلْفُ: العهدُ بين القومِ، والمحالفةُ: المعاهدة، والحَلِفُ: أصلهُ اليمينُ الَّذي يأخذُ بعضُهم من بعضٍ بها العهدَ، ثمَّ عُبِّر بِهِ عن كلِّ يمينٍ، وأصلُه: المُلازَمَةُ، وذلك أنَّ الإنسانَ يَلْزَمُهُ الثَّباتُ على اليَمينِ، والحَلَفُ أيضًا من قولِكَ: سَيْفٌ حَليفٌ، أيْ: قاطِعٌ ماضٍ، فإذا قُلتَ: حَلِفَ باللّهِ، فكأنَّكَ قُلتَ: قَطَعَ المُخاصَمَةَ باللّهِ تعالى، وقيل: أصْلُهُ: العَقْدُ بالعَزْمِ والنِّيَّةِ، وسُمِّيَ الحَلفُ يَمينًا؛ لأنَّهم كانوا إذا تَحالَفوا؛ ضَرَبَ كلُّ واحِدٍ منهم يَمينَهُ على يَمينِ صاحِبِهِ[2].

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 16/124.

(2) الرّاغب، المفردات، وابن الأثير، النّهاية في غريب الحديث والأثر، والزَّبيديّ، تاج العروس: (رجس).

2) ﴿ٱنقَلَبۡتُمۡ﴾: من الانقلاب: وهو الرُّجوعُ لا إلى ما كانَ عليه من قبلُ، ولكن لحالةٍ مُختلفة لا تُشابهُ الحالةَ الأُولى، أيْ: ما قبلَ الحدَثِ[1].

3) ﴿رِجۡسٞ﴾: الرِّجْسُ: الشَّيءُ القَذِرُ، "والرِّجس يكونُ على أربعةِ أوجهٍ: إمّا من حيثُ الطَّبعُ وإمَّا من جهةِ العقلِ، وإمّا من جهةِ الشَّرعِ، وإمّا من كلِّ ذلك، كالميتةِ، فإنَّها تُعافُ طبعًا وعقلًا وشرعًا"[2]. وَقَدْ يُعَبَّرُ بِهِ عَنِ الْحَرامِ والفعلِ الْقَبِيحِ، والْعَذابِ، واللَّعنة، والْكُفْرِ والشرك، ويعني هنا: النَّجاسةَ المعنويَّةَ، أو هم نجسٌ، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُشۡرِكُونَ نَجَسٞ﴾ [التوبة: 28][3].

4) ﴿وَمَأۡوَىٰهُمۡ﴾: المأوى: مصدرُ أوى، يأوي أويًا، ومأوًى، تقول: أوى إلى كذا: انضمَّ إليه، وهو اسمٌ للمكانِ الَّذي يأوي إليه؛ لذلك يطلقُ على المُستَقَرِّ المريحِ والآمن الَّذي يصلُ إليه بعد جهدٍ وسعيٍ.

5) ﴿لِتَرۡضَوۡاْ﴾: الرِّضا: القَبُولُ والمُوافَقَةُ، يُقال: رَضِيَ بِالبَيْعِ، يَرْضَى، رِضًا ورِضْوانًا، أيْ: قَبِلَ ووافَقَ، ويأْتي بِمعنى الاخْتِيارِ والانْتِقاءِ، يُقال: رَضِيَ بِهذا الطَّرِيقِ، أي: اخْتارَهُ، ومِن مَعانِيه: سُرورُ القَلْبِ وطِيبُ النَّفْسِ، وخِلافُه: السُّخْطُ والكَراهِيَةُ[4].

6) ﴿ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾: الفِسْقُ: العِصْيانُ والخُرُوجُ عن الطَّاعَةِ، يُقال: فَسَقَ الرَّجُلُ، يَفْسُقُ، فِسْقًا، أيْ: عَصَى وأَذْنَبَ، وأَصْلُ الفِسْقِ: خُرُوجُ الشَّيْءِ مِن الشَّيْءِ على وَجْهِ الفَسادِ، ومنه قَوْلُهُم: فَسَقَ الرُّطَبُ، أيْ: خَرَجَ عن قِشْرِهِ، والفَواسِقُ: الحَيَواناتُ التي مِن طَبْعِها الإفْسادُ[5].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

بيَّنتِ الآيتانِ أنَّ المنافقينَ كذَّابون - كما هو معلومٌ - لذلك تراهُم يؤكِّدون اعتذارَهم بالأَيمانِ للمؤمنين، فأخبرَهم اللهُ تعالى بأنَّهم سيَحلِفونَ لكم باللهِ؛ إذا رجَعْتُم إليهم من غزوةِ تَبوكَ: إنَّهم لم يستَطيعوا الخروجَ معكم؛ لكي تُعرِضوا عنهم، فلا توبِّخوهم

(1) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 113، وابن جرير، جامع البيان: 11/629، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (قلب).
(2) وأمثلةُ ذلك مذكورةٌ في المفرداتِ للرّاغب لمن أراد المزيدَ: (رجس).
(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن سيده، المحكم، وابن منظور، لسان العرب: (حلف).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والجوهري، الصِّحاح، وابن منظور، لسان العرب: (رضي).
(5) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (فسق).

على قعودِهم ولا تعاتبوهم، فأعْرِضوا عنهم؛ احتقارًا وإهانةً لهم، لا إعراضَ صفحٍ وإعذارٍ؛ لأنَّهم نَجَسٌ وقَذَرٌ، ومَصيرُهم في الآخرةِ نارُ جهنَّمَ؛ بسبَبِ ما كسَبوا. وفي الآية الثانية بيَّنَ أنَّهم لجهلهم بحقيقةِ أنفسِهم وما عملوا، ولعدم إدراكِهم الأمورَ على وجهها الصَّحيح؛ لم يقنعوا بالإعراضِ عنهم، بل يحلفون لكم أغلظَ الأيمانِ لترضوا عنهم، وتعاملوهم كما كنتُم أوَّلًا، وهؤلاء لا يبحثونَ عن رضا اللّٰه ورسولِهِ، بل عن مصلحتِهم ومنافعهم، وإذا كان هذا شأنَهم[1]، فإن تَرضَوا عنهم، فلا ينفَعُهم رِضاكم، ولا ينبغي أن يكونَ منكم رضًا عنهم؛ لأنَّ اللّٰهَ لا يَرضى عن القَومِ الفاسِقينَ.

مهما حلف المنافقون لإرضاء العباد، فإنّ الله يعلم حقيقتهم، ولا يرضى عنهم

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

بيانُ دلالةِ الفصلِ في: ﴿سَيَحۡلِفُونَ﴾:

فُصلَ قولُه: ﴿سَيَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ﴾ الآية؛ لأنَّها جُملةٌ مُستأنَفةٌ ابتِدائيَّةٌ، لتَعْدادِ قبائِحهم ومثالبهم الَّتي سبق ذكرُ بعضِها في الآيةِ السَّابقة، فجاءت هذه الآيةُ لاستكمالِ هذه المثالب والقبائح، ومَعناها ناشئٌ عن مضمونِ جُملةِ ﴿لَن نُّؤۡمِنَ لَكُمۡ﴾؛ تنبيهًا على أنَّهم لا يَرْعَوُون عَن الكذبِ، ومُخادَعةِ المسلِمين[2].

تعدادُ بعضِ قبائحِ المنافقينَ، للتّنبيه إلى خطورتهم ومفاسدهم

دلالةُ السِّين، في قولِهِ: ﴿سَيَحۡلِفُونَ﴾:

فدخولُ السِّينِ على الفعلِ المضارعِ (يحلفون) الغرضُ منه تحقُّقُ الفعلِ في المستقبلِ القريبِ، وهو لمجرَّدِ التَّأكيد، إذ إنَّ الحديثَ إخبارٌ من اللّٰهِ بما سيحدُثُ في المستقبلِ، فقد سبقَ عِلْمُهُ تعالى بما سيقولُهُ المنافقون؛ ليتعلَّلُوا به عن تخلُّفِهم عن غزوة تبوكَ، فَهُم سيحلفونَ لتستديمَ معاملتُهم بظاهرِ إسلامِهم، وبذلك يخرجونَ من ضيقِ نفاقِهم إلى سعةِ رضا المؤمنين؛ لأنَّ السِّينَ حرفُ تنفيسٍ

تحقّق الفعل عند الحلف بصيغة المستقبل، من الإعجاز الغيبيّ في السّياق

(1) حجازي، التّفسير الواضح: 2/5.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/7.

وتوسيعٍ، وذلك أنَّها تنقلُ المضارعَ من زمنِ الضِّيق - وهو الحالُ - إلى الزَّمن الواسعِ وهو الاستقبالُ، فهي لتخليصِ المضارعِ من الحالِ إلى الاستقبالِ.

سرُّ اختيارِهم للحلفِ في: ﴿سَيَحۡلِفُونَ﴾:

آثروا الحلفَ على غيرِه في قولِه تعالى: ﴿سَيَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ﴾؛ لأنَّ الهدفَ عندَهم عدمُ فقدانِ الثِّقة في أنفسِهم وفي بضاعتهم الَّتي يروِّجونَ لها، وأيضًا لكي يُعرِضَ النَّبيُّ ﷺ والمؤمنون عنهم.

أهلُ النِّفاقِ يحرصونَ على الحلفِ، لتبرئةِ ساحتِهم، لاستخفافهم بالعقاب

سرُّ تقييدِ حلفِهم بلفظِ الجلالةِ ﴿ٱللَّهِ﴾:

قوله: ﴿سَيَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ﴾، محاولةُ إقناعِ المؤمنينَ بصدقِهم فيما يقولونَ، ولرفعِ صفة الكذبِ عنهم، وليس لرفعِ ما خاطبهم النَّبيُّ ﷺ به من قوله: ﴿لَّا تَعۡتَذِرُواْ﴾، بل هو أمرٌ مبتدأٌ لتحسين صورتِهم أمامَ المؤمنين.

الخداعُ بالحلفِ بالاسمِ الأعظم (الله)، لا يرفعُ الكذبَ

دلالةُ التَّعبيرِ بالمضارعِ في: ﴿سَيَحۡلِفُونَ﴾:

جاءَ التَّعبيرُ بالفعل المضارعِ في قولِه: ﴿سَيَحۡلِفُونَ﴾؛ لإبراز الحالةِ النَّفسيَّةِ عند المنافقين من جبنِهم وضعفِهم، كلَّما وجِّهت إليهم تهمةٌ؛ لا يجدون وسيلةً لدفعها عنهم إلَّا بالحلفِ الكاذبِ، ومن المعلومِ أنَّ المواقفَ الَّتي دارت بين المسلمين والمنافقين كثيرةٌ، فكلَّما وجِّهت لهم تهمةٌ؛ جدَّدوا الحلفَ لتبرئةِ ساحتِهم.

أهلُ النِّفاقِ كثيرو الحلفِ بالكذب، لعدم علمهم بمغبّة ذلك، وسوء عقباه

سرُّ حذفِ المحلوفِ عليهِ:

حُذِفَ المحلوفُ عليه في قوله: ﴿سَيَحۡلِفُونَ﴾؛ لتقدُّمِ نظيرِه في قوله: ﴿وَسَيَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ لَوِ ٱسۡتَطَعۡنَا لَخَرَجۡنَا مَعَكُمۡ﴾ [التوبة: 42] إلَّا أنَّ ما تقدَّم في حلفِهم قبل الخروجِ، وكذلك لكون الكلامِ يدلُّ عليه، وهو ما اعتذروا بهِ من الأكاذيبِ الباطلةِ، والمرادُ يحلفونَ باللهِ لكم

حُذِفَ المحلوفُ عليهِ، لتقدُّمِ مثيلِهِ، وهو من بليغ البيان

أنَّهم ما قدروا على الخروجِ، أو ما أشبهَ هذا[1]، والجملةُ بدلٌ من ﴿يَعۡتَذِرُونَ﴾ أو بيانٌ له[2] وإنَّما إلماعٌ إلى أنَّهُ عذرٌ لم يكن لهُ في الواقعِ أدنى نصيبٍ، فلم يكن جديرًا بذكرهِ دلالةً على انتفائِهِ من الواقع.

دلالةُ الباءِ، في قولهِ: ﴿بِٱللَّهِ﴾:

آثرَ التَّعبيرَ بـ (الباء) دونَ غيرِها؛ لأنَّها للقسَمِ، وهي أصلُ حروفِهِ، ومردُّها للإلصاقِ، وذلك من بابِ إلصاقِ القسَمِ بالمقسَم به، قال الرّازيُّ: وأمّا باء القسَم، وهو قولهُ: (باللّه) فهو من جنس باءِ الإلصاقِ، وقالَ الزَّمخشريُّ: (باللّهِ) مُتعلِّقٌ بـ (سيحلفون) أو من جملةِ كلامِهم، والقولُ مرادٌ في الوجهين، أي: سيحلفون عند رجوعِكَ معتذرين، أو سيحلفونَ باللّهِ، ويقولون: لو استطعنا[3].

القسَمُ من المؤكِّدات الَّتي تمكِّن الشَّيءَ في النَّفسِ وتقوِّيه

دلالةُ التَّعبيرِ باللّامِ في: ﴿لَكُمۡ﴾:

آثرَ التَّعبيرَ باللَّامِ في قوله: ﴿لَكُمۡ﴾؛ لأنَّها تفيدُ الاختصاصَ، وهو أصلُ معانيها، وقد تصحبهُ معانٍ أخرى، والمعنى: أنَّ المنافقينَ سيحلفونَ لرسولِ اللّه وصحابته الكرامِ باللّهِ تعالى دونَ غيرِهم كذبًا وبهتانًا لتسويغِ نفاقِهم، وفي هذا الاختصاصِ تنبيهٌ وتحذيرٌ للمؤمنين من كذبِهم وحيلِهم.

المنافقُ لا يقصدُ غيرَ المصلحةِ العاجلة من البشرِ

كما أنَّ فيهِ كشفًا لغرضِهم من الحلفِ فمقصودُهم المصلحةُ وهو رضا المسلمين عنهم أو إعراضهم عنهم لتمضي مصالحهم على ما كانت عليهِ من قبلُ.

دلالةُ التَّعبيرِ بـ ﴿إِذَا﴾:

قولهِ: ﴿إِذَا ٱنقَلَبۡتُمۡ﴾، وفيه آثرَ التَّعبيرَ بـ ﴿إِذَا﴾ دونَ (إن)؛ لأنَّ الأصلَ في (إذا) أن تستعملَ في الأمرِ المقطوعِ بحصولهِ، وللكثيرِ

الإشارة إلى تحقُّقِ رجوعِ الرَّسولِ الأكرم والمؤمنينَ إلى المدينةِ

(1) الواحديّ، التّفسير البسيط: 11/7، والقنّوجيّ، فتح البيان: 5/375، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/9.

(2) الآلوسيّ، روح المَعاني: 5/6.

(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/273، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 1/96.

الوقوع، بخلافِ (إن) الَّتي تفيدُ قلَّةَ الوقوعِ أو نُدْرَتَه، والمقامُ هنا يناسبهُ التَّعبيرُ بـ ﴿إِذَا﴾ الَّتي تفيدُ تحقُّقَ عودةِ الرَّسول ﷺ والمؤمنين إلى المدينة سالمين غانمين، وفيه إشارةٌ إلى أنَّ حَلِفَ المنافقين للمؤمنين أمرٌ مقطوعٌ بحصولهِ ومتحقِّقٌ لا محالة، وقد حلفوا.

دلالةُ التَّعبيرِ بالماضي: ﴿ٱنقَلَبْتُمْ﴾:

بشارةُ المؤمنينَ بالعودةِ سالمين غانمين

عبَّرَ بالفعلِ الماضي ﴿ٱنقَلَبْتُمْ﴾ الَّذي يدلِّل على تحقُّق الوقوعِ للبشارةِ للمؤمنين بأنَّهم سيعودون إلى المدينةِ المنوَّرةِ، ويستقرُّون فيها سالمين.

دلالةُ تعدِّي الفعلِ ﴿ٱنقَلَبْتُمْ﴾ بحرفِ الجرِّ (إلى):

رجوعُ المسلمينَ سالمينَ غانمين، غيظٌ للمنافقينَ وحسرة

قولهِ: ﴿ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ﴾، عُدِّي الفعلُ بحرفِ الجرِّ (إلى)؛ لأنَّها تفيدُ انتهاءَ الغايةِ؛ لأنَّ عودةَ الرَّسولِ ﷺ والمسلمين إلى المنافقينَ غايةٌ في ذاتِها، وفيه إشارةٌ إلى غيظِ المنافقينَ بعودةِ الرَّسول ﷺ والمؤمنين؛ لأنَّهم ما كانوا يحبُّون عودتَهم، بل يتمنَّون أن يقتلَهم الرُّوم، ويستأصلوا شأفَتَهم، فكانَ التَّعبيرُ بحرفِ الجرِّ (إلى) يعطي معنى: عدْنا إليكم لنكسرَ شوكتَكم، ونضعفَ قوَّتَكم.

سرُّ التَّعبيرِ بالضَّميرِ ﴿إِلَيْهِمْ﴾:

التَّعبيرُ بالضَّمير، تهوينٌ لشأنِ المُعَبَّرِ عنهمْ بهِ

عبَّرَ بالضَّمير (هم) في قولهِ: ﴿إِلَيْهِمْ﴾ عن المنافقينَ، فلم يقلْ: إذا انقلبتُم إلى المنافقينَ؛ للتَّهوين من شأنهم وإضعافِ الرُّوح المعنويَّةِ عندهم، فانطفأتْ وجاهتُهم، وضعفت قوَّتهم، فلم يعد لهم ظهورٌ بعد هذهِ الغزوةِ. وفيه تلطُّفٌ في التَّعامل معهم، حيثُ لم يلصق بهم وصفُ النِّفاق، لعلَّ بعضَهُم يخرجُ من نفاقهِ، ويعودُ إلى صفوفِ المسلمينَ.

دلالةُ اللَّامِ في قولهِ: ﴿لِتُعْرِضُواْ﴾:

هدفُ المنافقينَ استدامةُ معاملتِهم بظاهرِ إسلامِهم

اللَّامُ في قولهِ: ﴿لِتُعْرِضُواْ﴾ لامُ التَّعليلِ، والمعنى: أيْ: لتتركوهُم، ولا تعاتبوهم، ولا تؤنِّبوهم، أو توبِّخوهم على ما فعلوا، وفي هذا

إشارةٌ إلى أنَّ الغرضَ من الحلفِ إعراضُ المسلمينَ عنهم، وليس حبًّا في المسلمينَ، فهم لم يقصدوا تطييبَ خواطرِ المسلمينَ، ولكن أرادوا التَّملُّص من مسبَّةِ العتابِ ولذعه، ولذلك قال في الآيتين الأُخريين: ﴿يَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمۡ لِيُرۡضُوكُمۡ﴾ [التوبة: 62] ﴿يَحۡلِفُونَ لَكُمۡ لِتَرۡضَوۡاْ عَنۡهُمۡۖ﴾ [التوبة: 96]؛ لأنَّ ذلكَ كانَ قبل الخروج إلى الغزو، فلمّا فاتَ الأمرُ، وعَلِموا أنَّ حلفَهم لم يصدِّقْهُ المسلمونَ؛ صاروا يحلِفون لقصد أن يعرضَ المسلمونَ عنهم[1].

بلاغةُ الجناسِ في ﴿لِتُعۡرِضُواْ﴾ ﴿فَأَعۡرِضُواْ﴾:

في الآيةِ الكريمة جناسُ اشتقاقٍ بين ﴿لِتُعۡرِضُواْ﴾ و﴿فَأَعۡرِضُواْ﴾، ففِعْلُ الإعراضِ وردَ مرَّتينِ والمعنى: في كلٍّ منهما مختلفٌ، فيكونُ ذلك من بابِ اتِّفاق اللَّفظ واختلاف المعنى، فالإعراضُ المقصودُ بالفعلِ المضارعِ مسامحةٌ وغفرانٌ، ولكنَّ الإعراضَ الَّذي قُصِدَ بفعلِ الأمرِ مغاضبةٌ وتركٌ وإهمالٌ، أي: إنَّ هؤلاءِ سيحلفون طلبًا للغفران، ولكنَّ اللّهَ يأمرُ المسلمينَ بالإعراضِ عنهم إعراضَ اجتنابٍ ومقتٍ.

إعراضٌ بينَ المسامحةِ والمغاضبةِ، في سياق الآية الكريمة

سِرُّ تعديةِ الإعراضِ بالحرف (عن)، المتَّصلةِ بضمير (هِم):

قوله: ﴿لِتُعۡرِضُواْ عَنۡهُمۡۖ فَأَعۡرِضُواْ عَنۡهُمۡۖ﴾، وفيه عُدِّيَ فعلُ الإعراضِ بحرف الجرِّ (عن) في الموضعين؛ لأنَّهُ يُفيدُ معنى المجاوزةِ، فقوله: ﴿عَنۡهُمۡۖ﴾ مُتعلِّقٌ بفعلِ الإعراض، ومعنى المجاوزةِ في الآيةِ واضحٌ، وذلك مِن خلال تعديةِ فِعل الإعراضِ بحرفِ المجاوزةِ والتَّركِ، قال السَّمرقنديُّ: ﴿لِتُعۡرِضُواْ عَنۡهُمۡۖ﴾ يعني: تتجاوزوا، وتصفحوا عنهم[2] وفقَ هواهُم ورغبتِهم، يؤكِّد ذلك ما قالَهُ ابنُ عاشورٍ: "أدخلَ حرفَ (عن) على ضميرِ المنافقين بتقديرِ مضافٍ يدلُّ عليهِ السِّياقُ لظهورِ أنَّهم يريدونَ الإعراضَ عن لومِهم، ففي حذفِ المضافِ تهيئةٌ لتفريع

الإعراضُ ضربٌ من التَّقريعِ للمنافقين في الآية الكريمة

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/9.
(2) السّمرقنديّ، بحر العلوم: 2/82.

التَّقريع الواقع بعده بقولِه: فأعرضوا عنهم، أي: فإذا كانوا يرومونَ الإعراضَ عنهم؛ فأعرضوا عنهم تمامًا.

وهذا ضربٌ من التَّقريعِ فيه إطماعٌ للمغضوب عليه الطالبِ؛ بأنَّه أُجيبتْ طُلبتُهُ، حتَّى إذا تأمَّلَ وجدَ ما طمعَ فيهِ قد انقلبَ عكسَ المطلوبِ، فصار يأسًا؛ لأنَّهم أرادوا الإعراضَ عن المعاتبةِ بالإمساكِ عنها واستدامةِ معاملتِهم معاملةَ المسلمين، فإذا بهم يواجَهونَ بالإعراضِ عن مكالمتِهم ومخالطتِهم، وذلك أشدُّ ممّا حلفوا للتَّفادي عنه، فهم من تأكيدِ الشَّيءِ بما يشبهُ ضدَّهُ أو من القولِ بالموجبِ"[1].

دلالةُ (الفاءِ) في: ﴿فَأَعۡرِضُواْ﴾:

عبَّر القرآنُ الكريمُ بالفاءِ في قولِه: ﴿فَأَعۡرِضُواْ﴾ دونَ غيرِها؛ لأنَّها تفيدُ التَّرتيبَ والتَّعقيبَ، وهذا هو المناسبُ لطلبِ المنافقينَ في غرضِهم، فكانَ الأمرُ من اللهِ مباشرةً دونَ تأخيرٍ؛ لأنَّهم رجسٌ.

التَّرتيبُ والاستجابةُ المباشرةُ، من بيان الجملة

الغرضُ مِنَ الأمرِ في الفعل ﴿فَأَعۡرِضُواْ﴾:

لـمَّا ذكرَ حَلْفَهُم لأجل الإعراضِ، جاء الأمرُ بالإعراض نصًّا؛ لأنَّ الإعراضَ من الأمورِ الَّتي تظهرُ للنَّاس، فأعرضوا عنهم إعراضَ الإهانةِ والتَّحقير، لا إعراضَ الصَّفحِ وقبولِ العُذرِ، وفي هذا التَّعبيرِ ما يُسمَّى بـ (القول الموجب) وهو قبولُ ما يبغونَ من الإعراضِ عنهم، ولكن على غير الوجهِ الَّذي يرجونَه منهُ، بل ضدَّهُ[2].

الإعراضُ عن المنافقينَ، إعراضُ تحقيرٍ وإهانةٍ

دلالةُ فصلِ جملةِ ﴿إِنَّهُمۡ رِجۡسٞۖ﴾:

فُصلت هذهِ الجملةُ عمَّا قبلَها للاستئنافِ التَّعليليِّ؛ لأنَّها تعليلٌ للأمرِ بالإعراضِ، ووُقوعُ (إنَّ) للتَّوكيد في أوَّلِ الآية مُؤْذِنٌ بمَعنى التَّعليلِ، فالجُملةُ تَعليلٌ لِتَرْكِ مُعاتبَتِهم، يَعْني: أنَّ المُعاتَبةَ لا تَنفَعُ

المنافقونَ سيِّئو النِّيَّاتِ، خبيثُو الطَّوايا

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/9.

(2) الواحديّ، التفسير الوسيط، ص: 118، وأبو حيّان، البحر المحيط: 5/491، ومحمد رشيد رضا، تفسير المنار: 11/5.

فيهم، ولا تُصلحُهم، إنَّما يُعاتَبُ الأديمُ ذو البَشَرةِ[1]، والفرقُ بين المؤمنِ والمنافقِ أنَّ المؤمنَ يُعاتَبُ على زَلَّةٍ تَفرُطُ منه؛ ليُطهِّرَهُ العتابُ بالحملِ على التَّوبةِ والاستغفارِ، وأمّا هؤلاءِ؛ فأرجاسٌ لا سبيلَ إلى تَطهيرِهم[2].

دلالةُ تتابعِ المؤكِّداتِ في: ﴿إِنَّهُمْ رِجْسٌ﴾:

احتقارُ المنافقينَ وازدراؤُهُم لنجاسةِ بواطنِهم

تتابعُ المؤكِّدات في قولِه تعالى: ﴿إِنَّهُمْ رِجْسٌ﴾، حيثُ جاءتِ الجملةُ مؤكَّدةً بـ (إنَّ) المؤذنةِ بمعنى التَّعليل، وبالاسميَّةِ لتحقيق تمام التَّهكُّمِ بهم، حيثُ إنَّهم صورةٌ مجسَّمة من الرِّجس.

نكتةُ التَّعبيرِ بالتَّشبيهِ البليغِ في: ﴿إِنَّهُمْ رِجْسٌ﴾:

التَّعليلُ لوجوبِ الإعراضِ عن المنافقينَ

في قولِه تعالى: ﴿إِنَّهُمْ رِجْسٌ﴾ تشبيهٌ بليغٌ، حيثُ جعلَ اللّٰه تعالى المنافقينَ هم عينُ النَّجاسةِ والخَبَث؛ لِما انطوت عليه قلوبُهم مِن النِّفاق والكفرِ بعد سطوعِ الآياتِ الدّالَّة على صِدق النَّبي ﷺ والغرضُ من التَّشبيهِ هو المبالغةُ في تصوير ما هم عليه، والتَّشنيع بحالهم، حتَّى كأنَّ العينَ ترى خَبَثَهم، والأنفَ يشتمُّ قَذَرَهُم، وفي هذا مِن التَّحذير ممّا هم عليه شيئًا لا يُقادَر قدره[3].

نكتةُ تنكيرِ لفظ ﴿رِجْسٌ﴾:

المبالغةُ في نجاسةِ أعمالِ المنافقينَ، وقبحِ بواطنِهم

الغرضُ من تنكيرِ كلمةِ ﴿رِجْسٌ﴾ إهانتُهُم وتحقيرُهم والتَّشنيعُ بهم، فهم القذارة والنَّجاسةُ عينها، وهذه مبالغةٌ في ذمِّهم وخسَّة أعمالهم، وقبح بواطنهم، وفي هذا التَّصويرِ ما يدعو إلى التَّقزُّز منهم، والاشمئزاز.وفيه إشارةٌ إلى أنَّ القليلَ من هذه النجاسةِ يكفي لذمِّهم وخسَّةِ أعمالهم، فكيفَ والتَّنكير يشيرُ إلى تحقُّقِ النَّجاسة فيهم في الظّاهرِ والباطنِ.

---

(1) أي: إنَّما يُعاتب من فيه رَجاءٌ ومُستعتَبٌ، ويُراجَع من تصلُحُ مُراجعَتُه، والمعاتبةُ: المعاودةُ، وبَشَرةُ الأديمِ: ظاهرُه الَّذي عليه الشَّعَر، أي أنَّ ما يُعادُ إلى الدِّباغِ مِن الأديمِ ما سلِمت بشرتُه. يُنظر: العسكري، جمهرة الأمثال: 1/69، والميدانيّ، مجمع الأمثال: 1/40.

(2) الزّمخشريّ، الكشاف: 2/302، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/9.

(3) القنوجي، فتح البيان: 5/375، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/10.

سرُّ التَّعبيرِ بالمصدرِ ﴿رِجْسٌ﴾:

قوله: ﴿إِنَّهُمْ رِجْسٌ﴾، آثرَ التَّعبيرَ بالمفرد ﴿رِجْسٌ﴾؛ لأنَّهُ مصدرٌ، والمصدرُ يطلقُ على القليلِ والكثيرِ، والمرادُ هنا الكثيرُ لكونهِ خبرًا عن ضميرِ الجمعِ[1].

وصف المنافقين بأنّهم رجس، يعبّر بدقّة عن قلوبهم وأفعالهم

سرُّ التَّعبيرِ بالواوِ ﴿وَمَأْوَىٰهُمْ﴾، دونَ الفاءِ:

آثرَ القرآنُ الكريمُ التَّعبيرَ بالواو دون الفاءِ في قوله: ﴿وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ﴾ لعدَّةِ دلالاتٍ ذكرَها أبُو البقاءِ بقولهِ: إن قيل: كيف حسنتِ الواوُ هنا، والفاءُ أشبهُ بهذا الموضع؟ ففيه ثلاثةُ أوجهٍ:

أهلُ الرِّجسِ مسكنُهم جهنَّمُ، وساءت مصيرًا

أحدها: أنَّ الواوَ واو الحالِ، والتقدير: افعلْ ذلك في حال استحقاقِهم جهنَّمَ، وتلك الحالُ حالُ كفرهِم ونفاقِهم.

والثّاني: أنَّ الواوَ جيءَ بها تنبيهًا على إرادةِ فعلٍ محذوفٍ، تقديرهُ: واعلمْ أنَّ مأواهُم جهنَّمُ.

والثّالثُ: أنَّ الكلامَ حُمِلَ على المعنى، والمعنى: أنَّه قد اجتمعَ لهم عذابُ الدُّنيا بالجهاد والغلظةِ، وعذابُ الآخرة بجعلِ جهنَّمَ مأواهُم[2].

فائدةُ التَّعبيرِ بالاسميَّةِ، في ﴿وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ﴾:

أفادَ التَّعبيرُ بالاسميَّةِ تحقيقَ تمامِ التَّهكُّمِ عليهم؛ لأنَّ المأوى مكانُ الاطمئنانِ والرّاحةِ، وإنَّ المنافقين يسعونَ إلى طلبِ رضا النَّبيِّ والمؤمنين، فيحلفونَ لهم بما يقربُ قلوبهم خوفًا من الجزاءِ المعدِّ لهم في جهنَّمَ وساءتْ مصيرًا. وممّا يذكرُ أيضًا في سرِّ التَّعبيرِ بالاسميَّةِ: أنَّ استقرارَهُم في جهنَّمَ من دواعي الاجتنابِ عنهم، ومن موجباتِ تركِ استصلاحِهم باللَّومِ والعِتابِ، وعلى هذا تكونُ الجملةُ من تمامِ التَّعليلِ أو تكونُ تعليلًا مُستقلًّا، أي:

استمرارُ التَّهكُّم بهم، وتحقيقُهُ في واقع التّعامل معهم

(1) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاوي: 9/314.

(2) العكبريّ، التّبيان في إعراب القرآن: 2/651، والسّمين الحلبيّ، الدّر المصون: 6/86، وابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 10/147.

وكَفَتْهم النّارُ عتابًا - على حدِّ: عتابُهُ السَّيفُ ووعظُه الصَّفعُ - فلا تتكلَّفوا أنتم بذلكَ[1].

سرُّ اختيارِ وصفِ جهنَّمَ، دونَ غيرِها مِنَ الأوصافِ:

آثرَ التَّعبيرَ بوصفِ جهنَّمَ دونَ غيرِها مِنَ الأوصافِ؛ لأنَّ هذا الوصفَ يشيرُ إلى تجهُّمِ هؤلاءِ المنافقين في وجوهِ المؤمنينَ، فعاقبَهم اللّهُ بجنسِ ما فعلوا، وجعلَ لهم جهنَّمَ في الآخرةِ جزاءً وفاقًا.

تجهُّمُ المنافقينَ في وجهِ المؤمنينَ، يجعلُ جزاءَهم من جنسِ عملِهم ﴿جَهَنَّمُ﴾

دلالةُ الباءِ في قولِه: ﴿بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾:

الباءُ في قولِه: ﴿بِمَا﴾ لها أثرٌ واضحٌ في دلالةِ المعنى، وهو أنَّ استقرارَهم في جهنَّمَ بما كسبوه في الدُّنيا من آثامٍ في أقوالِهم وبثِّهم الشَّرَّ والفسادَ بين المؤمنينَ، وعليه فالباءُ في الآيةِ الكريمةِ معناها السَّببيَّةُ.

الجزاءُ هو الأجرُ العادلُ للفعلِ

بلاغةُ فاصلةِ الآيةِ: ﴿يَكۡسِبُونَ﴾:

خُتِمَتِ الآيةُ بهذا الختامِ جوابًا على سؤالٍ كأنَّه قيلَ: لماذا جُعِلَ جزاؤهم جهنَّم؟ فكان الجوابُ بكسبِهم في الدُّنيا من أذى النَّبيِّ والمسلمينَ، فكانتْ هذهِ الجملةُ بِمَنْزِلَةِ التَّعليل للعقابِ الَّذي ينتظرهم.

جزاءُ الآخرةِ ثمرةٌ لعملِ الدُّنيا

سرُّ الجمعِ بين صيغتي الماضي ﴿كَانُواْ﴾، والمضارعِ ﴿يَكۡسِبُونَ﴾:

قوله تعالى: ﴿بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾، جَمَعَ فيهِ بين صيغتي الماضي والمضارع للدَّلالةِ على الاستمرارِ المتكرِّرِ في كسبِ السَّيِّئات في الدُّنيا، في ماضيهم وحاضرهم، فكأنَّهُ لا يصدر عنهم في أيِّ زمنٍ إلَّا الكسبُ المذمومُ.

من اتّصف بالنّفاق المشؤوم، لم يصدر منه إلّا ما هو مذموم

سرُّ التَّعبيرِ بـ ﴿يَكۡسِبُونَ﴾:

آثرَ التَّعبيرَ بالكسبِ في قولِه: ﴿بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ مع أنَّ السِّياقَ يقتضي التَّعبيرَ بالاكتسابِ أنَّهُ في مقامِ العقابِ، وذلك للدِّلالةِ على

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 6/5، والقنّوجيّ، فتح البيان: 5/375، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3419.

كسب السّيّئات مبالغة في تحوّل الشرّ لديهم، إلى ملكة مغروزة في الطّبع

أنَّهم تمكَّنوا في فعل السَّيِّئات لدرجة أنَّ كسبَ السَّيِّئات صار من طبيعتِهم، فلا يتكلَّفُ في أمرِها شيئًا من العنتِ والمشقَّةِ، وهذا خروج على مقتضى الفطرةِ والشَّرعِ؛ لأنَّ اللُّغةَ العربيَّةَ فرَّقت بين الكسبِ والاكتسابِ، وهذا أيضًا ظاهرٌ في لغةِ القرآنِ، قال تعالى: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة: 286]، فالملاحظُ التَّفريق بين الكسبِ والاكتسابِ، فأصلُ الكسبِ يأتي في الخيرِ والاكتسابِ في الشَّرِّ. وعلى ذلك إذا استعملَ الكسبَ في الشَّرِّ، فيكونُ ذلك من بابِ المبالغةِ في كسبِهم للسَّيِّئات وإلفهم لها، فما عادَتْ تحتاجُ إلى جهدٍ؛ لأنَّهم تعوَّدوا عليها، وهذا هو المناسبُ لسياقِ المنافقين.

دلالةُ الفصلِ: ﴿سَيَحْلِفُونَ﴾:

حلفُ المنافقينَ، لأجلِ رضا المؤمنين عنهم

فُصِلَت هذه الجملةُ عمَّا قبلَها؛ لأنَّها بدلُ اشتمالٍ من جملة ﴿سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ﴾؛ لأنَّهم إذا حلفوا لأجلِ أن يعرضَ عنهم المسلمون، فلا يلومونهم فإنَّ ذلك يتضمَّن طلبهم رضا المسلمينَ[1].

سرُّ حذفِ المحلوفِ بهِ، معَ ذكرِهِ في الآيةِ السَّابقةِ:

لا معنى للحلف إلّا بالله، فبه تصحّ اليمين وتنعقد

حُذِفَ المحلوفُ بهِ لظهورِهِ، أي: يحلفونَ باللهِ تعالى، حيثُ سبقَ ذكرهُ في قولهِ: ﴿سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ﴾.

غرضُ تكرارِ الحلفِ في: ﴿يَحْلِفُونَ﴾، بعد: ﴿سَيَحْلِفُونَ﴾:

اختلاف الغرضِ من الحلفِ في الآيتينِ (الإعراض) و(الرِّضا)

اختلفَ الغرضُ من الحلفِ في الآيتينِ: فالآيةُ الأولى كان حَلْفُهم لأجلِ الإعراضِ فقط، وفي الآية الثَّانيةِ من أجل الرِّضا؛ لذلكَ جاءَ الأمرُ بالإعراض نصًّا؛ لأنَّ الإعراضَ مِنَ الأمورِ الَّتي تظهرُ للنَّاسِ، أمَّا الرِّضا؛ فهو من الأمورِ القلبيَّةِ الَّتي تخفى[2]؛ لذلك أبرزَ النَّهيَ عن الرِّضا في صورةٍ شرطيَّةٍ.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/10.

(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/491، والقنّوجيّ، فتح البيان: 5/376، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/10.

والنَّاظرُ في هاتينِ الآيتينِ يجدُ أنَّ الحَلْفَ تكرَّرَ من المنافقين، قال تعالى: ﴿سَيَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمۡ﴾، ثم قال: ﴿يَحۡلِفُونَ لَكُمۡ لِتَرۡضَوۡاْ عَنۡهُمۡۖ﴾، وهذا التَّكرارُ يحتملُ وجهين: الوجهُ الأوَّلُ: في الغرضِ من الحَلْفِ، فيحلفونَ أوَّلًا طلبًا للإعراضِ، وثانيًا طلبًا للرِّضا. الوجهُ الثَّاني: اختلافُ الحالفين، فيَحْتَمِل أن يكونَ الحلفُ الأوَّلُ من أتباعِهم؛ لأنَّهم في منزلةِ من يخافُ العقوبةَ، فيحلفونَ قصدًا للإعراضِ وطلبًا للمُسالمةِ فقط، والثَّاني مِن رُؤسائِهم؛ لأنَّهم في منزلةِ من لا يخاف العُقوبةَ، فيحلف قصدًا لرضاءِ المؤمنينَ عنه[1].

أو أنَّ قولهُ تعالى: ﴿يَحۡلِفُونَ﴾ بدلٌ من قولهِ تعالى: ﴿سَيَحۡلِفُونَ﴾، حيثُ جاءت موضِّحةً لغرضِ ذلك الحَلْفِ أنَّه لنيلِ رضاكم عنهم، فجاءت أدلَّ على الغرضِ الَّذي تحملُهُ من الآيةِ المبدلةِ منها، فلا مغايرةَ بينهما؛ لذلك فصِلَتا.

نكتةُ التَّعبيرِ بالفعل المضارعِ في ﴿يَحۡلِفُونَ﴾:

الحلفُ والإكثارُ منه، هو ديدن المنافقينَ

تكرارُ لفظةِ (يحلفون) في السُّورةِ بصيغِ المضارعِ المتنوِّعِ؛ للدَّلالةِ على التَّجدُّدِ والحدوث، وهي تشيرُ إلى أنَّ الحلفَ والإكثارَ منه هو لباسُ المنافقين ووشاحهم السّاتر، ونديمهم الملازم، حيثُ كان هدفُهم من الحَلْفِ أن يُرضوا المؤمنين، ولا يفعلون ذلك لوجهِ اللّٰهِ ولا لِلْبِرِّ، فكثرةُ الحَلْفِ ديدنُ أهلِ النِّفاق، ولا يستبعدُ منهم ذلك؛ لأنَّ بطانةَ المنافقين تنطوي على الكذبِ والمراوغةِ.

دلالةُ تقديمِ الجارِّ والمجرورِ في: ﴿لَكُمۡ﴾:

المنافقونَ مصلحتُهم منافعُ الدُّنيا الغرور، وما فيها من متاع وسرور

قُدِّمَ الجارُّ والمجرورُ ﴿لَكُمۡ﴾؛ لإفادةِ الاختصاصِ أخذًا من اللَّام؛ لأنَّ معناها الاختصاصُ، وهو أصلُ معانيها، وعلى هذا؛ فالمعنَى: أنَّ المنافقينَ سيحلفونَ للمؤمنينَ كذبًا لتسويغِ نفاقِهم، وفي تخصيصهِ بالمؤمنينَ تنبيهٌ وتحذيرٌ لهم من خداعِهم ومكرِهم.

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/324.

سرُّ التَّعبيرِ بالضَّميرِ، عن القومِ الفاسقينَ:

قولِه: ﴿يَحۡلِفُونَ﴾، وفيه بدأتِ الآيةُ الكريمةُ بالتَّعبيرِ عن هؤلاءِ المنافقينَ بضميرِ الغَيْبةِ، ثمَّ عدلتْ عن الإضمارِ إلى الإظهارِ في نهايتِها بقولِه تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرۡضَىٰ عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾، وهو عدولٌ يفيدُ بأنَّ غضبَ اللهِ تعالى وعدمَ رضائِهِ لا يتعلَّق بهؤلاءِ، بل بسببِ ما يضمرونَهُ من نفاقٍ في صدورِهم، وليعمَّ الحكمُ كلَّ من كانَ على شاكلتِهم.

غضبُ اللهِ تعالى، يتعلَّقُ بما يضمرُ المنافقُ في صدرِه

دلالةُ اللَّامِ ومعناها، في قولِه: ﴿لِتَرۡضَوۡاْ عَنۡهُمۡۖ﴾:

اللَّامُ: لامُ التَّعليلِ، أي: علَّةُ الحَلِفِ بالأيمان الكاذبةِ: هي أن ترضوا عنهم، أي: تقبَّلوا ما فعلوهُ من التَّخلُّف، ولا تؤاخذوهم، ولا تعاتِبوهُم، بل تسديمون ما كنتُم تفعلونَ بهِم.

تحديدُ أغراضِ القلوبِ، فضحٌ للمنافقينَ

سرُّ التَّعبيرِ بـ (عن) في: ﴿عَنۡهُمۡۖ﴾:

آثرَ التَّعبيرَ بـ (عن) الَّتي تفيدُ المجاوزةَ، وكأنَّ المنافقين يطلبونَ من المؤمنينَ التَّجاوزَ عمّا صدرَ منهم من التَّخلُّف عن الجهادِ، ومن الأعذار الكاذبة الَّتي أبدوها لرسولِ اللهِ ﷺ وللمؤمنينَ، ويكونُ ذلك في حكمِ الماضي المنسيِّ، فلا يلامونَ عَليهِ، ولا يوبَّخونَ بِهِ.

جرائمُ النّفاقِ لا تسقطُ بالتّقادمِ، بل بالتّوبةِ النّصوحِ

دلالةُ الفاءِ ومعناها في ﴿فَإِن﴾:

الفاءُ في قوله: ﴿فَإِن تَرۡضَوۡاْ﴾ للجزاءِ أو للسَّببيَّة، والمعنى: فإنَّ رضاكم لا يستلزمُ رضا اللهِ، ورضاكم وحدَهُ لا ينفعُهم؛ إذا كانوا في سخط اللهِ؛ لأنَّ مقصودَهُم من رضا المسلمينَ عنهم، التَّحصُّنُ بحوزةِ الإسلامِ وصيانة أنفسِهم عن الذلِّ والهوانِ[1].

التَّعجيلُ بالجزاءِ تهديدٌ، وإرضاءُ الخلقِ لا يغني عن رضا اللهِ

علَّةُ التَّعبيرِ بـ(إن) الشرطية:

آثرَ التَّعبيرَ بإن الشَّرطيَّةِ الَّتي تفيدُ الاحتمالَ والشَّكَّ، أي: إن ﴿تَرۡضَوۡاْ عَنۡهُمۡ﴾ على سبيل الافتراضِ، وتنسوا ما فعلوهُ من التَّخلُّف،

(1) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاوي: 9/315.

وتصفحوا عنهم؛ فليس لرضاكم فائدةٌ، ولا يهُمُّ؛ لأنَّ رضا اللّهِ سبحانه هو وحدَهُ المهمُّ، والمقبولُ، وفيهِ إشارةٌ إلى أنَّ المؤمنينَ لن يقعَ منهم رضًا على هؤلاءِ المنافقينَ، فكأنَّ التَّعبيرَ بـ (إن) يحمل معنى النَّفي، وعلى ذلك فإيرادُ كلمةِ الشَّكِّ ﴿فَإِن﴾ كان هو المناسبُ لمنعِ وقوعِ الرِّضا على العمومِ، وفي نفسِ الأمر الَّذي طلبوهُ مع قطعِ النَّظرِ عن قائلِه[1].

الصَّحابةُ الكرامُ أعلى قدرًا من الرّكون إلى ترضيةِ منافقٍ

بلاغةُ التَّعبيرِ بالجملةِ الشَّرطيَّةِ في: ﴿فَإِن تَرۡضَوۡاْ عَنۡهُمۡ﴾:

التَّعبيرُ بالجملةِ الشَّرطيَّةِ ﴿فَإِن تَرۡضَوۡاْ عَنۡهُمۡ﴾إلى آخرِ الآيةِ، يتضمَّنُ النَّهيَ عن الرِّضا عنهم، ويدلُّ أيضًا على أنَّ حكمَ هذه الآيةِ يستمرُّ في كلِّ مغموصٍ عليه ببدعةٍ ونحوها، فإنَّ المؤمنَ ينبغي أن يبغضَهُ، ولا يرضا عنه لسببٍ من أسبابِ الدُّنيا[2].

كلُّ رضًا دونَ رضا اللهِ، لا فائدةَ منهُ، ولاجدوى فيه

بلاغةُ حذفِ جوابِ الشَّرطِ:

جوابُ الشَّرطِ في قولِه: ﴿فَإِن تَرۡضَوۡاْ عَنۡهُمۡ﴾ محذوفٌ، والتَّقديرُ: فإن ترضوا عنهم على سبيلِ الفرضِ، فإنَّ رضاكم عنهم لن ينفعَهم؛ لأنَّ اللّهَ تعالى لا يرضى عن القومِ الَّذين خرجوا عن طاعتِه[3]، فلا يتوهَّمُ مُتوهِّمٌ أنَّ رضا المؤمنين عنهم يقتضي أن يرضى اللّه تعالى عنهم، فأفادَ اليأسَ من تحقُّقِ الرِّضا لهم، فالجوابُ محذوفٌ، أي: إن ترضوا عنهم، فلا ينفعُهم رضاكم[4]. وفي حذفِ جوابِ الشَّرطِ تلطُّفٌ بالمؤمنينَ، ليقدِّرَ كلُّ واحدٍ منهم الجوابَ بما يمنعهُ من الرِّضا مهما حلفَ المنافقونَ.

تقدير الجواب المحذوف، قدْحٌ للذّهن، وإثْراءٌ للمعنى

(1) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاوي: 9/316.

(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/73.

(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/73، والواحديّ، التّفسير البسيط: 11/10، طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 6/385.

(4) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 4/161.

سرُّ التَّعبيرِ بالفعلِ المضارعِ ﴿تَرۡضَوۡاْ﴾، على سبيل الكناية:

رضا المسلمين عن الآخرين، مرتبط برضا ربّ العالمين

قولِه تعالى: ﴿فَإِن تَرۡضَوۡاْ عَنۡهُمۡ﴾، وفيه التَّعبيرُ بصيغةِ المضارعِ للدَّلالةِ على الحالِ والاستقبالِ والدّيمومةِ، فقولهُ: ﴿فَإِن تَرۡضَوۡاْ عَنۡهُمۡ﴾ توجيهٌ "وتحذيرٌ للمسلمين من الرِّضا عن المنافقينَ بطريقِ الكنايةِ؛ إذ قد علمَ المسلمونَ أنَّ ما لا يُرضي اللّٰهَ لا يكون للمُسلمين أن يرضوا بهِ"[1].

سرُّ التَّعبيرِ بالجارِّ والمجرورِ في: ﴿عَنۡهُمۡ﴾:

من اعتدى على حرمة الدّين، فلا ودّ له عند المسلمين

عبَّرَ بالجارِّ والمجرورِ، لتحذيرِ المسلمينَ من تجاوزِ ما فعلَهُ المنافقونَ، في صفوفِ المسلمينَ من إضعافِهم ومحاولةِ توهينِ قوَّتِهم.

دلالة الفاءِ الفصيحة في: ﴿فَإِنَّ﴾:

لا ولاء لمنافق، بالقلب، ولا بالمعاملة

الفاءُ الفصيحةُ، أفصحتْ عن شرطٍ مقدَّرٍ، والمعنى: فإن ترضوا عنهم؛ فإنَّ اللّٰهَ لا يرضى عن القومِ الفاسقين، وإنَّما حذفَ الشَّرطَ إلماعًا إلى أنَّه لا ينبغي لمؤمنٍ أن يكونَ منه أيُّ رضًا عن منافقٍ، وأن يغيِّبَهُ من واقعِهِ كما غابَ عن النَّصِّ.

دلالةُ تعدُّدِ المؤكِّداتِ في الآية المصدّرة بـ ﴿إِنَّ﴾:

الرّضا عمّن لم يرض الله عنه، لا يفعله المؤمن

قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرۡضَىٰ عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾، وفيه تعدَّدَتِ المؤكِّداتُ بـ ﴿إِنَّ﴾، والاسميَّةِ، وتوسُّطِ النَّفي بين المسندِ إليه والمسندِ، والمقصودُ من ذلك إخبارُ اللّٰهِ سبحانه بعدمِ رضاهُ عن القومِ الفاسقينَ، وأكَّدَ هذا الحكمَ بهذه المؤكِّداتِ، والغرضُ هو نهيُ المؤمنينَ عن ذلك؛ لأنَّ الرِّضا عمَّن لا يرضى اللّٰهُ عنه ممَّا لا يفعلُهُ مؤمنٌ.

سرُّ التَّعبيرِ بلفظِ الجلالةِ ﴿ٱللَّهَ﴾:

إدخالُ المهابةِ في قلوبِ المؤمنينَ، يدفعُهم لسرعةِ الامتثالِ

قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرۡضَىٰ عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾، وفيه عبَّرَ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/10.

بلفظِ الجلالةِ ﴿ٱللَّهَ﴾ لإدخالِ المهابةِ في قلوبِ المؤمنينَ حتَّى لا يميلوا مع ضغوطِ المنافقينَ عليهم، ويحذروا مخالفةَ أمرِ اللّٰهِ.

نكتةُ التَّعبيرِ بالمضارعِ المنفيِّ في: ﴿لَا يَرۡضَىٰ﴾:

الرِّضا ضدُّهُ السُّخط، وقد أتى بالفعلِ المضارعِ المنفيِّ للدَّلالةِ على سخطِ اللّٰهِ الدّائمِ المستمرِّ على الفاسقين، وكذلك لئلّا يَتوهَّمَ متوهِّمٌ أنَّ رضا المؤمنين من دواعي رضا اللّٰهِ تعالى[1].

رسوخُ الضَّلالِ في نفوسِ الفاسقينَ، هو مسلك النِّفاق المهين

سرُّ اختيارِ ﴿لَا﴾ في: ﴿لَا يَرۡضَىٰ﴾:

آثرَ التَّعبيرَ بـ ﴿لَا﴾ في قولِه: ﴿لَا يَرۡضَىٰ﴾ دونَ (لن) الَّتي تفيدُ النَّفي، فهيَ وإن اشتركت مع (لا) في النَّفي، إلّا أن (لن) تفيدُ النَّفي مع التَّأبيدِ، واللّٰهُ يريدُ أن يفتحَ بابَ التَّوبةِ للمنافقين، فكانَ التَّعبيرُ بـ ﴿لَا﴾ هو المناسبَ لهذا الفضلِ.

باب التّوبة مفتوح على مصراعيه، لكلّ تائب

سرُّ اختيارِ التَّعبيرِ بالفاسقينَ:

آثرَ التَّعبيرَ بالفاسقينَ دونَ المنافقينَ، أوالكافرينَ، أو الظّالمين...؛ للإشعارِ بتجاوزِهم وخروجِهم عمّا رَضِيَه اللّٰهُ لهم مِنَ الإيمانِ والطّاعةِ؛ لأنَّ الفسقَ هو الخروجُ عن الطّاعةِ، من قولِهم: فسقتِ النَّواةُ عن الرُّطبةِ؛ إذا خرجَتْ، فالخروجُ أعمُّ يندرجُ تحتَهُ كلُّ هذهِ الأوصافِ.

اختيار اللّفظ المناسب للدّلالة، من بيان السّياق

بلاغةُ وضعِ الظّاهرِ موضعَ الضَّميرِ:

في قولِه تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرۡضَىٰ عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ وضْعُ المُظهَرِ ﴿ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ مَوضِعَ ضَميرِهم (عَنۡهُم)؛ حيثُ عَدَل عن الإتيانِ بالضَّميرِ (هم) إلى التَّعبيرِ بصِفتِهم؛ للتَّسجيل عليهم بالخُروجِ عن الطّاعةِ، المُستوجِبِ لما حلَّ بهم مِن السُّخطِ، وللإيذانِ بشُمولِ الحُكمِ لِمَن شارَكهم في ذلكَ الفسقِ؛ ففيهِ دَلالةٌ على ذَمِّهم، وتَعليلِ عَدمِ الرِّضا عنهم.

عدلُ اللّهِ تعالى في ثوابِهِ وعقابِهِ، ميزانٌ للكون، وأمانٌ للموجودات

(1) أبو السّعود: إرشاد العقل السّليم: 4/95.

وفيهِ إشارةٌ إلى أنَّ بابَ التَّوبةِ مَفتوحٌ، وأنَّهم مهما ارتكبوا من المعاصي هم أو غيرُهم، فإنَّ اللّه يتوبُ عليهم، ويرضا عنهم؛ إذا عادوا إلى ربِّهم، وصدَّقوا برسولهِ، وأمّا ما داموا فاسِقينَ، فإنَّ اللّهَ لا يرضا عليهم، لوجودِ المانِعِ مِن رضاه، وهو خروجُهم عمّا رَضِيَه اللّهُ تعالى[1].

نكتةُ تقديمِ المسندِ إليهِ، على خبرهِ الفعليِّ:

تأكيدُ عدمِ الرِّضا عن الفاسقين، تحفيزٌ لعدمِ الرِّضا عن المنافقينَ

قدَّمَ المسندَ إليهِ ﴿ٱللَّهَ﴾ على خبرهِ الفعلي ﴿لَا يَرۡضَىٰ﴾ للتَّأكيد على عدمِ رضاه سبحانه عن المنافقين، وإنَّما جاءَ التَّأكيدُ من إسنادِ عدم الرِّضا مرَّتين الأولى: إسنادُ الخبر ﴿لَا يَرۡضَىٰ﴾ إلى لفظِ الجلالةِ، ثمَّ إسنادُ عدمِ الرِّضا إلى الضَّمير العائدِ على لفظِ الجلالة، فجاء التَّأكيدُ من تكرارِ الإسنادِ.

المتشابهُ اللَّفظيُّ بين آيتي سورة التّوبة:

الذِّكرُ والحذفُ في الآيتين، ملمحٌ للبيان، ومدخلٌ للدّلالة البليغة

تشابَهَ قولهُ تعالى: ﴿سَيَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمۡ إِذَا ٱنقَلَبۡتُمۡ إِلَيۡهِمۡ لِتُعۡرِضُواْ عَنۡهُمۡۖ فَأَعۡرِضُواْ عَنۡهُمۡۖ إِنَّهُمۡ رِجۡسٞۖ وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ مع قولهِ تعالى: ﴿يَحۡلِفُونَ لَكُمۡ لِتَرۡضَوۡاْ عَنۡهُمۡۖ فَإِن تَرۡضَوۡاْ عَنۡهُمۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرۡضَىٰ عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾.

النَّاظرُ في الآيتين - مع أنَّهما في ذمِّ المنافقين المتخلِّفين عن رسولِ اللّهِ ﷺ في غزوة تبوك، حيثُ لجؤوا إلى الحَلِفِ بأيمانٍ فاجرةٍ اعتذارًا وخداعًا للمؤمنين - يجدُ اختلافًا بينَ الآيتينِ في التَّعبيرِ بـ ﴿سَيَحۡلِفُونَ﴾ في الأولى، وفي الثّانية بـ ﴿يَحۡلِفُونَ﴾ دون السِّين، ويجدُ في الآيةِ الأولى ذكرَ المُقسم بهِ ﴿بِٱللَّهِ﴾ وعدمَ ذكرهِ في الثّانية.

بلاغةُ ذكرِ السِّينِ في ﴿سَيَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمۡ إِذَا ٱنقَلَبۡتُمۡ﴾ الآية.

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/94، والسّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 348، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/10، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3420.

ذُكِرَتِ السِّينُ في قولِهِ: ﴿سَيَحْلِفُونَ﴾؛ لأنَّها حرفٌ يفيدُ تخليصَ المضارعِ للاستقبالِ[1]، وهو المناسبُ لما كانَ يضمرهُ المنافقونَ من كذبٍ في اعتذارِهِم؛ إذ هو أمرٌ خفيٌّ، يمكِّنُهم من التَّلبيس على المؤمنين، وذلك إذا اقترنَ الاعتذارُ بيمينٍ مؤكِّدَةٍ؛ لذا أوحى اللّهُ إلى نبيِّهِ ﷺ قبلَ قفولِهِ من غزوةِ تبوكَ بما سيكونُ من أمرِ المنافقين؛ إبطالًا لمكرِهِم وتكذيبًا لاعتذارِهم، وفيهِ إشارةٌ إلى وجهٍ إعجازيٍّ في القرآنِ، حيثُ أخبرَ بما لم يقع بعد؛ حيثُ نزلتِ الآياتُ قبلَ رجوعِ النَّبيِّ ﷺ والمؤمنين، وهو من جملة المعجزاتِ[2]، أمّا قولُه تعالى: ﴿يَحْلِفُونَ﴾ مجرَّدًا من السِّين، فإنَّها في بيانِ حالِ المنافقين وتسجيلِ قبائحِهم، وهي مُتجدِّدَةٌ في نفوسِهم وملازمةٌ لهم في سائرِ الأحوالِ، ولو اقترنتْ بالسِّين؛ لفاتتْ دلالتُها على هذا المعنى.

وذهبَ بعضُ المفسِّرين إلى أنَّ الآيةَ المقترنة بالسِّين مخصوصةٌ بمجموعة من المنافقين، والَّتي خلت من السِّين في طائفةٍ أخرى[3]، وإن كانَ الرّاجحُ أنَّ الآيتين في طائفةٍ واحدةٍ، فالأولى تحدَّثت عن حلفٍ أنشأهُ المنافقون اعتذارًا عن الخروجِ إلى الغزوةِ؛ لأنَّهُ كما زعموا فوقَ طاقتهم، والثّانيةُ بعد تحقُّق التَّخلُّف، فرغبوا أن يُعرضَ المسلمون عنهم؛ فلا يؤاخذوهم[4].

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(الحَلْفُ)، و(القَسَمُ):

فرَّقَ العسكريُّ بين القسمِ والحلفِ واليمينِ، بأنَّ القسمَ أبلغُ من الحلفِ؛ لأنَّ معنى قولنا: أُقسِمُ باللّهِ أنَّهُ صارَ ذا قسَمٍ باللّهِ، والمرادُ

الحَلْفُ يردُ غالبًا فيما يكون كذبًا، بخلاف القَسَم، فإنَّه مبنيٌّ على الصِّدقِ

(1) المراديّ، الجنى الدّاني في حروف المعاني، ص: 59.

(2) الجمل، الفتوحات الإلهيّة: 3/259.

(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/73، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 16/124، والنّيسابوريّ، تفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان: 3/519.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/184، 185، والسّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 348.

أنَّ الَّذي أقسمَ عليهِ من المالِ وغيره قد أحرزَهُ، ودفعَ عنه الخصمَ باللّهِ. والحَلْفُ مِن قولِكَ: سيفٌ حليفٌ، أي: قاطعٌ ماضٍ، فإذا قُلتَ: حلفَ باللّهِ، فكأنَّكَ قلتَ: قطعَ المخاصمةَ باللّهِ، فالأوَّلُ أبلغُ؛ لأنَّه يتضمَّنُ معنى الآخر مع دفعِ الخصمِ، ففيهِ معنيان، وقولنا: حلفَ يفيدُ معنى واحدًا وهو قطعُ المخاصمةِ فقط، وذلك أنَّ مَن أحرزَ الشَّيءَ باستحقاقٍ في الظّاهرِ، فلا خُصومةَ بينه وبين أحدٍ فيه، وليس كلُّ من دفعَ الخصومةَ في الشَّيءِ، فقد أحرزَهُ. والحَلْفُ أكثرُ استخدامًا فيما يكون كذبًا، ويكونُ صاحبهُ عالمًا بذلك، والقسمُ أكثرُ استخدامًا فيما يكونُ صدقًا.

وقدْ آثرَ التَّعبيرَ بالحلفِ دونَ القسمِ لوجودِ فرقٍ بينهما، فالحَلْفُ يدورُ في العربيَّة على احتمال الحِنْثِ غالبًا؛ لأنَّه مبنيٌّ على الظَّنِّ، وفي البيان القرآنيِّ يتَّضحُ بجلاءٍ أنَّ اليمينَ في الحلفِ معقودةٌ غالبًا على الحنثِ أصلًا، حيث يحلفُ المنافقون على خلافِ الحقيقة التماسًا للعذر، دون مبرَّةٍ في الحلفِ أو صدقٍ في اليمين. يؤكِّدُ ذلك أنَّ لفظَ الحلفِ في القرآن الكريم وردَ غالبًا في حقِّ المنافقينَ، وسورةُ التَّوبةِ شاهدةٌ على ذلك، فقد تكرَّرَ فيها لفظُ الحلف في سياقِ حديثِ القرآنِ عنهم، بخلاف القَسَمِ فإنَّه مبنيٌّ على الصِّدقِ، ولذلك يردُ القسمُ في القرآنِ في جانبِ المولى ﷻ، قال تعالى: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَا تُبۡصِرُونَ ٣٨ وَمَا لَا تُبۡصِرُونَ﴾ [الحاقة: 38 - 39] ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِرَبِّ ٱلۡمَشَٰرِقِ وَٱلۡمَغَٰرِبِ﴾ [المعارج: 40] إلى غير ذلك من الآيات الَّتي ورد فيها لفظُ القسم. وعلى ذلك فالحلفُ ليس كالقسم؛ لأنَّ القَسَمَ يكونُ على الشَّيء الواضح والحقِّ البيِّنِ، والأَيمان الصّادقة؛ ولهذا جاء القَسَم في القرآنِ في الأيمانِ الصّادقة، وجاء موصوفًا بالعظمةِ في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٞ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ [الواقعة: 76]، بخلافِ الحلفِ؛ فهو في جانبِ المنافقينَ كما سبقَ ذكرُ ذلك.

المأوى والمثوى:

المثوى: (مَفْعَلٌ) من ثوى إذا أقامَ، وهو المستقرُّ والمآلُ الَّذي يَبلُغُهُ المرءُ بعد عَناءٍ ومُكابدةٍ، ويصِلُ إليهِ بدون تَخطيطٍ ولا سَعيٍ ولا تَدبيرٍ مُسبقٍ، وقد يكونُ مَثوى سُوْءٍ أو مَثوى راحةٍ وكرامة، فالمفردةُ ليست للدَّلالةِ على الخيرِ المحضِ أو الشَّرِّ المحضِ، بل محايدة تصفُ الحال سواء كان مآلَ خيرٍ أو مآلَ شرٍّ، ويُسمَّى قَبْرُ الرَّجلِ (مثواه)؛ لأنَّه استقرَّ فيهِ بعد عناءِ الحياةِ ولم يكن يسعى له، ويحتملُ أن يكونَ مثواهُ حسنًا أو سيِّئًا.

أمَّا المأوى: فـ(مَفْعَلٌ) من أوى إلى كذا، إذا ذهبَ إليهِ، وهو المستقرُّ والمآلُ المكِيْنُ الَّذي يَبْلُغُهُ مَنْ يَسعى، ويجهدُ في الوصُول إليه، يقول تعالى: ﴿إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُواْ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً﴾ [الكهف: 10]. فإنَّ ﴿ٱلْفِتْيَةُ﴾ سعوا، وجهدوا، ودبَّروا أمرهم للوصولِ للكهف؛ بحثًا عن الأمنِ والاحتماءِ من عدوِّهم، فكانَ الكهفُ مأوًى لهم.

المأوى كلّ مكانٍ يرجعُ إليه الإنسان، بخلاف المثوى؛ فهو المكانُ الَّذي يقامُ فيه

وقد آثرَ التَّعبيرَ بالمأوى دونَ المثوى لوجودِ فرقٍ بينهما: فالمأوى يطلقُ على المسكنِ والمقرِّ الَّذي لا براحَ منه، وهو اسمُ مكانٍ من أويتُ إلى المكانِ؛ إذا دخلْتَهُ، وسكنْتَ فيهِ، ودلالتهُ اللُّغويَّةُ تدلُّ على الضَّمِّ والتَّجمُّعِ.

أمَّا المثوى؛ فهو اسمُ مكانٍ من ثَوى، والثَّواءُ هو طولُ المقامِ، والثَّوي: يقال للبيت المهيَّأ للضيف، ويقالُ للغريبِ؛ إذا أقام ببلدةٍ: ثاوٍ، قال تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِيٓ أَهْلِ مَدْيَنَ﴾ [القصص: 45]، وعلى هذا؛ فالمأوى يختلفُ عن المثوى، وذلك أنَّ المأوى يطلقُ على كلِّ مكانٍ يرجعُ إليه الإنسان أو غيره ليلًا أو نهارًا، بخلاف المثوى؛ فهو المكانُ الَّذي يقامُ فيه، وبذلك يكون المأوى أعمَّ من المثوى؛ لأنَّهُ لا يلزمُ من الإيواءِ الثَّواءُ، بخلاف الثَّواءِ، فيلزمُ منه الإيواءُ، وأيضًا أنَّ المأوى يكونُ في الجنَّة والنَّارِ، والآياتُ في هذا كثيرةٌ، بخلاف المثوى؛ فهو في الغالب في العقاب والعذاب، قال تعالى: ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [الزمر: 60]، وقال أيضًا: ﴿وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [آل عمران: 151] إلى غيرِ ذلك من الآياتِ الَّتي ذُكر فيها المثوى في مقامِ العقابِ والعذابِ[1].

الانقلابُ والرُّجوعُ:

التَّعبيرُ بالانقلابِ يفيدُ العودةَ مختارًا، ولا يشترط ذلك في الرّجوع

عبَّرَ عن الرُّجوعِ بالانقلابِ؛ لأنَّ المجاهدَ سائرٌ في طريقهِ إلى الأمامِ، فإذا أرادَ العودةَ انقلبَ من السَّيرِ إلى الأمامِ إلى العودةِ إلى الوراء، والتَّعبيرُ بالانقلابِ يفيدُ العودةَ مختارًا غيرَ مقهورٍ ولا

(1) الحمداني، الفروق اللُّغوية في القرآن الكريم، ص: 167 - 170.

مهزوم ولا متراجع[1].وممّا يذكرُ أنَّ الانقلابَ: رجوعٌ وانصرافٌ مع زيادةِ معنى الوصول والاستيلاء[2].

الإعراضُ والصَّفْحُ:

مرادُ المنافقينَ التَّرْكُ لا ابتداءُ حياةٍ صحيحةٍ، وصفحةٍ جديدةٍ، مع المسلمينَ

آثرَ التَّعبيرَ بالإعراضِ دونَ الصَّفحِ لوجودِ فرقٍ بينهما، فقولُك: صفحتُ عن فلانٍ يفيدُ أنَّك أعرضتَ عن صفحةِ ماضيهِ، وأقبلتَ إليهِ بصفحةٍ جديدةٍ، فاستعملَ الصَّفحَ على هذا بمعنى البدءِ بصفحةٍ جديدةٍ، قالَ تعالى: ﴿فَٱعۡفُواْ وَٱصۡفَحُواْ﴾ [البقرة: 109]، وقالَ تعالى: ﴿وَلۡيَعۡفُواْ وَلۡيَصۡفَحُوٓاْۗ﴾ [النّور: 22]، ومعلومٌ من سببِ نزولِ هذه الآيةِ أنَّ القصدَ منها الإعراضُ عن صفحةِ ماضي الصحابيِّ (مِسْطَحِ بنِ أُثاثَةَ) والبدءُ معه بصفحةٍ جديدةٍ. أمّا الإعراضُ؛ فهو بمعنى التَّركِ، قال تعالى: ﴿فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ وَعِظۡهُمۡ﴾ [النّساء: 63]، وقوله تعالى: ﴿فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾ [الأحزاب: 48] إلى غيرِ ذلك من الآياتِ، وأغلبُها في شأنِ المنافقين، والمرادُ: التَّركُ لهم بالكليَّةِ دونَ معاتبةٍ أو مؤاخذةٍ؛ لأنَّهم ليسوا أهلًا لها؛ لذلك آثرَ التَّعبيرَ بالإعراضِ هنا لمناسبتهِ لسياقِ الآيةِ في حالةِ هؤلاء المنافقينَ[3].

(الرِّجْسُ) و(الرِّجْزُ):

الرِّجسُ؛ كلِّ شيءٍ يُستقذرُ، والرِّجزُ العذابِ، أ والوسوسة، أوعبادة الأوثانِ

آثرَ القرآنُ الكريمُ التَّعبيرَ بالرِّجس دونَ الرَّجزِ لوجود فرقٍ بينهما، فمادَّةُ الرِّجزِ تدلُّ على الاضطرابِ، وهو داءٌ يصيبُ الإبلَ في أعجازِها، فإذا ثارتِ النّاقةُ ارتعشت فخذاها، ومن هذا اشتقاقُ الرَّجَزِ من الشِّعر؛ لأنَّهُ مقطوعٌ مضطربٌ، ويطلقُ الرِّجزُ على العذابِ، وكلُّ عذابٍ أُنزل على قومٍ، فهو رجزٌ، ووسواسُ الشَّيطانِ رجزٌ، وعبادةُ الأوثانِ رجزٌ، قال تعالى: ﴿وَٱلرُّجۡزَ فَٱهۡجُرۡ﴾ [المدّثر: 5] -على قراءة الجمهور- أي: اهجرْ ما يؤدِّي إلى الرِّجزِ.

أمّا الرِّجسُ؛ فيطلقُ على كلِّ شيءٍ يستقذرُ، كالخنزيرِ، وكلُّ قذرٍ

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 6/5، والتّحرير والتّنوير: 4/313، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3418.
(2) الآلوسيّ، روح المَعاني: 6/5.
(3) العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 236.

رجسٌ، ويطلقُ الرِّجس على النَّتْنِ، قال تعالى: ﴿أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ﴾ [الأنعام: 145] وذلك من حيثُ الشَّرعُ، وعلى هذا فالرِّجسُ يختلف عن الرِّجزِ، وإن وجدَ بينهما اشتراكٌ في المعنى إلّا أنَّ القرآنَ آثرَ التَّعبيرَ عنهم بالرِّجس لكي يُنَفِّرَ المؤمنين من مجالستِهم ومؤاكلتِهم والتَّعامل معهم؛ لأنَّ رائحتَهم منتنةٌ، وفي هذا توبيخٌ وتقريعٌ للمنافقينَ[1].

(الجزاءُ) و(الأجرُ):

الجزاءُ مقابلةُ الخير بالثَّواب، والشَّرِّ والأجرُ ما يعود من ثواب العمل

آثرَ التَّعبيرَ بالجزاءِ دونَ غيرِه لوجود فرقٍ بينهما: فالجزاءُ هو المقابلةُ على الخير بالثَّواب وعلى الشَّرِّ بالعقاب، وأصلهُ الغَنَايةُ والكفايةُ، قالَ تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا﴾ [البقرة: 48]، والجزاءُ يكونُ مماثلًا مساويًا للمُجزى عنه؛ لأنَّ أصلَ الجزاءِ في كلامِ العربِ القضاءُ والتَّعويضُ، يقالُ: جَزَيْتُهُ قَرْضَهُ ودَيْنَهُ أَجْزيهِ جَزاءً؛ بمعنى: قضيتُ دينَهُ، ولا يتأتَّى في هذا المقامِ إلّا الجزاءُ، فلا يردُ الأجر أو الثَّواب في هذا المقامِ؛ لأنَّ الأجرَ لا يقال إلّا في النَّفعِ غالبًا، والثَّواب في الجزاءِ بالخير على العملِ الصّالح، والمقامُ هنا هو مقامُ عقابِ المنافقين[2].

الرِّضا والمحبةُ:

الرِّضا اطمئنانُ القلبِ إلى أمرٍ فيه نفعٌ، والمحبَّةُ؛ إرادةُ ما تراهُ خيرًا

آثرَ التَّعبيرَ بالرِّضا دونَ المحبَّةِ؛ لوجود فرقٍ بينهما: فالرِّضا هو اطمئنانُ القلبِ إلى أمرٍ فيه نفعٌ، وهو خلافُ السُّخطِ، وأمّا المحبَّةُ؛ فهي إرادةُ ما تراهُ أو تظنُّه خيرًا، وضدُّها البُغضُ.

وعلى هذا فالمناسبُ التَّعبيرُ بالرِّضا؛ لأنَّ المنافقينَ يرونَ لأنفسِهم وجودًا في المجتمعِ، ويريدونَ من المسلمينَ أن يطمئنوهُم على مصالحهِم ومنافعِهم، والرِّضا أمرٌ يجمعُ بين الظّاهر والباطنِ، بخلافِ الحبِّ فهو أمرٌ باطنيٌّ قد لا تظهرُ آثارهُ عليهم في المجتمعِ.

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 548.
(2) الدّوريّ، دقائق الفروق اللّغويّة، ص: 148.

﴿ٱلۡأَعۡرَابُ أَشَدُّ كُفۡرٗا وَنِفَاقٗا وَأَجۡدَرُ أَلَّا يَعۡلَمُواْ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٩٧﴾ [التّوبة: 97]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

العلاقة بين حال منافقي المدينة، وحال أعراب البادية الغلاظ الشّداد

لمّا ذكرَ اللّهُ ﷻ في الآياتِ السّابقةِ بعضَ أحوالِ المنافقينَ بالمدينةِ المنوَّرةِ الَّذين استأذنوا في عدمِ الخروجِ مع الرَّسولِ ﷺ لقتالِ الرُّوم، جاءت هذه الآياتُ لِتذكُرَ من كانَ خارجًا منها ونائيًا عنها، من الأعرابِ الَّذين يسكنونَ الباديةَ، بقولِه: ﴿ٱلۡأَعۡرَابُ أَشَدُّ كُفۡرٗا وَنِفَاقٗا﴾.

وممَّا يذكرُ أيضًا في المناسبةِ؛ لمّا رتَّبَ اللّهُ سبحانه الاستئذانَ في القُعودِ، والرِّضا بما فيه من الدَّناءةِ، على عدَمِ الفِقهِ تارةً، والعِلمِ أُخرَى، وختَمَ بصِنفِ الأعرابِ؛ بيَّنَ أنَّ الأعرابَ أوْلَى بذلك؛ لِكَونِهم أعرَقَ في هذا الوصفِ، وأجرأَ على الفِسقِ؛ لبُعدِهم عن مَعدِنِ العِلمِ، وصَرفِهم أفكارَهم في غيرِ ذلك مِن أنواعِ المَخازي لتحصيلِ المالِ الذي كلَّما داروا عليه؛ طارَ عنهم، فأبعَدَ، فهم لا يزالونَ في همِّهِ، قد شغَلَهم ذلك عن كُلِّ هَمٍّ، وهم يحسَبونَ أنَّهم يُحسِنونَ صُنعًا[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلۡأَعۡرَابُ﴾: سُكّانُ الباديَةِ مِن العَرَبِ الَّذين يَتَنَقَّلونَ فيها بَحْثًا عَنِ الماءِ والعُشْبِ، ولا يُقيمونَ في الأَمْصارِ والمُدُنِ، ولا يَدْخُلونَها إلَّا لِحاجَةٍ، وقيلَ: الأَعْرابُ هم البَدْو، ولو كانوا عجمًا، وجَمْعُ الأَعْرابِ: أَعاريبُ، والتَّعرُّبُ: الإقامةُ في الباديةِ مع الأَعرابِ، وأصلُ التَّعَرُّبِ:

(1) البقاعي، نظم الدرر: 9/4.

التَّشَبُّهُ بالعَرَبِ، يُقالُ: تعرَّبَ؛ إذا تَشَبَّهَ بالعَرَبِ، ومُفردُ الأَعْرابِ: أَعْرابِيٌّ، وَقِيلَ: لاَ مُفْرَدَ لها، وأَمَّا الأَعْرابِيُّ؛ فَهِيَ النِّسْبَةُ إلى الأَعْرابِ، كقَولِك: فُلانٌ أَعْرابِيٌّ، أي: مِنَ الأَعْرابِ، وليس الأَعْرابُ جَمْعًا لِعَرَبٍ[1].

2) ﴿أَشَدُّ﴾: الشِّدَّةُ: الصَّلابةُ، وتأتي بمعنى الإِحْكام، وكلُّ شَيْءٍ أُحكِمَ؛ فقد شُدَّ، وأصلُها: القُوَّةُ في الشَّيْءِ، يُقال: شَدَدْتُ العَقْدَ شَدًّا، أي: قَوَّيْتُهُ، والشَّدُّ: الرَّبْطُ والعَقْدُ، ومِن معاني الشِّدَّة: الارْتِفاعُ، والصُّعُوبَةُ، والعُسْرُ، والجَلادَةُ، والثَّباتُ، والنَّجْدَةُ[2].

3) ﴿وَأَجْدَرُ﴾: أصلُ الجَدْرِ مِن الجِدارِ، وهو الحائِطُ، وجَمعُهُ جُدُرٌ وَجُدْرانٌ، وَفي الْحَدِيثِ: «اسْقِ – يا زُبَيْرُ – وَدَعِ الْماءَ يَرْجِعُ إِلَى الْجَدْرِ»[3]، وقيل: أصلُ (الجدْر) هو أَصْلُ الشَّجَرَةِ، فَكَأَنَّهُ ثابتٌ كثبوت الجدْرِ[4]، وَمِنْ هَذا الْبابِ قَوْلُهُمْ: هُوَ جَدِيرٌ بِكَذا، أَيْ: حَرِيٌّ بِهِ، وَهُوَ مِمَّا يَنْبَغِي أَنْ يُثْبِتَ أَمْرَهُ، وَيَبْنِيَه عَلَيْهِ[5]، والجديرُ أيضًا: الْمُنْتَهى، لانْتِهاءِ الْأَمرِ إِلَيْهِ، انْتِهاءَ الشَّيْءِ إِلَى الْجِدارِ[6]، والمقصودُ بـ ﴿وَأَجْدَرُ﴾ في الآية: أَحَقُّ وأَخْلَقُ[7].

4) ﴿حُدُودَ﴾: الْحُدُودُ: الْمَقادِيرُ والْفَواصِلُ بَيْنَ الْأَشْياءِ، والْمَعْنَى: أَنَّهُمْ لا يَعْلَمُونَ فَواصِلَ الْأَحْكامِ وَضَوابِطَ تَمْيِيزِ مُتَشابِهِها، وحدُّ الشَّيءِ: مُنتهاهُ، ويأتي بمعنى: المَنْع، ومنْهُ سُمِّيَ البَوَّابُ: حَدَّادًا؛ لِأَنَّه يَمنعُ غيرهُ مِنَ الدُّخولِ، وسُمِّيَتْ عُقوبةُ الزِّنى وغيره: حَدًّا؛ لأنَّها تمنعُ مِن مُعاودتهِ، ويَمنعُ أيضًا غيرهُ عن إتيان الجِناياتِ[8].

المَعْنى الإِجْمالِيُّ:

يُخبِرُ تعالى أنَّ الأعرابَ أشَدُّ كُفرًا باللهِ، وأشَدُّ نِفاقًا مِن الكُفّارِ، ومُنافِقي أهلِ الحضَرِ؛ لأنَّهم أغلظُ طبعًا وأقسى قلبًا، وهم بذلك أجدرُ وأحقُّ ألَّا يَعلَموا الحلالَ والحَرامَ،

(1) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب، والزَّبيدي، تاج العروس: (عرب).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والجوهريّ، الصّحاح، وابن منظور، لسان العرب، وابن الأثير، النّهاية، والزَّبيديّ، تاج العروس: (شدد).
(3) رواه أحمد في مسنده، عن عبد الله بن الزّبير ﷺ: 26/40، رقم الحديث: (16116).
(4) الكفويّ، الكليّات، ص: 51.
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (جدر).
(6) الرّاغب، المفردات: (جدر).
(7) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/12، وطنطاويّ، التّفسير الوسيط: 6/386.
(8) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن سيده، المحكم، وابن منظور، لسان العرب: (حدد)، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/12.

ذكر كفر الأعراب وشدّتهم، لجهلهم بأحكام الشّرع، وآداب المعاملة

والشَّرائِعَ التي أنزَلَها اللّهُ على رَسولِه مُحمَّدٍ ﷺ إذ لم يجلسوا في مجالسِ علمِ الرَّسولِ ﷺ ولم يتعلَّموا على يدِ صحابتِه، واللّهُ عليمٌ بما في قلوبِهم ونيّاتهم، حَكيمٌ في حكمِه عليهِم.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالةُ فصلِ الآيةِ عن سابقتِها:

بيانُ طبيعةِ الأعرابِ في المدينةِ وغيرِها

فُصِلت هذهِ الجملةُ ﴿ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا﴾ عمّا قبلَها؛ لأنَّها استئنافٌ ابتدائيٌّ رجع به الكلامُ إلى أحوالِ المعذَّرين من الأعرابِ، والَّذين كَذَبوا اللّهَ ورسولَهُ منهم، وما بين ذلك استطرادٌ دعا إليه اقترانُ الَّذين كذبوا اللّه ورسولَهُ في الذِّكر مع الأعرابِ، فلمّا انقضى الكلامُ على أولئك تخلَّصَ إلى بقيَّةِ أحوالِ الأعراب[1].

فائدةُ تقديمِ المسندِ إليه على المسندِ الشّبيهِ بالفعليّ:

تنبيهُ المسلمينَ لأحوالِ الأعرابِ، لمعرفةِ كيفيّةِ التّعامل معهم

قُدِّمَ المسندُ إليهِ ﴿ٱلْأَعْرَابُ﴾؛ للتَّنبيهِ على اتِّصالِ الحديث بالمنافقين، وذلك للاهتمامِ به من هذه الجهةِ، وأيضًا لتنبيهِ المسلمينَ لأحوالِ الأعرابِ؛ لأنَّهم لبُعدِهم عن الاحتكاكِ بهِم والمخالطةِ معهم قد تخفى عليهم أحوالُهم، ويظنُّونَ بجميعهِم خيرًا[2].

سرُّ العدولِ عن(أهلِ البدوِ)، بوصفِ (الأعرابِ):

الأعرابُ لفظٌ مختصٌّ بأهل البادية، وهم أشدّاء في البأس والتّعامل

قوله تعالى: ﴿ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا﴾، وفيه عدلَ عن التَّعبيرِ عن أهلِ البدوِ إلى الوصفِ بالأعرابِ؛ لأنَّه يعطي وصفًا ثابتًا متعلِّقًا بالبدو وبالبداوةِ، وللتَّفريق بين الأعرابِ والعربِ: فالأعرابُ لفظٌ مختصٌّ بأهل البادية، وأمّا العربُ؛ فمن سكنَ بالمدينة وقربها، ولهذا إذا قيلَ للأعرابيِّ: يا عربيُّ، فَرِحَ، وإذا قيل للعربيِّ: يا أعرابيُّ، غَضِبَ[3]، وممّا يؤكِّد ذلك، ما قاله أبو السُّعود: "الأعرابُ:

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/10 - 11، وطنطاويّ، التّفسير الوسيط: 6/386، وعبد الفتاح لاشين، لغة المنافقين في القرآن الكريم، ص: 191.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/11.

(3) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاوي: 9/316.

هي صيغةُ جمعٍ، وليست بجمعٍ للعرب، قاله سيبويه؛ لأنَّه لا يلزم كونُ الجمع أخصَّ من الواحد، فإنَّ العربَ: هو هذا الجيل الخاصُّ سواءٌ سكن البوادي أو القرى، وأمّا الأعرابُ؛ فلا يطلقُ إلّا على من يسكن البوادي"[1].

دلالةُ (الْ) على الجنس، في لفظ ﴿ٱلْأَعْرَابُ﴾:

الحكمُ على الجنسِ حكمٌ على المجموعِ لا على الجميعِ

اللَّام في ﴿ٱلْأَعْرَابُ﴾ للجنسِ، أي: جنسُهم لا كلُّ واحدٍ منهم، فالأَعرابُ لفظةٌ عامَّةٌ، ومَعْناها الخُصوصُ، وهم جَمعٌ مُعيَّنٌ مِن مُنافِقي الأعرابِ، كانوا يُوالون مُنافِقي المدينةِ، فانصرَف هذا اللَّفظُ إليهم، وهذا مَعلومٌ بالوُجودِ، وكيف كان الأمرُ، وهو مِن بابِ وصْفِ الجِنْسِ بأحَدِ أفرادِهِ أو بَعضِهم، كما في قولِه تعالى: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا﴾ [الإسراء: 67]؛ إذ ليس كلُّهم[2].

دلالةُ التَّعبيرِ بقولِهِ: ﴿أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا﴾:

الوصفُ بالشِّدَّةِ، آيةٌ على بلوغِ الغايةِ في الكفرِ والنِّفاقِ

عبَّرَ بوصفِهم بشدَّةِ الكفرِ والنِّفاق دونَ الاكتفاءِ بوصفِ الكفرِ والنِّفاق؛ لبيانِ أنَّهم بلغوا الغايةَ القصوى في الكفرِ، وفي النِّفاقِ، فكفرُهم يلتقي فيه الجحودُ والنُّكرانُ والجهلُ الشَّديدُ والغلظةُ الكافيةُ مع عدمِ الإيمان باللهِ ورسولِه، وفي نفاقِهم بلغوا فيه الغايةَ لعدم الإيمان الحقيقيِّ، وتظاهروا بالإسلامِ والاستسلامِ[3]. وممَّا يذكرُ في علَّةِ وصفِهم بالأشدِّ في الكفرِ: أنَّ الكفرَ متعلَّقُهُ القلبُ فقط، فإذا دخلت فيه أعمالُ الجوارحِ؛ تحقَّقت فيه الشِّدَّة[4]وقد حكمَ عليهم القرآنُ بشدَّةِ الكفرِ والنِّفاقِ؛ لأنَّهم ما كانوا تحتَ سياسةِ سائسٍ ولا تأديب مؤدِّبٍ ولا ضبط ضابطٍ، فنشؤوا كما

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/95.

(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/73، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 16/125، والقنّوجيّ، فتح البيان: 5/377.

(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3422.

(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/491.

شاؤوا، بخلاف من شاهدَ مواعظَ رسولِ اللّهِ ﷺ وبياناتِه الشّافيةَ وتأديباتِه الكاملةَ، فكيفَ يكونُ مساويًا لمن لم يشاهد هذا الخير[1].

سرُّ التَّعبيرِ بلفظ ﴿أَشَدُّ كُفْرًا﴾:

الكثرةُ لا تحملُ معنى الشِّدَّةِ، ولهذا آثرها السّياق القرآنيّ

آثرَ التَّعبيرَ بلفظِ ﴿أَشَدُّ﴾ في قولِه: ﴿ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا﴾ دونَ أكثرَ؛ لأنَّه هو المناسبُ لحالة الأعرابِ؛ فمادَّة الشَّدِّ تدور حول القوَّةِ، يقالُ: شددْتُ الشَّيءَ: قويَّتُ عقدهُ، قال تعالى: ﴿وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ﴾ [الإنسان: 28]، والشِّدَّة تستعملُ في العقدِ وفي البدن وفي قوى النَّفس وفي العذابِ، قال تعالى: ﴿وَكَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ [فاطر: 44]؛ بخلاف الكثرة، فلا تحملُ معنى الشِّدَّة، فالأشدُّ يقابله الأضعفُ، والأكثرُ يقابله الأقلُّ، والمراد هنا الحديثُ عن الشِّدَّة البدنيَّةِ والمعنويَّةِ في طبيعة الأعراب؛ لقسوةِ طباعهم وغلظةِ قلوبِهم، فكانَ التَّعبيرُ بالأشدِّ هو الأوفقُ للسِّياقِ[2].

دلالةُ حذفِ المفضَّلِ عليهِ، في صيغتي: ﴿أَشَدُّ﴾ وَ ﴿وَأَجْدَرُ﴾:

حذفُ المفضولِ عليهِ، دالٌّ على التَّمكُّنِ من نفوسِهم

حُذِفَ المفضَّلُ عليهِ على رأي من جعلَ أفعلَ التَّفضيل على بابِه ﴿أَشَدُّ﴾ و﴿وَأَجْدَرُ﴾ فيكون المفضَّلُ عليه أهلَ الحضرِ، أي: كُفّارَ ومنافقي المدينة، وهذا هو الَّذي تواطأَ عليه جميع المفسِّرين[3]، وعلى رأي من يرى أنَّ أفعلَ التَّفضيل على غيرِ بابِه، فالمعنى في ﴿أَشَدُّ﴾ و﴿وَأَجْدَرُ﴾ مستعملٌ لقوَّةِ الوصفَيْنِ في الموصوفِين بهما، "فالمعنى: أنَّ كفرَهم شديدُ التَّمكُّن من نفوسِهم، ونفاقَهم كذلك؛ من غيرِ إرادةِ أنَّهم أشدُّ كفرًا ونفاقًا من كفّار أهل المدينة ومنافقيها"[4]؛ لأنَّ الشَّأنَ في البدوِ أن يكونوا أشدَّ كفرًا ونفاقًا.

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 16/125.
(2) الرّاغب، المفردات: (شدَّ).
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/11.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/11، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3422.

دلالةُ التَّمييزِ في قولِهِ: ﴿كُفْرًا﴾ و﴿وَنِفَاقًا﴾:

إزالةُ الإبهامِ في وصفِ (أشدّ)، للإبانة عن المراد

قوله: ﴿كُفْرًا﴾ وَ﴿وَنِفَاقًا﴾ منصوبان على التَّمييزِ، لبيانِ الإبهامِ الَّذي في وصف ﴿أَشَدُّ﴾؛ لذلكَ سلَكَ مسلكَ الإجمالِ، ثمَّ التَّفصيلِ ليتمكَّنَ المعنى أكملَ تمكُّنٍ[1].

دلالةُ الجمعِ بينَ الكفرِ والنِّفاقِ، في قوله: ﴿كُفْرًا وَنِفَاقًا﴾:

خبثُ طبيعةِ بعضِ الأعرابِ، لتمكُّنِ الكفرِ والنِّفاق فيها

جمعَ بين الكفرِ والنِّفاقِ لبيان واقعِ الأعرابِ؛ لأنَّهم بعدَ وفاةِ رسولِ اللّهِ ﷺ منهم من كفرَ، وارتدَّ عن الإسلامِ، ومنهم من نافقَ لمّا قويت شوكةُ المسلمين بعد قتالِ أبي بكر رضي الله عنه لهم، فأخذوا يخفونَ كفرَهم، ويظهرونَ إسلامَهم.

سرُّ تقديمِ (الكفرِ) على (النِّفاق)، في السّياق:

الكفرُ أصلُ كلِّ سوءٍ، ومعقد كلّ مفسدة

في قولِهِ: ﴿كُفْرًا وَنِفَاقًا﴾ قُدِّمَ الكفرُ؛ لأنَّهُ الأصلُ في الجحودِ والنُّكرانِ للّهِ ولرسولِهِ، أمّا النِّفاقُ؛ فيأتي كمرحلةٍ ثانية عند ما يصعب على الكافرينَ المجاهرةُ بكفرِهم، فيلجؤونَ إلى النِّفاق لمداراةِ ما يريدونَ.

نكتةُ تنكيرِ ﴿كُفْرًا﴾ و﴿وَنِفَاقًا﴾:

شيوعُ الكفرِ والنِّفاقِ في الأعرابِ، أكثرُ من غيرِهم

التَّنكيرُ في ﴿كُفْرًا وَنِفَاقًا﴾ يدلُّ على شيوعِ الكفرِ والنِّفاقِ فيهم وتمكُّنِهما منهم، كأنَّهما صارا طبيعةً لهم، ولذلك يوصفُ كفرُهم ونفاقُهم بأنَّهُ غليظٌ كثيفٌ، لا تُرى عليهم وضاءةٌ من حقٍّ ولا نورٌ من هُدًى، وذلك لبعدِهم عن مواقعِ الهُدى والنُّورِ من رسولِ اللّهِ ﷺ والمؤمنين معه، يؤكِّد ذلك ما ذكرهُ الماورديُّ في علَّةِ التَّنكيرِ بقولِهِ: "له وجهانِ: أحدها: أن يكونَ الكفرُ والنِّفاقُ فيهم أكثرَ منه في غيرِهم لقلَّةِ تلاوتِهم القرآنَ وسماعِهم السُّنَنَ، والآخر: أنَّ الكفرَ والنِّفاقَ فيهم أشدُّ وأغلظُ منه في غيرِهم؛ لأنَّهم أجفى طباعًا وأغلظُ قلوبًا"[2].

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/11.

(2) الماورديّ، النّكت والعيون: 2/393.

طبائعُ البشرِ انعكاسٌ لبيئاتِهم، وتعبيرٌ عن نفسيّاتهم

الجدارة بعدم العلم والفهم، مناسبة للأعراب، الّذين اكتسبوها من البيئة الخشنة

دلالةُ العطفِ في جملة ﴿وَأَجۡدَرُ﴾:

دلَّتِ الواوُ على عطفِ قولِه تعالى: ﴿وَأَجۡدَرُ أَلَّا يَعۡلَمُواْ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦۗ﴾، على ما قبلَها لتعديدِ صفاتِهم الذَّميمةِ الَّتي سبقَ بعضُها، ومنها عدمُ معرفتِهم حدودَ ما أنزل اللّهُ تعالى على رسولِه.

سرُّ التَّعبيرِ بلفظ ﴿وَأَجۡدَرُ﴾:

قولِه تعالى: ﴿وَأَجۡدَرُ أَلَّا يَعۡلَمُواْ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦۗ﴾، وفيه آثرَ التَّعبيرَ بـ ﴿وَأَجۡدَرُ﴾ دونَ (أحرى) لوجودِ فرقٍ بينهما، فالحريُّ هو الَّذي رجا أمرًا، وطلبَهُ، يقال له: تحرّاهُ، كأنَّهُ طلبَ مستقرَّهُ ومأواهُ، وأمّا قولهُم: جديرٌ به، معناهُ: أنَّ ذلك يرتفعُ من جهتِه، ويظهرُ من قولِهم: جُدِّرَ الجِدارُ؛ إذا بُني، وارتفع، والجديرُ: المنتهى، لانتهاءِ الأمرِ إليه انتهاءَ الشَّيءِ إلى الجدارِ؛ لأنَّ اشتقاقَهُ من الجدرِ، وهو أصلُ الشَّجرةِ، فكأنَّهُ ثابتٌ كثبوتِ الجدرِ، إذًا مادَّةُ (جدر) تدلُّ على ثبوتِ الشَّيءِ وارتفاعِه[1].

وبناءً على هذا، آثرَ القرآنُ الكريمُ التَّعبيرَ بقوله: ﴿وَأَجۡدَرُ﴾ لمناسبتِه لسياقِ الحديثِ عن الأعرابِ في شدَّةِ كفرِهم ونفاقِهم وعدمِ علمهم لحدودِ ما أنزلَ اللّهُ على رسولِه، فهذهِ الصِّفاتُ السّابقُ ذكرُها، ولا سيِّما عدمُ علمهم بحدودِ اللّهِ، ليس أمرًا طارئًا، بل هو متجذِّرٌ فيهم، ثابتٌ ثبوتَ الجدارِ ناشئٌ من ظروفِ حياتِهم، وما في طباعِهم من جفوةٍ، وبُعدٍ عن المعرفةِ[2].

والجدارةُ بالشَّيء قد تكونُ طبيعيَّةً وقد تكونُ بأسبابٍ كَسْبيَّةٍ من فنيَّةٍ وشرعيَّةٍ وأدبيَّةٍ، وقد تكونُ بأسبابٍ سَلبيَّةٍ اقتضتها حالةُ المعيشةِ والبيئةِ، وهذا النَّوعُ الأخيرُ هو المناسبُ لحالةِ الأعرابِ.

(1) الرّاغب، المفردات: (جدر).

(2) عبد الفتاح لاشين، لغة المنافقين في القرآن الكريم، ص: 191.

نكتةُ حذفِ الباءِ من المصدرِ المؤوَّلِ ﴿أَلَّا يَعۡلَمُواْ﴾:

"حُذِفَتِ الباءُ الَّتي يتعدَّى بها فِعلُ الجدارةِ على طريقةِ حذفِ حرفِ الجرِّ مع (أن) المصدريَّة"[1] وربَّما يدلُّ حذفُ حرفِ الجرِّ، على أنَّهم لا يمكنُ أن يصلوا إلى العلمِ بما أنزلَ اللّهُ على رسولِهِ لانعدامِ الواسطةِ الَّتي دلَّ عليها حذفُ حرفِ التَّعديةِ، فهم لا يقدرونَ على الوصولِ إلى عدمٍ، فكيف يصلون إلى العلم؟

الأعرابُ المنافقونَ، يوصفون بعدمِ العلمِ بما أنزلَ اللهُ على رسولِهِ

سرُّ اختيارِ العلمِ، في قولِهِ: ﴿أَلَّا يَعۡلَمُواْ﴾، دونَ المعرفةِ:

آثرَ التَّعبيرَ بالعلمِ دونَ المعرفةِ؛ لأنَّ العلمَ أدقُّ من المعرفةِ، فيحتاجُ إلى إقامةِ الدَّليلِ نظريًّا كان أو عقليًّا بخلافِ المعرفةِ، فلا تحتاجُ لذلكَ، فالمعرفةُ أعمُّ من العلمِ؛ لذلك نفى عنهم العلمَ دونَ المعرفةِ، وفيهِ إشارةٌ للرَّدِّ على من يقولُ: كيفَ يُحتجُّ بألفاظِ الأعرابِ وأشعارِهم على كتابِ اللّهِ تعالى مع وصفهم بالجهلِ؟ فكانَ التَّعبيرُ بنفيِ العلمِ هو خيرُ دليلٍ على ذلكَ؛ لأنَّ المرادَ الجهلُ بأحكامِ القرآنِ، وليسَ بألفاظِهِ، وإلّا فهم كانوا مضربَ الأمثالِ في قوَّةِ الجَنانِ لَوْذَعيَّةِ الأذهانِ وذرابةِ اللِّسانِ، وسعةِ بيداءِ البيانِ، وعنهم أخذَ رواةُ العربيَّةِ أكثرَ المفرداتِ[2].

نفيُ القدرةِ على العلمِ تحقيرٌ لهؤلاءِ الموصوفين في السّياقِ

سرُّ اختيارِلفظ ﴿حُدُودَ﴾:

قولِهِ تعالى: ﴿وَأَجۡدَرُ أَلَّا يَعۡلَمُواْ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦۗ﴾، اختارَ التَّعبيرَ بالحدودِ عن الشَّرائعِ والأحكامِ؛ لأنَّ تجاوزَها يخرجُ صاحبَها من الحلِّ إلى المنعِ، وفي الحديثِ: «وحدَّ حدودًا، فلا تعتدُّوها»[3]؛ لأنَّ أصلَ الحدِّ في اللُّغةِ المنعُ، ومنهُ الحديدُ؛ لأنَّه يحتمى بهِ من الأعادي، ومنه حدُّ الدّارِ؛ لأنَّهُ يمنعُ الآخرينَ من دخولها[4]؛

الحدودُ والضَّوابطُ أدقُّ العلومِ، وأكثرها نجاعة وضبطا

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/12.
(2) محمد رضا، تفسير المنار: 11/8.
(3) الطّبراني، المعجم الكبير، الحديث رقم: (589).
(4) الرّاغب، المفردات: (حدّ).

ولذلك أطلقت الحدود على الشَّرائعِ؛ لأنَّها تمنعُ من تجاوزِها والتَّعدِّي عليها، والمرادُ هنا أحكامُ الشَّريعةِ والفرائضِ، وأحكامُ الجرائمِ وعقوباتُها، والمحرَّماتُ من النِّساء والمواريث، وغير ذلك من أحكامِ الشَّريعةِ التَّفصيليَّة، فالأعرابُ لبعدِهم عن المدينةِ في الجلوسِ في مجالسِ العلمِ كانوا جديرينَ بالبعدِ عن العلمِ بحدودِ اللّٰهِ[1].

وممَّا يذكرُ في سرِّ اختيارِ التَّعبيرِ بالحدودِ أنَّ الأعرابَ في الباديةِ يعرفونَ مصطلحَ الحدودِ الفاصلةِ بين منطقةِ الرَّعي لكلِّ قبيلةٍ، فلا ينبغي لأحدٍ أن يتعدَّى على الآخرِ، فعبَّر بهِ لمعرفتِهم بمعناهُ ولإلف نطقِهم لمبناهُ.

سرُّ التَّعبيرِ بـ ﴿مَآ﴾:

عبَّرَ في قولهِ: ﴿أَلَّا يَعۡلَمُواْ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦۗ﴾ بـ ﴿مَآ﴾ الَّتي تفيدُ العمومَ لكلِّ ما أنزلَهُ اللّٰهُ من الوحي المتلوِّ وغير المتلوِّ ليشملَ كلَّ أفرادِ الشَّريعةِ في فرائضِها ونوافلِها.

الجهلُ بالعامِّ، دليلٌ على انتفاءِ العلمِ بالخاصِّ

سرُّ التَّعبيرِ بالإنزالِ في قولهِ: ﴿أَنزَلَ﴾:

عَبَّرَ بالإنزالِ الَّذي يدلُّ على جهةِ العلوِّ ليشيرَ إلى تعظيمِ الحدودِ، وأنَّها ليست من مكوِّنات المجتمعِ وطبائعِهِ؛ لأنَّ من طبيعةِ الأعرابِ وجودَ حدودٍ بينهم في المراعي وفي السَّكنِ، فأرادَ القرآنُ أن يفرِّقَ بينَ ما كانَ من طبيعةِ الأعرابِ، وبين ما هو من شرعِ اللّٰهِ، وذلك بوصفهِ بالإنزالِ.

الإعلامُ بعلوِّ الوحي، تذكير بأنّه من الله

سرُّ التَّعبيرِ بلفظِ الجلالةِ ﴿ٱللَّهُ﴾:

عبَّرَ بلفظِ الجلالةِ دونَ لفظِ الرُّبوبيَّةِ لتربيةِ المهابةِ في قلوبِ الأعرابِ خصوصًا، وفي غيرهم عمومًا؛ لأنَّ طبيعةَ البداوةِ، أوجدتْ فيهم جرأةً على التَّعدِّي على حدودِ اللّٰهِ لجهلهم وقساوةِ قلوبِهم.

المهابةُ تُعلي من شأنِ المطلوبِ علمًا

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3422.

سرُّ التَّعبيرِ بـ ﴿عَلَىٰ﴾ دونَ (إلى):

شرفُ المنزلِ علوٌّ، وتعظيمٌ لمنزلته ومقامه

قولِه: ﴿عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾، عبَّر فيه بالحرف ﴿عَلَىٰ﴾ الَّتي تفيدُ الاستعلاءَ، دونَ (إلى) الَّتي تفيدُ انتهاءَ الغايةِ؛ لأنَّ المقامَ هنا مقامُ تعظيمٍ وتشريفٍ للرَّسولِ ﷺ أمامَ هؤلاءِ الأعرابِ الَّذين يظنُّون أنَّهُ بشرٌ مثلهم، فكيفَ تكونُ له السُّلطةُ عليهم، فكانَ التَّعبيرُ بـ ﴿عَلَىٰ﴾ الَّذي يدلُّ على علوِّ مكانتهِ ﷺ.

سرُّ التَّعبيرِ برسولهِ دونَ نبيِّهِ، في قولهِ: ﴿عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾:

مقامُ التَّشريعِ للرِّسالةِ لا للنُّبوَّةِ

آثرَ التَّعبيرَ بالرِّسالةِ في قولهِ: ﴿رَسُولِهِۦ﴾ دونَ النُّبوَّةِ؛ لأنَّ المقامَ هنا مقامُ تشريعاتٍ وتكليفاتٍ، عبَّر عنها بقولهِ: ﴿حُدُودَ﴾، وهذا هو المناسبُ لهذا السِّياق، وفيهِ إشارةٌ إلى أنَّ إقامة الحدودِ تُبنى على التَّمهُّل من قولِكَ: على رسلِكَ، أي: تمهَّلْ في تطبيقِ الحدودِ، فلا تقامُ على الشُّكوكِ إنَّما تُقامُ على اليقينِ.

سرُّ تذييلِ الآيةِ، بقولهِ: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾:

الإفصاحُ عن دخيلةِ الأعرابِ وأخلاقِهم

جاءتِ الفاصلةُ باسْمَي (العليم والحكيم)، لتعلُّقِ الأمرِ بالنِّفاق القلبي، وخبايا النُّفوس، وبيان أنَّ وجودَ مثل هذهِ الأصنافِ في المجتمعاتِ، إنَّما هو لحكمةٍ يريدُها اللهُ تعالى في تمحيصِ صفِّ المؤمنين، فالفاصلةُ ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ تذييلٌ لهذا الإفصاحِ عن دخيلةِ الأعرابِ وخُلُقِهم وقسوةِ قلوبِهم، وبُعدِهم عن العِلم والعُلماء، فهو سبحانه عليمٌ بهم وبغيرِهم، حكيمٌ في تمييزِ مراتبِهم بمقتضى الحكمةِ[1]، وفي هذا الختامِ دعوةٌ لهؤلاءِ الأعرابِ أن ينزعوا عن أنفسِهم حياةَ البداوةِ، وأن يخرجوا إلى حياةِ الحضرِ، ويقتربوا من مواطنِ العلم والمعرفةِ، ويخالطوا العلماءَ، فيأخذوا عنهم؛ لأنَّ اللهَ سبحانه عليمٌ حكيمٌ، ولا يُعرف الطَّريقُ إلى اللهِ إلّا عن طريقِ أهلِ

(1) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 6/387، والقنّوجيّ، فتح البيان: 5/378، وعبد الفتّاح لاشين، لغة المنافقين في القرآن الكريم، ص: 192.

العلمِ والحكمةِ، وفي ختامِ الآية بهذين الوصفينِ دعوةٌ إلى العمرانِ وتركِ العزلةِ والوحشةِ ما استطاعوا لذلك سبيلًا[1].

نكتةُ التَّقديمِ لـ ﴿عَلِيمٌ﴾، على لفظ ﴿حَكِيمٌ﴾:

تقديمُ الأخصِّ بالسِّياقِ، على أثرِه وناتجِه

قَدَّمَ العليمَ على الحكيمِ من بابِ إتباعِ الصَّفةِ بما هو أخصُّ منها، فمفهومُ الحكمةِ يزيدُ على مفهومِ العلمِ؛ إذ الحكمةُ ناشئةٌ عن العلمِ وأثرٌ له، فالحكمةُ كمالٌ في العلمِ[2].وممَّا يذكرُ في علَّةِ التَّقديمِ الإشارةُ إلى أنَّهُ يعلم حالَ كلِّ أحدٍ بالتعلُّقِ القديمِ قبلَ الوقوعِ، أي: يعلمُ أنَّهُ سيوجدُ على حالةِ كذا وكذا، وبالتَّعلُّقِ الحادثِ عند الوقوعِ، وهذا العلمُ يترتَّب عليهِ الجزاءُ خيرًا أو شرًّا، وفي هذا جوابٌ على سؤالٍ يردُ في الخاطرِ: كيف حُكِمَ على الأعرابِ بأنَّهم أشدُّ كفرًا ونفاقًا؟ فكانَ الجوابُ: بأنَّهُ عليمٌ يعلمُ حالَ كلِّ أحدٍ من أهلِ الوبرِ والمدرِ بما يفعلونَ[3]، وفيه تحذيرٌ لأهلِ البدوِ خصوصًا ولغيرهم عمومًا بأنَّ اللّهَ تعالى يعاملُ النّاس بما يعلمُ من نيّاتِهم، وأنَّه حكيمٌ لا يأمرُ إلّا بما فيهِ تحقيقُ الحكمةِ.

سرُّ التَّعبيرِ بالجملةِ الاسميَّةِ ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾:

صفاتُ اللهِ ثابتةٌ، لا تنفكُّ عن كمالِ ذاتِه تعالى

هذا التَّذييلُ - كما هو ظاهرٌ - جاءَ في جملةٍ اسميَّةٍ: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾؛ وذلك لإفادةِ الثُّبوتِ واللُّزومِ، فهاتان الصِّفتان (العِلم والحِكمة) من الصِّفات الثّابتةِ للّهِ تعالى الَّتي لا تنفكُّ عن ذاتِه ﷻ فهو لم يزَل ولا يزالُ عليمًا حكيمًا، فهو ﴿عَلِيمٌ﴾: بأحوالِ مخلوقاتِه على العمومِ وهؤلاءِ منهم، ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما يجازيهم به من خيرٍ وشرٍّ.

(1) عبد الكريم الخطيب، التّفسير القرآني: 6/876.
(2) السّمين الحلبيّ، الدّرُّ المصون: 1/267.
(3) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاوي: 9/317.

﴿وَمِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغۡرَمٗا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَۚ عَلَيۡهِمۡ دَآئِرَةُ ٱلسَّوۡءِۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ٩٨﴾ [التّوبة: 98]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

العلاقة بين نوع شديد من الأعراب، ونوع آخر يرى الزّكاة مغرما، ويتربّص بالمسلمين

لمّا ذكرَ اللّهُ ﷻ في الآيةِ السّابقةِ أنَّ الأعرابَ أشدُّ النّاس كفرًا، ونفاقًا، وهم أبعدُ النّاس عن فهمِ كتابِ اللّهِ وتطبيقِ أحكامِهِ؛ جاءت هذهِ الآيةُ لتبيِّن أنَّهم ليسوا على نمطٍ واحدٍ، فمنهم من ظهرت عليهِ علاماتُ الشَّرِّ لخبثِ بواطنِهِم، فيرونَ ما يدفعونَهُ من زكاةٍ على أنَّه مغرمٌ وجبَ عليهم أداؤُهُ، قال تعالى في حقِّهم: ﴿وَمِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغۡرَمٗا﴾ الآية. وممّا يذكرُ في المناسبةِ أيضًا أنَّه لمّا أثبتَ هذا الوصفَ لهذا الصِّنفِ بيَّن أنَّ أفرادَهُ انقسموا إلى مَن ثبتَ على ما هو الأليقُ بحالِهم، وقِسْمٌ نزعَ إلى ما هو الأليقُ بأهلِ المدَرِ، كما انقسَم أهلُ المدَرِ إلى مثلِ ذلك، وبدأَ بالخبيثِ؛ لأنَّهُ الأصلُ فيهم، فقالَ: ﴿وَمِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ مَن يَتَّخِذُ﴾[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مَغۡرَمٗا﴾: الغُرْمُ: الخَسارَةُ والنَّقْصُ، يُقال: غَرِمَ، يَغْرَمُ، غُرْمًا ومَغْرَمًا، أيْ: خَسِرَ ونَقَصَ مالُهُ، وضِدُّه: الغُنْمُ والرِّبْحُ، ويأتي الغُرْمُ، بِمعنى: الدَّيْن، والغَرِيمُ: المَدِينُ، وهو الشَّخْصُ الَّذي عليهِ دَيْنٌ، وأصلُ الغُرْمِ: المُلازمةُ، والغَرامةُ: ما يَلزمُ أداؤُهُ، ومنه سُمِّيَ الغَرِيمُ: غَرِيمًا؛ لأنَّهُ يُلازِمُ خَصْمَهُ، ويُدِيمُ مُطالبتَهُ بحقِّهِ حتَّى يَقبضَه، ومِنْ معاني الغُرْمِ أيضًا: الضَّمانُ[2].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/4 - 5.

(2) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن سيده، المحكم، وابن الأثير، النّهاية، وابن منظور، لسان العرب: (غرم).

2) ﴿وَيَتَرَبَّصُ﴾: التَّربُّصُ: الانتظارُ بالشَّيءِ، سلعةً كانت يقصد بها غلاءً، أو رخصًا، أو أمرًا ينتظر زواله أو حصوله، يقال: تربَّصتُ لكذا، ولي رُبْصَةٌ بكذا، وتَرَبُّصٌ[1].

3) ﴿ٱلدَّوَآئِرَ﴾: الدّائرةُ اسمُ فاعلٍ، مِنْ دارَ؛ إذا عَكَسَ سَيْرَهُ، فالدّائرةُ تغيُّرُ الحالِ، وغلَبَ إطلاقُها على تغيُّرِ الحالِ مِنْ خَيْرٍ إلى شرٍّ، ودوائرُ الدَّهْرِ: نُوَبُهُ ودُوَلُهُ، قال تعالَى: ﴿وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ﴾، أي: تَبَدُّلَ حالكُم مِنْ نَصْرٍ إلى هَزيمةٍ[2]، وأصلُ (دور): يدلُّ على إحداقِ الشَّيءِ بالشَّيءِ مِن حوالَيه.

4) ﴿دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ﴾: أي: يحيط بهم السُّوءُ إحاطةَ الدّائرةِ بمن فيها، فلا سبيلَ لهم إلى الانفكاكِ منهُ بوجه[3].

5) ﴿سَمِيعٌ﴾: السَّمِيعُ هُوَ فعيل في معنى فاعل، واللّه تَعالَى سامع وَسميع، وَيَجِيء على قِياس قَول قطرب، أَن يَقُول في سميع: إِنَّه الَّذِي يسمع السِّرَّ وسامع في كلِّ شَيْء، وَيَجِيء في كَلامهم سمع بِمَعْنى: أجاب، من ذَلِك ما يَقُوله الْمُصَلِّي عِنْد رَفْعِهِ من الرُّكُوع: سمعَ اللّهُ لمن حَمده، فُسِّر على أَنَّه بِمَعْنى: اسْتَجابَ[4].

6) ﴿عَلِيمٌ﴾: العَليمُ والعالم صِفتان مُشتقَّتان مِن العِلْم، فالعالم: اسم الفاعل من عَلِم يَعلَم، فهو عالم، والعَلِيم: مِن أبنية المبالغةِ في الوصفِ بالعلم، وهو بمنزلةِ قديرٍ مِن القادر[5].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

يُخبِرُ اللّهُ تعالى في هذهِ الآيةِ أنَّ مِن الأعرابِ مَن يحتَسِبُ ما

احتسابُ الزَّكاةِ غُرمًا، والتّربُّص بالإسلام وأهله، من أقبح مظاهرِ النِّفاقِ

(1) الخليل، العين، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، والزّبيدي، تاج العروس: (ربص).
(2) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (دور)، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 6/233.
(3) الرّاغب، المفردات: (دار).
(4) الزّجّاج، تفسير أسماء الله الحسنى، ص: 42.
(5) أبو القاسم الزّجّاجيّ، اشتقاق أسماء الله، ص: 50.

يُنفِقُه في الخيرِ غُرمًا وخَسارةً، فيُنفِقُ وهو كارهٌ، لا يرجو ثوابًا عندَ اللّه تعالى، بل ينفقُ للرِّياءِ والسُّمعةِ وطمعًا في التَّقرُّب من المسلمين واتِّقاءِ شرِّهم، ويتربَّصُ بالمُسلِمينَ المصائِبَ، وينتظرونَ بهم حوادثَ الأيّامِ واختلالَ الأمورِ، وغَلَبَةَ الأعداءِ عليهم، جعَلَ اللّهُ عليهم وَحْدَهم المصائِبَ الَّتي تَسوؤُهم، وتُفسِدُ أمورَهم، واللّهُ سَميعٌ عَليمٌ.

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالةُ الواوِ في قولِهِ: ﴿وَمِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ﴾:

شروعٌ في ذكرِ صنفٍ آخرَ مِنَ الأعرابِ، لهم صفاتٌ من الفساد أخرى

دلَّتِ الواوُ على عطفِ هذهِ الآيةِ الكريمةِ على ما سبقَ؛ لأنَّها شرحٌ لبعضِ مثالبِ هؤلاءِ المتفرِّعةِ على الكفرِ والنِّفاقِ من المنافقينَ الَّذينَ يعتبرونَ ما ينفقونَهُ في سبيلِ اللّهِ غرامةً وخسارةً عليهم؛ لأنَّهم لا ينفقونَ ما ينفقونَهُ طمعًا في ثوابٍ، أو خوفًا من عقابٍ، وإنَّما ينفقونَهُ تقيَّةً ورياءً ومُداراةً للمُسلمين، لا مساعدةً للغزاة والمجاهدين، ولا حبًّا في انتصارِ المؤمنين.

دلالةُ التَّعبيرِ بـ ﴿مِنَ﴾ في: ﴿وَمِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ﴾:

ذكرُ بعضِ مثالبِ الأعرابِ، الّتي أسهبَ السّياقُ في تفصيلها

آثرَ التَّعبيرَ بـ ﴿وَمِنَ﴾ دونَ بعضٍ؛ لأنَّ ﴿وَمِنَ﴾ تتعدَّدُ معانيها، فهذا تبعيضٌ على سبيلِ التَّصنيفِ، فصلحت لهُ (من)، ولم تكن بعضٌ لتقومَ بالمعنى وحدَها، وهذا التَّعدُّد يثري معنى الآية بخلافِ بعضٍ؛ فإنَّها لا تدلُّ إلّا على معنى الجزئيَّةِ، وهذا قد لا يكونُ الأوفقَ في هذا السِّياق؛ لأنَّ الكلامَ عن صفات جنسِ الأعراب، وليس عن بعضِ الأعرابِ، وعلى هذا فمعنى ﴿وَمِنَ﴾ البيانُ، يؤكِّدُ ذلك ما قالهُ الآلوسيُّ بقولِهِ: ﴿وَمِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ﴾، أي: من جنسِهم الَّذي نُعِتَ بنعتِ بعضِ أفرادِهِ، وقيلَ: من الفريقِ المذكورِ، وهؤلاءِ وإن كانوا من جملةِ مُنافقي الأعرابِ، فتخصيصُهم بالتَّقسيم هنا منظورٌ فيه إلى ما اختُصُّوا به من أحوالِ النِّفاقِ؛ لأنَّ التَّقاسيمَ في المقاماتِ الخِطابيَّةِ والمجادلاتِ، تعتمِدُ اختلافًا ما في أحوالِ المُقَسَّم، ولا يُعبأُ

فيها بدخولِ القسمِ في قَسيمِهِ، فقولهِ: ﴿وَمِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغۡرَمٗا﴾ هو في التَّقسيمِ[1] كقولهِ: ﴿وَمِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ مَن يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾.

دلالةُ (الْ) في لفظ ﴿ٱلۡأَعۡرَابِ﴾، وأثرها في المعنى:

بيانُ طبيعةِ جنسِ الأعرابِ، الموصوفين بأشنعِ الصّفات

دلَّتِ اللَّامُ في قوله: ﴿ٱلۡأَعۡرَابِ﴾ على بيانِ حقيقةِ الجنسِ وماهيَّتِه وطبيعتِه، بقطعِ النَّظرِ عمّا يصدقُ عليه مِن أفرادِه، فليسوا جميعًا بهذهِ المثابةِ مِن شدَّةِ الكفرِ والنِّفاقِ والنُّبوِّ عن استماعِ الكلامِ الطَّيِّبِ[2].

نكتةُ وضعِ المظهرِ موضعَ المضمرِ:

زيادةُ التَّعيينِ طريقُها الإظهارُ، وذلك من بليغِ الاستعمالِ

آثرَ التَّعبيرَ بالإظهارِ ﴿وَمِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ﴾ دونَ الإضمارِ للدَّلالةِ على تحديدِهم وتعيينِهم، فلا ينصرفُ الوصفُ إلى غيرِهم من المنافقين؛ لأنَّهُ لو قيلَ: (ومنهم) لذهبَ بعضُهم إلى ربطِهِ بهذا التَّعبيرِ في حديثِ القرآنِ عن المنافقين الَّذين تعدَّد ذكرُهم في هذه السُّورةِ في مواضعَ عديدةٍ، قال تعالى: ﴿وَمِنۡهُم مَّن يَلۡمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ﴾، ﴿۞وَمِنۡهُم مَّنۡ عَٰهَدَ ٱللَّهَ﴾، ونحو ذلك من الآياتِ، وفيهِ إشارةٌ إلى تحذيرِ المؤمنين من طبيعةِ الأعرابِ في التَّعاملِ معهم.

بلاغةُ تقديمِ المسند ﴿وَمِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ﴾، على المسندِ إليه:

الغرضُ تفصيلُ أنواعِ المنافقينَ، والتّقديمُ تلبيةٌ للغرضِ

الغايةُ من تقديمِ المسندِ هنا العنايةُ بالمتقدِّمِ لأهميَّتِه من جهةٍ، ولبيانِ مكانتِه بين أنواعِ جنسِه من جهةٍ أُخرى؛ إذ إنَّ تقديمَهُ يُعدُّ شروعًا في تشعيبِ جنسِ الأعرابِ إلى فريقين، وعدمِ انحصارِهم في الفريقِ المذكورِ، فتقديمُ النَّوعِ هو مقصودُ السِّيَاقِ لعنايةِ السِّياقِ ببيانِ الأنواعِ.

دلالةُ التَّعبيرِ بـ ﴿مَن﴾:

قولهِ: ﴿مَن يَتَّخِذُ﴾، وفيه عَبَّرَ بـ(مَنْ) دونَ (الَّذي)؛ لأنَّها تفيدُ

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 6/6، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/13.
(2) الدّرويش، إعراب القرآن وبيانه: 4/163.

العمومَ، فتشملُ هذا الصِّنفَ مِنَ الأعرابِ، وتشملُ غيرَهم، فكلُّ من يعدُّ إنفاقَ الزَّكاةِ أو الصَّدقةِ مغرمًا يستحقُّ غضبَ اللهِ وعقوبتَهُ، بخلاف التَّعبيرِ بـ (الَّذي) فإنَّها تصدقُ على مجموعةٍ بعينها، فلا يتحقَّق فيها معنى العمومِ.

الصِّفاتُ العامَّةُ، كافيةٌ في الكشفِ عن النَّوعِ المقصود

نكتةُ التَّعبيرِ بلفظ ﴿يَتَّخِذُ﴾:

قولهِ تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ مَن يَتَّخِذُ﴾، وفيه آثرَ التَّعبيرَ بالاتِّخاذِ دونَ الجَعْلِ؛ لأنَّ الجعلَ يُطلقُ بمعنى التَّغييرِ من حالةٍ إلى حالةٍ، نحو: جعلتُ الشَّقَّةَ بَرْدًا، ويُطلقُ بمعنى العَدِّ والحُسبان، نحو: ﴿وَقَدۡ جَعَلۡتُمُ ٱللَّهَ عَلَيۡكُمۡ كَفِيلًاۚ﴾ [النَّحل: 91]، وهذا المعنى غير مرادٍ هنا؛ لذلكَ اختارَ التَّعبيرَ بالاتِّخاذِ، لما تحملهُ صيغتُهُ من معنى الاختيارِ والانتفاعِ بما يتَّخذُ باعتبارِ غرضِ المنفقِ من الرِّياء والتُّقيَّةِ، لا باعتبارِ ذات النَّفقةِ الَّتي يعدُّها غرامةً[1]، وفيهِ إشارةٌ إلى تقبيحِ فعلهم لتنفيرِ أهلِ الإيمانِ من سلوكهم.

اختيارُ المفردةِ، يكون عادةً تابعًا للغرضِ المقصودِ

دلالةُ التَّعبيرِ بـ ﴿مَا﴾ في: ﴿مَا يُنفِقُ﴾:

آثرَ التَّعبيرَ بـ ﴿مَا﴾ الَّتي تفيدُ العمومَ؛ فتشملُ القليلَ والكثيرَ والجليلَ والحقيرَ من النَّفقات وذلك ملائمٌ لبيانِ حالةِ الأعرابِ النَّفسيَّةِ عند كلِّ نفقةٍ ينفقونها سواءٌ كانت النَّفقةُ فرضًا أو نفلًا يعدُّون كلَّ وجوهِ الإنفاق مغرمًا وخسارة، ساعد على ذلك التَّعبيرُ بلفظِ ﴿مَا﴾ الَّذي يصدقُ على جميعِ وجوهِ الإنفاقِ.

من عدّ الإنفاق مَغْرمًا وخسارة، لم ينل أَجْرًا، ولا حاز جدارة

دلالةُ التَّعبيرِ بالمضارعِ ﴿يُنفِقُ﴾:

آثرَ التَّعبيرُ القرآنيُّ استعمالَ صيغةِ المضارع (ينفق) لإثباتِ سلوكِ المنافقين المتجدِّدِ في إنفاقِهم، إذ يعدُّونَ كلَّ ما ينفقونَهُ غرامةً وخسارةً عليهم، فهو واقعٌ منهم، وسيبقى مُستمرًّا معهم.

حسرةُ المنافق متجدِّدَةٌ مع كلِّ نفقةٍ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/95، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/13.

سرُّ التَّعبيرِ بـ ﴿مَغۡرَمٗا﴾:

آثرَ التَّعبيرَ بقولِه: ﴿مَغۡرَمٗا﴾؛ لأنَّ الغرامةَ هي المالُ الَّذي يدفع في غيرِ مقابلٍ، وأصلُ الغرامِ: الشَّيءُ الملازمُ، وأطلق على المَدين (الغارم)؛ لأنَّهُ ملازمٌ دائمًا من الدّائنِ، وهؤلاءِ الأعرابُ يعدُّون ما ينفقونَهُ من زكاةٍ مفروضةٍ (غرامة)، وينتظرونَ أن ينخلعوا من هذا المالِ المفروضِ عليهم؛ لأنَّهم لا يؤمنونَ بوجوبِه؛ لأنَّهم لا إيمانَ عندهم يلزمُهم بها[1].

نِيّاتُ المنافقين خبيثةٌ، وتفسيرُهم العمليّ كاشفٌ سوءَها لا محالة

نكتةُ تنكيرِ ﴿مَغۡرَمٗا﴾:

أفادَ تنكيرُ ﴿مَغۡرَمٗا﴾ في الآيةِ معنى العُموم ليشملَ كلَّ ما أنفقوهُ، وفيه إشارةٌ إلى التَّقليلِ من شأنِ نفقاتِهم؛ لأنَّهم لا ينفقونها احتسابًا ورجاءً لثوابِ اللهِ تعالى ليكونَ لهم مغنمًا، وإنَّما ينفقونها رياءً وتقيَّةً، فهي غرامةٌ محضةٌ[2].

التَّقليلُ من شأنِ نفقةِ المنافقينَ، لعروّها من النّية الصّالحة، والفقه السّديد

دلالةُ الواوِ في: ﴿وَيَتَرَبَّصُ﴾:

آثرَ التَّعبيرَ بالواوِ دونَ غيرِها في قولِه: ﴿وَيَتَرَبَّصُ﴾ لاحتمالِها أكثرَ من معنًى، فتكونُ للحالِ، فهي تصوِّرُ حالَ تربُّصِ الأعرابِ المنافقين بالمؤمنينَ للإيقاعِ والغدرِ بهم، حالهُم في هذا كحالِ الوحوشِ المفترسةِ الَّتي تتربَّص بفريستها لتقضي عليها، ويجوزُ أن تكون الواوُ عاطفةً، فيكون الفعلُ ﴿وَيَتَرَبَّصُ﴾ داخلًا في حكم الصِّلةِ، فيجمعُ لهم اعتبارَ الزكاةِ مغرمًا والتَّربُّصَ بالمؤمنين؛ لذلك جازَ العطفُ للاشتراكِ بينهما في صفةِ السُّوءِ.

تربُّصُ المنافقين بالمؤمنين، في الظّاهرِ والباطنِ، من أخطر الكيد والتّآمر

دلالةُ الباءِ، في قولِه: ﴿بِكُمُ﴾:

الباءُ للسَّببيَّةِ، كقولِه تعالى: ﴿نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيۡبَ ٱلۡمَنُونِ﴾ [الطّور: 30]، وجعلَ المجرورَ بالباءِ ضمير المخاطبين على تقديرِ مُضافٍ،

سلوكُ المنافقينَ انعكاسٌ لواقعِهم

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3423.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/95.

والتَّقديرُ: ويتربَّص بسببِ حالتِكم الدَّوائرَ عليكم، لظهورِ أنَّ الدَّوائر لا تكونُ سببًا لانتظار الانقلابِ، بل حالهم هي سببُ تربُّصِهم أن تنقلبَ عليهم الحالُ؛ لأنَّ حالَتهم الحاضرةَ شديدةٌ عليهم[1].

علَّةُ تقديمِ شبهِ الجملةِ ﴿بِكُمُ﴾:

الاهتمامُ بالمؤمنينَ، وتحذيرُهُم من خطرِ المنافقينَ

قُدِّمَ الجارُّ والمجرورُ ﴿بِكُمُ﴾ للتَّخصيصِ والاهتمامِ، فالاهتمامُ منصبٌّ على المؤمنين دونَ غيرِهم؛ لأنَّهم المقصودونَ بالخطابِ خاصَّة، ولو لم يكنْ كذلكَ لقدَّم المفعولَ بهِ ﴿ٱلدَّوَآئِرَ﴾ عليها، كما أنَّ في دلالة هذا التَّقديم تحذيرًا وبيانًا من خطرِ المنافقين على المؤمنين.

علَّةُ التَّعبيرِ بلفظِ ﴿ٱلدَّوَآئِرَ﴾:

دِقَّةُ التَّصويرِ في استعمالِ المفردةِ القرآنيَّةِ الفصيحة

آثرَ التَّعبيرَ بالدَّوائرِ دونَ المصائبِ؛ لأنَّ الدَّوائرَ في معناها أحكمُ وأبلغُ، حيثُ تعبِّر عن إتيان جميعِ المصائبِ من كلِّ جانبٍ، كأنَّها تدورُ معهم أينما ذهبوا، وتتعاقبُ عليهم؛ لأنَّ الدائرةَ اسمٌ للمُصيبةِ، وهي في الأصل مصدرٌ كالعاقبةِ، أو اسم فاعل من (دار)، فهم ينتظرونَ المصائبَ الَّتي تحيطُ بالمسلمين كما تحيطُ الدّائرة، وذلك من بابِ التَّجسيمِ المعنويِّ على الاستعارةِ، وهو ممّا يعمِّقُ المعنى في النَّفس[2].

نكتةُ التَّعبيرِ بالجمعِ ﴿ٱلدَّوَآئِرَ﴾:

ترقُّبُ هزيمةِ المؤمنينَ من أحلامِ المنافقينَ

آثرَ النَّظمُ القرآنيُّ التَّعبيرَ بالجمعِ (دوائر)؛ للمبالغةِ في ترقُّبِ المنافقينَ لهزيمةِ المؤمنين من أيِّ جهةٍ سواءٌ بموتِ رسولِ الله ﷺ أو بهزيمتهم في معركةٍ من المعارك أو بنوائبِ الدَّهر ودوائرِه لتذهبَ غلبةُ المسلمين، فيتحلَّلون من تلكَ النَّفقاتِ المفروضةِ عليهم، وبالفعلِ انتظروا حتى توفِّي رسولُ الله ﷺ فحسبوها فرصةً، فارتدُّوا، ولكنَّ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/14.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/14، وعبد الفتاح لاشين، لغة المنافقين في القرآن الكريم، ص: 192.

اللّهَ كبتَ كيدَهم، وقاتلهم أبو بكرٍ رضي الله عنه ودفعوا الزَّكاة صاغرينَ أمامَ سيفِ اللّه خالد بن الوليد[1].

سرُّ المغايرةِ بالتَّعبيرِ بـ ﴿دَآئِرَةُ ٱلسَّوۡءِۚ﴾، مقابل ﴿ٱلدَّوَآئِرَۚ﴾:

المتأمِّلُ لأسلوب القرآنِ الكريمِ، في تصويرِ ما امتلأتْ بهِ نفوسُ المنافقين من أحلامِ التَّرقُّبِ لهزيمة المؤمنين، ومن كثرةِ أمانيهم في ذهابِ دولةِ الإسلامِ، عبَّرَ القرآنُ عن ذلك بكلمةٍ جامعةٍ ﴿ٱلدَّوَآئِرَۚ﴾، وهي تنبئُ عن كلِّ ما سبقَ منهم، وتشيرُ إلى ضعف إمكاناتِهم مهما بلغت أمامَ قوَّةِ اللّهِ؛ لذلكَ جاءَ ردُّ اللّهِ تعالى عليهم بالإفرادِ مبالغةً في شدَّةِ الإهلاك، حيثُ يكونُ هلاكُهم بدائرةٍ واحدة، وهي دائرةُ السَّوءِ الَّتي لا نجاةَ معها، فاجتمعَ في الآيةِ من التَّناسبِ الدَّقيقِ في المقابلةِ، ممّا يشهدُ بإعجازِ النَّظمِ الحكيم.

المنافقون يهلكون بدائرة السّوء، وذلك لضعفهم أمام قدرة الله

بلاغةُ الاستعارةِ في ﴿وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَۚ﴾:

في قولهِ تعالى: ﴿وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَۚ﴾ استعارةٌ تبعيَّةٌ؛ حيثُ شبَّهَ النَّوائبَ والمصائبَ الَّتي تُصيب الإنسانَ بالدّائرةِ الَّتي تكونُ حولَ الشَّيء؛ لأنَّ الدّائرةَ تُستعمل حقيقةً في الإحاطة بالأشياء، لكنَّها استعملت هنا في نوائبِ الدَّهرِ ومصائبهِ الَّتي تُحيط بالإنسان من كلِّ الجوانب؛ كإحاطة الدّائرة بالشَّيء، أو هي تَغَيُّر الحال من الاستقامة إلى الاختلالِ، والجامع بينهما هو الإحاطة والشُّمول، فحصلت المبالغةُ في إدخال المُشبَّه في الأذهان، مختصر العبارة[2].

الإحاطةُ والشُّمولُ، من ميزات السّياق في هذه الآية الكريمة

الدَّوائر: جمعُ دائرةٍ، وهو ما يحيطُ بالإنسان من مصائبَ ونكباتٍ، كما تحيط الدَّائرةُ بالشَّيء الَّذي بداخلها.

الغرضُ من أسلوبِ الاعتراضِ ﴿عَلَيۡهِمۡ دَآئِرَةُ ٱلسَّوۡءِۚ﴾، في السّياق:

قولُهُ: ﴿عَلَيۡهِمۡ دَآئِرَةُ ٱلسَّوۡءِۚ﴾، هذه الجملةُ معترضةٌ بين جمل

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3423.

(2) الشّريف الرّضي، تلخيص البيان في مجازات القرآن، ص: 62 - 63.

حديث القرآنِ عن الأعرابِ؛ لأنَّها دعاءٌ عليهم، ولذلك فُصِلت عمَّا قبلَها، فهي اعتراضيَّةٌ دعائيَّةٌ خبريَّةٌ لفظًا إنشائيَّةٌ معنًى من بابِ قولِه تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغۡلُولَةٌۚ غُلَّتۡ أَيۡدِيهِمۡ﴾ [المائدة: 64]؛ لأنَّ اللّهَ لا يدعو على مخلوقاتِه؛ لأنَّها في قبضتِه أو أنَّها من بابِ دعاءِ المسلمين، أي: قولوا: عليهم دائرةُ السُّوءِ، ومن الممكن أن تكون اعتراضيَّةً خبريَّةً على بابِها

التَّعجيلُ بالدُّعاءِ عليهم، إيذانٌ بمعيَّةِ اللهِ للمؤمنينَ وتأييدِه لهم

فتكونُ بيانًا بحقيقةِ حالهم، أي: عليهم تدورُ المصائبُ والحروبُ الَّتي يتوقَّعونها للمسلمينَ، وهذا إخبارٌ للمسلمين بما سيؤولُ إليهِ أمرُ الأعرابِ المنافقين ومآلُ الاحتمالين واحدٌ؛ لأنَّ الخبرَ في كلامهِ تعالى حقٌّ، ومضمونه كمضمونِ الدُّعاء واقعٌ لا محالةَ[1].

دلالةُ التَّعبيرِ بـ (على) في قوله: ﴿عَلَيۡهِمۡ دَآئِرَةُ ٱلسَّوۡءِۗ﴾:

بيان استعلاء العذابِ، وتمكُّنُه من الأعرابِ المنافقينَ

عبَّر بـ (على) في قوله: ﴿عَلَيۡهِمۡ دَآئِرَةُ ٱلسَّوۡءِۗ﴾؛ لأنَّها تفيدُ الاستعلاءَ، وفيها معنى قوَّة العذابِ وتمكُّنه منهم، فلا يستطيعونَ الفرارَ منه، وما قصدتموهُ - أيُّها المنافقونَ من الأعرابِ - من التَّربُّصِ بالمؤمنين، وانتظارِ وقوعِ الشَّرِّ بهم، سينعكسُ عليكم، وسيقعُ بكم، ويتمكَّنُ منكم.

غرضُ تقديمِ شبهِ الجملةِ ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾:

حصرُ دائرةِ السَّوءِ عليهم، في السّياق

تقديمُ (الخبر) شبهِ الجملةِ ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾ أفادَ الحصرَ والتَّخصيصَ، أي: إنَّ اللّهَ تعالى جعلَ دائرةَ السَّوءِ عليهم وحدهم دونَ المؤمنين؛ لأنَّ الاستعلاءَ أجدرُ بالإحاطةِ والإحكامِ، فهو أقوى من كونهم محصورين في دائرةٍ مطبقةٍ عليهم لا ينفكُّون منها، وفي هذا تحقيرٌ لهم وتهوينٌ من شأنِهم.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/14، والشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 9/5440، وعبد الفتّاح لاشين، لغة المنافقين في القرآن الكريم، ص: 193.

نكتةُ إضافةِ الدَّائرةِ للسَّوءِ:

دائرةُ الدَّهرِ لا تُستعملُ إلَّا في المكروهِ

وأُضيفَتِ الدّائِرةُ إلى السَّوءِ الَّتي هي في الأصلِ مصدرٌ أو اسمُ فاعلٍ، مِن دارَ يَدورُ، وسُمِّي به عاقبةُ الزَّمانِ (أي: حادثته) للمُبالَغةِ، مِثلُ: رَجُلُ صِدْقٍ، وقيلَ: معنى الدّائرةِ يَقتَضي مَعنى السَّوْءِ، وإنَّما هي إضافةُ بيانٍ وتأكيدٍ، كما قالوا: شَمسُ النَّهارِ، قال أبو علي الفارسي: لو لم تُضَفِ الدّائرةُ إلى السَّوء لعُرِفَ منها معنى السَّوء؛ لأنَّ دائرةَ الدَّهرِ لا تُستعملُ إلّا في المكروه[1].

دلالةُ القراءاتِ المتواترةِ في لفظ: ﴿ٱلسَّوۡءِۗ﴾:

تنوُّعُ القراءاتِ ثراءٌ للمعنى، وتوسيعٌ للدّلالة

في لفظِ ﴿ٱلسَّوۡءِۗ﴾ قراءتان متواترتانِ: إحداهما بضمِّ السِّينِ، وهي المصدرُ بمعنى ما يسوؤهم، فالدّائِرةُ نازلةٌ ومقبلةٌ، ولكنَّها ليست على المؤمنين، بل على المنافقينَ من الأعراب، ولذلك هزمَهم الصِّدِّيق رضي الله عنه وخَضَدَ شوكتَهم. ثانيهما: بفتحِ السِّين، والمرادُ بالسَّوء: الضَّررُ والفسادُ، ولا تعارضَ بينهما، فمعنى القراءتين أن يصيبَ الأعرابَ نكبةٌ تفجعُهم، وتسوؤهم، وعاقبة ذلك مضرَّةٌ شديدةٌ عليهم بتشريدِ جمعهِم وتفريق أمرهم[2].

بلاغةُ المشاكلةِ في سياقِ الآية الكريمة:

الجزاءُ من جنسِ العملِ، وكما يدين الفتى يدان

قوله تعالى: في جملتَيْ: ﴿وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَۚ﴾ و﴿عَلَيۡهِمۡ دَآئِرَةُ ٱلسَّوۡءِۗ﴾؛ وفيه أنّ المشاكلةُ بين الجملتينِ من حيثُ اللَّفظُ لا من حيثُ المعنى، على أنَّ استعمالَ هذا اللَّفظِ في الشَّرِّ أكثرُ، لا سيَّما من أعداءِ اللّهِ، فإذًا لا يكون مُطلقًا؛ لأنَّ قوله: ﴿وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَۚ﴾ لا دعاءَ فيه، بل هو إخبارٌ، اللهم إلّا أن يُقال: إنَّ مَن تربَّص بغيرِهِ السُّوءِ لا يخلو من الدُّعاءِ عليه[3].

---

(1) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/95، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/74، والقنّوجيّ، فتح البيان: 13/91، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/14.

(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3424.

(3) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 7/334.

سرُّ عدمِ ذكرِ لَفظِ السُّوءِ مع الدَّوائِرِ، وذكرِهِ في ﴿دَآئِرَةُ ٱلسَّوۡءِۗ﴾:

قوله تعالى: ﴿وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَۚ﴾، وقوله تعالى: ﴿عَلَيۡهِمۡ دَآئِرَةُ ٱلسَّوۡءِۗ﴾، نجد أنّ النّاظِر في تركيبِ الجملتينِ على هذه الشّاكلةِ يجدُ عدمَ ذكرِ لفظِ السُّوءِ، في قوله: ﴿وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَۚ﴾؛ لأنَّها خطابٌ للمؤمنينَ، وفي هذا بشارةٌ للمُخاطَبِ المخصوصِ بالعناية والتَّكريم، فيكونُ العُدولُ عن التَّصريحِ باللَّفظ المنفِّر دفعًا له عن المؤمنينَ، وصَرفًا لمعنى التَّنفير إلى التَّبشير، بخلافِ كلمةِ ﴿دَآئِرَةُ﴾ المفردةِ في موضعِ المنافقين، فصرَّحَ بلفظِ السُّوءِ ليلحقَ بالمنافقين خاصَّةً.

العنايةُ بالمؤمنينَ بحذفِ ما يسوؤُهم، وينغّص عليهم

دلالةُ تصديرِ ختامِ الآيةِ، بلفظِ الجلالةِ ﴿وَٱللَّهُ﴾:

صُدِّرتِ الجملةُ ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ بلفظِ الجلالةِ؛ لتربيةِ المهابةِ في نفوسِ القارئين والمستمعين، وملءِ القلوبِ بمرقابةِ الله تعالى.

تصديرُ الكلامِ بلفظِ الجلالةِ، يملأُ القلبَ مهابةً وخضوعًا له تعالى

نكتةُ التَّذييلِ بالاسمينِ الجليلينِ ﴿سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾:

خُتِمَتِ الآيةُ بصفتي السَّمعِ والعِلمِ؛ لأنَّ المقامَ يقتضي قولًا منهم بما يتناجونَ بهِ، وما يدبِّرونه من التَّرصُّدِ، وهذا مُتعلَّقُه السَّمعُ، فيسمعُ ما تتحدَّثُ به نفوسُهم، وما تهمسُ به أفئدتُهم، وعليمٌ بما يكتمونَهُ، ومحلُّه القلبُ، وهو ما يبطنونَهُ، ويقصدونَ إخفاءَهُ، ومتعلَّقهُ العِلمُ؛ لأنَّ ما في القلبِ لا يُسْمَع، ولا يُرْى، وإنَّما يُعلَمُ علمًا، ولذلك فهو سبحانَهُ سميعٌ لما يقولون، وعليمٌ بما يكتمونَ في قلوبِهم من الحقدِ والكيدِ[1].

التَّهديدُ والوعيدُ بما يترتَّبُ على معنى الاسمين الجليلين

نكتةُ التَّقديمِ لـ ﴿سَمِيعٌ﴾، في سياقِ الآيةِ الكريمة:

قَدَّمَ وصفَ ﴿سَمِيعٌ﴾ على ﴿عَلِيمٌ﴾ لتقدُّمِ مُتَعَلِّقِهِ، وهو ما يتناجونَ بهِ، وما يدبِّرونَهُ من التَّرصُّدِ.

تقديم الأسماء والصّفات، تتناسب مع الدّلالات في السّياقات

نكتةُ تنكيرِ الأسماءِ الجليلةِ، في الفواصلِ الجميلة:

الحديثُ هنا عن الأعرابِ، وهم سكَّانُ البادية، وقد خُتِمَتِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/14، وعبد الفتّاح لاشين، لغة المنافقين في القرآن الكريم، ص: 193.

الفواصلُ القرآنيَّةُ، هي معجزةٌ في معانيها الدّلاليّة

الآياتُ باسمين، أوَّلهما: ﴿عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾، ثم: ﴿سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾، وأخرى: ﴿غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، وكلُّ هذه الأسماءِ جاءت مجرَّدةً من (أل)، ويُفهم من ذلك أنَّه إذا عُرفت الجهةُ المتحدَّثُ عنها، وكانت لها ما لها من مواقفَ مع المسلمين، فلا بدَّ أن يأتي الاسمان في الفاصلةِ القرآنيَّةِ على هيئةِ التَّنكيرِ، وذلك من وجوهٍ:

أوَّلُها: عدمُ مماثلةِ الفئةِ المتحدَّثِ عنها، وهي: (الأعراب) مع المسلمينَ، فليسوا جميعًا سواءً، فمنهم المؤمنُ، ومنهم الكافرُ والمنافق، فتنكيرُ الأسماءِ جاءَ مناسبًا مع حالهم.

وثانيها: أفعالهم، أي: (الأعراب) فلقد جاءتِ الأسماءُ المؤيدةُ لمعنى الفعل، أعني: النكرة؛ لأنَّ الآياتِ الَّتي سبقتها كانت في معرضِ استنكارِ فعلِ (الحلف)، قال تعالى: ﴿يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْاْ عَنْهُمْۖ فَإِن تَرْضَوْاْ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾، واللّهُ سميعٌ لحلفِهم الكاذبِ، وعليمٌ بسرائرِ نفوسِهم.

ثالثها: عليهم دائرةُ السَّوءِ، وتلك صفةٌ ملازمةٌ، كأنَّها أحاطتْ بهم، فلا خلاصَ منها، وهي صفةٌ غالبةٌ، فيها من التَّأكيد ما فيها، ولقد جاءتِ الأسماءُ على هيئةِ التَّنكيرِ تأكيدًا لصفاتِهم الَّتي أحاطتْ بِهم كالدّائرةِ.

بلاغةُ التَّرصيعِ في الفاصلةِ:

القرآنُ الكريمُ أسلوبٌ بديعٌ، وإيقاعٌ فريدٌ

في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾، وقوله: ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ فاصلةٌ مُرصَّعةٌ، حيث اتَّفقتِ الفقرتانِ في الوزنِ والحرفِ الأخيرِ، وهذا الأسلوبُ البديعُ يُخرج الآياتِ عن رتابتها، ويزيدُها حسنًا مع حسنها، فتكونُ أكثرَ تأثيرًا، وأشدَّ جذبًا للقارئِ والسّامِع، فيُصغي لها، ويتدبَّرُ معانيها، وهو مقصودُ التِّلاوةِ الأكبرُ.

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

التَّربُّصُ والانتظارُ:

التَّربُّص انتظارٌ طـويـل، مع ترقُّب وملاحظة، والانتظار يطلقُ على زمنٍ قصيرٍ أو طويلٍ

فرَّق العسكريُّ بين التَّربُّصِ والانتظار بأنَّ التَّربُّصَ طولُ الانتظارِ، يُضاف إلى ذلك أنَّ التَّربُّص انتظارٌ مع ترقُّب وملاحظة[1]، وقد آثرَ النَّظمُ الكريمُ التّعبيرَ بالتَّربُّصِ دونَ الانتظارِ لوجودِ فرقٍ بينهما، فالتَّربُّصُ هو طولُ الانتظارِ، ومن ثَمَّ يسمَّى المتربِّص بالطَّعامِ وغيره: متربِّصًا؛ لأنَّهُ يطيلُ الانتظارَ لزيادةِ الرِّبحِ؛ بخلافِ الانتظارِ، فيطلقُ على الزَّمنِ القصيرِ والطَّويلِ.

وفيهِ إشارةٌ إلى كشفِ موقف الأعرابِ المنافقين منَ المؤمنينَ، فهم يقفونَ موقفَ المتربِّص المنتظرِ حلولَ المصائبِ بهم، وفيه إشارةٌ أيضًا إلى طولِ زمنِ التَّربُّص من المنافقينَ بالمؤمنينَ بأن تحيقَ بهِم دوائرُ السُّوء، فطولُ انتظارِ المنافقين ناسبَهُ التَّعبيرُ بالتَّربُّص الَّذي يفيدُ طولَ الانتظارِ من المنافقينَ من أجلِ الشَّماتةِ بالمؤمنينَ.

(1) العسكري، معجم الفروق اللّغوية، ص: 112.

﴿وَمِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ مَن يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِۚ أَلَآ إِنَّهَا قُرۡبَةٞ لَّهُمۡۚ سَيُدۡخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِي رَحۡمَتِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٩٩﴾ [التّوبة: 99]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

مقابلةُ الصِّنفِ القبيحِ من الأعراب، بالصِّنفِ الحسنِ منهم، إنصافٌ للفريقين

لَمَّا ذَكر تعالى في الآية السّابقةِ بعضَ الأعرابِ الَّذين يعدُّونَ دفعَ الزَّكاة مغرمًا في قوله تعالى: ﴿مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغۡرَمٗا﴾ ذَكَر مقابلَهُ، وهو من يتَّخذُ ما ينفقُ مغنمًا في قولهِ تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ مَن يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِۚ﴾.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿قُرُبَٰتٍ﴾: جمعُ قُرْبَةٍ بسكونِ الرّاءِ، وهي تُطلقُ بمعنى المصدر، أي: القُرْبُ، وهو المرادُ هنا، أي: يتَّخذونَ ما ينفقون تقرُّبًا عند اللّهِ، وجمع قُربات باعتبار تعدُّدِ الإنفاق، فكلُّ إنفاقٍ هو قُربةٌ عند اللّه؛ لأنَّه يُوجبُ زيادة القُرْب[1].

2) ﴿وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِۚ﴾ أي: دعاؤُهُ، واستغفاره له، فهو يعدُّها شيئًا يقرِّبُهُ إلى اللّهِ، وكذلك تجعل الرَّسول يدعو له حين تصلهُ زكاتُهُ، أي: طمعًا في دعوات الرَّسول، واستغفاره.

المَعْنى الإجْماليُّ:

الأعرابُ ليسوا سواءً، فإنّ منهم مؤمنين محتسبين، سوف ينالون جنّة الله ورضوانه

بَيَّنَ اللّهُ تعالى في هذه الآيةِ أنَّ الأعرابَ ليسوا جميعًا على ذاك النَّمطِ من السُّوء، فمنهم مَن يؤمِنُ باللّهِ تعالى وبِيَوم القيامةِ، ويحتَسِبُ ما يُنفِقُه في الخيرِ عند اللّهِ، يرجو به القُرْبَ منه ﷻ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/15.

ويبتغي دعاءَ الرَّسولِ ﷺ عند أخْذِ الصَّدَقةِ منه، لأنَّ دُعاءَ الرَّسولِ قُربةٌ عَظيمةٌ لهم، فيدخلونَ في رَحمتِه ورضوانِه، إنَّه غَفورٌ رَحيمٌ.

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ العطفِ في جملة: ﴿وَمِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ﴾ على سابقتها:

الـذَّمُّ بسببِ الأوصافِ والأعمالِ، لا بسببِ الوطنِ ولا العصبيّة

لمّا ذكرَ حالَ الأعرابِ المنافقين؛ عطفَ عليه بيانَ حالِ المؤمنينَ الصّادقينَ منهم، فقالَ: ﴿وَمِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ مَن يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾ إيمانًا صادقًا إذعانيًّا تصدر عنه آثارهُ من العمل الصّالح[1] وفيه دليلٌ على أنَّ الذَّمَّ للأعرابِ في الآيات السّابقةِ ليس لأنَّهم أعرابٌ، بل ذمَّهم بسببِ ترك أوامرِ اللّهِ تعالى، وأنَّهم في مَظِنَّةِ ذلك لبعدِهِم عن مجالسِ العلمِ والخيرِ.

سرُّ تأخيرِ الحديثِ عن هذا الصِّنفِ المؤمنِ إلى هنا:

الـختـمُ بالحسنِ؛ لأنَّهُ آخرُ ما يعلقُ بالأذهانِ

أخِّرَ الحديثُ عن هذا الصِّنفِ المؤمنِ مِنَ الأعرابِ من بابِ التَّحليةِ بعد التَّخليةِ، حيثُ سبقَ الحديثُ عن الكافرين والمنافقين وأصحابِ السُّوءِ في الآيات السّابقةِ، ثمَّ جاء الحديثُ هنا عن الصِّنفِ الإيمانيِّ حتى تتَّضحَ التَّحليةُ بعد التَّخليةِ، فالنّاظرُ في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ مَن يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾يجدُ مناسبةً حسَنةً؛ لأنَّه لمّا ذكَر في الآيةِ السّابقةِ قولَهُ تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغۡرَمًا﴾، ذَكَر مُقابِلَه، وهو مَن يتَّخِذُ ما يُنفِقُ مَغنَمًا في قولِه: ﴿وَمِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ مَن يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ﴾، وذَكَر هنا الأصلَ الَّذي يترتَّبُ عليه إنفاقُ المالِ في القُرُباتِ، وهو الإيمانُ باللّهِ واليومِ الآخِرِ؛ إذ جزاءُ ما يُنفِقُ إنَّما يَظهَرُ ثوابُهُ الدّائمُ في الآخِرَةِ، وهذا هو عينُ التَّحليةِ.

(1) محمّد رشيد رضا، تفسير المنار: 11/10.

دلالةُ ﴿وَمِنَ﴾ في قولِهِ: ﴿وَمِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ﴾:

إنصافُ القرآنِ للأعرابِ، بحسب الأخلاق والأفعال

﴿وَمِنَ﴾ في قولِهِ: ﴿وَمِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ﴾ مُبيِّنةٌ للجنسِ، وقد سبقَ تفصيلُ ذلك، والمرادُ هنا أنَّها بَيَّنت فريقًا خاصًّا من الأعرابِ غير الَّذي سبق ذِكرُهم وهم من خالطت بشاشةُ الإيمانِ قلوبَهم، فباعثُ الإنفاقِ عندهم الإيمانُ باللّٰهِ لا الخوفُ من النّاس، ولا التَّملُّق للغالبين؛ ولذلك فإنَّ إنفاقَهم قُربةٌ مقبولةٌ من اللّٰهِ تعالى ورسوله ﷺ ولهم حُسنُ العاقبةِ في الآخرة[1].

دلالةُ (الْ) في لفظ ﴿ٱلۡأَعۡرَابِ﴾ في السّياق:

الوصفُ العامُّ للمجموعِ لا للجميعِ

اللَّامُ فيها للجنسِ، أي: جنسُهم لا كلَّ واحدٍ منهم بدليلِ أنَّ اللّٰهَ تعالى مَدَح مَن يستحقُّ منهم، وذمَّ من يستحقُّ، والشَّأنُ في البدو أن يكونوا أشدَّ كفرًا ونفاقًا[2].

دلالةُ وصفِ الأعرابِ بالإيمانِ، في السّياق الكريم:

ذِكرُ الوصفِ العامِّ، يتضمَّنُ الوصفَ الخاصَّ

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ مَن يُؤۡمِنُ﴾، وفيه تعرَّضتِ الآيةُ لوصفِ فريقٍ من الأعرابِ بالإيمانِ باللّٰه واليوم الآخرِ - مع أنَّ مساقَ الآيةِ لبيان الفرقِ بين الفريقينِ في شأنِ الإنفاق حالًا ومآلًا - وذلك لبيانِ كمالِ العنايةِ بإيمانِهم، وبيان اتِّصافهم به، وزيادةٍ في الاعتناء بتحقيقِ الفرقِ بين الفريقينِ من أوَّل الأمرِ.

سرُّ تعدِّي الفعلِ ﴿يُؤۡمِنُ﴾ بالباءِ في السّياق:

من حسنت نيّته، وطاب فعله من الأعراب، كان من الفائزين

قولِه: ﴿وَمِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ مَن يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ﴾، وفيه عُدِّي الفعلُ ﴿يُؤۡمِنُ﴾ بحرفِ الباءِ؛ لأنَّ الإيمانَ في اللُّغةِ بمعنى التَّصديقِ، وفي هذا إشارةٌ إلى أنَّ إيمانَهم ضمَّن معنى التّصديقِ الَّذي يحملُ معنى الطُّمأنينةِ والثَّباتِ.

(1) عبد الفتاح لاشين، لغة المنافقين في القرآن الكريم، ص: 193.

(2) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 4/159، وعبد الفتاح لاشين، المنافقون في القرآن الكريم، ص: 191.

دلالةُ التَّعبيرِ بالمضارعِ في ﴿يُؤۡمِنُ﴾:

الإيمانُ يتجدَّدُ باستمرارٍ

عبَّرَ بصيغةِ المضارعِ ﴿يُؤۡمِنُ﴾ ليدلَّ على الحدثِ بلفظهِ وعلى الزَّمانِ بصيغتهِ، ليفيدَ معنى الاستمراريَّةِ والتَّجدُّدِ والديمومةِ، فهو إيمانٌ ثابتٌ يتجدَّد مع كلِّ تكليفٍ وتشريعٍ ينزِّله اللّه على رسوله ليعملوا بهِ، فالإيمانُ وقرَ في قلوبِهم، وفاضتْ ثمراتُهُ على جوارِحِهم.

فائدةُ تقديمِ شبهِ الجملةِ ﴿وَمِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ﴾:

من حاز فخار الإيمان، أعطي الخصوصيّة والجزاء الأوفى

تقديمُ شبهِ الجملةِ جاءَ للتَّنبيه على اتِّصال الحديثِ بالمؤمنينَ، وأيضًا للاهتمامِ بهم من قبلِ المؤمنينَ في التَّعامُلِ معهم.

سرُّ عطفِ الإيمانِ باليومِ الآخرِ، على الإيمانِ باللهِ:

الإيمانُ باليومِ الآخرِ، مركزُ الإيمانِ

السِّرُّ في ذِكرِ الإيمانِ باليومِ الآخرِ مقرونًا بالإيمانِ باللّهِ: أنَّ الإنسانَ الَّذي لا يؤمنُ باليومِ الآخر لا يكون مؤمنًا باللّهِ ﷻ، والإنسانُ إذا لم يؤمنْ باليومِ الآخرِ، فلا معنى لكونهِ مؤمنًا باللّهِ في هذهِ الحياةِ الدُّنيا؛ لأنَّ العملَ في الحياةِ الدُّنيا يرتبطُ أساسًا بالإيمانِ بالآخرةِ، كما أنَّ اللّهَ تعالى غَيْبٌ، وكذلك اليومُ الآخرُ من أمورِ الغيبِ، ومن علامةِ المُؤمنين أنَّهم يؤمنونَ بالغيبِ، وممّا يذكرُ في هذا المقامِ أنَّ الإيمانَ باللّهِ تعالى وباليومِ الآخرِ وما فيه من مشاهدَ من أعظمِ مقاصدِ الدِّين، ولأنَّ الإيمانَ باللّهِ واليومِ الآخرِ يستلزمُ الإيمانَ ببقيَّةِ الأركانِ من الكتبِ والرُّسل ونحو ذلك، ولأنَّ الإيمانَ باللّهِ وباليومِ الآخرِ إيمانٌ بالمبدأِ والمعاد.

نكتةُ وصفِ اليومِ بـ﴿ٱلۡأٓخِرِ﴾:

اليومُ الآخرُ اسمٌ يطلقُ على يومِ القيامةِ

في وصفهِ بالآخرِ تذكيرٌ بأهوالهِ وتنبيهٌ على الاستعدادِ لَهُ، وفيه إشارةٌ إلى أنَّ الزَّمنَ على قسمينِ: القسمُ الأوَّلُ: سمّاه اللّهُ الدُّنيا، وهو من بدءِ الخلقِ إلى قيامِ السّاعةِ، والقسمُ الثاني: وهو من قيامِ السّاعةِ إلى ما لا نهاية وسمّاه اللّهُ باليومِ الآخرِ.

سرُّ التَّعبيرِ بقولِهِ: ﴿وَيَتَّخِذُ﴾، دونَ (يحتسب):

الاتِّخاذُ أخْذٌ عن اختبارٍ واختيارٍ

آثرَ التَّعبيرَ بالاتِّخاذِ هنا دونَ يحتسبُ؛ لأنَّ الاتِّخاذَ أعمُّ؛ لأنَّ معناهُ: أخذٌ عن اختبارٍ واختيارٍ، أي: يفعلُها قاصدًا أن تكونَ قرباتٍ، لا كالذين فعلوها على أنَّها مغرمٌ من المغارمِ يغرمونَها. فاتِّخاذُ الصَّدقاتِ هنا ضدُّ اتِّخاذ المنافقينَ إيّاها مغرمًا في الآية السّابقة[1]؛ لذلكَ ناسبَ التَّعبيرُ بالاتِّخاذِ ردًّا على الصِّنف السّابقِ مِنَ الأعرابِ.

وفيهِ إشارةٌ إلى أنَّ الاتِّخاذَ مبنيٌّ على القطعِ واليقينِ، بخلافِ الحسبانِ؛ فهو مبنيٌّ على الظَّنِّ، وهذا غيرُ مناسبٍ ليقينِ الإيمانِ عندَهُم.

الغرضُ من التَّعبيرِ بالمجازِ المرسلِ (القربات):

ذِكْرُ المقاصدِ، يحقِّقُ إتقانَ الأسبابِ

في قوله: ﴿قُرُبَٰتٍ﴾ مجازٌ مرسلٌ، حيثُ أطلقَ المسبَّبَ - وهو القرباتُ - وأرادَ السَّبب، أي: سببًا لحصول القرباتِ عندَ اللّهِ، وسببًا لصلواتِ الرَّسولِ ﷺ فالآيةُ تصوِّر مدى حرصِ القومِ على طلبِ القُرْبِ من اللّهِ ﷻ ودعاءِ الرَّسولِ ﷺ وعلوِّ هممِهم في ذلك، وقد آثرَ التَّعبيرَ بالقرباتِ عن الطّاعاتِ؛ لأنَّ الهدفَ من الطّاعاتِ هو التقرُّبُ إلى اللّهِ ورسوله، فعبَّرَ بالمُسَبَّبِ عن السَّببِ؛ لأنَّهُ المقصدُ الَّذي يُبحثُ عنهُ، ومن المَعاني الَّتي تذكرُ في سرِّ تسميةِ الطّاعاتِ بالقُرباتِ أنَّها مستعملةٌ مجازًا في رضا اللّه تعالى ورفعِ الدَّرجاتِ في الجنَّة، ولأنَّ الجنَّة تُشبَّهُ بدارِ الكرامةِ عندِ اللّه تعالى.

سرُّ التَّعبيرِ بالجمعِ ﴿قُرُبَٰتٍ﴾، دون(قُربةٍ) بالإفراد:

دلالة السّياق على تكثير الأعمال، ورفع الدّرجات

قوله: ﴿وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ﴾، وفيه جُمِعَ ﴿قُرُبَٰتٍ﴾ باعتبارِ أنواعِ القُرباتِ أو أفرادِها، فكُلُّ إنفاقٍ هو قُربةٌ عند اللّهِ؛ لأنَّه يُوجِبُ زيادةَ القُرْبِ، وجمعها أيضًا لتعدُّدِ وجوهِ الخيرِ في الإنفاقِ، فكلُّ نفقةٍ تنفق في الجهادِ أو على الفقراءِ، فهي قربةٌ للّه، فضلًا عن كونِها

(1) محمّد رشيد رضا، تفسير المنار: 11/10، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/13.

طاعةً، وفيها وقايةٌ للنَّفسِ من شُحِّها، وفيها معاونةٌ اجتماعيَّةٌ؛ لأنَّها علاجٌ لأدواءِ المجتمع الإسلاميّ بإعطاء السّائل والمحروم حقَّهما إلى غيرِ ذلك من أنواعِ القُرَبِ الَّتي تجتمع في وجوهِ الإنفاقِ، وكلُّ ذلك يطلقُ عليهِ وصفُ القرباتِ[1] ففي التَّعبيرِ بالجمعِ تكثيرٌ لأعمالهِم وإيذانٌ برفعِ درجاتِهم عند اللّهِ.

نكتةُ تنكيرِ ﴿قُرُبَٰتٍ﴾، في سياق الآية الكريمة:

دلَّ التَّنكيرُ في قولهِ: ﴿قُرُبَٰتٍ﴾ على عظمِها، وأنَّها مهما كانت صغيرةً أو قليلةً، فهي عندَ اللّهِ تعالى عظيمةٌ وكثيرةٌ.

التَّكثيرُ والتَّعظيمُ، مؤذنٌ بعلوِّ القدرِ، ورفعةِ المقامِ

سرُّ التَّعبيرِ بـ ﴿عِندَ﴾، في قولهِ: ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾:

عبَّرَ بـ ﴿عِندَ﴾ في قولهِ: ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ للدَّلالةِ على العنايةِ والتَّكريم بما ينفقهُ هؤلاءِ الأعرابِ من الصَّدقاتِ، فهيَ في مكانةٍ عاليةٍ، دلَّلَ على ذلك استعمالُ ﴿عِندَ﴾ في التَّشريف والعنايةِ[2] على سبيلِ المجازِ؛ لأنَّ ﴿عِندَ﴾ في الأصلِ تدلُّ على المكانِ المختصِّ بالَّذي أضيفَ إليه لفظُها.

أهلُ القرباتِ أهلُ العنايةِ والكرامةِ عندَ اللهِ

دلالةُ إضافةِ العنديَّةِ للّهِ ﷻ:

أُضيفَ لفظُ ﴿عِندَ﴾ إلى لفظِ الجلالة ﴿ٱللَّهِ﴾؛ لأنَّها تفيدُ القربَ منهُ تعالى، وتفيدُ أيضًا تشريفَهم ومكانتهم عنده، فإنَّ الجنَّة تُشَبَّهُ بدار الكرامةِ عند اللّهِ، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ۝٥٤ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ﴾ [القمر: 54، 55][3].

القريبُ مِنَ اللهِ تعالى، قريبٌ من عفوه ولطفه وجنّته

بلاغةُ العطفِ، في قوله: ﴿وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ﴾:

يجوزُ عطفُ صلواتٍ في قولهِ: ﴿وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ﴾ على ما في قولهِ: ﴿وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ﴾، والمعنى: ويتَّخذ بالأعمالِ الصّالحةِ وصلوات

التماسُ دعواتِ الرَّسولِ ﷺ واستغفارِه، أعظمُ القرباتِ

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3425.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/15.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/15.

الرَّسولِ قربةً، أي: أنَّه يتقرَّبُ بصدقتِه ودعاءِ الرَّسولِ إلى اللّهِ، ويجوزُ عطفها على (القُربات)، كأنَّه يتَّخذُ إنفاقَهُ قُربةً، ويلتمسُ بهِ صلواتِ الرَّسولِ، ودعاءه كما يلتمسُ القُرباتِ[1].

سرُّ التَّعبيرِ بقوله: ﴿وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِۚ﴾، دونَ (دعواتِ الرّسول):

في اصطفاءِ الصَّلواتِ، على الدَّعواتِ تمجيدٌ

آثرَ التَّعبيرَ بالصَّلواتِ دونَ الدَّعواتِ في قوله: ﴿وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِۚ﴾؛ لوجودِ فرقٍ بينهما فالصَّلاةُ عندَ أهلِ اللُّغةِ: هي الدُّعاءُ، والتَّبريكُ والتَّمجيدُ، يقالُ: صَلَّيْتُ عليهِ، أي: دعوتُ له، وزكَّيت، وعند أهلِ الشَّرعِ مُستعملةٌ في ذات الأركان؛ لأنَّها دعاءٌ بالألسنةِ الثَّلاثة: الحال والفعل والمقال، وسُمِّي الدّاعي مُصلِّيًا تشبيهًا له في تخشُّعِهِ بالرّاكع السّاجدِ، وقيل: كلُّ صلاةٍ في القرآن؛ فهي عبادةٌ ورحمة إلّا قولَهُ تعالى: ﴿وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ﴾ [الحج: 40]، فإنَّه يريد بيوتَ عبادتِهم، والصَّلاة تعني: الاستغفارَ، ومنهُ قولُهُ تعالى: ﴿وَصَلِّ عَلَيۡهِمۡۖ﴾ [التوبة: 103]، أي: استغفر لهم، و﴿إِنَّ صَلَوٰتَكَ﴾ يعني: استغفارَكَ.

أمّا الدُّعاءُ؛ فهو النِّداءُ، تقولُ: دَعَوْتُ فُلانًا، أيْ: ناديتُهُ، ويأتي الدُّعاءُ بمعنى الطَّلَبِ والسُّؤالِ، والدُّعاء أيضًا التَّقَرُّبُ إلى اللّهِ تعالى بِطاعتِهِ أو بِسؤالِهِ رَغبةً في فَضْلِهِ ورَهْبةً مِن عِقابِهِ[2]، وعلى ذلكَ فالصَّلواتُ أعمُّ من الدُّعاءِ في إطلاقاتِها؛ لذلكَ آثرَ القرآنُ التَّعبيرَ بها في هذا المقامِ.

بلاغةُ المجازِ، في قوله: ﴿وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِۚ﴾:

الرّسول للأمّة أمان، ودعاؤه لها ضمان

تظهرُ بلاغةُ المجازِ، في قوله: ﴿وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِۚ﴾، في حذفِ المضافِ وإبقاءِ المضافِ إليه للمبالغةِ؛ لأنَّهم كانوا يجعلونَ الإنفاقَ سببًا لدعاءِ الرَّسولِ ﷺ لأنَّهُ كان يدعو للمتصدِّقين، قال تعالى:

(1) الواحديّ، التّفسير البسيط: 11/21، وأبو حيّان، البحر المحيط: 5/493، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/15.

(2) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن سيده، المحكم، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (صلا، ودعا)، والآلوسيّ، روح المعاني: 1/119.

﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ﴾، ويؤيِّدُ ذلك فعله ﷺ بالدُّعاءِ لآلِ أبي أوفى، بقولِه: «اللهمَّ صلِّ على آلِ أبي أوفى»[1].

نكتةُ الجمعِ لـ ﴿وَصَلَوَٰتِ﴾، في قولِه: ﴿وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ﴾:

جُمِعَت كلمةُ ﴿وَصَلَوَٰتِ﴾؛ لأنَّ كلَّ إنفاقٍ يقدِّمونَه إلى الرَّسولِ ﷺ يدعو لهم بسببِه دعوةً، فبتكرُّرِ الإنفاقِ تتكرَّرُ الصَّلاةُ[2]، وجُمِعَتْ أيضًا لكثرةِ ما يترتَّبُ عليها من أنواعِ الخيراتِ في الدُّنيا والآخرةِ.

حُبُّ النَّبيِّ ﷺ لأمَّتِه عظيمٌ، لا حدود له

فائدةُ إضافةِ الصَّلواتِ للرَّسولِ الأكرم:

في إضافةِ الصَّلواتِ إلى الرَّسولِ بيانٌ لمنزلتِه ﷺ ولدعائِه للمؤمنين عندَ اللهِ تعالى، فهي صدقاتٌ إلى صدقاتِهم، يضيفُها الرَّسولِ إليهم لتزيدَ في قربِهم إلى اللهِ، فلقد كان الرَّسولُ ﷺ يُصلِّي على المتصدِّق، أي: يدعو لهُ، بالخيرِ والبركةِ، وذلك امتثالًا لقولِه تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ﴾ [التوبة: 103][3] وأيضًا للحديثِ الَّذي سبقَ ذكرُه.

بيانُ عظمِ الصَّلواتِ، وأنّ شرفَ المضافِ، مكتسبٌ من المضافِ إليه

الغرضُ مِنَ استئنافِ ﴿أَلَآ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ﴾ في السّياق:

فُصلت هذه الجملةُ عمّا قبلَها؛ لأنَّها استئنافيَّةٌ، كأنَّهُ قيلَ: هل تكونُ صدقتُهم قربةً كما اعتقدوا؟ فكان قولُهُ: ﴿أَلَآ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ﴾ جوابًا لهم على سؤالهم[4] والغرض من الاستئناف بشارتهم بقبول أعمالهم.

بشارتُهم بالقبولِ، معنًى تأسيسيٌّ لقوّتِه

وفي استئنافِ هذه الجُملةِ، وتَصديرِها بحَرفَي التَّنبيهِ والتَّحقيقِ (ألا، إنَّ)، المُؤذِنَين بثَباتِ الأمرِ وتمكُّنِه: شهادةٌ مِن اللهِ بصِحَّةِ ما اعتَقَدوهُ مِن إنفاقِهم، فهي مَسوقةٌ مَساقَ البِشارةِ لهم بقَبولِ ما رَجَوه[5].

---

(1) البخاري، الجامع الصحيح، الحديث رقم: (1497)، ومسلم، صحيح مسلم، الحديث رقم: (1078)، (176).

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/15.

(3) عبد الكريم الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 6/879.

(4) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاوي: 9/321.

(5) الزّمخشريّ، تفسير الكشّاف: 2/304، وأبو حيّان، البحر المحيط: 5/493، والسّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 6/109، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/16.

بلاغةُ تتابعِ المؤكِّداتِ، في سياق الآية الكريمة:

التَّأكيدُ على بشارةِ اللهِ تعالى للمؤمنينَ المنفقينَ بالجنَّةِ

قولِه تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّهَا قُرۡبَةٞ لَّهُمۡۚ سَيُدۡخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِي رَحۡمَتِهِۦٓۚ﴾، أُكِّدَ هذا الخبرُ بافتتاحِه بأداة التَّنبيهِ الدّالَّةِ على الاهتمامِ بما بعدَها وتحقُّقه، وبـ (إنَّ) الدّالَّةِ على تحقُّقِ مضمونِ الجملة، وبالجملةِ الاسميَّة ﴿أَلَآ إِنَّهَا قُرۡبَةٞ لَّهُمۡۚ﴾، وبإدخالِ (السِّين) على الجملةِ الثَّانية، وهذه السِّين يُقصدُ بها التَّأكيدُ في الإثباتِ على معنى أفعل كذا، وإن أبطأَ الأمرِ، أي: لا بدَّ من فِعلِه، ثمَّ بأنْ جعلَ الرَّحمةَ محيطةً بهم، شاملةً لهم، وهم مغمورون فيها، وهذا أبلغُ من إثباتِها في قولِه تعالى: ﴿يُبَشِّرُهُمۡ رَبُّهُم بِرَحۡمَةٖ مِّنۡهُ﴾ [التوبة: 21]، وهذه الضُّروبُ مِن التَّوكيداتِ تدلُّ على علوِّ مكانةِ هؤلاءِ الأعرابِ[1].

دلالةُ تعدُّدِ مرجعِ عودِ الضَّميرِ في ﴿إِنَّهَا﴾:

الإنفاقُ وصلواتُ الرَّسولِ الأكرمِ، سببُ القربِ مِنَ اللهِ ﷻ

ذهبَ بعضُ العُلماءِ إلى عودِ الهاءِ في قوله: ﴿إِنَّهَا﴾ على ﴿وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِۚ﴾[2]، أي: إنَّ الجُملةَ بيانٌ وتأكيدٌ لنفعِ صلواتِ الرَّسولِ لهم، وذهبَ أكثرُهم إلى عودِه على النَّفقةِ[3] في قولِه تعالى: ﴿مَا يُنفِقُ﴾، فتكونُ الجملةُ تأكيدًا لحصولِ القَبولِ والرِّضا من اللهِ تعالى، ولا مانعَ من الجمعِ بينهما؛ لأنَّ الإنفاقَ وصلواتِ الرَّسولِ يؤدِّيان إلى القربِ مِنَ اللهِ تعالى، فالنَّفقةُ حقَّقت الوصالَ عندَ اللهِ تعالى، وحقَّقت رجاءَهُم في نيل دعاءِ الرَّسولِ ﷺ واستغفارِه لهم والصَّلاةِ عليهم، وكذا صلواتُ الرَّسولِ ﷺ حقَّقت لهم الوصالَ عندِ اللهِ ﷻ.

دلالةُ التَّعبيرِ بـ ﴿قُرۡبَةٞ﴾:

القربةُ دنوٌّ وإخلاصٌ

عبَّرَ بالقربةِ، ومعناها في اللُّغةِ: الدُّنوُّ مِن الشَّيءِ مُطلقًا، والمرادُ بالقربةِ في العمل: هو الإخلاصُ وابتغاءُ مرضاةِ اللهِ ورحمتِه ومثوبته.

---

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 16/127، ولاشين، لغة المنافقين في القرآن الكريم، ص: 194.

(2) ابن جرير، جامع البيان: 14/434، والسّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 349.

(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/304، وأبو حيّان، البحر المحيط: 5/493، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/96، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/16، ومحمّد رشيد رضا، تفسير المنار: 11/11.

سرُّ إفرادِ القربةِ، في قولِهِ: ﴿أَلَآ إِنَّهَا قُرۡبَةٞ لَّهُمۡۚ﴾:

عبَّرَ بالمفردِ دونَ الجمعِ، كما سبق في قوله: ﴿قُرُبَٰتٍ﴾؛ لأنَّها هناك من جانبِ البشرِ، وهنا من ربِّ البشرِ، فالقربةُ عندَهُ هي كمالُ العطاءِ وغاية النَّعيم، فلا حدَّ فيها لمننهِ وفضلهِ.

قربة الله كمال وعطاء بلا حدود، ولا قيود

دلالةُ اللّامِ في قولِهِ: ﴿لَّهُمۡۚ﴾:

دلَّتِ اللَّامُ على الاختصاصِ، أي: هي قُربةٌ لهم عندَ اللّهِ تعالى، وعندَ صلواتِ الرَّسولِ ﷺ [1]فهو اختصاصٌ اختصَّ اللّهُ بهِ الأعرابَ المؤمنينَ لتكريمِهم وعلوِّ قدرِهم.

التَّخصيصُ بالعطاءِ تكريمٌ، من الله العليّ العظيم

الغرضُ من أسلوبِ كمالِ الاتِّصالِ:

فُصِلَتْ جملةُ: ﴿سَيُدۡخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِي رَحۡمَتِهِۦٓۚ﴾ عمّا سبقَها؛ لأنَّها واقعةٌ موقعَ البيانِ لجُملَةِ ﴿إِنَّهَا قُرۡبَةٞ لَّهُمۡۚ﴾؛ لأنَّ القُربةَ عِندَ اللّهِ هي الدَّرَجاتُ العُلا ورِضْوانُه، وذلك مِن الرَّحمةِ.

بيانُ أجرِ العملِ، تعظيمٌ لقدرِهِ

وهي الجزاءُ الَّذي سيجزيهِ اللّهُ هؤلاءِ الذين أنفقوا في سبيلِ اللّه[2].

دلالةُ دخولِ السِّينِ، في قولِهِ: ﴿سَيُدۡخِلُهُمُ﴾:

دخلتِ السِّينُ على قولِهِ: ﴿سَيُدۡخِلُهُمُ﴾؛ أنَّها حرفُ استقبالٍ مفيدٌ للتَّأكيدِ وتحقيقِ الوقوعِ، والغرضُ منه تحقُّقُ دخولِهم في رحمةِ اللّه تعالى، فهو وعدٌ منه، ولن يخلفَ تعالى وعدَهُ.

تأكيدُ قُربِ حصولِ البشارةِ إعلاءٌ لقدرِها

الغرضُ من التَّعبيرِ بالمجازِ المرسلِ:

قولِهِ: ﴿سَيُدۡخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِي رَحۡمَتِهِۦٓۚ﴾، في قولِهِ تعالى: ﴿فِي رَحۡمَتِهِۦٓۚ﴾ مجازٌ مرسل، من إطلاقِ الحالِ، وهو الرَّحمة، وإرادة المحلِّ، وهو الجنَّة، فهُم في الجنَّة، تكتنفُهم الرَّحمةُ، ويحيطُ بهم النَّعيمُ من كلِّ جانبٍ. وفي الآية مَدْحُ القوم والتَّرغيبُ في التَّشبُّهِ بحالهم، والتَّنبيهُ

العبرةُ في السَّعادةِ بما في الجنّة من أنعم وهناءة، لا بالمكان في ذاتِهِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/16.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 11/16، وعبد الكريم الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 6/880، 11/16.

على عُلُوِّ منزلتهم، ورفعة قَدْرهم، فقد عبَّرَ برحمتِهِ عن الجنّةِ؛ لأنَّها هي الرَّحمةُ الحقيقيَّةُ، وأيَّةُ رحمةٍ بعدها؛ إذا لم يدخلْها الإنسانُ؟[1]. وفي المجاز تأكيدٌ على ما يكونُ في المكان، فليست الأماكنُ جالبةً السعادة والخير والراحة بذاتها، وإنما قدرها في السَّعادةِ والنَّعيم على قدرِ ما فيها، فالجنَّةُ كلُّها رحمةٌ حتى كأنَّها هي الرَّحمةُ.

دلالةُ التَّعبيرِ بالمضارعِ (يدخلهم) في السّياق:

أوثرَ فعلُ الإدخالِ بصيغتهِ المضارعةِ ليفيدَ التَّأكيدَ في تحقيقِ الوعدِ للمؤمنين ووقوعه لا محالةَ؛ ولأنَّ فعلَ الإدخالِ مناسبٌ للكونِ في الجنَّةِ؛ إذ كثيرًا ما يُقال: دخلَ الجنَّةَ، قال تعالى: ﴿وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي﴾ [الفجر: 30][2] وكأنَّ مجرَّدَ الدُّخولِ نعيمٌ، فإن كان كذلك فتجدُّدُهُ واستمرارهُ تجدُّد للنَّعيم.

وعْـــدُ الـلـهِ للمؤمنينَ، حقٌّ لا ريـب فيـه، والـلـه لا يخلف الميعاد

دلالةُ التَّعبيرِ بالظَّرفيَّةِ، في قولهِ: ﴿فِي رَحۡمَتِهِۦٓۚ﴾:

عبَّرَ بحرفِ الجرِّ (في) الَّتي تفيدُ الظَّرفيَّةَ والاحتواء والاستيعاب، وعليه يكون معنَى إدخالِهم في رحمتهِ تعالى أن يكونوا مَغْمورين فيها، وتكونَ هي محيطةً بهم، شاملةً لهم.

شمولُ الرَّحمةِ أهـلَ الـجنَّـةِ، احـتـواؤُها لهم أعظمُ النَّعيمِ

دلالةُ إضافةِ الرَّحمةِ، إلى ضميرِ الذَّات العليَّة ﴿رَحۡمَتِهِۦٓۚ﴾:

دلَّتِ الإضافةُ على التَّشريفِ والتَّعظيم للجنَّةِ، ولمن يدخلونها؛ لأنَّ كلَّ شيءٍ يضافُ إلى اللّه ﷻ يكتسبُ تعظيمًا وتشريفًا، وهذا ظاهرٌ في أشياءَ كثيرةٍ، كإضافةِ البيت الحرام إليه سبحانه والكتب والرُّسل وبعض المعجزات كناقة صالحٍ، قال عنها: ناقةُ اللّه.

شـرفُ المـضـافِ مـــن شـــرفِ المضافِ إليهِ

دلالةُ فصلِ جملة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾ عمّا قبلَها:

فُصِلَت هذهِ الجملةُ عمّا قبلَها؛ لأنَّها في موضعِ الاستئنافِ البيانيِّ التَّعليليِّ، فكأنَّ سائلًا سألَ: إذا كان اللّهُ سيُدخِلُ الأعرابَ

اللهُ تعالى واسعُ المـغـفـرةِ، كـثـيرُ الرَّحمةِ

(1) الدُّرَّة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 4/221.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/16.

المؤمنينَ الجنَّةَ مع وجودِ تقصيرٍ منهم ؟ فكان الجوابُ على ذلك ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، فاتِّصافهُ سبحانه بصفتي المغفرةِ والرَّحمةِ تذييلٌ مناسبٌ لما رجوهُ وما استجيبَ لهم.

بلاغة التّذييل ودلالته على التَّأكيدِ، في سياق الآية الكريمة:

التَّأكيدُ تقويةٌ للعلَّةِ، وبيان للمقصود من الآية الكريمة

قولهِ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، وفيه أُكِّدَتِ الجملةُ بحرف ﴿إِنَّ﴾؛ لأنَّها تقوِّي مضمونَ الجملة الاسميَّةِ؛ لأنَّ مجيء التَّذييل جملةً اسميَّةً يدلُّ على التَّأكيدِ، والغرضُ من ذلك الاهتمامُ بهذا الخبرِ، أي: غفورٌ لما مضى من كفرهِم، رحيمٌ بهم يفيضُ النِّعم عليهم[1]، واجتماعُ التَّأكيد بـ ﴿إِنَّ﴾ والجملةِ الاسميَّة يؤكِّد اتِّصافَهُ سبحانه بالمغفرة والرَّحمة، وفي هذا وعدٌ للمؤمنين يستوجبُ منهم المداومةَ على طلبِ الاستغفارِ والرَّحمةِ.

سرُّ التَّعبيرِ بصيغةِ المبالغةِ في قولهِ: ﴿غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾:

المغفرةُ والرَّحمةُ من الصِّفاتِ الثَّابتةِ للهِ تعالى الَّتي لا تنفكُّ عن ذاتِهِ

جاءَ وصفُ المغفرةِ والرَّحمةِ بصيغةِ المبالغةِ في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، وذلك لإفادةِ الثُّبوت واللُّزوم، فهاتانِ الصِّفتان (المغفرة والرحمة) من الصِّفات الثّابتةِ للّهِ تعالى الَّتي لا تنفكُّ عن ذاتهِ ﷻ، فهو لم يزَل، ولا يزالُ غفورًا رحيمًا بعباده، أي: إنَّ اللّهَ تعالى غفور لما مضى، فيغفرُ للمقصِّرين في أعمالهِم وللمخلصين فيما يشوبُ أعمالهم من ذنبٍ وتقصيرٍ، ورحيم يرحمُ الصّادقين في إيمانِهم، فيهديهم إلى أحسنِ العملِ وخيرِ المصير، وبما يفيضُ عليهم من النِّعم[2].

سرُّ التَّعبيرِ بالإظهارِ، في موضعِ الإضمارِ:

لفظُ الجلالةِ (الله)، يجمعُ صفاتِ الجمالِ والجلالِ، ولا أحد يساميه بحال

قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ آثرَ التَّعبيرَ بالإظهارِ في موضعِ الإضمارِ، لقربِ ذكرهِ سبحانه في قوله: ﴿سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ﴾، للإشعارِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/16.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/16، وطنطاويّ، التّفسير الوسيط: 6/389.

بتربيةِ المهابةِ في قلوبِ الأعرابِ المؤمنينَ خصوصًا، والمؤمنين عمومًا؛ لأنَّ لفظَ الجلالةِ ﴿ٱللَّهُ﴾ يجمعُ صفاتِ الجمالِ والجلالِ والكمالِ.

سرُّ التَّقديمِ للفظ ﴿غَفُورٌ﴾، على لفظ ﴿رَّحِيمٌ﴾:

في قولِه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ قُدِّمت صفةُ الغفورِ على صفةِ الرَّحيم؛ لأنَّ المغفرةَ سلامةٌ، والرَّحمة غنيمةٌ، والسَّلامة تُطلَب قبل الغنيمةِ، وفي الحديثِ أنَّ النَّبي ﷺ قال لعمرو بن العاصِ رضي الله عنه: «أَبْعَثُكَ وَجْهًا يُسَلِّمُكَ اللهُ فِيهِ، وَيُغَنِّمُكَ، وَأَرْغَبُ لَكَ رَغْبَةً مِنَ المالِ»[1]، فهذا من التَّرتيبِ البديعِ بدأَ بالسَّلامةِ قبلَ الغنيمةِ وبالغنيمةِ قبلَ الكسْبِ[2].

السَّلامةُ مقدَّمةٌ على الغنيمةِ، ولا بدّ قبل التّحلية من تخلية

وممّا يُذكرُ في سرِّ تقديمِ الغفورِ على الرَّحيم أنَّه من بابِ تقديمِ السَّبب على المُسبِّب؛ فإنَّ المغفرةَ سببٌ في الرَّحمة، وأيضًا؛ لأنَّ تقديمَ المغفرةِ على الرَّحمةِ من بابِ تقديمِ التَّخليةِ على التَّحليةِ، فالمغفرةُ زوالُ المرهوبِ، والرَّحمةُ تحصيلُ المطلوبِ.

نكتةُ تنكيرِ الاسميْنِ الجليليْنِ: ﴿غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾:

أتى الاسمانِ الجليلانِ ﴿غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ نكرةً للدَّلالةِ على العموم، ليشملَ عمومَ ما يقعُ منهم من أخطاء تزول بدوامِ المغفرةِ منهُ تعالى، ويفيض عليهم برحمتِه تعالى نعمًا لا حصرَ لها، ولا يعجِّل لهم العذابَ، لعلَّهم يتوبون، فيغفر لهم.

سعةُ مغفرةِ اللهِ ورحمتِهِ على عبادِهِ، تطال النّاس قاطبة

(1) الطّحاويّ، شرح مشكل الآثار: 15/327، رقم: (6056).
(2) ابن قيم الجوزيّة، بدائع الفوائد: 1/112.

﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلۡأَوَّلُونَ مِنَ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحۡسَٰنٖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُ وَأَعَدَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي تَحۡتَهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ١٠٠﴾ [التوبة: 100]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمّا ذَكر الله تعالى القِسم الصَّالح من الأعرابِ، وهم الذين يَتَّخِذونَ ما ينفِقون قُرباتٍ عند الله وصلواتِ الرَّسول، وما أعدَّ لهم من الثَّواب؛ بَيَّنَ أنَّ فوق منزلتهم منازلَ أعلى وأعظم منها، وهي مَنازِلُ السَّابِقِين الأوَّلِينَ من المهاجرين والأنصار، والذين سلكوا سبيلهم، وساروا على نهجهم[1].

السَّابقون إلى الإسلام هم أصحاب المنازل البهيَّة، والرُّتب العليَّة

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ﴾: السَّبْق: التَّقدُّم في الجري وفي كلِّ شيء، يقال: سَبَقَه يَسْبِقه سَبْقًا، أي: تقدَّمه[2]. ومعناه المحوريُّ يدور حول تقدُّم الشَّيء على غيره من بين من حوله[3]. ويقال: لفلان سابقةٌ في هذا الأمر: إذا سبق الناسَ إليه[4]. والسابقون في الآية: "المتقدِّمون إلى ثواب الله وجنَّته بالأعمال الصالحة"، وهم "المحرِزون قصبَ السبق في الفضل"[5].

2) ﴿ٱلۡمُهَٰجِرِينَ﴾: الهجر: ضدُّ الوصل، وهو "مفارقة الإنسان

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 16/127، وأبو حيّان، البحر المحيط: 5/494، وابن عادل، اللباب: 10/185.
(2) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح، وابن منظور، اللسان: (سبق).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (سبق).
(4) الزبيدي، تاج العروس: (سبق).
(5) الرّاغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (سبق).

غيرَهُ إمّا بالبدن أو باللِّسان أو بالقلب"[1]. وأصله يدلُّ على القطيعة والقطع[2]، ومنه كذلك التَّهاجر بمعنى التَّقاطع[3].

ومنه أيضًا الهجرة والمهاجرة، وهي الخروج من أرض إلى أخرى، "وأصلُ المهاجرة عند العرب: خروج البدوي من باديته إلى المدن". ويقال: هاجر الرَّجلُ؛ إذا فعل ذلك، وكذلك كلُّ من ترك مسكنه، وانتقل إلى قوم آخرين؛ فقد هاجرَ قومَهُ، والمهاجرون هم الذين ذهبوا مع النَّبيِّ ﷺ من مكَّة إلى المدينة، وسمُّوا بذلك؛ لأنَّهم خرجوا من ديار الكفر إلى ديار الإسلام، وفي هذا تركٌ لديارهم ومساكنهم التي نشؤُوا بها، ولُحُوقٌ بدار أخرى ليس لهم بها أهلٌ ولا مال[4].

3) ﴿وَٱلۡأَنصَارِ﴾: النَّصر: إعانة المظلوم، والمَنَعَة له من الظّالم[5]. وأصله من الإمداد بما فيه زيادةٌ وقوَّة وإتيانُ الخير وإيتاؤهُ للآخرين[6]. "وفي الحديث: «انصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا»[7]، وتفسيره: أن يمنعه من الظُّلم؛ إن وجده ظالمًا، وإن كان مظلومًا؛ أعانه على ظالمه"[8].

ونصرةُ اللّه للعبد: إعانته، ونصرةُ العبد للّه: هو إعانته لعباده وأنبيائه، والقيام بحفظ دينه وحدوده[9]. "والأنصار: جماعةُ النّاصر، وأنصار النبي ﷺ: أعوانُه"[10].

والمراد بهم في الآية: أهلُ المدينة الذين هاجر إليهم النبيُّ ﷺ، فنصروه على أعدائه، وهم ينتمون إلى قبائل الأوس والخزرج، وفيهم يقول ﷺ: «الأنصارُ شِعارٌ، والنّاسُ دِثارٌ، ولولا الهجرةُ؛ لكنتُ امْرَأً مِنَ الأنصارِ»[11].

---

(1) الجوهري، الصحاح، وابن فارس، المجمل والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (هجر).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (هجر).
(3) الجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (هجر).
(4) الأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصّحاح، وابن فارس، المجمل، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (هجر).
(5) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، المجمل، والرّاغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ، وابن منظور، لسان العرب: (نصر).
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (نصر).
(7) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: المظالم، باب: أعن أخاك ظالمًا أو مظلومًا، برقم: (2443): 3/128.
(8) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (نصر).
(9) الرّاغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (نصر).
(10) الخليل، العين، وابن منظور، لسان العرب: (نصر).
(11) مسلم، صحيح مسلم، الحديث رقم: (1061)، واللفظ له، والبخاري، الجامع الصحيح، الحديث رقم: (4330).

4) ﴿بِإِحۡسَٰنٖ﴾: الحَسَن: ضدُّ القبيح، وهو الجمال، وهو الشَّيء المرغوب فيه، المبهج لكلِّ من ينظر إليه، تقول: حَسُن الشيءُ، يحسُن حُسْنًا، فهو حَسَنٌ[1]. وأصله: نقاء الشَّيء بخروج ما يشوبه منه[2].

والإحسان: ضدُّ الإساءة، وفسَّره النَّبيُّ ﷺ حين سأله جبريل عن الإحسان، بأنَّه: «أن تعبد الله كأنَّك تراه، فإن لم تكن تراه؛ فإنَّهُ يراك»[3]، وأراد بالإحسان هنا الإخلاصَ الذي هو شرط للإيمان والإسلام معًا، وكذلك مراقبةُ الله، وحسن طاعته[4]، "وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحۡسَٰنٖ﴾، أي: باستقامةٍ وسلوك الطَّريق الذي درج عليه السَّابقون"[5].

5) ﴿ٱلۡفَوۡزُ﴾: الفوز: الظَّفَر بالأمنيَّة والخير، والنَّجاة من الشَّرِّ[6]. وأصله: عبور مسافة على سبيل النَّجاة[7]. ومنه كذلك المفازُ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ لِلۡمُتَّقِينَ مَفَازًا﴾. أي: فوزًا[8]. والمفازة في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَحۡسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٖ مِّنَ ٱلۡعَذَابِۖ﴾. أي: بمنجاة من العذاب[9].

المَعْنى الإِجْماليُّ:

والسَّابقون الأوَّلون من الرَّعيل الأوَّل إلى الإيمان بالله ورسوله من: المهاجرين من مكَّة إلى المدينة نصرةً للإسلام والمسلمين، ومن الأنصار أهلِ المدينة الذين هاجرَ إليهم النبيُّ ﷺ، فنصروه على أعدائه، وآووا إخوانهم من المهاجرين إليهم، وآزروهم، ومن التَّابعين لهم بإحسان في الإيمان بالله ورسوله، والهجرةُ من دار الحرب إلى دار الإسلام، هؤلاء جميعًا قد رضي الله عنهم بقَبول طاعتهم وارتضاء أعمالهم، ورضوا عنه سبحانه لِما أجزلَ

(1) الجوهري، الصحاح، وابن فارس، المجمل، والرّاغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (حسن).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقي: (حسن).
(3) أخرجه البخاري، الجامع الصحيح، الحديث رقم: (50)، واللفظ له، ومسلم، صحيح مسلم، الحديث رقم: (9).
(4) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (حسن).
(5) ابن منظور، لسان العرب، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ، والزبيدي، تاج العروس: (حسن).
(6) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح، وابن فارس، المجمل، وابن منظور، لسان العرب: (فوز).
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (فوز).
(8) الرّاغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (فوز).
(9) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب: (فوز).

لهم من الثَّواب على طاعتِهم وإيمانهم، وبما نالوه من نِعَمِهِ الدِّينية والدُّنيويَّة، وقد أعدَّ لهم سبحانه بساتين تجري، وتسيل تحت أشجارها وغرفها الأنهار، وهم ماكثون في تلك البساتين والجنّات زمنًا لا نهاية له ولا انقضاء، وذلك هو الفوز والظَّفر الجسيم الذي لا فوز وراءه[1].

الثناءُ على ثلاثِ طوائفَ من المسلمين، ولأهل السَّبْق في الإسلام المكانةُ العُظمى، والثَّواب الأجزل

وترشدُ الآية الكريمةُ إلى تزكيةِ الصحابة ﷺ وتعديلِهم، والثناءِ عليهم؛ ولهذا فإنَّ توقيرَهم من أصول الإيمان، وإلى فضلِ التابعين لأصحابِ رسول الله ﷺ إن أحسَنوا المتابعة.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ عطفِ الآية على الآية السابقة:

عطفتِ الواو جملةَ: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلۡأَوَّلُونَ﴾ على جملة: ﴿وَمِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ مَن يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾ من باب عطْفِ الخبر على الخبر، فبعد أن بيَّن الله تعالى صفاتِ الأعراب، وقسَّمهم إلى كافرين ومنافقين ومتربِّصين ومؤمنين؛ ذكر سبحانه السّابقين الأوَّلين من المهاجرين والأنصار والذين اتَّبعوهم بإحسان، وقد حسُن الوصلُ لما بين الجملتين الكريمتين من الاتفاق في الخبريَّة، والمناسبة المعنويَّة.

بيانُ القدوة الصّالحة والمثَلِ الكامل في اليقين يهوِّن الطَّريق على السّالكين

وتظهر بلاغة هذا الوصل في أنَّه عقَّب ذِكْرَ الفِرَقِ المتلبِّسة بالنَّقائص على تفاوتٍ بينها في ذلك بذِكر القدوة الصّالحة والمثَلِ الكامل في الإيمان والفضائل والنُّصرة في سبيل الله؛ ليحتذيَ متطلِّبُ الصّلاح حذوَهم، ولئلّا يخلوَ تقسيم القبائل السّاكنة بالمدينة وحوالَيها وبواديها عن ذكر أفضل الأقسام تنويهًا به، وبهذا تمَّ استقراء الفِرَقِ وأحوالها[2].

(1) ابن جرير، جامع البيان: 11/637، والبغوي، معالم التنزيل: 4/88، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/177، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 3/95، والزحيلي، التفسير المنير: 11/21، والهرري، حدائق الروح والريحان: 12/19 - 20.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/17.

وجُوِّز أن تكون الآية معطوفةً على قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ مَن يُؤۡمِنُ﴾ [التوبة: 99]، أي: ومنهم السَّابقون، وعليه يكون قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ﴾ عطْفَ جملةٍ على جملة، ويختصُّ الرِّضوان بالسّابقين والتّابعين.

وعلى الجملة يحصل من النَّظْم مراتبُ الصَّحابة على خمس طبقات؛ لأنَّ السَّابقين: إمّا مِن المهاجرين، وإمّا مِن الأنصار، والتَّابعين: إمّا منهما، وإمّا مِن غيرهما[1].

معنى (أل) في: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ﴾:

(أل) في قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ﴾ للعهد الذِّهني؛ إذ المخاطَبون بذلك يعرفون السّابقين الأوَّلين إلى الإسلام والهجرة والنُّصرة، وهذه المعرفة الثَّابتة في الأذهان قد دلَّت على مزيَّة وفضيلة لهؤلاء الأجلّاء الذين صاروا - بسبْقِهم غيرَهم إلى الدِّين وبتضحياتهم وبَذْلهم - معروفين مشهورين اشتهارَ الأسوةِ بين الخلائق.

السَّبقُ إلى أعظم بذْلٍ وتضحية يرفع صاحبَهُ إلى مراتب الأسوة السّامية

وهذا التَّعريف أفاد التَّعظيم، ولا سيَّما أنَّه ورد في سياق المدح، فضلًا عن أنَّ "السَّبق في الهجرة وصفٌ مناسب للتَّعظيم"[2]، "وإنَّما مدح السَّابقين؛ لأنَّ السّابق إمامٌ للتّالي، والفضلُ للمتقدِّم"[3].

دلالة وصفهم بـ ﴿ٱلۡأَوَّلُونَ﴾:

الوصفُ بالأوَّليَّة يفيد أنَّهم تقدَّموا غيرهم لنيل هذا الفضل، وأنَّ مَن جاء بعدهم صار تبعًا لهم ومؤتمًّا بهم، فهم سابقون في الإيمان، مبادرون إلى التَّصديق وقبول الأحكام، وهم الأوَّلون الأقدمون بمتابعة الرَّسول[4] ﷺ، فهم أوَّلون بالنِّسبة إلى سائر المسلمين[5].

أوّليَّةُ السَّبق إلى نصرة الدّين ونيل المعالي منقبةٌ لا تُبَزُّ ولا تُسامى

(1) الطيبي، فتوح الغيب: 7/339.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 16/129.
(3) إسماعيل حقي، روح البيان: 3/491.
(4) النخجواني، الفواتح الإلهية: 1/317.
(5) الآلوسي، روح المعاني: 6/9.

وهنا تبرز دلالة إضافة هذا الوصف لقوله تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ﴾؛ إذ إنَّ الأوَّليَّة - بحدِّ ذاتها - قد تخلو من المنافسة والاستباق؛ كأوَّليَّة الجَدِّ على الأب، وأوَّليَّة الأب على الولد.. وهكذا. أمّا قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ﴾؛ فقد دلَّ على التَّنافس والبذل والتَّضحية؛ فهؤلاء الأكابرُ قد دُعُوا إلى هذا الدّين، كما دُعِي غيرُهم، فأسرعوا هم، وأبطأ غيرهم، فسبقوا، وكانوا بذلك الأوَّلين، وكفى بها منقبةً!.

والحاصل أنَّه لـمّا دلَّ على سَبْقهم بالعلوِّ في مراتبه؛ دَلَّ على قديم دخولهم فيه، فقال: ﴿ٱلْأَوَّلُونَ﴾، أي: إلى هذا الدّين القيِّم[1].

معنى ﴿مِنَ﴾ في: ﴿مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ﴾:

سبْقُ الفاضلِ الشَّريف شرفٌ وفضل ومكرُمة

يختلف معنى ﴿مِنَ﴾ بحسب الاختلاف الوارد في تعيين المرادِ بقوله تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ﴾ هل هم جميع الصَّحابة رضوان الله عليهم، أو هم السّابقون بالهجرة، والسّابقون بالنُّصرة دون اللّاحقين منهم؟ فلو قيل: إنَّ المراد بهم جميعُ المهاجرين والأنصار مِمَّن أسلم من قبل الفتح، وقاتَل، ومَن أسلم من بعد الفتح، فإنَّ ﴿مِنَ﴾ بيانيَّةٌ؛ لتقدُّم جنس الصَّحابَة على مَن عداهم من التّابعين وتابِعيهم، حيث أدركوا رسول الله ﷺ، وحصل لهم السَّبق بإدراكه وصحبته ﷺ، فالمدح الحاصلُ في هذه الآية يتناول جميع الصَّحابة؛ لأنَّ جملة الصَّحابة موصوفون بكونهم سابقين أوَّلين بالنِّسبة إلى سائر المسلمين، أي: والسّابقون الأوَّلون الموصوفون بوصفِ كونِهم مهاجرين وأنصارًا.

ولو قيل: إنَّ المراد بهم بعضُ الصَّحابة، كأهل بدر، وأُحُد، والعقبة، والسَّمُرَة، حيث سبق بعضهم بعضًا بما نالوا من الكرامة التي لم تحصل لغيرهم، فإنَّ ﴿مِنَ﴾ تبعيضيَّةٌ، وعلى هذا فإنَّ المدح

(1) البقاعي، نظم الدرر: 9/7.

الوارد في الآية لا يتناول إلَّا قدماء الصَّحابة، وقد اختار كثيرون هذا الثاني[1].

معنى (أل) في: ﴿ٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ﴾:

(أل) في قوله تعالى: ﴿ٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ﴾ لبيان الجنس، فهي تشمَل جنسَ المهاجرين: وهم الذين هاجروا من مكَّةَ إلى المدينة، وجنسَ الأنصارِ: وهم أهل المدينة الذين آووا النبي ﷺ، ونصروه.

الهجرةُ بالدّين والسَّبق إلى نصرته أشرفُ الألقاب، وأعزُّ الأنساب

"والأنصار: اسمٌ إسلامي"[2]، "غَلَب على الأوس والخزرج الذين آمنوا بالنبيِّ ﷺ في حياته أو بعد وفاته، وعلى أبنائهم إلى آخر الزمان"[3]. وخصَّت الآية من الفريقين: السَّابقين الأوَّلين.

دلالة العطف في: ﴿وَٱلۡأَنصَارِ﴾:

المعطوفُ على العظيم عظيمٌ

العطفُ بالواو يقتضي اشتراكَ المعطوف مع المعطوف عليه في الإعراب والمعنى، حتى يكون الثّاني داخلًا فيما دخل الأوَّل فيه من المعنى المذكور للأوَّل في الجمع والتَّفريق[4]، "والواو الجامعة تُصيِّر ما قبلَها وما بعدَها بمنزلة شيءٍ واحد"[5].

وهذه هي دلالة العطفِ هنا، حيث جعلت الآيةُ السَّبقَ إلى الإيمان بالدّين، وبذل الغالي والنَّفيس في سبيل نُصرته وتأييده وتبليغه؛ فضيلةً عظيمة اشترك في الظَّفَر بها السّابقون الأوَّلون من المهاجرين والأنصار.

دلالةُ تقديم المهاجرين على الأنصار:

ظاهرُ تقديم المهاجرين على الأنصار في قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 16/129، والطيبي، فتوح الغيب: 7/337، والقاسمي، محاسن التأويل: 5/486.
(2) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 8/236.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/18.
(4) السيرافي، شرح كتاب سيبويه: 2/330.
(5) أبو حيان، التذييل والتكميل: 9/233.

﴿ٱلۡأَوَّلُونَ مِنَ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ﴾ مُشعِرٌ بأنَّهم أفضل منهم، وهو الذي تدلُّ عليه قصَّة السَّقيفة، أمّا الأنصار؛ فقد جاء في فضلهم ما لا يحصى من الأخبار[1].

توجيهُ القراءات القرآنيَّة المتواترة في: ﴿وَٱلۡأَنصَارِ﴾:

يجوز في قوله تعالى: ﴿وَٱلۡأَنصَارِ﴾ وجهان: الجرُّ، والرَّفع، فالجرُّ عطفٌ على ﴿ٱلۡمُهَٰجِرِينَ﴾، والرَّفع عطفٌ على ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ﴾، وبالوجهين قُرئ في المتواتر، فالجرُّ قراءة الجمهور، والمعنى: والسَّابقون الأوَّلون من المهاجرين ومن الأنصارِ.

نصرة الدّين لا تتأخَّر بصاحبها عن فضيلة، ولا عن منقبة جليلة

وعلى هذه القراءة يكون الأنصارُ قسمين: سابقًا أوَّلًا، ولاحقًا غيرَ أوَّل، ويكون المخبرُ عنهم بالرضا سابقيهم.

وأمّا قراءة الرَّفع؛ فهي قراءة يعقوب، والمعنى: والسّابقون الأوَّلون من المهاجرين، والأنصارُ، فيكون الأنصارُ جميعُهم مندرجين في هذا اللفظ[2].

بلاغةُ العطفِ في: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحۡسَٰنٖ﴾:

العطف يقتضي مغايرةً يحصل بها فائدة[3]، والعطفُ بالواو يفيد الجمع والتَّشريك، حيث تشرك بين ما قبلَها وما بعدَها في اللفظ والمعنى[4].

اللُّحوق بموكب الأجلّاء يسِمَ صاحبه بشِيَم النُّبلاء

ومن هنا تظهر بلاغة عطف قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحۡسَٰنٖ﴾ على ما قبله؛ فإنَّ هذا دلَّ على إلحاق هؤلاء التَّابعين بإحسان بمَن قبلهم من السّابقين في الفوز برضا الله تعالى، وبالجنّات التي تجري تحتها الأنهار، وهذه فضيلةٌ عظيمة ومنقبة جسيمة.

---

(1) الآلوسي، روح المعاني: 6/10.

(2) الزجاج، معاني القرآن وإعرابه: 2/466، وأبو حيان، البحر المحيط: 5/495، وابن الجزري، النشر في القراءات العشر: 2/280.

(3) السبكي، عروس الأفراح: 1/400، والأزهري، شرح التصريح: 1/232.

(4) ابن هشام، مغني اللبيب، ص: 463، والمالقي، رصف المباني، ص: 473.

إضافة إلى أنَّ هذا العطف - باقتضائه المغايرةَ - قد دلَّ على أنَّ التّابعين بإحسان غير المهاجرين والأنصار[1].

وقد رُوي أنَّ عمر بن الخطّاب رضي الله عنه كان يقرأ هذه الآيةَ بإسقاط الواو، هكذا: (والأنصارُ الذين اتَّبعوهم)، فيجعل ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم﴾ نعتًا للأنصار، على معنى أنَّ المهاجرين قد سبقوا أوَّلًا، وأنَّ الأنصار قد اتَّبعوهم بإحسان، حتّى ردَّه أُبيُّ بن كعب رضي الله عنه إلى القراءة الصَّحيحة. وكان عمر رضي الله عنه يقول: "لقد كنتُ أُرانا رُفعنا رفعةً لا يبلغها أحدٌ بعدنا"[2].

فالحاصل أنَّ الله سبحانه وتعالى ذكر في هذه الآية ثلاثَ طبقاتٍ من الأمَّة هي خيرها: السَّابقون الأوَّلون من المهاجرين، والسَّابقون الأوَّلون من الأنصار، والذين اتَّبعوا هؤلاء السّابقين الأوَّلين من المهاجرين والأنصار في الهجرة والنُّصرة، حال كونهم محسنين في أفعالهم وأقوالهم[3].

وهذا التَّقسيم لم يكن ليحصل بدون العطف، فضلًا عن أنَّه فتح الباب واسعًا ليدخل في زمرة التَّابعين كلُّ مَن سار على خُطا الصَّحابةِ رضوان الله عليهم في الإيمان والتَّسليم والتَّضحية والعمل الصّالح إلى يوم القيامة.

نكتةُ التَّعبير بالاسم الموصول وصلته:

اتِّصاف الموصول بما تضمَّنته الصِّلة من وصفٍ عظيم يدلُّ على أنَّه عظيم

يفيد التَّعبير باسم الموصول ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم﴾ قصْرَ مدلول الصِّلة عليه؛ كما أنَّ افتقاره إليها، وطلبَهُ إيّاها، جعله مرتبطًا بها ارتباطًا وثيقًا، بل لا يحصل له معنى أصلًا إذا جُرِّد عنها، علاوةً على أنَّ الصِّلة لا بدَّ أن تكون أمرًا معروفًا[4]، فهذا التَّعبير بالاسم الموصول - إذًا - ضربٌ من ضروب التَّوكيد.

(1) ابن جرير، جامع البيان: 11/642.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 11/640.
(3) الهرري، حدائق الروح والريحان: 12/20.
(4) أبو موسى، خصائص التراكيب، ص: 305.

فضلًا عن أنَّ الاسم الموصول من المعارف، والتَّعريف في سياق المدح يفيد التَّعظيمَ، كما أنَّه قد يُتَّخذ اسمُ الموصول مع صلته ذريعةً لتعظيم الموصوف به؛ إذ اتِّصافه بما تضمَّنته صلة الموصول من وصفٍ عظيمٍ أمرٌ يدلُّ على أنَّه عظيم[1].

ويضاف إلى ذلك أنَّ التَّعبير باسم الموصول وصلته أفاد الإشارةَ إلى أنَّ الوصف الذي دلَّت عليه صلة الموصول: هو علَّة بناء الحكم في الجملة، أي: هذا الجزاءُ الكريم لهم إنَّما هو بسبب اتِّصافهم باتِّباع السّابقين الأوَّلين بإحسان[2].

معنى الباء في: ﴿بِإِحۡسَٰنٖ﴾:

"الباء للملابسة"[3]، ومعنى قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحۡسَٰنٖ﴾، أي: متلبِّسين بإحسان في الاعتقادِ والأفعال والأقوال؛ اقتداءً منهم بالسّابقين الأوَّلين، والمراد به كلُّ خَصْلة حسنة[4].

رِداءُ الإحسان يزيد لابسَه بهاءً سابغًا، وجمالًا بالغًا

وفي هذا إشارةٌ لطيفة، وهي أنَّ هذه الباء جعلت الإحسانَ كالحُلَّة السّابغة التي تزيد لابسها جمالًا وبهاء، وهذا تعظيم لشأن الإحسان والمحسنين.

نكتة تنكير ﴿بِإِحۡسَٰنٖ﴾:

جاءت كلمة ﴿بِإِحۡسَٰنٖ﴾ نكرةً لتفيد شيئين: أحدهما: العمومُ، فهي تعمُّ كلَّ ما يصحُّ أن يطلق عليه إحسان، "والمراد به كلُّ خَصْلة حسنة"[5].

التَّنكير في سياق المدح يفيد التَّعظيم

والآخر: هو التعظيم، أي: تعظيمُ هذا الإحسان؛ إذ السّياق سياقُ مدح وثناء.

(1) حسن، بلاغة اللغة: 1/433.
(2) حسن، بلاغة اللغة: 1/433.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/18.
(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/97، والشوكاني، فتح القدير: 2/453.
(5) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/94.

فائدة القيد ﴿بِإِحۡسَٰنٖ﴾:

"يُلاحَظ أنَّ الاتِّباع المطلوب هو الاتِّباع بإحسان، أي: إحسانُ الأعمال والنّيّات والظَّواهر والبواطن، أمّا الاكتفاء بظاهر الإسلام؛ فلا يحقِّق شرط الإحسان"[1].

ليس كلُّ اتِّباع محمودًا، بل بإحسان التّابع وصلاح المتبوع

"وإنما قيَّد هذا الفريق خاصَّة؛ لأنَّ السّابقين الأوَّلين ما بعثهم على الإيمان إلا الإخلاص، فهم محسنون، وأمّا الذين اتَّبعوهم؛ فمِن بينهم مَن آمن اعتزازًا بالمسلمين حين صاروا أكثر أهل المدينة، فمنهم مَن آمن، وفي إيمانه ضعفٌ وتردُّد، مثل المؤلَّفة قلوبهم، فربَّما نزل بهم إلى النِّفاق، وربَّما ارتقى بهم إلى الإيمان الكامل، وهم المذكورون مع المنافقين في قوله تعالى: ﴿۞لَّئِن لَّمۡ يَنتَهِ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ﴾ [الأحزاب: 60]، فإذا بلغوا رتبةَ الإحسانِ؛ دخلوا في وعد الرِّضا من الله وإعداد الجنّات"[2].

الموقعُ النَّحويُّ والبيانيُّ:

قوله تعالى: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُ﴾ في موقع الخبر لقوله تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ﴾، وهذا أظهرُ ما قيل فيه[3].

عمومُ رضا المنّان عن أهل السَّبْق بالإيمان، وعن تابعيهم بإحسان

وإذا كان ذلك كذلك؛ فإنَّ هذا الخبر يصدق على المبتدأ، وعلى ما عُطِف على المبتدأ، وعليه فإنَّ "قوله تعالى: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ﴾ يعمُّ الكُلَّ"[4]: الصَّحابةَ سابقيهم ولاحقيهم، ومَن تبعهم بإحسان، ويدخل في ذلك التابعون ومَن بَعدهم إلى يوم القيامة بشرطِ الإحسان، "ومعنى هذه الآية الحكمُ بالرِّضا عنهم بإدخالهم الجنَّةَ وغفرِ ذنوبهم، والحكمُ برضاهم عنه في شكرهم وحمْدِهم على نعمِه وإيمانهم به وطاعتهم له"[5]؛ "فيا ويلَ مَن أبغضهم (الصحابة)،

(1) الزحيلي، التفسير المنير: 11/21.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/18.
(3) أبو حيان، البحر المحيط: 5/495، والسمين، الدر المصون: 6/109، وابن عادل، اللباب: 10/184.
(4) ابن الجوزي، زاد المسير: 2/292.
(5) ابن عطية، المحرر الوجيز: 3/75.

أو سبَّهم، أو أبغض، أو سبَّ بعضَهم! ولا سيَّما سيدُ الصحابةِ بعد الرسول وخيرُهم وأفضلُهم، أعني الصديقَ الأكبرَ والخليفةَ الأعظم أبا بكر ابن أبي قُحافة، رضي الله عنه"[1].

بلاغةُ تقديم المسند إليه على المسند:

تثبيت قلب المؤمن يزيده إيمانًا، وفضْحُ المنافقِ يزيده خِذْلانًا

في تقديم المسند إليه ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ﴾ على المسند ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ﴾ وهو خبره الفعليّ لقصد التقوّي والتَّأكيدِ[2]. والمقام الدّاعي إلى تقوية الحكم هاهنا هو الردُّ على المنافقين الذين يلمِزون المطَّوِّعين من المنفقين في سبيل الله، فجاء الحكم مؤكَّدًا مقرَّرًا لمواجهة الشَّكِّ في نفوس المنافقين، وردِّ الدَّعوى التي يدَّعونها. أمّا بالنِّسبة للمؤمنين؛ فقد جاء التَّوكيد لإثبات الحكم في قلوبهم قويًّا مقرَّرًا[3].

دلالةُ رضا الله عنهم بين الحقيقة والمجاز:

الإحساسُ برضا الله تعالى أعلى درجات الجزاء

"معنى رضاه سبحانه عنهم: أنَّه قَبِل طاعاتهم، وتجاوز عنهم، ولم يسخط عليهم، ورضوا عنه بما أعطاهم من فضله، ومع رضاهُ عنهم؛ فقد أعدَّ لهم جنَّاتٍ تجري تحتها الأنهار في الدّار الآخرة"[4].

"ورضوان الله تعالى أكبرُ جزاءٍ على الطّاعات، فقد ذكر الله تعالى الجزاءَ مِن جنّات ونعيم مقيم، ثمَّ قال: ﴿وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۚ﴾ [التَّوبة: 72]، وقد قدَّمه تعالى على كلِّ جزاء من بعده، فالإحساسُ برضا الله أعلى درجات الجزاء، ووصفهم الله بأنَّهم رضوا عنه، رضوا بتكليفاته، وتقبَّلوها بقَبولٍ حسنٍ، وقاموا بحقِّ طاعته، وأحبُّوا الله لا خوفًا من ناره، ولا طمعًا في جنَّته، بل لكمال محبَّته، وتلك هي المنزلة العليا في العباد"[5].

---

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/203.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/18.
(3) أبو موسى، خصائص التراكيب، ص: 220.
(4) الشوكاني، فتح القدير: 2/453.
(5) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 7/3429.

بلاغة العطف في: ﴿وَرَضُواْ عَنۡهُ﴾:

مِن تمام النِّعمة امتلاءُ مَن دثَّرته النِّعمة رضًا بها واكتفاء

عُطف قوله تعالى: ﴿وَرَضُواْ عَنۡهُ﴾ على قوله تعالى: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ﴾؛ لبيان عظيم جزاء هؤلاء الأجلّاء المذكورين في الآية، فعدَّد جزاءهم ومثوبتهم.

ويضاف إلى ذلك أنَّ الذي حسَّن العطف هنا هو المشاكلة بين الجملتين الكريمتين، واتِّفاقهما في الفعليَّة، وفي أنَّ فعلَيْهما ماضيان، وأنَّه أُريد للثّانية مشاركة الأُولى في الحكم[1]، وأنَّ ترْكَ العطف سيوهِمُ أنَّ الأُولى منهما نعتٌ لكلمة ﴿بِإِحۡسَٰنٖ﴾، وأنَّ الثّانية منهما هي الخبر، وهذا خلاف المراد، فضلًا عن مناكدته للصِّحَّة والفصاحة.

نكتةُ تقديم رضاه عنهم قبل رضاهُم عنه:

إذا رضي الله عن العبد؛ أرضاه، فما جزاء الإحسان إلّا الإحسانُ؟

تقدَّم رضوان الله تعالى على رضاهم عنه سبحانه لنكتة بلاغية تظهر من وجهين:

أحدهما: أنَّ "رضوان الله تعالى أكبرُ جزاء على الطاعات، فقد ذكر الله تعالى الجزاء من جنات ونعيم مقيم، ثم قال: ﴿وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۚ﴾ [التَّوبة: 72] وقد قدَّمه تعالى على كلِّ جزاء من بعده، فالإحساسُ برضا الله أعلى درجات الجزاء"[2].

والآخر: أنَّ رضاهم عن الله تعالى تابعٌ لرضا الله سبحانه عنهم؛ فقد رضوا بما أعدَّه الله ﷻ لهم من الكرامة والمثوبة التي هيَّأها لهم لرضاه تعالى عنهم، فكان ارتباطهما معًا ارتباط النَّتيجة بالسَّبب، فمن ثمَّ قُدِّم السَّبب على نتيجته المترتِّبة عليه، فإنَّ "رضاهم عن الله قضيَّةُ رضاء الله عنهم، فلولا أنَّه رضي عنهم في آزاله ... فمتى وصلوا إلى رضاهم عنه"[3].

(1) عبد العزيز عتيق، علم المعاني، ص: 171، والجناجي، البلاغة الصافية، ص: 233.
(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 7/3429.
(3) القشيري، لطائف الإشارات: 2/58.

بلاغةُ المشاكلة بين رضا الله عنهم ورضاهم عنه:

الجزاء من جنس العمل

المقصود برضا الله عنهم: تقبُّلُ صالح أعمالهم، ومغفرة ذنوبهم، وإدخالهُم الجنَّةَ، والمقصود برضاهم عنه سبحانه: شكرُهم إيّاه وحمْدُهم على نعمه، وإيمانهم به، وطاعتهم له[1]. فمعنى رضا الله سبحانه عنهم مختَلِفٌ عن معنى رضاهم عنه ﷻ، وإنَّما سوَّغ هذا الإطلاقَ داعي المشاكلةِ التي أفادت معنى أنَّ الجزاء من جنس العمل، وأنَّ جزاء الإحسان لا يكون إلَّا الإحسانَ.

بلاغةُ العطف في: ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ﴾:

من شأن الإكرام تعديدُ مظاهر الإنعام

أفاد هذا العطف تعديدَ جوانب الثَّواب، وتكثيرَ صور العطاء، فمع هذه المرتبة العليا من المكانة - التي لا تعلوها مكانةٌ، ولا ينهض إلى مثلها جزاءٌ، وهي رضا الله تعالى عنهم - مع هذا فقد أعدَّ الله لهم ﴿جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾[2].

معنى اللّام في: ﴿لَهُمْ﴾:

مَن لم يجعل لله شريكًا في العبادة؛ لم يجعل الله له شريكًا في تملُّك الثَّواب

أفادت هذه اللّامُ معنى الاختصاصِ والمِلْك، فهي جنّاتٌ ومنازلُ خاصَّةٌ بهم، قد أُعِدَّت خصوصًا لهم، وأُورِثوها جزاءً بما كانوا يعملون.

وفي هذا ما فيه من الكرامة أن يعلمَ المؤمنُ أنَّ الله جلَّ في علاه قد رضي عنه، ورضي عمله، وشكر سعيه، وأعطاه أجرًا وثوابًا لا يشاركه فيه أحد، ولا ينازعه في التَّلذُّذ بنعمائه مشارك.

نكتةُ تقديم شبه الجملة ﴿لَهُمْ﴾ على المفعول:

تأكيد البُشْرى يزيد تعلُّق النَّفس بها

أفاد تقديم الجار والمجرور ﴿لَهُمْ﴾ على المفعول ﴿جَنَّٰتٍ﴾ معنى الاختصاص، فكأنَّ هذه الجنّاتِ لم تُعَدَّ إلّا لهم هُم، ويضاف إلى هذا الاختصاص تعجيلُ ما يسرُّهم.

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 3/75.
(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 7/3629.

فائدةُ تنكير ﴿جَنَّٰتٍ﴾:

أفاد تنكير كلمة ﴿جَنَّٰتٍ﴾ شيئين: أحدهما: التَّعظيم؛ لأنَّها وردت في سياق المدح وذكر الثَّواب على العمل المرضيِّ عنه من ربِّ العالمين؛ فنُكِّرت للتَّفخيم والتَّعظيم إشارةً إلى أنَّها قد بلغت من خطورة الشَّأن حدًّا لا يُدرَكُ كُنهُه أو مداه.

التَّنكيرُ في سياق التَّبشير يفيد التَّعظيمَ والتَّكثير

الآخر: التَّكثير، فهي جنّات كثيرة، لا تحصى خيراتُها، ولا تنتهي ملذّاتها.

الموقعُ النَّحويُّ والبيانيُّ لـ: ﴿تَجۡرِي تَحۡتَهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾:

وقعت هذه الجملةُ موقعَ الصِّفة لكلمة ﴿جَنَّٰتٍ﴾[1]، وقد أزالت هذه الصِّفة الإبهامَ الموجود في النَّكرة، كما أفادت تعظيمَ شأن هذه الجنّاتِ؛ ذلك أنَّ تخيُّر هذا الوصف تحديدًا ممّا يسوق إلى الذِّهن لوازمَه مِن وجود الماء الذي هو أساس في الحياة، ومِن ديمومة وجود الثِّمار والأشجار لاستمرار جري الأنهار، ومِن أنَّ الماء لا يُحمَل إلى هذه الجنّات، فيُخشَى من فواته أو نضوبه، بل هو يجري تحتها.

وصْفُ المنعوت الحسَن بما يزيده حسنًا ممَّا يزيد تعلُّق النَّفس به

نكتةُ التَّعبير بالمضارع في: ﴿تَجۡرِي﴾:

جيء بالمضارع ﴿تَجۡرِي﴾ مسندًا إلى فاعله ﴿ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾؛ لإفادة تجدُّد هذا الجريان واستمرارِه وعدم انقطاعه، وهذا ممّا يجعل الصُّورة حيَّةً ذات حركة دائمة تناسب النَّعيمَ الدّائم لأهل الجنَّة.

تجدُّد النَّعيم وتنوُّعُه يدفع عن النَّفس توهُّمَ السَّآمَة باعتياده

ولو قيل: جَرَت تحتها الأنهار؛ لربَّما تُوُهِّم أنَّها جَرَت في السّابق، ثم جفَّت، ولو قيل: جارية تحتها الأنهار، لتُصُوِّر ثبات الجري واستقراره، وهذا جيِّد، لكنَّه لا يضاهي في الجودة أن يُعبَّر عن الأنهار باستمرار الجري وتجدُّده، فلا يُعتاد، ولا يُمَلُّ، فضلًا عن أنَّ التَّعبير بالفعل المضارع يفيد استحضار الصُّورة.

(1) الهرري، حدائق الروح والريحان: 12/37.

فائدة تقديم الظرف ﴿تَحۡتَهَا﴾ على الفاعل:

السَّبْقُ في إعلاء شأن الدّين يُعلي مكانةَ صاحبه ومكانَه في جنّات النَّعيم

أفاد تقديم الظَّرف ﴿تَحۡتَهَا﴾ بحيث فصل بين الفعل ﴿تَجۡرِي﴾، وفاعله ﴿ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ - إلى جانب الاختصاص - الدِّلالةَ على عُلُوِّ هذه الجنّات المعدَّة للسّابقين الأوَّلين من المهاجرين والأنصار والذين اتَّبعوهم بإحسان، فمن علُوِّها جرت الأنهار تحتَها.

فلو قيل: (تجري الأنهارُ)، لجاز أن يكون موقع جريانها في أيِّ مكان من الجنَّة، ولكن لما قُدِّم الظَّرف ﴿تَحۡتَهَا﴾ بحيث يجيء قبلَ تمام الفائدة بذكر بقيَّة أركان الجملة؛ كان هذا قيدًا لموقع الجريان، وتخصيصًا له، فالأنهارُ تجري تحتَ الجنَّة، وهذا من كمال النَّعيم!

معنى (أل) في: ﴿ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾:

أنهارُ الجنَّة هي الأنهار الكاملة

اللّامُ هنا للعهد الذِّهني، فلم يسبق ذِكْرُ الأنهار في الآية أو السّياق، لكن سبق العلمُ بها، فقد ذُكِرَت في آيات كثيرة، وقد ورد ذكرها مفصَّلةً في سورة محمَّد ﷺ: ﴿فِيهَآ أَنۡهَٰرٞ مِّن مَّآءٍ غَيۡرِ ءَاسِنٖ وَأَنۡهَٰرٞ مِّن لَّبَنٖ لَّمۡ يَتَغَيَّرۡ طَعۡمُهُۥ وَأَنۡهَٰرٞ مِّنۡ خَمۡرٖ لَّذَّةٖ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنۡهَٰرٞ مِّنۡ عَسَلٖ مُّصَفّٗىۖ﴾ [آية: 15].

كما أنَّ هذا التَّعريف أفاد الإشارةَ إلى عظمة المعرَّف به، فهي أنهار عظيمةٌ، قد بلغت حدَّ الكمال في الحُسن والرِّيِّ، وأنَّ كلَّ كمال وجمال في الأنهار الواقعة في الخارج، أو المتخيَّلة في الذِّهن قد استوعبتهُ هذه الأنهار، وزادت عليه، فكأنَّها هي الأنهارُ الحقيقيَّة الكاملة لا غيرها.

معنى الجمع في ﴿ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾:

عطاء الكريم كريمٌ، وفضلهُ كثيرٌ عميم

عُبِّر عن أنهار الجنَّة بصيغة الجمع في قوله تعالى: ﴿تَجۡرِي تَحۡتَهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾؛ للدِّلالة على كثرة هذه الأنهار بما لا يحصيه إلّا اللّه تعالى، وأيضًا لتناسب الجمع المذكور في قوله تعالى: ﴿جَنَّٰتٍ﴾، ففي كلِّ جنَّة منها أنهار جاريةٌ وعطايا غيرُ متناهية.

بلاغةُ القراءات القرآنيَّةِ المتواترة:

استيعابُ الإنعام وكماله بذكر تنوُّع صور النَّعيم وتعدُّد أحواله

وذلك في قوله: ﴿تَجۡرِي تَحۡتَهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ حيث "خالفت هذه الآية عند معظم القُرّاء أخواتها؛ فلم تُذكر فيها (مِن) مع ﴿تَحۡتَهَا﴾ في غالب المصاحف وفي رواية جمهور القُرّاء، فتكون خالية من التأكيد؛ إذ ليس لحرف (من) معنًى مع أسماء الظُّروف إلّا التَّأكيدُ، ويكون خلوُّ الجملة من التَّأكيد لحصول ما يغني عنه من إفادة التقوّي بتقديم المسند إليه على الخبر الفعليِّ، ومِن فعل (أَعَدَّ) المؤذن بكمال العناية، فلا يكون المُعَدُّ إلا أكمل نوعه. وثبتت (مِن) في مصحف مكَّة، وهي قراءة ابن كثير المكّيِّ، فتكون مشتملة على زيادة مؤكِّدين"[1].

"والفرق بينهما أنَّ قوله: ﴿تَجۡرِي تَحۡتَهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾، أي: معناه تجري من تحتِ الأشجارِ، وقوله: ﴿مِن تَحۡتِهَا﴾، أي: ينبع الماءُ من تحتِ الأشجار"[2].

وعليه فإنَّ معنى (مِن) هنا لابتداء الغاية، فمعنى: ﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا﴾، أي: ابتداء نبوعِ الأنهار من تحت هذه الجنّات[3]، وفي هذا مزيد من التكريم لأهل الجنّات.

أمّا ﴿تَجۡرِي تَحۡتَهَا﴾؛ فمعناه أنَّ نبع الماء من مكان بعيد عنها، من جهة لا يعلمها أهل الجنَّة، ثمَّ هو يمرُّ من تحتها، ولكنَّه يأتي دون نقص، فلا يقلُّ الماء في تلك الأنهار أبدًا، ولكنَّه ليس كمن تنبع من تحتها الأنهار.

فالحاصلُ أنَّ الفارق بين القراءتين هو استيعابُ الكماليَّة في النَّص، فهاتان صورتان لجريان الماء في الجنَّة، وفيهما تفنُّن في

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/19.
(2) الثعلبي، الكشف والبيان: 14/24.
(3) ابن الأثير، الشافي: 1/211.

النَّعيم، فعلى كلتا القراءتَيْن نعلم أنَّ أهل الجنَّة مُكرمون أينما حلُّوا فيها، لا تفاوت بينهم في تكريم الله تعالى لهم بجريان الأنهار تحتهم، وفيه زيادةٌ لاطمئنان المؤمنين أن نعيم الجنَّة باقٍ وخالدٌ[1].

الموقعُ النَّحويُّ والبيانيُّ لـ: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾:

وقعت جملة ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ موقعَ الحال من ضمير ﴿لَهُمْ﴾[2]؛ لأنَّه لمّا كان أعظم مخاوف المتنعِّمين أنْ ينقطِع عنهم هذا النَّعيم، أو تفنى هذه اللَّذَّة؛ نفاه سبحانه بقوله: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ﴾[3]، فالخلودُ حالٌ ملازمةٌ لأهل هذه الجنّات؛ وذلك "لتخليدهم هذا الدّين بإقامة دلائله، وتأسيس قواعده إلى يوم القيامة، والعملِ بمقتضاه، واختيار الباقي على الفاني"[4]، فالجزاءُ من جنس العمل.

مَن خلَّد الدّين بإقامة بيِّناته؛ خلَّده الله في جنّاته

عودُ الضَّميرِ في: ﴿فِيهَآ﴾:

الضَّمير في قوله تعالى: ﴿فِيهَآ﴾ يعود على الجنّات المذكورة قبله في السّياق في قوله تعالى: ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ﴾، ولا يجوز أن يعودَ على الأنهار؛ إذ الأنهار وردت في سياق وصفِ هذه الجنّات، فضلًا عن أنَّ الخلود يكون في الجنّات لا في الأنهار، وهذا ظاهر من السّياق.

دلالةُ التَّعبير بالحرف (في):

دلَّ التَّعبير بحرف الجرِّ (في) في قوله تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ﴾ على الظَّرفيَّة، وهي ظرفيَّةُ تضمُّنٍ واحتواء[5]، فدلَّت على أنَّ أهل هذه الجنّات منغمسون في نعيمها انغماسًا تامًّا.

أهلُ الجنَّة مسربلون بالنَّعيم، مُدَثَّرون بالرِّضا، متوَّجون بالكرامة

نكتةُ تقديم شبه الجملة ﴿فِيهَآ﴾:

قُدِّم شبه الجملة ﴿فِيهَآ﴾ على الظَّرف ﴿أَبَدًا﴾؛ لإفادة

(1) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 1/208، 12/7367، والبقاعي، نظم الدرر: 9/8.
(2) الهرري، حدائق الروح والريحان: 12/21.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 9/8.
(4) القاسمي، محاسن التأويل: 5/486.
(5) السامرائي، معاني النحو: 3/93.

التَّخصيص والتَّوكيد، وأيضًا لتعجيل المسرَّة، حيث بيَّنت الآيةُ أن خلود المعنيِّين بهذا الثَّواب العظيم من الجنّات التي تجري تحتها الأنهار إنَّما سيكون في هذه الجنّات التي أُعِدَّت لهم هم، فقدَّم الجار والمجرور ﴿فِيهَآ﴾ ليَلِيَ الحال ﴿خَٰلِدِينَ﴾ دون أن يفصل بينهما فاصلٌ، ولو كان هذا الفاصل هو الظَّرف الدّال على التَّأبيد، وذلك لتعجيل المسرَّة والبُشرى، وهذه مبالغةٌ في الإكرام.

مِن شأنِ الإكرام تعجيلُ المسرَّة والبشرى بالإنعام

فائدة الظَّرفِ ﴿أَبَدًا﴾ بعد التَّعبير بالخلود:

الأصل أنَّ الخلود موضوعٌ للتَّعبير عن الثَّبات والملازمة والمكث في الموضع أمدًا طويلًا، وأنَّ الأبد موضوع للبقاء الدّائم أو الإقامة الدّائمة بلا حدٍّ[1].

مِن المبالغة في الإنعام طمأنةُ المكرَم بخلوده فيه على الدَّوام

ومن هنا تظهر فائدة ذكر الظَّرف ﴿أَبَدًا﴾ بعد التَّعبير بالخلود؛ إذ قد أفاد الخلودُ معنى الثَّبات والمكث، وأفاد الأبد معنى الدَّوام بلا حدٍّ، وفي هذا مبالغةٌ في طمأنة المؤمنين بأنَّهم لن يخرجوا من هذا النَّعيم، وفيه دفْعٌ لتوهُّم أنْ يأتي التَّعبير بالخلود دالًّا على طول البقاء لا دوامِه، فجاءت الآية دافعةً هذه الشُّبهة.

ويضاف إلى ذلك أنَّ التَّعبير بالأبد أفاد أنَّه قد قُدِّر خلودُهم في تلك الجنات أبدًا من غير انتهاء، فهو لاستغراق المستقبل[2]، وهذا تأكيدٌ للمراد من الخلود[3].

الموقع النَّحويُّ والبيانيُّ لجملة التذييل:

الجنَّة هي كبرى الجوائز وأجلُّها، ولا يُعدُّ فائزًا إلّا مَن فاز بها ونالها

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ﴾: مبتدأٌ وخبر، و﴿ٱلْعَظِيمُ﴾: صفة له، والجملة مستأنَفة[4]. وأوثر هذا الاستئناف دون الوصلِ لنكتة بلاغيَّة، وهي: تنبيه المخاطَب لأمر عظيم، فإن ما قَبْلَ هذه الجملة

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (أبد - خلد).
(2) إسماعيل حقي، روح البيان: 3/492.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 9/8.
(4) الهرري، حدائق الروح والريحان: 12/37.

الكريمة قد أوثر فيه العطفُ: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ﴾، ﴿ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم﴾، ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ﴾. فحسُنَ أن يُقطع تسلسل المعطوفات لإثارة الذِّهن ولفت الانتباه إلى أنَّ هذا الذي تقدَّم ذكره هو الفوز العظيم بحقٍّ، أي: هو الذي ينبغي أن تُعَدَّ له عدَّته لنيله والظَّفر به.

نكتةُ التَّعبير باسم الإشارة للبعيد:

بَعُدَ السَّابقون الأوَّلون في بلوغ الذُّرى كما بعُد البدر عن ملامسة الثَّرى

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ﴾؛ أي: الأمر العالي المكانة خاصَّة[1]. والسِّرُّ في إيثاره دون اسم الإشارة القريب هو "إرادةُ تكريم المتحدَّث عنه، والتَّعبير عن ارتفاع منزلتِهِ، باستعمال اسم الإشارة الذي يشار به إلى البعيد"[2].

وقد أفاد التَّعبيرُ به في هذا السِّياق بيانَ بُعد منزلة السَّابقين الأوَّلين من المهاجرين والأنصار، والذين اتَّبعوهم بإحسان في مراتب الفضل، وعظمِ الدَّرجة من مؤمني الأعراب[3].

معنى (أل) في: ﴿ٱلْفَوْزُ﴾:

الفوزُ بالجنَّة هو الفوز بحقٍّ، فلا فوز وراءَهُ، ولا يُوازَن به غيرُه

اللّام في قوله تعالى: ﴿ٱلْفَوْزُ﴾ لاستغراق صفات جنس الفوز، أي: ذلك الفوزُ المذكور هو الذي اجتمعت فيه كلُّ صفات الفوز على الحقيقة، ففيه دلالةٌ على أنَّه هو البالغ النِّهايةَ في الكمال، والغايةَ في العظمة، فهو الفوزُ بحقٍّ الذي لا فوز وراءه.

دلالةُ تعريف طرفي الإسناد:

دلَّ تعريف طرفي الإسناد: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ﴾ على القصر، قصر المبتدأ على الخبر، وهذا القصر أفاد تخصيصَ الفوز بالخلود في الجنّات، وهذا للمبالغة في تأكيد المعنى وتقويته.

(1) البقاعي، نظم الدرر: 9/8.
(2) حسن، بلاغة اللغة: 1/423.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/97.

فائدةُ وصف الفوز بالعِظَم:

أفاد وصفُ الفوز بالعظيم الإشارةَ إلى أنَّ هذا الجزاء العظيمَ - من رضوان الله تعالى عن المؤمنين، والخلودِ في جنّات النَّعيم متعدِّدةِ الثِّمار مختلفة الألوان والأنواع - هو الفوز العظيم حقًّا، فلا فوز يقابله أو يناهده، ومن ناله؛ فقد نال خير الدُّنيا والآخرة[1].

كان الجزاءُ على قدر المجازي لا على قدر العمل، فلمثله فلْيُنصَب

إضافة إلى أنَّه بلغ النِّهاية في العظمة؛ لأنَّه قد خلص من الكُدَرات التي تنقص حلاوة النِّعمة، أو تنغِّص اللَّذة على المتنعِّم بها، فضلًا عن أن يُوازَن بفوز الدُّنيا الذي هو - مهما بلغ ما بلغ - قليلٌ حقير زائل[2].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الأوَّلُ والسّابقُ:

الفرق بين السّابق والأوَّل: أنَّ السّابق في أصل اللغة يقتضي مسبوقًا، والأوَّل لا يقتضي ثانيًا، ألا ترى أنَّك تقول: هذا أوَّل مولود وُلِد لفلان، وإن لم يُولَد له غيره، وتقول: أوَّل عبد يملكه حرٌّ، وإن لم يملك غيره، ولا يخرج الابنُ والعبد من معنى الابتداء، وبهذا يبطل قولُ الملحدين: إنَّ الأوَّل لا يسمّى أوَّلًا إلّا بالإضافة إلى ثانٍ، وأمّا تسمية الله تعالى بأنَّه سابق؛ فيفيدُ أنَّه موجود قبل كلِّ موجود، وقال بعضهم: لا يطلق ذلك في الله تعالى إلّا مع البيان؛ لأنَّه يوهم أنَّ معه أشياءَ موجودة قد سبقها؛ ولذلك لا يقال: إنَّ الله تعالى أسبق من غيره؛ لأنَّه يقتضي الزّيادة في السَّبق، وزيادة أحد الموصوفين على الآخر في الصِّفة يوجب اشتراكهما فيها من وجهٍ أو من وجوه[3].

الأوَّل لا يُسبَق، والسّابق قد يُسبَق

والسابق قد يكون مسبوقًا، وقد لا يُسبَق، أمَّا الأوَّل؛ فلا سابق

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 7/3430.
(2) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 3/1138، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/94.
(3) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 270، وابن تيمية، مجموع الفتاوى: 5/26.

له، فكون ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ﴾ موصوفين بـ ﴿ٱلۡأَوَّلُونَ﴾ يدلُّ على أنَّهم قد سَبقوا إلى هذا الفضل دون أن يسبقَهم إليه غيرُهم.

الخلودُ والأبد والدَّوامُ والسَّرمد:

الخلودُ هو معنى بقاء المنعَّم، والأبد هو معنى بقاء النَّعيم

الخاء واللام والدّال أصل واحد يدلُّ على الثَّبات والملازمة[1]. والخلود: بقاءُ الشيء مدَّةً طويلة على حال واحدة، لا يطرأ عليه فيها تغييرٌ ولا فناء[2]. والخلود في الجنَّة: بقاء الأشياء على الحالة التي عليها من غير اعتراض الفساد عليها[3]. أمّا الأبد؛ فهو الزَّمن الممتدُّ الذي لا انقضاء لآخره[4]، ويدور معناه المحوريُّ حول البقاء الدّائم أو الإقامة الدّائمة بلا حدٍّ[5].

والفرق بين الدَّوام والخلود: أنَّ الدَّوام هو استمرارُ البقاء في جميع الأوقاتِ، ولا يقتضي أن يكون في وقت دون وقت، ولذلك يقال: إنَّ الله لم يزل دائمًا، ولا يزال دائمًا، والخلود هو استمرار البقاء من وقت مبتدأ، ولهذا لم يصحَّ أن يُوصفَ الله ﷻ بالخلود، كما وُصِفَ بالدَّوام[6].

وأمّا السَّرمدُ: فهو دوام الزَّمان واتِّصالُهُ من ليل أو نار، وقيل: السَّرمد: الدّائم الذي لا ينقطع[7]. ومعناه المحوريُّ: الدّوام الزمنيُّ، ورأى ابن فارس أنَّ الميم زائدة، فأعادها إلى السَّرْد، أي: إنَّ فيه معنى الامتداد والتَّوالي، وهذا امتداد وتوالٍ زمنيٌّ[8].

وأهل الجَنَّة لا يصيبهم فسادٌ ولا فناء، وهم مقيمون في الجنَّة إقامةً دائمة بلا حدٍّ؛ لذا أُوثِر لفظا الخلود والأبديَّة.

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (خلد).
(2) الهروي، حدائق الروح والريحان: 7/53.
(3) الرّاغب الأصفهاني، المفردات: (خلد).
(4) الهروي، حدائق الروح والريحان: 7/53، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (أبد).
(5) جبل، المعجم الاشتقاقي: (أبد).
(6) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 239، والرّاغب الأصفهاني، تفسير الرّاغب: 5/507.
(7) الخليل، العين، والأزهري، التهذيب، وابن منظور، اللسان، والزبيدي، تاج العروس، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (سرمد).
(8) ابن فارس، مقاييس اللغة، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (سرمد).

الفوزُ والفلاحُ:

الفوز يكون بعبور وتجاوز، والفلاح يكون بشَقٍّ ونفاذ

الفرق بينهما: أنَّ الفوز يدور معناه المحوريُّ حول عبور مسافة قفر جافَّة بالغة الامتداد[1].

أمَّا الفلاح؛ فيدور معناه المحوريُّ حول الشَّقِّ والنَّفاذ[2].

فممّا سبق يتبيَّن أنَّ الملحظ في الفوز هو العبور والتَّجاوز، أمّا الملحظ في الفلاح؛ فهو الشَّقُّ والنَّفاذ؛ لذلك يقال لـمَن وصل أوَّلًا إلى نهاية المسابَقة: فاز بالمسابَقة، ولا يقال: أفلح بها؛ لِما في الفوز من معنى العبور.

ولَمّا ذُكِر في الآية كلمات مثل: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ﴾، ﴿ٱلۡأَوَّلُونَ﴾، ﴿ٱلۡمُهَٰجِرِينَ﴾، ﴿ٱتَّبَعُوهُم﴾، وهي كلمات تدلُّ على السَّبق المتضمِّن عبورَ مسافة وعرة، وصِعاب خطرة لـمّا كان ذلك كذلك؛ أُوثِر ذِكرُ الفوز دون الفلاح؛ فالقوم قد سبقوا إلى الإيمان بالله ﷻ، وبرسوله ﷺ وباليوم الآخر، وعبَروا طريق الهجرة، وتسابقوا إلى نصرة النَّبيِّ ﷺ، واجتازوا وِهاد الكفر، وقِفار الشِّرك، ومفاوز الإلحاد، إلى حياض الإيمان، ورياض الجنان، ففازوا بالنَّعيم والرِّضوان.

(1) جبل، المعجم الاشتقاقي: (فوز).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقي: (فلح).

﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ ۖ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ
مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ ۖ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ۚ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ
يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴿١٠١﴾ وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟
عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ
غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾﴾ [التوبة: 101 - 102]

مُناسَبَةُ الآيَتَينِ لِمَا قَبْلَهما:

النِّفاق خارجيٌّ وداخليٌّ، والثاني أشدُّ خطرًا على المجتمع الإسلاميّ

لمَّا بيَّن الله تعالى أحوال منافقي المدينة، وأحوال منافقي الأعراب، ثم بيَّن أنَّ في الأعراب من هو مخلص صالح، ثم أخبر عن رؤساء المؤمنين من السابقين ومن تَبِع هديهم؛ شرع في بيان حال منافقي أهل المدينة ومَن حولها، والذين لا يعرفهم رسول الله ﷺ، ثم أتبع سبحانه ذكر هذا الجمع المنافقِ الجافي بذكر الجمع التائبِ الصافي؛ وهم الذين اعترفوا بذنوبهم، وندموا على فِعالهم[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلْمَدِينَةِ﴾: المدينة: كلُّ أرضٍ يُبنى في وسطها حِصْن[2]، وكذلك البلدة التي كثر سُكَّانها[3]. ومعناها المحوريُّ: المِصرُ الجامع المحصَّن.

وتعريف المدينة بالحصن يذكِّرنا باتِّخاذ القدماء قلاعًا ونحوها مبالغةً في الامتناع والتحصُّن من الأعداء، وفيه الفرق بينها وبين القرية التي هي تجمُّعٌ لبيوتٍ لم يلحظ فيه التحصُّن"[4].

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 16/130، وأبو حيَّان، البحر المحيط: 5/495، والبقاعي، نظم الدرر: 9/10، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/21.

(2) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (مدن).

(3) السمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (مدن).

(4) جبل، المعجم الاشتقاقي: (مدن).

ومَدَن بالمكان: أقام به، ومنه سُمّيت المدينةُ على وزن فَعِيلَة، وجمعها: مدائن.

والمدينة في الآية: اسمٌ لمدينة رسول الله ﷺ خاصَّة، والنِّسبة إليها: مدَنيٌّ[1].

2) ﴿مَرَدُواْ﴾: مَرَد يمرُد مُرُودًا: عتا، وعصى، وطغى، وتكبَّر، ومَرَد على الشَّيء، فهو مارِدٌ ومَريد: هو العاتي والطّاغي[2]. وأصله من تجريد الشَّيء من قِشرِه، أو ما يعلوه من شَعَرِه[3]. ومنه قيل: مردَ فلانٌ عن المحاسن وعن الطَّاعة، أي: تجرَّد منها. ومنه الشَّيطان المريد، والمارد والمريد من شياطين الجنِّ والإنس: هو الخارج عن الحقِّ المتجرِّد من الخير العاري منه[4].

وقوله تعالى: ﴿مَرَدُواْ عَلَى ٱلنِّفَاقِ﴾، أي: ارتكسوا عن الخير، وهم على النِّفاق[5].

3) ﴿مَّرَّتَيْنِ﴾: المرَّة: الفعلةُ الواحدة، والمرَّتان الفعلتان، وجمعها: المَرُّ والمِرار[6]. وأصله من مُضيِّ الشَّيء، تقول: لقيتُهُ مرَّةً ومرَّتين، وإنَّما هو عبارةٌ عن زمان قد مرَّ[7]. فالمرَّة والمرَّتان: المدَّة من الزَّمان، وتطلق على كلِّ جزء من الزَّمان[8].

والمراد بالمرَّتين في الآية: مرَّةً في الدنيا بانكشاف نفاقهم وقتْلِهم وأسْرِهم، ومرَّةً بعذاب القبر بعد الموت.

4) ﴿ٱعۡتَرَفُواْ﴾: اعترف بذنبه: أقرَّ به، والاعتراف: الإقرارُ، وهو إظهار معرفة الذَّنب، والرِّضا به[9]. وأصله من سكون النَّفس وطمأنينتها[10]. ومنه المعرفة والعِرفان: ضدُّ الإنكار؛ لأنَّ النَّفس إذا أنكرت شيئًا؛ استوحشت منه، وإذا عرفته؛ سكنت له، واطمأنَّت، يقال: عرَف الشَّيء يعرِفه معرفة وعِرفانًا، واعترفه: عَلِمه[11].

---

(1) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب الزبيدي، تاج العروس: (مدن).
(2) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، المجمل، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (مرد).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (مرد).
(4) الرّاغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (مرد).
(5) الرّاغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (مرد).
(6) الخليل، العين، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (مرر).
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (مرر).
(8) الرّاغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (مرر).
(9) الخليل، العين، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (عرف).
(10) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عرف).
(11) الجوهري، الصحاح، وابن فارس، المجمل، وابن منظور، لسان العرب: (عرف).

وعَرَف بذنبه عُرْفًا، واعترف به: أقرَّ به، أي: أظهر معرفتَهُ به؛ لأنَّه إذا أقرَّ به؛ فقد عرَفه وعَلِمه بالضرورة[1].

5) ﴿بِذُنُوبِهِمْ﴾: الذُّنُوب: جمع ذَنْب، وهو الجُرْم والإثم والمعصية[2]. وأصله من التَّأخُّر والتَّخلُّف وهبوط الرُّتبة والسُّفول[3]. فكأنَّه أخذ بذَنَب الشَّيء الذي هو مؤخَّرُه وذيلُه، ويُستعمَل في كلِّ فعل لا تُحمد عُقباه، اعتبارًا بذَنَب الشَّيء، ولهذا يُسمَّى الذَّنْب: تَبِعَةً وعقوبة؛ اعتبارًا لما يحصل من عاقبته[4].

6) ﴿خَلَطُواْ﴾: خلط: خَلَط الشَّيء بالشَّيء يَخلِطه خَلْطًا: مَزَجَه، وهو أعمُّ من أن يكون في المائعات، أو الجمادات، أو المائعات والجمادات[5]. وأصله من تداخل أجزاء الشَّيء بعضها في بعض، وهو خلاف تنقيةِ الشَّيء من الشَّيء وتخليصِهِ[6]. ومعنى قوله تعالى: ﴿خَلَطُواْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا﴾. أي: "يتعاطون هذا مرَّةً، وذاك مرَّةً"[7].

❁ المَعْنى الإِجْمالِيُّ:

لا يخلو صفٌّ مؤمنٌ من منافقين مجافين، ومن تائبين مصافين

يفضح المولى ﷻ - في هاتين الآيتين الكريمتين - هؤلاءِ المنافقين من الأعراب الذين تقعُ منازلهم حول المدينة، والذين هم من أهل المدينة ممَّن أقاموا، وثبتوا على النِّفاق، وارتكسُوا عن الخير، لا تعرفهم أنت - أيُّها النَّبيُّ الكريم - بأعيانهم، ولا تعلمُهم، فاللّٰه

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب، والسمين، عمدة الحفاظ، والزبيدي، تاج العروس: (عرف).
(2) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح، وابن فارس، المجمل، وابن منظور، لسان العرب: (ذنب).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقي: (ذنب).
(4) الرّاغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (ذنب).
(5) الرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ، والزبيدي، تاج العروس: (خلط).
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة، والزبيدي، تاج العروس، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (خلط).
(7) الرّاغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (خلط).

وحده سبحانه مَنْ يَخْتَصُّ بمعرفتهم وفضْحِهم، وتوعُّدِهم بالعذاب مرَّتين في الدنيا بانكشافِ نفاقِهم وقتلِهم وأسرهم وبالمصائب والأمراض أوَّلًا، ثُمَّ بآلام الموت وعذاب القبر ثانيًا، ثم يُرجعون إلى العذاب الأَشدِّ، وهو عذابُ النّار وبئس المصير، وهناك فريقٌ آخر مِمَّنْ هم حول المدينة، ومَنْ فيها اعترفوا، وأقرُّوا بمعاصيهم؛ كونهم جمعوا عملًا صالحًا، وهو إيمانهم وجهادهم بآخر سيِّئ، وهو التَّخَلُّفُ عن غزوة تبوك بغير عُذْر، ولم يأتوا بأعذارٍ كاذبة، فأعلمهم اللّه سبحانه بقبول توبتِهِ عليهم ومغفرته لهم؛ لأنَّه سبحانه ذو عفوٍ وصفحٍ ومغفرةٍ لمن تاب عن ذنوبه وأناب[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغة العطف في الآية:

المنافقون يستترون في أحضان مجتمع الإيمان، والله معذِّبهم على خِداعهم

العطف في قوله تعالى: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ ۖ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ ۖ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ۚ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾ يمكن تقسيمه كما يلي:

أولًا: العطف في قوله تعالى: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ ۖ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ﴾: فقوله تعالى: ﴿وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ﴾ معطوفٌ على قوله: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ ۖ﴾ وتحديدًا على (مَن) المجرورة بمن؛ والعطف هنا شروعٌ في بيان منافقي أهل المدينة ومَن حولها من الأعراب، بعد بيانِ حال أهل البادية منهم، أي: وممَّن حول بلدكم مُنافِقُونَ[2]، والآية معطوفةٌ على الآية السّابقة لها.

(1) ابن جرير، جامع البيان: 11/643 - 650، والبغوي، معالم التنزيل: 4/89 - 90، وابن جزي، التسهيل: 1/346، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/178 - 180، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 3/96، والزحيلي، التفسير المنير: 11/21 - 22، وطنطاوي، التفسير الوسيط: 6/393 - 395، والسعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 350، والهرري، حدائق الروح والريحان: 12/23 - 24، والجزائري، أيسر التفاسير: 2/420، ونخبة من العلماء، التفسير الميسر: 1/203.

(2) الآلوسي، روح المعاني: 6/10.

ثانيًا: العطف في قوله تعالى: ﴿سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾، فقوله تعالى: ﴿ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾ معطوفٌ على قوله: ﴿سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ﴾ وهو من باب عطف الجمل، وقد أفاد بيانًا لاختلاف العذابين وتفاوتهما، وأنَّ عذاب الآخرة عذابٌ شديد عظيم؛ إذا قيس بعذاب الدنيا.

معنى (مِن) في: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم﴾:

(مِنْ) في قوله: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم﴾ للتَّبعيضِ[1]. وعبَّر بـ(من) التَّبعيضيَّة؛ لأنَّ فيهم مؤمنين صادقين، دعا لهم النبيُّ ﷺ ومدحهم[2]. وفي إبهامهم وعدم تعيين هذا البعض للمسلمين تحذيرٌ للمجتمع المسلم، وترهيبٌ للمؤمنين من أن يكونوا مثلَ هؤلاءِ؛ فيكون مَدعاةً لمزيد إخلاص.

ميزانُ الإيمان يرفع المؤمنين، ويخفض المنافقين

وهو إيذانٌ للمنافقين بأنَّ الله يعلمهم، وإنْ لم يعيِّنْهم للنبي ﷺ، فيكون ذلك إمهالًا لهم ليتوبوا قبل أن يُفتَضحَ أمرُهم.

معنى (مَن) ودلالتها:

(مَن) في قوله: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم﴾ هي (من) الموصولة للعاقل، وفيها إبهامٌ؛ فعدمُ التصريح بهؤلاء المنافقين لقصد الدلالة على معانٍ تتضمَّنها صلة الموصول ﴿حَوْلَكُم﴾، ففيه تنبيهٌ من الله ﷻ للمؤمنين كي يكونوا في يقظة دائمةٍ مع هؤلاء المجهولين من الناس، فهم يعيشون بينهم، ويخفون أمرهم.

المنافقون يعيشون بين المؤمنين وحولهم

والمراد بالموصول (مَن) قبائلُ: جهينة، ومزينة، وأشجع، وأسلم، وغفار، وكانت منازلُهم حول المدينة[3].

واستُشْكِل ذلك بأنَّ النبيَّ ﷺ مدح هذه القبائل، ودعا لبعضها؛

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/19.

(2) الهرري، حدائق الروح والريحان: 12/22.

(3) يقول الآلوسي: "وإلى هذا ذهب جماعة من المفسرين كالبغوي، والواحدي، وابن الجوزي، وغيرهم". ينظر: الآلوسي، روح المعاني: 6/10.

فقد أخرج الشيخان وغيرهما عن أبي هريرةَ عنه رضي الله عنه أنَّه قال: «قريش، والأنصار، وجهينة، ومزينة، وأسلم، وأشجع، وغفار مواليَّ، ليس لهم مولًى دون الله ورسوله»[1]، وأُجيب بأنَّ ذلك باعتبار الأغلب منهم[2]، وقد بادَروا إلى الإسْلامِ والإيمانِ، فهم خَيرٌ عند الله من أولئك الَّذين ظَلُّوا على العناد والكفر في أوَّلِ الأمر، مثل أسَدٍ، وطيِّئٍ، وغَطَفانَ.

معنى ﴿حَوْلَكُم﴾ وموقعُها النَّحويُّ:

و﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم﴾ خبر مقدَّم، و﴿مُنَٰفِقُونَۖ﴾ هو المبتدأ[3]. و﴿حَوْلَكُم﴾ ظرفٌ ومضاف إليه، و﴿حَوْلَكُم﴾ صلة (مَن) الموصولة، ومعنى ﴿حَوْلَكُم﴾: حول بلدتِكم، وهي المدينة، والذين كانوا حولَ المدينة: جُهَينةُ، وأسلَمُ، وأشجعُ، وغِفارٌ، ومُزَينَة، وعُصَيَّة، ولَحْيانُ، وغيرهم ممَّن جاورَ المدينة[4]. كأنَّ الله ﷻ يقول لعباده المؤمنين: انتبهوا فأنتم في مجتمعٍ محاطٍ بالمنافقين[5].

المؤمنون محاطون بأصنافٍ من المنافقين

فائدة تقديم شبه الجملة على المسند إليه:

تقديمُ الجار والمجرور ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم﴾ للتَّنبيهِ على أنَّه خبرٌ مقدَّم، لا نعتٌ[6]. وفيه اهتمامٌ بذِكر معنى الإحاطة أولًا؛ تنبيهًا للمؤمنين بأنْ يُديموا يقظتهم، ولا يطمئنّوا للأعراب جميعًا، فهؤلاء المنافقون المعنيُّون في الآية: أعرابٌ يعيشون حولهم.

ينبغي أن يحذر المؤمنون؛ فإنَّ أعداءهم بهم متربِّصون

معنى ﴿مِّنَ﴾ في: ﴿مِّنَ ٱلۡأَعۡرَابِ﴾:

﴿مِّنَ﴾في قوله: ﴿مِّنَ ٱلۡأَعۡرَابِ﴾ لبيانِ (مَن) الموصولة[7]، فهي

(1) البخاري، الصحيح: حديث رقم: (3504)، ومسلم، الصحيح: حديث رقم: (2520).
(2) الآلوسي، روح المعاني: 6/10 - 11.
(3) الشوكاني، فتح القدير: 2/453.
(4) أبو حيَّان، البحر المحيط: 5/495.
(5) الشعراوي، الخواطر: 9/149.
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/19.
(7) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/19.

تبيِّن جنسَ هذا القسم من المنافقين، وتؤكِّد أنَّهم أعرابٌ، وهم الذين يسكنون الباديةَ من العرب، ولا يُقيمون في الأمصار، ولا يدخلونها إلا لحاجةٍ، وهم ليسوا من الحضر.

معنى (أل) في: ﴿ٱلْأَعْرَابِ﴾:

(أل) هنا هي العهدية التي عُهد مصحوبها بتقدُّم ذكره[1]؛ فالإخبارُ هنا عن أنَّ المنافقين من أعرابٍ معروفين، ذكَرَهم اللّه في آية سابقة، يعرف المؤمنون أشخاصَهم، لكن لا يَعْلم نفاقَهم إلّا عالمُ الغيب والشهادة؛ لأنَّهم من حُذّاق المنافقين الذين مَهَروا في النِّفاق، فخفِيَ أمرُهم، فلم يعلمه أحد إلّا اللّه تعالى.

يفضح اللهُ سرائر المنافقين، وإن انطلت خدعتُهم على المؤمنين

نكتةُ العطف في: ﴿وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ﴾:

﴿وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ﴾ عطفٌ على ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم﴾؛ فيكون كالمعطوف عليه خبرًا عن (المنافقون)؛ كأنَّه قيل: المنافقون من قومٍ حولكم ومن أهل المدينة، وهو من عطْف مفردٍ على مفرد[2].

نبتَ النِّفاقُ أيضًا بأرض الإيمان في المدينة

فصار المعنى: إنَّكم أيُّها المؤمنون محاصرون، لا ببعض المنافقين الذين حولكم فقط، بل أيضًا ببعضٍ من الموجودين بينكم في المدينة، ممَّن تدرَّبوا على النِّفاق حتى صارت لهم به أُلْفةٌ.

معنى ﴿وَمِنْ﴾ في: ﴿وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ﴾:

﴿وَمِنْ﴾ في قوله: ﴿وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ﴾ تبعيضيَّة مؤذِنة بمُبعِّضٍ محذوف، تقديره: (ومن أهل المدينة جماعةٌ مرَدوا)، كما في قوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ [النِّسَاءِ: 46][3].

التَّحذيرُ من المنافقين الذين قد يصلون إلى مسجدكم المدنيِّ

وفي قوله: ﴿وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ﴾ دلالةٌ على التَّحذير من المنافقين الذين قد يصلون إلى جواركم في مسجدكم، وفيه امتنانٌ منه

(1) المرادي، الجنى الداني، ص: 194.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 6/11.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/20.

سبحانه على المؤمنين بأن أخلص قلوبهم له، وطهَّرها، وعصمَهم من النِّفاق.

فائدة مجيء ﴿أَهۡلِ﴾ مع المدينة:

أَهْل الرَّجُل عشيرتُه وذَوُو قُرباه[1]. والمراد به في الآية ساكنو المدينةِ من المهاجرين والأنصار وغيرهم من الأعراب، أي: كلُّ مَن سكن المدينة، واقترب من المؤمنين اقترابَ ذوي الرَّجل وأقربائه.

النِّفاقُ الخاصُّ نابعٌ من بينكم، ومنافقوه من ذوي الصِّلة بكم

وتفيد ﴿أَهۡلِ﴾ هنا دلالةً على أنَّ هذا النِّفاق الخاصَّ نابعٌ من بينكم، ومنافقيه من ذوي الصِّلة بكم، أو هم من أقربائكم وذويكم.

معنى (أل) في: ﴿ٱلۡمَدِينَةِ﴾:

ينجم النِّفاق حيث يقوى أهل الإيمان، ويكثر في مركز قوَّتهم

(أل) في ﴿ٱلۡمَدِينَةِ﴾ عهديةٌ، وعهدُها ذهنيٌّ؛ لأنَّها صارت عَلَمًا؛ فقَدْ أصبحت يثربُ - بعدَ هجرة النبيِّ ﷺ إليها - مدينةً مسلِمة؛ إذ بنى فيه مسجدَه الشريف، وألَّفَ فيها النبي ﷺ بين المهاجرين والأنصار؛ فالمدينةُ هنا، أي: البلدُ الذي آوى الإسلام، كما ورد في الحديث: «إنَّ الإيمانَ يأرِزُ إلى المدينَةِ، كما تَأرِزُ الحيَّةُ إلى جُحرِها»[2]، وكذلك منه انتشر، وتشعَّب في الأمصار والبلدان، كما بشَّر بذلك الصَّادقُ المَصْدوق ﷺ بقوله: «أُمِرْتُ بقريةٍ تَأْكلُ القُرى، يقولونَ: يَثْرِبُ، وهي المدينةُ، تنفي النّاسَ كما يَنفي الكيرُ خَبَثَ الحديدِ»[3]، ومعنى تَأكلُ القُرى، أي: تَغلِبُهم، وكنّى ﷺ بالأكلِ عن الغَلَبةِ؛ لأنَّ الآكِلَ غالبٌ على المأكولِ، فقد انطلقت جيوش الفتح الإسلاميِّ منها، فغلب أهلها على سائرِ البلادِ، ونصر اللّٰهُ دِينَه بهم، وفتح القُرى عليهم.

بلاغةُ حذف المسند إليه في: ﴿وَمِنۡ أَهۡلِ ٱلۡمَدِينَةِ﴾:

تقدير الجملة: (ومن أهل المدينة قومٌ أو منافقون مردوا على

(1) ابن منظور، لسان العرب: (أهل).
(2) ابن حزم، المحلى: (7/282)، وهو حديث صحيح، أصله في صحيح مسلم بلفظ آخر.
(3) البخاري، صحيح البخاري، الحديث رقم: (1871).

المنافقون يعيشون بين المؤمنين في المدينة

النِّفاق)، وحذْفُ المسند إليه فيها إشارةٌ إلى أنَّ الخبرَ لا يُتوهَّم أنَّ يكون لغير المحذوف.

ويجوز أيضًا أن يكونَ الحذف لبيان حال المنافقين وطريقتهم؛ فهم أناس تمرَّنوا على النِّفاق، وبلغوا فيه الغايةَ، ووصلوا فيه إلى حيث لا يُعلم نفاقُهم، فلا يعلم نفاقَهم إلَّا مَن علَّمه علّامُ الغيوب ﷻ؛ فناسب هذا التخفّي والتستُّر عدم التصريح بذكر لفظهم.

موقع قوله: ﴿مَرَدُواْ عَلَى ٱلنِّفَاقِ﴾:

منافقو أهل المدينة بلغوا الغاية في النفاق

﴿مَرَدُواْ عَلَى ٱلنِّفَاقِ﴾ جملةٌ مستأنَفةٌ لا محلَّ لها من الإعراب، وهي مسوقةٌ لبيان غلوِّ منافقي المدينة في النِّفاق إثرَ بيان اتِّصافهم به.

ويجوز أن تكون ﴿وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ﴾ خبرًا مقدَّمًا، والمبتدأ بعده محذوفٌ قامت صفتُه مقامَه، والتقدير: (ومن أهل المدينة قومٌ مرَدوا)، وحذْفُ الموصوف وإقامةُ صفته مقامَه - إذا كان بعد اسم مجرور بـ(مِن) أو (في) مقدَّم عليه - مقيسٌ شائع، نحو: منَّا أقامَ، ومنَّا ظَعَن، ومنه قول سُحَيم:

أَنا ابنُ جَلا وَطَلّاعُ الثَّنايا *** مَتى أَضَعِ العِمامَةَ تَعرِفوني[1]

على أحدِ التأويلات فيه[2]، وتَقديرُه: أنا ابنُ رجُلٍ جلا، أي: كشَفَ الأمورَ[3].

وعلى هذا يكون هذا النَّوع من النفاق مُختَصًّا بأهل المدينة، والمعنى: صاروا في حِرْفة النفاق مهرةً حاذقين، وبلغوا إلى حيث لا تعلم أنت نفاقهم مع قوَّة خاطرك وصفاء حَدْسك ونفسك[4].

دلالةُ التَّعبير بـ﴿مَرَدُواْ﴾ مادَّةً وصيغة:

بلغوا غاية النِّفاق - مع عيشهم في مجتمع المدينةِ - بتدرُّبهم عليه

تدور معاني المرود حول تجريد شيء من قِشره أو ما يعلوه من

(1) البيت للشاعر: سحيم بن وثيل الرياحي. يُنظر: السيوطي، شرح شواهد المغني: 1/459.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 6/11.
(3) أبو حيَّان، البحر المحيط: 5/496.
(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 16/131.

شَعَره[1]، أو ملاسة ظاهر الشيء الممتدِّ تجرُّدًا ممّا ينبتُ أو يتشعَّب منه عادة[2]. ويقال: مَرَد على الشيء، أي: مَرَن عليه، واستمرَّ[3]، و(مَرَدَ على الأمرِ) معناه: مَرنَ عليه، ودَرِبَ به، ومنه الشَّيطانُ المارِدُ، أي: في الشَّيطَنة[4]. وفُسِّر المرود هنا بالاعتياد والتدرُّب في الأمر إلى المهارة فيه.

والمرود خاصٌّ بمنافقي أهلِ المدينة، لاقترابهم الشديد من المجتمع الإيماني، واقتضاء هذا الاقتراب مهارةً ودربةً في النفاق، وعبَّر بصيغة الماضي لتأكيد تحقُّق هذا المعنى في منافقي المدينة.

عودُ الضَّمير في: ﴿مَرَدُواْ﴾:

منافقو المدينة من عُتاة المنافقين

واو الجماعة ضميرٌ يعود على منافقي ﴿أَهۡلِ ٱلۡمَدِينَةِ﴾ النَّبويَّة، وهذا يدلُّ على أنَّ نفاق المدينة كان صعبًا؛ إذ هو نفاق لا يمارسُه أيُّ شخص، فهو يتطلَّب تمرُّنًا واعتيادًا وحيلةً وإخفاءَ مشاعرَ ومكرًا؛ لأنَّ هذا المنافق الذي يعيش بين أحضان المؤمنين يعاملهم ليلَ نهار، ومن العسير عليه أن يتخفَّى بينهم إلّا إن بلغ الغايةَ في المكر والذُّروةَ في النفاق.

الموقع النَّحويُّ والبيانيُّ في: ﴿لَا تَعۡلَمُهُمۡۖ﴾:

أمرُ المنافقين خفيٌّ على رسول الله ﷺ

جملة ﴿لَا تَعۡلَمُهُمۡۖ﴾ - المشتملة على (لا) النافية والفعل والفاعل المستتر وضمير المفعول - جملةٌ مُستَأنَفةٌ.

وسببُ إيثار الفصل على الوصل في قوله: ﴿لَا تَعۡلَمُهُمۡۖ نَحۡنُ نَعۡلَمُهُمۡۚ﴾ استئنافُ كلام جديدٍ، هو التَّنبيهُ على أنَّ هذا الفَلَّ الباقي من المنافقين قد أراد الله الاستئثارَ بعلمه، ولم يُطلع عليهم رسولَه ﷺ، كما أطلعه على كثيرٍ من المنافقين من قبلُ، وإنَّما أعلَمَه

(1) ابن فارس، المقاييس: (مرد).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقي: (مرد).
(3) الفيروزاباديّ، بصائر ذوي التمييز: (مرد).
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/20.

بوجودهم على الإجمال لئَلَّا يغترَّ بهم المسلمون[1]، ويمكن أن تكون استئنافًا بيانيًّا جوابًا عن سؤالٍ مقدَّرٍ: هل يعلمهم النَّبيُّ؟

الموقع النَّحويُّ والبيانيُّ لـ: ﴿نَحۡنُ نَعۡلَمُهُمۡۚ﴾:

جملة ﴿نَحۡنُ نَعۡلَمُهُمۡۚ﴾ مُستَأنَفةٌ أيضًا، ويمكن حمْلُها على الاستئناف النَّحويِّ أو البيانيِّ كسابقتها، وأوثر الفصلُ على الوصل لاستئناف كلامٍ جديد، وهو الإخبارُ المُستعمَل في الوعيد، فهو من مثل قوله تعالى: ﴿وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ وَرَسُولُهُۥ﴾ [التَّوبة: 94]، وإلَّا فإنَّ الحُكمَ معلومٌ للمُخاطَب، فلا يَحتاجُ إلى الإخبار به.

لا يخفى أمرُ هؤلاءِ المنافقين على علّام الغيوب سبحانه

وفيه إشارةٌ إلى عدم الفائدة للرَّسول ﷺ في علمه بهم؛ فإنَّ عِلم اللّه بهم كَافٍ، وفيه أيضًا تمهيدٌ لقوله بعدَهُ: ﴿سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيۡنِ﴾[2].

والجملة تقريرٌ لِما سبَقَ من مهارتهم في النِّفاق، أي: لا يقفُ على سرائرهم المركوزة فيهم إلّا مَن لا تخفى عليه خافية؛ لِمَا هم عليه مِن شدَّة الاهتمام بإبطال الكفر وإظهار الإخلاص[3].

بلاغةُ المؤكِّدات في التَّعبير بالاسميَّة، وذكر المسند إليه مرَّتيْن في الجملة: ﴿نَحۡنُ نَعۡلَمُهُمۡۚ﴾:

هذا الحشد من المؤكِّدات: التَّعبير بالاسميَّة، وذكر المسند إليه مرَّتيْن (بالضمير البارز والمستتر)؛ ناسَبَ حالَ المنافقين الذين يثقون بحالهم الخفية، وأنَّه لا يعلم أحدٌ عن حالهم شيئًا، حيث يؤكِّد اللّه ﷻ لهؤلاء المنافقين أنَّه عليم بحالهم كلِّه، وفي ذلك الإخبار وعيدٌ لهم؛ فإحاطةُ علم اللّه بحالهم إشارةٌ إلى أنَّهم لن يستطيعوا أن يُفلتوا من عقابه.

علمُ اللهِ بحالهم تهديدٌ لهم ووعيد

وقد قُدِّم في قوله: ﴿لَا تَعۡلَمُهُمۡۖ نَحۡنُ نَعۡلَمُهُمۡۚ﴾ المسند إليه ﴿نَحۡنُ﴾

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/20.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/20.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 6/11 - 12.

على المسند ﴿نَعۡلَمُهُمۡۚ﴾؛ لإفادة قَصْرِ العِلم بهم على الله، وظاهرٌ أنَّ القَصْر هنا هو من قبيل القصر الإضافي، إذ قد تعلمهم الملائكة أيضًا، ولكن جاء القَصْرُ في مقابلة نفي العلم بهم عن الرسول، ولعلَّ ذلك قد كان قبل أن يُعلِمَه الله بهم، أو أنَّ بعض المنافقين لم يُعلِمِ اللهُ رسولَه بهم[1].

فائدةُ العدول من الفعليَّة إلى الاسميَّة في: ﴿لَا تَعۡلَمُهُمۡۖ نَحۡنُ نَعۡلَمُهُمۡۚ﴾:

يفيدُ نفي المضارع في الجملة الفعلية ﴿لَا تَعۡلَمُهُمۡۖ﴾ نفيَ العِلم في الحال والاستقبال، فعلم النبي ﷺ بهم لا فائدةَ منه؛ وذلك لأنَّ علمَ الله بهم كافٍ[2].

إن يكنِ النِّفاق خفيًّا على النبيِّ ﷺ؛ فعِلمُ الله محيط بجوانبه كلِّها

وقد عبَّر بالاسمية بعدها ﴿نَحۡنُ نَعۡلَمُهُمۡۚ﴾؛ لبيان ثبوتِ علم الله على الإحاطة بهم، وعُبِّر في الخبر بصيغة المضارع ﴿نَعۡلَمُهُمۡۚ﴾ إشارةً إلى أنَّ حالهم مهما تغيَّر فهو معلومٌ من قِبَل الله ﷻ.

وهذه الآياتُ ونحوها أقوى دليلٍ للرَّدِّ على مَن يزعم الكشفَ والاطِّلاع على المغيبات بمجرَّد صفاء القلب وتجرُّدِ النَّفس عن الشَّواغل، وبعضهم يتساهلون في هذا الباب جدًّا[3].

بلاغةُ المشاكلة بين: ﴿تَعۡلَمُهُمۡۖ﴾ و﴿نَعۡلَمُهُمۡۚ﴾:

ذكر معنى العلم في ﴿نَعۡلَمُهُمۡۚ﴾ بلفظ الفعل، مثل: ﴿تَعۡلَمُهُمۡۖ﴾ وصيغته؛ لوقوعه في صحبته، فشاكل ﴿نَعۡلَمُهُمۡۚ﴾ لفظَ ﴿تَعۡلَمُهُمۡۖ﴾، ويبدو للوهلة الأولى أنَّ حدَثَ العلم ومعناه واحد في الفعلين، لكن يتَّضح لمَن يمعن النظر أنَّ علم الله محيطٌ بكلِّ صغيرة وكبيرة، وأنَّه سبحانه عليم بماضي المنافقين وحاضرهم ومستقبلهم.

تستوي عند الله الخفيَّات والظَّواهر؛ فقد أحاط بكلِّ شيء علمًا

(1) حسن، بلاغة اللغة: 1/540.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/20.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 6/12.

نكتةُ التَّعبير بالمضارعيَّةِ في: ﴿تَعۡلَمُهُمۡۖ﴾ و﴿نَعۡلَمُهُمۡۚ﴾:

علم الله سبحانه مطلقٌ، لا يتقيَّد بزمان

أفاد نفي المضارع في ﴿لَا تَعۡلَمُهُمۡۖ﴾ نفيَ علمِ النَّبيِّ ﷺ بحال المنافقين في الحال والاستقبال.

أمَّا صيغة المضارع ﴿نَعۡلَمُهُمۡۚ﴾؛ فهي إشارة إلى أنَّ حالَهم مهما تغيَّر؛ فاللّٰه ﷻ يعلمه، أي: يعلم حالهم ومستقبلَهم.

الموقع النَّحويُّ والبيانيُّ لـ: ﴿سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيۡنِ﴾:

جزاء النِّفاق عذابٌ شديدٌ مكرَّرٌ عليهم

جملةُ: ﴿سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيۡنِ﴾ استئنافٌ بيانيٌّ للجواب عن سؤالٍ يُثيره قولُه: ﴿نَحۡنُ نَعۡلَمُهُمۡۚ﴾، وهو أنْ يسألَ سائلٌ عن أثَرِ كونِ اللّٰه تعالى يعلمُهم، فأُعْلِم أنَّه سيُعذِّبهم على نفاقهم، ولا يُفلتهم منه عدمُ عِلم الرَّسولِ ﷺ بهم.

وقد اختار عددٌ من علماء التفسير أنَّ المراد بـ﴿مَّرَّتَيۡنِ﴾: العذابُ في الدُّنيا، والعذابُ في القبر، وممَّن ذهَب مِن السَّلفِ إلى أنَّ العذابَ الأوَّل في الدُّنيا، والثاني في القبرِ: ابنُ عبَّاس ومجاهدٌ ومقاتلُ بنُ سليمانَ، مع اختلافِهم في صورةِ عذابِ الدُّنيا، فقال ابنُ عبّاسٍ: هو فضيحتُهم بالنِّفاقِ، وفي روايةٍ: إقامةُ الحدودِ عليهم، وقال مجاهدٌ: الجوعُ، وقال مقاتلٌ: عندَ الموتِ، تضربُ الملائكةُ وجوهَهم وأدبارَهم[1]. قال أبو زيدٍ الثَّعالبي: "وأكثرُ النّاسِ أنَّ العذابَ المتوسِّطَ هو عذابُ القبرِ"[2].

ويحتَملُ أنَّ العذاب الموصوف بمرَّتَين عذابٌ مخصوصٌ في الدُّنيا: وهو تكثيرُ تَعذيبِهم وتكرُّرُه في الدُّنيا مرَّةً بعد مرَّةٍ؛ لقوله بعدَهُ: ﴿ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾[3].

(1) ابنُ جريرٍ، جامع البيان عن تأويل آي القرآن: 11/644، 649، وابن الجوزي، زاد المسير: 2/292، وابنُ كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/205.

(2) الثعالبي، الجواهر الحسان في تفسير القرآن: 3/209.

(3) الشوكاني، فتح القدير: 2/454، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/20.

دلالةُ دخول سين التَّسويف على العذاب:

المنافقون في ترقُّب دائم للعذاب، وما ارتدعوا

تدلُّ (السِّين) في قوله: ﴿سَنُعَذِّبُهُم﴾ على الاستقبال، وفيه هنا دلالةٌ على أنَّ المنافقين دائمًا في ترقُّب للعذاب، حتى إن عذَّبهم اللّه مرَّات - في الدنيا - بالقلق تارةً وبالحسرة أخرى، أو بالخوف أو المرض أو بغير ذلك من بلاء الدُّنيا، وهذا الوعيد مستمرٌّ معهم طَوال حياتهم؛ إذا لم يتوبوا؛ فما أشدَّ قلقَهم بهذا التوعُّد؛ كلَّما سمعوا هذه الآية!

بلاغة إضافةِ العذابِ إلى ضمير العظمة:

عذابُ العظيم شديدٌ أليم

إضافة العذاب إلى ضمير العظمة الرّاجع إلى اللّه سبحانه في قوله: ﴿سَنُعَذِّبُهُم﴾ فيه دلالةٌ على عِظم هذا العذاب وشدَّتِه؛ فعذاب العظيم عظيمٌ.

وفيه أيضًا دلالةٌ على تأكُّد وقوع هذا العذاب الشَّديد بالمنافقين، وأنَّهم لن يقدروا على الإفلات منه، فمَن يعذِّبهم ليس أيَّ أحد، وإنَّما هو العليم القدير.

وتغييرُ الأسلوب على ما قيل بإسناد عذابهم السابقِ إلى نون العظمة ﴿سَنُعَذِّبُهُم﴾ حسب إسناد ما قبله مِن العلم، وإسنادُ ردِّهم إلى العذاب اللّاحق إلى أنفسهم ﴿ثُمَّ يُرَدُّونَ﴾ إيذانٌ باختلافهما حالًا، وأنَّ الأوَّل خاصٌّ بهم وقوعًا وزمانًا يتولّاه اللّه سبحانه، والثّاني شامل لعامَّة الكفرة وقوعًا وزمانًا وإن اختلفت طبقات عذابهم[1].

دلالةُ التَّعبيرِ بصيغة المضارع في فعل العذاب:

النِّفاقُ مستنزَلُ العذاب، ومستجمَعُ العقاب

في استعمال المضارع هنا في قوله: ﴿سَنُعَذِّبُهُم﴾ دلالةٌ على الاستمرار؛ للدِّلالة على أنَّ عذاب المنافقين مستمرٌّ طَوال حياتهم، كما أنَّهم في هذه الدُّنيا ليسوا بمعزلٍ عن عذاب إلى أن يموتوا، فيعذِّبَهم اللّه عذابًا عظيمًا في الآخرة.

(1) الآلوسي، روح المعاني: 6/12.

فائدةُ وصفِ العذاب بـ ﴿مَّرَّتَيْنِ﴾:

عذابُ المنافقين شديدٌ مُضاعَف

الظّاهر من قوله: ﴿مَّرَّتَيْنِ﴾ إرادة التَّثنية، ويحتمل أن يكون غيرُ مُراد بها شفْعَ الواحدِ، بل يكون المعنى على التَّكثير[1].

والعددُ يُستعمل لمجرَّد قصدِ التَّكرير المفيدِ للتَّأكيد؛ كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ كَرَّتَيۡنِ﴾ [الملك: 4]، أيْ: تأمَّلْ تأمُّلًا متكرِّرًا، ومنه قول العرب: لبَّيك وسعدَيك؛ فاسم التَّثنية نائبٌ منابَ إعادةِ اللَّفظ.

والمعنى: سنعذِّبهم عذابًا شديدًا متكرِّرًا مضاعَفًا، كقوله تعالى: ﴿يُضَٰعَفۡ لَهَا ٱلۡعَذَابُ ضِعۡفَيۡنِۚ﴾ [الأحزاب: 30].

وهذا التَّكرُّر تختلف أعدادُه باختلاف أحوال المنافقين واختلاف أزمان عذابهم[2].

وإذا كانت التَّثنية مُرادةً في قوله: ﴿مَّرَّتَيْنِ﴾؛ فأكثرُ النَّاس على أنَّ العذاب الثّاني هو عذاب القبر، وأمّا المرَّة الأولى؛ فقال ابن عباس في الأشهر عنه: هو فضيحتُهم، ووصْمُهم بالنِّفاق[3].

معنى ﴿ثُمَّ﴾ في: ﴿ثُمَّ يُرَدُّونَ﴾:

استخدامُ ﴿ثُمَّ﴾ يفيد التَّرتيبَ مع التَّراخي؛ فعذاب الدُّنيا مرحلةٌ أولى، ينتقل المنافقون منها إلى مرحلة تالية شديدةِ العذابِ بعد موتهم، وهي مرحلة لا قِبَل لهم بعذابها.

دلالةُ التَّعبير بـ ﴿يُرَدُّونَ﴾ من حيث المادَّةُ والصيغة:

خداعُ المنافقين للمؤمنين جعلَهم لأشدِّ العذاب مستحقِّين

تدور مادَّةُ الرَّدِّ حول معاني الصَّرف والرَّجع[4]. ولا يخفى أنَّ المنافقين يُصرفون من عذاب إلى عذاب، ولمَّا كان عذاب الآخرة مختلفًا عن نوع العذاب في الدُّنيا؛ عُبِّر بـ ﴿يُرَدُّونَ﴾، أي: كأنَّهم

(1) أبو حيَّان، البحر المحيط: 5/497.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/20.
(3) أبو حيَّان، البحر المحيط: 5/497.
(4) الجوهري، الصحاح، وابن فارس، مقاييس اللغة: (ردد).

بالموت يُصْرفون عن عذاب الدُّنيا، ويحولون إلى عذاب الآخرة، وهو عذاب لا عهدَ لهم بشدَّته.

وفي بناء ﴿يُرَدُّونَ﴾ لما لم يُسمَّ فاعله من التَّعظيم ما فيه؛ حيث إنَّ فاعل الحدث غير مذكور للتهويل؛ فهم حال موتهم تستقبلهم ملائكة يضربون وجوهَهم وأدبارهم، ثم بعد ذلك يسوقهم ملائكةٌ غلاظٌ شداد إلى جهنَّمَ، فجاء التعبير بهذه الصيغة مناسبًا للعذاب العظيم في ختام الآية، لذا غيِّر السَّبك إليه[1].

نكتة تنكير ﴿عَذَابٍ﴾:

تنكير العذاب هنا للتَّهويل، وفيه إشارةٌ إلى أنَّه نوعٌ مبهم من العذاب، عذابٌ شديد لم يجرِّبه المنافقون، ولم يعاينوه من ذي قبلُ.

أبهم المنافقون حالَهم، فأُبهِمَ لهم العذابُ جزاءً وِفاقًا

فائدة وصف العذاب بأنَّه عظيم:

وُصِفَ العذابُ بأنَّه ﴿عَظِيمٍ﴾؛ لدفع الإيهام بقلَّته أو خفَّته؛ فعذاب الآخرة بمسبِّب، والمعذِّب في الآخرة واحدٌ وقوَّته لا نهاية لها، وإنْ قِيس عذاب الآخرة بالعذاب في الدُّنيا؛ فمن المؤكَّد أنَّ عذاب الآخرة عذابٌ عَظيم.

عَظُمَ جُرمُ المنافقين فعظُمَ عذابُهم

ولا شكَّ في أنَّ عذاب المنافقين (العظيمُ): هو عذابُ جهنَّمَ[2]؛ فقد قال الله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [النساء: 145]. ولا يخفى أنَّه إذا فُسِّر العذابُ العظيم بعذاب (الدَّرك الأسفل من النار)؛ لم يكُن شاملًا لعامَّة الكفرة، نعم، هو شامل لعامَّة المنافقين فقط[3].

بلاغةُ العطف في: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ﴾:

﴿وَءَاخَرُونَ﴾ عطف على ﴿مُنَٰفِقُونَ﴾، وجملة ﴿ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ﴾

الله سبحانه رحيمٌ لا يعاجِلُ بالعقاب، ويقبل مَن تاب إليه وأناب

(1) الآلوسي، روح المعاني: 6/12.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/20.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 6/12.

صفتُهُ[1]، والمعنى: ومن أهل المدينة منافقون، وآخرون أذنبوا بالتَّخلُّف، فاعترفوا بالتَّقصير في أمر الله لهم بالجهادِ، وهو من كبائر الذُّنوب.

وعطف ﴿وَءَاخَرُونَ﴾ بَيانٌ لحال طائفةٍ من المسلمين ضعيفةِ الهِمَم في أمر الدِّين لم يكونوا منافقين على الصَّحيح، فقوله: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعۡتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمۡ﴾ يدلُّ على أنَّهم لم يكونوا منافقين؛ لأنَّ التَّعبير بالذُّنوب بصيغة الجمع يقتضي أنَّها أعمال سيِّئة في حالة الإيمان، وكذلك التَّعبير عن ارتكاب الذُّنوب بخلط العمل الصالح بالسَّيِّئ[2]، فهم قوم مؤمنون أذنبوا، ثم وفَّقهم ربُّهم للتَّوبة[3].

الموقعُ النَّحويُّ والبيانيُّ لـ: ﴿ٱعۡتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمۡ﴾:

جملة ﴿ٱعۡتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمۡ﴾ وقعت صفةً لـ (آخرون)، وفي ذلك إيجازٌ؛ لأنَّه يدلُّ على أنَّهم أذنبوا، واعترفوا بذنوبهم، ولم يكونوا منافقين؛ لأنَّ التَّعبير بالذُّنوب بصيغة الجمع يقتضي أنَّها أعمال سيِّئة في حالة الإيمان، وكذلك التَّعبير عن ارتكاب الذُّنوب بخلط العمل الصَّالح بالسَّيِّئ[4].

مَن تاب؛ تاب الله عليه، ومَن مشى إلى الله؛ هرولَ الله إليه

دلالةُ التَّعبيرِ بـ ﴿ٱعۡتَرَفُواْ﴾ من حيثُ مادَّتُها وصيغتُها:

قوله: ﴿ٱعۡتَرَفُواْ﴾ أي: أقَرُّوا عن معرفةٍ[5]. والاعتراف: افتعالٌ من (عَرَف)، وهو للمبالغة في المعرفة، ولذلك صار بمعنى الإقرارِ بالشَّيء وترك إنكاره، فالاعترافُ بالذَّنب كنايةٌ عن التَّوبة منه؛ لأنَّ الإقرارَ بالذَّنب الفائت إنَّما يكون عند النَّدم والعزم على عدم العود

مَن عرف جِرمَه عرف جُرمَه، واستعظم إثمَه

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 4/167.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/21.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 16/132.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/21.
(5) الآلوسي، روح المعاني: 6/12.

إليه، ولا يُتصوَّر فيه الإقلاعُ الذي هو من أركان التَّوبة؛ لأنَّه ذنبٌ مضى، ولكن يُشترط فيه العزمُ على ألَّا يعود[1].

وفي صيغة الماضي في قوله: ﴿ٱعۡتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمۡ﴾ إشارةٌ إلى أنَّ ذلك الاعترافَ حصَلَ في الماضي، وذلك يدلُّ على أنَّ ذلك الاعترافَ ما كان نفسَ التَّوبة، بل كان مُقدِّمةً للتَّوبة، وأنَّ التَّوبة إنَّما تَحصُل بعده[2].

معنى الباء في: ﴿بِذُنُوبِهِمۡ﴾:

لا يسأل التَّطهير إلّا مَن آلمَهُ الدَّنس، وآذاه القذر

والباء هنا على أصل معناها (الإلصاق، والملابسة)؛ فهم لم يعتذروا عن تخلُّفهم بأعذار باطلة كغيرهم، وإنَّما اعترفوا على أنفُسهم بذنوبهم التي تلاصق أنفسهم التي هي تخلُّفهم عن الغزو، وإيثار الدَّعة عليه، والرِّضا بسوء جوار المنافقين، لم يعتذروا بالمعاذير الكاذبة المؤكَّدة بالأيمان الفاجرة[3]، وأظهروا النَّدامة، وذمُّوا أنفُسَهم على ذلك التَّخَلُّفِ، ويمكن أن تكون الباء للتعدية.

ومجَرَّدُ الاعتراف بالذَّنب لا يكون توبةً، أمّا إذا اقترن به الإقلاعُ عن المعصيةِ، والنَّدمُ على الماضي، والعزمُ على تركه في المستقبل، وكان هذا النَّدمُ والتَّوبةُ لأجْلِ كونه منهيًّا عنه من قِبَل الله تعالى؛ كان هذا المجموعُ توبةً، إلّا أنَّه دلَّ الدَّليلُ على أنَّ هؤلاءِ قد تابوا بدليل قوله تعالى: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡۚ﴾، و(عسى) من الله يدلُّ على الوجوب[4].

غَرَضُ إضافة (الذُّنوب) إلى ضميرهم:

ذنوبٌ وقعوا فيها عن جهالة، ثم استبصروا عَمايتها

في إضافة الضَّمير إلى الذُّنوب دلالةٌ على ندمهم الشَّديد، واعترافهم الصَّادق بأنَّهم هم وحدهم المسؤولون عمَّا اقترفوا،

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/21.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 16/133.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 6/12.
(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 16/132.

وهي ذنوب وقعوا فيها عن جهالة، ثم استبصروا عَمايتها، ولا ذنب لأحد سواهم.

الموقع النَّحويُّ والبيانيُّ لـ: ﴿خَلَطُواْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا﴾:

جاءت جملة ﴿خَلَطُواْ﴾ خبرًا لـ ﴿وَءَاخَرُونَ﴾، وجُعل في قوله: ﴿خَلَطُواْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا﴾ كلٌّ من العملين مخلوطًا، فما المخلوط به؟ إنَّ كلَّ واحد مخلوطٌ ومخلوط به؛ لأنَّ المعنى: خلْطُ كلِّ واحدٍ منهما بالآخر، نحو: خلطتُ الماء واللَّبن، أي: خلطتُ كلَّ واحد منهما بصاحبه، وفيه ما ليس في: خلطتُ الماء باللَّبن؛ لأنَّ الماء جُعل مخلوطًا واللَّبن مخلوطًا به، وإذا قيل: بالواو؛ جُعل الماء واللَّبن مخلوطَيْن ومخلوطًا بهما، كأنَّه قيل: خُلط الماءُ باللَّبن، واللَّبنُ بالماء[1].

من بركة الأعمال الصَّالحة أنَّها تشفع لصاحبها وإن خُلطت بغيرها

عودُ الضَّمائرِ في الجملة السابقة:

الضَّمائر في الجملة السَّابقة (اعترفوا، خلطوا) تعود إلى ﴿وَءَاخَرُونَ﴾، وفي معناه قولان:

الأوَّل: أنَّهم قومٌ من المنافقين تابوا عن النِّفاق.

الثَّاني: أنَّهم قوم من المسلمين تخلَّفوا عن غزوة تبوك، لا للكفر والنِّفاق، لكن للكسل، ثمَّ ندموا على ما فعلوا، ثمَّ تابوا.

دوحةُ التَّوبة وارفةٌ ظلالُها لا تردُّ مستظِلًّا

واحتجَّ القائلون بالقول الأوَّل بأنَّ قوله: ﴿وَءَاخَرُونَ﴾ عطفٌ على قوله: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ﴾ والعطف يُوهم التَّشريك إلَّا أنَّه تعالى وفَّقهم حتى تابوا، فلمَّا ذكر الفريقَ الأوَّل بالمرودِ على النِّفاق والمبالغة فيه؛ وصَفَ هذه الفرقةَ بالتَّوبة والإقلاع عن النِّفاق.

وروي أنَّهم كانوا ثلاثةً: أبو لبابة مروان بن عبد المنذر، وأوس بن ثعلبةَ، ووديعةُ بن حزام، وقيل: كانوا عشرة.

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 4/170.

فسبعةٌ منهم أَوثقوا أنفسهم لمّا بلغهم ما نزل في المتخلِّفين، فأيقنوا بالهلاك، وأوثقوا أنفسَهم على سواري المسجد، فقدِمَ رسول الله ﷺ، فدخل المسجد، فصلّى ركعتَين، وكانت هذه عادته، فلمّا قدم من سفرِه، ورآهم موثَّقين؛ سأل عنهم، فذُكر له أنَّهم أقسموا ألّا يحلُّوا أنفسهم حتى يكونَ رسولُ الله ﷺ هو الذي يحلُّهم، فقال: وأنا أُقسم أنّي لا أحلُّهم حتى أومر فيهم، فنزلت هذه الآية؛ فأطلقهم، وعذَرَهم[1].

دلالةُ التَّعبيرِ بـ ﴿خَلَطُواْ﴾ مادَّةً وصيغة:

مَن ذا الذي ما ساء قطُّ ومَن له الحسنى فقط

المعنى المحوريُّ للخلط: هو دخول شيءٍ في أثناء أو خَلَلِ شيءٍ آخرَ ممتزجَيْن؛ فيغلظُ، أو يحتدُّ، أو يكثر[2].

ومعنى خلطِهم العملَ الصّالحَ والسَّيِّئَ: خَلْطُهم حسناتِ أعمالهم بسيِّئات التَّخلُّف عن الغزو، وعدم الإنفاق على الجيش[3]، وفيه استعارة مَكْنيَّةٌ حيث شبَّه الأعمال الحسنة والأعمال السيِّئة بشيء ماديٍّ يُخلط، ويُمتزج بغيره.

نكتةُ التنكير والإفراد: ﴿عَمَلًا﴾ و﴿صَٰلِحًا﴾ وتقديمهما:

عمومُ حالهم السَّيرُ في العمل الصالح ورغبتهم فيه

جاءت ﴿عَمَلًا﴾ نكرةً لعدم إرادة التَّعيين، فأفادت تعميمًا، ثم وصفت بـ ﴿صَٰلِحًا﴾ التي جاءت نكرةً أيضًا، فأضافت لهذا العموم تخصيصًا، والمعنى: الحسنُ من الأعمال.

والإفراد الذي في ﴿عَمَلًا﴾ وفي ﴿صَٰلِحًا﴾ يُشير إلى أنَّهم يعملون العمل الصالحَ، ثم لا يلبثون أن يعملوا السيِّئَ، فهم غير المؤمنين المحافظين على أعمالهم المستقيمةِ، وأفاد تقديمُ ذكرِ العمل الصالح على السيِّئ أنَّ نفوسَ هؤلاء القوم ترغبُ في الخير، وتستشرفُه، وتفضِّله على سيِّئات الأعمال.

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 16/132.
(2) جبل، المعجم الاشتقاقي: (خلط).
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/21.

فائدةُ العطف في: ﴿وَءَاخَرَ﴾:

في قوله: ﴿خَلَطُواْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا﴾ جاء ذِكر الشَّيئين المختلطَيْن بالعطف بالواو على اعتبار استوائهما في وقوع فعلِ الخلط عليهما، ويقال: خلطَ كذا بكذا على اعتبار أحدِ الشَّيئين المختلطَيْن متلابسين بالخلط.

والتَّركيبان متساويان في المعنى، ولكنَّ العطفَ بالواو أوضحُ وأحسن؛ فهو أفصح[1]، حيث إنَّ العدول عن (الباء) لتضمين الخلْطِ معنى العمل، كأنَّه قيل: (عملوا عملًا صالحًا وآخرَ سيئًا)، ثمَّ انضاف إلى العمل معنى الخلط، فعُبِّر عنهما معًا به[2].

وجهُ العدول من: ﴿عَمَلًا﴾ إلى ﴿وَءَاخَرَ﴾:

قال الله سبحانه: ﴿وَءَاخَرَ سَيِّئًا﴾، ولم يقُل: (وعملًا سيئًا)، فترك لفظ (عملًا) في مقام ارتكاب السيِّئاتِ؛ إهمالًا لذكر أعمالهم السَّيِّئة، وفيه إشارةٌ إلى تحقيرها وقُبْحِ ذكرها.

بلاغةُ الطباق بين: ﴿صَٰلِحًا﴾ و﴿سَيِّئًا﴾:

بين هذين المعنيين ﴿صَٰلِحًا﴾، و﴿سَيِّئًا﴾ محسِّنٌ بديع، وهو الطِّباق، ويؤتَى به للجمعِ بين لفظين متضادَّين في الكلام، وهذا لتوضيح أنَّ هؤلاء المخلَّفين قد جمعوا بتخلُّفهم عن رسول الله ﷺ بين عملَين متضادَّين متقابلين، وهما: إيمانهم وأعمالهم الحسنة، وترك الجهاد مع النبي ﷺ والتخلُّف عن الجيش.

الموقع النَّحويُّ والبيانيُّ لـ: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْۚ﴾:

﴿عَسَى﴾ من أفعال المقاربة وتفيد الرَّجاءَ، ولفظ الجلال ﴿ٱللَّهُ﴾ اسمُها، و﴿أَن﴾ وما في حيّزها خبر[3]. و﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن

من رحمة الله مضاعفةُ الحسنات، ومغفرةُ السَّيِّئات

إهمالُ ذكرِ العمل السيِّئ وتحقيرُهُ

وصْفُ العملِ بالسُّوء يقتضي نِفارَ النَّفسِ منه

الله الرَّحيم لا يردُّ تائبًا، ولا يعيّر مذنبًا

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/21.
(2) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 4/170.
(3) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 4/167 - 168.

﴿يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ جملة استئنافيَّةٌ لا محلَّ لها من الإعراب، ويمكن أن تكون استئنافًا بيانيًّا.

وما دام قد اختلط الخير بالشَّرِّ، وكان التَّرجّي؛ فإنَّه يُرجى قبولُ التَّوبة؛ لأنَّ الحسنات يُذهبن السَّيِّئات، ولأنَّ الخير الغالبَ برحمة اللّه يذهب بالشَّرِّ المغلوب، وإنَّ غفران اللّه ورحمته يطلبان قبول التَّوبة حيثُ كان لها مسوِّغ؛ لأنَّ اللّه تعالى يقبل التَّوبة من عباده، ولأنَّه غافر الذَّنب قابلُ التَّوبة شديد العقاب[1].

بلاغةُ التَّعبير بـ ﴿عَسَى﴾ على الأمر المحقَّق:

دأْبُ الملوك إيجابُ الوعد تفضُّلًا وإحسانًا

و﴿عَسَى﴾ فعلُ رجاء، وذِكْرُ فعلِ الرَّجاء يستتبع معنى اختيار المتكلِّم في وقوع الشَّيء وعدم وقوعه، ولمّا كانت ﴿عَسَى﴾ من كلام اللّه تعالى المخاطَبِ به النَّبيُّ ﷺ؛ كانت كنايةً عن وقوع المرجوِّ، وأنَّ اللّه قد تاب عليهم[2]. فـ ﴿عَسَى﴾ منه ﷻ واجبةٌ؛ لأنَّ هذا دأْبُ المُلوك، ولعلَّ التَّعبير بها يفيد - مع الإيذان بأنَّه لا يجب عليه لأحد شيءٌ، وأنَّ كلَّ إحسانٍ يفعله؛ فإنَّما هو على سبيل الفضل - إشارةً إلى أنَّهم صاروا كغيرهم من خُلَّص المؤمنين غيرِ المعصومين في مُواقَعَة التَّقصير، وتوقُّع الرَّحمة من اللّه بالرُّجوع بهم إلى المراقبة، فكما أنَّ أولئك معدودون في حزب اللّه مع هذا التَّقصير المرجوِّ له العفو، فكذلك هؤلاء[3].

الموقع النَّحويُّ لـ ﴿أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾:

الإطماعُ من الله سبحانه إيجابٌ فهو أكرم الأكرمين

﴿أَن﴾ المصدريَّة وما في حيِّزها خبرٌ لـ ﴿عَسَى﴾[4]، والمعنى: عسى اللّه أنْ يقبلَ توبتَهم[5]. و﴿عَسَى﴾ تفيد الرَّجاء، وهو في كلام اللّه

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 7/3433.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/22.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 9/11.
(4) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 4/167 - 168.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/22.

سبحانه يُفيد تحقُّق الوقوع؛ لأنَّ الإطماع من الله سبحانه إيجابٌ لكونه أكرمَ الأكرمين[1].

غرضُ التَّعبير بالمضارع في: ﴿يَتُوبَ﴾:

يدلُّ المضارع هنا على استمرار قَبول الله توبةَ مَن يعترف بذنبه، ويندم على اقترافه إلى قيام السّاعة.

ويفيد المضارع أيضًا الاستقبال، فقوله: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡۚ﴾ يقتضي أنَّ هذه التَّوبة إنَّما تَحصُل في المستقبَل، وأن الاعترافَ ما كان نفسَ التَّوبة، بل كان مُقدِّمةً للتَّوبة، وأنَّ التَّوبة إنَّما تَحصُل بعدها[2].

الموقعُ النَّحويُّ والبيانيُّ لـ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾:

جملة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾: مستأنفةٌ، وآثر الفصلَ دون الوصل؛ لأنَّ الجملةَ مسوقةٌ لتعليل ما قبلها، وهو وجوبُ قبولِ التَّوبة؛ فالله تعالى كثيرُ المغفرة والرَّحمة، يتجاوز عن التّائب، ويتفضَّل عليه[3].

بلاغةُ التَّذييل بهذين الاسمَيْن الجليلَيْن:

جملة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ تذييلٌ مناسب للمقام[4]، فلمّا كان ﴿عَسَى﴾ من الله واجبًا، وقبول التوبة واقعًا؛ خُتم بما يدلُّ على قبول التَّوبة، وذلك صفة الغفران والرَّحمة.

وهذه الآية وإن نزلت في ناسٍ مخصوصين، فهي عامَّةٌ في الأُمَّة إلى يوم القيامة[5]؛ لأنَّ العبرةَ بعموم اللَّفظ لا بخصوص السَّبب.

لطيفةُ تتابعِ المؤكِّدات في فاصلة الآية:

اجتمع في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ عددٌ من المؤكِّدات،

ما دامت روحُ الإنسان فيه؛ فإنَّ التَّوبة مفتوحةٌ أبوابُها تناديه

الله يتجاوز عن عباده بقَبول التَّوبة، ويتفضَّل عليهم بالرَّحمة

مغفرةُ الله تعالى عامَّةٌ ومستمرَّة إلى يوم القيامة

يؤكِّد الله تعالى لعباده قَبولَه التَّوبة؛ لئلّا يقنِّطهم الشَّيطان منها

(1) الشوكاني، فتح القدير: 2/454.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 16/133.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 6/14.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/22.
(5) أبو حيَّان، البحر المحيط: 5/499.

وهي: حرف التَّوكيد ﴿إِنَّ﴾، واسْميَّة الجملةِ، وفيها دلالةٌ على ثبوت المعنى، وفيها أيضًا تقريرٌ لمضمون الجملةِ التي قبلها توكيدًا لمعنى (قبول التَّوبة)، ومجيء المسند إليه لفظ الجلال ﴿ٱللَّهَ﴾، وفي التَّعبير به توكيدٌ لكلِّ ما يُسنَد إليه من صفات الكمال.

وكذلك التَّعبير بصيغتي المبالغة ﴿غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ الدّالَّتين على تكرار المغفرة من الله واستمراريَّتها، وثبوت صفة الرَّحمة.

ووقوع الجملةِ معطوفةً على قوله تعالى: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْۚ﴾ الموجبةِ لقبول التَّوبة، وعطفُ المؤكَّد على مثله مبالغةٌ في التَّوكيد.

وقد توالت هذه المؤكِّدات؛ لدفع أيِّ شكٍّ في حصول قبول التَّوبة ترغيبًا للمذنبين فيها، وتطمينًا لهم بأنَّ الله يقبل التَّوبة عن عباده، وأنَّه غفور رحيم.

نكتةُ تقديم: ﴿غَفُورٌ﴾ على ﴿رَّحِيمٌ﴾:

قُدِّم لفظ ﴿غَفُورٌ﴾ على ﴿رَّحِيمٌ﴾ لنكتةٍ لطيفة، فمغفرةُ الله سبحانه ذنوبَ عباده التّائبين من رحمته بهم، وأنَّه سبحانه هو الذي يغفر الذُّنوب جميعًا؛ لأنَّه رحيم.

مِن كمال رحمةِ الله مغفرتُهُ للمذنبين وتوبتُه على العصاة

فتقديم ﴿غَفُورٌ﴾ على ﴿رَّحِيمٌ﴾ جاء في غاية المناسبة، فهو من باب تقديم المسبَّبِ على السبب: فغفرانُ الله ذنوبَ التائبين مسبَّبٌ عن رحمته ﷻ، أو لأنَّ المغفرة تقتضي مطلق السَّتر والتَّغطية، وأمّا الرَّحمةُ؛ فهي مزيد تفضُّل.

سرُّ تنكير الاسمَيْن الجليلَيْن:

جاء هذان الاسمان الجليلان ﴿غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ نكرتَين لإفادة التَّعميم، والمعنى: أنَّه ﷻ غفورٌ لكلِّ ذنب، وهو سبحانه رحيمٌ يلطف بكلِّ عبد تائبٍ.

لا تضيقُ رحمةُ الله بعاصٍ، ولا يتعاظمُ على التَّوبةِ ذنبُ مذنب

وممَّا يدلُّ على أنَّ غرض التَّنكير هنا هو التَّعميمُ ورود الاسمين

الجليلين بصيغة المبالغة العاملة عمل فعلها؛ فهي بمنزلةِ فعلِها الذي حُذِف معمولُه توسُّعًا لإرادة التَّعميم؛ فإنَّ صفاتِ الله ﷻ صفاتُ عموم وشمول تامٍّ فيما هي له[1].

كما أنَّ وضع الاسم الظَّاهر موضع الضَّمير فيه إشارة إلى استقلال الجملة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، وبهذه الاستقلاليَّة تكون الجملة بمنزلةِ قضيَّةٍ كليَّةٍ لها صفة العموم[2].

غرض صيغ المبالغة فيهما:

لا يملُّ الله من مغفرة، ولا تضيق رحمته عن منيب

عُبِّر بصيغتي المبالغة ﴿غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ للدلالة على كمال صفتَي المغفرة والرحمة؛ إذ أُطلِقت على مستحقٍّ للكمال أو الكثرة فيهما، وهو إطلاق على وجه الحقيقة لا على سبيل المبالغة، فما يسمّى بصيغ المبالغة إذا أُطلقت على الله ﷻ؛ فهي مطلقةٌ بحسب أصلِ وضعها اللُّغوي، ولا مبالغة فيها[3]. والمعنى: هو تكرُّرُ المغفرة من الله لعباده التّائبين واستمراريَّتُها، فالغفورُ الذي يستر ذنوبَ عبادِه، ويتجاوزُ عنها، ويقيهم آثامَها بالعفوِ عنها، وصيغةُ (فَعول) تُنبئُ عن جَودةِ الفعل، وكمالِه، وشمولِه، فهو بمعنى تامِّ المغفرة، لذا ورد عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إنَّ الله يُدني المؤمنَ، فيضعُ عليه كَنَفه، ويسترُه، فيقول: أتعرفُ ذنبَ كذا، أتعرفُ ذنبَ كذا، فيقول: نعم، أيْ ربِّ. حتى إذا قَرَّرَهُ بذنوبه، ورأى في نفسه أنَّه هلك، قال: سترتُها عليك في الدُّنيا، وأنا أغفرُها لك اليوم»[4]. والرحيمُ مفيدٌ ثبوتَ صفة الرَّحمة، فاللهُ ذو الرحمة الواسعة للمؤمنين يوم القيامة.

---

(1) حسن، بلاغة اللغة: 1/409.

(2) حسن، بلاغة اللغة: 2/104.

(3) حسن، بلاغة اللغة: 2/456 - 457.

(4) البخاري، صحيح البخاري، الحديث رقم: (2441)، ومسلم، صحيح مسلم، الحديث رقم: (2768) باختلاف يسير.

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

المدينةُ ويثربُ في الاستعمال القرآنيِّ:

المنافقون يخالفون اللهَ ورسولَه ﷺ بتسمية المدينة باسمها الجاهليِّ

يثرب: اسمٌ قديم لمدينة رسول الله ﷺ، ومأخوذٌ إمّا من التَّثريب الذي هو اللَّوم والتَّعيير، وإمَّا من الثَّرْب الذي هو فسادٌ في كلام العرب[1]. وكان بعضُ المنافقين يسمّونها بهذا الاسم، ولـمّا أخبر الله ﷻ عن قولهم؛ قال: ﴿وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَـٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُواْ﴾ [الأحزاب: 13]؛ فعَدَلوا عن الاسم الذي ذكره الله في كتابه عَلَمًا عليها في أربعةِ مواضع منه، كقوله: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُواْ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ﴾ [التوبة: 120]، وعن الاسم الذي وسَمَها به النبيُّ ﷺ من المدينة وطيبة مع حُسْنه، إلى الاسم الذي كانت تُدعى به قديمًا في الجاهلية مع ظهور قُبحهِ باشتقاقه من الثَّرب أو التَّثريب للعدول عن الإسلام[2]، ولتذكير بعضهم بالاسم الَّذي كانت تُعرف فيه المدينة قبل وصول النَّبيِّ ﷺ إليها؛ من أجل إشعال جذوةِ الفتنة والعصبيَّة في المدينة.

(مرَّتيْن) و(كَرَّتيْن):

المرَّة مع الوقوع والكرَّة مع الرجوع

الفرق بينهما: أنَّ الكَرَّة مشتقَّةٌ من الكَرِّ، وهو العَودُ؛ لأنَّها عَودٌ إلى شيء بعد الانفصال عنه، ككَرَّةِ المقاتل يحمل على العدوِّ بعد أن يفرَّ فرارًا مصنوعًا[3]، أمَّا المرَّةُ، فمعناها: وقوعٌ للحدث أو الأمر[4].

ولذلك ذُكِر لفظ ﴿كَرَّتَيْنِ﴾ في سياق تكرار رَجْع البصرِ حيث قال الله ﷻ: ﴿ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ﴾ [الملك: 4]؛ أي: رَجعةً بعد

(1) ابن منظور، اللسان: (ثرب).
(2) البقاعي، نظم الدرر: 15/306.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/19.
(4) جبل، المعجم الاشتقاقي: (مرر).

رَجعةٍ وإنْ كثُرت[1]، وذُكِر لفظ ﴿مَّرَّتَيْنِ﴾ في سياق تكثير وقوع العذاب عليهم[2].

العذابُ العظيمُ والأليمُ والمُهينُ والشديدُ والمقيمُ:

العذاب العظيم أشدُّ أنواع العذاب على الإطلاق شدَّةً وزمنًا وألمًا وإهانة، ويشمل كلَّ أنواع العذاب من حيث الكمُّ والكيف والدَّوام، ويشمل الأليمَ والمهينَ والشَّديدَ والمقيم[3]، وهو غاية العذاب القصوى من الضَّرر[4].

العذابُ العظيم أقسى أنواع العذاب وأعمُّه

الألم: الوجع الشديد. والإيلام: الإيجاعُ. والعذاب الأليم: هو العذابُ المؤلِمُ الموجِع، الذي يبلغ إيجاعُه غايةَ البلوغ[5].

والعذاب المُهين مشتمل على المذلَّة والهوان والافتضاح، فهو وصفٌ يدلُّ على الإهانة والإذلال مع العذاب[6]. والإهانة عقوبةٌ لمن طلب العزَّة والكرامة بعيدًا عن منهج الله[7] ﷻ.

والشين والدّال أصل واحد يدلُّ على قوَّة في الشَّيء، والشَّد: العقد القويُّ. يقال: شددْتُ الشيء: قوَّيت عقده[8]. والملاحظُ من النّاحية المعجميَّة في استعمال (شدَّ) في سياقاته المختلفة: أنَّ معنى القوَّة موجودٌ وظاهر، والشِّدَّة في العذاب تدلُّ على قوَّته وسطوته على المعذَّب[9]، والعذاب الشَّديد تتضاعف آلامه وقوَّته[10].

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السّليم: 9/4.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 5/497، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/98.
(3) محمد الهلال، تفسير القرآن الثري الجامع: 11/15، 18/132، 25/219.
(4) عبد الرحمن فودة، في رحاب النص، ص: 22.
(5) الأزهري، التهذيب، والجوهري، الصحاح، وابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب الأصفهاني، المفردات، وابن منظور، اللسان: (ألم).
(6) الزحيلي، التفسير الوسيط: 3/2395.
(7) عبد الرحمن فودة، في رحاب النص، ص: 26.
(8) الرّاغب الأصفهاني، المفردات: (شدد).
(9) عبد الرحمن فودة، في رحاب النص، ص: 17.
(10) البقاعي، نظم الدرر: 10، 373.

والعذاب المقيم عذابٌ دائمٌ ثابتٌ لا يزول، ولا يبيد، ولا يَحول، ولا ينقطع أبدًا[1]. ومعنى هذا الوصف أنَّ عذاب المعذَّبين غيرُ منفكٍّ عنهم، مثل مَن يقيم بمكان إقامة دائمة، فيجعل هؤلاء المعذَّبين يائسين من التفكير في الخروج من هذا العذاب والعودة منه إلى الدُّنيا[2].

والذين يسارعون إلى المعاصي والجحود لهم عذاب عظيم؛ لأنَّ المسارعة تكون لأمر هائل، وهذا من العذاب المستحقِّ للكافرين والمنافقين، وهم أشدُّ المعذَّبين بصنوف العذاب المختلفة لمسارعتهم في الكفر ونفاقهم وجحودهم[3].

الخلطُ واللَّبسُ والمزجُ:

الخلط أعمُّ من اللَّبس والمزج

الفرق بين الخلْطِ واللَّبس: أنَّ أصلَ الخلط الجمعُ بين الشيئين فأكثر[4]، وتداخلُ أجزاء الأشياء بعضها في بعض[5]، وأصل اللَّبس: التَّغطيةُ وستر الشيء[6]. وقد قيل في معنى قول الله ﷻ: ﴿وَلَا تَلْبِسُواْ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ﴾ [البقرة: 42]، أي: لا تُغَطُّوا[7].

واللَّبْسُ يستعمل في الأعراض مثل الحقِّ والباطل وما يجري مجراها، وتقول: في الكلام لَبْسٌ، والخلطُ يستعمل في العَرَض والجسم، فتقول: خلطتُ الأمرين، ولبستهما، وخلطت النَّوعين من المتاع، ولا يقال: لَبَسْتُهما، وحدُّ اللَّبْس منعُ النَّفْس من إدراك المعنى بما هو كالسَّتر له؛ ذلك بأنَّ أصل الكلمة: السَّترُ[8].

---

(1) ابن جرير، جامع البيان: 10/293، 14/340، 21/554، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 6/159.
(2) عبد الرحمن فودة، في رحاب النص، ص: 29.
(3) عبد الرحمن فودة، في رحاب النص، ص: 22.
(4) الرّاغب الأصفهاني، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (خلط).
(5) الفيومي، المصباح المنير: (خلط).
(6) الرّاغب الأصفهاني، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (خلط).
(7) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 1/341.
(8) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 302.

والفرق بين الخلط والمزج: أنَّ الخلط أعمُّ من المزج؛ فإنَّ الخلْطَ - كما سبق - جمْعٌ بين شيئين فأكثر، سواء كانا مائعين أو جامدين، أو أحدُهما جامدٌ والآخر مائع، أمَّا المزج؛ فإنَّه يختصُّ بالمائعات[1]، فتقول: خلطتُ بين القمح والشَّعير، ولا تقول: مزجتُ بينهما.

(1) الرّاغب الأصفهاني، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (خلط).

﴿خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ تُطَهِّرُهُمۡ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيۡهِمۡۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٞ لَّهُمۡۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ١٠٣ أَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ عَنۡ عِبَادِهِۦ وَيَأۡخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ١٠٤﴾ [التوبة: 103 - 104]

مُناسَبَةُ الآيَتَينِ لِمَا قَبْلَهما:

مَن أخلصَ وصدقَ في طلبِ التَّوبة؛ أعانَهُ اللهُ عليها، ووفَّقَه إليها

لَمّا أخبرَ اللّه سبحانه أنَّ رحمتَه واسعةٌ، وأنَّه غفّار لمن تاب من المتخلِّفين عن رسولهِ ﷺ، المعترفين بما اقترفوا، أمرَ سبحانه رسولَهُ الكريم ﷺ أن يقبل مِن أولئك التائبين النّادمين ما يقدِّمونه من صدقات، وأن يُطمْئِنَ قلوبهم بالدُّعاء لهم؛ لتذهبَ بذلك شوائب ذنوبهم، ولتتأكَّد توبتهم[1]، وكذلكَ لَمّا كان مِن شَرطِ التَّوبةِ تَدارُكُ ما يمكِنُ تَدارُكُه ممّا فات، وكان التخلُّفُ عن الغَزوِ مُشتَمِلًا على أمرينِ، هما: عدمُ المُشاركةِ في الجهادِ، وعَدَمُ إنفاقِ المالِ في الجهادِ؛ جاء في هذه الآيةِ إرشادٌ لِطَريقِ تَدارُكِهم ما يمكِنُ تَدارُكُه ممَّا فات، وهو: نفعُ المُسلِمينَ بالمالِ[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَمۡوَٰلِهِمۡ﴾: المال: ما ملكته من متاع الحياة الدنيا، وصحَّ الانتفاع به، ويطلق في الغالب على النُّقود، وجمعه: أموال[3]. ومعناه المحوريُّ يدور حول: "مادَّة الأثمان والنَّفقة التي تتيح الشِّراء،

(1) ابن جرير، جامع البيان: 11/159، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 16/134، والآلوسي، روح المعاني: 6/15.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/22.

(3) السمين الحلبي، عمدة الحفاظ، والزبيدي، تاج العروس: (مول).

وتتحصَّل من البيع أو الإرث أو أجر العمل"[1]. وسُمِّي المال بذلك؛ لأنه مائلٌ أبدًا، وزائلٌ كذلك، ولذلك سُمّي: عَرَضًا؛ لأنَّه أمْرٌ يعرِض ويزول[2].

2) ﴿صَدَقَةً﴾: الصَّدقة: ما يُخرِجه الإنسان من ماله على وجه القُربة، يدفعه للفقراء والمساكين[3]. والغالبُ أن تكون الصَّدقةُ لِما كان إنفاقًا للفقراء والمساكين تطوُّعًا، والزَّكاة لِما كان إنفاقًا واجبًا[4]. ومعناها المحوريُّ: يدلُّ على قوَّةٍ في الشَّيء، سواءٌ كان قولًا أو غيرَهُ، والصَّدقة التي تُعطى للفقير من القوَّة والصَّلابة؛ لأنَّه بها يتقوّى، ويَصلُب، ولأنَّها برهانٌ على صدْقِ إيمان المتصدِّق وقوَّتِه[5].

3) ﴿تُطَهِّرُهُمْ﴾: الطُّهْر: نقيضُ النَّجاسة والدَّنَس، والتَّطهُّر: التَّنزُّه والتَّنظُّف من النَّجاسة والدَّنَس، وقوم يتطهَّرون: يتنزَّهون من الأدناس[6]، وأصله يدلُّ على نقاء من الدَّنَس وزواله[7].

"والطَّهارة ضربان: طهارة جسمٍ، وطهارة نفسٍ"[8]. والطَّهُور: ما يُتَطَهَّر به، أمَّا الطُّهُور: فهو فعل التَّطَهُّر[9].

والتَّطَهُّر كما يكون تَنَزُّهًا عن النَّجاسة والدَّنَس - وهو فعل الطَّهارة في جسم - يكون تَنَزُّهًا عن الآثام، وكفًّا عمّا لا يَجمُل، ولا يُحمَد، ومنه قوله تعالى حاكيًا قولَ قومِ لوط: ﴿إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾. أي: يَتَنَزَّهون عن إتيان الذُّكران الذي هو من الإثم والدَّنَس، وما لا يجمُل لمخالفته الفطرة.

ورجل طاهرُ الثَّوب، أي: مُنَزَّهٌ عن الآثام، وليس بذي دَنَس في خُلُقه[10]. ومنه قوله

(1) جبل، المعجم الاشتقاقي: (مول).
(2) الرّاغب، المفردات: (ميل).
(3) الأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح، والرّاغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ، وابن منظور، لسان العرب: (صدق).
(4) الرّاغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (صدق).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (صدق).
(6) الجوهري، الصحاح، وابن فارس، مجمل اللّغة، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (طهر).
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (طهر).
(8) الرّاغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (طهر).
(9) الأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب، والزَّبيدي، تاج العروس: (طهر).
(10) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (طهر).

تعالى: ﴿خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ تُطَهِّرُهُمۡ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾. " معناه خذ يا محمَّد مِن أموالهم صدقةً، فإنَّك تُطَهِّرهم بأخذها مِن دَنَس الآثام"[1].

4) ﴿وَتُزَكِّيهِم﴾: الزَّكاة: النَّماء والبركة والزِّيادة، وكذلك التَّطهير[2].

وأصله يدلُّ على النَّماء والزّيادة، وترجع معانيه كلُّها إلى النَّماء والطَّهارة، ومنه قوله تعالى: ﴿وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾[3]. وكذلك زكاة المال: ما تخرجه من مالِك لِتُطَهِّره به[4].

5) ﴿وَصَلِّ عَلَيۡهِمۡۖ﴾: الصَّلاة: الدُّعاء والثَّناء والاستغفار[5]. وأصل معانيها يرجع إلى الدُّعاء[6]، والصَّلاة من الله: رحمة، ومن الملائكة والنّاس: دعاءٌ واستغفار[7].

وصلاةُ الله على رسوله محمَّد ﷺ: حُسْنُ الثَّناء عليه من الله في الملأ الأعلى، والتَّعظيم والتَّكريم له[8].

وقوله تعالى: ﴿وَصَلِّ عَلَيۡهِمۡۖ﴾. أي: "واعطف عليهم بالدُّعاء والاستغفار لهم"[9].

6) ﴿سَكَنٞ﴾: السُّكون: ضدُّ الحركة، وسَكَن الشَّيء سُكُونًا: استقرَّ وثبت، وكلُّ ما هدأ، فقد سكن، كالرّيح والحرِّ والبرد والغضب[10]. وأصله يرجع إلى الاستقرار، وخلاف الاضطراب والحركة، من هدوء أو ثباتٍ[11]، ومنه سكن دارَهُ، بمعنى: أقام بها، ويستعمل بمعنى الاستيطان كذلك، والمَسكَن: المَنزِلُ والدّار والبيت، وجمعه: مساكنُ[12].

والسَّكَن: أهل البيت والدّار، وكذلك العيال، والسَّكن: كلُّ ما يُسكَن إليه، ويُطمأنُّ به من أهل وغيره، ومن هذا المعنى الأخير قوله تعالى: ﴿وَصَلِّ عَلَيۡهِمۡۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٞ لَّهُمۡۗ﴾[13].

---

(1) الخازن، لباب التأويل في معاني التنزيل: (طهر).
(2) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، المجمل، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (زكو).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (زكو).
(4) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (زكو).
(5) الأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح، وابن فارس، المجمل، والرّاغب، المفردات: (صلو).
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة، والزبيدي، تاج العروس: (صلو).
(7) الأزهري، تهذيب اللغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (صلو).
(8) ابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (صلو).
(9) البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل: 3/96.
(10) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب: (سكن).
(11) ابن فارس، مقاييس اللغة، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (سكن).
(12) الأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (سكن).
(13) الأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ، والزبيدي، تاج العروس: (سكن).

المَعْنى الإجْمالِيُّ:

الصَّدقةُ رِفعةٌ للدَّرجات وتزكية، وطُهرة من الذُّنوب والخطيئات

يأمر المولى ﷻ نبيَّه الكريمَ ﷺ أَنْ يأخذَ مِن هؤلاء المعترفين بذنوبهم، ومِن غيرهم صدقةً بمقدار معيَّن كالزَّكاة المفروضة، أو بمقدار غير معيَّن كصدقة التَّطَوُّعِ؛ وذلك لتكون طُهْرةً لهم من دَنَسِ ذنوبهم ونماءً ورفعةً لهم مِن منازل المنافقين إلى منازل المخلصين، كما يأمره سبحانه أَنْ يدعُوَ لهم بالمغفرة لذنوبهم، وأن يستغفرَ لهم منها؛ فدعاؤه ﷺ رَحمةٌ وطُمأْنينةٌ لقلوبهم، وَاللّه سَمِيعٌ باعترافهم عَلِيمٌ بندامتهم، وفي الآية التالية يخبر سبحانه بصيغة الاستفهام المفيدِ للتَّقرير لهؤلاء التّائبين الَّذين تخلَّفوا عن الغزو، ولغيرهم من المذنبين، أنَّ اللّهَ سبحانه وحدَه هو الذي يقْبلُ التَّوبَةَ الصَّحيحَةَ الصّادِقَةَ مِن عباده المخلصين، ويقْبلُ كذلك الصَّدقاتِ الطَّيّبةَ، ويثيب عليها، وهو تعالى غنيٌّ عنها، وهو مع ذلك كثيرُ التَّوبةِ واسعُ الرَّحْمةِ والمغفرةِ لِمَنْ تاب إليه وأناب[1].

وترشد الآيةُ إلى أنَّ الصدقةَ تكفِّر الذُّنوبَ، وتطهِّر الأرواحَ من رذيلة الشُّحِّ والبخل، وإلى استحبابِ الدُّعاءِ من الإمامِ أو نائبِه لمن أدَّى زكاتَه بالبركة، وأن ذلك ينبغي أن يكون جَهرًا؛ بحيث يسمعُه المتصدِّقُ، فيسكنُ له، وأنَّه ينبغي إدخالُ السُّرورِ على المؤمن بالكلام اللَّيِّن، والدُّعاءِ له، ونحوِ ذلك ممّا يكون فيه طمأنينةٌ، وسكونٌ لقلبه، وأنه ينبغي تنشيطُ من أنفقَ نفقةً وعملَ عملًا صالحًا بالدُّعاء له والثَّناء عليه، ونحو ذلك[2].

---

(1) ابن جرير، جامع البيان: 11/659 - 664، والبغوي، معالم التنزيل: 4/91 - 92، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 3/96، وابن جزي، التسهيل: 1/347، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/181 - 182، والسعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 350 - 351، وطنطاوي، التفسير الوسيط: 6/397 - 398، والزحيلي، التفسير المنير: 11/29 - 30، والهرري، حدائق الروح والريحان: 12/26 - 27، والجزائري، أيسر التفاسير: 2/422، والمجلس الأعلى، المنتخب في تفسير القرآن، ص: 278، ونخبة من العلماء، التفسير الميسر، ص: 203.

(2) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 350، والجزائري، أيسر التفاسير: 2/422.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

نكتةُ فصل الآية عن سابقاتها:

هذه الآية منفصلةٌ عن الآيات السّابقة للاستئناف النَّحويِّ عند بعضهم؛ فهي كلامٌ مبتدأ، والمقصود منها إيجاب أخذ الزَّكاة من الأغنياء[1]، ففصلها لكمال انقطاعها عن سابقتها.

من شأن الرِّضوان قَبولُ القربان

ويمكن أن تكون واقعةً موقعَ الاستئناف البياني؛ ذلك أنَّه لمّا قال الله ﷻ في الآية السّابقة: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعۡتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمۡ خَلَطُواْ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَءَاخَرَ سَيِّـَٔا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾ [التَّوبة: 102] نشأ سؤالٌ عن كيفيَّة هذه التَّوبة، وعمَّا تتحقَّق به؛ فجاءت هذه الآية بإجابة هذا السُّؤال، وهي أنَّ توبتَهم حاصلةٌ بدفعهم أموالَ زكاتهم، ففُصِل بين الآيتين لشِبه كمال الاتِّصال بينهما[2].

وعلَّة ترتيب حصول التَّوبة على دفع أموال الزَّكاة تظهر بمعرفة سببِ نزول هذه الآية الكريمة؛ وذلك أنَّ المتخلِّفين عن الجهاد مع رسول الله ﷺ في غزوة تبوك لمّا أظهروا التَّوبة والنَّدامة، عن تخلُّفهم عن الغزوة، وقد أقرُّوا بأنَّ السَّبب الموجب لذلك التخلُّف هو حبُّهم للأموال وشدَّة حرصهم على صونها عن الإنفاق، فكأنَّه قيل لهم: إنَّما يظهر صحَّة قولكم في ادِّعاء هذه التَّوبة والنَّدامة لو أخرجتم الزَّكاة الواجبة، ولم تبخلوا بها، أو تتقاعسوا عنها كما تقاعستم عن الغزو؛ لأنَّ الدَّعوى لا تتقرَّر إلا بالمعنى، وعند الامتحان يُكرَم الرَّجُل، أو يُهان، فإنْ أدَّوا تلك الزَّكوات عن طيب نفس منهم، فقد ظهر كونُهم صادقين في تلك التَّوبة والإنابة، وإلّا فهُم كاذبون مزوِّرون بهذا الطريق[3].

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 16/134.
(2) عبد العزيز عتيق، علم المعاني، ص: 164.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 16/134.

فدلالةُ الخطاب ظاهرةٌ على وجوب أخْذِ الزَّكاة من سائر المسلمين؛ لاستواء الجميع في أحكام الدِّين إلا ما خصَّه الدَّليل؛ وذلك لأنَّ كلَّ حكم حكمَ به الله تعالى ورسوله ﷺ في شخص أو على شخص من عباده أو غيرها، فذلك الحكم لازمٌ في سائر الأشخاص إلّا إذا قام دليلُ التَّخصيص فيه[1].

والفائدة المعنويَّة والبلاغيَّة الحاصلة من فصلِ هذه الآية عن سابقاتها، وحمْلِ لفظها على العموم - عمومُ الأمر بأخذ الزَّكاة من الأغنياء - تظهر في توجيه القرآن للمجتمع الإسلاميِّ بألّا ينشغل بالمال عن عبادة ربِّ المال، وألّا يُقعده طلبُ تحصيله وتكثيره وصيانته عن اقتحام لُجَجِ المعالي في عبادة الغنيِّ المتعالي، وأنَّ الصَّدقة تطهِّر المالَ وصاحبه، وأنَّ مَن لم يستطع الجهادَ ببدنه؛ فليجاهد بماله وليُجهِّز الغُزاة.

دلالةُ الأمر ﴿خُذْ﴾:

الأمر في قوله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً﴾ ظاهرُه الوجوب، فدلَّ هذا النَّص على أنَّ أخْذَ الزَّكاة واجب[2]. وفيه أيضًا دليل على أنَّ الإمام أو من يُنيبُه هو الذي يتولّى أخْذَ الصَّدقات، وينظرُ فيها[3].

معنى ﴿مِنْ﴾ في قوله تعالى: ﴿مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ﴾:

كلمة ﴿مِنْ﴾ تفيدُ التَّبعيضَ، وقوله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ﴾ يدلُّ على أنَّ القَدْر المأخوذ هو بعضُ تلك الأموال، لا كلُّها؛ إذ مقدار ذلك البعض غيرُ مذكورٍ هاهنا بصريح اللَّفظ، لكنَّ المعلوم أنَّ تلك الصَّدقة ليست إلّا صدقاتِ أصول الأموال التي تجب فيها الزَّكاة، التي وصفها رسول الله ﷺ، وبيَّن كيفيَّتها[4].

اللهُ العليم الحكيم يهدي عباده لأقوم أمورهم، ويأمرُهم بما يصلح شؤونهم

الله الرَّحيم يقبلُ صدقة التّائبين المخلصين، وهو سبحانه غنيٌّ عن العالمين

(1) الجصاص، أحكام القرآن: 4/355.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 16/134، والنيسابوري، غرائب القرآن: 3/526.
(3) أبو حيان، البحر المحيط: 5/499.
(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 16/134.

وفائدة كون ﴿مِنْ﴾ تبعيضيَّةً في هذه الآية، هو بيانُ كمال رحمة اللّه سبحانه مع عدْلِهِ؛ ذلك أنَّ المتخلِّفين عن غزوة تبوك أرادوا التَّصدُّق بجميع مالهم، فأمر اللّه تعالى رسولَه ﷺ أن يأخذ بعضَها لتوبتهم؛ لأنَّ الزَّكاة لم تُقبل من بعض المنافقين، فترتبط الآيةُ بما قبلَها، وقيل: ليست هذه الصَّدَقَةَ المفروضة، بل هم لمّا تابوا وبذلوا جميع مالهم كفّارةً للذَّنب الصّادر منهم، فأمر اللّه تعالى رسولَه ﷺ بأخْذِ بعضها وهو الثُّلُث[1].

نكتةُ تقديم شبه الجملة: ﴿مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ﴾:

قُدِّم شبه الجملة ﴿مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ﴾ على المفعول به ﴿صَدَقَةً﴾ للاهتمام والتَّخصيص، ذلك أنَّ سياقَ الآية سياقُ تحضيض على التَّوبة، وتبشيرٍ بقبولها ممَّن تابوا، وأنابوا، وتمييز المقبولين من التّائبين عن المنافقين المنبوذين.

الحفاوة بالتّائبين من شأنها تعجيلُ بشراهم بقبول نفقاتهم

ويمكن أن يكون تقديمُ شبه الجملة من باب تعجيل المسرَّة بسَوْق البشرى، فكأنَّه قيل لهم: إنَّ أموالكم التي جئتم بها إلى النَّبيِّ ﷺ ليكون إنفاقكم إيّاها كاملة كفَّارة لكم عن ذنب تخلُّفكم عن الغزوة - هذه الأموال - قد قبلها اللّه تعالى بخلاف أموال المنافقين التي لم تُقبل، وأموالكم هذه لن تؤخذ كاملة، بل سيؤخذ بعضها فقط، ويُردُّ لكم سائرها.

وهذا بخلاف لو كان نظم الآية: (خذ صدقةً من أموالهم)؛ لأنَّ الاهتمام حينئذٍ سيكون منصبًّا على المأخوذ وهو الصَّدقة، لا المأخوذ منه، وهو المال الذي قَبِلَ اللّه تعالى إنفاق التّائبين إيّاه للتَّكفير عن ذنوبهم.

من كمال إكرامِ اللّه تعالى لخلقهِ أن أغناهم من فضله

غرضُ إضافةِ الأموال إلى الضَّمير، ومعنى الجمع فيها:

قوله تعالى: ﴿مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ﴾ يقتضي أن يكون المالُ مالًا لهم، ومتى

(1) القاسمي، محاسن التأويل: 5/493.

كان الأمر كذلك؛ لم يكن الفقير شريكًا للمالك في النِّصاب، وحينئذٍ يلزم أن تكون الزَّكاة متعلِّقة بالذِّمَّة[1].

والضَّمير الذي في قوله تعالى: ﴿أَمْوَٰلِهِمْ﴾ عمومٌ يُراد به خصوصٌ؛ إذ يخرج منه العبيد وسواهم[2].

"ومعنى الجمع في الأموال يقتضي أنَّه يأخذ بعضَ كلِّ صِنفٍ من المال: الثِّمار والمواشي والنُّقود"[3]، وهو من العموم الذي يُراد به الخصوص؛ إذ يخرج عنه الأموال التي لا زكاة فيها كالرِّباع والثِّياب[4].

ويضاف إلى ما سبق أنَّ إضافة الأموال إلى الضَّمير - سواء حُمِل على التّائبين أصحاب واقعة النُّزول أم على عموم الأغنياء - فيها تذكير بنعمة الله عليهم؛ إذ أغناهم من فضله، وجعل لهم مالًا يمتلكونه، ويتصرَّفون فيه، فلا يجوز لهم الامتناع بالبخل عن إنفاقه على المحتاجين ممَّن حُرموا، ولا سيَّما أنَّ أجر هذا الإنفاق يعود عليهم هم، فهم المنتفعون به في الدُّنيا والآخرة، والله تعالى غنيٌّ ورسوله ﷺ غنيٌّ عن هذا المال.

نكتة تنكير: ﴿صَدَقَةً﴾:

الصَّدقة معلومةٌ ببيان السُّنَّة الخالد

ليس المراد من التَّنكير العمومَ حتى يكفي أخذُ أيِّ جزء كان، وإن كان في غاية القِلَّة، مثل الحبَّة الواحدة من الحنطة، أو الجزء الحقير من الذَّهب، فوجب أن يكون المرادُ منه صدقةً معلومة الصِّفة والكيفيَّة والكمّية عند المخاطَبين، حتى يكون قوله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً﴾ أمرًا بأخذ تلك الصَّدقة المعلومة، فحينئذٍ يزول الإجمالُ، ويكون التَّنكير للنوعيَّة.

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 16/135.
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 3/78.
(3) الواحدي، البسيط: 11/33.
(4) البحر المحيط، أبو حيان: 5/499.

ومعلوم أنَّ تلك الصَّدقة ليست إلا الصَّدقات التي وصفها رسولُ الله ﷺ، وبيَّن كيفيَّتها، فبذلك كان قوله تعالى: ﴿خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ﴾ أمرًا بأن يأخذ تلك الأشياء المخصوصة، والأعيان المخصوصة[1].

فكان الإجمال في لفظ الصَّدقة دون لفظ الأموال؛ لأنَّ الأموال اسمُ عمومٍ في مسمَّياته، إلا أنَّه قد ثبت أنَّ المراد خاصٌّ في بعض الأموال دون جميعها، والوجوب في وقتٍ من الزَّمان دون سائره[2]، ويمكن أن يكون تنكير ﴿صَدَقَةٗ﴾ للتَّعظيم من شأنها مع قلَّة حجمها.

دلالة التَّعبير بالصَّدقة:

قوله تعالى: ﴿صَدَقَةٗ﴾ "مأخوذ من الصِّدق؛ إذ هي دليلٌ على صحَّة إيمانه، وصِدق باطنه مع ظاهره، وأنَّه ليس من المنافقين الذين يلمزون المطَّوِّعين من المؤمنين في الصَّدقات"[3].

لكلِّ قولٍ حقيقةٌ، فمَن صدق إيمانه؛ فالصَّدقة برهانه

فلمَّا كان النِّفاق من أفدح الكذب وأقبحه؛ كانت الصَّدقة دليلًا على صدْقِ المؤمن وإخلاصه، فبضِدِّها تتميَّز الأشياء، وممَّا يؤكِّد ذلك قول النَّبيِّ ﷺ: «والصَّدقة برهان»[4].

الموقع النَّحويُّ والبيانيُّ لـ ﴿تُطَهِّرُهُمۡ﴾:

يصلح أن يكون قولُه تعالى: ﴿تُطَهِّرُهُمۡ﴾ نعتًا للصَّدقة، كأنَّه قال: خذ من أموالهم صدقةً مطهِّرةً، والأجود أن يكون عودُ الضمير في ﴿تُطَهِّرُهُمۡ﴾ للنَّبيِّ ﷺ، والمعنى: خذ من أموالهم صدقةً، فإنَّك تطهِّرهم بها، وقُرئ شاذًّا (تُطَهِّرْهُمْ) بالجزم على جواب الأمر، والمعنى: إنْ تأخذ من أموالهم صدقةً تطهِّرْهم، وتزكِّهم، ولا يجوز في القراءة إلا إثباتُ الياء في ﴿وَتُزَكِّيهِم﴾ اتِّباعًا للمصحف[5].

تقديمُ الدَّليلِ على صدق الإيمان يعودُ على صاحبه بالتَّطهير والغفران

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 16/134.
(2) الجصاص، أحكام القرآن: 4/356.
(3) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 8/249.
(4) الحديث أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب: الطَّهارة، باب: فضل الوضوء، حديث رقم: (223): 1/140.
(5) الزجاج، معاني القرآن وإعرابه: 2/467.

دلالةُ التَّعبير بـ ﴿تُطَهِّرُهُمْ﴾ من حيثُ المادَّةُ والصيغة:

الصَّدقة مَغْسلةٌ للإثم، مَطْهرةٌ من الذَّنب، مَقْربةٌ إلى الربِّ

تدور معاني الطُّهر حول النَّقاء، وزوال الدَّنس، وانقطاع القذى، ثُمَّ عُمِّم في التَّنزُّه عن القبائح المادّية والمعنويَّة، ومنه: التَّطهُّر: التَّنزُّه عن الذَّمِّ وكلِّ قبيح، وتطهَّر من الإثم: تنزَّه منه[1].

"وقوله تعالى: ﴿تُطَهِّرُهُمْ﴾، يعني: إزالة نجس الذُّنوب بما يعطي من الصَّدقة؛ وذلك لأنَّه لمَّا أطلق اسم النَّجس على الكفر تشبيهًا له بنجاسة الأعيان؛ أُطلق في مقابلته وإزالته اسم: التَّطهير، كتطهير نجاسة الأعيان بإزالتها، وكذلك حكمُ الذُّنوب في إطلاق اسم النَّجس عليها، وأطلق اسم التَّطهير على إزالتها بفعل ما يُوجب تكفيرها"[2].

"وإنَّما حسُن جعلُ الصَّدقةِ مطهِّرةً؛ لما جاء أنَّ الصَّدقة أوساخُ النَّاس[3]، فإذا أُخذتِ الصَّدقةُ؛ فقد اندفعت تلك الأوساخ، فكان اندفاعها جاريًا مجرى التَّطهير"[4].

وفي الآية الكريمة نصٌّ على أنَّ الصَّدقة تطهِّر مَن ندموا على تخلُّفهم عن الغزو مع النَّبيِّ ﷺ، وتابوا منه، وجاؤوا بأموالهم متصدِّقين، فهي "تطهِّرهم؛ لأنَّ الذَّنب الذي فعلوه، واعترفوا به؛ تسبَّب في تقذير أنفسهم بالمعصية، وما داموا قد قذَّروا أنفسَهم بالمعصية؛ فهُم في حاجة أنْ يطَّهَّروا بالمال الذي كان سببًا في عدم ذهابهم إلى الغزوة"[5].

نكتةُ عود التاء في: ﴿تُطَهِّرُهُمْ﴾:

مَن كثُر دنسُهُ؛ طهَّرته توبته، ومَن كبَّله ذنبه؛ أطلقته قُربتُه

قوله تعالى: ﴿تُطَهِّرُهُمْ﴾ يجوز فيه أن تكون التاء خطابًا للنَّبيِّ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والفِيروزابادي، بصائر ذوي التمييز، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (طهر).
(2) الجصاص، أحكام القرآن: 4/355.
(3) من قوله ﷺ: «إنَّ هذِه الصَّدَقاتِ إنَّما هي أوْساخُ النّاسِ، وإنَّها لا تَحِلُّ لِمُحَمَّدٍ، ولا لِآلِ مُحَمَّدٍ». رواه مسلم، صحيح مسلم: الحديث رقم: (1072).
(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 16/135.
(5) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 9/5470.

ﷺ، وأن تكون للغَيبة، والفاعل ضمير الصَّدقة، فعلى الأوَّل تكون الجملةُ في محل نصبٍ على الحال من فاعل ﴿خُذْ﴾. ويجوز أيضًا أن تكون صفة لـ ﴿صَدَقَةً﴾، ولا بدَّ حينئذٍ مِن حذف عائدٍ تقديرُه: تطهِّرهم بها. وحُذف (بها) لدلالة ما بعده عليه، وعلى الثَّاني تكون الجملة صفة لـ ﴿صَدَقَةً﴾ ليس إلَّا[1].

ويُستفاد من هذين التَّوجيهين كون النَّبيِّ ﷺ مطهِّرًا لهم بما أخذ من صدقاتهم التي تابوا بها، وكون الصَّدقة نفسها مطهِّرة لهم بما يترتَّب عليها مِن الثَّواب، ومغفرة الذُّنوب الموجبة للعقاب.

بلاغة العطف لـ ﴿وَتُزَكِّيهِم﴾:

قوله تعالى: ﴿وَتُزَكِّيهِم﴾ معطوفٌ على قوله تعالى: ﴿تُطَهِّرُهُمْ﴾، ولمّا كانت التَّزكية معطوفةً على التَّطهير؛ وَجَبَ حصول المغايرة بينهما؛ إذ المعطوفان متغايران لا محالة، ومِن هنا قيل: التَّزكية مبالغة في التَّطهير.

مَن اعتصم بالله؛ وقاه، ومَن أناب إليه؛ طهَّره الله، وزكَّاه

وهي أيضًا بمعنى: الإنماء، والمعنى: أنَّ الله تعالى يجعل النُّقصان الحاصل بسبب إخراج قدْرِ الزَّكاة سببًا للإنماء، وقيل: الصَّدقة تطهِّرهم عن نجاسة الذَّنب والمعصية، والرَّسول ﷺ يزكّيهم ويعظِّم شأنهم، ويثني عليهم عند إخراجها إلى الفقراء[2].

وقد أفاد العطف بقوله تعالى: ﴿وَتُزَكِّيهِم﴾ معنًى فوق الإنماء والمبالغة في التَّطهير، وهو الرِّفعة، أي: رفعتُهم عن خسيس منازلِ أهلِ النِّفاق إلى منازل أهل الإخلاص بعد نزول توبتهم، وقَبول نفقتهم[3].

فضلًا عمَّا أدَّاه هذا العطف البديع من تكامل المعنى، فإنْ كان التَّطهير من طلب الأعواض عليها؛ فإنَّ التَّزكية عن ملاحظتهم

(1) السمين، الدر المصون: 6/115 - 116.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 16/136، والنيسابوري، غرائب القرآن: 3/526.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 11/659.

إيّاها، وإنْ كان التَّطهير بها عن شُحِّ نفوسهم؛ فإنَّ التَّزكية بها بألّا يتكاثروا بأموالهم، فيروا عظيم منَّة الله عليهم بوجدان التجرُّد منها[1].

دلالةُ التَّعبيرِ في: ﴿وَتُزَكِّيهِم﴾ مادَّةً وصيغةً:

التَّزكية طُهرةٌ ونماء، ورفعة عن قذر أهل النِّفاق والأهواء

تدور معاني التَّزكية حول النُّموِّ والبركة والزّيادة مع جودة النَّوع، وتدلُّ أيضًا على الطَّهارة[2].

والتَّزكية هنا مبالغةٌ في التَّطهُّر وزيادة فيه، أو بمعنى الإنماء والبركة في المال[3].

والمعنى: وتزكّي أنفسَهم بتلك الصدقة التي ستأخذها منهم، أي: تنمّيها، وترفعها بالخيرات والبركات الخُلُقيَّة والعمليَّة حتى يكونوا بها أهلًا للسَّعادة الدُّنيويَّة والأُخرويَّة[4].

بلاغة التَّرتيب في تقديم التَّطهير على التَّزكية والصلاة في الذكر:

التَّخلية مقدَّمة على التَّحلية

"معنى التَّطهير: إذهاب ما يتعلَّق بهم من أثر الذُّنوب، ومعنى التَّزكية: المبالغةُ في التَّطهير"[5].

والتَّزكية أيضًا: جعلُ الشَّيء زكيًّا، أي: كثير الخيرات، فقوله تعالى: ﴿تُطَهِّرُهُمْ﴾ إشارة إلى مقام التَّخلية عن السَّيِّئات، وقوله سبحانه: ﴿وَتُزَكِّيهِم﴾ إشارة إلى مقام التَّحلية بالفضائل والحسنات، ولا جرم أن التَّخلية مقدَّمة على التَّحلية، فالمعنى: أنَّ هذه الصَّدقة كفَّارةٌ لذنوبهم، ومُجلِبةٌ للثَّواب العظيم[6].

---

(1) القشيري، لطائف الإشارات: 2/60.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، والفِيروزابادي، بصائر ذوي التمييز، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (زكو).
(3) أبو حيان، البحر المحيط: 5/499.
(4) رشيد رضا، تفسير المنار: 11/20.
(5) القنوجي، فتح البيان: 5/389.
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/23.

معنى الباء في: ﴿بِهَا﴾:

للطّاعات أثرٌ في الدُّنيا بحصول البركات، وفي الآخرة بدخول الجنّات

الباء في قوله: ﴿بِهَا﴾ للسَّببيَّة، والمعنى: تنمّيهم، وتزيدهم بسبب أخذها خيرًا[1]، وقد حسُن جعلُ الباء للسَّببيَّة؛ لأنَّ نظم الآية جعل حصول التَّزكية مسبَّبًا عن قبول الصَّدقة، فهي كالنَّتيجة المترتِّبة عليه، وفيه دلالةٌ على أثر الطّاعة العاجل في الدُّنيا مِن حصول الطُّهر والبركة والرِّفعة لصاحبها، فضلًا عمّا ينتظره من الثّواب الآجل يوم القيامة.

دلالةُ العطف في: ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ﴾:

يُحتَفى بالتّائب ويتألَّف، ويُلان له الكلام، ولا يُعيَّر بما أسلف

قوله تعالى: ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ﴾ معطوفٌ على قوله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً﴾[2]، ومعناه: اعطف عليهم بالدُّعاء والاستغفار لهم[3].

ويُؤخذ من المعنى: أنَّه ينبغي إدخال السُّرور على المؤمن بالكلام اللَّيّن، والدُّعاء له، ونحو ذلك مما يكون فيه طمأنينة، وسكون لقلبه، وأنَّه ينبغي تنشيط من أنفق نفقةً، وعمل عملًا صالحًا بالدُّعاء له، والثَّناء عليه، ونحو ذلك[4].

وفي دعاء النبي ﷺ واستغفاره لهم دليلٌ على قبول توبتهم، وأنَّ اللّه سبحانه قد رحمهم، وغفر ذنوبهم، ورفع درجتهم، وأمرَ رسوله ﷺ بالدُّعاء لهم؛ لتطمئنَّ نفوسُهم، وتقرَّ أعينُهم برؤية الدَّليل على قَبول اللّه تعالى توبتَهم.

وفيه تعريضٌ أيضًا بباقي المنافقين الذين استكبروا عن التوبة، وأصرُّوا على معصية اللّه ﷻ ورسوله ﷺ، فكأنَّه قال لهم: قد استحقَقْتم أشدَّ ألوان العذاب؛ لأنَّكم عصيتم وتربَّصتم وتقاعستم،

(1) الصاوي، حاشية على الجلالين: 2/166.
(2) محمود صافي، الجدول: 6/27.
(3) البيضاوي، أنوار التنزيل: 3/96.
(4) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 351.

ولو أنَّكم تبتم؛ لَتِيبَ عليكم، كما تِيب على مَن تلطَّخوا بأقذاركم، فلم يلبثوا أن طهَّروا أنفسَهم منها بالتَّوبة والإنابة، فارتفعوا عن دنس أوحالِكم إلى علياء الإخلاص.

سرُّ تعدية الفعل ﴿وَصَلِّ﴾ بـ(على):

عُدِّي الفعل ﴿وَصَلِّ﴾ بـ(على) لما فيه من معنى العطف، وإرادة المعنى اللُّغوي هنا - وهو الدُّعاء - هو المتبادر[1].

دعاءُ النَّبيِّ المختار كالغيث المدرار يحيي المَوات والقِفار

وهي إشارة أيضًا إلى أنَّ هذه الدَّعواتِ المباركات من النَّبيِّ ﷺ سابقةٌ لهم، فائضة بالخير عليهم، نازلة بالبركات عليهم[2].

ففي (على) معنى الاستعلاء والفوقيَّة، فقد صوَّر هذا الحرف بدلالته صورة هؤلاء التّائبين بمَن أصابه القذر والقذى والدَّنس، فأراد أن يتطهَّر من كلِّ ذلك، فوقف تحت ماء طهورٍ مبارك يَفيض عليه من أعلى، وهذا الماء الطَّهور هو دعاء أكملِ الرُّسل ﷺ لهم، واستغفاره لذنوبهم.

معنى الأمر في: ﴿وَصَلِّ﴾:

الأمر هنا للإرشاد، حيث يرشد اللّهُ تعالى رسولَه ﷺ - والأُمَّة من بعده - إلى أنْ يدعوَ للمتصدِّقين، ويستغفرَ لهم، ومن هنا اختُلف في دلالته الشَّرعية بين الوجوب والاستحباب، وإن كان ظاهر قوله تعالى: ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ﴾ أنه يجبُ على الإمام أو نائبِه إذا أخذ الزكاة؛ أن يدعوَ للمتصدِّق بالبركة، وهذا رأيُ الظاهرية، وأمّا سائر الأئمَّةِ؛ فحملوا الأمرَ على النَّدب والاستحباب؛ لأنَّ النبي ﷺ قال لمعاذ - حين بعثه لليمن -: «أعلِمْهم أنَّ عليهم صدقةً تؤخذُ من أغنيائهم، وتردُّ في فقرائهم»[3]، ولم يأمره بالدعاء لهم، ولأنَّ الفقراء إذا أخذوا الزكاةَ؛ لا يلزمهم الدُّعاء للمعطي.

اللّه يرشد عباده لكلِّ خير وفلاح، ومنه مقابلةُ الإحسانِ بالشُّكر والثناء

(1) الآلوسي، روح المعاني: 6/15.
(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 7/3435.
(3) أخرجه البخاري، صحيح البخاري، الحديث رقم: (1496) واللفظ له، ومسلم، صحيح مسلم، الحديث رقم: (19).

وممَّا يؤكِّد استحبابَ الدُّعاء ما رُوي عن عبد اللّه بن أبي أوفى قال: كان رسول اللّه ﷺ إذا أتاه قومٌ بصدقتهم؛ قال: «اللهمِّ صلِّ عليه»، فأتاه ابنُ أبي أوفى بصدقته، فقال: «اللهمَّ صلِّ على آل أبي أوفى»[1]، والصلاة هنا: الرحمة[2].

بلاغةُ الاستئنافِ البيانيِّ لـ: ﴿إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمۡۗ﴾:

قولُه تعالى: ﴿إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمۡۗ﴾ استئنافٌ بيانيٌّ ناشئ عن سؤال عن علَّة الأمر في قوله تعالى: ﴿وَصَلِّ عَلَيۡهِمۡۖ﴾، فجاءت الإجابةُ: ﴿إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمۡۗ﴾.

فهذه الجملة الكريمة إذًا واقعةٌ موقع التَّعليل للأمر بالصَّلاة عليهم بأنَّ دعاءه ﷺ سكنٌ لهم، أي: سببُ سكن لهم، أي: خير[3].

قلوبُ التّائبين مصدوعة بالنَّدم، ولا يطبِّبها إلا دعاء سيِّد البشر

فائدةُ المؤكِّدات في: ﴿إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمۡۗ﴾:

حسُن أنْ تؤكَّد هذه الجملة الكريمة بـ ﴿إِنَّ﴾والجملة الاسميّة؛ لأنَّها سيقت في مقام الخبر الطَّلبي الذي يوجَّه إلى مخاطَب يتردَّد في تصديقه، والمراد به هنا هو القوم المعنيُّون الذين نزلت في حقِّهم هذه الآية؛ "لأنَّهم كانوا شاعرين بعِظَم جُرْمهم، فيتوهَّمون بفرط إحساسهم وإيمانهم بأنَّ ذنبهم غيرُ مغتفَر"[4]، فجاء التَّوكيدُ ليزيل ما في نفوسهم مِن التَّردُّد، وليؤكِّد أنَّ سَكَنَ نفوسهم، وطمأنينةَ قلوبهم متعلِّقان بدعاء النَّبيِّ ﷺ لهم، فسوف يذهب همُّهُم وكربُهم بدعاء النَّبيِّ ﷺ لهم، "ويثقون بأنَّه سبحانه قبِل توبتهم"[5].

سكنُ القلوب وزوال الكروب وذَهاب الهموم متعلِّقة بدعاء النَّبيِّ المعصوم

نكتةُ إضافةِ الصلاة إلى الضمير العائد إليه ﷺ:

أُضيف إلى الصَّلاة – التي هي بمعنى: الدُّعاء – الضَّميرُ العائد

الإضافةُ إلى العظيم تفيد التَّشريفَ والتَّعظيم

(1) أخرجه البخاري، صحيح البخاري، الحديث رقم: (6332)، ومسلم، صحيح مسلم، الحديث رقم: (1078).

(2) الزحيلي، التفسير المنير: 11/34.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/23.

(4) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 7/3435.

(5) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/99.

إلى النَّبيِّ ﷺ؛ للدِّلالة على أنَّ دعاء النَّبيِّ ﷺ لهم هو ﴿سَكَنٌ لَّهُمۡۗ﴾، أي: تطمئنُّ بها قلوبهم بعد قلق الخوف من عاقبة الذَّنب؛ لِما يعلمون من أنَّ القَبول لا يكون إلا ممَّن حصل له الرِّضا عنهم، ومِن أنَّ اللّٰه ﷻ سمع قول نبيِّه ﷺ، ودعاءه لهم سماعَ إجابة، ويعلم صدقه في صلاحهم[1].

وفي تخصيص الضَّمير نكتةٌ بلاغية ومعنويَّة عند الإمام الرّازيِّ، ذلك أنَّ رُوح النَّبيِّ ﷺ كانت رُوحًا قويَّة مشرقة صافية باهرة، فإذا دعا النَّبيُّ ﷺ لهم، وذكَرَهم بالخير؛ فاضت آثارٌ من قوَّته الرُّوحانيَّة على أرواحهم، فأشرقت بهذا السَّبب أرواحُهم، وصَفَت أسرارهم، وانتقلوا من الظُّلمة إلى النُّور، ومن الجسمانيَّة إلى الرُّوحانيَّة[2]، فكانت معاشرتُه ﷺ إيَّاهم بهمَّته معهم أثمنَ لهم من استقلالهم بأموالهم[3]، ويضاف إلى ما سبق ما تفيده الإضافة من تعظيم المضاف إليه[4].

بلاغةُ القراءات القرآنيَّةِ المتواترة في إفرادِ الصَّلاة وجمْعِها:

قرأ حمزةُ والكسائي وخلف وحفصٌ بالإفراد وفتحِ التاء: ﴿إِنَّ صَلَوٰتَكَ﴾، وقرأ الباقون بالجمع وكسرِ التاء: (إِنَّ صَلَوَاتِكَ)[5]، فقراءة الإفراد روعي فيها الجنسُ، أي: جنسُ صلاة النَّبيِّ ﷺ، وقراءة الجمع روعي فيها تعدُّدُ المدعوِّ لهم[6].

لدعاء خير البريَّة خصوصيَّةٌ في إصلاح قلوب الرَّعيَّة

وعلى ذلك فالقراءتان سواء؛ لأنَّ المقصود منهما جنسُ صلاته ﷺ، فمَن قرأ بالجمع؛ أفاد جميعَ أفراد الجنس بالمطابقة؛ لأنَّ الجمع المعرَّف بالإضافة يعمُّ، ومَن قرأ بالإفراد؛ فُهِمت أفراد الجنس بالالتزام[7].

(1) البقاعي، نظم الدرر: 9/12.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 16/139.
(3) القشيري، لطائف الإشارات: 2/60.
(4) حسن، بلاغة اللغة: 1/449.
(5) ابن الجزري، النشر في القراءات العشر: 2/281.
(6) القاسمي، محاسن التأويل: 5/493.
(7) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/24.

نكتةُ تنكير: ﴿سَكَنٌ﴾:

التَّنكير في سياق الإطراء إجلالٌ وثناء

جاءت كلمة ﴿سَكَنٌ﴾ في الآية نكرةً لإفادة نكتة التَّعظيم، أي: سكنٌ عظيمٌ جليل؛ إذ مِن دواعي التَّنكير: إرادةُ التَّعظيم إذا دلَّت عليه قرائن السِّياق[1]، وممَّا دلَّ على إرادة التَّعظيم هاهنا هو قرينة مدح دعاء النَّبيِّ ﷺ واستغفاره للتَّائبين، وما يُفيضُه من طمأنينة وراحة للمُثقَلة كواهلُهم والآنَّةِ أرواحُهم من وطأة الذُّنوب.

كما أكَّد هذا التَّعظيم بأنْ جعل السَّكن مصدرًا مخبرًا به عن صلاة النَّبيِّ ﷺ، وهي دعاؤه واستغفاره للتّائبين، أي: إنَّ هذه الصَّلاة، هي السَّكَنُ نفسُه[2].

فائدةُ المجازِ في إطلاق السَّكن على الدُّعاء:

دعاء النَّبيِّ راحة وطمأنينة للمثقلة كواهلهم مِنَ الذُّنوب

أُطلق السَّكن على الدُّعاء من باب المجاز؛ إذ إنَّ السَّكَن: ما يُسكَن إليه، أي: يُطْمَأَنُّ إليه، ويُرتاح به، وهو مشتقٌّ من السُّكون بالمعنى المجازيِّ، وهو سكون النَّفْس، أي: سلامتها من الخوف ونحوه؛ لأنَّ الخوف يوجب كثرةَ الحذر واضطراب الرَّأي، فتكون النَّفْس كأنَّها غير مستقرَّة؛ ولذلك سُمِّي ذلك قلقًا؛ لأنَّ القلق كثرة التَّحرُّك، وأيضًا فإنَّ دعاءه ﷺ لهم يزيد نفوسهم صلاحًا وسكونًا إلى الصَّالحات؛ لأنَّ المعصية تردُّدٌ واضطراب، كما قال تعالى: ﴿فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾ [التوبة: 45]، والطَّاعة اطمئنانٌ ويقين، كما قال تعالى: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرعد: 28].

فالحاصل أنَّ دعاءَ النَّبيِّ ﷺ ﴿سَكَنٌ لَّهُمْ﴾، أي: سببُ سكونهم، أي: خير تامٌّ لهم، فإطلاق السَّكن على هذا الدعاء مجاز مرسلٌ علاقته السَّببيَّة والمسبَّبيَّة.

---

(1) حسن، بلاغة اللغة: 1/405.

(2) حسن إسماعيل، البلاغة الصافية، ص: 145.

براعةُ التشبيه البليغ في: ﴿صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ﴾:

في قوله تعالى: ﴿إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمۡۗ﴾ تشبيهٌ بليغ، وأصله: (صلاتك كالسَّكَن)، فحُذفت أداةُ التَّشبيه ووجهُ الشَّبه، فصار بليغًا[1].

وسرُّ جماله هنا أنَّه جعل الصَّلاة نفسَ السَّكنِ والاطمئنانِ مبالغةً؛ ذلك أنَّ ذكر الطَّرفين فقط يوهم اتِّحادَهما، وعدمَ تفاضلهما، فيعلو المشبَّه إلى مستوى المشبَّه به، وهذه هي المبالغة في قوَّة هذا التَّشبيه[2].

وقد أفاد تشبيه الصَّلاة بالسَّكن مدحَ الصَّلاة وتحسين حالها؛ ترغيبًا فيها، وتعظيمًا لها، وذلك بتصويرها بصورةٍ تهيِّج في النَّفس قوى الاستحسان، عن طريق ذكرِ المشبَّه به المعجَب (السَّكَن)، الذي قد استقرَّ في النَّفْس حسنُه وحبُّه، فصُوِّر المشبَّهُ بصورته[3].

معنى اللّام في: ﴿لَّهُمۡۗ﴾:

اللام في قوله تعالى: ﴿لَّهُمۡۗ﴾ للاختصاص، أي: سَكَنٌ مختصٌّ بهم، وفائدةُ هذا الاختصاص أنَّه جعلَ دعاء النَّبيِّ ﷺ يحقِّق لكلِّ منيبٍ تائبٍ باذلٍ صدقتَه سكنًا خاصًّا به، فإنَّ ما يقلق النَّفْس البشريَّة - وإنْ أمكن حصرُه - فإنَّ درجته ويزيدها تعقيدا يختلف من إنسان إلى آخر، فمن ثمَّ لم يكن السَّكنُ على درجة واحدة للجميع، بل كان بحسب حالة كلِّ إنسان بمفردهِ؛ إذ هذا السَّكن كالدَّواء: ينبغي أن يكون على قدرِ الدَّاء فلا يزيد، ولا يقلُّ.

معنى الواو ودلالاتها في: ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾:

الواو في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ استئنافيةٌ، والجملة بعدها مبتدأ وخبران[4].

دعاء النَّبيِّ دوحةٌ يستظلُّ بها المستجيرون من رمضاء الخطايا

السَّكنُ كالدَّواء يقدَّر على قدر الدّاء بلا كثرة قاتلة ولا قلَّة مؤلمةٍ

ما أرحمَ اللهَ بعباده! يعلمُ السَّريرة، ويغفر الجريرة

(1) الهرري، حدائق الروح والريحان: 12/45.
(2) الهاشمي، جواهر البلاغة، ص: 238.
(3) الهاشمي، جواهر البلاغة، ص: 239.
(4) بهجت صالح، الإعراب المفصَّل: 4/379.

ويمكن أن تكون الواو حاليَّةً على معنى: إنَّ صلاتك سكنٌ لهم، والحالُ أنَّ اللّه سميعٌ عليمٌ، يسمع صلاتَك، ويعلم حالَهم.

سرُّ التَّعبير بالألوهيَّة دون الربوبيَّة:

أوثر التَّعبيرُ بالألوهيَّة دون الرُّبوبيَّة في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ لوجوه:

الله هو الغنيُّ، لا تنفعه طاعةٌ، ولا تضرُّه معصية، فهو الإله الحقُّ

أوَّلها: ما في الألوهيَّة من معاني العلوِّ والغِنى والقَهر والكمال، وهذه الدِّلالات تقتضي وجوبَ إخلاص العبادة والعمل والدُّعاء للمتَّصف بها، وهو اللّه سبحانه وحده، أمَّا الرُّبوبيَّة؛ فمعانيها دائرة حول الخلق والرِّزق والملك والتَّدبير والرِّعاية، فالألوهيَّة مقامُ العمل وإخلاص العبادة، والرُّبوبيَّة مقام الاعتقاد والعلم.

الثَّاني: أنَّه لمَّا قال في أوَّل الآية: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً﴾ أراد أن يزيل التَّوهُّم الذي قد ينشأ عند المنافقين والكُفَّار مِن أنَّ اللّه تعالى - حاشاه - يسألهم أموالَهم، فلذلك عُبِّر باسم الجلالة ﴿وَٱللَّهُ﴾، أي: المألوه، وهو المعبود بحقٍّ، الغنيُّ عن الخلق.

الثَّالث: أنَّ الأمر الموجَّه إلى النَّبيِّ ﷺ بالصَّلاة عليهم إنَّما قُصِد به القومُ؛ إذ هم المنتفعون بصلاته ﷺ، ثمَّ هو عامٌّ بعد ذلك لكلِّ أئمَّة المسلمين؛ فلذلك ناسب التَّعبير بالألوهيَّة، أي: إنَّ إلهكم الذي تتوجَّهون إليه بالتَّوبة والدُّعاء والرَّجاء، وتقصدون وجهه بصدقاتكم، وتطمعون في ثوابه بنفقاتكم إلهٌ سميع: وسع سمْعُه الأصوات، عليم قد أحاط بكلِّ شيء علمًا.

الرَّابع: أنَّ التَّعبير باسم الجلالة الدَّالِّ على الألوهيَّة جيء به في هذا السِّياق ليكون التَّذييل مستقلًّا بنفسه؛ لأنَّه ممَّا يجري مجرى المثل.

بلاغةُ التَّذييل بهذيْن الاسمَيْن الجليلَيْن:

قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ تذييلٌ مناسب للأمر بالدُّعاء لهم، والمراد بالسَّميع هنا المجيبُ للدُّعاء[1]، ففيه إشعارٌ بقبول الدُّعاء وقبول الطّاعات والجزاء عليها[2]، والجملة حينئذٍ تذييلٌ للتَّعليل مقرِّرٌ لمضمونه[3].

فالحاصل أنَّ الله ﷻ لمّا كان سميعًا للنِّداء، مجيبًا للدُّعاء، عليمًا بالسَّرائر، خبيرًا بما في الضَّمائر؛ حسُن أن يأمر عباده بدعائه واستغفاره والمبادرة بالتَّوبة إليه، فلا واسطة بينهم وبينه سبحانه وبحمده، وزاد هذا الإرشادَ بهاءً وجمالًا خَتْمُ الآية باسمين كريمين له تعالى يتناسبان مع مضمون المعنى.

الله يعلم حاجة كلِّ سائل وإن لم يسعفه منطقُه في التكلُّم بها

نكتةُ تقديم ﴿سَمِيعٌ﴾ على ﴿عَلِيمٌ﴾:

قُدِّم الاسم الجليل ﴿سَمِيعٌ﴾؛ للإشارة إلى قبول دعاء النَّبيِّ ﷺ، ففيه إيماءٌ إلى التَّنويه بدعائه، ثُمَّ ذكر (العليم) إيماءً إلى أنَّه ما أمره بالدُّعاء لهم إلّا لأنَّ في دعائه ﷺ لهم خيرًا عظيمًا وصلاحًا في الأمور[4].

فالحاصلُ أنَّه لمّا تقدَّم الأمر بالدُّعاء؛ ناسب أنْ يعقبه ما يدلُّ على أنَّ هذا الدُّعاء مسموع ومجاب، فلذلك قُدِّم قوله تعالى: ﴿سَمِيعٌ﴾ على ﴿عَلِيمٌ﴾.

الله ﷻ يسمع المناجاة، ويجيب دعاء عبادهِ إيّاه وهو بهم أعلم

لطيفةُ تنكير الاسمَيْن الجليلَيْن:

جاء هذان الاسمان الجليلان نكرتين لغرض إفادة التَّعظيم من خلال التَّعميم بالتَّنكير؛ لأنَّ النَّكرة قد وردت في سياق المدحِ والثَّناء، والمعنى: أنَّه سبحانه سميعٌ لكلِّ صوت، فقد وسع سمعه

وسع سمعُ الله كلَّ الأصوات، وأحاط علمًا بكلِّ الموجودات

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/23.
(2) رشيد رضا، تفسير المنار: 11/21.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/99، والآلوسي، روح المعاني: 6/15.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/23.

سبحانه الأصوات، ويستوي عنده ﷻ همسُها وخفيضُها وجهوريُّها، وهو ﷻ عليم بكلِّ شيء، فقد أحاط ﷻ بكلِّ شيء علمًا، فلم تغب عنه غائبةٌ، ولم تخفَ عليه خافية، ولم يعزب عنه من شيء في الأرض ولا في السَّماء.

وممَّا يدلُّ على أنَّ غرض التَّنكير هنا هو التَّعميم ورودُ الاسمين الجليلين بصيغةِ المبالغة العاملة عمل فعلها، فهي بمنزلة فعلِها الذي حُذف معمولُه توسُّعًا لإرادة التعميم، أي: يسمع كلَّ شيء، ويعلم كلَّ شيء، وهذه قرينة لفظيَّة، أمَّا القرينة الفكريَّة؛ فقد دلَّت على التَّعميم من حيث إنَّ صفاتِ الله ﷻ صفاتُ عموم وشمول تامٍّ فيما هي له، وقد دلَّ على ذلك نصوصُ الشَّرعِ والعقلُ[1].

غرضُ صيغ المبالغة فيهما:

عُبِّر عن سمع الله سبحانه وعن علمه بصيغة المبالغة على وزن (فَعِيل)؛ للدَّلالة على قوَّة هاتين الصِّفتين، وتعلُّقهما بكلِّ مسموع ومعلوم، فهو سبحانه سميع لكلِّ ما يُعَدُّ قولًا، عليم بكلِّ ما يُعَدُّ فعلًا[2].

الله سميع لكلِّ ما يُعَدُّ قولًا، عليم بكلِّ ما يُعدُّ فعلًا

نكتةُ فصل الآية ﴿أَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقۡبَلُ﴾ عن سابقتها:

الفصل هنا لكمال الانقطاع للتَّغاير بين الجملة الخبريَّة والإنشائيَّة؛ إذ لا يجوز عطفُ الجملة الإنشائيَّة على الخبريَّة والعكس إلّا إذا آلت إحداهُما إلى معنى الأخرى، فالجملة هنا إنشائيَّةٌ؛ لأنَّها جاءت استفهامًا إنكاريًّا.

الله العظيم يحضُّ عباده على التَّوبة ويبشِّرهم بقبولها وهو الغنيُّ عنهم

ويمكن أن تكون جملة: ﴿أَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ﴾ مستأنَفَةً استئنافًا ابتدائيًّا على طريقة الاستطراد لترغيب أمثال أولئك في التَّوبة ممَّن تأخَّروا عنها، وكان ضمير ﴿أَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ﴾ عائدًا إلى ما هو معلوم مِن مقام

(1) حسن، بلاغة اللغة: 1/409.
(2) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 9/5474.

التَّنزيل، وهو الكلام على أحوال الأُمَّة، وكان الاستفهام إنكاريًّا، ونُزِّل جميعُهم منزلةَ مَن لا يعلم قبول التَّوبة؛ لأنَّ حالهم حالُ من لا يعلم ذلك، سواءٌ في ذلك مَن يعلم قبولَها أم من لا يعلم حقيقةً، وكان الكلام أيضًا مسوقًا للتَّحضيض[1].

بلاغةُ الاستفهام ودلالته في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ﴾:

الهَمْزةُ في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ﴾ للاستفهام الإنكاري الذي هو بمعنى النَّفي، و(لم) أيضًا للنَّفي، ونفي النَّفي إثباتٌ، فيكون المعنى: تأكيدُ علمهم بأنَّ الله تعالى يقبل التَّوبة عن عباده، فالتَّقريرُ هنا لتطمئنَّ نفس التّائب، فهو تقرير لقبول التَّوبة، واطمئنان العاصي إلى أنَّ التَّوبة جَلَت ذنبَه[2].

مِن شأن الإقرار طمأنةُ القلب المضطرب المحتار، وحملُ المنكِر وأدَ الإنكار

فالمقصود من هذا الاستفهام هو تقرير المعنى في النَّفس، وإزالة الشَّكِّ عن المخاطَبين من التّائبين الذين بشَّرهم الله تعالى بقبول توبتهم وصدقاتهم[3]، فكأنَّه قال: اعلموا أنَّ الله هو يقبل التَّوبةَ عن عباده[4]. وهذا تأكيدٌ لقبول الله سبحانه التَّوبةَ حتى لا يُسرفَ العصاةُ - ولو كانوا منافقين - على أنفسهم، أو يظنُّوا أنَّه لا رجعة إلى الله وإلى الحق، فإنَّ اليأس يولِّد النَّفرة، والنَّفرة تولِّد الكفر، والرَّجاء في الله يكون معه الرُّجوع إليه، والرُّجوع إليه يكون معه الإيمان[5].

وقد جُوِّز عودُ الضَّمير لغيرهم من المنافقين، فالاستفهام على هذا توبيخٌ وتقريعٌ لهم على عدم التَّوبة، وترغيبٌ فيها، وإزالةٌ لما يظنُّون من عدم قبولها[6].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/24.
(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 7/3436.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 16/139.
(4) السمعاني، تفسير القرآن: 2/346.
(5) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 7/3436.
(6) القاسمي، محاسن التأويل: 5/496.

نكتةُ التَّعبير بالعِلم مادَّةً وصيغةً وبيان مفعوليها:

لآيات الله المتلوَّة والمرئيَّة أبلغُ الأثر في معرفة عظيم صفاته وجليل أسمائه

تدور معاني العلم حول الأثر الذي يكون في شيءٍ ما، يميِّزه مِن غيره، فيكون هذا الأثر دليلًا عليه، وهاديًا إليه، فيترتَّب على ذلك إدراكٌ يقع في النَّفس ومعرفة[1].

ومن هنا تظهر نكتةُ التَّعبير بالعلم دون غيره في سياق التَّقريرِ لقضيَّة قَبول الله تعالى توبةَ عباده وصدقاتهم إذا أنفقوها من كسب حلال طيِّبةً بها نفوسُهم، وسياقِ الإنكارِ على مَن تأخَّرت توبتهم، وكأنَّهم في شكٍّ مِن قبول الله إيّاها.

فلمّا كان في العلم معنى الأثر الحاصل بالقرائن الدّالَّة على ألوهيَّة الله وربوبيَّته وكمال رحمته وعظمته: من إنزال القرآن، وتشريع الأحكام، وإمهال أصحابِ المعاصي والآثام، ومن خلق السَّماوات الأرض، وتدبير الأمر، وبسط الرِّزق... إلخ لمّا كان ذلك كذلك؛ حسُنَ استنكارُ عدم حدوث الأثر بكلِّ هذه المؤثِّرات التي من شأنها ملءُ القلب يقينًا بأنَّ الله هو التوّاب الرَّحيم.

فكأنَّه قيل: كيف لهم ألّا تغرس كلُّ هذه القرائنِ أثرًا في نفوسهم يثمر اليقين برحمة ربِّ العالمين؟

وممّا زاد هذا التَّعبيرَ جمالًا فوق جماله إيثارُ التَّعبير بالمضارع الذي يفيد معنى تجدُّد الحدوث واستمراريَّته، فهي إشارة إذًا لتكرُّر عدم تأثُّرهم بآيات الله المتلوَّة والمرئيَّة السَّابغة عليهم، والمحيطة بهم، وقد ترتَّب على عدم تأثُّرهم هذا جهلُهم بصفات الله التَّواب الرَّحيم.

وفي هذا إشارة ضمنيَّةٌ لتجدُّد دواعي التَّأثير من نزول القرآن مرَّةً بعد مرَّة، وتعاقبِ المَلَوان كرَّةً بعد كرَّةٍ، ونزولِ الغيث كثرةً ووفرة، ومع هذا التَّكرار للآيات التي مِن شأنها أن تذيب القلبَ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، والفِيروزاباديّ، بصائر ذوي التمييز، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (علم).

خضوعًا لعظمة ربِّ العالمين، وحبًّا لله أرحم الرّاحمين - مع ذلك كلِّه لم تتأثَّر قلوبهم، فلم يتوبوا، أو تابوا، ولكنَّهم شكّوا، أو استبعدوا قبول الله تعالى توبتهم، فلذلك أُنكر عليهم بـ ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ﴾.

وقوله تعالى: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ﴾ مصدرٌ مؤوَّلٌ في محل نصبٍ سدَّ مسدَّ مفعولَي ﴿يَعْلَمُوٓاْ﴾، والمصدر المؤوَّل الثاني: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ في محل نصب معطوفٌ على المصدر المؤوَّل الأوَّل، ومؤكِّدٌ لمعناه[1].

سرُّ العدول عن المصدر الصَّريح إلى المصدر المؤوَّل:

في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ﴾ عدولٌ عن المصدر الصَّريح (قبول) إلى المصدر المؤوَّل المؤلَّف من ﴿أَنَّ﴾، واسمها الاسم الجليل ﴿ٱللَّهَ﴾، وخبرها الفعليِّ ﴿يَقْبَلُ﴾ بصيغة المضارع مسبوقًا بالضَّمير المؤكِّد ﴿هُوَ﴾.

من كمال رحمة الله إمهالُ المذنبين والعصاة كي يعودوا إلى طريق النَّجاة

وفي هذا العدول ما لا يخفى من تأكيد المعنى في النَّفس المصفَّدة بإسارِ الإثم؛ لِما في الجملة الاسميَّة المُصدَّرة بحرف التَّوكيد ﴿أَنَّ﴾ والمخبَر عن اسمها بالخبر الفعليِّ من تتابع المؤكِّدات، وهذا كلُّه سيفوتُ لو عُبِّر بالمصدر الصَّريح.

فضلًا عن أنَّ العدولَ عن المصدر الصَّريح إلى المصدر المؤوَّل هو عدولٌ عن الاختصار والإيجاز إلى التَّطويل والإطناب، ولهذا نكتةٌ لطيفة، وهي أنَّ هذا التَّطويلَ يناسبُ إمهال الله تعالى المذنبين والعصاةَ حتى يتوبوا، فيَمُنَّ عليهم بقبول توبتهم، ولم يشأ أن يعاجلَهم بالعقوبة، فكأنَّ بسط الجملة السّامية جاء مناسبًا لبسط زرابيِّ الإنابة لمن دخل أبواب التَّوبة الطّاهرة، فحقٌّ على المزور أن يكرم زائرَه.

(1) صافي، الجدول: 6/28.

بلاغةُ تتابع المؤكِّدات في: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ﴾:

أُكِّد قولُه تعالى: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ﴾ بعدد من المؤكِّدات، وهي: الجملة الاسميَّة الدَّالة على الثُّبوت، ووقوعها في حيِّز النَّصب حيث سدَّت مسدَّ مفعولي الفعل ﴿يَعۡلَمُوٓاْ﴾ وهو من الأفعال الدّالَّة على اليقين، واليقين هو الغرض مِن التَّأكيد.

وحرف النَّصب والتَّوكيد ﴿أَنَّ﴾، والضَّمير المؤكِّد ﴿هُوَ﴾، ومجيء المسند إليه بلفظ الجلالة ﴿ٱللَّهَ﴾ في سياق المدح والتَّعظيم، فكلُّ ما يُسنَد إليه من صفات الكمال حقيقةٌ لا شكَّ فيها.

وتقديم هذا المسند إليه (لفظ الجلالة) ﴿ٱللَّهَ﴾ على المسند الفعلي ﴿يَقۡبَلُ﴾ المتضمِّن ضميرًا يعود على المسند إليه، فتكرار الإسناد توكيدٌ، والتَّعبير بالمضارع ﴿يَقۡبَلُ﴾ الدَّال على تأكيد الفعل عن طريق الدِّلالة على تكرُّره.

وحسُن توالي هذه المؤكِّدات لأسبابٍ:

الأوَّل: غرسُ اليقين في نفوس العباد جميعًا بأنَّ ربَّهم العظيم توّابٌ ورحيم، يقبل التَّوبة، ويأخذُ الصَّدقات الخالصة له سبحانه؛ وذلك كي لا ييأس أحد - كائنًا مَن كان - من رَوح الله ورحمته، ولا يتقاعسَ عن التَّوبة مَن يستعظم ذنبَه، ويرى أنَّ رحمة الله لا تسعه؛ فإنَّ رحمة الله سبحانه قد وسعت كلَّ شيء، ومغفرته تعالى قد عمَّت الذُّنوب جميعًا.

الثَّاني: توجيهُ الخطاب للمتشكِّكين أو المنكرين قبولَ اللهِ تعالى توبةَ التّائبين وصدقاتهم، حيث يحسُن تأكيد الكلام - والحالة هذه - بأكثر من مؤكِّد.

الثَّالث: أنَّ هذا الخطاب قد يشمل المؤمنين مع غيرهم من المتشكِّكين والمنكرين، وعليه يكون قد "نُزِّل جميعُهم منزلة مَن لا

وسعت رحمةُ الله كلَّ شيء، وعمَّت مغفرته كلَّ ذنب، فأنَّى يقنَطُ القانطُ

يعلم قبول التَّوبة؛ لأنَّ حالهم حالُ من لا يعلم ذلك، سواءٌ في ذلك مَن يعلم قبولها، ومَن لا يعلم حقيقةً"[1]، وفائدة هذا التَّنزيل تحضيضُ الجميع على التَّوبة والإنابة.

سرُّ التَّعبير بلفظ الجلالة في: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقۡبَلُ﴾:

الله غنيٌّ عن طاعة عباده، وهم لن يبلغوا نفعه سبحانه، فهُم الفقراء إليه

سمَّى الله تعالى نفسه العليَّة هاهنا باسم الله، ثمَّ قال عَقيبه: ﴿هُوَ يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ﴾، وفيه تنبيهٌ على أنَّ كونه سبحانه إلهًا يدلُّ عليه قبول التَّوبة، وذلك لأنَّ الإلهَ هو الذي يمتنع تطرُّق الزِّيادة والنُّقصان إليه، ويمتنع أنْ يزداد حاله بطاعة المطيعين، وأنْ ينتقص حالُه بمعصية المذنبين، ويمتنع أيضًا أنْ يكون له شهوةٌ إلى الطَّاعة، ونفرة عن المعصية، حتى يقال: إنَّ نفرته وغضبه يحمله على الانتقام، بل المقصود من النَّهي عن المعصية والتَّرغيب في الطّاعة، هو أنَّ كلَّ ما دعا القلبَ إلى عالم الآخرة ومنازل السُّعداء، ونهاه عن الاشتغال بالجسمانيَّات الباطلة، فهو العبادة والعمل الحقُّ والطَّريق الصّالح، وكلُّ ما كان بالضِّدِّ منه؛ فهو المعصية والعمل الباطل، فالمذنب لا يضرُّ إلّا نفسه، والمطيع لا ينفع إلّا نفسه. كما قال تعالى: ﴿إِنۡ أَحۡسَنتُمۡ أَحۡسَنتُمۡ لِأَنفُسِكُمۡۖ وَإِنۡ أَسَأۡتُمۡ فَلَهَاۚ﴾ [الإسراء: 7]، فإنْ كان الإله رحيمًا حكيمًا كريمًا، ولم يكن غضبُه على المذنب لأجل أنَّه تضرَّر بمعصيته، فإذا انتقل العبدُ من المعصية إلى الطَّاعة؛ كان كرمه سبحانه سببًا لقبول توبة التّائب إليه، فثبت أنَّ الإلهيَّة لمّا كانت عبارة عن الاستغناء المطلق، وكان الاستغناء المطلق ممتنعَ الحصول لغيره؛ كان قبول التَّوبة من الآخرين كالممتنع إلّا لسبب آخر منفصل، أو لمعارض، أو لمباين[2].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/24.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 16/140.

فائدةُ القصر بضمير الفصل ﴿هُوَ﴾:

جيء بضمير الفصل لإفادة التَّخصيص والتَّأكيد، وللدِّلالة على أنَّ اللّه تعالى من شأنه قبول توبة التّائبين.

مِن شأن الإله قَبول التَّوبة؛ إذا مُحضت، ولا يشاركه في قَبولها أحدٌ

أمَّا التَّخصيص؛ فيفيد انفرادَ اللّه ﷻ بهذه الأمور: قبول التَّوبة وقبول الصَّدقة، والإثابة عليها، وتحقيق ذلك أنَّه لو قال: إنَّ اللّه يقبل التَّوبة؛ لاحتمل أن يكون قبول رسولِه ﷺ قبولًا منه، فبيَّنت الآية أنَّ ذلك ممّا لا يصل إليه نبيٌّ ولا ملَك، فليس ذلك راجعًا إلى رسول اللّه ﷺ، إنَّما اللّه سبحانه هو الذي يقبل التَّوبة، ويردُّها، فاقصدوه بها، ووجِّهوها إليه[1].

وأمّا التَّأكيد؛ فلأنَّ الضَّمير المنفصل ﴿هُوَ﴾ يفيد الفصل والتَّأكيد، ثمَّ في قوله تعالى: ﴿يَقْبَلُ﴾ ضمير يرجع إلى المسند إليه، فيزيد الحكمَ به تأكيدًا[2].

وفائدة هذه المؤكِّدات إزالةُ الشَّكِّ الذي قد يتسرَّب إلى نفوس العاصين، فيُقعدهم عن التَّوبَة، ويقنِّطهم من الرَّحمة.

نكتةُ التَّعبير بالمضارع في: ﴿يَقْبَلُ﴾:

لم يزل التَّوّاب يقبل توبةَ عباده، وإن تكرَّرت ذنوبُهم، فإنَّ الله تعالى لا يَملُّ

عُبِّر بالفعل المضارع ﴿يَقْبَلُ﴾ للدِّلالة على تكرُّر توبةِ اللّه تعالى على عباده بتكرُّر توبتهم إليه سبحانه، فمهما تجدَّد وقوع الذَّنب من صاحبه؛ فإنَّ توبةَ اللّه عليه تتكرَّر متى تاب المذنبُ، وأناب إلى ربِّه التوّاب، وهذا ضرْبٌ من ضروب التَّوكيد دلَّ عليه وقوعُ الفعل بكثرة واستمرار.

معنى (أل) في: ﴿ٱلتَّوۡبَةَ﴾:

لا يقبل اللهُ مِن التَّوبة إلّا ما كان صحيحًا خالصًا

(أل) في قوله تعالى: ﴿ٱلتَّوۡبَةَ﴾ للعهد الذِّهني، أي: التَّوبة التي يعلمها المخاطَبون بقرائن التَّنزيل، فهي إذًا التَّوبة "الصَّحيحة الخالصة"[3].

(1) الزمخشري، الكشاف: 2/308، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 8/250.
(2) الطيبي، فتوح الغيب: 7/353.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/100.

فكأنَّه قيل: إنَّ اللّٰه تعالى يقبل التَّوبة التي أعلمكم قبل ذلك شرائطَها وأركانها، فمتى استوفت هذه الشَّرائطَ والأركان؛ فهي مقبولةٌ بفضله وكرمه سبحانه.

ولا يجوز تفسير (أل) بالجنس، أي: قبول جنس التَّوبة؛ لأنَّ من التَّوبة ما لا يكون خالصًا، ومنها ما لم يستوفِ أركانه وشروطه، ومنها ما كان تقيَّةً، وإن سُمِّي الجميع: توبةً.

بلاغةُ تضمين ﴿يَقۡبَلُ﴾ الفعل (يتجاوز) وتعديتها بـ ﴿عَنۡ﴾:

التَّوبة قُربان العائدين إلى ربِّ العالمين، يقبل قليلَهُ، ويتجاوز عن قصورِهِ

في قوله تعالى: ﴿يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ عَنۡ عِبَادِهِۦ﴾ ضُمِّن الفعل ﴿يَقۡبَلُ﴾ معنى (يتجاوز)، و(يعفو) بدليل تعديته بـ ﴿عَنۡ﴾، أي: يقبل ذلك متجاوزًا عن ذنوبهم التي تابوا عنها[1]، فيقبل اللّٰهُ بفضله وكرمه التوبة متجاوزًا عن سيِّئات عبادِه، شأن القادر العليم الحكيم الذي هو فوق عباده، وفوق الوجود كلِّه[2].

وبلاغةُ هذا التَّضمين تظهر في كون الفعل المضمَّن معنى فعلٍ آخرَ يؤدِّي المعنيَيْن في وقت واحد، أحدهما أصالةً، والآخر تضمينًا، فيكون أبلغَ في تأدية المعنى المراد؛ لأنَّ الفعلَ ﴿يَقۡبَلُ﴾ قد ضُمِّن معنى (يعفو ويتجاوز) عند تعديته بـ ﴿عَنۡ﴾، ولم يكن فيه ذلك المعنى من ذي قبلُ، فقد أخذ - بهذا التَّضمين - معنى جديدًا مع بقاء المعنى الأصليِّ للفعل، فهو قد جمع بين معنيين معنًى أصليٍّ، ومعنًى تضمنيٍّ[3].

ويضاف إلى ذلك أنَّ هذا التَّضمين قد صوَّر التَّوبة بصورة قُربانٍ يُقدَّم للّٰه تعالى؛ ليُنال به رضاه سبحانه، وهو تعالى الغنيُّ المتعالي، ففيه دلالةٌ على سَعة كرم اللّٰه تعالى وعفوه وصفحه، وقد زاد مِن

(1) الآلوسي، روح المعاني: 6/15، والقاسمي، محاسن التأويل: 5/496.
(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 7/3437.
(3) البعيمي، المنصوب على نزع الخافض في القرآن الكريم: 1/288.

حسن ذلك عَطفُ أخذِ الصَّدقات عليها: ﴿يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ﴾ ﴿وَيَأۡخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ﴾، ففيه إلماحٌ لمشاكلة المعنى.

سرُّ تعدية ﴿يَقۡبَلُ﴾ بـ ﴿عَنۡ﴾:

إنَّ كلمة (عن) وكلمة (من) متقاربتان، إلَّا أنَّ كلمة (عن) تفيد البعد، فإذا قيل: جلس فلان عن يمين الأمير؛ أفاد أنَّه جلس في ذلك الجانب لكن مع ضربٍ من البُعد، فقول الله تعالى: ﴿يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ عَنۡ عِبَادِهِۦ﴾ يفيدُ أنَّ التّائب يجب أن يعتقد في نفسه أنَّه صار مبعَدًا عن قبول الله تعالى له بسبب ذلك الذَّنب، ويحصل له انكسار العَبد الذي طرده مولاه، وبعَّده عن حضرة نفسه، فلفظة ﴿عَنۡ﴾ في السّياق الكريم كالتَّنبيه على أنَّه لا بدَّ من حصول هذا المعنى للتّائب[1].

الله يتجاوز عن المذنبين، وإليه يصعد الكلم الطَّيِّب

ويضاف إلى ذلك أنَّ (عن) حرفٌ موضوع للمجاوزة، فإن قلت: أخذتُ العلم عن زيد، فمعناه: أنَّه جاوز إليك، وإذا قلت: مِن زيد؛ دلَّ على ابتداء الغاية، وأنَّه ابتداءُ أخذِك إيّاه من زيد، و(عن) أبلغ لظهور الانتقال معه، ولا يظهر مع (مِن)، وكأنَّهم لمّا جاوزت توبتُهم عنهم إلى الله، اتَّصف هو تعالى بالتَّوبة عليهم[2].

فالحاصل أنَّ معنى التوبة يقتضي أنَّ ذنبًا قد حدث، واستوجبَ المذنبُ العقوبة، فإذا قبِل الله التَّوبة؛ فقد تجاوز الله ﷻ عن العقوبة؛ ولذلك جيء بـ ﴿عَنۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ عَنۡ عِبَادِهِۦ﴾، أي: متجاوزًا عن العقوبة بقبول التوبة[3]، فـ ﴿عَنۡ﴾ في هذا الموضع أبلغُ؛ لأنَّ فيه تبشيرًا بقبول التَّوبة مع تسهيل سبيلها[4].

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 16/140.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 5/501.
(3) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 9/5479.
(4) الخازن، لباب التأويل: 2/404.

فائدةُ الإضافة في: ﴿عِبَادِهِۦ﴾:

الإضافةُ إلى الله العظيم لا يعادلها فضلٌ ولا شرف ولا تكريم

أُضيف العبادُ إلى الضَّمير العائد على لفظ الجلالة؛ لإفادة التَّشريف والتَّكريم، فلمّا كان السِّياقُ سياقَ تأكيد لقضيَّة قبول الله تعالى توبة التّائبين، وتعريضٍ بغيرهم ممَّن ضنُّوا على إنجاء أنفسِهم بالتَّوبة من المهلكات؛ كانت الإضافةُ البليغةُ الكريمة مؤدِّية لهذين المعنيين، فأمَّا للتّائبين؛ فلتبشيرهم بقبول التَّوبة، وإعلامهم بانتقالهم من معسكر الظّالمين إلى دوحة عبادِ الله المخلَصين، فهُم عباده ﷻ، فما أعظمَه من شرف؛ إذ انتسبوا إلى الجليل العليِّ سبحانه!

وأمّا لغيرهم؛ فلتحذيرهم من مغبَّة ابتعادهم عن مظلَّة العبوديَّة وارفةِ الأفياء، مشرقةِ الأضواء، ولتخويفهم عقوبةَ البخل والإسراف في المعاصي والأقذار، والعَبِّ من الخطايا والأوزار، ولتحبيب التَّوبة إليهم؛ لينالوا بها شرفَ الانتساب إلى ربِّ العالمين.

نكتةُ وضع المُظهَر مكان المضمَر في: ﴿عِبَادِهِۦ﴾:

أعلى منازل البريَّة دوام إخلاصُ العبوديَّة وتجديد التوبة غدوة وعشية

وضَع المظهَرَ في موضع المضمَرِ في قوله تعالى: ﴿عِبَادِهِۦ﴾، فلم يقل: (يقبل التَّوبة عنهم)؛ وذلك للإشعار بعلوِّ منزلة العبادة وجلال قدرها[1]، فمَن حقَّق شرائطَ العبادة نازعته نفسه إلى التَّوبة؛ إذ لا راحة لها، ولا سكن؛ ما دامت مُبعدَةً عن رحمة الله تعالى بالإصرار على الذَّنب، والتَّقاعس عن التَّوبة، فهي كالحيِّ يموت؛ إن لم يجد الماء، فلا يدَّخر جهدًا في طلبه.

فائدةُ العطف في: ﴿وَيَأۡخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ﴾:

تعديدُ صفات الرَّحمة من شأنه قطعُ قنوط مَن أيأسه الشَّيطان منها

عُطف قوله تعالى: ﴿وَيَأۡخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ على قوله تعالى: ﴿يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ﴾؛ لأنَّ بين الجملتين الكريمتين اتِّفاقًا في الخبريَّة، ومناسبة تامَّة، وليس ثمَّ سببٌ يقتضي الفصلَ بينهما، فهو من باب التَّوسُّط بين

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/100.

الكمالَيْن، وفائدة هذا العطف تعديدُ الصِّفات الجليلة لربِّ العالمين، فهو سبحانه يقبل توبة التّائبين، وهو ﷻ يتجاوز عن المذنبين، وهو تعالى يثيب المتصدِّقين، وهو ﷻ يرحم عباده المخلصين.

وتعديد هذه الصِّفات من شأنه قطع قنوط مَن يئس من الرَّحمة، أو تشكَّك في المغفرة، أو تساءل عن مصير توبته وثواب صدقته، فرحمة اللّه وسعت كلَّ شيء.

بلاغةُ الاستعارة في أخْذِ الصدقات:

إنَّ الكريم إذا أخذ شيئًا؛ عوَّض عنه بأضعاف مضاعفة

الأخذ في قوله تعالى: ﴿وَيَأۡخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ استعارةٌ تصريحيَّة للقبول والإثابة، أي: يتقبَّلها منهم ويثيبهم عليها، فيكون من تشبيه القبول بالأخذ بجامع الرِّضا؛ لأنَّ الكريم والكبير إذا قبل شيئًا؛ عوَّض عنه، وقد يجعل الإسناد إلى اللّه مجازًا مرسلًا، وفي نسبة الأخذ إلى الرَّسول ﷺ في قوله تعالى: ﴿خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ﴾ ثمَّ إلى ذاته تعالى في قوله: ﴿وَيَأۡخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ إشارةٌ إلى أنَّ أخْذ الرَّسول ﷺ، قائمٌ مقام أخْذِ اللّه؛ تعظيمًا لشأن نبيِّه ﷺ، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾ [الفتح: 10][1].

ويضاف إلى ذلك أنَّ في إسناد الأخذ إليه سبحانه بعد أمره لرسوله ﷺ بأخذها تشريفًا عظيمًا لهذه الطّاعة، وتشريفًا لمَن يعطيها؛ لأنَّ الذي يأخذها هو ربُّ العباد، وكأنَّما العبد يعطيه هو ﷻ، وذلك مثل قوله تعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضۡعَافٗا كَثِيرَةٗۚ﴾ [البقرة: 245]، فهذا النَّصُّ السّامي فيه حثٌّ على الإكثار من الصَّدقات، وفي ذكر لفظ الأخذ ترغيبٌ في بذل الصَّدقة وإعطائها الفقراء[2].

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 16/141، والآلوسي، روح المعاني: 6/16، والقاسمي، محاسن التأويل: 5/496.

(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 16/141، والخازن، لباب التأويل: 2/404، والشوكاني، فتح القدير: 2/455، والقنوجي، فتح البيان: 5/391، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 7/3437.

معنى (أل) في: ﴿ٱلصَّدَقَٰتِ﴾:

الكريمُ يرزق عباده، ويقبلُ صدقاتِهم النّافعةَ لهم ثوابًا للغنيِّ وغِنًى للفقير

(أل) في قوله تعالى: ﴿ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ يحتمل أن تكون عوضًا عن المضاف إليه، أي: يقبل صدقاتهم، حملًا على أنَّ الضَّمير في قوله تعالى: ﴿يَعۡلَمُوٓاْ﴾ عائدٌ على التّائبين عن تخلُّفهم عن غزوة تبوك، الذين جاؤوا بصدقاتهم إلى النَّبيِّ ﷺ منيبين مستغفرين، ويحتمل أن تكون (أل) للجنس، أي: جنسُ الصَّدقات المندرجُ تحته صدقاتُ هؤلاء المذكورين اندراجًا أوَّليًّا، أي: هو الذي يتولَّى قبول التَّوبة وأخْذَ الصَّدقات، وما يتعلَّق بها من التَّطهير والتَّزكية[1].

فائدةُ العطف:

تأكيدُ معنى قبول التَّوبة، وغسل الحوبة، وهذا عين الرَّحمة

قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ معطوفٌ على قوله سبحانه: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ عَنۡ عِبَادِهِۦ﴾ تنبيهًا على أنَّه كما يجب العلم بأنَّ الله يفعل ذلك؛ يجبُ العلم بأنَّ من صفاته العُلا أنَّه سبحانه التَّوّاب الرَّحيم، ففائدة العطف: تأكيدُ ما اشتمل عليه المعطوف عليه، وزيادةُ تقريرٍ لما يقرِّره مع زيادة معنى ليس فيه، أي: ألم يعلموا أنَّه سبحانه المختصُّ المستأثر ببلوغ الغاية القصوى من قبول التَّوبة والرَّحمة، وأنَّ ذلك سُنَّة مستمرَّة له تعالى، وشأنٌ دائم من شؤونه سبحانه؟[2].

نكتةُ العدول إلى الجملة الاسميَّة في: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾:

يقبل الله التَّوبةَ؛ لأنَّه هو التَّوّاب الرَّحيم

عُدِل عن الخطاب بالجملة الفعليَّة في قوله تعالى: ﴿يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ عَنۡ عِبَادِهِۦ﴾ إلى الخطاب بالجملة الاسميَّة: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ - وقد كان السّياق يقتضي التَّعبير بالفعليَّة - لضربٍ من التَّأكيد والمبالغة، فقد جيء بالجملة الاسميَّة بعد الفعليَّة هنا تنويهًا

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/100، والآلوسي، روح المعاني: 6/16.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/100، والشوكاني، فتح القدير: 2/455، والآلوسي، روح المعاني: 6/16، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/25.

بثبوت صفتَي التَّوبة والرَّحمة لله ﷻ على أكمل الأوجه وأليقها به سبحانه وبحمده.

فالحاصلُ أنَّه قد تعاوَر التَّعبير عن هذا المعنى أسلوبان، أحدهما: فعليٌّ، وهو للدِّلالة على تجدُّد التَّوبة بتجدُّد الذَّنب، فمهما تكرَّر وقوع الذَّنب من صاحبه؛ فإنَّ توبة الله عليه تتكرَّر متى تاب المذنب إليه سبحانه.

والأسلوب الثَّاني: اسميٌّ، وهو للدَّلالة على ثبوت صفة التَّوبة ودوامها، فهذا الثّاني لتعلُّقها بالله سبحانه، والأوَّل لتكرُّر وقوعها لعباده.

وقد حسُن أن يخْتِمَ بالاسميَّة دون الفعليَّة لهذه النُّكتة، فإنَّ موقعَ الاسميَّة ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ من الفعليَّة ﴿يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ﴾ موقعُ العلَّة من المعلول، فإنَّ الله تعالى يقبل التَّوبة؛ لأنَّ الله تعالى هو التَّوّاب الرَّحيم.

بلاغةُ تتابع المؤكِّدات في فاصلة الآية:

يقدِّم السّياق أعظمَ البشرى للتّائبين، وأبلغَ التَّرغيب في التَّوبة للمذنبين

أُكِّد قولُه تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ بعددٍ من المؤكِّدات، وهي: الجملة الاسميَّة الدَّالَّة على الثُّبوت، ووقوعها معطوفة على قوله تعالى: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ﴾، وهي جملة اسميَّة مترعة بالمؤكِّدات، فعطفُ المؤكَّد على مثله مبالغةٌ في التَّوكيد، وحرف النَّصب والتَّوكيد ﴿أَنَّ﴾، وضميرُ الفصل المؤكِّد الدَّالُّ على الحصر ﴿هُوَ﴾، والقَصْر بتعريف طرفي الإسناد.

ومجيءُ المسند إليه بلفظ الجلالة ﴿ٱللَّهَ﴾ في سياق المدح والتَّعظيم، فكلُّ ما يُسنَد إليه من صفات الكمال حقيقةٌ لا شكَّ فيها.

والتَّعبير بصيغتَي المبالغة ﴿ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ الدّالَّتين على تكرار وقوع فعل التَّوبة واستمراريَّته، ورسوخ صفة الرَّحمة.

وقد حسُن توالي هذه المؤكِّدات لِما في السّياق من تقديم أعظم

البشرى للتّائبين، وأبلغ التَّرغيب في التَّوبة للمذنبين، بما لا يخفى على المتدبِّرين[1].

بلاغةُ القصر في تعريف طرفي الإسناد وفي ضمير الفصل:

لا يغفر الزَّلّات، ويتجاوز عن السَّيِّئات سوى ربِّ الأرض والسَّماوات

دلَّ تعريف طرفي الإسناد ﴿ٱللَّهَ﴾ و﴿ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ على قصْرِ هاتين الصِّفتين الجليلتين على الله سبحانه، وهو قصر حقيقيٌّ؛ إذ ليس ثمَّ مَن يقبل التَّوبة ويغفر الزَّلّات، ويتجاوز عن السَّيِّئات، ويثيب على الصَّدقات، ويرحم عباده، ويلطف بهم إلّا الله ربُّ الأرض والسَّماوات.

وقد زاد هذا القصرَ تأكيدًا توسُّطُ ضمير الفصل ﴿هُوَ﴾ بين المسند والمسند إليه، فضلًا عن أنَّ صيغتَي المبالغة المعرَّفتين عاملتان عملَ فعلِهما المضارع، وفاعلُهما ضمير مستتر تقديره (هو) يعود على لفظ الجلال، ومن المتقرِّر أنَّ تكرار الإسناد يؤكِّد المعنى ويقوّيه.

معنى (أل) في الاسمَيْن الجليلَيْن:

لله تعالى المثل الأعلى، والوصف الأجلّ، والفضل الأكمل

(أل) في قوله تعالى: ﴿ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ لاستغراق صفات الجنس مبالغةً، فقوله تعالى:

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾، يعني: أنَّه سبحانه المتَّصفُ بصفة التَّوبة الكاملة والرَّحمة الكاملة، ومَن اتَّصف بشيء مِن هاتين الصِّفتين مِن دونه تعالى؛ فإنَّما ذلك فيضٌ من لطف الله سبحانه، وقبس من نور عليائه، وهذا التَّعريف مسوقٌ للتَّعظيم.

نكتةُ تذييل الآية بهذين الاسمين الجليلين:

تطويق الآيةِ بالبشرى يقطع خوفَ المنيب، ويرغِّب الآثِمَ ليتوبَ مِن قريب

قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ تذييلٌ قُصِد به تقريرُ ما قبله وتأكيده[2]، لأنَّه لمَّا تقدَّم تبشير التّائبين بقبول التَّوبة، وحثِّ المذنبين على المسارعة بالإنابة؛ ناسب أن يُعقَّب ذلك بما يؤكِّده ويزيل شكَّ مَن يتشكَّك فيه، فلا جرم أنَّ الله تعالى يقبل التَّوبة،

(1) رشيد رضا، تفسير المنار: 11/27.
(2) طنطاوي، التفسير الوسيط: 6/398.

ويغسل الحَوْبة، ويتجاوز عن العقوبة رحمةً منه بعباده؛ لأنَّه سبحانه هو التَّوّاب الرَّحيم.

وخُصَّ وصف الرَّحمة إشارةً إلى أنَّه لا ينتفع بالصَّدقة بوجه، وإنَّ أخْذَه لها ليس حقيقة؛ بل هو على سبيل الرَّحمة بعباده في رجوع منفعتها إليهم، وحفظ ثوابها عليهم، فهو سبحانه الغنيُّ الذي قد رزقهم ما تصدَّقوا ببعضه[1].

وجهُ تقديم اسم ﴿ٱلتَّوَّابُ﴾:

تقديمُ السَّبب على مسبِّبِه من شأنه تقريرُ المعنى في النَّفس وتأكيده

قُدِّم لفظ ﴿ٱلتَّوَّابُ﴾ على لفظ ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ لنكتة لطيفة، فإنَّ قبول التَّوبة من الرَّحمة، فهو سبحانه الذي يكثر قبول التَّوبة؛ لأنَّه الرَّحيم ﷻ، فتعقيب ﴿ٱلتَّوَّابُ﴾ بـ ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ في غاية المناسبة[2]، فهو إذًا من باب تقديم السَّبب على المسبِّب، فإنَّ صفة التَّوبة مسبَّبة عن صفة الرَّحمة، فلمّا كان سبحانه رحيمًا؛ لا جرم كان توّابًا[3].

غرضُ صيغِ المبالغة فيهما:

التَّوبة والرَّحمة سنَّتانِ مستمرَّتان لله تعالى وشأنٌ دائم

أفاد التَّعبيرُ بصيغتي المبالغة ﴿ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ معنى الكثرة من التَّوبة والرَّحمة وتكرُّرَهما من الله ﷻ، أي: هو سبحانه الذي يقبل التَّوبة إثر التَّوبة من المذنبين الذين ينيبون إلى ربِّهم، فهو التائبُ على التائبين بتوفيقهم للتوبة، والإقبال عليها، وهو التائبُ على التائبين بعد توبتهم قَبولًا لها، وعفوًا عن خطاياهم، فهذا شأنٌ دائم له سبحانه، فلا يَقنَط العصاةُ، ولا ييأس المذنبون.

وهو سبحانه واسع الرَّحمة، ودائم إفاضتها على التّائبين من عباده يثيبهم على ما قدَّموا من عمل، ويمنعهم الخوف أن يصرُّوا على ذنب، فهذه سُنَّة مستمرَّةٌ له تعالى، وشأن دائم[4].

---

(1) ابن عرفة، التفسير: 2/326.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/25، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 7/3437.

(3) عبد العزيز عتيق، علم المعاني، ص: 144.

(4) القاسمي، محاسن التأويل: 5/496، ورشيد رضا، تفسير المنار: 11/27، والهرري، حدائق الروح والريحان: 12/28.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

التّطهيرُ والتّزكيةُ:

التزكيةُ تطهيرٌ وتنمية

الطّاء والهاء والرّاء أصلٌ واحد صحيح يدلُّ على نقاءٍ وزوالِ دنسٍ[1]. والزّاء والكاف والحرف المعتلُّ أصلٌ يدلُّ على نماء وزيادة[2].

والتَّطهير: تنزيهٌ عن القبائح المادّية والمعنويَّة[3]، أمّا التَّزكية؛ فإنَّها تكون بمعنى التنمية بالخيرات والبركات[4]، وتكون أيضًا مبالغةً في التطهير وزيادة فيه[5].

والتَّزكية تكون بمعنى التطهير المعنويِّ كتطهير النَّفْس؛ فإذا أردت أنَّك أزلتَ عن ثوبك نجاسةً كالبول والغائط أو دنسًا؛ قلتَ: طهَّرتُ ثَوبي، ولم تقل: زكَّيتُه، واللّه أعلم.

الصَّلاةُ والدُّعاءُ:

الصَّلاة في اللغة تكون بمعنى الدُّعاء أو الحنوِّ

لا تكون الصَّلاة بمعنى الدُّعاء على الإطلاق؛ فلا تقول صلَّيت على العدوّ، أي: دعوت عليه. إنَّما يُقال: صلَّيت عليه في معنى الحنوِّ والرَّحمة والعطف؛ لأنَّها في الأصل انعطاف، ومِن أجْلِ ذلك عُدِّيَت في اللفظ بـ(على)، فتقول: صلَّيت عليه، أي: حنوتُ عليه، ولا تقول في الدُّعاء إلّا: دعوت له، فتُعَدِّي الفعلَ باللام، إلّا أن تريد الشَّرَّ والدُّعاء على العدوِّ، فهذا فرق ما بين الصَّلاة والدُّعاء[6].

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (طهر).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (زكى).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقي: (طهر).
(4) الزبيدي، تاج العروس: (زكو).
(5) الزمخشري، الكشاف: 2/307.
(6) أبو القاسم السهيلي، الروض الأنف في شرح السيرة النبوية لابن هشام: 3/7، والشهاب، عِنايةُ القاضي وكِفايةُ الراضي على تفسيرِ البيضاوي: 1/223.

﴿وَقُلِ ٱعۡمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ وَرَسُولُهُۥ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ١٠٥﴾ [التوبة: 105]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا أخبر ربُّ العزَّة سبحانه أنَّه يقبل توبة التائبين، وأرشدَ إلى طرق التنقية والتطهير، فأمر رسوله بقبول صدقاتهم، ودعاه إلى تثبيت قلوبهم؛ بيَّن سبحانه مرغِّبًا للمُطيعين، ومرهِّبًا للمُذنبين أنّه يتوجَّب على الرّاغب في الكمال بعد التَّوبة أن يزيد من الأعمال الصّالحة؛ ليجبرَ ما فاته من الأوقات التي كانت حقيقةً بأن يعمرَها بالحسنات، فعمَرَها بالسَّيِّئات، وأن يخلص أعماله للّه[1].

العملُ الصّالح بعد التَّوبة من دلائل صدقها، ومن شروط كمالها

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَسَتُرَدُّونَ﴾: الرَّدُّ: صرْفُ الشَّيء ورَجْعُه[2]. وأصله يعود إلى معنى رَجْعِ الشَّيء[3]. والرَّدُّ: يكون صرفًا للشَّيء بذاته أو بحالة من أحواله عمّا هو عليه[4]. ومن النَّوع الثّاني - الذي هو صرفٌ للشَّيء بحالة من أحواله عمّا هو عليه - قولُه تعالى: ﴿وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾؛ لأنَّ هذا الرَّدَّ يكون بالموت والبعث، وهو صرْفٌ للشَّيء بحالة من أحواله عمّا هو عليه - في حالة الحياة - إلى حالة أخرى بالموت والبعث[5].

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 16/141، وابن عادل، اللّباب: 10/193، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/25.

(2) الجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (ردد).

(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ردد).

(4) الرّاغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (ردد).

(5) البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل: 3/97.

2) ﴿وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾: شَهِد فلان يشهَد شهادة وشُهُودًا: أخبر خبرًا قاطعًا بأمرٍ عَلِمه وحَضَره[1]. وأصل معناه الذي يدور حوله: الحضور والعلم والإعلام[2]. و"الشَّهادة: الحضورُ مع المشاهدة إمّا بالبصر أو بالبصيرة، وقد يقال للحضور منفردًا، قال الله تعالى: ﴿عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾"[3]. "والشَّهادة: ضدُّ الغيب، وهي الأمور التي يشاهدها النّاس، ويتوصَّلون إلى عِلْمِها، يقال: شَهِد، بمعنى حضر، وضدُّه: غاب، ولا تخرج الموجودات عن الاتِّصاف بهذين الوصفين، فكأنَّه قيل: العالِم بأحوال جميع الموجودات"[4].

3) ﴿فَيُنَبِّئُكُم﴾: النَّبأ: الخبر، تقول نَبَأ ونبَّأ: أخبر[5]. ومعناه المحوريُّ: الإتيان من مكان إلى مكان، والنَّبأ بمعنى: الخبر، لا يخرج عن هذا القياس؛ لأنَّ الخبر يأتي من مكان إلى مكان[6]. و"النَّبأ: خبر ذو فائدة عظيمةٍ يحصل به علمٌ أو غلبةُ ظنٍّ، ولا يقال للخبر في الأصل: نبأٌ حتى يتضمَّن هذه الأشياء الثَّلاثة"[7]. وقوله تعالى: ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾. أي: فيخبركم بما كنتم تعملون.

❁ المَعْنى الإِجْماليُّ:

وقُل أيُّها الرَّسولُ الكريمُ لهؤلاء التّائبين الَّذين تخلَّفوا عن الغزو والجهاد: اعملوا لله بعد توبتكم وإنابتكم كُلَّ ما يرضيه سبحانه مِنَ الطّاعة والعبادة وأداء الفرائض والتقرُّب إليه سبحانه بكُلِّ صُوَرِ

التزوُّدُ من العمل الصالح، والحذرُ من الوقوع في العمل السيِّئ

(1) الجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (شهد).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (شهد).
(3) الرّاغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (شهد).
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 7/309.
(5) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح، وابن فارس، المجمل، وابن منظور، لسان العرب: (نبأ).
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نبأ).
(7) الرّاغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (نبأ).

العبادة وأشكالها؛ لأنَّه سيرى ذلك والرَّسولُ والمؤمنون، كما أنَّكم سترجعون بعد موتكم إلى مَن يعلم سِرَّكُم وعلانيتَكم؛ ليجازيَكم بما كنتم تعملون، إن خيرًا؛ فخيرٌ، وإن شرًّا؛ فشرٌّ[1].

وترشد الآيةُ إلى الوعيد والتَّهديد لمَنِ استمرَّ على باطله وطغيانه، وإلى أنَّه ينبغي للتائبِ من الذَّنب الكبيرِ أن يكثرَ بعده من الصالحاتِ، كالصدقات والصلواتِ ونحوها.

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ العطف في: ﴿وَقُلِ ٱعۡمَلُواْ﴾:

التَّوبة ترفع المؤاخذةَ فيما مضى، والعمل يعوِّض نقص ما انقضى

قوله تعالى: ﴿وَقُلِ ٱعۡمَلُواْ﴾ معطوفٌ على قوله سبحانه: ﴿أَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ﴾ الذي هو في قوَّة إخبارهم بأنَّ الله يقبل التَّوبة، فإنَّ التَّوبة إنَّما ترفع المؤاخذة بما مضى، فوجب على المؤمن الرّاغب في الكمال بعد توبته أن يزيد من الأعمال الصّالحة؛ ليجبر ما فاته من الأوقات التي كانت حقيقةً بأن يعمرَها بالحسنات؛ فعمَرَها بالسَّيِّئات! فإذا وردت عليها التوبة؛ زالت السَّيِّئات، وأصبحت تلك المدَّة فارغة من العمل الصّالح، فلذلك أُمروا بالعمل عقب الإعلام بقبول توبتهم؛ لأنَّهم لمّا قُبلت توبتُهم؛ كان حقًّا عليهم أن يَدلُّوا على صدق توبتهم وفرط رغبتهم في الارتقاء إلى مراتب الكمال حتى يلحقوا بالذين سبقوهم، فهذا هو المقصود[2]، وسوَّغ العطف بين الآيتين أنَّهما إنشائيَّتان.

فالحاصل أنَّ عطف آية ﴿وَقُلِ ٱعۡمَلُواْ﴾ على سابقتها فيه زيادةُ ترغيب في العمل الصّالح للتّائبين عن كبيرة التَّخلف عن الغزو،

(1) ابن جرير، جامع البيان: 11/667، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 3/97، وطنطاوي، التفسير الوسيط: 6/399، والمجلس الأعلى للشئون الإسلامية، المنتخب في تفسير القرآن، ص: 278، والزحيلي، التفسير المنير: 11/30، والهرري، حدائق الروح والريحان: 12/28، ونخبة من العلماء، التفسير الميسر، ص: 203.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/25.

وللأوَّلين في الثَّبات على ما هم عليه، فالمعنى: قل لهم بعد ما بان لهم شأن التَّوبة: ﴿ٱعۡمَلُواْ﴾[1]، أي: بعد طهارتكم[2].

دلالةُ فعل الأمر ﴿وَقُلِ﴾ صيغةً ومبنًى:

قوله تعالى: ﴿وَقُلِ﴾ فعل أمر مبنيٌّ على السُّكون، وحُذفت واوُه لالتقاء السّاكنَيْن، وحُرِّكت لامُه بالكسر للعلَّة نفسها، والفاعل ضمير مستتر فيه وجوبًا، تقديره: أنتَ، والمقصود به النَّبيُّ ﷺ[3].

وقد جاء الأمر بصيغة فعل الأمر المباشر ﴿وَقُلِ﴾ دالًّا على الوجوب؛ إذ لا قرينة تصرفُهُ عن أصل هذا المعنى.

وجاء الأمر بالقول دون غيره؛ لأنَّ القول موضوعٌ للإعلام باللِّسان، أو ما ينوب عنه من الكتابة أو الإشارة، ولمّا كانت وظيفةُ الرَّسول ﷺ هي البلاغ عن الله تعالى، استُخدمت وسيلةُ هذا البلاغ - وهي الخطاب الموجَّه لمَن أُمِر الرَّسولُ ﷺ بتوجيهه إليهم - في التَّعبير عنه، ويأتي فعل الأمر هذا في القرآن الكريم في قضايا وأحكامٍ لها عناية خاصَّةٌ استوجبت أن يبلِّغَها النَّبيُّ ﷺ بنفسه، ويتابعها.

وقد بقي في التِّلاوة فعلُ الأمر ﴿وَقُلِ﴾ للإشارة إلى أنَّ هذا القرآن متعبَّد بتلاوته لفظًا ومعنًى.

غرضُ الأمر: ﴿ٱعۡمَلُواْ﴾:

قوله تعالى: ﴿ٱعۡمَلُواْ﴾ صيغة أمر مضمَّنةٌ معنى الوعيد[4]، فظاهره ترخيصٌ وتخيير، وباطنه ترغيب وترهيب[5].

ففيه تخويفٌ وتهديد للمذنبين، أي: إنَّ عملكم لا يخفى على الله تعالى ولا على رسوله ﷺ ولا على المؤمنين، فسارعوا إلى أعمال

ما على الرَّسول إلّا البلاغُ المبين

لا تخفى على الله خافيةٌ، والسِّرُّ عنده علانيةٌ فليُخلِصِ العاملون

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/100.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 9/13.
(3) بهجت صالح، الإعراب المفصل: 4/381.
(4) ابن عطية، المحرر الوجيز: 3/80.
(5) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/100.

الخير، أو أخلصوا أعمالكم لله ﷻ، وفيه أيضًا ترغيبٌ وتنشيط للمطيعين، فإنَّ مَن علم أنَّ عمله لا يخفى سواء كان خيرًا أو شرًّا؛ رغب إلى أعمال الخير، وتجنَّب أعمال الشَّرِّ[1].

نكتةُ حذف مفعول ﴿ٱعۡمَلُواْ﴾:

حذفُ متعلَّقِ العمل يدلُّ على العموم

في قوله تعالى: ﴿ٱعۡمَلُواْ﴾ أمْرٌ بالعمل موجَّه إلى مخاطَبين، وهم التّائبون أصحابُ وقعة النُّزول، حيث أُمِروا بالعمل عقب الإعلام بقبول توبتهم ليدلِّلوا على صدق توبتهم؛ ولذلك كان حذف مفعول ﴿ٱعۡمَلُواْ﴾ لأجل التَّعويل على القرينة، ولأنَّ الأمر من الله لا يكون بعملٍ غير صالح[2].

والمعنى: اعملوا جميع ما تؤمرون به ﴿فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ﴾[3]، واحذروا التَّهاون أو التَّخلُّف فإنَّكم مجزيُّون بما عملتم.

ونكتةُ حذف متعلق العمل هي الدَّلالة على العموم، فإنَّما العبرة بالعمل، لا بالاعتذار عن التَّقصير، ولا بدعوى الجِدِّ والتَّشمير، وخير الدنيا والآخرة منوطانِ بالعمل[4].

معنى الفاء في: ﴿فَسَيَرَى﴾:

علمُ العامل برؤية الله له ممّا يستحثُّه على الجدِّ فيه والإخلاص

الفاء في قوله تعالى: ﴿فَسَيَرَى﴾ فاء جواب، وكأنَّه قد قيل تأنيسًا لهم: اعملوا، فلن يضيع عملكم[5]، فهو بمعنى التَّعليل لما قبله والتَّأكيد للتَّرغيب والتَّرهيب[6]، وفيه زيادة في التَّحضيض، وتحذيرٌ من التَّقصير أو من ارتكاب المعاصي؛ لأنَّ كون عملهم بمرأى من الله تعالى ممّا يبعث على جعله يُرضي الله تعالى، وذلك تذكيرٌ لهم باطِّلاع الله تعالى بعلمه على جميع الكائنات[7].

---

(1) القنوجي، فتح البيان: 5/391.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/25.
(3) القاسمي، محاسن التأويل: 5/497.
(4) رشيد رضا، تفسير المنار: 11/27.
(5) الغرناطي، ملاك التأويل: 1/234.
(6) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/100، والآلوسي، روح المعاني: 6/16.
(7) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/25.

دلالة حرف التَّسويف:

عِلْمُ الله لا يتقيَّد بزمان، وسيجازي كلَّ عامل بما قدَّم

السِّين في قوله تعالى: ﴿فَسَيَرَى﴾ حرفُ استقبال مفيد للتَّأكيد وتحقُّق الوقوع[1]، أي: فسيرى الله ﷻ أعمالَكم المستقبلة، ويعلمها خيرًا كانت أو شرًّا، كما يرى أعمالَكم الماضية، ويعلمها، وسيجازيكم عليها[2]، فالاستقبالُ فيه إنَّما هو بالنَّظر للمجازاة، لا للعلم؛ فإنَّ علم الله تعالى حاصل بالفعل، غير متقيِّد بزمان، أي: فسيجازيكم على عملكم، والمجازاةُ من الله معلومة، وأمَّا من رسوله ﷺ ومن المؤمنين؛ فهي بمعنى: الثَّناء عليهم، والدُّعاء لهم[3].

دلالةُ التَّعبير بالرؤية مادَّةً وصيغةً:

التَّعبير بالرُّؤية في سياق الأمر بالعمل فيه ترغيبٌ وترهيب

أصل معنى الرُّؤية يدلُّ على نظرٍ وإبصارٍ بعيْنٍ أو بَصيرة، وهي تعني: إدراك المَرئيِّ، إمّا بالحاسَّة، أو بالعقل، أو بالتَّفكُّر، أو بالوهم والتَّخييل، والرُّؤية بالعين تتعدّى إلى مفعول واحد، وبمعنى العلم تتعدّى إلى مفعولين[4].

وفي قوله تعالى: ﴿فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ﴾ دليلٌ على كون الله ﷻ رائيًا للمرئيّات؛ لأنَّ الرُّؤية هاهنا معدَّاةٌ إلى مفعول واحد، فتكون بمعنى الإبصار، وذلك يدلُّ على كونه ﷻ مبصرًا للأشياء[5]، وذلك على النَّحو اللائق به ﷻ، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: 11].

ولا شكَّ أنَّ رؤية الله تعالى شاملةٌ لأفعال القلوب والجوارح جميعًا، أمَّا رؤية الرَّسول ﷺ والمؤمنين؛ فلا تشمل أفعال القلوب إلّا بإرادة الله تعالى وإطلاعه وإفشائه[6].

---

(1) الدرة، تفسير القرآن وإعرابه وبيانه: 4/228.
(2) الهرري، حدائق الروح والريحان: 12/28.
(3) القنوجي، فتح البيان: 5/392، ومحيي الدين درويش، إعراب القرآن وبيانه: 4/172.
(4) الجوهري، الصحاح، وابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (رأى).
(5) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 16/142.
(6) النيسابوري، غرائب القرآن: 3/527.

وفي التَّعبير بالرُّؤية في سياق الأمر بالعمل ترغيبٌ وترهيب، فكأنَّه قال: اجتهدوا في العمل في المستقبل، فإنَّ اللّه تعالى يرى أعمالكم، ويجازيكم عليها[1]، فيُقبل المحبُّون، ويُحسِّنون العمل، ويُخوَّف المذنبون، فإنَّ جرائمهم مُحصيَّةٌ عليهم.

وقد جيء بالفعل مضارعًا لمشاكلة العملِ الذي من شأنه أن يقع مرَّةً بعد مرَّة، وتتعاوره الحالاتُ والأزمان، فمهما يُعمَل من عمل؛ فإنَّ اللّه ﷻ يراه، ويعلمه، ويحصيه، ويحاسِب عليه، ويجازي به.

سرُّ التَّعبير بالألوهيَّة في: ﴿فَسَيَرَى ٱللَّهُ﴾:

لا ينتفع الإلهُ بصلاح عباده، بل هو الكامل الغنيُّ، وهم المفتقرون إليه

لمّا كانت الآية الكريمة مبدوءةً بالأمر بالعمل؛ ناسَب أن يُعبَّر معها بعنوان الألوهيَّة؛ ذلك أنَّ الإله الحقَّ هو الذي له العلوُّ الكامل، والعِلم الكامل، والإحاطة الكاملة، والغِنَى الكامل، فلم يأمر عباده بالعمل؛ لأنَّه ينتظر من ورائه نفعًا - حاشاه - ولا لأنَّ ترْك هذا العملِ يعود عليه بضرٍّ - سبحانه وبحمده - فإنَّ ثواب هذا العمل إنَّما يعود على العامل نفسِه، واللّه غنيٌّ عنه، كما أنَّ ترْكَ العمل إنَّما يعود ضرُّه على صاحبه، واللّه عليٌّ قويٌّ عزيز.

ومصداقُ هذا ما ورد في الحديث القدسيِّ: «يا عِبادي، إنَّكُم لن تَبْلُغوا ضَرّي، فتَضُرّوني، ولن تَبْلُغوا نَفْعي، فَتنْفَعوني... إنَّما هي أعمالكم أُحْصيها لكم، ثمَّ أُوَفّيكم إيّاها، فمَنْ وجد خَيرًا؛ فلْيَحْمَدِ اللّه، ومن وجد غير ذلك؛ فلا يَلُومَنَّ إلّا نَفْسَهُ»[2].

ويضاف إلى ما تقدَّم أنَّ الاسم الجليل (اللّه) علَمٌ على المعبود بحقٍّ جلَّت قدرته، ولمّا كانت العبادة تقتضي فعلَ ما أمرَ به الإله، واجتنابَ ما نهى عنه ابتغاءَ مرضاته، وكان الإيمان قولًا وعملًا،

(1) الخازن، لباب التأويل: 2/405.

(2) الحديث أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب: البرُّ والصِّلة والآداب، باب: تحريم الظُّلم، حديث رقم: (2577): 8/16.

وكانت الآية مصدَّرةً بفعلي أمر هما: ﴿وَقُلِ ٱعۡمَلُواْ﴾؛ لمّا كان ذلك كذلك؛ ناسَب التَّعبير بعنوان الألوهيَّة؛ فالإلهُ معبود، والعبادةُ اعتقاد، وقول وعمل، وقد أمرت الآية بالأخيرين في ﴿ٱعۡمَلُواْ﴾ تغليبًا، وبالأوَّل في ﴿فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ﴾.

فائدةُ توالي الجمل الفعلية في: ﴿وَقُلِ ٱعۡمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ﴾:

في قوله تعالى: ﴿وَقُلِ ٱعۡمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ﴾ توالت ثلاثُ جمل فعليَّة، وهي:

جملة: ﴿وَقُلِ﴾، وجملة: ﴿ٱعۡمَلُواْ﴾، وجملة: ﴿فَسَيَرَى﴾.

ولمّا كان السّياق سياقَ أمرٍ بالعمل، وكان المأمورون به جماعة، وكان من شأن العمل أن يقع متكرِّرًا متجدِّدًا حادثًا بعد أن لم يكن؛ لمّا كان ذلك كذلك؛ ناسَب التَّعبيرُ بالجملة الفعليَّة التي "تدلُّ بأصل وضعها على التَّجدُّد في زمن معيَّن مع الاختصار"[1].

من شأن العمل أن يقع متكرِّرًا متجدِّدًا مِن عامله، وكلُّ ذلك معلوم لله

فائدة عطف ﴿وَرَسُولُهُۥ﴾:

عُطِف قوله تعالى: ﴿وَرَسُولُهُۥ﴾ على اسم الجلالة؛ لأنَّه ﷺ هو المبلِّغ عن الله ﷻ، وهو الذي يتولَّى معاملتهم على حسب أعمالهم[2].

فلمّا خوَّفهم الله ﷻ برؤيته سبحانه لأعمالهم، وعلم أنَّ فيهم مَن تتقاصر حالته عن الاحتشام لاطِّلاع الحقِّ، قال: ﴿وَرَسُولُهُۥ﴾[3].

وتخصيصه ﷺ والمؤمنين بالذِّكر؛ لأنَّهم هم الذين يعبأ المخاطَبون باطِّلاعهم[4].

خُصَّ الرَّسول ﷺ بالذِّكر؛ لأنَّه مَن يعبأ المخاطَبون برؤيته

نكتة تأخير ﴿وَرَسُولُهُۥ﴾:

عُطِف قوله تعالى: ﴿وَرَسُولُهُۥ﴾ على الاسم الجليل، وأُخِّر

التَّشريك في الرُّؤية لا يعني تماثلها ممَّن نُسِبت إليه

(1) المراغي، علوم البلاغة، ص: 56.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/25.
(3) القشيري، لطائف الإشارات: 2/61.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 6/16.

عن المفعول؛ للإشعار بما بين الرُّؤيتين من التَّفاوت[1]، فالتَّشريك في الرُّؤية لا يعني تماثلها ممَّن نُسبَت إليه، فإنَّ رؤية الله تعالى يلزم منها تعلُّق العلم بالواقعات، سواء كانت ذواتٍ مبصَرَات، أم كانت أحداثًا مسموعات ومعانيَ مدرَكَات[2]، أمَّا نسبتُها للرَّسول ﷺ والمؤمنين؛ فباعتبار أنَّ الله تعالى لا يُخفي ذلك عنهم، بل قد يطلعهم عليه إن شاء، إمَّا بالوحي أو بغيره[3].

غرضُ حذْفِ الرؤية من السّياق:

في قوله سبحانه: ﴿فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ وَرَسُولُهُۥ﴾ حذْفٌ مفهوم من السِّياق، وتقديره: (وَ) يراه ﴿وَرَسُولُهُۥ﴾ ﷺ؛ بإطلاع الله إيّاه على أعمالكم، كما أطلعه على أعمالكم الماضية بفضيحتكم عليها، (وَ) يراه ﴿وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۖ﴾ بما قذف الله تعالى في قلوبهم مِن محبَّة الصّالحين وبُغض المذنبين[4].

الرَّسول ﷺ مؤيَّدٌ بوحيٍ مِن ربِّه عالمٌ بما أطلعه الله عليه

فالملاحَظ أنَّ فعل الرُّؤية ذُكر مرَّة واحدة مع اختلاف معناها بحسب ما أُسنِدَت إليه، غير أنَّها أُخرِجَت مخرجَ الرُّؤية الواحدة، فتتوالى المعطوفاتُ في نسق واحد دون أن يفصلَ بينها فاصل؛ تشريفًا وتعظيمًا للرَّسول ﷺ، وتخصيصًا للمؤمنين الذين أخلصوا الاعتقاد، وأحسنوا العمل، فرفع الله تعالى مكانتهم، وأناط الأمر برؤيتهم.

غرضُ إضافة الرَّسول إلى الضمير العائد على لفظ الجلالة:

في قوله تعالى: ﴿فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ وَرَسُولُهُۥ﴾ أُضيف لفظ الرَّسول إلى الضَّمير العائد على الاسم الجليل، وهذه الإضافةُ أفادت التَّعظيم والتَّشريف والتَّبجيل لرسول الله ﷺ؛ فإنَّ ما أُضيف إلى العظيم عظيمٌ، والإضافة إلى الله للمضاف عظيمةٌ[5].

الإضافةُ إلى العظيم تقتضي التَّشريف والتَّعظيم

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/100.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/26.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 6/16.
(4) الهرري، حدائق الروح والريحان: 12/29.
(5) حسن، بلاغة اللغة: 1/449.

نكتة عطف ﴿وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۖ﴾:

في قوله تعالى: ﴿فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ وَرَسُولُهُۥ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۖ﴾ عُطِف المؤمنون على الرَّسول ﷺ؛ لتشريفهم، أو لتعليق الأحكام الشَّرعية بهم بعد وفاة رسول الله ﷺ[1]، وأيضًا لأنَّهم شهداءُ الله في أرضه، ولأنَّ هؤلاء الذين تخلَّفوا عن الغزو لمّا تابوا؛ رجعوا إلى حظيرة جماعة الصَّحابة، فإنْ عملوا مثلهم؛ كانوا بمحلِّ الكرامة منهم، وإلَّا كانوا ملحوظين منهم بعين الغضب والإنكار، وذلك ممّا يحذره كلُّ أحد هو مِن قوم يرمقونه شزرًا، ويرونه قد جاء نُكرًا[2].

المؤمنون شهداءُ الله في الأرض، وهم ثقاتٌ عُدول

ولمّا كان المؤمنون شهداء الله يوم القيامة، وكانت الشَّهادة لا تصحُّ إلّا بعد الرُّؤية؛ ذكر تعالى أنَّ الرَّسول ﷺ والمؤمنين يرون أعمالهم، والمقصود: التَّنبيهُ على أنَّهم يشهدون يوم القيامة، عند حضور الأوَّلين والآخِرين بأنَّهم أهل الصِّدق والسَّداد والعفاف والرَّشاد[3]، فالتزموا بهذا المنهجِ حتى يشهدَ لكم المؤمنون بما يرون من أعمالكم[4].

والآيةُ تهدينا إلى أنَّ مرضاة جماعة المؤمنين القائمين بحقوق الإيمان، المقرَّرة صفاتهم في القرآن تلي مرضاة الله تعالى ورسوله ﷺ، وأنَّهم لا يجتمعون على ضلالة[5].

نكتةُ التَّعبير بالإيمان دون الإسلام:

في الإيمان صدقُ الاعتقاد مع إخلاص العمل، وهو نقيض النِّفاق

لمّا كانت الآية خطابًا للنّاس جميعًا يندرج تحته اندراجًا أوَّليًّا التّائبون من تخلُّفهم عن غزوة تبوك مع النَّبيِّ ﷺ، وهم الذين جاؤوا بأموالهم متصدِّقين منيبين، وقد قبل الله تعالى توبتهم وزكّاهم،

(1) الجرجاني، درج الدرر: 2/918.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/26.
(3) القاسمي، محاسن التأويل: 5/479.
(4) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 9/5481.
(5) رشيد رضا، تفسير المنار: 11/28، والهرري، حدائق الروح والريحان: 12/29.

فرفعهم من دنس النِّفاق إلى طُهْر الإيمان، لمّا كان ذلك كذلك؛ ناسب أن يُعَبَّر بالإيمان الذي هو نقيض النِّفاق، وليكون هذا تعريضًا بالمنافقين الذين قعدوا عن الجهاد، وتقاعسوا عن التَّوبة والإنابة، وضنُّوا بأموالهم وأنفسهم، فكأنَّه قد قيل لهم: اقعدوا متضمِّخين بنجس النِّفاق، فلن تنالوا خيرًا في الدُّنيا ولا في الآخرة، أمَّا مَن كانوا معكم بالأمس، وتابوا اليوم توبة صادقةً؛ فقد نجوا بأنفسهم، وفارقوا جُحركم الخَرب، وأصبحوا مع المؤمنين إخوانًا متحابِّين.

ويضاف إلى ذلك أنَّ في التَّعبير بالإيمان إشارةً إلى صدق الاعتقاد مع إخلاص العمل، ولن يدرِك صدقَ عملِ التّائب وإخلاصه إلّا مَن ذاق حلاوة ثمرة الإخلاص، وهو المؤمنُ، فمِن ثَمَّ عُبِّر بالإيمان دون الإسلام، وفيه مِن التَّشريف والتَّعظيم لمقام الإيمان في مقابل الحطِّ من شأن النِّفاق ما لا يخفى.

بلاغةُ العطف في: ﴿وَسَتُرَدُّونَ﴾:

قوله تعالى: ﴿وَسَتُرَدُّونَ﴾ معطوفٌ على قوله تعالى: ﴿فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ﴾، وهنا تظهر بلاغةُ العطف في ترتيب الجزاء على العمل، فبعد أنْ أرشدهم الله تعالى إلى ما يقتضي الإحسان في الأعمال مِن مراقبته سبحانه وتحرّي مرضاته، ومرضاة رسوله ﷺ، وجماعة المؤمنين - ذكَّرهم بما يقتضي ذلك من جزاء الآخرة عليها[1].

مَن علم أنَّه مجزيٌّ بعمله قريبًا أخلص في عمله وأحسنه

فائدة دخول حرف التسويف:

(السِّين) في قوله تعالى: ﴿وَسَتُرَدُّونَ﴾ تدلُّ على قرب الرَّدِّ، أي: الرُّجوع إلى الله، أي: قرب الجزاء والثواب، أي: تثابون على العمل الصّالح في الدُّنيا والآخرة، من دون تأجيل[2].

لا شكَّ في الموت أو البعث، فهما واقعان لا محالة

فحرف التَّسويف لتأكيد وقوع ما بعده في المستقبل، أي: ستعودون

(1) رشيد رضا، تفسير المنار: 11/29.

(2) الهلال، تفسير القرآن الثري الجامع: 4/519 - 520.

إليه سبحانه، وتُعرَض عليه أعمالُكم لا تخفى منها خافية، وهذه الجملة السّامية فيها تبشير وإنذار، تبشير للمؤمنين، وإنذار للمشركين الذين عصَوا أمرَ ربِّهم، واستمرُّوا في عصيانهم وضلالهم[1].

وهو إيذانٌ بقربِ الجزاءِ والثَّوابِ[2]، ففيهِ حضٌّ على مواصلةِ العمل، تطمينًا لنفوسِ المؤمنين المخبتين، بينما الآيةُ السّابقةُ جاءتْ من غيرِ السِّين: ﴿ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ [التوبة: 94]، خطابٌ للمنافقينَ، ففيهِ تهديدٌ ووعيدٌ قاطعٌ لأطماعِ المنافقينَ في العفوِ[3].

دلالةُ التَّعبير بـ(تُردّون) مادَّةً وصيغةً:

الرَّدُّ: الإرجاع، والمراد به هنا: مصير النُّفوس إلى عالَم الخُلد الذي لا تصرُّف فيه لغير اللّه سبحانه، ولو في ظاهر الأمر، ولمّا كانت النُّفوس من خلق اللّه، وقد أنزلها إلى عالم الفناء الدُّنيويِّ، فاستقلَّت بأعمالها مدَّة العمر، كان مصيرها بعد الموت أو عند البعث إلى تصرُّف اللّه فيها، شبيهًا بردِّ شيء إلى مقرِّه أو إرجاعه إلى مالكه[4].

النَّفْس مملوكةٌ لباريها، خلقها للعبادة ورزقها ما يعينها عليها، وهو سائلها

وقد اختير لها أن تُبنى لما لم يُسَمَّ فاعلُه، للعلم به؛ إذ لا يقدر على إحياء الموتى إلّا اللّهُ تعالى، فالاهتمام هنا بقضيَّة البعث، وما يترتَّب عليها من حساب وجزاء.

ويضاف إلى ذلك ما في بناء الصّيغة من معنى الإجبار، وتأكيد استحالة الفرار.

سرُّ العدول عن الظّاهر للمضمر في: ﴿عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾:

في قوله تعالى: ﴿وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ إظهارٌ في موضع الإضمار؛ لأنَّه ﷻ قال: ﴿وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾

مَن علم أنَّ مردَّه إلى مَن لا تخفى عليه خافية؛ هاب أن يقع في معصية

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 7/3438.
(2) ابن جماعة، كشف المعاني، ص: 117.
(3) ابن الزّبير الغرناطيّ، ملاك التّأويل: 1/599.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/8.

ولم يقل - ولكلامه المثل الأعلى - (وستردُّون إليه)؛ وذلك للإشارة إلى أنَّ الأمر سيرجع إلى مَن لا تخفى عليه خافيةٌ في السَّماء والأرض[1]، ولا يعزب عنه شيء من أعمال الخلائق، وهذه زيادةٌ في التَّرغيب والتَّرهيب؛ ليعلموا أنَّه لا يخفى على الله سبحانه شيء[2]، وفي ذلك مِن تهويل الأمر وتربية المهابة ما لا يخفى[3].

سرُّ العدول عن عنوان الألوهيَّة إلى الصِّفة: ﴿عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾:

في قوله تعالى: ﴿وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ عُدِل عن التَّعبير بعنوان الألوهيَّة إلى الوصف بالعِلم المضاف إلى ﴿ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾؛ لِما في الوصف بالعِلم من المناسبة لِما قبله من رؤية الأعمال، وإحصائها، والجزاء عليها، فإنَّه سبحانه أحصاها إحصاءَ العالم بها، حيث قد علِم نيَّةَ كلِّ فاعل وقصدَه، فميَّز المؤمنين مِنَ المنافقين، والمخلصين مِنَ المرائين.

أحصى الله أعمالَ عباده إحصاءَ العالِم بها، وسيجازي كلًّا بحسبه

معنى (أل) في: ﴿ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾:

اللّام في قوله تعالى: ﴿ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ للاستغراق، أي: يعلم الله كلَّ غيب، وكلَّ شهادة[4]، وهذا لتأكيد إحاطة علم الله تعالى بكلِّ شيء، وفيه طمأنةٌ للمؤمنين بأنَّ أعمالهم الصّالحة لن تضيع هباءً، وفيه تحذيرٌ للمذنبين من كون كلِّ ما عملوه في الخفاء هو معلومٌ لله سبحانه، ولم يخفَ عليه، بل قد أحصاه، وسيجازيهم به.

علْمُ اللهِ قد وسع كلَّ شيء، وأحاط بكلِّ شيء، فلا يخفى عليه شيءٌ

سِرُّ تخصيص الغيب والشَّهادَة، وفائدة الطِّباق فيهما:

معنى الغيب والشَّهادة: ما غاب، وما شوهد، فهما حالتان تعمّانِ كلَّ شيء[5]، فهُما قِسما الموجودات؛ ذلك أنَّ الأشياء إمَّا أن تكون

يستوي عند الله السِّرُّ والعلَن، فما مِن مهرب منه ولا مفرَّ

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 7/3439.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/8.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/100.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/8.
(5) ابن عطية، المحرر الوجيز: 3/80.

خفيَّةً، وإمَّا ظاهرةً، وإمَّا حاضرة وإمَّا غائبة، وإمَّا مُدرَكَة بالحِسِّ، وإمَّا خارجة عن إدراك الحواسِّ للطفها أو لعِظَمها أو لكون الحواسِّ غير مهيَّأة في أصل خِلقتها لإدراكها، فهذا الطِّباق الذي جمعَ فيه بين الشيء وضدِّه في الكلام، والذي صيغت به الجملة الكريمة قد عمَّ تحت مظلَّته كلَّ موجود، فالمقصود من ذِكر الغيب والشَّهادة تعميمُ الموجودات جميعًا، فإليهما تنقسم موجودات الكونِ كلِّه.

نكتةُ تقديم الغيب على الشَّهادَة:

العِلمُ بالعلَّةِ علَّةٌ للعِلم بالمعلول

قُدِّم الغيبُ على الشَّهادة في قوله تعالى: ﴿عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾؛ لتحقيق أنَّ نسبة علمه المحيط بالسِّرِّ والعلن واحدة على أبلغ وجهٍ وآكده، لا لإيهام أنَّ علْمَه سبحانه بما يُسِرُّونه أقدم منه بما يُعلنونه، فعلْمُه سبحانه بمعلوماته منزَّه عن أن يكون بطريق حصول الصُّورة، بل وجود كلِّ شيء وتحقُّقه في نفسه عِلم بالنِّسبة إليه تعالى، وفي هذا المعنى لا يختلف الحال بين الأمور البارزة والكامنة، وإمَّا للإيذان بأنَّ رتبة السِّرِّ متقدِّمة على رتبة العلن؛ إذ ما مِن شيء يُعلن إلّا وهو أو مباديه القريبة أو البعيدة مضمر قبل ذلك في القلب، فتعلُّق علمه تعالى به في حالته الأولى متقدِّم على تعلُّقه به في حالته الثّانية[1].

فضلًا عن أنَّ تقديم الغيب على الشَّهادة إشعارٌ بسَعة علمه ﷻ، وأنَّه لا يخفى عليه شيء، ويستوي عنده كلُّ معلوم[2].

معنى الفاء في: ﴿فَيُنَبِّئُكُم﴾:

مَن علم أنَّه إلى مولاه راجعٌ؛ عَلِمَ أنَّه مسؤول عمّا قدَّم، فليُعِدَّ للسُّؤال جوابًا

(الفاء) في قوله تعالى: ﴿فَيُنَبِّئُكُم﴾ للإفصاح عن شرط مقدَّر، أي: إذا كنتم ستُردُّون إليه سبحانه؛ فإنَّه ينبِّئكم، أي: يخبركم إخبارَ فعلٍ وجزاء بما كنتم تعملون، فترون أعمالكم عيانًا، تنطق بها جوارحكم، وكتابًا منشورًا قد سجَّل كلَّ ما عملتم، لا يدع

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/101.
(2) الشوكاني، فتح القدير: 2/455.

صغيرة ولا كبيرةً إلّا أحصاها، فتُجزى كلُّ نفس بما كسبت، وإنَّ هذا فيه تبشيرٌ للمؤمن، وإنذار للمشرك والمنافق، وأعمالهم كلُّها في كتابٍ[1].

وقيل: الفاء عاطفة[2]، تفيد التَّرتيب والتَّعقيب، حيث رتَّبت الإنباءَ والجزاء على الرَّدِّ الذي هو عبارة عن الأمر الممتدِّ إلى يوم القيامة ترتيبَ تعقيبٍ[3].

دلالةُ التَّعبير بـ ﴿فَيُنَبِّئُكُم﴾ مادَّةً وصيغةً:

ذِكْرُ المجازاةِ في مقام الجناية لازمٌ لإحاطة علمِ العليم به

الإنباءُ: الإخبار، واستُعمل قوله تعالى: ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ في لازم معناه، وهو المجازاة على كلِّ ما عملوه، أي: فتجدونه عالمًا بكلِّ ما عملتموه، وهو كنايةٌ؛ لأنَّ ذِكر المجازاة في مقام الإجرام والجناية لازمٌ لعموم عِلم مَلِكِ يوم الدّين بكلِّ ما عملوه[4]، ففي الآية وعدٌ ووعيد[5].

والمعنى: يعرِّفكم أحوالَ أعمالكم، ثم يجازيكم عليها؛ لأنَّ المجازاة من الله تعالى لا تحصل في الآخرة إلّا بعد التَّعريف، ليعرف كلُّ أحد أنَّ الذي وصل إليه عدلٌ لا ظلم، فإنْ كان من أهل الثَّواب؛ كان فرحُه وسعادته أكثرَ، وإنْ كان من أهل العقاب؛ كان غمُّه وخسرانه أكثرَ[6].

معنى الباء و(ما) في: ﴿بِمَا﴾:

يوم القيامة تُبلَى السَّرائر، ويظهر ما في الضَّمائر وتُجلّى حقائق الأعمال

الباءُ في قوله تعالى: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ للإلصاق، و(ما) يصلح أن تكون موصولة بمعنى الذي، أو مصدرية[7]، فبالحمل على

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 7/3439.
(2) محيي الدين درويش، إعراب القرآن وبيانه: 4/173، وبهجت صالح، الإعراب المفصل: 4/382.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/101.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/8.
(5) الآلوسي، روح المعاني: 6/17.
(6) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 16/144.
(7) الهلال، تفسير القرآن الثري الجامع: 4/507.

الموصوليَّة، يكون المعنى: ينبِّئكم بالذي كنتم تعملونه، وبالحمل على المصدريَّة؛ يكون المعنى: ينبِّئكم بعملكم[1].

والفرق: أنَّ معنى الموصوليَّة قُصد فيه الدِّلالة على معانٍ تتضمَّنها صلةُ الموصول؛ إذ لمّا كان معناه: (الذي كنتم تعملون)، كانت دلالةُ ذلك إحاطة علم الله بعمل كلِّ عامل، فجميع أعمال العاملين متساويةٌ في العلم عند ربِّ العالمين، فلم يُفْلِت منه سبحانه أحدٌ.

ولأنَّ أعمال العباد متشعِّبةٌ، بل نيّاتهم في العمل الواحد مختلفةٌ، وفي هذا نوعُ إبهامٍ؛ كان التَّعبير باسم الموصول مناسبًا لذلك، فيوم القيامة يعرف كلُّ عامل حقيقةَ عمله الذي كان يعمله.

أمَّا معنى المصدريَّة؛ ففيه معنى إضافة العمل إلى عامله، أي: إنَّ كلَّ إنسانٍ سيُسأل عن عمله هو، ولن تزر وازرة وزر أخرى، ولا يظلم الله أحدًا.

نكتةُ دخول كان على العمل:

كلٌّ يعمل على شاكلتِهِ، وسيجازي الله كلًّا بما عمِل

سَبْقُ الفعلِ المضارع بـ(كان) يدلُّ على تكرُّر الحدث، ووقوعه أكثر من مرَّة في الماضي، واستمرار حدوثه بعد ذلك، فهذا يفيد الدَّلالة على الاستمرار أو الاعتياد[2].

أي: إنَّهم استمرُّوا على أعمالهم التي عملوها، وكلٌّ منهم كان يعمل على شاكلته، وقد علم الله ذلك كلَّه، وقدَّره، وأحصاه.

دلالةُ التَّعبيرِ بـ﴿تَعْمَلُونَ﴾ مادَّةً وصيغة:

العمل يعمُّ الاعتقاداتِ والأقوالَ والأفعال، وكلُّ ذلك مكتوبٌ عند ذي الجلال

تدور معاني العملِ حول بذل جهد ماديٍّ يؤدِّي إلى إحداث شيء أو هيئة أو نقلة... إلخ، فهو عامٌّ في كلِّ فعل يُفعَل، ويغلب فيه جانب

(1) الهرري، حدائق الروح والريحان: 12/33.
(2) السامرائي، معاني النحو: 3/319.

القصد والعمد، والعمل يعمُّ أعمال الجوارح والقلب، ويدخل فيه كذلك الأقوالُ؛ لأنَّها عمل اللِّسان، وهو مِن جملة الجوارح[1].

ومن هنا تظهر دلالةُ التَّعبير بالعمل دون غيره، ذلك أنَّه يعمُّ الاعتقاداتِ والنِّيّات، وأعمالَ الجوارح الظّاهرة، وأقوال اللِّسان؛ فإنَّ كلَّ ذلك في علم الله الشاملِ المحيطِ بكل شيء بما فيه أفعال العباد، ومكتوبٌ عند الله تعالى قبلَ خلقِ السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، في كتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرةً إلَّا أحصاها، وقد خلقه ﷻ وقدَّره، وهو من إرادته التي شاءها ﷻ والتي لا يخرج عنها شيءٌ في هذا الكون.

فالمراد بالعمل: ما يشمل العمل النَّفساني من الاعتقاد والنِّيَّة، وممّا كان مشهودًا للنّاس منه، وما كان غائبًا عن علمهم منه، ينبِّئ اللهُ تعالى به عند الحساب، وما يترتَّب عليه من الجزاء بحسن الثَّواب، أو سوء العذاب، فإطلاق العمل على ما يشمل ذلك تغليبٌ[2].

وهذا التَّسجيل الدَّقيق لعموم ما أضمره الإنسان، وأظهره، يدلُّ على حتميَّة الحساب المترتِّب عليه، والجزاء الذي يعقب الحسابَ.

وأوثر التَّعبير بالمضارع للدِّلالة على أنَّ عملهم لم يغب عن علم الله تعالى، ففي كلِّ حركة وسكنة، ونوم ويقظة، وهمس وجهر، وعلَنٍ وسرٍّ كان الله تعالى معهم، يسمع، ويرى، ويعلم، وملائكته الكرام الكاتبون يسجِّلون، ويكتبون.

سرُّ ذكر لفظ ﴿وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۖ﴾ هنا وعدم حذْفِه:

أعمالُ المؤمنين ظاهرةٌ، وسرائرهم طاهرة

في الآية الأولى (الآية: 94) كان الكلام على المنافقين الذين يخالف ظاهرُهم المموَّه باطنَهم المشوَّه، فهؤلاء لا يطَّلع

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، والسمين، عمدة الحفاظ، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (عمل).

(2) رشيد رضا، تفسير المنار: 11/29، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/25.

على ضمائرهم إلا اللّهُ تعالى، ثمَّ رسوله ﷺ؛ بإطلاع الله تعالى إيّاه عليها، كقوله: ﴿قَدۡ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنۡ أَخۡبَارِكُمۡۚ﴾؛ فلذلك لم يُذكر المؤمنون.

أمَّا الآية الثّانية؛ فهي في المؤمنين الذين خَلَطوا عملًا صالحًا، وآخر سيِّئًا، وطاعاتُ المؤمنين وعباداتهم؛ كالصَّلاة، والإنفاق (الصَّدقات)، والحجِّ، والعمرة، والصّيام ظاهرةٌ للّه ورسوله ﷺ والمؤمنين، فهي التي تشاهَدُ، ويشاهَد التَّفاوتُ فيها بين المحافظ والمقصِّر[1].

وجهُ حذف حرف العطف ﴿ثُمَّ﴾ هنا:

الكريمُ يعجِّل الوعد إكرامًا، ويُمهل العصاة لعلَّهم يتوبون، فيُرزَقوا سلامًا

جيءَ في الآية الأولى (الآية: 94) التي تتكلَّم على المنافقين بحرف العطف ﴿ثُمَّ﴾ في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ تُرَدُّونَ﴾ ممّا يدلُّ على التَّراخي في الزمن، والآية فيها وعيد، أي: من كَرَمِ اللّه عليهم أنَّه يؤخِّر العقاب عنهم في الدُّنيا؛ حتى يتوبوا، أو لعلَّهم يتوبون، ويغفر لهم[2].

أمّا الآيةُ التي تتحدَّث عن المؤمنين؛ فقد خُتِمت بقوله تعالى: ﴿وَسَتُرَدُّونَ﴾ بدون حرف العطف؛ لأنَّها متضمِّنةٌ وعدًا لهم، فبناه على قوله: ﴿فَسَيَرَى ٱللَّهُ﴾، ولم يؤخِّره[3].

نكتةُ المشاكلة بين الآيتين:

لا يستوي المؤمنون المجاهدون والمنافقون القاعدون

لمّا كان الخطابُ في قوله تعالى: ﴿وَقُلِ ٱعۡمَلُواْ﴾ [التوبة: 105] للمعتذرين الخالطين التّائبين، فقد أُبرزوا بقوله: ﴿فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ﴾ إبرازَ المنافقين الذين قيل لهم: ﴿لَّا تَعۡتَذِرُواْ لَن نُّؤۡمِنَ لَكُمۡ قَدۡ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنۡ أَخۡبَارِكُمۡۚ﴾ [التوبة: 94]؛ تنقيصًا من الحال التي كانوا عليها قبل التَّوبة، وتنفيرًا لهم ولغيرهم عمّا

(1) الكرماني، البرهان في متشابه القرآن، ص: 138، والغرناطي، ملاك التأويل: 1/235، والهلال، تفسير القرآن الثري الجامع: 4/520.
(2) الهلال، تفسير القرآن الثري الجامع: 4/520.
(3) الكرماني، البرهان في متشابه القرآن، ص: 138.

وقعوا فيه من التَّخلُّف عن رسول الله ﷺ، وتذكيرًا لهم بنعمة الله عليهم؛ إذ كانوا على شفا حفرةٍ من النّار، فأنقذهم منها، وتنبيهًا لهم على أنَّهم - وإنْ تابوا - ليسوا كالذين جاهدوا معه ﷺ بأموالهم وأنفسهم[1].

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الرَّدُّ والرّجوعُ:

الرَّدُّ بالإكراه والرجوع برغبة

الردُّ هو الإعادة بالجَبر أو الإكراه وبغير إرادة المردود، والرُّجوع عَوْدٌ برغبةٍ، ومن دون إكراه[2].

والفرق بين الرَّجع والردِّ: أنَّه يجوز أن ترجع شخصًا من غير كراهةٍ له، قال الله تعالى: ﴿فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ﴾ [التوبة: 83]، ولا يجوز أن تردَّه إلّا إذا كرهت حاله؛ ولهذا يسمّى البَهْرَجُ[3] ردًّا، ولم يُسَمَّ رجعًا، هذا في أصل الوضع، لكن ربَّما استعملت إحدى الكلمتين: موضع الأخرى لقرب معناهما[4].

الرّؤيةُ والنّظرُ والبصرُ:

البصرُ إدراكٌ بالعين، والنظر توجيهُ البصر إلى شيء لرؤيته، والرؤيةُ إدراك المرئيّ

الفرق بينها: أنَّ النظر تقليبُ العين حيالَ مكان المرئيِّ، والإقبال بالبصر نحوه طلبًا لرؤيته؛ ولذلك قد يَنظر الإنسان إلى شيءٍ، ولا يراه، والرؤية: هي إدراك المرئيِّ[5].

وأمَّا البصرُ في حقِّ الله تعالى؛ فهو الصِّفةُ التي تفيدُ أنَّ الله له بصرٌ يليق به سُبْحَانَهُ، يحيطُ بأقطار السماواتِ والأرض دقيقها، وجليلها، ظاهرها، وباطنها، وأنه - جلَّ في علاه - ذو البصيرةِ

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 5/501.
(2) الهلال، تفسير القرآن الثري الجامع: 20/45.
(3) هو الدِّرهم الذي فضَّته رديئة، وكلُّ رديء من الدَّراهم وغيرها. ينظر: ابن منظور، اللسان: (بهرج).
(4) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 249.
(5) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 543، 544.

بالأشياء المطَّلعُ على بواطنها التي ينكشف بها كمالُ نُعوت المبصَرات، والله هو البصير الذي يرى الأشياء كلَّها، ولا يُحجَب شيءٌ عنه[1].

والبَصَر في الإنسان حِسُّ العين وحاسَّة الرؤية، ويُقال: للجارحة الناظرة[2].

والمعنى في الآية: رؤيةُ الله تعالى أعمالَ العباد كما يليقُ به سبحانه، وإعلامُه النَّبيَّ ﷺ بها وإطلاعه عليها، وإيقاع المحبَّة في قلوب المؤمنين لأهل الصَّلاح، والبغضةِ لأهل الفساد، وهذا الإعلامُ والإيقاع يؤدّيان إلى إدراك النَّبيِّ ﷺ والمؤمنين هذه الأعمالَ[3]؛ لذا أُوثِر ذِكرُ الرؤية لِما فيها من معنى الإدراك، ولما في الأعمال من الظُّهور.

الإنباءُ والإخبارُ:

الإنباءُ إخبارٌ لما كان مجهولًا حاله

الفرق بينهما أنَّ الإنباء لا يكون إلا للإخبارِ بما لا يعلمه المخبَر، وينبغي أن يقيَّد بالخفيِّ، أي: الذي كان خفيًّا، أمّا الإخبار؛ فيجوز أن يكون بما يعلمه، وبما لا يعلمه؛ ولهذا يقال: تخبرني عن نفسي، ولا يقال: تنبِّئُني عن نفسي، وكذلك تقول: تخبرني عمّا عندي، ولا تقول: تنبِّئُني عمّا عندي[4].

وهناك ما ينبغي أن يُبيَّنَ وجهُه، كقوله ﷻ: ﴿وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ﴾ [آل عمران: 49]، فالأصل أنَّ سيدنا عيسى عليه السلام لا يعلم هذا، والإنباء يُستعمل في ما الأصل فيه مجهولٌ لأحد الطرفين، وقوله ﷻ: ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [التوبة: 105]، فلا شكَّ أنَّهم كانوا يعلمون ما يعملون، ولكن الله ﷻ، قال

(1) ابن منظور، اللسان، والزبيدي، تاج العروس: (بصر)، والسعدي، الحق الواضح المُبين، ص: 35 - 36.

(2) الجوهري، الصحاح، والرّاغب الأصفهاني، المفردات، وابن منظور اللسان: (بصر).

(3) البغوي، معالم التنزيل: 4/92، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 8/252.

(4) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 41، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (نبأ).

لهم: ﴿وَلَٰكِن ظَنَنتُمۡ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعۡلَمُ كَثِيرٗا مِّمَّا تَعۡمَلُونَ﴾ [فصلت: 22]، كما أنَّهم تصرَّفوا وهُم في الدُّنيا تصرُّفَ مَن لا يعرف حقيقة ما يعمل، فاستعمل لهم اللَّفظَ الذي يقتضيه حالهُم[1].

والإنباء عن الشيء أيضًا قد يكون بغير حمل النَّبأ عنه، تقول: هذا الأمر ينبِئُ بكذا، ولا تقول: يخبر بكذا؛ لأنَّ الإخبارَ لا يكون إلّا بحمل الخبر[2].

(1) جبل، المعجم الاشتقاقي: (نبأ).

(2) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 41.

﴿وَءَاخَرُونَ مُرۡجَوۡنَ لِأَمۡرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمۡ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيۡهِمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ١٠٦﴾ [التوبة: 106]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

تعجيلُ التَّوبة ضرورةٌ، وتأخيرها خطورةٌ

لَمّا بيَّن الله سبحانه حال نوعين من المتخلِّفين: الذين مَردوا على النِّفاق، وهم متوعَّدون بالعذاب، والذين أعلنوا توبتهم، واعترفوا بجريرتهم، فتاب عليهم؛ بيَّن سبحانه حالَ النوع الثالث من المتخلِّفين: وهم الذين لم يجدوا ما يعتذرون به لرسول الله ﷺ؛ فتأخَّروا عن التوبة؛ فأخَّر الله أمرهم بعلمٍ وحكمة يعلمها ﷻ[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مُرۡجَوۡنَ﴾: الإرجاء: التَّأخير، يقال: أرجأتُ الشَّيء، وأرجَيْتُه أُرجِئه، وأُرْجِيه بهمز وبغير همز: أخَّرْتُه[2]. ومعناه المحوريُّ: يدور حول معنى التَّأخير، والتَّأخُّر[3]، ومنه قوله تعالى: ﴿وَءَاخَرُونَ مُرۡجَوۡنَ لِأَمۡرِ ٱللَّهِ﴾. أي: مؤخَّرُون، ومنه قوله تعالى حاكيًا قولَ ملأ فرعون: ﴿أَرۡجِهۡ وَأَخَاهُ﴾ [الأعراف: 111]. أي: أَخِّرْه. وقُرِئ: مُرجَؤونَ لأمر الله. وقُرِئ: أرجِئه وأخاه[4].

المَعْنى الإجْمالِيُّ:

تأخيرُ التوبة من الذنب ذنبٌ تجب له توبة

ومن هؤلاء المتخلِّفين عن الخروج معكم - أيُّها المؤمنون - في غزوة (تبوك) آخرون لم يكن لهم عذرٌ، موقوفون ومنتظِرون أمرَ الله وحكمه وقضاءه، وهم الذين نَدِموا على ما فَعلوا، وهم: مُرارة بن

(1) جامع البيان، الطبري: 11/668، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 16/141، وابن عادل، اللّباب: 10/201، والبقاعي، نظم الدرر: 9/14، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/26.

(2) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب: (رجأ).

(3) جبل، المعجم الاشتقاقي: (رجأ).

(4) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (رجأ).

الرَّبيع، وكعب بن مالك، وهلال بن أُميَّة، إمَّا يحجزُهم عن التَّوبة؛ فيعذِّبُهم بذنوبهم بمقتضى عدله سبحانه، وإمَّا يوفِّقُهم للتَّوبة؛ فيتوبون مِنْ ذنوبهم، فيغفرُ لهم برحمته وعفوه، واللّه عليمٌ بأحوالهم، حكيمٌ فيما يفعل بهم[1].

وترشدُ الآيةُ الكريمة إلى التَّخويفِ الشديدِ للمتخلِّفين عن الجهادِ الواجب، والحثِّ لهم على التوبة والندم على ما فرَّطوا، وإلى قَبول اللّهِ التوبةَ؛ إذا كانت توبةً صحيحة؛ لأنَّ اللّه أخبر بذلك في غير ما آية من كتابه العزيز.

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالةُ العطف في: ﴿وَءَاخَرُونَ﴾:

ليس المسارع إلى مرضاة الله والتَّوبة كالقاعد المتأخِّر عنها

﴿وَءَاخَرُونَ﴾ عطف على قوله: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعۡتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمۡ خَلَطُواْ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡۚ﴾، أي: ومنهم قومٌ آخرون غير المعترفين المذكورين[2]، حيث قسَّمَ اللّه ﷻ المتخلِّفين عن الجهاد ثلاثةَ أقسام:

القسم الأوَّل: المنافقون الذين مَردوا على النِّفاق.

القسم الثَّاني: التّائبون، وهم المُرادون بقوله: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعۡتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمۡ﴾، وبيَّن تعالى أنَّه قبِلَ توبتهم.

والقسم الثَّالث: الذين بقُوا موقوفين، وهم المذكورون في هذه الآية، والفرق بين القسم الثّاني وهذا الثّالث: أنَّ أولئك سارعوا إلى التَّوبة، وهؤلاء لم يسارعوا إليها[3].

(1) ابن جرير، جامع البيان: 11/672، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 3/97، والنخجواني، الفواتح الإلهية والمفاتح الغيبية: 1/318، وطنطاوي، التفسير الوسيط: 6/400، والزحيلي، التفسير المنير: 11/36، والهرري، حدائق الروح والريحان: 12/30، ونخبة من العلماء، التفسير الميسر، ص: 203.

(2) الآلوسي، روح المعاني: 6/15.

(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 16/144.

فائدةُ التَّعبير بـ ﴿مُرْجَوْنَ﴾ مادَّةً وصيغة:

مَن أُوكِل إلى الله كفاهُ، ومَن أُخِّر لتوبتهِ؛ تابَ عليهِ وهداه

الإرجاء تأخير ما حَلَّ وقته أو تُوقِّع حلوله[1]، و﴿مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ﴾ أي: مؤخَّرون وموقوفٌ أمرهم لأمر الله، أي: إلى أن يظهرَ أمْرُ الله تعالى في شأنهم[2].

و﴿مُرْجَوْنَ﴾ على صيغة (اسم مفعول) من (أرجاه) بالألف، وهو مخفَّف (أرْجَأَهُ) بالهمز؛ إذا أخَّره؛ فيقال في مضارعه المخفَّف: أرجيتُهُ بالياء، كقوله: ﴿تُرْجِى مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ﴾ [الأحزاب: 51]، فأصل ﴿مُرْجَوْنَ﴾: مرجيُّون[3].

وهذه الصّيغة (اسم المفعول) تصاغ من فعلٍ لم يسمَّ فاعله، وهي في هذا السّياق للعلم بالفاعل؛ فالله سبحانه هو مَن أخَّر أمرهم.

بلاغةُ القراءاتِ القرآنيَّة المتواترة في قوله تعالى: ﴿مُرْجَوْنَ﴾:

خطابُ الله عامٌّ لجميع عباده، لا يخرج عنه إلّا ملعون رجيم

قرأ نافع وحمزةُ والكسائيُّ وحفص عن عاصم وأبو جعفر وخلف ﴿مُرْجَوْنَ﴾بسكون الواو بدون همزٍ، على أنه اسم مفعول من (أرجاه) بالألف، وهو مخفَّف أرجأه بالهمز؛ إذا أخَّره، فيقال في مضارعه المخفَّف: أرجيتُه بالياء، كقوله: ﴿تُرْجِى مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ﴾ [الأحزاب: 51] بالياء، فأصل ﴿مُرْجَوْنَ﴾ مُرْجَيُون؛ حيث استثقلتِ الضمَّةُ على الياء فحذفت، فالتقى ساكنان: الياء والواو، ثم حذفت الياءُ لالتقاء الساكنين، فصار: ﴿مُرْجَوْنَ﴾، ففيه إعلالٌ بالحذف لمناسبة الجمع.

وقرأ البقيَّة: ﴿مُرْجَـُٔونَ﴾ بهمزة مضمومةٍ بعد الجيم على أصل الفعل، كما قرؤوا بالهمز كذلك: ﴿تُرْجِئُ مَن تَشَآءُ﴾ [الأحزاب: 51][4].

فـ﴿مُرْجَوْنَ﴾ بغيرِ همْزٍ و﴿مُرْجَـُٔونَ﴾ بِالهَمْزِ لغتان، يقال: أرجأته

(1) جبل، المعجم الاشتقاقي: (رجأ).
(2) الآلوسي، روح المعاني: 6/17.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/28.
(4) ابن الجزري، النشر في القراءات العشر: 1/406، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/28.

وأرجيته كأعطيته، ويحتمل أن تكون الياء بدلًا من الهمزة، كقولهم: قرأتُ وقريتُ وتوضَّأتُ وتوضَّيت، وهو في كلامهم كثير.

وهذا التَّنويع فيه إشارةٌ إلى أنَّ هؤلاء المتخلِّفين عن الجهادِ من قبائلَ مختلفةٍ: من بني واقِفٍ من الأَوس، ومن بني سَلِمةَ من الخَزْرج، ومن من بني عَمْرو بن عَوفٍ من الأَوس، فناسبَ خطابَ كلِّ لسان بطريقته من حيث تحقيقُ الهمز أو تسهيلُه.

معنى اللّام في: ﴿لِأَمۡرِ ٱللَّهِ﴾:

واللّام في قوله: ﴿لِأَمۡرِ ٱللَّهِ﴾ للتَّعليل، أي: مؤخَّرون لأجل أمر اللّه في شأنهم[1].

نكتةُ الحذف في: ﴿لِأَمۡرِ ٱللَّهِ﴾:

أمْـرُ اللـه كلُّه حكمة، وظاهره وباطنه رحمةٌ

في بدائعِ العربية ورشاقتها أن تُسقط من الألفاظ ما يدلُّ عليه غيره، أو ما يرشد إليه سياق الكلام أو دلالة الحال، وأصلُ بلاغتها في هذه الوجازة التي تعتمد على ذكاء القارئ والسّامع[2]. وفي قوله تعالى: ﴿لِأَمۡرِ ٱللَّهِ﴾ حذْفُ مضافٍ، وتقديره: (لأجلِ انتظار أمر اللّه في شأنهم)؛ لأنَّ التَّأخير مشعرٌ بانتظار شيء[3]، فكلُّ حكمٍ من اللّه له ميعاد، ولكلِّ ميعاد حِكْمة؛ فهناك قومٌ عجَّل اللّه بالحكم فيهم، وقومٌ أخَّر اللّه الحكم فيهم؛ ليصفّي الموقف تصفيةَ تربيةٍ لهم في ذاتهم، ولِمَن يشهدونهم؛ لذلك أصدرَ الرسولُ ﷺ أمرًا في الثلاثة الذين نزلت فيهم الآيةُ بأن يُقاطعهم الناس، فلا يكلِّمهم أحدٌ، ولا يسأل عنهم، ولا يختلطُ بهم أحدٌ في السُّوق أو في المسجد، وكذلك عَزلهم عن زوجاتهم، وهو الأمر الذي يصعب التحكُّم فيه، وحذَّر ﷺ زوجاتِهم أن يقربوهم إلى أن يأتي اللّه بأمره، وقد استمرَّت

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/28.
(2) أبو موسى، خصائص التراكيب، ص: 111.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/28.

هذه المقاطعةُ أكثرَ من خمسين يومًا[1]؛ ليتأدَّبوا الأدبَ الذي يؤدِّبهم به المجتمع الإيمانيُّ، فلم يشأ الله لأن يبيِّن الحكمَ حتى يستوفيَ هذا التَّأديب، وإذا أدَّب هؤلاءِ؛ فإنَّ تأديبَهم سيكونُ على مرأًى ومسمعٍ من جميع الناس، فيأخذون الأسوةَ من هذا التأديب[2].

وغرضُ الحذف هنا الاختصار أو الإيجاز، وصيانة الجملة من الثِّقل والترهُّل اللَّذَين يحدُثان من ذِكر ما تدلُّ عليه القرينة، وإثارة الفكر والحسِّ بالتعويل على المتلقّي في إدراك المعنى[3].

فائدةُ إضافة الأمر إلى الله:

الإضافةُ إلى العظيم تفيدُ الإجلال والتَّكريم

إضافةُ الأمر للفظ الجلال أفادت تعظيمًا لهذا الأمر، وفيها بيانٌ على أنه أمرٌ لا محالة محقَّق؛ فصاحب الأمر هو الله ﷻ.

الموقعُ البيانيُّ لـ: ﴿إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ﴾:

لا يحسن الظَّنَّ بالله إلّا مؤمنٌ، ولا يأمن مكرَه إلا فاسق خاسر

جاءت جملة ﴿إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ﴾ بيانًا لجملة: ﴿وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ﴾[4]، وقد جاء قوله تعالى: ﴿إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ﴾ في موضع الحال، أي: منهم هؤلاء إمَّا معذَّبين، وإمَّا متوبًا عليهم[5]. والمعنى: أنَّ الله تعالى أبهَمَ على المُخاطَبين أمرَهم[6].

معنى ﴿إِمَّا﴾، والغرض من استعمالها:

كلُّ شيء واقعٌ بمشيئة الله، فلا يجب عليه سبحانه شيء

(إمّا) حرفٌ يدلُّ على أحد شيئَين أو أشياء، ومعناها قريبٌ من معنى (أو) التي للتَّخيير، إلّا أنَّ (إمَّا) تدخُل على كلا الاسمين المخيَّر بين مدلولَيهما، وتحتاج إلى أن تُتلى بالواو، و(أو) لا تدخل إلّا على ثاني الاسمين، وكان التساوي بين الأمرين مع

(1) حديث توبة الله على الثلاثة المخلفين وأحداثه، مسلم، صحيح مسلم، الحديث رقم: (2769).
(2) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 9/5485.
(3) أبو موسى، خصائص التراكيب، ص: 118.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/28.
(5) الآلوسي، روح المعاني: 6/17.
(6) القاسمي، محاسن التأويل: 5/499.

(إما) أظهرَ منه مع (أو)؛ لأنَّ (أو) تُشعِر بأنَّ الاسم المعطوف عليه مقصودٌ ابتداء[1]. و(إمّا) تدلُّ أيضًا على تنويعِ أمرهم؛ فهو دائرٌ بين هذين الأمرين.

والمعنى: ليكن أمرُهم عندكم بين الرَّجاء والخوف، والمقصود تفويضُ ذلك إلى إرادة الله تعالى ومشيئته؛ إذ لا يجب عليه سبحانه تعذيب العاصي ولا مغفرة التائب، وإنَّما شُدِّد عليهم مع إخلاصهم - والجهاد فرض كفاية - لما نُقل عن ابن بطَّال في الروض الآنف[2] وارتضاه أنَّ الجهادَ كان على الأنصار خاصَّةً فرضَ عين؛ لأنَّهم بايعوا النَّبيَّ ﷺ، ألا ترى قول راجزهم في الخندق:

نحن الذين بايعوا محمَّدا *** على الجهادِ ما بَقينا أبدا

وهؤلاء من أجلَّتهم؛ فكان تخلُّفُهم كبيرةً؛ لأنَّها كالنَّكْث لبيعتهم[3].

غرضُ التَّعبير بالأفعال المضارعة في قوله تعالى: ﴿إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ﴾:

عُبِّرَ بالمضارع الدَّالِّ على الاستقبال ترغيبًا وترهيبًا: ترغيبًا لهم في التَّوبة، فيثبتونَ عليها - حيث إنَّ قوله: ﴿يَتُوبُ عَلَيْهِمْ﴾ يدلُّ على أنَّهم تابوا[4] - وترهيبًا من معصيته والعودة إلى الذُّنوب؛ فقد يميتهم الله حينها دون توبةٍ منها، فيحاسبهم عليها بعذابه.

لا يزالُ باب التَّوبة مفتوحًا ينادي النّادمين، والنّارُ تتربَّص بالمكابرين

نكتةُ تقديم العذاب على التوبة:

التَّعذيب مفيدٌ عدمَ قبول توبتهم حينئذٍ؛ لأنَّ التَّعذيب لا يكون إلّا عن ذنبٍ كبير، وذنبهم هو التخلُّف عن النَّفير العام، وقبول التوبة عمّا مضى فضلٌ من الله[5].

يخوِّف الله عباده؛ لئلّا يغترُّوا، ويطمِّعهم في رحمته؛ لئلّا يقنطوا

وقدَّم قولَه: ﴿إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ﴾ - إن أصرُّوا - تخويفًا لهم؛ حملًا على

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/28.
(2) السُّهيلي، الروض الأنف: 7/369.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 6/17.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/28.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/28.

المبادرة إلى التوبة وتصفيتِها والإخلاصِ فيها، وحثًّا على أن يكونَ الخوف؛ ما دام الإنسان صحيحًا أغلب.

ثمَّ ثنَّى بقوله: ﴿وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيۡهِمۡۗ﴾ - أي: إنْ تابوا - ترجيةً لهم، وترقيقًا لقلوبهم بالتَّذكير بمنزل الأُنس الذي أَخرجوا أنفُسهم منه، ومنعوها من حلولِه، وطِيب مستقرِّه ومقيله، وحليِّ أوقاته، وعليِّ مقاماته، وشهيِّ أقواته[1].

تقدير (أن) المصدريَّة مع الفعلين ﴿يُعَذِّبُهُمۡ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيۡهِمۡۗ﴾:

في قوله تعالى: ﴿يُعَذِّبُهُمۡ﴾، و﴿يَتُوبُ﴾ فِعلان في معنى المصدر، حُذِفت (أنْ) المصدرية منهما فارتفعا كارتفاع قولهم: (تَسْمَعُ بِالْمُعَيْدِيِّ خَيرٌ مِن أنْ تَراهُ) برفع المضارع، وهو (تَسْمعُ)، بعد حذف (أنْ)، وقد جاءت هذه الروايةُ على الأصل في حذف الحرف المصدري مع زوال عَمَلِه؛ لأنَّ الفعلين في الآية الكريمة في موقع ما بعد (إمّا) للاسم، نحو: ﴿إِمَّا ٱلۡعَذَابَ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ﴾ [مريم: 75]، بكونه بدلًا، على حسَب حاجةِ العامل الذي قبله، وهو قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوۡاْ مَا يُوعَدُونَ﴾ [مريم: 75]، ونحو: ﴿إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمۡ حُسۡنٗا ٨٦﴾ [الكهف: 86][2].

الله قريب من عباده التّائبين، سريعٌ في عقاب المعاندين المصرّين

معنى الواو في: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾:

الواو هي الواو العاطفة، والعطفُ هنا من باب عطف الجمل، ولفظُ الجلال (اللّه) مبتدأ، و﴿عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ خبراه[3]. وقد أضاف العطف هنا إشارةً إلى أنَّ في تأخيرهم حكمةً؛ فاللّه سبحانه عليم بأحوالهم كلِّها حكيمٌ فيما فعَلَ بهم من الإرجاء[4]، ويمكن أن تكون واوًا للحال على معنى: والحال أنَّ اللّه عليمٌ حكيمٌ.

اللّه سبحانه عليمٌ بأحوال المتخلِّفين كلِّها، حكيمٌ فيما فعَلَ بهم من الإرجاء

(1) البقاعي، نظم الدرر: 9/14 - 15.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/28.
(3) محيي الدين درويش، إعراب القرآن وبيانه: 4/173.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 6/18.

بلاغةُ التَّذييلِ بهذين الاسمين الجليلين:

جملة: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ تذييلٌ مناسب لإبهام أمر المتخلِّفين على الناس، أي: والله عليم بما يليق بهم من الأمرين، مُحكِمٌ تقديرَه حين تتعلَّق به إرادته[1].

لا يُسأل العليمُ عمَّا يفعل، ولا يناقَش الحكيمُ فيما يقدِّر

وقد ختمتِ الآيةُ بصفتَي العلم والحكمة؛ ليُعلم أيضًا أنَّ الترديد (إمَّا، وإمَّا) للتقسيم، وأنه إنْ كان شكٌّ؛ فهو بالنسبة للعباد، أمّا الله تعالى؛ فهو منزَّه عنه؛ فذكَّر السامع بالصفتين[2].

نكتةُ تقديم ﴿عَلِيمٌ﴾ على ﴿حَكِيمٌ﴾:

قُدِّم لفظ ﴿عَلِيمٌ﴾ على ﴿حَكِيمٌ﴾ لنكتةٍ لطيفة؛ فحُكْم اللهِ سبحانه بتأخير أمرهم لعلمه بحالهم، وأنَّه سبحانه هو الحكيم في شأنهم؛ لأنَّه عليم بجميع أحوالهم.

سبحانه قدَر؛ فعلِمَ، وغفر؛ فرَحِم، وعزَّ؛ فحَكَم، فتبارك ربُّ العالمين

فتقديم ﴿عَلِيمٌ﴾ على ﴿حَكِيمٌ﴾ جاء في غاية المناسبة؛ فهو من باب تقديم السَّبب على المسبَّب: فعِلْمُ اللهِ بحال المخلَّفين سببٌ في حكمته ﷻ وحُكْمِه في أمرهم، والمعنى: ﴿عَلِيمٌ﴾ بما في قلوب هؤلاء المؤمنين ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما يحكم فيهم، ويقضي عليهم[3].

وفي التقديم ترتيبٌ، فالحكمة تكون بعد العلمِ، وهي مسبَّبة عنه، والله أعلم.

فائدةُ تنكيرِ الاسمين الجليلين:

التَّنكير لإرادة التَّعميم والتَّعظيم، أي: عليمٌ بكلِّ شيء، حكيمٌ في كل أحكامه، فهو سبحانه ﴿عَلِيمٌ﴾ بما في قلوب هؤلاء المؤمنين، ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما يحكم فيهم، ويقضي عليهم[4].

لا يعزب شيءٌ عن علم الله، ولا يخرج شيء عن بديع حكمته

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/28.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 9/15.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 16/145.
(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 16/145.

كما أنَّ وضْعَ الاسم الظّاهر موضعَ الضَّمير فيه إشارة إلى استقلال الجملة ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾، وبهذهِ الاستقلاليَّةِ تكون الجملة بمنزلةِ قضيَّةٍ كليَّة لها صفة العموم[1]، فاللّه سبحانه عليم بكلِّ ما يقع في المستقبل ممّا غِيبَ عليكم، حكيمٌ يقدِّر الأمور في نطاق حكمته[2].

غرضُ صيغ المبالغة في: ﴿عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾:

لله سبحانه مطلقُ الكمال، ومجمعُ صفات الجلال والجمال

صيغُ المبالغة هنا للدِّلالة على كمال الصِّفتين؛ إذ أُطلِقت على مستحقٍّ للكمال أو الكثرة فيهما، وهو إطلاق على وجه الحقيقة لا على سبيل المبالغةِ، فما يُسمّى بصيغ المبالغة؛ إذا أطلقت على اللّه ﷻ؛ فهي مطلقةٌ بحسب وضعها اللُّغوي، ولا مبالغة فيها[3].

فاللّه عليمٌ بما في قلوب هؤلاءِ المؤمنين، وحكيمٌ فيما يُنفِّذه من تنعيمِ مَن شاء، وتعذيبِ مَن شاء؛ لا ربَّ غيره ولا معبودَ سواه[4].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

آخَرُ وغيرُ:

(آخَر) مع المتفق في الجنس، و(غير) مع المغاير في الجنس أو في الصِّفة

الفرق بينهما: أنَّك لو قلت: جاء زيدٌ وآخر معه، أو مررْتُ بامرأة وأخرى معها، أو اشتريت فرسًا وآخر، وسابقت بين حمارٍ وآخرَ، لم يكن آخرُ ولا أخرى مؤنَّثَهُ، ولا تثنيته ولا جمعه إلا من جنس ما يكون قبلَهُ، ولو قلت: اشتريت ثوبًا وآخر، ويعني به: غيرَ ثوب، لم يجز؛ لأنَّ غيرًا تقع على المغاير في جنس أو في صفة، فتقول: اشتريت ثوبًا وغيرَهُ، فيحتمل أن يكون ثوبًا، ويحتمل أن يكونَ غيرَ ثوب[5].

(1) حسن، بلاغة اللغة: 2/104.
(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 7/3441.
(3) حسن، بلاغة اللغة: 2/456 - 457.
(4) ابن عطية، المحرر الوجيز: 3/80.
(5) أبو حيان، البحر المحيط: 4/92، 93.

الإرجاءُ والإمهالُ والإنظارُ:

الإرجـاء تأخيرٌ مشعِرٌ بانتظار شيء محبوب غالبًا

الفرق بينها: أنَّ الإرجاء: تأخيرٌ ما حَلَّ وقتهُ أو تُوُقِّع حلولُه[1]؛ فهو تأخيرٌ مُشعِرٌ بانتظار شيء[2]، مع ملاحظة أنَّ هذا الشَّيءَ محبوبٌ غالبًا، وقال المُبرِّد: "لا يقال: أرجيته بمعنى: أخَّرته، ولكن يكون من الرَّجاء"[3]، والإنظار: مقرونٌ بمقدار ما يقع فيه النَّظر، والإمهال مبهمٌ، وقيل: الإنظارُ تأخيرُ العبدِ لينظر في أمره، والإمهالُ تأخيرهُ ليسهل ما يتكلَّفه من عمله[4].

ولـمّا كانوا منتظرين أمرَ الله في شأنهم، وكانوا على رجاء أن يغفرَ لهم، ويرحمَهم، ويتوبَ عليهم، وكان هذا أمرًا محبوبًا لهم مرغوبًا فيه؛ ناسب ذلك لفظُ الإرجاء دون الإمهال والإنظار.

(1) جبل، المعجم الاشتقاقي: (رجأ).
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/28.
(3) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 8/252.
(4) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 202.

﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسۡجِدٗا ضِرَارٗا وَكُفۡرٗا وَتَفۡرِيقَۢا بَيۡنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ
وَإِرۡصَادٗا لِّمَنۡ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبۡلُۚ وَلَيَحۡلِفُنَّ إِنۡ أَرَدۡنَآ
إِلَّا ٱلۡحُسۡنَىٰۖ وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ١٠٧ لَا تَقُمۡ فِيهِ أَبَدٗاۚ
لَّمَسۡجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقۡوَىٰ مِنۡ أَوَّلِ يَوۡمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِۚ فِيهِ
رِجَالٞ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُطَّهِّرِينَ ١٠٨﴾ [التوبة: 107 - 108]

مُناسَبَةُ الآيَتَينِ لِمَا قَبْلَهُما:

مِـنَ المنافقين جماعةٌ اتّخذوا مَسجدًا ضِرارًا وفتنةً وكُفرًا

لـمَّا ذكرَ اللّه ﷻ "أصنافَ المنافقين، وبَيَّنَ طرائقَهمُ المختلفةَ، عَطَف على ما سبقَ هذه الطّائفةَ منهم، وهمُ الّذين اتَّخَذوا مسجدًا ضِرارًا"[1]؛ فبعدَ الحديثِ الطّويل المتنوِّعِ عنِ النّفاق والمنافقين، خَتمتِ السّورةُ الكريمةُ حديثَها عن مسجدِ الضِّرارِ الّذي بناه المنافقون ليكونَ مكانًا للإضْرارِ بالإسلام والمسلمين[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مَسۡجِدٗا﴾: (سجد) أصلٌ يَدلُّ على تَطامُنٍ وذُلٍّ، وكلُّ ما ذَلَّ فقد سَجَد، وجُعِلَ ذلك عبارةً عنِ التّذلُّل للّه وعبادَتِه، ومنه سُجودُ الصّلاةِ، وهو وضْعُ الجَبْهةِ على الأَرْضِ، والمَسْجِدُ: موضعُ الصّلاة الَّذي يُسْجَدُ فيهِ اعتبارًا بالسّجودِ[3].

2) ﴿ضِرَارٗا﴾: (ضرر) أصلٌ يدلُّ على خِلَافِ النَّفْعِ، الضُّرُّ: سوءُ الحال، إمّا في نفسه لِقلَّةِ العلمِ والفضلِ والعفَّةِ، وإمّا في بَدَنِه لعدمِ جارحةٍ ونقصٍ، وإمّا في حالةٍ ظاهرةٍ من قلّة مالٍ وجاهٍ. والضِّرارُ

(1) القنّوجيّ، فتح البيان: 5/394، ويُنظر: الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 16/146.
(2) طنطاويّ، الوسيط: 6/401.
(3) الجوهريُّ، الصِّحاح، وابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (سجد).

فِعالٌ مِنَ الضُّرِّ. والمُضارَّةُ، والمَضَرّة: خِلافُ المَنْفعة. وضَرَّهُ يَضُرّه ضَرًّا، وضَرَّ به وأَضَرَّ به وضَرَّهُ مُضارَّةً وضِرارًا؛ بِمَعْنًى، وقوله تعالى: ﴿مَسْجِدًا ضِرَارًا﴾ [التّوبة: 107]، بمعنى المُضارَّةِ لمسجد قُباءٍ وللمؤمنين[1].

3) ﴿وَإِرْصَادًا﴾: (رصد) أصلٌ، وهو التَّهيُّؤُ لِرِقْبَةِ شيء على مَسلَكِه، الرَّصَدُ: الاستعدادُ للتَّرقُّب، الرّاصدُ للشّيء: المراقبُ له، والتَّرَصُّدُ: التَّرَقُّبُ[2]، قال ﷻ: ﴿وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ﴾ "والإرصادُ: الانتظارُ، فانتظَروا به مجيءَ أبي عامرٍ، وهو الّذي حارب اللّهَ ورسولَه من قبلِ بناءِ مسجدِ الضِّرار"[3].

4) ﴿حَارَبَ﴾: (حرب) أَصلٌ يَدلُّ على السَّلْبِ، والحَرْبُ: نَقِيضُ السِّلم، فالسَّلْبُ من أهمّ أهدافِها، وَجَمْعُها حُرُوبٌ. يُقالُ: وقَعَتْ بينهمْ حَرْبٌ، ودارُ الحَرْبِ: بلادُ المُشْرِكِينَ الَّذِينَ لا صُلْحَ بينهم وبين المسلمِين. وَقَدْ حاربَه مُحارَبةً، والمفاعلةُ للمحاولةِ، أو لِتَبادُلِ السَّلَبِ بين الطّرفَيْن[4].

5) ﴿وَلَيَحْلِفُنَّ﴾: (حلف) أَصْلٌ يَدلُّ على المُلازَمَةِ، يُقالُ: حالَفَ فُلانٌ فُلانًا، إذا لازَمَهُ. ومِنَ البابِ: الحَلِفُ؛ يُقالُ: حَلَفَ يَحْلِفُ حَلِفًا؛ وذلك أنَّ الإنْسانَ يَلزمُهُ الثَّباتُ عليها. الحَلْفُ والحَلِفُ: القسَمُ واليَمينُ، وأَصلُها: العقْدُ بالعَزْمِ وَالنِّيَّةِ، وحَلَفَ: أَقْسَم، يَحْلِفُ حَلْفًا وحَلِفًا[5].

6) ﴿ٱلْحُسْنَىٰ﴾: (حسن): أَصْلٌ يَدلُّ على خِلافِ القُبْحِ، والحُسْنُ: كلّ مُبْهِجٍ مرغوبٍ فيه، وذلك ثلاثةُ أَضْرُبٍ: مُستحْسَنٌ من جهة العقلِ، ومُستحْسَنٌ من جهة الهوى، ومُستحْسَنٌ من جهة الحِسِّ. والحُسنى: ضدُّ السُّوأَى، والحسنةُ: كلُّ ما يَسُرُّ من نعمةٍ تَنالُ الإنسانَ في نفسِه وبدنِه وأحوالِه. والفرقُ بينَ الحَسن والحسنةِ والحُسنى: أنَّ (الحَسَنَ) يُقال في

(1) الجوهريُّ، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (ضرر)، وابن الجوزيّ، زاد المسير: 2/297، والخازن، لباب التّأويل: 2/406.

(2) الجوهريّ، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (رصد).

(3) ابن الجوزيّ، زاد المسير: 2/297.

(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصَّل: (حرب).

(5) الجوهريّ، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (حلف).

الأعيان والأحداثِ، وكذلك (الحَسنَةُ) إذا كانت وصْفًا، وإذا كانتِ اسمًا فمُتعارَفٌ في الأحداثِ، و(الحُسْنَى) لا يُقال إلّا في الأحداثِ دون الأعيانِ[1].

7) ﴿لَا تَقُمْ﴾: (قوم) أَصْل يَدُلُّ على انْتِصابٍ أو عَزْمٍ، القِيامُ: نَقِيضُ الْجُلُوسِ، قامَ يَقومُ قِيامًا، فهو قائِمٌ، والقِيامُ على أَضْرُبٍ: قيامٌ بالشّخص؛ إمّا بتسخير أوِ اختيارٍ، وقيامٌ للشَّيءِ هو المراعاةُ للشّيء والحفظُ له، وقيامٌ هو على العزم على الشّيء. ومِنَ القِيامِ الّذي هو العزمُ قولُه تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾ [المائدة: 6]، وقولُه: ﴿يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [المائدة: 55]، أي: يُديمون فِعْلَها ويحافظون عليها[2]، وقولُه تعالى: ﴿لَا تَقُمۡ فِيهِ أَبَدٗاۚ﴾، أي: لا تُصَلِّ فيه أبدًا[3].

8) ﴿أُسِّسَ﴾: (أسّ) أصلٌ يدلُّ على الأصلِ والشَّيءِ الوَطيدِ الثَّابتِ، فالأُسُّ: أصلُ البناء، أي: قاعدتُه، والأساسُ: أصلُ الشَّيءِ الّذي يُبنَى عليه ذلك الشَّيءُ، وكُلُّ مُبتدأِ شيءٍ. ويُستعارُ ذلك في المعاني فيُقالُ: أسَّسَ أمرَهُ على خيرٍ أو شرٍّ[4]. قال تعالى: ﴿أَفَمَنۡ أَسَّسَ بُنۡيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقۡوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٍ﴾، أي: "وَضَعَ أساسَ ما يَبْنيه"[5].

9) ﴿يَتَطَهَّرُواْۚ﴾: (طهر) أَصْلٌ يَدُلُّ على نَقاءٍ وزَوالِ دَنَسٍ. ومن ذلك: الطُّهْرُ، خِلافُ الدَّنَسِ ونَقيضُ النَّجاسَةِ، والتَّطَهُّرُ: التَّنَزُّهُ عنِ الذَّمِّ وَكُلِّ قَبيحٍ. والطَّهارَةُ ضَرْبانِ: طَهارَةُ جسمٍ، وطَهارَةُ نَفْسٍ، قال تعالى: ﴿وَيُحِبُّ ٱلۡمُتَطَهِّرِينَ﴾، أي: التّارِكين للذَّنْبِ، والعامِلين للصَّلاحِ[6]، وقال تعالى: ﴿فِيهِ رِجَالٞ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُطَّهِّرِينَ﴾، فإنّه يعني تَطْهيرَ النّفسِ، "أي: مِنَ الشِّركِ والنِّفاقِ والأَنْجاسِ"[7].

المَعْنى الإجْماليُّ:

يُخبرُ اللّه تعالى عن قصّةٍ أخرَى من قصصِ المنافقين، ومكيدةٍ من مكايدِ جماعةٍ منهم، وهمُ الّذين بنَوا مسجدًا مُضارَّةً للمؤمنين وكُفرًا باللّه، وتفريقًا بين المؤمنين؛

(1) الجوهريّ، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (حسن).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (قوم).
(3) الواحديّ، البسيط: 11/48.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (أسّ، أسس).
(5) النّسفيّ، مدارك التّنزيل: 1/710.
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (طهر).
(7) الواحديّ، البسيط: 11/51.

ليصلّيَ فيه بعضُهم ويتركَ مسجدَ (قباء)، فيختلفَ المسلمون ويتفرّقوا بسببِ ذلك، وانتظارًا لِمَنْ حاربَ اللّهَ ورسولَه، وهو أبو عامرٍ الرّاهبُ الفاسقُ، ليكونَ مكانًا للكَيْدِ، ولَيحلفُنَّ أنّهم ما أرادوا ببنائِه إلّا الخيرَ والرّفقَ بالمسلمين والتَّوسعةَ على الضّعفاء العاجزين عنِ السّير إلى مسجدِ (قباء)، واللّه يشهدُ إنّهم كاذبون فيما يَحلفون عليه. ونَهى اللّه تعالى نبيَّه ﷺ عنِ الصّلاة في ذلك المسجدِ؛ فإنّ المسجدَ الّذي أُسِّسَ على التّقوى من أوّلِ يومٍ أولَى أن تقومَ فيه للصّلاة، إذ فيه رجالٌ يحبّون أن يَتطهّروا بالماء منَ النّجاسات والأقذارِ، كما يتطهّرون بالتّورّعِ والاستغفارِ منَ الذّنوب والمعاصي، واللّه يحبُّ المتطهِّرين[1].

بناءُ مسجدِ الضِّرارِ بالمبادَرةِ الكائدةِ، يُنبئُ ببُطلانِ العملِ بالنّيّةِ الفاسدةِ

قِصّةُ مسجدِ الضِّرارِ:

كان بالمدينة قبْلَ مَقْدَمِ رسولِ اللّه ﷺ إليها رجلٌ منَ الخزرجِ يُقال له: أبو عامرٍ الرّاهبُ، كان قد تنصّرَ وقرأ علْمَ أهلِ الكتاب، وكان له منزلةٌ كبيرةٌ فيهم، فلمّا قدِم رسولُ اللّه ﷺ إلى المدينة مهاجرًا واجتمعَ عليه المسلمون، وعَلَتْ كلمةُ الإسلام، وأظهرَه اللّه على أهلِ الشّرك خرج فارًّا إلى مكّةَ، وألَّبَ المشركين على النّبيّ ﷺ في وقْعةِ أُحدٍ، وخاطب قومَه الأنصارَ؛ ليَستميلَهم إلى نصْرِه، فَسَبّوه وردّوه أقبحَ ردٍّ. ولمّا فرغَ النّاسُ منَ الموقعةِ، فرَّ إلى هِرَقْلَ ملكِ الرّوم يَستنْصرُه، فوعدَه وحباه، وكتبَ أبو عامرٍ إلى جماعة من قومِه من أهلِ النّفاقِ أنّه سيَقْدُمُ بجيش يقاتلُ به محمّدًا ﷺ ويغلبُه، وأمرَهم أن يتّخذوا له مَعْقِلًا يأوي إليه، ويكونَ مرصدًا له إذا قَدِم عليهم بعد ذلك. فشَرعوا في بناء مسجدٍ مجاورٍ لمسجد قُباءٍ، فبَنَوه وأحكَموا بناءَه وفرَغوا منه قبل خروج رسولِ اللّه ﷺ إلى تبوكَ، وجاؤوا فسَألوه أن يصلّيَ فيه ليكونَ ذلك ذريعةً إلى تقريره لإثباتِه، وذكروا

ما كان بناؤه للضِّرارِ والتّفريقِ، لم يُغنِ عنه شِعارٌ ولا تزويقٌ

(1) جماعة من العلماء، التّفسير الميسَّر، ص: 204.

أنّهم إنّما بَنَوه للضّعفاءِ منهم وأهلِ العِلّةِ في اللّيلةِ الشّاتيةِ، فعَصَمه اللّه منَ الصّلاةِ فيه، فقال: "إنّا على جَناح سفَرٍ، ولكنْ إذا رجعنا إن شاء اللّه"[1]. ولمّا قفل ﷺ راجعًا إلى المدينة من تبوكَ ولم يبقَ بينه وبينها إلّا يومٌ أو بعضُ يوم؛ نزل عليه جبريلُ عليه السلام بخبر مسجدِ الضِّرارِ وما اعتمدَه بانوهُ منَ الكفر والتّفريقِ بين جماعةِ المؤمنين في مسجدِهم (مسجدِ قباء) الّذي أُسّس من أوّل يوم على التّقوى، فبعث رسولُ اللّه ﷺ إلى ذلك المسجد مَنْ يَهْدِمُه قبل مَقدَمِه المدينةَ، وأمرَ أن يُتّخذَ كُناسَةً تُلقَى فيها القُمامةُ إهانةً لأهله[2].

سببُ نزولِ الآياتِ:

"عن ابن عبّاسٍ رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسۡجِدٗا ضِرَارٗا﴾ هم أناسٌ منَ الأنصار ابتَنوا مسجدًا، فقال لهم أبو عامرٍ: ابْنوا مسجدَكم، واستعدُّوا بما استطعتُمْ من قوّة ومن سلاحٍ، فإنّي ذاهب إلى قيصرَ ملكِ الرّوم، فآتي بجندٍ منَ الرّوم، فأُخْرِجُ محمّدًا وأصحابَه، فلمّا فَرغوا من مسجدِهم، أتوا النّبيَّ ﷺ فقالوا: قد فرغْنا من بناء مسجدِنا، فنحبُّ أن تصلّيَ فيه، وتدعو لنا بالبركة، فأنزل اللّه تعالى فيه: ﴿لَا تَقُمۡ فِيهِ أَبَدٗاۚ لَّمَسۡجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقۡوَىٰ مِنۡ أَوَّلِ يَوۡمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِۚ﴾، إلى قوله: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾"[3].

ما بُنِيَ على باطلٍ فهو زاهقٌ، والله عاصمٌ رسولَه الأكرمَ من كلِّ منافقٍ

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بَلاغةُ توجيهِ القراءاتِ المتواترةِ بين الاستئنافِ أوِ العطفِ:

قولُه جلّ شأنُه: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسۡجِدٗا ضِرَارٗا﴾ قُرئ بالعطف والاستئنافِ، فقد قرأ نافعٌ وابنُ عامر وأبو جعفر بحذف الواو، وقرأ

الاستئنافُ لبيانِ الاختلافِ، والعطفُ لبيانِ ما في النّفاقِ من أصنافٍ

(1) الصّالحيّ، سبل الهدى والرّشاد: 5/471.
(2) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/210 - 211، والمراغيّ، تفسير المراغيّ: 11/25.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 14/470، والبيهقيّ، دلائل النّبوّة: 5/263، والواحديّ، أسباب النُّزول، ص: 259، وقال محقّقه: إسناده صحيح.

الباقون بإثبات الواو[1]؛ أمّا العطفُ فعلى قوله تعالى: ﴿وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ﴾؛ لأنّها مثلُها في ذِكْرِ فريقٍ آخرَ مثلِ مَنْ ذكر فيما قبْلَها، فعطفَ قصّةَ مسجدِ الضّرارِ الّذي أحدثَه المنافقون على سائر قصصِهم، أي: ومنهم الّذين اتّخذوا[2]. أمّا الاستئنافُ فلأنّها قصّةٌ مستقلّةٌ جديدةٌ، وفائدةُ الاستئنافِ التّنبيهُ على الاختلافِ بين حالِ المرادِ بها، وبين حالِ المرادِ بالجملةِ الّتي قبلَها وهمُ المُرْجَونَ لأمرِ اللّه[3].

نُكْتَةُ الابتِداءِ بالاسْمِ الموصولِ، وبيانُ خبرِه:

النّهيُ عنِ صلاةِ النّبيِّ المختارِ، في المسجدِ الّذي اتُّخذَ للضِّرارِ

ابتدأَ بالموصولِ في قولِه ﷻ: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسْجِدًا ضِرَارًا﴾ ذمًّا لهم؛ لأنّهم قومٌ معروفون بنفاقِهم، وذكرَهمُ المفسّرون باسْمِهم، وهم "منافقو بني غَنْم بن عوف وبني سالم بن عوف"[4]. وخبرُه يجوزُ أن يكون محذوفًا، أي: ومِمّن ذكرْنا الّذين[5]، ويجوزُ أن يكونَ الجملةَ: ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا﴾، والرّابطُ الضّميرُ في الجارِّ والمجرور ﴿فِيهِ﴾؛ لأنّه عائدٌ إلى المسجد المذكورِ في صلةِ الموصول، والتّقديرُ: لا تَقُمْ في مسجدٍ اتَّخذوه ضِرارًا، أو في مسجدِهم[6].

دَلالةُ التّعبيرِ بصيغة الافتعال في ﴿ٱتَّخَذُواْ﴾:

إخراجُ المسجدِ عن غايتِه، جعلَه مَثابةً للكفرِ والكيْدِ من بدايتِه

عبّرَ البيانُ القرآنيُّ في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسْجِدًا ضِرَارًا﴾ عن جَعْلِهم المسجدَ الّذي بنَوْه للضَّرر بالمؤمنين والكفرِ وغيرِه بالاتّخاذ؛ للدّلالةِ على أنّهم قصَدوا ذلك، وأصَرّوا عليه، وعقَدوا عليه العزمَ؛ لأنّ الاتّخاذَ على وزنِ (الافتعال) مِن (أخذَ)[7]،

(1) ابن الجزري، النشر: 2/281.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/309، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/80.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/101، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/29.
(4) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/81.
(5) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 16/147.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/29.
(7) الرّاغب، المفردات: (أخذ).

والافتعالُ يدلُّ على التّكلّفِ والقصْدِ، كما يدلّ على أنّهم أَخرَجوا المسجدَ عن غايتِه المعروفةِ؛ فالأصلُ في المسجدِ أن يُبنى للعبادة، ولكنّهم بَنَوه ظاهرًا للعبادة ثمّ حوَّلوهُ وجعَلوه لتلك المآربِ الضّالّةِ.

الموقعُ النّحويُّ للمنصوباتِ في الآيةِ:

غايةُ الكيْدِ العامدةُ، عصفتْ بمؤامرةِ النّفاقِ الفاسدةِ

ذهب جمهرةٌ مِن أئمَّة التّفسير إلى أنّ المنصوباتِ في قوله تعالى: ﴿مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا﴾ إنّما نُصبت لبيانِ الغايةِ من ذلك المسجدِ، فهي مفعولٌ لأجلِه، أي: اتّخَذوا المسجدَ للضِّرار والكفرِ والتّفريقِ والإرصادِ، فهو بيانٌ لعلَّةٍ[1]؛ فهو لإظهار قصْدِهم من بنائِهم ذلك المسجدَ.

وتركيبُ الجملة يَحْتَمِلُ أن تُعربَ هذه المنصوباتُ أكثرَ من إعرابٍ، فيجوزُ بالإضافة إلى كونِها مفعولًا لأجله أن تكون مفعولًا ثانيًا للفعل ﴿ٱتَّخَذُواْ﴾، أو مفعولًا مطلَقًا، أي: يُضارّون بذلك ضِرارًا، أو حالًا، أي: مُضارّينَ لإخوانهم، وكلُّ هذه الأوجهِ متساويةُ الرُّجْحانِ[2].

نُكْتَة التَّنكيرِ في الآية:

كلُّ مسجدٍ بُني لغيرِ رضوانِ اللهِ، يُلحقُ بِمَسْجِدِ الضِّرارِ في العنوانِ

جاءت هذه الألفاظُ بالتّنكيرِ في قوله جلَّ شأنُه: ﴿مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا﴾ لأغراضٍ متنوّعةٍ؛ فقد يكونُ التّنكيرُ للتّعميم؛ ليشملَ أوّلًا: كلَّ المساجدِ الّتي تُتَّخذُ لذلك القصْدِ الضّالّ، فيكونُ الوصفُ عامًّا لا خاصًّا بهذا المسجدِ. وثانيًا: ليشملَ كلَّ أنواع الإضرارِ والكفرِ والتّفريقِ والإرصادِ، فجاء الكلامُ على مقصَدِ الشّمولِ، فكلُّ "مسجدٍ بُنِيَ مباهاةً أو رياءً وسمعةً أو لغرضٍ سوى ابتغاءِ وجهِ اللّه أو بمال غيرِ طيّبٍ، فهو لاحِقٌ بمسجد الضِّرارِ"[3]، وقد يكونُ للتّحقيرِ تهوينًا من شأنها،

(1) الزّجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 2/468، وابن الجوزيّ، تذكرة الأريب، ص: 146، والقرطبيُّ، الجامع لأحكام القرآن: 8/254.

(2) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 4/173.

(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/310.

ويمكنُ حملُها على التّعظيم على اعتبارِ أنّه ضررٌ وكفرٌ وتفريقٌ وإرصادٌ يتّصفُ بالعِظَم.

بَلاغةُ حذْفِ مُتعلّقاتِ: ﴿ضِرَارًا﴾ و﴿وَكُفْرًا﴾:

في قوله ﷻ: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا﴾ حذَفَ متعلِّقَ الإضرارِ والكفرِ، فذكرَهما على وجه الإطلاقِ؛ وبيّن أنّ المرادَ الإضرارُ بالمؤمنين، سواءً قصدَ بهم أهلَ قباء خاصّةً أو عامّةَ المؤمنين، وبيّن أنّ المرادَ بالكفرِ كفرُهم باللّه تعالى ورسوله ﷺ[1].

الإطلاقُ والتّقييدُ، بسببِ أغراضِ الضِّرارِ، وأسبابِ الكُفرِ العتيدِ

فحذَفَ متعلِّقاتِ الضّرارِ والكفرِ؛ فلم يقل مثلًا: ضرارًا للدّين وكفرًا بالإيمان، كما قال: ﴿وَتَفْرِيقًا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ﴾؛ إيجازًا في التّعبير، وتعويلًا على وضوح معناها، كما أنّ فيه تعميمًا لكلّ ضررٍ منهم، وكُفرٍ يصدرُ عنهم.

أمّا قولُه تعالى: ﴿وَتَفْرِيقًا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ فقد خصَّ التَّفريقَ بأنّه كائنٌ بين المؤمنين، وأنّ الإرصادَ خاصٌّ لِمَنْ حارب اللّه ورسولَه ﷺ، ولم يعمِّمْهما كما في الإضرارِ والكفرِ؛ لأنّ الإرصادَ والتّفريقَ لا يتعلّق بمعروفٍ ومحدَّدٍ، فلو حُذف ما فُهم المرادُ.

نُكْتَةُ التّرتيبِ في العطف بين عِللِ اتّخاذِ المسجدِ:

في قوله تعالى: ﴿ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا﴾ ذكر ﷻ أنّ بناءَهمُ المسجدَ كان له أربعةُ أهداف: "الأوّل: الضّرارُ وهو المُضارّةُ، والثّاني: الكفرُ بالنّبيّ ﷺ، وبالإسلام؛ وذلك أنّهم أرادوا تقويةَ أهلِ النّفاق، والثّالث: التّفريقُ بين المؤمنين؛ لأنّهم أرادوا أن لا يحضُروا مسجدَ قباء فتقِلَّ جماعتُهم، ولا سيّما إذا صلّى النّبيّ في مسجدِهم، فيُؤدّي ذلك إلى اختلاف الكلمةِ وبُطلانِ الأُلفةِ،

ترتيبُ الأسبابِ مِنَ الأعمِّ إلى الأخصِّ، مُبينٌ عنِ المرادِ، مُسفِرٌ عنِ المعنى المُستفادِ

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 9/16، والعليميّ، فتح الرَّحمن: 3/240.

والرّابع: قولُه: ﴿وَإِرۡصَادٗا لِّمَنۡ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾"[1]. وجاء التّرتيبُ في هذه الأسباب حيث بدأ منَ الأعمّ إلى الأخصِّ؛ فالإضرارُ سببٌ عامّ يشملُ جميعَ ما ذُكر بعده، والكفرُ بتقويةِ أهل النّفاقِ وإضرارِ المؤمنين، والتّفريقُ أخصُّ منَ الإضرار والكفرِ، والإرصادُ لِمَنْ حارب اللّه ورسولَه أخصُّ المذكوراتِ.

معنى اللّام في: ﴿لِّمَنۡ﴾، في السّياق:

أدخل اللّامَ في قوله تعالى: ﴿لِّمَنۡ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ للدّلالةِ على العلّة، أي: إعدادًا لأجلِ هذا المنافقِ الّذي حاربَ اللّه ورسولَه [2]ﷺ، فكان المقصودُ بذلك الإرصادَ الّذي حاربَ الإسلامَ، فهو إرصادٌ مخصوصٌ.

الغرَضُ من بناءِ المسجدِ، إرصادٌ خاصٌّ بمَنْ حاربَ الله ورسولَه

معنى (مَن) في: ﴿لِّمَنۡ حَارَبَ﴾:

عبّرَ عنِ الّذي حاربَ الإسلامَ بـ (مَن) في قوله جلّ شأنُه: ﴿لِّمَنۡ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ والمُراد به "أبو عامرٍ الرّاهبُ؛ لأنّه حاربَ رسولَ اللّه ﷺ مع الأحزاب، وحاربَه مع ثقيفٍ وهَوازنَ"[3]. وإنّما عبّرَ عنه بالموصول دون ذِكْر الاسمِ تعميمًا للحُكم؛ فلا يختصُّ به وإن كان السّياقُ فيه فإنّ العبرةَ بعمومِ اللّفظ، أي أنّهم أرادوا الإرصادَ به لكلِّ مَنْ يحاربُ الإسلامَ، وليس لشخصٍ واحدٍ بعينه، كما أنّ فيه إغفالًا عن ذكرِه تحقيرًا له وتهوينًا من شأنِه.

جعَلوا المسجدَ مثابةً لكلّ عدوٍّ للإسلامِ، ليكونَ مُنطلَقَ غُرورِه وشُرورِه

دَلالةُ التّعبيرِ بصيغة فاعَلَ في: ﴿حَارَبَ﴾:

تقدّمَ أنّ الحربَ أَصلٌ يدلّ على السَّلْبِ، وعبّرَ بالفعل على وزن (فاعل) في قوله تعالى: ﴿لِّمَنۡ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾، وهذه الصّيغةُ تدلُّ على المفاعلةِ، قال سيبَوَيْه: "اعلم أنّك إذا قلتَ: فاعلتُه، فقد

الحربُ مشاركةٌ بين طرفَيْن، ونِزال بين طائفتين

(1) النّيسابوريُّ، غرائب القرآن: 3/528.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/310، والعليميّ، فتح الرّحمن: 3/241.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/30.

كان من غيرك إليك مثلُ ما كان منك إليه حين قلتَ: فاعلتُه. ومثل ذلك: ضاربتُه وفارقتُه"[1]. فتدلُّ على المشاركة، ولكنَّ البادئَ بالفعل مَنْ كان فاعلًا، ففي قولنا: ضاربَ زيدٌ عَمْرًا، يُنسبُ أصلُ الضّرب إلى زيدٍ صراحةً، ولكنّه يجيءُ من عمرٍو ضِمنًا، وانتصابُ عمرٍو على أنّه مشارِكٌ وليس على أنّه مضروبٌ[2]، وفي الآية يدلّ على أنّه أعلنَ حربَه على الإسلامِ، وأنّ المحاربةَ منَ اللّه تعالى ورسولِه له على المشاركة؛ لأنّ اللّه تعالى لا يبدأُ أحدًا بحربٍ ما لم يكن قد ولجَ هو إليها، وتدلُّ صيغةُ المفاعلة على المبالغة أيضًا؛ لأنّهم بفعلَتِهم هذه قد تمادَوْا في العِصيان.

بَلاغةُ المجازِ العقليّ في: ﴿حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾:

في نسبة المحاربةِ إلى اللّه في قوله ﷻ: ﴿حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ مجازٌ عقليٌّ، أراد محاربةَ الدّين؛ إذ ليس في وُسْعِ أحدٍ محاربةُ اللّه تعالى، واللّه ﷻ لا يُحارَبُ، فالمرادُ بالمحاربةِ محاربةُ الدّين، والعلاقةُ السّببيّةُ، فسببُ الدِّين هو اللّه تعالى ونبيُّه ﷺ، فذكرَ المسبِّبَ وأراد المسبَّبَ، وهو الدّينُ، وعبّرَ بذلك تشنيعًا لهذه المحاربةِ بإظهار لفظِ الجلالةِ.

لا يَسَعُ أَحدًا مُحاربةُ اللّه تعالى، وإنّما حارَبوا دينَه العظيمَ، وهدْيَه القويمَ

فائدةُ عطْفِ الرّسولِ ﷺ في: ﴿وَرَسُولَهُۥ﴾:

في قوله جلّ شأنُه: ﴿حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ عَطَف الرَّسولَ على اللّه تعالى، وكان المقصودُ بالمحاربة هو النّبيُّ بالدّرجةِ الأساسِ، وإنّما ذِكْرُ اللّه تعالى في هذا السّياق كان لغرضِ تعظيم محاربةِ النّبيّ ﷺ؛ فالّذين يحاربون النّبيَّ إنّما يحاربون اللّه، فذِكْرُ اللّهِ تعالى تمهيدٌ لتعظيم رسولِه ﷺ، وبيانٌ لشَناعةِ محاربتِه ﷺ"[3].

مُحاربةُ النّبيّ ﷺ من مُحاربةِ اللّه تعالى

(1) سيبويه، الكتاب: 4/68.
(2) الرّضيّ، شرح الشّافية: 1/96.
(3) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاوي: 9/334، وابن كمال باشا، تفسير ابن كمال باشا: 4/445.

نُكْتَة إضافةِ الرَّسولِ إلى ضميرِ الذّاتِ العَليَّةِ:

عظَّمَ الله شأنَه بإضافتِه إليه، تكريمًا وإبرازًا لمقامِه لدَيْه

آثر النّظمُ الكريمُ أن يأتي لفظُ الرّسول في قوله تعالى: ﴿وَرَسُولَهُۥ﴾ معرَّفًا بالإضافة دون التّعريف بالألف واللّام؛ تشريفًا لشأن النّبيِّ ﷺ؛ وذلك بإضافته إلى الضّمير المعبِّرِ عنِ الذّاتِ العَليَّةِ؛ إذِ المضافُ يكتسبُ منَ المضاف إليه التّعريفَ، أمّا إذا أضيفَ إلى الشّريفِ فإنّه يكتسبُ مع المعرفةِ التّشريفَ، وأَعْظِمْ به من تعريفٍ وتشريفٍ بإضافة المعرَّفِ إلى الخالقِ العظيمِ!

معنى ﴿مِن﴾ في: ﴿مِن قَبْلُ﴾:

بيانُ أنّ ابتِداءَ محارَبتِهم الإسلامَ، كانت قبلَ اتّخاذِهم المسجدَ ضِرارًا

عبّرَ عن ابتداءِ زمانِ محاربتِهم في قوله تعالى: ﴿لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ﴾؛ إذ إنّ (مِن) ابتدائيّةٌ، وهذا يدلّ على أنّ محاربتَهم كانت قبل اتّخاذِ هذا المسجدِ للضِّرار، كما أنّه يدلُّ على أنّهم اتّخذوا ذلك المسجدَ لذلك المقصَدِ قبل أن يُنافِقَ هؤلاء بالتّخلُّف[1].

فائدةُ التّعبيرِ بشِبْهِ الجملةِ: ﴿مِن قَبْلُ﴾:

إفادةُ أنّ وقتَ محارَبتِهم، كان قبلَ بناءِ المسجدِ بزمانٍ قريبٍ

دلَّ الظَّرفُ في قوله جلّ شأنُه: ﴿حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ﴾ أنّ بداية محاربتِهم لم تكن متوغِّلةً في القِدَم؛ إذ "لـمّا لم تكن محارَبتُهم مُستغرِقةً للزّمن الماضي، أدخل الجارَّ فقال: ﴿مِن قَبْلُ﴾، أي: قبل اتّخاذِهم لهذا المسجدِ بزمنٍ قريبٍ"[2]. فليس الزّمانُ مطلَقًا، بلِ ابتدأ قبْلَ بناءِ المسجد الّذي يعرفون وقتَ بنائِه، وإنّما عرفوه لكونِه قريبَ عهْدٍ وما زال الحديثُ جاريًا فيه، فهو تعبيرٌ عن أحداثٍ متتاليةٍ متسارعةٍ، حارَبوا فبَنَوا مسجدًا مَثابَةً لهم.

معنى الواو في: ﴿وَلَيَحْلِفُنَّ﴾:

قولُه ﷻ: ﴿وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ﴾ افتتحَ بالواو، ويَحتمِلُ

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/310، وابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 10/204، وابن كمال باشا، تفسير ابن كمال باشا: 4/445.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/16 - 17.

فيها أن تكونَ عاطفةً على ﴿ٱتَّخَذُواْ﴾، أوِ استئنافيّةً، أو حاليّةً، وتكونَ الجملةُ معترِضةً، أو في موضع الحالِ[1]، وتقديرُ الحاليّةِ: اتّخَذوا المسجدَ في حالة يمينِهم أنّهم قصَدوا به الإحسان للمسلمين، أمّا الاعتراضُ فَللرَّدِّ على انْطلاءِ شُبَهِهم على النّاس؛ إذ لمّا أمرَ النّبيُّ ﷺ بهدمِ مسجدِهم فكان أن أَظْهَروا حُسْنَ نيَّتِهم وأقسَموا على ذلك، فكان ذلك مَظِنَّةَ أن ينخدعَ به النّاسُ، فعجَّلَ ببيان كَذِبِهم في ذلك، فاعترَض بما يُبيِّنُ كذِبَهم؛ حتّى لا يبقى لكذِبِهم من أثرٍ على النّفوس من شيءٍ، وذلك قبلَ استيفاءِ الجملةِ خبرَها وهو الجملةُ ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا﴾ فجاء الاعتراضُ في موقعٍ حسنٍ.

معنى الواوِ بين العطْفِ أوِ الاستئنافِ؛ أوِ الحاليَّةِ، وأثرُ ذلك في السّياقِ

معنى اللّام في ﴿وَلَيَحۡلِفُنَّ﴾، ودَلالةُ المؤكِّداتِ فيها:

بيَّن النّظمُ الكريمُ في قوله تعالى: ﴿وَلَيَحۡلِفُنَّ إِنۡ أَرَدۡنَآ إِلَّا ٱلۡحُسۡنَىٰۖ﴾ أنّهم أفصَحوا عن غرضِهم ونيّتِهم الّتي زعَموا بكلامٍ مؤكَّدٍ، فعبّر اللّه عن بالغِ كَذِبِهم؛ بأن أكَّدَ حَلِفَهم باللّام والنّون التّوكيديّةِ، فاللّام في جواب قسَمٍ محذوفٍ تقديرُه: واللّه لَيحلِفُنَّ، وهم كاذبون في ذلك[2]، فأكّدَ مقولتَهم ليدلّ على فُحْش كذبِهم وشدّةِ ضلالِهم، فهم يَعرضون الكذبَ في سياق التّأكيدِ على صحّتِه، تعميةً لنفاقِهم وسوءِ مقصدِهم بهذه المؤكِّدات. وجاء التّأكيدُ إنكارًا وتهويلًا للتّعجيب من حالهم؛ إذ إنّهم أقسموا الأيمانَ المؤكَّدةَ على الكذبِ.

اللّام مُوطِّئةٌ للقَسَم لغرَضِ تأكيدِ ذلك الاتّخاذِ، مُقترنًا باليمينِ الكاذبِ

الموقعُ النّحويُّ لـ: ﴿إِنۡ أَرَدۡنَآ إِلَّا ٱلۡحُسۡنَىٰۖ﴾:

الجملةُ في قوله تعالى: ﴿إِنۡ أَرَدۡنَآ إِلَّا ٱلۡحُسۡنَىٰۖ﴾ لا محلَّ لها منَ الإعراب؛ لأنّها جوابُ قسَمٍ لقوله: ﴿وَلَيَحۡلِفُنَّ﴾[3]، والتّقديرُ: وَلَيَحْلِفُنَّ قائلين: واللّه ما نريدُ إلّا الحسنى.

الدّأبُ على كذِبِ المنافقين، شأنُ كلِّ منافقٍ كذوبٍ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/30، وصافي، الجدول في إعراب القرآن: 6/31.

(2) السّمين الحلبيّ، الدّرُّ المصون: 6/120، والقنّوجيّ، فتح البيان: 5/395، والنّسفيّ، مدارك التّنزيل: 1/709.

(3) ابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 10/204، وصافي، الجدول في إعراب القرآن: 6/32.

معنى ﴿إِنْ﴾ في: ﴿إِنْ أَرَدْنَآ﴾:

(إن) حرفُ نَفْيٍ يقترنُ غالبًا بالاستثناءِ، وفيه دَلالةٌ على النّفْيِ المؤكَّدِ

افتتح قوله جلّ شأنُه: ﴿إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ﴾ بحرف النّفْيِ (إن) أي: "ليحلِفُنَّ ما أردنا ببنائِه إلَّا الفِعلةَ الحُسنى"[1]. ولم يأتِ النّفيُ بـ (ما)؛ لأنّ النّفيَ بـ (إن) أكثرُ تأكيدًا ومبالغةً، ولذا كانت في الاستعمالِ القرآنيِّ غالبًا ما تأتي مع (إلّا) والقصرُ فيه تأكيدٌ للمعنى، أمّا (ما) فتأتي مع الحصْرِ لكنْ ليس هو الغالبُ عليها، ويلاحظُ أنّ هناك انسجامًا صوتيًّا بين (إن) و(إلّا) بالافتتاحِ بالهمزة المكسورةِ، وهذا يُعطي إضافةً للقوّة في التّعبيرِ بهذيْن الحرفَيْن معًا؛ فلذا فإنّ قولَهم: ﴿إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ﴾ يدلّ على أنّهم ساقوا كلامَهم على وجه التّأكيدِ والقطعِ إيغالًا في خداعِهم وكذبِهم.

نُكْتَة تلوينِ الخطابِ، مِنَ الغَيبةِ إلى التَّكلُّم:

انتقلَ منَ الغَيبةِ إلى التّكلّمِ، لِيَحكيَ ما قالوه بنصِّه

قوله جلّ شأنُه: ﴿وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ﴾ انتقالٌ منَ الغَيْبةِ إلى التّكلّم؛ حكايةً لقولِهم على وجهِ النّصِّ، وتلوينًا للخطابِ، فأَخبرَ بضمير الغَيبة عن حَلِفِهم، ثمّ أتى بنصِّ حَلِفهم ﴿إِنْ أَرَدْنَآ﴾، فلو قال: (إن أرادوا) لاحْتَمَل أنّ ذلك نُقل بالمعنى، فأُوثِر الانتقالُ مِنَ الإخبارِ عنهم إلى الانتقال إليهم؛ ليكونَ لسانُهم حجّةً عليهم، كما أنَّ فيه استحضارًا وتصويرًا لهم، وهم يَسْرُدون تلك الأيمانَ الغِلاظَ.

بَلاغةُ القَصْرِ بالاستثناءِ بعد النّفْيِ:

القَصْرُ بالاستثناءِ، لغرَضِ تأكيدِ اقتصارِ إرادتِهم، على الخيْرِ والحُسْنِ

في قوله تعالى: ﴿إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ﴾ قصرٌ بالاستثناء، ودَلالةُ هذه الطّريقة في القصْرِ أنّها تُستعملُ "في حُكمٍ مِن شأنه أن يَجهلَه المخاطَبُ ويُنكرَه، ويُحتاجُ فيه إلى تأكيدٍ"[2]، فلمّا رأى المنافقون انفضاحَ أمرِهم وانكشافَه وإنكارَ المؤمنين عليهم؛ أقسَموا على صدْقِهم بطريقةٍ توحي للمخاطَبِ بأنّه يجهل صِدْقَهم، ولذا احتاجوا

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 16/146، والخازن، لباب التّأويل: 2/406.
(2) الجناجيُّ، البلاغة الصّافية، ص: 175.

إلى تأكيد جملةِ القسَمِ، فحصروا "إرادتَهم في إرادة ما هو حسنٌ في ذاته، وغايتِه"[1].

نوعُ القصْرِ من حيثُ الواقعُ والمخاطَبون:

القصرُ في قوله جلّ شأنُه: ﴿إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ﴾ قَصْرُ موصوفٍ على صفةٍ، وهو قصرٌ إضافيٌّ من حيث الواقعُ؛ فقَصَروا إرادتَهم على الحُسنى، والإرادةُ لا تنحصرُ بذلك ولكنّها بالنّظرِ إلى المسجد فإنّها مُنحصرةٌ بذلك، فجاء قصرُ الإرادةِ على ذلك بناءً على انكشاف سوءِ إرادتِهم وفسادِها، فنَفَوا أن تكون لغير الحُسنى، وهو قصرُ قلبٍ من حيث حالُ المخاطَبين؛ فالمخاطَبُ بهذا القصْرِ همُ المسلمون والنّبيّ ﷺ يعتقدُ عكسَ الحُكمِ الّذي يريد المتكلّمُ أن يُثبِتَه.

قَصْرُ قلْبٍ لعكسِ ما اعتقدَه المسلمون، وإضافيٌّ لحصْرِ الإرادةِ بشأنِ المسجدِ

معنى (أل) في: ﴿ٱلْحُسْنَىٰ﴾:

في قوله جلَّ شأنُه: ﴿إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ﴾ عرّف ﴿ٱلْحُسْنَىٰ﴾ بالألف واللّامِ الدّالَّةِ على الجنس، والمعنى: أنّهم عبّروا عن إرادتِهم جنْسَ الخير، وفي ذلك مبالغةٌ في قولِهم على صدْقِهم، وحُسنِ نيَّتِهم.

بالغوا بتزكيةِ أنفُسِهم، مُبرّرين ذلك بإرادتِهم كلَّ الصِّفاتِ الحسنةِ

فائدةُ الحذْفِ في التّعبيرِ بالمصدرِ: ﴿ٱلْحُسْنَىٰ﴾:

في قوله ﷻ: ﴿إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ﴾ جاء ﴿ٱلْحُسْنَىٰ﴾ صفةً لموصوف محذوفٍ، تقديرُه: إلّا الخصلةَ الحُسنى، أو إلَّا الإرادةَ الحُسنى[2]، وصفوا إرادتَهُمُ الخيرَ بالمصدرِ ﴿ٱلْحُسْنَىٰ﴾؛ للدّلالةِ على المبالغةِ في وَصْف إرادتِهمُ الخيرَ؛ لأنّ الوصْفَ بالمصدر يدلُّ على المبالغة، وحُذفَ الموصوفُ إيجازًا.

وَصْفُ إرادةِ الخيرِ بالمصدرِ، للمبالغةِ في تزكيةِ أنفُسِهم

معنى الواو في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَشْهَدُ﴾، وموقعُ الجملةِ بعدَها:

الجملةُ في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ معطوفةٌ على قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ﴾، وقد تكون

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3444.

(2) السّمين الحلبيّ، الدّرُّ المصون: 6/121، والخفاجيّ، عناية القاضي: 4/362.

الواو اعتراضيّةً، فتكونُ جملةً معترِضةً[1] معطوفةً على الاعتراض قبلَها، فأراد أن يبيّنَ أنّهم كاذبون في يمينِهم هذا، ليتمَّ الإيضاحُ بالاعتراضِ، قبلَ أن يأتي بالمسنَدِ في قوله: ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ﴾. ويمكنُ أن تكون حاليّةً على معنى: يفعلون ما يفعلون والحالُ أنَّ اللّه يشهدُ على كَذِبهم.

عَطَفَ شهادتَه تعالى بكونِهم كاذبين، إكمالًا للاعتراضِ، وإيضاحًا للمرادِ

بَلاغةُ تتابُعِ المؤكِّداتِ، في فاصلةِ الآيةِ:

في قوله جلّ شأنُه: ﴿وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ جاء الاعتراضُ مؤكَّدًا لبيان أنّهم بالَغوا في إثبات صدْقِهم وصلاحِ نيّتِهم ومقصدِهم، فلمّا عبّرَ عن تأكيدِ حَلِفهم كاذبين بَيَّن كذِبَهم على جهة التّأكيدِ بذكْرِ المسنَد إليه والمسنَدِ الفعليِّ ﴿وَٱللَّهُ يَشْهَدُ﴾؛ حيث أفادَ تقويةَ الحُكم، وكذلك "بـ (إنّ) المؤكِّدةِ لما بعدَها، وبالجملةِ الاسميّةِ، وبلام التّوكيدِ"[2]، فجاء التّأكيدُ في الجُملتَين؛ ليتناسبَ تأكيدُه على كذبِهم مع تأكيدِهم بإثباتِ صدْقِهم.

الرّدُّ على شدّةِ تكذيبِهم، وإغلاظِهم في اليمينِ الغموسِ، من مُتطلّباتِ الإبانةِ هنا

نُكْتَةُ التّعبيرِ بـ ﴿يَشْهَدُ﴾ مادّةً وصيغةً:

عبَّرَ عن تأكيد كذِبهم في قوله جلّ شأنُه: ﴿وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ بالشّهادةِ؛ لأنّ مادّتَها تدلُّ على مطابقة الكلامِ للواقعِ، ليدلَّ على أنّه "يشهدُ، أي: يعلم عِلْمَ مَن عاينَ وشاهَدَ، إنّهم لكاذبون"[3]، فأكّدَ أنّهم كانوا كاذبين في حَلِفهم، وعبّرَ بالفعل المضارع للدَّلالةِ على أنّ هذه الشّهادةَ حادثةٌ، تخصُّ هذه المقولةَ الّتي قالوها، ولو عبَّرَ بالاسم فقال: (واللّه شاهد إنّهم لكاذبون) لدلَّ على أنّ اللّه تعالى شاهدٌ عمومًا على جهة الثّبوتِ، وليس متعلِّقًا بهذه الحادثة، فآثَرَ التّعبيرَ بالفعل المضارع؛ إيماءً إلى أنّها

اللّه تعالى يشهدُ على هذه الحادثةِ، وهو شاهدٌ على كلِّ شيءٍ، وفي كلّ زمانٍ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/30.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3445.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3445.

شهادةٌ خاصّةٌ بهذه الكِذبةِ الّتي جاؤوا بها، كما أنَّ فيها إشارةً إلى استدراجِهم، وعظيمِ حِلْمِ اللّه بهم؛ حيث إنَّه لم يعاجِلْهم بالعقوبة، مع كونِه شهيدًا على كَذِبهم واتِّخاذِهم أيمانَهم جُنَّةً.

الموقعُ النّحويُّ لـ: ﴿إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾:

الجملةُ في قوله ﷻ: ﴿إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ في محلّ نصبٍ مفعولٍ به للفعل: ﴿يَشْهَدُ﴾[1]، أي: إنّه يعلمُ إنّهم كاذبون في حَلِفِهم، فجاء التّعبيرُ بشهادة اللّه تعالى على كذبِهم بعد حَلِفِهم؛ إبطالًا لادّعائِهم ونَقْضًا لتوكيدِهم.

شهادةُ اللّه تعالى واقعةٌ على كذبِهم الصُّراحِ

نُكْتَةُ فصْلِ جملةِ ﴿لَا تَقُمْ﴾، وموقعُها النّحويُّ والبيانيُّ:

الجملةُ في قوله جلّ شأنُه: ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا﴾، هي الخبرُ عن اسمِ الموصول، في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسْجِدًا ضِرَارًا﴾[2]، وفُصِلَت عن سابقِها لكمال الانقطاعِ؛ إذ هي جملةٌ إنشائيّةٌ وما قبْلَها خبرٌ.

تنوّعُ الجُملِ المتواليةِ بين الخبرِ والإنشاءِ، مُوضحٌ للغرضِ، ومفيدٌ في تصوُّرِ المعنى

دَلالةُ النّهيِ في صدرِ الآية والمخاطَبِ فيه:

افتتح قوله تعالى: ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا﴾ بالنّهيِ، والمخاطَبُ به النّبيُّ ﷺ، والمرادُ من نهْيِه هو نهيُ أصحابِه والمؤمنين، فبعْدَ أن أكْذَبَهمُ اللّه تعالى في دعواهُم أنّه نهاهُ وأصحابَه عنِ الصّلاة في مسجدِهم[3]، وإنّما افتُتِحَتِ الآيةُ بالنّهيِ بعد بيان فسادِ مقصدِهم؛ للتّصريح بحرمةِ الصّلاةِ فيه نصًّا، إذ لو لم يأتِ النّهيُ لكان محتمِلًا أنّ المرادَ فَضْحُ مقصدِهم وغايتِهم دون ذمِّ مسجدِهم؛ لما للمسجدِ من حرمة لدى المسلمين.

التّصريحُ بحُرمةِ الصّلاةِ في مسجدِ الضِّرار، لِما للمسجدِ من حُرمَةٍ قد تَنفي عنه الذَّمَّ

بَلاغةُ المجازِ المرسَلِ في التّعبيرِ عنِ الصّلاة بالقيامِ:

عبّر في قوله جلّ شأنُه: ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا﴾ عنِ الصّلاة بالقيام،

(1) صافي، الجدول في إعراب القرآن: 6/32.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/30.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/504، والقنّوجيّ، فتح البيان: 5/395، وابن جُزي، التّسهيل: 1/348.

أي: "لا تقم فيه للصّلاة، وقد يُعبَّرُ عنِ الصّلاة بالقيام، يُقال: فلانٌ يقوم اللّيلَ، أي: يُصلّي"[1]، فجاء النّهيُ عن ركن من أركان الصّلاةِ مبالغةً في النّهي عن ذلك، فنهَى عنِ البعض وأراد الكلَّ على سبيل المجازِ المرسَلِ؛ فإنّ النّهيَ عنِ البعض دليلُ الحرمةِ الشّديدةِ عنِ الكلّ.

نهَى عنِ الجزءِ مبالغةً في النّهي عنِ الكلِّ؛ فالنّهيُ عنِ القيام أبلَغُ منه عنِ الصّلاةِ

نُكتةُ التّأبيدِ في النّهي:

في قوله جلّ شأنُه: ﴿لَا تَقُمۡ فِيهِ أَبَدٗاۚ﴾ قيَّدَ النّهيَ بالتّأبيدِ، و﴿أَبَدٗاۚ﴾ ظرفُ زمانٍ مبهَمٌ، ليس له حدٌّ ولا مقدارٌ، وهو "يستغرقُ الزّمنَ المستقبَلَ كلَّه؛ لاتّصاله بلا النّافيةِ، فيفيدُ العمومَ"[2]، كالحينِ والوقتِ والدّهرِ، فالظّرفُ المبهَمُ إذا اتّصلَ بلا النّافية اكتسبَ الدّلالةَ على العموم، فلو قال: ﴿لَا تَقُمۡ فِيهِ﴾ دونَ ذِكرِ ﴿أَبَدٗاۚ﴾ لكفَى في بيان النّهيِ والانكفافِ عنِ القيام فيه، فلمّا قيّده بالأبد فكأنّه قال: لا تقم فيه في وقتٍ منَ الأوقات ولا في حينٍ منَ الأحيان[3]، وذلك لإفادة أنّ النّهيَ مؤكَّدٌ عامٌّ لكلّ زمان، مبالغةً في ذمّ هذا المسجدِ.

ما كان لله دامَ واتّصلَ، وما كان لغيرِ الله تعالى، انقطعَ وانْفصلَ

عِلّةُ فصْلِ جُملةِ تأسيسِ المسجدِ على التّقوى، عن سابقها:

فُصِلَ قولُه ﷻ: ﴿لَّمَسۡجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقۡوَىٰ مِنۡ أَوَّلِ يَوۡمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِۚ﴾ للاستئنافِ البيانيِّ؛ حيث جاء علّةً للنّهي عنِ القيام والصّلاةِ في مسجدِهم[4]، فلمّا نهَى عنِ الصّلاة في هذا المسجدِ، ظهرَ لهم أنّ كوْنَ البناء مسجدًا لا يُعَدُّ دليلًا على صلاحِه وجوازِ العبادة فيه، فكأنّ سؤالًا نشأ يقول: فأيُّ المساجدِ يُقام فيها؟ فقيل: ﴿لَّمَسۡجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقۡوَىٰ مِنۡ أَوَّلِ يَوۡمٍ﴾.

صَلاحُ النّيّةِ شرطٌ في إقامة المسجدِ والقيامِ فيه

(1) القرطبيُّ، الجامع لأحكام القرآن: 8/258، والقنّوجيّ، فتح البيان: 5/395.
(2) الزُّحيليّ، التّفسير المنير: 11/44.
(3) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 8/258، والقنّوجيّ، فتح البيان: 5/395.
(4) ابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 10/206، والقنّوجيّ، فتح البيان: 5/396.

بَلاغةُ الاحْتراسِ:

في قوله تعالى: ﴿لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِۚ﴾ احتراسٌ، وفي بيانِه جاء في التّحرير والتّنوير: "احتراسٌ مما يستلزمُه النّهيُ عنِ الصّلاة فيه من إضاعةِ عبادةٍ في الوقت الّذي رغّبوه للصّلاة فيه، فأمرَه اللّه بأن يصلّيَ في ذلك الوقتِ الّذي دَعَوه فيه للصّلاة في مسجد الضّرارِ؛ أن يصلّيَ في مسجدِه، أو في مسجد قباء؛ لئلّا يكونَ لامتناعِه منَ الصّلاة من حظوظ الشّيطانِ أن يكونَ صرفُه عن صلاةٍ في وقت دُعيَ للصّلاة فيه، وهذا أدبٌ نفسانيٌّ عظيمٌ"[1].

إضاعةُ الصّلاةِ، وتأخيرُها عن وقتِها، من مَنهيّاتِ الشّرعِ، وكبائرِ الخطايا

معنى اللّام في: ﴿لَّمَسْجِدٌ﴾، ونُكتةُ تنكيرِه:

افتُتِحَ النّظمُ الكريمُ في قوله تعالى: ﴿لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ﴾ باللّام الدّالّةِ على الابتداءِ أوِ القسم، للدّلالة على تأكيد مضمونِ الجملةِ[2]. وجاء التّنكيرُ لتعميمِ الحُكْمِ على كلّ مسجدٍ أُسِّسَ على الصّفة المذكورةِ، كما أنّ فيه تعظيمًا لشأن هذا المسجدِ المذكورِ؛ إذِ المرادُ به مسجدُ قُباءٍ، أو مسجدُ النّبيّ ﷺ، فقوله جلّ شأنه: ﴿لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ﴾ "هو كقول القائل: لَرجلٌ صالحٌ أحقُّ أن تجالسَه، فلا يكونُ ذلك مقصورًا على واحدٍ"[3].

كلُّ مسجدٍ أُنشِئَ ابتغاءَ رضوانِ اللهِ، جديرٌ بأن يُصَلّى فيه

الموقعُ النّحويُّ لـ: ﴿أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ﴾:

الجملةُ في قوله ﷻ: ﴿أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ﴾ في محلّ رفعٍ صفةٍ للمسجد[4]، فالمسجدُ الّذي أكّد أحقّيَّتَه بأن يُقامَ فيه ويُتَّخذَ مصلًّى هو ما كان متَّصِفًا بهذه الصّفةِ، وهي كونُ بدايةِ تأسيسِه مقترنةً بالتّقوَى وصلاحِ النّيّةِ.

شَرْطُ صَلاحِ المسجدِ أن يُقرنَ بناؤه، بنيّةِ التّقوَى، ومَقصدِ الصّلاحِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/31.
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/82، والخفاجيّ، عناية القاضي: 4/363، والقنّوجيّ، فتح البيان: 5/396.
(3) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 16/148.
(4) النّسفيّ، مدارك التّنزيل: 1/709.

دَلالةُ التّعبيرِ بـ ﴿أُسِّسَ﴾:

مَبدأُ التّقوَى، مُقترنٌ بمبدأِ التّأسيسِ

قولُه تعالى: ﴿أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقۡوَىٰ مِنۡ أَوَّلِ يَوۡمٍ﴾ عبّر بالفعل ﴿أُسِّسَ﴾ عن بداية بنائِه، أي: بُني أصلُه، ووُضِع أساسُه[1]، وبناءُ الفعل لِما لم يُسَمَّ فاعلُه من باب الإيجاز للعلم بالفاعلِ، فالأوّليّةُ معتبَرةٌ بأوّليّة البناءِ وهو وضعُ الأساسِ وأصلُ البناء، كما أنّه عبّرَ بالأوّليّة الزّمانيّةِ في قوله: ﴿مِنۡ أَوَّلِ يَوۡمٍ﴾؛ وذلك للتّأكيدِ على شرْطِ صلاحِ المسجد.

بَلاغةُ الاستعارةِ المكْنِيّة في: ﴿أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقۡوَىٰ﴾:

التّقوَى كالأرضِ الصُّلبةِ الّتي يَصلحُ عليها البناءُ، وتتحمّلُ ضخامَتَه

قوله جلّ شأنُه: ﴿أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقۡوَىٰ مِنۡ أَوَّلِ يَوۡمٍ﴾ مجازٌ؛ إذِ البناءُ لا يكونُ على التّقوَى، بل على الأرض، ولكنّه عبَّرَ عن صلاح المسجدِ بأنّه ليس البناءَ بالحجر، بلِ البناءُ على المعاني السّليمةِ والغاياتِ النّبيلةِ، "أي: على قاعدةٍ مُحكَمَة هي التّقوى مِنَ اللّه، وابتغاءُ مرضاتِه بالطّاعةِ"[2]. فيجبُ أن يتمكّن منَ التّقوى وأن يظهرَ أنّ المقصدَ منه الصّلاحُ والخيرُ، وأن لا يُضارَّ فيه أحدٌ، فهو استعارةٌ مكنيّةٌ؛ حيث شُبّهتِ التّقوى بأرضٍ صُلبةٍ يقوم عليها البناءُ، بجامع الثّباتِ، ثمّ حُذفَ المشبَّهُ به وهو الأرض، وأُشيرَ إلى شيء من لوازمِه وهو التّأسيسُ[3].

معنى ﴿مِنۡ﴾ في: ﴿مِنۡ أَوَّلِ يَوۡمٍ﴾:

اقترنتِ التّقوى ببنائِه من أوّلِ يومٍ، وذلك تشريفٌ له وتعظيمٌ لرمزيّتِه

دخلت ﴿مِنۡ﴾ في قوله جلّ شأنُه: ﴿مِنۡ أَوَّلِ يَوۡمٍ﴾ للدّلالةِ على ابتداء الغايةِ الزّمانيّةِ، كما تدخلُ على (قبل) و(بعد)، فهي مثلُ (منذ)، والتّقديرُ: منذ أوّل يوم ابتُدئ بنيانُه[4]، وأفاد التّعبيرُ عنِ الأوّليّة أنّ التّقوى حاضرةٌ في بداية الشّروعِ في بنائِه.

(1) ابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 10/209.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/103.
(3) الزّحيليّ، التّفسير المنير: 11/39.
(4) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 8/260، والطّيبيّ، فتوح الغيب: 7/364، وأبو حيّان، البحر المحيط: 5/504.

نُكْتَةُ التَّعبيرِ بـ ﴿أَوَّلِ يَوْمٍ﴾:

قولُه تعالى: ﴿أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ﴾ عبَّرَ عن بدايَةِ تأسيسِه بأوّل يومٍ، فأضاف الأوّلَ إلى اليوم، والمرادُ باليوم: اليومُ المتعلّقُ ببنائِه، أي: أوّلُ يومٍ من أيّام وجودِه، فالأوليّةُ "بالنّسبة إلى أيّام وجودِه، لا بالنّسبةِ إلى مطلقِ الأيّام، أي: إنّ تأسيسَه على التّقوى منذ بنائِه وتأليفِه، لا حادثٌ بعْدَه"[1].

إيجابُ أن تكونَ التّقوى حاضرةً، في أوّلِ يومٍ يُشرعُ فيه بالتّأسيسِ

الموقع النّحويّ لـ: ﴿أَحَقُّ﴾:

اسمُ التّفضيل في قوله ﷻ: ﴿أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِۚ﴾ هو الخبرُ للمبتدأ في قوله تعالى: ﴿لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ﴾[2]، فأخبر عنِ المسجد بأنّه جديرٌ وحقيقٌ بأن يُقام فيه.

الإخبارُ عن أحقّيّة المسجد المؤسَّس على التّقوى بالقيام فيه

دَلالةُ التّعبيرِ بـ ﴿أَحَقُّ﴾ لغةً، وصرفًا:

عبّر في قوله جلّ شأنُه: ﴿أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِۚ﴾ عن أحقّيّةِ المسجدِ وجدارتِه بالصّلاة فيه باسْمِ التّفضيلِ ﴿أَحَقُّ﴾، ولكنّه مَسلوبُ المفاضلةِ، فهو هنا بمعنى: حقيقٌ وجديرٌ بأن تصلّيَ فيه[3]، لا بمعنى المفاضلة؛ إذ لا اشتراكَ بينهما في صفة الحقِّ، فاسمُ التّفضيلِ "لا يدخلُ إلّا بين شيئَيْن مُشتركَيْن لأحدهما مزيَّةٌ في المعنى الّذي اشتركا فيه على الآخر، فمسجدُ الضِّرار وإن كان باطلاً لا حقَّ فيه، فقد اشتركا في الحقِّ من جهة اعتقادِ بانيهِ، أو من جهة اعتقادِ مَنْ كان يظُنُّ أنَّ القيامَ فيه جائزٌ للمسجديّةِ"[4]، ويفيدُ الإتيانُ باسْمِ التّفضيل التّهكُّمَ على المنافقين بالإيماء إلى أنّ مسجدَهم وإن كان جديرًا بصلاة النّبيِّ ﷺ فيه، ولكنّه عندما قيَّد الصّلاةَ

المسجدُ المؤسّسُ على التّقوَى، جديرٌ أن يُصَلَّى فيه، لحمْلِه معنى القداسةِ والطُّهرِ

(1) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاوي: 9/336، ويُنظر: الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/311، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/97.

(2) مجموعة من المؤلّفين، إعراب القرآن الكريم: 2/910.

(3) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاوي: 9/337، ويُنظر: أبو حيّان، البحر المحيط: 5/505.

(4) ابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 10/209، ويُنظر: القنّوجيّ، فتح البيان: 5/398.

بمسجد أُسِّس على التّقوى، فيُعرفُ من ذلك أنّ مسجدَهم أُسِّس على ضدِّها[1].

الموقعُ النّحويُّ لـ: ﴿أَن تَقُومَ فِيهِۚ﴾:

المصدرُ المؤوَّلُ في قوله جلّ شأنُه: ﴿أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِۚ﴾ في محلّ جَرٍّ بحرف الجرِّ مقدّرٍ[2]، والتّقديرُ: أحقُّ بقيامك، وقيَّدَ الأحقّيّةَ بقيام النّبيِّ ﷺ فيه؛ إظهارًا لمكانته؛ إذ لمّا أثنى على المسجد بتأسيسِه على التَّقوى، وأثنى على المصلّين فيه؛ جَعل مِن هذا الثّناء علَّةً وسببًا لنَيْلِ أحقّيّة قيامِ النّبيِّ ﷺ فيه، وفي هذا تشريفٌ أيُّ تشريفٍ له ﷺ.

الأحقّيّةُ بقيام النّبيِّ ﷺ فيه؛ إظهارٌ لمكانتِه عند ربِّه

سِرُّ التّعبيرِ بالمصدرِ المؤوّلِ في: ﴿أَن تَقُومَ فِيهِۚ﴾:

قوله جلّ شأنُه: ﴿أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِۚ﴾ جاء التّعبيرُ بالمصدرِ المؤوّلِ؛ وذلك لأنّ "التَّعبيرَ بالقيامِ عنِ الصّلاة، يستدعي المداومةَ"[3]، وهذا يُشعرُ أنّه لو صلّى في مسجد الضّرار مرّةً واحدةً، لوجب المحافظةُ عليه بداعي دلالةِ الفعل على الاستمرارِ والتَّجدّدِ، فعَبَّر عن أحقِّيَّة القيامِ به على وجْهِ المداومةِ أن يكونَ مسجدًا بُنِيَ على التّقوى.

صَلاةُ النّبيِّ ﷺ في مسجدٍ ما، تَقتضي المباركةَ في المسجدِ

بَلاغةُ المجازِ المرسَلِ في: ﴿تَقُومَ فِيهِۚ﴾:

في قوله تعالى: ﴿أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِۚ﴾ مجازٌ لُغويٌّ؛ فذكرَ القيامَ وأراد الصّلاةَ، فعبَّرَ عنِ الصّلاة بالقيام، "أي: لا تقمْ فيه للصّلاة، وقد يُعبّرُ عنِ الصّلاة بالقيام، يُقال: فلانٌ يقومُ اللّيلَ؛ أي: يُصلّي"[4]؛ لأنّ القيامَ بعضُ أعمال الصّلاة، فذكرَ الجُزءَ وأرادَ الكلَّ، على سبيل المجازِ المرسَل. وقد يُعبَّرُ عنِ الصّلاة ببعض أركانِها، كما في قوله تعالى: ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ [الإسراء:

القيامُ جزءٌ مِنَ الصّلاة، فذَكَرَ الجُزءَ اهتمامًا به، وأرادَ الكُلَّ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/31.
(2) الهرريُّ، حدائق الرَّوح والرَّيحان: 12/78.
(3) الطِّيبيّ، فتوح الغيب: 7/361 - 362.
(4) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 8/258.

78]، وقولِه: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَٱسۡجُدۡ لَهُۥ﴾ [الإنسان: 26]، وقولِه: ﴿وَٱرۡكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ [البقرة: 43]، فأطلق كلًّا مِنَ القراءة والرّكوعِ والسُّجودِ على الصَّلاة، وهي أبعاضُها.

نُكْتَةُ الفَصْل في: ﴿فِيهِ رِجَالٌ﴾:

الجملةُ في قوله جلّ شأنُه: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْۚ﴾ مستأنَفةٌ بيانيًّا جوابًا عن سؤالٍ مُقدَّرٍ لتعليل أحقِّيَّةِ القيامِ فيه، "أي: كما أنّ هذا المسجدَ أَوْلى من جهة المحلِّ، فهو أَوْلى من جهة الحالِّ فيه"[1]، ففيه إشارةٌ إلى أنّ صلاح جماعةٍ ما، مِن أسباب ترجيحِ الصّلاةِ في مسجدِهم[2].

الاستئنافُ لبيانِ علّةِ استحقاقِ مسجدِ التّقوى أن يُقامَ فيه، لتأسيسِه عليها

غرَضُ خبرِ محبّتِهم أن يتطهّروا:

الخبرُ في قوله ﷻ: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْۚ﴾ مَسوقٌ لتكريم رُوّادِ هذا المسجدِ ومديحِهم[3]، فهو ثناءٌ على الجماعة الّذين يُصلّون في مسجد رسولِ الله ﷺ وفي مسجد قباء المؤسَّسَيْنِ على التّقوى، فلمَّا مَدَحَ المسجدَ أوّلًا، مدحَ أهلَه ثانيًا[4].

يَصْلُحُ المسجدُ المؤسَّسُ على التّقوى، بصلاحِ مَن فيه، لا بجُدرانِه وسَواريه

فائدةُ تقديمِ شِبْه الجملةِ: ﴿فِيهِ﴾:

قدّم الجارَّ والمجرورَ في قوله جلّ شأنُه: ﴿فِيهِ رِجَالٌ﴾ المتضمِّنِ الضّميرَ العائدَ على المسجد اهتمامًا بالمسجد؛ لأنّ الثّناء على الرّجال إنّما كان في سياقِ الثّناءِ على المسجدِ، فالسّياقُ في بيان أفضليّةِ المسجدِ بالأساس، فقدَّمَ ذِكْرَه لأنَّه هو مدارُ الحديث، فكما "أنّ هذا المسجد أَوْلى من جهة المحِلّ، فهو أَوْلى من جهة الحالِّ فيه"[5].

مكانة المسجد المؤسَّس على التقوى تُكسب الحالّ فيه الثناء.

(1) القنّوجيّ، فتح البيان: 5/398، ويُنظر: أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/102.
(2) ابن كمال باشا، تفسير ابن كمال باشا: 4/446.
(3) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 6/404.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/19، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/32.
(5) القنّوجيّ، فتح البيان: 5/398، ويُنظر: أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/102.

فَنُّ التّرديد في: ﴿فِيهِۚ فِيهِ﴾:

الرَّبطُ بين أحقيّةِ القيامِ في مسجد قُباءَ، والثَّناءِ على أهل المسجدِ

في قوله تعالى: ﴿أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِۚ فِيهِ رِجَالٌ﴾ تعلَّقت ﴿فِيهِ﴾ الأولى بالفعل ﴿تَقُومَ﴾، وتعلّقت ﴿فِيهِ﴾ الأخرى بمحذوفٍ خبرٍ مُقدَّمٍ – وهو ما يُسمّى بالترديد –[1]، والغرَضُ من ذلك: الاستطرادُ بمدح أهل مسجدِ قُباءَ، بعد الثَّناء على المسجدِ ذاتِه، وأنّه أُسِّس على تقوى منَ اللّه ورضوانٍ، وفي تجاورِ اللَّفظين نُكْتَةٌ؛ وهي الإشارة إلى أحقِّيَّتِهم بمجاورَتِك يا رسولَ اللّه، فكأنَّ مسجدَهم أحقُّ بقيامِك، ورجالَهم أحقُّ بجوارِك.

نُكْتَةُ تنكيرِ: ﴿رِجَالٌ﴾:

تفخيمُ المصَلّين، يَؤولُ إلى مَزيدِ الثّناءِ على المسجدِ

في قوله تعالى: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْۚ﴾ جاء لفظُ الرّجال بصيغة التّنكيرِ تفخيمًا لهذه الصّفةِ وتعظيمًا[2]؛ إذ هي واردةٌ في سياق الثّناءِ على المسجدِ والثّناءِ عليهم، فكان الثّناءُ عليهم بتنكيرِ صفةِ الرّجوليّةِ، فقوله تعالى: ﴿فِيهِ رِجَالٌ﴾ "أي: لهم كمالُ الرُّجوليَّةِ"[3].

الموقعُ النّحويُّ والبيانيُّ لـ: ﴿يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْۚ﴾:

وَصْفُ الرِّجال بمحبَّة التَّطهُّرِ، تأكيدٌ على صلاحِهم، والْتزامِهم بالأحكامِ

الجملة في قوله جلّ شأنُه: ﴿يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْۚ﴾ صفةٌ للرّجال[4]، وَوَصَفَهُم بالجملةِ الفعليّةِ للدِّلالة على تجدُّدِ هذه الصّفةِ فيهم واستمرارِها، وموضعُ هذه الجملةِ أنّها مدحٌ أتبعَ مدْحًا؛ فلمّا ذكر الرّجالَ ثناءً عليهم، وهو في سياق الحديثِ عنِ الثّناء على المسجد، وعظَّم فيهم صفةَ الرّجوليّةِ أتْبعَ ذلك بصفةٍ أخرى من صفات الرّجالِ وهي دوامُ التّطهّرِ.

---

(1) وهو أن يعلِّق المتكلّم لفظةً منَ الكلام بمعنًى، ثمَّ يَردَّها بعينها ويعلّقها بمعنًى آخرَ، كقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ۝٦ يَعۡلَمُونَ ظَٰهِرٗا مِّنَ ٱلۡحَيَوٰةِ﴾ [الرّوم: 6-7] فـ ﴿يَعۡلَمُونَ﴾ الأولى منفيّة، والثّانية مُثْبَتَة، ولكلٍّ مِنَ المعنييْن مناسبة اقتضت ذلك المعنى. ينظر: ابن سنان الخفاجيّ، سرّ الفصاحة، ص: 284، وابن الأثير، المثل السّائر، ص: 267، 268.

(2) ابن كمال باشا، تفسير ابن كمال باشا: 4/446.

(3) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 9/19.

(4) ابن عادل، اللُّباب في علوم الكتاب: 10/209.

غرَضُ التّعبيرِ بالمضارعيّة، في: ﴿يُحِبُّونَ﴾ و﴿يَتَطَهَّرُواْ﴾:

حبُّهمُ التَّطهُّرَ، في تجدُّدٍ واستمرارٍ، كما وردت بذلك الآثارُ

دلّ التّعبيرُ بالفعل المضارع في قوله تعالى: ﴿يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ﴾ على دوام طهارتِهم، وأنّ حبَّهم لهذا التّطهُّرِ دائمٌ متجدّدٌ؛ لما في الفعل المضارع من دَلالةٍ على التّجدّدِ والاستمرارِ، وفيه إشارةٌ إلى أنّهم في جهادٍ دائمٍ مع أنفُسِهم في ذلك[1]، كما أنّ فيه إشارةً إلى أنّ ذلك عادةٌ ثابتةٌ فيهم، وأنّهم يَحرصون عليه كحرْصِ المُحبّ على ما يُحبُّ، فضلًا عن أنّ التّعبيرَ بالمضارعيّة فيه تصويرٌ لحالِهم وهم يفعلون هذه الأمورَ.

سِرُّ التعبير بـ: ﴿يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ﴾:

حبُّ الفعلِ أسمَى منَ الفعلِ ذاتِه، في تقديرِ الله وحُكمِه

عبّر في قوله جلّ شأنُه: ﴿يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ﴾ عن حبِّ الفعلِ لا عنِ الفعل ذاتِه، فالثّناءُ عليهم بوصْفِهم أنّهم يُحبّون التّطهّرَ لا بأنّهم يَتطهّرون؛ إذ قد يفعلُ أحدٌ ما فِعْلًا ويُحسِنُ فعلَه ولكنّه لا يحبُّه، وهذا أقلُّ شأنًا ممّن يحبُّ ما يفعلُ، لأنّه دليلُ الجودة ودليلُ الرّغبةِ، فهم هنا لا يَتطهّرون وحسبُ بل إنّهم يُحسنون التّطهّرَ؛ لأنّهم يُحبّون ذلك بلا تثاقُلٍ ولا مَللٍ.

سِرُّ اختيار: ﴿يَتَطَهَّرُواْ﴾:

لَفْتُ الأنظارِ إلى دوامِ تَطهُّرِهم وتجدُّدِه، لارتباطِ ذلك بإيمانِهم بمَنْ أمرَ به

عبّر في قوله جلّ شأنُه: ﴿يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ﴾ عن تطهّرِهم بالمصدر المؤوّلِ الّذي يتضمّنُ الفعلَ دون المصدرِ الصّريحِ، فلم يقل: (يحبّون التّطهّر)، أو (يحبّون الطّهارة)؛ لأنّ التّعبيرَ بالفعلِ يَستجلِبُ صورةَ التّطهّرِ وحدوثَه، كما فيه دَلالةٌ على التّجدّدِ والاستمرارِ، ففيهِ مزيدٌ منَ التّأكيد عنِ التّعبير بالمصدرِ الصّريحِ الدّالِّ على المعنى المجرّدِ، فالتّعبيرُ بالمصدر المؤوّلِ يدلّ على المداومةِ، والمعنى أنّهم يَجتهدون في الطّهارة لا يَنقطعون عنها.

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/19.

معنى الواوِ في: ﴿وَٱللَّهُ﴾:

صُدِّر قولُه ﷻ: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُطَّهِّرِينَ﴾ بواو الاستئنافِ، والجملةُ مستأنَفةٌ[1]، وفائدةُ الاستئناف أنّه سيقَ لبيان وَجْهِ المدحِ بصفةِ التّطهُّرِ، فهو استئنافٌ تعليليٌّ، فلمّا أثنَى عليهم بكونِهم مُتطهّرين كان ذلك مَثارَ تساؤلٍ عن وجه المدحِ بهذه الصّفةِ، فأَخبرَ أنّه يحبُّ مَنِ اعتنى بنظافة بدنِه، ونقاءِ روحه، ويمكنُ أن تكون الواوُ حاليّةً على معنى: والحالُ أنّ اللّه يحبُّ المطَّهِّرين.

لمّا كان الله تعالى يحبُّ المتطهّرين، أثنَى عليهم باتّصافِهم بالتّطهّرِ

فائدةُ التّعبيرِ بالمضارع: ﴿يُحِبُّ﴾ في السّياق:

في قوله جلّ شأنُه: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُطَّهِّرِينَ﴾ عبَّرَ عن محبَّتِه إيّاهم بالفعل المضارعِ للدّلالةِ على تجدّدِ هذه المحبّةِ واستمرارِها؛ لأنّهم يُجدِّدون محبَّتَهم فكان جزاؤهم محبّةً مُتجدّدةً كذلك، فلمّا كان تطهُّرُهم مُتجدّدًا وحبُّهم لذلك التّطهّرِ دائمًا لا ينقطعُ - وذلك دالٌّ على اجتهادِهم - قابَلَهُمُ اللّه تعالى بحبٍّ مُتجدِّدٍ لا ينقطعُ، يُكافئ حبَّهم في التّجدّدِ.

حبُّ الله تعالى دائمٌ، لا ينقطعُ عنِ المتطهّرين؛ لأنّه تعالى يحبُّ ذلك

دَلالةُ المسنَدِ الفعليِّ على تقويةِ الحُكمِ:

الجملةُ في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُطَّهِّرِينَ﴾ اسميّةٌ تدلّ على ثبوت المعنى، وهو كونُ اللّه تعالى يحبُّهم، وجاء المسنَدُ فعلًا وهو قوله: ﴿يُحِبُّ﴾ وهو يدلّ على التّجدّدِ والاستمرارِ، وفيه ضميرٌ يعود على المسنَد إليه؛ ممّا يفيدُ تقويةَ الحُكم، فاجتمع في الجملة دلالتا الثّبوتِ والتّجدّدِ، فحُبُّ اللّهِ تعالى لهم ثابتٌ متجدّدٌ لا ينقطعُ، فأفادَ التّعبيرُ بالمسندِ الفعليِّ تقويةَ مضمون الجملةِ.

حبُّ اللهِ تعالى لهم، ثابتٌ مُتجدّدٌ مؤكَّدٌ، لا ينقطعُ

نُكتةُ المشاكلةِ بين: ﴿يُحِبُّونَ﴾ و﴿يُحِبُّ﴾:

في قوله ﷻ: ﴿يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُطَّهِّرِينَ﴾ أسندَ المحبّةَ إلى اللّه تعالى، ويُرادُ منه لازمُ المحبّة، وهو الرّضَى والقُربُ

الجزاءُ من جنسِ العملِ، فلمّا أحَبّوا ما يحبُّ اللهُ، أحبَّهمُ اللهُ تعالى

(1) الدّرّة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه: 4/234.

والقَبولُ، فمحبّةُ اللّه تعالى إيّاهم أنّه يرضَى عنهم ويُحسنُ إليهم، ويُدْنيهم من جَنابِه تعالى كما يفعل المحبُّ بمحبوبِه؛ لأنّ اللّه تعالى منزَّهٌ عن مشابهةِ صفاتِنا، فحبُّه غيرُ حُبِّنا، وهو شيءٌ يليقُ بكماله تعالى[1]، وإنّما عبّرَ بالمحبّة للمشاكلةِ اللّفظيّةِ مع قوله: ﴿يُحِبُّونَ﴾، فلمّا عبّرَ عن كونِهم يحبّون التّطهّرَ جعلَ جزاءَهم محبّةً مقابِلةً لتلك المحبّةِ.

معنى (أل) في: ﴿ٱلْمُطَّهِّرِينَ﴾:

تدلّ لامُ التّعريف في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ﴾ على الجنس، فاللّه تعالى يحبُّ جنسَ المتطهّرين، فهو يحبُّ المتطهّرين المذكورين في الآية وغيرَهم[2].

محبّتُه تعالى للمطّهّرين، في كلّ زمانٍ ومكانٍ، ولا تقتصرُ على عهْدِ التّنزُّلِ

نُكتةُ التّعبيرِ بـ﴿ٱلْمُطَّهِّرِينَ﴾:

قولُه جلّ شأنُه: ﴿يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ﴾ بصيغة التّفعُّلِ للدّلالة على الاجتهادِ في الطّهارة، وإنّما أدغمَ التّاء في الطّاء تثقيلًا للّفظِ للدّلالةِ على شِدَّة التّطهُّرِ، كما أنّ فيه دلالةً على قَصْدِ التّطهّرِ والتّكلّفِ فيه بمزاولتِه والمجاهدةِ فيه، والمرادُ: الطّهارةُ منَ المعاصي والخصالِ المذمومةِ طلبًا لمرضاة اللّه تعالى، كما أنّ فيه تعريضًا بأنّ أصحابَ الضِّرار على خلاف ذلك[3].

فعلُ التّطهّرِ يتطلّبُ القصْدَ، وبذلَ الجُهدِ مع ما فيه من كُلفةٍ

بَلاغةُ الجناسِ في ﴿يَتَطَهَّرُوا۟﴾ و﴿ٱلْمُطَّهِّرِينَ﴾:

في قوله ﷻ: ﴿أَن يَتَطَهَّرُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ﴾ جناسٌ اشتقاقيٌّ، فكَرَّر لفظَيْن من جذرٍ واحدٍ وهو (طهر)؛ تنويهًا بمكانة هذا الفعلِ عند اللّه تعالى، فجعل جزاءَه محبَّتَه لهم، بالإضافة إلى الأثرِ الجماليِّ الّذي يَخلَعُه تَكرارُ لفظٍ ما بصيغتَيْن مختلفتَيْن.

تَكرارُ التّطهّرِ بصيغتَيْن مختلفتَيْن، يدلُّ على أهمّيتِه وعُلوِّ مكانتِه

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/311، والزّحيليّ، التّفسير المنير: 11/45 - 46.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/20.
(3) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 7/363.

نُكتةُ تتابُعِ المؤكِّداتِ في الفاصلةِ:

محبّةُ الله تعالى للمُتطهّرين عظيمةٌ، ولذلك أمرَ بالتّطهُّرِ، وحثَّ عليه

في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُطَّهِّرِينَ﴾ تأكيداتٌ، فمنها: كونُها جملةً اسميّةً دالّةً على تأكيد مضمونِها، ومنها الافتتاحُ بلفظِ الجلالة تعظيمًا لما يُذكرُ معه، ومنها جعلُ المسنَدِ فعلًا، وذلك يدلُّ على تجدّدِ المعنى الّذي يؤولُ إلى تقوية الدّلالةِ وتأكيدِها، ومنها تَكرارُ ذكْرِ المسنَدِ إليه تارةً بوصفه مبتدأً وتارةً بكونِه فاعلًا للفعل، ومنها المبالغةُ بتثقيل الطّاءِ بإدغام التّاء فيه. ويَؤولُ ذلك كلُّه إلى تعظيم محبّتِه ﷻ لهؤلاء القوم الّذين نَفَوا عن أنفُسِهم أدرانَ الشّركِ والنّفاقِ وطَهُرتْ قلوبُهم منَ الشّكِّ والكُفرِ.

﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٩﴾ لَا يَزَالُ بُنْيَٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْا۟ رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١١٠﴾﴾ [التّوبة: 109 - 110]

مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِمَا قَبْلَهُما:

حالُ المنافقين والمؤمنين، وبنيانُ كلٍّ منهما، واختلافُ البُنيانَيْن ذاتًا ووَصْفًا وإضافةً

بعد أن بيّنتِ الآيتان السّابقتان حالَ أولئك المنافِقين الّذين اتّخذوا مسجدَ الضِّرار لأهدافٍ واضحةٍ فَضَحَها القرآنُ وكَشف زَيْفَها، ونهَى المؤمنين عنِ الصّلاة فيه مبيِّنًا أنّ المسجدَ الأوّلَ الّذي أُسّسَ على التّقوى أحقُّ بالصّلاة فيه، بَيَّن هنا مآلَ هذا البناءِ وعاقبتَه في الدّنيا والآخرةِ، ناعيًا عليهم فعلَتَهمُ الشّنيعةَ.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿بُنْيَٰنَهُۥ﴾: (بني) أَصلٌ؛ وهو بِنَاءُ الشَّيءِ بِضمِّ بعضِهِ إِلى بَعْضٍ. تقول: بنيتُ البِناءَ أَبْنيه، البَنْيُ: نقيضُ الهَدْم، بَناهُ يَبْنيه بَنْيًا وبِناءً وبُنْيانًا. والبِناءُ: المَبْنِيُّ، والبُنيان واحدٌ لا جمع، وقد ورد في القرآن على أَوجهٍ: بمعنى الصَّرْح، والقَصْرِ العالي: ﴿فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ﴾ [النّحل: 26] أَي: صَرْحَهم. وبمعنى المسجد: ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ﴾، ﴿لَا يَزَالُ بُنْيَٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْا۟﴾ أَي: مسجدُهم[1]، فقوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ﴾ فالبنيانُ: مصدرٌ كالغُفرانِ، ويُراد به المَبنيُّ هاهنا[2].

2) ﴿شَفَا﴾: (شفي) الشِّينُ والفاءُ والحرفُ المُعْتَلُّ يدلُّ على

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، والفِيروزاباديّ، القاموس: (بني، بنى)، وبصائر ذوي التّمييز: 277/2.

(2) الواحديّ، البسيط: 11/52.

الإشْرافِ على الشَّيءِ؛ يقالُ: أَشْفَى على الشَّيْءِ إذا أَشْرفَ عليه. وشفا كلِّ شيءٍ: طَرَفُه وحَرْفُه. ومنه: أَشْفَى إذا سارَ في شفا القمرِ، وهو آخرُ اللَّيْلِ، وشفا البئر، وشفا النّهر: طرفُهُما[1]، ومنه قولُه تعالى: ﴿عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ﴾، أي: على حرْف جُرُفٍ هَائِر[2].

3) ﴿جُرُفٍ﴾: (جرف) أَصْلٌ؛ وهو أَخْذُ الشَّيءِ كلِّهِ هَبْشًا. يُقال: جَرَفْتُ الشَّيءَ جَرْفًا، إذا ذَهَبْتَ بِهِ كُلِّهِ. والجرُفُ: المكانُ يأكُلُهُ السَّيْلُ. قال ﷻ: ﴿عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ﴾[3]، "والجرفُ: ما ينجرفُ بالسّيولِ منَ الأوديةِ"[4].

4) ﴿هَارٍ﴾: (هور) أَصْلٌ يدلُّ على تَساقُطِ شَيءٍ. الهَوْرُ: مصدرُ هارَ الجرفُ يهورُ، إذا انصدعَ من خلفِه، وهو ثابتٌ بعدُ في مكانه، وهو جُرف هارٍ هائِرٌ، فإذا سقط فقد انهار وتَهوَّر. وهارَ البناءَ هَوْرًا: هَدَمَه. وهَارَ البناءُ والجُرْفُ وانهارَ؛ أي: انهدَمَ[5]. وقوله تعالى: ﴿عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ﴾؛ أي: ساقطٌ مُتَداعٍ، تَهوَّر البناءُ: إذا سقط وانهار[6]، وقوله: ﴿فَٱنْهَارَ﴾، أي: "طاح به الباطلُ في نار جهنّمَ"[7].

5) ﴿رِيبَةً﴾: (ريب) أَصْلٌ يدلُّ على شَكٍّ، والرَّيْبُ والرِّيبةُ: الشَّكُّ، والظِّنَّةُ، والتُّهَمَةُ. والرّيبَةُ: اسمٌ منَ الرَّيْب، قال تعالى: ﴿بَنَوْاْ رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ﴾، أي: تدلّ على دَغَلٍ وقلّةِ يقينٍ[8]. وفي الرّيبةِ في الآية ثلاثةُ أقوال؛ أحدُها: شكًّا ونفاقًا، لأنّهم كانوا يحسبون أنّهم مُحسِنون في بنائه. والثّاني: حسرةً وندامةً، لأنَّهم ندموا على بنائه. والثّالثُ: أنّ المعنى: لا يزال هدمُ بنيانِهم حزازةً وغَيْظًا في قلوبِهم[9].

6) ﴿تَقَطَّعَ﴾: (قطع) أَصْلٌ يدلُّ على صَرْمٍ وَإِبانَةِ شَيءٍ مِنْ شَيءٍ، القطْعُ: فَصلُ الشّيء مُدْرَكًا بالبصر كالأجسام، أو مدرَكًا بالبصيرة كالأشياء المعقولةِ، فمن ذلك قَطْعُ الأعضاء نحوَ قوله تعالى: ﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ﴾، وقولِه: ﴿إِلَّآ

(1) الجوهريّ، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (أسّ، أسس).
(2) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 167.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (جرف).
(4) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 167.
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحُفَّاظ: (هور).
(6) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 167.
(7) النّسفيّ، مدارك التّنزيل: 1/711.
(8) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (ريب).
(9) ابن الجوزيّ، زاد المسير: 2/301.

أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمۡۗ﴾، أي: إلّا أن يموتوا[1]، فتُقَطَّعَ قلوبُهم؛ "أي: تُجعلَ قلوبُهم قِطعًا، وتُفَرَّقَ أَجْزاءً؛ إمّا بالسّيف وإمّا بالحزن والبكاءِ، فحينئذٍ تزولُ تلك الرّيبةُ"[2].

المَعْنى الإِجْماليُّ:

لا يستوي مَن أسَّس بنيانَه على تقوى اللّه وطاعتِه ومَرضاتِه، ومَنْ أسَّس بنيانَه على طرفِ حُفرةٍ متداعيةٍ للسّقوط، واللّه لا يهدي القومَ الظّالمين المتجاوِزين حدودَه، ولا يزالُ بنيانُ المنافقين الّذي بنَوْه مُضارَّةً لمسجد (قُباء) شكًّا ونفاقًا ماكثًا في قلوبهم، إلى أن تتقطّع قلوبُهم بقتلِهم أو موتِهم، أو بنَدَمِهم غايةَ النّدم، وتوبتِهم إلى ربّهم، وخوفِهم منه غايةَ الخوف، واللّه عليمٌ بما عليه هؤلاء المنافقون منَ الشّكّ وما قصدوا في بنائِهم، حكيمٌ في تدبير أمورِ خلْقِه[3].

التّقوى والرِّضوانُ أساسُ الأمانِ لقوَّةِ البُنيانِ، ولن يَثبُتَ بُنيانٌ على شَفا جُرُفٍ هارٍ

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

فائدةُ الفصْلِ: ﴿أَفَمَنۡ أَسَّسَ﴾:

الجملةُ في قوله ﷻ: ﴿أَفَمَنۡ أَسَّسَ بُنۡيَٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقۡوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٍ خَيۡرٌ﴾ استئنافيَّةٌ، سيقَتْ لبيان خيريّةِ الرّجالِ إثرَ بيانِ خيّريةِ مسجدِ قُباء[4]. فالجملةُ "تفريعٌ على قوله تعالى: ﴿لَّمَسۡجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقۡوَىٰ مِنۡ أَوَّلِ يَوۡمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِۚ﴾ لزيادة بيانِ أحقّيّةِ المسجد المؤسَّسِ على التّقوى بالصّلاة فيه، وبيانِ أنّ تفضيلَ ذلك المسجدِ في أنّه حقيقٌ بالصّلاة فيه تفضيلٌ مسلوبُ المشاركةِ؛ لأنّ مسجدَ الضِّرار ليس حقيقًا بالصّلاة فيه بعْدَ

إنّما تَتفاضلُ المباني، بتفاضُلِ مَنْ بَنَوْها، نيّةً ومقامًا

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (قطع).
(2) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 16/149، وابن الجوزيّ، تذكرة الأريب، ص: 147.
(3) جماعة من العلماء، التّفسير الميسَّر: 1/204.
(4) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاوي: 9/337، والقنّوجيّ، فتح البيان: 5/400.

النّهي"[1]، وفُصلتِ الآيةُ عن سابقتِها لكمالِ الانقطاعِ لاختلاف الخبريّةِ والإنشائيّةِ.

بَلاغةُ الاستفهام وغرضُه، في سياق الآيةِ الكريمةِ:

تقريرُ خيريّةِ بناءِ الدّين، على صَلاحِ النّيّةِ، ورُسوخِ اليقينِ

الاستفهامُ في قوله جلّ شأنُه: ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ﴾ ليس حقيقيًّا، بل هو استفهامٌ مجازيٌّ جاء للتَّقرير[2]؛ لأنّ مَن أُسّس بنيانُه على ذلك الوصْفِ معلومٌ أنّه خيرٌ منَ المذكور بعدَه، فالاستفهامُ ليس للسّؤال بل للتّقرير والتّعجيب. وتقريرُ الخبرِ بأسلوب الاستفهامِ أبلَغُ منَ الإخبار الصّريح؛ لأنّه يسوقُه مساقَ حقيقةٍ لا شكّ فيها بين المختلفَيْن، إذ هي محلُّ اتّفاقٍ.

معنى الفاءِ، في عبارةِ الاستفهامِ ﴿أَفَمَنْ﴾:

الفاءُ عاطفةٌ على جملةٍ محذوفةٍ، تُكملُ الدّلالةَ، وتُبينُ عنِ المعنى

قدّم في قوله جلّ شأنُه: ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ﴾ حرفَ الاستفهامِ على حرف العطْفِ لأحقّيّةِ الاستفهامِ بالتّصدير[3] عند جمهورِ النَّحْويّين، ولوجودِ جملةٍ محذوفةٍ بين الفاء العاطفةِ وحرفِ الاستفهامِ عند المحقّقين منهم، وتقديرُه: "أَبَعْدَ ما عَلِم حالَهم فمَن أسّس ووَضَع بناءَه الّذي بناه؟"[4].

معنى (مَن) في: ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ﴾:

اسمُ الموصولِ الدّالُّ على العمومِ؛ لتعميم تعلُّقِ الحُكمِ بكلّ بانٍ على ذلك الوصْفِ

في قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ﴾ عبّرَ عنِ المذكور باسم الموصولِ (مَن) تعميمًا للحُكْم؛ فَساقَه مساقَ الحقيقةِ. والحُكمُ العامُّ لا يختصّ بأحدٍ، فهو ليس مختصًّا بقصّةِ مسجدِ الضِّرار، وليس المرادُ شخصَ واحدٍ بعينِه، بل كلُّ شخصٍ في كلّ زمانٍ.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/33.
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/84.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/34.
(4) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 12/57، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/103.

بَلاغةُ توجيهِ القراءاتِ المتواترةِ في: ﴿أَسَّسَ﴾:

قُرِئَ قولُه ﷻ: ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ﴾ بالبناءِ للفاعلِ (أَسّسَ) وهي قراءة الجمهورِ القُرّاء، وللمفعول (أُسِّس) وهي قراءة نافعٍ وابنِ عامر[1]، "فأمّا قراءةُ مَن قرأ: ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ﴾ فبنى الفعلَ للفاعل؛ فلِأنّه الباني والمؤسِّس، فأسندَ الفعْلَ إليه، وبناه له كما أضاف البُنيانَ إليه في قوله: ﴿بُنْيَٰنَهُۥ﴾، فكما أنّ المصدرَ مضافٌ إلى الفاعل، كذلك يكونُ الفعلُ مبنيًّا له. ومَنْ بنَى الفعْلَ للمفعول به لم يَبْعُد أن يكونَ في المعنى كالأوّل؛ لأنّه إذا أُسِّس بنيانُه فتولّى ذلك غيرُه بأمْرِه كان كبُنيانِه هو له"[2]، فالبناءُ للمفعول فيه إيجازُ حَذْفٍ للعلْمِ بالفاعل، وللدّعوةِ للانشغالِ بالفعلِ نفسِه عنه.

التّقوَى هي المعيارُ في الأفضليّةِ، لا أن يُبنَى المسجدُ بيدِ صاحبِه أو بأمْرِه

سرُّ التّعبيرِ وفائدتُه: ﴿بُنْيَٰنَهُۥ﴾:

عبّرَ عنِ البناء في قوله جلّ شأنُه: ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ﴾؛ لأنّ البناء يكونُ بضَمِّ بعضِه إلى بعضٍ، وهذا يدلُّ على الجُهدِ المبذولِ فيه، وجاء بصيغةِ المصدرِ، فالبُنيانُ مصدرٌ كالغُفران والكُفران، والمرادُ به المفعولُ، أيّ: المَبْنِيّ[3]، "وإطلاقُ لفظِ المصدرِ على المفعول مجازٌ مشهورٌ، يُقال: هذا ضَرْبُ الأمير، ونَسْجُ زيدٍ، والمرادُ: مضروبُه ومنسوجُه"[4].

التّعبيرُ عنِ المفعولِ بالمصدرِ، منَ المجازِ المرسلِ البليغِ

نُكتةُ إضافةِ البُنيانِ، وعَوْدِ الضّميرِ:

في قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ﴾ أضافَ البُنيانَ إلى الضّميرِ العائدِ على الموصولِ للدّلالةِ على "صاحبِ البناءِ ومُستحقِّه، فإضافةُ البُنيانِ إلى ضميرِ (مَنْ) إضافةٌ على معنى اللّام"[5]، فلا

حُكمُ البناءِ يتعلّقُ بصاحبِه، لا باليدِ الّتي تبنيه

(1) آل نصر، طلائع البِشْر، ص: 204.
(2) الفارسيّ، الحجّة: 3/152.
(3) ابن كمال باشا، تفسير ابن كمال باشا: 4/449، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/34.
(4) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 16/148.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/34.

فرقَ بين أن يبنيَ البناءَ بيده، أو يبنِيَه له الصّالحُ منَ الأعمالِ، فتدلُّ الإضافةُ على أنّ عاقبة الأمرِ عائدةٌ على هذا الباني إنْ خيرًا فخيرٌ، وإنْ شرًّا فشرٌّ.

بَلاغةُ الاستعارةِ، في تأسيسِ البُنيانِ على التّقوى:

الدّينُ يُشبِهُ البناءَ، في احتياجِه لقواعدَ ومرافقَ تهيّئُه للانتفاعِ به

في قوله جلّ شأنُه: ﴿أَسَّسَ بُنۡيَٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقۡوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٍ خَيۡرٌ﴾، شبّهَ الدّينَ الصّحيحَ ببناءٍ قويٍّ متينٍ على طريقة الاستعارةِ، أي: بنَى دينَه على قاعدةٍ وأساسٍ مُحْكَمٍ وهو تقوَى اللّه تعالى وابتغاءُ مَرضاتِه[1]، فلمّا "كان من شأن الأساسِ أن تُطلبَ له صلابةُ الأرض لدوامِه؛ جُعلتِ التّقوَى في القصْدِ الّذي بُنِيَ له أحدُ المسجدَيْن، فَشُبِّهتِ التّقوى بما يَرتكزُ عليه الأساسُ على طريقةِ المكنيّةِ، ورُمِز إلى المشبَّه به المحذوفِ بشيءٍ من مُلائماتِه وهو حرفُ الاستعلاءِ"[2]. والمعنى: أفمن أَسّس دينَه على قاعدةٍ مُحْكَمةٍ بحُسْنِ النّيّةِ فيه وقصْدِ وجْهِ اللّه تعالى وإظهارِ شرعه، كما صُنعَ بمسجدِ (قُباءٍ) ومسجدِ النّبيِّ ﷺ خيرٌ أم مَن أَسّس على قاعدةٍ هي أضعفُ القواعد وأقلُّها بقاءً، وهو الباطلُ؟[3].

نُكتةُ تنكيرِ لفظَيْ: ﴿تَقۡوَىٰ﴾ و﴿وَرِضۡوَٰنٍ﴾:

للتّقوى شأنٌ عظيمٌ، ومكانةٌ رفيعةٌ، عند الله العظيمِ

عبّرَ عنِ (التّقوى) في قوله ﷻ: ﴿عَلَىٰ تَقۡوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٍ﴾ بصيغة التّنكيرِ تعظيمًا لشأنها؛ لأنّها سِيقت للمقابَلةِ مع الباطلِ للاستعارةِ، فلمّا "استعار الجُرُفَ الهائرَ لمقابل التّقوى منَ الباطل الّذي هو الفجورُ والنّفاقُ والضِّرارُ على أنّه شبَّهَ الحقَّ الّذي هو التّقوى بقاعدةٍ مُحكَمةٍ قويّةٍ على طريق الاستعارة بالكنايةِ؛ ولهذا نكّرَ التّقوى للتّعظيمِ"[4].

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/103.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/34.
(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/85، والزَّمخشريّ، الكشّاف: 2/312، والفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 16/149.
(4) ابن كمال باشا، تفسير ابن كمال باشا: 4/448.

فائدةُ التّعبيرِ بالمصدرَيْن: ﴿تَقْوَىٰ﴾ و﴿وَرِضْوَٰنٍ﴾:

في قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ﴾ جَمعَ بين التّقوى والرّضوانِ المصدَرَيْن لبيانِ علَّةِ خيّريّةِ البناءِ "يعني طلبَ ببنائِه المسجدَ الّذي بناه تقوى اللّهِ ورِضاهُ"[1]، ولأنّ الطّاعةَ إنّما تكونُ للرّغبة والرّهبةِ؛ ولذلك عُطفَ الرّضوانُ على التّقوى، وجُعلا كأنّهما أمران مُتلازمانِ[2].

لا تكونُ طاعةٌ إلّا بالتّرغيبِ والتّشويقِ، للجزاءِ العاجلِ والآجلِ

نُكتةُ تقديمِ (التّقوى) على (الرّضوان):

قدّمَ التّقوى في قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ﴾ على الرّضوان؛ لأنّ التّقوى تسبقُ الرّضوانَ، وهي الطّريقُ إليه، والتّقوى هي السّببُ الّذي يستجلِبُ الرّضوانَ، فقدّمه تقديمَ السَّبَبِ على النّتيجةِ.

التّقوَى تَسبقُ الرّضوانَ، وهي أصلٌ وأساسٌ له

معنَى (مِن) في: ﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾:

عبّرَ عن سببِ التّقوى بقوله تعالى: ﴿عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ﴾ فـ(مِن) تعليليّةٌ سببيّةٌ، فالتّقوى كائنةٌ بسببِ اللّه تعالى؛ أي للخوفِ من عقاب اللّه[3]، والخوفِ منه ﷻ، وهذا يدلُّ على قوّة سلامةِ النّيّةِ والمقصدِ.

تقوى اللهِ تعالى، تكونُ خوفًا منه لذاتِه، ورهبةً من عذابِه ومَغبّاتِه

الموقعُ النّحويُّ والصّرفيُّ لـ ﴿خَيْرٌ﴾:

في قوله جلّ شأنُه: ﴿أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ﴾، أسند الخيرَ إلى الاسمِ الموصولِ في قوله: ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ﴾ فـ ﴿خَيْرٌ﴾ خبرٌ عنِ المبتدأ (مَن)[4]، وهو اسمُ تفضيلٍ محذوفُ الهمزة للتّخفيفِ، والمفاضلةُ منزوعةٌ في هذه الآيةِ، فهو في هذه الآية تفضيلٌ، ولا شركةَ بين الأمرَيْن في الخيريّةِ إلّا باعتبارِ مُعتقَدِهم[5].

لا اعتبارَ للمفاضلةِ في الخيريّةِ بين المسجدَيْن، إلّا باعتبارِ اعتقادِ المنافِقين

(1) الخازن، لباب التّأويل: 2/408.
(2) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 16/148 - 149، وابن كمال باشا، تفسير ابن كمال باشا: 4/448.
(3) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 16/148 - 149.
(4) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 12/78.
(5) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/85، وابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 10/212.

نُكتةُ تنكيرِ: ﴿خَيْرٌ﴾:

جاء المسنَدُ في قوله جلّ شأنُه: ﴿خَيْرٌ﴾ نكرةً؛ لأنّه دلّ على المفاضلةِ بالخيريّةِ على أيّ قَدْرٍ ضئيلٍ منَ الخير، فإنّ المسجدَ الّذي بُنِيَ على أساسِ التّقوى والرّضوانِ هو الأفضلُ مهما كان مقدارُ الخيرِ الّذي وُضعَ أساسًا للمقارنة، سواءً أكان قليلًا أم كثيرًا.

ما أُسِّس على التّقوَى، هو الأفضلُ مطلَقًا، في كلِّ الظّروفِ والصُّروفِ

معنى ﴿أَم﴾ و﴿مَّنْ﴾:

قوله جلّ شأنُه: ﴿أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ﴾، عطفَ بـ (أم) المتّصلةِ، وَإِنَّمَا سُمّيت مُتَّصِلَةً؛ لِأَنّ ما قبلهَا وما بعْدها، لَا يُسْتَغْنَى بأحدِهما عنِ الآخر، وَتُسَمّى أَيْضًا معادلةً؛ لمعادلتِها للهمزة في إفادَة التَّسْوِيَة، وهي لا تسْتَحقُّ جَوابًا؛ لِأَنّ المَعْنى معها لَيْسَ على الاسْتِفْهام، وأَنّ الكلامَ معها قابلٌ للتّصديق والتّكذيب لِأَنَّهُ خبرٌ[1]. والمعطوف (مَنْ) عُطفَ على (مَن)، في قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ﴾، وخبرُها محذوفٌ تقديرُه: خيرٌ[2]، ومعنى الكلام: أفمن أسّس بنيانَه على التّقوى خيرٌ، أم مَنْ أسّس بنيانَه على الضّلال خيرٌ؟!

الاستفهامُ بهمزةِ التّسويّةِ، لا يكونُ معناه على الاستفهامِ، بل على الإخبارِ

نُكتةُ الإظهار موضعَ الإضمارِ في: ﴿بُنْيَـٰنَهُۥ﴾:

في قوله جلّ شأنُه: ﴿أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ﴾ وَضَع الاسمَ الظّاهرَ موضعَ ضميرِه، فلم يَقُل: (أم مَنْ أَسّسه) "للإيذانِ باختلاف البُنيانَيْن ذاتًا مع اختلافهما وَصْفًا وإضافةً"[3]، فلو أَضْمَر لاحْتَمَل أنّ المرادَ البناءُ ذاتُه، فلمّا كرَّر ذِكْرَه بَيَّن أنّ ما اختَلَف الوصفُ فيه كان مختلِفًا على الحقيقةِ، فأَظهَر الاسمَ لكونِه غيرَ الأوّلِ.

أَظهر الاسمَ إيماءً إلى اختلاف الذّاتِ، باختلافِ الصّفاتِ

بَلاغةُ التّشبيهِ المفرَّعِ عنِ الاستعارةِ المكنيّةِ في الآية:

في قوله تعالى: ﴿أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ﴾، تمثيلٌ مُفَرَّعٌ

(1) ابن هشام، مُغني اللّبيب، ص: 61.
(2) ابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 10/212، درويش، إعراب القرآن وبيانه: 4/174.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/103.

عنِ الاستعارةِ المكنيّةِ بتشبيهِ الدّين ببناءٍ على الأرض الصُّلبةِ، فشبَّه النّفاقَ ببناءٍ على طَرفِ جُرُفٍ آيلٍ للسّقوطِ، فهو "تمثيلُ حالةِ هدْمِه في الدّنيا وإفضائِه ببانيه إلى جهنّمَ في الآخرة؛ بانهيار البناءِ المؤَسَّسِ على شفا جُرفٍ هارٍ بساكنِه في هُوَّة، وجَعلَ الانهيارَ به إلى نار جهنّمَ إفضاءً إلى الغاية منَ التّشبيه، فالهيئة المشبَّهةُ مركَّبةٌ من محسوسٍ ومعقولٍ، وكذلك الهيئةُ المشبَّهُ بها"[1]، ومعنى تأسيس البناءِ على طرف جُرُفٍ هارٍ أنّه بُنِيَ بفسادِ نيّةٍ، وبقصْدِ التّفريقِ بين المؤمنين[2].

تشبيهُ مآلِ النّفاقِ إلى النّارِ، ببناءٍ مُشرِفٍ على السُّقوطِ

نُكتةُ تنكيرِ: ﴿جُرُفٍ﴾:

آثَرَ في قوله جلّ شأنُه: ﴿أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ﴾ أن يُعبِّرَ عنِ الجرُفِ بالتّنكير؛ لأنّه أرادَ مُطلَقَ الجُرفِ، وهو يصحُّ في أيّ جُرُفٍ اتَّصفَ بذلك، ولا مزيّةَ لكونِه جُرفًا معيَّنًا، فالتّمثيل عامٌّ لا يَقصدُ به مكانًا بعينه، ويمكنُ أن يكون التّنكيرُ للتَّحقيرِ والتّقليلِ من شأن هذا البناءِ.

تنكيرُ الجُرُفِ لصلاحِ التّمثيلِ بكلِّ جُرُفٍ، آيلٍ للانهيارِ

بَلاغةُ المقابلةِ بين الحالَيْن: التقوى والرضوان، والسقوط في النيران:

قوله جلّ شأنُه: ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ﴾ قابَلَه قولُه ﷻ: ﴿أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ﴾؛ فوَضَع الرّضوانَ والتّقوى مقابلَ البناءِ الّذي يَسقطُ في نار جهنّمَ، فيُفهَمُ منه أنّ تأسيسَ الّذي يقابلُه على أمرٍ يحفظُه عنِ النّار، يوصِلُه إلى الرّضوانِ وما يقتَضيه من دخول الجنّةِ[3]، "فَهُمْ لمّا بَنَوه لقصدِ التّقوى ورضَى اللّهِ تعالى، ولم يُذكرْ ما يقتضي خيبَتَهم فيه كما ذُكرَ في مقابله؛ عُلم أنّهم قدِ اتَّقوا اللّهَ

التّقوى هي حصنُ النّجاةِ الحصينُ، والنّفاقُ سبيلُ الهلاكِ المهينِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/34، ويُنظر: الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/312، والفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 16/149.

(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/85.

(3) ابن كمال باشا، تفسير ابن كمال باشا: 4/448، ويُنظر: أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/103.

بذلك وأرضَوْه، ففازوا بالجنّة، كما دلّت عليه المقابلةُ، وأنّ البُنيانَ الثّاني لم يحصلْ غرضُ بانيه وهو الضِّرارُ والتّفريقُ، فخابوا فيما قصَدوه فلم يثبتِ المقصدُ، وكان عدمُ ثباتِه مُفضِيًا بهم إلى النّار كما يُفضي البناءُ المنهارُ بساكنِه إلى الهلاكِ"[1].

دَلالةُ التّعبيرِ بـ ﴿هَارٍ﴾:

الدّينُ المؤسّسُ على الرَّيبِ، وطَلَبِ السُّمعةِ، واهنٌ ضعيفٌ

قولُه تعالى: ﴿عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ﴾ يعبّرُ عن تخرّقِ الجرفِ بفعل السُّيولِ حتّى يشرفَ على السّقوطِ، وهو اسمُ فاعلٍ أصلُه (هائر)، مشتقّ من (هار البناء) إذا تصدّعَ[2]، فعبّر عن هذه الصّفةِ باسم الفاعلِ للدّلالةِ على حدوثِ هذه الصّفةِ فيه ودوامِها حتّى يؤولَ إلى السُّقوط، فهذه الصّفةُ مستمرّةٌ فيه تحدثُ حينًا بعد حين لا يمكنُ إصلاحُها، وفي ذلك مبالغةٌ في الدّلالة على إفضاء البناءِ إلى السّقوط على وجهِ التّأكيد، ويمكنُ أن يُرادَ منِ اسم الفاعلِ اسمُ المفعولِ على معنى جرفٍ مُنهارٍ.

معنى الفاءِ في ﴿فَٱنْهَارَ بِهِۦ﴾:

ما أسرعَ ما أدّى بهم باطِلُهم إلى النّارِ، وبئسَ القرارُ

في قوله جلّ شأنُه: ﴿فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ﴾ عطفَ الانهيارَ على التّأسيس بالفاء[3]، للدّلالة على أنّ الانهيارَ لم يتأخّر، وهو تصويرٌ لسرعةِ إفضاءِ الباطلِ بصاحبِه إلى سوء المصيرِ[4]، ولو عطف بغير الفاء لفاتَ معنى التّعقيبِ والسّرعةِ.

نُكتةُ التّعبيرِ بـ ﴿فَٱنْهَارَ﴾:

سقطَ بناؤهُم بلا تماسكٍ، سُقوطًا سريعًا، فلا عملَ صالحًا يُمسكُه

عبّرَ في قوله ﷻ: ﴿فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ﴾ عن سقوطِهم في النّار بانهيار البناءِ بهم، لما في الانهيارِ من دلالةٍ على سقوطٍ لا

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/35، ويُنظر: البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/98، والطّيبيّ، فتوح الغيب: 7/365.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/20، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/35.

(3) درويش: إعراب القرآن وبيانه: 4/174.

(4) ابن كمال باشا، تفسير ابن كمال باشا: 4/448.

تماسُكَ معه[1]، فكما دلَّ العطفُ بالفاء على سرعة الانهيارِ بعد التّأسيس؛ دلّت مادّةُ الفعل(هار) على سرعة السّقوطِ والانحلالِ، وكما دلّت على ذلك صيغةُ (الانفعال) بما فيها منَ المطاوَعةِ بلا مقاومةٍ، وكلُّ ذلك يشعرُ بسرعةِ الهُوِيِّ إلى مُنقلَبِهم البئيسِ.

بَلاغةُ الجناسِ: ﴿هَارٍ فَٱنۡهَارَ﴾:

في قوله تعالى: ﴿هَارٍ فَٱنۡهَارَ﴾ جناسٌ اشتقاقيٌّ، حيث ورد لفظان من جذرٍ واحدٍ، فذكرَ (الانهيار) بعد (هارٍ) اهتمامًا به وتأكيدًا على تَحَقُّقِه، وفي صيغة المطاوعةِ دليلٌ وإشارةٌ إلى أنّ الانهيارَ كان معلومًا لهم، ولكن عَمِيَت عيونُهم عنه، مع ما يُحدِثُه ذلك اللّفظُ من جمالٍ لفظيٍّ بتَكرار اللّفظِ المتشابهِ، المُفضي إلى التّنبيهِ على المعنى المرادِ.

تَكرارُ اللّفظِ للإشعارِ بأنّ الثّاني كان معلومًا لهم، من أوّلِ البناءِ

معنَى الباءِ: ﴿بِهِۦ﴾ وعوْدِ الضّميرِ:

تدلُّ الباءُ في قوله تعالى: ﴿فَٱنۡهَارَ بِهِۦ فِي نَارِ جَهَنَّمَۗ﴾ على المصاحَبَة، أي: انهارَ البناءُ "وهو فيه آمنٌ من سقوطه بقِلّة عقلِه وسفاهةِ رأيه"[2]، وقد جاء حرف الباءُ في غاية الحُسن؛ إذ ليس المرادُ انهيارَ البناء وحسبُ، بلِ انهيارُه ببانيه وهو مستقرٌّ آمنٌ، ويدلّ الاستقرارُ في البناء مع علمه أنّه بناه على جُرفٍ هارٍ آيلٍ للسّقوط على قلّة العقلِ وسوء التّقديرِ، وكلُّ ذلك ذمٌّ لمسلك المنافقين، وقد تكونُ الباء للسّببيّةِ، على معنى أنّه انهارَ بسبب كونِه على شفا جرفٍ هارٍ.

فَداحةُ الخُسران، انهيارُ البُنيانِ بِصاحبِه الّذي يأوي إليه، فينهارُ كلُّ شيءٍ

فائدةُ الإضافةِ ﴿نَارِ جَهَنَّمَۗ﴾:

في قوله عزّ ذِكْرُه: ﴿فَٱنۡهَارَ بِهِۦ فِي نَارِ جَهَنَّمَۗ﴾، أضاف النّارَ إلى جهنّم، ولو عبّرَ بأحدهما لكان المعنى مفهومًا، ولكنْ لن يكونَ على

التّأكيدُ بالإضافةِ، سبيلٌ إلى وضوحِ الدّلالةِ، وقوّةِ المعنَى

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/20.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/20.

قوّة المعنى ذاتِها التّي تدلّ عليها الإضافةُ، فإضافةُ النّارِ إلى جهنّم أفادتِ التّأكيدَ وقوّةَ المعنى؛ حيث ذكرَ النّارَ باسْمَيْن من أسمائِها، إيغالًا في بيان سوءِ مُنقلبِهم وفداحةِ خُسرانِهم.

معنَى (الواو) في جملةِ نفْيِ الهدايةِ: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾:

بيانُ استئنافِ نفْيِ العَجَبِ، عن مصيرِ الفريقَيْن

الجملةُ في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، يُمكن أن تكونَ استئنافيّةً افتُتحت بواو الاستئنافِ[1]، وسيقتِ الجملةُ مساقَ التّعليلِ، فلمّا ذَكرَ مصيرَ أعمالِ الفريقيْن، أُجيبَ بأنّه "لا عجبَ؛ لأنّ الأمرَ بيد اللّه، لا مفرَّ من قضائه، وهو قد هدى الأوّلَ إلى ما فيه صلاحُه، ولم يهدِ الثّاني لِما عَلِم فيه من عدم قابليّةِ الخيرِ"[2]، ويمكنُ أن تكونَ عاطفةً على قوله: ﴿فَٱنۡهَارَ﴾، من باب عطْفِ عقوباتِهم بعضِها على بعض، فضلًا عنِ احتمال كونِها حاليّةً، على معنى: فانهار بناؤهم، والحالُ أنّ اللّه لا يَهديهم لِظُلمِهم.

فائدةُ التّعبيرِ بلفظِ الجلالة ﴿وَٱللَّهُ﴾:

ثبتَ ضلالُهم بنفْيِ هدايةِ الله تعالى لهم، ومَنْ أضلَّه الله فما له من هادٍ

افتُتِحَ قوله ﷻ: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، بلفظ الجلالةِ؛ تعظيمًا لمضمون الجملةِ؛ إذ إنّ لفظَ الجلالةِ يؤثّرُ بتعظيم ما يأتي في حيّز الجملةِ التّي يردُ فيها، فالمعنى في الآية: أنّ اللّه تعالى الّذي له كمالُ العظمةِ، والّذي لا هدايةَ لأحدٍ سواه، سَلَب الهدايةَ عنهم فلا هاديَ لهم غيرُه، فدلّ ذلك على كمال ضلالِهم وانقطاعِ الهداية عنهم على أبلغِ وصْفٍ؛ ولذا جاء الفعلُ مضارعًا دالًّا على تجدّد انتفاءِ الهدايةِ عنهم، وهذا التّجدّدُ والاستمرارُ يناسبُ تأكيدَ انقطاعِ الهدايةِ عنهم.

فائدةُ توسُّطِ النّفْيِ بين المسنَدِ إليه والمسنَدِ الفعليّ:

جاء النّفْيُ في قوله جلّ شأنُه: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾

(1) مجموعة من المؤلّفين، إعراب القرآن الكريم: 2/911.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/21.

بين المسنَدِ إليه والمسنَدِ الفعليِّ، تأكيدًا للحُكم، وإيرادِه على وجه الثّبوتِ، فإنّ صفةَ الظّلم مانعةٌ من تحقّقِ الهداية جريًا على ما تقتَضيه سنّتُه تعالى في ذلك، وجاء الإخبارُ بذلك في فاصلة الآيةِ ليكونَ أوقعَ في النّفس وأشبَهَ بالإيجاز لما وردَ في الآية الكريمة، وجعل المسندَ فعلًا للدّلالة على تجدّدِ النّفي واستمرارِه، فأفادَ جعْلُ النّفي بين المسنَدِ إليه والمسنَدِ الفعليِّ تحقيقَ الدّلالتَيْن معًا.

انتفاءُ الهدايةِ عنِ الظّالمين مؤكّدٌ، فهو حُكمٌ ثابتٌ دائمٌ مُتجدّدٌ

فائدةُ التّعبيرِ بالمضارع: ﴿يَهۡدِي﴾:

في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ دخلَ النّفيُ على المضارع للدّلالة على استمرارِ النّفي وتجدّدِه، فانتفاءُ هدايةِ الظّالمين مستمرّ متجدّد في كلّ زمانٍ، لأنّ نفيَ المضارع بـ (لا) يدلُّ على دوام النّفيِ، لا نفْيِ الدّوام[1]، وأخرج ذلك مخرجَ السُّنّةِ الإلهيّةِ، "أي: مضتْ سنّتُه تعالى ألّا يكونَ الظّالمُ مُهتديًا في أعماله إلى الحقِّ والعدلِ، ولا إلى الرّحمةِ والفضلِ"[2].

انتفاءُ الهدايةِ دائمٌ متجدِّدٌ، لا ينقطعُ على الإطلاقِ

معنَى (أل) في لفظ ﴿ٱلۡقَوۡمَ﴾:

عبّر النّظمُ الكريمُ عن جنس القومِ الّذين يظلمون في قوله جلّ شأنُه: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ فالهدايةُ منفيّةٌ عن كلّ قوم ظالمين، وليس عن قومٍ بعينِهم، ويدخلُ تحته الّذين بنَوْا مسجدَ الضّرارِ، والمعنى: أنّ اللّه تعالى لا يَهدي كلَّ قوم إذا اتّصَفوا بالظّلمِ.

حُكمُ انتفاءِ الهدايةِ عامٌّ، لكلّ قومٍ ظالمين، في كلِّ زمانٍ ومكانٍ

نُكتةُ التّعبيرِ بـ ﴿ٱلۡقَوۡمَ﴾:

آثَرَ النّظمُ الجليلُ في قوله جلّ شأنُه: ﴿ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ نفيَ الهدايةِ عنِ القوم الظّالمين، ولم يقل: (لا يهدي الظّالمين)؛ لأنّه أراد "الّذين لهم قوّةُ المحاولة لما يريدون"[3]، إشارةً إلى أنّ المذكورين لهم منَ القوّة ما يُمكّنُهم من فعْلِ ما يريدون؛ لأنّ لفظَ (القوم) يدلّ على

القومُ المتمكّنون في الظّلم، يُزاولونَه جماعةً، دون خوفٍ ولا خَشيةٍ

(1) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاوي: 9/342.
(2) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 11/29.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/21.

الجماعة الّذين يقومون قَومةً واحدةً عند فزعِهم تعبيرًا عن قوّتِهم وتلاحمِهم، كما أنّ فيه إشارةً إلى أنّ القومَ زاولوا الظّلْمَ جماعةً.

عِلّةُ وصْفِهم بالظّلم ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾:

بنـاءُ المسجدِ لغير رِضوان الله تعالى، انحرفَ بالمسجدِ عن غايتِه

في قوله عزّ ذِكْرُه: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ وصفَ القومَ بصفة الظّلم "إشارةً إلى تَعدّيهم، ووضْعِ الشّيء في غير موضعِه؛ حيث بنَوا مسجدَ الضِّرار؛ إذِ المساجدُ بيوتُ اللّه يجبُ أن يُخلَصَ فيها القصدُ والنّيّةُ لوجهِ اللّه وعبادتِه"[1]، كما أنّ فيه دلالةً على علّة انتفاءِ الهدايةِ عنهم، فإنّها كائنةٌ بسببِ صفةِ الظّلمِ الثّابتِ فيهم، فالآية ذمٌّ و"طعنٌ على هؤلاء المنافقين، وإشارةٌ إليهم، والمعنى: لا يَهديهم من حيث همُ الظّالمون"[2].

معنى (أل) في: ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾:

الهدايةُ منقطعةٌ عن كلّ ظالمٍ، في كلّ زمانٍ عبْرَ تاريخِ الأُمَمِ

في قوله جلّ شأنُه: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ عرّف ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ بالألف واللّام الدّالّةِ على الجنسِ أوِ العهدِ، فعلى إرادةِ الجنسِ يكونُ المرادُ بالظّالمين جنْسَ الظّالمين "فيدخلُ الّذين اتّخذوا مسجدًا دخولًا أوّليًّا"[3]، ويَحتمِلُ إرادةَ العهد إشارةً إلى هؤلاء المنافقين، فيكونُ من "وضْعِ الظّاهر موضِعَ الضّميرِ للتّسجيل على ظُلْمِهم لأنفُسِهم، وللإشارة إلى علّةِ الحُكم"[4].

نُكتةُ حذْفِ متعلّق لفظِ (الظّلم):

بيانُ أنّ انتفاءَ الهدايةِ، متعلّقٌ بثُبوتِ صفةِ الظّلمِ، بالدّلالةِ على عمومِها

جاء وصفُ الظّلمِ في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ مطلَقًا منَ القيدِ، ولم يجعلْه ظلمًا خاصًّا بنوعٍ ما؛ إذ لم يقل: (ظالمين لأنفسهم)، أو (يظلمون النّاس)، فجعلَه مطلقًا؛ تعميمًا للحُكم، وللدّلالةِ على أنّ انتفاءَ الهدايةِ متعلّقٌ بثبوتِ صفةِ

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/507.
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/86.
(3) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاوي: 9/342.
(4) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاوي: 9/342.

الظّلم، فهو "عامٌّ يشملُ هؤلاء الظّالمين الّذين بنَوا مسجدَ الضّرارِ وغيرَهم"[1].

نُكتة الفصْلِ: ﴿لَا يَزَالُ بُنۡيَٰنُهُمُ﴾:

استئنافٌ لبيانِ إيغالِهم بالرَّيبِ، بعد تبيُّنِ حُكمِ بنائِهم

جاءتِ الجملةُ في قوله جلّ شأنُه: ﴿لَا يَزَالُ بُنۡيَٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوۡاْ رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمۡ﴾ مستأنَفةً لذِكْر سوءِ عواقبِه بعد أن ذكرَ سوءَ الباعثِ عليه[2]، "ولمّا كان ما تقدَّم غيرَ قاطعٍ في إخْرابِه لِما ثبتَ للمساجدِ منَ الحُرْمة، استَأْنَف الإخبارَ عن أنّه لا يُعدُّ في عِداد المساجد بوجْهٍ، وإنّما هو في عِدادِ بيوتِ الأصنام فهو واجبُ الإعدام"[3]. ويُضاف إلى ذلك أنّه يجوزُ أن يُرادَ به الاستئنافُ البيانيُّ، جوابًا عن سؤالٍ نشأ عن ذِكرِ مسجدِهم والنّهي عنِ القيام به، فكأنّه قيل: هلِ ارْعَوَوْا بعد العزوفِ عنِ الصّلاة في مسجدِهم وهدْمِه؟ فأُجيب: بأنّهم مُستمرّون على ضلالِهم.

نُكتةُ التّعبيرِ بالمضارع في: ﴿لَا يَزَالُ﴾ وبيانُ اسمِها وخبرِها:

عدمُ انفكاكِهم عنِ النّفاقِ، لاستمرارِ تعلُّقِ قلوبِهم بمسجدِهم المشؤومِ

عبَّرَ بالفعل المضارعِ في قوله تعالى: ﴿لَا يَزَالُ بُنۡيَٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوۡاْ رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمۡ﴾ للدّلالةِ على رسوخِ النّفاقِ في قلوبهم، فهم كانوا مُنافقين شاكِّينَ في دينهم، ولكنّهم ازدادوا نفاقًا بعد هدْمِه، وازدادوا تصميمًا على الكفرِ ومَقْتًا للإسلام لِما أصابَهم منَ الغيظِ بسبب هدْمِه[4]، وخبرُ الفعلِ (لا يزال) قولُه تعالى: ﴿رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمۡ﴾، أو أنّ الخبرَ مضافٌ محذوفٌ تقديرُه: سبَبَ ريبةٍ؛ والمعنى: "لا يزال هدْمُه سببَ شكٍّ ونفاقٍ زائدٍ على شكِّهم ونفاقِهم لا يزولُ وَسْمُه عن قلوبهم، رَسَخ ذلك في قلوبهم وازدادوا نفاقًا"[5].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/35.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/35 - 36.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/21.
(4) القنّوجيّ، فتح البيان: 5/402.
(5) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/313، وابن كمال باشا، تفسير ابن كمال باشا: 4/449.

نُكتةُ إضافةِ البُنيانِ: ﴿بُنۡيَٰنُهُمۡ﴾:

أُشْرِبوا في قلوبِهمُ النّفاقَ، فجاءتِ الأفعالُ عاكسةً لِما في القلوبِ من ضلالٍ

في قوله جلّ شأنُه: ﴿لَا يَزَالُ بُنۡيَٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوۡاْ﴾ أضافَ البناءَ إلى الضّميرِ العائدِ على المنافقين الظّالمين، إشارةً إلى أنّه "نفسُ المبنَى، وهو المسجدُ"[1]، كما فيه تصريحٌ وتأكيدٌ على نزع صفةِ المسجدِ عنه بإضافته إليهم بعد أن بيَّن ضلالَهم ووَصَفَهم بالقوم الظّالمين، فهذا البناءُ هو بناءٌ لهؤلاء الظّالمين الضّالّين؛ فلا قدسيَّةَ له ولا مكانةَ معتبَرة.

فائدةُ التّعبيرِ بالاسمِ الموصولِ وصِلتِه ﴿ٱلَّذِى بَنَوۡاْ﴾:

وصْفُه بالموصولِ (الذي)، إشارةً إلى أنّه بُنيَ على أساسٍ واهنٍ

وُصفَ البُنيانُ في قوله جلّ شأنُه: ﴿لَا يَزَالُ بُنۡيَٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوۡاْ رِيبَةً﴾ بالاسمِ الموصولِ المتضمِّنةِ صِلتُه فِعلَ البناءِ؛ تأكيدًا وتصريحًا بأنّ المرادَ منَ البناء مسجدُهم، كما أنّ فيه احترازًا عن كونِ إضافةِ البُنيان إليهم في قوله ﴿بُنۡيَٰنُهُمُ﴾ قد تدلُّ على التّمكُّن منَ التّصرّف فيه[2]، وكذلك "للإيذانِ بكيفيّةِ بنائِهم له وتأسيسِه على أوهن قاعدةٍ وأوهَى أساسٍ، وللإشعار بعلَّةِ الحُكم، أي: لا يزال مسجدُهم ذلك مَبْنيًّا ومَهْدومًا"[3].

نُكتةُ الإخبارِ بالمصدر:

تَجَلّي الشّكِ والرّيبِ في بنيانِهم، تَشَخَّصَ به البنيانُ، وبرزَ ما فيه من هوانٍ

في قوله جلّ شأنُه: ﴿لَا يَزَالُ بُنۡيَٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوۡاْ رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمۡ﴾ جاء خبرُ الفعلِ النّاقصِ مصدرًا وهو قوله: ﴿رِيبَةً﴾ "مبالغةً كالوصفِ بالمصدر"[4]؛ إذِ الإخبارُ بالمصدر هنا دلَّ على أنّ بنيانَهم هو الرّيبةُ ذاتُها، فتجسَّدَ شكُّهم ونفاقُهم بهذا البنيانِ، وهذا مبالغةٌ ظاهرةٌ في شدّة نفاقِهم ورسوخِ النّفاق في قلوبِهم، "والمعنى: أنّ بناءَ ذلك البنيانِ صار سببًا لحصول الرّيبةِ في قلوبهم، فجَعَل نفسَ ذلك البنيانِ ريبةً؛ لكونِه سببًا للرّيبةِ"[5].

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/22.

(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/86، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاوي: 9/342.

(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/104.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/36.

(5) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 16/149، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/104.

بَلاغةُ الجناس: ﴿بُنۡيَٰنُهُمُ﴾ ﴿بَنَوۡاْ﴾:

في قوله جلّ شأنُه: ﴿لَا يَزَالُ بُنۡيَٰنُهُمُ ٱلَّذِي بَنَوۡاْ رِيبَةٗ﴾ جناسٌ اشتقاقيٌّ، وتَكرارُ اللّفظ الثّاني إشارةٌ إلى ما في اللّفظ الأوّلِ من متعلِّقاتٍ، وهو البناءُ للضِّرارِ والكفرِ والإرصادِ والتّفريقِ، كما فيه تأكيدٌ على ذمِّهم بتَكرار سبب الذّمِّ، وما جرى لهم من فضيحةٍ به.

تَكرارُ البناءِ تأكيدٌ على سببِ ذمِّهم، وعلّةِ هوانِهم

نُكتةُ تنكيرِ: ﴿رِيبَةٗ﴾:

جاء لفظُ الرّيبةِ في قوله تعالى: ﴿لَا يَزَالُ بُنۡيَٰنُهُمُ ٱلَّذِي بَنَوۡاْ رِيبَةٗ﴾ نكرةً تعظيمًا وتهويلًا للشّكِّ الّذي كان يتردَّدُ في قلوبهم، ولو لم يكنْ بذلك الهَوْلِ لَما كان مستمرًّا؛ كما أشعرَ الفعلُ (لا يزال)، فهي ريبةٌ دائمةٌ مستمرّةٌ لا تنقطعُ؛ لشدَّتِها ورسوخِها في قلوبهم.

الشّكُّ الّذي ملأ قلوبَهم، شكٌّ عظيمٌ لا يزولُ مع الأيّامِ

معنَى ﴿فِي﴾: ﴿فِي قُلُوبِهِمۡ﴾:

قولُه جلّ شأنُه: ﴿رِيبَةٗ فِي قُلُوبِهِمۡ﴾ عبَّر عن تمكُّن الرّيبةِ والشّكِّ من قلوبهم بحرف الجرِّ (في) الدّالِّ على الظّرفيّةِ المجازيّةِ، ومعلومٌ أنّ الرّيبةَ تكونُ في القلب، فالتّصريحُ بكونِها مستقرّةً في القلب تأكيدٌ على هذه الكَيْنونةِ والاستقرارِ والتّغلغُلِ في القلب والتّمكُّنِ فيه.

الشّكُّ مستقرٌّ في قلوبهم لا يزولُ، مهما حاولَ الرّسولُ

نُكتةُ الاستثناءِ، المصدَّرِ بالأداةِ ﴿إِلَّآ﴾:

الاستثناءُ في قوله تعالى: ﴿لَا يَزَالُ بُنۡيَٰنُهُمُ ٱلَّذِي بَنَوۡاْ رِيبَةٗ فِي قُلُوبِهِمۡ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمۡۗ﴾، جاء للاستثناء مِنَ الزّمن المتطاوِلِ المستمرِّ؛ لأنّ الفعلَ ﴿لَا يَزَالُ﴾، يدلُّ على الاستمرارِ، فاستَثْنَى من هذا الاستمرارِ وقتَ التّقطيع، فالاستثناءُ "من أعمّ الأزمنةِ، أي: وقتَ أنْ تَقَطّعَ، وهو في محلّ النّصب على الظّرف"[1]، أي أنّ المصدرَ المؤوَّلَ من ﴿أَن تَقَطَّعَ﴾ مضافٌ إليه والمضافُ محذوفٌ تقديرُه: وَقْتَ تقطُّعِ قلوبِهم. ويدلُّ ذلك على أنّ الرّيبةَ باقيةٌ في قلوبهم أبدًا، حتّى

دَلالةُ الاستثناءِ على التّهكُّم، من بابِ تأكيدِ الشّيءِ بما يُشبهُ ضدَّه

(1) ابن كمال باشا، تفسير ابن كمال باشا: 4/449.

إنّهم سيموتون على هذا النّفاقِ[1]، فيكونُ هذا الاستثناءُ دالًّا على التّهكُّم "وهو من قَبيل تأكيدِ الشّيء بما يُشبه ضدَّه كقوله تعالى: ﴿وَلَا يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلۡجَمَلُ فِي سَمِّ ٱلۡخِيَاطِۚ﴾ [الأعراف: 40]، أي: يبقَى ريبةً أبدًا إلّا أن تَقَطَّعَ قلوبُهم منهم وما هي بمقطَّعةٍ"[2].

فائدةُ التّعبيرِ بالمصدَرِ المؤوَّلِ: ﴿أَن تَقَطَّعَ﴾:

إنّما عبّر في قوله عزّ ذِكْرُه: ﴿أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمۡۗ﴾ بالمصدرِ المؤوّلِ دون المصدرِ الصّريحِ، لِما في الفعل من دلالةٍ على الحدوث والتَّجَدُّدِ، كما أنّ التّصويرَ في الفعل المضارع مرادٌ في الآية؛ حيث يُصوّرُ شدّةَ تقطُّعِ قلوبهم إيماءً إلى قوّة ثُبوتِ الرّيبةِ في قلوبهم ورُسوخِهم في النّفاق.

تصويرُ تقطيعِ قلوبِهم بالفعل المضارعِ، والغرضُ بيانُ قوّةِ اعتقادِهم بالنّفاقِ

دَلالةُ التّعبيرِ بـ ﴿تَقَطَّعَ﴾، من حيث المادّةُ والصّيغةُ:

قولُه تعالى: ﴿أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمۡۗ﴾ عبَّر فيه، عن تقطيع قلوبِهم بصيغة التّفعُّلِ للدّلالةِ على كثرة التّقطيعِ، ومعلومٌ أنّ الكثرةَ في تقطيع القلب المُؤدّي إلى الموت لا يحتاجُ إلى التّكثير؛ فإنّما عبّرَ عن ذلك بالتّكثير مبالغةً في التّقطيعِ تعبيرًا عن شدّة تعلُّقِ قلوبهم بالنّفاقِ والرّيبةِ، بحيث لا تنفكُّ عنه حتّى لو قُطِّعتْ تقطيعًا شديدًا، فعبّر بذلك للدّلالة "على استمرار هذه الرّيبةِ ودوامِها وهو قوله: ﴿أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمۡۗ﴾ قِطعًا وتتفرّقَ أجزاءً إمّا بالموت أو بالسّيف، وقيل في القبور أو في النّار. والمقصودُ أنّ هذه الرّيبةَ دائمةٌ لهم ما داموا أحياءً، ويجوزُ أن يكون ذِكرُ التّقطّعِ تصويرًا لحال زوالِ الرّيبةِ، وقيل: معناه: إلّا أن يتوبوا توبةً تتقطّعُ بها قلوبُهم نَدمًا وأَسفًا على تفريطِهم"[3]، فإنْ أُريد معنَى التّوبة فيكونُ التّكثيرُ دالًّا على شدّة النّدمِ تعبيرًا عن صدْقِ التّوبةِ.

التّعبيرُ عن شدّةِ تعلُّق قلوبِهم بالنّفاق، الّذي لا تنفكُّ عنه حتّى لو قُطِّعت تقطيعًا

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 16/149.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/36.
(3) القنّوجيّ، فتح البيان: 5/402.

فائدةُ إظْهارِ القلوبِ، في موضعِ إضمارِها:

النّفاقُ راسخٌ في قلوبِهم، ثابتٌ لا يزولُ، مهما تغيّرتِ الظّروفُ

في قوله جلّ شأنُه: ﴿رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ﴾ أظهَر موضعَ الإضمار، فأظهر القلوبَ وكرَّر ذِكرَها ولم يَقُل: (ريبة في قلوبهم إلّا أن تقطّع)؛ وذلك تصريحٌ بأن التّقطُّع المذكورَ يتعلَّقُ بالقلوب لا بشيءٍ آخرَ، فأظهرَ القلوبَ حتّى لا يقعَ لُبْسٌ بمرجعِ الضّمير، فقد يُفهمُ أنّ التّقديرَ: (تَقطُّعُ الرّيبةُ عن قلوبهم)، فأراد أن يبيّنَ أنّ التّقطّعَ المذكورَ يتعلّقُ بالقلوب لا بغيرِها، كما أنّ فيه اهتمامًا بتَكرار ذِكْرِ القلوب، وهذا الاهتمامُ يُفضي إلى تأكيدِ ثبوتِ النّفاق في قلوبهم، بحيث أعاد ذِكْرَها في سياق التّقطيعِ.

بَلاغةُ الكنايةِ عن صفةٍ في تقطيعِ القلوبِ:

رُسوخُهم في النّفاق لا يزولُ إلّا بموتِهم

في قوله تعالى: ﴿إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ﴾ عبّرَ بتقطيع القلوب عن رسوخ الرّيبةِ في قلوبهم، فهذا التّعبيرُ "كنايةٌ عن أنّ الرّيبةَ باقيةٌ متمكّنةٌ فيها غيرُ زائلةٍ، فلو صَوَّرَ أنّ قلوبَهم تَقطَّعُ وتفرَّقُ قِطعًا حتّى تخرج الرّيبةُ منها؛ لزالت، وأمّا ما دامت سالمةً متجمّعةً فالرّيبةُ باقيةٌ متمكّنةٌ فيها"[1]، فهي كنايةٌ عن صفة الرّسوخِ في النّفاق، والغرَضُ تصويرُ المعنى المجرّدِ بمعنًى محسوسٍ تأكيدًا للمعنى ومبالغةً فيه.

دَلالةُ الواو على الاستئنافِ في الجملةِ الاسميّة:

بيانُ أنّ الاستئنافَ بما أخبرَ به، إنّما هو من علْمِه تعالى وحِكمتِه

افتتح قولَه ﷻ: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ بواو الاستئنافِ، والجملةُ مستأنَفةٌ[2]، لمّا أخبرهم بما لا طريقَ للعلمِ به إلّا منَ اللّه تعالى، وهو كونُ الرّيبةِ باقيةً في قلوبهم إلّا أن تتقطّع تلك القلوبُ؛ استأنفَ ليبيِّنَ أنّ ذلك إنّما هو من علْمِ اللّه تعالى الّذي يُحيط بعلْمه بكلّ شيءٍ. وافتتحَ الجملةَ بلفظ الجلالةِ تعظيمًا لعلْمِه وحكمتِه، فما نُسب إلى اللّه تعالى كان منَ العظمةِ على أقصاها. ويمكنُ أن تكون الجملةُ

(1) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 7/371.
(2) صافي، الجدول في إعراب القرآن: 6/38.

حاليّةً على معنى: والحالُ فيما يصيبُهم أنّ اللّه عليمٌ بحالهم، حكيمٌ بجعْلِ هذه العقوباتِ عليهم.

فائدةُ تّذييلِ الآية بالجملةِ الاسميّةِ:

بيانُ أن يكونَ بناءُ مسجدِ الضِّرارِ، سببَ حسْرةٍ عليهم في الدّنيا والآخرة

الجملة في قوله جلّ شأنُه: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾، اسميّةٌ تفيدُ تأكيدَ مضمونِها، وهو الإخبارُ بعلم اللّه تعالى وحِكمتِه، وعقَّبَ بها على الإخبار عن دوامِهم بالرّيبةِ والشّكِّ والحسْرةِ على خراب بُنيانِهم، فهي "تذييلٌ مناسبٌ لهذا الجَعْل العجيبِ والإحكام الرّشيقِ؛ وهو أن يكون ذلك البناءُ سببَ حسْرةٍ عليهم في الدّنيا والآخرة"[1].

فائدةُ التّعبيرِ بلفظِ الجلالة:

لفظُ الجلالةِ يخلَعُ على مضمون جُملتِه التّعظيمَ

افتُتِحَ قولُه ﷻ: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ بلفظِ الجلالة تعظيمًا لعلمِه وحكمتِه، فما نُسبَ إلى اللّه تعالى كان منَ العظمة على أقصاها، وكونُ الجملة اسميّةً فإنّها تدلّ على تأكيد مضمونِها، ولفظُ الجلالة حيث وردَ فإنّه يؤثّرُ بالتّعظيم على ما يأتي في حيِّز الجملةِ، فقولُه: ﴿وَٱللَّهُ﴾ "أي: الّذي له الإحاطةُ بكل شيءٍ، ﴿عَلِيمٌ﴾ أي: بالغُ العلْمِ بكلِّ معلومٍ ﴿حَكِيمٌ﴾ فهو يُتقنُ ما يأمرُ به"[2].

سِرُّ تذْييلِ الآية بهذيْن الاسميْن الجليلَيْن: ﴿عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾:

ما أخبرَ اللّه تعالى عنه، فهو عن علْمٍ، وما حكمَ به فهو عن حكمةٍ

خُتم قولُه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ بالعلمِ والحكمةِ للدّلالة على أنّ ما أَخبر به إنّما هو عن علْمِه ﷻ فهو حتمٌ لا يُشَكُّ فيه، وأنّ ما حَكمَ به عليهم إنّما يصدرُ عن حكمةٍ بوضْع كلِّ شيء موضِعَه، فهو ﷻ "﴿عَلِيمٌ﴾ بأحوالِهم، ﴿حَكِيمٌ﴾ في الأحكام الّتي يحكمُ بها عليهم"[3].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/36.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/22.
(3) ابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 10/215.

نُكتةُ تنكيرِ الاسمَيْن الجليلَيْن: ﴿عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾:

في قوله ﷻ: ﴿عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ جاء الخبرانِ عن صفاتِ اللّه تعالى بالتّنكير دونَ التّعريف، تعظيمًا لصفتي العلم والحكمة المتعلِّقتَيْن به ﷻ؛ فعلمُ اللّه تعالى علمٌ عظيمُ الشّأن، وكذلك حكمتُه.

علْمُ الله تعالى وحكمتُه عظيمٌ شأنُهما، نافذٌ في الخلْقِ مرادُهُ بمُقتضاهُما

سرُّ تقديمِ (العلمِ) على (الحكمةِ):

في قوله تعالى: ﴿عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ قدّمَ العلمَ على الحكمة؛ لأنَّ الأحكامَ الّتي نزلت في شأن مسجدِ الضِّرار إنّما نزلت لعلْمِ اللّه تعالى بسوء نواياهُم وخُبثِ مقاصدِهم، فلمّا حكمَ عليهم بما حكمَ، كانت تلك الأحكامُ لها غاياتٌ وأغراضٌ ساميةٌ لجماعة المؤمنين وللحقّ، فكانت مبنيّةً على العلمِ.

عَلِمَ الله سوءَ نواياهُم وخُبثَ مقاصدِهم، فحكمَ عليهم بما حكمَ

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الحَلِفُ والقَسَمُ:

"القسَمُ أبلغُ من الحلِف؛ لِأنّ معنى قولنا: أُقسم بِاللّه، أنّه صار ذا قسمٍ بِاللّه، والقَسْمُ: النَّصِيبُ، والمرَادُ أنَّ الَّذِي أقسمَ عليه منَ المَال وغيرِه قد أحرزَه ودفع عنه الخصمَ بِاللّه. والحَلِف من قولك: سيف حَليف؛ أَي: قاطعٌ ماضٍ، فَإِذا قلتَ: حَلَف بِاللّه، فكأنّك قلتَ: قطعَ المُخَاصمَة بِاللّه. فالأوّل أبلَغُ؛ لأَنَّهُ يتَضَمَّن معنى الآخر مع دفع الخصم، ففيه مَعْنيانِ، وقولُنا: حلف، يُفِيدُ معنًى واحِدًا، وهو قطعُ المُخاصمَة فقط"[1]، فعبّر في قوله تعالى: ﴿وَلَيَحۡلِفُنَّ إِنۡ أَرَدۡنَآ إِلَّا ٱلۡحُسۡنَىٰۖ وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ﴾ بالحلف؛ تعبيرًا عن أنَّهم أرادوا قطْعَ المخاصمة بإظهار أنفُسِهم بمظهرِ الصّادق.

القسَمُ أبلغُ منَ الحلِفِ، والحلِفُ أنسبُ في المخاصمةِ

(يشهدُ) و(يعلمُ):

الفرقُ بين الشّهادة والعلمِ "أَنّ الشَّهَادَة أخصُّ منَ العلم، وذلك

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 56.

أنَّها بوُجود الأشْيَاء لا من قبل غيرها، والشَّاهِد نقيضُ الغائِب في المعنَى؛ ولذا سُمّي ما يُدْرَكُ بالحواس ويُعلمُ ضَرورَةً: شاهدًا، وسُمِّيَ ما يُعلم بِشَيْءٍ غَيره وهو الدّلَالَةُ: غائِبًا؛ كالحياة والقُدْرَة، وسُمِّي القَديمُ شاهدًا لكلِّ نجوى لأنَّه يَعلمُ جَميع الموجودات بِذاتِه، فالشّهادةُ علمٌ يتناولُ المَوْجودَ، والعلمُ يتَناوَلُ المَوْجودَ والمعدومَ"[1].

الشّهادةُ العلمُ بما يُدرَكُ بالحواسِّ، وهي أخصُّ مِنَ العلمِ

وفي قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ﴾ عبّرَ بالشّهادة لأنّ كذِبَهم كان ظاهرًا مُدرَكًا بالحواسِّ وليس خفيًّا، فكانتِ الشّهادةُ أبلَغَ في التّعبير عنه.

(لا تَقُمْ فيه) و(ولا تُصَلِّ):

قولُه تعالى: ﴿لَا تَقُمۡ فِيهِ أَبَدٗاۚ﴾، وفيه جاء النّهيُ عنِ الصّلاة في المسجد، بطريقة المجازِ المرسَلِ طلبًا للمبالغةِ في النّهي عنِ الصّلاة في مسجد الضِّرارِ، وإنّما جاء النّهيُ عنِ القيام الّذي يستلزمُ الصّلاةَ، دونَ التّصريح بالنّهي عنِ الصّلاة؛ مبالغةً في النّهي عنِ الصّلاة فيه، ولم يقل: (لا تصلِّ فيه)، إذ لو قال ذلك لَدلَّ على أنّ التّحريمَ لا على وجه المبالغةِ والتّأكيدِ، فبالَغَ في النّهْي بذكرِ القيامِ الّذي يشملُ جميعَ أعمالِ الصّلاة. وكذلك فإنّه لو عبّرَ بالصّلاة لكان محتمِلًا المعنى اللّغويَّ، فيكونُ المعنى عندئذ: لا تدعُ لهم فيه وحسب.

النّهيُ عنِ القيامِ فيه للمبالغةِ، والنّهيُ عنِ الصّلاةِ نهيٌ عنِ الدّعاء للمنافقين

وفي قوله تعالى: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٖ مِّنۡهُم مَّاتَ أَبَدٗا وَلَا تَقُمۡ عَلَىٰ قَبۡرِهِۦٓۖ﴾ [التّوبة: 84] نَهْيٌ عنِ الصّلاة على المنافقين ودفنهم، فنهاه ﷺ عن أن يصلّيَ على أحدٍ مات من هؤلاء المنافقين الّذين تخلّفوا عنِ الخروج معه، وبأن لا يتولّى دفنَه وتقبيرَه[2]، فالمرادُ منَ القيام ليس قيامَ الصّلاةِ؛ بل أعمالَ الدّفنِ والدّعاءِ للميّت والشّهادةِ له، وأمّا

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 95 - 96.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 14/405.

النّهْيُ عنِ الصّلاةِ على المنافقين فجاء مصرَّحًا فيه بلفظ الصّلاةِ ليشملَ الصّلاةَ المعروفةَ، كما يشملُ الدّعاءَ لهم، فنهاه عن كلِّ ذلك.

الرِّيبةُ والشَّكُّ والألفاظ المقاربة:

الرّيبُ شكٌّ مع تُهَمَةٍ[1]، وأصلُ الرّيبِ: القلقُ واضطرابُ النّفس، ولمّا كان الشّكُّ يلزمُه اضطرابُ النّفس وقلقُها غَلَب عليه الرّيبُ فصار حقيقةً عُرفيّةً، يُقال: رابَه الشّيءُ إذا شكّكَه، أي: أوجبَ الشّكَّ في حاله[2]. وفي الآية الكريمةِ: عبّرَ عن قلقِهم وحسرتِهم ونفاقِهم بالرّيبة فقال: ﴿لَا يَزَالُ بُنۡيَٰنُهُمُ ٱلَّذِي بَنَوۡاْ رِيبَةٗ فِي قُلُوبِهِمۡ﴾، والمرادُ بالرّيبةِ في الآية: الشّكُّ والنّفاقُ، والحسْرةُ والنّدامةُ، والحزازةُ والغيظُ في قلوبهم[3]. وكلُّ هذه المعاني حاضرةٌ في قلوبِهم، ولو عبّرَ بالشّكِّ لكان المدلولُ الشّكَّ وحسبُ، والحالُ أنّهم كانوا مُرتابين قلِقين، أخذتهمُ الحسْرةُ والنّدامةُ على مسجدِهم وأصرّوا على ما هم فيه وامتلؤوا غيظًا، فالتّعبيرُ بالرّيبةِ في هذا الموضعِ من بلاغةِ القرآنِ الكريم.

الرَّيبُ أخصُّ منَ الشّكِّ، وأفصحُ في البيانِ، عمّا اعتلجَ في قلوبهم منَ القلقِ والحسْرةِ

(1) العسكريّ، الفروق اللُّغويَّة، ص: 99.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/222.
(3) ابن الجوزيّ، زاد المسير: 2/301.

﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقۡتُلُونَ وَيُقۡتَلُونَۖ وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقّٗا فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ وَٱلۡقُرۡءَانِۚ وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِۚ فَٱسۡتَبۡشِرُواْ بِبَيۡعِكُمُ ٱلَّذِي بَايَعۡتُم بِهِۦۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ١١١﴾ [التَّوبة: 111]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

ترغيبُ المؤمنين في الجهادِ، إثرَ بَيانِ حالِ المتخلِّفين عنه

لمَّا ذكر ﷻ "فضائحَ المنافقين بسبب تخلُّفهم عن غزوة تبوكَ، وأصنافَ المقصّرين منَ المؤمنين، أردفَ ذلك بذِكْر حالِ المؤمنين الصّادقين في إيمانهم البالِغين فيه حدَّ الكمالِ، وبذا تمّ معرفةُ جميع أحوالِ المؤمنين"[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱشۡتَرَىٰ﴾: (شرى) أصْلٌ يدلُّ على تعاوُضٍ مِنَ الاثْنَيْنِ في أمرَيْنِ أخْذًا وَإعْطاءً مُماثَلَةً، والشِّراءُ والبيعُ يتلازمان، فالمُشْتَري دافعُ الثّمن، وآخذُ المثمَّن، والبائعُ دافعُ المثمَّن، وآخذُ الثّمن. الشّراءُ يُمدُّ ويُقصرُ، يُقال منه: شرَيْتُ الشّيءَ أشريه شراءً، إذا بِعْتَه، وإذا اشتريتَه أيضًا، وهو منَ الأضداد، وتُجوّزَ بالشّراء والاشتراء في كلّ ما يحصل به شيءٌ، نحو: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾، فقد ذكرَ ما اشتُريَ به، وهو قوله: ﴿يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقۡتُلُونَ﴾[2].

2) ﴿أَوۡفَىٰ﴾: (وفى) أصلٌ يدُلُّ على إكْمالٍ وإتْمام. منه الوَفاءُ: إتْمامُ العَهْدِ وإكْمالُ الشَّرْطِ الوافي: الّذي بلغ التّمامَ. يُقال: دِرهمٌ

(1) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 11/30، ويُنظر: ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/37.
(2) الجوهريّ، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (شرى).

وافٍ، وكيلٌ وافٍ، وأوْفَيْتُ الكيلَ والوزنَ. وفَى عهدَه يَفِي وَفاءً، وأَوْفَى: إذا تمّم العهد ولم ينقُضْ حِفظه، الوَفاءُ: ضدُّ الغدْرِ. يُقال: وفَى بعهده وأوْفى بمعنًى[1].

3) ﴿بِبَيۡعِكُمُ﴾: (بيع) أَصْلٌ وهو بَيْعُ الشَّيْءِ، البيعُ: ضِدُّ الشِّراءِ، وهو: إعطاءُ المثمَّن وأخذُ الثّمن، والبَيْعةُ: الصَّفْقةُ على إيجاب البيْع وعلى المُبايعةِ والطّاعةِ. وقد تبايَعوا على الأَمر: كقولِكَ: أَصْفَقوا عليه. وبايَعه عليه مُبايَعةً: عاهَده، هو عِبارَةٌ عَنِ المُعاقَدةِ والمُعاهَدةِ، فكُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا باعَ ما عنده مِنْ صاحِبِه وأعطاه خَالِصَةَ نَفْسِه وطاعَتَه ودَخِيلةَ أَمره، وبايَعَ السّلطانَ: إذا تَضمَّن بَذْلَ الطّاعة له بما رَضَخ له، وقوله ﷻ: ﴿فَٱسۡتَبۡشِرُواْ بِبَيۡعِكُمُ ٱلَّذِي بَايَعۡتُم بِهِۦ﴾ إشارة إلى بيعة الرّضوان[2].

4) ﴿ٱلۡفَوۡزُ﴾: (فوز) أصلٌ وهو النَّجَاة، فازَ يَفوزُ، إذَا نَجا، وهو فائِزٌ. وفازَ بالأَمْرِ، إذا ذَهَبَ بِهِ وَخَلَصَ. والفَوْزُ: الظَّفَر بالخير والنَّجاةُ مِنَ الشَّرِّ. وفي التَّنْزِيلِ العَزِيزِ: ﴿فَلَا تَحۡسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٖ مِّنَ ٱلۡعَذَابِۖ﴾ [آل عمران: 188]؛ أي: بمنْجاةٍ مِنَ العَذَابِ، وأَصلُ المَفازَةِ مَهْلَكَةٌ، فَتَفاءَلُوا بِالسَّلامَةِ والفَوْزِ[3].

المَعْنى الإجْماليُّ:

الإخبارُ عنِ البيعةِ مع الله تعالى، وجزائِها الكريمِ، بالفوزِ العظيمِ

يُخبرُ اللّه تعالى عن ذاته الجليلةِ بأنّه اشترى منَ المؤمنين أنفُسَهم وأموالَهم بأنّ لهم في مُقابلِ ذلك الجنّةَ، وما أعدّ اللّه فيها منَ النّعيم لبذْلِهم نفوسَهم وأموالَهم في جهاد أعدائِه لإعلاء كلمتِه وإظهار دينِه، فيَقْتلون ويُقتَلون، وهذا وعدٌ منزَّلٌ في التّوراة والإنجيل

(1) الجوهريّ، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (وفى، وفي).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (بيع).
(3) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (فوز).

والقرآن، ولا أحدَ أوفى بعهده منَ اللّه لِمَنْ وفَّى بما عاهدَ اللّهَ عليه، فأَظهِروا السّرورَ - أيّها المؤمنون - ببيعِكمُ الّذي بايعتُم اللّهَ به، وبما وعدَكم به منَ الجنّة والرِّضوان، وذلك البيعُ هو الفلاحُ العظيمُ[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بَلاغةُ فصْلِ الآياتِ عن سابقتِها:

شتّانَ بين صفاتِ المنافقين المُراوِغين، وسلوكِ المؤمنين المتّقين

فَصْلُ قولِه جلّ شأنُه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ﴾ عن سابقِه لكمالِ الانفصال بين مضمونِهما؛ فبعدَ ذِكْرِ أحوالِ المنافقين استأنفَ "للتّنويه بأهلِ غزوةِ تبوكَ، وهم جيشُ العُسْرة، ليكونَ توطئةً وتمهيدًا لذِكْرِ التّوبة على الّذين تخلّفوا عنِ الغزوة وكانوا صادقين في إيمانهم"[2].

نُكتةُ توالي المؤكِّداتِ في: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ﴾:

الدّلالةُ على أهميّة الخبرِ، وعظمةِ المشتري، ونفاسةِ المُشترَى، ووثاقةِ العَقدِ

تضمّن قولُه ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ﴾ وفرةً منَ المؤكِّدات، فتوالَتْ أساليبُ التّأكيدِ فيها سوى التّأكيدِ بـ(إنّ) والجملةِ الاسميّة: "فأوّلُها: قولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم﴾، فيكونُ المشتري هو اللّه المقدّسُ عنِ الكذب والخيانةِ، وذلك من أدلِّ الدّلائلِ على تأكيد هذا العهدِ. والثّاني: أنّه عبَّرَ عن إيصال هذا الثّواب بالبيع والشّراء، وذلك حقٌّ مؤكَّدٌ. وثالثُها: قولُه: ﴿وَعۡدًا﴾ ووعدُ اللّه حقّ. ورابعُها: قولُه: ﴿عَلَيۡهِ﴾ وكلمةُ (على) للوجوب. وخامسُها: قولُه: ﴿حَقّٗا﴾ وهو التّأكيدُ للتّحقيق. وسادسُها: قولُه: ﴿فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ وَٱلۡقُرۡءَانِۚ﴾ وذلك يجري مجرَى إشهادِ جميعِ الكتبِ الإلهيّةِ وجميعِ الأنبياء والرّسلِ على هذه المبايعة. وسابعُها: قولُه: ﴿وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِۚ﴾ وهو غايةٌ في التّأكيد. وثامنُها: قولُه: ﴿فَٱسۡتَبۡشِرُواْ بِبَيۡعِكُمُ

(1) جماعة من العلماء، التّفسير الميسَّر: 1/204.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/37.

﴿ٱلَّذِى بَايَعۡتُم بِهِۦۚ﴾ وهو أيضًا مبالغةٌ في التّأكيد. وتاسعُها: قولُه: ﴿وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ﴾. وعاشرُها: قولُه: ﴿ٱلۡعَظِيمُ﴾. فثبت اشتمالُ هذه الآية على هذه الوجوهِ العشرةِ في التّأكيد والتّقريرِ والتّحقيق"[1]. ودَلَّ هذا التّأكيدُ على الاهتمام بالخبر تقويةً لمضمونِه؛ كونَه يتعلّقُ بأشدِّ ما يكونُ على النّفس وهو القتالُ حيث مَظِنَّةُ القَتل.

دَلالةُ التّعبير بـ ﴿ٱشۡتَرَىٰ﴾:

في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ﴾ عبَّرَ عن مبايعتِهم اللّهَ تعالى بالاشتراءِ في الزّمن الماضي للدّلالةِ على أنّه أمرٌ محقَّقٌ مؤكّدٌ، وأنّه أمرٌ معهودٌ في الرّسالاتِ السّابقةِ كما يشيرُ إلى ذلك قولُه تعالى: ﴿وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقّٗا فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ﴾ "إشارةً إلى أنّ الوعدَ بذلك قديمٌ مُتكرِّرٌ معروفٌ في الكتبِ السّماويّةِ"[2].

جَزاءُ البيعةِ أمرٌ ثابتٌ في الشّرائعِ، وسُنّةٌ راسخةٌ في العقائدِ

بَلاغةُ الاستعارةِ في: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ﴾:

في قوله جلّ شأنُه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ﴾ استعارةٌ؛ إذ لا يجوزُ أن يُنسبَ الاشتراءُ إلى اللّه تعالى؛ لأنّ المشتريَ إنّما يشتري ما لا يملكُ، وبيانُ ذلك أنّ المؤمنَ يقاتِلُ في سبيل اللّه بماله ونفسِه، فإذا قُتلَ أخَذَ منَ اللّه في الآخرة الجنّةَ جزاءً لِما فَعلَ، فجعلَ هذا استبدالًا وشراءً، وإنّما عبّرَ بذلك تلطُّفًا في الدّعاء إلى العبادة، وللمبالغةِ في قَبوله تعالى لما بَذلوه، فإعطاؤهمُ العِوضَ على ما بذلوا دليلٌ على قَبوله منهم[3]، فهي استعارةٌ تصريحيَّةٌ تبعيَّةٌ؛ حيث استعارَ الاشتراءَ لإثابتِهمُ الجنّةَ ببذلِهمُ الأموالَ والأنفسَ في سبيل اللّه تعالى، فشَبَّه بذْلَهمُ الأموالَ والأنفسَ، وإثابتَهم عليها بالجنّة، بالبيع والشّراءِ بجامع المعاوَضَة

لمّا قبِلَ ما بَذلوه، عَبَّرَ عن حَتْمِيَّةِ جَزائِهم بالشّراءِ، لتثمينِ ذلك وتعْظيمِه

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 16/152.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/37.
(3) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 16/150، وابن الجوزيّ، زاد المسير: 2/302، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/105.

في كلٍّ من البيع والشّراء، وعِوَضُهُ المالُ وبذلِ الأنفسِ والأموالِ في سبيل اللّه، وعِوضُه الجنّةُ[1].

معنَى ﴿مِنَ﴾ في شِبْه الجملةِ: ﴿مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾:

في قوله ﷻ: ﴿ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ﴾، الجارُّ والمجرورُ ﴿مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، يتعلّقُ بالفعلِ ﴿ٱشْتَرَىٰ﴾، ومعنى الاشتراء: أخْذُ الشّيءِ من صاحبه بثمنِه[2]، وبهذا فإنّ (مِن) هنا ابتدائيّةٌ، تدلّ على ابتداء مكانِ الأخذِ.

حروفُ المعاني ذاتُ أثرٍ في السّياق، معنًى وإعرابًا

معنى (أل) في لفظِ: ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾:

في قوله تعالى: ﴿ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ﴾ عرَّف المؤمنين بالألف واللّام، وظاهرُهُ أنّها عامّةٌ في كلّ مؤمنٍ، فحكمُها "عامٌّ في كلّ مؤمنٍ مجاهدٍ في سبيل اللّه"[3]، أمّا كَوْنُ الخِطابِ مُخَصَّصًا بالمخاطَبين من هذه الأمّةِ في قولِه تعالى: ﴿فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ﴾ فلا يعارِضُ التّعميمَ؛ لأنّ الإخبارَ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾، هو إخبارٌ عن حقيقةٍ ثابتةٍ في كلّ الشّرائع، كأنّها سُنَّةٌ من سُننِه تعالى في المؤمنين.

العهدُ والمبايعةُ لكلّ مؤمنٍ، في كلّ زمانٍ، لا تنقطعُ ولا تنفصمُ

فائدةُ تقديمِ شِبْه الجملةِ ﴿مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، على المفاعيل:

قدَّمَ شِبهَ الجملةِ: ﴿مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ على المفعول به في قوله جلّ شأنُه: ﴿ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم﴾، لئلّا يعودَ الضّميرُ على متأخِّرٍ، ولولا هذا التّقديمُ لكان التّركيبُ: (اشترى الأنفُس والأموال من المؤمنين)، كما أنّ التّقديمَ يفيدُ تَكرارَ الضّميرِ العائدِ للمؤمنين، وفي ذلك تأكيدٌ على مكانتِهم في هذه المبايعة. وفيه أيضًا

قدَّمَ ذِكرَ المؤمنين، اهتمامًا بشأنِهم، في سياقِ الثّناءِ عليهم

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/313، وابن كمال باشا، تفسير ابن كمال باشا: 4/451، والهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 12/92.

(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (شرى).

(3) ابن جُزيّ، التّسهيل: 1/348.

إظهارٌ لقوَّةِ بذلِهم؛ حيث إنّ تأخيرَ (الأنفُس، والأموال) أوجَبَ إضافتَها للضّميرِ العائدِ للمؤمنين، فأشعرتِ الإضافةُ أنّهم مالِكونَ لهذه الأنفسِ والأموالِ، فيكونُ بذلُ النّفس والمالِ في سبيل الله تعالى دالًّا على جودِهم بكل ما يَملكون، وفي ذلك إظهارٌ لِمَزِيَّتِهم ومَنقبتِهم.

عِلّةُ تقديمِ (الأنفُس) على (الأموال):

قدَّم النّظمُ الكريمُ في قوله ﷻ: ﴿ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم﴾ ذِكْرَ الأنفُسِ على الأموال في هذا الموضعِ فقط في القرآن الكريم؛ لأنّ النّفس أعزُّ على الإنسان من سائر الأشياء، والنّفسُ سابقةٌ على اكتساب المال[1]، فالآية هنا تختلفُ عن بقيّة الآياتِ الّتي تَقدَّم فيها ذِكْرُ المال على اعتبارِ أنّ تقديمَ المال أيسرُ من تقديم النّفس؛ لأنّ الآية تصفُ هذا الشّراءَ منَ المؤمنين في وسط القتال في سبيل الله ووقوعِ القتل بين الطرفيْن، فناسبَه تقديمُ النّفس.

النّفسُ أحقُّ بالتّقديمِ في المبايعةِ، مع المجازفةِ بهلاكِها في سبيل الله

معنى الباء: ﴿بِأَنَّ﴾:

الباءُ في قوله تعالى: ﴿بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ﴾ دخلت على العِوضِ في الشّراء وهو الثّمنُ، وتُسمّى: (باءَ العِوض)[2]، "ولما كان شأنُ الباء أن تدخلَ على الثّمن في صِيَغِ الاشتراء أُدخلت هنا في: ﴿بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ﴾ لمشابهةِ هذا الوعدِ الثّمنَ"[3]، فكما يجبُ في الشّراء أن يَعرف المشتري ماذا يشتري؛ عرّفَ في الآية ماذا يشترون بالتّصريحِ به من خلال حرف الباء تعْيينًا للثّمن.

تَعيينُ الثّمنِ الّذي باعوا أنفسَهم وأموالَهم به، تثمينًا للصّفقةِ الرّابحةِ

معنى اللّام: ﴿لَهُمُ﴾:

في قوله جلّ شأنُه: ﴿بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ﴾ عبَّرَ باللّام الدّالّةِ على الملكِ والاستحقاقِ، وذلك للدّلالةِ على أنّ الجنّةَ في حال الإيفاءِ بالثّمن فإنّها كائنةٌ لهم على جهة التّملّكِ والاستحقاق، وقد عُلِم أنّ الجنّةَ

اللّامُ للتّمليكِ، والغرَضُ المبالغةُ في إكرامِهم، بتمليكِهم جنّةَ الخُلْدِ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/23.
(2) عُضيْمَة، دراسات لأسلوب القرآن الكريم: 2/15.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/38.

محضُ امتنانٍ منَ اللّه تعالى، فإنّ التّعبيرَ بالاستحقاق في الآية إنّما هو مبالغةٌ في الإكرام منَ الجليل تعالى ذِكرُه.

نُكْتَةُ تقديمِ المسنَدِ ﴿لَهُمُ﴾، على المسنَدِ إليه:

قدَّم شِبهَ الجملة على المسنَد إليه في قوله جلّ شأنُه: ﴿بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾ مبالغةً في تخصيص الجنّةِ بهم، فهي خاصّةٌ مقصورةٌ عليهم[1]، وأفادَ هذا التّخصيصُ المبالغةَ "في تقرير وصولِ الثّمنِ إليهم واختصاصِه بهم، كأنّه قيل: بالجنّة الثّابتةِ لهم المختصّةِ بهم"[2].

الجنّةُ خُصَّتْ بهم للمبالغةِ في استحقاقِهم لها

معنَى (أل) في ﴿ٱلْجَنَّةَ﴾:

عرَّف الجنّةَ في قوله تعالى: ﴿بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾ بالألف واللّام للدّلالةِ على الجنّةِ المعهودةِ التّي عَرّفها لهم، وهي جنّةٌ قد تاقَتْ أرواحُهم لها لجمال وصْفِها، فالتّعبيرُ عنِ الجنّة بالتّعريف العَهْدي، يُشيرُ إلى صفاتِها العظيمةِ الّتي سبقَ وأن عَلِموها استحضارًا لها، وفي ذلك تفخيمٌ لشأن هذه المبايعةِ.

أَدْخَلَهُمُ الجنّةَ بعد تعريفِها، فهي معهودةٌ حاضرةٌ في الأذهانِ

الموقعُ النّحويُّ والبيانيُّ لـ: ﴿يُقَٰتِلُونَ﴾:

الجملةُ في قوله جلّ شأنُه: ﴿يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾ مستأنَفةٌ لذِكْرِ أعظَمِ أحوالِهم، والتّنبيهِ على أشرف مقاماتِهم[3]، والاستئنافُ بيانيٌّ سيقَ للإجابة عن سؤالٍ يثيرُه قولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾، فكأنّه قيل: ما بالُهم يَستحقّون هذه المنقبةَ العظيمةَ؟ فأُجيبوا بذلك[4]، أو يُقال: "كيف يَبيعون أنفسَهم وأموالَهم بالجنّة؟!، فقيل: ﴿يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ وهو بذلٌ منهم لأنفُسِهم وأموالِهم إلى جهة اللّه سُبحانه وتعريضٌ لهما للهلاك"[5].

بيانُ أنّ الاستئنافَ، لبيانِ مناقبِهم، وإبرازِ أشرفِ أحوالِهم

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/24.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/105.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/509.
(4) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاوي: 9/346.
(5) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/105، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/38.

دَلالةُ التّعبيرِ بالأفعالِ المضارِعة:

عبّرَ في قوله ﷻ: ﴿يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقۡتُلُونَ وَيُقۡتَلُونَۖ﴾ عنِ القتال بالفعل المضارعِ للدّلالة على استمرارِهم في القتال بلا انقطاعٍ، دليلًا على حرصِهم وتمسُّكِهم بدعوتِهم، كما يشيرُ إلى صلابتِهم إذ هم لا يَفتُرون عن هذا الفعلِ الثّقيلِ على النّفس وفي ذلك زكاةٌ لهم، كما أنّ الاستمرارَ في كونِهم يُقتلون بالبناء للمفعول يدلُّ على شدّة شكيمتِهم وقوّةِ اعتقادِهم بِحُسْن الجزاء، إذ هم بالرّغم من رؤيتِهم إخوتَهم يَسقُطون قتلَى في ساحِ الوغى؛ فإنّهم لا يفتُرون ولا يَنقطعون عن خوض الجهادِ.

بيانُ أنّ المؤمنين، لا يَنقطِعون عنِ القتال، ولا يَفتُرون عنِ الجهادِ

بَلاغةُ حذْفِ متعلّقِ القتالِ:

قولُه تعالى: ﴿يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقۡتُلُونَ وَيُقۡتَلُونَۖ﴾ عبَّرَ عنِ القتال بلا قيْدٍ، فجعلَه مطلَقًا، ولم يقل: (يقاتلون أعداء اللّه، أوِ الكافرين)؛ اهتمامًا بشأن القتال ذاتِه، إذ إنّ الثّناءَ جاء على كونِهم يزاولون هذا القتالَ، لا على كونِهم يَقتلون به أحدًا دونَ غيره.

الثّناءُ عليهم باشتراكِهم في الجهادِ، لا بالنّظرِ إلى قتْلِ أحدٍ ما

فائدةُ القيْدِ بشِبْه الجملةِ ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، ومعنى ﴿فِي﴾:

قولُه ﷻ: ﴿يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، عبّرَ النّظمُ الكريمُ عن قتالِهم بإخلاصٍ لرضوانِ اللّه وطاعتِه، بكونِه كائنًا في سبيل اللّه، للدّلالةِ على أنّه قتالٌ وقع بسببِ الدِّين، وعلى وَفْقِ تعاليمِه، أي "قتالاً يكونُ الدّينُ محيطًا به وظَرْفًا، فلا يكونُ فيه شائبةٌ لغيره"[1]، والمرادُ: الإشارةُ إلى الإخلاص والآدابِ الّتي يجبُ أن يتّصفَ بها القتالُ، وفي ذلك إيجازٌ بليغٌ؛ حيث دلَّ بلفظٍ قليلٍ على جميع الشّروطِ والآدابِ الّتي يجبُ اتّباعُها أثناءَ القتال، و(في) هنا ظرفيّةٌ مجازيّةٌ وأفادت معنى السّببيّةِ.

قتالُهم لدينِ اللّه خالصٌ منَ الشّوائبِ، مُتجرّدٌ للّه دونَ سواه

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/24.

تفصيلُ أحوالِ المقاتلين في سَبيلِ اللهِ تعالى، وما حازوا من شرفٍ وفضلٍ

معنَى الفاءِ: ﴿فَيَقْتُلُونَ﴾:

قوله جلّ شأنُه: ﴿يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَۖ﴾، عبَّر بالفاء التّفصيليّةِ لتفصيل مقاتلتِهم، وبيانِ أنّهم أحْرزوا فضيلتَي الجهاد - المشاركةَ فيه، والشّهادَة - [1]، فقوله تعالى: ﴿فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَۖ﴾ "تفريعٌ على ﴿يُقَٰتِلُونَ﴾؛ لأنّ حال المقاتلِ لا تَخلو من أحد هذيْن الأمرَيْن"[2].

الإعلامُ بأنّهم لا يُبالون بالموتِ، بل هو أحبُّ إليهم منَ السّلامةِ

بَلاغةُ توجيهِ القراءاتِ: ﴿فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَۖ﴾:

قُرئ قولُه ﷻ: ﴿فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَۖ﴾ برواية جمهورِ القُرّاء بتقديم صيغةِ البناءِ للفاعل، وقرأ حمزةُ والكسائيّ بتقديم صيغةِ البناء للمفعولِ، فتوجيهُ القراءة الأولى: أنّهم يَقتلون أوّلًا في سبيل اللّه، ويُقتلون. والقراءة الثّانية: يجوزُ أن يكون في المعنى مثلَ الّذي تقدّم؛ لأنّ المعطوف بالواو يجوزُ أن يُرادَ به التّقديمُ، فإنْ لم يُقدَّر فيه التّقديمُ، كان المعنى: أنّ مَنْ بقي منهم يُقتل بعد قَتْلِ مَن قُتِل. كما أنّ قوله سبحانه: ﴿فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: 146]، ما وَهَنَ مَن بقي منهم لقتلِ مَن قُتِل مِنَ الرِّبِّيِّين[3]. كما أنّ تقديمَ البناء للفاعل يشيرُ إلى عدم الفرقِ بينهما في كونِهما مِصداقًا لكون القتالِ بذْلًا للنّفس، وأنّ تقديمَ المبنيِّ للمفعول يشيرُ إلى عدم مبالاتِهم بالموت في سبيلِ اللّه، دليلًا على ثبات قلوبِهم فلم يَنكسِروا بقتل بعضِهم[4].

تَكرارُ القتلِ بصيغتَيْن متجاورتَيْن، يدلُّ على أهمّيّتِه، ويُشيرُ إلى صدْقِ بيعتِهم

بَلاغةُ الجِناس في: ﴿فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَۖ﴾:

في قوله تعالى: ﴿فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَۖ﴾ جناسٌ محرَّفٌ، لاختلافهما في الشّكْل؛ سُمِّي محرَّفًا لانحراف إحدى الهيئتَيْن عن هيئة الآخَرِ[5]،

(1) ابن كمال باشا، تفسير ابن كمال باشا: 4/451.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/39.
(3) الفارسيُّ، الحُجّة: 3/158 - 159.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/105، وابن كمال باشا، تفسير ابن كمال باشا: 4/451.
(5) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 12/91.

والجمعُ بين صيغتَي الفاعل والمفعول مُتجاورتيْن، تنبيهٌ على مآل القتال، وتصريحٌ بأنّه عُرْضَةٌ للهلاك، ويَؤولُ إلى الثّناء عليهم بإقدامِهم على ذلك مع علْمِهم بأنّهم قد يُقتلون، فأفاد الجناسُ التّعجيلَ ببيان عِظَمِ هذا البذْلِ الّذي استحقّوا به الجنّةَ.

نُكتةُ إسنادِ الفعلِ ﴿وَيُقۡتَلُونَ﴾ إلى ما لم يُسَمَّ فاعلُه:

في قوله جلّ شأنُه: ﴿وَيُقۡتَلُونَ﴾ جاء الفعلُ مبنيًّا للمفعول، ولم يُصرَّحْ بالفاعل؛ لأنّ الغرَضَ من سياق الكلامِ بيانُ فضيلةِ صبرِهم ودوامِ قتالِهم مع أنّ بعضَهم يُقتلُ، فليس المهمُّ حينئذٍ بيانَ مَن قَتَلهم، فالاهتمامُ بأنّهم ينالُهم القتلُ؛ إظهارًا لفضلِهم ومَنقبتِهم في الصّبر والثّباتِ على القتال.

لَفْتُ الانتباه إلى إخلاصِهم ورُسوخِ أقدامِهم وعِظَمِ إقدامِهم

الموقعُ النّحويُّ والبيانيُّ لـ: ﴿وَعۡدًا عَلَيۡهِ﴾:

قولُه جلّ شأنُه: ﴿وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقّٗا﴾ مصدرٌ مؤكِّدٌ، جاء تأكيدًا للوعد المفهومِ من قوله تعالى: ﴿بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ﴾؛ لأنّه في معنى الوعْدِ، فجاء قولُه: ﴿وَعۡدًا﴾ تأكيدًا له، أي: وعدَهمُ الجنّةَ وعْدًا عليه حَقًّا[1]، فبعد أن ذَكرَ بيعَ الأنفسِ والأموالِ بالجنّة، وفَصَّل أنّهم أنْجزوا ما بايعوا عليه؛ إذ إنّهم يَقتلون ويُقتلون، فأراد تأكيدَ إيصالِ الثّمن إليهم فقال: ﴿وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقّٗا﴾ فلا إقالةَ ولا استقالةَ مِن حضرة ربّ العزّةِ ﷻ[2].

تأكيدُ الوعْدِ بالجنّةِ بنِسبتِه إلى الله تعالى، وتَكرارِ نزولِه بالوحيِ

نُكتةُ تنكيرِ: ﴿وَعۡدًا﴾ و﴿حَقّٗا﴾:

في قوله تعالى: ﴿وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقّٗا فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ وَٱلۡقُرۡءَانِۚ﴾ جاء التّنكيرُ في المصدرَيْن للتّفخيم والتّعظيم، كما أنّ فيه إيجازًا، فلم يَقُل: (وإنّه وَعْدٌ عظيم من اللّه، أو: ذلك وعد عظيم)؛ إذ إنّ

الوعدُ من الله تعالى وعدٌ عظيمٌ، واستحقاقُه واقِعٌ على اليقينِ

(1) الزّجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 2/471، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/87، والفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 16/151.

(2) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 7/373.

التّنكيرَ يتضمّنُ التّعظيمَ، فكان ذلك مُغْنيًا عنِ التّصريح بصفةِ العظَمةِ، فكان ذلك إيجازًا.

بَلاغةُ حذْفِ الأفعال للمفعولَيْن المطلَقَيْن: ﴿وَعْدًا﴾ و﴿حَقًّا﴾:

حُذِفَ العاملُ في المفعول المطلَقِ في قوله ﷻ: ﴿وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا﴾، والتّقديرُ: وَعَدَهم وعْدًا، وحقَّ حقًّا؛ وإنّما حُذِفَ الفعلان للإيجاز، وقد أدّى هذا الحذفُ إلى مجيء المصدرِ المؤكِّدِ في مُفتَتَح الجملةِ، وافتتاحُ الجملة بالمؤكِّدِ يَخْلَعُ على العبارة فخامةً وقوّةً؛ إذِ الحذفُ أَمْحَضَ العبارةَ للتّأكيد، فحَذَف ما يمكن حَذْفُه وأبقى التّأكيدَ.

الافتتاحُ بالمصدرِ المؤكِّدِ بعد فعلِه، أَوْقَعُ وأدلُّ على قوّةِ الإخبارِ

فائدةُ التّعبيرِ بحرف الاستعلاءِ ﴿عَلَيْهِ﴾:

في قوله تعالى: ﴿وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ﴾ عبَّرَ بلفظ الاستعلاءِ (على) للدّلالة على معنى الوُجوبِ[1]، وفي ذلك دلالةٌ على حتميَّة الوعدِ، وأنّ ما يَعِدُ به اللّه تعالى فإنّه مؤكَّدُ التّحقُّقِ، واللّه تعالى لا يجبُ عليه شيءٌ، ولكنّه أَخبرَ بذلك جَرْيًا على طريقة إفهام عقولِ البشر، وهنا تمثّلَ ذلك بتأكيد وجوبِ الوعد وتمكُّنِه.

صرَّحَ بوجوبِ الحقِّ على نفسِه، تأكيدًا للإنجاز، جَرْيًا على سُنّة البشرِ في التّأكيدِ

فائدةُ تقديمِ شبْهِ الجملةِ: ﴿عَلَيْهِ﴾ على ﴿حَقًّا﴾:

قَدَّم شبهَ الجملة في قوله تعالى: ﴿وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا﴾، فلم يَقُل: (وعدًا حقًّا عليه)؛ للاهتمامِ بالمعنى الدّالِّ عليه حرفُ الاستعلاء منَ الوجوبِ[2]، فقدَّم ما يُشعِرُ بحتميّة الحقِّ. وما وعد اللّه به عبادَه فإنّه أقوى الحقِّ وأصدقُه، فقدَّم ما يُشعِرُ بالوجوبِ على اللّه تعالى على ذِكْرِ الحقّ؛ لِما في ذلك من قوّةٍ في التّأكيد أشدَّ من لفظ الحقّ ذاتِه.

ما كتبَه الله على نفسِه، أوثقُ وأثبتُ من دلائلِ الحقِّ

الموقعُ النّحويُّ والبيانيُّ للكُتب الثّلاثةِ:

شِبْه الجملةِ في قوله جلّ شأنُه: ﴿فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ﴾ في محلِّ نصبِ حال، أي: في حال كوْنِ هذا الوعدِ مكتوبًا في التّوراة

الوعْدُ مشهورٌ، والكُتبُ المنزَّلةُ شاهدةٌ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/39.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/39.

والإنجيل والقرآن[1]، فلمّا بيّنَ أنّ هذا الحقَّ واجبٌ للمؤمنين على اللّه تعالى؛ بيَّن أنَّ هذا الوعدَ مشهورٌ، قد أَعلَنَه اللّه تعالى وأنزلَه في كُتبِه الّتي بين أيديكُم، فكونُه قد ذُكِر في هذه الكتبِ الثّلاثةِ؛ دَلَّ على أنّه وعدٌ قد تكرَّر، وفي ذلك تأكيدٌ له، فقوله تعالى: ﴿فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ وَٱلۡقُرۡءَانِۚ﴾ "يجري مجرَى الإشهاد لجميع الكتُبِ الإلهيّةِ وجميعِ الأنبياء والرُّسُلِ"[2].

معنى ﴿فِي﴾ المجازيّةِ:

عبَّرَ بحرف الجرِّ ﴿فِي﴾ الدّالِّ على الظّرفيَّةِ في قوله جلّ شأنُه: ﴿فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ وَٱلۡقُرۡءَانِۚ﴾، للدّلالةِ على أنّه وحيٌ ثابتٌ في الكتُبِ، قد أُوحِيَ به إلى أنبيائه عليهم السلام[3]، فالظّرفيّةُ هنا هي "ظرفيّةُ الكتاب للمكتوبِ، أي: مكتوبًا في التّوراة والإنجيل والقرآنِ"[4]، وفائدةُ الظّرفيّةِ المجازيّةِ أنّها تُشبِّه اشتمالَ هذه الكتُبِ على الوعْدِ بإحاطة الظَّرْفِ بالمظروفِ.

اشتمالُ هذه الكتُبِ على الوعْدِ المذكورِ، يُشبهُ إحاطةَ الظَّرفِ بالمظروفِ

بَلاغةُ التّرتيبِ بين الكتُبِ الثّلاثةِ:

في قوله عزّ وجلّ: ﴿فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ وَٱلۡقُرۡءَانِۚ﴾ جاء التّرتيبُ في ذِكْر الكتُبِ حسبَ الواقعِ التّاريخيِّ، فهو ترتيبٌ زمانيٌّ، كما أنّ تأخيرَ القرآن في التّرتيب لِما أنّ القرآنَ بين أيديهم يعرفونَه ويتلونَه، ولكنّهم يجهلون أنّ هذا الوعْدَ قد ذُكرَ في الكتُبِ الّتي قبْل القرآن، فبدأ بما لا يعرفون تأكيدًا لعراقته وثبوتِه في الشّرائع منذ القِدمِ.

الذِّكْرُ للسّابقِ لا للفاضلِ، من بلاغةِ البيانِ القرآنيِّ

معنى الواو في: ﴿وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ﴾:

الجملةُ في قوله جلّ شأنُه: ﴿وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِۚ﴾ اعتراضيَّةٌ وقعت بين قولِه: ﴿وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقًّا فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ وَٱلۡقُرۡءَانِۚ﴾

الوعْدُ بالجنّة محقَّقٌ، فلا أحدَ أَوْفى بوعْدِه منَ الله عزّ وجلّ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/39.
(2) النَّيسابوريّ، غرائب القرآن: 3/535.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/314، وابن كمال باشا، تفسير ابن كمال باشا: 4/452.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/39.

وقولِه: ﴿فَٱسۡتَبۡشِرُواْ بِبَيۡعِكُمُ ٱلَّذِي بَايَعۡتُم بِهِۦۚ﴾، فهي اعتراضٌ بين ذِكْرِ الوعدِ والاستبشارِ به، "مقرِّرٌ لمضمونِ ما قبْلَه من حقّيّةِ الوعدِ على نهج المبالغةِ في كونِه سُبحانه أوفى بالعهدِ من كلِّ وافٍ"[1]، والواو في مُفْتَتَحِها اعتراضيّةٌ[2]، ويجوزُ أن تكون الواوُ حاليّةً، وتكونَ الجملةُ حاليّةً، وصاحبُ الحالِ الضّميرُ المجرورُ في قوله: ﴿وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقّٗا﴾ "أي: وعدًا حقًّا عليه، ولا أحدَ أوفى بعهدِه منه"[3]، والمعنى: أنّه وعدٌ ثابتٌ على اللّه تعالى، والحالُ أنّ وفاءَ اللّه تعالى بالوعد في أعلى الدّرجات، وليس ثَمَّ وفاءٌ بعدَه.

بَلاغةُ الاستفهامِ وغرضُه: ﴿وَمَنۡ أَوۡفَىٰ﴾:

(مَن) في قوله جلّ شأنُه: ﴿وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِۚ﴾ اسمُ استفهامٍ جيءَ به للإنكار[4]، وجاء الاستفهامُ هنا في غاية البلاغةِ والفصاحةِ، وهو مجازٌ في النّفْيِ للإنكار؛ إذ لا أحدَ أوفَى بوعْدِه منَ اللّه تعالى[5]، "فالاستفهامُ إنكاريٌّ بتنزيل السّامعِ منزلةَ مَنْ يجعلُ هذا الوعدَ محتمِلًا للوفاء وعَدَمِه، كغالب الوعودِ، فيُقال: ومَنْ أوفى بعهْدِه منَ اللّه؟! إنكارًا عليه"[6].

لا أحدَ أوفى بعهدِه منَ الله تعالى، الّذي لا يُخلفُ الميعادَ

وإنّما آثَرَ أن يعبِّرَ عن ذلك بالاستفهام الإنكاريِّ دونَ الإخبارِ بالنَّفيِ، فلم يَقل: (ولا أحدٌ أوفى من اللّه فاستبشروا)؛ لأنّ النّفيَ بالاستفهام يدعو الفكرَ إلى استفراغ الجُهدِ في البحث عن إيجادِ ما يَنقضُ به ما يقرِّرُ الاستفهامَ، ويتضمّنُ في ذات الوقت تلميحًا إلى انتفاء هذا النّاقض، فكان هذا في غاية البلاغةِ والمبالغةِ في إنجاز

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/105.
(2) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 12/81.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/39.
(4) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 12/81.
(5) الفخر الرازيّ، مفاتيح الغيب: 16/152، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 9/25.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/39.

الوعدِ وتأكيدِ تحقيقِه، وقد أَلمح الطِّيبيُّ إلى ذلك، وتبعه ابنُ كمال باشا الّذي قال إنَّ العبارة: "مبالغةٌ في إنجاز الوعدِ، وتقريرٌ لكونِه حقًّا"[1].

دَلالة التّعبيرِ بـ ﴿أَوۡفَىٰ﴾ من حيث الصّيغَةُ:

جلَّ الله عن أن يقارِبَه أحدٌ، في وفائِه بالعهْدِ

في قوله ﷻ: ﴿وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِۚ﴾ جاء اسمُ التّفضيل ﴿أَوۡفَىٰ﴾ مسلوبَ المفاضلةِ، فإنّ "سَبْكَ التّركيبِ وإن كان على إنكار أن يكون أحدٌ أوفى بالعهدِ منه تعالى من غيرِ تعرُّضٍ لإنكار المساواةِ ونَفْيِها، لكنّ المقصودَ به قصْدًا مطَّردًا إنكارُ المساواةِ ونفيُها قطعًا؛ فإذا قيل: مَنْ أكرمُ من فلانٍ؟ أو: لا أفضلَ منه، فالمرادُ به حَتْمًا أنّه أكرمُ من كلّ كريم، وأفضَلُ من كلّ فاضلٍ"[2]، وإنّ تسليطَ النّفي على اسم التّفضيلِ يدلّ على انتفاء المفاضلةِ؛ إذ إنَّ اسمَ التّفضيل لم يَرِدْ بين متَّصِفَيْنِ بصفةٍ مشتركةٍ للمفاضلة بينهما، بل جاء منفيًّا، فلا يدلُّ على المفاضلةِ بل على انتفاء المُساوي والمُماثِلِ.

معنى ﴿مِنَ﴾ في: ﴿مِنَ ٱللَّهِۚ﴾:

أعلى درجاتِ الوفاء تبدأُ من عندِ الذّاتِ الجليلةِ

في قوله تعالى: ﴿وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِۚ﴾ جاء حرفُ الجرِّ (مِن) التّفضيليّةُ الّتي تأتي بعد اسم التّفضيل، تدلّ على الابتداء، وهو ابتداءٌ مجازيٌّ[3]، إذ لا يتعلَّق ﷻ بالمكان، فالعهدُ البادئُ منَ الله تعالى والقادمُ منه ﷻ تنتفي عنه صفةُ المفاضلةِ مع عهدٍ آخرَ.

الإظهارُ موضِعَ الإضمارِ: ﴿ٱللَّهِۚ﴾:

تأكيدُ الوفاءِ بثمنِ البيعةِ، بإظهار لفظِ الجلالةِ (الله)

في قوله تعالى: ﴿وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِۚ﴾ أَظْهَر لفظَ الجلالة دونَ الإضمار، فلم يَقل: (ومن أوفى بعهده منه)؛ تعظيمًا لوفاء العهدِ المنسوبِ إلى الله تعالى، "وذُكِرَ اسمُ الجلالة عِوضًا عن ضميره؛ لإحضارِ المعنى الجامعِ لصفات الكمالِ"[4].

(1) ابن كمال باشا، تفسير ابن كمال باشا: 4/452، والطِّيبيّ، فتوح الغيب: 7/373.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/106.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/40.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/40.

معنى الفاءِ في الفعْلِ ﴿فَٱسۡتَبۡشِرُواْ﴾:

المَسرّةُ حقٌّ للمؤمنين بذلك الوعْدِ العظيمِ

افتتح قولَه جلّ شأنُه: ﴿فَٱسۡتَبۡشِرُواْ بِبَيۡعِكُمُ ٱلَّذِي بَايَعۡتُم بِهِۦۚ﴾ بالفاء للتّفريع؛ إذ "فرّعَ على كوْنِ الوعد حقًّا على الله، وعلى أنّ الله أوفى بعهدِه من كلّ واعدٍ، أنْ يستبشرَ المؤمنون ببيعِهم هذا"[1]؛ حيث ترتّبَ الاستبشارُ على الوعد المذكورِ، فإنّ احتياجَ اللّاحقِ للسّابقِ، وذِكْرَه عَقِبَه مترتِّبًا عليه هو من خصائصِ الفاء لِما لها من دلالةٍ على التّرتيب والسّببيّةِ، فهي هنا لترتيب الاستبشارِ على ما قبْله، لأنّه مسبَّبٌ عنِ الوعد[2].

فائدةُ الالتفاتِ منَ الغَيْبة إلى الخطابِ:

مخاطبةُ اللهِ تعالى لأحدٍ بضميرِ الخطابِ، تشريفٌ له وتكريمٌ بليغٌ

في قوله ﷻ: ﴿فَٱسۡتَبۡشِرُواْ بِبَيۡعِكُمُ ٱلَّذِي بَايَعۡتُم بِهِۦۚ﴾ انتقلَ بالخطاب من الغَيْبة التي يقتضيها الاسمُ الظّاهرُ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ﴾ إلى ضمير المخاطَبِ، فهو "التفاتٌ إلى الخطاب تشريفًا لهم على تشريفٍ، وزيادةً لسُرورِهم على سرورٍ"[3]؛ إذ إنّ ضميرَ المخاطَب يقتضي الحضورَ والمواجهةَ، ولمّا كان ذلك مُحالًا في حقِّ البشرِ مع الله تعالى؛ عُلِم أنّ المرادَ منه التّكريمُ والتّشريفُ بإنزالهم تلك المنزلةَ الرّفيعةَ.

دَلالةُ التّعبيرِ بالاستبشارِ، وفائدةُ الأمرِ:

إظهارُ المسرّةِ على الوعدِ المذكورِ

في قوله تعالى: ﴿فَٱسۡتَبۡشِرُواْ بِبَيۡعِكُمُ ٱلَّذِي بَايَعۡتُم بِهِۦۚ﴾ عبَّرَ عن إظهار البِشْر بصيغة الاستفعالِ، وهذه الصّيغةُ هنا لا تدلّ على الطّلبِ، بل جاء بمعنَى (أفعل)[4]، ومعناه: الأمرُ بإظهار البشارةِ والمسرّةِ على الوعدِ والبيعةِ المذكورةِ قبْله، أي: فأَوْجِدوا في نفوسكم

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/40.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/106، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 9/25.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/106، وابن كمال باشا، تفسير ابن كمال باشا: 4/452.
(4) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/87، وابن كمال باشا، تفسير ابن كمال باشا: 4/452.

غايةَ البِشْر؛ فإنّكم تبيعون فانيًا بباقٍ[1]، والمعنى: "فإذا كان كذلك فَسُرّوا نهايةَ السّرورِ وافْرحوا غايةَ الفرحِ بما فُزتم به منَ الجنّة"[2].

معنَى الباءِ في: ﴿بِبَيۡعِكُمُ﴾:

في قوله جلّ شأنُه: ﴿فَٱسۡتَبۡشِرُواْ بِبَيۡعِكُمُ ٱلَّذِي بَايَعۡتُم بِهِۦۚ﴾ دلَّتِ الباء على السّببيّة، أي أنّ الاستبشارَ كائنٌ بسببِ هذا البيعِ، وأنّ هذه المبايعةَ جديرةٌ بإظهار أثرِ البشارةِ على بَشرةِ الوجهِ فرحًا وسُرورًا.

المبايعةُ مع الله تعالى، سببٌ للمسرّةِ والاستبشارِ

نُكتةُ إضافةِ البيعةِ إلى ضميرِهم ﴿بِبَيۡعِكُمُ﴾:

في قوله جلّ شأنُه: ﴿فَٱسۡتَبۡشِرُواْ بِبَيۡعِكُمُ ٱلَّذِي بَايَعۡتُم بِهِۦۚ﴾ أَضافَ البيعَ إلى الضّمير العائدِ على المؤمنين، دونَ أن يقول: (استبشروا بالمبايعة)؛ إظهارًا لاغتباطِهم به[3]، وكأنّه بيعٌ خاصٌّ بهم لم يَسبق مثلُه، وأنّه مزيّةٌ لهم اختُصّوا بها.

ما في البيعةِ من خيرٍ، فهو خالصٌ للمؤمنين، والله غنيٌّ عنِ العالمين

وإضافةُ البيعةِ إلى أحد طرفَي المبايعةِ يشيرُ إلى أنّ الانتفاعَ متحقِّقٌ للطّرف المذكورِ وحسبُ، فإنّما لم يَقل: (فاستبشروا بالبيعة) بل جعلَها بيعتَهم، لأنّ كوْنَ اللّه تعالى في المبايعة يدلّ على أنّ الانتفاعَ خالصٌ للطّرف الآخر؛ لأنّه الغَنيُّ عن كلّ أحدٍ، فكانتِ البيعةُ خالصةً للمؤمنين فهي بيعتُهم، "لأنّ كِلا البدلَيْن له ﷻ"[4].

فائدةُ التّعبيرِ بالاسمِ الموصولِ وصِلتِه، مع ذكْرِه من قبْلُ:

وصْفُ بيْعِهم في قوله تعالى: ﴿بِبَيۡعِكُمُ ٱلَّذِي بَايَعۡتُم بِهِۦۚ﴾ بالاسمِ الموصولِ مُتضمِّنًا في صلتِه فعْلَ البيعةِ، يدلّ على تأكيد معنى قولِه: ﴿بِبَيۡعِكُمُ﴾، فهو تأكيدٌ لفظيٌّ بلفظٍ آخرَ[5]، كما أنّه جيءَ به كذلك "لزيادة تقريرِ بيعِهم، وللإشعار بكونِه مغايرًا لسائرِ البِياعات؛

التّأكيدُ وزيادةُ التّقريرِ، والإشارةُ إلى مغايرتِه سائرَ البُيوعِ

(1) النّسفيّ، مدارك التّنزيل: 1/712، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 9/25.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/106.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/40.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/106.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/25، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/40.

فإنّه بيعٌ للفاني بالباقي"[1]، فيكونُ كقوله تعالى: ﴿وَفَعَلۡتَ فَعۡلَتَكَ ٱلَّتِي فَعَلۡتَ﴾ [الشُّعراء: 19]، فضلًا عن إفادة الاسمِ الموصولِ هنا معانيَ التّعظيم لهذا البيعِ لِما في الاسم الموصولِ من إعلامٍ بعد إبهامٍ.

بَلاغةُ الجناسِ في: ﴿بِبَيۡعِكُمُ﴾ و﴿بَايَعۡتُم﴾:

في قوله تعالى: ﴿بِبَيۡعِكُمُ ٱلَّذِي بَايَعۡتُم بِهِۦ﴾ جناسٌ اشتقاقيٌّ، حيث كرّرَ لفظَيْن من جذرٍ واحدٍ وهو (بيع) في جملةٍ واحدةٍ؛ وفي ذلك تنويهٌ على مكانة هذه المبايعةِ للّه تعالى، مع ما في ذلك من أثرٍ جَماليٍّ بتَكرار اللّفظِ بصيغتَي الاسمِ والفعلِ في جملةٍ واحدةٍ.

تَكرارُ البيعِ تأكيدٌ على أهميّتِه، وإشارةٌ إلى سببِ استبشارِهم

معنى الباءِ في ﴿بِهِۦ﴾، وعَوْدُ الضّميرِ:

في قوله ﷻ: ﴿فَٱسۡتَبۡشِرُواْ بِبَيۡعِكُمُ ٱلَّذِي بَايَعۡتُم بِهِۦ﴾، دخلتِ الباءُ على الضّمير العائدِ على ما وقعت به المبايعةُ، وهو الجنّةُ في قوله تعالى: ﴿بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَ﴾، أي: وقعتِ المبايعةُ للّه ﴿بِهِۦ﴾، فالباء للمصاحبَةِ، وأفاد ذلك: النّصَّ على أنّ المرادَ بالبيع هذا البيعُ المذكورُ، وليس عمومَ البيع، أي: "لينصَّ لهم على هذا البيعِ بعينِه"[2].

بيْعُ الله أشرفُ بيْعٍ، ومَنْ عقدَ الصَّفقةَ معه، نالَ الاستبشارَ، وحازَ الرّبحَ دونَ خسارٍ

معنَى الواو: ﴿وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾:

افتتح المولى قولَه تعالى: ﴿وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ بالواو الاستئنافيّةِ، والجملةُ مستأنَفةٌ جيءَ بها للثّناء على ذلك البيعِ وما سينالُه المؤمنون جزاءً عنه، فالاستئنافُ جاء تبيينًا لمكانة ذلك البيعِ، وما وُضِع ثمنًا له، فهو تعقيبٌ على الأمرِ بالاستبشار، فإنَّ ذلك البيعَ جديرٌ بإظهار المسرّةِ والبِشْرِ؛ لأنّه فوزٌ عظيمٌ، ويمكنُ أن تكونَ الواو للحال على معنى: والحالُ أنّ ذلك الفوزَ عظيمٌ.

حُقَّ للمُبايِعين الاستبشارُ؛ فإنّه فوزٌ عظيمٌ، ومقامٌ عند الله كريمٌ

بَلاغةُ التّذْييلِ التّعليليّ، في الإشارةِ إلى الفوزِ العظيمِ:

قولُه تعالى: ﴿وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾، تذييلٌ تعليليٌّ، وهو

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/106.

(2) ابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 10/217، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 9/26.

"تذييلٌ جامعٌ، فإنّ اسمَ الإشارةِ الواقعَ في أوّله جامعٌ لصفاتِ ذلك البيعِ بعِوَضَيه، وأُكِّدَ بضمير الفصلِ، وبالجملةِ الاسميَّةِ، والوصفِ بـ ﴿ٱلْعَظِيمُ﴾ المفيدِ للأهمِّيَّةِ"[1]. فأكّدَ أنّ ذلك هو الفوزُ العظيمُ، تذييلًا تعليليًّا لبيع النّفسِ والمالِ بالقتال[2].

تعليلُ ما نالوه، ببيعِ أنفُسِهم وأموالِهم بالجنّةِ، تتويجٌ للأعمالِ، وثمرةٌ للإخلاصِ

نُكتةُ التّعبيرِ باسمِ الإشارةِ للبعيدِ ﴿ذَٰلِكَ﴾:

جاء اسمُ الإشارة في قوله جلّ شأنُه: ﴿وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ بصيغة البُعْد؛ للدّلالةِ على "بُعْدِ منزلةِ المُشارِ إليه وسُموِّ رُتبتِه في الكمال"[3]، وذلك لتعظيم الفوزِ الّذي نالوا بمبايعتِهم اللّهَ تعالى على الوعْدِ المذكورِ.

الفوزُ الّذي نالوه عظيمُ الشّانِ عالي الرُّتبةِ عندَ الله الرّحمنِ

بَلاغةُ القَصْرِ ونوعُه في تعريف طَرَفَي الإسنادِ وضميرِ الفصْلِ:

في قوله ﷻ: ﴿وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ قَصْرٌ بتعريف طَرفَي الإسناد، وبضمير الفصْلِ، وهو قَصْرُ موصوفٍ على صفة، وهو قصرٌ إضافيٌّ بالنّسبة للواقع، وقصرُ قَلْبٍ بالنّسبة لحال المخاطَبِ؛ فأَنزَلَهم منزلةَ المنكرِ أن يكونَ القتلُ سببًا للظّفَر بالفوز، فجاء القَصْرُ لِيَقْلِبَ ظنَّهم بنَفْيِ كلِّ فوزٍ غيرِه، فالفوزُ بالجنّة هو الفوزُ "الذي لا فوزَ أعظمُ منه"[4].

لا فوزَ إلّا الفوزُ بالجنّة، وما سواها فناءٌ وسَرابٌ

معنَى (أل) في لفظِ ﴿ٱلْفَوْزُ﴾:

في قوله تعالى: ﴿وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ عرّف الفوزَ بالألف واللّام الدّالّةِ على الجنس، للدّلالة على جنْسِ الفوزِ الجامعِ لكلّ صفات النّجاحِ والغَلَبة، فلا فَوْزَ بعدَه، ولو نكّره بأن يقول: (وذلك فوز عظيم) لكان فوزًا من أنواع، فيكونُ التّنكير دالًّا على التّهوين،

الفوزُ بالجنّةِ جامعٌ لكلّ صفاتِ الغَلَبةِ، وتحصيلِ الجزاءِ الأمثلِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/40.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/26.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/106.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/106.

فلذا جاء به معرّفًا تعريفَ الجنس ليشملَ كلَّ الفوز، فيصحَّ القصرُ فينتفي كلُّ فوز غيره.

فائدةُ وصْفِ الفوز بالعظَمةِ:

الفوزُ بالجنّة أعظمُ من كلّ مبذولٍ قدّموه

وصَفَ اللّهُ تعالى الفوزَ في قوله جلّ شأنُه: ﴿وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ بأنّه عظيم تأكيدًا لأهمّيَّته وعُلوِّ مكانتِه لِما فيه من "الحصولِ على الحظِّ الأَغْبَطِ من حَطِّ الذّنوب، ودخولِ الجنّة بلا حسابٍ"[1]، وإنّما وُصف الفوزُ بكونِه عظيمًا؛ تأكيدًا لكونِه غيرَ مكافئٍ للمبذول، فلو كان مكافئًا للمبذولِ لَما كان فوزًا، بل سيكونُ ثَمنًا، أمَا وقد أُطلق عليه الفوزُ فدلَّ ذلك على أنّه أعظمُ ممّا قدّموا في بيْعِهم، فوصفَه بالعظيم تأكيدًا للعظمةِ الّتي دلّ عليها الإخبارُ عنه بأنّه فوزٌ.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(شرَى) و(اشترَى):

الاشتراءُ أكثرُ في الأخذِ بدلالةِ الصّيغةِ على التّكلفةِ، والشّراءُ أكثرُ في البيعِ

قال الرّاغب: "الشِّرَاءُ والبيع يتلازمان، فالمُشتري دافعُ الثّمنِ، وآخذُ المثمَّنِ، والبائعُ دافعُ المثمَّن، وآخذُ الثّمنِ. هذا إذا كانت المبايعةُ والمُشاراةُ بناضٍّ وسِلعةٍ، فأمّا إذا كانت بيعَ سلعةٍ بسلعةٍ صحّ أن يُتصَوَّرَ كلُّ واحدٍ منهما مُشْتَرِيًا وبائعًا، ومن هذا الوجه صار لفظُ البيع والشِّراء يُستعمَلُ كلُّ واحدٍ منهما في موضع الآخَرِ. و(شَرَيْتُ) بمعنى: (بعتُ) أكثرُ، و(ابتعتُ) بمعنى: (اشْتَرَيْتُ) أكثرُ"[2]. وإنّما استُعْمِل الاشتراءُ أكثرَ في دفع الثّمن، لِما فيه من تكلفةٍ أكثرَ على الإنسان بدفع مالِه، أمّا البائعُ فهو رابحٌ، فكان الشّراءُ أكثرَ في الدّلالة عليه، وذلك بملاحظة الفرقِ بين البِنائَيْن: (الشّراء والاشتراء)، فالبِنيةُ اللّفظيَّةُ في الاشتراء فيها زيادة تُفسَّرُ بأنها زيادةٌ في المعنى، وتلك الزّيادةُ هي التّكلفةُ الّتي على

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/88.
(2) الرّاغب، المفردات: (شرى).

عاتق المشتري بدفعِ الثّمن. وفي قوله تعالى: ﴿بِئۡسَمَا ٱشۡتَرَوۡاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمۡ﴾ [البقرة: 90]. فمعنى "الاشتراء هنا: البيعُ. والاشتراء والشّراء والبيع كلُّه مِنَ الأضداد، ويُقال: اشتريتُه، أي: بعتُه، واشتريتُه، أي: ابتعتُه، وكذلك: شريتُه في المعنَيَيْن، وكذلك: بعتُه، قال الله تعالى: ﴿وَشَرَوۡهُ بِثَمَنِۭ بَخۡسٖ﴾ [يوسف: 20]، أي: باعوه"[1]. ويلاحظُ في الآية: ﴿وَشَرَوۡهُ بِثَمَنِۭ بَخۡسٖ دَرَٰهِمَ مَعۡدُودَةٖ وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ۝٢٠ وَقَالَ ٱلَّذِي ٱشۡتَرَىٰهُ﴾ [يوسف: 20 - 21] أنّه عبّرَ عن بيعِهم بقوله: ﴿وَشَرَوۡهُ﴾، وعبّرَ عنِ الاشتراء بقوله: ﴿ٱشۡتَرَىٰهُ﴾، فالاشتراءُ استُعملَ للأخذ بدفْعِ الثّمن، وهو الاستعمالُ الأكثرُ فيه، و(شرى) استُعملَ للبيع كما هو الاستعمالُ الأكثرُ فيه.

العهدُ والوعدُ والبَيْعةُ والكلمات المقاربة:

"العَهْد ما كانَ من الوَعْد مقْرُونًا بِشَرْط، نَحْو قولك: إن فعلتَ كذا فعلتُ كذا، وما دمتَ على ذلك فأنا عليه؛ قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ عَهِدۡنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ﴾ [طه: 115] أي: أَعلمناهُ أَنَّك لا تخرج منَ الجنَّة ما لم تَأْكُلْ من هذه الشَّجَرةِ. والعهد يَقْتَضِي الوفاءَ، والوعْدُ يَقْتَضِي الإنجازَ، ويُقال: نَقَضَ العهدَ وأَخْلَفَ الوعدَ"[2].

العهدُ أخصُّ منَ الوعدِ، والبَيْعةُ أخصُّ منَ العهدِ، فهي عهدٌ مشروطٌ بالطّاعة

أمّا الميثاقُ فهو: "توكيدُ العَهْد من قولك: أوثقتُ الشَّيْءَ إذا أحكمتَ شَدَّه، وقال بعضُهم: العهدُ يكونُ حالًا منَ المتعاهدَيْن، والميثاقُ يكونُ من أحدِهما"[3].

أمّا البيعةُ: فهي عهدٌ على الطّاعة، فيُصار إلى أنّ معنى البيعةِ هي وعدٌ اقترن بشرطِ الطّاعة، وبهذا فهي أخصُّ الثّلاثةِ، والوعدُ أعمُّها، وهي مأخوذةٌ منَ البيع بين طرفَيْن، فكُلُّ واحِدٍ منهما باعَ ما

(1) الواحديّ، التَّفسير البسيط: 3/148.
(2) العسكريّ، الفروق اللُّغويَّة، ص: 57 - 58.
(3) العسكريّ، الفروق اللُّغويَّة، ص: 57.

عنده مِنْ صاحبِه وأعطاه خالصَةَ نَفْسِه وطاعَتَه ودَخيلةَ أَمره، وبايَعَ السُّلطانَ: إذا تضمَّن بذلَ الطّاعة له بما رضخَ له[1].

وفي قوله جلّ شأنُه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقۡتُلُونَ وَيُقۡتَلُونَۖ وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقّٗا فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ وَٱلۡقُرۡءَانِۚ وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِۚ فَٱسۡتَبۡشِرُواْ بِبَيۡعِكُمُ ٱلَّذِي بَايَعۡتُم بِهِۦۚ﴾ عبَّرَ بالبيعة لِما فيها من معنى المعاوضةِ والعهدِ بالإيفاء بالطّاعةِ مقابلَ الثّمن وهو الجنّةُ، وهذه بيعةٌ وليست معاهدةً؛ لأنّ الشّرطَ فيها هو شرطُ الطّاعة.

(1) الرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (بيع).

﴿ٱلتَّـٰٓئِبُونَ ٱلۡعَـٰبِدُونَ ٱلۡحَـٰمِدُونَ ٱلسَّـٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّـٰجِدُونَ ٱلۡأٓمِرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡحَـٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١١٢﴾ [التَّوبة: 112]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

بيانُ صِفاتِ المؤمنين الّذين اشترَى اللهُ منهم أنفُسَهم وأموالَهم

لَمَّا ذكر الله تعالى في الآية السَّابقة أنَّه ﴿ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ﴾، بَيَّنَ في هذه الآيةِ أنَّ أولئك المؤمنين هُمُ المَوْصُوفون بهذه الصِّفاتِ الجميلةِ والخِلالِ الجليلةِ، فقال تعالى: ﴿ٱلتَّـٰٓئِبُونَ﴾[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلتَّـٰٓئِبُونَ﴾: جمعُ تائبٍ، يقال لباذلِ التّوبةِ ولقابلِ التّوبةِ، فالعبدُ تائبٌ إلى الله واللهُ تائبٌ على عبده، والتّوّابُ: العبدُ كثيرُ التّوبةِ، وذلك لتَرْكِه كلَّ وقتٍ بعضَ الذّنوبِ على التَّرتيبِ حتى يصيرَ تاركًا لجميعها، وقد يُقالُ ذلك لله تعالى لكثرةِ قَبولِه توبةَ العِبادِ حالاً بعدَ حالٍ، وقولُه تعالى: ﴿وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا﴾ [الفرقان: 71] أي: التّوبةُ التّامّةُ، وهو الجمعُ بين ترْكِ القبيحِ وتَحرِّي الجميلِ، قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ٣٧﴾ [البقرة: 37][2].

2) ﴿ٱلۡعَـٰبِدُونَ﴾: جمعُ عابدٍ، ومادّتُه مِنْ (عبد)، يُقال: طَرِيقٌ مُعَبَّدٌ، أَي: مَسْلُوكٌ مُذَلَّلٌ، والعابِدُ: المُوحِّدُ[3]، "وعبادَةُ الله تَعَالَى: الذِّلُّ لَهُ بالانقياد لِمَا أَمَرَ، والانتهاءِ عَمَّا نهى[4]، وإلى ذلك يُشيرُ

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/219، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 16/152.
(2) الرّاغب، المفردات: (توب).
(3) الزَّبيديُّ، تاج العروس: (عبد).
(4) ابن الجَوزيِّ، نزهة الأعين، ص: 431.

معنى قولِه في الآية، (العَابِدون) هم الّذين ذَلُّوا لِلّه وأطاعُوه، محبّةً له، واجتَهَدُوا في عبادَتِه وَحْدَه[1]، وعلى ذلك تكونُ العُبوديّةُ تَعبيرًا عنِ المَملوكيَّةِ للّه، بالإذعانِ والامتثالِ لكلِّ ما أمرَ ونَهى، في أمر دُنيا أو دِينٍ[2].

3) ﴿ٱلسَّٰٓئِحُونَ﴾: أي: الصَّائِمُونَ، وأصلُ السَّائِحِ: الذَّاهِبُ في الأرضِ[3]، مِن: ساحَ الماءُ يسيحُ: إذا جرَى وانبسطَ من غير نهايةٍ ولا حَدٍّ[4]، فيُقالُ: ماءٌ سَائِحٌ وسَيِّحٌ: إذا جرَى وذهبَ، والسَّائحُ في الأرض مُمْتَنِعٌ مِنَ الشَّهوات، فشُبِّه الصَّائمُ به لإمساكِه في صومِه عنِ المَطعمِ والمشرَبِ والنِّكاحِ[5]، فقيل للصَّائِم: سائحٌ، لأَنَّ الّذي يَسِيحُ مُتعبِّدًا يَسيحُ وَلَا زَادَ مَعَه، إِنّما يَطْعَمُ إذا وَجَدَ الزَّادَ، والصّائمُ لَا يَطْعَمُ أَيضًا[6].

4) ﴿بِٱلْمَعْرُوفِ﴾: مِن عَرفَه يَعْرِفُه مَعْرِفةً وعِرْفانًا، فهو عارِفٌ وعَرِيفٌ: عَلِمَهُ[7]، وهو اسمٌ لكلّ فعلٍ يُعرفُ بالعقل أوِ الشَّرْعِ حُسنُه، وهو كُلُّ ما أَمَرَ اللّهُ ورسولُه به، منَ الإيمانِ باللّهِ وطاعتِه وطاعةِ رَسولِه[8].

5) ﴿ٱلْمُنكَرِ﴾: المُنكرُ منَ الأَمر: خلافُ المَعْرُوف، وَالجمعُ: مَنَاكِيرُ[9]، وأصلُ المنكر يدلُّ على خلافِ المعرفة الّتي يَسْكُنُ إليها القلبُ، ونَكِرَ الشَّيءَ وأنكرَه: لم يقبَلْه قلبُه ولم يعترفْ به لسانُه، وسببُ الإنكارِ باللِّسان الإنكارُ بالقلب، لكنْ ربَّما يُنْكِرُ اللِّسانُ الشَيءَ وصورتُه في القَلْب حاضرةٌ، ويكونُ في ذلك كاذبًا، وعلى هذا قولُه تعالى: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾ [النّحل: 83]، والمُنكرُ: كلُّ فعْلٍ تَحْكُمُ العقولُ الصَّحيحةُ بقُبحِه، أَو تتوقَّفُ في استقباحِه العقولُ فتحكمُ الشَّريعةُ بقُبْحِه[10]، وإلى ذلك قصدَ بقوله: ﴿ٱلْآمِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ

(1) ابن جرير، جامع البيان: 12/9، والزَّجّاج، معاني القرآن: 2/472، وابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 3/88.
(2) جبل، المُعجم الاشتقاقيّ المؤصِّل: (عبد).
(3) ابن قُتيبة، غريب القرآن، ص: 193، وابن جرير، جامع البيان: 12/10، وابن الجوزيِّ، تذكرة الأريب، ص: 147.
(4) الرّاغب، المفردات، والسَّمين الحلبيّ، عُمدة الحفَّاظ: (سيح).
(5) ابن سيده المرسي، المحكم، والزّبيديّ، تاج العروس: (سيح).
(6) الأزهريُّ، تهذيب اللُّغة: (سيح).
(7) الفِيروزابياديّ، بصائر ذوي التَّمييز: 4/57.
(8) ابن جرير، جامع البيان: 12/15، 16، والزَّجّاج، معاني القرآن: 2/472.
(9) ابن سيده، المحكم: 6/804.
(10) الفِيروزابياديّ، بصائر ذوي التّمييز: 5/120.

﴿وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾، والمعنى هُنا: كُلُّ ما نهى اللّهُ ورسولُه عنه، مثلِ الشِّركِ باللّهِ ومَعصِيَتِه ومَعصيةِ رَسولِه[1].

6) ﴿لِحُدُودِ﴾: جمعُ حدٍّ، وحَدُّ الشَّيْءِ: مُنْتَهَاهُ وَمُنْقَطَعُهُ، وأصلُ الحدِّ المنعُ، والحَدُّ: الحاجِزُ بَيْنَ الشَّيْئَيْنِ، وَفُلَانٌ مَحْدُودٌ، إِذَا كَانَ مَمْنُوعًا، [2]، والمُرادُ بِحُدُودِ اللّه: مُقَدَّرَاتُهُ بِمَقَادِيرَ مَخْصُوصَةٍ وَصِفاتٍ مَخْصُوصَةٍ[3]، وسُمِّيتِ الحُدودَ، لأنَّها تَحُدُّ، أي: تمنَعُ، وحُدودُ اللّه: أوامرُه ونواهِيه[4]، ومعنى الحُدودِ: ما مَنَعَ اللّه ﷻ من مُخالفتِها، وكلُّ مَن منعَ شيئًا فهو حدَّادٌ، وقولهم: أحَدَّتِ المرأةُ على زوجِها، معناه: قطعَتِ الزّينَةَ، وامتنعتْ منها، والحديدُ إنَّما سُمّيَ حَديدًا، لأنَّه يُمْتَنَعُ به منَ الأعداءِ، وحَدُّ الدَّار: هُوَ مَا يمنعُ غيرَها أن تدخل فيها"[5]، والحُدودُ: الحواجزُ بين الإباحةِ والحَظْرِ"[6]، ومعنى حدودِ اللّه: أوامرُهُ ونواهِيهِ الّتي مَنَعَ المؤمنين من مُخالفَتِها[7].

المَعْنى الإجْماليُّ:

بيانُ صفاتِ المؤمنين الّذين لهمُ البُشرَى في الدُّنيَا والآخرة

في هذه الآيةِ وصَفَ اللّه المؤمنين الّذين اشترَى منهم أنفسَهم وأموالَهم بأنّهمُ الرَّاجعون ممَّا كَرِهَهُ اللّه وسَخِطَهُ إلى ما يُحبُّه ويرضاهُ، الّذين أخلصُوا العبادةَ للّه وحدَه وجدُّوا في طاعتِه، الحامِدون الّذين يَحمدُون اللّه على كلِّ ما امتَحَنهمْ به من خيرٍ أو شرٍّ، الصَّائمُون، الرَّاكعُون في صلاتِهم، السَّاجدونَ فيها، الذين يُؤَدُّونها كاملةً في خشوعٍ، ويأمرون بكلِّ خيرٍ يوافقُ ما جاءَ به الشَّرعُ، ويَنهَوْن عن كلِّ شَرٍّ يأْبَاهُ الدِّينُ، ويلتزمُون بشريعةِ اللّه، وأَخْبِر -

(1) ابن جرير، جامع البيان: 12/15، 16، والزَّجّاج، معاني القرآن: 2/472.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (حدَّ).
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/176.
(4) السّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (حدد).
(5) الزَّجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 1/257.
(6) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 1/259.
(7) القُرْطبيُّ، تفسير القُرطبيّ: 2/337.

أيُّها الرَّسول - المؤمنين المتَّصِفين بهذه الصِّفات بما يَسُرُّهمْ في الدُّنيَا والآخرةِ[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ موقع الآية ﴿ٱلتَّـٰٓئِبُونَ ٱلۡعَـٰبِدُونَ﴾:

أهلُ الإيمانِ تجارتُهم معَ اللهِ رابحةٌ مع تَزايُدِ صِفاتِهم تزدادُ رِبْحًا

اختلفَ أهلُ التَّأويلِ في نُكتةِ فَصْلِ هذه الآيةِ عن سَابِقتِها، فقد ذهبَ بعضُهم إلى أنَّ هذه الآيةَ يَجمعُها معَ الآيةِ السّابقةِ كمالُ الاتّصالِ بينهما، لأنّها نعتٌ للمؤمنين في قولِه سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ﴾ [التّوبة: 111] واستدلّوا لذلك بقراءةٍ شاذّةٍ (التّائبين)، ويكونُ المعنَى على هذا: (إنّ اللّه اشترَى منَ المؤمنين التّائبين العابدين أنفسَهم وأموَالَهم) لكنّهُ قُطعَ لأجْلِ المَدْحِ فجُعلَ مرفوعًا على أنّه خبرُ مبتدأٍ محذوفٍ وجوبًا، وهذا الوجهُ يحصلُ به كمالُ الارتباطِ بين الآيتَيْن، وذلك بجَعْلِ هذه الصّفاتِ المذكورةِ في الآية شرطًا في المجاهَدَةِ، وعلى هذا فلا يَدخلُ في المبايعةِ المذكورةِ في الآيةِ السّابقةِ إلّا المؤمنُونَ الّذين هُمْ على هذه الأوصافِ، وبناءً على هذا يكونُ إعرابُ ﴿ٱلتَّـٰٓئِبُونَ﴾ خبرَ مبتدأٍ محذوفٍ، أي: هُمُ التّائبونَ، وهذا من بابِ قَطْعِ النُّعوتِ، وذلك أنَّ هذه الأوْصَافَ عند هؤلاء القائلِين مِن صفاتِ المؤمنين في قوله تعالى: ﴿ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [التّوبة: 111].

وذهب البعضُ إلى أنّها لم تُعطفْ على سابقتِها لكمالِ الانقطاعِ بينهما، بمعنى أنَّ الآيةَ السّابقةَ مستقلّةٌ بنفسِها فلا يُشترطُ فيها شيءٌ سِوى الإيمانِ باللّه تعالى، ويَندرجُ فيها كلُّ مؤمنٍ قاتَلَ لتكونَ كلمةُ اللّه هيَ العُليا، وإنْ لم تكُنْ فيه هذه الصّفاتُ، لأنّ الشّهادةَ مَاحِيةٌ لكُلِّ ذنْبٍ، حتى إنّه رُوِي أنّه تعالى يحملُ عنِ الشّهيدِ مظالمَ العباد ويُجازيهم عنه[2].

(1) لجنة من عُلماءِ الأزهر، المنتخَبُ في تفسير القرآنِ الكريم، ص: 280، ونُخْبة من أساتذة التَّفسير، التَّفسير المُيَسَّر، ص: 205، وجماعَةٌ من علماء التَّفسير، المُخْتَصَر في تفسير القرآن الكريم، ص: 205.
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 3/88.

وبناءً على هذا يكونُ إعرابُ ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ﴾ فيه أوجُهٌ عديدةٌ منها أنها مُبتدأٌ وخبرُه (العابدون)، وما بعده أوصافٌ أو أخبارٌ متعدّدةٌ عند مَنْ يرَى ذلك، ومنها أنَّ الخبرَ للمبتدأ ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ﴾ قولُه: ﴿ٱلْأٓمِرُونَ﴾، ومنها أنَّ خبرَها محذوفٌ تقديرهُ: التّائبونَ الموصوفُونَ بهذه الأوصافِ من أهلِ الجنّة[1]، والرّأيُ الأوّلُ هو الأقربُ للسّياقِ والمعنَى.

دلالةُ التَّعبيرِ عن أوصَافِ المؤمِنين بأسماءِ الفاعلِين:

الثُّبوتُ والاستمرارُ على هذه الصِّفاتِ طابعٌ مميّزٌ لهم

وجِيءَ في التَّعبيرِ عن هذه الأوصَافِ بصِيغةِ أسماءِ الفاعلِين، لأنَّ اسمَ الفاعلِ يدلُّ على تمكُّنِ الفعلِ من صاحبِه حتّى باتَ اسمًا له، للإشارةِ إلى أنّها صفاتٌ ثابتةٌ من صِفاتِهم، وكأنَّ التّوبةَ والعبادةَ والحمْدَ والرّكوعَ والسّجودَ طابعٌ مميِّزٌ لهم بين النَّاسِ[2].

صِفاتُ المؤمِنين بينَ الوصْفِيّةِ والخَبَرِيّةِ:

العِنايةُ والاهتمامُ بصِفاتِ المؤمِنين

أوصَافُ المؤمِنين السّابقةُ كان الأصلُ أن تكون مجرورةً، لأنّها كانت وصفًا للمؤمِنين في قولِه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [التَّوبة: 111]، ولكنّها قُطعتْ عنِ الوصْفِيَّةِ وجُعلتْ أخبارًا لمُبتدأ محذوفٍ هو ضميرُ الجمعِ اهتمامًا بهذه النُّعوتِ اهتمامًا أخرجَها عنِ الوصْفيَّةِ إلى الخَبريَّةِ، ويُسمّى هذا الاستعمالُ نعتًا مقطوعًا، وما هو بنعْتٍ اصطلاحيٍّ، ولكنَّه نعْتٌ في المعنى[3]، فهذه الأوصافُ هي من صِفاتِ المؤمنين الّذين ذَكرَ اللّه أنَّه اشترى منهم أنفُسَهم وأموالَهم، ومعنى الآيةِ، على ما تَقتضِيه أقوالُ العلماء: أنَّها أوصافُ الكَمَلَةِ منَ المؤمنين، ذَكرَها سبحانه، لِيَستبقَ إليها أهلُ التَّوحيدِ، حتى يكونُوا في أعلَى رُتبةٍ[4].

(1) أبو حيَّان، البحر المحيط: 5/103، والسَّمين الحلبيّ، الدُّرُّ المصون: 6/129.
(2) طنطاويّ، الوسيط: 6/411.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/40.
(4) الثَّعالبيّ، الجواهر الحسان: 3/218.

دلالة (أل) في هذه الصفات ﴿ٱلتَّـٰٓئِبُونَ﴾ وما بعدها:

الدّعوةُ إلى التأسّي بالأنبياء والتّخلّقِ بأخلاقِهم

(أل) الدّاخلةُ على هذه الأخبارِ أوِ الصّفاتِ هي الجنسيّةُ الاستغراقيّةُ والّتي تفيدُ استغراقَ جميعِ أفرادِ الجنسِ الدّاخلين في حُكمها، وتفيدُ أيضًا في دخولها على الخبر - كما هو مقرّرٌ في علمِ المعاني - القصرَ الحقيقيَّ أوِ الإضافيَّ بحسب المعاني المرادةِ، وتفيدُ أيضًا تحقيقَ الثّناءِ على أصحابها، والتّعريضَ من خلال دعوةِ غيرهم للتأسّي بهذه الصّفاتِ وتتبّعِ حالِ أصحابِها.

نكتةُ التّعبيرِ عن هذه الصِّفاتِ بضميرِ الجمْعِ:

الإشارةُ إلى تعاضُدِ المجتمعِ في إبرازِ صُورِ العبادةِ والثّباتِ علَيْها

جَمَعَ النّظمُ الكريمُ الكُلَّ بجمعِ المذكّرِ السَّالمِ المقتضِي للتَّعاضدِ والتَّناصرِ المُوجِبِ لدوامِ العبادةِ والنُّصرةِ[1].

وفيه إشارةٌ إلى حرْصِ الإسلامِ على توسيعِ المساحةِ الإيمانيّةِ وتعدُّدِ طبقاتِها من خلالِ تعدُّدِ صفاتِها، ولا فرقَ هنا بين الذّكرِ والأنثى، لأنَّ التَّعبيرَ هنا جاء من بابِ التّغليبِ.

سِرُّ تَخصيصِ هذه الصّفاتِ بالذِّكْرِ دونَ غيرِها:

الصُّورةُ الكامِلَةُ لمَا يجبُ أن يكونَ عليه المؤمنُ

خُصِّصتْ هذه الصّفاتُ بالذّكْر لبيانِ أنّ هذه الصّفاتِ من شُعبِ الإيمان، ولأنّها تُمثّلُ الصُّورةَ الكاملةَ الّتي ينبغي أن يكونَ عليها المؤمنُ ومجتمَعُه الّذي يعيشُ فيه حتى يحفظَ كلٌّ منهما الآخرَ.

سرُّ تَرتيبِ هذه الصِّفاتِ:

البدْءُ بما يَخُصُّ الإنسَانَ في نفسِه ثُمَّ إلى ما يتعدَّاهُ إلى غيرِه

ابتدأَ النَّظمُ الكريمُ ترتيبَ هذه الصِّفاتِ بالتَّوبةِ الّتي هي أساسُ العملِ الصَّالحِ، ثُمَّ ابتدأَ المؤسَّسُ بمطلقِ العبادةِ الشَّاملةِ لجميعِ أنواعِ الدِّين منَ العلمِ وغيرِه فقال: ﴿ٱلْعَـٰبِدُونَ﴾[2]، مبتدئًا أوّلًا بما يخصُّ الإنسانَ مُرتَّبةً على ما سعى، ثُمَّ بما يَتعدَّى من هذه الأوصافِ من الإنسانِ لغيرِه وهو الأمرُ بالمعروفِ والنَّهيُ عنِ المنكرِ، ثُمَّ بما شَمِلَ ما

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 3/390.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/26.

يَخصُّه في نفسِه وما يتعدَّى إلى غيرِه وهو الحفظُ لحدودِ الله، فقدَّم الأوَّلَ، لأنَّ المُكَمِّلَ لا يكون مُكَمِّلًا حتَّى يكون كاملًا في نفسِه، فجاء هذا التّرتيبُ في غايةٍ منَ الحُسنِ[1].

سِرُّ ذكْرِ: ﴿ٱلۡعَٰبِدُونَ﴾ بعد: ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ﴾:

التَّخلِيةُ بعدَ التَّحْلِيةِ

فذكَرَ اللهُ تعالى في هذه الآية خِصالَ التَّائِبِ، فقال: ﴿ٱلۡعَٰبِدُونَ﴾ فلا بُدَّ للتَّائبِ منَ العبادة والاشتغالِ بالعملِ للآخرةِ، وإلَّا فالنَّفسُ همَّامةٌ متحرّكةٌ، إن لم تَشْغَلْهَا بالحقِّ، شغلَتْكَ بالباطل، فلا بُدَّ للتَّائبِ من أن يُبَدِّلَ تلك الأوقاتِ الّتي مَرَّت له في المعاصِي بأوقاتِ الطَّاعاتِ، وأن يَتَدَاركَ ما فرَّط فيها، وأن يُبَدِّلَ تلك الخُطواتِ بخطواتٍ إلى الخيرِ، ويَحفظَ لحظاتِه وخطواتِه، ولفظاتِه وخطراتِه[2]، ولأنَّ لفظَ ﴿ٱلۡعَٰبِدُونَ﴾ يعمُّ القيامَ بعبادةِ الله ﷻ والتزامِ شرْعِه ومُلازمةِ ذلك والمُثابرةِ عليه والدّوامِ.

وفيه بيانُ رحمةِ الله بعبدِه إذا أتَى بأقَلِّ عبادةٍ يُؤدِّيها المرءُ المسلمُ يقعُ عليه وصْفُ (عابدٍ)، وتزدادُ درجتُه بقدْرِ الزّيادةِ في عبادتِه.

سِرُّ التَّعبيرِ بـ ﴿ٱلۡحَٰمِدُونَ﴾:

الحمْدُ أعمُّ منَ الشُّكرِ

آثرَ التّعبيرَ بـ ﴿ٱلۡحَٰمِدُونَ﴾ دون (الشاكرون)، لأنَّ الحمْدَ أعمُّ منَ الشُّكرِ في جهةٍ من جهاتِ الفُروق بينَهما، فالشُّكرُ يكونُ على النّعمِ الخاصّةِ بالشَّاكرِ، بخلافِ الحمْدِ فهو على كلِّ حالٍ في السَّرّاءِ والضّرّاءِ، ولذلك قالُوا: الحامدُون معناهُ: الذّاكرَون لله بأوصَافِه الحُسنَى في كلِّ حالٍ وعلى كلِّ حالٍ، وفيه تأَسٍّ برسول الله ﷺ إذا أتاهُ الأمرُ يسُرُّه، قال: الحمدُ لله الّذي بنعمتِه تتمُّ الصّالحاتُ، وإذا أتاهُ الأمرُ يكرَهُه، قال: الحمدُ لله على كلِّ حالٍ[3].

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/510.
(2) ابن كثير، البداية والنهاية: 9/185.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 11/31.

سِرُّ التّعبيرِ بـ: ﴿ٱلسَّٰٓئِحُونَ﴾:

آثرَ التَّعبيرَ بـ ﴿ٱلسَّٰٓئِحُونَ﴾ لأنّه يحملُ مَعانيَ عديدةً، فمنهم مَنْ قال: إنّه مشتقٌّ منَ السّياحةِ وهي السّيرُ في الأرض، والمرادُ به سيْرٌ خاصٌّ محمودٌ شرعًا، وهو السّفرُ الّذي فيه قُربةٌ للّه وامتثالٌ لأمرِه، مثلَ سفرِ الهجرةِ من دارِ الكُفرِ إلى دارِ الإسلام، أوِ السّفرِ للحجِّ أو للجهادِ، وحمْلُه هنا على السّفرِ للجهادِ أنْسبُ للمَقامِ وأشملُ للمؤمنين المأمورين بالجهادِ، ومنهم مَنْ قال: إنَّ المرادَ به الضّربُ في الأرضِ خاصّةً والّذي عبَّرَ عنه بالمُتنقلين لطلبِ العلْمِ، ويجوزُ أن يكونَ المرادُ به: السّيْرَ سياحةً من أجل اكتشافِ الآثارِ والوقوفِ على أخبارِ الأممِ البائدةِ ليكونَ ذلك مثالَ عِظةٍ واعتبارٍ[1]، وقال بعضُ العلماء: إنَّ المرادَ بـ ﴿ٱلسَّٰٓئِحُونَ﴾: الصّائمُون، واستدلُّوا على ذلك بما أسْندَه الطّبريُّ عن عائشةَ ﵂: «سياحةُ هذه الأمّةِ الصّيامُ»[2]، ولما رُويَ عنِ ابنِ عبّاس ﵄: "إنّ كلّ ما ذكر اللّه في القرآن من السِّياحة، فهو الصِّيام".

السِّياحةُ لفظٌ يدلُّ على معانٍ كثيرةٍ، وكلُّها يُحتملُ دخولُها في معنَى الآيةِ

بلاغةُ الاستعارةِ في: ﴿ٱلسَّٰٓئِحُونَ﴾:

استُعيرتِ السِّياحةُ للصَّوم بطريق الاستعارةِ التَّصريحيَّةِ التَّبعيَّةِ، لأنَّ الصّومَ يعوقُ عنِ الشَّهواتِ، والسَّائحُ في الأرضِ ممتنعٌ منَ الشَّهواتِ فشُبِّهَ الصّائمُ به لإمْساكِه في صومِه عنِ المطعمِ والمشربِ والنِّكاحِ[3]، أو لأنّه رياضةٌ نفسانيّةٌ يُتوصّلُ بها إلى الاطّلاعِ على خفايَا المُلكِ والملكوتِ، كما أنَّ السّياحةَ يُتوصّلُ بها إلى الاطِّلاعِ على الأماكنِ والبلادِ النّائيّةِ التي خَفِيتْ على السّيّاحِين، ووجْهُ الشّبهِ فيهما الاطِّلاعُ على الأمورِ الخفيّةِ في كلٍّ منهما[4].

شُبِّهَ الصّومُ بالسّياحةِ لمنْعِه النّفسَ عنِ الشّهواتِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/41.
(2) الطبري، جامع البيان: 14/506.
(3) السّيروان، المعجم الجامع لغريب مفردات القرآن، ص: 213.
(4) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاوي: 9/348.

ولمَّا كانَ هذا اللّفْظُ يَحملُ هذه المعانيَ العديدةَ منَ السّياحةِ في الجهادِ والسّياحةِ في طلبِ العلم والسّياحةِ في نشْرِ الإسلامِ والتّفكّرِ في ملكوتِ اللّه، لكلِّ ذلك كانَ التَّعبيرُ به هو الأَوْلَى في هذا المقامِ.

سِرُّ التَّعبيرِ عنِ الصَّلاةِ ببعضِ أجزائِها:

الرُّكوعُ والسُّجودُ أجلُّ مظاهرِ التَّواضُعِ والعُبوديَّةِ

جعل النَّظمُ الكريمُ ذِكْرَ الرُّكوعِ والسُّجود، كنايةً أو مجازًا مُرسلًا عنِ الصَّلاة، لأنَّ سائرَ أشكالِ المُصلِّي موافقٌ للعادة، وهو قيامُه وقعودُه، والّذي يَخْرُجُ عنِ العادة في ذلك هو الرُّكوعُ والسُّجودُ، وبه يتبيَّنُ الفضلُ بين المُصلّي وغيرِه، ويمكنُ أن يُقالَ: القيامُ أوّلُ مراتبِ التَّواضُعِ للّه تعالى، والرُّكوعُ وسطُها، والسُّجودُ غايتُها، فخصَّ الرُّكوعَ والسُّجودَ بالذِّكر، لدلالتِهما على غاية التَّواضُعِ والعبوديَّةِ، تنبيهًا على أنَّ المقصودَ منَ الصَّلاة نهايةُ الخضوعِ والتَّعظيم[1]، والنّهيُ عنِ الفحشاء والمنكر، وللإشارةِ إلى أنَّ الّذين يُكثِرون منَ النَّوافل هم أدْخلُ في هذا الوصْفِ وأعرقُ في الاتّصافِ به.

سِرُّ اختيارِ ﴿ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ﴾:

الدّلالة على كَثرةِ الرّكوعِ وتجدُّدِهِ والمبالغةِ فِيه

آثرَ القرآنُ الكريمُ التَّعبيرَ بـ ﴿ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ﴾ بصِيغةِ اسمِ الفاعلِ دونَ المبالغةِ كما في قولِه تعالى: ﴿وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ [البقرة: 125]، وقوله: ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ [الحجّ: 26]، فجاء التّعبيرُ بـ(الرُّكّع) على صيغة (فُعَّل) وهي جمعُ تكسير وصيغتُه تدلُّ على المبالغةِ في الرّكوعِ والمداومةِ عليه، وفيه إشارةٌ إلى كثرةِ القيامِ بالرّكوعِ، بخلافِ لفظِ ﴿ٱلرَّٰكِعُونَ﴾ و﴿ٱلسَّٰجِدُونَ﴾ وهو جمعُ مذكّرٍ سالمٌ لمجرَّدِ الوصْفِ دونَ مبالغةٍ في الصّفةِ، وهو يدلُّ على التّجدُّدِ والحدُوثِ للدّلالةِ على الحركةِ الظّاهرةِ في أداءِ الصّلاةِ، وهو المعنى الّذي أرادَه السّياقُ هنا، أمّا لفظُ (السُّجَّدُ) فقد وردَ في

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 16/154، والقاسميّ، محاسن التّأويل: 5/510.

القُرآن الكريمِ في مواضعَ عديدةٍ كلُّها تدلُّ على الحركةِ الظّاهرةِ، مثلَ قولِه تعالى: ﴿تَرَىٰهُمۡ رُكَّعٗا سُجَّدٗا﴾ [الفتح: 29]، وقولِه: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيۡهِ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدٗاۖ﴾ [يوسف: 100]، وقولِه: ﴿وَٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ سُجَّدٗا﴾ [البقرة: 58] فالملاحَظُ أنّها كلَّها في موضعِ الحركةِ الظّاهرةِ ورُؤيَا العينِ[1].

بلاغةُ العُدولِ عنِ العطْفِ بين الصّفاتِ:

وحدةُ هذه الصّفاتِ في تحقُّقِها والالتزامِ بهَا

تظهرُ بلاغةُ الجمْعِ بين هذه الصّفاتِ دونَ أن يكونَ بينَها حرفُ عطْفٍ ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلۡعَٰبِدُونَ ٱلۡحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ﴾ إشارةً إلى أنّها جميعًا بمنزلةِ الصّفةِ الواحدةِ، وأنّه لا تتحقّقُ أيُّ صفةٍ فيهما إلّا إذَا تحقّقتْ جميعًا، لأنَّ تحقيقَ صفةٍ منها يكونُ داعيًا لتحقيقِ كلِّ الصّفاتِ، فالتّائبُ مثلاً إذا صحّتْ توبتُه وحقَّقَ مَضمونَها كان عابدًا حامدًا سائحًا راكعًا ساجدًا آمرًا بالمعروفِ ناهيًا عنِ المنكرِ حافظًا لحدودِ اللّه، وهكذا كلُّ صفةٍ بعدَها إذا تحلَّى المؤمنُ بواحدةٍ منها كانتِ الصّفاتُ الأُخرَى من حلْيَتِه[2]، كما أنّ الأصلَ في تعدّدِ الصّفاتِ لموصوفٍ واحدٍ أن لا نعطفَ بينها إلّا لغرضٍ بلاغيٍّ يقتضِيهِ السّياقُ.

نكتة العطْفِ في: ﴿ٱلۡأٓمِرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ﴾:

الإيذَانُ بأنَّهمَا فريضةٌ واحدةٌ لتَلازُمِهما في الغالبِ

قولُه تعالى: ﴿وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ﴾ فيه مناسَبةٌ حسَنةٌ، حيث ذكَرَ حَرْفَ العطْفِ هنا دون ما قَبْلَه، لِتَبايُنِ ما بينَ الوَصْفَيْنِ، فالأمرُ مُباينٌ للنَّهيِ، إذِ الأمرُ طلَبُ فِعْلٍ، والنَّهيُ تركُ فعلٍ، والصِّفاتُ إذا تكرَّرتْ وكانت للمدْحِ أوِ الذَّمِّ أوِ التَّرحُّمِ جاز فيها الاتّباعُ للمنعوتِ والقطعُ في كلِّها أو بعضِها، وإذا تباين ما بين الوصْفَيْن جازَ العطْفُ[3].

(1) داود، معجم الفروق الدّلاليّة في القرآن الكريم، ص: 480.
(2) الخطيب، التّفسير القرآنيّ: 4/902.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/511.

وقيل: إنّ عطْفَ النّهي عنِ المنكر على الأمرِ بالمعروف، للإيذانِ بأنّهما فريضةٌ واحدةٌ لتلازُمِهما في الغالب، والمعدودُ مجموعُهُما، كأنّه قيل: الجامعُون بين الوصْفَيْن[1].

والظَّاهرُ أنَّ العطْفَ في هذا الوصْفِ بخُصوصِه إنَّما كان من جهةِ أنَّ الأمرَ والنَّهيَ من حيثُ هُما أمرٌ ونهيٌ مُتقابِلان بخلافِ بَقيّةِ الصِّفاتِ أو لأنَّ الآمرَ بالمعروفِ ناهٍ عنِ المنكرِ وهو تركُ المعروف، والنَّاهي عنِ المنكرِ آمرٌ بالمعروف، لأنّهما وجهانِ لأمرٍ واحدٍ، فأُشيرَ إلى الاعتدادِ بكلٍّ منَ الوصْفَيْن وأنَّه لا يُكتَفى فيه بما يحصلُ في ضمْنِ الآخرِ[2].

وممّا يُذكرُ في سرِّ العطْفِ أنَّ بينَهما تلازُمًا في الذِّهنِ والخارجِ، لأنَّ الأوامرَ تتضمّنُ النَّواهيَ، ومنافاةً بحسبِ الظَّاهرِ، لأنَّ أحدَهما طلبُ فعْلٍ والآخرَ طلبُ ترْكٍ، فكانا بين كمالِ الاتّصالِ والانقطاعِ المقتضِي للعطفِ بخلافِ ما قبْلَهما[3].

سِرُّ التأخير لهاتين الصفتين: ﴿ٱلْآمِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾:

تربيّةُ الأفرادِ وإصْلاحُهم طريقٌ إلى تربيةِ المجتَمعِ

من خَصَائصِ المنهجِ القُرآنيِّ تربيّةُ الأفرادِ في الظّاهرِ والباطِنِ عن طريقِ تربيةِ القُلوبِ والجوارحِ، وهذا ما تكفّلَتْ به الأوصافُ السّابقةُ في العملِ على إيجادِ الفرْدِ الّذي يُراقبُ نفسَه ويُقوّمُها من خلالِ وجودِ نفْسٍ لوّامةٍ تلومُه على فعْلِ المعصيّةِ وتدعُوهُ إلى أن يُزيلَ دَنسَها من قلبِه ومن جوارحِه، وهذا ظاهرٌ في وصفِ ﴿ٱلتَّـٰٓئِبُونَ﴾، ولم يقفِ الأمرُ عند ذلك بل تدعُوه إلى عبادةِ اللّٰه بإخلاصٍ حتى يَشعرَ العبدُ بأنّ اللّٰه يراهُ، وهذا ظاهرٌ من وصْفِ ﴿ٱلْعَـٰبِدُونَ﴾، فكأنَّ وصْفَ التّوبةِ والعبادةِ يعملان على تخليةِ الفردِ منَ المعاصِي

(1) طنطاويّ، الوسيط:/411، والقاسميّ، محاسن التّأويل: 5/510.
(2) ابن هشام، مُغني اللّبيب، ص: 476، والخفاجيّ، حاشية الشّهاب: 4/645.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 6/30.

وتحلِيتِه بالطّاعةِ، وتظهرُ هذه التّحليةُ في صيامِه وصلاتِه من قولِه: ﴿ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ﴾، فبعْدَ هذه التّربيةِ السُّلوكيّةِ للفردِ يهدفُ القرآنُ الكريمُ إلى تطهيرِ المجتمعِ منَ الرّذائلِ والدّعوةِ إلى نشْرِ الفضائلِ، وذلك من خلالِ قولِه تعالى: ﴿ٱلْأٓمِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾، لأنَّ المجتمَعَ الفاضلَ هو ظلٌّ لكلِّ خُلُقٍ نبيلٍ تنمُو فيه الفضيلةُ وتقوَى غصونُها.

سِرُّ التَّعبير بالاسميّةِ دونَ الفعْليّةِ في الأمرِ بالمعروف والنّهي عنِ المنكر:

الأمرُ بالمعروفِ والنّهيُ عنِ المنكرِ خُلُقٌ ثابتٌ لأهلِ الإيمانِ

جاءَ التَّعبيرُ بالاسميّةِ الّتي تدلُّ على الثّبوتِ دونَ الفعليّةِ الّتي تدلُّ على تجدّدِ الأفعالِ وحُدوثِها، لأنَّ السّياقَ هنا جاءَ عنِ المؤمنين الّذين بذلُوا أنفسَهم وأموالَهم في سبيل اللّه في قولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم﴾ [التّوبة: 111]، وهذا دليلٌ على أنّهم حقّقوا هذه الفضيلةَ في أنفسِهم قبل أن تَتعدَّى إلى غيرِهم، لذلك كان التَّعبيرُ بالاسميّة من باب الإعلام بالوصْفيّةِ الّتي تحقّقتْ وصارتْ عُنوانًا لهم، وفيه دلالةٌ على أنّهم نالُوا استِحقاقَ وصْفِ الإيمان والبِشارةِ بالجنّةِ بهذه الصِّفاتِ السّابقِ ذِكْرُها، ومنها الأمرُ بالمعروفِ والنَّهيُ عنِ المنكر، وفيه دلالةٌ على كمال القيامِ بفضيلةِ الأمرِ بالمعروفِ والنَّهي عنِ المنكر، لأنَّ الوصْفَ إذا جاء بالاسميّةِ يدلُّ على الكمالِ فيه.

سِرُّ البدْءِ بالأمرِ بالمعروفِ: ﴿ٱلْأٓمِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾:

رسالةُ أهلِ الإيمانِ في المجتمَعِ إيجابيّةٌ

النَّاظرُ في آياتِ القرآنِ الكريمِ في هذه القضيّةِ مع تعدُّدِ الأساليبِ واختلافِ الصّيَغِ يجدُ أنّها متّفقةٌ على الأمرِ بالمعروفِ، ففي سورةِ آلِ عمرانَ يجدُ ذلك واضحًا في قولِه تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ [آل عمران: 110]، وفي سورةِ الأعرافِ في حديثِ القُرآنِ عن أوصَافِ الرَّسولِ يجدُ قولَه تعالى: ﴿يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ [الأعراف: 157] وكمَا هنا في

هذه الآيةِ من سورةِ التّوبةِ ونحوِ ذلك، لأنَّ الأمرَ بالمعروفِ هو الأصلُ ولعُموم معناهُ الّذي يقتضِي النَّهيَ عنِ المنكرِ، لأنَّ النّهيَ عنِ المنكرِ جزءٌ منَ الأمر بالمعروفِ، ولأنّه يأتي في مقامِ المدْحِ دائمًا، ففي جانبِ مدْحِ الأمّةِ بالخَيريّةِ بدأَ بالأمرِ بالمعروف، وفي مقامِ رسولِ اللّه ﷺ بدأَ بالأمرِ بالمعروف، وفي مَدْحِ المؤمنين الكامِلين أيضًا بدأَ كذلك.

دلالةُ (أل) في: ﴿بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾ و﴿ٱلۡمُنكَرِ﴾:

دلّتْ (أل) في لفظَي المعروفِ والمنكرِ على الاستغراقِ لجميعِ أنواعِ المعروفِ ولجميعِ أنواعِ المنكرِ، وفي هذا دلالةٌ على حرصِ المؤمنين على الأمرِ بكلِّ خيرٍ صغيرًا كان أو كبيرًا، والنّهيِ عن كلِّ منكرٍ صغيرًا كان أو كبيرًا، وذلك لحراسةِ المجتمعِ عنايةً ورعايةً.

لحراسةِ المجتمعِ لا بدَّ منَ الوفاءِ بهذه الصّفةِ على الوجهِ الأكمَلِ

بلاغةُ الطّباقِ في: ﴿ٱلۡأٓمِرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ﴾:

النَّاظرُ في هذه الجملةِ منَ الآية يجدُ الطّباقَ فيها ظاهرًا بين الأمرِ والنّهيِ، والمعروفِ والمنكرِ، والغرضُ منه إفادةُ العُموم والشُّمولِ في أداءِ هذه الفَريضةِ.

مسؤوليّةُ جميعِ المؤمنين في تحقيقِ هذه الصِّفَةِ

دلالةُ حذفِ متعلّقِ ﴿ٱلۡأٓمِرُونَ﴾ ﴿وَٱلنَّاهُونَ﴾:

حُذفَ المتعلّقُ، لأنّه معلومٌ منَ السّياقِ، والقرينةُ عليه ظاهرةٌ، لأنَّ أصْلَ الكلامِ (الآمرون النّاسَ والنّاهون لهم)، فلو جاء التَّعبيرُ هكذا لم يكُنْ بهذه البلاغةِ الّتي عبّرَ بها القرآنُ، لأنّه يُفوّتُ قيمةَ الإيجازِ، وفيه إشارةٌ إلى قصْدِ العُموم.

الحذف للإيجاز والعموم

سِرُّ إيثارِ التَّعبير بالأمرِ والنّهي:

آثرَ التّعبيرَ بصِيغتَي الأمرِ والنَّهي للدّلالةِ على حتميّةِ الأمرِ بالمعروفِ والنَّهي عنِ المنكر ليستقيمَ المجتمعُ للدّلالةِ على أهميّةِ هذه الفريضةِ في حياةِ الأمّةِ، لأنّها من عظائمِ الأمورِ الّتي لا يقومُ عليها إلّا العلماءُ الّذين يَعرفونَ حُدودَ الأوامرِ ومقتضَى النّواهي، لأنَّ مَنْ لا يعلَمُها يقعُ في حرجٍ ويُوقعُ المجتمعَ في خطرٍ.

الأمر والنّهي واجب على كلِّ مسلم، كلّ على حسب علمه وقدرته

سِرُّ ختامِ هذه الصّفاتِ بالحفْظِ لحُدودِ الله: ﴿وَٱلۡحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِۗ﴾:

الجمعُ بين رعايةِ أعمالِ الجوارحِ وأحوالِ القلوبِ

خُتمتْ هذه الصّفاتُ بصِفةِ الحفْظِ في قوله تعالى: ﴿وَٱلۡحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِۗ﴾، لأنّها تناولت كلَّ هذه الصّفاتِ على سبيلِ الشُّمولِ والإحاطةِ، لأنَّ التَّوبةَ والعبادةَ والاشتغالَ بتحميدِ الله، والسِّياحةَ لطلبِ الفضائلِ، والرُّكوعَ والسُّجودَ والأمرَ بالمعروف والنَّهيَ عنِ المنكر، أمورٌ لا ينفكُّ المكلَّفُ عنها في أغلبِ أوقاتِه، فلهذا ذَكَرَها الله تعالى أوّلاً على سبيلِ التَّفصيلِ، وأمَّا أمرُ الحُدودِ الّذي يُطلقُ في عُرفِ الفقهاءِ على كلِّ عقوبةٍ ذكرَها الله تعالى للجرائم الّتي تُعدُّ اعتداءً على حقِّ الله تعالى أو حقِّ المجتمعِ، فلا يلزمُ المكلَّفَ التّعاملُ معها أو التّلبُّسُ بها مثلَ معرفةِ أحكامِ الجناياتِ[1]، وفيه إشارةٌ إلى التّفريقِ بين هذه الصّفاتِ، فالثَّمانيةُ الأُولى أعمالُ الجوارحِ، وأمّا الصِّفةُ التَّاسعةُ فهي رعايةُ أحوالِ القلوبِ، بلِ البحثُ عنها، والمبالغةُ في الكشْفِ عن حقائِقِها، لأنّ أعمالَ الجوارحِ إنَّما تُرادُ لأجْلِ تحصيلِ أعمالِ القلوبِ[2].

سِرُّ العطْفِ في: ﴿وَٱلۡحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِۗ﴾:

الإجمالُ بعدَ التّفصيلِ

سِرُّ العطْفِ التَّنبيهُ على أنَّ ما قبْلَه مُفَصِّلُ الفضائلِ، وهذا مُجملُها، لأنَّه شاملٌ لما قبْله وغيرِه، ومثلُه يُؤْتَى به معطوفًا، نحو: زيدٌ وعمرو وسائرُ قبيلتِهما كُرَمَاء، فلِمُغايرتِه لما قبْله، بالإجمال والتّفصيلِ، والعمومِ، والخصوصِ، عُطفَ عليه، وقيل: بقوَّة الجامعِ بالتَّلازمِ، لأنَّ مَنْ حَصَّلَ الأوصافَ السَّابقةَ، فقد حَفِظَ حُدودَ الله[3].

سِرُّ وصْفِهم بالحفظِ لحُدودِ الله:

المبالغةُ في الوصْفِ بطاعةِ اللهِ والقيامِ بأوامرِه

اختارَ القرآنُ الكريمُ وصْفَهم بالحفْظِ في قولِه تعالى:

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 16/152.

(2) الشِّربينيّ، السّراج المنير: 1/743.

(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 6/30، والقاسميّ، تفسير القاسميّ: 5/510، ومحمد رضا، تفسير المنار: 11/51.

﴿وَٱلۡحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِۗ﴾، لأنَّ الحفْظَ صِفةٌ جامعةٌ للعملِ بالتَّكاليفِ الشَّرعيّةِ عند توجُّهِها ويَلزمُ منه الإتيانُ بالتَّكاليفِ على أتمِّ ما يكونُ منَ المبالغةِ في طاعةِ اللّه والقيامِ بأوامِرِه والانتهاءِ عن زواجِرِه، وذلك لأنَّ للّه تعالى حُدودًا في أوامرِه وزواجرِه وما ندبَ إليه ورَغَّبَ فيه أو أباحَهُ وما خيَّرَ فيه وما هو الأَولى في تحرِّي موافقةِ أمرِ اللّه، وكلُّ هذه حُدودُ اللّه، فوصَفَ تعالى هؤلاء القومَ بهذا الوصْفِ، ومَنْ كان كذلك فقد أدَّى جميعَ فرائضِه وقامَ بسائرِ ما أرادَه منه[1].

بلاغةُ التَّعبيرِ بالحفْظِ بين الحقيقةِ والمجازِ: ﴿وَٱلۡحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِۗ﴾:

الشَّأْنُ في المؤمنِ أن يكونَ حافِظًا لحُدودِ الله غيرَ مُضيِّعٍ لها

يُستعملُ الحفْظُ على الحقيقةِ ويكونُ معناه: توخِّيَ بقاءِ الشَّيءِ في المكانِ الّذي يُرادُ كَوْنُه فيه رغبةُ صاحبِه في بقائِه ورعايتِه عن أنْ يَضيعَ، ويُطلقُ مجازًا شائعًا على مُلازمةِ العملِ بما يُؤمَرُ به على نحوِ ما أُمِرَ به وهو المرادُ هُنا، أي: والحافظُون لِمَا عَيَّنَ اللّه لهم، أي: غَيْرَ مُضيِّعين لشيءٍ من حُدودِ اللّه[2].

سِرُّ خِتامِ صفاتِ المؤمِنين بـ: ﴿وَٱلۡحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِۗ﴾:

تجنّبًا للتّكرار ولعُمومِ لفْظِ الحفْظِ

خَتمَ اللّه تعالى هذه الأوصَافَ بهذه الصّفةِ ﴿وَٱلۡحَٰفِظُونَ﴾ دون (القائمُون)، لأنّه سبقَ ذِكْرُ ﴿ٱلۡأٓمِرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ﴾ وهم في واقعِ الأمرِ القائمُون على حُدودِ اللّه، فلَو عُبِّر بها لكان تكرارًا في المعنى ولم يُؤدِّ المرادَ منَ الحفظِ، وهو رِعايةُ الحُدودِ والعملُ على بقائِها بعيدًا عنِ التّحريفِ والتّبديلِ، ولأنّ المحافظةَ على الشَّيءِ يَلزمُ منها الإقامةُ عليه.

وفيه دلالةٌ على أنَّ الحفْظَ لا يكونُ إلّا للشّيءِ النّفيسِ الغالي، وفي هذا إشارةٌ إلَى عظَمةِ هذه الحدودِ وعُلوِّ قَدْرِها.

(1) الجصّاص، أحكام القرآن: 4/368.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/42.

والتَّعبيرُ بالمحافظةِ يدلُّ على المداومةِ والاستمرارِ بمغالبةِ النّفسِ دواعِيَ التّفريطِ في الحدودِ، ولذلك كان الغرَضُ من ختامِ الأوصافِ بها الدَّوامَ على تلك الحُدودِ بترْكِ جميعِ القيودِ الّتي تمنعُ الحِفاظَ عليهَا.

سِرُّ التَّعبيرِ عنِ التَّكاليفِ بالحُدودِ:

لفظُ الحُدودِ يعمُّ كلَّ أنواعِ العباداتِ والمعاملاتِ

عبّرتِ الآيةُ عنِ التّكاليفِ بالحُدودِ، لأنّها تشملُ العباداتِ والمعامَلاتِ كما في آياتِ سُورةِ البقرةِ، وأيضًا تشملُ أحكامَ المواريثِ كما في سُورةِ النِّساءِ في قولِه تعالى تعقيبًا على أحكامِ الميراثِ: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِۚ﴾، وكلُّ هذه الأحكامِ والتّكاليفِ حدَّ لها الشَّرعُ حدًّا فاصلًا بين الحلالِ والحرامِ، ومعنى حفْظِه: حمايتُه وصَونُه منَ التَّحريفِ والتَّغييرِ، ومَنْ وقعَ في ذلك مُتعمِّدًا عاقبَه الشَّرعُ، لأنّه اعتدَى على حقِّ اللّه تعالى وحقِّ المجتمعِ، لذلك سمَّاها ربُّنا حُدودًا، لأنَّ تَجاوُزَها يُخرجُ فاعلَها منَ الحِلِّ إلى المنعِ، لأنَّ أصْلَ الحدِّ في اللّغةِ المنعُ، ومنه حَدُّ الدّارِ، لأنّه يمنعُ الغيْرَ من دخولِها، ولذلك سُمِّيت المعاصِي حُدودًا، لأنَّه يُمنع تجاوُزُها، ولأنَّها تمنعُ أصحابَها منَ العَودِ إلى أمثالِها"[1].

نُكتةُ إضافةِ الحُدودِ: ﴿لِحُدُودِ ٱللَّهِۗ﴾:

بيانُ تعظيمِ هذه الحُدودِ والمُبالغةِ في عَدَمِ التَّلَبُّس بها

إضافةُ الحُدودِ إلى اللّه تعالى في هذه الآية - وحيثُ ذُكرتْ - لتدلَّ على تعْظيمِها والمبالغةِ في عدمِ التّلبُّس بها، ولتعظيمِ هذه الحُدودِ أضافَها اللّه تعالى إليه.

سِرُّ حذْفِ مُتعلّقاتِ هذه الأوصَافِ:

كونُ المُتَعَلَّق معلومًا منَ السِّياقِ، لأنَّ الصِّفاتِ صِفاتُ مَدْحٍ للمؤمنين

لم يَذْكُرْ سبحانه في الآية لهذه الأوصافِ مُتَعَلَّقًا، فلم يقُلِ: التَّائبون من كذا، لفهْمِ ذلك منَ المقامِ، لأنَّ المقامَ في مدْحِ المؤمنين الصَّادقين الّذين أخلَصُوا نفوسَهم للّه تعالى، فصارُوا مُلتزمِين طاعتَه في كُلِّ أقوالِهم وأعمالِهم[2].

(1) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 2/337.
(2) طنطاويّ، الوسيط: 6/411.

دلالة الواو: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾:

الواوُ في قولِه سبحانه: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ عاطفةٌ، لأنّها عطفتْ هذه الجملةَ على قولِه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [التّوبة: 111] عطفَ إنشاءٍ على خبرٍ، وممَّا حَسَّنهُ أنَّ المقصودَ منَ الخبر المعطوفِ عليه هو الأمرُ بالعملِ به، والمقصودُ منَ الأمر بتبشيرِهم إبلاغُهم، فكان كِلْتا الجُملتيْن مُرادًا منها معنيان: خَبَريٌّ وإنشائيٌّ[1].

البشارةُ منَ الله تعالى لمَنْ أحسَنَ العمَلَ

سِرُّ خِتامِ الآية بالبِشارةِ: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ مع سبْقِ ذكْرِها:

لمَّا ذكرَ اللّه تعالى هذه الصِّفاتِ التِّسعةَ وقال بعدها: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، للدّلالة على أنهم هُمُ المقصودُون في قولِه تعالى: ﴿فَٱسْتَبْشِرُواْ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ﴾ [التّوبة: 111]، وفي هذا دلالةٌ على أنَّ البِشارةَ المذكورةَ في قوله: ﴿فَٱسْتَبْشِرُواْ﴾ [التّوبة: 111] لم تتناولْ إلا المؤمنين الموصُوفِين بهذه الصِّفاتِ[2].

التّأكيدُ علَى البِشارةِ وأنّها لا تَشملُ إلّا أصحابَ هذه الصّفاتِ

دلالةُ الأمرِ: ﴿وَبَشِّرِ﴾:

قولُه تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ هو لفظٌ عامٌّ، أمرَ اللّه تعالى نَبيَّه ﷺ أن يُبَشِّر أمَّته جميعًا بالخيرِ منَ اللّه، فكأنَّه وعدَ الجنَّةَ جميعَ المؤمنين، مع تفاوُتِ درجاتِهم كقولِه: ﴿وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [النِّساء: 95][3]، فالبِشارةُ مُتناوِلةٌ كلَّ مؤمن، وأمَّا مِقدارُها وصفتُها فإنَّها بحسبِ حالِ المؤمنين، وإيمانِهم، قُوةً وضَعفًا[4]، وقيل: بل هذه الألفاظُ خاصَّةٌ لمَنْ لم يَغْزُ، أي: لمَّا تقدَّم في الآية وَعْدُ المجاهدين وفَضْلُهم، أُمرَ ﷺ أن يُبَشِّرَ سائرَ المؤمنين ممَّن لم يغْزُ[5]، فإنَّ اللّه سبحانه ذكرَ أوصافَ هؤلاءِ الكُبراءِ من أهلِ المقاماتِ والدَّرجاتِ،

بيانُ عمومِ البِشارةِ للمؤمنين مع تفاوُتِ درجاتِهم

(1) ابن عطيَّة، المحرّر الوجيز: 3/88، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/43.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 16/152.
(3) ابن عادل، اللُّباب في علوم الكتاب: 10/218.
(4) السَّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 402.
(5) الثَّعالبيّ، الجواهر الحسان: 3/218.

وما ذكرَ منَ البِشارة هُناك، كأنَّ ذلك يقتضِي حُزنَ المؤمنين الّذين هم في أدنى الدّرجات من درجاتِهم، فبشّرهم بهذه البِشارةِ تفضُّلًا كما أثابَ المجاهدين، وعاملَهم بالبيعِ والشّراءِ[1].

بلاغةُ حذْفِ مُتعلَّقِ البُشْرَى:

بيانُ عِظَمِ المُبَشَّرِ به وعُمومِ نفْعِه لصاحبِه في الدّنيَا والآخرةِ

لم يَذْكُر سبحانه المُبَشَّر به في قوله: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، للتَّعظيم وللإشارة إلى أنَّه أمرٌ جليلٌ لا يُحيط به الوصف، ولا تَحُدُّه العبارة[2]، فكأنَّه قيل: بَشِّرْهم بما لا تُدركه الأفهام ولا يُحيط الكلام ولم تسمع به الآذان[3]، فلم يذكر ما يُبَشِّر لهم به، ليعمَّ جميع ما رُتِّب على الإيمان، من ثواب الدُّنيا، والدِّين والآخرة[4].

سِرُّ الإظهارِ في موضعِ الإضمَارِ: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾:

الاعتناءُ بشأْنِ المؤمنين وبيانُ دافعِهم الإيمانيِّ إلى العمَلِ

قولُه: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ فيه وضعُ المُؤمنين موضِعَ ضميرِ الموصوفينَ بتِلك الفضائلِ، للتَّنبيهِ على أنَّ مِلاكَ الأمْرِ هو الإيمانُ، وأنَّ المؤمِنَ الكامِلَ مَن كان كذلك[5]، فأُظهرَ في مقامِ الإضمارِ، اعتناءً بهم، وتشريفًا لِقَدْرِهم[6].

دلالةُ ذكْرِ البِشارةِ في الآيتيْن مع اختلافِ المبَشَّرِ فيهمَا:

إظهارُ مَزيّةِ أَهْلِ الإيمان والاعتناءِ بشَأْنِهم

النّاظرُ في الآيتَيْنِ يجدُ ذِكْرَ البِشارةِ فيهما، تارةً منَ الخالقِ كما في قولِه تعالى: ﴿فَٱسْتَبْشِرُواْ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ﴾ [التّوبة: 111]، وتارةً على لسان أكمَلِ الخلائقِ ﷺ في قولِه تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، وفي جَعْلِ الأُولَى مِنَ اللّهِ أعظمُ تَرغيبٍ في الجهادِ، وأعلى حَثٍّ على خَوضِ غَمَراتِ الجِلادِ[7]، وفي جعل الثّانيةِ على

(1) البقليّ، عرائس البيان: 2/48.
(2) القاسميّ، محاسن التّأويل: 5/510، طنطاويّ، الوسيط: 6/411.
(3) المظهريّ، التفسير المظهريّ: 4/305، والشّربينيّ، السّراج المنير: 1/654.
(4) السّعديّ، تيسير الكريم الرحمن، ص: 402.
(5) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/175، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/107.
(6) الصّاويّ، حاشية الصّاويّ على الجلالينْ: 2/74.
(7) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 9/29.

لسانِ رسولِ اللّه أعظَمُ مَزيَّةٍ للمُؤمنينَ، والإشارةُ إلى أنَّ هذه المائدةَ الإيمانيّةَ لا يجلِسُ عليها إلا الرَّاسخُون في الإيمانِ الّذين تحقّقتْ فيهمُ الصّفاتُ السّابقةُ.

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

العبادةُ والطَّاعةُ:

الطَّاعةُ مُطلَقُ الامتثالِ، والعبادةُ حقُّ اللهِ وحدَه

الطَّاعَةُ هِيَ الفِعْل الوَاقِعُ عَلى حَسَبِ مَا أَرَادَهُ المُرِيدُ مَتى كَانَ المُرِيدُ أَعلَى رُتْبَةً مِمَّنْ يَفْعَلُ ذَلِك وَتَكُونُ لِلْخالِقِ والمَخْلوقِ[1]، قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ﴾ [النّساء: 59]، والعِبَادَةُ هِيَ تَعْظِيمُ اللّهِ تَعالَى بأَمْرِه، بِشَرْطِ النِّيَّةِ ومَعْرِفَةِ المَعْبودِ ولا تَكونُ إلَّا لِلْخالِقِ، قال تَعالى: ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ﴾ [الذّاريات: 56]، فالعِبادَةُ حَقُّ اللّهِ وَحْدَهُ، أَمَّا الطَّاعَةُ فَهِيَ مُطْلَقُ امْتِثَالِ الأَمْرِ وَالنَّهْيِ فالطَّاعَةُ أَمْرُها واسِعٌ[2].

الحِفْظُ والرِّعايَةُ:

الرِّعايةُ فعلُ أسبابِ الحِفْظِ وهي سابقةٌ له

الحِفْظُ صَرْفُ المكارهِ عنِ الشَّيءِ لئلّا يَهْلَكَ، والرِّعايةُ فِعْلُ السَّببِ الّذي يَصرفُ المكارهَ عنه، فالرِّعايةُ سابقةٌ للحفْظِ، ومن ثَمَّ يُقالُ: فلانٌ يرعَى العهودَ بينه وبين فلانٍ، أي: يحفظُ الأسبابَ الّتي تبقَى معها تلك العهودُ، ومنه: راعِي المواشِي؛ لتفقُّدِه أمُورَها ونفْيِ الأسبابِ الّتي يُخشَى عليها الضَّياعُ منها، فكلُّ حافظٍ راعٍ، فالحفْظُ أعمُّ والرِّعايةُ أسبقُ[3]، وقد يُطلقُ كلٌّ منهما على الآخر في حقِّ اللّه، فيُقالُ: في رعاية اللّه تعالى؛ أي: في حفْظِه[4].

(1) العسكريُّ، الفروق اللُّغويَّة، ص: 221.
(2) زكريّا الأنصاريّ، الحدود الأنيقة، ص: 77.
(3) العسكريُّ، الفروق اللُّغويَّة، ص: 205.
(4) الحميريُّ، شمس العلوم: 04/2547.

﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ لِلۡمُشۡرِكِينَ وَلَوۡ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرۡبَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ ١١٣﴾ [التَّوبة: 113]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

بيان وُجوب البراءة من أموات المُشركين مهما كانت قرابتُهم

لَمَّا بيَّنَ اللهُ تعالى مِن أوَّلِ هذه السُّورةِ إلى هذا المَوضِع وُجوبَ إظهارِ البَراءةِ عن الكُفَّار والمُنافِقينَ مِن جَميعِ الوُجوهِ، بَيَّنَ في هذه الآيةِ أنَّه تجِبُ البراءةُ عن أمواتِهم، وإن كانوا في غايةِ القُربِ مِنَ الإنسانِ كالأبِ والأمِّ، كما أوجبَتِ البراءةَ عن أحيائِهم، والمقصودُ منه بيانُ وجوبِ مُقاطَعتِهم على أقصى الغاياتِ، والمنعِ مِن مُواصَلتِهم بسببٍ مِنَ الأسبابِ[1].

وأيضًا لَمَّا كَثُرَتْ في هذه السُّورةِ الأوامِرُ بالبراءةِ مِن أحياءِ المُشرِكينَ، وجاء الأمرُ أيضًا بالبراءةِ من أمواتِ المُنافِقينَ بالنَّهْيِ عنِ الدُّعاءِ لهم، جاءت هذه الآيةُ مُشيرةً إلى البراءةِ مِن كُلِّ مُشرِكٍ، فوقَعَ التَّصريحُ بعدها بما أشارَتْ إليه[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿قُرۡبَىٰ﴾: أي: ولو كانُوا مِن أقارِبِهم[3]، وأصلُ قَرُبَ يَدُلُّ على خلاف البُعْدِ، يُقالُ: قَرُبَ يَقْرُبُ قُرْبًا، وفلان ذو قَرابَتي، وهو مَنْ يَقْرُبُ منك رَحِمًا، وفلانٌ قَريبي، وذو قرابتي كذلك، والقُرْبَةُ والقُرْبَى: القَرابَةُ[4].

2) ﴿ٱلۡجَحِيمِ﴾: اسمٌ من أسماء النَّار، وأصلُ الجحيمِ الحرارةُ

(1) الفخر الرَّازي، مفاتيح الغيب: 16/157.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 9/29.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 12/19، ومحمد رضا، تفسير المنار: 11/46، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/45.
(4) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (قرب).

وشدَّتُها، وجَحَمَتُ النَّارَ: أَضرمْتُها، وزِدْتُ في توقُّدِها، والجاحمُ: المكانُ الشَّديدُ الحرِّ[1]، والجحيمُ: شِدَّةُ تَوَقُّدِ النَّارِ وإضرَامِها[2]، ويُقالُ لكُلِّ نارٍ عظيمةٍ في مَهواةٍ حجيمًا[3].

المَعْنى الإجْماليُّ:

النَّهيُ عنِ الدُّعاءِ للمُشركين والاستغفارِ لهم بعدَ ثُبوتِ موتِهم على الكُفْرِ

لا ينبغِي للنَّبيِّ ولا ينبغِي للمُؤمنين أن يدعُوا بالمغفرةِ للمشركين، ولو كانُوا أقربَ النَّاسِ إليهم مِن بعْدِ ما ماتُوا على شِرْكِهِمْ باللّه وعبادةِ الأوثان، واتَّضحَ لهم أنَّهم من أصحابِ النَّار، لموتِهم على الشِّركِ، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾ [النِّساء: 48].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

نُكتةُ الفصْلِ: ﴿مَا كَانَ﴾:

منعُ الاستغفارِ للمُشركين بعدَ اليَأْسِ من إيمَانِهم نسْخًا للتَّخْييرِ السَّابقِ بالاستغفارِ لهم

فُصِلَ قولُه تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ لِلۡمُشۡرِكِينَ﴾، لأنّه استئنافٌ نُسِخَ به التَّخييرُ الواقعُ في قولِه تعالى: ﴿ٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ أَوۡ لَا تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ﴾ [التَّوبة: 80]، لأنَّ الآيةَ تدلُّ علَى التّسويّةِ بين أن يَستغفرَ النَّبيُّ ﷺ لهم وبين أن لا يَستغفرَ، فأرادَ اللّه نسْخَ ذلك بعد أن درَجَ في تلقِّيه على عادةِ التَّشريعِ في غالبِ الأحوالِ[4]، ويمكنُ أن لا يكونَ هناك نَسْخٌ، وتُحملُ كلُّ آيةٍ على معنى لا يتعارضُ مع أختِها، فالآيةُ هنا تنهَى عنِ الاستغفارِ لهم، وتلك تبيّنُ أنّ استغفارَه لهم لو كانَ، فإنّه يتساوَى مع عدمِه، فالأمرُ في قولِه: ﴿ٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ﴾ [التَّوبة: 80] هو للتّسويّةِ.

بلاغةُ التَّعبيرِ بالنّفي في الآية:

الاستبعادُ المُقتضِي للتّأْنِيبِ

قال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ لِلۡمُشۡرِكِينَ﴾،

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (جحم).
(2) السَّمين الحلبيُّ، عُمدة الحفّاظ: (جحم).
(3) جَبَل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصَّل: (جحم).
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/43.

وهذا التّركيبُ البلاغِيُّ يَدلُّ على استبعادِ أن يكونَ منَ النَّبيّ والمؤمنين استغفارٌ وترحّمٌ للمُشركين، ولو كانُوا من أهلِيهم وذوِي قرابتهم، إذا تبيّنَ لهم أنّهم من أهلِ الكُفرِ والضّلالِ، فالمشركون أعداءٌ للّه، والمؤمنون أولياءُ للّه، ولن تجتمعَ الوَلايةُ للّه، والولايةُ لأعداءِ اللّه، واللّه ﷻ يقولُ: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ [المجادلة: 22][1].

سِرُّ اختيارِ التّعبيرِ: ﴿مَا كَانَ﴾:

المبالغةُ في نفْيِ وقوعِ الاستغفارِ منَ النّبيّ للمُشركين

آثرَ التَّعبيرَ بقولِه تعالى: ﴿مَا كَانَ﴾، لأنّه يأتي في القرآنِ على وجْهَيْن:

الأول: بمعنى النّفْيِ نحو: ﴿مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآ﴾ [النّمل: 60].

الثّاني: بمعنى النّهيِ، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ [الأحزاب: 53].

والمرادُ هنا المبالغةُ في نفْيِ وقوعِ الاستغفارِ منَ النّبيّ ﷺ والمؤمنين للمُشركين، وأصلُ هذا التّركيبِ في الكلامِ أنّه في نفْيِ الأفعال، فلمّا أُريدتِ المبالغةُ في النّفْيِ عُدلَ عن نفْيِ الفعْلِ إلى نفْيِ المصدرِ الدّالِّ على الجنْسِ وصارَ معناه: ما كان له أن يفعَلَ، ويقالُ أيضًا: ليس له أن يفعلَ[2].

وعلى هذا يكونُ هذا التَّعبيرُ أبلغَ من قولِهم: ما جازَ للنّبيِّ والّذين آمنوا أن يَستغفرُوا لكونِه نفيًا للشّأنِ الّذي هو أبلغُ من نفْيِ الفعْلِ، لأنّه نفْيٌ مُتعلّقٌ بالسّببِ المُقتضِي له، وفيه إشارةٌ إلى لُطفِ التَّعبيرِ في توجيهِ النّبيّ ﷺ والمؤمنين.

دلالةُ البدْءِ بالنَّهيِ للنّبيّ ﷺ:

النّهْيُ للنَّبيِّ ﷺ عن فعْلِ شيءٍ هو نهيٌ لغيره ضمْنًا

بدأَ القُرآنُ الكريمُ في إيرادِ النّهْيِ للنّبيّ ﷺ بعدمِ الاستغفارِ

(1) الخطيب، التَّفسير القرآنيّ: 6/904.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/294 - 298.

للمشركين بقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ﴾، وإذا وُجِّهَ النّهْيُ إلى النّبيِّ فيكونُ من بابٍ أَولَى للمؤمنين، لأنّه ليس لهم الحقُّ في ذلك، لأنّ اللّه لو أرادَ أن يُكرمَ أحدَ الآباءِ ممّن أشركُوا لأجْلِ أحدٍ لأكرمَ آباءَ النّبيِّ ﷺ إن كانُوا غيرَ مؤمنين[1].

دلالةُ الواوِ في قولِه تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾:

النّبوّةُ والإيمانُ مانِعانِ منَ الاستغفارِ للمُشركين

دلّتِ الواوُ على العلّةِ الجامعةِ لمنعِ الاستغفارِ للمُشركين الّذين ماتُوا على شِركهم[2] من ناحيَتَيْن: الأُولَى: أنَّ النُّبوَّة والإيمانَ يمنعان منَ الاستغفارِ للمُشركين، وذلك من خلالِ الجمْعِ بينَهما بالواو في قوله: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ والثَّانيّةُ: عدمُ الاستغفار على أنّ المعنى: ليس لهم أن يستغفرُوا، والأمرانِ مُتقاربانِ.

معنى: ﴿مَا﴾، ودلالةُ دُخولِها على: ﴿كَانَ﴾:

المبالغةُ في التَّنزُّه عن هذا الاستغفارِ

جاءت صِيغةُ النَّهيِ بطريق نفْيِ الكون مع لام الجُحُود مبالغةً في التَّنزُّه عن هذا الاستغفار، كما في قولِه تعالى: ﴿قَالَ سُبۡحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أَقُولَ مَا لَيۡسَ لِي بِحَقٍّۚ﴾ [المائدة: 116][3]، وهذا التعبيرُ نفيٌ بمعنى النَّهيِ، ويُسمَّى (نفيَ الشَّأنِ)، وهو أبلَغُ في نفْيِ الشَّيءِ نَفسِه، لأنَّه نَفيٌ مُعَلَّلٌ بالسَّبَب المُقتَضِي له[4].

نُكتةُ تقديمِ خبرِ ﴿كَانَ﴾ على اسمِها:

التَّنبيهُ على أنَّ النُّبوَّةَ والإيمان يمنعانِ منَ الاستغفار للمُشركين

قولُه تعالى: ﴿لِلنَّبِيِّ﴾ خبرُ ﴿كَانَ﴾ مقدَّمٌ، ﴿وَٱلَّذِينَ﴾ عَطْفٌ على النَّبيّ، و(أنْ) وما في حيّزِها اسمُ كان مُؤَخَّرٌ[5]، وقُدِّم ذِكْرُ النَّبيِّ والمؤمنين على ذِكْرِ الاستغفار تقديمًا لذِكْرِ الذَّوات قبل الأفعالِ وتنبيهًا على أنَّ النُّبوَّةَ والإيمانَ يمنعان منَ الاستغفار للمُشركين[6]،

(1) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ، ص: 5526.
(2) ابن عطيّة، المحرَّر الوجيز: 3/90.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/44.
(4) محمد رضا، تفسير المنار: 11/46.
(5) درويش، إعراب القرآن: 4/183.
(6) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 16/157.

فنبّه على الوصْفِ الشّريف منَ النّبوّةِ والإيمانِ، وأنّه مُنافٍ للاستغفار لِمَنْ مات على ضدِّه وهو الشّركُ باللّه[1].

دلالةُ العطْفِ في: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾:

عُطِف قولُه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ على ﴿لِلنَّبِيِّ﴾ لمنْعِ المؤمنين أن يَستغفرُوا للمشركين، لأنّ المؤمنين لمَّا سمعُوا تخْييرَ النَّبيّ ﷺ في الاستغفارِ للمشركين في قولِه تعالى: ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ [التَّوْبَة: 80] ذهبوا يَستغفرون لأهليهم وأصحابِهم منَ المشركين طمعًا في إيصالِ النَّفعِ إليهم في الآخرةِ، فأصبحَ ذلك ذريعةً إلى اعتقادِ مُساواةِ المشركين للمؤمنين في المغفرةِ فينتفِي التَّفاضلُ الباعثُ على الرَّغبةِ في الإيمان، فنهى اللّه النَّبيَّ ﷺ والمؤمنين معًا عنِ الاستغفار للمشركين بعد أن رخَّصَهُ للنَّبيّ ﷺ خاصَّة[2]، وسببُ المنعِ ظاهرٌ من قولِه تعالى: ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾[3].

النّهيُ عنِ الاستغفار للمشركين عامّ لجميع المؤمنين لا رُخصةَ فيه

سِرُّ التّعبيرِ بالنّبوّةِ: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ﴾:

آثرَ التَّعبيرَ بالنّبوّة دونَ الرّسالةِ، لأنَّ مادّةَ النّبوّةِ تدلُّ على الارتفاع للشّيءِ عن غيرِه، والنّبيُّ مرتفعٌ عنِ الخلْقِ باصطفاءِ اللّه له، فلفظةُ النّبيّ تدلُّ على شرفِه، لأنّه مُنبّأٌ منَ اللّه ومُنْبئٌ عنه، ولمَّا كان المقامُ فيه ملاطفةٌ للنّبيّ ﷺ باستغفاره للمشركين، رُفعَ توهُّمُ وجودِ خاطرٍ في القلبِ منَ الانتقاص من حقِّه ﷺ، فكانت لفظةُ النّبيّ الّتي تُدلِّلُ على علُوّ قدرِه ﷺ.

مقامُ النّبوّةِ في رِفْعَةٍ وعُلُوٍّ ويأتي وصْفُ النّبوّةِ في مقامِ الائتسَاءِ

سِرُّ التّعبيرِ باسمِ الموصول وصِلتِه ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾:

آثرَ التّعبيرَ باسم الموصولِ وصِلتِه، للإشارةِ إلى أنّ مضمونَ هذه الصّلةِ ممّا اشتهرَ بين النَّاس حتى صارت كأنّها عَلَمِيَّةٌ عليهم، وللدّلالةِ على رُسوخِ الإيمان في قلوبِهم، فما أن يدعُوهم ربُّهم إلى

الشّأنُ في المؤمنِ المسارعةُ إلى تنفيذِ ما أمرَ الله به

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/512.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/43.
(3) الزّحيليّ، التّفسير المنير: 11/60.

أمرٍ إلا وسارعُوا بالإيمان والتّصديق والتّطبيق، ولمَّا كان المقامُ هنا في منْعِهم منَ الاستغفار للمشركين، كان التّعبيرُ بالموصول وصِلتِه هو الأوفقُ في سياق الآية.

دلالةُ التَّعبيرِ بالاسم: ﴿لِلْمُشْرِكِينَ﴾ دون الفعل:

بيان رُسوخِهم في الشِّرك واسْتِمرارِهم عليه

آثرَ التّعبيرَ بالاسمِ ﴿لِلْمُشْرِكِينَ﴾ دون الفعل (أَشرَكُوا)، للدّلالة على أنّهم راسخون في الإشراك في عبادة ربّهم[1] حتى ماتُوا عليه، بخلافِ الفعلِ (أَشْرَكوا) فيَحملُ معنى التّجدُّدِ في وقوعِ الشِّرْك منهم، لكنّه لا يدلُّ على موتِهم عليه، بدليلِ أنَّ بعضَ المشركين بل كثيرًا منهم من أهلِ مكّةَ أسلمُوا ودخلُوا في دين الله أفواجًا.

وفيه إشارةٌ إلى إخراج الأحياء، فيجوزُ الدّعاءُ لهم بالهدايةِ، ويكونُ سياقُ الآية فيمَنْ ماتَ على الشِّركِ.

سِرُّ التَّعبيرِ بالاستغفارِ دونَ غيرِه: ﴿أَن يَسْتَغْفِرُواْ﴾:

لفظ الاستغفار عامٌّ، فتدخل تحته ألفاظ كثيرة

آثرَ التَّعبيرَ بالاستغفار دُون غيرِه، لتعدُّد معانيه، فالأصلُ أنّه يُستعملُ في طلبِ المغفرةِ منَ الشّركِ كما في قوله تعالى: ﴿وَٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ﴾ [هود: 90]، ويأتي بمعنى الدّعاءِ بقولِهم: (اللهم اغفر لهم)، ويُطلقُ على الصّلاةِ كما في قولِه تعالى: ﴿وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ﴾ [آل عمران: 17] يعني: المصلّينَ، ويأتي بمعنى الاستغفارِ على حقيقتِه من طلبِ المغفرةِ بالمقالِ والفعالِ كما في قوله تعالى: ﴿وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ﴾ [يوسف: 29]، وأغلبُ هذه المعاني مرادٌ في سياقِ الآية، لأنّهم كانوا يَستغفرون لمَنْ مات ويدعُون لهم بالمغفرة، ونُهُوا عن ذلك.

سِرُّ التَّعبير بالمصدرِ المؤوَّلِ ﴿أَن يَسْتَغْفِرُواْ﴾:

حرصُ المؤمنين على الاستغفارِ لأقاربهم منَ المشركين حتّى ورد النّهيُ عن ذلك

آثرَ التَّعبيرَ بالمصدرِ المؤوّلِ المكوَّنِ من (أن) والفعْلِ ﴿أَن يَسْتَغْفِرُواْ﴾ دونَ المصدرِ الصّريحِ (استغفار) للدّلالةِ على

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/30.

ملاحظةِ الزَّمنِ، فكأنّهم يحرصُون على هذا الاستغفارِ وأنّه يتجدّد وقوعُه منهم.

دلالةُ اللّامِ: ﴿لِلۡمُشۡرِكِينَ﴾:

أثرُ الشّركِ وشُؤمُه على المشركين

دلّتِ اللّامُ في قولِه تعالى: ﴿لِلۡمُشۡرِكِينَ﴾ على اختصاصِهم بهذا النّهيِ الواردِ في قولِه تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ﴾ لأجلِ المشركين، ويُفهمُ من ذلك أنَّ مانعَ الاستغفارِ للمشركين هو شِركُهُم.

سِرُّ التَّعبيرِ بـ(المشركين):

لفظةُ الشِّركِ هيَ الأنسَبُ لسياقِ الآياتِ

آثرَ التَّعبيرَ بـ(المشركين) دونَ (الكافرين)، لوجودِ فرْقٍ بينهما، فالكافرُ هو الَّذي يَجحدُ الوحدانيّةَ أوِ النّبوّةَ أوِ الشّريعةَ أو ثلاثتَها، ويُطلقُ وصْفًا لمَنْ لا إيمانَ له، فإنْ أظهرَ الإيمانَ وأبطنَ الكفرَ فهو المنافقُ، وإنْ كفرَ بعْدَ إيمانٍ فهُو المرتدُّ، أمّا المشركُ فهو مَنْ أثبتَ شريكًا للّه في عبادتِه أو سوَّى بين الخالقِ والمخلوقِ أو مَنْ جعلَ للّه أندادًا، وعلى هذا فاختيارُ لفْظِ المشركين هو المناسبُ لسياقِ الآيةِ، لأنّها تتحدّثُ عن مُشركِي مكّةَ الّذين لهم قرابةٌ برسولِ اللّه ﷺ وببعضِ المؤمنين[1].

معنى الواوِ في قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرۡبَىٰ﴾:

التَّشديدُ في النَّهيِ عنِ الاستغفارِ للمُشركين على أيِّ حالٍ كانُوا

الواوُ في قولِه تعالى: ﴿وَلَوۡ﴾ حاليَّةٌ، والمعنى: ولو في حال كونِهم أُولي قُربى، وقولُه تعالى: ﴿وَلَوۡ كَانُوٓاْ﴾ جملةٌ معطوفةٌ على حالٍ مقدَّرةٍ[2]، فَتَضَمَّنتِ الآيةُ النَّهيَ عنِ الاستغفارِ لهم على أيِّ حالٍ كانُوا[3].

فائدةُ الخبرِ: ﴿وَلَوۡ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرۡبَىٰ﴾:

بَيَّن الخبرُ في هذه الآيةِ أنَّه تجبُ البراءةُ عن أمواتهم، وإن كانُوا

(1) الرّاغب، المفردات: (كفر).
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/107.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/512.

في غايةِ القُربِ منَ الإنسان كالأب والأمّ، والمقصودُ منه بيانُ وجوبِ البراءةِ منهم على أقصَى الغاياتِ[1].

المبالغةُ في البراءَةِ منَ المشركين على أقصَى الغايات

سِرُّ التَّعبيرِ بـ: ﴿وَلَوۡ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرۡبَىٰ﴾ معَ دُخولِهم في لفظِ (المشركين):

جاء التّعبيرُ بقولِه تعالى: ﴿وَلَوۡ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرۡبَىٰ﴾ مع اندراجِهم في لفظ (المشركين) للمبالغةِ في إظهار البراءةِ منَ المشركين والكافرين والمنعِ منَ التّواصلِ معهم ولو كانُوا في غايةِ القُربِ، وفي هذا دليلٌ على أنَّ الآيةَ بيانٌ لاستقصاء أقربِ الأحوالِ إلى المعذرةِ، كما هو مُفادُ (لو)، أي: فأَولى إن لم يكونُوا أُولي قربى، وهذه المبالغةُ لقطعِ المعذرةِ عنِ المخالفِ، وتمهيدًا لتعليمِ مَنِ اغترَّ بما حكاه القرآنُ من استغفار إبراهيمَ عليه السلام لأبيه في نحو قولِه تعالى: ﴿وَٱغۡفِرۡ لِأَبِيٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الشُّعراء: 86]، ولذلك عقبَه بقوله: ﴿وَمَا كَانَ ٱسۡتِغۡفَارُ إِبۡرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوۡعِدَةٖ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ﴾.

لا قيمةَ ولا اعتبارَ للقرابةِ المشركةِ بالله والمُعاديةِ لدينِه

معنى(لو) وفائِدتُها في الكلامِ:

(لو) تأتِي لاستقْصاءِ ما لولاهَا لم يكُنْ ليَدخُلَ فيما قبْلَها ما بعْدَها، ودَّلتْ هنا على المبالغةِ في إظهار البراءةِ عنِ المشركينَ والمنافقينَ والمنْعِ من مُواصلَتِهم ولو كانُوا في غايةِ القُرْبِ[2].

المبالغةُ في إظهارِ البراءةِ عنِ المشركين والمنافقِين

فـ(لو) هذه تفيدُ الغايةَ لمعطوفٍ عليه يُحذَفُ حذفًا مُطَّردًا للعلْم به، والمرادُ أنَّه ليس مِمَّا تُبيحُه النُّبوَّةُ ولا الايمانُ ولا مِمَّا يَصِحُّ وقوعُه من أهلِهما: الاستغفارُ للمُشركين في حالٍ منَ الأحوالِ[3].

فائدةُ دُخول (كان) في: ﴿وَلَوۡ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرۡبَىٰ﴾:

لمَّا كان أولُو القُربى لهم في الأصل حَقُّ البرِّ وصِلةِ الرَّحم، وكانت عاطفةُ القرابةِ تقتضِي الغيرةَ عليهم وحبَّ المغفرةِ لهم، ناسبَ ذِكْرُ

شُمولُ المنْعِ منَ الاستغفارِ لجميعِ المشركين مهمَا كانتِ الصّلةُ بينَهم

(1) الفخر الرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 16/157.
(2) أبو حيَّان، البحر المحيط: 5/512.
(3) محمد رضا، تفسير المنار: 11/56.

هذا الكوْنِ لاستقصاءِ أحوالِ الموصُوفِين حتَّى لو كانوا أُولي قُربى، فإن لم يكونوا كذلك فعدمُ جوازِه أَوْلَى[1].

وفيه إشارةٌ إلى أنَّ هذه القرابةَ مُتأصّلةٌ ومُتحقّقةٌ، لأنَّ لفظَ (كان) يدلُّ على تحقُّقِ الفعْلِ في الزّمن الماضِي ولتَمييزِها عنِ القراباتِ المجتمعيّةِ النّاتجةِ عن أسبابٍ فرعيّةٍ كقرابةِ المُصاهرةِ والتَّحالفِ.

سِرُّ التَّعبيرِ بـ ﴿أُوْلِي﴾:

شدّة المصاحبةِ والاتّصالِ والتَّخصيص

آثرَ التَّعبيرَ بـ ﴿أُوْلِي﴾ دون (ذو) لوجودِ فرْقٍ بينَهما، فلفْظُ ﴿أُوْلِي﴾ يدلّ على شِدَّةِ المُصاحَبةِ ولا تُستعملُ إلا في ما كان مُتعلّقُها مُتّصلًا جُزءًا أو عُضوًا أو صفةً أو حالةً أو عملًا لازمًا أو شأنًا من شُؤون الشَّخصِ أو مثلَها، وتُستعملُ في المعاني المحسوسةِ نحو ﴿أُوْلِي ٱلْأَيْدِي﴾ [ص: 45]، ﴿أُوْلِي قُرْبَىٰ﴾، والمعاني المعقولةِ نحو: (أولي العلم) و(أولي النُّهَى)، أمّا كلمةُ (ذو) فتأتي على وجهيْن: أحدُهما يُتوصّلُ به إلى الوصْفِ بأسماءِ الأجناسِ والأنواعِ، ويُضافُ إلى الظّاهرِ دون المُضمَرِ ويُثنَّى ويُجمعُ ولا يُستعملُ شيءٌ منها إلّا مُضافًا، قال تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [البقرة: 251]، ونحو: ﴿وَذِي ٱلْقُرْبَىٰ﴾ [البقرة: 83]، والثّاني في لفظِ (ذو) لغةٌ لطَيِّئ يستعملونَه استعمالَ (الّذي)، ويُجعل في الرّفعِ والنّصبِ والجرِّ والجمعِ والتّأنيثِ على لفظٍ واحدٍ[2].

وبناءً على هذا المعنى اللّغويِّ لكلٍّ منهما نجدُ أنّ ﴿أُوْلِي﴾ تدلُّ على شدّةِ المصاحبةِ والاتّصالِ، بخلافِ كلمةِ (ذو) فإنّها أعمُّ استعمالاً، يُقالُ: ﴿ذُو ٱلْعَرْشِ﴾ [غافر: 15]، ﴿ذُو ٱلْعَصْفِ﴾ [الرّحمن: 12]، ﴿ذِي زَرْعٍ﴾ [إبراهيم: 37]، لذلك آثرَ القرآنُ استعمالَ لفظِ ﴿أُوْلِي﴾ في

(1) محمد رضا، تفسير المنار: 11/56.

(2) الرّاغب، المفردات: (ذو).

قوله: ﴿أُوْلِي قُرۡبَىٰ﴾، لأنّها تدلُّ على مَنْ هم في المرتبةِ الكاملةِ الثّابتةِ منَ القرابةِ، ولا تعمُّ مطلقَ القرابةِ، بخلافِ (ذو) في قولِه تعالى: ﴿ذَوِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾، فإنّها تدلُّ على عمومِ القرابةِ فهي أعمُّ.

سِرُّ التَّعبيرِ بالضّميرِ عنِ المشركين:

عبّرَ بالضّميرِ لِسَبْقِ ذكْرِ الاسمِ المُظهَرِ في قولِه تعالى: ﴿لِلۡمُشۡرِكِينَ﴾، وفيه إشارةٌ للدّلالةِ على أنّهم ليسُوا أهلاً للذّكْرِ بسببِ شِركِهم، إذْ قيمةُ الإنسانِ في إيمانِه باللّه وعُبوديّتِه لخالقِه.

لا قيمةَ للإنسان أن يُذْكَرَ ولا يُنْكَرَ إلّا بالإيمان

دلالةُ التَّعبيرِ بـ: ﴿مِنۢ بَعۡدِ﴾:

دلَّ التَّعبيرُ بقولِه تعالى: ﴿مِنۢ بَعۡدِ﴾ على أنَّ النَّهيَ عنِ الاستغفارِ للمُشركين إنَّما هو من بعدِ التّحقّقِ أنَّهم ماتُوا على الشِّركِ، وأنَّهم أصبحُوا في أصحابِ النَّارِ، وهؤلاءِ هم الّذين بلغتْهُمُ الدَّعوةُ[1]، أي أنَّ العلَّةَ المانعةَ من هذا الاستغفارِ هو تَبَيُّنُ كونِهم من أصحابِ النَّارِ، وهذه العِلَّةُ لا تُفرِّقُ بين الأقاربِ والأباعدِ[2].

بيانُ العِلَّةِ المانعةِ من هذا الاستغفارِ

دلالةُ تقييدِ النَّهيِ بالتَّبيُّنِ: ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمۡ﴾:

تقييدُ النَّهيِ بالتَّبيُّنِ يدلُّ على جوازِ الدُّعاءِ للحيِّ، فإنَّ القَصْدَ بالاستغفارِ الإقبالُ به إلى الإيمانِ المُوجِبِ للغُفران[3]، لأنَّ ذلك صريحٌ في أنَّه بعدَ الموت[4]، وفيه دليلٌ على جوازِ الاستغفارِ لأحيائِهم، فإنَّه طَلَبُ توفيقِهم[5].

الإشارةُ إلى جوازِ الدُّعاءِ للحَيِّ ما لم يمُتْ على الشِّركِ

سِرُّ التَّعبيرِ بـ ﴿مَا﴾:

آثرَ التّعبيرَ بـ ﴿مَا﴾ المصدريَّة، للدّلالةِ على أنَّ أمْرَ البيانِ على موتِهم على الشّركِ ظاهرٌ وواضحٌ، والتّقديرُ: من بعدِ بيانِ وظهورِ أنّهم ماتُوا على شِركِهم.

مَنْ ماتَ ولمْ يُؤمنْ فقدْ تحقَّقَ موتُه علَى الشّركِ

(1) الخطيب، التّفسير القرآنيّ: 6/904.
(2) القنوجي، نيل المرام من تفسير آيات الأحكام، ص: 347، والزُّحيلي، التّفسير المنير: 11/60.
(3) البقاعيُّ، نظم الدُّرَر: 9/30.
(4) السُّيوطي، الإكليل في استنباط التَّنزيل، ص: 145.
(5) البيضاويُّ، أنوار التَّنزيل: 3/99.

سِرُّ التَّعبيرِ بالتبيّن: ﴿تَبَيَّنَ لَهُمْ﴾:

التبيّنُ يحتاجُ إلى تأمُّلٍ ونَظَرٍ، لأن المقام خطير

آثر التّعبيرَ بالتّبيّن، لأنّ معناه العلمُ، يُقال تبيّنتُ الشّيءَ: علمْتُه، والتّبيّنُ يكونُ لما فيه إشكالٌ فيكونُ فيه تأمّلٌ ونظرٌ، وهذا هو المناسِبُ لسياقِ الآية، لأنّ أمرَ الاستغفارِ للمُشركين حدثَ فيه ما يُوجبُ التّبْيِينَ عن طريق الوحي، وذلك بإعلامِ اللّه رسولَه ﷺ بالنّهي عنِ الاستغفار، بخلافِ التّثبّتِ فإنّه يأتي في أمرِ الأحداثِ، فالعربُ تقولُ: تثبّتْ في أمرِكَ[1].

سِرُّ التّعبيرِ بالماضِي ﴿تَبَيَّنَ﴾:

تحقّقُ مصيرِ المشركين إلى النّارِ فلا عُذْرَ لمَنْ يَستغفِرُ لهم

عبّرَ بالماضِي للدّلالةِ على تحقُّقِ وجوهِ البيانِ، وذلك من خلالِ هذه الآيةِ الّتي بيّنتْ منعَ الاستغفارِ، ومِن وصْفِه لهم بأنّهم أصحابُ الجحيم، وأيضًا من قولِه ﷺ قبل ذلك في سورة النّساء: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾ [النّساء: 48].

سِرُّ التَّعبيرِ بضميرِ الجمْعِ (هم): ﴿لَهُمْ﴾:

خطابُ النّهي عنِ الاستغفارِ للمُشركين عامٌّ يشملُ النّبيَّ ﷺ وأمّتَه

عبَّر بضميرِ الجمْعِ في قولِه تعالى: ﴿لَهُمْ﴾، للدّلالةِ على أنَّ المرادَ الرّسولُ ﷺ وأصحابُه الكرامُ في هذا النّهي بعدمِ الاستغفارِ للمشركين، لأنّه كما تروي كتبُ السّنّةِ أنّ الرّسولَ ﷺ قال لعمّه أبي طالب عندما حضره الموتُ وطلبَ منه إعلانَ الشّهادةِ ولم يقُلْها: (لأستغفرنّ لك ما لم أُنْهَ عنك)، وأيضًا أنَّ بعضَ المؤمنين كان يستغفرُ لأبوَيْه المشركَيْن وتعلَّل باستغفارِ إبراهيمَ لأبيه، فنزلتِ الآيةُ بالمنْعِ بعد ذلك[2].

سِرُّ حذْفِ متعلّقِ البيانِ: ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمۡ﴾:

تظافرُ الأدّلةِ على مصير المشركين إلى الجحيمِ

حُذفَ مُتعلّقُ البيان لتعدُّدِ صُوَرِه، إمّا أن يكونَ عن طريق الوحيِ بأن نَزَلَ قرآنٌ يُسَجِّلُ عليهم ذلك كإخبارِه تعالى عن أُناسٍ

(1) الشيرازي، الموضح في وجوه القراءات وعللها

(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 16/157.

منَ الجاحِدين المعانِدين من أصحابِ النَّارِ خالدِين فيها، أو أنَّهم طُبِعَ على قلوبِهم أو خُتِمَ عليها[1]، أو من خلالِ بيانِ حالِهم الّتي ماتُوا عليها باستصْحابِ حالةِ الكُفرِ إلى الموتِ، فالنَّهيُ حاصلٌ بسببِ موتِهم على الكُفرِ، وإصرارِهم عليه، وعدمِ اعترافِهم بدينِ الإسلامِ[2]، وظهورِ ذلك لدَى المؤمنين.

دلالةُ التَّأكيدِ: ﴿أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾:

دلَّ التّأكيدُ على أنّ المشركين استحقُّوا هذا العذابَ لِما فعلُوا من إذايةٍ للمسلمين ومن عنادٍ للحقِّ ومقاومةٍ له حتى ماتُوا على ذلك وهمْ للحقِّ كارهُونَ.

استحقَّ المشركون نارَ جهنّمَ جزاءً بما قدّمتْ أيْدِيهم

سِرُّ التَّعبير بـ ﴿أَصْحَٰبُ﴾:

عبّرَ بالأصحابِ في قولِه تعالى: ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾ للدّلالةِ على أنّهم مُلازمُوهَا ومُلابسُوها بحيث لا يُفارقونَها حسبَ ملازمَتِهم في الدُّنيَا لما يَسْتَوْجِبُها منَ الأسباب[3]، فعبَّرَ النَّظمُ الكريمُ عن هذه المُلازمةِ بالصُّحبةِ بطريقِ الاستعارةِ التَّصريحيَّةِ التَّبعيَّةِ، ومعنى الصُّحبةِ في الأصلِ: الاقترانُ بالشَّيءِ، والغالبُ في العُرْفِ أن تُطلقَ على الملازَمةِ، ففي الصُّحبةِ معنى الوصْلَةِ فسُمُّوا أصحابَها لاتِّصالِهم بها وبقائِهم فيها، فكأنّهم ملكُوها فصارُوا أصحابَها[4]، لأنّ هذا التَّعبيرَ يُشعرُ بأنّهم مقصُورون عليها ومقصُورةٌ عليهم، وتدلُّ بمفهومِ المخالَفةِ على أنّهم لا أهليَّةَ لهم للجنَّةِ[5].

بيان شِدَّة الملازمة لها وعدم مُفارقتهم إيَّاها

سِرُّ اختيارِ الجحِيمِ دونَ غيرِها من أوصَافِ النّارِ:

آثرَ التّعبيرَ بوصْفِ الجحيمِ دونَ غيرِه من أوصَافِ النّارِ، لأنّ

وصفُ النّارِ بالجحيمِ يتناسبُ مع كِبْرِ المشركين وجَبرُوتِهم

(1) محمد رضا، تفسير المنار: 11/56.
(2) طنطاويّ، الوسيط: 6/414.
(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 1/94.
(4) إسماعيل حقِّي، روح البيان: 1/116.
(5) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 9/30.

الجحيمَ نارٌ على نارٍ وجمرٌ على جمرٍ، ويُطلقُ وصْفًا لكلّ نارٍ شديدةِ التّأَجُّجِ بعضِها فوق بعض، وكان هذا الوصفُ هو المناسبُ لهؤلاء المشركينَ المعانِدين الّذين ماتُوا على شِركِهم، وكانُوا قبْلَ ذلك في الدّنيَا يُحاربون اللّه ورسولَه، ويُؤذُون رسولَ اللّه وأصحابَه، فناسبَ وصفُ الجحيمِ لِما كانُوا عليه منَ الكِبْر والطّغيانِ والجبَرُوتِ.

﴿وَمَا كَانَ ٱسۡتِغۡفَارُ إِبۡرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوۡعِدَةٖ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوّٞ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنۡهُۚ إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٞ ١١٤﴾ [التَّوبة: 114]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا بيّنَ ﷻ في الآية السّابقة وجوبَ الانْقطاعِ عنِ المشركين الأحياءِ والأمواتِ، بيّنَ في هذه الآية أنّ هذا الحُكمَ غيرُ مختصٍّ بدينِ محمّد ﷺ، بل وجوبُ الانقطاع مشروعٌ أيضًا في دينِ إبراهيمَ عليه السلام، فتكونُ المبالغةُ في تقريرِ وجوبِ المقاطعةِ أكملَ وأقوَى[1].

الـبراءةُ مـنَ المشركين شرعُ الله لكلِّ الأنبياءِ والمرسَلين

وقد جاءت هذه الآيةُ عَقِبَ الآيةِ السّابقةِ لشدّةِ التّعلّقِ بينَهما من ناحيةِ استغفارِ النّبيّ ﷺ لعمّه أبي طالبٍ، ولعلّه وجدَ أُسوةً في ذلك في فعلِ إبراهيمَ عليه السلام لأبيه، فأخبرَه اللّه تعالى أنَّ استغفارَ إبراهيمَ لأبيه كان وعْدًا قبْلَ أن يتبَيّن الكُفرُ منه، فلمّا تبيّنَ له منه الكُفرُ تبرّأ منه[2].

مجيئُها كان لدفعِ توهُّمٍ قائمٍ في النّفوسِ

وكذلك جاءتِ الآيةُ لدفعِ توهُّمٍ يردُ في خاطرِ أصحابِه رضي الله عنهم أنَّه تعالى منَعَ مُحمَّدًا ﷺ مِن بَعضِ ما أذِنَ لإبراهيمَ فيه[3]، فقد بيَّنَ تعالى أنَّ هذا الحُكمَ - وهو إيجابُ الانقطاعِ عن الكُفَّارِ أحيائِهم وأمواتِهم - غَيرُ مُختَصٍّ بدِينِ مُحمَّدٍ ﷺ، بل المبالغةُ في تقريرِ وُجوبِ الانقطاعِ كانت مشروعةً أيضًا في دِينِ إبراهيمَ عليه السلام، فتكونُ المبالغةُ في تقريرِ وُجوبِ المُقاطعةِ والمُباينةِ مِنَ الكفَّارِ أقوَى[4].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿لِأَبِيهِ﴾: الأَبُ: الوَالِدُ، والأُبُو: الغُذُو، والأَبَوَانِ: الأَبُ والأُمُّ، ويُطلق الأب أيضًا على الجدِّ والعمّ وعَلى صَاحب الشَّيْء وعَلى مَنْ

(1) ابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 10/222.
(2) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 4/3114.
(3) الفخر الرَّازي، مفاتيح الغيب: 16/158.
(4) الفخر الرَّازي، مفاتيح الغيب: 16/158.

كَانَ سَببًا في إيجَاد شَيْء أَو ظُهُوره أَو إِصْلَاحه[1]، وَفي التَّنْزِيل العَزِيز: ﴿وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ﴾ [يوسف: 38][2]، وأصلُه: أبَوٌ، حُذفت لامُه والمصدرُ: الأُبُوّة، وهو أحدُ المصادرِ الّتي أُخذتْ منَ الأسماء، ومثلُها: النُّبوَّةُ، والفُتوَّةُ، والأُخوَّة[3].

2) ﴿مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ﴾: العِدَة والوَعْدُ[4]، يُقال: وعدتُّ زيدًا إذا كان الوعدُ منك خاصَّة، وواعدتُّ زيدًا إذا وعدَك ووعدتَّه، وأصلُ (وعدَ) يَدُلُّ على ترجيةٍ بقولٍ، يُقال: وعدتُّه أعدُه وعْدًا[5]، والمَوْعِدُ مصدرُ وعدْتُّه، ويكونُ الموعدُ وقتًا لِلعِدَة، والميعادُ: لا يكونُ إلّا وقتًا أو موضعًا، وَالوعْدُ: ما يُقطعُ من عهْدٍ في الخير والشَّرّ، وهو التزامٌ باحترام عهْدٍ والتَّقيُّدِ به بأمانةٍ[6]، والوعدُ هُنا هو استغفارُ إبراهيمَ لأبيهِ ما دامَ حيًّا، فلمَّا مات مُشركًا تَبَرَّأَ منه[7].

3) ﴿لَأَوَّٰهٌ﴾: أي: كثيرُ التَّوجُّعِ شَفَقًا وفَرَقًا[8]، وهو الّذي يُكثرُ من قولِه: آه آه[9]، فهو كلُّ كلام يظهرُ منه تحزّنٌ كثيرٌ وتضرُّعٌ ودعاءٌ للّه، وكلُّ كلام يدُلُّ على حُزنٍ يُقالُ له: تَأَوُّهٌ[10]، فالمعنى هنا: كثيرُ التَّأوُّهِ من خوفِ اللّه[11]، ويُعبّرُ بالأواه عمّن يُظهرُ خَشيتَه للّه تعالى.

4) ﴿حَلِيمٌ﴾: أي: بَطيءُ الغَضَبِ، يَصبرُ على الأذَى، والحِلمُ: ضبطُ النَّفْسِ والطَّبعِ عن هيجانِ الغضبِ، وجَمْعُهُ: أحلام، وهو خلافُ الطَّيْش، يُقال: حَلُمْتُ عنه أحلُمُ، فأنا حليمٌ، وأصلُ (حلُمَ): يدلُّ على تَرْكِ العَجَلةِ، وهو أيضًا الأناةُ والسُّكونُ معَ القُدرةِ والقُوَّة[12].

المَعْنى الإجْماليُّ:

بيّن اللّه تعالى في هذه الآية أنَّ طَلَبَ إبراهيمَ المغفرةَ لأبيه بقولِه: ﴿وَٱغْفِرْ لِأَبِىٓ إِنَّهُۥ

(1) السَّمين الحلبيّ، عُمدة الحُفَّاظ: (أبو).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (أبي).
(3) السَّمين الحلبيّ، عمدة الحفاظ: (أبو).
(4) الحميريُّ، شمس العلوم: 11/7217، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصَّل: (وعد).
(5) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (وعد).
(6) ابن منظور، لسان العرب، ومُرتضى الزَّبيدي، تاج العروس: (وعد)، وابن القوطيَّة، كتاب الأفعال، ص: 156.
(7) القرطبيُّ، الجامع لأحكام القرآن: 8/274.
(8) سلمة الصُحاريُّ، الإبانة في اللُّغة العربيَّة: 2/134.
(9) السَّمين، عمدة الحُفَّاظ: (أوه).
(10) الرّاغب، المفردات: (أوه)، وابن جرير، جامع البيان: 12/34، والسِّجستاني، غريب القرآن، ص: 62.
(11) النَّيسابوريُّ، إيجاز البيان: 1/418.
(12) الرّاغب، المفردات، وابن فارس، مقاييس اللُّغة: (حلم)، وابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 18، والقرطبيُّ، الجامع لأحكام القرآن: 8/276، والكفويُّ، الكليّات، ص: 404.

كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ بمعنى: وفِّقه للإسلام؛ ما كان إلا بَسَبِبِ وَعْدِهِ إيَّاه كما في قوله: ﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾ [مريم: 47]، فلمَّا اتَّضحَ لإبراهيمَ أنَّ أباه عدوٌّ للّه بإصرارِه على الشِّرك حتّى ماتَ عليه، تَرَكَهُ وتركَ الاستغفارَ له، مع أنَّ إبراهيمَ عليه السلام كثيرُ التَّضرّعِ إلى اللّه، كثيرُ الصَّفحِ والتَّجاوُزِ عمَّا يصدرُ مِن قومِه منَ الزَّلات[1]، ومع ذلك منعَه اللّه منَ الاستغفار لأبيه الكافرِ، فمنعُ غيرِه أولَى.

براءةُ إبراهيمَ عليه السلام مِنَ الاستغفار لأبيهِ بعد ثُبُوتِ مَوتِه علَى الشِّرك

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبلاغِيُّ:

دلالةُ الواو في: ﴿وَمَا كَانَ﴾:

الواوُ في قوله: ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ﴾ استئنافيّةٌ مَسوقةٌ لتقريرِ ما سبقَ ودفْعِ ما يتراءَى بحسبِ الظّاهرِ منَ المخالفةِ، وذلك لأنَّ قولَه تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ﴾ جملةٌ مُستأنفةٌ استئنافًا نحويًّا لبيان أنّ استغفارَ إبراهيمَ لأبيه كان له ظرْفُه الخاصُّ، وإلّا فإنّه لا يجوزُ الاستغفارُ للمُشركين عُمومًا.

بيانُ عُذْرِ إبراهيمَ عليه السلام في الاستغفارِ لأبيه

سِرُّ التّعبيرِ بالمصدرِ ﴿ٱسْتِغْفَارُ﴾:

آثرَ التَّعبيرَ بالاستغفار بصيغةِ المصدرِ، للدّلالةِ من ناحيةٍ على دوامِ استغفارِ إبراهيمَ لأبيهِ، وأنّه كان حريصًا على هدايته، بخلافِ التَّعبيرِ بالفعل (أستغفرُ) كما ورد في مواطنَ أخرى، فإنّه يدلُّ على تجدُّدِ دعوةِ إبراهيمَ لأبيه للتّوحيدِ، وكلّما رفضَ جدّدَ إبراهيمُ عليه السلام الاستغفارَ لأبيهِ، أمّا هنا فهو ليس حديثًا عن تجدُّدِ الفعْلِ، بل هو وصفٌ للحالةِ الّتى كان عليها إبراهيمُ في علاقتِه بأبيهِ، ومن ناحيةٍ أخرَى فإنّ الإتيانَ بالمصدرِ في معرِضِ النّهي يدلُّ على شدّةِ تحريمِ الاستغفارِ للمشركين، وأنّه لا يجوزُ أن يكونَ جنسُ هذا الاستغفار واردًا بحقّهم.

بيانُ حرْصِ إبراهيمَ على الاستغفارِ لأبيه ورجائِه أن يموتَ على الإيمانِ

(1) لجنة من عُلماءِ الأزهر، المنتخَبُ في تفسير القرآنِ الكريم، ص: 280، ونُخْبة من أساتذة التَّفسير، التَّفسير المُيَسَّر، ص: 205، وجماعَةٌ من علماء التَّفسير، المُخْتَصَر في تفسير القرآن الكريم، ص: 205.

دلالةُ التَّعبيرِ بـ: ﴿لِأَبِيهِ﴾:

تَعدّدُ المعاني في لفظِ (الأبوّة) دونَ الوالد

تعدّدتْ أقوالُ العلماءِ في المرادِ منَ الأب، هل هو والدُ إبراهيمَ المباشرُ أمْ عمُّه، على قولَيْن مشهورَيْن لأهل العلم، ولكلٍّ دليلُه، فالأبُ يُطلقُ على الوالدِ المباشرِ ويُطلقُ على الجَدِّ أو العمِّ، وممّا يؤكدُ ذلك أنّه أُطْلِقَ في القُرآن على الجدِّ وإن علا كقولِ يوسفَ عليه السلام: ﴿وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾ [يوسف: 38]، فيعقوبُ هو الوالدُ، وإسحاقُ هو الجدُّ، وإبراهيمُ هو والدُ الجدِّ، بل قد يُطلقُ على الجدِّ البعيدِ، كقوله تعالى: ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الحج: 78] ويُطلقُ أيضًا على العمِّ كقول أبناءِ يعقوبَ ليعقوبَ عليه السلام: ﴿قَالُواْ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ﴾ [البقرة: 133]، ومعلومٌ أنّ إسماعيلَ عليه السلام هو عمُّ الأبِ المباشرُ ليعقوبَ عليه السلام، وهذا الاستعمالُ القرآنيُّ الشَّاملُ لمعاني التَّفسيرِ مُرتبطٌ باتّساعِ الأصلِ اللُّغويِّ لكلمة (أب) وشمولِها لكلِّ هذه المعاني، والظّاهرُ في استعمالِ كلمةِ (الأب) هنا أنّه يُرادُ به الأبُ المباشرُ إلّا إن قامت قرينةٌ على خلاف ذلك، ولا قرينةَ صارفةٌ هنا عن إرادةِ الأبِ الحقيقيِّ، بل إنّ هذا الدّوامَ على الاستغفارِ يدلُّ على شدّة قُربِه منه، لا سيّما أيضًا ورودُ هذا الحديثِ عنِ استغفار إبراهيمَ لأبيه في معرِض النّهي عنِ الاستغفارِ للمشركين مهما كانتِ الصّلةُ بهم.

دلالةُ الإضَافةِ: ﴿لِأَبِيهِ﴾:

احترامُ القرآن للأبوّة ولو كان الأب كافرًا

دلّتِ الإضافةُ في قولِه تعالى: ﴿لِأَبِيهِ﴾ مع أنّه كافرٌ على أنَّ الإسلامَ يحترمُ الأبوّةَ معَ اختلافِ الدِّين، فإبراهيمُ أبُو الأنبياءِ كان حنيفًا مُسلمًا، وأبوه كافرٌ، وهذا يُدلّلُ على أنّ حقوقَ الأبوّةِ لا تسقطُ بالكُفرِ، يؤكّدُ ذلك ما ذكرَه القرآنُ الكريمُ في سُورةِ لقمانَ عنِ الإحسانِ إلى الوالدَيْن بقوله: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ﴾ [لقمان: 15]،

فأُمر الابنُ بصُحبةِ والدَيْه المشركَيْن بالمعروفِ، بل في هذا السّياقِ ظلَّ إبراهيمُ عليه السلام يَستغفرُ لأبيه أملاً في هدايتِه، إلى أن تبيّنَ عداوتَه للّه ربِّ العالمين.

بلاغةُ القصْرِ في الاستثناء بعد النّفْي وغرَضُه ونوْعُه:

لم يكُنِ استغفارُ إبراهيمَ لأبيه إلّا بسببِ ما سلفَ منَ الموعدة

﴿إِلَّا﴾ أداةُ حصْرٍ، و﴿عَن مَّوْعِدَةٍ﴾ خبرُ كان، والاستثناءُ هُنا مُفرَّغ من أعمِّ العِلَلِ، فهو من قصْرِ الموصوفِ على الصِّفةِ، وهو قصرٌ إضافيٌّ، لأنّ لهذا الاستغفارِ مقاصدَ أخرى، ويمكنُ أن يكونَ قصْرَ قَلْبٍ بحسبِ ظنِّ المخاطَبين، أي: لم يكُنِ استغفارُ إبراهيمَ لأبيه ناشئًا عن شيءٍ منَ الأشياءِ إلّا عن موعدةٍ وعدَها إيّاه، أي: لأجْلِها[1]، ولذلك استغفرَ له عمَّا سَلَفَ منه إذا هو آمنَ[2]، فلا حُجَّةَ أيّها المؤمنون في استغفارِ إبراهيمَ عليه السلام، فإنّ ذلك لم يكنْ إلّا عن موعدةٍ[3].

سِرُّ التَّعبير بالموعدةِ:

الموعدةُ تدلُّ على الحدثِ المتَلَبِّسِ بالذّاتِ في الغالِبِ

في قوله تعالى: ﴿إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ﴾: آثرَ التَّعبيرَ بالمَوْعِدةِ دونَ الوعْدِ لوجودِ فرقٍ بينَهما، فالوعدُ مصدرٌ دالٌّ على الحدثِ، بخلافِ المَوعِدة فإنّها تدلُّ على الحدَثِ المُتَلَبِّسِ بالذّاتِ في الغالبِ، وهذا ما يتناسبُ مع سياقِ الآيةِ في فِعْلةِ إبراهيمَ عليه السلام مع أبيه، حيث تلبَّسَ بهذه الموعدَةِ إلى أن تبيَّنَ له أنّه عدوٌّ للّه فتبرّأَ منه.

دلالةُ التَّعبيرِ بالإضمَارِ: ﴿وَعَدَهَآ إِيَّاهُ﴾:

الجملةُ تحتملُ صُدورَ الموعِدَةِ منَ الطَّرفَيْن

آثرَ التَّعبيرَ بقولِه تعالى: ﴿وَعَدَهَآ إِيَّاهُ﴾، للدّلالةِ على احتمالِ تعدُّدِ محَلِّ صُدورِ هذا الوعد، وبناءً على هذا فقد ذهبَ العلماءُ في محلّ صُدورِ الموعدةِ مذهبَيْن: الأوّلُ: أن يكونَ الواعدُ أبَا إبراهيم عليه السلام، والمعنى: أنّ أباه وعدَه أن يُؤمنَ، فكان إبراهيمُ عليه السلام يَستغفرُ له

(1) درويش، إعراب القرآن: 4/183.
(2) ملا حويش، تفسير القرآن العظيم: 6/491.
(3) الثّعالبي، الجواهر الحسان: 3/222.

لأجلِ أن يحصلَ هذا المعنى، فلمّا تبيّن له أنّه لا يؤمنُ وأنّه عدوٌّ للّه تبّرأ منه، وتركَ ذلك الاستغفارَ. الثّاني: أن يكون الواعدُ إبراهيمَ عليه السلام، وذلك أنّه وعدَ أباه أن يستغفرَ له رجاءَ إسلامه، فلمّا تبيّن له أنّه عدوٌّ للّه تبرّأ منه، والدّليلُ على صحّةِ هذا التأويلِ قراءةُ الحسنِ: (وعدها أباه) بالباء[1].

دلالةُ التَّعبيرِ بالفاءِ: ﴿فَلَمَّا﴾:

مُبادرةُ إبراهيمَ عليه السلام بالبَراءةِ من أبيه بمجرَّدِ التّبيُّنِ

آثرّ التَّعبيرَ بالفاء، لأنّها عطفتْ هذه الجملةَ على مقدَّرٍ يَستدعيه الكلامُ وحُذفَ لظُهورِه، والمعنى: لم يزلْ إبراهيمُ يستغفرُ لأبيه حتَّى مات، فلمَّا مات وتبيَّن له أنَّه عدوٌّ للّه بادرَ بإعلان البراءةِ منه.

ويضافُ إلى ذلك الدّلالةُ على سُرعةِ الامتثالِ من إبراهيمَ عليه السلام في إظهارِ البراءةِ ممّن ماتَ على الشّركِ، ولو كان أبًا له كما تَقدّمَ في الآيةِ.

سِرُّ حذْفِ مُتعلّقِ التّبيّن: ﴿تَبَيَّنَ لَهُۥٓ﴾:

تعدّدُ طُرقِ التّبيُّنِ المُوجِبِ للبَراءَةِ

حُذف مُتعلّقُ التّبيّن للدّلالةِ على تعدُّد طرق التّبيّن، فقد قيل: تبيّنَ له ذلك بوحْيٍ منَ اللّه؛ فتبرَّأ منه ومن قرابتِه، وتركَ الاستغفارَ له، أو بإصرار أبيه على الشّركِ والموتِ عليه، أو بالإصرار وحدَه أو بمُقتضَى الإيمان كما قال تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ﴾ [المجادلة: 22][2]، وفيه تأكيدٌ لوجوبِ الاجتنابِ بعدَ التَّبيّن[3].

سِرُّ التَّعبيرِ بالتّبيّن: ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ﴾:

ليسَ بينَ المؤمنِ واتّباعِ الحَقِّ إلا مَعرفتُه والتَّحقّقُ منه

آثرَ التَّعبيرَ بالتّبيّنِ دونَ غيرِه، لأنّه يدلُّ بصيغتِه على تأكُّدِه من موقفِ أبيه وحسْمِ الأمرِ معَه بعدَ أن يقفَ علَى الدّليلِ، فلمّا تأكّدَ كفرُه وثبَتَ الأمرُ عندَه تبرّأ منه.

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 16/159.
(2) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 16/159، والمراغيّ، تفسير المراغيّ: 11/37.
(3) القاسميّ، محاسن التّأويل: 5/515.

دلالةُ التَّعبيرِ بالجملةِ الاسميّةِ:

دلَّ التَّعبيرُ بالجملةِ الاسميّةِ في قوله: ﴿أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ﴾ على رسوخ أبي إبراهيم في أمر العداوة لله تعالى، لأنّه عدُوٌّ لله أصْلاً، والمرادُ أنه مُستمرٌّ على عداوتِه لله تعالى وعدمِ الإيمان به حتى هلَكَ.

شدّةُ رسوخِ المشركين في العداوة وإصرارِهم عليها

دلالةُ التّأكيدِ: ﴿أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ﴾:

دلَّ التّأكيدُ الواردُ في صدْرِ الجملةِ ﴿أَنَّهُۥ﴾ على أنّ أبا إبراهيم كان مُصرًّا على الكُفرِ[1]، مطبوعًا على قلبه، مختومًا بختام الجهلِ والغفلةِ[2]، فضلًا عن أنّ التّأكيدَ بـ(أنّ) والجملةِ الاسميّةِ أفادَا أنّ إبراهيمَ عليه السلام وصلَ إلى هذه القناعةِ بعد قيامِ الأدلّةِ وثبوتِ البراهينِ لديه بعداوة أبيه لله تعالى.

إصرارُ أهلِ الشّركِ على عداوتِهم لله تعالى رُغمَ ظُهورِ الأدلّةِ والبيّناتِ

سِرُّ التّعبيرِ عنِ الشّركِ بالعداوةِ: ﴿أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ﴾:

آثرَ التَّعبيرَ بوصْفِ العداوةِ دونَ الشّرك، لأنّ أبَا إبراهيم عليه السلام كان يصنعُ الأصنامَ وكانَ مُتزعّمًا في قومِه لرفض دعوةِ إبراهيمَ، فلم يقفْ أمرُه عندَ الشّركِ أو الكُفرِ، بل تزعّمَ العداوةَ والمواجهةَ مع قومِه ضدَّ إبراهيمَ عليه السلام، وللتّأكيدِ على أنّ مَنْ يُشركْ باللّه فكأنّما أعلنَ حربًا على اللّه وأصبحَ عدُوًّا له.

أشدُّ المشركين كفرًا مَنْ يُناصبُ اللهَ العداوةَ ويتزعّمُ الدّعوةَ إلى الشّركِ

غرض إسناد العداوة للفظ الجلالة:

أسند العداوةَ إلى لفظِ الجلالةِ في: ﴿عَدُوٌّ لِّلَّهِ﴾ لتَبْشيعِها وتفْظيعِها، وفي هذا بيانُ سببِ إعلانِ إبراهيمَ عليه السلام البراءةَ من أبيه، وفيه تحذيرٌ لكلّ مُشركٍ أو كافرٍ يبقَى على شِركِه أو كُفرِه بعد توجيهِ الدّعوةِ إليه على لسانِ النّبيّ ﷺ بأنّه عدوٌّ للّه.

أقبحُ العَداواتِ وأشنعُها أن تُعاديَ خالقَكَ ومَنْ أمرُكَ بيدِه في الدّنيا والآخرةِ

سِرُّ التَّعبيرِ بقولِه: ﴿تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾:

آثرَ التّعبيرَ بالفعلِ ﴿تَبَرَّأَ﴾، لأنَّ التَّبرُّؤَ تَفَعُّلٌ من بَرِئَ من كذا:

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 6/33.

(2) نعمة الله علوان، الفواتح الإلهيَّة: 1/320.

بيانُ المبالَغةِ في البَراءةِ

إذا تَنزَّه عنه، فالتَّبرُّؤُ مُبالغةٌ في البَراءةِ[1]، أي: فلمَّا تَبَيَّن لإبراهيمَ أنَّ أباه مُصِرٌّ على الكُفرِ ومُسْتَمِرٌّ عليه، تبرَّأ منه بالكليَّةِ فضلًا عنِ الاستغفار له.

وفيه دلالةٌ على أنَّ هذه الصِّيغةَ تُفيدُ أنّه أكْرَه نفسَه عليه السلام على البَراءةِ من أبيه، ثمّ علّلَ اللّه تعالى ما دلَّت عليه هذه الصّيغةُ منَ المعالجةِ بقولِه: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ﴾.

سِرُّ التّعبيرِ بالبَراءةِ عن قطْعِ الاستغفارِ:

وُجوبُ البَراءةِ الكاملةِ منَ المشركين

آثرَ القرآنُ التَّعبيرَ بالبَراءةِ عن قطْعِ الاستغفارِ، لأنّها أعمُّ، فالبَراءةُ منَ الشّيءِ تَستلزمُ البَراءةَ من جميع أحوالِه، وبذلك يندرجُ قطعُ الاستغفارِ تحت البَراءةِ.

بلاغةُ الفصْلِ:

كمالُ أخلاقِ إبراهيمَ عليه السلام وثَناءُ الله عليه

فَصلَ قولَه تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ﴾، لأنّه اسْتِئْنَافٌ بيانيٌّ مسوقٌ لبيان الدَّاعِي الّذي دعا إبراهيمَ إلى الاستغفار لأبيه قبل التَّبيُّن، فكأنَّ سائلًا سأل: ما هو الدّاعِي إلى استغفارِ إبراهيمَ لأبيه والموعدةِ الّتي وعدَها إيَّاه؟، فجاءَ الجوابُ: إنَّ إبراهيمَ لَكثيرُ التَّأوّهِ والتَّوجّعِ من خَشية اللّه، وكثيرُ الحِلْم والصَّفحِ عمّن آذاه[2]، وفيه إشارةٌ إلى مدحِ اللّه سبحانه لإبراهيمَ عليه السلام والثّناءِ عليه.

سِرُّ اختيارِ التّعبيرِ بالأَوّاه:

خوفُ إبراهيمَ عليه السلام من ربِّه وشفقَتُه على خلْقِه

آثرَ التَّعبيرَ بلفظِ ﴿لَأَوَّٰهٌ﴾ دون غيرِه، لأنّ لفظ (أوّاه) يُطلقُ على معانٍ متعدّدةٍ كلُّها تخدمُ سياقَ الآيةِ في موقفِ إبراهيمَ عليه السلام منَ الاستغفارِ لأبيه، فيأتي بمعنَى الخائفِ الّذي يُكثِرُ التَّأوُّهَ من خوفِ اللّه عز وجل، والتَّأوُّهُ: التَّوجُّع الّذي يَكْثُرُ حتَّى ينطقَ الإنسانُ معه بـ(أوَّه)[3]،

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/46.
(2) طنطاوي، الوسيط: 6/415.
(3) الثَّعالبي، الجواهر الحِسان: 3/222.

ولفظُ ﴿لَأَوَّٰهٌ﴾ مثالُ مبالغةٍ: وفُسِّرَ بمعانٍ ترجعُ إلى الشَّفقةِ إمَّا على النَّفس فتفيدُ الضَّراعةَ إلى اللّه والاستغفارِ، وإمَّا على النَّاس فتفيدُ الرَّحمةَ بهم والدُّعاءَ لهم، وهو اسمُ فعلٍ مضارعٍ بمعنى: أتوجَّع، لإنشاءِ التَّوجُّع[1]، ويُطلقُ بمعنى الدَّعاءِ، والمُوقنِ، والفقيهِ، والمُسبّحِ الّذي يُسبّحُ اللّه في الأرض المُوحشةِ، وكلُّ هذه المعاني مُتحقّقةٌ في إبراهيمَ عليه السلام، وهناك سببٌ نفسيٌّ في اختيارِ هذا اللّفظِ، وذلك أنَّ الإنسانَ عندما يصابُ بالحُزنِ يختنقُ الرّوحُ القَلبيُّ في داخل القلبِ ويشتدُّ حرقُه، فالإنسانُ يُخرج ذلك النَّفَسَ المحترقَ منَ القلبِ ليُخفِّفَ بعضَ ما به في نُطقه بهذا اللّفظِ (أَوّه)[2].

فائدةُ صيغَتَي المبالغةِ: ﴿لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ﴾:

دلَّ التّعبيرُ بصِيغِ المبالغةِ على شدّةِ رِقّةِ القلْبِ عند إبراهيمَ عليه السلام وتضرُّعِه في دعائِه لربّه، ودلَّ ذلك أيضًا على شدّةِ التَّحمّلِ والإغضاءِ عنِ المؤذِي له، هكذا خُلُقُهُ في حدِّ ذاته فكيف في حقِّ أبيه؟ ولو قال له: ﴿لَأَرۡجُمَنَّكَۖ وَٱهۡجُرۡنِي﴾ [مريم: 46] وأضعافَ ذلك[3].

بيانُ شِدَّةِ رحمةِ إبراهيمَ عليه السلام ورأفتِه في نفسِه ومعَ غيرِه

سِرُّ تقديمِ (الأَوَّاه) على (الحَلِيم):

قدَّمَ صفةَ الأوّاهِ لما تحملُه من معانٍ تهيِّئُه للصّبرِ ولتَحمّلِ المصاعبِ النّاتجةِ في موقفِه من أبيه، وأيضًا لأنَّ التّأوّهَ صفةُ القلبِ، والحلْمُ صفةُ العقل، والقلبُ هنا مُقدّمٌ على العقلِ، لأنّه محلُّ العقل، قال تعالى: ﴿لَهُمۡ قُلُوبٞ لَّا يَفۡقَهُونَ بِهَا﴾ [الأعراف: 179].

شِدّةُ التّأوّهِ بابُ الوُصولِ إلى الحِلْم

سِرُّ ختمِ الآيةِ بهذَيْن الوصْفَيْن:

وصَفَ اللّه تعالى إبراهيمَ عليه السلام بهَذَيْنِ الوَصْفَيْنِ في هذا المقامِ، لأنَّه مَن كان كذلك، فإنَّه تَعظُمُ رِقَّتُه على أبيه وأولادِه، فبَيَّنَ تعالى

البراءةُ منَ المشركين لا يتنافَى تنافَى معَ كمالِ رقّةِ القلْبِ والحلْمِ الواسِع

(1) الخفاجي، حاشية الشِّهاب: 4/648، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/46.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 8/409.
(3) البقاعي، نظم الدُّرر: 9/31.

أنَّه مع هذا الخُلق تبَرَّأَ من أبيه، وغلُظَ قلبُه عليه، لَمَّا ظَهرَ له إصرارُه على الكُفرِ، فأنتم بهذا المعنى أَوْلى، كذلك وصفُه أيضًا بأنَّه حليمٌ، لأنَّ أحدَ أسبابِ الحِلمِ رِقَّةُ القلبِ، وشِدَّةُ العَطفِ، لأنَّ المرءَ إذا كان حالُه هكذا اشتَدَّ حِلمُه عند الغضَبِ[1].

وفي ختامِ الآية بهذيْن الوصْفَيْن دلالةٌ على تأكيدِ وُجوبِ الاجتِنابِ عنِ الاستغفارِ لأبيه بعدَ أن تبيّن له أنه عدوٌ للّه.

بلاغةُ المتشابِهِ اللّفظيّ بين آيتَي التّوبةِ وهودٍ:

كلُّ آيةٍ جاءت متناسبةً معَ السّياقِ الّذي جاءت فِيه

اختلفَ الوصفُ بين السّورتَيْن من ناحيةِ التّقديمِ والتّأخيرِ، فذَكرَ في سورةِ التّوبة: ﴿لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ﴾، وفي سورةِ هودٍ: ﴿لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ﴾ وفي سورة التّوبة اكتفَى بوصفَي الأواه الحليم، بينما في سورة هودٍ زادَ وصْفَ ﴿مُّنِيبٌ ۝٧٥﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ۝٧٥﴾ [هود: 75]، والسّببُ في ذلك اختلافُ السّياقِ في كلٍّ منهما، فسياقُ سورةِ التّوبةِ جاءَ في إعلانِ براءتِه وانقطاعِه عنِ الاستغفار لأبيه بعدَ أن تبيّن أنّه عدوٌّ للّه، فالموقفُ هناك بين الابن والأبِ يظهرُ فيه حِرصُ منَ الابنِ على هداية أبيه مع شدّةِ قَسوةٍ تظهرُ في موقفِ أبيهِ منه في رفض دعوتِه، فكان التّأوّهُ والحلْمُ هما المناسبانِ في هذا الموقفِ، أمّا في سورة هود فالأمرُ مختلفٌ، حيث يتعلّقُ بموقفِه منَ المجادلةِ في شأن قومِ لوطٍ، لأنَّ فيهم لوطًا النّبيّ عليه السلام، وله به قرابةُ نسبٍ، فهو حريصٌ على نجاتِه شفقةً عليه، فعلّلَ القرآنُ الكريم هذا الموقفَ لإبراهيمَ عليه السلام بقوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ۝٧٥﴾ [هود: 75]، فذكرَ صفةَ الحلْمِ وبدأَ بها، لأنّه لا يريدُ تعجيلَ العقوبةِ، بل يريدُ إعطاءَ فُرصةٍ للعاصِين من قومِ لوطٍ ليَنخلِعُوا من معاصِيهم، فهو يُؤثرُ السّماحةَ على العقابِ.

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 16/160.

وسببُ ذلك أنّه مرهفُ الإحساس، كثيرُ التّأوّهِ من شعورِه بارتكابِهم لهذه الأخطاءِ، ولذلك وصفَه القرآنُ بأنّه منيبٌ في هذا المقامِ، فهو راجعٌ إلى ربِّه تائبٌ إليه، وهي صفاتٌ كلُّها جمالٌ وكمالٌ.

وممّا يُذكرُ أيضًا في موضعِ سورةِ هودٍ، أنَّ هذه الأوصافَ جاءت مُعترضةً بين حدَثَيْن: بِشارتِه بالولدِ ومُجادَلتِه في قومِ لوطٍ، وكلُّ حدثٍ منهما يتعلّقُ بهذه الصّفاتِ وما اشتمَلَ عليه من خُلُقٍ كريمٍ[1].

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الوالدُ والأبُ:

الوالدُ في اللُّغة هو الأبُ المُباشرُ الّذي أنجبَ، فالوالد لا يُطلقُ إلا على مَنْ أوْلدَك من غيرِ واسطةٍ[2]، لذلك حينما يقول ﷻ: ﴿أَنِ ٱشۡكُرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيۡكَ﴾ [لقمان: 14] نعلمُ أنَّ كلمةَ (وَالِدَيْكَ) هُنا هُما: الأب والأمُّ[3]، أي: الأبوان المُباشِران، أمَّا الأبُ فقد يكون الأبَ المُباشر، وقد يُطلق على العمِّ والجدِّ[4]، قال تعالى: ﴿قَالُواْ نَعۡبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ﴾ [البقرة: 133]، بل قد يُطلقُ على الجدِّ البعيد، ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ﴾ [الحجّ: 78][5]، فيُطلق الأبُ على الجَدِّ وإن علا، فالوالد خاصٌّ، والأب عامٌّ، وهذا الاستعمالُ القرآنيُّ مُرتبطٌ باتّساعِ الأصلِ اللُّغويِّ لكلمة (أب) وشمولِها لكلِّ ما كان سببًا في وجودِ الشَّيءِ أو رعايتِه، أو إصلاحِه، أو ظُهورِه[6].

وممّا يُذكر في الفرقِ بينهما: أنّ الوالدَ لم يردْ مجموعًا في القُرآن الكريم، بخلافِ الأبِ، فقد وردَ مجمُوعًا كما في قولِه تعالى: ﴿قَالُواْ نَعۡبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ﴾ [البقرة: 133] الآية، وفي قولِه تعالى: ﴿وَٱتَّبَعۡتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ﴾ [يوسف: 38]الآية، وفي هذا دليلٌ على أنّ لفظَ الوالدِ مقصورٌ على الأبِ المباشرِ في وجود الابن دون غيره.

(1) الخطيب، التّفسير القرآنيّ: 4/1173، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3733.
(2) العسكريُّ، الفروق اللُّغويَّة، ص: 566.
(3) الجوهريُّ، الصّحاح، وابن منظور، لسان العرب: (ولد).
(4) الرّاغب، المفردات: (أبا)، والزَّبيديّ، تاج العروس: (أبى).
(5) العسكريُّ، الفروق اللُّغويَّة، ص: 566.
(6) الرّاغب، المفردات: (أبا).

﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوۡمَۢا بَعۡدَ إِذۡ هَدَىٰهُمۡ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ ١١٥﴾ [التَّوبة: 115]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

مِنْ تمامِ عدْلِ اللهِ تعالى أنّه لا عُقوبةَ إلّا بعْدَ بيانِ حُكْمِ اللهِ وإقَامَةِ الحُجّةِ

لَمَّا منَعَ اللّهُ تعالى المُؤمِنينَ من أن يَستَغفِرُوا للمُشرِكينَ، وكان المُسلِمونَ قد استغفَروا للمُشرِكينَ قبلَ نُزولِ هذه الآيةِ، فلمَّا نزَلَت هذه الآيةُ خافُوا بسبَبِ ما صدَرَ عنهم قبْلَ ذلك منَ الاستغفارِ للمُشرِكينَ، فأزال اللّهُ تعالى ذلك الخَوفَ عنهم بهذه الآيةِ، وبيَّنَ أنَّه تعالى لا يؤاخِذُهم بعمَلٍ إلَّا بعدَ أن يُبيِّنَ لهم أنَّه يجِبُ عليهم أن يتَّقُوه ويَحتَرِزُوا عنه[1].

وممّا يُذكرُ في المناسبةِ أيضًا أنّه لَمَّا بيَّنَ اللّه تعالى أنَّه لا يُستغفَرُ لِلمشركينَ ولو كانوا أُولي قُربَى، فمُنِعَ رسولُ اللّه ﷺ مِنَ الاستغفارِ لعَمِّه أبي طالِبٍ، ومُنِعَ إبراهيمُ مِنَ الاستغفارِ لأبيه، وكذلك مُنِعَ المسلمونَ مِنَ الاستغفارِ للمشركينَ أقرباءَ وغيرَ أقْرِباءَ، فكأنَّه قِيل: لا تَعْجَبْ لتبايُنِ هؤلاءِ، فإضلالُ هؤلاءِ لم يكُنْ إلَّا بعدَ أنْ أرشدَهم اللّه إلى طريقِ الحقِّ بما ركَّز فيهم مِن حُجَجِ العقولِ الَّتي أغْفَلوها، وتَبيينِ ما يتَّقُونَ بطريقِ الوحيِ، فتظافَرتْ عليهمُ الحُجَجُ العقليَّةُ والسّمعيَّةُ، ومعَ ذلك لم يُؤْمِنوا ولم يَتَّبِعوا ما جاءتْ به الرُّسلُ عن اللّه تعالَى، ولذلك خَتَمها بقولِه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ﴾، فيُضلُّ مَن يشاءُ، ويختصُّ بالهدايةِ مَن يشاءُ[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿لِيُضِلَّ﴾: الضَّلال ضِدُّ الهُدى، يُقال: ضَلَّ في الأَمر يَضِلُّ

(1) الفخر الرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 16/160.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/515 - 516.

ضلالًا إذا لم يهتدِ لَهُ[1]، يُقال: ضَلَّ عنِ الطَّريق: تاهَ وابتعدَ وعكسُه يَهْتَدي، وضللتُ بَعيري: إذا كان معْقُولاً فلمْ يهْتدِ لمكانِه، وأضْلَلْتُه إذا كان مُطلقًا فمرَّ ولمْ تَدْرِ أيْنَ أخذَ، وضَلَّ الشَّيْءُ: إذا ضاعَ، وضلَّ الرَّجل: إذا جارَ عنِ القَصْدِ[2]، ومنَ المجاز: ضَلَّ في الدِّين، وقدْ ضَلَّلْتُه: نَسَبْتُه إلى الضَّلال، وواقعٌ في أضاليلَ وأباطيلَ، وقد تمادَى في أضاليلِ الهوَى[3]، وأصلُ الضَّلالِ يدلُّ على ضياعِ الشَّيءِ وذهَابِهِ في غَيْرِ حَقِّهِ[4]، فالضَّلالُ إمَّا العُدولُ عنِ الطَّريق المستقيم، وإمَّا الغيبوبةُ والضَّياعُ، والأوَّلُ يُقابلُه الهدايةُ، والثَّاني يُقابلُه الوِجدَانُ، فهو يُقالُ لكلِّ عُدولٍ عنِ المنهجِ عمْدًا كان أو سهوًا، يسيرًا كان أو كَثيرًا[5]، والمعنى هُنا: لِيُضِلَّ قَوْمًا؛ أي: عن طريقِ الجنَّة، أو يحكُمَ عليهم بالضَّلال بعد أن وفَّقهم للهداية حتَّى يُبَيِّنَ لهم عن طريق الوحيِ ما يجبُ عليهم أن يَحترزُوا عنه[6].

المَعْنى الإجْماليُّ:

بيّنتْ هذه الآيةُ ما كانَ من سُنَنِ اللّه ولُطفِه بعبادِه لِيَحْكُمَ على قومٍ بالضَّلال بعد أن وفَّقهم للهداية حتَّى يُبَيِّنَ لهم عن طريق الوحيِ إلى رسولِه ما يجبُ عليهم اجتنابُه، وما يحتاجُون إليه في أصولِ الدِّين وفُرُوعه، إنَّ اللّه محيطٌ عِلْمُهُ بكلِّ شيءٍ، لا يخفَى عليه شيءٌ، وقد علَّمَكم ما لم تكونُوا تعلمون، وبيَّن لكم ما به تنتفعُون، وأقامَ الحُجَّةَ عليكم بإبلاغِكُم رِسالَتَهُ[7].

اللهُ لطيفٌ بعبادِه لا يحكُمُ عليهم بالضَّلالِ حتَّى يُبَيِّنَ لهم طَريقَ الحقِّ

(1) ابن دُرَيد، جمهرة اللّغة: (ضلل).
(2) ابن عبّاد، المحيط في اللّغة: (ضل).
(3) الزّمخشريّ، أساس البلاغة: (ضلل).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ضل).
(5) الرّاغب، المفردات: (ضل)، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (ضلل).
(6) النيسابوري، غرائب القرآن: 3/539.
(7) لجنة من عُلماءِ الأزهر، المنتخَبُ في تفسير القرآنِ الكريم، ص: 280، ونُخْبة من أساتذة التَّفسير، التَّفسير المُيَسَّر، ص: 205.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالةُ الواوِ:

لا مُؤاخذةَ من غَيْرِ تكليفٍ وبيانٍ

في: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ﴾ الواوُ عاطفةٌ، عطفتْ هذه الآيةَ على ما قبْلَها، وما قبْلَها كان نهيًا عنِ الاستغفار للمشركين، وجاءتْ قصّةُ إبراهيمَ عليه السلام في استغفارِه لأبيه تتمّةً للاستغفارِ، فكانت هذه الآيةُ لبيانِ أنّه لا مؤاخذةَ من غيْرِ تكليفٍ، وخُصوصًا لمَنِ اختارَ سبيلَ الهدايةِ[1].

وفي هذا العطْفِ أيضًا تأنيسٌ للمؤمنين، لأنَّ بعضَهم خاف على نفسه منِ الاستغفار للمشركين، فنزلتِ الآيةُ مُؤنِسةً، أي: ما كان اللّه بعد أن هدَى إلى الإسلام، وأنقذَ منَ النَّار ليُحْبِطَ ذلك، ويُضِلَّ أهلَه، لمواقعتِهم ذَنْبًا لم يتقدَّمْ منَ اللّه عنه نَهْيٌ، فأمَّا إذا بُيِّن لهم ما يتّقون منَ الأمور، ويتجنَّبون منَ الأشياء، فحينئذٍ مَنْ واقَعَ شيئًا من ذلك بعدَ النّهيِ، استوجبَ العقابَ[2].

دلالةُ التّعقيبِ هذه الآيةِ:

تأكيدٌ وتَذْييلٌ لما سَبقَ من مباينةِ المشركين، والبراءةِ منهم، وتركِ الاستغفارِ لهم

جاءت هذه الآيةُ عقبَ ما قبْلَها للدّلالةِ على أنَّ اللّه لا يُؤاخذُ النَّبيَّ ﷺ ولا إبراهيمَ عليه السلام ولا المسلمين باستغفارِهم لمَنِ استغفرُوا له من قَبْلِ ورودِ النَّهْيِ وظُهورِ دليلِ اليأْسِ منَ المغفرةِ، لأنَّ اللّه لا يُؤاخِذُ قومًا هداهُم إلى الحقِّ فيَكتبهم ضُلَّالاً بالمعاصِي حتَّى يُبَيِّن لهم أنَّ ما عملوُه معصيةٌ، فموقعُ هذه الآيةِ بعدَ جميعِ الكلامِ المُتَقَدِّمِ صَيَّرهَا كلامًا جامعًا تذييلًا[3].

دلالةُ النَّفْيِ في: ﴿وَمَا كَانَ﴾:

إقامةُ الحُجّةِ قبْلَ الحُكمِ بالضّلال

جاء التّعبيرُ القرآنيُّ بأسلوبِ النّفيِ الواردِ في قولِه تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا﴾، للدّلالةِ على أنَّ النَّفيَ نَفْيٌ مُؤَكَّدٌ عن ذاتِ اللّه

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 7/3462.
(2) الثّعالبي، الجواهر الحسان: 3/222، وابن عطيَّة، المُحرَّر الوجيز: 3/92.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/ 48 47.

تعالى، أن يَحكُمَ بالضَّلالةِ والمؤاخذةِ عليها، قبْلَ أن يُبيِّنَ سبحانه ما يُتَّقَى منَ الضَّلالةِ، فكما أنَّه سُبحانَه لا يُعذِّبُ إلّا بعْدَ رسولٍ مُبَيِّنٍ بمقتضَى قولِه تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: 15]، فكذلك لا يُؤاخذُ سبحانَه بذنْبٍ ارتُكبَ إلَّا بعد بيانِ أنَّه ذنْبٌ، والطَّريقِ لاتّقائِه[1].

دلالةُ التَّعبيرِ بـ ﴿كَانَ﴾:

دلَّ التّعبيرُ بالفعْلِ ﴿كَانَ﴾ في قولِه تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ﴾ على أنَّ سُنّةَ اللّه تعالى في عدمِ المؤاخذةِ قبْلَ إقامةِ الحُجّةِ قديمةٌ أزليّةٌ، والمعنى: ليسَ من شأنِه ولا من سُنّتِه ﷻ أن يكتبَ الضَّلالَ لقومٍ بعد إذ هداهُم بإرسالِ الرُّسلِ إليهم وإرشادِهم إلى الحقِّ حتَّى يُبَيِّنَ لهم الأشياءَ الّتي يُريد منهم أن يَتَّقُوها.

إقامةُ الحُجّةِ قبْلَ المؤاخذةِ سُنّةٌ من سُننِ اللهِ الماضيةِ في جميعِ الأُمَمِ

بلاغةُ إسنادِ البيانِ إليه سبحانه: ﴿حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم﴾:

أسندَ اللّه البيانَ إليه، لأنّه سبحانَه هو صاحبُ البيانِ، وهو الّذي يتصرّفُ في صُورِه كيف يشاءُ، وذلك بأن يُبَلِّغَ رُسلَهُ أنَّ أولئك من أهلِ الضَّلال حتَّى يَتْرُكُوا طلبَ المغفرةِ لهم كما قال لنوحٍ عليه السلام لما قال: ﴿رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى﴾ [هود: 45] يريد نجاتَه، فقال اللّه له ردًّا على مطلبه: ﴿فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ [هود: 46]، وكما سبَقَ في الآياتِ السّابقةِ من تَبْيين عدمِ الاستغفار للمشركين.

للهِ العلمُ الشّاملُ بأحوالِ خلْقِه، ومنه وحدَه البيانُ لحُكمِه وشرعِه

نُكتةُ إظهارِ الاسمِ الجليلِ:

في إظهارِ الاسمِ الجليلِ دليلٌ على أنَّ اللّه ﷻ هو وحدَه الحاكمُ بهدايةِ النَّاسِ وضلالِهم، فإنْ وفّقَهم للهداية فبِرحمتِه وفضْلِه، وإنْ أضلَّهم فبحِكمتِه وعدْلِه.

بيانُ أنَّ الحُكمَ بالهدايةِ والضَّلالِ لا يكونُ إلّا من صاحبِ الجلالِ والكمالِ

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 7/3462.

دلالةُ اللَّامِ في: ﴿لِيُضِلَّ﴾:

الإضلالُ عقوبةٌ على الصدِّ عن دينِ الله وردِّ ما جاءتْ بهِ رسلُه

قولُه تعالى: ﴿لِيُضِلَّ﴾ تعليلٌ لمضمونِ الجملةِ السَّابقةِ، وهو أنَّ اللّه لا يُضِلُّ قومًا بعد أن هداهُمْ حتَّى يُبَيِّنَ لهمُ الحقَّ[1]، فإذا بيّنَ لهم ما يتّقونَ، فلم يَنقادُوا له، عاقبَهم بالإضلالِ، جزاءً لهم، على رَدِّهم الحقَّ المُبينَ[2]، فلا يُضِلُّ إلَّا مَنْ يَستحقُّ الضَّلالَ، كما أنَّه يهدِي مَنْ يَستحقُّ الهدايةَ[3].

سِرُّ التَّعبيرِ بالضّلالِ في: ﴿لِيُضِلَّ﴾:

لفظُ الضّلالِ يَعمُّ ألفاظًا كثيرةً، وقد جاء الأنسبُ هنا في مقابلةِ الهُدَى

آثرَ التَّعبيرَ بالضَّلال دون غيرِه، لأنّه أعمُّ، ويندرجُ تحتَه كثيرٌ منَ الأمور، فكلُّ عُدولٍ عنِ المنهجِ الّذي أنزلَه اللّه على ألسنةِ رُسُلِه أو سلوكِ طريقٍ لا يُوصلُ إلى هذا المنهجِ، فهو ضلالٌ، وأيضًا لأنَّ الضّلالَ ضدُّ الهُدى، والهُدَى لفظٌ عامٌّ يندرجُ تحتَه كلُّ وجوهِ النّجاةِ والإرشادِ، لذلك كان اختيارُ لفظِ الضّلال ليكونَ في مقابلةِ لفظِ الهُدَى.

سِرُّ التَّعبيرِ بالقومِ: ﴿لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ﴾:

لفظةُ القومِ تعمُّ أصنافًا كثيرةً وهيَ الأليقُ بالسّياقِ هنا

آثرَ التّعبيرَ بلفْظِ القومِ دونَ التّصريحِ بتَعْيينهم من بابِ السَّترِ عليهم والتّلطّفِ بهم، لأنَّ قومًا منَ المسلمين قدِ استغفرُوا للمُشركين قبْلَ نُزولِ النّهيِ، فلمّا نزلَ خافُوا بسببِ ما صدرَ عنهم، أو أنَّ المرادَ أنَّ قومًا قدِمُوا على النّبيّ صلّى اللّه عليهم وسلّم وأسلَمُوا قبل تحريمِ الخمْرِ وتحويلِ القبلةِ إلى الكعبةِ، فرجعُوا إلى قومِهم ولا علْمَ لهم بذلك، فلمّا عادُوا إلى المدينةِ مرّةً ثانيةً، وجدُوا أنَّ الخمرَ قد حُرّمتْ وأنّ القبلةَ قد حُوّلتْ، فقالُوا يا رسولَ قد كنتَ على دينٍ ونحن على غيرِه فنحنُ ضُلاّلٌ، فأنزل اللّه تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ﴾[4].

---

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/48.
(2) السَّعدي، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 403.
(3) الجزائري، أيسر التَّفاسير: 2/432.
(4) ابن عادل، اللباب في علوم الكتاب: 10/225.

والشّاهدُ هنا أنَّ التّعبيرَ بالقومِ هو المناسبُ لهذه الجماعةِ، فيدلُّ على أنَّ ذلك وقعَ منَ الكثيرِ وليس منَ القليل، لأنّ لفظَ القومِ يندرجُ تحتَه الفرقةُ ثمّ الطّائفةُ.

نُكتة تنكيرِ ﴿قَوۡمًا﴾:

إفادةُ الشُّيوعِ والعُمومِ

تَنكيرُ كلمة ﴿قَوۡمًا﴾ لإفادةِ الشُّيوعِ والعُمومِ في كلِّ قومٍ منَ المتقدِّمين والمتأخِّرين منَ النَّاس في كُلِّ زمانٍ كانوا، وفي أيّ مَحَلٍّ حَلُّوا.

فائدةُ التَّعبيرِ بالظَّرفيّةِ في: ﴿بَعۡدَ إِذۡ هَدَىٰهُمۡ﴾:

أعظمُ الخُسرانِ الضّلالُ بعدَ الهدايةِ والرّدّةُ بعدَ الإيمان

آثرَ التَّعبيرَ بقولِه تعالى: ﴿بَعۡدَ﴾ الّتي تدلُّ على التّباعدِ في الزّمنِ أوِ المكانِ، وفي هذا دلالةٌ على أنَّ أمرَ الهدايةِ لهم يعودُ إلى الماضي البعيدِ المدلولِ عليه بأخْذِ الميثاقِ الأوّلِ، أوِ المرادُ بعدَ نزولِ أسبابِ الهدايةِ على ألسنةِ الرُّسلِ لأتباعِهم الّتي استقرّتْ في شرائعِهم، أوِ المرادُ بعدَ هدايةِ الإسلامِ، فدلّتْ هذه الظّرفيّةُ على شدّةِ المصيبةِ في الضّلالِ بعد تمكُّنِ الهدايةِ منَ النّفوس، وفي الرِّدّةِ بعدَ الإسلامِ.

سِرُّ التَّعبيرِ بالهدايةِ: ﴿بَعۡدَ إِذۡ هَدَىٰهُمۡ﴾:

هدايةُ الفِطرةِ وهدايةُ الدَّلالةِ

آثرَ التَّعبيرَ بالهدايةِ في قولِه تعالى: ﴿بَعۡدَ إِذۡ هَدَىٰهُمۡ﴾، لأنَّ الهدايةَ تتعدَّدُ معانيها، فتأتي بمعنَى الدّلالةِ كما في قولِه تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيۡنَٰهُمۡ﴾ [فصّلت: 17]، فالهدايةُ هنا هي هدايةُ الدَّلالةِ، فإذا وافقُوا البيانَ هداهُم هدايةَ مُعونةٍ، وإذا لم يوافقُوا كانُوا ضَالِّين، وقد حكمَ اللّه بضلالةِ أبي إبراهيمَ، وما حَكمَ اللّه بضلالتِه إلا بعدَ أن بيّنَ له منهجَ الهدايةِ[1].

وقد يكونُ المُرادُ بالهدايةِ هنا هدايةَ الفطرةِ، والمعنَى: ما كان اللّه تعالى ليأخُذَ قومًا سارُوا بمقتضَى الفطرةِ الإنسانيَّةِ، والميثاقِ الّذي أخذَه عليهم وأشهدَهُم على أنفسِهم ﴿أَلَسۡتُ بِرَبِّكُمۡۖ﴾ [الأعراف:

(1) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 9/5543.

172]، فهذه هي الهدايةُ الفطريَّةُ الّتي فطرَ النَّاسَ عليها، فهذا معنَى قولِه تعالى: ﴿إِذْ هَدَىٰهُمْ﴾ أي: وقتَ أنْ هداهُم في بَدءِ الخليقةِ[1].

سِرُّ التَّعبيرِ بالماضِي ﴿هَدَىٰهُمْ﴾:

وُلِدَ النّاسُ في أوّلِ أمرِهم علَى الفطرةِ السّليمةِ

عبّرَ بالفعْلِ الماضي ﴿هَدَىٰهُمْ﴾، للدّلالةِ على تحقُّقِ أمرِ الهدايةِ الفطريّةِ والمتمثّلةِ في أخْذِ العهْدِ عليهم في قولِه تعالى: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا بَلَىٰ﴾ [الأعراف: 172]، فهذا معنَى قولِه تعالى: ﴿إِذْ هَدَىٰهُمْ﴾ أيْ: وقتَ أنْ هداهُم في بدْءِ الخليقة، ويكونُ قولُه تعالى: ﴿حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ﴾ أي: حتَّى يُبَيِّنَ ما يؤيِّدُ الفطرةَ ويدعَمُها، ويبيّنَ لها ما تتَّقيه بأن تجعلَ بينها وبينه وقايةً.

دلالةُ عدَمِ ذكْرِ الفاعلِ ﴿ٱللَّهُ﴾:

الهدايةُ منَ اللهِ تعالى وبِيَدِه وحدَه سُبحانَه

لم يُذْكَرِ الفاعلُ ﴿ٱللَّهُ﴾ صراحةً في قولِه تعالى: ﴿هَدَىٰهُمْ﴾ مع وجودِ ما يدلُّ عليه مُضمرًا، للعلْمِ باختصاصِه سُبحانَه بأمرِ الهدايةِ، فهو الّذي يهدي مَنْ يشاءُ من عبادِه، والآياتُ القرآنيّةُ في هذا السّياقِ كثيرةٌ، قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة: 213]، وقولُه: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ﴾ [يونس: 35]، فالحذْفُ هنا للإيجاز.

سِرُّ التَّعبيرِ مع الضّلالِ بالمضارِعِ: ﴿لِيُضِلَّ﴾، ومع الهدايةِ بالماضِي: ﴿هَدَىٰهُمْ﴾:

الضّلالُ فعْلٌ من المشركين حادثٌ، والهدايةُ أمرٌ قديمٌ فُطِرَ عليهِ الإنسانُ

آثَرَ التَّعبيرَ بالمضارعِ معَ الضّلالِ، لأنَّ المرادَ هنا هو صرفُهُ عن طريقِ الجنّةِ ومنْعُه منَ التّوجّهِ إليه بما عَلِمَ اللّه فيه، وهذا عن طريقِ إبرازِ صُورةِ علْمِ اللّه الأزليّةِ إلى الواقعِ الظّاهرِ، ولذلك فسّرَ البعضُ ﴿لِيُضِلَّ﴾ أي: يُوقعُ الضّلالةَ في قلوبِهم بعدَ الهُدى[2].

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 7/3462.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 8/411.

أمّا الهدايةُ فهي الأصلُ الَّذي فُطِرَ عليه الإنسَانُ، لذلك عبّرَ بالماضي مُوافقةً على هدايةِ اللّه للإنسانِ في أصْلِ فِطْرتِه.

معنى ﴿حَتَّىٰ﴾ وموقِعُها:

﴿حَتَّىٰ﴾ حرفُ غايةٍ[1]، أي: حتَّى يتقدَّم إليكُمْ بالنَّهيِ، فإذا بيَّن ولم تأخذُوا به فعندَ ذلك تستحقّون الضَّلالَ[2].

بيانُ الغايةِ من عدَمِ الحُكْمِ عليهم بالضَّلالِ

بلاغةُ التَّعبيرِ:

تَظهرُ بلاغةُ التَّعبيرِ في قوله ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوۡمَۢا بَعۡدَ إِذۡ هَدَىٰهُمۡ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَۚ﴾ في الجمْعِ بين لُطفِ اللّه وكمالِ عدلِه، لأنَّ معناها: وما كانَ اللّه ليقضيَ عليكُمْ في استغفارِكم لموتاكُم المشركين بالضّلال بعد إذْ رزقَكُمُ الهدايةَ ووفّقَكم للإيمان به وبرسولِه، حتى يُبيّنَ لكم ما تَنتهونَ عنه، ويكونَ ذلك في ما أمرَ ونهَى، لأنَّ الطَّاعةَ والمعصيّةَ إنَّما يكونانِ في الأوامرِ والنّواهي، فأمَّا مَنْ لم يُؤمرْ ولم يُنْهَ فغيرُ مُؤاخَذٍ إلّا بعدَ صُدورِ البيان، وفي هذا ما يَكشفُ عن لُطْفِ اللّه ورحمتِه بعبادِه، وأنّه سُبحانَه لا يأخذُهُم بالعقابِ، ولا يُنزلُهُمْ منازلَ الضَّالين، إلّا بعْدَ أن يُبيَّنَ لهمُ الطّريقَ الّذي يَسيرُون عليه، وما يأخذُون أو يدَعُون منَ الأمور، وفيه تسليةٌ للّذين استغفرُوا للمشركين قبْلَ البيانِ.

بيانُ لطْفِ اللّه تعالى بعبادِه وكمالِ عدْلِه معهم

فائدةُ ذِكْرِ البَيانِ بصِيغةِ المضارعِ:

عبّرَ بالمضارعِ، للدّلالةِ على استمرارِ البيان وتجدُّدِه بحسبِ حاجةِ النَّاسِ إلى الهدايةِ، فإنَّ حاجتَهُم إليها مُستمرَّةٌ دائمةٌ، وفي هذا دليلٌ على عنايةِ اللّه ورحمتِه بخلْقِه بأن يُبيّنَ لهم عن طريقِ الوحيِ ما يُشكلُ عليهم في أمرِ حياتِهم سواءً ما تعلّقَ بأُمُورِ معاشِهم أو أُمورِ معادِهم.

استمرارُ البَيانِ وتجدُّدُه، لدوامِ حاجةِ النَّاسِ إليه

(1) الدرة، إعراب القرآن: 4/184.
(2) البغوي، معالم التَّنزيل: 2/396.

نُكتةُ تقديمِ شِبْهِ الجُملة ﴿لَهُم﴾:

بيانُ الاعتناءِ بالمقدَّمِ والتَّشويقِ إلى المؤخَّر

قَدَّمَ شبْهَ الجملةِ ﴿لَهُم﴾ هُنا لإفادةِ الاعتِنَاءِ وَالاهتِمَامِ بالمُقَدَّم وهمُ النَّاس، والتَّشويقِ إلى المؤخَّرِ وهو الأمرُ والنَّهيُ الّذي تكونُ به التَّقوَى وتحصلُ بهِ الهدايةُ.

دلالةُ التَّعبيرِ بـ ﴿مَّا﴾:

احتماليّةُ الموصُوليَّةِ والموصوفيَّةِ توسِيعًا للمعنى

(ما): تحتملُ المَوصولةَ، والموصوفةَ، فهي مَبنيَّةٌ على السُّكونِ في محلِّ نصبٍ مفعولٍ به، والجملةُ بعدَها صِلتُها، أو صِفتُها، والعائدُ، أو الرَّابطُ محذوفٌ، والتَّقديرُ: حتَّى يُبيِّنَ لهم الّذي أو شيئًا يَتَّقُونَه[1].

وممّا يُذكرُ أيضًا أنّها تُفيدُ العمومَ، أي: حتّى يُبيِّنَ لهم ما يتّقُونَ منَ الأقوالِ والأفعالِ بيانًا جليًّا واضحًا لا شُبهةَ فيه.

سِرُّ التَّعبيرِ بالتّقوَى: ﴿يَتَّقُونَ﴾:

التّقوى لفظٌ جَامِعٌ لكُلِّ ما أمَرَ اللهُ بِهِ أو نَهَى عنْهُ

آثرَ التَّعبيرَ بالتّقوَى دونَ غيرِها، لأنّها لفظٌ عامٌّ يندرجُ تحتَه كلُّ ما يقِي من عذابِ اللّه، وكلُّ صُوَرِ العبادةِ وعلى رأسِها الإتيانُ بالأوامرِ وتركُ النّواهي، ومن ذلك النَّهيُ عنِ الاستغفارِ للمُشركين.

سِرُّ التَّعبيرِ بالمضارع ﴿يَتَّقُونَ﴾:

عبادةُ اللهِ وطاعتُه أمرٌ مُتجدِّدٌ مُستمرٌّ في حيَاةِ المؤمِنِ

آثَرَ التَّعبيرَ بالمضارع ﴿يَتَّقُونَ﴾ للدّلالةِ على أنَّ حِرْصَ أهْلِ الإيمانِ على طاعة اللّه والعمل بشرائعه واتّقاء غضبه وطلب رضوانه أمرٌ مُتجدِّدٌ ومُستمرٌّ، فكلّما بيّنَ اللّه حُكمًا شرعيًّا بادرُوا إلى الامتثال، أمرًا كان أو نهيًا.

بلاغةُ الفصْلِ في قولِه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ﴾:

عِلْمُ الله بحاجَةِ خلْقِه إلى البيَانِ

فُصِلَ قولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ﴾ عن الآية، لأنّه استئنافٌ بيانيٌّ، فالجملةُ تعليلٌ لِما سبقَ، أيْ أنَّ اللّه تعالى عليمٌ بجميعِ الأشياءِ الّتي من جُملتِها حاجتُهم إلى البيانِ فيُبيّنُ لهم،

(1) الدُّرة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه: 4/247.

فكأنَّه ناتجٌ عن سؤالٍ يخطرُ ببالِ السَّامعِ: ما الحكمةُ في أنَّ اللّه لا يحكمُ بالضَّلالِ على النَّاسِ حتَّى يُبَيِّنَ لهم ما يتَّقون؟ فجاء الجوابُ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ﴾.

دلالةُ التّأكيدِ بـ ﴿إِنَّ﴾ والجملةِ الاسميّةِ:

علْمُ الله شامِلٌ للخلْقِ أجمعين في الدّنيَا والآخرةِ

صُدِّر ختامُ الآيةِ بـ ﴿إِنَّ﴾ في قولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ﴾، للتّأكيدِ على تحذيرِ المؤمنين منَ الوقوعِ فيمَا نهَى اللّه عنه فيما سبَقَ منَ الاستغفار للمُشركين، لأنّه عليمٌ بكلِّ شيءٍ، ولا يخفَى عليه شيءٌ من أقوالِ النَّاس وأفعالِهم، وسَيُحاسبُهم يومَ القيامةِ على ذلك، وسَيُجازَى الّذين أساؤُوا بما عملُوا[1].

دلالةُ إظهارِ لفْظِ الجلالةِ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ﴾:

لفظُ الجلالةِ لتربيةِ المهابَةِ

آثرَ القرآنُ الكريمُ إظهارَ لفْظِ الجلالةِ ﴿ٱللَّهَ﴾ ولم يأتِ التَّعبيرُ به مُضمرًا بأنْ يقولَ: إنّه بكلّ شيء عليمٌ، لتربيةِ المهابةِ في قلوبِ المؤمنين، وذلك بالعمَلِ على قطْعِ الوساوسِ الدّاخليّةِ الّتي تنتابُهم بحكمِ الصّلاة والقُربات في أمرِ استغفارِهم للمُشركين.

فائِدةُ تنكيرِ ﴿شَيۡءٍ﴾ وتوكيدِها:

علم الله محيطٌ بجميعِ الأشياء دقيقِها وجليلِها

جاءَ التَّعبيرُ القرآنيُّ بكلمةِ ﴿شَيۡءٍ﴾ مُنكَّرةً، لإفادة العُموم، فأصْلُ إطلاقِه أنّه يقعُ على الموجودِ والمعدومِ، وعلى هذا كان التَّعبيرُ مُشيرًا إلى علْمِه سُبحانَه بجميعِ الأشياء[2]، الّتي من جُملتِها حاجتُهم إلى بيانِ ما لا يَستقِلُّ العقلُ بمعرفتِه[3]، لعجْزِه عن إدراكِ المُرادِ، فيأتي الشّرعُ لبيانِه.

دلالةُ الباءِ: ﴿بِكُلِّ﴾:

علمُ الله محيطٌ بكلِّ شيءٍ، فلا يخفَى عليه شيءٌ من أمرِ خَلْقِه

دلّتِ الباءُ في قولِه تعالى: ﴿بِكُلِّ شَيۡءٍ﴾ على المُلابَسةِ، فعِلْمُه

(1) طنطاوي، الوسيط: 6/416.
(2) مكي بن أبي طالب القيسي، الهداية إلي بلوغ النهاية: 4/3176.
(3) إسماعيل حقي روح البيان: 3/523.

سُبحانَه مُتلبّسٌ في كلِّ شيءٍ، صغيرًا كان أو كبيرًا، ظاهرًا كان أو باطنًا، موجودًا كان أو معدومًا، لو وُجدَ كيف كانَ يكُونُ.

دلالةُ التّعبير بـ(كلّ) في: ﴿بِكُلِّ شَيْءٍ﴾:

آثرَ التَّعبيرَ بلفْظِ ﴿بِكُلِّ﴾ دون غيرِه، للدّلالةِ على أنّه يفيدُ الاستغراقَ الّذي يُحيطُ بالأشياءِ من كلِّ جانبٍ من بابِ إحاطةِ الإكليلِ، وسُمّي بذلك لإطاقتِه بالرّأسِ[1].

لا يَعزُبُ عن علْمِ الله مِثقالُ ذرّةٍ في هذا الكونِ

غرضُ تقديمِ شِبْهِ الجُملةِ: ﴿بِكُلِّ شَيْءٍ﴾:

قدَّم شِبْهَ الجملةِ ﴿بِكُلِّ شَيْءٍ﴾ هُنا لإفادة الاعتِنَاءِ والاهتِمَامِ بالمُقَدَّم، والتَّشويقِ إلى المؤخَّر وهو كمالُ علْمِ اللّه تعالى.

بيانُ الاعتناءِ بالمقدَّم والتَّشويقِ إلى المؤَخَّرِ

سِرُّ التَّعبيرِ بصِيغةِ المبالغةِ ﴿عَلِيمٌ﴾:

آثرَ القرآنُ الكريمُ التَّعبيرَ بصِيغةِ المبالغةِ ﴿عَلِيمٌ﴾ دون غيرِها كـ(العلّام) مع اشتراكِهما في صِفةِ العلْمِ، إلّا أنّ صِيغةَ ﴿عَلِيمٌ﴾ هي المناسِبةُ لهذا السّياقِ فيما يتعلّقُ بالنّهيِ عنِ الاستغفار، وهذا أمرٌ له تعلُّقٌ في الظَّاهرِ والباطنِ يتناسَبُ معه وصفُ العليم، أمّا صِيغةُ المبالغةِ (علّام) فهي دالّةٌ على كثرةِ علْمِه وتعدُّدِ مناحِيه وأنّه لا نهايةَ له، ولذلك تجدُ هذا الوصْفَ مُضافًا في القرآن إلى ﴿ٱلْغُيُوبِ﴾ بصِيغةِ الجمْعِ، كما في قولِه سُبحانه: ﴿إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ۝١٠٩﴾ [المائدة: 109]، فناسبَ هنا استعمالُ صِيغةِ ﴿عَلَّٰمُ﴾ الدّالّةِ على تعدُّدِ علْمِه مُناسبةً لتعَدُّدِ غُيوبِه.

الجمْعُ بين صِفةِ العلْمِ وتعدّدِ وجوهِهِ

دلالةُ التّنكيرِ في لفْظِ ﴿عَلِيمٌ﴾:

جاءَ التّعبيرُ القرآنيُّ بصِفةِ العلْمِ ﴿عَلِيمٌ﴾ مُنكّرةً، للدّلالةِ على التّعظيمِ والتّعميم، فهو يُبَيِّنُ لكم جميعَ ما تأتُون وما تذرُونَ وما يتوقَّفُ عليه الهُدَى، وما تركَه فهو إنَّما يتركُهُ رَحمةً لكم ﴿لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ [طه: 52] فلا تَبحثُوا عنه[2].

المبالغةُ في الوصْفِ بالعِلْمِ تأكيدًا لشُمولِ عِلْمِهِ

(1) الرّاغب، المفردات: (كل).
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 9/34.

بلاغةُ ختامِ الآية بصِفةِ العلْمِ:

دفعُ تَوَهُّمِ تأَخُّرِ البيانِ بعدَمِ حصولِ العلْمِ

اختارَ صِفةَ العلْمِ دون غيرِها، لاتِّساعِ دلالتِها لتَشملَ كلَّ ما هو معلومٌ بالأدلّةِ والبراهينِ، كالقرآنِ والدِّين والوحيِ، فقولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ﴾ أي: إنَّه تعالى عليمٌ بجميع الأشياءِ، ومن جُملتِها حاجةُ النَّاسِ إلى البيانِ، فهو يُبيّنُ لهم مُهمّاتِ الدِّينِ بالنَّصِّ القاطعِ، ومن أجلِ هذا لم يؤاخِذْ إبراهيمَ في استغفارِه لأبيهِ ولا النَّبيَّ والذّين آمنوا باستغفارِهم لوالدِيهم وأُولي القُربى منهم قبْلَ التَّبيين لهذا الحُكم[1].

وفيه إشارةٌ إلى دفْعِ توهُّمِ تأخيرِ البيانِ بكَوْنِ العلْمِ لم يكُنْ حاصلاً، فجاءَ الوصْفُ بقوله: ﴿عَلِيمٌ﴾ ليُزيلَ هذا التّوهُّمَ ولِينزّهَ اللّه تعالى عن تأَخُّرِ هذا البيانِ.

وفيه إشارةٌ إلى أنّ العلْمَ هو الأساسُ الذَي ينبغِي أن تكونَ عليه تصرّفاتُ العبادِ وأن تَنضبطَ عليه أعمالُهم.

نُكتةُ توالِي المؤكِّدات في هذا التّذْييلِ:

تأكيدُ عُمُومِ علمِه تعالى وإحَاطَتِهِ بكلِّ شيءٍ

النّاظرُ في ختامِ هذه الآيةِ يجدُ أنَّ المؤكِّداتِ توالَتْ على قولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ﴾، وذلك من وجوهٍ أربعةٍ:

أحدُها: تصديرُها بحرف التَّوكيدِ (إنَّ) أُمِّ أدوات التَّوكيد.

ثانيها: اسميَّةُ الجملةِ الدَّالَّةُ على دوامِ العلمِ وثباتِه.

ثالثُها: ذِكْرُ الإحاطة التَّامَّةِ، وذلك في قوله: ﴿بِكُلِّ شَيۡءٍ﴾.

رابعُها: ختمُ الجملة باسمِ العليم، وهو على زِنَةٍ مِن أوزانِ المبالغَةِ.

والغرَضُ من ذلك تأكيدُ عُمومِ علْمِه، وأيضًا التّعريضُ بمَنْ خالفَ الأمرَ والنَّهيَ بعد بيانِه، لكونِه العليمَ بكلِّ شيءٍ فيقبُحُ مخالفةُ أمْرِه[2].

(1) المراغيّ، تفسير المراغي: 11/38.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/386.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الضَّلالُ والغوايةُ:

الضَّلال: فقدانُ ما يُوصِلُ إلى المطلوب، وقيل: هو سلوكُ طريقٍ لا يُوصلُ إلى المطلوب[1]، وكلُّ عدُولٍ عَنِ النَّهج عمْدًا أَو سَهوًا، قَليلًا كَانَ أَو كثيرًا[2]، فهُو ضلالٌ، وفي باب الحقِّ والباطل يكونُ الضّلالُ عُدولًا عنِ الطَّريقِ المستقيم[3]، وقد يكونُ عن قَصْدٍ أو عن غيرِ قَصْدٍ، قال تعالى: ﴿وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلۡمٖ﴾ [الجاثية: 23]، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعۡيُهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ يُحۡسِنُونَ صُنۡعًا﴾ [الكهف: 104]، أمَّا الغواية فهي جهلٌ منِ اعتقادٍ فاسدٍ[4]، فلَا يكونُ للغاوِي مَقْصِدٌ إلى الطَّرِيق المُسْتَقِيم.

وعلى ذلك، فالضَّلال أعمُّ وهو ألا يَجِدَ السَّالكُ إلى مقصِدِه طريقًا أصلًا، والغِواية ألَّا يكون له إلى المَقْصِدِ طريقٌ مستقيمٌ[5].

الضَّلال عامٌّ وهو فقدان الطَّريق الموصِّل، والغواية هي العدول عن الطَّريق القويم تَقَصُّدًا

(1) الجرجاني: التَّعريفات، ص: 138.
(2) الكفويُّ، الكليات، ص: 567.
(3) المناويُّ: التوقيف، ص: 223.
(4) الرّاغب، المفردات: (غوى).
(5) النَّيسابوريُّ، غرائب القرآن: 6/199، والتَّهانوي، كشَّاف اصطلاحات الفنون: 2/1119.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۚ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ ١١٦﴾ [التَّوبة: 116]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

ذِكْرُ تمامِ القُدرةِ بعد ذِكْرِ تمامِ العلْمِ

لَمَّا دعتِ الآياتُ السّابقةُ إلى قطْعِ علائقِ المودّةِ والموالاةِ بين المؤمنين ومَنْ لهُمْ بهم صِلةٌ منَ المشركين، جاءتْ هذه الآيةُ لتأخُذَ بنواصِي المؤمنين باللّه إليه وحْدَه، وتُقيمَ وجوهَهُم إليه لا إلى غيرِه، لأنّه يملكُ السّماواتِ والأرضَ ويُحيي ويُميتُ، فهو الوليُّ والنّاصرُ لهم[1].

وممّا يُذكرُ في المناسبةِ أنه لَمَّا ذكَرَ تعالى في ختامِ الآيةِ السّابقةِ عِلْمَهُ بكُلِّ شَيءٍ، فهو يعلَمُ ما يَصلُحُ لكُلِّ أحَدٍ، وما هُيِّئَ له في سابِقِ الأزَلِ، ذكَرَ هنا ما يُدّلِّلُ على القُدرةِ الباهرةِ مِن أنَّه له ملكُ السَّمَاواتِ والأرضِ، فيتصَرَّفُ في عبادِه بما شاء، ثمَّ ذكَرَ مِن أعظَمِ تَصَرُّفاتِه الإحياءَ والإماتةَ، أي: الإيجادَ والإعدامَ[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَلِيّٖ﴾: الوليّ زنةُ (فَعِيل) صيغةُ مبالغةٍ، جذرُه اللُّغويُّ من (و ل ي)، وهو بياءَيْنِ (وليي) الأولَى ياءُ الوزنِ، والثّانيةُ ياءُ الأصلِ، ثمّ أُدغمَتا فصارَ (وليّ)، والأصلُ في معناهُ دلالتُه على القُربِ[3]، ومصدرُه الولاءُ من "واليتُ بَين الشّيئَيْنِ موالاةً وولاءً، والوليّ: خلافُ العدوِّ ويُطلَق على النَّاصر والمُعين"[4]، وهو المرادُ في الآيةِ الكريمةِ.

2) ﴿نَصِيرٖ﴾: وصفٌ على صيغةِ (فَعِيل) بمعنَى فاعِلٌ (ناصِر)،

(1) الخطيب، التفسير القرآني: 4/908.
(2) أبو حيَّان، البحر المحيط: 5/516.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ولي).
(4) ابن دُرَيد، جمهرة اللُّغة: (ولي).

وهو من (ن ص ر) فعلُه نصرَ ينصرُ نصرًا، ومعناهُ المجرَّدُ: "مجارِي الماءِ: (مَسايِلُه) إلى الأوْديةِ، والنّاصرُ يجيءُ من مكانٍ بعيدٍ" والعلاقةُ أنّ "الإمدادَ بما فيهِ زيادةٌ مناسبةٌ وقوةٌ: كما تمدُّ النواصرُ الأوديةَ والتّلاعَ بالماءِ"[1]، ومن هذا الملحظِ جاءتِ النُّصرةُ بمعنَى: إعانةِ المظلومِ، ومَن به حاجةٌ لذلكَ.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

الله وحدَه مالكُ السَّماواتِ والأرضِ وهو وحدَه النَّاصرُ لأوْليائِه

بيّنتْ هذه الآيةُ أنَّ اللّه تعالى وحدَه له ملكُ السَّماواتِ والأرضِ وما فيهما، لا شريكَ له في الخلْقِ والتَّدبيرِ والعبادةِ والتَّشريعِ، وهو المُتَصَرِّفُ فيهما بالإحياءِ والإماتةِ، يُحْيِي مَنْ شاء إحياءَه، ويُميت مَنْ شاء إماتتَه، وليس لكم سوى اللّه من وليٍّ يتولَّى أمرَكم، ولا نصيرٍ ينصرُكم ويُدافِعُ عنكم[2].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

نُكتةُ فصْلِ الآية عن سابِقتِها:

ملكُ الله تعالى للسّماواتِ والأرضِ يَقتضِي علْمَه بكلِّ شيء

فُصِلتْ هذه الآيةُ عن سابِقتِها، لأنّها تذييلٌ في قوّةِ التَّأكيدِ لقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ﴾، ولذلك فصلَ بدون عطْفٍ لكمالِ الاتّصال بينهما، لأنَّ ثُبوتَ مُلكِ السَّماوات والأرض للّه تعالى يقتضِي أن يكونَ عليمًا بكلِّ شيءٍ، لأنَّ تَخَلُّفَ العلْمِ عنِ التَّعلُّق ببعضِ المُتملَّكاتِ يُفضِي إلى إضاعةِ شُؤونِها[3].

بلاغةُ التَّأكيدِ:

إثباتُ صِفةِ العلْمِ وبيانُ سببِها

افتتاحُ قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾ بـ ﴿إِنَّ﴾ مع عدمِ الشَّكِّ في مضمُونِ الخبرِ، يُعَيِّنُ أنَّ (إنَّ) لمجرّدِ الاهتمامِ

(1) ابن دريد، جمهرة اللُّغة: (نصر).
(2) لجنة من عُلماءِ الأزهر، المنتخَبُ في تفسير القرآنِ الكريم، ص: 281، ونُخْبة من أساتذة التَّفسير، التَّفسير المُيَسَّر، ص: 205، وجماعَةٌ من علماء التَّفسير، المُخْتَصَر في تفسير القرآن الكريم، ص: 205.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/48.

فتكونُ مُفيدةً معنَى التَّفريعِ بالفاءِ والتَّعليلِ[1]، والآيةُ الكريمةُ تُؤكِّدُ علْمَ اللّه تعالى الّذي خُتمتْ به الآيةُ السَّابقةُ، فهذه الآيةُ السَّاميةُ الأخيرةُ، تُؤكّدُ علْمَ اللّه تعالى الشَّاملَ، وتُبيِّنُ سببه بسُلطانِ اللّه تعالى المطلَقِ، الّذي يُدَبِّرُ كلَّ شيء فيه على مُقتضَى علْمِه وحكمتِه، قال تعالى: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾ [البقرة: 117]، وبيّنتْ أنَّ ملكَه لا يكونُ على الإنسانِ فقط، بل هو على السَّماواتِ بأبراجِها والأرضِ بطبقاتِها لا يخرجُ عن مُلكِه شيءٌ[2].

نُكتةُ إظهارِ الاسمِ الجليلِ:

بيانُ كمالِ التَّعظيمِ والجلالِ الدَّالِّ على كمَالِ المُلْكِ

جاءَ التّعبيرُ القرآنيُّ في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾ مُظهِرًا اسمَ الجلالةِ ﴿ٱللَّهَ﴾، للدّلالةِ على أنّه المَلِكُ الأعظمُ المحيطُ بصفاتِ الكمالِ[3]، ولم يأْتِ به مُضمَرًا من بابِ التّعظيمِ وتربيةِ المهابةِ في نفوسِ خلْقِه[4]، ولأنَّ لفظَ الجلالة (اللّه) هو الاسمُ العلمُ الجامعُ لسَائرِ الصِّفاتِ، وهذا هو المناسبُ لسياقِ الآيةِ، فاللّه له كلُّ صفاتِ الجمالِ والكمالِ، فلا ينازعُه منازعٌ، ولا يتأتَّى ذلك إلّا في لفْظِ الجلالةِ[5].

فائدةُ تقديمِ شِبْهِ الجُملة ﴿لَهُۥ﴾:

اختصاصُه سبحانه بالمُلْكِ الكاملِ دونَ سواه

قُدِّم الجارُّ والمجرورُ في قولِه تعالَى: ﴿لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾، وهو تقديمٌ جائزٌ عربيَّةً، وأصلُ النَّظمِ: (مُلكُ السّماواتِ والأرضِ لهُ) ولتقديمِه فائدتان بلاغيّتانِ، أمَّا الأولَى: فهي الاختصاصُ، أي: اختصاصُه بالمُلكِ دونَ سواه لا يُشاركُه في ذلك مُشاركٌ، ولا يُنازعُه مُنازعٌ يتصرّفُ في مُلكِه بما يشاءُ منَ التَّصرّفاتِ[6].

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/48.
(2) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 7/3463.
(3) البقاعي، نظم الدُّرر: 9/34.
(4) الثعلبي، الكشف والبيان: 5/104.
(5) الآلوسي، روح المعاني: 1/354.
(6) القنوجي، فتح البيان: 3/189.

وأمَّا الثَّانيةُ فهيَ التَّشويقُ لما بعدَه، فإذا قرأَ القارئُ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ﴾ تشوَّقَ السَّامعُ ليعرفَ ما لهُ[1].

فائدةُ التَّعبيرِ بالمصدرِ ﴿مُلْكُ﴾:

من لوازمِ ثُبوتِ المُلك كمالُ التّصرّف فيه

وصَفَ ربُّنا ﷻ نفسَه بأنَّ ﴿لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ ليبيِّن جوازَ تَصرُّفاتِه في مملكتِه بما يشاءُ منَ الإضلالِ والهدايةِ والمغفرةِ والعذابِ وغيرِ ذلك[2]، فهو مالكُ المُلْكِ منَ العرشِ إلى الثَّرى، وفيه إعلامٌ بأنَّ التّصرّفَ المطلَقَ له في الضَّلالةِ والهدايةِ والحياةِ بالوَصْلَةِ، والموتِ بالفُرْقَةِ[3].

سِرُّ التَّعبيرِ بقولِه تعالى: ﴿لَهُۥ مُلْكُ﴾ بالضَّمّ:

مُلكُ اللهِ سلطانُه علَى الخلْقِ وتصرّفُه المطلَقُ في مخلوقاتِه

آثرَ القرآنُ الكريمُ التَّعبيرَ بـ(المُلك) دون (المِلك)، لوجودِ فرقٍ بينهما، فالمُلك يرادُ به ملكُ السّلطانِ وسياسةُ الحُكم، أمّا (المِلك) فالمرادُ إثباتُ الملكيّةِ، من قولِك: ملَكَ فلانٌ هذا الشّيء فهو يَملكُه مِلكًا، وقد يكونُ الإنسانُ مِلكًا للشّيء ولا يملكُ التّصرّفَ فيه، أمّا المُلك فهو مالكٌ للتّصرّفِ فيه، لذلك لمّا كان المرادُ هنا إثباتَ سُلطانِه سُبحانه وتصريفَه لملكِه، جاء التَّعبيرُ بـ(المُلك) دون (المِلك).

سِرُّ التَّعبيرِ بالاسميّةِ في الملكِ: ﴿لَهُۥ مُلْكُ﴾ دونَ الفعليّةِ:

بيْنَ صِفةِ الذّاتِ وصِفةِ الفعْلِ

آثرَ القرآنُ الكريمُ التَّعبيرَ بالاسميّةِ في (المُلك)، للدّلالةِ على ثُبوتِه واستمرارِه فهو ﷻ مالكُ المُلك، فلا ينفكُّ عنه، لأنّه صِفةُ ذاتٍ، بخلافِ الإحيَاءِ والإماتةِ حيث قال: ﴿يُحْيِۦ وَيُمِيتُ﴾ فهو صِفةُ فعْلٍ، والفعلُ يُناسبُه التَّجدّدُ والحُدوثُ.

سِرُّ تخصيصِ السّماواتِ والأرضِ بالذِّكرِ دونَ غيرِهما:

السّماواتُ والأرضُ أعظمُ المخلوقاتِ المحسوسةِ بما فيها منَ الآياتِ والبراهِينِ

النّاظرُ في هذه الآيةِ القرآنيّةِ يجدُ تخصيصَ ملكِه سُبحانه

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 9/34.
(2) الجرجاني، درج الدرر: 1/801.
(3) البقلي، عرائس البيان: 2/54.

بالسّماوات والأرض مع أنّه يملكُ الدّنيا والآخرةَ جميعًا، لكنّه آثرَ تخصيصَهما بالذّكر هنا، لأنّهما أعظمُ المخلوقاتِ المحسوسةِ بما فيهما منَ الآياتِ والبراهِينِ، وأيضًا، لأنّ المخلوقاتِ جميعًا بينَهما، فإمَّا أن تكونَ المخلوقاتُ في السّماوات أو تكونَ في الأرض، والملكيّةُ لهما ملكيّةٌ على ما فيهما.

بلاغةُ جَمْعِ ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ وإفرادِ ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾:

بيانُ كونِ السّماواتِ أجناسًا مختلفةً والأرضِ جنسًا واحدًا

جَمعَ ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾، لأنَّها أجناسٌ مُختلفة، كلُّ سماءٍ من جنْسٍ غيرِ الأخرَى، وَوَحَّدَ ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾، لأنَّها كُلُّها تُرابٌ[1]، ولأنَّ الأرضَ عالَمٌ واحدٌ، والمعنى: أنَّ في خلْقِ السَّماوات جمعًا مع إفراد الأرض آياتٍ تُدلّلُ على مُلكِه للسّماواتِ والأرضِ.

سِرُّ عطْفِ الأرضِ على السّماوات:

عُمومُ مُلك الله للسّماواتِ والأرضِ

جُعِلتِ الأرضُ معطوفةً علَى السَّماواتِ في قولِه تعالى: ﴿لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، لِيَتَسلَّطَ المُضاف عليهما، أي أنّ مُلكَ اللّه شاملٌ لكلِّ المخلوقاتِ في الأرضِ وفي السّماوات كلِّها، فهو المَلكُ الّذي لا يَخرجُ عن مُلكِه سُبحانَه شيءٌ قَلَّ أو كثُرَ، جلَّ أو حقُرَ[2].

سرُّ تقديمِ ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ على ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾:

مَكانَةُ السَّماواتِ وعظَمتُها

قُدِّمَ ذِكْرُ السَّماواتِ على الأرضِ جريًا على عادةِ القرآنِ الكريمِ، فإنّ القرآنَ قدَّمَ ذِكْرَ السَّماواتِ على الأرضِ في أكثر آياته، ولم يتأخَّرْ ذِكْرُها إلّا في القليلِ جدًا، وقُدِّمتْ أيضًا من باب تقديم الأعظمِ والأعلَى، فالشّأنُ أنْ يتقدَّمَ ذِكْرُ الأعظمِ والأعلَى مكانًا على غيرِه، إلّا إنْ كانَ هناكَ ما يُوجبُ خلافَه، والتَّقديمُ للأهميّةِ والقداسةِ، فالسَّماء فيها العرشُ والكرسيُّ.

(1) النَّيسابوريُّ، التّفسير البسيط: 3/453، والبغويُّ، معالم التَّنزيل: 1/195.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/77.

سِرُّ الإتيانِ بصِفةِ الإحياءِ والإماتةِ بعد المُلك:

المـوتُ والحياةُ دلائلُ الله على قُدرتِه وعلْمِه وكمالِ مُلكِه لكلِّ شيءٍ

جاءَ التَّعبيرُ القرآنيُّ بصِفةِ الإحياءِ والإماتةِ بعد المُلك، للتّدليلِ على قُدرتِه وعِلْمِه بما يُشاهَدُ مُتكرِّرًا من فعْلِه في الحيوانِ والنَّباتِ وغيرِ ذلك فقال: ﴿يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ﴾ أيْ: بكلِّ معنى فهو الّذي أحياكُم وأحيا غيْرَكم الحياةَ الجسمانيَّةَ وخصّكُم أنتم بالحياةِ الإيمانيَّةِ[1]، فهو المُدبِّر لعبادِه بالإحياءِ والإماتةِ، وأنواعِ التَّدابيرِ الإلهيَّةِ.

نُكتةُ الفصْلِ: ﴿يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ﴾:

بيانُ آثارِ المُلكِ ومَظاهِرِه

فُصِلَ قولُه سبحانه: ﴿يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ﴾ عن قولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾، لأنّه أتَى بالأمرِ الّذى يظهرُ فيه أثرُ القدرةِ والمُلك، ولا يشاركُه فيه غيرُه، فقال: يُحْيِي وَيُمِيتُ[2]، فـ(يُحيي ويُميت) لتصويرِ معنَى المُلك في أتمِّ مظاهرِه المحسوسةِ للنَّاس المُسَلَّم بينَهم أنّ ذلك من تصرُّفِ اللّه تعالى لا يستطيعُ أحدٌ دفْعَ ذلك ولا تأخيرَه[3]، وفيه إشارةٌ إلى أنَّه يجبُ أيُّها المؤمنون ألَّا تجزعُوا من عدوٍّ وإن كَثُرَ، ولا تهابُوا أحدًا، فإنَّ الموتَ المخوفَ والحياةَ المحبوبَة، هُما بيدِ اللّه ﷻ[4]، فالفصْلُ لكمال اتّصالها بما سبقَها، أو لأنّها وقعت استئنافًا بيانيًّا عن سؤالٍ مقدّرٍ: ما مظاهرُ مُلكِه للسّماوات والأرض؟

دلالةُ حذْفِ مُتعلّقِ الإحياءِ والإماتةِ: ﴿يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ﴾:

كـلُّ المخلوقاتِ حياتُها وموتُها بيدِ الله، يَهبُها أو يَسلبُها

حُذفَ مُتعلّقُ الفعْلِ ﴿يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ﴾، لإفادة العموم، ليشمَلَ كلَّ ما من شأنِه أن يحيا ويموت، فالإحياءُ: يكونُ بالخلْقِ والإيجادِ الظَّاهِرَيْنِ، ويكونُ الإحياءُ بالإيمان على سبيلِ الاستعارةِ التَّبعيّةِ، ومثلُه في الإماتةِ، ونظيرُه في هذا المعنى قولُه تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيۡتٗا

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 9/34.
(2) الشَّعراوي، تفسير الشَّعراوي: 9/5543.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتنوير: 11/48.
(4) الزُّحيلي، التَّفسير الوسيط: 1/924.

﴿فَأَحۡيَيۡنَٰهُ وَجَعَلۡنَا لَهُۥ نُورٗا يَمۡشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ لَيۡسَ بِخَارِجٖ مِّنۡهَاۚ﴾ [الأنعام: 122][1].

فيُحيي مَنْ شاء على الإيمان ويُميتُه عليه، ويُحيي مَنْ شاء على الكفر ويُميته عليه، لا اعتراض لأحدٍ عليه في حُكمِه وعبيدِه[2]، لأنّه هو الّذي يهبُ الحياةَ الحيوانيَّةَ والحياةَ المعنويَّةَ الرُّوحيَّةَ بمحْضِ قُدرتِه ومشيئتِه ومُقتضَى سُنَنِه في التَّكوينِ والهدايةِ الفعليَّةِ، ويميتُ ما شاء منَ الأبدانِ بانقضاءِ آجالِها المقدَّرةِ في علْمِه، ومنَ الأنفُسِ بنُكوبِها عن صراطِ هدايتِه[3].

نُكتةُ تقديمِ الإحياءِ على الإماتةِ: ﴿يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ﴾:

قدّمَ الإحياءَ على الإماتةِ في قولِه تعالى: ﴿يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ﴾ مع أنّه في مواضعَ أُخرى كان يقدّمُ الموتَ على الحياةِ كقولِه تعالى: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡمَوۡتَ وَٱلۡحَيَوٰةَ لِيَبۡلُوَكُمۡ﴾ [الملك: 2]، لأنَّ السّياقَ هنا اقتضَى ذلك، فالحياةُ هي الصِّفةُ الّتي يكونُ الموصوفُ بها بحيث يَصِحُّ أن يَعْلَمَ ويَقْدِرَ، والموتُ عبارةٌ عن عدمِ هذه الصِّفةِ[4]، وبهذا الاعتبار قدَّمَ الإيجادَ على الإعدامِ، ولتجلِّي المُلكِ والقُدرة في الإحياءِ قُدِّم على الإماتةِ، لأنَّ المرءَ قد يَقْتُلُ غيرَه ويدّعي أنَّه أماتَه، ولكنْ أنَّى له أن يُحْيِيَه.

تجلِّي المُلكِ والقُدْرةِ في الإيجادِ والإحياءِ أكثرَ منه في الإماتةِ والإعدامِ

سِرُّ التَّعبيرِ بالفعْلِ المضارعِ ﴿يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ﴾:

جاءَ التَّعبيرُ بالفعْلِ المضارعِ في صِفةِ الإحياءِ والإماتةِ، للدَّلالةِ على تجدُّدِهما واستمْرارِهما في جنْسِ المخلوقاتِ الحيوانيَّةِ، بل وفي النّباتاتِ، وهذا أمرٌ مُشاهدٌ يُؤيّدُه الواقعُ، ففي كلِّ دقيقةٍ أو أقلّ يحدث ما لا يُحصَى من عملياتِ الإحياءِ والإماتةِ.

الدّلالةُ على التّجدّدِ الاستمراريِّ

(1) الدّرة، تفسير القرآن الكريم: 4/247.
(2) الشِّربيني، السراج المنير: 1/746.
(3) محمد رضا، تفسير المنار: 11/63.
(4) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 30/579.

دلالةُ الواوِ: ﴿وَمَا لَكُم﴾:

الواوُ في قولِه تعالى: ﴿وَمَا لَكُم﴾ عاطفةٌ، عطفَتْ قولَه تعالى: ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ على ما سبَق منَ الآية، والغرَضُ من ذلك تأييدُ المسلمين بأنَّهم منصورُون في سائِرِ الأحوال، لأنَّ اللّه وليُّهم فهو نصيرٌ لهم، ولإعلامِهم بأنَّهم لا يَخشَوْن الكفّار، لأنَّ الكافرينَ لا مولَى لهم، وذلك مُناسِبٌ لغرَضِ الكلامِ المتعلّقِ باستغفارِهم للمشركين بأنَّه لا يُفيدُهم[1]، وفيه إشارةٌ إلى تحريضِ اللّه تعالى لعبادِه المؤمنين على قتال المشركين والكافرين، وأن يثقُوا بنصْرِ اللّه مالِكِ السَّماوات والأرض ولا يرهبُوا من أعدائِه، فإنَّه لا وليَّ لهم من دون اللّه ولا نصيرَ لهم سِواه[2].

اللّه مَولَى المؤمنين وناصِرُهم، والمشركُونَ لا مَولَى لهم ولا ناصِرٌ

دَلالةُ كَافِ الخطابِ في: ﴿لَكُم﴾:

الخطابُ للمؤمنين، ومعناه: وما لكم أيُّها المؤمنون من وليٍّ يُواليكم وتُحبُّونه إلَّا اللّه تعالى، ولا نصيرَ يَنصرُكم سواه، فلا تُؤْثِروا عليه قَرَابةً أشركتْ باللّه وعصَتْ رسولَه الذي أرسلَه رحمةً للعالمين، فهو سُبحانه أَوْلى بخَلْقِه، يَهدِي مَنْ يشاءُ ويُضِلُّ مَنْ يشاءُ[3].

وفيه إشارةٌ إلى حقيقةٍ كونيّةٍ خالدةٍ، وهي مُلكُه سُبحانه للكونِ كلِّه وقَيوميّتُه عليه ونفيُ ذلك عن غيره.

تَنبيهُ المؤمنين للوَلايةِ والنُّصرةِ الحَقَّةِ وأنَّها منَ اللّه تعالى

دلالةُ ﴿مِّن﴾ في: ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾:

دلّتْ ﴿مِّن﴾ في قولِه تعالى: ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ على تأكيدِ اختصاصِه سُبحانَه بوَلايةِ المؤمنين ونُصرتِهم دون سواه، لأنّه لمَّا كان الدّعاءُ والاستغفارُ للمُشركين من ذوي القُربى يُفهمُ منه معنَى النُّصرةِ، نهَى المؤمنين عن ذلك، وفيه تهديدٌ لمَنْ أقْدمَ على فعْلِ ذلك مُلاينةً لأعداءِ اللّه، طلبًا لمُوالاتِهم، وهي لا تُغني منَ اللّه شيئًا[4].

بيانُ تحقيرِ رُتبةِ الأولياءِ والنَّاصِرين من غيرِ اللّه مهمَا كانتْ قرابتُهم

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/48.
(2) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/199.
(3) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 7/3463.
(4) البقاعي، نظم الدُّرر: 9/35.

مَعنى ﴿دُونِ﴾ وإضافتِها إلى لفْظِ الجلالةِ:

دلَّ التَّعبيرُ بقولِه تعالى: ﴿دُونِ﴾ مع إضافتِها إلى لفْظِ الجلالةِ في قوله تعالى: ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾على أنَّ كلَّ الولاياتِ والنّصرةِ من غيرِ اللّه حقيرةٌ، لأنَّ ﴿دُونِ﴾ نقيضُ (فوقَ)، وهو ظرفٌ يَدُلُّ على التَّقصيرِ عنِ الغايةِ[1]، وَصفُوا بِهِ مَا لَيْسَ برفيعٍ[2]، فَقَالُوا رجلٌ دُونٌ وثوبٌ دُونٌ، وهَذَا دُونَك فِي التَّحْقيرِ، ويُقالُ: دُونُك زَيْدٌ في المنْزِلَةِ والقُرْبِ[3]، فالمادّةُ تدورُ حولَ الرّفعةِ وعدمِ الرّفعةِ، وفي هذا ذمٌّ لكلِّ وَلايةٍ ونُصرةٍ من دونِ اللّه.

لا تُطلبُ الولايةُ والنّصرةُ ممّن لا يملكُ لنفسِه نفعًا ولا ضرًّا

نُكتةُ تَنكيرِ ﴿وَلِيّ﴾ و﴿نَصِيرٍ﴾:

في تنكيرِ ﴿وَلِيّ﴾ و﴿نَصِيرٍ﴾ وتنوينِهما دليلٌ على العمومِ والتّحقيرِ، فكلُّ وَليٍّ ونصيرٍ جليلًا كان أو حقيرًا مهما كان وفي أيِّ زمان كان اتُّخذ من دونِ اللّه ﷻ لا تَكْمُلُ وَلايتُه ونُصْرَتُه لِمَنْ والاه ونصَرَه.

بيانُ عجْزِ كلِّ وليٍّ ونصيرٍ من دونِ اللّه على العُمومِ

نُكتةُ تقديمِ الوليِّ على النَّصيرِ: ﴿وَلِيّ وَلَا نَصِيرٍ﴾:

قُدِّمَ الوليُّ على النَّصيرِ لأمرَيْن اثنَيْن:

الأوَّل: القربُ، فالوليُّ أقربُ منَ النَّصيرِ، إذْ به تقومُ الأمورُ والأحوالُ، ثمّ يكونُ النَّصيرُ في أحوالِ النُّصرةِ والتَّأييدِ[4].

الثّاني: السُّهولةُ، "لأنَّ الرّكنَ الشَّديدَ الّذي يستندُ إليه، إمّا وليٌّ يَشفعُ أو ناصرٌ يَدفعُ، والأوَّلُ أسهلُ الطَّريقيْن، فلذلكَ قُدّمَ الوليُّ على النَّصيرِ[5].

قُربُ الوليِّ وسُهولةُ حالِه في الشّفاعةِ والقيامِ بالأمورِ

بلاغةُ العطْفِ وتَكرارِ النَّفْيِ مع ﴿نَصِيرٍ﴾:

عُطفَ النَّصيرُ على الوليّ في قولِه: ﴿وَلِيّ وَلَا نَصِيرٍ﴾، للاحتراسِ،

التّأكيدُ على نفيِ أوهامِ الأفهامِ أن يكون هناك نصيرٌ من دونِ الله

(1) الجوهري، الصّحاح، وابن منظور، لسان العرب: (دون).
(2) ابن سيده، المخصَّص: 4/234.
(3) الزبيدي، تاج العروس: (دون).
(4) ابن جرير، جامع البيان: 2/489.
(5) النيسابوري، غرائب القرآن: 5/380.

فالوليُّ "قد يضعُفُ عن النُصرةِ، والنَّصيرُ قد يكونُ أجْنبيًّا منَ المنصور[1]، فلِحصولِ التَّكاملِ بينَ وَلايةِ الوليّ ونُصرةِ النَّصيرِ عطفَ الواحدَ على الآخرِ "لأنَّ نفيَ الوليّ لا يقتضِي نفيَ كلِّ نصيرٍ إذْ لا يكونُ لأحدٍ وليٌّ لكونِه دخيلًا في قبيلةٍ، ويكونُ أنصارُه من جيرتِه[2]، فكَمنتْ بلاغةُ الاحتراسِ في اكتمالِ المعاني، ونفْيِ أيِّ ظنٍّ يرِدُ على الأذهانِ في نصرةِ أحدٍ من دونِ اللّهِ تعالى.

بلاغةُ توسُّطِ (لا) بين المعطوفَيْن: ﴿مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾:

لتأكيد نفْيِ النّصرة، وإلهابِ المشاعر

وُسّطتْ (لا) بين المعطوفَيْن، لتأكيد النّفي، لأنّه لا يَستلزمُ نفيُ الوليّ نفيَ النّصيرِ، وهذا من باب إلهاب المشاعر، لأنَّ الغرضَ من نفيِ الوَلاية هنا التَّعريضُ بمَنِ استغفرَ للمُشركين ولو كانوا أُولي قُربى.

دلالةُ الجمْع بين الوليّ والنَّصير: ﴿مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾:

لا وَلايةَ ولا نُصرةَ إلا من عندِ الله وبإذنه

جمعَ القرآن الكريم الوَلايةَ والنُّصْرَةَ لقَطْعِ الأطماعِ في الانتفاع بالوَلايةِ والنُّصرةِ من غيرِ اللّه، لأنّه مَنْ علِمَ أنّه لا وليَّ له يَحميه، ولا نَصيرَ يدفعُ عنه إذا ارتكبَ شيئًا كان أبعدَ عن ارتكابِه.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(الوليُّ) و(المولى) و(النَّصيرُ):

الوَليُّ خاصٌّ بالمؤمنين، والمَوْلى عامٌّ

المَوْلى: هُوَ السَّيِّدُ، والحليفُ، وَابْنُ العمِّ، وَالأَوْلَى بالشَّيْء، والصَّاحِبُ المعين.

والمعنَى في حق اللّه: المُعين الذي تركن إليه وتعتمدُ عليه وتَحتمِي به عندَ الشّدّةِ والرَّخاءِ، وفي السّرّاءِ والضّرّاءَ[3].

والوَليُّ في أسماء اللّه تعالى خاصٌّ بالمؤمنين، فاللّه وليُّ المؤمنين؛ أَي: مُعينُهم، وَالمُؤمن وليُّ اللّه؛ أَي: المُعانُ بنصْرِ اللّه ﷻ[4] كقوله

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 1/235.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/695.
(3) ابْنُ مَنْظورٍ، لِسانُ العَرَب: (ولي).
(4) العسكري، الفروق اللّغوية، ص: 284.

تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [البقرة: 257]، أمّا المَولَى فيُطلقُ على المعنَى الخاصِّ بالمؤمنين كقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوۡلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَأَنَّ ٱلۡكَٰفِرِينَ لَا مَوۡلَىٰ لَهُمۡ﴾ [محمّد ﷺ: 11]، ويُطلقُ أيضا بالمعنَى العامِّ مثلَ قولِه تعالى: ﴿وَرُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوۡلَىٰهُمُ ٱلۡحَقِّۚ﴾ [يونس: 30].

ولا تعارُضَ بين الآيتَيْن الكريمتَيْن، إذ معنَى كونِه مولَى الكافرين أيْ: مالكُهم والمتصرِّفُ فيهم بما شاء، ومعنَى كونِه مولَى المؤمنين دونَ الكافرين: أيْ وَلايةَ محبَّةٍ وتوفيقٍ[1].

أمَّا الفرقُ بين الوَليِّ والنَّصير، فإنَّ الوَلايةَ تكونُ بإخلاصِ المودَّةِ، والنُّصْرةَ تكونُ بالمعونةِ والتَّقويةِ، وقد لا تُمْكِنُ النُّصْرةُ مع حصولِ الوَلايةِ[2].

الوَلايةُ تكونُ بإخلاصِ المَودَّةِ، والنُّصرةُ تكونُ بالمعونة

ومنَ الفرْقِ بينَهما أيضًا أنّ الوليَّ قد يضعفُ عنِ النُّصرةِ، وأنَّ النّصيرَ قد يكونُ أجنبيًّا عنِ المنصور، وقد يكونُ من أقربائِه، فكلُّ وليٍّ نصيرٌ وليس كلُّ نَصيرٍ وليًّا، فبينهما عمومٌ وخُصوصٌ.

(1) الشِّنْقيطي، دَفْعُ إيهامِ الاضْطِرابِ، ص: 89.
(2) العسكري، الفروق اللّغوية، ص: 189.

﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلۡعُسۡرَةِ مِنۢ بَعۡدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٖ مِّنۡهُمۡ ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّهُۥ بِهِمۡ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ ١١٧﴾ [التَّوبة: 117]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

أنّه لمّا ذكرَ في ختامِ الآيةِ السّابقةِ أنّه سُبحانُه هو وليُّهم وناصرُهم؛ ذكرَ في هذه الآيةِ الدّليلَ على ذلك بقولِه: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ﴾ الآية، فاللّه الذي له الجلالُ والإكرامُ تزدادُ ولايتُه ونُصرتُه للرّسولِ ﷺ وللمؤمنين برفْعِ درجاتِهم، فما مِن مَقامٍ يرتقُون فيه إلّا ودلَّهُم عليه[1].

ومنَ المناسبةِ أيضًا أنّه لَمَّا تقدَّمَ الكلامُ في أحوالِ المُنافِقينَ مِن تَخَلُّفِهم عن غزوةِ تَبوكَ، واستطرَدَ إلى تقسيمِ المُنافِقينَ إلى أعرابٍ وغَيرِهم، وذكَرَ ما فعلُوا مِن مَسجِدِ الضِّرارِ، وذكَرَ مُبايعةَ المؤمنينَ اللّهَ في الجِهادِ وأثنَى عليهم، وأنَّه ينبغي أن يُباينُوا المُشرِكينَ، حتَّى الذين ماتُوا منهم بتَرْكِ الاستغفارِ لهم عادَ إلى ذِكْرِ ما بَقِيَ مِن أحوالِ غَزوةِ تَبوكَ[2]، فهذه الآياتُ تَتِمَّةُ ما تقدَّمَ مِن موضوعِ تَوبةِ المتخَلِّفينَ عن غزوةِ تَبُوكَ، أُخِّرَت على سُنَّةِ القرآنِ في تفريقِ الآياتِ في الموضوعِ الواحِدِ، لأنَّه أدْنى ألَّا يَسأَمَ التَّالي لها في الصَّلاةِ وغَيرِها، وأقوَى في تجديدِ الذِّكرى، والتّأثيرِ في النَّفسِ[3].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلۡعُسۡرَةِ﴾: العُسْرَةُ: قِلَّةُ ذاتِ اليَدِ، والعُسْرُ: نَقيضُ اليُسْرِ، وأَصْلُ (عُسْرٍ) يَدُلُّ عَلَى صُعُوبَةٍ وَشِدَّةٍ، والعُسْرَةُ: تَعَسُّرُ وُجودِ المالِ، والعُسْرَة والمَعْسَرَة: خِلافُ المَيْسَرَة، وأَعْسَرَ الرَّجُلُ إِعْسارًا، إذا افْتَقَرَ[4]، والمعنى هنا: في ساعَةِ العُسْرَةِ، أي: وقتِها، وهي شدّةُ حالِهم

(1) البقاعي، نظم الدرر: 3/396.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/516.
(3) محمد رضا، تفسير المنار: 11/52.
(4) الخليل، العَيْن: (ع س ر)، وابن دُريد، جمهرةُ اللُّغة: (رسع)، وابنُ فارس، مقاييسُ اللُّغة، والزّبيديُّ، تاجُ العروس، والرّاغب: المُفرداتُ: (عسر).

في غزوة تبوك من عُسرةِ الظَّهرِ والزّادِ والماءِ حيث كان الرَّجلان يَقتسمان تمرةً، والعشرةُ يَعتقبون البعيرَ الواحدَ، واشتدَّ الحَرُّ حتَّى شَرِبُوا الفَرْثَ[1].

2) ﴿يَزِيغُ﴾: أي: تَعدِلُ وتَميلُ عنِ الحَقِّ، وأصلُ (زيغ): يدلُّ على مَيلِ الشَّيءِ عنِ الاستقامةِ[2]، يُقَالُ: زَاغَ يزيغ زيغًا، والتَّزيُّغ: التَّمايُلُ، وقومٌ زاغةٌ، أي: زائغونَ، وزاغتِ الشَّمسُ، وذلك إذا مالتْ وفاءَ الفيءُ، والمَعْنَى هُنا: من بعد ما كادَ يميلُ قلوبُ بعضِهم عنِ الحقِّ، بالذي نالَه منَ المشقَّةِ والشِّدَّةِ في سفَرِه وغَزْوِهِ[3].

3) ﴿رَءُوفٌ﴾: أي: شديدُ الرَّحمةِ، أو ذو رحمةٍ واسعةٍ، ورءوف من صِيغِ المبالغة (فعولٌ) بمعنى فاعلٌ؛ أي: كثير الرّأفةِ، والرّأفةُ أشدُّ الرّحمةِ أو أرَقُّها[4]، وفعلُه رَؤُفَ به ورَأَفَ ورَئِفَ؛ أي ثلاثيّة الهمزة بضمّ الهمزة وفتحها وكسرها، وكلّه من كلام العرب[5]، وأصلُ (رأف): يدلُّ على رِقَّةٍ ورَحمةٍ[6].

المَعْنى الإجْماليُّ:

لُطْفُ الله تعالى بعبَادِهِ وتَوفيقُه لهم

بيّنتْ هذه الآيةُ توفيقَ اللّه لنَبيِّه محمَّدٍ ﷺ إلى الإنابةِ إليه وطاعتِه، وتابَ اللّه على المهاجرين الذين هجَرُوا ديارَهم وعشيرتَهم إلى دار الإسلام، وعلى الأنصارِ الذين لم يَتَخَلَّفُوا عنه، بلِ اتَّبعوه في غزوةِ تبوكَ مع شِدَّة الحرِّ وقِلَّةِ ذاتِ اليد وقوَّةِ الأعداءِ، لقد تاب اللّه عليهم من بعدَ بعدِ ما كادَ يَميلُ قلوبُ بعضِهم عنِ الحقِّ، فيَميلُون

(1) القرطبيُّ، الجامع لأحكام القرآن: 8/279، والغزنويُّ، باهر البرهان: 1/623، والصَّاوي، حاشية الصَّاوي على الجلالَيْن: 2/77.

(2) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 193، وابن جرير، جامع البيان: 12/49، وابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرّاغب، المفردات: (زيغ)، وابن الجوزي، تذكرة الأريب، ص: 148، وابن الهائم، التِّبيان، ص: 229.

(3) ابن جرير، جامع البيان: 14/539.

(4) الفيروزآبادى، القاموس المحيط: (رأف).

(5) الشّيخليّ، بلاغة القرآن الكريم: 1/430.

(6) ابن جرير، جامع البيان: 3/595، والسِّجستاني، غريب القرآن، ص: 235، وابن فارس، مقاييس اللُّغة: (رأف)، وابن الهائم، التِّبيان، ص: 114.

إلى الدَّعةِ والسُّكونِ، لِما هُمَّ فيه منَ الشِّدَّةِ العظيمةِ، ثُمَّ غَفَرَ اللّٰه لهم هذا الهَمَّ الذي خَطَرَ بنفوسِهم ووفّقَهُم للثَّبات والخروجِ إلى الغزو، إنَّه سُبحانَه كثيرُ الرَّأفةِ بهم، عظيمُ الرَّحمةِ، ومن رحمتِه توفيقُهم للتَّوبةِ وقَبولُها منهم[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دَلالةُ فصْلِ هذه الآيةِ عمّا قبلَها:

ثناءُ اللهِ على الذين دُعُوا للغزْوِ واقتحمُوا شدائِدَه

فُصِلَ قولُه تعالى: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ﴾، لأنّها جملةٌ استئنافيّةٌ ابتدائيّةٌ الغرَضُ منها الانتقالُ منَ التَّحريضِ على الجهادِ والتَّحذيرِ منَ التَّقاعُسِ والتَّوبيخِ على التَّخلُّفِ عنه إلى بيانِ فضيلةِ الذين انتُدبُوا للغزوِ واقتحمُوا شدائِدَه.

دلالةُ اللَّامِ في: ﴿لَّقَد﴾:

توكيدُ التَّوبةِ، وتَحقُّقُ وقوعِها وقُوعًا تامًّا كاملًا

اللَّامُ في ﴿لَّقَد﴾ هي اللَّامُ الواقعةُ، في جواب قسَمٍ مُقَدَّرٍ، وهذا القسَمُ لتوكيدِ التَّوبةِ، ووقوعِها وقُوعًا تامًّا كاملًا، لم يبقَ معها ذنْبٌ، أو معصيةٌ، فهي توبةٌ يخرجُ بعدَها مَنْ وقعتْ عليه مُعافًى من كلِّ سُوءٍ، مُبَرَّأً من كُلِّ مَأْخَذٍ[2].

نُكتةُ دخولِ (قد) علَى الفِعْلِ الماضِي:

تأكيدُ مضمونِ الجُملةِ المُؤْذِنِ ببِشارةِ النَّبيِّ والمؤمنين كُلٌّ بحسَبِ حالِه

افتتحَ النَّظمُ الكريمُ الكلامَ بحرفِ التَّحقيقِ تأكيدًا لمضمونِ الكلامِ الواردِ في هذه الآيةِ وهو توبةُ اللّٰه على رسولِه وصحْبِه الكرامِ منَ المهاجرين والأنصارِ، وفيه بِشارةٌ برضَى اللّٰه على رسولِه وعلى المؤمنين الذين كانوا معه في غزوة تبوك[3].

دلالةُ التَّعبيرِ بالفِعْلِ الماضِي ﴿تَّابَ﴾ في قولِه تعالى: ﴿لَّقَد تَّابَ﴾:

للدّلالةِ علَى تحقُّقِ وُقوعِ التَّوبَةِ

آثرَ التَّعبيرَ بالفِعْلِ الماضِي ﴿تَّابَ﴾، للدّلالةِ على تحقُّقِ وقوعِ

(1) لجنة من عُلماءِ الأزهر، المنتخَبُ في تفسير القرآنِ الكريم، ص: 281، ونُخْبة من أساتذة التَّفسير، التَّفسير المُيَسَّر، ص: 205، وجماعَةٌ من علماء التَّفسير، المخْتَصَر في تفسير القرآن الكريم، ص: 205.

(2) الخطيب، التَّفسير القرآنيُّ: 6/909.

(3) ابن عاشور، التَّحرير والتنوير: 11/49.

التَّوبةِ، وأنّها أمْرٌ أزليٌّ قدَّره اللّه لنَبيِّه ﷺ وللمهاجرين والأنصارِ الذين اتَّبعُوه في ساعةِ العُسْرةِ، وفي هذا إعلاءٌ لمقامِهم بتوبةِ اللّه عليهم من غيرِ سابقةِ سُؤالٍ.

سِرُّ التَّعبيرِ بالتَّوبةِ: ﴿لَّقَد تَّابَ﴾:

للتّوبةِ مُتعلّقاتٌ كثيرةٌ باعتبارِ مَن يتوبُ الله عليه

التَّوبةُ منَ اللّه رجوعُه بعبْدِه من حالةٍ إلى أرفعَ منها، فقد تكونُ في الأكثرِ رجوعًا من حالةِ طاعةٍ إلى أكملَ منها، وهذه توبتُه في هذه الآيةِ على النَّبيِّ ﷺ، وهذا ظاهرٌ في حالِه ﷺ في هذه الغزوة قبل الخروجِ وبعدَها، لأنَّه رجعَ به من حالِه قبل تحصيلِ الغزوةِ وأَجْرِهَا وتَحَمُّلِ مشاقِّها إلى حالِه بعد ذلك كلِّه، وأمَّا توبتُه على (المهاجرين والأنصار) فحالُها مُعَرَّضةٌ لأنْ تكونَ من تقصيرٍ إلى طاعةٍ وَجِدٍّ في الغزوِ ونُصرةِ الدِّين، وأمَّا توبتُه على الفريق الذي كادَ أن يزيغَ فرجوعٌ من حالةٍ مَحْطُوطةٍ إلى حالِ غفرانٍ ورضا[1].

والمُلاحَظُ على ذلك أنَّ لفْظَ التّوبةِ كان هو المناسبُ لتعدُّدِ مَنْ تابَ اللّه عليهم واختلافِ التّوبةِ في حقِّ كلٍّ منهم، ولذلك ذهبَ البعضُ إلى أنَّ المرادَ بالتّوبةِ هنا ليس بمعناها المتعارَفِ منَ النّدمِ على الذّنْبِ إلى غيرِ ذلك، بل بمعنَى التّرقّي منَ الكاملِ إلى الأكملِ في حقِّ الخواصِّ، والتّرقّي منَ النَّاقصِ إلى الكاملِ في حقِّ العوامِّ، والكاملُ والأكملُ والنّاقصُ أمرٌ إضافيٌّ يتبدّلُ بالنّسبةِ إلى ما فوقَها وتحتَها[2].

دلالةُ إظهارِ الاسمِ الجليلِ في: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ﴾:

تعظيمُ شأنِ هذه التَّوبةِ وإعلاءُ مكانتِها

أظهرَ التَّعبيرُ القرآنيُّ الاسمَ الجليلَ في قولِه تعالى: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ﴾ تعظيمًا لشأنِ التَّوبةِ وتنويهًا بِقَدْرِها، فهي منَ اللّه الكريمِ ذي الفضلِ العظيمِ، ثمّ إنّ إظهارَ لفْظِ الجلالةِ يُولّدُ في النّفوسِ مهابةَ هذا العظيمِ ويُحفّزُ على التّوبةِ إليه، فضلًا عن إنّ

(1) ابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 3/92.

(2) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاوي: 9/355.

إظهارَه مُشعرٌ بأنّه يَتولّى بنفسِه وبحضورِه هذه التّوبةَ وأنّه لا يغفلُ عنها ألبتّةَ.

فائدةُ ذكْرِ النَّبيِّ ﷺ مع المهاجرين والأنصارِ:

شرفُ ذِكْرِ الصّحابةِ مع النّبيِّ ﷺ

ذُكِر النّبيّ ﷺ هُنا في معرض ذكْرِ التَّوبةِ وهو صلواتُ اللّه وسلامُه عليه لم يقعْ منه - وحاشاه - شيءٌ، وإنّما ذُكرَ هنا تكريمًا للمهاجرين والأنصار وتشريفًا لهم، بنظْمِهم مع هذا الكوكبِ الدُّرِّيِّ الوَضيءِ، في ساحةِ رضوانِ اللّه ومغفرتِه[1]، ولذلك قالوا: إنَّ ذِكْرَه هنا كما ذكرَه تعالى في قولِه: ﴿فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ﴾ [الأنفال: 41]، ويكونُ المرادُ بذكْرِ التّوبةِ على المهاجرينَ والأنصارِ[2].

نُكتةُ تقديمِ النَّبيِّ ﷺ في تَعَلُّقِ فِعْلِ التَّوبَةِ:

التَّنويهُ بشأنِ هذه التَّوبَةِ في تَرقيّةِ تَرقيةِ النَّبيِّ ﷺ في سُلَّمِ الكمَالاتِ

افتُتحتِ الآيةُ بتوبةِ اللّه على نبيِّه ﷺ، لأنَّه كان سببَ توبَتِهم، فذَكَرَهُ معهم ﷺ[3] في تَعَلُّقِ فعْلِ التَّوبةِ بالغَزاةِ بالغُزاةِ، للتَّنويهِ بشأنِ هذه التَّوبةِ إذ قد عَلِمَ المسلمون كُلُّهم أنَّ النَّبيَّ ﷺ قد غَفَرَ اللّه له ما تَقَدَّم من ذنبِه وما تأخَّر[4]، فهو النَّبيُّ الذي لا يزالُ عندَه منَ اللّه خبرٌ عظيمٌ يُرشدُه إلى ما يُؤْذِنُ بتقويةِ حياتِه برفْعِ درجاتِه، فما من مقام يرقِّيه إليه إلا رأى أنَّه لمزيد عُلُوِّه وتقرُّبِه للمقام الذي كان دونَه، فهو في كلِّ لمحةٍ في ارتقاءٍ من كاملٍ إلى أكملَ[5].

سِرُّ تصديرِ التّوبةِ في الآيةِ بتوبَةِ الله على نبيِّه ﷺ:

التّوبةُ من مقامات التّوّابين والأوّابين والأنبياء والمرسلين

صُدِّرتِ الآيةُ بتَوبته سبحانه على نبيِّه ﷺ قبْلَ توبَتِه على المهاجرين والأنصار، جبرًا لقلوبِهم، وتنويهًا لشأنِهم بضمِّهم مع المقطوعِ بالرِّضا عنه وبعْثًا للمؤمنين على التّوبةِ، وأنّه ما من مؤمنٍ

(1) الخطيب، التَّفسير القرآنيُّ: 6/909.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 11/39.
(3) البغوي، معالم التَّنزيل: 2/396.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/49.
(5) البقاعي، نظم الدُّرر: 9/35.

إلا وهو مُحتاجٌ إلى التّوبةِ والاستغفارِ[1]، وفيه دلالةٌ على بيانِ منزلةِ التّوبةِ عندَ اللّه وأنّها صفةٌ للتّوّابين والأوّابينَ والأنْبياء.

دلالةُ الإتيان بأمْرِ التّوبة في الحديث عن غزوة تبوك:

حَاجةُ المؤمنِ إلى التّوبةِ في كلِّ أحوالِه

قد يُقالُ إنَّ قَبولَ التَّوبةِ دليلُ سبْقِ الذّنْبِ، والنَّبيّ ﷺ معصومٌ، والمهاجرُون والأنصارُ الذين اتَّبعوه تَحمّلُوا أعباءَ ذلك السَّفرِ الطّويلِ فكانَ اللَّائقُ بحالِهم أن يُثْنِيَ عليهم والجوابُ أنَّه ما مِن مؤمنٍ إلا وهو مُحتاجٌ إلى التَّوبةِ والاستغفارِ، لأنَّه لا ينفَكُّ عن هفوةٍ، إمَّا من بابِ الكبائرِ، وإمَّا من بابِ الصَّغائرِ، وإمَّا من بابِ ترْكِ الأَوْلَى والأفضلِ كما أُشيرَ إلى ذلك في حقِّ النَّبيِّ ﷺ بقوله تعالى: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمۡ﴾ [التَّوبة: 43]، وبالنّسبةِ للمؤمنين فلَعلَّه قد وقعَ في قلوبِهم نوعُ نُفْرَةٍ من تلك السَّفْرةِ لَمَّا عاينُوا المتاعبَ، ولا أقلَّ منَ الوساوسِ والهواجسِ، فأخبرَ اللّه سُبحانَه أنَّ تلك الشَّدائدَ صارت مُكَفِّرَةً لجميعِ الزَّلاتِ التي صدرتْ عنهم في ذلك السَّفرِ الطّويلِ، بل في مُدَّةِ عُمْرِهم كما وقعَ منهم في يومِ أُحدٍ ويومِ حُنَينٍ وصارتْ قائمةً مقامَ التَّوبةِ المقرونةِ بالإخلاصِ[2].

سِرُّ عدَمِ ذِكْرِ فِعْلِ التَّوبةِ مع المهاجرين والأنصارِ:

لا وَجْهَ للمُقارنةِ بين توبةِ الصَّحابةِ وتوبةِ النّبيِّ ﷺ

ذُكِرَ فعْلُ التّوبةِ مع النّبيِّ ﷺ ولم يُذكرْ مع المهاجرين والأنصار، لاختلاف المرادِ بالتّوبة، فمع الرّسولِ ﷺ يكونُ الأمرُ من باب ترْكِ الأَولَى، وللإشارةِ إلى أنّه ﷺ إمامُ أمّتِه في أمرِ التَّشريعِ لها، وأمّا توبتُه ﷺ على المهاجرين والأنصار، فهي معرَّضةٌ لأن تكونَ من تقصيرٍ إلى طاعةٍ وجِدٍّ في الغزو ونُصرةِ الدِّين، وأمَّا توبتُه على الفريقِ الذي كادَ يَزيغُ، فرُجوعٌ من حالةٍ محطوطةٍ إلى حالِ غُفرانٍ ورضَا.

(1) القاسمي، محاسن التَّأويل: 5 518.
(2) النَّيسابوريّ، غرائب القرآن: 3/540.

وممّا يُذكرُ في سِرِّ ذلك أيضًا أنّ اللّه سُبحانَه ذكرَ توبةَ مَنْ لم يُذنِبْ لِئلّا يَستوحشَ مَنْ أذنبَ، لأنَّه ذكرَ النّبيَّ ﷺ والمهاجرين والأنصار ولم يُذنبُوا[1].

فمعنَى التّوبةِ على النَّبيِّ والمهاجرين والأنصارِ الذين اتّبعوُه أنَّ اللّه لا يؤاخذُهم بما قد يَحْسَبُون أنَّه يُسبِّبُ مؤاخَذةً[2].

سِرُّ التَّعبيرِ بالنّبيِّ: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ﴾:

التَّذكيرُ بالنّبوّة مُشعرٌ برفْعتِه ﷺ وعُلّوِه بينهم

آثرَ التَّعبيرَ بـ(النّبيّ) ﷺ دونَ (الرّسولِ)، لأنَّ المَقامَ هنا يتعلّقُ بشَخصِه ﷺ، فآثرَ ذِكرَ النّبوّة دونَ الرسالةِ، لأنّها متعلّقةٌ بأمْرِ التّشريعاتِ، فالتّذكيرُ بالنّبوّةِ مُشعِرٌ برفعتِه وعُلّوِه بينهم، لأنّها مُشتقّةٌ من(نبو) الّذي يدلُّ على الرِّفعةِ والظّهورِ.

دلالةُ تخصيصِ المهاجرين والأنصار بالذِّكر والثَّناءِ:

بيانُ كونِهم طليعةَ جيشِ العُسرةِ إقدامًا وبذلًا للأنفُسِ والمالِ في سبيلِ الله

المهاجرون والأنصار: هم مجموعُ أهلِ المدينة، وكان جيشُ العُسرةِ منهم ومن غيرِهم من القبائلِ التي حولَ المدينةِ ومكَّةَ، ولكنَّهم خُصُّوا بالثَّناءِ، لأنَّهم لم يتردّدُوا ولم يتثاقلُوا ولا شَحُّوا بأموالِهم، فكانُوا أُسوةً لِمَن اتَّسَى بهم من غيرِهم منَ القبائلِ[3].

سِرُّ تقديمِ المهاجرين على الأنصارِ في الذِّكر:

بيانُ أفضليَّةِ المهاجرين وفضْلِ الهِجرةِ علَى النُّصرةِ

ذَكَرَ رَبُّنا ﷻ المهاجرين بعد ذِكْرِ النَّبي ﷺ، لأنَّهم الذين كوّنُوا الخليَّةَ الأُولى للإسلام، ولأنّهم الذين أُخرجُوا من ديارِهم وأموالِهم ابتغاءَ نشْرِ الدَّعوةِ الإسلاميَّةِ، واستمساكًا بدينِهم، وكان الأنصارُ الذين آوَوا ونصرُوا، وإذا كان المهاجرون آزرُوا النَّبيَّ صلّى اللّه تعالى عليه وسلّم، وأقامُوا معه الدِّعامةَ الأُولى لبناءِ الإسلام، فالأنصارُ همُ الذين عاونُوا النَّبيَّ ﷺ في إقامةِ الدَّولةِ الإسلاميَّةِ[4].

(1) الثعالبي، الجواهر الحسان: 3/223.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/49.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/50.
(4) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 7/3466.

والمهاجرون أفضلُ منَ الأنصار كما تَدُلُّ عليه الآثارُ الكثيرةُ الواردةُ في هذا المضمارِ، والمرادُ منه إكرامُ الأنصارِ، فإنَّه لا رُتبةَ بعدَ الهجرةِ أعلَى من نُصرةِ الدِّينِ[1].

سِرُّ التَّعبيرِ بالاسميّةِ: ﴿وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ﴾:

اختصاصُ المهاجرين والأنصارِ بهذَيْن الوصْفَيْن إلى قيامِ السّاعةِ

آثرَ القرآنُ الكريمُ التَّعبيرَ بالاسميّةِ في وصْفِ المهاجرين والأنصار دونَ الفعليّةِ للدّلالةِ على ثُبوتِ هذا الوصْفِ واستمرارِه على هذه الفئةِ المؤمنةِ التي هاجرتْ قبْلَ فتحِ مكّةَ، والأنصارِ الذين استقبلُوا رسولَ اللّه ﷺ والمؤمنين الذين هاجرُوا إلى المدينة، فهذا الوصفُ لا ينفكُّ عنهم ولو بعُدَ الزَّمان، لأنّ هذه الآياتِ كانت في أعقابِ غزوةِ تَبوكَ، وهي في العامِ التّاسعِ منَ الهجرة، وكان الجيشُ مُؤلَّفاً مُؤلَّفًا من فئاتٍ كثيرةٍ، فأبقَى القرآنُ على هذا الوصفِ تمييزًا لهم عن غيرهم.

دلالةُ وصْفِ المهاجرين والأنصار بالاتِّبَاعِ:

الاتِّباعُ لرسولِ اللّه ﷺ سَبَبٌ في مغفرةِ الذُّنُوبِ

وَصَفَ النَّظمُ الكريمُ المهاجرين والأنصارَ بـ ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ﴾، للإيماءِ إلى أنَّ لِصلةِ الموصولِ تَسَبُّبًا في هذه المغفرةِ[2]، فهمُ الذين أطاعُوه ولم يتخلَّفُوا عنه[3]، وهذا يُبرزُ ما للاتِّبَاعِ والطَّاعةِ لرسولِ اللّه ﷺ منَ المزيَّةِ في كونِها سببًا لمغفرةِ الذُّنوبِ والثَّناءِ منَ اللّه علَّامِ الغُيوبِ.

دلالةُ التَّعبيرِ بالضّمير دونَ الإظهار في: ﴿ٱتَّبَعُوهُ﴾:

بيانُ أنَّ النَّبيَّ ﷺ متبوعٌ وصحابتَه أتباعٌ

آثرَ القرآنُ الكريمُ التَّعبيرَ بالضَّميرِ في: ﴿ٱتَّبَعُوهُ﴾بدلاً منَ الإظهارِ، للدّلالةِ على خصُوصيتِه ﷺ في الاتّباع، وأنّه لا مُنازِعَ له في ذلك، لأنّه معلومٌ فلا يحتاجُ إلى بيان، وفيه إيماءٌ بأنَّه ﷺ

(1) إسماعيل حقّي، روح البيان: 3/525.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/50.
(3) الهرري، حدائق الرَّوح والرَّيحان: 12/70.

متْبوعٌ ونِعْمَ المتْبوع ﷺ، فالشَّرفُ كُلُّ الشرف في اتِّباعه والاقتداءِ به واقتفاءِ آثارِه.

سِرُّ اختيارِ التَّعبيرِ بالاتِّباع في: ﴿ٱتَّبَعُوهُ﴾:

شُمولُ اللّفظ لمعنَى الطّاعةِ والانقِيادِ

آثرّ التَّعبيرَ بالاتِّباع دونَ غيرِه، لتعدُّدِ معانيه بين الحقيقةِ والمجازِ، فقوله: ﴿ٱتَّبَعُوهُ﴾ يجوزُ فيه وجهان: أحدُهما: أنَّه اتِّباعٌ حقيقيٌّ، ويكونُ عليه السلام خرجَ أوَّلًا، وتبعَه أصحابُه رضوانُ اللّه تعالى عنهم، وأن يكونَ مجازًا، أي: اتّبعوا أَمْرَهُ ونهيَه[1]، فيكونُ من قَبيلِ مجازِ الحذْفِ، والاِتِّبَاعُ مَجَازِيٌّ[2]، أو من بابِ الاستعارةِ التّصريحيّةِ حيث شبَّه إطاعتَه باتّباعِه بجامعِ الالتزامِ وعدمِ المفارَقةِ.

وأيضًا، لأنَّ الاتِّباعَ يعني الارتسامَ في القولِ والفعلِ، وهو بذلك أبلغُ منَ الطّاعة، لأنّها تندرجُ في الاتِّباعِ.

سِرُّ التَّعبيرِ بالفعْلِ الماضي: ﴿ٱتَّبَعُوهُ﴾ دونَ المضارع:

صِدقُ المهاجِرينَ والأنصَارِ في اتّباعِ النّبيّ ﷺ

آثرَ التَّعبيرَ بالفعْلِ الماضي ﴿ٱتَّبَعُوهُ﴾، للدّلالةِ على تحقُّقِ أمْرِ اتَّباعِهم للنّبيِّ ﷺ ورُسوخه في قلوبِهم، وأنّ ما كان من بابِ الوساوسِ والخواطرِ للشّدّةِ التي مرّوا بها في هذه الغزوةِ لا يُؤثِّرُ في تحقيقِ الاتِّباعِ.

دلالةُ التَّعبيرِ بالظَّرفيّةِ: ﴿فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ﴾:

كمالُ اتّباعِ الصّحابةِ لرسولِ الله ﷺ رُغمَ الأهوالِ والمشَقّاتِ

دلَّ التَّعبيرُ بالظّرفيّةِ على أنّ اتّباعَهم للنبّيّ ﷺ شملَ كلَّ مراحلِ الغزوةِ مع شدّتِها وعُسْرِها في الدّعوةِ إليها وما اكتنَفَها منَ التَّخويف من أمْرِ الرّومِ وفي المسيرِ إليها وما تبِعَهُ من عُسْرٍ في الزّادِ والرّاحلةِ، وهذا يدلُّ على أنَّ الاتِّباعَ منَ المهاجرين والأنصارِ للرّسولِ ﷺ تمكّنَ منهم تمكُّنَ المظْروفِ منَ الظّرْفِ.

(1) السَّمين الحلبيُّ، الدُّرُّ المصون: 3/509.

(2) أبو حيَّان، البحر المحيط: 5/516، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/50.

نُكتةُ إضافةِ السَّاعةِ إلى العُسْرَةِ:

عظيمُ ثناءِ الله على الصّحابةِ لِحُسنِ اتِّباعِهم

دلّتِ الإضافةُ في قولِه تعالى: ﴿فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ﴾ على أنّ الزّمنَ الذي وقعتْ فيه غزوةُ تَبوك قد أصابَ المسلمين فيها مَشَقَّةٌ عظيمةٌ من شِدَّة الحَرِّ وقِلَّةِ المركَبِ حتَّى كان العَشَرَةُ يتعاقبُون على بعيرٍ واحدٍ، ومن قِلَّةِ الزَّادِ حتَّى قيلَ إنَّ الرَّجُلَيْنِ كانا يقتسمان تمرةً وربَّما مَصَّها الجماعةُ ليشربُوا عليها الماءَ المُتَغَيِّرَ، فكانت لهمُ العُسرةُ في أربعةِ أشياءَ: عُسْرَةُ النَّفقةِ، والرُّكوبِ، والحَرِّ، والخوفِ[1]، لذلك سُمِّيت (غزوةَ العُسْرة)، وسُمِّيَ مَن جاهد فيها بجيشِ العُسرةِ، وهذه صِفةُ مدحٍ لأصحابِ النَّبي ﷺ باتِّباعِهم إيَّاه في وقت الشِّدَّة، ومع ذلك فقد كانوا مُحتاجين إلى التَّوبةِ، فما ظنُّك بغيرِهم ممَّن لم يُقَاسِ ما قاسَوْه[2].

سِرُّ التَّعبيرِ عنِ الزّمن بالسّاعة: ﴿سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ﴾:

إبرازُ أهميّةِ السَّاعةِ التي وقعَ فيها عزمُهم لتَّحمُّلِ المَشَقَّةِ

قولُه تعالى: ﴿فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ﴾ يُريدُ: في وقتِ العُسْرَةِ، فأنزلَ السَّاعةَ مَنْزِلةَ المدَّةِ والوقتِ والزَّمن، وإن كان عُرْفُ السَّاعةِ في اللُّغة أنَّه لِما قَلَّ منَ الزَّمن كالقطعةِ منَ النَّهار، فهي هُنا بِتَجَوُّزٍ، ويمكنُ أن يريدَ بقولِه في ﴿سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ﴾ السَّاعةَ التي وقع فيها عزمُهم وانقيادُهم لتَّحمّل المشقَّة، إذِ السَّفرةُ كُلُّها تبعٌ لِتلك السَّاعةِ وبها وفيها يقعُ الأجرُ على اللّه، وترتبطُ النِّيَّةُ، فمَنِ اعتزمَ على الغزو وهو مُعْسِرٌ فقد اتَّبعَ في ساعةِ العُسرةِ ولو اتَّفق أن يَطرأَ لهم غِنًى في سائرِ سفْرتِهم[3].

دلالةُ تَسميّةِ الزّمن بالسّاعة:

أزمنةُ الشّدائدِ لا تَطولُ، ولكنَّ الأجْرَ عليهَا عَظِيمٌ

سمَّاها القرآنُ ساعةً تهوينًا لأوقاتِ الكُروب وتَشجيعًا على مواقعةِ المكاره، فإنَّ أمدَها يسيرٌ وأجرَها عظيمٌ، فكانت حالُهم باتِّباعه في

(1) السَّمرقندي، بحر العلوم: 2/93.
(2) إسماعيل حقِّي، روح البيان: 3/525.
(3) ابن عطيَّة، المُحَرَّر الوجيز: 3/92.

هذه الغزوةِ أَكْمَلَ من حالِهم قبْلَها[1]، وللدّلالةِ على أنّ هذا الوقتَ مُدّةٌ قليلةٌ بالنّسبةِ إلى وقْتِ السَّعةِ في حياةِ المسلمين، وفيه إشارةٌ إلى توبيخِ هؤلاءِ المتخلِّفين عن هذه الغزوةِ.

سِرُّ إلْحاقِ التّاء بلفظِ ﴿ٱلْعُسْرَةِ﴾:

بيانُ المبالغةِ في الشِّدَّة

العُسْرَة: اسمُ العُسْرِ، زيدتْ فيه التَّاءُ للمبالغةِ وهي الشِّدَّة[2].

سِرُّ التَّعبيرِ عن غزوةِ تَبوكَ بالعُسرة:

اجتمعَ في غزوةِ العُسرةِ أنواعٌ متعدّدة منَ العُسْرِ

آثرَ التَّعبيرَ بالعُسرةِ عن غزوة تَبوكَ، لأنّ العُسرةَ معناها: تعذُّرُ الأمرِ وصعوبتُه، وهذا ظاهرٌ في واقعِ الغزوةِ، حيث حصلتْ عُسرةُ الظّهرِ، فكان العشرةُ منَ المسلمين يتعاقَبُون على بعيرٍ واحدٍ، وعُسرةُ الزّادِ ظاهرةٌ في أنّ التَّمرةَ الواحدةَ يتناوبُ على مصّها الجماعةُ، وعُسرةُ الماء ظاهرةٌ، لأنَّ الغزوةَ كانت في حرٍّ شديدٍ حتّى إنَّ الرّجلَ لَينحرُ بعيرَه فيعصرُ فرثَه ويشربُه[3]، فالتّشبيهُ هنا ليومِ تبوكَ بساعة العُسرةِ هو تشبيهٌ بليغٌ حُذفت فيه أداةُ التّشبيه ووجْهُ الشّبه.

فائدةُ ذِكْرِ حرفِ الجَرِّ ﴿مِنۢ﴾:

الإشارةُ إلى التَّقارُبِ بين الهَمِّ بالزَّيغ والتّدارك بالتَّوبة

أشار بـ ﴿مِنۢ﴾ في قوله تعالى: ﴿مِنۢ بَعۡدِ﴾ إلى تقارُبٍ كبيرٍ ما بَيْنَ كَيدودةِ الزَّيغ والتَّدارُكِ بالتَّوبة[4].

نُكتةُ التَّعبيرِ بـ ﴿كَادَ﴾ وتحديدِ اسمِها وخبرِها:

عِظَمُ الشّدّةِ والمشقّةِ التي واجهتِ المسلمين في غزوةِ العُسرةِ

قولُه تعالى: ﴿مِنۢ بَعۡدِمَا كَادَ﴾ أي: قرُبَ قُرباً عظيمًا[5]، وهذا بيانٌ لتناهي الشِّدَّة، وبلوغِها الغايةَ القُصوى، أي: تاب سُبحانَه على الذين اتَّبعوا رسولَه منَ المهاجرين والأنصارِ، مِن بعْدِ أن أشرفَ

(1) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 9/36.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/50.
(3) ابن عادل، اللباب في علوم الكتاب: 10/227.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 9/36.
(5) البقاعي، نظم الدرر: 9/36.

فريقٌ منهم على المَيل عنِ التَّخلّفِ عنِ الخروج إلى غزوة تبوك، لما لابسَها وصاحَبَها من عُسْرٍ وشدَّةٍ وتعبٍ[1].

فهذا الزَّيغُ لم يقعْ ولكنّه قاربَ الوقوعَ، لأنَّ (كادَ) من أفعالِ المقارَبةِ تعملُ في اسمَيْن عمَلَ كان، واسمُها هنا ضميرُ شأنٍ مقدّرٌ، وخبرُها هو جملةُ الخبرِ عن ضميرِ الشّأنِ، وإنَّما جُعِلَ اسمُها هُنا ضميرَ شأْنٍ لتهويلِ شأنِهم حين أشرفُوا على الزَّيغِ[2].

دلالةُ التَّعبيرِ بـ ﴿يَزِيغُ﴾ من حيثُ مادَّتُها وصِيغَتُها:

الدَّلالةُ على قُربِ مَيْلِ القلبِ فقط دونَ الضَّلالةِ والغوايةِ

آثرَ التَّعبيرَ بالزّيغِ، لأنَّ معناه الميْلُ، والمرادُ: ميلُ القلبِ للتّخلُّفِ والانصرافِ عنِ الغزوة، وذلك للشّدّةِ العظيمةِ التى أصابتْهُم فيها، وذهبَ البعضُ إلى أنَّ الميْلَ هنا حديثُ النّفسِ الذي هو مُقدّمةٌ للعزيمةِ، فلمّا نالتْهم الشّدّةُ وقع ذلك في قلوبِهم، ومع ذلك أدركُوا خطورةَ هذا الأمْرِ اليسيرِ خوفًا من أن يكونَ معصيةً[3].

أثرُ القراءاتِ في قولِه: ﴿يَزِيغُ﴾:

بيْنَ تذكيرِ اللَّفْظِ وتَأْنِيثِ المعْنَى

تعدَّدتِ القراءاتُ في الفعْلِ ﴿يَزِيغُ﴾ بين التّذكيرِ والتّأنيثِ، فبعضُ القُرّاءِ قرأَ بالتّذكيرِ ﴿يَزِيغُ﴾، وبعضُهم قرأَ بالتّأنيث (تزيغ)، فمَن قرأَ بالتَّذكيرِ حملَ على اللّفظِ، ومَنْ قرأَ بالتّأنيثِ فعلَى أنّ لفظَ القلوبِ مؤنّثٌ غيرُ حقيقيٍّ يجوزُ فيه التَّذكيرُ والتّأنيثُ[4].

دلالةُ إسنادِ الزَّيْغِ إلى القُلوبِ: ﴿يَزِيغُ قُلُوبُ﴾:

عِظَمُ الشِّدّةِ حتى كادَ أن يصلَ تأثيرُها إلى القلوبِ

أسنَدَ القُرآنُ الكريمُ الزّيْغَ إلى القلوبِ، للدّلالة على تناهِي الشّدّةِ وبُلوغِها الغايةَ القُصوَى في هذه الغزوةِ، بخلاف غزوةِ الأحزابِ التي نُسبَ الزّيغُ فيها إلى الأبصارِ، فمع ما فيها من شدَّةٍ إلّا أنَّ الزَّيغَ فيها كان للأبصارِ حين تراءَى الفريقانِ في غزوة الأحزابِ،

(1) طنطاوي، الوسيط: 6/418.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/50.
(3) ابن عادل، اللباب في علوم الكتاب: 10/228.
(4) السمين الحلبيّ، الدر المصون: 6/133، والأمر فيه تفصيل لِمَنْ أراد المزيد.

وفي هذا إشارةٌ إلى الفرْقِ بين الغزوتَيْن، فزيغُ القلوبِ أشَدُّ من زَيغِ الأبصارِ، لأنّه ما زاغتِ الأبصارُ إلّا بعدَ زَيْغِ القلوبِ، فإسنادُ الزَّيغِ إلى القلوبِ قد يكونُ على الحقيقةِ، لأنّ القلبَ في الاستعمالِ القرآنيِّ هو مناطُ الأمْرِ ومَلكُ الأعضاء، وقد يكونُ إسنادُ الزّيغِ إلى القلوبِ منَ المجازِ العقليِّ لعلاقةِ المحلّيَّة.

سِرُّ التَّعبيرِ بالفريقِ: ﴿قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ﴾:

قُوّةُ إيمانِ الصّحابةِ وثباتُهم في مواقعِ الجهادِ

آثرَ القرآنُ الكريمُ التَّعبيرَ بالفريقِ دونَ غيرِه، للإشارةِ إلى أنَّ مُعظمَ المهاجرين والأنصارِ مَضَوا معَه ﷺ إلى تَبوكَ دون أن تُؤثّرَ هذه الشَّدائدُ في قُوّةِ إيمانِهم وصدْقِ يقينِهم، ومَضاءِ عزيمتِهم، وشِدَّةِ إخلاصِهم[1].

دلالةُ التَّعبيرِ بـ ﴿ثُمَّ﴾ في: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ﴾:

بيانُ شُمولِ التَّوبةِ للفريقَيْن تَكريرًا لِرفعةِ مَنْ ثَبَتَ وتَثْبيتًا لِمَنْ هَمَّ بالزَّيغِ

عبّرَ القرآنُ الكريمُ بحرفِ العطْفِ ﴿ثُمَّ﴾ في قولِه تعالى: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ﴾، وذلك لعطْفِها على جملةِ ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ﴾، لأنّها حرفٌ يُفيدُ التّراخِيَ، ولمَّا أرادَ اللّه أن يُعْلِيَ قدْرَهم عَبَّر عن عظمتِه بـ (ثمَّ) تكريرًا للرّفعةِ، أو على مَنْ كاد يزيغُ بالثَّباتِ على مباعدةِ الزَّلّاتِ وبالتَّرقي في أعالي الدَّرجاتِ إلى المماتِ.

دلالةُ تَكرارِ فعْلِ التَّوبةِ: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ﴾:

بيانُ توفيقِهم للتَّوبةِ بادئَ الأمْرِ ثُمَّ قَبولِها منهم بعْدَ ذلك

إن قيل: كيف أعادَ ذِكْرَ التَّوبةِ وقد قال في أوَّلِ الآيةِ: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ﴾؟ فالجوابُ: أنّ اللّه تعالى تابَ عليهم أوَّلًا بتوفيقِهم للتَّوبةِ، فلمَّا تابُوا تاب عليهم ثانيًا بِقَبولِها منهم، وهو الذي وفَّقَهم لفِعْلِها، وتفضَّل عليهم بقَبولِها[2]، لأنَّ توبةَ العَبدِ إلى اللّهِ مَحفوفةٌ بتَوبةٍ مِنَ اللّهِ عليه قَبْلَها، وتوبةٍ منه بَعْدَها، فتَوبتُه بين تَوبتَيْنِ مِن رَبِّه، سابقةٍ ولاحقةٍ، فإنَّه تاب عليه أوَّلًا إذْنًا وتوفيقًا وإلهامًا، فتاب

(1) طنطاويّ، الوسيط: 6/418.
(2) ابن القيّم، زاد المعاد: 3/518.

العبدُ، فتاب اللهُ عليه ثانيًا قَبولًا وإثابةً[1]، كما أنَّه ابتدأ بذِكْرِ التَّوبةِ قَبْلَ ذِكْرِ الذَّنْبِ، تَطييبًا لِقُلوبِهم، ثمَّ ذكَرَ الذَّنْبَ، ثمَّ أردَفَه مرَّةً أخرى بذِكْرِ التَّوبةِ، والمقصودُ منه تعظيمُ شأنِهم.

كما أنَّ هذا الترتيبَ يدلُّ على أنَّ المرادَ أنَّه تعالى تابَ عليهم مِنَ الوَساوِسِ التي كانت تقَعُ في قلوبِهم في ساعةِ العُسرةِ، ثُمَّ إنَّه تعالى زادَ عليه فقال: ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٖ مِّنۡهُمۡ﴾ فهذه الزِّيادةُ أفادت حصولَ وَساوِسَ قَويَّةٍ، فلا جرَمَ أتبَعَها تعالى بذِكرِ التَّوبةِ مرَّةً أخرى، لئلَّا يبقَى في خاطِرِ أحَدِهم شَكٌّ في كَونِهم مُؤاخَذينَ بتلك الوساوِسِ[2].

دلالةُ التَّعبيرِ بالإضمَارِ: ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾:

عبَّرَ القرآنُ الكريمُ بالضَّميرِ في ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾ دونَ الإظهارِ، لتعدُّدِ المرادِ به، إمَّا أن يعودَ إلى المهاجرين والأنصار، ويكونَ تأكيدًا لقَبول توبةِ اللهِ لهم، وإمَّا أن يعودَ على الذين كادتْ تزيغُ قلوبُهم، وهذا هو الظَّاهرُ، ويكونَ المعنى أنَّ العُسرةَ كانت شديدةً لجُوجًا، حتَّى كادتْ تزيغُ قلوبُ فريقٍ من هؤلاء المهاجرين والأنصار ولكنَّ اللهَ سَلَّم، وارتدّت أفئدتُهم فتابَ اللهُ تعالى عليهم بسببِ تلك الخواطرِ التَّي جاشت، وكادتْ تُضلُّهم وإنَّ ذلك من رأفةِ اللهِ تعالى بهم[3].

شُمولُ توبةِ اللهِ لجميعِ المهاجرين والأنصارِ

بلاغةُ الفصْلِ ﴿إِنَّهُۥ بِهِمۡ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾:

فُصِلَ قولُه تعالى: ﴿إِنَّهُۥ بِهِمۡ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾، لأنه استئنافٌ بيانيٌّ تعليليٌّ، لأنَّ صِفةَ الرَّأفة والرَّحمةِ من دواعِي التَّوبةِ والعفوِ[4]، فعلَّل لُطفَه بهم بقولِه: ﴿إِنَّهُۥ بِهِمۡ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾[5].

تعليلُ ما سبَقَ من ذكْرِ التّوبة مع تأكيدِها

(1) ابن القيم، مدارج السَّالكين: 1/319.
(2) الفخر الرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 16/163، والقاسميّ، محاسن التّأويل: 5/518.
(3) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 7/3466.
(4) الألوسي، روح المعاني: 6/38.
(5) البقاعي، نظم الدُّرر: 9/38.

سِرُّ الجمْعِ بين الرّأفةِ والرّحمةِ: ﴿إِنَّهُۥ بِهِمۡ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾:

سَعةُ رحمةِ الله وعَفْوِه

جمعَ بينهما، للدّلالةِ على سَعةِ رحمةِ اللّه وعفْوِه بالمؤمنين، ويجوزُ أن يكونَ السّببُ في الجمْعِ أنَّ صفةَ الرّأفةِ عبارةٌ عن إزالةِ الضَّررِ، وأنَّ الرّحمةَ عبارةٌ عنْ إيصالِ المنفعةِ.

فائدةُ تتابُعِ المؤكِّداتِ:

بيانُ أنَّ هذا العفْوَ قد بلغَ الغايةَ القُصوَى منَ القُدرةِ والكمالِ

ذَكَرَ التَّوبةَ في أوَّلِ الآية قبْلَ ذكْرِ الذَّنْب، تطْييبًا لقلوبِهم وهو مَحْضُ الفضْلِ منَ اللّه ﷻ، فلمَّا ذَكَرَ الذَّنْبَ أعاد ذِكْرَ التَّوبةِ، والمُرادُ منه قَبولُها[1]، ففي هذا تكريرٌ للتَّوكيدِ كما يُقال: عفا السُّلطانُ عن فلانٍ ثُمَّ عفا عنه، ثمّ أكّدَ هذه المعانيَ بقولِه: ﴿إِنَّهُۥ بِهِمۡ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾، فيدلُّ ذلك على أنَّه عفْوٌ مُتَأكِّدٌ بلغَ الغايةَ القُصوَى منَ القُدرة والكمالِ[2]، قال ابنُ عبّاس رضي الله عنهما في تفسير قوله تعالى: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡۚ﴾: يريدُ: ازدادَ عنهم رضًا[3].

نُكتةُ تقديمِ شِبْهِ الجُملةِ ﴿بِهِمۡ﴾:

بيانُ اختصاصِهم بالاهتمامِ والرِّعايةِ والإكرامِ منَ المَلِكِ العلَّامِ

قولُه تعالى: ﴿بِهِمۡ﴾ يدلُّ على الاهتمامِ بهم في اختصاصِهم بهذه التَّوبةِ العظيمةِ منَ اللّه الرَّؤوفِ الرَّحيم، أي: إنَّ ربَّهم بالذين خالطَ قلوبَهم ذلك لما نالَهم في سفرِهم منَ الشِّدّةِ والمشقّةِ، رَؤُوفٌ بهم، رَحِيمٌ أن يُهلكَهم، فينزِعَ منهمُ الإيمانَ بعْدَ ما قد أبْلَوْا في اللّه ما أبْلَوْا مع رسولِه وصبروا على البأساءِ والضَّراءِ[4]، فخصَّهم بهذا الفضلِ، لأنَّهم من خُلَّصِ عبادِه، فرأَفَ بهم ورحِمَهم ودفعَ عنهم ما لا يُطيقون بكَرمِه وحَنانِه، ودفعَ عنهم ما عجزُوا عنه بمنِّه ولُطْفِه وتاب عليهم بفضْلِه وعطْفِه[5].

---

(1) البغوي، معالم التّنزيل: 2/396.
(2) المراغي، تفسير المراغي: 11/41.
(3) النَّيسابوريّ، غرائب القرآن: 3/540.
(4) ابن جرير، جامع البيان: 11/39.
(5) ملا حويش، تفسير القرآن العظيم: 6/494.

نُكتةُ تَذْييلِ الآية بهذيْن الاسْمَيْن الجليلَيْن:

المناسبة لمَن ثبتَ منهم ومن كادَ أن يزيغَ

الرَّأفةُ: عَطْفُ العاطفِ على مَنْ يجدُ عندَه مِنَّةً وَصلَةً، فهي رحمةُ ذي الصِّلةِ بالرَّاحم، والرَّحمة تَعُمُّ مَنْ لا صِلةَ له بالرَّاحم، فتكونُ الرَأفةُ حينئذٍ للثَّابِتين، والرَّحمةُ لمَنْ قاربَ الزَّيْغَ، فيصيرُ الثَّابتُ مَرحومًا مرَّتيْن، لأنَّه مَنظورٌ إليه بالصِّفتَيْن[1].

نُكتةُ تقديمِ الرؤوفِ على الرّحيم:

تقديمُ الأبلَغِ والأخصِّ منَ الوصفَيْن

قدّمَ وصْفَ الرّؤوفِ، لأنَّ الرّأفةَ مُبالغةٌ في الرَّحمةِ الخاصّةِ، وهي رفعُ المكروهِ وإزالةُ الضّررِ، والرّحمةُ أعمُّ، وقدّمَ الرّأفةَ أيضًا للإشارةِ إلى المبالغةِ في رحمتِه لخواصِّ عبادِه، و(الرّحيمُ) إشارةٌ إلى العامّةِ.

وممّا يُذكرُ أيضًا أنّ الرَّأفةَ: شِدَّةُ الرَّحمةِ، فقدَّمَ الأبلغَ إذِ المعنَى أنَّه يرحمُهُم أعلَى الرَّحمةِ بإسباغِ جلائلِ النِّعم ودفْعِ جلائلِ النِّقَمِ، ويرحمُهُم أيضًا بإسباغِ دقائقِ النِّعَمِ ودفْعِ دقائقِ النِّقَمِ[2].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الزَّيْغُ والمَيْلُ:

الزَّيْغُ: اسْمٌ لِمَيْلٍ مَكْروهٍ، ولا يَكُونُ إلَّا في المَيْلِ عَنِ الحَقِّ، يُقَالُ: فُلانٌ مِنْ أَهْلِ الزَّيْغِ، ويُقالُ: زاغَ عَنِ الحَقِّ، ولا يُقالُ: زاغَ عَنِ البَاطِلِ، قال تَعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾ [آل عمران: 8] وقال: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ﴾ [آل عمران: 7]، أَمَّا المَيْلُ: فَهُوَ عَامٌّ في المَحْبوبِ والمَكْروهِ[3]، فَالمَيْلُ أَعَمُّ مِنَ الزَّيْغِ.

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 9/38.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 9/38.
(3) العسكري، الفروق اللّغوية، ص: 269.

﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ وَضَاقَتۡ عَلَيۡهِمۡ أَنفُسُهُمۡ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلۡجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ لِيَتُوبُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ١١٨﴾ [التّوبة: 118]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

لمّا تابَ على مَن أوشكوا على الزَّيغِ؛ أتبعَهُ بالتَّوبةِ على مَن وقعَ منهُ الزَّيغُ

لمّا ذكرَ اللّه التَّوبةَ في الآية قبلَها على النَّبيِّ ﷺ وصحابتِه الَّذين كانوا معه في ساعةِ العُسْرةِ؛ أتْبعها بذكر التَّوبةِ على مَن وقعَ منهم التَّخلُّفُ عن القتالِ، وقد خلَّفَ التَّوبةَ عليهم، فأخبرَ بالتَّوبةِ عنهم في هذهِ الآيةِ[1]، ومن المناسبةِ كذلك أنَّهُ لمّا "تقدَّم الكلامُ في أحوال المنافقين مِن تخلُّفهم عن غزوةِ تبوكَ، واستطردَ إلى تقسيمِ المنافقين إلى أعرابٍ وغيرِهم، وذِكْرِ ما فعلوا من مسجد الضِّرارِ، وذكْرِ مبايعةِ المؤمنينَ اللّه في الجهادِ، وأثنى عليهم، وأنَّه ينبغي أنْ يُباينوا المشركين حتَّى الّذين ماتوا منهم بترك الاستغفارِ لهم؛ عادَ إلى ذكرِ ما بَقِيَ من أحوالِ غزوة تبوكَ، وهذه شنشنةُ كلامِ العربِ، يَشرعون في شيءٍ، ثمَّ يذكرون بعدَه أشياءَ مناسبةً، ويُطيلونَ فيها، ثمَّ يعودونَ إلى ذلك الشَّيءِ الَّذي كانوا شرعوا فيه"[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿خُلِّفُواْ﴾: (خلف) أصلٌ يدلُّ على مجيء شيءٍ بعد شيءٍ يقوم مقامَهُ[3]، وخلافُه قُدّام، وخَلَّفْتُهُ: تركتُهُ خلفي[4]. ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ﴾، تُركوا، وأُخِّروا عن قبولِ التَّوبة[5].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/38.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/516.
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (خلف).
(4) الرّاغب، المفردات، والفيروزباديّ، بصائر ذوي التمييز: (خلف).
(5) ابن عطيّة، المحرَّر الوجيز: 3/94.

2) ﴿ضَاقَتْ﴾: (ضيق) أصلٌ يدُلُّ على خلافِ السَّعَةِ[1]، يُستعمل في الفقرِ والبخلِ والغمِّ، وسوءِ الحالِ، قال تعالى: ﴿وَضَآيِقٌۢ بِهِۦ صَدۡرُكَ﴾ [هود: 12]، ﴿وَضَاقَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ﴾ [التّوبة: 25]، ﴿وَضَاقَتۡ عَلَيۡهِمۡ أَنفُسُهُمۡ﴾ كلُّ ذلك عبارةٌ عن الحزنِ[2].

3) ﴿رَحُبَتۡ﴾: (رحب) أَصْلٌ يَدُلُّ على السَّعَةِ، الرُّحْبُ: سعةُ المكانِ[3]، الرَّحْبُ والرَّحيبُ: الشَّيءُ الواسعُ، وفصَّل الجوهريُّ بأنَّ: "الرُّحْبَ بالضَّمِّ: السَّعَةُ، تقولُ منه: فُلانٌ رُحْبُ الصَّدْرِ، والرَّحْبُ، بالفتحِ: الواسِعُ، تقول منهُ: بلدٌ رَحْبٌ وأرضٌ رَحْبَةٌ"[4]، و"الرَّحبةُ بتسكينِ الْحاءِ وفتْحِها: الفجوةُ الواسعةُ بَين دورٍ وغَيرها"[5]، ورَحَبَةُ المساجدِ - بفتح الحاء وتسكينها -: ساحاتُها[6]، وتقول منه: بلد رَحْبٌ ، وأَرضٌ رَحْبةٌ [7].

4) ﴿مَلۡجَأٗ﴾: (لجأ) أصلٌ، وهو كَلِمَةٌ واحِدَةٌ: اللَّجَأُ والْمَلْجَأُ: الْمَكانُ يُلْتَجَأُ إِلَيْهِ[8]، قوله تعالى: ﴿مَا لَكُم مِّن مَّلۡجَإٖ﴾ [الشّورى: 47] الملجأُ: المَعْقِلُ، وهو ما يُتَحصَّنُ بِهِ قلعةً ونحوها[9]، يُقالُ: لَجَأْتُ إلى فُلانٍ، والْتَجَأْتُ: استندْتُ إليه واعتضدْتُ بِهِ[10]، وقوله تعالى: ﴿وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلۡجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ﴾ "الملجأ: المعتصمُ من اللّه وعذابه"[11].

5) ﴿تَابَ﴾: (تاب) أصلٌ يدُلُّ على الرُّجوعِ، يُقالُ: تابَ مِنْ ذَنْبِهِ، أَيْ: رَجَعَ عَنْهُ، وهو تائِبٌ وتَوّابٌ[12]، وتابَ اللّه عليه: وفَّقَه للتَّوبةِ، وقَبِل توبتَهُ، أو رجَعَ به من التَّشْديد إلى التَّخْفيفِ، أو رَجَعَ عليه بِفَضْلِهِ وقبوله، وهو تَوّابٌ على عبادِه، ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ لِيَتُوبُوٓاْۚ﴾، والتّائبُ يقال لباذل التَّوبةِ ولقابل التَّوبة، فالعبدُ تائبٌ إلى اللّه، واللّه تائبٌ على عبدِه، والتَّوّاب: العبدُ الكثيرُ التَّوبة، ويقال ذلك للّه تعالى لكثرة قبولِهِ توبةَ العبادِ حالًا بعد حالٍ[13].

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (ضيق).
(2) الرّاغب، المفردات، والجوهريّ، الصّحاح: (ضيق).
(3) ابن دريد، جمهرة اللُّغة، وابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرّاغب، المفردات: (رحب).
(4) الجوهريّ، الصّحاح: (رحب).
(5) ابن دريد، جمهرة اللُّغة: (رحب).
(6) الخليل، العين: (رحب).
(7) ابن منظور، لسان العرب: (رحب).
(8) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (لجأ).
(9) السّمين، العمدة: (لجأ).
(10) ابن منظور، لسان العرب: (لجأ).
(11) ابن الجوزيّ، تذكرة الأريب، ص: 148.
(12) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (توب).
(13) الرّاغب، المفردات: (توب).

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

لا يردُّ الله تعالى مَن يلجأُ إليهِ بالتَّوبةِ الصّادقةِ

يُخبر اللّه تعالى أنَّه قد تفضَّل "بالعفو عن الرِّجالِ الثَّلاثةِ الذين تخلَّفوا عن الخروجِ في غزوةِ تبوك، لا عن نفاقٍ منهم، وكان أمرُهم مُرْجَأً إلى أنْ يُبَيِّنَ اللّه حُكمَهُ فيهم، فلمّا كانت توبتُهم خالصةً، وندمُهم شديدًا؛ حتَّى شعروا بأنَّ الأرضَ قد ضاقتْ عليهم على رحْبِها وسَعتِها، وضاقت عليهم نفوسُهم همًّا وحزنًا، وعلموا أنَّه لا مَلجأَ مِن غضبِ اللّه إلّا باستغفارِهِ والرُّجوعِ إليهِ، حينئذٍ هداهم اللّه إلى التَّوبة، وعفا عنهم، ليظلّوا عليها، إنَّ اللّه كثيرُ القبولِ لتوبة التّائبين، عظيمُ الرَّحمةِ بعبادِهِ"[1].

وسببُ نزولِ الآيةِ أنَّه ثبتَ في الصَّحيح ما يُبَيِّنُ حادثةَ الثَّلاثةِ الذين خُلِّفوا، فقد حكاها كعبُ ابن مالكٍ، وهو أحدُ الثَّلاثةِ، ومعه مرارةُ بن الرَّبيع، وهلالُ بنُ أميَّةَ الواقفيّ، في حديثٍ مُطوَّلٍ مُخرَّجٍ في الصَّحاح[2]، حين تخلَّفَ عن غزوةِ تبوكَ، وأنزل اللّه ﷻ على رسولِهِ ﷺ: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ﴾ [التوبة: 117]، إلى قوله: ﴿وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالةُ الواوِ في: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ﴾:

تكريمُ الصّادقين بالنَّدمِ بتوبةِ الله عليهم

قوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ﴾ معطوفٌ على النَّبيِّ ﷺ في قوله جلَّ شأنُه: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ﴾ [التّوبة: 117]، أي: "لقد تقبَّلَ اللّه تعالى بفضلِهِ وإحسانه توبةَ النَّبيِّ والمهاجرين والأنصارِ، وتقبَّلَ كذلك توبةَ الثَّلاثةِ الَّذين تخلَّفوا عن هذهِ الغزوة كسلًا وحبًّا للرّاحة"[3]، وفي هذا العطفِ فائدةٌ تتمثَّلُ بتكريمِ المذكورين في

(1) مجموعة من المؤلّفين، المنتخب في تفسير القرآن الكريم، ص: 281.
(2) البخاريّ، الجامع الصحيح، الحديث رقم: (4418)، ومسلم، صحيح مسلم، الحديث رقم: (2769)، ويُنظر: المزينيّ، المحرّر في أسباب نزول القرآن: 1/615.
(3) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 6/421.

الجملة المعطوفةِ، فقد تبيَّن أنَّ "مَن ضُمَّ ذكرُ توبتهِ إلى توبةِ النَّبيِّ ﷺ، كان ذلك دليلًا على تعظيمهِ وإجلالهِ، وهذا العطفُ يوجِبُ أن يكونَ قبولُ توبةِ النَّبيِّ ﷺ، وتوبةِ المهاجرين والأنصارِ في حكمٍ واحدٍ، وذلك يوجِبُ إعلاءَ شأنِهم وكَوْنَهم مُسْتَحِقِّين لذلك"[1].

سرُّ إعادةِ حرفِ الجرِّ: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ﴾:

لمّا بَعُد المعطوفُ عليهِ؛ كرَّرَ حرفَ الجرِّ تحقيقًا للبيان وتأكيدًا للاستحقاقِ

جاء العطفُ في قوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ﴾ بإعادةِ حرفِ الجرِّ، ولم يقل: (والثَّلاثة)؛ لأنَّ المعطوفَ عليه - وهو لفظُ ﴿ٱلنَّبِيِّ﴾ [التّوبة: 117] - ذُكِرَ في صدرِ الآية السّابقةِ، فلمّا طالَ الفاصلُ؛ أعادَ حرفَ الجرِّ مع حرفِ العطفِ[2]، كما أنَّ في إعادة حرفِ الجرِّ تأكيدًا على مشاركةِ المعطوفِ بحكمِ المعطوفِ عليهِ على التَّساوي، وأنَّ التَّوبةَ عليهم مُتَحَقِّقَةٌ، حتَّى لو لم يكنْ هناك معطوفٌ عليه لجدارتِهم بذلك واستحقاقِهم له.

معنى اللّامِ في: ﴿ٱلثَّلَٰثَةِ﴾:

إحالةُ الثَّلاثةِ على معهودٍ عند النّاسِ

في قوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ﴾ عَرَّف ﴿ٱلثَّلَٰثَةِ﴾ تعريفَ "العهدِ؛ فإنَّهم كانوا معروفين بين النّاسِ، وهم: كعبُ بن مالك من بني سلمةَ، ومرارةُ بن الرَّبيع العمريُّ من بني عمرِو بن عوفٍ، وهلالُ بن أميَّةَ الواقفيُّ من بني واقفٍ، كلُّهم من الأنصارِ تخلَّفوا عن غزوةِ تبوكَ بدونِ عذرٍ"[3].

نكتةُ عدمِ التَّصريحِ بأسمائِهم:

مِن إكرامِ التّائبِ الإعراضُ عن التَّشهيرِ بهِ

في قوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ﴾ لم يصرِّحِ النَّظمُ الكريمُ بأسماءِ الثَّلاثةِ، و"إنَّما لم يسمِّهمُ اللّٰه؛ لكونهم معلومين بين الصَّحابةِ"[4]، ويُزادُ على ذلك أنَّ الثَّلاثةَ المذكورين قد عَلِم اللّٰه

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 16/164.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/51.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/51.
(4) الصّاويّ، حاشية الصّاويّ: 2/161.

تعالى صدقَهم، وأنَّهم من عبادِهِ الصّالحين، فلم يذكر في كتابهِ عنهم ما مِن شأنهِ أنْ يُلحِقَ بهم الحزنَ؛ فلم يصرِّحْ بأسمائِهم لطفًا بهِم؛ إذ إنَّ الفعلَ السَّيِّئَ لا يسرُّ صاحبَه أنْ يُذكَّرَ به، فأعرضَ عن ذلك لطفًا بهم وإكرامًا لهم.

سرُّ الوصفِ بالاسمِ الموصولِ ﴿ٱلَّذِينَ﴾:

عبَّر النَّظمُ الكريمُ عنهم بالاسمِ الموصولِ في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ﴾؛ لأنَّهم نفرٌ معروفون معهودون، عُرِفوا، وشُهروا بالصِّفةِ المعبَّرِ عنها في الصِّلةِ؛ تخصيصًا لهم دونَ غيرِهم، وإظهارًا لصفتِهم في الصِّلةِ ليبيِّنَ أنَّ حكمَ التَّوبةِ شاملٌ لهؤلاءِ الذين أُرجئَ الحكمُ عليهم، فعيَّنهُم بالذِّكر والوصفِ المعهودِ تأكيدًا للتَّوبةِ عليهم، وإشارةً إلى عِلَّةِ التَّخلُّف الذي بُني عليها محاسَبَتُهم.

عُيِّنوا بالذِّكر والوصفِ المعهودِ تأكيدًا للتَّوبة عليهم

علَّةُ التَّعبيرِ بالفعلِ الماضي المبني للمفعول:

في قوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ﴾ جاء الفعلُ في صلةِ الموصول فعلًا ماضيًا مبنيًّا للمفعول ﴿خُلِّفُواْ﴾، ولم يقل: تخلَّفوا؛ لأنَّهُ وقعَ في وقتٍ قد مضى، وانقطع، وأنَّ إرجاءَهم كان واقعًا، "ولمّا كان الخلعُ للقلوب مُطْلَقَ التَّخليف، بُني للمفعولِ قوله تعالى: ﴿خُلِّفُواْ﴾ أي: خَلَّفهم رسولُ الله ﷺ بالهجرانِ، ونهى النّاسَ عن كلامِهم، وأخَّرَ الحكمَ فيهم؛ ليأتيَ أمرُ الله في بيان أمرِهم"[1]، فالَّذي وقع بهم من الأذى بالإرجاءِ وتأخيرِ التَّوبةِ كان بالغَ الأذى لذاتهِ لا بكونِه مِن معيَّنٍ، فبناهُ للمفعولِ، كما أنَّ حذفَ الفاعلِ فيهِ إيجازٌ في التَّعبيرِ اعتمادًا على ظهورِهِ والعلم بهِ.

ما وقعَ عليهم من الأذى بالإرجاءِ وتأخيرِ التَّوبةِ كان بالغَ الأذى لذاتهِ لا بكونهِ من مُعيَّنٍ

معنى ﴿خُلِّفُواْ﴾: خلَّفهم مُخَلِّفٌ، أي: تركهم وراءَه، وهم لم يُخَلِّفْهم أحدٌ، وإنَّما تخلَّفوا بفعلِ أنفسِهم، فيجوزُ أن يكون ﴿خُلِّفُواْ﴾ بمعنى: خلَّفوا أنفُسَهم على طريقةِ التَّجريدِ، ويجوزُ أنْ يكون

بناءُ الفعلِ للمفعولِ تجريدٌ، أو تخليفٌ مجازيٌّ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/39.

تخليفُهم تخليفًا مجازيًّا اُستعيرَ لتأخيرِ البتِّ في شأنِهم، أي: الَّذين خُلِّفوا عن القضاءِ في شأنِهم، فلم يعذرْهم رسولُ اللّه ﷺ ولا آيسَهم من التَّوبةِ، كما آيسَ المنافقين، فالتَّخليفُ هنا بمعنى الإرجاءِ، وبهذا التَّفسيرِ فسَّرهُ كعبُ بن مالك في حديثِه المرويِّ في (الصحيح)، حيث قال: «وليس الَّذي ذكرَ اللّه ممّا خُلِّفْنا عن الغزوِ، وإنَّما تَخْليفُهُ إيّانا، وإرْجاؤُهُ أمرَنا عمَّن حَلفَ لهُ، واعتذرَ إليهِ، فقَبِلَ منهُ»[1]، وفاعلُ التَّخليفِ يجوزُ أنْ يُرادَ بهِ النَّبيُّ ﷺ أو اللّه تعالى[2].

لم يكونوا عازمينَ على التَّخلُّفِ ابتداءً، وإنَّما آلَ أمرُهم إليهِ

وعبَّر اللّه تعالى بالبناءِ للمجهولِ، ولم ينْسِب إليهم أنَّهم تخلَّفوا، بل لم يذكر مَنْ خَلَّفَهُم، وإنَّما الواقع أنَّهم ما أرادوا القُعودَ ابتداءً، مِن وصفِ حالهِم أنَّهم تباطؤوا، وأخذوا يؤجِّلون يومًا بعد يوم، حتَّى فاتهم الرَّكبُ، فهم خُلِّفوا، ولم يريدوا التَّخلُّفَ ابتداءً، ولكن آلَ أمرُهم إلى التَّخلُّف[3].

دلالةُ إسنادِ التَّخليفِ إلى الضَّميرِ:

يتعلَّقُ التَّخليفُ ببيانِ حكمِ توبتِهم

في قوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ﴾ أسندَ التَّخليفَ إلى الضَّميرِ العائدِ على ﴿ٱلثَّلَٰثَةِ﴾ "وتعليقُ التَّخليف بضميرِ الثَّلاثة من باب تعليقِ الحكمِ باسم الذّاتِ، والمرادُ: تعليقُهُ بحالٍ من أحوالِها يُعلمُ من السِّياق، مثل ﴿حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةُ﴾ [المائدة: 3]"[4]، أي: حرَّمَ أكلَها، كما أنَّ التَّخليفَ يتعلَّقُ ببيانِ حكمِ توبتِهم، وليس مُتَعَلِّقًا بذواتِهم.

سرُّ التَّعبيرِ بـ ﴿حَتَّىٰٓ﴾:

استمرَّ الإرجاءُ والتَّخليفُ حتَّى وقعَ الضِّيقُ

عبَّر النَّظمُ الكريمُ عن طولِ مدَّةِ الإرجاءِ والتَّخليفِ بـ ﴿حَتَّىٰٓ﴾ في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ﴾، فهو قد استمرَّ

(1) البخاري، الصَّحيح، الحديث رقم: (2606).
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/52.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3469.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/52.

حتَّى وقع الضِّيقُ[1]، فقوله جلَّ شأنُهُ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ﴾ غايةٌ للتَّخليفِ، وهذا يدلُّ على أنَّ المرادَ من قوله تعالى: ﴿خُلِّفُواْ﴾ تأخيرُ أمرِهم بالتَّوبةِ لا تخلُّفهم عن القتالِ، أي: "خُلِّفوا، وأُخِّر أمرُهم إلى أن ضاقت عليهم الأرضُ"[2]. فضِيقُ الأرضِ والنُّفوسِ هو غايةٌ لإرجاءِ أمرِهم، فالضِّيقُ لم يكن عن تخلُّفِهم عن الغزوِ، وإنَّما ضاقت عليهم الأرضُ بسببِ تَخْلِيفِهم عن قَبولِ العذرِ ومقاطعتِهم[3].

علَّةُ التَّعبيرِ بـ ﴿إِذَا﴾:

خُلِّفوا إلى وقتِ الضِّيق ثمَّ تابَ اللهُ تعالى عليهم

في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ﴾ يجوزُ في ﴿إِذَا﴾ أن تكونَ شرطيَّةً، وأن تكونَ مجرَّدةً من الشَّرطِ دالَّةً على الوقتِ[4]، فإذا كانت شرطيَّةً؛ فإنَّ جوابَها محذوفٌ، تقديرُه: تابَ عليهم، وإذا جُعِلت مجرَّدةً من الشَّرطِ لمجيئِها مقترنةً بـ ﴿حَتَّىٰٓ﴾، فإنَّها غيرُ لازمةٍ للجوابِ، وتكونُ غايةً للفعلِ الَّذي جاءَ قبلَها، وهو قوله: ﴿خُلِّفُواْ﴾، والمعنى: أنَّهم خُلِّفوا إلى هذا الوقتِ، ثمَّ تابَ اللهُ تعالى عليهِم[5].

سرُّ التَّعبيرِ بالمجازِ في: ﴿ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ﴾:

بضيقِ الأرضِ مع سَعتِها ينتفي هناءُ العيشِ

في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ﴾ عبَّرَ عن سوءِ حالِهم بضيقِ الأرضِ، والأرضُ مستقرَّةٌ لا تضيقُ، وإنَّما هو تعبيرٌ مجازيٌّ عن انتفاءِ هناءِ العيشِ عنهم، فهو مثلٌ يبيِّنُ شدَّةَ الحيرةِ الَّتي كانوا فيها[6]؛ لأنَّ المكانَ الضَّيِّقَ لا يَسَعُ أن يكونَ مقرًّا لأحدٍ، فالمرادُ مجازًا أنَّهم لم يَقَرّوا في الدُّنيا مع سَعتِها؛ لإعراضِ النّاسِ عنهم، وعدمِ مجالستِهم ومحادثتِهم ما سبَّبَ لهم من كربٍ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/39.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/109، وابن جزيّ، التّسهيل: 1/350.
(3) ابن عطيّة، المحرر الوجيز: 3/94.
(4) الشّهاب، عناية القاضي: 4/372، والقاسميّ، محاسن التّأويل: 5/520.
(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/520.
(6) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/101.

وضيقٍ[1]، "ففي الكلامِ مجازٌ خلاصتُهُ أنَّهم شعروا بضِيقِ النّاسِ بهم لا يُقرِئونَهم سلامًا، ولا يقولون: لهم كلامًا أيًّا كان الكلامُ، لومًا أو عتابًا، أو تقريعًا، أو أيَّ نوعٍ من الكلام يسمعونَ، فعبَّر عن هذا بأنَّ الأرضَ ضاقت بهم مع اتِّساعِها ورَحْبِها"[2].

يحتملُ ضيقُ الأرضِ الاستعارةَ والكنايةَ

يصِحُّ جعلُ (ضِيق الأرض) من باب الاستعارةِ، أي: حتَّى كانت الأرضُ كالضَّيِّقةِ عليهم، أي: عندَهُم، وذلك التَّشبيهُ كنايةٌ عن غمِّهم وعن استيحاشِهم، لتنكُّرِ المسلمين لهم، وإعراضِهم عنهم، ونَبْوَتِهم عن كلامِهم، فالمعنى: أنَّهم تخيَّلوا الأرضَ في أعينِهم كالضَّيِّقةِ، كما قال الطِّرمّاح:

ملأتُ عليهِ الأرضَ حتَّى كأنَّها *** مِنَ الضِّيقِ في عَيْنَيْهِ كِفَّةُ حابِلِ[3].

سرُّ إيثارِ التَّعبيرِ بـ ﴿عَلَيۡهِمُ﴾:

تمكُّنُ الضِّيقِ منهم حتَّى غَشِيَهم

آثرَ النَّظمُ الكريمُ في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ﴾ التَّعبيرَ بحرفِ الاستعلاءِ (على) دونَ (الباء) تعظيمًا للأمر[4]، فضِيقُ الأرضِ تَسَلُّطٌ عليهم، وتمكُّنٌ منهم، وحرفُ الاستعلاءِ يدلُّ على الكُلْفَةِ والشِّدَّة، ولو قال: (بهم)؛ لكانَ المعنى: أنَّ الضِّيقَ وقعَ ملابِسًا لهم.

سرُّ تقديمِ المجرورِ على الفاعل:

تَقديمُ من وقع عليه الضِّيقُ اهتمامًا بشأنه

قدَّمَ النَّظمُ الكريمُ الجارَّ والمجرورَ على الفاعلِ في قوله تعالى: ﴿ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ﴾، ولم يقل: (ضاقت الأرضُ عليهم)؛ اهتمامًا بشأنِ مَن وقعَ الضِّيقُ عليه أكثرَ من الاهتمامِ بما ضاقَ، وذلك للمبالغةِ في شأنِ الضِّيقِ الَّذي وقعَ عليهِم.

(1) الشّهاب، عناية القاضي: 4/372.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3470.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/520، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/53، ويُنظر: ديوان الطّرمّاح، ص: 208.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/39.

معنى اللّامِ في ﴿ٱلۡأَرۡضُ﴾:

الشُّعورُ بضيقِ كلِّ الأرضِ يزيدُ صعوبةَ الحالِ

في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ﴾ عرَّفَ ﴿ٱلۡأَرۡضُ﴾ بالألفِ واللّامِ الدّالَّةِ على العهدِ، فالمرادُ أنَّ الأرضَ كلَّها ضاقت عليهم[1]، وفي ذلك بيانٌ لشدَّةِ الضِّيقِ الَّذي كانوا فيهِ، فلم يكن لهم في هذهِ الأرضِ الواسعةِ ملجأٌ يفِرّونَ إليهِ، وفي ذلك إشارةٌ إلى قوَّةِ إيمانِهم وشدَّةِ ثباتِهم؛ إذ لم يشعروا أنَّ لهم في الأرض الواسعةِ مهرَبًا من اللّه تعالى.

موقعُ: ﴿بِمَا رَحُبَتۡ﴾ ودلالتهُ:

اشتدَّ غمُّهم حتَّى إنَّ الأرضَ ضاقت، والحالُ أنَّها واسعةٌ رَحْبةٌ

قوله تعالى: ﴿بِمَا رَحُبَتۡ﴾ في موضعِ الحالِ من الأرضِ في قوله جلَّ شأنُه: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ﴾، أي: تخيَّلوا الأرضَ ضيِّقةً، وهي الأرضُ الموصوفةُ بسَعتِها المعروفةِ[2]، فهي مع سَعتِها قد خَلَتْ من مكانٍ يفِرّون إليه لشدَّةِ قلقِهم وجَزَعِهم ممّا هم فيهِ[3].

دلالةُ الباءِ في: ﴿بِمَا﴾ ومعنى (ما):

الأرضُ على رحابتِها ضاقتْ عليهم

لفظةُ (ما) في قوله تعالى: ﴿ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ﴾ مصدريَّةٌ لا موصولةٌ، أي: برحْبِها[4]، وعبَّرَ النَّظمُ الكريمُ بـ (ما) المصدريَّةِ؛ للدَّلالةِ على سَعةِ الأرض، وتدلُّ الباءُ على الملابَسةِ[5]، فهي الأرضُ المُلابِسَةُ لِسعَتِها المَعْروفَةِ، فالأرضُ على ما هي في نفسِها رحْبةٌ واسعةٌ، ومع ذلك ضاقتْ عليهم[6].

دلالةُ العطفِ في: ﴿وَضَاقَتۡ عَلَيۡهِمۡ أَنفُسُهُمۡ﴾:

عَطفُ ضيقِ الأنفسِ على ضيقِ الأرضِ يحيلُ على المجازِ دونَ الحقيقةِ

عُطِفَ قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَضَاقَتۡ عَلَيۡهِمۡ أَنفُسُهُمۡ﴾ على قوله تعالى:

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/39.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/53.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/318، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/109.
(4) القونوي وابن التمجيد، حاشية على تفسير البيضاوي: 9/359.
(5) الشّهاب، عناية القاضي: 4/372.
(6) ابن عطيّة، المحرر الوجيز: 3/94، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/53.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ﴾، فلمّا بيَّنَ ضِيقَ الأرضِ عليهِم لِما حلَّ بهم من الكربِ بالمقاطعة؛ بيَّن شدَّةَ ذلك الكربِ بأنَّ الضِّيقَ طغى عليهم؛ حتَّى تغلغلَ إلى قلوبِهم، كما أنَّه يبيِّنُ أنَّ المرادَ من ضِيقِ الأرضِ المجازُ دونَ الحقيقةِ[1].

بلاغةُ التَّعبيرِ المجازيِّ في ﴿وَضَاقَتۡ عَلَيۡهِمۡ أَنفُسُهُمۡ﴾:

استعارَ الغمَّ والحزَنَ لضِيقِ أنفسِهم

قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَضَاقَتۡ عَلَيۡهِمۡ أَنفُسُهُمۡ﴾ استعارةٌ عن امتلاءِ النُّفوسِ والقلوبِ بالغمِّ والهمِّ[2]، وإنَّما حدثَ ذلك الضِّيقُ بسببِ الهمِّ والغمِّ لمقاطعةِ النّاسِ لهم، ومجانبةِ الأحبّاءِ، وما حدث لهم من الوحشةِ، ونظرِ النّاسِ لهم بعينِ الإهانةِ[3]، "ومعنى ضِيقها: شدَّةُ غمِّها وحزنِها، كأنَّها لا تسع السَّرورَ لضيقِها، فهو استعارةٌ في الضِّيق"[4]، فاستعارَ الضِّيقَ لشدَّةِ الهمِّ، فشبَّهَ امتلاءَ قلوبِهم غمًّا بالمكانِ الَّذي يمتلِئُ حتَّى يضيقَ بمن فيه، فلا يتَّسعُ لغيرِه، وحذفَ المشبَّهَ به، وأبقى قرينةَ الضِّيقِ، والجامعُ بينهما الامتلاءُ، فكذلك القلبُ يمتلِئُ بالغمِّ حتَّى لا يتَّسعَ للسُّرورِ، واستعارةُ الغمِّ والحزنِ لضيقِ أنفسِهم؛ لأنَّ الغمَّ يكونُ في النَّفس بمنزلةِ الضِّيق، ولذلك يُقالُ للمحزونِ: ضاقَ صدرُهُ، وللمسرور: شُرِحَ صدرُهُ[5]، ويحتمل الضِّيقَ فضلًا عن فرطِ الغمِّ، والاستعارةُ عن شدَّةِ الحيرةِ[6].

الآيةُ كنايةٌ عن تواترِ الغمِّ والهمِّ

ويحتملُ الكنايةَ عن تواترِ الهمِّ والغمِّ على قلوبِهم، حتَّى لم يكن فيها شيءٌ من الانشراحِ والاتِّساعِ[7].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/39.
(2) ابن عطيّة، المحرر الوجيز: 3/94.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/318، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 16/165.
(4) الشّهاب، عناية القاضي: 4/372.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/53.
(6) القونوي وابن التمجيد، حاشية على تفسير البيضاوي: 9/360.
(7) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/520.

سرُّ تقديمِ المجرورِ على الفاعل:

التَّقديمُ يُفصحُ عن شدَّةِ الضِّيقِ والكربِ الَّذي هم فيهِ

في قوله تعالى: ﴿وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ﴾ قدَّم النَّظمُ الجليلُ شبهَ الجملةِ من الجارِّ والمجرورِ ﴿عَلَيْهِمْ﴾ على الفاعل ﴿أَنفُسُهُمْ﴾، ولم يقل: (ضاقت أنفسُهم عليهم)؛ اهتمامًا بكونِ ضِيقِ الأنفسِ وقعَ عليهم، تعجيلًا ببيانِ تعلُّقِ الضِّيقِ بهم، فتبيَّنَ أنَّ وقوعَ الضِّيقِ عليهم أهمُّ في السِّياق من بيان فاعل الضِّيقِ، وهذا يفصحُ عن شدَّةِ ذلك الضِّيقِ.

سرُّ التَّرقِّي في التَّعبيرِ من ضِيقِ الأرضِ إلى ضِيقِ الأنفس:

بدايَةُ الضِّيقِ من المحلِّ، وانتهاؤه بالاستقرارِ في الأنفسِ

في قوله جلَّ شأنُه: ﴿إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ﴾ جمعَ بين ضِيقِ الأرضِ وضِيقِ الأنفسِ، "وفيهِ ترقٍّ من ضِيقِ الأرضِ إلى ضِيقِهم في أنفسِهم، وهو في غاية البلاغةِ"[1]، فابتدأَ بالضِّيقِ الأخفِّ، وأَتْبَعَهُ بالأشدِّ؛ لأنَّ "ضِيقَ المحلِّ قد لا يستلزمُ ضِيقَ الصَّدرِ"[2].

دلالةُ التَّعبيرِ بـ ﴿وَظَنُّوٓاْ﴾:

يعبِّرُ عن اليقينِ في الخوفِ والحيرةِ بالظَّنِّ

دلَّ فعلُ الظَّنِّ في قوله تعالى: ﴿وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ﴾ على اليقينِ والعلم، أي: أيقنوا، وحصل علمٌ لهم[3]، و"عَبَّر بالظَّنِّ إيذانًا بأنَّهم لشدَّةِ الحيرةِ كانت قلوبُهم لا تستقرُّ على حالٍ، فكان يقينُهم لشدَّةِ الخواطرِ، كأنَّهُ ظنٌّ، أو يُقال - وهو حسن -: إنَّ التَّعبيرَ به عن يقينِ المخلِصين إشارةٌ إلى أنَّ أعلى اليقينِ في التَّوحيدِ لا يبلُغُ الحقيقةَ على ما هي عليهِ ألّا يَقدرَ أحدٌ أن يُقدِّرَ للّٰه حقَّ قدرِه"[4].

الظَّنُّ كافٍ في التَّوجُّهِ إلى الله تعالى

فُسِّرَ الظَّنُّ بالعلمِ؛ إذ حالُ المُسلمينَ العلمُ بذلكَ لا الظَّنُّ، وإنَّما

(1) القاسميّ، محاسن التّأويل: 5/520، والشّهاب، عناية القاضي: 4/372.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/39.
(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/94.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/39 - 40.

عُبِّرَ بهِ للإشعارِ بأنَّ الظَّنَّ كافٍ في التَّوجُّهِ إليهِ تعالى فما ظنُّكَ بالعلمِ اليقينيِّ[1]، أي: "يكفي في الخوفِ من جلالهِ للانقطاعِ إليهِ مجرَّدُ الظَّنِّ بأنَّهُ لا سببَ إليهِ إلّا منهُ؛ لأنَّهُ مُحيطٌ بكلِّ شيءٍ، لا يُعْجِزهُ شيءٌ"[2].

الثَّناءُ مَظنَّةُ العلمِ

وحُمِلَ الظَّنُّ على العلم؛ لأنَّهُ تعالى ذكرَ هذا الوصفَ في معرضِ المدحِ والثَّناءِ، وذلك لا يكونُ إلّا مع علمِهم بذلكَ[3].

أمرُ التَّوبةِ موكولٌ إليهِ سبحانه وحدَهُ

واستعمالُ الظَّنِّ بمعنى اليقينِ والجزمِ - وهو من معانيهِ الحقيقيَّةِ - ليقينِهم أنَّ أمرَ التَّوبةِ عليهم موكولٌ إلى اللّه دونَ غيرهِ بما يوحي بهِ إلى رسولهِ ﷺ أي: التجئوا إلى اللّه دونَ غيرهِ، ومنهُ قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ وَأَنَّهُمۡ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ٤٦﴾ [البقرة: 46]، وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ٦٦﴾ [الأعراف: 66][4].

بلاغةُ الكنايةِ في لفظِ (الظَّنِّ):

حملُ الظَّنِّ على اليقينِ أمارةُ توبتِهم

وإيكال المُخلّفين الثلاثةِ أمرَ العفوِ عنهم، والتَّوبةَ عليهم إلى اللّه سبحانه ويقينُهم بذلك، وجزمُهم بهِ باللُّجوءِ إليهِ تعالى دونَ غيرهِ، كنايةٌ عن أنَّهم تابوا إلى اللّه، وترقَّبوا صفحَهُ، وانتظروا عفوَهُ[5].

سرُّ التَّعبيرِ بـ(لَا) النّافيةِ للجنسِ:

ينتفي كلُّ ملجأٍ مِن دونِ الله

في قوله تعالى: ﴿وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلۡجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ﴾ عبَّرَ النَّظمُ الكريمُ عن انتفاءِ وجودِ الملجَأِ من اللّه سبحانه بلا النّافيةِ للجنسِ؛ للدَّلالةِ على انتفاءِ جنسِ ما يُلجأُ إليهِ فِرارًا من اللّه تعالى مبالَغةً في النَّفي.

(1) القونوي وابن التمجيد، حاشية على تفسير البيضاوي: 9/360.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/39 - 40.
(3) الخلوتيّ، روح البيان: 3/527.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/53.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/53.

سرُّ إيثارِ التَّعبيرِ بـ ﴿مَلۡجَأٗ﴾:

حين يَذلَهمُّ الخطرُ فالملجأ أحصنُ من الفرارِ

آثرَ النَّظمُ الكريمُ في قوله جلَّ شأنهُ: ﴿وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلۡجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ﴾ أن يعبِّرَ بالملجأِ دونَ المفرِّ؛ لأنَّ الملجأَ أدلُّ على الحمايةِ من المفرِّ، فالملجأُ هو "المُعتَصمُ من الله وعذابه"[1]، وهذا أنسبُ للسِّياق؛ لأنَّ الفِرارَ لا يدلُّ على التَّحصُّن، فيتحقَّقُ الأمنُ بمجرَّدِ البُعد عن مَكْمَنِ الخطر، أمّا اللُّجوءُ؛ فإنَّه يكونُ إلى حصنٍ منيعٍ؛ لأنَّ الخطرَ أشدُّ، وهذا أنسبُ في التَّعبيرِ عن عظيمِ ما كانوا فيهِ من الكَرْبِ.

معنى التَّعبيرِ بالاسمِ الجليلِ ﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾:

لا مفرَّ من العظيمِ الَّذي لهُ الإحاطةُ بكلِّ شيءٍ

في قوله تعالى: ﴿وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلۡجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ﴾ عبَّرَ عن يقينِهم بانتفاءِ وجودِ ملجأٍ من الله "الَّذي له الإحاطةُ الكاملةُ"[2]، إيماءً إلى انتفاءِ ذلك الملجأِ على وجهِ القطعِ؛ إذ لا مكانَ يخرجُ عن إحاطةِ الله تعالى ويشيرُ إلى أنَّهم قد استحضروا جلالَ الله تعالى وعظمتَهُ خوفًا منهُ ومعرفةً بهِ، أنَّهم قد بلغوا في ذلك مرحلةَ اليقينِ.

ما دلالةُ ﴿إِلَّآ إِلَيۡهِ﴾؟

إنَّما يُلجأ إلى اللهِ تعالى بالعملِ بما يُرضيهِ

في قوله جلَّ شأنُهُ: ﴿وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلۡجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ﴾ تعلَّقَ شبهُ الجملةِ ﴿إِلَيۡهِ﴾ باللُّجوءِ من الله تعالى وهذا يدلُّ على العملِ بما يُرضيه، ويأمرُ به[3]؛ إذ لا يُلجأ إلى الله تعالى كما يلجأُ أحدٌ إلى مكانٍ يُعتصَمُ بهِ، بل يُلجأ إليهِ تعالى بالتَّوبةِ إليهِ والاستغفار والعمل الصّالح، فعلموا أن لا مفرَّ من الله تعالى إلّا بالرُّكون إلى شريعتهِ وتعاليمِهِ.

سرُّ التَّعبيرِ بأسلوبِ القصرِ بطريقِ النَّفي والاستثناءِ:

في القصرِ تأكيدٌ لمعنى علمِهم بأن لا ملجأَ لهم إلّا الله

يُستَعمَلُ القصرُ بالنَّفي والاستثناءِ في قوله تعالى: ﴿وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلۡجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ﴾ في حُكْمٍ مِن شأنهِ "أن يجهلَه المخاطبُ،

(1) ابن الجوزيّ، تذكرة الأريب، ص: 148.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/40.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/40.

ويُنْكِرُهُ، ويحتاجُ فيهِ إلى تأكيدٍ، أو في حُكْمٍ مِن شأنِه ألّا يُجهلَ ولا يُنكرَ، ولكن نزل منزلةَ ما يُجهلُ، ويُنكرُ لنكتةٍ"[1]، فلمّا كان قوله تعالى: ﴿وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلۡجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ﴾ هو الصِّفةُ الثّالثةُ الواقعةُ في حيِّزِ ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا﴾ في قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ﴾؛ فأشعرتِ الغايةُ في الآيةِ بأنَّهم حين ارتكبوا ذلك كانوا في حكم مَن يجهلُ انتفاءَ وجودِ ملجأٍ من اللّه تعالى وفي هذا القصرِ تأكيدٌ للمعنى، فقصرُ الصِّفةِ على الموصوف قصرٌ حقيقيٌّ؛ لأنَّ انتفاءَ وجودِ ملجأٍ يعصمُ من اللّه تعالى انتفاءٌ لا يُنتقضُ بوجودِ ملجأٍ إلى غيرِه.

سرُّ ترتيبِ الجملِ في حيِّزِ ﴿إِذَا﴾:

بـدأَ بالشَّديدِ وأتبعَهُ بالأشَدِّ

في قوله تعالى: ﴿إِذَا ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ وَضَاقَتۡ عَلَيۡهِمۡ أَنفُسُهُمۡ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلۡجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ﴾ انتظمتْ ثلاثُ جملٍ واقعةٍ في حيِّزِ ﴿إِذَا﴾، وقد جاءت "في غاية الحُسن والتَّرتيبِ، فذكرَ أوَّلًا ضيقَ الأرضِ عليهم، وهو كنايةٌ عن استيحاشِهم، ونَبْوَةِ النّاسِ عن كلامِهم، وثانيًا: وضاقت عليهم أنفسُهم، وهو كنايةٌ عن تواترِ الهمِّ والغمِّ على قلوبِهم، حتَّى لم يكن فيها شيءٌ من الانشراحِ والاتِّساع، فذكر أوَّلًا ضيقَ المحلِّ، ثمَّ ثانيًا ضيقَ الحالِّ فيه؛ لأنَّهُ قد يضيقُ المحلُّ، وتكونُ النَّفسُ منشرحةً، فسَمُّ الخِياط مع المحبوب ميدانٌ، ثمَّ ثالثًا لمّا يَئِسوا من الخلقِ عَلَّقوا أمورَهم باللّه، وانقطعوا إليه، وعلموا أنَّهُ لا يُخَلِّصُ من الشِّدَّةِ، ولا يُفَرِّجُها إلّا هو تعالى"[2].

سرُّ التَّعبيرِ بـ ﴿ثُمَّ﴾:

بعدَ التَّأديبِ الشَّديدِ قَبِلَ تعالى توبتَهم

عُطفَ قوله تعالى: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ﴾ على قوله: ﴿ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ﴾ لبيانِ أنَّ التَّوبةَ جاءت بعد أن مرَّوا بتلكَ الكُرَباتِ، "أي: حتَّى وقع ذلك كلُّهُ، ثمَّ تاب عليهم بعدَهُ، وثُمَّ هنا للمُهلة والتَّراخي

(1) الجناجيّ، البلاغة الصّافية في المعاني والبيان والبديع، ص: 175.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/520.

الزَّمني، وليست للتَّراخي الرُّتبي؛ لأنَّ ما بعدها ليس أرفعَ درجةً ممّا قبلَها بقرينةِ السِّياق"[1]، ومقتضى هذا اللَّفظِ تأخيرُ قبولِ التَّوبةِ[2]؛ لأنَّه قد مضت عليهم خمسونَ ليلةٍ يحسّون بالقطيعةِ، وبعد الخمسين تابَ عليهم بأنْ أمرَ النَّبيَّ والمسلمين ألّا يجافوهم؛ لأنَّهم منهم[3]، فالمغفرةُ والتَّوبةُ لم تقع عَقِبَ ندمِهم وإعلانِهم أنَّهم قد تخلَّوا بلا عذرٍ، بل لبثوا مدَّةً حتَّى نالوا التَّوبةَ، ومن نفائسِ ما قال أئمَّةُ التَّفسيرِ في ذلك ما ذكرهُ البقاعيُّ في دُررِهِ؛ إذ قال: "ولمّا كان ما عملوهُ من التَّخلُّف عن أمر الرَّسول ﷺ عظيمًا بمجرَّدِ المخالفةِ، ثمَّ بتركِ المواساةِ، ثمَّ بالرَّغبةِ عنهُ ﷺ، ثمَّ بأمورٍ عظيمةٍ شديدةِ القبح وخيمةٍ، فكان يَبْعُدُ معه الزِّيادةُ عن رتبة التَّوبةِ، أعلمَ سبحانه أنَّه رقّاهم في رُتَبِ الكمالِ بأن جعل ذلك سببًا لتطهيرهِم من جميع الأدناسِ، وتنقيتِهم من سائرِ الأردانِ المُقْتَضِي لمزيدِ القربِ بالعروجِ في مصاعدِ المعارف، كما أشار إليه قوله ﷺ لكعب رضي الله عنه: «أَبْشِرْ بخيرِ يومٍ مرَّ عليك منذ ولدتكَ أمُّكَ»[4]، أَتْبَعَ ذلك سبحانه الإعلامَ به بقوله - مشيرًا إلى ما بعدَهُ لولا فضلُ الله - بأداةِ الاستبعادِ: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ﴾"[5].

سرُّ التَّعبيرِ بـ ﴿تَابَ عَلَيْهِمْ﴾:

رجَعوا إلى الصَّلاحِ فرجَعَ إلى الرِّضوانِ

في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ﴾ تعبيرٌ عن قبولِهِ توبتَهم، بعد أن ذكر الصِّفاتِ الثَّلاثَ المتقدِّمة (ضيقَ الأرضِ، وضيقَ الأنفسِ، ويقينَهم بانتفاءِ الملجأ من الله) فبَعد أن رجَعوا نادمين من زَيْغِهم إلى سابقِ عهدِهم من الصَّلاحِ والتَّقوى؛ بيَّن رجوعَهُ ﷻ إلى تقبُّلِهم في مَسْلَكِ الصّالحين.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/53.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 16/166.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3470.
(4) البخاري، الصحيح، حديث رقم: 2606.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/40.

دلالةُ اللامِ في ﴿لِيَتُوبُوٓاْ﴾:

في توبتهِ تعالى رحمةٌ وتربيةٌ وهدايةٌ

في قوله جلَّ شأنُه: ﴿لِيَتُوبُوٓاْ﴾ أَدْخَلَ اللّام الدّالَّةَ على التَّعليلِ؛ ليدلَّ على علَّةِ توبتهِ عليهم، وهي أن يقلعوا عن الإثم، "أي: تابَ عليهم لأجلِ أن يكفّوا عن المخالفةِ، ويتنزَّهوا عن الذَّنبِ"[1]، فتوبةُ اللّه تعالى عليهِم كما أنَّ فيها رحمةً ولطفًا، فكذلك فيها تربيةٌ وهدايةٌ لهم.

دلالةُ التَّعبيرِ بـ ﴿لِيَتُوبُوٓاْ﴾:

قَبِلَ توبتَهم ليديموا الرُّجوعَ إليهِ ولا يقنطوا

جعل النَّظمُ الكريمُ علَّةَ التَّوبةِ عليهم أن يأتوا بالتَّوبةِ، فقال تعالى: ﴿لِيَتُوبُوٓاْ﴾، والمرادُ من ذلك أنَّهم يستمرّون بالتَّوبةِ مهما وقعوا بالذُّنوب، فهو ﷻ قد "رجعَ عليهم بالقبولِ والرَّحمةِ كرَّةً بعد أخرى، ليستقيموا على توبتِهم، ويثبُتوا، وليتوبوا أيضًا فيما يُستقبلُ إن فرَطَت منهم خطيئةٌ، عِلمًا منهم أنَّ اللّه توّابٌ على من تابَ، ولو عادَ في اليوم مئةَ مرَّةٍ"[2]، والتَّعبيرُ عن توبتِهم بالفعلِ المضارع الَّذي دخلت عليهِ اللّامُ التَّعليليَّةُ، يدلُّ على أنَّ تجديدَ توبتِهم هو علَّةُ توبةِ اللّه تعالى عليهم، فاللّه تعالى لطيفٌ بعبادِهِ، أرشدَهم إلى ألّا يتقاعسوا عن الرُّجوعِ إليهِ مهما عَظُمَت ذنوبُهم، واستمرَّت، والمعنى: "قَبِل توبتَهم ليتوبوا في المستقبلِ؛ إذا صدرت منهم هفوةٌ، ولا يقنطوا من كرمهِ"[3]، و"ليدوموا على التَّوبةِ، ولا يراجعوا ما يبطلُها"[4]؛ ليكونوا من التَّوّابين الَّذين يرجِعون إلى اللّه تعالى دائمًا[5]، وتصبح توبتُهم توبةَ رجوعٍ وعودةٍ إلى ما كانوا عليه قبلَ المعصيةِ[6].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/53.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/319.
(3) الشّهاب، عناية القاضي: 4/372 - 373، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/53.
(4) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 16/166.
(5) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3471.
(6) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 9/5558.

سرُّ تقديمِ توبةِ الله تعالى على توبةِ العبادِ:

في سياقِ الامتنانِ تُقدَّمُ توبتُه تعالى على عبادِهِ

في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْۚ﴾ قدَّمَ ذِكْرَ توبتهِ تعالى على توبةِ عبادهِ؛ لأنَّهُ في سياق المنِّ عليهم بالتَّوبةِ، فلمّا "كان هذا القولُ في تعديدِ نِعَمِهِ بدأَ في ترتيبهِ بالجهةِ الَّتي هي عنِ اللّه ﷻ ليكونَ ذلك مُنبِّهًا على تلقِّي النِّعمةِ من عندهِ لا ربَّ غيرهُ، ولو كان القولُ في تعديدِ ذنبٍ؛ لكان الابتداءُ بالجهةِ الَّتي هي عن المُذْنِبِ، كما قالَ اللّه تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْۚ﴾ [الصّف: 5]؛ ليكونَ هذا أشدَّ تقريرًا للذَّنب عليهم، وهذا من فصاحةِ القرآنِ وبديعِ نظمهِ ومُعْجِزِ اتِّساقهِ"[1].

دلالةُ التَّذييلِ بـ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾:

توبتُهُ تعالى كبيرةٌ، ورحمتُهُ عميمةٌ

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ تذييلٌ تعليليٌّ؛ إذ "علَّلَ التَّوبةَ بأمرٍ يعُمُّ غيرَهم ترغيبًا"[2]، فيُفْهَمُ من هذا التَّذييلِ أنَّهُ تعالى إنَّما تابَ عليهم؛ لكونهِ كثيرَ التَّوبةِ على عبادهِ، ويقبلُ توبتَهم رحمةً بهم ولطفًا.

سرُّ تأكيدِ التَّذييلِ بـ ﴿إِنَّ﴾ وضميرِ الفصلِ، وتعريفِ الطَّرفين:

اللّه تعالى وحدَهُ الجديرُ بالمغفرةِ

أكَّدَ النَّظمُ الكريم جملةَ التَّذييلِ في قوله جلَّ شأنُهُ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ بالجملةِ الاسميَّةِ، وبتصديرِها بحرفِ التَّأكيدِ ﴿إِنَّ﴾ تأكيدًا لمضمونِ الجملةِ، وتقويةً للخبرِ بتوبتهِ تعالى على عظيمِ ما قاموا بهِ، وأدخلَ ضميرَ الفصلِ بين المسندِ والمسندِ إليهِ دلالةً على أنَّهُ وحدَهُ التَّوابُ[3]، وهو وحدَهُ تعالى القديرُ بأن يغفرَ لهم لاتِّصافهِ بكثرةِ التَّوبةِ والرَّحمةِ للعبادِ، وأفادَ تعريفُ طرفي الإسنادِ القصرَ، وهو قصرُ صفةٍ على موصوفٍ قصرًا حقيقيًّا؛ لأنَّ اللّه تعالى هو

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/94، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 16/166.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/41.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/41.

التَّوّابُ على وجهِ الحقيقةِ ولا توّابَ غيرُهُ، وأفاد ذلك تقويةَ التَّأكيدِ في الجملةِ، فجاءت على الوجهِ الأكملِ في تقويَةِ المعنى.

دلالةُ التَّصريح بلفظ الجلالةِ:

توبتُهُ تعالى على عبادهِ من تمامِ كمالهِ وجلالهِ وغناهُ

في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ وضعَ الظّاهرَ مَوْضِعَ المُضْمَرِ، فلم يقل: (إنَّه هو التَّوّاب)؛ تعظيمًا للتَّوبةِ المذكورةِ في سياقِ الامتنانِ بالتَّوبةِ عليهم مع عظيمِ ما جاؤوا بهِ، أي: إنَّ اللّه ذا الجلالِ والكمالِ هو من تابَ عليهم، فلا بأسَ عليهم بعد ذلك، فوضعَ الظّاهرَ موضعَ المُضْمَرِ مُظهِرًا لفظَ الجلالةِ تحقيقًا للمعنى المذكور.

سرُّ التَّرتيبِ في الاسمينِ الجليلينِ ﴿ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾:

يقبلُ الله تعالى توبةَ العبادِ تفضُّلًا منهُ ولا موجِبَ لذلك عليهِ

قدَّمَ النَّظمُ الكريمُ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ صفةَ التَّوبةِ على صفةِ الرَّحمةِ؛ لأنَّ ذكْرَ "الرَّحيم عقيبَ ذكرِ التَّوّاب، يدلُّ على أنَّ قبولَ التَّوبةِ لأجلِ مَحْضِ الرَّحمةِ والكرم، لا لأجلِ الوجوبِ"[1]، فبدأَ ببيانِ أنَّهُ إنَّما قَبِل توبتَهم؛ لأنَّه كثيرُ التَّوبةِ على عبادهِ، وإنَّما كان كذلك؛ لأنَّه رحيمٌ، فقبولُ التَّوبةِ إنَّما هو تفضُّلٌ منه وامتنانٌ محْضٌ.

دلالةُ صيغةِ المبالغةِ في: ﴿ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾:

كثُرَت توبتُهُ على عبادهِ وعَظُمت لعفوهِ عن كبائرِ ذنوبهم

في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ عبَّرَ بصيغةِ المبالغةِ في ﴿ٱلتَّوَّابُ﴾ للدَّلالة على كثرةِ توبتِه تعالى على عباده، فـ ﴿ٱلتَّوَّابُ﴾، أي: المبالغُ في قَبول التَّوبةِ كمًّا وكيفًا على من تابَ، وإن عَظُمَ جُرْمُه، وكثُرت جناياتُه، وتكرَّرت توبتُهُ لِتَكَرُّرِ ذنوبِهِ[2]، كما أنَّ في التَّعبيرِ بـ ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ الدِّلالةَ على صفةِ الرَّحمةِ العظيمةِ الواسعةِ الَّتي لا تزالُ تنزل على عبادهِ في كلِّ وقتٍ وحينٍ، ما تُقوَّمُ به أمورُهم الدِّينيَّةُ والدُّنيويَّةُ[3].

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 16/166.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/41، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/109.
(3) السّعدي، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 354.

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الضِّيقُ والحرجُ:

ضيقُ الأرضِ عليهم وضِيقُ أنفسِهم، زالا بالتَّوبةِ

الْحَرَجُ أشدُّ الضِّيقِ، فهو ضِيقٌ لا منفذَ فِيهِ ولا مخرجَ مِنْهُ، مَأْخوذٌ من الحرجةِ، وهِي الشَّجرُ الملتفُّ حَتَّى لا يُمكن الدُّخولُ فِيهِ، ولا الْخُروج منه، ولِهَذا جاءَ بِمَعْنى الشَّكِّ في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيۡتَ﴾ [النساء: 65] أي: شكًّا؛ لِأَنَّ الشّاكَّ في الْأَمر لا يَنْفَذُ فِيهِ، أمّا الضِّيقُ؛ فيمكنُ أنْ يُتَخَلَّصَ منهُ، وتجدَ له منفذًا، كالتَّخلُّصِ من الذَّنبِ بِالتَّوْبَةِ[1]، ومن هنا كان اختيارُ الضِّيقِ أنسبَ لمقام ما مرَّ بِهِ الثلاثةُ؛ إذ هو ضِيقٌ ما لَبِثَ أن زالَ بالتَّوبةِ.

الظَّنُّ والحُسبانُ:

الظَّنُّ أدلُّ على اليقينِ والعلمِ من الحُسبانِ؛ لأنَّ "الظَّنَّ ضربٌ من الاعتقادِ، وقد يكون حُسبانًا ليس باعتقادٍ، ألا ترى أنَّكَ تقولُ: أَحْسَبُ أنَّ زيدًا قد ماتَ، ولا يجوزُ أن تعتقدَ أنَّه مات مع علمِك بأنَّه حيٌّ"[2]، والحُسْبانُ: أن يُحكمَ لأحدِ النَّقيضين من غيرِ أن يخطُرَ الآخرُ ببالِه، ويكونُ بِعَرْضِ أن يعتريه فيه شكٌّ، والظَّنُّ أن يُخْطِرَ النَّقيضيْن ببالِه، فيُغَلِّبَ أحدَهما على الآخرِ[3]، ففي الظَّنِّ تغليبٌ، أمّا الحُسبانُ؛ ففيهِ شكٌّ، وتَحريرُ قوله تعالى: ﴿وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلۡجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ﴾، يُحِيلُ على انتفاءِ وجودِ ملجأٍ يعصِمُ من اللّه تعالى وأنَّ ذلكَ متيقَّنٌ لديهم، أي: إنَّهم اعتقدوا ذلكَ، وتيقَّنوهُ، فجيءَ بالظَّنِّ؛ لأنَّهُ في سياقِ العلمِ واليقينِ.

الظَّنُّ أدلُّ على اليقينِ والعلمِ من الحسبانِ

الملجأُ والمفرُّ:

الملْجَأُ: المَكانُ يُلْتَجَأُ إِلَيْهِ، قوله تعالى: ﴿مَا لَكُم مِّن مَّلۡجَإٖ﴾ [الشّورى: 47]، وهو المَعْقِلُ، وما يُتَحصّنُ به، من قلعةٍ ونحوها، يُقالُ: لَجَأْتُ

الملجأُ أخصُّ من المفرِّ لما فيهِ من التَّحصُّنِ

(1) العسكريّ، الفروق اللُّغوية، ص: 305.
(2) العسكريّ، الفروق اللُّغوية، ص: 99.
(3) الرّاغب، المفردات: (حسب).

إلى فُلانٍ، والتَجَأْتُ: استندْتُ إليه، اعتضدْتُ بِهِ[1]، وقوله تعالى: ﴿وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلۡجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ﴾، أي: لا مَفَرَّ، ولا مَهْرَبَ ومَفْزَعَ مِن غضبِ اللّه تعالى إلّا إِلَيْهِ، بالتَّوبةِ إليهِ واستغفارِهِ[2]، أمّا المَفرُّ؛ فهو من (فَرَّ)، وهو أصلٌ يدلُّ على الانكشافِ، وما يقاربُهُ من الكشفِ عن الشَّيءِ، وأصلُ الفَرِّ: الكشفُ عن سنِّ الدّابَّةِ، ويُقالُ: فرَّ عن الحربِ فِرارًا، قال تعالى: ﴿فَفَرَرۡتُ مِنكُمۡ﴾ [الشعراء: 21]، والمَفَرُّ: المَوْضِعُ يُفَرُّ إِلَيْهِ، ووقتُه، والفِرارُ نفسُه[3].

فالمَلْجَأُ مكانٌ أو معقِلٌ يتحصَّنُ بهِ كقلعةٍ، أمّا المفرُّ؛ فهو أعمُّ، فلا يدلُّ على التَّحصُّنِ، بل على مطلقِ الفِرارِ، وممكن أن يقالَ: إنَّ الفرارَ هو السَّعيُ للنَّجاة بالابتعادِ عن الخطر، أمّا المَلْجَأُ؛ فهو التَّحصُّنُ بمكانٍ يوفِّرُ الحمايةَ، ويضمنُ السَّلامةَ، ومن هنا فإنَّ التَّعبيرَ في الآية بالمَلْجَأِ أبلغُ في إظهار خَوْفِهم وقلقِهم؛ إذ إنَّ الخوفَ من اللّه تعالى شديدٌ، ويناسبهُ أن يعبِّرَ عن مكانِ الحمايةِ الأشدِّ في التَّحصُّنِ، وهو المَلْجَأُ دونَ الفِرارِ.

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، وابن منظور، لسان العرب، والسّمين، العمدة: (لجأ).
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/39، والقاسميّ، محاسن التّأويل: 5/520.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (فرّ).

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ١١٩﴾ [التّوبة: 119]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

إنَّما قَبِلَ توبتَهم لِما اتَّصفوا به من الصِّدقِ

لمّا ذكرَ اللّه تعالى التَّوبةَ على الثَّلاثةِ؛ بيَّن أنَّ باعثَهم على ذلك صدقُهم، وما اتَّصفوا بهِ من التَّقوى؛ إذ كان للصِّدق والتَّقوى أثرٌ كبيرٌ في قبولِ اللّه تعالى توبتَهم، فأتبعَ ذكرَ التَّوبةِ عليهم بالأمرِ بالتَّقوى والصِّدقِ[1]، ومن المناسبةِ كذلك أنَّه تعالى "لمّا حكم بقبولِ توبةِ هؤلاء الثَّلاثةِ؛ ذكرَ ما يكونُ كالزّاجرِ عن فعلِ ما مضى، وهو التَّخلُّفُ عن رسولِ اللّه ﷺ في الجهادِ، فقال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ في مخالفةِ أمرِ الرَّسول ﴿وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾ يعني: مع الرَّسولِ وأصحابِه في الغزَوات، ولا تكونوا مُتَخَلِّفين عنها، وجالِسين مع المنافقين في البيوتِ"[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾: (صدق) أَصْلٌ يَدُلُّ على قوَّةٍ في الشَّيْءِ قَوْلًا وغَيْرَهُ، من ذلك الصِّدْقُ: خِلافُ الكَذِبِ، سُمِّيَ لِقوَّتِهِ في نَفْسِهِ، ولأنَّ الكَذِبَ لا قوَّةَ لهُ[3]، والصِّدْقُ والكذبُ أصلُهما في القول، وهو: مطابقةُ القولِ الضَّميرَ والمُخْبَرَ عنه معًا، وقد يُستعملانِ في كلِّ ما يحقُّ، ويحصُلُ في الاعتقادِ، نحو: صدقَ ظنِّي، وكذبَ، وفي أفعالِ الجوارحِ، فيُقال: صَدَقَ في القتال؛ إذا وفَّى حقَّهُ، وفعلَ ما يجبُ، وكما يجبُ، وكذبَ في القتالِ؛ إذا كان بخلافِ ذلكَ، قال تعالى: ﴿رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَـٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب: 23]، أي: حقَّقوا العهدَ بما أظهروهُ من أفعالهم[4].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/41، والحجازيّ، التّفسير الواضح: 2/27.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 16/166.
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (صدق).
(4) الرّاغب، المفردات: (صدق).

المَعْنى الإجْماليُّ:

تأكيدُ وجوبِ التَّقوى والانتماءِ إلى أهلِ الصِّدقِ

يخاطبُ اللّه تعالى الذين آمنوا، وصدَّقوا باللّه تعالى وما أخبرهم بهِ النَّبيُّ ﷺ بأن يطيعوا اللّه تعالى فيجتنبوا ما نهى، ويأتوا بما أمرَ، وأن يثبُتوا على التَّقوى والإيمانِ، ويكونوا مع أهلِ الصِّدقِ في الأقوالِ والأفعال[1].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

فائدةُ جملةِ الاعتراضِ:

الاعتراضُ يبيِّنُ مكانةَ الصِّدقِ وعُلوِّ رتبتِهِ

قوله جلَّ شأنه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ اعترضَ بهِ النَّظمُ الكريم بين ذكرِ توبتهِ تعالى على مَن سبقَ ذكرُهم، وبين النَّهي عن التَّخلُّف في قوله في الآيةِ اللّاحقةِ: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ﴾ فالأمرُ بالتَّقوى والصِّدق كالخاتِمةِ للآية الَّتي قبلَها، فحسُن المجيءُ بهِ "بعد قصَّةِ الثَّلاثةِ حين نفعَهم الصِّدقُ، وذهبَ بهم عن منازلِ المنافقين، فجاءَ هذا الأمرُ اعتراضًا في أثناءِ الكلام؛ إذ عَنَّ في القصَّةِ ما يجب التَّنبيهُ على امتثالِهِ"[2]، وهو اعتراضٌ يبيِّنُ مكانةَ الصِّدقِ وعُلوِّ رُتْبَتِهِ[3]، وأنَّهُ سبيلٌ للنَّجاةِ، وهو بمنزلة الاعتراضِ التَّذييليِّ للقصَّةِ، "فإنَّ القصَّةَ مُشْتَمِلَةٌ على ذِكْرِ قومٍ اتَّقوا اللّه، فصدقوا في إيمانِهم وجهادهم، فرَضِيَ اللّه عنهم، وعلى ذِكْرِ قومٍ كَذَبوا في ذلك، واختلقوا المعاذيرَ، وحلفوا كَذِبًا، فغضِبَ اللّه عليهم، وقومٍ تخلَّفوا عن الجهادِ، وصَدَقوا في الاعترافِ بعدمِ العذرِ، فتابَ اللّه عليهم، فلمّا كان سببُ فوزِ الفائزين في هذهِ الأحوال كلِّها هو الصِّدقُ لا جَرَمَ أمرَ

(1) مجموعة من المؤلّفين، المنتخب في تفسير القرآن الكريم، ص: 281.
(2) ابن عطيّة، المحرر الوجيز: 3/94 - 95.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/521.

اللّه المؤمنينَ بتقواهُ، وبأن يكونوا في زُمرةِ الصّادقين، مثلَ أولئك الصّادقين الذين تضمَّنتهم القصَّةُ"[1].

دلالةُ التَّعبيرِ بأسلوبِ النِّداءِ:

النِّداءُ يجذبُ انتباهَ السّامعِ لمضمونِ القولِ

في قوله عزَّ ذِكرهُ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾ افتتحَ الخطابَ بالنِّداء تنبيهًا على الاهتمام بمضمون القولِ، وأنَّهُ بحيثُ يجبُ أن يُنْتَبَهَ لهُ، فاسمعوهُ، وخاطبَهم بصفةِ الإيمانِ تنبيهًا على أنَّ ما يأتي في الخطابِ هو من أعمالِ المؤمنين.

سرُّ العُدولِ عن خطابِ الثَّلاثةِ إلى خطابِ المؤمنين جميعًا:

إعمامُ الخطابِ حثٌّ للمقصِّرِ وتثبيتٌ لأهلِ الصِّدقِ

قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾ خطابٌ لكلِّ المؤمنين، وإن كان قد وردَ في سياقِ الحديثِ عن توبتهِ تعالى عن الثَّلاثةِ، وللإمامِ البقاعيِّ كلامٌ نفيسٌ في بيان ذلك؛ إذ قال: "﴿مَعَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾، أي: في كلِّ أمرٍ يُطلبُ منهم، ولعلَّهُ أخرجَ الأمرَ مَخْرَجَ العمومِ؛ ليشملَ كلَّ مؤمنٍ، فمن كان مُقَصِّرًا كانتْ آمرةً له باللَّحاقِ، ومن كان مُسابِقًا؛ كانت حاثَّةً له على حفظِ مقامِ الاستباقِ"[2].

نكتةُ وصفِ المُنادى بالاسمِ الموصولِ:

المؤمنُ الحقُّ مقبلٌ على خطابِ ربِّهِ

في قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾ نادى أشخاصًا معهودينَ، والعُهدةُ الصِّفةُ المذكورةُ في صلةِ الموصولِ، وهي الإيمانُ، وذلك يتضمَّنُ التَّنبيهَ إلى أنَّ ما سيأتي بعدَه، فإنَّه ممّا يختَصُّ بالمؤمنين، وأنَّه من واجباتِ الإيمان، فيُقبِلونَ على مضمونِ الخطابِ بمزيدٍ من الانتباهِ لسماعهِ، بعدَ الانتباهِ المحقَّقِ بالنِّداءِ.

بَيَّنَ الموصولُ علَّةَ إيمانِهم، وخصَّهم بالذِّكرِ مع العمومِ

ويشيرُ الاسمُ الموصولُ أيضًا إلى أنَّ علَّةَ أمرِهم بالتَّقوى، وأنْ يكونوا مع الصّادقين، هو إيمانُهم، فضْلًا عن احتمالِ أنَّ الخطابَ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/54.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/41 - 42، والشّهاب، عناية القاضي: 4/373.

مع كونهِ عامًّا، فإنَّه يُلمَحُ فيه الخصوصُ، وهم الثَّلاثةُ، بـ"الإشارةِ إلى أنَّ هؤلاءِ الثَّلاثةَ حصلَ لهم بالصِّدقِ ما حصلَ من توبةِ اللّه، وظاهرُ الآيةِ الأمرُ للعباد على العموم"[1].

دلالةُ التَّعبيرِ بجملةِ الصِّلة فعلًا ماضيًا:

نـودوا بوصفِ الإيمانِ الرّاسخِ فيهم

في قوله جلَّ شأنه: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ خاطبَ المؤمنين بإدخالِ حرفِ النِّداءِ على الموصولِ الَّذي صلتُهُ فعلُ الإيمانِ، وجاء ذلك بصيغةِ الفعل الماضي؛ للدَّلالةِ على أنَّ إيمانَهم قد تحقَّقَ، وصارَ راسخًا مقطوعًا به بحيثُ إنَّهم يُنادَوْن بهذا الوصفِ تشريفًا، وعُلوَّ كعبٍ.

توجيهُ التَّعبيرِ بفعلِ الأمرِ ﴿ٱتَّقُواْ﴾:

الأمـرُ بالتَّقوى تذكيرٌ بخطورةِ التَّخلُّف

قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ جاء اعتراضًا خلالَ الحديثِ عن حرمةِ التَّخلُّف عن رسولِ اللّه ﷺ، فالأمرُ بالتَّقوى في هذا السِّياق تأكيدُ شأنِ مصاحَبَتِه في سَيْرِه، والمعنى: يجبُ عليكم التَّقوى "في كلِّ ما تأتون، وما تَذَرون، فيدخُل فيه المعاملةُ مع رسولِ اللّه ﷺ في أمرِ المغازي دخولًا أوَّليًّا"[2]، فالأمرُ بالتَّقوى في سياقِ التَّحذيرِ من التَّخلُّف عن المغازي تذكيرٌ للمؤمنين بخطورةِ التَّخَلُّفِ؛ لأنَّ ارتكابَهُ خروجٌ عن التَّقوى الواجبةِ.

سرُّ التَّعبيرِ بالاسم الجليلِ منصوبًا على التَّعظيمِ:

المؤمنُ في غايةِ التَّقوى والخوفِ مِمَّن له كمالُ العظمةِ والجلالِ

في قوله عزَّ ذِكرُهُ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾ فقد جعل النَّظمُ الكريمُ فعلَ التَّقوى المأمورَ بهِ واقعًا على الاسم المُتَضَمِّنِ الجلالَ والكمالَ؛ تعظيمًا لوجوبِ هذه التَّقوى، "أي: خافوا سطوةَ مَن لهُ العظمةُ الكاملةُ؛ تصديقًا لدعواكم، فلا تفعلوا إلّا ما يُرْضيهِ"[3].

---

(1) الشوكانيّ، فتح القدير: 2/471.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/110.

(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/41.

نكتةُ الأمرِ بالفعلِ (كن):

الأمرُ بالكَينونةِ أبلغُ في إيجابِ التَّحلِّي بالصِّدقِ

جاء الأمرُ بفعلِ الكينونةِ في قوله تعالى: ﴿وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ دونَ الفعلِ المباشرِ بأنْ يقولَ: (اصدقوا)؛ لأنَّهُ أرادَ المبالغةَ في أن يكونوا كذلك؛ لأنَّ "الأمرَ بـ (كونوا مع الصادقين) أبلغُ في التَّخلُّق بالصِّدقِ من نحو: اصدقوا"[1]، فالأمرُ بالفعلِ كان يقتضي أن يكونَ الوصفُ قدِ انطبعَ في السُّلوكِ حتَّى يكونَ سجيَّةً وطبعًا[2].

سرُّ تعقيبِ الأمرِ بالتَّقوى بالأمرِ بالصِّدقِ:

الكذبُ مبعثُ كلِّ رذيلةٍ، والصِّدقُ مجمعُ الرَّغائبِ

في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ أمرَهم بأن يكونوا مع الصّادقين بعد الأمرِ بالتَّقوى تنبيهًا على فُحْشِ نقيضِ الصِّدق، وهو الكذبُ، فقوله تعالى: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ "أي: في جميع الرَّذائلِ بالاجتنابِ عنها، خاصَّةً رذيلةَ الكذبِ، وذلك معنى قوله: ﴿وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾، فإنَّ الكذبَ أسوأُ الرَّذائلِ وأقبحُها"[3].

سرُّ إيثارِ التَّعبيرِ بـ ﴿وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾:

لا نَفْعَ في صدقٍ من دونِ الانضمامِ في زُمرةِ الصّادقين

آثرَ النَّظمُ الجليلُ في قوله جلَّ شأنُه: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ أن يأمرَهم بالكَيْنونةِ بقيدِ المَعِيَّةِ، فيكونوا مع الصّادقينَ، ولم يأمرْهم بأن يكونوا صادقينَ مباشرةً، فلم يقل: (وكونوا صادقين) إشارةً إلى أنَّ الصِّدقَ وحدَهُ لا يكفي، بل لا بدَّ من الانضمامِ إلى جماعةِ الصّادقين، ومصاحبتِهم، فـ ﴿مَعَ﴾ "في هذه الآيةِ تقتضي الصُّحبةَ في الحالِ، والمشاركةَ في الوصفِ المقْتَضِي للمدحِ"[4]، فأوجبَ عليهم إقرانَ أنفسِهم مع أهلِ الصِّدق، فهو أمرٌ أبلغُ من الأمرِ بالصِّدقِ؛ إذ يقتضي أن يكونَ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/54.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/41.
(3) القاسميّ، محاسن التّأويل: 5/525.
(4) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/95.

المخاطَبُ صادقًا وزيادةً، وقد أَلمحَ الإمامُ البقاعيُّ إلى أنَّ التَّعبيرَ قد يدلُّ على ضرورةِ الاتِّصاف بالصِّدقِ بأيِّ درجةٍ كان؛ فـ "لعلَّهُ عبَّرَ بـ ﴿مَعَ﴾؛ ليشملَ أدنى الدَّرجاتِ، وهو الكونُ بالجثثِ"[1]، فيجبُ على المؤمن أن يرافقَ الصّادقين، وإن لم يكنْ بدرجتِهم بأن يحضُرَ معهم حضورًا بنفسهِ في مجتمَعِهم ومرافقتِهم؛ لأنَّ الصّاحبَ بالمصاحبِ مقتدٍ، فيتعوَّدُ منهم الصِّدقَ، كجليسِ نافحِ الطِّيبِ يصيبُه منه عبيرُهُ.

سرُّ إيثارِ التَّعبيرِ بـ ﴿مَعَ﴾:

الأمرُ بالمعيَّةِ نصٌّ بالمصاحبةِ

في قوله جلَّ شأنُه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ أمرَ اللّه تعالى المؤمنين أن يكونوا بمَعِيَّةِ الصّادقين، ولم يقل: (وكونوا من الصّادقين)؛ لأنَّ "(مِن) أعمُّ مِن (مع)؛ لأنَّ كلَّ مَن كان مِن قومٍ؛ فهو مَعهم في المعنى المأمورِ بهِ، ولا ينعكسُ ذلك"[2]، فالمأمورُ أنْ يكونوا معهم، وإن لم يكونوا قد صاروا منهم بالاتِّصافِ بوصفِهم، ويفيدُ ذلك أن يكونوا معهم، ولو كَوْنًا بمجرَّدِ الحضورِ والوجودِ معهم، فعبَّرَ "بـ ﴿مَعَ﴾ ليشملَ أدنى الدَّرجات، وهو الكَوْنُ بالجثثِ"[3].

نكتةُ إيثارِ التَّعبيرِ بـ ﴿ٱلصَّٰدِقِينَ﴾:

أمرُهم بأن يكونوا مع الصّادقين حثٌّ لهم على تقويمِ مَسْلَكِهم

في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ خصَّ الأمرَ بأن يكونوا مع الصّادقين، دونَ الأمرِ بأن يكونوا مع مَنِ اتَّصف بصفةٍ أخرى؛ لأنَّ صفةَ الصِّدق هي الأنسبُ بعدَ قِصص المتخلِّفين والمُعَذَّرين، فأمرَهم بالكينونةِ مع الصّادقين حثًّا لهم على تقويم مَسْلَكِهم، وأن يكونوا صادقين "في دينِ اللّه نيَّةً

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/41 - 42.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/522.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/41 - 42.

وقولًا وعملًا، أو في كلِّ شأنٍ من الشُّؤونِ، فيدخلُ ما ذُكر أو في توبتِهم وإنابتِهم"[1]، ولأنَّ ما وقع من الثَّلاثةِ ومن المُعَذِّرين إنَّما صدرَ لِما في موافقةِ أقوالِهم لفعلِهم من وُهْنٍ، فكان الصِّدقُ هو الأنسبَ للسِّياقِ، فـ" الصِّدقُ نهايةُ الأحوالِ، وهو استواءُ السِّرِّ والعلانيةِ"[2]. وكفى بها فضلًا أنَّها ثانيةٌ لرتبةِ النُّبوَّةِ في قوله: ﴿فَأُوْلَـٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ ٦٩﴾ [النّساء: 69][3].

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/110.

(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/521.

(3) القشيريّ، لطائف الإشارات: 2/71.

﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا۟ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا۟ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾﴾ [التّوبة: 120]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

لمّا نهى عن الخُلْفِ؛ أكَّد النَّهي عنهُ بوجوبِ متابعةِ النَّبيِّ ﷺ

لمّا أمرَ اللّه تعالى بالتَّقوى والكينونةِ مع الصّادقين، و"موافقةِ الرَّسول ﷺ في جميعِ غزواتِه؛ أَتْبَعَهُ بتأكيدِ ذلك، فنهى في هذهِ الآيةِ عن التَّخلُّف عنهُ، فقالَ: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا۟ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ﴾[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَتَخَلَّفُوا۟﴾: (خلف) أصلٌ يدلُّ على مجيءِ شيءٍ بعد شيءٍ يقومُ مقامَهُ[2]، وخَلَفَ ضدُّ تقدَّمَ وسلف، والمتأخِّرُ لقصورِ منزلتهِ يقالُ له: خَلْفٌ، ولهذا قيل: الخلفُ الرَّديءُ، يقال: تَخَلَّفَ فلانٌ فلانًا؛ إذا تأخَّر عنهُ[3].

2) ﴿يَرْغَبُوا۟﴾: أصلُ الرَّغْبَةِ: السَّعةُ في الشَّيء، يقال: رَغُبَ الشَّيءُ: اتَّسعَ، والرَّغْبَةُ: السَّعةُ في الإرادةِ قال تعالى: ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ [الأنبياء: 90]، فإذا قيل: رَغِبَ فيه وإليه، يقتضي الحرصَ عليه، قال تعالى: ﴿إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [التّوبة: 59]، وإذا قيل: رَغِبَ عنهُ؛ اقتضى صرفَ الرَّغبةِ عنه والزُّهدَ فيه، نحو قوله

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 16/169، وأبو حيّان، البحر المحيط: 5/522.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (خلف).
(3) الرّاغب، المفردات: (خلف).

تعالى: ﴿وَمَن يَرۡغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبۡرَٰهِـۧمَ﴾ [البقرة: 130][1]، ورَغِبْتَ عن الشَّيءِ؛ إذا لم تُرِدْهُ، وزَهِدتَ فيه[2].

3) ﴿ظَمَأٌ﴾: (ظمأ) أَصْلٌ يَدُلُّ على ذُبولٍ وقِلَّةِ ماءٍ، الظَّمَأُ، وهوَ الْعَطَشُ[3]، والظَّما، بلا هَمزٍ: ذُبولُ الشَّفَةِ مِنَ العَطَشِ[4]، والظِّمءُ: ما بينَ الشَّربتينِ، والظَّمَأُ: العطشُ الَّذي يعرضُ من ذلك، قال تعالى: ﴿لَا تَظۡمَؤُاْ فِيهَا وَلَا تَضۡحَىٰ ١١٩﴾ [طه: 119][5].

4) ﴿نَصَبٌ﴾: (نصب) أَصْلٌ يَدُلُّ على إقامَةِ شَيْءٍ وإهْدافٍ في اسْتِواءٍ، ومِنَ الْبابِ النَّصَبُ: الْعَناءُ، ومَعْناهُ: أَنَّ الْإِنْسانَ لا يَزالُ مُنْتَصِبًا حَتَّى يُعْيِيَ[6]، وهو: الإِعْياءُ مِنَ العَناءِ، والفعلُ نَصِبَ الرَّجلُ، بِالْكَسْرِ، نَصَبًا: أَعْيا وتَعِبَ[7].

5) ﴿مَخۡمَصَةٌ﴾: (خمص) أَصْلٌ يَدُلُّ على الضُّمرِ والتَّطامُنِ، والْمَخْمَصَةُ: المَجاعَةُ؛ لِأَنَّ الْجائِعَ ضامِرُ الْبَطْنِ[8]، وقوله تعالى: ﴿فِي مَخۡمَصَةٍ﴾ [المائدة: 3]، أي: مجاعةٍ تورثُ خَمصَ البطنِ، أي: ضُمورَهُ، يقال: رجلٌ خامصٌ، أي: ضامرٌ، وأَخْمَصُ القدم: باطنُها، وذلك لضُمورِها[9]، والمَخْمَصَةُ: الْجوعُ، وهوَ خَلاءُ الْبَطْنِ مِنَ الطَّعامِ جوْعًا، والمَخْمَصةُ: المَجاعةُ، وهي مصدرٌ مثل المَغْضَبَةِ والمَعْتَبَةِ، وقد خَمَصَهُ الجوعُ خَمصًا ومَخْمَصةً[10].

6) ﴿يَطَـُٔونَ﴾: (وطأ) كَلِمَةٌ تَدُلُّ عَلَى تَمهيدِ شَيْءٍ وَتَسْهيلِهِ، ووَطِئْتُهُ بِرِجْلِي أَطَؤُهُ، وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَطَـُٔونَ مَوۡطِئٗا﴾ مِن وطأَ البلادَ برجلِهِ، ويقالُ: وطئْتُ البلادَ أطؤها وطاءً[11].

7) ﴿يَغِيظُ﴾: (غيظ) أَصْلٌ يَدُلُّ عَلَى كَرْبٍ يَلْحَقُ الْإِنْسانَ مِنْ غَيْرِهِ[12]، والغَيْظُ: أشدُّ الغضبِ، وهو الحرارةُ الَّتي يجدُها الإنسانُ من فَوَرانِ دمِ قلبِهِ، قال: ﴿قُلۡ مُوتُواْ بِغَيۡظِكُمۡۗ﴾

(1) الرّاغب، المفردات: (رغب).
(2) الجوهريّ، الصّحاح: (رغب).
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (ظمأ).
(4) ابن منظور، لسان العرب: (ظما).
(5) الرّاغب، المفردات: (ظمأ).
(6) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (نصب).
(7) ابن منظور، لسان العرب: (نصب).
(8) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (خمص).
(9) الرّاغب، المفردات: (خمص).
(10) ابن منظور، لسان العرب: (خمص).
(11) السّمين، العمدة: (وطأ).
(12) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (غيظ).

[آل عمران: 119]، وقال: ﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ﴾ [الفتح: 29]، وقد دعا اللّه النّاسَ إلى إمساكِ النَّفسِ عند اعتراءِ الغيظِ، قال: ﴿وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ﴾ [آل عمران: 134][1].

8. ﴿نَّيْلًا﴾: النَّيْلُ: ما ينالهُ الإنسانُ بيدهِ، نِلْتُهُ أَنالُهُ نَيْلًا، قال تعالى: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ﴾ [آل عمران: 92]، والنَّوْلُ: التَّناولُ[2]، وقوله تعالى: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا﴾ [الحج: 37] أي: لن يصلَ إليهِ ما يعدُ لكم ثوابَهُ من التَّقوى، وقال تعالى: ﴿وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا﴾، أي: يُصيبون منهم مالًا أو عَرَضًا[3].

المَعْنى الإجْماليُّ:

حُرْمَةُ التَّخلُّفِ عن رسولِ الله ﷺ

لمّا كانَ الجهادُ في سبيلِ اللّه تعالى من أعلى شُعَبِ الإيمانِ، والتَّخلُّفُ عنه عظيمُ الخطرِ؛ نهى اللّه تعالى نهيًا بليغًا عن ذلك، فما يحلُّ "لأهل المدينةِ، ومَن يجاورونَهم من سكّان البوادي، أن يتخلَّفوا عن الغزوِ مع رسولِ اللّه ﷺ، ولا أن يَضِنّوا بأنفسِهم عمّا بَذَلَ الرَّسولُ فيه نفسَه؛ إذ إنَّهم لا يصيبُهم في سبيلِ اللّه ظمأٌ أو تعبٌ أو جوعٌ، ولا ينزلون مكانًا يثيرُ وجودُهم فيهِ غيظَ الكفّارِ، ولا ينالون من عدوٍّ غَرَضًا كالهزيمةِ أو الغنيمةِ إلّا حُسِبَ لهم بذلك عملٌ طيِّبٌ يُجزون عليه أحسنَ الجزاء، وإنَّ اللّه لا يضيعُ أجرَ الَّذين أحسنوا في أعمالهِم"[4].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ الفصلِ في الآية:

لا شُبْهَةَ تأوُّلٍ لتسويغِ عدمِ الخروجِ إلى الغزوِ مع النَّبيِّ ﷺ

قال عزَّ ذِكرُهُ: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ﴾

(1) الرّاغب، المفردات: (غيظ).
(2) الرّاغب، المفردات: (نيل).
(3) السّمين، العمدة: (نول).
(4) مجموعة من المؤلّفين، المنتخب في تفسير القرآن الكريم، ص: 282.

بعد أن وقعَ من بعض الأصحابِ التَّخلُّفُ عن مصاحبتهِ ﷺ وما لَحِقَهُ من التَّوبةِ عليهم، وخاطبَهم آمرًا إيّاهم بالتَّقوى، وأن يكونوا بصحبةِ الصّادقين، مستأنِفًا للتَّصريحِ بحرُمَةِ التَّخلُّف عن النَّبيِّ ﷺ، فالآيةُ "استئنافٌ ابتدائيٌّ لإيجابِ الغزوِ على أهلِ المدينةِ، ومَن حولهم من أهلِ باديتِها الحافِّين بالمدينةِ؛ إذا خرج النَّبيُّ ﷺ للغزوِ، فهذا وجوبٌ عينيٌّ على هؤلاءِ شرَّفهم اللّه بأن جعلَهم جُنْدَ النَّبيِّ ﷺ وحرسَ ذاتِه"[1]، والغرضُ من التَّصريحِ بهذا الاستئنافِ ألّا تبقى شُبْهَةٌ يُمكِنُ تأويلُها لتسويغِ عدمِ الخروجِ إلى الغزوِ مع النَّبيِّ ﷺ.

بلاغةُ النَّهي بأسلوبِ الخبرِ:

النَّهيُ بالنَّفي أبلغُ في الزَّجرِ عن المنهيِّ عنهُ

قوله جلَّ شأنُه: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ﴾ إنشاءٌ بصورةِ الخبرِ المنفيِّ، وذهبَ أئمَّةُ التَّفسيرِ إلى أنَّ المرادَ بهِ والغرضَ منه النَّهيُ، فحقيقةُ الخبرِ هنا "نهيٌ بليغٌ، مع تقبيحٍ لأمرِهم وتوبيخٍ لهم عليه، وتهييجٍ لمتابعتهِ بأَنَفَةٍ وحَمِيَّةٍ"[2]. وإنَّما آثرَ النَّظمُ الكريمُ أن يتَّخذَ من الإخبارِ المنفيِّ سبيلًا إلى النَّهي في الآيةِ، ولم يقلْ: (لا يتخلَّفنَّ أهلُ المدينة..) بصيغة النَّهي الإنشائيَّة؛ لأنَّه أبلغُ من النَّهي الصَّريحِ؛ لأنَّه يدلُّ على أنَّ هذا الفعلَ لا يصحُّ من الأصلِ، فهو منفيُّ الوقوعِ[3]، والغرضُ من ذلك المبالغةُ في النَّهي، فهذا الفعلُ ممّا لا يُتصوَّرُ أن يفعلَهُ المذكورون.

سرُّ نفي فعلِ الكونِ:

كينونةُ أهلِ المدينةِ في اتِّباعِ رسولِ اللهِ وعدمِ التَّخلُّفِ عنهُ

وقوله جلَّ شأنه: ﴿مَا كَانَ﴾ نفيٌ للشَّأن والكون، "أي: ما كانَ من شأنِ أهلِ المدينةِ من مهاجرينَ وأنصارٍ آوَوا، ونصروا، وهم أهلُ النَّجدة والإيواء، ومَن حولَهُم من الأعرابِ الَّذين أُشربوا الإيمانَ أن

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/55.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/522.
(3) الشّهاب، عناية القاضي: 4/373.

يتخلَّفوا عن رسولِ الله ﷺ ويؤثروا الدَّعَةَ والرّاحةَ، ويتركوهُ وحدَهُ يكابِدُ المشاقَّ، ويتحمَّلُ المتاعبَ في سبيلِ عزِّهم ورفعِ دينِهم، وهم يرغبونَ في الدَّعَة، وطيبِ العيش الرَّغيدِ"[1].

نكتةُ التَّصريحِ بالأهلِ:

التَّصريحُ أبلغُ في سياقِ الثَّناءِ والتَّشريفِ

أظهرَ لفظَ الأهلِ في قوله جلَّ شأنُه: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ﴾، ولم يستعملِ المجازَ بأن يقولَ: (وما كان للمدينة وما حولها)، كما قال: ﴿وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ﴾ [الأعراف: 163]، وقوله: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ [يوسف: 82]، أي: أهلَها، فعبَّر بالحقيقةِ دونَ المجازِ لِما في التَّصريحِ بهم من التَّشريفِ، والغرضُ منه الثَّناءُ عليهم لذاتِهم، وليس المقصودُ من الثَّناءِ المدينةَ، ولا ما جاورَها من الأماكنِ.

دلالةُ التَّعبيرِ بـ ﴿وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ﴾:

أشركَ تعالى السّاكنينَ في جميعِ نواحي المدينةِ الشَّريفةِ بالثَّناءِ الَّذي ذُكِر لأهلِ المدينةِ

عبَّر النَّظمُ الجليلُ بقوله عزَّ ذِكرُه: ﴿وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ﴾ للدَّلالةِ على المؤمنين السّاكنين في جميعِ نواحي المدينةِ الشَّريفةِ[2]، وفي ذلك إشراكٌ لهم بالثَّناءِ الذي ذُكِر لأهلِ المدينةِ؛ إذ إنَّهم شاركوا في غزوةِ تبوكَ[3]، والأعرابُ الَّذين كانوا حولَ المدينةِ يتناول جميعَ من كان حولَ المدينةِ من سكّان البوادي ممَّن أسلمَ، فإنَّ (مَن) تدلُّ على العموم[4]، وشبهُ الجملة ﴿مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ﴾ في موضعِ الحال، و ﴿مِّنَ﴾ بيانيَّةٌ، فهو قيدٌ لبيان المرادِ بقوله: ﴿وَمَنْ حَوْلَهُم﴾، فيتسلَّطُ النَّفيُ في قوله: ﴿مَا كَانَ﴾ على الذين هم حولَ المدينةِ في حالِ كونِهم من الأعرابِ، فهو تصريحٌ يبيِّنُ أنَّ المرادَ بهم سكّانُ البوادي حولَ المدينةِ، تقييدًا لعمومِ الظَّرفِ (حَوْلَ)، ويُلاحظُ أنَّهُ

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3478.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/43.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/55.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/43، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 16/169.

لم يقل: (ومَن حولها)، فالمقصودُ من الحديثِ تشريفُهم، وتوجيهُ النَّهي إلى شُخوصِهم.

دلالةُ التَّعبيرِ بالمصدرِ المؤوَّلِ: ﴿أَن يَتَخَلَّفُواْ﴾:

مقصودُ الكلامِ حدثُ التَّخلُّفِ، وعدمُ مناسبتِهِ لأهلِ المدينةِ

جاء المُسنَدُ إليهِ في قوله تعالى: ﴿أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ﴾ مصدرًا مؤوَّلًا، هو قوله: ﴿أَن يَتَخَلَّفُواْ﴾ فهو اسمُ ﴿كَانَ﴾ المؤخَّرُ، والتَّقديرُ: ما كان التَّخلُّفُ عن رسولِ الله جائزًا لأهلِ المدينةِ، ومَن حولَهم، ولا لائقًا بهم[1]، وما كان من شأنِهم مهاجرين وأنصارًا[2]، فالتَّعبيرُ بالمصدرِ المؤوَّلِ خصَّصَ التَّعبيرَ في حدثِ التَّخلُّف فحسبُ، دون كيفيّاتِهِ، ومُلابساتِهِ.

سرُّ إيثارِ الرَّسولِ على النَّبيِّ ﷺ:

التَّعاليمُ مَظنَّةُ الاتِّباعِ، والالتزامِ

في قوله عزَّ ذِكرُه: ﴿أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ﴾ عبَّر بالرِّسالةِ دونَ النُّبوَّةِ تذكيرًا لهم بأنَّهُ يحمل رسالةَ تعاليمَ من الله تعالى وأنَّ خروجَهُ للغزوِ إنَّما كان تَبَعًا لهذه الرِّسالة، فالتَّعبيرُ بالرِّسول يؤكِّدُ وجوبَ الخروجِ معَهُ.

وجهُ إضافةِ الرَّسولِ إلى لفظِ الجلالةِ:

في الإضافةِ تعظيمٌ للرَّسولِ ولشأنِ طاعتِهِ

إنَّ التَّعبيرَ بلفظِ الرَّسولِ يُتيحُ إضافتَهُ إلى لفظِ الجلالةِ، وهذهِ الإضافةُ تزيدُ تأكيدَ وجوبِ اتِّباعِهِ والخروجِ معهُ، وتعظيمَ شأنِ طاعتِهِ لكَوْنِهِ مُرْسَلًا من الله تعالى فضلًا عمّا يحملُهُ التَّركيبُ من تشريفٍ لهُ ﷺ.

دلالةُ التَّعبيرِ بقوله: ﴿وَلَا يَرۡغَبُواْ بِأَنفُسِهِمۡ عَن نَّفۡسِهِۦۚ﴾:

لا يُقَدِّمَنَّ أحدٌ نفسَهُ على نفسِ رسولِ الله ﷺ

قوله عزَّ ذِكرُه: ﴿وَلَا يَرۡغَبُواْ بِأَنفُسِهِمۡ عَن نَّفۡسِهِۦۚ﴾ معطوفٌ على قوله: ﴿أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ﴾، والتَّقديرُ: ولا الرَّغبةُ بأنفسِهم عن نفسِهِ[3]، فكما أنَّ التَّخلُّفَ ليس جائزًا لهم، فكذلك تفضيلُهم

(1) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 12/114.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3478.
(3) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 12/114.

أنفسَهم على نفسهِ، فلا ينبغي أن يطلبوا لأنفسِهم الحفظَ والدَّعةَ، والنَّبيُّ ﷺ في الحرِّ والمشقَّةِ[1]، ومعنى الآيةِ: أنَّهم قد "أُمروا بأن يصحبوهُ على البأساءِ والضَّرّاء، وأن يكابِدوا معه الأهوالَ برغبةٍ ونشاطٍ واغتباطٍ، وأن يلقوا أنفسَهم من الشَّدائدِ ما تلقاهُ نفسُهُ، علمًا بأنَّها أعزُّ نفسٍ عندَ اللّه وأكرمُها عليه، فإذا تعرَّضَتْ مع كرامتِها وعزَّتِها للخَوْضِ في شدَّةٍ وهَوْلٍ، وَجَبَ على سائرِ الأنْفُسِ أن تَتَهافتَ فيما تعرَّضت لهُ، ولا يكترثَ لها أصحابُها، ولا يقيموا لها وزنًا، وتكونَ أخفَّ شيءٍ عليهم وأهونَهُ"[2].

علَّةُ تكرارِ النَّفي في قوله: ﴿وَلَا يَرۡغَبُواْ بِأَنفُسِهِمۡ عَن نَّفۡسِهِۦۚ﴾:

كرَّرَ النَّظمُ الكريمُ النَّفيَ في قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَلَا يَرۡغَبُواْ بِأَنفُسِهِمۡ عَن نَّفۡسِهِۦۚ﴾، فلم يقلْ: (ما كان لهم أن يتخلَّفوا، ويرغبوا بأنفسِهم) فالنَّفي في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَرۡغَبُواْ﴾ "لتأكيد النَّفي بـ (ما)، أي: ما كان لهم أن يتخلَّفوا عن رسولِ اللّه، ولا كان لهم أن يرغَبوا بأنفسِهم، فتِكرارُ النَّفي تأكيدٌ له"[3]، وللدَّلالةِ على استقلالِ كلِّ فعلٍ عن الآخرِ؛ لأنَّ إعادةَ حرفِ النَّفي تجعلُ كلَّ معطوفٍ، كالمستقلِّ بالذِّكرِ.

إعادةُ النَّفي إيذانٌ باستقلالِ الفعلِ، وتأكيدِهِ

بلاغةُ الاستعارةِ في قوله: ﴿وَلَا يَرۡغَبُواْ﴾:

في قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَلَا يَرۡغَبُواْ بِأَنفُسِهِمۡ عَن نَّفۡسِهِۦۚ﴾ "استعارةٌ؛ والمرادُ بها أنَّهم لا ينبغي لهم أن يُكْرِموا أنفسَهم عمّا يبذُلُ النَّبيُّ ﷺ فيه نفْسَه، ولا يحفظوا مُهَجَهم في المواطنِ الَّتي تحضُرُ فيها مُهْجَتُه، اقتداءً بهِ، واتِّباعًا لأثرِه، وهذه لفظةٌ يستعملُها أهلُ اللِّسان كثيرًا، فيقولون: رغِبْتُ بنفسي عن الضَّيم، وأرغبُ بكَ - يا فلانُ - عن القتلِ، أي: أضَنُّ بنفسي عن أن تُذَلَّ، وأَنْفَسُ بمثلكَ عن أن يُقْتَلَ"[4].

المؤمنُ الحقُّ لا يرغَبُ بمُهْجَتِهِ عن رسولِ اللّه ﷺ

(1) ابن عادل، اللُّباب: 10/236.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/321.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3479.
(4) الشّريف الرضيّ، تلخيص البيان: 2/150.

بلاغةُ التَّضمُّنِ في نفي الرَّغبةِ:

تضمَّنتِ الرَّغْبَةُ عن نفسِ النَّبيِّ ﷺ الضِّنانَةَ

في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَرۡغَبُواْ﴾ تضمينٌ؛ إذ إنَّ الرَّغبةَ عن نفسِ النَّبيِّ ﷺ تتضمَّن معنى الضِّنانةِ بأنفسِهم عنهُ، ودلالةُ إرداةِ الفِعْلَيْن مُجتَمِعَيْنِ أقوى من دلالةِ فعلٍ واحدٍ، والمعنى: فلا يرغبوا ضَنينينَ شَحيحينَ بأنفسِهم عن نفسِ رسولِ اللّه ﷺ[1].

معنى (الباء) في ﴿بِأَنفُسِهِمۡ﴾:

المؤمنُ الحقُّ يصاحِبُ النَّبيَّ على كلِّ حالٍ

جاء فعلُ الرَّغبةِ في قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَلَا يَرۡغَبُواْ بِأَنفُسِهِمۡ عَن نَّفۡسِهِۦۚ﴾ متعدِّيًا بالباءِ، ومعنى رَغِبْتُ بنفسي عن هذا الأمرِ، أي: ترفَّعتُ عنه، وتركتُهُ، ورَغِبْتُ بفلانٍ عن هذا الأمرِ، أي: كَرِهْتُهُ له[2]، والمعنى: "ما صحَّ لهم، ولا استقام أن يترفَّعوا بأنفسِهم عن نفسِهِ بأن يكرهوا الشَّدائدَ لأنفسِهم، ولا يكرهوها لهُ، فإنَّهُ مُسْتَهْجَنٌ جدًّا، بل عليهم أن يعكسوا القضيَّةَ"[3]، ففي هذا التَّعبيرِ مبالغةٌ في إيجابِ متابعتِهِ، والباءُ في قوله: ﴿بِأَنفُسِهِمۡ﴾ "للتَّعديةِ، فقوله: رَغِبْتُ عنهُ، معناهُ: أعرضتُ عنهُ، والمعنى: ولا يجعلوا أنفسَهم راغبةً عن نفسِهِ، وعن نفسِهِ: حالٌ، أي: عليهم أن يصحبوهُ على كلِّ حالٍ"[4].

وجهُ التَّعبيرِ بلفظِ النَّفسِ:

نفيُ الرَّغبةِ يشملُ الظَّاهرَ والباطنَ

لفظُ (النَّفس) تدلُّ على الذّات المتشخِّصَةِ، وما تَنْطوي عليه من روحٍ وضمائرَ، وعبَّرَ بها هَهُنا للتَّلويحِ بأنَّ نفيَ الرَّغبةِ عن نفسِ رسولِ اللّه ﷺ يشملُ الأنفسَ ذاتًا ظاهرةً، وباطنةً، فالدَّواخلُ والسَّرائرُ، والضَّمائرُ أصلُ توجيهِ الأفعالِ، وتسييرِ الذَّواتِ.

براعةُ إيثارِ صيغةِ الجمعِ (أفعل):

المؤمنُ لا ترغبُ نفسُهُ عن نفسِ رسولِ الله ﷺ

صيغةُ (أفعل) جمعُ قلَّةٍ، وصيغةُ (فعول) جمعُ كثرةٍ، وإيثار

(1) الشّريف الرّضيّ، تلخيص البيان: 2/150.
(2) الواحديّ، البسيط: 11/88 - 89.
(3) الشّهاب، عناية القاضي: 4/373.
(4) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 4/193.

استعمالِ جمعِ القلَّةِ (أنفسهم) دونَ جمعِ الكثرةِ (نفوسهم) للتَّعبيرِ عن معنى أنَّ أنفسَهم، وإنْ كانت قليلةً، فلا يحقُّ لهم، ولا يُباحُ أنْ يرغبوا بها عن نفسِ رسولِ اللّه ﷺ، ويُعْرِضوا بها، ويميلوا عنهُ، وفيهِ أيضًا تلميحٌ بأنَّ مَن يفعلُ ذلك من المسلمين هم القلَّةُ.

نكتةُ التَّعبيرِ بـ ﴿عَن﴾:

في قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَلَا يَرْغَبُواْ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ﴾ تعدَّى فعلُ الرَّغبةِ بحرفِ الجرِّ (عن) للدَّلالةِ على التَّجاوزِ، فقوله: ﴿عَن نَّفْسِهِۦ﴾ معناهُ: (متجاوزين نفسَه)[1]، أي: ليس لهم حقٌّ بأن يكرهوا لأنفسِهم شيئًا قد رَضِيَهُ الرَّسولُ ﷺ لنفسِهِ[2] الَّتي هيَ "أشرفُ النُّفوسِ مطلقًا بأن يصونوا نفوسَهم عمّا باشرهُ ﷺ، بل يُلقونها في المتالفِ دونَه وصيانةً لنفسِهِ الشَّريفةِ عن أدنى الأذى"[3].

صَرفُ النَّفسِ عن الأذى دونَ النَّبيِّ محرَّمٌ على المسلمِ

دلالةُ التَّعبيرِ باسمِ الإشارةِ: ﴿ذَٰلِكَ﴾:

عبَّرَ النَّظمُ الكريمُ في قوله جلَّ شأنُه: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ﴾ عن المُسْنَدِ بـ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارةً "إلى ما تضمَّنَهُ انتفاءُ التَّخلُّفِ من وجوبِ الخروجِ معهُ، وبذلِ النَّفسِ دونَهُ، كأنَّهُ قيل: ذلكَ الوجوبُ للخروجِ وبذلِ النَّفسِ؛ هو بسببِ ما أعدَّ اللّه لهم من الثَّوابِ الجسيمِ على المشاقِّ الَّتي تنالُهم، وما يَتَسَنَّى على أيْديهم من إيذاءِ أعداءِ الإسلامِ"[4].

التَّخلُّفُ بعيدُ الرُّتبةِ في السّوءِ، وتَرْكُهُ إنَّما هو رتبةٌ عظيمةٌ

وجاء اسمُ الإشارة دالًّا على البُعدِ؛ لتعظيمِ النَّهي عن التَّخلُّفِ الَّذي جاء بأسلوبِ نفي الكَوْنِ الدّالِّ على المبالغةِ[5]، فالتَّخلُّفُ عن النَّبيِّ ﷺ بعيدُ الرُّتبةِ في السّوء.

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3479.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 16/169.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/44.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/523، والزّمخشريّ، الكشّاف: 2/321.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/44.

دلالةُ الباءِ في قوله: ﴿بِأَنَّهُمْ﴾:

نهاهم عن التَّخلُّفِ لأنَّ في مصاحبتِهِ في الغزوِ أجرًا عظيمًا

في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ﴾ عبَّر بالباءِ الدّالَّةِ على السَّببيَّةِ تعليلًا لِما سبقَ، فهي "تعليلٌ لِما يجبُ من عدمِ التَّخلُّف"[1]، فلمّا نهاهم عن التَّخلُّف عن النَّبيِّ ﷺ؛ بيَّن علَّةَ ذلك، فكأنَّه قيل: "ذلك الوجوبُ للخروجِ وبذلِ النَّفسِ هو بسببِ ما أعدَّ اللّه لهم من الثَّوابِ الجسيمِ على المشاقِّ التي تَنالُهم، وما يتَسَنَّى على أيْديهم من إيذاءِ أعداءِ الإسلامِ"[2].

نكتةُ إيثارِ لفظِ الإصابةِ:

الإصابةُ مظنَّةُ الشِّدَّةِ والأذى

خُصَّتِ المصيبةُ في اللُّغةِ بالحادثةِ الَّتي تَعْتَري الإنسانَ، فتغمُّهُ، والنّازلةِ الَّتي تسوؤهُ، والشِّدَّةِ الَّتي تحزُنُه، ولذلك صاحبتِ السَّيِّئَةَ في قوله تعالى: ﴿وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا۟ بِهَا﴾ [آل عمران: 120][3]. والظَّمأُ، والنَّصَبُ، والمَخْمَصَةُ مواطنُ شدَّةٍ لا تَخْفى، ومواضعُ أذًى تُسْتعدى.

دلالةُ إسنادِ الإصابةِ إلى الظَّمأ:

مِنَنُ اللهِ تعالى لا عدَّ يُحصيها، ولا كيْفَ

في قوله عزَّ ذِكرُه: ﴿لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ﴾ بيانٌ لكرَمِهِ تعالى إذ إنَّه يُجازي العبادَ على ما ينالهُم بسببِ العملِ الصّالح، فإنَّه تعالى لا يجزيهم على العملِ الصّالحِ فحسبُ، فما نالهم من العطشِ بسببِ الخروجِ إلى طاعةِ اللّه تعالى فإنَّهُ يُكتب لهم في صحائفِهم مصداقًا لقوله تعالى: ﴿أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ﴾ [آل عمران: 195]، وقوله: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الأنبياء: 47].

دلالةُ التَّنكيرِ في ﴿ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ﴾:

لا يضيعُ عندَ الجوادِ الكريمِ تعالى مثقالُ حبَّةٍ من خردلٍ

آثرَ النَّظمُ الكريمُ في قوله جلَّ شأنُه: ﴿لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا

(1) ابن جزي، التّسهيل: 1/350.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/523.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/222، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 6/3326.

نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ﴾ التَّعبيرَ بصيغةِ التَّنكيرِ في: ﴿ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ﴾ للدَّلالةِ على التَّقليلِ وتصغيرِ الشَّأنِ، فإنَّه تعالى يكتبُ لهم أجرَ العطشِ اليسيرِ، وكلَّ تعبٍ مهما كان ضئيلًا[1]، وفي ذلك بيانٌ لسَعةِ رحمتِه؛ إذ إنَّه لا يغادرُ صغيرةً ولا كبيرةً إلّا جازى عبادَهُ عليها.

نكتةُ ترتيبِ المذكورات:

رتَّبَ المذكوراتِ حسبَ الوجودِ وكثرةِ الوقوعِ

في قوله جلَّ شأنُه: ﴿لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ﴾ رتَّب النَّظمُ الكريمُ المذكوراتِ على وَفقِ الوجودِ، وكثرةِ الوقوعِ وقلَّتِه؛ فلمّا "كان العطشُ أشقَّ الأشياءِ المُؤْذِيَةِ للمُسافرِ بكثرةِ الحركة وإزعاجِ النَّفسِ، وخصوصًا في شدَّةِ الحرِّ، كغزوةِ تبوكَ بُدِئَ به أوَّلًا، وثنَّى بالنَّصَبِ، وهو التَّعبُ؛ لأنَّه الكَلالُ الَّذي يَلْحَقُ المُسافرَ، والإعياءُ النّاشئُ عن العطشِ والسَّيرِ، وأتى ثالثًا بالجوعِ؛ لأنَّه حالةٌ يمكنُ الصَّبرُ عليها الأوقاتِ العديدةَ، بخلافِ العطشِ والنَّصَبِ المُفْضِيَيْنِ إلى الخلودِ والانقطاعِ عن السَّفرِ، فكانَ الإخبارُ بما يَعْرِضُ للمسافرِ أوَّلًا فثانيًا فثالثًا"[2].

دلالةُ التَّعبيرِ بالقيدِ في قوله: ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾:

شرطُ قَبولِ الأعمالِ الإخلاصُ فيها

في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ جعلَ قيدَ تلكَ الأعمالِ الَّتي يُكتبُ لهم أجرُها أنَّها كائنةٌ في سبيلِ اللّه تعالى بيانًا لشرطِ القَبول، وهو أن تكونَ النِّيَّةُ سليمةً بأن يكونَ المرادُ من تلكَ الأعمالِ أن تكونَ للّه وفي سبيلِه وحدَهُ، "وطاعتِه والجهادِ لإعلاءِ كلمتِه"[3].

دلالةُ إضافةِ السَّبيلِ إلى الله تعالى:

خُلوصُ النِّيَّةِ شرطٌ لِقَبولِ العملِ

في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/111، والقاسميّ، محاسن التّأويل: 5/527.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/523.
(3) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 12/97.

﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أضافَ السَّبيلَ إلى لفظِ الجلالةِ تعظيمًا لشأنِ دينِه، والطَّريقِ إليهِ "أي: طرقُ دينِ الملكِ الأعظمِ المُتَوَصِّلَةِ بهِ إلى جهادِ أعدائِه"[1]، وفيهِ إيماءٌ إلى علَّةِ اعتبارِ ذلك الأجرِ لهم، فإنَّ أعمالَهم قد صاحبَها الإخلاصُ للّه، وخَلَتْ من أغراضِ الدُّنيا، وأنَّها كانت لمَحْضِ طاعةِ اللّه تعالى وفي سبيلِ إعزازِ دينِه والذَّودِ عنهُ.

بلاغةُ الاستعارةِ في: ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾:

دينُ الله طريقُ النَّجاةِ

والسَّبيلُ: الطَّريقُ، وهو مستعارٌ في الآيةِ لدينِ اللّه تعالى[2] الدِّينِ الحقِّ الثّابتِ الَّذي يكونُ فيه العدلُ، والقسطُ، ولا يكونُ فيه بَغْيٌ ولا فحشاءُ ولا تَعَدٍّ، ولا أذًى، وفيه استجلابُ المصالحِ ودفعُ المفاسدِ.

دلالةُ التَّعبيرِ بقوله: ﴿يَطَـُٔونَ﴾ بينَ الحقيقةِ والاستعارةِ:

حقيقةُ الوطءِ الدَّوسُ، ومجازهُ إذلالُ العدوِّ، والظَّفرُ بهِ

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ﴾ تعبيرٌ عن أحدِ الأعمالِ الَّتي ينالون بها الأجرَ الجزيلَ في خروجِهم للغزوِ في سبيلِ اللّه، وهو وطءُ الأرضِ، ويحتملُ أن يُرادَ به الحقيقةُ والمجازُ، فالمعنى الحقيقيُّ هو: "الدَّوسُ بالأرجلِ، والموْطِئُ: مصدرٌ ميميٌّ للوطءِ، والوطءُ في سبيلِ اللّه هو الدَّوسُ بحوافرِ الخيلِ وأخفافِ الإبلِ وأَرْجُلِ الغزاةِ في أرضِ العدوِّ، فإنَّهُ الذي يغيظُ العدوَّ، ويُغضبُهُ؛ لأنَّهُ يَأْنَفُ من وطءِ أرضِه بالجيشِ، ويجوز أن يكون الوطءُ هنا مستعارًا لإذلالِ العدوِّ وغلبتِه وإبادتِه"[3]، وإرادةُ الحقيقةِ هي الأقربُ بقرينةِ أنَّ الوطءَ يُحقِّقُ الغيظَ، والسِّياقُ يريدُ بيانَ أنَّ اللّه تعالى يجازيهم على كلِّ جُهدٍ بذلوهُ مهما كان قليلًا، وهذا يتحقَّقُ بمجرَّدِ تحقيقِ الإغاظةِ بوطءِ أرضِهم، أمّا الإذلالُ والغَلَبَةُ والإبادةُ؛ فهي من الأعمالِ الكبيرةِ الَّتي لا يبقى بعدها غيظٌ؛ إذ قد أُبيدَ الكفّارُ.

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/44.
(2) عفيف، الشّامل في بلاغة القرآن: 1/513.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/56.

دلالةُ وصفِ الموطِئِ بأنَّهُ ﴿يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ﴾:

في قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ﴾ وصفَ النَّظمُ الجليلُ الموطِئَ بأنَّه ﴿يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ﴾، فهو قَيْدٌ بالوصفِ، فليس كلُّ وطءٍ لموطِئٍ مُعْتَبَرًا ما لم يحقِّقِ الإغاظةَ، كما أنَّه يدلُّ على أنَّ الموطِئَ لا يُشترط أن يكونَ أرضَ العدوِّ، بل الشَّرطُ أن يحقِّقَ غيظَهم، ويثيرَ مضجَعَهم، وإنَّما أُغيظوا؛ لأنَّ بلوغَ المسلمين ذلك الموطِئَ يدلُّ على توسُّعِ قوَّةِ المسلمين، وهذا يغيظُ أعداءَ الله، فاعتبرَ لهم أجرَ الوطءِ؛ إذا كان يصْحَبُهُ إغاظةٌ للكافرين، فليس كلُّ دَوْسٍ لأرضِ العدوِّ مُعْتَبَرًا ما لم يكن مُغيظًا للكافرين، وإنَّما اعْتَبر الأجرَ لهم في حالة تحقيقِ الغيظِ؛ لأنَّ ذلك دليلٌ على جَدْوى ما قامَ به المسلمون، وأنَّ فعلَهم قد أحدثَ أثرَهُ في تقويةِ الحقِّ ونُصرتِه، بحيثُ قد ظهرت نتائجُهُ في قلوب الكافرين بأن أُغيظوا.

إغاظةُ الكافرينَ ببلوغِ المؤمنين أرضًا ما؛ دليلٌ على قوَّةِ جُهدِهم

دلالةُ تتابعِ الجملِ المنفيَّةِ:

جاءتِ الجملُ الفعليَّةُ المنفيَّةُ في سياقٍ واحدٍ، وهي: في: ﴿لَا يُصِيبُهُمْ﴾، ﴿وَلَا يَطَـُٔونَ﴾، ﴿وَلَا يَنَالُونَ﴾؛ لكونِها مشتركةً بالأحوالِ الَّتي سيقعُ الاستثناءُ منها، فالجمعُ بينها بالعطفِ يحقِّقُ الإيجازَ البليغَ، فلم يقل: (ولا يطئون موطئًا إلّا كُتِبَ لهم بهِ عملٌ صالحٌ، ولا ينالون من عدوٍّ نيلًا إلّا كُتِبَ لهم بهِ عملٌ صالح...) ففي تتابعِها إيجازٌ لكونِها مُشْتَرَكَةً في كونِها من الأحوالِ الَّتي منحَهم الله تعالى عليها الأجرَ.

كلُّ فعلٍ منهم فضيلةٌ على حيالِها

وجيءَ بها على هذهِ الهيئةِ من العطفِ بـ ﴿وَلَا﴾؛ للتَّنبيهِ عَلَى استقلالِ كلِّ واحدٍ منها في سببيَّةِ الثَّواب المَذْكورِ، وفي كونِها فضيلةً عَلَى حِيالِها، والاعتدادِ بشأنِها[1].

(1) ابن التّمجيد، حاشية على البيضاويّ: 9/364.

دلالةُ تقديمِ المجرورِ في: ﴿مِنْ عَدُوٍّ﴾:

في قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا﴾ قدَّم ذكرَ شبهِ الجملةِ ﴿مِنْ عَدُوٍّ﴾ تخصيصًا للنَّيلِ، فهم لا ينالون من كلِّ أحدٍ، بل من الأعداءِ، فليس كلُّ نيلٍ مَوْطِنَ ثناءٍ، فقدَّمَ هذا القيدَ اهتمامًا بهِ تزكيةً لهم، فهم لا ينالونَ من عمومِ النّاسِ، بل منَ الأعداءِ فحسبُ، ففي ذلكَ ثناءٌ عليهم، وتَزْكِيَةٌ لعملِهم من الظُّلم.

المؤمنُ لا يعتدي، وإنَّما ينالُ من عدوِّهِ فحسبُ

دلالةُ التَّعبيرِ بالمصدرِ في: ﴿نَّيْلًا﴾:

في قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا﴾ عبَّرَ بالمصدرِ ﴿نَّيْلًا﴾؛ " ليعمَّ القليلَ والكثيرَ ممّا يسوؤُهم قتلًا وأسرًا وغنيمةً وهزيمةً"[1]، ويحتملُ أن يكونَ مفعولًا مطلقًا، وأن يكون مفعولًا بهِ، فهو "يجوزُ أن يكونَ مصدرًا مؤكِّدًا، وأن يكونَ بمعنى المَنيلِ، ويقال: نال منه؛ إذا رَزَأَهُ، ونقصَهُ"[2]، فإذا اعتُبِرَ مفعولًا مطلقًا، فإنَّهُ يدلُّ على تأكيدِ نيلِهم من العدوِّ، والتَّأكيدُ يدلُّ على أنَّ نيلَهم من العدوِّ مؤكَّدُ الوقوعِ، وإذا كان مفعولًا بهِ؛ فإنَّهُ يدلُّ على أنَّ الأجرَ مُعْتَبَرٌ بتحقيقِ أيِّ خسرانٍ في العدوِّ، فالمأخوذُ من العدوِّ وضَعَ اللّه تعالى إزاءَه أجرًا للمؤمنين لِما فيهِ منَ النِّكايةِ بالكفرِ وإزالةِ الباطلِ وإضعافِه.

تنوُّعُ الإعرابِ سَعةٌ في المعنى توكيدًا، وإجزالًا للأجرِ

بلاغةُ حذفِ المفعولِ بهِ في ﴿وَلَا يَنَالُونَ﴾:

في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا﴾ إذا جعلَ ﴿نَّيْلًا﴾ مفعولًا مطلقًا؛ فإنَّ المفعولَ به يكونُ محذوفًا، وتقديرُهُ: لا ينالونَ شيئًا من عدوٍّ نيلًا[3]، وحُذِفَ المفعولُ بهِ للإيجازِ، اعتمادًا على ظهورِ المعنى، وحيثُما ظهرَ المعنى بلا ذكرٍ، فالإيجازُ أبلغُ من الذِّكرِ، ما لم يكنْ داعٍ يقتضيهِ.

لمّا ظهرَ المعنى حذفَ المفعولَ به للإيجازِ

وحَذْفُ المفعولِ يفيدُ الإعمامَ بانفتاحهِ على معانٍ شتَّى يحتملُها

الحذفُ مَظِنَّةُ الإعمامِ

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/523.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/321.
(3) الشّهاب، عناية القاضي: 4/375.

النَّيلُ من العدوِّ: نصرًا، وقتلًا، وأسرًا، وغنيمةً، وغير ذلك ممّا يحتملُه الظَّفرُ بالعدوِّ.

دلالةُ ﴿مِنۡ﴾:

حصولُ أيِّ وجهٍ للنَّصرِ يُعدُّ نَيْلًا

وحرفُ ﴿مِنۡ﴾ مستعملٌ في التَّبعيضِ المجازيِّ المتحقِّقِ في الرَّزيَّةِ، ورُزْءُ العدوِّ يكون من ذواتِ الأعداءِ بالأسرِ، والقتلِ، ويكونُ من متاعِهم وأموالِهم بالسَّبي والغُنْم[1]، فتبعيضيَّةُ ﴿مِنۡ﴾ توحي بأنَّ حصولَ أيٍّ من هذهِ الأشياءِ يُعدُّ نَيْلًا.

سرُّ تنكيرِ العدوِّ:

المؤمنُ الحقُّ لا يَأْبَهُ بأيِّ عدوٍّ

تنكيرُ العدوِّ دليلُ الاستهانةِ بهم، وتحقيرُ أمرِهم، وإعمامُ نوعِهم، ليشملَ أيَّ عدوٍّ مهما بلغَ شَأْوُهُ، وفيه تشريفٌ للمؤمنينَ، وإظهارٌ لبأسِهم، وشدَّتِهم.

بلاغةُ الاستثناءِ:

تحقُّقُ المشاقِّ مِظَنَّةُ الأجرِ العظيمِ

الاستثناءُ في قوله تعالى: ﴿إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌۚ﴾ "استثناءٌ من عمومِ الأحوالِ، أي: لا تتحقَّقُ هذه الأمورُ من الظَّمأِ، والنَّصَبِ، وغيرِ ذلك في حالٍ من الأحوالِ إلّا حالَ كونِهم مُثابِين بالثَّواب العظيمِ والمأجورين بالأجرِ المُقيمِ"[2].

دلالةُ التَّعبيرِ بـ ﴿كُتِبَ﴾ مبنيًّا للمفعولِ:

الغايةُ إثباتُ أجرِهم لا كاتِبُهُ

في قوله عزَّ ذِكرُه آثرَ التَّعبيرَ بالفعل المبنيِّ للمفعول؛ لأنَّ الغرضَ بيانُ أنَّ ما عملوهُ قد كُتبَ لهم، فـ"بُني للمفعول؛ لأنَّ القصدَ إثباتُه لا مِن مُعَيَّنٍ"[3]، فالاهتمامُ واقعٌ على بيانِ أنَّ أعمالَهم لا تضيعُ، وليس المرادُ بيانَ مَنْ كَتَبَ لهم ذلك الأجرَ، كما أنَّ فيه إيجازًا بالاستغناءِ بالمذكورِ، وحذْفِ ما هو معلومٌ.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/57.
(2) ابن التّمجيد، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 9/364.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/45.

سرُّ التَّعبيرِ بالفعلِ الماضي ﴿كُتِبَ﴾ دونَ المضارعِ:

ما كُتِبَ لهم من أجرٍ سيُجْزَوْنَهُ لا محالةَ

في قوله جلَّ شأنُه: ﴿إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌۚ﴾ آثرَ النَّظمُ الكريمُ التَّعبيرَ بالفعلِ الماضي دونَ المضارعِ، فلم يقلْ: (إلّا يُكتب لهم) باعتبارِ أنَّ أفعالَهم الَّتي تُكتبُ لهم جاءت بصيغةِ المضارع ﴿يُصِيبُهُمْ﴾، ﴿يَطَـُٔونَ﴾، ﴿يَنَالُونَ﴾؛ لأنَّ الفعلَ الماضي يدلُّ على تحقُّقِ الوقوعِ، وأنَّه فعلٌ قد نُجِزَ، وذلك لتأكيدِ كتابةِ الأجرِ لهم، فكأنَّهُ في حكمِ المكتوب لهم تنفيذًا، وتحقيقًا.

دلالةُ التَّعبيرِ بكتابةِ العملِ الصّالحِ دونَ قبولِهِ في ﴿كُتِبَ لَهُم﴾:

التَّعبيرُ عن قبولِ الأعمالِ بالكتابةِ تأكيدٌ لثُبوتِها

في قوله جلَّ شأنُه: ﴿إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌۚ﴾ عبَّرَ عن احتسابِ الأجرِ لهم بالفعلِ ﴿كُتِبَ﴾ الدّالِّ على الفرضِ والإيجابِ، ولا يجبُ على اللّه تعالى شيءٌ، ولكن لمّا وعدَ ﷻ بمقابلةِ أفعالِ العبادِ بأحسنِ الجزاءِ، وقبولِ الحسناتِ، والمعنى: أنَّه قد ترَتَّبَ لهم على عملِهم أجرٌ جزيلٌ[1]، فأعمالُهم "مقبولةٌ مُسْتَوْجَبَةٌ بحكمِ الوعدِ الكريمِ للثَّوابِ الجميلِ ونَيْلِ الزُّلفى"[2]، فدلَّ الفعلُ ﴿كُتِبَ﴾ على تأكيدِ ثُبوتِ الأجرِ لهم، إيماءً إلى أنَّ اللّه تعالى لا يضيّعُ عملًا مِن أعمالِ عبادِه.

بلاغةُ المجازِ في لفظِ ﴿كُتِبَ﴾:

في الحملِ على المجازِ حثٌّ على الجهادِ على وجهِ المبالغةِ

وحملَ العملَ عَلَى (الثَّواب) بعلاقةِ السَّببيَّةِ؛ لأنَّ المقصودَ من كتابةِ العملِ الْجَزاءُ والإحسانُ، وَأَيْضًا فإنَّ فائدَةَ الخبرِ في هذا الحملِ على المجازِ أظهرُ من إبقائهِ عَلَى الأصلِ، وفيهِ حثٌّ عَلَى الجهادِ، وتحريضٌ عَلَى وجه المُبالَغَةِ[3].

دلالةُ التَّقديمِ في قوله: ﴿لَهُم﴾:

علَّقَ الكتابةَ بهم تعجيلًا وتشريفًا

قدَّمَ شبهَ الجملةِ ﴿لَهُم﴾: في قوله عزَّ ذِكرُهُ: ﴿إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/45.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/111.
(3) ابن التّمجيد، حاشية على البيضاويّ: 9/364.

﴿عَمَلٌ صَٰلِحٌۚ﴾ على نائبِ الفاعلِ الَّذي هو أولى بالتَّقديم؛ تعجيلًا بتعليقِ الجزاءِ بهم، ولبيان أنَّ قصدَ الكتابةِ لهم، وهذا تكريمٌ وتشريفٌ.

دلالةُ التَّعبيرِ بالباءِ في ﴿بِهِۦ﴾:

لن تُنالَ الجنَّةُ بالتَّمني، وإنَّما بالبذلِ

الباءُ في قوله جلَّ شأنُه: ﴿إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌۚ﴾ تدلُّ على البَدَلِ والعِوَضِ، أي: عِوَضُ ما فعلوا يُكتَبُ لهم بهِ عملٌ صالحٌ، ويَجري ذلك مجرى الثَّناءِ عليهم؛ إذ التَّصريحُ بذلك يبيِّنُ أنَّ الأجرَ قد نالوهُ بحسنِ عملِهم، وفي ذلك حثٌّ لهم على البذلِ والخروجِ مع النَّبيِّ ﷺ، فالجنَّةُ لن تُنالَ بالتَّمنِّي.

توجيهُ عودِ الضَّميرِ في ﴿بِهِۦ﴾، وعلَّةُ إفرادِهِ:

من رحمتِهِ تعالى وفضلِهِ أنَّه جعلَ لكلِّ عملٍ ذي مشقَّةٍ ثوابًا بقصدٍ أو بغيرِ قصدٍ

وحَّدَ الضَّميرَ في ﴿بِهِۦ﴾ لعودِهِ إلَى كلِّ واحدٍ منها عَلَى سبيلِ البَدَلِ، وذلك لتكرُّرِ (لا)، فصارَ كلُّ مفردٍ بالذِّكر مقصودًا بالوعدِ، ولذا قالَ الفقهاء: لو حَلَفَ لا يأكلُ خبزًا ولا لحمًا؛ حَنَثَ بواحدٍ منهما، ولو حَلَفَ لا يأكلُ خبزًا ولحمًا؛ لم يحنثْ إلّا بالجمعِ بَيْنَهُما[1].

فالضَّميرُ في ﴿بِهِۦ﴾ عائدٌ على ﴿ظَمَأٌ﴾ وما عُطِفَ عليه؛ لأنَّ إعادةَ حرفِ النَّفي جعلتْ كلَّ معطوفٍ، كالمستقلِّ بالذِّكرِ، فأُعيدَ الضَّميرُ على كلِّ واحدٍ على البدلِ، كما يُعادُ الضَّميرُ مفردًا على المتعاطفاتِ بـ (أو)، باعتبارِ أنَّ ذلك المتعدِّدَ لا يكونُ في نفسِ الأمرِ إلّا واحدًا منه، ومعنى: كُتِبَ لهم بهِ عملٌ صالحٌ: أن يُكتبَ لهم بكلِّ شيءٍ من أنواعِ تلك الأعمالِ عملٌ صالحٌ، أي: جعلَ اللّه كلَّ عملٍ من تلكَ الأعمالِ عملًا صالحًا، وإن لم يَقصدْ بهِ عاملوه تقرُّبًا إلى اللّه، فإن تلك الأعمالَ تصدُرُ عن أصحابِها، وهم ذاهِلونَ في غالبِ الأزمانِ أو جميعِها عن الغايةِ منها، فليست لهم نيّاتٌ بالتَّقرُّبِ بها إلى اللّه، ولكنّ اللّه تعالى بفضلِهِ جعلَها لهم قرباتٍ باعتبارِ شرفِ

(1) ابن التّمجيد، حاشية على البيضاويّ: 9/364.

الغايةِ منها، وذلك بأن جعلَ لهم عليها ثوابًا، كما جعلَ للأعمالِ المقصودِ بها القربةُ، وكما وَرَدَ أنَّ نومَ الصّائمِ عبادةٌ[1].

دلالةُ تأخيرِ نائبِ الفاعلِ وتنكيرِه في ﴿عَمَلٌ﴾:

حَـرِيٌّ بالمكرَّمين تفخيمُ شأنِهم

في قوله جلَّ شأنُهُ: ﴿إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌۚ﴾ آثرَ النَّظمُ الكريمُ التَّعبيرَ عن العملِ الَّذي يُكتبُ لهم بصيغةِ التَّنكيرِ تفخيمًا لشأنِ المكتوبِ لهم[2]، فإنَّ الحسنةَ بعشرةِ أمثالِها، فهو أجرٌ عظيمٌ، فكانَ التَّعبيرُ عنه بالتَّنكيرِ أدلَّ على فخامتهِ وتعظيمهِ.

دلالةُ وصفِ نائبِ الفاعلِ بقوله: ﴿صَٰلِحٌۚ﴾:

العملُ الصّالحُ المرضِيُّ من الله تعالى

في قوله جلَّ شأنُه: ﴿إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌۚ﴾ وصفَ النَّظمُ الكريمُ العملَ الَّذي يقبلهُ اللّه تعالى من عبادِهِ بأنَّهُ صالحٌ للدِّلالةِ على كونِهِ قد رَضِيَهُ تعالى وقبِلَهُ منهم، فالعملُ الصّالحُ، يعني: أنَّهُ حسنةٌ مقبولةٌ[3].

موقعُ قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ ممّا قبلَهُ:

عـلَّـةُ الكتابةِ صدقُ وعدِ الله تعالى

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ تعليلٌ لما سبقَ[4]، فلمّا أخبرَ تعالى أنَّه يُجازيهم على أفعالِهم المذكورةِ، علَّلَ ذلك الجزاءَ بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾، فعِلَّةُ كتابةِ الأجرِ لهم أنَّ اللّه تعالى لا يضيعُ عندَهُ أجرُ المحسنينَ.

سرُّ الختمِ بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾:

مَـن يـقـومُ بـالأعـمـالِ الحسنةِ محسنٌ

ختمَ النَّظمُ الجليلُ الآيةَ بقوله عزَّ ذِكرُهُ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾، وهذهِ الجملةُ تذييلٌ تعليليٌّ، يُنَبِّهُ على أنَّ تحمُّلَ المشاقِّ المذكورةِ والأفعالِ السّابقةِ من الإحسانِ[5]، فهذا التَّذييلُ يدلُّ على

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/57.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/111.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/111.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/45، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/57.
(5) القاسميّ، محاسن التّأويل: 5/528.

"أنَّهم كانوا بتلك الأعمالِ مُحْسِنين، فدخلوا في عمومِ قضيَّةِ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ بوجهِ الإيجازِ"[1].

دلالةُ التَّعبيرِ بتقديمِ المُسنَدِ إليهِ على خبرِهِ الفعليِّ:

حفظُ الأجورِ ثابتٌ للمحسنين لا يضيعُ منهُ مثقالَ حبَّةٍ من خردلٍ

في قوله جلَّ شأنُه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ قدَّمَ المُسْنَدَ إليهِ؛ لتكونَ الجملةُ اسميَّةً، والعُدولُ من الجملةِ الفعليَّةِ (لا يضيع اللّه أجرَ المحسنين) إلى الجملةِ الاسميَّةِ: ﴿ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ فيه تقويةٌ للمعنى، فإنَّ التَّعبيرَ عن المعنى بالجملةِ الاسميَّةِ يدلُّ على ثُبوتِ المعنى على وجهِ التَّأكيدِ، ولا يَفْقِدُ الدِّلالةَ على الاستمرارِ والتَّجديدِ؛ لأنَّ الخبرَ جاء فعلًا، وعليهِ فإنَّ جعْلَ المُسنَدِ إليهِ مبتدأً يوسِّعُ دلالةَ الجملةِ وفائدتَها، فتتضمَّنُ دلالةَ كلتا الجملتيْن: الثُّبوتَ والتَّأكيدَ، والتَّجدُّدَ والاستمرارَ.

دلالةُ التَّعبيرِ بجملةِ الخبرِ فعلًا مضارعًا منفيًّا:

الأجرُ ثابتٌ منهُ تعالى مؤكَّدٌ

عبَّرَ النَّظمُ الكريمُ في قوله جلَّ شأنُه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ بالجملةِ الاسميَّةِ، وجاء المُسنَدُ فيها فعلًا مضارعًا منفيًّا؛ وذلك للدَّلالةِ على تأكيدِ ثباتِ الأجرِ واستمرارِه، والنَّفيُ في المضارع يدلُّ على استمرارِ النَّفي، فانتفاءُ ضياعِ الأعمالِ منتفٍ على سبيلِ الثَّبات والتَّجدُّد، فالثَّباتُ مدلولُ الجملةِ الاسميَّةِ، واستمرارُ النَّفي مدلولُ الجملةِ الفعليَّةِ في ﴿لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾.

نوعُ (أل) في ﴿ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾:

لا يضيعُ اللهُ أجرَ كلِّ محسنٍ

معنى ﴿لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾: أنَّهم استوجبوا الثَّوابَ؛ لأنَّهم محسنونَ، وكلُّ محسنٍ لا يضيِّعُ اللّه أجرَهُ، وعليه فإنَّ اللّام في المُحْسِنِينَ للجنسِ لا للعهدِ، وإن احتملَ المقامُ إيّاهُ[2].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/57.

(2) ابن التّمجيد، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 9/365.

تناسبُ التَّعبيرِ بـ ﴿ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾:

المؤمنُ لا يبذُلُ وُسْعَ جُهدِه ما لم يكن قد بلغَ رُتْبَةَ الإحسانِ

ختمَ النَّظمُ الكريمُ جملةَ التَّذييلِ بصفةِ الإحسانِ تنبيهًا على "أنَّهم حازوا رُتَبَ الإحسانِ الَّتي هي أعلى رُتَبِ المؤمنينَ"[1]، والإحسانُ هنا مناسبٌ لما سبقَ ذكرُه؛ إذ إنَّ المؤمنَ لا يبذلُ مذخورَ مجهودِهِ، ومبلغَ طاقتِهِ ما لم يكن قد بلغَ رتبةَ الإحسانِ، والتَّصريحُ بصفةِ الإحسانِ في الختامِ تنبيهٌ على ذلك، فلمّا "كانَ فاعلُ هذهِ الأشياءِ مقدَّمًا على المعاطِبِ في نفسِهِ، ومُحَصِّلًا لغَرَضِ الجهادِ؛ أُشيرَ على وجهِ التَّأكيدِ في جملةٍ اسميَّةٍ إلى أنَّه محسنٌ، أمّا في حقِّ نفسِهِ؛ فبإقامةِ الدَّليلِ بطاعتِهِ على صدقِ إيمانِهِ، وأمّا في غيرِهِ من المؤمنينَ؛ فبِحِمايَتِهم عن طمعِ الكافرينَ، وأمّا في حقِّ الكفّارِ؛ فبِحملِهم على الإيمانِ بغايةِ الإمكانِ"[2].

براعةُ ترتيبِ الأحداثِ في الآيةِ:

تـدرُّجَ في عرضِ أحـوالِ النَّفسِ وِفاقَ الواقعِ

روعيَ في الآيةِ التَّرتيبُ الواقعُ في الأَحْداثِ، وهو صالحٌ للتَّعميمِ في معظمِ الغزواتِ، فأوَّلُ ما أصابَهم الظَّمأُ بسببِ نفادِ الماءِ، وانعدامِ مصادِرِه في طريقِهِم، وبعد ذلك أصابَهم النَّصَبُ، وهو التَّعبُ، فالرِّحلةُ في أرضٍ صحراءَ، وفي حرٍّ شديدٍ، وبعد ذلك انتهتْ أزوادُهم، فنزلَت بِهم المَخْمَصَةُ، وبعد اقترابِهم من تبوكَ وَطِئوا مَوْطِئًا يغيظُ الكفّارَ، وبعد ذلك نالوا من عدوِّهم عند تبوكَ نيلًا فرِحَ بِهِ الغزاةُ الخارجونَ مع الرَّسولِ ﷺ من أهلِ الإيمانِ والصِّدقِ، فجاءَ التَّرتيبُ في الآيةِ على وفقِ التَّرتيبِ في الأحداثِ، ويلاحظُ في التَّرتيبِ تدرُّجُ أحوالِ النَّفسِ، وهذا من مراعاةِ التَّرتيبِ في الواقعِ، وهو من دقَّةِ الأداءِ البيانيِّ.

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/524.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/45.

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الرَّغبةُ والإيثارُ:

الإيثارُ تفضُّلٌ وتفضيلٌ، أمّا الرَّغبةُ؛ فإرادةٌ وتوسُّعٌ في الإرادةِ

أصلُ الرَّغبةِ: طلبُ الشَّيءِ، والرَّغبةُ في الشَّيء: الإرادةُ لهُ، رَغَبْتُ في الشَّيءِ، فإذا لم تردْهُ؛ قلتَ: رَغِبْتُ عنهُ[1]، والرَّغْبَةُ: السَّعةُ في الإرادةِ قال تعالى: ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ [الأنبياء: 90]، فإذا قيل: رَغِبَ فيهِ وإليه؛ يقتضي الحرصَ عليهِ، قال تعالى: ﴿إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ۝٥٩﴾ [التّوبة: 59]، وإذا قيل: رَغِبَ عنهُ؛ اقتضى صرفَ الرَّغبةِ عنهُ والزُّهدَ فيه[2]، أمّا الإيثارُ؛ فهو من: أَثَرِ الشَّيءِ: حصولُ ما يدلُّ على وجودهِ، والمآثرُ: ما يُروى من مكارمِ الإنسانِ[3]، "ويُستعارُ الأثرُ للفَضلِ، والإيثارُ للتفضُّلِ إثارةً، قال تعالى: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ [الحشر: 9]، أي: يُفضِّلون غيرَهُم على أنفسِهم، ومنهُ: له عليَّ أَثَرةٌ، أي فضلٌ، ومنه الحديثُ: «إنَّكم سَتَلقَونَ بعدي أَثَرَةً، فاصبِروا حتَّى تَلقَوني على الحوضِ»[4]، أي: يُستَأْثَرُ عليكم، فيُفضَّلُ غيرُكم عليكم في الفَيءِ، فالأَثَرةُ: اسمٌ من آثَرَ يُؤْثِرُ إيثارًا، واسْتَأثَرَ فلانٌ بكذا، أي: تفرَّدَ بهِ دونَ غيرِهِ"[5].

وفي الآيةِ الكريمةِ عبَّرَ عن فعلِهم بالرَّغبةِ؛ لأنَّهم أرادوا لأنفسِهم المُكْثَ في المدينةِ تكاسلًا، ولو قالَ: (يستأثرونَ بأنفسِهم عن نفسِهِ)؛ لدلَّ على أنَّهم يفضِّلون أنفسَهم على التَّفرُّد، وهم لم يكونوا كذلك، بل هم توسَّعوا في إرادةِ أنفسِهم، فالرَّغبةُ إرادةٌ، أمّا الإيثارُ؛ فتفضيلٌ، والثَّلاثةُ في الآيةِ إنَّما أرادوا طلبَ الرّاحةِ لأنفسِهم، ولم يكونوا مفضِّلين أنفسَهم على النَّبيِّ ﷺ.

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (رغب).
(2) الرّاغب، المفردات: (رغب).
(3) الرّاغب، المفردات: (أثر).
(4) أخرجه البخاريّ في صحيحه، برقم: (3792).
(5) السّمين، العمدة: (أثر).

﴿وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ١٢١﴾ [التّوبة: 121]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

بذلُ المالِ من الإحسانِ، كما أنَّ بذلَ الوسعِ في الجهادِ إحسانٌ

إنَّ اللّه تعالى لمّا ذكرَ أنَّه يقبلُ صالحَ أعمالِهم، وأنَّهُ لا يضيعُ عندهُ أجرُ المحسنينَ؛ أتبعَهُ بذكرِ وجهٍ آخرَ من وجوهِ الإحسانِ، وهو الإنفاقُ في سبيلِ اللّه تعالى فبعد أن ذكرَ الإحسانَ ببذلِ الجهدِ البدنيِّ بالسَّيرِ إلى العدوِّ، وما يلحَقُهم بهِ من العطشِ والتَّعبِ والجوعِ؛ أتبعَهُ بذكرِ بذلِ المالِ ليبيِّنَ أنَّه لا يضيعُ عندهُ وجهٌ من وجوهِ إحسانِهم.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَقْطَعُونَ﴾: (قطع) أصلٌ يدلُّ على صَرْمٍ وإبانةِ شيءٍ من شيءٍ[1]، القطعُ: فصلُ الشَّيءِ، وقَطْعُ الطَّريقِ يرادُ بهِ السَّيرُ والسُّلوكُ[2]، "ومن المجازِ: قَطَعَ المفازةَ قطعًا، وقَطَعَ النَّهرَ: عَبَرَهُ"[3].

2) ﴿وَادِيًا﴾: الوادي كُلُّ مَفْرَجٍ بَيْنَ الجبالِ والتِّلالِ والإكامِ، سُمِّيَ بذَلِكَ لسَيَلانهِ، يَكونُ مَسْلَكًا لِلسَّيْلِ ومَنْفَذًا[4]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ﴾ [طه: 12] الوادي اسمُ فاعلٍ من: ودى، يدي، وديًا؛ إذا سالَ فهو وادٍ، ثمَّ أُطلِقَ على المكانِ الَّذي يجتمعُ فيه الماءُ، ويسيلُ، فالوادي هو الماءُ، وسمِّي مكانُهُ باسمهِ مجازًا للمجاورةِ، وأُطلقَ على كلِّ ما يسيلُ فيهِ الماءُ، وإن لم يكن مفرَجًا بين الجبلَيْن اتِّساعًا[5].

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (قطع).
(2) الرّاغب، المفردات: (قطع).
(3) الزّمخشريّ، أساس البلاغة: (قطع).
(4) ابن منظور، لسان العرب: (ودي).
(5) السمين، العمدة: (ودي).

المَعْنى الإجْماليُّ:

ثَبْتُ الأجرِ لجميعِ أعمالِ المجاهدينَ وليس للقتالِ وحسبُ

يخبرُ اللّه تعالى أنَّ أعمالَ المؤمنين كلَّها محفوظةٌ لهم، فإنَّ المجاهدينَ لا يبذلون أيَّ مالٍ؛ صغيرًا أو كبيرًا، ولا يسافرونَ أيَّ سفرٍ في سبيلِ اللّه، ولا يقطعون أرضًا في سفرِهم، إلّا كتَبَهُ اللّه لهم في صحائفِ أعمالِهم الصّالحة، لينالوا بهِ أحسنَ ما يستحقُّه العاملونَ من جزاءٍ[1].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ الوصلِ بالواوِ:

أمارةُ الإيمانِ توالي أعمالِ البرِّ، والإحسانِ

قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً﴾ معطوفٌ على الجملةِ في قوله تعالى: ﴿لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ﴾، لاشتراكِهما بكونهما من الأعمالِ الَّتي ثَبَتَ لهم الأجرُ بها، "وهو انتقالٌ من عِدادِ الكُلَفِ الَّتي تصدُر عنهم بلا قَصْدٍ في سبيلِ اللّه إلى بعضِ الكُلَفِ الَّتي لا تخلو عنِ استشعارِ مَن تَحِلُّ بهم بأنَّهم لَقوها في سبيلِ اللّه، فالنَّفقةُ في سبيلِ اللّه لا تكونُ إلّا عن قصدٍ يتذكَّرُ بهِ المنفقُ أنَّه يسعى إلى ما هو وسيلةٌ لنصرِ الدِّين"[2].

بلاغةُ الاعتراضِ بين جُملَتَي العطفِ:

بيَّنَ أجرَ المذكورين ترغيبًا، وحثًّا

ذكرَ ابنُ التَّمجيدِ أنَّ ﴿وَلَا يُنفِقُونَ﴾ عَطْفٌ عَلَى ﴿وَلَا يَنَالُونَ﴾، وما بَيْنَهُما اعتراضٌ، وجهُهُ التَّرغيبُ في هذهِ الأعمالِ، والحثُّ عليها، والمبادرةُ إليها ببيانِ أجرِ المَذْكورين، وإظهارِ أنَّ المَذْكورَ هنا نوعٌ مغايرٌ لِما قبلَهُ؛ إذ الإنفاقُ جهادٌ بالأموالِ، وهذا باعْتبارِ الجزءِ الأوَّلِ، وذلك كافٍ في الاستقلالِ عَمّا قبلَهُ[3].

(1) مجموعة من المؤلّفين، المنتخب في تفسير القرآن الكريم، ص: 282.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/84 - 58.
(3) ابن التّمجيد، حاشية على البيضاويّ: 9/365.

سرُّ تأخيرِ الإنفاقِ عن الأعمالِ المذكورةِ:

رُتِّبتِ الأعمالُ بحسبِ مشقَّتِها على النَّفسِ

ذكرَ السِّياقُ القرآنيُّ الكريمُ الأعمالَ الَّتي كَتبَ للمؤمنين أجرَها، وفي قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً﴾ أخَّر ذكرَ هذين العَمَلين، وتقدَّمتِ تلكَ الأعمالُ في الجملِ السّابقةِ؛ "لأنَّها أشقُّ على النَّفس، وأنكى في العدوِّ، وهاتان أهونُ؛ لأنَّهما في الأموالِ، وقَطْعِ الأرضِ إلى العدوِّ، سواءٌ حصلَ غيظُ الكفّارِ، والنَّيلُ من العدوِّ، أم لم يحصُلا، فهذا أعمُّ، وتلك أخصُّ"[1]، فالمشقَّةُ بالإنفاقِ أهونُ منها بتحمُّلِ مشاقِّ السَّفرِ والخروجِ إلى أرض العدوِّ وإغاظتِه، فقدَّم الأشقَّ، وأخَّر الأهونَ.

سرُّ التَّنكيرِ في المفعولِ بهِ ﴿نَفَقَةً﴾:

لا يردُّ اللهُ تعالى نفقةَ عبدِهِ بالنَّظرِ إلى حجمِها، وإنَّما بصدقِ نيَّتِها

آثرَ النَّظمُ الكريمُ في قوله تعالى: ﴿وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً﴾ أن يعبِّرَ بصيغةِ التَّنكيرِ في لفظِ النَّفقةِ؛ وذلك تصغيرٌ لحدودِ النَّفقةِ الَّتي يقعُ عليها الأجرُ، فلا اعتبارَ في قبولِ النَّفقةِ بصِغَرِها أو كِبَرِها، فاللهُ تعالى يقبلُ نفقةَ العبدِ مهما كانت، وقد تكونُ القليلةُ أسبقَ للكبيرةِ منها، وقد جاء في الحديثِ الصَّحيحِ، قوله ﷺ: «سبقَ دِرهمٌ مئةَ ألفِ درهمٍ، قالوا: وَكَيفَ؟ قالَ: كانَ لرجلٍ درهمانِ تصدَّقَ بأحدِهما، وانطلَقَ رجلٌ إلى عُرضِ مالِهِ، فأخذَ منهُ مئةَ ألفِ درهمٍ، فتصدَّقَ بها»[2].

سرُّ وصفِ المفعولِ بهِ بـ ﴿صَغِيرَةً﴾:

يقبَلُ تعالى النَّفقةَ مهما قلَّت

في قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً﴾ وصفَ النَّفقةَ بكونِها صغيرةً، وكان التَّقليلُ في النَّفقةِ معلومًا من مجيءِ النَّفقةِ بصيغةِ التَّنكيرِ، ولكن صرَّحَ بصِغَرِها تأكيدًا لقبولِها مهما قلَّت، وتعميمًا لكلِّ نفقةٍ.

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/524، والشّهاب، عناية القاضي: 4/376.
(2) النّسائيّ: برقم: 2527.

سرُّ تقديمِ النَّفقةِ الصَّغيرةِ على الكبيرةِ:

النَّفقةُ الصَّغيرةُ أكثرُ شيوعًا

قدَّمَ النَّظمُ الكريمُ في قوله عزَّ ذِكرُهُ: ﴿وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً﴾ ذِكْرَ النَّفقةِ الصَّغيرةِ على الكبيرةِ، إمّا باعتبارِ وجودِها في الواقعِ بمعيارِ الكثرةِ والقلَّةِ، فأكثرُ الصَّدقاتِ ومعتادُها أنَّها صغيرةٌ، فقدَّمَ كثيرَ الوقوعِ على قليلِه[1]؛ لأنَّ وقوعَ النَّفقةِ الصَّغيرةِ كثيرٌ، يَقْدِرُ عليها الميسورُ حالُهُ وغيرُهُ، أمّا الكبيرةُ؛ فمقصورةٌ في الغالبِ على الأغنياءِ، والمقصودُ التَّعميمُ صراحةً؛ فلا يُغْني ذكرُ الصَّغيرةِ عن الكبيرةِ[2].

لا تحقرَنَّ من المعروفِ شيئًا

ويجوزُ أنْ يكونَ تقديمُ النَّفقةِ الصَّغيرةِ اهتمامًا بها، وعنايةً بشأنِها، ودفعًا لاحتمالِ احتقارِها، فقدَّمها ترغيبًا بها، وحثًّا عليها[3].

سرُّ عطفِ الكبيرةِ على الصَّغيرةِ:

الحُكْمُ يشملُ كلَّ النَّفقاتِ صغيرِها، وكبيرِها

في قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً﴾ عطفَ الكبيرةَ على الصَّغيرةِ للدَّلالةِ على شمولِ كلِّ النَّفقاتِ، أي: نفقةٌ صغيرةٌ فما فوقَها[4]، كما أنَّ هذا العطفَ فيهِ دفعٌ للتَّوهُّمِ؛ إذ لو قالَ: (ولا ينفقون نفقةً صغيرةً)، واكتفى بذلكَ؛ لأوهمَ ذلك أنَّ الصِّغَرَ قَيْدٌ، فعطفَ الكبيرةَ عليها إعلامًا بأنَّ الصِّغَرَ ليس قيدًا، وأنَّ الكبيرةَ مُعْتَدٌّ بها[5]، "وذَكَرَ الكبيرةَ بعد الصَّغيرةِ، وإن عُلِم من الثَّوابِ على الأولى الثَّوابُ على الثّانيةِ؛ لأنَّ المقصودَ التَّعميمُ، لا خصوصَ المذكورِ؛ إذِ المعنى: لا يُنقَصونَ شيئًا ما، فلا يُتوهَّم أنَّ الظّاهرَ العكسُ"[6].

---

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/111.
(2) ابن التّمجيد، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 9/365.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/46.
(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 16/169.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/46.
(6) الشّهاب، عناية القاضي: 4/375.

بلاغةُ طباقِ الإيجابِ بين ﴿صَغِيرَةً﴾ ﴿كَبِيرَةً﴾:

الطِّباقُ بين الصَّغيرِ والكبيرِ تأكيدٌ على القبولِ بأسلوبٍ بديعٍ

في قوله تعالى: ﴿صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً﴾ طباقُ إيجابٍ؛ لجمعِ النَّظم بين لفظين متضادَّيْنِ مُثْبَتَيْنِ في جملةٍ واحدةٍ، والطِّباقُ ينبِّهُ على كلا الوصفيْنِ، فجمعَ بينَ الضِّدَّيْنِ لِما في ذلك من جمالٍ في المعنى، فاستحضارُ كلا الوصفيْنِ يدلُّ على الشُّمولِ والتَّعميمِ، فهو تأكيدٌ لقبولِ كلِّ الصَّدقات بطريقةِ الأسلوبِ البديعيِّ الجامعِ بينَ الصِّفات المتضادَّةِ.

سرُّ العطفِ في ﴿وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ﴾:

كلُّ عملٍ للمؤمنِ مستقصًى ويُجزاه الجزاءَ الأوفى

في قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ﴾ عُطِفَ قَطْعُ الوادي على الإنفاقِ في سبيلِ اللّه، استقصاءً للأعمالِ الَّتي كتبَ اللّه تعالى لهم أجرَها، فكما أنَّه كتبَ لهم أجرَ النَّفقةِ الصَّغيرةِ والكبيرةِ، فإنَّهُ كتبَ لهم أجرَ خُطواتِ مسيرِهم وقطْعِهم الوديانَ في طلبِ العدوِّ ونشْرِ الإسلامِ.

بلاغةُ التَّعبيرِ المجازيِّ في ﴿وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا﴾:

قطْعُ الوادي عُبورُهُ

قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا﴾ تعبيرٌ مجازيٌّ؛ إذ القَطعُ: فصلُ الشَّيءِ، وقَطْعُ الطَّريقِ يرادُ بهِ السَّيرُ والسُّلوكُ، فهو مجازٌ في العبورِ[1]، فقوله تعالى: ﴿وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا﴾ أي: بالسَّيرِ في الجهادِ[2]، فلمّا كانت الأوديةُ والأراضي قِطَعًا منفصِلةً متباينةً أطلقَ على العبورِ بينها لفظَ القَطعِ الدّالِّ على الفصلِ، فكأنَّهم يفصلون قِطعةَ أرضٍ عن أخرى بمسيرِهم.

دلالةُ التَّعبيرِ بالفعلِ ﴿كُتِبَ﴾ مبنيًّا للمفعولِ بينَ الحقيقةِ والمجازِ:

حُفِظَتْ أعمالُهم، وثَبَتَ لهم أجرُها

في قوله عزَّ ذِكرهُ: ﴿وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ﴾ يجوزُ حَملُ قوله تعالى: ﴿كُتِبَ﴾ على الدِّلالتين: الحقيقيَّةِ بمعنى: الكتابةِ في

(1) الرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (قطع).
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/46.

الصُّحف، أو اللَّوح المحفوظِ، والمجازيَّةِ بمعنى: الحفظِ والإثباتِ، إشارةً إلى قَبولِه أعمالَهم[1]، وقد آثرَ النَّظمُ الكريمُ أن يكونَ التَّعبيرُ عن ذلك بصيغةِ المبنيِّ للمفعولِ؛ لأنَّ المرادَ بيانُ أنَّ أعمالَهم محفوظةٌ لهم، وثَبَتَ لهم أجرُها، وهذا هو الأهمُّ في السِّياقِ، فبناهُ "للمفعولِ؛ لأنَّ القصدَ الحفظُ بالكتابةِ مطلقًا"[2]، أي: لا من حيثُ كونُهُ من مُعَيَّنٍ؛ إذ التَّرغيبُ والتَّبشيرُ يقع ببيانِ إثباتِ الأجرِ، وإن كان هناك فرقٌ بين كونِ مُثْبِتِ الأجر هو اللّه تعالى أو الملائكةُ، فإنَّهُ إثباتٌ حاصلٌ لهم في كلِّ حالٍ.

بيانُ المتشابهِ اللَّفظيِّ في ذكرِ المكتوبِ وحذفِهِ:

الظُّمأُ وما عُطِفَ عليه ليست أعمالَهم الحقيقيَّةَ، والنَّفقاتُ والمسيرُ أعمالُهم الحقيقيَّةُ

قال تعالى في الآيةِ السّابقةِ: ﴿إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌۚ﴾، وقال تعالى هنا: ﴿إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ﴾، ولم يذكرِ المكتوبَ؛ وذلكَ أنَّ الآيةَ الأولى فيها ما ليس عملًا لهم كالظَّمأِ والنَّصَبِ والمَخْمَصَةِ، فهذهِ ليست من أعمالِهم غيرَ أنَّه تُكتبُ لهم أعمالٌ صالحةٌ؛ لأنَّ اللّه سبحانه بفضلِهِ أجرى ذلك مجرى عملِهم في الثَّوابِ، أمّا الآيةُ الثّانيةُ؛ فما جاءَ فيها كلُّهُ من أعمالِهم، فإخراجُ النَّفقاتِ ما دقَّ أو جلَّ، وقطْعُ الوديانِ في المَسيرِ إلى الأعداءِ هي أعمالٌ لهم محفوظةٌ مكتوبةٌ عندَ اللّه تعالى ولذا لم يكن ثَمَّةَ داعٍ إلى القولِ: (كُتِبَ لهم به عملٌ صالحٌ)؛ لأنَّهُ عملٌ حقيقةً[3].

دلالةُ اللّامِ في ﴿لَهُمْ﴾:

ما ينالوهُ من أجرِ استحقاقٌ لهم

في قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ﴾ عبَّرَ عن استحقاقِهم الأجرَ بالكتابةِ، وأدخلَ لامَ الاستحقاقِ على ضميرِهم بيانًا لذلك، فشِبْهُ الجملةِ ﴿لَهُمْ﴾ جاءت لبيانِ أنَّ كتابةَ الأجرِ كائنةٌ

(1) الشّهاب، عناية القاضي: 4/375.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/46.
(3) الإسكافيّ، درّة التّنزيل: 2/731 - 732، والكرمانيّ، البرهان في توجيه متشابه القرآن، ص: 138.

لهم، ولو قالَ: (إلّا كُتِبَ به عملٌ صالح) بلا قيدِ شِبْهِ الجُملة؛ لفُهِم إثباتُ الأجرِ لهم، ولكنَّ التَّصريحَ باستقرارِهِ لهم، فيه تكريمٌ لهم بذكرِهم، وتنويهٌ بشأنِهم.

بلاغةُ الحذفِ في: ﴿إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ﴾:

المُقدَّرُ كتابةُ العملِ الصّالحِ، إنفاقًا وقطعًا

في قوله تعالى: ﴿وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ﴾ حَذْفٌ بليغٌ؛ إذ لم يقلْ كما قالَ: ﴿وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ﴾، والمحذوفُ ضميرٌ مقدَّرٌ، "يعودُ على المصدرِ المفهومِ من ينفقون، ويقطعون، كأنَّه قيل: كَتَبَ لهم هو، أي: الإنفاقَ والقطعَ، ويجوز أن يعودَ على قوله: ﴿عَمَلٌ صَٰلِحٌ﴾ المتقدِّمِ الذِّكْرِ"[1].

دلالةُ اللّام في ﴿لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ﴾:

كتابةُ الحسناتِ جزاءُ الأعمالِ الصّالحاتِ

جاءَ النَّظمُ الكريمُ باللّامِ في قوله تعالى: ﴿لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ الدّالَّةِ على العِلَّةِ ليبيِّنَ عِلَّةَ الكتابةِ، أي: كتبَ لهم الحسناتِ لأعمالِهم الصّالحةِ لغرضِ الجزاءِ[2]، فالغايةُ من إثباتِ أعمالِهم وحفظِها أن يجازيَهم عليها أحسنَ الجزاءِ.

سرُّ التَّعبيرِ بالفعل المضارعِ ﴿لِيَجْزِيَهُمُ﴾:

جزاءُ الله تعالى غيرُ منقطعٍ

في قوله تعالى: ﴿لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ﴾ عبَّرَ بالفعلِ المضارعِ للدَّلالةِ على أنَّ الجزاءَ غيرُ منقطعٍ، بل هو دائمٌ مستمرٌّ، وبيانُ أنَّ الجزاءَ كائنٌ في المُستقبلِ بقرينةِ نصبِ الفعلِ المضارعِ.

سرُّ تقديمِ المفعولِ بهِ على الفاعلِ:

مُستَحِقُّ الجزاءِ عالي الشَّأنِ

قدَّمَ تعالى المفعولَ بهِ في قوله عزَّ ذِكرُه: ﴿لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾، وهو الضَّميرُ العائدُ على الَّذين يخرجونَ في سبيلِ اللّه تعالى لأنَّ الجزاءَ لهم، فأوصلهُ بضميرِهم، وفي تقديمِه تعجيلٌ بذكرِ مستحِقِّ الجزاءِ تنويهًا بعلوِّ شأنِهم، كما أنَّ في تأخيرِ الفاعلِ تشويقًا لبيانِ المُجازاةِ.

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/524، والقاسميّ، محاسن التّأويل: 5/528.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/58.

دلالةُ التَّعبيرِ بالمُظْهَرِ في مقامِ المُضْمَرِ:

إظهارُ الاسمِ الأعظمِ في سياقِ المُجازاةِ تشريفٌ لهم، وتعظيمٌ للجزاءِ

في قوله جلَّ شأنُه: ﴿لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ وضعَ الظّاهرَ موضعَ المُضْمَرِ، ولم يقل: (ليجزيهم أحسن)؛ لأنَّهُ آثرَ إظهارَ لفظِ الجلالةِ في سياقِ مجازاتِهم، تعظيمًا للجزاءِ المُعَدِّ لهم، فاللّه تعالى بجلالهِ وكمالهِ هو من يجازيهم، وفي ذلك من الفخامةِ والتَّعظيمِ للأجر، والتَّشويقِ بما يحُثُّ النُّفوسَ على بذلِ غايةِ الوسعِ.

سرُّ التَّعبيرِ بصيغةِ التَّفضيلِ ﴿أَحْسَنَ﴾:

لا جزاءَ أحسنُ من جزاءِ مَنْ تسمَّى بالمحْسنِ

في قوله تعالى: ﴿لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ جاء التَّعبيرُ بصيغةِ التَّفضيلِ لبيانِ حُسْنِ جزاءِ اللّه تعالى وقد تعدَّدَتْ آراءُ أئمَّةِ التَّفسيرِ في بيانِ المرادِ منها وموقعِها الإعرابيِّ، فذكروا أنَّ له وجهين: الأوَّل: أنَّ الأحسنَ وصفٌ لفعلِهم، فاللّه تعالى يجزيهم على أحسنِ أفعالِهم، وفي إعرابِ هذا الوجهِ قولان: إنَّه بدلُ اشتمالٍ من الضَّميرِ في ﴿لِيَجْزِيَهُمُ﴾، كأنَّه قيل: ليجزيَ اللّه أحسنَ أفعالِهم بالأحسنِ من الجزاءِ، أو أنَّهُ على حذفِ مضافٍ، وأقيمَ المضافُ إليهِ مقامَهُ، والتَّقديرُ: ليجزيَهم جزاءَ أحسنِ ما كانوا يعملون[1]. والثّاني من الوجوه: أنَّ "الأحسنَ صفةٌ للجزاءِ، أي: يجزيهم جزاءً هو أحسنُ من أعمالِهم وأجلُّ وأفضلُ، وهو الثَّوابُ"[2]، وهذا التَّنوُّعُ في بيانِ الموقعِ الإعرابيِّ للمفردةِ يُفْصِحُ عن سَعةِ المعنى، وأنَّ المعاني المحتملةَ كلَّها مُرادةٌ، وهذا من سَعةِ التَّعبيرِ في القرآنِ.

سرُّ حذفِ حرفِ الجرِّ في ﴿أَحْسَنَ﴾:

في الحذفِ اتِّساعٌ بالمعنى

في قوله تعالى: ﴿لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ جاء اسمُ التَّفضيلِ بلا حرفِ جرٍّ، فلم يقل: بأحسنَ، أو عن أحسنَ،

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 16/170، وأبو حيّان، البحر المحيط: 5/524 - 525، والشّهاب، عناية القاضي: 4/376، الصّاويّ، حاشيته على تفسير الجلالين: 2/163.

(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 16/170.

فلو ذكرَ حرفَ الجرِّ (عن)، فقالَ: (عن أحسنِ ما كانوا يعملونَ)؛ لكانَ الجزاءُ لأحسنِ الأعمالِ فحسْبُ، وهذا المعنى خِلافُ ما يُرادُ في الآيةِ، فلم يأتِ مجرورًا بحرفٍ من حروفِ الجرِّ؛ لينتصبَ على المصدريَّةِ أو البدلِ اتِّساعًا في المعاني المذكورةِ آنفًا.

سرُّ التَّعبيرِ بالفعلِ كانَ مع الفعلِ المضارعِ ﴿يَعۡمَلُونَ﴾:

حُسْنُ أفعالِهم سجاياهُم، وجميلُ خِصالِهم

في قوله جلَّ شأنُه: ﴿مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ عبَّرَ النَّظمُ الكريمُ بفعلِ الكينونةِ ماضيًا مع جعْلِ خبرِهِ فعلًا مضارعًا؛ ليفيد أنَّ تلكَ الأفعالَ كانت ديدَنَهم[1]، فإنَّ اللّٰه تعالى يجازيهم جزاءَ العملِ الَّذي كانوا مواظبين عليهِ، فالفعلُ المضارعُ يدلُّ على التَّجدُّدِ والتَّكرارِ، والفعل الماضي (كان) يدلُّ على رسوخِ العملِ فيهِم، فجمعَ بين الصِّيغتين للدَّلالةِ على استمرارِهم على هذهِ الأفعالِ منذُ الأزمنةِ الماضيةِ، وكأنَّها طبعٌ فيهم، وسجيَّةٌ.

بيانُ مُتَشابِهِ النَّظمِ في فاصلتي الآيتيْن:

التَّأكيدُ وزيادةُ الوصفِ مناسبٌ؛ إذ كانتِ المشقَّةُ أشدَّ

خَتَمَ تعالى الآيةَ السّابقةَ بقوله جلَّ شأنُه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾، وخَتَمَها تعالى هنا بقوله: ﴿لِيَجۡزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحۡسَنَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾، وعلَّةُ ذلك أنَّ الإخبارَ في الأولى كان عمَّن "أصابَهُ ظمأٌ ونصبٌ وجوعٌ، فقد أخبرَ عنهُ بفعلِ غيرِهِ، ولم يخبرْ عنه بفعلٍ فعلَه هو، إلّا أنَّه يُحسَبُ لهُ - بما وصلَ إليهِ مِن ألمِ العطشِ والجوعِ والتَّعبِ والنَّصبِ - الأجرُ؛ فلذلك عقَّبَهُ بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ أي: أجرَ مَن أحسنَ طاعةَ اللّٰه، وتعرَّضَ منها لما تلحَقُهُ فيهِ هذهِ الشَّدائدُ، وأمّا الآيةُ الثّانيةُ وتعقيبُها بقوله: ﴿لِيَجۡزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحۡسَنَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾؛ فلأنَّ جميعَ ما ذُكِرَ كان عملًا لهم، فوعدَهُم حُسْنَ الجزاءِ على عملِهم"[2].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/58.

(2) الإسكافيّ، درّة التّنزيل: 2/731 - 732، والكرمانيّ، البرهان في توجيه متشابِه القرآن، ص: 138.

وخلاصةُ علَّةِ الاختلافِ في التَّعبيرِ بين الآيتَيْن: أنَّ الفاصلةَ في الآيةِ الأولى جاءت مؤكَّدةً بـ (إنَّ) والجملةِ الاسميَّةِ، ومُصَرَّحًا فيها بالعملِ الصّالح؛ لأنَّ المشقَّةَ هناك أشدُّ، فجاءَ التَّعبيرُ أقوى حيثُ كانت المشقَّةُ أعلى[1].

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

النَّفقةُ والصَّدقةُ والزَّكاةُ:

الصَّدَقةُ: ما يُخرجهُ الإنسانُ من مالهِ على وجهِ القُرْبة؛ كالزَّكاةِ، لكنَّ الصَّدقةَ في العُرفِ تقالُ للمُتطَوِّعِ بها، والزَّكاةُ للواجبِ، وقيل: سَمَّى الواجبَ صدقةً؛ إذا تحرَّى صاحبُهُ الصِّدقَ في فعلِهِ[2]. أمّا الإنفاقُ؛ فقد يكونُ في المالِ، وفي غَيْرِهِ، وقد يكونُ واجبًا وتطوُّعًا، قال تعالى: ﴿أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم﴾ [البقرة: 254][3]، فالنَّفقةُ أعمُّ من الصَّدقةِ، فتُستعملُ في الإنفاقِ في الخيرِ وغيرِه، كما في الآيةِ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً﴾ [الأنفال: 36]، وتعدَّدَت استعمالاتُ الإنفاقِ في القرآنِ الكريمِ على وجوهٍ، فوَرَدَتْ بمَعْنَى فَرْضِ الزَّكاةِ، وبمعنى التَّطَوُّعِ بالصَّدقاتِ، وبمعنَى الإنْفاقِ في الجهادِ، وعلى الأَهلِ، وبمعنى الإنْفاقِ في عِمارةِ الدُّنيا، وبمعنى رزْقِ الخَلْقِ[4]، فالإنفاقُ عامٌّ يكون في المالِ وغيرِه، وفي الواجبِ وغيرِه، والخيرِ ونقيضِه. والصَّدقةُ في القرآنِ: ما يخرجُهُ الإنسانُ من مالهِ تطوُّعًا، وقد يُستعمل في الواجبِ، وفي الآية الكريمةِ عبَّرَ بالنَّفقة؛ لأنَّه في الإنفاق في الغزوِ، وهو أعمُّ من أن يكونَ في المالِ، فكلُّ شيءٍ يُقدَّمُ في سبيلِ اللّٰه تعالى مرادٌ في الآية.

الصَّدقةُ أخصُّ والنَّفقةُ أعمُّ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/46.
(2) الرّاغب، المفردات: (صدق).
(3) الرّاغب، المفردات: (نفق).
(4) الفيروزاباديّ، بصائر ذوي التمييز: (نفق).

﴿وَمَا كَانَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةٗۚ فَلَوۡلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرۡقَةٖ مِّنۡهُمۡ طَآئِفَةٞ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوۡمَهُمۡ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ لَعَلَّهُمۡ يَحۡذَرُونَ ١٢٢﴾ [التّوبة: 122]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

لمّا شدَّدَ بمنعِ التَّخلُّفِ أوجبَ على بعضِهم المُكْثَ في المدينةِ للتَّفقُّهِ

إنَّ اللّه تعالى لمّا بيَّن النَّهيَ عن التَّخلُّفِ عن النَّبيِّ ﷺ، وزجرَ عنهُ، فإنَّ ذلك كان "مظنَّةَ ألّا يتخلَّفَ بعدَها أحدٌ عن رسولِ اللّه ﷺ، وعمَّن يقومُ مقامَهُ، فيتمكَّنُ حينئذٍ الأعداءُ من الأموالِ والذَّراري والعيالِ، فأتْبعَ ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾، أي: الَّذين حثَّهم على النَّفرِ الرُّسوخُ في الإيمانِ ﴿لِيَنفِرُواْ كَآفَّةٗۚ﴾"[1]، فبيَّن أنَّ مِن مصلحةِ الأمَّةِ ألّا تتركَ أحدَ السَّبيلَيْن: سبيلِ العلمِ، وسبيلِ القتالِ، فحثَّهم على التَّوازنِ، ووضْعِ كلِّ شيءٍ موضعَهُ.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿لِيَنفِرُواْ﴾: النَّفْرُ: الانْزِعاجُ عن الشَّيءِ وإلى الشَّيءِ، كالفَزَعِ إلى الشَّيءِ وعن الشَّيءِ، يقال: نَفَرَ عن الشَّيءِ نُفورًا، قال تعالى: ﴿مَّا زَادَهُمۡ إِلَّا نُفُورًا ٤٢﴾ [فاطر: 42]، ونَفَرَ إلى الحربِ يَنْفُرُ ويَنْفِرُ نَفْرًا، ومنه: يَوْمُ النَّفْرِ، قال تعالى: ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافٗا وَثِقَالٗا﴾ [التّوبة: 41][2]، ونَفَرَ القومُ في الأَمرِ: مَضَوْا فِيهِ، ونَفَر الحاجُّ من مِنًى نَفْرًا، والنَّفِيرُ: الذين يَتقدَّمون في الأَمرِ[3].

2) ﴿لِّيَتَفَقَّهُواْ﴾: الفِقْهُ: الفهمُ، ثمَّ خُصَّ به عِلْمُ الشَّريعةِ، والعالِمُ به فَقيهٌ، وقد فَقُهَ بالضَّمِّ فَقاهَةً، وفَقَّهَهُ اللّه، وتَفَقَّهَ؛ إذا تعاطى

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/47.
(2) الرّاغب، المفردات: (نفر).
(3) الفيروزابادي، بصائر ذوي التمييز: (نفر).

ذلك[1]، والفِقْهُ: هو التَّوصُّلُ إلى علم غائبٍ بعلم شاهدٍ، فهو أخصُّ من العلمِ، قال تعالى: ﴿فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلۡقَوۡمِ لَا يَكَادُونَ يَفۡقَهُونَ حَدِيثٗا ٧٨﴾ [النّساء: 78]، ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَا يَفۡقَهُونَ ٧﴾ [المنافقون: 7]، إلى غيرِ ذلك من الآياتِ، والفِقْهُ: العلمُ بأحكامِ الشَّريعةِ، يقال: فَقُهَ الرَّجلُ فَقاهَةً؛ إذا صارَ فَقِيهًا. وفَقِهَ، أي: فَهِمَ، فَقَهًا، وفَقِهَهُ، أي: فهِمَهُ، وتَفَقَّهَ؛ إذا طلبهُ، فتخصَّصَ بهِ، قال تعالى: ﴿لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ﴾[2].

3) ﴿يَحۡذَرُونَ﴾: الحَذَر: احترازٌ من مُخيفٍ، يقال: حَذِرَ حَذَرًا، قال ﷻ: ﴿يَحۡذَرُ ٱلۡأٓخِرَةَ﴾ [الزمر: 9][3]، وقولُه: ﴿حَذَرَ ٱلۡمَوۡتِۚ﴾ [البقرة: 19]، أي: خوفَهُ، وأصلُهُ التَّحذُّرُ من الشَّيءِ المُخيفِ المُهلِكِ، فهو أخصُّ من الخوفِ[4].

المَعْنى الإجْماليُّ:

يُعلِّمُ اللّه تعالى الأمَّةَ ناهيًا إيّاهم عن التَّفريطِ بأحدِ السَّبيلينِ من العلمِ والغزوِ، فليس "للمؤمنين أن يخرجوا جميعًا إلى النَّبيِّ ﷺ إذا لم يقتضِ الأمرُ ذلك، فليكنِ الأمرُ أن تخرجَ إلى الرَّسولِ طائفةٌ؛ ليتفقَّهوا في دينِهم، وليَدْعوا قومَهم بالإنذارِ والتَّبشيرِ حينما يَرجعونَ إليهم؛ ليثبُتوا دائمًا على الحقِّ، وليحذَروا الباطلَ والضَّلالَ"[5].

لا إفراطَ ولا تفريطَ، ولكلِّ عملٍ فضلٌ

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالةُ العطفِ بالواوِ:

الجملةُ في قوله جلَّ شأنُهُ: ﴿وَمَا كَانَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةٗۚ﴾ معطوفةٌ على التَّوبيخِ في قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِأَهۡلِ ٱلۡمَدِينَةِ وَمَنۡ حَوۡلَهُم مِّنَ ٱلۡأَعۡرَابِ أَن يَتَخَلَّفُواْ﴾، فلمّا أرسلَ النَّبيُّ ﷺ سَرِيّةً بعد

توبيخُهم أدَّى إلى نَفْرَتِهم في سبيلِ اللّه جميعًا

(1) الجوهريّ، الصّحاح: (فقه).
(2) الرّاغب، المفردات: (فقه).
(3) الرّاغب، المفردات: (حذر).
(4) السّمين، العمدة: (حذر).
(5) مجموعة من المؤلّفين، المنتخب في تفسير القرآن الكريم، ص: 282.

ذلك التَّوبيخِ نفروا جميعًا، فنزل ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً﴾[1]، فهُما مشترِكان بالتَّعليم والتَّنبيهِ.

سرُّ المقابلةِ بين التَّحريضِ على الغزوِ والعلمِ:

من مصلحةِ الأمَّةِ قرآنٌ يهدي وسيفٌ يحمي، وينافحُ

في قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً﴾ قابل بين التَّحريضِ على الغزوِ في قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ﴾؛ إذ جاء التَّحريضُ في الآيةِ الأولى "على الالتفافِ حولَ رسولِ الله ﷺ في الغزوِ لمصلحة نشرِ الإسلامِ؛ ناسبَ أن يُذْكَرَ عَقِبَها نَفْرُ فريقٍ من المؤمنين إلى رسولِ الله ﷺ للتَّفقُّهِ في الدِّين؛ ليكونوا مُرشِدينَ لأقوامِهم الَّذين دخلوا في الإسلامِ"[2]، وبين التَّحريضِ على النَّفْرةِ إلى طلبِ العلم، والتَّفقُّهِ، فكما "كان النَّفْرُ للغزوِ واجبًا؛ لأنَّ في تركِه إضاعةَ مصلحةِ الأمَّةِ، كذلك كان تركُه من طائفةٍ من المسلمين واجبًا؛ لأنَّ في تمحُّضِ جميع المسلمين للغزوِ إضاعةَ مصلحةٍ للأمَّةِ أيضًا، فأفادَ مجموعُ الكلامَيْنِ أنَّ النَّفْرَ للغزو واجبٌ على الكفايةِ، أي: على طائفةٍ كافيةٍ لتحصيلِ المقصدِ الشَّرعيِّ منه، وأنَّ تركَهُ مُتَعَيَّنٌ على طائفةٍ كافيةٍ منهم لتحصيلِ المقصَدِ الشَّرعيّ ممّا أُمروا بالاشتغالِ بهِ من العلم في وقت اشتغالِ الطّائفةِ الأخرى بالغَزْوِ"[3].

براعةُ المقابلةِ بين المؤمنين وبين أهلِ المدينةِ ومن حولهم:

في المقابلةِ تزكيةٌ لهم وشهادةٌ بصدقِ إيمانهم

في قوله عزَّ ذِكرهُ: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً﴾ وقع التَّقابلُ بين الآيتَيْن في غايةِ الحسنِ، فإنَّ قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ﴾ في الآيةِ السّابقةِ كان عامًّا، فأتبعَهُ بقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً﴾، فعادَ عليهم بوصفِ الإيمانِ

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 4/195.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/59.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/60 - 61.

تصريحًا بإيمانِ المذكورين أوَّلًا، وفيه تزكيةٌ لهم وشهادةٌ من اللّه تعالى لهم بأنَّ إيمانَهم معتبَرٌ مع ما وقعَ من زيغٍ من بعضِهم وتخلُّفٍ.

دلالةُ النَّفي بأسلوبِ الجحودِ:

الجهادُ في سوحِ العلمِ كالجهادِ في سوحِ الحربِ

في قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً﴾ جاء النَّفيُ مؤكَّدًا بلامِ الجحودِ الدّاخلةِ على خبرِ كان، والمعنى: "ما صحَّ، وما استقامَ لهم أن ينفِروا جميعًا لنحو غزْوٍ أو طلب علمٍ، كما لا يستقيمُ لهم أن يتثبَّطوا جميعًا؛ فإنَّ ذلك مُخِلٌّ بأمرِ المعاشِ"[1]، فلا يصحُّ أن تَخْلوَ البلادُ من النّاس، وإن كان خروجُهم لغرضِ الغزوِ، وهذا النَّفيُ جاء لغرضِ النَّهي كما في الآيةِ الَّتي سبقت، فهو "خبرٌ مُسْتَعْمَلٌ في النَّهي، فتأكيدُه يفيدُ تأكيدَ النَّهي، أي: كونُه نهيًا جازمًا يقتضي التَّحريمَ"[2].

نكتةُ التَّعبيرِ بـ ﴿لِيَنفِرُواْ﴾ في سياقِ طلبِ العلمِ بالفقهِ:

النَّفرةُ حثٌّ لطلبِ العلمِ على كلِّ وجهٍ

في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً﴾ عبَّرَ عن السَّعي إلى التَّفقُّهِ بالنَّفيرِ، ولم يقل: (فلولا مكثت طائفة منهم ليتفقَّهوا) تشبيهًا بين المقامَيْن، فكما " كان النَّفْرُ للغَزْوِ واجبًا؛ لأنَّ في تركهِ إضاعةَ مصلحةِ الأمَّة؛ كذلك كان تركُه من طائفةٍ من المسلمين واجبًا"[3]، فمقامُ التَّفقُّهِ في الدِّين ليس أقلَّ مكانةً من مقامِ الغزوِ دفاعًا عن الدِّين ونشرًا له، وهذا يدلُّ على المنزلةِ الرَّفيعةِ للعلم في الإسلام أن جعلَ المكوثَ له بمنزلةِ النَّفيرِ للغَزْوِ، ويُلمَحُ في لفظِ النَّفرةِ الدَّعوةُ إلى السَّفرِ في طلبِ العلم، وشدِّ الرِّحال لتحصُّلِه، فلا يجتمع العلمُ والركونُ إلى الدَّعةِ، ودليلُ ذلك قولُه: ﴿وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ﴾.

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/112، والزَّمخشريّ، الكشّاف: 2/322.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/60 - 61.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/60 - 61.

توجيهُ التَّعبيرِ بالحالِ ﴿كَآفَّةٗ﴾:

المنهيُّ عنه نَفْرَةُ كلِّ المؤمنين، لا بعضِهم

في قوله عزَّ ذِكرُه: ﴿وَمَا كَانَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةٗ﴾ قيَّدَ النَّفيَ الدّالَّ على النَّهي بالحال ﴿كَآفَّةٗ﴾؛ للدَّلالة على أنَّ المنهيَّ هو الخروجُ جميعًا للغَزْوِ، وإهمالُ المُكْثِ للتَّفقُّهِ، فالنَّفيُ يتَّجِهُ للخروج في حالِ كونِهم جميعًا نافرين، فإذا نفرَ بعضُهم؛ فإنَّ النَّهيَ لا يتعلَّقُ بهم.

دلالةُ الفاءِ في ﴿فَلَوۡلَا نَفَرَ﴾:

النَّفرةُ مخصوصةٌ بشرطِ التَّنويعِ

في قوله جلَّ شأنُه: ﴿فَلَوۡلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرۡقَةٖ مِّنۡهُمۡ طَآئِفَةٞ﴾ عبَّر بالفاءِ الفصيحةِ، "للإفصاحِ عن شرطٍ مقدَّرٍ، تقديرُه: إذا كان المؤمنون لا يَنْفِرون للحربِ كافَّةً، فإنَّ طائفةً تُخَصَّصُ للفقهِ؛ لينذروا قومَهم؛ إذا رجعوا"[1].

سرُّ التَّعبيرِ بأسلوبِ التَّحضيضِ بحرفِ (لولا):

التَّفقُّهُ وطلبُ العلمِ مَدْعاةُ الحثِّ، والحضِّ

عبَّر النَّظمُ الكريمُ في قوله جلَّ شأنُه: ﴿فَلَوۡلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرۡقَةٖ مِّنۡهُمۡ طَآئِفَةٞ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ﴾ بأسلوبِ التَّحضيضِ لطلبِ العلم والتَّفقُّهِ في الدِّين[2]، فـ (لولا) هنا "تحضيضيَّةٌ، والمرادُ به الأمرُ؛ لأنَّ (لولا) إذا دخل على الفعلِ؛ كان بمعنى التَّحضيضِ مثل (هلّا)؛ لأنَّ (هلّا) كلمتان: (هل)، وهو استفهامٌ وعَرْضٌ؛ لأنَّك إذا قلت للرَّجُلِ: هل تأكلُ؟ فكأنَّك عرضتَ ذلك عليه، و (لا) وهو جَحْدٌ، فـ (هلّا) مركَّبٌ من أمرين: العَرْضُ، والجَحْدُ، فإذا قلت: هلّا فعلتَ كذا؟ فكأنَّك قلتَ: هل فعلتَ، ثمَّ قلت معهُ (لا)، أي: ما فعلتَ، ففيه تنبيهٌ على وجوبِ الفعل، وتنبيهٌ على أنَّهُ حصل الإخلالُ بهذا الواجبِ، وهكذا الكلامُ في (لولا)؛ لأنَّك إذا قلت: لولا دخلتَ عليَّ، ولولا أكلتَ عِنْدِي، فمعناهُ أيضًا، عرضٌ وإخبارٌ عن سرورِكَ به، لو فعلَ"[3].

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3484.
(2) ابن جزي، التّسهيل: 1/350، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3484.
(3) ابن عادل، اللُّباب: 10/240، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 16/171.

سرُّ التَّعبيرِ بفرقةٍ ومن بعدِها طائفةٌ:

في قوله جلَّ شأنُه: ﴿فَلَوۡلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرۡقَةٖ مِّنۡهُمۡ طَآئِفَةٞ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ﴾ عبَّر النَّظمُ الكريمُ عن تقسيم النّاسِ النّافرينَ إلى الغزو والنّافرين للتَّفقُّه، فذكرَ أنَّ من يَنْفِرُ للتَّفقُّهِ من كلِّ فرقةٍ من النّاسِ طائفةٌ منهم، "أي: من كلِّ جماعةٍ كثيرةٍ، جماعةٌ قليلةٌ منهم يكفونَهم النَّفيرَ"[1]. فينفِرُ مَن يحقِّقُ الكفايةَ في الإنذارِ؛ لأنَّ "الفرقةَ: الجماعةُ الكثيرةُ، والطّائفةَ: الجماعةُ القليلةُ"[2]، فالقليلُ يكفي الكثيرَ.

القليلُ من الفقهاءِ يكفي الكثيرَ من النّاسِ

دلالةُ تقديمِ الجارِّ والمجرورِ على الفاعلِ:

في قوله تعالى: ﴿نَفَرَ مِن كُلِّ فِرۡقَةٖ مِّنۡهُمۡ طَآئِفَةٞ﴾ قدَّم النَّظمُ الجليلُ شِبْهَ الجملةِ على الفاعلِ، ولم يقل: (نَفَرَ طائفةٌ من كلِّ فرقةٍ منهم) اهتمامًا بعموم مَن يُنفَرُ منهم على مَن يَنفِر، إذ قصدَ الشّارعُ إيجابَ ذلك على العموم، فقدَّم القيدَ الدالَّ على العموم للدَّلالةِ على أهميَّتِه، ففي التَّقديم عنايةٌ بالنَّفرة من كلِّ فرقةٍ من فِرَقِ المؤمنين لا من فرقةٍ واحدةٍ، ليكونَ المُتفقِّهُ أقربَ إلى قومِه حين ينقلُ إليهم ما تعلَّمَهُ، فيكونُ أحظى بالقَبولِ من الغريبِ.

في التَّقديمِ عنايةٌ بالنَّفرةِ من كلِّ فرقةٍ

بلاغةُ تقييدِ النّافرين بأنَّهم من كلِّ فرقةٍ من المؤمنين:

في قوله تعالى: ﴿نَفَرَ مِن كُلِّ فِرۡقَةٖ مِّنۡهُمۡ طَآئِفَةٞ﴾ قيَّدَ أنَّ مَن ينفرون يجبُ أن يكونوا من كلِّ فرقةٍ، ولم يجعلْهُ عامًّا بأن يقولَ: (نفر منهم طائفة)، وهذا البيانُ من بدائعِ القرآنِ الكريم؛ إذ لم يوجِبِ سبحانه النَّفيرَ للتَّفقُّهِ فحسبُ، بل بناهُ على نظامِ تقسيمِ المجتمعِ، فكما أنَّ الرَّسولَ إنَّما يُرسَلُ من قومِه، وبلسانِهم؛ ليكونَ أدعى أن يقبلوا دعوتَهُ، فكذلك جعل مَن يتفقَّهُ أن يكونَ نافرًا من

النّافرُ من كلِّ قومٍ أدعى بالقبولِ من لدنِ قومِهِ

(1) القاسميّ، محاسن التّأويل: 5/528 - 529.
(2) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 12/122.

قومِهِ؛ ليكونَ لهم نذيرًا، وقوله: ﴿مِّنۡهُمۡ﴾ قيدٌ بكون الفرقةِ المعتَبِرةِ أن تكونَ من المؤمنين، وليس من كلِّ فرقةٍ على العمومِ.

دلالةُ مِن في ﴿مِن كُلِّ فِرۡقَةٖ مِّنۡهُمۡ﴾:

(مِـن) للابتداءِ أو لبيانِ جنس الفرقةِ

في قوله تعالى: ﴿نَفَرَ مِن كُلِّ فِرۡقَةٖ مِّنۡهُمۡ طَآئِفَةٞ﴾ تكرَّرَ حرفُ الجرِّ (مِن) مرَّتين، ففي قوله: ﴿نَفَرَ مِن كُلِّ فِرۡقَةٖ﴾ دالَّةٌ على الابتداءِ، فالنَّفْرُ يكون بادئًا من كلِّ جماعاتِ المؤمنين وفِرَقِهم، والثّانيةِ في قوله: ﴿مِّنۡهُمۡ﴾ بيانيَّةٌ، تُبيِّن جِنْسَ الفرقةِ بأنَّها كائنةٌ من جنسِ المؤمنين.

دلالةُ تنكيرِ ﴿طَآئِفَةٞ﴾:

التَّفقُّهُ في الدِّين يقعُ بالقليلِ

في قوله جلَّ شأنُه: ﴿فَلَوۡلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرۡقَةٖ مِّنۡهُمۡ طَآئِفَةٞ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ﴾ عبَّرَ عن الذين ينفِرونَ للتَّفقُّهِ بكونهِ طائفةً بصيغةِ التَّنكيرِ تقليلًا للنّافرين، وذلك مُؤْذِنٌ "بأنَّ النَّفْرَ للتَّفقُّهِ في الدِّين، وما يترتَّبُ عليهِ من الإنذارِ واجبٌ على الكفايةِ"[1]، كما أنَّ التَّنكيرَ يدلُّ على صلاحِ الجميع للتَّفقُّهِ، فليس هناك طائفةٌ معيَّنةٌ من القومِ مقصورةٌ على التَّفقُّهِ.

سرُّ التَّعبيرِ بصيغةِ التَّفعُّلِ:

على طالبِ العلمِ تحمُّلُ مصاعبِهِ، والاصطبارُ على مشاقِّهِ

في قوله جلَّ شأنُهُ: ﴿لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ﴾ عبَّرَ النَّظمُ الكريمُ عن مُكْثِهِم لطلبِ الفقهِ بصيغةِ التَّفعُّلِ، للدَّلالةِ على تكلُّفِ تعلُّمِ الفقهِ وتجشُّمِ مشاقِّهِ[2]، ويشير بذلك أنَّ مسلكَ العلمِ فيهِ مقاساةُ الشِّدَّةِ أثناءَ طلبهِ لصعوبتهِ، وأنَّه يَحْصُلُ شيئًا فشيئًا بعد جِدٍّ وجهدٍ، فأشعرَهم بذلكَ بالتَّعبيرِ بهذهِ الصِّيغةِ[3]، "ولمّا كان مصيرُ الفقهِ سجيَّةً لا يَحْصُلُ إلّا بمزاولةِ ما يُبَلِّغُ إلى ذلكَ؛ كانت صيغةُ التَّفعُّلِ المُؤْذِنَةُ بالتَّكلُّفِ مُتَعَيِّنَةً لأنْ يكونَ المرادُ بها تكلُّفَ حصولِ الفقهِ، أي:

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/61.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/112.
(3) الشّهاب، عناية القاضي: 4/377، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 9/48.

الفهمَ في الدِّين، وفي هذا إيماءٌ إلى أنَّ فهمَ الدِّين أمرٌ دقيقُ المَسْلَكِ لا يَحْصُلُ بسهولةٍ"[1].

دلالةُ العطفِ: ﴿وَلِيُنذِرُواْ قَوۡمَهُمۡ﴾:

عُطِفَ قولُه جلَّ شأنُه: ﴿وَلِيُنذِرُواْ قَوۡمَهُمۡ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ لَعَلَّهُمۡ يَحۡذَرُونَ﴾ على قوله تعالى: ﴿لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ﴾، بيانًا لغَرضِ التَّفقُّهِ، وهو أنَّهُ يكون هاديًا للخيرِ، ففيهِ "إشارةٌ إلى أنَّه ينبغي لطالبِ العلم تحسينُ مَقْصَدِهِ بأن يقصِدَ بطلبهِ العلمَ تعليمَ غيرِهِ، واتِّعاظَهُ هو في نفسِه"[2].

التَّفقُّهُ هادٍ إلى الخيرِ؛ وهو المقصَدُ

دلالةُ الاقتصارِ على الإنذارِ، وتركِ البشارةِ:

في قوله عزَّ ذِكرُه: ﴿وَلِيُنذِرُواْ قَوۡمَهُمۡ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ لَعَلَّهُمۡ يَحۡذَرُونَ﴾ اقتصرَ النَّظمُ الكريمُ على ذكر الإنذارِ دونَ التَّبشيرِ؛ لأنَّ الإنذارَ "أهمُّ؛ لأنَّ التَّخْلِيَةَ مقدَّمةٌ على التَّحْلِيَةِ، ولأنَّهُ ما من إرشادٍ إلى الخيرِ إلّا وهو يشتملُ على إنذارٍ مِن ضدِّهِ، ويدخلُ في معنى الإنذارِ تعليمُ النّاسِ ما يميِّزون بهِ بين الحقِّ والباطلِ، وبينَ الصَّوابِ والخطأِ، وذلك بأداءِ العالمِ بثَّ علومِ الدِّين للمتعلِّمين"[3]، فالإنذارُ عظيمُ الفوائدِ واسعُ العوائدِ، فاكتُفي بهِ تعويلًا على ظهورِ ضدِّهِ من لفظِهِ.

التَّخْلِيَةُ تسبقُ التَّحْلِيَةَ

دلالةُ التَّعبيرِ بالمفعولِ بهِ مضافًا:

في قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَلِيُنذِرُواْ قَوۡمَهُمۡ﴾ أضافَ القومَ إلى ضميرِ النّافرين للتَّفقُّهِ إشارةً إلى أنَّ مُنذِرَ القومِ يجبُ أنْ يكونَ منهم، وكذا جَرَتْ عادةُ إرسالِ الرُّسلِ بأن يكونوا من قومِهم وبلسانِهم، مصداقًا لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ﴾ [إبراهيم: 4].

مُنذِرُ القومِ يجبُ أنْ يكونَ منهم

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/62.
(2) الصّاوي، حاشية الصّاوي: 2/163.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/62.

دلالةُ تقييدِ الفعلِ ﴿وَلِيُنذِرُواْ﴾ بالظَّرفِ ﴿إِذَا رَجَعُوٓاْ﴾:

الإنذارُ ليس مُطْلَقًا، وقُيِّدَ بحالِ الرُّجوعِ

في قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَلِيُنذِرُواْ قَوۡمَهُمۡ إِذَا رَجَعُوٓاْ﴾ قُيِّدَ الإنذارُ بوقتِ الرُّجوعِ إشارةً إلى وجوبِ الإنذارِ حالَ الرُّجوعِ، فلم يجعلْه إنذارًا مُطْلَقًا، وفي ذلك إظهارٌ لمكانةِ التَّعليمِ، فإنَّه يكون عَقِبَ الرُّجوعِ، فيبادرُ مَن تفقَّهوا بإنذارِ قومِهم، ولا ينتظرون مهلةً من الزَّمانِ.

دلالةُ التَّعبيرِ بالجارِّ والمجرورِ ﴿إِلَيۡهِمۡ﴾:

الإنذارُ لا يقعُ وقتَ الرُّجوعِ مطلقًا، بل يبدأُ عند بلوغِهم منازلَ قومِهم

في قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَلِيُنذِرُواْ قَوۡمَهُمۡ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ﴾ عبَّر بشبهِ الجملةِ قيدًا لمكانِ الإنذارِ، أي: إنَّ الإنذارَ لا يقعُ وقتَ الرُّجوعِ مطلقًا، بل يبدأُ عند بلوغِهم منازلَ قومِهم، فكما أنَّه بَيَّنَ زمانَ الإنذارِ، بأنَّه كائنٌ وقتَ الرُّجوعِ؛ بَيَّنَ بقوله: ﴿إِلَيۡهِمۡ﴾ مكانَ الرُّجوعِ، وهو أن يبلغوا منازلَهم، ويصلوا إلى قومِهم، وهذا يدلُّ على أنَّ الإنذارَ يجبُ أن يكونَ في الزَّمانِ والمكانِ المناسِبَيْنِ وبلا تأخيرٍ، فيكونُ قولُه: ﴿إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ﴾ قيدًا لمكانِ الإنذارِ ووقتِه ووجوبِ المبادرةِ به.

دلالةُ الختْمِ بأسلوبِ الإنشاءِ غيرِ الطَّلبيِّ:

العلمُ مُنافٍ للكِبْرِ، والتَّفاخرِ، والاستعلاءِ

ختمَ النَّظمُ الكريمُ الآيةَ الشَّريفةَ بصيغةِ التَّرجِّي الدّالَّةِ على الإنشاءِ غير الطَّلبي في قوله جلَّ شأنُه: ﴿لَعَلَّهُمۡ يَحۡذَرُونَ﴾ للدَّلالةِ على التَّعليلِ، فبَيَّنَ بذلك "غايةَ العلم مشيرًا إلى أنَّ مَن جعلَ له غايةً غيرها من تَرَفُّعٍ أو افتخارٍ، فقد ضلَّ ضلالًا كبيرًا"[1]، والتَّرجِّي في الآيةِ ليسَ مِنَ اللّه تعالى بل هو من المنذرين، فهو مُتعلِّقٌ بالإنذارِ في قوله: ﴿وَلِيُنذِرُواْ قَوۡمَهُمۡ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ لَعَلَّهُمۡ يَحۡذَرُونَ﴾[2].

علَّةُ الاقتصارِ على الحَذَرِ:

مقتضى الإنذارِ التَّحذيرُ

في قوله تعالى: ﴿لَعَلَّهُمۡ يَحۡذَرُونَ﴾ اقتصرَ النَّظمُ على ذكرِ الحِذْرِ؛ لأنَّ التَّحذيرَ يكونُ من فِعلِ المحرَّماتِ وتركِ الواجبات،

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/48.
(2) الشّهاب، عناية القاضي: 4/377.

فاقتصرَ عليه؛ لأنَّ مقتضى الإنذارِ التَّحذيرُ[1]، فالغايةُ من الإنذارِ هي الحِذْرُ؛ فلمّا صرَّح بالإنذارِ؛ أَعْقَبَهُ بما يُرادُ منهُ، وهو التَّحذيرُ الَّذي يَعُمُّ إحداثَ خللٍ بانتهاكِ المحرَّم، وإهمالِ الواجبِ.

دلالةُ التَّعبيرِ بالجملةِ ﴿يَحْذَرُونَ﴾:

في قوله تعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ عبَّر عمّا يُرجى منهم من الإنذارِ أن يكونَ حالهُم "حالَ أهلِ الخوفِ من الله بما حَصَّلوا من الفقهِ؛ لأنَّهُ أصلُ كلِّ خيرٍ، به تنْجَلي القلوبُ، فَتُقبِل على الخير، وتُعرِض عن الشَّرِّ، فإنَّ الحَذَرَ تجنُّبُ الشَّيءِ لِما فيهِ من الضَّررِ"[2]، والمرادُ ليس الحَذَرَ لذاتهِ، بل ما يأتي بعدَهُ، وهو إصلاحُ الأعمالِ، فلا يكون حَذَرٌ من تَرْكِ الواجبِ وفعلِ المحرَّم إلّا بضدِّ ذلك، فدلَّ على أنَّ المرادَ أن يكونوا صالحين، أي: فيُصلحونَ أعمالَهم"[3].

من يتفقَّهُ يعرفُ حدودَ حالِهِ خوفًا، وحذرًا، وطمعًا في رضا الله

دلالةُ حذفِ المفعولِ بهِ من الفعلِ ﴿يَحْذَرُونَ﴾:

آثرَ النَّظمُ الكريمُ في قوله جلَّ شأنُه: ﴿لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ أن يأتيَ بالحَذَرِ مطلقًا، فحذفَ المفعولَ بهِ، "للتَّعميم، أي: يحذرونَ ما يُحذَرُ، وهو فعلُ المحَرَّمات وتركُ الواجبات"[4]، فإذا تحلَّى المرءُ بالحَذَرِ؛ فإنَّهُ سَيَحْذَرُ ما بلَّغه المنذِرون، فيكونُ حَذِرًا من الإخلالِ بأيِّ شيءٍ، والعبثِ بأيِّ حُكْمٍ ثَبَتَ في الشَّرعِ، وفي إعمامهِ مزيدُ تحوُّطٍ وخَشيةٍ.

حذْفُ المفعولِ به إعمامٌ للمحذورِ منه تحوُّطًا

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/62.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/48.
(3) القاسميّ، محاسن التّأويل: 5/529.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/62.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلۡكُفَّارِ وَلۡيَجِدُواْ فِيكُمۡ غِلۡظَةٗۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ ١٢٣﴾ [التَّوبة: 123]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

المناسبةُ بين نُهوضِ ثُلّةٍ للفقهِ والبلاغِ، وبين مواجهةِ المُعتدِين بكلِّ حزمٍ وعزمٍ وقوّةٍ

لَمّا حضَّ تعالى على التَّفقُّهِ في الدِّين، وحرَّضَ على رِحلةِ طائفةٍ منَ المؤمنينَ فيه، أمرَ تعالى المؤمنين كافَّةً بالتَّصدّي لمن يَليهم منَ الكفّارِ، فجمعَ منَ الجهادِ جهادَ الحُجَّةِ للإقناع، وجهادَ المعركةِ للدّفاعِ[1]، وهذه المناسبةُ ظاهرةٌ على قولِ مَن يَقولُ في الآيةِ السّابقةِ، بأنَّها الفقهُ في الدِّين، وعلى القَوْلِ بأنَّ معنَى ﴿لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ﴾ أي: طلبُ الفقْهِ في مواضعِ المُجاهدةِ، باكتسابِ الإيمانِ وعملِ الصّالحاتِ ورُؤيةِ نصْرِ اللّه تعالى، وتأْييدِه للمؤمنين في ساحاتِ الوغَى؛ فإنَّ المناسبةَ بين الآيتَين، هي بيانُ أنَّه ليس على المُؤمنين أن ينفِروا كافَّةً في سبيل اللّه تعالى، بل عليهم أن ينفِروا طوائفَ مُتناوبةً، فإذا نفروا كان عليهم قتالُ الكافرين الأقربَ فالأقربَ، وفي هذا بيانٌ لأهميّة التّصَدّي للخطرِ المُحدقِ، والانتباهِ إلى التّهديد القريبِ، من باب مُراعاة الأَوْلويّةِ، وتحصينِ الثّغورِ والأطرافِ، والامتناعِ عنِ الهجوم المُباغِتِ الّذي يَستأصلُ الشّأفةَ، ويجعلُ الدّيارَ بلاقعَ.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَلُونَكُم﴾: ولي: الواوُ واللّامُ والياء: أصلٌ صحيحٌ يدلُّ على قُرْب، من ذلك الوَلْيُ: القربُ، يُقال: تباعدَ بعد وَلْيٍ، أي: قُرْب، وجلسَ ممّا يَليني، أي: يُقاربُني[2]، والوَلاءُ والتَّوالي: أنْ يحصُلَ

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/527، والبقاعي، نظم الدُّرر: 9/49.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ولي).

شيئانِ فصاعدًا حصولًا ليس بينَهما ما ليس منهما، ويُستعارُ ذلكَ للقُربِ من حيث المكانُ، ومن حيث النِّسبةُ، ومن حيث الدِّينُ، ومن حيثُ الصَّداقةُ والنُّصرةُ والاعْتقادُ، ويُقال: وَليَ الشَّيءُ الشَّيءَ، وأَوْلَيْتُ الشَّيءَ شيئًا آخَر، أي: جعلتُه يَليه[1]، ومعنى قوله تعالى: ﴿يَلُونَكُم﴾ أي: منكم[2].

2) ﴿وَلْيَجِدُواْ﴾: الواوُ والجيمُ والدّال، يدلُّ على أصلٍ واحدٍ، وهو الشَّيءُ يلْفيه[3]، ويأتي هذا الأصلُ على معانٍ، وقد فرَّقوا بينها بمصادرها، فقالوا: وَجَدَ زيدٌ، أي: صار غنيًّا، وُجدانًا وجِدَةً، وقد حُكِيَ فيه الوَجْدُ والوِجدُ والوُجدُ، ووَجَدَ الضالةَ وُجدانًا ووُجودًا، ووَجَد عليه السلطانُ، أي: غَضِب، وَجْدًا ومَوْجدةً. ووَجَدتُ زيدًا عالمًا، أي: ظننتُه، أي: علمتُه وَجْدًا، ووَجَدَ فلانٌ بفلانةٍ وَجْدًا، أي: أحبَّها[4]، والمعنى المقصودُ في قوله تعالى: ﴿وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً﴾: ولْيروْا منكم مكابدةً[5]. وشِدَّةً.

3) ﴿غِلْظَةً﴾: غَلُظَ: يَغلُظُ، وغَلَظَ: يَغلِظُ، كَكرُمَ وضَرَبَ، فهو غَليظٌ وغُلاظٌ، والغَلْظُ: الأرضُ الخَشِنَةُ[6]، والغِلْظَةُ: ضدُّ الرِّقَّة، ويُقالُ: غِلْظَةٌ وغُلْظَةٌ، وأصلُه أنْ يُستعملَ في الأجسام، كما في عِظَمِ الجِرْم وتجسُّمه مع صَلابة، ويلزمُه الشِّدَّةُ والقوَّةُ والحِدَّة، كغَلْظِ الأرض، والثَّوبِ الغليظ، لكن قد يُستعارُ للمعاني كالكبيرِ والكثير، كما في قولِه تعالى: ﴿عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [لقمان: 24][7]، ومعنى قوله تعالى: ﴿وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً﴾، أي: خُشونةً وشِدَّةً وصبرًا[8].

المَعْنى الإِجْماليُّ:

أمرَ اللّه تعالى المؤمنينَ في هذه الآية أن يُقاتِلوا مَن قاتلَهم منَ الكُفّار، مَن قرُبَ دارًا، قبل مَن بعُدتْ ديارُه، وذلك لتنزيل فقْهِ الأَولويّات في فقْهِ الحربْ، وأن يكونَ القتالُ قائمًا

(1) الرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (ولي).
(2) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 2/222.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (وجد).
(4) السّمين الحلبيّ، عمدة الحّفاظ: (وجد).
(5) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 2/222، والشَّوكانيّ، فتح القدير: 2/588.
(6) الفيروزباديّ، القاموس المحيط: (غلظ).
(7) الرّاغب، المفردات، والسَّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (غلظ).
(8) الواحديّ، الوسيط: 2/535، والبغويّ، معالم التَّنزيل: 4/114.

الدّعوةُ إلى مُجابهةِ حروبِ السّطْوِ والاحتلالِ، بقوّة في النّزال، وتَقْوًى لذي الجلال

على فقهٍ ضامنٍ لمسيرِ العملِ، ضِمن فقهِ السُّنن، والعملِ بتوجيهات الشَّرع وإرشاداتِه، وقد أرشدتِ الآيةُ أن يجدَ الكفّارُ منَ المؤمنين مُقابلَ العُدوان والغِلظة، غِلظَةً مُماثلةً في قتالِهم لهم وكما يَدين الفتَى يُدانُ وحزمًا مع من يتجاوزُ حدودَه، ويَعتَدي على الحُرمات، ويُريدُ أن يَدوسَ الكرامةَ، ويأخذَ مُقدّرات الأمّةِ بالمغالبةِ، لا بدّ من صَدِّه وردِّه مذمومًا مدحورًا، وعليه فإنَّ المؤمنَ الكاملَ هو الَّذي يكونُ رفيقًا بأخيهِ المؤمن، حازمًا مع عَدوِّه المُعتَدي، ممّا يدلّ عليه قولُه تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ﴾ [الفتح: 29]، وذلك لما تَجلبُه الرَّحمةُ مع الكافرِ المُعانِد، من مفاسدَ على الأمّة المُسلمةِ، واعْلموا أيُّها المؤمنون أنَّ اللّه معكم إذا اتَّقيتُموهُ وأَطَعتُموه[1]، فإنَّ التَّقوى هي ركنُ النَّصر وأصلُه الأصيلُ، وهي غاية العملِ وركنُه القويمُ.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

نُكتةُ النِّداءِ بأداةِ البعيد ﴿يَـٰٓأَيُّهَا﴾:

تكريسُ السّياقِ لتحفيزِ أهلِ الإيمان، للذّبِّ عنِ الدّين والعِرْض والكيانِ

جاءَ النِّداءُ للبعيدِ في قولِه تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ لِما للمؤمنينَ من مكانةٍ عاليةٍ عند اللّه، ولِما للنّهوضِ الواعي في سبيل اللّه من مكانةٍ مَرْموقةٍ عند اللّه ﷻ، وباعتبارِ هذين الأمرَيْن كانت هذه الآيةُ المُصدَّرةُ بالنِّداءِ، كالوصيَّةِ للمؤمنينَ بالاسْتمرارِ على غَزْوِ بلادِ الكفرِ، المجاورةِ لبلادِ الإسلام، لِمواجهةِ هَجَماتِهم المُتكرّرة، وتحفُّزِهمُ الدّائم لكسر شَوكةِ الإسلام، والقضاءِ المُبرم على الدّعوة إلى اللّه، الّتي كان الرّسولُ ﷺ يقودُها، بكلّ حِكمةٍ وعدْلٍ وإنصافٍ، والنّداء في هذا المجال، أكثرُ الأساليب مُلاءَمةً لِلفْتِ الانتباه، ودفْعِ الهِمم لإدراكِ مدى أهميّةِ الاضطلاعِ بهذه المَهمّةِ الجليلة التّي تُحقّقُ

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 2/365.

مرادَ اللّه، وتَضمنُ تطبيقَ الأحكام المُنزّلةِ في القرآن، حمايةً لحمى البشرية والإنسانية والدّين.

بَلاغةُ الإبْهامِ والتَّنبيهِ: (أيُّها):

التّوطئةُ اللّفظيَّةُ لمضمون النِّداءِ بعْدَ الأداة، تنبيهٌ على أهميّةِ الخطابِ بعْدَها

استعملَ (أيّ) في قولِه تعالى: (أيُّها) وهي مبهمةٌ يُتوصَّلُ بها إلى نداء المعرفةِ، كما استُعملتِ الهاءُ فيها لتنبيهِ المنادَى، وهم الّذين آمنوا لِما سيُلْقَى إليهم من أمرٍ بالقتال؛ ليكونوا على كاملِ الاسْتعدادِ للالْتزام به وتنفيذِه، فهمُ المقصودون بالنِّداءِ، فمجيءُ (أيُّها) توطئةٌ لفظيَّةٌ لما بعدَها منَ النِّداءِ، قُصِد بها التَّنبيهُ على مضمونِ الخطابِ، وهو الأمرُ بالقتالِ المفروضِ على الأمّة، وهو في هذه الآية يُحدّدُ من يُناديهم ويُنبّههم إلى ضرورة اليَقظة، لكلّ مُريدِ حرْبٍ، أو موقدِ فتنةٍ، أو منذرٍ بخرابٍ، للتَّهيئةِ المُسبَقةِ، والمُبادرةِ العاجلةِ، والتّدخّلِ السّريعِ، لحماية الدّار منَ النّار والدّمارِ، وذلك ما يتطلّبُه واقعُ المدافعة، بين الحقِّ والباطلِ، وبين الكفر والإيمانِ، على مدار الزّمانِ.

سِرُّ اسْتعمالِ الاسْمِ الموصولِ الجمعيِّ ﴿ٱلَّذِينَ﴾:

تعظيمُ شأنِ المُستحِقّين وصْفَ الإيمان، وإعلاءُ شأنِهم عند الله تعالى

قولُه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ﴾: جاءَ اسْتعمالُ الاسْمِ الموصول الجمعيِّ ﴿ٱلَّذِينَ﴾، في الآية الكريمة؛ للدّلالةِ على أنَّ المعنيَّ بالنِّداءِ الّذين استقرَّ الإيمانُ في قلوبِهم، وهم على استعدادٍ للتّضحيّةِ بأموالِهم وأنفسِهم في سبيل اللّه تعالى، وهذا السِّرُّ الّذي لأجْله لم يقلْ: (يا أيّها المؤمنون قاتلوا)، فإنَّ الإيمانَ هو ركنُ القتالِ، ويجبُ أن يكون إيمانُ صاحبِه راسخًا، ومعلومٌ أنّ المشاعرَ الإيمانيّةَ، تلعبُ دورًا كبيرًا في تحريك الهِمم، وشحْذِ العزائم، وتحريكِ الكوامِن، وإلهابِ المَشاعر، باعتبار النّهوضِ للدّفاع عنِ القِيم العُليا، والمُنافحةِ عن كيان الأمّةِ، وحمايةِ وجودِها الحضاريِّ، من أيّ اكتساحٍ غاشم، أوِ اسْتئصالٍ ظالمٍ، فتنهضُ جموعُ المؤمنين، عند المُلمّة، وتجتمعُ

الجهودُ، لحماية الحمَى، ممّن رمى إذْ رمى، وبذلك يتحقّق النّصرُ، وتضمنُ الأمّةُ وقايتَها منَ العدوان، في كلّ عصرٍ وأوان.

وفيه التّنبيهُ إلى ضرورةِ إجابةِ الدّاعي، نظرًا لدخولِهم في عَقدِ الإيمانِ الَّذي يدعوهم، ويوجِبُ عليهمُ الاسْتجابةَ، وجيء به جمعًا لبيانِ أنَّ التَّعاونَ بين المؤمنين في شأنِ القتالِ واجبٌ، وأنَّه لا يجوزُ لمؤمنٍ أن يتركَ أخاه المؤمنَ في قتالِ الأعداءِ، وهو ناظرٌ إليه، والآخرُ مُنتظرٌ منه النُّصرةَ، وتظهرُ فائدةُ استعمال الاسْمِ الموصول في أمرين: الأوّل: أنَّ الخطابَ موَجَّهٌ إلى كُلِّ مَنْ تحقّق فيه وصْفُ الإيمان، فأصبح هذا الوصْفُ ملازمًا له. والثّاني: تفخيمُ شأن هؤلاء الّذين استحقّوا وصْفَ الإيمان، وإعلاءُ شأنِهم.

دَلالةُ الإتيانِ بوصْفِ (الإيمان):

آثر النَّظْمُ وصْفَ الإيمانِ دونَ الإسلامِ في صدرِ هذه الآية؛ للدّلالةِ على أنَّ هذا النِّداءَ وما تضمَّنَه منَ الجهادِ في سبيلِ اللّه لا يَصلُحُ له إلّا مَنِ اتَّصفَ بهذه الصِّفةِ العظيمةِ، ولاسْتنهاضِ هِمَمِ هؤلاءِ المؤمنينَ للقيامِ بهذه الفريضةِ الرَّبّانيَّةِ، ولبيانِ أنَّ الإيمانَ هو المطلوبُ في قتالِ الكافرين، وما سوى ذلك من صفاتٍ يَستولي عليها القلبُ تِجاهَ الأعداء، فإنَّ اللّه تعالى يريدُ من أوليائه القتالَ نصرةً للدِّين، لا للنَّفسِ، أوِ المال، أوِ الانتقامِ، بل لتكونَ كلمةُ اللّه تعالى هي العُليا، وقدِ استأصلَ الإسلامُ معانيَ الجاهليّةِ، وقضى على دعاوَى العَنجهيّةِ، وأذابَ العصبيّاتِ المقيتةَ، والثّاراتِ المُميتةَ، وجمعَ النّاسَ على كلمةٍ سواءَ، في بَوتقةٍ واحدةٍ، شعارُها كلمةُ التّوحيد، ودِثارُها توحيدُ الكلمة، فإذا كان الإيمانُ هو الدّافعُ للهبِّ إلى الدّفاع عنِ الدّين والوجودِ، وكان الإسلامُ هو الضّابطُ للمواجهاتِ الحربيّةِ مع المعتدين، كان المُنطلَقُ عقائديًّا، مسلكُه الشّهادةُ، ووسيلتُه التّضحيّةُ في سبيل اللّه، دونَ ظُلمٍ مُفسدٍ، ولا جورٍ مُفنّدٍ، وفي هذا المضمار

إذا ضاعَ الإيمانُ، فلا تمكينَ ولا أمانَ

ذكرَ الإيمانَ؛ لاستيعابِه معانيَ المواجهةِ والتّضحيّةِ والعقيدةِ، ولم يذكُرِ الإسلامَ؛ لأنّه انعكاسٌ له، وتجسيدٌ عمليٌّ لفحواهُ.

نُكتةُ التَّعبيرِ بالفعلِ الماضي ﴿ءَامَنُواْ﴾:

تحقُّقُ الإيمانِ في قلوبِ المخاطَبين، مسلكٌ للقوّةِ والحصانةِ

وردَ التَّعبيرُ بالفعلِ الماضي ﴿ءَامَنُواْ﴾ للدّلالةِ على تحقُّقِ الإيمانِ في قلوبِهم، وتمكُّنِه من نفوسِهم وحياتِهم فأصبحوا أهلًا لمخاطبتِهم بالإيمانِ، وأمرِهم بالجهادِ في سبيلِ اللّه، وفيه إيماءٌ إلى أنَّ الإيمانَ يجبُ أن يستقرَّ في نفوسِ مَن يريدُ القتالَ في سبيلِ اللّه تعالى، فهذه فريضةٌ عظيمةٌ لا يستطيعُها إلّا الثّابتون في عقيدتِهم، الأصلابُ في إرادتِهم، الطّامعون في جنَّةِ النَّعيمِ عن بصرٍ وبصيرةٍ، وفقهٍ في الدِّين.

دَلالةُ تَوجيهِ الخطابِ بالأمرِ للَّذين آمنوا، دونَ ذكْرِ الرّسولِ الأكرمِ:

ردُّ عُدوانِ أعداءِ اللهِ، مسؤوليَّةُ المؤمنين قاطبةً

وُجِّه الخطابُ في قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَـٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ للَّذين آمنوا دونَ النَّبيِّ ﷺ؛ ليكونَ عهدًا يَفي به كلُّ مؤمنٍ إلى يوم القيامة، وقد أُمِر ﷺ بجهادِهم، كما في قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَـٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٣﴾﴾ [التّوبة: 73]، وذلك أنَّ خطابَه ﷺ جاء مأمورًا بأن يُقاتلَ الكفّارَ والمنافقين، وهؤلاء هم أعداءُ الدّاخل، والأعداءُ المحيطون به ﷺ، أمّا الخطابُ في هذه الآية للمؤمنين، فهو باعتبارِ قتالِ الأعداءِ الأبْعدِ، وهو وإن عبَّر عنهم بقوله: ﴿يَلُونَكُم﴾ إلّا أنَّ المرادَ أن يكونَ القتالُ مستمرًّا بحيث يصلُ الأبعدَ، لا أن يتوقَّف على الّذين يَلون المؤمنين، فهذا غيرُ مراد، وفيه إشارةٌ إلى أنّ الصّراعَ القدريَّ اللّامحدودَ، بين ثُلّة الإيمانِ، وعُصبة الكفرِ، هو صراعٌ ستشهدُه فلولُ المسلمين وأجيالُهم، عبْرَ الزّمان والمكانِ، فلا يَخلو منه عصرٌ ولا مصرٌ، وقد كانتِ السّيرةُ النّبويّةُ في مرحلة التّأسيس، وتنزُّلِ الوحي، قد شهدتْ معالمَ للنّموذجِ الرّاقي للحربِ النّبيلةِ،

والمواجهة الشّريفةِ، الّتي قادها النّبيُّ المُلهمُ المعصومُ، والّتي رسمتِ الخُطوطَ الكبرى، وأرسَتِ القوانينَ الإنسانيّةَ السّاميةَ، لفقْهِ الحرب، وضوابطِ القتال، وأحكام الأسْرَى، وقواعدِ النّصْر، وحيثيّاتِ الهزيمة، ممّا تزخرُ به كتبُ الفقه والتّفسيرِ، ومصنّفاتُ العلماء في السّياسةِ الشّرعيّةِ والمقاصدِ والأصولِ. كما أنّ في مخاطبة المؤمنين دون الرّسول الأكرم ﷺ، تنبيهًا لجماعةِ المؤمنينَ على المسؤوليَّةِ المُلقاةِ على عاتقِهم، ابتداءً بعهدِ الإيمانِ الَّذي التزموهُ بقتالِ أعداءِ الإيمان، وفيه كذلك إيماءٌ إلى أنَّ النَّبيَّ ﷺ لا يَغزو بعدَ ذلك، وأنَّ أجلَه الشَّريفَ ﷺ قدِ اقْترب[1].

دَلالةُ مَجيء فعلِ الأمرِ ﴿قَٰتِلُواْ﴾، بعدَ النِّداءِ ﴿يَٰٓأَيُّهَا﴾:

قولُه تعالى: ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلۡكُفَّارِ﴾، يغلبُ أن يأتيَ بعدَ النِّداءِ أمرٌ أو نَهي، فهو إمّا أمرٌ بخيرٍ أو نهيٌ عن شرٍّ، وهنا جاءَ الأمرُ بعدَ النِّداءِ، بقتالِ الكافرين، وهو أمرٌ جِدٌّ خطير؛ لما فيه من مصلحةٍ كبيرةٍ للأمَّة، فلا بدَّ منَ التزامِ القيامِ به، وهو إنشاءٌ بعد إنشاء، فقد نادى ابتداءً فوقعَ الانتباهُ، وتهيَّأتِ النُّفوسُ لسماعِ ما سيُلقَى، ثمَّ أتى الأمرُ ليقعَ الخطابُ في القلوبِ راسخًا مقبولًا، وهذا أقوى منَ الابتداءِ بالأمرِ مباشرةً، فالقرآن يُعلِّمنا تهْيئةَ نفوس المخاطَبين، لاسيَّما في الموضوعاتِ العظيمةِ.

التَّهيئةُ بالنِّداءِ لفعل الأمرِ، ترسيخٌ للمطلوبِ، وتثبيتٌ للمرغوب

سِرُّ اخْتيارِ الفعل ﴿قَٰتِلُواْ﴾:

قولُه تعالى: ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلۡكُفَّارِ﴾، كلمةُ الجهاد واسعةُ الدَّلالةِ، ويدخلُ فيها الجهادُ بالسَّيفِ والجهادُ بالنَّفس، واختيرَ لفظُ القتال، في قوله تعالى: ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم﴾، دون أن يقول: (جاهدوا الذين يلونكم)؛ للنَّصِّ على أنَّ المرادَ هو القتالُ بأداةِ الحرب، وأنَّ اللّه ﷻ يُريدُ من عبادِه القتالَ المُفضي إلى إعلاءِ كلمتِه،

القتالُ رمزٌ لمُقارَعةِ العدوِّ الصّائلِ، ودفعٌ لشرّه المُتوقَّعِ والحاصلِ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/63.

ولذلك قال: ﴿وَلۡيَجِدُواْ فِيكُمۡ غِلۡظَةٗۚ﴾؛ كي لا تقبلَ الآيةُ احتمالًا لمتأوِّلٍ، وهذا القتالُ هو نوعٌ من أنواعِ الجهادِ في سبيلِ الله، وإنْ كانَ أكثرَ ما يُطلقُ الجهادُ عليه، هو القتالُ بالسّيف في المعارك، لكنّ مفهومَ هذا المُصطلحِ السّامي، لا يَعني التّحفّزَ للعُدوان، ولا الاعتداءَ الهمجيَّ على الإنسان، ولا استعراضَ القوّة من غير داعٍ ولا ضرورةٍ، ولكنّه صدٌّ للهجَماتِ الشّرسةِ، وإحباطٌ للمؤامراتِ الدّنسةِ، وتحصينٌ للحدود، ومنعٌ للفتن، ما ظهرَ منها وما بطنَ، وإظهارٌ لقوّة الإسلام، وهيبةِ الأمّة، في الإعدادِ والإمدادِ، والنّأيُ عنِ الظّلْم والعُدوان والفسادِ، ولا شكّ أنّ الحرب إذا شمّرتْ عن ساقٍ، وحميَ الوطيسُ، كان مُقتضى الحال، بحاجة إلى القتال، من أجل الدّفاعِ عنِ النّفس، والمحافظةِ على الدّين، وحمايةِ الوطن، والمُنافحةِ عنِ الهويَّة، وصوْنِ الإنِّيَّةِ والخُصوصيّةِ، وذلك هو مُفادُ التّعبير، في ظلّ فلسفةِ المواجهة، ومَقصديّةِ الجهاد الشّريفِ، والنّزال النّظيفِ، المَنوطِ بالأجر والمثوبةِ، والآيلِ إلى مقامات الرّضوانِ، في مرابعِ الجنانِ. وعليه فالجهادُ في سبيلِ الله يكونُ باليدِ وباللِّسانِ وبالقلب، والجهادُ بمفهومِه الواسعِ، هو جهادُ النَّفْسِ بكَبْحِ جماحِها عنِ اتِّباعِ الشَّهواتِ والشُّبُهات، وكُلِّ ما يُقوِّضُ دعائمَ الإيمانِ في القلب، أو يُضعِفُها[1].

فائِدةُ اسْتعمالِ الاسْمِ الموصولِ ﴿ٱلَّذِينَ﴾:

قولُه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلۡكُفَّارِ﴾، وفيه جاءَ اسْتعمالُ الاسْم الموصولِ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ في الآية الكريمة؛ لتأكيدِ هذه الصِّفة وتحقُّقِها في قتالِ الكفّار، فيجبُ أنْ تكونَ صفتُهم أنَّهم ممَّن يَلي المسلمين، الأَقْربَ فالأَقربَ لديارِ المسلمين، فكلَّما اسْتقرَّ بلدٌ للإسلام، وكان تجاورُه بلادُ كُفرٍ، كانَ حقًّا على المسلمينَ غزوُ البلادِ

كلّما قرُبَ الكافرُ المحارِبُ منَ الدّيارِ، كان صَدُّه يَقتضي اليقظةَ والبِدارَ

(1) ابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 3/59.

المُجاورةِ، ولذلك ابْتدأَ الخلفاءُ بفتحِ الشّام، ثمَّ العراقِ، ثمَّ فارسَ، ثمَّ انثنَوا إلى مصرَ، ثمَّ إلى إفريقيا، ثمَّ الأَنْدَلُس[1]، فنُكتةُ الاسم الموصولِ، تأكيدُ أنَّهم همُ الّذين يَلون المؤمنين منَ الكفّار، وأنَّهم يَقِفون في وجه دَعوةِ الحقِّ ﷻ.

دَلالةُ اسْتعمالِ ﴿يَلُونَكُم﴾ دون مُرادِفاتِها:

قُرْبُ الكفّارِ المباشرُ المتّصلُ خطرٌ قريبٌ، وتهديدٌ مُريبٌ

كلمةُ ﴿يَلُونَكُم﴾ تعني الأَدْنَى فالأَدْنَى، أو الأَقربَ فالأقرب، فقد أمرَ اللّه تعالى المؤمنين أن يُقاتلَ كلُّ فريقٍ منهم الجنسَ الّذي يُصاقِبهُ منَ الكَفرَة، وأمّا إذا مالَ العدوُّ إلى صُقعٍ من أصقاعِ المسلمينَ، فوجبَ على منِ اتَّصلَ به منَ المسلمينَ، كفايةُ عدوِّ ذلك الصُّقع، وإن بعُدَتِ الدّارُ، ونَأَتِ البلادُ فـ﴿يَلُونَكُم﴾ تدلُّ على القُربِ المكانيِّ الحقيقيِّ فحَسْب، ممّا لا يُسعِفُ به الفعلُ (يقربونَكم) أو غيرُه منَ المرادفات، فقد يكونُ الشَّيءُ قريبًا ولكنَّ قُربَه غيرُ لَصيقٍ؛ وقد يكونُ قربًا معنويًّا أو مجازيًّا[2]، فاختيارُ هذا اللَّفظِ لبيانِ أنَّ القُربَ المقصودَ هو قربٌ شديدٌ متّصلٌ بما بعدَه، ولهذا أُتي بمُفردةِ الوَلْي، أي: يلونكم وَلْيًا متَّصلًا لا انقطاعَ له، ويُؤخذُ منه أنَّ قتالَ الكافرين لا يتوقّفُ عند حدٍّ، بل هو مستمرٌّ ما دام الإيمانُ والكفرُ موجودَيْن، ولا يُفهمُ منه أنَّ القتال يكونُ للكافرين القريبين فحسب؛ ذلك أنّ الاعتداءَ على ديار المسلمين والكيدَ لهم، والتّآمرَ عليهم، قد يكونُ من الموالي للدّيار، وقد يكونُ منَ النّائي البعيدِ عنها، فالغايةُ صدُّ الخطر مهما كان، ومن أيّ جهةٍ استبانَ، بغضّ النّظرِ عنِ البُعد والقُربِ، ولكنّه ذكرَ ﴿ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلۡكُفَّارِ﴾، باعتبار أنّ خطرَهم أقربُ، وأنّ تآمرَهم أظهرُ، وقد يُؤتمنُ القريبُ المُحاذي، وقد قيل في الأمثال: (مِن مأمنِه يُؤتَى الحَذِرُ).

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/527، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/63.

(2) الرّاغب، المفردات: (ولي)، وابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 3/97، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السليم: 2/618.

نُكتةُ التَّعبيرِ بصيغةِ المضارعِ: ﴿يَلُونَكُم﴾:

بيانُ استمرارِ الصّراعِ بين الحقّ والباطلِ، وبُروزِ الخطرِ من الأَدْنَى فالأَدْنَى

الفعلُ المضارعُ يُفيدُ التَّجدُّدَ والاسْتمرارَ، وفي قولِه تعالى: ﴿يَلُونَكُم﴾ تعبيرٌ عن هذا الاسْتمرار، وهذا هو الواجبُ في قتالِ الكافرينَ: أنْ يكونَ مُستمرًّا دون توقُّفٍ مع مَنْ يَلونَ المؤمنينَ في قُربِهم فيحرِصُ المؤمنونَ على قتالِ الأَقْربِ لهم منَ الكفّارِ فالأَقْرب، فيقاتلُ المسلمونَ مَنْ يُجاورونَهم في المكانِ لضمانِ اسْتمراريَّة نشْرِ الرِّسالةِ الإسلاميَّةِ ممَّن يَلي ديارَ الإسلام أوَّلًا بأوَّلٍ، ودَفْعِ غائلةِ اعْتداءِ الكفّارِ على تلكَ الدِّيار.

دَلالةُ الحرفِ ﴿مِّنَ﴾:

يُراعَى مع المحاربين، التزامُ أو عدمُ التزامِ الكفّارِ بحُسنِ الجوارِ

قولُه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلۡكُفَّارِ﴾، وفيه أنّ معنى ﴿مِّنَ﴾، في سياق الآية الكريمة، بيانيَّةٌ حاليَّةٌ، أي: حالَ كونِ الَّذين يَلونَكم كافرين[1].

سِرُّ إيْثارِ صيغةِ الجمعِ: ﴿ٱلۡكُفَّارِ﴾:

يغلبُ استعمالُ (الكفّار) في سِياق القتالِ، واستعمالُ (الكافرين) فيه وفي غيرِه

آثَرَتِ الآيةُ اختيارَ صيغة ﴿ٱلۡكُفَّارِ﴾ بدلًا من (الكافرين)؛ لأنَّ المرادَ في السِّياق هو ذواتُ الكافرين، فالكُفّارُ جمعُ تكسير، والكافرون جمعُ مذكّرٍ سالمٌ، فالثّاني خاصٌّ بجمعِ الصِّفاتِ المتعلِّقةِ بالمذكَّرِ السّالمِ، وفي الغالبِ يُرادُ به الحَدَثُ، وجمعُ التَّكسير يُرادُ به الذَّواتُ، ولذلكَ كانَ الكُفّارُ بذواتِهم مُعجبينَ بالدُّنيا راكنين إليها، حيث ستروا حقَّ اللّه عليهم واستهانوا به، ولذلك كانت صيغةُ ﴿ٱلۡكُفَّارِ﴾ صيغةَ مبالغةٍ، لأشخاصٍ اتَّصفوا بهذه الصِّفاتِ ومَرَدوا عليها، وليس الأمرُ بالقتال، تدخّلًا في خصوصيّاتِهم العقديّة، ولكنّه مراعاةٌ لواقع الصّراعِ السَّننيّ الكَونيِّ، مع الكفر، الّذي لا يهنأُ له بالٌ، حتّى يأتيَ على بُنيان الإسلام منَ القواعد، فلا غرْوَ أن

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 4/196.

ندافعَ عن حقّنا في الوجود والأمانِ، والتّعايُشِ مع غيرنا في احترام وسلامٍ، فإن آثروا غيرَ ذلك، دِنّاهم كما دانوا. وعليه فلفظُ الكُفّارِ يُستعمَلُ لذواتِ المقاتلينَ المُبايعينَ في الكفرِ، على صيغةِ (فُعّال)، والكافرون صفةٌ أقربُ للفِعليَّة والحَدَث، والكفّارُ صيغةُ مبالغةٍ تدلُّ على كثرةِ القيامِ بالكفر، وتدلُّ على الذَّواتِ الَّذين هم يقاتلون، فهؤلاء جعلوا الكفرَ مِهنةً لمحاربةِ المسلمين[1].

دَلالةُ التَّقْييدِ في المكان، بقتالِ ذَوي الخطرِ المُحدِقِ:

البَداءةُ بقتالِ القَريبين منَ المُحاربين قبْلَ البَعيدين، مُراعاةٌ للمصلحةِ الشَّرعيَّةِ

في قولِه تعالى: ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلۡكُفَّارِ﴾، تَقْييدُ قتالِ الكفّارِ الَّذين يَلونَ المؤمنينَ في المكان، أي: الكفّارُ الأَقْربُ في مجاورتِهم لبلادِ الإسلام، ذلك أنّ الخطرَ بإشعال الحروب وإدارتِها، تجعلُ الدّارَ قاعًا صفْصفًا، وتَسحقُ معالمَ الحياة، فلا تُبْقي فيها ولا تَذرُ، فالبدءُ بالأقرب، وقايةٌ من هَجَماتِ الأبْعدِ وشراستِه، والمرادُ هنا أنْ لا يتجاوزَ المؤمنون في قتالِهم لبلادِ الكفرِ الأبعدَ، ويترُكوا الأَقْربَ؛ لأنَّهم عند ذلكَ لا يأمنونَ غائلةَ القريبينَ منَ الكفّارِ في تسلُّطِهم على ديارِ المؤمنين، ففي قتالِ الأَبْعدِ تعريضٌ لتدارُكِ المسلمين إلى الفتنةِ، فإنْ كانوا ضعفاءَ كانَ الاسْتيلاءُ عليهم أسهلَ، وإن كانوا أقوياءَ كانَ تعرُّضُهم لدارِ الإسلامِ أشدَّ، ولأنَّ المعرفةَ بمن يَلي آكدُ منها بمن بَعُدَ، للوقوفِ على كيفيَّةِ أحوالِهم وعَدَدِهم وعُدَدِهم، فترجَّحتِ البَداءةُ بقولِه تعالى: ﴿يَلُونَكُم مِّنَ ٱلۡكُفَّارِ﴾، بقتالِ من يَلي على قتالِ من بَعُد[2]، ويتأكَّدُ ذلك ويَقوَى في قتال الّذين اعتدَوا على ديارِ الإسلام، واستباحوا بيْضتَهم، فقتالُهم أوجبُ، وإخراجُهم آكدُ، والتّقصيرُ في ذلك، دليلُ ضعفِ الإيمانِ، وهشاشةِ روحِ الجهادِ، وخَوَرِ العزيمة، وذهابِ الهِمَّةِ.

(1) الرّاغب، المفردات: (كفر).

(2) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 2/221 - 222، وأبو حيّان، البحر المحيط: 527 - 528.

دَلالةُ اسْتعمال حرفِ الواوِ العاطفةِ ﴿وَلۡيَجِدُواْ﴾:

الجمعُ بين كيفيَّةِ التّصدّي للعدوّ، ووجوبِه على المؤمنين المُلْزَمين بذلك

الواوُ في قولِه تعالى: ﴿وَلۡيَجِدُواْ﴾ عاطفةٌ لجُملتِها الآمرةِ بالغِلظةِ على الكفّارِ، على الأمرِ السّابق في قولِه تعالى: ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم﴾، ونظيرُه قولُه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡۚ﴾ [التّوبة: 73][1]، وهي تأكيدٌ لوجوبِ قتالِ الكُفّارِ، بالخشونةِ والبأسِ الشَّديد، فهي عطفُ إنشاءٍ على إنشاءٍ، دلَّ الأوَّلُ على جوهرِ الأمرِ بقتال الكفّار، ودلَّ الآخرُ على كيفيَّة القتالِ، فهي من عطفِ الكيفيَّة على أصلِ العملِ، فالقتالُ بهذه الكيفيَّة واجبٌ، لا مناصَ منه، وأخْذُ الأمرِ بالجِديّة القُصوى، والقوّةِ الضّاربةِ، والبأس الشّديدِ، من مُتطلّبات الحرب الضّروسِ، فلا يصمدُ فيها إلّا من كان ذا قوّةٍ وذا بأسٍ شديد، يُقارعُ الأقرانَ، ويغالبُ الزّمانَ، ويخوضُ غِمار الموتِ، ويَقحَمُ الغيبَ بلا فوتٍ، ويدفعُ كلَّ ظلّمٍ مُريع، ويَزيحُ كلَّ باطلٍ فظيع.

سِرُّ إيثارِ صيغةِ الأمرِ باللّامِ والفعلِ المضارعِ ﴿وَلۡيَجِدُواْ﴾:

تقويةُ المعنَى والمُبالغةُ في تحقيقِ الغِلْظةِ على من يَستحقُّها

آثَرَ النَّظْمُ الكريم استعمالَ صيغةِ الأمرِ باللّامِ، والفعلِ المضارعِ، في قولِه تعالى: ﴿وَلۡيَجِدُواْ﴾، دونَ أنْ تكونَ على شاكلةِ ما عُطفتْ عليه في قولِه تعالى: ﴿قَٰتِلُواْ﴾ فلم يقل: (واغْلِظوا عليهم)، وذلك لأمرين: أحدُهما: لِما في ذلك من زيادةِ المعنى، فالقاعدةُ الأغلبيَّةُ، أنَّ زيادةَ المبنى تدُلُّ على زيادةِ المعنى، حيث قالَ تعالى: ﴿وَلۡيَجِدُواْ فِيكُمۡ غِلۡظَةٗۚ﴾ ولم يختصرْ فيقول: واغلِظوا عليهم؛ ليجمعَ إلى الأمرِ بالغلظةِ، أن تكون فيهم حاضرةً، في جميع ساحات القتالِ، لا مجرَّدَ فعْلٍ عابرٍ.

الآخرُ: أنَّ إيرادَ الأمرِ على هذه الصّورةِ الواردةِ في قولِه تعالى:

(1) ابن عطيَّة، المحرّر الوجيز: 3/97، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 16/173.

﴿وَلۡيَجِدُواْ﴾ لِحَملِ المؤمنين على المبالغةِ في تحقيقِه حتَّى يذوقَ الكفّارُ تلكَ الغِلْظةَ وشدَّتَها على ذواتِهم، وتكونَ درسًا لغيرِهم ممّا يَليهم فيكفّوا عن إيذاءِ المؤمنينَ والتَّسلُّطِ على ديارِهم[1].

بَلاغةُ التَّعبيرِ بالفعلِ ﴿وَلۡيَجِدُواْ﴾:

مقابَلةُ غِلْظةِ الكافرينَ بغلظةٍ أشدَّ، إذْ لا يَفُلُّ الحديدَ إلّا الحديدُ

لَمّا كانَ الآمرُ في قولِه تعالى: ﴿وَلۡيَجِدُواْ فِيكُمۡ غِلۡظَةٗۚ﴾، هو اللّه ﷻ دلَّ على أنَّه ﷻ هو العليمُ بما عليه حالُ الكفّارِ الَّذين يَلونَ المؤمنينَ، من قوَّةِ شَكيمتِهم وتربُّصِهم بالمؤمنين، وانتهازِ الفُرصةِ تِلْوَ الفُرصةِ، لينقضّوا عليهم و يَبيدوهم ويَستولوا على أرضِهم، فأرادَ اللّه ﷻ أن يُنبِّهَ المؤمنينَ لضرورةِ الاسْتعدادِ لقتالِ أولئك الَّذين علمَ اللّه حالَهم ذاك، فأمرَهُم بالغِلْظةِ في قتالِهم وإحكامِ قَبْضتِهم عليهم، فهو أَهْيبُ في صدورِهم، وأَكَفُّ عن فُجورِهم، وأَوْفَى في هلاكِهم، وذلك الوِجْدانُ لا يتحقَّقُ إلّا إذا كانتِ الشّدّةُ، بحيث تظهرُ وتنالُ العدوَّ فيَحُسُّ بها[2].

سِرّ تقديم الجارِّ والمجرور ﴿فِيكُمۡ﴾، على قوله: ﴿غِلۡظَةٗۚ﴾:

الغِلظةُ حمايةٌ للمؤمنين منَ الاعتداءِ والتّسلُّطِ على ديارِهم

مُقتضى ظاهرِ تركيبِ الجُملةِ: (ولْيجدوا غلظةً فيكم)، لكنَّ النَّظمَ القرآنيَّ جاءَ بتقديمِ الجارِّ والمجرورِ فقالَ تعالى: ﴿وَلۡيَجِدُواْ فِيكُمۡ غِلۡظَةٗۚ﴾، حيث قدَّمَ ما حقُّه التَّأخيرُ، ونكتةُ التَّقديمِ المبالغةُ في الأمرِ بالشِّدَّة، ولتنبيهِ المؤمنينَ بضرورةِ تحقُّقِ نفوسِهم بهذه الغِلظةِ، وتَشرُّبِ قلوبِهم بها، لا تطلُّبًا للعُدوان، ولا جَوْرًا على بني الإنسان، ولكنّها دفاعٌ عنِ الكيانِ، وحمايةٌ للأوطانِ، ومقابلةٌ لِما يَبدرُ منَ الأعداء، بقوّةٍ رادعةٍ شديدةِ المِراس، تكفُّهم عنِ الجَراءةِ على الحِمى، وتمنعُ أيديَهم عنِ العبثِ والأذَى، وعليه فإنَّها الأَجْدَرُ لمقارعةِ

(1) عبد القادر شيبة الحَمَد، تفسير آيات الأحكام، ص: 142.
(2) البقاعيّ، نظمُ الدُّرر: 9/49 - 50.

غِلظتِهم بغِلظةٍ أشدَّ منها، مُهلكةٍ لها، ومُنْفِذَةٍ لأمرِ اللّه فيهم[1]؛ فإنَّ من لم يغلُظْ على أعداءِ اللّه تعالى، غَلُظوا هم عليه، وأراقوا دمَه، واستباحوا حُرمةَ أرضِه وعِرضِه، فالغِلظةُ مكانُها ساحاتُ القتال، لا الدَّعوةِ، وفي دار الحربِ، لا الأمانِ، ومع الكافرين لا المؤمنين.

بَلاغةُ الاسْتعارةِ التَّصريحيَّةِ، في لفظِ ﴿غِلْظَةً﴾:

لفظُ الغِلظة مُستعارٌ للمعاملةِ الضّارَّةِ، على سبيلِ الاسْتعارةِ التَّصريحيَّة والأصليَّةِ، ورَشَّحَ ذلك قولُه تعالى: ﴿وَلْيَجِدُواْ﴾ ليَشعرَ بها الكفّارُ أَثَرًا معقولًا في نفوسِهم، ويجدوا أثرَها كذلكَ في ذواتِهم، ويتحقَّقَ المقصودُ منَ الأمرِ بها، وذلكَ يجمعُ الجُرأةَ والصَّبرَ على القتالِ والعُنفَ في القَتْلِ والأسْر، فالقتلُ إزهاقٌ للنَّفْس، والأَسْرُ إذْلالٌ لها[2]، والاستعارةُ أبلغُ منَ الحقيقةِ، إذ في هذا اللَّفظِ منَ التَّصريحِ بالمطلوبِ ما لا يُؤدِّيه لفظُ الحقيقةِ، مع مُناسبتِه لسياقِ الأمرِ بالقتالِ، وفي اختيارِ هذا اللَّفظِ ردٌّ على المُنهزمين، وتقويةٌ للضُّعفاءِ، وتشجيعٌ للجُبناءِ، فغلظةُ المؤمنين في القتالِ، هيبةٌ للأمَّة، وقوَّةٌ للمؤمنين، فهم وإن كانوا في الدَّعوةِ حكماءَ، لكنَّهم في القتال أشدّاءُ.

المناسبةُ بين اللَّفظِ والسِّياقِ، مَرعيَّةٌ في إبرازِ الدّلالاتِ والمعاني

نُكتةُ التَّعبيرِ بلفظِ ﴿غِلْظَةً﴾:

جاءَ التَّعبيرُ بلفظِ ﴿غِلْظَةً﴾ دونَ غيرِه منَ المتقارباتِ والمترادفات؛ لأنَّ القصدَ منه إلقاءُ الرُّعبِ في قلوبِ الأعداءِ، حتَّى يَخشَوْا عاقبةَ التَّصدّي لقتالِ المسلمين، والمسلمُ ليس من طبعِه القسوةُ، بل هو يُعايشُ النّاسَ، حتّى وإنِ اختلفوا معه، بلينِ القول، وحسن المعاملةِ، ما كان الاحترامُ قائمًا، والسّلمُ موفورًا، فإذا قلَبوا له ظهرَ المِجنّ، وأرادوا أن يَدوسوا كرامتَه، أو يَحطِموا منظومةَ قِيَمِه، أو يَحتلّوا

الغِلظةُ جُرأةٌ وشدَّةٌ وخُشونةٌ في البدنِ، والقسوةُ صلابةٌ وتحجُّرٌ وشدّةٌ في القلبِ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/63.

(2) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 2/222، والبقاعيّ، نظم الدُّرر: 9/50، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/63.

أرضَه، أو يُلطّخوا عِرضَه، كشّرَ عن أنياب العزمِ، وأبان منَ القوّة ما يمنعُ شانِئيه، من ذلك الفعلِ السّفيهِ، ولذلك فلفظُ الغلظة هنا، يجمعُ الجراءةَ والصَّبرَ على القتالِ، وشدَّةَ البأس، ومرارةَ التّصدّي بالحزم، وإذاقةَ الغِلظة للعدوِّ حتّى يَحُسَّ بها[1]، فالغِلْظةُ بكسرِ الغَيْنِ: الشِّدَّةُ الحسِّيَّةُ والخُشونةُ، والمقصودُ بالقتالِ هو الشِّدَّةُ، كما قال تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْۖ﴾ [الفتح: 29]، إذِ المطلوبُ أن يرى الكفّارُ منَ المؤمنين شدَّةً، من شأنِها الإعانةُ على الانتصار، ولا معنى للقسْوةِ هنا، إذ يغلبُ عليها أن تُستعمل في قسْوة القلبِ.

الأمرُ بالتَّقوى سِياجُ القتالِ الغليظِ، وفيه ربطٌ للفعل بمقصدِه

معنَى العطفِ بالواو، في جملةِ ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ﴾:

العطفُ في قولِه تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾، مُترتِّبٌ على ما سبقَه، أي: قتالُ الكُفّارِ والغِلظةُ عليهم كلاهما من بابِ التَّقوى والشَّهادةِ، بكوْنِهم من زُمرةِ المتَّقين[2]، فهذا هو الأمرُ الثّالثُ في الآية، فالأوَّل أمرٌ بقتالِ الكفّارِ، والثّاني أمرٌ بالإغلاظِ عليهم، والثّالث أمرٌ بعلمِ أنَّ اللّه مع المتّقين، والأمرُ بالتَّقوى هو سياجُ القتالِ بالغِلظة، فمنِ اتَّقى اللّه استجابَ له في الرَّحمةِ والشّدَّةِ، والغِلظةِ والرَّقةِ، ومن وضعَ أحدَ المعنَيَين في مكانِ الآخر، فقد ظلم وجهِلَ المطلوبَ، وخرج عن تحقيق المقصودِ، والتّقوى خَشيةُ اللّه حيثما كان المُتّقي، وهي مَلمَحٌ يُستصحبُ في السِّلم والحرب، والمَنشَطِ والمكرَه، ومع الصّديق والعدوِّ، والبعيد والقريبِ، وهي أن يلبَسَ لكلّ حالةٍ لَبوسَها، وأن يُراعيَ أحكامَ اللّه في نَعماء الحياةِ وبُؤسِها، وهي سببٌ للنّصر المبينِ، ووقايةٌ منَ المصير المهينِ، وامتثالٌ لأمر اللّه الّذي يعلمُ ما يَصلحُ للإنسان، وما يكونُ به الأمانُ والاطمئنانُ.

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 9/50، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/63.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السليم: 2/618.

نُكتةُ تصديرِ الجملةِ بفعل الأمرِ ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ﴾:

الاهتمامُ بإيجابِ استحضارِ المؤمنين، نصرَ الله وتَمكينَه

غرَضُ الأمرِ في قولِه تعالى: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ وجوبُ معرفةِ أنَّ اللّه ناصرُ المتَّقين، فهو وعدٌ بالنَّصرِ والتَّمكينِ لجماعةِ المؤمنين، وفي ذلك تأييدٌ وتشجيعٌ رباني للقيامِ بالأمرَيْن السّابقَيْن: قتالِ الكفّارِ والغِلْظةِ عليهم[1]، وقد صُدِّرت الجملةُ الكريمةُ بقوله تعالى: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ﴾، للاهْتمامِ بما يُرادُ العلمُ به، كما في قولِه تعالى: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم مِّن شَيۡءٖ﴾ [الأنفال: 41][2].

نُكتةُ التَّوكيدِ بجُملةِ مؤكِّداتٍ، في ثنايا السّياق الحكيمِ:

تقْوَى الله تعالى باتّباعِ أمرِه، دافعٌ لقتالِ الكفّارِ، والغِلْظةِ عليهم

صُدِّرَت الجملةُ في قولِه تعالى: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾، بالأمرِ بقولِه: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ﴾ الَّذي يُفيدُ اليقينَ مع مصاحبةِ ﴿أَنَّ﴾، الَّتي تفيدُ التَّوكيدَ، واسْمِ العلم لفظِ الجلالةِ ﴿ٱللَّهَ﴾، والمَعيَّةِ الرَّبّانيَّةِ للفظِ ﴿ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ المعرَّفةِ بـ (أل)، وجميعُها مؤكِّداتٌ لتحقيقِ الوعدِ بمعيَّةِ اللّه الَّتي تفيدُ التَّأييدَ؛ بلِ المُبالغةَ في التَّأييدِ والوعدِ بالنَّصرِ والتَّمكين، وفي ذلك تنبيهٌ على أن يكونَ الحاملُ على القتالِ، ووجودِ الغِلظةِ، إنَّما هو تَقْوى اللّه ﷻ، لا يَقصِدُ بقتالِه الكفّارَ والغِلظةِ عليهم، الغنيمةَ ولا الفخرَ ولا إظهارَ البَسالةِ[3].

سر الختمِ بلفظِ الجلالةِ ﴿ٱللَّهَ﴾:

المُعاملةُ المُستحقّةُ، للصّديقِ الودودِ، والعدوِّ اللّدودِ

قولُه تعالى: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾، آثرَ النَّظمُ الكريمُ فيه، ذكْرَ لفظِ الجلالةِ ﴿ٱللَّهَ﴾ لزرعِ المهابةِ والجلالةِ في نفوسِ المؤمنينَ، والمسارعةِ في تنفيذِ الأمرَيْن اللَّذين وردا في السِّياقِ خاصَّةً من قتالِ الكفّارِ والغِلظَةِ عليهم وجميعِ أوامرِ اللّه ﷻ، مع ما يُشعِرُه ذكْرُ هذا اللَّفظِ الجليلِ في هذا السِّياقِ من تطمينِ قلوبِ المؤمنين وتثبيتِها خاصَّةً في مواقفِ القتالِ في سبيلِ اللّه، وتحفيزِ أصحابِها

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/63.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/64.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/528.

لالْتزام التَّقْوى حتَّى تكلأهم مَعيَّةُ اللّه تعالى، وتُسبَلَ عليهم سكينتُه وحمايتُه، وفي ذلكَ كذلكَ تَنْصيصٌ على أنَّ الإيمانَ باللّه تعالى والقتالَ على الوجهِ المذكورِ من بابِ تقْوى اللّه والشَّهادةِ بكونِهم من زُمرةِ المتَّقين[1].

بلاغةُ الكنايةِ، في ذكْرِ المعيَّةِ ﴿مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾:

مَعيَّةُ اللّه للمتَّقينَ، نصرٌ متينٌ، وفتحٌ مبينٌ

قولُه تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾، اكْتفَتِ الجملةُ بذكرِ المعيَّة، دونَ التَّصريحِ بمُقتضياتِها، منَ النَّصرِ والتَّمكينِ في هذه الآية الكريمةِ؛ لأنَّ معيَّةَ اللّه لا تعني مجرَّدَ النَّصرِ في قتالِ الكفّار؛ بل تعني ولايةَ اللّه الدّائمةَ، والتَّأييدَ المطلَقَ للمتَّقينَ، في جميعِ شؤونِ حياتِهم، ما أقاموا شرْعَ اللّه في نفوسِهم ودَعَوْا به غيرَهم؛ لتتحقَّقَ خلافةُ اللّه في أرضِه، بقولِه تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: 30] وقولِه تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾ [الذّاريات: 56]، وكأنَّ الجملةَ تَنهى المؤمنين أن يخافوا أنْ يُؤدِّيَ شيءٌ من مُصاحبةِ مَعيَّةِ اللّه إلى وَهْنٍ؛ بل هي قوَّةٌ تَسنُدُ المؤمنين، ورحمةٌ تُظللهم، فإنَّ العِبْرَة بمن كانَ اللّه معه[2]، فهي كنايةٌ عن نصرِ اللّه تعالى؛ لأنَّ من كان اللّه معه كان منصورًا، فشرطُ النَّصرِ التَّقوَى، والاستجابةُ لأمر اللّه بقتال الكفّار، والإغلاظِ عليهم.

بَلاغةُ الالْتفاتِ منَ الخطابِ إلى الغَيْبةِ في الآيةِ الكريمةِ:

المعيَّةُ الإلهيَّةُ تمدُّ المتَّقينَ، بالنَّصرِ والتَّمكين، في كلِّ حينٍ

قولُه تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾، التفتتِ الجملةُ منَ الخطابِ ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ﴾، إلى الغيبة، ﴿مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾، فلم يقلْ: (واعْلَموا أنَّ اللّه معكم)؛ بل أُدخِلَ في المتَّقين المخاطَبون، ولذلك وضعَ الظّاهرَ مَوْضعَ المُضمَرِ، للتَّنصيصِ على أنَّ الإيمانَ والقتالَ على الوجهِ المأمورِ به، من بابِ التَّقوى والشَّهادةِ بكوْنِهم من زُمرةِ المتَّقين،

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السليم: 2/618.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 9/50، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السليم: 2/618.

وإمّا أنَّ المرادَ الجنسُ، وهم داخلونَ فيه دخولًا أوَّليًّا، وهم في كلا الحالَيْن، إنْ تحقَّقوا بالتَّقوى، تحقَّقَ نصرُ اللّه لهم، وصاحبَهم ولم يتخلَّفْ عنهم[1]، ونكتةُ الالتفاتِ تكمنُ في كونِ المتَّقين زمرةَ خيرٍ، فإن أراد المخاطَبون أن يدخلوها، تحقَّق لهم النَّصرُ بالمعيَّة، وإن أبَوا فشأنُ المُتأبِّين عنِ التَّقوى الظَّفرُ بالهزيمةِ، ولو قال: (واعْلَموا أنَّ اللّه معكم)؛ لتضمَّنَ ذلك أنَّهم متَّقون، ولَفُهِم أنَّ المعيَّةَ لهم دونَ غيرِهم، وهو خلافُ المقصودِ؛ إذِ المرادُ بيانُ أنَّ اللّه مع عمومِ المتَّقين، في كلِّ زمانٍ ومكانٍ.

سِرُّ اخْتيارِ وصْفِ التَّقوى:

قولُه تعالى: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾، آثرَ فيه النَّظمُ اختيارَ وصْفِ التَّقوى دون التَّوكُّل؛ لأنَّ التَّقوى تكونُ بالتزامِ أوامرِ اللّه، ومنها: قتالُ الكفّارِ والغِلظةُ عليهم، ثمَّ بعدَ اسْتكمالِ هذه التَّقوى يأتي التَّوكُّلُ على اللّه، فلا توكُّلَ على اللّه حقًّا وصِدقًا، لمَنْ لم يتَّقِ اللّه حقَّ التَّقوى، فالتَّقوى علَّةُ التَّوكُّل، فكلُّ تقيٍّ متوكِّلٌ.

التَّقوى علَّةُ التَّوكُّلِ، وسبيلُ الخيرِ المُعجَّلِ والمؤجَّلِ

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

القتالُ والجهادُ:

القتْلُ: إزالةُ الرّوحِ عنِ الجسدِ كالموت، لكنْ إذا اعْتُبِرَ بفعلِ المُتولِّي لذلك، يُقالُ: قَتْلٌ، وإذا اعْتُبِرَ بفَوْتِ الحياة، يُقالُ: مَوْتٌ، قالَ تعالى: ﴿أَفَإِيْن مَّاتَ أَوۡ قُتِلَ﴾ [آل عمران: 144]، والمقاتلةُ: المحاربةُ وتحرِّي القَتلِ، قالَ تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ﴾ [البقرة: 193][2].

وأمّا الجهادُ: فهو اسْتفراغُ الوُسْعِ في مدافعةِ العَدوّ، وهو ما كانَ الغَرَضُ فيه المحاربةَ لقهرِ العدوّ، وإنِ اسْتلزمَ ذلكَ تحصيلَ الغنائمِ والفوائد. والجهادُ ثلاثةُ أَضْرُبٍ: مجاهدةُ العدوِّ الظّاهر،

القتالُ المحاربةُ وتحرِّي القتلِ، بفعلِ المُتولِّي لذلك، فهو أخصُّ منَ الجهاد

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السليم: 2/618.
(2) الرّاغب، المفردات: (قتل).

ومجاهدةُ الشَّيطانِ، ومجاهدةُ النَّفسِ، وتدخُلُ ثلاثتُها في قولِه تعالى: ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ﴾ [الحجّ: 78][1].

الوَلْيُ والقُرْبُ:

الوَلاءُ والتَّوالي: أنْ يحصُل شيئان فصاعدًا، حصولًا ليس بينهما ما ليس منهما، ويُستعارُ للقُربِ من حيثُ المكانُ وغيرُه كالنِّسبة، والدِّينِ، والنُّصرةِ، والصَّداقةِ، وهو في الأصلِ من وَلِيَ الشَّيءُ الشَّيءَ، وأولَيْتُ الشَّيءَ شيئًا آخر، أي: جعلتُه يَليه[2].

الوَلْيُ التَّوالي المُباشرُ دونَ قطعٍ، والقُربُ تقاربٌ حِسيٌّ، مع احتمالِ وجودِ قاطعٍ

والقُرْبُ عامٌّ في المسافةِ بين شَيئَيْن، أي: في المكانِ وفي غيرِه، يقولُ: قلوبُنا تتقاربُ، وهو قريبٌ بقلبِه فهو أمرٌ معنويٌّ لا حسِّيٌّ، وأكثرُ ما يُستعمَلُ في المكان، ولذلك يقالُ في الأصل: القُربُ في المكان[3]، وقد يكونُ بين متقاربين قاطعٌ حسّيٌّ.

الغِلظةُ والقَسْوةُ:

الغِلظةُ: ضدُّ الرِّقَّة، وتُستعمَلُ في الأجسام، وتُستعارُ للمعاني، يُقالُ: غَلُظَ الشَّيءُ غِلَظًا، صارَ غَليظًا، وكذا استَغْلَظَ، ورَجُلٌ فيه غِلْظَةٌ بكسرِ الغَيْن وضمِّها وفتحِها وغِلاظةٌ بالكسرِ، أي: فَظاظَة[4]، ويقال: "أغلظَ له في القول، وغلّظَ عليه الشّئَ تغليظًا، ومنه الدّيةُ المُغلّظةُ: التّي تجبُ في شبْهِ العمدِ، واليمينُ المغلّظةُ"[5]، ورجلٌ غليظٌ: ذو غِلظةٍ وقساوة وشدّةٍ، وفي التّنزيل: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَۖ﴾ [آل عمران: 159][6]. والقَسْوةُ: تُستعمَلُ فيما لا يَقبلُ العِلاجَ، ولهذا يوصَفُ بها القلبُ، وإن لم يكنْ صُلبًا، وقَسا قلبُه: غَلُظَ

الغِلظةُ الشّدَّةُ، وتُستعمَلُ للأجسام والمعاني، والقسْوةُ جفافُ القلبِ من ماءِ الإيمان

(1) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 385، والرّاغب، المفردات: (جهد).
(2) الرّاغب، الفروق اللغوية، ص: 886 - 887، وابن منظور، لسان العرب: (ولي).
(3) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 234، 425.
(4) الرّاغب، المفردات، والرّازي، مختار الصّحاح: (غلظ).
(5) الجوهريّ، الصّحاح تاج اللّغة وصحاح العربيّة: (غلظ).
(6) ابن سيده، المحكم: (الغَلظ).

واشْتدَّ، يَقْسو قَساءً وقَسْوةً وقَساوةً[1]، وقد قيل: القسوةُ: "غِلظُ القلب، وهي من قسوة الحجَر. قال اللّه تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ [البقرة: 74][2]، كما قيل: "والغُلظةُ بضم الغين لغةٌ في الغِلظةِ، كذا عند بعضهم، والصّحيحُ أنّ الفظاظةَ خُشونةُ القلب، والغِلظةُ قسوةُ القلب"[3].

(1) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 429، والرّازي، مختار الصّحاح: (قسا).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (قسي).
(3) النّسفيّ، طلبة الطّلبة في الاصطلاحات: (فظظ).

﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ فَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمۡ زَادَتۡهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنٗاۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَهُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ ١٢٤ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ فَزَادَتۡهُمۡ رِجۡسًا إِلَىٰ رِجۡسِهِمۡ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كَٰفِرُونَ ١٢٥﴾ [التوبة: 124 - 125]

مُناسَبَةُ الآيَتَينِ لِما قَبْلَهُما:

المناسبةُ بين الذّبِّ عنِ الحياضِ، واستقبالِ القلوبِ للقرآنِ، في حالتَي الكفرِ والإيمان

لَمّا ذكرَتِ الآيةُ السّابقةُ الأمرَ بمجابهة أهلِ الكُفر، والغِلْظةِ عليهم، وكان لا يَحملُ على ذلكَ إلّا ما أشارَ إليه خَتْمُ الآيةِ، منَ التَّقْوى بتجديدِ الإيمانِ، كلَّما نزلَ شيءٌ منَ القرآن، وكان قد ذكرَ سبحانَه المخالفينَ لأمرِ الدّفاع عنِ الدّين، بالتَّخلُّفِ دون أمرِ الإيمانِ، حين قال: ﴿وَإِذَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٌ أَنۡ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُواْ مَعَ رَسُولِهِ ٱسۡتَـٔۡذَنَكَ أُوْلُواْ ٱلطَّوۡلِ مِنۡهُمۡ وَقَالُواْ ذَرۡنَا نَكُن مَّعَ ٱلۡقَٰعِدِينَ ٨٦﴾ [التَّوبة: 86]، التفتَ في هذه الآيةِ إلى ذلكَ، ليذكُرَ القِسْمَ الآخَرَ، وهو القاعدُ عنِ الإيمانِ، فقال: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ﴾[1]، فالمناسبةُ بين الآيات، هو بيانُ حالِ المقاتلِ في سبيل اللّه تعالى، مع نزول القرآنِ، وأنَّ العلاقةَ بين نزول القرآنِ والاستجابةِ للقتالِ، علاقةٌ طَرديَّةٌ، وأنَّ من لم يستجبْ، هو ذاتُه مريضُ القلبِ، الّذي ازداد رِجسًا على رجسه، وضلالًا على ضلاله، عند نزول القرآنِ.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿سُورَةٞ﴾: سور: السِّينُ والواوُ والرّاءُ أصلٌ واحدٌ يدلُّ على عُلوٍّ وارْتفاع. والسّوَرُ: جمعُ سورة، وهي كلُّ منزلةٍ منَ البناء[2]، والسّورةُ كذلك: المنزلةُ الرَّفيعة، وسورُ المدينة: حائطُها المشتمِلُ عليها،

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 16/174، والبقاعيّ، نظم الدُّرر: 9/50.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سور).

وشُبِّهتْ سورةُ القرآنِ بسورِ المدينةِ بجامعِ الإحاطةِ والحمايةِ في كليْهما، أو لكونِها منزلةً لمنازلِ القمر، ومَنْ قال: سُؤْرةٌ، فمِن أَسْأَرْت، أي: أَبْقيتُ منها بقيَّةً، كأنَّها قطعةٌ مُفردةٌ من جملةِ القرآن[1].

ومعنى قولِه تعالى: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ﴾ أي: قطعةٌ منَ القرآن، فإنَّ المرادَ بالسّورةِ معناها القرآنيُّ وهو القطعةُ القرآنيَّةُ النّازلةُ، أمّا السّورة بالمعنى الاصطلاحي فهذه لم تكن إلّا بعد اكتمال نزول القرآنِ كلِّه.

2) ﴿زَادَتۡهُ﴾: زود: زِدْتُه فازْدادَ، وزِدْتُه وزوَّدتُه فتزوَّد، والزِّيادةُ: أن ينضمَّ إلى ما عليه الشَّيءُ في نفسِه شيءٌ آخَر، كقولِه تعالى: ﴿وَنَزۡدَادُ كَيۡلَ بَعِيرٖۖ﴾ [يوسف: 65]، يقالُ: ازْدَدْتُ فضلًا، أي: زادَ فَضْلي[2]. ومعنى قولِه تعالى: ﴿أَيُّكُمۡ زَادَتۡهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنٗاۚ﴾ أي: السّورةُ النّازلةُ، ضمَّت إلى إيمانِه إيمانًا[3]، فالزِّيادةُ الإيمانيَّةُ هي عبارةٌ عن تلاقي الإيمانِ الثّابتِ في القلبِ بمُقتضيات الإيمانِ النّازلِ منِ السَّماءِ، فكانتِ الزِّيادةُ بمعنى الارتفاع والنَّماءِ.

3) ﴿يَسۡتَبۡشِرُونَ﴾: بشر وأبشرَ: أَبْشَرْتُ الرَّجُلَ وبَشَّرْتُهُ وبَشَرْتُهُ: أخبرتُه بسارٍّ، بَسَطَ بَشَرَةَ وَجْهِه، وبشَّرْتُه على التَّكثير، وبشَّرتُه عامّ، وأَبْشَرْتُه نحو: أَحْمَدْتُه، وأَبْشَرَ يكونُ لازمًا ومُتعدِّيًا، يُقالُ: بَشَرْتُه فأَبْشَرَ، أي: اسْتَبشَرَ، وأَبْشَرتُه. واسْتَبشَرَ: إذا وجَدَ ما يُبشِّرُهُ منَ الفَرَح، وهو المقصودُ في قولِه تعالى: ﴿فَزَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَهُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ﴾، ولذلكَ يقالُ للخَبَرِ السّارّ: البِشارةُ والبُشْرَى، قالَ تعالى: ﴿لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ﴾ [يونس: 64][4].

4) ﴿مَّرَضٞ﴾: مرض: الميمُ والرّاءُ والضّادُ أصلٌ صحيحٌ يدُلُّ على ما يخرُجُ به الإنسانُ عن حدِّ الصِّحةِ في أيِّ شيءٍ كان منه العلَّةُ، ومرِضَ يمرَضُ، وجمعُ المريضُ مَرْضى، وهذا الخروجُ عنِ الاعْتدالِ الخاصِّ بالإنسان، فيه ضَرْبان: الأوَّلُ: مَرَضٌ جِسْميٌّ، وهو المذكورُ في قولِه تعالى: ﴿وَلَا عَلَى ٱلۡمَرِيضِ حَرَجٞ﴾ [النّور: 61]. والثّاني: عبارةٌ عَنِ الرَّذائل: كالجَهْل، والجُبْن، والبُخْل، والنِّفاق، وغيرِها منَ الرَّذائل الخُلُقيَّةِ، نحو قولِه تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِم

(1) الأزهري، تهذيب اللُّغة: (سور)، وابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات: (سور).
(2) الرّاغب، المفردات، والرّازي، مختار الصِّحاح: (زود).
(3) الشَّوكاني، فتح القدير: 2/589.
(4) الرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (بشر).

مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا﴾ [البقرة: 10][1]، ومعنى قولِه تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ أي: شَكٌّ ونفاق[2].

5) ﴿رِجْسًا﴾: رجس: الرّاءُ والجيمُ والسِّينُ أصلٌ يدُلُّ على اخْتلاطٍ، ومنَ الباب الرِّجْسُ: القَذَر؛ لأنَّه لَطْخٌ وخَلْطٌ، يُقالُ: رَجُلٌ رِجْسٌ، ورجالٌ أَرْجاسٌ، قالَ تعالى: ﴿رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ [المائدة: 90]، وجَعلَ الكافرين رِجسًا؛ من حيث إنَّ الشِّركَ بالعقلِ أَقْبحُ الأشياء[3]، ومعنى قوله تعالى: ﴿فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾، أي: كفرًا إلى كُفرِهم، وضلالًا إلى ضلالِهم، وشكًّا إلى شكِّهم، ونفاقًا إلى نفاقِهم، وإثْمًا إلى إثمِهم[4].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

أحوالُ المخاطَبين بالقرآن، ما بين مُزدادٍ به ومُزدانٍ، وبين غارقٍ في الرّجس والكُفران

تُبيِّنُ الآيتان حالَ النّاس الّذين يُظهرون الإيمانَ عند نزول آياتٍ منَ القرآن، فموقفُ المؤمنين هو الازديادُ منَ الإيمان، والازديانُ به، والاستبشارُ بما عند الله تعالى؛ فاتَّحدَ الإيمانُ الباطنُ مع الإيمانِ الظّاهرِ، وأمّا موقفُ المنافقين، فهو على النَّقيضِ من ذلك، إذ زادتْهم رجسًا إلى رجسِهم، وماتوا على الكفرِ؛ لِما أبطنوه من خلاف ما أظهروه، وقد أفادتِ الآيةُ أنَّ القائلين: أيُّكم زادتهُ هذه السّورةُ إيمانًا؟! قالوها على سبيلِ السُّخريةِ والاسْتهزاءِ بالمؤمنين، فهاتان الآيتان هما خلاصةُ حال النّاسِ عند نزولِ القرآنِ، منَ الإيمانِ الظّاهرِ والباطنِ، وهي تُترجمُ أنَّ المؤمن حقيقةً ظاهرًا وباطنًا، هو الّذي يستجيبُ لأمرِ الله تعالى، ولا يتردَّدُ في قَبولِ الحقِّ والعملِ به، وأنَّ أدعياءَ الإيمان، موقفُهم تابعٌ لمصالِحِهم، وراكدٌ في مرابِضِهم.

(1) الرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (مرض).
(2) ابن جرير، جامع البيان: 11/73، والزَّجّاج، معاني القرآن: 2/476.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (رجس).
(4) الماورديّ، النُّكت والعيون: 2/416، وابن الجوزيّ، زاد المسير: 3/519، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 8/299.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دَلالةُ الواوِ: ﴿وَإِذَا﴾:

ربْطُ المعاني في الآياتِ المُتلاحقةِ، يُبْرِزُ الدّلالاتِ ويُجلِّي مَراميَ الآياتِ

الواوُ في قولِه تعالى: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٌ﴾، إمّا أن تكونَ عاطفةً، عطفَتْ جُملتَها على ما سبقَ في قولِه تعالى: ﴿وَإِذَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٌ أَنۡ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُواْ مَعَ رَسُولِهِ ٱسۡتَـٔۡذَنَكَ أُوْلُواْ ٱلطَّوۡلِ مِنۡهُمۡ﴾ [التَّوبة: 86]، وهذا عَوْدٌ إلى بيانِ أحوالِ المنافقينَ، وما بينَهما اعْتراضاتٌ[1]، وإمّا أن تكون استئنافيَّةً، عادت إلى بيانِ أحوال المنافقين، والقولُ بالعطفِ من حيث المعنى صحيحٌ، لكنْ يكونُ هناك تباعدٌ كبيرٌ بين المعطوفِ والمعطوفِ عليه، وجعْلُ ما بينَهما اعتراضاتٍ، يزيدُ الأمرَ بُعدًا من حيث الصَّنعةُ، فحملُها على الاستئنافِ هو الأَولى، وذلك لأنَّ الاستئنافَ في حقيقتِه، هو عَوْدٌ على ما ابتُدئ به سابقًا، فيُؤدِّي معنى القول بالعطفِ، في عوْدِ الكلامِ على سابقٍ، لكن بطريق الاستئنافِ لا الإتْباعِ، وهو الأليقُ بالمقام؛ لطولِ الفصْلِ.

فائِدةُ اسْتعمالِ ﴿وَإِذَا﴾:

المنافقون - على خلافِ المؤمنين - ناطِقون بالتّضليلِ، وخائِضون في الأقاويلِ والأباطيلِ

قولُه تعالى: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٌ﴾، ﴿وَإِذَا﴾ ظرفٌ مستقبَلٌ متضمِّنٌ معنَى الشَّرط، وهو يُستعمَلُ غالبًا في الأمورِ المؤكَّدِ وقوعُها أو الرّاجحِ وقوعُها، وأمّا اسْتعمالُ (إنْ) - وهي حرفُ شرطٍ جازمٌ - فيكونُ في الأمورِ غيرِ المؤكَّدِ وقوعُها أو نُدْرةِ وقوعِها، وهو لا يتناسبُ البتّةَ مع سياقِ الآية الكريمةِ، إذِ استُعملت ﴿وَإِذَا﴾ دون (إن)؛ لبيانِ تحقُّقِ القولِ منهم، وأنَّهم قائلوه يقينًا.

وهذا الفرقُ بين اسْتعمالِ (إذا) و (إنْ)، يتبيَّنُ جَليًّا إذا اجْتمعتِ الأداتانِ في تعبيرٍ واحدٍ، كما في قولِه تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَٰذِهِۦۖ وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةٞ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓۗ﴾ [الأعراف: 131]،

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/64.

فهنا اسْتعملَ النَّظمُ أداةَ ﴿فَإِذَا﴾ قبلَ قولِه تعالى: ﴿جَآءَتۡهُمُ ٱلۡحَسَنَةُ﴾؛ لأنَّ جِنْسَ الحسنةِ وقوعُه كالواجبِ لكَثرتِه واتِّساعِه، فحصولُه مؤكَّدٌ ومرغوبٌ فيه، وأمّا ﴿وَإِن﴾ فجاءَتْ قبلَ قولِه: ﴿تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةٞ﴾؛ لأنَّ السَّيئةَ لا تقعُ إلّا في النُّدْرة[1].

غرَضُ ذكْرِ ﴿مَا﴾ في: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتۡ﴾:

تأكيدُ حالِ المنافقين من اسْتبْعادِهم زيادةَ الإيمانِ، عند إنزالِ سورةٍ منَ القرآن

لمّا كان إنزالُ سورةٍ أمرًا مستبعَدًا عند المنافقين، كان استهزاؤهم بأثرِ القرآن في زيادة الإيمانِ، وإنكارُهم ذلك معهودًا منهم، فذُكِرت ﴿مَا﴾ في قولِه تعالى: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتۡ﴾ عَقِبَ ﴿وَإِذَا﴾ بغرضِ التَّأكيدِ، وجاءت في صورة الزّيادةِ على التّركيب؛ لتشيرَ إلى ما في نفوس هؤلاء المنافقين من غرابةٍ واستبْعادٍ لمضمون الشّرطِ، أي أنَّ ما يَلي الشّرْطَ أمرٌ لا تسعُه قلوبُهم[2]، أي: لتأكيدِ معنَى ﴿وَإِذَا﴾ وهو الشَّرطُ؛ لأنَّ هذا الخبرَ لغرابتِه، كان خليقًا بالتَّأكيد، ولأنَّ المنافقين يُنكرونَ صدورَه منهم[3]، وكذلكَ فإنَّ هذا التَّأكيدَ بذكْرِ ﴿مَا﴾، تنبيهٌ على فَضْلِ الإيمان[4]، وفيها إشارةٌ إلى عُموم أوقات النُّزولِ، أي: إذا ما أنزلت في أيِّ وقتٍ كان، وفي أيِّ حالٍ؛ فإنَّ قولَ المنافقين ثابتٌ لا يتغيَّرُ؛ إذ هم حربٌ على دينِ اللّه تعالى، فلو كانتِ السّوَرُ النّازِلةُ تُعطيهم نوعَ مصلحةٍ؛ فإنَّهم قائلون ما قالوا.

نُكتةُ اخْتيارِ (أُنزِلَ)، وبنائِه للمفعولِ: ﴿أُنزِلَتۡ﴾:

عجَلةُ المنافقين في قولِهم هذا، مهما يكُ من إنزالِ السّورة في أوّلِها أو آخرِها

لَمّا كانَ قولُه تعالى: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتۡ﴾ بيانًا لِمُطْلَقِ النُّزول، بُنِيَ الفعلُ ﴿أُنزِلَتۡ﴾ للمفعول، أي: أُنْزِلتْ قِطعةٌ منَ القرآن، أي: في معنًى

(1) الزَّمخشري، الكشّاف: 2/106.

(2) وردت (ما) عقيب (إذا) في القرآن ثلاث مرّات، مرتان في سورة التوبة [124، 127]، والأخيرة في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمۡ يَغۡفِرُونَ ٣٧﴾ [الشورى: 37]، فقد أكّدت (ما) الشرط، وفي الوقت نفسه أشارت إلى غرابة وقوع الغضب منهم، إذْ ظهر غضبهم بحقٍّ وكأنَّه زائد عن طبعهم.

(3) البقاعي، نظم الدُّرر: 9/50.

(4) البقاعي، نظم الدُّرر: 9/50.

منَ المعاني لا على الإطلاقِ دونَ تَعْيينٍ أو تقْييدٍ[1]، واخْتيرَ الإنزالُ لا التَّنزيلُ لبيانِ أنَّ هذه القطعةَ منَ القرآنِ نزلت مرَّةً واحدةً، وهم سمِعوها كاملةً، فقالوا قولَهم الذي قالوا، وفيها إيماءٌ إلى أنَّ قيلَ المنافقين يَصدرُ عنهم دون أدنى تردُّدٍ أو تباطُؤٍ، فعندَ الإنزالِ يأتي قولُ أهل الخِذلانِ، ولا فرق بين أوَّل السورة وآخرِها.

غرَضُ تنكيرِ لفظِ ﴿سُورَةٌ﴾:

أيُّ سورةٍ تنزلُ، فإنَّ موقفَ المُنكرين هو الازدراءُ بها، والتّطاوُلُ على مضامينِها

المرادُ بسورة في قولِه تعالى: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ﴾ طائفةٌ منَ القرآن المُعجِز المحيطِ بجُملةٍ منَ الحُجج ورفعِ الشُّبَه[2]، أي: إذا أُنزِلَتْ سورةٌ ما منَ القرآن فإنَّ تنكيرَ ﴿سُورَةٞ﴾ يُفيدُ العُمومَ، وسوَرُ القرآنِ كلُّها لا تخْلو عن دعاءٍ إلى الإيمانِ والصّالحاتِ، والإعجازِ ببلاغتِها وبيانِها[3]، والمرادُ بالعمومِ أنَّ أيَّ سورةٍ تنزلُ فإنَّ موقفَ المنافقين منها ثابتٌ في رفضِها والازدراءِ بمعانيها.

معنَى (الفاءِ)، و(مِنْ): ﴿فَمِنۡهُم﴾:

إذا جاء الحقُّ نتَقَ خبايا الباطلِ، وأبانَ عن خِسَّتِه

(الفاءُ) في قوله تعالى: ﴿فَمِنۡهُم﴾ رابطةٌ لجوابِ الشَّرطِ في ﴿وَإِذَا﴾[4]، وهي تفيدُ ترتُّبَ ما بعدَها على ما قبلَها، و(مِنْ) تبعيضيَّةٌ، أي: بعضُ المنافقين[5]، والمعنى إذا ما تحقَّق إنزالُ سورةٍ لدى المنافقين فيبادرُ بعضُهم لقولِ ما يُريد قولَه جميعُهم، فنيابةُ بعض المنافقين عن بعضِهم الآخرِ في القولِ، يدلُّ على اشتراكِ الجميعِ في مضمونِه.

تَعيينُ مرجعِ الضَّميرِ، من شِبْه الجملة ﴿فَمِنۡهُم﴾:

إضمارُ التَّصريحِ بالمنافقين، مُناسِبٌ لإضمارِهم حقائقَ أنفُسِهم

قولُه تعالى: ﴿فَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ﴾، أي: بعضُ المنافقين للعِلمِ بالمَعادِ

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 9/51.
(2) القاسميّ، محاسن التّأويل: 5/531.
(3) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 9/51، وابن عاشور، التَّحرير والتّنوير: 11/64.
(4) درويش، إعرابُ القرآن: 4/196.
(5) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 16/174.

منَ المَقام[1]، وسبق بيانُ احتمال الواو، في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتۡ﴾ للاستئنافِ أوِ العطفِ، وأنَّ المعنَيين يتَّفقان في كَونِ هذه الآيةِ مردودةً إلى آيات سابقةٍ، في قيلِ المنافقين، ومثلُ هذه الأقوالِ لا تصدُرُ إلا عن قلوبٍ مُرتابةٍ، ونفوسٍ مُظلمةٍ؛ فكأنَّ الآيةَ تومئ إليهم باعتبارِهم مَعهودين، ولسانُ الحالِ يقول: وهل سِواهم يقول هذا القولَ، فالإضمارُ أبلغُ منَ الإظهار، وأنسبُ بحال المنافقين، فهم أضمروا أنفسَهم، والنَّظمُ أضمرَ التَّصريحَ بهم.

المنافقون مُبهَمون في الشُّخوصِ والتصرُّفاتِ، وقلوبُهم مَلْأى بالأسقامِ والآفاتِ

معنَى ﴿مَّن﴾ في قولِه تعالى: ﴿مَّن يَقُولُ﴾:

معنى الاسمِ الموصولِ ﴿مَّن﴾ في قولِه تعالى: ﴿فَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ﴾ أي: الَّذين يقولون؛ لأنَّهم فريقٌ منَ المنافقين، وجيءَ بالاسْمِ الموصولِ ﴿مَّن﴾ دونَ الاسمِ الموصولِ الصَّريحِ لتغشيةِ معنى العمومِ والإبهامِ عليه، فإنَّ العمومَ والإبهامَ مُرادان في هذا السِّياقِ، و﴿مَّن﴾ أعمُّ وأبْهمُ من (الّذي)؛ ومنَ المناسبِ اختيارُ ما يُناسبُ حالَ المنافقين منَ العمومِ والإبهامِ.

ما صدَرَ عن بعضِ المنافقين، يُمثِّلُ مَجموعَهم بيقينٍ

سِرُّ العُدولِ عنِ الجمعِ إلى الإفرادِ، في الفعلِ ﴿يَقُولُ﴾:

عدَلَ النَّظمُ في قولِه تعالى: ﴿فَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ﴾، عن إسنادِ فعلِ القول (يقولون) لواو الجمع إلى المفرد؛ لتنزيلِ المنافقين القائلين، منزلةَ الرَّجلِ الواحدِ، فكأنَّهم شخصٌ واحدٌ، تكلَّم على لسانِ بقيّتِهم، وكانوا يقولون ذلك لبعضِهم الآخرِ، إنكارًا واسْتهزاءً: أيُّكم زادتْه هذه السّورةُ إيمانًا؟! لتثبيتِ قومِهم على النِّفاق، أو يقولونَها لقراباتِهم المؤمنين، يَسْتقيمونَ إليهم، ويَطمعونَ في ردِّهم إلى النِّفاق[2].

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/618، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/64.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/529.

دَلالةُ (أيٌّ) في سياق السّؤال:

قولُه تعالى: ﴿أَيُّكُمْ زَادَتْهُ﴾، اسْتفهامٌ على سبيلِ الاسْتهزاء، مُتضمِّنٌ معنَى إنكارِ أن يكونَ نزولُ سوَرِ القرآنِ يزيدُ سامِعيها إيمانًا، توهُّمًا منهم بأنَّ ما لا يَزيدُهم إيمانًا لا يزيدُ غيرَهم إيمانًا، وفي ذلك تشكيكٌ بأمرَيْن: الأوَّلُ: بنزولِ القرآنِ منَ الرَّحمن، والثّاني: بأثرِ القرآنِ على السّامِعين له، وهم بذلك يَقيسونَ على أحوالِ قلوبِهم[1].

الاسْتفهامُ يُخرجُ ما في أضْغانِ المنافقين، وحقيقةَ موقفِهم من نزولِ القرآن المبينِ

نُكتةُ استعمالِ مُفردة الزِّيادةِ في الفعلِ ﴿زَادَتْهُ﴾:

استعملَ لفظَ الزِّيادة دونَ مرادفاتِه ومقارَباتِه لبيانِ عمومِ زيادةِ الإيمان، بأنواعٍ متعدِّدةٍ، فالمقصودُ بزيادة الإيمانِ حدوثُ تصديقٍ خاصٍّ لم يكنْ قبلَ نزولِ السّورة من قصصٍ وتجديدِ حُكْمٍ منَ اللّه تعالى، أو عبارةٌ عن تنبيهٍ على دليلٍ تضمَّنتهُ السّورةُ، ويكونُ قد حصلتْ له معرفةُ اللّه بأدلَّةٍ، فنَبَّهتْه هذه السّورةُ على دليلٍ رادٍّ في أدلَّتِه، أو عبارةٌ عن إزالةِ شكٍّ يسيرٍ، أوْ شُبهةٍ عارضةٍ غيرِ مُستحكِمةٍ، فيزولُ الشَّكُّ وترتفعُ الشُّبهةُ بتلك السّورة، وذلك كلُّه لا يَرْوي قلوبَ أولئك المنافقين؛ بل يجعلونَه دليلًا على عدمِ تأثيرِ السّورةِ النّازلةِ في إحداثِ زيادةٍ في إيمانِ السّامعين، ولكنْ هو كذلك فيمن أَبْطَنوا الكفرَ وأَظْهروا الإيمانَ كذِبًا وزورًا، ومَنْ كانَ على شاكلتِهم[2]، وهذه المعاني شَمِلَها لفظُ الزِّيادة.

اشتمالُ فعْلِ الزِّيادةِ على أغراضٍ كثيرةٍ، تُسهمُ في تقوية إيمانِ المؤمنين

نُكتةُ استعمالِ صيغةِ الماضي في الفعلِ ﴿زَادَتْهُ﴾:

اسْتعمالُ صيغة الماضي في قولِه تعالى: ﴿زَادَتْهُ﴾ بدخولِه على الضَّميرِ (الهاء) العائدِ إلى المنافق المفهوم من قوله تعالى: ﴿أَيُّكُمْ﴾؛ للدَّلالةِ على تحقُّقِ ما صَبتْ إليه قلوبُهمُ المنافقةُ من

التَّحقُّقُ بعدمِ ازْديادِ إيمانِ من نَزلتْ عليهمُ السّورةُ، لانْطماسِ بصائرِهم المذكورةِ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/65.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/529.

أنَّ هذه السّورةَ لم تُحقّقْ ما يُرْجَى من نُزولِها وهو زيادةُ الإيمانِ في قلوبِ السّامعين، فهو خطابٌ يحملُ في طيّاتِه التَّهكُّمَ بالمؤمنينَ وبالقرآن، وذلك أنَّ القرآنَ قد صرَّحَ في بعضِ آياتِه بأنَّ القرآنَ يزيدُ المؤمنينَ إيمانًا، كما في قولِه تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ [الأنفال: 2][1].

بيانُ استخفافِهم، بأن تكونَ السّورةُ سببًا في ازديادِ الإيمان، عند المُبلَّغين

نُكتةُ استعمالِ اسمِ الإشارة:

قولُه تعالى: ﴿أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا﴾، استعمالُ اسمِ الإشارةِ يكونُ للمحسوساتِ المَرئيّةِ، وفي هذه الآية أُشيرَ إلى المعنوياتِ المسموعةِ، فهو تشبيهُ المعقولِ بالمحسوس؛ لوضوحِ المُشارِ إليه وشدّةِ حضورِه في ذهن المخاطَبين، فهو تجسيدٌ للسّورةِ، وتشخيصٌ لها، ومقصودُ المنافقين بقيلِهم هذا التَّهكمُ بالنّازلِ، والاستهانةُ بمن نزلت عليه، سُخريةً واستهزاءً.

دَلالةُ إيثارِ لفظِ ﴿إِيمَٰنًا﴾:

سُؤالُ المنافقين عنِ الإيمانِ، باعتبارِه الأصلَ الّذي عليه مَدارُ القَبولِ

مُقتضى الظّاهرِ والحالِ أن يكونَ السُّؤالُ عنِ الإيمانِ لا الإسلامِ، وذلك أنَّ السّائلين منَ المنافقين إنَّما يسألون عن حالِ أقرانِهم منَ المنافقين اطْمئنانًا في عدم التَّأثُّرِ، وعن حال المؤمنين تهكُّمًا، فإنَّ نزولَ القرآن يؤثّرُ ابتداءً في إيمان المؤمن، وهو المُعتبَرُ عند النّزول، كما قالَ تعالى: ﴿۞قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّاۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْۖ﴾ [الحُجرات: 14]، فالإيمانُ والزِّيادةُ فيه هي من سِمات المؤمنين، وأمّا إيرادُ الزِّيادةِ هنا في حقِّ المنافقينَ مع أنَّه لا إيمانَ فيهم أصلًا إنَّما هو باعْتبارِ اعْتقادِ المؤمنين[2] الَّذي قالَ اللّه فيهم في الآية نفسِها: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ وباعْتبار أنَّ قولَ المنافق ﴿أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/65.

(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السليم: 4/113.

﴿إِيمَٰنًا﴾ تشكيكٌ في كوْنِ السّورة تزيدُ منَ الإيمان، وتشكيكٌ كذلك في القرآنِ وأنَّه من عندِ اللّه.

بَلاغةُ النَّظْمِ في تركِ ذكْرِ الجوابِ، وتضْمينِ الكلام الإجابةَ:

قد يَطوي القرآنُ جوابَ سؤالٍ مذكورٍ، مُسارَعةً في بيانِ المقصودِ وتوضيحِ المطلوبِ

لَمّا كان سياقُ الآية عن سؤالِ بعض المنافقين عند إنزال سورةٍ منَ القرآن: أيُّكم زادتْه هذه إيمانًا؟! إمّا على قولِ بعضِ المنافقين لبعضٍ، ومقصودُهم تثبيتُ قومِهم على النِّفاق، وإمّا أنَّ ما يقولونَه هو لأقوامٍ منَ المسلمين، وغرضُهم صرفُهُم عنِ الإيمان، وإمّا أنَّ ما ذكروه هو على وَجْهِ الهُزءِ، والكلُّ مُحتَمَلٌ، والنَّظمُ لم يذكرْ جوابًا على ذاك السُّؤال؛ لأمرين: الأوَّلُ إعراضًا عنهم وتهوينًا لشَأنِهم وشأنِ سؤالِهم القائمِ على التَّشكيكِ والاسْتهزاء. والآخرُ: أنَّ الأهمَّ من جوابِهم على سؤالِهم، هو النّتيجةُ المُتوخّاةُ والخبرُ الفصلُ المفيدُ، ولذلك جاءَ الجوابُ منَ اللّه تعالى في تصويرِ أثرِ ما يحصُلُ من نُزولِ سورةٍ من سوَرِ القرآن، وهو ينتظمُ في وجهَيْن: الوجه الأول، وفيه أمران: الأوَّلُ: أنَّها تزيدُ المؤمنين إيمانًا؛ بقولِه تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ إذْ لا بدَّ عند نُزولِها من أن يُقِرّوا بها ويعترِفوا بأنَّها حقٌّ من عندِ اللّه، والأمرُ الآخرُ: ما يحصُلُ لهم منَ الاستبشارِ بقوله: ﴿وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾، وهو إمّا اسْتبشارٌ بثوابِ الآخرة، أوِ اسْتبشارٌ بما يحصُلُ في الدُّنيا منَ النَّصرِ والظَّفَر، أو اسْتبشارٌ بزيادةِ الثَّواب بزيادةِ التَّكاليف. والوجهُ الثّاني: وفيه أمران: الأوَّلُ أنَّها تزيدُ المنافقين رِجْسًا إلى رِجْسهم، أي: كفرًا إلى كفرِهم، وسوءَ خُلُقٍ إلى سوءِ خُلُقِهم، والأمرُ الآخرُ: أنَّهم يموتونَ على كفرِهم، وهذه الحالةُ أسوأُ الحالات، فهي عبارةٌ عن مُداومةِ الكفرِ وموتِهم عليه، وكلاهما مُضَمَّنٌ في الخبر: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾[1].

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 16/174.

معنى الفاءِ في لفظ ﴿فَأَمَّا﴾:

الفاءُ في قولِه تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ للتَّفريعِ المفيدِ للتَّقسيمِ على اسْتفهامِ المنافقين[1]، وفيه تقريعٌ لهؤلاء المنافقين المُستهزئين، بأنّ الأمرَ جدُّ خطيرٍ، فإمّا قلبًا مؤمنًا يتلقَّى القرآنَ عند نزولِه، فيزدادُ إيمانًا، وإمّا قلبًا مريضًا لا يؤمنُ بهذا القرآن، فيزدادُ رجْسًا إلى رجْسِه.

تفريعٌ عن استهزاء المنافقين، بكوْنِهم نوعين إمّا قلبًا صحيحًا مؤمنًا، وإمّا قلبًا مريضًا

بَلاغةُ أسلوبِ الحكيمِ في سياق الآيةِ الكريمِ:

قولُه تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، وفيه حَمَلَ النَّظمُ اسْتفهامَ المنافقينَ على ظاهرِ حالِه وصَرَفَه عن مقصدِهم منه، وتلكَ طريقةُ الأسلوبِ الحكيم، وهو تَلَقِّي المُخاطَبِ بغيرِ ما يترقَّبُ بحملِ كلامِه على خلافِ مُرادِه لِنُكتةٍ، وهي إبْطالُ ما قصدوهُ من نفْيِ أنْ تكونَ السّورةُ تزيدُ أحدًا إيمانًا، قياسًا على أحوالِ قلوبِهم، فأُجيبَ اسْتفهامُهم بهذا التَّفصيلِ المتفرِّعِ عليه، فأثبتَ أنَّ للسّورةِ زيادةً في إيمانِ بعض النّاسِ، وأكثرَ منَ الزِّيادة، وهو حصولُ البُشرَى لهم. وارْتَقَى في الجوابِ عن مقصدِهم منَ الإنكارِ بأنَّ السّورةَ ليست مَنفيًّا عنها زيادةٌ في إيمانِ بعضِ النّاسِ فقط؛ بل الأمرُ أشدُّ إذْ هي زائدةٌ في كُفرِهم، فالقسمُ الأوَّلُ المؤمنونَ زادتْهم إيمانًا، وأكْسَبَتْهم بُشرَى فحصلَ منَ السّورةِ لهم نفعانِ عظيمان، والقسمُ الثّاني الَّذين في قلوبهم مرضٌ زادتْهم رِجْسًا إلى رِجْسِهم وماتوا وهم كافرون[2].

الحوارُ الحكيمُ هو إبقاءُ كلامِ الخصْمِ، وتلقينُه الحقَّ، بإلزامٍ قويمٍ

معنَى ﴿فَأَمَّا﴾ في سياق الآيةِ الكريمةِ:

قولُه تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، نجدُ ﴿فَأَمَّا﴾ حرفَ شرطٍ وتفصيلٍ وتوكيد، يتضمَّنُ معنى الجزاء، وتلزمُ الفاءُ في جوابِه،

الاغتدادُ بكلامِ اللهِ تعالى، وما دونَه ممّا يُخالِفُه فمتروكٌ مَرذولٌ

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/529، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/65.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/65.

كما في قولِه هنا: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنًا﴾[1]، وكأنَّ الآيةَ تقولُ: دَعْ أيُّها القارئُ أوِ السّامعُ كلامَ المنافقين وسُخريتَهم بنزولِ سورِ القرآن، وأنَّها لا تزيدُ إيمانَ أحدٍ، وخُذِ الحقيقةَ النّاصعةَ الخالدةَ من جوابِ ربِّ العالمين: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنًا وَهُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ﴾، ثم ذكرتِ الصِّنفَ الآخرَ منَ المنافقين، لبيانِ أنَّهم صنفان، تفصيلًا وتوكيدًا لحالِ الفريقين منَ الاختلافِ البيِّنِ.

نُكتةُ اسْتعمالِ الموصولِ ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾:

الاحتراسُ من دخولِ كلِّ المؤمنين في الظّاهرِ، في حيِّزِ الثّناءِ

جاءَ الجوابُ عن سؤالِ المنافقين: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ باسْتعمالِ الاسمِ الموصولِ ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بدلَ أن يُقال: (المؤمنون)؛ لتعيينِ المؤمنين بأنَّهم الذين آمنوا باللّه تعالى ورسخ إيمانُهم في قلوبِهم، فهم معروفون بصفاتِهم وأحوالِهم وسُلوكيّاتِهم، فلا يدخلُ في ذلك كلُّ من أطلق على نفسه مسمّى الإيمان؛ لأنَّ بعضَ مدّعي الإسلام يُظهرُ الإيمانَ ويُخفِي الكفرَ، فكان ذكرُ ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ دون (المؤمنين)؛ للاحتراسِ من دخولِ جميعِ المؤمنين في الظّاهر، وللمفارقةِ بين الفريقَين، وهو "وصفٌ فيه تعيينٌ لحالهم عاجلًا وآجلًا"[2]، بما يَكشِفُ عن زيادةِ الإيمانِ في قلوبهم في الدُّنيا، واسْتبشارِهم بما فيه الخيرُ لهم في الآخرة، وبما انْطوى عليه ذلك منَ الثَّناءِ عليهم بإيمانهم.

فائِدةُ اسْتعمالِ صيغةِ الماضي، بدلًا منَ المضارعِ في السّياق:

الزِّيادةُ الإيمانيَّةُ، لا تكونُ إلّا بعْدَ تحقُّقِ الإيمانِ في القلوبِ

قولُه تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، أفادَ اسْتعمالُ صيغة الماضي، في قولِه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، تحقُّقَ الإيمانِ في قلوبِهم وثباتَهم عليه، وتحقيقًا للحقِّ الَّذي التزَموا به في حياتِهم[3]، وهو إيماءٌ إلى

(1) الفيروزاباديّ، القاموس المحيط: (أمم)، وعبد الغني أبو العزم، المعجم الغني: (أمّا).
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السليم: 2/618.
(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/618.

أنَّ زيادةَ الإيمانِ لا تكون إلّا لمن كانت عنده قاعدتُه، وثبتتْ في قلبِه أصولُه.

معنَى الفاءِ في لفظ ﴿فَزَادَتْهُمْ﴾:

الفاءُ في قولِه تعالى: ﴿فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ رابطةٌ لجوابِ الشَّرطِ، وهي تفيدُ الإثباتَ والتَّأكيدَ في زيادةِ الإيمانِ للمؤمنين بزيادةِ العلْمِ اليقينيِّ الحاصلِ من سماعِ سورِ القرآنِ والتَّدبُّرِ فيها والوقوفِ على ما فيها منَ الحقائقِ وانْضمامِ إيمانِهم بما فيها بإيمانِهمُ السّابق[1].

تلقِّي القرآنِ، كفيلٌ بزيادةِ الإيمانِ في قلوبِ المؤمنين

بَلاغةُ الجملةِ الحاليَّة، المُصدَّرةِ بواو الحال، في الإخبارِ عنهم:

الجملةُ الحاليَّةُ ﴿وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾، جمعتْ مع الواوِ الحاليَّةِ الضَّميرَ المنفصلَ ﴿وَهُمْ﴾، وهو مبتدأٌ، والفعلَ المضارع ﴿يَسْتَبْشِرُونَ﴾ الَّذي يُفيدُ التَّجددَ والاسْتمرارَ، وهو خبرُ المبتدأ، فكانت مُكوِّناتُ الجملةِ مع اسْميَّتِها تعبيرًا على تحقّقِ حصولِ البُشرى للمؤمنين في الدُّنيا والآخرة، بما زادتْهم منَ الخيرِ الباقي الَّذي لا يَعدِلُه شيءٌ[2].

بيانُ الإيقانِ بحصولِ البُشرى للمؤمنين، في الدُّنيا وفي يومِ الدّين

تَقويةُ الحُكمِ الإسْناديِّ في الجُملة الاسميّة:

أفادَ تقديمُ المسنَدِ إليه مع مجيءِ المُسندِ فعلًا تقويةً للحُكم، فلَما أثبتَتِ الآيةُ أنَّ للسّورةِ زيادةً في إيمانِ بعضِ النّاس، أضافَ ما هو أكثرُ منَ الزِّيادة، وهو حصولُ البُشرى لهم، فكانَ نفعانِ عظيمانِ أحدُهما مبنيٌّ على الآخر، فالبُشْرَى بُنيتْ على زيادةِ الإيمان، وهي ليست بُشرى مؤقَّتةً؛ بل هي متجدِّدةٌ مستمرَّةٌ حتَّى إنَّها صَبغَتْ حالَهم فأصبحَ قائمًا على البُشرَى والاسْتبشار[3].

البُشْرَى بُنيتْ على زيادةِ الإيمان، واستحكمتْ بأصحابِها بإيقانٍ

سِرُّ التَّعبيرِ بلفظ ﴿يَسْتَبْشِرُونَ﴾:

جاءَ التَّعبيرُ بالاسْتبشارِ في قولِه تعالى: ﴿وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾، دونَ الإيمانِ فلم يقلْ: (وهم مؤمنون)، كما جاء في فاصلةِ الآيةِ الَّتي

ذكْرُ الاستبشارِ لبيانِ فضلِ الله تعالى على المؤمنين، من قَبولِ الإيمانِ بذكْرِ ثَمرتِه

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/619، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/65.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 9/51، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/65.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/65.

تَليها ﴿وَهُمۡ كَٰفِرُونَ﴾، فتقعُ المقابلةُ؛ لأنَّ زيادةَ الإيمانِ، حاصلةٌ عند سماعِ القرآنِ وتدبُّرِه، والأَرْجَى من مُجرَّدِ زيادةِ الإيمانِ، بيانُ حالٍ زائدةٍ على زيادةِ الإيمان، وهو الاسْتبشارُ الَّذي هو أثرٌ لزيادةِ الإيمان، محفِّزٌ لأخذِ الأسبابِ الموصلةِ إليه، بما تُحقِّقهُ منَ السَّكينةِ والطُّمأنينة، فأصبحَ في مقابَلةِ حالِ ﴿وَهُمۡ كَٰفِرُونَ﴾، قولُه: ﴿وَهُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ﴾، فهو ارْتقاءٌ لأهلِ الإيمانِ ورفعٌ لحالِهم[1]، وهذا من فضلِ اللّه على المؤمنين، ولو قال: (وهم مؤمنون)، لمراعاة المقابلةِ لما أفاد هذه النّكتةَ البديعةَ، منَ الإفضالِ على المؤمنين، بذكْرِ الاستبشار بعْدَ الإيمان، فهو ذكْرٌ لثمرةِ الإيمانِ، لتكونَ دليلًا على قَبولِ الإيمانِ.

نُكتةُ التَّعبيرِ بصيغةِ المضارعِ ﴿يَسۡتَبۡشِرُونَ﴾:

ساقَتِ الآيةُ الحديثَ عنِ اسْتبشارِ المؤمنينَ بصيغةِ المضارع؛ لأنَّها تُفيدُ التَّجدُّدَ والاسْتمرارَ في اسْتبشارِهم بعدَ زيادةِ الإيمانِ بسماعِهم القرآنَ، فأصبحَ حالُهم على شاكلةِ الاسْتبشارِ الدّائمِ الَّذي لا ينقطعُ[2]، وفيه إيماءٌ إلى أنَّ الاستبشارَ مستمرٌّ معهم بحيث يموتون وهم كذلك، فتَحسنُ المقابلةُ مع قولِه تعالى في الآيةِ اللّاحقةِ: ﴿وَمَاتُواْ وَهُمۡ كَٰفِرُونَ﴾، فالمؤمنون يموتون وهم يَستبشرون، والمنافقون يموتون وهم كافرون.

الإيماءُ إلى أنَّ المؤمنين يَستبشِرون عند المماتِ، لِما وُعِدوا به منَ النّعيم فيما هو آتٍ

دَلالةُ زيادةِ حرفَيِ السِّينِ والتّاءِ في لفظ ﴿يَسۡتَبۡشِرُونَ﴾:

الاسْتبشارُ: أَثَرُ البُشرَى في النَّفْس، فالسِّينُ والتّاءُ للتَّأكيدِ، أي: تأكيدُ حصولِ الاسْتبشارِ وتمكُّنِه منهم[3]، فهو استبشارٌ صادرٌ عن وعدِ اللّه تعالى بتحقُّقِه، ومقتضى التَّوكيدِ أن يثبتَ في نفوس

تأكيدُ حصولِ الاسْتبشارِ في نفوس المؤمنين، مَقصدٌ في الآية، للبيانِ المُبِينِ

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 9/52.
(2) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 2/222.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/66.

المؤمنين ما وعدَهم اللّه تعالى صِدقًا وحقًّا، وتوكيدًا في الإخبارِ عن وقوعِه للمؤمنين.

فائدةُ حذْفِ مُتعلَّقِ الفعلِ ﴿يَسْتَبْشِرُونَ﴾:

لم يُذكرْ مُتعلَّقُ فعلِ الاسْتبشارِ في قولِه تعالى: ﴿وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ إمّا ليُفيدَ العمومَ، أي: عمومَ الاسْتبشارِ ببشائرِ الدُّنيا والآخرةِ من ظهورِ الدِّين والنَّصرِ والتَّمكينِ وغيرِ ذلك منَ البشائرِ في الدُّنيا، ومن مغفرةِ الذُّنوبِ والرَّحمةِ الواسعةِ ودخولِ الجنّاتِ ونيْلِ النَّعيمِ والمكرُماتِ في الآخرة، وهي على الإجمالِ تنتظمُ بما تضمَّنتْهُ من رحمةِ اللّه ورِضوانِه[1]، وإمّا لتنزيل الفعْلِ المُتعدّي منزلةَ الفعْلِ اللازمِ، أي: أنَّ أحوالَهم وسلوكَهم هو الاستبشارُ، وإمّا أن يُحملَ على تقديرٍ خاصٍّ وهو؛ وهُم يَستبشرون بجنّات النَّعيمِ ورضوانِ ربِّ العالمين، باعتبارِه غايةَ المؤمن في هذه الحياة.

الحذفُ أبلغُ منَ الذِّكرِ، لتضمُّنِه معانيَ مقصودةً، لا تتحقَّقُ إلّا بالحذْفِ

دَلالةُ العطفِ، في جُملةِ توطُّنِ المرضِ في قلوبِهم:

جاءَ العطفُ في قولِه تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ على الجملةِ الأولى بعدَ فاءِ التَّفريعِ ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾، تتمَّةً للتَّفريعِ السّابقِ، مُغايرًا لما عُطِفَ عليه، فهنا حديثٌ عنِ المنافقين، وهناك حديثٌ عنِ المؤمنين[2]، وبالمعطوفَين يتحقَّقُ الموقفُ من إنزال سورِ القرآن وآياتِه، فالمُتظاهِرون بالإسلام ليسوا جميعًا بمؤمنين على الحقيقةِ، فغرضُ العطفِ بيانُ أنَّ المجتمعَ المسلمَ ليس هو المجتمعُ المؤمنُ، وأنَّ على المجتمعِ المؤمنِ أن يحذرَ من مُكوِّنات المجتمعِ المسلمِ، حتى يتباين الرِّجالُ، وتَتَبَيَّنَ الأحوالُ.

لا يَظهرُ الحقُّ إلّا بعد تبايُنِ الرِّجالِ، واختبارِ الأحوالِ

نُكتةُ التَّعبيرِ بحرفِ الظَّرفيَّةِ (في):

قولُه تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾، وفيه عُبِّرَ بحرفِ

إذا تغلغلَ النِّفاقُ في القلوبِ، طالَ العلاجُ، واستعصَى الشِّفاءُ المطلوبُ

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/529، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/66.

(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/529.

الظَّرفيَّةِ ﴿فِي﴾ في قولِه تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ لبيانِ تَغَلْغُلِ النِّفاقِ في مَكْنونِ قلوبِ أصحابِه، حتَّى أصبحتْ قلوبُهم مَسْكنًا لتلك الآفةِ، فمنَعَهم ذلكَ منَ الإيمان، ومكَّنَ فيهم دعائمَ الكُفْران[1]، فبيَّن هذا الحرفُ أنَّ علاجَ الأمراض يحتاجُ إلى مُكنةٍ وطولِ زمانٍ.

فائِدةُ جمعِ ﴿قُلُوبِهِم﴾:

قولُه تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾، جاءَ التَّعبيرُ بجمعِ القلوبِ، في هذه الآية الكريمةِ، وذلك للدّلالةِ على أنَّ المنافقين مُتباينون في درجة نفاقِهم، فهم ليسوا على درجةٍ واحدةٍ، وأنَّ النِّفاقَ وإن تغلْغلَ فيها إلّا أنَّه بنِسبٍ مُتباينةٍ، هذا من جهةٍ، ومن جهةٍ أخرى، لبيانِ أنَّ مَرَضَ النِّفاقِ قدِ اسْتَشْرَى في قلبِ كُلِّ واحدٍ منهم، فهي دَلالةٌ تنتظمُ كلَّ فَرْدٍ على جهةِ العُموم، أي: في قلوبِ الجميعِ، ولبيانِ أنَّهم مع اشْتراكِ قلوبِهم في هذا المرضِ، فهم ليسوا على قَلْبٍ واحدٍ؛ بل لكلِّ واحدٍ منهم أطماعُه ومصالحُه الخاصَّةُ به يُخالفُ فيها غيرَه من أهلِ ملَّتِه، وهذا على شاكلةِ قولِ اللّه تعالى في اليهود: ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ﴾ [الحشر: 14][2].

تمكُّنُ النِّفاقِ في قلوبِ المنافقين، لا يَعني إلّا أنّ قلوبَهم شتّى

نُكتةُ التَّعبيرِ بلفظِ ﴿مَّرَضٌ﴾:

قولُه تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾، وردَ التَّعبيرُ بلفظِ ﴿مَّرَضٌ﴾ دونَ نفاقٍ، مع أنَّ المرادَ به النِّفاقُ؛ لأنَّ المرادَ بالمرضِ في هاته الآيةِ، هو معناه المجازيُّ لا محالةَ؛ لأنَّه هو الَّذي اتَّصفَ به المنافقون، وهو المقصودُ من مَذَمَّتِهم وبيانِ مَنْشأِ مَساوي أعمالِهم[3]، ولهذا التَّعبيرِ نكتةٌ وهو بيانُ أنَّ النِّفاق الموصوفَ بأنَّه مرضٌ يتطلّبُ العلاجَ، فما من مرضٍ إلّا وله علاجٌ، وبه تظهرُ القيمةُ الهدائيَّةُ في شأنِ علاجِ المنافقين.

لكلِّ مرضٍ علاجٌ، وقيمةُ الهدايةِ، في علاجِ النِّفاقِ، واضحةٌ جليّةٌ

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 9/51.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 1/97، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 16/174.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/279.

غرَضُ تنكيرِ لفظ ﴿مَّرَضٌ﴾:

قولُه تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾، وفيه جاءتْ كلمةُ ﴿مَّرَضٌ﴾ نكرةً؛ لإفادةِ النَّوعِ، فهو مرضٌ ذو نوعٍ خاصٍّ لا يكونُ إلّا بأسبابٍ روحيَّةٍ، وعللٍ إيمانيَّةٍ، فالمرضُ الموجودُ في قلوبِهم نوعُ مرضٍ يكونُ نطفةً للأمراضِ الأُخَر، وبذرًا للآلامِ الكثيرةِ المترتِّبةِ عليه، الموجبةِ للزِّيادةِ والنُّموّ، أي: يدلُّ التَّنكيرُ على أنَّ جميعَ أجناسِ المرضِ في قلوبِهم، فهو تنكيرُ تنويعٍ أو تكثيرٍ[1].

ويُمكنُ أنْ تكونَ دَلالةُ النَّكرةِ في ﴿مَّرَضٌ﴾ على ما وُضعتْ له، أي: هي دَلالةٌ على طريقةِ البَدَل؛ لأنَّها دَلالةٌ تنتظمُ كلَّ فَرْدٍ فَرْدٍ على جهةِ العُموم[2].

قلوبُ المنافقين مُصابةٌ بأمراضٍ كثيرةٍ، أبرزُها النِّفاقُ، الّذي هو من أبشعِ الأخلاقِ

دَلالةُ الاكْتفاءِ بالمفردِ في ﴿مَّرَضٌ﴾:

اكتَفَى النَّظمُ بإيرادِ لفظِ ﴿مَّرَضٌ﴾ مُفردًا دون جمعِه؛ لأنَّ تَعْدادَ المُحالِ يَدُلُّ على تَعْدادِ الحالِ عَقْلًا[3]، وكذلكَ فإنَّ النّاشئَ عن مرضِ النِّفاق والزّائدَ فيه هو زيادةُ ذلكَ النّاشئِ؛ أي: تأصُّلُه وتمكُّنُه وتولُّدُ مَذمّاتٍ أُخرَى عنه[4]؛ فالآيةُ أشارت إلى مرضٍ خاصٍّ هو أصلُ كلِّ الأمراضِ الأُخرى.

مرضُ النِّفاقِ أصلٌ لتولُّدِ أمراضٍ أُخرَى، تعصفُ بالإنسانِ في كلّ آنٍ

نُكتةُ تَعْدِيَةِ الزِّيادَةِ إِلَيْهِم لا إِلَى الْقُلوبِ، في سياقِ الآيةِ الكريمةِ:

قولُه تعالى: ﴿فَزَادَتْهُمْ﴾، يَحْتَمِلُ وَجْهَيْنِ: أَحدُهما: أَنْ يَكونَ على حَذفِ مُضافٍ، أَيْ فَزادَتِ السّورةُ قُلوبَهُم رِجسًا، والثّاني: أَنَّها زادَت ذَواتَهُم رِجسًا؛ لِأَنَّ مَرَضَ القَلْبِ مَرَضٌ لِسائِرِ الجَسَدِ، وقَبولُه - إِثْرَ ذلك - كلَّ خبيث، فَصَحَّ نِسْبَةُ الزِّيادَةِ إِلَى الذَّواتِ، ويكونُ ذلك تَنْبيهًا عَلَى أَنَّ في ذَواتِهِم مَرَضًا ورِجسًا، وَإِنَّما أضافَ ذَلِكَ إِلَى قُلوبِهِم لِأَنَّها مَحلُّ الإِدْراكِ والعَقلِ[5].

مرضُ القلبِ مرضٌ لسائرِ الجسدِ، الّذي يقبلُ بالمرضِ كلَّ خبيثٍ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/281.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 1/97.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 1/97.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/281.
(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 1/97.

نُكتةُ اخْتيارِ لفظِ (الرِّجْس)، في السّياق الحكيمِ:

الرِّجسُ خبيثٌ جسيمٌ، مآلُ صاحبِه العذابُ العظيمُ

قولُه تعالى: ﴿فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾، الرِّجْسُ هنا الكُفْرُ، وأَصْلُهُ الشَّيءُ الخَبيثُ، كما في قولِه تعالى: ﴿رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ [المائدة: 90]، وفيه بيانُ حقيقةِ ما انْطوتْ عليه قلوبُ المنافقينَ منَ الكُفر، والرِّجْسُ يأتي بمعنَى العذاب، وكأنَّ الآيةَ تُشيرُ بهذا إلى ما سيؤدِّي إليه نفاقُهم منَ العذاب[1]، كما قالَ تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾﴾ [الأنعام: 125]، فذكرَ الرِّجسَ إيماءً إلى العذاب الذي اكتسبوه بأفعالِهم ونفاقِهم وكفرِهم باللّه تعالى، فهي إشارةٌ إلى أنَّهم على عملٍ خبيثٍ، يستحقُّ العذابَ، فيكونُ ذكْرُ الرِّجس بمعنى العذابِ من بابِ التَّنبيه على السّببِ وهو النِّفاقُ بلفظِ المآل وهو الرّجسُ، مع بيان أنَّهم خبثٌ يُحيطُ بهم، فاجتمع لهذه المُفردة تلك المعاني البديعةُ، بجلال الاستعمالِ، وكمال الاستخدامِ.

غرَضُ تنكيرِ لفظ ﴿رِجْسًا﴾:

إرادةُ عمومِ كلِّ ما يقعُ تحتَ كلمةِ الرِّجْس، من معاني البيانِ في الآيةِ

قولُه تعالى: ﴿فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾، وفيه جاءَ لفظُ (الرِّجْسِ) نكرةً ﴿رِجْسًا﴾؛ وذلك لإفادةِ العموم، فهي تعني كلَّ ما ينْطوي تحتها من معاني الكُفر، والقَذَر، والعذابِ، وكلَّ ما عَظُمَ اسْتنكارُه شرعًا وعقلًا[2]، فهمُ ازدادوا كفرًا وعذابًا وخبثًا، وبه استحقّوا الاستزادةَ منَ العذابِ يومَ القيامةِ.

بَلاغةُ ذكْرِ قَيْدِ ﴿إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾:

الأعمالُ الباطلةُ تزدادُ مع الوقت اسْتحكامًا، والحذَرُ منها ضروريٌّ

سيقَ قَيْدُ ﴿إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾ في قولِه تعالى: ﴿فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾، ولم يَرِدْ هذا في الحديثِ عنِ المؤمنين؛ فلم يقل: فزادتهم إيمانًا إلى إيمانِهم؛ لأنَّ المرادَ زادتْهم كُفرًا إلى كفرِهم؛ لأنَّهم كُلَّما جدَّدوا بتجديدِ اللّه الوحْيَ كُفْرًا ونفاقًا ازدادَ كُفرُهم واسْتحكمَ

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/529، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/66.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/529.

وتضاعفَ عقابُهم، وعذابُهم متجدِّدٌ عليهم في كلِّ وقتٍ في الدُّنيا والآخرة، فلمّا ازدادَ الكفّارُ رِجْسًا من أجلِ كفرِهم بالسّورةِ، كانت كأنَّها هي الَّتي زادتْهم، وفيها إشارةٌ إلى أنَّ الأعمال الباطلةَ تزداد مع الوقتِ استحكامًا؛ فإن لم ينتبهِ الإنسانُ لنفسِه، سقط في فكِّ نفسِه، وأمّا المؤمنون فإيمانُهم أصلٌ ثابتٌ راسخٌ مُستقِرٌّ في قلوبِهم[1]، فلا داعيَ لذكْرِه، ولا التَّنبيهِ عليه؛ فهو من فضلِ اللّه على عبادِه، بخلاف المنافقين فالتَّنبيهُ على وجود الرِّجسِ أصلًا تابعٌ لقاعدة العدلِ الإلهيّ؛ فإنَّ اللّه تعالى لا يُحاسِبُ عبادَه إلّا بما اقترفتْه أيْدِيهم.

نُكتةُ تعْدِيةِ ﴿فَزَادَتْهُمْ﴾، بحرفِ ﴿إِلَىٰ﴾:

التَّهكُّمُ بمن يَستزيدُ عذابًا إلى عذابِه

في قولِه تعالى: ﴿فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾ تعدَّى الفعلُ ﴿فَزَادَتْهُمْ﴾ بـ ﴿إِلَىٰ﴾؛ وذلك لأنَّ الفعلَ (زادَ) قد ضُمِّنَ معنَى الضَّمّ، أي: فضمَّتْ كفرًا جديدًا إلى كفرِهم الأصليِّ[2]، ولم يقل: (فزادتهم رجْسًا مع رجْسِهم) وذلك لبيانِ أنَّ الرِّجس المُزادَ، أُضيف على الرِّجس السّابقِ، تنبيهًا أنَّ القومَ يجمَعون أرجاسَهم، ويَستزيدون من عذابِهم، ففيه معنى التَّهكُّم بهم، مُقابَلًا للتَّهكم الواردِ في ثنايا سؤالِهم: ﴿أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا﴾؟ وهذا من لطيفِ الرَّدِّ الضِّمنيِّ على المنافقين.

فنُّ الازْدواجِ بين: ﴿وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ و ﴿وَمَاتُواْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾:

البِشارةُ للمؤمنينَ الرّاسخين، مُقابِلَ الموتِ على الكُفرِ للمنافقين الضّالّين

قوبِل قولُه تعالى: ﴿وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾، في جانبِ المؤمنين، بقولِه تعالى: ﴿وَمَاتُواْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾، بجانبِ المنافقين تحسينًا بالازْدواج، بحيث كانت للسّورةِ فائدتانِ للمؤمنين، ومُصيبتانِ على المنافقين، فجُعِلَ موتُهم على الكُفْرِ المُتَسبِّبِ على زيادةِ السّورةِ في كُفْرِهم،

(1) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 2/222، والبقاعي، نظم الدُّرر: 9/52، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السليم: 2/219.

(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/529، وابن عاشور، التّحرير والتَّنوير: 11/66.

بمَنزِلةِ مُصيبةٍ أُخرى غيرِ الأولى، وإنْ كانتْ في الحقيقةِ زيادةً في المصيبةِ الأولى، وهذا وجهُ نظمِ الآيةِ، على هذا النَّسَجِ المُحكَمِ، وفيه ما فيه من البلاغةِ والبديع[1].

بَلاغةُ الجملةِ الحاليَّةِ ﴿وَهُمۡ كَٰفِرُونَ﴾:

بيانُ استصحابِ المنافقين، حالةَ الكفرِ والموتَ عليه

جاءتِ الجملةُ ﴿وَهُمۡ كَٰفِرُونَ﴾ حاليَّةً للدَّلالةِ على اسْتحكامِ هذه الحالةِ الَّتي هم عليها وهي الكفرُ، فكانت مصاحبةً لهم متمكِّنةً منهم إلى أن ماتوا عليها[2]، وفيه أنَّ حالَ الكفرِ لم ينفكَّ عنهم في جميعِ أعمالِهم، ممّا يزيدُ التَّوبيخَ لهم والتَّعنيفَ عليهم، فهمُ ازدادوا رجْسًا وماتوا وهم في حال الكفرِ.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الفؤادُ والقلبُ:

القلبُ اسمٌ للجارحةِ عمومًا، والفؤاد اسمٌ لحالةِ التَّوقُّدِ خُصوصًا

الفؤادُ كالقلبِ، لكن يُقالُ له فؤادٌ إذا اعْتُبِرَ فيه معنَى التَّفؤُّد، أي: التَّوقُّد، يُقالُ: فَأَدْتُ اللَّحم: شويتُه، ولحمٌ فَئِيدٌ: مشويٌّ، قالَ تعالى: ﴿وَأَصۡبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًاۖ إِن كَادَتۡ لَتُبۡدِي بِهِۦ لَوۡلَآ أَن رَّبَطۡنَا عَلَىٰ قَلۡبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٠﴾ [القصص: 10]، وقال تعالى: ﴿مَا كَذَبَ ٱلۡفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ١١﴾ [النَّجم: 11]، وقال تعالى: ﴿نَارُ ٱللَّهِ ٱلۡمُوقَدَةُ ٦ ٱلَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى ٱلۡأَفۡـِٔدَةِ ٧﴾[3] [الهمزة: 6 - 7].

والقلبُ: اسْمٌ للجارحة، وسُمِّي به؛ لأنَّه وُضِعَ في موضعِه منَ الجَوْف مقلوبًا، وهو عُمدةُ البدن، والأفئدةُ توصَفُ بالرِّقَّة، والقلوبُ باللّين؛ لأنَّ الفؤادَ غشاءُ القلب، إذا رقَّ نفذ القولُ فيه وخَلُصَ إلى ما وراءه، وإذا غَلُظَ تعذَّر وصولُه إلى داخله، وإذا صادفَ القلبُ شيئًا علقَ به إذا كان ليِّنًا[4].

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/66.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 9/52، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/619.
(3) الرّاغب، المفردات: (فأد)، والجرجانيّ، التَّعريفات، ص: 189.
(4) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 433، والكفويّ، الكلِّيّات: 3/41، 4/5.

وقلبُ الإنسانِ سُمِّيَ به لكثرةِ تقلُّبِه، ويُعبَّرُ بالقلبِ عنِ المعاني الَّتي تختصُّ به منَ الرّوحِ والعلمِ والشَّجاعةِ وغيرِ ذلك، كما في قولِه تعالى: ﴿وَبَلَغَتِ ٱلۡقُلُوبُ ٱلۡحَنَاجِرَ﴾ [الأحزاب: 10]، أي: الأرواح، وقولِه تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكۡرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلۡبٌ﴾ [ق: 37] أي: علمٌ وفَهمٌ، وقولِه تعالى: ﴿وَلِتَطۡمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمۡۚ﴾ [الأنفال: 10]، أي تثبُتَ به شجاعتُكم ويَزولَ خوفُكم[1].

الرِّجْسُ والرِّجْزُ:

الرِّجْسُ: الشَّيءُ القَذِر، قالَ تعالى: ﴿رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾، والرِّجْسُ يكونُ على أربعةِ أَوْجُه: إمّا من حيث الطَّبعُ، وإمّا من جهةِ العقلِ، وإمّا من جهة الشَّرعِ، وإمّا من كلِّ ذلك كالمَيْتةِ، فإنَّ الميتةَ تُعافُ طبعًا وعقلًا وشرعًا. ويُطلقُ الرِّجْسُ على النَّتن، كقولِه تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُشۡرِكُونَ نَجَسٞ﴾ [التَّوبة: 28].وقيل: رِجْسٌ ورِجْزٌ للصَّوتِ الشَّديد[2].

الرِّجْسُ كلُّ ما اسْتقذَرَه الشَّرعُ أوِ العقلُ أوِ الطَّبعُ، والرِّجزُ يكثرُ في العقوبةِ والكفر

وأمّا الرِّجزُ فأصلُه الاضْطرابُ، ومنه قيل: رَجَزَ البعيرُ رَجَزًا، فهو أَرْجَزُ، وناقةٌ رَجْزاءُ: إذا تقاربَ خَطْوُها واضْطَرَبَ لضَعفٍ فيها. والرِّجْزُ: الزَّلْزَلة، كما في قولِه تعالى: ﴿عَذَابٞ مِّن رِّجۡزٍ أَلِيمٞ﴾ [سبأ: 5].

وقولُه تعالى: ﴿وَٱلرُّجۡزَ فَٱهۡجُرۡ﴾ [المدَّثر: 5]، يُقرأ بكسر الرّاء وضمّها. فمَن كسر أراد: الشرك، ومؤدّاه العذاب، ومن ضمّ الرّاء، فقيل: هو صَنَمٌ[3]، وقيل: هو كنايةٌ عنِ الذَّنب، فسمّاهُ بالمآل. وقولُه تعالى: ﴿وَيُذۡهِبَ عَنكُمۡ رِجۡزَ ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾ [الأنفال: 11]. والشَّيطانُ عبارةٌ عنِ الشَّهوةِ، ويُمكنُ أنْ يُرادَ برِجْزِ الشَّيطان: ما يدعو إليه منَ الكُفرِ والبُهتان والفسادِ[4].

(1) الرّاغب، المفردات: (قلب)، والكفويّ، الكلِّيّات: 3/41، 4/5.
(2) الرّاغب، المفردات، والفيروزباديّ، القاموس المحيط: (رجس).
(3) ابن خالويه، حجة القراءات، ص: 355.
(4) الرّاغب، المفردات، والفيروزباديّ، القاموس المحيط: (رجز).

﴿أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾﴾ [التَّوبة: 126]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الرّبطُ بين موقفِ المنافقين من إنزال القرآنِ، وفتْنَتِهم المُتجدّدةِ، دون اعتبارٍ ولا ازدجارٍ

لَما ذَكرتِ الآيتان السّابقتان موقفَ المنافقين، من إنزال القرآنِ، وأنَّهم يزدادون عراقةً في النِّفاقِ بما يكتسبونَه منَ الرِّجْسِ وازْديادِهم منه، حسُنَ الانتقالُ من بيانِ واقعِهم القلبيِّ، في الازديادِ منَ الرِّجس وثباتِ القلبِ على النِّفاق، إلى بيانِ فتنتِهم التي يُفتَنون بها في كلِّ عامٍ، من حوادثِ الزَّمان ونوازلِ الحَدَثان ممّا يضطرُّهم إلى بيانِ أخلاقِهم بإظهارِ سرائرِهم في نفاقِهم في كلِّ عامٍّ مرَّةً أو مَرَّتَيْن فيُفضَحون بذلك، وذلك موجبٌ لتوبتِهم، لكنَّهم لا يتوبون عمّا هم فيه منَ النِّفاق، بل لا يذّكّرون، وذلك بسبب رسوخِ النِّفاقِ، وثباتِ الرِّجس، فالمناسبةُ بين الآيات ظاهرةٌ في تحذير المنافقين ممّا هم عليه، بذكْرِ عدمِ انتفاعِهم بالفتن بعد ذكْرِ عدمِ انتفاعِهم بإنزالِ القرآن، فموقفُ المنافقين واحدٌ لا يتفرَّقُ.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يُفْتَنُونَ﴾: فتن: الفاءُ والتّاءُ والنّونُ أصلٌ صحيحٌ يدُلُّ على ابْتلاءٍ واخْتبار، من ذلكَ الفِتْنَةُ، يُقال: فَتَنْتُ أَفْتِنُ فَتْنًا، وفَتَنْتُ الذَّهَبَ بالنّار، إذا امتحنتُه، وهو مَفْتونٌ وفَتين، والفَتّان: الشَّيطانُ، ويُقال: فَتَنَهُ وأَفْتَنَهُ. واسْتُعمِلَ في إدخالِ الإنسانِ النّارَ، قالَ تعالى: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ ﴿١٣﴾﴾ [الذّاريات: 13]، وقالَ تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: 35][1]. ومعنى قولِه تعالى: ﴿أَوَلَا يَرَوْنَ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات: (فتن).

﴿أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ﴾ ما يتعرَّض له المنافقون منَ الفتنةِ الظّاهرةِ، التي تكشفُ حقيقتَهم لأنفسِهم وللآخرين، كما جاء ذلك في قولِه تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ﴾ [البقرة: 155][1]، فالآيةُ خطابٌ لجميع المؤمنين ظاهرًا، المؤمنِ حقيقةً والمنافقِ، فهي غِرْبالٌ لأهل الطّاعةِ والإيمانِ من أهل النِّفاقِ.

2) ﴿مَّرَّةً﴾: المرورُ هو المُضيُّ والاجتيازُ بالشّيء دون توقُّف، ويُقال لِما هو خِلافُ الحلاوة والطّيب: المُرُّ؛ فمرارةُ الشّيء تمنعُ النّاسَ منَ المُكث فيه، وسُمّي الأمَرُّ لأنّه غيرُ طيّب، ثمّ سُمِّيت بعد ذلك كلُّ شدّة وشديدةٍ بهذا البناء، يقولون: أمررتُ الحبل: فتلتُه، وهو مُمَرّ، والمَرُّ: شدّةُ الفَتْل، والمَرير: الحبلُ المفتول[2]. والمَرَّة: جُزءٌ منَ الزَّمان، وقولُهم: مرَّةً ومرَّتَيْن، كَفَعْلَة وفَعْلَتَيْن، قالَ تعالى: ﴿يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ﴾ [الأنفال: 56]، ومنه قولُه تعالى: ﴿يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ﴾ دَلالةٌ على الوقتِ والزَّمان[3]، أي: يُفتنون في كلِّ عامٍ زمانًا بنوعِ ابتلاءٍ.

❁ المَعْنى الإِجْمالِيُّ:

الآيةُ خطابٌ للمؤمنين وتعريضٌ بالمنافقين، بتنْبيهِهم على أنَّهم يعلمون أنَّهم يُفتنون ويُختبَرونَ بالسَّنةِ والجوعِ والمرضِ في كلِّ عامٍ مرَّةً أو مرَّتَيْن يكذِّبون فيهما ويضلّونَ ثمَّ لا يتوبونَ من ذنوبِهِمُ السّالفةِ، ولا هم يذَّكّرونَ فيما يُستقبلُ من أحوالِهم[4]، فالآيةُ دعوةٌ للاعتبارِ، ليحذرِ المؤمنون من مشابهتِهم، والمنافقون منَ الاستمرار فيما هم فيه منَ النِّفاق، فهي آيةٌ داعيةٌ للهدايةِ والتَّوبة والإنابةِ عن طريق التَّحذيرِ والتَّنبيهِ.

عراقةُ النِّفاقِ، تَحجبُ صاحبَها عن رؤيةِ غاياتِ الفتن، والاعتبارِ بمقاصدِ المِحن

(1) مجاهد، تفسير مجاهد: 1/289، وابن جرير، جامع البيان: 11/73، والرّاغب، المفردات: (فتن).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب: المفردات: (مرر).
(3) الرّاغب، المفردات، والرّازي، مختار الصِّحاح: (مرر).
(4) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 2/366.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

غرَضُ الاسْتفهام، في سياق التّساؤلِ عن فتنة النّفاقِ:

الاسْتدلالُ على ازْديادِ كُفرِ المنافقين، وتمكُّنِه منهم في كلّ حينٍ

قولُه تعالى: ﴿أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ﴾، الاسْتفهامُ فيه للإنكارِ والتّعجيب، لعدمِ رؤيتِهم فِتنتَهم الّتي لا تعقُبُها توبتُهم، ولا تُذكِّرهم أمرَ ربِّهم، والغرضُ من هذا الإنكارِ، هو الاسْتدلالُ على ما تقدَّمَ من ازْديادِ كُفرِ المنافقين، وتمكُّنِه كلَّما نزلَتْ سورةٌ منَ القرآنِ، بإيرادِ دليلٍ واضحٍ، ينزِلُ منزلةَ المحسوسِ المرئيِّ، حتَّى يتوجَّهَ الإنكارُ على مَنْ لا يراه[1].

معنَى الواوِ، وتقديرُ المعطوفِ عليه: ﴿أَوَلَا﴾:

التّقديرُ من ثراءِ اللّغة، وتنوُّعِ معانيها ودَلالاتِ تراكيبِها

قولُه تعالى: ﴿أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ﴾، الواوُ الآتيةُ بعد همزة الاستفهام، في قوله تعالى: ﴿أَوَلَا﴾ للعَطْف، والمعطوف له وجهان في تعيينه، فإمّا أن يكون من باب عطفِ ما بعدَها على ما تقدَّمها من جملةِ: ﴿فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾، فهي من تمامِ التَّفصيل[2]، وإمّا من باب عطفِها على مقدَّرٍ محذوفٍ، أي: ألا يَنظُرونَ ولا يَرَوْن؟![3].

سِرُّ التَّعبيرِ بفعلِ ﴿يَرَوْنَ﴾:

غرَضُ استعمال الرُّؤيةِ، تجسيدُ المعاني، إقامةً للحُجَّةِ، وإبرازًا للحقِّ

قولُه تعالى ﴿أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ﴾، آثرَ النَّظمُ ذكْرَ الرُّؤية دونَ العلمِ، فلم يقل: (أوَ لا يعلمون أنَّهم)؛ وذلك لأنَّ الآيةَ أرادت إيرادَ دليلٍ واضحٍ تُقامُ به الحُجَّةُ يُعلمُ يقينًا كالمشاهَدِ المحسوسِ، فكان أنْ أنزلَ دليلًا واضحًا، ينزِلُ مَنْزلةَ المحسوسِ المرئيِّ يفضحُهم بإظهارِ نفاقِهم، ويعلمون أنَّ ذلك من عندِ اللّه فيتوبون، ويذَّكرون وعْدَ اللّه ووعيدَه، وكان ذلكَ بكشفِ أسرارِهم وإفْشاءِ عقائدِهم، فهذا هو الاختبارُ الَّذي تقومُ عليه الحُجَّةُ، فيكونُ مرئيًّا محسوسًا معلومًا لمن حولَهم[4]، لكنَّهم لم يعتبروا بقوَّة الدَّليل، وظُهورِ الحُجَّةِ.

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/67.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/67.
(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/619.
(4) ابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 3/99، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/67.

نُكتةُ التَّعبيرِ بصيغةِ المضارعِ ﴿يَرَوْنَ﴾:

إقامةُ الحُجَّةِ ببيانِ تجدُّدِ الرُّؤيةِ، بغرَضِ الهدايةِ والازعواءِ عنِ النّفاق

قولُه تعالى: ﴿أَوَلَا يَرَوْنَ﴾، وفيه جاءَ التَّعبيرُ بالمضارعِ في الفعل ﴿يَرَوْنَ﴾ للدَّلالةِ على تجدُّدِ هذه الرُّؤيةِ واسْتمرارِها منَ المنافقين حيث قال تعالى: ﴿فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ﴾، فهي في كلِّ عامٍ، وهذا كفيلٌ بأن يَزْدجِروا ويَتوبوا إلى اللّه، ويَرْعَووا عمّا هم عليه منَ النِّفاق[1]، فاختيارُ صيغة المضارع فيها إقامةٌ للحُجَّة بأنَّ الرُّؤيةَ مستمرَّةٌ ومتجدِّدةٌ لكن دونَ استجابةٍ لما هم عليه منَ الباطل.

دَلالةُ توجيهِ القراءاتِ القرآنيَّةِ، في حرف المضارعةِ في الفعل:

تنوّعُ الفعل بالياء والتّاء، بين خطابِ المنافقين والمؤمنين

في قولِه تعالى: ﴿أَوَلَا يَرَوْنَ﴾ قراءتان متواترتان:

الأولى: ﴿أَوَلَا يَرَوْنَ﴾ بالياء على معنَى: أوَ لا يَرى المنافقون، والأخرى: (أَوَ لا تَرَوْن) بالتّاء على معنَى: أَوَ لا تَرَوْنَ أيُّها المؤمنون، وهذا تنبيهٌ لهم، فيكونُ من تنزيل الرّائي بمنزلةِ غيرِه حتَّى يُنكِرَ عليه عدمَ رؤيته[2]، والقراءتان متكاملتان، حيث أعطت كلُّ قراءةٍ معنًى يُساند الأخرى، فقراءةُ الغيبةِ فيها إقامةُ الحُجَّة على المنافقين، وقراءةُ الخطاب فيها التَّنبيهُ على الاعتبارِ من حال المنافقين التي هم عليها.

بَلاغةُ التَّأكيدِ وتقويةِ الحُكمِ الإسناديِّ في الجملةِ المؤكّدةِ:

الدَّعوةُ للهدايةِ، والتَّحذيرُ منَ الغَوايةِ، مقصودُ الخطابِ

قولُه تعالى: ﴿أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ﴾، أفادَ حرفُ (أنَّ) مع ضمير الجمع (هم)، تأكيدَ حصولِ الفتنةِ للمنافقين، ورؤيتِهم لها منِ اضْطرابِ أمرِهم بما يصيبُهم منَ الأمراض المُنتشرةِ، والتَّقاتُلِ، واسْتمرارِ الخوف، والمصائبِ والمضارِّ الَّتي تنالُ جماعتَهم، ممّا لا يُعتادُ تكرُّرُ أمثالِه في حياةِ الأُمم[3]، كما أنَّ تقديمَ المسنَد إليه، ومجيءَ

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/530.

(2) القراءة الأولى للجمهور، والثّانية لحمزة ويعقوب، ينظر: ابن مجاهد، السَّبعة، ص: 320، والعطّار، غاية الاختصار: 2/512، وابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 3/99.

(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/67.

المسنَد فعلًا فيه تقويةٌ للحُكم، وفي تعاضُد التَّأكيدِ وتقويَةِ الحُكم الإسناديّ، تثبيتٌ لهذا المعنى، وأنَّ الفتنةَ مقصودةٌ لذاتِها، بغرَضِ إخراجِ المنافقين من رجْسِهم إلى طهارة القلوب، وهو ما يُؤكِّدُ مطالبَ الهداية والنَّجاةِ.

فائدةُ بناءِ الفعلِ ﴿يُفۡتَنُونَ﴾ للمفعولِ:

قولُه تعالى: ﴿أَوَلَا يَرَوۡنَ أَنَّهُمۡ يُفۡتَنُونَ﴾، بُنِيَ قولُه تعالى: ﴿يُفۡتَنُونَ﴾ للمفعول تعبيرًا عمّا ينزلُ بالمنافقين منَ الحوادثِ والنَّوازلِ بما يضطرُّهم إلى بيانِ أخلاقِهم بإظهارِ سرائرِهم في نفاقهم[1]، وحُذفَ ذكْرُ الفاعل لتوجيه الاهتمامِ بالفتنةِ ومقاصدِها التي أراد اللّه تحقيقَها في نفوسِ المنافقين.

تَوجيهُ الاهتمامِ بالفتنةِ، بتحقيقِ مقاصدِ هِداياتِها

بَلاغةُ التَّعبيرِ، بصيغةِ المضارعِ ﴿يُفۡتَنُونَ﴾:

دلَّتْ صيغةُ المضارعِ ﴿يُفۡتَنُونَ﴾، على تجدُّدِ واسْتمرارِ الفتنةِ بالمنافقين، ذلك أنَّ اللّه تعالى أكَّدَ هذا المعنَى بقولِه: ﴿فِي كُلِّ عَامٖ﴾، فجاءَ ﴿يُفۡتَنُونَ﴾ تعبيرًا عن تكرُّرِ تلكَ الفتنةِ في حياتِهم وسقوطِهم فيها بحيث يَغْرَقونَ ولا يَخْرُجون، وهو مصداقُ قولِه تعالى: ﴿أَلَا فِي ٱلۡفِتۡنَةِ سَقَطُواْۗ﴾ [التَّوبة: 49][2]، ولا يتحقَّقُ السُّقوطُ إلّا إذا كان هناك معاودةٌ تِلْو المعاودةِ، فلمّا تكرّرتِ الفتنةُ دونَ اعتبارٍ بها من قِبَل المنافقين، كان سقوطُهم حقيقًا بهم، ويستحقّونه عن جدارةٍ، وهذا يدلُّ على رحمة اللّه تعالى بعبادِه، فهو يُعطيهم المِحَنَ لتكون لهم مِنَحًا في الدّنيا والآخرة، لكنَّهم يأبَوْن إلّا السُّقوطَ.

تكرُّرُ وقوعِ الفتنةِ بالمنافقين، دليلُ رحمةِ الله تعالى بعبادِه، ولكنّهم لايذّكرون

دَلالةُ العمومِ في عبارة: ﴿فِي كُلِّ عَامٖ﴾:

دلَّ قولُه تعالى: ﴿فِي كُلِّ عَامٖ﴾ وباسْتعمالِ ﴿كُلِّ﴾ المفيدةِ للعموم، على وقوعِ الابْتلاءِ، المطَّردِ بأفانينِ البَليّاتِ، منَ المرضِ والشِّدَّةِ وغيرِ

سببُ تَوالي الابْتلاءِ المتَتابِعِ، هو إرخاءُ عِنادِ النِّفاقِ في نفوسِ أصحابِه

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 9/53.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/67.

ذلكَ، ممّا يُذكِّرُ الذُّنوبَ والوقوفَ بين يدَيْ ربّ العزَّة، فيؤدِّي إلى الإيمانِ به تعالى، أوِ المجاهدة في سبيلِه مع رسولِ الله ﷺ؛ فيُعاينونَ ما ينزلُ منَ الآياتِ، لاسيَّما القوارعِ الزّائدةِ للإيمانِ، النّاعيةِ عليهم ما فيهم منَ القبائحِ المُخزيةِ لهم[1]، فأفاد العمومُ ثباتَ توالي الفتنةِ في كلِّ عامٍ، من دون انقطاعٍ، فهو أمرٌ مطَّردٌ زمانيًّا، وأفاد أنَّ الّذين بقَوا على النِّفاقِ عاندوا بل بالغوا في العنادِ، والتَّسلّحِ بالعتادِ، في مواجهةِ ما يدعوهم للأَوْبةِ بعد النَّوبةِ، وهو ما يجعلُهم أعتى خلْقِ اللّه تعالى في الإصرارِ على الكُفر، وبه يُعرف سببُ أنَّهم في الدّرَكِ الأسفلِ منَ النّار.

شِدَّةُ ظهورِ فتنتِهمُ الخاصَّةِ، وسلامةُ المؤمنين منها كفيلٌ بإيقاظِهم من غفلتِهم

سِرُّ استعمالِ لفظِ ﴿عَامٍ﴾، دون لفظِ (سَنة):

آثرَ النَّظمُ استعمالَ لفظِ ﴿عَامٍ﴾ دون (سَنة)؛ وذلك أنَّ لفظَ العامِ يدلُّ على الخِصْبِ والخيرِ ورفعةِ العَيْش، أمّا لفظ (سَنَة) فيعني الجَدْبَ والقَحْطَ، وقلَّةَ الخيرِ والمُؤَنِ والزّادِ[2]، وسرُّ استعمال لفظِ العامِ دونَ السَّنة - مع أنَّ الظّاهرَ استعمالُ السَّنة الدّالةِ على الجدْبِ والقحْطِ - هو بيانُ أنَّ الفتنةَ الّتي وقعت للمنافقين هي لهم خاصَّةً، وأنَّهم مقصودون بها على وجه الخُصوصِ، فهي ليست عامَّةً للمجتمعِ كلِّه، فالمجتمعُ في مثل هذا الخيرِ الوفيرِ والعَيْشِ الرَّغيدِ، أي: وإن كان النّاسُ أخصبَ ما يكونون وأرفعَه عيْشًا، وإذا هم تنزلُ بهمُ المصائبُ وتحِلُّ بهمُ الفِتَنُ، فتظهرُ فضيحتُهم بذلك أكثَرَ من ذي قَبْلُ، مع اجْتهادِهم في إخفائِها، وحرصِهم على كِتمانِها، ولكنَّ الَّذي علمَ سرائرَهم، وهو اللّه ﷻ، يُظهرُها ويفضحُهم بها، لمّا أَعْرضوا عنِ الحقِّ، فأَظْهروا خلافَ ما يُبطِنونَ، يُخادعون اللّه ورسولَه والَّذين آمنوا[3].

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/619.
(2) الرّاغب، المفردات: (سنه).
(3) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 9/53.

فائدةُ استعمالِ لفظِ ﴿مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ﴾:

الإشارةُ إلى أنَّ فتنةَ المنافقين مريرةٌ سريعةٌ، للتَّنبيهِ على شديدِ الغفْلةِ

ساقَ النَّظمُ لفظَ ﴿مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ﴾، لا لبيانِ الوقوعِ حَسَبَ العدِّ المزْبورِ؛ بل للتَّكثير، أي: يُبتلَوْنَ بأفانينِ البَليّات، منَ المرضِ والشِّدَّةِ وغيرِ ذلك، ممّا يذكِّرُهم بما هم عليه منَ النِّفاقِ، والبُعدِ عنِ اللّه لعلَّهم يذَّكّرونَ، فيهتدونَ ويَرشُدون[1]، وذكرَ المرّةَ والمّرتين، لبيانِ أنَّ فتنتَهم مريرةٌ وسريعةٌ، فالمقصودُ تنبيهُهم على نفاقِهم وكفرِهم وغفلتِهم، بغرَضِ هدايتِهم، لا بغرضِ تعذيبِهم، فاستعمالُ ﴿مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ﴾، دون أن يقول: (فتنةً أو فتنتين)، لبيان هذه الفائدةِ.

معنَى حرفِ ﴿أَوْ﴾:

إفادةُ الحرفِ التَّنويعَ، من مقاصدِ البيانِ في القرآن

قولُه تعالى: ﴿مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ﴾، وفيه ﴿أَوْ﴾ حرفُ عطفٍ، أفادتِ التَّخييرَ؛ بمعنَى: أوَ لا يرى المنافقونَ أنَّ اللّه تعالى يَختبرُهم في بعضِ الأعوامِ مرَّةً، وفي بعضِ الأعوام مرَّتين؟! وفي هذا التَّنويع زيادةٌ في إقامةِ الحُجَّة عليهم، لا مناصَ لهم منها[2]، وذلك التَّنويعُ بحسبِ حِكمة اللّه تعالى في إجراءِ أقدارِه على عبادِه.

سِرُّ التَّراخي بحرف العطف ﴿ثُمَّ﴾، ودلالتُه:

التَّعجيبُ من عدمِ توبةِ المنافقين، وعدمِ اتّعاظهم بعْدَ نزولِ الفتنِ بهم

أفادَ حرفُ ﴿ثُمَّ﴾ في قولِه تعالى: ﴿ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ﴾ التَّرتيبَ الرُّتْبيَّ؛ لأنَّ المعطوفَ في رُتبةِ التَّعجيبِ من شأنِه على المعطوف عليه، فإنَّ حصولَ الفتنةِ في ذاتِه عجيبٌ، وعدمَ اهْتدائِهم للتَّدارك بالتَّوبةِ والتَّذكُّرِ أَعْجبُ، ولو كانتْ ﴿ثُمَّ﴾ للتَّراخي الحقيقيِّ لكانَ محلُّ التَّعجيبِ من حالِهم هو تأخُّرُ توبتِهم وتذكُّرِهم[3]، وهو غيرُ مرادٍ، بلِ المرادُ عدمُ توبتِهم مع ما يحصلُ لهم منَ الفتنةِ الدّاعيةِ للتَّوبةِ والهداية!

---

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/619.

(2) ابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 3/99، وأبو حيّان، البحر المحيط: 5/530.

(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/68.

دَلالةُ النَّفْيِ ﴿لَا﴾، في دخولِه على الفعلِ ﴿يَتُوبُونَ﴾:

المقصودُ بالنَّفي هو المقصودُ بالفتنة، فكان ذِكرُه تعجيبًا من حالِهم

لَمّا كانَ تكرُّرُ الفتنِ على المنافقين في كلِّ عام، يقتضي منهم أنْ يستيقظوا من غفلتِهم، فيُصلِحوا ما فسدَ منهم، ويتوبوا إلى اللّه تعالى، ناسبَ ذلك أنْ يدخلَ النَّفْيُ على فعلِ التَّوبةِ الَّتي كانَ يُفترَضُ أنْ يقوموا به لكنَّهم لم يقوموا به، عنادًا ومُرودًا على النِّفاق، كما وصفَهم بقولِه تعالى: ﴿مَرَدُواْ عَلَى ٱلنِّفَاقِ﴾ [التَّوبة: 101][1]، ولم يأتِ التَّعبير بإثباتِ الكفر، كأن يُقال: (ثمّ يكفرون) أو (ثمّ يفسقون) ونحو ذلك، لأنَّ المقصودَ بالنَّفي، هو المقصودُ بالفتنةِ، فكان ذكرُه بالنَّفيِ، أولى من ذكرِ ما هم عليه بالإثباتِ.

نُكتةُ حذْفِ مُتعلَّقِ فعلِ التَّوبةِ:

التَّشنيعُ على المنافقين في عدمِ حصولِ أدنى درجاتِ التَّوبةِ، أوِ الاتِّصافِ بها

لَمّا قالَ اللّه تعالى عن المنافقين: ﴿ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ﴾ بعدم ذكْرِ متعلَّق فعْلِ التَّوبةِ؛ فلم يقل: (ثم لا يتوبون إلى اللّه)، فجاءَ النَّظمُ بالحذفِ تعبيرًا دقيقًا عن عدمِ حُصولِ أيِّ توبةٍ منهم ولو كانت ناقصةً، فأدنَى درجاتِ التَّوبةِ غيرُ مُتحقِّقةٍ، فكيف يمكنُ تحقُّقُها كاملةً خاصَّةً ممَّن مَرَدَ على النِّفاق فلِمَ تردُّه الفتنُ والمصائب عنه[2]؟! فأفاد حذْفُ متعلَّق الفعلِ العُمومَ، فنفيُ التَّوبة، يشملُ كلَّ توبةٍ يتوقّعُها المسلمُ، أو لا يتوقّعُها، ولتنزيل فعلِ التّوبةِ منزلةَ الفعل اللّازم، أي: هم قومٌ غيرُ تائبين، وغيرُ متَّصفين بالتَّوبةِ، وهذا أبلغُ في ذمِّهم، والتَّشنيعِ عليهم.

نُكتة العطفِ ﴿وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾:

دوامُ الغَفلةِ مع تَكرارِ الفِتْنة، أعدَمَ أيَّ تذكُّرٍ أو أوْبةٍ

قولُه تعالى: ﴿وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾، أي: أَدْنَى تذكُّرٍ بما أشارَ إليه الإدغامُ، فلولا أنَّه حصلتْ لهم زيادةٌ في الرِّجْسِ لَأَوْشكَ تَكرارُ الفتنةِ، أنْ يوهيَ رِجْسَهم إلى أن يُزيلَه، ولكنْ كلَّما أَوْهَى شيئًا خَلفَه

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/68.

(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/619، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/67 - 68.

مثلُه أوْ أكثرُ، بسببِ الزِّياداتِ المترتِّبةِ على وجودِ نجومِ القرآنِ، وتتابُعِ افتتانِهم مع عدَمِ التَّنبُّهِ لحكمةِ هذا الافْتنانِ، بسببِ الغفلةِ الضّاربةِ جذورَها في قلوبِهمُ الكافرةِ، فكانَ قولُه تعالى: ﴿وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾، مع قولِه تعالى: ﴿ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ﴾، معطوفًا على قولِه: ﴿يُفْتَنُونَ﴾[1]، أي: حصل لهم أمران بعد الفتنة، وكلاهما عجيبٌ، عدمُ التَّوبة، وعدمُ التَّذكُّر.

فائدةُ دخولِ النَّفيِ على المسنَدِ إليه، ومَجيءِ المُسنَد فعلًا:

اختصاصُ المنافقين بالغَفلةِ الرّاسخةِ، أمارةُ الخُسرانِ المبين، والضَّياعِ المهينِ

قولُه تعالى: ﴿وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾، أتى النَّظمُ بجملةِ: ﴿وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾، وهي مبتدَأةٌ باسْمٍ أُسْنِد إليه فعلٌ مع النَّفيِ المُتقدِّمِ عليهما ولم يقل: ولا يذَّكَّرون، قصدًا إلى أنَّ انْتفاءَ تذكُّرِهم مُحقَّقٌ[2]، وأفاد هذا النَّظمُ بإيلاءِ النَّفيِ المُسنَد إليه، وتقديمِه على المسنَد الفعليِّ الاختصاصَ، أي: هم دونَ سِواهم لا يذَّكّرون، فهم اختصاصٌ إضافيٌّ قصْدُه المبالغةُ، أي: إن كان هناك أحدٌ لا يتذكّر، فهم دون سواهم، وهذا زيادةٌ في التَّشنيع عليهم والتَّقبيحِ لأفعالِهم.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الفتنةُ والابْتلاءُ:

الفتنةُ الاخْتبارُ في الخيرِ والشَّرّ، والابْتلاءُ الاخْتبارُ بالشَّرّ فقط

الفتنةُ: أشدُّ الاخْتبارِ وأَبْلغُه، وأصلُه عَرْضُ الذَّهبِ على النّارِ لتبيُّنِ صلاحِه من فسادِه، ومنه قولُه تعالى: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ ﴿١٣﴾﴾ [الذّاريات: 13] ويكونُ في الخيرِ والشَّرّ، كما في قولِه تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [التَّغابن: 15] وقولِه تعالى: ﴿لَّأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ [الجنّ: 16-17][3]، والابْتلاءُ لا يكونُ إلّا بتحميلِ المكارهِ والمشاقِّ، فلا يُقال: هو مُبتلَى بالنِّعمة، والابْتلاءُ يقتضي

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 9/53، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/619.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/68.
(3) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 396 - 397.

اسْتخراجَ ما عندَ المبتلَى منَ الطّاعةِ والمعصيةِ بتحميلِه المشقَّةَ، وهذا من أصل معنَى بَلَوْتُه، أي: اخْتبرتُه كأنِّي أَخْلقتُه من كثرةِ اخْتباري له، قالَ تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُم مِّنَ ٱلْأَيَٰتِ مَا فِيهِ بَلَٰٓؤٌاْ مُّبِينٌ ﴿٣٣﴾﴾ [الدُّخان: 33][1].

العامُ والسَّنةُ:

السَّنةُ تكونُ من أوَّلِ يومٍ عدَدْتَه إلى مثلِه، والعامُ لا يكونُ إلّا شتاءً وصَيْفًا، فالعامُ حَوْلٌ يأتي على شَتْوةٍ وصَيْفةٍ وصَيْفَةٍ وعلى هذا فالعامُ أخصُّ منَ السَّنة، وليس كلُّ سنةٍ عامًا، فإذا عَدَدْتَ من يومٍ إلى مثلِه فهو سنة، وقد يكونُ فيه نصفُ الصَّيفِ ونصفُ الشِّتاءِ، والعامُ لا يكونُ إلّا صيفًا أو شتاءً مُتوالِيَيْن[2]، والسَّنةُ: أكثرُ ما تُستعملُ في الحَوْلِ الَّذي فيه الجَدْبُ، قالَ تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ﴾ [الأعراف: 130]، أي: بالجَدْب[3]، والعامُ: يُستعملُ بما فيه الرَّخاءُ والخِصْبُ، قالَ تعالى: ﴿عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [يوسف: 49][4].

العامُ يُستعمَلُ بما فيه الرَّخاءُ والخِصْبُ، والسَّنةُ تُستعملُ في الجَدْبِ والقَحْطِ

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 10، 139، والرّاغب، المفردات: (بلى).
(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 348 - 349، والكفوي، الكلّيّات: 3/12، والجرجانيّ، التَّعريفات، ص: 127 - 128.
(3) الرّاغب، المفردات: (سنه).
(4) الرّاغب، المفردات: (عوم).

﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ نَّظَرَ بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٍ هَلۡ يَرَىٰكُم مِّنۡ أَحَدٖ ثُمَّ ٱنصَرَفُواْۚ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَفۡقَهُونَ ١٢٧﴾

[التَّوبة: 127]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الانتقالُ منَ الفتنة وعدمِ التَّوبة، إلى الاستهانةِ بالقرآنِ، بتراكُمِ في الرَّين، وتباعُدٍ في الأَيْن

لَمّا حدَّثتنا الآيةُ السّابقةُ عمّا يُصيبُ المنافقينَ في كلِّ عامٍ منَ الفتنِ الَّتي لا تؤثِّرُ فيهم بالعَوْدِ إلى اللّه والإنابةِ إليه، ناسب أن يذكرَ نتيجةً من نتائج عنادِهم وإصرارِهم على كُفرِهم التّي تكشّفت عن سوءِ وجودِهم في مجتمع الأطهارِ، وهو أنَّه كلَّما نزلتْ سورةٌ مُشتملةٌ على ذكرِهم وبيانِ فضائحِهم، تأذَّوْا من سماعِها، ونظرَ بعضُهم إلى بعضٍ، نظرًا مخصوصًا دالًّا على الطَّعنِ في تلكَ السّورةِ، والاسْتهزاءِ بها، وتحقيرِ شأنِها، فالمناسبةُ بين هذه الآية والّتي قبلها، بيانُ أنَّ المنافقين لا يكتفون بعدمِ الاستجابةِ الإيجابيَّةِ، بل يقومون بأفعالٍ سلبيَّةٍ، من شأنِها الاستزادةُ منَ الرِّجسِ والكُفرِ، ففيه زيادةُ تعجيبٍ من حالِهم، وتبشيعٍ لأقوالِهم، وتقبيحٍ لأفعالِهم.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱنصَرَفُواْۚ﴾: الصّاد والرّاء والفاء معظمُ بابه يدلُّ على رَجْع الشّيء، من ذلك صرفتُ القوم صرفًا وانصرفوا، إذا رجعْتَهم فرَجَعوا، والصَّريفُ: اللبنُ ساعةَ يُحلبُ ويُنصرفُ به. والصَّرف في القرآن: التّوبةُ؛ لأنَّه يُرجَعُ به عن رتبة المذنبين[1]، فالصَّرفُ: ردُّ الشَّيءِ من حالةٍ إلى حالة، أوْ إبدالُه بغيرِه، يُقالُ: صَرَفْتُه فانْصرف، قالَ تعالى: ﴿ثُمَّ صَرَفَكُمۡ عَنۡهُمۡ لِيَبۡتَلِيَكُمۡۖ﴾ [آل عمران: 152]، وتصريفُ

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (صرف).

الرِّياح: صرفُها من حالٍ إلى حال[1]، وقولُه تعالى: ﴿ثُمَّ ٱنصَرَفُواْۚ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم﴾، أي: خرجَ وانْتقلَ المنافقونَ عنِ المقامِ الَّذي ينزلُ فيه الوحيُ، في مجلسِ رسول الله ﷺ إلى منازلِهم، وقولُه تعالى: ﴿صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم﴾ أي: صرفَها من حالِ قابليَّة الخيرِ والهداية إلى حالِ الإصرارِ على الشَّرِّ والضَّلالة[2].

2) ﴿يَفۡقَهُونَ﴾: فقه: الفاءُ والقافُ والهاءُ أصلٌ واحدٌ صحيحٌ، يدُلُّ على إدراكِ الشَّيءِ والعلمِ به، تقول: فقِهتُ الحديثَ أفقهُهُ[3]، والفِقْهُ: هو التَّوصُّلُ إلى علمِ غائبٍ بعلمٍ شاهد، فهو أخصُّ منَ العلمِ، قالَ تعالى: ﴿فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلۡقَوۡمِ لَا يَكَادُونَ يَفۡقَهُونَ حَدِيثٗا ٧٨﴾ [النِّساء: 78].

والفِقْهُ: العلمُ بأحكامِ الشَّريعة، يقالُ: فَقُهَ الرَّجلُ فَقاهةً: إذا صارَ وفقِهَ وفَقِهَ، أي: علمَ فَهِمَ فَقَهًا، وفَقِهَهُ، أي: فَهِمَهُ، وتفقَّه: إذا طلبَه فتخصَّصَ به، قالَ تعالى: ﴿لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ﴾ [التَّوبة: 122][4]، وقولُه تعالى: ﴿قَوۡمٗا لَّا يَفۡقَهُونَ﴾، أي: لا يَفهمونَ خطابَ الله، ولا يُريدونه[5].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

تُبيِّن الآيةُ حالَ المنافقين، عند إنزال سورةٍ منَ القرآنِ، على رسولِ الله ﷺ، منَ الخوفِ والقلقِ، والاضطرابِ والرِّيبة، حيث ينظُرُ بعضُهم إلى بعضٍ، لعلْمِهم بآحادِ بعضٍ، مُتسائلين هل رآكم أحدٌ، رؤيةَ معرفةٍ وفهمٍ، أنَّكم غيرُ مؤمنين بالنّازلِ؟ لينسلّوا من مكان نزول الوحي، منصرفين عن سماعِ الخيرِ، منقلبين إلى دارِهم الفانيةِ، وجاريتهم الغانيةِ؛ ليسمعوا ضربَ العود بدلَ بذْلِ الجود،

مَنْ ينْصرفْ عن سماعِ القرآنِ نُفورًا، يمدّ لسماعِ الباطلِ جسورًا

(1) الرّاغب، المفردات: (صرف).
(2) الشَّوكاني، فتح القدير: 2/590.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (فقه).
(4) الرّاغب، المفردات: (فقه).
(5) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 2/366.

متآنسين بحالهم الخَرِبَة، وألسنتهم الذَّرِبة، غيرَ عالمين أنَّهم عنِ الفهم بعيدون، وبالفقهِ جاهلون، تاركين بذلك الخيرَ كلَّه، مُقبلين على الشَّرِّ كلِّه.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دَلالة (الواو) في مطلَعِ السّياقِ الحكيمِ:

الجامعُ بين الجُملتَين الاستهزاءُ القوليُّ في الأولى، والاستهزاءُ الفعليُّ في الثّانية

قولُه تعالى: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ نَّظَرَ بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ﴾، عُطف بالواو، على قولِه تعالى: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ فَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمۡ زَادَتۡهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنٗاۚ﴾ والجامعُ بين الجُملتَين هو الاسْتهزاءُ، وهو الإيماءُ والتَّغامُزُ بالعيون إنكارًا للوَحْي[1]، والظّاهرُ أنَّ المقصودَ عطفُ جملةِ: ﴿نَّظَرَ بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ﴾، على جملةِ: ﴿فَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمۡ زَادَتۡهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنٗاۚ﴾[2]؛ فهو موضعُ الاستهزاءِ، في الجملة الأولى، كان قوليًّا، وفي الأخرى كان فعليًّا.

دَلالةُ تَكرارِ جُملةِ: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ﴾:

تَكرارُ الجُملِ يأتي لفائدةٍ بلاغيَّةٍ، أو للتَّنبيهِ على مَلْحظٍ خفيٍّ

كرَّرَ النَّظمُ جملةَ: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ﴾، تأكيدًا لزيادةِ كفرِ المنافقين، وتوضيحًا لتصويرِه ما يحدُثُ من فعلِهم وقولِهم، اسْتهزاءً منَ الإيمانِ والقرآن[3]، وللإشارة إلى اختلاف الوقتِ بالنّسبة للنّزول الذي يقولون عنده: ﴿أَيُّكُمۡ زَادَتۡهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنٗاۚ﴾، وبالنّسبة للسّورةِ الّتي عند نزولها ينظُرُ بعضُهم إلى بعضٍ، أو لاختلاف السّورتين، بأنَّ المرادَ هنا سورةٌ فيها شيءٌ خاصٌّ بهم[4].

غرَضُ تنكيرِ لفظِ ﴿سُورَةٞ﴾:

نُكِّرت كلمةُ ﴿سُورَةٞ﴾ ولم تُقيّد بكاشفٍ عن مضمونِها، لعدمِ إرادةِ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/68.
(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 9/54.
(3) البقاعي، نظم الدُّرر: 9/54.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/68.

سورةٍ بعينِها، فالمنافقون بمجرَّد نزول سورةٍ منَ القرآن، يَنسَلّون تاركين ما في الوحيِ النّازلِ منَ الأوامرِ والنَّواهي والإرشاداتِ رغبةً عنها، فسماعُ القرآن أيًّا كان يُزعجُهم، فالتَّنكيرُ للإطلاق، ونكتةُ ذلك أنَّ المنافقين يفرّون من سماع القرآن النّازلِ بقطْعِ النَّظرِ عن مضمونِه، فكيف إذا ضُمِّن الكشفَ عن خَبيئِ نواياهم، ودفينِ صدورِهم.

فضحُ ما انْطوتْ عليه قلوبُ المنافقينَ، منَ القُبحِ المُشين، والمُنكر المُهين

سرُّ التَّعبيرِ بالفعل ﴿نَّظَرَ﴾:

التَّعبيرُ بالنَّظرِ، في قولِه تعالى: ﴿نَّظَرَ بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٍ﴾، يدلُّ على دأبِ المنافقين في إخفاء أمرهم، واجتماعِ قلوبهم المريضةِ على الفساد، وسوءِ أدبهم؛ وغفلتِهم عن مراقبة اللّه أفعالَهم وحركاتِهم؛ حيث إنَّهم كانوا حينئذٍ في مجلسِ النَّبيِّ ﷺ؛ لأنَّ نَظرَ بعضِهم إلى بعضٍ تعلَّقَتْ به أداةُ الظَّرفيَّةُ، وهي ﴿وَإِذَا﴾، فتعيَّنَ أنْ يكونَ نظرُ بعضِهم إلى بعضٍ، حاصلًا وقتَ نزولِ السّورة، فالتَّعبيرُ بالنَّظر فيه تصويرٌ للغةِ الجسمِ، وأنَّهم يسترقون الأوقات، لينظرَ بعضُهم إلى بعضٍ غامزين لامزين، ليخرجوا من مكان نزولِ الوحي، فليس المرادُ أنَّهم قالوا ذلك بلسانِهم بل قالوه بإيماءاتِهم، وفيه دليلٌ على أنَّ الإيماءَ بالنَّظر، كلامٌ يُفهمُ، وقصدٌ يدركُ، وفي هذا المعنى، يقول الأحنفُ بنُ قيسٍ:

نظراتُ المنافقين المومئةُ بالانصرافِ عن مجلسِ الوحي، هي كالقولِ الّذي يُفهمُ

وَلَمّا الْتَقَيْنا والدُّموعُ سَواجِمٌ *** خَرَسْتُ وَطَرْفي بِالهَوَى يَتَكَلَّمُ

حَواجِبُنا تَقْضِي الحَوائِجَ بَيْنَنا *** وَنَحْنُ سُكوتٌ والهَوَى يَتَكَلَّمُ[1]

دَلالةُ ﴿نَّظَرَ﴾ على التّعجّب والاستفهامِ:

ويدلُّ كذلك على أنَّهم كاتمونَ تَعجُّبَهم، من ظُهورِ أحوالِهم، خَشيةَ الاعْترافِ بما نُسِبَ إليهم، ولذلك اجْتَزَوْا بالتَّناظُرِ دونَ

أسرارُ المنافقين مكشوفةٌ، في كلماتِ النَّظْمِ المُبين

(1) البيت للأحنف بن قيس، ينظر ديوانه، ص: 294، بغير هذه الرّواية، وينظر شهاب الدّين البجائيّ، التّعليقة السّنيّة في حلّ ألفاظ الأجروميّة، ص: 64. وقد ورد البيت الثّاني وهو الأشهر، بهذه الرّواية: تحدّث عنّا في الوجوه عيونُنا *** ونحنُ سكوتٌ والهوى يتكلّم

الكلام، فالنَّظرُ هنا دالٌّ على ما في ضميرِ النّاظرِ منَ التَّعجُّبِ والاسْتفهام، وفيه ما هو أدلُّ من ذلك وأَعْلَى شأنًا، وهو تجلِّي صفةِ البصَرِ - واسْمُها البصير - ، وصفةِ العلمِ - واسْمُها العليم - للّه الأحدِ ﷻ الَّذي أبْصَرَ نظرَ المنافقين بعضِهم إلى بعضٍ لا يراهم أحدٌ، وعلمَ ما تُكِنُّه خَلَجاتُ قلوبِهم من كلماتٍ، لم يَبوحوا بها ولم يُظهروها، لكنَّ اللّه تعالى علِمَها وأوحَى بها إلى نبيِّه ﷺ، قرآنًا يُتْلَى ويُسمَعُ إلى قيامِ السّاعة[1].

سِرُّ اسْتعمالِ لفظِ ﴿بَعْضُهُمْ﴾ تعريفًا، و﴿بَعْضٍ﴾ تنكيرًا:

الإيجازُ مع دَلالةِ اسْتغراقِ نظَرِ الجميعِ للجميعِ

دلَّ اسْتعمالُ النَّظْمِ الكريمِ للفظِ ﴿نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾ على حُصولِ النَّظرِ منَ الجميعِ دون استثناء، أي: ينظُرُ الجميعُ إلى الجميع على طريق التَّعاكُسِ والمقابلةِ، فبعضُهم ينظُرُ إلى بعضٍ، فبعضُهم النّاظرُ الأوَّلُ يصبحُ منظورًا إليه من بعضِهمُ الثّاني فيتحقَّقُ النَّظرُ منَ الجميعِ، فيستغرقُ النَّظْرُ جميعَ الموجودين، فكلُّ واحدٍ منهم ناظرٌ ومنظورٌ إليه، وهذا يدلُّ على أنَّ النَّظرَ بينَهم كان نظرَ تفاهُمٍ فيما هو سرٌّ بينهم، ويدلُّ كذلك على مَدَى الشَّكِّ في قلوبهم خَشيةَ أن يكونَ قدِ اطَّلَعَ عليهم من يَبوحُ بأسرارِهم، وهذا كلُّهُ يدلُّ دَلالةً بيِّنةً على براعةِ النَّظم في إيجازِ العبارةِ مع إيصالِ المتدبِّرِ التّالي أوِ السّامعِ لما يكتنِزُه الاخْتصارُ من وضوحِ وجلالِ المُراد[2].

فائِدةُ المعوَّض عنه بالتّنوين في كلمة ﴿بَعْضٍ﴾:

عوِّض بالتَّنوين عن ذكرِ اسْمِهم، كما عُبّر بالنَّظر عن قولِهم

الفائدةُ هنا، أنّ أصلَ الكلام: (نظر بعض المنافقين إلى بعضهم)، فأضاف (بعض) الأوَّل إلى ضميرِهم اكتفاءً بالعلم بهم، وجاء لفظُ (بعضٍ) الآخَر مُنوّنًا عِوضًا عنِ الكلمة المحذوفةِ؛ إيماءً إلى حال هؤلاء منَ التَّخفّي في صفوف المؤمنين، ثمَّ التّخلّي عن مُؤازرتهم، والتّولّي عنهم.

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/68.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/69.

فكأنَّ حذْفَ المضاف إليه، ومَجيءَ التّنوين عِوضًا عنه يَحكي حركاتِ النّاظرين بالصَّوت والصّورةِ.

نُكتةُ اسْتعمالِ حرفِ الجرّ ﴿إِلَىٰ﴾:

انتهاءُ غايةِ النَّظرِ في الزّمانِ والمكانِ، هو غرَضُ الحرف في البيانِ

قولُه تعالى: ﴿نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾، اسْتعمالُ حرفِ ﴿إِلَىٰ﴾، أفادَ إيصالَ معنى الفعل ﴿نَّظَرَ﴾ إلى ما بعدَه، ولتحقُّق غايةِ هذا النَّظر، وهو هنا نظرُ خوفٍ وشكٍّ لأولئكَ المنافقينَ، في أنْ يرصدَ أحدٌ منَ المسلمين تلك النَّظراتِ السّاخرةَ من نزول القرآن، فهي تفيدُ انتهاءَ الغايةِ في المكان، أي: مكانِ نظرِهم وهو بعضُهم الآخرُ في قولِه تعالى: ﴿إِلَىٰ بَعْضٍ﴾[1].

علَّةُ فصلِ جملةِ: ﴿هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ﴾:

جُملةُ الاستفهامِ بيانٌ للجملةِ السّابقةِ

جاءتْ جملةُ: ﴿هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ﴾ بيانًا لجملةِ ﴿نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾؛ لأنَّ النَّظر تفاهموا به فيما هو سرٌّ بينهم، من خلال النَّظر، والجملةُ مقولُ قولٍ محذوفٍ تقديرُه: قائلين: ﴿هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ﴾.

غرَضُ الاسْتفهامِ بالحرف ﴿هَلْ﴾:

اعْتقادُ المنافقين أنَّ الله لم يُطْلِع نبيَّه والمؤمنينَ على أسرارِهم

قولُه تعالى: ﴿هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ﴾، وفيه نلاحظُ أنّه لمّا كانَ النَّظرُ فيما بينَهم نظرَ تفاهُم صحَّ بيانُ جملتِه بما يدلُّ على الاسْتفهام التَّعجُّبيّ، ففي هذا النَّظم إيجازُ حذفٍ بديعٌ دلَّتْ عليه القرينة، والتَّقديرُ: وإذا ما أُنزلتْ سورةٌ فيها فضيحةُ أمرِهم نظرَ بعضُهم إلى بعضٍ بخائنةِ الأَعْيُنِ مُستفهمينَ مُتعجِّبينَ من اطِّلاعِ النَّبيِّ ﷺ على أسرارِهم، أي: هل يراكم من أحدٍ إذا خَلَوْتُم ودبَّرتُم أمورَكم؟ لأنَّهم بكفرِهم لا يعتقدونَ أنَّ اللهَ أَطْلعَ نبيَّه ﷺ على دَخيلةِ أمرِهم[2].

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/68.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/69.

سِرُّ استعمالِ مُفردةِ النَّظَرِ والرُّؤيةِ، في سياقٍ واحدٍ:

النَّظرُ تمحُّضٌ للبَصرِ، والرُّؤيةُ مُشرَبَةٌ بالإدراك، وكلاهما توجُّسٌ من كشفِ نفاقِهم

لَمّا كانَ النَّظَرُ هو الإقبالُ بالبصرِ، وتوجيهُه نحو المَرئيِّ، كانَ نظرُ المنافقين بعضِهم لبعضٍ مقصودًا بهذا الإقبالِ، مع تحقُّقِ ما يُريدونه منه وهو السُّخريةُ والاسْتهزاءُ بالقرآن، وكان لا بدَّ أن يرافقَه مع هذا القصد، إدراكُ المَرئيِّ بالرُّؤية، أي: إدراكُ بعضِهم لبعضٍ بهذا النَّظرِ، ليتحقَّق مرادُهمُ الدَّنيءُ من ذَيْنك النَّظرِ والرُّؤية، ولهذا ساقَ بيانُ اللّه تلكُمُ المُفردَتَيْن، في سياقٍ واحد.

فالنَّظرُ كان نظرَ تفاهمٍ، فيما بينَ المنافقين، والرُّؤيةُ فيها معنَى العلمِ بالإدْراك، أي: هل يراكم أحدٌ منَ المسلمين، عالمًا بحقيقةِ شأنِكم الَّذي أنتم فيه، أو مُتفرِّسًا لما يدورُ في نفوسِكم، في هذا الحالِ الَّذي أنتم عليه[1]؟

فائِدةُ دخولِ حرفِ ﴿مِّنۡ﴾، على لفظِ ﴿أَحَدٍ﴾:

إفادةُ (مِنْ) تأكيدَ العُمومِ في السّياق المفهومِ

أفادَ دخولُ حرفِ ﴿مِّنۡ﴾ على لفظِ ﴿أَحَدٍ﴾، في قولِه تعالى: ﴿هَلۡ يَرَىٰكُم مِّنۡ أَحَدٍ﴾ العمومَ؛ بل تأكيدَ العموم، أي: هل يراكم أيُّ منَ المؤمنين إنِ انْصرفتُم، فإنَّه يشقُّ علينا سماعُ مثلِ هذا، ويشُقُّ علينا أنْ يطّلِعَ المؤمنونَ على هذا السِّرِّ منّا[2]، وهو ما يعكسُ جُبنَهم وشديدَ خوفِهم، من رؤيةِ أحدٍ أيًّا كان لهم.

نوعُ التَّراخي ودَلالتُه بالحرف﴿ثُمَّ﴾:

بيانُ التَّراخي الزَّمنيّ، في انْتهازِ الفُرصةِ للانصرافِ من مجلسِ الوحيِ، دونَ علمِ أحدٍ

لَمّا كانَ انْصرافُ المنافقينَ عن مِثْلِ هذا المقام - وهو مقامُ نُزولِ الوحيِ بالقرآن - مُستهجَنًا، أشارَ النَّظمُ إلى شدَّةِ قُبْحِه بأداةِ التَّراخي الزَّمنيِّ، فقال: ﴿ثُمَّ ٱنصَرَفُواْۚ﴾، فالتَّراخي باعْتبارِ وِجدانِ الفُرصةِ والوقوفِ على عدمِ رؤيةِ أحدٍ منَ المؤمنين[3].

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/531.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 9/54.
(3) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 9/54، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/620.

دَلالةُ اخْتيارِ مُفردةِ ﴿ٱنصَرَفُوا۟﴾:

الانْصرافُ مغادرةٌ دون انتفاعٍ، بخلافِ الذَّهابِ فيكونُ بعدَ الانْتفاعِ

دلَّ اخْتيارُ الفعلِ ﴿ٱنصَرَفُوا۟﴾ على عدمِ انْتفاعِهم بما في تلكَ السّورةِ النّازلةِ منَ الإخبارِ بالمغيَّباتِ الدّالِّ على صدقِ رسولِ اللّه ﷺ، فجاءَ انْصرافُهم قصدًا منهم لعدمِ الانْتفاعِ من مجلسِ الوَحْي، لذا جاءَ التَّعبيرُ بالانصرافِ دونَ الذَّهابِ الّذي يكونُ بعدَ حصولِ المقصودِ منَ الانْتفاعِ وانْتهاءِ المجلس[1].

بَلاغةُ الاسْتئنافِ البيانيِّ، في ذكْرِ صرْفِ القلوب:

من ينصرفْ عن سماعِ الحقِّ بإرادتِه، يُصرفْ قلبُه عنِ الإيمانِ جَزاءً وِفاقًا

جملةُ: ﴿صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم﴾، مستأنفةٌ اسْتئنافًا بيانيًا؛ لأنَّ ما أفادَه قولُه تعالى: ﴿ثُمَّ ٱنصَرَفُوا۟﴾ من عدمِ انْتفاعِهم بما في تلكَ السّورةِ النّازلةِ من أخبارٍ بمغيَّباتٍ وأحكامٍ، تدلُّ على صدقِ رسولِ اللّه ﷺ، يُثيرُ سؤالَ من يسألُ عن سببِ عدمِ انْتفاعِهم واهتدائهم به، فيُجابُ بأنَّ اللّه صرفَ قلوبَهم عنِ الفَهْمِ بأمرٍ تكوينيٍّ، فحُرِموا الانْتفاعَ بأبلغِ واعظ[2].

فنُّ الجناسِ بين ﴿ٱنصَرَفُوا۟﴾ و﴿صَرَفَ﴾:

انصرفَ المنافقونَ عنِ القرآنِ، فصرفَ اللهُ قلوبَهم عنِ الهداية

في قولِه تعالى: ﴿ثُمَّ ٱنصَرَفُوا۟ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم﴾ جِناسٌ[3]، يبيِّنُ بلاغةَ النَّصِّ القرآنيِّ، في سياقِ حديثِه عنِ المنافقينَ الَّذينَ انْصرفوا عن مجلسِ رسولِ اللّه ﷺ، أي: مجلسِ الوحيِ ونزولِ القرآنِ فيه، على رسولِ اللّه ﷺ، فلم يكتسبوا عِبرةً ولا إيمانًا، من نزولِ السّورةِ الَّتي أطْلعتِ المؤمنينَ على أسرارِهم، بل كانَ قُصارَى أمرِهم التَّعجُّبَ والشَّكَّ، في أن يكونَ قدِ اطَّلعَ عليهم من يبوحُ بأسرارِهم، فكانَ انصرافُهم بلا عِبرة، عند ذلك صرفَ اللّه قلوبَهم عنِ الفهمِ بأمرٍ تكوينيٍّ، فَحُرموا الانْتفاعَ بأبلغِ واعظ، وكان

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/69.

(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/620، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/69.

(3) الجناسُ اصطلاحًا: هو أن يتشابه لفظان في النُّطقِ وأن يختلفا في المعنَى، ينظر: علي الجارم ومصطفى أمين، البلاغة الواضحة، ص: 263، وجامعة المدينة العالمية، البلاغة، البيان والبديع، ص: 509.

ذلك عقابًا لهم بسببِ أنَّهم لا يفهمونَ الدَّلائل؛ بمعنَى لا يتطلَّبونَ الهُدَى بالتَّدَبُّرِ فيفهموا[1]. فكان الجناسُ هنا مُتحقِّقًا بالانْصرافِ عنِ الذِّكرِ، بصرفِ القلبِ عنِ الخيرِ، والأصلُ فيه واحد، وهو الذَّهابُ عنِ الشَّيء، أمّا المنافقونَ فذهبوا عنِ القرآن[2].

سِرُّ إسنادِ فعلِ ﴿صَرَفَ﴾، إلى لفظِ الجلالة ﴿ٱللَّهُ﴾:

قولُه تعالى: ﴿صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم﴾، أُسند فعلُ الصَّرفِ إلى لفظِ الجلالةِ، فلم يقل: (صُرفت قلوبُهم)، وذلك لزيادة تهويلِ الموقفِ بأنَّ الذي صرف قلوبهم هو اللّه تعالى، وهو يوحي بالغضبِ الشَّديد على المنافقين، لتعْيينِ اسمِ الصّارفِ للقلوبِ وهو اللّه تعالى، وفيه تعليمُ الدُّعاء عليهم ضمنًا، فهو إخبارٌ منَ اللّه تعالى، دعاءٌ عليهم منَ المؤمنين.

إيحاءٌ بالغضبِ الإلهيّ، ودعاءٌ منَ المؤمنين على المنافقين

نُكتةُ اختيارِ لفظِ الجلالة ﴿ٱللَّهُ﴾:

في إيرادِ النَّظمِ القرآنيِّ في هذه الآية، للفظِ الجلالة ﴿ٱللَّهُ﴾، في قولِه تعالى: ﴿صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم﴾ دونَ سِواه من أسماء اللّه الحُسنى، زرعٌ للمهابةِ في القلوب، وزيادةُ تهويلِ الموقف، فإنَّ الَّذي فعلَه المنافقون من إعراضِهم وانصرافِهم عنِ القرآنِ، جِدُّ قبيح، ولذلك كان الَّذي صرفَ قلوبَهم عنِ الهداية، هو اللّه ﷻ لا أحدَ غيرُه[3].

تربيةُ المهابةِ في القلوبِ، والتَّرهيبِ في النُّفوسِ، من مقاصد البيانِ القرآنيِّ

غرَضُ الخبرِ في سياق الآيةِ الكريمةِ:

قولُه تعالى: ﴿صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم﴾، وفيه لمّا انصرفَ المنافقون عن سماعِ القرآنِ والانْتفاعِ بما فيه من بيان قصدًا منهم وتكبُّرًا، صرف

تنبيهُ النّاسِ إلى خطرِ النِّفاقِ، وبيانُ مآله التّعيسِ، في الدُّنيا والآخرةِ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/69.

(2) وبهذين التَّوجيهين للمعنَى المراد من تقابُلِ كلِّ شطرٍ من شطريِّ الجناسِ يتَّضح أنَّ الجناس ليس هو مجرَّد تزيينٍ وتحسين واهْتمامٍ بجانب اللَّفظ، بل إنَّه يتعدَّى ذلك إلى البلاغة نَفْسِها والدّخولِ في صميمِها بما له من قوَّةِ الأخذ والتَّأثير، وبما يحقِّقُ من أغراضٍ ومقاصدَ يفرِضُها السِّياقُ القرآنيّ من خلالِ الحدثِ والمشهد الَّذي توافَر عليه، وبما لَهُ كذلك من مدخلٍ في الإعجاز القرآنيّ. ينظر: الجرجاني، أسرار البلاغة، ص: 7.

(3) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 9/54، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/620.

اللّه بانصرافِهم ذاك قلوبَهم عنِ الفَهمِ فحُرِموا الهدايةَ، فكان ذلك عقابًا لهم بسببِ أنَّهم قومٌ مُعرضونَ عنِ الفقه، لا يُريدون الهُدَى ولا يَحرصونَ على طَرْقِ بابِه بالسَّماعِ المتدبِّرِ لسوَرِ القرآن، وقولُه تعالى: ﴿صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم﴾ دعاءٌ عليهم بسببِ كِبْرِهم ومُرودِهم على النِّفاقِ وتشبُّثِهم به[1]، واللّه تعالى يقولُ: ﴿سَأَصۡرِفُ عَنۡ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَإِن يَرَوۡاْ كُلَّ ءَايَةٖ لَّا يُؤۡمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلرُّشۡدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗا وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلۡغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗاۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنۡهَا غَٰفِلِينَ ١٤٦﴾ [الأعراف: 146]. والأمرُ مُحتَملٌ بين المعنَيَيْنِ: أن يكونَ إخبارًا لما كان لهم ودعاءً عليهم، أمّا الإخبارُ فمنَ اللّه تعالى، وأمّا الدُّعاءُ فمنَ المؤمنين، أي: اسْتوجَبوا ذلك بأنَّهم قومٌ لا يفقهون، أي: لا يفهمونَ عنِ اللّه ولا عن رسولِه ﷺ[2]، فالمقصودُ حقيقةً بالإخبار الدُّعاءُ عليهم، وبيانُ شديد غضب اللّه عليهم، وأبى ابنُ عاشورٍ أن يكون دعاءً عليهم بسبب اللّحاقِ[3]، والصَّحيحُ أن لا تعارُضَ، فإنَّ اللّه سبحانه دعا عليهم بسبب رفضِهم الفقهَ، فإنّ عدمَ فقهِهم هو رفضُ الفقه لا جهلٌ طبيعيٌّ.

نُكتةُ توجيهِ تخصيصِ القلوبِ بالصّرف، في سياق الآيةِ الكريمةِ:

وقعَ الفعلُ على القلوبِ لا الوجوهِ أوِ الأبدانِ، في قولِه تعالى: ﴿صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم﴾؛ فلم يقل: (صرفهم اللّه) أو (صرف اللّه وجوههم) ونحوَ ذلك؛ لأنَّ القلوبَ هي محلُّ الفهمِ والفِقهِ والتَّدبُّرِ والتَّفاعلِ مع كلامِ اللّه تعالى في قرآنِه الكريم أو عدمِ ذلك كلِّه، وهي محلُّ الهداية أوِ الغَواية كذلك، فقد قالَ تعالى عنِ المؤمنين: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَإِذَا تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُهُۥ

القلوبُ هي موضعُ الفقهِ والتّدبُّر لكلامِ اللّه، وهي علامةُ القَبولِ

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 16/176 - 177، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/69.
(2) ابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 3/100.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/69.

زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ [الأنفال: 2]، وقال عن الكافرين: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ [الأعراف: 179]، وقال تعالى: ﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ [التَّوبة: 77].

معنَى الباء في: ﴿بِأَنَّهُمْ﴾:

الباءُ للسَّببيَّة في قولِه تعالى: ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾، فهي تُنبئُ أنَّ ما بعدَها علَّةٌ أو سببٌ لما قبلَها، فقد علَّلَ النَّظمُ قولَه تعالى: ﴿صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم﴾ بقولِه تعالى: ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾[1].

عدمُ الفقهِ سببٌ في الانصرافِ عنِ الإيمان، والإيغالِ في عَمايةِ النِّفاق

دَلالةُ المؤكِّدات، في سياق الآيةِ الكريمةِ:

جاءتِ المؤكِّداتُ في قولِه تعالى: ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾، للدّلالةِ على تحقيقِ وصْفِهم بتمامِه وكمالِه، أي: المنافقون حقيقةً وصِدْقًا، هم في غايةِ عدمِ الفقهِ وعدمِ الفَهم، وغرضُ التَّوكيد بيانُ أنَّ ذكاءَهم وحيلتَهم ولحْنَ قولِهم لا علاقةَ له بالفقه، ففيه ردٌّ على من ظنَّ أنَّ المنافقين يمتلكون فقهًا، بما يُظهرونه منَ الذّكاء أو لحْنِ الكلامِ، وهذا أمرٌ واقعٌ فقد ينخدع النّاسُ بمن يمتلكُ أدواتِ الإقناع، بأنَّه صاحبُ فهمٍ وفقهٍ، والحقُّ أنَّ الفقهَ المطلوبَ هو فقهُ الدِّين، ومعرفةُ مراد اللّه تعالى من إنزال كتابه.

الرَّدُّ على من ظنَّ أنَّ ذكاءَ المنافقين ولحْنَهم، فقهٌ وفهمٌ

سِرُّ ذكْرِ لفظِ ﴿قَوْمٌ﴾:

قولُه تعالى: ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾، آثر النَّظمُ فيه ذكْرَ ﴿قَوْمٌ﴾ دون أن يقول: (بأنَّهم لا يفقهون)، وذلك أنَّ إظهارَ ما يمكنُ إضمارُه يدلُّ على أهميَّةِ مكانةِ هذا المُظْهَر؛ فحديثُ القرآنِ عنِ المنافقينَ وسوءِ أَدَبِهم في مجلسِ رسولِ اللّه ﷺ، وسوَرُ القرآن تنزلُ بوحيٍ منَ اللّه، وهم يُعرضونَ عنها ويَنكُصون عنِ التَّعرُّضِ لسماعِها، ويتسلَّلون مُنصرفينَ عن مجلسِها، فذكرَهم القرآنُ في هذا المشهدِ، وتلك الحالةِ، باعتبارِهم قومًا قاموا على هذه الأخلاق وهذه السُّلوكيّات،

المنافقون يجتمعون على باطلِهم سِرًّا وجهرًا، ويقومون على كُفرِهم سِرًّا

(1) البقاعيّ، نظمُ الدُّرر: 9/54، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/620.

ففيها إشارةٌ إلى أنَّ المنافقين لا يُمارسون خُبثهم ومكرَهم إلّا بتخطيط سابقٍ، واتِّفاقٍ فيما بينهم، وهو ما تُترجمُه الآيةُ مِن نظرِ بعضِهم إلى بعضٍ، واستجابتِهم لبعضهم من مجرَّد النّظرِ، وفيه تشنيعٌ عليهم، وفضحٌ لألاعيبِهم وشدَّةِ طَيْشهم، وسفاهةِ أحلامِهم، وعدمِ فهمِهم لحقائقِ الأمور؛ فقال: ﴿قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾.

بلاغةُ إيثارِ النَّفْيِ ﴿لَّا يَفْقَهُونَ﴾ على الإثباتِ:

نُفيَ الفقهُ عنِ المنافقين، في قولِه تعالى: ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾، والنَّفيُ أبلغُ منَ الإثْبات، فلو أنَّه قال: (يجهلون أو يفسُقون)؛ لاتَّجه الجهلُ أو الفِسقُ إلى بعضِ أقوالِهم وأفعالهم، فيظنُّ السّامعُ عند ذلك أنَّهم في جوانبَ أُخرى ليسوا جاهلين ولا فاسقين، والحالُ أنَّهم هم في جميعِ أحوالِهم وتفكيرِهم وطرائقِ سلوكِهم، عَديمو الفقهِ والتَّدبُّرِ والفَهم، فهم لا يتدبَّرونَ حتَّى يَفْقَهوا ولا يَفْهمونَ عنِ اللّٰه ولا عن رسولِه شيئًا، ممّا فيه صلاحُهم واسْتقامةُ أحوالِهم[1]؛ فالنَّفيُ عمَّهم وطمَّهم وغمرَهم بأنَّهم قوم لا يفقهون.

النَّفيُ أبلغُ في إثباتِ عدمِ فِقْهِ المنافقين، لعمومِه بنفيِ كلِّ ملابساتِ الفقهِ المحتمَلةِ

نُكتةُ إيثارِ نَفْيِ (الفِقهِ) دونَ (العلمِ) أوِ (العقلِ):

قولُه تعالى: ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾، وفيه أنّه لَمّا كان الفقهُ هو العلمُ بمقتضَى الكلام مع تأمُّلِه، والعلمُ هو الإدراك لمعنَى اللَّفظ، ويمكنُ أن يكونَ العلمُ في الكلامِ وغيرِه[2]، كان إدراجُ السِّياقِ للفعلِ ﴿يَفْقَهُونَ﴾، أقومَ قيلًا من (يعلمون) أو (يعقلون)، فالمنافقونَ لا يريدون سماعَ كلامِ اللّٰه في سوَرِ القرآنِ الَّتي تنزِلُ على رسول اللّٰه ﷺ؛ بل ينصرفونَ عنها وعن مجلِسِها، ولو أنَّهم تأمَّلوا ما فيها بعد سماعِها لَفقُهوا وفهموا ما احْتوتْ عليه واسْتجابوا فآمنوا وخضعوا، لكنَّهم كانوا مُعرضينَ عنها تمامَ الإعراض، لاهينَ عنها تمامَ

نفيُ الفقهِ أبلغُ، لبيانِ أنَّ المنافقين يأبَوْن الاقتناعَ مع قدرتِهم على الإدراك

(1) ابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 3/100، والزَّمخشريّ، الكشّاف: 2/223.
(2) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 412 - 214، والجرجانيّ، التَّعريفات، ص: 160.

الالْتهاء، فالعلمُ بالشَّيءِ وعقلُه وإدراكُه دونَ تأمُّلِه وتدبُّرِه والعملِ به لا قيمةَ له ولا يُرْجَى منه نفعٌ لصاحبِه[1].

نُكتةُ حذفِ المفعولِ به:

قولُه تعالى: ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾، وفيه لم يذكرِ النّظمُ مفعولَ ﴿يَفْقَهُونَ﴾ لسببَيْن: الأوَّلُ لدلالة ما قبلَه عليه، أي: لا يفقهونَ ما احْتواه القرآنُ، ممّا يوجبُ إيمانَهم والوقوفَ عندَه، والآخرُ: لعدم الاهتمامِ بشأنهم، وذكرِ ما كان يمكنُ أنْ يفعلوه، ليحصلَ لهم الفقهُ والفهم، ذلكَ أنَّهم انْصرفوا وأعرَضوا، فصرفَهمُ اللّه عنِ الهداية، بقولِه: ﴿صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم﴾، فكانَ ذلك فصلًا وقطعًا لأيِّ احْتمالٍ، في أن يتسلَّلَ أيُّ فقهٍ أو فهمٍ أو هدايةٍ لقلوبهم[2]، ولإثبات نفْيِ الفقه عنهم، فهم متّصفون بعدمِ الفقه مطلقًا، وهذا أبلغُ في الذَّمِّ؛ لما فيه من إلباسِهم لباسَ الجهل الثّابتِ، والحُمقِ الدّائم.

إثباتُ عدمِ الفقهِ لسلوكِهم وأقوالِهم مُطلقًا، وهو أشدُّ ذمًّا، وأقبحُ وصْفًا

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

النَّظرُ والرُّؤيةُ:

النَّظَرُ: طلبُ الهُدَى، والشّاهدُ قولُهم: نظرتُ فلم أرَ شيئًا، والنَّظرُ: طلبُ ظهورِ الشَّيء، ويكونُ النّاظرُ الطّالبُ لظهورِ الشَّيء بإدراكِه من جهةِ حاسَّةِ بصَرِه أو غيرِها من حواسِّه، والنَّظرُ بالقلب من جهةِ التَّفكُّر، ولذلك كان النَّظَرُ أيضًا هو الفكرُ والتَّأمُّلُ لأحوالِ الأشياء، والنَّظَرُ يشاهَدُ بالعَيْن، فالنَّظرُ تقليبُ العيْنِ حيالَ مكانِ المرئيِّ طلبًا لرؤيته.

وأمّا الرُّؤيةُ: فهي إدراكُ المرئيّ، ولَما كان اللّه تعالى، يرى الأشياءَ من حيث لا يطلبُ رؤيتَها، صحَّ أنْ لا يوصَفَ بالنَّظر، فالنَّظرُ: الإقبالُ بالبصرِ، نحوَ المرئيِّ، والرُّؤيةُ: إدراك المرئيِّ، ولذلك قد ينظرُ ولا يراه[3].

النَّظرُ إقبالُ البصرِ نحوَ المَرئيِّ، والرُّؤيةُ إدراكُ المَرئيِّ

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 5/531.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/69.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/531، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/69.

الفِقْهُ والعِلْمُ:

الفِقْهُ: هو العلمُ بمقتَضَى الكلامِ مع تأمُّلِه، ولهذا لا يُقالُ: إنَّ اللّه يفقَهُ؛ لأنَّه لا يوصَفُ بالتَّأمُّل، وتقولُ لمنْ تخاطبُه: هل تفقهُ ما أقولُه؟، أي: تأمَّلْه لتعرفَه، ولا يُستعمَلُ إلّا على معنَى الكلام، ومنه قولُه تعالى: ﴿لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾﴾ [الكهف: 93]، وسُمِّيَ علمُ الشَّرعِ فِقْهًا؛ لأنَّه مبنيٌّ على معرفةِ كلامِ اللّه تعالى. والعلمُ: هو الإدراكُ للمعنَى من لفظِ المخاطَبِ سواء كانَ خفيًّا أو جَلِيًّا، ويُستعمَلُ العلمُ في الكلامِ وغيرِه، فتقولُ: علمتُ كلامَه وعلمتُ ذهابَه ومجيئَه[1].

الفِقهُ العلمُ بموجبِ الكلامِ مع التَّأمُّل، والعلمُ الإدراكُ للكلامِ ولغيرِه

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 543 - 544، والكفويّ، الكلِّيّات: 2/38، والجرجانيّ، التَّعريفات، ص: 297.

﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ١٢٨﴾ [التَّوبة: 128]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

المناسبةُ بين انصراف المنافقين عنِ الهدى، وبيانِ مناقبِ الرّسول المُبلِّغِ للنّاسِ على المدَى

لَمّا أمرَ اللّه تعالى رسولَه ﷺ أن يُبلِّغَ في هذه السّورةِ إلى الخلقِ، تكاليفَ شاقَّةً شديدةً صعبةً، يَعسُر تحمُّلُها إلّا لمنْ خصَّه اللّه تعالى بوجوهِ التَّوفيقِ والكرامة، ختمَ السّورةَ بما يوجبُ سهولةَ تحمُّلِ تلكَ التَّكاليف، وهو أنَّ هذا الرَّسولَ ﷺ منكم، فكلُّ ما يحصُلُ له منَ العزِّ والشَّرفِ في الدُّنيا، فهو عائدٌ إليكم، وأيضًا فهو بحالٍ يشقُّ عليه ضَررُكم، وتعظُمُ رغبتُه في إيصالِ خيرِ الدُّنيا والآخرةِ إليكم، فهو كالطَّبيبِ المُشفِقِ، والأبِ الرَّحيمِ في حقِّكم، فلمّا عرفتُم أنَّه رسولٌ حقٌّ من عندِ اللّه، فاقْبلوا منه هذه التَّكاليفَ الشّاقَّةَ، لتفوزوا بكلِّ خير[1]، فالمناسبة بين هذه الآية، وما قبلها، لاسيّما ما يتناول أحوالَ المنافقين، هو بيانُ أنَّ الرّسول ﷺ مشفقٌ على جميعِ أمَّته، رحيم بهم أن يُصيبهم مكروهٌ، أو يَلحقَ بهم عذابٌ أليم.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿عَنِتُّمْ﴾: عنت: العَيْنُ والنّونُ والتّاءُ أصلٌ صحيحٌ يدُلُّ على مشقَّةٍ وما أشبهَ ذلك، ولا يدلُّ على صحَّةٍ ولا سهولة[2]، والمعانتةُ كالمعانَدةِ لكنَّ المعانتةَ أَبْلَغُ؛ لأنَّها معاندةٌ فيها خَوْفٌ وهلاك، ولهذا يُقال: عَنَتَ فلان: إذا وقعَ في أمرٍ يخافُ منه التَّلَفَ، يُعنُتُ عَنَتًا، قالَ تعالى: ﴿لِمَنْ خَشِيَ ٱلْعَنَتَ مِنكُمْ﴾ [النّساء: 25] وقالَ ﷻ: ﴿وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ﴾ [آل عمران: 118][3]، و﴿لَأَعْنَتَكُمْ﴾ [البقرة: 220]: ضيَّقَ عليكم وشدَّد،

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 16/177.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عنت).
(3) الرّاغب، المفردات: (عنت).

وأصلُ العَنَت: الضَّررُ والفَساد[1] والهلاك، يُقال: فلان يتعنَّت فلانًا، أي: يطلب ما يؤدّيه إلى الهلاك، وقد أعنت العظمُ؛ إذا هيضَ بعد الجبْرِ[2]، ومعنى قولِه تعالى: ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾، أي: عَنَتُكم، وهو دخولُ المضرَّةِ والمشقَّةِ عليكم[3].

2) ﴿حَرِيصٌ﴾: حرص: الحاءُ والرّاءُ والصّادُ أصلان: أحدُهما الشَّقّ، والآخَرُ الجَشَع، والثّاني هو المعنيُّ هنا في هذا السِّياق، فيُقال: حرَصَ إذا جَشَع، يحرِصُ حِرصًا فهو حَريص[4]، والحِرْصُ: فَرْطُ الشَّرَه، وفَرْطُ الإرادة، قالَ تعالى: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ﴾ [البقرة: 96]، وقالَ تعالى: ﴿إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ﴾ [النَّحل: 37]، أي: إن تُفرِطْ إرادتكَ في هدايتِهم[5]. ومعنى قوله تعالى: ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُم﴾، أي: حريصٌ على إيمانِكم، أو حريصٌ على ضُلّالِكم أنْ يهديَهمُ الله[6] ﷻ، أوِ الحريصُ الشَّحيحُ أن يَدخُلوا النّار[7]، وهذه المعاني كلُّها سائغةٌ في دخولِها في معنَى ﴿حَرِيصٌ﴾ في سياقِ الآية.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

يقولُ اللّه تعالى ممتنًّا على المؤمنين، بما أرسلَ إليهم رسولًا من أنفسهم، أي: من جِنْسِهم وعلى لغتِهم، كما قالَ تعالى عن إبراهيمَ عليه السلام: ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾، وكما قالَ ﷻ: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [آل عمران: 164]، فهم يعرفون نسبَه وصفتَه ومدخلَه ومخرَجه وصدقَه وأمانتَه، وهو ﷺ

الرَّسولُ مِنَّةُ الله ورحمتُه بعبادِه، وهو رمزُ الحِرصِ على المؤمنين، والرّحمةِ والرّأفةِ بهم

(1) ابن قتيبة، غريب الحديث، ص: 124.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/361.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 11/77، والسِّجستانيّ، غريب القرآن، ص: 324 - 325.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حرص).
(5) الرّاغب، المفردات: (حرص).
(6) ابن جرير، جامع البيان: 11/77 عن قتادة.
(7) الفرّاء، معاني القرآن: 1/456، وقال القرطبيّ، في الجامع: 8/302: "والحرصُ على الشَّيء: الشُّحُّ أن يَضيعَ ويَتْلف".

يعزُّ عليه الشَّيءُ الَّذي يُعنِتُ أُمَّتَه ويَشُقُّ عليها، وهو حريصٌ على هدايتِكم، ووصولِ النَّفعِ الدُّنيويِّ والأُخرويِّ إليكم، رؤوفٌ بكم يريدُ بكم كلَّ خيرٍ، رحيمٌ بكم كرحمةِ الأمِّ بطفلِها الرَّضيعِ؛ بل أشدّ[1].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ الاستئنافِ الابتدائي:

في هذا الاسْتئناف الابتدائيّ في قولِه تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾، مسكُ الختامِ، حيث كانَ في وقوعِها آخرَ السّورةِ ما يُكْسِبُها معنَى التَّذييلِ، والخلاصةِ المُحبَّرةِ، الَّتي انْفتحَ بها مع صاحبتِها الَّتي تَلَتْها بابُ حظيرةِ الإيمانِ والتَّوبةِ، ليدخُلَها مَنْ وفَقهُ اللّه إليها بعد سَعْيِه لها، والحرصِ على طلبِها والتَّمسُّكِ بها[2].

ختامُ السّورة خلاصةٌ لما سبق، ودعوةٌ لحفظِ مكانةِ الرَّسول الأكرم وقدرِه

فائِدةُ التَّوكيدِ والتَّحقيقِ بلفظ ﴿لَقَدْ﴾:

مع كونِ مضمونِ قولِه تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾، ممّا لا يتطرَّقُ إليه الإنكارُ، لكنَّها افْتُتحتْ بحرفَي التَّأكيد، وهما اللّامُ و(قد)؛ لقصدِ الاهْتمامِ بهذه الجملةِ، لأهميَّةِ الغَرضِ الَّذي سيقتْ من أجلِه، ولأنَّ فيما تضمَّنتْه ما يُنكرُه المنافقون، وهو كونُه رسولًا منَ اللّه، ولأنَّ في هذا التَّأكيدِ ما يجعلُ المخاطَبين به منزَّلينَ منزلةَ المُنكرينَ لمجيئِه، من حيثُ إنَّهم لم يَنْفعوا أنفسَهم بهذا المجيء، ولأنَّ في هذا التَّأكيدِ تسجيلًا عليهم مُرادًا به الإيماءُ إلى اقْترابِ الرَّحيل؛ لأنَّه لَمّا أُعيدَ الإخبارُ بمجيئِه، وهو حاصلٌ منذُ أعوامٍ طويلة، كانَ ذلكَ كنايةً عنِ اقْترابِ انْتهائه، وهو تسجيلٌ منه على المؤمنين، وإيداعٌ للمنافقين، ومَنْ بقيَ منَ المشركين، فجاءتْ زيادةُ الجملةِ في هذه السّورةِ، مؤكِّدةً لغرضٍ أهمَّ من إزالةِ الإنكار[3].

الرَّدُّ على من يُنكرُ الرّسالةَ منَ المنافقين، وتثبيتُ إيمانِ المؤمنين وزيادتِه وزيادتُه

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 2/366 - 367.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/70.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/71.

بَلاغة الاستعارةِ التَّبعيَّة، واخْتيارِ الفعلِ ﴿جَآءَكُمْ﴾:

المجيءُ عبارةٌ عن تبليغِ الرِّسالةِ، وأداءِ الأمانةِ، وإقامةِ الحُجَّة

قولُه تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾، المجيءُ هنا مُستعملٌ مجازًا في الخطابِ بالدَّعوةِ إلى الدِّين، على سبيلِ الاسْتعارةِ التَّصريحيَّة، حيث شبَّه توجُّهَهُ إليهم بالخطابِ الَّذي لم يكونوا يترقَّبونَه، بمجيءِ الوافدِ إلى النّاسِ من مكانٍ آخَر، فاشتقَّ منَ المجيءِ فعلَ ﴿جَآءَكُمْ﴾، على سبيلِ الاسْتعارةِ التَّبعيَّة، وصرَّح بالمجيءِ على سبيلِ الاسْتعارةِ التَّصريحيَّة، وفي ذلكَ إقامةٌ للمباني مقامَ المعاني لبيانِ أهميَّةِ ذاك المجيءِ فهو ليس مجيئًا عاديًّا؛ بل هو مجيءُ رسولٍ بدعوةٍ ربّانيَّةٍ ورسالةٍ سماويَّةٍ، يُخرجُ النّاسَ بها من ظُلماتِ الكفرِ إلى نورِ الإيمان[1]، ولذلك عبَّر بالمجيءِ دون الإتيان، لتقويةِ معنى التَّبليغِ، وأنَّه واضحٌ كوضوحِ المحسوساتِ في أعيُنِ النُّظّار.

غرَضُ تعْديةِ فعلِ المجيءِ إلى الضَّميرِ ﴿جَآءَكُمْ﴾:

مجيءُ رسولِ اللهِ المصطفى، شرفٌ مرامٌ، ورِفعةٌ لا تُرامُ

جاءتْ تعديةُ فعلِ المجيءِ إلى الضَّميرِ، في قولِه تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾، لإقامةِ الحُجَّةِ الظّاهرةِ، على مَنِ اخْتارَه اللهُ رسولًا من أنفُسِهم، وبأنَّ اللهَ شرَّفَهم بهذا المجيءِ، فالتَّشريفُ متحقِّقٌ لهم به، ومتحقّقٌ لهم بأنفُسِهم، فيما لو اتَّبعوه واهْتدَوْا بهَدْيه، وعزَّروهُ ونَصروه، وهذا المجيءُ كذلك امتنانٌ عليهم، بأنْ كانَ في البدايةِ لهم لا لغيرِهم[2]، وكفى بهذا التَّشريف رِفعةً ونُصرةً في الدُّنيا والآخرة، لمن آمن به واستجاب لدعوتِه.

نُكتةُ التَّعبيرِ بصيغةِ الماضي ﴿جَآءَكُمْ﴾:

تحقُّقُ إقامةِ الحُجَّةِ، في تبليغِ الرّسالةِ والشَّهادةِ على الأمَّةِ

قولُه تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾، ساقَ بيانُ اللهِ تعالى التَّعبيرَ بمجيئه ﷺ، بصيغةِ الماضي ﴿جَآءَكُمْ﴾؛ لإفادةِ تحقُّقِ المجيءِ، وتحقُّقِ غرضِه، وخاصَّة أنَّه جاءَ لهم بدايةً ومن

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/71.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 9/55 - 56. 55 - 56.

أنفُسِهم، فهي إشارةٌ إلى إقامة الحُجَّة في تبليغِ الرِّسالة، وأصبح الأمرُ تحصيلَ حاصلٍ، لا مهربَ منه ولا مفرَّ.

غرَضُ تنكيرِ ﴿رَسُولٌ﴾:

جاءَ تنكيرُ ﴿رَسُولٌ﴾، في قولِه تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾، لغرضَيْن اثنَيْن:

تعظيمُ الرَّسولِ الأكرمِ، ومحبَّتُه واتِّباعُه، من مقاصد الهَدي القرآنيِّ السّامي

أوَّلهما: تعظيمُ هذا الرَّسولِ الكريمِ ﷺ، أي هو بحقٍّ رسولٌ، وأيُّ رسول.

ثانيهما: ضرورةُ توفُّرِ دواعيهم على محبَّتِه ﷺ، فهو رسولٌ عنِ اللّه الخالقِ لهم، المالكِ لأمرهم، ومحبَّةُ هذا الدّاعي لهم، تقتضي ملازمَتَه والبُعدَ عمّا يفعلونَه به، منَ الانْصرافِ عنه، وأنَّ ما يحصُلونَ به منَ الشَّرفِ، هو كونُه رسولَ اللّه[1].

سِرُّ إيثارِ عنوانِ الرِّسالةِ، دونَ النُّبوَّةِ، في لفظ ﴿رَسُولٌ﴾:

تنبيهُ النّاسِ أنَّهم مكلَّفون بحملِ الرِّسالةِ، وتأديةِ الأمانةِ

الرَّسولُ صاحبُ رسالةٍ جديدةٍ بشرعٍ جديدٍ منَ اللّه تعالى يبلِّغُه النّاسَ، والنَّبيُّ: مُبلِّغٌ عنِ اللّه شرْعَ من سَبقَه من رسول[2]، فالرَّسولُ صاحبُ مَهمَّةٍ أعظمَ من مَهمَّةِ النَّبيّ. وبهذا يتبيَّنُ أنَّ إيرادَ السِّياق لعنوانِ الرِّسالة بيانٌ لعظمةِ هذا الرَّسولِ الكريم، وعظمةِ مَهمَّتِه ورسالتِه، وفيه كذلك لفْتُ انْتباهِ القومِ إلى أنَّ الَّذي جاءهم هو رسولٌ منَ اللّه، وهذا يستدعي ضرورةَ اهْتمامِهم بشأنِه ﷺ الَّذي كرَّمهمُ به، ويكونُ هذا الاهتمامُ بإكرامِه، واتِّباعِ رسالتِه، والاهْتداءِ بهَدْيِه، وخاصَّةً أنَّه من أنفُسِهم[3]، وفيه تكليفٌ لهم بحملِ الرِّسالة التّي جاء بها رسولُهم ﷺ للنّاس جميعًا، فهم مكلَّفون بهذه الرّسالة، ومُضطلِعون بهذا العِبءِ العظيم.

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 9/55 - 56.

(2) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 531، والكفويّ، الكلِّيات: 1/108، 4/352، والجرجانيّ، والتَّعريفات، ص: 114، 258.

(3) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 9/56.

بَلاغةُ استعمالِ قَيْدِ ﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾:

تحريكُ مشاعرِ الانتماءِ، للتَّحريضِ على الاتِّباعِ

الأَنفُسُ: جمعُ نَفْسٍ، وهي الذّاتُ، وإضافةُ النَّفْس للضَّميرِ، أي: هو معدودٌ من ذوي نَسبِهم، وليس عِدادُه فيهم بحِلْفٍ أو وَلاءٍ أو إلصاق، فهو قُرَيْشيٌّ من أنفُسِهم، فقوله تعالى: ﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾، أي: هو من صَميمِ نَسَبِكم، فأنتُم تَرْجِعونَ معه إلى نَفْسٍ واحدةٍ، بأنَّكم لأبٍ قريب، وذلكَ أَقْرَبُ إلى الأُلْفةِ، وأَسْرَعُ إلى فَهْمِ الحُجَّةِ، وأَبعدُ عنِ الجدالِ واللَّجاجة. فتعيَّن أنَّ الخطابَ للعرب؛ وفيه امتنانٌ على العربِ، وتنبيهٌ على فضيلتِهم، وفيه أيضًا تعريضٌ بتحريضِهم على اتِّباعِه، وتَرْك مُناوَأتِه، وأنَّ الأَجْدَرَ بهمُ الافْتخارُ به والالْتفافُ حولَه، كما قالَ تعالى في ذكرِ القرآن: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ [الزُّخرف: 44]، أي: يبقى منه لكم ذِكْرٌ حَسَن[1].

نُكتةُ التَّعبيرِ بصيغةِ الجمعِ ﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾:

الخطابُ للعربِ على جهةِ المِنَّةِ عليهم، وبيانِ فضيلتِهم

التَّعبيرُ بصيغة الجمع ﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾؛ للدّلالةِ على أنَّ الخطابَ للعَربِ قاطبةً، وخاصَّةً من كانَ مِنْ نَسبِهم، وهذا على جهةِ تعديدِ النِّعمةِ عليهم في ذلك؛ إذْ جاءَ بلسانِهم وبما يفهمونَه منَ الأغراضِ والفَصاحةِ وشُرِّفوا به غابرَ الأيّام، وفيه كذلكَ مَدْحٌ لنَسَبِه ﷺ وأنَّه من صميمِ العربِ وشرفِها، وبيانٌ لفضيلةِ العربِ وامتنانٌ عليهم[2].

دَلالةُ توجيهِ قراءةِ: (من أَنفَسِكُم) بفتح الفاء:

بيانُ عراقةِ أصلِ الرّسول الكريم، ونفاسةِ مَحْتِدِه، وشرفِ أرومَتِه

قراءةُ قوله تعالى: (مِنْ أَنفَسِكُم)[3] على صيغة أفعلِ تفضيلٍ، هي منَ النَّفاسة، والمرادُ الشّرفُ، فهو ﷺ من أشرفِ العربِ، ففي حديث المُطَّلِبِ بْنِ أَبِي وَداعَةَ، قال: قال العَبّاسُ: «بَلَغَهُ ﷺ بَعْضُ

(1) ابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 3/100، والبقاعيّ، نظم الدُّرر: 9/56، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/71.

(2) ابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 3/100.

(3) هي قراءة شاذَّة، نُسبت إلى ابن عبّاس وأبي العالية والضّحاك وابن محيصن ومحبوب والرّؤاسي عن أبي عمرو وعبد الله بن قسيط المكّي ورويس عن يعقوب والزّهري ورويت عن فاطمة وعائشة ﵄. يُنظر: ابن جنيّ، المحتسب: 1/306، والزّمخشريّ، الكشّاف: 2/65.

ما يَقولُ النّاسُ، فصعِدَ المنبرَ، فحمد اللّه تعالى، وأثنى عليه، وقال: من أنا؟ قالوا: أنت رسولُ اللّه، قال: أنا محمّد بنُ عبد اللّه بنِ عبد المطلب، إنَّ اللّه تعالى خلقَ الخلْقَ، فجعلني في خيرِ خلْقِه، وجعلهم فرقتَين، فجعلني في خيرِ فرقةٍ، وجعلهم قبائلَ، فجعلني في خيرِهم قبيلةً، وجعلهم بيوتًا، فجعلني في خيرهم بيتًا، فأنا خيرُكم بيتًا وخيرُكم نفْسًا»[1]. وأخرج البخاريُّ والبيهقيُّ في الدّلائلِ عن أبي هريرةَ، أنَّ رسولَ اللّه ﷺ قال: «بُعثتُ من خيرِ قرونِ بني آدم قرنًا فقرنًا، حتّى كنت منَ القرن الّذي كنت فيه»[2]، وأخرج مسلمٌ وغيرُه عن واثلةَ بنِ الأسقع قال: قال رسولُ اللّه ﷺ: «إنّ اللّه تعالى اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيلَ، واصطفى من ولد إسماعيلَ بني كنانةَ، واصطفى من بني كنانةَ قريشًا، واصطفى من قريشٍ بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم»[3]، وروى البيهقيُّ عن أنسٍ: أنّ رسولَ اللّه ﷺ قال: «ما افترق النّاسُ فرقتين إلّا جعلنيَ اللّه تعالى في خيرهما، فأُخرجتُ من بين أبويّ، فلم يصبني شيءٌ من عَهْرِ الجاهليّة، وخرجت من نكاح، ولم أخرج من سِفاح، من لدنِ آدم حتّى انتهيت إلى أبي وأمّي، فأنا خيرُكم نفسًا وخيرُكم أبًا»[4].

سِرُّ الفَصْلِ بين الصِّفةِ، والموصوفِ ﴿عَزِيزٌ﴾ ﴿رَسُولٌ﴾:

قولُه تعالى: ﴿رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ﴾، جاءَ فصلُ الصِّفةِ ﴿عَزِيزٌ﴾ عنِ الموصوفِ ﴿رَسُولٌ﴾، بقولِه تعالى: ﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ للتَّنويهِ والإيماءِ إلى أنَّ هذا الرَّسولَ، لمّا كان من أنفُسِكم فلا بدَّ أنَّه يثقُلُ على نفسِه، إيقاعُكم في التَّعبِ والمشقَّة؛ فكانَ هذا الفاصلُ توطئةً لتمكُّنِ الصِّفةِ من موصوفِها؛ تمكُّنًا لا يحتملُ أيَّ شكٍّ في

شأنُ القرآنِ العنايةُ بالطّاقاتِ الموجودةِ لدَى النّاس، بدلًا من إهمالِها أو إغفالِها

(1) رواه أحمد، المسند، الحديث رقم: (1788)، والترمذي، السنن، الحديث رقم: (3532).
(2) أخرجه البخاريّ، كتاب المناقب، باب صفة النّبي ﷺ، الحديث رقم: (3557).
(3) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب فضل نسب النّبيّ ﷺ: 4/1782.
(4) الآلوسيّ، روح المعاني: 6/49.

تحقُّقه، وهذا أيضًا تحريضٌ لقومِه لاتِّباعِه ومُؤازرتِه ﷺ، فهو أَرْفَقُ بهم من أَنْفُسِهم بأنفُسِهم، فهذه صفتُه الملازمةُ له في سيرتِه ودعوتِه وحياتِه معهم[1]، فالفصلُ بين الصِّفة والموصوف، بقيدِ ﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾، فيه توضيحٌ وإبانةٌ في كونِ الرَّسولِ من أنفسِهم، قبْل بيانِ كونِه عزيزًا عليه هلاكُهم؛ لأنَّ هذه الإبانةَ، هي تحريضٌ على الإذعان والخضوع، وفيه إيماءٌ إلى قيمةِ أن يكون المرسَلُ من أنْفَسِ العربِ، فهم قومٌ ما زالتِ الحميَّةُ قائمةً آثارُها في نفوسِهم، وهذا من توجيه القرآنِ للطّاقات، بدلًا من إهمالِها أو نبْذِها.

بَلاغةُ تَعْدِيةِ ﴿عَزِيزٌ﴾، بحرفِ الاسْتعلاءِ (على):

قولُه تعالى: ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾، الأصلُ في العزيز: الغالبُ، والعِزَّةُ: الغَلَبَة، يُقالُ: عَزَّهُ إذا غَلَبَه، ومنه قولُه تعالى: ﴿وَعَزَّنِي فِي ٱلْخِطَابِ ۝٢٣﴾ [ص: 23]، فلمّا عُدِّي ﴿عَزِيزٌ﴾ بحرفِ (على) وهو حرفُ اسْتعلاءٍ؛ دلَّ على معنَى الثِّقَلِ والشِّدَّة على النَّفس[2]، أي: يعِزُّ على نفسِه أن يَهلِك قومُه، أو يُصيبَهم سوءٌ، أو يَلحقَهم عذابٌ، فكان لهذا الحرفِ وقعٌ عجيبٌ، حيث صوَّر تمكُّنَ عنَتِهم وهلاكِهم من تفكيرِه ﷺ، واهتمامِه وشعورِه بهم، وهو ما يُترجِمُ عظيمَ رأفته، وكبيرَ رحمتِه بهم، التّي اختصَّ بها المؤمنون فيما بعدُ.

تصويرُ أسَفِه ﷺ، على هلاكِ القومِ، بما يُترجِمُ رأفتَه ورحمتَه

بَلاغةُ استعمالِ لفظِ ﴿عَنِتُّمْ﴾، في هذا السِّياقِ:

العَنَتُ: التَّعب، وقولُه تعالى: ﴿عَنِتُّمْ﴾ أي: تعبتُم، ومعناها في هذا السِّياقِ: شاقٌّ عليه حُزنُكم وشَقاؤكم، وهذا كقولِه تعالى: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ۝٣﴾ [الشُّعراء: 3]. وذكْرُ هذا في صفةِ الرَّسولِ ﷺ: ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾، يُفيدُ أنَّ هذا خُلُقٌ له فيكونُ أَثَرُ ظُهورِه الرِّفقَ بالأُمَّةِ، والحذَرَ ممّا يُلقي بهم إلى العذابِ في الدُّنيا

موافقةُ خُلُقِ الرَّسولِ ﷺ لشريعتِه، في الرِّفقِ بالخلْقِ

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 9/56.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/72.

والآخرة، ومن آثارِ ذلكَ شفاعتُه للنّاسِ كلِّهم في الموقفِ، لتعجيلِ الحساب، ثمَّ إنَّ ذلكَ يومئُ، إلى أنَّ شرعَه جاءَ مناسبًا لخُلُقِه، فانْتفَى عنه الحَرَجُ والعُسْرُ، قالَ تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة: 185]، وقالَ تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحجُّ: 78][1].

معنَى ﴿مَا﴾، ونكتةُ التَّعبيرِ بصيغةِ الفعلِ الماضي ﴿عَنِتُّمْ﴾:

الإيماءُ إلى ما عزَّ عليه ﷺ، ممّا وقعَ للعربِ من مشقَّةٍ ومكابَدَةٍ

قولُه تعالى: ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾، جاءَ التّعبيرُ فيه، بصيغةِ الماضي ﴿عَنِتُّمْ﴾، مع ﴿مَا﴾ المصدريَّةِ[2] السّابكةِ للمصدرِ، دون الفعل الدّالِّ على المستقبلِ، فلم يقل: (ما يُعنتكم)، فيه نكتةٌ دقيقةٌ، وهي إفادةُ أنَّه قد عزَّ عليه عَنَتُهمُ الحاصلُ في الزَّمنِ الَّذي مضَى، وذلك بما لقوهُ من قَتْلِ قومِهم، ومن الأَسْرِ في الغَزَوات، ومن قوارعِ الوعيدِ والتَّهديدِ في القرآن، فلو أُتي بالفعل الدّالِّ على المستقبلِ، لم يكنْ مُشيرًا إلى عَنَتٍ مُعيَّنٍ، ولا إلى عَنَتٍ وقع؛ لأنَّ المصدرَ لا زمانَ له؛ بل كان مُحتمِلًا أنْ يعِزَّ عليه بأنْ يجنِّبَهم إيّاه، ولكنَّ مجيءَ المصدرِ مُنسبكًا منَ الفعلِ الماضي، يجعلُه مصدرًا مُقيَّدًا بالحصولِ في الماضي، فيكونُ تقديرُه عندَ ذلكَ: عزيزٌ عليه عَنَتُكُمُ الحاصلُ فيما مضَى؛ لتكونَ هذه الآيةُ تنبيهًا على أنَّ ما لَقوه منَ الشِّدَّةِ، إنَّما هو لاسْتصلاحِ حالِهم، لعلَّهم يُخفِضونَ بعدَها من غُلَوائِهم، ويَرْعَوونَ عن غَيِّهم ويَشعرونَ بصلاحِ أمرِهم[3].

براعةُ اسْتعمالِ مُفردةِ ﴿حَرِيصٌ﴾، مع حرفِ الاسْتعلاء في السّياق:

تشبيهُ حِرصِه ﷺ على أمَّتِه، بحِرْصِ النّاسِ على أموالِهم

قولُه تعالى: ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُم﴾، الحِرْصُ: شدَّةُ الرَّغبةِ في الشَّيء والجَشعِ إليه والتَّمسُّكِ به، وغالبُ الاسْتعمالِ لهذه المُفردةِ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/72.
(2) الفرّاء، معاني القرآن: 1/456، والزَّجّاج، معاني القرآن: 2/477.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/72.

في البُخل، ولَمّا تعدَّى هنا إلى ضميرِ المخاطَبين ﴿عَلَيۡكُم﴾ الدّالِّ على الذَّوات - وليستِ الذَّواتُ هي مُتعلَّقُ الحرصِ هنا - تعيَّنَ تقديرُ مُضافٍ، فُهِمَ من مقامِ التَّشريع، بتقدير: على إيمانِكم أو هَدْيِكم، فوصفُ رسولِ الله ﷺ في هذا المقام بهذه الكلمةِ للدَّلالةِ على حرصِه على أُمَّتِه، وشدَّةِ عنايتِه بهم، ورعايتِه لأحوالِهم، فأقيمتْ هنا مقامَ تشبيهِ الرَّسول ﷺ بمن يحرِصُ على أموالِه الثَّمينةِ، ويخافُ عليها منَ الهلاك، وفيها كذلك تعريضٌ بمن يَحرِصُ على أموالِه، حرصًا أشدَّ من حِرْصِه على دينِ الله وشَرْعِه، أو بمَنْ يُفوِّتُ ما يجبُ عليه تجاهَ رسالةِ ربِّه ودعوتِه، ولا يُفوِّت حرصَه على أموالِه وثَروتِه؛ بل حرصُه ﷺ قائمٌ على الحقيقةِ والجوهر، وحرصُ النّاس على أموالهم قائمٌ على الزّائلِ والعَرَضِ[1].

بَلاغةُ الالْتفاتِ منَ الخطابِ إلى الغَيْبةِ:

رحمةُ الله تُحيطُ بمن حَرِصَ عليها، وتتجاوزُ من تجاوزَها إهمالًا وإغفالًا

قولُه تعالى: ﴿بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾، وفيه أنّه لَمّا خصَّ الله المؤمنينَ من بين سائرِ العربِ وغيرِهم بالرَّأفةِ والرَّحمة، وخاطبَ الله أولئك المَعنيِّينَ بمجيئه إليهم، وهو من نَسَبِهم، مع حرصِه على دَفْعِ ورَفْعِ أيِّ مشقَّةٍ عنهم، وذلك في مَعْرِضِ المِنَّة الرَّبّانيَّة العامَّةِ عليهم، بهذا الرَّسولِ الكريم ﷺ، انتقل إلى أسلوبِ الغَيْبةِ، بتخصيصِ فئةٍ منهم، وهم جماعةُ المؤمنين؛ لأنَّهم مَنْ يستحقّون هذا التَّخصيصَ بالرَّأفةِ والرَّحمة، فهو انتقالٌ منَ الرَّحمةِ العامَّة، إلى الرَّحمة الخاصَّة، بمن استحقَّها عن جدارةٍ واقتدارٍ.

مَنْ صَحِبتْه رأفتُه ﷺ، حظيَ بهدْيِه في الدُّنيا، وشفاعتِه في الآخرةِ

معنَى حرفِ الباءِ: ﴿بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾:

الباءُ في قولِه تعالى: ﴿بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾، للإلصاقِ المجازيّ، أي: رأفتُه ورحمتُه ﷺ ملازمةٌ لهم لا تُفارقُهم، ويمكنُ أن تكونَ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/72.

للمُصاحَبَةِ بمعنَى (مع)، أي: رأفتُه ورحمتُه ﷺ مُصاحبةٌ لهم في جميعِ أحوالِهم[1]. وفي كلا المعنَيَيْن مبالغةٌ في بيانِ شدَّةِ رأفتِه ورحمتِه ﷺ بالمؤمنين، وفي هذين المعنَيَيْن كذلك، بيانُ منَّةِ اللّٰه على عبادِه المؤمنين، أن أرسلَ إليهم هذا الرَّسولَ الكريمَ بهاتين الصِّفتيْنِ الملازمَتَيْنِ المصاحبَتَيْنِ لهم.

نُكتةُ تقديمِ المتُعلَّقِ على عاملَيْه:

معالمُ علاقةِ المؤمنين الوطيدةِ، بصاحبِ الشّمائلِ الحميدةِ

قولُه تعالى: ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾، وفيه تقديمُ المتعلِّقِ ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ على عاملَيْه ﴿رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ للدَّلالةِ عل عظيمِ الاهتمامِ بالمؤمنين في توجُّه صِفَتَيْ رأفتِه ورحمتِه بهم[2]، وللإيماءِ إلى أنَّ هذه الرأفةَ والرّحمة قاربت أن تكونَ خاصَّةً بالمؤمنين دون غيرِهم، ففيه بيانُ عنايةِ النَّبيِّ ﷺ بالمؤمنين، ورعايتِهم في تربيتهم على تلك الرأفة والرحمةِ.

بَلاغةُ الجمعِ بين صفتَي ﴿رَءُوفٌ﴾ و﴿رَّحِيمٌ﴾:

صفتا الرَّأفةِ والرَّحمةِ، بينَهما عُمومٌ وخصوصٌ مُطلَقٌ في الآيةِ الكريمةِ

الرَّؤوفُ: الشَّديدُ الرَّأفة، والرَّحيمُ: الشَّديدُ الرَّحمة؛ لأنَّهما صيغَتا مبالغة، وهما يتنازعان المجرورَ المتعلِّقَ بهما وهو ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، والرَّأفةُ: رِقَّةٌ تنشأُ عند حدوثِ ضُرٍّ بالمرؤوف به. والرَّحمَةُ: رِقَّةٌ تقْتضي الإحسانَ للمرحوم، فبينَهما عمومٌ وخصوصٌ مُطلَق، ولذلك جُمِعَ بينَهما مع اخْتلافِ لوازمِهما، والمبالغةُ في هاتين الصِّفتَيْن جاءتْ في حقِّ المؤمنين، وأمّا في غيرِ المؤمنين فيُقال: رائفٌ وراحمٌ، ولا يُقالُ: بهم رؤوفٌ رحيم. ولذلك كانتْ رحمتُه ﷺ العامَّةُ الثّابتةُ، بقولِه تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾ [الأنبياء: 107]، رحمةً مشوبةً بشدَّةٍ على غيرِ المؤمنين[3].

(1) أبو القاسم الزَّجاجيّ، شرح حروف المعاني والصِّفات، ص: 47 - 48، وابن الجوزيّ، نزهة الأعين النَّواظر، ص: 208 - 211.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/73.

(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/73.

بَلاغةُ تقديمِ صفةِ ﴿رَءُوفٌ﴾ على صفةِ ﴿رَّحِيمٌ﴾:

شدَّةُ الرَّحمةِ تقتضي مراعاةَ الأغراضِ النَّفسيَّةِ، لدَى المخاطَبين بالبلاغِ

لَمّا ذكرتِ الآيةُ الوصْفَ المقتضيَ للرُّسوخِ بقولِه: ﴿حَرِيصٌ﴾، قدَّم ما يقتضي العطفَ على مَنْ يتسبَّبُ له بما يقتضي الوَصْلة، فقال: ﴿رَءُوفٌ﴾، أي: شديدُ الرَّحمة لمن له منه عاطفةٌ وصِلَةٌ لما تبيَّنَ من وجودِ الرِّقةِ الفائقةِ الشَّديدة بالمؤمنين، ولمّا كان المؤمنُ يُطلَقُ مجازًا على مَنْ يمكنُ منه الإيمانُ فوصلتُه الآنَ ليست بالفعلِ؛ بل بالإمكان، قالَ تَعْميمًا لرحمَتِه ﷺ، كما هو اللّائقُ بشريفِ منصبِه، وعظيمِ خُلُقِه: ﴿رَّحِيمٌ﴾، ولأجلِ مثلِ هذه الأغراضِ النَّفسيَّةِ رتَّبَ ﷺ هذيْنِ الوصفَيْنِ وقدَّمَ أحدَهما على الآخر[1]، فترتيبُ الصّفتين، هو على طريق التَّدَلّي، فبدأ بالرَّؤوفِ فالرَّحيم.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

العَنَتُ والتَّعبُ:

التَّعبُ أعمُّ وأشملُ منَ العَنَت، الّذي هو أخصُّ وأشدُّ

المُعانَتةُ كالمعاندة كالمُعانَدةِ، لكنَّ المعانتةَ المُعانَتةَ أَبْلَغُ؛ لأنَّها مُعانَدَةٌ فيها خوفٌ وهلاك، ولهذا يُقالُ: عَنَتَ فلان: إذا وقعَ في أمرٍ يُخافُ منه التَّلَفُ، يَعنُتُ عَنَتًا، قالَ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ ٱلْعَنَتَ مِنكُمْ﴾ [النّساء: 25][2]، وقولُه تعالى: ﴿۞وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَيِّ ٱلْقَيُّومِ﴾ [طه: 111]، أي: ذلَّتْ وخَضَعت.

والتَّعبُ: الإعْياء، حتَّى يُقالَ: تَعِبَ تَعَبًا، وهو تَعِبٌ، ولا يُقالُ: مَتْعوب، وأَتْعبتُه أنا إتعابًا، ويُقالُ للعَظْم المجبورِ، إذا أصابَه ألمٌ فَهاضَه: قد أعْنَتَه، ولا يُقال: قد أُتعِبَ العَظْمُ[3]، فالتَّعب أشملُ وأعمُّ، والعنتُ يأتي على كسْرِ العظم وما يُشابهُه، فالعنت أشدُّ وأخصُّ.

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 9/56.
(2) الرّاغب، المفردات، والفيروزباديّ، القاموس المحيط: (عنت).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: 1/348، والرّاغب، المفردات: (عنت).

الرّأفةُ والرَّحمةُ:

الرَّأفةُ: أشدُّ الرَّحمةِ وأبْلَغُ منها، وأقوى منها في الكيفيَّة؛ لأنَّها عبارة عن إيصالِ النِّعمِ صافيةً عنِ الألم، والرَّحمةُ: إيصالُ النِّعَم مُطلقًا، وقد يكونُ مع الكراهةِ والألمِ، للمصلحةِ كقطعِ العُضوِ المجذوم، وإطلاقُ الرَّأفةِ عليه تعالى كإطلاقِ الرَّحمة[1].

الرَّأفةُ أشدُّ منَ الرَّحمة، وهي إيصالُ النِّعَمِ من غيرِ ألَمٍ

(1) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 246 - 247، والكفويّ، الكلِّيّات: 2/378، والجرجانيّ، التَّعريفات، ص: 115.

﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُلۡ حَسۡبِيَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ وَهُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ ١٢٩﴾ [التَّوبة: 129]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

المناسبةُ بين مجيء الرّسول الرّحيم، وأمره حالةَ تَولّي المُبَلَّغين، بالتّوكّلِ على ربّ العرش العظيمِ

أوردَ سُبحانَه هذه الآيةَ إيرادَ المخاطِبِ المتلطِّفِ المزيلِ لما عندَ القومِ منَ الرَّيْبِ بالقَسَم، فكأنَّه قال: ما لكم تَنْصرِفونَ عن حَضْرتِه الشَّمّاءِ وشمائلِه العُلَى؟! واللّه لقد جاءكم هذا الرَّسولُ من أنفُسِكم، أقبلَ عليه هنا في هذه الآية الكريمةِ مُسلِّيًا له مقابِلًا لإعراضِهم إنْ أعرَضوا بالإعراضِ عنهم والبَراءةِ منهم، مُلتفِتًا إلى السّورةِ الآمرِ بالبراءةِ، من كلِّ مُخالفٍ، قائلًا مُسبِّبًا عنِ النَّصيحةِ بهذه الآية الَّتي لا يشكُّ عاقلٌ في مضمونِها: ﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ﴾، أي: اجْتهدوا في تكليفِ فِطَرِهم بعدَ النَّصيحةِ لهم بهذه الآية، ﴿فَقُلۡ﴾ مستعينًا باللّه مُفوِّضًا أمرَك إليه، ﴿حَسۡبِيَ ٱللَّهُ﴾: أي: كافيَّ اللّه الأَعْلَى الَّذي لا كُفْءَ له، عليه وحدَه توكَّلت، وهو ربُّ ومالكُ العرشِ العظيمِ، المحيط بجميع الأجسام، الحاوي لسائرِ الأجرام، صاحبُ العَظَمة المطلقة[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تَوَلَّوۡاْ﴾: ولي: الواوُ واللّامُ والياءُ أصلٌ صحيحٌ يدُلُّ على قُرْب. من ذلكَ الوَلْيُ: القُرْب. يقالُ: تباعدَ بعد وَلْيٍ، أي: قُرب[2]، وتَولَّى يتعدَّى بنفسِه وبالحرف، فإذا عُدِّي بنَفْسِه اقْتضَى معنَى الولايةِ، وحصولَه في أقربِ المواضعِ منه، يقالُ: وَلَّيتُ سمعي كذا، ووَلَّيتُ عيني كذا، وولَّيتُ وَجْهي كذا: أَقْبلتُ به عليه، قالَ تعالى: ﴿فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبۡلَةٗ تَرۡضَىٰهَاۚ﴾ [البقرة: 144]، وإذا عُدِّي (تولَّى) بـ (عن) لفظًا أو تقديرًا،

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 9/60 - 61.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ولي).

اقْتضَى معنى الإعْراضِ وتركِ قُربه، فمِنَ الأوَّلِ قولُه تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾ [المائدة: 51]، ومنَ الثّاني قولُه تعالى: ﴿إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ۝٢٣﴾ [الغاشية: 23]، والتَّولّي قد يكونُ بالجسم، وقد يكونُ بتركِ الإصْغاءِ والائْتمار، قالَ اللّه ﷻ: ﴿وَلَا تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ۝٢٠﴾ [الأنفال: 20]، ويُقالُ: ولّاهُ دُبُرَهُ: إذا انْهزَم، قالَ تعالى: ﴿وَإِن يُقَٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ ۝١١١﴾ [آل عمران: 111][1]، ومعنى قوله تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟﴾ أي: فإنْ أَعْرَضوا عنك، ولم يعملوا بما جئتَ به ولا قَبلوه[2].

2) ﴿حَسْبِىَ﴾: حسب: الحاءُ والسِّينُ والباءُ، أصولٌ أربعة: العدُّ، والحُسبانُ، والأَحسَبُ، والأصلُ الرّابعُ: الكفايةُ، تقول: شيءٌ حسابٌ، أي: كافٍ[3]، والمعنى المحوري: جمعُ ما هو منتشرٌ في حيّزٍ يضمُّه، حتَّى يمتلئَ به[4]، والحَسْبُ يُستعمَلُ في معنَى الكفاية، قالَ تعالى: ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: 173] أي: كافينا هو، ومنه قولُه تعالى: ﴿عَطَآءً حِسَابًا ۝٢٦﴾ [النَّبأ: 26] أي: كافيًا، وتأتي بمعنَى الرَّقيب المُحاسِب، كما قالَ تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ۝٦﴾ [النِّساء: 6][5]، فقوله: ﴿حَسْبِىَ ٱللَّهُ﴾ يجمع له كلَّ ما يريده من سندٍ ومؤازرةٍ، ونصرٍ وتوفيقٍ، في واحدٍ، وهو اللّه تعالى وحدَه، ومعنى قوله تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ﴾ أي: اللّه كافيكَ معرَّتَهم ولا يضرّونكَ، وهو ناصرُكَ عليهم[6].

3) ﴿ٱلْعَرْشِ﴾.عرش: العينُ والرّاءُ والشِّينُ أصلٌ صحيحٌ واحد، يدُلُّ على ارتفاعٍ في شيءٍ مبنيٍّ، ثمَّ يُستعارُ في غير ذلك، من ذلكَ: العَرْش[7]، والعَرْشُ في الأصل: شيءٌ مُسقَّفٌ، وجمعُه عُروش، قال تعالى: ﴿وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ [البقرة: 259]، ومنه قيل: عَرَشْتُ الكَرْمَ وعَرَّشْتُه: إذا جعلتُ له كهيئةِ سَقْف، وقد يُقالُ لذلك: المُعرَّشُ، قالَ تعالى: ﴿مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ﴾ [الأنعام: 141]، ﴿وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ ۝١٣٧﴾ [الأعراف: 137]، أي: يَبْنون، والعَرْشُ: شِبهُ هَوْدَجٍ للمرأةِ شبيهًا في الهَيْئَةِ بعَرشِ الكَرمِ، وسمِّي مجلسُ السُّلطان عَرشًا اعتبارًا بعلوِّه،

(1) الرّاغب، المفردات: (ولي)، والفيروزابادي، القاموس المحيط: (ولي).
(2) الشَّوكاني، فتح القدير: 2/591.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حسب).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (حسب).
(5) الرّاغب، المفردات، والفيروزابادي، القاموس المحيط: (حسب).
(6) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 2/223، والشَّوكانيّ، فتح القدير: 2/591.
(7) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عرش).

قالَ تعالى: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [يوسف: 100]، وكُنِّيَ به عنِ العِزِّ والسُّلطانِ والمملكةِ[1]، وعَرْشُ اللّه: ما لا يعلمُه البشرُ على الحقيقةِ إلّا بالاسْم، وليس كما تذهبُ إليه أوهامُ العامَّة، فإنَّه لو كان كذلك لكانَ حاملًا له - تعالى عن ذلك - لا محمولًا، قالَ ﷻ: ﴿ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ۝١٥﴾ [البروج: 15]، وقالَ ﷻ: ﴿وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾، والعرشُ لا يقدرُ أحدٌ قدرَه[2].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

المضيُّ في الدَّعوة إلى اللّه، والتّوكّلُ على اللّه، آمنَ مَنْ آمنَ، وكفرَ مَنْ كفر

يأمرُ اللّه تعالى رسولَه ﷺ أنَّه إن تولَّى عنه مَنْ أرسلَه اللّه إليهم، وامتنَّ عليهم به بأنْ أعرضوا عن الإيمانِ والعملِ بما جاءهم به من ربِّه، أنْ يمضيَ في دعوته للحقِّ، ويقولُ: اللّه يكفيني جميعَ ما أهمَّني لا معبودَ لي بحقٍّ سواه، اعتمدتُ ووثقتُ به في جلبِ ما ينفعُ، ودفعِ ما يضرُّ، وهو سبحانه ربُّ العرشِ العظيمِ الَّذي عرشُه أعظمُ المخلوقات[3].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

معنَى (الفاءِ) في: ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ﴾:

مَنْ تولَّى عنِ اتِّباعِ النَّبيِّ ﷺ، فاللّه حسيبُه، والهلاكُ مصيرُه

الفاءُ في قولِه تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ﴾ للتَّفريعِ على إرسالِ النَّبيِّ ﷺ صاحبِ هذه الصِّفاتِ إليهم، فإنَّ صفاتِه ﷺ المذكورةَ، تقتضي من كلِّ ذي عقلٍ سليمٍ منَ العربِ الإيمانَ به واتِّباعَه، فتفرَّعَ عليه أنَّهم مَحْقوقونَ بالإيمانِ به، فإنْ آمنوا فذاك، وإنْ لم يؤمنوا فإنَّ اللّه حسيبُه وكافيه[4]، وهذا التَّفريع باعتبارِ تفريعِ أحد القسمين، فإنَّ النّاس ما بين متَّبعٍ ومهتدٍ، فهذا التَّفريع توجيهٌ له ﷺ لمن يتولّى عنِ الاتِّباع.

(1) أبو عبيدة، مجاز القرآن: 1/227، والرّاغب، المفردات: (عرش)، والفيروزابادي، بصائر ذوي التمييز: 4/42.

(2) الرّاغب، المفردات: (عرش)، والزَّمخشريّ، الكشّاف: 2/223.

(3) السَّعدي، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 307.

(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/73.

نُكتةُ استعمالِ (إنْ) دون (إذا) في الآية الكريمةِ:

قولُه تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ﴾، وفيه دلَّ الشَّرطُ بـ (إنْ) على مقابلِه من مجيءِ الرَّسولِ ﷺ من أنفُسِهم المُحبِّ لجلبِ الخيرِ لهم ودَفْعِ الضَّرِّ عنهم، الرَّؤوفِ الرَّحيمِ بمن يتَّبعُه منهم، فاسْتعمالُ (إنْ) يفيدُ أنَّ تَولِّيَهم عنه مستبعَدٌ عقلًا؛ لِما في بعثتِه ﷺ من ثمراتٍ لهم، وفوائدَ جمّةٍ، "فكأنَّه قال: ما لكم تنصرفون عن حضرتِه الشّماءِ وشمائله العُلى"[1]!

اسْتبعادُ تَولّيهم عنِ الرّسول ﷺ بعد ما ذكرَ لهم صفاتِه وثمراتِ بعْثتِه

فهو على فرضِ وقوعِه، فعليك الاستغناءُ عنِ الخلْقِ المتّبعِ والمُتولّي، وهو إرشادٌ لمن بعدَه من أتباعِه ﷺ أن يَستغنوا عنِ الخلْقِ في جميعِ أحوالِهم وطريقِهم الموصلِ إليه ﷺ.

سِرُّ العُدولِ عنِ التَّصريحِ بالعِنادِ والكِبْرِ والكفرِ، إلى التَّولّي:

قولُه تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ﴾، التَّولّي: الإعراضُ والإدْبار، وهو مُستعارٌ هنا للمكابرةِ والعِنادِ والكفر، فالتَّولّي هو الأصلُ الَّذي يجمعُ هذه المعانيَ، وكلَّ ما يتفرَّعُ عنها، ولذلك دلَّ الشَّرطُ على مُقابِلِه، وهو تمامُ الإيمان؛ لأنَّ قولَه تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ﴾، يدلُّ على تقديرِ ضدِّه، وهو إنْ أَذْعنوا بالإيمان[2]، كما أنَّ التَّولّي يدخلُ فيه كبائرُ الأعمالِ وصغائرُها؛ فإن حصل تولٍّ منهم، بأدنى ملابسةٍ، فإنَّ اللّه تعالى يدلُّه على طريق الاستغناءِ والاكتفاء، بخلافِ ما لو ذكرَ الكفرَ والعنادَ؛ لكان ذلك التّوجيهُ والإرشادُ محصورًا في الكبائر دونَ الصَّغائرِ، وفيه دليلٌ على وجوبِ الاستغناءِ بالخالق عنِ الخلْق، في الأمورِ كلِّها.

المؤمنُ مطلوبٌ منه أن يَستغنيَ باللّه تعالى عنِ الخلْقِ، في الأمورِ كلِّها

سِرّ ورودِ (الفاءِ)، في الجملة المبدوءةِ بلفظ ﴿فَقُلْ﴾:

الفاءُ في قولِه تعالى: ﴿فَقُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ﴾، رابطةٌ لجوابِ الشَّرطِ المتقدِّمِ في قولِه: ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ﴾، مفيدةٌ لترتيبِ اللّاحقِ لها لما سبقَها،

من ترك نصرةَ دينِ الله وتولَّى عنه، فإنّه تعالى كافٍ عبادَه، وناصرٌ دينَه

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/60.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/73.

ترتيبَ اللُّزومِ النّاجعِ، فنتيجةُ تولّي المُتولّين، كفايةُ اللّه لرسولِه ﷺ، وهذه مكافأةٌ عظيمةٌ للنَّبيِّ ﷺ ومن معه منَ المؤمنين، أن يُعوّضَهمُ اللّه بكفايتِه عن نصرةِ النّاس له.

بَلاغةُ الالْتفاتِ منَ الغَيْبةِ إلى الخصوصِ:

التَّفويضُ قائمٌ على الأمرِ بالخطابِ المباشرِ، تحقيقا للغاية، وتوخّيًا للمُرادِ

جاءَ الخطابُ في قولِه تعالى: ﴿فَقُلْ﴾ بعد الغَيْبةِ، في قولِه تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ﴾، وما سبقَه في الآية السّابقة؛ لأنَّ الجوابَ هنا قائمٌ على الاسْتعانةِ باللّه، وتفويضِ أمرِهم إليه تفويضًا مباشرًا لرسولِ اللّه ﷺ، لا يحتملُ إلّا الأمرَ المباشرَ، ولذلك جاءَ بعدَه مضمونُ هذا الأمرِ، بقولِه: ﴿حَسۡبِيَ ٱللَّهُ﴾[1].

غرَضُ الأمرِ ﴿فَقُلۡ حَسۡبِيَ ٱللَّهُ﴾، في السّياق:

وعدٌ بالنَّصرِ للمؤمنين، ووعيدٌ للمُتوَلّين المُعانِدين

لَمّا كان معنَى الأمرِ بأنْ يقولَ: حسبيَ اللّه، وأن يكون قولًا ناشئًا عن عَقْدِ القلبِ عليه، أي: فاعْلَم أنَّ حَسْبَكَ اللّه، وقلْ: حَسْبيَ اللّه، كان الغرضُ من القولِ هنا تأكيدَ المعلومِ وترسيخَه في نَفْسِ العالمِ به، ذلك أنَّ في هذا القولِ إبلاغًا للمُعرضينَ عنه بأنَّ اللّه كافيهِ إيّاهم[2]، وفيه إشارةٌ إلى تعليم المؤمنين، وإسماع المُتَوَلّين عنه، ففيه وعدٌ بالنَّصر للمؤمنين، ووعيدٌ للمُتوَلّين.

البَلاغةُ في: ﴿حَسۡبِيَ ٱللَّهُ﴾:

غايةُ الكفايةِ منَ اللّه، والتَّوكُّلِ عليه في قتالِ المُعرضين عنِ الهُدى المُبين

في قولِه تعالى: ﴿حَسۡبِيَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ﴾، بيانٌ منَ اللّه تعالى أنَّ اللّه حَسْبُ رسولِه وكافيه، في نَصْرِه على أعدائه، وفي إيصالِه كذلكَ إلى مقاماتِ الآلاءِ والنَّعماءِ، بقولِه: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ﴾، وإذا كان لا إلَهَ إلّا هو، وجَبَ أن يكونَ لا مُبدئَ لشيءٍ منَ المُمكناتِ، ولا مُحدِثَ لشيءٍ منَ المُحدَثات، إلّا هو ﷻ، وإذا كانَ هو ﷻ الَّذي أرسلني بهذه الرِّسالة، وأمرَني بهذا التَّبليغِ كانت النُّصرةُ والمعونةُ منه مُرْتَقَبةً،

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 9/60.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/74.

وأنا لا أتوكَّلُ بذلك إلّا على اللّه القدير، فهو ربُّ العرشِ العظيمِ الَّذي هو أعظمُ المخلوقات، وهذا التَّفويضُ والتَّوكُّلُ عليه يدُلّانِ على أنَّ هذه الآيةَ، ليستْ آيةَ موادعةٍ للكفّار؛ بل فيها الحثُّ على الجِدِّ، في قتالِ الكفّارِ والمنافقين[1].

سِرُّ تقديم المُسنَدِ ﴿حَسۡبِيَ﴾ على المُسنَدِ إليه ﴿ٱللَّهُ﴾:

تقديمُ المسنَدِ على المسنَدِ إليه، في قولِه تعالى: ﴿حَسۡبِيَ ٱللَّهُ﴾، دون أن يقول: (اللّه حسبي)، للدّلالةِ على قوَّةِ هذا التَّفويضِ والكفايةِ وتحقُّقِ مضمونِهما، فالكافي هو اللّه والمفوَّضُ إليه هو اللّه، وفي هذا الإسنادِ إبلاغٌ للمُتوَلّين المُعرضينَ عن رسولِ اللّه ﷺ، بأنَّ اللّه كافٍ رسولَه شرَّ إعراضِهم وناصرُه عليهم، فإنْ أَعْرضوا بعد هذا، فقد أعرضوا عن حَسَدٍ وحَنَقٍ، وتلك مَظِنَّةُ السَّعيِ في الكَيْدِ والأذى[2].

تأكيدُ مضمونِ التَّفويضِ إلى اللّه، وتحقُّقُ الطَّمأنينةِ له

نُكتةُ التَّعبيرِ بلفظِ الجلالةِ: ﴿حَسۡبِيَ ٱللَّهُ﴾:

التَّعبيرُ بلفظِ الجلالةِ ﴿ٱللَّهُ﴾ في قولِه تعالى: ﴿حَسۡبِيَ ٱللَّهُ﴾، لزرعِ المهابةِ في القلوب، فإنَّ الَّذي يَكْفي رسولَه ﷺ، شرَّ أعدائه، هو اللّه لا أحدَ غيرُه، وفي إيرادِ هذا اللَّفظِ الجليلِ، ترسيخٌ في النّفوسِ لما يريدُه اللّه تعالى منَ العلم، بأمرين: أوَّلُهما: أنَّ اللّه ناصرُ رسولِه وأصحابِه وأوليائِه والمؤمنينَ، وكافيهم شرَّ الكائدينَ والحاقدين، وثانيهما: إبلاغُ المُعرضينَ المُنصرفينَ عنِ الحقِّ وتحذيرُهم وإنذارهم عقابَ اللّه، وإهلاكَه إيّاهم[3].

ذكْرُ لفظِ الجلالةِ، زَرْعٌ للمهابةِ في القلوبِ، وتحذيرٌ من غضَبِ اللّه وعقابِه

علَّةُ الفَصْلِ في: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ﴾:

قولُه تعالى: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ﴾ اسْتئنافٌ بيانيٌّ للثَّناءِ على وَحدانيَّةِ اللّه، مُقرِّرٌ ومُعلِّلٌ لمضمونِ ما قَبْلَه، ويمكنُ أن يكونَ في موضعِ الحال،

اللّه يَكْفي عبادَه، فلا إلهَ لهم سِواه

(1) ابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 3/100، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 16/179.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/74.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/74.

وفيه كذلك ثناءٌ بالوَحدانيَّة[1]، كما أنَّ فيه تعليلًا كاشفًا عن مفهومِ الكفاية والنُّصرة، فكأنَّه قال: اللّٰه يكفيك لأنَّه لا إله لك سواه.

دلالةُ موقعِ: ﴿عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ﴾:

التَّوكُّلُ: التَّفويض، وهو مبالغةٌ في: (وَكَلَ)، وفي هذه الجملةِ بعدَ ما سبَقَها، تنويهٌ بهذه الكلمةِ المباركةِ وضرورةِ ذكرِها مع اليقينِ، بمفعولِها بعَينها، فرسولُ اللّٰه ﷺ لم يُؤمَرْ بمجرَّدِ التَّوكُّل، كما أُمِرَ في قولِه تعالى: ﴿فَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلۡحَقِّ ٱلۡمُبِينِ ٧٩﴾ [النَّمل: 79]، ومن توكَّلَ على اللّٰه كفاهُ شرَّ أعدائه، وأَحْبطَ مكرَهم وكَيْدَهم[2].

التَّنويهُ ببركةِ الكلماتِ الرّوحيَّةِ، في الكفايةِ الإلهيَّةِ

سِرُّ تقديمِ الجارِّ والمجرورِ ﴿عَلَيۡهِ﴾:

قولُه تعالى: ﴿عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ﴾، تقدُّمُ الجارِّ والمجرورِ للاخْتصاص، أي: لاخْتصاص التَّوكُّلِ عليه ﷻ دونَ غيرِه، أي: لا أتوكَّلُ إلّا عليه ﷻ، فالتَّوكُّلُ عبادةٌ بمعنَى التَّفويض، وهذه العبادَةُ لا تُصرَف إلّا للّٰه، فهو ﷻ المخصوصُ بها؛ لأنَّه هو الَّذي يملِكُ مقاليدَ كلِّ شيء، والأمورُ كلُّها بتصريفِه ﷻ، ومَنْ مَلَكَ شيئًا فبتمليكِ اللّٰه له تمليكَ عاريَّةٍ لا تمليكَ أَصالة[3].

التَّوكُّلُ على اللّٰه دونَ سواه، من جوهرِ عقيدةِ التّوحيدِ السّمحةِ

نُكتةُ التَّعبيرِ بالفعلِ الماضي ﴿تَوَكَّلۡتُۖ﴾:

اسْتعمالُ البيانِ الإلهيِّ للفعلِ الماضي ﴿تَوَكَّلۡتُۖ﴾، لإفادةِ التَّحقُّق، أي: فوَّضتُ أمري إليه لا لغيرِه، وتوكَّلتُ عليه، وأمضيتُ هذا التَّوكُّلَ، فقد حصَلَ وتمَّ القيامُ به، وقد كفاه اللّٰه شرَّهم ونَصَرهُ عليهم[4]، كما أنَّها تفيدُ بيانَ أنَّ المؤمن متوكِّلٌ في كلِّ أحوالِه على اللّٰه تعالى، السّابقةِ واللّاحقةِ؛ فليس التَّوكُّلُ أمرًا طارئًا، بل هو منهجٌ روحيٌّ إيمانيٌّ عقديٌّ، يقودُ صاحبَه إلى الرِّضا والطُّمأنينةِ.

التَّوكُّلُ منهجٌ روحيٌّ إيمانيٌّ، لا ظرفٌ طارئٌ في قلبِ المؤمنِ

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/620، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/74.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/534، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/74.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 16/179.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/534.

بَلاغةُ العطفِ ﴿وَهُوَ﴾:

عُطِفَتْ جملةُ: ﴿وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾، على ما تقدَّمَها؛ للثَّناءِ بعظيمِ القدرةِ الرَّبّانيَّةِ، الخاصَّةِ باللّه وحدَه[1]، ولهذا العطفِ براعةٌ في التَّعريف باللّه تعالى، بأنَّه ربُّ العرش العظيمِ، فمن كان هذا حالُه فإنَّه ناصرٌ عبدَه الضَّعيفَ، ومن كانت هذه ربوبيّتَه، فهو كافٍ وَليَّه القريبَ؛ ففيه معنى التَّعليل لما مضى، كما أنَّ فيها إشارةً إلى أنَّ اللّه تعالى صاحبُ النّاموسِ الأعظمِ، والقانونِ الأفخمِ، بيده مقاليدُ الأمور، وهو صاحبُ الإرادة المطلقةِ، فإنَّه يُهيِّئ لأوليائه نصرًا وكفايةً، بحسب علْمِه وحكمتِه، وجليلِ أمره.

ذكْرُ الثَّناءِ على اللّه بعظيم قُدرتِه، تعليلٌ لعظيمِ إرادتِه

دَلالةُ الإضافةِ: ﴿رَبُّ﴾:

أُضيفتْ كلمةُ ﴿رَبُّ﴾ إلى ﴿ٱلْعَرْشِ﴾؛ لأنَّ من معاني الرُّبوبيَّةِ الخالقيَّةَ، فاللّه هو الرَّبُّ الخالقُ للعرش، فالعرشُ مخلوقٌ من مخلوقاتِ اللّه، لكنَّه أعظمُ المخلوقاتِ، فمَنْ كانَ ربًّا للعرشِ العظيمِ، ثبتَ أنَّه قديرٌ ﷻ[2]، فإذا كان ربًّا للعرشِ، ألا يكون ربًّا لمن تحت العرش؟ وفي ذلك إشارةٌ لطيفةٌ، إلى نيْلِ العبد المُتوكّل، أرفعَ المنازلِ وأسمَى المراتبِ؛ فأنّى لعبدٍ توكَّلَ على مولاه، ربِّ العرش العظيمِ، وقد تخلَّى عنه مَن سواه، إلّا أن يرفعَ ذكْرَه، ويُعْلي شأنَه، ويبلِّغَه مُناه!

من كان ربًّا للعرشِ، فهو ربٌّ لمَن دونَه، وما دونَه

نُكتةُ الوصْفِ بـ: ﴿ٱلْعَظِيمِ﴾:

﴿ٱلْعَرْشِ﴾ مع كونِه عظيمًا في ذاتِه، وُصِفَ بـ ﴿ٱلْعَظِيمِ﴾، للدّلالةِ على أنَّ العظمةَ صفةٌ لازبةٌ له، فهذا تخصيصٌ له بالعظَمةِ، إذْ هو أعظمُ المخلوقات[3]، وهي تفخيمٌ وتعظيمٌ بالنَّصِّ، بعد التَّفخيم والتَّعظيم بالمعنى.

تفخيمُ العرش باللَّفظِ، تأكيدٌ لتفخيمِه بالمعنى

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/74.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/620، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 22/74.
(3) ابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 3/100.

سِرُّ خَتْمِ السورةِ بـ ﴿رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾:

ردُّ آخرِ السّورة على أوّلها، بلاغةٌ عظيمةٌ، في تقرير المعاني، وتعليلِ الدّلالاتِ

جاءَ خَتْمُ سورةِ التَّوبةِ المباركةِ، بهذا الوصفِ العظيم: ﴿وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾، لبيان عظمةِ الرَّبِّ بتقديسِه، وإظهارِ كمالِ علمِه وقُدرتِه، وتنزيهِه عن أنْ يتمثَّلَ في الأوْهام، أو تصلَ إليه الأفْهامُ، وبيانِ عظمةِ عَرْشِه باتِّساعه وعَدَمِ قدرةِ أحدٍ على الإحاطة بعظيمِ قدرِه، وفي ذلك كلِّه إظهارُ شَرَفِ الإيمانِ باللّه، وتنبيهُ القومِ إلى المبادَرةِ باغْتنامِ وجودِ رسولِ اللّه ﷺ، بين أَظْهُرِهم ليُسارعوا إلى الإيمانِ به، والتَّشرُّفِ بالاقْتداءِ بهَدْيِه، فيحصُلَ لهم كمالُ الإيمانِ مع كمالِ الانْتفاعِ برسولِ اللّه ﷺ، وهم يُشاهدونَه ويَقْتبسونَ من أنوارِ سُنَّتِه وأخلاقِه وسيرتِه[1].

وقد عانق آخرُ السّورة أولَّها، وصافح مُنتهاها مُبتدأَها، وتأكَّد ما فهمتَه من سرِّ الالتفات في ﴿فَسِيحُواْ﴾ [التوبة: 2]، وفي ﴿فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ﴾ [التوبة: 3][2].

وهذا الختمُ مناسبٌ للبدء بالبراءة منَ المشركين، فإنَّ اللّه ذو العرش العظيم، هو الّذي تبرّأ ممَّن أشرك به، وأعرض عنه، وحارب دينَه، ففيه تهويلٌ لأمر الشِّرك، ووعيدٌ للمشركين، فهي من ردِّ آخرِ السّورة على أوّلِها، فلمّا تبرَّأ منهم في البداية، أثبت سببِ ذلك في الخاتمة، فكيف يكون لربّ العرش العظيم نِدٌّ من خلْقِه، وكيف يكون له مناوِئٌ من عبادِه؟!

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/534، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/74.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/61.

سُورَةُ يُونُسَ

سُورَةُ يُونُسَ

التَّعريفُ العامُّ بالسّورة:

نقل ابنُ عطيَّةَ الأندلسيُّ قولَ الجمهور أنَّ سورةَ يونس مكيَّةٌ خلا بعضَ الأقوال الّتي استثنت قولَه تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦۚ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤٠﴾﴾ [يونس: 40]، وقولَه: ﴿فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَۚ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾﴾ [يونس: 94 - 97][1].

قال سيّد طنطاويّ: "والَّذي تطمئنُّ إليه النّفسُ، أنّ سورةَ يونس جميعَها مَكيّةٌ، كما قال المُحقّقون منَ العلماء؛ لأنّ الّذين قالوا بوجود آيةٍ أو آياتٍ مَدنيّةٍ فيها لم يأتوا بروايةٍ صحيحةٍ تَصلُح مُستنَدًا لهم، ولأنّ السّورةَ الكريمةَ من مطْلعِها إلى نهايتِها تُشاهَدُ فيها سِماتُ القرآن المكيِّ واضحةً جليّة"[2].

عددُ فواصلِها وترتيبُها:

مئةٌ وتسعُ آيات عند جُمهور أهل العَدَد، ومئةٌ وعشرُ آيات عند أهل العَدَد بالشّام[3].

وهي السّورةُ العاشرةُ في ترتيب المصحف الشَّريفِ، تقعُ بين سورتَي التَّوبة وهود، حسبَ التَّرتيب التَّوقيفيِّ لسوَر القرآن الكريمِ، وذكر بعضُ المُفسِّرين أنَّ ترتيبها النُّزوليَّ هو الواحدُ والخمسون في عِداد نُزول سوَر القرآنِ بعد سورة بني إسرائيل وقبل سورة هود[4].

فضائلُ سورةِ يونس:

لم يَرِد نصٌّ من حديث صحيح يُخصِّصُ السّورة بذكر فضائلِها، خلا ما وردَ على

(1) ابن عطيَّة، المُحرَّر الوجيز: 3/102.
(2) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 7/8.
(3) الدّانيّ، البيان في عدّ آيّ القرآن، ص: 168.
(4) الجَعْبَريّ، تقريب المأمول في ترتيب النُّزول، ص: 143، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/78.

وجه العُموم في فضل المِئين من سور القرآن، فعنْ واثِلَةَ بنِ الأسْقَعِ أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «أُعْطيتُ مَكانَ التَّوْراةِ السَّبْعَ، وأُعْطيتُ مَكانَ الزَّبورِ المِئينَ، وَأُعْطيتُ مَكانَ الإنْجيلِ المَثانيَ، وَفُضِّلْتُ بِالمُفَصَّلِ»[1].

وقد عدّها الطّبريُّ منَ السّبع الطِّوالِ مع البقرة وآل عمرانَ، والنّساءِ، والمائدةِ، والأنعامِ، والأعرافِ[2]، والجمهورُ على أنّها منَ المِئين وفضلُها ظاهرٌ في الحديث الشَّريف على كِلا المعْنَيَيْن على أنّها تعدِلُ التّوراةَ أوِ الزَّبور.

❁ مناسبةُ اسمِ السّورةِ الكريمةِ:

اسمُ السّورة المُشتهرُ الّذي لم يَرد غيرُه: سورَةُ يونس، يقول ابنُ عاشور: "سُمِّيَتْ في المَصاحفِ وفي كُتُبِ التَّفسيرِ والسُّنَّةِ (سورَة يونُسَ) لأنَّها انْفَرَدَتْ بِذِكْرِ خُصوصيَّةٍ لِقَوْمِ يونُسَ، أنَّهُم آمَنوا بَعْدَ أنْ تَوَعَّدَهُم رَسولُهُم بِنُزولِ العَذابِ فَعَفا اللّه عَنْهُم لَمّا آمَنوا. وتلك الخُصوصيَّةُ كَرامَةٌ ليونُسَ عليه السلام، ولَيْسَ فيها ذِكْرٌ ليونُسَ غَيْرَ ذلك. وقد ذُكِرَ يونُسُ في سورَةِ الصّافّاتِ بأوْسَعَ مِمّا في هذه السّورَةِ، ولكنَّ وجْهَ التَّسْميةِ لا يوجِبُها"[3].

وكلامُ ابن عاشور غايةٌ في الدّقّة فتَسميةُ السّورة باسم نبيّ اللّه يونسَ عليه السلام الّذي لم تتجاوز قصّتُه فيها إشارةً سريعةً في قوله: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُواْ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْيِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [يونس: 98] أمرٌ يَدعو إلى التّفكير في سورة أخذت على عاتقها تقريرَ مسائلِ العقيدةِ الأساسِ، حيث ناقشت مُشركي قريشٍ في كلّ أسانيدِهم الباطلةِ، وعرضت لهم بعضَ المشاهدِ من قصّتيْ نوحٍ وموسى عليهما السلام وما جرى مع أقوامِهما منِ استعجالٍ وإهلاك، بينما وَردَ ذِكرُ قصّة يونس عليه السلام في سورة الصّافات بتفصيلٍ أكبرَ، وذلك في الآيات: [139 - 148] من سورة الصّافات، ولكنّ الإشارةَ لقصّة يونس عليه السلام في سورة حملتِ اسمَه إنّما جاءت؛ لأنّها المَثَلُ الوحيدُ البارزُ للقوم الّذين تدارَكوا أنفسَهم قبل مُباغتةِ العذاب لهم؛ فثابوا إلى ربّهم وفي الوقت سَعةٌ؛

(1) أحمد، المسند، الحديث رقم: (16982) واللّفظ له، والطَّيالسيّ، المسند، الحديث رقم: (1105)، والطَّحاويّ، شرح مُشكِل الآثار: (1389).

(2) ابن جرير، جامع البيان: 1/101 - 102.

(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/77.

وهم وحدَهم في تاريخ الدَّعوات الّذين آمنوا جملةً بعد تكذيبٍ، فكشفَ عنهمُ العذابَ الَّذي أوعَدَهم به رسولُهم قبل وقوعِه بهم، كما هي سُنّةُ الله في المُكذّبين المُصرّين.

فقد حدّثتِ السّورةُ عن مصير قومِ نوحٍ، وذلك في الآيات [يونس: 73 - 74]، وعن مصير قومِ موسى وذلك في الآيات [يونس: 90 - 91]، ثمّ عقّبت السّورةُ بعدها وقبل الإشارةِ إلى قوم يونسَ بسُنَّةٍ اجتماعيّةٍ من سُنن الله في الظّالمين: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتۡ عَلَيۡهِمۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ ٩٦ وَلَوۡ جَآءَتۡهُمۡ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ ٩٧﴾ [يونس: 96 - 97]، فكانتِ الإشارةُ إلى قصّة يونسَ عليه السلام على أنّهم أنموذجٌ للقوم الّذين انتفَعوا بدعوة نبيِّهم حتّى لو أصاب نبيَّهم اليأسُ منهم.

وهذا ما يُفسّرُ ظاهرةَ تَكرار ذِكْر النّفعِ والضُّرّ في السّورة الكريمةِ في مثل قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلۡإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوۡ قَاعِدًا أَوۡ قَآئِمٗا فَلَمَّا كَشَفۡنَا عَنۡهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمۡ يَدۡعُنَآ إِلَىٰ ضُرّٖ مَّسَّهُۥۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلۡمُسۡرِفِينَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٢﴾ [يونس: 12]، وكما في الآيات [يونس: 18، 49، 106].

وإذا كانت قصّةُ قومِ يونسَ عليه السلام تمثّلُ حالةً مشهودةً في التّغيُّر الإيجابيّ؛ فقد حَفَلتِ السّورةُ كذلك بمشاهدَ متنوّعةٍ لحالات التّغيُّر السَّلبيِّ، أوِ التّغيُّرِ الإيجابيّ المُتأخّرِ عن وقتٍ ينتفعُ به أصحابُه، من مثْلِ ما وردَ في السّورة من تصوير حالةِ الّذين دعَوا الله تعالى في البحر أن يُنجّيَهم ممّا أحاط بهم من ريحٍ عاصف وموجٍ متلاطم؛ فأنجاهم فلم يَشكروا ولم يعتبِروا، وذلك في الآيات [يونس: 22 - 23]، وكذلك ما جاء في الآيات من تصريف قدرةِ الله تعالى على إرسال العذابِ أو رَفْعِه عن الأقوام، كما في قوله تعالى: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِنۡ أَتَىٰكُمۡ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوۡ نَهَارٗا مَّاذَا يَسۡتَعۡجِلُ مِنۡهُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ٥٠ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓۚ ءَآلۡـَٰٔنَ وَقَدۡ كُنتُم بِهِۦ تَسۡتَعۡجِلُونَ ٥١﴾ [يونس: 50 - 51]، ومنه ما جاء من إنعام الله تعالى على بني إسرائيلَ من تخليصِهم من شرور فرعونَ وقومِه، ومن وِراثةِ الأرض كما جاء في الآيات [يونس: 90 - 93].

وممّا يؤكّدُ ما تقدّم ذِكرُه أنّ هذه السّورة قدِ انفردت بذكر أسلوبِ الاستفهام في كلمة ﴿ءَآلۡـَٰٔنَ﴾ مرّتين في السّورة، وذلك في سياق إنْكار التَّأخير والتَّوْبيخ عليه[1]، وما فيها من دلالةٍ زمنيّةٍ تُحتِّمُ على الأقوام والأفرادِ أن يَستشعروا خطرَ العذاب قبل مجيئِه، وأن يمتثِلوا للآيات والرُّسل قبل أن يَحِلَّ عليهم الغضبُ، فلا غرْوَ إذن أن تُسمّى السّورةُ باسم

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/153.

نبيّ اللّه الكريمِ يونسَ ﷺ الّذي خالفَ قومُه كلَّ مَن سبقَهم ولحقَهم منَ الأقوام، وانتفعوا بدعوة نبيِّهم ولو بعد حين.

❁ موضوعاتُ السُّورةِ ومقاصدها ومحورها العام:

دَلالةُ التَّوقيتِ الزَّمنيِّ للسّورة:

الفترة الزّمنيّةُ الَّتي نزلت فيها سورةُ يونس فترةٌ حافلةٌ بأحداثٍ جِسامٍ عاشها المسلمون الأوائلُ في مكّةَ المكرّمةِ، حيث نزلت بعد فترةٍ طويلةٍ من حياة المسلمين بها، وبعد معاناةٍ واضطهادٍ، فنزلت عقبَ حادثةِ الإسراء والمعراج، وبعد أن تقلَّبت عليهم فيها أحوالٌ منَ التّكذيب والتّشكيك، فجاءت لتُعالجَ مواقفَ المشركين من قضايا العقيدةِ الرَّئيسةِ، كالنّبوّة والوحْيِ، وموضوعِ البعث، وحقيقةِ الحياة، وخلالَ ذلك كلِّه عَرَضت بعضَ آياتِ اللّه في الكون، وبيّنت طبيعةَ هذا الإنسانِ، ذاكرةً بعضَ المشاهدِ القصصيّةِ لِمَن سَبَقهم منَ الأقوام على الكُفر، وخُتمتِ السّورة بتلقين الرّسول ﷺ بأنّ الهدايةَ منَ اللّه، فمَنِ اهتدى فلنفسه، ومَن ضلّ فعليها، وأنّ اللّه سيحكمُ بينه وبين مُعانِديه، إذن نزلت السّورةُ في جوٍّ مشحونٍ يُمثّلُ ذُروة الصّراع بين الحقّ والباطلِ في مرحلةٍ ساخنةٍ من مراحل الدّعوةِ في مكّة.

المقاصدُ العامَّةُ للسّورةِ:

أوّلاً: إثباتُ رسالة النَّبي ﷺ بدلالة عجْزِ المشركين عن مُعارضة القرآن، وبيانُ أنَّ القرآن من عند اللّه، وذكرُ موقفِ المشركين من حقيقة الرِّسالة والقرآن، وإبطالُ إنكارهم أن يُرسل اللّه رسولًا منَ البشر، وتذكيرُهم بما حلَّ بأهل القرون الماضيةِ؛ لَمّا أشركوا، وكذَّبوا الرُّسلَ.

ثانيًا: إثباتُ انفرادِ اللّه بالإلهيَّة بدلالة الرُّبوبيّة؛ إذ هو تعالى خالقُ العالم ومُدبِّرُه، فأفضَى ذلك إلى إبطالِ أن يكون للّه شركاءُ في إلهيَّته، وإبطالِ معاذير المشركين بأنَّ أصنامَهم شفعاءُ عند اللّه.

ثالثًا: إثباتُ البعث والجزاء، وبيانُ حِكمة الجزاءِ وصِفتِه، ووعيدُ مُنكري البعثِ المُعرِضين عن آيات اللّه، وتوبيخُ المشركين على ما حرَّموه ممّا أحلَّ اللّه.

رابعًا: ذكرُ قِصص بعض الأنبياء مع أقوامهم، وذكرُ موقف أقوامِهم في تكذيبهم المُشابهِ لحال الكفّارِ مع النَّبي ﷺ؛ حثًّا على الاعتبار بما حلَّ بهم جزاءَ تكذيبِهم، وتسليةً للقِلَّة المؤمنة بذِكْر عاقبة المؤمنين الّذين آمنوا بأنبيائهم.

خامسًا: الاستشهادُ على صدْق رسالة النَّبي بشهادة أهل الكتابِ.

موضوعاتُ السُّورةِ:

تناولت سورةُ يونس جملةً منَ الموضوعات، يجمعُها على تَفرُّقها، أنّها تقوم على ترسيخ الجانب العَقَديِّ لدى المسلمين في مكّة، وردِّ شُبهات المُكذّبين؛ فقد تناولتِ السّورةُ معانيَ عديدةً يمكن إجمالُها فيما يأتي:

ابتدأتِ السّورةُ بإثبات رسالة النّبيِّ ﷺ من خلال إثبات عجْزِ العرب عن معارضة القرآنِ بهذه الحروف المقطّعةِ الّتي ابتدأت فيها السّورةُ، بقوله: ﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ ١﴾ [يونس: 1]، وصرّح بهذا التّحدّي في أثناء السّورة بقوله: ﴿قُلۡ فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّثۡلِهِۦ﴾ [يونس: 38]، وأتْبَعَ ذلك بإثبات رسالة النّبيِّ ﷺ، وإبطالِ مزاعم المشركين بشفاعة أصنامِهم عند الله، وبيّن انفرادَ الله بالألوهيّة، وبأنّه خالقُ العالم ومُدبِّرُه، وإبطالِ أُلوهيّة غيرِ الله تعالى، وأنّها لا تُغني شيئًا من دون الله ﷻ، وبيّن دلائلَ وَحْدانيّته تعالى في آيات الكون، والاعتبارِ بما خلق الله للنّاس من مواهبِ القدرة على السَّير في البرّ والبحر، وضربَ المثلَ في أثناء ذلك بالحياة الدّنيا وبهجتِها وزوالِها، وأنَّ الآخرة هي دارُ القرار، وبيَّن حكمةَ وصفةَ الجزاء لمُنْكري البعث، وتضمَّنتِ السّورة جانبًا من قصّتيْ نوحٍ وموسى عليهما السلام وما جرى بينهما وبين أقوامِهما، وبيانِ عاقبة أقوامهما بعد استعجالِهم العذابَ وتكذيبِهم الرّسلَ، وبيَّنتِ السّورة طبيعةَ هذا الإنسان، وما يَعْتريه من تبدُّل الأحوال في الشّدّة والرّخاء، وخُتمتِ السّورةُ بتقريرِ أنَّ هداية مَنِ اهتدى وضلالةَ مَن ضلّ إنّما يكون مآلُها على أصحابها، وليس على الرّسول ﷺ منها شيءٌ، وأنّ الله تعالى سيَحكمُ بينه وبين مُعانِديه[1].

المحورُ الَّذي تدورُ حولَه موضوعاتُ السّورةِ:

أمّا من حيثُ الوَحدةُ الموضوعيَّةُ لسورة يونس فإنّها لا تفترقُ عنِ السّور المكّيّةِ الأخرى

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/78 - 80.

في تقرير أصول العقيدةِ الصّحيحةِ، مع احتفاظ كلِّ سورة منها بخصوصيّةٍ موضوعيّةٍ وأسلوبيّةٍ تُميِّزها عن غيرها منَ السّور وإن شاركَتْها في بعض الأصول؛ فهي تُعالجُ الشّبهاتِ الَّتي يعرضُها منكرو الوحْيِ في كلّ زمانٍ ومكانٍ؛ فتناولتِ السّورةُ الكريمة هذه الشّبهاتِ بالعرْض والنّقد، مبيِّنةً دوافعَ إثارتها، ومجالاتِها، وآثارَها وأسبابَ علاجها، ونماذجَ من تاريخها القديم منَ المشكّكين السّابقين، فعرَضت مصيرَهم، وخصّت قوميْ نوحٍ وموسى عليهما السلام لاستفاضة مصائرِهم في تاريخ البشريّةِ، وذكرت أنموذجًا فريدًا لمَنِ انتفع بالهداية منهم، وعادَ إلى الجادّة بقوّةٍ ويقينٍ، وهم قومُ يونس عليه السلام.

بدأتِ السّورة بذِكْر شُبهة الوحْيِ: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ ۝٢﴾ [يونس: 2] ثمَّ عرضت لجانبٍ من شُبُهاتهم في إنكار البعث: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُواْ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّواْ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ۝٧ أُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ۝٨﴾ [يونس: 7 - 8] وشُبُهاتِهم حول القرآن: كما في الآيات [يونس: 15 - 16]، والآيات: [يونس: 37 - 39]، وعرضت لكثيرٍ من شُبهاتهم حول وَحدانيّة الله، ونسبةِ الشُّركاء له، كما في الآيات: [يونس: 18 و 34 - 35 و 68].

وبيّنت لهم في أثناء الرَّدّ عليهم حقيقةَ الحياةِ الدّنيا، وذلك في الآية الرّابعة والعشرين منَ السّورة، وعرضت مظاهرَ آيات الله في الكون الَّتي تُكذّبُ مزاعمَهم، كما في الآيات [يونس: 5 - 6، و31].

وبيّنت لهم السّورةُ في أثناء ردِّها على شُبهاتهم عاقبةَ مَن سبقَهم بكُفرهم وجُحودِهم كما في الآيات [يونس: 13 - 14].

وخُتمتِ السّورةُ الكريمةُ بوصيّةٍ للنّاس جميعًا في موضوع الهداية، وأنّ مآل الأمر ومناطَه موكولٌ إليهم، وتضمّنتِ الآيةُ الأخيرةُ وصيّةً للنّبيّ ﷺ في الصَّبر على أصحاب هذه الشُّبهات، وأن يَكِل أمرَ أصحابِها إلى الله: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ۝١٠٨ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ۝١٠٩﴾ [يونس: 108 - 109].

المناسباتُ بين سورة يونسَ والسّورِ المجاورةِ:

مناسبةُ اتّصالِ سورة يونسَ بسورة التوبة:

جاءت سورةُ يونس في ترتيب المصحف الشَّريف بعد سورتيْن مدنيّتيْن هما الأنفالُ والتّوبة؛ اللّتان فصلتا بينها وبين سورتَي الأنعام والأعراف المكّيّتيْن، وقد تناولتِ السّورتان المدنيّتان مجموعةً منَ التّحدّياتِ والأزماتِ والغزوات المشتركةِ بينهما، والّتي خاضها المجتمعُ المسلمُ في المدينةِ، حتّى عدّهما بعضُ العلماء سورةً واحدةً، كما عدّوا سورتَي الأنعام والأعراف من قبلِ ذلك سورةً واحدةً لما يجمعُهما منَ الأواصر والرّوابطِ.

وبيّن الآلوسيُّ بعضَ هذه الوشائجِ بين سورتَي التّوبة ويونس فقال: "ووجهُ مناسبتها لسورة براءةَ أنّ الأولى خُتمت بذِكر الرّسول ﷺ وهذه ابتدأت به، وأيضًا أنّ في الأولى بيانًا لما يقوله المنافقون عند نزول سورةٍ منَ القرآن، وفي هذه بيانٌ لما يقوله الكفّارُ في القرآن، حيث قال سبحانه: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ﴾ [يونس: 38] الآية، وقال ﷻ: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَـٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَـٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ ۚ﴾ [يونس: 15]، وأيضًا في الأولى ذمُّ المنافقين بعدم التَّوبة والتَّذكُّر إذا أصابهم البلاءُ في قوله سُبحانه: ﴿أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِى كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾﴾ [التوبة: 126] على أحد الأقوالِ، وفي هذه ذمٌّ لمَن يُصيبه البلاءُ فيَرْعوي ثم يعودُ، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ ۚ﴾ [يونس: 12] وفي قوله سُبحانه: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [يونس: 22] إلى أن قال سبحانه: ﴿فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ﴾ [يونس: 23]، وأيضًا في الأولى براءةُ الرّسول ﷺ منَ المشركين مع الأمرِ بقتالِهم على أتمِّ وجْهٍ، وفي هذه براءتُه ﷺ من عملِهم، لكنْ من دون أمرٍ بقتالٍ، بل أُمر ﷺ أن يُظهرَ البراءةَ فيها على وجهٍ يُشعرُ بالإعراض وتخليةِ السَّبيل، كما قيل على ضدِّ ما في الأولى، وهذا نوعٌ منَ المناسبة أيضًا، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّى عَمَلِى وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ ۖ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤١﴾﴾ [يونس: 41] إلى غيرِ ذلك"[1].

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 6/55.

ويُضاف لرأي الآلوسيِّ السّابق على وجاهتِه أنَّ هذه السّورةَ الكريمةَ قد ربطت بين شُبهات المنافقين والمشركين مَصدرًا ومآلًا؛ فكلاهما ناشئٌ عن تكذيبِهم الوحْيَ، وكلاهما يُفضي إلى الكُفر والضّلال، فلَئِن بيّنت سورتا الأنفال والتّوبةِ حقيقةَ الصّراع بين الحقّ والباطل، فقد عَرَضت سورةُ يونس للأسانيدِ الفكريّةِ والتّاريخيّةِ لهذا الباطل وقوّضتْها بالحُجّة والبيان، كما قوّضت بنيانَه سورتا الأنفال والتّوبة بالسّيف والسِّنان، ولعلَّ أحدَ الرّوابط المهمّةِ بين السّورتيْن أنَّ سورة التَّوبة قد حكمت على المنافقين الّذين أطنبتْ في فضحِهم بالكُفر في أكثرَ من موضعٍ من مثْلِ قوله: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّيٓۚ أَلَا فِي ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُواْۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةُۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٩﴾﴾ [التوبة: 49] وقولِه: ﴿لَا تَعْتَذِرُواْ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْۚ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾﴾ [التّوبة: 66]، وغيرِهما.

فجاءت سورةُ يونس لتُبيّن أسانيدَ وشُبهاتِ أسيادِهم الّذين سبقوهم في الكفر على وجه التّفصيلِ.

وإذا كانت سورةُ التّوبة قد عابت على المنافقين اتّخاذَهم مسجدَ الضّرار الّذي لم يُبْنَ على التّقوى من أوّل يوم، كما جاء في الآيات [التوبة: 107 - 110] فإنّ سورة يونس قد بيّنت أصولَ هذا البناءِ على التّقوى والعقيدةِ الحقّة، وبيّنت عاقبةَ المتّقين: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْءَاخِرَةِۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾﴾ [يونس: 62 - 64].

مناسبةُ اتّصالِ سورة يونسَ بسورة هودٍ:

أمّا وجهُ اتّصالها بسورة هود بعدَها، فقد تناسبت معها، ابتداءً بكونِها حملت اسمَ نبيٍّ كريم مثلِها، وكذلك اشتركتا في مطلعِهما في الأحرف المُقطّعةِ والحديثِ عنِ الكتاب، ووافقتا بذلك السّورَ الّتي تَليهما: يوسفَ والرّعدَ وإبراهيمَ والحجر، وخُتمت سورةُ هود بما ختمت به سورةُ يونس وقبلها التَّوبةُ في الحديث عنِ النّبيّ ﷺ، بقوله: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَۚ وَجَآءَكَ فِي هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَٰمِلُونَ ﴿١٢١﴾ وَٱنتَظِرُوٓاْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾﴾ [هود: 120 - 123].

فضلًا عن تفصيل سورة هودٍ لما أُجمل من قصّة نوحٍ ﷺ في يونس تفصيلًا لم يكن له مثيلٌ في سورةٍ أخرى، كما استعرضت سورةُ هود رحلةً كوكبةٍ أخرى منَ الأنبياء عارضةً في أثناء السّورة المشكلاتِ الَّتي عالجها كلُّ نبيٍّ مع قومه، وذِكْرَ بعض شُبهات الكافرين حولَهم، واستعجالَ أقوامِهم العذابَ، وبيانَ ما أصابهم، فاللُّحمةُ بين هذه السّور المتجاورةِ ظاهرةٌ للعَيان، لا تحتاج لأدنى تكلُّفٍ.

﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ ١﴾ [يونس: 1]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

مطلعُ السّورة إجابةٌ عن سؤالٍ، وتعقيبٌ على حُكْمٍ

منَ المعلوم أنَّ سورةَ التَّوبة الَّتي سَبَقَتْ سورةَ يونس قد خُتمت بقوله تعالى: ﴿لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ عَزِيزٌ عَلَيۡهِ مَا عَنِتُّمۡ﴾ [التوبة: 128]، وفي هذا تنبيهٌ للعَرَب عامَّةً، ولقريشٍ خاصَّةً إلى الحقوق الإنسانيَّةِ الواجبةِ عليهم نحوَ رسولِ الله ﷺ المبعوثِ إليهم من بينِهم، ومن ذوي قرابتِهم.

وسورةُ يونس، جاء ابتداؤها مُنكِرًا على قريشٍ وعلى العَرب تَنكُّرَهم لهذا الرَّسول، ووقوفَهم منه مَوقفَ المشاقَّة والعِناد، مع ما بين يديه من آيات ربِّه، الَّتي تشهدُ بأنَّه رسولُ ربِّ العالمين.

فناسَب لذلك أن تجيء سورةُ يونس، بعد سورة التَّوبة، إذْ كانت خاتمةُ التَّوبة أشبَهَ بسؤال، وكان بَدْءُ يونس أشبَهَ بجوابٍ لهذا السُّؤال، أو كانت خاتمةُ التَّوبة تقريرًا لحُكمٍ، وكان بَدءُ يونس تعقيبًا على هذا الحُكم[1].

وإنّه جلَّ شأنُه لَمّا أمرَ في آخِر التّوبة بقتال العادين من الكفّار بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلۡكُفَّارِ وَلۡيَجِدُواْ فِيكُمۡ غِلۡظَةٗۚ﴾ الآيات [التَّوبة: 123 - 124] بيّن في سورة يونس أسانيدَ أهلِ الكفر الّذين أمرَ الله بقتالهم، وبيّن شُبهاتِهم، ولا سيّما ما كان منها حول الوحيِ والقرآن، فبدأتِ السّورةُ الكريمة بالأحرف المُقطّعةِ والحديثِ عن آيات الكتاب: ﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ ١﴾ [يونس: 1]، ولمّا ختم التّوبةَ بقوله عن النّبيّ ﷺ: ﴿لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ عَزِيزٌ عَلَيۡهِ مَا عَنِتُّمۡ حَرِيصٌ عَلَيۡكُم بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ

(1) عبد الكريم الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 6/929.

رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُۖ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾﴾ [التوبة: 128 - 129] نعَى على الكافرين استهجانَهم أن يأتيَهم رسولٌ من أنفسِهم يدعوهم لدين الله فقال تعالى في مطلع يونس: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْۗ قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾﴾ [يونس: 2].

وأيضًا فإنّه كما خُتمتِ التّوبةُ بوصيّة النّبيّ ﷺ بالتّوكُّل على ربّه، ناسب أن تُختم سورةُ يونس بوصيّة النّبيّ ﷺ بالاتّباع والصّبر بقوله: ﴿وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾ [يونس: 109] أكملتِ الوصيّةَ الأولى في آخر التّوبة.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

آياتُ الكتابِ مبيَّنةٌ، مفصّلةٌ، مُحكَمةٌ، مُتقَنةٌ

يُريد هذه الآياتِ الَّتي أُنزلت على محمد ﷺ آياتِ الكتاب الحَكيم، يعني: القرآنَ المُحكم منَ الباطل، الممنوعَ منَ الفساد، لا كذبَ فيه ولا اختلافَ، فهي آياتُ الكتاب الحكيم بيانًا، وتفصيلًا، وإحكامًا، وإتقانًا[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

فنُّ الاتّساعِ، وبراعةُ الافتتاح بالحروف المُقطَّعةِ:

اشتمالُ حروفِ فواتحِ السّوَرِ على العديدِ منَ المعاني بأوجزِ بيانٍ

﴿الٓرۚ﴾ هذه حُروفٌ مُرَكَّبَةٌ في الرَّسْم بِشَكْلِ كلمةٍ ذاتِ ثَلاثةِ أحْرُفٍ، ولَكِنَّها تُقْرَأُ بِأسْماءِ هذه الأحْرُفِ ساكِنَةً هَكَذا: ألِفْ، لام، را؛ فهي بِمَنْزِلَةِ الأعْدادِ المَسرودَةِ، وفيها أوجزَ البيانُ القرآنيُّ العِبارةَ للوصولِ إلى أكثرَ من معنىً مع مُراعاة حُسن جَرْس هذه المعاني لدَى السّامع، من خلال ارتباطِها في سياق واحدٍ؛ والقَصدُ إلى تَنْبيه الَّذينَ تُتْلَى عليهمُ السُّورَةُ لِما بعدَها لِأجْلِ العِنايَةِ بِفَهْمِهِ

(1) الواحديّ: التّفسير الوسيط: 2/538. (بتصرّف).

حَتَّى لا يَفوتَهُم مِنْ سَماعِهِ شَيْءٌ، فهي كأداةِ الافْتِتاحِ[1] (ألا)، و (هاءِ) في تَحْريرِ مقصد التَّنْبيهِ أوِ التّحدّي، بَلْ هي أقْوَى منهما في هذا التَّنْبيهِ.

علَّةُ إيثارِ اسمِ الإشارة ﴿تِلْكَ﴾:

عبّرَ باسم الإشارة ﴿تِلْكَ﴾ الدّالِّ على معنى البُعدِ والارتفاعِ فقال تعالى: ﴿الٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ﴾؛ للتَّنبيه على بُعد منزلتها في الفخامةِ، وعُلوِّ مقامِه، وأيُّ مقامٍ يُقاربُ كتابَ اللّه تعالى؟! فهو عليٌّ في ذاته، ثقيلٌ في ميزانه، فاجتمعَ الاعتبارُ على أنَّ تلك الحُروفَ المُفْتَتَحَ بها السُّوَرُ وإنْ قَرُبَتْ ألْفاظُها، فَمَعانيها بَعيدةُ المَنالِ، وقد شاعَ في الكلامِ البَليغِ تَمثيلُ الأمرِ الشَّريفِ بِالشَّيْءِ المرفوعِ في عِزَّةِ المَنالِ؛ لِأنَّ الشَّيْءَ النَّفيسَ عَزيزٌ على أهْلِه، فَمِنَ العادَةِ أنْ يَجْعَلوهُ في المرتَفَعاتِ؛ صَوْنًا لَهُ عَنِ الدُّروسِ وتَناوُلِ كَثْرَةِ الأيْدي والابْتِذالِ[2].

آيـاتُ القرآن عاليةُ المنزلةِ فخامةً، ومكانةً، وثُقلَ ميزانٍ

آلَ البيانُ إلى أنَّ المَقْصودَ مِنَ الإشارَةِ إما الحَثُّ عَلَى النَّظَرِ في آياتِ القُرْآنِ؛ ليَتَبَيَّنَ لَهُم أنَّهُ مِنْ عند اللّه ويَعْلَموا صِدْقَ مَنْ جاءهُم بِهِ. وإما إقناعُهُم مِنَ الآياتِ الدالَّةِ على صِدْقِ النَّبي ﷺ بِآياتِ الكِتابِ الحَكيم، فإنَّهُم يَسْألونَ النَّبيَّ آيَةً على صِدْقِه، فَقيلَ لَهُم: تِلْكَ آياتُ الكِتابِ الحَكيم، أيْ ما هو آيَةٌ واحِدَةٌ بَلْ آياتٌ كَثيرَةٌ؛ فَإنَّ الإعْجازَ حاصلٌ بكُلِّ سورَةٍ مِنْهُ[3].

في الإشارةِ حثٌّ على النَّظرِ في آياتِ القرآنِ وتدبُّرِها

نُكتَةُ تعريفِ الآياتِ بالإضافةِ:

إضافَةُ الآيات إلى الكِتابِ في قوله تعالى: ﴿ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ إضافَةٌ شَبيهَةٌ بِالبَيانيَّةِ، وإنْ كانَ الكِتابُ بِمَنْزِلَةِ الظَّرْفِ لِلْآياتِ بِاخْتِلافِ الاعْتِبارِ، وهو مَعْنَى الإضافَةِ البَيانيَّةِ[4].

أظهرَ عجزَ المشركين عن الإتيان بمثلِ بعضِ القرآنِ

(1) رشيد رضا، تفسير المنار: 11/118.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/222، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 1/99.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/81.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/81.

والمَقْصودُ بأنَّ آياتِ الكِتابِ الحَكيمِ كُلَّها بجميعِ تَراكيبِها مِنْ جِنْسِ حُروفِ كلامِ العربِ في أزمنةِ الخطابِ؛ تسجيلًا لعَجْزِهم عنْ مُعارَضَتِها بِمِثْلِها، فلوْلا أنَّهُ مِنْ عِنْدِ اللّٰه لَكانَ اخْتِصاصُهُ بهذا النَّظْمِ المُعْجِزِ دونَ كلامِهم مُحالًا، إذْ هو مُرَكَّبٌ مِنْ حُروفِ كلامِهم؛ فكانتِ الآياتُ مَسوقَةً مَساقَ التَّهَجِّي لإظْهارِ عَجْزِ المُشْرِكينَ عنِ الإتْيانِ بِمِثْلِ بعضِ القُرْآنِ[1].

فائدةُ جَمعِ الآياتِ جمعَ مؤنّثٍ سالماً:

كانتِ النّفوسُ مُتشوّفةً إلى إنزالِ آياتِ الكتابِ كلِّها

جُمعتِ الآياتُ - على هذا الوزانِ، دون أن يقولَ: (آيُ) - لمعانٍ مخصوصةٍ، يُفيدها السِّياقُ، ويقتضيها المقامُ، ومن ذلك:

أنَّ الخطابَ أحال على آياتِ الكتاب كلِّها؛ وإن لم يُنزَّلِ الكلُّ حينئذٍ؛ إذ كانت بصدد الإنزالِ، تَشَوُّفًا إلى تحقيق وعْدِ اللّٰه تعالى بإنزالِها جميعًا يومَ الميثاق أنْ أوحيَ إليه ﷺ الكتابُ[2]. والشّاهدُ في قوله ﷻ: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۝٥﴾ [المزمل: 5].

مُناهضةُ عُمومِ الخُصومِ بالآياتِ القواطعِ

تَسْجيلُ التَّحَدِّي بمُعارَضةِ الخُصومِ لآياتِ الكتابِ الحَكيمِ كُلِّها؛ بدلالةِ إفادتِها العمومَ إضافةً وجمعًا[3].

نَوعُ (أل) في الكتاب:

المقصودُ القرآنُ، أوِ الكتابُ المكنونُ وهو اللّوحُ المحفوظُ، أوِ الكتبُ المتقدّمةُ

التَّعريفُ في الكتابِ في قوله: ﴿ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ لِلْعَهْدِ، فالكتابُ يُحْتَمَلُ أنْ يكونَ المُرادُ مِنْهُ هو القُرْآنُ؛ والقرينةُ أنَّ "الحَكيم" مِنْ نَعْتِ القُرْآنِ[4].

ويُحْتَمَلُ أنْ يكونَ المُرادُ مِنْهُ الكِتابَ المَكْنونَ عِنْدَ اللّٰه تَعالَى، المَصونَ والمستورَ عن أعينِ الخَلْقِ، وهو اللوحُ المحفوظُ الَّذي مِنْهُ نُسِخَ كُلُّ كِتابٍ،

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3507.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 2/102.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/82.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/82.

كَما قالَ تَعالَى: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ ٧٧ فِي كِتَٰبٖ مَّكۡنُونٖ ٧٨﴾ [الواقِعة: 77-78] وقالَ تَعالَى: ﴿بَلۡ هُوَ قُرۡءَانٞ مَّجِيدٞ ٢١ فِي لَوۡحٖ مَّحۡفُوظِۭ ٢٢﴾ [البُروج: 21-22] وقالَ: ﴿وَإِنَّهُۥ فِيٓ أُمِّ ٱلۡكِتَٰبِ لَدَيۡنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ ٤﴾ [الزخرف: 4] وقالَ: ﴿يَمۡحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثۡبِتُۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ ٣٩﴾ [الرعد: 39][1].

أو أنْ يُرادَ به الإشارَةَ إلى الكُتُبِ المتَقدِّمةِ مِنَ التَّوراةِ والإنجيلِ، قالَهُ مُجاهِدٌ، وقَتادَةُ؛ فيكونُ المَعْنى: هذه الأقاصيصُ الَّتي تَسْمَعونَها، تلك الآياتُ الَّتي وُصِفَتْ في التَّوْراةِ والإنجيل[2]. والرأيُ الأوَّل أرجحُ بأَمارةِ الوصْفِ بالحكيم هنا وفي غيره منَ المواضع[3]، ثمَّ إنَّ التّوراة والإنجيل لم يَجْرِ لهما ذِكرٌ قريبٌ حتى يُشارَ إليهما[4].

القرآنُ كتابٌ كاملٌ جامعٌ مُنزَّهٌ منَ النَّقْص

أو قَد يُساقُ التَّعْريفُ للدّلالةِ عَلَى معنى الكمالِ في الجِنْسِ، أي الجديرُ بأنْ يُسمَّى كتابًا؛ كَما تَقولُ: أنْتَ الرَّجُلُ؛ أي الكامِلُ في الرُّجوليَّةِ، الجامِعُ لِما يكونُ في الرِّجالِ مِنْ مُرْضياتِ الخِصالِ[5].

سِرُّ إيثارِ التَّعبيرِ بـ ﴿ٱلۡكِتَٰبِ﴾:

ناسَبَ المُفْتَتَحُ معنى جمعِ الحروفِ والكلماتِ الأخرَى

الكتاب فِعالٌ بِمَعْنَى المَكْتوبِ، إما مَصدرُ كاتَبَ المَصوغُ لِلْمُبالَغَةِ في الكِتابَةِ، فَإنَّ المَصْدَرَ يَجيءُ بِمَعْنَى المَفْعولِ كالخَلْقِ، وإما فِعالٌ بِمَعْنَى مَفْعولٍ كَلِباسٍ بِمَعْنَى مَلْبوسٍ وعِمادٍ بِمَعْنَى مَعْمودٍ بِهِ[6]. وقد سُمِّيَ القرآنُ العظيم بالكتاب؛ لأنه يجمع كلمةً إلى أخرى، ويجمعُ السّورَ والآياتِ بين دفّتَيْه، ومن هنا ناسبَ هذا المعنى مُفتَتَحَ السّورة بالحروف المُقطّعةِ.

وفي تَسْميَةِ القُرْآنِ بالكتابِ إشاراتٌ

منها: القَصْدُ إلى وُجوبِ كِتابَتِهِ لِحِفْظِهِ، ومنها أنَّ اشْتِقاقَه مِنْ

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 17/84.
(2) ابن الجوزيّ، زاد المسير في علم التّفسير: 2/314 - 315.
(3) كما في: آل عمران: 58، ولقمان: 2، ويس: 2.
(4) الخازن، لُباب التَّأويل: 3/172.
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/82.
(6) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/221.

(كتب) بِمَعْنَى: جَمَعَ وضَمَّ؛ فَسُمِّيَ الكِتابُ كِتابًا، وكَتَبْتُ الشَّيْءَ إذا جَمَعْتَهُ[1] وسُمِّيَتِ الكَتيبَةُ لِاجْتِماعِها أو لِأنَّه كالكَتيبَةِ على عَساكِرِ الشُّبُهاتِ، أوْ باعتبارِ ما اجْتَمَعَ فيهِ من جَميعِ العُلومِ، أوْ لِأنَّ اللهَ تَعالَى أَلْزَمَ فيهِ التَّكاليفَ على الخَلْقِ[2]، فجَمعت معانيه وأحكامُه كلَّ خيرٍ لصلاح أمرِ الدّنيا والآخرةِ.

وجهُ إيثارِ الوصْفِ بـ﴿ٱلْحَكِيمِ﴾:

سيق قيدُ الحكيم ﴿ٱلْحَكِيمِ﴾ في قوله: ﴿الٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ﴾؛ للدّلالة على وفرةٍ في المعاني من حيث تقليبُ الصّيغِ، ومن تلك المعاني:

الحكيمُ مَظنّةُ الإتقانِ، والحكمةِ، والهيمنةِ على الكتُبِ الأخرى

الدَّلالةُ على الإتقان: فهو المُحْكَمُ بفتح الكاف، على "مُفْعَل"، أي: متقَنٌ لا خللَ فيه.

والدَّلالةُ على الهيمنة، قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة: 48] و(المُحَكَمُ): الحاكمُ على الكتب كلِّها، والحاكمُ بالحلال والحرام.

والدَّلالةُ على الحِكمة: فهو المُشتَمِلُ على الحِكَم - بكسر الحاء وفتحِ الكاف - والمُتَعَلِّقُ بها في جميع التّكليفات والشّرائع. وفي أصله قيل هو مَأْخوذٌ مِن الإحْكامِ والإلْزام، أو هو مَأْخوذٌ مِنْ حكمَةِ اللِّجامِ، لِأنَّها تَضْبِطُ الدابَّةَ، والحِكْمَةُ تَمنَعُ مِنَ السَّفَهِ[3].

والحكمةُ: وضعُ الأشياء في مواضعِها اللائقةِ، أو علمِ الأشياءِ على ما هي عليه، وقيل: إصابة الحقِّ بالعلم والعمل[4].

الحكيمُ بمعنى ذو الحكمةِ، والمُحْكَمُ، والحاكمُ، والمحكومُ فيه

ومعنى (الحكيم)، في هذا الموضع: (ذو الحكمة)؛ فهو على

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/221.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 2/260.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 2/261.
(4) القطّان، تيسير التَّفسير: 1/161.

النَّسب، وكذلك: (المُحْكَم). والعَرَبُ قد تَضَعُ فَعيلًا في مَعْنى مُفْعِلٍ؛ قالَ اللّه تَعالى: ﴿مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ ۝١٨﴾ [ق: 18] أيْ: مُعَدٌّ.

فالحكيمُ: المُحْكَمُ بِالحَلالِ والحَرام والحُدودِ والأحْكام، قاله أبو عُبَيْدَةَ وغَيْرُهُ. والحَكيمُ بِمَعْنَى الحاكِم، أيْ إنَّهُ حاكِمٌ بِالحَلالِ والحَرام، وحاكِمٌ بَيْنَ النّاسِ بِالحَقِّ، فَعيلٌ بِمَعْنَى فاعِلٍ، دَليلُهُ قوله: ﴿وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾ [البقرة: 213][1]. والحكيمُ بِمعنى المحكوم فيهِ، أي حكم اللّه فيهِ بِالعدلِ والإحسانِ وإيتاءِ ذي القُربى، وحكم فيهِ بِالنّهي عنِ الفحشاءِ والمُنكرِ، وبِالجنّةِ لِمن أطاعهُ وبِالنّارِ لِمن عصاهُ، فهو فعيل بمعنى المفعولِ، قالهُ الحسنُ وغيرُهُ. وقال مُقاتِل: الحكيمُ بِمعنى المُحكم مِن الباطِلِ لا كذِب فيهِ ولا اختِلاف، فعيل بِمعنى مُفعل، كقولِ الأعشى يذكُرُ قصيدتهُ الّتي قالها:

وغَريبَةٍ تَأْتي المُلوكَ حَكيمَةٍ *** قد قُلْتُها ليُقالَ مَنْ ذا قالها[2]

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

القرآنُ والكتابُ:

تنحصرُ دلالةُ القرآنِ في مُسمَّى الجمعِ والضَّمِّ والتِّلاوةِ

مِن أسماءِ القُرآنِ: الكِتابُ، وهو مصدر كالقيامِ والصِّيامِ، وقيل: فِعال بمعنى مفعول كاللِّباسِ بمعنى الملبوسِ باعتبار ما اجتمع فيهِ من جميعِ العُلومِ، واتّفقوا على أنّ المُراد من الكتاب: القرآنُ[3] وفي اشتقاق لفظِ (قرآن) عدّةُ أقوالٍ، أشهرُها اثنان:

أحدُهما: أنّ القُرآن والقِراءة واحِد، كالخُسرانِ والخسارةِ واحِد، والدّليلُ عليهِ، قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ﴾ [القيامة: 18]، أي: تِلاوتهُ، أي: إذا تلوناهُ عليك فاتّبِع تِلاوتهُ[4].

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/82.
(2) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 8/305.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 2/260.
(4) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 2/261.

الثاني: أنّهُ مصدر بمعنى الجمع، مِن قولِ القائِلِ: قرأتُ الماء في الحوضِ إذا جمعتُهُ، وسُمِّي القُرآنُ قُرآنًا؛ لِأنّ الحُروف جُمِعت فصارت كلِماتٍ، والكلِماتُ جُمِعت فصارت آياتٍ، والآياتُ جُمِعت فصارت سورًا، والسُّورُ جُمِعت فصارت قُرآنًا، ثُمّ جُمِع فيهِ عُلومُ الأوّلين والآخِرين. فالحاصِلُ أنّ اشتِقاق لفظِ (القُرآنِ) إما مِن التِّلاوةِ أو مِن الجمع[1].

القرآنُ والذِّكرُ:

الاشتراكُ في تذكيرِ العِبادِ بمُقتَضى ما أَمَرَ اللهُ ونَهَى

من أسماء القرآن: الذِّكرُ، ومن معانيه: التَّذكرةُ، والذِّكرى؛ أمّا الذِّكرُ فقوله: ﴿وَهَٰذَا ذِكۡرٞ مُّبَارَكٌ أَنزَلۡنَٰهُۚ﴾ [الأنبياء: 50]، ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ﴾ [الحجر: 9]، ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكۡرٞ لَّكَ وَلِقَوۡمِكَۖ﴾ [الزُّخرُف: 44]. وفيهِ وجْهانِ:

أحدُهما: أنّهُ ذِكر من اللّه تعالى ذكّر بِهِ عِبادهُ فعرّفهُم تكاليفهُ وأوامِره.

والثّاني: أنّهُ ذِكر وشرف وفخر لِمن آمن بِهِ، وأنّهُ شرف لمحمّدٍ ﷺ، وأُمّتِه. وأمّا التّذكِرةُ فقوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَذۡكِرَةٞ لِّلۡمُتَّقِينَ ٤٨﴾ [الحاقّة: 48]. وأما الذِّكرَى – على قول قَتادة السَّدوسيِّ – فقوله تَعالَى: ﴿وَذَكِّرۡ فَإِنَّ ٱلذِّكۡرَىٰ تَنفَعُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٥٥﴾ [الذّاريات: 55][2].

القرآنُ والتَّنْزيلُ:

تَسميةُ القرآنِ بالتَّنْزيلِ باعتبارِ النُّزولِ

وسُمِّي القرآن تنْزيلًا؛ لأنّه مُنزَّلٌ من عند اللّه تعالى على لسان جبريل عليه السلام، ولأنَّ اللّه تعالى أسمعَ جبريلَ كلامَه وفهَّمه إياه، كما شاء من غير وصْفٍ ولا كيفيةٍ، نزل به على نبيِّه ﷺ، فأدّاه هو كما فهمه وعَلِمه؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٩٢ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ١٩٣﴾ [الشُّعَراء: 192 - 193].

والهاء في قوله ﴿وَإِنَّهُۥ﴾ كنايةٌ عنِ الذِّكر الَّذي في قوله تعالى:

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 2/261.
(2) الماورديّ، النُّكت والعيون: 5/374، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 2/261.

﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ [الشُّعراء: 5]، والمعنَى: وإنَّ القُرْآنَ لَتَنْزيلُ رَبِّ العالَمينَ نَزَلَ بِهِ جِبْريلُ إلَيْكَ[1].

القرآنُ والحَديثُ:

وصْفُ القرآن بالحديثِ باعتبارِ ما تَقدَّمَه منَ الكتبِ المُنْزَلَةِ أو بما يُحدَّثُ به منه

ومن أوصاف القرآن: الحَديثُ: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا﴾ [الزُّمَر: 23] سَماهُ حَديثًا؛ لِأنَّ وُصولَهُ إلَيْكَ حَديثٌ، أي: حَديثُ التَّنْزيلِ بَعْدَما تَقَدَّمَهُ منَ الكُتبِ المُنَزَّلَةِ على مَن تَقَدَّمَ منَ الأنْبياءِ، ولأنَّهُ تَعالَى شَبَّهَهُ بِما يُتَحَدَّثُ بِهِ، فَإنَّ اللّه خاطَبَ به المُكلَّفين[2]؛ إذِ الحَديثُ ما يُحَدِّثُ بِهِ المُحَدِّثُ، وسُمّي القُرْآنُ حَديثًا؛ لِأنَّ رَسولَ اللّه ﷺ كان يُحدِّث به أصْحابَهُ وقَوْمَهُ، وهو كَقوله: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ۝٥٠﴾ [المُرْسَلات: 50]، وقوله: ﴿أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ۝٥٩﴾ [النجم 59]، وقوله: ﴿فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ﴾ [القلم: 44][3].

قالَ القُشَيْرِيُّ: وتَوَهَّمَ قَوْمٌ أنَّ الحَديثَ منَ الحُدوثِ، فَيَدُلُّ على أنَّ كلامَهُ مُحْدَثٌ وهو وهْمٌ، لِأنَّهُ لا يُريدُ لفظَ الحَديثِ عَلَى ما في قوله: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ﴾ [الأنبياء: 2]، وقد قالوا: إنَّ الحُدوثَ يَرجعُ إلى التِّلاوَةِ لا إلى المَتْلوِّ، وهو كالذِّكْرِ مع المَذكورِ إذا ذَكَرْنا أسْماءَ الرَّبِّ تَعالى[4].

القرآنُ والموعظةُ:

وصْفُ القرآن بالموعظةِ باعتبارِ ما فيه منَ المواعظِ والحِكَمِ

ومن أوصاف القرآن الموعظةُ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [يونس: 57]، وإنَّما يعني بذلك جلَّ ثناؤه: القرآنَ، وهو في الحَقيقَةِ مَوْعِظَةٌ من اللّه، والآخِذُ جِبْريلُ، والمُسْتَملي مُحَمَّدٌ ﷺ، فكيف لا تَقَعُ به الموعظة؟[5] ووُصِفَ القرآن كذلك باعتبار ما فيه من المَواعظِ والحِكَم.

(1) ابن جرير، جامع البيان: 19/395.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 2/261.
(3) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 15/248 - 249.
(4) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 15/248 - 249.
(5) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 2/261.

﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ ۝٢﴾ [يونس: 2]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

تعجّبوا من إنزالِ الكتابِ الحكيمِ على مُحمَّد ﷺ

"لمّا كان كونُ الكتاب مِن عند الله - مع كونِه حكيمًا - موجِبًا لقَبوله بادئَ بَدْءٍ، والسُّرورِ به؛ لِما تقرَّر في العُقول وجُبِلَتْ عليه الفِطَرُ مِن أنَّه تعالى الخالِقُ الرّازقُ كاشفُ الضُّرِّ ومُدبِّرُ الأمرِ؛ كان ذلك مَوضِعَ أن يُقالَ: ما كان حالُ مَن تُلِيَ عليهم؟ فقيل: لم يُؤمنوا، فقيل: ما شُبْهَتُهم؟ هل قدَروا على معارضتِه والطَّعنِ في حِكْمَتِه؟ فقيل: لا! بل تعجَّبوا مِن إنزاله على محمَّدٍ ﷺ وليس هو بأكثرهم مالًا، ولا بأقدَمِهم سنًّا، فرجَع حاصلُ تعجُّبهم إلى ما قاله تعالى إنكارًا عليهم؛ فإنَّه لو أرسَل ذا سِنٍّ قالوا مثلَ ذلك، وهل مثلُ ذلك مَحَلُّ العَجَبِ؟!"[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿عَجَبًا﴾: أصلُ (عجب) يَدُلُّ عَلَى كِبْرٍ واسْتِكْبارٍ لِلشَّيْءِ، ومنه العُجْبُ، وهو أنْ يَتَكَبَّرَ الإنْسانُ في نفسِهِ. تَقولُ: هو مُعْجَبٌ بِنَفْسِهِ[2]. والمُعجَب: الإنسان المُعجَب بِنَفسِهِ، أو بالشَّيْء، تَقول: عجَّبت فلانًا بِشَيءٍ تعجيبًا فعجِب مِنْهُ[3]. والعجبُ النَّظرُ إلى شيءٍ غيرِ مألوفٍ ولا مُعتادٍ[4]، والاستعجاب: شدَّة التَّعجُّب، وهو مُسْتَعْجِبٌ ومُتَعَجِّبٌ ممّا يرى. وشيء مُعْجِبٌ، أي: حَسَن، وأعجبني

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 9/65 - 66.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (عجب).
(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (عجب).
(4) ابن منظور، لسان العرب: (عجب).

وأُعْجِبْتُ به[1]. والمقصود بالعَجَبِ في الآية: حالَةٌ تعتري الإنْسانَ من رُؤْيَة شَيْء على خلاف العادة[2].

2) ﴿أَنذِرِ﴾: أصْلُ (نذر): يَدُلُّ على تَخْويفٍ أو تَخَوُّفٍ، ومنه الإنْذارُ: الإبلاغُ؛ ولا يَكادُ يَكونُ إلّا في التَّخويف[3]. والنُّذُرُ: جَماعةُ النَّذيرِ (الرُّسُل)، وهو الاسْم من الإنْذار. والتَّناذُرُ: إنْذارُ بَعْضِهم بَعْضًا[4]. ومِنْهُ: النَّذْرُ، وهوَ أنَّهُ يَخافُ إذا أخْلَفَ. والنَّذْرُ أيْضًا: ما يَجِبُ، كَأنَّهُ نُذِرَ، أيْ: أوجِب[5]. والمُراد بـ﴿أَنذِرِ﴾ في الآية: أعْلِمهُم مع التَّخْويفِ، والمُنذِرُ مَن يُخبِر غيرَه بأمرٍ مُخوِّفٍ حتَّى يحذَره[6].

3) ﴿قَدَمَ﴾: أصْلُ (قدم): يَدُلُّ على سَبْقٍ ورَعْفٍ (تقدُّم)[7]. فالقَدَمُ مِن لَدُن الرُّسْغ: ما يَطَأ عليه الإنسان[8]، وجمعُه: أقْدامٌ، وبه اعتبر التَّقدُّم والتَّأخُّر[9]، يُقال: ورَجُلٌ قَدَمٌ، وامرأةٌ قَدَمٌ: إذا كانا جَريئين[10]، والقُدْمَة والقَدَمُ: السّابقةُ في الأمر[11]، والقَدَم أيضًا: كلُّ ما قدَّمتَ مِن خيرٍ[12]، يُقال: لِفُلانٍ قَدَمُ صِدْقٍ، أيْ: شَيءٌ مُتَقَدِّمٌ مِنْ أثَرٍ حَسَنٍ[13] أو سابقةِ فضيلةٍ[14]، وهذا هو المقصود في الآية.

4) ﴿صِدْقٍ﴾: أصْلُ الكَلِمَةِ يَدُلُّ على قوَّةٍ في الشَّيْءِ قَوْلًا وغَيْرَهُ، ومنه: الصِّدْقُ، سُمِّي به؛ لِقوَّتِه في نَفْسِه، ولأنَّ الكَذِبَ لا قوَّة له. ومعناه: اعْتِبارُ الكلام صحيحًا لا كَذِبَ فيه، وهو نِسْبَةُ الصِّدقِ إلى المُخْبِرِ بالاخْتيارِ، أي: بالقَلْبِ واللِّسانِ، وضِدُّه: التَّكذيبُ. والصِّدِّيقُ:

(1) الخليل، العين: (عجب).
(2) السّمعانيّ، تفسير القرآن: 2/364.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نذر).
(4) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن عبّاد، المحيط في اللّغة: (نذر).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نذر).
(6) البَغَويّ، معالم التّنزيل: 4/120، وطنطاويّ، التَّفسير الوسيط: 7/137.
(7) الخليل، العين: (قدم).
(8) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن عبّاد، المحيط في اللّغة: (قدم).
(9) الرّاغب، المفردات: (قدم).
(10) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (قدم).
(11) ابن عبّاد، المحيط في اللّغة: (قدم).
(12) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (قدم).
(13) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (قدم).
(14) الرّاغب، المفردات: (قدم).

المُلازِمُ لِلصِّدقِ. والصَّداقُ: صَداقُ المَرْأةِ، سُمّيَ بِذَلِكَ لِقوَّتِهِ وأنَّهُ حَقٌّ يَلْزَمُ[1]. والمرادُ بالصِّدق في الآية: كلُّ فِعْلٍ فاضِلٍ ظاهرًا وباطنًا.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

موقفُ المُشركين مِنَ الرِّسالةِ النَّبويَّةِ الكريمةِ والرَّدُّ عليهم

عجبت قريشٌ من إرسال الله محمَّدًا ﷺ إلى العباد، وقالوا: أما وجدَ الله مَن يرسلُه إلينا إلا يتيمَ أبي طالب؟ فأنزل الله تعالى: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا﴾ توبيخًا وإنكارًا[2]، أكان هذا باعثًا للنّاس على التَّعجُّب أن أنزلنا الوحيَ على رَجلٍ من جنسهم، آمرين إيّاه أن يُحذِّرهم من عذاب الله؟! وأخبِرْ - أيُّها الرَّسول - الّذين آمنوا بالله بما يَسرُّهم، أنَّ لهم منزلةً عاليةً جزاءً على ما قدَّموه من عملٍ صالحٍ عند ربّهم سبحانه، يَستوجِبون بها منه الثَّوابَ، ومن فَرْطِ حماقتِهم وقصورِ نَظَرِهم على الأمور العاجلةِ وجهْلِهم بحقيقة الوحْيِ والنُّبوَّة[3] قالوا: إنَّ هذا الرَّجلَ الَّذي جاء بهذه الآياتِ لساحرٌ ظاهرُ السِّحر، فخسِروا البشارةَ، واستحقّوا النِّذارةَ.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بَلاغةُ الاستفهامِ في المَطْلعِ:

تعجّبُ المشركين مُستَنكرٌ لا وَجْهَ له

الهَمزَةُ اسْتِفهامٌ لِلتَّعجُّبِ، معناهُ التَّقريرُ والتَّوبيخُ لِإنْكارِ التَّعجُّبِ ولأجلِ التَّعْجيبِ مِن هذا التَّعَجُّبِ، أيْ: كَيْفَ يَتَعَجَّبونَ مِن ذلك تَعَجُّبَ إحالَةٍ[4]، وعليه: فإنَّ تعجُّبَ هؤلاء المشركينَ ليس في محلّه، ولا وجْهَ له عقلًا[5].

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (صدق)، وينظر: الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (صدق).
(2) الواحديّ، التَّفسير الوسيط: 2/538.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 12/111، والبيضاويّ: أنوار التّنزيل: 3/104، وجماعة من العلماء، المُختَصر في تفسير القرآن، ص: 208.
(4) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 17/186.
(5) المطعنيّ، التَّفسير البلاغيّ للاستفهام: 2/34.

نُكتةُ التّعبيرِ بفِعْلِ الكوْنِ الماضي:

تقرُّرُ التّعجُّبِ واستِحكامُه فيهم

اللَّطيفةُ البلاغيَّةُ المُتشوَّفُ إليها بفعل الكوْن الماضي: أنّ التَّعَجُّبَ أُحْدِثَ، وتَقَرَّرَ فيهم مِن وحْينا؛ لأنَّ فِعْلَ الكوْنِ يُشْعِرُ بالاسْتِقْرارِ والتَّمَكُّنِ، فَإذا عُبِّرَ به أشْعَرَ بِأنَّ هذا غَيرُ مُتَوَقَّعٍ حُصولُهُ[1].

فائدةُ إدخالِ الاستفهامِ المُستعمَلِ في الإنكارِ على (كان):

المُرادُ التَّعجُّبُ من تعجُّبِهم وتوبيخُهم بأنَّ المألوفَ ليس موضعَ العجَب

فائدةُ إدْخالِ الاسْتِفْهام الإنْكاريِّ عَلى (كانَ)، دونَ أنْ يُقالَ: (أعَجِبَ النّاسُ)، هي الدَّلالَةُ على التَّعْجيبِ مِن تَعَجُّبِهم المُرادِ به إحالَةُ الوَحْيِ إلى بَشَرٍ[2]. فالمُراد بالهمزة المعنَى التَّعجُّبيّ[3]، أي: إنْكارُ التّعجُّبِ، والتّعْجيبُ مِنهُ[4]. و"التّوبيخ على أنَّهم اتَّخذوا إرسالَ رَجُلٍ منهم موضعًا للعَجَب، فالرَّسول لا يمكن أن يكون إلّا رجلًا منهم، فلا يصحّ أن يكون ملَكًا منَ الملائكة"[5].

دَلالةُ اللّام في ﴿لِلنَّاسِ﴾:

تمكّنُ العَجَب منهم واستقرارُه في نفوسِهم، وبيانُ حالِهم

قوله تعالى: ﴿لِلنَّاسِ﴾ مُتَعَلِّقٌ بكانَ لِزيادةِ الدَّلالةِ على اسْتِقْرارِ هَذا التَّعَجُّبِ فيهم؛ لِأنَّ أصلَ اللّامِ أنْ تُفيدَ المِلْكَ، ويُسْتَعارُ ذَلِكَ لِلتَّمَكُّنِ، أيْ: لِتَمَكُّنِ الكَوْنِ عَجَبًا مِن نُفوسِهِم[6]، ويجوزُ أن تكون اللّام في ﴿لِلنَّاسِ﴾ للبيان كما في ﴿هَيْتَ لَكَ﴾ [يوسف: 23]، فهو متعلّق بمَحْذوف دلَّ عليه ﴿عَجَبًا﴾[7].

إيثارُ (اللّام) على (عند):

جَعلوا الوحْيَ أُعْجوبَةً، وعيَّنوه مقصِدًا للاستهزاءِ

قال ﷻ: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا﴾ ولَم يَقُلْ: (أكانَ عِنْدَ النّاسِ عَجَبًا)، والفَرْقُ أنَّ قوله: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا﴾ مَعْناهُ: أنَّهم

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/83.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/83.
(3) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 9/382.
(4) النّسفيّ، مدارك التّنزيل وحقائق التّأويل: 2/5.
(5) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3508.
(6) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/83.
(7) ابن التّمجيد، حاشية على البيضاويّ: 9/382.

جَعَلوهُ لِأَنْفُسِهِم أُعْجوبَةً يَتَعَجَّبونَ مِنها، ومقصدًا يوجِّهون نحوه استهزاءَهم وإنكارَهم، ونَصَّبوهُ وعَيَّنوهُ لِتَوْجيهِ الطَّيَرَةِ والاِسْتِهْزاءِ والتَّعَجُّبِ إليه، ولَيْسَ في قولِ: أكانَ عند النّاسِ عَجَبًا، هذا المعنى[1].

إيثارُ لفظِ (النّاس):

تحقيقُ الشِّركةِ بين الرَّسولِ ﷺ وبينَهم

المُرادُ بِالنّاسِ: كُفّارُ العربِ، والتَّعبيرُ عنهم باسْمِ الجِنْسِ مِن غَيْرِ تَعَرُّضٍ لِكُفْرِهِمُ الَّذي هو المَدارُ لِتَعَجُّبِهِم كَما تَعَرَّضَ له فيما بعدُ[2]، يُحقِّقُ جملةً منَ النّكتِ البلاغيَّة.

فقد أُطلِقَ هذا اللَّفظُ، والمرادُ به بعضُ أفرادِه لِتَحْقيقِ ما فيه منَ الشّرِكَةِ بَيْنَ رسولِ اللّه صَلّى اللّه تَعالى عَلَيْهِ وسَلَّمَ وبَيْنَهم، وتَعْيينِ مدارِ التَّعْجيبِ في زَعْمِهِم ثُمَّ تَبْيينِ خَطَئِهم وإظْهارِ بُطلانِ زَعمِهم بِإيرادِ الإنْكارِ[3].

تَنْزيهُ الرّسولِ ﷺ ودفعُ توهّمِ أن يكون منهم

وفي إيثار لفظِ (الناس) التّوصّلُ إلى نسبة (رَجُل) وهو محمّد ﷺ إليهم هكذا ﴿رَجُلٍ مِّنْهُمْ﴾، ولو قيل: (الذين كفروا) لما صحَّت تلك النِّسبة، ففيه تنْزيهٌ للرَّسول ﷺ، ودفعٌ لتوهّم أن يظنَّ مُبطلٌ أنّه - صلوات ربّي وسلامُه عليه - واحدٌ من (الذين كفروا) - حاشاه - [4].

سِرُّ التّعبيرِ بالمصدرِ المُنَكَّرِ ﴿عَجَبًا﴾:

بالغَ في إظهارِ عَجَبِهم منَ الاصطفاءِ

عبّر بالمصدر الصّريحِ للتَّعبير عنِ المبالغة في إظهارِ عَجَبهم مِن اصطفاء رجلٍ منهم للرِّسالة؛ لما يُفيده المصدرُ الصّريحُ، منَ القطع بحصول الفعلِ، والمبالغةِ في تحقيقه. فعندما تصفُ بالمصدر، أو تخبرُ به كأنما تُحوّل الشَّيءَ إلى مصدر، فقولُك: هذا رجلُ خيرٍ؛ كأنّما تَحوَّل كلُّه إلى خيرٍ.

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 17/186.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 6/58.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/116.
(4) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 2/35.

بَلاغةُ الكنايةِ في لفظِ (العَجَب):

عبّرَ عنِ استحالةِ الوقوعِ بلفظ العَجَب

لفظُ العَجَب هاهنا كِنايَةٌ عن إحالَةِ الوُقوعِ، كما في قوله تَعالى: ﴿قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۖ﴾ [هود: 72 - 73]، وقوله: ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ﴾ [الأعراف: 63][1]، وكانَتْ حِكايَةُ تَعَجُّبِهِم بِإدْماجِ ما يُفيدُ الرَّدَّ عليهِم بِأنَّ الوَحْيَ كانَ إلى رَجُلٍ منَ النّاسِ، وذلك شَأْنُ الرِّسالاتِ كُلِّها، كما قالَ تَعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم﴾ [يوسف: 109]، وقالَ: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا﴾ [الأنعام: 9]، وقالَ: ﴿قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾﴾ [الإسراء: 95][2].

وكذلك تُعجِّبُهم الحكايةُ بإدماج ما يدلُّ باللُّزوم على إنْكارِ التَّكْذيبِ بلْهَ الإنْكارِ على تَعَجُّبِهِم منَ الإيحاءِ إلى رجُلٍ منَ البَشَرِ[3].

تقديمُ خبرِ كان على اسمها:

قُدّمَ محطُّ العنايةِ، ومَدارُ التَّعْجيبِ

قدّم الخبرَ وهو قوله: ﴿عَجَبًا﴾، على اسم كان: ﴿أَنْ أَوْحَيْنَآ﴾، والتَّقديرُ: كانَ إيحاؤُنا عَجَبًا لِلنّاسِ؛ لِأنَّهم يُقَدِّمونَ الأهَمَّ[4] ليُهْتَمَّ بشأنِهِ لكوْنِهِ مَدارَ الإنْكارِ والتَّعْجيبِ، وتَشْويقًا إلى المُؤَخَّرِ؛ ولِأنَّ في الاسْمِ ضَرْبَ تَفْصيلٍ، فَفي مُراعاةِ الأصلِ نَوْعُ إخْلالٍ بِتَجاوُبِ أطرافِ الكلامِ، والحاصلُ: أنَّ في تقديم خبرِ كان دلالةً على أنّه مَصَبُّ الإنكار[5] ومحلُّه؛ فكان أهمَّ، وبالتَّقديم أتمَّ[6].

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/84.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/84.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/84.
(4) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 17/186.
(5) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/116.
(6) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 9/382.

إيثارُ المصدرِ المؤوَّلِ، ووجْهُ صَوْغِ فعلِ الوحْيِ ماضيًا:

تحقّقُ حدوثِ الوحْيِ المُتيقَّنِ وتجدُّدِه يزيدُ المُنكرين كَمَدًا

قولُه تعالى: ﴿أَنْ أَوْحَيْنَآ﴾ اسْمُ كانَ، وجيءَ فيهِ بِـ (أنْ) و(الفعْلِ) دونَ المَصدرِ الصَّريحِ وهو (وحْيُنا)؛ ليُتَوَسَّلَ إلى ما يُفيدُهُ الفعلُ منَ التَّجَدُّدِ، وصيغَةِ المُضِيِّ منَ الاستقرارِ تَحْقيقًا لوقوعِ الوحْيِ المُتعجَّبِ مِنهُ وتَجَدُّدِهِ، وذَلِكَ ما يَزيدُهم كَمَدًا[1]. وفيه تخصيصُ الحديث عن حَدَث الوحيِ دون الالتفات إلى هيئتِه، وماهيّتِه؛ فالمُتعجَّبُ منه الحدثُ نفسُه هو معنى اختُصّ به المصدرُ المُنْسبِك دونَ الصَّريح.

التَّعبيرُ عنِ الشّخصِ بالتَّنكيرِ دونَ العَلَميَّةِ:

مَنْ أرسلَه الله مُبجَّلٌ، كاملُ الرُّجولةِ

جاء اختيارُ لفظةِ ﴿رَجُلٍ﴾ بصيغة التَّنكير؛ لتدلَّ على أنَّ هذا الَّذي أرسله اللّه إلى النّاس، قد بلغَ الغايةَ في الرُّجولةِ، بدلالة هذا التَّنوين المأتيِّ به للتَّبجيل، وأنَّه منهم لا يخفاهُم أمرُه، وكلُّ ذلك لينسجمَ المعنى مع غرَضِ الآية، ولأنَّ في هذه اللّفظة ردًّا على القوم الّذين تعجّبوا من إرسال رسولِ اللّه ﷺ[2].

بَلاغةُ المَجازِ المُرسَلِ في لفظ ﴿رَجُلٍ﴾:

حالُ الأقوامِ السّابقةِ مع رُسُلهم الإنكارُ جهلًا، وخفّةُ العقلِ

تكمُن بلاغةُ المجازِ المرسلِ في لفظ (الرَّجل)، أنَّ فيه إشارةً إلى أنَّ هذا الإنكار، وذلك التَّعجبُ هو حالُ الأقوام جميعًا مع رُسُلهم الّذين أُرسلوا إليهم، فكأنَّ أولئك الأقوامَ تواصَوا فيما بينَهم على هذه الشُّبَه[3].

كما أنَّ في هذا دلالةً منهم على شدّة جهلِهم، وقلّة تأمّلِهم وتدبّرِهم، حين ظنّوا أنّ كوْنَ الرَّسول رجلًا سببٌ لرفض دعوته، ومحاربتِه؛ وكأنَّ مشاركتَهم له في البشريَّة يمنعُ اختصاصَ اللّه إيّاه بما شاء منَ العِلم[4].

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/83.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/66.
(3) رشيد رضا، تفسير المنار: 11/118.
(4) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 357.

نُكتةُ إيرادِ الجارِّ والمجرور ﴿مِّنْهُمْ﴾:

النّعيُ عليهم ومعرفتُهم بكونِه منهم تنقضُ اتّهامَهم له

النّكتةُ أنّه ﷺ في غايَةِ الرُّجوليَّةِ[1]، وهو مع ذلك ﴿مِّنْهُمْ﴾ بحَيْثُ إنَّهم يَعْرِفونَ جَميعَ أمرِه، وكانَتْ حِكايَةُ تَعَجُّبِهم بإدْماجِ ما يُفيدُ الرَّدَّ عَلَيْهِم بِأنَّ الوَحْيَ كانَ إلى رَجُلٍ مِنَ النّاس، وذلك شأْنُ الرِّسالاتِ كُلِّها[2]. فوجهُ نِسْبة النبيِّ ﷺ إليهم معرفتُهمُ اليقينيّةُ به لكونِه منهم تنقضُ اتّهامَهم له، وتُعرّضُ بهم لجهلِهم، وانعدامِ تفكيرهم، وتغْييبِ عقولِهم. ونكتةُ هذه النّسبة النَّعيُ عليهم لأنَّهم يعرفون محمَّدًا معرفةً جيّدةً، ولم يُجرّبوا عليه كذبًا قطُّ، فكيف يتّهمونه بادِّعاء الرّسالة؟ ولو قيل إلى (مُحمَّدٍ)، لَفات هذا المعنى[3].

إيثارُ المصدرِ المؤوّلِ: ﴿أَنْ أَنذِرِ﴾:

الشّأنُ إنذارُ النّاس على معهودِ الخطابِ

وُضِعَ المصدرُ المُؤوَّلُ موضعَ الصَّريحِ للدّلالة على وفْرةِ المعاني مع إيجازٍ في المباني؛ وذلك بتقديرِ الاحتمالاتِ الموافِقَةِ للمُراد الشَّرعيِّ.

فعلى تحريرِ ﴿أَنْ﴾ التَّفْسيريَّة أو المَصْدَريَّة المُخَفَّفَة منَ الثَّقيلَة، فأصْلُ البيان أنَّهُ أنْذَرَ النّاسَ على مَعْنى أنَّ الشَّأْنَ قولُنا: أنْذِرِ النّاسَ على معهود خطابِ اللّه تعالى.

خصّصَ الخطابَ بحدثِ إنذارِ النّاسِ دون كيفيّاتِه

وعلى تقرير ﴿أَنْ﴾ المَصْدَريَّةِ الثُّنائيَّةِ الوَضْعِ، لا المُخَفَّفَةِ مِنَ الثَّقيلَة، فهي توصَلُ بِالماضي والمُضارِعِ والأمرِ، فَوُصِلَتْ هُنا بِالأمرِ، ويَنْسَبِكُ مِنها معه مَصْدَرٌ، تَقْديرُهُ: بِإنْذارِ النّاسِ[4]، وفيه أنَّ المَصدرَ المؤوَّل ولا سيما مع ﴿أَنْ﴾ يدلُّ على مجرّد معنى الحدثِ دونَ احتمالٍ زائدٍ عليه، ففي ﴿أَنْ﴾ تحصينٌ منَ الإشكال، وتخليصٌ له من شوائب الإجمال: هيئةً، وكيفيَّةً، وحالًا. فالكلامُ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/66.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/84.
(3) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 2/35.
(4) عضيمة، دراسات لأسلوب القرآن الكريم: 1/435.

مُخصَّص على حدثِ إنذارِ النّاس فحسبُ، دون كيفيّاته، وأحواله، وتفصيلاته، وكُنْهِه.

دلالة الأمرِ في فعل الإنذارِ:

الإنذارُ إخبارٌ معه تخويفٌ في مدَّة تتَّسع التَّحفُّظَ من المُخوَّف منه[1]. ومعنى الأمر أنَّ الشَّأن قولنا: أنذر النّاس ليَرْتَدِعوا بِسَبَبِ ذَلِكَ الإنْذارِ عَنْ فِعْلِ ما لا يَنْبَغي[2].

الأمرُ بالإنذارِ رَدعٌ عن فعلِ ما لا يَنبغي

تفصيل الإجمال في جملة ﴿أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ﴾:

والمُراد: أخْبِرْهم بعواقب فِعْلِ ما لا يَنْبَغي تَخْويفًا لَهم بمّا يَتَرَتَّبُ. وتحريرُ ذلك: أنَّهُ تَعالى لَمّا بَيَّنَ أنَّهُ أوْحى إلى رَسولِه، بَيَّنَ بَعْده تَفْصيلَ ما أَوْحَى إليه وهو الإنْذارُ والتَّبْشيرُ تَخليةً وتحليةً[3].

بَعدَ إجمالِ الوحيِ بيَّن اللهُ تَفْصيلَه

بلاغةُ حذْفِ المُنْذَرِ به:

ولم يُذكرِ المُنْذَرُ به وذُكرَ المُبَشَّرُ به؛ لأنَّ المقامَ يقتضِي ذلك، فحُذِفَ المُنْذَرُ بِهِ لِلتَّهْويلِ والتَّخويف بكثرةِ احتمالاتِه، ولِأنَّهُ يُعْلَمُ حاصِلُهُ مِن مُقابَلته بقوله: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمۡ قَدَمَ صِدۡقٍ﴾[4].

الحذفُ لِلتَّهْويلِ والتَّخويفِ بكثرةِ احتمالاتِ المُنْذَرِ به

وَجهُ تَكرارِ لفظ ﴿ٱلنَّاسَ﴾:

لفظُ ﴿ٱلنَّاسَ﴾ الثّاني يَعُمُّ جميعَ البَشَرِ الَّذينَ يُمكِنُ إنْذارُهم، فَهو عُمومٌ عُرْفيٌّ[5]، والمُرادُ بِهِ جَميعُ النّاسِ الَّذينَ يُمكِنُهُ ﷺ تَبْليغُهم ذلك لا ما أُريدَ بِالنّاسِ أوَّلًا[6].

رسالةُ النَّبيِّ ﷺ لجميعِ النّاسِ الَّذينَ يُمكِنُهُ تَبْليغُهم

بَلاغةُ المَجازِ المُرْسَل في لفظِ ﴿ٱلنَّاسَ﴾:

المُرادُ بِـ﴿ٱلنَّاسَ﴾ ثانيًا غَيْرُ المُرادِ بِهِ أوَّلَ ذِكْرٍ بِلَفْظِهِ الظّاهر دونَ

تَواردُ كثرةِ المعاني على اللَّفظِ الواحدِ تجوّزًا

(1) طنطاويّ، التَّفسير الوسيط: 7/16.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 17/186.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 17/186.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/85.
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/84.
(6) الآلوسيّ، روح المعاني: 6/60.

أنْ يُقالَ: أنْ أنْذِرْهم[1]، وهو النُّكْتةُ في إيثارِ الإظْهارِ على الإضْمارِ وكوْنُ الثّاني عَيْنَ الأوَّلِ عند إعادةِ المعرِفَةِ لَيْسَ على الإطْلاقِ[2].

ولمّا عُطِفَ على الأمرِ بالإنْذارِ الأمرُ بالتَّبْشيرِ للَّذينَ آمَنوا؛ بَقيَ النّاسُ المُتَعَلِّقُ بِهِمُ الإنْذارُ مَخْصوصًا بِغَيْرِ المُؤْمِنينَ[3]، ولمّا كان الإنْذارُ عامًّا كانَ مُتَعَلَّقُهُ وهو ﴿ٱلنَّاسَ﴾ عامًّا[4].

دَلالةُ واو العطفِ:

عطفُ البشارةِ على النِّذارةِ لمُطلَقِ الجمعِ مع اقتضائِها الخلافَ

الواو عاطفةٌ، ﴿وَبَشِّرِ﴾ معطوفٌ على ﴿أَنذِرِ﴾؛ والقصدُ إلى إزالة ما لا ينبغي تخليةً، ثمّ التَّثنيّةِ بما يَنبغي تحليةً، وقد يكون من عطف تبشيرِ أهلِ الطّاعات على إنذارِ أهلِ الكفر والمنكراتِ، أو عُطفت البِشارةُ على الإنذار ليُناسبَ مقامَ التّعجُّب من وحْيِ اللّه إلى النّبي ﷺ[5].

سِرُّ تغايُرِ مفعولَيِ الإنذارِ والتَّبشيرِ:

الإنذارُ قرينُ التَّخويفِ والبِشارةُ قرينةُ السُّرورِ

الإنذارُ إخبارٌ مع تخويفٍ كما أنّ البِشارةَ إخبارٌ مع سُرورٍ، وإنَّما عمَّم الإنذارَ وخصَّ التَّبشيرَ بالّذين آمنوا؛ لأنّه لا يَخلو مُكلَّفٌ عن شيء يُنذرُ فيه، وليس لدى الكفّار فعلٌ يُبشَّرون به، وحالُ إنكارهم يُناسبُ الإنذارَ؛ لذلك خصّ التّبشيرَ بالمؤمنين، وأعمَّ الإنذارَ[6].

عِلّةُ التَّعبيرِ عن مفعولِ التَّبشيرِ بالاسمِ الموصولِ:

الإشارةُ إلى سببِ التَّبشيرِ وهو الإيمانُ

في العُدولِ إلى التَّعبيرِ عن مفعولِ التّبشيرِ بالاسم الموصولِ ﴿الَّذِينَ﴾ إشارةٌ إلى سببِ التّبشيرِ؛ لأنّ التَّعبيرَ بالاسمِ الموصولِ دليلٌ على أنَّ الصِّلةَ سببُ الحكمِ، فالإيمانُ سببٌ في البِشارة[7].

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/84.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 6/60.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/84.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/9.
(5) المطعنيّ، التَّفسير البلاغيّ للاستفهام: 2/35.
(6) الخازن، لباب التّأويل في معاني التّنزيل: 2/427.
(7) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 1/168.

نُكتةُ تخصيصِ ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ بالتّبشيرِ:

ليس للكُفّارِ ما يُبشَّرون به منَ الخيراتِ

خُصَّ الَّذينَ آمَنوا بِالبِشارَةِ بقَبولِ حسناتِهم وتكْفيرِ سيّئاتِهم والتَّجاوُزِ عن هفواتِهم وتَرَفُّعِ درجاتِهم، كما هو مُقْتَضى العَدلِ في إثابَةِ الطّائعِ وعِتابِ العاصي غُنْمًا وغُرْمًا[1]، ونُكتَةُ التَّخصيصِ أيضًا أنّ الكُفّارَ ليس لهم ما يصحُّ أن يُبشَّروا به حقيقةً[2]، فلا عَملَ خيرٍ يُبادِرون إليه، ولا فِعْلَ معروفٍ يُثابون عليه.

نُكتَةُ إيصالِ فعْلِ البِشارة إلى المبشَّرِ به دون حرفِ جرٍّ:

المسارعةُ إلى الفعْلِ بدون واسطةٍ تعجيلًا بالتَّبشيرِ

وفِعْلُ التَّبْشيرِ يَتَعَدّى بالباءِ، فالتَّقْديرُ: وبَشِّرِ الَّذينَ آمَنوا بأنَّ لَهم قَدَمَ صِدْقٍ، فحُذِفَ حرفُ الجَرِّ مع (أنَّ) جَرْيًا عَلى الغالبِ[3]، ونُكتَةُ إضافَةِ القَدَمِ - الَّذي هو السّابقَةُ بالطّاعَةِ - إلى الصِّدقِ موَصِّلًا لِفعلِ البِشارَةِ إلى المُبَشَّرِ بِهِ دونَ حرفِ جَرٍّ: حيث خصَّهم بـ﴿أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ﴾، أيْ: أعْمالًا حَقَّةً ثابِتَةً قَدَّموها لِأنْفُسِهم صَدَقوا فيها وأخْلَصوا فيما يُسِّروا لَهُ؛ لِأنَّهم خُلِقوا له وكانَ مِمّا يُسْعَى إليه بِالأقْدامِ[4]، ولمّا كان خبرُ التّبشير مَظنّةَ الفرحةِ الكبيرةِ، والمنّةِ العظيمةِ سارعَ إلى الفعلِ بدونِ واسطةٍ تعجيلًا بالتَّبشير.

وجْهُ تقديمِ الإنذارِ على التَّبشيرِ:

الحديث موجَّهٌ إلى مُنكري النُّبوّةِ فهُم المُخاطَبون ابتداءً، والتَّخليةُ مُقدَّمةٌ على التَّحليةِ

لَمّا بَيَّنَ اللّه تعالى أنَّهُ أوْحى إلى رَسولِهِ ﷺ، بَيَّنَ بَعْدَهُ تَفْصيلَ ما أَوْحَى إليه وهو الإنْذارُ والتَّبْشيرُ، أمّا الإنْذارُ فلِلْكُفّارِ والفُسّاقِ ليَرْتَدِعوا بسببِ ذلك الإنْذارِ عن فِعلِ ما لا يَنبغي، وأمّا التَّبْشيرُ فَلِأهْلِ الطّاعَةِ لِتَقْوى رغبتُهم فيها؛ إذْ لَيْسَ لِلْكُفّارِ ما يَصِحُّ أنْ يُبَشَّروا به حَقيقَةً وإنَّما قَدَّمَ الإنْذارَ على التَّبْشيرِ؛ لِأنَّ التَّخْليَةَ مُقَدَّمَةٌ عَلى التَّحْليَةِ، وإزالَةَ ما لا ينبَغي مُقَدَّمٌ في الرُّتْبَةِ عَلى فِعْلِ ما ينبَغي[5].

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/67.
(2) البيضاويّ: أنوار التّنزيل: 3/104.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/85.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/67.
(5) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 17/186 - 187.

براعةُ طِباقِ الإيجابِ بين (الإنذارِ، والتّبشيرِ):

الإنذارُ رادعٌ للمُعانِد، والتّبشيرُ دافعٌ لازديادِ المُطيعِ

والجمعُ بين النِّذارَةِ والبِشارَةِ طِباقُ إيجابٍ اقتضاه المقامُ[1]؛ لبيان عميم أثرِهما، في مبدأ الثَّواب، والعقاب، وفي ذلك ردعٌ للمُعانِد، ودعوةٌ إلى التّفكّر، وتعزيزٌ للمُقبِل، وحثٌّ على المبادرة، والاجتهادِ.

دَلالةُ التَّوكيدِ بـ﴿أَنَّ﴾:

عِظَمُ المثوبةِ يَستدْعي التَّوكيدَ

أكّدَ عِظمَ المثوبة مكانةً، وقُربًا، وعُلوَّ الجزاء تشريفًا وفضلًا، بقوله تعالى: ﴿أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ﴾، وهذا يَستدْعي التّأكيدَ المُتحقّقَ بـ﴿أَنَّ﴾، وتقديمِ شبْهِ الجملة ﴿لَهُمْ﴾، فضلًا عن اسميّةِ الجملةِ[2].

تقديمُ الخبرِ شبْهِ الجملةِ ﴿لَهُمْ﴾:

خصَّهم بالمثوبةِ مزيدَ عِنايةٍ وتشريفٍ

قدّم خبرَ ﴿أَنَّ﴾ وهو شبْهُ الجملة ﴿لَهُمْ﴾ على اسمِها ﴿قَدَمَ﴾؛ لتخصيص مثوبةِ قدمِ الصِّدق بالّذين آمنوا؛ مزيدَ عنايةٍ، وتشريفٍ، وعُلوِّ مكانةٍ، وإحالةَ تخصيصٍ[3].

فائدةُ إضافةِ (القَدم) إلى (الصِّدق):

الصِّدقُ مَناطُ كلِّ مَكْرُمةٍ ومنزلةٍ رفيعةٍ

وإضافَةُ القَدَم إلى الصِّدْقِ مِن إضافَةِ المَوْصوفِ إلى الصِّفَةِ، وفيها دلالاتٌ:

الأوّل: إنَّما عُبِّرَ عنها بها إذْ بها يحصُلُ السَّبقُ والوُصولُ إلى المَنازِلِ الرَّفيعَةِ، كَما يُعَبَّرُ عنِ النِّعْمَةِ باليَدِ؛ لأنَّها تُعْطَى بها، وقيلَ: مَقامُ صِدْقٍ، والوَجْهُ أنَّ الوُصولَ إلى المَقامِ إنَّما يَحْصُلُ بالقَدَمِ[4].

الثّاني: الدَّلالَةُ عَلى تَحَقُّقِها وثَباتِها، والتَّنْبيهُ عَلى أنَّ مَدارَ نَيْلِ ما ناله المؤمنون منَ المَراتِبِ العَليَّةِ هو صِدقُهُم ظاهرًا وباطنًا، فَإنَّ التَّصديقَ لا يَنْفَكُّ عنِ الصِّدْقِ[5].

---

(1) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 2/35.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 2/83.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/67.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/117.
(5) القاسميّ، محاسن التّأويل: 6/5.

الثالث: التَّنبيهُ على أنَّهُ يَجِبُ أنْ يُخْلصَ لله الطّاعةَ كَإخْلاصِ الصِّدقِ مِن شوائِبِ الكذبِ[1].

﴿قَدَمَ صِدْقٍ﴾ بين الاستعارةِ، والكنايةِ:

قوله: ﴿قَدَمَ صِدْقٍ﴾ استعارةٌ؛ لأنّ المُرادَ بالقَدَم هاهنا: السّابقةُ فى الإيمان، والتّقدّمُ في الإخلاص، والعبارةُ عن ذلك بلفْظِ القَدَم غايةٌ في البلاغة؛ لأنّ بالقَدَم يكونُ السّبقُ والتّقدُّم؛ فسُمِّيت قَدَمًا لذلك، وإنْ كان التأخُّر أيضًا يكونُ بها، على نحوِ ما ذكر اللّه تعالى: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ أَيۡمَٰنَكُمۡ دَخَلَۢا بَيۡنَكُمۡ فَتَزِلَّ قَدَمُۢ بَعۡدَ ثُبُوتِهَا﴾ [النحل: 94]، في تشبيه مَنِ اتَّخذ حَلِف اليمينِ خديعةً لمن حَلَف له، كمن زَلِقت قدمُه بعد ثبوتها، كما أنَّ القدمَ يكون التَّقدُّم بخَطْوِها، كما قال سبحانه: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَتَقَدَّمَ أَوۡ يَتَأَخَّرَ ٣٧﴾ [المدثر: 37]، فالتّقدُّم إلى فعل الطّاعات، أوِ التأخُّرُ عن فعل المعاصي يكونُ في غالبه بها، لذا سُمّيتْ هنا بأشرف حالاتِها وأنبَهِ مُتصرّفاتها. وقال بعضهم: إيمانُهم في الدّنيا هو قدمُهم في الآخرة؛ لأنَّ معنى القدم في العربية: الشّيءُ تُقدّمُه أمامك ليكون عُدّةً لك، حتى تَقْدُمَ عليه[2].

لفظةُ (القَدَم) أمارةُ الثَّباتِ والتّمكُّنِ، وسعْيُ المرء يكونُ بقَدَمِه

أو أنَّ القدمَ كنايةٌ عنِ العمل الَّذي يتقدَّم فيه، ولا يقع فيه تأخيرٌ ولا إبطاءٌ. والسَّبب في إطلاق لفْظِ القدم على هذه المعاني، أنَّ السَّعيَ لا يحصل إلّا بالقدم، فسُمِّي المسبَّبُ باسم السَّبب، كما سُمّيت النِّعمة يدًا، لأنَّها تُعطَى باليد[3].

استُعير في قوله: ﴿قَدَمَ صِدْقٍ﴾ لفظُ القَدم للدَّلالَةِ على الثَّباتِ والتّمكُّن؛ لأنّ أصلَ الثَّبات يكونُ بالقدم، بحيث عُبّر عنه بالثُّبوتِ الحِسّيّ على طريقة الاستعارةِ التَّصريحيّةِ[4].

لفظُ القدمِ يدلُّ على الثَّباتِ والتَّقدُّمِ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/67.
(2) الشّريف الرّضيّ، تلخيص البيان فى مجازات القرآن: 2/152 - 153.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 17/187.
(4) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 15/372.

بَلاغةُ المجازِ في لفظِ (القدم):

(القَدَمُ) مجازٌ أُطلقَ فيه الجزءُ وأُريد الكلُّ، وهو بمعنى السَّبْقِ مَجازًا، لكوْنِهِ سَبَبَهُ وآلَتَهُ، كَما تُطْلَقُ (اليَدُ) عَلى النِّعْمَةِ، و(العَيْنُ) عَلى الجاسوسِ، و(الرَّأْسُ) عَلى الرَّئيسِ، ثُمَّ إنَّ السَّبْقَ مَجازٌ عَنِ الفَضْلِ والتَّقَدُّمِ المَعْنَويِّ إلى المَنازِلِ الرَّفيعَةِ، فَهو مَجازٌ بمرتبتَيْنِ[1].

القدمُ آلةُ الفضلِ، والسَّبقِ إلى المنازلِ الرَّفيعةِ

أمّا (القَدَمُ) بِمَعْنى المَقامِ كَـ: ﴿مَقْعَدِ صِدْقٍ﴾ [القمر: 55] بإطْلاقِ الحالِّ وإرادَةِ المَحَلِّ، وإضافَتُهُ إلى الصِّدْقِ مِن إضافَةِ المَوْصوفِ إلى الصِّفَةِ. وأصلُهُ (قَدَمٌ صِدْقٌ) أيْ مُحَقِّقَةٌ مُقَرِّرَةٌ، وفيه مُبالَغَةٌ لجعْلِها عَيْنَ الصِّدْقِ، وتَنْبيهٌ عَلى أنَّهم إنَّما نالوا ما نالوا بِصِدقِهِم، ظاهرًا وباطنًا[2].

إيثارُ لفظِ الصِّدق:

أوثِرَ لفظُ الصِّدق؛ لأنَّه وعْدٌ، ووعْدُ اللّه صدقٌ دائمًا وأنَّ المؤمنين أيضًا قدموا بالصِّدق وهو الإيمانُ بالحقِّ، فصدّقوا الرَّسول وصدَقوا ما عاهدوا اللّه عليه، وإضافةُ القدم إلى ﴿صِدْقٍ﴾؛ دلالةٌ على زيادة فضلٍ، وأنَّه منَ السَّوابق العظيمةِ[3].

وعْدُ الله صِدقٌ لا يتخلَّفُ

بَراعةُ التّشريفِ بالعِنديّة:

العِنديّةُ تقتضي التّشريفَ، والاستقرارَ، والتَّبهيجَ، والتَّفريجَ، وتحقُّقَ الحصول[4]؛ لما فيه من معنى القُرب منه تعالى المُقتضي للتَّفضيل، والزُّلفَى إليه مكانةً ومكانًا؛ لإيمانهم بمَن أُرْسِلَ، وبما أرْسَلَ، وطاعتِه، وابتغاءِ مرضاته.

مُنتَهى الغاياتِ القُربُ منه تعالى

إيثارُ اسْمِ الرُّبوبيَّةِ، ونسبتُها إليهم:

وصفَ تعالى نفسَه بالرُّبوبيةِ والألوهيّةِ تنْزيهًا، ونسبَها إليهم

مِن عاداتِ القرآنِ رَبطُ الهدايةِ بالرُّبوبيّةِ

(1) القاسميّ، محاسن التّأويل: 6/5.
(2) القاسميّ، محاسن التّأويل: 6/5.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3510.
(4) التّفسير البلاغيّ للقرآن، المطعنيّ: 2/35.

تشوُّفًا إلى تربية أسرارِ العارفين وتقديسِ قلوبِ الموحِّدين، وجريًا على عوائدِ القرآن؛ من حيث ربْطُ الهداية بوصْفِ الرّبوبيَّةِ، لا إلى غيرها من أسمائِه تعالى وصفاتِه؛ لما في الإشعار بلفظةِ (الرَّبّ) منَ النَّظر في مصلحة عبيدِه[1].

تَوجيهُ الفصْلِ في جملةِ: ﴿قَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾:

الجملةُ بيانٌ لتعجُّبِهم، وجوابٌ عن سؤالٍ سابقٍ

فُصلتْ هذه الجملةُ عن سابقتِها؛ لتكونَ جملةً تفسيريّةً لعَجَبِ الكافرين من بعثةِ محمّدٍ ﷺ رسولًا[2]، وإيرادُهم ههنا بعُنوانِ الكُفرِ ممّا لا حاجَةَ إلى ذِكْرِ سببِه، وتَرْكُ العاطفِ لِجَرَيانِه مَجْرَى البَيانِ لِلْجُملَةِ الَّتي دَخَلَتْ عَلَيْها هَمزَةُ الإنْكارِ[3]، فهو كالتَّفسير لتعجُّبهم، وهو من بديعِ الكلام لشدَّةِ ارتباطِه بما قبلَه ووقوعِه منه موقعَ التَّفسير حتى كأنَّه هو[4].

أو لتكونَ الجملةُ مستأنَفةً جوابًا عن سؤالٍ سابقٍ مُقتضاه: ماذا صَنَعوا بَعْدَ التَّعَجُّبِ؟ هَلْ بَقوا عَلى التَّرَدُّدِ والاستبْعادِ أوْ قَطَعوا فيه بِشَيْءٍ؟ فَقيلَ: ﴿قَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ عَلى طَريقَةِ التَّأْكيدِ[5].

دَلالةُ أل في ﴿ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾:

ناداهم بالصِّفة القبيحةِ المُلازِمةِ لهم جزاءَ جُحودِهم وتمالُئِهم على الإنكارِ

اللّام هذه الأصحُّ أنّها على بابها، وأنَّ المرادَ بها الصِّلةُ، فالألفُ واللّام في قوله: ﴿ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ بمعنى (الّذي)، وعليه يكون المعنى: قال: (الّذين كفروا). وناداهم بالصِّفة القبيحةِ المُلازِمةِ لهم: ﴿ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ ولم يُنادِهم بـ(الّذين كفروا)؛ لقُبح رأيِهم وفكرتِهم، وتوغّلِهم في الكُفْرِ والفُسوقِ، وانهماكِهم في الغيِّ؛ لتجاسُرِهم على النَّبيّ المُرسَلِ بنسبةِ مَن جاءَهم بِالهُدى والتَّوْحيدِ إلى السِّحْرِ

(1) ابو حيّان، البحر المحيط: 3/31.
(2) المطّعنيّ، التَّفسير البلاغيّ للاستفهام: 2/35.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/117.
(4) ابن القيّم، بدائع الفوائد: 1/211.
(5) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/117.

والكذبِ، وهي الصِّفَةُ الَّتي أَوْجَبَتْ لَهُمُ العَجَبَ[1]. وفي جمعِه جمعَ سلامةٍ دليلُ كثرتِهم، وتمالُئهم على كُفرِهم.

التَّوكيدُ بـ ﴿إِنَّ﴾:

سِيقت ﴿إِنَّ﴾ في جملةِ الفاصلةِ: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ﴾؛ لتأكيدِ زعْمِ الكافرين على ما وصَفوا به رسولَ الله ﷺ، وإصرارِهم على جُحودِهم بما يوحَى إليه، وكُفرِهم بما أُنزلَ عليه.

بيانُ إصرارِ الكافرين على وصْفِ رسولِهم المُرسَلِ إليهم بالسِّحرِ

وجهُ التّعبيرِ باسْمِ الإشارةِ القريبِ ﴿هَٰذَا﴾:

سَوْق اسْمِ الإشارةِ للقريبِ لقصد التَّحقيرِ في زعْمِهم؛ كما هو معهودُ الكافرين في مواضعَ كثيرةٍ منَ القرآن[2]. فـ﴿هَٰذَا﴾ يجوزُ أن يكونَ إشارةً للقرآن، وأن يكونَ إشارةً للرَّسول على قراءة ﴿لَسِحْرٌ﴾، ولكنْ لا بدَّ من تأويلٍ على قولنا: هو إشارةٌ للرّسول، أي: ذو سِحْر أو جعلوه إيّاه مبالغةً، وعلى قراءة ﴿لَسَٰحِرٌ﴾ فالإشارةُ للرَّسول ﷺ فقط[3].

القصدُ إلى التّحقيرِ بالإشاراتِ القريبةِ

دَلالةُ اللّامِ في ﴿لَسَٰحِرٌ﴾:

سيقتِ اللّامُ في ﴿لَسَٰحِرٌ﴾ لتأكيد زعمِهم بأنَّه ﷺ كذلك، مُسترسِلين في التّأكيد بالجملةِ الاسميّةِ، وبـ﴿إِنَّ﴾ المؤكِّدةِ؛ رغبةً في تكذيب الدَّعوةِ بما يُفيدُ في اعتقادهمُ القَطْعَ[4].

تأكيدُ مزاعمِ خصومِ الدّعوةِ بما يدلُّ على الإصرارِ

نُكتةُ تنكيرِ السّاحرِ، وتنوينِه:

قولُهم في الإنْذارِ والبِشارَةِ ﴿لَسَٰحِرٌ﴾؛ إنَّما هو بِسَببِ زعْمِهم أنَّهُ فَرَّقَ كلِمَتَهم، وحالَ بَيْنَ القريبِ وقريبِه، فَأَشْبَهَ ذلك ما يفعلُهُ السّاحِرُ، وظَنّوهُ مِن ذلك البابِ[5]، وقال الزَّمَخْشَريُّ: "وهذا دَليلُ عجْزِهم واعترافِهم بِهِ وإنْ كانوا كاذِبينَ في تَسْميَتِهِ سِحْرًا"[6]، ولَمّا

ما اعتقَدوه من سِحْرٍ مُحقَّرٌ، ودليلُ عجْزٍ

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 9/138، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/214.
(2) المطعنيّ، التَّفسير البلاغيّ للاستفهام، ص: 36.
(3) ابن عادل، اللُّباب في علوم الكتاب: 10/257.
(4) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 7/3511.
(5) ابن عطيّة، المُحرَّر الوجيز: 3/103.
(6) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 2/328.

كانَ قولُهم فيما لا يُمكِنُ أنْ يَكونَ سِحْرًا ظاهِرَ الفَسادِ، لم يَحْتَجْ قولُهم إلى جَوابٍ[1]، والشّاهدُ في هذا القِيلِ، تنكيرُ لفظةِ ﴿لَسَٰحِرٞ﴾ تحقيرًا لما اعتقَدوه سِحرًا.

تَوجيهُ القراءتَيْن في: ﴿لَسَٰحِرٞ﴾:

وصْفُهم الرّسولَ ﷺ بالسّاحرِ دليلُ عجْزِهم واعترافِهم به

قرأ الكوفيّون حمزةُ والكسائيُّ وعاصمٌ وخَلَفٌ، ووافقهم ابنُ كثيرٍ: ﴿لَسَٰحِرٞ﴾ بألف بعد السِّين وكسر الحاء، نعتًا لرسولِ اللّه ﷺ - على زعمهم - ، وقرأ الباقون بكسر السِّين، وإسكان الحاء من غير ألف ﴿لَسِحۡرٞ﴾ نعتًا للقرآن[2] - على زعمهم - ، ويجوزُ أن تكونَ هذه القراءةُ إشارةً للرّسول ﷺ أيضًا[3] - على افترائهم - فمَن قرأ: ﴿لَسَٰحِرٞ﴾: فهذا إشارةٌ إلى رسول اللّه ﷺ - على زعمهم - ، وهو دليلُ عجْزِهم واعترافِهم به، وإن كانوا كاذِبين في تسميتِه ساحرًا[4].

سُمّيَ سِحْرًا بسببِ أنّه فرّقَ بذلك كلمَتَهم

وعلى قراءة الباقين يكونُ قولُهم في الإنذار بالقرآن والبِشارة: ﴿لَسِحۡرٞ﴾، إنَّما هو بسببِ زعْمِهم أنَّه فرّق بذلك كلمتَهم، وحال بين القريبِ وقريبِه فأشبهَ ذلك ما يفعلُه السّاحر فظنّوه من ذلك البابِ[5].

وصَفَ الكفّارُ القرآنَ بالسّحر لعجْزِهم الإتيانَ بمثلِه

ووصْفُ الكُفّارِ القُرْآنَ بكَوْنِهِ سِحْرًا يَدُلُّ عَلى عِظَمِ مَحلِّ القُرْآنِ عندهم وكونِهِ مُعجِزًا، وأنَّهُ تَعَذَّرَ عَلَيْهِم فيه المُعارَضَةُ، فاحْتاجوا إلى هذا الكلامِ[6].

ويُحْتَمَلُ أنْ يكونوا ذكَروهُ في مَعرِضِ الذَّمِّ، ويُحْتَمَلُ أنَّهم ذَكَروهُ في مَعرِضِ المَدْحِ، فَلِهَذا السَّبَبِ اخْتَلَفَ المُفَسِّرونَ فيه. فَقال بَعْضُهم:

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/11.
(2) ابن الجزريّ، النّشر في القراءات العشر: 2/256.
(3) ابن عادل، اللُّباب في علوم الكتاب: 10/257.
(4) النَّسَفيّ، مدارك التّنزيل: 2/6.
(5) ابن عطيّة، المُحرَّر الوجيز: 3/103.
(6) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 17/187.

أرادوا به أنَّهُ كلامٌ مُزَخْرَفٌ حَسَنُ الظّاهِرِ، ولَكِنَّهُ باطِلٌ في الحقيقَةِ، ولا حاصلَ له، وقال آخرونَ: أرادوا به أنَّهُ لِكمالِ فصاحَتِهِ وتَعَذُّرِ مثْلِهِ، جارٍ مَجْرَى السِّحْرِ[1].

عِلَّةُ تَرْكِ الرَّدِّ على وصْفِهِمُ القرآنَ بالسّحر:

حَملُهم القُرآنَ على السِّحرِ كلامٌ فاسدٌ لا يَستحقُّ الرَّدَّ

واعْلَم أنَّ هذا الكلامَ لَمّا كان في غايَةِ الفَسادِ لم يُذْكَرْ جَوابُهُ، وإنَّما قُلْنا: إنَّهُ في غايَةِ الفَسادِ؛ لأنَّهُ ﷺ كانَ مِنهم، ونَشَأ بَيْنَهم، وما غابَ عَنْهم، وما خالَطَ أحَدًا سِواهم، وما كانَت مَكَّةُ بَلْدَةَ العُلَماءِ والأذْكياءِ، حَتّى يُقالَ: إنَّهُ تَعَلَّمَ السِّحْرَ، أوْ تَعَلَّمَ العُلومَ الكَثيرَةَ مِنهم، فقدرَ عَلى الإتْيانِ بِمِثْلِ هذا القُرْآنِ. وإذا كانَ الأمرُ كذلك كان حَملُ القُرْآنِ عَلى السِّحْرِ كلامًا في غايَةِ الفَسادِ، فلهذا السَّبَبِ تُرِكَ جَوابُهُ[2].

سِرُّ وصْفِ السّاحرِ أوِ السِّحرِ بـ﴿مُّبِينٌ﴾:

بيانُ تُناقُضِهم وحَيْرتِهم فيما جاءَهم به الرَّسولُ

قولُه تعالى: ﴿مُّبِينٌ﴾ أيْ سحْرهُ ظاهِرٌ في نفْسِهِ، وهو مِن شدَّةِ ظُهورِهِ مُظْهِرٌ لِكُلِّ شَيْءٍ أنَّهُ كذلك، فَجاؤوا بِما هو في غايَةِ البُعْدِ عنْ وصْفِهِ، فَإنَّ السِّحْرَ قد تَقَرَّرَ لِكُلِّ ذي لُبٍّ أنَّهُ - مع كونِهِ تَمويهًا لا حَقيقَةَ لَهُ - شَرٌّ مَحْضٌ لَيْسَ فيهِ شَيْءٌ منَ الحِكْمَةِ، فَضْلًا عَنْ أنْ يَمتَطيَ الذُّرْوَةَ منهُ مع أنَّ في ذلك ادِّعاءَهم أمرًا مُتَناقِضًا، وهو أنَّهُ مِن قوْلِ البَشَرِ كما هي العادةُ في السِّحْرِ، وأنَّهم عاجِزونَ عَنْهُ، لأنَّ السِّحْرَ فِعْلٌ تُخْفَى الحيلَةُ فيهِ حتّى يُتَوَهَّمَ الإعْجازُ به، فقدِ اعْتَرَفوا بِالعَجْزِ عَنْهُ وكَذَّبوا في ادِّعاءِ أنَّهُ لَسِحْرٌ؛ لِأنَّ الآتيَ به مِنهم لم يُفارِقْهم قَطُّ، وما خالَطَ عالِمًا لا بِسِحْرٍ ولا غَيْرِهِ حَتّى يُخالِطَهم فيهِ شُبْهَةٌ، فَهم يَعْلَمونَ أنَّ قولَهم في غايَةِ الفَسادِ[3].

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 17/187.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 17/187 - 188.
(3) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 9/68.

فائدةُ إيرادِ الصِّفة على صيغةِ (فُعيل):

أرادوا المبالغةَ في إبانتِه للسِّحر ليُكذِّبوه

وردَت الصِّفَةُ على صيغَةِ (فعيل)؛ للدّلالةِ على المبالغةِ في إبانتِه للسِّحر رغبةً في التَّكذيبِ والتّمادي، تَماديًا في العِنادِ كما هو طبع المُكابِرِ اللَّجوحِ، ودأب المُفْحَمِ المَحْجوجِ[1]، فضلًا عن إرادتِهم أنّه ذو سحرٍ - حاشاه صلواتُ ربي وسلامُه عليه - ظاهرٌ فيه ذلك، مُتفنِّن فيه.

إيرادُهم الجُملَةَ الاسميَّةَ مع التَّأْكيدِ:

أكّدوا مَقالتَهم للإيهامِ بأنَّها ثابتٌ مُحَقَّقٌ

وعبّرَ عن قولِهم بالجملةِ الاسميّةِ ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ﴾؛ للإشعار بأنّهم إنَّما قالوه عن عقيدةٍ تامَّةٍ، ويقينٍ راسخٍ في التَّكذيب، وللإيهام بأنَّ ما قالوه ثابتٌ مُحقَّقٌ.

تَوكيدُ الخبر بـ (إنّ، والجملةِ الاسميّةِ، واللّام):

التّعبيرُ عن رغبَتِهم الشَّديدةِ في تكذيبِ الدَّعوةِ

قال الكافِرونَ عَلى طريقةِ التَّأْكيدِ: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ﴾، فهو مَقول قولِهم، سواء على وصْفِهم الرَّسولَ بالسّاحر المُنبئِ بأنَّهم كذَّبوا بكوْنِ ما جاءهم به من عند الله، أو على نَعتِهم الوحيَ المُنزَّلَ بأنَّ هذا الكلامَ كلامُ السِّحر وأصحابِه، أيْ أنَّه كلامٌ يُسْحرُ به، وقد أكَّد الخبرَ بـ (إنّ، والجملة الاسميّة، واللّام)؛ لرغبتِهم الشّديدةِ في تكذيب الدّعوةِ، وإظهارِها في معرضِ الدّعاوَى الموغلةِ في البُطلان.

بَلاغةُ الفَصْلِ في جُمَلِ الآيةِ:

اختلافُ الخبرِ والطَّلبِ على سبيلِ التَّعدادِ

وإنَّما فُصلتِ الجُملُ لاختلافها خبرًا وطلبًا على سبيل التَّعدادِ، نحوَ قولِهم: "واعبد ربّك، العبادةُ حقٌّ له"، على تعويل التَّرتيبِ إلى الذِّهن دونَ اللَّفظ[2].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(أنْذرَ) و(حذّرَ) و(بلّغَ):

الإنْذارُ تخويفٌ مع إعْلام موضِع المخافةِ من قولِك: نذرتُ

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 6/62.
(2) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 7/416.

بالشَّيْء؛ إذا عَلمتَه فاستعددتَّ لَهُ، فإذا خوَّف الإنْسانُ غيرَه وأعلَمه حالَ ما يُخوّفه به فقد أنذَرَه، وإن لم يُعلِمهُ ذلك لم يَقُل أنذَرَه، والنَّذرُ ما يَجعلُه الإنسانُ على نَفسه إذا سلمَ ما يخافُه، والإنذارُ إحْسانٌ منَ المُنْذر، وكلّما كانتِ المخافةُ أشدَّ كانتِ النِّعْمَةُ بالإنذار أعظمَ، ولهذا كان النَّبيُّ أعظمَ الناس بإنذاره لَهم عِقابَ اللّه تعالى[1].

الإنـذار تخويف بذِكْر مَوْضِعه

الإعلامُ والإخبارُ:

إنَّ الإعْلامَ: التَّعريضُ لأن يعلمَ الشَّيْءُ، وقد يكونُ ذلك بوضْع العِلْم في القلب؛ لِأنَّ اللّه تعالى قد علَّمنا ما اضطُررنا إليه، ويكونُ الإعلامُ بنصْبِ الدّلالة، والإخبارُ الإظْهار للْخَبَر عَلِم به أو لم يعلم[2].

الإعـلامُ بنصْبِ الدّلالةِ والإخبارُ إظهارٌ وإنْ غُيِّبتِ العلامةُ

(1) العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 242.
(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 96.

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۝٣﴾ [يونس: 3]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الإلهُ الحقُّ الَّذي خلَقَ الكونَ ليس بعاجزٍ أن يَبعثَ بشرًا رسولًا

لمّا حكى الحقُّ ﷻ عن الكُفّار أنَّهم تعجَّبوا منَ الوَحْيِ والبعثةِ والرِّسالةِ، ثمَّ إنَّه تعالى أزال ذلك التَّعجّبَ بأنَّه لا يبعدُ ألبتَّة في أن يبعثَ خالقُ الخَلْقِ إليهم رسولًا يُبشِّرُهم ويُنذِرُهم، كان هذا الجوابُ إنَّما يَتِمُّ بإثبات أمرَيْن: أحدُهما: إثباتُ أنَّ لهذا العالم إلهًا قاهرًا قادرًا، نافذَ الحُكم بالأمر والنَّهي. والثّاني: إثباتُ الحشرِ والنَّشرِ والبَعث والقيامةِ، حتَّى يحصلَ الثَّوابُ والعقابُ اللَّذان أخبرَ الأنبياءُ عن حصولِهما؛ فلا جَرَمَ أنَّه سبحانه ذكرَ في هذا الموضِعِ ما يدلُّ على تحقيق هذين المطلوبَيْن. أمّا الأوَّلُ: وهو إثباتُ الألوهيّةِ فبقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾، وأمّا الثّاني: فهو إثباتُ المعادِ والحشرِ والنَّشرِ بقوله: ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾ [يونس: 4][1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱسْتَوَىٰ﴾: أصْلُ الاستواء يَدلُّ على استِقامَةٍ واعتِدالٍ بَيْنَ شَيْئَيْنِ، أو يَدُلُّ على اعتدالِ الشَّيءِ في ذاته[2]، وهو على أوجه: انتصابٌ، وضدّ الاعوجاج، والاعتدال، ومنه سمّيَ (اسْتَوَى اللَّيْل والنَّهار)، وتَمامُ الشَّباب، وانتهاؤه، قال تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ﴾ [القصص: 14]، والقَصْدُ في الشَّيْء، والإقبالُ عليه، حكى الفَرّاء: كان مُقبلًا عَليَّ فلانٌ ثمَّ اسْتَوَى إلَيّ يُشاتمني، والاستيلاءُ على الأمر، والتَّفرّدُ به، ومنها العُلوُّ

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 17/188، وطنطاويّ، التَّفسير الوسيط: 7/20.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (سوا).

والارتفاع، كقول القائل: استوى فلانٌ على سريره، يعني به عُلوَّه عليه[1]، فإذا عُدّي بعَلَى فهو بمعنى العُلوِّ والارتفاع، كقوله: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ [طه: 5]، وهذا المعنى هو المقصودُ في الآية[2]، وحملُه على معنى الاستيلاء هو قولُ المعتزلة وغيرِهم، كما يقولُ ثعلبٌ[3].

2) ﴿ٱلۡعَرۡشِ﴾: أصْلُ (عرش): يَدُلُّ على ارْتِفاعٍ في شَيْءٍ مَبْنيٍّ، يُقال: عَرَشْتُ الشَّيْءَ وعَرَّشْتُهُ، أعْرُشُهُ، تَعْريشًا، أيْ: رَفَعْتُهُ، ومِنْهُ العَريشُ، وهو: بِناءٌ يُرْفَعُ يُسْتَظَلُّ بِهِ[4]؛ وسُمّي مجلسُ السّلطان عَرْشًا اعتبارًا بعُلوِّه[5]. والعَرْشُ: سَريرُ المَلِكِ، يُقال: جلسَ المَلِكُ على عَرْشِهِ، أيْ: سَريرِهِ[6]، ويأتي بمعنى سَقْفِ البَيْتِ[7]، والعَرْشُ حَقيقَتُهُ: الكُرسيُّ المُرْتَفِعُ الَّذي يَجْلِسُ عليه المَلِكُ، قالَ تَعالَى: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيۡهِ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ﴾ [يوسف: 100]. والمقصودُ بالعرش في الآية: هو أعْظَمُ وأعْلَى المَخْلوقاتِ، خَلَقَهُ اللّه ثمَّ اسْتَوَى وعَلا عليه، وأمَرَ المَلائِكَةَ بِحَمْلِهِ وتَعْظيمِهِ، واللّه فوقَهُ وفوْقَ جَميعِ خَلْقِهِ. ومِن صِفاتِ العَرْشِ: أنَّ اللّه تعالى خَلَقَهُ على الماءِ، وجعلَ له قوائِمَ يُرفَعُ منها، وأنَّه سَقْفُ الجنَّةِ، وكالقُبَّةِ على العالَمِ، وأنَّه فَوْقَ السّماوات السَّبْعِ، وفَوْقَ جَميعِ المَخْلوقاتِ[8].

3) ﴿يُدَبِّرُ﴾: أصْلُ (دبر): هو آخِرُ الشَّيءِ وخَلْفُهُ خِلافُ قُبُلِهِ، والتَّدبيرُ: النَّظَرُ في عاقِبَةِ الأمرِ، وتَقْويمُه على ما يكون فيه صَلاحُ عاقِبَتِهِ، وأدْبارُ الأمورِ: عَواقِبُها[9]. يُقال: دَبَّرَ الأمرَ: إذا ساسَهُ ونَظَرَ في عاقِبَتِهِ؛ ليقَعَ على الوجْهِ الأكْمَلِ[10]، والتَّدَبُّرُ: التَّفكُّرُ، أي: تَحْصيلُ المَعْرِفَتَيْنِ لتَحْصيلِ مَعْرِفةٍ ثالِثَةٍ[11]. والمقصود بالتَّدبير في الآية: النَّظَرُ في عواقِبِ المُقَدَّراتِ وعَوائِقِها لِقَصْدِ إيقاعِها تامَّةً فيما تُقْصَدُ له محمودةَ العاقِبَةِ[12].

(1) الفرّاء، معاني القرآن: 1/25، وابن جرير، جامع البيان: 1/456، والسِّجسْتانيّ، غريب القرآن، ص: 114.
(2) أبو عبيدة، مجاز القرآن: 2/15، وابن جرير، جامع البيان: 1/456، والأزهريّ، تهذيب اللّغة: (سوي).
(3) ثعلب، مجالس ثعلب، ص: 58.
(4) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة: (عرش).
(5) الرّاغب، المفردات: (عرش).
(6) السِّجسْتانيّ، غريب القرآن، ص: 335، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن عبّاد، المحيط في اللّغة: (عرش).
(7) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (عرش).
(8) ابن أبي شيبة، العرش وما روي فيه، ص: 281، وابن تيمية، الرسالة العرشيّة، ص: 4، والذّهبيّ، كتاب العرش: 1/271.
(9) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، والفيروزابادي، القاموس المحيط: (دبر).
(10) إبراهيم مصطفى وزملاؤه، المعجم الوسيط: (دبر).
(11) الزَّبيديّ، تاج العروس: (دبر).
(12) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/87.

4) ﴿شَفِيعٍ﴾: أصْلُ الكلِمَة منَ الشَّفْعِ، وهو: ضَمُّ الشَّيءِ إلى مِثْلِهِ[1]. ومنه الشَّفاعَةُ: وهي السَّعْيُ والوَساطَةُ في حُصولِ نَفْعٍ أو دَفْعِ ضُرٍّ سَواءٌ كانتِ الوساطَةُ بِطَلَبٍ مِنَ المُنْتَفِعِ بها، أم كانتْ بِمُجَرَّدِ سَعْيِ المُتَوَسِّطِ، ويُقالُ لِطالِبِ الشَّفاعَةِ مُسْتَشْفِعٌ. وهيَ مُشْتَقَّةٌ مِنَ الشَّفْعِ - كما ذَكرنا - ؛ لِأنَّ الطّالبَ أوِ التّائِبَ يأتي وحْدَهُ، فإذا لم يَجِدْ قَبولًا ذَهَبَ فأتَى بِمَنْ يَتَوَسَّلُ به، فَصارَ ذلكَ الثّاني شافِعًا للأوَّلِ، أي مَصيرُهُ شَفْعًا. فالشَّفيع: الوَسيطُ في قَضاءِ الحَوائِجِ مِنْ دَفْعِ ضُرٍّ أو جَلْبِ نَفْعٍ[2]. وتأْتي الشَّفاعة بِمعنى الزِّيادةِ، يُقال: شَفَعَ شَفاعةً حَسنَةً، أي: زادَ إلى عَملِهِ عَمَلًا[3]. ومِن مَعانيها أيضًا: المُشارَكَةُ، والدُّعاءُ[4]. والمقصود بالشَّفيع في الآية: السّائلُ في غَيرِه بتَبليغ مَنزلَتِهِ مِن عفوٍ أو زيادَةِ مَنزلَةٍ.

5) ﴿إِذْنِهِۦٓ﴾: منَ الجَذْرِ اللُّغويِّ (أذن)، والإذْنُ: مَصْدَرُ: أذِنَ يَأْذَنُ، ويدورُ أصْلُهُ حَول العِلمِ بالشَّيء والإعلام بهِ، ومِنهُ الأُذُن؛ فَبِها يَقَعُ عِلْمُ كُلِّ مَسْموعٍ، ومِنه الأذان: وهو الإعْلامُ بِدخولِ الوقتِ[5]، وأذِنْتُ بِالشَّيْءِ: عَلِمتُ بِهِ[6]، ومنه: الإذْنُ بمعنى الإباحة والقَبول والتَّمكين[7]، ورفْعُ المَنْعِ وإطلاقُ الفعْلِ، يُقالُ: أذِنْتُ لَهُ في شَيْءٍ، أيْ: أطْلَقْتُ له فِعْلَهُ[8]. والمقصود بالإذْنِ في الآية: الأمرُ بِفِعْلٍ يَتوقَّفُ على رِضى الآمِرِ به، وهو أمرُ اللّه تَعالى[9].

المَعْنى الإجْماليُّ:

يخبرُ تعالى: إنَّ رَبَّكم - أيُّها النّاسُ - هو اللّه الَّذي خلقَ السَّماواتِ والأرضَ في سِتَّةِ أيّام، ثمَّ علا وارتفَعَ على عَرْشِه استواءً يليقُ بجلاله وعظَمتِه، يُدَبِّرُ أمورَ جَميعِ الخَلائِقِ، لا يَشفَعُ

(1) الرّاغب، المفردات: (شفع).
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/486، و21/211.
(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (شفع).
(4) ابن منظور، لسان العرب: (شفع).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (أذن).
(6) الفيوميّ، المصباح المنير: (أذن).
(7) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (أذن).
(8) الزبيديّ، تاج العروس: (أذن).
(9) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 13/181.

عندَه أيُّ شافعٍ يومَ القيامةِ إلّا مِن بَعدِ أن يأذَنَ له بذلك، ذلكم هو اللّه ربُّكم الَّذي هذا شأنُه، وهذه صفتُه، وفعَلَ تلك الأشياءَ العظيمةَ، هو المستَحِقُّ لإفرادِ العبادةِ له دونَ مَن سِواه، وهو مالِكُكم وخالِقُكم ومُدَبِّرُ أمورِكم - أيُّها النّاسُ - فاعبُدوه وحْدَه، وأخلِصوا له العبادةَ، أفلا تتَّعِظونَ بتلك الآياتِ والبَراهينِ، وتتذكَّرون أنَّ اللّه هو المتفَرِّدُ بالخَلقِ، فتَعبُدونَه وحْدَه، وتَترُكونَ عبادةَ غَيرِه مِن مَخلوقاتِه[1].

إقامةُ الدَّليلِ على إبطالِ الشُّركاءِ لله في رُبوبيَّتِه وألوهيَّتِه

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بَلاغةُ الفَصْلِ بالاستئنافِ في الآيةِ:

هذا ابْتِداءُ دُعاءٍ إلى عبادةِ اللّه ﷻ وإعلامٍ بصفاتِه؛ ففي الآية اسْتِئنافٌ ابتدائيٌّ لِلاستِدلالِ على تَفَرُّدِ اللّه تَعالى بالإلَهيَّةِ[2]، وإنَّما أوقِعَ هُنا؛ لِأنَّ أقْوى شَيْءٍ بَعَثَ المُشْرِكينَ على ادِّعاءِ أنَّ ما جاءَ بِه النَّبيُّ سِحْرٌ هو أنَّهُ أبْطَلَ الشُّركاءَ للّه في الإلَهيَّةِ ونَفاها عَنْ آلِهتِهِمُ الَّتي أشْرَكوا بِها فَقالوا: ﴿أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص: 5][3]، فَلا جَرَمَ أنْ أُعْقِبَ إنْكارُ إحالَتِهِم ذلك بإقامَةِ الدَّليلِ عَلى ثُبوتِهِ؛ فَشَرَعَ سُبْحانَهُ يُقيمُ الدَّليلَ على بُطْلانِ قولهم مِن أنَّهُ - مع ما تَضَمَّنَهُ مِنَ البَعْثِ - سِحْرٌ، وعلى حقيقَةِ أنَّهُ مِن عِنْدِهِ مِن غَيْرِ شُبْهَةٍ، وعَلى أنَّ الرِّسالَةَ لا عَجَبَ فيها؛ لِأنَّهُ سبحانَهُ خَلَقَ الوُجودَ كُلَّهُ، وهو نافِذُ الأمرِ فيهِ[4].

اللّه تعالى مُتفرِّدٌ بالأُلوهيّةِ

بَراعةُ الالتفاتِ مِنَ الغيبةِ إلى الخطابِ:

النُّكتةُ البلاغيّةُ للعُدولِ بالكلامِ من أسلوبِ الغَيبةِ فيما تقدَّمَ

المواجَهةُ بالدَّلائلِ لَفتٌ للانتباهِ وحثٌّ على التّدبُّرِ

(1) ابن جرير، جامع البيان: 12/114، وابن عطيّة، المُحرَّر الوجيز: 3/104، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 8/308، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/247، والسَّعديّ، تفسير الكريم الرّحمن، ص: 357.

(2) ابن عطيّة، المُحرَّر الوجيز: 3/104.

(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/87.

(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/68.

إلى الخطاب هنا مواجهةُ المُخاطَب بهذه الدَّلائل العظيمة تنشيطًا لسَمعه، ولفتَ انتباهِه واستجلابَ صفائِه، والتَّشوّفَ إلى اتساعِ مجاري الكلام[1] والحثَّ على التَّفكُّر والتَّدبُّر في خالق هذا الكون.

سِرُّ الافتتاح بالتَّوكيدِ بـ ﴿إِنَّ﴾:

مواطنُ الإنكارِ تَستدعي التَّوكيدَ

كانَ لِلتَّأكيدِ بحرفِ ﴿إِنَّ﴾ مَوْقِعُهُ لرَدِّ إنكارِ المُشركينَ انْفرادَ اللّه بالرُّبوبيَّةِ، وإذْ كانَ ما اشْتَمَلَتْ عليه هذه الآيَةُ يَزيدُ المُسْلِمينَ بَصيرَةً بِعِظَمِ مَجْدِ اللّه وسِعَةِ مُلْكِه، ويَزيدُهم ذِكْرى بِدَلائِلِ قُدْرَتِه، كانَ الخِطابُ صالحًا لِتَناوُلِ المُسْلِمينَ، لِصَلاحيَةِ ضميرِ الخِطابِ لذلك، ولا يكونُ حرفُ (إنَّ) بِالنِّسْبَةِ إليهم سُدًى، لِأَنَّهُ يُفيدُ الاهْتِمامَ بِالخَبَرِ، لِأَنَّ فيهِ حَظًّا لِلْفَريقَيْنِ[2].

والقَصدُ إلى تَنْزيلِ المُشركينَ مِنَ المُخاطَبينَ مَنزلَةَ مَن يَتَرَدَّدُ في كوْنِ اللّه رَبًّا لَهم لِكثْرَةِ إعْراضِهم عنه في عِباداتِهم وتَوَجُّهاتِهم، ويزيدُ المُسلِمينَ إيمانًا إلى إيمانهم[3].

دَلالةُ توكيدِ الخبرِ بـ ﴿إِنَّ﴾ واسميّةِ الجُملةِ:

مضمونُ حَدَثِ الخَلْقِ محطُّ العِنايةِ

تأْكيدُ الخبرِ بـ﴿إِنَّ﴾ واسميّةِ الجُملةِ، لِمَزيدِ الاعْتِناءِ بِمَضْمونِ الجُملةِ على ما هو الظّاهرُ، والدّوام على ذلك؛ أيْ إنَّ رَبَّكم ومالِكَ أمرِكمُ الَّذي تَعْجَبونَ مِن أنْ يُرْسِلَ إليكم رَجُلًا مِنكم بِالإنْذارِ والتَّبْشيرِ، وتَعُدّونَ ما أوْحَى إليه مِنَ الكِتابِ سِحْرًا[4]، والخبرُ مِنَ الحقائقِ العظيمةِ الَّتي يُناسِبُها فخامةُ البيانِ عنها[5].

سِرُّ تَكْرارِ التَّعبيرِ بلفظِ الرّبوبيّةِ:

مُنتهى الجُحودِ الانصرافُ عن خالقِ الكونِ ومُصرِّفِ الأمورِ

وتَكرار توحيدِ الرّبوبيّة - وهو انفرادُه تعالى بالخَلْق والتَّقدير

(1) المطعنيّ، التَّفسير البلاغيّ للاستفهام: 2/37.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/159.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/159.
(4) الآلوسيّ، روح المعاني: 6/62.
(5) المطعنيّ، التَّفسير البلاغي للاستفهام: 2/37.

والتَّدبير - ليس لإقناع المشركين بربوبيَّته تعالى فقط، بل أكثرُه لإقامة الحُجّةِ على بُطلان شِرك العبادةِ، والمعنى أنَّ الَّذي يُرَبّيكم ويُصلِحُ شأْنَكم ويوَصِّلُ إلَيْكُمُ الخَيْراتِ ويَدْفَعُ عَنْكُمُ المَكْروهاتِ، هو الَّذي بلغَ كمالَ قُدْرَتِه وعلْمِه وحِكمتِه ورحْمتِه إلى حَيْثُ خلقَ هذه الأشْياءَ العظيمَةَ، وأوْدعَ فيها أصْنافَ المَنافِعِ وأنْواعَ الخَيْراتِ، ومَن كانَ لَهُ مُرَبٍّ مَوْصوفٌ بهذه الحِكمَةِ والقُدرَةِ والرَّحمَةِ، فَكَيْفَ يَليقُ أنْ يَرْجِعَ إلى غَيْرِهِ في طَلَبِ الخَيْراتِ، أوْ يُعَوِّلَ عَلى غَيْرِهِ في تَحْصيلِ السَّعاداتِ؟[1].

وجْهُ إضافةِ الرّبوبيّةِ:

في الإضافَةِ دَقيقَةٌ لطيفةٌ؛ وذلك لأنَّهُ لم يَقُلْ: أنْتُم عَبيدُهُ، بَلْ قال: هو رَبُّكم، ودَقيقَةٌ أُخْرى وهي أنَّهُ تَعالى لَمّا نَسَبَ نفسَهُ إلَيْنا سَمّى نفسَهُ في هذه الحالَةِ بالرَّبِّ، وهو مُشْعِرٌ بالتَّرْبيَةِ وكَثْرَةِ الفَضْلِ والإحْسانِ، فَكَأنَّهُ يَقولُ مَن كانَ لَهُ مُرَبٍّ مع كَثْرَةِ هذه الرَّحْماتِ والأفَضالِ، فَكَيْفَ يَليقُ بِهِ أنْ يَشْتَغِلَ بِعِبادَةِ غَيْرِهِ؟[2].

لا يليقُ بالعبادِ الاشتغالُ بغيرِ عبادةِ موجِدِهم والمتفضِّلِ عليهم

نُكتةُ تأخيرِ لفْظِ الجلالةِ على المتُضايفيْن:

"جُعلَ المُخْبَرُ عنه الرَّبَّ، والخَبَرُ اسْمَ الجَلالَةِ؛ لأنَّ المعنى أنَّ الرَّبَّ لَكُمُ المَعْلومُ عِندكم هو الَّذي اسْمُهُ الدّالُّ عَلى ذاتِهِ: اللّه، لا غَيْرُهُ مِمَّنْ لَيْسَ له هذا الاسْمُ، على ما هو الشَّأْنُ، فَهي تَعْريفُ المُسْنَدِ في نَحْوِ: أنا أخوكَ. يُقالُ لِمَن يَعْرِفُ المُتَكَلِّم ويَعْرِفُ أنَّ لَهُ أخًا ولا يَعْرِفُ أنَّ المُتَكَلِّمَ هو أخوهُ، فالمَقْصودُ مِن تَعْريفِ المُسْنَدِ إفادَةُ ما يُسَمّى في المنطِقِ بِحَملِ المواطَأةِ، وهو حَملُ (هو هو)، ولذلك يُخَيَّرُ المتكَلِّمُ في جَعْلِ أحَدِ الجُزْأيْنِ مُسْنَدًا إليه، وجَعْلِ الآخَرِ مُسْنَدًا؛ لأنَّ كِلَيْهِما مَعْروفٌ عِنْدَ المُخاطَبِ، وإنَّما الشَّأْنُ أنْ يَجْعَلَ أقْواهُما مَعْرِفَةً عِنْدَ المُخاطَبِ هو المُسْنَدُ إليه، ليَكونَ الحَملُ أجْدى إفادَةً"[3].

ربُّ النّاسِ معلومٌ عندَهم مُتجلٍّ بعظمةِ ما أبدعَ مِن خَلْقٍ

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 14/258.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 14/258.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/160.

عِلّةُ وصْفِ لفظِ الجلالةِ بالاسمِ الموصولِ:

انفرادُه تعالى بالألوهيّةِ مَدعاةٌ لاستِحضارِ عَظَمةِ قُدْرَتِه

أفادَ المَوْصولُ ﴿ٱلَّذِى﴾ مع صِلَتِهِ بالإيماءِ، التَّذْكيرَ بِعَظيمِ صِفَةِ الخَلْقِ الَّذي عَمَّ السَّماواتِ والأرْضَ، وذلك أوْجَزُ لَفْظٍ في استِحضارِ عَظَمةِ قدرَةِ اللّه تعالى، وبديعِ تصرُّفه، وقوّةِ تمكّنِه، وانفرادِهِ بالإلَهيَّةِ[1].

وَجْهُ التَّعبيرِ عنِ الخَلْقِ بالماضي:

إفادةُ اليقينِ بوقوعِه، ورسوخِ تحقُّقه، وصدْقِ الوعد به

والقَصدُ من سَوقِ الخَلْقِ بصيغة الماضي، إفادةُ اليقينِ بوقوعِه، ورسوخِ تحقّقه، وصدْقِ الوعد به حتَّى كأنَّه قد وقع ومضى.

وجهُ جمعِ ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ بصيغة المؤَنّث:

تنوّعُ الأجرامِ من بديعِ الخلْقِ

إيثارُ جَمعِ السَّماواتِ لِما هو المَشْهورُ مِنَ الإيذانِ بأنَّها أجْرامٌ مُخْتَلِفَةُ الطِّباعِ، مُتَباينَةُ الآثارِ والأحْكامِ[2] متنوعةُ الأشكال، والأحجامِ، والهيئاتِ.

سِرُّ تقديمِ السَّماواتِ على الأرض:

السَّماواتُ أعظمُ خَلقًا منَ الأرض وأعجبُ

وتَقْديمُ السَّماواتِ عَلى الأرْضِ لكونها أعْظَمَ مِنها خَلْقًا، ولحملها من غير عَمَد، أوْ لِأنَّها جاريَةٌ مَجْرَى الفاعِلِ والأرْضَ جاريَةٌ مَجْرَى القابِلِ[3].

سِرُّ تحديدِ العددِ ﴿سِتَّةِ﴾:

الإحالةُ على معهودٍ يعرفُه المكلَّفُ والتَّلميحُ إلى أقلِّ الزَّمانِ

إنَّ المُرادَ مِنَ اليَوْمِ مَعْناهُ اللُّغَويُّ؛ وهو مُطْلَقُ الوقتِ. وقيلَ: هي مِقْدارُ سِتَّةِ أيّامٍ مِن أيّامِ الدُّنْيا وهو الأنْسَبُ بالمَقامِ[4]، وفي تَرْكِ تَعْجيلِ خَلْقِها في أقَلِّ الزَّمانِ مع قُدرَتِهِ عَلى ذلك أوْجُهٌ[5]، منها: الدَّلالَةُ عَلى القُدْرَةِ الباهِرَةِ بِخَلْقِ هذه الأجْرامِ العَظيمَةِ في مِثْلِ تلك المُدَّةِ اليَسيرَةِ[6]، ومنها: الإحالةُ على معهودٍ يَعرفُه المُكلَّفُ.

---

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 7/126.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 6/62.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 6/62.
(4) الآلوسيّ، روح المعاني: 6/62.
(5) الماورديّ، النّكت والعيون: 2/229.
(6) الآلوسيّ، روح المعاني: 6/62.

ومنها: ما قالَهُ سَعيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: "كانَ اللّه ﷻ قادِرًا على خلق السَّماواتِ والأرْضِ في لَمحَةٍ ولَحْظَةٍ، فَخَلَقَهُنَّ في سِتَّةِ أيّامٍ تَعْليمًا لِخَلْقِهِ التَّثَبُّتَ والتَّأنّيَ في الأُمورِ"[1]، وقد جاءَ في الحديثِ: «التَّأنّي مِنَ اللّه والعَجَلَةُ مِنَ الشَّيْطانِ»[2].

ومنها: أنَّ إنْشاءَها شَيْئًا بَعْدَ شَيْءٍ وحالًا بَعْدَ حالٍ أبْلَغُ في الحِكْمَةِ وأدَلُّ على صِحَّةِ التَّدْبيرِ ليَتَوالى مع الأوْقاتِ بِما يُنْشِئُهُ مِنَ المَخْلوقاتِ تَكْرارُ المَعْلومِ بِأنَّهُ عالِمٌ قادِرٌ يُصَرِّفُ الأُمورَ عَلى اخْتيارِهِ ويُجْريها عَلى مَشيئَتِهِ، وأنَّ ذلك لاعْتِبارِ المَلائِكةِ، خَلَقَ شَيْئًا بعدَ شَيْءٍ، وأنَّ ذلك تَرَتَّبَ على الأيّامِ: الأحدِ والاثْنَيْنِ والثُّلاثاءِ والأربعاءِ والخميسِ والجمعَةِ، وهي سِتَّةُ أيّامٍ فَأخْرَجَ الخَلْقَ فيها، قاله مُجاهِدٌ، أو ليُعَلِّمَنا بذلك الحِسابَ كُلَّهُ مِن سِتَّةٍ ومِنهُ يَتَفَرَّعُ سائِرُ العَددِ، قالَهُ ابْنُ بَحْرٍ[3].

بَلاغةُ الكِنايةِ في لفظِ العددِ ﴿سِتَّةِ﴾:

والحكمةُ من أنَّهُ ﷻ خَلَقَ السَّماواتِ والأرْضَ في مُدَّةٍ مُتَراخيَةٍ، وقيّدها وضَبَطَها بِالأيّامِ السِّتَّةِ؛ لأنَّهُ تعالى يَفْعَلُ ما يَشاءُ ويَحكُمُ ما يُريدُ، ولا اعْتِراضَ عليه في أمرٍ مِنَ الأُمورِ، وكُلُّ شَيْءٍ صُنْعُهُ ولا عِلَّةَ لِصُنْعِهِ[4].

هـذه المُـدَّةُ أقَـلُّ زَمَنٍ يَحْصُلُ فيهِ المُرادُ مِنَ التَّوَلُّدِ بِعَظيمِ القُدْرَةِ

والمَقْصود مِن كونِه ﷻ قادِرًا عَلى إيجادِ جَميعِ الأشْياءِ دُفْعَةً واحِدَةً، لَكِنَّهُ جَعَلَ لِكُلِّ شَيْءٍ حَدًّا مَحْدودًا ووَقْتًا مُقَدَّرًا، فَلا يُدْخِلُهُ في الوُجودِ إلّا على ذلك الوَجْهِ[5].

---

(1) البَغَويّ، معالم التّنزيل: 2/197.

(2) أبو يَعلى، المُسنَد: الحديث رقم: (4256)، والخرائطيّ، مكارم الأخلاق، الحديث رقم: (686)، والبَيْهقي، السُّنن الكبرى: الحديث رقم: (20270)، والألبانيّ، صحيح الجامع: (3011)، وقال: حسن.

(3) الماورديّ، النُّكت والعيون: 2/229.

(4) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 14/257.

(5) ابن عادل، اللُّباب في علوم الكتاب: 9/142.

وليَكونَ هذا الخَلْقُ مَظْهَرًا لِصِفَتَيْ عِلْمِ اللّه تعالى وقُدْرَتِه، فالقُدْرَةُ صالِحَةٌ لِخَلْقِها دُفْعَةً، لَكِنَّ العِلمَ والحِكمَةَ اقتضيا هذا التَّدَرُّجَ، وكانَتْ تلك المُدَّةُ أقَلَّ زَمَنٍ يَحْصُلُ فيهِ المُرادُ مِنَ التَّوَلُّدِ بِعَظيمِ القُدْرَةِ، ولَعَلَّ تَكَرُّرَ ذِكْرِ هذه الأيّامِ في عددٍ منَ السّوَرِ؛ لِقَصْدِ التَّنْبيهِ على هذه النُّكتَةِ البَديعةِ، مِن كَوْنِها مَظْهَرَ سَعَةِ العِلْمِ وسَعَةِ القُدْرَةِ[1].

فائدةُ تخصيصِ المعدودِ بالأيّام:

أشارَ بالأيّامِ إلى المقاديرِ المعلومةِ عندَ النّاسِ فيما يَعدّونَه من حِسابِ الأعوامِ

"ظاهِرُ الآياتِ أنَّ الأيّامَ هي المعروفَةُ لِلنّاسِ، الَّتي هي جَمعُ اليَوْمِ الَّذي هو مُدَّةٌ تُقَدَّرُ مِن مَبْدَأ ظُهورِ الشَّمس في المَشْرِقِ إلى ظُهورِها في ذلك المَكانِ ثانيَةً، وعلى هذا التَّفْسيرِ فالتَّقديرُ فيما يُماثِلُ تلك المُدَّةَ ستَّ مَرّاتٍ؛ لِأنَّ حقيقَةَ اليومِ بهذا المعنى لم تَتَحَقَّقْ إلّا بعدَ تَمامِ خَلْقِ السَّماءِ والأرْضِ؛ ليُمكِنَ ظُهورُ نورِ الشَّمس على نِصْفِ الكُرَةِ الأرْضيَّةِ وظُهورُ الظُّلْمَةِ على ذلك النِّصْفِ إلى ظُهورِ الشَّمس مَرَّةً ثانيَةً، ونُقِلَ عنْ زَيْدِ بنِ أرْقَمَ واخْتارَهُ النَّقّاشُ: أنَّ الأيّامَ هُنا جَمعُ اليَوْمِ مِن أيّامِ اللّه تعالى الَّذي هو مُدَّةُ ألْفِ سَنَةٍ، فَستَّةُ أيّامٍ عِبارَةٌ عَنْ ستَّةِ آلافٍ مِنَ السِّنينَ فيما يَعدُّه النّاسُ من حساب الأعوام؛ نَظَرًا إلى قوله تَعالى: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ۝٤٧﴾ [الحج: 47] وقوله: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ۝٥﴾ [السجدة: 5]، وما هو ببَعيدٍ، وإنْ كانَ مُخالِفًا لِما في التَّوْراةِ. وقيلَ المُرادُ: في ستَّةِ أوْقاتٍ، فَإنَّ اليَوْمَ يُطْلَقُ عَلى الوَقْتِ، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ﴾ [الأنفال: 16]، أيْ: حينَ إذْ يَلْقاهم زَحْفًا، ومَقْصودُ هذا القائِلِ أنَّ السَّماواتِ والأرْضَ خُلِقَتْ عالَمًا بَعْدَ عالَمٍ، ولَم يَشْتَرِكْ جميعُها في أوْقاتِ تَكْوينِها، وأيًّا ما كانَ فالأيّامُ مُرادٌ بِها مَقاديرُ لا الأيّامُ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/161.

الَّتي واحِدُها يَوْمٌ الَّذي هو مِن طُلوعِ الشَّمس إلى غُروبِها؛ إذْ لم تَكُنْ شَمسٌ في بَعْضِ تلك المُدَّةِ، والتَّعَمُّقُ في البَحْثِ في هذا خُروجٌ عنْ غَرَضِ القُرْآنِ"[1].

دَلالةُ العطْفِ بـ﴿ثُمَّ﴾:

بيانُ ما هو أعْظَمُ مِن خَلْقِ السَّماواتِ والأرْضِ، وإبْطالُ مقالةِ أنَّ الله اسْتَراحَ في اليَوْمِ السّابِعِ

دَلَّتْ ﴿ثُمَّ﴾ في قوله ﷻ: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ عَلى التَّراخي الرُّتْبيِّ[2] في عَطفِ المفرَدِ على المفرَدِ، والجُملَةِ عَلى الجُملَةِ، وهي مُهْلَةٌ تَخْييليَّةٌ في الأصْلِ، تُشيرُ إلى أنَّ المَعْطوفَ بِثُمَّ أعْرَقُ في المعنى الَّذي تَتضمَّنُهُ الجُملَةُ المَعْطوفُ عليها حتّى كَأنَّ العَقْلَ يَتَمَهَّلُ في الوُصولِ إليه بَعْدَ الكلامِ الأوَّلِ فَيَنْتَبِهُ السّامِعُ لذلك كَيْ لا يَغْفُلَ عَنْهُ بِما سمعَ منَ الكلامِ السّابِقِ، وشاعَ هذا الاسْتِعْمالُ حَتّى صارَ كالحقيقَةِ[3]، والمُرادُ بيانُ ما هو أعْظَمُ مِن خَلْقِ السَّماواتِ والأرْضِ من حيث عظَمَةُ استوائِه عَلى العَرْشِ؛ تَنْبيهًا عَلى أنَّ خَلْقَ السَّماواتِ والأرْضِ لم يُحْدِثْ تَغْييرًا في تَصَرُّفاتِ اللّه بزيادةٍ ولا نقصانٍ، ولذلك ذُكِرَ الاسْتِواءُ على العَرْشِ عَقِبَ ذِكْرِ خَلْقِ السَّماواتِ والأرْضِ في آياتٍ كَثيرَةٍ، ولَعَلَّ المَقْصِدَ مِن ذَلِكَ إبْطالُ ما يَقولُه اليَهودُ: إنَّ اللّه اسْتَراحَ في اليومِ السّابِعِ؛ فهو كالمَقْصِدِ مِن قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾﴾ [ق: 37][4].

التَّعبيرُ عنِ الاستواءِ بصيغةِ الماضي:

تحقّقَ الخلْقُ تامًّا كامِلًا مُتقَنًا

ولمّا كان خلقهُ السّماواتِ والأرضَ مع استوائه، أمرًا قضاه ﷻ بحَسَبِ ظاهرِ الحسِّ، سيقَ معنى الاستواء والخلْقِ بصيغة الماضي الدّالِّ على التّحقُّقِ على وجه التّمامِ، والكمالِ، والإتقانِ.

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/162.
(2) ويُسَمّى ذَلِكَ بِالتَّرْتيبِ الرُّتْبيِّ وبِتَرْتيبِ الإخْبارِ.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/382.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8/166.

إيثارُ حرفِ العلّيّة:

يكونُ استواؤُه تعالى بعُلوِّه، وغلبتِه، وعظمتِه وتأكيدِ أنّه هو المالكُ المُتصرِّفُ في كلِّ شيءٍ

سيقتِ العلّيّةُ للدِّلالة على العلوّ وبَيانِ حِكْمَةِ اسْتِوائِهِ ﷻ على العَرْشِ وتَقْريرِ عَظَمتِهِ. واخْتِصارُ القَوْلِ في الآيةِ ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ أنْ يَكونَ اسْتَوى بِقَهْرِهِ وغَلَبَتِهِ[1] وصفةُ الاستواء الَّتي ثبتت للّه تعالى في القرآن الكريم في سبع آيات، صفةٌ فِعليَّةٌ تدلُّ على عُلوِّ اللّه وسُموِّه وقهْرِه وسلطانِه على خلْقِه. والحكمةُ في هذه الآيات هي إظهارُ تميُّزِ اللّه عن مخلوقاتِه، وتنْزيهُه عنِ الشُّبهات والأوهام، وتأكيدُ أنَّه هو المالك المُتصرِّف في كلِّ شيء، وأن لا شيءَ يُعجزُه أو يحولُ بينه وبين مشيئتِه.

دَلالةُ تعريفِ العَرْش، ونوعُ (أل):

العرشُ أعظمُ خلقِ اللّه، وأكبرُها حجمًا، وأشرفُها مَكانةً

القولُ المشهورُ لجمهورِ المُفَسِّرينَ: أنَّ المُرادَ مِنَ العَرْشِ المَذكورِ في هذه الآيَةِ: الجِسْمُ العَظيمُ الَّذي في السَّماءِ؛ فَـ(أَلْ) في العَرشِ عهديّةٌ[2] تُشير إلى ذاك الجسم الَّذي وصفَه تعالى بالعَظَمة في قوله: ﴿رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ١٢٩﴾ [التوبة: 129].

والعرش هو أعظمُ خلْقِ اللّه، وأكبرُها حجمًا، وأشرفُها مكانةً، فإذا أخبرَ اللّه عنِ استوائه على العرش، فدلَّ ذلك على أنَّ كلَّ شيء دونَ العرش أدنَى منه، وأنَّ كلَّ شيءٍ خاضعٌ لأمر اللّه، ومُسخَّرٌ لحكمتِه.

تَوجيهُ الاستواءِ على العرشِ بين الحقيقةِ والمجاز:

وجْهُ الحقيقةِ المعنى الأصليُّ، ووجْهُ المجازِ الملكُ والسُّلطانُ

الاستواءُ على العرش فيه تأويلان:

الأول: الحَملُ على المُرادِ الحقيقيِّ؛ وهو إجراؤه على مُقتَضَى ما ورَدَ على أصلِ المَعْنى الَّذي أرادَهُ سُبْحانَهُ؛ والوَجْهِ الَّذي عَناهُ مُنَزَّهًا عنِ الاسْتِقْرارِ والتَّمَكُّنِ، دون تَأويلٍ أو صرْفٍ عنِ الظّاهرِ؛ على

(1) ابن عطيّة، المُحرَّر الوجيز: 3/104.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 17/192.

معنى أنَّ كفَّ الكيْفِ مَشْلولَةٌ، وفي هذا ورد قولُ غيرِ واحدٍ من أئمةِ أهلِ السُّنَّة في جهالة الكيفيَّةِ، كقولِ الإمام مالك: الاستِواءُ معلومٌ، والكيفيَّةُ مجهولةٌ، والسُّؤالُ عنه بدعةٌ، والإيمانُ به واجبٌ[1].

الثّاني: الاسْتِواءُ عَلى العَرْشِ مجازٌ عنِ المُلْكِ والسُّلْطانِ مُتفرِّعٌ عنِ الكِنايَةِ فيمَن يَجوزُ عليه القُعودُ على السَّريرِ، يُقالُ: اسْتَوى فُلانٌ على سريرِ المُلْكِ ويُرادُ مِنهُ مَلَكَ وإنْ لم يَقْعُدْ عَلى السَّريرِ أصْلًا[2].

تَوجيهُ البَلاغيِّين بأنّه: كنايةٌ، أوِ استعارةٌ تمثيليّةٌ:

الله تعالى باسطٌ نفوذَه على جميعِ الكائناتِ

مذهبُ جمهورِ البلاغيِّين أنَّ الاستواء على العرش إمّا كنايةٌ عن بسطِ نفوذِه ﷻ على جميع الكائنات، ولا يقدحُ في هذا أنَّ الكنايةَ يَصِحُّ معها إرادةُ المعنى الحقيقيِّ للَّفظِ، وهي الجلوسُ الحِسيّ؛ لأنَّهم يقولون: إنَّ إرادةَ المعنى الحقيقيّ مع المعنى الكنائيّ جائزةٌ لا واجبةٌ، فإذا ترتَّب على تلك الإرادة محظورٌ عقلًا أو شرعًا أو هما معنىً، امتنعت تلكَ الإرادةُ كما في هذه الكناية (استوى على العرش)[3]، والاستواءُ على العرش لا يعني التمكُّنَ منه، أوِ الحاجةَ إليه، بل يعني التَّقديرَ والإرادةَ والسَّيطرةَ، بلا كيفيَّة أو تشبيهٍ. قال الإمامُ أبو حنيفةَ رحمه الله: "نُقِرُّ بأنَّ الله تعالى على العَرْشِ استوى، من غيرِ أن يكونَ له حاجةٌ"[4].

فهي استعارةٌ تمثيليَّةٌ شُبِّهت فيها الهيئةُ المعنويَّةُ الحاصلةُ من خُضوعِ الكائنات لقضاء الله وقَدَرِه ونُفوذِ أمرِه حسبما أراد بالهيئةِ الحِسِّيَّة الحاصلةِ من تمكُّنِ السَّلاطين منَ الجلوس على كراسي الحُكم وطاعةِ النّاس لهم[5].

(1) المطعنيّ، التَّفسير البلاغيّ للاستفهام: 2/37.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 6/62.
(3) المطعنيّ، التَّفسير البلاغيّ للاستفهام: 2/38.
(4) البابرتيّ، شرح وصية الإمام أبي حنيفة، ص: 87.
(5) المطعنيّ، التَّفسير البلاغيّ للاستفهام: 2/38.

بَلاغةُ الاستئنافِ الابتدائيِّ في: ﴿يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَۖ﴾:

الله تعالى القاضي والمُدبِّرُ الَّذي يُلجأُ ويُفرُّ إليه في كُلِّ وقتٍ

قولُه ﷻ: ﴿يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَۖ﴾ استئنافٌ ابتدائيٌّ للتَّرقّي في كمال الرُّتبِ الإلهيةِ، يعني يَقضي القضاءَ وينظرُ في تَدبير الخَلق، فالمؤمِنُ إذا تحقَّق عُلوَّه تعالى المُطلَقَ على كُلِّ شَيءٍ بذاتِه، وأنَّه ليس فوقَه شيءٌ البتَّةَ، وأنَّه ظاهِرٌ فوق عِبادِه يدَبِّرُ الأمرَ مِنَ السَّماءِ إلى الأرضِ، ثمَّ توجَّه إليه، فقد جمع قَلْبَه على المعبودِ، فيلجأُ إليه ويفِرُّ في كُلِّ وقتٍ إليه[1].

وجْهُ التّعبيرِ عنِ التّدبيرِ بصيغةِ المضارعِ:

حاجةُ المخلوقِ للتّدبيرِ عِلّةُ دوامِهِ

إيثارُ صيغَةِ المُضارِعِ في قوله ﷻ للدَّلالَةِ على تَجَدُّدِ التَّدبيرِ واستِمرارِهِ[2]؛ لأنَّ التّدبيرَ أمرٌ يحتاجُ إليه المخلوقُ على الدَّوام، سُنّةَ اللّه فيمَنْ خلقَ.

دَلالة لفظِ ﴿ٱلۡأَمۡرَۖ﴾:

الأمرُ التّقديريُّ شاملٌ بمقتَضى الحكمةِ

المُرادُ بالأمرِ أمرُ الكائِناتِ كلِّها عُلْويِّها وسُفْليِّها[3]، و(أل) في (الأمر) الَّتي تُفيد الاستغراقَ الشّامِلَ[4]، وليس المرادُ بالأمر في الآية ما يُقابلُ النَّهيَ؛ بلِ الشَّأنُ الَّذي يُرادُ به أحوالُ الخلْق وأحوالُ مَلكوتِ السَّماواتِ والأرضِ والعرشِ. والمعنى: أنَّه يَقْضي ويُقدِّرُ بمُقتضَى الحكمةِ، ويفعلُ ما يفعله المصيبُ في أفعاله النّاظرُ في أدبار الأُمورِ وعواقبِها لئلا يدخلَ في الوجود ما لا ينبغي، ولا يشغلُه شأنٌ عن شأنٍ[5]، فهي صفةٌ للّه ﷻ، كما قال في مُحكَم تنزيله: ﴿أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُۗ﴾ [الأعراف: 54]. قال ابنُ تيميةَ رحمه اللّه: "أمّا ما كان صِفةً لا تقومُ بنَفسِها ولم يُذكَرْ لها مَحلٌّ غيرُ اللّه، كان صِفةً له، فكالقولِ

(1) ابن القيّم، طريق الهجرتين، ص: 20.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 6/63.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 6/63.
(4) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 2/38.
(5) الصاويّ، حاشيته على تفسير الجلالين: 2/85.

والعِلم، و(الأمرُ) إذا أُريد به المصدرُ، كان المصدرُ مِن هذا البابِ، كقَولِه تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [الأعراف: 54]"[1].

إيثار لفظِ الأمرِ على غيرِه كالشَّأنِ:

الأمرُ لفظٌ يدلُّ على العُمومِ

تدلُّ لفظةُ الأمر على العمومِ، لاحتمالها أكثرَ من معنىً كالفعل، والنَّماءِ والبركةِ، والعلامةِ، ووردت في القرآن الكريم دالّةً على الدّين، والحسابِ، والذَّنب، والوَعد وغيرها، في حين تدلُّ لفظةُ الشَّأنِ على الحال والأمرِ الَّذي يتَّفق ويَصلُحُ، ولا يُقال إلّا فيما يَعظُم منَ الأحوال والأمور[2].

بَلاغةُ الاستعارةِ التَّبعيّةِ: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾:

التَّدبيرُ أوْفى الألفاظِ اللُّغويَّةِ بِتَقْريبِ إتْقانِ الخَلْقِ، فالله تعالى مُحيطٌ علْمًا بمبادئِ الأُمورِ وعواقِبِها

في جُملَةِ ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾ استعارةٌ تبعيةٌ للتَّرقِّي في كمال الرُّتبِ الإلهيَّةِ؛ لأنَّ التَّدبيرَ هو النَّظرُ في عواقب الأمور فاستُعيرَ للعِلمِ بها، أي أنَّ الله تعالى مُحيطٌ علْمًا بمبادئ الأُمورِ وعواقِبِها[3]، ويَجوزُ أن يكونَ استعارةُ التَّدبير للإتقان والإحكام، بل هذا أَوْلى لاشتماله على العلْم بها، وفيه إيماءٌ بأنَّه سُبحانه يُراعي المصالحَ تفضُّلًا وإحسانًا[4].

والحاصِلُ: تدبيرُ الله الأُمورَ عبارةٌ عنْ تمامِ العِلمِ بِما يَخْلُقُها عليه؛ لِأنَّ لفظَ التَّدْبيرِ هو أوْفى الألْفاظِ اللُّغويَّةِ بِتقريبِ إتْقانِ الخَلْقِ[5].

تَوجيهُ النَّفي بـ﴿مَا﴾:

استغراقُ نفيِ الشَّفاعةِ، فلا تحصلُ لأحدٍ مهما بلغَ إلّا بإذن الله

تحريرُ سَوْقِ النَّفْيِ بـ﴿مَا﴾ بَعْدَ أنْ وُصِفَ الإلَهُ الحَقُّ بِما هو مُنْتَفٍ عَنْ آلِهَتِهِم، نُفيَ عَنْ آلِهَتِهِم وصْفُ الشَّفاعَةِ عند الله وحمايةُ

(1) ابن تيمية، شرح العقيدة الأصفهانيّة، ص: 114.
(2) الرّاغب، المفردات: (شأن).
(3) المطعنيّ، التَّفسير البلاغيّ للاستفهام: 2/38.
(4) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 4/220.
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/87.

المَغْضوبِ عليهم منه[1]. والنَّفيُ بالحرف الدّالِّ على الإبهام والعمومِ استغراقٌ لنفْيِ الشّفاعة عن أيّ أحدٍ مهما بلغ شَأْوُه إلا بإذنه.

فائدةُ توسيطِ ﴿مِن﴾:

دخلت ﴿مِن﴾ على ﴿شَفِيعٍ﴾ لاستغراق النَّفْيِ؛ بَيانًا لتفرّده ﷻ في التَّدْبيرِ والتَّقْديرِ، ونَفْيًا لِلشَّفاعةِ على أبْلَغِ وجْهٍ؛ فإنَّ نَفْيَ جميعِ أفرادِ الشَّفيعِ بـ﴿مِن﴾ الاسْتِغْراقيَّةِ يَسْتَلْزِمُ نَفْيَ الشَّفاعَةِ على أتَمِّ الوُجوهِ[2]، فلا حاجَةَ إلى أنْ يُقالَ: التَّقْديرُ ما مِن شَفاعَةٍ لِشَفيعٍ؛ وفي ذلك أيضًا تَقْريرٌ لِعَظَمَتِه، وتفرّدِه سُبْحانَهُ إثْرَ تَقْريرٍ[3].

نفت (مِن) الشَّفاعَةَ على أتَمِّ الوُجوهِ، وأبلغِها

بَراعةُ تنكيرِ ﴿شَفِيعٍ﴾، وتنوينِه:

نُكّر لفظُ (الشّفيع)؛ للدّلالةِ على استغراق النَّفْيِ كلَّ مَنْ يُظنُّ فيه إمكانُ الشَّفاعة من ملك، أو رسولٍ، أو نبيٍّ، أو غيرِهم إلا مَن يُحْبى بهذا الفضل، وهذه المنزلةِ.

استغرقَ النَّفْيُ كلَّ شفيعٍ

فائدةُ التَّعبيرِ عنِ الشَّفاعة بصيغة (فَعيل):

تدلّ صيغة (فَعيل) على الاتِّصاف بالصِّفة على وجْهِ الثُّبوت، ورسوخِها في صاحبها، والتصاقِها به بدون فِكاكٍ، وليس في ظرفٍ مُعيَّنٍ، ومن هنا فنفيُها نفيٌ للصِّفة والموصوف على وجْهِ المبالغةِ.

نفيُ الموصوفِ بهذه الصِّفةِ على وجْهِ الثُّبوتِ والمبالغةِ

بَلاغةُ الكنايةِ في نفْيِ الشَّفيعِ:

نَفيُ (الشَّفيع) بصيغةِ "فَعيل" كنايةٌ عن نفْيِ الشَّفاعةِ، حيث توُصِّل بنفْيِ السَّببِ إلى نَفْيِ المُسبَّب[4]، وهو كنايةٌ عن تفرُّدِه في التَّصرُّفِ كما يُريدُ، ونَفْيِ أن يكونَ لشفيعٍ شيءٌ إلّا إذا أذِنَ اللّه ﷻ.

تفرُّدُ اللهِ سُبحانَه في التَّصرُّفِ كما يُريدُ

بَلاغةُ الاستثناءِ المُفرّغِ:

الاسْتِثْناءُ في قوله ﷻ: ﴿إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ إِذۡنِهِۦۚ﴾ مُفَرَّغٌ مِن أعَمِّ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/88.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/119.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 6/63.
(4) المطعنيّ، التَّفسير البلاغيّ للاستفهام: 2/39.

الأوْقاتِ، أيْ: ما مِن شَفيعٍ يَشْفَعُ لِأحَدٍ في وقْتٍ مِنَ الأوْقاتِ، إلّا بَعْدَ إذْنِهِ تَعالى المَبْنيِّ على الحِكْمَةِ الباهِرَةِ، وذلك عند كوْنِ الشَّفيعِ مِنَ المُصْطَفَيْنَ الأخْيارِ، والمَشْفوعِ لَهُ مِمَّنْ يَليقُ بِالشَّفاعةِ[1].

لا شفاعةَ لأحدٍ في كلّ وقتٍ وحينٍ من دونِ إذنِه سُبحانه

دَلالةُ لفظِ الإذْنِ:

يَدُلُّ لفظُ "الإذنِ" على تَقْريرِ لِعَظَمتِهِ سُبحانَه تعالى وعِزِّ جَلالِه، ورَدٍّ على مَن زَعَمَ أنَّ آلِهَتَهم تَشْفَعُ لَهم عند اللّه[2]، وإشارةٍ إلى أنّ الكونَ محكومٌ بسُلطانه تعالى[3].

هذا الكونُ محكومٌ بسُلطانِه سُبحانَه

بَلاغةُ الكنايةِ في جملةِ ﴿مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ إِذۡنِهِۦۚ﴾:

في قوله تعالى: ﴿مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ إِذۡنِهِۦۚ﴾ كنايةٌ عن تفرُّدِه في التَّصرُّفِ كما يُريدُ، ونَفيٌ أن يكونَ لشفيعٍ رأيٌ، أو تصرّفٌ، أو مبادرةٌ إلّا إذا أذِنَ اللّه ﷻ[4].

تفرّدُ اللهِ سُبحانَه بالتَّصرُّفِ المُطلقِ يومَ القيامةِ

بَلاغةُ الفَصْلِ في: ﴿ذَٰلِكُمُ﴾:

وجُملةُ ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ﴾ ابْتِدائيَّةٌ، فَذْلَكَةٌ لِلجُمَلِ الَّتي قبْلَها ونَتيجَةٌ لها، وهي مُعْتَرِضَةٌ بَيْنَ تلك الجُمَلِ وبَيْنَ الجُملَةِ المُفَرَّعَةِ عليها، وهي جُملَةُ ﴿فَٱعۡبُدُوهُۚ﴾، وتَأْكيدٌ لِمَضْمونِ الجُملَةِ الأصْليَّةِ وهي جُملَةُ ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ﴾[5].

تأكيدُ مطلعِ الآيةِ بجُملةِ الاعتراضِ

سِرُّ اصْطفاءِ اسمِ الاشارةِ الدّالِّ على البعيدِ مجموعًا:

والمتتبِّعُ لآياتِ اللّه تعالى يُلاحظُ أنَّ الإشارةَ تَقترنُ بحرفِ الكاف، ويكونُ الخِطابُ للنَّبيّ ﷺ ولأُمَّته بالتَّبعِ، وضميرُ الجَمعِ كما في هذا النَّص ﴿ذَٰلِكُمُ﴾، يكونُ إمّا للنّاس أجمعين، وإمّا للنَّبي ﷺ وأمَّتِه ابتداءً. وهذا الخطابُ للنّاس أجمعين[6].

الإشارةُ إلى المعلومِ بالعَظَمةِ، المُميَّزِ بعالي المراتبِ

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 6/63.
(2) القاسميّ، محاسن التأويل: 6/6.
(3) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 7/3512.
(4) المطعنيّ، التَّفسير البلاغيّ للاستفهام: 2/39.
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/88.
(6) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 7/3513.

إيقاظُ الوَسْنانِ بما يُشيرُ إلى عظمةِ الرَّحمان

كما أنَّ الإتْيانَ في صَدْرِ الآية ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ﴾ باسْمِ الإشارَةِ للبعيد، لِتَمييزِهِ أكْمَلَ تَمييزٍ؛ لِأنَّهُمُ امتَرَوْا في صِفَةِ الإلَهيَّةِ وضَلّوا فيها ضلالًا مُبينًا، فكانوا أحْرياءَ بالإيقاظِ بطَريقِ اسْمِ الإشارَةِ[1]. ﴿ذَٰلِكُمُ﴾ إشارَةٌ إلى المعلومِ بتلك العَظَمةِ، أيْ: العَظيمُ الشَّأْنِ العالي المَراتِبِ[2].

الإشارةُ إلى خالِقِ العَوالِمِ بِغايَةِ الإتْقانِ والمَقْدِرَةِ ومالِكِ أمرِها

ولِلتَّنْبيهِ على أنَّ المُشارَ إليه حَقيقٌ بما سَيُذْكَرُ بعْدَ اسْمِ الإشارَةِ مِن حيثُ إنَّهُ اتَّصَفَ بتلك الأوْصافِ الَّتي أُشيرَ إليه مِن أجْلِها، فَإنَّ خالِقَ العوالِمِ بِغايَةِ الإتْقانِ والمَقْدِرَةِ ومالكَ أمرِها ومُدَبِّرَ شُئونِها والمُتَصَرِّفَ المُطْلَقَ مُسْتَحِقٌّ لِلْعِبادَةِ[3].

إظهارُ لفظِ الجلالةِ:

أعلَمَ برِفعةِ شأنِه سُبحانَه وفخامةِ قدرِه

إظهارُ لفظِ الجَلالة للإعلام برِفعةِ شأنه، وعُلوِّ مقامه، وفخامةِ قدرِه ﷻ، والتَّمهيدِ للأمرِ بالعبادةِ في قوله: ﴿فَٱعْبُدُوهُ﴾[4].

تَكرارُ لفظِ الرّبوبيّةِ:

بالغَ في التَّذكيرِ وزادَ في التَّقريرِ بتَكرارِ لفظِ الرُّبوبيّةِ

في تَكْرارِ لَفظِ الرُّبوبيّة لِزيادةِ التَّقْريرِ والمبالغةِ في التَّذْكير، ولتفريعِ الأمرِ بالعِبادَةِ عليه بقوله تعالى: ﴿فَٱعْبُدُوهُ﴾[5]، ولِلتَّنْبيهِ على أنَّ المُشارَ إليه حَقيقٌ بما سيُذْكَرُ بعد اسْمِ الإشارَةِ مِن حيثُ إنَّهُ اتَّصَفَ بتلك الأوْصافِ الَّتي أُشيرَ إليه مِن أجْلِها، فَإنَّ خالِقَ العوالِمِ بِغايَةِ الإتْقانِ والمَقْدِرَةِ ومالِكَ أمرِها ومُدَبِّرَ شُئونِها والمُتَصَرِّفَ المُطْلَقَ مُسْتَحِقٌّ لِلْعِبادَةِ[6].

تخصيصُ الرُّبوبيّةِ بالنّاسِ:

الإشارةُ إلى أنَّه النّاظرُ في مَصالِحِكم، وهو الَّذي ربّاكُم، ونمّاكُم، ونشّأكُم

تعليقُ الرُّبوبيّة بالنّاسِ؛ للدّلالَةِ على أنّه ﷻ رَبُّكُمْ ولا ربَّ لكم

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/88.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 9/70.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/12.
(4) المطعنيّ، التَّفسير البلاغيّ للاستفهام: 2/39.
(5) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/119.
(6) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/88 - 89.

سواه، النّاظِرُ في مَصالِحِكم، وهو الَّذي ربّاكم، ونمّاكم، ونشَّأكم، وخلقكم لتعبدوه[1].

بَلاغةُ الفَذْلكة: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ﴾:

وفُرِّعَ على كوْنِهِ رَبَّهم أنْ أُمِروا بِعِبادَتِهِ، والمُفَرَّعُ هو المَقْصودُ مِنَ الجُملَةِ وما قَبْلَهُ مُؤَكِّدٌ لِجُملَةِ ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ﴾ تَأْكيدًا بِفَذْلَكَةٍ وتَحْصيلٍ، والتَّقْديرُ: إنَّ رَبَّكُمُ اللّه إلى قوله: ﴿فَٱعْبُدُوهُ﴾[2].

الـقـصـدُ إلى العبوديّةِ بلوازمِ كوْنِه ربَّهم

دَلالةُ الفاء:

الفاء لترتيب ما بعدَها على ما قَبلها؛ فَهيَ للإيحاءِ بوجوبِ فوريّةِ الطّاعَةِ والانقيادِ للّه ﷻ، أي أنَّه يُعبدُ لأنَّه اللّه المُنْشِئُ ﷻ؛ ولأنَّه ربُّ الوجود ولا يُعبدُ إلّا وحدَه؛ على معنى: فاعبدوه عبادةً تقتضي بُطلانَ الشَّريك[3].

طـاعـةُ الـلـه فوريَّةُ السّعي، والإقـبـالُ عليه انقيادٌ

بَراعةُ التّعبيرِ عنِ العبوديّة بصيغة الأمرِ:

وإذا فُرِّعَ الأمرُ المَذكورُ على لفظةِ ﴿رَبَّكُمُ﴾، أفادَ الأمرَ بعبادتِهِ سُبحانه وحدَه، أيْ: فاعْبُدوهُ سُبحانه مِن غَيْرِ أنْ تُشْرِكوا بِهِ شيئًا مِن مَلَكٍ أوْ نَبيٍّ فَضْلًا عَنْ جَمادٍ لا يُبْصِرُ، ولا يَسْمَعُ، ولا يَضُرُّ، ولا يَنْفَعُ، ولَيْسَ الدّاعي لهذا الحَملِ أنَّ أصْلَ العِبادَةِ ثابِتٌ لَهم فَيُحْمَلُ الأمرُ بها على ذلك ليُفيدَ لِما قيلَ مِن أنَّ الخِطابَ لِلْمُشْرِكينَ ولا عبادةَ مع الشِّرْكِ[4].

لا شريكَ لأحدٍ مـع الـلـه في العبادةِ والطّاعةِ

إسنادُ الأمرِ إلى الضَّميرِ دونَ الظّاهرِ:

أُسند الأمرُ إلى الضَّمير دونَ الظّاهر جريًا على معهود الكلام العربيِّ المُقتضِي أنَّ الاسمَ إذا ذُكر أولًا، فلا يُعادُ ثانيةً، وإنَّما يُذكرُ مُضْمَرًا؛ استغناءً بما سبق.

المُسارعةُ إلى التَّعبُّد بدلالةِ المُضْمَراتِ وتأكيدِ المعهوداتِ

(1) المقدّم، تفسير القرآن الكريم: 4/81.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/88 - 89.
(3) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 2/39.
(4) الآلوسيّ، روح المعاني: 6/63.

والشّاهد أنّه قد تقدَّم اسمُ الجلالة في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ﴾، ولوَّحت جُملُ العطف بمعلوميّةِ الضَّمير في جملةِ ﴿فَٱعۡبُدُوهُۚ﴾، والقصدُ إلى المسارعة إلى إفرادِه بالعبوديَّة وتعظيمِه[1] ظاهرًا وباطنًا.

بَلاغةُ الاستفهامِ الاستنكاريِّ في جُملة الفاصلةِ:

أنكرَ عليهم انتفاءَ تذكُّرِهم تفرُّدَهُ بالألوهيّةِ

جملةُ ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ ابتدائيَّةٌ سِيقَت لِلتَّقْريع؛ فالاستفْهامُ إنْكارٌ لانْتِفاءِ تَذَكُّرِهِم؛ إذْ أشْرَكوا معه غيرَهُ ولَم يَتَذَكَّروا أنَّهُ المُنْفَرِدُ بِخَلْقِ العَوالِمِ وبِمُلْكِها وبِتَدْبيرِ أحْوالِها[2].

نُكتةُ التَّعبيرِ بصيغةِ (التّفعُّل):

دَلالةُ التّفعُّلِ على التّكلُّفِ في إيقاعِ الفعلِ، وإنفاذِه

التَّذَكُّرُ: التَّأمُّلُ. وهو بهذه الصّيغَةِ لا يُطْلَقُ إلّا على ذِكْرِ العَقْلِ لِمَعْقولاتِهِ، أيْ حركَتِه في معلوماتِهِ[3] على معنى: أنَّ التَّذَكُّرَ لَمّا كانَ مُشْتَقًّا مِن مادَّةِ الذِّكْرِ الَّتي هي في الأصْلِ جَرَيانُ اللَّفْظِ عَلى اللِّسانِ، والَّتي يُعَبَّرُ بها أيْضًا عَنْ خُطورِ المعلومِ في الذِّهْنِ بَعْدَ سَهْوِهِ وغَيْبَتِهِ عَنْهُ، كانَ مُشْعِرًا بِأنَّهُ حَرَكَةُ الذِّهْنِ في مَعْلوماتٍ مُتَقَرِّرَةٍ في النُّفوسِ مِن قَبْلُ فِطْرَةً[4]. والتّعبيرُ بصيغة التّفعّل في قوله تعالى: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾؛ للدّلالةِ على التّكلّفِ في إيقاع الفعل، وإنفاذِه لما في الاتّعاظِ والدَّوامِ عليه من مشقّة، وكدٍّ يتأتّى بالتّكلّف بالقيام بالفعل.

إيثارُ لفْظِ التّذكُّر على التّفكّرِ:

الاتّعاظُ فعلٌ لاحقٌ للتّفكّرِ في آياتِ الله

وإيثارُ ﴿تَذَكَّرُونَ﴾ على تَتَفَكَّرونَ لِلْإيذانِ[5] بِظُهورِ الأمرِ وجَلاءِ ما ذُكرَ منَ الدَّلائلِ الباهرةِ من آلاءِ اللّه وبَراهينِه السّاطعةِ على جَلالِه، وحُججِ كمالِه وحكمَتِه، وآياتِ قدرتِه المعلومةِ الَّتي تحتاج إلى

(1) المطعنيّ، التَّفسير البلاغيّ للاستفهام: 2/39.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/89.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/89.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/89.
(5) الآلوسيّ، روح المعاني: 6/63.

الاتّعاظ بها، والاعتبارِ بعد تدبُّر حكمتِه منها والتّفكّرِ فيها. فالتّذكّر هنا مرحلةٌ لاحقةٌ للتّفكّر في الآيات، والبراهين والحُججِ؛ فلا اتّعاظَ إلا بعد تدبّرٍ وتفكّرٍ.

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

التّذكّرُ، والتّفكّرُ، والتّدبّرُ:

التَّدبُّر: النَّظرُ في عواقب الأمور، وهو قريبٌ منَ التَّفكُّر؛ إلّا أنَّ التَّفكُّرَ تصرُّفُ القلب بالنَّظر في الدَّليل، والتَّدبُّر تصرّفُه بالنّظر في العواقب[1].

تردُّدُ القلبِ على الدّليلِ تفكُّرا، والعواقبِ تدبُّرًا، والاعتبارِ تذكُّرًا

التَّذكُّر هو مَقْصود التَّفكُّر وثمرتُه، فإذا تذكَّر عاد بتذكُّره على تفكُّره فاستخرج ما لم يكن حاصِلًا عِنْده، فهو لا يزال يُكَرّرُ بتفكُّره على تذكُّره وبتذكُّره على تفكُّره ما دامَ عاقِلًا؛ لأنَّ العلم والإرادةَ لا يقفان على حدٍّ، بل هو دائِمًا سائِرٌ بين العلم والإرادة[2].

قال الحسن: "ما زال أهل العلم يعودون بالتَّذكُّر على التَّفكُّر، وبالتَّفكُّر على التَّذكُّر ويناطقون القلوبَ حتى نطقت، فإذا لها أسماعٌ وأبصارٌ"[3].

(1) الجُرجانيّ، التّعريفات، ص: 54.
(2) ابن القيِّم، مفتاح دار السّعادة: 1/214.
(3) ابن القيِّم، مفتاح دار السّعادة: 1/213.

﴿إِلَيۡهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗاۖ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقًّاۚ إِنَّهُۥ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلۡقِسۡطِۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمۡ شَرَابٞ مِّنۡ حَمِيمٖ وَعَذَابٌ أَلِيمُۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡفُرُونَ ٤﴾ [يونس: 4]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

بعد الحُكمِ القَدَريّ، والدِّينيّ ذَكَرَ الحكمَ الجزائيَّ

لَمّا ذَكَرَ الحقُّ ﷻ حُكْمَهُ القَدَريَّ وهو التَّدبيرُ العامُّ، وحُكْمَهُ الدّينيَّ وهو شَرْعُه، الَّذي مَضمونُه ومقصودُه عبادتُه وحدَه لا شريكَ له، ذَكر الحُكْمَ الجزائيَّ، وهو مُجازاتُه على الأعمالِ بعد الموت، فقال: ﴿إِلَيۡهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗاۖ﴾[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مَرۡجِعُكُمۡ﴾: أصلُ الرُّجوع: "العَوْد إلى مكانٍ منه البَدْء، وسواء كان مكانًا أو قولًا أو فعلًا. وسواء كان العَودُ بذاته أو بجزءٍ من أجزائه أو بفعلٍ من أفعاله"[2]. تَقولُ: رَجَعَ يَرْجِعُ رُجوعًا، إذا عادَ[3]، والمَرْجِعُ: مَصدَرٌ ميميٌّ بمعْنَى الرُّجوعِ وهو العَودُ إلى الشَّيءِ، ومعْنَى الرُّجوعِ إلى الله: الرُّجوعُ إلى وقْتِ نَفاذِ حُكْمِه المُباشِرِ فيهم، ويجوزُ أن يكونَ المَرجِعُ كنايةً عنِ المَوتِ[4]. والمقصودُ في الآية: معادُكم إلى الله تعالى.

2) ﴿يَبۡدَؤُاْ﴾: أصلُ (بدأ) يدلُّ على افْتِتاحِ الشَّيءِ، يُقالُ: بَدأتُ بالأمرِ وابْتَدَأْتُ، مِنَ الابْتِداءِ، والله تعالى المُبْدِئُ والبادِئُ[5]، وهو

(1) السَّعديّ، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 357.
(2) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحُفّاظ، والزَّبيدي، تاج العروس: (رجع).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (رجع).
(4) الواحديّ، التَّفسير البسيط: 11/257، والتَّحرير والتَّنوير: 11/223.
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (بدأ).

الَّذي أنْشأ الأشْياءَ واخْتَرعها ابْتِداءً مِنْ غير سابِقِ مثالٍ[1]، ويُقالُ "للسَّيِّدِ البَدْءُ"؛ لأنَّهُ يُبْدَأُ بذِكْرِهِ. وبدا الشَّيءُ يَبْدو بَدْوًا وبُدوًّا: ظَهَرَ. وأبْدَيتُه أنا: أظهرتُه[2].

والمرادُ بالبَدْء في الآية: الفِعلُ الَّذي لم يَسْبِقْ مُماثِله، فاللّه يبدأُ إيجادَ الخَلْق.

3) ﴿ٱلۡخَلۡقَ﴾: الخَلْقُ أصلُه: تَقْديرُ الشَّيءِ[3]، والخَلْقُ في كلام العَرَبِ على وجهين: ابتداعُ الشَّيء على مثالٍ لم يُسبقْ إليه[4]، والآخرُ: التَّقديرُ، تقولُ: خَلق اللّه الشَّيءَ يَخلُقه خَلْقًا: أحدثَه بَعْدَ أن لم يَكُنْ، والخَلْقُ يَكونُ المَصْدَرَ ويَكونُ المَخْلوقَ[5]. ومن صِفات اللّه: الخالِقُ والخلّاقُ، ولا تجوزُ هذه الصِّفة بالألف واللّام لغير اللّه ﷻ[6]. وتقولُ العَرَبُ: خَلَقْتُ الأديمَ: إذا قَدَّرتَه وقِستَه لتقطع منه مزادَةً، أو قربةً، أو خُفًّا[7]. والمقصودُ بالخَلْقِ في الآية: التَّقديرُ، أي: إيجادُ الأشياء بتقديرٍ ونظامٍ لا جُزافًا.

4) ﴿بِٱلۡقِسۡطِۚ﴾: أصلُ (قسط): يَدُلُّ على مَعْنَيَيْنِ مُتَضادَّيْنِ والبِناءُ واحِدٌ، فالقِسْطُ: العَدْلُ، يُقالُ: أقْسَطَ الرَّجُلُ يُقْسِطُ فهو مُقسِطٌ، أي: عَدَلَ[8]. وأما القَسْطُ - بِفَتْحِ القافِ - فهو: الجَورُ والظُّلْمُ، وقَسَطَ إذا جارَ وظَلَمَ فهو قاسِطٌ، والقُسوطُ: العُدولُ عنِ الحَقِّ. يُقالُ: قَسَطَ؛ إذا جارَ، يَقْسِطُ قَسْطًا[9]، ويأْتي القِسْطُ بمعْنَى الحِصَّةِ والنَّصيبِ، وجَمعُهُ: أقْساطٌ، تَقولُ: تَقَسَّطوا الشَّيْءَ بَيْنَهُم، أي: تَقاسَموهُ[10]. والقِسْطاسُ: الميزانُ[11]، والقُسوطُ: المَيْلُ عن الحَقِّ[12]. والمقصودُ بالقِسْط في الآية: العَدْلُ، وهو التَّسْويَةُ بين شَيئَيْن في صِفَةٍ والجَزاءُ بما يُساوي المُجْزَى عليه[13].

(1) ابن الأثير، النّهاية: (بدأ).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (بدأ).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (خلق).
(4) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، والرّاغب، المفردات، والسّمين، عُمدة الحُفّاظ: (خلق).
(5) ابن منظور، لسان العرب: (خلق).
(6) الخليل، العين: (خلق).
(7) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (خلق).
(8) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (قسط).
(9) ابن الأنباريّ، الأضداد، ص: 58، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (قسط).
(10) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (قسط).
(11) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (قسط).
(12) الخليل، العين، وابن عبّاد، المحيط في اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (قسط).
(13) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/92.

5) ﴿حَمِيمٍ﴾: أصلُ (حمّ): يَدلُّ على الحرارةِ، وعلى معانٍ أُخرى مُتفاوِتَةٍ، فالحَميمُ الماءُ الحارُّ. والاسْتِحمامُ: الاغتِسالُ به. والحَميمُ: العَرَقُ[1]؛ وسُمّيَ الحمّامَ حمّامًا، إمّا لأنَّه يُعرِّق، وإمّا لما فيه منَ الماء الحارّ[2]، والحَميمُ إن شِئْتَ كان ماءً حارًّا، وإن شِئْتَ كانَ جَمرًا تَتبخَّرُ به[3]. والحَميمُ: القَيْظُ[4]، وهو أيضًا الماءُ البارِدُ؛ قال الأزهريُّ: فالحَميم عند ابنِ الأعرابيِّ مِنَ الأضداد، يكونُ الماءَ البارِدَ ويكونُ الماءَ الحارَّ[5]. والحَميمَةُ: الماءُ يُسَخَّنُ على النّارِ[6]، والمُرادُ بالحَميمِ في الآية: الذّائب الشَّديد الحَرِّ مِنَ النّار.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

تقريرُ عقيدةِ البعْثِ والجزاءِ في الدّارِ الآخرةِ

يُخبر اللّه تعالى أنَّ إليه وحْدَه مرجعَ الخلائق جميعًا، يومَ تَخرُجونَ مِن قُبورِكم أحياءً يومَ القيامةِ، وعَدكم اللّه وعدًا حَقًّا لا يُخلَفُ، إنَّ اللّه يبدأُ إنشاءَ الخَلْقِ، وإيجادَه مِنَ العَدَمِ، ثمَّ يعيدُه بعدَ مَوتِه، ويُحييه يومَ القيامةِ كما بدأه أوَّلَ مرَّةٍ؛ ليُثيبَ المُؤمِنينَ الَّذين عَمِلوا ما أمَرَهم اللّه به، وترَكَوا ما نهاهُم عنه، بالعَدلِ، وهو مجازاتُهم على الحَسَنِ مِن أعمالِهم، الحَسَنَ مِن الثَّوابِ في الآخرةِ، وللكُفّار في الآخرةِ ماءٌ قد أُغليَ، وبلَغَت حرارتُه الغايةَ، يَشوي الوجوهَ ويُقطِّع الأمعاءَ، ولهم أيضًا عذابٌ موجِعٌ؛ وذلك كلُّه بسبَبِ كُفرِهم في الدُّنيا[7].

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حمّ).
(2) الرّاغب، المفردات: (حم).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (حم).
(4) الجوهريّ، الصّحاح: (حم).
(5) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (حم - حمم).
(6) ابن عبّاد، المحيط في اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (حم - حمم).
(7) ابن جرير، جامع البيان: 12/117، 118، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 8/309، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/248، والسّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 358.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بَلاغةُ الفصْلِ في الآيةِ:

بين الجُملتَين شِبْه كمالِ الاتِّصالِ

قولُه تعالى: ﴿إِنَّهُۥ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾، يشيرُ إلى أنَّ بَدْء الخَلْقِ هو ما سَبَقَ ذِكْرُهُ، وإعادَتُهُ هي ما أفادَهُ قوله: ﴿إِلَيۡهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗاۖ﴾، ولذلك فُصِلَتْ عَنِ الَّتي قَبْلَها لِما بَيْنَهُما مِنْ شِبْهِ كمالِ الاتِّصالِ، على أنَّها يَجوزُ كَوْنُها خَبَرًا آخَرَ عَنْ قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ﴾، أوْ عنْ قوله: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ﴾، وقد تَضَمَّنَتْ هذه الجُملَةُ إثْباتَ الحَشْرِ الَّذي أنْكَروهُ وكَذَّبوا النَّبيَّ ﷺ لِأجْلِهِ[1].

دَلالةُ حرفِ (إلى):

مرجعُكم إلى حَيْثُ المُجازاة، فلا حاكِمَ سِوَى الله

إنَّ كَلِمَةَ (إلى) لِانْتِهاءِ الغايَةِ[2]، والمُرادُ مِنْها: أنَّ مَرْجِعَهُم إلى حَيْثُ لا حاكِمَ سِواهُ، أو أنْ يَكونَ المُرادُ: أنَّ مَرْجِعَهُم إلى حَيْثُ حَصَلَ الوَعْدُ فيهِ بِالمُجازاةِ. و﴿إِلَيۡهِ﴾ لا إلى أحدٍ سواهُ استقلالًا أوِ اشتراكًا[3].

بَلاغةُ تقديمِ الخبرِ شبْهِ الجملةِ:

المرجعُ إلى الله يومَ القيامةِ لا إلى أحدٍ سِواه

تَقْديمُ المَجْرورِ في قوله تعالى: ﴿إِلَيۡهِ مَرۡجِعُكُمۡ﴾؛ لإفادة القصْرِ، لكونِه المختصَّ بهذا الحدثِ دونَ غيرِه، أي: إليه وحدَه المرجعُ والمآبُ كما أنَّه وحده الخالقُ المُنشئُ؛ فالمرجعُ إليه وحدَه، قَطْعًا لِمطامِعِ بعضِهم القائلينَ في آلِهَتِهم ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ﴾ [يونس: 18]، يُريدونَ أنَّهُم شُفَعاءُ على تَسْليمِ وقوعِ البعثِ لِلْجَزاءِ، فإذا كان الرُّجوعُ إليه لا إلى غَيْرِهِ كان حَقيقًا بِالعِبادَةِ وكانَتْ عِبادَةُ غَيْرِهِ باطِلًا[4].

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/90.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 17/204.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/119.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/90.

إيثارُ صيغةِ المصدَر الميميِّ (مَفْعِل):

ناسبَ بقوّةِ التَّعبيرِ وزيادةِ مبناه عِظَمَ حدَثِ الرُّجوعِ إلى الله

صيغة المصدرِ الميميِّ يُؤتَى بها في الكلام لأنَّها تفوقُ صيغةَ المصدر الأصليِّ في "قوة الدِّلالَة وتأكيدِها"[1]، فإنِ استدعى السِّياق مزيدًا منَ التَّأكيد لجأ المتكلِّمُ إلى المصدرِ الميميِّ لتحقيق هذه الغايةِ[2]، ومن هنا فالتَّعبيرُ بـ(المرجع) في الآية قصدٌ إلى التَّذكير بأنَّ مرجعَ الجميع إليه سُبحانه[3]، وذلكم مَظنّةُ شدّةِ التَّعبير؛ ليُناسبَ عِظَمَ حدثِ الرُّجوع الى الله تعالى يوم البعث، والمصيرِ إليه في ذلك اليوم الَّذي يتجلّى فيه كمالُ القدرة، وتمامُ التّصرُّف بالإحياء بعد الإماتة، والرُّجوعِ إليه فعبَّر بقوة الرُّجوع؛ لأنَّ المصدرَ الميميَّ أبلغُ من جهة زيادة المبنى.

ويُرادُ بالمرجعِ نهايةُ الرّجوعِ

والمرجعُ: محلُّ الرّجوع، ومكانُه، أي: المكان الَّذي يعود إليه الخارجُ منه بعد أن يُفارقَه[4]، فهو بمعنى نهاية الرّجوعِ، وانتهاءِ أمرهم بالمصيرِ إليه سُبحانه يومَ القيامة.

إضافةُ المرجعِ إلى الضميرِ:

الخطابُ بصيغةِ الإضافةِ إلى ضمائرِهم تذكيرٌ لهم بحدَثِ الرُّجوعِ إليه

القصدُ منَ الإضافة إلى ضمير الجمعِ هاهنا وفي جميع مواضعِ ورودِ لفظ (المرجع) أنّه إلى الله وحْدَه مَرجِعُكم أنتم جميعًا - أيُّها النّاسُ - يومَ تَخرُجونَ مِن قُبورِكم أحياءً يومَ القيامةِ. فتوجيهُ الخطاب إليهم بصيغةِ الإضافةِ إلى ضمائرِهم تذكيرٌ لهم بهذا اليومِ، وذلكمُ الحدَثِ وهو ما لا يؤدّيه لفظُ المرجع مُستقلًّا عنِ الإضافة.

بَلاغةُ التَّوكيدِ بـ﴿جَمِيعًا﴾:

قولُه تعالى: ﴿جَمِيعًا﴾ حالٌ مِنْ ضَميرِ المُخاطَبينَ المُضافِ إليه

(1) عباس حسن، النحو الوافي: 3/236.

(2) إيهاب سلامة، قرينة السِّياق ودورها في التقعيد النحويّ والتوجيه الإعرابيّ في كتاب سيبويه، ص: 339.

(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/12، ويُنظر: 1/214.

(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 23/126.

المَصْدَرُ العامِلُ فيهِ[1] فإنّه حالٌ منَ الضَّميرِ المجرورِ لكونه فاعلًا في المعنى؛ أي: إليه رجوعُكم مُجتمِعين، والجملةُ كالتَّعليل لوجوب العبادةِ[2]، وقد ذُكرت ﴿جَمِيعًاۖ﴾ لبيان عموم مَنْ يُعيدُهم سُبحانه، فسيعود إليه البَرُّ والفاجرُ والمطيعُ والعاصي والمُفسِدُ والمصلحُ[3] وفيه توكيدٌ لمدلول القصْر، واختصاصِ الرُّجوع إليه لا إلى غيره.

اختصاصُ الرُّجوعِ إلى اللهِ، فلا يُستثنَى أحدٌ منَ العودة إليه

فائدةُ التَّعبيرِ بالمفعولِ المُطلقِ ﴿وَعۡدَ﴾:

قوله تعالى: ﴿وَعۡدَ ٱللَّهِ﴾ مَنْصوبٌ على مَعْنَى: وعَدَكُمُ اللّه وعْدًا؛ لأنَّ قوله: ﴿إِلَيۡهِ مَرۡجِعُكُمۡ﴾ معناه: الوعْدُ بالرُّجوعِ، فعلى هذا التَّقْديرِ يكونُ قوله: ﴿وَعۡدَ ٱللَّهِ﴾ مَصْدَرًا مُؤَكِّدًا لقوله: ﴿إِلَيۡهِ مَرۡجِعُكُمۡ﴾، وقوله: ﴿حَقًّاۚ﴾ مَصْدَرًا مُؤَكِّدًا لقوله: ﴿وَعۡدَ ٱللَّهِ﴾؛ فهذه التَّأكيداتُ قدِ اجْتَمَعَتْ في هذا الحُكْمِ، إذْ لَما أخْبَرَ ﷻ عنْ وُقوعِ الحَشْرِ والنَّشْرِ، ذكرَ بعده ما يدُلُّ على كونِهِ في نَفْسِهِ مُمكِنَ الوُجودِ ثُمَّ ذكرَ بعده ما يدُلُّ على وُقوعِهِ[4].

توكيدُ الرُّجوعِ إلى اللهِ، وهو مضمونُ الجملةِ المساويةِ للوَعْدِ

وانْتَصَبَ ﴿وَعۡدَ ٱللَّهِ﴾ على المَفْعوليَّةِ المُطْلَقَةِ تَوْكيدًا لِمَضْمونِ الجُملَةِ المُساويَةِ له ﴿إِلَيۡهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعًاۖ﴾، ويُسمَّى موكّدًا لِنفسِهِ في اصْطِلاحِ النُّحاةِ؛ لأنَّ مَضْمونَ ﴿إِلَيۡهِ مَرۡجِعُكُمۡ﴾ الوَعْدُ بإرْجاعِهم إليه، وهو مُفادُ وعْدِ اللّه، ويُقَدَّرُ له عامِلٌ مَحْذوفٌ؛ لأنَّ الجُملَةَ المُؤَكِّدَةَ لا تَصْلُحُ لِلْعَمَلِ فيهِ[5]، وحاصلُ التَّقْديرُ: وعَدَكُمُ اللّه وعْدًا حَقًّا.

عِلّةُ تعريفِ الوعْدِ بالإضافةِ إلى لفظِ الجلالةِ:

لَمّا ذكرَ ما يَقتَضي التَّذكيرَ، وهو كونُ مَرجِعِ الجميعِ إليه ﷻ، أكَّد

البعثُ وعْدٌ منه تعالى لا مِرْيَةَ فيه

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/90.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/119.
(3) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 7/3514.
(4) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 17/204.
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/90 - 91.

هذا الإخبارَ بالإضافة إلى اسمه الأعظم؛ للدَّلالةِ بأنَّ البعثَ وعْدٌ مِنهُ تَعالى لا مِريةَ فيه، ولا شكَّ في صِدْقِه[1]، فالوعدُ منه صادقٌ، عظيمُ الشّأن، بالغُ الأهميَّة؛ فناسبَ الإضافةَ والإظهارَ.

فائدةُ التَّوكيدِ بالمصدرِ الصَّريحِ ﴿حَقًّاۚ﴾:

عِظَمُ يومِ البعثِ، والقولُ بإنكارِه مَظنّةُ حشْدِ التَّوكيداتِ

وانْتُصِبَ ﴿حَقًّاۚ﴾ على المَفعوليَّةِ المُطْلَقَةِ المُؤَكِّدَةِ لِمَضْمونِ جُملَةِ ﴿وَعۡدَ ٱللَّهِ﴾؛ باعْتِبارِ الفِعْلِ المَحْذوفِ. ويُسَمَّى في اصْطِلاحِ النُّحاةِ مُؤَكِّدًا لِغَيْرِه، أيْ: مُؤَكِّدًا لِأحَدِ مَعْنَيَيْنِ تَحْتَمِلُهُما الجُملَةُ المُؤَكَّدَةُ[2]، فهو مصدرٌ آخرُ مؤكِّدٌ لما دلَّ عليه الأوّل[3]، أيْ: وعَدَ اللّه ذلك وعْدًا وحَقَّقَهُ حَقًّا صِدْقًا لا خُلْفَ فيه، ولا مِرْيةَ، ولا شكَّ[4].

دَلالةُ جملةِ الاستئنافِ ﴿إِنَّهُۥ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ﴾:

التَّعليلُ بالاستئنافِ في بدْءِ الخلْقِ وإعادتِه غايةٌ لجزاءِ المكلَّفين على أعمالِهم

واستأنَفَ الإخبارَ بقَولِه جلَّ في علاه: ﴿إِنَّهُۥ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ﴾، وهو استئنافٌ مَعناه التَّعليلُ بابتِداءِ الخَلْقِ وإعادَتِه، أي: كالتَّعليل لِما أفادَه ﴿إِلَيۡهِ مَرۡجِعُكُمۡ﴾ وأنَّ الغرَضَ ومُقتَضى الحِكمةِ بذلك هو جَزاءُ المكلَّفينَ على أعمالِهم[5]، فإنَّ غايةَ البَدْءِ والإعادة هو الجزاءُ بما يليقُ[6].

تَوجيهُ التَّوكيدِ بـ(إنَّ):

ناسبَ التّوكيدَ شدّةُ إنكارِهمُ البعثَ

ومَوْقِعُ (إنَّ) تَأْكيدُ الخَبَرِ نَظَرًا إلى إنْكارِهِمُ البَعْثَ، فَحَصَلَ التَّأْكيدُ مِنْ قوله: ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾. أما كونُهُ بَدَأ الخَلْقَ فلا يُنْكِرونَهُ[7].

عِلةُ التَّعبيرِ عنِ البَدْءِ والإعادةِ بالمضارعِ:

التَّصويرُ بالمضارعِ شأنُ البَدءِ والإعادةِ

قولُه تعالى: ﴿إِنَّهُۥ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ بَيانٌ لِمُتَعَلِّقِ الوعْدِ

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 6/64.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/91.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/119.
(4) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 8/308.
(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/12.
(6) الكشّاف، الزّمخشريّ: 2/328، والآلوسيّ، روح المعاني: 6/64.
(7) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/91.

المُؤَكَّدِ مَرَّتَيْنِ بِدَليلِه، أيْ: إنَّ شأْنَهُ تَعالى أنْ يَبْدَأَ الخَلْقَ ويُنْشِئَهُ عند التَّكْوينِ، ثُمَّ يُعيدَهُ في نَشْأةٍ أُخْرَى بعد انْحِلالِهِ وفنائِهِ، فالتَّعْبيرُ بِفِعْلِ المُسْتَقْبَلِ ﴿يَبْدَؤُاْ﴾ لِتَصْويرِ الشَّأْنِ، وهو يشْملُ الماضيَ والمُسْتَقْبَلَ[1].

وقولُه: ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ استئنافٌ عُلِّل به وجوبُ المرجعِ إليه ﷻ؛ فإنّ غايةَ البدءِ والإعادةِ هو جزاءُ المكلّفين بأعمالِهم حسنةً كانت أو سيئةً[2].

دَلالةُ تعريفِ الخلْقِ:

سيقَ لفظُ ﴿ٱلْخَلْقَ﴾ على مُقتضَى العُمومِ؛ عمومِ الأنواعِ: تقديرًا وإيجادًا، وعمومِ آحادٍ، فيستغرقُ المخلوقاتِ المعلوماتِ في الأزلِ كافّةً، والموجوداتِ في الشَّهادة.

إفادةُ مُقتضَى العُمومِ إذِ استغرقَ لفظُ الخلْقِ المخلوقاتِ كافَّةً

إيثارُ لفظِ الخَلْق:

أُطلقَ المصدرُ هنا بمعنى: اسم المفعول؛ لأنَّ الخَلْق هنا بمعنى: المخلوق؛ إذِ اللّه هو الَّذي يبدأُ إيجادَ الخلقِ ثم يعيدُه بعد الموت، فيوجدُه حيًّا كهيئتِه الأولى[3]، والخَلْقُ أصلُه مصدرٌ، فلم يُجمَع، ومعناه: الجمعُ، فلذلك وحَّدَ الضَّمير بعدَه[4].

لَفْظُ الخَلْقِ عامٌّ يُرادُ بِهِ الخاصُّ وهو مَن يَحيا بعْدَ موتِه

ولفْظُ الخَلْقِ عامٌّ يُرادُ بِهِ الخاصُّ أوَّلًا وبالذاتِ، بدَليلِ ما قَبْلَهُ وما بَعْدَهُ مِنَ السِّياقِ، وقد أجمعَ عُلَماءُ الكوْنِ المادِّيُّونَ مِنْهُم والرُّوحيُّونَ على أنَّ الأرْضَ وجَميعَ الأجْرامِ السَّماويَّةِ، ما يُرَى مِنْها بالأبْصارِ والآلاتِ المُقَرِّبَةِ لِلْأبْعادِ وما لا يُرَى، كُلُّها قد وُجِدَتْ بَعْدَ أنْ لم تَكُنْ. وإنْ كانوا لا يَزالونَ يَبْحَثونَ في نَشْأةِ تَكْوينِها والقوَّةِ الأزَليَّةِ المُتَصَرِّفَةِ في أصْلِ مادَّتِها، كما أنَّهُم مُتَّفِقونَ على تَوَقُّعِ خَرابِ هذه الأرْضِ والكواكِبِ المُرْتَبِطَةِ معها في هذا النِّظامِ الشَّمسيِّ الجامِعِ

(1) رشيد رضا، تفسير المنار: 11/244.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/119.
(3) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 12/163.
(4) النّسفيّ، التّيسير في التَّفسير: 8/16.

لَها، على أنَّ أقْرَبَ الأسْبابِ الموافِقَةِ لِأُصولِ العِلْمِ الثابِتَةِ أنْ تُصيبَ الأرْضَ قارِعَةٌ مِنَ الأجْرامِ السَّماوِيَّةِ فَتَبُسُّها بَسًّا، حَتَّى تَكونَ هَباءً مُنْبَثًّا، كَما تُشيرُ إليه سورَةُ القارِعَةِ والواقِعَةِ وغَيْرُهُما[1].

بَلاغةُ الإضمارِ في: ﴿إِنَّهُۥ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ﴾:

استُغنيَ بالمذْكور اقتصادًا، وللدّلالةِ عليه

في هذه الآيَةِ إضْمارٌ، كَأنَّهُ قيلَ: إنَّهُ يَبْدَأُ الخَلْقَ ليَأْمُرَهُم بالعِبادَةِ، ثُمَّ يُميتُهُم ثُمَّ يُعيدُهُم، كما قال في سورَةِ البَقَرَةِ: ﴿كَيۡفَ تَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمۡ أَمۡوَٰتٗا فَأَحۡيَٰكُمۡۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يُحۡيِيكُمۡ﴾ [البَقَرَة: 28] إلا أنَّهُ تَعالى حَذَفَ ذِكْرَ الأمرِ بالعِبادَةِ هاهُنا، لِأجْلِ أنَّهُ تَعالى قال قَبْلَ هذه الآيَةِ: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ﴾؛ فحَذَفَ ذِكْرَ الإماتَةِ؛ لِأنَّ ذِكْرَ الإعادَةِ يَدُلُّ عَلَيْها[2].

وجهُ العطْفِ بـ﴿ثُمَّ﴾:

مناسبةُ الدَّلالةِ على التَّراخي الزَّمنيِّ في إعادةِ الخلْقِ بعد إفنائِه

قولُه تعالى: ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾، أي: يوجِدُه حيًّا كهيئته يومَ ابتدأه، بعد فنائه وبَلائِه[3]، فالإعادةُ ليست بدءَ الخلق فقط بل بعد بدئِه، وإهلاكِه؛ إذ معنى الإعادة وجودٌ ثانٍ لما وُجدَ أوّلًا بعد فنائِه، فتدلُّ الإعادةُ على الإفناء، والإهلاكِ اقتضاءً؛ إذ هو اللّازمُ المُتقدّمُ لها[4]، فناسبَ ذلك اصطفاءَ الحرف الدّالِّ على التّراخي الزّمنيّ، لا الفورِ والآنِ.

بَلاغةُ الطِّباق بين البدْءِ والإعادةِ:

في استدعاءِ الطِّباقِ ردٌّ على المُنْكِرين البعثَ

إنَّ بين البَّدءِ والإعادةِ طِباقَ إيجابٍ؛ فيكونُ البدءُ، وتكونُ الإعادة؛ بل هي الأهونُ عليه زيادةً في كمال الفعل والتَّباعدِ في أصله، كما ورد في سياقٍ آخرَ في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهۡوَنُ عَلَيۡهِۚ وَلَهُ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٢٧﴾ [الرّوم: 27][5]. وفي الطِّباقِ ردٌّ على المُشركينَ الّذين

(1) رشيد رضا، تفسير المنار: 11/244.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 17/205.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 15/20.
(4) ابن التّمجيد، حاشية على البيضاويّ: 9/391.
(5) السَّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 357.

أنكَروا البَعثَ، حيث احتَجَّ اللّه عليهم بالنَّشأةِ الأولَى؛ بأنَّ القادِرَ على ابتداءِ الخَلقِ قادِرٌ على إعادتِه، والّذي يرى ابتداءَه بالخَلقِ، ثمَّ يُنكِرُ إعادتَه للخَلقِ، فهو فاقِدُ العَقلِ مُنكِرٌ لأحَدِ المِثْلَينِ، مع إثباتِ ما هو أَوْلى منه، فهذا دليلٌ عَقليٌّ واضحٌ على المَعادِ[1].

دَلالةُ اللّامِ في ﴿لِيَجۡزِيَ﴾:

تعليلُ الرُّجوعِ إلى اللّه المَلِكِ فوعدُه ثابتٌ لا يَتبدَّلُ

أفادتِ اللّامُ في ﴿لِيَجۡزِيَ﴾ التَّعليلَ، أي: تعليلَ الرُّجوعِ إلى اللّه المَلِكِ الحقِّ والإعادةِ بعد البدءِ، وفي التَّعليلِ بيانُ الغايةِ والمآبِ، وتحقيقُ وعدِ اللّه تعالى الحقِّ الثّابت الَّذي لا يتغيَّر ولا يتبدَّل، وقد ذكرَ الإيمانَ والأعمالَ الصّالحةَ، كشأن بيانِ اللّه تعالى عند ذِكر الثَّوابِ، ولم يذكرْ ﷻ الجنَّةَ والنَّعيمَ المقيم، ولكنْ ذَكَر ما يتضمَّنها وزيادةً؛ فقال اللّه تعالى: ﴿بِٱلۡقِسۡطِۚ﴾ أي: الجزاء بالقسط، فهو عدلٌ منَ اللّه تعالى، وعدلُه وفضلُه يوجِبان الجنّةَ وما فيها[2]، وهذا تَعْليلٌ لِلْإعادَةِ، أيْ يُعيدُهُ لِأجْلِ جَزائِهِم[3].

سِرُّ التَّعبيرِ بالموصولِ ﴿ٱلَّذِينَ﴾:

الإشارةُ إلى عُمومِ المؤمنين

قولُه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ﴾ صيغةُ عموم، فيدخلُ تحتَها جميعُ المؤمنين، أي: كلُّ مؤمنٍ منَ المؤمنين الّذين يعملون الصّالحاتِ[4] وكلُّ مَن اتَّصف بالإيمان بعد الكُفر على الإطلاق من أيِّ طائفةٍ كان، وفي أيِّ وقتٍ كان[5].

بَلاغةُ التَّعبيرِ بالماضي: ﴿ءَامَنُواْ﴾ عنِ المؤمنين:

تحقيقُ وقوعِ جزائِهم، وتعجيلُ البِشارةِ لهم

جاء التَّعبير بصيغة الماضي لتحقيقِ الوقوع، وتعجيلِ البِشارة[6]، أي: لجعْلِ المتوقَّعِ الَّذي لابدّ من وقوعه بمنزلةِ الواقعِ[7].

---

(1) الواحديّ، التَّفسير البسيط: 11/122.
(2) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 7/3514.
(3) رشيد رضا، تفسير المنار: 11/245.
(4) المقدّم، تفسير القرآن الكريم: 4/112.
(5) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/190.
(6) طنطاويّ، التَّفسير الوسيط: 7/548.
(7) القزوينيّ، الإيضاح في علوم البلاغة: 2/96.

نُكتةُ تقديمِ ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ على ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾:

قُدِّمَ أهلُ الإيمان لتأنيسِهم وإكرامِهم بأنَّ جَزاءَهم قدِ استحَقّوه بما عَمِلوا، وليتبَيَّنَ ما يقَعُ بالكافرينَ مِنَ العذابِ الأليم، ففَصَلَهم منَ المُؤمِنينَ؛ ليُبَيِّنَ ما يَجزيهم به ممّا هو عدلٌ غيرُ جَورٍ[1]، فالإيمانُ سبيلُ عملِ الصّالحات، وعلّةٌ أصيلةٌ في تحقّقِها، والحاصلُ: أنَّ تقديمَ الإيمانِ على الأعمالِ وإفرادَه تشريفٌ[2]، وتبجيلٌ، وتوقيرٌ.

التَّشريفُ لهم، فالإيمانُ سبيلُ عملِ الصّالحات، وعِلَّةٌ أصيلةٌ في تحقُّقِها

ويشيرُ أيضًا إلى أنَّ جَزاءَهُم قَدِ اسْتَحَقُّوهُ بِما عَمِلوا، كقوله: ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٣٢﴾ [النَّحل: 32]. ومِنْ أعظَمِ الكَرَمِ أنْ يوهِمَ الكَريمُ أنَّ ما تَفَضَّلَ بِهِ على المُكَرَّمِ هو حَقُّهُ وأنْ لا فَضْلَ له فيه[3].

أعْظَمُ الكَرَمِ أنْ يوهِمَ الكَريمُ أنَّ ما تَفَضَّلَ بِهِ على المُكَرَّمِ هوَ حَقُّهُ وأنْ لا فَضْلَ له فيهِ

وَجْهُ تخصيصِ المؤمنين بـ﴿بِٱلۡقِسۡطِۚ﴾:

يمكنُ تفسيرُ وجهِ تخصيصِ المؤمنين بالقسطِ:

بأنَّ القِسْطَ إذا كان مُفَسَّرًا بِالعَدْلِ، فالعَدْلُ هو الَّذي يكونُ لا زائِدًا ولا ناقِصًا، وذلك يَقْتَضي أنَّهُ تَعالى لا يَزيدُهُم على ما يَسْتحِقُّونَهُ بِأعْمالِهِم، ولا يُعْطيهِم شَيْئًا على سَبيلِ التَّفَضُّلِ ابْتِداءً، والجَوابُ على هذا أنَّ الثَّوابَ أيْضًا مَحْضُ التَّفَضُّلِ. وأيْضًا فَبِتَقْديرِ أنْ يُساعِدَ على حُصولِ الاسْتِحْقاقِ، إلا أنَّ لَفْظَ القِسْطَ يَدُلُّ على تَوْفِيَةِ الأجْرِ، فَأما المَنْعُ مِنَ الزِّيادَةِ فَلَفْظُ (القِسْطَ) لا يَدُلُّ عَلَيْهِ[4]. أمّا تَخْصيصُ المُؤْمِنينَ بذلك فيَدُلُّ على مَزيدِ العِنايَةِ في حَقِّهِم، وعلى كونِهِم مَخْصوصينَ بِمَزيدِ هذا الاحْتياطِ[5].

أفْردَ المؤمنين بالقسْطِ لمَزيدِ العِنايةِ في حَقِّهم، وليُبيِّنَ ما يقعُ للكافرِ منَ العذابِ

فإنْ قيل: لمَ أفرَدَ المؤمنين بالقسْطِ دونَ غيرهم وهو يَجزي

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/92.
(2) الشّوكاني، فتح القدير: 1/65.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/92.
(4) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 17/206.
(5) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 17/206.

الكافرَ أيضًا بالقسط؟ قال ابنُ الأنباريِّ: لو جمع اللّه الصِّنفين بالقسط لم يتبيّنْ ما يقعُ بالكافرين منَ العذاب الأليم، ففصلَهم من المؤمنين ليُبيِّنَ ما يَجزيهم به مما هو عدلٌ غيرُ جَورٍ، فلهذا خَصَّ المؤمنين بالقسط، وأفردَ الكافرين بخبرٍ يرجعُ إلى تأويلِه بزيادةٍ في الإبانةِ والفائدةِ[1].

إيثارُ لفظِ القِسطِ دونَ العَدْل:

القسطُ تَسْويَةٌ بَيْنَ شَيْئَيْنِ في صِفَةٍ، ويكونُ الجَزاءُ بما يُساوي المُجْزَى عليه، فَتُفيدُ الباءُ أنَّهُم يُجْزَوْنَ بما يُعادِلُ أعْمالَهُمُ الصالِحَةَ، فيكونُ جَزاؤُهُم صَلاحًا هنالك وهو غايَةُ النَّعيم، وأنَّ ذلك الجَزاءَ مُكافَأةٌ على قِسْطِهِم في أعْمالِهِم في عَدْلِهِم فيها؛ بِأنْ عَمِلوا ما يُساوي الصَّلاحَ المَقْصودَ مِنْ نِظامِ هذا العالَمِ[2].

تعظيمُ جَزاءِ المؤمنين أصحابِ الصّالحاتِ الباقياتِ، وأنَّه مُماثِلٌ لِصَلاحِ أعْمالِهِم

والإجْمالُ هُنا بَيْنَ مَعْنَيَي الباءِ مُفيدٌ لِتَعْظيمِ شَأْنِ جَزاءِ الَّذينَ آمَنوا وعَمِلوا الصالِحاتِ مع الإشارَةِ إلى أنَّهُ جَزاءٌ مُماثِلٌ لِصَلاحِ أعْمالِهِم[3].

دَلالةُ الواو في ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾:

الواو: استئنافيةٌ؛ فجُملَةُ: والَّذينَ كَفَروا إلى آخِرِها اسْتِئْنافٌ بَيانيٌّ؛ لِأنَّهُ لَما ورَدَ ذِكْرُ جَزاءِ المُؤْمِنينَ على أنَّهُ العِلَّةُ لِرُجوعِ الجَميعِ إليه، ولَم يُذْكَرْ في العِلَّةِ ما هو جَزاءُ الجَميعِ، لا جَرَمَ يَتَشَوَّفُ السامِعُ إلى مَعْرِفَةِ جَزاءِ الكافِرينَ، فَجاءَ الاسْتِئْنافُ لِلْإعْلامِ بذلك[4].

استئنافٌ لبيانِ جزاءِ الكافرين محلِّ تشوُّفِ السّامعِ

دَلالةُ الاستئنافِ الابتدائيِّ بالجملةِ الاسميّةِ ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾:

نُكْتَةُ تَغْييرِ الأُسْلوبِ حَيْث لم يُعْطَفْ جَزاءُ الكافِرينَ على جزاءِ المُؤْمِنينَ، فَيُقالُ: (وَيَجْزِيَ الَّذينَ كَفَروا بِعَذابٍ.. إلَخ) كما في قوله:

جزاءُ المؤمنين محلُّ عِنايةٍ، وجزاءُ الكافرين محلُّ إعراضٍ

(1) ابن الجوزيّ، زاد المسير: 4/8.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/92.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/92.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/93.

﴿لِّيُنذِرَ بَأۡسٗا شَدِيدٗا مِّن لَّدُنۡهُ وَيُبَشِّرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الكهف: 2]، هو الإشارَةُ إلى الاهْتِمامِ بِجَزاءِ المُؤْمِنينَ الصالِحينَ وأنَّهُ الَّذي يُبادِرُ بِالإعْلامِ به، وأنَّ جَزاءَ الكافِرينَ جَديرٌ بِالإعْراضِ عَنْ ذِكْرِهِ لَوْلا سُؤالُ السّامعين[1].

تأكيدُ شدّةِ العقابِ بالجملة الاسميّةِ المؤكّدةِ للحميمِ:

عبَّر بالجملة الاسميّةِ المؤكّدة: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾؛ لدلالتِها على الثُّبوت، والاستمرار؛ لأنَّ الجملةَ الاسميّةَ تدلُّ على أنَّها صفةٌ ملازمةٌ للمُتَّصِفِ بها[2]، وجاءت مؤكِّدةً لشدَّة العقابِ الحميم، وذمِّهم بملازمتِهم لهذه الصّفةِ، وعدمِ فَكاكِهم عنها، حتى أوردتْهُمُ المهالكَ، وأذاقتْهُم الشّرابَ الحميمَ.

لازَموا صفةَ الكفرِ حتى أذاقتْهُمُ المصيرَ المُهلِكَ بالشَّرابِ الحميمِ

عِلّةُ التّعبيرِ بالموصولِ ﴿وَٱلَّذِينَ﴾:

التَّعبيرُ بالموصول يُشعرُ بأنَّ الصِّلةَ سببُ الحكم، فهؤلاء حُكمَ عليهم بالعذاب، لأنَّهم كفروا، ومتى تحقَّقَ السَّببُ، تحقَّق الحكمُ بلا فرقٍ بين قبيلٍ وقبيلٍ، وأنَّ عذابَ الكفّار دائمٌ، وآلامَه مستمِرَّةٌ[3]، وإنَّ اللّه ﷻ إذْ قد حكم بذلك، وهو أنَّ الّذين كفروا لهم شرابٌ من حميمٍ وعذابٌ أليمٌ، فقد أشارَ إلى أنَّ السببَ في ذلك كُفرُهم؛ لأنَّ التَّعبيرَ بالموصول يُشيرُ إلى أنَّ سببَ هذا الحُكم هو الكفرُ[4].

وُصِفوا بالكُفر لأنّهم لازَموا الكُفرَ فعلًا

تَوجيهُ الرَّفع بالابتداءِ، والنَّصبِ على العطفِ: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾:

ابتدأ جلّ ثناؤه الخبرَ بما أعدَّ للّذين كفروا منَ العذاب، وفيه معنى العطفِ على الأوَّل؛ لأنَّه تعالى ذِكْرُه عمَّ بالخبر عن مَعادِ جميعِهم - كُفّارِهم ومُؤمِنيهم - إليه، ثم أخبر أنَّ إعادتَهم ليجزيَ كلَّ فريق بما عمل المحسنَ منهم بالإحسانِ، والمسيءَ بالإساءة، ولكنْ

يومَ البعثِ يَجزي تعالى كلَّ فريقٍ بما عمِلَ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/93.
(2) ابن العُثيمين، تفسير العُثيمين، الفاتحة والبقرة: 2/282.
(3) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 4/1719.
(4) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 3/1373.

لمّا كان قد تقدَّم الخبرُ المُستأنفُ عمّا أُعدّ للّذين كفروا منَ العذاب، ما يدلُّ سامعَ ذلك على المرادِ، ابتدأ الخبرَ، والمَعنِيُّ العطفُ، فقال: والّذين جحدوا اللّه ورسولَه وكذَّبوا بآيات اللّه ﴿لَهُمْ شَرَابٌ﴾ في جهنم ﴿مِّنْ حَمِيمٍ﴾ وذلك شراب قد أُغلي واشتدّ حرُّه[1].

اللّامُ في: ﴿لَهُمْ شَرَابٌ﴾:

تفيدُ اللّامُ في قوله جلّ في عُلاه: ﴿لَهُمْ شَرَابٌ﴾، أنه أمرٌ مختصٌّ بهم، وليس لهم غيرُه[2] جزاء ملازمتِهم الكُفرَ، واتّصافِهم به، فاستحَقّوه بفِعلهم كما استحقّ المؤمنون أنواعَ النَّعيم المقيمِ في الجنّة بفعْلِهم.

نوعُ العذابِ هذا مختصٌّ بهم

التَّعبيرُ عنِ الحميم بصيغةِ (فَعيل):

الحميمُ: شرابٌ قد أُغلِيَ واشتدَّ حرُّه، حتى إنّه فيما ذُكرَ عنِ النّبيّ ﷺ لَيَتساقطُ من أحدهم حين يُدنيه منه فروةُ رأسه، وكما وصفَه جلّ ثناؤه: ﴿كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ﴾، وأصلُه مفعولٌ صُرِف إلى (فَعيل) بقصد المُبالغةِ[3]، والوصفُ به دليلُ كوْنِ الحميم صار صفةً ثابتةً لهذا العذابِ ملازمةً له حتى وُسِمَ به.

الوصْفُ به للمبالغةِ ودليلٌ على كَوْنِ الحميمِ صفةً ثابتةً لهذا العذابِ

وَجهُ تخصيصِ كوْنِ الشَّراب منَ الحميم:

خُصَّ الشَّرابُ مِنَ الحَميم بالذِّكرِ مِنْ بَيْنِ أنْواعِ العذابِ الأليم لِأنَّهُ أكْرَهُ أنْواعِ العذابِ في مَألوفِ النُّفوسِ[4]، فالنّفسُ تتأبّى الشّرابَ الحارَّ، وتألفُ الباردَ العذبَ؛ فكيف بالشّديدِ الحرارةِ، أوِ الذّائبِ الشَّديدِ الحَرِّ مِنَ النّار؟!

الحميمُ أكرهُ أنواعِ العذابِ للنُّفوس

بَلاغةُ عطْفِ العامّ على الخاصّ: ﴿وَعَذَابٌ أَلِيمٌ﴾:

وقولُه: ﴿وَعَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ من باب عطف العام على الخاصِّ، وكان بعضُهم يقول: إنَّما أتى به كذلك؛ لأنَّ الشَّرابَ أمرٌ وجوديٌّ

ورَدَ العمومُ بعد الخصوصِ إمعانًا في الذَّمِّ للكفّارِ ودفعًا لتوهُّم إرادةِ نوعِ عذابٍ واحدٍ

(1) ابن جرير، جامع البيان: 15/22.
(2) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 7/3515.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 15/22.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/93.

محسوسٌ، والعذابَ أمرٌ معنويٌّ، والوجوديُّ لا يدخل تحت المعنويِّ، فهما مختلفان[1]، وأعمَّ العذابَ بعد تخصيصه، إمعانًا في الذّمّ، ودفعًا لتوهُّم الاقتصارِ على العذاب الأوَّل دونَ غيره.

بَراعةُ المقابلةِ بين جزاءِ الكافرين وجزاءِ المؤمنين:

اقتضتْ عدالةُ الله وتفضُّلُه أن يكونَ جزاءُ كلِّ امرئٍ بما عملَ

ذَكَر القِسطَ في جزاء الّذين آمنوا على أنَّه مقابلةٌ بين عملٍ صالحٍ قويمٍ مستقيمٍ وجزاءٍ عدلٍ قويمٍ، وذَكَر ما يستحقُّه المنحرفون من غيرٍ أن يذكرَ ما يدلّ على أنَّه جزاءٌ، وذلك للدّلالة على أنّ الجزاءَ مع عدله تفضلٌ منَ الله، وأنَّ الكافرين حُرموا هذا الفضلَ ونالهم ما يستحقّون، ولبيان أنَّ الرُّجوعَ إلى الله تعالى يقترنُ بالجزاء الَّذي هو عدلٌ، وأنَّ النّاس خُلقوا ليقوموا بالإصلاح، وأنَّ الإعادة ليُجازوا على هذا الإصلاح، أمّا المنحرفون المفسدون فإنَّهم ينالون ما يستحِقّون؛ بسبب انحرافِهم عنِ الفطرة الَّتي فُطرَ عليها النّاسُ[2].

دَلالةُ الباءِ في: ﴿بِمَا﴾:

إفادةُ تعظيمِ جزاءِ الّذين كفروا

الباءُ سَبَبيّة، أي بِسَبَبِ كُفْرِهم، وقال أبو البقاء: "إنَّ الباء تتعلَّقُ بمحذوفٍ، أي: جوزوا بما كانوا"[3]، ومعناها هنا مفيدٌ لتعظيم جزاءِ الّذين كفروا مع الإشارةِ إلى أنَّه جزاءٌ مماثلٌ لفسادِ أعمالِهم.

دَلالةُ (ما):

سببُ الجزاءِ الكُفرُ

(ما) مصدَريَّة؛ ومعناه: ويَجْزِيَ الَّذينَ كَفَروا بِسَبَبِ كُفْرِهم، وتَكْريرُ الإسْنادِ يَجْعَلُ الجُملَةَ الظَّرْفيَّةَ خَبَرًا لِلْمَوْصولِ لِتَقْوِيَةِ الحُكْمِ[4].

عِلّةُ مجيءِ فعْلِ الكَوْن ماضيًا مجموعًا:

الدَّلالةُ على أنَّهم واظَبوا على الكُفْرِ بجَمعِهم وتَواصَوْا بالثَّباتِ عليه

عبَّر بفعل الكونِ الماضي المجموع؛ لِلدَّلالةِ على مواظَبَتِهم على الكُفْرِ جميعًا، وثباتِهم عليه، وتواصيهِم على عدم التَّفَصّي منه،

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/335.
(2) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 7/3515.
(3) ابن عادل، اللُّباب في علوم الكتاب: 10/270.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/119.

وممارسةِ أنواع الاستهزاء والتهكُّم والسُّخرية بالمؤمنين، ولربطِ العقوبة بموجبها وجودًا وعدمًا؛ تفضُّلًا منه ﷻ.

سِرُّ الجمعِ بين الماضي، والمضارع في ﴿كَانُواْ يَكۡفُرُونَ﴾:

المبالغةُ في استحقاقِهمُ العذابَ وأنَّه حقٌّ مقرَّرٌ لهم

الجمعُ بين صيغتَي الماضي والمضارع؛ للدّلالة على مُثابرتِهم على الكُفر، ومواصلتِهم على أدائه، وتغييرِ النّظم الكريمِ للمبالغةِ في استحْقاقِهمُ العقابَ بجعله حقًّا مُقرّرًا لهم[1].

إيثارُ لفظِ الكُفرِ على غيرِه:

الكفرُ يحجِبُ إبْصارَ الآياتِ

آثر البَيانُ القرآنيُّ الكُفرَ على غيره منَ المُصطلحات المقاربةِ له؛ لتمامِ تأديتِه المُسمَّى المقصودَ؛ على اعتبار أنّ الكُفرَ يحجبُ الفطرةَ، ويطمِسُ البصيرةَ عن آيات التَّقوَى والنّظرِ.

وَجهُ الإتيانِ بفعلِ الكُفرِ مضارعًا في فاصلةِ الآية:

استمرَؤوا الكُفرَ واعْتادوه

جيء بفعل الكُفر مضارعًا دلالةً على استمرار ذلك في كلِّ زمان[2] ودوامِهم على الكفر، ومواظبتِهم عليه، واستمرائِهم إيّاه؛ جُحودًا، وإنكارًا، وعِنادًا.

سِرُّ تَكْرارِ فعلِ الكُفْر:

دوامُهم على الكُفرِ عِلّةُ تعذيبِهم

تكريرُ إسنادِ فعلِ الكُفْر لهم في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾، وفي قوله: ﴿يَكۡفُرُونَ﴾ يجعلُ الجملةَ الظَّرفيَّةَ خبرًا للموصولِ لتقويةِ الحُكم، وللجمعِ بين صيغتَي الكُفر ماضيًا ومستقبلًا؛ للدَّلالة على مواظبتِهم عليه، وإصرارِهم على رفض الاعتقادِ الحقّ، وكونِ دوامِهم على الكُفر علّةَ تعذيبِهم، واستحقاقِهم ذلك[3].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

القِسْطُ والعدلُ:

القِسْطُ هو العدْل البيِّنُ الظاهِر، ومِنْه سُمِّي المِكْيالُ قسطًا والميزانُ

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 6/64.
(2) ابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 10/270.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/120.

القِسْطُ والعدلُ لفظان يَتعاوَرانِ

قِسْطًا؛ لِأَنَّهُ يصوِّر لَك العدْل في الكَيل والوَزْن حَتَّى تراهُ ظاهرًا، وقد يكونُ منَ العدْل ما يخفَى، ولِهَذا قُلْنا إنَّ القِسْط هو النَّصيبُ الَّذي بُيِّنت وجوهُه، وتَقَسَّطَ القَوْم الشَّيْءَ تقاسَموا بِالقِسْطِ[1].

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 234.

﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٥﴾ [يونس: 5]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

بعدَ إقرارِ الرُّبوبيَّةِ سردَ أدلَّتَها العقليَّةَ

لَمّا قَرَّرَ اللّه تعالى ربوبيَّتَه وإلهيَّتَه؛ ذكَرَ الأدلَّةَ العقليَّةَ الأفقيَّةَ الدّالَّةَ على ذلك، وعلى كمالِه في أسمائِه وصِفاتِه؛ مِنَ الشَّمس والقَمَرِ، والسَّماواتِ والأرضِ، وجميعِ ما خلَقَ فيهما مِن سائِرِ أصنافِ المَخلوقاتِ[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَقَدَّرَهُۥ﴾: أصْلُ القدرِ والتَّقْديرِ: تَبْيينُ كمّيَّة الشَّيءِ، يُقالُ: قَدَرْتُهُ وقَدَّرْتُهُ، وقَدَّرَهُ بالتَّشديدِ: أعطاهُ القُدْرَةَ، وقَدَرَ الشَّيءَ، أي: دَبَّرَهُ، وكُلُّ ما يُدَبِّرُهُ اللّه ويَحكُمُ به مِن الأُمورِ فهو قَدَرٌ[2]، والقَدَرُ: القَضاءُ والحُكْمُ، يُقالُ: قَدَرَ اللّه الأمرَ، يَقْدُرُهُ، قدرًا، أي: قَضَى به وحكَمَ[3]. والمقصودُ بالتَّقْديرِ في الآية: جعلُ الأشياء على مقاديرَ مخصوصةٍ[4].

2) ﴿مَنَازِلَ﴾: أصلُ (نَزَلَ): تَدُلُّ على هُبوطِ شَيْءٍ ووُقوعِه. يُقالُ: نَزَلَ عَنْ دابَّتِه نُزولًا، ونَزَلَ المَطَرُ مِنَ السَّماءِ نُزولًا. ومَكانٌ نَزِلٌ: يُنْزَلُ فيه كثيرًا، ووَجَدْتُ القومَ على نَزَلاتِهِم، أي: مَنازِلِهم[5]، والمنازِلُ: جَمعُ مَنْزِلٍ، وهي أماكنُ النُّزول[6]، والنُّزُلُ: ما يُهَيَّأُ لِلنَّزيلِ،

(1) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 358، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 17/207، وأبو حيّان، البحر المحيط: 6/14.
(2) الرّاغب، المفردات: (قدر).
(3) الخليل، العين: (قدر).
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/94، والزُّحيليّ، التّفسير المنير: 11/109.
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (نزل).
(6) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 7/26.

ويُعَبِّرونَ عنِ الحَجِّ بالنُّزولِ، ونَزَلَ، إذا حَجَّ. والتَّنْزيلُ: تَرتيبُ الشَّيءِ ووَضعُهُ مَنْزِلَهُ. والمقصودُ بالمنازل في الآية: أماكِنُ النُّزول، والمرادُ بها هنا المواقِعُ الَّتي يَظهَرُ القَمَرُ في جهتِها كُلَّ ليلةٍ مِنَ الشَّهرِ، وهي ثمانٌ وعِشرونَ منزلةً على عددِ ليالي الشَّهرِ القَمَريِّ[1].

3) ﴿وَٱلۡحِسَابَۚ﴾: أصلُ الحِساب: العَدُّ والإحْصاءُ، مَصْدَر الفِعْلِ حَسَبَ، يُقال: حَسَبَ الشَّيءَ، يَحْسُبُهُ، حَسْبًا وحُسْبانًا وحِسابًا وحِسْبَةً وحِسابَةً، أي: عَدَّهُ[2]، والحَسَبُ: العدَدُ المَعْدودُ. والحَسَبُ والحَسْبُ: قدرُ الشَّيْءِ[3]، ويأتي الحِسابُ بمعنى المُناقَشَةِ، فيُقال: حاسَبَهُ مُحاسَبَةً، وحِسابًا: إذا ناقَشَهُ الحِسابَ وجازاهُ[4]. والمقصودُ بالحِساب في الآية: مصدَرُ حَسَبَ بمعنى عَدَّ، والمُرادُ به حِسابُ الأيّامِ والأشهُرِ[5].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

أدلَّةُ قُدرَةِ الله وعَظَمةِ صِفاتِه، والحكمةُ في خلْقِ الشَّمسِ والقمرِ وتقديرِ منازِلِهما

يُخبر الحقُّ تعالى أنَّه هو الَّذي صيَّرَ الشَّمسَ مُضيئةً في النَّهارِ، وصيَّرَ القَمَرَ مُنيرًا في اللَّيلِ، وقدَّر وقضى مَسيرَ القَمَرِ في منازِلَ، يَنْزِلُ في كلِّ يومٍ وليلةٍ مَنزِلًا منها في مسافةٍ يقطعُها، وهيَّأ ذلك في كلِّ شَهرٍ؛ لِتَعرِفوا - أيُّها النّاسُ - عدَدَ السَّنواتِ، وتَعرِفوا حسابَ اللَّيالي والشُّهورِ، فتَنتَفِعوا بذلك في أمورِ دينِكم ودُنياكم، لم يخلُقِ اللّه الشَّمسَ ولا القَمَرَ ومَنازِلَه، إلّا لحكمةٍ عظيمةٍ تدلُّ على وَحدانيَّتِه وعظمةِ صِفاتِه، فلم يخلُقْ ذلك عَبَثًا وباطِلًا، يُبيِّنُ اللّه الحُجَجَ والأدلَّةَ الباهرةَ لقومٍ يَعلَمونَ - إذا تدبَّروها - وَحدانيَّةَ اللّه تعالى وقُدرَتَه، وآثارَ إحسانِه، ويستدِلّونَ بها على شُؤونِ مُبدِعِها سُبحانه وصِفاتِه[6].

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/95.
(2) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن عبّاد، المحيط في اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (حسب).
(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (حسب).
(4) مجمع اللغة العربية بالقاهرة، المعجم الوسيط: 1/171.
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/96.
(6) ابن جرير، جامع البيان: 12/119، والواحديّ، التَّفسير البسيط: 11/126، وابن عطيّة، المُحرَّر الوجيز: 3/106، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 8/310، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/248.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بَلاغةُ الفصْلِ بالاستئنافِ الابتدائيِّ:

الاستدلالُ بانْفِرادِهِ تعالى بالتَّصَرُّفِ في الخَلْقِ، ومِنَّتِه عليهم

يَحدُّ الجُملةَ اسْتِئْنافٌ ابْتِدائيٌّ، فضَميرُ (هو) عائِدٌ إلى اسْمِ الجلالَةِ في قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ﴾ [يونس: 3]. وهذا اسْتِدْلالٌ آخَرُ على انْفِرادِهِ تعالى بالتَّصَرُّفِ في المَخْلوقاتِ، وهذا لَوْنٌ آخَرُ مِنَ الاسْتِدْلالِ على الإلَهيَّةِ مَمزوجٌ بالامتِنانِ على المَحْجوجينَ بِهِ؛ لأنَّ الدَّليلَ السابِقَ كان مُتَضَمِّنًا لِعَظيمِ أمرِ الخَلْقِ وسَعَةِ العِلْمِ والقُدْرَةِ بِذِكْرِ أشْياءَ لَيْسَ لِلْمُخاطَبينَ حَظٌّ في التَّمَتُّعِ بِها. وهذا الدَّليلُ قد تَضَمَّنَ أشْياءَ يَأْخُذُ المُخاطَبونَ بِحَظٍّ عَظيمٍ مِنَ التَّمَتُّعِ بِها، وهو خَلْقُ الشَّمسِ والقَمَرِ على صورَتِهِما، وتَقْديرُ تَنَقُّلاتِهِما تَقْديرًا مضبوطًا، أَلْهَمَ اللهُ البَشَرَ لِلانْتِفاعِ به في شُؤونٍ كثيرَةٍ مِنْ شُؤونِ حَياتِهِم[1].

عِلّةُ إيثارِ الضَّميرِ ﴿هُوَ﴾ مُقدّمًا:

اختِصاصُه تعالى بتدبيرِ الخَلْقِ الدّالِّ على رُبوبيّتِه

ضَميرُ الغَيْبَةِ الواقِعُ في أوَّلِ الجُملَةِ ﴿هُوَ﴾ عائِدٌ إلى اسْمِ الجلالَةِ في قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ﴾؛ للدَّلالةِ على انْفِرادِهِ تَعالى بِالتَّصَرُّفِ في المَخْلوقاتِ، واختصاصِه بذلك، وهذا لَوْنٌ آخَرُ مِنَ الاسْتِدْلالِ على الإلَهيَّةِ مَمزوجٌ بِالامتِنانِ على المَحْجوجينَ بِهِ[2].

نُكتةُ التَّعبيرِ بالاسْمِ الموصولِ ﴿ٱلَّذِى﴾:

الإيماءُ إلى أنَّ القرآنَ كلامُ اللهِ المُنَزَّلُ منه

التَّعْبيرُ عنِ الذاتِ العَلِيَّةِ بِطريقِ الموصولِ دونَ الاسْمِ العَلَمِ؛ لِلتَّنْبيهِ على ما تُفيدُهُ صِلَةُ المَوْصولِ مِنَ الإيماءِ[3] إلى أنّ القرآنَ الكريم كلامُ اللهِ، وأنّه صادرٌ عن خالقِ الكونِ بما فيه الشَّمسُ والقمرُ على سبيلِ القطْعِ، بَلْهَ التَّنْبيهِ على الاسْتِدْلالِ على وُجودِهِ تعالى ووَحْدَتِهِ وعِلْمِهِ وقُدْرتِه وحِكْمَتِهِ بِآثارِ صُنْعِهِ في النَّيِّرَيْنِ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/93 - 94.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/93.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 15/10.

بَعْدَ التَّنْبيهِ على الاسْتِدْلالِ بِما مَرَّ مِن إبْداعِ السَّماواتِ والأرْضِ والاسْتِواءِ على العَرْشِ وغَيْرِ ذلك[1].

تَوجيهُ إيثارِ لفظِ الجَعْلِ دونَ غيرِه:

الجَعْلُ لفظٌ عامٌّ في الأفعالِ يُقدَّر عندَه كلُّ معنى من معاني الصُّنعِ

آثَرَ لفظَ ﴿جَعَلَ﴾ على اعتبارِ مُسمَّى الخلْقِ والإبداعِ، ولكونِه لفظًا عامًّا في الأفعال يُقدَّر عنده كلُّ معنى من معاني الصُّنعِ، وإيجادِ الشَّيءِ من الشَّيء، والتَّبديلِ، والاعتقادِ، والظَّنِّ، والشُّروعِ في الشَّيء.

وحيثما اجتمعَ الخَلْقُ والجَعْل، تقدَّم الأوّلُ على الثّاني؛ لأنَّ الخلق إيجادٌ، والجَعلَ شيءٌ من شيء؛ فهو منَ الخلْقِ، لذلك بدأ بقوله سبحانه ﴿إِنَّهُۥ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾، وجاء بعدها ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلشَّمۡسَ ضِيَآءً وَٱلۡقَمَرَ نُورٗا﴾ على تَقْديرِ مُضافٍ: أيْ: جَعَلَ الشَّمسَ ذاتَ ضياءٍ والقَمَرَ ذا نورٍ إلّا أنْ يُحْمَلَ على المُبالَغَةِ، وكَأنَّهُما جُعِلا نَفْسَ الضّياءِ والنّورِ؛ على معنى: بعد خلْقِ الشَّمس والقمر، جعلَهما المولى ﷻ ضياءً ونورًا، أو كأنَّهُما جُعِلا نَفْسَ الضِّياءِ والنُّورِ[2].

دَلالةُ الحالَيْن: ﴿ضِيَآءً﴾، و﴿نُورٗا﴾:

الإشارةُ إلى حكمةِ اللهِ وإبداعِه فيما خَلَقَ وقدَّرَ

الضِّياءُ، والنّورُ حالانِ مُشيرانِ إلى الحِكْمَةِ، والنِّعْمَةِ في خَلْقِهِما[3]، وكلٌّ منهما سِيق لوصْفِ أفعال اللّه، وقُدرَتِه، وحكمتِه فيما خلَقَ وأبدعَ.

سِرُّ نسبة الضِّياء إلى الشَّمس، والنّور إلى القمر:

الضّياءُ المَخْتَصُّ بالشَّمسِ أكملُ وأقوَى منَ النّورِ المُختَصِّ بالقمر فناسبتِ الحاجةُ إلى الانتفاع بكلٍّ منهما

جَعْلُ الشَّمس ضياءً لانْتِفاعِ الناسِ بِضيائِها في مُشاهَدةِ ما تُهمُّهُم مُشاهَدتُهُ بِما به قِوامُ أعْمالِ حياتِهم في أوْقاتِ أشْغالِهم. وجَعْلُ القَمَرِ نورًا لِلانْتِفاعِ بِنورِهِ انْتِفاعًا مُناسِبًا لِلْحاجَةِ الَّتي قد تُعَرِّضُ إلى طَلَبِ رُؤْيَةِ الأشْياءِ في وقْتِ الظُّلْمَةِ وهو اللَّيْلُ. ولذلك

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/120.
(2) الشّوكانيّ، فتح القدير: 2/483.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/94.

جُعِلَ نورُه أضْعَفَ ليُنْتَفعَ بِهِ بِقدرِ ضَرورَةِ المُنْتَفِعِ، فَمَنْ لم يُضْطَرَّ إلى الانْتِفاعِ به لا يَشْعُرُ بنورِهِ ولا يَصْرِفُهُ ذلك عنْ سُكونِهِ الَّذي جُعِلَ ظَلامُ اللَّيْلِ لِحُصولِهِ، ولَوْ جُعِلَتِ الشَّمسُ دائِمَةَ الظُّهورِ لِلناسِ لاسْتَوَوْا في اسْتِدامَةِ الانْتِفاعِ بِضيائِها، فَيَشْغَلُهُم ذلك عنِ السُّكونِ الَّذي يَسْتَجْدونَ به ما فَتَرَ مِنْ قواهُمُ العَصَبيَّةِ الَّتي بِها نَشاطُهُم وكمالُ حياتِهِم[1].

وعليه: فقد خُصَّتِ الشَّمسُ بالضِّياء لأنّها أقوَى وأكملُ منَ النّور، وخُصَّ القمرُ بالنّور، لأنّه أضعفُ منَ الضّياء، ولأنَّهما إذا تساويا لم يُعرفِ اللّيلُ منَ النَّهار، فدلَّ ذلك على أنَّ الضّياء المُختَصَّ بالشَّمس أكملُ وأقوَى منَ النّور المُختَصِّ بالقمر[2].

وَجْهُ مُبايَنةِ الضِّياءِ، عنِ النّورِ:

الضِّياءُ: النُّورُ الساطِعُ القَويُّ، لِأنَّهُ يُضيءُ لِلرائي، وهو اسْمٌ مُشْتَقٌّ مِنَ الضَّوْءِ، وهو النُّورُ الَّذي يوَضِّحُ الأشْياءَ، فالضِّياءُ أقْوَى مِنَ الضَّوْءِ، أمّا النّور فهو الشُّعاعُ، وهو مُشْتَقٌّ مِن اسْمِ النارِ، وهو أعَمُّ مِنَ الضِّياءِ، يَصْدُقُ على الشُّعاعِ الضَّعيفِ والشُّعاعِ القَويِّ، فَضياءُ الشَّمس نورٌ، ونورُ القَمَرِ لَيْسَ بِضياءٍ. هذا هو الأصْلُ في إطْلاقِ هذه الأسْماءِ، ولَكِنْ يَكْثُرُ في كلام العَربِ إطْلاقُ بعضِ هذه الكلماتِ في مَوْضِعِ بَعْضٍ آخَرَ بِحَيْثُ يَعْسُرُ انْضِباطُهُ. ولَما جُعِلَ النُّورُ في مُقابَلَةِ الضِّياءِ تَعَيَّنَ أنَّ المُرادَ بِهِ نورٌ ما[3].

ضياءُ الشَّمسِ نورٌ، ونورُ القَمَرِ لَيْسَ بِضياءٍ

التَّعبيرُ عنِ التَّقديرِ بالماضي المُضَعَّفِ:

قولُه تعالى: ﴿وَقَدَّرَهُۥ﴾، أيْ: قَدَّرَ له، يعني: هَيَّأ له مَنازِلَ لا يُجاوِزُها ولا يَقْصُرُ دونَها[4]، وفي سَوْقِ الماضي والتَّضعيف دَلالةٌ على

التَّقديرُ مُستقرٌّ ثابتٌ دونَ تخلُّفٍ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/94.
(2) الجمل، حاشية على الجلالين: 2/334.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/94.
(4) البَغويّ، معالم التّنزيل: 4/121.

الاستقرار والثَّباتِ دون تخلُّفٍ؛ لأنَّ ﴿وَقَدَّرَهُۥ﴾ ظَرْفٌ مُسْتَقِرٌّ، أيْ: تَقْديرًا على حَسَبِ المَنازِلِ، فالنّورُ في كُلِّ مَنزِلَةٍ له قدرٌ غَيْرُ قدرِهِ الَّذي في مَنزِلَةٍ أُخْرى. وإمّا عائِدٌ إلى القَمَرِ عَلى تَقْديرِ مُضافٍ، أيْ: وقَدَّرَ سَيْرَهُ، فَتَكونُ ﴿مَنَازِلَ﴾ مَنصوبةً على الظَّرْفيَّةِ[1].

إيثارُ الضَّميرِ على الاسْمِ الظّاهِرِ في ﴿وَقَدَّرَهُۥ﴾:

الاكتفاءُ بالضَّمير إيجازًا ولصَلاحِ تعدُّدِ التَّقديرِ فيه

آثر البيانُ القرآنيُّ الضَّميرَ على الاسم الظّاهر؛ للإيجاز ولصلاحية التَّقديرِ المُتعدِد. وتَقْديرُ المَنازِلِ يَنْصَرِفُ إليهما غَيْرَ أنَّهُ اكْتَفَى بِذِكْرِ أحَدِهما، كما قال: ﴿وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ﴾ [التوبة: 62]. وقيلَ: هو يَنْصَرِفُ إلى القمر بخاصّة؛ لأنَّ بالقمر يُعرفُ انْقِضاءُ الشُّهورِ والسِّنينَ لا بِالشَّمس[2].

نكتة حذف الجارّ في ﴿وَقَدَّرَهُۥ﴾:

الحذفُ لإضفاءِ معنَى التّهيئةِ والتّيسيرِ

قولُه ﷺ: ﴿وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ﴾، أي: قدّر له، فحذف الجارَّ، والمعنى: هيَّأ ويسّر له منازلَ[3] لا يُجاوِزُها ولا يَقْصُرُ دونَها، ولم يَقُلْ: قَدَّرَهُما ليَنْصَرِفَ إليهما.

وَجْهُ إعادةِ الضّميرِ على النّورِ، أوِ القمرِ دونَ الشَّمسِ:

منازلُ القمرِ تُعلمُ بالفصولِ ويُدركُها كلُّ أحدٍ ببصَرِه

الضَّميرُ المَنْصوبُ في ﴿وَقَدَّرَهُۥ﴾: إما عائِدٌ إلى النُّورِ فَتَكونُ المَنازِلُ بمعنى المَراتِب، وهي مَراتِبُ نورِ القَمَرِ في القوَّةِ والضَّعْفِ، التابِعَةُ لِما يَظْهَرُ لِلناسِ نَيِّرًا مِنْ كُرَةِ القَمَرِ، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾﴾ [يس: 39]، أيْ: حَتَّى نَقُصَ نورُهُ لَيْلَةً بَعْدَ لَيْلَةٍ، فَعادَ كالعُرْجونِ البالي. ويكونُ ﴿مَنَازِلَ﴾ في مَوْضِعِ الحالِ مِنَ الضَّميرِ المَنْصوبِ في ﴿وَقَدَّرَهُۥ﴾ فهو ظَرْفٌ مُسْتَقِرٌّ، أيْ تَقْديرًا على حَسَبِ المَنازِلِ، فالنُّورُ في كُلِّ مَنْزِلَةٍ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/95.
(2) البغويّ، معالم التّنزيل: 2/410.
(3) الواحديّ، التَّفسير الوسيط: 2/539.

له قدرٌ غَيْرُ قدرِهِ الَّذي في مَنْزِلَةٍ أُخْرَى. وإما أن يكون الضَّميرُ المَنْصوبُ في ﴿وَقَدَّرَهُۥ﴾ عائِدًا إلى (القَمَرِ) عَلَى تَقْديرِ مُضافٍ، أيْ: وقَدَّرَ سَيْرَهُ، فَتَكونُ ﴿مَنَازِلَ﴾ مَنْصوبةً على الظَّرْفيَّةِ[1].

فإعادةُ الضَّمير على القمر وحدَه من إطلاق المفردِ على الاثنين. وعادتُهم يقولون: إنَّما خُصَّ التَّقديرُ بالقمر دونَ الشَّمس؛ فإنَّ منازلها تُعلمُ بالفصول علمًا ضروريًّا ظاهرًا، لأنَّ سيرَه في المنازل ظاهرٌ معلومٌ يدركُه كلُّ أحد ببصرِه[2] ويُلمحُ في وجود الضَّمير الإيجازُ كما في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ﴾ [التَّوبة: 62][3].

بيانُ التَّعبيرِ بالمنازل لفظًا، وهيئةً:

إيثارُ المنازل اعْتِبارًا بحُلولِ القَمَرِ كُلَّ لَيْلَةٍ في سَمتِ مَنْزِلَةٍ

هذه المَنازِلُ أماراتُها أنْجُمٌ مُجْتَمِعَةٌ على شَكْلٍ لا يَخْتَلِفُ، فوَضَعَ العُلَماءُ السابِقونَ لَها أسْماءَ، والعَربُ يَبْتَدِئونَ ذِكْرَها بالشَّرَطانِ وهكذا، وذلك باعْتِبارِ حُلولِ القَمَرِ كُلَّ لَيْلَةٍ في سَمتِ مَنْزِلَةٍ مِنْ هذه المَنازِلِ، فَأَوَّلُ لَيْلَةٍ مِنْ لَيالي الهِلالِ لَلشَّرَطانِ وهكذا.

وهذه أسْماؤُها في العَرَبيَّةِ على تَرْتيبِها في الطُّلوعِ عند الفَجْرِ مُرتَّبةً على حَسَبِ تَقْسيمِها على فُصولِ السَّنَةِ الشَّمسيَّةِ، وهي: العَواءُ، السِّماكُ الأعْزَلُ، الغَفْرُ، الزُّبانَى، الإكْليلُ، القَلْبُ، الشَّوْلَةُ، النَّعائِمُ، البَلْدَةُ، سَعْدُ الذابِحِ، سَعْدُ بُلَعٍ، سَعْدُ السُّعودِ، سَعْدُ الأخْبِيَةِ، الفَرْغُ الأعْلَى، الفَرْغُ الأسْفَلُ، الحوتُ، الشَّرَطانُ، البُطَيْنُ، الثُّريا، الدَّبَرانُ، الهَقْعَةُ، الهَنْعَةُ، ذِراع الأسد، النَّثرة، الطَّرْفُ، الجَبْهَةُ، الزُّبْرَةُ، الصَّرْفَةُ[4].

وهذه المنازل مُنقسمةٌ على البُروجِ الاثْنَيْ عَشَرَ الَّتي تَحِلُّ فيها الشَّمسُ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/95.
(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/336.
(3) طنطاويّ، التَّفسير الوسيط: 7/26.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/95.

في فُصولِ السَّنَةِ، فَلِكُلِّ بُرْجٍ مِنَ الاثْنَيْ عَشَرَ بُرْجًا مَنْزِلَتانِ وثُلُثٌ، وهذا ضابِطٌ لِمَعْرِفَةِ نُجومِها ولا عَلاقَةَ له باعْتِبارِها منازِلَ لِلْقَمَرِ[1].

بَلاغةُ المَجازِ في لفظِ (المنازل):

إطْلاقُ اسْمِ المَنازِلِ عليها مَجازٌ بِالمُشابَهَةِ، وإنَّما هي سُموتٌ يَلوحُ لِلناسِ القَمَرُ كُلَّ لَيْلَةٍ في سَمتٍ مِنْها، كَأنَّهُ يَنْزِلُ بِها.

وقد رَصَدَها البَشَرُ فَوَجَدوها لا تَخْتَلِفُ، وعَلِمَ المُهْتَدونَ مِنْهُم أنَّها ما وُجِدَتْ على ذلك النِّظامِ إلا بِصُنْعِ الخالِقِ الحَكيمِ[2].

وَجْهُ المَجازِ فيها مشابهةُ المنازلِ كأنَّ القمرَ ينزلُ بها

دَلالةُ اللّامِ في ﴿لِتَعْلَمُواْ﴾:

معنى اللّامِ في قوله ﷻ: ﴿لِتَعْلَمُواْ﴾ التَّعليلُ، أيْ: قَدَّرَ تعالى في علاه المَنازِلَ؛ لِنَعْلَمَ عددَ السِّنينَ: دُخولَها، وانْقِضاءَها[3].

قدّرَ المنازلَ لنعلمَ دخولَ الأوقاتِ وانْقضاءَها

بَلاغةُ التَّعبيرِ بصيغةِ المضارعِ عنِ العلمِ:

العِلْمُ في كلامِ العَربِ إدْراكُ الأشْياءِ على ما هي عليه. والَّذينَ يَعْلَمونَ هُمُ الَّذينَ انْتَفَعوا بِدَلائِلِ الآياتِ، وهُمُ الَّذينَ آمَنوا بِاللّهِ وحْدَهُ، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝٩٩﴾ [الأنعام: 99][4]، والتّعبيرُ بالمضارعِ المُقدَّمِ بلامِ التّعليلِ حثٌّ على استمرارِ التّعلُّمِ، واستفراغِ الجُهدِ في الإفادةِ من هذا الجَعْلِ على الدّوامِ، من خلالِ العلْمِ بتقديراتِه.

الحثُّ على التَّعلُّمِ على الدَّوامِ واستفراغُ الجُهدِ فيه

دَلالةُ فاعلِ العلْمِ (واو) الجماعةِ:

ضَميرُ ﴿لِتَعْلَمُواْ﴾ عائِدٌ إلى المَفْعولِ المَحْذوفِ المُقَدَّرِ؛ لِأنَّ المُقَدَّرَ كالمَذْكورِ[5] ودلالةُ ضميرِ الرَّفعِ ههنا الحثُّ على تعلُّمِ الجميعِ، فالعلْمُ تحصينٌ ومجنَبَةٌ للوقوعِ في الخطأ.

حثَّ تعالى على أنْ يتعلَّمَ الجميعُ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/95.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/95.
(3) البغويّ، معالم التّنزيل: 2/411.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 7/395.
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 15/288.

إضافةُ العددِ إلى السِّنين:

تأكيدُ مدلولِ السِّنين وتَكثيرُ عددِها

ذِكْرُ لَفْظِ العَدَد مع السِّنين تَأْكيدٌ لِبَعْضِ مَدْلولِها[1]، والعددُ: مُسْتَعْمَلٌ في الكَثْرَةِ، أيْ: سِنينَ ذاتَ عددٍ كَثيرٍ، ونَظيرُهُ ما في حَديثِ بَدْءِ الوَحْيِ مِن قَوْلِ عائِشَةَ: «فَكانَ يَخْرُجُ إلى غارِ حِراءَ فَيَتَحَنَّثُ فيهِ اللَّيالِيَ ذَواتِ العَدَدِ»[2]، تُريدُ الكَثيرَةَ، وقد أُجْمِلَ العَدَدُ هُنا تَبَعًا لِإجْمالِ القِصَّةِ[3].

سِرُّ تقديمِ العددِ:

قدِّمَ العددَ؛ لأنَّه هو المتقدِّمُ في الوضعِ؛ فوضعُ العددِ هو الأوَّلُ، والأساسُ الَّذي يقعُ عليه الحسابُ، ويُبنى عليه الاحتسابُ بعد ذلك[4].

قدِّمَ العددَ؛ لأنَّه مبنَى الحسابِ

إيثارُ لفظِ السِّنين على غيرِه من ظروفِ الزَّمانِ:

اشتمالُ السِّنينَ على كلِّ ما دونَها منَ الظُّروفِ الزَّمنيَّةِ

يريد السِّنينَ والشُّهورَ والأسابيعَ والأيَّامَ، فاقتصر على ذكر السِّنينَ لاشتمالها عليها كلِّها[5]، أيْ: مِن غَيْرِ حاجَةٍ إلى حِسابٍ؛ لِأنَّ النَّيِّرَيْنِ يَدُلّانِ على تَحَوُّلِ الحَوْلِ بِمُجَرَّدِ تَنَقُّلِهِما[6].

دَلالةُ الاستئنافِ في جملةِ ﴿مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۚ﴾:

التَّنبيهُ على الحكمةِ منَ الجَعْلِ ليُستدلَّ على أنّ الخالقَ فاعلٌ مختارٌ حكيمٌ

جُملَةُ ﴿مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۚ﴾ مُسْتَأْنَفَةٌ كالنَّتيجَةِ لِلْجُملَةِ السابِقَةِ كُلِّها؛ لِأنَّهُ لَما أخْبَرَ تعالى بِأنَّهُ هو الَّذي جَعَلَ الشَّمس ضياءً والقَمَرَ نورًا، وذَكَرَ حِكْمَةَ بَعْضِ ذلك، أفْضَى إلى الغَرَضِ مِنْ ذِكْرِهِ؛ وهو التَّنْبيهُ إلى ما فيها مِنَ الحِكْمَةِ ليَسْتَدِلَّ بذلك على أنَّ خالِقَهُما فاعِلٌ مُخْتارٌ حَكيمٌ ليَسْتَفيقَ المُشْرِكونَ مِنْ غَفْلَتِهِم عنْ تلك الحِكَمِ، كما قال تعالى في هذه السُّورَةِ: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ﴾[7].

---

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/131.

(2) البخاريّ، الجامع الصّحيح، الحديث رقم: (3) واللّفظ له، ومسلم، الجامع الصّحيح، الحديث رقم: (160).

(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 15/268.

(4) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/336.

(5) الكِرمانيّ، غرائب التَّفسير وعجائب التَّأويل: 1/474.

(6) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/385.

(7) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/96.

تَوجيهُ الفَصْلِ بـ ﴿مَا﴾ النّافيةِ:

النَّفْيُ بـ (ما) آكَدُ وهو يدلُّ على استمرارِ النَّفْيِ

بيانُ وجْهِ الفصْلِ في أنَّهُ تعالى لَمّا قَرَّرَ هذه الدَّلائِلَ خَتَمَها بقوله: ﴿مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۚ﴾، معناهُ أنَّهُ تعالى خَلَقَ ذلك الخَلْقَ والتّقديرَ على وَفْقِ الحِكْمَةِ ومُطابَقَةِ المَصْلَحَة.

والنَّفْيُ بـ(ما) آكدُ من (لم)، وهي في الغالب لنفْيِ الماضي القريبِ منَ الحال، وقد تفيدُ استمرار النَّفيِ كما في الآية هنا، فخلقُ اللّه الشّمسَ، والقمرَ وتقديرَه منازلَ حقٌّ على الدّوام، لا يُقيّده زمنٌ أو حين، فضلًا عنِ الدِّلالة على أنَّ دخول (ما) على الماضي يدلّ على أنَّ الأمر قدِ انقضى، وتمّ، وتحقّق، وهذا المعنى مُرادٌ في الآية.

وَجْهُ التّعبيرِ عن فعلِ الخلْقِ بصيغةِ الماضي:

الخلْقُ بموجوداتِه السَّماويةِ والأرضيَّةِ مُتحقِّقُ الوقوعِ

وعبّر عن فعل الخلْقِ ماضيًا؛ للدّلالةِ على وقوع الخلْقِ بموجوداتِه وأجرامِه السَّماويةِ شمسًا، وقمرًا وسماءً، ومخلوقاتِه الأرضيَّةِ أرضًا، وجبالًا وسهولًا وبحارًا وأنهارًا وتحقُّقِه.

إظهارُ الفاعلِ (لفظِ الجلالة):

الاسمُ الكريمُ يَتَضَمَّنُ جميعَ صِفاتِ الكمالِ واللهُ تعالى لا يُسألُ عمّا يفْعلُ

ووَقَعَ إظهارُ اسْمِ الجَلالَةِ في مَقامِ الإضْمارِ؛ لأنَّ اسْمَ الجَلالَة يومئ إلى مَقامِ الإطْلاقِ؛ وهوَ مقامُ ﴿لَا يُسۡـَٔلُ عَمَّا يَفۡعَلُ﴾ [الأنبياء: 23]، ويومئ إلى أنَّ ذَلِكَ جَرَى على حَسَبِ الحِكْمَةِ؛ لأنَّ اسْمَ الجَلالَةِ يَتَضَمَّنُ جَميعَ صِفاتِ الكَمالِ[1].

وَجهُ التَّعبيرِ باسْمِ الإشارةِ ﴿ذَٰلِكَ﴾:

ردَّ الله تعالى ما ذَكَرَ إلى الخَلْقِ والتَّقديرِ

اسمُ الإشارة في قوله تعالى: ﴿مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۚ﴾، يعود إلى المذكور من جعْلِ الشَّمسِ ضياءً والقمرِ نورًا وتقديره: ﴿مَنَازِلَ﴾[2]، ورَدَّ اللّه تعالى كلَّ ما ذَكَرَ إلى الخَلْقِ والتَّقْديرِ، ولَوْ رَدَّهُ إلى الأعْيانِ المَذْكورَةِ لَقال: (تلك)[3].

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 8 - أ/7.
(2) طنطاويّ، التَّفسير الوسيط: 7/27.
(3) البغويّ، معالم التّنزيل: 4/122.

دَلالةُ الباءِ في ﴿بِٱلۡحَقِّۚ﴾:

تدلُّ الباء في قوله تعالى: ﴿إِلَّا بِٱلۡحَقِّۚ﴾ على الملابسة، أي: ما خلق اللّه ذلك الَّذي ذكره لكم إلّا خَلقًا مُلتبسًا بالحقِّ، ومُقترنًا بالحكمة البالغةِ الَّتي تقتضيها مصالحُكم[1].

الخلْقُ مقترنٌ بالحكمةِ، مُلتَبسٌ بالحقّ

سِرُّ تعريفِ ﴿بِٱلۡحَقِّۚ﴾:

الحقُّ هو الشّيءُ الثّابتُ الّذي لا يتغيّرُ، وتعريفُه ها هنا يدلُّ على التَّخصيص والتَّعيين لمسألة تناولَتْها هذه الآيةُ القرآنيَّة، والحقُّ هُنا مُقابِلٌ لِلْباطِلِ. فهو بمعنى الحِكْمَةِ والفائدَةِ؛ لِأنَّ الباطِل من إطلاقاتِها أنْ يُطلقَ على البَعْث وانْتِفاءِ الحِكْمَةِ، فكذلك الحَقُّ يُطْلَقُ على مُقابِلِ ذلك. وفي هذا رَدٌّ على المُشْرِكينَ الَّذينَ لم يَهْتَدوا لِما في ذلك مِنَ الحِكْمَةِ الدالَّةِ على الوَحْدانيَّةِ وأنَّ الخالِقَ لَها لَيْسَ آلِهَتَهُم[2]؛ فالمرادُ بالحقّ هنا خلافُ الباطلِ والعبثِ[3].

تخصيصُ الحقِّ يُراد به خلافُ الباطلِ والعَبثِ

بَلاغةُ الاستثناءِ المفرّغِ:

قوله تعالى: ﴿مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۚ﴾، أي: ما ذُكرَ منَ الشَّمس والقمر على ما حكى سُبحانه منَ الأحوال إلا بِالحَقِّ، استثناءً من أعمِّ أحوالِ الفاعلِ والمفعول، أي: ما خلق ذلك مُلتبسًا بشيءٍ منَ الأشياء إلا ملتبِسًا بالحقِّ مُراعيًا فيه الحكمة والمصلحة[4]، والقصرُ بـ(النّفي والاستثناء)؛ لغاية تمكينِ الكلامِ وتقريرِه في الذّهن، والمبالغةِ في المعنى[5].

القَصْر لتمكينِ الكلامِ وتقريرِه في الذّهن

بَلاغةُ الجملةِ الاستئنافيّةِ الابتدائيّةِ ﴿يُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ﴾:

قولُه تعالى: ﴿يُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾ جملةٌ مستأنفةٌ؛ لبيان

بيانُ خلْقِ اللهِ في الآياتِ التَّكوينيّةِ أوِ التَّنزيليّةِ المنبّهةِ على الحكمةِ في إبداعِ الكائناتِ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/96.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/96.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 6/68.
(4) الآلوسيّ، روح المعاني: 6/68.
(5) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 17/209.

خلْقِ اللّه تعالى، على معنى: يُفَصِّلُ اللّه الآياتِ: أي: الآياتِ التَّكوينيّةَ المذكورةَ، أو الأعمَّ منها، ويدخل المذكورُ دخولًا أوليًّا، أو نفصّلُ الآياتِ التَّنزيليّةَ المنبّهةَ على الحكمة في إبداع الكائناتِ؛ فيستدلّون بذلك على شؤون مُبدعِها ﷻ، أو يعلمون ما في تضاعيفِ الآياتِ المُنزَّلة؛ فيؤمنون بها[1].

وَجهُ التَّعبيرِ عنِ التّفصيلِ بالمضارع المشدَّدِ:

عبّرَ بالفعْلِ المُضارعِ ﴿يُفَصِّلُ﴾ في قوله تعالى: ﴿يُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ﴾؛ لإفادَةِ التَّكْرارِ[2] والاستمرارِ على تفصيل الآيات وبيانِها بإحداثِ بعضِها عَقيبَ بعضٍ على سبيل التَّمييزِ والتَّفصيلِ[3].

الاستمرارُ في إحداثِ الآياتِ بعضِها عَقيبَ بعضٍ

بَلاغةُ الالتفاتِ في قراءةِ ﴿نُفَصِّلُ﴾:

في قوله تعالى: ﴿يُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ﴾ على قِراءَةِ غيرِ ابن كثير، والبصريّين وحفصٍ عن عاصمٍ ﴿نُفَصِّلُ﴾ بنون العظمة، في ضَميرِ صاحِبِ الحالِ التِفاتٌ[4] من حيث الانتقالُ من حالٍ إلى حالٍ، وقراءةِ ابن كثير، والبصريّين وحفص" ﴿يُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ﴾ بالياء فهو إخبارٌ عن فعل اللّه، ومَنْ قَرَأ بالنّون فهو فعلُه ﷻ"[5]، فلمّا كان الكلامُ على مظاهر قدرتِه، وبديعِ صَنعتِه في جَعْلِ الشَّمس والقمر، واتِّباع الآيات الدّالّةِ على ذلك عَدَل إلى صيغة التَّعظيمِ بنون العظمة: ﴿نُفَصِّلُ﴾ المناسبِ لسياق عِظَمِ الحَدَث.

العُدولُ إلى صيغةِ التَّعظيمِ في الالتفاتِ ليُناسبَ سياقَ عِظَمِ الحَدَثِ

دَلالةُ تعريفِ الآيات، وجمعِها جمعَ مؤنّثٍ سالماً:

التَّعْريفُ في الآياتِ تَعْريفُ الجِنْسِ وجاء لِلاسْتِغْراقِ، والمُرادُ بالآياتِ القُرْآنُ فَإنَّ ما يَقَعُ فيهِ إجْمالٌ مِنْها يُبَيَّنُ بآياتٍ أُخْرَى[6]،

استغراقُ جميعِ الآياتِ المنزَّلة وتعدُّدها وتنوُّعها

(1) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 7/3518.
(2) ابن الجزريّ، النّشر في القراءات العشر: 2/282، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/96.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 18/527.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/97.
(5) الأزهريّ، معاني القراءات: 2/39.
(6) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/97.

وجَمعُ الآياتِ هُنا مُراعًى فيهِ تَعَدُّدُها وتَعَدُّدُ أنْواعِها، وفي بَلاغَةِ نَظْمِها وفَصاحَتِها مِنَ الإعْجازِ ما هو دَليلٌ على أنَّ هذا الكلامَ مِنْ صُنْعِ اللّه أَلْقاهُ إلى رَسولِهِ ﷺ مُعْجِزَةً له على قَوْمِهِ أهْلِ الفَصاحَةِ والبَلاغَةِ[1].

معنَى اللّامِ في لفظةِ ﴿لِقَوْمٍ﴾:

خصّصَ الآياتِ بالقومِ الّذين يعلمون

اللامُ في قوله ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ معناه شِبْهُ التَّمليكِ؛ وهو معنى أثْبَتَهُ صاحِبُ (مُغْني اللَّبيبِ)، ويَظْهَرُ أنَّهُ واسِطَةٌ بَيْنَ معنَى التَّمليكِ ومعنَى التَّعْليلِ. ومَثَّلَهُ في (المُغْني)[2] بقوله تعالى: ﴿جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا﴾ [النَّحل: 72] وذُكِرَ في المعنَى العِشْرينَ من مَعاني اللام أنَّ ابْنَ مالِكٍ في كافيَتِهِ سمّاهُ لامَ التَّعْديَةِ؛ ولَعَلَّهُ يُريدُ تَعْديَةً خاصَّةً، ومَثَّلَهُ بقوله تعالى: ﴿فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝٥﴾ [مريم: 5][3]. فالآياتُ مخصّصةٌ لقومٍ يستدلّون بالأَمارات على قدرتِه[4].

دَلالةُ تنكيرِ القومِ، وتنوينِها:

تَعظيمُ اللهِ العِلمَ وأهلَه والاتِّصافَ به

تنكيرُ ﴿لِقَوْمٍ﴾ إمّا تعظيمًا لوصْفِ العِلْمِ، أو ليفيدَ عمومَ تعلُّقِ العلمِ بكلِّ من اتصف بصفاتِهم؛ لأنَّ تعليق الحُكمِ على الوصفِ المناسبِ في النَّكرة يفيدُ قوّةَ الشّعور بما به ذلك الوصْفُ للحكم أكثرَ من إفادته له في المعرفة[5]، والنّون عِوضٌ من تنوين المُفرد.

إيثارُ لفظِ القوم على غيرِه:

الإيماءُ إلى أنَّ وصْفَ العلمِ سَجيَّةٌ في هؤلاء القومِ

ذُكر لفظُ ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ دونَ أنْ يُقالَ: (لِلَّذينَ يَعْلَمونَ أوْ لِلْعالمينَ)؛ لأنَّ إجْراءَ الوصْفِ على لَفْظِ ﴿لِقَوْمٍ﴾ يومِئُ إلى أنَّ ذلك الوصْفَ سَجيَّةٌ فيهم، ومِنْ مُكَمِّلاتِ قَوْميَّتِهم، فَإنَّ لِلْقَبائِلِ والأُمَمِ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 12/218 - 219.
(2) ابن هشام، مغني اللّبيب، ص: 375.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 21/72.
(4) ابن الجوزيّ، زاد المَسير: 2/318.
(5) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 4/69.

خَصائِصَ تُمَيِّزُها وتَشْتَهِرُ بها كما قال تعالى: ﴿وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ۝٥٦﴾ [التّوبة: 56]، وقد تَكَرَّرَ هذا في مواضِعَ كثيرَةٍ مِنَ القُرْآنِ ومِنْ كلامِ العَرَبِ، فالمعنَى أنَّ في ذلك آياتٍ لِلَّذينَ سَجيَّتُهُمُ العِلمُ[1].

سِرُّ الختامِ بلفظِ ﴿يَعْلَمُونَ﴾:

العلماءُ همُ المنتفعون بالأدِلَّةِ والبَراهينِ

وَجُعِلَ التَّفْصيلُ لأجْلِ ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾؛ لأنَّ العُلَماءَ أهْلَ العُقولِ الراجِحَةِ هُم أهْلُ الانْتِفاعِ بِالأدِلَّةِ والبَراهينِ[2] المُستنبَطون منها الأحكامَ والقوانينَ.

دَلالةُ صيغةِ المضارعيّةِ في ﴿يَعْلَمُونَ﴾:

رُسوخُ العلْمِ في تجدُّدِه، وتكرارِه

الإتيانُ بِالفعلِ المُضارِعِ لِإفادةِ التّكرارِ وتجدُّدِ العِلم؛ وإنّما يتجدّدُ لِمن هو ديدنُهُ ودأبُهُ، فأورد هذا الوصفُ لأهله على سبيلِ التّجدُّدِ والاستِمرارِ؛ ولمّا كانت لهُمُ المعرِفةُ التّامّةُ والنّظرُ الثّاقِبُ في منازِلِ القمرِ عُدّت مِن الجليِّ[3].

بلاغةُ التّعريضِ في جملةِ الفاصلةِ:

غيرُ المنتفِعين بِتفصيلِ الآياتِ ليسوا مِن الّذين يعلمون

إنّ ذِكر لفظِ (قوم) إيماء إلى أنّهُم رسخ فيهِم وصفُ العِلم، فكان مِن مُقوِّماتِ قوميّتِهِم. وفي هذا تعريض بِأنّ الذين لم ينتفِعوا بِتفصيلِ الآياتِ ليسوا مِن الذين يعلمون، ولا مِمّن رسخ فيهمُ العلمُ[4].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الضِّياءُ والنّورُ:

يتردَّد الضِّياءُ والنّورُ، مع وجودِ القدرِ المشتَرَكِ، باعتبارِ الذّاتيَّةِ واللُّزوميَّةِ

إنَّ الضّياءَ ما يتخلَّلُ الهواءَ من أجزاء النّورِ فيبْيَضُّ بذلك، والشّاهدُ أنَّهم يقولون: ضياءُ النَّهار، ولا يقولون: نورُ النَّهار إلا أن

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 2/89.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/97.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/76، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/97.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/97.

يَعنوا الشَّمسَ؛ فالنّورُ الجملةُ الَّتي يَتشعَّبُ منها، والضَّوءُ مصدرُ ضاء يَضوء ضوءٌ. يُقال: ضاء وأضاء، أي: ضاء هو وأضاءَ غَيرَهُ[1].

وقد يُفرَّقُ بينهما بأنَّ الضَّوءَ: ما كان من ذاتِ الشَّيءِ المُضيء، والنّورُ: ما كان مُستَفادًا من غيره[2] وعليه جرى قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا﴾، ويذكرُ الرّاغبُ بأنَّ النّورَ هو الضَّوءُ المنتشرُ الَّذي يُعينُ على الإبصار[3].

ويرى الزمخشريُّ أنَّ النّور ضوءُ النَّهار وضوء كلِّ شيء، وهو نقيض الظُّلمة، والضّياءُ إفراطُ الإنارة، فالنّورُ عنده زيادةٌ في الضّياء. قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا﴾ ويُقدّرُ بأنّ الضّياء هنا مُثبَتٌ، وأنّ النّورَ مَنفيٌ[4].

كما أنَّ الضَّوء يُستعملُ في مجال التَّأثير في الغَيْر، في حين أنّ النّور عامٌّ؛ سواء كان نورُ الشَّيء ذاتيًّا أو عَرَضيًّا منَ الغير، كما في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا﴾، وفيه إشارةٌ للفرقِ بين الضّياء والنّور (الشَّمسُ مضيئةٌ، والقمرُ اكتسب نورَه منَ الشَّمس)، وكذلك يؤيّدُ هذا قولُه سُبحانه: ﴿فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ [البقرة: 17]، يعني: أثرَ تلك النّار بواسطةٍ وبدون واسطةٍ أذهبتْها الرّيح، ولم يبقَ منهم أثرٌ[5].

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 332.
(2) العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 332.
(3) الراغب، المفردات: (نور).
(4) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/157.
(5) التّهانويّ، كشّاف اصطلاحات الفنون والعلوم: 2/1110.

﴿إِنَّ فِي ٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَّقُونَ ٦﴾ [يونس: 6]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الاسْتِدلالُ على تَوحيدِ اللهِ بالمنافعِ الحاصلةِ مِنِ اختلافِ اللَّيلِ والنَّهارِ

لَمّا أشارَ ﷺ إلى الاستدلالِ على فناء العالَم بتغيُّره، وإلى القُدْرة على البعثِ بإيجادِ كلٍّ من المَلَوَيْن (اللَّيلِ والنَّهارِ) بعد إعدامِه، وفيما خَلَقَ اللهُ من أحوال السَّحاب والأمطارِ، وما يحدثُ مِنَ الخسْفِ والزَّلازلِ والمعادن والنَّبات والحيواناتِ وغيرِ ذلك من أحوالٍ لا يحيطُ البشرُ بإحصائِها؛ قال: ﴿إِنَّ فِي ٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ﴾[1]، وقال الرّازيّ: "اعلم أنَّه تعالى استدلَّ على التَّوحيد والإلهيّات أوَّلًا: بتخليق السَّماوات والأرض، وثانيًا: بأحوال الشَّمس والقمرِ، وثالثًا: في هذه الآيةِ بالمنافع الحاصلةِ مِن اختلافِ اللَّيل والنَّهارِ"[2].

المَعْنى الإجْمالِيُّ:

مِن دلائلِ قُدرةِ اللهِ الخالقِ المُبدِعِ وعظمَتِه

إنَّ في تعاقُبِ اللَّيلِ والنَّهارِ، وخَلْفِ أحدِهما الآخَرَ، وفي كلِّ ما خلَقَ اللهُ في السَّماواتِ والأرضِ لَأدلَّةً واضحةً على خالِقِها، وعلى ثُبوتِ المَعادِ إليه يومَ القيامةِ، لقومٍ يتَّقونَ غَضَبَ اللهِ وعِقابَه، فيَصرِفونَ العبادةَ له وحْدَه لا شَريكَ له، ويَمتَثِلونَ أوامِرَه، ويَجتَنِبونَ نواهيَه، لا يحمِلُهم هواهُم على خِلافِ ما وضَحَ لهم من الحَقِّ.

وتشيرُ الآيةُ إلى أنَّ التَّقوى لا تقومُ في كيانِ إنسانٍ إلّا ومعها العِلْمُ؛ ذلك أنَّه إذا نظر النّاظرُ إلى هذا الوجود بعَين العالِم، وبأجهزة العِلْم، رأى في اختلاف اللَّيل والنَّهار، وفي تعاقبهما لمحةً مُشرقةً من لمحاتِ حكمةِ اللهِ، وقُدرتِه وعِلمِه[3].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/76.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 17/210.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 12/120، والشّوكانيّ، فتح القدير: 2/484، والقاسميّ، محاسن التّنزيل: 6/7، والخطيب، التَّفسير القرآنيّ للقرآن: 6/961.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بَلاغةُ الفَصْلِ في الآيةِ:

شملتِ الآيةُ ما هو أعمُّ ممّا خُلقَ في السَّماواتِ والأرضِ

الآيَةُ، آيَةُ اعْتِبارٍ وتَنْبيهٍ؛ ففيها اسْتِدلالٌ بأحْوالِ الضَّوْءِ والظُّلْمَةِ وتَعاقُبِ اللَّيْلِ والنَّهارِ على انْفِرادِ اللّه تَعالى بِالخَلْقِ والتَّقْديرِ، واستشهادٌ بما هو أعَمُّ مِنَ الدَّليلِ الأوَّلِ مِن عَطْفِ قوله: ﴿وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾؛ لِشُمولِهِ ما هو أكْثَرُ مِن خَلْقِ الشَّمسِ والقَمَرِ، ومِن خَلْقِ اللَّيْلِ والنَّهارِ، ومِن كُلِّ ما في الأرْضِ والسَّماءِ مِمّا تَبْلُغُ إليه مَعْرِفَةُ النّاسِ في مُخْتَلَفِ العُصورِ وعلى تَفاوُتِ مقاديرِ الاسْتِدْلالِ مِن عُقولهم، وفي ذلك عِبرةٌ عظيمةٌ[1].

بَلاغةُ التَّوكيدِ بـ ﴿إِنَّ﴾ في المطلَعِ:

إنكارُ الآياتِ مَظنَّةِ التَّوكيدِ

تَأْكيدُ هذا الاسْتِدْلالِ بِحَرْفِ ﴿إِنَّ﴾ لِأجْلِ تَنْزيلِ المُخاطَبينَ به الَّذينَ لم يَهْتَدوا بتلك الدَّلائِلِ إلى التَّوْحيدِ مَنزِلَةَ مَن يُنْكِرُ أنَّ في ذلك آياتٍ على الوَحْدانيَّةِ بِعَدَمِ جَرْيِهِم على موجَبِ العِلْمِ[2].

دَلالةُ صيغةِ الافتعالِ: ﴿ٱخْتِلَٰفِ﴾:

الاخْتِلافُ ذَهابُ كُلٍّ مِنَ اللّيلِ والنَّهارِ في غَيْرِ جِهَةِ الآخَرِ

لَفْظَةُ (الاخْتِلافِ) (افتعال) تَعُمُّ تَعاقُبَ اللَّيْلِ والنَّهارِ وكَوْنَهُما خَلْفَهُ وما يَتَعاوَرانِه مِنَ الزِّيادَةِ والنَّقْصِ، وغَيْرِ ذلك مِن لَواحِقِ سَيْرِ الشَّمسِ وبِحَسَبِ أقْطارِ الأرْضِ[3]، ففيها المبالغةُ والاجتهادُ في طلب الفعل، والمشاركةِ فيه؛ فالاخْتِلافُ: ذَهابُ كُلٍّ مِنَ الشَّيْئَيْنِ في غَيْرِ جِهَةِ الآخَرِ، فاخْتِلافُ المَلَوَيْنِ: ذَهابُ هذا في جِهَةِ الضِّياءِ وذاك في جِهَةِ الظَّلامِ[4].

الاختلافُ التَّفاوتُ في الطّولِ والقِصَرِ

ولِلاخْتِلافِ مَعْنًى آخَرُ هو مُرادٌ أيْضًا وهو تَفاوُتُهُما في الطّول والقِصَرِ، فَمَرَّةً يَعْتَدِلانِ ومَرَّةً يَزيدُ أحَدُهُما على الآخَرِ، وذلك

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/97.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/97.
(3) ابن عطيّة، المُحرَّر الوجيز: 3/106.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/77.

بِحَسَبِ أَزْمِنَةِ الفُصولِ، وبِحَسَبِ أمكِنَةِ الأَرْضِ في أَطْوالِ البِلادِ وأَعْراضِها كما هو مُقَرَّرٌ في عِلْمِ الهَيْئَةِ، وهذا أَيْضًا مِن مَواضِعِ العِبْرَةِ؛ لأَنَّهُ آثارُ الصُّنْعِ البَديعِ في شَكْلِ الأَرْضِ ومِساحَتِها لِلشَّمسِ قُرْبًا وبُعْدًا، ففي اخْتيارِ التَّعْبيرِ بِالاخْتِلافِ هُنا سِرٌّ بَديعٌ لِتَكونَ العِبارَةُ صالِحَةً لِلْعِبْرَتَيْنِ[1].

سِرُّ تأخيرِ الآياتِ وتقديمِ جُملتَيِ الاختلاف والخلْقِ:

بعدَ ذكْرِ الدَّلائلِ نبّهَ إلى الحذرِ منَ العواقبِ

سيقَتِ الجُمَلُ السّابقةُ سَوقَ الدَّلائِلِ[2]، فاسْتَدَلَّت على التَّوْحيدِ والإلَهيّاتِ: بِتَخْليقِ السَّماواتِ والأَرْضِ، وبِأَحْوالِ الشَّمسِ والقَمَرِ، وبِالمَنافِعِ الحاصِلَةِ مِنِ اخْتِلافِ اللَّيْلِ والنَّهارِ، وبِكُلِّ ما خَلَقَ اللّٰه في السَّماواتِ والأَرْضِ، وهي أَقْسامُ الحَوادِثِ الحادِثَةِ في هذا العالَمِ، وهي مَحْصورَةٌ في الأَحْوالِ الحادِثَةِ في العَناصِرِ الأَرْبَعَةِ، ويَدْخُلُ فيها أَحْوالُ الرَّعْدِ والبَرْقِ والسَّحابِ والأَمطارِ والثُّلوجِ، ويَدْخُلُ فيها أَيْضًا أَحْوالُ البِحارِ، وأَحْوالُ المَدِّ والجَزْرِ، وأَحْوالُ الصَّواعِقِ والزَّلازِلِ والخَسْفِ، وفي أَحْوالِ المَعادِنِ، وهي عَجيبَةٌ كثيرَةٌ، وفي اخْتِلافِ أَحْوالِ النَّباتِ، وفي اخْتِلافِ أَحْوالِ الحَيَواناتِ.

ثُمَّ إِنَّهُ تعالى بَعْدَ ذِكْرِ هذه الدَّلائِلِ و(الآياتِ) نبَّهَ وأحالَ العقلاءَ على مَقامِ الحَذَرِ منَ العَواقبِ ليدَّبَّروا ويعتبِروا[3]، قال القَفّال: "مَن تَدَبَّرَ في هذه الأَحْوالِ عَلِمَ أَنَّ الدُّنْيا مَخْلوقَةٌ لِبَقاءِ النّاسِ فيها، وأَنَّ خالِقَها وخالِقَهم ما أَهْمَلَهم بَلْ جَعَلَها لَهم دارَ عَمَلٍ، وإذا كانَ كذلك فَلا بُدَّ مِن أَمرٍ ونَهْيٍ"[4].

وَجْهُ الطِّباقِ بين اللّيلِ والنّهارِ:

اللَّيلُ والنَّهارُ مُتلازمانِ، ولا يُعرَفُ الواحدُ منهما إلّا بدَلالةِ الآخَرِ

اجتماعُ الضّدّيْن في الكلام، منَ الحُليّ البديعيَّةِ؛ لأَنَّ الخِطابَ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 2/79.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 17/210.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 17/210.
(4) الشوكاني، فتح القدير: 2/484.

طابَق الضِّدَّين في نسقٍ جلاليٍّ بالقدْر المشترك بين اللَّيلِ والنَّهارِ من تَعاقُبِهما، وكَوْنِ كُلٍّ منهُما خِلْفَةً لِلآخَرِ؛ إذا جاءَ هذا ذَهَبَ هذا، وإذا ذَهَبَ هذا جاءَ هذا، لا يَتَأَخَّرُ عَنْهُ شَيْئًا[1]، والحاصلُ: أنَّ اللَّيلَ والنَّهارَ ظاهرَتان مُتلازِمتان، ولا يُعرَفُ الواحدُ منهما إلّا بدَلالةِ الآخَر.

نُكتةُ تقديمِ اللّيلِ على النّهارِ:

النُّكتةُ في تقديم اللَّيل على النَّهارِ في سياقِ التَّعبير القُرآنيِّ الاعتبارُ بالظَّلامِ الَّذي كانَ أصْلًا في هذا الوُجودِ؛ وأمّا الضّياءُ فحادِثٌ، بدليل قولِه تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيۡلُ نَسۡلَخُ مِنۡهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظۡلِمُونَ ٣٧﴾ [يس: 37]؛ إذ: "يَرْمي بِالنَّهارِ على اللَّيْلِ فَيَأْتي بِالظُّلْمَةِ، وذلك أنَّ الأصْلَ هي الظُّلْمَةُ والنَّهارُ داخِلٌ عليه، فَإذا غَرَبَتِ الشَّمسُ سُلِخَ النَّهارُ مِنَ اللَّيْلِ أيْ: كُشِطَ وأُزيلَ، فَتَظْهَرُ الظُّلْمَةُ"[2]. فـ" الأصْلُ في هذا الوُجودِ الظَّلامُ؛ والضّياءُ حادِثٌ؛ وكانَ ضياؤُهُ لَيْسَ خالِصًا"[3].

الظلامُ أصلٌ في الوجودِ، والضّياءُ حادِثٌ عليه

والتَّقديمُ باعتبارِ الأسبقيَّةِ على عوائد القرآن الكريم؛ فحيثما وردَ اللَّيلُ والنَّهارُ، قُدِّمَ اللَّيلُ على النَّهارِ؛ لأسبقيَّته في الوجودِ، وكذلك تَقديمُ الشَّمسِ على القمرِ.

دَلالةُ الواوِ في: ﴿وَمَا﴾:

يُساقُ حرفُ العَطفِ (الواو)؛ ليفيدَ الجمعَ والمشاركةَ بينَ المَعطوفِ والمعطوفِ عليه في حُكمٍ واحدٍ. وعليه: فإنَّ واوَ العطْفِ في قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾؛ للجمعِ بين الاستدلالِ الأعَمّ مِنَ الدَّليلِ الأوَّلِ لِشُمولِهِ ما هو أكْثَرُ مِن خَلْقِ الشَّمس والقَمَرِ، ومِن خَلْقِ اللَّيْلِ والنَّهارِ، ومِن كُلِّ ما في الأرْضِ

الجمعُ بين الاستدلالِ الأعَمِّ مِنَ الدَّليلِ الأوَّلِ

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/249.
(2) الشوكاني، فتح القدير: 4/423، وعزاه إلى الفرّاء، وهو مذكور بمعناه في معاني القرآن: 2/378.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/128.

والسَّماءِ مِمّا تَبْلُغُ إليه مَعْرِفَةُ النّاس في مُخْتَلفِ العُصورِ وعلى تَفاوُتِ مَقاديرِ الاِسْتِدْلالِ مِن عُقولهم[1].

إيثارُ الموصولِ (ما):

المُـرادُ جميعُ المخلوقاتِ فلا يفوتُ شيءٌ ممّا خَلَقَ

أوثرَ الاسمُ الموصولُ المُبهمُ؛ لتحقيقِ عُمومِ الإحالةِ على جميعِ المَخْلوقاتِ تقريرًا لمقصد انْفِرادِ اللّه تَعالى بِالخَلْقِ والتَّقْديرِ، فهو سُبحانه خلقَ كلَّ شيء في السَّماواتِ والأرض، من عاقلٍ وغيرِ عاقلٍ، من حيٍّ وجمادٍ، من ظاهرٍ وباطنٍ، من كبيرٍ وصغيرٍ، فلا يفوتُ شيءٌ ممّا خَلَقَ.

عِلةُ التَّعبيرِ عن خلْقِ الله بالماضي:

القَصْدُ تيقُّنُ وُقوعِ الخَلْقِ

والقَصدُ من سَوْقِ الخَلْقِ بصيغة الماضي، إفادةُ اليقينِ بوقوعِه، ودليلُه حاضرٌ يُشاهدُ، وماثلٌ يُرى، وذلكم محطُّ الاعتبار والتَّفكُّرِ لا الإنكارِ والتَّحيُّرِ.

وَجْهُ إظهارِ فاعلِ الخَلْقِ:

قصْرُ خاصيَّةِ الخَلْقِ على مَنْ لـه الإحاطَةُ الكامِلَةُ والقُدرةُ المُطْلَقةُ

إظهارُ فاعلِ الخَلْقِ في قولِه تعالى: ﴿وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ﴾ لقصْرِ خاصيّةِ الخَلقِ على مَنْ له الإحاطَةُ الكامِلَةُ[2]، فضلًا عن كوْنِ الخَلْقِ من مواضعِ الكمالاتِ، والعَظَمةِ الَّتي لا يقدرُ عليها إلا مَنْ له القُدرةُ المُطْلَقةُ، والتَّمكينُ، والسُّلطانُ.

دَلالةُ (في):

الاحْتواءُ واستيعابُ الظَّرفيّةِ الزّمانيّةِ والمكانيّةِ

للحرف (في) دلالاتُ الاحتواءِ والاستيعابِ، وهو بما قد يحملُه من معاني الظَّرفيَّةِ الزّمانيّةِ والمكانيّةِ، سيق للاسْتِدْلالِ بِأحْوالِ الضَّوْءِ والظُّلْمَةِ، وتَعاقُبِ اللَّيْلِ والنَّهارِ، وفي ذلك عِبْرَةٌ عَظيمَةٌ.

نُكتةُ تقديمِ السَّماواتِ على الأرض:

وتقديمُ السّماء على الأرض، فيه معنى أنَّ السَّماواتِ والأرضَ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/97.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/194.

تُذكر غالبًا في سياقِ آياتِ الرَّبِ الدّالَّةِ على وَحدانيَّتِه، ورُبوبيَّتِه؛ ومعلومٌ أنَّ الآياتِ في السَّماواتِ أعظمُ منها في الأرضِ؛ لسَعَتِها، وعِظَمِها، وما فيها من كَواكِبِها، وشَمسِها، وقَمَرِها، وبُروجِها، وعُلوِّها، واستغنائِها عن عَمَدٍ تُقِلُّها، أو عِلاقَةٍ ترفَعُها، إلى غيرِ ذلك من عَجائِبِها، وما فيها كقطرةٍ في سَعَتِها؛ ولهذا أمرَ سُبْحانَه بِأنْ يُرجِعَ النّاظِرُ فيها البَصَرَ كَرَّةً بعد كَرَّةٍ، ويتأمّلَ استواءَها، واتّساقَها، وبراءَتها منَ الخلل، والفُطورِ، فالآيةُ في السَّماواتِ أعظمُ منَ الأرض، وفي كلِّ شيءٍ له آيةٌ سُبحانَه وبحمدِه[1].

آياتُ السَّماواتِ أعظمُ منها في الأرضِ

بيانُ معنَى اللّامِ في ﴿لَآيَٰتٍ﴾:

دخلتِ اللّامُ على اسْمِ إنَّ وهو قولُه: ﴿لَآيَٰتٍ﴾؛ لِحَيْلولَةِ الخَبَرِ بَيْنَهُ وبَيْنَها، إذْ لَوْ كانَ يَليها، ما جازَ دُخولُها، وهي لامُ التَّوْكيدِ، فصارَ في الجُملَةِ حَرْفا تَأْكيدٍ: إنَّ واللّام[2].

التَّوكيدُ بأنَّ آياتِ اللهِ دليلُ كمالِ قُدرتِه

والآياتُ جمع آية، وهي الأمرُ الكونيُّ الدّالُّ على وَحدانيّة اللّه وكمالِ قُدرتِه، وإبداعِ الكوْنِ على غيرِ مثالٍ سابقٍ، وأنَّه سُبحانه مُنْشئُ الكون بإرادتِه[3]، وهذا المعنى مَظنّةُ التَّوكيدِ.

وَجْهُ جمعِ الآياتِ جمعَ تأنيثٍ:

وتَحريرُ القولِ في جَمعِ الآياتِ؛ أنَّ في كُلِّ ما ذُكِرَ مِن خَلْقِ السَّماواتِ والأرْضِ وما عُطِفَ عليه آياتٍ؛ ليكونَ الكَونُ دالّا على أنَّ له خالقًا مُدبِّرًا مُختارًا، مُتعدّدَ الآيات، مُتنوّعَ الدّلالات؛ ليتّعظَ الغافلُ، ويهتديَ بالأَمارات الضّالُّ.

تعدُّدُ الآياتِ وتنوُّعُها سبيلُ التَّفكُّرِ والاتِّعاظِ

سِرُّ تنكيرِ الآياتِ:

التَّنْكيرُ في الآياتِ لِلتَّفْخيمِ كَمًّا وكَيْفًا؛ على معنى: أنَّها آياتٌ

تفخيمُ آياتِ اللهِ العظيمةِ الكثيرةِ

(1) ابن القيّم، بدائع الفوائد: 1/130.
(2) المحيميد، الإعراب المحيط من تفسير البحر المحيط: 1/345.
(3) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 7/3519.

عَظيمَةٌ وكَثيرَةٌ، وهي على كثرتِها دالَّةٌ على القُدْرَةِ والحِكْمَةِ الباهِرَةِ، والرَّحْمَةِ الواسِعَةِ المُقْتَضيَةِ لاخْتِصاصِ الأُلوهيَّةِ بِهِ سُبحانَه[1].

دَلالةُ اللّامِ في ﴿لِّقَوْمٍ﴾:

تخصيصُ الآياتِ للمُتَّقين تعريضٌ بالمشركين

اللّامُ لِلتَّعْليلِ، والمُعَلَّلُ هو ما في مَدْلولِ الآياتِ مِن مُضَمَّنِ معنى الدَّلالَةِ والنَّفْعِ. وقد صَرَّحَ في هذا بأنَّ الآياتِ إنَّما تَنْفَعُ القَومَ المُتَّقين تَصْريحًا بأنَّهُمُ المَقْصودُ في الآيَتَيْنِ الأُخْرَيَيْنِ بقوله، وإتْمامًا لِلتَّعْريضِ بالمُشْرِكينَ[2] بأنَّهم لم يَنْتَفِعوا بهذه الآياتِ ولم يهتَدوا بها؛ فلَيْسَتْ عُقولُهم براسِخَةٍ ولا هي مَلَكاتٌ لَهم، ولا يَخافون العواقبَ[3]، ولْيَعلَموا أنَّ بُعْدَهم عنِ التَّقوَى هو سببُ حِرمانِهم مِنَ الانتِفاعِ بالآياتِ، وأنَّ نَفْعَها حاصِلٌ للَّذين يتَّقون، أي: يَحذَرون الضَّلالَ[4].

الآياتُ دَلائِلُ لِقَوْمٍ يَقومونَ في الأمرِ حَقَّ القيامِ

ويَجوزُ أنْ يَكونَ الجارُّ والمَجرورُ ظَرْفًا مُسْتَقِرًّا في مَوْضِعِ الحالِ مِنَ الآياتِ، أيْ حالَ كَوْنِها دَلائِلَ لِقَوْمٍ يَقومونَ في الأمرِ حَقَّ القيامِ؛ إذ فيهِ إشْعارٌ بأنَّ ذلك لا يَنالُهُ مَن هو في سِنِّ النّاس حَتّى يَتَنامى طَبْعُهُ وفَضيلَةُ عَقْلِهِ إلى أنْ يَكونَ مِن قَوْمٍ يَقومونَ في الاعْتِبارِ قيامَ المُنْتَهِضينَ في أُمورِ الدُّنْيا؛ لِأنَّ العَربَ عَرَفَتِ اسْتِعْمالَها في القَوْمِ إنَّما هو لِأجْلِ النَّجْدَةِ والقوَّةِ حَتّى يَقولونَ: قَوْمٌ أوْ نِساءٌ. تَقابُلًا بَيْنَ المَعْنَيَيْنِ[5].

وَجْهُ تَكرارِ لفظةِ ﴿لِّقَوْمٍ﴾ في الآيَتَيْن:

مِن مُقَوِّماتِ القوميّةِ رسوخُ وصْفِ العِلْمِ والتَّقوَى في أهْليهم

ذِكْرُ لَفْظِ (قَوْم) في الآيتين إيماءٌ إلى أنَّهم رَسَخَ فيهم وصْفُ العِلْمِ والتَّقوَى، فَكانا مِن مُقَوِّماتِ قَوْميَّتِهم، وأنَّ ذلك الوصْفَ سَجيَّةٌ فيهم، ومِن مُكَمِّلاتِ قَوْميَّتِهم، فَإنَّ لِلْقَبائِلِ والأُمَمِ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 1/185.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 7/404.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 2/82.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/98.
(5) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 2/298.

خَصائِصَ تُمَيِّزُها وتشْتَهِرُ بِها كما قال تعالى: ﴿وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ۝٥٦﴾ [التَّوبة: 56]، وقد تَكَرَّرَ هذا في مواضِعَ كَثيرَةٍ مِنَ القُرْآنِ ومِن كلامِ العَربِ، فالمعنى: أنَّ في ذلك آياتٍ لِلَّذينَ سَجيَّتُهُمُ العَقْلُ والتَّقوَى[1].

بيانُ التَّشابُهِ بين ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾، و﴿لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾:

انتِفاعُ الّذين يعلَمون بالتَّفصيلِ أكثرُ وأكْملُ

خُصَّ مَن يَعلَمُ بتَفصيلِ الآياتِ لهم، مع أنَّه تعالى فَصَّل الآياتِ للجُهَلاءِ أيضًا؛ لأنَّ انتِفاعَهم بالتَّفصيلِ أكثرُ[2]؛ فهُمُ الَّذين يَنتَفِعون بتَفصيلِ الآياتِ، ويتَدبَّرون بها في الاستِدْلالِ، والنَّظرِ الصَّحيحِ[3].

المتّقونُ يَخشَونَ الوقوعَ في شأنِ مخافةِ اللهِ ويحذَرون ذلك

وخَصَّ المتَّقينَ؛ لأنَّهم الَّذين يحذَرون منَ الوُقوعِ في شَيءٍ مِمّا يخالِفُ مُرادَ اللهِ سُبحانه، ويَخافون العَواقِبَ، فيَحمِلُهُمُ الخوفُ على التَّدَبُّرِ والنَّظَرِ[4].

نُكتةُ التَّعبيرِ عنِ التّقوى بالمضارعِ:

تجدُّدُ التَّقوَى سجيَّتُهم ودَيْدنُهم ودأْبُهم

والإتْيانُ بالفِعْلِ المُضارِعِ لإفادَةِ التَّكْرارِ والتَّجدُّدِ على وجهِ السَّجيَّةِ[5]، فهمُ الدّائمون على التّقوَى، الدّائبون على تحصُّلِ أسبابِها.

سِرُّ تخصيصِ المتّقين بالذِّكْر:

إعلاءُ مقامِ المتّقين عندَ اللهِ ثمَّ النّاسِ

خَصَّ ﷻ المُتَّقينَ بالتَّذكيرِ تَشْريفًا لَهم؛ إذِ الاعْتِبارُ فيهم يَقَعُ[6]؛ ولِأنَّهم يَحْذَرونَ العاقِبَةَ فَيَدْعوهُمُ الحَذَرُ إلى التَّدَبُّرِ والتَّأمُّلِ؛ لِأنَّ التَّقْوَى هي الدّاعيَةُ لِلنَّظَرِ[7]؛ فالمُتَّقون همُ المتَّصِفون باتِّقاءِ ما يوقِعُ في الخُسْرانِ، فيَبعَثُهم على تَطلُّبِ أسبابِ النَّجاحِ، فيتَوجَّهُ الفِكْرُ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 2/82.
(2) الأنصاريّ، فتح الرّحمن بكشف ما يلتبس في القرآن: 1/243.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/15.
(4) المقدّم، تفسير القرآن الكريم: 7/81.
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/97.
(6) الزُّحيليّ، التَّفسير الوسيط: 2/944.
(7) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 17/210.

إلى النَّظرِ والاستِدْلالِ بالدَّلائلِ[1]، لذلك عُدّتْ ميزانَ التَّفاضُلِ في الإسلام، وسببَ تحصُّلِ الإكرام، والقُربِ منَ العلّام.

تَنْزيلُ الفعْلِ المُتَعَدّي منزلةَ اللّازمِ:

تنزّلُ الفعلِ المُتعدّي منزلةَ اللّازمِ يجعلُ التّقوَى وصْفًا مُلازِمًا لأهلها تحريضًا على التّأسّي

قَصَدَ بتنزيل الفعْلِ المُتعدّي مَنزِلةَ الفعلِ اللّازِم في قوله: ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾، وقولِه: ﴿لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾ إلى إثبات معنى الفعلِ لفاعِلِه، أي: أنّهم ذَوو علْمٍ وذَوو تقوَى، وأنّهم متّصفون بتلك الصِّفة، ويلزمُ بعد ذلك تقوَى اللّه؛ وفي ذلك دلالةٌ على السَّجيَّةِ وملازمةِ الأوصاف لذَويها[2].

تناوبُ التّعبيرِ بالفاصلةِ بألفاظِ العلم والإيمان واليقين والتقوى:

دَلالاتُ الآياتِ يُدركُها مَن يتّصفُ بالإيمانِ، والعلْمِ، واليقينِ، والتّقوَى

ذَكَرَ سُبحانَه أوصافَ من يُدرِكونَ الدّلالاتِ البيِّنَةَ، وأحالَ على الّذين ﴿يَعْلَمُونَ﴾ [مثلاً: يونس: 5]، ومرّةً على الّذين ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ [مثلاً: الأنعام: 99]، وأخرى على الّذينَ ﴿يُوقِنُونَ﴾ [مثلاً: البقرة: 118]، ومرّةً رابعةً على الّذين ﴿يَتَّقُونَ﴾ [مثلاً: البقرة: 187]، وهُمُ الّذين يُدرِكون ما تَدلُّ عليه الآياتُ، ومَن لا يُدرِكُها ليس عنده علمٌ ولا إيمانٌ ولا يقينٌ ولا تَقوَى، وعَدمُ إدراكِهم ناشئٌ عن ظَنِّهم أنَّ الحياةَ الدُّنيا هي كلُّ شيءٍ فلا يَتَدبَّرون ما بعدَها ويُنكِرون البَعثَ[3].

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/98.
(2) عفيف، الشّامل في بلاغة القرآن: 2/3.
(3) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 7/3519 - 3520.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُواْ بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَٱطۡمَأَنُّواْ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ٧ أُوْلَٰٓئِكَ مَأۡوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ٨﴾ [يونس: 7 - 8]

مُناسَبَةُ الآيَتَينِ لِما قَبلَهُما:

بيانُ الأدِلَّةِ يَعقُبُهُ حالُ النّاسِ منها إعراضًا وإقبالًا

لَمّا بيّنَ الحقّ ﷻ الآياتِ والدّلائلَ الواضحةَ على وجودِه تعالى وأنّهُ الخالقُ الحكيمُ، وعلى القولِ بالحشرِ والنّشرِ والبعثِ والجزاءِ على الأعمالِ؛ ذكرَ عَقِبَ ذلك بيانَ أحوالِ الكافرينَ بها، وبهم بدأ قبل بيان أحوالِ المؤمنينَ الموقنينَ بها، ثمّ بيّنَ جزاءَ كلّ من الفريقينِ[1]، فالمناسبة بين الآيات هيَ بيانُ حال النّاس من الأدلَّة الظّاهرة الباهرة، وما يَسْلكونَهُ مِن مسالكِ الإيمانِ والكُفران، وجزاءِ ذلك في الآخِرَة، بيانًا للحقِّ والعَدْل.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَرۡجُونَ﴾: فعلٌ مضارعٌ مسندٌ للجماعةِ، والجذرُ اللّغويّ منهُ الرّاء والجيم والحرف المعتلّ، ومنهُ الرّجاءُ، وهوَ الأملُ ونقيضُ اليأسِ، وربّما عبّرَ عن الخوفِ بالرّجاءِ اتّساعًا، ومنْ معانيهِ الظنّ الّذي يستلزمُ نيلَ ما فيهِ المسرّة، وللرّاجي حالانِ؛ هما: الأملُ لما يرجوهُ، والخوفُ منْ فواتهِ، والرّجاءُ في أصلهِ: إشرافُ الجسمِ على مهواةٍ، كَبِئْرٍ ونحوهِ، ومنهُ أُخذَ الإشرافُ على كلِّ خيرٍ كما يشعرُ الرّاجي أنّهُ مشرفٌ على خيرٍ وطامعٌ فيهِ ومتوقّعٌ الحصولَ على ما يرجوهُ[2]، ومعنى ﴿يَرۡجُونَ﴾ في الآيةِ: يظنّونَ وقوعَ الشّيءِ غيرَ مقيّدٍ بكونهِ محبوبًا فـ ﴿لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا﴾ أيْ: لا يظنّونهُ أوْ يتوقّعونهُ[3].

(1) الهرريّ، تفسير حدائق الرّوح والرّيحان: 12/128.
(2) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، والسّمين، عمدة الحفّاظ، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (رجو).
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/99.

2) ﴿لِقَآءَنَا﴾: مصدرٌ للفعلِ لقيَ يلقَى لقاءً، الجذرُ اللّغويّ منهُ: اللّام والقافُ والياءُ، وإذا صادفَ شيءٌ شيئًا آخرَ أو استقبلهُ أو واجههُ فقدْ لقيهُ، واللّقاءُ قدْ يكونُ بالحسِّ والإدراكِ، وقدْ يكونُ بالبصرِ والبصيرةِ، والمرادُ بملاقاةِ اللّه ﷻ: المصيرُ إليه في الآخرةِ، وأنْ يلاقيَ المرءُ ثوابَهُ وعقابَهُ، واللّقاءُ في الآيَة الكريمَةِ بمعنى يومِ القيامةِ يومِ الجزاءِ والعقابِ[1].

3) ﴿وَٱطۡمَأَنُّواْ﴾: فعلٌ ماضٍ مسندٌ للجماعةِ، والجذرُ اللّغويّ منهُ: الطّاءُ والميمُ والنّون، واطمئنانُ النّفسِ: سكونُها واستئناسُها، وهوَ الأصلُ في الطّاءِ والميمِ والنّونِ، والسّكونُ يحصلُ بعدَ التّهيّجِ والانزعاجِ، والنّفسُ المطمئنّةُ هيَ المؤمنةُ الّتي أخبتتْ لربّها، وكلّ ما جاءَ في القرآنِ من الاطمئنانِ والطّمأنينةِ يأتي على معنى السّكونِ النّفسيّ والقلبيّ ونبذِ القلقِ والوَجلِ والحذرِ[2]، ومعنى ﴿وَٱطۡمَأَنُّواْ﴾ في الآيةِ: أنّهم سَكَنوا إليْها سكونَ الواجدِ إلى محبوبِه، وهذهِ غايةُ الانكبابِ والانغماسِ في المتَعِ الجسديّةِ[3].

4) ﴿غَٰفِلُونَ﴾: جمعُ سلامةٍ، مفردهُ غافلٌ، والجذرُ اللّغويّ منهُ الغَيْنُ والفاءُ واللّامُ، وهو يدلُّ على التّركِ سهوًا أوْ عمدًا، والغفلُ فَقْدُ الفطنةِ، ورجلٌ غُفْلٌ: الّذي لم يختبرِ الأمورَ، والغفلةُ "سَهْو يَعْتري الإنسانَ منْ قلّةِ التَّحفُّظِ والتَّيقّظِ"، والغفلةُ في الدّنيا: تركُ النّظرِ والاعتبارِ بسببِ حبِّ الشّهواتِ، وعامّةُ ما وردَ في القرآنِ الكريمِ منْ مادّة غفلَ وما اشتُقَّ منْها هوَ في عدمِ التَّنبُّهِ[4]، ومعنى ﴿غَٰفِلُونَ﴾ في الآيةِ أيْ: جاحدونَ تاركونَ آياتِنا الّتي أنزلناها عَليْهم وفيها هدايتُهم.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

يُبيّنُ تعالى حالَ الّذينَ لا يَعتقدونَ لِقاءَهُ يومَ البعثِ لِلحسابِ والجَزاءِ، بِسَببِ ما يَعْتريهم من الاطْمِئنانِ للحياةِ الدُّنيا، وغَفْلَتِهم عَن عَظيمِ الأدِلَّةِ والبَراهين والآياتِ، بأنَّ

(1) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، والسّمين، عمدة الحفّاظ، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (لقى)، والخازن، لباب التّأويل: 3/175.

(2) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، والزّبيدي، تاج العروس، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (طمن).

(3) النّيسابوريّ، غرائب القرآن: 3/562.

(4) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، والسّمين، عمدة الحفّاظ، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (غفل).

جَزاءَهم النّارُ بما كانوا يَكْسِبونَهُ في الدُّنيا بِسَببِ عَظيمِ الغَفْلَة، وكَبيرِ الشَّهوةِ، وأنَّ الاعتقادَ الباطِلَ لا يتوقَّف على الأفكارِ الباطِلَة، بَل على المشاعِرِ والأحاسيسِ واليَقَظة لِأمرِ اللّه تَعالى.

الاطمئنانُ للدُّنيا والغفلةُ عن آياتِ الله مَسْلكُ الفُجّار

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ الاسْتِئنافِ في الآيَةِ:

قولُه تَعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا﴾ اسْتِئنافٌ وعيدٍ لِمَن يكفرُ بالبعثِ ولم يُرِدِ الحياةَ الآخرةَ ولَم يتفكّرْ في الآياتِ، وهوَ استئنافٌ ناشئٌ عن الاستدلالِ على كُفرِهم بكلِّ ذلكَ، جمعَ فيهِ بينَ الاستدلالِ والوعيدِ؛ فهوَ استدلالٌ لأهلِ الحِجا، ووعيدٌ لِمَنْ أعرضَ عن الحقِّ، وفي ذلكَ إشارةٌ إلى عدمِ انتفاعِ هؤلاءِ بما أُقيم لهم منَ الأدِلّةِ؛ لأنّهم سادِرونَ في غيّهِم، وإنّما ينتفعُ بها المتّقونَ العالِمونَ[1].

جمَعَ الاسْتِئنافُ بَين وعيدِ المكذِّبينَ واسْتِدلالٍ لِلمؤمنينَ أهلِ العُقولِ الرّاجِحَةِ

فائدَةُ التّعبيرِ بالاسمِ الموصولِ الجَمعيّ ﴿ٱلَّذِينَ﴾:

أفادَ التّعبيرُ بالاسمِ الموصولِ في قولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا﴾ الإيماءَ إلى أنّ الصّلةَ المشيرةَ إلى نَفْيِ الرّجاءِ في لِقاءِ اللّه تعالى هيَ علّةُ وقوعِ الخبرِ[2]، وما يَكون لَهُم مِن العذابِ الشَّديدِ، فَفيهِ بَيانُ أَثَرِ الاعْتقادِ في الجزاءِ، وأنَّهُ الأصْلُ الّذي تُبنى عَليهِ الأعمالُ، وجيءَ بِالاسْمِ الموصولِ جَمعًا؛ لبيانِ اجتماعِ الضّالينَ على مُعتقدٍ واحدٍ، وإنْ تَفرَّقوا فيما سواهُ، وأنَّ حالَهُم في كلِّ زمانٍ ومكانٍ يَتكرَّر بِذلِكَ الاجْتماعِ على مائدَةِ الكُفْرِ والبُهتانِ.

الجزاءُ مَبنيٌّ على الاعتقادِ فهو الأصْلُ في الأعمالِ القَلْبيَّةِ والسُّلوكيَّةِ

فائدَةُ العُدولِ إلى الاسْمِ الظّاهرِ في: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا﴾:

عدلَ النَّظْم القرآنيُّ عَنِ التّعبيرِ بالخِطابِ في الآياتِ السّابقةِ في قولِه: ﴿إِلَيۡهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعًاۖ﴾ إلى التّعبيرِ بالاسمِ الظّاهرِ في هذهِ الآيَةِ؛ لِوقوعِ هذهِ الجملةِ الدّالّةِ على الوَعيدِ مَوقعًا صالحًا لأنْ

الجَمعُ بَين وَعدِ المؤمنينَ بِثَباتِهم على الحقِّ ووَعيدِ الكافرينَ بِعِنادِهم على الباطِلِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/98.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/99.

يعلمَهُ جميعُ النّاسِ؛ المؤمنونَ والكافِرونَ على حدٍّ سَواءٍ[1]، فيَكون ذلكَ لِلمؤمنين مزيدَ إيقانٍ بالحقِّ الّذي يؤمنونَ بِهِ، فهيَ لَهم وَعدٌ، ولِلكافرينَ مَزيدُ وَعيدٍ لِلباطلِ الّذي يَلِجّون فيه، والضّلالِ الّذي يخوضونَ فيهِ.

غَرَضُ التّقديمِ في: ﴿ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا﴾:

مَجيءُ الخَبَرِ مُتَراخيًا يُفيدُ تَشْويقَ السّامعِ لِتَحْريكِ عَقْلِهِ وقَلْبِه

المُسنَدُ إلَيْهِ في قولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا﴾ - وهو الاسمُ الموصولُ - قُدِّم على المسْندِ وهو ﴿أُوْلَٰٓئِكَ مَأۡوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ﴾؛ لِغَرضِ التّشويقِ، فإنَّ السّامعَ يَترقّبُ مَعْرفَةَ ما لِأولئكَ الّذينَ لا يَرْجونَ لِقاءَ اللّه تَعالى، فَجاءَ المُسْندُ مُتأخّرًا ومُركَّبًا؛ لِيَقعَ الخَبَرُ في نَفْسِ المُتلقّي قَويًّا، فَيوقِظ سُباتَ العُقول، ويحيي بذْرةَ الإيمانِ.

وإنّ ممّا يزيدُ منْ عنصرِ التّشويقِ ويُقوّيهِ طولَ جملةِ الصّلةِ منْ نفيٍ وفعلٍ وفاعلٍ ومفعولٍ ومضافٍ إليهِ، ثمَّ ما عطفَ عليها منْ جملةِ الرّضا بالحياةِ الدّنيا والاطمئنانِ بها والغفلةِ عن الآياتِ، وهيَ كما تَرى تُعدّ فاصِلًا بينَ المُسندِ إلَيهِ والمُسندِ وهو ممّا يزيدُ مِن عاملِ التّشويقِ.

سِرُّ التّعبيرِ عَن إنْكارِ البَعثِ بِ: ﴿لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا﴾:

تَكْرارُ (الَّذينَ لا يَرْجونَ لِقاءَنا) لِيَكونَ عَلامةً فارقةً علَيهِم في القرآنِ

جاءَ التَّعبيرُ عَن إنْكارِ البَعْثِ بِقَولِه تعالى: ﴿لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا﴾ في سورةِ يونُس ثَلاثَ مرّاتٍ، في هذهِ الآيَةِ، وفي قولِه: ﴿فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ١١﴾ [يونس: 11]، وقوله: ﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٖ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا ٱئۡتِ بِقُرۡءَانٍ غَيۡرِ هَٰذَآ أَوۡ بَدِّلۡهُۚ﴾ [يونس: 15]، وفي سورَةِ الفُرقان ﴿۞وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَوۡ نَرَىٰ رَبَّنَاۗ﴾ [الفرقان: 21]، ولم يعبّرْ بتعبيرٍ آخرَ مرادفٍ لهُ في المعْنى منْ نحوِ قوله: (إنَّ الّذينَ يكذّبونَ بلقائِنا)؛

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/99.

لأنّهُ رامَ أنْ يكونَ نفيُ رجائِهم علامةً فارقةً على أمثالِ هؤلاءِ[1] ثمّ الحكمَ عليهم بأنّهم أصحابُ النّارِ هُم فيها خالدونَ، فإذا ذُكِر الّذين لا يَرجونَ لقاءَ اللّه تعالى؛ انْصَرَف الذِّهْنُ إليْهِم، وهذا في غايَةِ التَّقْبيحِ لهُم.

نُكْتَةُ اسْتِعمالِ صيغَةِ المضارِعِ ﴿يَرْجُونَ﴾:

عُبِّر عَن نَفْي الرّجاءِ بصيغةِ المضارِعِ: ﴿لَا يَرْجُونَ﴾ لِلدّلالةِ على اسْتمرارِهِم في ذلكَ، بِسَببِ غَفلتِهم المُسْتوليةِ عَلَيهم وإنْكارِهمُ البَعثَ والجزاءَ، وهذا يَدلُّ على سوءِ اعْتقادِهِم وظنِّهم بِاللّه تَعالى، فمَشاعِرُهم واعْتِقاداتُهم وأفْكارُهُم مُتَجدِّدَةٌ في إنْكارِ البَعْثِ.

العِنادُ عَلى إنْكارِ البَعْثِ سُلوكٌ قَلْبيٌّ واعْتِقادٌ عَقْليٌّ

بَلاغةُ اسْتِعمالِ: ﴿لِقَآءَنَا﴾:

استعمالُ مُفْرَدَةِ اللّقاءِ في قوله تعالى: ﴿لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا﴾؛ لِكَونِ اللِّقاءِ دالًّا على المُعاينَةِ والرُّؤيَةِ في الأصلِ بإجْماعِ أَهْلِ العَرَبيَّة[2] – إلّا إذا منعَ مِنْ ذلكَ مانعٌ عَقْليٌّ أَوْ شَرعيٌّ – ، فَفي اختيارِ لَفْظِ اللّقاءِ إيماءٌ إلى شناعَةِ ما يعتقدُهُ هؤلاءِ، وما سيُحْرَمونهُ مِنْ لذَّة النَّظر إلى وجهِ اللّه سُبحانَهُ، وجُملَةُ ﴿لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا﴾ كنايَةٌ عَنِ الجَزاءِ والحِسابِ، مع صحَّةِ إرادَةِ المعْنى الأصليِّ لِلتَّركيب، كَما هو الشَّأْنُ في الكِنايةِ.

تَفخيمُ العَذابِ والثّوابِ عائدٌ إلى عَظَمةِ الفاعِلِ الحَقيقيِّ لَهُما

نُكْتَةُ الإضافَةِ: ﴿لِقَآءَنَا﴾:

أُضِيفَ لفظُ اللّقاءِ إلى ضميرِ العَظَمَةِ في قولِه تَعالى: ﴿لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا﴾ لا إلى الاسْمِ الأحْسَن (اللّه) على طريقةِ الالتفاتِ مِنَ الغَيبةِ في قوله تَعالى: ﴿وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [يونس: 6] إلى التَّكلّم؛ وفي ذلك من تهويلِ الأمرِ وتربيةِ المهابةِ في قلوبِ العبادِ

الالتِفاتُ مِنَ الغَيبةِ إلى التَّكلُّمِ لِلإشْعارِ بِعظيمِ الأمرِ وتَرْبِيَةِ المهابَةِ في النُّفوسِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/98.

(2) ابن القيّم، حادي الأرواح، ص: 288.

ما هوَ بيّنٌ لا يَخفى[1]، وفيهِ إشعارٌ بِغَضَبِ اللّه تعالى عَلى المنكرينَ، فَلِقاءُ الحقِّ ﷻ وحِسابُهُ لا يُدانيهِ أيُّ لِقاءٍ، وفيهِ بَيانُ عَظيمِ ما اقْتَرفَهُ أولئِكَ مِن إنْكار وتَكْذيبِ لِقاءِ العَظيمِ تَعالى الذي تَنخلِعُ منه القلوبُ خشْيَةً ورَهْبةً.

مَعْنى الواوِ في: ﴿وَرَضُواْ﴾ و ﴿وَٱطۡمَأَنُّواْ﴾:

الرِّضا بِالحياةِ الدُّنيا دونَ الآخِرَةِ مَذْمومٌ، وهوَ أَشَدُّ ذَمًّا عِنْدَ الطُّمَأْنينَة

الواوُ في قَولِه: ﴿وَرَضُواْ بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ وقولِه: ﴿وَٱطۡمَأَنُّواْ بِهَا﴾ في الموضعَينِ تحتملُ العطفَ وهو الأوجهُ والأنسبُ على أنّها صفاتٌ لِلمذكورينَ في قولِه: ﴿ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا﴾، فيكونُ منْ عطفِ الصّفةِ على الصّفةِ؛ فصفةُ غيرِ الرّاجينَ هي الرّضا بالحياةِ الدُّنيا، والاطمئنانُ بها، أمّا الواوُ في ﴿وَٱطۡمَأَنُّواْ﴾ فتحتملُ الحاليَّةَ على تقديرِ: رَضوا بها وقدِ اطمأنّوا[2]، أي: رَضوا بالحياةِ الدُّنيا حالَ كونِهم مُطمئنّينَ بِها، لا مُكرَهين عَليها، فَفيه إيماءٌ إلى عَدلِ اللّه، فَتَأمَّل!

دلالةُ التَّعبيرِ بـ ﴿وَرَضُواْ﴾:

الرِّضا بِالقَليلِ الحَقيرِ دونَ الكَثيرِ الشَّريفِ بُرْهانٌ على وَضاعَةِ النُّفوسِ وتَفاهَةِ العُقولِ

التَّعبيرُ بالرّضا في قولِه تَعالى: ﴿وَرَضُواْ بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ تَعريضٌ بهم؛ لأنّهم لم يُعمِلوا النّظرَ في الحياةِ الأُخرى الباقيَةِ، واقْتَنعوا بهذهِ الفانيَةِ وعَملوا لَها عَملَ المُقيم، معَ ما نصبَ لهم مِن الأدلّةِ على حَقارتِها وفَضلِ الباقيَةِ على الفانيَةِ؛ فَلذا جعلَ الرّضا بها مذمّةً وإضاعَةً وخُسرانًا[3]، كمَن يَرْضى بِالقَليلِ الحَقيرِ، وهو يُشاهِدُ الكَثيرَ الشَّريفَ، فالرِّضا بالحياةِ الدُّنيا تَعبيرٌ عَن وَضاعَةِ النُّفوسِ، وتَفاهَةِ العُقول.

بَلاغَةُ التّعبيرِ بالماضي:

الرِّضا بِالحياةِ الدُّنيا والاطْمِئنانُ بِها أَصْلٌ في تَجدُّدِ إنْكارِ البَعْثِ

عبّرَ بِصيغةِ الماضي في قولِه: ﴿وَرَضُواْ بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ وقوله: ﴿وَٱطۡمَأَنُّواْ بِهَا﴾ في كلٍّ مِنَ الفِعْلينِ عقبَ التّعبيرِ بالفعلِ المضارعِ ﴿لَا

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/122.
(2) الشّهاب، حاشية على البيضاويّ: 5/7، وأبو حيّان: البحر المحيط: 6/16.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/99.

يَرۡجُونَ﴾، فالتّعبيرُ بِصيغةِ الماضي لِلدّلالةِ على تَحقّقِ فِعْلَي الرّضا والاطْمِئنانِ وتَقرّرهما، فيما يدلُّ الفعلُ المضارعُ على الاسْتمرارِ والتّجدّدِ[1]، وذلكَ أنَّ ثباتَ الرِّضا بالحَياةِ الدُّنيا ومِن ثَمَّ الاطْمئنانِ بِها، قادَ إلى تجدُّدِ الإنكارِ كلَّما طَرقَ بابَ القلبِ طارقُ الفِطرَةِ.

مَعْنى الباءِ في ﴿بِٱلۡحَيَوٰةِ﴾ و﴿بِهَا﴾:

الباءُ لِلمُلابَسَةِ أوِ العِوَضِ أوِ الظَّرْفيَّةِ أوِ السَّبَبيَّة

الباءُ في قولِه: ﴿وَرَضُواْ بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ وقولِه: ﴿وَٱطۡمَأَنُّواْ بِهَا﴾ مؤذنةٌ بكمالِ المُلابَسةِ وتمامِ المصاحَبةِ والمؤانسةِ والمرافقةِ والمخالطةِ[2]؛ لِما تَبثّهُ الباءُ مِن مَعْنى المصاحَبةِ والمُلاصقةِ[3] فَهم قدْ رَضوا بِالحياةِ ومالوا إلَيها ولابَسوا أحوالَها، وآنسَتْهُم شهواتُها ومَلَذّاتُها فَصاروا إلى ما تَرى.

وتَحتملُ الباءُ في الآيَةِ أنْ تَكونَ بِمَعنى البَدَلِ والعِوضِ؛ فَغفلتُهم سَببٌ في شِدّةِ تَعلّقِهم بِالدّنيا وحِرصِهم عَلَيها؛ حتّى جَعلوها عوضًا مِنَ الآخِرةِ الباقيَةِ فَعَملوا لَها وسَكنوا إلَيْها[4].

وتَحْتملُ أنْ تَكونَ لِلظَّرْفيَّةِ، أيْ: في الحياةِ الدُّنيا، أوِ لِلسَّببيَّةِ، أيْ: بِسَبَبِ رِضاهُم واطْمِئْنانِهم[5].

نُكْتَةُ وَصْفِ الحَياةِ بِالدُّنيا:

الدُّنيا الفانِيَةُ تُشيرُ إلى الأُخْرى الباقِيَةِ وإيثارُها دَليلُ كُفْرِ روّادِها

وُصِفَتِ الحَياةُ بـ﴿ٱلدُّنۡيَا﴾؛ لِأنّها مِنَ الدنوِّ والقُربِ؛ لِذلكَ شَنَّع عليهم إيثارَهُمُ الأَدْنى الخَسيسَ عَلى الأعْلى النّفيسِ، والتّخلّي عَنِ الأَعْلى لِصالحِ الأَدْنى[6]، وهذا الوصْفُ يَقْتَضي التَّمييزَ عَنِ الحَياةِ الآخِرَةِ، فَهُما حَياتانِ: دُنيا وأُخْرى، فَقاصِرو النَّظرِ يُقبلونَ عَلى

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/122.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/122.
(3) ابن السّرّاج، الأصول في النّحو: 1/210.
(4) مكيّ القيسيّ، الهداية الى بلوغ النّهاية: 5/3222، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 8/312.
(5) الآلوسيّ، روح المعاني: 6/70.
(6) الآلوسيّ، روح المعاني: 6/69.

القَريبِ الدّاني، والمؤمنونَ عَلى الحَقيقةِ يَرْتَقبونَ الآخِرَة الباقيَةَ؛ ولِذلكَ يَصفُ المَهْدِيّونَ مِن الأمّةِ الحياةَ الدّنيا بالنُّقصانِ ويَتطلّبونَ حياةً أَرْقى وأَصْفى ممّا بها منْ كَدرٍ، فَلا يَلْبثونَ أنْ يَروا أدلّةَ وجودِها شاخِصَةً، فَضلًا عنْ إخْبارِ الصّادقِ المصدوقِ عَنها[1].

بَلاغةُ المقابَلَةِ: ﴿لِقَآءَنَا﴾ و ﴿بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾:

بَيْنَ قولِه: ﴿لِقَآءَنَا﴾ وقولِه: ﴿بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ مقابلةٌ بينَ الآخرةِ والدّنيا، لكنْ لا على طَريقةِ المقابلةِ التّقليديَّةِ، إنّما جاءَ بالآخرةِ بتَعبيرٍ يفهمُ منهُ ما بعدَ اللّقاءِ وهوَ الجزاءُ منهُ تعالى؛ لأنّهم عَملوا لِلآخِرَةِ، وقِسمٌ مِنهم عملَ للدّنيا، وأَنْكرَ لقاءَ اللّه سُبحانَهُ، فذِكرُ اللّقاءِ منْ بابِ التّرهيبِ، فهوَ قاصرٌ، فيقفُ عندَ الحياةِ الدّنيا بما فيها منْ نقصٍ ودنوٍّ وهبوطٍ، وتظهرُ بلاغةُ المقابَلَةِ في تَشْخيصِ عَقْلِ المُنكرِ المُكَذِّبِ الَّذي يُؤثرُ ما في الدُّنيا مِن فناءٍ زائلٍ، على البَقاءِ الخالِدِ، ويُبرْهِن على أنَّ العِبرةَ بالإيمانِ الّذي يقودُ صاحبَه إلى النَّجاةِ عندَ اللِّقاءِ.

تَشْخيصُ عَقلِ المُنْكِرِ في انْطِماسِهِ عَن فَهْمِ الحَياةِ عَلى حَقيقَتِها

بَلاغةُ تَقديمِ الرِّضا على الطّمَأْنينةِ:

تَقديمُ قوله: ﴿وَرَضُواْ بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ على قولِه: ﴿وَٱطۡمَأَنُّواْ بِهَا﴾ مِن بابِ تقديمِ النَّتيجةِ على العلَّةِ؛ فإنَّ مَن يَطمئنّ بالحياةِ الدُّنيا وزينَتِها وزَخارِفِها يرضَى بها، فَهُم رَضوا بالحياةِ الدُّنيا لِأنَّهم قَد سَكَنوا إلَيها بعدَ انْزعاجٍ، واطْمَأنّوا بَعد حراكٍ.

الرِّضا بِالحياةِ الدُّنيا سَبَبُ الاطْمئنانِ لَها

ولوْ جُعلتِ الواوُ حاليّةً - وهي تحتملُ ذلكَ - ؛ فإنَّ التّقديمَ منْ بابِ الطّبعِ، على تقديرِ: رَضوا بها في الحالِ الّتي يَكونونَ مُطمئنّينَ لَها[2]، فالحالُ تَتأخّرُ عنْ صاحبِها، والمعْنى: أنَّ رضاهُم وهُم يُشاهَدونَ على تلكَ الحالِ مِن الطّمَأْنينة.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/99.
(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/337.

مَعْنى الواوِ في ﴿وَٱلَّذِينَ﴾:

الواوُ في قولِه تَعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ﴾ للعَطفِ، وهي إمّا مِن بابِ عطفِ الشَّيءِ على نَفْسِهِ؛ فَتَكونُ الفِرقةُ الّتي غَفلتْ عَن آياتِ اللّه هي الفِرقةَ الأولى المَوصوفةَ بقولِه: ﴿ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا﴾ فَيكونُ مِن عَطفِ الصّفةِ عَلى الصّفةِ، وإمّا أنْ تَكونَ غيرَها[1]؛ فتكونُ منْ بابِ عطفِ صنفٍ على آخرَ، وكلاهُما مذمومٌ لا يؤوبُ إلى سبيلِ الهدايةِ وإنْ ذُكّروا بأنواعِ القَوارعِ لانْهماكِهم وغَفْلتِهم.

والغرضُ منْ عطفِ صفةِ الغفلةِ عنِ الآياتِ على صفةِ نَفيِ الرَّجاءِ وما تَبِعها: التّنبيهُ على أنَّ الوعيدَ إنّما أوردهُ جَمعًا بينَ الغفلةِ عنِ الآياتِ حالًا، والانْغماسِ في الشّهواتِ والمَلذّاتِ، فَلا تَخطرُ على بالِهِمُ الآخرةُ والحسابُ أصْلًا[2].

الغَفلةُ عَن آياتِ اللهِ هيَ حَبلُ الشَّيطانِ الَّذي يُمسِّكُ بِهِ المُكَذِّبين بِالبَعْثِ

سِرُّ إعادَةِ المَوصولِ ﴿وَٱلَّذِينَ﴾:

أُعيدَ الاسْمُ الموصولُ في قولِه تَعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ﴾ بعدَ قولِه أوّلَ الآيَةِ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا﴾ اهْتِمامًا بالصّلةِ، ولِلإشارَةِ إلى اسْتِحْقاقِها وَحدَها فيما سَيذكرهُ بعدَها مِنَ الخَبرِ[3]، وهوَ غَفلتُهم عَنِ الآياتِ، وهذا عَلى القَولِ بِأنَّهُمُ المَذْكورونَ أوّلَ الآيَةِ، أمّا إنْ جُعِلَ الموصوفونَ بِالغَفلةِ صنفًا آخرَ فلَيسَ مِنَ الإعادةِ في شَيءٍ.

الاهْتِمامُ بِالصّلةِ والإيماءُ إلى أنَّها وَحْدَها كافيةٌ في اسْتِحْقاقِ ما بَعدها مِنَ الخَبَرِ

نُكْتَةُ الإتْيانِ بِالجُملةِ الاسْميّةِ: ﴿هُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ﴾:

آثَرَ النَّظمُ التَّعبيرَ بِالجملةِ الاسميّةِ في قولِه تَعالى: ﴿هُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ﴾ فَلم يَقُلْ مثلًا: (والّذين غَفلوا عَن آياتِنا) بالجُملةِ الفعليّةِ؛ لِمَجموعةٍ مِنَ النِّكاتِ:

غَفْلةُ المعانِدينَ ثابِتَةٌ كَثُبوتِ انْهِماكِهم في الشَّهَواتِ

(1) ابن جزيّ، التّسهيل لعلوم التّنزيل: 1/353.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/123.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/100.

أوَّلُها: أنّهُ أرادَ مِن مَعنى الغَفلةِ إهمالَ النّظرِ في الآياتِ أصلًا، والإعراضَ عَنها، أيْ: إنّهم غافلونَ عنْ آياتِنا عَلى الدّوام، ولَيسَ المرادُ مَنْ تَكونُ الغَفلةُ عَليهِ ظَرفًا طارِئًا فيَغفلُ عنْ بعضِ الآياتِ في بعضِ الأوقاتِ[1]، بلْ أرادَ دَوامَ الغَفلةِ بِما تَدلُّ عَليهِ الجُملةُ الاسْميّةُ منْ مَعنى الثّبوتِ والدّوامِ[2].

ثانيها: تَحقيقُ التّغايرِ بينَ هذهِ الجملةِ وما سَبقَها منْ جملٍ فعليّةٍ؛ فيُنزّلُ التّغايرُ الوصفيّ منزلةَ التّغايرِ الذّاتيّ الحقيقيّ؛ ليؤذِنَ بالاختلافِ بينَ هذا الوصفِ الاسْميّ وما سبقَ مِنَ الأوصافِ الفعليّةِ الأوَلِ، وأنّ الموصوفينَ بالغفلةِ يَستحقّونَ العذابَ على جهَةِ الاستقلالِ.

ثالثُها: في التّعبيرِ بالجملةِ الاسْميّةِ الدّالّةِ على غَفلتِهم توكيدٌ مِنَ الحقِّ سبحانَهُ عَلى تلكَ الغَفلةِ بموجِبِ انْغماسِهم في الأهواءِ والشّهواتِ والملذّاتِ وإسرافِهم فيها[3].

نُكْتَةُ تَقديمِ المسْنَدِ إلَيْهِ: ﴿هُمْ﴾ ومَجيءِ المسْنَدِ اسْمَ فاعِلٍ ﴿غَٰفِلُونَ﴾:

غَفْلَةُ المُنكرينَ لا يُرْجى انْتِباهُهم مِنها

قُدِّمَ المسندُ إلَيْه ﴿هُمْ﴾ في قولِه تعالى: ﴿هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ﴾، وجيءَ بالمسندِ ﴿غَٰفِلُونَ﴾ اسمَ فاعِلٍ لِلإشارةِ إلى أنّهُم "غافِلونَ ذاهلونَ معَ غايةِ وضوحِها وظهورِها غَفلةً لا يُرجى انْتِباهُهم مِنْها أصلًا"[4]، ولا يَقَظتُهم مِن سُباتِها السَّرمديِّ؛ لانْطِماسِ العُقولِ، وغيابِ القُلوبِ.

فائدَةُ تَقْديمِ الجارِّ والمَجْرورِ ﴿عَنْ ءَايَٰتِنَا﴾:

انْحِصارُ الغَفْلةِ في آياتِ اللهِ خاصّةً تَمامُ التَّعاسَةِ في الدّارَينِ

قُدِّمَ الجارُّ والمجرورُ ﴿عَنْ ءَايَٰتِنَا﴾ في قولِه تعالى: ﴿عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ﴾ عَلى المسْندِ ﴿غَٰفِلُونَ﴾، وفائدةُ تَقديمِه: القصْرُ لِلمبالغةِ، وهو "كونُ غفلتِهم غَفلةً عنْ آياتِ اللّه خاصّةً دونَ غيرِها منَ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/100، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/123.
(2) القزوينيّ، الإيضاح في علوم البلاغة: 1/76.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3521.
(4) النّخجوانيّ، الفواتح الإلهيّة والمفاتح الغيبيّة: 1/326.

الأشْياءِ"[1]، فكأنّه جعلَ الغفلةَ مَقصورةً عَلى غَفْلتِهم عَنْ آياتِ اللّه عَلى سبيلِ المبالغةِ لا الحقيقةِ؛ لأنّ غَفَلاتِهم كثيرةٌ لا يَحدّها حصرٌ.

نُكْتةُ الإضافةِ في ﴿ءَايَٰتِنَا﴾:

أُضيفتِ الآياتُ إلى ضميرِ العظَمةِ في قولِه تعالى: ﴿عَنْ ءَايَٰتِنَا﴾ أيْ: "عَن آياتِنا التَّنزيليَّةِ والكونيّةِ الدّالّةِ على وَحدانيّتِنا وقُدرتِنا"[2]، تَعظيمًا وتَشريفًا لِتلكَ الآياتِ والحجَجِ، ولِإدْخالِ المهابَةِ في نفوسِ المخاطَبينَ.

تَعْظيمُ الآياتِ وإدْخالُ المهابَةِ في نفوسِ المخاطَبينَ

بَلاغَةُ تَرتيبِ الجُملِ في الآيَةِ الكَريمَةِ:

جاءَ ترتيبُ الجُمَلِ في قولِه تَعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُواْ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّواْ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ﴾ بِعطفِ الواحدةِ عَلى الأُخْرى بالواوِ، فعَطَفَ جُملةَ الرّضا بالحياةِ الدُّنيا على جُملةِ نَفيِ الرّجاءِ، وعَطفَ جملةَ الاطْمئنانِ على جُملةِ الرّضا، وعَطفَ جُملةَ الغَفلةِ عَنِ الآياتِ على جُملةِ الاطْمئنانِ، وذلكَ على جَعلِ الموصولِ الثّاني عَيْنَ الأوّلِ، مِن بابِ ذِكْرِ النَّتيجةِ قَبلَ سَبَبِها، فَهؤلاءِ لا يَرجونَ لقاءَ اللّه؛ لأنّهم رضوا بالحياةِ الدُّنيا، ثمَّ إنَّهم رَضوا بِها لأنّهم اطمَأنّوا، واطْمَأنّوا بعدَ أنْ غَفلوا، فالغَفلةُ أصلُ البلاءِ الّذي أَتى بالطّمَأنينةِ، والطّمأْنينَةُ والرُّكونُ إلى الدُّنيا ورَّثَ الرِّضا بِها، فكانتِ الطّامَّةُ الكُبْرى، وهي إنكارُ البَعْثِ.

قامَ التّرتيبُ على ذِكْرِ النّتيجَةِ قَبْلَ سَبَبِها، وعَطفِ العِلّةِ عَلى نَتيجَتِها

سِرُّ التَّعبيرِ باسْمِ الإشارَةِ لِلبَعيدِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾:

عبّرَ باسْمِ الإشارَةِ لِلبعيدِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ في قولِه تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ﴾ ولَوْ قالَ مباشرةً: (مأْواهُمُ النّارُ)؛ لَأفادَ الخَبرُ المقَصودَ، لَكِنّهُ جاءَ باسْمِ الإشارةِ عقبَ الأوصافِ الّتي وُصِفوا بِها زيادةً في إحصاءِ صِفاتِهِمُ المذْمومةِ في أذهانِ السّامعينَ، وإيذانًا بأنَّ المشارَ إليهم جديرونَ بالخبَرِ، وهوَ اسْتقرارهُم في نارِ جهنّمَ

المنْكِرونَ لِلبَعْثِ جَديرونَ بِصِفاتِ الخَسارَةِ مُسْتَحقّونَ لِمآلِهِم

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/100.
(2) طنطاوي، التّفسير الوسيط: 7/28.

مِنْ أجلِ تلكَ الأوصافِ[1] مِن نَفْيِ الرّجاءِ، والرّضا بالحياةِ، والغفلةِ عَنِ الآياتِ، فكأنّهُ يقولُ: أَرأيتَ مَصيرَ هؤلاءِ الّذينَ هذهِ صفتُهم؟ مأواهُم النّارُ وبِئسَ المِهادُ[2]، فاسْمُ الإشارَةِ جمَعَ تلكَ الأوْصافَ وصبَّها عَلَيهِم؛ لِتَكونَ سَببًا في دُخولِ النّارِ.

فائدَةُ الإخْبارِ بِالجُملةِ الاسْميّةِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ مَأۡوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ﴾:

قولُه تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ مَأۡوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ﴾ جملةٌ اسميَّةٌ وقعَتْ خبرًا لقولِه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا﴾، وفائدةُ الإخبارِ بِها أنّهم لَمّا لم يتوقّعوا لقاءَ الحقِّ ﷻ؛ انْكبّوا عَلى الملَذّاتِ والشّهواتِ، ورَكَنوا إلى الدُّنيا، وغَفلوا عَنْ آياتِه تَعالى الكونيّةِ والتّكليفيّةِ، فكانَ ذلكَ تأكيدًا لِمدعاةِ الحُكمِ عَليهم وهوَ أنْ يكونَ مأواهُم النّارَ[3].

الغَفْلَةُ عَن آياتِ اللهِ سُبحانَهُ تورِثُ الانْكِبابَ عَلى الشَّهواتِ

سِرُّ التَّعبيرِ بالنّارِ دونَ جهنّمَ:

عبّرَ بالنّارِ في قولِه تعالى: ﴿مَأۡوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ﴾ دونَ اسْمِ جهنّمَ؛ لأنّهُ أرادَ الإشارةَ إلى أنَّ هذهِ الأرواحَ كانتْ مُنغمسةً مُسْتغرقةً في حبِّ الشّهواتِ الجسمانيّةِ والمَلذّاتِ المادّيّةِ معَ غَفلتِها عنِ الفيوضاتِ الرّوْحانيّةِ، فحينَ يموتُ الإنسانُ وتقعُ الفُرقةُ بينهُ وبينَ ما كانَ يحبُّ منْ تلكَ المُلْهياتِ؛ فإنّهُ بمنزلَةِ مَنْ يَحترقُ بنارٍ ويَتَألَّمُ[4]، فالآيَةُ ذَكَرتِ النّارَ باعْتِبارِ إيقاعِ الألَمِ على المنْكرينَ بِمَعناهُ الحِسّيِّ، وبِمَعْناهُ المَعْنويِّ، فَهُم يَحترقونَ مَرَّتين، مرَّةً بِنارٍ مَحْسوسَةٍ، ومرَّةً بِنارِ مُفارقَةِ مَلَذّاتِ الحياةِ الدُّنيا.

الاحْتِراقُ يَكونُ بالنّارِ المَحسوسَةِ وبِنارِ مُفارَقَةِ مَلَذّاتِ الحَياةِ الدُّنْيا

مَعْنى الباءِ في: ﴿بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾:

الباءُ في قولِه تعالى: ﴿بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ تُفيدُ مَعنى السّببيّةِ[5]،

البـاءُ دالّـةٌ عـلى السَّبَبيَّةِ فَعَذابُهم بِسَبَبِ أعْمالِهِم

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/100.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 15/25.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3521.
(4) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 8/229.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/100.

ومعْنى الآيةِ يَشِي بأنّ أعمالَهُمُ السّالفةَ هيَ السّببُ في حدوثِ هذا العذابِ لَهم[1]، كقولِه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتۡ يَدَاكَ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ١٠﴾ [الحج: 10].

نُكْتَةُ الإتْيانِ بِالاسْمِ المَوْصولِ:

الإيماءُ إلى عِلّةِ الحُكمِ لِتأْكيدِ السّببيّةِ

الإتيانُ بالاسمِ الموصولِ (ما) في قولِه تعالى: ﴿بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ يومئُ إلى علّةِ الحكمِ، والمعْنى: أنَّ مكسوبَهم علّةٌ في أَنْ كانَ مصيرُهم إلى النّارِ؛ فالاسمُ الموصولُ أفادَ تأكيدَ السّببيّةِ الحاصلةِ بموجَبِ الباءِ[2]، وجيءَ بـ (ما) دون (الّذي) للدّلالةِ على العمومِ، دونَ قَصْدِ الإشارةِ إلى شيءٍ مَخصوصٍ بذاتِه.

فائدَةُ ذِكْرِ ﴿كَانُواْ﴾:

الدّلالةُ عَلى أنَّ هذا المَكْسوبَ دَيْدَنُهم

أفادَ ذكرُ الفعلِ النّاقصِ ﴿كَانُواْ﴾ في قولِه تعالى: ﴿بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ أنّ كسبَهم كان طبعًا غالبًا عَليهم[3]، وللدّلالةِ على أنّ الّذي اكْتَسَبوهُ إنّما هو دَيْدنُهم[4] وخصْلَتُهُم الّتي لا يَستطيعونَ عَنْها فِكاكًا، فَلَم يَكُن ما صَدَر عَنْهم مِن إنْكارِ البَعْثِ والرّضا بالحياةِ الدُّنيا والاطْمِئنانِ بِها أمرًا عابِرًا، بَل هوَ حَياةٌ وسُلوكٌ دائمٌ لا يَفترُ، ولا يفترُ صاحبُهُ عَنْهُ.

غَرَضُ التّعبيرِ بالمضارعِ: ﴿يَكۡسِبُونَ﴾:

تأْكيدُ تَكرارِ الكَسْبِ الصّادِرِ عَنِ المعانِدينَ

عبّرَ بصيغةِ المضارعِ ﴿يَكۡسِبُونَ﴾ في الآيَةِ للدّلالةِ عَلى تَكريرِ فِعلِ الكَسْبِ السَّيِّئِ مِنهُم؛ فقدْ كانَ هذا دأبَهم، وما زالوا مُستمرّين على ذلكَ في ماضي زَمانِهم ومُسْتَقْبلِه[5]، وهو الّذي أوردَهُم نارَ جَهنّمَ لِقُبْحِه وشَناعَتِه، فَقامَ التَّعبيرُ بالمضارعِ مَقامَ التَّأكيدِ لِما

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 17/212.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/100.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 9/78.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/100.
(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/16.

أفادَهُ ذِكْرُ الفعلِ ﴿كَانُواْ﴾، وهذا مِن بَديعِ الائْتِلافِ بينَ مُفْرَداتِ النَّظمِ القُرآنيِّ.

فائِدَةُ حَذْفِ مُتَعَلَّقِ: ﴿يَكْسِبُونَ﴾:

اشْتِمالُ الكَسْبِ عَلى جَميعِ الأَعْمالِ الباطِلَةِ، أوْ تَنْزيلُ الفِعْلِ مَنْزِلَةَ اللّازِمِ قَصْدَ التَّلَبّسِ بِهِ

حُذِفَ متعلّقُ فعلِ الكسْبِ في قولِه تعالى: ﴿بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾، وذلكَ يُفيدُ عُمومَ ما كَسبتْهُ أَيْديهم مِنَ الأعْمالِ، أيْ: يَكْسبونَ مِنَ المعاصِي والذّنوبِ والكُفْرِ والتّكذيبِ[1]، أوْ تَنْزيلَ الفعلِ مَنْزِلَةَ اللّازمِ قَصْدَ التّلَبّسِ به كأنّهُ جعلَ الفعلَ مُتلبّسًا بِفاعِلِه كَأفْعالِ السّجايا اللّازمَةِ للفعلِ القائِمَةِ بِهِ، بمَعْنى: أيّ كَسبٍ يَكسبونَهُ صَغيرًا كانَ أوْ كَبيرًا، فإنّهم مَجْزيّونَ مُحاسَبونَ على جَميعِ ما يَكسِبونَ.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الرِّضا والطّمَأْنينَةُ:

الرِّضا قَبولٌ وتَشَبُّعٌ بالمَرْضيِّ بِهِ، والطّمَأْنينَةُ سُكونٌ بَعْدَ انْزِعاجٍ

الرّضا ضِدُّ السّخطِ؛ وهوَ القبولُ والقناعةُ، وهوَ التّشبُّعُ والامتلاءُ للنّفسِ رقّةً ولَطافةً[2]، أمّا الطّمأنينةُ فهي السّكونُ بعدَ الانزعاجِ[3]، والفَرقُ بينهُما واضحٌ، وقدْ عبّرَ بالمفْرَدَتينِ في قولِه تعالى: ﴿وَرَضُواْ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّواْ بِهَا﴾؛ لتكاملِهما معنًى، بادئًا بالرّضا، فقدْ تشبّعوا بالحياةِ الدّنيا ومَلذّاتها وشَهَواتِها، فإذا تَشبّعوا سَكَنَتْ نفوسُهم إلَيْها وآثَروها ورَكَنوا إلَيْها؛ فعابَ عَلَيْهِمُ المَوْلى تَعالى فِعلَهم ذاكَ في هذهِ الآيةِ[4].

المأْوى والمثْوى:

المأْوى مَكانُ إيواءِ النّاسِ بِسَعيٍ وعَمَلٍ، والمثْوى مَكانُ الإقامَةِ مُطْلَقًا

المَأْوى: اسمُ المكانِ الّذي يَأْوي إلَيْهِ النّاسُ فيَرْجعونَ إلى مَصيرِهم ومَرْجِعِهم[5]، ويَكونُ بعدَ سَعْيٍ وتَحصيلٍ لِلوصولِ إليْهِ، أمّا

(1) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 8/312.
(2) جبل، المعجم الاشتقاقي: (رضو - رضى).
(3) الراغب، المفردات: (طمن).
(4) أبو عبيد، غريب الحديث: 2/203.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/100.

المَثْوى: فهوَ المكانُ الَّذي يُقامُ فيهِ[1] فَيَبْلُغهُ المرءُ بعدَ عناءٍ ومُكابدةٍ، ويَصلُ إليهِ منْ غيرِ تخطيطٍ ولا تدبيرٍ سابقٍ، سواءٌ أكانَ مَثوى سوءٍ، أوْ مَثوى راحَةٍ وكرامَةٍ، وقدْ أطْلقَ المَأْوى عَلى النّارِ في هذهِ الآيَةِ، وفي القُرآنِ الكَريمِ أكْثَرَ منْ إطلاقهِ على الجنّةِ، وفي إطلاقهِ على دارِ العَذابِ مَغزًى دقيقٌ في البلاغةِ؛ إذْ فيهِ إشعارٌ بأنَّ منِ اطْمأنَّتْ نفسُهُ بالشّهواتِ وغفلتْ عنِ الآياتِ لا مصيرَ لهُ ولا ملجأَ بعدَ أهوالِ القيامةِ إلّا جَهَنّم دار العَذابِ، فهيَ مَأواهُ ومَلجَؤهُ، وكأنّهُ بشهواتهِ ومَلذّاتهِ قدْ سَعى وخطَّطَ لِلوصولِ إليها[2].

الكَسْب والعَمَل:

الكَسْبُ: هوَ الفعلُ الّذي يعودُ على فاعلهِ بنفعٍ أوْ ضرٍّ، والكسبُ ما يقعُ بمراسٍ وعلاجٍ، وهوَ ما فُعِلَ بجارِحَةٍ[3]، والكسبُ يحصلُ بالابتغاءِ والطّلبِ ويقترنُ كثيرًا بأفعالِ السّوءِ؛ ولذلكَ وردَتْ مفردةُ ﴿يَكْسِبُونَ﴾ سببًا وعلّةً لِمَن يكونُ مصيرُ أصحابها النّارَ كقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [الأعراف: 96]، ومِثْلها ما وردَ في هذهِ الآيةِ تمامًا؛ فإنَّ كَسبَهُم السّيئاتِ أوْرَدَهُمُ النّارَ، وفي ذلكَ مَغْزًى دقيقٌ وهوَ أنَّ التّعبيرَ بالفعلِ ﴿يَكْسِبُونَ﴾ فيهِ تبشيعٌ لحالهِم، فكأنَّ ابتغاءَهم وتحصيلَهم وطلبَهم قدْ أوْرَدَهُمُ المَهالِكَ، وهُم يَظنّونَ أنّ فيهِ فَلاحَهُم، أمّا العَمَلُ فَهوَ عامٌّ في كلِّ ما يمارَسُ منْ عملٍ[4].

الكَسْبُ ابْتغاءٌ وتَحصيلٌ، والعملُ عامٌّ في كُلّ ما يُمارَسُ مِن فِعْلٍ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ثوي).
(2) رشيد رضا، تفسير المنار: 11/252.
(3) العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 453.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (كسب).

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهۡدِيهِمۡ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمۡۖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ٩﴾ [يونس: 9]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

المُقابَلَةُ بَيْنَ الأَضْدادِ بُرْهانٌ ناصِعٌ ودَليلٌ ناطِقٌ

لَمّا بيّنَ جزاءَ الفريقِ الأوّلِ مِنَ المكلّفينَ ممّنْ لم يَرجُ لقاءَهُ ورضيَ بالدّنيا واطمأنَّ بها وغفلَ عنْ آياتِه؛ وأنَّ مصيرهُ النّارُ؛ ناسَبَ أنْ يُبيِّن حالَ الفريقِ الآخَرِ ممَّن آمَنَ وعَملَ الصّالحاتِ، فإنَّ السّامعَ تَسْتشرفُ نفسُهُ مَعرفةَ جَزاءِ الفريقِ الآخرِ ومَصيرِهِ[1]، فالمناسَبَةُ بَين الآياتِ مُناسبةٌ في المقابَلاتِ، الّتي سَمّاها بَعْضُ المُفَسِّرينَ بالمَثاني[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَهۡدِيهِمۡ﴾: فِعلٌ دالٌّ على الحالِ والاستقبالِ، الجذرُ اللّغويّ منهُ: الهاءُ والدّال والياءُ، ومنهُ: الهُدى؛ وهوَ نقيضُ الضّلالةِ وخلافُها، ومنْ معانيهِ: البيانُ، ومنها: إخراجُ شيءٍ إلى شيءٍ، ومنها: الدّلالَةُ إلى الطّريقِ، ومعناهُ يقومُ على أصْلينِ؛ أحدُهما: التَّقدّمُ لِلإرشادِ، والآخرُ: إرسالُ هديّة، وهما مُتقاربانِ في مَعْناهُما، فالمتقدّمُ هادٍ، وذَكرَ الرّاغبُ في معْنى الهُدى أنّهُ التَّلطّفُ في الدّلالةِ، ومنهُ الهِدايةُ في الآخرةِ إلى الجنّةِ، وتَبيُّنُ الوجهةِ بالتّقدُّمِ أوِ الكشفِ[3]، ومَعنى ﴿يَهۡدِيهِمۡ﴾ في الآيَةِ: يُرْشِدُهُم بإيمانِهِم إلى جَنَّتِهِ تَعالى[4].

2) ﴿ٱلنَّعِيمِ﴾: اسْمٌ مفتوحُ النّونِ، جذرهُ اللّغويّ: النّون والعَين

(1) رشيد رضا، تفسير المنار: 11/252.
(2) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 1/82.
(3) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (هدي).
(4) مكيّ القيسيّ، الهداية الى بلوغ النّهاية: 5/3223.

والميمُ، ومَعنى النّعمةِ: الخفضُ والدّعةُ والمسرّةُ، ولها معانٍ كثيرةٌ في لغةِ العربِ، وهيَ على "كثرتِها راجعةٌ إلى أصلٍ واحدٍ، يدلّ على ترفّهٍ وطيبِ عيْشٍ وصلاحٍ، ومنهُ النّعمةُ: ما يُنْعِمُ اللّه تعالى بِهِ على عَبْدِهِ مِنْ مالٍ وعَيْشٍ، يُقالُ: للّه تَعالى عَلَيْهِ نِعْمَةٌ، والنّعمةُ: المنّةُ، وكَذا النّعماءُ، والنّعْمَةُ: التّنعّمُ وطيبُ العَيْشِ"، وكونُ المرءِ في حالةٍ حَسَنةٍ فهوَ في نِعْمَةٍ، والنَّعيمُ حَيْثُما وَرَدَ في القُرآنِ فهوَ دالٌّ عَلى الكَثْرَةِ والعَطيَّةِ الوافِرَةِ، والمعْنى المجرّدُ لِلنّعمَةِ: الرّقّةُ واللّيونةُ والخلوُّ مِنَ الغِلْظَةِ والشِّدَّةِ[1]، والنَّعيمُ في الآيَةِ بِمَعْنى الجنّاتِ الّتي لَيْسَ لَهُم فيها إلّا أنْ يَتَنَعَّموا بِها تَنَعُّمًا خالِصًا لا يَشوبُهُ تَنْغيصٌ أوْ نَقْصٌ[2].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

الإيمانُ سَبَبُ الهِدايَةِ في بُلوغِ جَنّاتِ النَّعيمِ

أَخبرَ الحقُّ ﷻ عَلى مُقْتَضى سُنَّتِهِ مِنْ تَعقيبِ الوَعيدِ بِالوَعْدِ عنْ طائفةٍ مِنْ عِبادِهِ المؤمنينَ الموَحِّدينَ الّذينَ يَعملونَ الصّالحاتِ الّتي أَمرَ بِها لِإصْلاحِ أَحْوالِهِم[3]، أنّهُ تَعالى يُرشِدُهم بِنورِ إيمانِهِم يَسيرونَ فيهِ إلى ما فيهِ الخيرُ والسّدادُ بِما لهم منَ اليقينِ؛ حتّى يَصلوا إلى مَرْغوبِهِم في جنّاتِ النّعيمِ الّتي لا يَشوبُها تَنْغيصٌ ولا لَغوٌ ولا تَأثيمٌ.

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

بَلاغَةُ الاسْتِئْنافِ البَيانيِّ في الآيَةِ:

مُقابَلَةُ حالِ المؤمنينَ بِحالِ الكافِرينَ تَنْويهٌ بِشَأْنِهِم وإغاظَةٌ للكافِرينَ

قولُ اللّه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ جملةٌ مُستأنفةٌ استئنافًا بيانيًّا؛ لتكونَ أحوالُ المؤمنينَ مستقلّةً غيرَ تابعةٍ لأحوالِ ذلكَ الفريقِ اهتمامًا بهم؛ فإنَّ النَّفْسَ - بعدَ ذكرِ أحوالِ

(1) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، والسّمين، عمدة الحفّاظ، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (نعم).
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 30/611.
(3) النّخجوانيّ، الفواتح الإلهيّة: 1/327.

الكافرينَ - تتشوّقُ لمعرفةِ أحوالِ الفريقِ الآخرِ؛ فينشأُ سؤالٌ عنْ ذلكَ ببيانِ صفتِهم واستحقاقِهم جنّاتِ النّعيمِ المقيمِ، وهوَ منْ بابِ التّنويهِ بالمؤمنينَ وإغاظةِ الكافرينَ[1].

غَرَضُ تَقْديمِ المسْنَدِ إلَيْهِ ﴿ٱلَّذِينَ﴾:

تَشْويقُ السّامِعِ لِمَعْرِفَةِ ما يَتَوَقَّعُهُ نَصًّا أكيدًا

قدّمَ المسْنَد إليهِ وهوَ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ في قولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، والتَّقديمُ وإنْ كانَ على أصْلِه إلّا أنَّهُ يولّدُ التَّشويقَ لَدى السّامعِ مُنْتظرًا مَعرفةَ الحُكمِ، ومُترقّبًا الخبرَ، لا سيَّما بَعْد ذِكْرِ حالِ الكافرينَ، ومَع وجودِ تَوقُّعِ الجَزاءِ؛ فإنَّ النَّفسَ تَطْمَح في مَعْرِفَةِ النَّصِّ على ذلكَ؛ وهوَ الهدايةُ واسْتِحْقاقُهُم جَنّاتِ النّعيمِ؛ فَفي ذلكَ تَهْيِئَةٌ وتَوْطِئَةٌ لِتَلَقّي نَوعِ الجزاءِ لَدى السّامعِ.

نُكْتَةُ التَّعبيرِ بالاسْمِ المَوْصولِ ﴿ٱلَّذِينَ﴾:

الإيماءُ إلى عِلّةِ بِناءِ الخبرِ

التّعبيرُ بالاسمِ الموصولِ الجَمعِي ﴿ٱلَّذِينَ﴾ في قولِ اللّه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ للإيماءِ إلى العِلّةِ الّتي بُنِيَ مِن أجْلِها الخبرُ، فالإيمانُ المقترنُ بالعمَلِ الصّالحِ عِلّةٌ في حُصولِ الخبَرِ الدّالِّ عَلى هِدايَتِهم وجَدارَتِهم لجنّاتِ النّعيمِ[2].

غَرَضُ اقْتِرانِ الإيمانِ بِعَمَلِ الصّالحاتِ:

الإيمانُ شَرْطُ الأعْمالِ الصّالحَةِ، والصّالحاتُ بُرْهانُ صِدْقِ الإيمانِ

اقترانُ الإيمانِ بعملِ الصّالحاتِ في قولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ كاقْترانِ القوّةِ النّظريّةِ بالقوّةِ العَمليّةِ؛ فالتّعبيرُ بالإيمانِ إشارةٌ إلى القوّةِ النّظريَّةِ بمعرفةِ الحقِّ ﷻ - وإنْ كانَ الإيمانُ شرْعًا يَعمُّ القَولَ والعملَ والاعتقادَ - ، والتّعبيرُ بعملِ الصّالحاتِ إشارةٌ إلى القوّةِ العَمليّةِ بخدْمَتِه تَعالى[3]، فَلا اسْتِغناءَ لأَحدِهما عَنِ الآخَرِ؛ لأنَّ الإيمانَ المُنْبتَّ عَنِ العملِ الصّالحِ لا توفيقَ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/101.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/101.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 17/213.

لهُ ولا نورَ[1]، والإيمانُ المضمومُ إليهِ العملُ الصّالحُ ورَدَ كثيرًا في القرآنِ الكريمِ بما يَرْبو على خَمسينَ مَوضعًا.

بَراعَةُ الإطْنابِ بِعَطْفِ العَمَلِ الصّالِحِ عَلى الإيمانِ:

العَمَلُ الصّالِحُ مِنَ الإيمانِ، وهوَ مِن أَفْرادِهِ المُهِمَّة

في قولِ اللّه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ عَطْفُ العملِ الصّالحِ على الإيمانِ، وهو مِن بابِ الإطْنابِ بعَطْفِ الخاصِّ على العامِّ؛ لأنَّ حقيقةَ الإيمانِ شرعًا: أنَّه قولٌ وعمَلٌ واعتقادٌ، والنُّكْتَةُ في هذا العَطْفِ: التَّنبيهُ على فَضيلةِ العَملِ الصّالحِ بذِكْرِهِ مرَّتينِ، إحْداهُما: مُنْدَرِجًا تحتَ لَفْظِ الإيمانِ، والأُخْرى: مُنْفَرِدًا.

نُكْتَةُ التَّعبيرِ بِصيغةِ الماضي:

الإيمانُ حَقيقَةٌ ثابِتَةٌ تَقومُ بِالقَلْبِ والعَمَلُ الصّالِحُ مُقْتَرِنٌ بِهِ

عبّرَ عَنِ الإيمانِ وعَملِ الصّالحاتِ بِصيغَةِ الماضي في قولِ اللّه سُبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾؛ لأنَّ الإيمانَ حقيقةٌ ثابتةٌ تَقومُ بِالقَلْبِ، والعَمَلُ الصّالحُ مُقْتَرِنٌ بها، فكِلاهُما دالٌّ على الثّبوتِ والدّوامِ وأنَّهُ أمرٌ ثَبتَ واسْتقرَّ، كَما هوَ شَأنُ الفِعلِ الماضي، ولِذا أوْرَدَهُ بهذهِ الصّيغَةِ.

دلالَةُ تَقْديمِ الإيمانِ عَلى العَمَلِ الصّالِحِ:

الإيمانُ مَعْرِفَةٌ رَبّانيَّةٌ والعَمَلُ قوّةٌ سُلوكيَّةٌ

قدّمَ ذِكْرَ الإيمانِ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ على العَملِ الصّالحِ ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾؛ لأنَّ الأولى: قوّةٌ نَظريّةٌ، وكَمالُها يَتحقّقُ في المَعرفةِ الرَّبّانيةِ، والثّانيَةَ: قوّةٌ عمليَّةٌ، وكمالُها يتحقّقُ في الأفعالِ الخيريّةِ، فلمّا كانتْ معرفةُ اللّه تعالى مقدّمةً على تنفيذِ أوامرِهِ العَمليَّةِ بالشّرفِ والرّتبةِ والفضلِ وجبَ تقديمُها[2].

كما أنَّ تقديمَ الإيمانِ على العملِ الصّالحِ هو منْ بابِ تقديمِ السّببِ على النَّتيجةِ؛ فإنَّ العملَ الصّالحَ ثمرةٌ منْ ثمارِ الإيمانِ[3]؛

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/331.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 17/213.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3523.

فلا يُقبلُ إيمانٌ منْ غيرِ عملٍ صالحٍ إلّا منْ رجلٍ آمنَ ثمَّ بادرهُ أجلُهُ قبلَ أنْ يعملَ عملًا صالحًا.

بَلاغَةُ الإخْبارِ بِالجُملَةِ الفِعْليَّةِ المُضارِعيَّةِ:

قولُه تعالى: ﴿يَهۡدِيهِمۡ رَبُّهُم﴾ جملةٌ خبريّةٌ عمّا سَبَقتْها منْ جملةِ الإيمانِ والعملِ الصّالحِ[1]، والإتيانُ بها بِصيغَةِ المضارِعِ إيذانٌ بأنَّ هذهِ الهِدايَة على وجهِ التَّكرارِ والتّجدّدِ والاستمرارِ حتّى تصلَ نفوسُهم إلى مراتبِ الكمالِ[2].

هِدايَةُ المؤمِنينَ مُتَجَدِّدَةٌ، وهيَ بِمَعْنى الثَّباتِ والدَّوامِ الموصِلِ إلى الجنّاتِ

ولمّا ابتدأَ بالمسْندِ إلَيهِ جاءَ به اسْمًا موصولًا ﴿ٱلَّذِينَ﴾ لِدلالَتِهِ على الثّباتِ، ثمّ جاءَ بِصِلَتِه وما عُطفَ عَليها بِصيغةِ الماضي ﴿ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾؛ وتماشيًا معَ السّياقِ الظّاهرِ فَما يَقْتَضيهِ الظّاهرُ أنْ تكونَ الهدايةُ قدْ تحقَّقتْ فيهم، فيكونُ التّعبيرُ بِها بالماضي أيضًا، لكنّهُ عدلَ إلى المضارعِ بقولِه: ﴿يَهۡدِيهِمۡ﴾ الدالِّ على التّجدّدِ والاسْتمرارِ، وسِرُّ ذلكَ أنّهُ شاءَ مقابَلَةَ هذا الوصْفِ بما مرَّ منْ وصفِ الفِرقةِ الهالِكةِ وهمُ الكافرونَ؛ فإنّهُ وصفَهم بالرّضا بالحَياةِ الدُّنيا والاطْمئنانِ بِها بالماضي لِلدّلالةِ عَلى تَحَقُّقِهما، ثمَّ أَعْقَبَهُ بِفعلِ الكَسْبِ مُضارِعًا مُتَجدّدًا مُسْتمرًّا[3]؛ فجاءَ بفعلِ الفِرقةِ النّاجيةِ بالإيمانِ والعملِ ماضيَينِ لِلدّلالةِ على وقوعِهما وتَحَقّقِهما، وأعقَبَهما بفعلِ الهِدايةِ مُضارِعًا دالًّا على التّجدّدِ والاستمرارِ[4] فتَطابَقَتِ الفِرقتانِ في التّعبيرِ بِهذهِ الصّيَغِ.

ولا يَتَعيَّنُ أنْ يكونَ مَعنى ﴿يَهۡدِيهِمۡ﴾ يُرْشِدهُم إلى الإيمانِ؛ لأنَّ الإيمانَ قدْ تَقَرّرَ وتَحقّقَ بقولِه: ﴿ءَامَنُواْ﴾ بِصيغةِ الماضي، وإنّما

(1) المنتجب الهمذانيّ، الكتاب الفريد: 3/350.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/102، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 9/79.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/122.
(4) رشيد رضا، تفسير المنار: 11/252.

المَعْنى: أنْ يُديمَهم ويُثَبِّتهم على الإيمانِ، كقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ﴾ [النساء: 136] والمعْنى: اثْبُتوا عَلى إيمانِكُم[1].

سِرُّ الإتْيانِ بِعُنوانِ الرّبوبيَّةِ: ﴿رَبُّهُم﴾:

الرّبوبيَّةُ عُنوانُ الإحْسانِ والعِنايَةِ بما يُرْشِدُ المؤمِنينَ لِلخَيرِ

جاءَ قولُه تعالى: ﴿يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم﴾ بِعُنوانِ الرّبوبيَّةِ لإظْهارِ مَزيدِ اللّطفِ والعِنايةِ وأنّهُ المحسنُ إليهم[2]، وأورَدَهُ بعدَ فعلِ الهدايَةِ؛ لأنَّ الرّبَّ ناظِرٌ في مَصالِحِ العبادِ ومدبّرُ أحْوالِهم، وهوَ يربّي النّفوسَ المؤمنةَ بما يُرْشِدُها ويَجعلُها مؤهَّلَةً لِقَبولِ الخَيرِ[3].

غَرَضُ الإضافَةِ ﴿رَبُّهُم﴾:

التَّنْويهُ بِشَأْنِ المؤمِنينَ وشَأْنِ هِدايَتِهِم الّتي جَعَلَها عَطِيَّةً كامِلَةً لِأَوْليائِهِ

آثَرَ النَّظْمُ القُرآنيُّ التَّعبيرَ بِعنوانِ الرّبوبيَّة بَدلًا مِن الاسمِ الأحْسَن (اللّه) مُضافًا إلى ضَميرِ المؤمنينَ فَقال سُبحانَهُ: ﴿يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم﴾ تَنْويهًا بِشَأنِهم وشَأنِ هِدايتِهمُ الّتي جَعَلَها عَطِيّةً كامِلَةً مَشوبَةً بالرّحمَةِ والكَرامةِ لِأوليائِهِ[4]، فَصُدورُها مِنَ الرّبِّ المُحْسِنِ اللّطيفِ بِعِبادِهِ أنْسَبُ وأليَقُ مِنْ أنْ يعبّرَ بِاسْمٍ ثانٍ غيرِ الرّبِّ.

معْنى الباءِ في: ﴿بِإِيمَٰنِهِمْ﴾:

الإيمانُ سَبَبُ الهِدايَةِ ووَصْفِ العَمَلِ بالصّالِحِ

الباءُ في قولِه تعالى: ﴿يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ﴾ تُفيدُ التّعليلَ لِيَحصلَ معهُ التّحقيقُ، ويؤذِنَ بأنّ هذا الإيمانَ لَهُ أثرٌ عظيمٌ في تَحصيلِ البُغيَةِ[5]، فلَولا الإيمانُ لَما وُصِفَ العملُ بالصّالحِ، ولو كانَ في نَظَرِ النّاسِ صالحًا.

كَما أنَّ الإيمانَ في قولِه تعالى: ﴿يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ﴾ سببٌ في مضمونِ الخبرِ ﴿يَهْدِيهِمْ﴾؛ فيَتَحَصّلُ مِن ذلكَ كونُ الباءِ مؤكّدةً لِلسّببِ المستفادِ مِنَ التّعريفِ بالاسمِ الموصولِ، فيجعلُ اللّه للإيمانِ

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/107.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/79.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3522.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/102.
(5) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 7/428 - 429.

نورًا يوضعُ في قلبِ المؤمنِ فيكونُ دافعًا لتحريكِ النّفسِ بالنّزوعِ إلى الصّلاحِ والكمالِ[1].

بَلاغَةُ الاكْتِفاءِ بِذِكْرِ الإيمانِ:

الاكْتِفاءُ بِذِكْرِ الإيمانِ تَنْبيهٌ عَلى مَكانَتِهِ الجَليَّةِ ومَنْزِلَتِهِ العَليَّةِ

ذُكِر في قولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ الإيمانُ والعملُ الصّالحُ، لكنْ لمّا قالَ: ﴿يَهۡدِيهِمۡ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمۡۖ﴾ اكْتفى بذِكرِ الإيمانِ دونَ التَّصريحِ بالعملِ الصّالحِ؛ فيُسألُ عنْ هذا الاكْتفاءِ؟ والجَوابُ عنْ ذلكَ: أنَّ العملَ الصّالحَ هوَ ثمرةٌ منْ ثمارِ الإيمانِ الّذي هوَ النّورُ الهادي والسّراجُ المنيرُ لِبَني الإنسانِ؛ فذِكرُ الإيمانِ يسْتَتبعُ ذِكرَ العملِ الصّالحِ لُزومًا، إذْ لا يُتصوَّرُ الإيمانُ بدونِ العَملِ الصّالحِ، ولمّا كانَ الإيمانُ سَببَ العَمَلِ الصّالحِ اكْتُفي بِذِكرِه تنبيهًا عَلى مَكانَتِهِ الجَليّةِ، ومَنزِلَتِهِ العَليَّةِ.

أوْ يُقال: إنَّهُ اكْتفى بالتَّصريحِ بالإيمانِ؛ إيماءً إلى أنَّ العمَلَ الصّالحَ مُنْدَرجٌ فيهِ؛ إذْ إنَّ حقيقةَ الإيمانِ شَرعًا أنَّها قَولٌ وعَملٌ واعْتقادٌ، فالعَملُ الصّالحُ مِنْ أفرادِ الإيمانِ.

مَوقِعُ: ﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾:

الإيمانُ يورثُ النَّعيمَ في الجَنَّةِ

قولُ اللّهِ تعالى: ﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ إمّا أنْ تَكونَ مُسْتأنفةً اسْتِئنافًا بَيانيًّا، فإنّهُ لَمّا ذَكَرَ مصيرَ الفِرقةِ الهالِكةِ وهو النّارُ؛ ذَكَرَ مَصيرَ الفِرقةِ النّاجيَةِ في مَعْرِضِ سؤالِ سائلٍ: فَماذا يَرِثونَ مِن هِدايتِهم تِلكَ؟ فَجاء الجَوابُ: ﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾[2].

وإمّا أنْ تَكونَ الجُملةُ خَبرًا ثانيًا لِلمُسْنَدِ إلَيهِ المَوصوليّ المَذْكورِ أوّلَ الآيَةِ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، وهوَ خبرٌ دالٌّ على نَعيمِهمُ الحاصِلِ بِسببِ هِدايَتِهِمُ المذْكورةِ ثَمّ[3].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/101.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/79.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/102.

ويَجوزُ أنْ تَكونَ حالًا مِنَ الضَّميرِ المتّصلِ في ﴿يَهۡدِيهِمۡ﴾، أيْ: يَهديهم إلى مُرادِهم في هذهِ الحالِ[1].

غَرَضُ التَّعبيرِ بالمضارِعِ ﴿تَجۡرِي﴾:

جَرَيانُ الماءِ دالٌّ عَلى حُسْنِهِ وجَوْدَتِهِ

عبّرَ عنْ جَريانِ الأنْهارِ في الجِنانِ بالفعلِ المضارعِ: ﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾؛ في تَصويرٍ بَديعٍ لِذلكَ المشْهَدِ تَشْويقًا وتَرْغيبًا لِما يَنْتظرُ عِبادَ اللّه المؤمِنينَ؛ فَجَريانُ الماءِ في تلكَ الجنانِ مِن أَكْملِ المحاسِنِ وأَنْفسِ المَناظِرِ لَدى البَشَرِ؛ فَفي الماءِ طَبيعةُ الحَياةِ، وفيهِ مُتْعةُ النَّظرِ ولَذّةُ الرّؤْيَةِ[2].

والجَرَيانُ فيهِ تَعْبيرٌ عَنِ الجَودَةِ والإحْسانِ؛ لأنَّ الماءَ الحَسَنَ "ما كانَ جاريًا غَيرَ قارٍّ؛ لِأنّهُ يَكونُ بِذلكَ جَديدًا كُلّما اغْتَرفَ منهُ شارِبٌ أوِ اغْتَسلَ مُغْتسلٌ"[3].

نُكْتَةُ اسْتِعْمالِ حَرْفِ الجَرِّ ﴿مِن﴾:

تَنْبُعُ أَنْهارُ الجَنَّةِ ابْتِداءً مِنْ تَحْتِ المؤمِنينَ وهَذا في غايَةِ الإكْرامِ لَهُم

ذَهَبَ بَعضُ المُفَسِّرينَ إلى أنَّ حَرفَ الجرِّ ﴿مِن﴾ في قولِه: ﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ مَحْمولٌ على مَعْنى: مِن دونِهم وبينَ أَيْديهم، ولَيسَ المَعْنى أنّها تَجْري مِن تَحتِهم حَقيقَةً مِن أَرْضٍ ونَحوِه، لَكنْ كَما يُقالُ: بَلَدُ كَذا تَحتَ بَلَدِ كَذا، أيْ: بِجوارِها أوْ بينَ أَيْديها[4].

والأَصْلُ أنْ يَكونَ حَملُ الكَلامِ عَلى حَقيقَتِهِ، لا سيَّما في أمورِ الآخِرَةِ الغَيْبيَّةِ، فإنَّ الوقوفَ عَلى ظاهِرِ النَّصِّ وحَقيقَتِه هو عَينُ البلاغَةِ، واسْتِعمالُ حَرْفِ الجرِّ هُنا يُرادُ بِهِ: أنَّ الأنهارَ تَجْري ابْتِداءً مِن تَحْتِهم، عَلى مَعْنى: تَنْبُعُ مِن تَحْتِهم، وهَذا في غايَةِ الإكرامِ لِأَهْلِ الجنَّةِ، ولا مانِعَ مِن ذلكَ في الجنَّةِ، ومَن يُشاهِدْ بَعْضَ المواقِعِ في الدُّنيا؛ يَجِدْ لِهذا المعْنى حُضورًا، فإنَّ كَثيرًا مِنَ المواقِعِ تَنْبعُ الأنْهارُ

(1) العكبريّ، التّبيان: 2/666.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/345.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/345.
(4) مكيّ القيسيّ، الهداية: 5/3224.

أوِ اليَنابيعُ فيها ويَجْلِسُ النّاسُ فَوقَها في أَبْنيَةٍ مُرتفعةٍ، ويَتَلذَّذونَ بِتلكَ المشاهِدِ الخلّابَةِ، فكَيفَ بِجِنانِ الآخِرةِ؟!

فائدَةُ تَقْديمِ الجارِّ والمجْرورِ: ﴿مِن تَحْتِهِمُ﴾:

الاهْتِمامُ بِإظْهارِ نِعَمِ اللهِ عَلى أَهْلِ الجنَّةِ

ثَمّةَ تَقْديمٌ وتَأْخيرٌ في قولِ اللهِ تعالى: ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾، فَقَد قدّمَ الجارّ والمَجْرور ﴿مِن تَحْتِهِمُ﴾ عَلى المسْنَدِ إلَيهِ ﴿ٱلْأَنْهَٰرُ﴾؛ لِأنّ الأصْلَ في المتَعلّقِ أنْ يكونَ مؤخّرًا، لَكنّهُ قَدّمهُ هُنا اهْتِمامًا لِأجلِ التّخْصيصِ، ونُكْتَتُهُ: إظْهارُ نِعْمَتِهِ تَعالى عَلَيهِم، فَجَعلَ الأنْهارَ تَجري مِن تَحْتِهِم لا مِن تَحْتِ غَيرِهِم، وجَعلَها تَجري تَحتَ أَمرِهِم[1]، ومَعْنى ذلكَ أنَّها خادِمَةٌ لَهم، رِواءً وسِقايةً وبُرودةً ولذَّةً ومَنْظرًا.

بَلاغَةُ المجازِ في: ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ﴾:

جَرَيانُ الأَنْهارِ واقِعٌ مِنْ تَحْتِ مُسْتَقَرِّ أَهْلِ الجَنَّةِ

في قولِه: ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ﴾؛ مجازٌ بالحَذْفِ عَلى تَقديرِ: تَجري منْ تَحتِ مُسْتَقرّهم، فالأنْهارُ لا تَجري منْ تَحتِهم مُباشَرةً، إنّما جَرَيانُها يَكونُ منْ تَحتِ المُستقرِّ الّذي يَسْتَقرّونَ عَليهِ، وفي ذلكَ مَنْظَرٌ يَسُرّ النّاظرينَ، وتَنْعمُ بهِ النّفسُ، ويَرتاحُ لهُ القَلبُ والعينُ، وفيه الرّاحةُ الأبَديَّةُ[2].

وفي إسنادِ الفعلِ ﴿تَجْرِى﴾ إلى الأنْهارِ مجازٌ عَقليٌّ عَلاقَتُهُ المكانيَّةُ، فالأصْلُ: يَجري الماءُ في النّهرِ[3]، والغَرَضُ: تَصويرُ الأنْهارِ أنّها هي الجارِيَةُ، وهذا بِقياسِ أنْهارِ الجنَّةِ على أنْهارِ الدُّنيا، والصَّحيحُ أنَّ أَنْهارَ الجنَّةِ غَيبٌ مَحضٌ، ثمَّ إنَّ أنهارَ الجنَّةِ بِلا أخاديدَ، فالجاري عَلى هذا ماءُ الأنْهارِ.

(1) الثّعلبيّ، الكشف والبيان عن تفسير القرآن: 14/172.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3523.
(3) القزوينيّ، الإيضاح: 2/198.

دلالَةُ اللّامِ في: ﴿ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾:

أَورَدَ النظمُ القرانيُّ لَفظَ ﴿ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ مُعَرَّفًا باللّام، ولَم يَأتِ بِها مُعرّفةً بِالإضافَةِ، إذْ لم يَرِدِ النَّظْمُ القرآنيُّ: (تجري مِن تَحتِها أنْهارُها)، تَحاشِيًا منْ ثِقلِ الإضافَةِ، وتَنبيهًا على كَونِ الأنْهارِ مِنَ النّعمِ الّتي هَيَّأَها الحقُّ ﷻ لِلمؤمِنينَ، وهيَ نِعمٌ مُسْتقلَّةٌ جَديرَةٌ بِأنْ يَكونَ التَّنَعُّمُ بِها لَيْسَ تابِعًا لِلتّنَعّمِ بِالجَنّاتِ[1]، وهذا مَزيدٌ مِن إنْعامِهِ تَعالى وإفْضالِهِ على عِبادِهِ، واللّام لِلعَهْدِ، فإنَّ الّذي يَنْقَدِحُ في الذّهْنِ مَعنًى غَيبيٌّ لِلأنْهارِ، غَرَضُه تَرْغيبُ النّاسِ بِالجنَّةِ، دونَ بَحثٍ عَن تَفْصيلاتِهِ.

التَّعْريفُ لِلعَهْدِ، وهوَ عَهْدٌ خاصٌّ؛ إذِ الأنْهارُ هَهُنا لَها مَعْنًى غَيْبيٌّ

فائدَةُ الجَمعِ في: ﴿ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾:

جُمِعَتِ الأنْهارُ في قولِ اللّه تعالى: ﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾؛ لِبَيانِ تَنَوُّعِها، واخْتِلافِ مَضْمونِها، كَما قالَ اللّه تَعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلۡمُتَّقُونَۖ فِيهَآ أَنۡهَٰرٞ مِّن مَّآءٍ غَيۡرِ ءَاسِنٖ وَأَنۡهَٰرٞ مِّن لَّبَنٖ لَّمۡ يَتَغَيَّرۡ طَعۡمُهُۥ وَأَنۡهَٰرٞ مِّنۡ خَمۡرٖ لَّذَّةٖ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنۡهَٰرٞ مِّنۡ عَسَلٖ مُّصَفّٗىۖ﴾ [محمد ﷺ: 15]، ويُثيرُ ذلكَ الجَمعُ في الذِّهنِ اخْتلافَ دَرَجاتِها، بِحسبِ اخْتِلافِ دَرَجاتِ أَهْلِ الجنَّةِ، لَكنَّ ذلكَ يُفهَمُ مِن طَريقِ الإشارَةِ لا العِبارَةِ.

أَنْهارُ الجَنَّةِ مُتَنَوِّعَةٌ في مَضْمونِها وهَيْئاتِها

عِلّةُ تَقديمِ جَرَيانِ الأنْهارِ:

قُدِّمَ ذكرُ جريانِ الأنهارِ على الظّرفِ الكائِنَةِ فيه وهوَ (جَنّاتِ النّعيمِ) في قولِه تعالى: ﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾، مِن بابِ تَقديمِ ما يورِثُ في النَّفسِ مُتعةً عَظيمةً، فإنَّ النُّفوسَ جُبلتْ على حُبِّ المياهِ، ولا عَجبَ، فاللّه خَلقَ مِنَ الماءِ كلَّ شَيءٍ حَيٍّ، وحَياةُ النُّفوسِ في مُشاهَدَةِ الماءِ والانتفاعِ بِهِ، ثُمّ بَيّنَ بَعْدَها أنّ ذلكَ كائِنٌ في جنّاتِ النّعيمِ، أيْ: في الجنّاتِ الّتي خُصِّصَتْ لِلنّعيمِ[2].

النُّفوسُ مَجْبولَةٌ عَلى حُبِّ الماءِ الّذي هوَ مادَّةُ الحَياةِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/355.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3523.

بَلاغَةُ اسْتِعْمالِ حَرْفِ الظَّرْفِيَّةِ: ﴿فِي﴾:

الأنْهارُ تَجْري فَوْقَ الأَرْضِ لا تَحْتَها وفي ثَنايا الجِنانِ

وردَ حرفُ الظَّرفيَّة ﴿فِي﴾ في قولِ اللّه تعالى: ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾؛ لِبَيانِ أنَّ الأنْهارَ الّتي تَجري مِن تَحْتِ أَهْلِ الجنَّةِ ظَرفُها ومَكانُها واسْتِقرارُها ﴿فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾، وتَظْهَرُ بَلاغَةُ اسْتِعمالِ هذا الحَرْفِ: أنَّه توكيدٌ لجُملةِ ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ﴾، فالأنْهارُ تَجْري مِن تَحْتِ أَهْلِ الجنَّةِ، في جنّاتِ النَّعيمِ، فَفيهِ تَصويرٌ لِلأنهارِ والمؤمِنينَ في داخِلِ جَنّاتِ النَّعيمِ، فالظَّرفيَّةُ لِهذِهِ الصّورَةِ المُتَكامِلةِ، وفيهِ إيماءٌ صَريحٌ إلى أنَّ الأنهارَ فوقَ الأرْضِ، فَهي في الجنّاتِ لا تَحْتَها، وفي ذلكَ إيذانٌ بِعَظيمِ تِلكَ الجنّاتِ الّتي تورثُ النَّعيمَ الخالِدَ، رَزَقَنا اللّه تِلكَ الجنّاتِ، وجَعَلَنا مِن أَهْلِ الفِرْدَوسِ الأعْلى.

بَلاغَةُ التَّعْريفِ بِالإضافَةِ في: ﴿جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾:

جَنّاتٌ مِنَ النَّعيمِ التّامِّ والسُّرورِ والحُبورِ

أُضيفَ لَفْظُ ﴿جَنَّٰتِ﴾ إلى ﴿ٱلنَّعِيمِ﴾ في قولِ اللّه سُبحانَهُ: ﴿فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾؛ لِبَيانِ أنَّها جَنّاتٌ مِنَ النَّعيمِ، فالإضافَةُ بمَعْنى (مِن)، فالنَّعيمُ هو أصْلُها ومآلُها، فَهيَ مُشْتَمِلةٌ عَلى النّعيمِ المُقيمِ بالسّعادةِ والحُبورِ، والنّظرِ إلى وجْهِهِ الكَريمِ، والانْبِساطِ بِقُرْبِهِ، ولِقاءِ الأحِبَّةِ والأشِقّاءِ، ونَعيمِ البَدنِ بالمأكولِ والمشْروبِ، وغيرِ ذلكَ ممّا لا يخطرُ على قلبِ بشرٍ، وممّا عجزَ عنْ وصفِهِ الواصفونَ[1].

سِرُّ اسْتِعْمالِ مُفْرَدَةِ ﴿ٱلنَّعِيمِ﴾:

الإيماءُ إلى النِّعَمِ الكَثيرَةِ الدّائِمَةِ الّتي لا تَزولُ

آثَرَ النَّظْمُ الكَريمُ اسْتِعْمالَ مُفْرَدَةِ ﴿ٱلنَّعِيمِ﴾ دونَ مُرادفاتِها مِنَ الخُلدِ ونَحوِها؛ لِأنَّ النَّعيمَ هوَ المتَّسِقُ مَع سياقِ الآيَةِ، فإنَّ الآيَةَ جاءَتْ في مُقابَلَةِ ما يُصيبُ الكافِرينَ مِنْ عَذابِ النّارِ، فَأَثْبتتْ لَهم مَأْوى النَّعيمِ في مُقابَلَةِ مَأْوى النّارِ، وهذا مِن حُسنِ التَّقابُلِ بَينَ المعاني، فإنَّ النّارَ سَتورِثُ أَهْلَها الشَّقاءَ المُبينَ، بِخِلافِ الجنّاتِ الّتي سَتورِثُ أَهْلَها النَّعيمَ الدّائمَ.

(1) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 359.

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

العَمَلُ والفِعْلُ:

العَمَلُ: إيجادُ الأَثَرِ في الشَّيءِ، لِذلكَ يُقال: إنَّ فلانًا يَعْملُ الطِّينَ خَزَفًا، ولا يُقال: يَفْعلُ ذلكَ، فالعَمَلُ يَكونُ بمَعْنى الإحْداثِ[1]، والأَصْلُ في العَمَلِ في اللُّغَةِ: الدّؤوبُ، وهوَ أَخَصُّ مِنَ الفِعْلِ؛ لِأَنَّ الفِعْلَ يَكونُ بِقَصْدٍ وبِغَيرِ قَصْدٍ، فَهوَ أَعَمُّ.

ومَعْنى الفِعلِ: تَأْثيرٌ بمُؤَثِّرٍ إنْ كانَ بإجادَةٍ أوْ بغَيْرِها فهوَ عامٌّ، ولِما كانَ عنْ عِلمٍ ومَعْرفةٍ أوْ بِغَيرِ عِلمٍ، ولِما كان بِقَصْدٍ أوْ منْ دونِ قصْدٍ، وقدْ يَكونُ منَ الإنسانِ أوْ مِنْ غَيرِه[2]؛ فهوَ بِذلكَ يَدلُّ على العُموم، فالتَّعْبيرُ بـ﴿وَعَمِلُواْ﴾ أَخَصُّ بِالآيَةِ، وأَنْسَبُ لِمَضمونِها وسياقِها ممّا لَو عُبِّرَ بِصيغَةِ (يفعلون)؛ لأنّهُ آنَئذٍ يَبْتَعدُ عَنِ المعْنى المُرادِ.

العَمَلُ هوَ الإحْداثُ مُطْلَقًا والفِعْلُ هوَ التَّأْثيرُ حَسَنًا كانَ أوْ غَيْرَهُ وهوَ أَعَمّ

الصّالحات والخَيرات:

يُعرفُ الصّلاحُ: بِأنّهُ الاسْتِقامَةُ بِما تَرْمي إلَيهِ الحِكْمَةُ سواءٌ أَكانَ ذلكَ في الضّرِّ أم في النَّفْعِ، ويَكونُ في الضّرِّ كالمرَضِ، فإنّهُ صَلاحٌ لِلإنسانِ في وقتٍ دونَ الصِّحَّةِ، والصّلاحُ يَكونُ كذلكَ في الدّينِ؛ لِذلكَ وُصِفَ المؤمِنونَ بِأنّهم يَعملونَ الصّالحاتِ، وقدْ يَكون في تِلكَ الأعْمالِ ما يَبْدو أنَّ فيهِ ضَرَرًا عَلى الإنسانِ، أمّا الخَيرُ فهوَ السَّعدُ والحسنُ والسُّرورُ، فالشّيْءُ إنْ لم يكنْ حَسَنًا لم يَكنْ خَيرًا؛ ولِذلكَ لم تَكُنِ المَعاصي خَيرًا قَطُّ وإنْ كانتْ لَذَّةً وسُرورًا، ولا يُقالُ لِلمَرَضِ: خَيْر، كَما يُقالُ لَهُ: صَلاح؛ لِأنّهُ قدْ يكونُ ذا فائدَةٍ في الدّينِ[3]، عَلى أنَّه وَرَدَ التَّعبيرُ عمّا كانَ ضَررًا في الظّاهِرِ أنَّهُ خَيرٌ، في قولِ النَّبيِّ ﷺ: «عَجَبًا لِأَمرِ الْمُؤْمِنِ، إِنَّ أَمرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذاكَ لِأَحَدٍ إِلّا

الصّلاحُ اسْتقامةٌ بِموجَبِ الحِكْمَةِ في الضّرِّ والنَّفْعِ معَ تَعَلّقِهِ بالدّينِ، والخيرُ مُقْتَصِرٌ عَلى السّرورِ والحسنِ

(1) العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 135.
(2) الرّاغب، المفردات: (عمل).
(3) العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 320.

لِلْمُؤْمِنِ، إِنْ أَصابَتْهُ سَرّاءُ شَكَرَ، فَكانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصابَتْهُ ضَرّاءُ، صَبَرَ فَكانَ خَيْرًا لَهُ»[1]، ولَكِنَّ شأْنَ الفروقِ أَنْ تَكونَ أغلبيَّةً لا مُطَّردةً.

وعَلى ذلكَ فإنَّ التّعبيرَ بالصّالحاتِ أَلْيقُ مِنَ الخَيراتِ؛ لِما في هذهِ الأخيرَةِ مِنْ مُطلقِ السّعادةِ والحسنِ، ولَيسَ ذلكَ معَ عملِ الصّالحاتِ الّتي قدْ يَكونُ فيها ضَررٌ في ظاهِرِها لَكنَّها أوجِدَتْ لِصَلاحِ الإنسانِ ونفعِهِ.

(1) رواه مسلم في صحيحه (برقم: 2999).

﴿دَعۡوَىٰهُمۡ فِيهَا سُبۡحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمۡ فِيهَا سَلَٰمٞۚ وَءَاخِرُ دَعۡوَىٰهُمۡ أَنِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٠﴾ [يونس: 10]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

بَعْدَ الحُلولِ في الجَنّاتِ ذُكِرَتِ الأحْوالُ والمَقالاتُ

الآيَةُ امتدادٌ لِمَراتِبِ سَعاداتِ أَهْلِ الجَنَّةِ ودَرَجاتِ كَمالاتِهم، فبَعْدَ أنْ هَداهُم إلى جَنّاتِهِ وأَجْرى الأنْهارَ مِنْ تَحتِهم وما أَفاضَ عَلَيهِم مِنَ المُتَعِ واللَّذّاتِ في جَنّاتِ النّعيمِ؛ شَرَعَ بِذِكْرِ أحوالِهم ومَقالِهم في مَقامِهِمُ الكَريمِ مِنْ جَنَّتِهِ الّتي وَعَدَها إيّاهم مِنْ تَسْبيحٍ وتَنْزيهٍ وتَحيَّةِ سَلامٍ وحَمدٍ عَلى ما امتَنّ وأَنْعَمَ.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿دَعۡوَىٰهُمۡ﴾: الدّعْوى اسْمٌ مِن (دعا يدعو)، وهوَ اسْمٌ لِما تَدّعيهِ، ويُمكن أنْ تَكونَ دُعاءً[1]، جذْرهُ اللّغويُّ الدّالُ والعَينُ والواوُ، ومَعْناهُ قَريبٌ مِنَ الطَّلَبِ، وهذهِ المادَّةُ تَدلُّ في أصْلِها عَلى أَنْ تَجعلَ الشَّيْءَ يَميلُ إليْكَ بِصَوتٍ أوْ قَوْلٍ مِنكَ، ومِن مَعانيهِ: النّداءُ، إلّا أنّ النّداءَ يكونُ بالحَرفِ، وقدْ يكونُ بمَعْنى الحَثِّ عَلى الشّيْءِ، ومِن مَعاني الدَّعوى: التَّضَرّعُ والدّعاءُ، وكَثيرٌ مِنَ المُفَسّرينَ يَرى بِأنّ دَعْواهُم في الآيَةِ بمَعْنى الدُّعاءِ[2]، وجَعَلَها قِسْمٌ مِنْهم بمَعْنى القَولِ[3]، وبَيْنَ التَّفسيرَينِ تَشابُهٌ عِندَ آخَرينَ.

2) ﴿وَتَحِيَّتُهُمۡ﴾: تَحيَّةٌ: اسمٌ على زِنَةِ (تَفْعِلَة)، مُشْتَقّةٌ مِن (حَيَّ) بمعْنى بَقِيَ، واسْتُعملَتْ بمَعْنى السّلامِ، وجَذرهُ اللُّغويُّ: الحاءُ والياءُ والحرفُ المعتلُّ، والأصْلُ في مَعناهُ أنَّهُ ضِدّ المَوتِ في أَحَدِ مَعْنَيَيهِ،

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (دعو).

(2) الفرّاء، معاني القرآن: 3/267، وابن جرير، جامع البيان: 15/30.

(3) ابن سلّام، التّصاريف لتفسير القرآن، ص: 325، والسّمرقنديّ، بحر العلوم: 2/105.

وهيَ أيْضًا "امتِدادٌ واتِّصالٌ مَع رِقّةِ الحياةِ والحَرَكةِ"، ثُمّ جُعِلَ لَفْظُ التَّحيّةِ دُعاءً[1].

ومعْنى ﴿وَتَحِيَّتُهُمْ﴾ في الآيَةِ: ما يُحَيّي بِهِ بَعْضُهم بَعْضًا أوِ السّلامُ مِن ربِّ العالَمينَ[2].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

حالُ السُّعَداءِ في جَنَّتِهِ أوَّلُهُ التَّسْبيحُ وأَوْسَطُهُ السَّلامُ وآخِرُهُ التَّحْميدُ

ذَكَرَ مِن حالِ السُّعَداءِ في الجَنَّةِ أنّ قَوْلَهم وكَلامَهم أنْ يُنَزِّهوا اللّه تعالى بِقولهم: سُبْحانَكَ اللهمَّ، وأنْ يُحيّي بَعْضُهم بَعْضًا بالسّلام، وأنْ تَكونَ خاتِمَةُ دُعائِهِم أنْ يَقولوا: الحَمدُ للّه ثَناءً عَلَيهِ، ومُقْتَرِنًا بِربِّ العالَمينَ لِلدّلالةِ عَلى كَمالِ قُدرَتِهِ وحُسنِ تَدبيرِهِ.

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

بَلاغَةُ القَصْرِ في تَعْريفِ طَرَفَي الإسْنادِ:

إذا اشْتاقَ أَهْلُ الجَنَّةِ لِقُرْبِ رَبِّهِم بِالدّعاءِ؛ أَثْنَوا عَلى رَبِّهِم تَسْبيحًا

قولُ اللّه تعالى: ﴿دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ﴾ جُملةٌ اسْميَّةٌ، قُصِرَ فيها ﴿دَعْوَىٰهُمْ﴾ على قولِه: ﴿سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ﴾ بِطَريقِ تَعريفِ جُزْأَيِ الإسْنادِ، وذلكَ لِأنَّ لَفْظَةَ ﴿دَعْوَىٰهُمْ﴾ معرَّفةٌ بالإضافةِ إلى الضَّميرِ، و﴿سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ﴾ قُصِدَ لَفْظُهُ، فصارَ بِمنزِلَةِ العَلَمِ، ونُكْتَةُ القَصْرِ: الإيذانُ بأنّهُ لا دَعْوى لَهُم في الجنَّةِ سِوى تَسبيحِهِ تَعالى الدّالِّ على التّنزيهِ والتّعظيمِ[3].

ووَجْهُ ذِكرِ حالِهِم هذا هوَ الإشارةُ إلى ما هُم فيهِ مِنَ النَّعيمِ المقيمِ، وهوَ طلبَةُ الرّاغِبينَ وغايَتُهم، فإذا اشْتاقوا لِقُرْبِهِ تَعالى ومُناجاتِهِ بِالدُّعاءِ كَما كانوا في الدُّنيا، افْتَقَدوا ما يَسْأَلونَهُ، فَقَد غَمَرَهُم بِنِعَمِهِ، فَعوّضوا سُؤالَهُ بالثّناءِ عَلى ربِّهِم تَسْبيحًا، أوْ أَخْرَجوا

(1) ابن منظور، لسان العرب، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (حيي).

(2) الزّجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 3/8.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/103.

السُّؤالَ بِلَفْظِ التّسْبيحِ[1]؛ فهوَ أدلُّ على التّنْزيهِ والتّعْظيمِ والتّمجيدِ وهو جامِعٌ لِمَعاني الكَمالاتِ[2].

نُكْتَةُ إيثارِ لَفْظِ الدَّعْوى:

دَعْواهُم تَعْني الثَّناءَ لأجْلِ الثَّناءِ لا تَوْطِئَة لِلطَّلَبِ

آثرَ النَّظمُ القرآنيُّ التّعبيرَ بمُفْردةِ: ﴿دَعْوَىٰهُمْ﴾ على أنْ يقولَ (دعاؤهُم)؛ لأنَّ معْنى دَعواهُم: الدّعاءُ الغامِرُ الثّابتُ الكَثيرُ الّذي يُلْهَمونَهُ ولا يَقولونَهُ على وَجْهِ التَّكليفِ، إذْ لا تَكْليفَ في الآخِرةِ[3].

ولفْظُ الدَّعوى وردَ على تَفسيرِ "قولهم: سُبحانكَ اللهمّ"[4]، فمَفهومُ الدَّعوى هوَ القَولُ الّذي مَعْناهُ الثَّناءُ الحَسَنُ المُطلَقُ عَن أيِّ طَلبٍ، فهوَ قولُ الثَّناءِ لِأجْلِ الثَّناءِ، لا تَوْطِئَة لِلطَّلبِ.

دلالَةُ الإضافَةِ في: ﴿دَعْوَىٰهُمْ﴾ و﴿وَتَحِيَّتُهُمْ﴾:

الدَّعْوى صادِرَةٌ عَنْ أَهْلِ الجَنَّةِ نَصًّا والتَّحِيَّةُ احْتِمالًا

أُضيفتِ الدّعوى إلى ضميرِ الجمعِ في قولِ اللّه تعالى: ﴿دَعْوَىٰهُمْ﴾ العائدِ على الدّاعينَ المُنادينَ؛ لأنّهم يَدعونَ مُجْتمِعينَ كما يُشعرُ سياقُ الكلامِ[5]، فهيَ دَعْوى صادرَةٌ عَن أهْلِ الجَنَّةِ.

أمّا قولُه: ﴿وَتَحِيَّتُهُمْ﴾؛ فقد أضافَ التَّحيّةَ فيه إلى ضَميرِ الجَمعِ؛ فهوَ إمّا أنْ "يَكونَ مَصْدرًا مُضافًا لِلمَجموعِ لا عَلى سَبيلِ العَملِ، بَل يَكون كَقوله: ﴿وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ۝٧٨﴾ [الأنبياء: 78]، فَتَحيَّتُهم بَيْنَهم سَلامٌ، أيْ: تَحيَّة بَعْضِهم لِبعضٍ.

وإمّا أنْ يَكونَ مُضافًا إلى المَفْعولِ، والفاعلُ: اللّه تعالى، أو الملائكَةُ، أيْ: تَحيَّةُ اللّه إيّاهم، أوْ تَحيَّةُ الملائكةِ إيّاهُم"[6].

(1) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 8/313.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/103.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/79 - 80.
(4) العكبريّ، التّبيان: 2/666.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/105.
(6) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/18.

غَرَضُ تَقْديمِ الجارِّ والمجْرورِ ﴿فِيهَا﴾:

وَظيفَةُ القَصْرِ الادِّعائِيِّ المُبالَغَةُ في تَنْزيهِ اللهِ تَعالى وتَعْظيمِهِ

قُدِّمَ الجارُّ والمَجْرورُ ﴿فِيهَا﴾ في قولِ اللّه تعالى: ﴿دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ﴾ لِلاهْتِمامِ والاخْتِصاصِ، فَكَأَنَّهُ قالَ: دَعْواهُم التَّسْبيحُ فيها لا في غَيْرِها، وهوَ مِنْ بابِ القصْرِ الادِّعائيِّ لِلمُبالغَةِ في إظْهارِ التَّنزيهِ والتَّعظيم، وإلّا فإنَّ التَّنزيهَ والتَّعْظيمَ يَكونُ في جَميعِ الأَمكِنَةِ، فَصَوَّرَها هُنا مُخْتَصَّةً بِجَنّاتِ النَّعيم؛ فالمُبالغَةُ في القَصْرِ لِإرادَةِ الاهْتِمامِ بِشَأنِ التَّسْبيحِ في الجنَّةِ.

سِرُّ إضافَةِ التَّسْبيحِ إلى ضَميرِ الخِطابِ:

تَصْريحٌ بِتَكْليمِ اللهِ، وإيماءٌ إلى رُؤْيَتِهِ تَعالى

جاءَ التَّعبيرُ في قولِه تَعالى: ﴿سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ﴾ دونَ أنْ يَقولَ: (دَعواهُم فيها سُبحان اللّه)، وذلكَ لِبيانِ أنَّ أهلَ الجنَّةِ يُخاطِبونَ اللّه تَعالى بِالتَّنزيهِ والثَّناءِ كِفاحًا، ولا يُثْنونَ عَليهِ غَيْبةً قائلينَ: سُبحان اللّه، وفي ذلكَ إكرامٌ لَهُم، وفيهِ إيماءٌ إلى رُؤيَةِ اللّه تَعالى، وتَصْريحٌ بِتَكْليمِهِ.

بَلاغَةُ اسْتِعْمالِ تَرْكيبِ النِّداءِ ﴿ٱللَّهُمَّ﴾:

نِداءُ أَهْلِ الجنَّةِ يَصْدُرُ عَنْهُم مُجْتَمِعين؛ لِعَظيمِ ما يُشاهِدونَهُ مِنَ الإكْرامِ الإلهيِّ

استُعمِلَ تركيبُ النّداءِ ﴿ٱللَّهُمَّ﴾ المشْتملُ عَلى الاسْمِ الأحسَنِ (اللّه) والميمِ المشدَّدَةِ عِوضًا عَن ياءِ النّداءِ، ومعناهُ: نُسَبِّحكَ يا اللّه، كالقُنوتِ بِلَفْظِ: اللهمّ إيّاكَ نعبدُ ولَكَ نُصَلّي ونَسْجُدُ[1]؛ لِبَيانِ أنَّ تَسْبيحَهُم يَصْدُر عَنْهُم مُجْتَمعينَ، وهذا الاجْتِماعُ لا مِن بابِ الاتِّفاقِ النِّظاميِّ، بَل مِن بابِ الاتِّفاقِ لِما يَرونَهُ مِن إقْبالِ اللّه عَلَيهم، فَيَصْدرُ عَنْهم ﴿سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ﴾ مُجْتَمِعينَ، وهذا يَدلُّ عَلى شَديدِ فَرَحِهِم بِما يَرونَهُ ويَسْمَعونَهُ مِن قِبَلِ اللّه تعالى.

بَلاغَةُ العَطْفِ: ﴿وَتَحِيَّتُهُمْ﴾:

عُطِفَ قولُه تَعالى: ﴿وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌۚ﴾ عَلى ما سَبَقَهُ مِنَ

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/331.

التَّسبيحِ الّذي يُرادُ منهُ التَّنزيهُ؛ لأنَّ أهلَ الجنَّةِ إذا شَرَعوا في الدّعاءِ تَسْبيحًا قوبِلوا بالسّلام، وهوَ دُعاءٌ بالسَّلامَةِ صادِرٌ عَنِ اللّه تعالى، أوْ عَنِ الملائِكَةِ، أوْ عنْ بَعْضِهم يُحيِّي بَعْضَهمُ الآخَرَ، فَإذا قُلْنا: إنَّ التَّحيَّةَ صادِرَةٌ عَنِ اللّه تَعالى؛ فَتِلْكَ مُتَّسِقَة مَع خِطابِهِم ﴿سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ﴾.

مُكافَأَةُ أَهْلِ الجِنانِ بِالتَّحِيَّةِ الّتي هيَ الدُّعاءُ بِالسَّلامَةِ مِنْ كُلِّ آفَةٍ

وإذا قُلْنا بِصدورِ التَّحيَّةِ عَنِ الملائكَةِ؛ فذلكَ مِنْ إكْرامِ اللّه لَهُم، وإذا قُلْنا إنَّهُ يَصْدُرُ عَن بَعْضِهم تُجاهَ بَعْضِهمُ الآخَرِ، فذلكَ أَمرٌ يَعمُّ أَحْوالَهم، ولا مانِعَ أنْ تَصْدرَ التَّحيَّةُ عَنِ اللّه سُبحانَهُ ومَلائكَتِهِ وأهْلِ الجنَّةِ، فالقَولُ بِالعُمومِ الّذي يَقْتَضيهِ السِّياقُ أَوْلى مِنَ التَّخْصيصِ الّذي لا دَليلَ عَلَيهِ.

نُكْتَةُ اسْتِعْمالِ لَفْظِ التّحيَّةِ:

اختيرَ لَفْظُ التَّحيَّةِ في قولِ اللّه تعالى: ﴿وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ﴾ مَعَ أنّ أصلَ التّحيَّةِ اجْتُلِبتْ مِن تَمنّي الحَياةِ لِلمَرءِ والدُّعاءِ بِها[1]، والجنّةُ حَياةٌ خالِدَةٌ؛ لِلإيماءِ بأنَّ السُّعداءَ مِن خَلْقِ اللّه سُبحانَهُ في أُنْسٍ وسُرورٍ، وذلكَ مِنْ أكْبرِ مُتَعِ النَّفْسِ ولَذّاتِها[2].

الإشارَةُ إلى أنَّهُم في أُنْسٍ وحُبورٍ، وذلكَ مِنْ أَعْظَمِ لَذّاتِ النَّفْسِ

غَرَضُ تَقْديمِ الجارِّ والمجْرورِ ﴿فِيهَا﴾:

قدّمَ الجارّ والمَجْرور ﴿فِيهَا﴾ عَلى الخَبَرِ ﴿سَلَٰمٌ﴾ في قولِه تَعالى: ﴿وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ﴾؛ لِإفادَةِ الاهْتِمامِ والتَّخصيصِ، فإنَّ السَّلامَةَ مِنَ الآفاتِ والنَّقائصِ، كَأَنَّها حاصِلَةٌ في جَنّاتِهِ تَعالى لا في غَيرِها، وكُلُّ سَلامٍ دونَ سَلامِهم في تِلكَ الجِنانِ مُشْتَمِلٌ عَلى العَيْبِ والنَّقْصِ.

كُلُّ سَلامٍ دونَ سَلامِ أَهْلِ الجَنَّةِ مُشْتَمِلٌ عَلى شَوائِبِ النَّقْصِ

غَرَضُ تَنْكيرِ لَفْظِ السَّلامِ:

في تَنْكيرِ لَفْظَةِ ﴿سَلَٰمٌ﴾ في قولِه: ﴿وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ﴾ غَرَضٌ دالٌّ

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/107.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/101.

اشْتِمالُ السَّلامِ في الجَنَّةِ عَلى أَنْواعِهِ كُلِّها

على إيجازٍ بَديعٍ بَليغٍ؛ فَإنَّ تَحيَّتَهُم هذهِ تَشْملُ جَميعَ أَنْواعِ السَّلامِ[1]، فَقدْ تَكونُ التّحيَّةُ مِنَ اللّه تعالى، كَقوله سُبحانَهُ: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌۚ﴾ [الأحزاب: 44]، وقدْ تَكونُ مِنَ الملائكَةِ عِندَ دُخولِ الجَنَّةِ بِقولهم: ﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ۝٧٣﴾ [الزمر: 73]، وقدْ تَكونُ مِنْ بَعْضِهم لِبَعضٍ كَقوله: ﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَٰمًاۖ﴾ [مريم: 62]، فلفظة ﴿سَلَٰمٌۚ﴾ المُنَكّرةِ تَشْمَلُ أَنْواعَ السّلامِ كُلَّها.

الإخبارُ عنِ الجِنْسِ بِفَرْدٍ مِنْ أَفْرادِهِ

ووُرودُ لَفظِ سَلامٍ مُنَكَّرًا فيهِ أَيْضًا إخْبارٌ عَنِ الجِنْسِ بِفَرْدٍ مِن أَفْرادِهِ، فاللّه تَعالى جَعَلَ لَهمُ التَّحيَّةَ بِهذا اللَّفْظِ، والظّاهِرُ أَنَّ التّحيَّةَ بَيْنَهُم هيَ بِهذا اللَّفْظِ النَّكِرةِ ﴿سَلَٰمٌۚ﴾، فَحُكِيَتْ هُنا بِلَفْظِها دونَ تَعْريفِها؛ مِن نَحوِ: السَّلامُ عَلَيْكُم، أَوْ: وتَحيَّتُهُم فيها السَّلامُ[2].

غَرَضُ حَذْفِ مُتَعَلّقِ ﴿سَلَٰمٌۚ﴾:

سَلامُ أَهْلِ الجَنَّةِ إيناسٌ وتَكْرِمَةٌ فهوَ أَشْبَهُ بِالخَبَرِ منه بِالدُّعاءِ

حُذِفَ مُتَعَلّقُ ﴿سَلَٰمٌۚ﴾ فَلَم يَرِدِ النَّظْمُ القرآنيُّ: (سلامٌ عَليكم)؛ وذلكَ لِأَنَّ التّحيَّةَ هيَ مُجَرّدُ مؤانَسَةٍ وإكْرامٍ بَيْنَهم، فهيَ أَشْبَهُ ما تَكونُ بِالخَبرِ والشُّكرِ مِنها بِالدُّعاءِ والأَمانِ، فَفيها اغْتِباطُهُم بِالسَّلامَةِ الكامِلَةِ مِنَ العَطَبِ والآفاتِ، بِخلافِ تَحيَّةِ أَهْلِ الدُّنيا الدّالَّةِ عَلى الدُّعاءِ بِالأَمانِ وتَسْكينِ رَوْعِ المُخاطَبِ، وأَنَّهُ لا يُضْمِرُ شَرًّا لِمُلاقيهِ[3].

بَلاغَةُ التَّرْتيبِ بَينَ الجُمَلِ المتَعاطِفَةِ:

تَنْزيهُ اللّه تَعالى يوجِبُ السَّلامَةَ لِلمؤمِنينَ

في الآيَةِ جُملٌ مُتَعاطِفَةٌ بدْءًا بِقولِه: ﴿دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ﴾، ثُمَّ ﴿وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌۚ﴾، ثمَّ ﴿دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، وجاءَ التَّرْتيبُ عَلى نَسَقٍ مَقْصودٍ؛ فالتَّسْبيحُ هوَ تَنْزيهُهُ تَعالى عَن كُلِّ ما لا يَليقُ بِهِ، وكانَ ذلكَ التَّنزيهُ إيجادًا لَهم بِسَلامَتِهم مِنْ كُلِّ عَيبٍ ونَقْصٍ حتّى حَصَّلوا القُرْبَ مِنَ اللّه تَعالى؛ فحَمِدوهُ عَلى

(1) رشيد رضا، تفسير المنار: 11/253.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/103.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/104.

نِعْمةِ الإيجادِ إرشادًا إلى قُدْرَتِه سُبحانَهُ بقوله: ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، ولا يَنْفَكُّ الإنسانُ عَنِ الحاجَةِ والنُّقصانِ[1].

وتَرْتيبُ الجُمَلِ المُتَعاطِفةِ في الآيَةِ مُشْعِرٌ أيضًا بأنَّ دَعْوتَهم كانَتْ في سياقٍ جَمعِيٍّ؛ ولِذلكَ اقْتَرنَ دُعاؤهم بِذِكْرِ تَحيَّتِهم؛ فإذا رَأى بَعضُهم بَعضًا ابْتَدروا الدُّعاءَ بـ: سُبْحانَكَ اللهمَّ، فإذا تَقارَبوا سَلَّمَ بَعضُهم على بَعْضٍ، فإذا راموا التَّفارُقَ خَتَموا الدُّعاءَ بِالحَمدِ[2].

ولَمّا سَعِدَ أهْلُ الجنّةِ بِذِكرِ (سُبحانَكَ اللهمَّ)، وشاهَدوا السَّلامَةَ عَنِ الآفاتِ والمَخافاتِ الّتي هُم فيها؛ أَيْقَنوا أَنّ هذِهِ الأحْوالَ الجَليلَةَ والرُّتَبَ القُدْسيَّةَ، إنَّما تَهيَّأتْ بِإحْسانِ اللهِ سُبحانَهُ وإفْضالِهِ وإنْعامِهِ، فاشْتَغَلوا بِحَمدِ اللهِ والثّناءِ عَليهِ[3].

سِرُّ ذِكْرِ لَفْظِ: ﴿وَءَاخِرُ﴾:

ذُكِرَ لَفْظُ الآخِرِ في قولِه تعالى: ﴿وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ﴾ إشارَةً إلى أنَّهُم يَبْتَدِرونَ كَلامَهُم بِالتَّسْبيحِ، فإذا أَرادوا خَتْمَهُ حَمِدوا اللهَ تعالى، فَفيهِ شِبْهُ الاحْتِباكِ؛ حيثُ دَلَّ أَوّلُ الجُملةِ الثّانيةِ المَذْكورُ ﴿وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ﴾ عَلى أَوَّلِ الجُملَةِ الأولى المَحْذوفِ ﴿دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ﴾، فَكَأنَّهُ قالَ: (أوَّلُ دَعْواهُم فيها سُبْحانكَ اللهم).

بَراعَةُ حَذْفِ التَّقابُلِ عِنْدَ وجودِ القَرينَةِ الدّالَّةِ

ويَجوزُ أَنْ يُحْمَلَ عَلى حَقيقَتِهِ دونَ تَقْديرِ مَحْذوفٍ، فَيكونُ: ﴿سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ﴾ عُنوانَ كَلامِهِم عَلى الدَّوامِ، أيْ: أنَّ غالِبَ أَحْوالِ دَعْواهُم هيَ: ﴿سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ﴾، فَإذا أَرادوا خَتْمَهُ أو التَّحَوُّلَ إلى مَوْقِفٍ آخرَ مِن مَواقِفِ النَّعيمِ وأَحْوالِهِ؛ خَتَموا دُعاءَهُم بِجُملَةِ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

التَّسْبيحُ دَعْوى المُؤْمِنينَ المُسْتَمِرَّةُ، فَإذا انْتَقَلوا إلى مَقامٍ آخَرَ خَتَموا دَعْواهُم بِالحَمدِ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/80.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/105.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 17/217.

نُكْتَةُ إعادَةِ لَفْظِ ﴿دَعْوَىٰهُمْ﴾:

لَذَّةُ المؤمنينَ في الجَنَّةِ هيَ دَعْواهُم ذِكْرًا وثَناءً على الله تَعالى

أُعيدَ لَفْظُ ﴿دَعْوَىٰهُمْ﴾ في الآيةِ مَرَّتين، فقالَ سُبحانَهُ: ﴿دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ۚ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾؛ للدّلالَةِ عَلى أنَّ قيلَ أهْلِ الجَنَّةِ في جَميعِ الأَحْوالِ ابْتِداءً وانْتِهاءً هوَ الدُّعاءُ، وأنَّ ﴿دَعْوَىٰهُمْ﴾ هيَ حالُهم المُسْتَمِرَّةُ الثّابِتَةُ، وفيهِ أنَّ أهْلَ الجنَّةِ يَتَلَذَّذونَ بِالدُّعاءِ في ذِكْرِ اللّه تَعالى والثَّناءِ عَلَيهِ، كَما كانوا في الدُّنيا، فإنَّ الَّذي يَغلبُ على الطَّبْعِ؛ يَلْزَمهُ صاحِبُهُ عَلى الدَّوامِ، فَكانَ إعادَةُ ﴿دَعْوَىٰهُمْ﴾ لِلتَّنبيهِ عَلى هذهِ الحالِ، ولِبَيانِ عَظيمِ أَثَرِ الدُّعاءِ والذِّكرِ في الدُّنْيا الموصِلِ إلى جنَّةِ الرِّضْوانِ في الآخِرَةِ.

دلالَةُ ﴿أَنِ﴾:

تَفْسيرُ دَعْوى المؤمنينَ في الجَنَّةِ وتَوْكيدُها

﴿أَنِ﴾ في قولِه تَعالى: ﴿وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ تَفْسيريَّةٌ لـ﴿وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ﴾، "وهيَ مؤْذِنَةٌ بِأنَّ آخِرَ الدُّعاءِ هوَ نَفْسُ الكلمةِ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾"[1].

وتَحْتَمِلُ ﴿أَنِ﴾ في الآيَةِ أنْ تَكونَ لِلتَّوكيدِ مُخَفَّفةً مِن (أنّ) المُشَبَّهةِ بِالفِعلِ، واسمُها ضَميرُ الشَّأنِ على تَقْديرِ: وأنَّهُ، وخَبَرُها: الحمدُ للّه[2].

سِرُّ العُدولِ عَنِ الخِطابِ إلى الغَيْبَةِ:

تَسْبيحُ الله خِطابًا عِنْدَ رُؤْيَتِهِ، وحَمْدُهُ في الخِتامِ غَيْبَةً

خُتِمتِ الآيَةُ بجملةِ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، فعُدِلَ عَنِ الخِطابِ في قولِه: ﴿سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ﴾ إلى الغَيْبةِ، فَلَم يَأتِ الدُّعاءُ بالحَمدِ عَلى طَريقِ الخِطابِ، وسِرُّ ذلكَ أنَّ الخِطابَ فيهِ إشارَةٌ إلى رؤْيَةِ اللّه تَعالى؛ إذِ الأصلُ في الخِطابِ أنْ يَكونَ لِمُعيَّنٍ مُشاهَدٍ، أمّا

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/105.
(2) شيخ زاده، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 4/545.

الحَمدُ فهوَ الخِتامُ بَعدَ الرُّؤيَةِ، فَعِندَ رؤيَةِ اللّه يُسَبّحونَهُ خِطابًا، وعِندَ الخِتامِ يَحمدونَهُ غَيْبَةً، أوْ أنْ يَكونَ مِن بابِ رِعايَةِ الفاصِلَةِ، والاهْتِمامِ بالحَمدِ وما يَقْتَرِنُ بِهِ مِن نُعوتِهِ الجَليلَةِ ﷻ وتَذكيرًا بِمُسَمّاها[1]، والأوَّلُ هوَ الأَوْلى بِالقَبولِ.

بَراعَةُ الخَتْمِ في الآيَةِ:

الاشْتِغالُ بِشُكْرِ النِّعْمَةِ مُتَأَخِّرٌ عَنْ رُؤْيَتِها

خُتِمتِ الآيَةُ بِجُملةِ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ بِمدْعاةِ أنَّ اشْتِغالَهُم بالتَّسْبيحِ والتَّمجيدِ نِعْمَةٌ عَظيمةٌ مِن أَجَلِّ نِعَمِهِ ﷻ، والاشْتِغالُ بِشُكْرِ النِّعْمةِ مُتَأَخِّرٌ طَبيعَةً عَن رؤْيَةِ تِلْكَ النِّعْمَةِ، فَكانَ أنْ خُتِمَ بِهذهِ الجُملةِ[2].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الحَمدُ والشُّكْرُ:

الحَمدُ يَكونُ ابْتِداءً وفي مُقابِلِ النِّعْمَةِ، والشُّكْرُ لا يَكونُ إلّا عَنْ يَدٍ ونِعْمَةٍ

ثَمّةَ فَرقٌ بَينَ الحَمدِ والشُّكْرِ، إلّا أنَّ بَعْضَ أهْلِ العِلْمِ لَم يُفَرّقْ بَينَهما كالأَخْفَشِ، وذَكرَ أنَّ بَيْنَهُما عُمومًا وخُصوصًا؛ ذلكَ أنَّ الحَمدَ نَوعٌ والشُّكرَ جِنْسٌ، ولَيْسَ العَكْسُ بِصَحيحٍ، وثَمّةَ فَرقٌ جَوْهَريٌّ بَيْنَهما وهوَ أنَّ الحَمدَ يَكونُ عَلى النِّعْمةِ والصُّنْعِ، ويَكونُ ابْتِداءً مِنْ غَيرِ عِلَّةٍ[3]، أمّا الشُّكْرُ فَلا يَكونُ إلّا في مُقابِلِ النِّعْمةِ؛ وهوَ عِرفانُ الإحْسانِ ويَكونُ عَنْ يَدٍ وفَضْلٍ[4]، فالخُلاصَةُ: أنَّ الحَمدَ أَعَمّ مِنَ الشُّكْرِ مِنْ جِهَةِ التَّعَلّقِ، أمّا مِنْ جِهَةِ الآلَةِ فَإنَّ آلَةَ الحَمدِ اللِّسانُ والقَلْبُ، أمّا الشُّكْرُ فيَكونُ بِالقَلْبِ واللِّسانِ والجَوارِحِ، فَقد قالَ اللّه ﷻ: ﴿ٱعْمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا﴾ [سبأ: 13]، فالشُّكرُ أَعَمُّ مِنْ هذهِ الجِهةِ، فالحَمدُ عُمومُهُ بِالتَّعلّقِ، وخُصوصُهُ

(1) القاسميّ، محاسن التّأويل: 6/9.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 17/217.
(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (حمد).
(4) الفيروزباديّ، القاموس المحيط: (شكر).

بالآلَةِ، والشُّكرُ بِعَكْسِ ذلكَ[1]، والتَّعبيرُ بالحَمدِ في الآيَةِ ممّا يُناسِبُ المَقامَ؛ لِأَنَّهُ الأَعَمُّ الأَشْمَلُ بِالمُتَعَلّقِ؛ ولأَنَّ الشُّكرَ يَكونُ بالأَعْمالِ والأَفْعالِ، ولا عَمَلَ لِأَهْلِ الجِنانِ؛ لأَنَّهُم تَحَوَّلوا مِنْ دارِ العَملِ والابْتِلاءِ إلى دارِ الرّاحَةِ والنَّعيمِ.

(1) العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 202.

﴿۞وَلَوۡ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسۡتِعۡجَالَهُم بِٱلۡخَيۡرِ لَقُضِيَ إِلَيۡهِمۡ أَجَلُهُمۡۖ فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ١١﴾

[يونس: 11]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

بَعدَ التَّرْغيبِ بِالجَنّاتِ والتَّرْهيبِ مِنَ النِّيرانِ نَبَّهَ إلى عَظيمِ لُطْفِهِ وكَبيرِ رِعايَتِهِ

في مُناسَبَةِ هذهِ الآيَةِ لِما قَبْلَها وَجْهانِ:

أَحَدُهما: أنَّ اللّه سُبحانهُ لَمّا وَصَفَ الكافرينَ بِأنّهُم لا يَرْجونَ لِقاءَ اللّه، راضينَ بِالحياةِ الدُّنيا مُطْمَئِنّينَ بِها، غافِلينَ عَنْ آياتِهِ؛ عَقّبَ بِغَفلةٍ أُخرى، وهيَ اسْتِعْجالهُمُ العَذابَ كاسْتِعْجالِهِمُ الخَيرَ جَهْلًا مِنْهم وسَفهًا مَتى أَنْذَرَهُمُ الرَّسولُ ﷺ[1].

والآخَرُ: أنَّ الآيةَ السّابقةَ لَمّا أُشيرَ فيها إلى تنزّهِهِ وتفرّدِهِ بنعوتِ الكمالِ والجلالِ وتمامِ قدرتِهِ وكمالِ إحاطتِهِ وحسنِ تدبيرِهِ أتبعهُ بما يدلّ على تلطّفِهِ بِعِبادِهِ وفي مُعامَلَتِهِ مِنْ أنّهُ لا يَفْعلُ شيئًا قَبلَ أوانِهِ؛ لأنَّ الاسْتِعْجالَ مِنْ سِماتِ الاحْتياجِ[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يُعَجِّلُ﴾: فِعلٌ دالٌّ على الحالِ والاسْتِقْبالِ، والجَذْرُ اللّغَويّ منهُ: العينُ والجيمُ واللّامُ، وهو دالٌّ على السّبقِ والإسْراعِ، ومِنْهُ: العَجَلُ؛ وهوَ نَقيضُ البُطْءِ، والعاجلُ: ضِدّ الآجِلِ، والعَجلةُ مَذْمومةٌ في القُرآنِ غالبًا؛ لأنّها طَلَبُ الشَّيءِ وتَحرّيهِ قَبلَ أَوانِهِ، فهوَ مِنْ مُقْتَضى النَّزْعةِ النّفسيّةِ، والعَجلةُ مِنَ الشّيطانِ، ووُصِفتِ الدُّنيا بالعاجِلَةِ مُقابِلِ الآخِرةِ[3]، كَقولِه تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡعَاجِلَةَ

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 17/218.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/81.

(3) ابن دريد، جمهرة اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (عجل).

﴿عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا﴾ [الإسراء: 18]، ومَعنى ﴿يُعَجِّلُ﴾ في الآيَةِ: أنَّ اللّه تَعالى لَوْ أَرادَ أنْ يُعجّلَ لَهم منَ الشّرِّ ما يَسْتَعْجلونهُ بِدُعائِهم مِثْل ما يَسْتَعجِلونَهُ مِنَ الخَيرِ لَهَلَكوا[1].

2) ﴿ٱلشَّرَّ﴾: اسمٌ ثلاثيٌّ، الجَذْرَ اللّغويّ منهُ الشّينُ والرّاءُ، ومِنْهُ الشَّرُّ؛ وهو السّوءُ والخُبْثُ ونَقيضُ الخَيرِ، والشّرُّ أيضًا: الشّيءُ الّذي يَرغَبُ عنهُ الجميعُ ويَنْحازُ، فهوَ الأمرُ المَكْروهُ، ومِنْ معانيهِ: المعابَةُ والضّرُّ وعَدمُ مُلاءَمَةِ الشّيءِ لِلطّبْعِ[2]، ومَعنى ﴿ٱلشَّرَّ﴾ في الآيَةِ ما فيهِ مَضَرّةٌ على النَّفْسِ أوِ الوَلَدِ أوِ المالِ مِنْ دُعائِهِم عَلى أَنْفسِهم[3].

3) ﴿فَنَذَرُ﴾: (نَذَرُ) فِعلٌ مُضارِعٌ دالٌّ على الحالِ والاسْتِقبالِ، والجَذْرُ اللّغويّ منهُ: الواوُ والذّال والرّاءُ، والماضي منهُ أماتَتْهُ العربُ وأبقتِ الحاضرَ والأمرَ، ومَعناهُ: التّركُ؛ فيُعبّرونَ بالفعلِ (تركَ) ماضيًا عنِ الفعلِ (وَذَرَ)، ويُقالُ: فُلانٌ يَذرُ الشَّيءَ، أيْ: يَقْذِفُهُ لِقلّةِ اعْتِدادِهِ بهِ، وقدْ فُسّرَ قوله: ﴿ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ۝٩١﴾ [الأنعام: 91] بمَعْنى القَذْفِ والإلْقاءِ والتَّرْكِ، فَلا يعْتدّ بِهم ولا يُبالى لهُم[4]، ومعْنى ﴿فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا﴾: نَتْركهُم فَلا نَعْتَدّ بِهِم[5].

4) ﴿يَعْمَهُونَ﴾: فعْلٌ مُسْنَدٌ لِلجَماعَةِ، والجذْرُ اللُّغَويُّ مِنْهُ: العَينُ والميمُ والهاءُ، والعمَهُ هوَ التّردّي في الضّلالةِ والتّحيّرُ الّذي لا يُهْتَدى مَعَهُ لِطَريقٍ أو مَذْهبٍ، ومِنْهُ أيضًا: فَقْدُ التّبَصّرِ والتَّنبّهِ[6]، و﴿يَعْمَهُونَ﴾ في الآيَةِ بِمَعنى: التَّردّدِ والتَّحيّرِ في الكُفرِ، فرَجلٌ عَمِهٌ وعامِهٌ: حائِرٌ مُتَرَدّدٌ[7].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

لَوْ يُعجّلُ اللّه إجابةَ دُعاءِ الّذينَ يَدعونَ بِالشّرِّ على أَنْفسِهم عندَ غَيْظِهم وضَجَرِهم كَما يُعَجّلُ لهُمُ الإجابَةَ بِالخَيْرِ لَأَهْلَكَهم، أوْ أَصابَهُم بِالسّوءِ، وما أُمهِلوا طَرْفَةَ عَيْنٍ، ولَكِنْ

(1) ابن الجوزيّ، زاد المسير: 2/319، والسّمين، عمدة الحفّاظ: (عجل).
(2) الخليل، العين، والجوهريّ، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، والسّمين، عمدة الحفّاظ، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (شرر).
(3) الهرريّ، تفسير حدائق الرّوح والرّيحان: 12/149.
(4) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن منظور، لسان العرب، والرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (وذر).
(5) مقاتل، تفسير مقاتل بن سليمان: 2/230.
(6) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (عمه).
(7) الهرويّ، الغريبين في القرآن والحديث: (عمه).

مِنْ رَحْمَتِهِ أنّهُ لَم يَسْتَجِبْ لَهم؛ لأنّهُ رَؤوفٌ رَحيمٌ، فاللّه سُبْحانَهُ بِحُكمِهِ وحِكْمَتِهِ يُقَرِّرُ ما يَشاءُ، ثُمَّ يَتْرُكُ الَّذينَ يُنْكِرونَ البَعْثَ في طُغْيانِهِم يَتَحَيَّرونَ عُميًا صُمًّا عَنْ رُؤْيَةِ الآياتِ وسَماعِ البَيِّناتِ.

اللّه يَحْفَظُ النّاسَ مِنِ اخْتيارِهِمُ المُهْلِكِ ويَتَلَطَّفُ بِهِم مِنْ جَهْلِهِمُ المُطْبِقِ

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالَةُ العَطْفِ: ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ﴾:

الواوُ في قولِه تَعالى: ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ﴾ عاطفةٌ؛ حيثُ عطفَتْ هذهِ الآيَة على سابِقَتِها، وفي ذلكَ خصوصيَّةُ عَطفٍ ومَزيدُ اتّصالٍ بما قبلَها؛ فإنَّ غُرورَ المشركينَ جَعلهُم يَظنّونَ أنّ أفْعالَ اللّه سبحانهُ كتَصرّفاتِ البَشرِ مِن الانْدِفاعِ انْتِقامًا عِندَ الغَضبِ ونحوِهِ، ويَحسَبونَ أنَّ الرّسلَ مَبعوثون لإظْهارِ الخَوارِقِ، وأنَّ تَصرّفاتهم رُدودُ أفْعالٍ، فإذا ما آذَوْهُم ولم تُصِبْهم إثرَ ذلكَ مَصائبُ أوْ موتٌ؛ ازْدادوا غُرورًا بِباطلِهم، والآياتُ في ذلكَ كَثيرةٌ، وربّما اسْتبطأَ المؤمنونَ نُزولَ العَذابِ لِما يَرَوْنَ مِنْ تَجاوزِ أولئكَ، وربّما عَجِبوا مِنْ أنّهُ تعالى يرزقُ أولئكَ الجاحِدينَ ويَزيدهُم، فَجاءَتْ هذهِ الآيَةُ لِتُزيلَ هذهِ الشُّبهةَ وتُطَمئِنَ المؤمنينَ، ولِتقرّرَ أنَّ المَولى سبحانهُ جَعلَ نِظامَ هذا العالَمِ عَلى الرّفقِ بالمَخْلوقاتِ واسْتِبقائِها إلى أجَلٍ مُعيّنٍ، وهيّأَ وَسائلَ هذا البَقاءِ بِإمدادِها بالنّعمِ لتَدومَ الحياةُ؛ فَهذهِ الجملةُ مَعطوفةٌ على قولِه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا﴾، وآيَةُ اتّصالِ هذه الآيَةِ بِما قَبلَها أنّه خَتمَها بقولِه: ﴿فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾[1].

العالَمُ قائِمٌ عَلى الرِّفْقِ والرَّأْفَةِ لِتَحْقيقِ غايَةِ الوُجودِ في الوُصولِ إلى المَعْبودِ

وفي الآيَةِ بَيانُ أنَّ الرِّفقَ قدْ جَعلهُ اللّه سُبحانهُ مُستمرًّا دائمًا عَلى عِبادِهِ، فهوَ قدْ أُقيمَ عليهِ نِظامُ العالَمِ لأنّهُ أرادَ ثباتَهُ، ولَيسَ المرادُ تَوازيَ الشَّرِّ معَ الخَيرِ؛ تَلطّفًا مِنهُ تَعالى ورِفقًا بِالمَخْلوقينَ؛

عَدَمُ اسْتِعْجالِ الشَّرِّ لِمُسْتَحِقّيهِ دَليلُ الحِكْمَةِ وبُرْهانُ المِنَّةِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/105 - 106.

فَفيهِ مِنّةٌ عَظيمةٌ ومِنحةٌ جَسيمَةٌ، ولَوْ عجّلَ الشَّرّ لِمُسْتَحقّيهِ؛ لَبَطلَ نِظامُ العالَمِ وبُنيانُهُ الَّذي قُدِّرَ لَهُ[1].

فائِدَةُ اسْتِعْمالِ أَداةِ الشَّرْطِ ﴿وَلَوْ﴾:

تَحْريكُ القُرْآنِ الكَريمِ الأَذْهانَ في تَصَوُّرِ وُقوعِ الخُسْرانِ

اسْتِعمالُ أَداةِ الشَّرْطِ ﴿وَلَوْ﴾[2] في قولِه تعالى: ﴿۞وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ﴾؛ لإرادةِ مَعْنى نَفي التَّعْجيلِ، عَلى تَقديرِ أَنّنا لا نُعَجِّلُ لَهمُ الشَّرَّ ولا نُطاوِعهُم فيما يَبْتَغونَ فَنَقْضيَ أَجَلَهم، بلْ نُبْقيهم ونَتْركهُم في طُغْيانِهم وتَعَسُّفِهم إمهالًا مِنّا، ونُغْدِقُ عَلَيهم مِنَ النِّعمةِ على ما هُم فيهِ مِن الظُّلمِ والجُحودِ كيْ نُلزِمهُمُ الحُجّةَ[3]؛ فَإذا أُخذوا لَم يُفْلتوا، فَنَكبّهُم عَلى وُجوهِهم في جَهَنّمَ داخِرينَ، ومَعْنى النَّفْي مُنْتَزَعٌ مِن السِّياقِ، وآثَر أَداةَ (لَو) على أَداة النَّفْي الصَّريحِ؛ لِقَصْدِ تَحْريكِ الأَذْهانِ فيما لَو عَجَّلَ اللّه لِلنّاسِ الشَّرَّ الّذي يَسْتَعْجِلونَهُ، وفي ذلِك دَعْوةٌ أَكيدَةٌ لِلإقْبالِ عَلى الاسْتِغْفارِ بَعدَ الشِّرك.

غَرَضُ التَّعْبيرِ بِالفِعْلِ المضارِعِ ﴿يُعَجِّلُ﴾:

تَحْذيرٌ ضِمنيٌّ بِأَنَّ التَّعْجيلَ قد يَقَع؛ فَعَلى العِبادِ أنْ يَحْذَروا مِن الاسْتِهانَةِ بِهِ

التَّعْبيرُ بِالفِعْلِ المُضارِعِ: ﴿يُعَجِّلُ﴾ مِنْ بابِ الإيجازِ البَديعِ؛ فإنّهُ ذَكَرَ هذا الفِعلَ معَ جانِبِ الشَّرِّ ولم يَذْكرهُ معَ جانِبِ الخَيرِ في إشارةٍ دالَّةٍ على أَصْلِ الجِنْسِ في التَّعْجيلِ بِالشَّرّ بِأَقَلِّ ما يُحقّقُ مَعناهُ[4]، ولِلدّلالَةِ عَلى دَوامِ هذا المَعْنى وتَجدُّدِه واسْتِمرارِه لإمكانِ تَجَدُّدِ هذا المَعْنى وجَرَيانِه في كلِّ زَمانٍ، فَفيهِ تَحذيرٌ ضِمنيٌّ أنَّ التَّعْجيلَ قدْ يَقَع؛ فَعَلى العِبادِ أنْ يَحْذروا منهُ.

والتَّعبيرُ بِصيغَةِ المضارِعِ ﴿يُعَجِّلُ﴾ الدّالِّ عَلى الاسْتِقبالِ - وإنْ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/106.

(2) حرف يرد لمعانٍ متعدّدة، أشهرها: أن تكون حرف امتناع لامتناع، ويشمل النَّفي أيضًا. ينظر: المالقيّ، رصف المباني، ص: 289.

(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/332، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 17/219.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/107.

كانَ مَعناهُ ماضيًا - يَدلُّ على أنَّ نَفْيَ قَضاءِ الأجَلِ لاسْتِمرارِ نَفْيِ التَّعْجيلِ؛ لأنَّ الفِعْلَ المضارِعَ إذا كانَ مَنْفيًّا ووَقعَ مَوقعَ الماضي، فإنَّهُ لا يُفيدُ نَصًّا في انْتِفاءِ اسْتِمرارِ الفِعْلِ[1].

فائِدَةُ التَّصْريحِ بِالاسْمِ الأَحْسَنِ ﴿ٱللَّهُ﴾:

آثرَ النَّظْم القُرآنيُّ ذِكْرَ الاسْمِ الأحْسنِ ﴿ٱللَّهُ﴾ في قولِه تعالى: ﴿وَلَوۡ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ﴾ للنَّصِّ على أنَّ التَّعْجيلَ واقِعٌ منهُ تعالى[2]، والاسْتِعجالَ واقعٌ مِنْهم، بدلالَةِ إضافَتِهِ إلى الضَّميرِ العائِدِ عَلَيهم.

والإتْيانُ بالاسمِ الأحسَنِ ﴿ٱللَّهُ﴾ فاعِلًا لفِعْلِ ﴿يُعَجِّلُ﴾؛ لإحاطَةِ الاسْمِ الجَليلِ بِصِفاتِ الكمالِ والجلالِ والعظمةِ[3] بخلافِ ما لَوْ عُلِّقَ فِعْلُ التَّعجيلِ بِغَيرِهِ مِنَ الأسْماءِ، فقد يتَوهّمُ اخْتِصاصُ التَّعْجيلِ بِصِفةٍ دونَ أُخرى مِن صِفاتِهِ تَعالى، كالعَظيمِ أوِ الرَّحيمِ أوْ نَحوِها.

التَّصْريحُ بِالاسْمِ الأَحْسَنِ (الله) لإحاطَتِهِ بِصِفاتِ الكَمالِ والجَلالِ والعَظَمَةِ

دلالَةُ التَّعْريفِ في: ﴿لِلنَّاسِ﴾:

كلمةُ ﴿لِلنَّاسِ﴾ معرَّفةٌ باللّامِ، والمرادُ منها المشْركون الّذين لا يَرجونَ لِقاءَ اللّه تعالى لإنْكارِهِمُ البَعْثَ وما يترتَّبُ عَليهِ[4]، فلَفظُ (النّاس) لَفظٌ عامٌّ يُرادُ منهُ الخُصوصُ، وإيثارُ لَفظِ النّاسِ على المشْركين أوِ المُنْكرين أوِ المكَذِّبين؛ للدّلالَةِ على أمرٍ عَظيمِ الشَّأنِ، وهوَ أنَّ كَثيرًا مِنَ النّاسِ مِنْ غَيرِ المشْركينَ قَد يَقَعون فيما يقَعُ فيهِ المشْركون، فَفيهِ تَنْبيهٌ وتَحْذيرٌ لِعُموم النّاسِ، وأنَّ سُنَّتَهُ سُبحانهُ في ذلِك رَحْمةُ النّاسِ ورَأْفتهُ بِهِم فيما يَصْنعونَ.

تَنْبيهٌ وتَحْذيرٌ لِعُمومِ النّاسِ، وبَيانُ أنَّ سُنَّةَ اللهِ سُبْحانَهُ رَحْمَةُ النّاسِ ورَأْفَتُهُ بِهِم فيما يَصْنَعونَ

نُكْتَةُ تَقْديمِ الجارِّ والمجْرورِ: ﴿لِلنَّاسِ﴾:

قُدِّمَ الجارُّ والمجْرورُ ﴿لِلنَّاسِ﴾ في قولِه تَعالى: ﴿۞وَلَوۡ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسۡتِعۡجَالَهُم بِٱلۡخَيۡرِ﴾ على المفْعولِ ﴿ٱلشَّرَّ﴾ منْ بابِ

الرَّدُّ على المُشْرِكينَ باسْتِعْجالِهِمُ الشَّرَّ على سَبيلِ التَّهَكُّمِ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/125.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/19.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/81.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/124.

الاهْتمامِ والاخْتِصاصِ بِغَرضِ الرَّدِّ عَلى صَنيعِهِم؛ فَإنّهم كانوا يَسْتعجلونَ الشّرَّ رَغْبةً بوقوعِهِ لا على سَبيلِ الحَقيقَةِ، بَلْ عَلى سَبيلِ التَّهَكُّمِ والاسْتِهزاءِ[1]، فَقدَّم ذِكرَهم جَزاءً وِفاقًا، من بابِ التَّهكُّم رَدًّا عَلى تهكُّمِهِم.

دلالَةُ التَّعْريفِ في: ﴿ٱلشَّرَّ﴾:

بَيانُ المُرادِ بِالشَّرِّ الَّذي اسْتَعْجَلَهُ أَهْلُ مَكَّةَ

التَّعْريفُ في كَلِمَةِ ﴿ٱلشَّرَّ﴾ لِلعَهْدِ العِلْمِيِّ؛ فَإنَّ المُرادَ مِنهُ الشَّرُّ الّذي اسْتَعْجلهُ أَهْلُ مَكّةَ بِقولِهِم: اللهمَّ إنْ كانَ محمّدٌ صادِقًا في دَعْوَتِهِ فَأَمطرْ عَلينا حِجارَةً أَوِ ائْتِنا بِعَذابٍ أَليمٍ ونَحوِ ذلِك[2]، فالشَّرُّ هو ما يَعْرِفه المُخاطَبونَ ممّا كانَ يَدْعو بِهِ المشْرِكونَ.

سِرُّ ذِكْرِ: ﴿ٱلشَّرَّ﴾:

الشَّرُّ يَشْمَلُ العُقوبَةَ والعَذابَ وكُلَّ ما يَكْرَهُهُ النّاسُ ممّا يُقابِلُ الخَيْرَ

ذُكِرَتْ مُفْرَدةً ﴿ٱلشَّرَّ﴾ دونَ غَيْرِها مِنَ المُفْرَداتِ المُرادِفةِ أَوِ القَريبةِ المَعْنى، كالعَذابِ أَوِ العُقوبَةِ أَوْ نَحوِها؛ لأنَّ الشّرَّ أذًى في حقِّ مَنْ تَلْحقهُ هذهِ العُقوبةُ ومَكْروهٌ يُصيبُهُ[3]، وهو لَفظٌ عامٌّ يَعمُّ العَذابَ والعُقوبةَ والمُصيبةَ، وكلَّ ما يَكْرهُهُ النّاسُ ممّا يُقابِلُ الخَيرَ.

دلالَةُ المُقابَلَةِ: ﴿يُعَجِّلُ﴾ و﴿ٱسْتِعْجَالَهُم﴾:

رَحْمَةُ اللهِ سَبَقَتْ غَضَبَهُ، وفَضْلُهُ سابِقٌ لِعَدْلِهِ

وبَيْنَ قوله: ﴿يُعَجِّلُ﴾ و﴿ٱسْتِعْجَالَهُم﴾ مُقابَلَةٌ لَطيفَةٌ، بَيْنَ نَفْيِ تَعْجيلِ الشَّرِّ، وإِثْباتِ مَجيءِ الخَيرِ، ففيهِ بَيانُ رَحْمَةِ اللّه تعالى بِعِبادِهِ، وأنّهُ يُعامِلُهُم بِلُطْفِهِ ورَأْفَتِهِ فَهو اللّطيفُ الرَّؤوفُ، وفيهِ تَقْديمُ الرَّحمةِ على الغَضَبِ، ولا غَرْوَ في ذلكَ؛ إذْ كانَتْ رَحْمَتُهُ قَد وَسِعَتْ كلَّ شَيْءٍ، كَما أنَّ فيهِ تَقْديمَ الفَضْلِ على العَدْلِ والإِحْسانِ عَلى الميزانِ.

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/19.
(2) شيخ زاده، حاشية على البيضاوي: 4/546.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 17/219.

فَنُّ الجِناسِ الاشْتِقاقيِّ: ﴿يُعَجِّلُ﴾، و﴿ٱسْتِعْجَالَهُم﴾:

بَيْنَ ﴿يُعَجِّلُ﴾ و﴿ٱسْتِعْجَالَهُم﴾ جِناسٌ[1]، والمَعْنى: "ولَو اسْتَعْجلَ اللّه لِلنّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجالهُم بِالخَيرِ، إلّا أنّهُ تَعالى وَصَفَ نَفْسَهُ بِتَكْوينِ العَجَلةِ ووَصَفَهُم بِطَلَبِها؛ لِأنَّ اللّائِقَ بِهِ تَعالى هوَ التَّكْوينُ، واللّائِقَ بِهِم هوَ الطَّلَبُ"[2] فَبَيْنَ اللَّفْظَتَيْنِ جِناسٌ لَكِنّهُ لَيسَ تامًّا لِاخْتِلافِ الكَلِمتَينِ زِيادَةً ونَقْصًا، وهوَ المُسَمّى جِناسَ الاشْتِقاقِ.

التَّعْجيلُ تَكْوينُ العَجَلَةِ، والاسْتِعْجالُ طَلَبُ إيقاعِها، فَأَوْقَعَ اللّائِقَ بِهِ سُبْحانَهُ لا بِهِم

بَلاغَةُ التَّشْبيهِ: ﴿ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ﴾:

في قَولِه: ﴿۞وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ﴾ تَشْبيهٌ مُؤَكَّدٌ مُجملٌ، أيْ: مِثلَ اسْتِعْجالِهم، عَلى نَعْتِ مَصْدَرٍ مَحْذوفٍ، والتَّقْديرُ: ولَو يُعجِّلُ اللّه تَعالى لِلنّاسِ الشَّرَّ تعجيلًا مِثْلَ اسْتِعْجالِهِمُ الخَيْرَ[3]، وأَحلَّ الاسْتِعْجالَ مَحلَّ التَّعجيلِ لَهم بِالخَيرِ إيذانًا بِسُرْعةِ اسْتِجابَتِهِ لَهم في الخَيرِ[4]، فاللّه سُبحانهُ لا يُعَجِّلُ الشَّرّ الّذي يَسْتَعْجلهُ النّاسُ كَما يُعَجِّلُ لَهُمُ الخَيرَ.

الحَقُّ سُبْحانَهُ لا يُعَجِّلُ الشَّرَّ الَّذي يَسْتَعْجِلُهُ النّاسُ كَما يُعَجِّلُ لَهُمُ الخَيْرَ

نُكْتَةُ الاحْتِباكِ: ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ﴾:

في قَولِه: ﴿۞وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ﴾ احْتِباكٌ[5]، وهوَ مِن وسائِلِ الإيجازِ بِالحَذْفِ عَلى جِهَةِ التَّقابُلِ؛ فيُحْذَفُ مِنَ الأوّلِ لِدلالَةِ الثّاني عَليهِ، ويُحْذفُ مِنَ الثّاني لِدلالَةِ الأوّلِ عَليهِ، والتَّقْديرُ في الآيَةِ: ولَوْ يُعَجّلُ اللّه لِلنّاسِ الشّرَّ عِندَ اسْتِعْجالِهِم بِهِ، كما يُعَجّلُ لَهمُ الخَيرَ عِندَ اسْتِعْجالِهِم بِهِ؛ لَقُضيَ إلَيهِم أَجَلُهم،

إظْهارُ مُسارَعَةِ الخَيْرِ وإبْطاءُ الشَّرِّ عَنِ النّاسِ

(1) ويسمّى: التّجنيس أو المجانسة، وهو من المحسّنات البديعيّة، وهو تشابه الكلمتين في اللّفظ مع اختلافهما في المعنى، وقد يكون تامًّا وغيرَ تامٍّ، وأنواعه كثيرة، يُنظر: الإسفراييني، الأطول شرح تلخيص مفتاح العلوم: 1/115.

(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 17/219، والقاسميّ، محاسن التّأويل: 6/9.

(3) الواحديّ، التّفسير البسيط: 11/133.

(4) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/331، والزّحيليّ، التّفسير المنير: 11/119.

(5) الاحتباك: أن يحذف من الأوّل ما أثبت نظيره في الثّاني، ومن الثّاني ما أثبت نظيره في الأوّل. ينظر: السّيوطيّ، الإتقان في علوم القرآن: 3/204.

فَأُضْمِرَ الاسْتِعْجالُ في الشّرِّ والتَّعْجيلُ في الخَيرِ، ونُكْتَةُ ذلِكَ إظْهارُ مُسارَعةِ الخَيْرِ، وإبْطاءِ الشَّرِّ عنِ العِبادِ.

دلالَةُ السّينِ والتّاءِ في لَفْظِ الاسْتِعْجالِ:

المُبالَغةُ في التَّعْجيلِ والتّكثيرِ بما تُفيدُهُ السّينُ والتّاءُ، لا الطَّلَب

السّينُ والتّاءُ في صيغةِ الاسْتفعالِ في قولِه تعالى: ﴿ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ﴾ تَدلُّ عَلى المُبالغَةِ، بِما تُفيدُهُ حُروفُ الزّيادَةِ المُلْحَقةُ بِها، وهيَ لِغَيرِ الطّلَبِ، فَإنّ المُشْرِكين لَم يَسْألوا تَعْجيلَ الخَيرِ، بَل المعْنى دالٌّ عَلى التَّعجيلِ الكَثيرِ[1] الموْصوفِ بالمُبالغَةِ، وقَد ذَهَب فَريقٌ مِنَ المفَسِّرين إلى أنَّها تَدلُّ عَلى الطّلَبِ والسّؤالِ[2].

دلالَةُ الباءِ في ﴿بِٱلْخَيْرِ﴾:

حِرْصُ النّاسِ عَلى الالْتِصاقِ بِالخَيْرِ

الباءُ في قوله تَعالى: ﴿ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ﴾ لِتأكيدِ الإلْصاقِ[3] كقوله تعالى: ﴿وَٱمْسَحُواْ بِرُءُوسِكُمْ﴾ [المائدة: 6]، وهو على المَجازِ لا الحَقيقَة، فَفيهِ حِرصُ النّاسِ على الالتِصاقِ بِالخيرِ، والأصْلُ فيهِ اسْتعجالهُم الخيرَ - مُتعدّيًا بِنَفسه - ، فالاسْتِعجالُ دالٌّ على المُبالغَةِ، والباءُ على التّأكيدِ، وفي ذَيْنك المَعْنَيَين إيذانٌ بالامتِنانِ بأنَّ الخيرَ مِنهُ تَعالى وَفيرٌ مَكينٌ[4].

بَراعَةُ الطّباقِ بَيْنَ الشَّرِّ والخَيرِ:

بَيانٌ لِقُبْحِ الشَّرِّ وجَمالِ الخَيْرِ جَلاءً لِلمَغْزى ومزيدًا للبلاغة

في قَولِه: ﴿۞وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ﴾ طِباقُ إيجابٍ بَيْنَ كَلِمَتَي الشَّرِّ والخَيْرِ، فَهُما ضِدّانِ، واللَّفْظَتانِ وإنْ كانَتا مُتَضادَّتين، إلّا أنّ وجودَ إحْداهما بِجانِبِ الأُخرى في التَّرْكيبِ اللُّغويِّ ممّا يَخْلعُ عَلَيهِ نَصاعةً بَلاغيَّةً واضِحةً، وفائدَتُه تَكْمنُ في بَيانِ قُبحِ الشَّرِّ وحَرَجِه في جانِبِ جَمالِ الخَيرِ وانْفِساحِه، وبيانُ شدَّةِ تَعاسَةِ أَهلِ الشّرِّ وخَسارتِهم وسَعادةِ أَهلِ الخَيرِ وغَنيمتِهم.

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/107.

(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/19.

(3) هذا شأنها في حروف المعاني، والإلصاق أصل معاني الباء، حتّى قيل: إنه لا يفارقها، وقد يكون الإلصاقُ حقيقيًّا كقولهم: أمسكت الحبل بيدي، وقد يكون مجازيًّا، كالواردِ في الآية، المراديّ، يُنظر: المرادي، الجنى الدّاني، ص: 36.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/107.

بَلاغَةُ جَوابِ ﴿وَلَوْ﴾:

جاءَ جَوابُ ﴿وَلَوْ﴾ في قولِه تعالى: ﴿لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ﴾ مُتَضمّنًا بَيانَ رحمةِ اللّه بالعبادِ ورَأْفتِه، وبيانَ حِكْمتِه تعالى في إتْيانِ قَضائِه في الأَجَلِ المُحدَّدِ، فإنَّه تَعالى لا يُعاجِلُ هؤلاءِ بما يَطلبونَ، بلْ بِحَسَبِ سُنَنِه الكَوْنيّةِ الماضيَةِ، حتّى يَذرَ المُنْكِرينَ لِلمعادِ المارِقينَ عنْ رِبْقةِ الدّينِ يَتَحَيّرونَ في طُغيانِهم تَحيّرًا شديدًا[1]، ولَوْ أنَّ السُّنَّةَ الإلهيّةَ جَرتْ عَلى مُعاجَلةِ الإنسانِ بالشَّرِّ لَهَلَكَ الإنْسانُ وبادَتِ الحَياةُ، لَكن سُنَّتُهُ مَبْنيَّةٌ على العِلمِ والحِكْمةِ بما يُحَقّقُ مَصالحَ الخَلْقِ أَجْمَعينَ.

رَحْمَةُ اللهِ وحِكْمَتُهُ في قَضائِهِ مَبْنِيَّةٌ عَلى عِلْمِهِ وسُنَنِهِ الإلَهِيّةِ

بَلاغَةُ التَّضْمينِ: ﴿لَقُضِيَ﴾:

الأَجَلُ في قولِه تعالى: ﴿لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ﴾ هوَ المدَّةُ المَعْلومةُ المحدّدَةُ لِبَقائِهم، والقَضاءُ: تَقديرُهُ تعالى، والمعْنى: لَقُضيَ إليهم حُلولُ أَجَلِهمُ المقدَّرِ لَهم، غيرَ أنّهُ لَمّا ضُمّنَ الفِعْلُ (قُضِيَ) معْنى الفعلِ (بلغَ) و(وصلَ) عُدّيَ بالحرفِ (إلى) المناسِبِ لِهذَينِ الفِعلينِ[2]، فكانَ في الجُملَةِ إيجازٌ؛ إذْ فِعْلُ القَضاءِ مُصَرَّحٌ بِه، وفِعْلُ البُلوغِ والوصولِ مُشارٌ إليهِ بالحرفِ المعَدَّى بِه الفِعْلُ.

ضُمِّنَ (قُضِيَ) مَعْنى (بلغَ) و(وصَلَ)، ولِذلِكَ عُدِّيَ بـ (إلى)

تَوْجيهُ القِراءاتِ في قولِه تَعالى: ﴿لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ﴾:

قَرأَ الجُمهورُ ﴿لَقُضِيَ﴾ بالبِناءِ لِلمَفْعولِ و﴿أَجَلُهُمْ﴾ مَرفوعٌ عَلى أنّه نائِبٌ عنِ الفاعلِ، وقَرأَ ابنُ عامرٍ ويَعقوبُ منَ العَشرةِ بالبناءِ لِلفاعلِ (لقَضَى إليهم أجلَهم)[3]، عَلى جَعْلِ ضَميرٍ في (قَضى) يَعودُ عَلى الاسْمِ الأَحْسَنِ (اللّه) المَذْكورِ آنِفًا، وحَسّنَ ابنُ خالويه القِراءَتَين[4]، إلّا أنّ قِراءَةَ الجمهورِ مُؤْذنةٌ بأنّ قَضاءَ أَجَلِهم مِنَ الأُمورِ المَيَسَّرةِ عَلينا غَيرِ المحْوجَةِ لِإظهارِ الفاعلِ، - وهو مَعلومٌ - جَريًا على سَنَنِ

اتَّفَقَتِ القِراءَتانِ عَلى عَدَمِ النَّصِ عَلى ذِكْرِ الفاعِلِ إضْمارًا وبِناءً لِلمَفْعولِ

(1) الطّباطبائيّ، الميزان: 10/22.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/108.
(3) ابن الجزريّ، النّشر في القراءات العشر: 2/282.
(4) ابن خالويه، إعراب القراءات السّبع وعللها، ص: 155.

الكِبرياءِ[1]، والقِراءَتانِ لَم تَنصّا على الفاعِلِ تَصْريحًا بِهِ على وَجْهِ الإظْهارِ، فَإحْداهما جاءَتْ عَلى سَبيلِ البِناءِ لِلمَفْعول، والأُخرى عَلى سَبيلِ الإضْمارِ، فَبَيْنَ القِراءَتَين تَشابُهٌ وتَماثُلٌ وتَكامُلٌ.

نُكْتَةُ تَقْديمِ الجارِّ والمَجْرورِ ﴿إِلَيْهِمْ﴾:

تَقْديمُ الجارِّ والمَجْرورِ مِنْ بابِ الاخْتِصاصِ تَبْكيتًا لَهُم

قُدِّم الجارُّ والمجْرورُ في قوله تعالى: ﴿لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ﴾ لِأَجْلِ الاخْتِصاصِ، أيْ: إلى النّاسِ خاصّةً[2]، فَإنّهم سَأَلوا اللّه تَعالى ذلِك حَقيقَةً أوْ عِنادًا وتَكبّرًا، فَأجابَهُم إلى سؤالِهِم عَلى وَجْهِ التَّخْصيصِ؛ تَبْكيتًا لَهُم.

دلالَةُ الإضافَةِ في: ﴿أَجَلُهُمْ﴾:

مَزيدُ تَهْديدٍ ووَعيدٍ لِلأَجَلِ الّذي يَعْرِفونَهُ تَفْصيلًا

دَلَّتْ إضافَةُ الأَجَلِ إلى الضّميرِ العائدِ على النّاسِ في قولِه: ﴿أَجَلُهُمْ﴾ على التّخْصيصِ وشِبْهِ المِلْكِ؛ فهوَ الأَجَلُ الّذي عَيّنَهُ اللّه سُبحانَهُ لِعذابِهِم فيَموتوا ويَهلَكوا وما يُهْمَلوا طَرفةَ عَينٍ[3]؛ وفي ذِكْرِ ذلِك الأَجَلِ المضافِ إلى الضَّميرِ العائدِ على النّاسِ مَزيدُ تَهديدٍ، فهو أَجَلُهم المعْهودُ المحْتومُ، فكَأنَّهم يَعْرِفونَهُ مَعرِفةً تَفْصيليَّةً.

دلالَةُ الفاءِ في: ﴿فَنَذَرُ﴾:

انْتِفاءُ التَّعْجيلِ يَعْني تَرْكَ المُنْكِرينَ في طُغْيانِهِم مُتَحَيِّرينَ

الفاءُ في قوله تَعالى: ﴿فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا﴾ لِلتَّفْريعِ[4]، فَهذِهِ الجملةُ مُفرَّعةٌ على جُملةِ ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ﴾ وجَوابِها، ومَعْناها: نَفْيُ أنْ يجْعلَ الشَّرّ لِلنّاسِ لِانْتِفاءِ لازِمِهِ وهو بُلوغُ أَجَلِهِم، فإذا انْتَفى التَّعْجيلُ تَرَكنا هؤلاءِ الّذين لا يَرْجونَ لِقاءَنا مُتَلَبّسينَ في طُغيانِهِم يَتَحَيّرونَ مِن فَرطِ تَكَبّرِهِم[5].

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/125.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/81.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/125.
(4) هي الفاء الّتي تربط جملتين فيكون ما قبلها علة لما بعدها وما بعدها فرع عنه، يُنظر: الصبّان، حاشية على الأشمونيّ: 3/142.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/108.

بَلاغَةُ الالْتِفاتِ في: ﴿فَنَذَرُ﴾:

في التَّعْبيرِ بالفعلِ ﴿فَنَذَرُ﴾ الْتِفاتٌ بَعدَ ما مرَّ منْ جملٍ في الآيَةِ؛ حيْثُ الْتُفِتَ فيهِ مِنَ الغَيبةِ إلى التَّكلُّم، والبَلاغَةُ في هذا الالتِفاتِ الإشارَةُ إلى تَوْسيطِ الأسْبابِ في ذلكَ، ففي الآيَةِ وما بَعدَها منْ أفعالِهِ تعالى، كَتَرْكِهِم في أعْمالِهِم، والتّزيينِ، والإهْلاكِ، أُمورٌ يُتَوسّلُ إليها بِتَوْسيطِ الأسْبابِ، والعُظَماءُ إذا أرادوا الإشارَةَ إلى دَخَلِ أعْوانِهِم وخَدَمِهِم في بَعْضِ الأُمورِ اسْتَعْملوا صيغَةَ المُتَكَلِّم[1].

إشارَة إلى تَوْسيطِ الأَسْبابِ، وهيَ طَريقَةُ العُظَماءِ في الإشارَةِ إلى خَدَمِهِم في بَعْضِ أُمورِهِم

بَلاغَةُ التَّعْبيرِ بِالفِعْلِ ﴿فَنَذَرُ﴾:

النّونُ في قوله: ﴿فَنَذَرُ﴾ هيَ نونُ العَظَمَةِ، والتَّعْبيرُ بِها في هذا المَوْضِعِ يُرادُ بِهِ التَّحْذيرُ والتَّخْويفُ وإدْخالُ المَهابَةِ في نُفوسِ المخاطَبينَ[2]؛ فإنّ كُلَّ مَنْ لا يَرْجو لِقاءَهُ مَتْروكٌ مُهْمَلٌ يُلاقي مَصيرَهُ المَحْتومَ.

التَّعْبيرُ بِنونِ العَظَمَةِ يَسْتَدْعي التَّحْذيرَ والتَّخْويفَ

دلالَةُ التَّعْبيرِ بِالفِعْلِ (نَذَرُ):

جاءَ التَّعْبيرُ بالفعْلِ ﴿فَنَذَرُ﴾ دونَ أنْ يَرِدَ النَّظْمُ القُرْآنيُّ (فَنَترك)؛ للإشارَةِ إلى أَصْلِ هذه الكَلِمَةِ الحِسِّيِّ؛ وهو قِطْعَةُ اللَّحْمِ الّتي لا يُعْبأُ بها، فَكَأنَّه قالَ: نَتْرُكُهُم كَقِطْعَةِ لحْمٍ غيرِ مَعْبوءٍ بها، إذِ العَرَبُ تَسْتَعْمِل هذه الكَلِمَةَ في القَذْفِ في الأَعْراضِ، وحالُ هؤلاءِ الّذين لا يَرْجونَ لِقاءَ اللّه تَعالى كَحالِ مَن يُعَرِّضُ نَفْسَهُ لِأَلْسُنِ النّاسِ، وهو في غايَةِ الحَيْرَةِ والاضْطِرابِ والضَّلالِ.

الكِنايَةُ عَنْ تَعْريضِ الَّذينَ لا يَرْجونَ لِقاءَ الله لِكَلامِ النّاسِ

دلالَةُ إظْهارِ الاسْمِ المَوْصولِ ﴿ٱلَّذِينَ﴾:

عُبِّرَ عَنِ الكافرينَ بالاسْمِ المَوْصولِ في قَوْلِه تَعالى: ﴿فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا﴾، والقياسُ التَّعْبيرُ عَنْهُ بالضَّميرِ؛ لِلدّلالَةِ عَلى أَشَدِّ الطُّغيانِ وأَعْتاهُ، وهو أَنَّهم قَد أَنْكروا البَعْثَ والنُّشورَ، فَقد صارَ هذا

الْتِصاقُ الاسْمِ المَوْصولِ بِالمُنْكِرينَ كالعَلامَةِ المَيِّزَةِ

(1) الطّباطبائيّ، الميزان: 10/22.

(2) القونويّ وابن التّمجيد، حاشية على تفسير البيضاويّ: 9/407.

التَّركيبُ ﴿ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا﴾ كالعَلامَةِ المَيِّزَة لَهُم[1]، وهوَ تَبْيينٌ لِنَوعِ الطُّغْيانِ الكائِنِ بِما في حَيِّزِ الصِّلَةِ، وإيذانٌ بِعِلِّيَّتِهِ تَرْكًا واسْتِدْراجًا[2].

دلالَةُ حَرْفِ الظَّرْفيَّةِ ﴿فِي﴾:

التَّعْبيرُ بِالظَّرْفيَّةِ في قوله: ﴿فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ﴾ يُؤْذِنُ بِأَنَّهُم مُتَلَبِّسونَ بِذلِكَ الطُّغْيانِ[3]، مُنْغَمِسونَ في غَمَراتِهِ؛ فَقد تَجاوَزوا فيهِ الحُدودَ تَجاوزًا لا يَفْعَلُهُ مَن لَه أَدْنى عَقْل ورَوِيَّة[4]، وفيهِ تَشْبيهُ الطُّغيانِ بِالماءِ الَّذي يُغْرَقُ فيهِ.

تَشْبيهُ الطُّغْيانِ بِالماءِ الَّذي يُغرَقُ فيهِ مُؤْذِنٌ بِانْغِماسِهِم في المَهالِكِ

دلالَةُ اسْتِعْمالِ لَفْظِ الطُّغْيانِ:

الطُّغيانُ مَصْدَرُ (طغى) يَدلُّ على المبالغَةِ والإفْراطِ في الشَّرِّ والكِبرِ، واسْتِعمالُهُ في قوله: ﴿فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ﴾ فيهِ بَيانُ أنَّ التَّكْذيبَ بِالبَعْثِ واليومِ الآخرِ، والطَّمَأْنينَةَ بالحَياةِ الدُّنيا والرِّضا بِها هوَ طُغْيانٌ مِلْتَصِقٌ بِأَصْحابِهِ، وأَصْحابُهُ مَخْذولونَ عَن بلوغِ أَسْبابِ الهِدايةِ مَحْرومونَ مِنْها؛ لِأَنَّهم آثَروا الحياةَ الفانِيَةَ عَلى الآخِرةِ الباقيَةِ، فَكانَ إيثارًا دالًّا عَلى التِّيهِ والضَّلالِ والعَمَهِ.

الطُّغْيانُ دالٌّ عَلى المُبالَغَةِ في الشَّرِّ والكِبْرِ وهوَ مُلْتَصِقٌ بِأَصْحابِهِ

فائدَةُ الإضافَةِ في ﴿طُغۡيَٰنِهِمۡ﴾:

أُضيفَ الطُّغيانُ إلى الضَّميرِ الرّاجِعِ عَليهِم في قوله: ﴿طُغۡيَٰنِهِمۡ﴾، ولَم يَأْتِ بِالطُّغْيانِ مُعَرَّفًا تَعْريفَ جِنْسٍ؛ وذلِكَ لِقَصْدِ الإشارَةِ إلى فَظاعَةِ شَأْنِ هذا الوَصْفِ وغَرابَتِهِ في بابِهِ، وأَنَّهُ باتَ خَصِّيصَةً لازِمَةً بِهِم، حتّى صارَ يُعْرَفُ عِندَ إضافَتِهِ إِلَيْهِم[5].

الإشارَةُ إلى تَفْظيعِ شَأْنِ هذا الطُّغْيانِ وغَرابَتِهِ، فَباتَ يُعْرَفُ بِإضافَتِهِ إِلَيْهِم

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/109.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/126.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/108.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/83.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/297.

نُكْتَةُ تَقْديمِ الجارِّ والمَجْرورِ ﴿فِي طُغْيَٰنِهِمْ﴾:

قُدِّمَ الجارُّ والمجْرورُ: ﴿فِي طُغْيَٰنِهِمْ﴾ عَلى الفِعْلِ ﴿يَعْمَهُونَ﴾ في قولِه تعالى: ﴿فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾؛ لإفادَةِ القَصْرِ، فكَأنَّهُ جُعِلَ العَمَهُ مَقْصورًا عَلى التَّركِ في الطُّغْيانِ؛ لِبَيانِ شَديدِ قُبْحِهِ وشَرِّهِ.

العَمَهُ مَقْصورٌ عَلى التَّركِ في الطُّغيانِ تَقْبيحًا وتَبْشيعًا

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

العَمَهُ والحَيْرَةُ:

العَمَهُ بِمَعْنى التَّحَيُّرِ، والجَورِ عَنِ الحقِّ، ومِن مَعانيهِ: العَمَهُ في الرَّأيِ، كما أنَّ العَمى في البَصَرِ[1]، والتَّحَيّرُ هو التَّردّدُ في الشّيءِ[2]، ووَرَدَ مَعْنى العَمَهِ عِندَ كَثيرينَ عَلى أنّهُ التّردُّدُ والتَّحَيّرُ مُجْتَمِعَيْنِ[3]، فَبَيْنَ المفْرَدَتَينِ وَشائِجُ وعَلائِقُ، إلّا أنَّ العَمَهَ أَبْلَغُ وأَقْوى وَقْعًا مِنَ الحَيْرَةِ، فالعمَهُ مُشْتملٌ على الحيْرةِ وزيادَةٍ.

العَمَهُ أَبْلَغُ وأَقْوى وَقْعًا مِنَ الحَيْرَةِ، فالعَمَهُ مُشْتَمِلٌ عَلى الحَيْرَةِ وزيادَةٍ

(1) ابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم: (عمه).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حير).
(3) بطّال الرّكبيّ، النّظم المستعذب في تفسير غريب ألفاظ المهذّب: 2/199، والزَّبيدي، تاج العروس: (عمه).

﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلۡإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوۡ قَاعِدًا أَوۡ قَآئِمٗا فَلَمَّا كَشَفۡنَا عَنۡهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمۡ يَدۡعُنَآ إِلَىٰ ضُرّٖ مَّسَّهُۥۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلۡمُسۡرِفِينَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٢﴾ [يونس: 12]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الانْتِقالُ مِنْ ادِّعاءِ المُنْكِرِينَ الكاذِبِ إلى فِعْلِهِمُ الصّادِقِ

وَجْهُ اتِّصالِ هذِهِ الآيَةِ بِما قَبلَها مِنْ وَجْهَينِ[1]:

أَحَدُهما: أنَّ اللّه سُبحانهُ لمّا ذَكرَ في الآيَةِ السّابقَةِ أنّهُ لَوْ أَنْزلَ العَذابَ عَلى الإنْسانِ في الدُّنيا لقُضيَ عَلَيهِ؛ بَيَّنَ هُنا ما يَدلُّ عَلى غايةِ ضَعْفِهِ ونِهايَةِ عَجْزِهِ؛ لِيَكونَ ذلِكَ مُؤَكِّدًا لِما ذَكرهُ قَبْلُ.

والآخَرُ: أنَّ اسْتِعجالَهُمُ العَذابَ - المذْكورَ في الآيَةِ السّابِقَةِ - ليسَ عَلى وَجهِ الحَقيقَةِ، وأنَّهم كاذِبونَ في الطّلَبِ والاسْتِعجالِ، وآيَةُ ذلِكَ تَضَرُّعهُم ودُعاؤهُم اللّه تَعالى عِنْدَما يَنزلُ بِهم أَدْنى شَيْءٍ ممّا يَكْرَهونَهُ مِنْ ضرٍّ أوْ نَحوِهِ ممّا ذَكَرَه اللّه في هذهِ الآيَةِ ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلۡإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوۡ قَاعِدًا أَوۡ قَآئِمٗا﴾.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مَسَّ﴾: فِعلٌ ماضٍ، والجذرُ اللُّغويّ مِنهُ: الميم والسّينُ، وتَدورُ اشْتِقاقاتُهُ عَلى جَسّكَ الشّيءَ بِيَدِكَ عَلى سَبيلِ المباشَرَةِ، ومِنْهُ: المَسُّ؛ وهوَ أَنْ تَمسكَ الشّيءَ بِيَدكَ، والمسُّ يَكونُ مَعهُ إِدْراكٌ بالحاسّةِ كاليَدِ ونَحوِها، والأَذى والشّرُّ الّذي يَنالهُ الإنْسانُ يُسمّى مَسًّا، وفي المسِّ مَعْنى المُخالَطةِ، ويَرِدُ المسُّ بِمَعنى إيقاعِ العَذابِ والسّوءِ والشّرِّ وغيرِها[2]، وقَريبٌ مِنْهُ اللَّفْظُ الوارِدُ في الآيَةِ، فَهو بِمَعنى إصابَةِ الإنْسانِ الضُّرُّ[3].

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 17/220.

(2) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، والسّمين، عمدة الحفّاظ، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (مس).

(3) ابن جرير، جامع البيان: 15/36.

2) ﴿ٱلضُّرُّ﴾: اسمٌ ثُلاثيٌّ، والجذْرُ اللُّغويّ مِنْهُ: الضّادُ والرّاءُ، وهذِهِ المادَّةُ تَدورُ تَصْريفاتُها على ضِدِّ النّفْعِ، ويَرِدُ بِمَعْنى النُّقْصانِ الدّاخِلِ عَلى الشّيْءِ، تَقولُ: دَخَلَ عَليهِ ضَرَرٌ في مالِهِ، أيْ: نَقْصٌ، ويُحْمَلُ عَليهِ كُلّ ما قارَبَهُ مِنَ المَعاني، ويَكونُ بِمَعنى سوءِ الحالِ في النَّفْسِ كَقِلّةِ العِلْمِ أو في البَدَنِ أوْ حالَةً ظاهِرَةً كَقِلّةِ المالِ والجاهِ، ومِنْهُ إلْحاقُ الأذى والمَكْروهِ بِالمُقابِلِ، وهو يَعُمُّ المادّيَّ والمَعْنَويَّ، وأكْثَرُ الوارِدِ في القُرآنِ الكَريمِ بِمَعْنى الضّيقِ وما يَتَفرَّعُ عَنْهُ[1]، ومَعْنى الضّرِّ في الآيَةِ الكَريمَةِ: الشِّدَّةُ أوِ المَرَضُ أوْ نَحْوهما[2].

3) ﴿لِجَنۢبِهِۦٓ﴾: الجَنْبُ اسْمٌ ثُلاثيٌّ، وجذْرُهُ اللُّغويّ: الجيمُ والنّون والباءُ، وهو دالٌّ على النّاحيَةِ، وجَنبُ الإنْسانِ ناحيَتُهُ، وهوَ أيضًا مُعظمُ الشَّيْءِ وأكْثرهُ، وقالَ الرّاغبُ: إنَّ الأصلَ فيهِ الجارِحَةُ، ثمَّ يُسْتَعارُ مِنَ النّاحيَةِ، وجَنبُ الإنسانِ شِقُّهُ الّذي يُكَمِّلُ بَدَنَهُ[3]، وقوله: ﴿لِجَنۢبِهِۦٓ﴾ في الآيَةِ، أيْ: وهوَ مُضْطَجِعٌ مُسْتَلْقٍ على جَنبِهِ[4]، وقدْ يكونُ كِنايةً عنِ الأحْوالِ كُلِّها.

المَعْنى الإجْماليُّ:

الآيَةُ الكَريمَةُ تُخْبِرُ أنَّ الإنْسانَ قَليلُ الصَّبرِ عِندَ نُزولِ البَلاءِ، قَليلُ الشُّكرِ عِندَ حُصولِ النَّعماءِ والرّخاءِ، فإذا أصابَهُ الضّرُّ فَذو دُعاءٍ عَريضٍ في جَميعِ حالاتِهِ[5] إلى أنْ يَرومَ التَّخلُّصَ ممّا حَلَّ بِهِ مِنَ البلاءِ؛ فَتَحملهُ الضَّرورةُ على الالْتِجاءِ إلى اللّهِ، فإذا كشفَ عَنْهُ؛ أعْرضَ عَنِ الشُّكرِ وعادَ إلى ما كانَ عَليهِ مِنْ قَبلُ كَأن لم يَكنْ

الضُّرُّ الَّذي يَقودُ الإنْسانَ لِلدُّعاءِ والالْتِجاءِ خَيْرٌ مِنَ العافيَةِ الَّتي تورِثُ الإسْرافَ والبَلاءَ

(1) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، والسّمين، عمدة الحفّاظ، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (ضر).

(2) الفيروزباديّ، تنوير المقباس، ص: 170.

(3) الخليل، العين، وابن سيده، المحكم، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (جنب).

(4) ابن أبي زمنين، تفسير القرآن العزيز: 2/247.

(5) الخازن، لباب التّأويل: 2/431.

بهِ بَلاءٌ قطّ، كَذلكَ زُيّنَ لِلمُسرفينَ المُتجاوزينَ سوءُ أَعْمالهم مِنَ الإعْراضِ عَنِ الذِّكرِ ومُتابَعةِ الشَّهواتِ وعِصيانِ ربِّ السّماوات.

والإخبارُ بهذهِ الآيَةِ فيهِ لَومٌ على سوءِ خُلقِ بَعْضِ النّاسِ، وإيحاءٌ إلى الانْتِهاءِ عنْ مِثلِ هذهِ الأمورِ، معَ التَّسْليمِ إلى اللّه سُبحانَهُ، والتَّضرُّعِ إليهِ في الأحْوالِ جَميعًا في المكْرهِ والمنْشَطِ؛ لأنَّ الخيرَ والشّرَّ مِنهُ لا مِن غَيرهِ تَعالى في مَلَكوتهِ[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالَةُ الواوِ في: ﴿وَإِذَا﴾:

الاعْتِبارُ بِذَميمِ أَحْوالِ المشْرِكينَ تَفْظيعًا لَهُم وتَحْذيرًا مِنْهُم

افْتُتِحتِ الآيَةُ الكَريمَةُ ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ﴾ بالواوِ العاطِفَةِ؛ إذْ إنّها عَطَفتْ هذهِ الآيَةَ عَلى ما سَبَقَها مِنْ قوله: ﴿۞ وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ﴾؛ رَوْمًا إلى الاعْتِبارِ بِأحْوالِ المشْرِكينَ المذْمومَةِ، فَإنّ حالَهُمُ الفَظيعَةَ يَقْتَضي الحَذَرَ مِنَ الوقوعِ في مِثلِ مَواقِعِهم، وَمَئِنَّةُ ذلكَ أنّهُ خَتَمَ الآيةَ بِجُملةِ ﴿كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾، فَبَيْنَ الآيتَينِ وَشائِجُ وعَلائِقُ لا تَخْفى، فالعَطْفُ في مَوْقِعِهِ المُناسِبِ[2].

مَعْنى ﴿وَإِذَا﴾ ودلالَةُ اسْتِعْمالِها:

(إذا) لِمُطْلَقِ الظَّرْفيَّةِ، فَهيَ تُفيدُ دَوامَ تِلْكَ الحالِ مِن الالْتِجاءِ عِنْدَ الابْتِلاءِ

تُسْتَعْمَلُ (إذا) لِما يُسْتَقْبَلُ مِنَ الزَّمانِ في غالِبِ اسْتِعْمالِها في لِسانِ العَرَبِ[3]، إلّا أنَّها في قوله تَعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ﴾ دالّةٌ عَلى مُجرّدِ الظّرْفيّةِ، ولَيْستْ خاصَّةً بما يُسْتَقْبل؛ فقدْ حَكى اللّه سُبحانَهُ حالَ المشْرِكينَ ودُعاءَهم عِندَ الاضْطِرارِ، وجاءَ بالفعلِ الماضي ﴿كَانُواْ﴾ الدّالِّ عَلى مُضِيّ أَعْمالِهم، ثمَّ أوْرَدَ جَوابَها وما عطفَ عَلَيهِ بالماضي، فهذا هوَ حالُهُم وهوَ أَلْيَقُ وأَدْخلُ في تَسْجيلِهِ

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/109.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/109.
(3) سيبويه، الكتاب: 3/60 - 61.

عَلَيهم ممّا لَوْ فَرَضَهُ اللّه عَلَيهم في حالِ الاسْتِقبالِ، فلَعَلَّ فيهم مَنْ يَتّعِظُ ويَتوبُ عَنْ سوءِ عَمَلِهِ وعَمى بَصيرَتِهِ[1].

والتَّعْبيرُ بـ(إذا) يَحْتَملُ الدّوامَ والاسْتِمرارَ في الفِعْلِ؛ فإنَّ تَضَرُّعَهم إلَيهِ تَعالى مُسْتَمرٌّ عِندَ وقوعِ الضّرِّ عَلَيهم، وهذهِ هيَ حالُ الإنْسانِ عَلى وَجْهِ الدَّوامِ والاسْتِمرارِ[2].

بَلاغَةُ اسْتِعْمالِ مُفْرَدَةِ ﴿مَسَّ﴾:

التَّعْبيرُ بِالمَسِّ في قوله تَعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ﴾ دونَ اسْتِعْمالِ فِعْلِ (أصابَ) يَدُلُّ على أنَّ حالَ الإنْسانِ في أَدْنى بَلاءٍ يَمَسُّه هو الالْتِجاءُ إلى اللّه تعالى داعيًا رَفْعَهُ، والمَسُّ هوَ أَدْنى دَرَجاتِ الإصابَةِ، فَكَيْف إذا كانَ الضُّرُّ الواقِعُ مُصيبَةً عَظيمةً؟! وفي ذلكَ دلالَةٌ على ضَعْفِ الإنْسانِ، فَلا يَحْسُنُ بِهِ أنْ يَدعوَ عَلى نَفْسِهِ؛ لأنّهُ لا يُطيقُ مِن العَذابِ أَقَلّهُ.

المَسُّ أَدْنى دَرَجاتِ الإصابَةِ، واسْتِعْمالُهُ دَليلٌ عَلى ضَعْفِ الإنْسانِ وهَوانِهِ عَلى نَفْسِهِ

دلالَةُ التَّعْريفِ في: ﴿ٱلْإِنسَٰنَ﴾:

التَّعْريفُ في لَفظِ ﴿ٱلْإِنسَٰنَ﴾ مُرادٌ بِهِ الجِنْسُ، والتَّعْريفُ بِاللّامِ يُفيدُ الاسْتِغْراقَ العُرْفيَّ، أي: الإنْسانَ الكافِرَ؛ لأَنَّ أكثرَ النّاسِ حينَئِذٍ كافِرونَ، إذْ كانَ المُسْلِمونَ قَبْلَ الهِجْرَةِ لا يُعَدّونَ بِضْعَةً وَسَبْعينَ رَجُلًا مَعَ نِسائِهِم وَأَبْنائِهِمُ الَّذينَ هُم تَبَعٌ لَهُم، وَبِهَذا الاعْتِبارِ يَكونُ المَنْظورُ إلَيْهِم في هَذا الحُكْمِ هُمُ الكافِرينَ، كَما في قوله تَعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾﴾ [مريم: 66][3].

التَّعْريفُ باللّامِ يَحْتَمِلُ الكافِرَ وجِنْسَ الإنْسانِ

ويَحْتَملُ أنْ يَكونَ تَعْريفُ لَفظِ ﴿ٱلْإِنسَٰنَ﴾ هُنا لِلاسْتِغْراقِ، خِلافًا لِمَنْ نَصَّ عَلى أنّهُ الكافِرُ أَيْنَما وردَ في كتابِ اللّه تعالى، فأيُّ لَفظٍ حُلّيَ باللّامِ؛ فإنَّ حُكْمَهُ الاستِغْراقُ والجِنْسيّةُ إنْ لم يُذكَرْ أمرٌ سابِقٌ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/111.
(2) فاضل السّامرّائيّ، معاني النّحو: 2/206 - 207.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/109.

يَنْصَرِفُ الذِّهنُ إِلَيهِ؛ صيانَةً لَهُ مِنَ الإِجْمالِ والتَّعْطيلِ، وإِنْ كانَ اسْتِعمالُ لَفْظِ الإِنْسانِ المذْكورِ هُنا ووَصْفُهُ وما يُباشِرُ مِنْ عَملٍ لا يَليقُ بِالإِنْسانِ المسْلِمِ[1].

حالُ الإِنْسانِ عُمومًا - الكافِرِ والمُسْلِمِ - هوَ الإِنابَةُ عِنْدَ مَسِّ الضُّرِّ

ويُحْتَمِلُ أَنْ يَكونَ لَفظُ ﴿ٱلْإِنسَٰنَ﴾ شامِلًا المسْلِمَ والكافِرَ، ولا يَخْتَصّ بِأَهْلِ الكُفرِ؛ فإِنَّ كثيرًا مِنَ المُسْلِمينَ تَلْهَجُ أَلْسِنَتُهم بالدُّعاءِ لِتَفْريجِ الكَرْبِ حتّى إذا ما كَشَفَهُ اللّه عَنهُم غَفلوا عَنِ الدُّعاءِ، وذَهلوا عمّا يَجِبُ مِنْ شُكرِ نِعْمتِهِ بِما رَفَعَهُ عَنهُم مِنَ الضّرِّ وما مَنَعَ مِنَ الشّرِّ[2].

وَمِنْ أَهْلِ العِلْمِ مَنْ جَعَلَ اللّامَ في الإِنْسانِ لِلعَهْدِ، وَجَعَلَ المُرادَ بِهِ أَبا حُذَيْفَةَ بْنَ المُغيرَةِ المَخْزومِيَّ، واسْمُهُ: مُهَشِّمٌ، وَكانَ مُشْرِكًا، وَكانَ أَصابَهُ مَرَضٌ[3]، إلّا أَنَّ ما تَقدَّم أَقْوى؛ لِعُمومِ اللَّفْظِ.

دلالَةُ اسْتِعْمالِ: ﴿ٱلْإِنسَٰنَ﴾:

وقوعُ الضُّرِّ لا يَخْتَلِفُ عَنِ الأَفْرادِ والمَجْموعِ؛ فإِنَّ الحالَ سَواءٌ في التَّضَرُّعِ والالْتِجاءِ

استُعملَ لفْظُ ﴿ٱلْإِنسَٰنَ﴾ دونَ النّاسِ أوِ البَشَرِ أوْ نَحوِه؛ لأنّهُ أرادَ في ذِكْرِ لفظِ الإنسانِ التّذكيرَ بِنِعمةِ اللّه تعالى إذْ خَلَقهُم ورَزَقهُم وجَعَلَهُم مِن أَشْرفِ الأَنْواعِ الّتي بَرَأَها على الأَرْضِ[4]، مِصْداقًا لقوله تعالى: ﴿۞وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ٧٠﴾ [الإسراء: 70]، ولِلإِشارَةِ إلى أنَّ مَسَّ الضُّرِّ لا يَخْتَلِف عَن مَسِّ إِنسانٍ بِمُفْرَدِه، أوْ مَسّ مَجْموعِ النّاسِ؛ فإِنَّ الحالَ سَواءٌ في التَّضرُّعِ والالْتِجاءِ.

نُكْتَةُ تَقْديمِ المَفْعولِ بِهِ ﴿ٱلْإِنسَٰنَ﴾:

قَصْرُ إيقاعِ الضُّرِّ عَلى الإِنْسانِ مُبالَغَةٌ لإِرادَةِ التَّخْويفِ والتَّحْذيرِ

قُصِرَ إيقاعُ الضُّرِّ على الإِنْسانِ في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ﴾ بِتَقْديمِ المَفْعولِ على الفاعِلِ، وهوَ قَصْرٌ لإرادَةِ المبالَغَةِ، فكَأنّهُ

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 17/221.
(2) الشّوكانيّ، فتح القدير: 2/488.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/109.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/109.

جَعلَ وقوعَ الضّرِّ كائنًا على الإنْسانِ فحَسْب، وغَرَضُهُ: التَّخويفُ والرَّدعُ والتَّحذيرُ والتَّنبيهُ، وإلّا فإنَّ ضرّهُ وعذابَهُ تعالى مُحْتَملُ الوقوعِ على المَخْلوقاتِ جَميعًا.

مَعْنى التَّعْريفِ في: ﴿ٱلضُّرُّ﴾، ودلالةُ الاستعمال:

التَّعْريفُ في كَلِمَةِ ﴿ٱلضُّرُّ﴾ فيهِ إشارَةٌ إلى ما تَقَدَّمَ مِنْ لَفْظَةِ الشّرِّ[1] في قوله: ﴿۞وَلَوۡ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ﴾؛ فإنّهُ لمّا كانَ مسُّ الضّرِّ عَلى جِهةٍ مُعيّنةٍ وهيَ اسْتِعْجالهُم الشّرَّ؛ ناسَبَ أنْ يأتيَ الضّرُّ مُعرّفًا، ولَمّا كانَ تعريفُ الشّرِّ ثَمَّ لِلعَهدِ - وهو الشَّرّ المَعْهود لأهْلِ مكّةَ- ؛ تَعيّنَ أنْ يَكونَ هُنا كذلكَ.

الإنْسانُ ضَعيفٌ في احْتِمالِ الضُّرِّ العارِضِ فَكَيْفَ بِالشَّرِّ العَريضِ

ويَجوزُ أنْ يَكونَ التَّعريفُ لِلجِنْسِ، أيْ: أَصابَ الإنسانَ جِنسُ الضّرِّ، كالمرَضِ والفَقرِ[2] وأيِّ علّةٍ أُخرى مِنَ الشَّدائدِ والمصائبِ الّتي كَتبَها اللّه على الإنْسانِ.

والسِّياقُ يَدلُّ عَلى أنَّ المرادَ بالضُّرِّ عُمومُ الضُّرِّ مِنَ الأمراضِ الّتي تُصيبُ الإنْسانَ، فإذا كانَ الإنسانُ على مَرَضٍ عارِضٍ غَيْرَ قادِرٍ، فَكَيفَ بالشَّرِّ العَريضِ.

واسْتُعْمِلَ لَفظُ ﴿ٱلضُّرُّ﴾ في قوله تَعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلۡإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ﴾ بدَلاً مِنْ لَفظِ الشّرِّ المذْكورِ قَبْلُ؛ لِكَونِ الضّر المَقْصودِ هُنا هوَ ضرَّ المرَضِ والوَجعِ والعِلَّةِ[3]، وهوَ مِنَ الأمثِلَةِ اليَسيرَةِ عَلى الشّرِّ، فما الحالُ إذا حاقَ بالإنْسانِ الشّرُّ بتَمامِهِ؟!

بَلاغَةُ الاسْتِعارَةِ المَكْنيَّةِ في لَفْظِ ﴿ٱلضُّرُّ﴾:

شُبِّهَ الضُّرُّ في قوله تَعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلۡإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ﴾ بشَخصٍ يَمَسُّ آخَرَ، فَذُكِرَ المشبَّهُ، وَحُذِفَ المشبَّهُ بِهِ، مَعَ ذِكْرِ لازِمٍ مِن لوازِمِهِ؛

تَصْويرُ الضُّرِّ وتَشْخيصُهُ أَدْعى في الاعْتِبارِ وأَقْرَبُ إلى الانْكِسارِ

(1) الكرمانيّ، أسرار التّكرار في القرآن، ص: 139، والفيروزابادي، بصائر ذوي التّمييز: 1/240.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/126.
(3) الفيروزابادي، بصائر ذوي التّمييز: 3/469.

وهوَ المَسّ، عَلى سَبيلِ الاسْتِعارَةِ المكنيَّةِ الأصْليَّةِ، وغرَضُ الاسْتِعارَةِ تَشْخيصُ الضُّرِّ وتصْويرُهُ، فإنَّ ذلِك أَدْعى إلى اسْتِحْضارِ المرادِ، والتَّرهيبِ مِنَ المَقْصودِ.

بَلاغَةُ جَوابِ ﴿وَإِذَا﴾:

تَصْويرُ مَشْهَدِ الإنْسانِ في الدُّعاءِ عِنْدَ مَسِّهِ أَدْنى ضرٍّ دَليلٌ عَلى كَذِبِهِ في اسْتِعْجالِ الشَّرِّ

ورَدَ قوله تَعالى: ﴿دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوۡ قَاعِدًا أَوۡ قَآئِمًا﴾ جوابًا لِقوله تَعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلۡإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ﴾؛ للإيماءِ إلى الضَّعفِ الإنْسانيِّ الكامِنِ فيهِ؛ فَما إنْ يَمسّ الإنسانَ الضُّرُّ حتّى تَنْكَشِفَ حَقائقُ ذلِكَ الضّعْفِ، فيَلْتجِئُ إلى خالِقِهِ طالِبًا منهُ المعونَةَ والأَيْدَ مُتَضَرّعًا في كَشْفِ ما بهِ مِن ضرٍّ ومرَضٍ، أيْ: بِمجَرَّد مسِّ الضّرِّ يَصْرخُ الإنْسانُ داعيًا، وهو مَشْهدٌ يَدلُّ على الحالَةِ العَجيبَةِ الّتي يَمرُّ بِها الإنْسانُ في مَرَضِهِ وعَجْزِهِ.

فائدَةُ الإسْنادِ في: ﴿دَعَانَا﴾:

بَيانُ رَحْمَةِ الله بِعِبادِهِ ورَأْفَتِهِ بِحالِهِم، فَفي تِلْكَ الحالِ المَدْعوُّ هوَ الله دونَ غَيْرِهِ

أُسنِدَ فِعلُ الدُّعاءِ إلى ضَميرِ العَظَمةِ في قوله: ﴿دَعَانَا﴾ ولَم يُسندْهُ إلى صَريحِ الاسْمِ الأحْسَن (اللّه)، فلَم يَرِدِ النَّظْمُ القرآنيُّ: (دَعا اللّه) أوْ نَحْوهُ؛ لأنَّ اللّه ﷻ أَرادَ بَيانَ رَحْمَتِه بِعِبادِه بِقَولِه: ﴿دَعَانَا﴾، عَلى سَبيلِ التَّكلُّمِ لا الغَيْبَةِ، أيْ: دَعانا نَحنُ دونَ غَيْرِنا، وهو تَعبيرٌ دالٌّ على رَأْفَةِ اللّه بِعِبادِه وإرادَتِهِ الخَيرَ لَهُم، والدّاعي يَدْعو اللّه تعالى، لَكنَّ العِبْرَةَ بِالنَّظْمِ الَّذي دَلَّ على أَمرين: أَحَدهما: الإخْبار بِدُعاءِ الإنْسانِ رَبَّهُ. والآخَر: بَيان رَحْمَة اللّه ورَأْفتِهِ بِعِبادِهِ الفُقَراءِ.

بَلاغَةُ التَّدَلّي في أَحْوالِ الدُّعاءِ:

التَّرْتيبُ عَلى طَريقِ التَّدَلّي مِنَ الأَكْثَرِ ضَرَرًا إلى الأَخَفِّ

رَتَّبَ النَّظمُ القُرآنيُّ أحْوالَ الدُّعاءِ بادِئًا بالمُضْطَجِعِ عَلى جَنْبِهِ فالقاعِدِ، ثُمّ خَتَمَ بالقائمِ، فقالَ اللّه تعالى: ﴿دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوۡ قَاعِدًا أَوۡ قَآئِمًا﴾، و"إنَّما بَدَأَ بالمُضْطَجِعِ؛ لأنّهُ بالضّرِّ أَشَدُّ في غالِبِ الأَمرِ،

فهوَ يَدْعو أَكْثرَ، واجْتِهادُهُ أشَدُّ، ثُمَّ القاعِدِ ثُمَّ القائم"[1]، فجاءَ التّرْتيبُ عَلى طريقِ التَّدَلّي مِن الأكْثَر إلى الأقلِّ ضَرَرًا.

ويَجوزُ في هذا التّرْتيبِ أنْ يكونَ وَفْقًا لحالِ الدّاعي عندَ دُعائِه، فَبَدَأ بِأَنْدرِ الأحْوالِ مُلابَسةً لِلدُّعاءِ وهيَ حالَةُ الجَنْب، فهيَ تَتَطلَّبُ الرّاحَةَ والسُّكونَ والهُدوءَ، ثمَّ زادَ عَليها الدُّعاءَ عِندَ القُعودِ وعندَ الجُلوسِ تَتْميمًا لِلأَحْوالِ جَميعِها وإطْنابًا في الكَلامِ[2].

تَوْجيهُ المُتَشابِهِ اللَّفْظيِّ في تَرْتيبِ أَحْوالِ الدّاعينَ في الصِّحَّةِ والمَرَضِ:

الآيَتانِ جاءَتا عَلى سَبيلِ التَّدَلّي وإنْ كانَتا مُتَعاكِسَتَي الأَحْوالِ

جاءَ تَرْتيبُ حالِ الذّاكرينَ اللّه في قوله تَعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ﴾ [آل عمران: 191]، فكانَ على عَكْسِ التَّرْتيبِ في قوله تعالى: ﴿دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوۡ قَاعِدًا أَوۡ قَآئِمٗا﴾، فبدأَ في آلِ عِمران بالقائمِ فالقاعِدِ فالمُضْطَجِعِ عَلى جَنْبِه؛ لأنَّ الذِّكرَ - ومنهُ الصّلاةُ - في غالِبِ أحوالِه يَكونُ على وَجْهِ القيامِ، ثمَّ القُعودِ، فالاضْطِجاعِ عَلى جَنْبِه، أمّا في سورَةِ يونُس فقدَ عَكَسَ التّرْتيبَ؛ لأنّهُ في سياقِ الحَديثِ عَن وقوعِ الضُّرِّ، فالمريضُ في أشَدِّ أحوالِه يَكونُ مضْطَجعًا، فأَوْسَطها القُعود، فأَخَفّها القيام، وبِناءً عَلى شِدَّة الضُّرِّ والمَرض تَكونُ كَثْرةُ الدُّعاءِ.

واسْتُعْمِل حَرْفُ الواوِ في آيةِ آلِ عِمران؛ لِبَيان أحوالِ الذّاكرينَ اللّه تعالى، فَهُم يَذْكرونَهُ في هذِهِ الأَحْوالِ مُجْتَمعَةً ومُتَفرِّقَةً، فَبَدأَ بِالأَغْلَب، فالأقلِّ، على سَبيلِ التَّدَلّي في ذِكْر غالِبِ أَحْوالِ الذّاكِرينَ، واسْتَعْمل حَرفَ (أو) في آيةِ يونُسَ؛ لأنَّ الضّرَّ قائمٌ على هذِهِ الأقْسامِ كما تُفيدُهُ (أو) وهيَ لِلتّقسيم[3]، فالمريضُ يَشْتَدُّ دُعاؤهُ وهو في حالِ الاضْطِجاعِ، فيَكونُ الدُّعاءُ بِرَفْعِ الضُّرِّ في أَعْلى دَرجاتِ الالْتِجاءِ

(1) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 8/317، ورشيد رضا، تفسير المنار: 11/256.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/110.
(3) ابن أبي الأصبع، تحرير التّحبير، ص: 175.

والضَّراعَةِ، فهوَ كذلك على سَبيلِ التَّدَلّي، فالآيَتانِ جاءَتا على سَبيلِ التَّدَلّي، وإنْ كانَتا مُخْتَلِفَتَي التَّرْتيبِ، وذلك باعْتِبارِ التَّعاكُسِ في الأَحْوالِ، فآيَة آلِ عِمران في الصِّحَّةِ، وآيَةُ يونُسَ في المرَضِ.

دلالَةُ اللّامِ في ﴿لِجَنۢبِهِۦٓ﴾:

لاسْتِعْمالِ اللّامِ دونَ (على) مَزيدُ اخْتِصاصٍ، وهوَ أنَّ الدّاعيَ يَدْعو لِأَجْلِ رَفْعِ الضُّرِّ عَنْ جَنْبِهِ

اللّامُ في قوله: ﴿دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ﴾ بِمَعنى (على)، أيْ: دَعانا عَلى جَنْبِهِ، كقوله تعالَى: ﴿يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ﴾ [الإسراء: 109] أي: على الأذْقانِ، وقوله: ﴿وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ۝١٠٣﴾ [الصافات: 103] أيْ: عَلى الجَبينِ، ووَرَدَ بِلَفْظِ (على) نَصًّا في قوله: ﴿فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ﴾ [النّساء: 103]، وهذا المعْنى ناشِئٌ مِن مَعْنى الاخْتِصاصِ، وهوَ أَعَمّ مَعاني اللّامِ في كَلامِ العَرَبِ[1]، ووَجْهُ مُناسَبَتِه لِهذِهِ الهَيْئَةِ أنَّ الجَنْبَ لَصيقٌ بالدُّعاءِ عِندَ الضّرِّ ومُخْتَصٌّ بِهِ[2]، واللّامُ تَحْتَمِلُ أنْ تَكونَ عَلى بابِها عَلى تَقديرِ: ملْقيًا لِجَنْبِهِ[3]، وفي ذلِكَ إشارَةٌ إلى قوَّةِ الضّرِّ واسْتِحْكامِهِ؛ فلا يَسْتَطيعُ جلوسًا، كما يوصَفُ العاجِزُ بِقولِهم: فلانٌ لِما بِهِ[4]، فاخْتيارُ اللّامِ في هذا السِّياقِ لَهُ وَجْهُهُ البَيانيُّ وهوَ أنَّ اللّامَ دالَّةٌ على أنَّ الدّاعيَ إنَّما يَدْعو لِأَجْلِ الضُّرِّ الواقِعِ عَليهِ، فهوَ يَدْعو لِأَجْلِ ضرِّ جَنْبِهِ، أوْ لِأَجْلِ رَفْعِ الضُّرِّ عَنْ جَنْبِهِ، فلِهذا حَسُنَ اسْتِعْمالُ اللّامِ دونَ (على) في هذا السِّياقِ.

سِرُّ التَّغايُرِ في التَّعبيرِ جَرًّا ونَصْبًا: ﴿لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا﴾:

اسْتُعْمِلَتِ اللّامُ لِبَيانِ شِدَّةِ المَرَضِ الَّذي يُصيبُ الإنْسانَ

في قوله: ﴿دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا﴾ غويرَ في التَّعْبيرِ بَيْنَ اسْتِعْمالِ الجرِّ باللّامِ فَجَعلهُ لِلجَنْبِ، وبَيْنَ النَّصبِ فجَعَلَهُ لِلقاعِدِ والقائِمِ، ولَم يعْكسْ مَثَلًا بِأنْ يَرِدَ النَّظْمُ القُرآنِيُّ: (دَعانا مُضْطجعًا أو لقعودِهِ أو لقيامِهِ)، وسِرُّ ذلكَ: إظْهارُ التَّمَكُّنِ مِن حالِ الرّاحَةِ

(1) الرّمانيّ، منازل الحروف: 50 - 51.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/110.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/20.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/84.

والاسْتِرخاءِ، فيَذكرُ جانِبَ جَسَدِهِ، فهو أَقْوى وأَظْهرُ في التَّمَكّنِ[1] فالقَريبُ مِنَ الأَرْضِ أَمكَنُ مِنَ القاعِدِ والقائمِ، وهي دالَّةٌ على تَمَكُّنِ الضُّرِّ والمَرَضِ.

دلالَةُ الحَرْفِ ﴿أَوْ﴾:

العَطْفُ يَقْتَضي تَقْسيمَ أَحْوالِ المَرْضى أَوْ أَصْنافِ مَضارِّهِم

عَطَفَ الحَرفُ ﴿أَوْ﴾ في قوله: ﴿دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوۡ قَاعِدًا أَوۡ قَآئِمًا﴾ حالَي القُعودِ والقيامِ عَلى حالِ الاضْطِجاعِ[2]، ومِن مَعاني (أو) الدّائرَةِ في لِسانِ العَرَبِ التَّقْسيمُ[3]، وهيَ هُنا كذلكَ؛ فإنَّ فائدَتَها تَقْسيمُ الدُّعاءِ لِلأَحوالِ جميعًا[4]، فمُقْتَضى هذا العَطْفِ تَقْسيمُ أَحْوالِ المَرْضى ما بَيْنَ شَديدِ المَرَضِ الّذي يُمثِّلُهُ الاضْطِجاعُ، ومُتَوسّطِهِ الّذي يُمثِّلُهُ القُعودُ، وأَخَفّهِ الّذي يُمَثِّلُهُ القيامُ، أَوْ لِأَصْنافِ الضَّررِ الواقِعِ على الجَنْبِ أَوْ قُعودًا أَوْ قيامًا.

دلالةُ الفاءِ في ﴿فَلَمَّا﴾:

امتِنانُ الله على عِبادِهِ في سُرْعَةِ رَفْعِ الضُّرِّ

الفاءُ في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا كَشَفۡنَا عَنۡهُ ضُرَّهُۥ﴾ دالَّةٌ على سُرعةِ إجابَةِ المُضْطَرِّ الدّاعي، وقُربِ زمانِ الكَشْفِ والنّجاةِ[5]؛ لِدلالَتِها على التَّعْقيبِ مِن غَيرِ مُهلَةٍ في حروفِ المَعاني[6]، وفي ذلكَ إِظْهارٌ لِلامتِنانِ مِنهُ تَعالى عَلى عِبادِهِ المُتَضرِّعينَ.

بَلاغَةُ الاسْتِعارَةِ التّصْريحيَّةِ: ﴿كَشَفۡنَا﴾:

تَشْبيهُ الضُّرِّ بِغِطاءٍ يَكْتُمُ أَنْفاسَ الإِنْسانِ

حَقيقَةُ الكَشْفِ أَنْ تُظْهِرَ شَيئًا عَليهِ حاجِبٌ أَوْ سِتارٌ، ثُمّ أَصْبَحَ يُطلَقُ عَلى كلِّ إِزالَةٍ[7]، والتَّعْبيرُ بِهِ في قوله تَعالى: ﴿فَلَمَّا كَشَفۡنَا عَنۡهُ ضُرَّهُۥ﴾ عَلى طَريقَةِ الاسْتِعارَةِ التَّصْريحيَّةِ التَّبَعِيَّةِ، فقد شُبِّهَ الرَّفْعُ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/110.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/332.
(3) ابن الصّائغ، اللّمحة في شرح الملحة: 2/694.
(4) ابن عجيبة، البحر المديد: 2/455.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/84.
(6) ابن جنّي، اللّمع في العربيّة، ص: 91.
(7) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/111.

بالكَشْفِ، وحُذِفَ المشبَّهُ، كأنَّ الضّرَّ غِطاءٌ على الإنْسانِ كانَ ساترًا لَهُ ومُغَطِّيًا[1].

بَلاغَةُ الاسْتِعارَةِ المَكْنيَّةِ: ﴿ضُرَّهُۥ﴾:

تَشْبيهُ الضُّرِّ بِحِجابٍ صَفيقٍ يَلْفَعُ الإنْسانَ فيَعوقُهُ عَنِ التَّحَرُّكِ

في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ﴾ اسْتِعارةٌ مَكْنيَّةٌ؛ فالضّرُّ يُرْفَعُ ولا يُكْشفُ، وفي هذا التَّعْبيرِ تَشْبيهُ الضّرِّ بِغِطاءٍ كَثيفٍ يُغَطّي الإنْسانَ فيَمنَعُهُ مِنَ الحَرَكةِ، فحُذِفَ المشبَّهُ بِهِ وذُكِرَ لازِمٌ مِنْ لوازِمِهِ وهوَ الكَشْفُ.

والاسْتعارَةُ في ﴿ضُرَّهُۥ﴾ والاسْتعارَةُ في ﴿كَشَفْنَا﴾ مُتَكامِلَتانِ، تقوّي إحداهما الأخرى في بَيانِ اسْتِحْكامِ الضُّرِّ بِصاحِبِهِ، إلّا أنَّهُما لا تجْريانِ دفْعَةً واحِدَةً؛ لانْشِغالِ إحْداهُما بِكونِها قَرينَةً لِلأُخْرى، ولَكنْ يجْريانِ باعْتِبارَيْنِ مُختلِفَيْنِ.

بَلاغَةُ إيجازِ القَصْرِ في: ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ﴾:

مُقابَلَةُ سُرْعَةِ اسْتِجابَةِ اللهِ تَعالى بِسُرْعَةِ النِّسيانِ دَليلُ الغَفْلَةِ وأَمارَةُ الحَسْرَةِ

قوله تَعالى: ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ﴾ فيهِ إيجازٌ بِالقَصْرِ؛ والأَصْلُ: فلَمّا دَعانا رَحمناهُ واسْتَجَبنا لَهُ وكَشَفْنا عَنهُ ضرَّهُ، لَكنّهُ طَوى تِلكَ المعانيَ وذَكرَ النَّتيجَةَ والمآلَ؛ وهيَ كَشْف الضّرِّ؛ تَنْبيهًا عَلى سُرعةِ الاسْتِجابةِ بِكَشفِهِ؛ لِبَيانِ مَوْقفِ هذا الإنْسانِ في مُقابَلَةِ نِعمَةِ اللهِ في كَشْفِ الضُّرِّ، وهوَ المُرور كَأَنَّهُ لَم يَدْعُ اللهَ بِشيءٍ، فقابَلَ سُرْعةَ الاسْتِجابَةِ بِسُرْعةِ النِّسيانِ والتَّغافُلِ.

نُكْتَةُ تَقْديمِ الجارِّ والمجْرورِ ﴿عَنْهُ﴾:

بَيانُ عِنايَةِ اللهِ تَعالى بِعِبادِهِ لِيَشْكُروهُ عَلى نِعَمِهِ وعَطائِهِ

تَقْديمُ الجارِّ والمجرورِ ﴿عَنْهُ﴾ عَلى المَفْعولِ ﴿ضُرَّهُۥ﴾ في قوله تَعالى: ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ﴾؛ لِلأَهَمِّيَّةِ والعِنايَةِ، ففيهِ بَيانُ رِعايَةِ اللهِ لِعِبادِهِ؛ لِيَشْكروهُ على ما أَوْلاهُم بِهِ مِن نِعْمَةِ العافيَةِ بَعْدَ البَلاءِ، والصِّحَّةِ بَعْدَ المَرَضِ.

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/21.

فائِدَةُ التَّعْريفِ بِالإِضافَةِ في ﴿ضُرَّهُۥ﴾:

مُقْتَضى الظّاهِرِ أنْ يَكونَ ذِكْرُ الضُّرِّ مُعَرَّفًا باللّامِ لا بالإضافَةِ إلى هاءِ الضَّميرِ؛ وذلكَ لِتَقدُّمِ ذِكْرِ لَفْظِ الضُّرِّ، فيَكونُ ذِكْرُ الضُّرِّ لِلعَهْدِ الذِّكريِّ، لَكنَّ النَّظمَ القُرآنيَّ جاءَ مخالفًا لِمُقْتَضى الظاهِرِ لِيوافقَ مُقْتَضى الحالِ، فالضُّرُّ الواقِعُ عَلى الإنْسانِ أَصْبحَ لَصيقًا بِهِ، مَعْروفًا لَديْهِ، مُصاحِبًا لِحالِ صاحِبِهِ اضْطِجاعًا أوْ قُعودًا أوْ قيامًا، فهوَ ضرٌّ خاصٌّ بِصاحِبِهِ؛ لِذلكَ آثَرَ النَّظمُ المَجيءَ بِالإضافَةِ إلى ضَميرِ الغَيْبَةِ العائِدِ عَلى الإنْسانِ؛ لِبَيانِ أنَّ الضُّرَّ المَكْشوفَ هوَ ضرُّهُ اللَّصيقُ بِهِ على الدَّوامِ، وفي ذلكَ مَزيدُ امتِنانٍ عَلى الإنْسانِ.

إذا تَطاوَلَ زَمانُ الْتِصاقِ الضُّرِّ بِالإنْسانِ أَصْبَحَ مَعْروفًا بِهِ

بَراعَةُ التّعْبيرِ بِالفِعْلِ ﴿مَرَّ﴾ جَوابًا لـ﴿فَلَمَّا﴾:

اخْتيرَ التّعْبيرُ بـ﴿مَرَّ﴾ جَوابًا لـ﴿فَلَمَّا﴾ في قوله تَعالى: ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ﴾ أي: اسْتَمرَّ عَلى ما كانَ عَلَيهِ مِنْ طَريقٍ، ولم يَأبَهْ لِفِعْلِنا ونَسيَ ما كانَ فيهِ مِنَ الضّرِّ[1]، كأنّهُ عاجَلَ كَشْفَنا بِالمُرورِ والمُروقِ في آنٍ، وفيهِ تَصْويرٌ لِسُرعةِ جُحودِ الإنْسانِ ومَرارَةِ النُّكْرانِ.

الإنْسانُ الجاحِدُ سَريعُ الكُفْرانِ شَديدُ النُّكْرانِ

والمرورُ هُنا تعبيرٌ عنِ المُضيِّ عَلى عَهْدِهِ الأوّلِ، ونِسْيانِ ما كانَ فيهِ مِنْ حالِ الجهْدِ والبَلاءِ، وفيهِ إعراضٌ عنْ موقِفِ الابْتِهالِ والدُّعاءِ والضَّراعَةِ كأنّهُ لَم يَكنْ مِنهُ ذلكَ قَطُّ، وهوَ غايَةُ الجُحودِ والكُفْرانِ[2].

بَلاغَةُ المَجازِ في التَّعْبيرِ بِالفِعْلِ ﴿مَرَّ﴾:

التّعْبيرُ بالمرورِ في قوله تعالى: ﴿مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ﴾ مَجازِيٌّ، بِمَعْنى اسْتِبْدالِ حالٍ بِغَيْرِها، فشُبِّهَ الاسْتِبْدالُ بِالانْتِقالِ مِنْ مَكانٍ إلى آخَرَ؛ لِأَنَّ الانْتِقالَ اسْتِبْدالٌ، أَيْ: انْتَقَلَ إلى حالٍ كَحالِ مَنْ لَم يَسْبِقْ لَهُ دُعاؤُنا، أَيْ: نَسِيَ حالَ الاضْطِرارِ واحْتِياجِهِ إلَيْنا، فَصارَ

جُحودُ الإنْسانِ نِسْيانٌ ماحِقٌ وتَغافُلٌ مارِقٌ

(1) النّحّاس، معاني القرآن: 3/281، ومكيّ القيسيّ، الهداية: 5/3231.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/21.

كَأَنَّهُ لَم يَقَعْ فِي ذَلِكَ الاحْتِياجِ[1]، وهذا يَدُلُّ على شَديدِ النُّكرانِ والجُحودِ في مقابَلَةِ نِعَمِ اللّه تَعالى.

بَلاغَةُ التَّشْبيهِ في الآيَةِ:

تَصْويرُ حالِ الإنْسانِ الّذي يَدْعو اللهَ عِنْدَ البَلاءِ ويَنْساهُ عِنْدَ الرَّخاءِ

في قوله تعالى: ﴿كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ﴾ تَشْبيهٌ، إذْ قد جاءَ مُصدّرًا بـ(كأنَّ) المفيدَةِ التَّشْبيهَ، واسْمُها ضَميرُ الشّأنِ مَحْذوفٌ، وقدْ شُبِّهَ حالُ مَن يَدعو اللّه عندَ كَرْبِهِ وبَلائِهِ بِحالِ مَن لَم يَكنْ مِنْهُ دُعاءٌ قَطّ، "أيْ: كَأنْ لَم يَكنْ لَهُ بِنا مَعْرِفَةٌ أصْلًا، فَضلًا عنْ أنْ يَعْتَرِفَ بِأنّا نَحنُ كَشَفْنا عَنهُ ضرَّهُ"[2]، وفيهِ تَصْويرٌ لِما عَليهِ المرْءُ الّذي يدْعو اللّه تعالى ويَبْتَهِلُ إليهِ عِندَ حُلولِ البَلاءِ في الأَحْوالِ كلِّها، فإذا انْفَرَجَتْ حالُهُ؛ انْحازَ وانْدَفعَ في خِضَمِّ الحياةِ ناسيًا ما كانَ بِهِ عندَ الرَّخاءِ[3].

سِرُّ التَّعْبيرِ بِحَرْفِ الجَرِّ ﴿إِلَىٰ﴾:

شَبَّهَ الضُّرَّ بِالعَدوِّ المُفاجِئِ الَّذي يُسْتَنصَرُ إلى دَفْعِهِ

جاءَ التَّعْبيرُ بِحَرفِ الجرِّ ﴿إِلَىٰ﴾ دونَ اللامِ في قوله تعالى: ﴿كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ﴾ على طَريقَةِ الاسْتِعارَةِ التَّبعيَّةِ، فقد شُبِّهَ الضّرُّ بِالعَدوِّ المُفاجِئِ الَّذي يَدْعو إلَى مَنْ فاجَأَهُ ناصِرًا إلَى دَفْعِهِ[4]، أيْ: أنَّ الإنْسانَ دَعا اللّه تَعالى إلى رَفْعِ الضُّرِّ عَنْهُ، كمَن يَدْعو مَن يَنْصُرهُ إلى دَفعِ عَدوٍّ عَنهُ باغَتَهُ عَلى حينِ غرَّةٍ.

بَلاغَةُ المجازِ بالحَذْفِ في الآيَةِ:

ذِكْرُ الضّرِّ دونَ ذِكْرِ كَشْفِهِ؛ لِبَيانِ شَديدِ وَقْعِهِ عَلى الإنْسانِ

التَّعبيرُ في قوله تَعالى: ﴿كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ﴾ مَجازٌ بالحذْفِ؛ فإنَّ الدّعاءَ ليسَ لأجْلِ الضّرِّ نَفْسِهِ إنّما هوَ لِكَشْفِ الضّرِّ، والتَّقْديرُ: كأنّهُ لَم يَدْعُنا طالِبًا إلى كشْفِ الضّرِّ الّذي

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/111.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/84.
(3) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 10/347.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/111.

مَسّهُ[1]، فآثَر ذِكْرَ الضُرِّ دونَ كَشْفِهِ، لِبَيانِ المَقْصودِ بالدُّعاءِ، وشَديدِ وقْعِهِ عَلى الإنْسانِ.

غَرَضُ التَّنْكيرِ في ﴿ضُرّٖ﴾:

الإنْكارُ والتَّقْليلُ سُلوكانِ يَتَعاوَرانِ النّاسَ في مَوْقِفِهِم مِنَ الضُّرِّ بَعْدَ كَشْفِهِ

غَرضُ تَنْكيرِ الضّرِّ في قوله تعالى: ﴿كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرّٖ مَّسَّهُۥ﴾ الإيماءُ إلى الإنْكارِ، أيْ: إنْكار أنْ يَكونَ اللّه سبحانهُ قدْ كَشَفَ عَنِ الإنْسانِ ضرَّهُ، وفي ذلكَ بَيانُ سوءِ سُلوكِ الإنْسانِ وجُحودِهِ وعَظيمِ نُكْرانِهِ، كَما أنَّ التَّنكيرَ يُفيدُ التَّقليلَ، أيْ: تَقْليلَ الضُّرِّ في نَظَرِ الإنسانِ بَعْدَ أنْ كُشِفَ عنهُ، والإنْكارُ والتَّقْليلُ غَرَضانِ يتَعاوَرانِ بَيْنَ الجاحِدينَ، فَمِنَ النّاسِ مَن يُنكرُ كَشْفَ الضُّرِّ جُملةً، ومِنْهُم مَن يُقَلِّلُ مِنْ شَأْنِ رَفْعِهِ وكَشْفِهِ.

فائدَةُ وَصْفِ الضُّرِّ بِالجُملَةِ الفِعْليَّةِ:

تَذْكيرُ الإنْسانِ بما نَسِيَهُ مِنْ مَسيسِ الضُّرِّ والآلامِ

آثَرَ النَّظْمُ التَّعْبيرَ بالجُملةِ الفِعْلِيّةِ بِصيغَةِ الماضي ﴿مَّسَّهُۥ﴾ وَصْفًا لِقَولِه: ﴿ضُرّٖ﴾، وذلكَ لإثْباتِ وقوعِ الضُّرِّ وأنَّهُ قدْ مسَّ الإنْسانَ، وتَحقَّقَ ضَرَرُهُ، ولَولا أنْ كَشَفَ اللّه تَعالى الضُّرَّ عَنْهُ؛ لَبَقيَ في مَسيسِهِ متوجِّعًا مُتألِّمًا إلى أنْ يَموتَ، وفائدَةُ ذلكَ تَذْكيرُ الإنْسانِ بِما مَسَّهُ مِنَ الضُّرِّ، بَعْدَ أنْ سُجِّلَ عَلَيْهِ جُحودُهُ ونُكْرانُهُ.

بَلاغَةُ الاسْتِئْنافِ البَيانيِّ:

الكَشْفُ عَنْ سَبَبِ جُحودِ الإنْسانِ بَعْدَ كَشْفِ الضّرِّ

قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ اسْتِئْنافٌ بَيانيٌّ؛ إذْ إنَّ جُحودَ العَبْدِ ونُكْرانَهُ جميلَ صُنْعِ اللّه تعالى مَعَهُ برَفْعِ الضُّرِّ عَنْهُ من أعجَبِ العجَبِ، كَأنَّهُ قيلَ: لمَ يَفْعل ذلكَ؟ فقيلَ: لِما يُزَيِّن لَهُ مِنَ الأمورِ الّتي يَقَعُ بِها الاسْتِدْراجُ لإسْرافِه، وهذا دَأْبُنا أَبَدًا[2]، فتَزْيينُ الأعْمالِ المُنْكَرة من قِبَلِ الشَّيْطانِ هيَ سَبَبُ الهُبوطِ في ذلكَ الجُحودِ، والغَرَقِ في مُسْتَنْقَعِ النُّكْرانِ.

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/126، والعكبريّ، التّبيان: 2/668.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/84.

بَلاغَةُ التَّذييلِ في الآيَةِ:

تَهديدُ أَهلِ الضَّلالِ ووَعيدُهُم، وتَنبيهُ أَهلِ العُقولِ مِنْ تَزيينِ أَعمالِ السّوءِ

قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ تَذْييلٌ يَعُمُّ ما تَقَدَّمَ وغَيْرَهُ، أَيْ: هَكَذا التَّزْيينُ الشَّيْطانيُّ زَيَّنَ لَهُم ما كانوا يَعْمَلونَ مِنْ أَعْمالِهِم في ماضي أَزْمانِهِم في الدُّعاءِ وَغَيْرِهِ مِنْ ضَلالاتِهِم[1]، وهذه الجملةُ خبرٌ مُتَضمّن التّهديدَ والوعيدَ لأهلِ الكفرِ والضّلالِ، الّذينَ لا يَنْتهونَ عَن ضَلالِهِم وكُفرِهِم، ولا يَسْتَمعونَ لِداعي الخَيرِ، ولا يَسْتَجيبونَ لِدَليلِ الرَّشادِ، ولا يَعْتَبرونَ بِما أَصابَ غَيْرَهم، وما سُلِبوهُ مِنْ نِعمٍ؛ فاسْتَحقّوا ما يَقَعُ عَليهم مِن سَخَطٍ وعَذابٍ[2].

بَلاغَةُ التَّشْبيهِ في: ﴿كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ﴾:

تَشْبيهُ تَزْيينِ نُكْرانِ الجَميلِ بِعُمومِ تَزْيينِ أَعْمالِ الضّالّينَ

شُبِّهَ تَزْيينُ إِعْراضِهم عَن دُعاءِ اللّه تَعالى وَحْدَهُ في حالِ الرَّخاءِ في قولِ اللّه تَعالى: ﴿كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ بالتَّزيينِ المَعْروفِ لَدى المخاطَبينَ، وهوَ الّذي يوقِعُ صاحِبَهُ في الضَّلالَةِ، ويحرِفُهُ عَنِ الجادَّةِ، فكَأَنَّ الآيَةَ تَقولُ: مثْلَ ذلكَ التَّزْيينِ الّذي تَعْرِفونَهُ مِنْ إيقاعِ النّاسِ في الضّلالِ المُبينِ، زُيِّنَ لِهذا الإنْسانِ بَعْدَ أَنْ كُشِفَ ضُرُّهُ الّذي مَسَّهُ، فَمَرَّ دونَ شُكْرِ مَن رَفَعَ عَنهُ ضرَّهُ، وفائدَةُ هذا الأُسْلوبِ اسْتِحْضارُ مَعْهودِ المخاطَبينَ مِنَ العِلمِ؛ لِفَهْمِ مُرادِ اللّه تَعالى مِن سُنَنَه، فإنَّ سُنَّةَ التَّزْيينِ ثابِتَةٌ لا تَبديلَ لَها، فهذِهِ الآيَةُ مِن بابِ إِلْحاقِ الفَرْعِ بِأَصْلِه، أَيْ: تَشْبيه تَزْيينِ نُكْرانِ الجَميلِ، بِتَزْيينِ عُمومِ أَعْمالِ الضَّلالِ.

ويُحْتَملُ أَنْ يَكونَ المَعْنى: مثْلَما يهْدِرُ الّذي يُنفِقُ مالَهُ، ويتَجاوزُ فيهِ حُدودَهُ، ما كانوا يَصْنعونَ مِنَ المُجافاةِ عَنِ اللّه ومِنِ اتّباعِ الشَّهواتِ وتَعاطي المَلَذّاتِ، وهوَ صَنيعُ المُسْرِفينَ الكاذِبينَ بِتَضْييعِهِمُ السَّعادَةَ الخالِدَةَ بِالشَّهْوَةِ النّافِقَةِ[3].

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/112.

(2) عبد الكريم الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 6/969.

(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/21.

دلالَةُ اسْتِعْمالِ اسْمِ الإشارَةِ لِلبَعيدِ (ذَلِكَ):

تَعْظيمُ المُشارِ إِلَيهِ وبَداعَتُهُ

في ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أُلْحِقَتِ اللّامُ الدّالَّةُ على البُعْدِ في لِسانِ العَرَبِ[1]، ومَعْناها تَعْظيمُ المشارِ إليهِ، وسِرُّ التَّعْظيمِ هُنا عَجيبُ ما كانَ مِنْ شَأنِهم وبَداعَتُهُ؛ فعَجيبٌ أَنْ يدعوَ الإنسانُ في شِدّتِهِ ثمَّ إنْ كُشِفَ عنه عاد مُتَنَكِّبًا عَنْ صِراطِ مَولاهُ جاحِدًا ما أَنْعَمَ اللّه عليهِ مِنْ نِعَمِهِ وآلائِهِ!

نُكْتَةُ بِناءِ فِعْلِ التَّزْيينِ ﴿زُيِّنَ﴾ لِلمَفْعولِ:

العِبْرَةُ بِوقوعِ التَّزْيينِ في تَصَوُّراتِ المُسْرِفينَ بِقَطْعِ النَّظَرِ عَنِ الفاعِلِ

في بناء فِعلِ التّزيينِ لِلمَفْعولِ في قوله تَعالى: ﴿كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ نُكْتَتانِ:

إِحْداهُما: أنَّ فِعْلَ التَّزْيينِ بُنِي لِلمَفْعولِ لِلعِلْمِ بفاعله، فإنَّ المُسْلِمينَ يَعْلَمونَ يَقينًا أَنَّ خَواطِرَهُمُ الشَّيْطانيَّةَ هيَ الّتي تُزَيِّنُ لَهُم أَعْمالَهُم؛ لأنَّ إِسْنادَ فِعْلِ التَّزْيينِ لِلشَّيْطانِ واردٌ ومَعْهودٌ في كِتابِهِ العَزيزِ[2] كَقوله تَعالى: ﴿وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [الأنعام: 43].

الآخَرُ: أنْ يَكونَ الإِسْنادُ إلى المَفْعولِ لِلتّنْبيهِ عَلى التّزْيينِ والعِبْرَةِ مِنهُ؛ فإنَّ مَعْرِفةَ المزيِّنِ هُنا غَيرُ ذاتِ أَهَمِّيَّةٍ، وإنَّما المهِمُّ أنْ يَعْتَبِرَ الإِنْسانُ ويَتَّعِظَ، وأنْ يَعْلَمَ أنَّ الأفْعالَ القَبيحَةَ بِكَثْرَةِ التَّرْدادِ تُصْبِحُ حَسَنَةً عِندَ أَصْحابِها فَلا يَشْعُرونَ بِقُبْحِها[3].

سِرُّ التَّعْبيرِ بـ﴿لِلْمُسْرِفِينَ﴾:

بَيانُ المُبالَغَةِ في جُحودِ الإِنْسانِ لِأَقْرَبِ فَضْلٍ عَلَيْهِ، وذلِكَ إِسْرافٌ في الجُحودِ والنُّكْرانِ

وُصِفَ الجاحِدونَ بالمسْرفينَ في قولِ اللّه تَعالى: ﴿كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ دونَ الطّاغينَ أوِ الجاحِدينَ أوِ الكافِرينَ أوْ مُقارِباتِها؛ ذلكَ أنَّ الإِسْرافَ هوَ الإفْراطُ، وهوَ أمرٌ غَيرُ مَحْمودٍ

(1) المراديّ، توضيح المقاصد: 3/1548.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/112.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/112، ورشيد رضا، تفسير المنار: 11/257.

الْبَتَّةَ، واخْتيارُ لَفظِ ﴿لِلْمُسْرِفِينَ﴾؛ لِكَونِهِ دالًّا على المبالَغَةِ في الكُفرِ؛ فتَعْريفُ المسْرِفينَ لِلاسْتِغراقِ لِيَشْمَلَ الجَميعَ[1].

وجَعَلَ الرّازيُّ لِغَرَضِ التَّعْبيرِ بـ﴿لِلْمُسْرِفِينَ﴾ دونَ غَيْرِها مِنَ المفْرَداتِ ثَلاثَةَ أَوْجُهٍ[2]:

أَوَّلها: أنَّ الكافِرَ مَوْصوفٌ بِلَفْظِ الإِسْرافِ؛ لِكَوْنِهِ مُفرّطًا في نَفْسِهِ بِجَعلِها عَبدًا لِلوَثنِ، وفي مالِهِ بِتَضْييعِهِ في البَحيرةِ والسّائبةِ ونحوِها.

ثانيها: أنَّ مَنْ كانَتْ عادَتُهُ عِندَ نُزولِ البَلاءِ أنْ يَكونَ مُتَضَرِّعًا داعيًا، ثمَّ يُعرِضُ عنْ ذكرِ اللّه عندَ زَوالِ البَلاءِ ونُزولِ الآلاءِ وحُلولِ الرَّخاءِ فلا يَشْكرُهُ؛ إنَّما هوَ المُسْرِفُ في شَأْنِ دينِهِ، فكما يكونُ السَّرَفُ في الإنْفاقِ يَكونُ مُسْرِفًا فيما يتْرُكُ منْ واجِبٍ أوْ يُباشِرُ منْ قَبيحٍ.

ثالِثها: أنَّ المسْرِفَ في أصْلِهِ هوَ الّذي يُنفِقُ المالَ الكثيرَ لِأَجْلِ العَرَضِ الدُّنْيويِّ الزّائِفِ، ومَعْلومٌ أنَّ لَذّاتِ الدُّنيا رَخيصَةٌ في مُقابِلِ سَعاداتِ الآخِرَةِ الّتي يَكْتَسِبُها بالعَقْلِ والقَلبِ والفَهمِ، فمنْ بَذلَ هذهِ الآلاتِ الشَّريفةَ لأَجْلِ الفَوزِ بالسّعاداتِ الخَسيسَةِ؛ أنْفَقَ كذلك الشّيءَ النَّفيسَ مقابِلَ الحُصولِ على الشّيءِ الخَسيسِ.

وحاصِلُ ذلِك: أنَّ التَّعبيرَ بالإسْرافِ فيهِ بَيانُ أنَّ الإنْسانَ لَم يَكنْ جاحِدًا فَحَسبُ، بَلْ كانَ مُسْرِفًا في جُحودِهِ ونُكْرانِهِ وفِسْقِهِ ومَعْصيَتِهِ.

فائدَةُ مَجيءِ نائِبِ الفاعِلِ اسْمًا مَوْصولًا ﴿مَا﴾:

الإشْعارُ بِعِلَّةِ وَصْفِهِم بالمُسْرِفينَ وتَحْقيقُ عُنْصُرِ التَّشْويقِ

مَجيءُ نائِبِ الفاعِلِ اسْمًا مَوصولًا ﴿كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾، دونَ أنْ يَرِدَ النَّظْمُ القرآنيُّ: (كذلِكَ زُيِّن لِلمسرفين أعمالُهم)؛ لِأمرَيْنِ:

أَحَدهما: الإشْعارُ بِعِلّةِ بِناءِ الخَبرِ على الصّلَةِ، والمعْنى: أنَّ عَمَلَهمُ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/112.

(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 17/222.

السَّيِّئَ القَبيحَ علَّةٌ، وسَببٌ لِوَصْفِهم بالمسْرِفين ومِن ثمّ اسْتِحْقاقِهِمُ العَذابَ المُهينَ.

الآخَر: إحْداثُ عُنصرِ التّشْويقِ في التّعريفِ بِهؤلاءِ المسْرِفينَ، فهوَ - أي: التَّشْويقُ - يكونُ على مَرْحَلَتين؛ الإبهامِ ثمَّ التَّعيينِ والبَيانِ، فَلَمّا ذُكِرَ الاسْمُ الموْصولُ ﴿مَا﴾ وهوَ ممّا لا يُفهمُ منهُ شيءٌ؛ كان هذا إبْهامًا، ثمَّ عُرِّفَ بجملَةِ الصّلةِ، وهذا هوَ البَيانُ، وفي هذا الأسْلوبِ تَشْويقٌ لِجُملةِ الصّلةِ الدّالّةِ على ما كانَ مِنْهم مِنْ عَملٍ تَجاوَزوا فيهِ الحُدودَ، فَصاروا بِهِ في زُمرةِ المسْرِفينَ الضّالّينَ.

دلالَةُ فِعْلِ الكَوْنِ ﴿كَانُواْ﴾:

دَيْدَنُ الجاحِدينَ مُقابَلَةُ كَرَمِ الله ونِعَمِهِ بِالنُّكْرانِ والبُهْتانِ

في قولِ اللّه تعالى: ﴿مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ اسْتُعْمِلَ الفعلُ النّاقصُ ﴿كَانُواْ﴾ للدّلالَةِ على ما اعْتادوا عَلَيهِ مِنَ الأعْمالِ الّتي تَجاوَزوا فيها الحُدودَ، فجَعَلَتْهُم مِنَ المسْرِفينَ، وفيهِ بَيانُ أنَّ هذا ديْدَنُهم مَع نِعَمِ اللّه تعالى، وهذا ما يُلاقونَ بِهِ كَرَمَهُ سُبحانه.

نُكْتَةُ التَّعْبيرِ بِمُفْرَدَةِ العَمَلِ فِعْلًا مُضارِعًا:

الاسْتِمرارُ في المَعاصي والكُفْرِ سَبَبُ البَقاءِ فيها

جاءَ التّعبيرُ بِصيغَةِ المضارعِ ﴿يَعْمَلُونَ﴾ في قولِ اللّه تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾؛ لإفادةِ تَجَدُّدِ مَعاصي القَومِ، واسْتِمرارِهم في كُفْرِهم مَع ظُهورِ الفَسادِ ووُضوحِ الضَّرَرِ[1].

غَرَضُ حَذْفِ مَفْعولِ ﴿يَعْمَلُونَ﴾:

الحَمْلُ عَلى العُمومِ تَرْهيبٌ نافِعٌ وتَحْذيرٌ مانِعٌ

حُذِفَ مفعولُ ﴿يَعْمَلُونَ﴾ مِنْ قولِ اللّه تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾؛ لِحَملِهِ على عُمومِ الأعْمالِ الّتي كانوا يَقْتَرِفونها، وعَدَمِ قَصْرِهِ على عَملٍ واحِدٍ؛ قَصْدًا إلى إحْداثِ التَّرْهيبِ النّافِعِ والتّحْذيرِ الرّادِعِ، لا سيَّما وقدِ اقْتَرَنَ بِهِ (ما) الدّالَّةُ على الإبْهامِ والعُمومِ، فيدْخُلُ فيهِ أصْنافٌ كَثيرَةٌ مِنَ الأعْمالِ الفاسِدَةِ القَبيحَةِ.

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/85.

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

المَسّ واللّمس:

المسُّ هوَ اتّصالُ الأجْسام بَعْضِها ببَعْضٍ، وقدْ يكونُ مجازًا بِمَعنى الإصابَةِ بِالعَذابِ، أوْ مَسِّ الشَّيْطانِ[1]، وبَيْنَهُ وبَيْنَ اللَّمسِ فارِقٌ، وهوَ: "أنَّ المسَّ يكونُ مِنَ الحِجارَةِ، وما بِسَبيلِ ذلكَ، تَقولُ: مَسَّ الحَجَرُ الحَجَرَ، واللَّمسُ لا يَكونُ إلّا لِطَلَبِ مَعْرِفَةِ اللّينِ أوِ الخُشونَةِ، والحَرارَةِ أو البُرودَةِ؛ فهوَ مُسْتَعملٌ في الإنْسانِ"[2] فالمُرادُ مِنَ اللَّمسِ: الطَّلَبُ؛ لِذلِكَ يُقالُ: أَلْمِسُهُ فَلا أَجِدُ أثَرَهُ[3]، أمّا المسُّ فهوَ المُباشَرَةُ ابْتِداءً، فالتّعْبيرُ بالمسِّ في الآيَةِ الكريمَةِ أَبْلَغُ وأَوْقَعُ وأَلْيَقُ بِالمَعْنى المرادِ؛ وهوَ إيقاعُ العَذابِ، فإنّهُ لا يَكونُ على نِيَّةِ الطّلَبِ مِنهُ تَعالى، بَلْ على نِيّةِ الوقوعِ إنْ أَرادَ اللّه سبحانهُ ذلِكَ.

المَسُّ اتِّصالُ جِسْمٍ بِآخَرَ، واللَّمسُ قد يُطْلَقُ على طَلَبِ الشَّيْءِ وإنْ لَم يوجَدْ

القُعود والجُلوس:

ذهَبَ جَماعَةٌ مِن عُلماءِ العَربيَّة إلى أنَّ القُعودَ والجلوسَ بمعنًى واحِدٍ[4]، ومالَ آخَرونَ إلى التَّفْريقِ بينَهُما؛ فمِن أَشْهَرِ الفروقِ المذْكورَةِ: أنَّ الجلوسَ يكونُ مِن اضْطِجاعٍ، والقُعودَ يكونُ مِن قيامٍ[5]، ولِذا وَرَدَ في حَديثِ أبي بَكْرَةَ رضي الله عنه أنَّه قال عَنِ النَّبيِّ ﷺ: «وَكانَ مُتَّكِئًا فَجَلَسَ، فَقالَ: "أَلا وَقَوْلُ الزّورِ ..."»[6]، ويُقالُ: قامَ فقعدَ.

القُعودُ يكون فيما فيه لُبْثٌ وإقامَةٌ، بخلاف الجلوس فيُستعمل لما قلَّ زَمَنُهُ

وهذا التَّفْريقُ عَلى شُهرتِهِ فيهِ نَظَرٌ بَيِّنٌ[7]؛ فإنَّ النَّبيّ ﷺ قالَ: «إذا دَخَلَ أَحَدُكُمُ المَسْجِدَ؛ فَلا يَجْلِسْ حَتَّى يَرْكَعَ رَكْعَتَيْنِ»[8]، وفي

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/316.
(2) العسكريّ، الوجوه والنّظائر، ص: 297.
(3) العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 468.
(4) ابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم: (جلس).
(5) ابن فارس، الصّاحبي في فقه اللُّغة، ص: 60، والفيّوميّ، المصباح المنير: (جلس)، والفيروزباديّ، القاموس المحيط: (قعد).
(6) رواه البخاريّ، الجامع الصحيح، الحديث رقم: (5976).
(7) عبد الفتّاح لاشين، صفاء الكلمة، ص: 72 - 73.
(8) رواه مسلم في صحيحه، الحديث رقم: (714).

حَديثِ جِبْريلَ المشْهورِ عَن عُمرَ بنِ الخطّابِ ﵁ أنَّهُ قالَ: «بَيْنَما نَحْنُ عِنْدَ رَسولِ اللّه ﷺ ذاتَ يَوْم؛ إذْ طَلَعَ عَلَيْنا رَجُلٌ شَديدُ بَياضِ الثِّيابِ، شَديدُ سَوادِ الشَّعَرِ، لا يُرَى عَلَيْهِ أَثَرُ السَّفَرِ، وَلا يَعْرِفُهُ مِنّا أَحَدٌ، حَتَّى جَلَسَ...»[1]؛ فإنَّ الجلوسَ هَهُنا ليسَ عَنِ اضْطِجاعٍ قَطعًا، ووَرَدَ في حديثِ القَبْرِ قولُ النَّبيِّ ﷺ: «يَأْتِيهِ مَلَكانِ فَيُقْعِدانِهِ»[2]، وهذا لَيْسَ عنْ قيامٍ جَزْمًا.

وثَمَّةَ أقوالٌ أُخْرَى لا حاجَةَ إلى سَرْدِها في وجْهِ التَّفْرِقَةِ بَيْنَ الكَلِمَتَيْنِ، أَظْهَرُها: أنَّ القُعودَ يكونُ لِما فيهِ لُبْثٌ وإقامةٌ ما، بِخِلافِ الجُلوسِ؛ فيَقِلُّ زَمَنُهُ بالنِّسْبَةِ لِلْقُعودِ، ومِنْهُ قيلَ: قَواعِدُ البَيتِ، ولا يقالُ: جَوالِسُهُ[3]، وسُمِّيتِ الجنَّةُ: مَقْعَد صِدقٍ، دونَ مَجْلِس صدْقٍ؛ لأنَّ أَهْلَها خالِدونَ فيها[4].

أمّا الْجُلوسُ؛ فتَصْريفاتُهُ دالَّةٌ على عَدَمِ اللُّبْثِ طَويلًا، ومِنْهُ قولُ اللّه تَعالى: ﴿إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُواْ فِي ٱلْمَجَٰلِسِ فَٱفْسَحُواْ يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ [المجادلة: 11].

(1) رواه مسلم في صحيحه، الحديث رقم: (8).
(2) رواه مسلم في صحيحه، الحديث رقم: (2870).
(3) الزَّبيديّ، تاج العروس: (قعد). ومحمد خضر ياس الدّوريّ، دقائق الفروق اللّغويّة في البيان القرآنيّ، ص: 136 - 137.
(4) الشّايع، الفروق اللُّغويّة وأثرها في تفسير القرآن، ص: 288 - 289.

﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾﴾ [يونس: 13]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

إمهالُ اللهِ لِعِبادِهِ لَيْسَ إهْمالًا، بَلْ تَدَرُّجٌ لِهِدايَتِهِم، لِيَعْتَبِروا مِنْ حالِ الأُمَمِ السّابِقَةِ

لَمّا كانَ مَحطُّ نَظرِ المشركينَ الدُّنيا والإعْراضَ عَنِ الآخِرَةِ، وكانَ ما سَبَقَ صَريحًا في أنّهُ تَعالى قدْ أمهَلَ الظّالِمينَ، وأَحْسَنَ إلى المجْرمينَ؛ أَتْبَعهُ بِهذِهِ الآيَةِ على سَبيلِ التَّهْديدِ الرّادِعِ والتَّخْويفِ المانِعِ عمّا هُم عَليهِ مِنْ عِصْيانِهِ تَعالى بالتَّزْيينِ الخادِعِ[1]، وأنّهُ قدْ يُهْلِكُهُم ويَسْتَأصِلُهُم، وآيَةُ ذلكَ وقوعُهُ مِرارًا على الأمَمِ السّابقةِ مِنَ اليَهودِ والنَّصارى ممّا وصَلَ إلى سمعِهِم، فالمناسَبَةُ انْتِقالٌ مِنْ بَيانِ إمهالِ اللهِ تَعالى لِعِبادِهِ، وأنَّهُ لَيْسَ عَلى سَبيلِ الإهْمالِ، بَل على سَبيلِ التَّدَرُّجِ وإرْخاءِ أسْبابِ الهِدايَةِ إطْماعًا في الإقْبالِ، وتَرْهيبًا مِنَ الإغْفالِ؛ لِيَعْتَبِروا مِن حالِ الأمَمِ المتَقَدِّمَةِ، وأنَّ الجَزاءَ في الدُّنيا قَد يَقَع في أيِّ وقْتٍ وحينٍ.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَهْلَكْنَا﴾: فِعلٌ ماضٍ مُسْنَدٌ لِنونِ العَظَمةِ، والجذْرُ اللُّغويّ مِنهُ: الهاءُ واللّامُ والكافُ، وهذا الجذْرُ تَدورُ اشْتِقاقاتُهُ على السُّقوطِ والانْكِسارِ، ومِنْهُ الهَلاكُ؛ وهوَ قَرينُ المَوتِ والفَناءِ والأذى، وهوَ إلى المَوْتِ أقْرَبُ، فكُلُّ ما كانَتْ عاقِبَتُهُ كَذلكَ فهوَ الهَلاكُ، وذَكَرَ الرّاغِبُ: أنَّ للهلاكِ أَرْبَعةَ أَوْجُهٍ؛ الأوَّلُ: الفَقْدُ عِنْدكَ لِلمَوجودِ عِنْدَ غَيرِكَ، والثّاني: هَلاكُ الشّيءِ بالاسْتِحالةِ والفَسادِ، والثّالِثُ: المَوْتُ،

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/85.

والرّابعُ: انْعِدامُ الشّيءِ مِنْ أصْلِهِ؛ وهوَ الفَناءُ، وهيَ مَعانٍ مُتقاربَةٌ عِندَ التَّحْقيقِ، وعُمومُ مَعْناهُ: هوَ فَراغُ الشّيْءِ مِنْ جَوْهَرِهِ وحَقيقَتِهِ، وأَكْثَرُ مَواضِعِ الهَلاكِ في القُرآنِ الكَريمِ تَرِدُ بِمَعنى الإِفْناءِ[1]، ومِنْهُ ما جاءَ في الآيَةِ فَإِنَّ ﴿أَهْلَكْنَا﴾ بِمَعْنى: اسْتَأصَلنا وأَفْنَيْنا[2].

2) ﴿ٱلْقُرُونَ﴾: جَمعٌ مُكسّرٌ، مُفْرَدُهُ قَرْنٌ، وجذْرُهُ اللُّغويّ: القافُ والرّاءُ والنّون، وأصْلُ هذهِ المادَّةِ يَدلُّ على الجَمعِ والنُّتوءِ، ويَجوزُ حَملُهُ على اجْتِماعِ النّاسِ واقْترانِهِم في زَمَنٍ واحِدٍ؛ فَهوَ الأُمَّةُ الّتي تَلي الأُخْرى، والجيلُ الّذي يَلي الجيلَ، والقَرْنُ: المُدَّةُ مِنَ الزَّمَنِ، وهوَ الأُمَّةُ كذلِكَ، والقَرْنُ مِنَ النّاسِ: أَهْلُ الزَّمانِ الواحِدِ، واخْتلفَ في مُدَّتِهِ بَيْنَ عَشْرِ سِنينَ إلى مِئةٍ[3]، ومَعْنى ﴿ٱلْقُرُونَ﴾ في الآيَةِ: الأُمَمُ الماضِيَةُ[4].

المَعْنى الإِجْماليُّ:

سُنَّةُ اللهِ الإِهْلاكُ بَعْدَ الإِمْهالِ، والجَزاءُ بَعْدَ تَمامِ البَيانِ

تُبَيِّن الآيَةُ حالَ الأُمَمِ المكَذِّبَةِ بَعد نزولِ العَذابِ عَلَيها، خِطابًا لِلمُعاصِرينَ لِنُزولِ القُرآنِ؛ لِيَعْتَبِروا ويَتَّعِظوا، فمِثْلَما أَفْنى اللهُ هذهِ الأُممَ الّتي خَلَت مِنْ قَبْلِكم بِشِرْكِهِم وكُفرِهِم وتَجَرُّئِهِم على الرّسلِ وتَطاوِلِهِم في المَعاصي حينَما جاءَتْهُم الرُّسلُ بالمُعْجزاتِ الواضِحاتِ والدَّلائلِ الكاشِفاتِ، فَلَم يؤْمنوا؛ كذلِكَ يَجْزي - أيْ: مِثْل ذلِكَ الجَزاءِ؛ وهوَ الإِهْلاكُ - كُلَّ مُجْرِمٍ عاتٍ لا يؤْمِنُ بِيَومِ الحِسابِ، فالآيَةُ جَمَعَتْ بَيْنَ وَعيدِ الكُفّارِ وضَرْبِ الأَمثالِ لَهُم.

(1) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (هلك).

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/113.

(3) الخليل، العين، والجوهريّ، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (قرن).

(4) الثّعلبيّ، الكشف والبيان: 14/178.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالَةُ الواوِ في صَدْرِ الآيَةِ:

الإنْذارُ بِالعَذابِ قَبْلَ نُزولِهِ رَحْمَةٌ والإبانَةُ قَبْلَ الإنْذارِ عَدالَةٌ

الواوُ في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَهۡلَكۡنَا ٱلۡقُرُونَ﴾ عَطَفَت هذه الجُملةَ عَلى جُملةِ ﴿*وَلَوۡ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ﴾، وقَد تَضَمَّنتْ إنْذارًا بِنُزولِ الشّرِّ بِهِم، ولَكنَّ اللّه حَليمٌ لا يُعاجِلُ بِالعَذابِ، وقَد ضَربَ لَهمُ المثَلَ بما حَلَّ بالأُمَمِ الّتي قَبْلَهُم مِنَ العَذابِ[1]، بما جاءَهم مِنَ البيّناتِ والأدِلَّةِ، وبما جاءَهُم مِنَ الإنْذارِ والوَعيدِ؛ لِتَتَحَقَّقَ المَوْعِظةُ فيهِم.

غَرَضُ التّأْكيدِ: ﴿وَلَقَدۡ﴾:

تَوْكيدُ الوَعيدِ بِغَرَضِ التَّخْويفِ رَحْمَةٌ بالنّاسِ ورَأْفَةٌ بِالعِبادِ

قولُ اللّه تَعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَهۡلَكۡنَا ٱلۡقُرُونَ﴾ يَشْتَمِلُ على لامِ القَسَمِ المحْذوفِ، و(قدْ) تُفيدُ التَّحقيقَ[2]، وكِلاهُما دالٌّ عَلى التَّوكيدِ؛ فَتَكونُ هذِهِ الأَلْفاظُ مؤَكِّدةً لِما اشْتَملتْ عَلَيهِ الآيَةُ مِنَ التَّهْديدِ والوَعيدِ[3]، وفي ذلِكَ تَخْويفٌ بَليغٌ وتَحْذيرٌ شَديدٌ بِأَنْ يُصيبَهُم الإهْلاكُ مِثْلَما أَصابَ مَن كانَ قَبْلَهُم[4].

وأوردَ التّوكيدُ بالقَسَمِ و(قدْ) المحَقِّقةِ؛ لِكَوْنِهم كانوا يُنْكِرونَ أنّ ما يُصيبُهُم مِن هَلاكٍ وفَناءٍ ومَوْتٍ إنّما سَبَبُهُ ظُلْمُهم وكُفْرُهُم[5].

بَلاغَةُ اسْتِعْمالِ فِعْلِ: ﴿أَهۡلَكۡنَا﴾:

الإهْلاكُ يَعْني الاسْتِئْصالَ التّامَّ لِلقُرونِ السّابِقَةِ، فَلَم تَبْقَ لَهُم آثارٌ ظاهِرَةٌ ولا بَقايا دالَّةٌ

اسْتُعْمِلَ فِعْلُ الإهْلاكِ الدّالُّ على الاسْتِئْصالِ والإفْناءِ[6] مَعَ لَفظِ القُرونِ في قولِ اللّه تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَهۡلَكۡنَا ٱلۡقُرُونَ﴾، فَلَم يَرِدِ النَّظْمُ القُرآنيُّ: (أخذنا القرونَ)، أو (دمّرْنا القرونَ)؛ وذلكَ لِبيانِ شُمولِ الإهْلاكِ لِلقَرْنِ بِاعْتِبارِهِ الزَّمانيِّ وما يَلْحَقُهُ مِن آثارٍ فيمَنْ بَعْدَهُ،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/113.
(2) الدّعّاس، إعراب القرآن: 2/18.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/113.
(4) مكيّ القيسيّ، الهداية: 5/3232.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/85.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/113.

وذلكَ في غايَةِ التَّهديدِ والوَعيدِ؛ لِأَنَّهُ يَدلُّ على الاسْتِئْصالِ التّامِّ، واسْتِعْمالُهُ بِمَعْنى المَوْتِ في القُرْآنِ الكَريمِ في أَكْثَرِ مَواضِعِهِ مِن بابِ الذَّمِّ[1] والتَّقْبيحِ على الأُمَمِ الّتي جَرى إِهْلاكُها، فَلَم يَبْقَ لِتِلْكَ الأُمَمِ آثارٌ تَدلُّ عَلَيهِم، ولا عَلى ثَقافَتِهِم وفِكْرِهِم ومَعارِفِهِم وتَطَوُّرِهِم؛ لأَنَّ ذلِكَ كُلَّهُ لا قيمَةَ لَهُ؛ إِذْ كانَ على الكُفْرِ والتَّكْذيبِ والجُحودِ، فَأَهْلَكَهُمُ اللّهُ عِقابًا اسْتِئْصاليًّا، وهذا حالُ كُلِّ أُمَّةٍ تُكَذِّبُ بِالحَقِّ وتُعاديهِ.

فائدَةُ الإِسْنادِ في: ﴿أَهْلَكْنَا﴾:

أُسْنِدَ فِعْلُ الإِهْلاكِ لِضَميرِ العَظَمَةِ في قولِهِ: ﴿أَهْلَكْنَا﴾؛ لإِظْهارِ كَمالِ عَظَمَةِ اللّهِ وجَبَروتِهِ تعالى، تَناسُبًا مَعَ ما لِهذِهِ القُرونِ والأُمَمِ مِنَ الشِّدَّةِ والقوَّةِ[2]، فإِنَّ المُهلِكَ هوَ اللّهُ سُبحانَهُ، وهوَ الّذي تَوَلَّى ذلِكَ، وهوَ الّذي عرَّفَ النّاسَ بأَنَّهُ هوَ الّذي أَهْلَكَهم، ولِذلِكَ لَم يَرِدِ النَّظْمُ القُرآنيُّ: (فَأُهْلِكوا)، أو (فأَهْلَكَهُمُ اللّه) عَلى سَبيلِ الغَيْبَةِ، بلْ جاءَ بِأُسلوبِ التَّكَلُّمِ؛ للنَّصِّ على أنَّ الإهلاكَ هو مُقْتَضى الأمرِ الرَّبّاني القائمِ على العَدالةِ والرَّحْمةِ؛ ولَو تَرَكَهم لَعَمَّ الفَسادُ، وانْتَشَرَ الكُفْرُ.

الإِهْلاكُ هوَ مُقْتَضى الأَمرِ الرَّبّانيِّ القائمِ عَلى العَدالَةِ والرَّحْمَةِ

دلالَةُ التَّعْريفِ والجَمعِ في: ﴿ٱلْقُرُونَ﴾:

عُرِّفَتِ القُرونُ وجُمِعَتْ في قولِهِ تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ﴾؛ لِدَفْعِ تَوهُّمِ أَنَّهُ سبحانهُ لا يَعمّ بالإِهْلاكِ والإِفْناءِ والعَذابِ، فجاءَ التَّعريفُ لِيَشْمَلَ القُرونَ الّتي ظَلَمَتْ وكَفَرَت كُلَّها، وجاءَ الجَمعُ لِبيانِ أَنواعِ القُرونِ: الغَنيَّةِ، والقَويّةِ، والفَقيرَةِ، والّتي كانَ سَبَبُ كُفْرِها ماليًّا، أَوْ أَخْلاقيًّا، أَوْ فِكْريًّا، أَوْ كِبْرًا وتجبُّرًا.

التَّعْريفُ وارِدٌ لِيَشْمَلَ القُرونَ الظّالِمَةَ كُلَّها، والجَمعُ لِلدّلالَةِ عَلى أَنْواعِها المُخْتَلِفَةِ

نُكْتَةُ اسْتِعْمالِ لَفْظِ ﴿ٱلْقُرُونَ﴾:

استُعملَ لَفظُ القُرونِ دونَ مُفْرَدةِ الأُمَمِ أَوِ القُرى، في قَوْلِ اللّه

(1) الرّاغب، المفردات: (هلك).
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/85.

مَهما تَطاوَلَتِ القُرونُ بِالقوَّةِ والزَّمَنِ والمكْنَةِ؛ فإنَّ أمرَ اللهِ تَعالى غالِبٌ عَلَيها

تَعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ﴾؛ لِأنَّ الأَصْلَ في القَرنِ الزَّمَنُ المُمتَدُّ الطَّويلُ، وشاعَ إِطْلاقُهُ عَلى الأُمَمِ الّتي دامَتْ وعُمِّرَتْ في الأَرْضِ أَزْمانًا مُتَطاوِلةً[1]، ولا تُعَمَّرُ الأُمَمُ إلّا بِقوَّتِها وسَيْطَرَتِها، ولَمّا كانَ سياقُ الجُملَةِ في إِظْهارِ قوتِهِ وعَظَمَتِهِ وجَبَروتِهِ تَعالى؛ كان لفظُ القُرونِ أَنْسَبَ لِيُعلمَ أنَّ هذهِ القُرونَ عَلى ما كانَ لَها مِن القوَّةِ والمَنَعَةِ؛ فإنّا مُهْلِكوها ومُزيِلوها بِسُنَنِنا الكَوْنيّةِ وشَرائِعِنا الرَّبّانيَّةِ.

بَلاغَةُ المَجازِ بِالحَذْفِ في: ﴿ٱلْقُرُونَ﴾:

إهْلاكُ القُرونِ إذا جاءَ؛ فإنَّهُ لا يُبْقي ولا يَذَرُ مِنْ بَشَرٍ أَوْ شَجَرٍ أَوْ حَجَرٍ

في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ﴾ مَجازٌ بِالحَذْفِ، فالقُرونُ: جَمعُ قَرنٍ؛ وهوَ الزّمنُ الطَّويلُ، والمرادُ هُنا: أَهْلَكْنا أَهْلَ القُرونِ[2]، ووَرَدَ الحَذْفُ لِيُدْخلَ جَميعَ مُتَعلّقاتِ تِلكَ القُرونِ ممّا لَحِقهُ الإهْلاكُ ممّا يُؤْذِنُ بالمبالَغَةِ؛ فإهْلاكُهُ تعالى إذا جاءَ فإنّهُ لا يُبْقي ولا يَذَرُ مِنْ بشرٍ أوْ شجَرٍ أوْ حَجرٍ.

دلالَةُ حَرْفِ الجرِّ ﴿مِن﴾:

ذِكْرُ المَبْدَأِ إشارَةٌ إلى المُنْتَهى، وإهْلاكُ الأَوّلينَ تَلْويحٌ لِلمُتَأَخِّرينَ

حَرفُ الجرِّ ﴿مِن﴾ في قوله: ﴿مِن قَبْلِكُمْ﴾ دالٌّ على الابْتِداءِ، أيْ: ابْتَدَأَ الإهْلاكُ مِنَ الزَّمَنِ الّذي هوَ قَبلَ زَمَنِ الخِطابِ، فكلُّ ما يَدْخلُ في دلالَةِ الظَّرْفِ ﴿قَبْلِكُمْ﴾؛ فإنَّ الإهْلاكَ واقِعٌ عَليهِ، لأنّ مَنْ تَقَدَّمهُم مِنَ الأُمَمِ أُهلِكوا بِذلكَ العَذابِ المسْتَأصِلِ وشَمِلَ آخِرَهُم وأوَّلَهُم، كأنَّهُم نَسَمَةٌ واحِدةٌ[3]، وما دامَ الإهْلاكُ مُبْتَدئًا مِن الأُمَمِ قَبْلَهم فهوَ مُنْتَهٍ إلى المخاطَبينَ، وفي ذِكْرِ المَبْدَأِ إشارَةٌ إلى المُنْتَهى، فَفيهِ مَزيدُ إنْذارٍ ووَعيدٍ.

ولَمّا أُكِّدَتِ الجملةُ بالقَسَمِ و(قدْ) في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ﴾؛ أُدْخِلَتْ ﴿مِن﴾ في قوله: ﴿مِن قَبْلِكُمْ﴾ تَوكيدًا لِذَيْنِكَ المؤكِّدَينِ.

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/137.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/113.

(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/85.

سِرُّ الإضافَةِ إلى ضمير المخاطبين: ﴿قَبْلِكُمْ﴾:

قولُ اللّه تَعالى: ﴿مِن قَبْلِكُمْ﴾ أُضيفَ الظّرْفُ (قَبْل) إلى ضَميرِ المخاطَبينَ؛ تَلويحًا بِعَصا التّأديبِ والتَّخويفِ، والمعنى: إنّكم لَستُم بَعيدينَ عَنهم، فَهُم قبلَكُم وأنتم إِثْرَهُم، فيَقَع عَلَيكم ما وَقَعَ عَلَيهم مِنَ الإهْلاكِ والإفْناءِ.

هَمزُ الأَذْهانِ بِعَصا التَّهْديدِ تَحريكٌ لِلأَبْدانِ بِصَوْتِ الوَعيدِ

بَلاغَةُ الالْتِفاتِ: ﴿مِن قَبْلِكُمْ﴾:

في قولِ اللّه تعالى: ﴿مِن قَبْلِكُمْ﴾ الْتِفاتٌ بالخِطابِ، فقدْ وجّهَ اللّه سُبحانهُ خِطابَهُ المباشِرَ إلَيهم لقَصْدِ المبالَغَةِ في التَّشْديدِ والتّهديدِ والوَعيدِ، لا سيَّما بعدَ تَوْكيدِهِ بالقَسَمِ و(قدْ)؛ فإنَّ الإنْذارَ والتَّخْويفَ بالمُشافَهَةِ أَوْقَعُ أَثرًا وأَبْلَغُ خَبرًا مِنْ غَيرِهِ مِنَ الأَساليبِ[1]، وفيهِ مِن مُباغَتَةِ المخاطَبينَ بِمَضْمونِ الخِطابِ ما تَنْخَلِع معَهُ القُلوبُ، وتَنْفَطِرُ لَهُ الأَفْئِدَةُ.

المُباغَتَةُ في الخِطابِ تَنْخَلِعُ مَعَها القُلوبُ، وتَنْفَطِرُ لَها الأَفْئِدَةُ

بَراعَةُ الإيجازِ في اسْتِعْمالِ ﴿لَمَّا﴾:

في اسْتِعْمالِ ﴿لَمَّا﴾ في قوله: ﴿لَمَّا ظَلَمُواْ﴾ إيجازٌ بَديعٌ؛ فَهيَ اسْمُ زَمانٍ دالٌّ على الحينِ، وقدْ أُشربتْ مَعنى الشَّرطِ، ويَكونُ شَرْطُها ماضيًا غالبًا[2]، والمعْنى: أنَّ إِهْلاكَهُمُ اقْتَرنَ بِوَقْتِ ظُلْمِهم، أيْ: حينَما ظَلموا بِإشْراكِهِم[3]، فالظُّلمُ شَرطُ الإهْلاكِ ووَقْتُه، وهذا مِنْ إيجازِ التَّعْبيرِ بِأَداةٍ واحِدةٍ عَنْ مَعْنَيَينِ في سياقٍ واحِدٍ.

ويَجوزُ في ﴿لَمَّا﴾ أَنْ تَكونَ مُشْعِرَةً بِالعِلِّيَّةِ والسَّبَبِ، ويَكونُ جَوابُها أَوْ ما يَقومُ مَقامَهُ مُتَسَبِّبًا عمّا بَعدَها[4] فإنّ ظُلْمَهُم وكُفْرَهُم سَبَبٌ لإِهْلاكِ اللّه إيّاهُم.

(لَمّا) دالَّةٌ عَلى مَعْنَيَينِ؛ فإهْلاكُهُمُ اقْتَرَنَ بِوَقْتِ ظُلْمِهِم، ومَعْنى العِلَّةِ حاضِرٌ فيها

(1) الطّباطبائيّ، الميزان: 11/24، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/127.
(2) ابن هشام، أوضح المسالك: 3/106.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/113.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/21 - 22.

فائدَةُ التَّعْبيرِ بالظُّلْمِ: ﴿ظَلَمُواْ﴾:

أَعْظَمُ أَنْواعِ الظُّلْمِ الاعْتِداءُ عَلى حَقِّ اللهِ تَعالى في تَوْحيدِهِ

اسْتُعملَ الظّلمُ تَعْبيرًا عَنِ الشِّركِ في قولِه: ﴿لَمَّا ظَلَمُواْ﴾، لأنّ الظّلمَ لَيسَ مُنْحصرًا في تَكذيبِ الرّسلِ المرسلينَ مِنَ اللّه تعالى، بَل هو مَحمولٌ على سائرِ الظّلمِ والتّكذيبِ[1]، ولأنَّ الشّركَ ظلمٌ عظيمٌ، وأعْلى دَرجاتِ الظُّلمِ وأوْسَعُها الاعْتِداءُ عَلى حقِّ اللّه تعالى في تَوْحيدِ الألوهيَّةِ، وأنْ ينقلَ ذلكَ لِغَيرِه؛ فذلِكَ هوَ مُنْتَهى الظُّلمِ[2]؛ لِذلكَ قالَ سُبْحانَهُ: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: 13]، فالشِّركُ مُصيبَةٌ عَظيمَةٌ، وتَعْظُمُ حينَ اقْترانِها بِالظُّلْمِ، وتَزْدادُ جُرمًا عِنْدما يَكونُ الشِّركُ سَببًا في الظُّلمِ، فجاءَ التَّعبيرُ بالظُّلمِ لِبيانِ خُطورَتِهِ حينَ يَقْترنُ بالشِّرْك؛ إذْ يَكونُ صاحِبُهُ جامِعًا بينَ أصْنافٍ مُتَباينَةٍ مِنْهُ.

دلالَةُ الواوِ في: ﴿وَجَآءَتْهُمْ﴾:

أَعْظَمُ أَنْواعِ التَّكْذيبِ، التَّكْذيبُ بِالحَقِّ بَعْدَ تَبَيُّنِ أَدِلَّتِهِ وبَراهينِهِ

الواوُ في قوله تَعالى: ﴿وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ يَجوزُ أنْ تُفيدَ العَطْفَ عَلى جُملَةِ ﴿لَمَّا ظَلَمُواْ﴾[3]، والأَظْهرُ أنْ تَكونَ حاليّةً، "أيْ: ظَلَموا بالتَّكْذيبِ وقَد جاءَتْهُم رُسُلُهم بِالحُجَجِ والشَّواهدِ على صِدْقِهم وهيَ المُعْجِزات"[4]، وفي الحاليّةِ دَرْءُ إشْكالِ عَطْفِ السّابِقِ على اللّاحِقِ؛ بأنْ يعْطفَ ظُلْمُهُم على مَجيءِ الرّسُلِ بالبيِّناتِ، وإنْ كانَ التَّرْتيبُ الذِّكريُّ لا يَجِبُ أنْ يكونَ حَسبَ تَرْتيبِ الوقوعِ والحُدوثِ[5].

سِرُّ جَمعِ لَفْظِ الرُّسُلِ، وإضافَتِهِ: ﴿رُسُلُهُم﴾:

رُسُلُ اللهِ تَعالى جاؤوا بِالرِّسالَةِ مِنْ عِنْدِ اللهِ سُبْحانَهُ مِنْ غَيْرِ تَقْصيرٍ مِنْهُم في البَلاغِ

جُمِعتِ (الرُّسُل) وأُضيفَتْ إلى الضَّميرِ العائدِ على القُرونِ في قَولِ اللّه تَعالى: ﴿وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾، والمَقْصودُ بالقُرونِ: أهلُها، وغَرضُ الجَمعِ: بَيانُ أنَّ الرُّسُلَ قد جاءَتِ الأقوامَ بِرِسالَةِ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/127.
(2) الشّعراوي، تفسير الشعراوي: 9/5785.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/113.
(4) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/333.
(5) الآلوسيّ، روح المعاني: 6/77.

اللّه تعالى بميزانِ صدقٍ وعَدلٍ، وأنَّ الرُّسُلَ جاؤوا أَقْوامَهم وأقاموا عَلَيهِمُ الحُجَّةَ، دونَ تَقْصيرٍ أوْ تفاوتٍ فيما بَيْنهم، كما أنَّ غَرضَ الإضافَةِ بيانُ أنَّ لِكلِّ قَرنٍ رَسولَهُ الّذي أُرْسِلَ إليه، وفي ذلك توبيخٌ لأهْلِ القُرون السّابِقَة يُرادُ منْهُ إسْماعُ المعاصِرينَ، لِيَلحَقهُم تَوبيخٌ في تَكْذيبِهم وإنْكارِهم وكُفْرِهم.

دلالَةُ الباءِ في: ﴿بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾:

الباءُ في قوله تعالى: ﴿وَجَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ بِمَعْنى الاسْتِعانَةِ، وهوَ مِن أَشْهَرِ مَعانيها[1]، أيْ: أنّ رُسُلَهُم جاءَتهُم مُسْتَعينةً في أداءِ رِسالَتِها بالبَيِّناتِ[2]، وتَحْتَملُ الباءُ أنْ تَكونَ لِلتَّعْديَةِ، إذا تَعَلَّقت ﴿بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ بقوله: ﴿وَجَآءَتۡهُمۡ﴾[3].

دَعْوَةُ الرُّسُلِ أَقْوامَهُم مَقْرونَةٌ بِالبَيِّناتِ والبَراهينِ

ويَجوزُ أنْ تَكونَ لِلمصاحَبَةِ، أيْ: أنَّ الرُّسُلَ جاؤوا أقوامَهُم مقارِنينَ لِلبيِّناتِ الدّالَّةِ على صِحَّةِ إرْسالِهِم.

دلالَةُ جَمعِ البَيِّنَةِ جَمعَ قِلَّةٍ:

قَولُ اللّه تعالى: ﴿بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ جمعٌ بالألفِ والتّاء، وهو مِنْ جموعِ القِلّةِ[4]، وذلك مُشْعِرٌ بأنَّها بيِّناتٌ واضِحةُ البُرهانِ ناصِعةُ البَيانِ لا تَخْتَلطُ على ذي عَقْلٍ، قَليلُها كافٍ عَنْ كَثيرِها، وبعضُها يُؤَدّي وظيفَةَ الحُجَجِ العديدَةِ، ولَيْسَ المقْصودُ بالقِلَّةِ التَّقْليلَ مِنْ عَدَدِها أوْ شَأنِها، بَل القِلَّةُ هُنا دَليلُ العَظَمة، فإنَّ البيِّناتِ عَظيمةُ الشَّأنِ، كَبيرةُ التَّأْثيرِ، وهذا دَليلُ الكِفايَةِ بالقَليلِ عنِ الكَثيرِ، وكَم مِن كَثيرٍ قَليلٌ، وقَليلٍ كَثيرٌ.

قَليلُ البَيِّناتِ كافٍ عَنْ كَثيرِها، وبَعْضُها يؤَدّي وَظيفَةَ الحُجَجِ المتَعَدِّدَةِ

دلالَةُ اسْتِعْمالِ: ﴿كَانُواْ﴾:

في قولِ اللّه تعالى: ﴿وَمَا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُواْ﴾ التَّعبيرُ بالفعلِ النّاقصِ، وفي

(1) المبرّد، المقتضب: 1/39.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/85.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/127.
(4) فاضل السّامرّائيّ، التّعبير القرآنيّ، ص: 13.

ذلكَ إيماءٌ إلى أنّ نَفيَ الإيمانِ عَنهُم كانَ بِسَببِ ما اعْتادوا مِنَ الأَعْمالِ الّتي أَصْبَحتْ مَنْهجَ حَياةٍ لا يَنْفكّون عَنها، وأنّ اللّه سبحانهُ جازاهُم بأنْ طَبَعَ عَلى قُلوبِهم[1] فأُدْخلوا في زُمرَةِ المجْرمينَ، والتَّعبيرُ بـ ﴿كَانُواْ﴾ فيهِ إيماءٌ إلى اسْتِحالةِ إيمانِهم، وعسارَةِ رُجوعِهم، لِتَمَكُّنِ الظُّلْمِ مِنْهُم.

نَفْيُ الإيمانِ بِسَبَبِ ما داوَموا عَلى اقْترافِهِ مِنَ الأَعْمالِ

دلالَةُ الواوِ في: ﴿وَمَا﴾:

الواوُ في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ﴾ للعَطفِ، فقَد عَطَفَتْ هذهِ الجملَةَ على جُملةِ: ﴿لَمَّا ظَلَمُواْ﴾، أيْ: أنّهم لمّا ظَلَموا وأَصَرّوا على الكُفرِ وجَمعوا إلى ذلكَ أنَّهم لن يؤمِنوا، ولَم يَبْقَ لِلإمهالِ مَنْزعٌ أَهْلَكْناهُم، فَإهْلاكُهُم مُتَسَبّبٌ عَنْ هذَينِ الأَمرَينِ، فإنَّ ظُلْمَهم في إحْداثِ التّكْذيبِ وفي إصْرارِهم، فَلا فائدَةَ مُرْتَجاةٌ مِنْ إمهالِهم[2].

اجْتِماعُ الظُّلْمِ والإصْرارِ عَلى عَدَمِ الإيمانِ عِلَّةُ الاسْتِئْصالِ

دلالَةُ اللّامِ في: ﴿لِيُؤْمِنُواْ﴾:

اللّامُ في قوله تَعالى: ﴿لِيُؤْمِنُواْ﴾ لامُ الجُحودِ، وقَد أَفادَتْ تَوكيدَ النَّفيِ، والمعْنى: أنّهُم لَم يَكونوا مؤْمِنينَ، وأنَّ اللّه سبحانهُ يَعلمُ إصرارَهم عَلى كُفرِهم[3]، وأنّهُ عَلِمَ أَزلًا أنّهم لَنْ يَختاروا الإيمانَ، وفيها دلالَةٌ على انتِفاءِ الإيمانِ مِنْهُم على سَبيلِ المبالغَةِ، وأنَّ إيمانَهم أمرٌ مَيئوسٌ منهُ[4].

التَّأْكيدُ عَلى نَفْيِ إيمانِهم، وكَوْنُ اللّه تَعالى عالِمًا بِإصْرارِهِم عَلى الكُفْرِ

غَرَضُ حَذْفِ مُتَعَلّقِ فِعْلِ الإيمانِ:

حُذِفَ مُتعلّقُ الفعْلِ ﴿لِيُؤْمِنُواْ﴾، وتَقْديرُهُ: وما كانوا لِيؤمِنوا بِأيِّ أَمرٍ ممّا يَجِبُ الإيمانُ بِهِ، ولَوْ أُنْزِلتْ عَلَيهِم كلُّ آيةٍ، وفي هذا الحَذْفِ تَنْبيهٌ وتَحذيرٌ لِمَن يَسألُ اللّه سُبحانهُ أنْ يُريَهُم مُقَدّماتِ العَذابِ أوْ ما اقْتَرَحوهُ، فَبَيَّنَ أنَّ ذلكَ لَنْ يَكونَ سَببًا لإيمانِهم، فهوَ قدْ قَضى بِكُفْرِهم اخْتيارًا لا لُزومًا[5].

عَذابُ الاسْتِئْصالِ لا يَكونُ إلّا لِمَنْ جَفَّ ماءُ رَجاءِ إيمانِهِ

(1) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 8/318.
(2) شيخ زاده، حاشية على البيضاوي: 4/549.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/333.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/114.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/85.

بَلاغَةُ التّشْبيهِ في الآية:

مَضَتْ سُنَّةُ اللهِ بِمُعاقَبَةِ المُجْرِمينَ الظّالِمينَ الّذينَ اسْتَحالَ إيمانُهُم

في قولِ اللّه تَعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ تَشْبيهُ جَزاءِ المجْرمين بالجَزاءِ المذْكورِ قبْلُ مِنْ حِرمانِ الإيمانِ، وفي ذلِك تَحذيرٌ شَديدٌ مِن مواقعَةِ الإجْرامِ؛ لِئلّا يكونَ سببًا في حِرمانِ الإيمانِ بالكُلِّيَّةِ، فكأنَّ الآيةَ تَقول: مِثْلَ ذلك الجزاءِ الّذي تَعرفونَهُ، مِن مُعاقبةِ المجْرمين، سَيُجازى المجْرِمون في كلِّ حين، وفائدَةُ هذا الأسْلوبِ اسْتِحْضارُ مَعْهودِ المخاطَبين مِنَ العِلمِ؛ لِفَهمِ مُرادِ اللّه تَعالى مِن سُنَنِه، فإنَّ سنَّةَ اللّه جَرَت بمعاقَبَة المجرمين الظّالمينَ، ففيهِ تَهديدٌ صَريحٌ لِلمُكَذِّبينَ في عَهْدِ النَّبيِّ ﷺ.

فائدَةُ اسْتِعْمالِ اسْمِ الإشارَةِ لِلبَعيدِ (ذلك):

تَعْظيمُ المُشارِ إلَيهِ تَخْويفًا وتَهْديدًا مِن وقوعِ جَزائِهِ تَعالى

﴿كَذَٰلِكَ﴾ مِن قولِ اللّه تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ مركَّبَةٌ مِنْ كافِ التَّشبيهِ، واسْمِ الإشارَةِ (ذا)، ولامِ البُعد[1]، وأمّا الكافُ فهيَ لِلخِطابِ، وفي التَّعبيرِ بلامِ البُعدِ معَ اسْمِ الإشارَةِ إيماءٌ إلى تَعظيمِ المُشارِ إلَيهِ تَخويفًا وتَهْديدًا مِنْ جزائِهِ تعالى، وهوَ الإهْلاكُ والاسْتِئْصالُ والإفْناءُ التّامُّ.

نُكْتَةُ التَّعْبيرِ بِالفِعْلِ المُضارِعِ ﴿نَجۡزِي﴾:

التَّوْيحُ بِالعِقابِ، وبَيانُ أنَّ بِالإمْكانِ وقوعَ الجَزاءِ في كُلِّ زَمانٍ

التَّعْبيرُ بالفعْلِ المضارِعِ ﴿نَجۡزِي﴾ في قوله تَعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ باعْتِبارِ أنَّ الآيَةَ "وَعيدٌ شَديدٌ لِمَنْ كانَ في عصْرِهِ مِنَ الكفّارِ أوِ لِكُفّارِ مكّةَ على الخُصوصِ"[2]، فالآيَةُ خِطابٌ لِمُعاصِريهِ ممّا يَقْتَضي التَّعْبيرَ بالمضارِعِ الدّالِّ على الاسْتِمرارِ والتَّجَدُّدِ وإمكانِ جَرَيانِ الحُكمِ في الزَّمَنِ الحاضِرِ وفي كلِّ زَمانٍ.

سِرُّ ذِكْرِ المَوْصوفِ: ﴿ٱلۡقَوۡمَ﴾:

إيثارُ ذِكْرِ لَفْظِ ﴿ٱلۡقَوۡمَ﴾ دونَ الاكْتفاءِ بِوَصفِ ﴿ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾،

(1) ابن فرحون، العدّة في إعراب العمدة: 2/202.
(2) الشّوكانيّ، فتح القدير: 2/489.

فَلَم يَرِدِ النَّظْمُ القُرآنيُّ: (وكذلِك نجْزي المجرمين)، لِبَيانِ أنَّ الّذين اسْتَحَقّوا العَذابَ هُم قَومٌ اجْتَمَعوا على الإجْرامِ، لا مُجرَّدُ أفْرادٍ أَجْرَموا، وأنَّ الإجْرامَ الّذي يَسْتَدعي العَذابَ الماحِقَ هوَ إجْرامُ قَومٍ قاموا على حَضارةٍ وثَقافَةٍ وفِكْرٍ وقوَّةٍ، واغْتَرّوا بذلِكَ، كَحالِ كُلِّ حَضارَةٍ خَرَجت عَن مَنْهَجِ اللّه تعالى، واغْتَرَّتْ بِصَنيعِها، وبوجودِها.

العَذابُ الماحِقُ بِسَبَبِ قَومٍ اجْتَمَعوا عَلى الإجْرامِ لا بِسَبَبِ أَفْرادٍ أَجْرَموا

دلالَةُ التَّعْريفِ في ﴿ٱلْقَوْمَ﴾:

اللّامُ في ﴿ٱلْقَوْمَ﴾ مِنْ قولِ اللّه تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ لِلاسْتِغْراقِ؛ لِيَعمَّ في المعْنى القُرونَ الماضيَةَ والمخاطَبينَ؛ فهيَ على تَقْديرِ (كلّ) أيْ: كُلَّ قَوْمٍ، وفي هذا التّعْميمِ إنْذارٌ وتَخْويفٌ لِكُلِّ مُجْرِمٍ مِنْ أنْ يُصيبَهُ ما أَصابَ أولَئكَ[1].

التَّعْريفُ والجَمْعُ لِلاسْتِغْراقِ ولِيَعُمَّ القُرونَ الماضِيَةَ والمخاطَبينَ إنْذارًا لَهُم وتَحْذيرًا

نُكْتَةُ ذِكْرِ وَصْفِ الإجْرامِ: ﴿ٱلْمُجْرِمِينَ﴾:

ذِكْرُ وَصفِ الإجرامِ في قولِ اللّه تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ دونَ الشّركِ أوِ الظّلمِ أوِ ما قارَبَهما مِنَ المعاني؛ لأنَّ أَقْصى الإجْرامِ هوَ الإشْراكُ باللّه[2]، والتَّعْبيرُ بِوَصفِ ﴿ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ فيهِ دَلالَةٌ على عَراقَتِهم في الإجْرامِ، وهو قَطْعُ ما يَنْبغي أنْ يوصَلَ[3].

التَّعْبيرُ بِالإجْرامِ بَيانٌ لِعَراقَةِ أولَئِكَ المُشْرِكينَ فيهِ

دلالَةُ وَضْعِ الظّاهِرِ مَوْضِعَ المُضْمَرِ: ﴿نَجْزِى﴾:

في قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ إيقاعٌ لِلظّاهِرِ موقعَ المضْمَرِ؛ إذْ قد عُدِلَ عَنْ (نجزيهم) أوْ (نجزيكُم يا أهلَ مكّةَ بِما كَذَّبتُمُ الرّسولَ ﷺ)، وفي هذا العُدولِ دلالَةٌ على كمالِ الجُرمِ الصّادرِ مِنهُم، وأنَّهم أَعْلامٌ عَريقونَ فيهِ[4].

الدّلالَةُ عَلى كَمالِ جُرْمِهِم وأَنَّهُم أَعْلامٌ فيهِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/114، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/127.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/114.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/86.
(4) الشّربينيّ، السّراج المنير: 2/9.

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

القُرونُ والأُمَمُ:

في القُرونِ طولُ لُبْثٍ واقْتِرانٍ وبَقاءٍ، وهوَ مؤْذِنٌ بِقوَّتِهِم وصَلابَتِهِم وعَدَمِ انْدِثارِهِم

القُرونُ: جمعُ قرنٍ؛ وهوَ الاسمُ الّذي يقعُ على المجْموعةِ مِنَ النّاسِ في مُدّةِ سَبعينَ سَنةً[1]، وقيلَ: مِئةُ سَنةٍ، والمرادُ في الآيَةِ: أهْلُ القُرونِ، والجامِعُ بَيْنَهم: أنّهم مُقْترنونَ في هذهِ المدَّةِ الزَّمنيَّةِ، وأنَّ طولَ اللُّبثِ والاقْترانِ وبَقاءِ الجَمعِ مِنَ النّاسِ مؤذِنٌ بِقوَّتِهم وصَلابتِهم وعَدَمِ انْدِثارِهم على يَدِ سواهُم، بَل بِفِعلِ حَوادِثَ خارِقَةٍ لِلعادَةِ يَدلُّ حالُها عَلى أنَّها مُسلَّطَةٌ عَلَيهِم مِنَ اللّه تَعالى عِقابًا لَهُم[2]؛ ولِذلِكَ وَرَدَ إهْلاكُ القُرونِ في القُرآنِ الكَريمِ - ومِنهُ هذهِ الآيَةُ - لِلدّلالَةِ على قُدْرتِه تَعالى وعَظَمَتِه، أمّا الأمَمُ؛ فَلَفظٌ يَقعُ على العاقِلِ وغَيْرِه، كَأُمَمِ الطَّيْرِ ونَحوِه، ويُطْلَقُ على الجنِّ أيْضًا، ولَم يَرِدِ الإهْلاكُ والعَذابُ مُقترنًا بِلَفظِ الأُمَمِ اقْترانَهُ بِلَفظِ القُرونِ؛ لِما تَقدَّمَ مِن أنَّ لَفظَ القُرونِ يُشْعِرُ بِمَعنى الشِّدَّةِ والقوّةِ والبَقاءِ.

البَيِّنَة والبُرْهان:

البَيِّنَةُ ما يَأْتي بِها الرُّسُلُ ابْتِداءً، والبُرْهانُ كَلامٌ يَشْهَدُ بِصِحَّةِ الأَمرِ ويَقْطَعُ حُجَّةَ الخَصْمِ

البُرهانُ هوَ كلامٌ يَشهدُ بصِحّةِ الأمرِ، وفيهِ مَعنًى آخَرُ؛ وهو ما يَقطعُ حُجّةَ الخَصمِ[3]، ولا يَخْتصُّ البُرهانُ بكونِهِ كَلامًا، ويَدلُّ لِذلِك قولُ اللّه تعالى: ﴿لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ﴾ [يوسف: 24]، فإنَّ هذا البُرْهانَ لَيْس كلامًا قَطْعًا؛ إذِ الكَلامُ يُسْمَعُ ولا يُرى.

أمّا البَيِّنَةُ؛ فهيَ ما يُبَيِّنُ الحَقَّ ويوَضِّحُهُ، فَفي قولِه تعالى: ﴿وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ "أيْ: بِالمعْجِزاتِ الواضِحَةِ الدّالَّةِ عَلى الرِّسالةِ الإلَهيّةِ الّتي حَمَلوها، فما طَغى المجرِمونَ عَن غَيرِ بَيِّنَةٍ"[4]، وعَلى هذا التَّقْريرِ يَكونُ البُرْهانُ أَخَصَّ مِنَ البيِّنَةِ، فكُلُّ بُرهانٍ بَيِّنَةٌ مِنْ غَيْرِ عَكسٍ.

(1) العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 427.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/136.
(3) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 97.
(4) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3529.

﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ١٤﴾ [يونس: 14]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الانْتِقالُ مِنْ سَبْرِ أَحْوالِ السّابِقِينَ إلى خِطابِ الحاضِرِينَ لِلاعْتِبارِ والاتِّعاظِ

بَعدَ أنْ بَيَّنتِ الآياتُ السّابِقَةُ إهلاكَ الأمم السّابقةِ بِسَببِ ظُلْمِهم وكُفْرِهم وتَكْذيبِهِمُ الرُّسلَ، وبعدَ أنْ أَعْلمَ اللّه تعالى المخاطَبينَ بما جَرى لَهُم، وما اعْتراهُم بِسَببِ ذُنوبِهم[1]؛ أَخْبَرتِ الآيَةُ بما آلَ إليهِ حالُ المخاطَبينَ، وما كلِّفوا بِهِ مِن الخِلافةِ في الأرْضِ امتِحانًا لَهُم، فالمناسَبَةُ بَيْنَ الآيَتَينِ: الانْتِقالُ مِن سَبْرِ أَحْوالِ السّابقينَ، إلى خِطابِ الحاضِرينَ؛ لاعْتِبارِ الحاضِرِ بالماضي، ولِلحذَرِ مِن اقْترافِ ما اقْتَرَفوهُ.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿خَلَٰٓئِفَ﴾: جَمعٌ مُكسّرٌ، وجذْرُه اللُّغويّ: الخاءُ واللّامُ والفاءُ، وهو دالٌّ على ثَلاثَةِ مَعانٍ كُلِّيَّةٍ؛ أَحَدُها: أَنْ يَلِيَ شَيءٌ شَيئًا فيَكونَ مَكانَهُ، والثّاني: نَقيضُ قُدّام، والثّالثُ: التَّغيّرُ والتَّبَدُّلُ، وهذهِ المعاني مُتَناسِبَةٌ مُتَقارِبةٌ معَ لَفظةِ ﴿خَلَٰٓئِفَ﴾ في الآيةِ، فإنّهُم قَد قاموا مَقامَ مَن سَبَقَهم معَ تَأَخُّرِهم، وفي كلِّ ذلِك تَغييرٌ وتَبْديلٌ.

ولا يُشْترطُ للتَّأخّرِ أنْ يَكونَ لِقصورٍ في مَكانَتِهِ، بَلْ قدْ يَخْلفُه لِغَيْبَتِه، أوْ فَقْدِهِ أوْ عَجْزِهِ، أوْ لِتَشْريفِهِ، والخَلَفُ: مَن بَقيَ بَعدَ مَوتِ سابِقِهِ، ومنهُ الخَليفَةُ - مفْرَدُ: خُلَفاء - ؛ وهو مَن جاءَ بَعْدَك[2]، ومعْنى ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ﴾ في الآيَةِ: كُلَّما مَضَتْ طائِفَةٌ؛ خَلَفَتها أُخْرى[3].

(1) القشيريّ، لطائف الإشارات: 2/84.
(2) الخليل، العين، وابن دريد، الجمهرة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (خلف).
(3) الهرويّ، الغريبين في القرآن والحديث: (خلف).

المَعْنى الإجْماليُّ:

يُشيرُ اللّه ﷻ إلى امتِنانِهِ على خَلْقِه بِأنْ جعلَ لَهُمُ التَّمكينَ في الأَرْضِ حتّى اسْتُخْلفوا فيها، بَعد تِلكَ الأُمم الّتي أُهْلِكتْ بِكُفْرِها؛ لِيَنظرَ: أَيَتَّعِظونَ بِمَن كانَ قَبْلَهم فَتَصلُحَ أَعْمالُهُم أم يَتَنَكَّبونَ عَن طَريقِ الهُدى فيُلاقوا مَصيرَهُم، فَما اسْتِخلافُكم إلّا ابْتلاءٌ واخْتِبارٌ جَريًا على سُنَّتِهِ تَعالى في امتِحانِ عِبادِهِ.

تَصْيِيرُ اللّاحِقِينَ خَلائِفَ السّابِقِينَ سُنَّةُ اللّهِ تَعالى الجارِيَةُ في البَشَرِيَّةِ

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالَةُ حَرْفِ العَطْفِ ﴿ثُمَّ﴾:

﴿ثُمَّ﴾ في قولِه تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ﴾ حَرفٌ دالٌّ عَلى العَطفِ، حيثُ عَطَفَ هذهِ الجملةَ على جُملةِ الإهْلاكِ ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ﴾، و﴿ثُمَّ﴾ مؤْذِنةٌ بالبُعدِ، وهيَ دالَّةٌ على التَّرْتيبِ والتَّراخي[1]؛ فإنّ جَعْلَ اللّه تَعالى إيّاهُم خَلائفَ أَهَمُّ مِن إفناءِ القُرونِ السّابِقَةِ وإهلاكِها؛ لِما فيهِ مِنَ المنّةِ عَليهم وأنّهُ عَوَّضَهُم بِهِم[2].

وفي ﴿ثُمَّ﴾ أيْضًا إشارَةٌ إلى "تَعَدُّدِ الأجْيالِ وكَثْرَتِها، وما تَرَكَتْهُ مِن عِبَرٍ وآثارٍ تَدلُّ عَلى عاقِبَةِ أَمرِهِم، وهُم عَلى مَقْرَبَةٍ مِنْهم يَسيرونَ في أَرْضِهِم"[3].

جَعْلُ اللّاحِقِينَ خَلائِفَ لِلسّابِقِينَ أَهَمُّ مِنْ إهْلاكِ القُرونِ

سِرُّ التَّعْبيرِ بِفِعْلِ الجَعْلِ:

عُبِّرَ بالفِعْلِ ﴿جَعَلْنَٰكُمْ﴾ دونَ غَيْرِهِ مِنَ الأفعالِ المقارِبةِ لَهُ في الدّلالَةِ؛ لِكَونِهِ أَلْيَقَ وأَنْسبَ لِمَكانِهِ في الآيَةِ، ولِما فيهِ مِن مَعْنى الامتِنانِ، وفي الجَعْلِ مَعْنى التّضْمينِ، كَتَصْييرِ شَيءٍ شَيئًا[4].

والجَعْلُ في الآيَةِ بِمَعْنى التَّصْييرِ؛ بأنْ صَيَّرهم خَلائِفَ، فَأَهْلَكَ مَنْ

الجَعْلُ لا يَقَعُ دَفْعَةً واحِدَةً، بَلْ بِتَدَرُّجٍ سُنَنِيٍّ ومَراحِلَ مَقْصودَةٍ

(1) المراديّ، الجنى الداني، ص: 430.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/114.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3530.
(4) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/320.

كانَ قَبْلَهم منَ القُرونِ والأُممِ الخاليَةِ، واسْتَخْلَفَهُم فيها، فَفيها إشارَةٌ إلى أنَّ الجَعْلَ لا يَقَعُ دفْعَةً واحِدةً، بَل عَلى مَراحِل؛ لأنَّ هذا هوَ شَأْنُ التَّصْييرِ، فالأُممُ تَنْدَثِر وتَأْتي مَكانَها أُمَمٌ أُخْرى، بِسُنَّةٍ كَوْنيَّةٍ أَرادَها اللّه ﷻ.

نُكْتَةُ الخِطابِ في ﴿جَعَلْنَٰكُمْ﴾:

الامتِنانُ في جَعْلِ المُخاطَبينَ خَلائِفَ في اصْطِفائِهم لِحَملِ رِسالَةِ الإسْلامِ

الخِطابُ في قوله تَعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ﴾ عامٌّ لِجَميعِ مَنْ أُرْسِلَ إلَيْهِمُ النَّبِيُّ ﷺ، ومعْناهُ: قَدِ اسْتَخْلَفَكُم في الأرْضِ بَعدَ الأُمَمِ الّتي أَهْلَكَها بِكُفْرِهِم[1]، بِأنْ يَخْلفَ بَعضُكم بَعضًا في الأرْضِ؛ فإنَّ مِنْ حِكْمَتِهِ تَعالى أنْ يَتَعاقَبَ الإنْسانُ في الأَرْضِ لِعِمارَتِها؛ فيَذْهبُ جيلٌ ويَخْلُفُهُ جيلٌ آخَرُ حتّى مَوْعِدِ الفَناءِ وحُلولِ الزَّوالِ، ونُكْتَةُ الخِطابِ: الامتِنانُ عَلَيْهِم بِأنْ جَعَلَهم خَلائِفَ بَعدَ الهالِكينَ، فَفيهِ إشارَةٌ إلى اصْطِفائِهِم لِيَحْملوا رِسالَةَ اللّه تَعالى الّتي قَعَدَتْ عَن حَملِها القُرونُ السّابِقَةُ.

غَرَضُ اسْتِعْمالِ صيغَةِ الجَمعِ ﴿خَلَٰٓئِفَ﴾:

(خَلائِفَ) يُسْتَعْمَلُ في الأُمَمِ الّتي تَخْلُفُ غَيْرَها، ولَفْظُ الخُلَفاءِ يُسْتَعْمَلُ في الأُمَّةِ الواحِدَةِ

التَّعْبيرُ بـ﴿خَلَٰٓئِفَ﴾ دونَ (خُلَفاء) في قولِ اللّه تَعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ﴾ مَع أنَّ كِلا اللَّفْظتَين جَمعُ تَكْسيرٍ، وكِلاهُما مِنْ جُموعِ الكَثْرةِ؛ لأنَّ الخَلائفَ يُسْتَعْمل غالِبًا في الأُمَمِ الّتي تَخْلُفُ غَيرَها، كَقوله تَعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ﴾ [الأنعام: 165]، بَيْنَما لَفْظُ الخُلَفاءِ يُسْتَعْمَل في الأُمّةِ الواحِدَةِ، أيْ: يَخْلُفُ النّاسُ بَعْضُهم بَعْضًا في الأُمَّةِ الواحِدَةِ، كَما قالَ تَعالى: ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾ [الأعراف: 69]، فَهذا خِطابٌ لِعادٍ، وهُم خُلفاءُ يَخْلُفُ بَعْضُهم بَعْضًا، وعَلى ذلِكَ فإنَّ التَّعْبيرَ بالخَلائِفِ يومِئُ إلى أنَّ الاسْتِخلافَ هُنا شامِلٌ لِلأُمّةِ المُحَمَّديَّةِ، فَتَكونُ أمّةُ مُحمَّدٍ ﷺ خَلائِفَ كُلِّ الأُمَمِ، وهوَ مِنْ إنْعامِ اللّه تَعالى عَليهم.

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/330.

دلالَةُ التَّعْريفِ في: ﴿ٱلْأَرْضِ﴾:

اللّامُ في قوله: ﴿ٱلْأَرْضِ﴾ إمّا أنْ تُحمَل عَلى العَهْدِ[1]، فالمخاطَبونَ هُمُ العَربُ الّذين خَلَفوا عادًا وثَمودَ ونَحوَهم؛ فيُرادُ بِالأَرْضِ: ما هُم عَليهِ مِن جَزيرةِ العَربِ[2]، ويُحْتَملُ أنْ يكونَ الخِطابُ شاملًا لِلأُمّةِ الإِسْلاميَّةِ، والمَقْصودُ بِالأَرْضِ: أيُّ أَرْضٍ، فاللّامُ اسْتِغْراقيَّةٌ؛ وفي الكَلامِ بِشارَةٌ لِأُمَّةِ الإِسْلامِ أَنَّها آخِرُ الأُمَمِ الّتي جَعَلَها اللّه سُبحانَهُ لِتكونَ سَبَبًا في عِمارةِ الأَرْضِ.

اللّامُ تَحْتَمِلُ أَنْ تَكونَ عَهْديَّةً أَوْ اسْتِغْراقيَّةً

فائدَةُ اسْتِعْمالِ: ﴿فِى﴾:

اسْتُعْمِل حرفُ الظَّرفيَّة ﴿فِى﴾ في قولِ اللّه تَعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾؛ لِيَدلَّ عَلى اسْتِخْلافِهِم في جَزيرَةِ العَربِ الّتي يَسْكنونَ فيها، وهذا هوَ المَعْنى الظّاهِرُ، وفيهِ بِشارَةٌ لَهُم في انْتِشارِ دينِهِم في الأَرْضِ، وسيادَةِ سُلْطانِهِم على أَهْلِها في ذلِكَ الوَقْتِ وما بَعدهُ، فاسْتِعْمالُ حَرفِ الظَّرفيَّةِ ﴿فِى﴾ دالٌّ عَلى أنَّ الاسْتِخلافَ سَيَكونُ فيها كُلِّها، كَما قالَ تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾﴾ [الفتح: 28].

الإِشارَةُ إلى انْتِشارِ دينِ اللّه تَعالى في الأَرْضِ كُلِّها

تَوْجيهُ المُتَشابِهِ اللَّفْظيِّ: ﴿خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ﴾:

في قولِ اللّه تعالى: ﴿خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾؛ ذُكِرَتِ الخلائِفُ مُنَكَّرَةً، وجاءَ ذِكْرُ الخلائِفِ مُعَرّفًا في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ﴾ [الأنعام: 165]، والفَرْقُ بَيْنَ المَوْضعَينِ: أنّ سياقَ الخِطابَ في سورَةِ الأَنْعام جارٍ عَلى المعارِفِ بِتَكرارِ ذِكْرِ المخاطَبينَ عَلى التَّعْريفِ قبْلَهُ فَعَرّفَهُم، أمّا في آيةِ يونُسَ فقَد جاءَتْ على الأَصْلِ[3].

---

(1) اللّام العهديّة الدّاخلة على الأسماء النّكرة: الّتي تشير إلى معهود معروف بعينه، وهو أن يكون بينك وبين المخاطب معرفة وعهد سابق. ينظر: ابن السّرّاج، الأصول في النّحو: 1/150.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/114.

(3) الكرمانيّ، فتح الرّحمن بكشف ما يلتبس في القرآن: 1/183.

دلالَةُ الحَرْفِ ﴿مِنْ﴾:

اسْتِخْلافُ أُمَّةِ الإِسْلامِ بَعْدَ الأُمَمِ المُهْلَكَةِ مِنْ غَيْرِ فاصِلٍ

اسْتَعْمَلَ النَّظْمُ القُرآنِيُّ حَرْفَ الجَرِّ ﴿مِنْ﴾ في قوله: ﴿مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ وأَدْخلهُ عَلى الظَّرفِ؛ لِبيانِ أنَّ الجَعْلَ ابْتدأَ مِن بَعْدِ اسْتِئْصالِهم مُباشَرَةً، فليس بَيْن المخاطَبينَ والأُمَمِ السّابِقَةِ المهْلَكةِ أُمَمٌ خَلَفوهم ووُجِدوا في الأَرْضِ، ففيهِ إشارَةٌ إلى اسْتِخلافِ أُمَّةِ الإِسْلامِ بَعد الأُمَمِ المُهْلَكَةِ مُباشَرةً مِنْ غَيرِ فاصِلٍ.

دلالَةُ اللّامِ في ﴿لِنَنظُرَ﴾:

الاسْتِخْلافُ في الأَرْضِ عِلَّةٌ لإِثْباتِ الأَعْمالِ الصّالِحَةِ لِلأُمَّةِ الصّالِحَةِ

اللّامُ في قوله: ﴿لِنَنظُرَ﴾ لِلعِلَّةِ والسَّبَبِ؛ فإنّهُ لَمّا اسْتَخْلَفَهم جَعَلَ هذا الاسْتِخلافَ عِلّةً لِعِلْمِهِ تَعالى المعبَّرِ عَنْهُ بالنَّظرِ، أيْ: لِيَرى اللّه تَعالى ويُشاهِدَ الأَعْمالَ الّتي تَعْملونَها في خِلافَتِكم، عندَها يُجازيكُم بِمُقْتَضى سُنَّتِهِ الجاريَةِ، إنْ خَيْرًا فَخَيرٌ وإنْ شَرًّا فَشَرٌّ؛ لأنَّ الخلافةَ إنّما جُعلتْ لإقامَةِ العَدلِ والحَقِّ في الأَرْضِ[1].

سِرُّ التَّعْبيرِ بِالنَّظَرِ: ﴿لِنَنظُرَ﴾:

النَّظَرُ مُسْتَعارٌ لِلعِلْمِ المُحَقَّقِ الَّذي هوَ العِلْمُ بالشَّيْءِ المَوْجودِ

اسْتُعيرَ التَّعْبيرُ بِالنَّظَرِ في قَوْلِه تَعالى: ﴿لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ لِلعِلمِ المُتَحَقّقِ الثّابتِ، وهو عِلمٌ بالشّيءِ الموجودِ حَقيقةً؛ فَقَد شَبَّهَهُ بِنَظرِ النّاظرِ ومعايَنَةِ الرّائي في ثُبوتِهِ وتحقُّقِهِ[2]، ولأنّ النّظرَ هو أقوى الطُّرقِ الموصلةِ إلى العِلمِ والمعْرفةِ وأدقُّها جاءَ التَّعبيرُ بِهِ، فمَعْنى ﴿لِنَنظُرَ﴾: لِنَعْلَمَ ما يَتَعلَّقُ بِأعْمالِكم، والمرادُ بالعِلمِ: تَعَلُّقُهُ التَّنْجيزيُّ، أيْ: سَيَظْهرُ لَكم ما عَلِمَهُ مِن أَعْمالِكم[3].

ومِنَ المفَسِّرين مَن حَمَلهُ على المجازِ بالحَذْفِ؛ إذْ هو على حَذْفِ مُضافٍ، والتَّقْديرُ: لِيَنْظُرَ رُسُلُنا وأَوْلياؤنا[4] أَعْمالَكُم فَنُجازيكُم

(1) رشيد رضا، تفسير المنار: 11/259، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/115.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/334.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/115.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/22.

عَلَيها حسنًا أَوْ غيرَ ذلِكَ، ولا يَفْتَقِرُ تَوْجيهُ النَّصِّ القُرآنيِّ إلى هذا التَّقْديرِ، مَعَ مُخالَفَتِهِ لِلظّاهِرِ.

بَلاغَةُ الاسْتِعارَةِ في: ﴿لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾:

طَلَبُ إنْجازِ الأَعْمالِ الصّالِحَةِ دونَ السَّيِّئَةِ

في قوله تعالى: ﴿لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ اسْتِعارةٌ تَمثيليَّةٌ بِسؤالِهم عنِ الحالِ الّتي يَعْمَلونَ عليها الأَعْمالَ الحسَنةَ المناسِبةَ لاسْتِخْلافِهم؛ لأنَّ المرادَ منهُ ظُهورُ الأَعْمالِ الحَسَنةِ الصّالِحَةِ، أمّا الأَعْمالُ السَّيِّئَةُ فهيَ لا تَصْدرُ عَنهم بَعدَ ما سَمِعوا مِنْ أَخْبارِ القُرونِ الّتي أَهْلَكْناها[1].

بَلاغَةُ التَّوْشيحِ: ﴿لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾:

الوقوفُ عَلى فِعْلِ النَّظَرِ مَعَ ما تَقَدَّمَ؛ يُعْلَمُ مِنْهُ أَنَّ ما بَعْدَهُ فاصِلَةُ الآيَةِ (تَعْمَلونَ)؛ لِأَنَّ المَعْنى يَقْتَضيه

في خاتِمَةِ الآيَةِ تَوْشيحٌ[2] - وهو المسَمَّى: الإرْصاد - وهوَ نوعٌ مِنَ التَّبيينِ، وفيهِ يَعْرِفُ السّامِعُ ما يَلي مِنَ الكلامِ بِما تَقَدَّمَ مِنهُ ويَتَوقَّعُهُ، فَفي قوله تَعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِي ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾، إذا وَقَفْتَ عَلى قوله: ﴿لِنَنظُرَ﴾ مَعَ ما تَقَدَّمَ مِنَ الآيَةِ؛ عَلِمتَ أنَّ ما بَعْدَهُ ﴿تَعْمَلُونَ﴾ لِأَنَّ المَعْنى يَقْتَضيه ويَطْلُبُهُ[3].

نُكْتَةُ التَّعْبيرِ بِاسْمِ الاسْتِفْهامِ ﴿كَيْفَ﴾:

المُعْتَبَرُ في الجَزاءِ جِهاتُ الأَفْعالِ وكَيْفيّاتُها لا ذَواتُها، فَيَحْسُنُ الفِعْلُ تارَةً ويَقْبُحُ أُخْرى

في اسْتِعمالِ ﴿كَيْفَ﴾ في قوله تعالى: ﴿كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ نُكْتَةٌ، وهيَ أنْ يَكونَ المُعْتَبَرُ في الجَزاءِ جِهاتِ الأَعْمالِ وكَيْفيّاتِها لا ذَواتِها[4] فمَعْناها عَلى ذلِكَ: أَيّ شَيءٍ، فَينظرُ هَل تَحْتَذونَ مِثالَ سابِقيكُم ويَقْبحُ فِعْلُكم فَيُصيبكُمُ العَذابُ، أَم تُخالِفونَهُم ويَحْسنُ فِعْلُكم فَيَجْزيكُمُ الثَّوابَ.

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/127.
(2) وهو أن يكون في صدر الكلام ما يدلّ على القافية، يُنظر: السّبكي، عروس الأفراح: 2/315.
(3) العسكريّ، الصّناعتين، ص: 382.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/128، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/107.

بَلاغَةُ التَّعْبيرِ بِالفِعْلِ المُضارِعِ ﴿تَعْمَلُونَ﴾:

المُضارِعُ أَقْرَبُ إِلى ذِهْنِ السّامِعِ وأَمكَنُ أَداءً لِتَصْويرِ العَمَلِ

في التَّعبيرِ بِالفِعْلِ المُضارِعِ في قوله تَعالى: ﴿تَعْمَلُونَ﴾ دلالَةٌ عَلى التَّجَدُّدِ والحُدوثِ؛ فَهوَ قَريبٌ مِنْ ذِهْنِ السّامِعِ وأمكَنُ في تَصْويرِ مَشْهَدِ العَمَلِ المتَكَرِّرِ مِنْهُم، المراقَبُ المُراقَبِ مِنَ اللّه تَعالى نَظَرًا وعِلْمًا، وهذِهِ الصّورَةُ يؤَدّيها الفِعْلُ المضارِعُ خَيْرَ أَداءٍ ويُصوِّرُها أَفْضَلَ تَصويرٍ.

غَرَضُ حَذْفِ مُتَعَلّقاتِ الفِعْلِ ﴿تَعْمَلُونَ﴾:

الزَّجْرُ عَنِ المَرْذولِ وطَلَبُ المَقْبولِ

في قولِ اللّه تعالى: ﴿لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ حُذِفَتْ مُتَعلّقاتُ الفِعْلِ ﴿تَعْمَلُونَ﴾؛ مُبالَغَةً في الزَّجرِ عَنِ الأَعْمالِ السَّيِّئَةِ[1]، فَإِنَّها لَيْسَتْ لائِقَةً بِالاسْتِخْلافِ، ولِطَلَبِ الإِتْيانِ بِعُمومِ الأَعْمالِ الصّالِحَةِ المَطْلوبَةِ.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

العَمَلُ والفِعْلُ:

العَمَلُ إيجادُ الأَثَرِ في الشَّيْءِ، ويَكونُ بِمَعنى الإِحْداثِ[2]، أيْ: أَنْ يُحْدِثَ شَيئًا ويوجِدَهُ، وهوَ أَخَصُّ مِنَ الفِعْلِ، والواقِعُ في الآيَةِ: ﴿تَعْمَلُونَ﴾ أَخَصُّ مِنَ الفِعْلِ؛ فعَمَلُهم إمّا أنْ يَكونَ خَيْرًا أَوْ شَرًّا، أَوْ هوَ عَمَلُهم الصّالِحُ فَقطْ بِمَدْعاةِ الاسْتِخْلافِ، ومَعْنى الفِعْلِ: تَأْثيرٌ بِمُؤَثِّرٍ إنْ كانَ بِإجادَةٍ أَوْ بِغَيرِها، فهوَ عامٌّ، عَنْ عِلمٍ ومَعْرِفةٍ كانَ أَوْ عن غيرِ ذلِكَ، وأنْ يَكونَ بِقَصْدٍ أَوْ مِنْ دونِ قَصْدٍ، وقدْ يَكونُ مِنَ الإِنْسانِ أَوْ مِنْ غَيْرِهِ[3] كالحَيَواناتِ الّتي يَقَعُ مِنْها الفِعْلُ مِنْ غَيرِ قَصْدٍ؛ فهوَ بِذلِكَ يَدُلُّ عَلى العُمومِ، وعَلى عَدَمِ الإِتْقانِ.

العَمَلُ إيجادُ الأَثَرِ خَيْرًا أَوْ شَرًّا، والفِعْلُ هوَ التَّأْثيرُ حَسَنًا كانَ أَوْ غَيْرَهُ وهوَ أَعَمُّ مِنَ العَمَلِ

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 6/78.
(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة: 134 - 135.
(3) الرّاغب، المفردات: (عمل).

المحتويات

الجزء العاشر 7

سورة التَّوبة 9

- [التَّوبة: 87] 10
- [التَّوبة: 88] 22
- [التَّوبة: 89] 34
- [التَّوبة: 90] 42
- [التَّوبة: 91] 57
- [التَّوبة: 92] 74

الجزء الحادي عشر 87

- [التَّوبة: 93] 88
- [التَّوبة: 94] 97
- [التَّوبة: 95 - 96] 121
- [التَّوبة: 97] 144
- [التَّوبة: 98] 155
- [التَّوبة: 99] 168
- [التَّوبة: 100] 181
- [التَّوبة: 101 - 102] 204
- [التَّوبة: 103 - 104] 233
- [التَّوبة: 105] 269
- [التَّوبة: 10] 290
- [التَّوبة: 107 - 108] 300
- [التَّوبة: 109 - 110] 327
- [التَّوبة: 111] 350
- [التَّوبة: 112] 371
- [التَّوبة: 113] 390
- [التَّوبة: 114] 403
- [التَّوبة: 115] 414
- [التَّوبة: 116] 427
- [التَّوبة: 117] 438
- [التَّوبة: 118] 454
- [التَّوبة: 119] 474
- [التَّوبة: 120] 481
- [التَّوبة: 121] 502
- [التَّوبة: 122] 512
- [التَّوبة: 123] 522
- [التَّوبة: 124 - 125] 542
- [التَّوبة: 126] 563
- [التَّوبة: 127] 573
- [التَّوبة: 128] 587
- [التَّوبة: 129] 600

سورة يونس 610

- [يونس: 1] 619
- [يونس: 2] 628
- [يونس: 3] 648
- [يونس: 4] 668
- [يونس: 5] 685
- [يونس: 6] 700
- [يونس: 7 - 8] 709
- [يونس: 9] 724
- [يونس: 10] 737
- [يونس: 11] 747
- [يونس: 12] 760
- [يونس: 13] 780
- [يونس: 14] 792

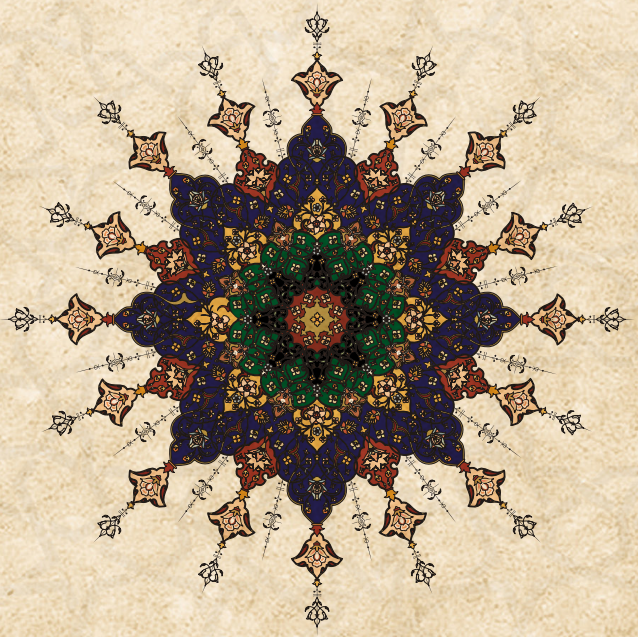

مجمع القرآن الكريم بالشارقة

موسوعة التفسير البلاغي

المُجَلَّدُ التَاسِعَ عَشَرَ

سورة يونس من الآية 15 إلى الآية 75

موسوعة التفسير البلاغي

حكومة الشارقة
Government of Sharjah
مجمع القرآن الكريم بالشارقة
HOLY QURAN ACADEMY IN SHARJAH

مَوْسُوعَةُ التَّفْسِيرِ البَلَاغِيِّ

المُجَلَّدُ التَّاسِعَ عَشَرَ

سورة يونس من الآية 15 إلى الآية 75

نُخْبَةٌ مِنْ عُلَماءِ مَجْمَعِ القُرْآنِ الكَرِيمِ بِالشَّارِقَةِ

منشورات القاسمي
AL QASIMI PUBLICATIONS
20/24

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد التاسع عشر، سورة يونس من الآية 15 إلى الآية 75
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد التاسع عشر، سورة يونس من الآية 15 إلى الآية 75 [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 19 ، 804 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-16-6
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 19 : المجلد التاسع عشر، سورة يونس من الآية 15 إلى الآية 75.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-768-16-6
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-6365726 بتاريخ 2024/02/07م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الجُزْءُ الحَادِي عَشَرَ

سُورَةُ يُونُسَ

﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٖ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا ٱئۡتِ بِقُرۡءَانٍ غَيۡرِ هَٰذَآ أَوۡ بَدِّلۡهُۚ قُلۡ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلۡقَآيِٕ نَفۡسِيٓۖ إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّۖ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ١٥﴾ [يونس: 15]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

العلاقةُ بين هلاكِ المُكذِّبين، وبين مطالبةِ الرّسولِ الأكرمِ بما لم يكلَّفْ به

لَما تقدَّمَ في الآيةِ السّابقةِ أنَّ مَنْ قَضَى اللّه بشقاوتِه لا يَتأتَّى إيمانُه بآيةٍ منَ الآياتِ، حتَّى تَنزِلَ به سَطوتُهُ وتُذيقَه بَأسَهُ ونِقمتَهُ، وكانَ القرآنُ أعظمَ آيةٍ أُنزِلَت إلى النّاسِ لِما لا يَخفى، أَتبعَ النّظمُ الكريمُ بيانَ اللّه عطفًا على قولِه: ﴿وَمَا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُواْۚ﴾ بقولِه بيانًا لذلكَ: ﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ﴾ بناءً للمفعولِ إيذانًا بتكذيبِهم عندَ تلاوةِ أيِّ تالٍ كان، قالوا في تلكَ الآياتِ - مع أنَّها بيِّناتٌ - ما لا معنَى له بدافعِ التَّلاعُبِ والعِنادِ، فطلبوا من رسولِ اللّه ﷺ أن يأتيَ بقرآنٍ غيرِ هذا في نَظمِه ومعناه، أو يبدِّلَه بغيرِه، فأَمرَه اللّه تعالى أن يبيِّنَ لهم أنَّه مُتبِعٌ لِما يوحَى إليه منَ اللّه، وليس بيدِه تَغييرُ شيءٍ أو تبديلُه، وأنَّه يَخافُ أن يفعلَ شيئًا لم يأمرْه به اللّه، فيكونُ حينئذٍ قد عصاه، ويكونُ مصيرُه العذابَ الأليمَ[1].

ومنَ المناسبةِ أيضًا أنّ السّورةَ لـمّا بدأَت "بذكر الكتابِ الحكيمِ وإنكارِ المشركين الوحي على رجلٍ منهم، ثمّ أقامَ الحجّةَ على الوحي والتّوحيدِ والبعثِ بخلق العالمِ علويّه وسفليّه، وبطبيعة الإنسانِ وتاريخِه وغرائزِه - أعاد هنا الكلامَ في شأن الكتابِ نفسِه، وتفنيد ما اقترحه المشركون على الرّسولِ ﷺ بشأنه، وحجّته البالغة عليهم في كونه وحيًا من عندِ اللّه تعالى"[2].

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 9/86 - 88.
(2) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 11/78.

شَرْحُ المفْرَداتِ:

1) ﴿تُتْلَىٰ﴾: تلو الشّيءَ الّذي يتلوه، وتِلوُ النّاقةِ: ولَدُها الّذي يتلوها، وتلوت القرآنَ تلاوةً. وتَلَوتُ الرّجلَ أَتلوهُ تُلوّاً، إذا تَبِعتَهُ. يقال: ما زلت أَتلوهُ حتى أَتلَيتُهُ؛ أي: حتَّى تقدّمته وصار خلفي[1]. والتِّلاوةُ تختصُّ باتِّباعِ كُتُبِ اللّه المنزَّلةِ، تارةً بالقراءة، وتارةً بالارتسامِ لما فيها من أمرٍ ونَهي، وترغيبٍ وترهيبٍ، أو ما يُتوهَّمُ فيه ذلك، وهو أخصُّ منَ القراءة، فكلُّ تلاوةٍ قراءةٌ، وليس كلُّ قراءةٍ تلاوةً، لا يُقالُ: تلوتُ رقعتَك، وإنَّما يُقالُ في القرآنِ في شيءٍ إذا قرأتَهُ وجبَ عليكَ اتِّباعُه، ومنه قولُه تعالى: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ [الأنفال: 2] فهذا بالقراءة، وقولُه تعالى: ﴿يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾ [البقرة: 121] فاتِّباعٌ له بالعلمِ والعمل[2].

وقولُه هنا: ﴿تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا﴾؛ أي: قرأَ عليهمُ القارىءُ آياتِ اللّه في القرآنِ وحُجَجه الواضحة[3].

2) ﴿بَيِّنَٰتٍ﴾: البيّنة: هي الدّلالةُ الواضحةُ، عقليّةً كانت أو محسوسةً، وسُمّيت شهادةُ الشّاهدين بيّنة لقوله ﷺ: «البيّنةُ على المدَّعي، واليمينُ على مَن أنكر»، والجمعُ بيّنات، وفي المحصول: البيّنة: الحجّة الواضحة[4]، يُقالُ: بانَ واستبانَ وتبيَّنَ، وقد بيَّنْتُه، قال تعالى: ﴿قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّ﴾ [البقرة: 256]، ويُقال: آيةٌ مبيَّنةٌ، اعتبارًا بمَن بيَّنَها، وآيةٌ مُبَيِّنةٌ اعتبارًا بنَفسِها، وآياتٌ مُبيَّناتٌ ومُبيِّنات. والبَيِّنةُ: الدَّلالةُ الواضحةُ عقليّةً كانَت أو مَحسوسةً. والبَيانُ: الكشفُ عنِ الشَّيء، وسُمِّيَ الكلامُ بيانًا لكشفِه عنِ المعنى الَّذي قُصِدَ إظهارُه، نحو: ﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ﴾ [آل عمران: 138][5].

وقولُه هنا: ﴿ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ﴾؛ أي: الواضحات، الدّالّة على إثباتِ التَّوحيدِ وإبطالِ الشِّركِ، حالَ كونِها واضحةَ الدَّلالةِ على المطلوب[6].

---

(1) الجوهريّ، الصّحاح: (تلو).
(2) الرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (تلو).
(3) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 2/372، والشَّوكانيّ، فتح القدير: 2/605.
(4) الزَّبيديّ، تاج العروس: (بين).
(5) الرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (بين).
(6) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 2/372، والشَّوكانيّ، فتح القدير: 2/605.

3) ﴿لَا يَرۡجُونَ﴾: الرّجاء: ممدود، وهو نقيضُ اليأسِ، والفعلُ منه، رجا يرجو[1]، والرَّجاءُ ظنٌّ يقتضي حصولَ ما فيه مسرّة، وقوله تعالى: ﴿مَّا لَكُمۡ لَا تَرۡجُونَ لِلَّهِ وَقَارٗا ١٣﴾ [نوح: 13]، قيل: ما لكم لا تَخافونَ، ووجه ذلك أنّ الرَّجاءَ والخوفَ يتلازمان، قال تعالى: ﴿وَتَرۡجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرۡجُونَۗ﴾ [النّساء: 104][2].

وقولُه تعالى: ﴿لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا﴾؛ أي: لا يأمُلونَ لقاءَنا ولا يخافونَه؛ لأنَّهم مُنكِرونَ له وجاحدون[3].

4) ﴿بَدِّلۡهُۚ﴾، ﴿أَبَدِّلَهُۥ﴾: بَدَلَ: الباءُ والدّالُ واللّامُ أصلٌ واحد، وهو قيامُ الشَّيءِ مقامَ الشَّيءِ الذّاهب، يُقالُ: هذا بَدَلُ الشَّيءِ وبَديلُه، وكذلك هو: الإبدالُ والتَّبديلُ، والتَّبَدُّلُ والاستبدالُ، ويقولونَ: بدَّلتَ الشّيءَ: إذا غيَّرتَه وإنْ لم تأتِ له ببَدَلٍ، وأبدَلتُه: إذا أتيتُ له ببَدَل، قالَ تعالى: ﴿وَإِذَا بَدَّلۡنَآ ءَايَةٗ مَّكَانَ ءَايَةٖ﴾ [النَّحل: 101]، وقالَ سُبحانه: ﴿ثُمَّ بَدَّلۡنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلۡحَسَنَةَ﴾ [الأعراف: 95][4].

ومعنَى قولِه هنا: ﴿أَوۡ بَدِّلۡهُۚ قُلۡ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلۡقَآيِٕ نَفۡسِيٓۖ﴾؛ أنَّهم طَلبوا من رسولِ اللّه ﷺ: إمّا الإتيانَ بقرآنٍ غيرِ هذا القرآنِ مع بقاءِ هذا القرآنِ على حالِه، وإمّا تبديلَ هذا القرآنِ بنَسْخِ بعضِ آياتِه أو كلِّها، ووضعِ أُخرَى مكانَها ممّا يُطابقُ إرادتَهم ويُلائمُ غَرَضَهم، فأجابَهم بأمرِ اللّه: ما يَنبغي لي ولا يَحِلُّ لي أن أُبدِّلَهُ من تلقاءِ نَفسي، فَنَفَى عن نَفسِه أحدَ القِسمَين، وهو التَّبديلُ؛ لأنَّه يمكنُه لو كان جائزًا، بخلافِ الإتيانِ بقرآنٍ آخَرَ، فإنَّ ذلكَ ليس في وُسعِه ولا يَقدِرُ عليه. ويمكنُ أن يُرادَ بأنَّه ﷺ نَفَى عن نَفسِهِ أَسهلَ القِسمَينِ ليكونَ دليلًا على نَفي أصعبِهما بالطَّريقِ الأَولى[5].

5) ﴿يُوحَىٰٓ إِلَيَّۖ﴾: أَصلُ الوَحيِ: الإشارةُ السَّريعةُ، ويتضمَّنُ السُّرعة، قيل: أَمرٌ وَحيٌ، وذلكَ يكونُ بالكلامِ على سبيلِ الرَّمزِ والتَّعريضِ، وقد يكونُ بإشارةٍ ببعضِ الجوارحِ،

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (رجا).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (رجا).
(3) الشَّوكانيّ، فتح القدير: 2/605.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (بدل).
(5) الشَّوكانيّ، فتح القدير: 2/605.

وبالكتابةِ، كما قالَ تعالى في شأن زكريا عليه السلام: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ مِنَ ٱلۡمِحۡرَابِ فَأَوۡحَىٰٓ إِلَيۡهِمۡ أَن سَبِّحُواْ بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا ١١﴾ [مريم: 11]، ويُقالُ للكلمةِ الإلهيَّةِ الَّتي تُلقَى إلى أنبيائِه ورُسُلِه: وَحْي؛ قالَ تعالى: ﴿*وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحۡيًا﴾ [الشّورَى: 51]؛ وذلك إمّا برسولٍ مُشاهَدٍ تُرى ذاتُه ويُسمَعُ كلامُه، كتبليغِ جبريلَ عليه السلام للنَّبيِّ ﷺ في صورةٍ مُعيَّنة، وإمّا بسماعِ كلامٍ من غيرِ مُعايَنَةٍ كسماعِ موسى عليه السلام كلامَ اللّه تعالى، وإمّا بإلقاءٍ في الرّوع، وإمّا بمنامٍ، والوحيُ صلةُ الرُّسُلِ باللّه الَّذي أرسلَهم لعبادِه، ومنَ الوَحيِ المختصِّ بالنَّبيِّ ﷺ قولُه هنا في الآية: ﴿إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾[1].

6) ﴿عَصَيۡتُ﴾: عَصَى عِصيانًا: إذا خرجَ عنِ الطّاعةِ، قالَ تعالى: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ﴾ [طه: 121][2]، ويُقالُ فيمن فارقَ الجماعةَ: فلانٌ شقَّ العَصا[3]، وقد قيلَ في الأثر: «ومَن عصى اللّه لم تَقِهِ منه واقيةٌ»، و المعاصي: جمع معصية، وهي كلُّ ما عُصِي اللّه به[4]، قال ذو الرّمة:

يا قابِضَ الرّوحِ عَن جِسمٍ عَصَى زَمَنًا *** وغافِرَ الذَّنبِ، زَحزِحنِي عَنِ النّارِ[5]

ويكون معنَى قولِه تعالى هنا: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي﴾؛ أي: خَرَجتُ عن طاعةِ ربِّي بفعلِ ما يطلبونَ بأنَّ أتقوَّلَ في القرآنِ من عندي، أو أبدِّلَ في قرآنِه، أو أفتريَ على اللّه بما لم يأمرْني به[6].

المعْنى الإجْماليُّ:

يُخبرُ ﷺ عن تعنُّتِ الكفّارِ ومُشركي قُرَيْش، الجاحدينَ المعرِضينَ عنه، أنَّهم إذا قرأَ عليهم الرَّسولُ ﷺ كتابَ اللّه وحُجَّتَه الواضحة، قالوا له: ائْتِ بقرآنٍ غيرِ هذا بردِّه، وجئْنا

(1) الرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (وحي).
(2) الرّاغب، المفردات: (عصا).
(3) أبو الفضل الميدانيّ، مجمع الأمثال: 1/364.
(4) شمس الدّين البعليّ، المُطلع على ألفاظ المُقنع، ص: 140.
(5) البيت مذكور في ملحق ديوان ذي الرّمّة، ص: 1875، وابن منظور، لسان العرب: (زحح)، والزَّبيدي، تاج العروس (زحح)، وذكره أبو العبّاس الشّريشيّ، شرح مقامات الحريريّ: 1/49.
(6) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 2/372، والشَّوكانيّ، فتح القدير: 2/606.

بغيرِه من نَمَطٍ آخر، أوْ بدِّلْه إلى وضعٍ آخر، فأجابَهمُ اللّه قائلًا لنبيِّه ﷺ: قلْ يا محمَّدُ ﷺ لأولئك المعاندين: ليسَ هذا إليَّ إنَّما أنا عبدٌ مأمورٌ، ورسولٌ مُبلِّغٌ عنِ اللّه، وإنّي أخافُ منَ اللّه، فإنْ عصيتُه أصابَني يومَ القيامةِ عذابٌ عظيمٌ من لَدُنْه[1] ﷻ.

استنكارُ طلبِ المشركين قرآنًا آخرَ؛ لأنّ الرّسولَ مُبلِّغٌ يخافُ اللّه ولا يعصيه

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالةُ العطفِ بالواو في: ﴿وَإِذَا﴾:

قولُه تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ معطوفٌ على قوله جلّ شأنه: ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ﴾، فوردَ هذا العطفُ؛ باعتباره ناشئًا عن قولِهم: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾ [الأنفال: 32]، وذلكَ أسلوبٌ من أساليبِ التَّكذيبِ، الّتي تنافسوا فيها، وأوحى بعضُهم إلى بعض زخرفَ قولها غرورًا، وأردفَ ببيانِ أسلوبٍ آخرَ من أساليبِ تكذيبِهمُ النَّبيَّ ﷺ، وهو نفي أن يكونَ القرآنُ موحًى إليه منَ اللّه تعالى، زاعمين أنَّ القرآنَ وضَعَهُ النَّبيُّ ﷺ من تِلقاءِ نَفسِه، ولذلكَ جَعلوا من تكذيبِهم أنْ يقولوا له: ﴿ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ﴾؛ إطماعًا له بأن يؤمنوا به مُغايرًا أو مُبَدِّلًا، إذا وافقَ هواهم[2]، ونسوا أنّ ذلك سيكون ضربةً قاضيةً لمصداقيّةِ القرآنِ وصدقيّتِه، وعليه فقد أخبرَهم الرّسولُ ﷺ، بأنّه مُبلِّغٌ عنِ اللّه بأمانةٍ، وأنّه لا دخلَ له في التّنزُّلِ ولا في التّغييرِ.

طلبُ المشركين تَغييرَ القرآنِ أو تَبديلَه، سفهٌ وضلالةٌ

دَلالةُ ﴿وَإِذَا﴾ الظَّرفيَّةِ الشَّرطيَّةِ:

جاءَت ﴿وَإِذَا﴾ الظَّرفيَّةُ الشَّرطيَّةُ مُتقدِّمةً على عاملِها، وهو: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا﴾؛ للاهتمامِ بذكرِ الوقتِ الَّذي تُتلى فيه الآياتُ عليهم، وربطًا بين جزأيِّ الجملةِ الشَّرطيَّة ﴿تُتْلَىٰ﴾ و ﴿قَالَ﴾، والتّقدير: فإذا تُتلَى عليهم آياتُنا فَحينئذٍ يقولونَ فيه هذا القولَ،

الاهتمامُ بذكرِ الظّرفِ تعجيبًا من تهافتِ أُمنياتِهم الّتي لن تتحقَّق

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 2/372.

(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 9/87، وابن عاشور، التَّحرير والتّنوير: 11/115 - 116.

تَعجيبًا من كلامهم وَوَهنِ أَحلامِهم، ولَمّا كانَ العاملُ في الظَّرفِ فعلًا ماضيًا ﴿قَالَ﴾ عُلِمَ أنَّ قولَهم هذا واقعٌ في الزَّمنِ الماضي[1]، وأنّه أباطيلُ، لا يسندُها عقلٌ حصيفٌ، ولا مقصدٌ شريفٌ، كما يدلُّ التّعبيرُ بـ(إذا) على تكرار الجوابِ بتكرار فعلِ الشّرطِ، فطلبُهم تغييرَ القرآنِ لم يقعْ مرّةً واحدةً بل كان مُتكرّرًا، وفي ذلك إيماءُ شدّة تمسكِّهم بضلالِهم.

سرُّ إيثارِ لفظِ: ﴿تُتْلَىٰ﴾:

خصوصيّةُ مصطلحِ التِّلاوةِ لجمعه بين العلمِ والعملِ

آثَرَ النّظمُ الكريمُ في قولِه تعالى: ﴿تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا﴾ التّعبيرَ بلفظ التّلاوةِ على لفظِ القراءةِ، لخصوصيَّةِ مُصطلحِ التِّلاوةِ، فإنَّ التِّلاوةَ تختصُّ باتِّباع كُتُبِ اللّه المنزَّلةِ، وأخصُّها القرآنُ الكريمُ لِما فيه من أمرٍ ونَهيٍ وتَرغيبٍ وترهيبٍ، فهي أخصُّ منَ القراءة، فكلُّ تلاوةٍ قراءةٌ، وليس كلُّ قراءةٍ تلاوةً، والتِّلاوةُ تَستدعي الاتّباعَ لِما يُتلَى بالعلمِ والعملِ، وكانَ المشركون يَعونَ هذه الحقيقيةَ، ولكنَّهم يُعاندونَ، فلا يُريدونَ الاتِّباعَ والعمل، ولذلك طلبوا قرآنًا على ما يناسبُ أحلامَهم ومعتقداتِهم، وكذلك فإنَّ التِّلاوةَ تكونُ في الكلماتِ يَتبعُ بعضُها بعضًا، ولا تكونُ في الكلمةِ الواحدةِ إذ لا يصِحُّ فيها التُّلوُّ؛ لأنَّ أصلَ التِّلاوةِ إتباعُ الشَّيءِ الشَّيءَ، ودلَّ على ذلكَ الجمعُ في قولِه تعالى: ﴿ءَايَاتُنَا﴾؛ أي: آياتُنا الَّتي تُتلَى عليهم تِباعًا[2].

دَلالةُ بناءِ الفعل ﴿تُتْلَىٰ﴾ على ما لم يُسمَّ فاعلُه:

الاهتمامُ بالمتلوّ أعلقُ بالسّياق منَ التّصريحِ التّالي

جاءَ فعلُ التِّلاوة ﴿تُتْلَىٰ﴾ مَبنيًّا للمفعولِ مُسنَدًا إلى الآياتِ دونَ بنائِهِ للفاعل الّذي هو في الحقيقة الرّسول ﷺ؛ للإشعارِ بعدمِ الحاجةِ لتعيينِ التّالي، وللإيذانِ بأنَّ كلامَهم في نَفسِ المتلوِّ دونَ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/117.

(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 140، والرّاغب، المفردات: (تلو)، والكفويّ، الكلّيّات: 2/95، وهنري لامنس، الفرائد، ص: 46.

التّالي وبتكذيبِهم عند تلاوةِ أيِّ تالٍ كان[1]، وهو بهذا كأنّه يطوي تعيينَ من تلا، لتصلحَ الآيةُ لكلّ زمانٍ يأتي، ويكون ذلك بعدَ انتقالِ رسولِ اللّه ﷺ إلى الملأ الأعلى، ووقوعِ التّلاوةِ من غيره، فإنّه لا مانعَ من تَكرارِ المقولةِ الّتي يتضمّنُها السّياقُ، بملابساتٍ أخرى، ولهذا لم يُسَمَّ فاعلُها لتعبّرَ عن هذا التّأبّي على اللّه، وتحدّي رسوله ﷺ، وليطلب المنكِرون من كلّ داعيةٍ ما يعجزُهُ في زمانِهِ، كما طلبَ من رسولِ اللّه في أوانِهِ.

نكتةُ تقديمِ الجارِّ والمجرورِ ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾:

قدّم النّظمُ الجليلُ شِبهَ الجُملةِ ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾ على نائبِ الفاعلِ ﴿ءَايَاتُنَا﴾؛ للاهتمامِ بأنَّ هذه الآياتِ أُنزلَت عليهم رحمةً منَ اللّه بهم؛ لتَرفعَ عن كواهلِهم ثِقَلَ الوثنيَّةِ وظُلمَها وظُلُماتِها، الَّتي تعفَّنَت بها عقولُهم، وغَشَى الرّانُ بها قلوبَهم، ولاختصاصِ التِّلاوةِ والبيانِ لتلك الآياتِ بهم، وخصّهم بكون التّلاوةِ واقعةً عليهم دون غيرِهم مبالغةً في شدّةِ البيانِ، فهم أقربُ النّاسِ إلى رسولِ اللّه ﷺ، فمنهمُ الرَّحِمُ والقرابةُ والجِوارُ والصُّحبةُ، ولكنَّهم قابَلوا ذلكَ بالتَّكذيبِ والعِنادِ، وطَلبوا تغييرَ القرآنِ أو تبديلَه.

الاهتمامُ بمَن تُتلَى عليهمُ الآياتُ بالتّلَقِّي عن طريقِ البلاغِ

دلالةُ التّعبيرِ بحرف الاستعلاءِ ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾:

في قوله جلّ شأنه: ﴿تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَاتُنَا﴾ عبّر النّظمُ الجليلُ بحرف الاستعلاءِ (على)، مُستعملًا إيّاه للاستعلاء المجازيِّ، وهو تمكّنُ الفعلِ الّذي تعلَّقَ به منهم، فالتّلاوةُ عليهم تدلُّ على بلوغ الدّعوةِ إليهم واضحةً بيّنةً.

تمكّنُ التّبليغِ منهم بإيصالِ التّلاوةِ إليهم يُفصحُ عن كمالِ تعنّتِهم

سرُّ التّقييدِ بالحال في قولِه: ﴿ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٖ﴾:

توصيفُ بيانِ اللّه آياتِ القرآنِ بأنَّها بيِّناتٌ؛ لزيادةِ التَّعجيبِ من

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 9/86، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/640.

طَلبِهم تبديلَها، لا بطلبِ تبديلِه، إذ لا طَمَعَ في خيرٍ منَ القرآن[1]، و"وصفُ الآياتِ بأنّها بيّناتٌ، يدلُّ على أنّ مَن عندَه أدنى نظر، يستطيعُ أن يبصرَ وجهَ الحقِّ في هذه الآياتِ البيّنةِ المشرقةِ، وأن يهتدي بها، ولا يجادل فيها، أو يقف موقفَ الشّكِّ والعنادِ منها"[2].

البيانُ والوضوحُ في التّبليغ أوقعُ في إقامةِ الحجّةِ، وأدلُّ على التّعجبِ من سوءِ طلبِهم

دلالةُ الإضافةِ في: ﴿ءَايَاتُنَا﴾:

في قوله عزّ ذكرُه: ﴿ءَايَاتُنَا﴾ عظّم النّظمُ الكريمُ الآياتِ بإضافتها إلى ضمير التّعظيم مُسنَدَةً إلى من أنزَلَها ﷻ؛ أي: على ما لها منَ العظمةِ المُكتَسبَةِ بإسنادِها إلينا؛ أي: إلى الله بسُلطانِه وحُكمِه وحِكمتِه، وهي مَتلوَّةٌ مَسموعةٌ مَرئيَّةٌ منَ القوم، فإنَّه مع ما اشتملَت عليه ممّا لزمَهم به الإقرارُ بحقيقتِه من حقيَّةِ التَّوحيدِ وبُطلانِ الشِّرك، قالوا فيه ما لا معنَى له إلّا التَّلاعبُ والعِنادُ، ولولا ما عَلِموه وعايَنوه من إعجازِ القرآنِ في بلاغتِه ولغتِه ومناحي كلامِه، وعدمِ قدرتِهم على الإتيانِ ولو بأقصرِ سورةٍ منه ما طلبوا من رسولِ الله ﷺ تغييرَ القرآنِ أو تبديلَه، مع أنَّ آياتِ الله البيِّناتِ في كونِه تصدَحُ بوحدانيَّةِ الله وهم يَرَونَها، والقرآن يُحدّثُهم عنها، ولكنَّها لا تواجهُهم كآياتِ القرآنِ الَّتي تأمرُهم بنَبذِ عبادةِ الأصنامِ، والتزامِ عبادةِ الرَّحمن[3].

إعجازُ آياتِ القرآنِ في منظومةِ تشريعِها وبلاغتِها ولغتِها

كما أنّ إضافةَ الآياتِ إلى ضمير الجلالةِ يدلُّ على أنّ هذه الآياتِ جديرةٌ بإحداث البيانِ، وأنّها في الغاية من إقامةِ الاحتجاجِ وتبيينِ الاستدلالِ على ما سِيقَت له.

بلاغةُ الالتفاتِ منَ الخطابِ إلى الغَيبةِ:

بين قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ﴾ وقولِه: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [يونس: 14]، وهي الآيةُ السّابقةُ لها

بيانُ مكابرتِهم بالتّحدّي والتّعجيزِ، ومجانفتِهم لمهمَّةِ الاستخلافِ في الأرض

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/116.
(2) عبد الكريم الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 6/072.
(3) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 9/87.

مباشرة، أسلوبُ التفاتٍ، وهو تنوُّعٌ في أساليبِ البيانِ الّتي تُعَدُّ من معالمِ البلاغةِ العربيَّة وأفانينِها، و بها يبرزُ المعنى في سياقِ النَّصِّ الَّذي تُلحَظُ به ملمحيّةُ هذا الأسلوبِ، فقد تقدَّمَ في الآيةِ السّابقةِ قولُه تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [يونس: 14] بأسلوبِ الخطابِ، ثمَّ تلاهُ قولُه هنا: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ﴾ بأسلوبِ الغَيبةِ، وهذا الالتفاتُ منَ الخطابِ إلى الغَيبة، جاء مَسوقًا في إطار التّنديدِ بمطالبِهم اللّاعقلانية، بالإتيان بغير القرآنِ أو تبديلِهِ بغيره؛ وذلك بتوجيه الخطابِ إلى رسولِ اللّه ﷺ أن يفعلَ ذلك الفعلَ الشّنيعَ، وهو محضُ اعتداءٍ على صلاحيّاتِ المولى سبحانَه في الإنزالِ والاستبدالِ، بعد أن ذكّرَ بهلاك الأقوامِ السّابقي، وتطبيقِ مبدأ الاستخلاف؛ لمراقبة حصائلِ أعمالِهم، ونتائجِ تصرّفاتِهم، الّتي كانت على شاكلة السّابقينَ وأسوأ؛ لأنّها اتّسمَت بتكذيبِ الرَّسولِ ﷺ والكفرِ بالآياتِ البيِّناتِ، ممّا أبانَت عنه هذه الآية من نكرانٍ وكفرانٍ، كدأبِ الأقوامِ مِن قبلِهم منَ القرونِ المُهلَكةِ، فكانَ في ذلك إيضاحٌ للإعراضِ الحاصلِ منهم، بنأيهم عن مهمّة الاستخلافِ الَّتي أُنيطَ بهم القيامُ بها في الأرض[1]، وهي مهمّةٌ في غاية القداسةِ والأهمّيّةِ.

دَلالةُ التّعبيرِ بالفعل المضارعِ في: ﴿تُتْلَىٰ﴾:

تجدّدُ مطالبِهم الغريبةِ بتجدّد التّلاوةِ عليهم

عبّرَ النّظمُ الجليلُ بالفعلِ المضارعِ ﴿تُتْلَىٰ﴾ للدَّلالةِ على التَّكرُّرِ والتَّجدُّد؛ أي: تجدُّدِ جوابِهم الآتي حَسبَ تجدُّدِ التِّلاوة[2]، وقد وقع التّكذيبُ والتّحدّي الصّارخُ في محطّاتٍ كثيرةٍ منَ الدّعوةِ النّبويّةِ المباركةِ، وتجدّدَ التّحدّي في مكّةَ والمدينةِ، فلم يتركِ المشركون ومَن لفَّ لفّهم من أهل الكتابِ والمنافقين فرصةً إلّا اهتبلوها، للإنكار

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 9/89، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/640.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/640، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/117.

الصّراحِ، والكفرِ البواحِ، طيلة فترةِ التّنزُّلِ إلى أن جاء نصرُ اللّه والفتحُ، ودخل النّاسُ في دين اللّه أفواجًا بعد فتح مكّةَ.

بلاغةُ الفصلِ بفعل القولِ في: ﴿قَالَ﴾:

جوابُ الشّرطِ يفصلُ لشِدَّةِ الاتّصالِ

قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا﴾ فُصِل عن سابقه ولم يُعطف؛ لأنّه وقعَ جوابًا للشّرط، فإنّ الرّبطَ بين الجملتين مُتحقِّقٌ لا يحوجُ إلى العطف، فعند تلاوة القرآنِ عليهم يكون فعلُهم إزاءَ ذلك أن يطلبوا تغييرَه، فيقولون ذلك مجاهرةً، فحُكِيَ في جملةِ الجوابِ أسلوبٌ آخرُ من أساليبِ تكذيبِهم[1].

سرُّ حذفِ المقول له في: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا ٱئۡتِ بِقُرۡءَانٍ﴾:

تكذيبُ اللّه ورسولِه ﷺ، والصّدُّ عمّا يتلوه من أكبر السّفهِ والطّيشِ

في قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا ٱئۡتِ بِقُرۡءَانٍ﴾ بيّنَ النّظمُ الجليلُ اجتراءَهم على آياتِ اللّه وتكذيبَهم بها؛ لعدمِ خوفِهم من عقابِ اللّه يومَ اللِّقاءِ به؛ لإنكارِهم للبعثِ والمعادِ منَ الأساس، فكانَ ذلك الملمحُ ذمًّا لهم، وتشنيعًا بمسلكهم الاعتقاديِّ المنحرفِ عن نورِ الهدى، وجادّةِ الصّوابِ، حيث كذَّبوا مَن يتلوها عليهم، وهو رسولُ اللّه ﷺ، وإنَّما لم يُذكرْ إيذانًا بتعيينِه[2]؛ لأنّه هو المكلَّفُ بالتّلاوةِ والبلاغِ عنِ اللّه، وقد واجهوه بأعنفِ التّصرُّفِ، وأسمعوه ما لا يرضى منَ القول، وهو غايةٌ في الضّلالِ والتّهوّرِ، وعدمِ التّبصُّرِ بالعواقب.

دَلالةُ التّعبيرِ بالاسمِ الموصولِ ﴿ٱلَّذِينَ﴾:

الّذين يُنكرونَ البعثَ، ويطلُبونَ تغييرَ القرآنِ، قومٌ معروفون معهودون

عبّرَ النّظمُ الكريمُ في قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا ٱئۡتِ بِقُرۡءَانٍ غَيۡرِ هَٰذَآ أَوۡ بَدِّلۡهُۚ﴾، بالاسمِ الموصولِ ﴿ٱلَّذِينَ﴾؛ للدّلالة على عمومِ المشركينَ الّذين كانوا على هذه الحالِ، كما ذكرَه القرآنُ، أو أنّه يعبّرُ عنِ العتاةِ الطّغاةِ الّذين ذُكِروا في السُّنَّة المطهّرةِ،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/115.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/640.

وهم خمسةٌ طلبوا هذا الطَّلبَ، وكانوا أشدَّ إنكارًا للبعثِ من عموم المشركين، وأكثرَهم مُماحَكةً وتعجيزًا لرسولِ الله ﷺ في طلبِهم ذاك، ويجمعُهم في التماسِهمُ المُعلَنِ وجهان: أحدُهما: أنَّهم ذكروا ذلك على سبيلِ السُّخريةِ والاستهزاءِ، وثانيهم: أن يكونَ المقصودُ: أنَّ هذا القرآنَ مُشتملٌ على ذمِّ آلهتِهم والطَّعنِ في طرائقِهم، وهم كانوا يتأذَّون منها، فالتمسوا كتابًا آخرَ ليس فيه ذلك[1].

سرُّ التَّعبيرِ بالموصولِ دونَ الضّميرِ في الآية:

الصِّلةُ عَلَمٌ على مجموعِ مَن أنكرَ البعثَ، وآذى الرّسولَ الأكرمَ

في قولِه تعالى: ﴿تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا﴾ عبّرَ عنهم بالموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾ بعد أن ذكرَهم بالضّمير في قوله: ﴿عَلَيْهِمْ﴾، وهم هُم أنفسُهم، فكانَ ذلك المقامُ مقامَ إضمارٍ، فما كانَ الإظهارُ بالموصوليَّةِ إلّا لأنَّ الَّذينَ لا يَرجون لقاءَ الله، اشتهرَ به المشركونَ فصارَت هذه الصِّلةُ كالعَلَم عليهم[2].

دلالةُ التَّعبيرِ بصلة الموصولِ في: ﴿لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا﴾:

لا يُنكرُ القرآنَ المنزَّلَ، إلّا مَن أنكرَ لقاءَ الله المؤمَّلَ

جاءَ قولُه تعالى: ﴿لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا﴾ بعدَ قولِه: ﴿ٱلَّذِينَ﴾؛ إشعارًا بعلِّيَّةِ الوصفِ بعدَمِ رجائِهم لقاءَ الله، بعد سماعِهم آياتِ الله تُتلَى عليهم من رسولِه ﷺ، فلمّا لم يتفاعلوا مع تلاوةِ تلكَ الآياتِ، لعدمِ إيمانِهم بلقاءِ الله قالوا: ﴿ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ﴾؛ إنكارًا لوحيِ الله بالقرآنِ المنزَّلِ على رسولِ الله ﷺ[3]، والّذين يفعلون ذلك لا يخافون العذابَ، ولا يصدّقون بيوم الحسابِ، وهم يعتمدون على عزوتِهم الدّنيويّةِ، ومكانتِهم المادّيّةِ، فصاروا في سكرتِهم يعمهون، ولذلك فقد كان انقطاعُ رجائِهم في الآخرة سببًا لازمًا

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/223 - 225. وذكر في رواية ابن عبّاس رضي الله عنهما أنَّ الخمسةَ هم: الوليدُ بن المغيرة المخزوميّ، والعاص بن وائل السَّهميّ، والأسوَد بن المطَّلب، والأسوَد بن يغوث، والحارث بن حنظلة، فقتل الله كلَّ رجلٍ منهم بطريقٍ آخر، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ۝٩٥﴾ [الحِجر: 95].

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/117.

(3) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 9/87، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/640.

لازبًا لطغيانهم الجارفِ، وتحدّيهم العاصفِ، فعبّر السّياقُ عن ذلك كلّه بواقعيّةٍ وعمقٍ.

دلالةُ التّعبيرِ بالفعل المضارع ﴿يَرۡجُونَ﴾:

في قوله عزّ ذكرُه: ﴿لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا﴾ آثر النّظمُ الكريمُ التّعبيرَ بالفعل المضارع المنفي للدّلالة على استمرار النّفي، فانتفاءُ رجائهم دائمٌ لا ينقطع؛ وهذا يفصحُ عن إصرارهم على كفرِهم واستكبارِهم عن آياتِ اللّه تعالى.

عدمُ رجائِهم وانقطاعُ أملِهم بلقاء الله تعالى مُستمرٌّ لا ينقطعُ

بلاغةُ الكنايةِ في ﴿لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا﴾:

دلَّ قولُه: ﴿لَا يَرۡجُونَ﴾ على أنَّهم إنَّما اجترؤوا على آياتِ اللّه لعدمِ خَوفِهم من عقابِه، والرَّجاءُ لا يُستعمَلُ إلّا في المنافع، لكنَّه قد يدُلُّ على المَضارِّ من بعضِ الوجوهِ؛ لأنَّ مَن لا يرجو لِقاءَ ما وعدَ ربُّه به منَ الثَّوابِ، وهو القَصدُ بالتَّكليفِ، لا يخافُ أيضًا ما يوعِدُهُ به منَ العقابِ، فصارَ ذلكَ كنايةً عن جَحدِهِم للبَعثِ والنُّشورِ[1]، والّذين لا يعتقدون أنّ لهم باللّه لقاءً، ولا يرجون له وقارًا، هم مَن لا يؤمنون بإلهٍ، ولا ببعثٍ؛ فقد قالوا: ﴿مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا نَمُوتُ وَنَحۡيَا وَمَا يُهۡلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهۡرُۚ﴾ [الجاثية: 24]، وقالوا: ﴿أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ ٨٢﴾ [المؤمنون: 82]، وهذا هو الّذي ذكرته الآيةُ، حين لمّحَتْ إلى أنّهم سيُفاجؤون بخلاف ما كانوا يعتقدون، وسيجدون أنفسَهم بمواجهة الحقيقةِ، فيندمون ولاتَ ساعةَ مندمٍ، وهو ما عبّرَ عنه القرآنُ بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا﴾ [النّور: 39][2].

مَن لا يَرجو لقاءَ الله الأعلى لا يخافُ عقابَه الأوفى

سرُّ الإضافةِ في: ﴿لِقَآءَنَا﴾:

أضافَ النّظمُ الجليلُ لفظَ اللّقاءِ إلى ضمير التّعظيم (نا)

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/224، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/640.
(2) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 10/5799.

للدّلالة على تشريفِ ذلك اللّقاءِ وتعظيمِه، والتَّرهيبِ عن تكذيبِه، والتَّخويفِ منَ الجُرأةِ عليه، ممّا حكَتهُ أحلامُهم وأوهامُهم في تغييرِ القرآنِ أو تبديلِه[1]، واللّه غنيٌّ عنهم لا يضرُّه تبديلٌ ولا تكذيبٌ، ولكنّه يطلبُ من عباده العبوديّةَ له وطاعتَه، تماشيًا مع مقام التّكريم الّذي أرادَه للإنسان؛ كي ينسجمَ مع الكونِ المطيعِ له، فيدركَ عظمةَ اللّه الّتي لا يعجزُها شيءٌ في الأرض ولا في السّماء، وينتفعَ بما أعدَّ اللّه لعباده الصّالحين، من تكرمةٍ وعطاءٍ، ويسلمَ ممّا أوعدَ اللّه به المُكذِّبينَ من هلاكٍ وشقاءٍ.

إضافةُ تشريفٍ بلقاءِ اللهِ، وترغيبٍ في الإيمانِ به، وترهيبٍ عن تكذيبِه

دلالةُ فعلِ الأمرِ: ﴿ٱئۡتِ﴾:

في قولِه تعالى: ﴿ٱئۡتِ بِقُرۡءَانٍ غَيۡرِ هَٰذَآ﴾ - وهو قرآنٌ لا ينكرُ عليهم عبادتَهم، ويُقرُّهم على سوء عقيدتِهم، بعدمِ رجائِهم لقاءَ اللّه - بيانٌ أنَّ القومَ أشاروا بهذا إلى القرآنِ المشتَمِلِ على تلكَ الآياتِ لا إلى نَفسِها، قَصدًا إلى إخراجِ الكُلِّ منَ البَين؛ أي: ائْتِ بكتابٍ آخرَ نقرؤُهُ ليس فيه ما نَستبعِدُه من البعثِ والحسابِ والجزاءِ، وما نكرهُهُ من ذمِّ آلهتِنا ومعايبِها، والوعيدِ على عبادتِها، فهم بذلك يُقيمونَ أنفُسَهم حُكّامًا على اللّه، أو آلهةً من دونِ اللّه بيدِها الأمرُ والنَّهي، وهذا غايةُ الجُرأةِ على اللّه ﷻ، تعالى اللّه عمّا يريدون عُلوًّا كبيرًا[2]، ويدلُّ الأمرُ بالإيتاء على مبلغ جهلِهم، وبطرِهم فهم قالوا ذلك مُتدلِّلين[3]، أو أنّهم قصدوا من ذلك إظهارَ تكذيبِ النّبيِّ ﷺ بنسبة المجيءِ بالقرآن من عندِه.

مَن طالبَ بتغيير القرآنِ على هواه فقد بلغَ في الجهل منتهاه

الغرضُ من طلبِهم تغييرُ القرآن في: ﴿ٱئۡتِ بِقُرۡءَانٍ غَيۡرِ هَٰذَآ أَوۡ بَدِّلۡهُۚ﴾:

أرادَ المشركونَ بطلبِهم التَّعجيزيِّ تغييرَ القرآنِ بآخرَ، ليس فيه

بيانُ سفاهةِ المشركين في اقتراحِهم تغييرَ القرآنِ أو تبديلَه

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/640.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/640.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3532.

ذمُّ آلهتِهم وتركُ عبادتِها وتسفيهُ أحلامِهم، وليس فيه حديثٌ عن البعثِ والحسابِ والجزاء، أو تبديلُ ما فيه من الآياتِ، بتحليلِ ما حرَّمَه أو تحريمِ ما أحلَّه، ممّا يناسبُ أهواءَهم، وسواءٌ أكانوا جادِّينَ بما طلَبوا أم مُستهزئينَ، فإنَّ القرآنَ الكريمَ قد سجَّل سفاهتَهم فيما أرادوا، وتعجيبَه الشَّديدَ من كلامِهم، وَوَهَنِ أحلامِهم[1]. وهم في قولهم ذلك "لا يحتجّون على أنّ المعجزةَ قرآنٌ يُتلَى، وإنّما يطلبون غيرَه من غير حكمةٍ يقدّرونها، ولا أمرٍ يتعلَّقُ بالقرآن يريدون خلافَه، كأنّهم لا يريدون تكليفاتِه، ولا يريدون ما فيه من محاربةِ عقائدِهم وشركِهم"[2].

سرُّ استعمالِ فعلِ الأمرِ من مادّة الإيتاءِ في: ﴿ٱئۡتِ بِقُرۡءَانٍ﴾:

زيفُ زعمِهم أنَّ الرّسولَ له أن يأتيَ بغيرِ القرآنِ أو يبدّلَه

يدلُّ الإتيانُ على المجيءِ بسهولةٍ[3]، فحكايةُ القرآنِ أنّهم طلبوا المجيءَ بقرآنٍ آخرَ بالفعل ﴿ٱئۡتِ﴾ إيماءً إلى ظنّهم أنّ المجيءَ بالقرآن سهلٌ ومتاحٌ؛ لأنّه تأليفُ النّبيِّ ﷺ بحسب ظنِّهم. فجاءَ فعلُ الأمرِ ﴿ٱئۡتِ﴾ بناءً على ما كانوا يقولون: أفترى على اللّه كذبًا؟ فيزعُمونَ أنَّ هذا القرآنَ من صياغةِ محمَّدٍ ﷺ، فينسُبونَه إليه، ويزعمونَه قادرًا عليه وعلى مثلِه، أو أنَّهم أرادوا بقولهم: ﴿ٱئۡتِ﴾؛ أي: ائْتِ بقرآنٍ غيرِ هذا أو بدِّلْه من جهةِ الوحيِ، كما أتيتَ بالقرآنِ من جهتِه[4].

نكتةُ حذفِ جوابِ الطَّلبِ لفعلِ الأمرِ ﴿ٱئۡتِ﴾:

قطعُ الطّريقِ على المستهزئين، بعدم مجاراتِهم في سفاهتِهم

أضمرَ النّظمُ الجليلُ جوابَ الطّلبِ الواقع بفعل الأمر: ﴿ٱئۡتِ﴾؛ أي: إنْ تأتِ بقرآنٍ غيرِ هذا نَتَّبِعْك؛ وحَذَفَ ذلك للإيجاز اعتمادًا على ظهور المعنى، وإنّما دلَّ على أنّ الجوابَ محذوفٌ أنّ طلبَهم

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/640، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/117.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3532.
(3) الرّاغب، المفردات: (أتى).
(4) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 2/229.

الإتيانَ بقرآنٍ جديدٍ، إنّما كان لإظهار استعدادِهم أنّهم يتّبعونه في حال تغييرِ القرآنِ، ولم يكنِ التّغييرُ لأجلِ لا شيء.

دلالةُ تنكيرِ لفظِ القرآنِ في قوله: ﴿ٱئۡتِ بِقُرۡءَانٍ﴾:

الإشـارةُ منهم أنَّ محمَّدًا ﷺ قادرٌ على الإتيانِ بقرآنٍ جديدٍ

حكى النّظمُ الجليلُ طلبَهم تغييرَ القرآنِ بتنكير لفظِ القرآنِ، فقال: ﴿بِقُرۡءَانٍ﴾ دلالةً على المغايرة؛ لأنّ النّكرةَ تدلُّ على العموم، فيصلح اللّفظُ أن يقعَ على كلّ أفرادِ الجنسِ، وليس المرادُ منَ التّنكير هنا التّكثيرَ ولا التّهوينَ بل مُطلَقَ المغايرةِ، فدلّ التّنكيرُ على أنّهم طلبوا المجيءَ بـ " أيِّ كلام مجموعٍ جامعٍ لما تريد"[1]. ففي اقتراحِهم إبدالَ قرآنٍ بقرآن إيماءٌ بأنَّ هذا القرآنَ من عندِك، وأنَّكَ قادرٌ على مثلِه، كما قدَرتَ على الأوَّل، فأبدِلْ مكانَه آخر، وفيه ما لا يَخفَى منَ الكَيدِ والمكرِ من أولئكَ المعاندين[2]، وهو يردُّ على طلبِهم بالاستنكارِ والرّفضِ، ويقول لرسوله ﷺ: "إذا اقترحوا عليك بأن تأتيهم بما لم نأمرْك به، أو تريهم ما لم نظهرْ عليك منَ الآياتِ..فأخبرْهم أنّك غيرُ مُستقلٍّ بك، ولا موكولٍ إليك، فنحنُ القائمُ عليكَ، المُصرِّفُ لك، وأنتَ المُتَّبعُ لِما نُجريهِ عليكَ، غير مُبتدِعٍ لِما يحصلُ منكَ"[3].

التّعبيرُ عنِ القرآن باسم الإشارة:

ظهرَ شأنُه حتّى كـأنّـه شخـصٌ يُشار إليه

ذكرَ النّظمُ الكريمُ أنّهم أشاروا إلى القرآن باسم الإشارةِ هذا فقالوا: ﴿ٱئۡتِ بِقُرۡءَانٍ غَيۡرِ هَٰذَآ﴾، وأنّهم أعرضوا عن تَسميتِهِ بلفظ القرآنِ أو الكتابِ؛ وذلك لبيان أنّهم أرادوا التّقليلَ من شأنِهِ، كما أنّ التّعبيرَ باسم الإشارةِ يدلُّ على ظهورِهِ وشدّةِ حضورِهِ، بحيث إنّه يُشارُ إليه، فأنزلوه منزلةَ المشارِ إليه القريبِ المشخّصِ.

دَلالةُ طلبِ المشركين التَّغييرَ والتّبديلَ:

كما جاء في: ﴿ٱئۡتِ بِقُرۡءَانٍ غَيۡرِ هَٰذَآ أَوۡ بَدِّلۡهُۚ﴾، فطلبُ المشركينَ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/87.
(2) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 2/229.
(3) القشيريّ، لطائف الإشارات: 2/84.

من رسولِ اللّه ﷺ أن يأتيَ بقرآنٍ غيرِ الَّذي يتلوه عليهم تصريحٌ منهم بأنَّ هذا القرآنَ غيرُ مُنزَّلٍ من عندِ اللّه، وأنَّ الَّذي جاءَ به غيرُ مُرسَلٍ منَ اللّه، وهذا يعني بحسب زعمِهم أنَّ بقدرةِ محمَّدٍ ﷺ أن يأتيَ بقرآنٍ آخرَ، يُناسبُ أهواءَهم، ويُحقِّقُ أحلامَهم، كما أنّ في اقتراحِهم ذلك يفصحُ عن خبثِ مقصدِهم، فإنّه إنْ وُجِدَ تبديلٌ وتغييرٌ؛ فإمّا أن يُهلِكَه اللّه تعالى - وحاشاه ذلك - فهو لا محالةَ ينجو منه، أو لا يُهلِكَه فيسخَروا منه، ويَجعلوا التَّبديلَ والتَّغييرَ حُجَّةً عليه وتَصحيحًا لافترائِه على اللّه[1].

طلبُ التَّغييرِ وَفقَ أهواءِ البشرِ كفرٌ بالوحي، وطلبُ الإهلاكِ للنّبيِّ، والسّخريةُ منه

ولفظُ التّبديلِ "يحتملُ التّبديلَ في الذّاتِ والتّبديلَ في الصّفات، يعني: اجعلْ آيةَ عذابٍ مكانَ آيةِ رحمةٍ، فإن قيل: يَلزَمُ على الأوّلِ التّكرارُ في قوله: ﴿ٱئۡتِ بِقُرۡءَانٍ غَيۡرِ هَٰذَآ﴾، فالجوابُ أنّ معنى الأوّل: ائتِ بقرآنٍ غيره مع بقائِه، أو بَدِّله بأنْ تُزيلَ ذاتَه بالكلّيّة، فيتغاير المطلوبان"[2].

زيَّنَ المشركونَ مكرَهم وكيدَهم، وغلَّفوه بما لا يُفصِحُ عن خبيئتِه، فجاءَ اقتراحُهمُ التَّبديلَ والتَّغييرَ طمعًا منهم واختبارًا للحالِ الَّتي يصيرُ إليها ذاكَ المقترَح، وذلكَ أنَّه إنْ وُجِدَ منه تبديلٌ وتغييرٌ؛ فإمّا أن يُهلِكَه اللّه تعالى - وحاشاه ذلك - فهو لا محالةَ ينجو منه، أو لا يُهلِكَه فيسخَروا منه، ويَجعلوا التَّبديلَ والتَّغييرَ حُجَّةً عليه وتَصحيحًا لافترائِه على اللّه[3].

غرضُهم في طلب التّبديلِ؛ إمّا إهلاكُ الله لنبيِّه ﷺ وإمّا السُّخريةُ منه

وفي طلبِ المشركينَ من رسولِ اللّه ﷺ أن يأتيَ بقرآنٍ غيرِ هذا الَّذي يتلوه عليهم، تصريحٌ منهم بأنَّ هذا القرآنَ غيرُ مُنزَّلٍ من عندِ اللّه، وأنَّ الَّذي جاءَ به غيرُ مُرسَلٍ منَ اللّه، وهذا يعني - كما

طلبُ التَّغييرِ وَفقَ أهواءِ البشرِ تقزيمٌ للأثَر، وتحريفٌ للخبرِ

(1) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 2/229.
(2) السّمين الحلبيّ، الدّرُّ المصون: 6/163.
(3) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 2/229.

هو في زعمِهم - أنَّ بقدرةِ محمَّدٍ ﷺ أن يأتيَ بقرآنٍ آخرَ، يُناسبُ أهواءَهم، ويُحقِّقُ أحلامَهم، ولهذا جاءَ الجوابُ على مقترحِهم الفاسدِ بجوابَين: أحدُهما: ما أمرَ به رسولَه ﷺ بقولِه: ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآيِٕ نَفْسِيٓۖ﴾، وهو جوابٌ صريحٌ عن اقتراحِهم، وثانيهما: ما لقَّنَه إيّاه بقولِه: ﴿قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ﴾ [يونس: 16]، وهو جوابٌ عن لازمِ كلامِهم[1].

توجيهُ المعنَى في: ﴿أَوْ بَدِّلْهُۚ﴾:

يدلُّ التّبديلُ الّذي طلبوه في قولِه تعالى: ﴿أَوْ بَدِّلْهُۚ﴾ على أمرَين اثنين: الأوَّلُ: الإتيانُ بغيرِه؛ أي: بقرآنٍ آخَر، وهذا غيرُ مقدورٍ عليه للإنسان. والثّاني: ما كانَ تحتَ قُدرةِ الإنسان، وهو أن يضعَ مكانَ آيةِ عذابٍ آيةَ رحمةٍ ممّا أُنزلَ، وما كان على شاكلةِ ذلك، وأن يُسقِطَ ذكرَ الآلهةِ الّتي يعبدونها من دونِ اللّه.

التّبديلُ إمّا بغيرِه وإمّا بتغييرِه، وكلاهما مُمتنِعٌ على رسولِ الله ﷺ

وإذا كانَ التّبديلُ - الّذي هو تغييرُ كلماتٍ منه، أو إحلالُ آيةٍ مكانَ آية وَفقَ أهوائِهم - مُمتنعًا كان إبطالُ جميعِه والإتيانُ بغيرِه أَجدَرَ بالامتناع، ولذلكَ جاءَ الجوابُ بأَبلغِ صِيَغِ النَّفي بقولِه: ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ﴾؛ أي: ما يكونُ التَّبديلُ مِلكًا لي[2].

بلاغةُ فصلِ الجملةِ في: ﴿قُلْ﴾:

الجملةُ في قوله تعالى: ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ﴾ مُستأنَفَةٌ استئنافًا بيانيًّا؛ "لأنّ ما تقدّمَ يثيرُ سؤالًا مفاده: فماذا قالَ لهم عندما طلبوا ذلك، فقيل: قال له: ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ﴾.

تلقينُ الجوابِ أبلغُ في الإيفاء بالبيان

سرُّ التّعبيرِ بفعل الأمرِ: ﴿قُلْ﴾:

في قوله عزّ ذكرُه: ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ﴾ افتتحَ النّظمُ الجليلُ الآيةَ بفعل الأمرِ (قل)، فآثرَ إخبارَهم بهذا الأسلوبِ دون أن يقولَ: (إنّ

افتتاحُ الخطابِ بفعلِ القولِ تنبيهٌ على أهمّيّة المُقال

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/117 - 118.

(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/228 - 229، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/118.

تبديلَ القرآن ليس لي) إيماءً إلى أنّ الوحيَ تكفّلَ بالرّدِّ على اقتراحِهم ذلك، وهذا يصرّحُ بكون النّبيِّ ﷺ ليس له حتّى أن يجيبَ على طلبِهم ذلك، فيكون هذا نفيًا أن يكون القرآنُ من قوله من باب أولى. ويُضافُ إلى ذلك الاهتمام بمضمون الخطابِ المُفتتَح بفعل القولِ؛ حيث إنّ ذلك يقتضي التّكرارَ للمقول، مرّةً بالوحي، ومرّةً أخرى بامتثال النّبيِّ ﷺ بأنْ سيقولُ لهم ذلك حالَ مخاطبتِهم به مجدّدًا.

دلالةُ النّفي في: ﴿مَا يَكُونُ لِيٓ﴾:

جاء النّفيُ في قوله تعالى: ﴿مَا يَكُونُ لِيٓ﴾ بصيغة الكونِ المنفيِّ للدّلالة على المبالغة في النّفي، "أي: ما يصحُّ وما يستقيمُ لي، ولا يمكنني أصلاً"[1]، وهو أبلغُ من أن يقولَ: (لن أبدّلَه، أو لا أستطيعُ إبدالَه)؛ لأنّه نفى وجودَ الاستحقاقِ والقدرةِ من أصل، بمعنى: أنّ التّبديلَ لم يكن ضمنَ ملكي وقدرتي.

نفيُ الإمكانِ والقدرةِ على الفعل أبلغُ من نفي الفعلِ

دلالةُ تقديمِ شبه الجملةِ:

قدّم النّظمُ الكريمُ في قوله تعالى: ﴿مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أُبَدِّلَهُۥ﴾ المسندَ شبه الجملة على المسند إليه للدّلالة على الاختصاص، فالنّفيُ بوجود القدرةِ والإمكانِ مختصٌّ بالمتكلِّم؛ مبالغةٌ في نفي هذه الصّفةِ والقدرةِ عنه، فلمّا طالبوه بالتّغييرِ والتّبديلِ بالغَ لهم في نفي قدرتِه عن ذلك؛ تأكيدًا لكون ذلك من حقّ اللّه تعالى وحدَه.

تخصيصُ النّفي أبلغُ في الدّلالة على الخلوّ منَ القدرةِ على التّغييرِ

سرُّ الاكتفاءِ بنفي التّبديلِ:

في قوله تعالى: ﴿قُلۡ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أُبَدِّلَهُۥٓ﴾ التَّبديلُ أَقرَبُ إلى الإمكانِ منَ المجيءِ بقرآنٍ غيرِ هذا القرآنِ، فجوابُهُ هنا عنِ الأَسهلِ يكونُ جَوابًا عنِ الأَصعَبِ، فلمّا أنْ نَفى ﷺ الأَسهلَ، عُلِمَ بطريقِ المخالفةِ أنَّ الأصعبَ أوقعُ في النَّفيِ وأقربُ لإجابةِ المُحال المُحال[2].

كلُّ أمرٍ منفيٍّ بنصٍّ منَ القرآن فهو ذو أهمّيّةٍ ومكانٍ

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/158.

(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/225.

علّةُ نَفيِ التَّبديلِ دونَ التَّغيير:

نَفيُ التَّبديلِ المقدورِ عليه، دلالةٌ على امتناعِه عنِ الرَّسولِ ﷺ

جاءَ نَفيُ التَّبديلِ الواردِ في قولِه تعالى: ﴿مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أُبَدِّلَهُۥ﴾، بعدَ قولِه تعالى: ﴿ٱئۡتِ بِقُرۡءَانٍ غَيۡرِ هَٰذَآ﴾؛ ليدُلَّ على أنَّ الإتيانَ بقرآنٍ غيرِ هذا، لا قدرةَ للإنسانِ على القيامِ به، فالقرآنُ الكريمُ وحيٌ منَ اللّه، فأنَّى لرسولِ اللّه ﷺ أن يأتيَ بقرآنٍ غيرِه، وأمّا التَّبديلُ بوضعِ آيةٍ مكانَ آية، أو تبديل بعضِ تراكيبِه أو كلماتٍ منه، وإنْ كانَ هذا مُمتنِعًا، لكنَّ الإتيانَ به متاحٌ وداخلٌ تحتَ قدرةِ الإنسانِ من حيثُ مُقارنتُه بالتَّغييرِ والإبدالِ الكُلِّيِّ، ولذلكَ جاءَ النَّفيُ بقولِه: ﴿مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلۡقَآيِٕ نَفۡسِيٓۖ﴾ على أنَّه إذا كان هذا مُمتَنِعًا كانَ إبطالُ جميعِه والإتيانُ بغيرِه أَجدَرَ بالامتناع[1]. وقَصرَ الجوابَ ببيانِ امتناعِ ما اقترحوهُ على اقتراحِهمُ الثّاني للإيذانِ بأنَّ استحالةَ ما اقترحوه أوَّلًا، منَ الظُّهورِ بحيث لا حاجةَ إلى بيانِها؛ لأنَّ التَّصدِّيَ لمثل ما طلبوُه من أَصلِه يُعدُّ من قَبيلِ المجاراةِ مع السُّفهاءِ في سفاهتِهم، ومُداراتِهم فيما لا سبيلَ إلى مُداراتِهم به، ولذلكَ جاءَ أمرُ اللّه له بقولِه: ﴿قُلۡ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلۡقَآيِٕ نَفۡسِيٓۖ﴾[2].

نكتةُ العدولِ إلى المصدرِ المؤوّلِ: ﴿أَنۡ أُبَدِّلَهُۥ﴾:

تجدّدُ الخلوّ منَ القدرةِ على التّبديلِ مبالغةً في النّفي

عبّر النّظمُ العزيزُ بالمصدر المؤوّلِ في قوله جلّ شأنُه: ﴿مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أُبَدِّلَهُۥ﴾ دون المصدرِ الصّريحِ، فلم يقُل: (ما يكون لي تبديلُه)؛ للدّلالة على أنّ ذلك مُمتنِعٌ عنه امتناعًا دائمًا مُستمرًّا، وذلك لِما في الفعل من دلالةٍ على الزّمن المتجدِّدِ، وهذا أبلغُ في نفي إمكانِ التّبديلِ من نفسِه.

(1) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 2/328 - 229، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/118.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/640.

دلالةُ التّعبيرِ بالتّبديلِ في: ﴿أَنۡ أُبَدِّلَهُۥ﴾:

التَّبديلُ مُمتنِعٌ عنِ الرَّسول ﷺ جزئيًّا كان أو كُلِّيًّا

التَّبديلُ يَشملُ الإتيانَ بغيرِ القرآنِ الموحَى به، وتبديلَ بعضِ كلماتِه أو تراكيبِه أو أيَّ تغييرٍ جزئيٍّ فيه، "بتغيير ترتيبِه، بأن تجعلَ مكانَ الآيةِ المشتملةِ على ما نستبعدُه منَ البعثِ والحسابِ والجزاءِ، وما نَكرهُهُ من ذمّ آلهتِنا، ومعايبِها، والوعيدِ على عبادتِها، آيةً آخرى خاليةً عنها"[1]، ولكنْ لَمّا كانَ كلاهما مُمتنِعًا تمامَ الامتناعِ، عبَّر عنه بقولِه: ﴿مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أُبَدِّلَهُۥ﴾؛ أي: ما يكونُ التَّبديلُ مِلْكًا بيديّ، وما يَصِحُّ وما يستقيمُ لي، فما أنا إلّا مُبلِّغٌ عن ربِّي[2].

دَلالةُ ﴿مِن﴾:

التَّبديلُ والنَّسخُ مشيئةُ اللهِ تعالى، مراعاةً لمصالحِ العباد

عبّرَ النّظمُ الجليلُ بنفي أن يكونَ ابتداءُ تبديلِ ما في القرآن من جهة النّبيِّ ﷺ بقوله تعالى: ﴿مِن تِلۡقَآيِٕ نَفۡسِيٓۖ﴾، فأدخلَ (مِن) الابتدائيّة لنفي كون التّبديلِ بادئًا منه؛ لأنّ التّبديلَ واقعٌ في القرآن بالنّسخ، فهذا التّبديلُ ابتدأَ من جهة الوحي، فإمكانُ وقوعِ التّبديلِ بالنّسخ واردٌ، ولكنّه ليس إلّا منَ الوحي.

فقولُه تعالى: ﴿مِن تِلۡقَآيِٕ نَفۡسِيٓۖ﴾ تأكَّدَ معناه بقولِه تعالى: ﴿إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّۖ﴾؛ أي: لا آتي ولا أَذَرُ شيئًا – من نحوِ ذلكَ الَّذي تَطلُبون – إلّا مُتَّبِعًا لوحي اللّه وأوامرِه، إنْ نُسِختْ آيةٌ تَبعتُ النَّسخَ، وإنْ بُدِّلَتْ آيةٌ مكانَ آيةٍ تَبعتُ التَّبديل، وليسَ إليَّ تبديلٌ ولا نَسخٌ، فالكُلُّ بمشيئةِ اللّه تعالى وأمرِه[3]، وفي ذلك إشارةٌ واضحةٌ إلى الرَّدِّ عليهم، في إنكارِ تبديلِ الَّذي أنزلَه بالنَّسخِ بحسَبِ المصالحِ، كما أنزلَ أصلَه لمصلحةِ العبادِ مع نَسخِ الشَّرائعِ الماضيةِ به[4].

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/128.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/640، وابن عاشور، التَّحرير والتّنوير: 11/118.
(3) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 2/229.
(4) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 9/88.

دَلالةُ لفظِ المصدرِ ﴿تِلۡقَآيِٕ﴾، وسرُّ إضافتِه:

الرَّسولُ ﷺ هو جهةُ البلاغِ والتّلقّي لا جهةُ الإرسالِ والتّصرُّفِ

في قولِه ﷻ: ﴿مِن تِلۡقَآيِٕ نَفۡسِيٓۖ﴾ جاءَ ﴿تِلۡقَآيِٕ﴾ بصيغةِ المصدرِ على وزن تِفْعال، وقياسُ وزنِ التِّفعالِ الشّائع، هو فتحُ التّاء، وقد شذَّ عن ذلك تِلقاءٌ، وتِبيانٌ، وتِمثالٌ، بمعنَى اللِّقاءِ والبَيانِ والمُثولِ، فجاءَتْ بكسرِ التّاءِ لا رابعَ لها، ثمَّ أُطلِقَ التِّلقاءُ على جهة التَّلاقي، ثمَّ أُطلِقَ على الجهةِ والمكانِ مُطلَقًا، كقولِه تعالى: ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلۡقَآءَ مَدۡيَنَ﴾ [القَصص: 22]، فمعنَى ﴿مِن تِلۡقَآيِٕ نَفۡسِيٓۖ﴾: من جهة نَفسِي. وهذا المجرورُ ﴿مِن تِلۡقَآيِٕ﴾ في موضعِ الحالِ المؤكِّدةِ لجملة: ﴿مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أُبَدِّلَهُۥ﴾، وهي المُسمّاةُ مُؤكِّدةً لغيرِها، إذِ التَّبديلُ لا يكونُ إلّا من فعلِ المُبدِلِ، فليسَتْ تلكَ الحالُ للتَّقييدِ، إذ لا يجوزُ فَرضُ أنْ يُبَدَّلَ من تِلقاءِ اللّه تعالى التَّبديلَ الَّذي يرَوْنَه، فالمعنَى أنَّ الرّسولَ مُبلِّغٌ لا مُتَصرِّفٌ ﷺ[1].

الموقعُ البيانيُّ للجملة في: ﴿إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّۖ﴾:

علّةُ الإمكانِ ليس امتناعَ القدرةِ، بل محضَ الاتّباعِ

الجملةُ في قوله تعالى: ﴿إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّۖ﴾ استئنافيّةٌ استئنافًا تعليليًّا، فلمّا نفى قدرتَه وإمكانَه على التّبديل بقوله: ﴿مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أُبَدِّلَهُۥ﴾ أتبعَ ذلك ببيان علّته؛ " أي: ما أتبعُ إلّا الوحي، وليس لي تصرّفٌ بتغيير"[2].

دلالةُ النّفي بـ ﴿إِنۡ﴾:

حشدُ المؤكِّدات لقطعِ الأوهامِ وسيّءِ الظّنونِ

آثرَ النّظمُ الكريمُ النّفيَ بحرف النّفي ﴿إِنۡ﴾ في قوله جلّ شأنُه: ﴿إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّۖ﴾؛ لأنّه أبلغُ في النّفي، ولذا غلبَ مجيؤه مع (إلّا) للحصر المرادِ منه تأكيد مضمونِ الكلامِ؛ "أي: ما أتّبِعُ في شيءٍ ممّا آتي وأذَرُ"[3].

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/118.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/118.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/128.

بلاغةُ المجاز في التّعبير بالفعل ﴿أَتَّبِعُ﴾:

الاتّباعُ يقتضي الاقتصارَ على التّبليغ

عبّرَ النّظمُ الجليلُ بالفعل ﴿أَتَّبِعُ﴾ في قوله: ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾؛ للدّلالة على أنّه إنّما يبلِّغُ ما وصلَه منَ الوحي ليس أكثرَ من ذلك، والاتّباعُ هنا "مجازٌ في عدم التّصرُّفِ، بجامعِ مُشابَهَةِ ذلك لِلاتّباعِ الّذي هو عدمُ تجاوزِ الاقتفاءِ في المَشي"[1].

بلاغةُ الحصرِ: ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾:

قطعُ آمالِهم بتأكيد اقتصارِهِ على الاتّباع

أكّدَ النّظمُ الجليلُ اقتصارَ النّبيِّ ﷺ على التّبليغ بأسلوب الحصرِ في قوله تعالى: ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾، فاقتضَت "(إن) النّافيةُ وأداةُ الاستثناءِ قَصرَ تعلُّقِ الاتّباعِ على ما أوحى اللّه وهو قَصرٌ إضافيٌّ، أيْ: لا أُبَلِّغُ إلّا ما أوحيَ إليَّ دونَ أن يكونَ المُتَّبَعُ شيئًا مُختَرَعًا حتّى أتَصرَّفَ فيه بالتّغييرِ والتّبديلِ، وقرينةُ كونِهِ إضافيًّا وقوعُهُ جوابًا لردِّ اقتراحِهِم"[2]، وهو قَصرُ قلبٍ لأنّهم ظنّوا عكسَ ذلك، وباعتبار طرفي القصرِ هو قصرُ موصوفٍ على صفةٍ؛ حيث قَصرَ نفسَه على صفة الاتّباعِ للمبالغة.

دلالةُ ﴿مَا﴾، وعلّةُ التّعبيرِ بـ﴿يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾:

تضمينُ الرّدِّ تصريحًا بكون القرآنِ وحيَ حقٍّ ثابتٍ

عبّرَ النّظمُ الجليلُ في ما حكاه عنِ النّبيِّ ﷺ عنِ القرآن بالاسم الموصول ﴿مَا﴾، فقال تبارك اسمه: ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾؛ تصريحًا بأنّ القرآنَ الكريمَ وحيٌ منَ اللّه تعالى، وأنّه لا يملكُ التّصرّفَ فيه من جهته، وهذا المعنى سيفوتُ لو قيل: (إن أتّبعُ إلّا القرآن).

دلالةُ التّعبيرِ بالفعل المضارع ﴿يُوحَىٰٓ﴾:

الإصرارُ على الاتّباعِ وعدمِ الانفكاكِ عنه تأييسًا للمشركين

آثرَ النّظمُ الكريمُ التّعبيرَ بالفعل المضارع في قوله: ﴿يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾؛ للدّلالة على أنّه دائمُ الاتّباع لا يتوقّفُ بحالٍ، وهذا أبلغُ في إظهار

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/119.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/119.

امتناعِه عنِ اتّباعهم فيما طلبوا، فهو مُصِرٌّ في كلّ حين على متابعة هذا الوحي الكريمِ، لا ينفكُّ عنه.

دلالةُ التّعبيرِ بالفعل المبنيِّ للمفعول: ﴿يُوحَىٰٓ﴾:

الوحيُ جديرٌ بالاتّباع لذاته، بلا نظرٍ لكونه موحًى بِهِ من معيّن

آثرَ النّظمُ الجليلُ التّعبيرَ بالفعل المبنيِّ للمفعول في قوله جلّ شأنُه: ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾؛ اهتمامًا بالموحَى به لا بالنّظر لكونه من معيّن؛ إذ هو جديرٌ بالاتّباع لذاته، لكونه كافيًا في بيان الحقّ لِما فيه منَ البيان. وفي هذا منَ المدح والثّناء على القرآن ما يردُّ به عليهم ضمنًا لمّا طلبوا تغييرَهُ وتبديلَهُ، فكأنّه قال: أَنا أتّبعُه لأنّه جديرٌ بالاتّباع فماذا سيكون أفضل منه؟! كما أنّ عدمَ التّعبيرِ عنِ الفاعل اكتفاءً بمعرفته أدلُّ على الإيجاز.

دلالةُ التّقييدِ بشبهِ الجملةِ: ﴿إِلَيَّ﴾:

الثّقةُ بصدقِ الوحي أصلُها ثقةُ الرّسولِ به

قيّدَ النّظمُ الكريمُ الاتّباعَ الّذي عبّرَ عنه النّبيُّ ﷺ في ما حكاه عنه ﷻ بقوله: ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ بشبه الجملةِ ﴿إِلَيَّ﴾، ولم يقُل: (إنْ أتّبعُ إلّا ما يوحَى)؛ لبيان أنّه مأمورٌ باتّباع الوحي الّذي ينزلُ إليه خاصّةً، فلو لم يكن هذا القيدُ لدلَّ على أنّه يتّبعُ كلَّ ما أوحِي به، فيشمل كلَّ الرّسالاتِ السّابقةِ، وهذا ليس المرادَ في السّياق، كما أنّ فيه تأكيدًا على أنّه واعٍ ومدركٌ لِما يوحَى به إليه، ردًّا على ما افتروه عليه منَ الجنونِ والشِّعرِ والسّحرِ.

الموقعُ البيانيُّ للجملة: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ﴾:

تعليلُ الثّباتِ على الوحي بالخوف منَ الله تعالى

جاءَتِ الجملةُ في قوله جلّ شأنُه: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ مُستأنَفةً استئنافاً تعليليًّا، كأنّه إجابةٌ عن سؤالٍ يثيرُه السّياقُ، فيقال: لمَ تتّبِعُ ما يوحَى ولا تأتِ بقرآنٍ غيرِه؟ فقيل: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ﴾، فالجملةُ "تعليلٌ لمضمونِ ما قبله من امتناعِ التّبديلِ واقتصارِ أمرِهِ ﷺ على اتّباعِ الوحي؛ أي: أخافُ إنْ عصيتُهُ تعالى بتعاطِي ما ليس لي منَ التّبديلِ من تلقاءِ نفسي والإعراضِ عنِ اتّباعِ

الوحي عذابَ يَومٍ عَظِيمٍ"[1]. فلمّا كانت تعليليّةً اقتضى ذلك أن تأتيَ مفصولةً بلا عطفٍ.

دلالةُ التّعبيرِ بالجملة الاسميّةِ المؤكَّدةِ في: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ﴾، ومجيءُ المسند فعلًا:

خوفُ المقرّبين من ربّ العالمين ثابتٌ مُتجدِّدٌ

افتتحَ النّظمُ الكريمُ الجملةَ الاسميّةَ الدّالّةَ على التّأكيد بـ (إنّ) المؤكِّدة في قوله تعالى: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾؛ لزيادة تأكيدِ مضمونِها، وجاء المسندُ فيها فعلًا مضارعًا ﴿أَخَافُ﴾؛ للدّلالة على تجدّد المعنى بالإضافة إلى ثباتِهِ المدلولِ عليه باسميّةِ الجملةِ.

دَلالةُ التّعبيرِ بالفعل المضارعِ في: ﴿أَخَافُ﴾:

وجلُ قلوبِ الأنبياءِ والصّالحين دائمٌ لا ينفكّون عنه بحالٍ

جاءَتْ صيغةُ المضارعِ في قولِه تعالى: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي﴾ على سبيلِ التَّجدُّدِ والاستمرارِ؛ أي: تجدُّدِ واستمرارِ الخوفِ من عصيانِ اللّه [2]ﷻ، وهو "تعليلٌ لمضمونِ ما قبلَهُ من امتناع التّبديلِ واقتصار أمرِه ﷺ على اتّباعِ الوحي؛ أي: أخافُ إن عصيتُه تعالى بتعاطِي ما ليس لي منَ التّبديل من تلقاءِ نفسي، والإعراضِ عن اتّباعِ الوحي، عذابَ يَومٍ عَظِيمٍ"[3].

دلالةُ الجملة الاعتراضيَّة بين الفعلِ ومفعولِهِ:

بيانُ خطورةِ عصيانِ اللّه، وخصوصًا في المساس بالقرآنِ وقداستِه

دلَّتْ جملةُ ﴿إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي﴾ مع اعتراضِها بينَ ﴿أَخَافُ﴾ و﴿عَذَابَ﴾، على بيانِ خُطورةِ الوقوعِ في معصيةِ اللّه، والتَّنفيرِ من عِصيانِ اللّه تعالى؛ لأنَّه سببُ العذابِ يومَ القيامة، والمرادُ هنا على وَجهِ الخصوصِ ما يتعلَّقُ بالسِّياق؛ أي: عصيتُه بالإتيانِ بقرآنٍ آخَرَ، وتبديلِه من تِلقاءِ نَفسي[4].

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/129.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 9/88.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/129.
(4) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/641، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/119.

دلالةُ التّعبيرِ بـ﴿إِنْ﴾ الشّرطيّة:

المعصيةُ في حقِّ النّبيِّ ﷺ تُذكَرُ على سبيل الفرضِ

آثرَ النّظمُ الكريمُ في قوله عزّ ذكرُه: ﴿إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي﴾ أن يأتي الشّرطُ بـ (إن) دون (إذا)؛ لأنّه أراد ذكرَ ذلك من باب الفرض؛ إذ لا يُتصوَّرُ منَ النّبيّ ﷺ ذلك إلّا افتراضًا، إذ الشّرطيّةُ المبدوءةُ بـ(إنْ) يعبَّرُ بها عمّا شأنه ألّا يقعَ[1]..

سرُّ إيثارِ التّعبيرِ بالرُّبوبيَّةِ مع الإضافةِ: ﴿رَبِّي﴾:

تهويلُ عصيانِ اللهِ تعالى، وإظهارُ نزاهةِ الرّسولِ ﷺ عنِ المعصية

آثرَ النّظمُ الجليلُ في قولِه تعالى: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي﴾ التّعبيرَ بعنوانِ الرَّبوبيَّةِ مُسندةً للضَّميرِ المَعنيِّ به رسولُ اللّه ﷺ؛ لتهويلِ أمرِ العِصيان، وإظهارِ كمالِ نَزاهتِه ﷺ[2]، وفي ذكر الرّبِّ في سياق المعصيةِ إظهارٌ إلى أنّ خوفَ المعصيةِ صادرٌ منَ الحياء، فكيف يُعصَى مَن سَبَقَ منه الإحسانُ والتّفضّلُ بجميل الإنعامِ.

فائدةُ التّعبيرِ بـ﴿إِنْ﴾:

النّبيُّ ﷺ محفوظٌ منَ العصيان

وقوله: "﴿إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي﴾؛ بمعنى: أيُّ عصيانٍ كان، عذابُ يومٍ عظيمِ الشّأنِ، وهو يومُ القيامةِ، فكيف إذا عصيتُه بتبديل كلامِهِ اتّباعًا لأهوائِكم؟ وقوله: إن عصيتُ من باب الفرضِ، إذ الشّرطيّة المبدوءة بـ (إنْ) يعبّرُ بها عمّا شأنُه ألّا يقعَ"[3].

علّةُ إيرادِ: ﴿يَوْمٍ﴾ بالتّنكير، ووصفه بـ﴿عَظِيمٍ﴾:

تفخيمُ شأنِ يومِ القيامةِ، وتهويلُ عذابِه أدلُّ على بيان الخوفِ

إيرادُ اليومِ بالتَّنوينِ لتفخيمِ شأنِه وخطورةِ أحوالِه، ووصفُه بالعِظَمِ لتهويلِ ما فيه منَ العذابِ وتفظيعِ ما يَنالُ المُكذِّبينَ والمعانِدينَ والَّذينَ يُغيِّرونَ في دينِ اللّه وأحكامِه، ويبدِّلونَ به ما ليس منه[4].

---

(1) رشيد رضا، تفسير المنار: 11/262.

(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/641.

(3) رشيد رضا، تفسير المنار: 11/262.

(4) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/641.

دلالةُ التّشابهِ اللّفظيِّ بين آيتي: يونس، والأحقاف:

بيانُ حالِ الكفرةِ الّذين لا يرجون لقاءَ الله، مع الوحي المنزَلِ

المتشابهُ بين قولِه: ﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٖ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا ٱئۡتِ بِقُرۡءَانٍ غَيۡرِ هَٰذَآ أَوۡ بَدِّلۡهُۚ﴾، وقولِه تعالى: ﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٖ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمۡ هَٰذَا سِحۡرٞ مُّبِينٌ ٧﴾ [الأحقاف: 7]، حيث جاءَ في سورةِ يونُسَ كما في الأحقافِ تلاوةُ الآياتِ البيِّناتِ على الكافرين، وهمُ الَّذين لا يَرجونَ لقاءَ اللّه؛ أي: الَّذين كذَّبوا بالبعثِ وكفروا بلقاءِ اللّه، كما في (يونس)، وهم الَّذين قالَ اللّه عنهم في سورة الأحقاف: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمۡ﴾ [الأحقاف: 7]؛ أي: هم كافرونَ بالحقِّ الَّذي جاءَهُم من عندِ اللّه، ولذلك طلبوا من رسولِ اللّه ﷺ أن يأتيَهم بقرآنٍ آخَرَ غيرِ هذا القرآنِ الَّذي يتلو عليهم منه آياتِ اللّه البيِّناتِ، أو أن يُبدِّلَ هذا القرآنَ بكامِله، أو يُبدِّلَ ما فيه من آياتٍ بما يناسبُ عقيدَتَهمُ الوثنيَّةَ، ولا يُحرِّمُ عليهمُ الحرامَ؛ بل يحلُّه لهم، ولا يُحلُّ لهم الحلالَ؛ بل يُحرِّمُه عليهم.

وهذا يُعدُّ منهم طعنًا بالقرآنِ وآياتِه البيِّناتِ وإلّا ما طلبوا تغييرَه أو تبديلَه، وهذا مُؤدَّى ما قالوه في سورة الأحقاف: ﴿هَٰذَا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ٧﴾ [الأحقاف: 7]، فهذا كذلك يُعدُّ طعنًا بالقرآن، ومُؤدَّى ذلكَ كلِّه عندَهم هو الطَّعنُ في نُبوَّةِ النَّبيِّ ﷺ حكاها اللّه تعالى في الآيتَينِ بأسلوبَينِ مختلفين، ولكنَّ مؤدّيهما واحدٌ، وأجابَ عنها ﷺ خيرَ الجواب، ففي (يونُس) قالَ تعالى موجِّهًا رسولَه ﷺ بالجوابِ الحقِّ الفاصلِ: ﴿قُلۡ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلۡقَآيِٕ نَفۡسِيٓۖ إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّۖ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾، وقالَ في (الأحقاف): ﴿قُلۡ إِنِ ٱفۡتَرَيۡتُهُۥ فَلَا تَمۡلِكُونَ لِي مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗاۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِۚ كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدَۢا بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡۖ﴾ [الأحقاف: 8]، ثمَّ قالَ بعد ذلك: ﴿وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ مُّبِينٞ ٩﴾ [الأحقاف: 9][1].

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/223 - 224.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

التِّلاوة و القراءة:

التِّلاوةُ لا تكونُ إلّا لكلمتَينِ فصاعدًا، والقراءةُ تكونُ للكلمةِ الواحدة، يُقالُ: قرأَ فلانٌ اسمَه، ولا يُقالُ: تلا فلانٌ اسمَه؛ وذلكَ لأنَّ أصلَ التِّلاوةِ إتباعُ الشَّيءِ الشَّيءَ، يُقالُ: تلاه: إذا تبعَه، فتكونُ التِّلاوةُ في الكلماتِ يتبعُ بعضُها بعضًا، ولا تكونُ في الكلمةِ الواحدة، إذ لا يَصِحُّ فيه التُّلوّ. وكذلكَ فإنَّ التِّلاوةَ تختصُّ باتِّباعِ كُتُبِ اللّه المنزَّلةِ تارةً بالقراءة وتارةً بالارتِسام، لِما فيها من أَمرٍ ونَهيٍ وترغيبٍ وتَرهيبٍ، أو ما يُتوهَّمُ فيه ذلك، وهي أخصُّ منَ القراءة، فكلُّ تلاوةٍ قراءةٌ، وليس كلُّ قراءةٍ تلاوةً، فقولُه تعالى: ﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا﴾ فهذه بالقراءة، وقولُه تعالى: ﴿يَتۡلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾ [البقرة: 121] المرادُ به الاتِّباعُ له بالعلمِ والعملِ، وإنَّما استَعملَ التِّلاوةَ في قولِه تعالى: ﴿وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتۡلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلۡكِ سُلَيۡمَٰنَۖ﴾ [البقرة: 102] لِما كانَ يَزعُمُ الشَّياطينُ أنَّ ما يتلونَه هو من كتُبِ اللّه[1].

التِّلاوةُ أخصُّ منَ القراءة، وكلُّ تلاوةٍ قراءةٌ، وليس كلُّ قراءةٍ تلاوةً

البيِّنات والهُدَى:

البيّناتُ جمعُ بيّنة، وهي عند أهلِ الاصطلاحِ "الدّلالةُ الواضحةُ الكافيةُ عقلًا لإتمام الحجّةِ"، وقد وردَ في القرآن قولُه تعالى: ﴿لِّيَهۡلِكَ مَنۡ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٖ وَيَحۡيَىٰ مَنۡ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٖۗ﴾ [الأنفال: 42]، وجاء عند ابن كثيرٍ في قوله تعالى: ﴿وَبَيِّنَٰتٖ﴾: "ودلائل وحجج بيّنة واضحة جليّة، لِمن فهمَها وتدبّرَها، دالّة على صحّة ما جاء به منَ الهدى المنافي للضّلالِ، والرّشدِ المخالفِ للغيّ"[2]، والبيانُ في الحقيقة: إظهارُ المعنَى للنَّفسِ كائنًا ما كان، فهو في الحقيقةِ من قَبيلِ القول، وسُمِّيَ

البيِّناتُ الدَّلالاتُ الكاشفةُ عنِ المرادِ، والهُدَى بيانُ طريقِ الرُّشدِ

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 140، والرّاغب، المفردات: (تلو)، والكفويّ، الكلّيّات: 2/95، وهنري لامنس، الفرائد، ص: 46.

(2) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 1/502.

الكلامُ بيانًا لكشفِه عنِ المعنَى الَّذي يُرادُ إظهارُه. والبيِّنةُ: الدَّلالةُ الواضحةُ عقليَّةً كانت أو مَحسوسةً، وأمّا الهُدَى فهو بيانُ طريقِ الرُّشدِ ليُسلَكَ دونَ طريقِ الغيِّ هذا إذا أُطلِقَ، فإذا قُيِّدَ استُعمِلَ في غيرِه، فقيل: هُدِيَ إلى النّارِ وغيرِها[1].

(يَرجو) و(يتمنَّى):

الرَّجاءُ: الأمَل، رَجَوتُ الأمرَ أَرجوه رجاءً، ثمَّ يُتَّسعُ في ذلك، فربَّما يُعبَّرُ به في مقامِ الخوف، ويمكنُ أن يقعَ بمعنَى المبالاة، فيُقال: ما أرجو؛ أي: ما أُبالي. ويمكنُ أن يعبَّرَ عنِ الأملِ والخوفِ معًا، كما في الآيةِ هنا: ﴿لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا﴾؛ أي: لا يأمُلونَ لقاءنا ولا يخافونَه، لذا قد يقعُ التَّلازمُ بينَ الرَّجاءِ والخوفِ، كما في قولِه تعالى: ﴿وَتَرۡجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرۡجُونَۗ﴾ [النِّساء: 104][2]، وأمّا التَّمنِّي فهو معنًى في النَّفسِ يقعُ عندَ فَوتِ فعلٍ كان للمُتمنِّي في وقوعِه نَفعٌ أو في زوالِه ضررٌ، مُستقبَلًا كانَ ذلك الفعلُ أو ماضيًا.

الـرَّجـاءُ الأمـلُ بوقوعِ الأمرِ مع خوفٍ، والتَّمنِّي معنًى في النَّفسِ يقعُ عندَ الفَوتِ

والتَّمنِّي هو قولُ القائلِ: ليتَ الأمرَ كذا فيكونَ قولًا كما في قولِه تعالى: ﴿فَتَمَنَّوُاْ ٱلۡمَوۡتَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٩٤﴾ [البقرة: 94]، ويمكنُ أن يكونَ مع القولِ إضمارُ معناه في القلب، ويأتي التَّمنِّي بمعنى التِّلاوة، قالَ اللّه تعالى: ﴿إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ﴾ [الحجّ: 52][3]، فجاءَ في الآية نفيُ الرّجاءِ للدّلالةِ على أنّهم لا يأملون ذلك ولا ينتظرونه، ولم يخبرْ أنّهم لا يتمنّون لقاءَ اللّه تعالى؛ لأنّ نفيَ التّمني ليس قطعيًّا في الدّلالة على الكراهة، أمّا نفيُ الرّجاءِ والأملِ فهو دليلٌ على أنّهم لا ينتظرون لقاءَ اللّه لعدم توقّعِهم ذلك لكفرِهم بالبعث.

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 109، والرّاغب، المفردات: (بين)، وابن منظور، لسان العرب: (بين) و(هدي).

(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة (رجى)، المعجم: 2/494 - 495، والرّاغب، المفردات: (رجا).

(3) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 142 - 143، والرّازيّ، مختار الصّحاح: (منا).

﴿قُل لَّوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوۡتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ وَلَآ أَدۡرَىٰكُم بِهِۦۖ فَقَدۡ لَبِثۡتُ فِيكُمۡ عُمُرٗا مِّن قَبۡلِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ١٦﴾ [يونس: 16]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

سفاهةُ طلبِهم أن يبدّلَ الرّسولُ القرآنَ، مع أنّه نشأَ بينهم لا يقرأُ ولا يكتبُ

لَمّا بيَّنَ اللّه ﷻ في الآيةِ السّابقةِ، أنَّ القومَ إنَّما التمسوا منه ذلكَ الالتماسَ؛ لأجلِ أنَّهمُ اتَّهموهُ بأنَّه هو الَّذي يأتي بهذا الكتابِ من عندِ نَفسِه، على سبيلِ الاختلاقِ والتّزييفِ، لا على سبيلِ كونِه وَحيًا من عندِ اللّه الخبيرِ اللّطيفِ، فلهذا المعنَى احتَجَّ النَّبيُّ ﷺ على فسادِ هذا الوَهمِ بما ذكَرَهُ اللّه تعالى في هذه الآية، وتَقريرُه أنَّ أولئكَ الكفّارَ كانوا قد شاهدوا رسولَ اللّه ﷺ من أوَّلِ عُمُرِه إلى ذلكَ الوقت، وكانوا عالمينَ بأحوالِه، وأنَّه ما طالَعَ كتابًا ولا تتلمَذَ لأُستاذ، ولا تعلَّمَ من أحدٍ، ثمَّ بعدَ انصرامِ أربعينَ سنةً على هذا الوَجهِ جاءَهم بالكتابِ العظيمِ المُشتَمِلِ على نفائسِ علمِ الأصول، ودقائقِ علمِ الأحكام، ولطائفِ علمِ الأخلاق، وأسرارِ قَصَصِ الأوَّلينَ، وعَجزَ عن مُعارضتِه العلماءُ والفُصحاءُ والبُلَغاء، وإنّ كلَّ من له عقلٌ سليمٌ، يعرفُ أنّ مِثلَ هذا لا يحصُلُ إلّا بالوَحيِ والإلهامِ، منَ اللّه تعالى ذي الجلالِ والإكرامِ[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَدۡرَىٰكُم﴾: الدِّرايةُ: المعرفةُ المُدرَكةُ بِضَربٍ منَ الحِيَل، يُقالُ: دَرَيْتُه، ودَرَيْتُ به، دِرْيةً، قالَ تعالى: ﴿مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ﴾ [الشّورى: 52]، وكلُّ موضعٍ ذُكِرَ في القرآن: (وما أدراكَ) فقد عقَّبَ ببيانِه، كما في قولِه تعالى: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ ٢ لَيۡلَةُ

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/225 - 226، والبقاعيّ، نظم الدُّرر: 9/88 - 89.

ٱلْقَدْرِ﴾ [القدر: 2-3]، وما في الآيةِ هنا: ﴿وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ﴾ من قولِهم: دَرَيْتُ، وكلُّ موضعٍ ذُكِرَ فيه: (وما يُدريكَ) لم يُعقِّبْه بذلك نحو: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ۝٣﴾ [عبس: 3]، والدِّرايةُ لا تُستعمَلُ في اللّه تعالى؛ لأنَّه يسبقُها الجهلُ. وتدرَّيْتُ؛ أي: تعلَّمتُ لِدَرْيَتِه أين هو، يُقال: دَريتُ الشَّيء، وفُلانٌ حَسَنُ الدَّريَة، كقولكَ: حسَنُ الفِطنة[1]، وقولُه تعالى هنا: ﴿وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ﴾؛ أي: ولا أَعلَمَكُم به[2].

2) ﴿لَبِثْتُ﴾: أصلٌ يدلُّ على تمكُّثٍ، يُقالُ: لَبِثَ بالمكان: أقامَ به ملازمًا له، اللّبث: المكث. والفعل: لبث، قال اللّه تعالى: ﴿لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ۝٢٣﴾ [النّبأ: 23][3]، وما لبثَ أن أنْ فعلَ كذا وكذا؛ أي: ما نكل، وفي التّنزيل: ﴿فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ۝٦٩﴾ [هود: 69][4]، ومنه هنا قولُه تعالى: ﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا﴾؛ أي: نَشأتُ وأَقمتُ فيما بينكم عُمُرًا من قبلِه[5].

3) ﴿عُمُرًا﴾: العَمرُ والعُمُرُ: اسمٌ لمدَّةِ عِمارةِ البَدَنِ والحياة، فهو دونَ البقاء، فإذا قيل: طالَ عُمُرُه، فمعناه: عِمارةُ بدنِه بروحِه، والتَّعميرُ: إعطاءُ العُمُرِ بالفعل، أو بالقولِ على سبيل الدُّعاء، قالَ تعالى: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم﴾ [فاطر: 37]. وعَمَّرَكَ اللّه؛ أي: سألتُ اللّه عُمُرَك، وخُصَّ ههنا لفظُ عُمُرٍ لمّا قُصِدَ به قصدُ القَسَم[6].

وقولُه تعالى هنا: ﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ﴾؛ أي: أَقَمتُ فيما بينَكم زمانًا طويلًا أربعونَ سنةً من قَبلِ القرآنِ، تعرفونني بالصِّدقِ والأمانةِ، لستُ ممَّن يقرأُ ولا ممَّن يكتُب[7].

المَعْنى الإجْماليُّ:

يُخاطِبُ اللّه ﷻ نبيَّه ﷺ آمرًا إيّاه أنْ يردَّ على المشركين: قلْ لهم يا محمَّدُ ﷺ: إنَّ هذا

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (درى).
(2) السِّجستانيّ، غريب القرآن، ص: 106، وابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 3/110.
(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (لبث).
(4) ابن سيده، المحكم، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (لبث).
(5) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 2/372، والشَّوكانيّ، فتح القدير: 2/606.
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (عمر).
(7) الشَّوكانيّ، فتح القدير: 2/606.

الكلامَ ليس من قِبَلي ولا من عندي، ولا أَقدِرُ أن أَفْتريَه على اللّه، ولو كانَ ذلكَ مقدورًا لي لكانَ مقدورًا لِمن هو من أهلِ العلم والكتابةِ ومخالطةِ النّاسِ والتَّعلُّم منهم، ولكنَّ اللّه بعثَني به، ولو شاءَ سُبحانَه لم يُنزلْه ولم يُيَسِّرْه بلساني، فلم يدَعْني أَتْلوهُ عليكم، وأن أُعلمكم به أَلْبَتَّةَ، لا على لساني ولا على لسانِ غيري، ولكنَّه أَوحاهُ إليَّ، وأَذِنَ لي في تلاوتِه عليكم، وأَدراكم به بعدَ أن لم تكونوا دارينَ به، فلو كانَ كَذِبًا وافتراءً كما تقولونَ لأَمكنَ غيري أنْ يتلوَه عليكم، وتَدرونَ به من جهتِه؛ لأنَّ الكذبَ لا يَعجَزُ عنه البشرُ، وأنتُم لم تَدروا بهذا ولم تَسمعوه إلّا منِّي، ولم تَسمعوه من بشرٍ غيري[1].

لولا مشيئةُ الله ما نزلَ الوحي، ولو كان الرّسولُ مدّعيًا لتنبّأَ فيما لبثَه قبلَ ذلك

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دَلالةُ الفصلِ في: ﴿قُل﴾:

لَمّا جاءَ الجوابُ هنا مُستقلًّا عن معنًى قصدَه المشركونَ من كلامِهم، جاءَ الأمرُ به مفصولًا عن الأوَّلِ: ﴿قُل لَّوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوۡتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ﴾، غيرَ معطوفٍ عليه، تنبيهًا لاستقلالِه، وأنَّه ليس بتكملةٍ للجوابِ الأوَّلِ، وفي هذا الجوابِ استدلالٌ على أنَّه مُرسَلٌ من اللّه تعالى، وأنَّه لم يَختلِقِ القرآنَ من عندِه.

استقلالُ الجوابِ من حكمةِ البيانِ القرآنيِّ؛ لإبرازِ بعضِ المعاني

كذلك فإنَّ في هذا الأمرِ المُستقلِّ مع كونِه داخلًا تحتَ الأمرِ السّابقِ، إظهارًا لكمالِ الاعتناءِ بشأنِه، وإيذانًا باستقلالِه مفهومًا وأسلوبًا، فإنَّه برهانٌ دالٌّ على كونِه بأمرِ اللّه ومشيئتِه[2].

سرُّ استعمالِ فعلِ الأمرِ ﴿قُل﴾:

افتتحَ النّظمُ الكريمُ الجملةَ بفعل الأمر ﴿قُل﴾؛ للدّلالةِ على الاهتمامِ بالمقول، تأكيدًا على أنَّه لم يَخْتلقِ القرآنَ من عندِه، كذلك فإنَّ في هذا الأمرِ المستقلِّ مع كونِه داخلًا تحتَ الأمرِ السّابقِ،

بلاغُ القرآنِ لا يمكنُ إلّا بمقولِ الرّسولِ ﷺ

(1) ابن القيّم، التِّبيان في أقسام القرآن، ص: 116 - 117، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 2/372.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/642، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/119 - 120.

إظهارًا لكمالِ الاعتناءِ بشأنِه، وإيذانًا باستقلالِه مفهومًا وأسلوبًا، فإنَّه برهانٌ دالٌّ على كونِه بأمرِ اللّه ومشيئتِه[1].

تقديرُ النّداءِ المتضمَّنِ في فعل الأمرِ ﴿قُل﴾:

المبالغةُ في التَّبرئةِ من سفهِ المشركين، وأنَّ بلاغَ القرآنِ بمشيئةِ الرّحمن

تقديرُ النِّداءِ المتضمَّنِ في فعل الأمرِ ﴿قُل﴾؛ أي: (قلْ يا محمَّدُ ﷺ)، فيه مبالغةٌ في التَّبرئةِ ممّا طلبوا، وتأكيدٌ لأمرٍ في غايةِ الأهمّيَّة، وهو أنَّ تلاوتَه هذا القرآنَ عليهم، إنَّما هو بمشيئةِ اللّه تعالى، وإحداثِه أمرًا عجيبًا خارجًا عنِ العادات؛ أنْ يخرجَ رجلٌ لم يتعلَّم، ولم يخالطِ العلماءَ؛ بل نشأَ في بلدةٍ خَلتْ منهم، فيقرأُ عليهم كتابًا فصيحًا يُبهِرُ عقلَ كلِّ فصيحٍ، ويَعلو على كلِّ مَنثورٍ ومَنظوم، مشحونًا بعلومٍ شتّى من نحو: علومِ الأصولِ والفروع، وأخبارِ ما كانَ وما يكون، ناطقًا بالغُيوبِ الَّتي لا يعلمُها إلّا اللّه تعالى، وقد بلغَ بين ظَهرانيهم أربعينَ سنةً لا يَخفَى عليهم شيءٌ من أَحوالِه وأَسرارِه، وما سمعوا منه حَرفًا من ذلك[2].

دَلالةُ حرفِ الشَّرطِ: ﴿لَّوْ﴾:

تلاوةُ الرَّسولِ ﷺ للقرآنِ مُتعلِّقةٌ بالمشيئةِ الإلهيَّةِ وجودًا وعَدَمًا

افتتحَ النّظمُ الكريمُ قولَه: ﴿لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ﴾ بـ(لو) الشّرطيّة، وهي حرفُ شرطٍ غير جازم، ويُعرفُ عند النّحاةِ بأنّه حرفُ امتناعٍ لامتناع؛ أي: امتناعُ نَفيِ التِّلاوة بامتناعِ مشيئةِ اللّه؛ أي: لو شاءَ اللّه أن لا أَتلوَه عليكم ما تلَوتُه، وبُنِيَ الاستدلالُ هنا على عدمِ مشيئةِ اللّه على نفيِ تلاوتِه؛ لأنَّ ذلك مُدَّعَى الكفّارِ لزعمِهم أنَّه ليس من عندِ اللّه، وكأنَّه قالَ لهم: لو شاءَ اللّه أنْ لا آتيَكم بهذا القرآنِ لما أرسلَني به ولا تلوتُه عليكم، ولكنَّ اللّه شاءَ أن يوحيَ إليَّ بهذا القرآنِ، وأنْ أتلوَه عليكم[3].

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/642، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/119 - 120.
(2) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 2/229، وأبو حيّان، البحر المحيط: 6/25.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/25، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/120.

نكتةُ جوابٍ لازم اقتراحِهم من قَبْلُ بمقول الفعلِ ﴿قُل﴾:

الجوابُ هنا جوابٌ عن لازمِ اقتراحِهم، وكنايتِهِ عن رميِهمُ الرَّسولَ ﷺ بالكذبِ عنِ اللّه فيما ادَّعَى من إرسالِه وإنزالِ القرآنِ عَليه. ولذلك جاءَ الاستقلالُ بالمفهومِ والأسلوبِ في هذا الأمرِ ﴿قُل لَّوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوۡتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ﴾ عنِ الأمرِ السّابقِ؛ ليكونَ بُرهانًا دالًّا على كونِه بأمرِ اللّه تعالى ومشيئتِهِ فَحَسْب، وما سبقَ مجرَّدُ إخبارٍ باستحالةِ ما اقترَحوه[1]، وهو يخاطبُهم بقوله: "لو شاء اللّه ألّا يُنزِلَ عليَّ قرآناً من عنده، وألّا أُبلِّغَكم به، ما أنزلَهُ، وما تَلَوتُهُ عليكم، ولا أعلَمَكم اللّه به. لكنّه نزلَ، وأرسلَني به، وتلوتُه عليكم كما أمرَني"[2].

البرهانُ بأنَّ النُبوَّة وإنزالَ الفرقان بأمرِ الّذي علّمَ القرآنَ

دَلالةُ الجملةِ الشّرطيّةِ المفتتحةِ بـ﴿لَّوۡ﴾:

قولُه تعالى: ﴿قُل لَّوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوۡتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ﴾ جوابٌ حَملَ معه استدلالًا جَليًّا على أنَّه ﷺ مُرسَلٌ منَ اللّه تعالى، وأنَّه لم يَختلقِ القرآنَ من عندِه، بدليلٍ التفَّتْ في مطاويهِ أدلَّةٌ، وقد نُظِّمَ فيه الدَّليلُ بانتفاءِ نقيضِ المطلوبِ على إثباتِ المطلوبِ؛ إذ قولُه: ﴿لَّوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوۡتُهُۥ﴾ تقديرُه: لو شاءَ اللّه أنْ لا أَتلوهُ عليكم ما تَلَوْتُهُ، فجاءَ إثباتُ المطلوبِ في تلاوةِ القرآنِ عليهم مُعتمِدًا ومُرتكِزًا على عَدَمِ مشيئةِ اللّه تعالى، في نَفيِ تلاوتِه، فكانَ تحقيقًا وتأكيدًا على أنَّ تلاوةَ الرَّسولِ للقرآنِ عليهم، هو بمشيئةِ اللّه وحدَه[3].

لو شاءَ اللّه عدمَ تلاوتِه ﷺ للقرآنِ، ما استطاعَ ذلك دون المشيئةِ

سرُّ مجيءِ السِّياقِ بأسلوبِ التَّأكيدِ:

جاءَ النّظمُ الجليلُ في قولِه جلّ شأنُه: ﴿لَّوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوۡتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ﴾ تعقيبًا على زعمِ الكفّارِ أنَّ القرآنَ الكريمَ ليسَ من عندِ اللّه تعالى، فجاءَ البيانُ الإلهيُّ بإبطالِ دَعواهم تلكَ ابتداءً وإثباتًا

التّأكيدُ أنَّ القرآنَ من عندِ اللّه إبطالٌ لدَعوَى أنّه من عندِ غيرِه

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/642، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/119.
(2) لجنة من علماء الأزهر، المنتخب في تفسير القرآن الكريم، ص: 288.
(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/642، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/120.

لدَعواه مآلًا، فأمّا الابتداءُ فبتقدير: (لو شاءَ اللّه أنْ لا أَتْلوَه عليكم ما تلوتُه)، فبُنيَ الاستدلالُ على عدَم مشيئةِ اللّه نفيَ تلاوتِه، تأكيدًا بأنَّ القرآنَ من عندِ اللّه، وأمّا الثّانيةُ؛ وهي إثباتُ دعواه في المآل، فبتقدير: (لو شاءَ اللّه ما تَلَوتُهُ لكنَّني تَلَوتُهُ عليكم)، فتلاوتُه دليلُ تأكيدٍ في إثباتِ الرِّسالةِ تتضمَّنُ إعجازَ القرآن، وأنَّه من عندِ اللّه، إذْ لو لم يكنْ ذلكَ كذلكَ، فأنَّى لرجلٍ أُمِّيٍّ لم يكنْ من أهلِ العلمِ أن يتقنَ القراءةَ والكتابةَ، فضلًا عنِ البلاغةِ، ثمّ أنْ يأتيَهم بكتابٍ رأسٍ في العلمِ والحكمةِ والبلاغةِ، لو اجتمعَتْ جُهودُ بُلَغاءِ وفُصَحاءِ الخَلْقِ كلِّهم، لكي يأتوا، ولو بآيةٍ قصيرةٍ مثلِه، ما استطاعوا إلى ذلك سبيلًا[1].

نكتةُ حذفِ مفعولِ المشيئةِ: ﴿لَّوۡ شَآءَ ٱللَّهُ﴾:

جاءَ فعلُ المشيئةِ في قوله تعالى: ﴿لَّوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوۡتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ﴾ بلا مفعول، وتقديرُه: لو شاءَ اللّه أنْ لا أَتلوَه عليكم ما تَلَوتُه، فإنَّ مفعولَ المشيئةِ إنَّما يُحذَفُ إذا وقعَتْ شرطًا، وكانَ مفعولُها مضمونَ الجزاءِ، ولم يكنْ في تعلُّقِها به غرابةٌ، والمُستَلزِمُ للجزاءِ هنا، وهو عدمُ تلاوتِه ﷺ للقرآنِ عليهم، إنَّما هو مشيئتُهُ تعالى له، لا مَشيئتُه لغيرِ القرآن، والمعنَى: أنَّ الأمرَ كلَّه مَنوطٌ بمشيئتِه تعالى، وليس للرّسولِ الأكرمِ ﷺ منه شيءٌ قطُّ، فكأنّه يقول: ولو شاءَ عدمَ تِلاوتي له من تِلقاءِ نَفسي؛ بل لو لم يُنزِلْه عليَّ ولم يأمُرْني بتلاوتِه - كما يُنبِئُ عنه إيثارُ التِّلاوةِ على القراءةِ - ما تَلوتُهُ عليكم[2].

لا يبرزُ زمانُ الوحي ولا رسولُه إلّا بمشيئةِ اللّه وأمرِهِ

سرُّ استعمالِ لفظِ ﴿تَلَوۡتُهُۥ﴾:

لكلمةِ ﴿تَلَوۡتُهُۥ﴾ في قولِه تعالى: ﴿لَّوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوۡتُهُۥ﴾ منَ الوَقعِ ما ليس لغيرِها؛ لأنَّها تتضمَّنُ عناصرَ الإرسالِ الثّلاثةَ: (التّالي

انفساحُ اللّفظِ لمعانٍ دلاليّةٍ مُتعدّدةٍ، تستوعبُ الغرضَ بشموليّةٍ ودقّةٍ

(1) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 2/229، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/120.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/642، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/120.

والمَتلوّ والباعث)؛ فبالأوَّل: تُشيرُ إلى معجزةِ المقدرةِ على تلاوةِ الكتابِ مع تحقُّقِ الأُمِّيَّة؛ لأنَّ أُسلوبَ الكُتُبِ الدِّينيَّةِ غيرُ الأسلوبِ الَّذي عرَفَه العربُ من شُعرائِهم وخُطبائِهم، وهو يقوم على ثقافةٍ شفويّةٍ محضة، أساسُها الحفظُ، وقوامُها الذّاكرةُ المستنسخةُ لكلِّ ما تسمعُه الأذنُ، أو تجودُ به القريحةُ، ومع أنّ الرّسولَ ﷺ كان أمّيًّا لا يقرأُ ولا يكتبُ، إلّا أنّ اللّه ألهمَه منَ العلم ما جعلَه أعلمَ البشرِ قاطبةً، وقد أوتِي جوامعَ الكلمِ، وخُصَّ بالبيان البليغِ، قال تعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمۡ تَكُن تَعۡلَمُۚ وَكَانَ فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكَ عَظِيمٗا ١١٣﴾ [النّساء: 113]، وبالثّاني: تُشيرُ إلى القرآنِ الَّذي هو معجزةٌ دالَّةٌ على صِدقِ الآتي به، لِما فيه منَ الحقائقِ والإرشادِ الدِّينيِّ الَّذي هو من شأنِ أنبياءِ الأديانِ وعلمائِها، كما قالَ تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتۡلُواْ مِن قَبۡلِهِۦ مِن كِتَٰبٖ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَۖ إِذٗا لَّٱرۡتَابَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ ٤٨ بَلۡ هُوَ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ فِي صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَۚ وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ٤٩﴾ [العنكبوت: 48 - 49]. وبالثّالث: تُشيرُ إلى أنَّه كلامٌ من عندِ اللّه تعالى، فانْتظمَتْ بهذا الاستدلالِ دَلالةُ صدقِ النَّبيِّ ﷺ في رسالتِه عنِ اللّه تعالى.

والتِّلاوةُ: قراءةُ المكتوبِ أوِ استعراضُ المحفوظِ، فهي مُشعِرَةٌ بإبلاغِ كلامٍ من غيرِ المُبَلِّغِ[1].

دلالةُ التّعبيرِ بالفعل الماضي ﴿تَلَوۡتُهُۥ﴾:

آثرَ النّظمُ الكريمُ التّعبيرَ بالفعل الماضي ﴿مَا تَلَوۡتُهُۥ﴾ دونَ المضارع؛ لأنّه لمّا علّقَ التّلاوةَ بمشيئة اللّه تعالى كان نفيُ الفعلِ الماضي دالًّا على أنّ الحدثَ لم يكن ليكونَ من أصلِه، فتكونُ التّلاوةُ ليسَت واقعةً، ولو جاء النّفيُ بالمضارع لكان المرادُ أنّه لم يشأِ الدّوامَ، فيكونُ المنفيُّ هو الدّوامَ، وهذا ليس المرادَ، إذ إنّه أرادَ أن

لو شاء الله تعالى لم تقعِ التّلاوةُ من أصلِها

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/121.

يقولَ أنّ اللّه تعالى لو شاءَ لم يقع فعلُ التّلاوةِ أصلًا، فكان التّعبيرُ بالماضي لذلك.

براعةُ الاستدلالِ:

التّلاوةُ دليلٌ على تميّز الرّسالةِ، بإعجازِ المتلوِّ، وصِدقِ التّالي

في هذا الجوابِ البليغِ في قولِه تعالى: ﴿قُل لَّوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوۡتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ﴾ استدلالٌ بليغٌ على أنَّ محمَّدًا ﷺ مُرسَلٌ منَ اللّه تعالى، وأنَّه لم يَختلِقِ القرآنَ من عندِه، وقد تبيَّنَ في الوجوهِ البلاغيَّةِ الثَّلاثةِ السّابقةِ، ما يوضِّحُ حقيقةَ أنَّ القرآنَ وَحيٌ منَ اللّه تعالى على رسولِه ﷺ، وأنْ ليس للرَّسولِ ولا لغيرِه أيُّ يدٍ في تأليفِ هذا القرآنِ ونظمِه المعجزِ، وجاءَ قولُه: ﴿مَا تَلَوۡتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ﴾ تأكيدًا لتلكَ الحقيقة، فالتِّلاوةُ هنا دليلُ الرِّسالة؛ لأنَّ تلاوتَه تتضمَّنُ إعجازَه، إذْ جاءَ به من لم يكنْ له سبيلٌ للعلمِ والمعرفةِ، لا من تلقاءِ نَفسِه ولا من تلقاءِ غيرِه، وقد عرفَ القومُ ذلكَ، وعايَشوهُ، وعايَنوهُ في شخصيَّةِ محمَّدٍ ﷺ، عن قُربِ مُصاحبةٍ، ومخالطةِ جِوارٍ، حتَّى بلغَ أربعينَ سنةً من عُمُرِه بين ظَهرانيهم على هذه الشّاكلة، فلمّا جاءَ بكلامٍ أَعجَزَ أهلَ اللُّغةِ والفصاحةِ والبلاغةِ والبيانِ، على تَفاوتِ مراتبِهم، وتبايُنِ مناهلِهم، قالوا ما قالوا منَ الافتئاتِ عليه، والتَّزويرِ لحقيقتِه، والتَّكذيبِ لدعوتِه! إذْ لو كانَت حالتُه بعدَ الوَحي حالًا مُعتادًا، وكانَت بلاغةُ الكلامِ الَّذي جاءَ به كذلك، لكانَ له من المُقدِّماتِ من حينِ نشأتِه ما هو تَهيئةٌ لهذه الغاية، وكانَ التَّخلُّقُ بذلكَ أطوارًا وتدرُّجًا، فلا جَرَمَ أنْ دلَّ عدمُ تشابُهِ الحالَينِ على أنَّ هذا الحالَ الأخيرَ حالٌ ربّانيٌّ مَحضٌ، وأنَّ هذا الكلامَ موحًى إليه من عندِ اللّه ليس له بذاتِه عملٌ فيه.

فما كانَ هذا الكلامُ دليلًا على المشركينَ وإبطالًا لادِّعائِهم إلّا لِما بُنِيَ على تلاوةِ القرآنِ، فكانَ ذكرُ القرآنِ الكريم في الاستدلالِ هو مناطُهُ، وله أَبلَغُ الأَثَرِ في تأكيدِ رسالتِه ﷺ وإبطالِ

محاولاتِ المشركين في النَّيلِ من رسالتِهِ، والاستهانةِ بمعجزتِهِ، وإزهاقِ دَعوتِهِ[1].

نكتةُ الإلماحِ في: ﴿مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ﴾:

قوله تعالى: ﴿لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ﴾ فيه إيماءٌ إلى بُعدِ الكافرينَ عنِ الحقِّ، وتمكُّنِ الضَّلالِ من أفئدتهم، إذ لو نظروا إلى أنّ الجمعَ بينَ الأُمِّيَّةِ والإتيانِ بهذا الكتابِ البديعِ، في بلاغتِه ومعانيه، لا يكونُ إلّا حالَ مَن أفاضَ اللّه عليه رسالتَه، وأنزلَ إليه معجزتَه، وأمرَه بتلاوةِ كتابِه، ولم يكُ من قبلُ في عيشِه بينَهم وتقلُّبِه في أحوالِه معهم على شيءٍ من ذلك البتَّة، وهو قد صدحَ بقوله للمكذِّبين بما مفاده: "لقد عشتُ طوالَ عمري معكم، ولم تكن لي قوّةُ بلاغةٍ، أو قوّةُ شِعرٍ، أو قوّةُ أدبٍ، فمَن له موهبةٌ لا يكتمُها إلى أن يبلغَ الأربعين، ورأيتم أنّه ﷺ لم يجلس إلى معلِّم، بل عندما اتّهمتموه وقلتم: ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ﴾ [النّحل: 103] فضحَكم الحقُّ سبحانَه بأنْ أنزلَ في القرآن قولَه تعالى: ﴿لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾﴾ [النّحل: 103]، ولم يخرجِ النّبيُّ ﷺ من شبه الجزيرةِ العربيّةِ، ولم يقرأ مؤلَّفاتِ أحدٍ، فمن أين جاء القرآنُ إذن؟"[2]، وكيف يتأتّى لِمن هذا حالُه أنْ يطالعَهم ما بينَ عَشيَّةٍ وضُحاها بهذا الكتابِ الَّذي فيه منهجُ حياةِ الفردِ والأُمَّةِ، والمُتَّسم بالتّوازنِ والتّكاملِ في أحكامِه وحِكَمِه، وقد أخبرَهم بخبرِ مَن قبلَهم، ونبأ من بعدَهم، وبغيوبٍ منَ الماضي السَّحيقِ، والمستقبلِ القريبِ والبعيدِ، ممّا لا يمكنُ أن يتاحَ، لولا أنَّ اللّه أَخبرَ محمَّدًا ﷺ بذلك كلِّه، فتلاه عليكم وأعلمَكم به[3]؟!.

الجمعُ بين الأُمِّيَّةِ والبلاغِ المُتفرِّدِ معجزةٌ في حدِّ ذاتِها

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/120 - 121.
(2) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 10/5805.
(3) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 2/229، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/123.

دلالةُ التّعبيرِ بشِبهِ الجملةِ ﴿عَلَيۡكُمۡ﴾:

تعلُّقُ مشيئةِ اللهِ بتلاوةِ القرآنِ على المشركين وجودًا وعدمًا

في قولِه تعالى: ﴿مَا تَلَوۡتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ﴾، جاءَ شِبهُ الجملةِ ﴿عَلَيۡكُمۡ﴾ تعبيرًا على أنَّ مشيئةَ اللّه تعلَّقَت بتلاوةِ رسولِ اللّه ﷺ القرآنَ على المشركين، والتَّقديرُ: فلو شاءَ اللّه عدمَ تلاوتي له عليكم ما أنزلَه عليَّ، وما أَمَرَني أنْ أَتلوَه عليكم، فلو شاءَ لم يُنزلْه عليَّ، ولم يأمرْني بتلاوتِه عليكم، فأنا لم أَتْلُه عليكم من تلقاءِ نفسي، إنَّما هو أمرُ اللّه لي أنْ أَتلوَه عليكم؛ لأنَّكم أنتُمُ المقصودونَ بتلاوتِه عليكم ودِرايةِ ما فيه[1].

إيثارُ الإضمارِ: ﴿مَا تَلَوۡتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ﴾:

عودُ الضَّميرِ على ماتقدَّمَ من ذكرِ القرآنِ أغنَى عن إعادتِه

جاءَ قولُه تعالى: ﴿مَا تَلَوۡتُهُۥ﴾ بهاءِ الضَّميرِ، دونَ التَّصريحِ بالاسمِ الظّاهرِ، وهو القرآن، وذلكَ لذكرِه في الآيةِ السّابقة، بقولِه تعالى: ﴿ٱئۡتِ بِقُرۡءَانٍ غَيۡرِ هَٰذَآ﴾، وفي ذلكَ كذلكَ إشارةٌ إلى أنَّ الّذي أتلوه عليكم بمشيئةِ اللّه، هو نفسُه القرآنُ الَّذي تطلبون منّي - بغيرِ وجهِ حقٍّ - أنْ آتيَ بغيرِه أو أبدِّلَه.

فائدةُ تعليقِ التّلاوةِ بالمشيئةِ:

اقتضَتْ مشيئةُ اللهِ تعالى أن يُصطفَى نبيُّه ﷺ لاستقبالِ الوحيِ وبلاغِه

في قولِه تعالى: ﴿لَّوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوۡتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ﴾، بيانٌ أنَّ مثلَ هذا الكتابِ العظيمِ المُعجزِ الَّذي لم يأتِ على يدِ مَن علَّمه إيّاه منَ البشر؛ بل جاءَ على من لم يتعلَّم ولم يَتَتَلمَذْ على أحدٍ؛ بل لم يُطالعْ كتابًا، ولم يَخُطَّ كلمةً واحدةً، ولم يُمارسْ مجادَلةً ولا محاورةً ولا مُناظَرةً علميَّةً مع أحدٍ من قبلُ، إنَّما ذلكَ كلُّه يُنبىءُ بالضَّرورةِ أنَّه لا يكونُ إلّا على سبيلِ الوحيِ هبةً من اللّه خالصةً، ليس فيها شِرْكٌ من أيِّ طَرَفٍ، كما قالَ تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتۡلُواْ مِن قَبۡلِهِۦ مِن كِتَٰبٖ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَۖ إِذٗا لَّٱرۡتَابَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ ٤٨﴾ [العنكبوت: 48]، وذلك على خِلافِ ما كانَ لبعضِ الأنبياءِ خاصَّةً من بني إسرائيلَ فقد كانوا

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/642.

يتعلَّمون ويتناقلون ما تعلَّموه ممَّن سبقَهم منَ الأنبياءِ من كتُبِهم وصحائفِهم، قبلَ أن تُسنَدَ إليهم مهمَّةُ الرِّسالةِ والنُّبوَّةِ[1].

دَلالةُ العطفِ مع النَّفي: ﴿وَلَآ أَدۡرَىٰكُم بِهِۦۖ﴾:

جاء قولُه تعالى: ﴿وَلَآ أَدۡرَىٰكُم بِهِۦۖ﴾ بحرفِ النَّفي عطفًا على قولِه تعالى: ﴿مَا تَلَوۡتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ﴾؛ أي: لو شاءَ اللّٰه ما أَمَرني بتلاوةِ القرآنِ عليكم ولا أَعلَمَكُمُ اللّٰه به[2]؛ "والمعنى: أنّه الحقُّ لا شكَّ فيه، لو لم أُرسَل به أنا لأُرسِلَ به غيري. وحاصل المعنى: أنّ الأمرَ بمشيئة اللّٰه لا بمشيئتي، حتّى أجعله على نحو ما تشتهون"[3]، وإرادةُ اللّٰه غالبةٌ على كلِّ البشرِ، لا يتأبّى عليها غاشمٌ بجبروتِه، ولا كافرٌ بجحودِه، ولا مُنكِرٌ بنكرانِه؛ لأنّها تسري على الخلقِ كلِّهم، لا ينفكُّ عنها أحدٌ، ولا يعجزُها شيءٌ في الأرض ولا في السّماء.

عدمُ الإعلامِ بالقرآنِ هو بمشيئةِ اللّٰه تعالى

دلالةُ التّعبيرِ بالدّراية، وكونها على لسانِ نبيٍّ أمّيٍّ:

آثرَ النّظمُ الكريمُ التّعبيرَ بلفظ الدّرايةِ في قولِه تعالى: ﴿وَلَآ أَدۡرَىٰكُم بِهِۦۖ﴾ إظهارًا للمعجزة؛ فالدِّرايةُ بمعنى العلم، والمعنَى هنا في بيانِ لو شاءَ اللّٰه ما تَلَوْتُه أنا عليكم، ولو شاءَ اللّٰه ما أَنزلَه عليَّ وما أَوحى به إليَّ، ولا أَعلَمَكُمُ اللّٰه به، ولا أَخبرَكم بما فيه، ولو شاءَ اللّٰه لأَعلمَكم به بلا واسطة، ولكنَّه تعالى يمنُّ على مَن يشاءُ من عبادِه، فخصَّني بهذه الكرامةِ، ورآني أهلًا لها دون سائرِ النّاس، فما أنا إلّا مُبلِّغٌ عن ربِّي مُعجزتَه إليكم، ولا أُعلمُكُم إلّا بما أَعلَمنيه ربِّي دون زيادةٍ أو نقصانٍ، قالَ تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ﴾ [الشّورى: 52][4].

الرَّسول ﷺ مُبلِّغٌ عنِ اللّٰه، لا يعلمُ شيئًا منَ الوَحي إلّا بتعليم اللّٰه

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/226.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/122.
(3) ابن عجيبة، البحر المديد: 2/458.
(4) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/229، والعكبريّ، التّبيان: 2/26.

توجيهُ القراءاتِ، وأثرها في المعنى:

رُسوُّ المعنى باختلاف القراءةِ الّتي تسهمُ في انسجامِ السّياقِ

في قولِه تعالى: ﴿وَلَآ أَدۡرَىٰكُم بِهِۦۖ﴾ قراءتان متواترتان[1]: الأولى: ﴿وَلَآ أَدۡرَىٰكُم بِهِۦۖ﴾ بحرف النَّفي عطفًا على ﴿مَا تَلَوۡتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ﴾؛ أي: لو شاءَ اللّه ما أَمَرني بتلاوةِ القرآنِ عليكم، ولا أَعلَمكُمُ اللّه به. والثّانيةُ: (وَلَأدراكم به) بلام ابتداءٍ، بالقَصْرِ على الإيجاب، في موضعِ (لا) النّافية؛ أي: بدونِ ألفٍ بعدَ اللّام، فتكونُ هنا عطفًا على جوابِ (لو)، فتكونُ اللّامُ لامًا زائدةً للتّوكيدِ كشأنِها في جوابِ (لو)، والمعنَى عليه: لو شاءَ اللّه ما تَلَوتُه عليكم، ولو شاءَ لَجَعلَكم تَدرونَ معانيَهُ فلا تُكذِّبوا، أو يكونُ المعنَى: ولَأَعلَمَكُم به من غيرِ قراءتي عليكم[2].

دَلالةُ الفاءِ في: ﴿فَقَدۡ﴾:

تعليلُ استحالةِ تلاوتِه بلا وَحيٍ، بالاستشهادِ لا بالاستدلال

جاءَ قولُه تعالى: ﴿فَقَدۡ لَبِثۡتُ فِيكُمۡ عُمُرٗا مِّن قَبۡلِهِۦٓۚ﴾ مُصدَّرًا بالفاءِ التَّفريعيَّةِ الَّتي تفيدُ التَّعليلَ، وهو تعليلٌ للملازمةِ المُستَلزمةِ لكونِ تلاوتِه بمشيئةِ اللّه تعالى وأَمرِه حسبما تقدَّمَ في قولِه تعالى: ﴿لَّوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوۡتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ﴾، لكنْ لا بطريقِ الاستدلالِ عليها بعدمِ تلاوتِه ﷺ فيما سبقَ بسببِ مشيئتِه تعالى إيّاه؛ بل بطريقِ الاستشهادِ عليه بما شاهدوا منه ﷺ في تلكَ المدَّةِ الطَّويلةِ منَ الأمورِ الدّالَّةِ على استحالةِ كونِ التِّلاوةِ من جهتِه ﷺ بلا وَحيٍ منَ اللّه ﷻ[3].

دلالةُ التّعبيرِ بحرفِ التَّحقيقِ (قد) في: ﴿فَقَدۡ﴾:

المبالغةُ في تبرئتِه ﷺ ممّا طلبوا منه، دليلٌ على صدقِ ما تلاه

جاءَ قولُه تعالى: ﴿فَقَدۡ لَبِثۡتُ فِيكُمۡ عُمُرٗا مِّن قَبۡلِهِۦٓۚ﴾ مُصدَّرًا بحرفِ التَّحقيقِ؛ وذلكَ لإفادةِ المبالغةِ في التَّبرئةِ ممّا طلبوا

---

(1) القراءةُ الأولى للجمهور، والثّانية لقُنبل عن ابن كثيرٍ بلا خلافٍ عنه، وقرأَ البِزِّيُّ بالوجهين، قال أبو عمرو الدّاني في التَّيسير، ص: 121: "قُنبل: (ولَأَدْراكم به) بغير ألفٍ بعداللّام، وكذلك روى النَّقّاش عن أبي ربيعة عنِ البزِّيّ، وبذلك أَقرأني أبو القاسم عنه، والباقون بالألف". يُنظر: ابن خلف، العنوان في القراءات السَّبع، ص: 104، وابن مهران، المبسوط في القراءات العشر، ص: 199، وعبد الفتّاح القاضي، البدور الزّاهرة، ص: 141.

(2) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 2/229، والعكبريّ، الإملاء: 2/26، وأبو حيّان، البحر المحيط: 6/25.

(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/130.

منه، وقد عاينوا أحوالَه معهم منَ الصِّدقِ والأمانةِ وغيرِها من محاسنِ الأخلاقِ، ولم يُخبِرْهم بخبرِ السَّماءِ لا بوَحي ولا بغيرِه[1]، "ولـمّا كانَ ذِكرُ ذلك أتبعَهُ السّببَ الـمُعَرِّفَ به فقال: ﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا﴾"[2].

دَلالةُ التفريعِ: ﴿فَقَدْ﴾:

جاءَ قولُه تعالى: ﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓۚ﴾ مُصدَّرًا بالفاءِ التَّفريعيَّةِ الَّتي تفيدُ التَّعليلَ على جملةِ الاستدلالِ: ﴿لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦۖ﴾، هو تفريعُ دليلِ الجملةِ الشَّرطيَّةِ ومُلازَمتِها لِطرفَيها؛ والمعنَى: قد أقمتُ بينكم أربعينَ سنةً قبلَ نزولِ القرآنِ يافعًا وكهلًا، فلم تعرفوني متعاطيًا شيئًا من نحوِه، ولا قدَرتُ عليه، ولا كنتُ مُتواصفًا بعلمٍ وبيانٍ، فتتَّهموني باخْتراعِه، فكيفَ أَتْلو عليكم كتابًا هو من وَحيِ اللّه لي، لولا أنَّ اللّه تعالى هو الَّذي شاءَ أن أَتْلوَه عليكم، فتعلموا ما فيه من أوامرَ ونواهٍ وعلومٍ وأخبارٍ، عمّا سلفَ، وعمّا هو آت[3].

الدَّليلُ البيِّنُ على ثُبوتِ نبوَّةِ محمَّدٍ ﷺ، وأنَّ القرآنَ معجزةُ الله إلى خَلْقِه

دلالةُ الإخبارِ باللُّبثِ: ﴿لَبِثْتُ﴾:

اللُّبْثُ معناه الإقامةُ في المكانِ مُدَّة، والعُمُرُ: الحياةُ، اشتُقَّ منَ العُمران؛ لأنَّ مدَّةَ الحياةِ يُعمِّرُ بها الحيُّ العالَمَ الدُّنيَويَّ، ويُطلَقُ العُمُرُ على المدَّةِ الطَّويلةِ الَّتي لو عاشَ المرءُ مقدارَها لكانَ قدْ أخذَ حقَّه منَ البقاء، وهذا هو المرادُ هنا بدليلِ تنكيرِ ﴿عُمُرًا﴾، وليس المرادُ لبثتُ مُدَّةَ عُمُري؛ لأنَّ عُمُرَه ﷺ لم يَنْتَه؛ بل المرادُ: مُدَّةٌ قدرُها قدرُ عُمُرٍ مُتعارَف؛ أي: بقدرِ مُدَّةِ عُمُرِ أحدٍ من النّاس؛ والمعنى هنا: لبثْتُ فيكم أربعينَ سنةً قبلَ نزولِ القرآن، تطَّلعونَ على أحوالي، ولا

الاستقامةُ في فترة الأشدِّ دليلٌ على نبل الخُلُقِ وكرم المحتدِ

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/25، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/122.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/88.
(3) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 2/229 - 230، والبقاعيّ، نظم الدُّرر: 9/89.

يَخفَى عليكم شيءٌ من أسراري، وما سمعتُم منِّي حَرفًا منَ القرآن، ولا عرَّفَكم به أحدٌ من أَقربِ النّاسِ إليَّ[1].

دلالةُ التّعبيرِ بالفعل الماضي: ﴿لَبِثْتُ﴾:

تحقيقُ اللّبثِ أوثقُ صلةً بسياق التّأكيدِ

آثرَ النّظمُ الكريمُ التّعبيرَ بالفعل الماضي في قوله تعالى: ﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ﴾ تحقيقًا للمعنى، فجرى السّياقُ على التّأكد في هذا الاستدلالِ، فكان التّعبيرُ بالماضي أنسبَ لهذا التّأكيد، فالقطعُ بأنّ النّبيَّ ﷺ لابثٌ فيهم، هو موطنُ الاحتجاج.

نكتةُ التّنكيرِ في: ﴿عُمُرًا﴾:

السّيرةُ الصّالحةُ مع طول العمرِ دليلُ الصّدقِ

آثرَ النّظمُ الكريمُ التّعبيرَ بلفظ التّنكيرِ في قوله جلّ شأنُه: ﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ﴾ لِما في التّنكير من دلالةٍ على التّكثير؛ "أي: فقد مكثتُ بين ظهرانيكم عمرًا طويلًا من قبله، وهو أربعونَ سنةً لم أتلُ عليكم سورةً من مثله، ولا آيةً تشبهُ آياتِه، لا في العلمِ والهدايةِ، ولا في البيانِ والبراعةِ"[2].

فائدةُ الإخبارِ عن حال الرَّسولِ ﷺ بعد البعثةِ وقبلها:

عمرُ رسولِ الله ﷺ تهيءٌ واجتباءٌ، ثمّ تكليفٌ بالبلاغ وأداءٌ

الحالُ الأولى عبَّر عنها بيانُ اللّه تعالى بقولِه: ﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ﴾؛ أي: أربعونَ سنةً أقمتُ فيها بينَكم، هي حالُ الأُمِّيَّةِ لم يقرأْ فيها رسولُ اللّه ﷺ ولم يكتبْ، ولم يطالعْ فيها الكُتُبَ السّالفةَ، ولم يناظرِ العلماءَ، ولم يحاورْ أهلَ البلاغةِ والخطابةِ والشِّعرِ، ثمَّ انتقلَ إلى الحالةِ الثّانيةِ، وهي حالةُ الوحيِ والدَّعوةِ، إلى هذا الكتابِ البديعِ في بلاغتِه ومعانيه، أفاضَ اللّه عليه به، وكلَّفَه برسالتِه إلى النّاسِ جميعًا، ولولا أنَّ اللّه أمرَه بتلاوتِه عليهم ما تلاه، ولا علموا شيئًا منه، وإنَّما هو الوَحيُ الصّادقُ منَ اللّه[3].

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/25، والبقاعيّ، نظم الدُّرر: 9/89، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/122.

(2) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 11/79.

(3) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 2/229 - 230، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/643.

براعةُ الاستدلالِ: ﴿فَقَدۡ لَبِثۡتُ فِيكُمۡ عُمُرٗا مِّن قَبۡلِهِۦٓۚ﴾:

تنزّل القرآن بمشيئةِ الرّحمن، و لا يقدرُ عليه إنسٌ ولا جانٌّ

لَما كانَ قولُه تعالى: ﴿فَقَدۡ لَبِثۡتُ فِيكُمۡ عُمُرٗا مِّن قَبۡلِهِۦٓۚ﴾ تعليلًا للملازمةِ المُستلزِمةِ لكونِ تلاوتِه بمشيئةِ اللّه وأمرِه، عَوْدًا على قولِه تعالى: ﴿قُل لَّوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوۡتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ وَلَآ أَدۡرَىٰكُم بِهِۦۖ﴾، فجاءَ هذا البيانُ هنا استدلالًا بعدمِ تلاوتِه ﷺ فيما سبقَ بسببِ مشيئتِه ﷻ، ولكنَّه استدلالٌ قائمٌ على طريقِ الاستشهادِ عليها، بما شاهدوا منه ﷺ في تلكَ المدَّةِ الطَّويلةِ منَ الأمورِ الدّالَّةِ على استحالةِ كونِ التِّلاوةِ من جهتِه ﷺ بلا وَحي، وما يتَّبعُ ذلك من عدمِ درايتِهم بما تَضمَّنه هذا القرآنُ من عقيدةٍ وشريعةٍ وأخلاقٍ[1].

دَلالةُ الظّرفِ، وصلتُه بشبه الجملة:

المصاحبةُ ميدانٌ لمعرفةِ خُلُقِ الرّجلِ وبيانِ صدقِه

في قولِه: ﴿فَقَدۡ لَبِثۡتُ فِيكُمۡ عُمُرٗا مِّن قَبۡلِهِۦٓۚ﴾: (قَبْلُ) ومعها (بَعْدُ) تأتي للدَّلالةِ على الظَّرفيَّة، وإذا أُضيفا للذَّواتِ كانَ المرادُ بعضَ أحوالِ الذّاتِ، ممّا يدُلُّ عليه المَقامُ؛ أي: من قبلِ نُزولِ القرآنِ، أي: في المدَّةِ الَّتي قضاها رسولُ اللّه ﷺ فيهم، و ﴿فِيكُمۡ﴾ تُفيدُ الظَّرفيَّة؛ أي: في جماعتكم؛ أي: بينَكم[2]، "فمَن نظرَ في حال محمّدٍ ﷺ قبلَ الرّسالةِ وبعدَها، ومَن طالعَ وجوهَ هذه الآياتِ السّماويةِ الّتي نزلَت عليه، لم يقم عنده أدنى شكٍّ في أنّ محمّدًا ﷺ هو رسولُ اللّه، وأنّ ما يُحدِّثُ به عن اللّه هو من عندِ اللّه، ومن كلماتِ اللّه.."[3].

دلالةُ: ﴿مِّن﴾:

اللّبثُ المحتجُّ به عليهم مُقيّدًا بالزّمن السّابقِ لنزول القرآنِ

أدخلَ النّظمُ المعجزُ حرفَ الجرِّ ﴿مِّن﴾ في قوله جلّ شأنُه: ﴿فَقَدۡ لَبِثۡتُ فِيكُمۡ عُمُرٗا مِّن قَبۡلِهِۦٓۚ﴾؛ للدّلالة على ابتداء القبليّة، فلمّا "كان عمرُهُ لم يستغرقْ زمانَ القَبلِ قال: ﴿مِّن قَبۡلِهِۦٓۚ﴾ مقدارَ

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/643.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/122.
(3) عبد الكريم الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 6/974.

أربعينَ سنةً"[1]، فالعمرُ الّذي لَبِثَهُ فيهم مُقيَّدٌ بالزّمان السّابقِ لنزول القرآنِ، وليس لمطلقِ القبليّةِ؛ لأنّه لا حاجةَ لمطلقِ القبليّةِ هنا، فالاحتجاجُ جاء لتوثيق نزولِ القرآنِ منَ اللّه تعالى؛ "أي: منْ قبلِ نزولِ القرآن لا أتعاطى شيئاً ممّا يتعلَّقُ به لا من حيث نَظمُهُ المُعجزُ ولا من حيثُ معناهُ الكاشفُ عن أسرارِ الحقائقِ وأحكامِ الشّرائعِ"[2].

دَلالةُ التّعبيرِ بالاستفهامِ والفاءِ والنّفي في: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾:

جمعَ النّظمُ الجليلُ الاستفهامَ والنّفيَ والفاءَ في تركيبٍ واحدٍ ﴿أَفَلَا﴾، فأدخلَ الاستفهامَ الإنكاريَّ على الفاء التّفريعيّة فقال: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾؛ تفريعًا على جملةِ الشَّرط، وما تفرَّعَ عليها بصيغة الاستفهام، وهو تفريعٌ للإنكارِ والتَّعجُّبِ على نُهوضِ الدَّليلِ عليهم، إذْ قد ظهرَ من حالِهم ما يجعَلُهم كمَن لا يَعقِلُ[3].

إنكارُ حالِ المشركين والتّعجُّبُ من سفاهاتِهم دليلٌ على أنَّهم لا يعقلون

سرُّ استعمالِ فعلِ العقلِ في: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾:

آثرَ النّظمُ الجليلُ التّعبيرَ بلفظ العقلِ فقال جلّ شأنُه: ﴿تَعْقِلُونَ﴾؛ لأنَّ العقلَ هو أوَّلُ درجاتِ الإدراك، والمعنى: أَفلا تعقلونَ أنَّ مثلَ هذا الحالِ منَ الجمعِ بين الأُمِّيَّةِ والإتيانِ بهذا الكتابِ البديعِ في بلاغتِه ومعانيهِ لا يكونُ إلّا حالَ مَن أفاضَ اللّه عليه رسالتَه، إذْ لا يتأتَّى مِثلُهُ في العادةِ لأحدٍ، ولا يتأتَّى ما يُقاربُه إلّا بعدَ مُدارسَةِ ومُطالعةِ الكُتُبِ السّالفةِ، ومُناظَرةِ العلماءِ، ومُحاورةِ أهلِ البلاغةِ منَ الخُطباءِ والشُّعراءِ زَمنًا طويلًا وعُمرًا مَديدًا، فكيف تأتَّى ما هو أعظمُ من ذلكَ المعتادِ دفعةً واحدةً لِمن قضَى عُمُرَه بينَهم في بلادِه يعايشونَه ويَعرفونَ أحوالَه وأَسرارَه، ويَرقبون تقلُّباتِه صباحَ مساءَ، وقد خلَتْ ديارُهم ممَّن يزاولُ العلومَ، وما أقامَ فيهم من

العقلُ الحصيفُ يُفضي إلى إدراكِ الدّليلِ على النُّبوَّةِ الصّادقةِ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/89.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/130.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/122.

أهلِ الكتابِ مَن يُعلِّمُهم ما في كُتبِهم من شريعةٍ وأخلاقٍ وأخبارٍ وعِظاتٍ؟ أَفَلا تكونونَ عاقلين فتعرفوا أنَّ مثلَ هذا الحالِ لا يكونُ إلّا من وَحيٍ صادقٍ مُنزَّلٍ من عندِ اللّه؟[1].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(شاءَ) و(أرادَ):

المشيئةُ من اللّه الإيجادُ، والإرادةُ العزمُ على الفعل أوِ التَّركِ

الإرادةُ: هي العزمُ على الفعل أوِ التَّركِ بعدَ تَصوُّرِ الغايةِ المترتِّبةِ عليه من خيرٍ أو نفعٍ أو لذَّةٍ ونحوِ ذلك، والإرادةُ تكونُ لِما يَتراخَى وقتُه ولِما لا يتراخَى، وأمّا المشيئةُ فهي إيجادُ الشَّيءِ وإصابتُه لِما لم يتراخَ وقتُه، فهي منَ اللّه تعالى تعني الإيجاد، والشّاهدُ أنَّكَ تقولُ: فعلتُ كذا شاءَ زَيدٌ أو أبَى، وذلكَ إنَّما يكونُ عندَ محاولةِ الفعل، وكذلكَ مشيئتُه إنَّما تكون بدلًا من ذلكَ في حالِه، وعلى هذا فالإرادةُ أخصُّ منَ المشيئة؛ لأنَّ المشيئةَ ابتداءُ العَزمِ على الفعل، فَنِسبتُها إلى الإرادة نسبةُ الضَّعفِ إلى القوَّة، والظّنِّ إلى الجَزْم، فإنَّك ربَّما شئتَ شيئًا ولا تُريدُه لمانعٍ عقليٍّ أو شرعيّ، وهذا في حقِّ النّاس، وأمّا الإرادةُ فمتى حصلَتْ صَدَرَ الفعلُ لا محالَةَ، وقد يُطلَقُ كلٌّ منهما على الآخَرِ توسُّعًا[2].

(لَبِثَ) و(مَكَثَ):

اللَّبثُ الإقامةُ بالمكانِ مع الملازمةِ له، والمُكثُ ثباتٌ مع انتظار

لَبِثَ بالمكانِ: أقامَ به مُلازمًا له، قالَ تعالى: ﴿فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾ [العنكبوت: 14][3]، واللّبث في القرآن الكريم يرتبطُ بالزّمن غالبًا؛ لأنّه لا معنى للبث بلا ظرفٍ، كما في قوله تعالى: ﴿فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [يوسف: 42]، وقوله تعالى: ﴿قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ﴾ [البقرة: 259].

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/26، والبقاعيّ، نظم الدُّرر: 9/89، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/123.

(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 35، والرّاغب، المفردات: (رود)، والكفويّ، الكلّيّات: 1/105، والجرجانيّ، التَّعريفات، ص: 130.

(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، والفيروزباديّ، القاموس المحيط: (لبث).

والـمُكثُ: ثباتٌ مع انتظارٍ، قالَ تعالى: ﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ [النَّمل: 22]. والتَّمكُّثُ: التَّلَبُّثُ[1]، وهو الاستقرارُ المطلقُ في المكان؛ أي: هو استقرارٌ غيرُ مُحدَّدٍ بأمدٍ، وقد وردَ في القرآن في مَواضعَ منها قوله تعالى: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ﴾ [الإسراء: 106]، وقوله تعالى: ﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ﴾ [النّمل: 22]، وقوله تعالى: ﴿قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا﴾ [القَصص: 29]، وقد آثرَ السّياقُ في هذه الآيةِ استعمالَ لفظِ (اللّبث)؛ لأنّه أبلغُ في التّعبير عنِ المعنى المراد.

وإنّما آثرَ التّعبيرَ في الآية بـ(اللّبث)؛ لأنّه أقامَ فيهم مُلازِمًا لهم وصحبَهم ذلك العمر على طولِهِ، ولم يعبّرْ بـ (المكث)؛ لأنّه لم يكنْ في إقامتِه هناك مُنتظِرًا، فكان الواقعُ يقتضي التّعبيرَ بما جاءَ في الآية.

(1) الرّاغب، المفردات، والفيروزباديّ، القاموس المحيط: (مكث).

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ ١٧﴾ [يونس: 17]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

العلاقةُ بين تبرئة الرّسولِ من اختلاقِ القرآنِ، وكونِهِ أعظمَ الظّلمِ، وأقبحِ الجرمِ

لَما التمسوا من رسولِ الله ﷺ قرآنًا يَذكُرُه من عندِ نفسِه، ونَسبوه إلى أنَّه إنَّما يأتي بهذا القرآنِ من عندِ نَفسِه، ثمَّ إنَّه أقامَ البُرهانَ القاهرَ الظّاهرَ على أنَّ ذلكَ باطلٌ، وأنَّ هذا القرآنَ ليس إلّا بوَحيِ الله تعالى وتنزيلِه، فعندَ هذا قالَ تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾، والمرادُ أنَّ هذا القرآنَ لو لم يكنْ من عندِ الله، لَما كانَ في الدُّنيا أحدٌ أظلمَ على نَفسِه منِّي، حيث افْتريتُهُ على الله، ولَما أَقَمتُ الدَّلالةَ على أنَّه ليس الأمرُ كذلك؛ بل هو بوَحيٍ من الله تعالى وَجَبَ أن يُقال: إنَّه ليس في الدُّنيا أحدٌ أَجهلَ ولا أظلمَ على نَفسِه منكم، حيث كذَّبتُم بآياتِ الله فصرتُم في عدادِ المجرمين الَّذين لا يُفلحون[1]، فـ "مناسبةُ هذه الآيةِ لِما قبلَها، أنّها تكشفُ عنِ افتراءِ المشركينَ على الله وتكذيبِهم بآياته"[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَظْلَمُ﴾: الظُّلمةُ: عدمُ النّور، وجمعُها ظُلُمات، قالَ تعالى: ﴿يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [البقرة: 257]، ويعبَّرُ بها عنِ الجهلِ والشِّركِ والفسقِ والنِّفاقِ، فلا أحدَ أظلمُ من أهلِ هذه الصِّفات. والظُّلمُ: وضعُ الشَّيءِ في غيرِ موضعِه المختصِّ به، إمّا بنقصانٍ أو بزيادةٍ، وإمّا بعدولٍ عن وقتِه أو مكانِه، والظُّلمُ: يُقالُ في مجاوزةِ الحقِّ، وفيما يكثُر وفيما يَقِلُّ منَ التَّجاوزِ، ولهذا يُستعملُ في الذَّنبِ

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/226.
(2) عبد الكريم الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 6/975.

الكبيرِ، وفي الذَّنبِ الصَّغيرِ[1]. ومن هذا المعنَى قولُه تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾؛ أي: لا أحدَ أظلَمُ ولا أشدُّ إجرامًا ممَّن تقوَّلَ على اللّه، وزعَمَ أنَّ اللّه أرسلَه، ولم يكن كذلك، أو بقولٍ أو بعملٍ تجاوزَ فيه حدودَ اللّه، فكلُّ ذلكَ ظلمٌ[2].

2) ﴿ٱفْتَرَىٰ﴾: الفَرْيُ: رقعُ الجلدِ للخَرزِ والإصلاحِ، والإفراءُ للإفساد، والافتراءُ فيهما، وفي الإفسادِ أكثر، وكذلكَ استُعمِلَ في القرآنِ في الكذِبِ والشِّركِ والظُّلم، نحو: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾﴾ [النِّساء: 48]، وقولُه تعالى: ﴿لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾﴾ [مريم: 27]؛ أي: كَذِبًا عظيمًا وعجيبًا[3]، ومن هذا قولُه تعالى: ﴿ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّـهِ كَذِبًا﴾؛ أي: كذَبَ على اللّه بنسبةِ القرآنِ إلى غيرِ اللّه تعالى[4].

3) كذَّب: الكذبُ ضدُّ الصِّدقِ، ويُقالُ في المقالِ والفعالِ، قالَ تعالى: ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [النَّحل: 105]، وقد يكونُ الكذبُ في الاعتقاد، كحالِ المنافقينَ الَّذين كذبوا في اعتقادِهم لا في مقالِهم، ومقالُهم كانَ صِدقًا، قالَ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ﴿١﴾﴾ [المنافقون: 1]، ويُقال للمبالغةِ في الكذب: رجلٌ كذّابٌ، وكذوبٌ[5]، وقولُه تعالى: ﴿ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ﴾؛ أي: نَسبَ القرآنَ إلى غيرِ اللّه، وقالَ: إنَّ آياتِ اللّه ليستْ من عندِ اللّه، والمفترونَ على اللّه الكذبَ بذلك همُ المشركونَ نَسبوا إلى اللّه الشَّريكَ والوَلَدَ، والمكذِّبونَ بآياتِ اللّه هم أهلُ الكتاب[6]، ويمكنُ أن يكونَ كِلا الفريقينِ على ذلكَ في الافتراءِ على اللّه وتكذيبِ آياتِه فإنَّ مَن افْترى على اللّه الكَذِبَ كذَّبَ بالقرآنِ وبآياتِه، وأهلُ الكتابِ لَمّا كفروا بنبوَّةِ محمَّدٍ ﷺ فقد كذَّبوا بالقرآنِ وبآياتِه.

4) ﴿لَا يُفْلِحُ﴾: فلح: أصلٌ يدلُّ على فَوزٍ وبَقاءٍ، الفاءُ واللّامُ والحاءُ أَصلانِ صحيحان، أحدُهما يدُلُّ على شَقٍّ، والآخَرُ على فَوْزٍ وبَقاء. فالأوَّلُ: فَلَحتُ الأرضَ: شَقَقْتُها. والثّاني: الفَلاحُ: وهو الظَّفَرُ والبقاءُ والفوزُ، قالَ تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾﴾ [المؤمنون: 1][7]. وَقَولُ

(1) الرّاغب، المفردات، والفيروزابادي، القاموس المحيط: (ظلم).
(2) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 2/373، والشَّوكانيّ، فتح القدير: 2/608.
(3) أبو عبيدة، مجاز القرآن: 2/6، وابن المبارك، غريب القرآن وتفسيره، ص: 238، والرّاغب، المفردات: (فرى).
(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/226، والشَّوكانيّ، فتح القدير: 2/608.
(5) الرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (كذب).
(6) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 2/230، والشَّوكانيّ، فتح القدير: 2/608.
(7) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (فلح).

النّاسِ: لا يُفلحُ فلانٌ بعدَها، يُريدونَ بعد فَعْلتِه الَّتي فَعَلَ أَو بعد هَذِه المرَّة[1]، وفي القرآن قوله: ﴿وَيۡكَأَنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ٨٢﴾ [القصص: 82]، وبهذا المعنَى الأخيرِ جاءَ قولُه تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾؛ أي: لا يَظفَرونَ بمَطلوبٍ وبُغيةٍ ولا يفوزون بخيرٍ[2].

5) ﴿ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾: أَصلُ الجَرْم: قطعُ الثَّمرةِ عنِ الشَّجَر، يُقال: ثَمَرٌ جَريمٌ؛ أي: مقطوع. وأَجْرَمَ: صارَ ذا جَرَم، نحو: أَثْمَرَ وأَلْبَنَ، واستُعيرَ لكلِّ اكتسابٍ مَكروهٍ، ومنه الإجرامُ. والجريمةُ: الذَّنْبُ، وارتكابُ ما حرَّمَ اللّه أو كرِهَهُ، ومنه قولُه ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضۡحَكُونَ ٢٩﴾ [المطفّفين: 29][3]، ومنه قولُه هنا: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾.

وأعظمُ الجُرْمِ: الإشراكُ باللّه والتَّكذيبُ بآياتِه بعد بيانِها؛ أي: لا يفوزونَ بسببِ شركِهم وتكذيبِهم بأيِّ خيرٍ، فما اعتقَدوه وقالوه وعَمِلوه ممّا سبقَ أعظمُ جُرْمٍ على اللّه، وأكثرُ استشرافٍ إلى عذابِه[4].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

يخبرُ اللّه تعالى في بليغِ نظمِه أنْ: لا أحدَ أظلمُ ولا أَعتَى ولا أشدُّ إجرامًا، ممَّن تقوَّلَ على اللّه، وزَعَمَ أنَّ اللّه أرسلَهُ، ولم يكنْ كذلك، فليس أحدٌ أكبرَ جُرْمًا ولا أعظمَ ظلمًا من هذا، ومِثْلُ هذا لا يَخفى أمرُه على الأغبياءِ فكيفَ يُشتَبَهُ حالُ هذا بالأنبياء؟! فإنَّ مَنْ قالَ هذه المقالةَ صادقًا أو كاذبًا، فلا بُدَّ أنَّ اللّه ينصِبُ عليه منَ الأدلَّةِ على برِّه أو فُجورِه ما هو أظهرُ منَ الشَّمس، ولمّا كذَّبَ أولئكَ المشركونَ بآياتِ اللّه، فقد تعيَّنَ فيهم الظُّلمُ، ولن ينالوا الفلاحَ

لا أظلمَ ممّن كذَبَ على الله أو كذَّبَ بآياته، ولا أشدَّ إجرامًا منه

(1) ابن سيده، المخصّص: 5/169.
(2) ابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 3/111، والشَّوكانيّ، فتح القدير: 2/608.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (جرم).
(4) ابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 3/111، والبقاعيّ، نظم الدُّرر: 9/90.

والظَّفَرَ بما يتطلَّعونَ إليه من وراء كَذِبهم وكُفرِهم، والظّالمون هم المجرمونَ المرتكِبونَ لأشنَعِ الذُّنوبِ وأقبحها، والتَّي سيأخذُهم اللّه بها إلى عذابِ النّارِ وبِئسَ المصير[1].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

موقعُ الجملةِ البيانيُّ في: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ﴾:

لَما قامتِ الحجَّةُ عليهم بما لا قِبَلَ لهم بالتَّنصُّلِ منه، أَعقَبَ ذلكَ بالتَّفريعِ على افترائِهمُ الكَذِبَ، وذلكَ ممّا عُرِفَ من أحوالِهم من اتِّخاذِهمُ الشُّركاءَ له، كما أشارَ إليه قولُه من قَبلُ: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُواْ﴾؛ أي: أشركوا، إلى قولِه تعالى: ﴿لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾ [يونس: 13، 14]، وتكذيبِهم بآياتِ اللّه في قولِهم: ﴿ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ﴾، فالشِّركُ باللّه ظلمٌ، والافتراءُ على اللّه ظلمٌ، والتَّكذيبُ بآياتِه ظلمٌ، إذ أساسُ ذلكَ كلِّه الشِّرك، فهو أظلمُ الظُّلم، قالَ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾ [لقمان: 13]، وما يتبعُه ويتفرَّعُ عنه هو كذلك[2].

الشِّركُ أعظَمُ الظُّلمِ، وعنه يتفرَّعُ الافتراءُ على اللّه والتَّكذيبُ بآياتِه

دلالةُ الفاءِ في: ﴿فَمَنْ﴾:

افتتحَ النّظمُ الكريمُ قولَه تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ﴾ بالفاء التّفريعيّة، فلمّا عرَّضوا بنسبتِه إلى الافتراءِ على اللّه حين قالوا: ﴿ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ﴾ [يونس: 15]، وصرَّحوا بِنَفي أنْ يكونَ القرآنُ من عندِ اللّه، فلمّا أقامَ الحُجَّةَ عليهم، بأنَّ ذلكَ من عندِ اللّه، وأنَّه ما يكونُ له أن يأتيَ به من تِلقاءِ نَفسِه، فرَّعَ عليه أنَّ المُفتريَ على اللّه كَذِبًا والمكذِّبينَ بآياتِه، كلاهما أَظلمُ النّاس، لا أحدَ أظلمُ منهما، وذلكَ من مُجاراةِ الخَصْمِ ليَعثُرَ؛ يُخيَّلُ إليه من الكلامِ أنَّه إنصافٌ بينهما، فإذا حَصْحَصَ

مُجاراةُ الخَصمِ حتَّى يُسكَتَ بالحُجَّةِ القائمةِ، والدّليلِ المُفحِمِ

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 2/273، والسَّعديّ، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 311.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/123.

الحقُّ وظهرَ المعنَى وُجِدَ انصبابُهُ على الخَصْمِ وَحدَه، فَأُسقطَ بينَ يَدَيْهِ وأفْحَمَه[1].

دَلالةُ الاستفهامِ في: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ﴾:

أشدُّ الظُّلمِ الكذبُ على الله، أو التّكذيبُ بهداه

جاءَ الاستفهامُ في قولِه: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓۚ﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّ أحدَ الأَمرَينِ أشدُّ الظُّلمِ؛ لأنَّه اعتداءٌ على الخالقِ بالكَذبِ عليه وبتكذيبِ آياتِه بعدَ بيانِها، وذلك أعظمُ جُرمٍ على اللّه، وأكثرُ استشرافٍ إلى عذابِه[2]، "والاستفهامُ في قوله: فَمَنْ أَظلَمُ للإنكار والنّفي؛ أي: لا أحدَ أشدُّ ظلمًا عندَ اللّه، وأجدرُ بعقابه وغضبِه، ممّنِ افترى عليه الكذبَ، بأن نسبَ إليه سبحانه ما هو بريءٌ منه، أو كذّبَ بآياتِه وحججِه الّتي أنزلها لتأييدِ رسلِه"[3].

لا أحدَ أظلَمُ من كلِّ ظالمٍ افترى على الله كذبًا

إذا كانَ سَبْكُ التَّركيبِ مُفيدًا لإنكارِ أن يكونَ أحدٌ أظلمَ ممَّنِ افْتَرى على اللّه الكَذِب أو كذَّبَ بآياتِه من غيرِ تعرُّضٍ لإنكارِ المساواةِ ونَفيِها، فإنَّه إذا قيل: مَنْ أفضلُ مِن فُلانٍ؟ أو لا أحدَ أعلمُ منه، يُفهَمُ حَتمًا أنَّه أَفضَلُ من كلِّ فاضلٍ، وأَعلَمُ من كلِّ عالمٍ، ويكونُ المعنَى هنا قائمًا على الجَحْدِ؛ أي: لا أَحَدَ أظلَمُ من أيِّ ظالمٍ[4].

بلاغةُ النّفي والتّقرير بالاستفهام:

أشارَ الاستفهامُ والتَّقريرُ على عِظَمِ جُرمِ إنكارِ التَّنزيلِ

في قولِه تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓۚ﴾ استفهامٌ وتقريرٌ؛ أي: لا أحدَ أظلمُ من هذينِ الصِّنفَين، فذلكَ أعظمُ جُرْمٍ على اللّه، وإنَّما كانَ أحدُ الأمرَين أشدَّ الظُّلمِ؛ لأنَّه اعتداءٌ على الخالقِ بإنكارِ التَّنزيلِ الإلهيِّ لهذا القرآنِ، فهو أَعتَى الافتراءاتِ وأَشنَعُها مآلًا[5].

---

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/644، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/123.

(2) ابن عطيَّة: المحرَّر الوجيز: 3/111، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/644.

(3) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 7/42.

(4) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/644.

(5) ابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 3/111، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/124.

دَلالةُ صيغةِ (أَفْعل) في: ﴿أَظْلَمُ﴾:

المشركون أعظمُ جُرْمًا عندَ الله بتكذيبِهم القرآن، وتنزّلِهِ منَ الرّحمن

دلَّت صيغةُ (أَفْعَل) في ﴿أَظْلَمُ﴾، وهي من أَفعُلِ التَّفضيلِ، وهي في سياقِ التَّشنيعِ على المشركينَ الَّذين افتروا على اللّه الكَذِبَ أو كذَّبوا بآياتِه، أنَّه لا أحدَ أعظَمُ جُرْمًا عندَ اللّه، ولا أَعتَى ولا أكثرُ استشرافًا إلى عذابِ اللّه مِن أولئك المفترينَ على اللّه، المكذِّبينَ بآياتِهِ بعدَ بيانِها[1]، ومن هنا يُقال: بأنّه " لا أحدَ أظلمُ ممّنِ افترى على اللّه سبحانَه كذباً؛ لأنّ الكاذبَ إنّما يكذبُ ليدلِّسَ على مَن أمامه، فهل يكذبُ أحدٌ على مَن يعلمُ الأمورَ على حقيقتِها؟ لا أحدَ بقادرٍ على ذلك، ومَن يكذب على البشر المساوين له يظلمهم، لكنّ الأظلمَ منه هو مَن يكذبُ على اللّه سبحانَه"[2].

سرُّ استعمالِ الاسمِ الموصولِ (مَنْ) في: ﴿مِمَّنِ﴾:

دلالةُ الاسمِ الموصولِ (مَنْ) على المبالغةِ والتَّعميمِ

جاءَ اسمُ الموصولِ (مَنْ) في قولِه: ﴿مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ﴾ لأمرَينِ اثنَين: الأوَّلُ: للمبالغةِ في وَصفِ هذا الَّذي افترَى على اللّه كَذِبًا بما حَمَلَه منَ الشَّناعةِ والقَباحةِ؛ لخطورةِ ذاكَ الافتراء، فهو افتراءٌ على اللّه ﷻ، فإذا كانَ الافتراءُ على المخلوقِ شديدَ الشَّناعةِ فكيفَ يكونُ الافتراءُ على الخالقِ ﷻ؟!. والثّاني: تعميمُ هذا الوصفِ لكلِّ مَنْ صَدَرَ منه هذا الافتراء، فهو يفيدُ كلَّ أحدٍ افترَى على اللّه كذِبًا.

غرضُ حذفِ الفاعلِ مع الفعلِ الماضي: ﴿ٱفْتَرَىٰ﴾:

حذفُ الفاعلِ لازدرائِه والتَّقليلِ من شَأنِه

حُذِفَ الفاعلُ مع الماضي ﴿ٱفْتَرَىٰ﴾ للاستهانةِ والازدراءِ به، فهو أقلُّ شَأنًا من أنْ يَظهرَ أو يُذكَر؛ لافترائِه على اللّه كذبًا أو تكذيبِه بآياته، فهذا الافتراءُ هو أَظلَمُ الظُّلم.

دلالةُ التّعبيرِ بصيغةِ الافتعالِ في ﴿ٱفْتَرَىٰ﴾:

عبّرَ النّظمُ الجليلُ بصيغةِ الافتعالِ في قولِه جلّ شأنُه: ﴿ٱفْتَرَىٰ﴾؛

(1) ابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 3/111.
(2) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 10/5811.

كذَّبَ المشركونَ بالقرآنِ وبآياتِه، فافتروا بذلكَ الكذبَ على الله

للدّلالة على الكلفة، ويفيدُ ذلك أنّهم قد تعمّدوا الكذِبَ على الله تعالى كذِبًا صريحًا مُتعمَّدًا بتكذيبِهم للقرآنِ وحَملِهم على أنَّه من جهتِه ﷻ بقولِهم: ﴿ٱئۡتِ بِقُرۡءَانٍ غَيۡرِ هَٰذَآ أَوۡ بَدِّلۡهُۚ﴾، وظُلمِهمُ الفادِحِ، وتكذيبِهم بآياتِه تعالى بقولِه: ﴿فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوۡ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓۚ﴾، وكأنَّ بيانَ الله يقولُ لهم: إنَّ قائلَ ما قلتُم مُكذِّبٌ بآياتِ الله، وفاعلَ ما طلبتُم كاذبٌ على الله، وكلُّ ذلكَ منكم ظلمٌ مُتعمَّدٌ مقصودٌ، فلذلكَ كانَ أظلمَ الظُّلم[1].

سرُّ وضعِ الاسمِ الظّاهرِ: ﴿ٱللَّهِ﴾ موضعَ المُضمَرِ:

الافتراءُ على اللهِ ظلمٌ وتطاولٌ على مقامِ الألوهيّةِ الأسمى

كانَ الأَصلُ في قولِه تعالى: ﴿ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ﴾ أنْ يُقال: افترى عليه، على تقدير: أنْ لا يكونَ هذا القرآنُ من عندِ الله كما زعمتُم، ولكنَّه وُضِعَ هذا الظّاهر، وهو لفظُ الجلالة ﴿ٱللَّهِ﴾، مكانَه تعميمًا وتعليقًا للحُكمِ بالوصف؛ للدَّلالةِ على خطورةِ ظُلمِهم وشناعةِ افترائِهم، فهو افتراءٌ على الله المعبودِ بحقٍّ دون سواه[2]، "ويكون النّصُّ على هذا إثباتَ أنّ القرآنَ الّذي تلاه عليهم، هو من عند الله؛ لأنّه ليس بظالمٍ، فضلًا عن أن يكون أظلمَ النّاسِ، إذ هو الصّادقُ الأمينُ الّذي عرفتموه، وهو تنديدٌ بالمشركين؛ فهم أظلمُ النّاسِ؛ لأنّهم افتروا على الله تعالى إذ أشركوا به غيرَه، وأيُّ افتراءٍ أكبرُ من ذلك، ثمّ هم قد سفّهوا النّبيَّ ﷺ، وافتروا عليه الكذبَ"[3].

نكتةُ تنكيرِ لفظِ ﴿كَذِبًا﴾:

تنكيرُ اللّفظِ في الآيةِ ليفيدَ العُمومَ، ويصفَ قالَهم المشؤومَ

جاءَ لفظُ ﴿كَذِبًا﴾ نكرةً ليصدُقَ على أيِّ كذبٍ كان؛ أي: على عُمومِ الكذبِ على الله بأيِّ وَجهٍ أو صفةٍ أو قولٍ أو فعلٍ[4]، والكذبُ

(1) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 2/230، والبقاعيّ، نظم الدُّرر: 9/89، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/644.

(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 9/89 - 90.

(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3536.

(4) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 9/89.

أسوأُ أخلاقِ الإنسانِ، وهو مُستبشَعٌ في كلّ الشّرائعِ، ومُستنكَرٌ في كلّ الأحكامِ الشّرعيّةِ، والقوانينِ الوضعيّةِ، لكنّه إذا ارتبطَ بالافتراء على اللّه كان أبشعَ وأقبحَ، ولذلك لـمّا طلبَ منه المشركون أن يكذبَ على اللّه، بأن يأتي بغير ما أنزلَ اللّه، أو أن يبدّلَه، ردَّ عليهم بحزمٍ وإنكارٍ، واستعظمَ أن يقولَ على اللّه ما لم يأمرْه به؛ لأنّ ذلك يتنافى مع الإيمانِ، ناهيك عن النّبوّةِ والرّسالةِ، وقد قالَ تعالى: ﴿إِنَّمَا يَفۡتَرِي ٱلۡكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰذِبُونَ ١٠٥﴾ [النّحل: 105].

دَلالةُ الجمعِ بين لفظي ﴿ٱفۡتَرَىٰ﴾ و ﴿كَذِبًا﴾:

الجمعُ بين لفظِ الكذبِ مع مرادفِه، يؤكّدُ أنّه كَذِبٌ في ذاتِه، لا في الإسنادِ فقط

جَمَعَ النّظمُ الجليلُ بين لفظي الافتراءِ والكذبِ في قوله تعالى: ﴿ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ مع أنَّ الافتراءَ لا يكون إلّا كَذِبًا؛ وذلكَ للإيذانِ بأنَّ ما أضافوه إليه ضِمنًا، وحَمَلوه ﷺ عليه صريحًا، مع كونِه افتراءً على اللّه تعالى، هو كذبٌ في نَفسِه، فَرُبَّ افتراءٍ يكونُ كَذِبُهُ في الإسنادِ فقط، كما إذا أُسنِدَ ذَنبُ زيدٍ إلى عَمرٍو، وهذا للمبالغةِ منه ﷺ في التَّفادي عمّا ذُكِرَ منَ الافتراءِ على اللّه[1] ﷻ.

دَلالةُ الحرفِ: ﴿أَوۡ﴾:

الافتراءُ والتّكذيبُ كلاهما ظلمٌ شديدٌ

لَمّا صرَّحَ المشركونَ بنَفيِ أن يكونَ القرآنُ من عندِ اللّه بقولِهم: ﴿ٱئۡتِ بِقُرۡءَانٍ غَيۡرِ هَٰذَآ﴾، وأقامَ النّظمُ الكريمُ الحُجَّةَ عليهم، بأنَّ ذلكَ من عندِ اللّه، وأنَّه ما يكونُ له أنْ يأتيَ به من تلقاءِ نَفسِه، فَرَّعَ عليه أنَّ المُفتريَ على اللّه كَذِبًا والمُكذِّبين بآياتِه كلاهما أَظلمُ النّاسِ لا أحدَ أَظلمُ منهما، فجاءَ محلُّ ﴿أَوۡ﴾ على الوجهينِ بمعنَى التَّقسيم، وهو إمّا تَقَسُّمُ أَحوالٍ، وإمّا تَقَسُّمُ أنواعٍ[2].

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/644.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/124.

الفرقُ الدَّلاليُّ بين ﴿كَذِبًا﴾ و ﴿كَذَّبَ﴾:

المجاورةُ بين المصدرِ وفعلِ التَّكذيبِ في قوله (كَذِبًا أو كَذَّبَ)

لَمّا قالَ المشركونَ: ﴿ٱئۡتِ بِقُرۡءَانٍ غَيۡرِ هَٰذَآ أَوۡ بَدِّلۡهُۚ﴾ كان في ضِمنِه أنَّهم ينسبونَهُ إلى أنَّه ليس من عندِ اللّه، وإنَّما هو اختلاقٌ واختلافٌ وتردّدٌ، فَبولِغَ في ظُلمِ مَنِ افْترى على اللّه كذبًا، فجاءَ بالمصدرِ ليُعبِّرَ عن هذه المبالغةِ بتأكيدِ افترائهم على اللّه، ولَمّا أنْ قامَ الدَّليلُ القاطعُ على أنَّ هذا القرآنَ هو من عندِ اللّه، وقد كذَّبتُم بآياتِه بعد بيانِها، وقد حصلَ منكم هذا التَّكذيبُ منذُ بدايةِ نُزولِ القرآنِ بالوَحي على رسولِ اللّه ﷺ ، فلم تؤمنوا بها وكذَّبتُم ما جاءتكم به ممّا لا يناسبُ عقيدتَكمُ الوَثنيَّةَ وأحوالَكم وأحلامَكم المخالفةَ، جاءَ بيانُ اللّه تعالى بقولِه: ﴿أَوۡ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓۚ﴾ بصيغةِ الفعلِ الماضي، وعند ذلك فلا أَظلمَ منكم كذلك[1].

دَلالةُ جِناسِ الاشتقاقِ: ﴿كَذِبًا﴾، ﴿كَذَّبَ﴾:

لفظ (كَذِبًا) أبلغُ في معناها من لفظ (كَذَّبَ)، وهما من اشتقاقٍ واحدٍ

وقعَ الجِناسُ الاشتقاقيُّ[2] بين كلمتي ﴿كَذِبًا﴾ و ﴿كَذَّبَ﴾؛ لأنَّ أصلَ الكلمتَين واحدٌ، ولكنَّ ﴿كَذِبًا﴾ فيها مبالغةٌ في المعنَى وزيادةُ دَلالةٍ على ما وصلَ إليه المشركون من مبالغتِهم في الكذِب، ولبيانِ أنَّ هذا مع كونِه افتراءً على اللّه هو كذِبٌ في نَفسِه، وهذا المعنَى لا يظهرُ بجلائِه وقوَّتِه إلّا في المصدرِ ﴿كَذِبًا﴾ دونَ الفعلِ الماضي ﴿كَذَّبَ﴾[3].

بلاغةُ الإخبارِ عن التّكذيبِ بـ: ﴿أَظۡلَمُ﴾، ﴿ٱفۡتَرَىٰ﴾، ﴿كَذِبًا﴾:

تحريفُ ما أنزلَ اللّه يجعلُ الظّلمَ والافتراءَ والكذبَ في بوتقةٍ واحدةٍ

في قولِه تعالى: ﴿فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ جاءَ

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/26.

(2) الجِناسُ في اللُّغة: مصدرُ جانسَ الشَّيءَ بالشَّيء، أي: شاكلَهُ واتَّحدَ معه في الجِنس، ومنه المجانسة والتَّجنيس، ويقالُ: هذا يجانسُ هذا، أي: يشاكلُه. وفي الاصطلاح: هو اتِّفاقُ اللَّفظَين في وجهٍ منَ الوجوه مع الاختلافِ في المعنَى، فهو من حيث المضمون يزيدُ منَ الانسجامِ في المعاني عن طريق الأسلوبِ السَّلِسِ والمحبَّبِ. وأمّا جناسُ الاشتقاق: فهو نوعٌ من أنواعِ الجِناسِ، ويعني: أن يكون اللّفظان لهما أصلٌ واحدٌ في اللُّغة، ويتوافقان في الحروف الأصليَّةِ في التَّرتيب والاتِّفاق في أصل المعنَى مع اختلافٍ في حركاتِهما وسكناتِهما، وهو هنا مثل: (كذِبًا) و(كذَّب). يُنظر: ابن منظور، لسان العرب: (جنس)، جميل عيّاش، نماذج من جناس الاشتقاق في القرآن الكريم، ص: 114 - 115.

(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/644.

اسمُ التّفضيلِ ﴿أَظۡلَمُ﴾ في سياقِ الاستفهامِ، ثمّ جاءَ من بعده الفعلُ ﴿ٱفۡتَرَىٰ﴾ تعبيرًا عن عظيمِ جُرمِ المشركين؛ بل عن أعظمِ فِريةٍ اختلَقوها، وهي إنكارُهم لتنزيلِ اللّه للقرآنِ على نبيِّه محمَّدٍ ﷺ، ثمّ جاء المصدرُ ﴿كَذِبًا﴾ ليحدّدَ نوعَ الافتراءِ، فلمّا حصلَ منهم هذا الإنكارُ الشَّنيعُ وجبَ وصفُهم بأنَّهم أَظلمُ النّاسِ، وهذا الوصفُ لهم المقصودُ منه نفيُ الكَذِبِ عن نَفسِه، وإيعازٌ بإلحاقِ الوعيدِ الشَّديدِ بهم حيثُ أنكَروا دلائلَ اللّه، وأعظمَ معجزةٍ من معجزاتِه تعالى، وكذَّبوا بآياتِ اللّه [1] ﷻ.

بلاغةُ التَّذييلِ في: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾:

شمولُ الإجرامِ وعدمِ الفلاحِ لِمَن كذَّبوا بآياتِ الله

قولُه تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾ تذييلٌ، وموقعُه يقتَضي شُمولَ عُمومِه للمذكورينَ في الكلامِ المُذَيَّل، ويقتَضي أنَّ أولئكَ مُجرِمونَ، وأنَّهم لا يُفلِحون[2]، وهو تذييلٌ تعليليٌّ، فهو تعليلٌ لكونه لا أظلم ممّن افترى على اللّه كذبًا أو كذّبَ بآياتِه، وإنّ واسمها وجملة ﴿لَا يُفۡلِحُ﴾ خبرها، و﴿ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾ فاعل"[3]، فالجملةُ تذكيرٌ بالعاقبةِ السّيّئةِ لهؤلاء الّذين كذّبوا بالوحي، وآذوا الرّسولَ، وهم في نشوةِ القوّةِ، وسكرةِ المغالبةِ والمطالبةِ، لا يدركون ما سيؤولونَ إليه، ليلفتَ السّياقُ انتباهَهم إلى أنّهم مُجرمون، وأنّ المجرمين لا يفلحون.

سرُّ التَّوكيدِ بـ(إنَّ)، واسميَّةِ الجملةِ: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾:

تأكيدُ الجملةِ بحرفِ التَّأكيدِ (إنَّ)، واسميَّتِها ناظرٌ على عموم المجرمينَ للمخاطَبين؛ لأنَّهم يُنكرونَ أنْ يكونوا منَ المجرمين[4]، و(المجرمون): هم الّذين اجترموا منَ الكفر؛ أي: اكتسبوه، وتأكيدُ السّياقِ بجملة المؤكِّداتِ يشيرُ إلى أنّ ذلك الأمرَ واقعٌ لا محالةَ، وأنّ

تأكيدُ الآيةِ شمولَ صفةِ الإجرامِ، لجميعِ المخاطَبين المفترينَ

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/226، وأبو حيّان، البحر المحيط: 6/26.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/124.
(3) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 4/219.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/124.

مَن ضلَّ سعيُه في الحياة الدّنيا، وهو يظنُّ أنّه يُحسنُ صُنعًا، سيجدُ كلَّ سعيه في الدّنيا ويوم القيامة آيلًا إلى الخسران، ومُفضياً إلى البوار، وبئسَ القرارُ، والعِبرةُ بالخواتيم.

نُكتةُ افتتاحِ الجملةِ بضميرِ الشَّأنِ: ﴿إِنَّهُۥ﴾:

ضميرُ الشَّأنِ لقصدِ الاهتمامِ بمضمونِ الجملةِ

صُدِّرَ قولُه تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾ بضميرِ الشَّأنِ في ﴿إِنَّهُۥ﴾ لقَصدِ الاهتمامِ بمضمونِها، وللتَّنبيهِ على خطورةِ الإجرام وبيانِ سوءِ عاقبةِ أصحابِه[1].

دلالةُ التّعبيرِ بالفعلِ المضارعِ ونفيِه: ﴿لَا يُفۡلِحُ﴾:

عدمُ الفلاحِ مُستمرٌّ مع المجرمين، ومصاحبٌ لهم في جميعِ أحوالِهم

استعملَ البيانُ الإلهيُّ صيغةَ الفعلِ المضارعِ في قولِه: ﴿لَا يُفۡلِحُ﴾؛ لأنَّ الفعلَ المضارعَ يُفيدُ التَّجدُّدَ والاستمرارَ، فأخبرَنا اللّه تعالى هنا أنَّ المجرمينَ لا يمكنُ أنْ يُفلِحوا، وعدمُ الفَلاحِ مُستمرٌّ معهم مُصاحِبٌ لهم في أحوالِهم كلِّها، حتَّى وإنْ تراءى لبعضِ قاصري النَّظر أنَّهم مُفلحونَ في معايشِهم وأمورِ دينِهم، فهم عندَ اللّه مجرمون، يأكلونَ ويتنعَّمونَ كالأنعام، ولكنّ مثواهم النّارُ وبِئْسَ المصيرُ، كما قالَ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأۡكُلُونَ كَمَا تَأۡكُلُ ٱلۡأَنۡعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثۡوٗى لَّهُمۡ ١٢﴾ [محمد ﷺ: 12]، وكيف لا يكونُ هذا حالُهم ومصيرُهم، وهم قد وقعوا في أَظلمِ الظُّلم؛ افترَوا على اللّه كذِبًا وكذَّبوا بآياتِه.

العلاقةُ بين اشتقاقِ اللَّفظِ، ودَلالتِه في سياقِ الآيةِ:

انتفاءُ الفَلاحِ بعمومِه لعمومِ المجرمين، وخصوصًا مَنْ ذكرَهم السِّياق

الفَلاحُ: الفوزُ وصلاحُ الحالِ، فيكونُ في أحوالِ الدُّنيا والآخرة، والمرادُ به في اصطلاحِ الدِّينِ: الفوزُ بالنَّجاةِ منَ العذابِ في الآخرة. والفعلُ منه: أفلَحَ، يُفلِحُ؛ أي: صارَ ذا فَلاح، وإنَّما اشتُقَّ منه الفعلُ بواسطةِ الهمزةِ الدّالَّةِ على الصَّيرورة؛ لأنَّه لا يقعُ حَدَثًا

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 6/971.

قائمًا بالذّات؛ بل هو جنسٌ تحُفُّ أفرادُه بمَن قُدِّرتْ له[1]، وهنا في قولِه تعالى: ﴿لَا يُفۡلِحُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾ نفيٌ للفَلاح، أيِّ فَلاحٍ في أيِّ صورةٍ منه.

سرُّ التّعبيرِ بلفظ: ﴿ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾، وعدم تحديدِهم:

اختيارُ الأسلوبِ الأكثرِ إقناعًا للعقولِ، باللّطفِ لا بالعنفِ

اختارَ الأسلوبَ الّذي يُهذِّبُ ويؤلِّفُ القلبَ، ولو كان عدوًّا مخاصمًا، أو مبغضًا شانئًا، مُتجانفًا عن أسلوب التّقريعِ والتّهييجِ والصّدامِ، وهذا منَ الحكمةِ الجليلةِ، حتّى لا يستمرَّ الجدلُ بلا طائلٍ، ولذلك قال الحقُّ سبحانَه: ﴿فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾، وهذا الأسلوبُ عامٌّ غيرُ مُقيّدٍ، وينطبقُ باعتباره حكمًا على كلِّ الممارساتِ الّتي يشوبُها الكذبُ، أو يخالطُها الإفكُ، ممّا يكونُ فيها الكذبُ على اللّه ورسولِه ودينِه، وتُطبَّقُ على كلِّ مَن يصدرُ منه ظلمٌ، وسياقُ الآيةِ يقولُ: "فإذا كان الظّلمُ من جهتي فسوف يحاسبُني اللّه عليه، وإن كان من جهتِكم فاعلموا قولَ الحقِّ سبحانَه: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾، ولم يحدّد مَنِ المُجرمُ، وتركَ الحكمَ للسّامعِ، كما تقول لإنسانٍ له معك خلافٌ: (سأعرضُ عليك القضيّةَ واحكم أنت)، وساعة تفوّضُه في الحكم؛ فلن يصلَ إلّا إلى ما تريد، ولو لم يكن الأمرُ كذلك لما عرضتَ الأمرَ عليه"[2].

إيثارُ لفظِ ﴿ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾:

لفظُ (المجرمون) أوفى في الدّلالةِ، من حيث المعنَى ومن حيث العموم

كانَ الأصلُ أن يُقالَ في ذيلِ الآية: الكاذبون، جَرْيًا على نَسَقِ السِّياقِ؛ أي: فمَن أظلمُ ممَّنِ افْترَى على اللّه كَذِبًا أو كذَّب بآياته إنَّه لا يُفلِحُ الكاذبون، لكنَّ بيانَ اللّه تعالى آثَرَ لفظَ ﴿ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾ على لفظِ (الكاذبون) للدَّلالةِ على شناعةِ وعِظَمِ ظُلمِ المفترينَ على اللّه كَذِبًا أو المُكذِّبين بآياته، والتَّعبيرُ بالإجرامِ هنا أقوى وأشدُّ مناسبةً

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/124.
(2) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 11/124.

للسِّياق، ثمَّ إنَّ لفظَ المجرمين - كما تقدَّم - عامٌّ يصدُقُ على المكذِّبين وغيرِهم ممَّن يحادّون اللّه ورسولَه، ويسعونَ في الأرضِ فَسادًا، ويرتكبونَ كبائرَ الذُّنوبِ، ولا يتوبونَ منها، فهو أَوفَى للعُمومِ من لفظِ (الكاذبون)، وأيضًا لشمولِ عمومِ المجرِمينَ للمُخاطَبينَ؛ لأنَّهم يُنكرونَ أن يكونوا منَ المُجرمِين[1].

دلالةُ (أل) في ﴿ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾:

جاءَ التّعبيرُ بـ﴿ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾ معرّفًا بـ(أل) الدّالّة على الجِنْس؛ أي: جِنْس المجرِمين، وإنْ كانَ هنا معهودًا بمنِ افْترَى على اللّه كَذِبًا أو كذَّبَ بآياتِه بحسبِ ظاهرِ السِّياق، لكنَّ إسنادَ عدمِ الفَلاحِ إليه، يقتضي عمومَ عدمِ الفَلاحِ لعمومِ المجرِمينَ؛ أي: لا يُفلحُ بأيِّ وجهٍ منَ الوجوهِ المجرمونَ، بأيِّ وجهٍ من وجوهِ الإجرام، وأخصُّهم مَنْ جاءَ السِّياقُ بذكرِهم، وهم الَّذين افتروا على اللّه الكَذبَ أو كذَّبوا بآياتِه.

عدمُ الفلاح ثابتٌ لكلِّ مُجرِمٍ مُنتهِكٍ لحرمات الله

التّشابهُ اللّفظيُّ بين آيتي يونس، والأنعام:

التَّشابهُ بين قولِه تعالى: ﴿فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوۡ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ١٧﴾ [يونس: 17]، وقولِه تعالى: ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوۡ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٢١﴾ [الأنعام: 21].

لا أظلمَ ولا أجرمَ ممّن افترى على الله كذبًا، ولن يُفلحَ في ظلمِه ولا جرمِه

قالَ تعالى في سورة الأنعام: ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوۡ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٢١﴾ [الأنعام: 21]، وقال في سورة يونس: ﴿فَمَنۡ أَظۡلَمُ﴾، وخَتَمَ الآيةَ في سورة الأنعام بقولِه: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٢١﴾ [الأنعام: 21]؛ لأنَّ الآياتِ الَّتي تقدَّمَتْ في هذه السّورة عُطِفَ بعضُها على بعضٍ بالواو، وهو قولُه: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَۚ﴾ إلى قولِه: ﴿وَإِنَّنِي بَرِيٓءٞ مِّمَّا

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/124.

تُشْرِكُونَ ﴿١٩﴾ [الأنعام: 19]، ثمَّ قالَ: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾ [الأنعام: 21]، وخَتَمَ الآيةَ بقولِه: ﴿ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الأنعام: 21]؛ ليكونَ آخرُ الآيةِ لَفْقًا لأوَّلِ الأولى.

وأمّا في سورة يونس فالآياتُ الَّتي تقدَّمتْ عُطِفَ بعضُها على بعضٍ بالفاء، وهو قولُه: ﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾، ثمَّ قالَ: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ﴾ بالفاء، وختمَ الآيةَ بقولِه: ﴿ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ أيضًا موافَقةً لما قبلَها، وهو قولُه: ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾﴾ [يونس: 13] فوصفَهم بأنَّهم مُجرمون، وقال بعدَه: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ [يونس: 14]، فختمَ الآيةَ هنا بقولِه: ﴿ٱلْمُجْرِمُونَ﴾؛ لِيُعلَمَ أنَّ سبيلَ هؤلاءِ سبيلُ مَن تقدَّمَهم[1].

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الكَذِب والافْتراء والبُهتان:

الكَذِبُ: هو عدمُ مطابقةِ الخبرِ للواقع، أو لاعتقادِ المُخبِرِ لهما على خلافٍ في ذلك. والافتراءُ: أخصُّ منَ الكَذِب؛ لأنَّه الكَذِبُ في حقِّ الغير بما لا يَرْتَضيه، بخلافِ الكَذِبِ، فإنَّه قد يكون في حقِّ المتكلِّمِ نفسِه، ولذا يُقالُ لِمن قالَ: (فعلتُ كذا ولم أفعلْ كذا) مع عدمِ صدقِه في ذلك: هو كاذبٌ، ولا يُقالُ: هو مُفْتَرٍ، وكذا مَنْ مدَحَ أحدًا بما ليس فيه، يُقالُ: إنَّه كاذبٌ في وصفِه، ولا يُقالُ: هو مُفْتَرٍ؛ لأنَّ في ذلكَ ممّا يرتَضيه المقولُ فيه غالبًا. وقالَ ﷻ: ﴿ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾؛ لزعمِهم أنَّه أتاهم بما لا يرتضيه اللّه سُبحانه مع نسبتِه إليه، وأيضًا قد يَحسُنُ الكَذِبُ على بعضِ الوجوه، كالكَذِبِ في الحرب، وإصلاحِ ذاتِ البَيْن، وعِدَةِ الزَّوجةِ، بخلافِ الافْتراء.

الكَذِبُ عدمُ مطابقةِ الخَبرِ للواقعِ، وفي حقِّ غيرِك افتراءٌ، ومع المكابَرَة بهتانٌ

وأمّا البُهتانُ فهو الكَذِبُ الَّذي يواجَهُ به صاحبُهُ على وَجهِ

(1) الكرمانيّ، البرهانُ في توجيه متشابه القرآن، ص: 106.

المكابَرةِ له، قالَ تعالى: ﴿وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾﴾ [النّساء: 156][1]، والبهتان: هو الكذبُ الّذي يُبهِتُ سامعَهُ لفظاعتِهِ[2].

الكَذِب والإفْك:

الكَذِبُ: اسمٌ موضوعٌ للخَبَرِ الّذي لا مُخبِرَ له على ما هو به، وأصلُه في العربيَّةِ: التَّقصير، وسواءٌ أكانَ الكَذِبُ فاحشَ القُبحِ أم غيرَ فاحشِ القُبْحِ. وأمّا الإفكُ فهو الكَذِبُ الفاحشُ القُبح، مِثلُ الكَذِب على اللّه ورسولِه أو على القرآن، ومِثلُ قَذْفِ المُحصَنَةِ وغيرِ ذلكَ، ممّا يَفحُشُ قُبْحُه، وجاءَ في القرآنِ على هذا الوجهِ قولُه تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٧﴾﴾ [الجاثية: 7]، وقولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ﴾ [النّور: 11]، وأصلُه في العربيَّة: الصَّرف، وفي القرآن: ﴿أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [المائدة: 75]؛ أي: يُصرَفون عنِ الحقِّ، وتُسمَّى الرِّياحُ: المؤتَفِكاتُ؛ لأنَّها تَقلِبُ الأرضَ فتصرفُها عما عُهِدَتْ عليه، وسُمِّيتْ ديارُ قومِ لوطٍ عليه السلام المؤتَفِكات؛ لأنَّها قُلِبَتْ بهم[3]. ولمّا كان المقصودُ في الآية بيانَ الادّعاءِ الكاذبِ والتّكذيبِ عبّرَ عن ذلك بالكذبِ والتّكذيبِ دون (الإفك)؛ لأنّه في سياق الحديثِ عنِ الصّرفِ عنِ الحقِّ.

الكذبُ الخبرُ المخالفُ للواقع، والإفْكُ الكَذِبُ الفاحشُ القُبْح

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 449، والكفويّ، الكلّيّات: 1/249 - 250، 3/109، 4/74، والجرجانيّ، التَّعريفات، ص: 92.

(2) الرّاغب، المفردات: (بهت).

(3) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 540 - 541، والرّاغب، المفردات: (أفك)، والكفويّ، الكُلِّيّات: 3/109، والجرجانيّ، التَّعريفات، ص: 92.

﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمۡ وَلَا يَنفَعُهُمۡ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ قُلۡ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعۡلَمُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ١٨﴾

[يونس: 18]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

مناسبةُ طلبِ قرآنٍ مُغيِّرٍ؛ لبيان أنّ الأصنامَ الباطلةَ لا تُقدِّمُ ولا تُؤخِّرُ

لَمّا ذكرَ بيانُ الله أنَّ القومَ التمَسوا منَ الرَّسولِ ﷺ قرآنًا غيرَ هذا القرآنِ أو تبديلَه؛ لأنَّ هذا القرآنَ مُشتَمِلٌ على شَتْمِ الأصنامِ الَّتي جَعلوها آلهةً لأنفُسِهم، فلهذا السَّببِ ذكرَ الله تعالى في هذا الموضعِ ما يدُلُّ على قُبْحِ عبادةِ الأصنامِ، وأنَّ تحقيرَها والاستخفافَ بها أمرٌ حقٌّ وطريقٌ مُتيَقَّنٌ، فلذلكَ نبَّهَ هنا على أنَّ ما اتَّخذوه شفعاءَ عندَ الله فاسدٌ، وذلكَ بأنَّ تلكَ الآلهةَ المزيَّفةَ لا تَضرُّهم ولا تنفعُهم؛ بل زادَ على ذلك تَسْفيهَه لهم وسُخْريتَه بهم، إذ كيف يُعقلُ وجودُ تلك الآلهةِ، والله ﷻ لا يعلمُها؟!! والله خالقُ السَّماواتِ والأرضِ، وهو أعلمُ بما فيهما، وحيث لم يكن معلومًا لله، دلَّ ذلكَ على عدمِ وجودِها، ولذلكَ جاءَ تنزيهُ الله تعالى عن أباطيلِهم تلكَ، وشِركِهمُ الواضحِ الفاضحِ[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَيَعۡبُدُونَ﴾: العُبوديَّةُ: إظهارُ التَّذلُّلِ، والعبادَةُ أبلغُ منها؛ لأنَّها غايةُ التَّذلُّلِ، ولا يستحقُّها إلّا من له غايةُ الإفضالِ، وهو الله تعالى؛ ولهذا قالَ: ﴿أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: 23]. والعبادة: الطّاعة، والنّاسُ كلُّهم عبادٌ لله؛ بلِ الأشياءُ كلُّها كذلك، بالتَّسخيرِ أو

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/228، والبقاعيّ، نظم الدُّرر: 9/90 - 91.

بالاخْتيار. وعَبَدَ يعبُدُ عِبادَةً، فلا يُقالُ إلّا لِمن يعبُدُ اللّه تعالى، وتعبَّدَ يتَعَبَّدُ تَعَبُّدًا، ويُقالُ للمسلمين: عُبّادٌ يعبُدونَ اللّه تعالى، ويُقالُ للمشركين: عَبَدَةُ الطّاغوتِ والأوثان[1]، وهم المرادون بقولِه هنا: ﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمۡ وَلَا يَنفَعُهُمۡ﴾.

2) ﴿لَا يَضُرُّهُمۡ﴾: الضُّرُّ: سوءُ الحال، إمّا في نفسِه لقلَّةِ العلمِ والفَضْلِ والعِفَّةِ، وإمّا في بَدَنِه لعدمِ جارحةٍ ونَقْصٍ، وإمّا في حالةٍ ظاهرةٍ من قلَّةِ مالٍ وجاهٍ، قالَ تعالى: ﴿فَكَشَفۡنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرّٖ﴾ [الأنبياء: 84]. يُقالُ: ضرَّهُ يضرُّه ضُرًّا: جَلَبَ إليه ضُرًّا، وهو ضدُّ النَّفْع. وقولُه هنا: ﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمۡ وَلَا يَنفَعُهُمۡ﴾، المرادُ به: الضُّرُّ والنَّفعُ اللّذان بالقَصدِ والإرادةِ، تنبيهًا أنَّه لا يَقصِدُ في ذلكَ ضَرًّا ولا نفعًا لكونِه جمادًا[2].

3) ﴿وَلَا يَنفَعُهُمۡ﴾: النَّفعُ: ما يُستعانُ به في الوصولِ إلى الخَيْرات، وما يُتوصَّلُ به إلى الخَيْرِ فهو خَيْرٌ، فالنَّفعُ خَيْرٌ، وضِدُّه الضُّرُّ، يقال: نَفَعْتُهُ بكذا فانْتَفَعَ به، والاسمُ المنفعة. ومنه قولُه هنا في الآية: ﴿مَا لَا يَضُرُّهُمۡ وَلَا يَنفَعُهُمۡ﴾، على الوجهِ الَّذي تقدَّم آنفًا بقَصدِ إرادةِ الضُّرِّ والنَّفعِ من تلكَ الأصنامِ الصَّمّاء[3].

4) ﴿شُفَعَٰٓؤُنَا﴾: شفع: الشِّينُ والفاءُ والعَينُ أَصلٌ صحيحٌ يدُلُّ على مقارنةِ الشَّيئَين، من ذلكَ الشَّفعُ خِلافُ الوَتْرِ. ومن الشَّفاعة: شَفَعَ فلانٌ لفلان: إذا جاءَ ثانيَهُ مُلْتمِسًا مَطْلَبَه ومعينًا له، وأكثرُ ما يُستعمَلُ في انضمام مَن هو أعلى حرمَةً ومرتبةً إلى مَنْ هو أَدنَى، ومنه الشَّفاعةُ في القيامة، قالَ تعالى: ﴿لَّا يَمۡلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحۡمَٰنِ عَهۡدٗا ٨٧﴾ [مريم: 87][4]، وقولُه تعالى هنا: ﴿وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾؛ أي: أنَّ تلكَ الآلهةَ تنفعُهم شفاعتُها، فيلتمسونَ عونَهم عندَ اللّه فلا يعذِّبُهم بذنوبِهم[5].

5) ﴿أَتُنَبِّـُٔونَ﴾: أصلُ النَّبَأِ الإتيانُ من مكانٍ إلى مكان. والنَّبأُ: خَبَرٌ ذو فائدةٍ عظيمةٍ يحصلُ به علمٌ أو غَلَبةُ ظنٍّ، ولا يُقالُ للخَبَرِ في الأصلِ نَبَأٌ حتَّى يتضمَّنَ ذلك، وحقُّ الخَبَرِ الَّذي يُقالُ فيه نَبَأٌ أن يتعرَّى عنِ الكذِبِ، كالتَّواتر، وخبرِ اللّه تعالى، وخَبَرِ النَّبيِّ ﷺ،

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (عبد).
(2) الجوهريّ، الصّحاح: (ضرر)، والرّاغب، المفردات: (ضر).
(3) الجوهريّ، الصّحاح، والرّاغب، المفردات: (نفع).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (شفع).
(5) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 2/374، والشَّوكانيّ، فتح القدير: 2/607.

ولتضمُّنِ النَّبَأِ معنَى الخبرِ يُقالُ: أَنْبأْتُه بكذا، كقولكَ: أخبرتُه بكذا، ولِتّضمُّنِه معنَى العلمِ قيل: أَنْبأْتُه كذا، كقولك: أعلمتُه كذا، قالَ اللّه تعالى: ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ۝١ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ ۝٢﴾ [النَّبأ: 1 - 2][1]. وقولُه تعالى هنا: ﴿أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ﴾؛ أي: أَتُخبرونَ اللّه بكونِهم شفعاءَ عندَه هذا الخبرَ العظيمَ الَّذي لا يعلمُه، وأنتم تعلمونه[2]؟

6) ﴿يُشْرِكُونَ﴾: الشِّرْكَةُ والمُشارَكَةُ: خلطُ المِلْكَيْنِ، وقيل: هو أنْ يوجَدَ شيءٌ لاثنَينِ فصاعدًا، عَيْنًا كانَ ذلكَ الشَّيءُ أو معنًى، كمشاركةِ الإنسانِ والفَرَسِ في الحيوانيَّةِ. يُقال: شَرِكْتُهُ، وشارَكْتُهُ، وتَشارَكوا، واشْتَرَكوا، وأَشْرَكْتُهُ في كذا، قالَ تعالى: ﴿وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى ۝٣٢﴾ [طه: 32]. وجمعُ الشَّريك: شُركاء، قالَ تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ﴾ [الإسراء: 111]، والشِّركُ في الدِّين ضَرْبان: أحدُهما: الشِّركُ العظيمُ، وهو إثباتُ شريكٍ للّه تعالى، وذلك أَعظمُ كُفْرٍ، قالَ تعالى: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ۝١١٦﴾ [النّساء: 116]. وهنا في الآية: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝١٨﴾؛ أي: في اتِّخاذِ الأصنامِ شفعاءَ لهم عندَ اللّه. والثّاني: الشِّركُ الصَّغير، وهو مراعاةُ غيرِ اللّه معه في بعضِ الأمورِ، وهو الرِّياءُ والنِّفاقُ المشارُ إليه بقولِه تعالى: ﴿جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَاۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝١٩٠﴾ [الأعراف: 190][3].

المَعْنى الإجْماليُّ:

يُنكرُ اللّه تعالى على المشركينَ الَّذين عَبَدوا مع اللّه غيرَه، ظانِّينَ أنَّ تلكَ الآلهةَ تَنفعُهم شفاعتُها عندَ اللّه، فأخبرَ تعالى أنَّها لا تَضرُّ ولا تَنْفَعُ، ولا تملِكُ شيئًا، ولا يقعُ شيءٌ ممّا يزعُمونَ فيها، ولا يكونُ هذا أبدًا، ولهذا نَعَى عليهم فقالَ: أَتُخبِّرونَ اللّه بما لا يكونُ في

الإنكارُ على عبادةِ المشركينَ للأصنامِ، وأنّهم لا شفاعةَ لهم عندَ الخالقِ العلّامِ

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (نبأ).
(2) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 2/230، والشَّوكانيّ، فتح القدير: 2/608.
(3) الرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (شرك).

السَّماواتِ ولا في الأرضِ؟! فنزَّه نفسَهُ الكريمةَ تعالى عن شركِهم وكُفرِهم وتَماديهم في الضَّلالة[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دَلالةُ الواوِ بين الاستئنافِ والعطفِ والحالِ: ﴿وَيَعْبُدُونَ﴾:

بيانُ جناياتِ المشركين في عبادتِهم لغير ربِّ العالمين

الواوُ في قولِه تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ﴾ استئنافيَّةٌ، وجملتُها مُستأنَفةٌ لحكايةِ جنايةٍ أُخرى من جناياتِهم السّابقةِ من طلبِهم: ﴿ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ﴾، وافترائِهم على اللّه كذبًا والتَّكذيبِ بآياتِه، بيانًا لشدَّةِ تعنُّتِهم وكُفرِهم حتَّى أنَّهم يعبُدونَ من دونِ اللّه ما لا يضرُّهم ولا ينفعُهم، فأعقبَ تلك الجناياتِ جنايةً أخرى تشنيعًا عليهم.

ويحتملُ أن تكونَ الواوُ عاطفةً لقوله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ﴾ على الجملةِ في قوله جلّ شأنُه: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ﴾، وهي عطفُ قِصَّةٍ على قِصَّة، فهذه قِصَّةٌ أُخرى من قَصصِ كُفرِهم أنْ قالوا: ﴿ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ﴾ حين تُتْلَى عليهم آياتُ القرآن، ومن كُفرِهم أنَّهم يعبدونَ الأصنامَ، ويقولون: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾، أو يكون العطفُ على جملةِ: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾؛ فإنَّ عبادتَهم ما لا يضُرُّهم ولا ينفَعُهم من الافتراء[2]، ويحتملُ في الواو وجهٌ ثالثٌ بأن تكون حاليّةً من قولِه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا﴾؛ أي: قالوا ذلك حالَ كونِهم عابدينَ من دونِ اللّه ما لا يضرُّهم ولا ينفعُهم[3]، وكلُّ هذه الوجوهِ مُحتملَةٌ تؤدّي دورَها في البيانِ المعجزِ، كما جرَت عادةُ القرآنِ في التّوسّعِ في التّعبيرِ.

استمرارُ المشركينَ في ضلالتِهم القائمةِ؛ لتكريسِ ممارساتِهم الآثمةِ

سرُّ تصديرِ الآيةِ بالفعلِ المضارعِ ﴿وَيَعْبُدُونَ﴾:

آثرَ النّظمُ الجليلُ التّعبيرَ بالفعل المضارعِ في قوله تعالى:

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 2/374.

(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/645، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/124 - 125، درويش، إعراب القرآن وبيانه: 4/220.

(3) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 9/90، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/645.

﴿وَيَعۡبُدُونَ﴾ للدّلالةِ على التَّجدُّدِ والاستمرارِ؛ استحضارًا للحالةِ العجيبةِ من استمرارِهم على عبادتِها؛ أي: عَبَدوا الأصنامَ ويعبُدونَها، تعجيبًا من تَصميمِهم على ضلالِهم، ومن قولِهم: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ﴾، فاعْترَفوا بأنَّ المتَصَرِّفَ هو اللّه[1].

استعمالُ الضَّميرِ: ﴿وَيَعۡبُدُونَ﴾:

في قولِه تعالى: ﴿وَيَعۡبُدُونَ﴾ ذكرَ الضَّميرَ العائدَ على المشركينَ دونَ الاسمِ الظّاهرِ لدلالةِ السِّياقِ عليه ممّا تقدَّمَ، ولازدرائِهم وعدمِ الاهتمامِ بهم، فهم أقلُّ شأنًا من أن يُذكَروا باسمِهمُ الظّاهرِ؛ وذلك لأنّهم بعبادتِهم لغيرِ اللّه قد خرجوا عن فطرةِ اللّه الّتي فطرَ النّاسَ عليها، وغرقوا في حمأةِ الشّركِ، وعبدوا مَن لا يملكُ لهم نفعًا ولا ضرًّا، وقد أغفلَهم السّياقُ اسمًا ظاهرًا، وألمحَ لهم بالضّميرِ المتّصلِ؛ ازدراءً لأفعالِهم المشينةِ، وعبادتِهم الذّميمةِ، وذلك مَلمَحٌ منَ البيانِ المُبينِ، الّذي يجلّي المعنى في استعمالِ الضّميرِ عوضَ الاسمِ الظّاهرِ.

معرفةُ عَوْدِ الضَّميرِ منَ السِّياقِ، وأصحابُه أقلُّ شأنًا من أن يُذكَروا

علّةُ تقديمِ الجارِّ والمجرورِ: ﴿مِن دُونِ﴾:

في قولِه تعالى: ﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمۡ﴾تقدَّمَ الجارُّ والمجرورُ ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ على الفعلِ ومفعولِه: ﴿مَا لَا يَضُرُّهُمۡ﴾؛ تنبيهًا على أنّ ما كانَ من دونِ اللّه، بعدمِ مالكيَّتِه للضُّرِّ والنَّفعِ والتَّأثيرِ بضُرٍّ أو نفعٍ، وللتَّنبيهِ على أنَّ الحقَّ هو عبادةُ اللّه وحدَه؛ لأنَّه هو الَّذي يضرُّ وينفعُ، واعتقادُ الضُّرِّ والنَّفعِ في غيرِه كفرٌ باللّه تعالى، وهذا ما كانَ عليه المشركون، فأرادَ بيانُ اللّه أنْ يلفِتَ انتباهَهم إلى ضرورةِ عبادةِ اللّه وحدَه، ونَبْذِ عبادةِ الآلهةِ المزيَّفةِ الَّتي لا تملكُ الضُّرَّ والنَّفعَ لِنفسِها فضلًا عن أن تملكَهُ لهم[2]، فتقديمُ شبهِ الجملةِ

تقديمُ شِبهِ الجملةِ لأهمّيَّةِ المقدَّمِ، ودوره في السّياق

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/125.

(2) فضل عبّاس، أساليب البيان، ص: 101 - 107.

المتضمّنةِ لفظَ الجلالة أبلغُ في بيان الاهتمامِ باستحقاق العبادةِ قبلَ الاهتمامِ بتحقيق النّفعِ والضّرِّ؛ حيث إنّ كونَ العبادةِ حاصلةٌ من دون اللّه فهو أشدُّ خطرًا من كونه نافعًا أو ضارًّا، فالأصلُ هو تجريدُ العبادةِ للّه تعالى حتّى في حالةِ تحقُّقِ الضّرِّ والنّفعِ من غيرِه على سبيلِ الافتراضِ.

سرُّ إيثارِ التّعبيرِ باسم الجلالةِ: ﴿ٱللَّهِ﴾:

جلالُ الله تعالى يثيرُ التّعجُّبَ أن يُشرَكَ به

آثرَ النّظمُ الكريمُ التّعبيرَ بلفظِ الجلالةِ، وكان السّياقُ يحتملُ الإضمارَ؛ فقد سبقَ ذكرُهُ ﷻ حيث قال: ﴿ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوۡ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ١٧ وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾، فلم يقُل: (ويعبدون من دونه)؛ إظهارًا لقبحِ عبادتِهم، فإنّ اسمَ الجلالةِ حيثما عُبِّرَ به كان لغرض تعظيمِ مضمونِ السّياقِ بوجهٍ ما.

سرُّ استعمالِ الاسمِ الموصولِ: ﴿مَا﴾:

التّنبيهُ على أنَّ مَن عَبَدَ غيرَ الله فهو مُشرِكٌ خاطِئٌ

استعملَ النّظمُ الكريمُ اسمَ الموصولِ ﴿مَا﴾ في قولِه تعالى: ﴿مَا لَا يَضُرُّهُمۡ﴾؛ للإيذانِ بأنَّ صفةَ هذه الأصنامِ - باعتبارِها جَمادًا - أنَّها لا تقدِرُ على ضرٍّ ولا نَفْعٍ، فإنْ عبَدوها لم تنفعْهم، وإنْ تركوا عبادتَها لم تضرُّهم، ومن حقِّ المعبودِ أن يكونَ مُثيبًا على الطّاعة، مُعاقِبًا على المعصية، وفي هذا تنبيهٌ وتأكيدٌ على أنَّ مَنْ عبدَها فهو خاطِئٌ في عبادةِ ما لا يضرُّ ولا ينفعُ[1].

نكتةُ إفرادِ ﴿مَا لَا يَضُرُّهُمۡ﴾، وجمعِ ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا﴾:

(ما) الموصولة عائدةٌ إلى الأصنام، وبيانُ دلالتِها في السّياق

﴿مَا﴾ الموصولة في قولِه: ﴿مَا لَا يَضُرُّهُمۡ﴾ راجعةٌ إلى الأصنام؛ ولذلكَ فإنَّ البيانَ الإلهيَّ راعَى لفظَها، فأفردَ في قولِه: ﴿مَا لَا يَضُرُّهُمۡ وَلَا يَنفَعُهُمۡ﴾، وراعَى معناها في قولِه: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا﴾ فجمعَ[2]، وهم في عبادتِهم لغير اللّه يعبدون ما لا نفعَ له يُرتجَى، ولا

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/26، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/125.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/27، درويش، إعراب القرآن وبيانه: 4/220.

ضررَ منه يُخشَى؛ أي: ما ليس من شأنِه الضّرُّ والنّفعُ منَ الأصنام الّتي هي جمادات، وتبريرُ عبادة الأصنام الآلهةِ أنّهم شفعاءُ عند اللّه، "قيل إنّهم كانوا يعتقدون أنّ المُتولِّي لكلّ إقليم روحٌ معينٌ من أرواح الأفلاكِ، فعيّنوا لذلك الرّوحِ صنمًا مُعَيَّنًا منَ الأصنام، واشتغلوا بعبادتِه، ومقصودُهم ذلك الرّوحُ، ثمّ اعتقدوا أنّ ذلك الرّوحَ يكونُ عندَ الإلهِ الأعظمِ مُشتَغِلاً بعبوديَّتِه"[1].

فائدةُ صلةِ الموصولِ في: ﴿مَا لَا يَضُرُّهُمْ﴾:

تحقيرُ رأيِ المشركين من رجاءِ شفاعةِ الأصنامِ يومَ الدّينِ

آثَر النّظمُ الكريمُ ذكرَ اسمِ الموصولِ في قولِه: ﴿مَا لَا يَضُرُّهُمْ﴾، لِما تُؤذِنُ به صلةُ الموصولِ منَ التّنبيهِ على أنَّهم مُخطِئونَ في عبادةِ مالا يضُرُّ ولا ينفعُ، وفيه تمهيدٌ لطيفٌ لقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ﴾؛ لتحقيرِ رأيِهم من رجاءِ الشَّفاعةِ من تلكَ الأصنام، فإنَّها لا تقدِرُ على ضَرٍّ ولا نَفعٍ في الدُّنيا فهي أضعفُ مَقدِرَةً في الآخرة[2]. وقولهم: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾قد يكونُ في إصلاحِ معاشِهم في الدُّنيا لأنَّهم لا يقرّون بالبعث[3].

نكتةُ تقديمِ نفي الضُّرِّ على نفي النّفعِ:

الأصنامُ المعبودةُ لا قدرةَ لها على جلبِ نفعٍ، ولا دفعِ ضررٍ

قدّمَ النّظمُ الجليلُ ذكرَ الضُّرِّ على النّفعِ في قولِه: ﴿مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾؛ ذلك أنّ هذه الأصنامَ المعبودةَ لا قدرةَ لها على جلب نفعٍ فيُرتجَى نفعُه، ولا دفعِ ضررٍ فتُخشَى غوائلُه، ويُخافُ بطشُه، ولَمّا كانَ السِّياقُ للتَّهديدِ والتَّخويف، قدَّمَ الضُّرَّ، وفيه تنبيهٌ لهم على أنَّهم مغمورونَ في نِعَمِه الَّتي لا قدرةَ لغيرِه على منعِ شيءٍ منها، فعليهم أن يُقيِّدوها بالشُّكرِ، فقال: ﴿مَا لَا يَضُرُّهُمْ﴾ أصلًا منَ الأصنامِ وغيرِها[4].

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/132.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/125.
(3) الواحديّ، الوجيز، ص: 492.
(4) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 9/91.

وقد كان سَدَنتُها يُخوِّفونَ عَبَدَتَها، بأنَّها تُلحِقُ بهم وبصبيانِهمُ الضُّرَّ، فأُريدَ الابتداءُ بِنَفي الضُّرِّ لإزالةِ أوهامِ المشركينَ في ذلكَ الصّادَّةِ لكثيرٍ منهم عن نَبْذِ عبادةِ الأصنامِ[1]، ويمكنُ أن يكونَ هذا التَّقديمُ لنَفي الضَّررِ؛ لأنَّ أحكامَ العبادةِ دفعُ الضَّرَرِ الَّذي هو أوَّلُ المنافعِ، والعبادةُ أمرٌ حادثٌ مسبوقٌ بالعدَمِ الَّذي هو مَظِنَّةُ الضَّرَرِ، فحيثُ لم تقْدِرِ الأصنامُ على الضَّرَرِ لم يوجَدْ لإحداثِ العبادةِ سَبَبٌ[2].

دَلالةُ اتِّصالِ ضمائرِ الجمعِ بالأفعالِ: ﴿يَضُرُّهُمْ﴾، ﴿يَنفَعُهُمْ﴾:

المخلوقاتُ من غيرِ اللهِ لا تأثيرَ لها بضُرٍّ يقرعُ أو نفعٍ يطرأُ

جاءتِ الضَّمائرُ المتَّصلةُ في قولِه تعالى: ﴿مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾؛ للتَّحذيرِ من هَوْلِ ما يتَّخِذُه النّاسُ مِن اختراعاتٍ في حياتِهم، يَعتقدونَ فيها الضُّرَّ والنَّفعَ، مجرَّدةً عن قدرةِ اللّه فيها وقَدَرِه في إيقاعِ الضُّرِّ والنَّفعِ بأمرِه ﷻ، بأنَّ لها تأثيرًا ذاتيًّا قويًّا في دفعِ الضُّرِّ وجَلْبِ النَّفعِ، وهذا ما كانَ عليه المشركون، حيث صنَعوا أصنامًا عبَدوها من دونِ اللّه، وأَضفَوا عليها صفةَ القداسةِ والإلهيَّةِ والتَّأثيرِ على النّاس، حتَّى أنّ سَدَنتَها كانوا يُخوِّفونَ عَبَدَتها بأنَّها تُلحِقُ بهم وبصبيانِهم الضُّرَّ، كما قالتِ امرأةُ طُفيلِ بن عَمرٍو الدّوسيِّ حين أخبرَها أنَّه أسلمَ ودَعاها إلى أن تُسلِمَ فقالَت: "أما تَخشى على الصِّبيَةِ من ذي الشَّرَى"، وهو صنمٌ كان يعبُده بنو دَوْس، كانَ بين مكَّةَ والطّائفِ، وما هذه الأصنامُ إلّا مجرَّدُ جماداتٍ غيرِ عاقلةٍ من صناعةِ البشرِ، ولكنَّهم لمّا اعتقدوا فيها التَّأثيرَ بدفعِ الضُّرِّ وجَلْبِ النَّفعِ، وهي لا تملِكُ لنفسِها ولا لغيرِها ضَرّا ولا نَفعًا، وقعوا في الشِّركِ الجليِّ والكفرِ الظّاهرِ باللّه ﷻ، وظلموا أنفُسَهم فخَسِروا الدُّنيا والآخرة[3].

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/125.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/645.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/125.

دَلالةُ (لا) النّافية:

عبادةُ مَن نُفيَ عنه النّفعُ والضّرُّ دليلٌ على سفاهةِ مَن يعبدُه

وردَ في قولِه تعالى: ﴿مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾ بإعادةِ حرف (لا) مع العطفِ بالواوِ في قولِه: ﴿وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾؛ وذلكَ لتأكيدِ النَّفي السّابقِ في ﴿مَا لَا يَضُرُّهُمْ﴾، فهم إنْ عَبَدوها لم تنفعْهم كما أنَّهم إنْ تركوا عبادتَها لم تضرَّهم، فَمَن لا يملِكُ دفعَ الضُّرِّ لا يملِكُ جَلْبَ النَّفعِ، ولكن هو التَّأكيدُ كذلكَ في إيغالِهم في البُعدِ عنِ الحقِّ، وسفاهةِ عقولِهم وعَدَمِ إدراكِها[1].

نكتةُ نَفي صفتَي النَّفعِ والضُّرِّ على المعبودينَ من دونِ الله:

مَن لا يملكُ النَّفعَ والضُّرَّ على وجه الحقيقةِ لا يستحقُّ أن يُعبَدَ

في قولِه تعالى: ﴿مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾ بيانٌ أنَّ عبادتَهم للأصنامِ من دونِ اللّه عبادةٌ لِمن لا يضرُّهم ولا ينفعُهم، وهو منَ الافتراءِ الَّذي تقدَّمَ في قولِه تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾، وإذا كانَ ذلكَ كذلكَ، فإنَّ بيانَ اللّه تعالى أرادَ أنْ ينبِّهَهم على أنَّهم مُخطئونَ في عبادةِ ما لا يضرُّهم ولا ينفعُهم، وفيه كذلك ازْدراءٌ بعبادةِ مَن لا يملكُ الضُّرَّ والنَّفعَ، حيث إنَّ الضُّرَّ والنَّفعَ قادحٌ في العبادةِ أصلًا[2]، وهذه الأوثانُ جمادٌ تتّصفُ بأنّها لا تقدِرُ على نفعٍ ولا ضُرٍّ، فإن عَبدوها لم تنفعْهم، وإنْ تركوا عبادتَها لم تضرَّهم، ومن حقِّ المعبودِ أنْ يكونَ مُثيبًا على الطّاعةِ مُعاقِبًا على المعصيةِ، وهذه من خصائصِ المعبودِ بحقٍّ أن يكونَ مُثيبًا ومُعاقِبًا، ويقابلُها ما هو من خصائصِ العابدِ، وهو أن يكون مُثابًا أو مُعاقَبًا[3].

دَلالةُ ﴿مِن﴾:

كانَ المشركونَ بلا عقولٍ في عبادتهم الأصنامَ من دون الله

في قولِه تعالى: ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ دلَّتْ ﴿مِن﴾ البيانيَّةُ على أنَّهم كانوا يَعبدونَ الأصنامَ، ولا يعبُدونَ اللّه، حيث إنَّ قولَه: ﴿مِن دُونِ﴾

(1) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 2/230.
(2) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 2/230، وأبو حيّان، البحر المحيط: 6/27، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/125.
(3) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 2/230.

مُتعلِّقٌ بـ ﴿وَيَعۡبُدُونَ﴾[1] مِنۡ دونِ اللّه؛ أي: غيره، وَيَقولونَ عن هؤُلاءِ الأوثان شُفَعاؤُنا تشفعُ لنا فيما يهمُّنا من أمور الدّنيا وفي - إن يكن بعثٌ - ولكنّها بحكم عبادتِها من دون اللّه، فعبادتُها طارئةٌ مُحدثةٌ، وعبادةُ اللّه قديمةٌ أصيلةٌ، يؤيّدها الإيمانُ، وتسندُها الفطرةُ، وتنسجمُ مع مقتضياتِ التّوحيدِ، ومتطلّباتِ الدّينِ الحقِّ الّذي يُعبَدُ به اللّه، ولا تُعبَدُ به الأصنامُ من دون اللّه.

دلالةُ التّعبيرِ بـ﴿دُونِ﴾:

قولُه تعالى: ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ مُتعلِّقٌ بـ ﴿وَيَعۡبُدُونَ﴾، ومَحَلُّهُ النَّصبُ على الحاليَّةِ من فاعِله؛ أي: مُتجاوزينَ اللّه ﷻ، لا بمعنَى تركِ عبادتِه بالكُلِّيَّة؛ بل بمعنَى عدمِ الاكتفاءِ بها، وجعلِها قَرينًا لعبادةِ الأصنامِ، كما يُفصِحُ عنه النَّظمُ الكريمُ[2].

جعلُ عبادةِ اللّه قرينًا لعبادةِ من دونه من الضّلالِ المبينِ

دَلالةُ العطفِ: ﴿وَيَقُولُونَ﴾:

دلَّ عطفُ جملةِ ﴿وَيَقُولُونَ﴾ على جملةِ ﴿وَيَعۡبُدُونَ﴾ في قوله جلّ شأنُه: ﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمۡ وَلَا يَنفَعُهُمۡ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا﴾ على أنَّ قولَهم: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ﴾ من لوازمِ ومقتضياتِ عبادتِهم لغير اللّه، وكما أنَّهم يعبُدونَ من دونِ اللّه ما لا يضرُّهم ولا ينفعُهم، فهم كذلكَ يقولونَ عن تلكَ الأصنامِ أنَّهم شفعاءُ لهم عندَ اللّه، وفي هذا وذاكَ تحقيرٌ لهم ولعبادتِهم لتلكَ الآلهةِ المزيَّفةِ الَّتي لا تضرُّ ولا تنفعُ، وتحقيرُ رأيِهم من رجاءِ الشَّفاعةِ من تلكَ الأصنامِ، فإنَّها لَمّا لا تَقدِرُ على ضُرٍّ ولا نَفعٍ في الدُّنيا لعابِديها فهي عن شفاعتِها لهم لَأضعَف[3].

مَنْ عَبَدَ ما لا يضرُّه ولا ينفعُه خسرَ الدّنيا والآخرة

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/27، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/645.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/645.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/125.

دلالةُ استعمالِ الأفعالِ المضارعةِ:

المشركونَ لا يفتأون مُستمرِّينَ في ضلالِهم وأوهامِهم

وُرودُ الأفعالِ المضارعةِ: ﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمۡ وَلَا يَنفَعُهُمۡ وَيَقُولُونَ﴾ في سياقِ النَّصِّ القرآنيِّ، وفي حديثِه عنِ المشركين الَّذين ﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمۡ وَلَا يَنفَعُهُمۡ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ﴾، دليلٌ جَليٌّ على استمرارِهم على عبادةِ تلكَ الأصنامِ الَّتي هي مستمرَّةٌ كذلكَ في عدمِ قُدرتِها على ضُرِّهم ونفعِهم، وهم مستمرّون في قولِهم أنَّها تشفعُ لهم عند الله، وفي هذه الاستمراريَّةِ لتلكَ المشائنِ تعجيبٌ وأيُّ تعجيبٍ، من تَصميمِهم على ضلالِهم في عبادةِ الأصنامِ، وانجرافِهم وراءَ أوهامِ شفاعتِها لهم، فهم مُستمرّون في تخبُّطِهم في كفرِهم وعنادِهم، غارقونَ في مستنقعِ التِّيهِ والضَّلالِ، تقودُهم أحلامُهم إلى سرابٍ بقيعةٍ لا وجودَ فيها لشيءٍ ممّا يتوهَّمون[1].

سرُّ استعمالِ اسمِ الإشارةِ للمعبوداتِ: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾:

تبكيتُ المشركين بأنَّ معبوداتِهم لا قيمةَ لها ولا شَفاعةَ

اسمُ الإشارةِ ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ منَ المعارف، وقولُهم: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا﴾ تعريفٌ منهم بشفائِعهم واستنصارٌ بهم، لكنَّهم لمّا عرَّفوا بشفائِعهم عرَّفوا بغير مُعرَّفٍ، فكانَ ذلك تبكيتًا لهم، وردًّا عليهم في دَعواهم أنَّها تشفعُ لهم عندَ الله، إذْ كيف يدَّعون شفعاءَ لا تضرُّ ولا تنفعُ، وبالتّالي فإنَّ تعريفَهم بشفعائِهم لا اعتبارَ له ولا قيمةَ[2].

سرُّ التّعبيرِ باسمِ الإشارةِ الدّالِّ على القريبِ في: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾:

لا يأمنُ الكافرون إلّا بآلهةٍ ظاهرةٍ لمرآهُم

آثرَ النّظمُ الكريمُ التّعبيرَ باسمِ الإشارةِ الدّالِّ على القربِ في قولِه جلَّ ثناؤُه: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا﴾؛ وذلك للدّلالة على أنّهم يشاهدونَهم بأعينِهم، إشارةً إلى أنّهم لا يؤمنونَ إلّا بما يشاهدون.

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/125.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/27.

دلالةُ الإضافةِ: ﴿شُفَعَٰٓؤُنَا﴾:

اختصَّ شفعاؤُهم بهم ظنًّا منهم بحظوتهم

عبّر النّظمُ الكريمُ حكايةً عنهم بإضافة الشّفعاءِ إلى ضمير المُتكلِّمين في قوله جلّ ذكرُه: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا﴾؛ للدّلالة على أنّهم شفعاؤُهم الّذين يختصون بهم، لا يشفعونَ لغيرهم، وإنّما ذكرَ ذلك من جملةِ أقوالِهم الّتي قالوها؛ لأنّه منَ الأقوالِ الآثمةِ الّتي استوجبوا بها أن يكونوا منَ الظّالمين.

دلالةُ التّقييدِ بالعنديّةِ: ﴿عِندَ﴾:

لا تزكيةَ أعلى منَ الانتسابِ إلى الله تعالى

قيّدَ النّظمُ الجليلُ فيما حكاه من قولهم تقييدَ الشّفعاءِ بكونهم شفعاءَ كائنين عند اللّه تعالى، فقال جلّ شأنه: ﴿وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ﴾، وأرادوا بذلك تزكيةَ الشّفعاءِ، رادّين بذلك بحسب ظنّهم على النّبيّ ﷺ أنّ اللّه الّذي أرسلَكَ يا محمد؛ هؤلاء شفعاؤنا عنده، فلا بأسَ علينا، وهذا إقرارٌ منهم بأنّ شفعاءَهُم الّذين يعبدونَهم يرجعونَ إلى اللّه تعالى، وهذا يبيّنُ مدى ضلالِهم؛ إذ ينسبون إلى اللّه تعالى ما ينقضُه بوحيه إلى أنبيائِه.

دلالةُ فصلِ الجملةِ في: ﴿قُلۡ﴾:

الاستشفاعُ بمَن لا قدرةَ له على الشّفاعة طلبٌ من غير مُطيقٍ

لَما حكى اللّه تعالى عنِ المشركينَ قولَهم عنِ الأصنام: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ﴾ تقريرًا منهم لهم واعتمادًا على شفاعتِهم، ردَّ عليهم بقولِه: ﴿أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعۡلَمُ﴾، إذ كيف تتّخذونَ شفعاءَ لكم لا وجودَ لهم أصلًا كآلهة، فهذا تناقضٌ عجيبٌ ومُحالٌ غيرُ صحيحٍ ولا سَديدٍ[1].

دَلالةُ أسلوبِ الاستفهامِ في: ﴿أَتُنَبِّـُٔونَ﴾:

الاستفهامُ تقريعٌ للمشركينَ الّذين يدّعونَ المُحال

دلَّ الاستفهامُ في قولِه: ﴿قُلۡ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ﴾ للإنكارِ والتّوبيخِ بما يدّعونَه منَ المُحالِ في اتّخاذِ شفعاءَ لهم من دونِ اللّه، لا يعلمُهم اللّه،

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/230، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/646.

الَّذي لا يكاد يدخلُ تحتَ الصِّحةِ والإمكانِ[1]، والمعنى: "أتخبرون بِما لا يَعْلَمُ، وهو أنّ له شريكًا، إذ لو كان له شريكٌ لَعَلِمهُ، إذ لا يخفى عليه شيءٌ سُبْحانَهُ، تنزيهًا له عَمّا يُشْرِكونَ عن إشراكِهم"[2].

غرضُ اجتماعِ ﴿قُلْ﴾ وهمزةِ الاستفهامِ الإنكاريِّ: ﴿قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ﴾:

أمرَ اللّه ﷻ نبيَّه ﷺ أن يَردَّ عليهم بتهكُّم بقولِه: ﴿قُلْ﴾ يا محمَّدُ بأنَّهم قد أَخبروا اللّه بأنَّ لهم شفعاءَ لهم عندَه، ومعنَى ذلك: أنَّ هذا لَمّا كان شيئًا اخترعوه، وهو غيرُ واقعٍ جعلَ اختراعَه بمنزلةِ أنَّهم أَعلموا اللّه به، وكان لا يعلمُه، فصارَ ذلكَ كنايةً عن بُطلانِه؛ لأنَّ ما لم يعلمِ اللّه وقوعَه فهو مُنْتَفٍ، فاللّه تعالى هو العالمُ المحيطُ بجميعِ المعلومات؛ لأنَّ الشَّيءَ ما يُعلَمُ به ويُخبرُ عنه، فكانَ خبرًا ليس له مُخبِرٌ عنه، فقولُه تعالى: ﴿أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ﴾ تهكُّمٌ بهم وبما ادَّعوهُ من المُحالِ الَّذي هو شفاعةُ الأصنامِ[3].

بُطلانُ ما لم يعلمِ اللّه وقوعَه؛ لانتفائِه عقيدةً وشرعًا

دلالةُ التّعبيرِ بالفعلِ المضارعِ: ﴿أَتُنَبِّـُٔونَ﴾:

آثرَ النّظمُ الكريمُ التّعبيرَ بالفعلِ المضارعِ في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ﴾ الدّالّ على التّجدّدِ والدّوامِ؛ للدّلالة على أنْ بيّن أنّ سيرتَهم وشأنَ دينِهم هو التّقوّلُ على اللّه بتلك الأقوال العظيمة، تنويهًا على جرأتِهم في الافتراء، ودأبِهم على ذلك، فهم لا ينقطعونَ عن ذلك.

سيرتُهم وديدنُهم التّقوّلُ على اللّه تعالى ما لا علمَ لهم به

بلاغةُ الإظهارِ: ﴿أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ﴾:

آثرَ النّظمُ الكريمُ تكرارَ لفظِ الجلالةِ بالإظهار مَوضِعَ الإضمارِ حيث قالَ جلّ شأنُه: ﴿عِندَ ٱللَّهِۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ﴾، ولم يقُل: (عند

أشنعُ الافتراءِ أن يتعالى الكاذبُ ليخبرَ اللّه شيئًا، وهو العليمُ بكلِّ شيءٍ

(1) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 2/230، وأبو حيّان، البحر المحيط: 6/27، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/646.

(2) الزّحيليّ، التّفسير المنير: 11/132.

(3) الزَّمخشريّ، الكشّاف، ص: 230، والبقاعيّ، نظم الدُّرر: 9/92، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/126.

اللّه، قل أتنبّئونه)؛ وذلك تنويهًا بشناعةِ ما اقترفوه، فهم لم يُنبِئوا من يُتصوَّرُ في حقِّه أنّه يحتاج إلى الإنباءِ، بل إنّهم يتعالون بغرورِهم لإنباءِ اللّه تعالى عن كيفيّةِ العبادةِ، وهذا بلغَ منَ الشّناعةِ أعلاها، فكانَ التّعبيرُ بلفظ الجلالة تهويلًا لِما قاموا به.

دلالةُ النّفي: ﴿بِمَا لَا يَعْلَمُ﴾:

دلَّ النّفيُ في النّظمِ الكريمِ في قوله جلّ شأنُه: ﴿قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ﴾ نفيَ وجودِ ما لا يعلمُهُ اللّه تعالى، وبيانَ أنَّه لا وجودَ له البتَّة، وذلك لأنَّه لو كان مَوجودًا لكانَ معلومًا للّه، وحيثُ لم يكنْ مَعلومًا للّه تعالى وجَبَ أنْ لا يكونَ مَوجودًا، وهكذا أمرُ أولئك الشُّفعاءِ الَّذين اخترعوا وجودَهم، وجعلوا وجودَهم بمنزلةِ أنَّهم أعلموا اللّه به، وكانَ لا يعلَمُهُ، فصارَ ذلكَ كنايةً عن بُطلانِه وعدمِ وجودِه؛ لأنَّ ما لم يَعلَمِ اللّه وُقوعَهُ فهو مُنتَفٍ، وبالتّالي فإنَّ أولئكَ الشُّفعاءَ المزعومين لا وجودَ لهم أَصلًا[1].

ما لم يعلمِ اللّه وقوعَه فهو مُنتَفٍ عقلًا وواقعًا

دلالةُ تعليقِ الفعلِ بحرف الجرِّ: ﴿يَعْلَمُ فِي﴾:

في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِۚ﴾ جاء الفعلُ ﴿يَعْلَمُ﴾ مُتعلِّقًا بحرف الجرِّ ﴿فِي﴾؛ للدّلالة على العلم بالجزئيّات، وهذا أبلغُ في بيان العلمِ.

بيانُ كونِ اللّه تعالى عالِمًا بالجزئيّات أشنعُ في بيان جهلِ الكافرين بسعةِ علمِهِ

علّةُ تكريرِ النّافي (لا) في: ﴿وَلَا فِي ٱلْأَرْضِۚ﴾:

لَمّا كانَ الحالُ مقتضيًا لغايةِ الإيضاحِ - كما تقدَّم آنفًا - كرَّرَ النّظمُ الكريمُ حرفَ النّفي تصريحًا فقالَ: ﴿وَلَا فِي ٱلْأَرْضِۚ﴾، وذلكَ لأمرين: أحدُهما: زيادةُ التَّنصيصِ على النَّفي، والتَّأكيدُ له. والثّاني: الاستخفافُ بعقولِ المشركينَ ممّا لا يقدِرونَ على الطَّعنِ فيه بوجهِ ما يُخجِلُ الجَمادَ، فإنَّ ما لا يكونُ مَعلومًا للّه لا يكونُ له

تكريرُ النّافي لتأكيدِ النَّفي، والاستخفافِ بعقولِ المشركين

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/227، والبقاعيّ، نظم الدُّرر: 9/92، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/126.

وجودٌ أصلًا، فلا نَفْيَ أَبْلَغُ من هذا، كما أنَّك إذا بالغْتَ في نَفْي شيءٍ عن نفسِكَ تقولُ: هذا شيءٌ ما عَلِمَه اللّه منِّي[1].

دَلالةُ ذكرِ (السَّماواتِ والأرضِ) في الآيةِ الكريمةِ:

غرضُ تعميمِ الأمكنةِ إيضاحٌ بعلمِ الله بكلِّ شيءٍ

المقصودُ من ذكرِ السَّماواتِ والأرضِ في قولِه ﷻ: ﴿أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعۡلَمُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ تعميمُ الأمكنةِ، كما هو استعمالُ الجمعِ بين المتقابلاتِ، مثلَ المشرقِ والمغربِ، وهذا غايةُ الإيضاحِ في أنَّ اللّه تعالى لا يفوتُه علمُ شيءٍ في أيِّ مكانٍ كان، فهو خالقُ كلِّ شيءٍ[2].

بلاغةُ الفصلِ في: ﴿سُبۡحَٰنَهُۥ﴾:

ينزّهُ الله تعالى عن سوءِ ظنِّهم وجهالةِ معتقدِهم

الجملةُ في قوله جلّ شأنُه: ﴿سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ﴾ مُستأنَفةٌ؛ لأنّها جاءَت لغرضِ إنشاءِ تنزيهٍ للّه ﷻ، فهي مُنقطعةٌ عنِ الَّتي قبلَها في التّركيب والمعنى، فلذلك فُصِلَت[3]، كما أنّ فيه تنبيهًا على شناعةِ ما دلَّ عليه الكلامُ السّابقُ، وأنّه ممّا لا يليقُ ذكرُهُ إلّا على سبيل الاحتجاجِ والإنكارِ.

علَّةُ حذفِ فعلِ المفعولِ المطلَقِ: ﴿سُبۡحَٰنَهُۥ﴾:

تأكيدُ تنزيهِ الله ﷻ عن أنْ يخفَى عن علمِهِ شيءٌ

جاءَتْ جملةُ: ﴿سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ﴾ إنشاءَ تنزيهٍ للّه ﷻ، فهي مُنقطعةٌ عنِ الَّتي قبلَها، فلذلك فُصِلَت، وحُذِف عاملُ المفعولِ المطلَقِ ﴿سُبۡحَٰنَهُۥ﴾، وهو الفعلُ (أُسبِّحُ) فجاءَ المصدرُ وهو المفعولُ المطلَقُ (سُبحانَ) بدلًا عنه، حيث لا يجوزُ الجمعُ بين البَدَلِ والمبدَلِ عنه، وقد جاءَ هنا قبلَه ما يدلُّ عليه منَ الاستفهامِ الإنكاريِّ التَّوبيخيِّ بقولِه تعالى: ﴿أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعۡلَمُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾، وقد وقعَ بعدَ جملةٍ لا تحتملُ غيرَه، فكانَ مؤكِّدًا لنَفسِه، ومُؤكِّدًا

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 9/92، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/646، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/126.

(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 9/92، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/126.

(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/126.

لمفهومِ الإنكارِ لمضمونِ الجملةِ الَّتي قبلَه، فجاءَ السِّياقُ في غايةِ التَّأكيدِ لتنزيهِ اللّه عمّا لا يليقُ به ﷻ من أنْ يَنِدَّ عن علمِه شيءٌ في السَّماواتِ والأرض[1].

دلالةُ العطفِ في ﴿سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ﴾:

عطفَ الوصفَ بالارتفاع الّذي أرادَ به التّعالي عن كلِّ نقصانٍ، والشّركُ لا يليقُ باللّه تعالى لكونه الخالقَ لهذا الكون، فهو رفيعُ الدّرجاتِ تعالى أن يوصَفَ بأنّ له شريكًا، وكان هذا المعنى مُقارِبًا لمدلولِ التّسبيحِ (سبحان) الدّالّ على التّنزيهِ، فيكون العطفُ للتّأكيدِ بجمعِ الألفاظِ الّتي تفيدُ تنزيهَ اللّه تعالى عن ما يجوزُ أن يلحقَهُ من أوصافٍ.

تأكيدُ تنزّهِ الله تعالى عن سوءِ ظنونِهم، فهو المتعالي رفيعُ الدّرجاتِ

دلالةُ (ما) بين الموصوليّة والمصدريّة في: ﴿عَمَّا﴾:

قولُه تعالى: ﴿سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ يصحُّ في (ما) في قولِه تعالى: ﴿عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ أن تكونَ مصدريَّةً؛ أي: عن إشراكِهمُ المُستلزِمِ لتلكَ المقالةِ الباطلةِ؛ أي: تعالى اللّه وتنزَّهَ عن أن يكونَ ذلكَ ثابتًا له، أو أن تكونَ موصولةً؛ أي: عن شركائِهم الَّذين يعتقدونَ أنَّ لهم شُفعاءَ عندَ اللّه تعالى يشفعونَ لهم عندَه[2].

السّياقُ يشيرُ إلى تنزيهِ الله تعالى عمّا لا يليقُ به وبعلمِه

توجيهُ قراءةِ حمزةَ والكِسائيِّ وخَلَف بالتّاءِ: (تُشْرِكونَ):

وردَ في قولِه تعالى: ﴿عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ قراءةُ (تُشركونَ) بالتّاءِ[3]، وهي قراءةُ حمزةَ والكِسائيِّ وخَلَف، على أنَّه من جملةِ المقولِ المأمورِ به، وهي تتمَّةٌ للخطابِ الَّذي قبلَها، وهي مُستحقَّةٌ للفَصْلِ لكمالِ الانقطاعِ[4].

قراءةُ التّاءِ تتمَّةٌ للقولِ المأمورِ به في سياقِ الآيةِ الكريمةِ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/126، وابن عقيل، شرح ابن عقيل على ألفيَّة ابن مالك: 1/570.
(2) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 2/230، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/646، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/126.
(3) هي قراءةُ حمزةَ والكِسّائيِّ وخلف، وقرأ الباقون منَ العشرة بالياءِ (يُشركون). يُنظر: الهمذانيّ، غاية الاختصار في قراءة العشرة أئمة الأمصار: 2/514، وابن الجزريّ، النَّشر: 2/282.
(4) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم:/646، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/126.

دَلالةُ التّعبيرِ بالفعل المضارعِ في: ﴿يُشْرِكُونَ﴾:

استمرارُ المشركين على شِركِهم ضلالةٌ عنِ الصّراطِ

وردَ الفعلُ ﴿يُشْرِكُونَ﴾ بصيغةِ المضارع، ولم يأتِ: عمّا أشركوا؛ للدَّلالةِ على استمرارِ حالِهم، كما جاءَ يعبُدون، وإنَّهم على الشِّركِ في المستقبل، كما كانوا عليه في الماضي[1]، ويخلعُ مجيؤُه مع التّسبيحِ والتّنزيهِ على دوام ذلك التّنزيهِ لجلاله تعالى في كلِّ وقتٍ ظهرَ منهم الإشراكُ وسوءُ الاعتقاد.

بلاغةُ أسلوبِ التَّذييلِ في الآية:

المبالغةُ في تنزيهِ الله تعالى عن كلِّ نقصٍ وافتراءٍ

الجملةُ في قولِه جلّ شأنُه: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ اعتراضٌ تذييليٌّ؛ تنزيهًا له ﷻ عن إشراكِهم المُستلزِم لمقالتِهمُ الباطلة: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ﴾، فلمّا بيَّن تعالى ما هُم عليه من سخافةِ العقولِ وركاكةِ الآراءِ، ختمَ ذلكَ بتنزيهِ نَفسِه بقولِه: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ﴾؛ أي: تنزَّه عن كلِّ شائبةِ نَقْصٍ، تنزُّهًا لا يُحاطَ به، ﴿وَتَعَٰلَىٰ﴾؛ أي: وفعلَ بما له منَ الإحاطةِ بأوصافِ الكمالِ فِعْلَ المبالغِ في التّنزُّهِ. ﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾، أي: يوجِدونَ الإشراكَ به[2].

التّشابهُ اللّفظيُّ بين آيات سور: يونس، والأنبياء، والفرقان:

تقديمُ ما يضرُّ وما ينفعُ أو تأخيرُه مرتبطٌ بالسّياق في السّور الثّلاث

بين قولِه تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾، وقولِه تعالى: ﴿قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾﴾ [الأنبياء: 66]، وقولِه سبحانه: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْۗ﴾ [الفرقان: 55]، حيث قدَّم في سورةِ يونس ما أُخِّرَ في سورة الأنبياء والفرقان، فما العلَّةُ في ذلك؟

الجوابُ عنه: أنَّ الموجبَ لتأخيرِ ﴿وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾ في سورةِ يونس ما وصلَ به من قولِهم: ﴿وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ﴾، فكأنَّه قد قيل: ويعبُدونَ من دونِ اللّه ما لا يضرُّهم ولا ينفعُهم، ويزعُمونَ

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/28.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 9/92، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/646.

أنَّ ذلك ينفعُهم، لم يكنْ ليناسبَ لو قيل: ﴿وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾ بقولِه: ﴿وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾، فلمّا كانَ الاتِّصالُ فيما ذكرَ أَنسبَ وردتِ الآيةُ بحسَبِ ذلكَ، فإنَّما قدَّم ﴿مَا لَا يَضُرُّهُمْ﴾ على ﴿وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾ في الآيةِ الأولى؛ لأنَّ العبادةَ تُقامُ للمعبودِ خوفًا منَ العقابِ أوَّلًا، ثمَّ رجاءً للثّوابِ ثانيًا، وقد تقدَّمَ في المكانِ ما أوجبَ تقديمَ ﴿مَا لَا يَضُرُّهُمْ﴾ على ﴿وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾ في الآيةِ الأولى، وهو قولُه: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ۝١٥﴾ [يونس: 15]، فكأنَّه قال: ويعبدونَ من دونِ اللّه مالا يخافونَ ضرَرًا في معصيتِه، ولا يرجونَ نفعًا في طاعتِه، فلهذا حصَل هذا التَّقديم. أمّا آيةُ الفرقانِ فإنَّ قبلَها ذكرَ دلائلَ وشواهدَ من مصنوعاتِه تعالى يهتدي المُعتبِرُ بالنَّظَرِ فيها، تخلِّصُه من وَرطاتِ الشُّكوك، ويستقيمُ له دينُه، وذلكَ أعظمُ النَّفعِ وأجلُّه، قالَ تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ﴾ إلى قولِه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ۝٥٤﴾ [الفرقان: 54]، فلمّا تقدَّمَ التَّنبيهُ بهذه الآياتِ الواضحاتِ الموقِظاتِ من سِناتِ الغَفَلاتِ، والمحصِّلاتِ أَعظمَ النَّفعِ في امتثالِ الواجباتِ والنَّجاةِ منَ الضَّلالاتِ، ناسبَها تقديمُ ما قُدِّمَ في الآيةِ من قوله: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ﴾، وصارَ الكلامُ بقوَّتِه مجاوبًا لقولِه: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ﴾ [النحل: 17]، ووردَ كلٌّ على ما يجبُ في هذه السّورِ الثّلاثِ، وَفقَ علمِ اللّه وحكمتِه[1] ﷻ.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الضَّرَر والأَذَى:

الضَّرَرُ والضُّرُّ: ضدُّ النَّفعِ، وهو سوءُ الحال، والضُّرُّ: ابتداءُ الفعل، وهو ما تضرُّ به صاحبَك وتنتفعُ به أنت. والضُّرُّ يكونُ من

الضَّرَرُ ضدُّ النَّفعِ، ويُعبَّرُ به عن سوءِ الحالِ، وفيه إيقاعُ الضَّرَرِ بغيرِ الفاعل

(1) الغرناطيّ، ملاك التّأويل: 1/240، والإسكافيّ، درّة التّنزيل: 2/733 - 234.

حيث لا يعلمُ المقصودَ به، يُقال: ضرَرتُ فلانًا من حيث لا يَعلم[1].

والأَذَى: ما يصلُ إلى الإنسانِ منَ الضَّرَرِ إمّا في نَفسِه أو جِسمِه أو تَبعاتِه، دُنيويًا كانَ أم أُخرَويًّا، قالَ تعالى: ﴿وَمِنۡهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱلنَّبِيَّ﴾ [التَّوبة: 61]، و ﴿وَأُوذُواْ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمۡ نَصۡرُنَاۚ﴾ [الأنعام: 34]. يُقالُ: آذيْتُهُ أو أَذَيْتُهُ إيذاءً وأَذِيَّةً وأذًى، ومنه الآذيُّ: وهو المَوجُ المؤذي لركّابِ البحر[2]، وبهذا يظهرُ أنّ الضّررَ أعمُّ منَ الأذى، فكان التّعبيرُ به في نفي صفةِ الضّرِّ عن آلهتهم أبلغَ في بيان ضعفِها وعجزِها.

الإنباء والإخبار:

الإنباء الخبرُ العظيمُ الّذي ينتُجُ عنه علمٌ أو غلبةُ ظنٍّ، والأصلُ فيه الصِّدقُ

النَّبأُ: خبرٌ ذو فائدةٍ عظيمةٍ يحصلُ به علمٌ أو غَلَبَةُ ظنٍّ، ولا بدَّ من اجتماعِ هذه الثَّلاثة حتَّى يُطلَقَ على الخبرِ نَبَأ. والنَّبأُ في هذه الحالِ لا بدَّ عن أنْ يتعرَّى عنِ الكذبِ، كالتَّواتُرِ، وخبرِ اللّه تعالى، وخبرِ رسولِه ﷺ، قالَ تعالى: ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ۝١ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلۡعَظِيمِ ۝٢﴾ [النَّبأ: 1 - 2][3]. والإخبارُ: هو إظهارُ الخبرِ، عُلِمَ به أو لم يُعلم[4]، والإخبارُ عنِ الشَّيءِ يكونُ بالزِّيادةِ في صفتِه والنُّقصانِ منها، ويكونُ الإخبارُ بخلافِ ما هو عليه كَذِبًا، فلمّا كان الإخبارُ عنِ الشّفاعةِ الّتي اتّخذوها ذريعةً للشّرك باللّه تعالى إخبارًا عن عظيمٍ، ناسبَ التّعبيرَ عنه بالإنباء.

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 328 - 329، والرّاغب، المفردات: (ضرّ)، والكفويّ، الكلّيّات: 3/147.
(2) الرّاغب، المفردات، والفيروزابادي، القاموس المحيط: (أذي).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نبأ)، والرّاغب، المفردات: (نبأ).
(4) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 59، والكفويّ، الكلّيّات: 1/84.

﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخۡتَلَفُواْۚ وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيۡنَهُمۡ فِيمَا فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ١٩﴾ [يونس: 19]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

العلاقةُ بين تنزيهِ اللهِ عن مفاسدِ الشّركِ، ودوافعِ الاختلافِ بعد الاتّفاقِ

لَمّا بيَّنَ اللهُ ﷻ ضلالةَ المشركينَ بعبادةِ غيرِ اللهِ، وخَتَمَ بتَنزيهِه وكمالِه، بيَّن أنَّ هذا الدِّينَ الباطلَ حادِثٌ، وبيَّن نزاهتَهُ وكمالَهُ تعالى ببيانِ أنَّ النّاسَ كانوا أوَّلًا مجتمعينَ على طاعتِه، ثمَّ خالفوا أمرَهُ فلم يقطَعْ إحسانَه إليهم؛ بلِ استمرَّ في إمهالِهم مع تَماديهم في سوءِ أعمالِهم ما سبَقَ في علمِه ومضَى به قضاؤُهُ، ولولا أنَّ اللهَ كتبَ في الأزَلِ أنَّه المحسنُ إليكَ يا محمَّد ﷺ برحمةِ أمَّتِكَ بإمهالِهم، لعجَّل بإهلاكِهم بأيسرِ أمرٍ وأسرَعِه[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أُمَّةً﴾: الأُمَّةُ: كلُّ جماعةٍ يجمعُهم أمرٌ ما، إمّا دينٌ واحدٌ، أو زمانٌ واحدٌ، أو مكانٌ واحدٌ، سواءٌ كانَ ذلكَ الأمرُ الجامعُ تسخيرًا أوِ اخْتيارًا، وجمعُها أُمَم، وتأتي كلمةُ الأُمَّة بمعنَى الصِّنفِ الواحدِ في الضَّلالِ والكفر، قالَ تعالى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ [البقرة: 213]، وتأتي بمعنَى الجماعة، كما في قولِه تعالى: ﴿وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ﴾ [آل عمران: 104][2].

وقولُه تعالى هنا: ﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾؛ أي: حُنفاءَ

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 9/93.

(2) ولها معانٍ أخرى بعيدة عن معنى سياق لفظِ الأمّةِ، في الآية المفسّرة هنا، منها: معنَى الدِّين، قالَ تعالى: ﴿إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ﴾ [الزّخرف: 22]، ومعنَى حينٍ من الزَّمن، كما في قولِه تعالى: ﴿وَٱدَّكَرَ بَعۡدَ أُمَّةٍ﴾ [يوسف: 45]، ومعنَى الإمام، كما في قولِه تعالى: ﴿إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةٗ قَانِتٗا لِّلَّهِ﴾ [النّحل: 120]. ومعنَى الجماعةِ من النّاس، كما في قولِه تعالى: ﴿لَيۡسُواْ سَوَآءٗۗ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ أُمَّةٞ قَآئِمَةٞ﴾ [آل عمران: 113]. الزَّجّاج، معاني القرآن: 1/458، والرّاغب، المفردات: (أمّ)، وابن منظور، لسان العرب: (أمم).

متَّفقينَ على مِلَّةٍ واحدةٍ موحِّدةٍ للّه ﷻ من غيرِ أنْ يختلفوا بينَهم، فصارَ بعضُهم كافرًا، وبقيَ الآخرُ مُؤمِنًا يُخالفُ بعضُهم بعضًا[1].

2) ﴿فَٱخۡتَلَفُواْۚ﴾، ﴿يَخۡتَلِفُونَ﴾: الاختلافُ والمخالفةُ: أن يأخُذَ كلُّ واحدٍ طريقًا غيرَ طريقِ الآخرِ في حالِه أو قولِه، والخلافُ أعمُّ منَ الضِّدِّ؛ لأنَّ كلَّ ضدَّيْن مختلفان، وليس كلُّ مختلفين ضدَّيْن، ولمّا كانَ الاختلافُ بينَ النّاس في القولِ يَقتضي التَّنازُعَ استُعيرَ ذلكَ للمنازَعةِ والمجادَلة، قالَ تعالى: ﴿فَٱخۡتَلَفَ ٱلۡأَحۡزَابُ﴾ [مريم: 37][2]، ومنه قولُه تعالى: ﴿أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ فَٱخۡتَلَفُواْۚ﴾؛ أي: تنازَعوا فيما بينَهم فصارَ البعضُ يُخطِّئُ مَن ليس على مِلَّتِه ودينِه، ولكنَّ اللّه تعالى أجَّلَ موعدَ القضاءِ بينَهم ﴿فِيمَا فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ﴾ منَ التَّنازعِ والتَّناحُرِ إلى يومِ القيامة[3].

3) ﴿سَبَقَتۡ﴾: أَصلُ السَّبْق: التَّقدُّمُ في السَّيْر، نحو: ﴿فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبۡقٗا ۝٤﴾ [النّازعات: 4]. والاستباقُ: التَّسابُقُ، قالَ تعالى: ﴿إِنَّا ذَهَبۡنَا نَسۡتَبِقُ﴾ [يوسف: 17]، ثمَّ يُتجوَّزُ به في غيرِه منَ التَّقدُّم، ومنه قولُه تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ۝١٠﴾ [الواقعة: 10]؛ أي: المتقدِّمونَ إلى ثوابِ اللّه وجنَّتِه بالأعمالِ الصّالحةِ[4]، وقولُه تعالى: ﴿وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ﴾؛ أي: نَفدَتْ وتقدَّمتْ بتأجيلِ الحكمِ فيهم إلى يومِ القيامة، أو بأن جعلَ للدُّنيا مُدَّةً، ولكلِّ أُمَّةٍ أجلٌ لا يُقدَّمُ، أو أنَّ اللّه لا يُهلِكُ أمَّةً إلّا بعدَ إقامةِ الحُجَّةِ عليها، وتلك الأقوالُ كلُّها سائغةٌ مقبولةٌ[5].

4) ﴿لَقُضِيَ﴾: قضي: القافُ والضّادُ والحرفُ المعتلُّ أصلٌ صحيحٌ يدُلُّ على إحكامِ أمرٍ وإتْقانِه وإنفاذِه لجهتِه، والقَضاءُ: الحُكْمُ، قالَ اللّه تعالى: ﴿فَٱقۡضِ مَآ أَنتَ قَاضٍۖ﴾ [طه: 72]؛ أي: اصْنعْ واحْكُم، والقضاءُ: على وجهَيْن: إلهيٌّ وبشريٌّ، قوليٌّ وفعليٌّ؛ فمنَ القولِ الإلهيِّ قولُه تعالى: ﴿۞وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: 23]؛ أي: أمرَ بذلك، ومنَ الفعلِ الإلهيِّ قولُه تعالى: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَاتٖ فِي يَوۡمَيۡنِ﴾ [فُصِّلت: 12] إشارةٌ إلى إيجادِه الإبداعيِّ

(1) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 2/230، والشَّوكانيّ، فتح القدير: 2/609.
(2) الرّاغب، المفردات، وابن المنظور، لسان العرب: (خلف).
(3) الزَّمخشري، الكشّاف: 2/230، والبغويّ، معالم التَّنزيل: 4/127، والشَّوكانيّ، فتح القدير: 2/609.
(4) الرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (سبق).
(5) الرّاغب، المفردات، والزَّمخشريّ، الكشّاف: 2/230، والبغويّ، معالم التَّنزيل: 14/127، والقرطبيّ، الجامع لأحكامِ القرآن: 8/323.

والفراغِ منه، ومنَ القولِ البشريِّ، نحو: قضَى الحاكمُ بكذا، فإنَّ حُكْمَ الحاكم يكونُ بالقول، ومنَ الفعلِ البشريِّ قولُه تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَٰسِكَكُمْ﴾ [البقرة: 200][1].

وفي قولِه تعالى: ﴿لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾؛ أي: مُيِّزَ المُحِقُّ منَ المُبطِل في الدُّنيا، فأُدخِلَ المؤمنونَ الجنَّةَ بأعمالِهم، والكافرون النّارَ بكفرِهم، ولكنَّه سبقَ منَ اللّه الأجلُ، فجعلَ موعدَهم يومَ القيامة[2].

❁ المَعْنى الإِجْمالِيُّ:

بيانُ أنّ النّاسَ كانوا على ملّةٍ واحدةٍ ثمّ اختلفوا، واللّه يُمهِلُ ولا يُهمِلُ

أخبرَ تعالى أنَّ هذا الشِّركَ حادثٌ في النّاسِ كائنٌ بعد أن لم يكنْ، وأنَّ النّاسَ كانوا على دينٍ واحدٍ وهو الإسلام، قالَ ابن عبّاس رضي الله عنهما: "كان بين آدمَ ونوحٍ عليهما السلام عشرةُ قرونٍ كلُّها على الإسلام"[3]، ثمَّ وقعَ الاختلافُ بين النّاسِ، وعُبِدَتِ الأصنامُ والأندادُ والأوثانُ، فبعثَ اللّه تعالى الرُّسُلَ بآياتِه وبيِّناتِه وحُجَجِه البالغةِ وبراهينِه الدّامغةِ، ولولا أنَّ اللّه لا يُعذِّبُ أحدًا إلّا بعدَ قيامِ الحُجَّةِ عليه، وأنَّه ﷻ قد أجَّلَ الخلقَ إلى أجلٍ معدودٍ لقَضَى بينهم فيما اختلفوا فيه، فأسعَدَ المؤمنينَ وأشقَى الكافرين[4].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دَلالةُ الواوِ في: ﴿وَمَا﴾:

الإسلامُ دينُ اللّه الواحد، وهو دينُ الفطرةِ الموحّدةِ

افتتحَ النّظمُ الكريمُ قولَه تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ بالواو الدّالّة على الاستئنافِ؛ للدّلالة على متابعةِ بيانِ اللّه للتَّوبيخِ والتَّقريعِ الَّذي سبقَ في قولِه تعالى: ﴿أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (قضي)، والرّاغب، المفردات: (قضى).

(2) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 2/230، والبغويّ، معالم التَّنزيل: 4/127، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 8/323.

(3) أخرجه الحاكم في المستدرك: 2/442 عن ابن عبّاس موقوفًا، وتمامه: "كان بين آدمَ ونوحٍ عليهما السلام عشرةُ قرون كلُّهم على شريعةٍ منَ الحقّ، فاختلفوا على عهد نوحٍ عليه السلام، فبعثَ الله ﷻ إليهم نوحًا عليه السلام"، وقال الحاكم: "صحيحٌ على شرط الشَّيخَين ولم يُخرِّجاه"، ووافقَه الذَّهبيُّ.

(4) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 2/373 - 374.

ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ [يونس: 18]؛ وذلك لأنَّ عبادةَ الأصنامِ واختراعَ ضُلّالِ البشرِ في العقيدةِ السَّليمةِ الَّتي فطرَ اللّه النّاسَ عليها في أوَّلِ النَّشأة[1]، "وأنّ النّاسَ كانوا جميعًا أمّةً واحدةً على فطرة الإسلام، ثمّ وقعَ الاختلافُ بين النّاسِ، وعُبِدَتِ الأصنامُ والأوثانُ والأندادُ، فبعثَ اللّه الرّسلَ بآياتِه وبيّناتِه وحججِه البالغةِ، وبراهينِه الدّامغةِ؛ لهدايتِهم وإزالةِ الاختلافِ بينهم"[2].

دَلالةُ أسلوبِ الحَصرِ:

صيغةُ القَصْرِ في قولِه تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ﴾؛ للمبالغةِ في تأكيدِ الخبرِ؛ لأنَّه خبرٌ مُهِمٌّ عجيبٌ، وهو منَ الحِكَمِ العُمرانيَّةِ والحقائقِ التّاريخيَّةِ بالمكانِ الأسْمَى، إذِ القصرُ هنا تأكيدٌ على تأكيدٍ، باعتبارِ اشتمالِه على صيغتي إثباتٍ لِلمُثبَتِ، ونَفيٍ عمّا عداه، فهو أَقوى من تأكيدِ ردِّ الإنكارِ، ولذلكَ يُؤذِنُ بردِّ إنكارٍ شديدٍ[3].

المبالغةُ في تأكيدِ الخبرِ تبريزٌ لمضمونِ الآيةِ الكريمةِ

سرُّ استعمالِ لفظِ ﴿ٱلنَّاسُ﴾:

النّاسُ: اسمُ جمعٍ للبشَرِ، وتعريفُه للاستغراقِ، وهذا يعني عمومَ النّاسِ جميعِهم، فتعيَّن أنَّ النّاسَ في معرفةِ اللّه تعالى كانوا أُمَّةً واحدةً متَّفقينَ على التَّوحيد؛ لأنَّ اللّه لَمّا فَطَرَ الإنسانَ فَطَرَه على عقلٍ سليمٍ موافقٍ للواقعِ، ووضعَ في عقلِه الشُّعورَ بخالقٍ، وبأنَّه واحدٌ وضعًا جبلِّيًّا، كما وضعَ الإلهاماتِ في أصنافِ الحيوانِ، وتأيَّدَ ذلكَ بالوَحْيِ لأبي البشرِ، وهو آدمُ عليه السلام، فتعيَّن بذلكَ أنَّ المرادَ في هذه الآيةِ، أنَّ النّاسَ كانوا أُمَّةً واحدةً على الحقِّ، وأنَّ المقصودَ مَدحُ تلكَ الحالةِ؛ لأنَّ المقصودَ من هذه الآيةِ بيانُ فسادِ الشِّركِ وإثباتُ

الإشادةُ بما كانَ عليه عمومُ النّاسِ منَ التَّوحيدِ الخالصِ لله

(1) ابن عاشور، التّحرير والتَّنوير: 11/127.
(2) : أسعد حومد، أيسر التّفاسير، ص: 1384.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/127.

خطأ مُنتَحِليه، بأنَّ سَلَفَهُمُ الأوَّلَ لم يكنْ مِثلَهم في فسادِ العُقولِ، وفي ذلكَ تعظيمٌ للنّاسِ الَّذين كانوا على تلكَ الشّاكلةِ، منَ الفطرةِ السَّليمةِ، وهي فطرةُ التَّوحيدِ الخالصِ للّه، ودفعٌ للنّاس المُخاطَبين أنْ ينتهِجوا نهجَهم، ويَقتدوا بهَدْيِهم[1].

دَلالةُ الجملةِ الاعتراضيّةِ:

الجملةُ في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ اعتراضيّةٌ بين قولِه السّابق: ﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [يونس: 18]، وقولِه اللّاحق: ﴿وَيَقُولُونَ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦۖ﴾، ومُناسبةُ الاعتراضِ قولُه تعالى: ﴿قُلۡ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعۡلَمُ﴾؛ وذلكَ لبيانِ أنَّ عبادةَ الأصنامِ هي مجرَّدُ اختراعٍ بَشَريٍّ، وكذلك صفةُ الشَّفاعةِ الَّتي منحَها المشركونَ لأصنامِهم هي افتراءٌ منهم على اللّه، وكلُّ ذلكَ هو من قَبيلِ الاختلافِ الَّذي ابتدعَه ضُلّالُ البشرِ، وأَحدثوه في العقيدةِ السَّليمةِ الَّتي فطرَ اللّه النّاسَ عليها في أوَّلِ نشأتِهم، وفي ذلك كلِّه توبيخٌ وتقريعٌ لأولئكَ الَّذين شملَهم قولُه تعالى: ﴿أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعۡلَمُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾[2].

عبادةُ الأصنامِ اختراعٌ من ضُلّالِ البشرِ، لم يكن له وجودٌ من قبل

دَلالةُ التّعبيرِ بالفعلِ المنفيّ في: ﴿وَمَا كَانَ﴾:

أشارَ النّظمُ الجليلُ في قولِه: ﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾، بنفي ﴿كَانَ﴾ وأداةِ الحصرِ ﴿إِلَّآ﴾ إلى أنَّ النّاسَ كانوا على طريقةٍ واحدةٍ وملَّةٍ واحدةٍ، وهي طريقةُ ومِلَّةُ التَّوحيدِ الخالصِ للّه، وهي الفطرةُ الَّتي فطرَ اللّه النّاسَ عليها، فالتَّوحيدُ والإسلامُ مِلَّةٌ قديمةٌ وشِرعةٌ تليدةٌ أجمعَ عليها النّاسُ قاطبةً[3].

جَبَلَ اللهُ النّاسَ على التَّوحيدِ الخالصِ منذُ بدايةِ خلقِ أبيهم آدمَ

دَلالةُ الفاءِ في: ﴿فَٱخۡتَلَفُواْۚ﴾:

جاءتِ الفاءُ العاطفةُ الَّتي تفيدُ التَّعقيبَ لبيانِ أنَّ بعضَ النّاسِ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/128.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/127.
(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/646.

كَفرَ وثَبَتَ آخرون على ما هُم عليه، فخالفَ كلٌّ منَ الفريقينِ الآخرَ، لا أنَّ كلًّا منهما أَحدَثَ مِلَّةً على حِدَةٍ من مِلَلِ الكفرِ مخالفةً لِمِلَّةِ الآخرِ، فإنَّ الكلامَ ليس في ذلكَ الاختلافِ إذْ كلٌّ منهما مُبطِلٌ حينئذٍ، فلا يُتصوَّرُ أنْ يُقضَى بينَهما بإبقاءِ المُحقِّ وإهلاكِ المُبطِلِ، ولذلكَ فإنَّ الفاءَ التَّعقيبيَّةَ هنا لا تُنافي امتدادَ زمانِ الاتِّفاقِ، إذِ المرادُ بيانُ وقوعِ الاختلافِ عَقِيبَ انْصرامِ مُدَّةِ الاتِّفاقِ لا عَقِيبَ حدوثِ الاتِّفاقِ[1].

وقوعُ الاختلافِ بينَ النّاسِ عقيبَ انصرامِ مدَّةِ اتِّفاقِهم على التَّوحيد

علّةُ ذكرِ الاختلافِ بعدَ الوحدةِ في: ﴿أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخۡتَلَفُواْۚ﴾:

دلَّ الحَصرُ - كما تقدَّمَ آنفًا - على أنَّ النّاسَ كانوا على ملَّةِ التَّوحيدِ، وأنَّهم في وحدةٍ اعتقاديَّةٍ قائمةٍ فيما بينَهم، ولذلكَ عبَّرَ عنِ التَّفرُّقِ الطّارئِ عليها بالاختلافِ المُشعِرِ بالمذمَّةِ والمعقَّبِ بالتَّخويفِ في قولِه: ﴿وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ﴾؛ وذلكَ أنَّ الشِّركَ وفروعَهُ جَهالاتٌ ابْتدعَها الغواةُ الضّالّونَ المُضِلّون خلافًا للجمهورِ وشقًّا لعصا الجماعةِ.

الشِّركُ غوايةٌ مُستحدَثةٌ، فرّقَتِ النّاسَ أوزاعًا وأشتاتًا

وأمّا حملُ اتّخاذِهم على الاتِّفاقِ على الضَّلالِ عند الفَتْرةِ، واختلافِهم على ما كانَ منهم منَ الاتِّباعِ والإصرارِ فيما لا احتمالَ له؛ أي: وما كانَ النّاسُ كافَّةً من أوَّلِ الأمرِ إلّا مُتَّفقينَ على الحقِّ والتَّوحيدِ من غيرِ اختلافٍ، وذلك من عهدِ آدمَ عليه السلام إلى عهد نوحٍ عليه السلام[2].

سرُّ إيثارِ التّعبيرِ بـ﴿فَٱخۡتَلَفُواْۚ﴾:

آثرَ النّظمُ المعجزُ التّعبيرَ بقوله جلّ شأنُه: ﴿فَٱخۡتَلَفُواْۚ﴾ لما فيه من تشنيعٍ على عبادةِ الأصنامِ، إذ كيف يعبدُ هؤلاءِ المشركونَ الأصنامَ، والنّاسُ جميعُهم فيما سَلَفَ على التَّوحيدِ الخالصِ للّه، ولمّا كان الاختلافُ بسببِ الكفرِ؛ أي: كان النّاسُ على الإسلامِ، فحصلَتِ

الاختلافُ تفرّقٌ طارئٌ في التَّوحيد، مُشعِرٌ بالمذمَّةِ والتَّقريعِ

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/647.

(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/646، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/127.

النُّفرةُ من اتِّباع غيرِ ما كانَ النّاسُ عليه، وترتَّبَ على ذلك الوعيدُ، فدَلَّ على أنَّ هذا الاختلافَ حصلَ بعد الوحدةِ الاعتقاديَّةِ، ولا أدلَّ على هذا الوضعِ القائمِ من كلمةِ (اخْتلفوا)؛ لأنَّه تعبيرٌ عنِ التَّفرُّقِ الطّارىءِ على وحدةِ الاعتقادِ القائمةِ آنذاك، باعتبارِ الاختلافِ الّذي يُشعرُ السّامعَ بالمذمَّةِ والتَّقريعِ لما حدَث، فهو في أمرٍ جَلَلٍ مُتعلِّقٍ بعقيدةٍ ودينٍ - الأصلُ فيه الاجتماعُ وعدمُ الاختلاف - لا بعاداتٍ وتقاليدَ وأمورٍ فرعيَّةٍ، قد يتفرَّقُ فيها النّاسُ ويتنازعون، ولمّا كانَ ذلك كذلك عقَّبَ بيانُ اللّه الاختلافَ بالتَّخويفِ المنذِرِ بالعقوبةِ الصّارمةِ، بقوله: ﴿وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيۡنَهُمۡ فِيمَا فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ﴾[1].

الاستغناءُ بالضَّميرِ: ﴿فَٱخۡتَلَفُواْ﴾:

استغنيَ عنِ الضَّميرِ لدَلالةِ السِّياقِ عليه، وتهوينِ شأنِ المخالفينَ للحقِّ

الأصلُ في قولِه تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ فَٱخۡتَلَفُواْ﴾ أن يُقالَ: كانَ النّاسُ أُمَّةً واحدةً فاختلفَ النّاسُ، أو فاختلفَ هؤلاءِ النّاس، لكنَّ بيانَ اللّه استغنى عن ذاكَ الظّاهرِ لدَلالةِ السِّياقِ عليه، فاكتُفيَ به عن إعادةِ الضَّمير، فلم يُذكَرِ اختصارًا[2]، فلم يُظهِرِ الاسمَ؛ لأنَّ القضيَّةَ مُتعلِّقةٌ بأمرٍ مُهمٍّ، وهو أمرُ الأُمَّةِ ودينُها الّذي قامَت عليه، والاختلافُ أمرٌ طارىءٌ مُحدَثٌ، مخالفٌ لما كانَ عليه سَلفُ عمومِ النّاسِ، فلم يكرِّر ذكرَ النّاسِ المختلفينَ رعايةً لحقِّ المتقدِّمينَ، ورفعًا لشأنِهم، وتهوينًا لشأنِ مَنِ اختلفوا في دينِ اللّه، واخترَعوا الضَّلالاتِ.

مفهومُ لفظِ ﴿أُمَّةٗ﴾:

الشِّركُ طارئٌ على الأُمَّةِ، والأصلُ قيامُها على التَّوحيد

الأُمَّةُ: الجماعةُ العظيمةُ الَّتي لها حالٌ واحدٌ في شيءٍ ما. والمرادُ هنا في قولِه تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ﴾: أُمَّةٌ

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/229، وأبو حيّان، البحر المحيط: 6/28 - 29، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/137.

(2) الكرمانيّ، البرهان في توجيه متشابه القرآن، ص: 139.

واحدةٌ في الدِّين، والسِّياقُ يدُلُّ على أنَّ المرادَ أنَّها واحدةٌ في الدِّينِ الحقِّ، وهو التَّوحيدُ؛ لأنَّ الحقَّ هو الَّذي يُمكنُ اتِّفاقُ البشرِ عليه؛ لأنَّه ناشىءٌ عن سلامةِ الاعتقادِ منَ الضَّلالِ والتَّحريفِ، والإنسانُ أُنشِىءَ على فطرةٍ سليمةٍ كاملةٍ بعيدةٍ عنِ التَّكلُّفِ والتَّعقيدِ، وإنَّما يُتَصَوَّرُ ذلكَ في معرفةِ اللّه تعالى دونَ الأعمالِ؛ لأنَّها قد تختلفُ باختلافِ الحاجاتِ، فإذا جازَ أنْ يحدُثَ في البشرِ الضَّلالُ والخطأُ فلا يكونُ الضَّلالُ عامًّا على عقولِهم، فتعيَّن أنَّ النّاسَ في معرفةِ اللّه تعالى كانوا أُمَّةً واحدةً متَّفقينَ على التَّوحيدِ؛ لأنَّ اللّه تعالى لمّا فَطَرَ الإنسانَ فطرَه على عقلٍ سليمٍ موافقٍ للواقعِ، ووضعَ في عقلِهِ الشُّعورَ بخالقٍ، وبأنَّه واحدٌ وضعًا جِبلِّيًّا، كما وضعَ الإلهاماتِ في أصنافِ الحيوانِ، وتأيَّدَ ذلك بالوَحْيِ لأبي البشرِ وهو آدمُ عليه السلام، ثمَّ إنَّ البشرَ أدخَلوا على عقولِهمُ الاختلافَ البعيدَ عنِ الحقِّ بسببِ الاختلافِ الباطلِ والتَّخيُّلِ والأوهامِ بالأَقيسَةِ الفاسدةِ، فتعيَّنَ بذلكَ أنَّ المرادَ في هذه الآيةِ، بكونِ النّاسِ أُمَّةً واحدةً، الوحدةُ في الحقِّ، وأنَّ المقصودَ مدحُ تلكَ الحالةِ؛ لأنَّ المقصودَ من صدرِ هذه الآيةِ على وَجهِ الخُصوصِ بيانُ فسادِ الشِّركِ وإثباتُ خطأِ مُنتَحِليه بأنَّ سَلفَهُمُ الأوَّلَ لم يكنْ مِثْلَهم في فسادِ العُقولِ، ووقوعُه عقبَ ذِكْرِ مَن يعبُدونَ من دونِ اللّه أصنافًا لا تضُرُّهم ولا تنفَعُهم، يدُلُّ على أنَّهم المقصودُ بالإبطالِ، وهو إبطالُ زعمِ مَنْ يزعُمُ غيرَ ذلك[1].

دَلالةُ التّعبيرِ بالجملةِ الشّرطيّةِ في: ﴿وَلَوْلَا﴾:

لولا لطفُ اللّه بإمهالِ البشرِ لعمَّهم بعذابٍ مُستطِرٍ

عبّرَ النّظمُ الجليلُ بالجملةِ الشّرطيّةِ في قولِه تعالى: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾؛ للدّلالة على أنَّ ذلكَ الاختلافَ مَذمومٌ، وأنَّه لولا أنَّ اللّه أرادَ إمهالَ البشرِ إلى يومِ الجزاءِ لَأراهُم وَجهَ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/128.

الفَصلِ في اختلافِهم باستئصالِ المُبطِلِ وإبقاءِ المُحِقِّ[1]، فعلّقَ انتفاءَ الاستئصالِ والقضاءَ عليهم في الدّنيا بوجودِ عهدٍ سابقٍ وضعَه اللّه تعالى، وذلك يؤكّدُ عدمَ وقوعِ الاستئصالِ في مستقبلِ الأيّامِ.

دَلالةُ حرفِ الشَّرطِ غير الجازمِ في: ﴿وَلَوْلَا﴾:

لولا إمهالُ الله البشرَ ليومِ المعاد لفصلَ بينَهم في الدُّنيا

حرفُ الشَّرط ﴿وَلَوْلَا﴾ هو حرفُ امتناعٍ لوجود، فلولا أنَّ اللّه أرادَ إمهالَ البشرِ إلى يومِ الجزاءِ لَأَراهم وجهَ الفَصلِ في اختلافِهم، باستئصالِ المُبطِلِ، وإبقاءِ المحقِّ[2]، "ويجوز لقَضَى بينهم؛ أي: لولا أنَّ اللّه جلَّ وعزَّ، جعل لهم أجلاً في القضاءِ بينهم، لفَصَلَ بينهم في وقتِ اختلافِهم"[3].

دَلالةُ التّعبيرِ بلفظِ ﴿كَلِمَةٌ﴾:

الكلمةُ هي القضاءُ والحكمُ، الّذي يفصلُ اللّه به بين العبادِ

قولُه: ﴿كَلِمَةٌ﴾ هنا في قولِه تعالى: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ﴾ تعني: تأخيرَ القضاءِ والحُكمِ بينَهم، أو بتأخيرِ العذابِ الفاصلِ بينَهم إلى يومِ القيامة؛ فإنَّه يومُ الفَصْل، أو أنَّ المرادَ بالكلمةِ قضاؤُه وتقديرُه لبني آدمَ بالآجالِ المؤقَّتةِ[4]، "قد اقتضَت مشيئةُ اللّه أن يُمهِلَهم جميعًا الى أجَلٍ يستوفونَه، وسبقَت كلمتُه بذلك لحكمةٍ يريدُها، ولولا ذلك لعجَّلَ لهم الهلاكَ، بسبب الخلافِ الّذي وقعوا فيه"[5].

توجيهُ التّعبيرِ بلفظِ ﴿سَبَقَتْ﴾:

اقتضَتْ سنَّةُ اللّه تأجيلَ الثَّوابِ والعقابِ ليومِ الحسابِ

المرادُ بالسّبقِ في قوله: ﴿كَلِمَةٌ سَبَقَتْ﴾ أنّها سبقَت في قضاءِ اللّه وتقديرِه بأنْ لا يُعجِّلَ عذابَ أُمَّةٍ قبلَ بيانِ دينِه ورسالتِه مع أنبيائِه ورُسُلِه، فيمدَّ بني آدمَ بالآجالِ المؤقَّتةِ[6]، ويحتملُ أن يُرادَ: أنَّ اللّه

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/129.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/129.
(3) الزّجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 3/12.
(4) ابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 3/111، والنَّسفيّ، مدارك التَّنزيل: 2/13، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/647.
(5) إبراهيم القطّان، تيسير التّفسير: 2/185.
(6) ابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 3/111.

أَبقى تكليفَه على عبادِه، وإنْ كانوا به كافرين؛ لأنَّه لو أهلَكهم لكانَ ذلك سببًا لزوالِ التَّكليفِ، فأبقاهم، وأخَّرَ عقابَهم إلى يومِ القيامة، وفي ذلكَ تصبيرٌ للمؤمنين على احتمالِ المكارِه من قِبَلِ الكافرينَ والظّالمينَ، ويحتملُ أن يُرادَ: أنَّ اللّه لا يُعاجِلُ العُصاةَ بالعقوبةِ إنعامًا عليهم؛ لَقُضِيَ بينهم في اختلافِهم، بما يمتازُ به المُحِقُّ منَ المُبطِلِ، والمُصيبُ منَ المُخطِئِ، ويحتملُ أنَّ المرادَ هو أنَّه لَمّا كانتْ رحمةُ اللّه غالبةً اقتضَتْ تلكَ الرَّحمةُ الغالبَةُ إسْبالَ السَّترِ على الجاهلِ الضّالِّ، وإمهالَه إلى وقتِ الحسابِ[1].

دَلالةُ تجاوُرِ فعل ماضٍ مع مضارعٍ: ﴿لَقُضِيَ﴾ ﴿يَخْتَلِفُونَ﴾:

جاءَ ﴿لَقُضِيَ﴾ بصيغةِ الماضي، و ﴿يَخْتَلِفُونَ﴾ بصيغةِ المضارعِ الَّذي يفيدُ الاستقبالَ؛ ليُفيدا معًا حكايةَ الحالِ الماضية، وللدَّلالةِ على الاستمرار[2]، والدّلالةُ يتقابلُ فيها معنى فعليّة القضاءِ الافتراضيّ المُحتَملِ في سياق الشّرطِ بقوله: ﴿لَقُضِيَ﴾، ومعنى الاختلاف بين النّاسِ، الّذي هو مَلمَحٌ واقعيٌّ معيشٌ، تشهدُهُ البشريّةُ على مدار الزّمانِ بقوله: ﴿يَخْتَلِفُونَ﴾، "وفيه وجهان: أحدهما: ولولا كلمةٌ سبقَت من ربِّكَ في تأجيلِهم إلى يوم القيامةِ لقُضِي بينَهم من تعجيلِ العذابِ في الدّنيا، قالَهُ السُّدِّيُّ. الثّاني: ولولا كلمةٌ سبقَت من ربِّكَ في أن لا يُعاجِلَ العُصاةَ إنعاماً منه يَبتلِيهم به، لقَضَى بينَهم فيما فيه يَختَلفونَ، بأن يَضطرَّهُم إلى مَعرفَةِ المُحِقِّ مِنَ المُبطِلِ"[3].

تجاوُرُ الفعلَينِ هنا لحكايةِ الحالِ الماضيةِ، وللدَّلالةِ على الاستمرار

دَلالةُ الجارِّ والمجرورِ: ﴿مِن رَّبِّكَ﴾:

في قولِه تعالى: ﴿سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾، جاءَ الجارُّ والمجرورُ ﴿مِن رَّبِّكَ﴾ تعبيرًا عن إحسانِ اللّه وفضلِه ورحمتِه بأُمَّةِ نبيِّه محمَّدٍ ﷺ

مصدرُ الرَّحمةِ والإحسانِ بالعبادِ هو الرَّبُّ الرَّحمنُ

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/229 - 230، والبغويّ، معالم التّنزيل: 4/127، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 8/323.

(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/647.

(3) الماورديّ، النّكت والعيون: 2/429.

في إمهالِهم، ودلّت ﴿مِن﴾ الابتدائيّة على أنّ مصدرَ تلك الكلمةِ أنّها ابتدأَت منَ اللّه تعالى لبيانِ محضِ رحمتِهِ، وأنّها لم تكن مفروضةً من أحدٍ، بل اللّه تعالى تفضّلًا منه وكرمًا ابتدأَ أن وضعَ على نفسِهِ أن لا يُعجِّلَ العقابَ لأحدٍ.

دلالةُ الإضافةِ: ﴿رَّبِّكَ﴾:

المحسنُ إليك هو مَن أرجأَ العقابَ برحمتِهِ

أضافَ النّظمُ الجليلُ لفظَ الرّبوبيّةِ إلى الضّميرِ العائدِ على النّبيِّ ﷺ بيانًا لعظيمِ شأنِه، وبيان أنّ ذلك من رحمةِ اللّه بعبادِه عمومًا في إرجاءِ عذابِهم بعد مَنحِهمُ الإمهالَ؛ ليعودوا إلى اللّه بالتَّوبةِ قبلَ حلولِ الآجالِ[1].

نكتةُ بناءِ الفعلِ ﴿لَقُضِيَ﴾ لما لم يُسمَّ فاعلُه:

قضاءُ اللّه مُبْرَمٌ، وسُنَّتُه في خَلْقِه باقيةٌ، ورحمتُه بهم جاريةٌ

في قولِه تعالى: ﴿لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ جاءَ الفعلُ ﴿لَقُضِيَ﴾ مَبنيًّا على ما لم يُسمَّ فاعلُه، تعويلًا على ما سبقَ في قولِه تعالى: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾، ولبيانِ أنَّ هذا الأمرَ الَّذي دَعَوْا إليه أمرٌ طارئٌ حادثٌ، فيكونُ بحيث يُتوقَّفُ فيه للنَّظرِ في عواقبِه، والتَّأمُّلِ في مَصادرِه ومَوارِدِه، بل هو مع ظهورِ دلائلِه واستقامةِ مناهجِه وصِحَّةِ مذاهبِه، وإلقاءِ الفِطَرِ أَزِمَّةَ الانْقيادِ إليه، أصلُ ما كانَ العبادُ عليه، وما هم فيه الآن، هو الطّارئُ الحادثُ مع ظُهورِ فسادِه ووضوحِ سَقَمِه، وقضاءُ اللّه السّابقُ فيما بيَّنَه لنا هنا مُبْرَمٌ، وهو مع كونِه مُبرَمًا لكنَّ رحمةَ اللّه بعبادِه فيه واضحةٌ وأَلْطافَهُ فيهم جَليَّةٌ[2]، فلمّا ذكرَ لفظَ الرّبوبيّةِ المُشعِرَ بالإحسانِ مع إضافتِهِ إلى ضميرِ النّبيِّ ﷺ بنى الفعلَ الدّالَّ على نقيضِ الإحسانِ للمفعولِ إعراضًا عن ذكرِ مَن سبقَ ذكرُهُ بالإحسانِ أن يُعادَ ذكرُهُ في سياقِ العقابِ.

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 9/93.
(2) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 2/230، والبقاعيّ، نظم الدُّرر: 9/93.

علَّةُ ورودِ اسمِ الموصولِ (ما):

تأكيدُ وجودِ الاختلافِ، والإيماءُ إلى إبقاءِ الحقِّ وإزهاقِ الباطل

أفادَ اسمُ الموصولِ (ما) في قوله تعالى: ﴿فِيمَا فِيهِ﴾ تأكيدَ وَصفِ ما هم عليه منَ الاختلاف، والتَّنبيهَ على أنَّه لا بدَّ من تمييزِ الحقِّ منَ الباطلِ، وذلك بإبقاءِ الحقِّ وأهلِه، وإهلاكِ الباطلِ وأهلِه[1]، كما أنّه يفيدُ الدّلالةَ على أنّ الحكمَ كائنٌ في عمومِ ما اختلفوا فيه؛ فالكتابُ لا يُغادرُ صغيرةً ولا كبيرةً إلّا أحصاها.

دَلالةُ ردِّ العَجُزِ على الصَّدْرِ: ﴿فَٱخۡتَلَفُواْۚ﴾، ﴿يَخۡتَلِفُونَ﴾:

تأكيدُ اختلافِ النّاسِ في الدِّين، وتأكيدُ حسابِهم يومَ الدِّين

في قولِه تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ فَٱخۡتَلَفُواْۚ﴾ جاءَ في نهايةِ هذا الشَّطرِ الفعلُ ﴿فَٱخۡتَلَفُواْۚ﴾، وفي نهايةِ الآيةِ جاءَ في قولِه تعالى: ﴿لَقُضِيَ بَيۡنَهُمۡ فِيمَا فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ﴾ الفعلُ ﴿يَخۡتَلِفُونَ﴾ وهذا ما يسمَّى في علم البديع بردِّ العَجُزِ على الصَّدرِ[2]، وهو منَ المحسِّناتِ اللَّفظيَّةِ الَّتي تُعطي المعنَى قوَّةً وتأكيدًا، وهذه هي الدَّلالةُ هنا: في أنَّ اختلافَ النّاسِ بعدَ أن كانوا رِدْحًا طويلًا منَ الزَّمنِ على عقيدةِ التَّوحيدِ الخالصِ للّه اختلفوا، فمنهم مَن بقيَ على إيمانِه، ومنهم مَن كَفرَ، وهذا لنْ يبقى عندَ اللّه بلا حسابٍ، ولكنَّ اللّه لنْ يحاسبَهم على اختلافِهم ذاك في الدُّنيا، وَفقَ حكمتِه تعالى؛ بل أجَّل حسابَهم فيما كانوا فيه يختلفونَ إلى يومِ القيامة، فالعلَّةُ في هذا الحسابِ هو اختلافُهم السّابقُ فيما بينَهم، فأكَّدَ بيانُ اللّه أنَّه كما حصَلَ الاختلافُ في الدِّين ما بين مُؤمنٍ وكافر، فسيُعقَدُ الحسابُ للَّذين اختلفوا، بتمييزِ أهلِ الحقِّ من أهلِ الباطلِ،

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/647.

(2) وهو من فنونِ البديعِ، ويُسمَّى (التَّصدير)، وهو ثلاثةُ أقسامٍ: الأوَّل: ما يوافقُ آخرُ كلمةٍ فيه آخرَ كلمةٍ في نصفِه، وهو كما في الآية في المتن، والثّاني: ما يوافقُ آخرُ كلمةٍ فيه أوَّلَ كلمةٍ في نصفِه الأوَّل، كما في قولِ الشّاعر:

سَرِيعٌ إلَى ابنِ العَمِّ يَشتُمُ عِرْضَهُ *** وَلَيسَ إلَى داعِي النَّدَى بسَرِيعِ.

والثّالثُ: ما يوافقُ آخرُ كلمةٍ فيه بعضَ ما فيه، كما في قولِه تعالى: ﴿ٱنظُرۡ كَيۡفَ فَضَّلۡنَا بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ وَلَلۡأٓخِرَةُ أَكۡبَرُ دَرَجَٰتٖ وَأَكۡبَرُ تَفۡضِيلٗا ٢١﴾ [الإسراء: 21]. يُنظر: ابن المعتزّ، البديع، ص: 47.

فَيُقضَى بينَهم يومَ القيامةِ، فينالُ أهلُ الحقِّ النَّعيمَ المقيمَ، وأهلُ الباطلِ العذابَ الأليمَ[1].

دَلالةُ توسُّطِ الجارِّ والمجرورِ بينَ الاسمِ الموصولِ وصلتِه: ﴿فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾:

أهمّيَّةُ ما وقعَ فيه الاختلافُ، ومراعاةُ الفاصلة

في قولِه تعالى: ﴿لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ وردَ الجارُّ والمجرورُ ﴿فِيهِ﴾ مُتوسِّطًا بين الاسمِ الموصولِ (ما) وصلتِه ﴿يَخْتَلِفُونَ﴾، والأصلُ أن يقولَ: فيما يختلفونَ فيه، وهذا التَّوسُّطُ وتقديمُ ما حقَّه التَّأخيرُ يشيرُ إلى أمرَين: الأوَّلُ: بيانُ أهمّيَّةِ ما وقعَ فيه الاختلاف، فهو اختلافٌ في الدِّين، ما بين إيمانٍ وكُفرٍ. والثّاني: مراعاةُ الفاصلةِ القرآنيَّةِ[2]، وذلك اهتمامًا بموضوعِ الاختلافِ؛ لأنّه السّببُ في الحكمِ بينهم، فقدَّمَ ما سبّبَ الاختلافَ على فعلِ الاختلافِ.

التّشابهُ اللّفظيُّ بين آيتي سورة يونس، وسورة الشّورى:

تأكيدُ سبقِ كلمةِ اللهِ بتأجيلِ العقابِ مع اختلافٍ في بعضِ جزئيّاتِ المعنى

وردَ تشابهٌ في النّظمِ بينَ قولِه تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾، وقولِه تعالى: ﴿وَمَا تَفَرَّقُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِيَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١٤﴾﴾ [الشّورى: 14]، فما وجه ذلك التّشابه؟

والجواب: في قولِه تعالى: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ جاءَ في [الشّورى: 14] بزيادةِ ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾، وزادَ فيها أيضًا ﴿بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾؛ لأنَّ المعنَى تفرّقُ قولِ اليهودِ في التَّوراة، وتفرَّقُ قولِ الكافرين في القرآن، فكانَ تقديرُ الكلام: ولولا كلمةٌ سَبَقتْ من ربِّكَ بتأخُّرِ العذابِ إلى يومِ الجزاءِ لقُضِيَ بينَهم بإنزالِ العذابِ عليهم.

(1) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 2/230، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/647.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/129.

وخُصَّتْ في الشّورى بزيادةِ قولِه: ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾؛ لأنَّه ذكرَ البدايةَ في أوَّلِ الآية، وهو ﴿وَمَا تَفَرَّقُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ﴾، وهو مبدأُ كُفرِهم، فَحَسُنَ ذكرُ النِّهايةِ الَّتي أُمهِلوا إليها ليكونَ محدودًا منَ الطَّرَفَيْن[1]. وفي الآيةِ هنا [يونس: 19] وردَ قولُه تعالى: ﴿فِيمَا فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ﴾ وفي [الزُّمَر: 3] وردَ قولُه تعالى: ﴿فِي مَا هُمۡ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَۗ﴾ بزيادَةِ (هم)؛ لأنَّ في هذه السّورةِ تقدَّمَ ﴿فَٱخۡتَلَفُواْۚ﴾ في قولِه: ﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ فَٱخۡتَلَفُواْۚ﴾ فاكتُفيَ به عن إعادةِ الضَّميرِ[2].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الأُمَّة والقَوْم:

الأُمَّةُ: كلُّ جماعةٍ يجمعُهم أمرٌ ما، إمّا دينٌ واحدٌ، أو زمانٌ واحدٌ، أو مكانٌ واحدٌ، سواءٌ كان ذلك الأمرُ الجامع تسخيرًا أوِ اختيارًا، وجمعُها أُمَمٌ، قالَ تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا طَٰٓئِرٖ يَطِيرُ بِجَنَاحَيۡهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمۡثَالُكُمۚ﴾ [الأنعام: 38][3]، والقومُ: همُ الرِّجالُ الَّذينَ يقومُ بعضُهم مع بعضٍ في الأمور، ولا يقعُ في النِّساءِ إلّا على معنَى التَّبَع، كما قالَ ﷻ: ﴿كَذَّبَتۡ قَوۡمُ نُوحٍ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ١٠٥﴾ [الشُّعراء: 105]، والمرادُ: الرِّجالُ، والنِّساءُ تَبَعٌ لهم[4]. فجاءَ التّعبيرُ في الآية بلفظِ الأمّةِ؛ لأنّه يريدُ الأمّةَ الّتي يجمعُها أمرُ الدّينِ، وليس المرادُ مجموعةً منَ الرّجال يقومون مع بعض.

الأُمَّــةُ جماعةٌ يجمعُهم رابطٌ، والقومُ الرِّجالُ يقومُ بعضُهم مع بعضٍ

الاخْتلاف والخِلاف:

الاختلافُ: أنْ يأخذَ كلُّ واحدٍ طريقًا غيرَ طريقِ الآخَرِ، في حالِه أو في قولِه، ويكون في الرّأيِ والفهمِ والذّوقِ، والاختلافُ بين النّاسِ

الاخــتــلافُ المـخـالَـفـةُ في الوجهة أو الرّأي قــولًا وحــالًا، والـخِـلافُ أعـمُّ منَ الاختلافِ

(1) الكرمانيّ، البرهان في توجيه متشابه القرآن، ص: 222.
(2) الكرمانيّ، البرهان في توجيه متشابه القرآن، ص: 139.
(3) الرّاغب، المفردات: (أمّ)، وابن منظور، لسان العرب: (أمم).
(4) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 427، وابن منظور، لسان العرب: (قوم).

في القولِ يقتضي التَّنازُعَ، ومنَ الاختلافِ ما ليس بمذموم، كما في قولِه تعالى: ﴿وَلَهُ ٱخۡتِلَٰفُ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِۚ﴾ [المؤمنون: 80]، فهذا الضَّربُ منَ الاختلافِ ليس كما في البشر، فهو يكونُ على سَنَنٍ واحدٍ، وهو دالٌّ على علمِ فاعلِه، والاختلافُ قد يكونُ في المذاهبِ وفي الأجناسِ؛ فالاختلافُ في المذاهب: هو ذهابُ أحدِ الخَصمَين إلى خلافِ ما ذهبَ إليه الآخرُ، والاختلافُ في الأجناسِ: امتناعُ أحدِ الشَّيئين من أن يَسُدَّ مَسَدَّ الآخَر، ويجوزُ أنْ يقعَ الاختلافُ بين فريقين، وكلاهُما مُبطِلٌ كاختلافِ اليهودِ والنَّصارى في المسيح[1]. والخِلافُ أعمُّ منَ الضِّدِّ؛ لأنَّ كلَّ ضِدَّيْن مختلفان، وليس كلُّ مختلِفَين ضدَّين، فهو أعمُّ منَ الاختلاف. والخِلافُ: هو المخالفة، وقولُه تعالى: ﴿فَرِحَ ٱلۡمُخَلَّفُونَ بِمَقۡعَدِهِمۡ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾ [التَّوبة: 81]؛ أي: مخالفةَ رسولِ الله ﷺ، والاختلافُ قد يؤدِّي إلى الخِلافِ؛ أي: المنازعةِ والمجادَلةِ ولذلكَ استُعيرَ لهما، كما قالَ تعالى: ﴿فَٱخۡتَلَفَ ٱلۡأَحۡزَابُ﴾ [مريم: 37] فوقعَ بينَهمُ الخلافُ والتَّخاصُمُ[2].

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 28 - 128، والرّاغب، المفردات: (خلف). ص 295.
(2) الرّاغب، المفردات، والرّازيّ، مختار الصّحاح: (خلف).

﴿وَيَقُولُونَ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦۖ فَقُلۡ إِنَّمَا ٱلۡغَيۡبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُنتَظِرِينَ ٢٠﴾ [يونس: 20]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

بعد أن حكى الله تعالى "عنِ المشركين إنكارَهم للوحي إلى بشرٍ مثلهم، وردَّ عليهم مقالتَهم بالحججِ الّتي تثبتُ بطلانَ شركِهم وإنكارِهم للبعثِ، ثمّ حكى عنهم مطالبةَ الرّسولِ ﷺ بالإتيان بقرآنٍ غيرِ هذا الّذي يدلُّ في نظمِهِ وأسلوبِهِ وعلومِهِ وهدايتِهِ على أنّه وحيٌ من كلام الله؛ حكى عنهم في هذه الآية الاحتجاجَ على إنكار نبوّتِه بعدمِ إنزالِ آيةٍ كونيّةٍ غير القرآنِ مع ما فيه منَ الآياتِ العلميّةِ والعقليّةِ الدّالّةِ على النّبوّةِ والرّسالةِ، ثمّ ردَّ على ذلك"[1].

بعدَ الإشراكِ والاستكبارِ والتّقوّلِ على اللهِ مطالبةٌ بالآياتِ على وفقِ الأهواءِ

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أُنزِلَ عَلَيۡهِ﴾: النُّزولُ في الأصلِ هو انحطاطٌ من عُلوٍّ، يُقال: نزلَ من دابَّته، ونزلَ في مكانٍ كذا: حطَّ رَحْلَهُ فيه، وأنزلَه غيرُهُ، قالَ تعالى: ﴿أَنزِلۡنِي مُنزَلٗا مُّبَارَكٗا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡمُنزِلِينَ ٢٩﴾ [المؤمنون: 29]. ونَزَلَ بكذا، وأنزلَه بمعنًى، وإنزالُ الله تعالى نِعمَه ونِقمَه على الخَلْق، وإعطاؤُهُم إيّاها، وذلك إمّا بإنزالِ الشَّيءِ نَفسِه كإنزالِ القرآن، وإمّا بإنزالِ أسبابِه والهِدايةِ إليه، كإنزالِ الحديدِ واللِّباسِ، ونحوِ ذلك، قالَ تعالى: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبۡدِهِ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ [الكهف: 1]، وقالَ سبحانَه: ﴿وَأَنزَلۡنَا ٱلۡحَدِيدَ﴾ [الحديد: 25]، وقالَ ﷻ: ﴿وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ طَهُورٗا ٤٨﴾ [الفرقان: 48][2].

وقولُه تعالى: ﴿لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦۖ﴾؛ أي: هلّا أنزلَنا

(1) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 11/84.
(2) الرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (نزل).

عليه آيةٌ منَ الآياتِ الَّتي نقترحُها عليه، ونطلبُها منه كإحياءِ الموتَى وجَعْلِ الجبالِ ذهبًا ونحوِ ذلك[1]؟

2) ﴿ءَايَةٌ﴾: الآيةُ: هي العلامةُ الظّاهرةُ، وحقيقتُه لكلِّ شيءٍ ظاهرٍ، وهو ملازمٌ لشيءٍ لا يَظهَرُ ظُهورَهُ، فمتى أدركَ مُدرِكٌ الظّاهرَ منهما عُلِمَ أنَّه أدركَ الآخرَ الَّذي لم يُدرِكْهُ بذاتِه، إذْ كانَ حكمُهُما سواء، والآيةُ مُشتقَّةٌ منَ التَّأيِّي الَّذي هو التَّثبُّتُ والإقامةُ على الشَّيء، يُقال: تأيَّ؛ أي: ارْفِق، أو من قولِهم: أوَى إليه، وقيل للبناءِ العالي آيةٌ، نحو: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾﴾ [الشُّعراء: 128]، ولكلِّ جملةٍ منَ القرآنِ دالَّةٌ على حكمِ آيةٍ، وقولُه تعالى: ﴿إِنَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾﴾ [الجاثية: 3]، فهي منَ الآياتِ المَعقولةِ الَّتي تتفاوَتُ بها المعرفةُ بحسبِ تفاوتِ منازلِ النّاسِ في العلم[2]. والآيةُ (هنا) في قولِه: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾؛ أي: الآياتُ العظامُ الَّتي كانوا يقترحونَها، كإنزالِ الملائكةِ وجعلِ الجبالِ ذهبًا.. ونحوِ ذلك[3].

3) ﴿ٱلْغَيْبُ﴾: الغَيْنُ والياءُ والباءُ أصلٌ صحيحٌ، يدُلُّ على تَستُّرِ الشَّيءِ عنِ العيون، ثُمَّ يُقاسُ، من ذلك الغَيب: ما غابَ، ممّا لا يعلمُه إلّا اللّه، قالَ اللّه تعالى في قصَّةِ يوسف عليه السلام: ﴿وَأَلْقُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ﴾ [يوسف: 10]، واستُعمِلَ الغيبُ في كلِّ ما غابَ عنِ الحاسَّةِ وعن علمِ الإنسان[4].

وقولُه تعالى (هنا): ﴿فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ﴾؛ أي: هو المختصُّ بعلمِ الغيبِ المتأثِّرِ به، لا علمَ لي ولا لأحدٍ به؛ يعني: أنَّ الصّارفَ عن إنزالِ الآياتِ المقترَحةِ أمرٌ مغيَّبٌ، لا يعلمُهُ إلّا اللّه وحدَه[5] سبحانه وتعالى.

4) ﴿فَٱنتَظِرُوٓاْ﴾ ﴿ٱلْمُنتَظِرِينَ﴾: النَّظَرُ: الانتظارُ، يُقالُ: نَظَرْتُه وانْتَظَرتُه وأَنْظَرْتُه؛ أي: أخَّرْتُه، قالَ تعالى: ﴿وَٱنتَظِرُوٓاْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ [هود: 122]، وفي قولِه تعالى: ﴿إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ﴾ [الأحزاب: 53]؛ أي: مُنتظِرين[6].

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 2/374، والشَّوكانيّ، فتح القدير: 2/610.
(2) الرّاغب، المفردات: (أي)، والفيروزباديّ، القاموس المحيط: (أيي).
(3) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 2/230، والشَّوكانيّ، فتح القدير: 2/610.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (غيب).
(5) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 2/230 - 231، والشَّوكانيّ، فتح القدير: 2/610.
(6) الرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (نظر).

وفي قولِه تعالى (هنا): ﴿فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُنتَظِرِينَ﴾؛ أي: فانتظِروا نزولَ ما اقْترحتُموه منَ الآيات، إنِّي معكم منَ المنتظِرينَ لِما يفعلُ اللّه بكم لعنادِكُم وجحودِكمُ الآيات، ويجوزُ أن يكونَ المعنَى: انْتظِروا قضاءَ اللّه بيني وبينَكم بإظهارِ الحقِّ على الباطل[1].

المَعْنى الإجْماليُّ:

يخبرُ اللّه تعالى أنّ هؤلاءِ الكَفَرَةُ المكذِّبونَ المعانِدون يقولون: لولا أُنزِلَ على محمَّدٍ ﷺ آيةٌ من ربِّه، كما أعطَى اللّه ثمودَ النّاقةَ، أو أنْ يُحوِّلَ لهم الصَّفا ذهبًا، أو يُزيحَ عنهم جبالَ مكَّةَ، ويَجعلَ مكانَها بساتينَ وأنهارًا، أو نحوَ ذلكَ ممّا اللّه قادرٌ عليه، ولكنَّه تعالى حكيمٌ في أفعالِه وأقوالِه، كقولِه تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرۡسِلَ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلۡأَوَّلُونَۚ﴾ [الإسراء: 59]، ولكنَّ سنَّتي في خَلْقي أنِّي إذا آتيتُهُم ما سَألوا، فإنْ آمنوا وإلّا عَجَّلْتُ لهمُ العقوبةَ، ولذلك حَلُمَ عليهم رسولُ اللّه ﷺ غيرَ مرَّةٍ، واخْتارَ إنظارَهم خوفًا من تعذيبِهم، ولذلك أرشدَ اللّه تعالى نبيَّه إلى الجواب عمّا سألوا: فقلْ لهم يا محمَّدُ إنَّما الغيبُ للّه؛ أي: الأمرُ كُلُّهُ للّه، وهوَ يَعلمُ العَواقبَ من الأمورِ[2].

طلبُ المشركين آيةً سوى القرآن، وحكمةُ الله تأبى ذلك قبلَ الأوانِ

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دَلالةُ عطفِ الجملةِ بالواوِ في: ﴿وَيَقُولُونَ﴾:

الجملةُ في قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ﴾ عطفٌ على جملةِ: ﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمۡ وَلَا يَنفَعُهُمۡ﴾ [يونس: 18]؛ وذلكَ أنَّه بعدَ أنْ ذكرَ افتراءَهم في جانبِ الإلهيَّةِ نَفَى بُهتانَهم في جانبِ النُّبوَّة، فلمّا أتتهُمُ البيِّناتُ قالوا: ائْتِ بقرآنٍ غيرِ هذا،

نَفْيُ البُهتانِ في النُّبوَّةِ معطوفٌ على نَفْيِ الافْتراءِ في الإلهيَّة

(1) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 2/231، والشَّوكانيّ، فتح القدير: 2/610.
(2) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 2/374.

كافرينَ بمنزلِّها، عابدينَ من دونِه ما لا يرضى عاقلٌ بتَسويتهِ بنَفسِه فكيفَ بعبادتِه[1].

دَلالةُ ﴿لَوۡلَآ﴾:

طلبُ إنـزالِ آيةٍ حـسِّـيَّـةٍ، كما أُنـزِلَ على الأممِ القبليّةِ

﴿لَوۡلَآ﴾ في قولِه تعالى: ﴿لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦۖ﴾ حرفُ تَحْضيضٍ وشأنُ التَّحضيضِ أنْ يواجَه به المُحَضَّضُ؛ لأنَّ التَّحضيضَ منَ الطَّلب، وشأنُ الطَّلبِ أنْ يواجَهَ به المَطلوبُ، وقد كانَ طلبُهم إنزالَ آيةٍ حسِّيَّةٍ كما عندَ اليهودِ والنَّصارَى والأقوامِ السّابقةِ[2]، "يقولون: لولا أنزلَ اللّه عليه آيةً من ربّه غيرَ ما نزلَ عليه منَ الآياتِ الباقياتِ البيّناتِ، وهي آياتُ القرآنِ الكريمِ، حكى القرآنُ عنهم في أكثرِ من مَوضِعٍ هذا الطّلبَ، وردَّ عليهم تارةً بالإجمال، كما هنا، وطورًا بالتّفصيل"[3]، الرّسل عليهم السلام" قد بُعِثَ كلٌّ منهم لأمّةٍ محدودةٍ زمانًا ومكانًا؛ ولذلك كانتِ الآياتُ الّتي اصطحبوها آياتٍ حسّيّةً، وكلُّ آيةٍ كانَت من جنسِ ما نبغَ فيه القومُ المبعوثُ إليهم، أمّا رسالةُ محمّد ﷺ فهي لعامّةِ الزّمانِ، وعامّةِ المكانِ، فلو جعلَ اللّه سبحانَه له آيةً حسّيّةً لآمن بها مَنْ شاهدَها، ولَصارَتْ خبراً لِمن لم يشاهدْها..لقد شاءَ اللّه سبحانَه أن يُرسلَ الرّسولَ ﷺ بمعجزةٍ باقيةٍ إلى أن تقومَ السّاعةُ، وهي معجزةُ القرآنِ"[4].

دَلالةُ بناءِ الفعلِ ﴿أُنزِلَ﴾ لما لم يُسمَّ فاعلُه:

لا يُنزِلُ الآياتِ إلّا القادرُ العظيمُ، الّـذي لا تجهل ذكرَه العقولُ

عبّرَ النّظمُ الكريمُ في قولِه تعالى: ﴿لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦۖ﴾ بالفعل المبنيّ للمفعول إيجازًا في التّعبير؛ لكفاية دلالةِ السّياقِ على الفاعلِ، حيث دلَّ على ذلك قولُه: ﴿مِّن رَّبِّهِۦۖ﴾، كما أنّ مُنزِلَ الآياتِ

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 9/94، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/647، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/129.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 9/94، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/129.
(3) الحجازيّ، التّفسير الواضح: 2/50.
(4) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 10/5831.

معروفٌ لا يحوجُ ذكرُه، فاكتُفِيَ بحضورِه في الأذهان عنِ التّصريحِ به بالألفاظ.

سرُّ التّعبيرِ بضميرِ الغيبةِ في قوله: ﴿عَلَيۡهِ﴾ دون ضميرِ الخطابِ:

سعةُ البيانِ بحكايةِ القولِ وجماليّةُ الخطابِ بالالتفاتِ

عبّر النّظمُ الجليلُ بضمير الغيبةِ في قوله تعالى: ﴿لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦۖ﴾ دونَ الخطابِ، وذلك لدَلالتَيْن: الأوْلى: إمّا أن يكونَ التفاتًا، وأصلُ الكلامِ: (لولا أُنزِلَ عليك)، وهو من حكايةِ القولِ بالمعنَى، كقولِه تعالى: ﴿قُل لِّعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [إبراهيم: 31]، أي: قلْ لهم أقيموا، ونكتةُ ذلكَ نكتةُ الالْتفاتِ لتجديدِ نشاطِ السّامع. والثّانيةُ: أنْ يكونَ هذا القولُ صدَرَ منهم فيما بينَهم ليبيِّنَ بعضُهم لبعضٍ شُبهةً على انْتفاءِ رسالةِ محمَّدٍ ﷺ، أوْ ما صدَرَ منهم للمسلمينَ طمعًا في أنْ يَردّوهم إلى الكُفْر[1].

علّةُ تقديمِ شبهِ الجملةِ على المسندِ في: ﴿أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ﴾:

تخصيص إنزال الآيات لبيان إظهار مكانة سيّد الكائنات، وإبطال لزعم أصحاب الشبهات

قدّمَ النّظمُ الكريمُ في قولِه عزّ ذكرُه: ﴿أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ﴾ شبهَ الجملةِ على المسندِ، وأصلُ الكلامِ أن يُقالَ: (أُنزِلَت آيةٌ عليه)؛ تخصيصًا لنزولِ الآيةِ على النّبيِّ ﷺ؛ لأنّه - بزعمِهم - هو من ادّعى نزولَ القرآنِ عليه.

نكتةُ توسُّطِ الجارِّ والمجرورِ بينَ الفعلِ المبنيِّ للمفعولِ ونائبِ الفاعلِ:

الاعترافُ الضِّمنيُّ بمَن أَنْزَلَ القرآنَ، ومَن أُنزِلَ عليه القرآنُ

يُلاحَظُ توسُّطُ الجارِّ والمجرورِ بين لفظ ﴿أُنزِلَ﴾ و لفظ ﴿ءَايَةٞ﴾؛ لاختصاصِ المُنزَّلِ عليه القرآنُ، وهو محمَّدٌ ﷺ بالإنزالِ، وهذا اعترافٌ ضمنيٌّ بنبوَّتِه ﷺ، دونَ التّصريحِ بها، واعترافٌ يسبقُه كذلكَ بأنَّ المنزِّلَ للقرآنِ هو اللهُ ﷻ، ولكنَّهم يجحدونَ ذلك بألسنتِهم ظُلمًا وعُلوًّا.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/130.

سرُّ عودةِ الضَّميرِ في ﴿لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ﴾ على النَّبيِّ ﷺ:

وضوحُ مَنْ أُسنِدَ إليه الطَّلبُ، وقصدُهم إحراجَهُ ﷺ

عادَ الضَّميرُ الهاءُ في قولِه تعالى: ﴿عَلَيۡهِ﴾ على النَّبيِّ ﷺ لبيان شدّةِ حضورِه في أذهانِهم، فهم لم يقولوا: (لو أُنزِلَت آيةٌ منَ الله) بلا ذكرِ مَن تُنْزَلُ عليه، ولأنّ مدارَ تكذيبِهم هو شخصُ النّبيِّ ﷺ، كما صرّحوا بذلك في ما حُكي عنهم بقوله جلّ شأنُه: ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ عَظِيمٍ ٣١﴾ [الزّخرف: 31]؛ لوضوحِه، حيث أنَّ هذا الطَّلبَ منهم كانَ لإفحامِ الرَّسولِ ﷺ - حسَبَ زَعمِهم وَوَهمِهم - فهم يعلمونَ أنَّ طلبَهم لن يُلَبَّى؛ لأنَّه قائمٌ على التَّعجيزِ، وليس طلبًا للهدايةِ إلى الحقِّ.

توجيهُ لفظِ ﴿ءَايَةٞ﴾:

الآيةُ الحسّيّةُ الخارقةُ الَّتي يريدون لونٌ منَ السّفهِ التّافهِ المفتونِ

الآيةُ: علامةُ الصِّدق، تؤيّدُ من أتَى بها، وتدفعُ مَنْ حولَه للإيمانِ بصدقِ صاحبِها واتِّباعِه، وقد أرادَ القومُ خارقًا للعادةِ على حَسَبِ اقتراحِهم مثلَ قولِهم: ﴿أَوۡ تَرۡقَىٰ فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [الإسراء: 93]، وقولِهم ﴿لَوۡلَآ أُوتِيَ مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ مُوسَىٰٓۚ﴾ [القَصص: 48]، وهذا من جَهلِهم بحقائقِ الأشياء، وتحكيمِهمُ الخيالَ والوهمَ فيها، فهم يفرِضونَ أنَّ الله تعالى أرادَ إظهارَ صدقِ رسولِه ﷺ، وأنَّه يَستفزُّهُ تكذيبُهم إيّاه، فيغضبُ ويُسرِعُ في مُجاراةِ عنادِهم ليكُفّوا عنه، فإنْ لم يفعلْ فقد أَفْحَموهُ وأعجَزوهُ وهو القادرُ، فتوهَّموا أنَّ مُدَّعِيَ الرِّسالةِ عنهُ غيرُ صادقٍ في دَعْواهُ، وجعلوا ذلك دليلًا على أنَّه غيرُ مُؤيَّدٍ منَ الله، فاستدلّوا بذلكَ على انتفاءِ أنْ يكونَ الله أرسلَهُ؛ لأنَّه لو أرسلَهُ لأيَّدَهُ بما يوجِبُ القَبولَ عندَ المُرسَلِ إليهم، وما درَوْا أنَّ الله قدَّرَ نِظامَ الأمورِ تقديرًا، ووضَعَ الحقائقَ وأسبابَها، وأَجْرى الحوادثَ على النِّظامِ الَّذي قدَّرَهُ، كلُّ ذلكَ يَجري على نُظُمٍ اقْتضَتْها الحِكمَةُ لا يَحمِلُهُ على تَبديلِها سُؤالُ سائلٍ ولا تَسفيهُ سَفيهٍ، وهو الحَكيمُ العَليمُ، ولكنَّ القومَ جعلوا إتْيانَ الرَّسولِ ﷺ بآيةٍ توافقُ مُقترحاتِهم

علَّةً لإيمانِهم بالرَّسولِ ﷺ أو عدمِ إيمانِهم به، فإنْ جاءَهُم بها آمنوا وإلّا فلا، فاستدلّوا بلفظِ ﴿ءَايَةٌ﴾ كما يريدونَ على انتفاءِ أن يكونَ اللّه أرسلَهُ، ذلكَ أنَّه لم يأتِهم بآيةٍ كما طلبوا، فلو أنَّ اللّه أرسلَه لأيَّدَهُ بما يوجبُ القَبولَ عند المُرسَلِ إليهم، وما درَوْا أنَّ اللّه تعالى إنَّما أرسلَ الرَّسولَ ﷺ رحمةً بهم، وطلبًا لصلاحِهم، وأنَّه لا يضرُّه عَدَمُ قَبولِهم رحمَتَهُ وهدايتَهُ[1].

سرُّ تنكيرِ لفظِ ﴿ءَايَةٌ﴾:

عبّرَ النّظمُ الجليلُ بصيغة التّنكيرِ في لفظِ ﴿ءَايَةٌ﴾ لما في التّنكير من دلالةٍ على التّكثيرِ والتّعظيمِ، وهي هنا تُفيدُ عمومَ الآياتِ الَّتي اقْترحوها مُتحدِّينَ فيها رسولَ اللّه ﷺ ، فإنْ أَتى ﷺ بآيةٍ من تلكَ الآياتِ الَّتي تمالأَ القومُ على طلبِها، كفَى ذلكَ سببًا لإيمانِهم بنبوَّتِه، ولكنَّ اللّه يعلمُ كِذبَهم وعنادَهم، ولو علمَ صدقَ نيَّتِهم لأَنْزلَ لهم آياتٍ كما أنزلَ على الأوَّلين، ولكنَّ طلباتِهم تعجيزًا ومماحكةً ومُماطلةً في عدمِ الاستجابةِ للّه تعالى ولرسولِه ﷺ .

لفظُ (آية) يفيدُ عمومَ ما طلبوه، وهو تحدٍّ غيرُ معقولٍ

العدولُ عن اسمِ الجلالةِ إلى لفظِ الرَّبِّ: ﴿رَّبِّهِۦ﴾:

عدل النّظم الجليل عن اسمِ الجلالةِ إلى لفظِ الرَّبِّ المضافِ إلى ضميرِ الرّسولِ ﷺ في قولِه تعالى: ﴿مِّن رَّبِّهِۦ﴾ إيماءً إلى الرُّبوبيَّةِ الخاصَّةِ بالتَّعلُّقِ بالرَّسولِ ﷺ ، وهي ربوبيَّةُ المُصطَفي (بصيغةِ اسمِ الفاعلِ) للمُصطَفَى (بصيغةِ المفعول) من بينِ بقيَّةِ الخَلْقِ المُقتضيةِ الغَضَبَ لغَضَبِه، لِتوهُّمِهم أنَّ غضبَ اللّه مِثْلُ غضبِ الخلائقِ يَستدعي الإسراعَ إلى الانتقامِ، وما عَلِموا أسرارَ الحكمةِ الإلهيَّةِ والحُكْمِ الإلهيِّ والعِلمِ الأَعلَى[2]، فأشاروا بذلك إلى أنّ المُحسِنَ إليك بالنّبوّةِ قادرٌ على أن يُحسِنَ إليك وإلينا بإنزالِ الآيةِ.

الإيماءُ إلى ربوبيَّةِ اللّه المُصطَفي، لرسولِه المُصطفَى الوفيّ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/130 - 131.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/131.

دلالةُ الفاءِ ﴿فَقُلْ﴾:

سؤالُ المعاندِ يتفرّعُ ويترتّبُ عليه إعطاءُ الجوابِ الكافي لأولئكَ المعاندين

لَمّا أمرَ اللّه رسولَه ﷺ بأنْ يُجيبَ عن اقتراحِهم بما هو الحقيقةُ المرشدةُ - وإنْ كانت أعلَى من مداركِهم - جوابًا فيه تعريضٌ بالتَّهديدِ لهم، وهو قولُه: ﴿فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ﴾، فجاءَ بفاءِ التَّفريعِ هنا دونَ بعضِ نظائرِه؛ للإشارةِ إلى تعقيبِ كلامِهم بالجوابِ، شأنَ المُتمكِّنِ من حالةِ المتثبِّتِ في أمرِه[1].

نكتةُ التَّعبيرِ بفعلِ المضارعِ ﴿وَيَقُولُونَ﴾:

أقوالُهم ومقترحاتُهم لا تنقطعُ بفعلِ الكِبْرِ والعنادِ

في قولِه: ﴿وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾، نجد الفعلَ المضارعَ ﴿وَيَقُولُونَ﴾ الّذي يُفيدُ التَّجدُّدَ والاستمرارَ؛ لبيانِ أنَّ هذا القولَ مُستمِرٌّ من جهتِهم، فهم لا يَعدَمونَ وسيلةَ المناكفَةِ والمُماحكةِ في اقتراحاتِهم المتكرِّرة الَّتي لا يبتغونَ من ورائها إلزامَهمُ الحُجَّةَ ليؤمنوا، ولكن يَعرِضونَ ما عندَهم من أساليبِ التَّسويفِ والمُماطلَةِ قضاءً للوقتِ واستنزافًا لِما يمكنُهم أنْ يصِلوا من خلالِه إلى مزيدٍ من التَّعنُّتِ والعنادِ.

دَلالةُ فعلِ الأمرِ ﴿فَقُلْ﴾:

تثبيتٌ للرّسولِ ﷺ، وتعريضٌ بالمعاندينَ لنهجه وهداه

قولُه تعالى لنبيِّه ﴿فَقُلْ﴾ أمرٌ ربّانيٌّ بأنْ يُجيبَهم عنِ اقتراحِهم - بالمجيءِ بآيةٍ من ربِّه - بما هو الحقيقةُ المُرشِدةُ لهم والمُسْكِتةُ لتخرُّصاتهم وأوهامِهم في مقترحاتِهم، وهي تحملُ في طيّاتِها أمرَين اثنَين: الأوَّلُ: بيانُ رعايةِ اللّه لرسولِه ﷺ وعنايتِه الخاصَّةِ به وبرسالتِه، مصحوبًا ذلك بتثبيتِه وتأييدِه في دعوتِه أمامَ أولئكَ المتكبِّرينَ المتعنِّتين. والثّاني: تَعريضٌ بالتَّهديدِ لهم والوعيدِ الشَّديدِ جرّاءَ مقترحاتِهم الَّتي يصدِّرونها تعجيزًا ومماطلةً واستنكافًا عن طريقِ الحقِّ والإيمانِ، وإيغالًا في طريقِ الباطلِ والضَّلالِ[2].

(1) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 10/5831.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/131.

دَلالةُ أسلوبِ القَصرِ: ﴿إِنَّمَا ٱلۡغَيۡبُ لِلَّهِ﴾:

الآيـاتُ غُـيوبٌ مختصَّةٌ بالله، ولا أحدَ يصرِّفُها سواه

جاءَ البيانُ الإلهيُّ بصيغةِ القَصرِ في قولِه تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلۡغَيۡبُ لِلَّهِ﴾؛ للرَّدِ عليهم في اعتقادِهم أنَّ في مُكْنَةِ الرَّسولِ الحقِّ، أنْ يأتيَ بما يسألُه قومُه منَ الخوارقِ، فَجَعلوا عدمَ وقوعِ مُقترحِهم علامةً على أنَّه ليس برسولٍ منَ اللّه، فلذلكَ ردَّ عليهم بصيغةِ القصرِ الدّالَّةِ على أنَّ الرَّسولَ ليس له تصرُّفٌ في إيقاعِ ما سألوهُ ليعلَموا أنَّهم يَرْمونَ بسؤالِهم إلى الجراءةِ على اللّه تعالى بالإفحام، وليرْعَووا عمّا هُم عليه من طلبِ الآياتِ الَّتي لم يقترحوا على الرَّسولِ إنزالَها إلّا تعجيزًا واستنكافًا عن قَبولِ وَحي اللّه بالقرآنِ الَّذي يُعدُّ أعظمَ معجزةٍ أوتيَها رسولٌ مُبلِّغٌ من عندِ اللّه[1].

والقصرُ هنا باعتبارِ حالِ المخاطَبِ قصرُ إفرادٍ لظنِّهم أنّ معرفةَ الغيبِ مُشتركةٌ بين كثيرين، فردَّ عليهم بنقضِ ذلك، وباعتبار الطّرفين هو قصرُ صفةٍ على موصوفٍ؛ حيث قَصَرَ صفةَ العلمِ بالغيبِ على اللّه تعالى، وهو قَصرٌ حقيقيٌّ باعتبارِ الحقيقةِ والواقعِ؛ حيث إنّ علمَ الغيبِ مُختَصٌّ باللّه تعالى حقيقةً وواقعًا.

دلالةُ التّعبيرِ بالجملةِ الاسميّةِ في: ﴿ٱلۡغَيۡبُ لِلَّهِ﴾:

عـلـمُ الـغـيـبِ ثابتٌ مؤكَّدٌ لله وحدَه دونَ غيرِه

الجملةُ الاسميَّةُ تدُلُّ على ثباتِ الأمرِ الَّذي وردَتْ بشأنِه وتوكيدِه، وهنا جاءَتِ الجملةُ الاسميَّةُ في قولِه تعالى: ﴿ٱلۡغَيۡبُ لِلَّهِ﴾؛ لبيانِ أنَّ الغيبَ ثابتٌ قائمٌ للّه وحدَه دونَ سواه، مُختَصٌّ بعلمِ اللّه المُطلَقِ، ليس ذلك لنبيٍّ مُرسَلٍ ولا لملَكٍ مُقرَّبٍ، ويؤيِّدُ هذا قولُه تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّمَا ٱلۡأٓيَٰتُ عِندَ ٱللَّهِۖ﴾، فكلُّ آياتِ اللّه تعالى، وما غابَ عن حواسِّ الإنسانِ ومداركِه وعلمِه في الدُّنيا والآخرةِ، إنَّما هو مُستقرٌّ معلومٌ للّه وحدَه ﷻ[2].

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/131.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/131.

دلالةُ مُتعلَّقِ الجارِّ والمجرورِ المحذوفِ في جملة الحصر: ﴿لِلَّهِ﴾:

الحذفُ بعدَ أداةِ الحصرِ أقوى في الدّلالة على الاختصاصِ

جاءَ الخبرُ في قولِه تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ﴾ محذوفًا، تقديره: إنَّما الغيبُ كائنٌ أو قائمٌ أو مُختصٌّ لله، وهذا الحذفُ للخبرِ أقوى في الدَّلالةِ على الاختصاص، وخاصَّةً بعد أداةِ الحَصرِ (إنَّما)، فكلُّ ذلكَ أفادَ حصرَ علمِ الغيبِ واستئثارِه بالله وحدَه دون سواه[1].

دَلالةُ اللّامِ في: ﴿لِلَّهِ﴾:

اختصاصُ علمِ الغيبِ بالله، فهو وحدَه الَّذي يملِكُه ويقدِرُ عليه

اللّامُ في قولِه تعالى: ﴿لِلَّهِ﴾ لامُ الملك، وهي تدُلُّ على مِلكيَّةِ الأمورِ المغيَّبةِ لله واختصاصِه ﷻ بها دونَ سواه، ومَنْ ملَكَ شيئًا قدَرَ عليه، فهي للاختصاصِ العلميِّ دونَ التّكوينيّ، فإنَّ الغيبَ والشَّهادةَ في ذلكَ الاختصاصِ سِيّانِ، والمعنَى: أنَّ ما اقترحتُموهُ وعَلِمتُم أنَّه من لوازمِ النُّبوَّةِ وعلَّقتُم إيمانَكم بنزولِه، هو منَ الغُيوبِ المُختَصَّةِ بالله تعالى لا وُقوفَ لي عليه[2].

عِلَّةُ ورودِ فعلِ الأمرِ في: ﴿فَٱنتَظِرُوٓاْ﴾:

تَذييلٌ على اختصاصِ علمِ الغيبِ بالله وحدَه

في قولِه تعالى: ﴿فَٱنتَظِرُوٓاْ﴾ أمرٌ بالانتظارِ موجَّهٌ للمشركين؛ أي: فانْتظِروا نزولَ ما اقترحتُموه، ومع ما حملَه هذا الأمرُ مِن تهكُّمٍ بهم وتسفيهٍ لاقتراحاتِهم، فإنَّه كذلكَ جعلَ ترتيبَ الأمرِ بالانتظارِ دليلًا على اختصاصِ علمِ الله بالغيبِ دونَ سواه[3].

دلالةُ التّعبيرِ بالجملةِ الاسميَّةِ المؤكَّدةِ بـ (إنّ) في: ﴿إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ﴾:

تأكيدُ وقوعِ عقابِ اجترائِهم على اللهِ باقتراحاتِهم الضّالّة

تأكيدُ الجملةِ الاسميَّةِ ﴿إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ﴾ المُصدَّرةِ بـ ﴿إِنِّي﴾ لإفادةِ التَّأكيدِ لما يفعلُ الله بكم لاجْترائِكم على مثلِ هذه العظيمةِ من جُحودِ الآياتِ، واقتراحِ غيرِها تكبُّرًا وعنادًا واستزادةً منَ الجحودِ والكفرِ، والصَّدِّ عن سبيلِ الله، ولقد جاءَ تحقُّقُ الوعيدِ

(1) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 2/230.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/647، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/131.
(3) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 2/231، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/647.

بهذا الانتظارِ في أوَّلِ غزوةٍ ومعركةٍ بين أهلِ الإيمانِ وأهلِ الكُفرِ، فانتصرَ جنودُ الحقِّ على جنودِ الباطلِ، وقُتِلَ رؤوسُ الكُفرِ والطُّغيانِ الَّذين كانوا يقترحونَ نزولَ الآياتِ كِبْرًا وعنادًا، وأُبيدَتْ مقترحاتُهم الزّائفةُ وضلالاتُهمُ الواهمةُ[1].

نكتةُ ردِّ العجُزِ على الصّدرِ: ﴿فَٱنتَظِرُوٓاْ﴾ ﴿ٱلۡمُنتَظِرِينَ﴾:

جاءَ قولُه تعالى: ﴿فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُنتَظِرِينَ﴾ بردِّ العَجُزِ ﴿ٱلۡمُنتَظِرِينَ﴾ على الصَّدرِ ﴿فَٱنتَظِرُوٓاْ﴾، وهو منَ المحسِّناتِ اللَّفظيَّةِ[2] الَّتي تمنحُ المعنَى قوَّةً وتأكيدًا لمضمونِ ما وردَتْ بشأنِه هنا منَ الأمرِ بانتظارِ عاقبةِ أولئكَ الجاحدينَ أصحابِ المقترحاتِ الضّالّةِ والأغراضِ الخبيثةِ، وسوءِ الأدبِ مع اللّه ورسولِه ﷺ، والأمرُ كلُّه بقدرةِ اللّه وعلمِه، حتَّى أنَّ رسولَ اللّه ﷺ ليسَ له من الأمرِ شيءٌ، فسيكونُ منَ المُنتظِرينَ لِما سيحلُّ بهم من عقابِ اللّه وعذابِه.

تأكيدُ حُصولِ المنتظَرِ المنصوصِ عليه في الآيةِ الكريمةِ

دلالةُ الفاءِ والجملةِ بعدَها: ﴿فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُنتَظِرِينَ﴾:

جملةُ: ﴿فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُنتَظِرِينَ﴾ صُدِّرَتْ بالفاءِ الَّتي تُفيدُ التَّفريعَ، فهذه الجملةُ تفريعٌ على جملة: ﴿إِنَّمَا ٱلۡغَيۡبُ لِلَّهِ﴾؛ أي: ليس دَأبي ودَأْبُكم إلّا انتظارَ ما يأتي به اللّه إن شاءَ، وهذا كقولِ نوحٍ عليه السلام لقومِه: ﴿إِنَّمَا يَأۡتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ ٣٣﴾ [هود: 33]، فأنا وإنْ كنتُ رسولَ اللّه، لكنَّني لا أملِكُ لنَفسي نفعًا ولا ضَرًّا، ولا حولَ ولا قوَّةَ لي إلّا باللّه[3].

الرَّسولُ ﷺ وقومُه كلاهما مُنتظِرٌ ما سوف تقضي به المشيئةُ

سرُّ التّعبيرِ باسمِ الفاعلِ في ﴿ٱلۡمُنتَظِرِينَ﴾:

التّعبيرُ باسم الفاعل في قولِه تعالى: ﴿ٱلۡمُنتَظِرِينَ﴾ فيه تعريضٌ

تهديدُ المشركينَ بعاقبةِ عنادِهم

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/647.

(2) تقدّمَ أنّ ردَّ العجُزِ على الصَّدرِ من فنون البديعِ، وسبقَ بيانُ أقسامِهِ، وذلك في قولِه تعالى: ﴿فَٱخۡتَلَفُواْۚ وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيۡنَهُمۡ فِيمَا فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ١٩﴾ [يونس: 19]. يُنظر: ابن المعتزّ، البديع، ص: 47.

(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/131.

بالتَّهديدِ والوعيدِ لأولئكَ المقترحينَ المعاندينَ، أنَّ ما يأتي به اللّه لا يترقَّبونَ منه إلّا شرًّا لهم جزاءً وِفاقًا على كبرِهم وعنادِهم وتكذيبِهم للحقِّ مع ظُهورِ دلائِلِهِ وآياتِهِ، كقولِه تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ مَلَكٞۖ وَلَوۡ أَنزَلۡنَا مَلَكٗا لَّقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ٨﴾ [الأنعام: 8]، فدلَّ التّعبيرُ باسم الفاعل على ثباتِهِ وشدّةِ ثقتِهِ بربِّهِ ﷻ، فهو ثابتٌ على الانتظار لا يزولُ حتّى يتحقّقَ الوعيدُ، وهذا يدلُّ على شدّةِ التّهديدِ.

دَلالةُ المعيَّة في: ﴿إِنِّي مَعَكُم﴾:

المعيَّةُ في قولِه تعالى: ﴿إِنِّي مَعَكُم﴾ مَعيَّةٌ مجازيَّةٌ لا حقيقيَّةٌ، وذلكَ أنَّ رسولَ اللّه ﷺ ليس معهم فيما هُم فيه، وما هُم عليه منَ المقترحاتِ الَّتي تدلُّ على مزيدِ الكِبرِ والجحودِ للحقِّ، ولذلكَ فهي معيَّةٌ مجازيَّة مُستعمَلةٌ هنا في الإشراكِ في مُطلَقِ الانتظارِ[1].

المعيَّة مَجازيَّةٌ لـلاشـتراكِ في مُطلَقِ الانتظارِ

تشابهٌ لفظيٌّ بين آيتي سورة يونس، وسورة الرّعد:

التَّشابهُ بين قولِه تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦۖ فَقُلۡ إِنَّمَا ٱلۡغَيۡبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُنتَظِرِينَ﴾، وقولِه تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦۚ قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَنۡ أَنَابَ ٢٧﴾ [الرَّعد: 27].

كلتاهما تبيّنُ رجاءَ الكافرين أن ينزلَ على الرّسولِ آية من ربّه، مع اختلافٍ في فحوى جوابِ كلٍّ منهما

في سورة يونس: ﴿وَيَقُولُونَ﴾ والسِّياقُ يدلُّ على أنَّ المرادَ الكافرون، وهنا في سورة الرَّعد: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ صرّح بهم، وفي كلتا السّورتين جاءَ بيانُ مُقترحِهم، وهو إنزالُ ﴿ءَايَةٞ﴾، ففي الرَّعد المرادُ: آيةٌ ممّا اقْترحوا، نحوُ ما في قولِه: ﴿لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفۡجُرَ لَنَا مِنَ ٱلۡأَرۡضِ يَنۢبُوعًا ٩٠﴾ [الإسراء: 90]، وقولِه: ﴿لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَوۡ نَرَىٰ رَبَّنَاۗ﴾ [الفرقان: 21].

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/132.

وفي يونس: آيةٌ ما؛ لأنَّهم لم يهتدوا إلى أنَّ القرآنَ آيةٌ فوقَ كلِّ آيةٍ، وأنكروا سائرَ آياتِه ﷺ، وفي يونس جاءَ فعلُ الأمرِ ﴿قُلْ﴾ مُصدَّرًا بالفاءِ ﴿فَقُلْ﴾ الواقعةِ في جواب ﴿لَوْلَآ﴾، وهي فاءُ التَّفريعِ؛ لأنَّ ما بعدَها بيانُ حقيقةٍ تُسكِتُ الكافرينَ وتهدِّدُهم لعنادِهم، وهو قولُه: ﴿إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓاْ﴾، وليس الأمرُ كذلكَ في سورةِ الرَّعد[1].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(أُنْزِلَ عَلَيْه) و(أُنْزِلَ إِلَيْه):

(عليه) تُفيدُ الاستعلاءَ والقوَّةَ والشِّدَّةَ، و (إليه) تُفيدُ الوصولَ مع القُربِ والمباشرةِ

تأتي (على) في الغالبِ في العقوبات، كما في قولِه تعالى: ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ۝٤١﴾ [الذّاريات: 41]، وفيها معنَى الاستعلاء، ولذلك كانَ فيها معنَى الشِّدَّةِ والقوَّةِ، أمّا (إلى) فليستْ كذلك، وإنَّما تُفيدُ منتهَى الغايةِ فقط.

وهناك كذلك فرقٌ بين (إليه) و (عليه)، قالَ تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ۝٨﴾ [الأنعام: 8]، فيوجدُ هنا في السِّياقِ تهديدٌ ووعيدٌ، وفي قولِه تعالى: ﴿وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي ٱلْأَسْوَاقِ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ۝٧﴾ [الفرقان: 7] لا يوجَدُ في هذا السِّياق تهديدٌ، وكذلك فإنَّ (على) فيها معنَى نوعٍ منَ الاستعلاءِ، كما في قولِه تعالى: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِي زِينَتِهِۦۖ﴾ [القَصص: 79]، و(إلى) فيها معنَى القُربِ والمباشرةِ، كما يُقالُ: أُرسِلَ إليه أو أُرسِلَ إلينا، كأنَّه قريبٌ منّا ومباشِرٌ لنا، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا﴾ [البقرة: 136].

فجاءَ التّعبيرُ في الآية بلفظِ ﴿أُنزِلَ عَلَيْهِ﴾؛ للدّلالة على أن تكون تلك الآيةُ مُتمكّنةً مُستعليةً، والاستعلاءُ هنا يُفهِمُ أنّها بحيث ليسَت من فعلِ البشرِ.

(1) الكرمانيّ، البرهان في توجيه متشابه القرآن، ص: 151.

الآية والبيِّنة:

الآيةُ: هي العلامةُ الثّابتةُ من قولكَ: تأيَّيْتُ بالمكانِ إذا تَحبّسْتُ به، وتَثبَّتُّ[1]. والبَيِّنةُ: من بانَ واسْتبانَ وتبيَّنَ، وقد بيَّنتُه، قالَ اللّه سُبحانه: ﴿وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمۡۖ﴾ [العنكبوت: 38]. والبيِّنةُ: الدَّلالةُ الواضحةُ عقليَّةً كانَتْ أو محسوسةً، قالَ تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ [هود: 17][2]، فعبّرَ في الآية بلفظِ ﴿ءَايَةٗ﴾؛ لأنّهم أرادوا آيةً ثابتةً برهانًا على صدقِهِ، ولم يطلبوا مزيدًا منَ البيانِ والإيضاحِ، فكلُّ شيءٍ بَيّنٌ لهم وواضحٌ، ولكنّهم طلبوا ذلك للتّعجيزِ بحسب ظنِّهم.

الآيةُ علامةٌ ظاهرةٌ ثابتةٌ، والبيِّنةُ دلالةٌ واضحةٌ، عقليَّةً كانت أو محسوسةً

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 368، والرّاغب، المفردات: (أي)، وابن منظور، لسان العرب: (أيا).
(2) الرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (بين).

﴿وَإِذَآ أَذَقۡنَا ٱلنَّاسَ رَحۡمَةٗ مِّنۢ بَعۡدِ ضَرَّآءَ مَسَّتۡهُمۡ إِذَا لَهُم مَّكۡرٞ فِيٓ ءَايَاتِنَاۚ قُلِ ٱللَّهُ أَسۡرَعُ مَكۡرًاۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكۡتُبُونَ مَا تَمۡكُرُونَ ٢١﴾ [يونس: 21]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

في مناسبةِ هذه الآيةِ لما قبْلَها وجهان:

عادةُ المشركين المكرُ والجحودُ والعِنادُ وعدمُ الإنصافِ وكفرانُ الإحسانِ

الأول: بعد أنْ ردّ اللّه تعالى على المشركين الطّالبين إنزالَ آية كونيّةٍ غيرِ القرآن بأنّ هذا منَ الغيبِ المستأْثَرِ به بقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦۖ فَقُلۡ إِنَّمَا ٱلۡغَيۡبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُنتَظِرِينَ ٢٠﴾ [يونس: 20]، ذكرَ جوابًا آخرَ، وهو أنّ أولئك المشركين لا يَقنَعون بالآيات إذا رأوْها بأعينِهم؛ لأنّ عادتَهم المكرُ والجُحودُ والعِنادُ وعدمُ الإنصاف، فكثيرًا ما رأَوْا الآياتِ الدّالّةَ على وَحدانيّة اللّه ثمّ يَمكرون فيها، فهم إن أصابتْهمُ الشّدّةُ تضرّعوا، وإن جاءتهمُ الرّحمةُ بطِروا وكفروا، فقال: ﴿وَإِذَآ أَذَقۡنَا ٱلنَّاسَ رَحۡمَةٗ مِّنۢ بَعۡدِ ضَرَّآءَ مَسَّتۡهُمۡ﴾.

الثاني: لمّا كان طلبُ الكفّار الواردُ في قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦۖ﴾ [يونس: 20] مُحرِّكًا لنفوس الخيّرين إلى ترجّي إجابةِ سؤالهم، أتبعَه سبحانه بما يُبيّنُ أنّ ذلك غيرُ نافعٍ لهم؛ لأنّ طلبَهم محضُ تعنّتٍ مبيِّنًا أنّ رحمته محقّقةُ الوجود كثيرةُ الورودِ إليهم، وأنّ لهم آيةً عُظمى من أنفُسِهم لا يحتاجون معها إلى التّعنُّتِ بطلبِ آيةٍ؛ وهي دالّةٌ على نتيجةِ مقصودِ السّورة الذي هو الوَحدانيةُ وأنّ إشراكَهم هو كفرانٌ للإحسان، فقال: ﴿وَإِذَآ أَذَقۡنَا ٱلنَّاسَ رَحۡمَةٗ مِّنۢ بَعۡدِ ضَرَّآءَ مَسَّتۡهُمۡ إِذَا لَهُم مَّكۡرٞ فِيٓ ءَايَاتِنَاۚ﴾[1].

(1) البقاعي، نظم الدرر: 9/95.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَذَقْنَا﴾: الذّال والواو والقاف أصلٌ واحدٌ، وهو اختبارُ الشّيءِ من جهة الطّعمِ، وأمرٌ مُستذاقٌ: أي مجرّبٌ معلومٌ[1]، والذّوقُ هو وجودُ الطّعم بالفم، وأصلهُ فيما يقلُّ تناوُلُه دون ما يَكثرُ منهُ[2]، والذّوقُ يكون فيما يُكره ويُحمدُ، ومعظمُ ما جاء في القرآن الكريم من تركيب (ذوق) مجازيٌّ؛ ذوقُ عذابٍ، أو ذوقُ نعمةٍ ورحمةٍ[3]. وأَذَقْنا: أصبْنا، وهو هنا مجازٌ في إدراكٍ معنويٍّ، وهو الرّحمةُ والنّعمةُ التي أصابتْهم بعد الضّرّاء[4].

2) ﴿ضَرَّآءَ﴾: الضّرّ: خلافُ النّفعِ، يقال: ضرّه ضرًّا: ألحقَ به أذًى أو مكروهًا[5]، والضُّرّ والضّرَرُ: سوءُ الحال إمّا في النّفس؛ لقلّةِ العلم والفضل والعفّةِ، وإمّا في البدن؛ لفُقدانِ جارحةٍ ونقصٍ، وإمّا في حالةٍ ظاهرةٍ من قلّةِ مالٍ وجاهٍ[6]، والضّرّاء: النّقصُ في الأموالِ والأنفسِ، والسَّنَةُ (أي الجدْبُ والقحْطُ) وغيرها، وكلُّ ما يقابل السّرّاء بالنَّعماء[7].

والضّرّاء هنا موافقةٌ لمعناها اللّغويّ، وتعني: الشّدّةَ والبلاءَ والقحْط، والجوعَ والفقر والمرضَ، والخوفَ وغيرَها[8].

3) ﴿مَسَّتْهُمْ﴾: الميم والسّين أصلٌ واحدٌ يدلّ على جَسِّ الشّيء باليد[9]، والمسّ: مباشرةُ الجسم، والمسُّ يُقال فيما يكون منه إدراكٌ بحاسّةِ اللّمسِ، فالمسُّ كاللّمسِ، لكنّ اللّمسَ قد يُقال لطلبِ الشّيء وإن لم يوجَد، والمسّ يُقال في كلّ ما ينالُ الإنسانَ من شرٍّ[10]، وحقيقةُ المسّ: وضعُ اليد على شيءٍ ليُعرف وجودُه أو يُختبرَ حالُه، ثم يُسمّى كلُّ ما يصلُ إلى الشّيء ماسًّا على سبيل التّشبيه، فيقال: فلانٌ مسّهُ التّعبُ والنّصَبُ، وقدِ استُعمل المسُّ في أكثرِ ما ورد في القرآن الكريم بمعنى الإصابة بمكروه، وإيقاعِ الضّرّ ونحوِه، ويُكنّى أيضًا بالمسّ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (ذوق).
(2) الراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (ذوق).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (ذوق).
(4) السمرقندي، بحر العلوم: 2/109، والحجازي، التفسير الواضح: 2/51.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ضر).
(6) الراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (ضرر).
(7) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (ضرر).
(8) النسفي، مدارك التنزيل: 2/13، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 3/109، وأبو حيان، البحر المحيط: 5/140.
(9) ابن فارس، مقاييس اللغة: (مس).
(10) الراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (مس).

عنِ الجماع، وعنِ الجنون[1]. ومسَّتْهم: أصابَتْهم وخالطَتْهم حتى أحسّوا بسوءِ أثرِها فيهم[2].

4) ﴿مَّكْرٌ﴾: الميم والكاف والراء كلمتان متباينتان: إحداهما المكرُ: الاحتيالُ والخِداع، والأخرى المكرُ: خَدالةُ السّاق[3]، ومادّة الكلمةِ فيها معنى الاختزانِ الرّقيق، أوِ اللّطيفِ الذي لا يَبرزُ مُتميِّزًا، فالمكرُ: هو تدبيرٌ (يُخْفَى ويُخْتَزَن) لأَحْداثٍ أو أُمور لتقعَ في المستقبل على نحوٍ ما، والمكرُ احتيالٌ في خُفيةٍ[4]، وعرّفه الراغب بأنّه: "صرفُ الغَير عمّا يقصِده بحيلةٍ، وذلك ضربان: مكرٌ محمودٌ؛ وذلك أنْ يتحرَّى بذلك فعْلَ جميلٍ، وعلى ذلك قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ ۝٥٤﴾ [آل عمران: 54]، ومكرٌ مذمومٌ؛ وهو أن يتحرَّى به فعْلَ قبيحٍ، قال تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلۡمَكۡرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهۡلِهِۦۚ﴾ [فاطر: 43]"[5].

والمكر هنا: يشملُ الكفرَ والجُحودَ والنّفاقَ والاستهزاءَ والتّكذيبَ[6].

المَعْنى الإجْماليُّ:

سـوءُ طـبْـعِ الكفّارِ يجعلُهم يُسرعون بالمكْرِ في مقامِ الشُّكرِ

يبيّن الله تعالى تنكُّرَ المشركين للأدلّةِ العقليّةِ والحسّيّةِ والقواعدِ الخُلُقيّةِ التي تقتضي شُكرَ النّعمةِ الإلهيّةِ، فإذا أذاقهمُ الله رحمةً من بعد ضرّاءَ مسّتْهم، كالرّخاء بعد الشّدّة، والخصْبِ بعد الجدْبِ، والمطرِ بعد القحْطِ، إذا هم يُسرعون بالمكر في مقام الشّكر استهزاءً بآيات الله، وتكذيبًا، وتنكُّرًا، فيردُّ الله عليهم على لسان رسوله بأنّه أسرعُ استدراجًا وجزاءً لهم على مكائدِهم قبْلَ أن يُدبّروها؛ لأنّه لا يخفَى عليه شيءٌ من مكرِهم، فله حَفظةٌ منَ الملائكة يَكتبون جميعَ ما يَمكرُه الكفّارُ، ويَعرضونه على عالِم الغيب والشّهادةِ.

(1) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (مس).
(2) البغوي، معالم التنزيل: 4/127، وأبو حيان، البحر المحيط: 5/140.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (مكر).
(4) ابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (مكر).
(5) الراغب، المفردات: (مكر).
(6) الماوردي، النكت والعيون: 2/430، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/258.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

معنى الواو في: ﴿وَإِذَآ﴾:

في العطفِ زيادةُ بيانٍ لتعنُّتِهم، وفي الاستئنافِ تقريرٌ لهذا التّعنُّت

الواو في قوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَذَقۡنَا ٱلنَّاسَ رَحۡمَةٗ﴾ تحتمل وجهين:

أحدهما: أن تكون عاطفةً، والمعطوفُ عليه هو قولُه تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦۖ فَقُلۡ إِنَّمَا ٱلۡغَيۡبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُنتَظِرِينَ ٢٠﴾ [يونس: 20]، وفائدة العطف: زيادةُ بيانٍ بذكرِ جوابٍ آخرَ على طلبِهم المعجزاتِ؛ بأنّ رحمته سبحانه محقّقةُ الوجود كثيرةُ الورود إليهم، وأنّ لهم آيةً عُظمى من أنفُسِهم لا يحتاجون معها إلى التّعنّتِ بطلَبِ آية[1].

الآخرُ: أن تكون الواو استئنافيّةً و(إذا) ظرفٌ لمّا يُستقبلُ منَ الزّمان خافضٌ لشرطِه منصوبٌ بجوابه، وفائدتُه: تقريرُ المعنى السّابقِ؛ وهو تعنّتُهم بجملةٍ شرطيّةٍ تستحضرُ نَموذجًا لحالة تعنّتٍ حصلَ فيما مضى منزلةَ الواقعِ المشاهَدِ في الحال.

معنى ﴿وَإِذَآ﴾ ودلالةُ دخولها في: ﴿وَإِذَآ أَذَقۡنَا ٱلنَّاسَ رَحۡمَةٗ﴾:

(إذا) لِتحقُّقِ الوقوعِ، فمكرُ الكافرين وانقلابُهم على الفطرةِ أمرٌ مقطوعٌ بوُقوعِه

استعمل القرآنُ ﴿وَإِذَآ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَذَقۡنَا ٱلنَّاسَ رَحۡمَةٗ﴾ دونَ (إن) كما في قوله تعالى: ﴿وَلَئِنۡ أَذَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِنَّا رَحۡمَةٗ﴾ [هود: 9]؛ لأنّ من شرطِ (إذا) أن يكونَ التّعليقُ بها على أمرٍ معلومٍ مقطوعٍ بوقوعِه، أو كثيرِ الوقوع، بخلاف (إنْ) فإنّها لا يكونُ التّعليقُ بها إلّا في مُبهمٍ مشكوكٍ فيه[2]، أي لِما هو أقلُّ عمومِ الشّرط، أو لِما هو نادرٌ، أو لِما ليس له وجودٌ أصلًا، وقد يكون آكدَ، وقد يكونُ مستحيلًا، وقد يكونُ قليلًا.

والحديثُ هنا عن طِباع الكفّار وعادتِهم في الانقلاب على الفِطرة، والمسارعةِ في المكرِ، ولذا ناسبَ استخدامَ (إذا) دون (إنْ) للإشارةِ إلى ذلك.

(1) البقاعي، نظم الدرر: 9/95.

(2) ابن نور الدين، مصابيح المغاني في حروف المعاني، ص: 84، وأبو حيان، البحر المحيط: 5/309.

أو أنْ يكون سرُّ الاستعمال في قوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَذَقۡنَا ٱلنَّاسَ رَحۡمَةً﴾ هو كونُ رحمةِ الله محقّقةً تصيبُ عمومَ الناس، أمّا في قوله تعالى: ﴿وَلَئِنۡ أَذَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِنَّا رَحۡمَةً﴾ [هود: 9] فالحديث عن واحدٍ، وقوله: ﴿ثُمَّ نَزَعۡنَٰهَا مِنۡهُ﴾ [هود: 9] هي حالة أقلُّ من الأولى، وهي حالةُ تربيةٍ[1].

دَلالةُ الجملةِ الشّرطيّةِ وفائدتُها في: ﴿وَإِذَآ أَذَقۡنَا ٱلنَّاسَ رَحۡمَةً﴾:

المشهورُ أنَّ الشّرطَ والجزاءَ لا يتعلّقان إلّا بالمستقبل، فإنْ كان ماضيَ اللّفظ كان مستقبلَ المعنى[2]، ولكنْ جيء بعده في نظم الكلام بالحرف الدّالِّ على المفاجأةِ، التي من حقِّها أن تكونَ حاصلةً زمنَ الحال لا الاستقبالِ، وبالتّالي تكونُ فائدةُ دلالةِ الجملةِ الشّرطيّةِ التي دخلت عليها (إذا) الفُجائيّة في قوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَذَقۡنَا ٱلنَّاسَ رَحۡمَةً مِّنۢ بَعۡدِ ضَرَّآءَ مَسَّتۡهُمۡ إِذَا لَهُم مَّكۡرٞ فِيٓ ءَايَاتِنَاۚ﴾ استحضارَ حالةِ فعلٍ حصلَ فيما مضى ﴿أَذَقۡنَا﴾ منزلةَ الواقعِ المشاهَدِ في الحال[3].

اسْتِحضارُ حالةِ فعلٍ حَصلَ فيما مضى منزلةَ الواقعِ المشاهَدِ في الحال

بَلاغةُ الاسْتعارةِ في التّعبيرِ بالإذاقةِ في: ﴿وَإِذَآ أَذَقۡنَا﴾:

الإذاقةُ في الأصل تَناوُلُ الشّيء القليلِ بالفم لإدراك الطّعامِ واختبارِه، ثم استُعيرت للإحساسِ بالرّحمة، حيث شُبِّه ذلك الإحساسُ بذوقِ الطَّعم بجامعِ سُرعةِ اتّصالِ الإحساسِ بالإدراك، وسُرعةِ زوالِه كما تزولُ الطُّعومُ[4]، فالمشَبَّهُ هو إصابةُ المشركين بالرّحمة، والمشبَّهُ به هو الإذاقةُ بالفمِ، ووجهُ الشَّبه هو سرعةُ الإحساس بالشّيء القليلِ واختبارِه، والاستعارةُ تصريحيةٌ لحذفِه المشبّهَ، والتّصريحِ بالمشبَّهِ به.

رحمةُ الله تعالى لا تُـذاقُ بالفمِ وإنّما تُحَسُّ

(1) السامرائي، لمسات بيانية: 5/339.
(2) إبراهيم الشمسان، الجملة الشرطية عند النحاة العرب، ص: 150.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/34.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/133.

وفي هذه الاستعارةِ إشارةٌ إلى إسراعِهم بالمكرِ؛ أي من بدايةِ مُخالطتِهم للنّعمةِ كفروا بصاحبِها سبحانه، إذِ الذّوقُ هو أوّلُ المخالطةِ[1]، وتنبيهٌ على أنّ الإنسانَ بأدنى ما يُعطَى منَ النّعمةِ يَأشَرُ ويَبطَرُ، كما قال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ ۝٧﴾ [العلق: 6 - 7][2]، ودلالةٌ على أنّهم تَمتّعوا بعد الحِرمانِ[3].

نُكتةُ الإضافةِ: ﴿أَذَقۡنَا﴾:

أسندَ الفعلَ إليه سبحانهُ في مقام العظَمةِ إشارةً إلى سَعةِ جودِه؛ فرحمتهُ وسعتْ كلَّ شيءٍ، وإشارةً إلى عدمِ القُدرة على مخالفتِه، أي: أذقنا بعظَمتِنا التي لا يمكنُ مُخالفتُها[4].

تعظيمُ ما عظَّمَ اللهُ، وإسنادُ الرّحمةِ إليه والضّرّاءِ إلى غيرِه من كمالِ الأدبِ معه

كما أنّ في إسناد إذاقتِه الرّحمةَ إلى ضمير الجلالةِ، بخلاف المساسِ الذي أسنده إلى الضرّاء، ﴿ضَرَّآءَ مَسَّتۡهُمۡ﴾؛ رعايةً للأدبِ مع اللّه تعالى؛ لأنّه وإنْ كان كلُّ شيءٍ من عنده تعالى إلّا أنّ الأدبَ معه سبحانه يقتضي إسنادَ الخيرِ إليه، والشّرِّ إلى غيرِه كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَرِضۡتُ فَهُوَ يَشۡفِينِ ۝٨٠﴾ [الشعراء: 80][5]، وفي الحديث: «والخيرُ كلّه في يديك، والشرُّ ليس إليك»[6].

معنى (أل) في: ﴿ٱلنَّاسَ﴾:

المرادُ بـ﴿ٱلنَّاسَ﴾ النّاسُ المعهودون (المشركون) المتحَدَّثُ عنهم بقرينةِ السّياقِ على الوجهَيْن المتقدّمَيْن في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلۡإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ﴾[7]، وقيل: إنّ لفظَ النّاس عامٌّ لجميع الكفّارِ[8].

استحضارُ المعهودِ الذِّكريّ؛ وهمُ المشركون أو جميعُ الكفّارِ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 9/96.
(2) الراغب، المفردات: (ذوق).
(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 7/3542.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 5/4.
(5) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/133، وسيد طنطاوي، التفسير الوسيط: 7/48.
(6) مسلم، صحيح مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه، ص: 201.
(7) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/132.
(8) الآلوسي، روح المعاني: 6/89.

وحتى على القولِ بأنّ المرادَ همُ المشركون فإنّ هذا لا يمنعُ من أنْ يكونَ التّهديدُ عامًّا يشملُ كلَّ من جَحد نِعمَ اللّه سواء أكان الجحودُ منَ المؤمن أم منَ الكافر، قبل الضرّاء أم بعدها.

نُكتةُ تنكيرِ ﴿رَحْمَةً﴾ و﴿ضَرَّآءَ﴾:

رحمةٌ عظيمةٌ بعد ضرّاءَ عظيمةٍ تَستوجبُ دوامَ الشُّكرِ لا المكْرَ

أتى البيانُ القرآنيُّ بلفظِ (الرّحمة) و(الضّرّاء) في قوله تعالى: ﴿رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ﴾ بصيغةِ النّكرةِ؛ لإفادة التّفخيم، أي: أكرمَهمُ اللّه رغْمَ عدمِ استحقاقِهم لرحمةٍ عظيمة لا يُحدُّ حَدُّها، ولا يُقدّرُ قدرُها، وخاصَّة أنَّها أُضيفت إلى ضمير الجلالةِ، وكان ذلك بعد ضرّاءَ عظيمةٍ نزلت بهم، وظهرت آثارُ ضُرّها عليهم.

وفي هذا التّنكير للّفظتَين الذي أفاد التّفخيمَ بيانٌ لشدّةِ جهلِهم وحُمقِهم؛ إذ إنّ عِظمَ الرّحمةِ التي حلّت بهم بعد ضرّاءَ عظيمةٍ يَستوجبُ دوامَ الشّكرِ لا السّرعةَ في المكرِ والكفرِ.

سِرُّ التّعبيرِ بـ ﴿رَحْمَةً﴾:

الكفرُ بالرّحمةِ الإلهيّةِ رغْمَ عدمِ استحقاقِهم لها دَلالةٌ على فرْطِ قُبحِهم

التّعبيرُ بالرّحمة في موضعِ السَّراء؛ للإشارةِ إلى أنّها منَ الرّحمةِ الإلهيّةِ من غير أن يَستوجِبوا ذلك، أي "نعمةٌ رحمناهُم بها من غيرِ استحقاقٍ"[1]، فكان منَ الواجبِ عليهم أنْ يقوموا بحقّ اللّه، ويَخضَعوا لما تَدعو إليه الآيةُ، وهو توحيدُ ربّهم وشُكرُ نعمتِه.

معنى ﴿مِّنۢ﴾:

دلالةُ (مِنْ) على الابتداء بيانٌ لإسراعِ الكافرين بالمكْرِ

حرفُ الجرّ (من) للابتداء، وغرَضُ القرآن من استعمالِه أنْ يَشتركَ مع التّعبير بالإذاقةِ، ومع (إذا) الفُجائيّةِ في الدّلالةِ على إسراعِ الكافرين بالمكْرِ؛ فمن بدايةِ مخالطتِهم للرّحمةِ يَفجأون بالمكرِ، أي يوقعونه على جهة الفجأةِ والسّرعةِ، أي: وجودُ النّعمةِ لا يَستغرقُ الزّمانَ الذي يتعقّبُ النّقمةَ[2].

(1) البقاعي، نظم الدرر: 9/96.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 9/96.

بَلاغةُ الاستعارةِ في التّعبيرِ بالمسّ في: ﴿مَسَّتْهُمْ﴾:

بيانُ الاستعارةِ تشبيهُ مُقاساةِ الشّدّةِ بالمسِّ الذي يَشعرُ به الإنسانُ وبسببِه يتألَّمُ

الاستعارةُ في قوله تعالى: ﴿مَسَّتْهُمْ﴾ هي استعارةُ محسوسٍ لمعقولٍ بوجْهٍ عقليٍّ؛ استُعير المسُّ وهو حقيقةٌ في الأجسام وهو محسوسٌ؛ لمقاساةِ الشّدّةِ، وهو معقولٌ، وهي استعارةٌ تصريحيَّةٌ ذُكرَ في تركيبها (المشبَّهُ به) الذي هو المستعارُ منه - وهو المسُّ - صريحًا، وحُذف (المشبَّهُ) الذي هو المستعارُ له - وهو مقاساةُ الشّدّة - ويتمثّلُ جمالُ هذه الاستعارةِ في الصّورة التي تُحدثُها في المُخَيّلةِ؛ إذ إنّها عبّرت عن مقاساة الشّدّة بسببِ الضّرّاء؛ وهو إحساسٌ نفسيٌّ غيرُ محسوسٍ بصورةِ محسوسٍ يَشعرُ به الإنسانُ ويتألّمُ بسببه، وهو المسُّ الذي هو التصاقٌ على وجهِ الإحساس، ولذلك فسّر المفسّرون ﴿مَسَّتْهُمْ﴾ بأنّها أصابتْهُم وخالطتْهُم حتى أحَسّوا بسوءِ أثرِها فيهم[1]، واعتبروه قيدًا جيء به للمُبالَغَة في بيان كمالِ خُبثهم وشدّةِ شكيمتِهم[2]، أي رغْمَ هذا الذي أحَسّوه سارعوا في الكفرِ والمكرِ.

نُكتةُ دخولِ ﴿إِذَا﴾ على جوابِ الشّرطِ:

جُحودٌ قدِ استَبْطَنوه سَترتْهُ الشّدّةُ وسُرعانَ ما كشفتْهُ الرّحمةُ

﴿إِذَا﴾ في قوله تعالى: ﴿إِذَا لَهُم مَّكْرٌ﴾ أعطت فائدتَيْن:

الأولى: سرعةُ المكرِ في مقام الحمدِ والشّكرِ؛ أي "في الحالِ أقدَموا على المكرِ وسارَعوا إليه"[3]، وذلك كونُ (إذا) للمفاجأةِ، ومن معانيها أنّها حاليّةٌ، وتأتي جوابًا للشّرطِ بمنزلةِ الجوابِ بالفاء والفعلِ، أي لأنّ حرفَ المفاجأة يدلُّ على البدارِ والإسراعِ بمضمونِ الجملةِ، فيُفيدُ مُفادَ فاء التّعقيبِ التي يُؤتَى بها لربط جوابِ الشّرط بشرْطِه، فإذا جاء حرفُ المفاجأة أغنَى عنها[4]، والمعنى:

(1) البغوي، معالم التنزيل: 4/127، وأبو حيان، البحر المحيط: 5/140.
(2) القونوي وابن التمجيد، حاشية على تفسير البيضاويّ: 9/425.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 17/232.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/132.

أنّهم فاجؤوا المكر، أي: أوقعوه على جهة الفُجاءةِ والسّرعةِ، قال الزّمخشريُّ: "فإنْ قلتَ: ما وصفَهُم بسرعةِ المكرِ، فكيف صحّ قوله: ﴿أَسْرَعُ مَكْرًا﴾؟ قلتُ: بلى، دلّت على ذلك كلمةُ المفاجأةِ"[1].

الثّانية: جماليّةُ المجانسةِ؛ فقد تشابه اللّفظان (إذا) الشّرطيّةُ و(إذا) الفُجائيّةُ، وهو جناسٌ تامٌّ من نوعين؛ إذِ اتّفقتِ اللّفظتان في أنواع الحروف وأعدادِها، وهيئاتِها، لكنّهما من نوعين، فـ(إذا) الأولى شرطيّةٌ وهي اسمٌ، والثّانية فُجائيّةٌ وهي حرفٌ[2]، وتتجلّى فائدةُ هذه المجانسةُ في الميلِ إلى الإصغاءِ، والتّشوُّفِ إلى المعنى الذي يحملُه الكلامُ، فاللّفظُ المشتركُ إذا حُملَ على معنًى ثم جاء والمرادُ به معنًى آخرُ كان للنّفس تشوّفٌ إليه[3]، والمعنى هو أنّهم في بَأْسائهم كان ينخفضُ وراءَ خضوعِهم الظّاهرِ جحودٌ قد استبْطنوه، سترتْهُ الشّدّةُ وكشفتْهُ الرّحمةُ، فظهر مكنونُ نفوسِهم، وهو مكرُهم في آياتنا[4].

معنى اللّام في: ﴿لَهُم﴾:

(اللّام) في قوله تعالى: ﴿لَهُم مَّكْرٌ﴾ حرفُ الجرّ متعلّقٌ بخبرٍ محذوفٍ تقديرُه: (مستقرٌّ)، وهي لام التّبْيين، وقد بيّنت هنا أنّ مكرَهم مُستقرٌّ في آيات اللّه.

لا يَنْفكُّ المشركون عنِ المكْرِ في آياتِ الله

فائدةُ تقديمِ شبْهِ الجملةِ ﴿لَهُم﴾:

قدّم البيانُ الإلهيُّ المسندَ ﴿لَهُم﴾ على المسنَدِ إليه ﴿مَّكْرٌ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِذَا لَهُم مَّكْرٌ﴾؛ لبيانِ مدَى عِظَم ذلك المكرِ، وسُرعتِهم في إعمالِه، وليكونَ المؤمنُ على حذرٍ منه، فيتجهّزَ له ويُسرعَ في مواجهتِه، كما أنّ في التّقديمِ إشارةً منَ اللّه للكافرين بأنّه يعلمُ بحالهم، وبخفايا نفوسِهم، وبمكرِهم قبل أنْ يفعَلوه.

تلويحٌ للمؤمن بعِظَمِ مكرِ الكافرين ليحذرَ منه وليُسرعَ في مواجهتِه

(1) الزمخشري، الكشاف: 3/6.
(2) السيوطي، التحبير في علم التفسير، ص: 77.
(3) ابن الأثير، شروح التلخيص: 4/411.
(4) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 7/3543.

نُكتةُ تنكير ﴿مَّكْرٌ﴾:

عظمُ مكرِ الباغين وكثرتُه دليلٌ على شدّةِ خُبْثِ نفوسِهم

أتى البيانُ الإلهيُّ بلفظِ المكرِ في قوله تعالى: ﴿إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِيٓ ءَايَاتِنَاۚ﴾ بصيغةِ النّكرةِ؛ لإفادة التّكثيرِ والتفخيم[1]، وهذا من معاني التّنكيرِ، أي: لهم مكرٌ كبيرٌ كثيرٌ في آياتنا، وهذا يدلُّ على شدّةِ خُبث نفوسِهم.

معنى ﴿فِيٓ﴾:

دَلالةُ الحرفِ (في) إيذانٌ بملابسةِ ومُصاحبةِ مكْرِ الكافرين لآياتِ الله

دَلالة ﴿فِيٓ﴾ في قوله تعالى: ﴿فِيٓ ءَايَاتِنَاۚ﴾ للظّرفية المَجازيّةِ بمعنى (مع)، أي المرادُ منها الملابسةُ، أي لهم مكرٌ مصاحبٌ لآياتنا لا ينفكُّ عنها، ومعنى مكرِهم في الآيات أنّهم يمكرون مكرًا يتعلّقُ بها، وذلك أنّهم يوهِمون أنّ آياتِ القرآن غيرُ دالّةٍ على صدْقِ الرسول ﷺ، ويَزعمون أنّه لو أُنزلت عليه آيةٌ أخرى لآمنوا بها؛ وهم كاذبون في ذلك، وإنّما هم يُكذّبونهُ عنادًا ومُكابرةً وحِفاظًا على دينِهم في الشّركِ[2].

ويمكنُ أن تكونَ للظّرفيّةِ؛ لتُفيدَ تغلْغُلَ مكْرِهم في جميع آياتِنا القُرآنيّةِ أوِ الكونيّةِ وفي جميع ما تَشتملُ عليه الآياتُ.

نُكتةُ الإضافةِ: ﴿ءَايَاتِنَاۚ﴾:

المكرُ بآياتِ العظيمِ أمرٌ عظيمٌ

أضاف البيانُ الإلهيُّ الآياتِ إلى ضميرِ العظَمةِ: (نا)، فقال: ﴿إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِيٓ ءَايَاتِنَاۚ﴾؛ لتعظيمِ المضافِ وهو الآياتُ، وذلك لإدخالِ المهابةِ والطّمأنينةِ في نفوسِ المؤمنين بأنّ اللّه كافيهم مكْرَ الكافرين، والمهابةِ والخوفِ في قلوب الكافرين، وبيانًا لشناعة مكْرِهم بآيات اللّه؛ إذِ المكرُ بالعظيمِ عظيم، وتوبيخًا لهم؛ إذ رغْمَ أنّهم لا يَنفكّون عن آياتِه العظامِ لا يَنتفعون بها، فلو كانوا مُنْتفعين بالآيات اهتدَوا بها، ولكنّ حالَهم أنّهم إذا أتتْهُم رحمةٌ من بعد نِقمةٍ

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/133.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 11/132.

لم يَعدّوها آيةً دالّةً على من أرسلَها لهم، مع أنّهم يعترفون بأنّه لا يقدرُ على إرسالِها وصرفِ الشّدّةِ إلّا هو سبحانه[1].

دلالة فعل الأمر ﴿قُلِ﴾:

عبَّر القرآنُ بفعْلِ الأمرِ ﴿قُلِ﴾ في قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَسۡرَعُ مَكۡرًاۚ﴾؛ للدّلالةِ على أنَّ رسولَ الله ﷺ هو المبلِّغُ عنِ الله، وأنّ مكرَهم به هو كفرٌ بالله، ولِيعلمَ هؤلاء الذين يَمكرون برسولِ الله أنّ الله ناصرُه، ومَكرُه بهم أسرعُ من مكرِهم بالنّبيِّ ﷺ، وللتّنبيهِ: "على أنّه تعالى قادرٌ على أنْ يُزيلَ عنهم تلك النِّعمَ، ويجعَلَهم مُنقادين للرّسولِ ﷺ مُطيعين له، تاركين لهذه الاعتراضاتِ الفاسدةِ"[2]؛ فطاعةُ رسولِ الله من طاعةِ الله.

رسولُ الله هو المبلِّغُ عن الله، والمكرُ به مكرٌ بالله سبحانه

فائدةُ العُدولِ عنِ الإضْمارِ:

أظهرَ البيانُ الإلهيُّ الاسْمَ الجليلَ ﴿ٱللَّهُ﴾ في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَسۡرَعُ مَكۡرًاۚ﴾، وعدلَ به عن إضمارٍ؛ لأنّ اسمَ (الله) هو اسمُ الذّاتِ الذي يجمعُ كلَّ صفاتِ الكمال، أي: قل لهم يا محمّدُ إنّ الله الذي لهُ الإحاطةُ الكاملةُ بكلّ شيءٍ هو أسرعُ مكرًا[3]. وفي ذلك ترهيبٌ للكافرين من مكْرِ الله العظيم، وطُمأْنينةٌ للمؤمنين بنصرِه سبحانه.

التَّصريحُ باسْمِ الجليلِ تَرهيبٌ للكافرين وطُمأْنينَةٌ للمؤمنين

نُكتةُ التّعبيرِ بالجملةِ الاسميّةِ: ﴿ٱللَّهُ أَسۡرَعُ مَكۡرًاۚ﴾:

عبّرَ القرآنُ الكريمُ بالجملةِ الاسميةِ في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَسۡرَعُ مَكۡرًاۚ﴾؛ للإشارةِ إلى الثُّبوتِ والدّوام، أي: أسْرعيّةُ مكْرِه سبحانهُ بالكافرين ثابتةٌ دائمةٌ، وجعلَ خبرَ الجملةِ الاسميةِ منَ المشتقّات؛ وهو اسمُ التّفضيلِ ﴿أَسۡرَعُ﴾ بما يوضحُ المعنى ويحدّدُ الدّلالةَ بشكلٍ أدقَّ، وذلك للإشارةِ إلى تميُّزِ سرعةِ مكْرِه بالكافرين؛ فمَكْرُهُ ليس كمكْرِهم بل هو أسرعُ من مكْرِهم؛ فقد دبّرَ عقابَهم قبل أن يُدبّروا

سُرعةُ مكْرِهم لا تُضاهي سُرعةَ مكْرِ الله بهم

(1) البقاعي، نظم الدرر: 2/278.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 17/231.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 2/278.

كيدَهم[1]، فأعدّ لهم يومَ القيامةِ منَ العذاب الشّديدِ، وفي الدنيا منَ الفضيحةِ والخِزيِ والنَّكالِ، وجعلَ الحفظةَ يَكتبون مكْرَهم ويحفظونَهُ؛ لتكونَ حُجّةً عليهم يومَ القيامة وفضيحةً لهم[2].

فائدةُ اسْمِ التّفضيلِ في: ﴿أَسْرَعُ﴾:

مهما أسرعَ الماكرون فقد سَبقَ مكرُ الله مَكرَهم

دلّ استعمالُ فعْلِ التّفضيل ﴿أَسْرَعُ﴾ على أنّ مكرَهم كان سريعًا، ولكنّ مكرَ اللّه أسرعُ منه، والمعنى أنّ اللّه أعجلُ مكرًا بهم منهم بمكْرِهم بآياتِ اللّه[3]، وقد "قضى بعقابِهم قبل تدْبيرِهم مكايدَهم"[4].

وقد جاء ذلك مُتوافقًا مع أوجهٍ أخرى تفيدُ أنّ مكرَهم كان سريعًا، وهي التّعبيرُ بالذّوقِ الذي هو أوّلُ المخالطةِ ولفظُ (من) التي هي للابتداء و(إذا) الفُجائيّةُ؛ كأنّه قيل: أسْرَعوا جُهدهم في المكرِ[5].

بَلاغةُ المشاكلةِ في: ﴿ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًاۚ﴾:

مكرُ اللّه سبحانه يُقابلُ مكرَ الكافرين ويُبطلُه

سمّى القرآنُ عقوبةَ اللّه للكافرين وإبطالَ مَسعاهم مكْرًا، وردَّ مكرهم، وجاءتِ التّسميةُ بالمكرِ لوقوعِها في مقابلة مكْرِهم وجودًا وذِكرًا، والمعنى: اللّه أعجلُ عقوبةً وأشدُّ أخذًا وإخزاءً وأقدرُ على الجزاء، أي: عذابُه وتدبيرهُ أسرعُ وصولًا إلى الكافرين مما يأتي منهم في دفعِ الحقّ[6].

بَلاغةُ الاستعارةِ في التّعبيرِ عن إمهالِ الله لهم بالمكْرِ:

تصويرُ المعنَى للقارئِ بصورةٍ يَعرفُها يُنقشُ المعنَى في قلبِه

في قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًاۚ﴾ استعارةٌ تمثيليّةٌ، حيث أطلقَ البيانُ القرآنيُّ على تأجيل اللّه عذابَهم وعلى إبطال اللّه تعالى مساعِيَهم في حال ظنِّهم أنْ قد نجحت اسْمَ المكْرِ، فكأنّ هيئةَ ذلك

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل: 3/109.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 17/232.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/133.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 9/97.
(5) البقاعي، نظم الدرر: 9/96.
(6) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/133.

التأجيلِ وهيئةَ الإخفاقِ في خفائِهما عنهم كهيئةِ فعلِ الماكرِ الذي يدبّرُ في خفاءٍ، وقد حسّنتِ المشاكلةُ اللفظيّةُ هذا التّصويرَ وزادته حُسنًا[1].

والقصدُ الذي حملَتْه الاستعارةُ التّمثيليّةُ عبْرَ إيحاءاتِها وثَرائِها الدّلاليِّ تصويرُ ضعْفِ مكرِهم، ومن ثمّ إخفاقُه أمام مكْرِ اللّه سبحانه.

غرَضُ الفصْلِ: ﴿إِنَّ رُسُلَنَا﴾:

تهديدٌ للمشركين بأنّ ما يَظنّونَه من مكْرِهم خافيًا لا يخفَى على الله

لم يُعطفْ قولُه تعالى: ﴿إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ﴾ على قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا﴾، وإنّما فُصِلَ بينهما؛ لِما بين الجُملتَين من كمالِ الانقطاع؛ لاختلافِهما إنشاءً وخبرًا، فالجملةُ الأولى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا﴾ إنشائيّةٌ، والجملةُ الثّانية: ﴿إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ﴾ خبريّةٌ، ولهذا تعيّن الفصلُ بينهما.

وقد جاءت جملةُ ﴿إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ﴾ "استئنافَ خطابٍ للمشركين مباشرةً تهديدًا منَ اللّه، فلذلك فُصِلت عنِ التي قبْلَها لاختلاف المخاطَبِ"[2]، وهو استئنافٌ تعليليٌّ؛ إذ كانوا يَحسبون أنّهم يَمكرون بالنّبيّ ﷺ، وأنّ مكْرَهم يتمشّى عليه ولا يشعرُ به؛ فأعلمَهم اللّه بأنّ الملائكة الموكَّلين بإحصاء الأعمالِ يَكتبون ذلك[3].

فائدةُ تتابُعِ المؤكِّداتِ في: ﴿إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ﴾:

نصرُ الله وتأييدُه لنبيِّه ﷺ قدَرٌ محقّقٌ لا ريْبَ فيه

تتابعتِ المؤكِّداتُ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ﴾ من ﴿إِنَّ﴾ التي تفيدُ التّوكيدَ، والجملةِ الاسميةِ التي تفيدُ الثُّبوتَ والدّوامَ، والاستئنافِ البيانيِّ الذي أكّدَ أسرعيّةَ مكرِه سبحانهُ لتقريرِ نصْرِ اللّه وتأييدِه لنبيِّه ﷺ، وإبطالِه لمكْرِهم به، وبالقرآنِ وبالمؤمنين، وتحقيقِ الانتقامِ، وللتّنبيهِ على أنّ ما دبّروا في إخفائِه

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/134.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/134.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/134.

لم يخْفَ على الحفَظةِ فضلًا أن يخفَى على اللّه تعالى[1]؛ إذ إنّهم كانوا يعتقدون خلافَ ذلك؛ فيَحسبون أنّهم يمكرون بالنّبيّ ﷺ، وأنّ مكْرَهم يتمشَّى عليه ولا يشعرُ به، فأعلمَهمُ اللّه بأنّ الملائكةَ الموكّلين بإحصاء الأعمال يكتبون ذلك[2]، فهو عالمٌ بأمورِهم وهم جاهلون بأموره، لا يدعُهم يُدبّرون كيدًا إلّا وقد سبّب له ما يجعلُه في نحورهم[3].

نُكتةُ إضافةِ الرُّسلِ إلى ضمير العظَمة في: ﴿رُسُلَنَا﴾:

أضاف القرآنُ إلى لفظة الرّسلِ، وهم "الحفظةُ بلا خلافٍ"[4] ضميرَ العظَمة (نا) فقال: ﴿رُسُلَنَا﴾، ولم يقل رسُلَه، أو رسُلَ اللّه، لكونِ ذلك أبلغَ في تصويرِ تسخيرِ اللّه للملائكة في كتابةِ الأعمالِ منَ التّعبير بضميرِ الغَيبةِ (إنّ رسُلَه يكتبون) أو (إنّ رسُلَ اللّه يكتبون)؛ لأنّ في ضمير الجمعِ من تصويرِ العظَمةِ في هذا التّدبيرِ العظيم، والنّظامِ الدّقيقِ ما يشعرُ به كلُّ من لهُ ذوقٌ؛ إذَنِ النّكتةُ البلاغيّةُ هي:

أوّلاً: تعظيمُ اللّه ﷻ واختصاصهُ في تسخيرِ الملائكةِ في كتابة أعمالِ النّاس.

ثانيًا: تعظيمُ الملائكةِ الحفظةِ والكَتَبةِ، وتشريفُهم[5]، والمعنى: "إنّ رسُلنا أي على ما لهم منَ العظَمة بإضافتِهم إلينا"[6].

غرَضُ التّعبيرِ بالأفعالِ المضارعةِ ﴿يَكْتُبُونَ﴾ و﴿تَمْكُرُونَ﴾:

عبّرَ القرآنُ بصيغة المضارعِ في الفعلَيْن: ﴿يَكْتُبُونَ﴾ و﴿تَمْكُرُونَ﴾؛ للدَّلالةِ على الاستمرارِ والتّجدُّدِ والتَّكرار؛ ففي الأوّل:

تدبيرٌ عظيمٌ من ملائكةٍ يَستمِدّون عظَمتَهم منَ العظيمِ سبحانه

مكْرُ الكافرين مُستمرٌّ متجدّدٌ مُتكرّرٌ ولكنّ الحفَظةَ لهُ بالمِرصادِ

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل: 3/109.
(2) الزمخشري، الكشاف: 3/6، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/134.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 9/97.
(4) أبو حيان، البحر المحيط: 6/31.
(5) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/133.
(6) البقاعي، نظم الدرر: 2/278.

تدلُّ صيغةُ المضارع على أنّ كتابةَ الحفَظةِ الكَتَبةِ هي كتابةٌ مُتجدّدةٌ على سبيل الاستمرارِ باستمرارِ المكتوب[1]، وفي الثّاني: تدلُّ صيغةُ المضارع على استمرار مكْرِهم وتجدُّدِه، وأنّه طبعٌ من طبائعِهم، أي: تتكرّرُ كتابةُ الحفَظةِ كلّما يتكرّرُ مكْرُ الكافرين[2].

معنى: ﴿مَا﴾:

﴿مَا﴾ في قوله تعالى: ﴿مَا تَمْكُرُونَ﴾ تحتمل وجهَيْن:

الأوّل: اسْمٌ موصولٌ مبنيٌّ في محلّ نصبٍ مفعولٍ به ﴿تَمْكُرُونَ﴾ أَي: ما تمكرونه على تضمين تمكرُ معنى تعملُ في خفاءٍ، وغرضُ التّعبير بالاسم الموصولِ إرادةُ العُموم، للدّلالة على أنّ الحفظةَ يَكتبون كلَّ الذي تمكرونَه صغيرًا كان أو كبيرًا، متعلِّقًا بالقرآن أو بالنّبيّ ﷺ أو بالمؤمنين، وللإشارة إلى دقّةِ ما يعلمُه عنهم، وإلى أنّ ما يُدبّرونَه يعلمُه ﷺ في وقتِه فيكتبُه[3].

(ما) بين الموصوليّةِ والمصدريّةِ دَلالةٌ على كمالِ الضَّبطِ والحِفظِ والعِنايةِ

الثّاني: مصدريّةٌ، أَي: يَكتبون مكرَكُم، ويُشير التّعبيرُ بالمصدر إلى تأكيدِ كتابةِ المكْرِ المستمرِّ للماكرين في أيِّ زمنٍ كان.

بَلاغةُ الالتفات: ﴿تَمْكُرُونَ﴾:

قرأه الجمهورُ ﴿تَمْكُرُونَ﴾ بتاء الخطاب، وقرأ روحٌ عن يعقوبَ (ما يمكرون) بياء الغائب[4]، بكوْنِ الكلامِ موجَّهًا إلى النَّبيِّ ﷺ.

تلوينُ الخطابِ بالالتفاتِ إليهم مُبالغةٌ في الإعلام بحالِ مكْرِهم

وفي الآية التفاتٌ منَ الغَيبة إلى الخطاب في قوله تعالى: ﴿إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ﴾ على قراءة (تَمكرون) بتاء الخطاب، وهو من عجيب الالتفاتِ الواقعِ في القرآن، ولعلّ النّكتةَ فيه المبالغةُ لهم في الإعلام بحال مَكرِهم[5]، والتّشديدُ في توبيخِهم[6]، من خلال

(1) البقاعي، نظم الدرر: 2/278.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/134.
(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 7/3543.
(4) ابن الجزري، النشر في القراءات العشر: 2/282.
(5) أبو حيان، البحر المحيط: 6/31.
(6) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/133.

تصويرِ معنى قولِه: ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَسۡرَعُ مَكۡرًاۚ﴾؛ كأنَّه تعالى لما قال لنبيّه ﷺ: ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَسۡرَعُ مَكۡرًاۚ﴾ أراد أنْ يوضّحَه لهم عِيانًا، ففاجأَهُم بتَجلّيهِ لهم دفعةً، فكلّمَهُم وأوضحَ لهم السّببَ في كونِه أسرعَ مكرًا؛ وهذا من لطيفِ الالتفاتِ.

فائدةُ الختم بالجملة الخبرية:

الإخبارُ بأنّ انتقامَ الله منَ الكافرين مُحقَّقٌ ومكرَهم لا يخفَى عليه

ختمتِ الآيةُ بقوله تعالى: ﴿إِنَّ رُسُلَنَا يَكۡتُبُونَ مَا تَمۡكُرُونَ﴾ وهي جملةٌ خبريّةٌ تحملُ معانيَ التّعليلِ من جهتِه تعالى لأسرعيّةِ مكْرِه، والتأكيدَ في كلّ مفرداتِها ونظْمِها تحقيقًا للانتقام منهم، وتنبيهًا على أنّ مكرَهم الخفيَّ غيرُ خافٍ على الحفَظة منَ الملائكة فضْلًا عنِ الخالقِ ﷻ الذي لا تخفَى عليه خافيةٌ في الأرض ولا في السّماء[1].

كما أنّ فيها تهديدًا، بأنّ المَلائكةَ الحفظةَ يَكتبون مَكْرَكم ويُحصون أعمالَكم؛ للحِسابِ عليها في الآخرةِ[2].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

المسُّ والإصابةُ والإذاقةُ:

الإصابةُ تمكّنٌ في الشّيء، والمسُّ خِفّةُ الإصابةِ، والإذاقةُ إحساسٌ بأدنَى إصابةٍ

تتقاربُ معاني المسِّ والإصابةِ والإذاقةِ، وتأتي مع العذابِ ومع الرّحمةِ، فليس هنالك تقييدٌ في الاستعمالِ[3]، ولهذا فُسّرَ المسُّ بالإصابة، وفُسّرتِ الإذاقةُ بالإصابة[4]، إلّا أنّه عند الرّجوعِ إلى المعنى اللُّغويِّ نلْحظُ بعضَ الفروقِ الدّقيقةِ بين هذه الألفاظِ:

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/133، وسيد طنطاوي، التفسير الوسيط: 7/49.

(2) رشيد رضا، تفسير المنار: 11/274.

(3) فاضل السامرائي، لمسات بيانية: 3/115 - 116.

(4) يقول ابن عاشور: "والمسّ: الإصابة، ولا يختصّ أحدهما بالخير والآخر بالشر، فالتعبير بأحدهما في جانب الحسنة، وبالآخر في جانب السيئة تفنن"، التحرير والتنوير: 4/68، وقد سبقه إلى ذلك الزمخشري الذي رأى أنّ المسّ مستعارٌ لمعنى الإصابة، فكان المعنى واحدًا، الكشاف: 1/436.

المسّ: جسُّ الشّيء باليد[1]، أو مباشرةُ الجسم، والمسُّ يُقال فيما يكونُ منه إدراكٌ بحاسّةِ اللّمسِ وحقيقتُه: وضعُ اليدِ على شيء ليُعرفَ وجودُه أو يُختبرَ حالُه[2].

والإصابةُ: الصّاد والواو والباء أصلٌ صحيحٌ يدلّ على نزول شيءٍ واستقرارِه قرارَه[3]، والإصابةُ: منَ الصّواب الذي هو ضدُّ الخطأ، وأصابَ السّهمُ: إذا لم يُخطئ، وأصابَ الشّيءَ: وجدَه، وأراده، وأصابتْه مصيبةٌ: أخذته[4]، والإصابةُ: النّزولُ بالشّيء، واللَّحاقُ به خيراً كان النّازلُ أو شرّاً[5].

والإذاقةُ: الذّالُ والواو والقافُ أصلٌ واحدٌ، وهو اختبارُ الشّيءِ من جهة الطّعم، وأمرٌ مُستذاقٌ: أي مجرّبٌ معلومٌ[6]، والذّوقُ: هو وجودُ الطّعمِ بالفمِ، وأصلهُ فيما يقلُّ تناوُلهُ دونَ ما يكثرُ منهُ[7].

إذن: يشتركُ المسُّ والإذاقةُ في معنى الاتّصالِ الخفيفِ، والإدراكِ والاختبارِ.

ويتميّزُ المسُّ بأنّه: اختبارُ حالِ الشّيء باليد أو بالجسمِ، بينما الإذاقةُ: اختبارُ حال الشّيءِ من جهة الطّعم.

وأمّا الإصابةُ فإنّها تتميّزُ بالتّمكّن، وهو نزولُ شيءٍ واستقرارُه قرارَه.

فالمَسّ يُستعارُ للإصابة في إيصال الإدراك؛ إذ حقيقةُ المسِّ: الالتصاقُ الخفيفُ بين شيئين على وجهِ الإحساس، وللإشارة إلى خفّةِ الإصابة؛ فالمسّ أقلُّ تمكّنًا منَ الإصابة، وكأنّه مِن مقدّماتِها، أو أقلِّ درجاتِها، وأمّا الشّيءُ المصيبُ لشيء، فهو متمكّنٌ منه أو فيه، فالمسّ أخفُّ منَ الإصابة[8].

والإذاقةُ تُستعارُ للإصابة بجامعِ الإحساسِ في إيصال الإدراك؛ إذ حقيقةُ الإذاقة: إحساسُ طرفِ اللّسان بأحوال الطُّعوم، وتكونُ بأقلِّ ما يوجدُ به الطّعمُ، وتُستعملُ في

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (مس).
(2) الرّاغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (مس).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (صوب).
(4) ابن منظور، لسان العرب، والزَّبيدي، تاج العروس: (صوب).
(5) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (صوب).
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (ذوق).
(7) الراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (ذوق).
(8) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 2/77، والشهاب، عناية القاضي: 3/59، والقاسمي، محاسن التأويل: 2/396.

الإعطاء القليلِ، وتشيرُ إلى الإحساس بأدنَى إصابةٍ، كإصابة اللّسان؛ فالإذاقةُ هي الإدراكُ والإحساسُ بأدنى إصابة[1].

الضّرّاءُ والضّرُّ:

الضُّرُّ خلافُ النّفعِ وهو شدّةٌ ماديّةٌ أو معنويّةٌ، والضّرّاءُ ضدُّ السّرّاءِ وهي مضرّةٌ ظاهرةٌ

لم تُفرّقِ المعاجمُ اللّغويّةُ بين الضُّرِّ والضّرّاء، ويظهر ذلك من خلال الرّجوعِ إلى معانيهما:

الضُّرّ والضَّرّ لغتان، فالضَّرّ المصدر، والضُّرّ الاسم، والضَّرّ: خلافُ النفع[2]، والضُّرّ: كلّ ما كان من سوءِ حالٍ وفقرٍ، أو شدّةٍ في بدن[3]، ضرّه: ألحقَ به أذًى أو مكروهًا، وكذا ضرّ به وأضرّه، وضارّه: سبب له نقصًا أو ضِيقًا، وهو عامٌّ في المادِّيِّ والمعنويِّ[4].

والضرّاء: نقيضُ السّرّاء، وهي الشّدّةُ والفقرُ والعذابُ، وقيل: الضرّاء: النّقصُ في الأموال والأنفُسِ[5].

إذن: تتقاربُ دلالةُ الضّرّاء والضُّرّ، إذ يشتركان بالشّدّةِ والأذى الذي يلحقُ الإنسان في بدنِه وأموالِه.

إلّا أنّه عند إمعان النَّظرِ في المعنى اللُّغويِّ، وفي الاستعمالِ القرآنيِّ لهما، يُلاحظُ أنّ لكلّ منهما مَلمحًا دلاليًّا يميّزُه عن الآخر؛ فالضّرّاءُ يقابلُها السّرّاء والنّعماءُ، والضُّرّ يقابلُه النّفعُ، والضُّرُّ أعمُّ منَ الضّرّاء؛ إذِ الضُّرُّ يشملُ المادِّيَّ والمعنويَّ، فيكونُ الضّرّ أذًى ظاهرًا كالفقرِ أوِ المرض، ويمكنُ أن يكونَ معنويًّا كالضّيق، وهذا ما أشار إليه العسكريُّ فقال: "الضّرّاء هي المضرّةُ الظّاهرةُ، وذلك أنّها خرجت مخرجَ الأحوالِ الظّاهرةِ، مثل: الحمراءِ، والبيضاءِ"[6].

(1) الفيروزابادي، بصائر ذوي التمييز: 3/23.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ضر).
(3) ابن منظور، لسان العرب، والزَّبيدي، تاج العروس: (ضرر).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (ضرر).
(5) ابن منظور، لسان العرب، والزَّبيدي، تاج العروس: (ضرر).
(6) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 198.

المكرُ والكيدُ:

المكرُ والكيدُ متقاربان دَلاليًّا، إذ يُعرَّفُ كلٌّ منهما بالآخرِ في اللّغة[1]، وكلٌّ منهما يكونُ محمودًا ومذمومًا، وإن كان استعمالُهم في المذموم أكثرَ، وكلاهما لا يكون إلّا مع تدبّرٍ ونظرٍ.

الكيدُ أقوَى منَ المكرِ فهو دونَ علْمِ المكورِ به، بينما الكيدُ قد يكونُ بعلْمِه

إلا أنّ لكلٍّ منهما بعضَ الملامح التي تُميّزُه؛ فالكيدُ أقوَى منَ المكرِ، والشّاهدُ أنّ الكيدَ يتعدَّى بنفسِه، بينما المكرُ يتعدَّى بحرفٍ، فيقال: كادَه يكيدُه، ومكرَ به، ولا يقال مكَرَهُ، والذي يتعدّى بنفسِه أقوَى.

والمكرُ تقديرُ ضررِ الغير من غير أن يُعلمَ به سواءً كان على وجهه أو لا، أي لا يكون إلّا في خفاءٍ، وأمّا الكيدُ فاسْمٌ لإيقاع المكروه بالغير قهرًا، سواءً علمَ أو لا، والشّاهدُ قولك: فلانٌ يُكايدُني، فسمّى فعلَه كيدًا وإنْ عَلمَ به[2].

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والجوهري، الصحاح، والزَّبيدي، تاج العروس، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (مكر)، (كيد).

(2) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 259 - 260، وعلي فهمي النزهي، الفروق اللغوية في تفسير الكلّمات القرآنية، ص: 205.

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾﴾ [يونس: 22]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

مثالٌ واقعيٌّ يفضحُ نفوسَ الكافرين الماكرةَ المسارِعةَ إلى الكفرِ في مقامِ الشُّكرِ

في مناسبةِ هذه الآيةِ لما قبْلَها وجهان:

الأوّل: لمّا قال سبحانه: ﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ﴾ كان هذا كلامًا كلّيًّا لا ينكشفُ معناه تمامَ الانكشاف إلّا بذكر مثالٍ كاملٍ، فذكر اللّه تعالى لنقْلِ الإنسان منَ الضّرّ الشّديدِ إلى الرّحمة مثالًا، ولمكْرِ الإنسان مثالًا، حتى تكون هذه الآيةُ كالمفسّرةِ للآية التي قبلَها، وذلك لأنّ المعنى الكلّيَّ لا يصلُ إلى أفهام السّامعين إلّا بذكر مثالٍ جليٍّ واضحٍ يكشفُ عن حقيقة ذلك المعنى الكلّيّ[1].

الثّاني: لمّا قال اللّه تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا﴾ أخذ سبحانَه يبيِّنُ ما يتّضح به أسرعيّةُ مكرِه، في مثالٍ دالٍّ على نَقْلِه سبحانَه لعبادِه مِنَ الضّرّ إلى النِّعمةِ، ومن سُرعةِ تَقلُّبِهم فقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يُسَيِّرُكُمْ﴾ السّين والياء والرّاء أصلٌ يدلُّ على مُضيٍّ وجَريانٍ، يقال سار يسير سيرًا: إذا امتدّ به السّيرُ في جهةٍ توجّهَ لها، وذلك يكون ليلًا ونهارًا، والسَّير: الذّهابُ، والانتقالُ من مكانٍ إلى مكانٍ[3]،

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 17/232.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 9/98.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، والزَّبيدي، تاج العروس، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (سير).

والسّيرُ: المُضيُّ في الأرض، ثمَّ استُعملَ في هيئة الحياةِ (الأسفارِ والأعمالِ والمعيشةِ إلخ)، والتّسييرُ ضربان: تسخيرٌ، كقوله تعالى: ﴿وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ﴾ [النبأ: 20]، واختيارٌ، كقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ﴾، وسيّر الشّيءَ: حرّكه وجعلَه يسيرُ، وسيّر المحرّكُ القاربَ: دفعَه بقوّة، ومنه قولُه تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾[1].

وَ﴿يُسَيِّرُكُمْ﴾: يجعلُكم تسيرون بتسخيره تعالى، وإعطائكم ما تسيرون عليه منَ الدّابّة وغيرِها في البَرّ، ومنَ الفُلك والسّفنِ في البحر[2].

2) ﴿ٱلْفُلْكِ﴾: الفاء واللّام والكاف أصلٌ صحيحٌ يدلّ على استدارةٍ في شيءٍ[3]، والفُلْك: السّفينةُ، يُذكَّر ويؤنَّث، ويُستعمَل ذلك للواحد والجمع، ويُجمعُ على الفُلوك أيضًا، ولعلّها سميّت فُلكًا؛ لأنّها تُدارُ في الماء، أو لأنّها تعودُ بعد ما تذهبُ في البحر، إذِ الذّهابُ في البحر مظِنّةُ عدمِ الرّجوع، وربما نُظرَ إلى شكل السّفينةِ مع التّجاوزِ عن تمام الاستدارةِ، مثلما يُسمّون ما تحت وَتَرةِ الأنف دائرةً، ويُقال للموجِ إذا اضطرب وجاء وذهبَ: فَلَك[4].

3) ﴿طَيِّبَةٍ﴾ الطّاء والياء والباء أصلٌ واحدٌ يدلّ على خلاف الخبيث[5]، وتتّسعُ معانيه، فيقال: أرضٌ طيّبةٌ للتي تصلحُ للنّبات؛ وريحٌ طيّبةٌ إذا كانت ليّنةً ليست بشديدةٍ؛ وطُعْمةٌ طيّبةٌ إذا كانت حلالًا..[6].. وريحٌ طيّبةٌ: ليّنةُ الهبوبِ رقيقةٌ لا عاصفةٌ ولا ضعيفةٌ، فهي مناسبةٌ لسيرِ السّفن، وموافقةٌ لغرضِهم ورغبتِهم ومنفعتِهم[7].

4) ﴿عَاصِفٌ﴾: العين والصّاد والفاء أصلٌ واحدٌ صحيحٌ يدلّ على خفّةٍ وسرعة[8]، وريحٌ عاصفٌ: الشّديدةُ الهبوبِ، فهي تستخفُّ الأشياءَ فتذهبُ بها، أي تعصفُ بها[9]. وريحٌ عاصف: هي الرّيحُ الشّديدةُ القويّةُ التي تعصفُ بالأشياء وتذهبُ بها[10].

---

(1) الراغب، المفردات: (سير).
(2) المراغي، تفسير المراغي: 11/87.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (فلك).
(4) الصاحب بن عباد، المحيط في اللغة، وابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (فلك).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (صيب).
(6) ابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (طيب).
(7) النسفي، مدارك التنزيل: 2/14، وأبو حيان، البحر المحيط: 6/36، والمراغي، تفسير المراغي: 11/87.
(8) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عصف).
(9) ابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (عصف).
(10) ابن عطية، المحرر الوجيز: 3/113، والحجازي، التفسير الواضح: 2/52.

5) ﴿ٱلۡمَوۡجُ﴾: الميم والواو والجيم أصلٌ واحدٌ يدلّ على اضطرابٍ في الشّيء[1]، ماجَ يموجُ: إذا اضطرب وتحيّرَ، وكلُّ شَيءٍ اضطربَ فقد ماج، والموجُ: ما ارتفع منَ الماء فوق الماء، وهو موجُ البحر، والجمعُ أمواج، وسُمّي بذلك لاضطرابه[2].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

صورةٌ للنّفسِ الكافرةِ يُحيط بها ما تكرهُ فتلجأُ إلى الله واعدةً بالشُّكرِ إذا نجتْ

امتنّ الله على النّاس جميعًا بنعمةِ تسْييرهم بقدرتِه ورحمتِه في أيّ برٍّ وبحرٍ بما وهبَهم من قدرةٍ على السّير، أو ما سخّر لهم من دوابٍّ وسُفنٍ، وغيرِهما، تسخيرَ استقرارٍ وتمكّنٍ، حتى إذا كانوا في السُّفن، وسارت بهم سيرًا آمنًا لا خوفَ فيه ولا اضطرابَ بريحٍ لطيفةٍ ملائمةٍ لقصدِهم تحملُ الرّخاءَ الآمنَ، وإذْ بريحٍ عاصفةٍ شديدةِ السُّرعة والتقلّبِ ومعها الموجُ يحْدِقُ بهم ويُطوّقهم من كلّ جهةٍ، وسُدَّت المنافذُ الممكنةُ كلُّها، وأيقَنوا أنْ لا نجاةَ لهم إلّا بالله فتوجّهوا إليه وحدَه، مؤكّدِين دعاءَهم بالقسَم: لئن أنجيتَنا من هذه الأهوالِ التي نحن فيها لنكونَنَّ البتّة بعد ذلك منَ المؤمنين الشّاكرين لك، المطيعين لأمرك، المتّبِعين لشرعك.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

نُكتةُ الفصْلِ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى﴾:

مثالٌ آخرُ للامتنانِ على المشركين بالنّعمةِ وتسجيلٍ لسرعةِ كُفْرانِها

فَصَل البيانُ الإلهيّ بين هذه الآية ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمۡ فِى ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۖ﴾ والتي قبلَها ﴿وَإِذَآ أَذَقۡنَا ٱلنَّاسَ رَحۡمَةً﴾، ولم يأتِ بالعاطف؛ لما بين الجملتَيْن من كمال اتّصالٍ أي اتّحادٍ تامٍّ في المعنى؛ بسبب كوْنِ هذه الآية بدلَ اشتمالٍ من جملةِ ﴿وَإِذَآ أَذَقۡنَا ٱلنَّاسَ رَحۡمَةً﴾ إلى آخرها؛ لأنّ البغيَ في الأرض اشتملَ عليه المكرُ في آيات الله، وقد عدّ ابنُ عاشورٍ موقعَ الآية موقعًا رشيقًا جدَّ الرّشاقة؛ إذ إنّ المقصودَ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (موج).
(2) ابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (موج).

فيها هو قولُه تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمۡ إِذَا هُمۡ يَبۡغُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ وما سواه تمهيدٌ وإدماجٌ[1] للامتنان عليهم بالنّعمة، وتسجيلٍ لكفرانها، ولتوارُدِ الآيات عليهم، ولكيلا يغترّوا بالإمهال، فيحسَبوه رضًى بكفرِهم، أو عجزًا عن أخذهم[2].

فائدةُ الالتفاتِ بالضّمائرِ منَ الخطابِ إلى الغيْبةِ: ﴿وَجَرَيۡنَ بِهِم﴾:

التفتَ البيانُ الإلهيُّ منَ الخطابِ بقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُسَيِّرُكُمۡ﴾ ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمۡ﴾ إلى الغَيبة بقوله: ﴿وَجَرَيۡنَ بِهِم﴾، والأصلُ (وجرين بكم)، و(وفرحتم بها) و(وجاءكم الموج من كلّ مكان) و(ظننّتم أنّكم..) وذلك لأمور:

من يقابلُ الإحسانَ بالكُفرانِ يليقُ بمقامِه الغَيبةُ والتّبعيدُ لا الحضورُ والتّقريبُ

الأوّلُ: أنّه لمّا كان قولُه ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُسَيِّرُكُمۡ﴾ خطابًا شاملًا يَنطوي على الامتنان للمسَيَّرين في البَرّ والبحر مؤمنين وكفّارًا، حَسُنَ خطابُهم بذلك، ليستديمَ الصّالحُ الشُّكرَ، ولعلّ الطّالحَ يتذكّرُ هذه النّعمةَ فيتهيّأُ قلبُه لتذكُّرِ مُسْديها وشُكرِه، ولكنْ لمّا كان في آخر الآيةِ ما يقتَضي أنّهم إذا نجَوا بغَوا في الأرض عدلَ عن خطابهم بذلك إلى الغَيبةِ؛ لئلّا يُخاطبَ المؤمنين بما لا يليقُ صدورُه منهم، وهو البغيُ بغير الحقّ، ولَوْ تتابع الكلامُ وَفْقَ أُسْلوب الخِطاب دون ما حصلَ في النّصّ منَ الالتفات لكان التّأنيبُ موَجّهًا لكلّ النّاسِ مع أنّ فيهم صالحين لا تظهرُ منهم هذه الظّاهرةُ القبيحةُ منَ الظّواهر المُنافيةِ للسّلوك الدّينيّ المطلوبِ منَ العباد.

الثّاني: قصدُ المبالغةِ في المقْتِ والتّبعيدِ لهم بالانتقال من مقام الحضورِ الذي هو مقامُ التّقريب والتّشريفِ وعُلوِّ الدّرجة إلى مقام الغيبةِ الذي هو مقامُ المقْتِ والتّبعيدِ والطّرد اللّائقِ بمن كانت

(1) الإدماج: أن يُضمَّنَ كلامٌ سِيق لمعنًى معنًى آخر.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/134.

صفتُه أن يقابلَ إحسانَ اللّه تعالى بالكُفران[1]، وكأنّه يذكرُ لغيرهم حالَهم، ليُعَجِّبَهُم منها، كالمُخبِر لهم، ويَستدعي منهمُ الإنكارَ عليهم والتّقبيحَ لما اقترَفوه، وفي ذلك مبالغةٌ ومقتٌ وتأنيبٌ وتبعيد[2].

الثّالثُ: لفتُ الانتباه إلى الاتّساقِ المشهودِ في السّياق؛ فالتّطابقُ بين الحضور والغَيبةِ، وبين التّحوّلِ من طرفٍ إلى طرفٍ، بمثابةِ صورةٍ مصغَّرةٍ لمضمون الآياتِ التي أكّدت على معنى التّضادِّ بين: ﴿ٱلۡبَرِّ﴾ [يونس: 22] و﴿وَٱلۡبَحۡرِ﴾ [يونس: 22] ﴿بِرِيحٖ طَيِّبَةٖ﴾ [يونس: 22] و﴿رِيحٌ عَاصِفٞ﴾ [يونس: 22] ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ٢٢﴾ [يونس: 22] و﴿إِذَا هُمۡ يَبۡغُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [يونس: 23] ﴿أُحِيطَ بِهِمۡ﴾ [يونس: 22] و﴿أَنجَىٰهُمۡ﴾ [يونس: 23] ﴿يَبۡغُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [يونس: 23] و﴿إِنَّمَا بَغۡيُكُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم﴾ [يونس: 23].

كما أنّ الانتقالَ منَ الحُضور إلى الغيبةِ بتلك السّرعةِ الفُجائيّةِ يُنشئ عند المتلقّي نوعًا منَ التّوتّر، ويَستدْعيه للوقوف والتّأمّلِ لصورة الانتقالِ المعنويِّ المفاجئ للبحر الهادئ يهيجُ على غير توقُّعٍ... أهو التفاتٌ للبحر! وللإنسانِ يوحّدُ اللّه ثمّ يشركُ.. أهو التفاتٌ للمكلّف!! وللإنسان يعاهدُ بكلّ صدْقٍ وقوّة ثم ينقضُ عهودَه عند أوّل شعورٍ له بالأمان.. أهو التفاتٌ للقلْبِ!!!، ويشحذُ عنده الإحساسَ بحدّة التّحوّل، لِيحسَّ ويَعي، ويستعظمَ ما في سلوك النّاس منَ الانتقال من حالٍ إلى حالٍ، ومن مقامٍ إلى مقامٍ!.

فائدةُ تعريف طرفَي الإسنادِ في: ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُسَيِّرُكُمۡ﴾:

أفادَ تعريفُ طرفَيِّ الإسناد في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُسَيِّرُكُمۡ﴾ قصْرَ القُدرةِ في تسخير البَرّ والبحر على اللّه وحدَه، أي هو لا غيرُه، وذلك بقصد الامتنانِ والتّعريضِ بإخلال الكافرين بواجبِ الشُّكرِ[3].

وحـدهُ سبحانه المستحِقُ للشُّكرِ فـلا خـالـقَ ولا مُنعمَ إلّا هو

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 17/234.
(2) الزمخشري، الكشاف: 2/338.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/135.

فالمقصورُ به: تعريفُ طرفَي الإسناد في الجملةِ الاسميّة؛ فالمسندُ إليه الضّميرُ المنفصلُ ﴿هُوَ﴾، والمسندُ: الاسمُ الموصولُ وصلتُه ﴿ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ﴾، فالمقصورُ: الخبرُ، أي الاسمُ الموصولُ وصلتُه ﴿ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ﴾ يَحملان صفةً تدلّ على معنًى قائمٍ فيها، وهو القدرةُ على التّسيير في البَرّ والبحر، والمقصورُ عليه ﴿هُوَ﴾؛ أي اللّه تعالى، وهو الموصوفُ، والمقصور عنه: كلُّ شيءٍ ما عدا اللّه ﷻ، ونوعُ هذا القصْرِ باعتبار المقصور والمقصورِ عليه: قصْرُ صفةٍ على موصوف؛ فقد قُصرت صفةُ القُدرة على التّسيير في البَرّ والبحر أي تَسخيرُه على اللّه وحدَه سبحانه.

غرَضُ التّعريفِ بالاسْمِ الموصولِ وصلَتِه: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ﴾:

عُرّف المسندُ إليه بالاسْمِ الموصولِ في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى﴾ دونَ الاسم الظّاهرِ (اللّه)، فلم يقل: (هو اللّه يسيركم)؛ لغرضِ التّعظيم بأنْ ذكّرَ بصلتِه المعظَّمةِ، وهي قدرتُه في تسخير البَرِّ والبحر؛ إذ هذا الفعلُ لا يكونُ ولا يصلحُ إلّا منه سبحانه، ولذلك لم يصرّح باسمِه، وإنّما اكتفى بالاسمِ الموصولِ.

تسخيرُ الكونِ وصلاحُه لا يكونُ إلّا منَ العظيمِ سبحانَه

بَلاغةُ توجيهِ القراءاتِ في: ﴿يُسَيِّرُكُمْ﴾:

في قوله تعالى: ﴿يُسَيِّرُكُمْ﴾ قراءتان متواترتان هما:

الأولى: قراءةُ ابنِ عامر، وأبي جعفر[1]؛ وهي (يَنْشُرُكُم) مِنَ النَّشرِ ضدّ الطّيِّ، والمعنى: يُفَرِّقكم ويَبُثُّكم[2]، كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ [الجمعة: 10].

الثّانية: قرأ بها الباقون[3]، وهي: ﴿يُسَيِّرُكُمْ﴾ مِنَ التَّسييرِ، والتّضعيفُ فيه للتّعديةِ، وقال الفارسيّ: هو تضعيفُ مبالغةٍ لا

تَنوّعُ فضلِهِ سبحانَه في تسخيرِ البَرّ والبحرِ يَستوجِبُ الشّكرَ لا المسارعةَ في الكفرِ

(1) ابن الجزري، النشر في القراءات العشر: 2/282.
(2) ابن مجاهد، السبعة: ص 325، وابن الجزري، النشر: 2/282.
(3) ابن الجزري، النشر في القراءات العشر: 2/282.

تضعيفُ تعْديةٍ[1]، والمعنى: يَحمِلُكم على السّير، ويمكّنُكم منه، ومنه قوله تعالى: ﴿قُلْ سِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٦٩﴾﴾ [النمل: 69][2].

والقراءتان كآيتين جاءتا في سياق الامتنان؛ لتَدلّا على سَعةِ فضل اللّه سبحانه ورحمته بالإنسان، فقد نشرَهم وبثَّهم في البَرّ والبحر، وحملَهم فيهما، وهذا من أنواع التّسخير الذي قدّرَه سبحانه.

بَلاغةُ المجازِ العقليّ في: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ﴾:

نِسبةُ التّسيير إلى الله مبالغةٌ في إظهارِ فضلِه وتقريرٌ أنّ كلَّ أمرٍ مرجِعُه إليه

أسند اللّه التّسييرَ في الآية إلى ذاتِه سبحانه فقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ﴾، بخلافِ آياتٍ أخرى نُسبَ السّيرُ فيها إلى النّفس الإنسانيّةِ، منها قولُه تعالى: ﴿قُلْ سِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [النمل: 69]؛ باعتبار أنّه ﷺ سببُ هذا التّسيير، فهو خالقُ الأسبابِ والمسبّباتِ، فالإسنادُ مجازٌ عقليٌّ[3]، يشيرُ إلى أنّ تحقّقَ أيِّ فعلٍ إنّما يعودُ إلى مشيئة اللّه سبحانه، وهذا فيه إظهارٌ لفضلِه ونعمتِه التي لا تقتصرُ على خلْقِ فعلِ التّسيير، وإنّما تشملُ كلَّ حركةٍ يتحرّكُها الإنسانُ، وأنّها تنتهي في الوجودِ إلى اللّه تعالى، فاللّه خالقُ الأرضِ والبحرِ وجسمِ الإنسان، وإلهامِ التّفكير، وقوَى الحركةِ العقليّةِ والجسديّةِ التي يَسيرون بها في البَرّ والبحر، وبسطَ لهم الأرضَ، وسخّر لهم ما يركبون في البَرّ والبحر، إذن: فكلُّ أمرٍ مرجعُه إلى اللّه سبحانه[4].

معنى: ﴿فِى﴾:

استعمالُ (في) مبالغةٌ في الدّلالة على الاستعلاءِ والاستقرارِ والتّمكّنِ منَ المُسَخَّرِ

أتى حرفُ الجرّ ﴿فِى﴾ في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ بمعنى الاستعلاء؛ لأنّ الظّاهرَ هو العُلوُّ على الأرض والفُلكِ، أي يُسيّركم على البَرّ والبحر، وإنّما أعرضَ عن ذكر حرفِ

(1) السمين الحلبي، الدرّ المصون: 6/168.
(2) محمد محيسن، المغني في توجيه القراءات العشر: 3/227.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/135، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 7/3544.
(4) الشّعراوي، تفسير الشّعراوي: 10/5844.

الاستعلاءِ وهو (على)، وعدلَ عنه إلى حرف الوعاء وهو (في)؛ إعلامًا بأنّ حرف الوعاءِ أقعدُ وأمكنُ ههنا من حرف الاستعلاء؛ لأنّ (على) قد تُشعر بالاستعلاء من غير تمكّنٍ واستقرارٍ، و(في) تُشعر ههنا بالاستقرارِ والتّمكّنِ، ومن حقّ ما يكون مُستقِرًا فيه متمكِّنًا أنْ يكونَ مُستعليًا له، فلمّا كانت تُؤْذنُ بالمعنيَيْن جميعًا آثرَها وعدلَ إليها، وأعرضَ عن (على) دَلالةً على المبالغة التي ذكرناها[1].

معنى(أل) في: ﴿ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۖ﴾:

(أل) التّعريف في قوله تعالى: ﴿ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۖ﴾ جنسيّةٌ استغراقيّةٌ؛ تفيدُ العمومَ، أي: أنَّ تسخيرَه البَرَّ والبحرَ للإنسان عامٌّ شاملٌ، فلا يقتصرُ على بحرٍ دونَ بحرٍ، ولا مكانٍ في البرّ دون آخرَ، ولا على زمانٍ دونَ زمانٍ، أي: في كلّ وقتٍ وفي كلّ زمانٍ تسيرون فيه سيرًا عظيمًا لا تَقدرون الانفكاكَ عنه[2].

من تمامِ النِّعمةِ أن يكونَ تسخيرُ البَرّ والبحرِ عامًّا شاملًا

نُكتةُ تقديم البَرّ على البحر: ﴿ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۖ﴾:

السّيرُ في البرّ والبحر كلاهما مختلفٌ، وقد قدَّم القرآنُ البَرّ على البحر في قوله تعالى: ﴿يُسَيِّرُكُمۡ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۖ﴾؛ لأنّه الأنسبُ للسّياق الذي هو الامتنانُ؛ فنعمةُ التّسيير في البَرّ أكثرُ وأكبرُ وأعمُّ؛ فهي لكلّ النّاسِ بخلاف التّسيير في البحر الذي هو للبعضِ فقط، كما أنّ الإنسانَ حين يسيرُ في الأرض على اليابسة قد تنقطعُ به السُّبلُ، ولكنّ الخطورةَ أخفُّ فيُمكنُه أنْ يَستصرخ أحدًا منَ المارّة، أو يستريحَ وينتظرَ إلى أن يمرَّ عليه من يعاونُه، أمّا السّير في البحر فخطورتُه أكبرُ وأكثرُ؛ فلا توجدُ به سابلةٌ أو سالكةٌ كثيرةٌ؛ حتى يستصرخَهمُ الإنسانُ[3].

تقديمُ النِّعمةِ الأهــمِّ والأعــمِّ والأكثرِ في سياق الامتنانِ أَوْلى

(1) المؤيد بالله، الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز: 2/32.
(2) البقاعي، نظم الدّرر: 9/98.
(3) الشّعراوي، تفسير الشّعراوي: 10/5847.

نُكتةُ تخصيصِ ذكْرِ مثالِ البحر دون البَرّ:

لما كانتِ الخُطورةُ في البحر أشدَّ كانت نِعمةُ الإنجاءِ فيه أكبرَ

خصَّ القرآنُ البحرَ بالذّكرِ في سياقِ الحديثِ عن نعمة الإنجاءِ بعد الخوف دونَ البَرّ، لأنّ خطورته أشدُّ والعطبَ بأحواله أظهرُ، وبالتّالي السّيرُ فيه من أكبر الآياتِ، ونعمةُ الإنجاء فيه من أوضح البيّناتِ[1]، فالحديثُ عن إزالة الخطرِ للمُضطرّ في البحر يتضمّنُ الحديثَ عن إزالتِه عمّن يسيرُ في البَرّ من بابٍ أَولى، فإذا ما جاء الدّليلُ الأقوَى فلا بدَّ أن ينضويَ فيه الدّليلُ الأقلُّ[2].

فائدةُ التّعبير بـ﴿حَتَّىٰٓ﴾ ودلالةُ ما يأتي بعدها:

مَجيءُ الرّيحِ العاصفِ هو غايةُ التّسيير الهنيءِ المُنعَمِ به

﴿حَتَّىٰٓ﴾ في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ﴾ تحتملُ وجهَين:

الأوّل: حرفُ غايةٍ للتّسيير، ولا يُؤثّرُ جعلُ قولِه سبحانه: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ﴾ غايةً للتّسيير في البحر مع أنَّه مقدّمٌ عليه، وغايةُ الشّيء لا بدّ أن تكونَ مُتأخّرةً عنه؛ لأنّه لا إشكالَ في جعْلِ ما ذُكرَ غايةً لما قبلَه، ووجهُ الغايةِ أَنّ المعنى: يُسيرّكم في البَرّ والبحر إلى وقت حصولِ شدّةِ البحر، والظّنِّ والدّعاءِ، والرّجوعِ إلى الكفر، أَو يُمكّنُكم منَ السّير حتى يحصلَ ذلك المذكورُ في قوله: ﴿إِذَا كُنتُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ﴾.

الثّاني: ابتدائيّةٌ تفريعيّةٌ لا للغاية، ولو تضمّنَ التّفريعُ معنى الغاية كأنّه قيل: فإذا كنتم في البحر واشتدّ أَمرُه عليكم، وظننتُم أَنّكم هَلكَى دعوتمُ اللّه، فإذا أَفرجَ عنكمُ اللّه رجعتُم إلى الشّرك.

ومعنى الغاية أنّ مجيءَ الرّيحِ العاصفِ هو غايةُ التّسيير الهنيءِ المنْعَم به؛ إذ حينئذٍ ينقلبُ التّسييرُ كارثةً ومصيبةً.

معنى ﴿إِذَا﴾، ونُكتةُ اختيارها:

استعمالُ (إذا) دَلالةٌ على قطْعيّةِ ما يُخبرُ اللّه بهِ من حالهِمُ الباغيةِ الغادرةِ

عبّرَ القرآن الكريمُ بحرف الشّرطِ ﴿إِذَا﴾ في قوله تعالى: ﴿إِذَا كُنتُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ﴾ دونَ (إنْ)؛ لأنّ الأصلَ في استعمالِ (إذا) أنْ تدخلَ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 9/98.
(2) الشّعراوي، تفسير الشّعراوي: 10/5848.

على الذي تُيقِّن وقوعُه أو رُجّح، والأصلُ في استعمالِ (إنْ) أن تدخلَ على المشكوكِ فيه، وبناءً على ذلك فإنّ استعمالَ (إذا) ناسبَ قطعيّةَ ما يُخبرُ اللّه به عن مرحلةٍ من مراحلِ إخبارِ اللّه ﷻ عنِ المعاندين لدعوةِ الإسلامِ، وعن حالِهم الباغيةِ الغادرةِ.

بَلاغةُ التّعبيرِ بالجملةِ الشَّرطيّةِ:

عبَّرَ القرآنُ في ضرب هذا المثلِ بالجملةِ الشّرطيّةِ، وضمّنَها ثلاثةَ قيودٍ في شرطِها، وثلاثةَ قيودٍ في جزائِها، أمّا القيودُ المعتبرةُ في الشّرط فأوّلها: الكونُ في الفُلْك، وثانيها: جريُ الفلك بالرّيح الطيبّةِ، وثالثُها: فرحُهم بها، وأمّا القيودُ المعتبرةُ في الجزاء، فأولها: قوله تعالى: ﴿جَآءَتۡهَا رِيحٌ عَاصِفٞ﴾، وثانيها: قولُه: ﴿وَجَآءَهُمُ ٱلۡمَوۡجُ مِن كُلِّ مَكَانٖ﴾، وثالثُها: قولُه: ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ أُحِيطَ بِهِمۡ﴾ والمرادُ: أنّهم ظنّوا القُربَ منَ الهلاك، وأصلُه أنّ العدوَّ إذا أحاط بقومٍ أو بلدٍ فقد دنَوا منَ الهلاك[1]، وفي هذا استحضارٌ لصورة الماضي المكرّرِ منزلةَ الحاضرِ المشاهَدِ.

استِحْضارُ الماضي المكرَّرِ منزلةَ الواقعِ المشاهَدِ يشيرُ إلى حِلْمِ الله

معنى (أل) في: ﴿ٱلۡفُلۡكِ﴾:

الفُلك: اسمٌ لمَركَب البحر، وهو اسمُ جمعٍ له بصيغةٍ واحدةٍ، يُطلقُ على الواحدِ فما فوق، أي استوى في اللّفظ المفردُ والجمعُ، والمراد هُنا الجمعُ بدليل: ﴿وَجَرَيۡنَ﴾.

الجمعُ المعرَّفُ بأل يُفيدُ العُمومَ

و(أل) التّعريفِ في كلمة الفُلك جنسيّةٌ استغراقيّةٌ، ومعلومٌ أنَّ الجمعَ المعرّفَ بأل الجنسيّةِ الاستغراقيّةِ يُفيدُ العمومَ، لتشملَ نعمةُ التّسيير في البحر حملَهم في أيّ فُلكٍ واستقرارَهم عليه.

معنى الواو في: ﴿وَجَرَيۡنَ﴾:

الواو في قوله تعالى: ﴿وَجَرَيۡنَ﴾ تحتملُ وجهَيْن:

تعدّدُ صوَرِ النّعيمِ وتَنوّعُه من أعلى صوَرِ الامتنانِ

أحدُهما: أن تكونَ عاطفةً، والمعطوفُ عليه هو قولُه سبحانه:

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 17/235.

﴿كُنتُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ﴾، والمعنى على هذا الوجهِ: حتى إذا كنتُم في الفُلك، وجرت بالنّاسِ بريح طيّبٍ، وفي هذا العطفِ زيادةُ بيانِ النّعمِ؛ فمع نعمةِ الحملِ في الفُلك والاستقرارِ عليها تأتي نعمةُ السّير السّريعِ للفُلك التي تتحرّكُ رخاءً.

الآخرُ: أن تكون الواو حاليّةً؛ والمعنى: حتى إذا كنتُم في الفُلك حالَ جَريانِها بالنّاس بريحٍ طيّبةٍ[1].

معنى الباء في: ﴿بِهِم﴾:

الباءُ تشيرُ إلى نعمةِ السّيرِ الآمنِ للرّاكبين في الفُلك؛ فهم مُصاحِبون لها

الباءُ في قوله تعالى: ﴿وَجَرَيۡنَ بِهِم﴾ تحتمل معنيَيْن:

الأوّل: التّعْديةُ؛ إذ تتعلّقُ الباءُ بـ ﴿وَجَرَيۡنَ﴾ تعلُّقَها بالمفعول نحوَ: مررتُ بزيد، أي (وأَجريناهم)؛ لأَنّ إطلاق الجرْيِ عليهم مجازٌ، لأنّها الجاريةُ.

الآخرُ: الباءُ للمصاحبة، أي جرت وهم فيها، أي مصاحبين لها.

وسواء كانت للتّعدية، أوِ المصاحبة فإنّ الإلصاقَ لا ينفكُّ عنها في المعنَيَيْن، والمعاني كلُّها تشيرُ إلى تحقُّقِ نعمةِ السّيرِ السّريع الآمنِ باتّجاه مقصدِهم.

بَلاغةُ التّعبيرِ بـ ﴿بِهِم﴾ بضمير الغيْبةِ بين الالتفاتِ والحقيقةِ:

فنٌّ من الإبداعِ في الإيجازِ بعرْضِ المشاهدِ الماضيةِ

الخطاب للذين يمكرونَ في آيات اللّه، الذين قد لا يكونون ممنّ ركِبوا البَحْرَ، وتعرَّضوا لمثل ما وصفَ النّصّ بعد ذلك، لكنّهُم لو تعرّضوا لمثلِه لكان حالُهُم مثلَ حالِ مَن وصفَهمُ اللّه، فاقتضى ذلك تشبيهَ حالِهم بحالِ أمثالِهم السّابقين لهم حكايةَ قِصّةٍ مِن قِصَص الكافِرين السّابقين، ولهذا توقّفَ النّصُّ عند الفِقْرةِ الأولى المتعلّقةِ بشأن المخاطَبين إبّانَ التّنزيل وبَعْدَه: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ﴾، وانتقَل مباشَرةً إلى تصوير مَشْهَد قومٍ كافِرينَ جرَتْ بهِمُ الفُلْكُ

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 6/34.

بريحٍ طيّبةٍ، باستخدام ضمير الغَيبةِ ﴿بِهِم﴾ وأسلوبِ الالتفات؛ فقال اللّه ﷻ بأسلوب حكايةِ خَبَرٍ عن حدَثٍ مضى: ﴿وَجَرَيْنَ بِهِم﴾.

واكتَفَى النّصُّ بالمقدّمة الّتي وُجّهتْ للمخاطَبين، عن ذكْرِ نظيرها ممّا يخصُّ المتحدَّثَ عنهم بالغيبة، فكأنّه قال لهم: فسيكون حالُكُم كحال كافرين قبلَكم ركبوا في الفُلْكِ.

وحصل الاكتفاءُ بإشارةِ قول اللّه للمخاطَبين: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِي ٱلْفُلْكِ﴾ عن أنْ يقول لهم: (إنّكُم لو تعرَّضْتُم لمثل ما تعرّض له أصحابُ هذه القصّة لكنتُم مثلَهُم، للتّشابُه بينكُم وَبينَهم في أصلِ الفِطرَةِ، وفي الدّوافع إلى الكفرِ والبغْيِ).

وهذا فنّ منَ الإبداع في الإيجاز بعرْضِ المشاهدِ الماضيةِ مع الإشارة التّعريضيّةِ الضِّمنيّةِ إلى أنّ المخاطَبين مثلُ أصحابِ هذه المشاهدِ.

نُكتةُ التّنكيرِ في: ﴿بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾:

ريحٌ فَخمةٌ لطيفةٌ مُلائمةٌ لقصْدِهم تحملُ الرَّخاءَ الآمنَ والسُّرورَ الشّاملَ

ذكرَ القرآنُ الكريمُ مُفردةَ الرّيحِ في قوله: ﴿بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾ بصيغة التّنكير؛ لما في التّنكير من معانٍ توضّحُ النّعمَ التي امتنّ اللّه بها على الإنسان بما يُغني عنِ التّفصيل؛ ذلك أنَّ التّنكيرَ في (ريحٍ) يفيدُ التّفخيمَ والتّكثير، أي اجتمعَ لهم مع تسخير البحرِ، والحملِ في الفُلك ريحٌ فخمةٌ، ومع قوّتِها لطيفةٌ تحملُ الأمنَ والسّرورَ بتحقيق ما يطلبونَه منَ الوصولِ إلى مقصدِهم مع الشّعورِ بالمتعةِ بها، وهي كثيرةٌ تستوعبُ كلَّ مراحلِ الارتقاء في صناعةِ السُّفنِ، وتنسجمُ مع كلِّ تسْييرات البحر، خصوصًا وأنّ كلمةَ الرّيح قد وردت في القرآن الكريم بمعنى القوّة أيًّا كانت: من هواءٍ، أو مُحرّكٍ يسيرُ بأيّة طاقةٍ، قال سبحانه: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ [الأنفال: 46].

غرَضُ وصْفِ الرّيح بأنّها طيّبةٌ في: ﴿بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾:

ريحٌ شديدةٌ ملائمةٌ لحالِ الفُلكِ وحالِ الرّاكبين وطِيبِ أمنِهم وسرورِهم

وصفَ البيانُ القرآنيُّ الرّيحَ بأنّها طيّبةٌ في قوله تعالى: ﴿بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾، وغرَضُه من ذلك دفعُ وإزالةُ التّوهُّم أنْ تكونَ ريحًا عاصفةً؛ بل هي ممّا يُفرحُ بها لِطِيبِها؛ لأنّ من عادة القرآن أنّه حيث كانت في سياقِ الرَّحمةِ أتتْ مجموعةً، وحيثُ وقعتْ في سياقِ العذابِ أتتْ مُفردةً، إلّا أنَّ هذا لم يطَّرد هنا، ولهذا وصفَ سبحانه الرّيحَ التي أرسلَها عليهم بأنَّها طيّبةٌ[1].

كما أنّ فيها دَلالةً على تمام النّعمةِ؛ إذِ الطَّيّبُ هو الموصوفُ بالطِّيب الشّديدِ، وأَصلُ مَعنَى الطَّيِّب المُلاءَمةُ فيما يُرادُ منَ الشَّيءِ، كقوله تعالى: ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ [النحل: 97]، ويقال: طاب له المقامُ في مكانِ كذا[2]، أي إنّها ريحٌ شديدةٌ فيها طيبُ الرائحة، وطيبُ الملاءَمة لحال الفُلك، وحالِ الرّاكبين، ومقاصدِهم، وطيّبُ الأمنِ الذي تُحقّقُه بأمر الله سبحانه.

فائدةُ إفرادِ لفظةِ الرّيحِ في موضع الإنعامِ في: ﴿بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾:

جمالُ المقابلةِ مع الملاءَمة كان تمامَ المعنَى

أفردَ البيانُ الإلهيُّ لفظَ الرّيح في قوله تعالى: ﴿بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾ لوجهَيْن:

الأوّل: لفظيٌّ وهو المقابلةُ؛ لأنّ قوله تعالى: ﴿بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾ جاء في مقابلة قولِه سبحانه: ﴿جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ﴾.

الثّاني: معنويٌّ، وهو أنّ تمامَ الرّحمةِ تقتضي هنا وَحدةَ الرّيح؛ فإنّ السفينةَ لا تسير إلّا بريحٍ واحدةٍ، ولوِ اختلفت عليها الرّياحُ، وتصادمَت وتقابَلَت هلكتْ، فالمطلوبُ هنا ريحٌ واحدةٌ لا رياحٌ، ولذا أُكّدتِ الرّيحُ بوصْفِ الطَّيّبةِ[3].

(1) ابن القيم، بدائع الفوائد: 1/118، والسيوطي، الإتقان في علوم القرآن: 2/356.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/137.
(3) السيوطي، الإتقان في علوم القرآن: 2/357.

معنى الواو في: ﴿وَفَرِحُواْ﴾:

الواو في قوله تعالى: ﴿وَفَرِحُواْ بِهَا﴾ تحتمل وجهَيْن:

أحدُهما: أن تكون عاطفةً، والمعطوفُ عليه هو قولُ الله سبحانه: ﴿وَجَرَيْنَ بِهِم﴾، والمعنى على هذا الوجه: (وجرت الفُلْك بالنّاس وفَرِحوا بالرّيح الطّيّبةِ التي يسيرون بها).

الآخرُ: أن تكون الواو حاليّةً؛ والمعنى على هذا الوجه: (وجرين بهم بريحٍ طيّبةٍ قد فرحوا بها)[1].

الواو بين العطْفِ والحالِ

معنى الباء في: ﴿بِهَا﴾:

الباء في قوله تعالى: ﴿وَفَرِحُواْ بِهَا﴾ للسّببيّةِ، والمعنى: وفرحوا بسببِ تلك الرِّيح وبالفُلك الجاريةِ بها.

دَلالةُ حرفِ الباء على السّببيّةِ بيانٌ لأثَرِ النِّعمِ وترتُّبِها على بعضِها

نُكتةُ ترْكِ العطْفِ في: ﴿جَآءَتْهَا﴾:

لم يَعطفِ القرآنُ قولَه تعالى: ﴿جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ﴾ على الجملةِ التي قبلَها ﴿وَفَرِحُواْ بِهَا﴾؛ لأنّها جاءت جوابَ (إذا) الشّرطيّةِ في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِي ٱلْفُلْكِ﴾، وأمّا قولُه: ﴿دَعَوُاْ ٱللَّهَ﴾ فهو بدلٌ من ظنّوا؛ لأنّ دعاءَهم من لوازم ظنِّهم الهلاكَ[2]، ومَجيءُ هذه الجملة جوابًا لفعْلِ الشّرطِ في سياقِ الالتفات، والانتقالِ من مقام حضورٍ في بدايتها ﴿إِذَا كُنتُمْ فِي ٱلْفُلْكِ﴾ إلى مقام الغيبةِ في جوابها ﴿جَآءَتْهَا﴾ بتلك السّرعةِ الفُجائيّةِ، مع ما تحملُه صيغةُ هذا الجواب ﴿جَآءَتْهَا﴾ وما عُطفَ عليه ﴿وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ﴾ و﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ﴾ كلُّ ذلك يُصوِّرُ مشهدَ حربٍ، كلُّه رعْبٌ في الرّيح المدمِّرةِ، والموجِ الذي أحاط بهم من كلّ اتّجاهٍ فلا مفرَّ منَ الموت.

في الاستئنافِ البيانيِّ تصويرُ مشهدِ الرُّعبِ في الرّيحِ القويّةِ المدمّرةِ والموْجِ القاتلِ

عودُ الضّمائرِ في ﴿جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ﴾:

ذكرَ المفسّرون في عوْدِ الضّمير في قوله: ﴿جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ﴾ قولَيْن:

الضّمائرُ وعودتُها إلى الفُلْك أوِ الرّيحِ الطّيّبةِ يَرسمُ مشهدَ حربٍ تحملُ الهلاكَ

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 6/34.

(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 17/234.

الأوّلُ: الضّميرُ عائدٌ إلى الفُلْك، ولا إشكالَ في كوْنِ الضّمير هنا هو ضميرَ الواحد، والضّميرِ في ﴿وَجَرَيْنَ بِهِم﴾ العائدِ إلى الفُلْك هو ضميرَ الجمعِ؛ لأنّ لفظَ الفُلْك يصلحُ للواحد والجمعِ، فحَسُنَ الضّميران، وقد رجّحَه أبو حيّانَ، قال: "والظّاهرُ عوْدُ الضّمير في ﴿جَآءَتْهَا﴾ على الفُلْك؛ لأنّه هو المحَدَّثُ عنه في قوله: ﴿وَجَرَيْنَ بِهِم﴾"[1].

الثّاني: الضّميرُ عائدٌ إلى الرّيح الطَّيّبةِ المذكورةِ في قوله: ﴿وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾، وقد قاله الفرّاءُ وبدأ به الزّمخشريُّ[2]، والمعنى: عارضتْها ريحٌ مضادّةٌ لها فذهبتْ هي، فإنّ العاصفةَ ضدُّ اللّيّنةِ، وهذا أَولى من عوْدِه إلى الفُلْك؛ لقُربِ الرّيحِ، ولتقدُّمِ الإضْمارِ له في قوله ﴿بِهَا﴾، ولأنّه لم يقلْ (جاءَتهن) كما قال ﴿وَجَرَيْنَ﴾.

نُكتةُ التّنكيرِ في: ﴿رِيحٌ﴾:

ريحٌ قويةٌ شديدةٌ تحملُ الرُّعبَ والهلاكَ

ذكرَ القرآنُ الكريمُ مُفردةَ الرّيحِ في قوله: ﴿رِيحٌ عَاصِفٌ﴾ بصيغة التّنكير؛ لِما في التّنكير من معانٍ توضّحُ العذابَ الذي نزلَ بهم بما يُغني عنِ التّفصيل؛ ذلك أنَّ التّنكيرَ في ﴿رِيحٌ﴾ يفيدُ التّفخيمَ والتّكثيرَ، أي جاءت سُفنَهم، أوِ الرّيحَ الطّيّبةَ ريحٌ قويّةٌ كثيرةٌ عاصفةٌ حرّكتِ الأمواجَ، وأهاجتْها من كلّ مكانٍ، وزرعت في قلوبِهم الرّعبَ، ويقينَ الهلاكِ.

غرَضُ وصْفِ الرّيحِ بأنّها عاصفٌ في: ﴿رِيحٌ عَاصِفٌ﴾:

العاصفُ ريحُ عذابٍ شديدةُ الخِفّةِ والسّرعةِ تَستخفُّ الأشياءَ فتعصفُ بها

وصفَ البيانُ القرآنيُّ الرّيحَ بأنّها عاصفٌ، ولم يَستخدم وصْفًا آخرَ كشديدةٍ أو قويّةٍ أو سريعةٍ؛ إشارةً إلى اتّساعِ دَلالةِ كلمة: ﴿عَاصِفٌ﴾ فهي تدلُّ على الشّدّةِ والخفّةِ والسّرعةِ، "عصفت الرّيحُ اشتدّت، وأصلُ العصْفِ السّرعةُ، كما أنّه استعمل اسْمَ الفاعل ﴿عَاصِفٌ﴾ مراعاةً للفْظِ الرّيح المذكّرِ، ولأنّه يُرادُ ذاتُ عصوفٍ،

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 6/34.

(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 17/234، وأبو حيان، البحر المحيط: 6/34.

وذلك نظيرُ قولِ العرب للرّجل يكون عنده تمرٌ كثيرٌ: رجلٌ تامرٌ[1]؛ أي عنده تمرٌ كثيرٌ، والمعنى ريحٌ مدمّرةٌ مُغرقةٌ لا خيرَ فيها بل عذابٌ شديدةُ الهبوب ذاتُ خِفّةٍ وسرعةٍ، تستخفُّ الأشياءَ فتعصفُ بها أي: تذهبُ بها.

معنى الواو في: ﴿وَجَآءَهُمُ﴾:

الواو في قولِه تعالى: ﴿وَجَآءَهُمُ ٱلۡمَوۡجُ﴾ عاطفةٌ، والمعطوفُ عليه هو قول الله سبحانه: ﴿جَآءَتۡهَا رِيحٌ عَاصِفٞ﴾، والمعنى العامُّ الذي يجمعُ المعطوفَ والمعطوفَ عليه هو أنّ كلَيْهما منَ القيودِ المعتبرةِ في الجزاء، فهُما من أفراد العذابِ الذي قدّره الله عليهم، وإنْ كان عذابُ كلٍّ منهما يختلفُ عنِ الآخر، فلكلٍّ منهما دورُه في زرع الخوفِ في القلوب.

العطفُ زيادةُ بيانٍ للعذابِ الذي نَزلَ بهم

بَلاغةُ المجازِ في إسنادِ المجيءِ إلى الموج: ﴿وَجَآءَهُمُ ٱلۡمَوۡجُ﴾:

إسنادُ المجيءِ إلى الموجِ في قوله تعالى: ﴿وَجَآءَهُمُ ٱلۡمَوۡجُ﴾ مجازٌ؛ هو مجازٌ لغويٌّ؛ إذِ المجيءُ يحتاجُ إلى إرادةٍ، ومن وراء الإرادةِ قصْدٌ، والموجُ منَ الجمادات ليس له إرادةٌ، وغرَضُ ذلك تشخيصٌ للموج وتعقيلُه، وكأنّه عاقلٌ مُدركٌ، بما يفيدُ المبالغةَ في قوّة المجيءِ وسُرعتِه وشدّةِ إحاطتِه كالعدوِّ يحيطُ بالقبيلة، ويُطوّقُهم فلا مفرَّ ولا نجاةَ.

تصويرٌ يُظهرُ قوّةَ مجيءِ الموجِ وشدّتَه وسُرعتَه في الإحاطةِ بهم

معنى (أل) في: ﴿ٱلۡمَوۡجُ﴾:

أل التّعريف في قوله تعالى: ﴿وَجَآءَهُمُ ٱلۡمَوۡجُ﴾ عهديّةٌ، والعهدُ فيها ذهنيٌّ، والمعنى: وجاءهم الموجُ المعروفُ لكلِّ أحدٍ بالرّؤية أوِ الوصْفِ[2]، وهو الموجُ الذي يحملُ الإضرارَ والهلاكَ، لا جنسُ الموجِ الذي يشملُ الهادئَ والعنيفَ.

العَهديّةُ في لامِ التّعريف استحضارُ صورةِ مَوجٍ مُخيفٍ عرفوه رُؤيةً أو وصْفًا

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 17/235.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 9/98.

معنى ﴿مِن﴾:

﴿مِن﴾ في قوله تعالى: ﴿مِن كُلِّ مَكَانٍ﴾ ابتدائيّةٌ، والابتداءُ الذي تفيدُه ابتداءُ الأمكنةِ المتّجهةِ إلى الفُلك[1]، أي: ابتداءٌ من كلِّ مكانٍ يمكنُ أنْ يجيءَ الموجُ منه، فالاستغراقُ هنا عُرفيٌّ وليس حقيقيًّا[2].

واستعمالُ ﴿مِن﴾ مع لفظ ﴿كُلِّ﴾ يُنبئُ بإحكامِ الحصارِ حولَهم؛ إذ ليس مقصدُ الآية تحديدَ سببِ الهلاك، وإلّا لكانت موجةٌ واحدةٌ من مكانٍ واحدٍ كفيلةً بإغراقِهم جميعًا، ولكنّ المقصودَ بيانُ أنَّ المنافذَ الممكنةَ كلَّها قد سُدّت، ولم يَتركِ الموجُ للخيال فُسحةً أنْ يَتصوّرَ جهةً ما، تأتي منها إغاثةٌ، ولو على سبيل الفرْضِ والوهمِ، ولم يبقَ إلّا التّوحيدُ.

كلُّ المنافذِ الممكنةِ قد سُدّتْ ولم يبقَ للنّجاةِ إلّا التّوحيدُ

معنى الواو في: ﴿وَظَنُّوٓاْ﴾:

الواو في قوله تعالى: ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ أُحِيطَ بِهِمۡ﴾ عاطفةٌ، والمعطوفُ عليه هو قولُه سبحانه: ﴿وَجَآءَهُمُ ٱلۡمَوۡجُ﴾، وبهذا العطْفِ تكتملُ صورةُ نزولِ العذابِ بهم منَ الرّيح المدمّرةِ، والموجِ الذي جاءَهم من كلّ جهةٍ لتكتملَ بيقينٍ صورةُ الهلاكِ.

العطفُ زيادةُ بيانٍ واستكمالٌ لمشهدِ نُزولِ العذابِ

معنى الظّنِّ وبيانُ مفعولَيْه:

ذكرَ المفسّرون في بيان معنَى الظّنّ في قوله تعالى: ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ أُحِيطَ بِهِمۡ﴾ أقوالًا:

الأوّلُ: المرادُ منه المقاربةُ منَ الهلاك والدّنوُّ منه والإشرافُ عليه[3].

الثّاني: بمعنى اليقين، أي وأيقنوا أنّه الهلاكُ[4].

الثّالث: وظَنّوا على بابه في الظّنّ، لكنّه ظنٌّ غالبٌ مُفزعٌ بحسب أنّه في محذورٍ[5].

الإحاطةُ بهم ثابتةٌ ومُستمرّةٌ وظنُّهم بها ظنٌّ مؤكّدٌ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/137.
(2) القونوي وابن التمجيد، حاشية على تفسير البيضاويّ: 9/428.
(3) الخازن، لباب التأويل: 2/436.
(4) البغوي، معالم التنزيل: 2/425، والبقاعي، نظم الدرر: 9/98.
(5) ابن عطية، المحرر الوجيز: 3/113.

وقد رجّحَ الماتريديّ كوْنَ المرادِ غالبَ الظّنّ لا اليقينَ، ولكنّه يُعاملُ معاملةَ اليقين ويأخذُ حُكمَه، ألا ترَى أنّ اللّه أباح الميتةَ في حال الضّرورةِ لغالب الظّنّ؛ إذ قد يجوزُ ألّا يَهلكَ بذلك[1].

والتّعبيرُ بالظّنّ رغْمَ أنّ المرادَ به اليقينُ؛ للإشارة إلى أنّه ما زال عندهم أملٌ بالنَّجاة دفعَهم للدّعاء، وكذلك حرْصُهم على الدّنيا وتمسّكُهم بها، قال تعالى: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ﴾ [البقرة: 96].

والمصدرُ المُؤوّلُ من أنّ وما بعدها ﴿أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ﴾ سدّت مَسدَّ مفعولَيْ (ظنّ)[2]، وقد عدلَ البيانُ القرآنيُّ عنِ التّعبير بالمصدرِ المُؤوّلِ (الإحاطة) إلى الجملةِ الاسميّةِ ﴿أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ﴾ التي تفيدُ الثّباتَ والاستمرارَ؛ للدّلالةِ على أنّ الإحاطةَ بهم ثابتةٌ ومُستمرّةٌ لا مهربَ منها، بما يفيدُ أنّ ظنَّهم كان ظنًّا مؤكّدًا جدًّا.

دَلالةُ التّعبيرِ بالإحاطةِ:

مَشهدُ حصارٍ أحاطَ بهم ليس لهم منهُ نجاةٌ وكأنّه حربٌ

عبّرَ القرآنُ بلفظِ الإحاطةِ من حيثُ مادّتُها وبناؤُها في قوله: ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ﴾ دون غيرِها، كالحصارِ مثلا، لاتّساعِ دَلالةِ هذه المادّةِ التي تعني عدمَ وجودِ مَنفذٍ للفرار؛ ولذلك نجدُ الحقَّ سبحانه يتكلّمُ عنِ الكافرين بقوله: ﴿وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ١٩﴾ [البقرة: 19]، أي: ليس هناك مَنفذٌ يُفلتون منه[3]، والمعنى: أحاطَ بهمُ البلاءُ من كلّ ناحيةٍ[4]، كما أنّ كلمةَ (الإحاطة) مرتبطةٌ في الوِجدان العربيِّ بأجواءِ الحروبِ والغارات، قال القرطبي مذكِّرًا بالأصل الحَماسيِّ للكلمة: "وأصلُ هذا أنّ العدوَّ إذا أحاط بموضعٍ فقد هلكَ أهلُه"[5]، إذن: من شأن التّعبير بالإحاطةِ أنْ توجّهَ المتلقّي

(1) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 6/28.
(2) الخازن، لباب التأويل: 2/436.
(3) الشّعراوي، تفسير الشّعراوي: 10/5852.
(4) سيد طنطاوي، التفسير الوسيط: 7/50.
(5) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 8/325.

إلى استحضارِ صورةِ معركةٍ، جنودُها الرّيحُ القويّةُ المدمّرةُ والموجُ الذي يُحدقُ بهم ويُطوّقُهم من كلّ مكانٍ بأمرِ اللّه سبحانه.

أمّا الصّيغة فقد جاءت مبنيّةً للمفعول ﴿أُحِيطَ﴾ لأنّ المخوِّفَ كان الهلاكَ، لا كونَه من معيَّنٍ[1]، فكان التّركيزُ عليه، وصُرِفَ الحدثُ عمدًا عن مُحدِثه، فلم يُسندْه إليه، تركيزًا للانتباه على الحدثِ ذاتِه، أي: المفعول وهو الإحاطةُ بهم، وحصْرُ الوعيِ فيه، فلا يتوزّعُ في غيرِه، لعدمِ تعلُّقِ غرَضِ الآيات بالمحيط.

كما أنّ هذه الصّيغةَ تشيرُ إلى العموم؛ إذ لو ذُكرَ الفاعلُ لاقتصرَ عليه، ولكنْ بهذه الصّيغةِ شملَ الفاعلُ الموجَ والرّيحَ والفُلكَ الذي يركبونَه، وما يحملُه من أُناسٍ وأمتعةٍ وغيرِ ذلك، فقد تجسّدَ الهلاكُ فيها كلِّها.

بَلاغةُ الاستعارةِ في التّعبيرِ بالإحاطةِ في: ﴿أُحِيطَ بِهِمْ﴾:

استعارةُ الإحاطةِ للتَّعبيرِ عنِ الهلاكِ وتصويرِه وكأنّه مشْهدٌ تمثيليٌّ

إنّ الإحاطةَ في قوله تعالى: ﴿أُحِيطَ بِهِمْ﴾ استعارةٌ لسدِّ مسالكِ الخلاصِ تشبيهًا له بإحاطةِ العدوّ، فالعربُ يقولون: أحاطَ العدوُّ بالقبيلة إذا تمكّن منها وغلبَها، لأنّ الإحاطةَ بها تدلُّ على الإحداق بها وتطويقِها، ولمّا كان ذلك هزيمةً وامتلاكًا لها صار ترتيبُ ﴿أُحِيطَ بِهِمْ﴾ استعارةً تمثيليّةً للهلاك[2]؛ إذ شُبّهتِ الهيئةُ المنتزَعةُ من شدّةِ هبوبِ الرّيحِ العاصفِ وظُهورِ الموجِ من كلّ مكانٍ، وحركةِ السّفنِ حركةً شديدةً بالهيئةِ المُنتزَعةِ منَ العدوِّ وإحاطتِه بشخصٍ من جميعِ جهاتِه بحيث لا يُرجَى خلاصُه، فاستُعملَ اللَّفْظُ المركّبُ الموضوعُ للهيئةِ المشبَّه بها في الهيئةِ المشبَّهةِ[3].

(1) البقاعي، نظم الدرر: 9/98.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/137.
(3) القونوي وابن التمجيد، حاشية على تفسير البيضاويّ: 9/429.

نُكتةُ الفصْلِ ﴿دَعَوُاْ ٱللَّهَ﴾:

فَصَلَ البيانُ الإلهيُّ: ﴿دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ عن سابقتِها، ولم يربطْ بينهما بالعاطف؛ لأحد أمرَيْن:

الأوّل: لكوْنِ جملةِ ﴿دَعَوُاْ ٱللَّهَ﴾ بدلًا من ﴿ظَنُّواْ﴾ بدلَ اشتمالٍ لِما بينهما منَ الملابسةِ والتّلازُم؛ ذلك لأنّ دعاءَهم من لوازمِ ظنِّهم الهلاكَ فهو مُلتبّسٌ به، أي أنّ بين الجملتين كمالَ اتّصالٍ.

أو لكونِها استئنافيّةً مبنيّةً على سؤال يخطرُ بالذّهن وهو: فماذا صنعوا؟ فقيل: دعَوا اللّه[1]، أي أنّ بين الجملتين شبْهَ كمال اتّصالٍ.

ظنُّهُمُ الهلاكَ دفعَهُم إلى ارتفاعِ قلوبِهم بالدُّعاءِ

إعرابُ ﴿مُخۡلِصِينَ﴾:

﴿مُخۡلِصِينَ﴾ حالٌ منَ الواو في ﴿دَعَوُاْ﴾[2]، والمعنى: أنّهم لم يدْعوهُ فقط، بل دعَوْه بإخلاصٍ، وأقرّوا بوَحدانيتِه، وألّا شريكَ له أبدًا؛ لأنّهم يعلمون أنّ مثلَ هذا الشّريكِ لن ينفعَهم أبدًا[3]، أي لم يَشوبوا دعاءَهم بشيءٍ منَ الشّوائب، كما جرت عادتُهم في غير هذا الموطنِ أنّهم يُشركون أصنامَهم في الدّعاءِ.

يأسُهُم التّامُّ ويقينُهم بالهلاكِ أيقظَ فطرتَهم بإخلاصِ الدّعاءِ للخالقِ وحدَه

معنى اللّام في: ﴿مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾:

اللّام في قوله تعالى: ﴿دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ والجارُّ ﴿لَهُ﴾ متعلّقٌ بـ﴿مُخۡلِصِينَ﴾، هي لامُ التّبْيين، أي بيّنتِ اللّامُ توجُّهَهم للّه وحده دون أصنامِهم، قال الحسن: مخلصين لا إخلاصَ إيمانٍ لكنْ لأجل العلْمِ بأنّه لا يُنْجيهم من ذلك إلّا اللّه، فيكونُ ذلك جاريًا مجرَى الإيمانِ الاضطراريِّ[4].

خصّوهُ بالألوهيّةِ رُجوعًا إلى الفطرةِ لمّا زالَ عنهم عوارضُها

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 17/235، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/134، ودرويش، إعراب القرآن وبيانه: 4/225.

(2) ابن آجرّوم، مشكل إعراب القرآن الكريم: 1/371.

(3) الشّعراوي، تفسير الشّعراوي: 10/5853.

(4) أبو حيان، البحر المحيط: 6/34.

نُكتةُ تقديمِ شبْهِ الجملةِ ﴿لَهُ﴾:

دُعاؤهمُ اللهَ وحدَه في شدَّتِهم هي إقامةُ الحُجّةِ عليهم ببعضِ أحوالِهم

قدّمَ البيانُ الإلهيُّ الجارَّ والمجرورَ ﴿لَهُ﴾ على المفعول به ﴿ٱلدِّينَ﴾ في قوله تعالى: ﴿مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾؛ لإفادة الحصْرِ والقصْرِ، أي قصَروا وحصَروا دعاءَهم للّه، "مُمحِضِينَ له العبادةَ في دعائِهم، أي دَعَوْه ولم يَدْعوا معه أصنامَهم، وليس المرادُ أنّهم أقلَعوا عنِ الإشراك في جميع أحوالِهم، بل تلك حالتُهم في الدّعاء عندَ الشّدائدِ، وهذا إقامةُ حُجّةٍ عليهم ببعض أحوالِهم"[1]، وتنبيهٌ على غاية قُبحِهم، إذ إنّهم لمّا شارفوا على الهلاكِ دعَوا اللّه دونَ أصنامِهم، ولمّا أنجاهُم وأنعم عليهم أشرَكوا معه أصنامَهم، واعتدَوْا على حقّ الخالقِ وهو أعظمُ اعتداءٍ.

غرَضُ فصْلِ جملةِ: ﴿لَئِنۡ أَنجَيۡتَنَا﴾:

استئنافٌ بيانيٌّ كشَفَ مضْمونَ دُعاءِ المشركين حالَ اضطِرارِهم

فَصَلَ القرآنُ جملةَ ﴿لَئِنۡ أَنجَيۡتَنَا﴾ عنِ الجملة التي قبلَها ﴿دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ ولم يربطْهُما بعاطفٍ؛ لِما بين الجملتَين من كمال اتّصالٍ؛ إذ إنّ الجملةَ الثّانيةَ ﴿لَئِنۡ أَنجَيۡتَنَا﴾ جاءت بيانًا لجملةِ ﴿دَعَوُاْ﴾؛ إذ إنّ مضمونَها هو الدّعاءُ الذي دعَوا به حالَ اضْطرارِهم[2].

فائدةُ دخولِ اللام في ﴿لَئِنۡ﴾:

تأكيدُ وعْدِهم بالقسَمِ إظهارٌ لكمالِ رغبتِهم في الشُّكرِ حرصًا على النّجاةِ

اللام في قوله تعالى: ﴿لَئِنۡ أَنجَيۡتَنَا مِنۡ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ هي لامُ توطئةِ القسَمِ، وغرضُ استعمالِها تأكيدُ وعْدِهم بالشّكرِ إذا أنجاهُمُ اللّه منَ الهلاكِ[3].

فائدةُ المجيء بـ (إن): ﴿لَئِنۡ أَنجَيۡتَنَا﴾:

عبّرَ القرآنُ بحرف الشّرطِ (إنْ) دونَ (إذا) في قوله تعالى:

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/138.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/138.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/138.

﴿لَئِنۡ أَنجَيۡتَنَا مِنۡ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ٢٢﴾؛ للدَّلالةِ على عدمِ صدْقِهم رغْمَ التّأكيداتِ المتواليةِ في قولِهم، بدايةً منَ القَسَم ثمّ نونِ التّوكيد ثمّ (من) الصّلةِ؛ لأنّ الأصلَ في استعمالِ (إن) أنْ تدخلَ على المشكوكِ فيه، أوِ المستحيلِ، أوِ النّادر بخلاف (إذا).

استعمالُ (إنْ) دلالةٌ على عدَمِ صدْقِهم وعلى كشْفِ حقيقتِهم

نُكتةُ التّعبيرِ بالجملةِ الشّرطيّةِ: ﴿لَئِنۡ أَنجَيۡتَنَا﴾:

عبّر القرآنُ في قوله تعالى: ﴿لَئِنۡ أَنجَيۡتَنَا مِنۡ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ حكايةً عنهم بالجملةِ الشّرطيّةِ التي من شأنها أنّها تتعلّقُ بالمستقبل، وبحرف الشّرطِ (إن) الذي يُستعملُ مع المشكوكِ فيه، أوِ النّادرِ، أوِ المستحيلِ، وكان المفترضُ منهم لو صدَقوا في إيمانِهم ودعائِهم ألّا يَشترِطوا، بل أنْ يُسارِعوا إلى الإيمان قبل خروجِ أرواحِهم، عسى أنْ يكفّرَ اللّه خطاياهُم، ولكنْ أبتْ ألسنتُهم إلّا أنْ تفضحَ حقيقةَ ما في قلوبهم.

في الشّرطِ والجزاءِ كشْفٌ لحقيقتِهم التي شأنُها البغيُ والغدْرُ

نُكتةُ التّعبيرِ باسْمِ الإشارةِ ﴿هَٰذِهِۦ﴾:

عبّرَ القرآنُ باسم الإشارةِ ﴿هَٰذِهِۦ﴾ الذي يُستخدمُ للقريبِ؛ للإشارة إلى حالةٍ حاضرةٍ لهم، وهي حالةُ إشرافِهم على الغرَقِ، فالمشارُ إليه هو الحالةُ المشاهَدةُ لهم، وهذا من فائدة الإضْمارِ وعدمِ التّصريح؛ لتشملَ هذه الحالةُ المشاهَدةُ الأمواجَ والرّيحَ والشّدائدَ كلَّها التي يعيشونَها.

الإشارةُ بالقريبِ للتَّنبيهِ على حالةٍ مُشاهَدةٍ لهم؛ وهي إشرافُهم على الغرَقِ

كما أنّه يومئُ إلى أنّ ما وصَلوا إليه منَ الخوفِ والضّعفِ واليأسِ الذي اضطرّهم إلى طلب رفعِ هذه الحالةِ منَ العذاب فقط، ووعدَهم بأنْ يكون دَيدنُهم الشُّكرَ الذي لا ينقطعُ.

وإلى نبضِ الفِطرة بشعورِهم، وأنّ اللّه يراهُم، ويرى ما نزلَ بهم من هذه الحالةِ التي يُشيرون إليها.

معنى اللّام في ﴿لَنَكُونَنَّ﴾:

اللّام في قوله تعالى: ﴿لَنَكُونَنَّ﴾ واقعةٌ في جواب القسَم المقدَّرِ، ومؤكّدةٌ له مع نون التَّوكيدِ الثّقيلةِ؛ لأنّه جوابٌ لقسمٍ مقدّمٍ على الشَّرط الذي حُذف جوابُه؛ لدلالة جوابِ القسَم عليه حسبَ القاعدةِ: إذا اجتمع قسَمٌ وشرْطٌ فالجوابُ للسّابق.

دَلالةُ توالي المؤكّدات في: ﴿لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾:

تَوالي تأكيداتِهم دليلٌ على حالةٍ أيْقَنوا معها أنّه لا مجالَ للنّجاة إلّا بالتّوحيدِ

تميّزَ التّركيبُ في قوله تعالى: ﴿لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ بخصوصيّةٍ واضحةٍ؛ إذ اجتمعت فيه عدّةُ مؤكّداتٍ تُبيّنُ تأكيدَ وعْدِ الكافرين بالشُّكر، أي الإيمانِ والثّباتِ عليه إنْ أنجاهم اللّه من مَهلكةِ البحر، والمؤكّداتُ هي: لامُ توطئة القسَم ﴿لَئِنْ﴾، واللامُ الواقعةُ في جواب القسَم ﴿لَنَكُونَنَّ﴾ ونونُ التّوكيد الثّقيلةُ ﴿لَنَكُونَنَّ﴾[1]، أي كونًا لا ننفكُّ عنه، وكونُ جواب الشَّرط جملةً اسميّةً يُفيد الثّباتَ والدّوامَ؛ فقد عدلَ عن أنْ يقول (لنشكرن) إلى ما في النّظم الجليلِ؛ للمبالغةِ في الدّلالة على الثّبوت في الشُّكر والمثابَرةِ، أي: لَنكونَنّ البتّةَ بعد ذلك أبدًا شاكرين لنِعمك التي من جملتها هذه النّعمةُ التي سألوها[2]، وكذا التّعبيرُ بصيغة ﴿مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ دونَ (لنكونن شاكرين)، أي من هذه الزُّمرةِ التي دَيدنُها الشّكرُ[3].

وهذه المؤكّداتُ المتتابعةُ تشيرُ إلى حالة الاضطرارِ التي وصلوا إليها، وعايَنوا فيها الهلاكَ، وتدلُّ على مبالغتِهم في الوعْدِ بالشُّكرِ، بما سيفْضحُهم، ويكونُ حجّةً عليهم عند كفرِهم.

معنى ﴿مِنَ﴾:

﴿مِنَ﴾ في قوله تعالى: ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ حرفُ جرّ،

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 7/3545.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 6/93.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/138.

ودخولُها على لفظِ ﴿ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ ليكونَ التّعبيرُ ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ دون (لنكونن شاكرين) يفيدُ كونَهم من هذه الزُّمرة، زمرةِ الشّاكرين التي ديدنُها الشّكرُ[1]؛ لأنّ التّعريف في ﴿ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ تعريفُ الجنس، فإخبارُ المتكلّمين عن أنفسِهم بأنّهم منَ الشّاكرين يفيدُ أنّهم من أفراد هذه الفئةِ التي تُعرفُ عند النّاس بفئةِ الشّاكرين.

نسبةُ كونِهم من زُمرةِ الشّاكرين هي أبلغُ من وصْفِهم بالشّكرِ

وهذه الصّيغةُ ﴿مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ من قَبيل الكنايةِ التي هي إثباتُ الشّيء بإثباتِ ملزومِه، وهي أبلغُ منَ التّصريح، قال الزّمخشريُّ في تفسير قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ ١٦٨﴾ [الشعراء: 168]: "قولُك: فلانٌ منَ العلماء أبلغُ من قولك: فلانٌ عالمٌ، لأنّك تشهدُ له بكونه معدودًا في زُمرتِهم، ومعروفةٌ مساهمتُه لهم في العلم"[2]، وقال عند تفسير قولِه تعالى: ﴿قَالُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡنَآ أَوَعَظۡتَ أَمۡ لَمۡ تَكُن مِّنَ ٱلۡوَٰعِظِينَ ١٣٦﴾ [الشعراء: 136]: "فإن قلتَ: لو قيل: أوعظت أو لم تعِظْ كان أخصرَ، والمعنى واحدٌ، قلتُ: ليس المعنى بواحدٍ، وبينهما فرقٌ؛ لأنّ المرادَ سواء علينا أفعلتَ هذا الفعلَ الذي هو الوعظُ، أم لم تكن أصلًا من أهله ومباشرتِه، فهو أبلغُ في قلّة الاعتداد بوعْظِه من قوله: أم لم تعِظْ"[3].

معنى (أل) في ﴿ٱلشَّٰكِرِينَ﴾:

(أل) التّعريف في قوله تعالى: ﴿ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ جنسيّةٌ استغراقيّةٌ تفيدُ العمومَ؛ لتشملَ كلَّ ما ينطبقُ عليه اسمُ الشّاكرِ، أي كلُّ أفرادِ هذه الفئة التي تُعرفُ عند النّاسِ بفئة الشّاكرين، والمعنى: لَنكونَنّ منَ الشّاكرين بأفعالِنا، والشّاكرين بأقوالِنا، والشّاكرين بألسنتِنا وقلوبِنا وجوارحِنا، المُديمين على الشّكرِ العَريقين في الاتّصافِ به[4].

الجنسيّةُ في أل التّعريف دليلٌ على المبالغةِ في وغدِهم بالشّكرِ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/138.
(2) الزمخشري، الكشاف: 3/331.
(3) الزمخشري، الكشاف: 3/327، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 7/263.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 9/99.

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

السّفينةُ والفُلْكُ والجاريةُ:

السّفينةُ الأصلُ والأشهرُ، والفُلْكُ إشارةٌ إلى اتّساعِها، والجاريةُ تجري بخفّةٍ وسرعةٍ

السّفينةُ والفلكُ والجاريةُ جميعُهم لمسمًّى واحدٍ، واسمُ السّفينة هو الأصلُ وهو أشهرُهم؛ إذ يُعرّفُ الفُلكُ بالسّفينة، وتُعرّفُ الجاريةُ بالسّفينة، إلّا أنّ بينَهم بعضَ الفروق في المعنى اللّغويِّ، وفي الاستعمال، وهي:

السّفينةُ: الجذرُ اللّغويُّ (سفن) تدلُّ على تنْحيةِ شيءٍ عن وجهِ شيءٍ، كالقِشْر، وسُمّيتِ السّفينةُ بذلك؛ لأنّها تسفنُ الماءَ كأنّها تقشرُه، (تغوصُ فيه وتزيحُه حين جرْيِها)[1].

والفُلكُ: الجذرُ اللّغويُّ (فلك) تدلّ على استدارةٍ في شيء، والفَلَك: موجُ البحر المستديرُ المضطربُ، والفُلكُ: السّفينةُ، وسُمّيت بذلك لاستدارتِها، ولأنّها تُدارُ في البحر[2].

والجاريةُ: الجذرُ اللُّغويُّ (جرى) يدلّ على الانتقال بحركةٍ خفيفةٍ سريعةٍ مسترسلةٍ متّصلةٍ، والجاريةُ: السّفينةُ، صفةٌ غالبةٌ، وجمعُها (الجواري)، وسُمّيت بذلك؛ لأنّها تجري في البحر بسرعةٍ وخفّةٍ[3].

ويُفرّقُ بينها في استعمالِ القرآن الكريم لها، فوردَ لفظُ السّفينةِ في القرآن الكريمِ في ثلاثةِ مواضعَ، ويظهرُ أنّه أطلقَ اسْمَ السّفينةِ عندما أرادَ الإشارةِ إلى أصلِها، أوِ الإشارةِ إلى صغرِ حجْمِها، واقتصارِ استعمالِها على الأمور الهيّنةِ كحملِ المسافرين.

ووردَ لفظُ الفُلك في القرآن الكريم في ثلاثة وعشرين موضعًا،

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (سفن).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (فلك).
(3) ابن منظور، لسان العرب، والزَّبيدي، تاج العروس، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (جري).

ويظهرُ أنّه أطلق لفظَ الفُلك؛ للدّلالةِ على سَعتِها وكبرِ حجْمِها، وامتلائِها بالرّكاب والبضائعِ، وجرْيِها في عرْض البحرِ مع تلاطُمِ الأمواج، ووردت في مقام تذكيرِ الإنسان بنِعَم الله، وقُدرتِه وكيف سخّرَ له الفُلكَ لتجريَ في البحر.

وورد لفظُ ﴿ٱلۡجَارِيَةِ ١١﴾ [الحاقة: 11] و﴿ٱلۡجَوَارِ﴾ [الشورى: 32] في القرآن الكريم في ثلاثة مواضع، ويظهرُ أنّه أطلقَ لفظَ الجارية؛ للدّلالةِ على سرعة سيْرِها، واختصارِ الطّرقِ للإنسان، وقد وردت في سياقِ الإنعامِ، والتّذكيرِ بقُدرةِ الله وعظَمتِه.

الريحُ العاصِفُ والقاصِفُ والعقيمُ والصّرْصرُ:

الرّيحُ العاصفُ تذهبُ بالأشياءِ، والقاصفُ تَكسرُها، والصّرصرُ شديدةُ البرودةِ، والعقيمُ لا خيرَ فيها بل عذابٌ

تتقاربُ معاني العاصفِ والقاصفِ والصّرصرِ والعقيمِ، فجميعُها صفاتٌ للرّيح التي تأتي للعذاب، إلّا أنّ هناك بعضَ الفروق بينها، وهي كالآتي:

الرّيحُ العاصفُ: أصلُ الجذرِ اللّغويِّ (عصف) يدلّ على خفّةٍ وسرعةٍ، وريحٌ عاصفٌ: شديدةُ الهُبوبِ، فهي تستخفُّ الأشياءَ فتعصفُ بها أي: تذهبُ بها.

والرّيحُ القاصفُ: أصلُ (قصف) يدلُّ على كسْرٍ لشيءٍ، والقصفُ: السّريعُ الانكسار، وريحٌ قاصفٌ: شديدةٌ تكسرُ كلَّ ما مرّت به من بناءٍ وشجرٍ وغيرِه[1].

والرّيحُ الصّرصرُ: قيل أصلُها منَ (الصِّر): وهو البردُ الشّديدُ الذي يجعلُ الأشياءَ تنقبضُ وتتجمّدُ، أو منَ (الصَّرَّة) وهي الضّجّةُ والصوتُ، وريحٌ صرصرٌ: شديدةُ البرودةِ وشديدةُ الصّوت[2].

(1) أبو بكر الرازي، مختار الصحاح، والزَّبيدي، تاج العروس، وابن فارس، مجمل اللغة، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (قصف).

(2) السمين الحلبي، عمدة الحفاظ، والزَّبيدي، تاج العروس، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (صرر).

والرّيحُ العقيمُ: أصلُ (العُقْم): اليُبسُ المانعُ من قَبولِ الأثر، وريحٌ عقيمٌ: غيرُ لاقحٍ، فلا تلقّحُ سحابًا، ولا شجرًا، إنّما هي ريحُ عذابٍ شديدةٌ وإهلاكٌ[1].

وقيل: إنّ الرّيح العاصفَ والقاصفَ في البحر، والصّرصرَ والعقيمَ في البَرّ[2].

(1) الراغب، المفردات، والزَّبيدي، تاج العروس: (عقم).

(2) السمين الحلبي، عمدة الحفاظ، وابن منظور، لسان العرب: (قصف).

﴿فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمۡ إِذَا هُمۡ يَبۡغُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغۡيُكُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۖ مَّتَٰعَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ ثُمَّ إِلَيۡنَا مَرۡجِعُكُمۡ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٢٣﴾ [يونس: 23]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

لمّا حكى عنهمُ التّضرّعَ الكاملَ والوعْدَ المؤكّدَ غايةَ التّأكيد: ﴿لَئِنۡ أَنجَيۡتَنَا مِنۡ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ بيَّن أنّهم بعد خلاصِهم ونجاتِهم من تلك البليّةِ والمحنةِ أقدَموا في الحال على البغي في الأرض بغير الحقِّ، بل أسرَعوا في نقضه غايةَ الإسراع، فقال: ﴿فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمۡ إِذَا هُمۡ يَبۡغُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۚ﴾[1].

بعدَ أنْ أكّدوا وعْدَهم غايةَ التّأكيدِ أسْرعوا في نقضِهِ غايةَ الإسراعِ

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَبۡغُونَ﴾: الباءُ والغين والياء أصلان: أحدُهما طلبُ الشّيء، والثّاني جنسٌ منَ الفساد، فمنَ الأوّل: بغى الرّجلُ الخيرَ أوِ الشرَّ أي: طلبَه، ومنَ الثّاني: قولُهم بغى الجرح: إذا ترامى إلى فسادٍ[2]، والبغيُ: قصدُ الفساد، وتجاوزُ الحقّ إلى الباطل، والبغيُ: الظّلمُ، وقيل: كلُّ مجاوزةٍ وإفراطٍ على المقدار الذي هو حدُّ الشّيء بغيٌ[3].

والمعنى في الآية موافقٌ للمعنى اللُّغويّ.

2) ﴿ٱلۡحَقِّۚ﴾: الحاء والقاف أصلٌ واحدٌ يدلّ على إحكامِ الشّيءِ وصحّتِه، فالحقّ: نقيضُ الباطل[4]، وأصلُ الحقّ: المطابقةُ والموافقةُ، وجمعُه حُقوقٌ وحِقاق، وحَقَّ الأمرُ وجبَ، ومن معاني الحقِّ: الصّدقُ،

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 17/235.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والزَّبيدي، تاج العروس: (بغي).
(3) ابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (بغي).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حق).

والعدلُ، والإسلامُ، وأمرُ النّبيّ ﷺ وما أتى به منَ القرآن[1]، أي كلُّ ما طابقَ ووافقَ تعاليمَ الإسلام، وهو المعنى المرادُ في الآية.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

بعد نِعمةِ الخلاصِ سارَعوا إلى بغيٍ كان عليهم وبالُه في الدّنيا والآخرةِ

فلمّا أنْجاهمُ اللّه تعالى بقُدرتِه وعظَمتِه ورحمتِه منَ الكرب العظيمِ الذي كانوا فيه، إذا هم يُسارعون إلى الفسادِ في الأرض فسادًا شملَ أقطارَها، ويَنسون وعودَهم بالشّكرِ، ويَرتكبون البغْيَ الفاضحَ السّافرَ الذي لا يخفَى قُبحُه على أحدٍ، بما يدلُّ على أنّهم قومٌ بلغَ بهمُ اللُّؤمُ والجحودُ كلَّ مبْلغٍ، فيخاطبُهم اللّه تهديدًا ووعيدًا: يا أيّها النّاس الذين تضرّعوا في ساعات الشّدّة اعقِلوا واحذَروا واعلَموا أنّ وبالَ بغْيِكم وجزاءَه على أنفسكم لا تضرّون به أحدًا غيرَكم، وما أنتم فيه متاعٌ قليل، ولذّةٌ فانيةٌ، ثمّ تعودون إلينا يومَ الحساب، فنخبرُكم بجميع ما كسبْتُموه، ونحاسبُكم عليه، ونوفّيكم حقَّه.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

معنى الفاء في: ﴿فَلَمَّآ﴾:

(الفاء) ما بين سُرعةِ إجابةِ منَ الله وسُرعةِ نقضٍ للوعودِ من أهلِ اللُّؤمِ والجحودِ

الفاء في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمۡ﴾ حرفُ عطفٍ يفيدُ التّرتيبَ والتّعقيبَ؛ فأمّا التّرتيبُ فقد رتّبَ ما بعدَه عَلَى ما قبلَه، والمعنى: أنّه بعد الشّكرِ الذي أقسموا عليه إذا أنجاهُم، إذا هم يَبغون[2]، ويُمكنُ أنْ يكون المعنى بما فسّره البيضاويُّ "فلمّا أنجاهم إجابةً لدعائِهم"[3].

وأمّا التّعقيبُ فللدّلالةِ على سُرعةِ الإجابة منَ اللّه سبحانه[4]، وعلى أنّهم قومٌ بلغَ بهم اللُّؤْمُ والجحودُ؛ إذ سارَعوا إلى الفساد في الأرض منذ شُعورهم بالأمانِ، وهذا باجتماعِها مع إذا الفُجائيّةِ، قال

(1) الزبيدي، تاج العروس، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (حق).
(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 7/3545.
(3) القونوي وابن التمجيد، حاشية على تفسير البيضاويّ: 9/429.
(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/135.

البِقاعيّ: "ولما أبانتِ الفاء عنِ الإسراع في النّقض أكّد مُفاجأتَهم لذلك بقوله: ﴿إِذَا هُمْ يَبْغُونَ﴾"[1].

دَلالةُ (لمّا):

تعلّقُ بغْيِهم على إنجاء الله لهم دليلٌ على سوءِ نفوسِهم

(لمّا) حرفُ وجودٍ لوجودٍ؛ يترتّبُ ما بعدها منَ الجواب ﴿إِذَا هُمْ يَبْغُونَ﴾ على ما قبلها منَ الفعل الماضي لفظًا ومعنىً الذي بعد لمّا ﴿أَنجَىٰهُمْ﴾، ولذا فقد أفادتِ التّرتُّبَ والتّعليقَ في المُضيّ[2]، والمعنى أنّهم رتّبوا بغْيَهم على إنجاء اللّه لهم، وأوجدوه عند حصولِه، ودخولُ (الفاء) على (لمّا) ودخولُ إذا على (جواب لما) أفاد سرعةَ هذا التّرتّبِ والتّعليق؛ فلم يتأخّرْ بغيُهم عن إنجاء اللّه لهم، بل بنفس ما وقع الإنجاءُ وقعَ البغيُ، بما يدلّ على سوء نفوسِهم[3].

وهناكَ من عدَّها ظرْفًا بمعنى حين، والمعنى: حين أنجاهمُ اللّه إذا هم يُسارعون في الفساد.

دلالةُ دخولِ ﴿إِذَا﴾ في جواب (لمّا):

البغيُ مُستكنٌّ في صدورِهم إذ يَفجأون النِّعمةَ بالتّرقّي في الجُرأةِ على الله

أدخلَ البيانُ القرآنيُّ ﴿إِذَا﴾ الفُجائيّةَ في جواب (لمّا) التي تدلّ على أمرين:

الأوّل: البِدارُ والإسراعُ بمضمون الجملةِ في جواب (لمّا)، أي: سرعةُ تعجيلِهم بالبغْيِ في الأرض عقِبَ النّجاة، ومسارعتُهم إلى ما كانوا عليه منَ الإشراك باللّه تعالى وعبادةِ غيره[4]، كأنّ البغْيَ مُستكِنٌّ في صدورهم لم تدحضْهُ الشّدّة؛ لأنّ فطرتَهم فاسدةٌ ومعدنَهم خبيثٌ، لم يتأثّر إلّا في ظاهر الأمرِ حالَ ضعفِهم، وهم قومُ لُؤمٍ وجحودٍ؛ إذ إنّهم نَسَوا ما كانوا فيه من أهوالٍ، وما أبرَموه

(1) البقاعي، نظم الدرر: 9/100.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 6/35.
(3) أبو حيان، البحر المحيط: 6/35.
(4) أبو حيان، البحر المحيط: 6/35، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 3/192، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/138.

من عهودٍ وأَيمانٍ، وسارعوا إلى الفساد في الأرض، دون أنْ يردعَهم رادعٌ، أو يصدَّهم ترغيبٌ أو ترهيبٌ[1].

الثّاني: المفاجأةُ من قيامِهم بنقيضِ ما كان يَنبغي أن يكونَ منهم؛ إذ كان قَسَمُهم يوجبُ عليهم أن يكونوا بعد النّجاةِ طائِعين مدرِكين قُدرةَ الله وسلطانَه، وأنّه قادرٌ على ردِّهم إليه كما كان قادرًا على إغاثتِهم في كربِهم[2].

فائدةُ التّعبيرِ بالجملةِ الاسميّةِ: ﴿هُمْ يَبْغُونَ﴾:

بغيُ الكافرين ثابتٌ دائمٌ ومُستمرٌّ مُتجدّدٌ

عبّرَ البيانُ الإلهيُّ بالجملةِ الاسميّةِ التي خبرُها فعلٌ ﴿يَبْغُونَ﴾، ولم يقلْ (يبغون هم)؛ لإفادة تحقيقِ حصْرِ البغيِ بهم، فبغيُهم محّققٌ مؤكّدٌ لا شكَّ فيه.

وكذلك أفادَ التّعبيرُ بالجملةِ الاسميّةِ ﴿هُمْ يَبْغُونَ﴾ الثُّبوتَ والدّوام، وأفاد خبرُها الذي جاء بصيغة المضارعِ ﴿يَبْغُونَ﴾ الاستمرارَ التّجدّديَّ؛ فبغيُهم ثابتٌ دائمٌ ومستمرٌّ متجدّدٌ.

نُكتةُ التّعبير بـ﴿يَبْغُونَ﴾ مادّةً وصيغةً:

قابَلوا نعمةَ الإنجاءِ بفسادٍ شاملٍ ومُتطوّرٍ ومتجدّدٍ ومُستمرٍّ

عبّر البيانُ القرآنيُّ بمفردةِ: ﴿يَبْغُونَ﴾ في قولِه تعالى: ﴿إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾، لاتّساع دلالتِها؛ فمادّةُ البغْيِ تعني الخروجَ عنِ الجادّة وسلوكَ طريق الفسادِ، ليشملَ كلَّ المعاصي من زنًى وخمرٍ وشركٍ، واعتداءٍ على الآحاد والجماعاتِ، والسّعي في الأرض، وليشملَ فسادَ النّفوسِ في الاعتقادِ والعملِ والتّمادي في هذا الفساد[3]، بل إنّ البغْيَ يعني التّرقّي في الفساد والانتشارِ من قولهم: بغى الجرحُ إذا ترقّى وترامَى في الفساد[4]، أي: أنّ فسادَهم بعد الإنجاء تجاوزَ ما كان عليه قبل ذلك؛ إذ "سارعوا إليه متراقين

(1) سيد طنطاوي، التفسير الوسيط: 7/51.
(2) ابو زهرة، زهرة التفاسير: 7/3545.
(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 7/3545.
(4) السمين الحلبي، الدرّ المصون: 6/174.

في ذلك متجاوزين عمّا كانوا عليه"[1]، ولذا كان بغْيُهم من "أعلى مراتبِ الظّلم[2]؛ فبالبغي تتعطّلُ حركةُ الحياة؛ لأنّ من يقعُ عليهم ظلمُ البغي يَزهَدون في الكدّ والعملِ الشّريف الطّاهرِ، وإذا ما زهدَ النّاس في ذلك تعطّلتْ حركةُ الحياة[3].

وأمّا صيغةُ ﴿يَبۡغُونَ﴾ فقد جاءت بالمضارع؛ للدّلالةِ على تجدُّدِ واستمرارِ هذا البغيِ الشّاملِ المنتشرِ المترقّي في الفساد[4].

دَلالةُ مجيء ﴿فِي﴾:

معنى ﴿فِي﴾ في قوله تعالى: ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ الظرفيّةُ، والمعنى: أنّ بغْيَهم وفسادَهم تغلْغلَ في الأرض، وشملَ أقطارَها، ولم يقتصرْ على جانبٍ من جوانبِها، وفي الظرفيّةِ كذلك بيانُ تمكّنِ هذا البغْيِ في الأرض.

التّعبيرُ بالظّرفيّةِ إيذانٌ بتغلْغُلِ وانتشارِ بغْيِهم وإفسادِهم في الأرض

معنى (أل) في: ﴿ٱلۡأَرۡضِ﴾:

(أل) التّعريفِ في قوله تعالى: ﴿ٱلۡأَرۡضِ﴾ جنسيّةٌ استغراقيّةٌ[5]، تفيدُ العمومَ، أي أنّ فسادَهم عمَّ واستغرقَ كلَّ أنحاءِ الأرض، ولم يقتصرْ على الأرض التي يَسكنونها، وإنْ كان فسادُهم فيها أكثرَ، وشملَ كلَّ ما فيها من اعتداءٍ على الآحادِ، واقترافِ المعاصي، والسّعْيِ بين النّاس، وارتكابِ كلِّ ما يكونُ من تخريبٍ وهدمٍ للقائم[6]، ممّا يدلّ على نفوسٍ استكنّ فيها الفسادُ ولم تدْحضْهُ الشّدّةُ.

عُمومُ فسادِهم في الأرض دليلٌ على نفوسٍ استكنّ فيها البغْيُ ولم تَدحضْهُ الشّدّةُ

فائدةُ مجيء شبْهِ الجملةِ: ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾:

أطنبَ البيانُ القرآنيُّ بزيادة شبْهِ الجملةِ ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾، وكان يمكنُ أن تُحذفَ، ولكنّ الأبلغَ ذكرُها؛ لِما في هذه الزيادةِ في اللّفظ من فائدةٍ هي:

الأرضُ التي كانت أثرَ نعمةِ نجاتِهم جعلوها مكانًا لبغْيِهم

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/135.
(2) الشّعراوي، تفسير الشّعراوي: 10/5854.
(3) الشّعراوي، تفسير الشّعراوي: 10/5855.
(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/135.
(5) البقاعي، نظم الدرر: 9/100.
(6) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 7/3545، وسيد طنطاوي، التفسير الوسيط: 7/51.

أوّلاً: التّأكيدُ على تمكّنِهم منَ النّجاة؛ لأنّ الأرض بَرُّ أمانٍ لهم منَ البحر الهائجِ، أي بعد أنْ هدأتِ العاصفةُ، وانخفضتِ الأمواجُ، ووصلتِ السّفنُ إلى شاطئ الأمانِ[1]، وقد قال تعالى في آية أخرى: ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ۝٦٥﴾ [العنكبوت: 65]، فجعلوا مكانَ أثرِ نعمةِ نجاتِهم مكانًا للبغْيِ[2].

ثانيًا: الدّلالةُ على شُمول بغْيِهم لأقطارها[3].

معنى الباء في: ﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾:

دَلالةُ حرفِ الباء على الإلصاقِ والاستعانةِ بيانٌ لمَدى تماديهِم في الشّرِّ والطّغيانِ

الباء في قوله تعالى: ﴿إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ تحملُ معنَيَيْن من أشهر معانيها: الإلصاقُ والاستعانةُ، بحيث يكونُ المعنى: إذا هم يَبغون في الأرض مُلتصِقين بالباطل والكُفرِ والطّغيانِ لا ينفكّون عنه ومُستعينين به.

وقد تكونُ (من) للتّأكيدِ إذا اعتبرْنا البغْيَ بأحد معانيه اللّغويّةِ، وهو طلبُ الشّيء، والمعنى: إذا هم يَطلبون غيرَ الحقّ.

معنى (أل) في ﴿ٱلْحَقِّ﴾:

(أل) للجنسِ والاستغراقِ، فتشملُ كلَّ الحقوقِ

أل التّعريفِ في قوله تعالى: ﴿ٱلْحَقِّ﴾ جنسيّةٌ استغراقيّةٌ، تفيدُ العمومَ، والمعنى: أنّ بغْيَهم وإفسادَهم شملَ كلَّ الحقوقِ؛ حقوقِ اللّه، وحقوقِ العباد، أي كلُّ حقٍّ طابقَ ووافقَ ما جاء به الإسلامُ، فلا يزال الباغي مذمومًا حتى يكونَ على الحقِّ الكاملِ الذي لا باطلَ فيه بوجْهٍ[4].

موقعُ شبْهِ الجملةِ: ﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ وفائدتُها:

وصْفٌ كاشفٌ أوِ احترازٌ عنِ البغْيِ بحقٍّ

موقعُ شبْهِ الجملة: ﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ في الآية موقعُ الصّفةِ الكاشفةِ

(1) سيد طنطاوي، التفسير الوسيط: 7/51.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/138.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/135.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 9/100.

للواقع؛ للتّذكير بقُبحِ هذا البغْيِ وسوءِ حال أهلِه[1]، وفائدةُ الإطنابِ بذكرها - وكان يمكن أن تُحذفَ - أمورٌ:

أوّلها: التّأكيدُ على ما يفيدُه البغْيُ من تجاوزِ الحقِّ والتّعدّي والظّلم، فهو بغيٌ ظاهرٌ سافرٌ لا يخفَى قُبحُه على أحدٍ[2]، أي جاءت قيدًا كاشفًا لمعنى البغْيِ؛ إذِ البغْيُ لا يكونُ بحقٍّ[3].

ثانيها: الإشارةُ إلى أنّهم فعلوا ذلك بغيرِ شُبهةٍ عندَهم، بل تمرّدًا، وعنادًا، لأنّهم قد يفعلون ذلك لشُبهةٍ يعتقدونها حقًّا مع كونِها باطلةً[4].

ثالثها: الاحترازُ به عنِ البغْيِ بحقّ، كاستيلاءِ المسلمين على الكفّار، وتخريبِ دورِهم، وإتلافِ أموالِهم، كما فعل رسولُ اللّه ﷺ بقُريظةَ[5]، وهذا على اعتبار البغْيِ هنا وَفْق أحدِ المعنيَيْن اللُّغويّين وهو طلبُ الشّيء؛ فحينئذٍ ينقسمُ إلى طلبٍ بحقٍّ، وطلبٍ بغير حقٍّ[6].

ويرى أبو السُّعود أنّ هذا القولَ لا يُساعدُه النّظمُ الكريمُ؛ لابتنائِه على كوْنِ البغْيِ بمعنى إفسادِ صورةِ الشّيء، وإبطالِ منفعتِه دون ما ذُكرَ منَ المعنى اللّائقِ بحال المفسِدين[7]، وأيضًا "دفعُ البغْيِ لا يُسمّى بغيًا، وإنّما يُسمّى إنصافًا منَ الظّالم، ولذا قال تعالى: ﴿وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعۡدَ ظُلۡمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيۡهِم مِّن سَبِيلٍ ٤١﴾ [الشورى: 41]"[8].

نُكتةُ الفصْلِ في: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾:

فَصَلَ البيانُ الإلهيُّ قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ عنِ الجملة

خطابُ تنبيهٍ زاجرٍ وتحذيرٍ وتهديدٍ شديدٍ

(1) رشيد رضا، تفسير المنار: 11/280.
(2) سيد طنطاوي، التفسير الوسيط: 7/51.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/139.
(4) الشوكاني، فتح القدير: 2/495.
(5) الزمخشري، الكشاف: 3/7، والصّاوي، حاشيته على تفسير الجلالين، ص: 790.
(6) أبو حيان، البحر المحيط: 6/35.
(7) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/135.
(8) سيد طنطاوي، التفسير الوسيط: 7/51.

قبلَها ﴿فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمۡ إِذَا هُمۡ يَبۡغُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۚ﴾ ولم يربطْ بينَهما؛ لِما بين الجُملتَين من كمالِ الانقطاع؛ لاختلافِهما خبرًا وإنشاءً، فالجملةُ الأولى: ﴿فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمۡ﴾خبريّةٌ، والثّانيةُ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ إنشائيّةٌ، ولهذا تعيّن الفصلُ بينهما.

وقد جاء قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ خطابًا للمشركين، وهمُ الذين يبغون في الأرض بغير الحقّ[1]، تعقيبًا على سرعةِ بغْيِهم بما يحملُ التّنبيهَ الزّاجرَ، والمبالغةَ في التّهديد، وبيانَ سوء العاقبةِ.

فائدةُ النّداءِ بـ (يا) في: ﴿يَٰٓأَيُّهَا﴾:

نادى اللّه الباغين بأداةِ النّداء التي تُستعملُ للمنادَى البعيدِ ﴿يَٰٓأَيُّهَا﴾ في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾، إشارةً إلى بُعْدِهم عنِ الرّحمة والتّوفيق والهدايةِ، وتشديدِ التّهديد والمبالغةِ في الوعيد[2]، وعليهم أنْ يُصْغوا لِما يُنادَى به عليهم.

النّداءُ بالبعيدِ إشارةٌ إلى التّبعيدِ ومبالغةٌ في التّهديدِ والوعيدِ

معنى (أيّ) في: ﴿يَٰٓأَيُّهَا﴾:

(أيّ) وصلةٌ إلى نداء ما فيه أل؛ لأنّ (يا) لا تدخلُ عليها في غير يا اللّه إلّا شُذوذًا، وهي نكرةٌ مقصودةٌ، تفيدُ هنا التّدرّجَ منَ الإبهام إلى التّوضيح.

النّفسُ تَتشوّقُ لمعرفةِ ما فيه إبهامٌ

معنى الهاء في: ﴿يَٰٓأَيُّهَا﴾:

(ها) حرفُ تنبيهٍ، وهي لازمةٌ لأيّ، ويفصلُ بها بين (أيّ) في النّداء وبين المنادَى المرفوعِ بعدَه، وهي عِوضٌ عنِ الإضافة في (أيّ)، وتفيدُ هنا المشاركةَ مع (يا) و(أي) في التّنبيهِ، والتّأكيدِ على أهميّة المنادَى به.

دَلالةُ (الهاء) في (يا أيُّها) على التّنبيه إلى أهميّةِ المنادَى به

معنى(أل) في: ﴿ٱلنَّاسُ﴾:

أل التّعريفِ في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ عهديّةٌ، معهودُها

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/139.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/135.

حُضوريٌّ ذِكْريٌّ، أي الخطابُ للذين أنجاهُمُ اللّه وبغَوا، والمعنى: (يا أيّها النّاسُ الجاحدون لإنعامِ اللّه عليكم النّاقضون لِما عاهدتُم ربَّكم عليه)، أو أنْ يكونَ معهودُها ذهنيًّا، أي الخطابُ لأهل مكّة، وهذا ما عليه جمهورُ المفسّرين، ويحتملُ أنْ تكونَ أل جنسيّةً تفيدُ العمومَ، ويدخلُ فيها أهلُ مكّةَ، والذين أنجاهُمُ اللّه وبغَوا[1].

دَلالةُ أل في (النّاس) بين العهديّة والعُمومِ

مَظاهرُ التّوكيدِ في هذا النّداءِ ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾:

افتتح البيانُ القرآنيُّ الخطابَ بـ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ وهي جملةٌ إنشائيّةٌ طلَبيّةٌ؛ نداءٌ يفيدُ تنبيهَ المنادَى إلى أمرٍ عظيمٍ يجدرُ به أن يكون على وعْيٍ به، وأخْذٍ بما فيه، ويحملُ أوجُهًا منَ التّوكيد، وأسبابًا منَ المبالغة، يحتاجُها المقامُ؛ منها ما في (يا) منَ التّأكيدِ والتّنبيهِ، وما في (ها) منَ التّنبيه، وما في (أيُّ) منَ التّدرّجِ منَ الإبهام إلى التَّوضيحِ، ثم كان هذا النّداءُ للنّاس بما يحملُه منَ التّأكيدِ والمبالغةِ.

عِظمُ جُرمِهم وسوءُ عاقبتِهم استدْعَيا كمالَ التّنبيهِ الزّاجرِ

وذلك كلُّه لاستصغاءِ أسماعِهم، والإشارةِ إلى فظاعةِ جُرمِهم، وهو الشّركُ باللّه، وإلى تعظيمِ الخبرِ الذي يحملُه هذا النّداءُ، واستثارةِ بواطنِهم وتحريكِ مشاعرِهم؛ للامتناعِ عن هذا البغْيِ في الأرض، إذ إنّه نداءٌ منَ الخالق إلى خلْقِه، وهذا وحدَه فيه فيضٌ منَ التّنبيه إلى أنّهم في علْمِه قائمون، وتحت قهْرِه نازلون، ومقصودُ هذا التّنبيهِ الزّاجرِ تحذيرُهم، وتهديدُهم وبيانُ سوء عاقبتِهم[2].

فائدةُ الالتفاتِ منَ الغيبةِ إلى الخطابِ:

في قوله ﷻ ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم﴾ التفات إلى مخاطبةِ الباغين بعد أنْ كان الحديث عنهم بضميرِ الغيْبةِ؛ للتّنبيهِ الشّديدِ والتّهديد بالمواجَهة والتّصَدّي لبيان شرِّهم[3]، إذِ

التّهديدُ بالمواجَهةِ أشدُّ منَ التّهديدِ بالغَيْبةِ

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 6/35.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/139.
(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 7/3546.

التّهديدُ بالمواجَهةِ أشدُّ منَ التّهديد بالغَيْبةِ، وللإيماءِ بأنّ حالَهم لا يغيبُ عنه سبحانه.

نُكتةُ الفصْلِ في: ﴿إِنَّمَا﴾:

قضيّةٌ جرتْ مجرَى المثَلِ تجمعُ الإعجازَ والإيجازَ

فصلَ البيانُ الإلهيُّ قولَه تعالى: ﴿إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم﴾ عنِ الجُملةِ قبلَها ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾، ولم يُربَطْ بينَهما بالواو؛ لأنَّ قولَه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ نداءٌ، والنّداءُ يحتاجُ جملةَ جوابِ النّداء، وهي جملةٌ استئنافيّةٌ لا تحتاجُ إلى (الواو)؛ إذ هي تقرّرُ قضيّةً جرتْ مجرَى المثَلِ في القرآن يُطْلقُها الحقُّ ﷻ، وتظلُّ إلى الأبدِ، وكأنّه يُخاطبُ الباغيَ: يا من تريدُ أنْ تأخذَ حقَّ غيرك، اعلم أنّ قُصارَى ما يُعطيك أخْذُ هذا الحقِّ هو بعضٌ من متاع الدنيا[1].

بَلاغةُ المجازِ المرسَلِ في: ﴿بَغْيُكُمْ﴾:

ذكرُ السّببِ وإرادةُ المسبَّبِ كنايةٌ عنِ التّهديدِ

أطلقَ البيانُ القرآنيُّ لفظَ ﴿بَغْيُكُمْ﴾ في قوله تعالى ﴿إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم﴾ وأراد الوَبالَ؛ لأنّ البغْيَ لا يقعُ على الأنفس، وإنّما هو الوبالُ، ولمّا كان البغيُ سببَ الوبالِ ذكرَه على طريق المجازِ المرسَلِ؛ والعلاقةُ سببيةٌ، فالسّببُ هو البغْيُ والمسَبَّبُ هو الوبالُ والإثمُ؛ وفي هذا كنايةٌ عن تهديدِهم، وقُبحِ فعْلِهم بأنّ بغْيَهم يرجعُ إليهم[2].

بَلاغةُ أسلوبِ القصْرِ بـ﴿إِنَّمَا﴾:

قصرُ قلبٍ قلبَ عليهم اعتقادَهم مُبيّنًا أنّ بغْيَهم لا يَضرُّ إلّا بهم

المقصورُ به ﴿إِنَّمَا﴾، والمقصورُ ﴿بَغْيُكُمْ﴾ وهو الموصوفُ، والمقصورُ عليه ﴿عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم﴾، جارٌّ ومجرورٌ يحملان صفةً تدلّ على معنًى قائمٍ فيه، وهي صفةُ كوْنِ البغْيِ والاعتداءِ على أنفُس الباغين، والمقصورُ عنه (كلُّ الصّفات ما عدا صفةَ كوْنِ البغْيِ على أنفُسِ الباغين).

(1) الشّعراوي، تفسير الشّعراوي: 10/5856.

(2) القونوي وابن التمجيد، حاشية على تفسير البيضاويّ: 9/431.

ونوعُ هذا القصْرِ باعتبار المقصورِ والمقصورِ عليه: قصرُ موصوفٍ على صفة؛ فقد قُصِر البغْيُ على أنفُس الباغين، ونوعُه باعتبارِ الحقيقةِ والواقعِ: قصرٌ إضافيٌّ؛ فالمقصورُ عنه هو كلُّ الصّفات ما عدا صفةَ كونِها على أنفسِهم، لكنّ الكلامَ يجري في دائرةٍ خاصّةٍ، وهي موضوعُ البغْيِ على أنفسِهم، ونوعُه باعتبار حالِ المخاطَب: الخطابُ للكافرين، والقصرُ قصرُ قَلْب؛ إذ كان الكافرون يعتقدون أنّ بغْيَهم (أي شركَهم وعبادتَهم للأصنام) يَضرّون اللّه به، فقلبَ عليهم اعتقادَهم مُبيّنًا لهم بهذا القصْرِ أنّ بغْيَهم أي شركَهم مُضرٌّ بهم، أي مقصودُ القصْرِ هو أنّ التّحذيرَ منَ الشّركِ هو مراعاةٌ لصالِحهم، لأنّ اللّه لا تنفعُه عبادةٌ ولا تضرُّه معصيةٌ[1]، ولأنّهم إنْ أشاعوا البغْيَ فيما بينهم عمَّ الفسادُ، ولم تكن جماعتُهم فاضلةً، بل جماعةً متحلّلةً متقاطعةً متدابرةً تعمُّها الرّذيلةُ ويسودُها الشّرُّ[2].

دَلالةُ التّعبيرِ بـ ﴿عَلَىٰٓ﴾:

استعلاءٌ مَجازيٌّ مُكنًّى بـه عن إضـرارِ بغْيِهم بأنفسِهم

معنى حرفِ الجرِّ ﴿عَلَىٰٓ﴾ في قوله تعالى: ﴿عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم﴾ الاستعلاءُ المجازيّ المُكنَّى به في الآية عنِ الإضرار؛ لأنّ المُستعْليَ الغالبَ يضرُّ بالمغلوبِ المُستعلَى عليه، ولذلك يكثرُ أنْ يقولوا: هذا الشّيء عليك، وفي ضدّه: هذا الشّيءُ لك، كقوله تعالى: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ﴾ [فصلت: 46]، إذن يفيدُ حرفُ الاستعلاء ﴿عَلَىٰٓ﴾ التّنبيهَ على حقيقةٍ واقعيّةٍ وموعظةٍ لهم؛ ليعلَموا أنّ التَّحذير منَ الشّركِ والتّهديدَ عليه، لرعْيِ صلاحِهم لا لأنّهم يضرّونَه كقوله: ﴿وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا ۗ﴾ [التوبة: 39][3].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/139.
(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 7/3546.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/139.

نُكتةُ الفصْلِ في: ﴿مَّتَٰعَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ﴾:

استئنافٌ بيانيٌّ بيّن حالَ الباغين المتمتِّعين بالحياة الدّنيا

لم يذكرِ البيانُ الإلهيُّ العاطفَ بين قوله تعالى: ﴿مَّتَٰعَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ﴾ وما سبقَها ﴿إِنَّمَا بَغۡيُكُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۖ﴾؛ لوقوعِها استئنافًا بيانيًّا، لِما بين الجُملتَين من شبْهِ كمالِ الاتّصال؛ وذلك بعد أنّ خاطب اللّه تعالى المشركين بقوله: ﴿إِنَّمَا بَغۡيُكُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۖ﴾ كأنّ سائلًا سأل: ما حالُ هؤلاء؟ فجاء الجوابُ في قوله تعالى: ﴿مَّتَٰعَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ﴾، والتّقديرُ: مُتمتّعين متاعَ الحياةِ الدّنيا[1]، وهذا على قراءة نصْب ﴿مَّتَٰعَ﴾، وأمّا على قراءة الرّفع (متاعُ)، فيكونُ تقديرُ السّؤال: كيف يكونُ بغْيُهم على أنفسهم؟ فجاء الجوابُ: (متاعُ الحياةِ الدّنيا)، والتّقديرُ: بغْيُكم على أنفسكم متاعُ الحياةِ الدنيا.

بَلاغةُ تَوجيهِ القراءاتِ في: ﴿مَّتَٰعَ﴾:

جميعُ أوجُهِ الإعرابِ تقرّرُ أنّ متاعَ الحياةِ الدّنيا زائلٌ لا بقاءَ له

معلومٌ في علومِ القرآنِ أنّ تعدُّدَ القراءاتِ بمنزلةِ تعدُّدِ الآيات[2]، وقدِ اعتنى بها المفسّرون من خلال التّوجيهِ النّحويِّ والبلاغيِّ للقراءات، ومنها ما وردَ في ﴿مَّتَٰعَ﴾ في قوله تعالى: ﴿مَّتَٰعَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ﴾؛ إذ قُرئَ بالنّصب ﴿مَّتَٰعَ﴾ وبالرّفع (متاعُ)[3]، فإذا رُفعت (متاعُ)، كان المتاعُ خبرًا للمبتدأ الذي هو ﴿بَغۡيُكُمۡ﴾، وكانت ﴿عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۖ﴾ صلتَه، ومعناه: إنّما بغيُ بعضِكم على بعض منفعةُ الحياةِ الدنيا، ولا يصلحُ زادًا لمعادِكم؛ لأنّكم تَستوجبون به غضبَ اللّه، ويجوزُ أنْ يكونَ الرّفعُ على معنى: هو متاعُ الحياة الدنيا، بعد تمام الكلام، وإذا نُصبت ﴿مَّتَٰعَ﴾ فيكونُ ﴿عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۖ﴾ خبرًا للمبتدأ ﴿بَغۡيُكُمۡ﴾، والمعنى: إنّما بغْيُكم وبالٌ على أنفسِكم، و﴿مَّتَٰعَ﴾ في موضع المصدَرِ المؤكِّدِ؛ إمّا

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/135.

(2) السيوطي، الإكليل: ص 109.

(3) روى حفص بنصب العين، وقرأ الباقون برفعها، يُنظر: ابن الجزري، النشر في القراءات العشر: 2/283.

لفعلٍ مقدّرٍ بطريق الاستئناف، أي: بغيُكم على أنفسِكم تتمتّعون متاعَ الحياةِ الدنيا، وقيل: على أنّه مصدرٌ وقعَ موقعَ الحال، أي بغيُكم على أنفسِكم مُتمتّعين بالحياةِ الدّنيا[1]، وقيل: هو مفعولٌ لأجله، والمعنى: بغْيُكم على أنفسِكم لأجلِ متاعِ الحياةِ الدُّنيا، أي غايةُ ما تُؤمّلون ببغْيِكم، وشرودِكم عنِ الإخلاص للّه أنْ تَنالوا شيئًا من حطامِ الدّنيا.

وفي هذا التّوجيه للقراءتين إشارةٌ إلى أنّ جميعَ أوجُهِ الإعراب عنِ المعنى تُقرّرُ أنّ الإمهالَ على البغْيِ هو مدّةُ الحياةِ الدّنيا، وأنّ متاعَها زائلٌ لا بقاءَ له، ولكن يوجدُ بلاغةٌ خاصّةٌ بكلّ قراءةٍ؛ فعلى قراءة الرّفعِ واعتبارِ (المتاع) خبرًا تكونُ "محطُّ فائدة الخبر إفادةَ كوْنِ البغْيِ المَذْكور متاعًا سريعَ الزّوال وسوءَ المآل"[2]، وفيه مبالغةٌ بإشعار ظهورِه بالتأمّلِ اليسيرِ[3]، وعلى قراءة النّصبِ تكونُ الفائدةُ هي التّأكيدُ بالمصدريّةِ، أوِ المفعوليّةِ.

وفي ذلك كلِّه ثراءٌ للمعنى، وتحقيقُ بلاغةِ الوفاءِ بالمعنى مع الإيجاز في اللفظ.

نُكتةُ الإضافةِ في: ﴿مَّتَٰعَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ﴾:

أضافَ البيانُ الإلهيُّ المتاعَ إلى الحياةِ الدّنيا إشارةً إلى أنَّ منفعةَ الحياةِ الدّنيا زائلةٌ لا تبقَى؛ لأنّ المتاعَ يُطلقُ على ما لا بقاءَ له أي عدمُ البقاء مُستفادٌ من كلمة المتاعِ، والمعنى أنّ غايةَ ما تُؤمّلون ببغْيِكم وشرودِكم عنِ الإخلاص للّه أن تَنالوا شيئًا من حُطام الدّنيا الزّائلِ؛ ولذا سمّى القرآنُ متاعَ الحياةِ الدّنيا عَرَضًا، قال تعالى: ﴿يَأۡخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلۡأَدۡنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغۡفَرُ لَنَا﴾ [الأعراف: 169]؛ لأنّه عارِضٌ زائلٌ

متاعُ الدّنيا بطريق البغْيِ قليلٌ سريعُ الزّوالِ وشيكُ الاضمحلالِ

(1) الزمخشري، الكشاف: 3/7، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/135.
(2) القونوي وابن التمجيد، حاشية على تفسير البيضاويّ: 9/431.
(3) القونوي وابن التمجيد، حاشية على تفسير البيضاويّ: 9/431.

غيرُ ثابت، وكلُّ شيءٍ يقلُّ لُبْثُهُ يُسمّى عرَضًا، وفي الحديث: «الدّنيا عَرضٌ حاضرٌ، يأكلُ منها البَرّ والفاجرُ»[1].

وأمّا بقاءُ عقابِها فمعلومٌ من قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِلَيۡنَا مَرۡجِعُكُمۡ﴾، فالمرادُ منَ المتاع في الآية إمّا البغْيُ نفسُه، أوِ المنفعةُ بطَريق البغْي، أوِ الجَور، وإلّا فمتاعُ الحياةِ الدُّنْيا لا يكونُ له عقابٌ على الإطلاق، بل قد يكون لبعضِه ثوابٌ دائمٌ وأجرٌ قائمٌ[2].

غرَضُ وصْفِ الحياةِ بـ﴿ٱلدُّنۡيَا﴾:

غايةُ ما يُؤمّلونَه ببغْيِهم حُطامٌ قليلٌ خسيسٌ سريعُ الانقضاءِ

وصفَ البيانُ الإلهيُّ الحياةَ بـ ﴿ٱلدُّنۡيَا﴾ في قوله تعالى: ﴿مَّتَٰعَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾؛ للإشارةِ إلى قِصرِ نعيمِها، وقلّتِه وسُرعةِ زوالها وانقضائِها، وكأنّها لم تكن، وما كان فيها من نعيم؛ إذ سُمّيتِ الدّنيا بهذا الاسم لدُنوِّها، وقيل: لدَناءتِها[3]، وبهذا تتميّزُ عنها الحياةُ الآخرةُ الباقيَةُ، فالدّنيا نقيضُ الآخرة، ويَكفي هذا لبيانِ نقْصِها، فهي مشتقّةٌ منَ الدُّنوّ، والأصلُ في الدُّنوّ أن يكونَ إلى سُفْلٍ، ومن هنا استُعْمِلَ الدُّنوّ في الهبوطِ المعنويِّ (قلّةِ قيمةِ الشّيء) في مثل قولِه تعالى: ﴿أَتَسۡتَبۡدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدۡنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيۡرٌۚ﴾ [البقرة: 61]، ومن هذا قالوا للخسيسِ السّاقطِ: إنّه لدَنيٌّ، من أدنياء، كما استُعْمِلَ الدّنوُّ في قلّةِ الكَمّ[4].

معنى ﴿ثُمَّ﴾:

الرُّجوعُ إلى اللهِ للحسابِ أصرحُ تهديدًا من زوالِ منفعةِ دُنياهمُ التي يَستطيلونَها

عطفَ البيانُ الإلهيُّ ﴿ثُمَّ إِلَيۡنَا مَرۡجِعُكُمۡ﴾ على ﴿إِنَّمَا بَغۡيُكُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ﴾ بحرف العطْفِ ﴿ثُمَّ﴾ الذي يفيدُ التّرتيبَ والتّراخي؛ للإشارةِ إلى استطالةِ الكافرين للحياةِ الدّنيا[5]، وسمَّى ابنُ عاشورٍ

(1) البيهقي، السنن الكبرى، باب: كيف يستحب أن تكون الخطبة؟ الحديث رقم: (5873)، من حديث شداد بن أوس، مرفوعًا، وفي إسناده ضعف وانقطاع. ويروى موقوفًا على عدد من الصحابة.
(2) القونوي وابن التمجيد، حاشية على تفسير البيضاوي: 9/431.
(3) البغوي، معالم التنزيل: 2/120.
(4) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (دنو).
(5) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 7/3547.

هذا العطْفَ بالتَّراخي الرُّتبيِّ؛ لأنَّ مضمونَ هذه الجملةِ أصرَحُ تَهديدًا مِن مَضمونِ جُملةِ ﴿إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم﴾[1].

كما أنّ العطفَ بالجُملةِ الاسميّةِ يفيدُ الثّباتَ، أي: الرّجوعُ إلينا للحسابِ والعقابِ أمرٌ ثابتٌ لا شكَّ فيه.

فائدةُ تقديمِ شبْهِ الجملةِ: ﴿إِلَيْنَا﴾:

قدّمَ القرآنُ المسندَ وهو الجارُّ والمجرورُ ﴿إِلَيْنَا﴾ على المُسنَد إليه ﴿مَرْجِعُكُمْ﴾ في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ﴾ للدّلالة على الثّبات والقصْرِ[2]، وإفادةِ الاختصاص، أي: إلينا وحدَنا مآلُكم ومرجعُكم[3]؛ تنزيلًا للمخاطَبين منزلةَ من يَظنُّ أنّه يرجعُ إلى غير اللّه؛ لأنّ حالَهم في التّكذيب بآياتِه، والإعراضِ عن عبادتِه إلى عبادةِ الأصنامِ كحالِ مَن يَظنّ أنّه يُحشرُ إلى الأصنامِ، وإن كان المشركون يُنكرون البعْثَ من أصلِه[4].

الرّجوعُ إلى الله وحدَه حيثُ لا وليَّ للكافرين ولا نَصيرَ

فائدةُ الإضافةِ في: ﴿إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ﴾:

أضاف القرآنُ مآلَهم إلى الذّات العُليا في قولِه تعالى: ﴿ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ﴾ لما فيها منَ التّهديد، أيَّ تهديدٍ، ومُؤدّاهُ: إنْ كنتم قد كذّبتم في قَسَمكم في الدّنيا، فحسابُكم على ذلكم عندنا في الآخرة، وهي أبقَى وأدْومُ[5].

إضافةُ رجوعِهم إلى الذّاتِ العُليا تهديدٌ كافٍ ووعيدٌ شافٍ

غرَضُ التّعبيرِ بالمصدرِ الميميِّ: ﴿مَرْجِعُكُمْ﴾:

عبّرَ القرآنُ بالمصدرِ الميميِّ ﴿مَرْجِعُكُمْ﴾ في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ﴾ دونَ المصدر القياسيّ الأصليّ (رجوعكم)، لاتّساع دلالتِه؛ فالتّعبيرُ بالمصدرِ الميميّ يتضمّنُ التّعبيرَ عن ثلاثة أمور:

المصدرُ الميميُّ أوسعُ دلالةً إذ يشملُ مكانَ الرجوع وزمنَهُ وحدثَه

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/140.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/136.
(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 7/3547.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/140.
(5) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 7/3547.

دَلالةٌ على الزّمان أي زمانِ الرّجوع إلينا، ودلالةٌ على المكان أي مكانِ الرّجوعِ إلينا، ودلالةٌ على المصدرِ القياسيِّ وهو الرّجوعُ الحقيقيُّ.

معنى الفاءِ في: ﴿فَنُنَبِّئُكُم﴾:

ما بعدَ الفاءِ التّفريعيّةِ أرهبُ وأرقَى وعيدًا ممّا قبلَها

الفاء حرفُ عطفٍ، عَطَفَ جملةَ (ننبئكم) على جملةِ ﴿إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ﴾، وفي هذا العطْفِ تفريعُ ﴿فَنُنَبِّئُكُم﴾ على جملةِ ﴿إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ﴾ وهو تفريعُ وعيدٍ على تهديدٍ[1]؛ لأنّ ما بعْدَ الفاء أرهبُ وأخوفُ وأرقَى بالوعيدِ ممّا قبْلَها.

معنَى الباءِ في ﴿بِمَا﴾:

دَلالةُ حرفِ الباءِ على السّببيّةِ والإلصاقِ بيانٌ لعدْلِهِ في الكافرين

الباء في ﴿بِمَا﴾ في قوله تعالى ﴿فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ للسببيّة، والمعنى: فيحاسبُكم، ويجازيكُم بسبب أعمالِكم الكثيرةِ والمستمرّةِ في البغْيِ والإفساد، كما أنّ الإلصاقَ لا ينفكُّ عنها، فهي أعمالُ بغْيٍ لا تَنفكّون عنها.

معنَى(ما) في: ﴿بِمَا﴾:

حسابُ اللهِ وجزاؤُه يَعمُّ كلَّ بغْيٍ للكافرين

(ما) في قوله تعالى: ﴿فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ موصولةٌ، تفيدُ العمومَ، أي عمومَ ما يعملونَه، والمعنى: فيحاسبُكم ويُجازيكم بكلِّ الذي كنتم تعملونَه منَ الإفسادِ.

وفي التَّعبيرِ بما الموصولةِ إشارةٌ إلى أنّ العقابَ من جنسِ العملِ، وأنّ كلَّ عملٍ يحملُ في ذاتِه عقابَه في الآخرةِ[2].

بَلاغةُ الكنايةِ في: ﴿فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾:

الإنباءُ وعيدٌ بالعذابِ وإقامةُ الحُجّةِ عليهم، لا مُجرّدَ مجازاتِهم

الإنباءُ في قوله تعالى: ﴿فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ يقتضي لوازمَ يدلُّ عليها الفكرُ وتدلُّ عليها النّصوصُ فهي كنايةٌ عنها، وهذه اللّوازمُ يدخلُ فيها الحسابُ وفصلُ القضاءِ وتنفيذُ الجزاءِ؛ فالإنباءُ يستلزمُ العلْمَ بأعمالِهم السّيئةِ؛ والقادرُ إذا علمَ بسوءِ صَنيعِ عبْدِه لا

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/140.
(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 7/3547.

يمنعُه من عقابه مانعٌ[1]، وهو وعيدٌ بالجزاء والعذابِ، كقول الرّجل لمن يتوعّدُه سأخبركُ بما فعلتَ[2]، كما أنّ في التّعبير بالإنباءِ إقامةَ الحُجّةِ عليهم لا مجرّدَ مجازاتِهم.

وفي هذه الكنايةِ كذلك نُكتةٌ خفيّةٌ مبنيّةٌ على حِكمةٍ أبيّةٍ ذكرَها أبو السّعود؛ وهي أنّ كلَّ ما يظهرُ في هذه النّشأة منَ الأعيان والأعراضِ، فإنّما يظهرُ بصورةٍ مغايرةٍ لصورتِه الحقيقيّةِ التي بها يظهرُ في النّشأة الآخرةِ، فالبغيُ في هذه النّشأةِ وإنْ برزَ بصورة تشتَهيها البُغاةُ، وتَستحسنُها الغواة؛ لتمتُّعِهم به من حيث أخذُ المالِ والتّشفّي منَ الأعداء، ونحوُ ذلك، لكنْ ذلك ليس بتمتّعٍ في الحقيقة، بل هو تضرّرٌ من حيث لا يحتسبون، وإنّما يظهرُ لهم ذلك عند إبراز ما كانوا يعملونَه منَ البغْيِ بصورةِ الحقيقةِ المضادّةِ لِما كانوا يُشاهدونَه على ذلك منَ الصّورة، وهو المرادُ بالتّنبئةِ المذكورةِ[3].

نُكتةُ دخولِ (كان) على المضارعِ في: ﴿كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾:

في ذكْرِ ﴿كُنتُمْ﴾ والفِعْلِ المضارعِ ﴿تَعْمَلُونَ﴾ في قوله تعالى: ﴿كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ دَلالةٌ على تكرُّر عملِهم، وتَمكُّنِه منهم[4]، لأنّها جملةٌ اسميّةٌ خبرُها فعلٌ فهي تفيدُ الثّبوتَ والدّوامَ، ويفيدُ خبرُها الذي جاءَ بصيغة المضارعِ ﴿تَعْمَلُونَ﴾ الاستمرارَ التَّجدُّديَّ؛ فعملُهم في الإفسادِ ثابتٌ متمكّنٌ منهم ودائمٌ ومُتكرّرٌ.

جـــزاءُ الـلـه الـــعـــادلُ لا يُفلتُ منه بغيُ الكافرين الثابتُ المتكرّرُ

دَلالةُ مَجيء ﴿تَعْمَلُونَ﴾ من حيث المادّةُ والصّيغةُ:

اختار البيانُ القرآنيُّ مُفردةَ ﴿تَعْمَلُونَ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ دونَ غيرِها كلفظِ (فعل) مثلًا؛ لأنّ لفظَ العملِ أخصُّ منَ الفعل فلا يكونُ إلّا بقصدٍ وعن فكْرٍ ورويّةٍ،

من كمالِ عدْلِه سُبحانه أنّـه لا يُحاسِبُ إلّا على مـا صَـــدرَ من عاقلٍ وعن قصْدٍ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/140.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/136.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/136.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/140.

أي لا يكونُ إلّا من عاقل، وأمّا لفظُ الفعلِ فهو عامٌّ، فقد يكونُ بقصدٍ أو بغيْرِ القصدِ، من عاقلٍ وغيرِ عاقل، بعلْمٍ أو بغيرِ علْمٍ، ولذا كان الأنسبُ في سِياقِ الحسابِ والمجازاةِ وإقامةِ الحُجّةِ على الكافرين اختيارَ لفظِ (العمل)؛ لأنّ من عدلِ اللّه أنّه لا يحُاسِبُ إلّا على ما صَدرَ من عاقلٍ وعن قصْدٍ.

وأمّا التّعبيرُ بصيغةِ المضارعِ ﴿تَعْمَلُونَ﴾؛ لإفادةِ الاستمرارِ والتّجدّدِ، واستحضارِ الحالِ في الدّلالةِ على إصرارِهم على الاستمرارِ في البغيِ والإفسادِ، وعلى كثرة هذه الأعمالِ، وعلى تصويرِ هذه الأعمالِ بما فيها من فسادٍ، وقُبحٍ حاضرةً ماثلةً أمامهم، وفي ذلك إشارةٌ إلى عدْلِه وإقامة الحُجّةِ عليهم.

فائدةُ حذْفِ مفعولِ ﴿تَعْمَلُونَ﴾:

حذفَ البيانُ الإلهيُّ مفعولَ ﴿تَعْمَلُونَ﴾ في قوله تعالى: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾؛ للدّلالة على العُموم، والمعنى: أنّ اللّه سيُنَبّئهم بكلّ ما عمِلوه من أعمالٍ إراديّةٍ نفسيّةٍ كالكفرِ، والنّيّاتِ، والحسدِ، وتدبيرِ مخطّطاتِ إضلالِ عبادِ اللّه، ومقاومةِ دعوةِ الحقّ الرّبانيّةِ، ومن أعمالٍ جسديّةٍ؛ كعبادة غيرِ اللّه، وارتكابِ محرّمات القتلِ، وأكلِ أموالِ النّاس بالباطلِ، والفواحشِ، إلى غير ذلك.

الإبهامُ الحاصلُ في الحذْفِ يدلُّ على تنوّعِ أعمالِهم الخبيثةِ

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

البغيُ والاعْتداءُ والعُدوانُ والعُتوُّ والطّغيانُ والظّلمُ:

تتداخل معاني هذه الألفاظِ في اللّغة وتتقاربُ في دلالتها، وجميعُها فيها معنى مُجاوزةِ الحدِّ؛ فمعنى البغْيِ في اللّغة: الفسادُ والشّدّةُ، ثمّ أُطلقَ على التّعدّي ومُجاوزةِ الحدِّ بغيرِ حقٍّ، والظّلم[1].

والطُّغيان: مجاوزةُ الحدِّ في كلّ شيءٍ، ويُطلقُ على مُجاوزةِ الحدّ في المكروه مع غلبةٍ وقهرٍ، ومجاوزةِ الحدِّ في الظّلم[2].

الطّغيانُ غايةُ مجاوزةِ الحدِّ بغيرِ حقٍّ، ثمّ يَليه البغْيُ، ثمّ العُتوُّ، ثمّ العُدوانُ والاعْتداءُ، ثمّ الظّلمُ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والزَّبيدي، تاج العروس: (بغى).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب، والزَّبيدي، تاج العروس: (طغى).

والظّلمُ: وضعُ الشّيءِ في غير موضعِه تَعدّيًا، والظّلمُ: تجاوزٌ عنِ المستحقّ بمنعِه وانتقاصِه[1].

والعُتوّ: الاستكبارُ والتّجبّرُ والعصيانُ، ومبالغةٌ في كبرٍ، أو فسادٍ، أو كفرٍ[2].

والاعتداءُ والعُدوان: تجاوزُ ما ينبغي أن يُقتصرَ عليه، وهو الظّلمُ الصّراحُ[3].

لا تُسعفُنا المعاجمُ اللّغويّةُ بفروقٍ واضحةٍ بين هذه الألفاظ، ولكنْ عند إمعانِ النّظرِ في الاستعمالِ القرآنيِّ لها يمكنُ ملاحظةُ بعض الفروقِ الدّلاليّةِ بينَها، وهي:

البغيُ: شدّةُ الطّلبِ لِما ليس بحقٍّ بالتغليب، وهو بذلك يتضمّنُ كلَّ أنواع الظّلم والتّعدّي والكِبر معًا[4].

والطّغيانُ: تجاوزُ الحدّ في المكروه مع غلبةٍ وقهر، والغُلوُّ في ذلك، ويشملُ الإفراطَ في المعصيةِ والكِبْر والكفرِ، فالطّواغيتُ: هم رؤوس الضّلالةِ؛ إذْ أَمروا النّاسَ أن يَعبدوهم من دون اللّه، وفي ذلك غايةُ مُجاوزةِ الحدّ، وهو بذلك أشدُّ منَ البغْيِ، وأشدُّ منَ العُتوّ[5].

والظّلمُ: هو المَيْلُ عنِ القصد، والتّعدّي سواءً أكان صغيرًا أم كبيرًا، حيث يتراوحُ الظّلمُ ما بين أكبرِ الكبائرِ وهو الشّركُ باللّه تعالى، وبين ارتكابِ أصغرِ الذّنوب[6].

والعُتوّ: المبالغةُ في المكروه، كالكِبْر أوِ الفسادِ أوِ الكفرِ، لكنّه لا يبلغُ مبلغَ البغيِ والطُّغيان[7].

والاعتداءُ: تجاوزٌ في الشّيء، وتقدّمٌ لما يَنبغي أن يُقتصرَ عليه، والعُدوان: التّعدّي في حدود اللّه والظّلمُ الصُّراحُ، وهو أسوأ الاعتداءِ[8].

إذن: أشدُّها الطّغيان؛ لاشتماله على غاية الإفراطِ في المعصية والكفرِ، ومجاوزةِ الحدّ في المكروه، وفي الظّلم والعُتوّ، ويليه في الشّدّة البغيُ؛ لاشتماله على التّعدّي والفسادِ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (ظلم).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (عتو).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، ومجمل اللغة: (دعو).
(4) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 232.
(5) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 230.
(6) محمد داود، معجم الفروق الدلالية، ص: 147.
(7) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 230.
(8) ابن فارس، مقاييس، ومجمل اللغة: (دعو).

والظّلم، ثم العُتوّ؛ لأنّه مبالغةٌ في المكروه من كبْرٍ أو فسادٍ أو كفرٍ، ثم يليه الاعتداءُ والعدوانُ؛ لأنّه تعدٍّ على حدود الله، وظلْمٌ صُراحٌ، ثمّ يأتي الظّلمُ؛ وهو أدناها، وتتفاوتُ درجاتُه من صغائر الذّنوب إلى كبائرِها وصولًا إلى الشّركِ بالله تعالى[1].

(1) محمد داود، معجم الفروق الدلالية، ص: 143 - 148.

﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [يونس: 24]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

لمّا قال الله تعالى في الآية السابقة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم ۖ مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ﴾ وكان سببُ ما ذُكر منَ البغي في الأرض، وإفسادِ العمران هو الإفراطُ في حبِّ التّمتُّع بما في الدُّنيا منَ الزِّينة واللَّذّاتِ ضرَبَ مثلًا بليغًا عجيبًا للحياة الدُّنيا يصرفُ العاقلَ عنِ الغُرورِ والفسادِ في الأرض، وهو عبارةٌ عن تشبيهِ زينتِها ونعيمِها في افتتانِ النّاس بها، وسرعةِ زوالها بعد تمكُّنِهم منَ الاستمتاع بها، وأنَّها بحالِ ما تُعزُّ وتَسُرُّ تضمحلُّ ويؤولُ أمرُها إلى الفناء، فقال تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾[1].

الإفراطُ في حبِّ التّمتُّعِ بما في الدُّنيا منَ الزِّينةِ واللَّذّاتِ هو سببُ البغْيِ في الأرضِ

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَٱخْتَلَطَ﴾: أصلُ الخَلْط: تداخلُ أجزاءِ الشَّيء بعضِها في بعضٍ، وخَلطتُ الشّيءَ بغيره فاختلطَ: امتزجَ[2]، والخلطُ: الجمعُ بين أجزاء الشّيئين فصاعدًا، سواءً كانا مائعَيْن أو جامدَيْن، أو أحدُهما مائعًا والآخرُ جامدًا، والخلطُ أعمُّ منَ المزْج[3].

ومعنى ﴿فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ﴾: أي تلقُّفُ النّباتِ للماء

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 6/36.
(2) ابن منظور، لسان العرب، والزَّبيدي، تاج العروس: (خلط).
(3) الراغب، المفردات، ص: 293.

النّازلِ منَ السّماء، وقبولُه له، فنبتَ بذلك الماء أنواعٌ منَ النّبات مختلطًا بعضُها ببعض، والْتفَّ وتكاثفَ[1].

2) ﴿زُخْرُفَهَا﴾: الزُخرُفُ: الزّينة، وأصلُه الذّهبُ، ثم أُطلقَ على كلّ ما يُتزيّنُ به؛ لأنّه الأصلُ في الزّينة، ثم شُبِّهَ كلُّ مموَّهٍ مُزَوَّرٍ به، وكلُّ ما زوِّق وزُيّنَ فقد زُخرف، وزُخرفُ الأرضِ: ألوانُ نباتها منَ الأنوار والزّهرِ[2]، وقيل: الزُّخرف كمالُ حُسن الشّيء، وزُخرفُ القول: ما زُيّن به ورُقِش بالباطل[3].

ومعنى زُخْرُفِها: حُسنُها وبهجتُها، وزينَتُها منَ الأنوار والزَّهَر من بين أحمرَ وأصفرَ وأبيضَ، وقيل: تمامُها وكمالُها[4].

3) ﴿وَٱزَّيَّنَتْ﴾: الزّاء والياء والنّون أصلٌ صحيحٌ يدلّ على حُسْن الشّيء وتحسينِه، فالزَّينُ: خلافُ الشَّينِ، وازَّيّنتِ الأرضُ وازدانت إذا حسّنَها عُشبُها[5]، والزّينةُ: تحسينُ الشّيء بغيره من لِبسةٍ، أو حِليةٍ، أو هَيئةٍ[6]، والزّينةُ الحقيقيّةُ: ما لا يَشين الإنسانَ في شيء من أحواله لا في الدُّنيا ولا في الآخرة[7]،، وأصلُه: وتزيّنت، فسُكّنت التاء، وأُدغمت في الزّاي، واجتلبت الألفُ ليصحَّ الابتداءُ[8].

وازيّنت الأرضُ: أي بنباتِها، وما أودع فيها منَ الحبوب والثّمار والأزهارِ[9].

4) ﴿قَٰدِرُونَ﴾: القافُ والدّال والرّاء أصلٌ صحيح يدلّ على مَبْلغِ الشّيء وكُنهِه ونهايتِه، فالقَدَرُ: مبلغُ كلِّ شيءٍ، والقضاءُ والحكمُ[10]، والقدر: بفتح فسكون: الغِنى واليسارُ، وهما مأخوذان منَ القوّة؛ لأنّ كلًّا منهما قوّةٌ، وقادرٌ: اسمُ فاعلٍ منَ القدرة، وقدرَ على الشّيء واقتدر عليه: قويَ عليه[11].

---

(1) ابن جرير، جامع البيان: 15/55، والبغوي، معالم التنزيل: 4/129.
(2) ابن منظور، لسان العرب، والزَّبيدي، تاج العروس، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (زخرف).
(3) السمين الحلبي، عمدة الحفاظ: 2/137.
(4) البغوي، معالم التنزيل: 4/129.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (زين).
(6) ابن منظور، لسان العرب، والزَّبيدي، تاج العروس: (زين).
(7) الراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (زين).
(8) ابن منظور، لسان العرب: (زين)، وأبو حيان، البحر المحيط: 6/38.
(9) أبو حيان، البحر المحيط: 6/38.
(10) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قدر).
(11) ابن منظور، لسان العرب، والزَّبيدي، تاج العروس: (قدر).

ومعنى قادرون عليها: أي مُتمكِّنون ومُستمِرّون من منفعتِها مُحصِّلون لثمراتِها، رافعون لغلّتِها[1].

5) ﴿حَصِيدًا﴾: أصلُ (حصد) يدلُّ على قطع الشّيء، ومنه قطعُ الزّرعِ، وجزُّ النّباتِ بعد جفافِه واكتمالِ حالِه، والحصيدُ: الزّرعُ المحصودُ بعدما يُحصدُ، وقيل: هو الذي انتزعتْهُ الرّياحُ فطارت به[2].

وحصيداً: أي محصودةً ومقطوعةً من منابتِها، فهو الحصادُ في غير إبّانِه على سبيل الإفساد[3].

6) ﴿تَغْنَ﴾: الغين والنّون والحرف المعتلّ أصلان صحيحان، أحدُهما يدلّ على الكفاية، والآخرُ صوتٌ، فمنَ الأصل الأوّل: الغِنى في المال الذي ضدُّ الفقر، ومنه: غنيَ في المكان إذا أقامَ فيه إقامةً وعمّرهُ، كأنّه استغنى به عن غيره، ومنه المغاني: المنازلُ التي يُعمّرها النّاسُ[4].

ومعنى كأنْ لم تغنَ: أي لم تكن عامرةً، ولم تعشْ ولم تنعم، وكأنْ لم تكُنْ قبل ذلك نباتًا على ظهرها، وما كانت حسناءَ قبل ذلك[5].

المَعْنى الإجْماليُّ:

تصويرٌ بليغٌ لحقيقةِ الدُّنيا وسُرعةِ زوالِها بمثالٍ مَرئيٍّ لا يغيبُ عن أحدٍ

هذه الآيةُ العظيمةُ تصويرٌ تمثيليٌّ؛ حيث شبَّه اللّه فيها حالَ الحياة الدُّنيا في سرعة تَقَضّيها وزوالِ نعيمِها بحالِ نباتِ الأرض، الذي يَنمو ويزدهرُ، بسبب مطرٍ نزلَ منَ السّماء، فنبت بذلك الماءِ أنواعٌ منَ النّبات ممّا يأكلُ النّاسُ، وممّا يأكلُ الأنعامُ، وما زال هذا

(1) الزمخشري، الكشاف: 2/325، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/143.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب، والزَّبيدي، تاج العروس، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (حصد).
(3) القرطبي، أحكام القرآن: 8/328، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/144.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب، والزَّبيدي، تاج العروس: (غني).
(5) ابن جرير، جامع البيان: 15/56، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/144.

النّباتُ ينْمو ويزدهرُ حتى استوفتِ الأرضُ زينتَها وحُسنَها، وظنَّ أهلُها ظنًّا مُؤكّدًا أنّهم مُستمرّون في الانتفاع بثمراتِها متمكّنون من ادّخارِ غَلّاتِها، أتاها قضاءُ اللّه إمّا ليلًا في وقتِ غفلتِهم أو نهارًا وهم لاهون، فأهلكَها واستأصلَ ما عليها، فجعلَها مقطوعةً مقلوعةً من أصولها، كأنَّه لم يقم بها بهجةٌ وخضرةٌ نضِرةٌ تسرُّ أهلَها من قبلُ.

كهذا المَثل في جلالِه ووضوحِه وتمثيلِه لحقيقة الدُّنيا وغرورِ النّاس بها وسرعةِ زوالِها، وكما بينّا لكم أيّها النّاسُ مثلَ الدُّنيا وعرّفناكم حُكمَها وأمرَها، كذلك نُبيّنُ حُججَنا وأدلَّتَنا لمن تفكَّرَ واعتبرَ ونظرَ، فأهلُ الفكر أهلُ التّمييزِ بين الأمورِ، والفحْصِ عن حقائقِ ما يعْرِضُ منَ الشُّبَه في الصّدور[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

نُكتةُ الفصْلِ في: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾:

فصلَ القُرآنُ هذه الآيةَ: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ عن سابقتِها، ولم يربط بينهما بعاطفٍ؛ لوقوعِها استئنافًا بيانيًّا، لِما بين الجُملتين من كمالِ الاتّصال، واتحادٍ في المعنى؛ وجاءت هذه الآيةُ لتوضّحَ إبهامَ جملة ﴿مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ في الآية السّابقةِ المُؤْذِنة بأنّ تمتّعَهم بالدُّنيا ما هو إلّا لمدّةٍ قصيرة، فبيَّنت هذه الآيةُ أنّ التّمتّعَ صائرٌ إلى زوالٍ، وأطنبتْ فشبّهتْ هيئةَ التّمتّع بالدُّنيا لأصحابها بهيئة الزّرعِ في نضارتِه، ثمّ في مصيره إلى الحصْد[2].

تَشبيهُ الحياةِ الدُّنيا بأطوارِ الزّرعِ بيانٌ لمتاعِ الحياةِ الدُّنيا سريعِ الزَّوالِ

بَلاغةُ القصْرِ بـ ﴿إِنَّمَا﴾:

﴿إِنَّمَا﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ هي أداةُ قصْرٍ، قصرٌ يتناسبُ مع سياقِه؛ لأنّه تعالى ضربَ للحياة الدُّنيا أمثالًا غيرَ

(1) ابن جرير، جامع البيان: 15/56، والحجازي، التفسير الواضح: 2/55.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/141، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 7/3549.

هذا[1]، وصيغةُ القصْر؛ لتأكيد المقصودِ منَ التّشبيه وهو سرعةُ الانقضاء؛ ولبيانِ حقيقتِها، وهي أنَّها فانيةٌ عند ازدهارها، أي ليس بها صورةُ بقاءٍ قط، إنَّما حقيقتُها الفناءُ، والهلاكُ والزوالُ، ولتنزيلِ السّامعين منزلةَ من يحسِبُ دوامَ بهجةِ الحياة الدُّنيا وزينتِها؛ لأنَّ حالَهم في الانكبابِ على نعيمِ الدُّنيا كحالِ مَن يحسبُ دوامَه، وينكرُ أنْ يكون له انقضاءٌ سريعٌ ومفاجئٌ، والمعنى: قصْرُ حالةِ الحياة الدُّنيا على مشابهةِ حالةِ النّباتِ الموصوفِ، فالقصرُ قصْرُ قلْبٍ[2]، بُني على تنزيلِ المخاطبين منزلةَ من يعتقدُ عكسَ تلك الحالةِ[3].

حقيقةُ الحياةِ الدُّنيا الفناءُ كحالِ النّباتِ وأطوارِه تمامًا

بَلاغةُ التّشبيهِ المركّبِ:

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ تشبيهٌ تمثيليٌّ جرى مجرَى الأمثال[4] حيث شبَّه اللّه تعالى الحياةَ الدُّنيا في سرعةِ تَقَضّيها وانقراضِ نعيمِها بعد الإقبال، بحالِ نباتِ الأرض في جفافه وذهابِه حُطامًا ومصيرِه حصيدًا بعد ما الْتَفَّ وتَكاثَفَ، وزيَّن الأرضَ بخُضرته وألوانِه، وهذا منَ التّشبيه المركّبِ، وهو تشبيهُ حالةٍ مركّبةٍ بحالةٍ مركّبةٍ، ففي الآيةِ عشرُ جُمَلٍ وقعَ التَّركيبُ من مجموعها، بحيث لو سقَط منها شيءٌ اختلَّ التَّشبيهُ[5]، "وهو من أبدعِ ما يجيءُ في بابه"[6]؛ فقد تضمّن تشبيهاتٍ مفرَّقةً من أطوارِ الحالَيْن المتشابهَيْن بحيث يصلح كلُّ جزءٍ من هذا التّشبيهِ المركّبِ لتشبيهِ جزءٍ من الحالَيْن المتشابهَيْن، ولذلك أطنبَ وصفَ الحالَين منِ ابتدائه، فقوله: ﴿كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ شُبّه به

تَشبيهُ أطوارِ الحياةِ الدُّنيا بأطوارِ النَّباتِ منْ أبلغِ التّشبيهِ

(1) الهرري، حدائق الروح والريحان: 12/228.
(2) قصر القلب: أن يكون الكلام المشتمل على القصر موجَّهًا لمن يراد إعلامه بخطأ تصوّره نسبة المقصور إلى غير المقصور عليه.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/141.
(4) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 7/3549.
(5) السيوطي، الإتقان: 3/144.
(6) ابن الأثير، المثل السائر: 1/387.

ابتداءُ أطوار الحياةِ من وقت الصّبا، ووجودِ الأمل في نعيم العيشِ ونضارتِه، فذلك الأملُ يُشبهُ حالَ نزول المطرِ منَ السّماء في كونِه سببَ ما يُؤمَّل منه مِن زُخرف الأرض ونضارتِها، وقولُه: ﴿فَٱخۡتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلۡأَرۡضِ﴾ شُبّه به طورُ ابتداءِ نضارة العيش، وإقبالِ زهرة الحياةِ، فذلك يُشبهُ خروجَ الزّرع بُعَيد المطرِ فيما يُشاهَدُ من بوارق المأمولِ، وقولُه: ﴿مِمَّا يَأۡكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلۡأَنۡعَٰمُ﴾ وصفٌ لنباتِ الأرض الذي منه أصنافٌ يأكلُها النّاسُ منَ الخُضروات والبُقولِ، وأصنافٌ تأكلُها الأنعام منَ العُشبِ والكلأ، وذلك يشبَّهُ به ما يَنعَمُ به النّاسُ في الحياة منَ اللَّذّات، وما ينعمُ به الحيوانُ، وقولُه: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلۡأَرۡضُ زُخۡرُفَهَا﴾ هو غايةٌ شُبِّهَ بها بلوغُ الانتفاعِ بخيرات الدُّنيا إلى أقصاهُ ونضوجِه، وتمامِه وتكاثُرِ أصنافه، وانهماكِ النّاس في تناوُلِها، ونِسيانِهمُ المصيرَ إلى الفناء[1].

معنى (أل) في: ﴿ٱلۡحَيَوٰةِ﴾:

(أل) في كلمة ﴿ٱلۡحَيَوٰةِ﴾ في قوله تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ جنسيّةٌ، والمعنى أنّهُ مثَلٌ لبيان حقيقةِ الحياة الدُّنيا وماهيّتِها، وأنها سريعةُ الانقضاء والزّوال، وأنَّها بحالِ ما تُعزّ وتسرُّ تضمحلُّ، ويؤول أمرُها إلى الفناء.

حقيقةُ الحياةِ الدُّنيا وماهيّتُها أنّها سريعةُ الانقضاءِ والزّوالِ

نُكتةُ وصْفِ ﴿ٱلۡحَيَوٰةِ﴾ بـ ﴿ٱلدُّنۡيَا﴾:

وصفَ البيانُ الإلهيُّ ﴿ٱلۡحَيَوٰةِ﴾ بـ ﴿ٱلدُّنۡيَا﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾، وليس هناك وَصْفٌ أدنى من هذا الوصفِ[2]، فقد سُمّيتِ الدُّنيا لدُنوّها، وقيل: لدَناءتِها[3]، ونُكتةُ ذلك: تمييزُ الحياة الآخرة الباقية عنها، والإشارةُ إلى قلَّةِ نعيمِها وقِصَرِه، وسرعةِ زوالِها وانقضائِها، وكأنَّها لم تكنْ وما كان فيها نعيمٌ قطُّ.

الدُّنيا حياةٌ فانيةٌ قصيرٌ نعيمُها سريعٌ زوالُها كأنَّها لم تكنْ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/142.
(2) الشّعراوي، تفسير الشّعراوي: 13/8237.
(3) البغوي، معالم التنزيل: 2/120.

معنى الكافِ في ﴿كَمَآءٍ﴾:

الحياةُ الدُّنيا كالماءِ يجبُ الأخذُ منهما بقَدَرٍ

الكافُ في كلمة ﴿كَمَآءٍ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ هي حرفُ جرّ يفيدُ التّشبيهَ، أي: تشبيهَ الحياة الدُّنيا بالماء النّازل منَ السَّماء، ووجْهُ الشّبَه بين الحياة الدُّنيا والماءِ من جهتين: إحداهما: أنَّ الماء إذا أخذتَ منه فوق حاجتك تضرّرتَ، وإنْ أخذتَ قدْرَ الحاجة انتفعتَ به، فكذلك الدُّنيا، والثّانية: أنَّ الماء إذا أطبقتَ عليه كَفّكَ لتحفظَه لم يحصلْ فيه شيءٌ، فكذلك الدُّنيا[1].

نُكتةُ تنكيرِ ﴿كَمَآءٍ﴾:

تنكيرُ الماءِ تفخيمٌ لشأنِه فهو سَببُ الحياةِ ودوامِها

نكّرَ البيانُ الإلهيُّ لفظَ ﴿كَمَآءٍ﴾ في قوله تعالى: ﴿كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ في سِياقِ الامتنان؛ لإفادةِ معنى التّكثير والتّفخيم لشأنِ الماء النّازل منَ السَّماء، فهو سببُ الحياة ودوامِها، أي: كماءٍ كثيرٍ أنزلناه من السّماء فاختلطَ به نباتُ الأرض.

ويجوز أن يكونَ التّنكيرُ لبيان النّوعيّة؛ أي: كماءٍ غيرِ ماءِ الأرض، وهو النّازلُ منَ السّماء، ولا تنافيَ بين الدّلالتَيْن؛ فإنّ هذا الماء ماءٌ نازلٌ منَ السَّماء، وهو كثيرٌ وفخمٌ عظيمٌ.

معنى ﴿مِنَ﴾:

الحياةُ الدُّنيا في أصلِها تشبهُ ماءَ السّماءِ في طهارتِه ومكانتِه

﴿مِنَ﴾ في قوله تعالى: ﴿كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ ابتدائيّةٌ؛ "لأنّ ماءَ المطر يتكوّنُ في طبقاتِ الجوِّ العُليا الزّمهريريّةِ عند تصاعُدِ البُخار الأرضيِّ إليها، فيصيرُ البُخارُ كثيفًا، وهو السّحاب، ثم يستحيلُ ماءً"[2].

وكونُ الماء منَ السَّماء (وهو المطر)؛ للإشارة إلى طهارة هذا الماء ومكانتِه، ولأنّه لا تأثيرَ لكسْبِ العبد فيه بزيادةٍ أو نقصٍ،

(1) السيوطي، الإتقان في علوم القرآن: 3/145.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 7/398.

بخلاف ماءِ الأرض فيُنال بالآلات، وفي هذا إشارةٌ إلى أنّ الدُّنيا تأتي بلا كسْبٍ من صاحبها، أو لأنَّ ماءَ السّماء يَستوي فيه جميعُ الخلائقِ، فكان تشبيهُ الحياة به أنسبَ[1].

معنى (أل) في: ﴿ٱلسَّمَآءِ﴾:

الـعَـهـديـةُ في أل التَّـعـريـفِ استحضارُ صورةِ الـسَّـمـاءِ التي يَعرفونَها

أل في كلمة ﴿ٱلسَّمَآءِ﴾ في قوله تعالى: ﴿كَمَآءٍ أَنزَلۡنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ عهديَّةٌ، والعهدُ فيها ذهنيٌّ، أي السَّماءُ المعهودةُ، وهي السَّماءُ التي ينزلُ منها المطرُ، "فالسّماء اسمٌ لأعلى طبقات الجوّ حيث تتكوّنُ الأمطار"[2]، فالمرادُ بالسّماء: جهةُ العُلوّ، أي: ما علا الأرضَ وأحاطَ بها[3]، ويُراد بالماء النّازل منَ السَّماء: المطرُ النّازلُ منَ السَّحاب، أي من جهة السَّماءِ.

معنى الفاء في: ﴿فَٱخۡتَلَطَ﴾:

سـرعـةُ ظُـهـورِ الـنَّـبـاتِ عَـقِـبَ نُزولِ المطرِ إشارةٌ إلى سرعةِ نماءِ الحياةِ

الفاءُ في قوله تعالى: ﴿فَٱخۡتَلَطَ﴾عاطفةٌ، ومعناها: التّعقيبُ، والفوريّةُ بالنّظر إلى المبدأ، ولكنْ كلٌّ بحسَبِه، أي: ابتداءُ الاختلاطِ عقيبَ الإنزال، وإن كان منتهاه بزمانٍ طويلٍ[4]، وفي هذا إشارةٌ إلى سرعة ظهورِ النّبات عقِبَ نزولِ المطر، ويُؤْذِنُ بسرعة نماء الحياةِ في أوّل أطوارِها[5].

معنى الباءِ في: ﴿بِهِۦ﴾:

دَلالـــةُ الـبـاء عـلى الـسّـبـبـيّـةِ والمصاحبةِ يُنبئُ بـأنَّ المـاءَ سببُ الحياةِ

تحتملُ الباءُ من ﴿بِهِۦ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَٱخۡتَلَطَ بِهِۦ﴾ معنيَيْن:

الأوّل: السَّببيَّةُ، والمعنى: فاختلط بسببِه نباتُ الأرض، أي التفّ النّباتُ، وتشابكَ بعضُه ببعضٍ بسبب الماءِ.

الثّاني: المصاحبةُ، والمعنى: فاختلط النّباتُ بالماء اختلاطَ

(1) الصّاوي، حاشيته على تفسير الجلالين، ص: 791، وطنطاوي، التفسير الوسيط: 7/55.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 7/398.
(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 7/3549.
(4) القونوي وابن التمجيد، حاشية على تفسير البيضاويّ: 12/92.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/142.

الذّرّات بالذّرّاتِ، فجاورَهُ وقارنَه[1]، ومخالطتُه له: تشبّثُه به، وتلقّفُه إياه، وقبولُه له؛ لأنَّه يجري له مجَرى الغذاءِ[2].

معنى (أل) في ﴿ٱلۡأَرۡضِ﴾:

(أل) في كلمة ﴿ٱلۡأَرۡضِ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَٱخۡتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلۡأَرۡضِ﴾ جنسيّةٌ، أي جنسُ الأرض، والمعنى: اختلط بماء المطر كلُّ نباتِ الأرض، ويمكن أنْ تكون عهديَّةً، أي: الأرضُ التي يعرفونها وينبتُ فيها النّبات، أي: التي لها أهليّةُ الإنباتِ[3].

معنى (مِنْ) في: ﴿مِمَّا﴾:

(من) في قوله تعالى: ﴿مِمَّا يَأۡكُلُ﴾: حرفُ جرٍّ، تحتملُ وجهَيْن: الأوّل: بيانيّةٌ؛ لبيان نتيجةِ الاختلاط[4]؛ لأنَّه لمّا كان النّباتُ ينقسمُ إلى مأكولٍ وغيرِه، بيّن بـ (مِن) أنَّ المرادَ أحدُ القسمَيْن، فقال: ﴿مِمَّا يَأۡكُلُ ٱلنَّاسُ﴾، كالحبوبِ والثّمارِ والبقولِ، ﴿وَٱلۡأَنۡعَٰمُ﴾، كالحشيشِ وسائرِ ما يُرعَى[5].

دَلالةُ (مِنْ) بين البيانيّةِ والتّبعيضيّةِ

الثّاني: تبعيضيّةٌ؛ أي: بعضُ هذا النّباتِ هو مما يأكلُه النّاس؛ كالبقول والفواكهِ وغيرِها، وبعضُه ممّا تأكلُه الأنعامُ؛ كالحشائش والأعشابِ وغيرِها.

معنى (ما) في: ﴿مِمَّا﴾:

(ما) في قوله تعالى: ﴿مِمَّا يَأۡكُلُ﴾ اسمٌ موصولٌ، وجملةُ ﴿يَأۡكُلُ﴾ هي صلتُه، وقد أفاد عمومَ ما يأكلُه النّاس والأنعامُ، والمعنى: فاختلط به نباتُ الأرض من كلِّ الذي يأكلُه النّاسُ والأنعامُ، فإنَّ لكلٍّ منَ النّاس والأنعامِ حَظًّا في نعيمِ الحياة بمقدارِ نطاقِ حياته.

لكلٍّ منَ النّاسِ والأنعامِ حَظٌّ في نعيمِ الحياةِ بمقدارِ نطاقِ حياتِه

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/142.
(2) البيضاوي، أنوار التنزيل: 3/111، وأبو حيان، البحر المحيط: 6/37.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 3/433.
(4) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 7/3549.
(5) أبو حيان، البحر المحيط: 6/37.

بَلاغةُ حذْفِ المفعول في ﴿يَأۡكُلُ﴾:

كلُّ نباتٍ يأكلُه النّاسِ والأنعامُ له حظٌّ من ماء السّماءِ

إنَّ حذْفَ المفعول به في ﴿يَأۡكُلُ﴾ يُؤْذِنُ بالعموم، فيعمُّ كلَّ ما يأكلُه النّاسُ والأنعامُ من نبات الأرضِ، وهذا أبلغُ من ذكرِ المفعول به؛ لأنَّه يُؤدّي إلى تخصيصِ بعضٍ ممّا يأكلُه النّاس والأنعام دونَ بعضٍ، وهذا التّخصيصُ يتنافى مع حقيقةِ أنَّ كلَّ نباتٍ يأكلُه النّاسُ والأنعام هو ممّا اختلط به ماءُ السّماء.

فائدةُ التّعبيرِ بالمضارع في ﴿يَأۡكُلُ﴾:

تشبيهُ الحياةِ الدُّنيا بصورةٍ متجدّدةٍ مُتكرّرةِ الحدوثِ أبلغُ في الاعتبارِ

عبّرَ القرآنُ بالفعل المضارعِ في قوله: ﴿يَأۡكُلُ﴾ لإفادة استمرارِ حدوثِ وتجدُّدِ فعلِ الأكل، وفي ذلك صورةٌ متجدّدةٌ متكرّرةٌ يراها النّاسُ في كلّ وقتٍ، وهي أكلُ النّاس والأنعام من نبات الأرضِ الذي يختلطُ بماء السّماء، ويَزهو ويَنضجُ، ثمّ يصبحُ حصيدًا كأنّه لم يكن، فيكونُ تشبيهُ الحياة الدُّنيا في هذه الصّورة أبلغَ؛ لكونِها مُتجدّدةً مُستمرّةَ الحدوث باستمرارِ أكلِهم وتكرّرِه.

معنى(أل) في﴿ٱلنَّاسُ﴾ و﴿وَٱلۡأَنۡعَٰمُ﴾:

ضَربُ المثَلِ بصورةٍ مُشاهَدةٍ لجميع النّاسِ أدْعَى إلى التّفكّرِ

(أل) في كلمة ﴿ٱلنَّاسُ﴾ وفي كلمة ﴿وَٱلۡأَنۡعَٰمُ﴾ في قوله تعالى: ﴿مِمَّا يَأۡكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلۡأَنۡعَٰمُ﴾جنسيّةٌ استغراقيّةٌ، والمعنى أنّ النّباتَ الذي اختلط بماء السّماءِ يأكلُ منه كلُّ النّاس وكلُّ الأنعام، وفي ذلك مزيدٌ منَ الامتنان، ويكونُ تشبيهُ الحياة الدُّنيا بدورة الماء والنّباتِ في مُتناوَلِ جميع النّاس، ومشاهَدًا من خلال ما يأكلونَه أو تأكلُه الأنعامُ.

عِلّةُ عطفِ ﴿وَٱلۡأَنۡعَٰمُ﴾ على ﴿ٱلنَّاسُ﴾:

اغترارُ النّاسِ بالدُّنيا والسّعْيُ وراءَ سفاسِفِها يجعلُهم كالأنعام التي لا تعقلُ

عطَفَ البيانُ الإلهيّ ﴿وَٱلۡأَنۡعَٰمُ﴾ على ﴿ٱلنَّاسُ﴾ في قوله: ﴿مِمَّا يَأۡكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلۡأَنۡعَٰمُ﴾ لأمور؛ منها: مزيدُ الامتنان، وبيانِ أنّ نِعَمَ اللّه تعالى شاملةٌ، فكما وفّرَ للإنسان الغذاءَ من هذا النَّبات، كذلك وفّره للأنعام التي سخّرها اللّه تعالى له، والإشارةُ إلى أنَّ الدُّنيا لهم

وللأنعام، ولكنّ اللّه فضّلَهم عليها بالعقل، فيجبُ ألّا يغترّوا بالدُّنيا فيصبِحوا كالأنعام بل أضلَّ، وأنْ يعرفوا ما وراء هذه الحياةِ، وأنّهم لم يُخلقوا عبثًا[1].

والإشارةُ إلى تشبيهِ معالي الأمور من نِعَمِ الدُّنيا التي تسْمو إليها الهممُ العوالي بالنّبات الذي يقتاتُه النّاس، وتشبيهِ سفاسفِ الأمور بالنّبات الذي يأكلُه الأنعامُ، ويتضمّن تشبيه الذين يجنَحون إلى تلك السّفاسف بالأنعام، كقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأۡكُلُونَ كَمَا تَأۡكُلُ ٱلۡأَنۡعَٰمُ﴾ [محمد ﷺ: 12][2].

معنى ﴿حَتَّىٰٓ﴾ وبَلاغةُ الحذْفِ الذي تضمّنَتْه:

بينَ مبدأ ظُهورِ لَذّاتِ الحياة وبين بلوغِها مُنتَهاها مراتبُ جمّةٌ وأطوارٌ كثيرةٌ

عبّرَ القرآن الكريم بحرف ﴿حَتَّىٰٓ﴾ التي تفيدُ انتهاءَ الغاية، وهو غايةٌ شبَّهَ بها بلوغَ الانتفاعِ بخيراتِ الدُّنيا إلى أقصاه، وهذا التّعبيرُ يُؤذِنُ بأنَّ بينَ مبدأ ظُهور لذّات الحياة، وبين منتهاها مراتبَ جمّةً وأطوارًا كثيرةً، فذلك طويَ في معنى ﴿حَتَّىٰٓ﴾[3]، لأنَّ (حتى) تحتاجُ أن يكون الفعلُ الذي قبلها مُتطاوِلًا حتى تصحَّ الغايةُ، أو يُقدّرُ قبلَها محذوفٌ؛ أي: فما زال ينمو ويزدهرُ ويزْهو حتى إذا أخذت...، والمعنى: استوفتْ واستكملتِ الأرضُ زُخرفَها منَ النَّبات، وتمَّ سرورُ أهلِها بها، أو يكونُ المعنى: فدامَ اختلاطُ النّبات بالماء حتى إذا..[4].

معنى ﴿إِذَآ﴾ وفائدةُ الشّرطِ بها:

دَلالةُ الشّرطِ بـ(إذا) تُفيدُ حَقّيةَ وقطعيّةَ ما مَثّلَ الله به

استعمل القرآنُ ﴿إِذَآ﴾ في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلۡأَرۡضُ زُخۡرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتۡ﴾، وهي ظرفٌ لِما يُستقبل منَ الزمان، وتتضمّنُ

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 7/3550.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/142.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/143.
(4) أبو حيان، البحر المحيط: 6/38، وطنطاوي، التفسير الوسيط: 7/55.

معنى الشّرط، وتختصُّ بالجملة الفعليّةِ، وتحتاجُ إلى جوابٍ، ومن شرطِها أنْ يكونَ التّعليقُ بها على أمرٍ معلومٍ مقطوعٍ بوقوعِه[1].

ولذا فإنّ فائدةَ الشَّرط بها الدّلالةُ على حقّيّةِ ما مثّلَ اللّه به، واستحضارُ صورةِ هذا المثالِ الصّادق؛ لتكونَ بمنزلة الشّيءِ الحاضرِ المشاهَدِ، وهذا أدْعَى للاعتبار بالمثل.

بَلاغةُ الجُملةِ الشّرطيّة وفائدتُها وجوابُها:

النّقصُ بعدَ الاكتمالِ في الحياة الدُّنيا سُنّةُ الله التي لا تتبدلُ

تتجلَّى بلاغةُ الجملةِ الشّرطيّةِ في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلۡأَرۡضُ زُخۡرُفَهَا﴾، وجوابُها: ﴿أَتَىٰهَآ أَمۡرُنَا لَيۡلًا أَوۡ نَهَارٗا﴾؛ إذ إنَّ فائدةَ الجملةِ الشّرطيَّةِ هو تعليقُ وقوعِ أمرٍ على أمرٍ آخرَ، وهو أنّ الأرضَ إذا بلغت غايتَها منَ الزّينة والحُسْنِ والبهجةِ لابدّ وأنْ تعودَ حصيدًا كما كانت من قبل، وهذا هو حالُ الحياة الدُّنيا التي شبّهها اللّه بها، فإذا جمعَ الإنسانُ منها، وظنَّ أنَّه قد نال به مقصودَه أتاهُ الموت كأنَّه لم يكنْ ولم يَعِشْ في هذه الحياة، وهذه سُنّةُ اللّه التي لا تتبدّلُ ولا تتغيّرُ.

نُكتةُ المجازِ في إسنادِ الأخذِ والتّزيّنِ للأرض:

إسنادُ الأخذِ إلى الأرض مبالغةٌ في إظهارِ زينتِها وكأنّها تناولتْها عن إدراكٍ وعقلٍ

إسنادُ الأخذِ إلى الأرض في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلۡأَرۡضُ زُخۡرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتۡ﴾، هو مجازٌ لُغويٌّ؛ إذ نُسبَ للأرض إدراكٌ وليس لها عقلٌ أو إرادةٌ؛ إذِ الأخذُ هو التّناوُلُ والإمساكُ باليد، وهذا المجازُ لا يكاد يظهرُ لشيوعِ استعمالِه حتى صار كالحقيقة، فالعربُ يُطلقون على ذلك التّناوُلِ اسمَ الأخذِ.

وفي هذا المجاز من إسناد الأخذِ إلى الأرض مبالغةٌ في إظهارِ بهجةِ الأرض، ونضارتِها وزينتِها وزُخرفِها، وكأنّ الأرضَ هي التي تناولت زينتَها عن إدراكٍ وعقلٍ.

(1) ابن نور الدين، مصابيح المغاني في حروف المعاني، ص: 84.

بَلاغةُ الاستعارةِ في تزيُّنِ الأرضِ:

بيانُ الاستعارةِ تشبيهَ الأرضِ بعروسٍ تزيّنت بالحُليّ والثّيابِ

جُعلتِ الأرضُ آخذةً زُخرفَها متزيّنةً، قال تعالى: ﴿أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ﴾، وذلك على جهة التّمثيل بالعروس إذا أخذت الثّيابَ الفاخرةَ من حُليٍّ وألوانٍ، فاكتستْ وتزيّنتْ بأنواع الحُليّ، فاستُعير الأخذُ وهو التّناولُ باليد لاشتمال نباتِ الأرض على بهجةٍ ونضارةٍ وأثوابٍ مختلفةٍ، واستُعير لتلك البهجةِ والنّضارة والألوانِ المختلفةِ لفظُ الزُّخْرُف وهو الذّهبُ، لمّا كان منَ الأشياء التي تبعث البهجةَ والسّرورَ في النّفوس، وكأنّ هذا الأمرَ كلَّه فعلُ عاقلٍ حريصٍ على منتهى الإبداعِ والإتقانِ فيها، وهذا من بديع الاستعارةِ[1]، التي أعطتْ تصويرًا للمعنى وكأنّ القارئَ يَنظرُ إلى مشْهدٍ بارزٍ أمامَه.

معنى الواو في: ﴿وَظَنَّ أَهْلُهَآ﴾:

بهجةُ الدُّنيا وزُخرفُها يَبعثُ على الاغترارِ بدوامِ مَلذّاتِها

الواو في قوله تعالى: ﴿وَظَنَّ أَهْلُهَآ﴾ عاطفةٌ، والمعطوفُ عليه هو قولُه تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ﴾، والمعنى: أنَّه بعد أنْ أصبحتِ الأرضُ ناضجةَ الثّمارِ، دانيةَ القُطوفِ، ظنَّ أهلُها ظنًّا مؤكَّدًا جدًّا[2] أنّهم قادرون على التّمتّعِ بثمراتِها مُتمكّنون من ادّخار غَلّاتِها.

بَلاغةُ الاستعارةِ في: ﴿أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ﴾:

استعارةُ لفظِ القُدرةِ أبلغُ في الدّلالةِ على تمكّنِ أهلِها منها

أطلقَ البيانُ القرآنيُّ لفظَ القُدرة في قوله: ﴿أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ﴾ وأراد به التّمكّنَ منَ الانتفاع ودوامِه، وذلك على وجْهِ الاستعارة، والمعنى: وظنَّ أهلُها أنّهم مُستمرّون على الانتفاع بها محصِّلون لثمراتِها[3]؛ وذلك لأنَّ لفظَ القُدرة فيه معنى القوّةِ، وذلك أبلغُ في إيصال معنى تمكُّنِ أهلِها منَ الانتفاع بها وتحصيلِ ثمراتِها وغَلّاتِها.

(1) الزمخشري، الكشاف: 2/340، وأبو حيان، البحر المحيط: 6/38، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/143.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 3/433.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/143.

نُكتةُ التّعبيرِ بالجملة الاسميّة: ﴿أَنَّهُمْ قَدِرُونَ عَلَيْهَآ﴾:

ظنُّ الكافرين باستمرارِ نَعيمِ الدُّنيا ولذّاتِها غُرورٌ وضَلالٌ

قولُه تعالى: ﴿أَنَّهُمْ قَدِرُونَ عَلَيْهَآ﴾ أنّ وما بعدها سدّتْ مسدَّ مفعولَيْ ﴿وَظَنَّ﴾، والعُدولُ عن قُدرتِهم إلى أنّهم قادرون أفادَ ثباتَ قُدرتِهم لا نسبةَ القُدرة إليهم فقط، وأفادَ أنّ ظنَّهم كان ظنًّا مؤكَّدًا جدًّا[1]، فالتّعبيرُ بالجملة الاسميّةِ فيه مزيدُ بلاغةٍ؛ إذ دلّتْ على الثّباتِ والاستمرارِ، أي: ثباتُ قُدرتِهم على الأرض، والانتفاعِ بها، وتحصيلِ ثمراتِها، وغاب عنهم - لجهْلِهم - علْمُ العاقبةِ؛ ومن ظنّ أنّه مستمرٌّ في الانتفاع بها لم يحسبْ حسابًا لتلَفِها، وكذلك المتمسّكُ بالدُّنيا إذا ظنّ أنّه مستمرٌّ في العيش بنعيمِها لم يحسب حسابًا للموت، فيأتيه الموتُ بغتةً فيَسلبُ ما كان فيه من نعيم الدُّنيا ولذّاتِها، وفي هذا إشارةٌ إلى غرورِهم وضلالِهم.

فائدةُ الإضافة: ﴿أَمْرُنَا﴾:

إسنادُ الأمرِ إلى العظيمِ سُبحانه إنذارٌ بقوّةِ أخذِه للمُنشغِلين بالدُّنيا

أضاف البيانُ الإلهيُّ الأمرَ إلى ضمير العظَمةِ في قوله: ﴿أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا﴾؛ لتهويلِ الأمر وتربيةِ المهابةِ، وإدخالِ الرّوعة في قلوب المنشغِلين بالدُّنيا وزُخرفِها، والإنذارِ بالتّهديد؛ لإرادة الاستئصال، وللتّأكيدِ على أنَّ أمره ﷻ لا يقبلُ التّخلّفَ قطّ[2].

معنى ﴿أَوْ﴾:

زوالُ نضارةِ الحياةِ مُتوقّعٌ في أيّ زمنٍ من الأزمنةِ

أفادت ﴿أَوْ﴾ في قوله تعالى: ﴿لَيْلًا أَوْ نَهَارًا﴾ عدّةَ معانٍ، منها: التّرديدُ في الوقت؛ لإثارة التّوقُّع من إمكان زوالِ نضارةِ الحياة في جميع الأزمنةِ؛ لأنَّ الشّيءَ الموقَّتَ بمعيّن من التّوقيت يكونُ النّاسُ في أمنٍ من حلولِه في غير ذلك الوقتِ[3]، وهذا التّرديدُ هو التّرديدُ بالنّسبةِ إلى وقوع الشّيءِ في نفسِ الأمر، لا بالنّظر إلى المتكلّمِ العالمِ بالمغَيَّباتِ والخَفيّاتِ[4].

(1) البقاعي، نظم الدرر: 3/433.
(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 7/3551.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/143.
(4) القونوي وابن التمجيد، حاشية على تفسير البيضاويّ: 9/434.

والإبهامُ وإخفاءُ الأمر على السّامع مع علْمِ اللّه به، فهو سُبحانه يعلمُ متى يأتيها أمرُه، ولكنَّه أخفاهُ على النّاس ليأتيَهم فجأةً[1].

والتّنويعُ؛ لأنّ بعضَ الأرض يأْتيها أمرُه تعالى ليلًا، وبعضَها نهارًا، ولا يخرجُ كائنٌ عن وقوعِه فيهما[2].

نُكتةُ التّنكيرِ في: ﴿لَيْلًا أَوْ نَهَارًا﴾:

إبهامُ وقتِ نُزولِ أمرِ اللّه أدْعَى إلى الاستِعدادِ له وعدمِ الغفلةِ

نكّرَ البيانُ الإلهيُّ لفظَ (لَيْلًا) و(نَهارًا) في قوله تعالى: ﴿أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا﴾؛ لإفادةِ الإبهام؛ أي: إبهام الوقتِ الذي يأتي به أمرُ اللّه، وفي أيّ جزءٍ من أجزاء اللّيل أوِ النَّهار يكونُ، وذلك أدْعَى وأبلغُ في إثارةِ التّخويفِ والتّهويلِ والاستعدادِ وعدمِ الغفلةِ.

فائدةُ تقديمِ اللّيلِ على النّهارِ في الآية:

نـزولُ الهلاكِ في اللّيل أكثرُ مُفاجأةً وأنسبُ مع وقتِ غفلَتِهم

قُدِّم اللّيلُ على النَّهار في قوله تعالى: ﴿أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا﴾؛ لأنَّ اللّيلَ وقتُ ظلامٍ وسكونٍ، والغالبُ في اللّيل أنْ يكونَ الإنسانُ غافلًا نائمًا لا يتوقّعُ نزولَ العذاب، أوِ الهلاكِ فيه، وإتيانُ العذاب في هذا الوقت يكونُ بَغْتةً، والبَغْتَةُ تكونُ أهولَ وأفظعَ وأفزعَ، وأكثرَ مفاجأةً في وقوعِه، وأشدَّ وأصعبَ؛ إذ لا يتّسعُ لتدارُكِه، بخلاف أنْ يكونَ قدِ استعدَّ له، وتهيَّأَ لحلوله، أو متنبِّهًا فيسعى لتداركه[3].

معنى الفاء في: ﴿فَجَعَلْنَٰهَا﴾:

إيذانٌ بسرعةِ إمضاءِ أمرِه سُبحانه وبسرعةُ انقضاءِ الدُّنيا وزوالِ نعيمِها

الفاء في قوله تعالى: ﴿فَجَعَلْنَٰهَا﴾ عاطفةٌ ومعناها: التّعقيبُ الذي يُشعر بهلاك النّبات، وجعْلِه حصيدًا وانتهائِه إلى تلك الحال عَقبَ إتيان أمرِ اللّه، وفي معنى الفوريّةِ في الفاء إشارةٌ إلى سرعة إمضاءِ أمرِ اللّه، فإذا أراد اللّه سُبحانه أمراً فإنَّما يقول له كن

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 6/573.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 6/39.
(3) أبو حيان، البحر المحيط: 6/69.

فيكون، وفيه إيذانٌ بسرعةِ انقضاءِ الدُّنيا، وزوالِ نعيمِها بعد بهجتِها ونضرتِها متى أتاها أمرُ اللّه.

بَلاغةُ المجازِ والاستعارةِ في: ﴿فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا﴾:

التّعبيرُ عن تلَفِ الزّرعِ بحصيدِ الأرضِ بلاغةٌ في التّصويرِ وكأنَّ الآفةَ حصدَتْه قبل أوانِه

الحصيدُ هو الزّرعُ المقطوعُ من منابتِه، وقدِ احتوت هذه المُفردةُ على المجازِ العقليّ، وعلى الاستعارةِ؛ أمّا المجازُ العقليُّ فهو الإخبارُ عنِ الأرض بحصيدٍ، وإنّما المحصودُ نباتُها[1].

وأمّا الاستعارةُ ففي التّعبير بحصيدٍ عنِ التّالفِ استعارةٌ؛ إذ جعلَ ما هلكَ منَ الزّرع بالآفة قبل أوانِه حصيدًا، وكأنَّ الآفةَ حصدَتْه قبل أوانِه[2]، لعلاقةِ ما بينهما منَ الطّرحِ على الأرضِ.

وقيل: يجوزُ أن تكونَ تشبيهًا بغير الأداةِ، والتّقديرُ: فجعلناها كالحصيدِ[3].

معنى ﴿كَأَن﴾، وفائدةُ التّشبيه:

المبالغةُ في تصويرِ تلَفِ الأرضِ وهلاكِ زرعِها حتى كأنَّها لم تكن عامرةً من قبلُ

﴿كَأَن﴾ في قوله تعالى: ﴿كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ﴾ مخفّفةٌ من كأنّ، واسمُها ضميرُ الشّأن تقديرُه: كأنَّها؛ وجملةُ ﴿لَّمْ تَغْنَ﴾ خبرُها، أي: كأنّ ثمار تلك الأرضِ وزروعَها لم تغن بالأمس، ومعنى (كَأَنْ) التّشبيهُ وتقريبُ الصّورة، أي إنّ حالَ الأرض عندما أتاها أمرُ اللّه، وأصبحت حصيدًا بعدما كانت مُزخرفةً ومُزيَّنةً بالنّبات، كحال التي لم تكن عامرةً قبلَ ذلك بالأمس، ولم تكن تلك الزّروعُ والنّباتُ على ظهر الأرض نابتةً قائمةً، وفائدةُ هذا التّشبيهِ ﴿كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ﴾ هو المبالغةُ في تصوير التّلفِ والهلاكِ، وتأكيدٌ لهلاكها واستئصالِ ما عليها من نباتٍ بصورة سريعةٍ حاسمةٍ حتى كأنّها لم يقُم بالأرض بهجةٌ وخضرةٌ نضرةٌ تسرُّ أهلَها من قبلُ[4].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/144.
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 3/114.
(3) أبو حيان، البحر المحيط: 6/39.
(4) أبو حيان، البحر المحيط: 6/39.

معنى الباءِ في ﴿بِٱلۡأَمۡسِۚ﴾:

الباءُ في كلمة ﴿بِٱلۡأَمۡسِۚ﴾ في قوله تعالى: ﴿كَأَن لَّمۡ تَغۡنَ بِٱلۡأَمۡسِۚ﴾ للظّرفيّةِ، أي بمعنى (في)، والمعنى: كأنْ لم تَغْنَ في الزّمن الماضي القريبِ.

معنى (أل) في ﴿بِٱلۡأَمۡسِۚ﴾:

اختلف العلماءُ في لام ﴿بِٱلۡأَمۡسِۚ﴾ في قوله تعالى: ﴿كَأَن لَّمۡ تَغۡنَ بِٱلۡأَمۡسِۚ﴾ على قولَيْن:

الأوّل: مزيدةٌ لتَمليةِ اللّفظ مثل التي في كلمة (الآن)، والأمسُ هو اليوم الذي قبل يومك.

الثاني: عهديَّةٌ؛ أي: اليومُ المعهودُ بين المخاطَبين، وَلِيَهُ يومُك أم لا[1].

ولكنْ على كلا الرّأيين ليس المرادُ بالأمس في الآية خصوصَ اليوم الذي قبل يومك، وإنّما المرادُ الوقتُ الماضي القريبُ، فالأمس مجازٌ عنِ القرب، أي: جعلناها حصيدًا حتى لكأنَّها لم يكن بها منذُ وقتٍ قريبٍ الزَّرعُ النّضيرُ، والنَّباتُ البهيجُ، والنَّخلُ الباسقُ، والطَّلعُ النّضيدُ[2]، أوِ المرادُ بالأمس الوقتُ المعهود، وهو الوقتُ الذي ازّيّنت فيه[3].

لِسُرعةِ زوال الدُّنيا ومُتعتِها كأنّها لم تكن موجودةً منذُ وقتٍ قريبٍ

معنى الكاف في: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ وفائدةُ التّشبيهِ:

الكافُ في قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ﴾ حرفُ جرٍّ يُستعملُ للتّشبيهِ، وفائدةُ التّشبيه قصدُ الحضِّ على التّفكير والاعتبارِ أي: كهذا المثلِ في وضوحِه وبيانِه لحال الحياة الدُّنيا، وقِصَرِ مدّةِ التّمتّع بها نفصّلُ الآياتِ ونضربُ الأمثالَ الدّالّةَ على وَحدانيتِنا وقُدرتِنا لقوم يَستعملون عقولَهم، فيُحسنون التّفكيرَ والتّدبّرَ في ملكوت السّماوات والأرض[4].

تشبيهُ حالِ النّباتِ بحالِ الدُّنيا من الآياتِ الدّالّةِ على وَحدانيةِ الله وقُدرتِه

(1) السامرائي، معاني النحو: 2/208.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/144، وطنطاوي، التفسير الوسيط: 7/56.
(3) السامرائي، معاني النحو: 2/208.
(4) طنطاوي، التفسير الوسيط: 7/56.

نُكتةُ التّعبيرِ باسمِ الإشارةِ للبعيدِ (ذلك):

الإشارةُ بالبعيدِ للتّنبيهِ على عِظَمِ المثَلِ في إثارةِ التّفكُّرِ

استعملَ اسمَ الإشارة (ذلك) في قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ﴾؛ لإفادتِه التّنبيهَ على عظمِ المثَل الذي أتى به، وهو تشبيهُ الحياة الدُّنيا بنباتِ الأرض، فاختارَ ما يُشار به إلى البعيدِ، مع أنّ المرادَ قريبٌ وهو المثَلُ الواردُ في الآية؛ وذلك للدّلالةِ على تفخيمِ وتعظيمِ وأهمِّيَّةِ تفصيل الآياتِ، وضرْبِ الأمثال في الاعتبارِ والتّفكّر.

غرَضُ إسنادِ التّفصيلِ إلى ضمير العظَمةِ:

آياتُهُ عظيمةُ الدّلالةِ على علْمِه وقُدرتِه وإتقانِ صُنعِه

أسندَ البيانُ الإلهيُّ نونَ العظمةِ إلى فعل (فصّل) في قوله: ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ﴾ إشارةً إلى عِظمِ آياتِ الله، أي نبيّنُ الدّلالاتِ كلَّها الدّالّةَ على عموم العلْمِ والقُدرةِ، وإتقان الصُّنع، فهذه آيةٌ منَ الآيات المبيَّنةِ، وهي واحدةٌ من عموم الآياتِ[1].

معنى (أل) في ﴿ٱلْآيَٰتِ﴾:

الآياتُ القُرآنيّةُ والتّكوينيّةُ أو عِبَرُ الأمثال تنبيهٌ وباعثٌ على التّفكّر في غُرورِ الدُّنيا

(أل) في: ﴿ٱلْآيَٰتِ﴾ في قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ﴾ تحتمل أن تكون جنسيّةً، فتشملُ الآياتِ القرآنيّةَ والآياتِ التّكوينيّةَ، وتحتملُ أنْ تكون أل العهديّةَ، والمعهودُ فيها حضوريٌّ ذِكْرِيٌّ يعودُ إلى المعنى المستفادِ منَ المثَلِ الوارد في الآية، وهو ضرْبُ مَثَلِ الحياة الدُّنيا بالنَّبات والزّرعِ الذي ذُكر عِظةً وتنبيهًا لمن تفكّرَ[2]، والمعنى: كذلك نفصّلُ المواعظَ والعلاماتِ التي تدلّ على غرور الدُّنيا وزوالِها.

معنى اللّام في ﴿لِقَوْمٍ﴾:

ضرْبُ الأمثالِ وتفصيلُ الآياتِ والأدلّةِ لأجْلِ التّفكّرِ والاعتبارِ

اللّام في قوله تعالى: ﴿لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ هي لامُ الأجل[3]، وهي اللّام المبيِّنةُ سببَ الفعلِ الذي قبلها، بمعنى كي أو لأجل، أي: أنّ الله فصّل الآياتِ، وبيّن الحُججَ والأدلّةَ لأجل التّفكّرِ والاعتبارِ بها، فمن لم ينتفعْ بالآيات فليس من أهلِ التّفكّرِ.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/144.
(2) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 6/30.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/144.

نُكتةُ تنكيرِ ﴿لِقَوْمٍ﴾:

نكّرَ البيانُ الإلهيُّ لفظَ ﴿لِقَوْمٍ﴾ في قوله تعالى: ﴿لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾؛ لإفادة معنى التّفخيمِ والتّشريفِ، وذلك في سياقِ المدحِ للمتفكِّرين المعتبِرين بالآيات، أي: إنَّ في ذلك المثَلِ وأشباهِه آياتٍ دالّةً على وَحدانية اللّه وقُدرتِه لأهل التّفكّرِ الذين يُعمِلون عقولَهم، وفيهم قوّةُ المحاولةِ لِما يريدون منَ الاستمرارِ في التّفكّر والوصولِ إلى الحقائقِ.

تنكيرُ القومِ المتفكِّرين تفخيمٌ وتشريفٌ لمداومَتِهم على التّفكّرِ والنّظرِ

دَلالةُ التّعبيرِ بـ﴿يَتَفَكَّرُونَ﴾:

لفظُ التّفكّرِ في قوله تعالى: ﴿يَتَفَكَّرُونَ﴾ يدلُّ على التّأمّلِ والنّظرِ وإعمال الفكرِ، وهو تفعّلٌ مشتقٌ منَ الفكر، وقد اختار البيانُ الإلهيُّ لفظَ التّفكّر؛ تشريفًا لمنزلةِ التّفكّر، وحثًّا للتّسابقُ إلى هذه الرّتبةِ[1]؛ لأنّهم همُ المنتَفِعون بتَفصيلِ الآياتِ، قال الطّبريّ: "وخصَّ به أهلَ الفكر؛ لأنّهم أهلُ التّمييز بين الأمور، والفحْصِ عن حقائقِ ما يَعرِضُ منَ الشُّبَه في الصّدور"[2].

التّفكّرُ من أشرفِ المنازلِ، فعِظمُ آياتِ اللّه لا يُدركُها إلّا الدّائمون على التّفكّرِ

وفيه تعريضٌ بأنّ الذين لم ينتفِعوا بالآيات ليسوا من أهل التّفكّر، ولا كان تفصيلُ الآيات لأجلِهم[3].

واختارَ صيغةَ المضارع؛ لدلالتِها على الاستمرارِ والتّجدّدِ، أي لا بدّ من دوام التّفكّرِ في آيات اللّه، فعِظمُ هذه الآياتِ لا يُدركُ إلّا بالاستمرارِ في التّفكّر فيها، بل يستلزمُ دوامَ التّفكّرِ فيها.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الخلْطُ والمزْجُ:

هناك تقاربٌ دَلاليٌّ كبيرٌ بين المزْجِ والخلْطِ إذ يُعرّفُ كلٌّ

الخلْطُ أعمُّ منَ المزجِ، إذِ المزْجُ يختصُّ بالسّوائلِ

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 3/115.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 15/57.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/144.

منهما بالآخرِ في المعاجم اللّغويّةِ، فالخلطُ: المزجُ، والمزجُ: الخلطُ[1].

إلّا أنَّ هناك بعضَ الفروقِ الدّلاليّةِ الدّقيقةِ بين اللّفظَين التي يمكنُ لحْظُها من خلال الاستعمالِ القرآنيِّ:

استعملَ القرآنُ الكريمُ لفظَ (مزَج) في ثلاثة مواضعَ كلُّها جاءت مع الشَّراب[2].

بينما استعملَ لفظَ (خلَطَ) مع الأشياء الصّلبةِ، ومع الصّلبِ والسّائلِ، ومع الأشياءِ المعنويّةِ[3].

فالخلطُ: هو الجمعُ بين الشّيئين فأكثرَ، سواءً كانا مائعَيْن أو جامدَيْن، أو أحدُهما جامدًا والآخرُ مائعًا[4]، وكذلك في الأشياء المعنويّةِ، سواء كانتِ العناصرُ المختلطةُ من جنسٍ واحد، أو من أجناسٍ مختلفةٍ.

بينما المزجُ: هو خلطُ مائعَيْن مختلفَين أو أكثرَ بعضِهما ببعض، وجعْلُهما شيئًا واحدًا، أو خلطُ مادّةٍ صلبةٍ بسائلٍ بحيث يصبحُ الخليطُ متجانسًا، أي لا بدّ أن يكون أحدُ عناصره مائعًا[5].

إذن: الخلطُ أعمُّ منَ المزج، كما أنّه يمكنُ الفصلُ بين عناصرِ الأشياء المختلطةِ، ولا يمكنُ الفصلُ بين عناصر الأشياء التي امتزجَتْ[6].

الزُّخْرفُ والزّينةُ:

يوجدُ تقاربٌ دلاليٌّ بين لفظ الزُّخرف والزّينة، فكلاهما يَشتركُ في معنى تحسينِ الشّيء وتجميلِه، كما أنّ الزُّخرفَ يُعرّفُ بالزّينة،

الـزّيـنـةُ أعـمُّ مـنَ الـزُّخـرفِ إذِ الزُّخرفُ هو حالةُ اكـتـمـالِ الـزّيـنـةِ وتمامِها

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب، والزَّبيدي، تاج العروس: (خلط)، (مزج).
(2) وردت في المواضع الآتية: [الإنسان: 5]، [الإنسان: 17]، [المطففين: 27].
(3) وردت في المواضع الآتية: [البقرة: 220]، [الأنعام: 146]، [التوبة: 102]، [يونس: 24]، [الكهف: 45]، [ص: 24].
(4) السمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (خلط).
(5) جبل، المعجم الاشتقاقي: (مزج).
(6) الشّعراوي، تفسير الشّعراوي: 10/5859.

إلا أنّنا إذا رجعنا إلى الاستعمال القرآنيِّ للّفظَين نلحظُ بعضَ الفروق بينهما، وهي:

أوّلاً: الزّينةُ أعمُّ منَ الزُّخرف، فكلّ نوعٍ من أنواع التَّحسين يُسمّى زينةً، أمّا الزُّخرف فهو حالةُ اكتمال الزّينةِ وتمامِها، وكأنَّ الزُّخرفَ هو الزّينةُ الظّاهرةُ بوضوحٍ، أوِ المبالَغُ فيها.

ثانيًا: كلّ زُخرفٍ هو زينةٌ، ولكنْ ليس كلُّ زينةٍ زُخرفًا.

الأرضُ الحصيدُ والخامِدةُ والهامِدةُ:

الحصيدُ والخامدةُ والهامدةُ بينهم تقاربٌ دَلاليّ؛ إذ يشتركون في معنًى عامٍّ، وهو القحطُ، وعدمُ وجود النَّباتِ على الأرض، ولكنْ من خلال الرّجوعِ إلى الأصل اللُّغويِّ لهذه الألفاظ، وإلى الاستعمال القرآنيِّ لها يتبيّنُ أنّ بينها فروقًا دقيقةً يمكنُ بيانُها كالآتي:

الأرضُ الهامِدةُ يابسةٌ ميّتةٌ لا حياةَ فيها والخامِدةُ قاحلةٌ جدباءُ، والحصيدُ مقطوعٌ زرْعُها

أوّلًا: من جهة الأصل اللُّغويِّ: الحصيدُ: أصل الحَصْد: قَطْعُ الشّيء، ومنه قَطْعُ الزّرعِ.

أمّا الخامدةُ: أصل الخُمود: سكونُ الحركة والسّقوطُ، ومنه خمدتِ النّار سكن لهبُها ولم يُطفأ جمرُها، وخمَدَ المريض: أُغمِيَ عليه، وقومٌ خامدون: لا تسمعُ لهم حِسًّا، وكأنَّ أصلَ الخمود هو انقطاعٌ للشّيء مع بقاء القُدرةِ على رجوعِه[1].

وأمّا الهامدةُ: أصلُ الهُمود: الموتُ والهلاكُ، ومنه همدتِ النّارُ: ذهب نارُها البتّةَ، أي أُطفئ لهبُها وجمرُها[2].

ثانيًا: من جهة الاستعمالِ القرآنيِّ: الأرضُ الحصيدُ: هي الأرض التي قُطع زرعُها من منابتِه بعد أنْ نضجَ، أوِ التي قُطع زرعُها على سبيل الإهلاكِ.

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (خمد).

(2) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 300، وابن منظور، لسان العرب، والزَّبيدي، تاج العروس: (همد).

أمّا الخامدةُ: لم يردْ في القرآن الكريمِ وصفُ الأرض بالخامدة، وإنّما وُصف بها القومُ الذين أهلكَهمُ اللّه منَ الأمم السّابقةِ، وهي استعارةٌ عنِ النّار الخامدةِ التي أُطفئَ لهيبُها، وإذا وُصفتِ الأرضُ بالخامدةِ فيمكنُ أن تعني: الأرضَ الجدباءَ الشَّبيهةَ بالميّتةِ التي لا نباتَ فيها، ولكنّها مازالت قابلةً للنَّبات إذا أتاها المطرُ.

وأمّا الأرضُ الهامدةُ: وردت في موضعٍ واحدٍ في سياق بعثِ الموتى، وتعني الأرضَ الميّتةَ التي لا حياةَ فيها ولا نباتَ، إلّا أنَّ القادرَ على إحياء الموتى قادرٌ على إنباتها من جديد بعد إنزال المطرِ عليها.

وكأنَّ أكثرَ الأرض قحطًا وجدبًا هي الهامدةُ التي تكونُ يابسةً ميّتةً لا حياةَ فيها البتّةَ، ثمّ الخامدةُ التي تكون شبيهةً بالميّتة، ثم الحصيدُ التي قُطع زرعُها وأصبحَ حُطامًا.

﴿وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٢٥﴾ [يونس: 25]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

لمّا نفَّر سُبحانه الغافِلين عنِ الميْلِ إلى الدُّنيا بالمثَل السّابقِ، وبيَّن حالَها، وقِصَرَ مدّةِ التّمتّع بها، وسُرعةَ زوالها، وما فيها من آفاتٍ ونقصٍ أتبعَ ذلك بدعوةِ النّاس جميعًا إلى العمل الصّالحِ الذي يوصلُهم إلى الجنَّة، ورغَّبَهُم بها، وسمّاها دارَ السَّلام؛ لسلامتِها منَ الفناء، ومن كلّ مكروهٍ وآفةٍ، فقال: ﴿وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ﴾[1].

شتّانَ بين دارٍ فانيةٍ مُحذِّرٍ منها، ودارٍ باقيةٍ سالمةٍ مُرغِّبٍ فيها

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿دَارِ ٱلسَّلَٰمِ﴾: الدّار: المحلُّ والموضِعُ الذي يحِلُّ به النّاسُ من أرضٍ، أو بناءٍ، أوِ المنزلُ المسكونُ، أوِ البلدُ، أوِ القبيلة[2]، والسَّلامُ: من سلِم، والسَّلامةُ: أن يسْلَم الإنسانُ منَ العاهةِ والأذى، واللّه ﷻ هو السَّلام؛ لسلامته ممّا يلحقُ المخلوقين منَ العيبِ والنّقص والفناءِ[3].

ودارُ السَّلام: هي الجنَّةُ، وهي دارُ اللّه الذي هو السَّلام، وسُمّيت بذلك؛ لأنّها دارُ السَّلامة منَ الفناء، وجميعِ المكاره والآفات، أو لأنَّ اللّه يُسلّمُ على أهلها، أو لأنَّ تحيّةَ أهلها السَّلامُ، أو لأنَّ الملائكة تسلّمُ على من يدخلُها[4].

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 17/238، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/228، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/137.

(2) ابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (دور).

(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، والزَّبيدي، تاج العروس: (سلم).

(4) النسفي، مدارك التنزيل: 1/536، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/138.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

دعوةٌ عامّةٌ منه سُبحانه إلى الحياةِ الباقيةِ، وتوفيقٌ يختصُّ به من يشاءُ

يطلبُ اللّه ذو الجلال والإكرام منَ النّاس جميعًا الإيمانَ والعملَ الصّالحَ الذي يوصلُ صاحبَه إلى الجنَّة، ويُرغِّبُهم بها فيُسمّيها دارَ السَّلام، فيُضيفُها إلى اسمه تعظيمًا لها وترغيبًا فيها، وأصحابُها يَسْلَمون من جميع المتاعبِ والمخاوفِ، وتحيّتُهم فيها السَّلامُ، ثم يبيّنُ سُبحانه بعد دعوتِه العامّةِ لكلّ النّاس، أنَّه يَهدي من يشاء من عباده إلى صراطٍ مستقيم، أي: يوفّقُ من يشاء إلى طريق الجنَّةِ والوصولِ إلى دار السَّلام[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

نُكتةُ العطْفِ في: ﴿وَٱللَّهُ﴾:

الترغيبُ بعدَ الترهيبِ عادةٌ قرآنيّةٌ

جملةُ ﴿وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ﴾ معطوفةٌ إمّا على مذكورٍ، وهو جملة ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ﴾، أي نفصِّلُ الآياتِ التي منها آيةُ حالةِ الدُّنيا وتقضّيها، ونَدعو إلى دار السَّلام دارِ الخُلد. ولمّا كانت جملةُ ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ﴾ تذْييلًا، وكان شأنُ التّذييل أن يكونَ كاملًا جامعًا مُستقلًّا جُعلتِ الجملةُ المعطوفةُ عليها مِثْلَها في الاستقلال، فعُدلَ فيها عنِ الإضمار إلى الإظهار؛ إذْ وُضِع قولُه: ﴿وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ﴾ موضِعَ ندعو؛ لأنَّ الإضمارَ في الجملة يجعلُها محتاجةً إلى الجملة التي فيها المعادُ.

أو على محذوفٍ دلّ عليه السّياقُ، أي على المعنى المستفادِ ذهنًا من جملة المثَل، والتّقديرُ: الشّيطانُ يدعوكم إلى إيثار متاعِ الحياة الدُّنيا وزُخرفِها، واللّه تعالى يدعو النّاسَ جميعًا إلى الإيمان الحقِّ الذي يوصلُهم إلى دار كرامتِه[2].

وهناك من عدَّ الواوَ استئنافيّةً، وجملةَ ﴿وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ﴾ مُستأنفةً[3].

---

(1) المراغي، تفسير المراغي: 11/95، والحجازي، التفسير الواضح: 2/56.

(2) طنطاوي، التفسير الوسيط: 7/57، ورشيد رضا، تفسير المنار: 11/286.

(3) بهجت صالح، الإعراب المفصل لكتاب الله المرتل: 5/40، والهرري، حدائق الروح والريحان: 12/230.

فائدةُ التّعبيرِ بالجملةِ الاسميّةِ:

عبّرَ البيانُ القرآنيُّ بالجملةِ الاسميّةِ التي خبرُها فِعْلٌ في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ﴾ ولم يقلْ (يدعو اللّه إلى دار السَّلام)؛ إذ عدَلَ عنِ الجملةِ الفعليّةِ فقدّم اسمَ الجلالةِ ﴿وَٱللَّهُ﴾على الفعل ﴿يَدۡعُوٓاْ﴾؛ لإفادة التّعظيم والتّحقيقِ والتّخصيصِ، فصار المعنى حصرَ هذا الدعاء من اللّه لا من غيره، فلا منهجَ إلّا منهجُه، ولا شرعَ إلّا شرعُه، وأنَّ دعاءهَ إلى دار السَّلام محقّقٌ مؤكَّدٌ لا شكَّ فيه.

أضفْ إلى ذلك أنّ تقديم الاسْمِ الجليل حوّل الجُملةَ من جملةٍ فعليّةٍ إلى جملةٍ اسميّةٍ خبرُها فعلٌ؛ لتفيدَ الثّبوتَ والدّوام، ويفيدَ خبرُها الاستمرارَ التّجدّديَّ؛ فدعاءُ اللّه لجميع عباده دعاءٌ ثابتٌ ثباتًا دائمًا لا يُقيّدُه زمنٌ، مُستمرٌّ ومتجدّدٌ لا انقطاعَ له، وفي هذا التّعبيرِ (الجملة الاسميّة وخبرها فعل) منَ المبالغةِ والتّأكيدِ على الثّبوت والدّوامِ والاستمرارِ والتّجدّدِ ما فيه.

دعوةُ اللّه إلى دار السَّلامِ ثابتةٌ دائمةٌ متجدّدةٌ مستمرّةٌ لا انقطاعَ لها

فائدةُ التّعبيرِ بالمضارع ﴿يَدۡعُوٓاْ﴾:

عبّرَ البيانُ القرآنيُّ بصيغة المضارع ﴿يَدۡعُوٓاْ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ﴾؛ للدّلالةِ على أنّ دعاءَه سُبحانه النّاسَ إلى دار السَّلام مُتجدّدٌ ومُستمرٌّ لا ينقطعُ، وهذا من كمالِ رحمتِه وفضلِه.

بابُ الجنَّة مفتوحٌ ودعوةُ اللّه إليها مُستمرّةٌ لا تنقطعُ

بَلاغةُ حذفِ مفعولِ ﴿يَدۡعُوٓاْ﴾:

حذفَ البيانُ الإلهيُّ مفعولَ ﴿يَدۡعُوٓاْ﴾ في قوله: ﴿وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ﴾؛ لقصد التّعميم والاختصار، أي يدعو كلَّ أحد؛ أي كلَّ ممتَحَنٍ مُكلَّفٍ إلى دار السّلام عن طريق الإيمان والإسلام، فالدّعوة عامّةٌ، ولم تتقيّدْ بالمشيئةِ؛ لأنّ البابَ إلى الجنَّة مفتوحٌ للجميع، وهذا من عدْلِه سُبحانه، بخلاف الهدايةِ فإنّها خاصّةٌ بالمستعدِّين للعمل به، ولذا تقيّدت بالمشيئة، قال تعالى: ﴿وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ﴾[1]، يقول

دعوة الله عامّةٌ للجميع لكمالِ عدْلِه ولإظهارِ الحُجّة علَيهم

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 6/40.

البغويُّ: "عمَّ بالدّعوة لإظهارِ الحُجّة، وخصَّ بالهدايةِ استغناءً عن الخلْقِ"[1]، وقيل: "الدّعوةُ إلى دار السّلام عامّةٌ؛ لأنّها الطريقُ إلى النّعمة، وهدايةُ الصّراط خاصّةٌ؛ لأنّها الطريقُ إلى المُنعِم"[2].

وفي تعميم الدّعوة، وتخصيصِ الهدايةِ بالمشيئة دليلٌ على أنَّ الأمرَ غيرُ الإرادة، وأنّ المصِرَّ على الضّلالة لم يُرِدِ الله رشدَه[3].

فائدةُ الجُملةِ الخبريّةِ ﴿يَدۡعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ﴾:

دعـوةُ العظيمِ إلى دار السَّلام ترغيبٌ بالعمَلِ الصّالح وسلوكِ طريقِ الهُدى

أفادتِ الجملةُ الخبريّةُ ﴿يَدۡعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ﴾ إخبارَ المخاطَبين بأنّ الله يدعوهم، ويطلبُهم إلى الجنَّة، ويرغّبُهم بها، فأضافَها إلى اسمه تعظيمًا لها، لأنَّ العظيمَ إذا استعظمَ شيئًا ورغّب فيه وبالغَ في ذلك التّرغيبِ دلَّ ذلك على كمال حالِ ذلك الشّيءِ، وسمّاها دارَ السَّلام؛ لأنَّ أصحابَها يَسْلَمون من جميع المتاعبِ والمخاوف، وتحيّتُهم فيها السَّلامُ، وفي ترغيبه سُبحانه ودعوتِه إلى دار السَّلام ترغيبٌ بالعمل الصّالح، وسلوكِ طريق الهُدى الموصلِ إلى دار السَّلام، والحياةِ الباقيةِ السّالمةِ منَ الآفات والمكاره والمنغِّصات[4].

نُكتةُ تخصيصِ اسمِ الله السَّلامِ:

دارٌ صاحبُها السَّلامُ السّالمُ من كلِّ نقْصٍ هي دارٌ سكّانُها آمنون من جميعِ المكارهِ

دارُ السّلام هي الجنَّةُ، قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ﴾، و(السَّلام) من أسماء الله الحسنى، وتَخْصيصُ هذا الاسمِ أي السّلامِ من بين الأسماء الحسنى حيث لم يقلْ دارَ الرّحمن أو دارَ الرّحيم أو دارَ الكريم؛ لأنَّ اسمَ الله السَّلامَ معناه: إمّا خالقُ السَّلامةِ، أو ذو السَّلامةِ، أي السّالمُ ممّا يلحقُ المخلوقين منَ العيب

(1) البغوي، معالم التنزيل: 2/417.
(2) الثعالبي، الكشف والبيان: 14/199.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/138.
(4) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 17/239.

والنّقص والفناء؛ لكمالِه في ذاته وصفاتِه وأفعالِه سُبحانه[1]، أو ذو السّلامِ الذي لا يقدرُ على السّلام إلّا هو، والسّلامُ عبارةٌ عن تخليصِ العاجِزين منَ المكاره والآفاتِ[2].

فتخصيصُ اسمِ السّلام دون غيرِه؛ لمناسبةِ معنى هذا الاسم (السّلامُ الذي يدلّ على كمال التّنزيهِ والسَّلامة من كلّ ما لا يليقُ به سُبحانه) مع صفات هذه الدّارِ (الجنَّةِ) الآمنةِ السّالمةِ من كلّ مكروهٍ وآفةٍ، وفي هذا تنبيهٌ إلى أنّ من دخلَها سلّمه اللّه السّلامُ من كلّ الآفاتِ والنّقائصِ، والأكدارِ الموجودةِ في الحياة الدُّنيا، فإضافةُ الدّار إلى السّلام: تعظيمًا لشأنها، وتشريفًا لها، ولسُكّانِها السّالمين من جميع المكارهِ والآفاتِ[3].

نُكتةُ العطفِ في: ﴿وَيَهۡدِي﴾:

عطفَ البيانُ الإلهيُّ ﴿وَيَهۡدِي﴾ في قوله تعالى: ﴿وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ﴾ على ﴿وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ﴾ بحرف العطفِ الواوِ؛ للدّلالةِ على اشتراكِهما في المعنى العامِّ؛ وهو الدّعوةُ إلى الخير، وللدّلالةِ أيضًا على تغايرِهما؛ فإنَّ دلالةَ الدّعوة إلى الجنَّة في قوله: ﴿وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ﴾ دلالةٌ عامّةٌ، وهي دلالةُ إرشادٍ وإقامةِ البرّاهين، إظهارًا للحجّة؛ ودلالةَ ﴿وَيَهۡدِي﴾ هي دلالةٌ خاصّةٌ، وهي دلالةُ هدايةٍ وتوفيقٍ ومعونةٍ إظهارًا للقُدرة[4]، ولهذا قيّدَها بمشيئته؛ وخصّ بها من يشاءُ من عباده؛ أي: واللّه يدعو كلَّ النّاس إلى دار السّلام، ويدلُّهم عليها، ولكنْ يَهدي ويوفّقُ إلى الطريق الموصلِ إليها من غير تعويقٍ من اسْتعدَّ لإجابة الدّاعي، وسلكَ طريقَ اللّه المستقيمَ، فحصلت المغايرةُ بين الدّعوتَين[5].

الدّعوةُ إلى الجنَّة عامَّةٌ والتّوفيقُ لسلوك طريقِها خاصٌّ بمنِ استعدَّ لإجابة الدّاعي

(1) القونوي وابن التمجيد، حاشية على تفسير البيضاويّ: 9/437.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 17/238، والخازن، لباب التأويل: 2/438.
(3) رشيد رضا، تفسير المنار: 11/286.
(4) المراغي، تفسير المراغي: 11/95، والحجازي، التفسير الواضح: 2/56.
(5) رشيد رضا، تفسير المنار: 11/287.

أو أن يكونَ الجامعُ بين المتعاطفَين كونَ الهداية طريقَ الجنَّة؛ أي أنّ المَعْطوف سببٌ لما اشتمل عليه المَعْطوفُ عليه[1].

نُكتةُ حذْفِ فاعلِ ﴿وَيَهْدِى﴾:

إذا تساوَى الذِّكرُ والحذفُ فالاختصارُ أبلغُ فخَلْقُ الهدايةِ لا يكونُ إلّا له سُبحانه

حذَفَ البيانُ الإلهيُّ فاعلَ ﴿وَيَهْدِى﴾ في قوله تعالى: ﴿وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ اختصاراً؛ لأنَّه سَبَقَ ما يدلُّ عليه، وهو فاعلُ يدعو؛ إذ جملةُ ﴿وَيَهْدِى﴾ معطوفةٌ على جملة ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ﴾، وكذلك لكون فعلِ الهدايةِ بمعنى (خلقها) لا يصلحُ إلّا للّه سبحانه، فلا ينصرفُ الذّهنُ في فعل (يهدي) إلا له سبحانه.

فائدةُ التّعبيرِ بالمضارع ﴿وَيَهْدِى﴾:

توفيقُ اللهِ ومعونتُه ولُطفُه لمن يشاء من عباده مُستمرٌّ ومُتجدّدٌ لا ينقطعُ

عبّرَ البيانُ القرآنيُّ بالفعل: ﴿وَيَهْدِى﴾ في قوله تعالى: ﴿وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ بصيغة المضارع؛ للإشارة إلى أنّ هدايتَه ولُطفَه وتَوفيقَه ومَعونتَه للمؤمنين بخلْقِ الإيمان في قلوبهم مُستمرٌّ مُتجدّدٌ لا ينقطعُ، وهذا يبعثُ الأملَ في نفسِ من أرادَ سلوكَ طريقِ اللّه، واختارَ إجابةَ دعوته سُبحانه بأنَّ عنايةَ اللّه وتوفيقَه حاضرةٌ لا تغيبُ.

دَلالةُ ﴿مَن﴾ وصلَتِها:

توفيقُ اللهِ ومعونتُه يعمُّ كلَّ من أجاب دعوةَ الدّاعي واستعدَّ لسلوك الطريقِ المستقيمِ

﴿مَن﴾ في قوله تعالى: ﴿مَن يَشَآءُ﴾ اسمٌ موصولٌ، وصلتُه جملةُ ﴿يَشَآءُ﴾، وغرضُهُ إفادةُ العُموم.

والمعنى: واللّه يهدي كلَّ من يشاءُ لهُ الهدايةَ، فيوفّقُه إلى الطريق المستقيم الموصِلِ إلى دار السّلام، هذا إنْ كان الضّميرُ في ﴿يَشَآءُ﴾ عائدًا إلى اللّه، وأمّا إنْ كان الضّمير عائدًا إلى الاسم الموصولِ ﴿مَن﴾، فالمعنى: واللّه يهدي كلَّ من يطلبُ لنفسه الهدايةَ وسلكَ السّبيلَ المستقيمَ إليها.

(1) القونوي وابن التمجيد، حاشية على تفسير البيضاويّ: 9/437.

نُكتةُ تَعْديةِ الهداية بـ: ﴿إِلَىٰ﴾:

الصّراطُ المستقيمُ وسيلةٌ توصِلُ إلى الغايةِ وهي دارُ السّلامِ

﴿إِلَىٰ﴾ حرف جرّ، ومعناه: انتهاءُ الغايةِ الزّمانيّةِ والمكانيّةِ، والفعلُ (يهدي) يتعدّى باللّام، كقوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يَهۡدِي لِلۡحَقِّۗ﴾ [يونس: 35]، ويتعدّى بـ(إلى) كما في الآية هنا، وقد تعدّى هنا بـ(إلى)، ولم يتعدَّ باللّام؛ لتضمُّنِه معنى الانتهاءِ في الهداية، أي: يهدي من يشاء هُدًى منتهيًا في هدايته إلى صراطٍ مستقيم[1]، وفي هذا إشارةٌ إلى أنَّ المهتَدي مازال في طريق الهداية، ولم يصلْ إلى الغاية؛ لأنَّ الصّراطَ المستقيمَ هو وسيلةٌ توصِلُ للغاية التي هي دارُ السّلام، ولهذا عُدِّيَ الفعلُ بـ(إلى) ولم يتعدَّ باللام؛ لأنَّ دلالتَها على منتهى الغايةِ، وهذا لا يناسبُ استعمالَها مع الصّراط؛ لأنَّه ليس الغايةَ.

بَلاغةُ الاستعارةِ في: ﴿صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾:

الإسلامُ كالطَّريقِ الذي لا اعوجاجَ فيه الموصِلِ إلى الغايةِ المطلوبةِ

شبَّه البيانُ الإلهيُّ الإسلامَ في قوله تعالى: ﴿وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ بالصّراط المستقيم، فحذفَ (المشبّهَ) وهو الإسلامُ، وصرّح بـ (المشبّهِ به) وهو الصّراطُ المستقيمُ، بجامعِ أنَّ كلًّا منهما موصِلٌ إلى المقصود، والاستعارةُ تصريحيةٌ.

وفي تشبيهِ الطّريقِ المعنويّ المدرَكِ بالعقول وهو الإسلامُ بالطريق الحسّيِّ المُدرَك بالبصرِ وهو الصّراطُ المستقيمُ الذي لا اعوجاجَ فيه تصويرٌ لاستقامة الإسلامِ، وكونِه موصِلًا إلى الغاية المرجوّةِ التي هي دارُ السّلام.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

دارُ السَّلامِ، والغُرفاتُ، والفردوسُ، ودار القرارِ، وجنّةُ عدْنٍ، والحُسنى، والرّوضةُ:

للجنَّة أسماءٌ متقاربةٌ في الدّلالة؛ حيث تدلّ جميعُها على دار

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 3/112، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/143، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 7/3665.

الثّواب التي ينالها المؤمنون الصّالحون في الآخرة، وتعدّدتْ أسماؤها للإشارة إلى معانٍ متنوّعةٍ على النّحو الآتي:

الجنَّة: إشارةٌ إلى كثرة أشجارِها، وكثافة ظلِّها، وما فيها من نعيمٍ مستورٍ عن أهل الدُّنيا.

دارُ السَّلام لسلامتها من كلّ مكروهٍ

ودارُ السَّلام: لإضافتها إلى اسمٍ من أسماء اللّه الحسنى هو السَّلام، تشريفًا وتعظيمًا لها، أو لأنّها دارُ السّلام بمعنى السَّلامة من كلّ آفةٍ وكدَرٍ ومكروهٍ، أو لسلامِ اللّه عليهم، أو لانتشار تحيّةِ السَّلام بين أهليها، وتسليمِ الملائكة عليهم، ولفظُ (السَّلام) يحتمل هذه المعانيَ جميعًا.

الغُرفاتُ لعُلوّ درجتِها

والغُرفات: قيل: هي السّماء السّابعةُ، وقيل: أعلى منازلِ الجنَّةِ، وقيل: العُلوُّ في الدّرجات، ولعلَّ أرجحَ الوجوهِ أنَّ الغُرفةَ: درجةٌ عاليةٌ في الجنَّة؛ بناءً على اشتقاقِها، فالغُرْفةُ في اللّغة تعني العُلَيَّة أوِ العِلِّيّة[1]، وفي كونها اسمًا من أسماء الجنَّة إشارةٌ إلى رفعتِها، وعُلوّ مقام أهلِها.

الفردوسُ لعِظمِها

والفردوسُ: في اللّغة: البستانُ الواسعُ الجامعُ لأصناف الثّمرة[2]، والمرادُ بجنّات الفردوس: بساتينُ حول الجنَّة، وهو ما اجتمع نخلُه وعرشُه، وقيل: هي أعلى منازلِ الجنَّة، وفيه إشارةٌ إلى سَعتِها، وتنوّعِ ثمارِها، وعظمةِ شأنها، وورد في الحديث أنّ الفردوسَ أعلى الجنَّة، أو أوسطُ الجنَّة[3].

دارُ القرار لنعيمِها الأبديِّ

ودارُ القرار: القرارُ في المكان: هو الاستقرارُ والثّباتُ فيه[4]، ودارُ القرار هي دارُ المستقرِّ الثّابتِ، وسُمّيتِ الجنَّةُ بدار القرارِ؛ لأنّها دارُ الإقامةِ الدّائمةِ والاستقرارِ، والخلودِ والنّعيمِ الأبديِّ[5].

(1) ابن منظور، لسان العرب، والزَّبيدي، تاج العروس: (غرف).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (فردس).
(3) رواه أحمد، المسند، الحديث رقم: (8067).
(4) أبو بكر الرازي، مختار الصحاح: (قرر).
(5) القرطبي، أحكام القرآن: 15/317، والقاسمي، محاسن التأويل: 8/310.

عدَنٌ لقصورِها

وجنَّةُ عدْنٍ: قيل: عَدَنَ أي أقام، وجنّاتُ عَدْن أي جنّاتُ إقامةٍ لمكان الخُلد[1]، وقيل: هي وسطُ الجنَّة، وقيل: نهرٌ في الجنَّة، وقيل: مدينةٌ في وسط الجنَّة لا يدخلُها إلّا النّبيّون والصّديقون والشّهداءُ، وقيل: قصورٌ منَ اللّؤلؤ والياقوتِ والزَّبَرْجَد، وقيل: أعلى درجةٍ في الجنَّة؛ وكلُّها أقوالٌ لا تخلو منَ الاضطراب والاختلاف، وقوله تعالى: ﴿وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّٰتِ عَدْنٍۚ﴾ [التوبة: 72] يُرجِّحُ بأنَّها قصورٌ في الجنَّة، أو درجةٌ من درجاتها العاليةِ الرّفيعةِ.

الحسنى لحُسنِ ثوابِها

والحسنى: منَ الحُسْن، وهو الجمالُ، وكلُّ مُستحسَنٍ؛ والحُسنُ ضِدُّ القُبح[2]، والحُسنى: الجنَّة، وقيل: سُمّيتِ الجنَّة بالحسنى إشارةً إلى أنّ أهلها إنَّما استحَقّوها بإحسانهم في الدُّنيا، وللإشارةِ إلى حُسْن ثوابِ اللّه تعالى.

الـــرّوضـــاتُ لجمالِها

والرّوضةُ: الأرضُ ذاتُ الخُضرة، والبستانُ الحَسَنُ[3]، والرّوضةُ: الجنَّة، وقيل: سُمّيتِ الجنَّةُ بالرّوضةِ للإشارةِ إلى الحُسْن والجمالِ والبهجةِ الظّاهرةِ[4].

(1) ابن منظور، لسان العرب: (عدن).
(2) الزبيدي، تاج العروس: (حسن).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (روض).
(4) معجم الفروق الدلالية، ص: 292 - 401.

﴿۞لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ وَزِيَادَةٞۖ وَلَا يَرۡهَقُ وُجُوهَهُمۡ قَتَرٞ وَلَا ذِلَّةٌۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٢٦﴾ [يونس: 26]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

عاقبةُ الذين استجابوا لدعوته سبحانه هي الحسنى وزيادة

في مناسبةِ هذه الآيةِ لما قبلها وجهان:

الأوَّل: لـمّا دعا اللّه تعالى عباده إلى دار السَّلام في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ﴾ [يونس: 25]، ذكرَ في هذه الآية السَّعادات التي تحصل لهم فيها، فقال: ﴿۞لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ وَزِيَادَةٞۖ﴾[1].

الثّاني: لـمّا بيَّن سبحانَه في ختامِ الآيةِ السّابقةِ أنَّه يهدي مَن يشاء إلى صراط مستقيم، أي: يوفِّقُه ويَخلقُ في قلبهِ الهدايةَ، وفُهمَ مِن ذلك أنَّ مِنَ النّاسِ مَن يهديهِ، ومنهم مَن يُضلُّه، وأنَّ الكلَّ فاعلون لما يشاء، كأنَّ أحدهم سألَ: هل هم واحد في جزائه، كما هم واحد في الانقياد لمراده؟ فقيل: لا، بل هم فريقان: فبدأَ بالمهْدِيين الذين استجابوا لدعوته واتبعوا صراطَه المستقيم، وما أعدَّه لهم مِن حُسْن العاقبةِ والجزاء على إحسانهم فقال: ﴿۞لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ وَزِيَادَةٞۖ﴾[2].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَرۡهَقُ﴾: أصلُ الرَّهَقِ: غِشْيانُ الشَّيْءِ الشَّيْءَ[3]، تقولُ: رَهِقَه ما يكرَهُ؛ أي: غَشِيَهُ ذلك[4]، وأَرْهَقْتُ الصَّلاةَ: أَخَّرْتُها حتَّى غشيَها وقتُ الأُخرى[5]، والمُرَهَّقُ: الَّذي يَغْشاهُ السُّؤّالُ والضِّيفان[6]،

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 17/240.
(2) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 9/104.
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (رهق).
(4) الأزهريُّ، تهذيب اللُّغة، وابن منظور، لسان العرب: (رهق).
(5) السَّمين الحلبيُّ، عمدة الحفاظ: (رهق)، وابن الحدّاد، كتاب الأفعال: 3/46.
(6) الأزهريُّ، تهذيب اللُّغة، وابن سيده، المحكم: (رهق).

والرَّهَقُ أَيْضًا: العَجَلَةُ والتَّأْخِير[1]، تقول: رَهِقَ فلانٌ فلانًا، إذا تبعَه فقَرُب أن يلْحَقَهُ[2]، والمراد بالرَّهَق في الآية: الغَشَيانُ، أي: يغشى مع ذِلَّة وتضييق.

2) ﴿قَتَرٌ﴾: أَصْلُ القَتَرِ: ما يَغْشَى الوَجْهَ مِنْ كَرْبٍ[3]، والقَتَرَةُ: غَبَرَةٌ يَعْلوها سَوادٌ كالدُّخانِ، وكذلك: ما يَغْشى الوَجْهَ مِن غَبَرَةِ المَوْتِ والكَرْب[4]، والغُبار: ذراتٌ بالِغَةُ الدِّقَّة تنفُذُ مِنَ النّار شيئًا فشيئًا، لكنَّ تَجَمُّعَها يجعلُها طبقةً، نعوذُ باللّه منها[5]، والمقصود بالقَتَرِ في الآية: الغُبار المُسْوَدُّ.

3) ﴿ذِلَّةٌ﴾: الذُّلُّ والذِّلَّة: مَصْدَرُ الذَّلِيلِ، وأَصْلُه: الضَّعْفُ، والهَوانُ، والاسْتِكانَةُ[6]، وضِدُّه: العِزُّ والقوَّة، يُقال: ذَلَّ يَذِلُّ ذُلًّا وذِلَّةً وذَلالَةً ومَذَلَّةً: إذا ضَعُفَ وهانَ، فهو ذَلِيلٌ[7]، والجَمعُ: أَذِلَّةٌ، ويُطْلَقُ على التَّذَلُّلِ، فَيُقال: ذَلَّ وتَذَلَّلَ، أي: هانَ، وضِدُّهُ: الصُّعوبَةُ، يُقال: ذَلَّ الشَّيْءُ، أيْ: سَهُلَ ولانَ[8]، والذَّلُولُ: السَّهْلُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ[9]، ويأْتي بمعنى الخُضوعِ والانْقِيادِ، وتَذَلَّلَ له، أيْ: خَضَعَ[10]. والمقصود بـ ﴿وَلَا ذِلَّةٌ﴾ في الآية: الهَوان الَّذي يَبدو على وَجْهِ الذَّلِيلِ.

المَعْنى الإِجْمالِيُّ:

يُبَيِّنُ اللّه ﷻ أنَّ الَّذينَ أحسَنوا في الدُّنيا بالإيمانِ، وأحسَنوا في طاعةِ الرَّحمنِ؛ امتثالًا لأمرِه، واجتنابًا لِنَهيه، على وَجهِ المُراقَبةِ له

بقدر إحسانك في الدُّنيا تكون منزلتُكَ في الجنَّة وزيادة

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (رهق).
(2) الخليل، العين: (رهق)، وابن سيده، المخصَّص: 4/96.
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (قتر).
(4) الخليل، العين، وابن عبّاد، المحيط في اللُّغة، والرّاغب، المفردات، والزَّبيدي، تاج العروس: (قتر).
(5) جبل، المعجم الاشتقاقيُّ المؤصَّل: (قتر).
(6) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (ذلّ).
(7) ابن سيده، المحكم: (ذلّ).
(8) الزَّبيديُّ، تاج العروس: (ذلل).
(9) اللَّخميُّ، شرح الفصيح، ص: 110.
(10) الأزهريُّ، تهذيب اللغة: (سكن).

سُبحانَه، وأحسَنوا إلى عبادِ اللّه تعالى؛ هؤلاء لهم الجنَّةُ، ولهم زيادةٌ على ذلك، وأعظمُ أنواعِها: النَّظَرُ إلى وجهِ اللّه ﷻ، ولا يغشَى وُجوهَهم غُبارٌ ولا هَوانٌ ولا صَغارٌ، أولئكَ أصحابُ الجنَّةِ هم فيها ماكِثونَ أبدًا[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالة اللّام في المطلَع في: ﴿لِّلَّذِينَ﴾:

العطاء لأجل الإحسان

(اللّام) في قوله: ﴿لِّلَّذِينَ﴾ حرف جرٍّ للمِلْك أوِ الاختصاص، أي: يعطيهم اللّه الجزاءَ عطاءً موفورًا لأجل إحسانهم[2].

وجهُ التَّعبيرِ بالاسم الموصول: ﴿لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ﴾:

كلُّ مَن أحسنَ فلهُ الحُسنى وزيادة

عبَّر البيانُ القرآنيُّ بالاسم الموصول ﴿لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ﴾ في تعريفهم، ولم يقلْ: (والمحسنون لهم الحسنى)؛ لفائدتين؛ الأولى: لأنَّ الاسم الموصول يَدلُّ على العموم، فالتَّعبيرُ به يَشْمَل كلَّ مَن ثبتتْ له هذه الصِّلةُ ﴿أَحۡسَنُواْ﴾، والمعنى: كلُّ مَن أحسن له الحُسنى وزيادة. والثّانية: لأنَّ في الموصول إيماءً إلى أنَّ سببَ فوزِهم بالحُسنى هو إحسانُهم في الحياة الدُّنيا.

سِرُّ التَّعبير عنِ الإحسان بالماضي: ﴿أَحۡسَنُواْ﴾:

الإحسانُ واقعٌ مُتَحَقِّقٌ مِمَّن كتب الله لهم الهداية

عبَّر البيانُ الإلهيُّ بفعل: ﴿أَحۡسَنُواْ﴾ بصيغة الماضي دونَ المضارع؛ للدّلالة على تَحقُّق وقوعِه، أي: وقوعِ فعلِ الإحسان منهم، باعتبار عِلْمِهِ سبحانَه بإحسانهم، وما سبقَ في قضاءِ اللّه لهم بالهداية، وفي هذا مناسبة لما ذُكر في الآية قبلَها: ﴿وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ﴾ فمَنْ أحسنوا هم مَن كتبَ اللّه لهم الهدايةَ، فكان إحسانُهم مُتَحَقِّقًا، واستَحَقّوا الحُسنى؛ جزاءً على إحسانهم.

---

(1) ابن جرير، جامع البيان: 12/156، 164، والواحديُّ، التَّفسير البسيط: 11/170، والبغويُّ، معالم التَّنزيل: 2/417، وابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 3/115، 116، والقرطبيُّ، الجامع لأحكام القرآن: 8/330.

(2) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 7/3552.

دلالة واو الجماعة في ﴿أَحۡسَنُواْ﴾:

التَّرغيبُ بالإحسانِ كونُه صفةَ أهلِ الجنَّة

أتى البيانُ القرآنيُّ بالفعل (أحسن) بإضافة واو الجماعة ﴿أَحۡسَنُواْ﴾؛ ليناسبَ الجمعَ في الاسم الموصول ﴿لِّلَّذِينَ﴾، ويناسبَ إرادةَ العُمومِ فيه، وللإشارة إلى كَثْرة عددِ المحسنين، والتَّرغيب في الإحسان الجماعيِّ الذي يُؤدِّي إلى رِفْعَة الأمَّة ورُقيِّها، وفي هذا إيذانٌ باشتراك جميع أهلِ الجنَّة بالإحسان؛ فكلٌّ منهم أحسنَ في نوع مِن أنواع الإحسان، فأفعالُ الإحسان متنوِّعة، ورحمةُ الله بعباده واسِعَة.

بلاغة حذفِ مفعول ﴿أَحۡسَنُواْ﴾:

الإبهامُ الحاصلُ في الحَذْف يدلُّ على تنوّع أعمال الإحسان منهم

إنَّ حذف مفعول ﴿أَحۡسَنُواْ﴾ في قوله تعالى: ﴿۞لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾، يُفْصِحُ عن حالهم المستغرِق في الإحسان، ويُؤْذِنُ بالعموم، فيَعُمُّ كلَّ نوع مِن أنواع الإحسان الذي فعلوه، وهذا أبلغُ مِن ذكر المفعول به؛ لأنَّه يؤدِّي إلى تخصيصِ الإحسانِ بفعلٍ واحد مِن إحسانهم فيما بينهم وبين ربِّهم؛ بتوحيده وعبادته، أو إحسانهم فيما بينهم وبين خَلْقه؛ بجميع أنواع الإحسان إليهم، مِنَ الإحسان القوليِّ، والفِعليِّ: (الماليِّ والبَدنيِّ)، وغيرِ ذلك مِن وجوه الإحسان، والتَّخصيصُ مُخلٌّ بالإفصاح عن مكنون حالهم، ورفيع خصالهم؛ فقد أحسنوا كلَّ إحسان حتَّى استحقّوا لقبَ المحسنين.

سرّ التَّعبير بـ ﴿ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾:

جزاءُ المحسنين الجنَّةُ الكاملةُ في حُسْنها، البالغةُ أعلى درجاتِ الحُسْن

﴿ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾: على وزن (فُعْلَى)، مؤنثُ الأحسن، والعرب توقع هذه اللَّفظة على الحالة المحبوبة، والخَصْلة المرغوبِ فيها، ولذلك لم تُؤكَّد ولم تُنعَت بشيء[1]، وقيل: الحُسْنى صفةٌ لمصدر محذوف، تقديرُه: المثوبة الحُسنى[2]، أو الخَصْلة التي هي في غاية الحُسْن مِنَ

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 17/240.
(2) الزَّمخشريُّ، الكشّاف: 2/342، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/138.

الجزاء[1]، والأكثرون على أنَّ الحُسنى في هذا الموضع صفةٌ غالبةٌ، أصبحت كالعَلَم على المقصود بها، وهي الجنَّةُ ونعيمُها مِن حصول الملاذِّ العظيمة، ولا تنافي بينَ الأقوال؛ إذِ الجنَّةُ هي أحسنُ جزاءٍ وأحسنُ مثوبةٍ يصير إليها الذين أحسنوا[2].

وقد أفاد التَّعبير بصيغة (فُعْلَى) المبالغةَ في الوَصْف، إذ صيغةُ (فُعْلَى) تدلُّ على قوَّة الوصف؛ لأنَّها مؤنثُ أفعل[3]، وهنا أفادت المبالغةَ في وصف الجنَّة، فهي البالغة أعلى درجات الحُسن؛ إذ تزيد في الحُسن على إحسانهم، وهي مأوى كلِّ حَسَنٍ على أفضل وجه، وهي الجزاء الأحسن الذي بلغ أعلى درجات الكمال في الحُسن، فلا شيءَ أحسنُ منها إلّا الزيادة المذكورة بعدها[4].

نوع (أل) في لفظ ﴿ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾:

الحسنى هي مَجمَعُ كلِّ المنافعِ، ومأوى كلِّ حُسْنٍ

(أل) في قوله: ﴿ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ تحتمل أن تكون جنسيَّةً استغراقيَّةً؛ تُفيدُ العمومَ، والمعنى: للذين أحسنوا جِنسُ الأحوال الحُسنى عندهم، أي: لهم ذلك في الآخرة[5]، وتَحتَمِل أن تكون عهديَّةً، والمعهود فيها إمّا ذِكْريٌّ انصرف إلى المعهود السّابق، وهو دار السَّلام، وإمّا ذِهنيٌّ؛ إذِ المعروفُ بينَ المسلمين والمتقرِّرُ بينَ أهل الإسلام مِن هذه اللَّفظة هو الجنَّة، وما فيها مِنَ المنافع والتَّعظيم، وما أعدَّه الله تعالى لعباده فيها[6].

بلاغة تقديمِ الخبر: ﴿لِّلَّذِينَ﴾:

الحُسنى جزاءٌ خاصٌّ بالمحسنين الذين استحقّوه بإحسانهم

قدَّم البيانُ القرآنيُّ الخبرَ ﴿لِّلَّذِينَ﴾ على المبتدأ ﴿ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾؛ لإفادة الحَصْر في الخبر، وهو اختصاصُهم بالحسنى، أي: هي

(1) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 3/434.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/43.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/282.
(4) السَّمين الحلبيُّ، عمدة الحفاظ: 1/411، والهرري، حدائق الرَّوح والرَّيحان: 12/213.
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/146.
(6) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 17/240، والنَّيسابوريُّ، غرائب القرآن: 3/575.

للذين أحسنوا خاصَّة، وليست لغيرهم، وكذلك للاهتمام بالخبر، وهم الذين أحسنوا، والتَّنبيهِ على أنَّ إحسانهم هو مَن أوصلَهم إلى الجنَّة، وأنَّ إحسانَهم أسبقُ مِن دخولهم الجنَّة، فاستحقّوا الحُسنى جزاءً على إحسانهم، وفي هذا مزيدٌ مِنَ التَّرغيب وتحفيز الهِمم لفعل الإحسان؛ ليكونوا مِنَ المستحقِّين لهذا الجزاء الحَسَن.

بلاغة الجِناس الاشتقاقيّ في ﴿أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾:

في قوله: ﴿لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ أتى البيانُ القرآنيُّ بلفظ: ﴿أَحۡسَنُواْ﴾، ولفظ: ﴿ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾، وقد اجتمعتا في الأصل الاشتقاقيِّ، وهو (حسن)، وهذا يُسمَّى جناسَ الاشتقاق المُماثل، وفي هذا التَّعبير لونٌ مِن ألوان البديع، جاء على أحسن صورة، وأجمل موقع، والمناسبةُ بين لفظي: أحسنوا، والحسنى، فيه دلالةٌ على أنَّهم استحقّوا الحسنى على إحسانهم، أي: جزاؤهم يكون مِن جنس عملهم.

استحقّوا الحسنى لأجل إحسانهم، فالجزاءُ مِن جنسِ العمل

بيانُ معنى الزِّيادة في: ﴿وَزِيَادَةٞ﴾، ووجه التَّعبير بها:

ذكر المفسِّرون في معنى الزيادة في قوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ وَزِيَادَةٞ﴾ عدَّةَ معانٍ، منها: أنَّها ما يزيدُ على تلك المثوبة تفضلًا، فالحسنى: مثلُ حسناتهم، والزِّيادةُ: عشْرُ أمثالها إلى سبعِمائةِ ضِعْف وأكثر، أو أنَّها مغفرةٌ مِنَ الله ورضوانٌ، أو أنَّها غُرْفَةٌ مِن لُؤلُؤة واحدةٍ لها أربعة أبواب[1]. أو أنَّها اللِّقاءُ، أي: رؤيةُ المحسِن والنَّظر إلى وجهه الكريم سبحانَه[2]، وروى مسلمٌ في صحيحه عن صهيب عنِ النَّبيِّ ﷺ قال: «إذا دخل أهلُ الجنَّةِ الجنَّةَ، قال الله ﷻ: تريدونَ شيئًا أزيدُكم؟ فيقولون: ألم تُبيِّضْ وجوهَنا، ألم تُدخِلْنا الجنَّة وتُنجِّنا مِنَ النّار؟! قال: فيكشفُ الحجابَ، فما أُعْطوا شيئًا

عطاءُ العظيم عظيمٌ لا تُقدِّره العقولُ، ولا تَتَصوَّرُه الأفهامُ والأوهام

(1) ابن جرير، جامع البيان: 15/69 - 70.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/138.

أحبَّ إليهم مِنَ النَّظر إلى ربِّهم ﷻ»[1]، وتفسيرُ الزِّيادة برؤية الله تعالى، هو قول الجمهور مِنَ السَّلف والخَلَف[2].

والزِّيادة: أنَّ تمرَّ السَّحابةُ بأهل الجنَّة فتقول: ما تريدون أن أُمطِرَكم؟ فلا يريدون شيئًا إلّا أمطرتهم[3]. ولا تنافي بينَ كلِّ هذه المعاني، ولا مانع مِنَ الجَمع بينَها، فتشمل الزِّيادة كلَّ هذه المعاني، ويمنّ الله تعالى عليهم بكلِّ ما ذُكر، ويصدق عليه أنَّه زيادة على ما مَنَّ به عليهم مِنَ الجنَّة[4]، إذِ التَّعبيرُ بلفظة (زيادة) التي هي مصدر بمعنى الزّائد مطلقًا، حيثُ جاءت نكرةً ومُبهمةً، فأفادتِ العمومَ، كما أفاد هذا التَّنكيرُ والإبهامُ التَّفخيمَ[5] والتَّكثيرَ والتَّعظيمَ لهذه الزِّيادة، أيًّا كان المعنى الذي فُسِّر بها.

وفي هذا التَّعبير إشارةٌ إلى أنَّ عطاءَ الله لهم ليس بمقدار إحسانهم؛ لأنَّه سبحانَه المُتَفَضِّل المُكْرِمُ، الذي لا يُعْطِي بمقدار ما قُدِّم، بل إنَّه كما قال تعالى: ﴿وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾ [النساء: 173][6]، والعطاءُ مِنَ العظيم يكون عظيمًا؛ فهذه الزِّيادة لا تُقَدِّرها العقولُ، ولا تدركُها ولا تصوِّرها الأفهامُ والأوهام؛ كقوله ﷺ: «ما لا عَيْنٌ رأتْ، ولا أُذُنٌ سَمِعَتْ، ولا خَطَرَ على قلب بشر»[7].

دلالة الواو في: ﴿وَزِيَادَةٌ﴾:

الواو في قوله تعالى: ﴿وَزِيَادَةٌ﴾ هي واو العَطْف، دَلَّت على مُطلق الجَمع بينَ الحُسنى والزِّيادة، في أنَّ كليهما جزاءٌ مِنَ الله تعالى

إكرامُ المحسنين بنعيمٍ زائدٍ على جزائهم بالحسنى مِن عظيمِ فضلِ الله عليهم

(1) صحيح مسلم، كتاب: الإيمان، باب: إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة ربهم ﷻ، الحديث رقم: (368).
(2) ابن جرير، جامع البيان: 15/62 - 68، والقرطبيُّ، أحكام القرآن: 8/330.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 17/241.
(4) الآلوسيُّ، روح المعاني: 6/97.
(5) القونويّ وابن التَّمجيد، حاشية على تفسير البيضاويِّ: 9/439.
(6) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 7/3552.
(7) صحيح البخاريِّ، كتاب التَّفسير، باب: قَوْلِهِ: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾، الحديث رقم: (4780).

للمُحسنين، فقد أكرمهم اللّه تعالى بنعيم الجنَّة، وتفضَّل عليهم بزيادة مِنَ النَّعيم، واستدلَّ بعضُ المفسِّرين بالعطف على المغايرة بينَ الحُسنى والزِّيادة، يقول الرّازيُّ: "يكون المرادُ مِنَ الزِّيادة أمرًا مُغايرًا لكلِّ ما في الجنَّة مِنَ المنافع والتَّعظيم، وإلّا لزمَ التَّكرار، وكلُّ مَن قال بذلك قال: إنَّما هي رؤية اللّه تعالى، فدَلَّ ذلك على أنَّ المراد مِن هذه الزِّيادة: الرُّؤية"[1].

وأيًّا كان تفسير الزِّيادة فقد دَلَّ العطفُ على إكرام المحسنين بنعيمٍ زائد على جزائهم بالحُسنى، وهذا مِن كَرَم اللّه تعالى، وعظيمِ فضلِه وإنعامِه عليهم.

دلالة الواو في: ﴿وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ﴾:

الواو بينَ العطف والاستئناف

الواو في قوله: ﴿وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ﴾ تحتمِل أن تكون للاستئناف، والجملةُ مستأنَفَةٌ لبيان أَمنِهم مِنَ المكاره، إِثْر بيانِ فَوْزِهم بالمطالب، والثّاني وإن اقتضى الأوَّل إلّا أنَّه ذُكِرَ تذكيرًا بما ينقذهم اللّه تعالى منه برحمته[2].

وتحتمل أنْ تكون عاطفة، وجملة ﴿يَرْهَقُ﴾ معطوفة على الحسنى، على تقدير (أنْ)، والمعنى: (ولا أن يرهق وجوههم)، وهي عطف جملةٍ فعليَّةٍ على اسميَّةٍ، أو عطفُ مصدرِها على الحسنى على تقدير: (للذين أحسنوا الحسنى وزيادة، وانْتِفاءُ رَهَقِ وُجوهِهم قَتَرًا)[3]، وفي ذلك مزيد تفضُّلٍ وإكرامٍ، بإتْباع صورِ التَّنعُّم بنفي مشاهد المكاره.

نُكْتَةُ تخصيصِ الوجوه بالذِّكْر: ﴿وُجُوهَهُمْ﴾:

الـوجـه أشـرف أعضاء الإنسان، وسبيل تَبَيُّن أثرِ تغيير المشاعر

خصَّ البيانُ الإلهيُّ الوجهَ دونَ غيره مِنَ الأعضاء في قوله: ﴿وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ﴾؛ لأنَّه أشرفُ الأعضاء، فالوجهُ هو مكانُ تشريفٍ،

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 17/240.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/138.
(3) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 4/236.

وكذلك لظهورِ أثرِ السُّرورِ والحُزن فيه، فإذا وقع بالإنسان مكروهٌ تبيَّن ذلك في وجهه، وتغيَّر وتَكَدَّر، فأوَّلُ ما يُشاهد مِنَ الإنسان وَجْهُه، فيُعْرَف بحاله المجرمون والمطيعون، فدلَّ نَفْيُ القَتَرِ والذِّلَّة عنِ الوجوه على انتفاء أنْ ينالهم مكروهٌ بوجه مِنَ الوجوه، ومِنْ ثَمَّ نفيُ ما يَعرِض لهم مِن سوء الحال[1].

جديرٌ بالوجوه المشرّفة بالنظر إلى وجهه تعالى أنْ لا يصيبها قترٌ

وفي تخصيص الوجوه تنبيهٌ على إكرام وجوههم بالنَّظر إلى وجه اللّه، على تفسير معنى الزِّيادة بالنَّظر إلى وجه اللّه، فهذه الوجوه النّاظرة إلى وجه اللّه جديرٌ بها أنْ لا يَرْهَقَها قَتَرُ البُعد، ولا ذِلَّةُ الحِجاب، عكس المحرومين المحجوبين[2].

سِرُّ تقديم المفعول على الفاعل:

وجوهُ المحسنين أشرفُ أعضائهم، وهي مصونةٌ مِنَ الرَّهَق والذُّلِّ

قدَّم البيانُ الإلهيُّ المفعولَ: ﴿وُجُوهَهُمْ﴾ على الفاعل: ﴿قَتَرٌ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ﴾؛ لعِدَّة أمور؛ أوَّلها: الاهتمام ببيان أنَّ المصونَ مِنَ الرَّهق أشرفُ أعضائهم، وهي الوجوه. وثانيها: التَّشويق إلى المؤخَّر، أي: الفاعل ﴿قَتَرٌ﴾، فإنَّ ما حَقَّه التَّقديمُ إذا أُخِّر تبقى النَّفسُ مترقِّبةً لوروده، فعند وروده عليها يتمكَّن عندها أفضلَ تمكُّن. وثالثها: لأنّ في الفاعل ضربَ تفصيل ﴿قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ﴾، كما في قوله تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ۝٢٢﴾ [الرحمن: 22][3].

عِلَّة التعريف بالإضافة في: ﴿وُجُوهَهُمْ﴾:

وجوهُ المحسنين خاصَّةً استحقَّت هذا التَّكريمَ بنفي القَتَرِ والذِّلَّة عنها

أتى البيانُ الإلهيُّ بلفظ الوجوه مُعرَّفةً بالإضافة في قوله: ﴿وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ﴾، حيث أضاف الوجوه إلى ضمير (هم)، العائد إلى (الذين أحسنوا)؛ ليُفيدَ التَّعيينَ والاختصاص والاستحقاق، أي: تعيينَ وجوهِ المحسنين خاصَّةً، وأنَّ القَتَر لا

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/44، والسَّعديُّ، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 362.
(2) القاسميُّ، محاسن التَّأويل: 6/20.
(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/138.

يَرْهَق وجوهَهم، فيكون في ذلك مزيدُ اختصاصٍ وإنعامٍ عليهم، دونَ غيرهم، وأنَّ هذه الوجوهَ المحسنةَ استحقَّت هذا التَّكريمَ لإحسانهم، وفي هذا تعريضٌ بأنَّ وجوهَ الكافرين لا تستحِقُّ ذلك، فيَرهقُها قَتَرٌ وذِلَّة.

نُكْتَةُ تنكيرِ ﴿قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ﴾، وتنوينِهما:

مِن كمالِ جزاءِ المحسنين نَفْيُ أدنى قَتَرٍ أو ذِلَّةٍ عن وجوههم

أتى البيانُ القرآنيُّ بلفظ ﴿قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ﴾ بصيغة النَّكِرة، وكذلك التَّنوين؛ لتَحْقيرِ أيِّ شيءٍ منهما[1]، فدَلَّ على خُلوصِها[2]؛ إذِ النَّكِرةُ في سياق النَّفي تُفيدُ العمومَ، أي: نَفْيُ أيِّ شيء مِنَ القَتر والذِّلَّة مهما كان قليلًا.

وفي هذا التَّنكيرِ والتَّنوين للفظَتين في سياق النَّفي الذي أفاد التَّحقير والتَّقليل، مبالغةٌ في نَفْي أيِّ قَتَر أو ذِلَّة تَرْهَقُ وجوهَ المحسنين، وأنَّه لا يجوز عليهم ما إذا حصل غَيَّرَ صفحةَ الوجهِ، وأزال ما فيها مِنَ النَّضارة والطَّلاقة.

سِرُّ عطفِ الذِّلَّة على القَتَر: ﴿قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ﴾:

مِن تكريمِ الله للمحسنين أنَّ نعيمهم غيرُ مَشوبٍ بأيِّ مكروه

عطف القرآنُ لفظ ﴿ذِلَّةٌ﴾ على ﴿قَتَرٌ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ﴾؛ لِنَفْيِ هاتَينِ الصِّفَتَين، والغَرَضُ مِنْ ذلك "نَفْيُ أسبابِ الخوفِ والحُزنِ والذُّلِّ عنهم؛ ليُعْلَم أنَّ نعيمهم الذي ذَكَرَهُ الله تعالى خالصٌ غيرُ مَشوب بالمكروهات"[3]، إذ بالعطف يحصُل الجمعُ بين نفي القَتَر؛ وهو الغَبَرة التي تغشى جِلْدَة الوجهِ مِن شِدَّة البُؤْس والشَّقاء والخَوف، وبين نَفْيِ والذِّلَّة: وهي الهوان، وأثرُه الذي يبدو على وجه الذَّليل مِنَ الخُضوع والانكسار، وفي هذا الجمع الذي أفاده العطفُ دلالةٌ على نفي كُلِّ أنواع المكَدِّراتِ، بنفي

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/138.
(2) الخفاجيُّ، عناية القاضي: 5/21.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 17/241.

آثارِهما عن وُجوه المحسنين، فهم مَصونون عنِ الآفات، ولا يَلْحَقُهم ما يَلْحَق وجوهَ أهل النّار، وهذا مِن تكريم اللّه للمحسنين في الجنَّة، وزَيدَت (لا) في قوله: ﴿وَلَا ذِلَّةٌ﴾ تأكيدًا للنَّفي، وتنبيهًا على أنَّ كلَّ واحدٍ منهما منفيٌّ، لا المجموعُ مِن حيث المجموعُ[1].

بلاغة الكناية في الآية الكريمة:

نفي آثارِ القَتَر والذِّلَّة عنِ الوجوه، يَلْزمُ منه نَفْيُ ما يوجبُهما

نفى البيانُ القرآنيُّ القَتَر والذِّلَّة عن وجوه المحسنين في قوله: ﴿وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ﴾، كنايةً عن عدم الألم والتَّأذِّي لأصحاب هذه الوجوه؛ لأنَّ عدمَ غَشَيان ذلك لازمٌ لعدم غشيان ما يوجبُهما، فَذَكر اللّازمَ ليُنتَقَل منه إلى الملزوم[2]، يُقال للكئيب الحزين: كأنَّ على وجهه قَترًا وذِلَّة؛ كنايةً عنِ الشِّدَّة التي تُصيبُه، فتَظْهَرُ آثارُها في وجهه، فينطفئُ بريقُه، ويَجِفُّ ماءُ الحياة منه، وقيل لهم ذلك كنايةً عن حصول غايةِ مباغيهم، ونهايةِ سرورِهم، وخُلوصِ نعيمِهم مِن شوائب المكاره؛ لأنَّ الجنَّة مع نعيمها ومَلذّاتها - عند العارف إذا لم يظفر بتلك النِّعمة الكبرى - مكانُ حُزْنٍ وكآبة[3]. قال الطَّبريُّ: "لا يغشى وجوهَهُم كآبةٌ، ولا كُسوفٌ، حتى تصيرَ مِنَ الحُزن كأنَّما علاها قَترٌ"[4].

ويرى ابن عاشور أنّ الكلام في الآية مستعملٌ في صريحه وكنايته، أي لا تتشوّه وجوههم بالقتر وأثر الذلّة، ولا يحصل لهم ما يؤثر القتر وهيئة الذلّة[5]، أي لا يحصل لهم إهانة في الباطن ولا في الظاهر[6].

بلاغة التَّعريضِ في نفي القَتَر والذِّلَّة:

إنقاذُ المحسنين مِن إرهاقِ الوجوه ابهاجٌ ومَسَرَّةٌ لهم، وغَمٌّ وحَسْرةٌ للكافرين

نفى البيانُ الإلهيُّ القَتَر والذِّلَّة عن وجوه المحسنين في قوله

(1) القونويّ وابن التَّمجيد، حاشية على تفسير البيضاويِّ: 9/440.
(2) الآلوسيُّ، روح المعاني: 6/97.
(3) الطِّيبيُّ، فتوح الغيب: 7/469، وعبد الكريم الخطيب، التَّفسير القرآنيِّ للقرآن: 6/994.
(4) ابن جرير، جامع البيان: 15/72.
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/147.
(6) الزُّحيليُّ، التَّفسير المُنير: 11/154.

تعالى: ﴿وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ﴾، مع أنَّ ذلك لا يخطر بالبال وقوعًا، بعد أن أثبتَ اللّٰه لهم الحُسنى وزيادة، وإنَّما ذَكَره لأنَّه لازمٌ مِن لوازم الجزاء الحَسن الذي جوزوا به، فلم يكن هذا مديحًا لهم، بل المعنى: التَّعريضُ بالكافرين الذين لم يَهْدِهمُ اللّٰه إلى الصِّراطِ المستقيم، وهم الذين كَسَبوا السِّيئاتِ تعجيلًا للمَساءَة إليهم، بطريق التَّعريض قبلَ التَّصريح، الذي يأتي في قوله: ﴿وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مُظْلِمًا﴾ [يونس: 27][1].

وليُذكِّرَ أهلَ الجنَّة بما أَنْقَذَهم اللّٰه منه، وهو إرهاقُ وجوهِهم، أي: غَشَيانُها غَبَرةٌ فيها سوادٌ، بسبب رحمته، وأنَّهم في عافية ممّا يَحلُّ بالكافرين مِن عذاب ونَكال، فإنَّهم إذا ذَكَروا ذلك زاد فرحُهم وابتهاجُهم ومَسَرَّتُهم، كما أنَّ أهلَ النّار إذا ذَكَروا ما فاتَهم مِنَ النَّعيم المقيم ازداد غَمُّهم وحَسْرتُهم[2].

بلاغة حذف حالهم في: ﴿وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ﴾:

الاكتفاءُ بنفي القَتَر والذِّلَّة عن وجوهِ المحسنين أبلغُ وأدلُّ على تكريمهم

اكتفى القرآنُ بتخصيص نفي القَتَر والذِّلَّة عن وجوه المحسنين في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ﴾، ولم يَذْكُر حالَهم كما ذَكَرهُ في الكافرين في الآية بعدَها بقوله: ﴿وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾، إظهارًا للفارق الكبير بينَ الذين أحسنوا وبينَ الذين كسبوا السَّيِّئات؛ إذ نَفَى عنِ المحسنين أدنى مكروهٍ يُصيبهم، مِن خلال نفيهِ أيَّ قَتَرٍ أو ذِلَّة تَظْهَر على وجوههم، وهذا أبلغُ مِن نَفْي القَتَر والذِّلَّة عن حالهم، فكان عَدَمُ ذِكْرِ حالِهم تكريمًا وتشريفًا لهم، وإشارةً إلى عظيم فضله سبحانَه عليهم، و"ترغيبًا للتَّوبة، وتشويقًا للطّاعة"[3].

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/147، وعبد الكريم الخطيب، التَّفسير القرآنيّ للقرآن: 6/995.
(2) الطِّيبيُّ، فتوح الغيب: 7/469، والآلوسيُّ، روح المعاني: 6/98.
(3) القونويّ وابن التَّمجيد، حاشية على تفسير البيضاويّ: 9/445.

وَجْهُ التَّعبيرِ باسم الإشارة للبعيد في: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾:

الإشارةُ بالبعيد تنبيهٌ على عُلوِّ مرتبةِ المحسنين وبُعْدِ دَرَجتِهم

استَعْمَل اسمَ الإشارةِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ في قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ﴾، حيثُ اختارَ ما يُشارُ به إلى البعيد، مع أنَّ المشار إليه قريبٌ، وهم الذين أحسنوا، تعظيمًا وتفخيمًا وتشريفًا لهم، حتَّى أصبحَ يُشارُ إليهم بالإشارة الحِسِّيَّة التي للبعيد، وفي هذا إيذانٌ بعُلوِّ درجتهم، وسُموِّ طبقتِهم، وبُعْدِ منزلتِهم ارتفاعًا، أي: أولئكَ الموصوفون بما ذُكِر مِنَ النُّعوت الجميلة، الفائزون بالمثوبات، النّاجون عنِ المكاره، هم أصحاب الجنَّة خالدون فيها، وأنَّهم استحقّوا هذا لأجل إحسانهم[1].

نُكْتَةُ اختيارِ لفظِ الأصحاب وجمعِه:

المحسنون ملازمون للجنَّة، مُتَمَكِّنون مِن كلِّ ما فيها مِن نعيم

اختار البيانُ القرآنيُّ لفظَ الأصحاب في قوله: ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ﴾، دونَ غيره مِنَ الألفاظ المرادفةِ له؛ لما لهذا اللَّفظ مِن دلالات تميِّزُه من غيره؛ إذِ الصُّحبةُ تدلُّ على الملازمة، فهم ملازموها وملابِسوها، بحيث لا يفارقونها، فسُكْناهم فيها ومقامهم فيها، وفي الصُّحبة معنى الوَصْلَة، فَسُمُّوا أصحابِها لاتصالهم بها، ولكونهم فيها، ولِدَوام بقائِهم فيها، كأنَّهم مَلَكوها فصاروا أصحابَها، وفي وَصْفهم بأنَّهم أصحابُها إشارةٌ إلى التَّمكين لهم مِن كلِّ ما فيها مِن نعيم، بوَصْفهم أصحابُها المالكون لها، يَتصرَّفون فيها تَصَرُّف المالكِ فيما ملك، مِن غير مراجعة أو حساب، كما يقول ﷻ لهم: ﴿تِلۡكُمُ ٱلۡجَنَّةُ أُورِثۡتُمُوهَا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٤٣﴾ [الأعراف: 43]، كما أنَّ لفظ (أصحاب) جاء بصيغة الجمع (جمع تكسير)؛ لموافقة ألفاظِ الآية التي أتت بصيغة الجمع (أحسنوا، وجوههم، أولئك، هم، خالدون)، وللإشارة إلى أنَّ جميع المحسنين هم أصحاب الجنَّة، وكذلك للإشارة إلى وُجودِهم الجماعيِّ فيها، الذي يبعث على

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/138.

المزيد مِنَ السُّرور، فمِنْ أحدِ أسباب السَّعادة للإنسان: وجودُ مَن يشاركُه سعادَتَهُ، ويَأْنسُ به.

فهذا الوصفُ وهذا الاختصاصُ وهذا الجمع (أصحاب الجنة)، هو فضلٌ مِنَ الله وإحسانٌ وتكريمٌ، ومزيدُ تشريفٍ، وسعادةٍ لهم[1].

نُكْتَةُ إضافة الأصحاب إلى الجَّنة:

أضاف القرآنُ لفظَ (الأصحاب) إلى الجنَّة في قوله: ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ﴾ على جِهَة المدح والتَّعظيم والتَّشريف لهم، وإشارةً إلى أنَّهم مُسْتَحِقّوها وأصحابُها حقًّا وباستيجابٍ، وإلى تمكُّنِهم وإقامتِهم فيها إقامَةَ المالكِ المُتَصَرِّف بمِلْكِه[2].

أصحابُ الجنَّةِ هُم مَنِ استَحَقّوها واستَحَقّوا التَّصَرُّفَ فيها

سِرُّ تعريف الجنَّة بأل:

أتى لفظُ الجنَّة في قوله: ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ﴾ معرفًا بـ (أل) العَهديَّة التي تدلُّ على أنَّ الجنَّة معهودةٌ ومعروفةٌ لَدَى المحسنين، فهي دارُ الجزاء والنَّعيم، وهي جنَّة الخُلد، والعهدُ فيها إمّا ذِهْنِيٌّ، وإمّا ذِكْرِيٌّ يعود إلى لفظ الحُسنى في الآية: ﴿۞لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ أو ﴿دَارِ ٱلسَّلَٰمِ﴾ في الآية قبلَها، وهذا يناسب لفظَ (أصحاب)، إذ كيف لا تكون معروفةً لديهم وهم أصحابها؟ فهل هناك صاحب دارٍ لا يَعْرِفُ دارَه؟!.

الجنَّةُ معهودةٌ معروفةٌ للمُحسنين، فَهُم أصحابُها

فائدة الضَّمير ﴿هُمۡ﴾:

أتى البيانُ القرآنيُّ بضمير الفَصْل ﴿هُمۡ﴾ في قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾؛ لإفادة التَّأكيد والحَصْر والتَّخصيص، أي: لبيان قَصْر الخلودِ فيها عليهم، واختصاصِهم وَحْدَهم بهذا المقام الكريم دونَ غيرهم، فالذين أحسنوا هم الخالدون في الجنَّة لا غيرُهم، وفي هذا تكريمٌ لهم بما خَصَّهم به

تخصيصُ الخلودِ في الجنَّة بالمحسنين تكريمٌ وتشريفٌ لهم

(1) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 7/3696، وعبد الكريم الخطيب، التَّفسير القرآنيُّ للقرآن: 8/10.
(2) ابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 3/116.

ربُّهم مِنَ الخُلود في جَنَّته، وفي الآية ما يُفيد المبالغةَ في تشريفهم أيَّ مبالغةٍ، إذ أشار إليهم بـ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ أي: العالو الرُّتبة، وأنَّهم ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ﴾ أي: سكانُها، ولمّا كانتِ الصُّحبة جديرةً بالملازمة، صَرَّحَ بها في قوله: ﴿هُمۡ﴾، أي: هم الخالدون لا غيرُهم[1]، وأيضًا: تقديمُ ﴿فِيهَا﴾ أي: في الجنَّة لا يَدْخلون غَيْرَها.

بلاغةُ تقديمِ الجار والمجرور﴿فِيهَا﴾: على متعلقه: ﴿خَٰلِدُونَ﴾:

خلودُ المحسنين هو في الجنَّةِ لا يخرجون منها

قدَّم البيانُ القرآنيُّ الجار والمجرور ﴿فِيهَا﴾ على متعلقه: ﴿خَٰلِدُونَ﴾ في قوله: ﴿هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾؛ لإفادة القَصْر والاخْتِصاص، أي: إفادَةِ اختصاص خلودِهم في الجنَّة لا في غيرِها، وللتَّنبيه على الاهتِمام بـ﴿فِيهَا﴾، أي: في الجنَّة، وأنَّ خلودَهم كائنٌ في الجنَّة، لا يُخرجون منها، ولا ينقطع نعيمها؛ إذ لا نَعيمَ بالخُلود لأهل الجنَّة إلّا في الجنَّة.

وجهُ التَّعبيرِ عنِ الخُلود باسم الفاعل مجموعًا:

الخُلودُ الدّائمُ والثّابتُ لأهل الجنَّة مِن كمالِ سعادتهم

أتى البيانُ القرآنيُّ بلفظ: ﴿خَٰلِدُونَ﴾ بصيغة اسمِ الفاعل المفيد للثُّبوت والدَّوام؛ للإيذان بأنَّ خُلودَ الذين أحسنوا في الجنَّة ثابتٌ دائمٌ، ومُلازمٌ لهم، وفي تأكيد خلودهم في الجنَّة مزيدٌ مِنَ السَّعادة لهم، إذ لا خَوفَ لَدَيهم مِن زوال هذا النَّعيم الذي هم فيه، فالجنَّة دائمةٌ آمِنةٌ مِنَ الانقطاع لا تبيدُ فيخافوا زوالَ نعيمِهم، ولا هم بمخرجينَ منها، فتُنَغَّصَ عليهم لَذّاتُهم[2]، لأنَّ "النَّعيم لا يَتِمُّ إلّا بالدَّوام بالأمن مِنَ المضارّ"[3].

وافق نظمَ الآية، وراعى فاصلتها

وعبَّر باسم الفاعل: ﴿خَٰلِدُونَ﴾ بصيغة الجمع؛ لموافقة نَظْم الآية، إذ جاءتْ مفرداتُها بصيغة الجمع: ﴿لِّلَّذِينَ﴾، ﴿أَحۡسَنُواْ﴾،

(1) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 9/105.
(2) المراغيُّ، تفسير المَراغيّ: 11/95.
(3) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 9/105.

﴿وُجُوهَهُمْ﴾، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾، ﴿هُمْ﴾، ﴿أَصْحَٰبُ﴾، فاجتماعُهم مبعثُ هناءِ العيش وأُنسِه، وفي التَّعبير بصيغة اسم الفاعل والجمع أيضًا مراعاةٌ للفاصلة القرآنيَّة الغالبةِ في آيات السّورة.

بلاغة الفَصْل في جملة الفاصلة:

فَصَل البيانُ القرآنيُّ جملةَ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾، ولم توصَل بما قبلَها بحرف عطف؛ لأنَّها جاءت نتيجةً للمُقدِّمَة، فبينها وبين التي قبلَها كمالُ الاتِّصال، ولذلك فُصِلَت عنها ولم تُعطَف، واسمُ الإشارة يَرْجِع إلى (الذين أحسنوا)، وفيه تنبيهٌ على أنَّهم استحَقّوا الخلودَ لأجل إحسانهم[1]، وهذا التَّذييلُ قُصِدَ به تأكيدُ مَدْحِهم ومَسَرَّتِهم[2].

المحسنون استحقّوا الخلودَ في الجنَّة لأجلِ إحسانهم

بلاغةُ حَشْدِ المؤكِّدات في جملة الفاصلة:

أكَّد ﷻ قولَه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ بعِدَّة مُؤكِّدات؛ أوَّلُها: الجملة الاسميَّة؛ لأنَّها تدلُّ على الثَّبات والاستمرار، وقوَّة الحُكم وبقائه. وثانيها: تأكيدُ الملازمة بينَهم وبينَ الجنَّة، مِن خلال التَّعبير بلفظ ﴿أَصْحَٰبُ﴾ الذي يدلُّ على أنَّهم ملازمون لها. وثالثها: ضمير الفَصْل ﴿هُمْ﴾ الذي يدلُّ على القَصْر، ويُؤكِّد أنَّهم هم الخالدون فيها دونَ غيرهم. ورابعها: تقديمُ الجار والمجرور ﴿فِيهَا﴾ على متعلقه ﴿خَٰلِدُونَ﴾ الذي أفاد القَصْرَ، وأكَّد أنَّهم خالدون فيها لا في غيرها. وخامسُها: التَّعبير باسم الفاعل ﴿خَٰلِدُونَ﴾ الذي أكَّد دوامَ خلودِهم فيها، وثباته.

تأكيدُ استحقاقِهم للجنَّة وخلودِهم فيها، يعطيهم مزيدًا مِنَ السَّعادة فوقَ سعادتِهم

وكلُّ هذه المؤكِّدات مجتمعةً أفادتِ المبالغةَ في تأكيد استحقاقِهم للجنَّة، وأنَّهم خالدون فيها لا يُفارقونها، وأنَّ نعيمَها ثابتٌ دائمٌ لا ينقضي ولا يَنضُب، وفي هذا مَزيدٌ مِنَ السَّعادة

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/147.
(2) طنطاويٌّ، التَّفسير الوسيط: 7/59.

والطُّمأنينة لأصحاب الجنَّة، علاوة على نعيمهم فيها فضلًا منه وإحسانًا سبحانَه.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الرَّهَق، والقَتَر، والتَّعَب، والنَّصَب، واللُّغوب:

التَّعَبُ نتيجةٌ حتميَّةٌ للرَّهَق وللنَّصَب واللُّغوب

تتداخل معاني هذه الألفاظ في اللُّغة، وتتقارب في دلالتها، وجميعُها فيها معنى المشقَّةِ والكُلْفَة والإعياء؛ كما أنَّ بعضَ هذه الألفاظ قد فُسِّرت ببعضها الآخر:

و(الرَّهَق) في اللُّغة: غَشَيانُ الشَّيءِ الشَّيءَ، وهو غَشَيان بقَهْر، وذلك بأَن تحمِلَ الإنسانَ على ما لا يطيقه[1].

و(القَتَر): لونُ غَبَرةٍ فيها سوادٌ، يغشى جِلْدَةَ الوَجه مِن شِدَّة البُؤْس والشَّقاء والخَوف، وهو مِن آثار تهيُّجِ الكَبِد مِن ارتجاف الفؤادِ خوفًا وتوقُّعًا[2].

و(التَّعَب): الإعياءُ وشِدَّة العناء، وفيه مَشَقَّة وجَهْدٌ، يُقال: أَتْعَبَ فلانٌ نفسَه في عمل يمارسُه، إذا أنصبَها فيما حَمَّلَها وأَعْمَلَها فيه[3].

و(النَّصَبُ) في اللُّغة: العناءُ، مأخوذ مِنَ الانتِصاب، وكأنَّ الإنسان لا يزالُ منتصِبًا حتَّى يصيبَهُ الإعياءُ، والنُّصْبُ: البلاء والشَّرُّ والتَّعب، وقيل: النَّصبُ: التَّعب في البَدَن[4].

و(اللُّغوب): يدلُّ على ضَعْفٍ وتَعَب، واللُّغوب: التَّعَبُ والإعياء والنَّصبُ[5].

الخلاصة: أنَّ هناك فروقًا دلاليَّةً دقيقة بين هذه الألفاظ، بيانُها في الآتي:

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرّاغب، المفردات: (رهق)، والفيروزباديّ، بصائر ذوي التَّمييز: 3/101.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/147.
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والأزهريُّ، تهذيب اللُّغة، وابن منظور، لسان العرب: (تعب).
(4) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرّاغب، المفردات: (نصب)، والفيروزباديّ، بصائر ذوي التَّمييز: 5/61.
(5) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرّاغب، المفردات: (لغب)، والفيروزباديّ، بصائر ذوي التَّمييز: 4/434.

الفَرْقُ بينَ الرَّهَق والتَّعَب: الرَّهَق لا يكون بإرادة الشَّخْص المُرْهَق، ولا بدَّ مِن جهة خارجة عنه، إذ هو حَملُ الإنسانِ على ما لا يُطيق، وهو غَشَيانٌ بقَهْر، كما أنَّ الرَّهَق يُسبِّب التَّعَب، أي: يحصُل التَّعبُ نتيجةَ الرَّهَقِ.

في حين أنَّ التَّعَب أعمُّ مِنَ الرَّهَق؛ إذ قد يكون بإرادة الشَّخص، فيُحَمِّل نفسَه ما لا يُطِيق، فيَحصُل التَّعَب، كما أنَّه قد يكون بأسباب أُخرى غيرِ تَحَمُّل ما لا يُطيق، إذ قد يكون بسبب مرض أو مَشَقَّةٍ أو جَهْدٍ متواصلٍ، أو أيِّ شيءٍ يُسَبِّب التَّعَب.

والفَرْقُ بينَ النَّصَب واللُّغوب: أنَّ النَّصَب: التَّعَب والإعياء والمشقَّة التي تُصيب المنتصِبَ المزاولَ له، وأمّا اللُّغوب: فهو ما يَلْحَقُه مِنَ الفُتور بسبب النّصب، فالنّصبُ نفسُ المشقَّة والكُلْفَة، واللُّغوب نتيجتُه، وما يحدث منه مِنَ الكَلال والفَتْرة[1]، وقيل: النّصبُ تعبُ البَدَن، فهو تَعَبٌ جسمانيٌّ، واللُّغوب تعبُ النَّفْس، فهو تَعبٌ نفسانيٌّ[2].

ولـمّا كان الرَّهَقُ غشَيانًا بقَهْر، وأنَّ القَتَر لونُ غَبَرةٍ فيها سوادٌ يَغْشَى جِلْدَ الوَجهِ؛ جمع بينَ اللَّفظين لخصوص دلالتهما ومناسبتهما وصفًا للوجه؛ فَحالُ وجوهِهم مَنفِيٌّ عنها غَشَيان غَبَرةٍ وسوادٍ، تُظهِر سوءَ عاقبتهم.

(1) الزَّمخشريُّ، الكشّاف: 3/614.
(2) الزَّبيديُّ، تاج العروس: (لغب).

﴿وَٱلَّذِينَ كَسَبُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةٍۭ بِمِثۡلِهَا وَتَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٞۖ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنۡ عَاصِمٖۖ كَأَنَّمَآ أُغۡشِيَتۡ وُجُوهُهُمۡ قِطَعٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مُظۡلِمًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٢٧﴾ [يونس: 27]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

لـمّا بـيَّن حـالَ الـفضـلِ فيمَن أحـسـن، بـيَّن حـالَ الـعـدلِ فيمَن أساء

لـمّا أخبر تعالى عن حال السُّعداء في قوله: ﴿لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ وَزِيَادَةٞۖ﴾ واستجابتهم لدعوة الله وما أعدَّ الله لهم مِنَ الحُسنى وزيادة، عَطَفَ بذِكْرِ حالِ الأشقياء الذين أقدموا على السَّيِّئات، ولم يستجيبوا لدعوة الله[1]، وشأنُه تعالى معَ الفريق الأوَّل الفضلُ والإحسان، ومعَ الفريق الثّاني المعاملةُ بالعَدْل، وهذه الموازنة شأنٌ غالبٌ في الأسلوب القرآنيِّ[2]، فمَجِيء المقابل للشَّيء يرسّخه في الذِّهن[3].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿عَاصِمٖۖ﴾: أَصْلُ العَصْم يَدُلُّ على إمساكٍ ومَنْعٍ ومُلازمَةٍ، ومِن ذلكَ العِصْمَةُ: وهي أَنْ يَعْصِمَ الله تعالى عَبْدَهُ مِنْ سوءٍ يَقَعُ فِيهِ، واعْتَصَمَ العَبْدُ بِالله تعالى، إذا امتَنَعَ[4]، وأَعْصَمتُ فلانًا: هيَّأتُ له ما يَعتَصِم به[5]، واسْتَعْصَمَ: التَجأَ واسْتَمسَكَ، قال تعالى: ﴿لَا عَاصِمَ ٱلۡيَوۡمَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ﴾ [هود: 43]، أي: لا شيء يَعْصِمُ منه، ومن قال معناه: لا مَعْصومَ، فليس يعني أنَّ العاصِمَ بمعنى المَعْصومِ، وإنَّما ذلك تنبيهٌ منه على المعنى المقصود بذلك؛

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 17/242.
(2) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/234، والزُّحيليُّ، التَّفسير المنير: 11/155.
(3) الشّعراوي، تفسير الشّعراوي: 10/5876.
(4) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (عصم).
(5) الخليل، العين: (عصم).

وذلك أنَّ العاصِمَ والمَعْصومَ يتلازمان، فأيُّهما حَصَلَ، حَصَلَ معه الآخَرُ[1]، والاعْتِصامُ: الإمساكُ بالشَّيءِ افتِعال منه، قال تعالى: ﴿وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا﴾ [آل عمران: 103][2]، والعاصِمُ: المانِعُ، والحافِظُ، وهو المراد في الآية.

2) ﴿أُغۡشِيَتۡ﴾: أصلُ (غَشَي) يَدُلُّ على تَغْطِيَةِ شَيءٍ بِشَيءٍ، يُقالُ: غَشَّيْتُ الشَّيءَ أُغَشِّيهِ[3]، ويُقال: غُشِيَ عليهِ فهو مَغْشِيٌّ عليه، وهي الغَشْيَة[4]، والغِشاوَة: ما غَشِيَ القَلْبَ مِن رَيْنِ الطَّبْعِ[5]، وتَغَشَّى ثيابه واستغشاها: تَغَطَّى بها كي لا يَرى ولا يَسْمع: ﴿وَٱسۡتَغۡشَوۡاْ ثِيَابَهُمۡ﴾ [نوح: 7][6]، والغِشْيانُ - بالكَسْرِ - الإتيانُ، يُقالُ: غَشِيَهُ إذا أَتاهُ، ثُمَّ كُنِّيَ به عَنِ الجِماعِ كما بالإتْيانِ، ومَنْ فَسَّرَهُ بالتَّغْطِيَةِ فَقد سَها[7]، وقولُه: ﴿أُغۡشِيَتۡ﴾: مُعَدَّى غَشِيَ إذا أَحاطَ وغَطّا، وهو المرادُ في الآية.

3) ﴿قِطَعٗا﴾: أَصْلُ القَطْعِ: فَصْلُ وإبانَةُ الشَّيءِ عَن شَيءٍ آخَرَ، يُقالُ: قَطَعْتُ الشَّيءَ أَقْطَعُهُ قَطْعًا وَقَطِيعَةً، أَي: فَصَلْتُهُ، وضِدُّهُ الوَصْلُ[8]، والقَطْعُ: البَتْرُ، تَقولُ: قَطَعْتُ العُضْوَ إذا بَتَرْتَهُ، وتَقاطَعَ الشَّيءُ: بانَ بعضُه مِنْ بعضٍ[9]، والتَّقاطُعُ: التَّهاجُرُ، والقِطَعُ - بِفَتْحِ الطّاءِ - جَمعُ قِطْعَةٍ، وهِي الجُزْءُ مِنَ الشَّيءِ؛ سُمِّيَ قِطْعَةً؛ لأَنَّهُ يُقتطَعُ مِنْ كُلٍّ غالبًا، فهي فِعْلَةٌ بمعْنى مفعولةٍ نُقلَتْ إلى الاسميَّةِ، والقِطْعُ - بِسُكونِ الطّاءِ - هو اسمٌ للجُزءِ مِن زَمَنِ اللَّيْلِ المُظْلِمِ[10].

المَعْنى الإجْمالِيُّ:

يقولُ الحقُّ تعالى: والَّذين عَمِلوا السَّيِّئات كالكُفر والشِّرك، وما يتبعُهما مِنَ المعاصي، فلهُم جزاءٌ يسوءُهم بحسبِ ما عمِلوا مِنَ السَّيئاتِ، لا يزاد عليها، فلا تُضاعَف سيئاتُهم؛ عدلًا منه سبحانه، ويغشاهم هَوانٌ وذُلٌّ وخِزيٌ عند حَشْرِهم إلى النّار، ليس لهم مِنَ الله

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرّاغب، المفردات: (عصم).
(2) ابن الأثير، النِّهاية في غريب الحديث والأثر: (عصم).
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (غشي).
(4) الأزهريُّ، تهذيب اللُّغة: (غشو).
(5) الخليل، العين: (غشو).
(6) جبل، المعجم الاشتقاقيُّ المؤصَّل: (غشو).
(7) المطرزيُّ، المُغْرب: (غشي).
(8) ابن دريد، جمهرة اللُّغة، وابن فارس، مقاييس اللُّغة: (قطع).
(9) ابن سيده، المحكم: (قطع).
(10) الفرّاء، معاني القرآن: 1/461، وأبو عُبَيْدَة، مجاز القرآن: 1/278، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/149.

مِن مانعٍ يمنَعُ عنهم سَخَطَه وعذابَه، ويُحشرونَ مُسْوَدَّة وجوهُهم، كأنَّما أُلبِسَت وجوهُهم - مِن شِدَّةِ سَوادِها - قِطَعًا كثيرةً مِنَ اللَّيل المُظْلم، أو قِطَعًا مُظلمًا مِنَ اللَّيل، أولئِكَ أَصْحابُ النّارِ هم فيها ماكِثونَ أبدًا[1].

جزاءُ العاصين البُعْد والهَوانُ، وتسويدُ الوجوهِ والأبدان

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغة الوصل بالعطف: ﴿وَٱلَّذِينَ﴾:

عَطَفَ البيانُ القرآنيُّ قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَسَبُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ على جملة ﴿۞لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ وَزِيَادَةٞۖ﴾، والمعنى: للذين أحسنوا الحُسنى، وللذين كسبوا السَّيِّئاتِ جزاءُ سيئةٍ بمثلها[2].

حكمُ اللهِ في حَقِّ المحسنين الفَضْلُ، وفي حَقِّ المسيئين العَدْلُ

ويُشير هذا العطفُ إلى أنَّ الجُملتين وإن اجتمعتا في المعنى العامّ، وهو الجزاء على العمل، إلّا أنَّهما افترقتا بما يدلُّ على أنَّ اللّه يوصِل إلى المشتغلين في أعمال البِرِّ الثَّوابَ مع الزِّيادةِ، وأمّا في عمل السَّيِّئات فلا يجُازي إلّا بالمِثْلِ، أي: حكمُ اللّه في حَقِّ المحسنين ليس إلّا بالفَضْلِ، وفي حَقِّ المسيئين ليس إلّا بالعدل[3].

وجهُ التَّعبير بالاسم الموصول ﴿وَٱلَّذِينَ﴾:

في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَسَبُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ لم يقلْ سبحانه (والمسيئون)، أيْ: لم يُعرِّف المُسنَد إليه بالاسم الظّاهر، وإنَّما عَرَّفه بالاسم الموصول ﴿وَٱلَّذِينَ كَسَبُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾؛ للإيماءِ إلى وجهِ استحقاقِهم لحُكمِ هذا الجزاءِ مِن عقوبة السَّيِّئة بمثلها، والذِّلَّة، والهَوانِ، وسَوادِ الوجوه، والخُلودِ في النّار، وهو اكتسابُهم للسَّيِّئات وارتكابُهم المعاصي، حتَّى صارت دُرْبةً عندَهم، وسَهُلَ الاعتيادُ عليها، فتحوَّلَتْ مِن اكتسابٍ إلى كَسْب.

كَسْبُ المشركين السَّيِّئاتِ هو وَجْهُ استحقاقِهم لعقابِ اللهِ وسَخَطِه

(1) ابن جرير، جامع البيان: 12/156، 164، وابن عجيبة، البحر المديد: 2/466.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 17/242، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/147.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 17/242.

وفي إيراد الاسم الموصول جمعًا ﴿وَٱلَّذِينَ﴾ إشارةٌ إلى أنَّهم فريقٌ اجتمعَ على فِعْلِ السَّيئات، واتَّفقوا على ذلك، وزَيَّن بعضُهم لبعضٍ فِعْلَ المعاصيَ، والاستمرارَ عليها، والتَّماديَ فيها.

تعيينُ المراد بالموصول:

الذين كَسَبوا السَّيِّئات هُمُ المشركونَ المذكورونَ في سياق الآيات

لا خِلافَ بينَ المفسِّرين أنَّ الاسم الموصول ﴿وَٱلَّذِينَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَسَبُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ مِن ألفاظ العموم، ويرى القاضي عبدُ الجبّار - بناءً على ذلك - أنَّ ﴿وَٱلَّذِينَ﴾ يتناولُ الكافرَ والفاسقَ.

ولكنَّ جمهور المفسِّرين على أنَّه عامٌّ أُريدَ به خصوصُ المشركين؛ لقوله تعالى بعدَه: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾، فإنَّ الخُلودَ في النّار لا يقع إلّا للكافرين[1]، ولأنَّ سوادَ الوجهِ مِن علامات الكُفر، بدليل قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسۡوَدَّتۡ وُجُوهُهُمۡ أَكَفَرۡتُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡ﴾ [آل عمران: 106]، وقوله: ﴿وَوُجُوهٞ يَوۡمَئِذٍ عَلَيۡهَا غَبَرَةٞ ۝٤٠ تَرۡهَقُهَا قَتَرَةٌ ۝٤١ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَفَرَةُ ٱلۡفَجَرَةُ ۝٤٢﴾ [عبس: 40 - 42]، ولأنَّه تعالى قال بعد هذه الآية: ﴿وَيَوۡمَ نَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ﴾ [يونس: 28]، والضَّمير في قوله: (هم) عائدٌ إلى هؤلاء، وقد وَصَفَهم تعالى بالشِّرك[2].

سِرُّ التَّعبير بـ ﴿كَسَبُواْ﴾:

لفرطِ ارتكابِهم السَّيئاتِ أُشربت بها قلوبُهم، وأَحَلَّتْها نفوسُهم، فأصبحت كَسْبًا لهم

في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَسَبُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ عبَّر البيانُ الإلهيُّ بـ ﴿كَسَبُواْ﴾ دون (اكتسبوا)، معَ أنَّ الكَسْبَ يكون في الأمر الفطريِّ، ويناسب الطّاعات؛ فلا أحدَ يستحي أن يُصَلِّيَ، أو يتصدَّقَ، أو يصومَ، أمّا ارتكابُ الشَّيءِ المخالفِ ففيه افتِعالٌ، ويحتاج إلى اكتساب، ومُرتَكِبُه يمرُّ بتفاعلات نفسيَّةٍ متضاربةٍ، مِنَ الخوف والقَلَق، فالتَّعبير بالفعل ﴿كَسَبُواْ﴾ هنا دَلَّ على أنَّ هذه الذُّنوبَ أُشْرِبَتْ بها نفوسُهم وكَسِبَتْها

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/148.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 17/243.

قلوبُهم، حتَّى صارت وكأنَّها كالجِبلَّة لهم، إنْ لم تكنْ كالفِطرة منهم[1]، إذن: فالتَّعبير بـ ﴿كَسَبُواْ﴾ يدلُّ على أنَّ هؤلاء الكافرين استمرّوا في ارتكاب المعاصي حتَّى صارت دُرْبَة، وأَحَلَّتَها نفوسُهم، وانجذبت إليها، وسَعَتْ في تحصيلها، بل وافتخرت بها، ودَعت إليها، وهذا يُرَجِّحُ كونَ المرادِ بالموصول ﴿وَٱلَّذِينَ كَسَبُواْ﴾ خصوصَ المشركين.

وعبَّر بمادَّة الكَسْب دونَ الإساءة، فقال: ﴿كَسَبُواْ﴾، ولم يقل: (أساؤوا) كما عبَّر في جانب الذين أحسنوا؛ للإشارة إلى أنَّ إساءَتهم مِن فعلهم ومِن سعيهم، وبسبب جنايتِهم على أنفسهم، فما ظَلَمَهمُ اللّه، ولكن أنفسَهُم يَظْلِمون[2]، وبالمقابل فإنَّ إحسانَ المحسنين هو بتوفيق مِنَ اللّه الذي يهدي مَن يشاء إلى صراطٍ مستقيم.

التَّعبير عنِ الكَسْب بالفعل الماضي: ﴿كَسَبُواْ﴾:

عبَّر البيانُ القرآنيُّ عن كَسْب الكافرين للسَّيِّئات بصيغة الماضي ﴿كَسَبُواْ﴾؛ للدّلالة على تَحقُّق وُقوعِ كَسْب السَّيِّئات منهم؛ لأنَّ الأصل في الماضي أنَّه يدلُّ على حَدَثٍ وقعَ وانقطعَ، ومَضَى وانقضى، وفي هذا إشارةٌ إلى سَبْقِ عِلْم اللّه فيهم، بأنَّهم الفريقُ الذي لم يستجب لدعوته سبحانَه إلى دار السَّلام، ولم يكونوا مِنَ الذين اختصَّهم بالهداية، وفيه إيذانٌ بأنَّ اللّه لن يعاقبَهم إلّا بعدَ تَحقُّق كَسْبِهم للسَّيِّئات، وانقضاءِ الحَدَثِ ومُضِيِّه دونَ أن يتوبوا.

مِن سُنَّة الله أنْ لا يُعاقبَ المسيءَ إلّا بعدَ تحقُّقِ كَسْبِه للسَّيِّئات

عِلَّة مَجيء صِلَةِ المؤمنين ﴿أَحْسَنُواْ﴾، وصِلَةِ الكافرين ﴿كَسَبُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾:

جاءتْ صِلَةُ المؤمنين ﴿أَحْسَنُواْ﴾ في قوله: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ﴾، وصِلَةُ الكافرين: ﴿كَسَبُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَسَبُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾، تنبيهًا على أنَّ المؤمن لـمّا خُلِقَ على الفِطرة وَصَلَها بالإحسان، وعلى أنَّ الكافر لـمّا خُلِق على الفِطرة انتقل عنها وكَسَب السَّيِّئات، فجَعَلَ

الإحسانُ يوافِقُ الفِطْرةَ، واكتِسابُ السَّيِّئاتِ انحرافٌ عنها

(1) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 7/3555.

(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/138، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/147.

ذلك مُحْسِنًا، وهذا كاسِبًا للسَّيِّئات، لِيَدلَّ على أنَّ المؤمن سَلَكَ ما ينبغي، وهذا سَلَكَ ما لا ينبغي[1].

نُكْتَةُ تعريفِ ﴿ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾:

جزاءُ أيِّ سَيئةٍ مِنَ السَّيِّئاتِ بمثلها

(أل) التَّعريفُ في كلمة ﴿ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ جنسيَّةٌ استغراقيَّةٌ، ومعلومٌ أنَّ الجمعَ المُعَرَّف بـ (أل) الجنسيَّةِ الاستغراقيَّةِ يُفيد العمومَ، والمعنى: والذينَ كَسَبوا جميعَ أنواعِ السَّيِّئات المحيطةِ بهم مِنَ الكُفْر والشِّرْكِ والمعاصي جَزاءُ أيِّ سيِّئَةٍ بمثلها[2].

دلالة جمع ﴿ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ وإفرادِها:

حِلمُ الله تعالى عندَ كَسْبِ السَّيِّئات، وعَدْلُه في مُجازاةِ كُلِّ سيِّئةٍ بمثلها

أتى البيانُ القرآنيُّ بلفظ ﴿ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَسَبُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ بصيغة الجَمع؛ للدّلالة على كَثْرة كَسْبهم للسَّيِّئات، فلم تكن سَيِّئَةً واحدةً، بل إنَّهم كَسَبوا سيِّئاتٍ كَثيرةً ومُتَنَوِّعةً، وفيه إشارةٌ إلى حِلم اللّه تعالى عليهم وإمهاله لهم، أمّا في قوله: ﴿جَزَآءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا﴾ فقد جاء لفظ ﴿سَيِّئَةٍ﴾ بصيغة المفرد؛ للدّلالة على عَدْله سبحانَه، إذ إنَّه عند محاسبتهم على سيِّئاتهم أتَى بها سيِّئَةً سيِّئَةً، وجازاهم على كُلِّ سيِّئَةٍ بمثلها، ولم يكن جزاؤه جُزافًا على مجموع سيِّئاتِهم.

وجهُ التَّعبير عنِ الجزاء بالمصدر: ﴿جَزَآءُ﴾:

دلالةُ المصدرِ مبالغةٌ وتأكيدٌ على عَدْله ﷻ

جاء لفظُ ﴿جَزَآءُ﴾ في قوله تعالى: ﴿جَزَآءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا﴾ مصدرًا للفعل المبني للمفعول (تُجازَى) لا اسمًا للعِوض، أي: جزاءُ الذين كَسَبوا السَّيِّئاتِ أنْ تُجازَى سيِّئَةٌ واحدةٌ بسيِّئةٍ واحدةٍ مثلِها، على معنى عدمِ الزِّيادة بمقتضى العَدْل[3]، فالتَّعبيرُ بالمصدر أفاد التَّأكيدَ والمبالغةَ في عَدْل اللّه سبحانَه، بأنْ جَعَل جزاءَ كلِّ سيِّئَةٍ بمثلها، لا أَكْثَرَ ولا زيادةً عليها.

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/44.
(2) ابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: 3/116.
(3) الآلوسيُّ، روح المعاني: 6/98.

سِرُّ تنكيرِ السَّيِّئةِ في: ﴿سَيِّئَةٍ﴾:

نكَّر البيانُ الإلهيُّ لفظَ ﴿سَيِّئَةٍ﴾ في قوله تعالى: ﴿جَزَآءُ سَيِّئَةٍ﴾؛ لإفادة العموم، أي: جزاءُ كلِّ سيِّئة، أو أي سيِّئةٍ بمثلها، وهو وإنْ كان في سياق الإثبات، فالعموم مُستفاد مِنَ المقام، وهو مقام عموم المبتدأ[1].

مِن كمالِ عَدْلِهِ سبحانَه أنَّه جَعلَ جزاءَ أيِّ سيِّئةٍ بمثلها

معنى الباء في ﴿بِمِثْلِهَا﴾:

الباء في قوله تعالى: ﴿بِمِثْلِهَا﴾ تحتمل معنيَيْنِ؛ الأوَّل: التَّأكيد؛ أي الباء زائدة، وتقديره: وجزاءُ سيِّئةٍ سيِّئةٌ مثلها، كما في آية أخرى: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَاۖ﴾ [الشورى: 40][2]. الثّاني: ليست زائدة، وهذا قول الجمهور، ويتعلَّق الجارُّ والمجرور ﴿بِمِثْلِهَا﴾ باستقرار محذوفٍ هو الخبر، وهي للإلصاق، والمعنى: جزاءُ سيِّئة مستَقِرٌّ بمثلها[3]، أي: التصق التَّقدير بالمثليَّة، وتُفيد كذلك معنى المقابلة، فإذا كان المحسنون يُجازَون بالحُسنى وزيادة، فَحَسْبُ المشركين أن تُجازَى السَّيِّئة بمثلها، كما يقول تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشۡرُ أَمۡثَالِهَاۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَا﴾ [الأنعام: 160][4].

السيئاتُ عنده بالمثل، والحسنات ضوعفت بالفضل

إيثار لفظ (مثل): ﴿بِمِثْلِهَا﴾:

في قوله: ﴿جَزَآءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا﴾ آثرَ البيانُ الإلهيُّ اختيارَ كلمةِ ﴿بِمِثْلِهَا﴾، أي: بمثل السَّيِّئة، دونَ غيرِها، كـ (نفسها)، و(شبهها) للإشارة إلى: المقابلة؛ إذ في هذا التَّعبير ﴿بِمِثْلِهَا﴾ مقابلةٌ للشَّيء بما يماثله، ووجهُهُ: مقابلةُ المفردِ بالمفرد[5]، وفي هذا زيادةُ إيضاح، وإضفاءُ رونقٍ، وتقويةُ علاقةٍ بينَ الألفاظ والمعاني.

مقابلةُ السَّيِّئة بمثلها مِن تمامِ عَدْلِهِ سبحانَه

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/148.
(2) ابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 3/116، والزُّحيليُّ، التَّفسير المنير: 11/151.
(3) النَّسفيُّ، مدارك التَّنزيل وحقائق التَّأويل: 2/18، وأبو حيّان، البحر المحيط: 6/45.
(4) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 7/3555.
(5) المؤيَّد بالله، الطِّراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز: 2/202.

وللإشارة إلى المشاكَلة اللَّفظيَّة؛ فالجزاءُ ليس سيِّئةً، إنَّما هو العدالةُ التي ليست سيِّئةً في ذاتها، كقوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ بِمِثۡلِ مَا ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡۚ﴾ [البقرة: 194][1].

توجيهُ إعراب: ﴿وَٱلَّذِينَ كَسَبُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾:

بينَ عطفِ المفردِ على المفرد، وعطفِ الجملةِ على مثلها، ثراءٌ في المعنى

اختُلِف في توجيه إعراب جملةِ: ﴿وَٱلَّذِينَ كَسَبُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ بما يلتئم بما قَبلَها ويزيد المعنى ثراءً، على قولين؛ أحدهما: أنَّه مِن عطفِ المفرد على المفرد، ووجهُهُ: أنَّ ﴿وَٱلَّذِينَ كَسَبُواْ﴾ مجرور؛ وهو خبرٌ لقوله: ﴿جَزَآءُ سَيِّئَةٍ﴾، كما أنَّ المعطوف عليه، وهو ﴿لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ﴾ كذلك، نحو قولك: (في الدّار زيدٌ والحُجْرةِ عمرٌو)، أي: في الدّار زيدٌ وفي الحُجْرة عمرٌو. وثانيهما: أنَّه مِن عطف الجملة على مثلها، فلا يَلْزم العطفُ على عامِلَين مختلفَين، لكن لا بُدّ مِن تقدير محذوف، فيُقَدَّرُ مُضاف في جانب المبتدأ، أي: (للذين أحسنوا الحسنى وزيادةٌ وجزاءُ الَّذينَ كسبوا السَّيِّئات جزاءُ سيِّئةٍ بمثلها)، أو مُضافٌ في جانب الخبر، أي: (للذين أحسنوا الحسنى وزيادةٌ وللذين كسبوا السَّيِّئاتِ جزاءُ سيِّئةٍ بمثلها)[2].

العدول عنِ التَّعبير بالسّوءى:

جزاءُ المحسنين الفضلُ، وجَزاءُ المسيئين العَدْلُ

غيَّرَ البيانُ الإلهيُّ السَّبْكَ، فلم يَقُل: (وللذين كسبوا السَّيِّئاتِ السّوءى)؛ كما قال في الآية السّابقة: ﴿۞لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾، وإنَّما قال: ﴿وَٱلَّذِينَ كَسَبُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةٍ بِمِثۡلِهَا﴾؛ لمراعاة ما بينَ الفريقينِ مِن كمال التَّنائي والتَّبايُن[3]، ولبيان أنَّ حُكمَ اللّه في حساب الكافرين العدلُ، وهو جزاءُ السَّيِّئة بمثلها لا بزيادة عنها؛ إذِ السّوءى هو اسم تفضيل مِنَ السَّيِّئة، بخلاف حُكْم اللّه في

(1) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 7/3555.
(2) الطِّيبيُّ، فتوح الغيب: 7/470، والقونويّ وابن التَّمجيد، حاشية على تفسير البيضاويِّ: 9/442.
(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/138.

المحسنين، وهو الزِّيادَة والفَضْل، ولذلك عبَّر بالحُسنى، وهو اسمُ تفضيلٍ مِنَ الحَسَنَة.

وجهُ المقابلة بينَ ذِكْر عمّالِ الحسناتِ، وعمّالِ السَّيِّئات:

مقابلةُ جَزاءِ المحسنين بجزاء المسيئين تُظْهِرُ فضلَ اللهِ وعَدْلَه

تتضمَّن الآيتان اقترانًا بينَ ذِكْر عُمّال الحسنات وعُمّال السَّيِّئات؛ فقد وَصَفَ المحسنين بأنَّ لهم حُسنى وزيادةً مِن جنسها (على قول مَن فَسَّر الحُسنى بالحَسَنة)، ووَصَفَ المسيئين بأنَّ لهم مثلَ السَّيِّئة، فتعادَلَ الكلامان. وهذه المقابلةُ تُرجِّحُ أنَّ المقصود مِنَ الحُسنى هي الحسنة، ومِنَ الزِّيادة تضعيفُ الحسنات، لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُۗ﴾ [البقرة: 261][1]، وفي هذه المقابلة زيادةُ إيضاحٍ للفَرْقِ بين عُمّال الحسنات وعمّال السَّيئات، وإضفاءُ رونقٍ على الكلام، وتقويةُ العلاقةِ بينَ الألفاظ والمعاني.

معنى الواو في: ﴿وَتَرْهَقُهُمْ﴾:

الواو بينَ مبالغةِ العطفِ وتصويرِ الحال

تحتمل الواو في قوله تعالى: ﴿وَتَرْهَقُهُمْ﴾ وجهين[2]: أحدهما: أن تكون عاطفةً، والمعطوف عليه إمّا ﴿كَسَبُواْ﴾، وقولُه: ﴿جَزَآءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا﴾ جملةٌ اعتراضيَّةٌ، بيَّنت قدرَ جزائِهم، والمعنى: (والذين كسبوا السَّيِّئات والذين ترهقهم ذِلَّة)، وفي هذا العطف ما لا يخفى مِنَ المبالغة؛ إذ أخرج نسبةَ الرَّهَقِ إليهم يوم القيامة مخرجَ المعلوم، حيثُ جُعِلَ ذلك بوساطة صلةِ الموصول، أو أنَّه عُطِف على ما قبلَه بحسب المعنى، كأنَّه قيل: والذين كسبوا السَّيِّئات تُجازَى سيِّئَتُهم بمثلها وتَرْهَقُهم ذِلَّة[3].

والآخر: أن تكون الواو حاليَّةً، والجملة في موضع الحال مِن ضمير ﴿كَسَبُواْ﴾، والمعنى: والذين كسبوا السَّيِّئاتِ حالَ كونِهم تَرْهَقُهم ذِلَّةٌ.

(1) ابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 3/116.
(2) الآلوسيُّ، روح المعاني: 6/99.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 17/242.

وجه التَّعبير عنِ الرَّهَق بالمضارع:

عبَّر القرآنُ الكريمُ عنِ الرَّهَق في قوله تعالى: ﴿وَتَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٞۖ﴾ بصيغة المضارع؛ للدّلالة على استمرار الغَشَيان، وتَجَدُّد الهَوان القاهرِ المحيطِ بالكافرين، ودَلَّ أيضًا على تصوير هذا المشهد بما يُؤْلِمُ النَّفس ويُنفِّرُها مِن أسبابه.

تصويرُ حالِ الكافرين في تجدُّد الهوان المحيط بهم، مَشْهَدٌ يُنَفِّر النَّفسَ

عِلَّة الاكتفاءِ بالذِّلَّة: ﴿وَتَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٞۖ﴾:

اقتصر البيانُ الإلهيُّ على الذِّلَّة لهم في قوله: ﴿وَتَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٞۖ﴾، واكتفى بها دون زيادة (ويَرْهَقُهم قَتَر) كما نفاهما عنِ الذين أحسنوا في الآية قبلَها؛ لأنَّه أتى بما هو أشدُّ منه، وهو قوله تعالى: ﴿كَأَنَّمَآ أُغۡشِيَتۡ وُجُوهُهُمۡ قِطَعٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مُظۡلِمًاۚ﴾[1].

غَشَيانُ وجوهِ الكافرين بقِطَعٍ مِنَ اللَّيل، أشدُّ مِن أنْ يَرْهَقَها قَتَرٌ

دلالة تنوين: ﴿ذِلَّةٞۖ﴾:

نَكَّرَ البيانُ الإلهيُّ لفظَ ﴿ذِلَّةٞۖ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَتَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٞۖ﴾؛ لإفادة معنى التَّفخيم والتَّرهيب والتَّخويف، أيْ: هوانٌ عظِيمٌ، "كما يُنبئ عنه التَّنوينُ التَّفخيميُّ"[2].

أيُّ ذلةٍ وأيُّ هوانٍ يَرهَقُ الكافرين يوم القيامة

وجهُ إسنادِ الرَّهَق إلى أنفسهم:

في إسناد الرَّهَق إلى أنفسهم في قوله تعالى: ﴿وَتَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٞۖ﴾، والعدولِ عن رَهَق الوُجوه، إيذانٌ بأنَّ الذِّلَّة محيطةٌ بهم مِن كلِّ جانب، غاشيةٌ لهم جميعاً[3]، وهذا أَدْعَى إلى التَّنفير مِن حالهم، وما وصلوا إليه مِنَ الذُّلِّ والهَوان.

الذِّلُّ والهَوانُ محيطٌ بالكافرين مِن كلِّ جانبٍ يومَ القيامة

بلاغةُ نفيِ العاصمِ بزيادة ﴿مِنۡ﴾:

﴿مَّا﴾ في قوله تعالى: ﴿مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنۡ عَاصِمٖۖ﴾ نافيةٌ لا عملَ لها، نفت عصمةَ الكافرين مِن سَخَط الله وعذابِه، وأمّا ﴿مِنۡ﴾

المبالغةُ في نفي عصمةِ الكافرين مِن سَخَط الله تهديدٌ وتأييسٌ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/148.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/139.
(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/139، وطنطاويّ، التَّفسير الوسيط: 7/60.

فهي صِلَة، أي: حرف جرٍّ زائدٍ، جِيءَ به في الآيةِ لغرضين؛ الأوَّل: التَّنصيصُ على استغراقِ عمومِ النَّفي[1]؛ إذ لو قلتَ قبل زيادتها: ما جاءني رجل، احتَمَل أن تكون نافيًا لرجلٍ واحد، وقد جاء أكثر منه، واحتَمَل أن تكون نافيًا لجميع الجِنس، فإذا زدتَ (مِن) أخرجتَهُ مِن حيِّز الاحتمال إلى حيِّز التَّنصيص على عموم النَّفي، ومنه قولُه تعالى: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ﴾ [المؤمنون: 91]. والغرض الثّاني: توكيدُ عموم النَّفي؛ لأنَّها دخلت على تركيب هو نصٌّ في عموم النَّفي؛ إذِ النَّكِرةُ في سياق النَّفي تُفيد العمومَ، و﴿مَّا﴾ نافيةٌ قد دخلت على نكرة هي ﴿عَاصِمٍ﴾[2]، وبذلك أفادَ هذا التَّركيبُ عمومَ نفي عصمتِهم مِن عذاب الله، وتأكيدَ هذا العموم، أي عمَّمَتْ وأكَّدَتْ وبالغتْ في نفي عصمتهم مِن عذاب الله[3]، ولذا عبَّر ابنُ عاشور عن هذه المبالغة بقوله: "وهو تهديدٌ وتأييسٌ"[4].

إيثار النَّفي بـ ﴿مَّا﴾:

تـأكـيـدُ نـفـيِ عصمةِ الكافرين مِن عذابِ الله، رَدٌّ على ادِّعائهم بـأنَّ آلـهـتَـهـم تعصمُهم

آثرَ البيانُ الإلهيُّ في قوله تعالى: ﴿مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ﴾ النَّفيَ بـ ﴿مَّا﴾؛ لقوَّة النَّفي بها؛ إذ إنَّها آكَدُ مِن (ليس) ومِن (لم)، فإنَّها تقع جوابًا للقَسَم، تقول: (والله ما هو بمنطلق)، بخلاف (ليس)، وبخلاف (لم).

والقَسَمُ توكيدٌ، وكذلك جوابُه، ويدلُّ على ذلك أيضًا أنَّ مَنفيَّها كثيرًا ما يقترن بـ (من) الاستغراقيَّةِ المؤكِّدَة، وهي التي يُسَمِّيها النُّحاةُ زائدةً، كما هو في هذه الآية، بخلاف (لم) و(ليس) و(لا)، ولا ينافسُها في ذلك إلّا (إنْ) النّافية، إلّا أنَّها تفترق عنها بأنَّ (إنْ)

(1) الخفاجيُّ، عناية القاضي: 5/22.
(2) ابن نور الدِّين، مصابيح المغاني في حروف المعاني، ص: 462.
(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/139، والقونويّ وابن التَّمجيد، حاشية على تفسير البيضاويِّ: 9/443.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/148.

لا بُدَّ مِن أن تقترن بـ(إلّا)، وليست في قوله تعالى: ﴿مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍۖ﴾، ولذا آثرَ البيانُ الإلهيُّ هنا (ما).

وكذلك فإنَّ (ما) كثيرًا ما تكون ردًّا على كلامٍ، أو ما نُزِّلَ هذه المنزلة، وقد جاءت في هذه الآية ردًّا على ما نُزِّلَ بمنزلة الجواب؛ إذ إنَّهم كانوا يَدَّعون أنَّ آلهتَهم تعصِمُهم مِن عذاب الله في الدُّنيا والآخِرة[1]، بل إنَّ شركاءَهم تَبرَّؤوا منهم، كما في الآية التي بعدَها، وهي قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُواْ مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْۚ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْۖ وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ۝٢٨﴾ [يونس: 28].

وجهُ التَّعبيرِ بالتَّركيب: ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾:

أفاد التَّعبير بـ ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ في قوله تعالى: ﴿مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍۖ﴾ المبالغةَ في نفي عصمتهم مِن انتقامه وجَزائه ﷻ[2]، أو نفي وجودِ مَن يُجيرُهم أو يَدْفَعُ عنهم عذابَه، وذلك مِن ناحتين؛ إحداهما: التَّعظيم، الذي أفاده الاسمُ الجليل (الله)، الذي يبعث في النَّفس المهابةَ والتَّخويفَ والتَّرهيب لهم، أي: "ما لهم مِنَ الله مِن مانع يمنعُهم إذا عاقبَهم، يحول بينَه وبينَهم"[3]. الثّانية: التَّعجيب والتَّهويل على النُّفوس بحَذْف المضاف، ليُترك للمُخَيِّلة أن تعمل عملَها، وأن تذهبَ كلَّ مذهبٍ في تعديد أشياءَ لو ذُكِر بعضُها لما اكتمل المعنى، فكان الحذفُ مفيدًا للعموم وللمبالغة وللتَّهويل؛ ليكون المعنى: ما لهم مِن عذابِ الله وسَخَطِه وانتقامِه وناره وملائكة عذابِه، وغير ذلك.

التَّأكيدُ والمبالغةُ في نفي عصمتهم مِنَ الله تخويفٌ وترهيب

التَّعبير عن ﴿عَاصِمٍۖ﴾ بصيغة اسم الفاعل:

جعل البيانُ الإلهيُّ المبتدأَ ﴿عَاصِمٍۖ﴾ في الجملة الاسميَّة: ﴿مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍۖ﴾ اسم الفاعل، وهو مِنَ المشتَقّات التي توَضِّحُ

نفيُ عصمتِهم مِن عذاب الله وانتقامِه أمرٌ ثابتٌ ودائم

(1) السّامرّائيُّ، معاني النحو: 4/191، 194.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/148.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 15/73.

المعنى، وتُحَدِّدُ الدّلالةَ عليه بشكل أَدَقّ، والذي يأتي في الجملة الاسميَّة للدّلالة على الثُّبوت والدَّوام والاستمرار في الغالب، ليَدُلَّ في الآية على ثبات ودوام نفيِ عصمتِهم مِن عذاب اللّه وانتقامه.

بلاغة التَّشبيه والاستِعارة في قوله: ﴿كَأَنَّمَآ أُغۡشِيَتۡ وُجُوهُهُمۡ قِطَعٗا﴾:

صورةٌ حسيَّةٌ للظَّلام النَّفسيِّ والكُدْرَةِ التي تغشى وَجْهَ المكروب المرعوب

في قوله تعالى: ﴿كَأَنَّمَآ أُغۡشِيَتۡ وُجُوهُهُمۡ قِطَعٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مُظۡلِمًاۚ﴾ تشبيهٌ واستعارةٌ، أمّا الاستعارةُ: فهي قوله تعالى: ﴿قِطَعٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مُظۡلِمًاۚ﴾، وفيها يبدو اللَّيلُ كأنَّه الثَّوبُ الأسود الذي قُطِّعَ قطعًا؛ إذِ اللَّيلُ على الحقيقة لا يوصَف بأنّ له قِطَعًا متفرِّقةً، وأجزاءً متنصِّفَةً، وإنَّما المراد أنَّ اللَّيل لو كان ممّا يتبعَّض وينفصل، لأشبهَ سوادُ وجوهِهم أبعاضَه وقِطَعَه[1]. وأمّا التَّشبيهُ: ففي قوله تعالى: ﴿كَأَنَّمَآ أُغۡشِيَتۡ﴾، أي: أُلبست وغُطِّيت بقِطَعٍ مُظْلِمةٍ، وهذا تصويرٌ لسَواد وجوهِهم بما اقترفوا، فقلوبُهم المظلمة تكسو وجوهَهم بالظَّلام، وفي هذا التَّصوير الحِسّيِّ، تصويرٌ معنويٌّ لنفوسهم المُظْلمة[2]، كما فيه تصوير للعُبوسَة والتَّحيُّر والدَّهشة والخوف الذي يصيبهم يومَ القيامة؛ إذ "أصل الكلام: ترى وجوهَهم مُسْوَدَّة، كقوله تعالى: ﴿وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسۡوَدَّةٌۚ﴾ [الزمر: 60]، ولـمّا أُريدَ التَّتميم فيه، وانضمامُ العبوسةِ والتَّحيُّر مع الظُّلْمة، شُبِّهَت باللَّيل، وأُوقِعَ ﴿مُظۡلِمًاۚ﴾ حالًا منه؛ ليُتَصَوَّر مِن ذلك تُخْمَةَ السَّحابِ وتكاثفُ المطر، وما يَلْحَق لـمَن حصل فيه مِنَ التَّحَيُّر والخوفِ والدَّهشة"[3].

وجهُ التَّعبير بـ﴿كَأَنَّمَآ﴾:

التَّصويرُ الحسيُّ لـوجـوهِ الـذين كسبوا السَّيِّئات تصويرٌ معنويٌّ لقلوبهم المظلمة

عبَّر البيانُ القرآنيُّ بلفظ ﴿كَأَنَّمَآ﴾ في قوله: ﴿كَأَنَّمَآ أُغۡشِيَتۡ وُجُوهُهُمۡ قِطَعٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ﴾، التي تُفيد التَّشبيه؛ إذِ الكاف حرفٌ يُفيد

(1) الشَّريف الرَّضيُّ، تلخيص البيان في مجازات القرآن: 2/154.
(2) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 7/3555.
(3) الطِّيبيُّ، فتوح الغيب: 7/475.

التَّشبيهَ، و(أنّ) حرف مُشَبَّه بالفعل، ينصب الاسمَ ويرفع الخبرَ، ولمّا كانت (أنّ) لا تدخل إلّا على الجملة الاسميَّة، دخلت عليها (ما) التي كفَّت (أن) عن عملها، وهيَّأَتْها للدُّخول على الفعل، إذِ المشبَّهُ به هنا جملةٌ فعليَّة صَوَّرتِ الحالةَ والهيئةَ التي تكون عليها وُجوهُ الذين كَسَبوا السَّيِّئات، وكأنَّها أُلبِسَت وغُطّيتْ بقِطَعٍ مِنَ اللَّيل الأسود المُظْلِم؛ لِفَرْط سوادِها وظُلمَتِها، والمقصود من هذا التَّشبيه: التَّهويلُ والتَّخويف والتَّنفير، بتصوير وجوهِهم بهذه الحالة المظلمة المُنَفِّرة.

سِرُّ التَّعبير بالفعل المبنيِّ للمَجهول: ﴿أُغْشِيَتْ﴾:

عبَّر البيانُ الإلهيُّ بصيغةِ المبني للمفعولِ ﴿أُغْشِيَتْ﴾ في قوله تعالى: ﴿كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ﴾ لأمرين؛ الأوَّل: صَرْفُ الحَدثِ عمدًا عن مُحْدِثه، فلم يُسنده إليه، وذلك تركيزًا للانتباه على الحَدَث ذاتِه، أي: المفعول، وهو إلباسُ وجوههم قطعًا مِنَ السَّواد، وحَصْرُ الوَعْي فيه، فلا يتوَزَّعُ في غيره، وهي ظاهرةٌ بيانيَّة أُخرى مُطّردَة، قلَّ أنْ نُخطِئَها في أحداث اليوم الآخر[1]. الثّاني: إفادةُ العموم؛ إذ لو أتى بالمبني للمعلوم لقيَّده بمُغْشٍ واحدٍ فقط، وهو ليس بواحد، وإنَّما يشمل العقابَ مِنَ اللّه بمثل عملهم، والهوانَ والذُّلَّ، وعدمَ نفعِ أصنامِهم، ومنعِها لهم مِن عذاب اللّه، وغيرِ ذلك مِن أحوال يوم القيامة الشَّديدة، الذي تذهل فيه كُلُّ مُرضعة عمّا أَرضَعَتْ، ولذلك لم يُحَدِّد البقاعيُّ الفاعلَ (المغشي) فقال: "أي: أغشاها مُغَشٍ لشِدَّة سوادها لِما هي فيه مِنَ السّوء"[2].

التَّركيزُ على غَشَيانِ الوجوهِ بالسَّواد تخويفٌ وتنفيرٌ

نُكْتَةُ تخصيصِ الوجوه بالذِّكْر:

خصَّص البيانُ القرآنيُّ ذِكْرَ الوجوهِ في قوله: ﴿وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ﴾؛ لأنَّها أشرفُ الأعضاء، فدَلَّ نفيُ القَتَر والذِّلَّة عنِ الوجوه

غَشَيانُ وجوهِ الكافرين بالظُّلمة خَوْفٌ وخِزيٌ وذِلَّةٌ لأصحابها

(1) بنت الشّاطئ، التَّفسير البيانيُّ للقرآن الكريم: 1/81.
(2) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 8/268.

على انتفاء أن ينالهم مَكْروهٌ بوجه مِنَ الوجوه، أو يعرضَ لهم شيءٌ مِن سوء الحال، فقد أعاد ذِكْرَ الوجوهِ في قوله تعالى: ﴿كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مُظْلِمًا﴾؛ زيادةً في الخزي والصَّغار والإهانةِ والخوفِ للعِلَّة نفسها.

بلاغةُ المقابلة:

مقابلةٌ بينَ وجوهِ المحسنين المُكَرَّمة، ووجوهِ المُسيئين المُظْلِمَة

في الآية بلاغةُ المقابلة؛ وهي مقابلة الشيء بضده من جهة معناه دونَ لفظِه، فقد قابل جزاءَ المحسنين: ﴿وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ﴾، بجزاء الكافرين المسيئين: ﴿كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مُظْلِمًا﴾، وفي هذه المقابلة مبالغةٌ في الإيضاح وبيانِ شِدَّة عذابهم[1]؛ إذِ المعنى يتَّضح بضِدِّه، ومجيءُ المقابلِ للشَّيء يُرسِخُه في الذِّهن.

دلالة التّنكير، والتّنوين في: ﴿قِطَعًا﴾:

المبالغةُ في سوادِ وجوهِ الكافرين وظلمتها تبعثُ على الرَّهْبَة والخَوف

نكَّر البيانُ الإلهيُّ ﴿قِطَعًا﴾ ونوَّنها؛ للدّلالة على المبالغة في التَّكثير والتَّفخيم[2]، وأوقع (من الليل) بيانًا لهذا التَّكثير والتَّفخيم، والمعنى: كأنَّما أُخِذَ مِنَ اللَّيل المُظْلم، فقُطِّع رُقَعًا غُشِّيتْ بها هذه الوجوهُ! أي: "أُغشِيَت وَجْهَ كلِّ إنسانٍ منهم قِطعةٌ مِن سَواد اللَّيل"[3]، وهكذا يَغْشَى الوجهَ كلَّه ظلامٌ مِن ظَلام اللَّيل المُظْلِم، ورهبةٌ مِن رَهْبَتِه، تبدو فيه هذه الوجوه مُلَفَّعةً بأغْشِيَة مِن هذا اللَّيل البَهيم.

توجيه القراءتين في قوله: ﴿قِطَعًا﴾ بينَ الإفراد والجمع:

ثراءُ المعنى في (قِطَعًا) بينَ قراءةِ الجمعِ والإفراد

اختلف القُرّاء في قراءة قوله تعالى: ﴿قِطَعًا﴾ على قراءتين؛ بينَ الإفراد والجمع، ممّا زاد المعنى ثراءً؛ إذ قرأ الجمهورُ بفتح الطّاء: ﴿قِطَعًا﴾، جمع: (قطعة)، وعلى معنى أنَّ تأويل ذلك: كأنَّما أُغشي وَجهُ كلِّ إنسان منهم قِطْعَةً مِن سواد اللَّيل، ثمَّ جَمَع ذلك فقيل:

(1) القونويّ وابن التَّمجيد، حاشية على تفسير البيضاويِّ: 9/442.
(2) الطِّيبيُّ، فتوح الغيب: 7/475.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 15/76.

كأنَّما أُغشيت وجوهُهم قِطَعًا مِن سواد؛ إذ جَمَع (الوجه). وقرأ ابنُ كثير والكسائيُّ: (قِطْعا) بسكون الطّاء، وهو اسم مفرد للشَّيء المقطوع، أي: القِطْعة؛ وهي البعض، بمعنى: كأنَّما أُغْشيت وجوهُهم سوادًا مِنَ اللَّيل، وبقيَّةً مِنَ اللَّيل، ساعةً منه، كما قال تعالى: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾ [هود: 81، الحجر: 65]، أي: ببقيَّة قد بقيت منه[1].

سِرُّ تقديم شِبه الجملة: ﴿مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾:

قدّم البيانُ الإلهيُّ شِبهَ الجملة: ﴿مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾ على ﴿مُظْلِمًا﴾ في قوله تعالى: ﴿أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مُظْلِمًا﴾ وفاقَ مَن أعرب ﴿مُظْلِمًا﴾ نعتًا لـ ﴿قِطَعًا﴾، وذلك رعايةً للدِّقَّة في المعنى، ومنعًا للَّبس؛ لأنَّه لـمّا كان القِطَعُ مشتركًا بين ظُلْمة آخرِ اللَّيل وجَمعِ القِطْعةِ مِنَ الشَّيء، بيَّن أنَّ المقصود هو القِطَعُ مِن جنس اللَّيل، حالَ كونِه مُظْلِمًا[2].

الـقِـطَـعُ الـتي أَغْـشـتْ وجـوهَ الـكـافـريـن هي مِـــن جـنـسِ اللَّيل، وليست من شيء آخر

توجيه إعراب ﴿مُظْلِمًا﴾ بينَ الوصف، والحاليَّة:

﴿مُظْلِمًا﴾ في قوله تعالى: ﴿أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مُظْلِمًا﴾ تحتمل وجهين من الإعراب؛ الأوَّل: نعتٌ لقوله: ﴿قِطَعًا﴾، أي: قِطَعًا مُظْلِمًا. والآخر: حالٌ مِنَ اللَّيل لا نعتًا للقِطَع، ولذلك لم يقل: مُظْلِمةً، كأنَّه قيل: أُغشيت وجوهُهم قِطَعًا مِنَ اللَّيل في حال ظُلْمَتِه[3]، أو قِطْعًا مِنَ اللَّيلِ المُظْلم[4]. وسواء كان نعتًا أو حالًا فإنَّ فيه زيادةَ معنًى؛ لأنَّ اللَّيل يُسمَّى ليلًا وإن كان مُقْمِرًا، فلمّا قال سبحانه: ﴿مُظْلِمًا﴾ دَلَّ على شِدَّة سواده، وانتفاءِ الضَّوء عنه، على أنَّ التَّشبيه إنَّما وقع أسودَ ما يكون جلبابًا، وأبهمَ أثوابًا.

وجـوهُ الكافرين تُشْبهُ في حالها وصفتها اللَّيلَ المُظْلِمَ الشَّديدَ السَّوادَ

(1) ابن جرير، جامع البيان: 15/76، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 17/243.
(2) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 9/105.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 17/243.
(4) البغويُّ، معالم التَّنزيل: 2/418.

وجه الإطناب في الوصف ﴿مُظۡلِمًاۚ﴾:

وصفُ اللَّيل بالظُّلْمَة - وهو محلُّها - تقريرٌ لسوء حالهم، وسَوادِ وجوهِهم

أطنب البيانُ الإلهيُّ في وصف اللَّيل بـ﴿مُظۡلِمًاۚ﴾ وهو حالٌ مِنَ اللَّيل، واللَّيل زمنُ الظُّلْمَة، يقول الحسنُ البصريُّ: "ما خلق الله خَلْقًا أشَدَّ سوادًا مِنَ اللَّيل"[1]؛ لإفادة تمكُّنِ الوصف منه كقولهم: ليلٌ أَلْيَلُ، وظِلٌّ ظليلٌ، وشِعْرٌ شاعِرٌ، فالمراد مِنَ اللَّيل: الشَّديدُ الإظلامِ باحتجاب نجومِه وتمكُّنِ ظُلْمتِه[2].

نُكْتَة إيثارِ وَصْف الظُّلْمة على السَّواد في: ﴿مُظۡلِمًاۚ﴾:

وَصْفُ اللَّيلِ بالظُّلْمَة دليلٌ على فَرْطِ سوادِ وجوه الكافرين وظُلْمتِها

آثر البيانُ الإلهيُّ في التَّعبير عن سواد وجوه الكافرين في الآخرة، وَصْفَ الظُّلْمَة على السَّواد في قوله تعالى: ﴿أُغۡشِيَتۡ وُجُوهُهُمۡ قِطَعًا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مُظۡلِمًاۚ﴾؛ إذِ "الآيةُ إخبارٌ عن سواد وجوهِهم في الدّار الآخِرة[3]؛ للدّلالة على "فَرْط سوادِها وظُلْمتها"[4]؛ إذ لو عَبَّر بالسَّواد لكان مجردَ تأكيدِ وجودِ سوادِ وجوهِهم؛ إذِ اللَّيل أسود، ولكن لـمّا عبَّر بالظُّلْمَة، وظُلْمَةُ اللَّيلِ هي نهايةٌ في سواده[5]؛ أفاد تمامَ السَّواد والظُّلْمَة، بما تتضَمَّنُه مِنَ العبوسة والدَّهْشَة والتَّحَيُّر والخوف والقَلَق[6].

بلاغة الفَصْل في جملة الفاصلة:

النَّتيجةُ الحتميَّةُ لـمَن أُغْشيت وجوهُهم السَّواد أن يكونوا أصحابَ النّار

فَصَلَ البيانُ الإلهيُّ جملةَ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ عن سابقتها: ﴿كَأَنَّمَآ أُغۡشِيَتۡ وُجُوهُهُمۡ قِطَعًا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مُظۡلِمًاۚ﴾، ولم يَرْبط بينهما بالعاطف؛ لأنَّ هذه الجملة هي نتيجةٌ للمُقدِّمة، فبينَها وبيْنَ التي قبلَها كمالُ الاتّصال، ولذلك فُصِلَت عنها ولم تُعْطَف[7].

---

(1) السِّيوطيُّ، الحاوي في الفتاوي، ص: 301.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/149.
(3) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/230.
(4) القاسميُّ، محاسن التَّأويل: 6/20.
(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/47.
(6) الطِّيبيُّ، فتوح الغيب: 7/475.
(7) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/147.

عِلَّة التَّعبير باسم الإشارة ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ في جملة الفاصلة:

استعمل البيانُ القرآنيُّ - وهو يشير إلى الذين كسبوا السَّيِّئاتِ - اسمَ الإشارة ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾، الذي يُشار به إلى الجمع المذكَّر البعيد، وهم الذين كسبوا السَّيِّئاتِ، بغرض تمييزِهم مِن أهل الحقّ بالإشارة المحسوسة، وتنزيلِ هذا الموقفِ غيرِ المشاهَدِ مِن أحداث يوم القيامة منزلةَ الأشياء المشاهَدَة، مع أهم غَرَض، وهو تحقيرُهم وتبعيدُهم، وبيانُ بُعْدِهم في الانحدار والانحطاط عن منزلة المُشِير، وهو اللّه سبحانَه، أي: أولئكَ "البُعداءُ البغضاء"[1].

الذين كسبوا الكُفْرَ والمعاصي هم جَمْعٌ منبوذون بُعداءُ بُغضاءُ

وفي الإشارة إلى الذين كسبوا السَّيِّئاتِ الموصوفين بما ذُكِرَ مِنَ الصِّفات الذَّميمَةِ؛ تنبيهٌ على أنَّهم استَحَقّوا الخلودَ في النّار لأجل كَسْبهم السَّيِّئات[2]، إذِ الإشارةُ إلى موصوف تُفيد أنّ الصِّفة سببُ الحُكم[3].

سِرُّ التَّعبير بـ ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ﴾:

استعمل البيانُ الإلهيُّ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ﴾ دون غيرها؛ للإشارة إلى خلودهم في العذاب، وملازمتِهم له؛ إذِ الصُّحْبَة تعني الملازمَةَ، قال ابن فارس: "الصّاد والحاء والباء أصلٌ واحد يدلُّ على مقارنة شيءٍ ومقاربته"[4]، والمعنى: أولئك أصحابُ النّارِ الذين يقيمون فيها إقامةَ المُلّاك في مُلْكِهم، يلازمونها ولا يخرجونَ منها[5].

الكفّارُ أصحابُ النّار، يقيمون فيها إقامةَ المُلّاكِ، لا يخرجون منها

فائدة ضمير الفصل: ﴿هُمۡ﴾:

أتى البيانُ القرآنيُّ بضمير الفصل ﴿هُمۡ﴾ في قوله: ﴿هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾؛ لإفادة تأكيد ثبوتِ اتِّصافِ المبتدأ، وهو: ﴿وَٱلَّذِينَ كَسَبُواْ

الذين كسبوا السَّيِّئاتِ خلودُهم مُؤكَّدٌ في النّار

(1) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 9/105.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/147.
(3) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 7/3553.
(4) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (صحب).
(5) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 7/3553.

ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ بالخبر ﴿خَٰلِدُونَ﴾، وتقويتِه، وأحقيَّتِه به، أي: تأكيدِ خلودِهم بضمير الفَصْل ﴿هُمْ﴾[1].

فائدة تقديم شبه الجملة ﴿فِيهَا﴾:

قدَّم القرآنُ الجارّ والمجرور ﴿فِيهَا﴾ على متعلقه: ﴿خَٰلِدُونَ﴾، في قوله: ﴿هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾؛ لإفادةِ الاختصاص، أي: هُم وَحْدَهم الخالدون فيها[2]، ولبيان قَصْرهم عليها لا يَدْخُلونَ غيرَها[3]، أي: هم وَحْدَهم دونَ غيرِهم خالدون في النّار لا في غيرِها، فلا يخرجونَ منها.

الذين كسبوا السَّيِّئاتِ لا غيرُهم، خالدون في النّار لا في غيرِها

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

كسبوا، وربحوا، ونالوا:

تحمل جميع هذه الألفاظ معنى تحصيلِ منفعة، إلّا أنَّ هناك بعض الفروق الدَّقيقة بينها، وتظهر مِن خلال الرُّجوع إلى الأصل اللُّغوي لهذه المفردات ومن خلال الاستعمال، وهي كالآتي:

(كَسَبوا): يدلُّ أصلُ (كسَبَ) على ابتغاءٍ وطَلبٍ وإصابةٍ[4]، والكَسْبُ وإن كان في الأَصل ما يتحرّاه الإنسان ممّا فيه اجتلابُ نفعٍ، وتحصيلُ حظٍّ؛ ككسب المال، فإنَّه قد يُستعمل فيما يَظُنُّ الإنسانُ أنَّه يجلب منفعةً، ثمَّ يَستَجلِب به مَضرَّة[5]، فالكَسْبُ: تحصيلُ الشَّيء على أيِّ وجهٍ كان. وقيل: الكَسْبُ ما فُعِلَ بجارحة[6].

الكسبُ تحصيلُ الشَّيء على أيِّ وجهٍ، والرِّبحُ ثمرةُ الجهد، والنَّوالُ عطاءٌ مِن آخر

و(ربحوا): أصلٌ واحد، يدلُّ على شفٍّ في مبايعة، ورَبِحَ فلانٌ في بيعه يربح: إذا استشفَّ[7]، والرِّبحُ: هو الزِّيادة الحاصلة في المبايعة،

(1) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 7/3556.
(2) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 7/3556.
(3) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 7/3553.
(4) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (كسب).
(5) الفيروزابادي، بصائر ذوي التَّمييز: 4/349.
(6) العسكريُّ، الفروق اللُّغويَّة، ص: 138.
(7) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (ربح).

ثمَّ يُتَجَوَّز به في كلِّ ما يعود مِن ثمرة عمل[1]، فالرِّبحُ لا يُسمَّى ربحًا إلّا إذا كان فيه منفعةٌ، وقد يَحصُل الرِّبحُ بغير الجهد الشَّخصيِّ، فربحوا: حصلوا على منفعة، كما أنَّ الرِّبح: ثمرةُ العمل والجهد؛ كالتِّجارة.

و(نالوا) أصلٌ صحيح يدلُّ على إعطاء، وناوَلْتُه: أعطيتُه، وتناوُلُ الشَّيءِ: أَخْذُه، والنَّوالُ: العطاءُ والمعروفُ تُصيبُه مِن إنسان، ونالَ الشَّيء: إذا حصل عليه[2]. ويكون مِن طرفٍ آخر، أي: شخص يعطي شخصًا آخر، ويكونُ بغير جهد.

ولـمّا كان الكَسْبُ يُستَعمل فيما يَظُنّ الإنسانُ أنَّه يجلب منفعة، ثمّ يَستَجلِب به مَضرَّةً، وكان تحصيلًا للشَّيء على أيّ وجه، كان اصطفاء اللَّفظ هاهنا أنسبَ لسياق الآية.

عاصم، وواقٍ، وحافظ، وحامٍ، وصائِن:

تتداخل معاني هذه الألفاظ وتتقارب في دلالاتها اللُّغويَّة، فجميعُها تحمل معنى الحفظِ والحماية، ويظهر هذا مِن خلال الرُّجوع إلى معناها في اللُّغة، إذ يُعَرَّف بعضُها ببعضٍ:

(عاصم): يدلُّ الفعلُ (عَصَمَ) على إمساكٍ ومَنْعٍ ومُلازمة، واعتصم العبدُ باللّه تعالى: إذا امتنع، وعَصَمَ الشَّيءَ: مَنَعَه ووقاهُ وحَفِظَه، كأنَّما أحاطه بطبقة تحفظُه، أو أمسكَهُ شديدًا، أي: حَفِظَه، واستعصم: التجأ[3].

و(واقٍ): تدلُّ لفظةُ (وقى) على دفع شيء عن شيء بغيره، وَوَقاهُ يقيه: صانَه وسَتَره عنِ الأذى، وحماهُ وحَفِظَه ودَفَعَ عنه، والوِقاية: حِفْظُ الشَّيء ممّا يُؤذيه ويَضُرُّه[4].

العصمةُ منعٌ وإمساكٌ شديد، والوقايةُ صيانةٌ وسترٌ، والحفظُ حراسةٌ وحياطةٌ قويَّة، والحمايةُ دفاعٌ ومنعٌ، والصَّونُ وقايةٌ ممّا يُفسِد

(1) الفيروزباديّ، بصائر ذوي التَّمييز: 3/31.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والزَّبيدي، تاج العروس: (نول).
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والزَّبيدي، تاج العروس، وجبل، المعجم الاشتقاقيُّ المؤصَّل: (عصم).
(4) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرّاغب، المفردات، والزَّبيدي، تاج العروس: (وقى).

و(حافظ): أصلٌ واحد يدلُّ على مُراعاة الشَّيء، فحفظتُ الشَّيءَ حِفْظًا؛ أي حَرَسْتُه، والمحافظة: المراقبة، وحِياطةٌ قويَّةٌ ضابطةٌ للشَّيء، فلا يضيع ولا يتفلَّت[1].

و(حامٍ): حماه يَحميه حمايةً: دفعَ عنه، ومَنَعَه[2].

و(صائِن): صانَ: كَنَّ وحَفِظَ، والصَّوْنُ: أن تقيَ الشَّيءَ ممّا يُفسِدُه، وأن تحفظَه[3].

ولـمّا كان لفظ (عاصم) دالًّا على: المنع والإمساك الشَّديدَين في الحِفْظ؛ ناسبَ سياقَ النفي أنْ يقومَ أحدٌ بهذه المهمَّة.

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، وابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقيُّ المؤصَّل: (حفظ).

(2) أبو بكر الرازيّ، مختار الصّحاح: (حمي)، والزَّبيدي، تاج العروس: (حمو).

(3) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللُّغة، والزَّبيدي، تاج العروس: (صون).

﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ ۚ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ ۖ وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [يونس: 28]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

محاجَّةُ أهلِ الشِّركِ مع معبوداتِهم، إثْرَ بيانِ مصيرِ المحسنين والمسيئين

لمّا ذُكِرَ في الآيتين السّابقتين ما يَختَصُّ به كلُّ فريقٍ - فريقِ المحسنين وفريقِ المسيئين - مِنَ الجزاء وسِماتِه، (الذين أحسنوا، والذين كسبوا السَّيِّئات)؛ جاءت هذه الآيةُ بإجمالِ حالةٍ جامعةٍ للفريقين، وهي الحَشْر، وتفصيلٍ يتعلَّق بالمشركين؛ تهديدًا وفضحًا وتقويَةً في النِّكاية لهم على سيِّئةٍ بلغوا بها الغايةَ في الإساءة؛ وهي الإشراك الذي هو أكبرُ الكبائر، وزيادةً في النِّعمة على المسلمين، بسلامتهم مِن تلك الحالة[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَزَيَّلْنَا﴾: أَصْلُ الزَّوْلِ يَدُلُّ على تَنَحِّي الشَّيءِ عَنْ مَكانِه، يُقالُ: أَزَلْتُهُ عَنِ المَكانِ وَزَوَّلْتُهُ عَنْهُ[2]، وزَيَّلَ: مُضاعَفُ زالَ المُتَعَدِّي، يُقالُ: زالَهُ عَنْ مَوْضِعِهِ يَزِيلُهُ بِمَعْنَى أَزالَهُ، فَجَعَلوهُ يائِيَّ العَيْنِ؛ لِلتَّفْرِقَةِ بَيْنَهُ وبَيْنَ زالَ القاصِرِ، الذي هو واوِيُّ العَيْنِ، فَزَيَّلَ فِعْلٌ للمُبالَغَةِ في الزَّيْلِ، مثلَ فَرَّقَ مُبالَغةً في فَرَقَ[3]، والتَّزايُلُ: التَّبايُن، تقول: زَيَّلْتُ بَينَهم، أي: فَرَّقتُ[4]، ورَجُلٌ مِزْيالٌ ومِزْيَلٌ: يُزِيلُ الشَّيْءَ عنِ الشَّيْءِ[5]، والمراد بالتَّزْيِيل هُنا مَجازِيٌّ، فَيَشملُ اختلافَ القَوْلِ.

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/149، 150.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (زول).
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/151.
(4) الخليل، العين، وابن عبّاد، المحيط في اللُّغة: (زيل).
(5) ابن عبّاد، المحيط في اللُّغة: (زيل).

❁ المَعْنى الإجْمالِيُّ:

تخاصمُ أهلِ النّار، وتبادلُهم الأعذارَ

يُخاطِبُ اللّه تعالى نبيَّه مُحمَّدًا ﷺ، قائلًا له: واذكرْ - يا مُحمَّدُ - يومَ نَجمَعُ الخَلقَ جميعًا لِموقفِ الحسابِ يومَ القيامةِ، ثمَّ نقولُ للذينَ أشرَكوا: الزَموا مَكانَكم أنتُم ومَن زَعَمتُم أنَّهم شُرَكاءُ للّه في العبادةِ، وفَرَّقْنا بينَ المُشرِكينَ وشُرَكائِهم، وقال لهم شُركاؤهم الذين كانوا يعبدونَهم مِن دونِ اللّه: ما كُنتم تَعبُدونَنا في الحقيقةِ، بل كُنتُم تعبدونَ أهواءَكم وشَياطينَكم الذين أمَروكم بعبادَتِنا[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

الآية بينَ الفَصْل، والوَصْل:

في العطفِ بيانُ إجمالٍ ثمَّ تفصيل، وفي الاستئنافِ بيانُ أحوالٍ أُخرى للمشركين

الواو في قوله تعالى: ﴿وَيَوۡمَ نَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا﴾ تحتمل وجهين؛ أحدهما: أن تكون عاطفةً، والمعطوف عليه هو قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَسَبُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ باعتبار كونها معطوفةً على جملة ﴿۞لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾؛ فإنَّه لمّا ذُكِر في الجملتين السّابقتين ما يختصُّ به كلُّ فريقٍ مِنَ الفريقين مِنَ الجزاء وسِماتِه، جاءت هذه الجملةُ بإجمال حالةٍ جامعةٍ للفريقين، ثمَّ بتفصيلِ حالةٍ يمتاز بها المشركون؛ ليحصلَ بذلك ذكرُ أمرٍ فظيعٍ مِن أحوال الذين بلغوا الغايةَ في كَسْب السَّيِّئاتِ، وهي سيِّئةُ الإشراكِ، الذي هو أكبر الكبائر، وبذلك حصلتِ المناسبةُ مع الجملة التي قبلَها، المقتضيَةُ عطفَها عليها[2].

الآخرُ: أن تكون الواو استئنافيَّةً، والكلامُ مستأنفٌ مَسوقٌ لبيانِ بعضٍ آخرَ مِن أحوالهم الفظيعةِ، وتأخيرُه في الذِّكر مع تقدُّمه في الوجود على بعض أحوالِهم المحكَّيةِ سابقًا؛ للإيذان باستقلال كلٍّ

(1) ابن جرير، جامع البيان: 12/170، والقرطبيُّ، الجامع لأحكام القرآن: 8/333، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/264، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/150، 151.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/149.

مِنَ السّابق واللّاحقِ بالاعتبار، ولو روعِيَ التَّرتيبُ الخارجيُّ لَعُدَّ الكُلُّ شيئًا واحدًا، ولذلك فُصِلَ عمّا قبلَه[1].

وجه الإبهام في: ﴿وَيَوْمَ﴾:

أبهم البيانُ القرآنيُّ لفظةَ ﴿وَيَوْمَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾؛ لإفادة التَّفخيم والتَّعظيم والتَّهويل، فهذا اليوم عصيبٌ شديدٌ لا يمكن لعقل أن يُدركَ كُنْهَهُ أو يتصورَهُ.

يومُ الحشر يومٌ عصيبٌ، وشِدَّتُه لا يُدرِكُ كُنْهها عقلٌ

وجهُ انتصاب اليوم، ودلالته:

يَحْتَمِل انتصابُ (يوم) في قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾ وجهين؛ الأوَّل: مفعول به لفعل محذوف تقديره: (اذكر)، أي: اذكر يومَ نحشرهم جميعًا، أو تقديره: (أنذرْهم أو ذكِّرْهُم)، أي: أنذرْهُم أو ذَكِّرْهُم يومَ نحشرهم جميعًا[2]. والآخر: ظرفُ زمانٍ لفعلٍ مُقَدَّرٍ، يدلُّ عليه قولُه: ﴿ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ﴾، أي: ونقول للذين أشركوا الزموا مكانَكم يومَ نحشرُ النّاس جميعًا[3]، وعلى هذا الوجه: يكون تَقَدُّم (يوم) في صدر الجملة؛ للتَّذكير به تهويلًا وموعظةً؛ لأنَّه زمنُ الحشر، وفيه أعمالٌ عظيمةٌ[4].

(يوم) بينَ المفعوليَّةِ والظَّرفيَّة هو تذكيرٌ به، تهويلًا وموعظةً

التَّعبير عنِ الحشر بالمضارع في: ﴿نَحْشُرُهُمْ﴾:

عبَّر البيانُ الإلهيُّ عنِ الحشر في قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾ بصيغة المضارع، للدّلالة على تصوير هذا المشهد العظيم، واستحضارِ صورةِ حالهم يومَ الحشر، بما تحمله هذه الكلمةُ مِن معنى الازدحام والتَّزاحم ومتاعبِهما.

الحشرُ مشهدٌ حيٌّ يصوِّر حالَ النّاس مزدحمين مُتزاحمين

توجيه الحاليَّة، والجمع المؤكَّد في: ﴿جَمِيعًا﴾:

﴿جَمِيعًا﴾ في قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾ حالٌ مِن (هاء)

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/139.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/139.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/150.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/150.

حالُ الكافرين في الحشر هو الفضيحة التّامّة العامّة، بمرأى ومَسْمعٍ مِنَ المؤمنين

الضَّمير البارز في ﴿نَحۡشُرُهُمۡ﴾، وهم الذين أحسنوا، والذين كسبوا السَّيِّئات، أي: نحشر الكُلَّ حالَ اجتماعِهم، وللحالِ والجَمعِ المؤكِّد في لفظ ﴿جَمِيعًا﴾ أغراضٌ:

الأوَّل: التَّنصيصُ على إرادةِ عمومِ هذا الضَّمير؛ لأنَّ الحشر يَعُمُّ النّاس كلَّهم.

الثّاني: التَّنبيه على أنَّ فظيعَ حال المشركين وافتضاحَهُم يكون بمرأى ومَسْمَعٍ مِنَ المؤمنين؛ إذ يجمعُ اللّه العابدِين والمعبودِين، ويواجِهُهُم؛ لتكونَ الفضيحةُ تامَّةً وعامَّةً، بينَ عابدٍ عبدَ باطلًا، ومعبودٍ لم يَطْلُب مِن عابده أنْ يَعْبُده، أو معبودٍ طلبَ مِن عابده أنْ يَعْبُده، وبذلك تكون السَّلامَةُ مِن تلك الحالة زيادةً في النِّعمة على المسلمين، وتقويةً في النِّكاية للمشركين[1].

الثّالث: تهويلُ يومِ الحشر؛ يقول أبو السُّعود: "الإخبار بحشر الكُلِّ في تهويل اليوم أَدْخَل"[2].

سِرُّ العطف بـ ﴿ثُمَّ﴾:

بينَ الحشرِ وخطاب التَّقريع أهوالٌ ماديةٌ ومعنويَّةٌ لا يعلم كُنهَها إلّا الله

﴿ثُمَّ﴾ في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ﴾ عاطفةٌ تدلُّ على التَّرتيب والتَّراخي الزَّمانيِّ والمعنويِّ؛ أمّا الزَّمانيُّ: فهو أنَّ ذلك القول بعد الحشر، وبعد أنِ ارتكبوا في الدُّنيا ما ارتكبوا، وطَغَوا وبغَوا وأفسدوا، وفيه إشارةٌ إلى أنَّ بينَ حَشْرِهم وبينَ ما يُقال لهم مواقفَ أُخرى، فيها مِنَ الأهوال ما فيها[3]، وأمّا المعنويُّ: فهو البُعْد بينَ حالِهم، وما كانوا فيه مِن إنكارٍ وطغيانٍ، وبين حالِهم وقد تبيَّن لهم ما أنكروه واقعًا، ونطقَ الذين عبَدوهم بالحقِّ وتبرَّؤوا منهم[4].

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/150.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/139.
(3) طنطاويّ، التَّفسير الوسيط: 7/61.
(4) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 7/3556.

إيثار لفظ القول مضارعًا دالًّا على الجمع:

آثر البيانُ الإلهيُّ استعمالَ لفظِ القول مضارعًا ﴿نَقُولُ﴾ في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُواْ﴾؛ لإفادةِ تصوير هذا الموقفِ العظيم، الذي أشارت إلى عظمته نونُ العَظَمة، أي: نونُ المتكلِّم الدّالَّة على الجَمع.

خطابٌ عظيمٌ يَصْدُرُ من عظيمٍ، في موقفٍ عظيم، ويتعلّق بجُرمٍ عظيم

سِرُّ تخصيص ﴿أَشْرَكُواْ﴾ بالاسم الموصول وإيراده جمعًا ﴿لِلَّذِينَ﴾:

عبَّر القرآنُ الكريم عنِ المشركين في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُواْ﴾ بالاسم الموصول (الذين)، ولم يقل سبحانَه: (للمشركين)؛ للإيماء إلى وجهِ استحقاقهم لهذا التَّهديد والوعيد والتَّوبيخ والتَّقريع والافتضاح، وهو ارتكابُهم لأكبر الكبائر؛ الشِّركِ باللّه.

ارتكابُهم لأكبرِ الكبائر الشِّركِ باللّه، هو وجهُ استحقاقِهم للتَّقريع والتَّوبيخ والإهانة

ولم يقل كذلك: (لهم)، على رأي مَن ذهب إلى أنَّ المضمَر في قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ﴾ هم المشركون فقط، لا العابدُ ولا المعبودُ، ولا النّاسُ جميعًا مِنَ المؤمنين والكافرين، وهو مِن بلاغة وضعِ المُظْهَر مَوْضعَ المُضْمَر؛ تسجيلًا على إشراكهم، وتصريحًا به، وأنَّه سبب ما يلاقونه في هذا الموقف العصيب[1].

لمّا كان الاسم الموصول دالًّا على العموم، شمل التَّعبير به كلَّ مَن ثبتَتْ له هذه الصِّلةُ (أشركوا)، ولو بأدنى شِرك، وليس بالضَّرورة أن يكون راسخًا فيه، والمعنى: نقول لكلِّ مَن أشرك منهم. وفي إيراد الاسم الموصول جمعًا ﴿لِلَّذِينَ﴾ إشارةٌ إلى أنَّهم فريقٌ اجتمعوا على الشِّرك، واتَّفقوا عليه، وزيَّنَه بعضُهم لبعض.

يشمل الخطابُ بالموصول كلَّ مَن ثبت له أدنى شِرك

وجهُ التَّعبير عنِ المشركين بالماضي:

عبَّر البيانُ الإلهيُّ عنِ المشركين في قوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ أَشْرَكُواْ﴾ بصيغة الفعل الماضي؛ لأنَّه فعلٌ قد تحقَّق وقوعُه منهم، ولم يَعُدْ هناك مجالٌ للتَّوبة والرُّجوع عنِ الشِّرك في يوم الحساب والجزاء،

شِركُهم أمرٌ تحقَّقَ وقوعُه منهم في دارِ التَّكليف، عاشوا عليه وماتوا عليه

(1) القونويّ وابن التَّمجيد، حاشية على تفسير البيضاويِّ: 9/446.

فالجميع يُؤمنُ في ذلك اليوم، ولكن لا ينفعُ نفسًا إيمانُها إن لم تكن آمنت مِن قبل.

عِلَّة تخصيصِ وَصْفِ إشراكهم بالذِّكْر في حَيِّز الصِّلةِ في: ﴿لِلَّذِينَ أَشْرَكُواْ﴾:

خصَّصَ البيانُ الإلهيُّ وصفَ إشراكهم بالذِّكْر في حيز الصِّلةِ مِن بين سائر ما اكتسبوه مِنَ السَّيِّئات، في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُواْ﴾؛ لابتناء التَّوبيخِ والتَّقريعِ عليه، مع ما فيه مِنَ الإيذان بكون الإشراك مُعْظَمَ جناياتِهم، وأكبرَها وعُمدَةَ سيِّئاتِهم، وأنَّ شِرْكَهم بالله ﷻ هو الذي أدَّى بهم إلى هذا المصير المُؤْلِم[1].

الشِّركُ أكبرُ الجناياتِ وأساسُ كلِّ شَرٍّ، والعبادةُ المشوبَةُ بالشِّرك لا اعتدادَ بها

وجهُ التَّعبير بـ: ﴿مَكَانَكُمْ﴾، وإضافتِه:

عبَّر البيانُ الإلهيُّ بلفظ ﴿مَكَانَكُمْ﴾ تهديدًا للمشركين؛ إذ إنَّها كلمةٌ مختصَّة بالتَّهديد والوعيد، فلا تُقال للتَّحيَّة، بل تُقال تهديدًا ووعيدًا، بانتظار نتيجة موقفٍ لن يكونَ في صالح مَن تُقال له[2].

كلمةُ تهديدٍ ووعيدٍ، وانتظارِ نتيجةٍ مخيفةٍ، لشِدَّتها يطول الزَّمن عن النُّطق بفعلها

والمراد أنَّه تعالى يقول للعابدين والمعبودِين[3]: (الزموا مكانَكُم حتَّى تُسألوا)، ونظيرُه قولُه تعالى: ﴿۞ٱحۡشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزۡوَٰجَهُمۡ وَمَا كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ٢٢ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهۡدُوهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡجَحِيمِ ٢٣ وَقِفُوهُمۡۖ إِنَّهُم مَّسۡـُٔولُونَ ٢٤﴾ [الصافات: 22 - 24][4]، واستعمالُ هذا اللَّفظ (مكانَكَ) شائعٌ في كلام العرب في الأمر بالملازمة، معَ التزام حذفِ العامل فيه، حتَّى صار بمنزلة أسماء الأفعال الموضوعة للأمر، نحو: صَهٍ، وأمرُهم بملازمة المكانِ حَبْسٌ، وإذ قد جُمِعَ فيه المخاطَبون وشركاؤهم، عُلِمَ أنَّ ذلك الحَبْسَ لأجل جريمة مشتركَة

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/139، وطنطاويّ، التَّفسير الوسيط: 7/61.

(2) الشّعراوي، تفسير الشّعراوي: 10/5884.

(3) يصدر مِنَ الله على لسان ملك لا مباشرة، يُنظر: حاشية الصّاويّ على الجلالين، ص: 794، أو أنَّ يوم القيامة مواقف ومواطن، ففي موقف لا يكلمهم، وفي موقف يكلمهم، أو أنَّ المراد أنَّه لا يكلمهم كلام إكرام، بل كلامَ توبيخ وتقريع. ينظر: أبو بكر الرازيّ، أنموذج جليل في أسئلة وأجوبة عن غرائب آي التنزيل، ص: 186.

(4) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 17/244.

بينَ الفريقين، وهي كونُ أحدِ الفريقين عابدًا والآخَرُ معبودًا، وهذا على القول: إنَّ المراد بشركائهم هم الأصنام[1].

ولشدَّة ما تحملُه هذه الكلمةُ مِن تهديدٍ ووعيد، حُذِفَ فِعْلُها؛ لأنَّ الزَّمانَ يطول بالنُّطْق به.

إيثارُ لفظِ المكان في: ﴿مَكَانَكُمْ﴾:

تهديدُ الكافرين بأنْ يلزموا موضعَهم الذي هم فيه، وينتظروا ما يُفعَل بهم

أتى البيانُ القرآنيُّ بلفظ (مكان) في قوله: ﴿مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ﴾، ولم يقل مثلًا: (محلَّكُم)؛ لأنَّ لفظ المكان يناسب السِّياقَ هنا، ويدلُّ على المعنى المراد، إذ معنى المكان في اللُّغة: مِن مَكَن، وفيه معنى الرُّسوخِ والثَّباتِ[2]، والمكان: الموضع، والمكان: المنزلة والمكانة[3]، وهذا يناسب المعنى هنا، إذِ المعنى: اثبُتوا مكانَكُم، والزَموا موضعَكُم، لا تبرحوا حتَّى تنظروا ما يُفعَل بكم، والعربُ تقول: قُم مكانَكَ، وتتوعَّدُ بقول: مكانَكَ وانتَظِر[4]، أمّا المَحَلُّ: فهو المكان الذي تحُلُّه وتنزلُ به، وهو نقيضُ الارتحال، وحُلَّ المكان: سُكِنَ[5]، والمقام هنا ليس مقامَ سَكَنٍ أو حُلولٍ بالمكان، بل هو مقامٌ مؤقَّتٌ، إذ هو موقفٌ مِن مواقف الحشر، وبعدَهُ إلى الجنَّة أو إلى النّار، فلا يناسبُه لفظُ (محلَّكُم) الدّالُّ على الحُلول والإقامة بالمكان.

نُكْتَةُ الفَصْل بينَ المتعاطِفَين بالضَّمير ﴿أَنتُمْ﴾:

(أنتُم) تأكيدٌ يَحمِلُ في طيّاتِه التَّهديدَ بالمواجهة للمشركين، والأمرَ باللُّبث للمعبودِين

ذهب جمهورُ المفسِّرين إلى أنّ ﴿أَنتُمْ﴾ في قوله: ﴿مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ﴾ ضميرُ فصلٍ غرضُه تأكيدُ الضَّمير المستَكِنِّ في ﴿مَكَانَكُمْ﴾، وهو المسوِّغُ للعطف عليه، وفيه مِنَ التَّهديدِ بالتَّصدِّي لهم ومواجهتِهم ما فيه، ﴿وَشُرَكَآؤُكُمْ﴾ عطفٌ على

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/150.
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيُّ المؤصَّل: (مكن).
(3) الزّبيديُّ، تاج العروس، والمعجم الوسيط: (كون)، (مكن).
(4) مكّي بن أبي طالب، الهداية إلى بلوغ النّهاية: 5/3258.
(5) ابن منظور، لسان العرب، والفيروزباديّ، القاموس المحيط: (حلل).

ذلك الضَّمير المستَكِن، "وبهذا العطفِ صار الشُّركاءُ مأمورين باللُّبث في المكان"[1].

ويرى ابن عطيَّة: ﴿أَنتُمْ﴾ رُفِعَ بالابتداء، والخبر مخزيّون أو مُهانون ونحوه، فيكون: ﴿مَكَانَكُمْ﴾ قد تمّ، ثمَّ أَخْبَر أنَّهم كذا[2]. وضَعَّفَه أبو حيّان؛ لِفَكِّ الكلامِ الظّاهرِ اتصالَ بعض أجزائه ببعض، ولتقدير إضمارٍ لا ضرورةَ تدعو إليه، ولقوله: ﴿فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ﴾؛ إذ يدلُّ على أنَّهم ثَبتوا هم وشركاؤهم في مكان واحد حتَّى وقع التَّزْييلُ بينهم، وهو التَّفريق. ولقراءة مَن قرأ: (أنتم وشركاءَكُم) بالنَّصب على أنَّه مفعول معه، والعاملُ فيه اسمُ الفعل، ولو كان (أنتم) مبتدأً وقد حُذِف خبرُه، لما جاز أن يأتيَ بعدَه مفعولٌ معه[3].

وجه عطفِ الشُّركاء على المشركين:

عطفَ البيانُ القرآنيُّ الشُّركاء على المشركين في قوله: ﴿مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ﴾، الذي أفاد الجمعَ بينَ الشُّركاء والمشركين، في الأمر لهم بالانتظار حتَّى يُنظَر ما يُفعل بهم، وفي هذا الجمع إظهارٌ لضعفِ معبوداتهم وعجزها عنِ الإجابة، وقد كانوا يترجَّونها ويعبدونها مُتأمِّلين شفاعتَها لهم[4]، إذ لا يمكنها مخالفةُ الأمر حينَها، وفي هذا مِنَ الحسرة للمشركين ما فيه.

الجمعُ بينَ المشركين والشُّركاء في الأمر، إظهارٌ لضعف المعبودِين، وحَسْرةٌ لعابديهم

سِرُّ إضافة الشُّركاء إلى ضمير المخاطَبين:

أضافَ البيانُ الإلهيُّ الشُّركاء إلى ضمير المخاطَبين في قوله تعالى: ﴿وَشُرَكَآؤُكُمْ﴾ تهكُّمًا بهم، لاعتقاد المخاطَبين ذلك، والمعنى: الزموا مكانَكُم أنتُم والذين زعمتُم أنَّهم شركاء[5]، وللإشارة إلى أنَّ

في الإضافة تهكُّمٌ بالمشركين وبيانٌ لافترائهم

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/150.
(2) ابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 3/117.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/50.
(4) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 9/107.
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/151.

من عبدوهم لم يكونوا في يومٍ مِن الأيام شركاءَ للّه، وإنَّما المشركون هم الذين وصفوهم بذلك افتراءً وكذبًا[1].

معنى الفاء في: ﴿فَزَيَّلْنَا﴾:

الفاء في قوله تعالى: ﴿فَزَيَّلْنَا﴾ عاطفةٌ، ومعناها: التَّعقيبُ الذي يقتضي التَّرتيبَ الزَّمنيَّ في حصول معطوفِها إثْرَ المعطوفِ عليه، أي: تدلُّ على وقوع التَّزييلِ ومباديه عَقيبَ الخطابِ مِن غير مُهلةٍ؛ إيذانًا بكمال رخاوةِ ما بينَ الفريقين مِنَ العلاقة والوُصلةِ، أي: فَفَرَّقْنا بَيْنَهُم وقَطَّعنا أقرانَهم والوُصَلَ التي كانت بينَهم في الدُّنيا، لكن لا مِنَ الجانبين، بل مِن جانب العَبَدةِ فقط؛ لعدم احتمالِ شمولِ الشُّركاءِ للشَّياطين في الآية، فخابت آمالُهم، وانصرمَتْ عُرَى أطماعِهم، وحصل لهم اليأْسُ الكُليُّ مِن حصول ما كانوا يَرجونه مِن جهتهم، وخاصَّةً بعد ما حصل لهم مِنَ اليقين بالمشاهدة والمشافهة[2].

التَّعقيبُ يُفيدُ كمالَ وَهْنِ العلاقةِ والوُصْلَةِ بينَ المشركين ومَن حسبوهم شفعاءَ لهم

إيثارُ لفظِ: (زيّلنا):

أتى البيانُ الإلهيُّ بفعل (زيَّل) في قوله: ﴿فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ﴾، ولم يقلْ مثلًا: (باعدنا بينهم) أو (فرقنا بينَهم)؛ لأنَّ فعل زيَّل أنسبُ للسِّياق، وإيصالِ المعنى المراد ووصفِ حالهم؛ إذ إنَّ لفظ (زيَّل) يحملُ معانيَ إضافيَّةً على معاني الألفاظ الأُخرى، ففيه معنى التَّباينِ والتَّفريقِ والتَّمييزِ والتَّقطيع، وتباعدِ ما هو متَّصلٌ بالأصل، فدلَّ لفظُ التَّزييل على وقوع التَّفريق بينَ الفريقين، وتقطيعِ صِلةِ الوصلِ التي كانت بينَهم، فتباعدوا، وتباينوا، وتمايزَ كلُّ فريقٍ مِنَ الآخر.

التَّزييلُ بينَ المشركين وشركائهم تباينٌ وتفريقٌ وتمييزٌ بينَهم، وتقطيعُ صِلةِ الوَصل بينَهم

(1) طنطاويٌّ، التَّفسير الوسيط: 7/61.

(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/140، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/151، وطنطاويّ، التَّفسير الوسيط: 7/61.

سِرُّ التَّعبير بالماضي:

ما حَكَمَ الله أنَّه سيكون هو كالكائنِ الرّاهنِ؛ فَتَفرُّقُهم أمرٌ مُحقَّقُ الوقوعِ

أتى البيانُ الإلهيُّ بالفعل الماضِي في قوله تعالى: ﴿فَزَيَّلْنَا﴾ بعد قوله: ﴿ثُمَّ نَقُولُ﴾، مع أنَّ المعنى: (فنزيِّلُ بينَهم)؛ لأنَّه معطوف على مستقبل؛ فالتَّزييلُ مُنتَظَرٌ لمّا يأتِ؛ إذ رَتَّبه زمنيًّا على إلزامهم اللُّبثَ في مكانهم، ولكنَّ البيانَ القرآنيَّ آثرَ التَّعبيرَ بالماضي للدّلالة على تحقُّقِ وقوعِ التَّفريق بينَ المشركين وما يعبدون من دون اللّه، لكون ما حَكَم اللّه فيه بأنّ سيكون هو كالكائن الرّاهن الآن، ونظيرُه قولُه تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ﴾ [النَّحل: 1]، وفيه - كذلك - زيادةُ توبيخٍ وتحسيرٍ[1].

ومثلُه في هذا تعبيرُه بالماضي في قوله: ﴿وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم﴾، إذ هو معطوفٌ كذلك على مستقبل[2].

عِلَّةُ التَّضعيف في الفعل (زَيَّلْنا):

الكافرون مُتعلِّقون بأصنامهم وبأوهامهم فيها

مع أنَّ الفعل (زيَّل) مضاعف (زال) المتعدِّي، من قولهم: زِلْتُ الشَّيء أُزيلُه، إذا فَرَّقتُ بينَه وبينَ غيرِه وأبَنْتُه منه، إلّا أنَّ البيانَ الإلهيَّ عبَّر بفعل التَّزييل مُضعَّفًا، فقال سبحانه: ﴿فَزَيَّلْنَا﴾، ولم يقل: (فَزِلْنا بينَهم)؛ وعِلَّة هذا التَّضعيف تكثيرُ الفعل، وهو التَّفريق، وتكريرُه لا التَّعدِيَة[3]، "فَزَيَّل فعلٌ للمبالغة في الزَّيْلِ، مثلَ فَرَّقَ مبالَغةً في فَرَقَ، والمعنى: وقع بينَهم تفريقٌ قويٌّ بحيث انقطعتْ جميعُ الوُصَلِ التي كانت بينَهم"[4]، فَوَصْفُ التَفريق بالقويِّ الكثيرِ المتكرِّر إشارةٌ إلى شِدَّة تعلُّقِهم بأصنامهم وبأوهامهم في هذا الموقف بما يزيدُهم حَسْرةً.

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 17/244، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/139، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/151.

(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/51.

(3) ابن جرير، جامع البيان: 15/78، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/139.

(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/151.

دلالاتُ ﴿بَيۡنَهُمۡۖ﴾:

دلالةُ (بينَهم) بينَ التَّفريقِ الحِسِّيِّ والتَّفريقِ المعنويِّ

اختلف المفسِّرونَ في دلالات ﴿بَيۡنَهُمۡۖ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَزَيَّلۡنَا بَيۡنَهُمۡۖ﴾ على ثلاثة آراء:

الأوَّل: فَرقَّنا بينَهم وبينَ المؤمنين، ذكَرَهُ السّيوطيُّ في تفسير الجلالين، وقد ضَعَّفه الصّاويُّ في حاشيته على الجلالين فقال: "وهو بعيدٌ مِن سابق الكلام ولاحِقِه"[1]؛ إذ هو في ذِكْرِ مُحاجَّةِ أهلِ الشِّركِ مع معبوداتهم.

الثّاني: ميَّزنا بينَهم وبينَ معبوداتهم، وقَطعنا ما كان بينَهم مِنَ التَّواصل في الدُّنيا، وهذا الرَّأيُ هو الأقرب؛ لأنَّ الكلام فيه[2]، وهذا ما رجَّحَهُ ابنُ عاشور بقوله: "والتَّزييل هنا مجازيٌّ، فيشمَلُ اختلافَ القول"[3].

الثّالث: باعدنا بينَهم بعد الجمعِ في الموقفِ وتبرُّؤ شركائِهم منهم ومِن عبادَتهم، أي: المرادُ بالتَّزييل التَّفريقُ الحِسيُّ، كما في قوله تعالى: ﴿أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ تُشۡرِكُونَ ٧٣ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا﴾ [الزمر: 73 - 74]، والواو في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم﴾ على هذا التَّفسير حاليةٌ لا عاطفةٌ، كما في التَّفسير الأوَّل والثّاني، لاستدعاء المحاوَرةِ المحاضرةَ الفائتةَ بالمباعَدة[4].

فائدة الالتفات مِنَ الخطاب إلى الغيبة:

التّهديدُ بالمواجهةِ أَشَدُّ مِنَ الغَيبة، ومقامُ الغَيبة والتَّبعيدِ لائِقٌ بالمشركين

التفتَ البيانُ الإلهيُّ مِنَ الخطاب بقوله: ﴿مَكَانَكُمۡ أَنتُمۡ وَشُرَكَآؤُكُمۡۚ﴾، إلى الغَيبة بقوله: ﴿فَزَيَّلۡنَا بَيۡنَهُمۡۖ﴾، والأصل: (فزيلنا بينَكم)[5]، لما في الخطاب - بداية مخاطبة المشركين - مِنَ التَّنبيه

(1) الصّاوي، حاشيته على تفسير الجلالين، ص: 794.
(2) الصّاوي، حاشيته على تفسير الجلالين، ص: 794.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/151.
(4) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/140.
(5) السّامرائيُّ، لمسات بيانيَّة لسور القرآن الكريم: 5/348.

الشَّديد لهم، والتَّهديد بالمواجهة والتَّصَدِّي لبيان شِرْكهم؛ إذِ التَّهديدُ بالمواجهة أَشَدُّ مِنَ التَّهديد بالغَيبة، والإيماءُ بأنَّ حالهم لا يَغيبُ عنه سبحانَه، ثمَّ إنَّه التفتَ عنهم بعدَ هذه المواجهة إشارةً إلى مَقْتِه لهم وتبعيدِه إيّاهم؛ إذ إنَّ مقامَ الغَيبة الذي هو مقام المَقْتِ والتَّبعيدِ والطَّرد، لائقٌ بمن كانت صفتُه الإشراكَ باللّه.

نُكْتَة الإضافةِ: ﴿شُرَكَآؤُهُم﴾:

أضاف البيانُ الإلهيُّ الشُّركاءَ إليهم في قوله: ﴿وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم﴾، أي: سمّاهم شركاءَهم؛ لوجوه: الأوَّل: أنَّه يكفي في الإضافة أدنى تعلُّقٍ، فلمّا كان الكفّار هم الذين أثبتوا هذه الشِّركةَ وانتحلوها لهم فعلًا - وإن لم يقولوها قولًا - حَسُنَتْ إضافةُ الشُّركاء إليهم[1].

الثّاني: أنَّهم جعلوا نصيبًا مِن أموالهم لتلك الأصنام، فَصَيَّروها شركاءَ لأنفسهم في تلك الأموال.

الثّالث: أنَّه تعالى لمّا خاطب العابدِينَ والمعبودِينَ بقوله: ﴿مَكَانَكُمْ﴾ صاروا شركاءَ في هذا الخطاب[2].

وفي إضافة الشُّركاء إليهم تهكُّمٌ وتحسيرٌ؛ إذ إنَّ هؤلاء الذين اتَّخذوهم شركاءَ شفعاءَ يعبدونهم مِن دون اللّه، هؤلاءِ الشُّركاء هم ضِعافٌ، يطلبون البراءةَ مِن إثم أتباعِهم، ويجعلونَ اللّه وَحْدَه شهيدًا، ويطلبون النَّجاةَ مِن إثمٍ لم يُشارِكوا فيه!.

تهكمٌ وتحسيرٌ، فالشُّركاءُ الشُّفعاءُ ضِعافٌ، يطلبون البراءةَ والنَّجاةَ مِن إثمِ أتباعهم

دلالة النَّفي بـ ﴿مَّا﴾:

النَّفيُ بـ ﴿مَّا﴾ في قوله تعالى: ﴿مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ﴾ نفيٌ مؤكّدٌ قاطعٌ، وذلك لوجوهٍ؛ الأول: لأنَّه نفيٌ في الماضي والمستقبل، إذ إنَّ (ما) تُستخدم لنفي كلٍّ مِنَ الفعل الماضي والمضارع على حَدٍّ سواء، بخلاف (لا)، فإنَّها تختصُّ بنفي الفعل الماضي، كقوله تعالى: ﴿فَلَا

نفيُ المعبودين عِلْمَهم باتِّخاذهم شركاءَ لله، نفيٌ مُؤكّدٌ قاطعٌ في الماضي والحاضر

(1) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 7/3557.

(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 17/244.

﴿صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ﴾ [القيامة: 31]، أي: (لا عبدتمونا)، وبخلاف (لم، لمّا) فإنَّهما يختصّان بنفي الفعل المضارع، كقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمْ﴾ [آل عمران: 142]، وقولِه: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ﴾ [البقرة: 24]، أي: (لم تعبدونا، ولمّا تعبدونا). الثاني: لِقوَّة النَّفي بها؛ فإنَّها تقع جوابًا للقَسَم، تقول: (واللّه ما هو بمنطلقٍ)، والقَسَمُ وجوابُه يُفيدان التَّوكيد. الثالث: لأنَّ (ما) كثيرًا ما تكون ردًّا على كلام، أو ما نزل هذه المنزلة، وقد جاءت في هذه الآية تبرُّؤًا مِنَ الكافرين وادِّعائِهم أنَّهم رَضوا بعبادتهم، أو أمروهم بها.

والمعنى بناءً على ما سبق مِنَ النَّفي بـ(ما): أنَّ ما كانوا يُسَمّونَه عبادةً، ليس عبادةً مطلقًا، وأنَّ مَن خَصّوهم بالعبادةِ يُنكرونها، فليسوا أهلًا لأيَّةِ عبادةٍ، وقد قالوا لهم نافين نفيًا باتًّا: ﴿مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ﴾، فما عبدتمونا، ولكن عبدتُم أوهامَكم، وما حسبتُموهُم آلهةً، بإيعاز الشَّيطان[1].

إيثارُ فعلِ الكَون ماضيًا مجموعًا:

آثرَ البيانُ الإلهيُّ استعمالَ فعل الكَون ماضيًا في قوله تعالى: ﴿مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ﴾ على لسان الشُّركاء؛ للدّلالة على تأكيد نفي وقوعِ عبادتِكم إيّانا، وتحُقّقها بعِلْمنا وأَمرنا، وإن كان هذا الشِّركُ وهذه العبادة قد وقعا مِنَ المشركين بالفعل.

اجتمعوا في الدُّنيا على الشِّركِ والإضلالِ، فجمعَهُم الله في الآخرة على الإذلال

والجمع بينَ الماضي في ﴿كُنتُمْ﴾، والمستقبل في ﴿تَعْبُدُونَ﴾، والتَّعبير بالجملة الاسميَّة التي تُفيد الثُّبوت والدَّوام، دَلَّ على استمرار الفعل منهم، وأنَّهم كانوا ثابتين على الكفر.

وأتى بفعل الكَون مجموعًا؛ للإشارة إلى أنَّهم كانوا مجتمعين على الشِّرك، يَحثُّ بعضُهم بعضًا، ويُضِلُّ بعضُهم بعضًا، بالتَّرهيب

(1) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 7/3557.

وبالتَّرغيب، وللتَّناسب معَ ألفاظ الآية التي جاءت كلُّها بصيغة الجمع: ﴿نَحۡشُرُهُمۡ﴾، ﴿جَمِيعٗا﴾، ﴿لِلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ﴾، ﴿مَكَانَكُمۡ﴾، ﴿أَنتُمۡ﴾ ﴿وَشُرَكَآؤُكُمۡۚ﴾ التي تُشير إلى أنَّهم كما اجتمعوا في الدُّنيا على الشِّرك والإضلال، فإنَّ اللّٰه يجمعُهم في الآخرة على المهانة والإذلال، فالمرءُ يُحْشَر مع مَن أحبَّ، وتشير أيضًا إلى أثر الصُّحْبة الفاسدة الضّالَّة في الفرد والمجتمع.

بلاغة المجاز في الآية:

عبادةُ المشركين كانت في الحقيقة لأهوائهم الآمرةِ بالإشراك، وبإيعازٍ مِنَ الشَّيطان

في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمۡ إِيَّانَا تَعۡبُدُونَ﴾ مجازٌ عن براءة المعبودين مِن عبادة الكُفّار، فإنَّهم إنَّما عَبَدوا في الحقيقة أهواءَهم الآمِرةَ بالإشراك[1]، وبيانُ ذلك: أنَّ كلامَ الأصنام يُفيد نفيَ أن يكونوا عَبَدوهم، بل عَبَدوا غيرَهم، وهذا لا يمكن حَملُه على الحقيقة؛ لأنَّ الواقع أنَّهم عَبَدوهم وعَبَدوا غيرَهم، فكيف أتى نفيُ عبادتِهم إيّاهم في كلام أصنامهم؟ وهو كلامٌ خَلَقَه اللّٰه فيهم، فكيف يكون كذبًا؟

والجواب: أنَّ قولَهم هذا مجازٌ؛ أي: أن يكون آخِر كلام الأصنام - وهو: ﴿إِن كُنَّا عَنۡ عِبَادَتِكُمۡ لَغَٰفِلِينَ﴾ - مبيِّنًا لِما أَجْمَلَه أَوَّلُه، بأنَّهم نَفَوا أن يكونوا عَبَدوهم عبادةً كاملةً، وهي العبادة التي يَقْصِد منها العابدُ امتثالَ أمرِ المعبود وإرضاءَه، فتقتضي أن يكون المعبودُ عالمًا وآمِرًا بتلك العبادة، ولمّا كانتِ الأصنام غيرَ عالمين ولا آمِرين، استقام نفيُهم أن يكون عَبَدَتُهم قد عَبَدوهم تلك العبادةَ، وإنَّما عَبَدوا غيرَهم، ممَّن أَمَروهم بالعبادة، وهم الشَّياطين[2].

دلالةُ نفي القَصْر هي نفيُ الشُّركاءِ المعبوديَّةَ عن أنفسهم

بلاغة نفي القَصْر بنفي ضمير النَّصب المُتَقدِّم:

القَصرُ مفهومٌ من قوله: ﴿مَّا كُنتُمۡ إِيَّانَا تَعۡبُدُونَ﴾، بتقديم

(1) الزُّحيليُّ، التَّفسير المنير: 11/158.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/151 - 152.

المفعول ﴿إِيَّانَا﴾ على فعله ﴿تَعْبُدُونَ﴾، وظاهرُه: أنَّه قصرُ قَلْبٍ، ومِنْ ثَمَّ: فإنَّ البيانَ الإلهيَّ نفى القَصْرَ في الآية، والمعنى: نَفْيُ المعبوديَّة عن أنفسهم، وإثباتُها لغيرهم، أي ليس نفيًا لأصل العبادة، فإنَّهم يُثْبِتونها في قولهم: ﴿إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَٰفِلِينَ﴾، فإنَّ إضافة المصدر إلى معموله يُفيد الثُّبوتَ.

وجه التَّعبير عن عبادتهم بالمضارع المجموع:

عبَّر القرآنُ عن عبادتهم بالمضارع بصيغة الجمع في قوله تعالى: ﴿مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ﴾ ليَسْتَحْضِرَ المشركون الحالَ التي كانوا عليها مِن عبادة الأصنام، ويُثيرَ في المخيلة صورةً لأفعالهم الشِّركيَّةِ المستمِرَّة والمتجَدِّدَةِ، بما يُظْهِرُ لهم سوءَ فِعْلِهم وقُبْحَ جريمتهم.

استحضارُ أفعال الكافرين الشِّركيَّةِ المستمِرَّةِ المتجدِّدَةِ يُظْهِرُ قُبْحَ جريمتهم

واستحضارُ الحال، أو ما يُعْرَف بحكاية الحال الماضيَة، إنَّما يكون في الأمر العظيم، وأيُّ أمرٍ أعظمُ مِنَ الإشراك باللّٰه وعبادةِ غَيْرِه سبحانَه.

وجاءتْ صيغةُ المضارع التي تُفيدُ الاستمرار والتَّجَدُّدَ؛ للإشارة إلى أنَّ شِركَهم وعبادَتَهم لهذه الأصنام كان أمرًا مُلازِمًا لهم، ومستَمِرًّا منهم، وجاءت صيغةُ الجمعِ مناسبةً لحالهم، فقد اجتمعوا وأجمعوا على الشِّرك، وعبادةِ الأصنام، ودَعَوا إليها، وحاربوا الحقَّ في سبيلها.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

التَّزييل، والتَّبعيد، والتَّفريق، والتَّمييز:

(التَّزييل): التَّباين، والتَّفريق، والتباعدُ بينَ ما هو متَّصِل في الأصل بعضُه عن بعض، والتَّمييزُ، والانصرافُ مِن حالٍ إلى حال[1].

التَّزييلُ تباينُ ما هو مُتَّصِل وتباعدُهُ، والتَّبعيدُ تفريقٌ، والتَّفريقُ فَصْلٌ واصلٌ إلى العمق، والتَّمييز عَزْلٌ وفَرْزٌ

و(التَّبعيد): البُعْد بالضَّمِّ: خِلاف القُرْبِ، وهو المجانبةُ والمجافاة،

(1) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللُّغة، والزَّبيدي، تاج العروس، وجبل، المعجم الاشتقاقيُّ المؤصَّل: (فرق).

ومفارقةُ جِرم الشَّيء آخَر معيَّنًا بمسافة ممتدَّة تحجِزُه عن مُلاقاته، وباعد بينَ الشَّيئين: فرَّق بينَهما[1].

و(التَّفريق): يدلُّ على تمييز وتزييل بين شيئين، والفَرْقُ: فَصْلُ بعضِ الشَّيء، أو أشياءَ بعضِها من بعضها الآخَر فصلًا واصلًا إلى العُمق، وجعلُ الشَّيء مفارقًا لغيره، حتَّى يتباينا مادِّيًا أو معنويًّا[2].

و(التَّمييز): تزيُّلُ شيءٍ مِن شيء، ومازَ الشَّيء: عَزلَهُ، وفَرَزَه، ونَحّاهُ، وفَصَلَ بعضَه عن بعض، وامتازَ وتمايزَ القومُ: تَنَحَّى بعضُهم عن بعضٍ وتفرَّقوا[3].

ممّا سبق: يتَّضِحُ أنَّ (التَّزييل) يحمل معنى التَّباينِ، والتَّفريق، والتَّمييز، والتَّقطيع، وتباعدِ ما هو مُتَّصِلٌ بالأصل، في حين يحمِل (التَّبعيد) معنى المجافاةِ والمفارقة، أمّا (التَّفريق) فيحمِل معنى التَّمييز والتَّذييل، والفَصْلِ الواصلِ إلى العمق، و(التَّمييز) يحمل معنى التَّزييل، والعَزل، والفَرْز، والفَصْل، والتَّنحيَةِ والتَّفريق.

ومن هنا: فخصوصُ معنى التَّزييل بما يَتَضَمَّنُه من دلالةٍ على التَّفريق، والتَّمييز، والتَّقطيع، وتباعدِ ما هو مُتَّصِل بالأصل، هو عِلَّة اصطفائِه في سياق الآية؛ وذلك لكون الاتِّصال بينَهم وبينَ ما يعبدون مِن دون الله شديدٌ، حتَّى وُصِفوا بالشُّركاء.

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والزَّبيدي، تاج العروس، والمعجم الوسيط، وجبل، المعجم الاشتقاقيُّ المؤصَّل: (بعد).
(2) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللُّغة، والزَّبيدي، تاج العروس، وجبل، المعجم الاشتقاقيُّ المؤصَّل: (فرق).
(3) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللُّغة، والزَّبيدي، تاج العروس، والمعجم الوسيط، وجبل، المعجم الاشتقاقيُّ المؤصَّل: (ميز).

﴿فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ إِن كُنَّا عَنۡ عِبَادَتِكُمۡ لَغَٰفِلِينَ ٢٩﴾ [يونس: 29]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

تأكيدُ التَّبرُّؤِ مِن عبادةِ المشركين بشهادةِ الله الحقِّ

بعدَ أن تَبرَّأَ الشُّركاءُ مِن عِبادةِ عابديهم في الآية السّابقة: ﴿وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمۡ إِيَّانَا تَعۡبُدُونَ﴾، استشهدوا بالله على براءَتهم مِن عبادة المشركين، قائلين: ﴿فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ إِن كُنَّا عَنۡ عِبَادَتِكُمۡ لَغَٰفِلِينَ﴾، أي: فحَسْبُنا الله شاهدًا بيننا وبينكم أيُّها المُشرِكونَ؛ فإنَّه قد عَلِمَ أنَّكم عَبَدتُمونا مِن غيرِ أن نأمُرَكم، ومِن دونِ أن نَشعُرَ بعِبادتِكم إيّانا[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَكَفَىٰ﴾: الكافُ والفاءُ والحَرْفُ المعتَلُّ أَصْلٌ صَحِيحٌ، يَدُلُّ على الحَسْبِ الذي لا مُسْتَزادَ فِيهِ، يُقالُ: كَفاكَ الشَّيءُ يَكفيكَ، وقد كَفَى كِفايةً، إذا قامَ بالأَمرِ[2]، واستكفيتُه أَمرًا فكفانِيَه، وكفاكَ هذا، أي: حَسْبُكَ[3]، والكُفْيَةُ: القوتُ الكافي، والجَمعُ كُفًى[4]. والمقصود بـ (كَفَى) في الآية: أَجْزَأَ وأَغْنَى عن غَيره.

2) ﴿شَهِيدًۢا﴾: أَصْلُ شَهِدَ: يَدلُّ على حُضورٍ وَعِلْمٍ وَإِعْلامٍ[5]، يُقالُ: شَهِدَ الشَّيءَ: إذا حَضَرَهُ وعايَنَهُ، وتُطْلَقُ بِمعنى الإِخْبارِ والإِعْلامِ، يُقالُ: شَهِدَ بِالأَمرِ، إذا أَخْبَرَ بِهِ وأَعْلَمَ غَيْرَهُ بِهِ[6]، فالشَّهادَةُ: إِخْبارٌ

(1) ابن جرير، جامع البيان: 12/172، والواحديُّ، التَّفسير البسيط: 11/183، والقرطبيُّ، الجامع لأحكام القرآن: 8/334.
(2) ابن عبّاد، المحيط في اللُّغة، وابن فارس، مقاييس اللُّغة: (كفى).
(3) الخليل، العين: (كفي).
(4) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (كفى).
(5) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (شهد).
(6) نشوان الحميريّ، شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم: (شهد).

عن عِلْم يَحْصُلُ عن طَريقِ الحُضورِ أو الرُّؤْيَةِ، ونَحْوِ ذلك، والشَّهيدُ: الشّاهِدُ، وَهوَ المُؤَيِّدُ والمُصَدِّقُ لِدَعْوَى مُدَّعٍ[1]، وهو المراد هنا.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

تبكيتٌ عظيمٌ للمشركين وانقطاعُ أملهم في شفاعةِ المعبودين

يُخبر الله تعالى عن تأكيدِ شركاءِ المشركين براءَتَهم مِن عبادةِ عابديهم، بالرُّجوعِ إلى الشَّهادة الحَقِّ في ذلك، أي: باستشهادهم بالله على براءَتِهم مِن قول المشركين لهم في موقف الحشر: (إيّاكُم كنّا نعبد)، قائلين لهم: فحَسْبُنا الله شاهدًا بيننا وبينكم، أيُّها المُشركونَ؛ فإنَّه قد عَلِمَ أنَّكم عَبَدتُمونا مِن غيرِ أن نأمُرَكم، ومِن دونِ أن نَشعُرَ بعِبادتِكم لنا[2]، وفي هذا تبكيتٌ عظيمٌ للمشركين الذين عبدوا معَ الله غيرَه، ممَّن لا يَسمَع ولا يُبصِر، ولا يُغني عنهم شيئًا، ولم يأمرهم بذلك، ولا رَضِيَ به، ولا أراده، بل تَبرَّأ منهم في وقتٍ أحوجَ ما يكونون إليه[3].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ الوصل في الآية:

كفى بشهادةِ اللهِ شهادةً بينَ المعبودين والمشركين

هذه الآية كالتَّتِمَّة للآية السّابقة؛ فقدِ استشهد المعبودون في هذه الآية على ما قالوه للمشركين، في الآية السّابقة: ﴿مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ﴾، وذلك بالشَّهادةِ الحَقِّ، شهادةِ العليم الخبير، الذي ليس بعد شهادته شهادةٌ.

دلالة العطف بالفاء:

فرَّع على غرابة خبر نفي أن يكونوا يعبدونهم، ما يُحقِّقُه ويُبَيِّنُه ويُؤَكِّدُه

الفاء في قوله تعالى: ﴿فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا﴾ عاطفة، والمعطوف عليه قوله تعالى: ﴿مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ﴾، والغرضُ: هو تأكيدُ قولهم، وتبرُّئِهم مِن عبادةِ عابديهم[4]؛ لأنَّ هذه الفاء هي فاءُ التَّفريع،

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/152.

(2) ابن جرير، جامع البيان: 12/172، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 8/334، والشَّوكاني، فتح القدير: 2/500، وطنطاويّ، التَّفسير الوسيط: 7/62.

(3) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/231.

(4) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 7/3557.

للدّلالةِ على أنَّ القَسَم مُتَفرِّعٌ على الكلام المتقدِّم؛ لأنَّ إخبارَهم بنفي أن يكونوا يعبدونَهم خبرٌ غريبٌ مخالفٌ لما هو مُشاهَد، فناسَبَ أن يُفرِّعَ عليه ما يُحقِّقُه ويُبيِّنُه، مع تأكيدِ ذلك بالقَسَم.

والإتيانُ بفاء التَّفريع عند تعقيب الكلام بجملة قَسَمِيَّةٍ مِن فصيح الاستعمال، ومِن خصائصه: أنَّه إذا عطفَ بفاء التَّفريع كان مُؤكّدًا لما قبلَه بطريق تفريع القَسَم عليه، ومُؤكّدًا لما بعدَه بطريق جواب القَسَم به[1]، وهو قوله تعالى: ﴿إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَٰفِلِينَ﴾.

توجيه التَّعبير بلفظ: (كفى):

الله هو الحَسْبُ القائمُ بالأمر، الغنيُّ عن غيره

عبَّر البيانُ الإلهيُّ بلفظ (كفى) في قوله تعالى: ﴿فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا﴾؛ لأنَّ لفظ (كفى) يحمل معانيَ أبلغَ مِن غيره، وأنسبَ للسِّياق؛ إذ مِن معاني (كفى): الحَسْبُ الذي لا مُسْتَزادَ فيهِ، يقال: كفى كِفايَةً؛ إذا قام بالأمر[2]، وفيهِ أيضًا معنى الغِنَى والاستغناء عن غيره، وسَدِّ الخَلَة، وبلوغِ المُراد في الأمر، والتَّعبيرُ بهذا الفعل (كفى) لما فيه من تقويَةِ اتِّصافِ فاعلِه - وهو اللّه في الآية - بوصفٍ يدلُّ عليهِ التَّمييزُ المذكورُ بعدَهُ، وهو (شهيدًا)، أي: أنَّ فاعل (كفى) أجدَرُ مَن يتَّصِفُ بذلك الوَصْفِ، ولأجل الدّلالةِ على هذا؛ غَلَبَ في الكلام إدخالُ باءٍ على فاعل فعل (كفى)، وهي باءٌ زائدةٌ لتوكيد الكفاية، بحيث يحصل إبهامٌ يشوِّقُ السّامعَ إلى معرفةِ تفصيلِه، فيأتون باسم يميز نوعَ تلك النِّسبة؛ ليتَمَكَّن المعنى في ذِهْن السّامع[3].

معنى الباء في: ﴿بِٱللَّهِ﴾:

الباءُ بينَ تأكيدِ ما بعدَها، والمبالغةِ في المدح

الباء في قوله تعالى: ﴿بِٱللَّهِ﴾ تحتمل معنيين؛ الأوَّل: أنَّها دخلت توكيدًا للكلام؛ إذ سقوطُها ممكن، كما يقال: خُذْ بالخطام، وخُذِ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/152.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (كفا).
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 5/73.

الخطامَ[1]، أي: كونها زائدةً تُقوِّي معنى الشَّهادة، أي: كفانا اللّه تعالى شاهدًا في بُطلان ما تَدَّعوه مِن أنَّكم كنتم تعبدوننا، ثمَّ أكَّدوا أنَّهم كانوا لا يعلمون: ﴿إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَٰفِلِينَ﴾[2]. والآخَر: أنَّها دخلت للمبالغة في المدح، كما قالوا: أظْرِفْ بعبد اللّه، وأَنْبِلْ بعبد الرَّحمن، وناهِيْكَ بأخينا، وحَسْبُكَ بصديقنا[3].

فائدة التَّعبير عن شهادته تعالى بصيغة (فعيل):

شهادتهُ سبحانَه أبلـغُ شـهـادة، وهي دائمةٌ ثابتةٌ

عبَّر القرآنُ عن شهادة اللّه تعالى في قوله: ﴿شَهِيدًا﴾ بصيغة (فعيل) بمعنى فاعل، أي: شهيد بمعنى شاهد، ولم يعبِّر بلفظ: (شاهد)؛ وذلك مبالغة في الشَّهادة؛ لأنَّ شهيدًا مِن صيغ المبالغة، فهي صفة مشبَّهةٌ تُفيد الثُّبوتَ والدَّوامَ، فشهادتُه ثابتةٌ دائمةٌ، وليست أمرًا عارضًا.

زِدْ على ذلك أنَّ لفظة (شهيد) أوسعُ دلالةً مِن (شاهد)؛ لذلك مِن أسماء اللّه الشَّهيد، لا الشّاهد، لأنَّه سبحانَه "المطَّلعُ على ما لا يعلمه المخلوقون إلّا بالشُّهود، وهو الحضور، ومعنى ذلك: أنَّه وإن كان لا يوصَف بالحضور الذي هو المجاورة والمقاربة، فإنَّ ما يجري ويكون مِن خَلْقه لا يخفى عليه"[4]، فهو مطَّلِع على جميع الأشياء، سميعٌ لجميع الأصوات، خفيِّها وجَلِيِّها، ومُبصِرٌ جميعَ الموجوداتِ، دقيقِها وجليلِها، صغيرِها وكبيرِها، ومحيطٌ عِلْمُه بكلِّ شيء، الذي شَهِد لعباده وعلى عباده بما عملوه[5].

وجه نصب: ﴿شَهِيدًا﴾:

اللّه هوَ الشّاهِدُ الـحـقُّ، الـكـافي بينَنا وبينَكم لا غيرُه

انتصب ﴿شَهِيدًا﴾ في قوله تعالى: ﴿فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ على التَّمييز؛

(1) ابن الجوزيِّ، زاد المسير في علم التَّفسير: 2/328.
(2) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 7/3557، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/152.
(3) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 7/3557.
(4) الحليميُّ، المنهاج في شُعب الإيمان: 1/200.
(5) السَّعديُّ، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 948.

لنسبة الكفاية إلى الله، لما فيها مِنَ الإجمال[1] الذي يحتاج إلى بيان، ولذلك قالوا: انتصب على التَّمييز لقَبوله (مِن)، أي: مِنَ الشُّهداء.

فائدة التَّوكيد بالقَسَم في: ﴿فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾:

قَسَمُ المعبودين بالله إثباتٌ لبراءَتِهم مِن عبادةِ المشركين لهم

جملة: ﴿فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ مُؤكَّدَة بالقَسَم؛ لأنّ (كفى) صيغةُ خبرٍ مستعمَلٍ في إنشاءِ القَسَم؛ وذلك ليُثبِتَ المعبودون براءَتَهم ممّا أُلْصِقَ بهم، مِن أنَّهم أَمَروا المشركين بعبادتهم، فهم ما أَمَروهم ولا عَلِموا بعبادتهم، أي: جواب القَسَم: ﴿إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَٰفِلِينَ﴾، وليس قولُهم: ﴿فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ قسمًا على كلامهم المتقدِّم، وهو ﴿مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ﴾؛ لأنَّ شأنَ القَسَم أنْ يكون في صدر الجملة[2].

وجه التَّعبير بالبيْنِيَّة وإضافتِها إلى الضَّميرين: ﴿بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾:

الشُّركاءُ والمشركون في موقفِ مُخاصَمةٍ وشهادَةُ الله هي الحَكَم

عبّر البيانُ الإلهيُّ بلفظ (بين) في قوله: ﴿بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ التي لا تكون إلّا بين مُتَعدِّد، ويكون بينهم مسافة؛ فأفاد التَّعبير بالبيْنِيَّة أنَّ الشَّهادة تكون بين فريق الشُّركاء وفريق المشركين، بعد أن زيَّل الله بينَهم، فهم في موقفِ مخاصَمةٍ ومحاكمة، وأنَّ الشّاهدَ بينهم هو الله تعالى، وأضاف الضَّميرين إلى لفظ (بين) في قوله: ﴿بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾؛ لأنَّ (بين) ظرفٌ مُبْهَمٌ لا يَتبيَّنُ معناه إلّا بإضافته إلى اسمين فصاعِدًا، أو ما يقوم مقامَهما، فأضافَه إلى الضَّميرين ليَتبيَّنَ أنَّ هذه البَيْنِيَّةَ هي بينَ الشُّركاء والمشركين. وعَبَّر بالضَّمير ولم يأتِ بالاسم الظّاهر؛ لأنَّ المتكلِّمين همُ الشُّركاء، وهذا ظاهرٌ مِنَ السِّياق، وأعاد لفظ (بين) في قوله: ﴿وَبَيْنَكُمْ﴾ بعد ﴿بَيْنَنَا﴾؛ ليُفيدَ التَّأكيد، فتَتَحَقَّقَ المقابلةُ بينَهم، ويتأكَّدَ أنَّ شهادةَ الله بينَهم.

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/153.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/153.

معنى ﴿إن﴾:

(إنْ) بين التَّأكيدِ والحَصْرِ والتَّحقيق

﴿إن﴾ في قوله تعالى: ﴿إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَٰفِلِينَ﴾ تحتمل معانيَ؛ الأوَّل: مُخفَّفَةٌ مِنَ الثَّقيلة، واللّامُ فارقةٌ بينَها وبينَ النّافية، أي: إنَّه الأمر والشَّأنُ كنّا عَنْ عِبادَتِكُم لَغافِلِينَ، وهذا قول أغلب المفسِّرين[1]، والمعنى: حسبنا اللّه شاهدًا بيننا وبينَكم؛ فهو يعلم أنّا ما عَلِمنا بعبادتكم لنا، ولا أَمَرْناكم بها، وأنّا كُنّا عنها غافلين. الثّاني: نافية، واللّامُ بِمعنَى إلّا، والمعنى: ما كُنّا عن عبادتكم إلّا غافلين، لا نبصرُها، ولا نسمعُ بها، ولا نعقلُها؛ إذ كنّا جمادًا، وهذا ما فسَّر به الفَرّاء والطَّبريُّ والبَغويُّ، وغيرُهم[2]. الثّالث: بمعنى لقد، يعني لقد كُنّا عن عبادتكم لغافلين[3].

نُكْتَةُ افتتاحِ جوابِ القَسَم بـ ﴿إن﴾ المخفَّفة:

تأكيدُ عدم عِلْمِ المعبودين، وعدمِ أمرِهم للمُشركين بالعبادة

افْتُتِحَ جوابُ القَسَم، وهو قولُه تعالى: ﴿إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَٰفِلِينَ﴾ بـ ﴿إن﴾ المخَفَّفَة؛ لإفادة التَّوكيد؛ أي: توكيدِ جوابِ القَسَم، وهو عدمُ عِلْمِ المعبودين، وعدمُ أمرِهم للمشركين بالعبادة؛ لأنّ جوابَ القَسَم إن كان جملةً اسميَّةً مُثبتَةً فإنَّه يُؤكَّد بـ (إن) و(اللّام) أو بـ(إنَّ) فقط.

بلاغة حَشْدِ المؤكِّدات:

المبالغةُ في تأكيدِ المعبودين غفلَتهم عن عبادة المشركين؛ للتَّبرُّؤ منهم

أكَّد المعبودون تبرُّؤهم مِنَ المشركين - الذي يعلمه اللّه - بعِدَّة مؤكِّدات؛ وهي:

﴿إن﴾ المُخَفَّفة مِنَ الثَّقيلة، واسمُها ضميرُ الشَّأن المحذوفُ، ويدلُّ عليه الخبرُ، وهو: ﴿كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَٰفِلِينَ﴾، "ومعناها التَّوكيدُ كالثَّقيلة"[4].

---

(1) الزَّمخشريُّ، الكشّاف: 2/344، والنَّسفيُّ، مدارك التَّنزيل: 2/19، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/153.

(2) ابن جرير، جامع البيان: 15/80، والبغويُّ، معالم التَّنزيل في تفسير القرآن: 2/418.

(3) موسى الأعور، الوجوه والنَّظائر في القرآن الكريم، ص: 21، والدّامغانيُّ، الوجوه والنظائر لألفاظ الكتاب العزيز، ص: 26، وابن نور الدِّين، مصابيح المغاني في حروف المعاني، ص: 67.

(4) ابن نور الدِّين، مصابيح المغاني في حروف المعاني، ص: 63.

و(اللّام): الفارقةُ المزحْلَقَةُ التي تدخل على الخبر، والتي مِن أغراضها التَّوكيد.

و﴿كُنَّا﴾: جملة اسميَّةٌ أفادت التَّوكيد بما تَدُلّ عليه مِنِ استمرارٍ وثُبوت.

فبهذه المؤكِّدات قد أكَّدوا أنَّهم ما كانوا يعلمون عبادتهم لهم، وأنَّهم بُرآءُ مِن هذه العبادة، وأنَّهم ما كانوا يشعرون بهم، ولا بما ارتكبوا مِن إثمٍ مبين، وهو الإشراك بالله تعالى، وهذا بيانٌ لسوءِ عملِ المشركين، وفسادِ اعتقادِهم، وضلالِهم الواضحِ المبين، وقد أرسل الله تعالى رُسُلَه فبيَّنوه لهم، وكذَّبوهم حتَّى حَقَّت عليهم كلمةُ العذاب، والله بكُلِّ شيء عليم[1].

معنى ﴿عَنْ﴾:

دلالةُ (عَنْ) على المجاوزة؛ بيانًا لبراءة المعبودين

يدلُّ حرفُ الجرِّ ﴿عَنْ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَٰفِلِينَ﴾ على المجاوزة، وهو الأصل في (عن)، كقولهم: (رميتُ السَّهم عنِ القوس)، أي: تجاوز السَّهْمُ القوسَ وابتعدَ عنه.

والمعنى بناء على ذلك: أنَّ عبادتكم أيُّها المشركون تجاوزتنا، فنحن غيرُ عالمين بها ولا آمرين، أي: لم تعبدونا على الحقيقة، وإنَّما عبدتُم غيرَنا ممَّن أَمَروكم بالعبادة، وهم الشَّياطين.

نُكْتَةُ الإضافةِ: ﴿عِبَادَتِكُمْ﴾:

عبادةُ المشركين للشُّركاء عبادةٌ اخترعوها ولم يعلم بها المعبودون

أضاف البيانُ الإلهيُّ العبادةَ إلى ضمير المشركين، في قوله تعالى: ﴿عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَٰفِلِينَ﴾؛ إشارةً إلى معنى تبرُّؤ المعبودين مِنَ المشركين، ومِن افتراءاتهم في عبادةٍ اخترعوها، فهي مِن مخترعاتهم التي لا دليلَ عليها ولا بُرهانَ، ولم يعلمِ المعبودون بها، ولم يأمروا بها.

(1) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 7/3558.

عِلَّة تقديم شِبه الجملة: ﴿عَنْ عِبَادَتِكُمْ﴾:

قدَّم البيانُ الإلهيُّ شبه الجملة: ﴿عَنْ عِبَادَتِكُمْ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَٰفِلِينَ﴾ على عامله ﴿لَغَٰفِلِينَ﴾، ولم يقل: (إن كنّا لغافلين عن عبادتكم)؛ للاهتمام بما زعمه المشركون مِن عبادة؛ إذ إنَّها سببُ هلاكِ المشركين، وخوفِ المعبودين مِنَ الهلاك، فضلًا عن رعاية الفاصلة[1]، فإنَّ أغلبها ينتهي بالياء والنون، أو الواو والنون: (خالدون، تعبدون، لغافلين، يفترون).

ما زعمَه المشركون مِن عبادةٍ، سببُ هلاكِ المشركين، وخوفِ المعبودين مِنَ الهلاك

حذف (لنا) في: ﴿عَنْ عِبَادَتِكُمْ﴾:

حَذَفَ البيانُ الإلهيُّ لفظ: (لنا) في قوله تعالى: ﴿إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَٰفِلِينَ﴾؛ إذِ التَّقدير: (إن كنّا عن عبادتكم لنا لغافلين)؛ وذلك لظُهوره مِنَ السِّياق، وللإيذان بكمال الغَفْلةِ عنها، والغَفْلةُ عبارةٌ عن عدم الارتضاءِ، وإلّا فَعَدمُ شعورِ الملائكةِ بعبادتهم لهم غيرُ ظاهرٍ[2].

الأصنامُ غافلون عن عبادةِ المشركين تمامَ الغَفْلة

سِرُّ التَّعبير عنِ الغَفْلة باسم الفاعل مجموعًا: ﴿لَغَٰفِلِينَ﴾:

عبَّر البيانُ الإلهيُّ عنِ الغَفْلة في قوله تعالى: ﴿عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَٰفِلِينَ﴾؛ لاتِّساع دلالة مادَّة الغَفْلة؛ إذ هي أعمُّ مِنَ النِّسيان، وأتى به بصيغة اسم الفاعل الذي يدلُّ على الدَّوام، أي: دوام غفلتهم، ودلَّ على أنَّها ثابتةٌ غيرُ محدودة بزمنٍ، فقد كانوا غافلين طوالَ مُدَّة عبادة المشركين لهم، غيرَ عالمين بها.

الغفلةُ أوسعُ دلالةً وهي من الأصنام المعبودين الغافلين مستمرةٌ

وأمّا التَّعبير باسم الفاعل (غافلين) مجموعًا؛ فلمناسبةِ السِّياق، إذِ السِّياقُ هو خِطابُ جماعة الشُّركاء لجماعة المشركين، وللدّلالة على أنَّ المقصودَ بالمعبودين هنا جماعةٌ واحدة، وهمُ الأصنام دونَ الملائكة وعيسى بن مريم، وفرعونَ والجِنِّ؛ إذ هؤلاءِ لم يغفلوا قَطّ عن عبادة مَن عبَدَهم.

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/153.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/140.

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

كَفَى وحَسْب:

الكفايةُ الاستغناءُ وعدمِ الاحتياج إلى الإضافة

لا يكاد يظهر الفرق بين (كفى) و(حسب)، إذ يُعَرَّف كلٌّ منهما بالآخر في معاجم اللغة:

فـ(كَفَى): أصلٌ صحيح يدلُّ على الحَسْب الذي لا مُسْتَزادَ فيه، والكُفْيَةُ: القوتُ الكافي[1]، يقال: كفاكَ هذا الأمر، أي: حَسْبُكَ[2].

والـ (حَسْبُ): الكفايَةُ، وحَسْبُكَ دِرْهمٌ، أي: كافيكَ، وأحسبني الشَّيءُ، أي: كفاني[3].

ومع أنّ هذين اللَّفظين قد عُرِّفَ كلُّ واحدٍ منهما بالآخَر، إلّا أنَّ فعل (كفى) قد اختصَّ ببعض المعاني، وهي: الغنى والاستغناء وعدمُ الاحتياج إلى إضافة؛ إذ يدلُّ على بلوغ الامتلاء، أو النُّموّ إلى الكمال المناسبِ دونَ زيادة[4]، و"سَدِّ الخَلَّة، وبلوغِ المراد في الأمر"[5]، ومساواةِ الشَّيء لمثله؛ فـ"كفى الشَّيءُ يكفي كفايَةً، فهو كافٍ؛ إذا حصل بهِ الاستغناء عن غيره، واكتفيتُ بالشَّيء: استغنيتُ به، أو قنعْتُ به، وكلُّ شيء ساوَى شيئًا حتَّى صار مثلَه، فهو مكافِئ له"[6]. وخصوصُ هذا المعنى في (كفى) هو عِلَّة اصطفائه في الآية؛ لما يحمله الاكتفاءُ باللّه تعالى ربًّا ومعبودًا، مِن دلالةِ كمال الغنى، وتمامِ الاستغناء المنعدمِ معه الحاجةُ إلى غيره.

الغَفْلَةُ، والنِّسيانُ، والسَّهْو، واللّهو:

الغَفْلَةُ أعمُّ مِنَ النِّسيان وأحد أسبابِ اللّهو، والسَّهْوُ نسيانٌ مع غفلة

تتقارب معاني هذه الألفاظ، وقد يختلط بعضُها ببعض، إلّا أنَّه بالرُّجوع إلى اللُّغة وإلى الاستعمال نلحظُ بعضَ الفروقِ الدَّقيقة بينها مِن عدَّة جهات، وهي على النحو الآتي:

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (كفا).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (كفى).
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والفيوميُّ، المصباح المنير، والزَّبيدي، تاج العروس: (حسب).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقيُّ المؤصَّل: (كفى).
(5) الرّاغب، المفردات: (كفى).
(6) الفيوميُّ، المصباح المنير: (كفى).

(الغَفْلة): غيبةُ الشَّيء عن بالِ الإنسان، وعدمُ تذكُّره له، فغَفَلَ عنِ الشَّيء: تَركَه وسَها عنه عمدًا أو غير عمد، فلم يلتفت أو يتنبَّه له، إمّا لانشغاله بغيره، أو تَرْكه إهمالًا مِن غير نسيان، والغَفْلة: الذُّهولُ عنِ الشَّيء، وسَهْوٌ يعتري مِن قِلَّة التَّحَفُّظ والتَّيقُّظ[1].

و(النِّسيان): مُشترَكٌ بينَ معنيين؛ أحدهما: تَركُ ضَبطِ ما استودع على ذُهولٍ وغَفْلة، وهذا ضِدُّ الحِفْظ والذِّكْر، والثّاني: التَّركُ على تعمُّد، حتَّى ينحذفَ عنِ القلب، وكلُّ نسيانٍ ذَمَّهُ اللّه تعالى؛ هو ما كان عن تَعمُّدٍ مِنَ الإنسان[2].

و(السَّهْو): سَها عنِ الشَّيء: غَفَل عنه، وذهب قلبُه إلى غيره، والسَّهْو والسَّهْوَة: نسيانُ الشَّيء والغَفْلةُ عنه، (يذهب مِن خلال الذِّهْن، ولا يضبطُه الذِّهن أو يُمسكه؛ فتخلو منه أثناؤه)، وإنَّ في السَّهو إهمالًا وتراخيًا في ضبط المسْهوّ عنه، وإمساكِه في القلب؛ أي: مَنْشَؤُه قِلَّة التَّحَفُّظ والتَّيقُّظ، ولهذا فالسّاهي مسؤولٌ، وذَمُّ السّاهين في الآيتين: ﴿ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي غَمۡرَةٖ سَاهُونَ ١١﴾ [الذاريات: 11]، ﴿ٱلَّذِينَ هُمۡ عَن صَلَاتِهِمۡ سَاهُونَ ٥﴾ [الماعون: 5]، يُحقّق هذه الملاحظة، فمعناه: لاهون غافلون، وقال ابن الأثير: "سَها في الشَّيء: تَركَهُ عن غير عِلْم، وسَها عنه: تركَه مع العِلْم"[3].

و(اللّهو): كلُّ ما يُشْغِل الإنسانَ عمّا يَعنيه ويُهِمُّه، واللّهو يدلُّ على شُغْل عن شيء بشيء، ولَها عنِ الشَّيء: غَفَلَ عنه ونَسِيَه، وتَركَ ذِكْرَه وتشاغَلَ بغيره، إذِ اللّهو مبنيٌّ على الغَفْلة[4].

وخلاصَة ما يمكن تحريره من فروق بين هذه الألفاظ:

أنَّ الغَفْلة غيرُ النِّسيان؛ فالغَفْلة أنْ تُهْمِل مسألةً كان يجب ألّا تُهْمَل، وألّا تغيبَ عن بالك، فهو فقدُ الشُّعورِ بما حَقُّه أن يُشْعَر به، أو تَرْكُ الشَّيءِ فيما حَقُّه ألّا يُتْرَكَ، أمّا النِّسيان فبعضُه خارجٌ عن إرادتك[5].

والغَفْلة أعمُّ مِنَ النِّسيان؛ فالغَفْلة عبارةٌ عن عدم التَّفَطُّن للشَّيء، وعدمِ حضور

(1) الرّاغب، المفردات، والفيوميُّ، المصباح المنير، والزَّبيدي، تاج العروس، والمعجم الوسيط، وجبل، المعجم الاشتقاقيُّ المؤصَّل: (غفل).
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرّاغب، المفردات، والفيوميُّ، المصباح المنير، والزَّبيدي، تاج العروس: (نسي).
(3) الفيوميُّ، المصباح المنير، وجبل، المعجم الاشتقاقيُّ المؤصَّل: (سهو).
(4) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، والزَّبيدي، تاج العروس: (لهو).
(5) الشّعراوي، تفسير الشّعراوي: 15/9476.

الشَّيء في البال بالفعل، سواءٌ بقيتْ صورتُهُ أو معناه في الخيال أو الذِّكْر، أو انمحت عن أحدهما. أمّا النِّسيان فهو عبارة عن عُزوب الشَّيء عنِ النَّفس بعدَ حضوره لها، معَ انمحاء صورةِ الشَّيء أو معناه عنِ الخيال أو الذِّكْر بالكليَّة، ولذلك يحتاج النّاسِي إلى تَجشُّم كَسْبٍ جديدٍ وكُلْفَةٍ في تحصيله ثانيًا[1].

والغَفْلةُ غيرُ السَّهو؛ فالغَفْلة تكون عمّا يكون، والسَّهو يكون عمّا لا يكون، تقول: غَفَلْتُ عن هذا الشَّيء حتَّى كان، ولا تقول: سهوتُ عنه حتَّى كان؛ لأنَّك إذا سهوتَ عنه لم يكن، ويجوز أن تَغْفُل عنه ويكون، وفَرقٌ آخَر: أنَّ الغَفْلة تكون عن فعل الغير، تقول: كنتُ غافلًا عمّا كان من فلان، ولا يجوز أن يُسْهَى عن فِعْل الغَير[2].

والسَّهْوُ نسيانٌ مع غَفْلة، فالسَّهو غفلةٌ يسيرةٌ عمّا هو في القوَّة الحافظة يتَنبَّه بأدنى تنبيه، والنِّسيان زوالُه عنها بالكليَّة، بحيث يَحتاج إلى تحصيل جديد[3].

والغَفْلة غيرُ اللّهو؛ فاللّهو مبنيٌّ على الغَفْلة، إذِ الغَفْلة أحدُ أسبابِ اللّهو، كما أنَّه لا بُدَّ في اللّهو مِن تشاغل الإنسان عن أمر يَهُمُّه، بأمرٍ لا فائدةَ منه، بينما لا يُشْتَرط في الغَفْلة أن يكون مُنشَغِلًا بشيء.

ولـمّا كانتِ الغَفْلة إهمالَ مسألةٍ كان يجب ألّا تُهمَل، وألّا تغيب عنِ البال، ومِن معانيها الغَفْلة عن فعل الغير؛ اختيرتْ في فاصلة هذه الآية المباركة، في قوله تعالى: ﴿إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَٰفِلِينَ﴾؛ لكون فِعْل عبادة اللّه الصّادر مِن غيرهم، لا ينبغي أن يُهمَل أو يُغْفَل عنه.

(1) العسكريُّ، الفروق اللُّغوية، ص: 388.
(2) العسكريُّ، الفروق اللُّغوية: ص 388.
(3) الزَّبيديُّ، تاج العروس: (سهو).

﴿هُنَالِكَ تَبْلُواْ كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْۚ وَرُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّۖ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ٣٠﴾ [يونس: 30]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

بعدَ شهادةِ الحقِّ سبحانَه وَجَدَتْ كلُّ نفسٍ جزاءَ عملِها

لمّا أخبر اللّه تعالى عن حال المشركين، وتبرُّؤ المعبودين منهم مستشهدين باللّه في قوله: ﴿فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ تشوَّفت النَّفس إلى الاطِّلاع على حال غيرهم، فقال مستأنفًا مُخبرًا عن كِلا الفريقين: ﴿هُنَالِكَ تَبْلُواْ كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْۚ﴾، أي: في ذلك الموقف مِنَ المكان والزَّمان العظيمِ الأهوالِ تبلو كلُّ نفس طائعةٍ وعاصية ما أسلفت[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تَبْلُواْ﴾: أصلُ الابْتِلاءِ: الاختِبارُ والامتِحانُ، يُقال: بَلَوتُ الرَّجلَ، وابْتَلَيْتُهُ، أي: امتَحَنتُهُ واختَبَرتُهُ وجَرَّبتُهُ[2]. وبَلِيَ الثَّوبُ بِلًى وبَلاءً، أي: خَلَق، وكأنِّي أخْلَقْتُه مِن كَثْرة اختباري له[3]، وأصلُ الابْتِلاءِ مِنَ البَلاءِ، وهو: التَّكليفُ بِالأمرِ الشّاقِّ، ويكون في الخَيرِ والشَّرِّ معًا، يُقالُ: أَبْلَيْتُهُ بَلاءً حَسَنًا، وَبَلاءً سَيِّئًا، وَنَزَلَتْ بَلاءً على الكُفّارِ[4]، وأكثر ما يُستَعمَلُ في المَكروهِ، والمراد من ﴿تَبْلُواْ﴾ في الآية: تَخْتَبِرُ، وهو هنا كنايةٌ عنِ التَّحقُّق وعِلْم اليقين.

2) ﴿أَسْلَفَتْۚ﴾: أصلُ السَّلَفِ يَدُلُّ على تَقَدُّمٍ وَسَبْقٍ[5]، وكلُّ

(1) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 9/111.
(2) ابن سيده، المحكم: (بلو)، وابن الأثير، النِّهاية في غريب الحديث، وابن منظور، لسان العرب: (بلا).
(3) الرّاغب، المفردات: (بلى).
(4) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، وابن سيده، المحكم: (بلي، بلو).
(5) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (سلف).

شيءٍ قَدَّمتَه؛ فهو سَلَفٌ، والفعل: سَلَفَ يَسلُفُ سُلوفًا[1]، إذا مضى وانقضى، وتقدَّم وسَبق، فهو سالِفٌ، وسَلَفُ الرَّجلِ: آباؤُه المتقدِّمون والرّاحلون، والأوَّلون السّابقون، وذَوو قَرابةِ الرَّجل الَّذين هم فوقَه في السِّن والفَضل[2]. ومن معاني السَّلَف: القَرْضُ، كلُّ ذلك لما فيه مِنَ التَّقدُّم، وهذا هو المراد مِنَ الآية.

المَعْنى الإجْماليُّ:

كلُّ امرئ مرهونٌ بعمله يومَ القيامة

في ذلك المَقامِ في أرضِ المَحشَرِ يومَ القيامةِ، تَخْتَبرُ كلّ نفسٍ مُؤمنةٍ أو كافرةٍ ما سَلَف منها من أعمالٍ، فترى ما كان نافعًا أو ضارًّا من هذه الأعمال، وترى الجزاءَ المناسبَ عن كلِّ عملٍ بعد أن عادَ الجميعُ إلى اللّه مولاهم الحقّ؛ ليقضيَ بينَهم بقضائه العادل، وقد زال عن المُشركينَ وبطَلَ ما كانوا يختَلِقونَه مِنَ الكَذِبِ على اللّه، بدَعواهم أنَّ له شُرَكاءَ يَنفَعونَ مَن عَبَدَهم، ويَدفَعونَ عنه الضُّرَّ، ويُقَرِّبونَه إلى اللّه[3].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغة التَّذييل والفَذْلَكة:

إيجازٌ بعدَ البَسْط؛ فالجزاءُ مناسبٌ لكلِّ عملٍ، والبُطلانُ حليفُ افتراءِ المشركين

في قوله تعالى: ﴿هُنَالِكَ تَبْلُواْ كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْۚ﴾ تذييلٌ وفَذْلَكةٌ للجُمَل السّابقة؛ مِن قوله: ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ﴾ [يونس: 25] إلى هنا، وهو اعتراضٌ بينَ الجُمَل المتعاطفةِ، والإشارةُ إلى المكان الذي أنبأ عنه قولُه: ﴿نَحْشُرُهُمْ﴾ [يونس: 28]، أي: في ذلك المكان الذي نحشرهم فيه[4].

(1) الخليل، العين، وابن سيده، المحكم: (سلف).
(2) السَّمين الحلبيُّ، عمدة الحفّاظ: (سلف).
(3) القرطبيُّ، الجامع لأحكام القرآن: 8/334، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/266، والسَّعديُّ، تيسير الكريم الرَّحمن: ص 363، وطنطاويّ، التَّفسير الوسيط: 7/62.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/153.

فأتتْ هذه الآية كالخُلاصة والنَّتيجةِ لما تقدَّم مِن أحوال الفريقين؛ المحسنين والمسيئين، وتبرؤِ المعبودين مِنَ المشركين، وبيانِ مصيرهم في ذلك الموقف العظيم، الذي تُخْتَبَرُ فيه كلُّ نفسٍ مؤمنةٍ أو كافرةٍ، فتعاين ما عملتْهُ مِن قبل، ويُردّون جميعًا إلى مولاهم اللّه الحَقِّ، ويغيب عنِ المشركين أكاذيبُهم ومعبوداتُهم الباطلة.

وجه التعبير باسم الإشارة في: ﴿هُنَالِكَ﴾:

الموقفُ أمامَ الله شريفُ الحال عظيمُ الأهوال

الإشارةُ بـ: ﴿هُنَالِكَ﴾ لها عدةُ معانٍ؛ إمّا تشير إلى المكان الذي أنبأ عنه قولُه: ﴿نَحْشُرُهُمْ﴾، أي: في ذلك المكان الذي نحشرهم فيه، وهو في محلِّ نَصْبٍ على الظَّرفيَّة، وعاملُه: ﴿تَبْلُواْ﴾. وإمّا أن تُشير إلى الوقت؛ على معنى استعارة إطلاقِ اسمِ المكان على الزَّمان. وإمّا أن تُشير إلى المقام أو الموقف، أي: بما يشمل الزَّمان والمكان[1].

ومهما يكن المعنى فقد قُدِّمت الإشارةُ إليه باستعمال اسم الإشارة، الذي يُشار به إلى المكان البعيد، مع أنَّه مقامٌ يعيشونه ويعانونه وليس بالبعيد عنهم؛ "للاهتمام به؛ لأنَّه الغرضُ الأهمُّ مِنَ الكلام؛ لعِظَم ما يقع فيه"[2]، فهو موقف مِنَ المكان والزَّمان، عظيمُ الأهوال، متوالي الزِّلزال[3]، ولِرِفْعَة الموقفِ أمامَ اللّه، وشَرَفِه وشَرفِ المكان والزَّمان[4]، وهو تهكُّم بهم؛ لكونهم يرون هذا المقامَ أو الموقفَ أو الزَّمان بعيدًا، أي: مستحيلًا، وهو قريب[5].

توجيه استعارةِ إطلاق اسمِ المكان على الزَّمان:

في الاستعارةِ إشارةٌ إلى إمكانيةِ تداركِ الأمرِ قبلَ يومِ الحشرِ

﴿هُنَالِكَ﴾ اسمُ إشارةٍ يُشار به إلى المكان البعيد، وقد أطلقَه

(1) الخازن، لباب التَّأويل في معاني التَّنزيل: 2/441، والبقاعيُّ، نظم الدُّرر: 9/111.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/153.
(3) البقاعي، نظم الدُّرر: 9/111.
(4) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 7/3558.
(5) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 7/3558.

البيانُ الإلهيُّ على الزَّمان في قوله تعالى: ﴿هُنَالِكَ تَبْلُواْ كُلُّ نَفْسٍ﴾ استعارةً للزَّمان البعيد؛ لغرضين: حقيقي ومعنوي، تحريرهما:

الإشارة إلى أنَّ هناك وقتًا للتَّوبة والعودة إلى الله قبلَ يوم الجزاء، فالزَّمان ما زال بعيدًا، والعاقل مَن يَخْتَبر عملَه في الدُّنيا قبلَ أن يأتيَ ذلك الوقتُ البعيدُ، الذي تَخْتَبر فيه كلُّ نفسٍ، وتذوقُ وتعاينُ ما أسلفت، أو تتبع عملَها، أو تقرأُ صحيفةَ عملها، ولا مجال حينَها للاستدراك.

توجيه القراءات في الفعل ﴿تَبْلُواْ﴾:

في الآية قراءتان متواترتان؛ قراءةٌ بالتاء: ﴿تَتْلُواْ﴾، قرأ بها حمزةُ والكسائيُّ وخلف، وقراءةٌ بالتاء والباء: ﴿تَبْلُواْ﴾، قرأ بها باقي القُرّاءِ العَشَرة[1].

الإنسانُ في المحشر - على كلتا القراءتين - مُتَّبِعٌ ما أسلفَ من عمله، مختبرٌ له

وفي معنى القراءة الأولى: ﴿تَتْلُواْ﴾ ثلاثة أوجه؛ الأوَّل: بمعنى تقرأ؛ أي: تتلو كلُّ نفس ما أسلفَتْه مِن أعمال في كتابها الذي تحمله بيمينها أو شمالها، فتقرأ عملَها مُحْضَرا، كما قال تعالى: ﴿وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ كِتَـٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَـٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾﴾ [الإسراء: 13 - 14]. والثّاني: بمعنى تتبع، أي: تتبَعُ كلُّ نفس ما قدَّمت في الدُّنيا لذلك اليوم؛ لقوله ﷺ في حديث طويل: «يجمع الله النّاسَ يومَ القيامة، فيقول: مَن كان يعبُد شيئًا فلْيَتْبَعْه، فيَتبَعُ مَن كان يعبُد الشَّمسَ الشَّمسَ، ويتْبَعُ مَن كان يَعبُد القَمَرَ القَمَرَ، ويَتْبَع مَن كان يعبُد الطَّواغيتَ الطَّواغيتَ»[2]. والثّالث: بمعنى تعاين، ذكرَهُ الطَّبريُّ عن ابن زيد[3].

وأمّا معنى قراءة: ﴿هُنَالِكَ تَبْلُواْ كُلُّ نَفْسٍ﴾ بالباء، فهو: عند ذلك تَخْتَبر كلُّ نفسٍ ما قدَّمت مِن خيرٍ أو شَرٍّ[4].

---

(1) ابن الجزريّ، النَّشر في القراءات العشر: 2/283.

(2) صحيح البخاريّ، كتاب: التَّوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾، الحديث رقم: (7437).

(3) ابن جرير، جامع البيان: 15/82.

(4) ابن جرير، جامع البيان: 15/82.

ومِن أَجملِ ما ذُكِرَ في توجيه هاتين القراءتين، بما يجمع المعانيَ كلَّها قولُ الطَّبريِّ رحمه الله: "والصَّواب مِنَ القول في ذلك أن يُقال: إنَّهما قراءتان مشهورتان، قد قرأ بكلٍّ واحدةٍ منهما أئمَّةٌ مِنَ القُرّاء، وهما متقاربتا المعنى، وذلك أنَّ مَن تَبِعَ في الآخرةِ ما أَسْلَفَ مِنَ العملِ في الدُّنيا، هَجَم به على مَوْرِدِه، فيُخبَرُ هنالك ما أَسْلَفَ مِن صالحٍ أو سيِّئٍ في الدُّنيا، وإنَّ مَنْ خَبَر ما أسلفَ في الدُّنيا مِن أعماله في الآخرة، فإنَّما يَخْبُرُ بعدَ مصيره إلى حيثُ أحلَّه ما قدَّم في الدُّنيا مِن عمله، فهو في كلتا الحالتين مُتَّبِعٌ ما أسلف مِن عمله، مُختَبِرٌ له، فبأيتهما قرأ القارئ كما وصفنا، فمُصِيبٌ الصَّوابَ في ذلك"[1].

بلاغة الكناية في: ﴿تَبْلُواْ﴾:

في القراءتين المتواترتين لقوله: ﴿تَبْلُواْ﴾ كنايَةٌ:

أمّا على قراءة: ﴿تَبْلُواْ﴾، أي: تَخْتَبِر، فهي كنايةٌ عنِ التَّحَقّقِ وعِلْم اليقين؛ إذِ الاختبارُ سَببُه، والتَّحَقّقُ واليقينُ لازمٌ له، والمعنى: أنَّ كلَّ نفسٍ تَخْتَبِرُ حالةَ ما أَسْلَفت وثَمرتَه، فتَعرفُ ما هو حَسَنٌ ونافعٌ، وما هو قبيحٌ وضارٌّ؛ إذ قد وَضَحَ لهم ما يُفضِي بصاحبه إلى النَّعيم، أو إلى ضِدِّه[2].

وأمّا على قراءة: ﴿تَتْلُواْ﴾، مِن التِّلاوة بمعنى: القراءة، والمراد: قراءةُ صُحُفِ ما أسلفت، فهي كنايَةٌ عن ظُهور الأعمال[3].

فـي المـوقـفِ المكشوف تَخْتَبِرُ كـلُّ نـفـسٍ ما عمِلَتْ، وتـدركُ عاقبَتَه

سِرُّ التَّعبير عنِ الفعل بصيغة المضارع:

عبَّر البيانُ الإلهيُّ عنِ الفعل ﴿تَبْلُواْ﴾ في قوله تعالى: ﴿هُنَالِكَ تَبْلُواْ كُلُّ نَفْسٍ﴾ بصيغة المضارع؛ للإشارة إلى أنّ هذا الاختبارَ والمعاينة لما عَمِلَتْ هو أمرٌ مستمرٌّ في هذا الموقف العظيم الدَّهِشِ،

لحظاتُ المحشرِ كـلُّـهـا لـحـظـاتُ بـلاءٍ مستمرٍ، وعلْمٍ ويقينٍ

(1) ابن جرير، جامع البيان: 15/82.

(2) القونويّ وابن التَّمجيد، حاشية على تفسير البيضاويِّ: 9/449، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/153.

(3) الآلوسيُّ، روح المعاني: 6/103.

الذي يستلزم ذلك؛ سواءٌ وهي تُحشَر، أو تخاطَب خطابَ التَّقريع وإقامةِ الحُجَّة، أو وهي ترى تَبَرُّؤَ مَن زعمتهم شفعاءَ لها، أو وهيَ تقرأ كتابَها، أو تتبعُ أعمالَها وحالَها؛ إذ إنَّها "تعاينُه بكُنْهِه مستَتبَعًا لآثاره، مِن نَفْعٍ أو ضُرٍّ، وخيرٍ أو شَرٍّ، وأمّا ما علِمَتْ مِن حالها مِن حين الموتِ والابتلاءِ بالعذاب في البرزخ فأمرٌ مجمَلٌ"[1]، إذًا المعاينةُ التّامَّة التَّفصيليَّة التي هي أتمُّ المعاينة، تعني الاستمرارَ، كما أنّ هذا التَّعبير يُفيد تصويرَ هذا المشهد.

وجهُ التَّعبير بـ ﴿كُلُّ﴾:

عبَّر القرآنُ بلفظة: ﴿كُلُّ﴾ للدّلالة على العموم؛ إذ إنَّها مِن أقوى صيغِ العموم؛ إذ تشمَل العاقلَ وغيرَه (المذكَّرَ والمؤنَّثَ، والمفرد والجمع)، والمعنى: تَخْتَبِر وتذوقُ كُلُّ نَفْسٍ، مؤمنةً كانت أو كافرةً، سعيدةً أو شقيَّةً، ما أَسْلَفَتْ مِنَ العمل[2].

العدلُ المطلقُ يُقيمُ الحُجَّةَ على الجميع؛ كافرٍ ومؤمن

بيانُ الإضافة: ﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾:

أضاف البيانُ القرآنيُّ لفظةَ ﴿كُلُّ﴾التي هي مِن أقوى صيغِ العموم، إلى لفظة ﴿نَفْسٍ﴾ التي أفادت العموم مع أنَّها نكرةٌ في سياق الإثبات، وذلك بسبب قرينة المقام؛ فليس علم النَّفس بما أحضرت، أو بما قدَّمت وأخَّرت - في مقام الحساب يومَ القيامة - أمرًا خاصًّا بواحدٍ دونَ الآخر.

الابتلاءُ في الموقفِ العظيمِ لا يَخُصُّ نفسًا دون نفس، ولا تُفْلِتُ منه نفسٌ

وإضافَةُ لفظٍ عامٍّ إلى لفظ عامٍّ يُفيد زيادةَ العموم وتأكيدَه، فالابتلاءُ في موقف الجزاءِ والحساب والعَدْلِ المطلَق، لا يَخُصّ نفسًا دونَ نفس، ولا تُفْلِت منه نفسٌ، فهو يشمَل الإنسَ والجانَّ، والمؤمنَ والكافرَ، والذَّكَرَ والأُنثَى.

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/140.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/140.

إيثار الموصول ﴿مَّآ﴾:

موقفٌ وكتابٌ لا يغادِرُ صغيرةً ولا كبيرةً إلّا أحصاها

آثَرَ البيانُ الإلهيُّ استعمالَ الاسمِ الموصول ﴿مَّآ﴾ في قوله تعالى: ﴿مَّآ أَسۡلَفَتۡ﴾؛ لإفادة العموم، والمعنى: تَخْتَبِر وتعاينُ كلُّ نفسٍ كلَّ ما عملَتْه مِن نَفْعٍ أو ضُرٍّ، سواء كان صغيرًا أو كبيرًا، وسواء كان مختصًّا بالجوانب العقديَّة، أو التَّشريعيَّةِ، أو الأخلاقيَّةِ، وسواء كان مختصًّا بنفسه أم بغيرِه.

إيثار لفظِ ﴿أَسۡلَفَتۡ﴾ ماضيًا:

يأسٌ وتحسُّرٌ يومَ لا ينفع ذلك، فقد عاينوا ثمرةَ ما أسلفوه

آثرَ البيانُ الإلهيُّ لفظَ ﴿أَسۡلَفَتۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿هُنَالِكَ تَبۡلُواْ كُلُّ نَفۡسٖ مَّآ أَسۡلَفَتۡ﴾، ولم يَقُل: (كَسَبت) أو (عَمِلَت) أو (قَدَّمَت)؛ لما في معنى مادة السَّلَفِ - فضلًا عنِ المُضي والانقضاء والتَّقدُّم والسَّبْق - مِن معنى القَرْض، وفي هذا إشارةٌ إلى أنَّ ما يلاقونه إنَّما هو مِن كَسْب أيديهم، وهم الذين قدَّموه لأنفسهم وأقرضوه، فهو عائدٌ إليهم، قال تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنۡ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ١١٧﴾ [آل عمران: 117]، وفي هذا مِنَ التَّحَسُّر ما فيه.

ومجيء الفعل بصيغة الماضي - فضلًا عمّا تتضَمَّنُه مادةُ السَّلَفِ مِنَ المُضِي - يُفيد أنَّه أمرٌ وَقَعَ وانقَضَى، ولا مجالَ للاستدراكِ والرُّجوعِ إلى الدُّنيا، فاليومُ يومُ الحساب.

دلالة العطف بالواو في: ﴿وَرُدُّوٓاْ﴾:

أعرضوا عنِ المولى الباطلِ، ورجعوا إلى المولى الحقِّ

الواو في قوله: ﴿وَرُدُّوٓاْ﴾ عاطفةٌ، وقدِ اختُلِفَ في المعطوف عليه على قولين:

الأوَّل: المعطوف عليه (زيَّلنا) وما عُطِف على (زيّلنا)، وبناءً عليه: يكون الضَّمير (واو الجماعة) في ﴿وَرُدُّوٓاْ﴾ للذين أشركوا، وجملة: ﴿هُنَالِكَ تَبۡلُواْ﴾ اعتراضٌ في أثناء الحكايةِ، مُقَرِّرٌ لمضمونها، والمعنى: فَفَرَّقْنا بينَ المشركين وأصنامِهم، وتَبرَّأتِ الأصنامُ مِنَ

المشركين" ورجع هؤلاءِ المشركون يومَئِذٍ إلى اللّه، الذي هو ربُّهم ومالكُهم الحَقُّ، لا شَكَّ فيه، دونَ ما كانوا يزعمون أنَّهم لهم أربابٌ مِنَ الآلهة والأنداد"[1].

الثّاني: المعطوف عليه هو: ﴿تَبۡلُواْ﴾، والضَّمير في (رُدّوا) للنُّفوس المدلولِ عليها بكلِّ نفس، ويكون غرضُ العدول إلى الماضي: الدّلالةَ على التَّحقُّق والتَّقرُّر[2]، والمعنى: تَخْتَبِر كلُّ نفسٍ وتذوقُ وتعاينُ ما أُسْلِفَ مِن عمل، وتُردُ إلى ربِّها الحقِّ، لا إلى ما اتُخِذَ ربًّا باطلًا.

عِلَّة التَّعبير بالفعل المبنيّ للمفعول مجموعًا في: ﴿وَرُدُّوٓاْ﴾:

عبَّر البيانُ الإلهيُّ بالفعل المبنيّ للمفعول بصيغة الجمع في قوله: ﴿وَرُدُّوٓاْ﴾ لأمور؛ أحدها: التَّركيز على الحَدَث، وهو رجوعُهم إلى مولاهم الحقِّ وعدمُ الالتفات إلى سواه، وذلك بصرف الحدث عن مُحدِثه وعدم إسناده إليه؛ ليَحْصُر الوعيَ في الحدث، فلا يتوزَّع في غيره، وهذا الحَدَث - الرَّدُّ الذي يعني: صرفَ الشَّيء إلى الموضع الذي ابتدأ منه - كافٍ في الرَّهبة لمَن له لُبٌّ[3]؛ إذِ الأمرُ يعود إلى أصله، فقد كانوا مع اللّه أوَّلًا، ثمَّ اتَّخذوا الشُّركاءَ، وفي هذا اليوم الآخِر يَرجعون لربِّهم سبحانَه، الذي قَهَرهم بسلطانه ورُبوبيَّتِه[4]. والآخر: أنّه في هذا الموقف العظيم لا أحدَ يملك ردَّهم إلّا هو سبحانَه، الملكُ الأعظمُ الذي لا مُلْكَ إلّا مُلْكُه، أي: أنَّ هذا الفعلَ لا يَصْلُح إلّا للّه سبحانَه، ولا يكون إلّا منه، فلا ينصرفُ الذِّهْن فيه إلّا إليه سبحانَه، ولذلك لم يُذْكَرِ الفاعِلُ.

المرجعُ في اليومِ العصيبِ الدَّهشِ، لا يَصْلُحُ ولا يكونُ إلّا لله الخالقِ المالك

سِرُّ التَّصريح باسم الله الأعظم في: ﴿ٱللَّهِ﴾:

صرَّح البيانُ الإلهيُّ باسم اللّه الأعظم دون غيره مِنَ الأسماء

المرجعُ في الموقف العظيم مكانًا وزمانًا وحدثًا إلى الله الملكِ الأعظم

(1) ابن جرير، جامع البيان: 15/82.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/141.
(3) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 9/111.
(4) الشّعراوي، تفسير الشّعراوي: 10/5903.

الحُسْنى؛ لأنَّه الاسمُ الجامِعُ لجميع صفاتِ الجلالِ والكمال، ولأنَّه الأنسبُ للسِّياق؛ إذِ الموقفُ عظيمٌ زمانًا ومكانًا وأحداثًا، ولذا عبَّر البقاعِيُّ بقوله: "إلى اللّه الملك الأعظم"[1].

نُكْتَةُ الوصف بـ: ﴿مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ﴾:

﴿مَوْلَىٰهُمُ﴾ صفةٌ أولى للاسم الجليل ﴿ٱللَّهِ﴾، و﴿ٱلْحَقِّ﴾ صفة ثانية، أو أن يكون ﴿مَوْلَىٰهُمُ﴾ بدلًا منَ الاسم الجليل ﴿ٱللَّهِ﴾، و﴿ٱلْحَقِّ﴾ صفةً لـ﴿مَوْلَىٰهُمُ﴾.

يومُ الحشر يومٌ يتبدَّى فيه سلطانُ الله حقًّا وتَتَبدَّدُ فيه أوهامُ أولياءِ الشَّيطان

ومِن فوائد الصِّفة: أنَّها تُحدِّدُ ماهيَّة الشَّيء بدِقَّةٍ متناهيَةٍ، أو تَشْرحُ أهمَّ مِيْزةٍ فيه، وغرضُها في الآية: الاحترازُ عمّا ادَّعوا مِن أوثانٍ وأندادٍ اتَّخذوها، ففي هذا اليوم يَتَبدَّى سلطانُ اللّه تعالى حقًّا، فهو اللّه الخالقُ المالك، الثّابتُ ملكُهُ وسُلْطانه، "لا يقبلُ الزَّوالَ أزلًا ولا أبدًا"[2]، وتَتَبدَّد أوهامُهم عن أولياء الشَّيطان وما زعموه[3]، وما اتَّخذوه ربًّا باطلًا وليس لرُبوبيَّتِه حقيقة[4]، ومِن ثمَّ لم يكن لهم قدرةٌ على قَصْدِ غيرِ اللّه سبحانَه، والالتفاتِ إلى سواه مِن تلك الأباطيل، بلِ انقطع رجاؤُهم مِن كلِّ ما كانوا يَدَّعونَهُ في الدُّنيا، وهو المراد بقوله: ﴿وَضَلَّ عَنْهُم﴾[5].

حقيقة (المولى) في: ﴿مَوْلَىٰهُمُ﴾:

اللّه سبحانَه خالقُهم ومالكُهم والمتصرِّفُ في شؤونهم

أتى القرآنُ بلفظ (المولى) في قوله تعالى: ﴿مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ﴾ على حقيقته؛ فاللّه سبحانَه هو خالقُهم وربُّهم، والمالكُ الذي يتولَّى أمورَهم، فهو سبحانَه خالقُ الكلِّ، ومالكُ الكلِّ، ومتولِّي أمورِهم، والمُتَصَرِّفُ في شؤونهم[6].

(1) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 9/111.
(2) الصّاوي، حاشيته على تفسير الجلالين، ص: 796.
(3) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 7/3559.
(4) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/141.
(5) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 9/111.
(6) البغويُّ، معالم التَّنزيل: 2/418، وأبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 7/3559.

الفرق بينَ الولاية هنا ﴿مَوْلَىٰهُمُ﴾، وبينَ: ﴿لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ﴾:

يُطلق المولى في اللُّغة على المالِك، ويُطلق على النّاصر، فمعنى المولى في قوله تعالى: ﴿مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ﴾: الرَّبُّ والمالِك، أي: ورجعوا إلى الله ربِّهم ومالكهم، فالله تعالى ربُّ كلِّ أحدٍ مِنَ النّاس ومالِكُهم، وأمّا معنى المولى في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ﴾ [محمد ﷺ: 11] فهو النّاصر، أي: أنَّ الكافرين لا ناصِرَ لهم[1].

الولايَةُ العامَّة هي ولايَةُ رُبوبيَّةٍ ومُلْكٍ، والولايَةُ الخاصَّة هي ولايةُ نُصْرةٍ للمؤمنين

دلالة العطف: ﴿وَضَلَّ﴾:

الواو في قوله: ﴿وَضَلَّ﴾ عاطفةٌ، والمعطوف عليه قولُه تعالى: ﴿رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ المعطوفةُ على: ﴿تَبْلُواْ كُلُّ نَفْسٍ﴾، على القول بأنّ المقصود مِن كلِّ نفس: النَّفسُ المشْرِكَةُ.

والفقراتُ الثَّلاث مِنَ الآية كلٌّ منها تُعِينُ الأُخْرَيين على إفادةِ حقيقةِ معناها، وحاصلُ مفادِ المجموعِ: ظهورُ حقيقةِ الولايةِ الإلهيَّة يومَئِذٍ ظهورَ عِيانٍ، وأن ليس لغيره تعالى إلّا الفقرُ والمملوكيَّة المحصَّنة، فتَبْطُل عند ذلك كلُّ دعوى باطلةٍ، وينهَدِمُ بنيانُ الأوهام.

مَفادُ الجملِ المعطوفة ظهورُ حقيقةِ الولايةِ الإلهيَّة، وأن ليس لغيره إلّا المملوكيَّة

وجه تعديَةِ الضَّلال بـ(عن): ﴿وَضَلَّ عَنْهُم﴾:

أتى البيانُ الإلهيُّ بفعل الضَّلال مُعَدًّى بـ (عن) في قوله: ﴿وَضَلَّ عَنْهُم﴾؛ لأنَّ فعل (ضَلّ) هنا مستعارٌ لمعنى (غاب)، فلمّا كانت تلكَ الغيبةُ بحيث لا يمكن إحضارُ ما غاب، وأنَّه كالشَّيء الضّائع؛ قيل: ضَلَّ، ومِنَ المجاز: ضَلَّ عن كذا، ضاع[2]، وحرفُ الجرِّ (عن) يدلُّ على المجاوزة، فمعنى: (ضَلَّ عنهم): غابَ وذهب وضاع عنهم ما كانوا يفترونه مِنَ الكَذِب ومِن دَعْواهم أنَّ أصنامَهم يشفعون لهم، فلم يبقَ لهم أثرٌ، وكأنَّ هؤلاءِ الشُّركاء تجاوزوهم غيرَ مُكْترثين بهم، فلم ينصروهم ولم يُنقذوهم، وفي هذا إشارةٌ إلى أنَّ المولى الحقَّ

المولى الحقُّ لا يَغيبُ عن مواليه، ولا يَتَخَلَّى عنهم وقتَ حاجتهم إليه

(1) الخازن، لباب التَّأويل في معاني التَّنزيل: 2/442، والآلوسيُّ، روح المعاني: 6/103.
(2) الطِّيبيُّ، فتوح الغيب: 12/105.

مِن شأنه أن يكون حمايَةً ووقايَةً لمواليه عندَ الحاجَةِ والشَّدائد، وأمّا المشركون فإنَّ ما كانوا يعبدونَهُ مِنَ الباطل، أصبح سرابًا خادعًا، غاب عنهم وتخلَّى عن حمايتهم ووقايتهم وَقتَ الحاجَة والشِّدَّة.

إيثارُ الموصول: ﴿مَّا﴾:

عمومُ ضياعِ افتراءاتِ المشركين على المعبودين كذبًا لهم أو عليهم

آثَر البيانُ الإلهيُّ استعمالَ ﴿مَّا﴾ الموصولة في قوله تعالى: ﴿مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ﴾ ليشملَ المعنى أمرين وِفاقَ المقصودِ بها:

الأوَّل: الأصنام، فيكون قد حُذِفَ العائِدُ مع حرف الجرِّ بدون أن يَجرَّ الموصولَ بمثل ما جَرَّ به العائِدَ، والحَقُّ جوازُه، فالتَّقدير: ما كانوا يكذبون عليه أو له، وضَلالُه: عدمُ وجودِه على الوصف المزعوم له. الثّاني: نفسُ الافتراء، أي: وضلَّ، أي: ظهرَ نَفْيُ الافتراءِ الذي كانوا يفترونه، وكَذِبُه[1].

إذًا، فائدةُ التَّعبير بـ ﴿مَّا﴾ الموصوليَّة هي العمومُ؛ إذ لو عَبَّر بقوله: (وضَلَّ عنهم أصنامُهم)، أي: لم يجدوها على الوَصْف الذي يريدونه، لما شَمَل المعنى الثّاني، وهو (ضَلَّ عنهم الافتراءُ الذي يفترونه) أي: ظَهَر كَذِبُه. ولو عبَّر بالمعنى الثّاني لَما شَمَلَ الأول. ويرى الآلوسيُّ: أنَّها تحتمل أن تكون مصدريَّة[2]، أي: (وضَلَّ عنهم افتراؤهم)، أي: ظَهَر كَذِبُهم.

بيانُ التَّعبير بفعل الكون ماضيًا مجموعًا: ﴿كَانُواْ﴾:

لا قيمة للباطل مهما كَثُرَ واستمرَّ وثَبَتَ عليه صاحبُه في أحواله الماضيَة والحاضِرَة

عبَّر البيانُ الإلهيُّ باستعمال فعلِ الكَونِ ماضيًا مجموعًا ﴿كَانُواْ﴾ في قوله: ﴿وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ﴾؛ للإشارة إلى أنَّهم كانوا ثابتين على الافتراء؛ إذِ الجملةُ الاسميَّة تُفيد الدَّوامَ والثُّبوتَ، كما أنَّ الجمع بينَ الماضي في ﴿كَانُواْ﴾، والمستقبلِ في ﴿يَفۡتَرُونَ﴾، يدلُّ على استمرار الفعل، أي: فعلِ افترائِهم على

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/156.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 6/103.

اللّه، ونسبتِهم الإلهيَّة إلى الأصنام، وغيرِ ذلك في جميع أحوالهم الماضية والحاضرة[1].

التَّعبير عن افترائهم بالمضارع مجموعًا: ﴿يَفۡتَرُونَ﴾:

عبّر القرآنُ بصيغة المضارع في: ﴿مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ﴾؛ للدّلالة على استمرار افتراءاتهم وتجدُّدِها وتكرارها، أي: غاب عنهم وبَعُد عن عقولهم ما كانوا يفترونه في عبادات باطلة، وافتراءٍ كاذب كانوا مستمرين عليه، يكرِّرونَه ليلًا ونهارًا، أي: لم يَجدوه على الوصف المزعوم له[2].

حكايةُ حالهم الماضية في الافتراء المستمرِّ تُظهِرُ لهم قُبحَ جريمتِهم، وتزيدُهم تَحَسُّرًا

كما أنَّ التَّعبير بصيغة المضارع يفيد حكايةَ حالهم الماضية في الافتراء، ليثيرَ في المخيلة صورةً لافتراءاتهم المستمرّة والمتجدِّدَة، بما يُظْهِر لهم قُبحَ جريمتِهم، وزيادةَ تحسُّرهم، باجتماع صورة افتراءاتهم في المخيلة، وما يرونه ويعانونه مِن عدم وجود ما زعموه في أصنامهم، أو ظهورِ نفيه وكَذِبِ هذه الافتراءات.

بلاغةُ حَذْفِ مُتعلّق ﴿يَفۡتَرُونَ﴾:

الإبهامُ الحاصلُ في الحذف يدلُّ على كثرة افتراءاتهم على الله، وتنوّعها

في قوله: ﴿مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ﴾ حذفَ القرآنُ مفعولَ قولِه: ﴿يَفۡتَرُونَ﴾؛ للدّلالة على العُموم، والمعنى: أن قد ضلَّ عنهم، وضاعَ كلُّ ما كانوا يفترونه مِنَ الآلهة وشفاعتِها، وما كانوا يتخرَّصونَه مِنَ الفِريَة والكذب على اللّه، بدعواهم أوثانَهم أنَّها للّه شركاءُ، وأنَّها تُقرِّبهم إليه زُلْفَى، وما كانوا يختلقونه في عبادات باطلة، ويفترونه في الدُّنيا مِنَ التَّكذيب.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الرّدُّ والرَّجعة والعَودُ:

الرّدُّ صَرفٌ ورجوعٌ بعارض، والرُّجوعُ العودُ إلى ما كان منه البَدء، والعَودُ تكرار الفعل

لم يُفرِّق اللُّغويون بين هذه الألفاظ، وتكاد تكون مترادفةً، ونجد

(1) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 7/3559.
(2) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 7/3559.

هذا من خلال تعريفهم لها، إلّا أنَّه عند إمعان النَّظر في معاني هذه الألفاظ ودلالاتها، واستعمالها القرآنيّ نلحظ أنَّ كلًّا منها قد اختصَّ بملْمَح دلاليٍّ يميِّزُه عن غيره، بحسب ما سيأتي:

الرّدُّ: رَجْعُ الشَّيء[1]، وصَرْفُه بذاته، أو بحالة مِن أحواله، وفي قوله تعالى: ﴿ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوۡلَىٰهُمُ ٱلۡحَقِّۚ﴾ [الأنعام: 62]، الرّدُّ كالرَّجع في قوله: ﴿ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾[2]، والارتداد: الرُّجوع، وهو صَدُّ استرسالِ ما يمتدُّ أو ينتشر، ورَدُّه عن وجهه: صَرْفُه[3].

الرَّجْعَة: الرُّجوع: العَود إلى ما كان منه البَدءُ، وتقدير البَدء مكانًا كان، أو فعلًا، أو قولًا، وبذاته كان رجوعُه، أو بجُزء مِن أجزائه، أو بفعلٍ مِن أفعاله، والرَّجْعُ: الإعادة[4]، وهو نقيض الذَّهاب، ورَجَعَ الشَّيء عنِ الشَّيء، ورجع إليه: صَرفَه ورَدَّه[5]، والرُّجوع: تَحوُّلٌ عنِ الاتّجاه أو الحال إلى عكسه، وكلُّ ما في القرآن مِنَ التَّركيب فهو بمعنى العَود[6].

العَودُ: يدلُّ على تثنية في الأمر، فهو تثنيةُ الأمر عَودًا بعد بَدْء، تقول: بدأ ثمَّ عاد[7]، وعاد عودًا وعودة: رَجَعَ وارتدّ، يُقال: رَجَعَ عودًا على بَدْء، ورَجَعَ عودَه على بَدئِه؛ لم يقطع ذَهابه حَتَّى وصلَه بِرُجوعِهِ[8]، والعَودُ: الرُّجوع إلى الشَّيء بعدَ الانصراف عنه، إمّا انصرافًا بالذّات، أو بالقول والعزيمة[9]، والعَوْد: الرُّجوع، وهو تجدّدٌ وتكرّرٌ لوجود الشَّيء في المكان، أو لوجود الحال، والعَوْد بمعنى رُجوع الذّات نفسِها إلى المكان، ولو بحال مختلفة[10].

إذًا: يتميّز الرّدُّ: بأنّ فيه إشارةً إلى شيء خارج عن إرادة الشّخص الذي ارتدّ، وكأنَّ أحدًا قطع عليه استرسالَه، وصَرفَه عن وُجهته، فينعكسُ اتجاهُه، ويرجع بذاته، أو بحالٍ

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (رد).
(2) الرّاغب، المفردات: (رد)، والزَّبيدي، تاج العروس: (ردد).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيُّ المؤصَّل: (ردد).
(4) الرّاغب، المفردات: (رجع).
(5) الفيوميُّ، المصباح المنير، وابن منظور، لسان العرب، والزَّبيدي، تاج العروس: (رجع).
(6) جبل، المعجم الاشتقاقيُّ المؤصَّل: (رجع).
(7) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (عود).
(8) المعجم الوسيط: (عود).
(9) الرّاغب، المفردات: (عود).
(10) جبل، المعجم الاشتقاقيُّ المؤصَّل: (عود).

مِن أحواله، إلى الموضع الذي ابتدأ منه، وكأنَّ المرتدَّ لم يكمِل طريقَه إلى غايته، بل عرضَ له ما جعلَه يَرتدُّ مِن حيثُ أتى.

ومِن هنا اختير لفظُ الرّدِّ في الآية؛ لكون رجوعِهم إليه تعالى خارجًا عن إرادتهم، وليس لهم في العود رأيٌ؛ لأنَّ الرَّجعة: انصراف وعودة بإرادة الشَّخص، فيتحوّلُ عنِ الاتّجاه أو الحال إلى عكسه، سواء أتمّ الفعلَ أم لم يتِمَّه، والعَود: فيه معنى تكرار الفعل، أي: لم يقطع ذهابَه حتَّى يوصلَه برجوعه، وفيه معنى الرّجوع إلى نقطة البداية، أي: إلى سابق عهده، فلفظُ الرّدِّ أنسبُ للمقام، وأدعَى لسياق الكلام.

﴿قُلۡ مَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ أَمَّن يَمۡلِكُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَمَن يُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَيُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُۚ فَقُلۡ أَفَلَا تَتَّقُونَ ٣١﴾ [يونس: 31]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

في مناسبةِ هذه الآيةِ لما قبلَها وجهان:

الأوَّل: بعد أنْ بيّن اللّه فضائحَ عبدةِ الأوثان، ومعاينتَهم لما قدَّموه، وقراءةَ كتُبِهم، وأنَّه قد ضلَّ عنهم ما كانوا يفترون، أتبعَها بذكْرِ الدَّلائلِ على فسادِ مذهبهم، بما يوبِّخُهم ويَحُجُّهم، بما لا يمكن إلّا الاعترافُ به من حال رزقهم وحواسّهم، وإظهارِ القُدرة الباهرة في الموت والحياة، فبدأ بما فيه قَوامُ حياتهم، وهو الرِّزق الذي لا بُدّ منه[1]، وفي ذلك كلّه تهيئةُ نفوسهم للتَّوبة والإنابة إلى اللّه.

الثّاني: لـمّا قدَّم سبحانَه أنّ شركاءَهم مربوبون مقهورون، لا قُدرةَ لهم إلّا على ما يُقدرهم اللّه عليه، وأنَّه وَحْدَه المولى الحقّ، وبانت بذلك فضائِحُهم، أتبعَهُ بذكر الدّلائل على سوء معتقدِهم، بصيغة التَّبكيت والتَّقريع، بأنْ وجَّهَ السُّؤال إليهم عمّا هم مُعترفون بأنَّه مُختصٌّ به، ويدلُّ قطعًا على تَفَرُّدِه بجميع الأمر الموجبِ، مِن غير وَقفة لاعتقاد تَفرُّدِه بالإلهيَّة، فقال: ﴿قُلۡ﴾[2].

منَ الحشْرِ الذي سقطتْ فيه الأباطيلُ إلى دلائلِ الواقعِ على فسادِ هذه الأباطيل

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يُدَبِّرُ﴾: أَصْلُ الكلِمَةِ مِن الدُّبُرِ، وهو النَّظَرُ في عاقِبَةِ الأمرِ، وتَقْوِيمُه على ما يكون فيه صَلاحُ عاقِبَتِهِ، وأَدْبارُ الأمورِ: عَواقِبُها[3]،

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/52.
(2) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 9/112.
(3) العسكريُّ، الفروق اللُّغوية، ص: 121، والفيروزباديّ، القاموس المحيط: (دبر).

يُقال: دَبَّرَ الأمرَ: إذا ساسَهُ ونَظَرَ في عاقِبَتِهِ، ليقَعَ على الوجْهِ الأكْمَلِ[1]، والتَّدَبُّرُ: التَّفكُّرُ، أي: تَحْصِيلُ المَعْرِفَتَيْنِ لتَحْصِيل مَعْرِفةٍ ثالِثَةٍ[2]. والمقصود مِنَ التَّدبير في الآية: الإيجادُ والعَمَلُ على وَفْقِ ما دُبِّرَ.

المَعْنى الإجْماليُّ:

إقرار المشركين بتفرُّد الله تعالى بالخلق والرِّزق وبتدبير الأمر كلِّه

يأمُرُ اللّه نبيَّه محمَّدًا ﷺ أن يسألَ المُشرِكينَ: مَن الذي يرزُقُكم مِنَ السّماء والأرضِ؟ أم مَن يملِكُ السَّمع والأبصارَ؟ ومَن يُخرِجُ الشَّيء الحيَّ مِنَ الشَّيء الميِّتِ بقُدرتِه العظيمةِ، ويُخرِجُ الشَّيء الميِّتَ مِنَ الشَّيء الحيِّ؟ ومَن يُدبِّرُ أمرَ جَميعِ الخلائقِ، ويتصَرَّفُ في السَّماء والأرضِ بما شاء؟ فسيقولُ المُشرِكونَ: اللّه وَحدَه مَن يفعَلُ ذلك، فقُل لهم يا محمد ﷺ: أفلا تتَّقونَه، وتخافونَ عِقابَه؟![3].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغة الفصل في الآية:

استئنافٌ بيانيّ يدلُّ على أنّ الله هو مستحقّ الولاية والإلهية

فُصِل قولُه تعالى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ عمّا قبلَه؛ لوقوعه استئنافًا بيانيًا؛ إذ إنَّه انتقالٌ مِن غرض إلى غرض في أفانين إبطال الشِّرك، وإثباتِ تَفَرُّدِ اللّه تعالى بالإلهيَّة، ويتنزَّل منزلَةَ الاستدلالِ لما قبلَه، وهو قولُه: ﴿مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ﴾؛ لأنَّه بُرهان على أنّه المستحِقُّ للوَلايَة سبحانَه، فاحتجَّ على ذلك بمواهب الرِّزق الذي به قَوام الحياة، وبموهبة الحواسّ، وبنظام التَّناسُل والتَّوالُدِ الذي به بقاءُ الأنواع، وبتدبير نظامِ العالم، وتقديرِ المقدَّرات، فهذه كلُّها مواهبُ مِنَ اللّه، وهم كانوا يعلمون أنَّ جميع ما ذُكِر لا يفعلُه إلّا

(1) المعجم الوسيط: (دبر).
(2) الزَّبيديُّ، تاج العروس: (دبر).
(3) ابن جرير، جامع البيان: 12/176، وابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 3/118، والقرطبيُّ، الجامع لأحكام القرآن: 8/335، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/266.

اللّه؛ إذ لم يكونوا ينسِبون إلى أصنامهم هذه الأمورَ، فلا جَرَم أن يكون المختصّ بها هو مُستَحِقُّ الوَلاية والإلهيَّة[1].

سر التعبير بالأمر ﴿قُلْ﴾، وإعادته في: ﴿فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾:

(قُلْ) بين خطابٍ يُظهِرُ أهميَّةَ المقولِ، ومَقامَ الرَّسولِ الأمين، وأسلوبَ القرآن الحكيم

عبّر البيانُ الإلهيُّ بفعل الأمر ﴿قُلْ﴾ في قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم﴾، وهو أسلوبٌ قرآنيٌّ وَرَدَ في كثيرٍ مِنَ الآياتِ في خطاب الحقِّ سبحانَه للخَلْق، وَرَدَ في كثيرٍ مِنَ الآيات، مثلِ قولِه سبحانَه: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الصّمد: 1]، ويختلف عن خطاب الخَلْق للخَلْق، إذ يكتفي ناقلُ الكلام بذكر منطوقِه دونَ التّعبير بكلمة (قل)؛ وذلك لأنّ مشيئة اللّه اقتضت أن يبلِّغنا رسولُه اللّه ﷺ القرآنَ كما نزل، والنّبيُّ ﷺ أمين في البلاغ عنِ اللّه تعالى، لا يترك كلمةً واحدةً مِنَ الوحي دونَ أن يبلِّغها للبشر، وما دام الحقُّ ﷻ هو الذي أمره، فهو يُبلِّغ ما أُمِرَ، وحتَّى لا يَحْرِمَ آذانَ خَلْقِ اللّه تعالى مِن كلِّ لفظٍ صدر عنِ اللّه سبحانَه[2].

وفي التّعبير كذلك بـ ﴿قُلْ﴾ وإعادته ﴿فَقُلْ﴾، إشارةٌ إلى أنَّ هذا الكلامَ هو مِن عند اللّه سبحانَه، وأنّ النّبيَّ ﷺ مُجَرَّدُ مُبلِّغٍ، ورسولٍ أمينٍ، لا يُغَيِّر ولا يُبَدِّل حرفًا مِن عنده، وإشارة إلى علو مقامِ الرِّسالة، ومقامِ النَّبيِّ ﷺ، وأنَّه هو الوحيدُ المكَلَّف بإبلاغهم وإنذارهم، لذلك جاء الأمر له بـ ﴿قُلْ﴾.

تكرار فعلِ القولِ أمارةُ العنايةِ، وإعمامِ الخطاب

وفيه كذلك دلالةٌ على الاهتمام بالمقول، يقول ابن عاشور: "وأُعيدَ الأمرُ بالقول لزيادة الاهتمام بالمقول، فإنَّ أصل الأمرِ بالقول في مقام التَّصدِّي للتَّبليغ دالٌّ على الاهتمام، وإعادةَ ذلك الأمر زيادةٌ في الاهتمام"[3].

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/155.
(2) الشّعراوي، تفسير الشّعراوي: 10/5905.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 22/192.

ويَحْتَمِل أن يكون الأمرُ ﴿قُلْ﴾ خطابًا للجميع، فأُمِرَ كُلُّ واحدٍ بأن يقول ذلك[1]، بما يَدلُّ على أسلوبٍ حواريٍّ استدلاليٍّ في إقامة الحُجَّةِ.

بلاغة حَشْدِ الاستفهامات في الآية:

الاستدلالُ بطريق الاستفهام، والجوابُ في صورة الحِوار، أوقَعُ في نُفوسِ السّامِعين

تميَّز النَّظمُ القرآنيُّ في هذه الآية الكريمة في إقامة الحُجَجِ على المشركين؛ لإثبات التَّوحيد والبعثِ، وفسادِ مذهبهم، باستخدام أسلوبِ السُّؤال والجواب، إذ حشَدَ سِتَّةَ استفهاماتٍ؛ الخَمسُةُ الأوْلَى منها: للتَّقرير بأنَّ فاعلَ ما سألهم عنه مِن مواهبِ الرِّزق الذي به قَوامُ الحياة، وموهِبَةُ الحواسّ، ونظامُ التَّناسل والتَّوالد الذي به بقاءُ الأنواع، وتدبيرُ نظامِ العالم، وتقديرُ المقدَّراتِ في العالم العُلْويِّ، وفي العالم السُّفْليِّ، وفي عالَمَي الأرواحِ والأجساد، ممّا لا نهايَةَ له، فاعلُ ذلك كلِّه هو اللّه رَبُّ كلِّ شيء ومَليكُهُ؛ إذ لا جوابَ غيرُه، وهم لا يجهلونَه، فالاستفهام عنه لحملهم على الإقرار به[2]؛ إذ إنّ هذا الاستفهامَ هو استفهامٌ تقريريٌّ؛ للتَّنبيه على الحقائق الثّابتة وتقريرها، وتوجيهِ النَّظر، وتقريرِ الحقائقِ، وفيه حَملٌ على الإقرار بما يعرفونَ ويُشاهِدون، فهم يعلمون عِلْمَ اليقين - بالمشاهدة والحِسِّ - أنَّ اللّه تعالى هو الذي يُنَزِّل الأمطارَ مِنَ السَّماء، ليَختلطَ بالأرض يَشُقُّها شَقًّا، ويوجِدُ فيها خِصْبًا ومَوادَّ مختلفةً، يتكَوَّنُ منها نباتٌ به حَبٌّ متراكِبٌ وأشجارٌ فيها ثمارٌ دانيَةُ القُطوف[3].

ثمَّ جاء الاستفهامُ السّادس، وهو قوله: ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ بخلاف ما سبق مِنَ الاستفهامات الخمسة؛ إذ جاء استفهامًا توبيخيًّا يَتَضمَّن إنكارَ واقعِهم الذَّميمِ، وذلك بعد إقرارِهم الذي

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/339.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 17/247، ورشيد رضا، تفسير المنار: 11/293، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/155.
(3) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 7/356.

أثبتَه البيانُ الإلهيُّ بقوله: ﴿فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُۚ﴾، أي: رتَّب توبيخَهم وتذكيرَهم على إقرارهم[1].

والحِكْمَةُ مِن هذا الاستدلال الذي جاء بطريق الاستفهام والجواب في صورة الحوار: أن يكون الدَّليلُ الحاصِلُ به أوقعَ في نفوس السّامعين، ولذلك كان مِن طُرق التَّعليم، ممّا يُرادُ رُسوخُه مِنَ القواعد العلميَّةِ، أن يُؤْتَى به في صورة السُّؤال والجواب[2].

توجيهُ معنى ﴿مِّنَ﴾:

حرفُ الجرِّ ﴿مِّنَ﴾ في قوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾، يحمل ثلاثةَ معانٍ[3]:

اتساعُ دلالة (مِنْ) بين الابتدائيَّة والتَّبعيضيَّة والبيانيَّةِ دليلٌ على بلاغة الإيجاز

الأوَّل: ابتداءُ الغاية؛ أي: بدأ سبحانَه بما فيه قِوامُ حياتِهم، وهو الرّزق الذي لا بدّ منه، فمِنَ السَّماءِ بالمطر، ومِنَ الأرض بالنَّبات، وهيّأ الرِّزق في العالَم العُلْويِّ والعالَم السُّفْلِيّ، ولم يقتصر على جهة واحدة، توسعةً منه وإحسانًا.

الثّاني: التَّبعيضيَّة؛ أي: يرزقُكم مِن بعض ما في السّماء والأرض مِن أرزاق.

الثّالث: البيانيَّةُ، أي: ﴿مِّنَ﴾ لبيان ﴿مَن يَرۡزُقُكُم﴾، على حَذْف المضاف، أي: مَن يرزقكم مِن أهل السَّماء والأرض، والمُراد بأهل السّماء والأَرْض غيرُ الله؛ لأنّه لإنكار رازقٍ سِواه، والكَلام المسوقُ للإنكار، هذا على اعتبار الاستفهام في ﴿مَن يَرۡزُقُكُم﴾ إنكاريٌّ لا تقريريٌّ، وأنَّ قوله: ﴿فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُۚ﴾ إمّا جوابٌ لما بعدَ ﴿مَن يَرۡزُقُكُم﴾ دونَه، أو جوابٌ له أيضًا عنِ السّؤال المفهوم مِنَ الإنكار، كأنَّه قيل: إذا عُلِمَ أن لا رازقَ مِن أهل السَّماء والأَرْض، فمَن يَرْزُقُكم؟!

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/141، وطنطاويّ، التَّفسير الوسيط: 7/64.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/155.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/52.

وأمّا على اعتبار أنَّ الاستفهامات الخمسةَ في الآية كلّها تقريريَّة، وهو الأصَحُّ؛ لتُناسِبَ ﴿مَن يَرۡزُقُكُم﴾ أخواتِها، فتقديرُ مِن البيانيَّة هو: قل مَن يرزقُكُم مِن أهل السّماء والأرض على زَعْم العرب، كما في قوله تعالى: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [الملك: 17][1].

فنّ تجاهُلِ العارف:

تجاهلُ العارفِ هو مِنَ المحسِّناتِ المعنويَّة، وهو سَوق المعلوم مساقَ المجهول[2] لنُكْتَةٍ يقصدُها البَليغ[3]، وقد ورد هذا المُحسِّنُ المعنويُّ في قوله تعالى: ﴿مَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾، وغرضُه البلاغيُّ: المبالغةُ في التَّعبير؛ إذ إنَّ اللّه سبحانَه يعلم مَنْ وهب الأرزاق في السَّماء والأرض؟ ومَن وَهَب السَّمع والبَصر؟ ومَن وَهَبَ الحياةَ وقوانينَها؟ ومَن يُدَبِّر كلَّ شيء؟ ولكنَّه أراد مِن الاستفهام أن يوقِعَ المشركين في شَرَكِ المغلوبيَّة؛ فقد استعمله تمهيدًا لتخطِئَتِهم، وإقامَةِ الحُجَّةِ عليهم، بعدَ أن يسمع جوابَهم، فهُم يَظنّونَهُ سائلاً مُسْتَعْلِمًا، ولذلك أجابوا سؤالَه بقولهم، وِفاقَ تعبير البيان الإلهيِّ: ﴿فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُۚ﴾، وفي هذا تعجيبٌ يصل إلى المبالغة في توبيخهم وتقريعهم، والتَّهكُّم بهم، في أن يتخذوا آلهةً سِواه، وفي الوقت ذاته فيه: تقرير لوحدانيَّة اللّه سبحانَه.

سَوقُ المعلومِ مساقَ المجهولِ أوقعَ المشركين في شَرَكِ المغلوبيَّةِ، مبالغةً في توبيخِهم

سِرّ إفراد السَّماء في (يونس) وجمعِها في (سبأ):

أفرد البيانُ القرآنيُّ السَّماء هنا في قوله تعالى: ﴿قُلۡ مَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾، وجمعَها في قوله تعالى: ﴿۞قُلۡ مَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ قُلِ ٱللَّهُۖ﴾ [سبأ: 24]، لأحد أمرين:

الأوَّل: أنّ الآيات التي في يونس سِيقَت مَساق الاحتجاج عليهم بما

في إفرادِ السَّماء إقامةٌ للحُجّةِ عليهم بما يُقِرّون، وتحصيلٌ للمعنى مع الإيجاز

(1) القونويّ وابن التَّمجيد، حاشية على تفسير البيضاويّ: 9/451.
(2) عَدَلَ السَّكاكيُّ بهذه التَّسمية (سوق المعلوم مساق غيره) عن تسميته بـ (تجاهل العارف)، وقال: لوقوعه في كلام الله تعالى، يُنظر: ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 7/210.
(3) الخطيب القزوينيّ، الإيضاح في علوم البلاغة، ص: 530.

أقرّوا به، ولم يمكنهم إنكارُه، فإنّه لـمّا قال سبحانَه: ﴿فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُۚ﴾ دلّ أنّه لا بُدَّ أنَّهم يُقِرّون بما ذُكر ولا يجحدونه، فلا بُدَّ أن يكون المذكور ممّا يُقِرّون به، والمُخاطَبون المُحْتَج عليهم بهذه الآية إنَّما كانوا مُقِرِّين بنزول الرِّزق مِن قِبَل هذه السّماء التي يشاهدونها بالحِسِّ، ولم يكونوا مُقِرِّين، ولا عالمين بنزول الرِّزق مِن سماء إلى سماء، فأفرد لفظ السّماء هنا، فإنّه لا يمكنهم إنكارُ مجيء الرِّزق منها، لا سيَّما أنَّ الرِّزقَ هاهنا إن كان هو المطرَ فمَجِيئُه مِنَ السّماء التي هي السّحاب، فإنَّه يُسَمَّى سماء لِعُلوِّه، وقد أخبر سبحانَه أنَّه بَسَط السَّحاب في السّماء بقوله: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ [الروم: 48]، والسَّحاب إنَّما هو مبسوط في جهة العُلوّ لا في نفس الفَلَك، وهذا معلوم بالحِسّ فلا يُلتفت إلى غيره.

فلمّا انتظم هذا بذِكْر الاحتجاج عليهم، لم يصلح فيه إلّا إفرادُ السَّماء؛ لأنَّهم لا يُقِرّون بما ينزل مِن فوقِ ذلك مِنَ الأرزاق العظيمة للقلوب والأرواح، والرَّحمةِ والألطافِ، والمواردِ الرَّبانيَّةِ، والتَّنَزُّلات الإلهيَّةِ، والوحيِ الذي به الحياةُ الحقيقيَّةُ الأبديَّةُ، وما به قِوام العالَم العُلويِّ والسُّفْليِّ، وهو أَوْلى باسم الرِّزق مِنَ المطر؛ الذي به الحياةُ الفانيَة المُنْقَضِيَةُ، ولكنَّ القومَ لم يكونوا مُقرّين بذلك، فخوطِبوا بما هو أقربُ الأشياء إليهم، بحيث لا يمكنهم إنكارُه. وأمّا الآيةُ التي في سورة سبأ، فلم ينتظم بها ذِكْرُ إقرارِهم بما ينزل مِنَ السّماوات؛ ولهذا أَمَر رسولَه بأنْ يتولَّى الجوابَ فيها، ولم يذكر عنهم أنَّهمُ المُجيبون المُقِرّون، فقال: ﴿۞قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ قُلِ ٱللَّهُۖ﴾ [سبأ: 24]، ولم يَقُل: ﴿فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُۚ﴾، وقد عَدَّ ابنُ القيّم هذا الفرقَ مِن أَدقِّ هذه المواضع، وأغمضِها وألطفِها[1].

الثّاني: إنَّ الإفراد الوارد في آية يونس مُحصِّلٌ للمعنى معَ الإيجاز، وأمّا الواردُ في سورة سبأ على الجمع فَروعيَ فيه ما تقدَّم مِن قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾﴾ [سبأ: 22]، والمراد بذلك: نفيُ الشُّركاء له تعالى، ثمَّ عاد الكلام إلى ذلك أيضًا، فقال تعالى: ﴿۞قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ﴾ على الجمع.

(1) ابن القيم، بدائع الفوائد: 1/117.

إذًا، هذه الآيةُ مِن سورة سبأ وما قبلَها في قضيَّة واحدة، وهي نفيُ الشُّركاء والأنداد، فجاءت على ما يناسب التي قبلَها[1].

سِرّ التَّعبير عنِ الخيرات بالرّزق، وتقديمُه على باقي النِّعم:

عبّر البيانُ الإلهيُّ عن خيرات السّماء والأرض بالرّزق مِنَ السّماء والأرض، وقدَّم سبحانَه هذه النِّعمة على باقي النِّعم؛ لأنَّ الرِّزق هو الغايَة المرجوّة؛ وهو النّعمة الظّاهرة التي أنعم بها ﷻ على عباده في حياتهم؛ مِن غذاءٍ ولباس ومأوى، وكلُّ ذلك كان في اختلاط ماءِ السّماء بالأرض[2]، أي: بدأ أوَّلًا "بما فيه قِوام حياتِهم"[3]وهو الأمرُ الجليُّ الواضحُ لكلِّ أحدٍ؛ لأنَّ كلّ أحدٍ يحتاج إلى الغذاء، ولا يستطيع الصَّبرَ على الجوع بوجهٍ، فيظهرُ له الافتقارُ إليه بالبديهة في كلّ زمان، بخلاف السّمع والأبصار، فإنّ دوامَها غالبٌ، وطُرقَ الإعراض عنها قليلةٌ، ليس في كلّ زمان ولا لكلّ النّاس، بل لبعضهم فقط[4]، فتقديمُ الرّزق مِنَ السّماء والأرض على باقي النّعم لشِدّة احتياجِ النّفوس إليه[5].

الرّزقُ قِوامُ الحياة والغايةُ المرجوّةُ والنّعمةُ الظّاهرةُ التي لا يستغني عنها أحدٌ

عِلّة عدمِ اقتصار الرّزق على جهةٍ واحدة:

لم يَقْصِرِ البيانُ القرآنيُّ الرّزقَ على جهةٍ واحدةٍ، إمّا السّماء وإمّا الأرض، وإنّما قال: ﴿يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾، أي: يرزقكم منهما جميعًا؛ للإشارة إلى فَيْضِ نعمتِه، وسَعَةِ رحمتِه[6].

نعمة الله واسعةٌ لا يحيطها حَدٌّ

بلاغةُ الإطناب بذِكْر مَحلِّ الرّزق:

أطنب البيانُ الإلهيُّ بذِكْر مَحلِّ الرّزق: ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ ولم يَكْتفِ بقوله: ﴿يَرۡزُقُكُم﴾، مع أنّ الرّزق لا يكون إلّا مِنَ السّماء

تصويرٌ واستحضارٌ ذِهنيّ لأحوال الرّزق بما يُحقّق الغايةَ مِن ذِكْر النِّعمَة

(1) الغرناطيُّ، ملاك التَّأويل: 1/240، 241.
(2) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 7/356.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/52.
(4) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/339.
(5) المطعني، التَّفسير البلاغيُّ للاستفهام: 2/45.
(6) الطِّيبيُّ، فتوح الغيب: 7/479، وأبو حيّان، البحر المحيط: 6/52.

والأرض؛ للتّذكير بأحوال الرّزق؛ ليكونَ أقوى حضورًا في الذّهن، فالرّزق مِنَ السّماء المطرُ، والرّزق مِنَ الأرض النّباتُ كلُّه مِن حَبٍّ وثمرٍ وكَلأ[1]، وهذا مِن شأنه أن يحقّق الغاية مِن ذِكْر هذه النّعم؛ وهو العِبْرةُ والعِظَة.

نُكْتَةُ تقديمِ رزق السّماء على رزق الأرض:

الرّزقُ مِنَ السّماء أسبقُ وأهمُّ وأعجبُ في الدّلالة على كمالِ القُدرة الإلهيّة

قدَّم البيانُ الإلهيُّ رزقَ السّماء على الأرض في قوله تعالى: ﴿يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ لأمور؛ الأوّل: مُراعاةً للسّبق والأهميّة، فنزولُ الماء مِنَ السّماء هو أوّلُ أسباب الرّزق وأهمّها. الثّاني: لأنّ الأسباب السّماويَّةَ - مِن نزول المطر، وحرارةِ الشّمسِ، وأَثرِ القمر والكواكبِ - بمنزلة الفاعل، وأمّا الأسبابُ الأرضيّة - مِنَ التّربة وغيرِها - فهي بمنزلة القابِل، فقَدَّم الفاعلَ على القابل[2]. الثّالث: لأنّ نزولَ الرّزق مِنَ السّماء أعجبُ وأدلُّ على كمالِ قُدرته سبحانَه. الرّابع: السّماء أسبق في الخَلق مِنَ الأرض؛ فقدَّم الأسبقَ خَلْقًا.

سِرُّ تخصيصِ عطفِ ملكِيّةِ السَّمع والأبصار بـ (أم):

في الإضراب تنبيهٌ على كفايةِ الاستفهامِ في الدّلالةِ على إثباتِ قُدرةِ الله

﴿أَمَّن﴾ في قوله تعالى: ﴿أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ﴾ هي: (أم) المنقطعة، و(مَنْ) الاستفهاميّة، وقد جاءت (أم) المنقطعة هذه بعد ﴿مَن يَرْزُقُكُم﴾ الاستفهاميّة، وقبل ﴿أَمَّن يَمْلِكُ﴾ الاستفهاميّة، وأفادت معنى (بل) دونَ الهمزة؛ لأنَّه وَقَعَ بعدَها هنا اسمُ استفهامٍ صريح، وهو (مَنْ)، فلا يدخل استفهام على استفهام[3].

والسِرُّ في تخصيص عطف مُلْكِيّة السّمع والأبصار بـ(أم) دون الواو، هو إفادةُ معنى الإضراب، وهو هنا: إضرابٌ انتقاليٌّ لا إبطاليٌّ؛ إذِ المقصودُ السّؤال عن كلٍّ منها؛ وذلك للتّنبيه على أنّ كلَّ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/155.
(2) القونويّ وابن التّمجيد، حاشية على تفسير البيضاويّ: 9/451.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/52، والهرري، حدائق الرّوح والرّيحان: 12/220.

واحدٍ منها يكفي في إثبات التّوحيد، وفي أنّه لا يشارِكُه أحدٌ في شيءٍ من ذلك، فضلًا عنِ المجموع مِن حيث المجموعُ[1].

والمعنى: بل قل لهم: مَن يملكُ السَّمع والأبصار؟! ومَن يملك خَلْقَهما على هذا النَّمط البديع، والتَّركيبِ الغريبِ؟ ومَن يملك حِفْظَهما مِنَ الآفات معَ كَثْرتِها، وسُرْعَةَ انفعالِهما مِن أدنى شَيءٍ يصيبُهما؟[2].

للسّمع والأبصار أهميّة في حياة النّاس أجمعين

و"السِّرُّ في عطف مُلْكِيَّة السّمع والأبصار بـ(أم)، وما عداهما بالواو؛ التّنبيهُ على ما للسّمع والأبصار مِن أهميّة في حياة المخاطَبين، فردًا فردًا، والصّنعِ الإلهيِّ العجيبِ الذي أخرجَهما فيه، فعَطَفَ بـ(أم) ليُنْتَقَلَ مِن نعمة جليلة إلى نعمة جليلة مثلِها"[3].

صَوغُ فعلِ الملكِ مضارعًا في: ﴿يَمْلِكُ﴾:

حفظُه للحواسّ مستمرٌّ سبحانَه، وقيّوميَّتُه عليها لا تنقطعُ

عبّر البيانُ القرآنيُّ عن فعل الملك بصيغة المضارع ﴿يَمْلِكُ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ﴾؛ للدّلالة على دوام مُلْكِه واستمرارِه للسَّمع والأبصار؛ فَحِفْظُه لها مستمرٌّ؛ إذ يعملان بقُدرته، وتصريفه، وسلطانه، وقيّوميَّتُه عليهما لا تنقطع.

عِلّة ذِكْرِ السّمع والبصر عَقِبَ الرّزق:

في السّمع والبصرِ صَنعةٌ عجيبةٌ، وقُدرةٌ باهرةٌ، ونفعٌ عظيمٌ

خَصَّ اللّه السّمع والبصرَ بالذِّكْر عَقِبَ الرّزق، وأسند إليه سبحانَه مُلْكِيَّتَهما دونَ غيرهما لأمرين؛ الأوّل: لما فيهما مِنَ الصَّنعَة العجيبة، والقُدرةِ الباهرةِ العظيمة، أي: مَن يستطيع مُلْكَهُما وتسويتَهُما على هذه الصّفة العجيبة، والخِلْقة الغريبة، حتَّى ينتفعوا بهما الانتفاعَ العظيم؟[4]. الثّاني: خصّهما بالذِّكْر مِن باب التّنبيه على المفضول بالفاضل، ولكمالِ شرفِهما ونفعِهما[5]، فهُما أشرف

(1) القونويّ وابن التَّمجيد، حاشية على تفسير البيضاويِّ: 9/451.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/141، والحجازيُّ، التَّفسير الواضح: 2/59.
(3) المطعني، التَّفسير البلاغيُّ للاستفهام: 2/45.
(4) الشَّوكانيُّ، فتح القدير: 2/504.
(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/53، والسَّعديُّ، تيسير الكريم الرحمن، ص: 363.

الحواسّ، وعليهما مَدارُ الحياة الحيوانيَّة، وكمالُ الحياةِ الإنسانيَّة؛ إذ بهما تحصيلُ العلوم الأَوليَّةِ[1]، فهما أظهَرُ حاسَّتين عامِلَتَين في الإنسان، فإذا فقدَهما كان كَومَةً متحرِّكَة مِن لحم، لا تَعْقِل ولا تَعِي شيئًا! فعن طريق السّمع والبَصر، جاءتِ المعرفةُ إلى الإنسان، وتكَوَّنت مَدارِكُه، وأَخيلَتُه، وتصوراتُه، وعن طريق السّمع والبصر، تتحوّل هذه المعرفةُ إلى قوًى دافعةٍ، تُحرِّك الإنسانَ، وتوجِّهُهُ إلى غاياته في الحياة[2].

وجهُ تقديم السّمع على الأبصار:

السّمع أشرفُ نِعمًا وأعظمُ نفعًا مِنَ البصر

قدَّم البيانُ الإلهيُّ السّمعَ على الأبصار في قوله تعالى: ﴿أَمَّن يَمۡلِكُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ﴾؛ دلالةً على أهميّةِ السّمع؛ لأنّ السّمع أشرفُ نِعمًا، وأعظمُ نفعًا مِنَ البصر[3]، فهو آلةٌ لتَلقّي المعارفِ التي بها كمالُ العقل، وهو وسيلةُ بلوغِ دعوةِ الأنبياء إلى أفهام الأُمم على وجهٍ أكملَ مِن بلوغها بوساطة البَصر[4]، وهذا يوافق سياقَ الآية التي تُقيم الحُجّة على المشركين بما أنعمَهُ الله عليهم، ويوافق ما جرى عليه اصطلاحُ القرآنِ مِن تقديم السّمع على البصر[5].

علّةُ توحيد السّمع وجمعِ الأبصار:

الصّوت شيءٌ واحدٌ، وهو في الأصل مصدرٌ دالٌّ على الجنس

وحّد البيانُ الإلهيُّ السّمعَ وجمعَ الأبصارَ في قوله تعالى: ﴿أَمَّن يَمۡلِكُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ﴾؛ لأمور؛ أحدها: أفرد السّمع اعتبارًا بالأصل؛ فإنّ السّمع مصدرٌ في أصله، فهو دالٌّ على الجنسِ الموجودِ في جميعِ حواسِّ النّاسِ، وأمّا الأبصارُ فجيءَ به جمعًا؛ لأنَّه اسمٌ، فهو ليس نصًّا في إفادةِ العمومِ؛ لاحتمالِ توَهُّمِ بصَرٍ مخصوصٍ، فكان الجمعُ

(1) المراغيُّ، تفسير المراغيّ: 11/100.
(2) الخطيب، التَّفسير القرآنيُّ للقرآن: 6/1000.
(3) القونوي وابن التمجيد، حاشية على تفسير البيضاويِّ: 9/451.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/258.
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 9/184.

أدَلَّ على قصدِ العموم، وأنفى لاحتمالِ العهدِ[1]. وثانيها: أفردَ السّمع بتقدير مضافٍ فيه، أي: مَن يملك حواسّ السّمع. وثالثها: أنّ ما يتعلّق بالسّمع واحد، وهو المسموعات، فإنّها منحصِرةٌ في الأصوات، بخلاف أخواته[2]؛ فالسّمع طريق إلى شيءٍ واحد هو الصّوت، والصّوت وإنِ اختلف قوّةً وضعفًا، ورقّةً وخُشونةً، فهو على أي حال شيءٌ واحدٌ في النَّوع، وإنِ اختلف في الدَّرجة، وأمّا البصرُ فتتعدَّدُ فيه أجناسُ المُبصَراتِ[3]؛ فهو طريق إلى هذا الكون كلِّه، وما فيه مِن عوالم وأكوان، وما في كلّ عالَم وكَوْن مِن ناطق وصامت، ومتحرِّكٍ وثابت، وجامِدٍ وسائل[4].

توحيدُ السّمع وجمعُ الأبصار عادةٌ قرآنيةٌ

إنّ توحيد السّمع وجمعَ الأبصار جاء على عادة القرآن الكريم[5]؛ فالمتتبِّعُ لآيات الله، التي تتحدّث عنِ السّمع والبصر، يجد أنّ القرآن الكريم قد فرّق بينَ السّمع والبصر، في الصّورة التي عبّر بها عن كلّ منهما، فأمّا السّمع فقدِ التزم فيه القرآنُ الكريم الإفرادَ مطلقًا، سواء اقترن به البصرُ أم لم يقترن، وسواء جاء منكّرًا أو مُعَرّفًا بأل أو بالإضافة، ولم يقع في القرآن مجيءُ السّمع جمعًا في أيّ حالٍ من أحواله، ولم يرد في القرآن لفظُ الأسماع أبدًا[6].

نُكْتَة إطلاقِ مِلك السّمع والأبصار دون ذكر (خلقهما، حفظهما):

السّمع والبصر تحت سلطان الخالق سبحانَه

عبّر البيانُ الإلهيُّ بملْكِيَّة الله للسَّمع والأبصار، لا بخلقهما أو حفظهما، فقال تعالى: ﴿أَمَّن يَمۡلِكُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ﴾؛ لأنَّ الملكيةَ تُطْلِقُ يدَ المالكِ في التّصرّف فيما مَلَكَ، "من إبقاءٍ وحفظ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/156.
(2) القونويّ وابن التَّمجيد، حاشية على تفسير البيضاويِّ: 9/451.
(3) رشيد رضا، تفسير المنار: 11/291.
(4) الخطيب، التَّفسير القرآنيُّ للقرآن: 6/1001.
(5) المقصود بذلك الأغلبيَّة، إذ ورد في سورة الإسراء البصر بلفظ المفرد، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡبَصَرَ وَٱلۡفُؤَادَ﴾ [الإسراء: 36].
(6) الخطيب، التَّفسير القرآنيُّ للقرآن: 6/1001.

وإذهاب"[1]، ولا ينفي هذا أن يكون المالكُ هو الخالقُ، فهو يخلُقُ ويملك ما يخلقُ، فالتّعبير بملكية الله للسّمع والأبصار يدلُّ على أنّ الله سبحانه وإنْ تفضّل بهما على الإنسان، فهما لم يخرجا عن سلطانه، وأنَّهما - وهما يعملان في الإنسان - يعملان بقدرة الخالق، وبتصريفه لهما، وأنّه سبحانَه هو الذي يُمدُّهما بالقوى التي يعملان بها، ولولا هذا لبَطَلَ عملُهما، وهو القادر على أن يأخذ هذه القوى ويبطلَ عملَ السّمعِ والبصر، كما يقول سبحانه: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِۗ﴾ [الأنعام: 46][2].

ملكيّة السمع والبصر تذكير بدقيق صنعه تعالى، ومديد نفعه

وفي التّعبيرِ بملكية الله للسّمع والبصر استدلالٌ وتذكيرٌ بأنفعِ صُنعٍ وأدَقِه؛ لأنَّهما من صُنع الملك سبحانَه، وإشارةٌ إلى عموم التّفضّل بهاتين النّعمتين؛ إذ إنّ مِلْكَهما يعني خلقَهما وتسويتَهما على الحَدِّ الذي سوِّيا عليه مِنَ الفطرة العجيبة، وحمايتَهُما وعصمَتَهُما مِنَ الآفات، وغيرَ ذلك، أي: أنّ لفظة المِلك أوسعُ دلالةً مِن لفظةِ الخَلْق، أو لفظة الحِفظ، ولو عُبِّر بأحدهما لما دلَّ على هذا العموم.

وجهُ عطْفِ الاستفهامِ بالواو: ﴿وَمَن﴾:

العطفُ زيادةُ بيانٍ لأنواع النِّعَم التي تفضَّل بها الله، وأقامَها حُجَّةً على المشركين

عطفَ القرآنُ الاستفهامَ ﴿وَمَن﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ﴾ بالواو الذي يفيد مُطلق الجمع، لا التَّرتيبَ أو التَّعقيبَ؛ لأنّه لا يوجد بينَ المعطوفات ترتيبٌ ولا تعقيبٌ، فلذا قَدَّم رزقَ السّماء ورزقَ الأرض، وخَلْقَ السّمع والبصر، وحفظَهُما؛ لأنّها أوضحُ ما المشركون فيه وأقربُه، ثمَّ عطف عليها ما نبَّهَهُم به على ما قبلَ الرِّزق والسّمع والبصر، مِن بَدْء الخَلْق، فقال: ﴿وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ﴾[3].

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/52.
(2) الخطيب، التَّفسير القرآنيُّ للقرآن: 6/1000.
(3) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 9/113.

إذًا، ليس مقصودُ العطفِ التَّرتيبَ أو التَّعقيبَ، وإنَّما زيادةُ بيانٍ لأنواعِ النِّعمِ التي تفَضَّل بها اللّه، وأقام بها الحُجّة على المشركين.

نوع التَّعريف في: ﴿ٱلۡحَيَّ﴾ و﴿ٱلۡمَيِّتِ﴾:

أل التَّعريف في ﴿ٱلۡحَيَّ﴾ و﴿ٱلۡمَيِّتِ﴾ في المرّتين في قوله تعالى: ﴿وَمَن يُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَيُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّ﴾ جنسيّةٌ استغراقيةٌ[1]؛ تفيدُ العمومَ، أي: تشمل كلَّ حيٍّ وكلَّ ميّت، "وذلك أنَّ كلَّ حيٍّ فارقَه شيءٌ مِن جسده، فذلك الذي فارقَه منه ميّت، فالنُّطفة مَيِّتة؛ لمفارقتها جسدَ مَن خرجت منه، ثمَّ يُنشِئ اللّه منها إنسانًا حيًّا، وبهائمَ وأنعامًا أحياءً، وكذلك حُكمُ كلّ شيء حَيٍّ زايلَه شيءٌ منه، فالذي زايلَه منه ميّت"[2].

من تمامِ قدرته أنْ يكونَ خَلْقُه للحيّ والميّت عامًّا شاملًا في كلّ حيٍّ وميّت

وجهُ البَدءِ بإخراجِ الحيّ دونَ الميّت:

قدَّم القرآنُ إخراجَ الحيّ مِنَ الميّت على إخراج الميّت مِنَ الحيّ في قوله تعالى: ﴿وَمَن يُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ﴾؛ لأمور؛ الأوَّل: لشرفِ الحياة (شَرفِ الحيّ على الميّت)[3]. الثّاني: لقصدِ البَداءَة به والختم؛ اعتناءً بشأنه، إذ بدأ بالحيّ وختم بالحيّ، وهذا الاعتناء به؛ لأنّه أخفى، فلا يدركُه كلُّ أحد[4]. الثّالث: تقديم الحيّ على الميّت أعجب؛ لأنّه أكثرُ دلالة على كمال القُدرة؛ فإنّ خروج الحيّ مِنَ الميّت؛ كالدَّجاجة مِنَ البيضة، أعجبُ في القُدرة، مِن خروج الميّت مِنَ الحَيّ؛ كالبيضة مِنَ الدّجاجة، ولا سيما أنّ السّياق هو الاستدلال على ألوهيّته وقدرته سبحانَه.

تقديمُ الحيّ على الميّتِ أكثرُ دلالة على كمال القُدرة

بلاغة الكناية في الآية:

في قوله تعالى: ﴿يُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَيُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّ﴾

الكُفرُ موتٌ، والإيمانُ حياةٌ يهدي الله إليها مَن طلبها

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/156.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 6/308، وهو، وإن رأى أنَّ لهذا القول وجهًا مفهومًا، إلّا أنّه لم يرجّحه.
(3) السُّيوطيُّ، معترك الأقران في إعجاز القرآن: 1/131.
(4) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/339.

كنايةٌ؛ على قولِ مَن فَسَّر الحياةَ والموتَ في الآية الكريمة بالشَّيء المعنويّ، وهو إخراجُ المؤمنِ مِنَ الكافر، والكافرِ مِنَ المؤمن[1]، وقد ذكر الطَّبريُّ مَن فسَّره بذلك مِنَ السّلف؛ كالحسن البصريّ[2]. وممّا يُؤيّد هذا الرّأي قولُه تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ﴾ [الأنعام: 122]، وما ورد عن رسول الله ﷺ أنّه قال: «سبحانَ الله، الذي يُخرج الحيَّ مِنَ الميّت»، وقد رأى امرأةً صالحةً ماتَ أبوها كافرًا، وهي خالِدَة بنتُ الأسود بن عبد يَغوث[3].

الإخـــراج من فيوضات المنان وفيـه التكاثر وتعاقب الأجيال

وهو كناية عنِ الفيض الإلهيّ، والتّكاثُر، وتعاقبِ الأجيال، وتكمن بلاغةُ هذه الكناية في أنّها امتداحٌ للمؤمنين الأوائلِ الذين آمنوا برغم كُفْر آبائهم، ومَنْعِهم لهم مِنَ الإيمان، وذَمٌّ للكافرين الذين كفروا برغم إيمان آبائهم، وحِرْصِهم على إيمان أبنائهم، وأنّ فيها تبشيعًا للكُفْر؛ إذ وَصَفَه بالموت، وترغيبًا بالإيمان إذ وَصَفَه بالحياة.

براعةُ التّضاد بينّ الحيّ والميّت في الآية:

مِن باهرِ قُدرته سبحانَه إخراجُ الضِّد مِن ضدِّه

عَطَفَ القرآنُ قولَه: ﴿وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ﴾، على قوله: ﴿وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ﴾؛ لأنّه إخبارٌ بضدٍّ مضمونِ ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ﴾، وصُنْعٍ آخرَ عجيبٍ دالٍّ على كَمال الْقُدْرَةِ، وَنافٍ تصرُّفَ الطبيعةِ بالخَلْقِ؛ لأنّ الفعل الصّادر مِنَ العالِم المختار يكون على أحوال متضادّة، بخلاف الفعلِ المتولّد عن سببٍ طَبْعيّ.

وقد نُظِّمَ هذا الاستدلالُ على ذلكَ الصُّنعِ العجيبِ بأسلوبِ الأحاجِي والألغاز، وجُعِلَ بمُحَسِّنِ التَّضادِّ، كُلُّ ذلك لزِيادةِ التَّعْجِيبِ منهُ[4].

(1) الواحديُّ، التَّفسير البسيط: 11/187، والزُّحيليُّ، التَّفسير المنير: 11/164.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 6/309.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/89، والحديث أخرجه الطَّبريُّ عن الزُّهري مُرسلًا: 6/308.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 7/388.

بلاغة الطّباق في: ﴿ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾:

تقابلُ رزقِ السّماء مع رزقِ الأرضِ يزيدُ الكلامَ حُسنًا، ويدلُّ على كمال القُدرة

جمع البيانُ القرآنيُّ بينَ لفظين متقابلين في المعنى، هما: السّماء والأرض، ويُعرَفُ بالطّباق، وهو مِنَ المحسِّنات البَديعيَّة؛ إذ إنّ تقابلَ المعنيين ممّا يزيد الكلامَ حسنًا وطَرافة، ويَدُلُّ على كمال القُدرة التي تشمل الأشياءَ كلَّها، توافقت أم تقابلت، أم اختلفت، فهو لا يَرْزُق مِنَ السّماء فقط، أو مِنَ الأرض فقط، بل إنّ قدرَتَه تشْمَل السّماء والأرض.

بلاغة ردِّ العَجُزِ على الصَّدر:

التصديرُ يزيدُ الكلامَ حُسنًا والمعنى تمكنًا

في قوله تعالى: ﴿وَمَن يُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَيُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّ﴾ ردَّ أحدَ اللَّفظَين المكرَّرَين، المتَّفقَين في اللّفظ والمعنى، على الآخر، فردّ لفظة ﴿ٱلۡحَيِّ﴾ في آخِر الجملة في قوله تعالى: ﴿مِنَ ٱلۡحَيِّ﴾، على لفظة ﴿ٱلۡحَيَّ﴾ في أوّل الآية في قوله تعالى: ﴿وَمَن يُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ﴾. وهذا مِنَ المحسِّنات البَديعيَّة، التي تُعْرَف بَرَدِّ العَجُزِ على الصَّدر، والتي تزيد الكلامَ حُسْنًا والمعنى تمكُّنًا.

بلاغة الإطناب بعطف العامّ على الخاصّ:

اهتمامٌ بشأنِ الخاصّ الذي ذُكِر، وتعميمٌ لتدبيرٍ إلهيّ لا نهايةَ له

أطنبَ البيانُ القرآنيُّ بذكرِ العامّ؛ وهو قولُه تعالى: ﴿وَمَن يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَۚ﴾ بعد الخاصّ؛ وهو قوله تعالى: ﴿قُلۡ مَن يَرۡزُقُكُم﴾، أي: ما سبق مِن نِعَم الرِّزق والخَلْق، وحِفْظ السَّمع والأبصار، وغيرِ ذلك؛ إذ إنّ كلَّ ما سبق مِن نِعَمٍ يندرج فيها[1]؛ "فتدبيرُ الأمر عامٌّ في كلِّ شيء"[2].

وفائدةُ الإطناب هنا بذكر العامّ بعد الخاصّ واضحةٌ؛ وهي التّعميم بذكر العامّ، وأنّه ليس المقصودُ ما ذُكر فقط، فأقسامُ تدبير اللّه تعالى في العالم العُلْويّ والسّفليّ، وفي عالَمَي الأرواح

(1) طنطاويّ، التَّفسير الوسيط: 7/63.

(2) الصّاوي، حاشيته على تفسير الجلالين، ص: 797.

والأجساد، أمورٌ لا نهايةَ لها، وذِكْرُ كُلِّها كالمُتَعَذِّر، فلمّا ذَكَر بعضَ تلك التَّفاصيل لا جَرمَ عَقَّبَها بالكلام الكلِّيّ؛ ليَدُلَّ على الباقي[1]، والاهتمامِ بشأنه الخاصّ الذي ذُكر؛ لذا أفردَه بالذِّكر[2].

نكتةُ التّعبير بالمضارع في: ﴿يُدَبِّرُ﴾:

آثرَ القرآنُ التّعبيرَ بالمضارع في قوله تعالى: ﴿وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾؛ "للدّلالة على تَجدُّد التّدبير واستمراره"[3] منه سبحانَه.

تدبيرُ الله سبحانَه مُتجدّدٌ مستمِرٌّ لا ينقطع، إذ بيده ملكوت كلِّ شيء

سِرُّ العدول مِن فعل الأمر، إلى المضارع:

عَدَلَ البيانُ الإلهيُّ عنِ التّعبير بفعل الأمر: (قُل)، إلى المضارع: (سيقولون)، في قوله تعالى: ﴿فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ﴾، أي: لم يقل: (قلِ الله)؛ مراعاةً للسِّياق، وهو إقامة الحُجَّة عليهم بما يُقِرّون به ولا يجحدونه؛ مِن نزول المطر مِن قِبَل هذه السّماء التي هي السَّحاب، ومن الأرزاقِ التي في الأرضِ حيث يعيشون عليها، ومِن نعمة حِفْظِ السّمع والأبصار، وإيجادِ الحَيِّ مِنَ الميّت، وإيجادِ الميّت مِنَ الحيّ، ممّا يُشاهدونه بالحِسِّ، وهو أقربُ الأشياء إليهم.

جوابٌ لا يستطيعونَ إنكارَه؛ لأنّهم مُقِرّون معترفون بأنَّ الله هو الخالق المدبِّر

إذًا، فإقرارهم يناسبُه أن يكون اللّفظ القرآنيُّ: ﴿فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ﴾، ولو عبّر بـ (قلِ الله)؛ لدَلَّ على أنَّهم لم يكونوا مُقِرّين بما ذَكَره مِن أدلَّة، ولذا أَمَر رسولَه بأن يتولَّى الجوابَ فيها، كما في قوله تعالى: ﴿مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ﴾ [سبأ: 24]؛ إذ إنَّهم لم يكونوا مُقِرّين بكُلّ ما في السّماوات مِن رزق التَّنَزُّلات الإلهيَّة، والوحي وما به قِوام العالَم العُلويّ والسُّفْليّ[4].

دلالةُ الفاء في: ﴿فَسَيَقُولُونَ﴾:

الفاء في قوله تعالى: ﴿فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ﴾ تحتمل وجهين؛ الأوّل:

بينَ السّببيّة التي تُفيد اقترانَ الإقرارِ بالسّؤال، والتّعقيبِ الذي يُفيد الإسراعَ بالإقرار

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 17/247.
(2) السُّيوطيّ، الإتقان في علوم القرآن: 3/241.
(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/118.
(4) ابن القيم، بدائع الفوائد: 1/117.

فاء السّببيّة التي مِن شأنها أن تقترن بجوابِ الشّرط إذا كان غيرَ صالحٍ لمباشرة أداة الشّرط، وذلك أنّ القرآن قَصَدَ تَسَبُّبَ قولهم: (اللّه) على السّؤال المأمورِ به النّبيّ ﷺ، فَنُزّل فِعْلُ (فقل) منزلةَ الشّرط، فكأنّه قيل: (إنْ تَقُل مَن يُرزقُكم مِنَ السّماء والأرض فسيقولون اللّه)، ومنه قولُه تعالى: ﴿۞قُلْ كُونُواْ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ۝٥٠ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَاۖ﴾ [الإسراء: 50- 51]، ولو لم يُنَزّل الأمرُ منزلةَ الشّرط لما جاءت الفاء، كما في قوله تعالى: ﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٨٤ سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ﴾ [المؤمنون: 84- 85][1]. الثّاني: فاء التّعقيب، والمعنى: فَسَيَقولونَ بلا تلعُّثُم ولا تأخيرٍ (اللّه)؛ إذ لا مجالَ للمُكابرَة لغاية وضوحِه[2].

دلالة السين في: ﴿فَسَيَقُولُونَ﴾:

جوابُ المشركين بـالإقـرار حـالٌ مستمرٌ منهم

السّين حرفٌ يختصّ بالمضارع، ويُخلّصُه للاستقبال، وهو حَرفُ تَوَسُّعٍ، أي: أنّ السّين بدخولها على الفعل المضارع الذي يُفيد الاستمرارَ (يقولون)، نقلتِ استمرارَ قولهم مِنَ الزَّمن الضّيّق - وهو الحال - إلى الزَّمن الواسع، وهو الاستقبال، أي: أنّ إقرارَهم لا يَختصّ بالزَّمن الضّيّق، وهو الحال فقط، وإنّما هو مستمرٌّ منهم، إذ لا يستطيعون إنكارَ أنّ اللّه تعالى هو الذي خلقهم، وهو الذي يُدبِّر أمرَهم، وإنَّما كانوا يتّخذونَ الشُّركاء للزُّلْفَى، كما حكى القرآنُ عنهم في قوله: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۖ﴾ [الزّخرف: 87]، وفي قوله سبحانَه حكايةً عنهم: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزّمر: 3][3].

ويمكن أن تكون السّين في الآية للاستمرار لا للاستقبال؛ إذ إنّ السّين قد تأتي للاستمرار لا للاستقبال، كقوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/156.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/141.
(3) طنطاويّ، التَّفسير الوسيط: 7/64.

﴿ٱلسُّفَهَآءُ﴾؛ لأنّ اعترافَهم بما ذكرتْهُ الآيةُ موجودٌ قبلَ نزولها، وقال ابن هشام: "وهذا لا يعرفه النّحويون، بل الاستمرار مُستفادٌ مِنَ المضارع، والسّين باقية على الاستقبال؛ إذِ الاستمرار إنّما يكون في المستقبل"[1].

وتفيد السين أنّ الجواب غيرُ حاضر في أذهانهم، ومِن ثَمَّ احتاجوا معه إلى مُحاجّةٍ ومناظرةٍ، بخلاف قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [لقمان: 25]، فإنّه تضمّن أنّ إيمانَهم بأنّ الله ﷻ هو الذي خلق السّماواتِ والأرضَ إيمانٌ حاضِرٌ في أذهانهم، وثابتٌ في عقيدتهم، لا يحتاج محاجّة ولا مناظرة، فجوابُ السّؤال عنه جاهزٌ لديهم، ولذا جاء التّعبير الذي يُعَبّرون به بصيغة: ﴿لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾.

إيثار التّعبير عن فاعل ما تقدَّم باسمه الأعظم:

فِطْرتُهم نَطقتْ وأقرّتْ بأنَّ الله لهُ الكمالُ كلُّه بالحياةِ والقيّوميّةِ

في قوله تعالى: ﴿فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ﴾ آثرَ البيانُ الإلهيُّ التّعبير عن فاعل ما تقدَّم بالاسم الأعظم الجليل (الله)، دونَ غيره مِنَ الأسماء الحُسنى؛ لأنّ اسمَ (الله) هو اسمُ الذّاتِ الذي يَجمَعُ كلَّ صفاتِ الكمال، أي: فسيقولون الله الذي له الكمالُ كلُّه بالحياة والقَيوميّة[2]، وهو الذي اختَصّ به سبحانَه دونما سِواه، لأنّهم يقولون: (إله) و(ربّ) لغير الله.

توجيه إعراب لفظ الجلالة:

إذا تساوى الإثباتُ والحَذفُ، فالحَذفُ أبلغُ

الاسمُ الجليل ﴿ٱللَّهُ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ﴾ مبتدأٌ، والخبر محذوف، وقد حُذِف الخبرُ جَوازًا؛ لأنّه جاء في جواب الاستفهام عنِ الأسئلة التي سبقت، وذلك للإيجاز والاختصار؛ إذ دَلَّ عليه دليلٌ، ولم يَتأثَّرِ المعنى بحذْفِه، فكان الإيجاز أبلغَ، والتّقدير:

(1) السُّيوطيُّ، الإتقان في علوم القرآن: 2/233.
(2) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 9/113.

فسيقولون اللّه وَحدَه هو الذي فعل كلَّ ذلك، أي: جاء الخبر مُتَعدِّدًا لكلّ الأسئلة التي مرّت.

دلالة فاء ﴿فَقُلْ﴾:

(الفاءُ) في قوله تعالى: ﴿فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ تحتمل ثلاثة أوجه؛ الأوَّل: التّعقيب، أي: لترتيب ما بعدَها على ما قبلَها، فَتَرتَّبَ على إقرارِهم بقولهم: (اللّه) دعوتهُم إلى تقوى اللّه، والإحساسِ بجلاله، وتجنبِ ما لا يرضيه[1]. الثّاني: فاءُ الفَصيحَة؛ لأنّها أفصَحَتْ عن شرط مُقَدّر، أي: إنْ قالوا ذلك فقلْ أفلا تتقون[2]. الثّالث: السّببيّة، "أي: فتَسبَّبَ عن ذلك أنّنا نقول لك: قل لهم مُسَبّبًا عن جوابهم هذا الإنكار عليهم في عدم التَّقوى: ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾"[3].

إقرارُ المشركين بألوهيَّة الله يترتَّبُ عليه دَعوتُهم إلى تجنُّبِ الإشراكِ به

وعلى الأوجه الثّلاثة هناك تَرتُّب أمرٌ على أمر، أي: تَرتّبَتْ دعوتُهم إلى تَجنُّبِ الإشراكِ به على إقرارِ المشركين بأُلوهيَّة اللّه سبحانَه.

توجيه التَّعبير بالاستفهام في: ﴿أَفَلَا﴾:

الاستفهام في قوله: ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ استفهامٌ توبيخيٌّ، يتضمَّنُ إنكارَ واقعِهم الذَّميم، وهمزة هذا الاستفهام الإنكاريِّ داخلةٌ على كلام مُقَدَّرٍ، والفاءُ عاطفةٌ على ذلك المحذوف، وتُعْرَف بالفاء الفَصيحَة، تقديره: فقل لهم يا محمَّد عند ذلك تبكيتًا لهم، ووعظًا وتذكيرًا؛ أَتَعْلَمون وتَعْتَرفون بأنَّ اللّه تعالى هو الخالق لكلِّ ما سبق، ومع ذلك تُشْرِكون معَه آلهةً في العبادة، فلا تتَّقون سَخَطه وعقابَه لكم، بشركِكُم وعبادتِكُم لغيره، ممَّن لا يملك لكم ضَرًّا ولا نَفعًا[4]، وفيه - فَضْلًا عن إنكار عدم التَّقوى - الحَثُّ على التّقوى والتّرغيب بها[5].

إنكارٌ حَمَلَ معنى التّبكيت والوعظ والتّذكير للمُشركين؛ ليتداركوا سَخَطَ الله

(1) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 7/3561.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/157.
(3) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 9/113.
(4) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/141، والهرري، حدائق الرَّوح والرَّيحان: 12/221، وطنطاويّ، التَّفسير الوسيط: 7/64.
(5) المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 2/45.

وقد سمَّى ابنُ عاشور هذه الفاء فاءَ التَّفريع، والمعنى: يَتفرَّع على اعترافكم بأنّه الفاعلُ الواحد؛ إنكارُ عدمِ التَّقْوَى عليكم[1].

دلالة التّعبير عنِ التّقوى بالمضارع:

إقرارُ المشركين بنِعَمِ اللهِ العظيمة يستلزمُ منهم التّقوى، وعدمَ الانفكاك عنها

عبَّر القرآنُ عن التّقوى في قوله تعالى: ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ بصيغة المضارع؛ للدّلالة على وجوب الاستمرار والتّجدّد، والتّكرار للتّقوى منهم في كلّ ما يتعلَّقُ بهم؛ لأنّ التّقوى تستلزم الممارسةَ، فهي حالةٌ نفسيّة، وعادةٌ سلوكيَّة، تترسَّخ في القلب والنَّفس باستمرار الممارسة.

وجه حَذْفِ متعلّق التّقوى في: ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾:

العمومُ يُفصِحُ عن كُنْهِ المطلوبِ منهم تَجنُّبُه

حَذفَ القرآنُ الكريم متعلّقَ التّقوى، أي: مفعولَ قولِه: ﴿تَتَّقُونَ﴾؛ لأمور؛ الأوَّل: إفادةُ العموم، أي: يَعُمّ كلَّ ما يجب أن يتّقوه ويتجنّبوه من عذاب اللّه وغضبِه وسَخطِه في الدّنيا والآخرة، ومِن كلّ أنواع السّيّئات؛ مِنَ الكفر والمعاصي بأنواعها، وهذا أبلغ مِن ذِكْر المفعول به؛ لأنَّه يؤدّي إلى تخصيص بعضٍ ممّا يجب تجنُّبه، ولا سيَّما أنّ ألفاظ الآية الكريمة تمتاز بوفرة الدّلالة على نِعمٍ لا بدَّ أن يتّقوا عذابَ الكفر بكلّ واحدةٍ منها. الثّاني: مراعاةُ الفاصلة التي قبلَها ﴿يَفْتَرُونَ﴾، والتي بعدَها ﴿تُصْرَفُونَ﴾، بما يُحقّق إحكامَ اللَّفظ، أي: التَّطريبَ وراحةَ النَّفس بنغمها الموافقِ للفاصلَتين المذكورتين؛ إذ خُتمتا بالواو والنّون، والواوُ من حروف المدّ التي هي مِنَ الحروف الطَّبيعيَّة في الموسيقى، وبما يُحقّق إحكامَ المعنى وإكماله؛ فضَياعُ ما كانوا يفترونَه يستلزمُ بعدَ إقامة الحُجَّة عليهم أن يكونوا مِنَ المتَّقين، لا أن ينصرفوا عنِ الحَقّ إلى الضَّلال بعد اعترافهم وإقرارهم. الثّالث: الاختصار؛ لشُهرته وظُهوره، فَذِكْره وحَذْفُه سواء، فيُحْتَرزُ عن ذِكْره اختصارًا.

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/157.

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الخَلْق والجَعْل والمِلْك:

الخَلْقُ تقديرٌ وإبداعٌ، والجَعْلُ تصييرٌ وتهيئة، والمِلْكُ قوَّة وانفرادٌ بالتَّصرف

(الخلق): تقديرُ الأشياء، وإيجادها على مثالٍ لم يُسبق إليه[1]، أي: إبداع الشّيء مِن غير أصل ولا احتذاء، كقوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾ [الأنعام: 1]، ويُسْتَعمل في إيجاد الشَّيء مِنَ الشَّيء[2]، والجَعْلُ: التَّهيئَةُ والصُّنْعُ، وتصييرُ الشَّيء مِن حالة إلى حالة[3].

وقد ذهب جمهور المفسّرين إلى أنّ (جعل) بمعنى (خلق)، إلّا أنّ الزّمخشريّ فرّق بينَهما فقال: "والفرق بينَ الخَلْق والجَعْل: أنّ الخَلْق فيه معنى التَّقدير، وفي الجعل معنى التَّضمين، أي: إنشاء شيء مِن شيء، أو تصيير شيء شيئًا، أو نقلُه مِن مكان إلى مكان...، وقولُه تعالى: ﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَۖ﴾ [الأنعام: 1] لأنَّ الظّلماتِ مِنَ الأَجْرام المتكاثِفَة، والنّورَ مِنَ النّار"[4].

نخلص ممّا سبق: إلى أنّ الاستعمال القرآنيَّ لكلمتي (خَلَق) و(جعل) يُظْهِر أنَّهما يَشتركان في معنى إحداث الشَّيء مِنَ الشّيء، ويَتَميّز لفظُ (الخلق) بمعنى: التّقدير والإبداع والأوليّة، في حين يَتميّز الجَعْلُ بمعنى التّصيير والتّهيئة، وكونه محصَّلًا مِن آخَر.

أمّا (المِلك): فيختلف معناه عنِ الخَلْق والجَعْل، إذ معنى المِلك في اللّغة: يدلّ على قوّة في الشَّيء وصِحَّة[5]، ومَلَكَ الشَّيء: حازه، وانفرد بالتّصرّف فيه، فهو مالك[6]. فمَن يَخْلُق ويَجْعَل يَملُك وينفرد بالتَّصرّف، يقول الشَّعراويُّ في معنى الخَلْق والجَعْل والملك: "الحقُّ

(1) ابن منظور، لسان العرب: (خلق).
(2) الرّاغب، المفردات، ص: 296.
(3) ابن منظور، لسان العرب: (جعل).
(4) الزَّمخشريُّ، الكشّاف: 2/3.
(5) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (ملك).
(6) الزَّبيديُّ، تاج العروس، ومجمع اللُّغة العربية بالقاهرة، المعجم الوسيط: (ملك).

ﷻ قد خلق المادّة أوّلًا، ثمّ جعل من المادة سمعًا وبصرًا، وزاد من بعد ذلك: ﴿أَمَّن يَمْلِكُ﴾، فمَن خَلَق هو الله تعالى، ومَن جَعَل هو الله تعالى، ومَن مَلَكَ هو الله تعالى"[1].

ومِن هنا فالتّعبير بملْكِيّة الله للسّمع والأبصار، لا بخلقهما أو جَعْلِهما؛ لأنَّ الملكِيّةَ تُطْلِقُ يدَ المالك في التّصرف فيما مَلَكَ، وأنّ الله سبحانَه وإنْ تفضّل بهما على الإنسان فهما لم يخرجا عن سلطانه، وأنّهما يعملان في الإنسان بقُدرة الخالق، وبتصريفه لهما[2]. فضلًا عمّا فيهما من استدلالٍ وتذكير بأنفعِ صُنعٍ وأدَقّه؛ لأنَّهما مِن صُنع المَلِك سبحانَه.

(1) الشّعراوي، تفسير الشّعراوي: 10/5910.
(2) الخطيب، التَّفسير القرآنيُّ للقرآن: 6/1000.

﴿فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلۡحَقُّۖ فَمَاذَا بَعۡدَ ٱلۡحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُۖ فَأَنَّىٰ تُصۡرَفُونَ ٣٢﴾ [يونس: 32]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

بعد أنْ بيَّن القرآنُ فسادَ معتقداتِ المشركين وما سيلقونَهُ مِنَ الجزاء، وقفَّى على ذلك بإقامة الحُجَج عليهم في إثبات التَّوحيد والبعث بقوله تعالى: ﴿قُلۡ مَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾، أردفَ ذلك بإثبات منهجِ اللّه الرّبِّ الحَقِّ، فقال سبحانَه: ﴿فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلۡحَقُّۖ فَمَاذَا بَعۡدَ ٱلۡحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُۖ﴾[1].

بعد إقامة الحُجَج على المشركين حَكَم الله بأن لا رَبَّ ولا حَقَّ سِواه

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تُصۡرَفُونَ﴾: الصّرف: رَجْعُ الشّيء[2]، وصَرَفَ الشّيء عن وَجْهه: ردَّهُ فانصرف، وصَرَفَ الشَّيء: أَعْمَله في غير وجهه، كأنّه يَصْرِفُه عن وجهٍ إلى وجه، وكلُّ (صَرَفَ) فيه معنى التّحويل، والحَرْفُ الذي تُعدَّى به يوجّه المعنى، والصّرف: الميل والتّقلُّب والحِيْلَة[3]، ومعنى ﴿تُصۡرَفُونَ﴾ في الآية: تستجيزون العدولَ عنِ الحقّ الظّاهر، وتقعون في الضّلال[4].

المَعْنى الإِجْمالِيُّ:

مِثل ما ثبتَ أنَّ اللّه تعالى هو الرَّبُّ الحَقّ، وأنّه ليس بعدَ الحقِّ إلّا الضَّلال، ثبتَ أيضًا الحُكْمُ والقضاءُ منه سبحانَه على الَّذين فَسَقوا عن أَمره، وعَموا وصَمّوا عنِ الحَقِّ، أنَّهم لا يؤمنون به؛ لأنَّهم إن يَروا سبيلَ الرُّشْدِ لا يتَّخذوه سبيلًا، وإن يروا سبيلَ الغَيِّ يتَّخذوه سبيلًا[5].

مَن بَعُدَ عن الله بَعُدَ الله عنه

(1) المراغيُّ، تفسير المراغيّ: 11/99.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (صرف).
(3) ابن منظور، لسان العرب، والزَّبيدي، تاج العروس، وجبل، المعجم الاشتقاقيُّ المؤصَّل: (صرف).
(4) القِنَّوجيّ، فتح البيان: 6/57.
(5) طنطاويّ، التَّفسير الوسيط: 7/65.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

نُكْتَة بَدْءِ الآية بالفاء ﴿فَذَٰلِكُمُ﴾، وأَهمّيتُها في الوصل:

جاءتِ الفاءُ في بدايةِ الآية؛ لتكونَ صِلَةَ الوصل بينَها وبينَ الآيةِ التي قبلَها: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾، ولِتُفيدَ التَّفريعَ على الإنكار الذي في قوله: ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾، فالمُفرَّعُ مِن جملةِ المَقول[1]، وكأنَّ الكلامَ متواصلٌ في الآيتين، أي: يأمرُ اللّه تعالى نبيَّه ﷺ أن يطلبَ منهم أن يكونوا مِنَ المتَّقين، وأن يخبرَهم أنّ الذي يفعل هذا كلَّه مِن رزقٍ وإحياءٍ وتدبيرٍ إنَّما هو اللّه ﷻ، وأنَّه هو سبحانَه الرَّبُّ وَحْدَه حقًّا وصِدقًا، ولا ربَّ سِواه، والوصل بالفاء لتعقيب البيان المؤكِّد لصفات الجلال والجمال والكمال في الآية السّابقة[2].

اللّه هو الرَّبُّ وَحْدَه حقًّا وصِدقًا، ولا ربَّ سِواه

هنا يأتي جمالُ التَّعبير القرآنيّ، فحيث ينفع الوصلُ يكون الوصل، وحيثُ ينفع الفصلُ يكون الفَصْلُ، فالفاء تحمل في طيّاتها معانيَ كثيرةً، وأسرارًا عديدة، وصَدقَ اللّه عندما قال: ﴿كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ﴾، فأُحْكِمت كلماتُه، وأُحْكِمت حروفُه، وأُحْكِم كلُّ شيء فيه.

بلاغة الفَذْلَكة في الآية:

أجمَلَ البيانُ الإلهيُّ في قوله تعالى: ﴿فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ﴾ المعنى المرادَ في عبارةٍ موجزةٍ، بعدَ بسْطِه في الآية السّابقة؛ ليكون هذا الإجمال تدليلًا على ما تقدّم؛ أي: ذلكم الذي اعترفتُم باتّصافه بالنُّعوت المذكورةِ مِنَ الرّزق، ومُلْكِ السّمع والأبصار، وإخراجِ الحيّ مِنَ الميّت، وإخراجِ الميّت مِنَ الحيّ، وتدبيرِ الأمر، إنَّما هو اللّه ربُّكم الحَقّ، أي: المربّي لكم بنِعَمِه، والمُدَبِّرُ لأموركم، الحَقُّ الثّابتُ بذاته؛ لأنَّه هو الحيّ القيّوم، الحيُّ بذاته، المحيي لغيره، القائِمُ بنفسه، المقيمُ لغيره[3].

الذي له الجلال والإكرامُ، هذه هي قُدرتُه وأفعالُه

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/158، وأبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 7/3561.
(2) المطعني، التَّفسير البلاغيُّ للاستفهام: 2/46.
(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/142، ورشيد رضا، تفسير المنار: 11/293، والشّعراوي، تفسير الشّعراوي: 10/5914.

بلاغة استخدام اسم الإشارة في: ﴿فَذَٰلِكُمُ﴾:

التَّنبيهُ إلى أنَّ نعمه ومواهبَه مِنَ الرّزق والخَلْق والتّدبير تنطِقُ بأحقيّة ألوهيّته وربوبيّته

اسمُ الإشارة (ذا) في قوله تعالى: ﴿فَذَٰلِكُمُ﴾ عائدٌ إلى اسم الجلالة ﴿ٱللَّهُ﴾؛ للتّنبيهِ على أنَّ المشارَ إليه جَديرٌ بالحُكم الذي سيُذْكر بعدَ اسم الإشارة، وهو الحَقُّ الثّابتُ الرُّبوبيَّةِ المستوجِبَةِ للعبادة، لا أصنامُكم المربوبةُ الباطلة، مِن أَجْلِ الأوصافِ المتقدّمَةِ على اسم الإشارة، وهي كونُه الرّازقَ، الواهِبَ الإدراكَ، الخالقَ المدبرَ[1]. فضلًا عمّا فيه مِن بيانٍ لعلوِّ شأنه جلّ في عُلاه[2].

وفي مجيء اسمِ الإشارة بالجَمع إيماءٌ إلى أنَّ الحُكمَ الذي يأتي بعدَه مُعَلّلٌ بمجموعِ الأوصاف المتقدِّمَة[3]، وكذلك يمكن أن يُفَسَّرَ الخطابُ في اسم الإشارة للجمعِ؛ لأنّه لا يخاطَب به النَّبيُّ ﷺ وَحْدَه، إنَّما يُخاطَبُ به النّاسُ أجمعين، وخصوصًا المشركين؛ لأنَّهم الذين أَقرّوا بالخَلْق وضَلّوا في العبادة.

بلاغةُ التَّصريحِ باسمِ الجلالة والإخبار عنه بالرُّبوبيَّة:

تعريضٌ بالمشركين وأربابِهم الباطلةِ، وتقريرٌ بأنَّه هو الرّبُّ الحقُّ المدبّرُ المُحْسِنُ

جاء الاسم الجليل ﴿ٱللَّهُ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ﴾ صريحًا ومنطوقًا به، وليس مُشارًا إليه أو مُضْمَرًا؛ زيادةً في الإيضاح، وتعريضًا بقوّةِ خَطَئِهم وضَلالِهم في الإلهيّة، ولِيُقَرِّر أنَّ فاعل ذلك كُلِّه هو اللّه الحَقّ، يَحقّ له الرُّبوبيَّةُ والأُلوهيَّة[4]، ولأنّه موقفُ مَهابةٍ وتعظيمٍ وانتصارٍ للحَقّ وحُجَجِه، فناسَبَه ذِكْرُ الاسمِ الأعظم الجامع لكلّ صفات الجلال والجمال والكمال؛ تربيَةً لمهابته في النّفوس[5].

---

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/53، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/158، وأبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 7/3562.

(2) المطعني، التَّفسير البلاغيّ للاستفهام: 2/46.

(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/158، وأبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 7/3562.

(4) النَّسفيُّ، التَّيسير في التَّفسير: 8/62، الآلوسي، روح المعاني: 6/105، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/158، وأبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 7/3562.

(5) المطعني، التَّفسير البلاغيّ للاستفهام: 2/46.

وسواء كان إعرابُ الاسم الجليل صِفةً لـ ﴿فَذَٰلِكُمُ﴾، و﴿رَبُّكُمُ﴾ خبرًا، و﴿ٱلۡحَقُّۖ﴾ خبرًا بعد خبر، أو خبرًا لـ ﴿فَذَٰلِكُمُ﴾، و﴿رَبُّكُمُ﴾ بدلًا منه، أو بيانًا لـ ﴿فَذَٰلِكُمُ﴾، و﴿ٱلۡحَقُّۖ﴾ صفةَ الرَّبّ، أي: مالِكُكُم، فالمحصّلَة: أنَّ التَّصريحَ جاء بيانًا، وموضِحًا ومُزيلًا لكلِّ لَبْسٍ، أو تَعارضٍ، أو تَداخُلٍ، مع مُسَمّياتٍ أُخْرَى يُطْلَق عليها اسمُ الرَّبِّ أو الإله.

وكما أنَّ البيانَ الإلهيَّ مع التَّصريح بالاسم الجليل، أخبرَ عنِ الاسم الجليل بأنَّه الرّبُّ الحَقّ؛ إشارةً إلى أنّ إطلاق المشركين لفظَ (الرّبِّ) على معبوداتهم المكذوبة مِنَ اللّات والعُزّى وهُبَل وغيرِها، وكذا إطلاقُ النَّصارى المُثَلِّثين هذا اللَّفظ على المسيح عليه السلام، هو ادِّعاءٌ كاذبٌ يدُلُّ على انحرافٍ في الفِكْر، وبُطْلانٍ في الاعتقاد، فالرَّبُّ حقًّا وصِدقًا هو اللّه تعالى وَحْدَه[1].

ولذلك رَجّح القونَويّ أنْ يكون اسمُ الجلال ﴿ٱللَّهُ﴾ صفةً، و﴿رَبُّكُمُ﴾ هو الخبر، فقال: "المستَحِقُّ للعبادة هو ربُّكُم، أشارَ - أي: البيضاويّ - إلى لفظةِ الجلالِ صفةً لا خبرًا، والخبرُ ﴿رَبُّكُمُ﴾ الثّابتُ رُبوبيّتُه؛ لأنَّهُ الذي أنشأكُم وأحياكُم ورزقَكُم ودَبَّر أمورَكم"[2].

بلاغةُ توكيدِ الوصْفِ بالمصدر المؤكِّد:

مِن وجوه توجيه كلمة ﴿ٱلۡحَقُّۖ﴾ من قول تعالى: ﴿رَبُّكُمُ ٱلۡحَقُّۖ﴾ أنَّها تأكيدٌ لمعنى الرُّبوبيَّة، وأنّه جاء بصيغة المصدر لِيُفيدَ الاستمرارَ والخصوصيَّةَ والاستئثارَ بهذا الوَصفِ، ونسبةَ الحَقيَّةِ له لا لغيره، ولِيُدَلّلَ على أنَّ الرُّبوبيَّةَ والعبادةَ متلازمتان تلازُمًا لا يقبل الانفصالَ، فالرَّبُّ حقًّا هو المعبودُ وَحْدَه، المنفَرِدُ بالخَلْق، وهو المنفَرِد بالعبوديَّة، فلا إلهَ غيرُه[3].

وَصْفُ الرُّبوبيةِ وَصْفٌ لله وَحْدَه، وهو وَصْفٌ ثابتٌ وواجبٌ

(1) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 7/3562.
(2) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويِّ: 9/453.
(3) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 7/3561.

وقد ثَبتَ عنِ ابن عبّاس ﵄ أنّ النَّبيَّ ﷺ كان إذا قام إلى الصّلاة مِن جَوْف اللَّيل قال: «اللهمَّ لكَ الحَمدُ، أنتَ رَبُّ السَّماواتِ والأرضِ، لكَ الحَمدُ، أنتَ قيِّمُ السَّماواتِ والْأَرْضِ وَمَنْ فيهنَّ، لَكَ الْحَمدُ، أَنْتَ نورُ السَّماوات والْأَرْضِ، قَوْلُكَ الْحَقُّ، وَوَعْدُكَ الْحَقُّ، وَلِقاؤُكَ حَقٌّ، والْجَنَّةُ حَقٌّ، والنّارُ حَقٌّ، والسّاعَةُ حَقٌّ، اللهمَّ لَكَ أَسْلَمتُ، وَبِكَ آمَنْتُ، وَعَلَيْكَ تَوَكَّلْتُ، وَإِلَيْكَ أَنَبْتُ، وَبِكَ خاصَمتُ، وَإِلَيْكَ حاكَمتُ، فاغْفِرْ لي ما قَدَّمتُ وَما أَخَّرْتُ، وَأَسْرَرْتُ وَأَعْلَنْتُ، أَنْتَ إِلَهي، لا إِلَهَ لي غَيْرُكَ»[1]، "فقولُه: أنتَ الحَقُّ، أي: الواجبُ الوُجودِ، وأصْلُه مِن حَقَّ الشَّيءُ: إذا ثَبَتَ وَوَجَبَ، وهذا الوصفُ للّه تعالى بالحقيقة، إذ وُجودُه بنفسه لم يسبقْهُ عَدَمٌ، ولا يَلْحَقُهُ عدمٌ، وما عَداه ممّا يقال عليه هذا الاسمُ مسبوقٌ بعَدَمٍ، ويجوز عليه لحاقُ العَدَمِ، ووجودُه مِن موجِده لا مِن نفسه"[2].

نكتة الوصل بحرف الفاء في: ﴿فَمَاذَا﴾:

(الفاء) في قوله تعالى: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾ عاطفةٌ، تفيد التّعقيب، أي: جاءت لترتيب ما بعدَها على ما قبلَها، أي: إذا كان اللّه هو الخالق وَحْدَه، وهو المدبّر للكون، وخالقُ القوى الإنسانيّة وغيرِها وَحْدَه، فهو الرّبُّ حقًّا وصدقًا[3]، وكلُّ معبودٍ غيرِه باطلٌ، وكلُّ منهجٍ غيرِ منهجِه خسارٌ، وكلُّ طريق غيرِ طريقِ رسولِه ﷺ ضياعٌ.

كلُّ معبود غير الخالق المدبر المحسن هو باطلٌ

بلاغة الاستفهام في: ﴿فَمَاذَا﴾:

أداةُ الاستفهام في قوله تعالى: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾ تحتمل وجهين؛ الأوّل: أداة الاستفهام (ماذا)؛ تركَّبَتْ من (ذا) مع (ما)، فصار مجموعُهما استفهامًا، وإعرابها مبتدأٌ، كأنّه قيل: أيُّ شيء؟ والخبر: ﴿بَعْدَ ٱلْحَقِّ﴾. الثّاني: أداة الاستفهام:

مَن يُخطِئ الحقَّ يقعُ في الضَّلال، ولا توسُّطَ بينَهما، حُكْمٌ لا يُنكرهُ عاقلٌ

(1) صحيح البخاريّ، كتاب الدَّعوات، باب: الدُّعاء إذا انتبه باللَّيل، الحديث رقم: (6317).
(2) طنطاويّ، التَّفسير الوسيط: 7/64.
(3) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 7/3561.

(ما)، وأمّا (ذا) فهي موصولة، ويكون ﴿بَعۡدَ ٱلۡحَقِّ﴾ كذلك خبر ما الاستفهاميّة، كأنّه قيل: ما الذي بعدَ الحَقّ؟ و ﴿بَعۡدَ﴾ صِلةٌ كذا، كما في قوله تعالى: ﴿مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلٗاۘ﴾ [البقرة: 26][1].

والاستفهام في الوجهين إنكاريٌّ، بمعنى: نفي الوقوع، وأنَّ ذلك فِكْرٌ لا يتصوَّرُه ويستنكِرُه العقلاءُ، ويُفيد التّقرير والتّوبيخ، والمعنى: أنَّه ليس بعد الحَقّ، وهو أنَّ الرّبَّ المعبود هو الله وَحْدَه، إلّا الضّلال، فالأمر إمّا حَقّ أو باطل، فمَن يُخطئِ الحقَّ يقع في الضَّلال، ولا تَوَسُّط بينَهما ممّا تَدَّعون مِن أوهام بأنّهم شُفعاءُ لله، فإنّ ذلك باطلٌ في ذاته، وأنَّه سبحانه لا يتَّخِذُ عندَه شفعاءَ لا ينفعونَ ولا يَضرون، وإن لم يكونوا حجارةً، فإنّ منزلتَهم مِنَ الله هي منزلةُ غيرِهم على سواء[2].

سرّ التّعبير: ﴿بَعۡدَ﴾:

دلَّت ﴿بَعۡدَ﴾ على أنّ الإنسان إذا تجاوز الحقّ وتخطّاه - أيَّ حقٍّ كان - وقع في الضّلال، فيُفْهَم منه أنَّ مَن تجاوز عبادةَ الله تعالى التي هي حَقٌّ مخصوصٌ وقعَ في الضَّلال الخاصّ، وهو عبادةُ غيرِ الله تعالى، إمّا على الانفراد وإمّا على الاشتراك، فإنّ عبادة الله تعالى مع عبادة غيره، هي عبادة غيرِه فقط، وبهذا البيان: ظهر ارتباط هذه بما قبلَها، وكذا الكلامُ في سائر الحَقّ المخصوص، فمن تَخطَّى ذلك الحَقَّ، وقع في الضَّلال الذي كان في مقابله[3].

مَن تجاوَزَ حَقَّ الله - وهو عبادته - وقعَ في الضّلال، وهو عبادةُ غيرِه

بلاغة الاستعارة في: ﴿بَعۡدَ﴾:

﴿بَعۡدَ﴾ هنا مستعملة في معنى (غير)، باعتبار أنّ المغاير يحصلُ إثْرَ مغايره وعند انتفائه. فالمعنى: ما الذي يكون إثْر انتفاء الحقّ؟

تصويرُ المعنى للقارئ كأنّه ينظرُ إلى الحَقّ، فيُنْقَشُ معناه في قلبه

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/53.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/53، وأبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 7/3562.
(3) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 9/453.

واستعمل البيانُ القرآنيُّ كلمةَ ﴿بَعۡدَ﴾؛ ليعطيَ تصويرًا بديعًا للسّامع؛ لأنَّ ﴿بَعۡدَ﴾ التي فيها معنى الزّمانيّة والمكانيّة يتحقّق فيها البُعدُ الزّمانيّ والمكانيّ عند الذي اتّخذ الضّلال، وسلك مسالِكَه، وكأنّه باتّخاذه الضَّلال منهجًا قد ابتعدَ عنِ الحَقّ في زمانه ومكانه، وكذلك معَ الاستفهام الإنكاريّ الذي ابتدأت به الجملة، وعقَّب بعدَها بإلّا التي تُفيد الحَصْر، وهذا المعنى لا تُعْطيه كلمةُ (غير).

فاستعارةُ ﴿بَعۡدَ﴾ لمعنى (غير) على سبيل الاستعارة التَّبعيّة؛ لأنَّ مَن تجاوز الحَقّ ارتمى في وادي الضَّلال[1].

براعة العدول إلى إظهار الحقّ دون إضماره:

غايةُ إظهارِ كلمةِ الحقّ تقريرُه وبيانُ عِظَم شأنِه بمقابلَتِه بضِدِه

إنّ النّاظر في الآية ربما يعتقد أنّ مجيء كلمةِ الحَقّ في قوله تعالى: ﴿رَبُّكُمُ ٱلۡحَقُّۖ﴾ يُغني عن تكرارها ﴿فَمَاذَا بَعۡدَ ٱلۡحَقِّ﴾ بأن يقول: فماذا بعده إلّا الضّلال؟ لكنَّ البيان القرآنيَّ عَدلَ إلى إظهار كلمة الحَقّ دون إضمارها؛ لأمرين:

الأوّل: مراعاةً للسّياق والسّباق؛ لأنَّ الآياتِ قبلُ وبعْدُ تتحدّث عنِ الحقِّ بكلّ أبعاده وإطلاقاته، ويُقابَلُ بهِ الباطلُ بكلِّ طُرقِه وضَلالاتِه، فكان الأبلغَ أن يُظهِر الحقَّ مِن حيثُ اللَّفظُ ومِن حيثُ الكلمات التي ترافِقُه والحُجَجُ، والآياتُ الدّامغة التي يحاجِجُ بها القرآنُ المشركين، وذلك زيادةً في تقريره وبيانِ أهميَّته، ومُراعاةً لكمالِ المقابلةِ بينَه وبينَ الضَّلالِ[2]، فاللّه الحَقُّ؛ فكلُّ معبودٍ سواه باطلٌ، ورسلُه الحَقُّ؛ فكُلُّ ما يناقض ذلك باطلٌ، ووحْيُهُ الحقُّ؛ فكلُّ ما خالفه باطل، والعبوديَّةُ له هي الحَقّ؛ فكلُّ عبوديَّةٍ لغيره باطلةٌ.

الثّاني: أن يكون المرادُ بلفظة ﴿ٱلۡحَقِّ﴾ الثّانيَة غيرَ الأولى، أي: الحقُّ الأوَّل هو اللّه، والثّاني هو توحيدُه، وبذلك يكون المعنى: فماذا

(1) المطعني، التَّفسير البلاغيّ للاستفهام: 2/46.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/142.

بعدَ الحقِّ، وهو توحيد اللّه، أي: عبادة مَن هو منعوتٌ بما ذُكِرَ مِنَ النُّعوتِ الجميلةِ إلّا الضَّلال المحضُ، وهو ما عداها مِن عبادة الأصنام، وأمّا على اعتبار أنّ الحقَّ الثّاني عينُ الأوَّل، فالمعنى: فماذا بعدَ الرَّبِّ الحَقِّ الثّابتِ رُبوبيَّتُه إلّا الضّلالُ، أي: الباطلُ الضّائعُ المضمَحِلُّ، وهو الأصنام[1].

بلاغة الاستثناء بـ: ﴿إِلَّا﴾:

دلالة (إلا) بعدَ الاستفهامِ الإنكاريّ هي حَصْرُ الضَّلال بانتفاءِ الحَقّ

الاستثناءُ بـ ﴿إِلَّا﴾ في قوله: ﴿إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾؛ أفادَ معنى الحَصْر؛ لأنّه سُبق باستفهام إنكاريٍّ في معنى النَّفي، إذِ الاستفهامُ ﴿فَمَاذَا﴾ ليس على حقيقته؛ لأنَّه لا تَردُّدَ في المستَفْهَم عنه، كأنَّه قيل: ما بعدَ الحَقّ إلّا الضّلال، أو لا يكون إثْر انتفاءِ الحَقّ إلّا الضّلال؛ فالحَقّ والضّلال لا واسطةَ بينَهما، إذ هما نقيضان، فمَن يُخطِئِ الحقَّ وقعَ في الضّلال[2].

بلاغة الاستعارة في: ﴿بَعۡدَ ٱلۡحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾:

صورةٌ مُنفِّرةٌ لتاركِ الحَقِّ الذي لا يتخطّاه إلّا وقعَ في شَرَكِ الضَّلال

تَكْمُنُ الاستعارةُ في قوله تعالى: ﴿فَمَاذَا بَعۡدَ ٱلۡحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾، في ﴿بَعۡدَ ٱلۡحَقِّ﴾ إذ إنَّ ﴿بَعۡدَ﴾ فيها معنى الزَّمانيّة والمكانيّة، أي: كأنّ الحَقَّ أخذَ حَيّزًا مِنَ المكان، وصار الذي يتركُهُ، وينتقلُ إلى غيره كأنَّه انتقل مِن مكان إلى غيره على سبيل الاستعارة، وليس الحقيقةِ، بمعنى أنَّ مَن تَخطَّى الحَقَّ الذي هو عبادةُ اللّه تعالى، وقعَ في الضَّلال[3]. و﴿ٱلضَّلَٰلُ﴾ في الآية عبادةُ الأصنام، وإنّما سُمِّيَت ضَلالًا مع كَونها مِن أعمال الجوارح؛ باعتبار ابتنائها على ما هو ضلالٌ مِنَ الاعتقاد والرَّأي[4].

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/142.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/53، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/158 - 159.
(3) البيضاويُّ، أنوار التَّنزيل وأسرار التَّأويل: 3/112، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/142.
(4) إسماعيل حقّي، روح البيان: 4/43.

وجهُ القَصْر في: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾:

القَصْر في قوله تعالى: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾ هو قَصْرٌ بالنَّفي والاستثناء، ذلك أنَّ (ماذا) استفهامٌ إنكاريٌّ غيرُ حقيقيٍّ، في معنى النَّفي؛ إذ مِن أغراضِ الاستفهام البلاغيَّةِ النَّفيُ، أي المعنى: ما يكون بعدَ الحَقِّ إلّا الضَّلال.

التَّأكيد على أنَّ المعبودَ الحَقَّ واحدٌ لا يتعدَّدُ، وضِدَّه الباطلُ

والغرضُ البلاغِيُّ مِن هذا القَصْر: هو حَصْرٌ يؤكِّد أنّه ليس غيرُ الحَقِّ إلّا الضّلال، ونفيُ أن يكون غيرَ ذلك، ويترتّبُ على هذا القَصْر أنّه لـمّا كان اللّه هو الرّبَّ الحَقَّ؛ تَعيَّن أنَّ غيرَه ممّا نُسبت إليه الإلهيَّة باطلٌ[1].

بلاغةُ الاحتباكِ في: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾:

الاحتباكُ فَنٌّ بديعيٌّ له أغراضٌ بلاغيّةٌ، يُحدِّدُها سياقُ الكلام، وتمثَّل الاحتباكُ في قوله تعالى: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾؛ إذ إنّ إثباتَ الحَقِّ أوَّلًا يدلّ على أنّ ما يقابِلُه هو الباطلُ الذي لم يَذْكُره، وإثباتُ الضّلال ثانيًا يدلُّ على أنَّ ما يقابله هو الهدى، والتَّقديرُ: فماذا بعدَ الحَقِّ إلّا الباطلُ؟ وماذا بعدَ الهُدى إلّا الضَّلال؟.

الاحتباكُ حُسنُ إيجازٍ في التّعبير، وبيانُ أنَّ الحقَّ والباطلَ نقيضان لا يجتمعان

وتكْمُنُ بلاغةُ هذا الاحتباكِ في حُسنِ الإيجاز في التَّعبير وجماله؛ إذ حُذِف مِنَ المتقابلَين ما دلّ عليه مقابلُه في الآخر، ولو لم يكن هناك احتباكٌ في الآية لجاءت: (فماذا بعد الحقّ إلّا الباطل، وبعد الهدى إلّا الضّلال)، فيظهر الكلامُ ركيكًا ضعيفًا، تنزَّه كلامُ ربّنا عن ذلك.

ويُفيد هذا الاحتباك أيضًا أنّ الواسطة بينَ الطّرفين المتضادَّين المتناقضين ممنوعةٌ كالعقائد، فالذي يفعل الأمور التي سبق ذكرها، مِن أحوال الرّزق والخَلْق والتَّدبير، هو الرّبّ الحَقّ، فالقول بربوبيّة

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/159.

ما سواه باطل، وهو الإله الذي يُعبد بحقّ، وعبادتُه وَحْدَه هي الهدى، فما سواها مِن عبادة الشّركاء والوسطاء ضلالٌ، فكلُّ مَن يعبد غيرَه معه فهو مُشركٌ مبطلٌ ضالٌّ.

وبذلك يكون أسلوبُ الاحتباكِ قد أفاد قاعدةً من قواعد العقائد الدّينيّة وأصولِ التَّشريع والعلم، وهي: أنّ الحقّ والباطل فيهما ضِدّان لا يجتمعان، وأنّ الهُدى والضّلال ضِدّان لا يجتمعان، ولهذا الأصل فروعٌ كثيرة في الدّين والعلم العَقليّ[1].

نكتة مجيء الفاء ودلالتها في: ﴿فَأَنَّىٰ﴾:

(الفاء) في قوله تعالى: ﴿فَأَنَّىٰ تُصۡرَفُونَ﴾ عاطفةٌ تُفيد التّعقيبَ، جاءت لترتيب ما بعدَها على ما قبلَها، والبَدءُ بها هنا يعطي سُرعةً وحركةً في توبيخِ حال المشركين، واستبعادِ واقعهم المخزي وإنكارِه، وهذه السّرعة يستشعر بها القارئ.

بعدَ ظهورِ الحقِّ لا يَحْسُنُ التّأخّرُ عنِ الاعترافِ به، بل يقْبُحُ

والمعنى: إذا كان الله هو الرّبُّ حقًّا وصدقًا، وكلُّ معبودٍ غيرِه باطلٌ، فكيف بعد هذا تُصرفون عنه وتَبتعدون؟ هل هذا يفعله عاقلٌ يُعمل عقلَه.

بلاغة الاستفهام بـ (أنّى):

(أنّى) في قوله تعالى: ﴿فَأَنَّىٰ تُصۡرَفُونَ﴾ اسمُ استفهامٍ بمعنى كيف، تدلّ على الحال، وقد تُشْرَب معنى الاستبعاد، بحسب اقتضاء المقام ذلك[2]، والاستفهامُ بها في الآية: إنكاريٌّ تعجّبيٌّ توبيخيّ؛ أي: لإنكار حالهم وواقعهم المخزي، واستبعاده والتّعجّب منه، والمعنى: فكيف تُصرَفون وتتحوَّلون عنِ الحقّ إلى الضّلال، بعد اعترافكم وإقراركم بأنّ خالقَكم ورازقَكُم ومُدَبِّرَ أمرِكم هو الله وَحْدَه[3].

دلالةُ (أنّى) الإنكارُ والاستبعادُ والتّعجّبُ من حال المشركين وواقعهم المخزي

(1) رشيد رضا، تفسير المنار: 11/293 - 293.
(2) ابن نور الدِّين، مصابيح المغاني في حروف المعاني، ص: 73.
(3) طنطاويّ، التَّفسير الوسيط: 7/65.

ثُمّ إنّ في دخول أداة الاستفهام (أنّى) - التي أفادتِ الإنكارَ - على الفعل ﴿تُصْرَفُونَ﴾ الذي مادَتُه (صرف)، دون فعل (تَحوُّلهم) عنِ الحقّ إلى الضّلال، فيه مِنَ المبالغة ما ليس في توجيه الإنكارِ إلى الفعلِ نفسِهِ؛ لأنَّ كلَّ موجودٍ لا بدَّ من أن يكون وُجودُه على حال منَ الأحوال قطعًا، فإذا انتفى جميعُ أحوال وجودِه فقدِ انتفى وجودُه على الطّريق البُرهانيّ[1].

سِرُّ التَّعبيرِ بالمضارعِ المبني للمفعول: ﴿تُصْرَفُونَ﴾:

في إيثارِ صيغةِ المبنيِّ للمفعول في قوله تعالى: ﴿تُصْرَفُونَ﴾ أمور؛ أحدها: إفادة أنَّ الانصرافَ مِنَ الحقِّ إلى الضَّلالِ ممّا لا يَصدُرُ عنِ العاقلِ بإرادتِه، وإنَّما يقَعُ عندَ وُقوعِه مِن جهةِ صارفٍ خارجيٍّ[2]، وهذا فيه توبيخٌ لهم؛ إذ إنَّهم لـمّا عَطّلوا عقولَهم، واتّبعوا أهواءَهم أصبح حالُهم حالَ المقهورين في فعل ما هم عليه؛ لأنَّهم تابعون للهلاك المحض، تاركون للأدلّة التي لا خفاء في شيء منها، ومعلوم أنّه لا يترك أحدٌ الدّليلَ في الفيافي العَطِشَة - الذي إنْ تركه هَلَكَ - إلّا قَهْرًا[3]. وثانيها: تركيزُ الانتباه على الحدثِ ذاته، أي: المفعول وهو الانصراف عنِ الحقّ، وحصرُ الوعي فيه، فلا يتوزّع في غيره؛ وذلك لبشاعة هذا الفعل، وهو الانصراف عنِ اللّه وتوحيدِه، إلى عبادة شياطينهم. وثالثها: إفادةُ العموم، ليشمل الصّوارف كلّها، "من صارفٍ ما، كائنًا ما كان"[4]، من نفوسهم الخبيثة، أو من شياطين الإنس والجن. ورابعها: في البناء للمفعول وحذف الفاعل إشارةٌ إلى شناعة هذا الفعل، واستبعاده، لدرجة أنّه لا يكاد يوجد له فاعل يُنسَب إليه[5].

الصّوارفُ كثيرةٌ، والانصرافُ عنِ الحَقّ بَشِعٌ، والمنصرفون كَمَن لا عَقلَ له

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/142.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/142.
(3) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 16/459.
(4) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 9/114.
(5) المطعني، التَّفسير البلاغيّ للاستفهام: 2/46.

وجه التّوفيق بينَ: ﴿فَأَنَّىٰ تُصۡرَفُونَ﴾، وما جاء في سورتي: المدثر، والأعراف:

الخَلْقُ دائِرون بين عدلِ الله سبحانَه وحُجَّتِه عليهم

كيف يوجِّه إنكارُ الله على المشركين الانصرافَ عنه والإعراضَ في قوله تعالى: ﴿فَأَنَّىٰ تُصۡرَفُونَ﴾ أي: تتحوَّلون وتُعرضون عنِ الحَقّ، وقولِه: ﴿فَمَا لَهُمۡ عَنِ ٱلتَّذۡكِرَةِ مُعۡرِضِينَ ۝٤٩﴾ [المدثر: 49]، وقولِه: ﴿سَأَصۡرِفُ عَنۡ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَإِن يَرَوۡاْ كُلَّ ءَايَةٖ لَّا يُؤۡمِنُواْ بِهَا﴾ [الأعراف: 146]؟ مِن حيثُ أنّ الصّارف: هو مَن يَنْعَى عليهم ذلك؟

الجواب: بأنّه سبحانَه يَنْعَى عليهم إعراضَهم عنِ الحَقّ بعدَما مَكَّنهم وفتحَ لهم البابَ، ونهجَ لهم الطّريقَ، وهيّأَ لهمُ الأسبابَ؛ فأرسل إليهم رُسُلَه، وأنزل عليهم كُتبَه، ودعاهم على أَلسنةِ رُسُله، وجَعَلَ لهم عقولًا تُميِّز بينَ الخير والشَّر، والنّافع والضّار، وأسبابِ الرّدى وأسبابِ الفلاح، وجعلَ لهم أسماعًا وأبصارًا.

ولكنَّهم آثَروا الهوى على التّقوى، واستحبّوا العَمى على الهُدى، وقالوا: معصيتُكَ آثرُ عندنا مِن طاعتك، والشّركُ أحبُّ إلينا مِن توحيدك، وعبادةُ سِواكَ أنفعُ لنا في دنيانا مِن عبادتك، فأعرضت قلوبُهم عن ربّهم وخالقهم ومليكهم، وانصرفت عن طاعته ومحبّته، فهذا عدلُه فيهم، وتلك حُجَّتُه عليهم. فهو لم يصرفهم عنِ الحَقِّ، بل دعاهم إليه، وأنكر عليهم إعراضَهم، فقال: ﴿فَأَنَّىٰ تُصۡرَفُونَ﴾، وقال: ﴿فَمَا لَهُمۡ عَنِ ٱلتَّذۡكِرَةِ مُعۡرِضِينَ ۝٤٩﴾ [المدثر: 49].

ولكنَّه سبحانَه لمّا سَدّوا عن أنفسهم بابَ الهدى إرادةً منهم واختيارًا، سَدَّه عليهم اضطرارًا، فخلّاهم وما اختاروا لأنفسهم، وأدخلهم مِنَ الباب الذي استَبَقوا إليه، وأغلق عنهم البابَ الذي تَوَلَّوا عنه، وهم معرضون، فلا أقبحَ مِن فعلهم، ولا أَحْسنَ مِن فعله سبحانَه، فقال: ﴿سَأَصۡرِفُ عَنۡ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَإِن يَرَوۡاْ كُلَّ ءَايَةٖ لَّا يُؤۡمِنُواْ بِهَا﴾ [الأعراف: 146][1].

(1) ابن القيم، التَّفسير القيّم، ص: 314.

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الصّرف والإفك والكَذب:

تتقارب هذه الألفاظُ في دلالاتها، فجميعُها تشترك في معنى رَدِّ الشَّيء وتغييره، إلّا أنّنا إذا رجعنا إلى المعنى اللّغوي لكلٍّ منها، وإلى الاستعمال القرآنيِّ نَلْحَظ أنّ بينها فروقًا دقيقة تميِّز كلَّ لفظٍ مِنَ الآخر، بحسب ما سيأتي:

الصّرفُ مطلقُ الرّدِّ والتّحويل، والإفكُ قلبُ الحقائق بالكذب، والكذبُ نقيضُ الصدق

(الصَّرف): رَجْعُ الشّيء، وإعمالُه في غير وجهه، كأنّه يَصْرِفه عن وَجهٍ إلى وجه، وفيه معنى التّحويل، والحَرفُ الذي تعدَّى به يوجّه المعنى، وهو: الميل والتَّقلّب والحِيلَة[1].

أمّا (الإفك): فالصّرف عنِ الأمر بالكذب والباطل[2]، وقلبُ الشّيء وصَرفُه عن جهته التي يحقّ أن يكون عليها[3]، كالصّرف عنِ الحقّ في الاعتقاد إلى الباطل، ومِنَ الصّدق في المقال إلى الكذب، ومِنَ الجميل في الفعل إلى القبيح[4]، وأُطلِق الإفكُ في الاستعمال القرآنيّ على الكذب المتعَمَّد الفاحش القُبْح، مثل: الكذب على اللّه ورسوله، ومثل: قذف المحصنات، وسُمِّي الكذبُ إفكًا؛ لكونه مصروفًا عنِ الحَقّ، ولأنّ الكاذب يُخبِر بقضيَّةٍ تُخالف الواقعَ، فيأتي بها على غير وجهها[5].

و(الكَذِبُ): خِلاف الصِّدق[6]، وكَذَبَ: أخبرَ بخلاف ما هو عليه في الواقع[7].

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (صرف)، وابن منظور، لسان العرب، والزَّبيدي، تاج العروس، وجبل، المعجم الاشتقاقيُّ المؤصَّل: (صرف).
(2) الخليل، العين: (أفك).
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (أفك)، والفيروزباديّ، بصائر ذوي التَّمييز: 2/101.
(4) الرّاغب، المفردات، ص: 24.
(5) البغويُّ، معالم التَّنزيل: 3/392، والشّعراوي، تفسير الشّعراوي: 18/11541.
(6) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (كذب).
(7) مجمع اللُّغة العربيَّة في القاهرة، المعجم الوسيط: (كذب).

فالصَّرف: يُسْتَعمل لمطلق التّحويل والرّدِّ، ولا يَلْزَم أن يكون الصّرف دائمًا هو الرّدُّ إلى الكذب أو الباطل؛ إذ قد يعني إعمالَ الشّيء في غير وجهه، ومن هنا اصطُفيَ في الآية الكريمة لدلالته على معنى: العدول عنِ الحقّ الظّاهر، والوقوع في الضَّلال، فهو توجيهٌ للعمل في غير وجهه.

﴿كَذَٰلِكَ حَقَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓاْ أَنَّهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ٣٣﴾ [يونس: 33]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

لمّا كان المشركون جديرين عند تقريرهم بالآية السّابقة: ﴿فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلۡحَقُّۖ فَمَاذَا بَعۡدَ ٱلۡحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُۖ فَأَنَّىٰ تُصۡرَفُونَ﴾، وإقرارِهم بمضمونها بأن يقولوا: سَلَّمنا فأَسْلَمنا، ولا نُصْرَف عنِ الحقّ أبدًا، فلمّا لم يقولوا، كانوا حقيقين بأنْ يُقال لهم: ﴿كَذَٰلِكَ حَقَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓاْ أَنَّهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾، أي: حقّت عليكم كلمةُ اللّه؛ لفسقِكُم وزَوَغانِكم عنِ الحَقّ[1].

مَن ينصرفُ عنِ الحَقِّ بعدَ إقامةِ الحُجّة جديرٌ بالطَّرد مِن رحمة الله

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿حَقَّتۡ﴾: أصلُ (حقَّ): يدلُّ على إحكامِ الشَّيءِ وصِحَّتِه[2]، يُقال: حَقَّ الشَّيْءُ، يَحِقُّ، حَقًّا: إذا ثَبَتَ ولزِمَ[3]. ويأْتي الحَقُّ بمعنى الصَّحيح، وضِدُّهُ: الباطِلُ[4]. والحَقيقَةُ: الشَّيْءُ الصَّحيحُ يَقينًا[5]. وتَحَقَّقَ الأَمرُ: إذا صَحَّ. والمراد بـ ﴿حَقَّتۡ﴾ في الآية: وجَبَتْ وثَبَتَتْ.

المَعْنى الإجْماليُّ:

لمّا ثبت أنَّ اللّه تعالى هو الرَّبُّ الحقُّ، وأنّه ليس بعد الحقِّ إلّا الضَّلال، ثبتَ أيضًا الحُكم والقضاء منه سبحانَه على الَّذين فسقوا عن أَمره، وعَمّوا وصَمّوا عنِ الحقِّ، أنَّهم لا يؤمنون به؛ لأنَّهم إنْ يرَوا سبيلَ الرُّشْد لا يتَّخذوه سبيلًا، وإن يرَوا سبيلَ الغَيِّ يتَّخذوه سبيلًا[6].

كلمة اللّه سبحانَه حَقّةٌ بعدم إيمان الفاسقين

(1) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 9/114.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (حق).
(3) الخليل، العين، والأزهريُّ، تهذيب اللُّغة: (حق).
(4) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (حق).
(5) مجمع اللغة العربية في القاهرة، المعجم الوسيط: (حق).
(6) طنطاويّ، التَّفسير الوسيط: 7/65.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغة التَّشبيه في: ﴿كَذَٰلِكَ حَقَّتۡ﴾:

لما حَقّ اختيارُ الضّلالِ والعصيان منهم، حَقّت كلمةُ العذاب عليهم

ابتدأ قولُه تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ حَقَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ بالكافِ، وهي حرف جرّ، مِن أشهر معانيه التّشبيه؛ للدّلالة على أنّ الآية مرتبطةٌ وموصولةٌ بالآية التي قبلَها: ﴿فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلۡحَقُّۖ﴾، وتُفيد التَّشبيه بأحد معنين؛ الأوّل: أنّه كما ثبتَ وحَقَّ أنَّه ليس بعدَ الحقّ الذي هو اللّه إلّا الضّلال، الذي هو أصنامهم، كذلك حَقّت كلمةُ ربِّك بأنّ الذين فسقوا لا يؤمنون. الآخر: كما حَقّ صدورُ العصيان منهم، كذلك حَقّتْ كلمةُ العذاب عليهم[1].

فالمشبه به إما أن يكون (أنّه ليس بعد الحق إلا الضلال) والمشبه هو (حقّت كلمة ربك..) أو أنّ المشبه به (هو حق صدور العصيان منهم)، والمشبه هو (حق العذاب عليهم)[2]، وكلما كان الانتقال بالتشبيه من الشيء نفسه إلى شيء طريف يشبهه بعيدًا قليل الخطور بالبال، أو ممتزجًا بقليل أو كثير من الخيال، كان التشبيه أروع للنفس، وأدعى إلى إعجابها واهتزازها، وهذا ما نراه في هذه الآية جليًّا واضحًا.

لما تأبَّوا عن تَرْك عبادةِ الأوثان، خُتِم عليهم بوصف عدمِ الإيمان

وفي هذا التّشبيه استمرارٌ وتطبيقٌ للقاعدة القرآنيّةِ: ﴿وَٱلَّذِينَ كَسَبُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةِۭ بِمِثۡلِهَا﴾ [يونس: 27] التي مرَّت في الآيات السّابقة، فكَما أنَّهم اختاروا الضّلال، وهو الأوثان، وكفروا بالحقّ سبحانه، وابتعدوا عنِ الهدى والإيمان، ولم يتركوا عبادةَ الأوثان، وهو أصل العصيان، فقد استَحَقّوا وَصْفَ عدم الإيمان وصار مُلازِمًا لهم، وخُتِم عليهم به، وصار قولًا حقًّا لا يأتيه الباطلُ، ولا يعتريه شَكٌّ، ومن ثَمّ فإنّ جزاء الذين لا يؤمنون النّارُ وبئسَ المصيرُ، لا لأنّه

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 17/274.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/159.

يمنعُهم مِنَ الإيمان، فهذه دلائِلُه قائمةٌ في الكون، وهذه مُقَدّماتُه قائمة في اعتقادهم، ولكن لأنَّهم يحيدون عنِ الطَّريق الموصِل إلى الإيمان، ويَجْحَدون المقدّمات التي في أيديهم، ويَصرفون أنفسَهم عنِ الدّلائل المشهودة لهم، ويُعَطّلون منطقَ الفطرة القويمِ فيهم. فمعنى: ﴿كَذَٰلِكَ﴾: "أي: كما كانت صفاتُ اللّه كما وصف، وعبادتُهُ واجبةً كما تَقَرّر، وانصرافُ هؤلاء كما قُدِّرَ عليهم، واكتسبوا كذلك حَقَّت كلمةُ ربِّك"[1]، باستحقاقهم وَصَفَ عدمِ الإيمان وملازمته لهم، وخُتِم عليهم به، وصار قولًا حقًّا لا يأتيه الباطل.

دلالة اسم الإشارة في: ﴿كَذَٰلِكَ﴾:

اسمُ الإشارة (ذلك) في قوله: ﴿كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ يحمل معنيين وَفْقَ المشار إليه؛ الأوَّل: أنّه إشارةٌ إلى ما تقدّم مِن رزقِ اللّه تعالى للبشر جميعًا، ومِن مِلْك السّمعِ والبصر، ومِن إخراج الحيّ مِنَ الميّت، وإخراجِ الميّت مِنَ الحيّ، ومِن تدبيرِ الأمرِ كلِّه، ذلك هو الإله الحقّ سبحانَه، الذي أثبته بسؤاله تعالى هذا السّؤال: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾ [يونس: 32] الذي عَلِم مُقدَّمًا ألّا إجابةَ لهُ إلّا بالاعترافِ به إلهًا حقًّا[2]. الآخَر: أنّه إشارةٌ إلى ضلالهم بعد أنْ قامتِ البيّناتُ القاطِعَةُ في الخَلْق والتّكوين، وإقرارِهم بأنّ اللّه الخالقُ وَحْدَه، لا خالقَ سِواه، ثمّ بعد ذلك ينحرفون مِن غير سبب إلى ضلالهم، أي: أنّه كهذه الحال التي رأيتموها: ﴿حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓاْ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾[3].

يحمل اسمُ الإشارة (ذلك) معنى الرّزق، ومعنى ضلالِهم

سِرّ التّعبير عنِ (الحَقّ) بالماضي: ﴿حَقَّتْ﴾:

أتى التّعبير القرآنيُّ بلفظ (الحَقّ) بصيغة الماضي: ﴿حَقَّتْ﴾؛ ليُدلِّل على أنّ الأمر قد تمَّ وانتهى، وأنّه لا رجعةَ فيه ولا تبديلَ ولا

لما أصرّوا على فِسقهم وكُفرهم ثبتَ عليهم وصفُ الفسق ولازَمَهم

(1) ابن عطية، المحرَّر الوجيز: 3/118، وينظر: الزَّمخشريُّ، الكشّاف: 2/345.
(2) الشّعراوي، تفسير الشّعراوي: 10/5915.
(3) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 7/3563.

تغيير، أي: كما أنَّهم أَصَرّوا على العِناد والكُفر، وإنكارِ هذه الآيات، وانحرفوا وفَسَقوا، واستمرّوا على فِسْقِهم وكُفْرهم، ثبتَ عليهم وَصْفُ الفِسْق؛ ليناسبَ فِعْلَهم وعِنادَهم، وليكونَ الجزاءُ مساويًا فعلَهم، ومُتماشيًا مع جريمتهم، ولِيُفيدَ أنَّهم قد خرجوا عنِ الطّاعة، وكفروا وكذّبوا وتمرّدوا في فسقهم، حتَّى وصلوا إلى الحَدّ الأقصى فيه[1]، وبذلك حَقّتْ عليهم كلمةُ اللّه التي لا تبديلَ فيها، وهي ﴿أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي: انتفاء الإيمان.

دلالة لفظ الكلمة في: ﴿حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾:

يحتمل المراد مِن كلمة اللّه في قوله: ﴿حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ أربعة أوجه:

الأوَّل: إخباره عن ذلك، وخبرُ اللّه صِدقٌ لا يقبل التّغيرَ والزّوالَ.

الثّاني: عِلْمُه بذلك، وعِلْمُه لا يقبل التّغيرَ والجهلَ. ومتعَلّق ﴿كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ سواء كان عِلْمَه أو خبَرَه هو انتفاء الإيمان عنِ المشركين؛ لأنّ قوله: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ بدلٌ من ﴿كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ بدلَ كلٍّ مِن كلّ؛ أي: حَقَّت كلمةُ ربِّك التي هي عدمُ إيمانهم، ولو حصل الإيمانُ لانقلبَ عِلْمُه سبحانَه جهلًا، وخَبرُه الصّدقُ كذبًا، وذلك محال[2].

كلمةُ اللّه هي علمُه وخبرُه بانتفاء إيمان المشركين، وحُجَجُه عليهم، وحُكْمُه بعذابهم

الثّالث: حُكْمُ اللّه وقضاؤُه عليهم بالعذاب[3]. وعلى هذا المعنى: تكون الجملةُ تعليليَّةً لما قبلَها، بتقدير اللّام؛ أي: حَقَّت عليهم كلمةُ ربِّكَ، التي هي دخولُ جهنَّم؛ لأنَّهم لا يؤمنون[4].

الرّابع: حُجَجُ ربِّكَ وبراهينُه على الذين فَسَقوا[5].

وهذه المعاني التي تحملها لفظةُ ﴿كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ تدلّ على اتّساع

(1) القرطبيُّ، الجامع لأحكام القرآن: 8/340، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/142.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 17/247 - 248.
(3) لقوله تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود: 119]، يُنظر: الهرريّ، تفسير حدائق الرَّوح والرَّيحان: 12/222.
(4) الهرريُّ، تفسير حدائق الرَّوح والرَّيحان: 12/222.
(5) الماتريديُّ، تأويلات أهل السنَّة: 6/39.

دلالةِ الكلمة القرآنيَّة، وهو وجه مِن أوجه الإعجاز؛ إذِ الإعجازُ في الإيجاز.

توجيهُ قراءةِ جمعِ (كلمة):

قرأ نافع وابن عامر: (كَلِماتُ رَبِّكَ) بالجمع، وقرأَها الباقون بالإفراد: ﴿كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾[1]، وقراءة الجَمع ظاهِرة؛ لأنَّ كَلِماته تعالى مَتْبوعة بالنِّسْبة إلى الأمر، أي: متعدّدة بتَعَدّد الأمر والنَّهْي، والوَعْد، والوعيد[2].

كلماتُ ربِّكِ عظيمةٌ لا تنفَد، وهي متعدّدةٌ لا تَناقُضَ بينَها

ولا تناقُضَ بين قراءة الجمع: (كلمات)، وقراءة الإفراد: ﴿كَلِمَتُ﴾؛ لأنَّه لا شَيء مِن كلماتِهِ يُناقضُ الكلمةَ التي أَوجبت عذابَهم، بل كلُّها توافقُها، فالمرادُ واحد[3].

ولأنَّ الكلمةَ تُطْلَق على مجموع الكلام، كقوله تعالى: ﴿كَلَّآۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَاۖ﴾ [المؤمنون: 100]، ويُراد بها الجِنْسُ، وهو نظير: (رسالته) و(رسالاته)[4].

ولأنّ الجمع يكونُ باعتبار تَعدّد الكلمات، أو باعتبار تكرّر الكلمة الواحدة بالنّسبة لأناس كثيرين[5]، وفي هذا إشارة إلى عظمته سبحانَه بتعدُّد كلماته التي لا تنفَد، قال تعالى: ﴿مَّا نَفِدَتۡ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِۚ﴾ [لقمان: 27]، وعظمتُه بشمول كلمتِه للنّاس أجمعين.

بلاغة الكناية في قراءة جمع الكلمة في: (كَلِماتُ):

في قراءة الجمع: (كَلِماتُ رَبِّكَ) كنايَةٌ عن أنّ عذابَهم دائمٌ؛ فإنَّ كلماتِه لا تَنفَد، قال تعالى: ﴿مَّا نَفِدَتۡ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِۚ﴾ [لقمان: 27]، أي: حقَّ عذابُ اللّه الدّائم على كلّ الذين فعلوا فعلَهم؛ لأنّهم فَسقوا،

كلماتُ اللّه لا تَنفَدُ، وعذابُه للمشركين ولِمَن فعلَ فِعْلَهم دائمٌ لا يحول ولا يَزول

(1) ابن الجزريّ، النَّشر في القراءات العشر: 2/130.
(2) ابن عادل الدِّمشقيّ، اللُّباب في علوم الكتاب: 8/395.
(3) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 9/114.
(4) السَّمين الحلبيُّ، الدُّر المصون: 5/125.
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/160.

أي: أوقعوا التَّرك لأمر اللّه، وأَوْجَدوا عصيانَه، وفعلوا الخُروجَ عن طريق الحَقّ، والخروجَ عن دائرة الصّلاح، وهو كونهم أُمَّةً واحدةً، إلى دين أبيهم آدمَ [1] عليه السلام.

نُكْتَةُ نسبةِ الرُّبوبيّة إلى ضمير الخطاب:

في غَمرةِ التَّهديدِ والوعيدِ تأتي البُشْرى بالتَّأييدِ

نسب البيانُ القرآنيُّ الرّبوبيّة إلى كاف الخطاب؛ فقال: ﴿كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾، ولم يقل: (كلمة اللّه)؛ لأمور التّنبيه على ما يريد اللّه بالنّبيّ ﷺ مِنَ التّشريف والإكرام والإحسان والتّدبير له، أي: المدبّر لأمرك، "المحسنُ إليك بإهلاك أعدائك"[2]. وذلك في ظِلّ الحديث عن إعراض المشركين، وتَعنُّتهم وتمسّكهم بمذهبهم الفاسد، برغم إقامة الحُجَج عليهم، وعن ملازمتهم الفِسقَ، الذي اقتضى حُكْمَ اللّه فيهم بالعذاب الدّائم.

والنُّكْتَةُ هنا: أنّه في غَمرة التَّهديد والوعيد للكافرين بحقيقة كلمة اللّه فيهم مِنَ العذاب والوعيد، وانتفاءِ الإيمان عنِ المشركين، والتَّأييس للكافرين مِن رحمته سبحانه، يكون التَّطمينُ والبُشرى بالتَّأييد والتَّسلية والتَّدبير للنَّبيّ الأعظم صلّى اللّه عليه وآله وسلّم.

دلالة: ﴿عَلَى﴾:

كلمةُ اللّه مُتَمَكّنةٌ مِنَ الفاسقين، فلا يُفْلِتُ منها أَحدٌ

اصطُفِيَ حرفُ الجرّ ﴿عَلَى﴾ ليؤدّيَ معنى بلاغيًّا دقيقًا، وهو أنّ كلمةَ اللّه قد حقَّت عليهم مِن كلِّ جانب، واستعْلَتْ عليهم، وتمكّنَتْ منهم، بحيث لا تغادِر أحدًا، ولا يستطيع أحدٌ أن يُفلِتَ أو يُستَثْنَى مِن كلمة اللّه، أي: مِنِ انتفاءِ الإيمانِ عنهم، ومِن حُكْمه بالعذاب، ومِن حُجَجِه وبَراهينه.

فائدة وَضْع ﴿ٱلَّذِينَ﴾ موضع الضَّمير:

وضع البيانُ القرآنيُّ: ﴿ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓاْ﴾ موضعَ الضَّمير

(1) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 9/114.
(2) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 9/114.

في قوله: ﴿حَقَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓاْ﴾، فلم يقل (عليهم)؛ لأمرين:

فسقُهم عِلّةٌ في حقوقِ كلمةِ اللـه عليهم، وهو حُكمٌ عامّ لكلِّ مَنِ استمرّ على فِسْقِه

الأوَّل: لإفادة العموم؛ إذ لو عبّر بـ (عليهم) لاختَصّ بالمُتحَدَّث عنهم في الآيات، ومن ثمَّ يكون المراد بـ ﴿ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓاْ﴾ كلَّ مَنِ استمرَّ على فِسْقِه فلم يؤمِنْ، فتكون الجملةُ تذييلًا لِما فيها مِنَ العموم الشّامل.

الآخَر: يجوز أن يكون المرادُ بـ ﴿ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓاْ﴾ المُتَحَدَّثَ عنهم خاصّةً، فيكون مِنَ الإظهار في مقام الإضمار؛ لإفادة أنّهم مع صفاتهم السّابقة قدِ اتَّصفوا بالفِسْق، ولإفادة كَونِ فِسْقِهم عِلَّةً في أنْ حقّتْ عليهم كلمةُ اللّه[1].

سِرُّ التَّعبير عنِ الفِسق بالماضي المجموع:

لمّا تحقّق الكفرُ مِنَ المشركين، واجتمعوا عليه؛ استَحَقّوا كلمةَ الله فيهم

عبّر البيانُ الإلهيُّ عنِ الفِسْق في قوله تعالى: ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓاْ﴾ بصيغة الماضي؛ للدّلالة على تَحقُّقِ الفِسْقِ منهم، وأنّهم لا يتَجَدّدُ منهم إيمانٌ في الحاضر ولا في المستقبل، الذي دلَّت عليه صيغةُ المضارع في الجملة التي بعدَها: ﴿أَنَّهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾[2].

وعبّر بصيغة الجمعِ لبيان أنّهم اجتمعوا واتَّفقوا على هذا الفِسْق، يَحُثُّ بعضهم بعضًا، ويُضِلّ بعضُهم بعضًا، ترغيبًا وترهيبًا، وفيها إشارةٌ إلى أثر البيئة الفاسدة في فساد الأفراد والمجتمعات، وأنَّهم لـمّا اجتمعوا على الفِسْق استحقّوا كلمةَ اللّه فيهم كلِّهم، وهي انتفاءُ الإيمان عنهم جميعًا: ﴿أَنَّهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾.

ولذلك فَسَّرها البقاعيُّ بعِدَّة تعبيراتٍ تَدُلّ على تَحقُّق وقوعِ الفِسْق منهم، واجتماعِهم عليه، فقال: "﴿فَسَقُوٓاْ﴾ أي: أوقعوا التَّركَ

(1) حاشية الطِّيبيّ على الكشّاف: 7/481، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/160.
(2) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 9/115.

لأمر اللّه، وأَوْجَدوا عصيانَه، وفَعلوا الخروجَ عن طريق الحَقّ، والخروجَ عن دائرة الصّلاح"[1].

نُكْتَةُ التّعبير بالفِسْق: ﴿فَسَقُوٓاْ﴾:

بانحرافِ المشركين عن فطرةِ الدّينِ الحقِّ استَحَقّوا مُسَمًّى تنفر النَّفسُ منه

عبّر النَّظمُ القرآنيُّ عنِ الكفر بمادة الفسق في قوله تعالى: ﴿فَسَقُوٓاْ﴾؛ مراعاةً لسياقِ الآيات التي تتحدّث عن خروج المُتَحَدَّثِ عنهم، وهم المشركون عن دائرة الدّين الحَقّ، في قوله: ﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخۡتَلَفُواْۚ﴾ [يونس: 19]، وهذا المعنى أَحَقُّ بالتّعبير للفِسْق الذي أَصْلُه الخروجُ عن محيطٍ، في قولهم: فَسَقَتِ الرُّطْبة عن قِشْرها، أي: خرجت عنِ المسلك الذي شأنُ الشّيء سُلوكُهُ، والمراد به: فسقوا عن تَلَقِّي دعوةِ الرّسل وإعمالِ النَّظر[2]، وهذا هو الكُفْر بعينه.

وفي هذا التَّعبير إشارةٌ إلى انحرافهم عنِ الحَقّ، وعنِ الفطرة التي خلق اللّه الخَلْقَ عليها، ممّا فيه تنفيرٌ للنّفس السّليمةِ الطّباع.

جملة اسميّة خبرُها فِعْلٌ منفيٌّ في الآية:

انتفاءُ الإيمان عنِ المشركين ثابتٌ دائمٌ مُتَجَدّدٌ مُسْتَمِرٌّ لا انقطاعَ له

عبّر البيانُ الإلهيُّ بالجملة الاسميّة التي خبرُها فعلٌ مضارع منفيٌّ: ﴿لَا يُؤۡمِنُونَ﴾؛ لإفادة تحقُّقِ نفي الإيمان عنِ المشركين، ودوام هذا النَّفي واستمرارِه؛ فقد أفاد التَّعبيرُ بالجملة الاسميَّة: ﴿أَنَّهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ الثّبوتَ والدّوامَ، وأفاد خبرُها الذي جاء بصيغة المضارع المنفي: ﴿لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ الاستمرارَ التَّجَدّدِيَّ؛ فانتفاءُ الإيمان عنهم ثابتٌ دائمٌ ومُسْتَمِرٌّ مُتَجَدِّدٌ.

نُكْتَةُ نفي الفعل المضارع في قوله: ﴿لَا يُؤۡمِنُونَ﴾:

تجدُّدُ واستمرارُ انتفاءِ الايمان عند المشركين أمرٌ مُلازمٌ لهم

أفاد دخولُ ﴿لَا﴾ النّافية على الفعل المضارع ﴿يُؤۡمِنُونَ﴾ استمرارَ انتفاءِ إيمانِ المشركين وتَجدُّده؛ لأنّ الفعل المضارع يُفيدُ الاستمرارَ،

(1) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 9/115.
(2) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 9/115، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/160.

"أي: لا يَتَجَدَّدُ منهم إيمانٌ أصلًا"[1]، ولذا كان تَجَدُّدُ انتفاءِ الإيمانِ عنِ المشركين عِلّةَ استحقاقِهم كلمةَ اللّه فيهم[2]. فكما أنَّهم فَسَقوا وانحرفوا، وصار وَصْفُ الفِسْقِ مُلازمًا لهم، فإنّ عدمَ الإيمان صار قرينًا لهم، ولا ينفك عنهم.

بلاغةُ التَّذييل في الآية:

استمرارُهم على الكُفْر معَ ظهورِ الآيـات، يُـؤْذِنُ بالعَجَبِ منهم، وبالتَّأييس مِن إيمانهم

تُعدُّ هذه الآية تذييلًا؛ للتَّعجيب مِنِ استمرار المشركين على الكُفر بعدَ ما ظَهر لهم مِنَ الحُجَجِ والآيات، وللتَّأييس مِن إيمانهم، بإفادة أنّ انتفاءَ الإيمان عنهم بتقدير مِنَ اللّه تعالى عليهم، فقد ظَهَر وقوعُ ما قَدّره مِن كَلِمَته في الأَزَل[3].

(1) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 9/115.
(2) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 9/115.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/159.

﴿قُلۡ هَلۡ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥۚ قُلِ ٱللَّهُ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥۖ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ ٣٤﴾ [يونس: 34]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الإحياءُ والإماتَةُ مِنْ شَأْنِ الله وحْدَهُ

الآيةُ الكريمَةُ احْتِجاجٌ آخَرُ على إثبات التَّوْحيدِ وبيانِ الدَّلائلِ على فسادِ عقيدتِهم ومذْهَبِهم: "لَمّا بَيَّنَ فضائِحَ عبَدَةِ الأوثانِ، أتْبَعَها بذِكْرِ الدَّلائِلِ على فسادِ مَذْهَبِهم بما يوَبِّخُهم، ويَحُجُّهم بما لا يُمكِنُ إلّا الاعْترافُ بهِ مِن حالِ رِزْقِهم وحَواسِّهم، وإظْهارِ القُدْرَةِ الباهِرَةِ في المَوْتِ والحَياةِ"[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿شُرَكَآئِكُم﴾: (شرك): يَدُلُّ أصْلُ المادَّة على المُقارَبَة[2]. والشُّركاءُ: جمعُ شَريكٍ وأصْلُهُ الشَّرِكَةُ. والمُشارَكةُ: خَلْطُ المِلْكَيْن. وقيلَ: هو أنْ يَشْتركَ اثْنانِ فأكْثر في شيْءٍ عيْنًا كانَ ذلك الشَّيْءُ أو مَعْنًى، كمُشارَكةِ الإنْسانِ والفَرَسِ في الحَيَوانيَّةِ، ومُشارَكةِ فرَسٍ وفَرَسٍ في بَعضِ الصِّفاتِ. والشِّرْكُ الأكْبرُ أنْ يُجْعَلَ لله فيه نِدٌّ وشَريكٌ[3]. والمُرادُ بالشُّركاءِ هُنا: الأوثانُ والأنْدادُ.

2) ﴿يُعِيدُهُۥۚ﴾: العَوْدُ: الرُّجوعُ إلى الشَّيْءِ بعدَ الانْصرافِ عنْهُ سَواءٌ كانَ انْصِرافًا بالذّاتِ، أو بالقَولِ والعَزيمَةِ[4]. نَحْو قوله تَعالى: ﴿وَلَوۡ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنۡهُ﴾ [الأنعام: 28] وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ [الرّوم: 27].

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/54.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (شرك).
(3) السَّمين الحلبيّ، عُمدة الحُفّاظ: (شرك).
(4) الرّاغبُ، المفردات: (عود).

3) ﴿تُؤْفَكُونَ﴾: يَدورُ أصْلُ المادَّةِ حَوْلَ الصَّرْفِ والقَلْبِ[1]، والأفّاكُ: الَّذي يَأْفِكُ النّاسَ أي يَصُدُّهُم عنِ الحَقِّ بباطِلِه. يُقال: أُفِكَ الرَّجلُ عنِ الخَيْرِ؛ أيْ: قُلِبَ عنْهُ وصُرِفَ. والمُؤْتَفِكاتُ: مَدائِنُ لوطٍ عليه السلام، سُمِّيَتْ بذَلِكَ لانْقِلابِها بالخَسْفِ. قال تَعالى: ﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ۝٥٣﴾ [النَّجم: 53]. والمعنى المُرادُ في الآيَةِ: فكَيْفَ تُصْرَفونَ عنِ الحَقِّ إلى الباطِلِ؟

المَعْنى الإجْماليُّ:

أفادَ الاسْتِفْهامُ الإنْكاريُّ تَفَرُّدَ اللهِ تَعالى بالإحْياءِ والإماتَةِ

يَأْمُرُ اللهُ تَعالى رَسولَهُ ﷺ بأنْ يَقولَ للمُشْرِكين: هلْ مِن أصْنامِكم ومَعْبوداتِكُم وأنْدادِكم مِن دونِ اللهِ تَعالى مَن يُنْشِئُ الخَلْقَ على غَيرِ مِثالٍ سابِقٍ، ثُمَّ يُعيدُهُ بَعد مَوتِه كَهَيْئَتِه الأولى؟ ويَأْمُرُ رَسولَهُ ﷺ بأنْ يُخْبِرَهُم بأنَّ اللهَ تَعالى وحْدَه هوَ الَّذي يُنْشِئُ الخَلْقَ، ثمَّ يُفْنيهِ، ثمَّ يَبْعَثُهُ.

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

مَوْقِعُ الجُملَةِ مِمّا قَبْلَها ودلالَتُه:

الفَصْلُ للإيذانِ باسْتِقْلالِ الجُملَةِ في إثْباتِ المَطْلوبِ

وَقَعتْ جُملةُ ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ اسْتِئْنافًا نَحْويًّا جَديدًا؛ لتَقْريرِ المُشْرِكينَ بالأُلوهيَّةِ، ونَسْفِ عقيدَتِهمُ الباطِلَةِ في آلِهَتِهمُ المَزْعومَةِ مِنَ الأوثانِ على طَريقَةِ التَّكْريرِ لقوله قَبْلَهُ: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [يونس: 31]. ولَم تُعْطَفْ على ما قَبْلَها، لكَمالِ الانْقِطاعِ إيذانًا باسْتِقْلالِها في إثْباتِ المَطْلوبِ[2].

سِرُّ التَّعْبيرِ بفِعْلِ الأمرِ ﴿قُلْ﴾:

إذا بَلَغَ المعنى الغايَةَ في الوضوحِ فلا حاجَةَ إلى إقْرارِ الخَصْمِ

﴿قُلْ﴾ هذا القَوْلُ "إمّا على طَريقِ التَّلْقينِ للمُشْرِكين وتَوجيهِهم كَيْفَ يُجيبونَ، وإرْشادِهِم إلى ما يَقولونَ، وإمّا لكَوْنِ هذا المعنى قد

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، وابن منظور، لسان العرب: (أفك).
(2) الآلوسِّي، روح المعاني: 11/113.

بَلَغَ في الوُضوحِ إلى غايَةٍ لا يُحْتاجُ مَعَها إلى إقْرارِ الخَصْمِ ومَعْرِفَةِ جَوابِه، وإمّا لكَوْنِ المُشْرِكينَ لا يَنْطِقونَ بما هوَ الصَّوابُ في هذا الجَوابِ، فِرارًا مِنهُم عنْ أنْ تَلْزَمَهُمُ الحُجَّةُ، أو أنْ يُسَجَّلَ عليْهِم بالعِنادِ والمُكابَرَةِ إنْ حادوا عنِ الحَقِّ[1]، ويَأْتي فِعْلُ الأمرِ هذا في القُرْآنِ الكَريمِ في قَضايا تَحْتاجُ إلى عِنايَةِ النَّبيِّ ﷺ ومُتابَعَتِه.

الغَرَضُ مِنَ التَّعْبيرِ بالِاسْتِفْهامِ المَجازيِّ بـ﴿هَلْ﴾:

كَشْفُ قَبيحِ ما انْطَوَتْ عَلَيْهِ عقائِدُ المُشْرِكينَ مِنْ عِبادَةِ ما لا يَصِحُّ مِنْهُ الخَلْقُ والإعادَةُ

الاسْتِفْهامُ مَجازيٌّ للإقْرارِ والتَّبْكيتِ، وقد أوثِرَتْ أداةُ الاسْتِفْهامِ ﴿هَلْ﴾ للإيذانِ باسْتِقْصاءِ التَّحْقيقِ مَعَ المُشْرِكين لدَحْضِ حُجَجِهِم، ونَسْفِ مَزاعِمِهم في الأُلوهيَّةِ في سُرْعةٍ خاطِفَةٍ وحَسْمٍ، السُّرْعَةُ الفَوْرِيَّةُ المُسْتَفادَةُ مِنَ الأمرِ بـ﴿قُلْ﴾، والحَسْمُ المُسْتَفادُ مِنْ أداةِ الاسْتِفْهامِ ﴿هَلْ﴾[2]، فالاسْتِفْهامُ إنْكاريٌّ تَوْبيخيٌّ لَهُم على اتِّخاذِهِمُ الشُّرَكاءَ.

دلالَةُ حَرْفِ الجَرِّ: ﴿مِن﴾:

تَوْجيهُ فِكْرِ المُخاطَبينَ؛ لِيَخْتَبِروا مَعْبوداتِهِم فُرادَى وجَمعًا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُم فسادُ مُعْتَقَدِهِم

أُثْبِتَ حَرْفُ الجَرِّ ﴿مِن﴾ في قَوْلِه: ﴿مِن شُرَكَآئِكُم﴾؛ للتَّعْميمِ ليَشْمَلَ العَجْزُ كُلَّ شُرَكائِهِم فردًا فرْدًا حَتّى يَشْمَلَ جَميعَ الشُّرَكاءِ ويَسْتَقْصيَهُم، وفي هذا إيحاءٌ للمُخاطَبين مِنَ المُشْرِكينَ بتَوْجيه فِكْرِهِم؛ ليَخْتَبِروا مَعْبوداتِهِم فُرادى وجَمعًا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُم فسادُ مُعتَقَدِهم، فتَلْزَمهُمُ الحُجَّةُ أو يَهْتَدوا[3]، ويُمكنُ أنْ تَكونَ ﴿مِن﴾ بَيانيَّةً لبَيانِ عجْزِهم وعَجْزِ كلِّ مَعْبوداتِهِم عن نَفْعِهِم.

سِرُّ إضافَةِ الشُّرَكاءِ إلى ضَميرِ الخِطابِ:

زِيادَةُ التَّبْكيتِ والتَّقْريعِ

المُرادُ بالشُّرَكاءِ في قوله: ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم﴾: الأصْنامُ. ووُصِفوا بالشُّرَكاءِ؛ لاعْتِقادِ المُخاطَبينَ ذَلِكَ؛ لذا أُضيفَ إلى

(1) الشّوكانيُّ، فتح القدير: 2/623.
(2) المطعنيّ، التَّفسير البلاغيّ للاستفهام: 2/51.
(3) المطعنيّ، التَّفسير البلاغيّ للاستفهام: 2/51.

ضَميرِهِم؛ أيْ: أنْتُم والَّذينَ زَعَمتُم أنَّهُم شُرَكاءُ. فإضافَةُ (شُرَكاء) إلى ضَميرِ المُخاطَبينَ اسْتِهزاءٌ بعُقولِ المُشْرِكينَ وتَهَكُّمٌ بَهِم.

سِرُّ التَّعْبيرِ بالاسْمِ المَوْصولِ ﴿مَّن﴾:

في الجُملةِ إبْطالٌ لدَعْوى المُخاطَبينَ فيما أشْرَكوا باللّه غَيْرَه، وعَبَدوا مِنَ الأصْنامِ والأنْدادِ. والتَّعْبيرُ بالاسْمِ المَوْصولِ للعاقِلِ في قوله: ﴿مَّن يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ﴾ دونَ (ما) جَرْيٌ وراءَ اعْتِقادِ المُشْرِكينَ في أصْنامِهِم بأنَّها تَنْفعُ وتَضُرُّ وتُدْرِكُ، وفي هذا تَبْكيتٌ لَهُم بإظْهارِ عجْزِها.

مُجاراةُ الخصْمِ بِمُعامَلَةِ أصْنامِهِم مُعامَلَةَ العُقَلاءِ

دلالَةُ التَّعْبيرِ بالفِعْلِ المُضارِعِ ﴿يَبۡدَؤُاْ﴾:

عُبِّرَ بالفِعْلِ المُضارِعِ في قَوْلِه: ﴿مَّن يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ﴾؛ لتَجَدُّدِ الخَلْقِ وحُدوثِهِ إلى قيامِ السّاعَةِ. و"لإفادَةِ اسْتِمرارِ البَدْءِ والإعادَةِ، كالزَّرْعِ في خَلْقِهِ وتَكْوينِهِ ثُمّ يَصيرُ حُطامًا، ثُمّ يُعادُ مَرَّةً أُخْرى"[1].

تَجَدُّدُ الخَلْقِ وحُدوثُهُ إلى قيامِ السّاعَةِ، واسْتِمرارُ البَدْءِ والإعادَةِ

عِلَّةُ إيثارِ كَلِمَةِ الخَلْقِ في: ﴿ٱلۡخَلۡقَ﴾:

أوثِرَ التَّعْبيرُ بـ﴿ٱلۡخَلۡقَ﴾ في قَوْلِه: ﴿مَّن يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ﴾ في هذا المَقامِ على نَظائِرِها - كالإنْشاءِ والجَعْلِ والصُّنْعِ والتَّدْبيرِ - لأنَّها أدَلُّ على كَمالِ قُدرَةِ اللّه تَعالى، وأقْوى في مَقامِ إثْباتِ عجْزِ آلِهةِ المُشْرِكينَ المَزعومَةِ مِنَ الأنْدادِ والأصْنامِ، لأنَّ الخَلْقَ في لُغَةِ العَرَبِ على وجْهَيْنِ: التَّقْديرِ، والإنْشاءِ على مِثالٍ أبْدَعَه. وكُلُّ شَيْءٍ خَلَقَهُ اللّه فهوَ مُبْتَدِئُهُ على غَيْرِ مِثالٍ سابِقٍ، وهوَ الَّذي أوجَدَ الأشْياءَ جَميعَها بعدَ أنْ لَم تَكُنْ مَوْجودَةً.

كَلِمَةُ (الخَلْق) أدَلُّ على كَمالِ قُدْرَةِ اللّه تَعالى، وأقْوى في مَقامِ إثْباتِ عجْزِ الأصْنامِ

دلالَةُ التَّعْبيرِ بالحَرْفِ ﴿ثُمَّ﴾:

عُبِّرَ بحَرْفِ التَّراخي ﴿ثُمَّ﴾ في قوله: ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ﴾، إمّا للتَّراخي الزَّمَنيِّ لوجودِ فاصِلٍ زَمنيٍّ بَيْنَ الخَلْقِ والإعادَةِ مِن خِلالِ مَراحِلِ تَكْوينِ الإنسانِ في بَطْنِ أُمِّه، وتَقَلُّبِه في مَراحِلِ عُمرِه إلى وفاتِه ثُمَّ إلى بَرْزَخِه، حَتّى إعادَته يومَ النُّشورِ، وإمّا للتَّراخي الرُّتْبيِّ لأنَّ

مَراحِلُ حَياةِ الإنْسانِ حَتّى وفاتِه يُناسِبُها التَّعْبيرُ بحَرْفِ التَّراخي

(1) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 7/3564.

الإعادَةَ مُتَراخيَةٌ عن بَدءِ الخَلْقِ رُتْبةً؛ لأنَّ القياسَ العَقْليَّ والنَّصَّ النَّقْليَّ يَقْتَضيانِ أنَّ الإعادَةَ أهْوَنُ مِنَ البَدْءِ.

نُكْتَةُ التَّعْبيرِ بالمَفْعولِ بِهِ ضَميرًا في: ﴿يُعِيدُهُۥٓ﴾:

الضَّميرُ يوجِزُ العِبارَةَ، ويُصَفّيها

في التَّعبيرِ بالمَفْعولِ بِهِ ضَميرًا في قوله: ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ﴾ دونَ أنْ يُقال: مَن يَبْدأُ الخَلْقَ ثُمَّ يُعيدُ الخَلْقَ إيجازٌ للعِبارَةِ، وتَصْفيَةٌ لَها بعدَمِ تَكْرارِ لَفْظِ المَفْعولِ بِهِ ثَلاثَ مَرّاتٍ؛ حَيْثُ أُعيدَتْ كَلِمةُ ﴿ٱلْخَلْقَ﴾ مرَّةً أُخْرى في الجَوابِ: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ﴾، فبَدَتِ الجُملةُ بهذا العُدولِ إلى الضَّميرِ رَشيقةً، تَسْتَعْذِبُ الآذانُ سَماعَها.

سِرُّ التَّلازُمِ بَيْنَ البَدْءِ والإعادَةِ مع إنْكارِهِمُ الإعادةَ:

عِنادُ المُشْرِكينَ، وإصْرارُهُم على اللَّجاجِ

يَتَبادَرُ في قوله: ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ﴾ سُؤالٌ مَفادُهُ: كَيْفَ يُخاطَبُ المُشْرِكون بما يُنْكِرونَهُ وهوَ الإعادَةُ؛ أيْ: البَعْث والنُّشور، وهُم غير مُقِرّين إلّا بالخَلْقِ؟ وقد أجابَ الزَّمَخْشريُّ عن هذا بقَولِه: "قد وُضِعتْ إعادةُ الخَلْقِ لظُهورِ بُرْهانِها مَوضعَ ما إنْ دَفَعَهُ دافِعٌ كانَ مُكابِرًا رادًّا للظّاهِرِ البَيِّنِ الَّذي لا مَدخَلَ للشُّبْهَةِ فيهِ، دلالَةً على أنَّهُم في إنْكارِهم لَها مُنْكِرونَ أمرًا مُسَلَّمًا مُعْتَرَفًا بصِحَّتِه عندَ العُقلاءِ"[1].

دلالَةُ الجَوابِ بـ﴿قُلِ﴾:

القَوْلُ المَأْمورُ بِهِ الرَّسولُ ﷺ قَطْعٌ لِلَجاجِ المُشْرِكينَ

أمَرَ اللّه تعالى رَسولَه ﷺ أنْ يُجيبَ عنِ المُشْرِكين في هذا المَوضعِ، قَطْعًا للَجاجِهم وعِنادِهم وجِدالِهم، وإصْرارِهم على المُكابرةِ عن قَولِ الحَقِّ فأجابَ عنهُم، وإمّا أنْ يكونَ هذا على طَريقِ التَّلْقينِ للمُخاطَبين وإرْشادِهم إلى الجَوابِ الصَّحيحِ، والقَولِ السَّديدِ، وإمّا لكَوْنِ هذا الجَوابِ قد بَلَغَ في الوُضوحِ إلى غايَةٍ لا يُحْتاجُ مَعَها إلى إقْرارِ الخَصْمِ ومَعْرِفَةِ جَوابِهِ[2].

(1) الزَّمخشريُّ، الكشّاف: 3/135، وشيخ زاده، حاشيته على تفسير البيضاويِّ: 4/568.
(2) الشَّوكانيُّ، فتح القدير: 2/623.

سِرُّ إعادَةِ غَيْرِ المَسْؤولِ عنْهُ ﴿يُعِيدُهُۥٓ﴾ في الجَوابِ المُلَقَّنِ:

الإيذانُ بتَعْيُّنِ الجَوابِ وتَحَقُّقِهِ

سِرُّ إعادَةِ غَيرِ المَسْؤولِ عنهُ في الجَوابِ في قوله تَعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ﴾ هوَ أنَّ القَوْلَ المَأْمورَ به الرَّسولُ ﷺ غَيْرُ ما أُريدَ مِنَ المُشْرِكين مِنَ الجَوابِ - وإنْ كانَ مُسْتَلْزِمًا لَه -، إذْ لَيْسَ المَسْؤول عنْه صراحةً ما نَصُّه: ﴿مَّن يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ﴾، كَما في قوله تَعالى: ﴿قُلۡ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ قُلِ ٱللَّهُۚ﴾ [الرَّعد: 16] ليُطابِقَ القَوْلُ المَأْمورُ به عيْنَ الجَوابِ الَّذي أُريدَ اسْتِنْطاقُهم به، ويَكون الرَّسولُ ﷺ نائِبًا عنْهم في ذَلِك الجَوابِ، بَلْ إنَّما المُرادُ هو وُجودُ مَن يَفْعَلُ البَدْءَ والإعادَةَ مِن شُرَكائِهم هُم، فالجَوابُ المَطْلوبُ مِنْهُم: (لا)، لا غَيْر؛ لذا أُمِرَ ﷺ بأنْ يُضَمِّنَهُ مَقالتَهُ إيذانًا بتَعَيُّنِ الجَوابِ وتَحَقُّقِهِ، وإشْعارًا بأنَّهُم لا يَجْتَرِئونَ على التَّصْريحِ به مَخافَةَ التَّبْكيتِ وإلْقامِ الحَجَرِ[1].

سِرُّ المَجيءِ بالجَوابِ جُملَةً اسْميَّةً:

أُعيدَتْ كَلِمَةُ الخَلْقِ صَراحَةً في الجَوابِ بَعْدَ ذِكْرِها في السُّؤالِ؛ لأنَّها مَحَطُّ التَّحَدّي

جُملَةٌ: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ﴾ جَوابٌ لقوله: ﴿قُلۡ هَلۡ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ﴾، وإنَّما أتى بالجَوابِ جُملَةً اسْميَّةً بتَمامِها، مُصَرَّحًا بجُزْأيها، مُعادًا فيها الخَبَرُ، مُطابِقًا لخَبَرِ اسْمِ الاسْتِفْهامِ؛ للمُبالَغَةِ في التَّأْكيدِ، والتَّثْبيتِ. ولما كانَ الاسْتِفْهامُ قَبْلَ هذا لا مَناصَ للمُشْرِكين عنِ الاعْتِرافِ به، جاءَ جُملةً مَحْذوفًا مِنْها أحَدُ جُزْأيها في قوله: ﴿فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُۚ﴾ [يونس: 31]، ولَم يَحْتَجْ إلى التَّأْكيدِ بتَصْريحِ جُزْأيها كَما في هذهِ الآيةِ الكَريمةِ[2].

بَلاغَةُ الإدْماجِ في الحِجاجِ بإعادَةِ كَلِمَةِ ﴿ٱلۡخَلۡقَ﴾:

مَناطُ التَّحَدّي إعادَةُ الخَلْقِ

أُعيدَتْ كَلِمةُ الخَلْقِ صَراحةً مرَّةً أُخْرى في الجَوابِ بَعْدَ ذِكْرِها في السُّؤالِ؛ لأنَّها مَحطُّ التَّحدّي، ولِما في الإظْهارِ مِن قوَّةِ الإشارَةِ

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 2/661، والآلوسيُّ، روح المعاني: 11/113.
(2) ابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 10/323.

على المعنى المُرادِ[1]. وأضافَ ابنُ عاشور أنَّ ذِكْرَ إعادَةِ الخَلْقِ في المَوْضعَيْنِ مَع أنَّهُم لا يَعْتَرِفون بها نَوعٌ مِنَ الإدْماجِ في الحِجاجِ[2].

دلالَةُ الفاءِ في: ﴿فَأَنَّىٰ﴾:

إنْكارُ جَوازِ قُدْرَةِ اللهِ تَعالى على الإعادَةِ جُنوحٌ إلى الكُفْرِ

تَدُلُّ الفاءُ في قوله: ﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ على تَرْتيبِ ما بَعْدَها على ما قَبْلَها، أي: السَّبَبيَّة، والتَّقديرُ: بسَبب عجْزِ آلِهَتِكم، وعظيم قُدْرةِ اللهِ تعالى فأيُّ اعْتقادٍ غَيْرِ الإقرارِ بوَحْدانيَّته سبحانَه ترْجَعونَ إليْه، وتُقْلبونَ؟ أو بَعْدَ أنْ عايَنْتُم مِن دلائلِ التَّوحيدِ القاهِرةِ فأيُّ مَكانٍ ترْتَدّون إليه؟[3].

الغَرَضُ مِنَ التَّعْبيرِ بالاسْتِفْهامِ المَجازيِّ في ﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾:

أفادَ الاسْتِفْهامُ الإنْكاريُّ تَوْبيخَهُم والنَّعْيَ عليْهِم

الاسْتِفْهامُ في قَولِه تَعالى: ﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ للإنكارِ، و(أنَّى) بمعنى: كيفَ، والمعْنى: كَيْفَ تُقْلَبونَ مِنَ الحَقِّ إلى الباطِلِ؟ وأفَكَهُ: قَلَبَهُ، والقَلْبُ مَجازيٌّ، وهوَ إفْسادُ الرَّأي. شُبِّهَتْ بهِ الحَقائِقُ الَّتي يُحَوَّلُ فيها التَّفْكيرُ. واسْتِعارَةُ المَكانِ إلَيْها مِثْلُ إطْلاقِ المَوْضوعِ علَيْها والمَجالِ أيضًا"[4].

وفي خِتامِ الآيةِ الكَريمَةِ بالاسْتِفْهامِ هَزٌّ آخَرُ لمَشاعِرِ المُخاطَبين، وإيقاظٌ لعُقولِهم، وتَبْصيرِهم بطَريقِ الهِدايةِ مِن خِلالِ إعْمالِ الفِكْرِ في القَضيَّةِ المَطْروحَةِ، لإقامَةِ الحُجَّةِ علَيْهِم.

دلالَةُ التَّعْبيرِ بالمُضارِعِ المَبْنيِّ للمَفْعولِ: ﴿تُؤْفَكُونَ﴾:

تَخَبُّطُ المُشْرِكينَ مُتَجَدِّدٌ مُسْتَمِرٌّ

وسِرُّ التَّعبيرِ بالمُضارعِ ﴿تُؤْفَكُونَ﴾ هوَ الدَّلالةُ على اسْتِمرارِ تَخَبُّطِ المُشْرِكينَ، وحَيْرتِهم، وضَلالِهم، وإصْرارِهم على ذلكَ بعِنادِهم وتَكَبُّرِهم، وبُنِيَ الفِعلُ ﴿تُؤْفَكُونَ﴾ للمَفْعولِ؛ للإشارةِ إلى شَناعَةِ الفِعلِ وغَرابتِه حتّى لا يكادُ أن يكون له فاعلٌ يُنْسَب إليه، فهيَ دَعوَةٌ لانْشِغالِهم بالفِعلِ عنِ الفاعِلِ.

(1) المطعنيُّ، التَّفسير البلاغيُّ للاستفهام: 2/52.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/161.
(3) المطعنيُّ، التَّفسير البلاغيُّ للاستفهام: 2/52.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/161.

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

﴿تُؤْفَكُونَ﴾، و﴿تُصْرَفُونَ﴾:

الإفْكُ أعَمُّ والصَّرْفُ أخَصُّ

تَدورُ مادَّةُ الإفْكِ حَوْلَ الصَّرْفِ والقَلْبِ. والإفْكُ: كُلُّ مَصْروفٍ عن وجْهِه الَّذي يَلزَمُ أنْ يكونَ عليه، ومِنْهُ قيلَ للرِّياحِ العادِلَةِ عنِ المَهابِّ: مؤتَفِكَة كَما في قَولِه تَعالى: ﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتُ بِٱلْخَاطِئَةِ ۝٩﴾ [الحاقَّة: 9]، وقَولِه تعالى: ﴿قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۖ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ۝٣٠﴾ [التَّوبة: 30] أي: يُصْرَفونَ عنِ الحَقِّ في الاعْتِقادِ إلى الباطِلِ.

أمّا مادَّةُ الصَّرْفِ فتَدورُ حَوْلَ رَدِّ الشَّيْءِ مِن حالَةٍ إلى حالَةٍ، أو إبْدالِه بغَيرِه، يُقال: صَرَفْتُه فانْصَرفَ. ويُقال: انْصَرَفَ إلى الشَّيْءِ، بمعنى: أقْبَلَ إلَيه مُنْصَرِفًا عنْ غَيْرِه. ومِنْهُ: صَرَفْتُ القَوْمَ صَرْفًا وانْصَرَفوا، إذا رَجَعْتَهُم فرَجَعوا. والصَّريفُ: اللَّبَنُ ساعَةَ يُحْلَبُ ويُنْصَرَفُ بِهِ. والصَّرْفُ في القُرْآنِ: التَّوْبَةُ؛ لأنَّهُ يُرْجَعُ بِهِ عنْ رُتْبَةِ المُذْنِبينَ[1] . وقد ورَدَتْ مادَّةُ (أفك) في القُرْآنِ الكَريمِ ثَلاثينَ مَرَّةً. وورَدَ لَفْظُ (صَرَفَ) في القُرْآنِ في ثَلاثينَ مَوْضِعًا، والخُلاصَةُ: يَشْتَرِكُ الجَذْران: (أفك) (صرف) في الدَّلالَةِ اللُّغَويَّةِ على معنى التَّحويلِ والرَّدِ والتَّغْييرِ، ويَخْتَصُّ (أفك) بأنَّ وسيلَتَه هي الكَذِبُ؛ لذا فهوَ أخَصُّ مِنَ الصَّرفِ[2].

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، وابن منظور، لسان العرب: (أفك) و(صرف).
(2) داود، معجم الفروق الدَّلاليَّة: ص 64.

﴿قُلۡ هَلۡ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهۡدِي لِلۡحَقِّۗ أَفَمَن يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّيٓ إِلَّآ أَن يُهۡدَىٰۖ فَمَا لَكُمۡ كَيۡفَ تَحۡكُمُونَ ٣٥﴾ [يونس: 35]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

بِالهِدايَةِ تَتِمُّ حِكْمَةُ الخَلْقِ

لَمّا بَيَّنَ تَعالى في الآياتِ السّابِقةِ عجْزَ آلِهةِ المُشْرِكينَ المَزْعومَةِ عنِ الخَلْقِ والإعادَةِ، وهُما مِن أقْوى أسْبابِ القُدْرَةِ، وأعْظَمِ بَراهينِ الأُلوهيَّةِ، بَيَّنَ عجْزَهُم عن هذا النَّوْعِ مِن صِفاتِ الإلَهِ، وهو الهِدايَةُ إلى الحَقِّ وإلى طَريقِ الرَّشادِ[1]. كَما أشارَ البِقاعيُّ إلى مُناسَبةِ هذهِ الآيةِ الكَريمَةِ لما قَبْلَها بقَولِه: "فَلَمّا اعْتَرَفوا بِهِ كُلّه أعادَ السُّؤالَ عنْ بَدْءِ الخَلْقِ ليقْرِنَ بِهِ الإعادَةَ؛ تَنْبيهًا على أنَّهُما بالنِّسْبَةِ إلى قُدْرَتِهِ على حَدٍّ سَواءٍ، فلَمّا فرَغَ مِمّا يَتَعَلَّقُ بأحْوالِ الجَسَدِ أمَرَهُ أنْ يَسْألَهُم عنْ غايَةِ ذَلِكَ والمَقْصودِ مِنهُ مِن أحْوالِ الرّوحِ في الهِدايَةِ الَّتي هي سَبَبُ السَّعادَةِ إمعانًا في الاسْتِدْلالِ بالمَصْنوعِ على الصّانِعِ على وجْهٍ مُشيرٍ إلى التَّفْضيلِ فقال: ﴿قُلۡ هَلۡ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّۚ﴾"[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿لَّا يَهِدِّيٓ﴾: هَدَّى فُلانٌ هُدًى وهَدْيًا وهِدايةً: استَرْشَدَ. والهِدايةُ: دِلالةٌ بلُطْفٍ[3]. الهُدَى: الرَّشادُ والدَّلالةُ، يُذكَّر ويُؤنَّث. أصْلُه يَهْتَدي فأُدْغِمَتِ التّاءُ في الدّالِ. والمعنى: لا يَهْتَدي بنَفْسِه.

2) ﴿تَحۡكُمُونَ﴾: المعنى المِحْوَريُّ للمادَّةِ: ضَبْطٌ يَمنعُ التَّسَيُّبَ، ويُمَكِّنُ مِن جَعْلِ الشَّيْءِ على ما يَنْبَغي ويُرادُ لَهُ كحَكَمةِ اللِّجامِ تَتَحكَّمُ

(1) أبو حَيّان، البحر المحيط: 6/54 - 55.
(2) البِقاعيُّ، نَظْم الدُّرر: 8/115.
(3) الرّاغب، المفردات: (هدى).

في الدّابَّةِ وتَمنَعُها مِنَ التَّسَيُّبِ؛ أيْ: تُمَكِّنُ مِن إيقافِها وتَوْجيهِها حَسبَ مُرادِ راكِبِها[1]. والحُكْمُ كَما قال الرّاغِبُ: القَضاءُ بالشَّيْءِ أنْ يكونَ كَذا أو لَيْس كَذا سَواءٌ أَلْزَمتَ ذلِك غَيرَه أو لَم تُلْزِمهُ[2]؛ والمعنى هُنا: تَقْضونَ بالباطِلِ.

المَعْنى الإجْماليُّ:

أفادَ الاسْتِفْهامُ الإنْكاريُّ انْفِرادَ الله ﷻ بالهِدايَةِ

قُل - يا أيُّها الرَّسولُ - للمُشْرِكينَ: هَل مِن آلِهَتِكُم المَزْعومَةِ الَّتي تَعْبُدونَها مِن دونِ اللّه أحَدٌ يَهْدي مَن ضَلَّ عنِ الهُدى، ويُرشِدُ مَن انْحَرفَ عن جادَّةِ الحَقِّ؟ قُلْ لَهُم: اللّه وحْدَه هو الهادي إلى الطَّريقِ المُسْتَقيم. فهَل مَن يُرْشِدُ النّاسَ إلى الحَقِّ ويَدْعوهُم إلَيْه أَوْلَى بأنْ يُتَّبَعَ أم آلِهَتُكم الَّتي لا تَهْتَدي لشَيْءٍ ولا تَهْدي غَيْرَها بَلْ هيَ بحاجَةٍ إلى هادٍ يَهْديها؟ فما بالُكُم كَيْفَ سَوَّيْتُم بَيْنَ اللّه وخَلْقِهِ؟ وهذا حُكْمٌ جائرٌ وباطِلٌ.

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

نُكْتَةُ الفصْلِ ﴿قُلْ هَلْ﴾ ودلالَتُهُ:

الفَصْلُ لكَمالِ الانْقِطاعِ

وَرَدَ قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ﴾ في سياقِ الاحْتِجاجِ على إثْباتِ حَقّيَّةِ التَّوحيدِ، وبُطلانِ الشِّرْكِ، وجيءَ بهِ إلْزامًا بَعد إلزام، وإفْحامًا إثْرَ إفْحام. وفَصَّلَهُ إيذانًا بفَضْلِه واسْتِقْلالِه في إثْباتِ المَطْلوبِ كَما في سابِقِه[3]، فالآيَةُ مُنْفَصِلَةٌ عن سابِقَتِها لكَمالِ الانْقِطاعِ، للإشْعارِ باسْتِقْلالِها في حُصولِ المَقْصودِ، وإثْباتِ المَطْلوبِ، وصيغتِ الأدِلَّةُ بأُسْلوبِ الاسْتِفهام؛ لأنَّ الكَلامَ إذا كانَ في غايَةِ الوضوحِ والجَلاءِ، فهوَ سؤالٌ عنْ شَأنٍ آخَرَ مِن شؤونِ الرُّبوبيَّةِ المُقْتَضيَةِ لاسْتِحْقاقِ الأُلوهيَّةِ، وتَوْحيدِ العِبادَةِ

(1) جَبَل، المعجم الاشتقاقيُّ المؤصَّل: (حكم).
(2) الرّاغب، المفردات، والسَّمين الحلبيُّ، عُمدة الحفّاظ: (حكم).
(3) الآلوسيُّ، روح المعاني: 6/107، ومجموعة من المؤلفين، التَّفسير الوسيط للقرآن الكريم: 4/87.

الاعْتِقاديَّةِ والعَمَليَّةِ، وهو الهِدايَةُ الَّتي تَتِمُّ بها حِكْمَةُ الخَلْقِ[1]. سُؤالٌ لإقامَةِ الحُجَّةِ على المُشْرِكين في سياقِ مُحاوَرَةٍ لا يَجِدُ فيها المُعاندُ - لَو أنْصَفَ - فِرارًا مِنَ التَّسْليمِ باسْتِحْقاقِ الخالِقِ سُبحانهُ وحْدَه للأُلوهيَّةِ والرُّبوبيَّةِ.

دلالَةُ التَّكْرارِ في: ﴿قُلْ هَلْ﴾:

التَّوْقيفُ على قُصورِ الأصْنامِ وعَجْزِها، والتَّنْبيهُ على قُدْرَةِ اللهِ سُبْحانَهُ

في تَكْرارِ قوله: ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم﴾ مَزيدُ إفْحامٍ للمُشْرِكين بإقامَةِ الحُجَجِ عليهم، وتَعْرِيَةِ عُقولهم، والنَّعْيِ على أحْلامِهم، وإثْباتِ عجْزِ آلِهَتِهمُ المَزْعومَةِ عن فِعْلِ أيِّ شَيْءٍ بأدِلَّةٍ قاطِعَةٍ، وبَراهينَ ساطِعَةٍ، وحُجَجٍ دامِغَةٍ. وفي هذا زيادَةُ تَبْكيتٍ وتَحْسيرٍ للمُشْرِكينَ.

ودَلَّ التَّعْبيرُ بفِعْلِ الأمرِ ﴿قُلْ﴾ على الاهْتِمامِ بالمَقولِ، وسُرعَةِ تَبْليغِه، والمواجَهَةِ به فوْرَ تَلَقّيه.

الغَرَضُ مِنَ التَّعْبيرِ بالاسْتِفْهامِ المَجازيِّ:

تَقْريرُ التَّوْحيدِ بإبْطالِ الآلِهَةِ المَزْعومَةِ

الاسْتِفْهامُ في قوله: ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم﴾ مَجازيٌّ، غَرَضُه النَّفْيُ والإنْكارُ، ويَتَفَرَّعُ عنْهُما التَّحْسيرُ والتَّبْكيتُ. والمعنى: هَل مِنْ آلِهَتِكم مَن يُرشِدُ الضّالَّ ويوَفِّقُه إلى مَعرفةِ الحَقِّ واتِّباعِهِ؟ والتَّعْميمُ أَلْيقُ بما يَقْتَضيه المَقامُ مِن كَمالِ التَّبْكيتِ والإلْزامِ.

الجَوابُ المُلَقَّنُ ودلالَتُهُ: ﴿قُلِ ٱللَّهُ﴾:

عَدَمُ الاعْتِدادِ بإقْرارِ الخَصْمِ لوضوحِ الجَوابِ

يُلْحَظُ هُنا كَما في الآيَةِ السّابِقةِ أنَّ الرَّسولَ ﷺ لُقِّن الجَوابَ لعِدَّةِ وُجوهٍ مِنْها: قَطْع لَجاجِ المُشْرِكين وعِنادِهم وجِدالِهم، وإصْرارِهم على المُكابَرةِ عن قَوْلِ الحَقِّ فأجابَ عنْهُم[2]، وإمّا أنْ يكونَ هذا على طَريقِ التَّلَقينِ للمُخاطَبينَ، وإرْشادِهم إلى الجَوابِ الصَّحيحِ، والقَولِ السَّديدِ، وإمّا لكَوْنِ هذا الجَوابِ قد بَلَغَ في الوُضوحِ إلى غايَةٍ لا يُحْتاجُ معَها إلى إقْرارِ الخَصْمِ ومَعْرِفَةِ جَوابِه[3].

(1) رشيد رضا، تفسير المنار: 11/137.
(2) النَّسفيُّ، مدارك التَّنزيل: 2/163.
(3) الشَّوكانيُّ، فتح القدير: 2/624.

توجيه تنوع التَّعبيرِ في: ﴿إِلَى ٱلۡحَقِّۚ﴾، ﴿لِلۡحَقِّۗ﴾، ﴿إِلَى ٱلۡحَقِّ﴾:

حُذِفَ مُتَعَلّقُ الهِدايَةِ ليَدُلَّ على العُمومِ

الفِعلُ (هَدَى) يَتعدَّى بنَفْسِه كقَولِه تعالى: ﴿وَيَهۡدِيَكَ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا ۝٢﴾ [الفتح: 2] ويَتَعدّى بـ﴿إِلَى﴾ كقَولِه: ﴿وَهَدَيۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ۝٨٧﴾ [الأنعام: 87]، ﴿وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ۝٢٥﴾ [يونس: 25]، وبـ (اللّام) كَقوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ يَهۡدِي لِلَّتِي هِيَ أَقۡوَمُ﴾ [الإسراء: 9] "فَتَعْدِيَةُ الفِعْلِ بنَفسِه تُفيدُ اتِّصالَ الهِدايةِ بمُتَعلّقِها مُباشَرةً دونَ واسِطَةٍ، وتَدلُّ على القُرْبِ، وتَعْديَتُه بـ (اللّام) تُفيدُ التَّقْويَةَ أوِ العِلَّةَ، وبـ﴿إِلَى﴾ النِّهايَةَ أوِ الغايَةَ الَّتي تَنْتَهي إليها الهِدايةُ، فهيَ تَشْمَلُ مُقَدِّماتِها وأسْبابَها مِن حَيثُ كَونُها موصِلَةً إلى المُنتَهى المَقصودِ للهادي السّائقِ إليها[1]. وقَد جُمِع في هذهِ الآيةِ بَيْن تَعْديَةُ (هدى) بحَرْفَي الانْتِهاءِ والاخْتِصاصِ، وبَيْن تَعْديَتِه بنَفسِه مَعَ حَذْفِ مَعْمولِ الفِعلِ، وهوَ مَفْعولُ الهِدايَةِ الدّالُّ على العُمومِ في كُلٍّ. فعُدّيَ الفِعلُ ﴿يَهۡدِيٓ﴾ بـ ﴿إِلَى﴾ في قوله: ﴿مَّن يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّۚ﴾ وقَولِه: ﴿أَفَمَن يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّ﴾، وبـ(اللّام) في قَولِه: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يَهۡدِي لِلۡحَقِّۗ﴾، وهذا للَفْتَةٍ بَلاغيَّةٍ هيَ أنَّ الهِدايَةَ لمّا أُسْنِدَت إلى الأصْنامِ عُدّيَ الفِعلُ بـ ﴿إِلَى﴾ الّتي تُشْعِرُ ببُعْدِ المَسافَةِ بَيْن البِدايَةِ (الأصنام) والنِّهايَةِ (الهداية)، وهذا تَوكيدٌ للإنْكارِ في صَدْرِ الآيةِ الكَريمَةِ كَأنَّ الهِدايةَ ضِمنًا بَعيدَةٌ عنْهم، لَكِنْ لمّا أُسْنِدَتِ الهِدايةُ إلى اللّه تعالى عُدّيَتْ بـ(اللّام) الّتي تُفيدُ القُرْبَ والاخْتِصاصَ، وكَأنّ الهِدايةَ مِن خَصائِصِه تعالى وحدَه، ومِلْكُ يَمينِه، وهو المُنْفَرِدُ بها على وجْهِ الدَّيْمومَةِ والكَمالِ. وفي نِسْبَةِ الهِدايَةِ العامَّةِ في جُملةِ الاسْتِفْهامِ: ﴿أَفَمَن يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّ﴾ عُدّيَ الفِعلُ أيضًا بـ (إلى)، مَع أنّ اللّه تعالى هوَ الهادي إلى الحقِّ: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يَهۡدِي لِلۡحَقِّۗ﴾ قَد قُرِّرتْ نِسبةُ الحَقِّ للّه تعالى فاللّه سبحانَه هوَ الحقُّ، والحقُّ هو اللّه تعالى[2].

(1) رشيد رضا، تفسير المَنار: 11/138.

(2) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 4/245، والمطعنيُّ، التَّفسير البلاغيُّ للاستفهام: 2/53.

ولِصاحبِ المَنارِ تَوْجيهٌ دقيقٌ في بيانِ سِرِّ تَعْديَةِ الفعلِ (هدى) بـ (إلى) و(اللّام) حَيثُ قال: "عدّاه بـ ﴿إِلَى﴾ في حيِّزِ الاسْتِفْهامِ الإنْكاريِّ؛ للإيذانِ بأنَّهُ لا أحدَ مِن هؤلاءِ الشُّركاءِ المُتَّخَذينَ بالباطِلِ يَدلُّ النّاسَ على الطَّريقِ الَّذي يَنْتَهي سالِكُه إلى الحقِّ مِن عِلْمٍ وعَمَلٍ، وهوَ التَّشْريعُ، فهوَ يَنْفي المُقَدِّماتِ ونَتائجَها، والأسْبابَ ومُسَبِّباتِها، ولَو عدّاهُ بنَفْسِه لَما أفادَ إلّا إنْكارَ هِدايَةِ الإيصالِ إلى الحَقِّ بالفعلِ، دونَ هِدايةِ التَّشريعِ الموصِلَةِ إلَيه، ولو عدّاه بـ(اللّام) لَكانَ بمعنى تَعْديَتِهِ بنَفْسِه إنْ كانَتِ اللّامُ للتَّقويَةِ أو لإنْكارِ هِدايةٍ يُقْصَدُ بها الحَقُّ إنْ كانَتْ للتَّعْليلِ، والأوَّلُ أعمُّ وأبْلَغُ كما هو ظاهِرٌ"[1].

الغَرَضُ مِنْ حَذْفِ مُتَعَلّقِ الهِدايَةِ:

الهِدايَةُ موَجَّهَةٌ لعُمومِ الخَلْقِ

حُذِفَ مُتَعَلّقِ الهِدايَةِ، فلَم يَكنْ: (يَهْدي النّاسَ) أوِ: (يهدي الخَلْقَ)؛ ليَدُلَّ على العُمومِ، وهذا أنْسَبُ لما يَقْتَضيه المَقامُ مِن كَمالِ التَّبْكيتِ والإلْزامِ.

الغَرَضُ مِنْ تَقْديمِ المُسْنَدِ إلَيْهِ: ﴿ٱللَّهُ﴾:

التَّأكيدُ على أنَّهُ سبحانه مَوْجودٌ، وأنَّهُ ذو الحَقِّ، وأنَّهُ مُحِقُّ الحَقّ

قُدِّم المُسنَدُ إليْهِ ﴿ٱللَّهُ﴾ على خَبَرِه الفِعْليِّ في قَولِه: ﴿ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ﴾، وهذا أفادَ القَصْرَ، قَصْرَ الهِدايَةِ للحقِّ على اللّه تَعالى وحدَه، مِن بابِ قَصْرِ الصِّفةِ على المَوصوفِ قَصرًا إضافيًّا.

نُكْتَةُ الإظْهارِ في مَوْضِعِ الإضْمارِ:

الإظْهارُ لتَفْخيمِ الحَقِّ والتَّأكيدِ على أهَمّيَّتِهِ

عُدِل عنِ الإضْمارِ إلى الإظْهارِ في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ﴾، حيثُ كانَ الظّاهِرُ أنْ يُقال: (يَهدي إلَيه)؛ لتَفْخيمِ الحقِّ، ولِلتَّأكيدِ على أهَمّيَّتِه بذِكرِه مَرَّتَيْنِ. وهذا أيضًا هوَ سِرُّ إعادَةِ غَيْرِ المَسْؤولِ عنْهُ في الجوابِ ودلالَتُهُ﴿يَهْدِى لِلْحَقِّ﴾، حيثُ كانَ يُمكنُ الاقْتصارُ على المَطْلوبِ مَثلًا: ﴿قُلِ ٱللَّهُ﴾.

(1) رشيد رضا، تفسير المنار: 11/138.

الغَرَضُ مِن الاستِفْهامِ بالهَمزَةِ في: ﴿أَفَمَن﴾:

(الفاءُ) في قوله: ﴿أَفَمَن يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّ﴾ عطَفتْ ما بَعدَها على جُملةٍ مَحْذوفَةٍ تَوَسَّطتْ بَيْنَ الهَمزةِ وبَيْنِها، يُمكنُ أنْ يَكونَ تَقْديرُها: أيَسْتَويانِ؟ فمَن يَهْدي إلى الحَقِّ؟ وعُبِّر بهذا الاسْتِفْهام؛ لبَيانِ أحَقِّيَّةِ الاتِّباعِ لِمَن يُرْشِدُ ويُصْلِحُ بَدَلًا مِمَّن لا يَسْتَطيعُ الإرْشادَ ويَحْتاجُ كَغَيرِهِ لهَدْيِهِ، فمَن لا يَحتاجُ أحَقُّ مِمَّن يَحْتاجُ لإرْشادِ غَيرِهِ وهِدايَتِه[1]، وذلِكَ في صورَةِ قَضيَّةٍ عقْليَّةٍ مَنْطقيَّةٍ مُدَعَّمَةٍ بالدَّليلِ؛ لتُلْجِئَ الخَصْمَ إلى الإقْرارِ والتَّسْليمِ بصِحَّةِ الدَّعْوى.

الَّذي يَهْدي إلى الحَقِّ أحَقُّ بالاتِّباعِ مِمَّنْ لا يَهْتَدي إلا بغيره

وقَد بيَّنَ سُبحانَه بما هوَ مُسْتَقِرٌّ في الفِطَرِ السَّليمة أنَّ الّذي يَهْدي إلى الحَقِّ أحَقُّ بالاتِّباعِ مِمَّن لا يَهْتَدي إلّا أنْ يَهْديَهُ غَيرُهُ، فلَزِمَ أنْ يكونَ الهادي بنَفسِهِ هوَ الكامِلَ، دونَ الّذي لا يَهْتَدي إلّا بغَيرِهِ، وإذا كانَ لا بُدَّ مِن وجودِ الهادي لغَيرِ المُهتَدي بنَفسِهِ، فهوَ الأكْملُ[2].

سِرُّ التَّعْبيرِ بالاسْمِ المَوصولِ (مَنْ) وصِلَتِهِ:

عُبِّرَ بالاسْمِ المَوصولِ للعاقِلِ (مَنْ) في قوله: ﴿أَفَمَن يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّ﴾؛ للتَّعْظيمِ، ولِأنَّ الهِدايةَ للحَقِّ لا يَتَّصِفُ بها إلّا عاقِلٌ حَكيمٌ، فما بالُنا والمَقْصودُ اللّه تعالى أحْكَمُ الحاكمين؟ وفي التَّعبيرِ بجُملةِ الصِّلَةِ فِعلًا مُضارِعًا إشارَةٌ إلى اسْتِمرارِ الهِدايَةِ وتَجَدُّدِها، وهذا لزيادَةِ التَّبْكيتِ والإلْزامِ، حَيثُ إنَّ هِدايةَ اللّه تعالى للحَقِّ مُسْتَمِرَّةٌ غَيْرُ مُنْقَطِعَةٍ، ويُقابِلُها اسْتِمرارُ عدَمِ هِدايَةِ شُرَكاءِ المُخاطَبينَ.

الاهْتِداءُ إلى الحَقِّ لا يَكونُ إلّا بمَعونَةِ اللّه تَعالى وتَوْفيقِهِ وإرْشادِهِ

تَنَوُّعُ القِراءاتِ المُتَواتِرَةِ الوارِدَةِ ﴿يَهِدِّي﴾:

قُرِئَ الفِعلُ ﴿يَهِدِّي﴾ بعِدَّةِ قِراءاتٍ هيَ:

الأولى: بفَتحِ الياءِ وسُكونِ الهاءِ وتَشْديدِ الدّالِ، جَمعًا بَيْنَ ساكِنَيْنِ، وهيَ قِراءَةُ أهْلِ المَدينَةِ، إلّا ورْشًا، والإدْغامُ دالٌّ على أنَّهُم

قِراءَةُ (يَهِدّي) بتَشْديدِ الدّالِ وأثرها البالغ في الاحْتِجاجِ على المُشْرِكينَ

(1) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 7/3565.
(2) ابن تيميّة، مجموع الفتاوى: 6/82.

لا يَملِكونَ أقلَّ هِدايَةٍ لأنفُسِهم وهُم عن هِدايَةِ غَيْرِهم أعْجَزُ، تَناسُبًا مَع الإدْغامِ الَّذي يُفيدُ الخَفاءَ والقِلَّةَ.

الثّانية: بفَتحِ الياءِ وسُكونِ الهاءِ وتَشْديدِ الدّال، جَمعًا بَيْن ساكِنَيْن، مَع اخْتِلاسِ الحَركةِ، وهي قِراءَةُ أبي عمرٍو، وقالونَ، وهذِهِ القِراءَةُ دالَّةٌ على أنَّهم لا يَملِكون أقلَّ قدْرٍ مِنَ الهِدايَةِ لأنْفسِهم، فهُم عنْ هِدايَةِ غَيْرِهم أعْجَزُ.

الثّالثة: بِفَتحِ الياءِ والهاءِ، وأصْلُه: يَهْتَدي، فنُقِلتْ حَركةُ التّاءِ إلى الهاءِ، وأُدْغِمَتِ التّاءُ في الدّالِ، وهيَ قِراءَةُ ابنِ عامرٍ، وابنِ كَثيرٍ، ووَرْشٍ.

الرّابعة: بفَتْحِ الياءِ وكَسرِ الهاءِ، وهيَ لُغَةُ سُفْلى مُضَرَ، وبِها قَرَأ حَفصٌ، ويَعْقوبُ

الخامسة: بكَسرِ الياءِ، وهيَ قِراءَةُ حَمزةَ، والكِسائيِّ، وخلفٍ[1].

السّادسة: قُرِئَ بالبِناءِ للمَجْهولِ مَع التَّشْديدِ بصيغَةِ التَّفْعيلِ؛ للدَّلالَةِ على المُبالَغَةِ في الهِدايَةِ[2].

دلالَةُ اسْتِخْدامِ (أفْعَل) التَّفْضيلِ: ﴿أَحَقُّ﴾:

صيغَةُ التَّفْضيلِ في الآيَةِ لَيْسَتْ على بابِها

أفْعَلُ التَّفْضيلِ في قوله: ﴿أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ﴾ لَيْسَتْ على ظاهِرِها، بَلْ هيَ مَسْلوبَةُ التَّفْضيلِ، بمعنى جَديرٍ أو حَقيقٍ. وأوثِرَتْ لَفْظًا، لما فيها مِن نَفْيِ المُساواةِ المُقْتَضي لنَفْيِ الاشْتِراكِ أصْلًا بمَعونَةِ السّياقِ[3].

الغَرَضُ مِنَ الاسْتِفْهامِ في: ﴿أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ﴾:

التَّقْريرُ وإلْزامُ الحُجَّةِ لِيَكونَ المُخاطَبُ أنْطَقَ بمُرادِ المُتَكَلِّمِ

الاسْتفهامُ في قوله: ﴿أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ﴾ للتَّقريرِ وإلزامِ الحُجَّةِ[4]. والمعنى: "أهذِهِ الهِدايَةُ أحَقُّ بالاتِّباعِ أمِ الَّذي لا يَهِدّي؟، أي: لا يَهْتَدي بنَفْسِه أو لا يَهْدي غَيْرَه، إلّا أنْ يَهْديَهُ اللّه"[5].

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 17/95، وإبراهيم الأبياريُّ، الموسوعة القرآنيَّة، ص: 321.
(2) الخفاجيُّ، حاشية الشّهاب: 5/28.
(3) المطعنيُّ، التَّفسير البلاغيُّ للاستفهام: 2/53. وفي المسألة تفاصيل ذَكَرها السَّمين الحلبيُّ في كتابه الدُّرُّ المَصون: 6/193.
(4) الشَّوكانيُّ، فتْح القدير: 2/624.
(5) الزَّمخشريُّ، الكشّاف: 3/135.

وتَوْجيهُ وصْفِ الأصْنامِ بأنَّها لا تَهْتَدي إلّا أنْ تُهْدى، معَ أنَّها لا تَهْتَدي وإنْ هُديَتْ، أنَّها عومِلَتْ في العِبادَةِ مُعامَلَتَهم في وصْفِها بأوصافِ مَن يَعْقِلُ[1].

دلالَةُ صيغَةِ الفِعْلِ ﴿يَهِدِّىٓ﴾:

كَيْفَ يَتَّبِعُ مَنْ نَطَقَ بالحِكْمَةِ وأرادَها مَنْ لا يَرْشُد ولا يَهْدي؟

في صيغَةِ الفِعْلِ ﴿يَهِدِّىٓ﴾ إعْلالٌ وإدْغامٌ، فأصْلُه (يَهْتدي) وقُلِبَتِ التّاءُ دالًا؛ لقُرْبِها مِنْ حُروفِ الإطْباقِ، وأُدْغِمَتِ التّاءُ في الدّالِ وكُسِرَتِ الهاءُ للتَّخَلُّصِ مِنَ السّاكِنَيْن. وتَدلُّ هذِهِ الصِّيغَةُ على صُعوبَةِ الاهْتِداءِ، بَلْ عدَمِ الاهْتِداءِ أصْلًا، ولَكِنْ كانَ الفَرْضُ أنْ يَكونَ اهْتِداءً بَعدَ أنْ توجَدَ الهِدايَةُ الدّاعيَةُ المُرْشِدَةُ، وكُلُّ هذا فيه مِنَ التَّعْنيفِ والتَّسْفيه والتَّوْبيخِ والتَّبْكيتِ لَهُم ما فيه، وهُم عُقَلاءُ، فيهِم مَنْ نَطَقَ بالحِكْمةِ وأرادَها، ثُمَّ يَتَّبِعونَ مَن لا يَعْقِلُ ولا يَنْفعُ ولا يَضرُّ ولا يَهْدي[2]. ولِصاحِبِ (نَظْمِ الدُّرَر) تَوْجيهٌ لَطيفٌ في تَعْليلِ إدْغامِ تاءِ الافْتِعالِ، حَيْث رَأى فيها إشارَةً إلى انْتِفاءِ جَميعِ أسْبابِ الهِدايَةِ حَتَّى أدانيها، فإنَّ التّاءَ عِنْدَ أرْبابِ القُلوبِ مَعْناها انْتِهاءُ التَّسَبُّبِ إلى أدْناهُ[3].

سِرُّ الفَرْقِ بَيْنَ نَفْيِ الاهْتِداءِ مَعَ أنَّ السّياقَ لنَفْيِ الهِدايَةِ:

مَنِ اهْتَدى إلى الحَقِّ لا يَخْلو عَنْ أنْ يَكونَ هاديًا غَيْرَهُ إلَيْهِ

الحِكْمَةُ مِن نَفْيِ الاهْتِداءِ - مَع أنَّ السّياقَ لنَفْيِ الهِدايةِ - هيَ أنَّ نفْيَها مُسْتَتبِعٌ لنَفيه غالِبًا، فإنَّ مَنِ اهْتَدى إلى الحَقِّ لا يَخْلو عنْ هِدايةِ غَيْرِه في الجُمْلَةِ[4].

المُرادُ مِن الاسْتِثْناءِ في: ﴿إِلَّآ أَن يُهْدَىٰٓ﴾:

مَنْ لَم يَهْتَدِ بنَفْسِهِ لا يَهْدي غَيْرَهُ

المُرادُ مِن الاسْتِثْناءِ بَيانُ أنَّ الَّذي يَهْدي إلى الحَقِّ مُطْلَقًا هوَ اللّه، والَّذي لا يَهْدي إلّا أنْ يُهْدى صِفةُ كلِّ مَخْلوقٍ، لا يُهدَى إلّا أنْ يَهْديَه

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/55.
(2) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 7/3565.
(3) البِقاعيُّ، نَظْم الدُّرر: 9/118.
(4) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 2/663.

اللّه تَعالى، وقدْ دَلَّ الاسْتِثْناءُ في قَوْلِه: ﴿إِلَّآ أَن يُهۡدَىٰٓ﴾ على التَّهَكُّمِ على طَريقَةِ تَأْكيدِ الشَّيْءِ بما يُشْبِهُ ضِدَّهُ[1]. والاسْتِثناءُ مُنْقَطِعٌ مُفَرَّغٌ مِنْ أعَمِّ الأحْوالِ، والمُرادُ: لا يَهْتَدي في حالٍ مِنَ الأحْوالِ إلّا في حالِ هَداهُ غَيْرُه. وكانَ مُقْتَضى المُقابَلَةِ أنْ يُقال: (أم مَن لا يَهْدي)، وإنَّما خولِفَ إشارَةً إلى أنَّه إذا لم يَهْتدِ بنَفْسِه لا يَهْدي غَيْرَه[2].

وجَوَّز ابنُ عادلٍ الدِّمشْقيُّ أنْ يكونَ الاسْتِثناءُ مُتَّصِلًا؛ لأنَّه إذْ ذاكَ يَكونُ فيهم قابِليَّةُ الهِدايةِ، بخِلافِ الأصْنامِ، كَما جَوَّزَ أنْ يكونَ الاسْتِثناءُ مِن تَمامِ المَفْعولِ لَهُ، أي: لا يهْدي لشَيْءٍ مِنَ الأشْياءِ، إلّا لأجْلِ أنْ يُهْدَى بغَيْرِه[3].

سِرُّ بناءِ الفِعْلِ ﴿يُهۡدَىٰٓ﴾ للمَفْعولِ:

بُني الفِعْلُ ﴿يُهۡدَىٰٓ﴾ للمَجْهولِ؛ لعَدم تَعَلُّقِ غَرضٍ بذِكْرِ الفاعِلِ، ولِلإشارَةِ إلى أنّهُ لَيسَ المُرادُ هاديًا مُعَيَّنًا، فتِلْكَ الآلِهَةُ المَزْعومَةُ لا تَقْبَلُ هِدايَةَ أيِّ هادٍ كائِنًا مَن كانَ.

الآلِهَةُ المَزْعومَةُ لا تَقْبَلُ هِدايَةَ أيِّ هادٍ

معنى الفاءِ في: ﴿فَمَا﴾:

الفاءُ في: ﴿فَمَا لَكُمۡ﴾ عاطِفَةٌ لتَرْتيبِ كِلا الإنْكارَيْنِ السّابقَيْنِ على ما ظَهَرَ مِن وُجوبِ اتِّباعِ الهادي إلى الحَقِّ[4].

بَلاغَةُ الاسْتِفْهامِ بـ (ما):

(ما) في جُملةِ: ﴿فَمَا لَكُمۡ كَيۡفَ تَحۡكُمُونَ﴾ اسْتِفْهاميَّةٌ مُبْتَدَأٌ، و﴿لَكُمۡ﴾ في مَحلِّ رفْعِ خَبَرٍ، والاسْتِفهامُ بـ (ما) للتَّعْجيبِ والتَّقْريعِ[5].

النَّعْيُ على عُقولِ المُشْرِكينَ

معنى حَرْفِ الجَرِّ اللّامِ ودلالَتُهُ في: ﴿لَكُمۡ﴾:

أفادَتِ اللّامُ الاخْتِصاصَ. والمعنى: أيّ شَيْءٍ ثَبَتَ لَكُم فاتَّبَعْتُم

مَنْ كانَ عاجِزًا عنْ هِدايَةِ نَفْسِهِ كانَ عنْ هِدايَةِ غَيْرِهِ أعْجَزُ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتّنوير: 11/163.
(2) القَنَّوجيُّ، فتْح البيان: 6/60.
(3) ابن عادل، اللُّباب في علوم الكِتاب: 10/325.
(4) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 2/658.
(5) ابن جُزَيّ، التَّسهيل: ص 356.

مَن لا يَهْتَدي بنَفْسِهِ، فضْلًا عنْ أنْ يَهدِيَ غَيْرَه بأيِّ حالٍّ مِنَ الأحْوالِ؟[1].

نُكْتَةُ الفصْلِ: ﴿كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾:

فُصِلَ قَوْلُه: ﴿كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾؛ لأنَّهُ جاءَ تَفْصيلًا للإجْمالِ في (ما) والمعنى: كَيْفَ تَحْكُمونَ بالباطِلِ، حَيْثُ تَزْعُمونَ أنَّهُم أنْدادُ اللهِ؟[2].

الفَصْلُ للإيضاحِ بَعْدَ الإجْمالِ

الغَرَضُ مِن الاسْتِفْهامِ بـ﴿كَيْفَ﴾:

الاسْتِفْهامُ بـ﴿كَيْفَ﴾ للإنْكارِ والتَّعَجُّبِ. أي: أيُّ شَيْءٍ لَكُم في اتِّخاذِ هَؤُلاءِ العاجِزينَ عنْ هِدايَةِ أنْفُسِهِم، فضْلًا عن هِدايَةِ غَيْرِهِم شُرَكاءَ بالباطِلِ حَيْثُ تَزْعُمونَ أنَّهُم أنْدادُ اللهِ؟

أفادَ الاسْتِفْهامُ الإنْكارَ والتَّعْجيبَ

دلالَةُ التَّعْبيرِ بالمُضارِعِ: ﴿تَحْكُمُونَ﴾:

في التَّعْبيرِ بالمُضارِعِ في قَولِه: ﴿كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ إشارَةٌ إلى اسْتِمرارِ غَفْلَةِ المُشْرِكينَ عنِ الحقِّ، وإصْرارِهم على الحُكْمِ بغَيرِ ما يَقْتَضيه الشَّرعُ والعَقلُ والفِطْرَةُ.

الإصْرارُ على المُكابَرَةِ، والحُكْمُ بغَيْرِ ما يَقْتَضيه العَقْلُ

مَوْقِعُ الاسْتِفْهامِ مِمّا قَبْلَهُ:

جُملَةُ الاسْتِفهامِ بـ ﴿كَيْفَ﴾ في مَوْضِعِ نَصْبِ حالٍ، وهي جُملَةٌ مُسْتقلَّةٌ، والمعنى: على أيِّ حالٍ، وقدْ تمَّ الكَلامُ بالجُملةِ الاسْميَّةِ ﴿فَمَا لَكُمْ﴾ فـ (ما) مُبْتَدأٌ، و﴿لَكُمْ﴾ خَبَرُها، ويوقَفُ علَيْه، والمعنى: أيُّ شَيْءٍ ثَبَت لَكُم في عِبادَةِ الأوثانِ؟

جُملَةُ الاسْتِفهامِ اسْتِئْنافيَّةٌ مُسْتَقِلَّةٌ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/163.
(2) القاسميُّ، محاسن التَّأويل: 9/3348.

﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا ۚ إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [يونس: 36]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

نَعْيٌ آخَرُ على أنَّ عِبادَتَهُم للأصْنامِ مَبْنِيَّةٌ على ظَنٍّ باطِلٍ

في الآياتِ السّابِقةِ أمَرَ اللّه تعالى رَسولَه ﷺ بأنْ يُحاجِجَ قَومَه فيما جَعَلوهُم آلِهَةً، وهيَ أحْجارٌ لا تَصَريفَ لَها، ولا تَدْبيرَ، ولا هِدايَةَ لَها، وفي هذِهِ الآيَةِ بَيانٌ إلَهيٌّ بأنَّ عِبادَتَهم إيّاها اتِّباعُ لظَنٍّ باطِلٍ[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَتَّبِعُ﴾: يَدُلُّ أصْلُ المادَّةِ على التُّلوِّ والقَفْوُ[2]. والاتِّباعُ: اقْتِفاءُ الأثَرِ. وقد يكونُ الاتِّباعُ بالجِسمِ، نَحوَ: تَبِعْتُه في الطَّريقِ واتّبعتُه فيها، وتارَةً بالامتِثالِ[3]. ومِنْه قَولُه تَعالى: ﴿فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ﴾ [البقرة: 38]. واتَّبَعَ الشَّيْءَ: صارَ وراءَهُ وتَطَلَّبَهُ، واتَّبَعَ الإمامَ: حَذا حَذْوَهُ، واتَّبَعَ القُرْآنَ: عمِلَ بما فيهِ[4].

2) ﴿ظَنًّا﴾: الظَّنُّ كَما قال الرّاغِبُ: "اسْمٌ لما يَحْصُلُ عنْ أمارَةٍ، ومَتى قَويَتْ أدَّتْ إلى العِلْمِ، ومَتى ضَعُفَتْ جِدًّا لَم يَتَجاوَزْ حَدَّ التَّوَهُّمِ. والظَّنُّ في كَثيرٍ مِنَ الأُمورِ مَذْمومٌ"[5]. والظَّنُّ: هوَ إدْراكُ الشَّيْءِ مَعَ تَرْجيحِهِ. والجَمعُ: ظُنونٌ، وأظانينَ. والظِّنَّةُ: التُّهَمَةُ. والظّنونُ: كُلُّ ما لا يوثَقُ بهِ. ويُقالُ: رَجُلٌ ظَنونٌ: مُتَّهَمٌ في عقْلِهِ، أو خَبَرِهِ[6]. والظَّنُّ ينافي اليَقينَ، فإنَّهُ تَرْجيحُ أحَدِ طَرَفَي الحُكمِ على الآخَرِ مِنْ غَيْرِ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/164.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (تبع).
(3) السَّمين الحلبيُّ، عُمدة الحُفّاظ: (تبع).
(4) مجمع اللُّغة العربيَّة بالقاهرة، المعجم الوسيط: (تبع).
(5) الرّاغِب، المفردات: (ظن).
(6) ابن منظور، لسان العرب: (ظن).

قَطْعٍ، والظَّنُّ يَدُلُّ على مَعْنَيَيْنِ مُتَناقِضَيْنِ: يَقين وشَكّ[1]. أمّا اليَقينُ فنَحْوَ قوله تَعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: 249] أي: يوقِنونَ. والظَّنُّ بهذا المعنى شائعٌ في كِتابِ اللّه تَعالى. وأمّا الشَّكّ، فنَحْو قوله تَعالى: ﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ﴾، ووَرَدَ أيضًا بمعنى سوءِ الظَّنِّ، نَحْو قوله تَعالى: ﴿وَظَنَنتُمۡ ظَنَّ ٱلسَّوۡءِ﴾، والمَقْصودُ هُنا: التَّخْمينُ والتَّوَهُّمُ.

3) ﴿يُغۡنِي﴾: غَني فُلانٌ غِنًى وغَناءً: كَثُر مالُهُ. وغَنيَ عنِ الشَّيْءِ: لَم يَحْتَجْ إليه[2]، والغَناءُ: النَّفْعُ. والغِناءُ مِنَ السَّماعِ. والغِنى: اليَسارُ. وتَغَنَّى الرَّجُلُ: اسْتَغْنى. وغَنيَتِ المَرْأةُ بزَوْجِها غُنْيانًا، أي اسْتَغْنَتْ. والغانيَةُ: الجاريَةُ الَّتي اسْتَغْنَتْ بجَمالِها عنِ الزّينَةِ[3].

المَعْنى الإجْماليُّ:

عِبادَتُهُمُ الأصْنامَ لَم تَكُنْ عنْ بَيِّنَةٍ ودَليلٍ راجِحٍ

ما يَتَّبِعُ هَؤلاءِ المُشْرِكونَ في إشْراكِهِم باللّه بعِبادَةِ أصْنامِهِم إلّا الظَّنَّ، فلا يَقينَ عِنْدَهُم ولا دَليلَ ولا بُرْهانَ في أنَّها حَقًّا آلِهَةٌ تَسْتَحِقُّ العِبادَةَ، ولَم يَكُن ذَلِكَ عنْ بَصيرَةٍ، وذلِكَ لا يُغْني عنهُم شَيْئًا، فالظَّنُّ لا يُقْبَلُ في العَقائدِ، بَلْ لا بُدَّ فيها مِنَ اليَقينِ الرّاسِخِ. إنَّ اللّه مُطَّلِعٌ عليْهِم، ورَقيبٌ على أعْمالِهِم، وعَليمٌ بأفْعالِهِم، وسَيُجازيهِم عليها يوم القيامَةِ بأشَدِّ العِقابِ.

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالَةُ الواوِ في: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ﴾:

لا يُقْبَلُ الظَّنُّ في العَقائِدِ، بَلْ لا بُدَّ مِنَ العِلْمِ اليَقينيِّ فيها

الواوُ في قوله تَعالى: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكۡثَرُهُمۡ إِلَّا ظَنًّاۚ﴾ اسْتِئْنافيَّةٌ، والكَلامُ مُبْتَدَأٌ غَيْرُ داخِلٍ في الأوامِرِ السّابِقَةِ، مَسوقٌ لبَيانِ السِّرِ في عدمِ انْصياعِ المُشْرِكين للحَقِّ، وفَهْمِهِم لمَضْمونِ البُرْهانِ[4].

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (ظن).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (غني).
(3) الجَوْهريُّ، الصِّحاح: (غني).
(4) الشّوكانيّ، فتح القدير: 2/625.

دلالَةُ التَّعْبيرِ بالمُضارِعِ في: ﴿يَتَّبِعُ﴾:

اسْتِمرارُ اتِّباعِ المُشْرِكينَ الظَّنَّ

التَّعْبيرُ بالمُضارعِ المَنْفيِّ يُفيدُ اسْتِمرارَ اتِّباعِ هؤلاءِ المُشْرِكينَ الظَّنَّ، وعَلَيه فالمُرادُ بالاتِّباعِ هُنا الإذْعانُ والانْقيادُ، فإنَّ هذا الظَّنَّ، وهوَ مِن تَزْيينِ الشَّيْطانِ للإنْسانِ، أقْبحُ البُهتانِ، وأضَلُّ الضَّلالِ حَتَّى اعْتَقدَ صاحِبُه ذلِكَ وألِفَهُ، وظَنَّه حَقًّا، وهوَ لا شَيْءَ.

الغَرَضُ مِنَ التَّعْبيرِ بأُسْلوبِ القَصْرِ:

كَراهيَةُ القَوْلِ بالظَّنِّ والعَمَلِ بِهِ

قوله: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا﴾ أُسْلوبُ قَصْرٍ بالاسْتِثْناءِ بَعدَ النَّفْيِ، مِنْ بابِ قَصْرِ الصِّفة (الاتِّباع) على المَوْصوفِ ﴿أَكْثَرُهُمْ﴾ وهوَ قَصْرٌ إضافيٌّ. وأوثِرَ النَّفْيُ والاسْتِثْناءُ؛ لأنَّه أعْلى طُرُقِ القَصْرِ وأقْواها. ودَلَّ طَريقُ القَصْرِ بالاسْتِثْناءِ بَعْد النَّفْيِ الَّذي يُؤْتى بِهِ مَع المُنْكِرِ المُجاحِدِ؛ لأنَّهُم يَظُنّون خِلافَ ذلِك، وقد دَلَّ هذا على أنَّ المُشْرِكينَ لَيْسوا في عقائِدِهم الباطِلَةِ المُنافيَةِ للتَّوحيدِ على شَيْءٍ مِنَ الحَقِّ، رَدًّا على اعْتِقادِهم أنَّهُم على الحَقِّ[1].

سِرُّ الإضافَةِ في: ﴿أَكْثَرُهُمْ﴾:

المُعْتَبَرُ في هذا المَقامِ سوءُ الحالِ مِنْ حَيْثُ الفَهْمُ والإدْراكُ لا مِنْ حَيْثُ الكُفْرُ والعَذابُ

أوثِرَ التَّعبيرُ بـ﴿أَكْثَرُهُمْ﴾ على (أكْثَرُ النّاسِ) اخْتِصارًا، ولِلعِلمِ بمَرْجِعِ الضَّميرِ، والضَّميرُ في ﴿أَكْثَرُهُمْ﴾ يَعودُ إلى المُشْرِكين، وهذا يَدلُّ على أنَّ هؤلاءِ المُشْرِكين يَجْمعُهم الكُفْرُ، وأنَّ أكْثَرَهم اتَّبَعوا الظَّنَّ، لَكنَّهم كانوا مُتَفاوتينَ في جَحْدِ الحَقِّ وإنْكارِه، فقد كانَ مِنْهُم الشّاكُّ فيهِ، وكانَ مِن بَيْنِهم مَنْ علِمَ الحَقَّ لَكنَّه عانَدَ وكابَرَ أنْ يَنْطِقَ بكَلِمة الحَقِّ[2]. إنَّ "أولَئِكَ أسْوَأُ حالًا مِن غَيْرِهِم؛ لأنَّ المُعْتَبَرَ سوءُ الحالِ مِن حَيْثُ الفَهْمُ والإدْراكُ لا مِن حَيْثُ الكُفْرُ والعَذابُ[3].

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/166.
(2) الطِّيبيّ، فتوح الغيب: 7/486.
(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 2/663.

سِرُّ قَصْرِ الحُكْمِ على: ﴿أَكْثَرُهُمْ﴾:

الـقُـلـوبُ بَـيْنَ إصْـبَـعَـيْنِ مِـنْ أصابِعِ الرَّحْمَنِ يُقَلِّبُها حَيْثُ يَشاءُ

في قَصْرِ الحُكْمِ على ﴿أَكْثَرُهُمْ﴾ وتَخْصيصِ هذا الاتِّباعِ بهم مَع مُشارَكةِ المُعانِدينَ لَهُم في ذلك؛ للتَّلْويحِ بما سَيَكونُ مِن بَعضِهم مِن اتِّباعِ الحَقِّ، والتَّوبةِ، والدُّخولِ في الإسْلامِ. وقيلَ: المُرادُ بأكْثَرِهم: جَميعُهم[1]، وعُبِّرَ في مُقابِلِ هذا بالعُمومِ في قَولِه: ﴿فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾؛ لأنَّهُ في ذاكَ المَوضعِ أُريدَ مجابَهَتُهُم مُشافَهَةً بالتَّوْبيخِ والتَّقْريعِ والإنْكارِ.

الغَرَضُ مِنْ تَنْكيرِ: ﴿ظَنًّا﴾:

المُـشْـرِكـونَ مُـقَـلِّـدون وتابِعونَ للأهْواءِ

تَنْكيرُ ﴿ظَنًّا﴾ للتَّحْقيرِ، أي: إلّا ظَنًّا ضَعيفًا لا يَسْتَنِدُ إلى ما تَسْتَنِدُ إلَيْهِ سائِرُ الظُّنونِ[2]، وفي هذا تَنْبيهٌ على "أنَّهُم إنَّما هُم مُقَلِّدونَ وتابِعونَ للأهْواءِ"[3].

مَوْقِعُ جُملَةِ ﴿إِنَّ ٱلظَّنَّ﴾ ودلالَتُهُ:

بَيانُ شَأْنِ الظَّنِّ وبُطْلانِهِ

وَقَعتْ جُملَةُ ﴿إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾ مَفْصولَةً عن سابِقَتِها للاسْتِئْنافِ البَيانيِّ، تَعْليلًا لما دَلَّ عليْهِ القَصْرُ مِن كَوْنِهم لَيْسوا على شَيْءٍ مِنَ الحَقِّ، فكَيْفَ يَزْعُمون أنَّهُم على الحَقِّ؟[4].

فإنَّ هذا الظَّنَّ مِن تَزْيينِ الشَّيطانِ للإنسانِ يُعَدُّ أقبحَ البُهْتانِ، وأضَلَّ الضَّلالِ، لأنَّ صاحِبَهُ اعْتَقَدَ ذلك وألِفَه، وظَنَّهُ حَقًّا، وهوَ عارٍ مِنْهُ، حَيْثُ سَمَّى المُشْرِكون أصْنامَهم آلِهةً، وعَبَدوها مَع اللّه، وجَعَلوها شُرَكاءَ للّه، ولَيْس للّه شَريكٌ أصْلًا عقْلًا ولا نَقْلًا، لذا قال: ﴿إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾[5].

وأفادت اللّامُ في قوله: ﴿ٱلظَّنَّ﴾ العهد، والمَقْصودُ بهِ الظَّنُّ السَّيِّئُ.

---

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/56.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/166.
(3) البِقاعيُّ، نَظْم الدُّرر: 9/119.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/166.
(5) السَّعديُّ، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 418.

دلالَةُ التَّأْكيدِ بـ﴿إِنَّ﴾:

الظَّنُّ لا يَقومُ مَقامَ العِلْمِ ولا يُدْرَكُ بِهِ الحَقُّ

التَّأكيدُ بـ﴿إِنَّ﴾ واسْميَّةِ الجُملةِ في قوله: ﴿إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغۡنِي مِنَ ٱلۡحَقِّ شَيۡـًٔاۚ﴾ وفي إعادة ذِكرِ المُسنَدِ إلَيه مُضْمَرًا في: ﴿يُغۡنِي﴾، دلالَةٌ على أنَّ أمرَ الدّينِ "إنَّما يَنْبَني على العِلْم، وبِهِ يَتَّضِحُ الحَقُّ مِن الباطِلِ، والظَّنُّ لا يَقومُ مَقامَ العِلْم ولا يُدْرَكُ بِهِ الحقُّ ولا يُغْني عنِ الحَقِّ في شَيْءٍ مِنَ الأشْياءِ"[1].

بَلاغَةُ التَّضْمينِ:

عِبادَةُ الأصْنامِ مَبْنيَّةٌ على ظَنٍّ باطِلٍ ولَيْسَ حَقًّا مَحْضًا

في قوله تَعالى: ﴿لَا يُغۡنِي مِنَ ٱلۡحَقِّ شَيۡـًٔاۚ﴾: عُدّيَ الفِعلُ ﴿يُغۡنِي﴾ بحَرفِ الجَرِّ ﴿مِنَ﴾ وهوَ لا يَتَعدَّى بِهِ هُنا إلّا بتَضْمينِ الفِعلِ ﴿يُغۡنِي﴾ الفِعلَ (يَدْفَع) أو (يَأْخُذ) على معنى أنَّ الظَّنَّ القائِمَ على الوَهْمِ لا يَدْفَعُ أو يَأْخذُ مِنَ الحَقِّ شَيئًا. وقيلَ: ﴿مِنَ﴾ بمَعنى (عَنْ)، وهيَ لِلْبَدَليَّةِ، أي: عِوَضًا عنِ الحَقِّ[2]. والحَقُّ بمَعنى العِلْم.

معنى (أل) في: ﴿ٱلۡحَقِّ﴾:

(أل) هُنا جِنْسيَّةٌ تُفيدُ عُمومَ الحَقِّ كُلِّهِ.

الغَرَضُ مِنْ تَقْديمِ الجارِّ والمَجْرورِ: ﴿مِنَ ٱلۡحَقِّ﴾:

بَيانُ الحَقِّ هو الغَرَضُ من العِلْمِ

قُدِّم الجارُّ والمَجْرورُ: ﴿مِنَ ٱلۡحَقِّ﴾ على المَفْعولِ المُطْلَقِ ﴿شَيۡـًٔاۚ﴾ لأنَّهُ الأهَمُّ بالبَيانِ، حَيثُ إنَّ أمرَ الدّين إنَّما يُبْنى على العِلْمِ، وبِهِ يَتَّضِحُ الحَقُّ مِن الباطِلِ.

دلالَةُ التَّعْبيرِ بالمَفْعولِ المُطْلَقِ: ﴿شَيۡـًٔاۚ﴾:

أمرُ الدّينِ إنَّما يُبْنى على العِلْمِ لا الظَّنِّ

﴿شَيۡـًٔاۚ﴾ مَفْعولٌ مُطْلَقٌ مُؤَكِّدٌ لعامِلِهِ، أي: لا يُغْني شَيْئًا مِنَ الإغْناءِ[3]. وهوَ رافِعٌ للمَجازِ ودافِعٌ لهُ، ومِن هُنا جاءَ التَّأكيدُ على عدَمِ الغَناءِ، وأفادَ تَنْكيرُ: ﴿شَيۡـًٔاۚ﴾ التَّعْميمَ أوِ التَّقْليلَ، أي: إنَّ الظَّنَّ لا يُغني عن الحَقِّ شَيئًا مَهْما قلَّ أو كَثُرَ.

---

(1) القنَّوجيُّ، فتْح البيان: 6/61.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/166.

(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/166.

مَوْقِعُ جُملَةِ التّذييل ودلالَتُهُ في الآية:

التَّهْديدُ والوَعيدُ مَعْنًى تأْسيسيٌّ

جُملَةُ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَفۡعَلُونَ﴾ اسْتِئْنافيَّةٌ بَيانيَّةٌ للتَّهْديد بالوَعيدِ لأفْعالِهم القَبيحَةِ الصّادِرةِ عن الكِبْرِ والعِنادِ والتَّعَنُّتِ والجَهْلِ، ولإعْراضِهم عن البَراهينِ الدّامِغَةِ، واتِّباعِهم الظُّنونَ الفاسِدَةَ، وخُتِمتِ الآيَةُ الكَريمَةُ بهذهِ الجُملةِ؛ لتَأكيدِ عِلْمِ اللّه تعالى بهم في ظُنونِهم، وتَخَرُّصاتِهم، وأعْمالِهم، وأفْعالِهم، وحَرَكاتِ نُفوسِهم تَأْكيدًا على سَعَةِ عِلْمِ اللّه تعالى.

نُكْتَةُ التَّذْييلِ للآيَةِ بصِفَةِ العِلْمِ ﴿عَلِيمُۢ﴾:

في التَّعبيرِ بالاسْمِ الجَليلِ ﴿عَلِيمُۢ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَفۡعَلُونَ﴾ إلْقاءُ للمهابة على الخَبرِ، وزيادَةٌ في التَّرْهيبِ والوَعيدِ، وعُبِّرَ بصيغَةِ المُبالَغةِ ﴿عَلِيمُۢ﴾، للدّلالَةِ على إحاطَةِ عِلْمِهِ سُبحانَه، وجاءَتِ الصّيغَةَ بالتَّنْوينِ لإفادَةِ التَّعْظيمِ.

نُكْتَةُ التَّعْبيرِ بـ ﴿بِمَا يَفۡعَلُونَ﴾ مِنْ حَيْثُ المعنى والصّيغَةُ:

الباءُ للتَّعْديَةِ، و﴿بِمَا﴾ اسْمٌ مَوْصولٌ أفادَ مَعنى العُموم، وأوثَرَ التَّعْبيرُ بـ﴿يَفْعَلُونَ﴾ دونَ (يَعْمَلونَ)؛ لأنَّ الفعلَ قد يَقعُ بنيَّةٍ أو بدونِ نيَّةٍ وقَصدٍ، وأفادَ هُنا أنَّ اللّه تعالى يَعْلَمُ كلَّ ما يَقعُ مِنْهُم، سواءً أكانَ مَقْصودًا أم لا، وفي هذا تَهْديدٌ ووَعيدٌ لَهُم، وأمّا التَّعبيرُ بالمُضارِعِ فإنَّما يَدلُّ على تَجَدُّدِ ما يَقعُ مِنْهُم وأنَّهُ لَنْ يَنْتَهيَ بزَمنٍ ما.

سِرُّ حَذْفِ المَفْعولِ بهِ في: ﴿يَفْعَلُونَ﴾:

المُبالَغةُ في التَّهْديدِ والوَعيدِ

حُذِفَ مَفْعولُ ﴿يَفْعَلُونَ﴾ للتَّعْميمِ، أي أنَّ اللّه تعالى مُطَّلِعٌ على أفْعالِهم صَغيرِها وكَبيرِها، وسَيُجازيهِم عليها، وهذا للمُبالَغةِ في التَّهْديدِ والوَعيدِ.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(يَفْعَلون) و(يَعْمَلون):

الفِعْلُ: التَّأْثيرُ مِن جِهَةِ فاعِلٍ مُؤَثِّرٍ. وهوَ عامٌّ لما كانَ بإجادَةٍ أو

غَيرِ إجادَةٍ، ولِما كانَ بعِلْمٍ أو غَيرِ عِلْمٍ، وقَصْدٍ أو غَيرِ قَصْدٍ، ولِما كانَ مِنَ الإنْسانِ والحَيَوانِ.

الفِعْلُ قد يَقَعُ بقَصْدٍ أو بدونِ قَصْدٍ بخِلافِ العَمَلِ فلا يَقَعُ إلّا مَقْصودًا

والعَمَلُ: إيجادُ الأثَرِ في الشَّيْءِ. يُقالُ: فُلانٌ يَعمَلُ الطِّينَ خَزَفًا، ويَعمَلُ الأديمَ سِقاءً، ولا يُقال: يَفعَلُ ذلِكَ؛ لأنَّ فِعْلَ الشَّيْءِ عبارَةٌ عمّا وُجِدَ في حالٍ كانَ قَبْلَها مَقْدورًا، سواءٌ كانَ عن سَببٍ أو لا. والفِعلُ قَد يُنْسَبُ إلى الحَيَواناتِ الَّتي يَقعُ مِنْها فِعْلٌ بغَيرِ قَصْدٍ، وقَد يُنْسَبُ إلى الجَماداتِ، والعَملُ قَلَّما يُنْسَبُ إلَيْهما[1]. فالفِعلُ أعَمُّ للإنْسانِ والحَيَوانِ، ويَكونُ بقَصْدٍ وبِغَيرِ قَصْدٍ. والعَمَلُ أخَصُّ، ويَكونُ بقَصْدٍ، ويُنْسَبُ للإنْسانِ غالِبًا، واخْتيارُ الأعَمِّ أنْسَبُ للتَّهْديدِ والوَعيدِ، والعَمَلُ يَمتَدُّ زَمانُهُ بخِلافِ الفِعْلِ الَّذي يَقَعُ دفْعَةً واحِدَةً.

(1) الرّاغب، المفردات: (فعل) و(عمل).

﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٧﴾﴾ [يونس: 37]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

رَدٌّ على شُبْهَةٍ أُخْرى مِنْ شُبُهاتِهِم تَتَعَلَّقُ بالقُرْآنِ

تَناوَلَ السِّياقُ السّابِقُ لِتلكَ الآيَةِ الكَريمَةِ إثْباتَ الأدلَّةِ على وحْدانيَّةِ اللّه تعالى وإظْهارَ تَقَوُّلِ المُشْرِكين على القُرْآن الكَريم بأنَّ الرَّسولَ ﷺ اخْتَلَقَه، وأنَّه لَيْس وحْيًا مِن عِند اللّه تعالى وهذا مِن ظَنِّهم السَّيِّئِ، فجاءَ الرَّدُّ عليهم هُنا بقَولِه تعالى: ﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾، حَيثُ ذُكِرَ في تلكَ الآيَةِ الكَريمةِ والَّتي تَليها بَعْضُ صِفاتِ القُرْآنِ الدّالَّةِ على أنَّهُ وحْيٌ مِن عِنْد اللّه، وتُحُدّيَ المُشْرِكون بالإعْجازِ عنِ الإتْيانِ بمِثْلِه.

وقد بَيَّنَ ابنُ عادِلٍ الدّمَشقيُّ وجهَ تلكَ المُناسَبةِ بقَولِه: "لمّا تَقدَّمَ قَولُ القَومِ: ﴿وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ [يونس: 20]، وذَكَروا ذلِكَ؛ لاعْتِقادِهِم أنَّ القُرآنَ لَيْس بمُعْجِزٍ، وأنَّ مُحَمَّدًا إنَّما أتى بهِ مِن عِند نَفْسِه، افْتِعالًا واخْتِلاقًا، وذَكَر تعالى هُنا: أنَّ إتْيانَ مُحمَّدٍ ﷺ بهذا القُرآنِ، لَيْس افتراءً على اللّه تعالى وإنَّما هوَ وحْيٌ نازِلٌ عليه مِن عِند اللّه، وأنَّهُ مُبَرَّأٌ عن الافْتِعالِ، والافْتِراءِ، ثُمَّ احْتجَّ على صِحَّة هذا الكَلامِ، بقَولِه: ﴿قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ﴾[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يُفْتَرَىٰ﴾: الفَرْيُ: قَطْعُ الجِلْدِ للخَرْزِ والإصْلاحِ[2]. والافْتِراءُ: على صيغَةِ (افْتِعال) مِنَ الفَرْيِ، أوِ الإفْراءِ، وهوَ أقْبَحُ الكَذِبِ، أوِ

(1) ابن عادل، اللُّباب في علوم الكِتاب: 10/329.
(2) الرّاغب، المفردات: (فري).

الكَذِبُ مَع التَّعَمُّدِ[1]، ويُطْلَقُ الافْتِراءُ على الكَذِبِ والشِّرْكِ والظُّلْمِ، والمُرادُ هُنا الكَذِبُ.

2) ﴿تَصْدِيقَ﴾: صَدَقَ يَصْدُقُ صَدْقًا وصِدْقًا وتَصْداقًا. والصِّدْقُ: نَقيضُ الكَذِبِ. والصِّدّيقُ: المُبالِغُ في الصِّدْقِ. ويَدلُّ المعنى المِحْوَريُّ على صَلابَةٍ أو قوَّةٍ في باطِنِ الشَّيْءِ مَعَ شِدَّةِ تَماسُكٍ[2].

3) ﴿وَتَفْصِيلَ﴾: يَدورُ أصْلُ المادَّةِ حَوْلَ تَمييزِ الشَّيْءِ مِنَ الشَّيْءِ وإبانَتِهِ عنْهُ[3]. والتَّفْصيلُ: التَّبْيينُ. والفَيْصَلُ: الحاكِمُ.

❁ المَعْنى الإجْمالِيُّ:

نَفَتِ الآيَةُ فِرْيَةَ افْتِراءِ القُرْآنِ وأكَّدَتْ أنَّهُ مُصَدِّقٌ لنُبوَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ

لا يُمكِنُ لبَشَرٍ، ولا يستَقيمُ لذي لُبٍّ أنْ يَزْعمَ أنَّ هذا القُرآنَ مِن عِندِ غَيرِ اللّه، وأنَّهُ مُفْتَرًى مَكْذوبٌ على اللّه؛ لأنَّهُ فوْقَ قُدْرةِ البَشَرِ وطاقَتِهم، لما فيه مِن عُلومٍ عاليةٍ، وحِكَمٍ ساميةٍ، وتَشْريعٍ عادِلٍ، وآدابٍ اجْتِماعيَّةٍ، وإنْباءٍ بالغُيوبِ الماضيَةِ والمُسْتَقْبَلَةِ لَيْس في طَوْقِ البَشَرِ، ولا هوَ داخِلٌ تَحْتَ قُدْرتِهِ وفي حَيِّزِ مُكْنَتِهِ، لَكِنَّ اللّه تعالى أنْزَلَ القُرآنَ الكَريمَ مُصَدِّقًا لما قَبْلَهُ مِن الكُتُبِ السَّماويَّةِ، وفيه تَفْصيلُ الشَّرائعِ والأحْكامِ الّتي شَرَعَها اللّه تعالى لعبادِهِ. ولا شَكَّ في أنَّ هذا القُرْآنَ تَنْزيلٌ مِن رَبِّ العالَمينَ.

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالَةُ العَطْفِ بالواوِ في: ﴿وَمَا كَانَ﴾:

التَّمهيدُ للتَّحدّي بإعْجازِ القُرْآنِ الكَريمِ

هذا الكَلامُ في تِلكَ الآيَةِ الكَريمَةِ وما بَعْدَها مَسوقٌ للتَّحَدّي بإعْجازِ القُرْآنِ، وتَحَدّي أرْبابِ الفَصاحَةِ والبَيانِ، ويَجوزُ في جُملة: ﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ عِدَّةُ أوجُهٍ في العَطْفِ:

(1) السَّمين الحلبيُّ، عُمدة الحفّاظ: (فري).
(2) جَبَل، المعجم الاشتقاقيُّ المُؤصَّل: (صدق).
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (فصل).

الأوَّلُ: أنْ تَكونَ مَعْطوفَةً على جُملَةِ: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا﴾ [يونس: 37]، ووَجْهُ المُناسَبَةِ: اتِّباعُ المُشْرِكين الظَّنَّ في شَأنِ التَّوْحيدِ، وفي شَأنِ النُّبوَّة.

الثّاني: أنْ تَكونَ مَعْطوفَةً على مَجْموعِ ما تَقَدَّمَ عطْفَ الغَرَضِ على الغَرَضِ والقِصَّةِ على القِصَّةِ، وهو مُفيدٌ تَفْصيلَ ما أجْمَلَهُ ذِكْرُ الحُروفِ المُقَطَّعَةِ في أوَّلِ السّورَة.

الثّالِثُ: أنْ تَكونَ الجُملَةُ مَعْطوفَةً على جُملَةِ: ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآيِٕ نَفْسِيٓۖ﴾ [يونس: 15] تَكْمِلَةً للْجَوابِ عنْ قولهم: ﴿ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُۚ﴾ [يونس: 15][1].

وأوثِرَتِ الواوُ لمُناسَبَةِ مَعْناها مَع تَعدُّدِ أوجُهِ العَطْفِ وأغْراضِه في هذهِ الجملةِ، فالواوُ تُفيدُ المُشارَكةَ بَيْنَ المَعطوفِ والمَعطوفِ عليه في الحُكْمِ، وعلى مطْلَقِ الجَمعِ، ولا توجِبُ التَّرتيبَ.

سِرُّ اسْتِخْدامِ أُسْلوبِ النَّفْي على وجْهِ الجُحودِ:

القُرْآنُ الكَريمُ المُعْجِزَةُ الكُبْرى

قَولُه: ﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ﴾ بمَنزِلَةِ أنْ يُقال: ما كانَ ليُفْتَرى، بلامِ الجُحودِ، وحُذِفت لامُ الجُحودِ إيجازًا للاسْتِغناءِ عنْها بذِكْرِ فِعْلِ ﴿كَانَ﴾، و"هذا بَيانٌ لإعْجازِ القُرآنِ، وأنَّهُ لا يَسْتطيعُ البَشَرُ أنْ يَأتوا بمِثْلِه، ولا بعَشْرِ سوَرٍ ولا بسورَةٍ مِن مِثْلِه لأنَّه بفصاحَتِه وبَلاغتِه ووَجازتِه وحَلاوتِه واشْتمالِه على المَعاني الغَزيرَةِ النّافعةِ في الدُّنْيا والآخِرةِ، لا يَكونُ إلّا مِن عندِ اللّه ﷻ الّذي لا يُشْبِهُهُ شيْءٌ في ذاتِه ولا في صِفاتِه، ولا في أفْعالِه ولا في أقْوالِه، فكَلامُه لا يُشْبِهُ كلامَ المَخْلوقينَ، ولِهذا قال ﷻ: ﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾[2]، والنَّفْيُ في الجُملة بطَريقِ الكِنايَةِ، حَيثُ إنَّه للشَّأنِ الّذي هو أبْلَغُ في النَّفي، وأعمقُ في الدّلالَة

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/167، 168.
(2) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 7/363.

على أنَّ هذا القُرآنَ مِن عندِ اللهِ مِن نَفْيِ الشَّيْءِ في ذاتِهِ مُباشَرةً؛ أيْ: ولَيْس مِن شَأنِ هذا القُرآنِ المُعجِزِ، أنْ يَخْترِعَه أو يَخْتلقَه أحَدٌ مِنَ الإنْسِ أوِ الجِنِّ أو غَيرِهما؛ لأنَّ ما اشْتَملَ عليه مِن إعْجازٍ وبَلاغَةٍ وتَشْريعاتٍ حَكيمةٍ، وآدابٍ قَويمةٍ، وهِداياتٍ جامِعَةٍ يَشْهدُ بأنَّهُ مِن كلامِ خالِقِ القوى والقُدَرِ[1].

سِرُّ التَّعْبيرِ بِالكَوْنِ المَنْفيِّ:

نَفْيُ الكَوْنِ أَبْلَغُ مِنْ نَفْيِ الوُجودِ

أوثَرَ التَّعْبيرُ بالكَوْنِ المَنْفيِّ في قَوْلِه تَعالى: ﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ﴾؛ لدلالَةِ فِعْلِ الكَوْنِ على الوُجودِ، أي: ما وُجِدَ أنْ يُفْتَرى، أي: وُجودُه مُنافٍ لافْترائِه، فدَلالَةُ وُجودِه كافيَةٌ في أنَّهُ غَيْرُ مُفْتَرًى، بمعنى: لو تَدَبَّرَ المُتَدَبِّرُ اليَقِظُ هذا الكِتابَ لَعَلِمَ أنَّه تَنْزيلُ رَبِّ العالَمينَ، وأنَّهُ لا يَجوزُ أنْ يَكونَ مِن وضْعِ البَشَرِ؛ لأنَّه فوقَ طاقَتِهم[2]. فلَم يَنْفِ مُجَرَّدَ فِعلِ الافْتراءِ، بَل نَفى احْتمالَ فِعلِه أصْلًا، وأخْبَرَ بأنَّ مِثلَ هذا لا يقَعُ، بَل يَسْتَحيل وقوعُهُ، فيَكونُ المعنى: ما يُمكِنُ ولا يَحْتَملُ ولا يَجوزُ أنْ يُفتَرَى هذا القُرآنُ مِن دونِ اللهِ، فإنَّ الّذي يَفْتَريه مِن دونِ اللهِ مَخلوقٌ، والمخْلوقُ لا يقدِرُ على ذلِك[3]. ولَو قيلَ: وما هذا القُرآنُ مُفْتَرًى ما حَقَّقَ هذا المعنى.

الغَرَضُ مِنَ التَّعْبيرِ باسْمِ الإشارَةِ: ﴿هَٰذَا﴾:

تَفْخيمُ المُشارِ إلَيْهِ وتَعْظيمُهُ

دَلَّ اسْمُ الإشارةِ ﴿هَٰذَا﴾ في قولِه: ﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ﴾ على اتِّصالِ السَّماءِ بالأرْضِ، وأنَّ هذا الكِتابَ المُشارَ إلَيه قريبُ عهْدٍ بوَحْيٍ، بلْ ما زالَ جبريلُ ينزلُ بهِ على قَلْبِ مُحمَّدٍ ﷺ غَضًّا طَريًّا، كَما فيه "تفْخيمُ المُشارِ إلَيه وتَعظيمُه، وكونُهُ جامِعًا للأوْصافِ الَّتي يَستَحيلُ وُجودُها فيه أنْ يَكونَ مُفترًى"[4].

(1) طنطاويٌّ، التَّفسير الوسيط: 7/92.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/168.
(3) ابن تيْميّة، الجواب الصّحيح: 5/425.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/57.

لَطيفَةُ إيثارِ التَّعْبيرِ بالمَصْدَرِ المؤَوَّلِ ﴿أَن يُفۡتَرَىٰ﴾:

المُفْتَرَى هوَ الَّذي يَأْتي بِهِ البَشَرُ، والقُرْآنُ مُعْجِزٌ على كُلِّ حالٍ

قَولُه: ﴿أَن يُفۡتَرَىٰ﴾ خَبرُ ﴿كَانَ﴾، والتَّقديرُ: وما كانَ هذا القُرآنُ افْتِراءً، أي: ذا افْتِراءٍ، إذْ جُعِل نَفْسُ المَصْدرِ مُبالَغةً في المعنى[1]. وأوثِرَ التَّعبيرُ بالمَصْدرِ المُؤَوَّلِ ﴿أَن يُفۡتَرَىٰ﴾ على التَّعبيرِ باسْمِ المَفْعولِ (مُفتَرًى)؛ لتَصويرِ قُبْحِ أنْ يُصْنَعَ اصْطناعًا مِن عِنْدِ غَيرِ اللهِ، وبَيانِ أنَّ ذلكَ مُستحيلٌ، وغَيرُ مُتَصَوَّرٍ[2]؛ لأنَّ المُفْتَرى هوَ الَّذي يَأْتي بِهِ البَشَرُ، والقُرآنُ مُعْجِزٌ على كُلِّ حالٍ.

نُكْتَةُ بناءِ الفِعْلِ ﴿يُفۡتَرَىٰ﴾ للمَفْعولِ:

جاءَ الفِعلُ مَبنيًّا لما لَم يُسَمَّ فاعِلُه لدَعْوتِهم للانْشِغالِ بنَفْيِ تُهمةِ الافتِراءِ دونَ النَّظرِ للمُفْتَري، فالفِعلُ مَنْفيٌّ دونَ النَّظرِ لمَنْ يَقعُ مِنْه ذلكَ.

معنى حَرْفِ الجَرِّ ﴿مِن﴾، ودلالَتُه:

تَأْكيدُ تَنْزيهِ الذّاتِ العَليَّةِ عنِ التَّشْبيهِ

﴿مِن﴾ في قوله: ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ ابْتدائيَّةٌ مَجازيَّةٌ للتَّوكيدِ مُتَعَلِّقَةٌ بـ ﴿يُفۡتَرَىٰ﴾، أي: أنْ يَفْتَريَه على اللهِ مُفْتَرٍ. ومعنى ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾: غَيْرُ اللهِ[3]. والمُرادُ تَأكيدُ تنْزيه الذّاتِ العليَّةِ.

سِرُّ التَّعْبيرِ بالقَيْدِ: ﴿دُونِ﴾:

التَّأْكيدُ على أنَّ القُرْآنَ كَلامُ اللهِ لا سواهُ

﴿دُونِ﴾: اسْمٌ للمُغايِرِ، فهو مُرادِفٌ لسِوى[4]، "والدّونُ مَنزِلَةُ القَريبِ، فالقَريبُ مِن جِهَةِ سُفْلٍ، وقد عقَلَتِ العَرَبُ أنَّ اسْمَ اللهِ لا يُطْلَقُ على ما نالَهُ إدْراكُ العَقْلِ، فكَيْفَ بالحِسِّ؟ فقد تَحَقَّقوا أنَّ كُلَّ ما أدْرَكَتْهُ حَواسُّهم ونالَتْهُ عُقولُهم فإنَّه مِن دونِ اللهِ"[5].

(1) السَّمين الحلبيُّ، الدُّرُّ المصون: 6/201.
(2) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 7/3569.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/168.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/168.
(5) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 1/28.

بَيانٌ لكمالِ هِدايَةِ القُرآنِ الكَريمِ، وهَيمَنَتِهِ على الكُتُبِ السَّماويَّةِ السّابِقَةِ

دلالَةُ التَّعْبيرِ بالاسْتِدْراكِ: ﴿وَلَٰكِن تَصْدِيقَ﴾:

وَقَع الاسْتدراكُ في قَولِه: ﴿وَلَٰكِن تَصْدِيقَ﴾ في موْقعِهِ المناسِبِ حيثُ اسْتدعاهُ السّياقُ، إذْ وَقَع بَيْنَ نَقيضَيْن وهُما: الكَذِبُ والتَّصْديقُ المُتَضَمِّنُ الصِّدْقَ[1]. فـ" لَمّا كانَ إتْيانُ الأُمّيِّ - الَّذي لَم يُجالِسْ عالِمًا - بالأخْبارِ والقِصَصِ الماضيَةِ على التَّحْريرِ دَليلًا قَطْعًا على صِدْقِ الآتي في ادِّعائِه أنَّهُ لا مُعَلِّمَ لَه إلّا اللّه، عبَّرَ بأداةِ العِنادِ فقال: ﴿وَلَٰكِن﴾؛ أيْ: كانَ كَوْنًا لا يَجوزُ غَيْرُهُ"[2]. "والتَّصديقُ في حَدِّ ذاتِه معجزةٌ مستقلَّةٌ؛ لأنَّ أقاصيصَه موافِقةٌ لما في الكُتُبِ السَّماويَّةِ المُتَقدِّمةِ، مع أنّ النَّبيَّ ﷺ لَم يَطَّلِعْ على ذلك، ولا تَدارسَه، ولا سألَ عنْه، ولا اتَّصلَ بمَن له عِلْمٌ بذلكَ[3].

وأفادَ الاستِدراكُ بعدَ النَّفي أسلوبَ القصْرِ بالاستثناءِ بعدَ النَّفي، فهو مِن قصْرِ الموصوفِ على الصِّفةِ، وهو قصْرٌ إضافيٌّ، ومؤدّاهُ قصْرُ القرآنِ على أنَّه تصديقُ الّذي بَيْن يَدَيْهِ.

سِرُّ التَّعْبيرِ بالمَصْدَرِ ﴿تَصْدِيقَ﴾:

القُرآنُ الكَريمُ مُصَدِّقٌ ومُصَدَّقٌ في آنٍ واحِدٍ

التَّصْديقُ في قولِه: ﴿وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ يَحتملُ ثلاثةَ أوجُهٍ:

الأوَّل: شاهِدٌ بصِدْقِ ما تَقَدَّمَ مِنَ الكُتُبِ السّابقةِ مِن التَّوْراةِ والإنْجيلِ والزَّبورِ.

الثّاني: تصديقُ الكُتُبِ الإلهيَّةِ المُنَزَّلةِ على الأنبياءِ قبلَه بما فيها مِن ذِكْرِه، والتَّبشيرِ ببعْثَتِه ﷺ فيَزولُ عنْهُ الافْتراءُ.

الثّالث: تصديقُه لما بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ البَعْثِ والنُّشورِ والجَزاءِ والحِسابِ[4].

(1) السَّمين الحلبيُّ، الدُّرُّ المصون: 6/202.
(2) البِقاعيُّ، نَظْم الدُّرر: 9/121.
(3) القنّوجيُّ، فتْح البيان: 6/63.
(4) الماورديُّ، النُّكت والعيون: 2/345.

والمصدرُ في قوله: ﴿وَلَٰكِن تَصۡدِيقَ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ﴾ مضافٌ إمّا لفاعِلِه أو مَفْعولِه، وهذا يجعلُ القرآنَ الكريمَ مُصَدِّقًا ومُصَدَّقًا في آنٍ واحدٍ، فجَمَعَتِ الإضافةُ لهُ بيْنَ الوَصفيْن، بيانُ ذلكَ أنّه في جَعْلِ الإضافَةِ للْمَفْعولِ مُبالَغَة في نَفْيِ الافْتِراءِ عنْه؛ لأنَّ ما يَثْبُتُ ويَظْهَرُ بهِ صِدْقُ غَيْرِه فهو أوْلى بالصِّدْقِ. ووَجْهُ كَوْنِه مُصَدِّقًا لَها أنَّهُ دالٌّ على نُزولِها مِن عِنْدِ اللّه تعالى ومُشْتَمِلٌ على قَصَصِ الأوَّلينَ حَسْبَما ذُكِرَ فيها، وهو مُعْجِزٌ دونَها فهو الصّالِحُ لأنْ يَكونَ حُجَّةً وبُرْهانًا لغَيْرِه لا بالعَكْسِ[1]. لذا أوثِرَ التَّعبيرُ بالمصدرِ؛ لأنَّ الوصفَ به صالِحٌ للْأمرَيْن؛ حيثُ إنَّه يَقْتَضي فاعِلًا ومَفْعولًا، كما أنَّ التَّعبيرَ بالمصدرِ فيه تَنْويهٌ ببُلوغِ القرآنِ غايَةً في الصِّدْقِ ونَفْيِ الافتراءِ، وكذلك التَّفصيلِ والبيانِ حَتَّى اتَّحَدَ بأجْناسِها[2].

دلالَةُ التَّعْبيرِ بالاسْمِ المَوْصولِ ﴿ٱلَّذِي﴾:

المُرادُ مِنَ المَوْصولِ ﴿ٱلَّذِي﴾ الجِنْسُ. وعَنى بالتَّصْديقِ بَيانَ الصِّدْقِ وهو مُطابَقَةُ الواقِعِ وإظْهارُه، والتَّعبيرُ بالاسمِ المَوصولِ يُبيِّن قوَّةَ ارتباطِ القرآنِ بالكُتبِ السَّماويَّةِ السّابقةِ عليْه، كما أنَّه يقْتضي جملةَ صِلَةٍ تَأْتي بعدَه.

التَّصْديقُ هوَ بَيانُ الصِّدْقِ

الغَرَضُ مِنَ التَّعْبيرِ بالكِنايَةِ في: ﴿ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ﴾:

قولُه: ﴿ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ﴾ كِنايةٌ عن الكُتُبِ السَّماويَّةِ المُتَقَدِّمةِ على القُرآن الكريمِ. وفي التَّعبير بهذهِ الكِنايةِ إشارَةٌ إلى العَلاقة الوثيقةِ بَيْن هذه الكُتبِ مِن حيثُ كونُها مِن عندِ اللّه. وفي التَّعبيرِ أيضًا بقولِه: ﴿ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ﴾ إشْعارٌ بهَيْمَنَةِ القرآنِ الكريمِ على هذه الكتبِ السّابقةِ، وفيهِ كذلك إيحاءٌ باتِّحادِ مَصدرِها، وتصديقِه للصَّحيحِ منها، "وقولُه: ﴿ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ﴾ فيهِ نوعُ مَجازٍ لأنَّ ما بَيْن

هَيْمَنَةُ القُرْآنِ الكَريمِ عَلى الكُتُبِ السّابِقَةِ

(1) الآلوسيُّ، روح المعاني: 11/118.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/169.

يَدَي الشَّيْءِ يكونُ أمامَه، فوَصَف سبحانه ما مضى من الكُتُب بأنَّها بين يَدَي القرآنِ؛ لشدَّةِ ظهورِها واشْتهارِها، ومعنى تصديقِ القرآنِ للكتبِ السّابقةِ: تأْييدُه لما اشتملتْ عليهِ من دعوةٍ إلى وَحدانيَّةِ اللّه ﷻ ومِن أمرٍ باتِّباعِ الرَّسولِ ﷺ عند ظُهورِه"[1].

دلالَةُ عَطْفِ التَّفْصيلِ على التَّصْديقِ:

القُرْآنُ الكَريمُ بَلَغَ الغايَةَ بَيانًا وتَفْصيلًا

المقصودُ بالتَّفصيلِ البيانُ، وقدْ دَلَّ عطْفُ التَّفصيلِ على التَّصديقِ في قوله: ﴿وَلَٰكِن تَصۡدِيقَ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَتَفۡصِيلَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ على بُلوغِ القرآنِ الغايَةَ في ذلك حَتّى اتَّحَدَ بجِنْسِها "ومعنى كَوْنِ القُرْآنِ تَفْصيلًا للكُتُبِ السّالفةِ أنَّهُ مُفَصِّلٌ لمُجْملها، وناسِخٌ لما لا مَصْلَحَةَ للنّاسِ في دَوامِ حُكْمِهِ، ودافِعٌ للْمُتَشابِهاتِ الَّتي ضَلَّ بها أهْلُ الكِتابِ، فكُلُّ ذَلِكَ داخِلٌ في معنى التَّفْصيلِ، وهو معنى قوله تَعالى: ﴿وَمُهَيۡمِنًا عَلَيۡهِۖ﴾[2].

دلالَةُ اللّامِ في: ﴿ٱلۡكِتَٰبِ﴾:

تَفْسيرُ المَقْصودِ مِنْ تَفْصيلِ الكِتابِ

اللّامُ في ﴿ٱلۡكِتَٰبِ﴾ للجِنْسِ، فيَشملُ الكُتُبَ السَّماويَّةَ كُلَّها، وهو الأظْهَرُ لبيانِ منزِلةِ الكتابِ العزيزِ لشُمولِ دلالتِه كلَّ الكتبِ المُنَزَّلةِ، وقيلَ: المُرادُ ما بُيِّنَ في القُرْآنِ مِن الأحْكامِ، فيَكونُ المُرادُ بالكِتابِ: القُرْآنَ[3].

مَوْقِعُ الجُملَةِ: ﴿لَا رَيۡبَ فِيهِ﴾، ودلالَتُهُ:

رَيْبُ المُرْتابينَ في القُرْآنِ رَيْبٌ مَزْعومٌ مُدَّعًى

جُملَةُ ﴿لَا رَيۡبَ فِيهِ﴾ تَحتملُ وجوهًا: فإمّا أنْ تكونَ حالًا من ﴿ٱلۡكِتَٰبِ﴾ داخلًا في حَيِّزِ الاستدراكِ كأنّهُ قيلَ: ولكنْ كان تصديقًا وتفصيلًا مُنْتَفيًا عنهُ الرَّيبُ كائنًا مِن رَبِّ العالَمين، وإمّا أنْ تكونَ مُعْترضَةً بَيْنَ ﴿تَصۡدِيقَ﴾ وبَيْنَ ﴿مِن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ إذ التَّقديرُ: ولكنْ

(1) طنطاويٌّ، التَّفسير الوسيط: 7/92.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/169.
(3) الشَّوكانيّ، فتح القدير: 2/626.

تصديقُ الَّذي بيْن يديْه وتفصيلُ مِنْ ربِّ العالَمين لا ريبَ فيه[1]. وإمّا أنْ تكونَ مُسْتَأْنَفَةً لنَسْفِ تُرَّهاتِ المُتقوِّلين الَّذينَ زَعَموا أنَّ القرآنَ الكريمَ مُفْتَرًى باقْتِلاعِ دَعْوى افْترائِه، وأنَّها مِمّا لا يَروجُ على أهْلِ الفِطَنِ والعُقولِ العادِلَةِ، فالرَّيْبُ المَنفيُّ عنْهُ هو أنْ يَكونَ مِن أحْوالِه في ذاتِهِ ومُقارَناتِهِ ما يُثيرُ الرَّيْبَ، ولِذَلِكَ كانَ رَيْبُ المُرْتابينَ فيهِ رَيْبًا مَزْعومًا مُدَّعًى، وهُم لو راجَعوا أنْفُسَهم لَوَجَدوها غَيْرَ مُرْتابةٍ[2] وفُصِلَت جُملَةُ ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ عمّا قَبْلَها؛ لأنّها مؤكِّدةٌ لهُ ومقرِّرةٌ لمضمونِه، فبيْنَها وبيْنَ ما قبلها كمالُ اتِّصالٍ، يُقوّي المعنى ويؤكِّدُه، وكلُّ ذلك يَتظاهَرُ على بيانِ مَنزلةِ القرآنِ ونفْيِ الافتراءِ عنهُ، وكلُّ وجهٍ مِن وُجوهِ مَوقعِ الجملةِ يُضيفُ مَعْنًى لا يَتعارضُ مع الوجهِ الآخَرِ، وهذا مِن ثَراءِ المَعنى وجلالِه تَناسُبًا مع جلالِ القرآنِ الكريمِ المعجزةِ الخالدةِ.

نُكْتَةُ التَّعْبيرِ النّافي للارْتيابِ مِنْ جَميعِ العالَمينَ:

تَنْزيلُ ارْتيابِ المُعارِضينَ مَنْزِلَةَ العَدَمِ، وعَدَمُ الاعْتِدادِ بِهِ

قدْ يَسألُ سائلٌ: كَيف قيلَ: ﴿مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ على سبيلِ الاسْتغراقِ وقد ارتابَ فيهِ كثيرٌ مِن الضّالّين والمُشْركين بدليلِ قولِه تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [البقرة: 23]؟

والجوابُ: أنَّه نُزِّل ارتيابُ هؤلاءِ الضّالّين المُنْكرين المُعارِضين مَنزلةَ العَدَمِ، وعَدمُ الاعْتدادِ بهِ وكأنّه لَم يوجدْ أصلًا؛ لكونِه مِمّا لا يَنبغي أنْ يكونَ لوجودِ ما يدلُّ على نَقْضِه ونَفْيِه؛ لأنَّ في دلائلِ كمالِ الكِتابِ المبينِ وإعجازِه ما لَو تأمَّلوه لَزال رَيْبُهم، هذا توجيهٌ. ويُمكنُ أنْ يكونَ المعنى: أنّه لَيس في القُرآنِ الكريمِ ما يوجِبُ الرّيبةَ في أنّه مِن عندِ اللّه تعالى فلا يوجدُ في القرآنِ كلامٌ يناقضُ بعضُه

(1) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 2/191.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/169.

بعضًا، أو يخالفُ الحقيقةَ، "وتأويلُ هذا المعْنى على هذا الوجهِ فيهِ تعريضٌ بكُتُب أهلِ الكتابِ الّتي تَعَرَّضتْ للتَّحريفِ والتَّبديلِ على أَيْدي هؤلاءِ"[1].

مَوْقِعُ: ﴿مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، ودلالَتُهُ:

تتنوَّعُ الإعْراباتُ لهذِهِ الجُملَةِ لتَنَوُّعِ المَعاني

قولُه: ﴿مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ بيانٌ لمصدرِ القرآنِ الكريمِ، وأنَّه لا شَكَّ في كَوْنِه مُنَزَّلًا مِن رَبِّ العالَمين.

ويجوزُ فيهِ أوجُهٌ، أحدُها: أنْ يكونَ متعلِّقًا بـ ﴿تَصْدِيقَ﴾ أوْ بـ ﴿وَتَفْصِيلَ﴾، وتَكون المسألةُ مِن بابِ التّنازعِ.

والوجهُ الثّاني: أنَّ ﴿مِن رَّبِّ﴾ حالٌ ثانيةٌ.

والثّالثُ: أنَّه متعلِّقٌ بفعلٍ مُقَدَّر، أي: أُنْزِل للتَّصديقِ مِن ربِّ العالَمين[2].

وأضافَ ابنُ عاشور وجهًا رابعًا فقال: "ومَوْقِعُ قوله: ﴿مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ مُحْتَمِلٌ وُجوهًا، أظْهَرها أنَّهُ ظَرْفٌ مُسْتَقِرٌّ في مَوْضِعِ الخَبَرِ عنْ مُبْتَدَأٍ مَحْذوفٍ هو ضَميرُ القُرْآنِ، والجُملَةُ اسْتِئْنافٌ ثانٍ، و﴿مِن﴾ ابْتدائيَّةٌ تُؤْذِنُ بالمَجيءِ، أي: هو واردٌ مِن رَبِّ العالَمينَ، أي: مِن وحْيِهِ وكَلامِهِ، وهذا مُقابِلُ قوله: ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾"[3]. والتَّقدير: هو مِنْ ربِّ العالَمين، والجملةُ استئنافٌ تعليليٌّ لنَفْيِ الرَّيبِ عَنِ القرآنِ الكريمِ.

دلالَةُ الإضافَةِ في: ﴿رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾:

القُرْآنُ الكَريمُ لَيْسَ بمَخْلوقٍ؛ لأَنَّهُ كَلامُ اللهِ

الإضافةُ مُشيرةٌ إلى أنّ القرآنَ هو كلامُ مَنْ عمَّتْ نِعَمُهُ المَخلوقين، وكما أنّه لا ريْبَ في كونِه مُنْعِمًا فلا ريْبَ في كونِ القرآنِ كلامَهُ، وقدْ دَلَّت الإضافةُ في قوله: ﴿مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ على أنَّه تعالى فوقَ خَلْقِه كُلِّهم، وأنَّ القرآنَ نَزَلَ مِن عندِه، وأنَّه تعالى تَكَلَّم بهِ حقيقةً؛ لقولِه:

(1) الرّوينيّ، من غريب بلاغة القرآن الكريم، ص: 25.
(2) السّمين الحلبيّ، الدُّرُّ المصون: 6/203.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/169.

﴿مِن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، ولَو كان غيرُه هو المُتكلِّمَ به لَكان مِنْ ذلكَ الغَيرِ، كما في قولِه تعالى: ﴿قُلۡ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلۡقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلۡحَقِّ﴾ [النّحل: 102]، وقوله: ﴿تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ ۝١﴾ [الزّمر: 1]، وقوله: ﴿تَنزِيلٌ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ۝٤٢﴾ [فُصّلت: 42]. وما كان مِن اللّه فلَيس بمَخْلوقٍ لأنَّه كلامُ اللّه، وكلامُ اللّه قديمٌ أزَليٌّ[1].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(افْتَرى) و(اخْتَلَقَ):

الافْتِراءُ لا يَكونُ إلّا في الإفْسادِ

الفَرْيُ: قَطْعُ الجِلْدِ للخَرْزِ والإصْلاحِ. والإفْراءُ للإفْسادِ. والافْتِراءُ فيهما، وفي الإفْسادِ أَكْثَرُ، وكَذلِكَ اسْتُعْمِلَ في القُرْآنِ في الكَذِبِ والشِّرْكِ والظُّلْمِ. نَحْوِ: ﴿وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ إِثۡمًا عَظِيمًا ۝٤٨﴾ [النّساء: 48]، ﴿ٱنظُرۡ كَيۡفَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۖ﴾ [النّساء: 50][2].

الخَلْقُ أَصْلُهُ: التَّقْديرُ المُسْتَقيمُ، ويُسْتَعْمَلُ في إبْداعِ الشَّيْءِ مِنْ غَيْرِ أَصْلٍ ولا احْتِذاءٍ، قالَ تَعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾ [الأنعام: 1]. والخَلْقُ لا يُسْتَعْمَلُ في كافَّةِ النّاسِ إلّا عَلى وَجْهَيْنِ: أحدهما في معنى التَّقدير، والثّاني: في الكَذِبِ[3]. واخْتَلَقَ القولَ: ادَّعاه وافتَراهُ، ويُقال: هذا خَبَرٌ مُختلَقٌ ولا أساسَ له مِن الصِّحَّةِ.

والفرقُ بَيْنَ الافتراءِ والاختلاقِ أنَّ الافتراءَ لا يكونُ إلّا في الإفسادِ، والاخْتلاقُ اسمٌ خُصَّ بهِ الكَذِبُ وذلك إذا قُدِّرَ تقديرًا يوهِمُ أنّه صِدْقٌ.

التَّفْصيلُ والتَّبْيينُ:

التَّبْيينُ يَكونُ بدَليلٍ وحُجَّةٍ دامِغَةٍ، ولا يُشْتَرَطُ هذا في التَّفْصيلِ

تَفْصيل: تَدُلُّ المادَّةُ عَلى تَمييزِ الشَّيْءِ مِنَ الشَّيْءِ وإبانَتِه عنه. يُقالُ: فَصَلْتُ الشَّيْءَ فَصْلًا. والفَيْصَلُ: الحاكِمُ. والفَصيلُ: وَلَدُ

(1) ابن القيّم، بدائع التّفسير: 6/128.
(2) الفيروزاباديّ، بصائر ذوي التّمييز: (فري).
(3) الرّاغب، المفردات: (خلق).

النّاقَةِ إذا افْتُصِلَ عنْ أُمِّه. والمِفْصَلُ: اللِّسانُ، لأنَّ بهِ تُفْصَلُ الأُمورُ وتُمَيَّزُ[1]. وأصْلُ الفَصْلِ: إبانةُ الشَّيْءِ مِن الشَّيْءِ وقَطْعُه حتَّى يَكونَ بَيْنَهُما فُرْجةٌ[2].

تَبْيين: التَّبْيينُ: الكَشْفُ والإيضاحُ، يُقال: بانَ الحَقُّ، وأَبانَ، وتَبَيَّنَ: إذا اتَّضَحَ وانْكَشَفَ، وبَيَّنَ الشَّيْءَ، أي: جَعَلَهُ واضِحًا لا غُموضَ فيهِ ولا خَفاءَ. وضِدُّهُ: الكِتْمانُ والإخْفاءُ. والتَّبْيينُ أيضًا: الإفْصاحُ. ويَأْتي بمَعنى: الفَصْلِ والتَّمييزِ. وأصْلُه مِن البَيْنِ، وهو: البُعْدُ والفِراقُ، فيُقالُ: بانَ الشَّيْءُ، أي: بَعُدَ. ومِن مَعانيهِ أيضًا: الإفْهامُ، والتَّفْسيرُ، والتَّفْصيلُ، والشَّرْحُ، والإظْهارُ، والتَّثَبُّت[3].

يَشتركُ مدلولُ اللَّفْظَيْن في الدّلالةِ على الإيضاحِ، ويَفترقان في أنَّ التَّفصيلَ أكثرُ إطنابًا مِن الإيضاحِ. كَما أنَّ التَّبْيينَ يكونُ بدليلٍ وحُجَّةٍ دامغةٍ، ولا يُشترطُ هذا في التَّفصيلِ.

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (فصل).
(2) السَّمين الحلبيّ، عُمدة الحُفّاظ: (فصل).
(3) الجوهريّ، الصِّحاح: (بين).

﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّثۡلِهِۦ وَٱدۡعُواْ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٣٨﴾ [يونس: 38]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

وَجْهُ مناسبَةِ الآيةِ الكريمةِ لما قبلَها أنَّه: "لَمّا نفى اللّه تعالى أنْ يكونَ القُرآنُ مُفتَرًى، بل جاء مُصَدِّقًا لما بَيْنَ يَدَيه مِن الكُتُبِ، وبيانًا لما فيها، ذكَرَ هنا أعظَمَ دَليلٍ على أنَّه مِن عندِ اللّه، وأقامَ البرهانَ القاطعَ على ذلك، وهو الإعجازُ الَّذي اشتمَلَ عليْه، فتحدَّى جميعَ الخلْقِ بسورةٍ واحدةٍ مثلِه، فأبطلَ بذلك دعْواهم افتراءَه"[1].

الانْتِقالُ مِنْ زَعْمٍ إلى زَعْمٍ لَجاجٌ وعِنادٌ مِنَ المُشْرِكينَ

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَٱدۡعُواْ﴾: دَعا إلى الأمرِ يَدعو دُعاءً: رَغَّب فيه. ودَعا إلى الصَّلاةِ دُعاءً: أذَّنَ. ودَعا لفُلانٍ: رَجا لهُ الخَيْرَ. ودَعا بالشَّيْءِ: طَلَبَ إحْضارَهُ، ودَعا اللّه: ابْتَهَلَ إليْه[2]. ويَدلُّ المعنى المِحْوَريُّ للمادَّةِ على جَذْبِ الشَّيْءِ أوْ مُحاوَلةِ ضَمِّهِ إلى حَيِّزٍ أوْ أمرٍ، كَجَذْبِ اللَّبَنِ إلى حَيِّزِهِ، وجَذْبِ النّاسِ إلى الوَليمةِ والاجْتِماعِ، وكلُّ ما عُدِّيَ بـ (إلى) أوْ باللّامِ فهوَ مِنَ الدَّعْوةِ إلى دينٍ أوْ عَمَلٍ. وقدْ يَأْتي بَعضُ ما هوَ بهذا المعنى مُعَدًّى بنَفْسِه[3]. والمعنى المَقصودُ هُنا: النِّداءُ استِحْضارًا واسْتِنهاضًا.

المَعْنى الإجْمالِيُّ:

يقول المُكَذِّبون عنادًا وبَغْيًا: إنَّ النّبيَّ ﷺ افْترى القرآنَ مِن عِنْدِ نَفْسِه، واخْتَلَقه على اللّه، فقُلْ لَهُم على سبيلِ التَّبكيتِ والتَّحدّي: إنْ كنتُم صادِقين في ادِّعائِكم فلْتأتوا - وأنتم أهلُ الفصاحةِ والبلاغةِ

تَحَدَّتْهُمُ الآيَةُ بكُلِّ قوَّةٍ ووُضوحٍ أنْ يَأْتوا بسورَةٍ مِنْهُ ولو تَعاضَدوا واحْتَشَدوا

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: (دعو)، والشّنقيطيّ، أضواء البيان: 2/512.
(2) مجمع اللُّغة العربيّة بالقاهرة، المعجم الكبير: (دعو).
(3) جَبَل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (دعو).

- بسورَةٍ واحدةٍ مِن جِنْسِ هذا القرآنِ في بلاغتِه وفصاحتِه وإعجازِه، واستعينوا بمَن يُعاونُكم على ذَلِكَ بكُلِّ مَنْ قَدَرْتُم علَيْهِ مِنْ إنْسٍ وجانٍّ.

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالَةُ ﴿أَمْ﴾ ومَعْناها في: ﴿أَمْ يَقُولُونَ﴾:

تَهيئَةُ السّامِعينَ لِيَتَلَقّوا هذه الدَّعْوى بمَزيدِ الاشْمِئْزازِ والتَّعَجُّبِ مِنْ حَماقَةِ أصْحابِها

"﴿أَمْ﴾ مُنْقَطِعَةٌ، وهي مُقَدَّرَةٌ بِـ (بَلْ)، أي: بَلْ يَقولونَ، و(بَلِ) انْتِقاليَّةٌ. وقيلَ: إنَّ ﴿أَمْ﴾ مُتَّصِلَةٌ ومُعادِلُها مُقَدَّرٌ، أي: أتُقِرّونَ به، أم تَقولونَ افْتَراهُ، وقيلَ: هي اسْتِفْهاميَّةٌ بمعنى الهَمزَةِ، وقيل: عاطِفَةٌ بمعنى الواوِ"[1]، والأرجحُ الأوَّلُ، وكونُ "(أَم) للإضْرابِ الانْتِقاليِّ مِنَ النَّفْيِ إلى الاسْتِفْهامِ الإنْكاريِّ التَّعْجيبيِّ، وهو ارْتِقاءٌ بإبْطالِ دَعْواهم أنْ يَكونَ القُرْآنُ مُفْتَرًى مِن دونِ اللّه، ومِن بَديعِ الأُسْلوبِ وبَليغِ الكَلامِ أنْ قُدِّمَ وصْفُ القُرْآنِ بما يَقْتَضي بُعْدَهُ عنِ الافْتِراءِ وبما فيه مِن أجَلِّ صفاتِ الكُتُبِ، وبِتَشْريفِ نِسْبَتِهِ إلى اللّه تعالى ثُمَّ أعْقَبَ ذَلِكَ بالاسْتِفْهامِ عنْ دَعْوى المُشْرِكينَ افْتِراءً ليَتَلَقَّى السّامِعُ هذه الدَّعْوى بمَزيدِ الاشْمِئْزازِ والتَّعَجُّبِ مِن حَماقَةِ أصْحابِها"[2].

الاسْتِفْهامُ المَحْذوفُ ودلالَتُهُ:

تَبَيُّنُ الدَّلائلِ وعَدَمُ اتِّباعِها يَقْتَضي التَّوْبيخَ والتَّقْريعَ

الاستفهامُ المحذوفُ لإنكارِ الواقعِ واسْتبعادِه، والتَّقديرُ: وما كانَ ينبَغي ذلك، وأفادَ أيضًا التَّقْريعَ والتَّوْبيخَ والتَّعجيبَ، ولمّا اخْتَصَّتْ ﴿أَمْ﴾ بعَطْفِ الاستفهامِ كانَ الاستفهامُ مُقَدَّرًا مَعَها حَيْثُما وقَعَتْ، فالاستفهامُ الَّذي تُشْعِرُ بهِ ﴿أَمْ﴾ استفهامٌ تَعْجيبيٌّ إنْكاريٌّ، والمعنى: بَلْ أيَقولونَ افْتَراهُ بعدما تَبَيَّنَ لَهم مِنَ الدَّلائِلِ على صِدْقِهِ وبَراءَتِهِ مِنَ الافْتِراءِ. ثُمَّ أعْقَبَ ﴿أَمْ﴾ "بالاسْتِفْهامِ عنْ دَعْوى المُشْرِكينَ افْتِراءً ليَتَلَقَّى السّامِعُ هذه الدَّعْوى بمَزيدِ الاشْمِئْزازِ والتَّعَجُّبِ مِن

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 11/119.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/170.

حَماقَةِ أَصْحابِها، فلِذلِكَ جُعِلَتْ دَعْواهُمُ افْتِراءَهُ في حَيِّزِ الاستفهامِ الإنْكاريِّ التَّعْجيبيِّ"[1].

نُكْتَةُ العُدولِ عَنِ الماضي إلى المُضارِعِ في: ﴿يَقُولُونَ﴾:

اسْتِحْضارُ الماضي تَبْشيعٌ للجَرائِمِ

عُدِلَ عن التَّعبيرِ بالماضي (قالوا) إلى المضارعِ في: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ﴾؛ للدَّلالةِ على تَكْرارِ هذا القولِ مِن المُشْرِكين لغبائِهم، وبَلادةِ عُقولِهم، واستحضارًا للماضي تَسجيلًا عَليْهم.

سِرُّ التَّعْبيرِ بضَميرِ الغَيْبَةِ في: ﴿ٱفْتَرَىٰهُ﴾:

مُراعاةُ مَقامِهِ الشَّريفِ ﷺ

أوثِرَ التَّعبيرُ بضميرِ الغَيْبَةِ في ﴿ٱفْتَرَىٰهُ﴾ على ما لوْ قيلَ: افتريتَه بتاءِ الخِطابِ، مراعاةً لمقامِه الشّريفِ ﷺ باجتنابِ مواجهتِه بأنَّه مُفْتَرٍ حتَّى في سياقِ النَّفي[2].

دلالَةُ الأَمرِ ﴿قُلْ﴾:

مُواجَهَةُ المُشْرِكينَ بما يَنْسِفُ مَقالَتَهُم

في التَّعبيرِ بالأمرِ: ﴿قُلْ﴾ أمرٌ إلهيٌّ للرّسول ﷺ بإجابةِ المُشْرِكين تَبْكيتًا لَهُم، وإظْهارًا لبُطْلانِ تَقَوُّلِهم، ومواجهَتِهم بما يَنْسِفُ مَقالتَهم، وهو فِعلٌ يكْثُرُ في القرآنِ الكريمِ في قضايا مهمَّةٍ تتطلَّب متابعةَ النَّبيِّ ﷺ بنفْسِه.

مَعْنى الفاءِ ودلالَتُها في: ﴿فَأْتُواْ﴾:

الإشارَةُ إلى سُرْعَةِ الرَّدِّ عَلى دَعْوى المُشْرِكينَ، وإبْطالِ قولِهم، وتَحَدّيهِم في مَيْدانِ نُبوغِهم

الفاءُ في قولِه: ﴿فَأْتُواْ﴾ فاءُ الفَصيحةِ، وهي تدلُّ على شَرْطٍ محذوفٍ تقديرُه: إنْ كنتُم تَزْعُمون أنّ محمَّدًا ﷺ اختلقَ القرآنَ وافْتراه فهو بَشَرٌ، وأنتُم بَشَرٌ مثلُه فأْتوا بسورةٍ مِن جِنْسِ ما افتراه. وفي الفاءِ إشارةٌ إلى سرعةِ الرَّدِّ على دَعْوى المُشْرِكين، وإبطالِ قَوْلِهم، وتَحدّيهم في مَيْدانِ نُبوغِهم وتَفَوُّقِهم وهُم أربابُ الفصاحةِ، وفرسانُ البيانِ. وفي التَّعبيرِ بالفاءِ أيضًا إلْماحٌ إلى فَوريَّةِ تلقينِ الرّسولِ الكريمِ ﷺ لحُجَّتِه، وإلى مَعيَّةِ اللّه تعالى له ﷻ.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/170.
(2) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ: 2/56.

دلالَةُ فِعْلِ الأَمرِ في: ﴿فَأْتُواْ﴾:

المُشْرِكونَ عَجَزَةٌ عَنِ المُعارَضَةِ

الغرضُ مِن التَّعبيرِ بفعلِ الأمرِ التَّعجيزُ والتَّحَدّي، وإسكاتُ الخَصْمِ، ولكنَّ التّعبيرَ بفعلِ الأمرِ جعلَهم كالمأمورِ بالإتْيانِ، فيَعْمَدَون إلى التَّنْفيذِ فلا يستطيعون، فيكون ذلك أشدَّ تبكيتًا وتقريعًا.

دلالَةُ التَّعْبيرِ بالإتْيانِ في: ﴿فَأْتُواْ﴾:

تَناسَبَ التَّعْبيرُ بالإتْيانِ مَعَ إرْخاءِ العِنانِ في التَّحَدّي للمُنْكِرينَ

أوثرَ التَّعبيرُ بمادَّةِ الإتْيانِ؛ لأنَّ الإتيانَ مَجيءٌ فيه سُهولةٌ كما قال الرّاغبُ[1]، وهذا المعنى يَتناسبُ مع إرخاءِ العِنانِ في التَّحَدّي للمُنكرين، فضلًا عَن أنّ الإيتاءَ يُسْتَعْمَلُ كثيرًا في القضايا المهمّةِ والعظيمةِ.

الغَرَضُ مِنَ التَّنْكيرِ في: ﴿بِسُورَةٍ﴾:

اتِّساعُ مَجالِ المُعارَضَةِ، والتَّحَدّي أَمامَ الكُفّارِ

التَّنكيرُ في قولِه: ﴿فَأْتُواْ بِسُورَةٍ﴾ يُمكِنُ أنْ يكونَ للتَّعميمِ ليَشملَ أيَّ سورةٍ يَختارونها، ويُمكِنُ أنْ يكونَ التَّنكيرُ للتَّنويعِ؛ للدّلالةِ على اتِّساعِ مجالِ المعارَضةِ والتَّحدّي أمام الكفّارِ، حيثُ طولِبوا بالإتيانِ بمِثلِ بعضِ سوَرِه، أي: لا يطالبُهم بسورةٍ معيَّنةٍ، وإنّما أباحَ لهم أنْ يأتوا بأيّةِ سورةٍ مِنْ مثلِ سوَرِ القرآنِ، حتى ولوْ كانت كأقلِّ سورةٍ منه. وهذا فيهِ ما فيهِ مِن التَّبكيتِ، والتَّخجيلِ لَهُم لارتيابِهم في القرآنِ.

مَدْلولُ الباءِ: ﴿بِسُورَةٍ﴾، ودلالَةُ الصِّفَةِ: ﴿مِّثْلِهِۦ﴾:

اسْتِنْفارُ هِمَمِ المُعانِدينَ للتَّحَدّي بسورَةٍ مِنْ جِنْسِ القُرْآنِ الكَريمِ

تَجاوبتِ الباءُ بدلالتِها على المُلابسةِ واللُّصوقِ والالتزامِ مع التَّحدّي في الآيةِ الكريمةِ، حيثُ يُلْمَحُ فيها إرشادٌ لهؤلاءِ المُشْرِكين المُعانِدين بدوامِ الوقوفِ أمامَ القرآنِ، وبمُعاودةِ عرْضِ سوَرِهِ الكريمةِ أمامَ عقولِهم، وتَفْليتِها سورةً سورةً؛ ليَختاروا منْها بَعْدَ عُكوفٍ وتَأنٍ طويلَيْن ما يستطيعون به معارضةَ القرآنِ الكريمِ، بَلْ لَيس منْه نفسُه بل بسورةٍ مِن جِنْسِه، أي: شَبيهَةٍ بهِ في البَلاغةِ وحُسْنِ النَّظْمِ كما تَدُلُّ عليه الصِّفةُ ﴿مِّثْلِهِۦ﴾، وفي هذا تبكيتٌ لَهُم

(1) الرّاغب، المفردات: (أتى).

وتخجيلٌ، حيثُ إنَّهم يوَجَّهون إلى الطُّرُقِ الّتي يُظَنُّ أنَّها تُعينُهم على المعارَضةِ[1].

بَلاغَةُ المُتَشابِهِ اللَّفْظيِّ:

التَّرَقّي في إلْزامِ الحُجَّةِ وتَوْضيحِ المَحَجَّةِ

مَن يَتَأمَّلُ آياتِ التَّحدّي في سوَرِ: الإسْراء، وهود، ويونسَ، وهي سوَرٌ مَكّيَّةٌ، يَجِدُ أنَّ التَّحدّيَ تَدرَّجَ وتَرَقّى، فجاءَ أوَّلًا بمِثْلِ القرآنِ في الإسراءِ، ثُمَّ خُفِّفَ إلى عشْرٍ في هودٍ، ثُمَّ خُفِفَ إلى سورةٍ واحدةٍ منهُ في يونسَ. أمّا في آيةِ البقرةِ: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [البقرة: 23] فقدْ وصَلَ التَّرقّي إلى قِمَّتِه؛ لذا أُثْبِتَتْ ﴿مِّن﴾ فيها؛ لتدلَّ على التَّبعيضِ، فتُرْخي العنانَ، وليَصِلَ التَّساهلُ إلى ذُرْوتِه، وهذا يتناسبُ وجلال الخالقِ سبحانَه، وممّا يُساعِدُ على إدراكِ قوَّةِ هذا التَّحدّي وغايتِه في آيةِ البقرةِ ما أُتْبِعتْ به مِن قوله: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا﴾، فهذا نَفْيٌ وتأكيدٌ لعَدمِ القدرةِ على المعارضةِ حالًا ومآلًا[2]. فآيةُ البقرةِ تختلفُ عن مَثيلاتِها مِن حيثُ المُخاطَبون، فهي للنّاسِ كافَّةً، وتختلفُ من حيثُ السّياقُ والأسلوبُ، حيثُ جاءتْ ﴿مِّن﴾ فيها، وإلى مُجْمَلِ هذا أشارَ ابنُ كثيرٍ فقال: "وهذا هوَ المَقامُ الثّالِثُ في التَّحَدّي، فإنَّهُ تَعالى تَحَدّاهُم ودَعاهُم، إنْ كانوا صادِقينَ في دَعْواهُم، أنَّهُ مِنْ عِنْدِ مُحَمَّدٍ، فلْتُعارِضوهُ بنَظيرِ ما جاءَ بهِ وحْدَه واسْتَعينوا بمَنْ شِئْتُم، وأخْبَرَ أنَّهُم لا يَقْدِرونَ على ذَلِكَ، ولا سَبيلَ لَهُم إلَيْهِ، فقالَ تَعالَى: ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾ [الإسراء: 88]، ثُمَّ تقاصَرَ معهم إلَى عشْرِ سوَرٍ مِنْهُ، فقالَ في أوَّلِ سورَةِ هودٍ: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا

(1) الرّوينيّ، مِن غريب البلاغة القرآنيّة، ص: 117.

(2) الروينيّ، مِن غريب البلاغة القرآنيّة، ص: 119 - 118.

مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾﴾ [هود: 13]، ثُمَّ تَنازَلَ إلى سورَةٍ، فقالَ في هذه السّورَةِ: ﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّثۡلِهِۦ وَٱدۡعُواْ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾، وكَذا في سورَةِ البَقَرَةِ - وهيَ مَدَنيَّةٌ - تَحَدّاهُم بسورَةٍ مِنْهُ، وأخْبَرَ أنَّهُم لا يَسْتَطيعونَ ذَلِكَ أبَدًا، فقالَ: ﴿فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ وَلَن تَفۡعَلُواْ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ﴾ الآيَةَ. [البَقَرَة: 24][1].

بَلاغَةُ العَطْفِ في: ﴿وَٱدۡعُواْ﴾:

العطفُ هنا اقْتَضى ترَقّيًا في التَّحدّي بأنْ يَدعوا مَنْ أرادوا مِن الإنْسِ والجنِّ، وأنْ يَحْتَشِدوا ويَتَعاضَدوا لأنْ يَفعلوا ذلك.

غَرَضُ فِعْلِ الأَمرِ في: ﴿وَٱدۡعُواْ﴾:

طَلَبُ دَعْوَةِ نُصَرائِهِم لِيَشْهَدوا كَذِبَهُم في ادِّعائِهِم، ولِبَيانِ كَمالِ التَّحَدّي

الأمرُ في قولِه: ﴿وَٱدۡعُواْ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم﴾؛ لتوكيدِ كمالِ التَّحدّي، وإرخاءِ العِنانِ في قولِه: ﴿قُلۡ فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّثۡلِهِۦ﴾، حيثُ أُمِرَ الرَّسولُ ﷺ بأنْ يَأْذنَ لهم بأنْ يَسْتَعينوا بمَنْ يَسْتَطيعون مُعاوَنَتَهم في هذا التَّحدّي. والغرضُ من الأمرِ التَّعجيزُ والإفحامُ "ودعوةُ هؤلاء النُّصراءِ لأمريْنِ: أوَّلهما: ليَشهدوا كَذِبَهم في ادِّعائِهم. وثانيهما: لينتصروا بهم ويكونوا قوَّةً معهم يُظاهِرونَهم فيما يَدَّعون، ولكنَّهم مع ذلك لا يُمكِنُهم أنْ يأْتوا بقرآنٍ مثلِه كقولِه تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِمِثۡلِ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لَا يَأۡتُونَ بِمِثۡلِهِۦ وَلَوۡ كَانَ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٖ ظَهِيرٗا ﴿٨٨﴾﴾ [الإسراء: 88]"[2].

مَعْنى: ﴿مَنِ﴾:

اسمٌ مَوصولٌ أفادَ الإبهامَ والعمومَ؛ ليطْلقَ لهُم العِنان في الاسْتعانةِ بمَنْ شاؤوا مِمّنْ يستطيعُ اقْتحامَ هذه المَفازةِ.

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 7/364.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 3/3572.

دلالَةُ حَرْفِ الجَرِّ: ﴿مِّن﴾:

﴿مِّن﴾ في قولِه: ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ ابتدائيَّةٌ، والمَعنى: ادْعوا إلى المُعارَضةِ مَنْ يُعاوِنُكم ويَنْصرُكم بزَعْمِكم.

استفزازٌ لمَنْ يتحدّى شَهادَةَ رَبِّ الأَرْبابِ وإدماجُ تَوْبيخِهم على الشِّرْكِ

دلالَةُ التَّعْبيرِ بـ ﴿دُونِ﴾:

﴿دُونِ﴾ نقيضُ (فَوْقَ)، وهو تقصيرٌ عن الغايةِ، والدّونُ: الخَسيسُ، ثُمَّ استُعيرَ للتَّفاوتِ في المَنازِلِ المعنويَّةِ تشبيهًا بالمراتِبِ الحِسّيَّة، كقولِنا: مِن دونِ فلانٍ شَرَفًا، والمعنى في الآيةِ: مِن غَيْرِ اللّه[1]. وفي التَّعبير بقولِه: ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ توبيخٌ للكُفّارِ؛ لأنّهم لم يرضوا بشهادةِ ربِّ الأربابِ سبحانه أنّ القرآن غيرُ مُفترًى، والمعنى: "ادعوهم مِن دونِ اللّه كدأبِكم في الفزعِ إليهم عِند مُهمّاتِكم مُعرِضين بدُعائِهم واستِنجادِهم عن دُعاءِ اللّه واللّجأ إليهِ، ففي الآيةِ إدماجُ توبيخِهم على الشِّركِ في أثناءِ التّعجيزِ عنِ المُعارضةِ"[2].

سِرُّ إيثارِ أَداةِ الشَّرْطِ ﴿إِن﴾:

التَّعْريضُ بالمُشْرِكينَ لإلْهابِ حَماسَتِهم، ودَفْعِهم لمُعارَضَةِ القُرْآنِ

(إذا) أداةُ شرْطٍ غيرُ جازمةٍ تدلُّ على تحقُّقِ وقوعِ الشَّرطِ بخلافِ ﴿إِن﴾ الَّتي تدلُّ على الشَّكِّ في تحقُّقِ الشَّرطِ. وفي إيثارِ ﴿إِن﴾ الشَّرطيَّةِ في قوله: ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ تعريضٌ بكَذِبِ المُشْرِكين؛ لأنَّ صدقَهم غيرُ مُحْتَمَلِ الوقوعِ، وفي هذا التَّعريضِ إلهابٌ لحَماستِهم، إذْ عرَّضَ بعَدَمِ صِدْقِهم لتَتَوفَّرَ دوافعُهم في مُعارضةِ القرآنِ. وفي هذا أيضًا زيادةٌ في التَّحَدّي والتَّبْكيتِ والإلزامِ[3].

والمعنى: إنْ كُنْتُم صادِقينَ في دَعْواكم أنَّ القرآنَ مُفْتَرًى. فحُذِفَ مُتَعَلَّقُ ﴿صَٰدِقِينَ﴾؛ لدَلالَةِ ما تَقَدَّم عليْه، وجَوابُ الشَّرْطِ مَحْذوفٌ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/57.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/54.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/55.

تَدُلُّ عليْه جُملَةٌ مُقَدَّرَةٌ بَعْدَ جُملَةِ: ﴿وَٱدۡعُواْ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾، إذِ التَّقْديرُ: فتَأْتونَ بسورَةٍ مِن مِثْلِه.

التَّفْرِقَةُ بَيْنَ: ﴿وَٱدۡعُواْ شُهَدَآءَكُم﴾، ﴿وَٱدۡعُواْ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم﴾:

معنى قولِه: ﴿وَٱدۡعُواْ شُهَدَآءَكُم﴾ [البقرة: 23] أي: أعوانَكم وأنصارَكم على سبيلِ الكِناية، فالشّاهِدُ يُؤَيِّدُ قَولَ المَشْهودِ فينصرُه على خَصْمِه. أمّا قولُه: ﴿وَٱدۡعُواْ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم﴾ أي: مِن خَلْقِ اللّه مِن إنْسٍ وجِنٍّ، وهذا أعَمُّ في طَلَبِ الاستعانةِ بالنُّصَراءِ كما تدلُّ عليه صيغةُ الطَّلَبِ مِن بَذْلِ الجُهْدِ، وإفراغِ الطّاقةِ في التَّنْقيبِ عمّا يُعينُهم في مُعارَضةِ القرآنِ الكريمِ.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(افْتَرى) و(كَذَبَ):

الافْــتِراءُ أَقْــوى أَثَرًا، وأَشَدُّ ضَرَرًا مِنَ الكَذِبِ

افْترى: افترَى الكَذِبَ يفْتَريه: اخْتَلَقَه. والفِرَى: جَمعُ فِرْيَةٍ وهي الكَذِبَةُ. والافتراءُ: الكَذِبُ في حقِّ الغَيرِ بما لا يَرْتَضيه[1]. والافْتِراءُ أيضًا: هو العظيمُ مِن الكَذِبِ، يُقالُ لمَنْ عمِل عملًا فبالَغَ فيه: إنّه لَيَفْري الفَرِيَّ. ومعنى افْتَرى: افْتَعَلَ، واختلقَ ما لا يَصِحُّ أنْ يكونَ[2].

كَذَبَ: كِذْبًا وكَذِبًا، فهو كاذبٌ وكذّابٌ وكَذوبٌ. الكَذِبُ: نقيضُ الصِّدْقِ. والكَذِبُ قدْ يقعُ على سبيلِ الإفسادِ ويكونُ في حَقِّ النَّفْسِ، وقد يكونُ على سبيلِ الإصلاحِ، كالكذبِ للإصلاحِ بَيْنَ المُتَخاصِمَيْنِ، والكذبُ في الحربِ[3]، وتَشْتَرِكُ الكَلِمتان: الافتراءُ والكَذِبُ في عدَمِ مطابقةِ الخبرِ للواقعِ، لكِنَّ الافتراءَ أقوى أثَرًا، وأشَدُّ ضَرَرًا مِن الكَذِبِ؛ لأنَّه أعظمُ الكَذِبِ.

(1) ابن منظور، لسان العرب: (فري)، والعسكريّ، الفروق اللُّغويّة، ص: 499.
(2) الجوهريّ، الصِّحاح: (كذب).
(3) الرّاغب، المفردات: (كذب).

﴿بَلۡ كَذَّبُواْ بِمَا لَمۡ يُحِيطُواْ بِعِلۡمِهِۦ وَلَمَّا يَأۡتِهِمۡ تَأۡوِيلُهُۥۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ٣٩﴾

[يونس: 39]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الدّافِعُ لإنْكارِ القُرْآنِ هوَ العِنادُ لا الشُّبُهاتُ

ذكرَ القرآنُ حقيقةَ إنكارِ المُشْرِكين، فهو العنادُ لا الشُّبهاتُ، فإنَّه "لمّا أقامَ الدَّليلَ على أنّ القرآنَ كلامُه، وكان الدَّليلُ إنّما مِن شأنِه أنْ يُقامَ على مَنْ عرَضَ له غَلَطٌ أو شُبْهَةٌ، وكان قولُهم: ﴿ٱفۡتَرَىٰهُۖ﴾ لا عنْ شُبهةٍ، وإنَّما هو مجرَّدُ عنادٍ، نبَّهَ سبحانَه على ذلك وعلى أنَّه إنَّما أقامَ الدَّليلَ لإظهارِ عنادِهم، لا لأنَّ عندَهم شُبهةً في كونِه حقًّا بالإضرابِ عن قولِهم، فقالَ: (بل)"[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يُحِيطُواْ﴾: حَوَطَ: حاطَهُ يَحوطُهُ حَوْطًا وحَيْطةً وحياطةً: حَفِظَه وتعَهَّدَه[2]. وتَدُلُّ الكلمةُ على التَّمَكُّنِ مِنَ الشَّيْءِ والسَّيْطرَةِ عَلَيْه، وعَدَمِ تَفَلُّتِه. ومِن مَعاني الإحاطَةِ: المَنْعُ أيضًا، كما في قوله سبحانه: ﴿إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمۡۖ﴾ [يوسف: 66] والهَلاكُ، نَحْو قولِه تعالى: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ﴾ [الكهف: 42]، ومنْه الحِفْظُ والجَمعُ، نَحو قولِه: ﴿إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِٱلنَّاسِۚ﴾ [الإسراء: 60]؛ أيْ: حافِظُهم وجامِعُهم لا يَفوتونَه[3].

2) ﴿تَأۡوِيلُهُۥۚ﴾: المعنى المِحْوَريُّ للمادَّةِ: حَقيقَةُ الشَّيْءِ المُتَحصّلةُ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/124.
(2) ابن منظور، لسان العرب: (حوط).
(3) السَّمين الحَلَبيّ، عُمدَة الحُفّاظ: (حوط).

منهُ، أي: صُلْبُ مادَّته الّتي تَخْلُصُ بعدَ تَنْحيَةِ ما يَشوبُها أو يُغَطّيها[1].
ويَدُلُّ التَّأْويلُ على تَبْيينِ مَغْزى الكَلامِ ومَراميهِ.

3) ﴿عَقِبَةُ﴾: تُطْلَقُ العاقِبةُ مُجَرَّدَةً فيما يختصُّ بالثَّوابِ، نَحْو قولِه: ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [القصص: 83]، وبالإضافةِ قدْ تُستَعْمَلُ في العُقوبةِ، نَحْو: ﴿ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ ٱلسُّوٓأَىٰٓ﴾ [الرّوم: 10]. والعُقوبَةُ والمُعاقبةُ والعِقابُ يختصُّ بالعذابِ، نَحْو قولِه: ﴿فَحَقَّ عِقَابِ ﴿١٤﴾﴾ [ص: 14]. والتَّعْقيبُ: الإتيانُ بشيْءٍ بَعْدَ آخرَ[2].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

في الآيَةِ إضْرابٌ عمّا تَقَدَّمَها إلى بَيانِ أَسْبابِ تَكْذيبِهِم الحَقيقيَّةِ

لَمّا رَأى المُشْرِكون القرآنَ مُشْتَمِلًا على أمورٍ ما عرَفوا حقيقتَها، سارَعوا بجهلِهم إلى التَّكذيبِ أوَّلَ ما سمِعوه، وهُم لَم يُحيطوا بعِلمِ ما فيه، وقبلَ أنْ يقَعَ ما أخبَرَ اللّه تعالى أنَّه آتيهم مِن العُقوبةِ الَّتي توعَّدَهم اللّه بها على تكذيبِهم بالقُرآنِ، كذلك كذَّبَ الكافرون مِن الأُمَمِ الغابرةِ رُسُلَهم وأنبياءَهم، فانظُرْ يا مُحمَّدُ ﷺ ولا تحزنْ، كيفَ كان مَآلُ المُكَذِّبينَ بآياتِ اللّه مِن الأُمَمِ الماضيةِ، حيثُ أُخِذوا بالخَسْفِ، أو بالغرقِ، أوبالرّيحِ المُدَمِّرَةِ، أو بغَيرِ ذلك.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

غَرَضُ الإضْرابِ: ﴿بَلْ﴾:

قابَلَ المُشْرِكونَ الحَقَّ بالتَّكْذيبِ لتَقاصُرِ عُلومِهِم عَنِ التَّحْقيقِ

﴿بَلْ﴾ في قولِه: ﴿بَلْ كَذَّبُواْ﴾ حَرْفُ إضرابٍ وعَطْفٍ، إضْرابٌ لبيانِ حقيقةِ تكذيبِهم، وأنَّ حالَهم في المُسارَعةِ إلى التَّكذيبِ بآياتِ اللّه قَبْلَ تَدَبُّرِها، وتأمُّلِها والنَّظرِ فيها، ومُراجعةِ مَراميها أشْنَعُ مِن التَّكذيبِ نَفْسِه وأعجبُ، إذ إنَّهم بادَروا إلى تَكْذيبِ القرآنِ الكريمِ قَبْلَ أنْ يفقهوه، وقَبْلَ أنْ يَتَدَبَّروه، ويَقفوا على تأويلِه لفَرْطِ نُفورِهم

(1) جَبَل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (أول).
(2) الرّاغب، المفردات: (عقب).

مِمّا يخالفُ عقيدتَهم الفاسدةَ، وكذلك دونَ نظَرٍ في أدلَّةِ صِحَّتِه الَّتي أشارَ إليها قولُه: ﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾[1]، والغرضُ مِن الإضرابِ في ﴿بَلْ﴾ ذَمُّ المُشْرِكين على تَرْكِ النَّظَرِ في كِتابِ اللّه وتَدَبُّرِه، ودراستِه مع تَيَسُّرِ ذلك، والتَّمَكُّنِ مِنْه، كأنَّه قيلَ: دَعْ عنك تَحَدّيَهم، وإلزامَهم، فإنَّهم ليسوا للخطابِ أهْلًا؛ لأنَّهم مُقلِّدون مُتهافتون في الأمرِ لا عنْ خُبْرٍ وتثَبُّتٍ وتَعَقُّلٍ[2].

دلالَةُ التَّعْبيرِ بالماضي في: ﴿كَذَّبُواْ﴾:

الكَذِبُ شَأْنُهُم، والعِنادُ دَأْبُهُم

عبّرَ بالماضي في قولِه: ﴿كَذَّبُواْ﴾ تحقيقًا لكَذِبِهم وبيانِ حقيقةِ أمرِهم، وفي ذلك بيانٌ بأنَّ أمثالَهم لاتُجْدي معهم حُجَّةٌ ولا تهديهم بَيِّنَةٌ.

سِرُّ التَّعْبيرِ بالمُسْنَدِ إِلَيْهِ ضَمير غَيْبَةٍ في: ﴿كَذَّبُواْ﴾:

الإعْراضُ عَنِ المُشْرِكينَ لكَوْنِهِم لَيْسوا أَهْلًا للمواجَهَةِ بالخِطابِ

وقعَ المسندُ إليْه ضميرَ غَيْبةٍ إعراضًا عن مواجَهتِهم بالخِطابِ، لكَونِهم في مَنزِلةٍ أخَسّ مِنْ تكريمِهم بالخطابِ.

مَعْنى الباءِ في: ﴿بِمَا﴾:

أفادتِ الباءُ معانيَ التَّعديةِ فضلًا عن معاني الإلْصاقِ والملابَسةِ اللَّذيْن لا يفارِقانِها.

الغَرَضُ مِنَ التَّعْبيرِ بالاسْمِ المَوْصولِ: ﴿بِمَا﴾:

بَيانُ عُمومِ جَهْلِهِم وتَقْبيحِ أمرِهِم

عُبِّر عن القرآنِ بالاسم الموصولِ في قولِه: ﴿بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِۦ﴾ لبيانِ عمومِ جهلِهم إذْ هو أعمُّ المَوْصولاتِ، وأدْخَلُها في الإبْهامِ، كما أنَّ التَّعبيرَ بالاسمِ الموصولِ يقْتَضي ذِكْرَ جملةِ صلةٍ تتضمَّنُ علَّةَ الحُكمِ.

بَلاغَةُ التَّعْبيرِ بالكِنايَةِ: ﴿بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِۦ﴾:

قولُه: ﴿بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِۦ﴾ أي: بما لَم يُتْقِنوا عِلْمَه، وهي كِنايةٌ عن صِفةٍ هي السَّيْطرةُ على الشّيْءِ والتَّمكُّنُ مِنْه، والقبْضُ عليه

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/171.
(2) شيخ زاده، حاشية على تفسير البيضاويّ: 4/572.

وعَدمُ تَفَلُّته. والكِنايةُ في قولِه: ﴿بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِۦ﴾؛ للمُبالَغَةِ في وجوبِ التَّأمُّلِ في القرآنِ الكريم، والتَّأنّي قَبْلَ رَفْضِه، وعَدمِ الإيمانِ به، والنُّفورِ مِنْه. وفي الكِنايةِ أيضًا مُبالَغَةٌ في تَجْهيلِ الَّذينَ بادَروا إلى التَّكْذيبِ مِن دونِ تَأمُّلٍ في شَيْءٍ حَقيقٍ بالتَّأمُّلِ بَعْدَ التَّأمُّلِ، كما أنَّ في جملةِ الصِّلةِ إشعارًا بتعليلِ الحُكْم، أي: بيانُ سَببِ عدَمِ عِلْمِ المُكَذِّبين بالقرآنِ الكريمِ والإيمانِ به، فهُم لكمالِ جَهْلِهم به، وعِنادِهم وتعنُّتِهم، لَم يَعلَموه إلّا بعُنوانِ عدمِ العلمِ به، وبأنَّ تكذيبَهم به إنَّما هو بسبَبِ عدمِ عِلْمِهم بما أُنْزِل على النَّبيِّ ﷺ[1].

المُبالَغةُ في تَجْهيلِ الَّذينَ بادَروا إلى التَّكْذيبِ مِنْ دونِ تَأمُّلٍ في شَيْءٍ حَقيقٍ بالتَّأمُّلِ

نُكْتَةُ التعبير بـ: ﴿بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِۦ﴾:

عَدَلَ عنْ أنْ يُقال: بما لَم يُحيطوا بهِ عِلْمًا أو بما لَم يُحِطْ عِلْمُهم بهِ إلى: ﴿بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِۦ﴾؛ للمُبالَغَةِ، إذْ جُعِلَ العِلْمُ مَعْلومًا. فأصْلُ العِبارَةِ قَبْلَ النَّفْيِ: أحاطوا بعِلْمِهِ، أي: أتْقَنوا عِلْمَهُ أشَدَّ إتْقانٍ، فلَمّا نُفيَ صارَ: لَم يُحيطوا بعِلْمِهِ؛ أيْ: وكانَ الحَقُّ أنْ يُحيطوا بعِلْمِهِ، لأنَّ تَوَفُّرَ أدِلَّةِ صِدْقِهِ يَحْتاجُ إلى زيادَةِ تَأمُّلٍ وتَدْقيقِ نَظَرٍ بحَيْثُ يَتَعَيَّنُ على النّاظِرِ عِلْمُ أدِلَّتِهِ، ثُمَّ إعادَةُ التَّأمُّلِ فيها وتَسْليطُ عِلْمٍ على عِلْمٍ، ونَظَرٍ على نَظَرٍ بحَيْثُ تَحْصُلُ الإحاطَةُ بالعِلْمِ. والمعنى أنَّهم سارَعوا إلى التَّكْذيبِ بالقُرْآنِ في بَديهَةِ السَّماعِ، قَبْلَ أنْ يَفْقَهوهُ، ويَعْلَموا كُنْهَ أمرِهِ، وقَبْلَ أنْ يَتَدَبَّروهُ، والباءُ للتَّعْديَةِ، وشَأْنُها مَعَ فِعْلِ الإحاطَةِ أنْ تَدْخُلَ على المُحاطِ به، وهو المَعْلومُ، وهو هُنا القُرْآنُ"[2].

الكَشْفُ عَنْ إنْكارِهِم بمُجَرَّدِ السَّماعِ بَداهَةً دونَ تَأمُّلٍ

دلالَةُ العَطْفِ في: ﴿وَلَمَّا﴾:

جملةُ: ﴿وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ﴾ إمّا أنْ تكونَ عَطْفًا على الصِّلَةِ أوْ حالًا مِنَ المَوْصولِ، والمَعنى على العطفِ على الصِّلةِ: لَم يُحيطوا بعلمِه، ولمّا يأتِهم تأويلُه، فيكونُ في ذلك زيادةُ بيانٍ لعنادِهم،

العِنادُ طَبيعَةُ المُشْرِكينَ وخُلُقُهُم فَلا تَفَكُّرَ ولا انْتِظارَ للتَّأْويلِ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السَّليم: 2/666.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/171.

ورفضِهم على البديهةِ دونَ أدْنى تَفَكُّرٍ، ولا أدْنى انتظارٍ، وعلى كونِها حالًا يكونُ المعْنى أنّهم قَرَنوا التَّكذيبَ بحالِ عدمِ انتظارِ التَّأويلِ، وفي كلٍّ ثراءٌ للمَعْنى.

بَلاغَةُ المَجازِ العَقْليِّ في: ﴿وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ﴾:

التَّأْويلُ ذو أثَرٍ بالِغٍ في إظْهارِ الحُجَّةِ

إسنادُ الإتْيانِ إلى التَّأويل مجازٌ عقليٌّ، وفيه مبالَغةٌ في بيانِ قدْرِ التَّأويلِ في إظهارِ الحُجَّةِ، وفي المرادِ بالتَّأويلِ وجْهانِ[1]: أحَدُهُما: عِلْمُ ما فيه مِنَ البُرْهانِ، والمعنى: ولَم يَقِفوا بَعْدُ على مَعانيه الوَضْعيَّةِ والعَقْليَّةِ المُنْبِئَةِ عنْ عُلوِّ شَأْنِهِ وسُطوعِ بُرْهانِه، والإتْيانُ كِنايةٌ عنِ المَعْرِفَةِ والوُقوفِ، وأوثَرَ التَّعبيرُ به؛ للإشْعارِ بأنَّ تِلْكَ المَعاني مُتَوَجِّهَةٌ إلى الأذْهانِ، مُنْساقَةٌ إلَيْها بنَفْسِها انسياقًا تلْقائيًّا.

الثّاني: ما يَؤولُ إلَيْهِ أمرُهم مِنَ العِقابِ، والإتيانُ على هذا المعنى مَجازٌ عنْ تَبَيُّنِه وانْكِشافِه، أي: ولَم يَتَبَيَّنْ لَهم إلى الآنَ تَأْويلُ ما فيه مِنَ الإخْبارِ بالغُيوبِ حَتّى يَظْهَرَ أنَّهُ صِدْقٌ أم كَذِبٌ. والمعنى أنَّ القُرْآنَ مُعْجِزٌ من جِهَةِ النَّظْمِ والمعنى، ومن جِهَةِ الإخْبارِ بالغَيْبِ وهم فاجَؤوا تَكْذيبَهُ قَبْلَ أنْ يَتَدَبَّروا نَظْمَهُ ويَتَفَكَّروا في مَعْناهُ أو يَنْتَظِروا وُقوعَ ما أخْبَرَ به مِنَ الأُمورِ المُسْتَقْبَلَةِ[2].

سِرُّ التَّعْبيرِ بـ﴿وَلَمَّا﴾ وإيثارِهِ:

التَّعْبيرُ بـ(لَمّا) يومِئُ إلى حَسْمِ أعْذارِ المُشْرِكينَ، وتَحَقُّقِ بَوارِهِم

كَشَفَ التَّعبيرُ بـ﴿وَلَمَّا﴾ وإيثارُه على (لَم) في قولِه: ﴿وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ﴾ عنْ نفوسِ المُشْرِكين المريضةِ، وأفكارِهم اليابِسةِ، وعقولِهم المُتَحجِّرَةِ، حيثُ سارعوا إلى التَّكذيبِ بالقرآنِ الكريمِ قبْلَ عِلمِه المتوقَّعِ إتيانُه، وأبانَ صاحبُ الكَشّافِ عن سِرِّ التَّعبيرِ بـ﴿وَلَمَّا﴾ في بيانٍ صافٍ فقال: "ما معنى التَّوقُّعِ في قولِه: ﴿وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ﴾؟ قُلت: معناه أنَّهم كَذَّبوا بَه على البديهةِ قبلَ التَّدبُّرِ ومعرفةِ التَّأويلِ،

(1) الماورديُّ، النُّكَت والعيون: 2/436.
(2) الآلوسيُّ، روح المعاني: 11/119.

تقليدًا للآباءِ. وكَذَّبوه بَعْدَ التَّدَبُّرِ، تمَرُّدًا وعِنادًا، فذَمَّهم بالتَّسرُّعِ إلى التَّكذيبِ قَبْلَ العِلْمِ به، وجاء بكلمةِ التَّوقُّعِ ليُؤْذِنَ بأنَّهم علِموا بُعْدَ عُلوِّ شأْنِه وإعجازِه لمّا كرَّر عليهِم التَّحدِّي، ورازوا[1] قواهُم في المعارضةِ واستَيْقَنوا عجزَهم عنْ مثلِه، فكذَّبوا به بَغْيًا وحَسَدًا[2].

نُكْتَةُ النَّفْيِ بـ﴿وَلَمَّا﴾:

نَفْيُ إتْيانِ التَّأْويلِ بكَلِمَةِ ﴿وَلَمَّا﴾ الدّالَّةِ على التَّوَقُّعِ بَعْدَ نَفْيِ الإحاطَةِ بعِلْمِ القرآنِ الكريمِ بكَلِمَةِ ﴿لَمْ﴾ في قولِه: ﴿وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ﴾؛ لنُكتةٍ هي تأكيدُ الغارةِ على المُشْرِكين، وذَمِّهم، وتَشْديدُ التَّشْنيعِ عليهم، والتَّشهيرِ بغبائِهم، حيثُ إنَّ الشَّناعَةَ في تَكْذيبِ الشَّيْءِ قَبْلَ عِلْمِهِ المُتَوَقَّعِ إتْيانُهُ أفْحَشُ منها في تَكْذيبِهِ قَبْلَ عِلْمِهِ مُطْلَقًا، والمعنى: أنَّهُ كانَ يَجِبُ عليْهِم أنْ يَتَوَقَّفوا إلى زَمانِ وُقوعِ المُتَوَقَّعِ فلَم يَفْعَلوا. وأمّا أنَّ المُتَوَقَّعَ قد وقَعَ بَعْدُ وأنَّهُمُ اسْتَمَرّوا عِنْدَ ذَلِكَ أيضًا على ما هُم عليْهِ أوَّلًا فَلا تَعرُّضَ لهُ هَهُنا[3].

التَّعْبيرُ بـ (لَمّا) لِلاحْتِراسِ، ولِقَطْعِ أعْذارِ المُشْرِكينَ

ورُبَّما كان التَّكذيبُ قبلَ إحاطتِهم بعِلْمِ القرآنِ الكريمِ يوهِمُ لَهُم عُذْرًا ما، فجاءَ التَّعبيرُ بـ﴿وَلَمَّا﴾ للاحتراسِ عن هذا، وللإشعارِ بأنّهم قدْ أحاطوا بعِلْمِه حتَّى تَنْحَسِمَ أعذارُهم، ويتحقّقَ بَوارُهم[4].

الغَرَضُ مِنْ تَقْديمِ المَفْعولِ:

قُدِّمَ المفعولُ بهِ (هُم) على الفاعلِ ﴿تَأْوِيلُهُۥ﴾ لأنَّهم هُم المَعْنيّون بنَفْيِ إتْيانهم تأويلَ القرآنِ، وأيضًا للمُسارَعةِ إلى ذَمِّهم.

عَذابُ المُشْرِكينَ آتٍ لا مَحالَةَ، لأنَّهُم المَقْصودونَ

مَوْقِعُ جُملَةِ: ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ﴾ ودلالَتُهُ:

جملةُ: ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ استئنافيَّةٌ. والخطابُ للنَّبيِّ ﷺ أو لِمَنْ يَتَأَتَّى مِنْه السَّماعُ. و﴿كَذَٰلِكَ﴾ نَعْتٌ لمصدرٍ محذوفٍ

تَسْلِيَةُ النَّبيِّ ﷺ

(1) أي: جرَّبوها وخَبَروها.
(2) الزَّمخشريُّ، الكشّاف: 3/137، والنَّسَفيُّ، مَدارك التَّنْزيل: 2/164.
(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/666 - 667.
(4) ابن المُنيرِ، حاشية على الكشّاف: 3/137.

تقديرُه: مِثْلُ ذلك التَّكذيبِ كَذَّبت الأُمَمُ رُسُلَهم قَبْلَ النَّظرِ في مُعْجزاتِ الأنْبياءِ، وقَبْلَ تَدَبُّرِها مِن غَيْرِ إنْصافٍ مِن أنْفُسِهم، ولَكِنْ قَلَّدوا الآباءَ وعانَدوا الأنبياءَ[1] ﷺ لذا فرَّع على جملةِ التَّشبيه خطابَ النَّبيِّ ﷺ بقولِه: ﴿فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: عاقبةُ الأممِ الَّتي ظلمَت بتكذيبِ الرُّسلِ كما كَذَّب هؤلاء[2].

الغَرَضُ مِنَ التَّعْبيرِ بالتَّشْبيهِ: ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ﴾:

التَّسْليَةُ بأَحْوالِ السّابِقينَ تُذْهِبُ الحُزْنَ وتُثَبِّتُ القَلْبَ

الغرضُ من هذا التَّشبيه ثلاثةُ أمورٍ: الأوّلُ: أنّ هذه عادةُ المُعانِدين الكافِرين ليَعلمَ المُشْرِكون أنّهم مُماثِلون للأُمَمِ الّتي كذَّبت الرُّسلَ فيَعْتَبروا بذلك، والثّاني: التَّعريضُ بالنَّذارةِ لهم بحلولِ العذابِ بهم كما حلَّ بتلكَ الأممِ الَّتي عرف السّامعون مصيرَها وشاهدوا ديارَها، والثّالثُ: تسليَةُ النَّبيِّ ﷺ بأنّه ما لَقيَ مِن قومِه إلّا مِثْلَ ما لَقيَ الرُّسُلُ السّابقون مِن أقوامِهم[3].

الغَرَضُ مِنَ التَّعْبيرِ باسْمِ الإشارَةِ المَوْضوعِ للبَعيدِ:

بَيانُ شِدَّةِ عاقِبَةِ التَّكْذيبِ

التَّعبيرُ باسْمِ الإشارةِ للبعيدِ ﴿كَذَٰلِكَ﴾؛ لتعظيمِ شأنِ ذلك التَّكذيبِ، والإشارةِ إلى خطورتِه، وشِدَّةِ عاقبتِه.

الغَرَضُ مِنَ التَّعْبيرِ بالاسْمِ المَوْصولِ:

تَشابُهُ الحالِ يُؤَدّي إلى تَشابُهِ النَّتيجَةِ

عُبِّرَ بالاسمِ الموصولِ في قولِه: ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ﴾؛ ليَتَأتّى تعليلُ الحُكْمِ بواسطةِ جملةِ الصِّلةِ، "وإنّ هذه الحالَ مِن المُشْرِكين هي الحالُ الَّتي كانت في الأممِ السّابقةِ الَّذينَ بُعِثَ فيهم الرُّسلُ وسارَعوا بتكذيبِهم قبلَ أنْ يتأمَّلوا ما أتَوْا به، وقبلَ أنْ يعرفوا قوَّةَ المعجزةِ، ثمّ لجّوا في تكذيبِهم حتّى نَفَّذَ اللّه تعالى أمرَه فيهم كقولِه تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ﴾ كهذه الحالِ

(1) أبو حَيّان، البحر المحيط: 6/59.
(2) الجَمل، الفتوحات الإلهيَّة: 2/350.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/173.

الَّتي كان عليها المُشْرِكون من العرب في مُسارَعتِهم إلى التَّكذيب واللَّجاجَةِ فيه، ثمَّ المعاندةِ والمقاومةِ بالعنفِ من غيرِ إدراكٍ سليم، وهذه الحالُ هي حالُ الّذين مِن قبلهم، فإذا تشابهتِ الحالُ فلا بدَّ أن تَتَشابَهَ النَّتيجةُ أو الأثرُ، ولذا قال سبحانه: ﴿فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾"[1].

دلالَةُ اسْتِخْدامِ ﴿مِن﴾ قَبْلَ الظَّرْفِ:

كُفّارُ مَكَّةَ ومَنْ حَوْلَها يَنْتَهِجونَ نَهْجَ أَسْلافِهِم في العِنادِ والخُصومَةِ واللَّجاجِ والتَّكْذيبِ

أُثْبِتَ الجارُّ في قوله: ﴿مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ للإشارة إلى المُكَذِّبين مِن كُفّارِ الأُمَمِ الخاليَة، وأنَّهم ظَلَموا فأُهْلِكوا بظُلْمِهم[2]. وعليه فمعنى ﴿مِن﴾ هُنا: التَّبعيض، فكُفّار مكَّة ومَن حَوْلها ينتهجون نَهْجَ أسلافِهم في العِناد والخصومةِ واللَّجاجِ والتَّكذيب. إنَّها سِلْسِلةٌ طويلةٌ ومُتَّصِلةٌ مِن الكُفرِ يواجهُها أنبياءُ اللّه ﷺ على مَرِّ الأزمان بعزيمةٍ وثباتٍ وإصرارٍ على إبلاغِ دعوةِ اللّه تعالى، ومِن المُمكِنِ أنْ تكونَ ﴿مِن﴾ مشيرةً إلى مَن سبقَهم مِن الأمم مباشرةً، وفيه من التَّرهيبِ ما فيه، لكَونِ مَن سبقَهم أقربَ زمانًا ومكانًا فيكونُ أقوى ردعًا وتخويفًا.

دلالَةُ الفاءِ وفِعْلِ الأَمرِ في: ﴿فَٱنظُرۡ﴾:

الخِطابُ للرَّسولِ صَلّى اللهُ تَعالى عَلَيْهِ وسَلَّمَ

الفاءُ في قولِه: ﴿فَٱنظُرۡ﴾ كَما قال الآلوسيّ لتَرْتيبِ ما بَعْدَها على كلام مَحْذوفٍ يدلُّ عليه السّياقُ تقديره: فَأَهْلَكْناهم، فانْظُرْ[3]. والخِطابُ للرَّسول ﷺ ويُحْتَمَلُ أنْ يَكونَ عامًّا لكُلِّ مَن يَصْلُحُ لَه. والأوَّلُ أَوْلى؛ لدخولِه في بابِ تسليَتِه ﷺ، وأمّا دلالةُ الفعلِ ﴿فَٱنظُرۡ﴾، فهي للتَّعجُّبِ والاعتبارِ.

دلالَةُ ﴿كَيۡفَ﴾ بَيْنَ اسْمِ المَصْدَرِ والاسْتِفْهامِ:

انْفِكاكُ الاسْتِفْهامِ عَنْ (كَيف)

﴿كَيۡفَ﴾ هُنا إمّا أنْ تكونَ في مَوْضِعِ نَصْبِ خَبَرِ كانَ، وإمّا أنْ

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 3573/7 - 3574.
(2) البِقاعيّ، نَظْم الدُّرَر: 9/125.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 11/120.

تكونَ اسمَ مَصْدرٍ، وفي هذه الحالةِ ينْفَكُّ عنها معنى الاستفهامِ، وهي هُنا تَحْتَمِلُ ذَلِكَ[1]. والمعنى: انظُرْ بعَينِك حالَةَ صِفتُها: كان عاقبةُ المُكَذِّبين، ويجوزُ أن تكونَ ﴿كَيْفَ﴾ استفهاميَّةً والمعنى: فانظرْ هذا السّؤالَ، أي: تدبَّرْهُ وفكِّرْ فيه، ويكونُ غرضُ الاستفهامِ الإنكارَ والتَّعجيبَ من حالِهم.

سِرُّ الإضافَةِ العاقِبَةِ: ﴿عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾:

سَبَبُ هَلاكِهِم هوَ رُسوخُهُم في الظُّلْمِ، وتَمَرُّدُهُم عَلى الحَقِّ

المُرادُ بالظّالِمين: المُكَذِّبونَ مِن الأُممِ الغابِرةِ. وفي إضافةِ العاقبةِ إلى الظّالمين إشارةٌ إلى سَبَبِ هلاكِهم وهو رسوخُهم في الظُّلْم، وتَمرُّدُهم على الحَقِّ، وإعراضُهم عن التَّصديقِ والإيمان، وهذه الجُملةُ: ﴿كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ في قوَّةِ قولِه: ﴿فَأَهْلَكْنَٰهُمْۚ﴾ [الشّعراء: 139][2].

الغَرَضُ مِنْ وَضْعِ المُظْهَرِ مَوْضِعَ المُضْمَرِ في: ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾:

تَبْشيعُ التَّكْذيبِ بوَصْفِهِ ظُلْمًا

عُدِل عن الإضمارِ إلى الإظهارِ في قولِه: ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ حيثُ كان الظاهرُ أنْ يُقال: فانظرْ كيف كان عاقبتُهم؛ "لِلْإيذانِ بكَوْنِ التَّكْذيبِ ظُلْمًا بَيِّنًا، وبأنّه عِلَّةٌ لما حاق بهم مِن سوءِ العاقِبَةِ، وبِدُخول هَؤُلاءِ الَّذينَ حَكى عنْهم ما حَكى في زُمرَتِهم جُرْمًا ووَعيدًا دُخولًا أوَّليًّا، ولِبَيانِ أنّهم ظلموا أنفسَهم وظلموا الأنبياءَ الّذين أُرْسِلوا إليهم، وأنكروا حقائقَ ثابتةً قد خلتْ فيمَنْ ظَلموا[3].

مَعْنى (أَلْ) في: ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾:

الأفضلُ أنْ تكونَ (أَلْ) هُنا جنسيّةً لتَعُمَّ جميع صُنوفِ الظّالمين في كلِّ زمانٍ ومكانٍ، بدلًا منْ أنْ يُرادَ بها صِنْفٌ مُحَدَّدٌ منهم.

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/667.
(2) الجَمَل، الفتوحات الإلهيَّة: 2/350.
(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 2/667.

الغَرَضُ مِنْ حذفِ مُتَعَلّقِ: ﴿فَٱنظُرۡ﴾:

تَوْسيعُ النَّظَرِ في عاقِبَةِ السّابِقينَ أَشَدُّ تَخْويفًا

معمولُ الأمرِ بالنَّظرِ محذوفٌ تقديرُه: فانظرْ على أيِّ حالٍ كانت عاقبةُ الظّالمين، والغرضُ من ذلك توسيعُ دائرةِ النَّظرِ للتَّخويف والاعتبارِ لتعدُّدِ عواقبِ السّابقين، فقد "كانت ريحًا صرصرًا عاتيةً، أو ريحًا فيها عذابٌ شديدٌ، أو جَعلَ أرْضَهم دكًّا عاليها سافِلها أو خَسَفَ بهم الأرضَ أو غيرَ ذلك من آياتِ اللّه الكُبرى في الَّذين يَظلمون أنفسَهم ويَظلمون الحقَّ معهم، وإذا كان اللّه قد أمهلَ المُشْرِكين ولم يُنْزِلْ بهم ما أنزلَ بالَّذين مِن قَبْلَهم - مِن الخَسْفِ أو العذابِ الشَّديد - فلِكَي يستمرَ اختيارُهم، وعسى أنْ يُخْرِجَ اللّه مِن أصلابِهم مَنْ يَعْبُدُه[1].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

العاقِبَةُ والمَصيرُ:

تَأْتي كَلِمَةُ (المَصير) في سِياقِ سوءِ العاقِبَةِ غالِبًا

تَشتركُ الكلمتانِ في الدّلالةِ على الخاتِمَةِ أوالنَّتيجةِ، وتنفردُ كلمةُ المصيرِ بالدّلالةِ على سوءِ العاقِبةِ غالبًا، بخِلافِ كلمةِ العاقبةِ الَّتي تَحْتَمِلُ عاقبةَ الخَيْرِ أو العذابِ.

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3574.

﴿وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦۚ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِٱلْمُفْسِدِينَ ۝٤٠﴾ [يونس: 40]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

هذِهِ الآيَةُ تُمَثِّلُ اسْتِئْناءً واسْتِدْراكًا عَلى ما تَقَدَّمَهُ بِبَيانِ أَنَّهُم لَيْسوا سَواءً في الكُفْرِ

أماطَ الفخرُ الرّازيُّ اللِّثامَ عن وجهِ مناسَبةِ الآيةِ الكريمةِ لما قَبْلَها بقوله: "ولَمّا ذَكَرَ سُبْحانَهُ تَكْذيبَهُم، كان ذَلِكَ رُبَّما أيأسَ مِن إذْعانِهِم وتَصْديقِهِم، وآذَنَ باسْتِئْصالِهِم لتَكَمُّلَ المُشابَهَةُ للأوَّلين، وكانَ ﷺ شَديدَ الشَّفَقَةِ عليْهِم والحِرْصِ على إيمانِهِم، فأتْبَعَه تَعالى بقَوْلِه بَيانًا لأنَّ عِلْمَهُ بانْقِسامِهِم أوجَبَ عدَمَ اسْتِئْصالِهِم"[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿بِٱلْمُفْسِدِينَ﴾: فَسَدَ يَفْسُدُ، ويَفْسِدُ، وفَسُدَ، فسادًا وفُسودًا، فهوَ فاسدٌ. والمَفْسَدَةُ: نَقيضُ المصْلَحةِ والاسْتِفْسادُ: خِلافُ الاسْتِصْلاحِ[2]. والمعنى المِحْوريُّ: ذَهابُ نَفْعِ الشَّيْءِ المقصودِ منه (أي: تَلَفُهُ وهلاكُه) لحِدَّةٍ ضارَّةٍ تَسْري في أثنائِه كالجَدْبِ في الأرضِ[3]. والفسادُ: نَقيضُ الصَّلاحِ.

المَعْنى الإجْماليُّ:

تَوَعَّدَتِ الآيَةُ مَنْ لا يُؤْمِنونَ باللهِ ورُسُلِهِ بأَشَدِّ العَذابِ

مِن المُشْرِكين مَن سيؤمنُ بالقرآنِ قبلَ موتِه، ومنهم مَن لا يؤمنُ به عنادًا ومكابرةً حتّى يموتَ، وربُّكَ - أيُّها الرَّسولُ - أعلمُ بالمُصِرّين على كفرِهم، وسَيُجازيهم على كفرِهم، ومِن قومِك - أيُّها الرّسول - مَن يصدِّقُ بالقرآنِ ويَتَّبِعُك، ويَنْتفعُ بما أُرْسِلتَ به، ومنهم مَن لا يُصَدِّقُ به حتّى يموتَ على ذلك ويُبْعَثَ عليْه، ورَبُّك أعلمُ بالمُفْسِدين

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 17/104.
(2) ابن منظور، لسان العرب: (فسد).
(3) جَبَل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (فسد).

الَّذين لا يؤْمنون به، ظُلْمًا، وعِنادًا، وفسادًا، فيُجازيهم على فسادِهم وكُفْرِهم بأشَدِّ العذابِ.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالَةُ الواوِ في: ﴿وَمِنْهُم﴾:

تَخْصيصُ العامِّ، أوْ بَيانُ المُجْمَلِ

الواوُ في قولِه: ﴿وَمِنْهُم﴾ عاطفةٌ، حيثُ عطَفَت ما بَعْدَها على جملةِ: ﴿بَلْ كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِۦ﴾ [يونس: 39] في الآية السّابقة؛ "لأنَّ الإخْبارَ عنْ تَكْذيبِهم بأنَّهُ دون الإحاطَةِ بعِلْمِ ما كَذَّبوا به يَقْتَضي أنَّ تَكْذيبَهم به لَيْسَ عن بَصيرَةٍ وتَأمُّلٍ. وما كانَ بهاتِه المَثابَةِ كانَ حالُ المُكَذِّبينَ فيه مُتَفاوِتًا حَتّى يَبْلُغَ إلى أنْ يَكونَ تَكْذيبًا مَعَ اعْتِقادِ نَفْيِ الكَذِبِ عنْهُ، ولِذَلِكَ جاءَ مَوْقِعُ هذه الآيَةِ عقِبَ الأُخْرى مَوْقِعَ التَّخْصيصِ للْعامِّ في الظّاهِرِ أوِ البَيانِ للْمُجْمَلِ مِن عدَمِ الإحاطَةِ بعِلْمِهِ، كَما تَقَدَّمَ بَيانُهُ في قوله: ﴿بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِۦ﴾.

مَعْنى (مِنْ) في: ﴿وَمِنْهُم﴾:

(مِنْ) هُنا تبعيضيَّةٌ؛ لأنّ الآيةَ الكريمةَ جَعَلَتْهم في قِسْمَيْن: مَن يُؤمِنُ به، ومَن لا يُؤْمِنُ.

الغَرَضُ مِنْ تَقْديمِ الخَبَرِ عَلى المُبْتَدَأ: ﴿وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ﴾:

التَّعْجيلُ بتَبْشيرِهِ ﷺ

﴿وَمِنْهُم﴾ خبرٌ مُقَدَّمٌ، و﴿مَّن﴾ مُبْتَدا مؤخَّرٌ، وجملةُ: ﴿يُؤْمِنُ بِهِۦ﴾ صِلَةُ المَوصولِ، وجملةُ: ﴿وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦ﴾ معطوفةٌ على الجملةِ السّابقةِ، وقُدِّم الخبرُ على المبتدأ؛ للتَّعجيلِ بتَبْشيرِه ﷺ بأنَّ مِن قومِه مَن سيشرحُ اللّه صدرَه للإسلامِ، ويُصَدِّقُ بالقرآنِ، لذا قُدِّمَ قوله: ﴿مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ﴾ على قولِه: ﴿وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦ﴾.

مَرْجِعُ الضَّميرِ: (هم):

أَهْلُ مَكَّةَ هُمُ المَقْصودونَ بالخِطابِ

يعودُ الضَّميرُ (هُم) على أهلِ مكَّةَ. أي: ومِنْ هَؤُلاءِ الَّذينَ بُعِثْتَ إلَيْهِم يا مُحَمَّدُ مَنْ يُؤْمِنُ بهَذا القُرْآنِ، ويَتَّبِعُكَ ويَنْتَفِعُ بما أُرْسِلْتَ

بهِ، ﴿وَمِنۡهُم مَّن لَّا يُؤۡمِنُ بِهِۦۚ﴾ بَلْ يَموتُ على ذَلِكَ ويُبْعَثُ علَيْه، وإنما عبَّرَ بالضمير لأنَّهم المَقْصودون بالخطابِ أوَّلًا لكَوْنِ رسولِ اللّه ﷺ بُعِثَ فيهِم أوَّلًا فكانوا مُبتدَأ الخِطابِ.

التَّعْبير بالمُبْتَدَأِ اسْمًا مَوْصولًا في: ﴿مَّن يُؤۡمِنُ﴾:

عَبَّرَ بالمُبْتَدَأِ اسْمًا مَوصولًا؛ ليَتَأتَّى بَيانُ المُرادِ بهِ مِن خلالِ صِلتِه: ﴿يُؤۡمِنُ﴾، وما جاء بعدَها بالعطفِ: ﴿لَّا يُؤۡمِنُ﴾.

أَهْلُ مَكَّةَ مِنْ جِهَةِ الخِطابِ القُرْآنيِّ كانوا عَلى فَريقَيْنِ

دلالَةُ التَّعْبيرِ بالمُضارِعِ في: ﴿يُؤۡمِنُ﴾:

عبَّرَ بالمضارعِ في طرَفَي المُخاطَبين استحضارًا للحالِ الماضيةِ، وتنبيهًا إلى ما يكونُ عليه الحالُ دائمًا عند سماعِ القرآنِ في كلِّ زمنٍ، وعبَّرَ بالمضارعِ حالَ التَّنزيلِ إعلامًا بما سيكونُ من حالِ المُخاطَبين.

دلالَةُ حَرْفِ الجَرِّ (الباء) في: ﴿بِهِۦۚ﴾:

الباءُ المفردةُ حَرْفُ جَرٍّ، ولَها معانٍ كثيرةٌ تصلِ لأرْبعةَ عشَرَ معنًى، ومِن أشهرِ معانيها الإلصاقُ، وقيلَ: هو معنًى لا يفارقُها؛ لذا اقتصرَ عليه سيبَوَيْه. وكلام سيبَوَيْه يُفيدُ أنَّ معنى الإلصاقِ في (الباء) معنًى أصليٌّ، وغيْرُهُ من المعاني تابعٌ له[1].

الإلْصاقُ أَشْهَرُ مَعاني الباءِ

والباءُ في قولِه: ﴿وَمِنۡهُم مَّن لَّا يُؤۡمِنُ بِهِۦۚ﴾ للإلصاقِ، والمعنى: ومِن قومِك يا مُحَمَّدُ ﷺ مَن سيؤمنُ إيمانًا راسخًا بالقرآنِ الكريمِ لا يَنْفَكُّ عنْه، ومنهم أيضًا مَن كُتِبَ عليه الشَّقاءُ فلا يُؤْمنُ بما جئتَ به.

الغَرَضُ مِنْ أُسْلوبِ طِباقِ السَّلْبِ:

دَلَّ طباقُ السَّلْبِ بَيْن ﴿يُؤۡمِنُ﴾ و﴿لَّا يُؤۡمِنُ﴾ على تقسيمِ أهلِ دعوتِه ﷺ إلى فريقَيْن مُتَناقِضَيْن، فريقٍ كَتَبَ اللّه له السَّعادةَ بالهدايةِ للإيمانِ بالقرآنِ، وبرسالةِ مُحَمَّدٍ ﷺ وفريقٍ كُتِبَ عليه الشَّقاءُ فأصَرَّ على كفرِه بالقرآنِ وبما جاء به النَّبيُّ ﷺ.

تَقْسيمُ أَهْلِ دَعْوَتِهِ ﷺ

(1) ابن هشام، مُغْني اللَّبيب: 1/95.

دلالَةُ التَّرْتيبِ في تَقْسيمِ النّاسِ: ﴿وَمِنْهُم﴾، ﴿وَمِنْهُم﴾:

قُدِّمَ تَرْتيبُ المُؤْمِنينَ؛ لشَرَفِهم، وعُلوِّ مَكانَتِهم

جاءَ التَّرتيبُ في الجملةِ متساوِقًا مع التَّعجيلِ بتبْشيرِ النَّبيِّ ﷺ فقُدِّمَ ما يَسُرُّه، وأُخِّرَ ما يُحْزِنُه، كما قُدِّمَ ترتيبُ المُؤْمِنين؛ لشَرفِهم ومكانتِهم.

دلالَةُ اخْتيارِ المُضارِعِ في القِسْمِ الثّاني:

إصْرارٌ عَلى الكُفْرِ والعِنادِ

في إيثارِ التَّعبيرِ بالمضارعِ في قوله: ﴿وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦۚ﴾ في القِسْمِ الثّاني في قولِه: ﴿لَّا يُؤْمِنُ﴾ إشارةٌ إلى إصرارِ هذا الصِّنفِ من النّاس على العِنادِ والمكابرةِ والكُفْرِ، وفي تجديدِ الإنكارِ تسجيلٌ للجريمةِ وبيانٌ عن ملازمتِها لهم.

دلالَةُ الواوِ في: ﴿وَرَبُّكَ﴾:

اللهُ أَعْلَمُ بما كانَ وما يَكونُ قَبْلَ الخَلْقِ

الواوُ في قولِه: ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِٱلْمُفْسِدِينَ﴾ استئنافيَّةٌ، وهي بيانٌ لمَعْنًى تأسيسيٍّ أنَّ عِلْمَه سبحانه بالمُفْسِدين حقيقةٌ ثابتةٌ، وهي تأكيدٌ للإخبارِ بما يكونُ عليه فريقٌ من النّاسِ من إنكارِ القرآنِ، أو ابتدائيَّةٌ فتكونُ تقريرًا للمعنى السّابقِ، ويُمكِنُ أن تكونَ الواوُ حاليَّةً على معنى: والحالُ وهُم كذلك أنّ اللّه تعالى يعلمُ المُفْسِدين منهم، ويمكن أن تكونَ الواوُ اعتراضيَّةً كذلك.

سِرُّ إضافَةِ الرُّبوبيَّةِ إلى ضَميرِ الخِطابِ:

مَكانَةُ الرَّسولِ ﷺ عِنْدَ رَبِّهِ

في إضافةِ الرُّبوبيَّةِ إلى ضميرِ الخِطابِ، حيثُ لم يَقُلْ: (وإلَهكَ)، إيماءٌ إلى مكانةِ الرَّسول ﷺ عِنْد رَبِّه، فهو سبحانَه مُتَوَلّيه بالرِّعايةِ والإنعامِ واللُّطْفِ كما يوحي به معنى (رَبّ). وفيها أيضًا تشريفٌ له ﷺ.

الغَرَضُ البَلاغيُّ مِن التذييل بالاعْتِراضِ:

التَّعْريضُ بالوَعيدِ والإنْذارِ

جاءتْ جُملَةُ: ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِٱلْمُفْسِدِينَ﴾ مُعْتَرِضَةً في آخِرِ الكَلامِ؛ للتَّعْريضِ بالوَعيدِ والإنْذارِ، وبأنَّ غيرَ المُؤْمِنين مِنَ المُفْسِدينَ[1]. وخُتِمتِ الآيةُ بقولِه: ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِٱلْمُفْسِدِينَ﴾ "لِلْعِلْمِ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/175.

بأنَّهُ ما ذَكَرَ المُفْسِدينَ هُنا إلّا لأنَّ هَؤُلاءِ مِنهم، وإلّا لَم يَكُنْ لذِكْرِ المُفْسِدينَ مُناسَبَةٌ، فالمعنى: ورَبُّكَ أعْلَمُ بهِم لأنَّهُ أعْلَمُ بالمُفْسِدينَ الَّذينَ هم مِن زُمرَتِهِم"[1].

دلالَةُ صيغَةِ المُفاضَلَةِ: ﴿أَعْلَمُ﴾:

يُمكِنُ أن تكونَ صيغةُ (أفعل) على بابِها في المفاضَلةِ على معنى أنَّ هناك مَن يعلمُ حالَ أولئِك المُفْسِدين، ولكنَّ اللّه تعالى هو أعلمُهم بهم، ويُمكِنُ أنْ تكونَ مَسْلوبَةَ المُفاضَلَةِ على معنى أنّ اللّه تعالى هو فقَط مَن يعلمُ حالَهم دونَ غيرِه، وتكونُ صيغةُ (أفعل) للْمبالَغةِ في التَّأكيدِ.

مَعْنى الباءِ في: ﴿بِٱلْمُفْسِدِينَ﴾:

الباءُ المفرَدةُ حَرْفُ جَرٍّ، ومِن أشهرِ معانيها الإلصاقُ، وقيلَ: هو معْنًى لا يُفارِقُها؛ لذا اقتصرَ عليه سيبَوَيْه. وكلامُ سيبَوَيْه يُفيدُ أنَّ معنى الإلصاقِ في (الباء) معْنًى أَصْليٌّ، وغيْرُهُ مِن المعاني تابعٌ له[2].

والباءُ في قوله: ﴿أَعْلَمُ بِٱلْمُفْسِدِينَ﴾ للْإلصاقِ، والمعنى: وربُّك يا مُحمَّدُ أعلمُ بالمُفْسِدين عِلمًا لا يَنْفَكُّ عنه ويلتصقُ بهم لا يفارقُهم أيضًا.

مَعْنى (أل) في: ﴿بِٱلْمُفْسِدِينَ﴾:

(أل) هُنا الأفضلُ أنْ تكونَ جنسيَّةً استغراقيَّةً لتَشْمَلَ كلَّ صُنوفِهم، ولا تقتصرُ على نوعٍ محدَّدٍ منهم.

بَلاغَةُ المُتَشابِهِ اللَّفْظيِّ:

وذلك في قوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِٱلْمُفْسِدِينَ﴾ في آية سورة يونس.

فورَدَتْ آيةُ آلِ عمرانَ ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٣﴾﴾ [آل عمران: 63] في سياقِ الدَّعوةِ إلى المُباهلةِ بَعْد جدالِ وفْدِ نَجْرانَ مع النَّبيِّ ﷺ في شَأْنِ عيسى عليه السلام والمعنى: فإنْ أعرضوا عنِ اتِّباعِك وتصديقِك بعدَ هذه الآياتِ البَيِّناتِ، والحُجَجِ النَّيِّراتِ الَّتي أخْبَرْناك بها وقَصَصْناها عليك، فأنْذِرْهم بسوءِ العاقبةِ، وأخْبِرْهم أنَّ اللّه ﷻ عليمٌ بهم، وبما

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/175.
(2) ابن هشام، مُغْني اللَّبيب: 1/95.

يقولونَه ويفعلونَه مِن فسادٍ في الأرضِ، وسَيُعاقِبُهم على ذلك العقابَ الأليمَ، وقولُه: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِٱلۡمُفۡسِدِينَ ٦٣﴾ [آل عمران: 63] قائمٌ مقامَ جوابِ الشَّرْطِ، أي: فإنْ أَعْرضوا عن تصديقِك والإيمانِ بدَعوتِك، فأخْبِرْهم بأنَّهم مُفْسِدون وأنَّ لهم سوءَ العاقبةِ؛ لأنَّ اللّٰه عليمٌ بإفْسادِهم، ولن يتركَهم بدونِ حِسابٍ، واسْتَدعى هذا السِّياقُ بما فيه مِن وعيدٍ مُزَلْزِلٍ لهؤلاء المجادِلينَ بالباطلِ في شَأْنِ عيسى عليه السلام ولِكُلِّ مَنْ أعْرَض عن الحَقِّ الَّذي جاء به النَّبيُّ ﷺ استَدْعى إيثارَ التَّعبيرِ بوَصْفِ الأُلوهيَّةِ؛ لقَذْفِ الهَلَعِ في قلوبِ المُعارِضينَ، ولإضْفاءِ مزيدٍ مِن المَهابَةِ على هذا الوَعيدِ.

أمّا آيةُ يونسَ فقد وردتْ في مقامِ تحدّي المُشْرِكينَ بمعارَضةِ القرآنِ الكريمِ، وتَسْلِيَةِ الرَّسولِ ﷺ؛ لذا كان من المُلائِمِ إيثارُ التَّعبيرِ بوصفِ الرُّبوبيَّةِ، وإضافتِها إلى ضميرِه ﷺ ﴿وَرَبُّكَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ تشريفًا لَه، وتأكيدًا على مَعيَّةِ اللّٰه لرسولِه الكريمِ ﷺ، ووَعيدًا لِمَن لا يؤْمِنُ بدَعوتِه، ﷺ.

﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ ۖ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤١﴾﴾ [يونس: 41]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

ارْتَبَطَتِ الآيَةُ بما سَبَقَها في أنَّها عَلَّمَتِ النَّبيَّ ﷺ بماذا يُجيبُهُم عِنْدَ تَكْذيبِهِم

يقولُ صاحبُ تفسيرِ المنارِ: "لَمّا أنْبَأَ اللّه رَسولَه بأنَّ مِن قَومِه مَن لا يؤمِنُ بهذا القُرآنِ حالًا ولا استِقبالًا، إذ لا ينفَعُهم البيانُ مهْما يكُنْ ناصِعًا، ولا ينفَعُهم البُرهانُ وإنْ كان قاطِعًا، وأنَّ الَّذي علَيه في المُصِرّينَ على تكذيبِه منهُم بَعدما جاءَهم به مِن الآياتِ الَّتي دمَغَتْهم بالحُجَجِ البَيِّناتِ، أنْ يَتبَرَّأَ منهم، وينتظِرَ أمرَ اللّه فيهم - كان مِن شأنِ هذا النَّبأِ أنْ يُثيرَ عجَبَه؛ لغَرابتِه في نفسِه، وأنْ يَسوءَه؛ لما يشيرُ إليهِ مِن انتقامِ اللّه منهم، بَيَّنَ له مَثَلَ الَّذين فقَدوا الاستعدادَ للإيمانِ، وعَلَّمَه ما لَم يكُن يَعلَمُه مِن سُنَّةِ اللّه تعالى فيهم، وكَونِ مُصيبتِهم مِن أنفسِهم، فلا حولَ له ولا قوَّةَ على هدايتِهم[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿بَرِيٓـُٔونَ﴾: "أصلُ البُرءِ والبراءِ والتّبرّي: التّفصّي ممّا يُكرهُ مجاورتُه، ولذلك قيل: برأتُ مِن المرضِ وبرِئتُ مِن فلانٍ وتبرّأتُ، وأبرأتُهُ من كذا وبرّأتُهُ، ورجلٌ بريءٌ، وقومٌ بُرآء وبريئون"[2].

المَعْنى الإجْماليُّ:

تَسْريَةٌ وتَسْليَةٌ لِلنَّبيِّ ﷺ ووَعيدٌ وتَهْديدٌ للمُكَذِّبينَ

هذهِ آيَةُ مُناجَزَةٍ للمُشْرِكين ومُتارَكَةٍ لَهم، وفيها وفي الَّتي بَعْدها تَسْليَةٌ للرَّسولِ ﷺ وتَسْريَةٌ عنه لتكذيبِ قومِه لهُ، وإعراضِهم عن دعوتِه، وفي ضِمنِها وعيدٌ وتَهْديدٌ. ومَدْلولُ هذه الآيَةِ اخْتِصاصُ كُلِّ واحِدٍ بأفْعالِه وبِثَمَراتِ أفْعالِه مِنَ الثَّوابِ والعِقابِ، ومعناها: وإنْ

(1) رشيد رضا، تفسير المَنار: 11/280.
(2) الرّاغب، المفردات: (برأ).

أصَرَّ قومُك على تكذيبِك فقلْ لَهُم: لي جزاءُ عَمَلي، ولَكُم جزاءُ عَمَلِكم حَقًّا كان أم باطِلًا، ولا يُؤاخَذُ أحَدٌ بذَنْب الآخَرِ، فكُلٌّ واحدٍ مُرْتَهنٌ بعملِه.

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

مَعْنى الواوِ في: ﴿وَإِن﴾:

الواوُ عاطفَةٌ، عطَفَتْ ما تَلاها مِن توْجيهاتٍ على ما تقدَّمَها مِن وَصفِ حالِهم.

سِرُّ التَّعْبيرِ بأَداةِ الشَّرْطِ: (إنْ):

عَـدَمُ الاعْـتِـدادِ بـتَـكْـذيـبِ المُشْرِكينَ

الواوُ في قولِه: ﴿وَإِن﴾ عاطفَةٌ، والتَّعبيرُ بأداةِ الشَّرطِ المفيدةِ تقليلَ حصولِ مدخولِها (إنْ) في قوله: ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل﴾ لاستبعادِ وقوعِ التَّكذيبِ منهم بعد ظهورِ الأدلَّةِ القاطِعَةِ على صِدْقِه ﷺ واعتبارِ هذا التَّكذيبِ كَأنْ لَم يقعْ، وعَدمِ الاعْتدادِ بهِ، وفي هذا تثْبيتٌ لهُ ﷺ.

عِلَّةُ التَّعْبيرِ بفِعْلِ الشَّرْطِ ماضيًا: ﴿كَذَّبُوكَ﴾:

دلالَةُ القَوْلِ عَلى جَوابِ الشَّرْطِ

التَّعبيرُ بفعلِ الشَّرطِ ماضيًا: ﴿كَذَّبُوكَ﴾ يدلُّ على مُسارَعةِ القومِ إلى تكذيبِه ﷺ وإصرارِهم عَليه، ويدلُّ على تحقُّقِ هذا التَّكْذيبِ. ومَرْجِعُ الضَّمير (واوِ الجماعةِ) يعودُ على المُشْرِكينَ، وضميرُ الخِطابِ يعودُ على الرَّسول ﷺ والتَّقديرُ: وإنْ بَقيَ المُشْرِكونَ على تكذيبِك، وأصَرّوا عليهِ، ويَئِسْتَ مِن إذعانِهم لدَعوتِك فَقُلْ لي، فاكْتُفيَ به ﴿فَقُل لِّي﴾ للدّلالةِ على جوابِ الشَّرْطِ، وفي وقوعِ المفعولِ بهِ ضميرَ خِطابٍ إشارةٌ إلى تَرَصُّدِ المُشْرِكينَ بالرّسولِ ﷺ وتعمُّدِهم توْجيهَ التَّكذيبِ إلى شَخْصِهِ هو، وكأنَّه هدفٌ لتَكْذيبِهم لا يَرَوْنَ غيرَه.

مَعْنى الفاءِ في: ﴿فَقُل﴾:

الفاءُ واقعةٌ في جوابِ الشّرْطِ، وهي تقعُ في جوابِ شرطٍ لا يصلحُ أن يكونَ جوابًا للشّرطِ، وإنّما يكونُ الجوابُ محذوفًا وهي عاطِفةٌ عليه، والتَّقديرُ هنا: وإنْ كذّبوك وآذَوك وافترَوْا عَلَيك، فقُلْ لَهم: لي عمَلي.

نُكْتةُ التَّعْبيرِ باللّامِ في: ﴿لِّي﴾ ، ﴿وَلَكُمْ﴾:

إنْصافُ الخَصْمِ، وإخْلاصُ النَّصيحَةِ

المَقصودُ بقولِه: ﴿فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ﴾ جزاءُ العملِ، فكُلٌّ بعَمله مُرْتَهنٌ ومُحاسَبٌ حَقًّا كان أم باطِلًا، وهذا ما أظْهَرَتْهُ المُقابَلَةُ بَيْن الجزاءَيْن. وهذا التَّعبيرُ فيه غايةُ الإنْصافِ لإسْكاتِ الخَصْمِ المُشاغِبِ؛ لذا أوثِرَ استخدامُ اللّامِ الدّالَّةِ على النَّفْعِ في الطَّرَفَيْن: ﴿لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ﴾، حيثُ لم يُقَلْ: لي عَملي، وعَليكم عمَلُكم، باستخدامِ حرفِ الاستعلاءِ الدّالِّ على المضارَّةِ، وهذا أدْخَلُ في إمحاضِ النُّصْحِ، وهذا التَّوجيهُ أوْلى مِن حَملِ اللّامِ في: ﴿لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ﴾ على المُشاكَلَةِ[1].

الغَرَضُ مِنْ تَقْديمِ الخَبَرِ عَلى المُبْتَدَأِ: ﴿لِّي﴾ ، ﴿وَلَكُمْ﴾:

كُلٌّ سَيَجْني جَزاءَ عَمَلِهِ، خَيْرًا كانَ أَم شَرًّا

أفادَ تقديمُ الخبَرِ على المُبتدأ، والإضافةُ إلى الضَّميرِ في قولِه: ﴿لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ﴾ القصْرَ، والمعنى: لي جزاءُ عملي وهو البلاغُ المُبينُ، والإنذارُ والتَّبشيرُ، وما يستلزمُه مِن العبادةِ والإصلاحِ لا يَتَعدّاني إليكُم، ولَكُم مَغَبَّةُ عَملِكم بمُقْتضى تَكذيبِكم وشِرْكِكم، وهو الظّلمُ والفسادُ، الَّذي تُجْزَوْن بِهِ يومَ الحِسابِ لا تَتعدّاكم إليَّ، وقُدِّم ﴿لِّي عَمَلِي﴾ على ﴿وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ﴾؛ لأنَّهُ آكَدُ في التَّبَرُّؤِ منهُم، والمُباعَدةِ عنهُم.

دلالَةُ التَّعْبيرِ بالمُسْنَدِ إلَيهِ مَصْدَرًا:

في التَّعبيرِ بالمُسْنَدِ إليهِ مَصْدرًا ﴿عَمَلِي﴾ و ﴿عَمَلُكُمْ﴾ إشارةٌ

(1) القونويُّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 9/471.

كُلٌّ مَسْؤولٌ عَنْ عَمَلِهِ

إلى جزاءِ العملِ. ومعنى ﴿لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ﴾: المُتارَكَةُ والمُباعَدَةُ. وهو مِمّا أُجْرِيَ مجْرى المَثَلِ، ولِذلِكَ بُنِيَ على الإيجازِ ووَفْرَةِ المعنى، فأُفيدَ فيه القَصْرُ، بتَقْديمِ المَعْمولِ وبالتَّعْبيرِ بالإضافَةِ إلى الضَّميرِ في ﴿عَمَلِي﴾ و﴿عَمَلُكُمْ﴾، وخولِف فيهِ ما بَعْدَه، حيثُ عُبِّرَ في هذه الجملةِ بالمَصدرِ؛ للعِلَّةِ المذكورةِ، وعُدِل عن ذلك إلى التَّعبيرِ بالفعلِ في قولِه: ﴿أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعۡمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٞ مِّمَّا تَعۡمَلُونَ﴾ كما سَيَأْتي بيانُه[1].

نُكْتَةُ فَصْلِ: ﴿أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ﴾ ودلالَتُهُ:

التَّسْرِيَةُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ والتَّخْفيفُ عَنْهُ

جاءَتْ جُملةُ: ﴿أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعۡمَلُ﴾ بيانًا لجملةِ: ﴿لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ﴾؛ لذا فُصِلَتْ، "وهي أيضًا تأكيدٌ لما أفادَتْه لامُ الاختصاصِ مِن عدَمِ تَعَدّي جَزاءِ العمَلِ إلى غيرِ عاملِه"[2]. وهذا التَّرْكيبُ "لا يُرادُ بهِ صَريحُهُ، وإنَّما يُرادُ بهِ الكِنايَةُ عنِ المُباعَدَةِ، وقد جاءَ هذا المُكَنَّى بهِ مُصَرَّحًا بهِ في قولِه تَعالى: ﴿فَإِنۡ عَصَوۡكَ فَقُلۡ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تَعۡمَلُونَ ٢١٦﴾ [الشُّعراء: 216]."[3] والأمر بالتَّبَرُّؤِ من المُشْرِكين، مع أنَّ الرَّسولَ ﷺ مَبْعوثٌ بالدَّعوةِ والإرشادِ إلى الحقِّ، إنَّما يَصِحُّ ويكونُ بعد إلزامِ الحُجَّةِ، واليَأْسِ مِن إجابتِهم[4].

سِرُّ تَقْديمِ بَراءَتِهِم: ﴿أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ﴾:

إِنْصافُ الخَصْمِ سيرَةُ أَهْلِ الحَقِّ ودَيْدَنُهُم

قُدِّمَتْ براءَتُهم على براءتِه ﷺ ﴿أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعۡمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٞ مِّمَّا تَعۡمَلُونَ﴾؛ "لأنَّ هذه الجُملَةَ جاءَتْ كالتَّوْكيدِ والتَّتْميمِ لما قَبْلَها، فناسَبَ أنْ تَلِيَ قولَه: ﴿وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ﴾. ولِمُراعاةِ الفَواصِلِ، إذْ لو تَقَدَّمَ ذِكْرُ بَراءَةٍ كما تَقَدَّمَ ذِكْرُ ﴿لِّي عَمَلِي﴾ لَم تَقَعِ الجُملَةُ فاصِلَةً، إذْ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/176.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السَّليم: 2/668.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/176.
(4) القونويُّ، حاشية على البيضاويِّ: 9/471.

كانَ يَكونُ التَّرْكيبُ: وأنْتُم بَريئونَ مِمّا أعْمَلُ[1]، وفي هذا تأكيدٌ للقَصْرِ المُسْتَفادِ مِن تقديمِ الخبرِ على المبتدأ، وفيه إنْصافٌ للخَصمِ، حيثُ أثْبَتَ البراءةَ عن عملِه لَهُم أوَّلًا مع أنَّ بيانَ ثُبوتِ جزاءِ العملِ لهُ ﷻ لا لغَيْرِه قُدِّم على بيانِ ثبوتِ جزاءِ عملِهم لهُم لا لغَيْرِهم[2].

الغَرَضُ مِنَ التَّعْبيرِ بالجُملَةِ الاسْميَّةِ:

ثَباتُ الحُكْمِ ودَوامُهُ

أوثِرَ التَّعبيرُ بالجملةِ الاسْميَّةِ في قولِه: ﴿أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ﴾ و﴿وَأَنَا۠ بَرِيٓءٌ﴾؛ للدّلالةِ على ثباتِ الحُكْمِ ودوامِه. والمعنى: لا تُؤاخَذونَ بعَمَلي، ولا أُؤاخَذُ بعَمَلِكم، ووُرودُها بالجملةِ الاسْميَّةِ لبيانِ أنَّها قاعدةٌ ثابتةٌ، فكلُّ واحدٍ يلحقُه أثرُ عملِه، ولا يتحمَّلُ واحدٌ عن واحدٍ شيئًا، والتَّعبيرُ بالاسْميَّةِ هنا هو الألْصَقُ بخِطابِ الإنْصافِ.

دلالَةُ التَّعْبيرِ بالمَجْرورِ اسْمًا مَوْصولًا:

إصْرارُ الرَّسولِ ﷺ عَلى إبْلاغِ دَعْوَتِهِ

عُبِّرَ بالمجرورِ اسمًا موصولًا في الجملتين: ﴿مِمَّآ أَعْمَلُ﴾ و ﴿مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾؛ لبيانِ البراءةِ مِن خلالِ جملةِ الصِّلةِ الَّتي وقعتْ جملةً فعليَّةً، وقد جاء اسمُ الموصولِ بـ (ما) لأنَّها أعمُّ الموصولاتِ وأدخلُها في الإبهامِ، وهو الألْصَقُ بغرضِ العبارةِ الكريمةِ.

لَطيفَةُ إيثارِ التَّعْبيرِ بالفِعْلِ المُضارِعِ:

البراءةُ مِنْ كُلِّ عَمَلٍ يَحْدُثُ في الحالِ والاسْتِقْبالِ

في التَّعْبيرِ بالمُضارعِ في الطَّرَفَيْنِ فِعْلًا؛ ﴿أَعْمَلُ﴾ و﴿تَعْمَلُونَ﴾؛ إشارةٌ إلى عمومِ العملِ، واستمرارِه، وإلْماحٌ إلى إصرارِ الرَّسولِ الكريمِ ﷺ على تَأْديَةِ رسالتِه، وإصرارِ المُشْرِكين على تكذيبِه ﷺ وقد أوثِرَ التَّعبيرُ بالفعلِ المضارعِ في الطَّرَفَيْنِ صِلَةً لـ (ما) المَوْصولَةِ في ﴿أَعْمَلُ﴾ و﴿تَعْمَلُونَ﴾ على التَّعبيرِ بالمصدرِ كالجملةِ السّابقةِ في قولِه: ﴿لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ﴾؛ "للدّلالَةِ على البَراءَةِ مِن كُلِّ عمَلٍ يَحْدُثُ في الحالِ والاسْتِقْبالِ، وأمّا العَمَلُ الماضي فلِكَوْنِهِ قَدِ

(1) أبو حَيّان، البحر المحيط: 2/62.
(2) القونويُّ، حاشية على تفسير البيضاويّ: 9/471.

انْقَضى لا يَتَعَلَّقُ الغَرَضُ بذِكْرِ البَراءَةِ مِنهُ. ولو عُبِّرَ بالعَمَلِ لَرُبَّما تُوُهِّمَ أنَّ المُرادَ عمَلٌ خاصٌّ؛ لأنَّ المَصْدَرَ المُضافَ لا يَعُمُّ، ولِتَجَنُّبِ إعادَةِ اللَّفْظِ بعَيْنِهِ في الكَلامِ الواحِدِ؛ لأنَّ جُملَةَ البَيانِ مِن تَمامِ المُبَيَّنِ، ولأنَّ هذا اللَّفْظَ أنْسَبُ بسَلاسَةِ النَّظْمِ؛ لأنَّ في (ما) في قوله: ﴿مِمَّآ أَعۡمَلُ﴾ مِنَ المَدِّ ما يَجْعَلُهُ أسْعَدَ بمَدِّ النَّفَسِ في آخِرِ الآيَةِ والتَّهْيِئَةِ للْوَقْفِ على قوله: ﴿مِّمَّا تَعۡمَلُونَ﴾، ولِما في ﴿تَعۡمَلُونَ﴾ مِنَ المَدِّ أيضًا، ولأنَّهُ يُراعي الفاصِلَةَ"[1].

الغَرَضُ مِنْ حَذْفِ المَفْعولِ بِهِ:

أشارَ حذفُ المفعولِ به في في: ﴿أَعۡمَلُ﴾ و﴿تَعۡمَلُونَ﴾ إلى عُمومِ العملِ، فحُذِفَ المفعولُ به هُنا لتوفيرِ العنايةِ على الفعلِ والفاعلِ بغَضِّ النَّظَرِ عمّا يقعُ عليهِ الفعلُ، وهذا العمومُ أنْسَبُ بالمَقامِ.

القاعِدَةُ في البَراءَةِ تَشْمَلُ كُلَّ عَمَلٍ بغَضِّ النَّظَرِ عَمّا وَقَعَ عَلَيْهِ العَمَلُ

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(تَعْمَلون) و(تَفْعَلون):

الفعلُ لفظٌ عامٌّ، وهو عبارةٌ عن إيجادِ الأثرِ في الشَّيْءِ مِن غيرِ انْقطاعٍ ولا بُطْءٍ، سواءٌ كان عن سببٍ، أو لا. ويُقال لما كان بإجادَةٍ وبدونِها، ولِما كان بعِلمٍ أو غيرِ علمٍ، وقصدٍ أو غيرِ قصدٍ، ولِما كان مِن الإنسانِ والحيوانِ والجمادِ. أمّا العملُ فهو عبارةٌ عن إيجادِ الأثرِ في الشَّيْءِ مع امتدادِ زمانٍ وتراخيه. ولا يُقالُ إلّا لِما كان مِن عاقلٍ ولِما كان بقصدٍ وعِلمٍ دونَ ما لَم يكنْ عن قصدٍ وعلمٍ. يُقال: فلانٌ يَعْمَلُ الطّينَ خزَفًا، ويَعْمَلُ الأديمَ سِقاءً. ولا يُقال: يفعلُ ذلك؛ لأنَّ فِعْلَ ذلك الشَّيْءِ هو إيجادُه مِن غيرِ بُطْءٍ.

الفِعْلُ لا يَمتَدُّ زَمانُهُ بخِلافِ العَمَلِ، ويَقَعُ بقَصْدٍ وبِدونِ قَصْدٍ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/176.

﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ ۚ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [يونس: 42]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

"لمّا قسَّم الكفارَ في الآيةِ الأولى إلى: مَن يُؤمنُ، ومَن لا يُؤمِنُ، قسَّمَ مَن لا يؤمنُ هَهُنا إلى قِسْمَيْن: مِنهُم مَن يكونُ في نهايةِ البُغْضِ والعداوةِ، ومنهُم مَن لا يكونُ كذلك، فوَصَفَ هَهُنا القِسْمَ الأوَّلَ، فقال: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ﴾ مع أنَّه يكونُ كالأصَمِّ، من حيثُ إنَّه لا ينتفعُ البتَّة بذلك الكلامِ، فإنَّ الإنسانَ إذا قَوِيَ بُغْضُه لإنسانٍ آخرَ، كان مُعْرِضًا عن سماعِ كلامِه، ولا يلتفتُ إليْه، كما أنَّ الصَّمَمَ في الأُذُنِ يمنعُ إدراكَ الصَّوتِ، والعَمَى في العينِ يمنعُ إدراكَ البَصَرِ، فكذا البُغْضُ الشَّديدُ يمنعُ مِن الوُقوفِ على محاسنِ كلامِه، ويمنعُ الوقوفَ على محاسنِ مَن يُعاديه"[1].

مَنْ أَصَمَّ قَلْبَهُ عَنِ الحَقِّ فَإِنَّ سَمعَهُ لَنْ يَنْفَعَهُ

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَسْتَمِعُونَ﴾: المَعنى المحوريُّ: نفاذُ مادَّةٍ لطيفةٍ أو دقيقةٍ إلى أثناءِ شَيْءٍ[2]. والسَّمعُ: حِسُّ الأُذُنِ به تُدْرَكُ الأصواتُ. ويُطْلَقُ السَّمعُ على الأُذُنِ، نَحْو قولِه تعالى: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ﴾ [البقرة: 7]، ويُطْلَقُ على فِعْلِ السَّماعِ، نَحْو قولِه تعالى: ﴿إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴿٢١٢﴾﴾ [الشّعراء: 212]، ويُطْلَق أيضًا على الفَهْم، وعلى الطّاعةِ، نَحْو قولِه تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُوا۟ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا﴾ [الأنفال: 31]، وقولِه: ﴿سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾ [النّساء: 46]؛ أيْ: فهِمنا قَوْلَك، وعَصَيْناك[3].

(1) ابن عادل، اللُّباب في علوم الكِتاب: 10/337.
(2) جَبَل، المعجم الاشتقاقيُّ المؤصّل: (سمع).
(3) الرّاغب، المفردات: (سمع).

2) ﴿ٱلصُّمَّ﴾: صَمَّ صَمَمًا، وصَمًّا: تَعَطَّلَ سَمعُه، فهو أصَمُّ، وهي صَمّاء، والجمعُ: صُمٌّ. يُقال: صَمَّ عن حديثِه: أعْرَضَ، ولَم يرغبْ في سماعِه. والصَّمَمُ: فُقْدانُ حاسَّةِ السَّمعِ[1].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

تَسْرِيَةٌ وتَسْلِيَةٌ لِلنَّبِيِّ ﷺ ووَعيدُ مَنْ عَطَّلَ نَوافِذَ المَعْرِفَةِ

المعنى: ومِن المُشْرِكين مَن يَستمعون إليك أيُّها الرَّسولُ ﷺ إذا قرأتَ القرآنَ استماعًا لا قبولَ فيه، أفَأنْتَ تَقْدِرُ على إسماعِ الصُّمِّ؟ فكذلك لنِ تقدرَ على هدايةِ هؤلاءِ المُنْكِرين المُعْرِضين الَّذين صُمّوا عن سماعِ الحقِّ سَماعَ مَن يَعْقِلُ، فلا تَبْتَئِسْ، ولا تحزنْ، فإنَّ إعراضَهم لا يعودُ إلى تقصيرٍ مِنْك، وإنَّما يعودُ إلى فسادِ فِطْرتِهم.

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالَةُ الواوِ في: ﴿وَمِنْهُم﴾:

الاهْتِمامُ بِبَيانِ حالِ المُقَدَّمِ

الواوُ في قولِه: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ﴾ عاطفةٌ، أتْبَعَ تقسيمَهم من حيثُ الإيمانُ بالقرآنِ تقسيمَهم من حيثُ سماعُهُ، فمِنْهم قِسْمٌ يَحضرُ ويَسمعُ، وقِسْمٌ لا يحضرُ ولا يسمعُ.

الغَرَضُ مِنْ تَقْديمِ الخَبَرِ في: ﴿وَمِنْهُم مَّن﴾:

في التَّقْديمِ عِنايَةٌ واهْتِمامٌ بِمَنْ تَتَّجِهُ إلَيْهِم دَعْوَةُ الحَقِّ

﴿وَمِنْهُم﴾ خبرٌ مُقَدَّمٌ و﴿مَّن﴾ مُبْتَدَأٌ مُؤَخَّرٌ، وتقديمُ الخبرِ على المُبْتَدَأِ؛ للاهتمامِ ببَيانِ حالِ المُقَدَّمِ، وهُم هذا الصِّنْفُ مِن المَدْعوّين للإسلامِ.

سِرُّ التَّعْبيرِ بالمُسْنَدِ إلَيْهِ اسْمًا مَوْصولًا:

العاقِلُ مَنْ يَملِكُ الأداةَ ويَعْمَلُ بمُقْتَضاها

عُبِّرَ بالمُسْنَدِ إليْه اسمًا موصولًا ﴿مَّن﴾ لتعليلِ الحُكْمِ بأنَّ هؤلاءِ المُشْرِكين لا يَسمعون، ولبيانِ أنَّ العاقلَ هو مَن يَسمعُ ويَعْقِلَ ما سمعَ، لا مَن يَملِكُ أداةَ السَّمعِ، فأداةٌ بلا أثرٍ، وجودُها كَلا وجود وهذا كلُّه اقْتَضى اسمًا موصولًا لابْتِناءِ صِلَةٍ عليْه.

(1) مجمع اللّغة العربية بالقاهرة، المعجم الوسيط: (صمم).

سِرُّ التَّعْبيرِ بالمُسْنَدِ إِلَيهِ ضَميرَ جَماعَةٍ: ﴿يَسْتَمِعُونَ﴾:

السَّمعُ أَكْثَرُ أَفْرادًا، وأَيْسَرُ وُقوعًا مِنَ النَّظَرِ

جُمِعَ فاعلُ ﴿يَسْتَمِعُونَ﴾ على معنى ﴿مَّن﴾ لا على لفظِها، والمعنى: "ومِن هَؤُلاءِ الكُفّارِ مَن يَسْتَمِعُ إلى ما يَأْتي بهِ مِنَ القُرْآنِ بأُذُنِه، ولَكِنَّهُ حينَ لا يُؤْمِنُ ولا يُحَصِّلُ فكَأَنَّهُ لا يَسْمَعُ"[1]. والجَمعُ في ﴿يَسْتَمِعُونَ﴾؛ لأَنَّ السَّمعَ أكثرُ أفرادًا وأيسرُ وقوعًا مِن النَّظرِ، فالإنسانُ كثيرًا ما يسمعُ مَن لا يراه، ومُحالٌ أنْ يَرى كُلَّ مَن يَسمعُ[2]، كما أنَّ التَّعبيرَ بضميرِ الغَيْبَةِ إلاحَةٌ إلى عدمِ كونِهم لَيسوا أهلًا للخِطابِ.

الغَرَضُ مِنَ التَّعْبيرِ بالاسْتِفْهامِ المَجازيِّ:

الهادي إلى الحَقِّ هِدايَةَ التَّوْفيقِ هوَ الله وَحْدَه دونَ ما سِواهُ

الاستفهامُ المجازيُّ في قوله: ﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ﴾ لإنكارِ أنْ يكونَ الرّسَولُ ﷺ قادِرًا على هِدايةِ مَنْ لا تتوفَّرُ لديْه أسبابُ الهدايةِ مهما بَذَل مِن جهْدٍ، إنكارِ أن يَهْديَ مَن لم ينتفعْ بما سمعَه من آياتِ التَّنزيلِ فصار كَمَن فقَدَ السَّمعَ، بل فَقَدَ العقلَ أيضًا، فأنَّى للرَّسولِ ﷺ أنْ يَهْديَ مَن كانت هذه حالُه؟ و"هَمزَةُ الاسْتِفْهامِ إنْكاريَّةٌ، لا إنْكارًا لاسْتِماعِهم فإنَّهُ أمرٌ مُحَقَّقٌ؛ بَلْ إنْكارًا لوُقوعِ الاسْتِماعِ عَقيبَ ذَلِك وتَرَتُّبِه عليْه حَسَبَ العادَةِ الكُلِّيَّةِ، بَلْ نَفْيًا لإمكانِه أيضًا، كَما يُنْبِئُ عنْهُ وضْعُ الصُّمِّ مَوْضِعَ ضَميرِهم ووَصْفُهُم بعَدَمِ العَقْلِ بقولِه تَعالى: ﴿وَلَوْ كَانُواْ لَا يَعْقِلُونَ﴾؛ أيْ: ولَو انْضَمَّ إلى صَمَمِهم عدَمُ عُقولِهم؛ لأنَّ الأصَمَّ العاقِلَ رُبَّما تَفَرَّسَ إذا وصَلَ إلى صِماخِهِ صَوْتٌ، وأمّا إذا اجْتَمَعَ فِقْدانُ السَّمعِ والعَقْلِ جَميعًا فقد تَمَّ الأمرُ"[3].

دلالَةُ الفاءِ في: ﴿أَفَأَنتَ﴾ ودلالَةُ حَذْفِ المَعْطوفِ:

الفاءُ عاطِفَةٌ على جملةٍ محذوفةٍ بَيْن همزةِ الاستفهامِ وحرفِ العطفِ، كَأَنَّهُ قيلَ: أيَسْتَمِعونَ إليْك فأنْتَ تُسْمِعُهم؟ والمعطوفُ عليه

(1) ابن عطيَّة، المُحرَّر الوجيز، ص: 910.
(2) المَطْعَنيّ، التَّفسير البلاغيّ: 2/60.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/670.

محذوفٌ يدلُّ عليه ما بعدَه، وقد حُذِفَ تناسبًا مع واقعِ سماعِهم غيرِ المُجْدي ولا المُغْني.

سِرُّ التَّعْبيرِ بِضَميرِ الخِطابِ:

ما عَلى الرَّسولِ إلّا البَلاغُ

في التَّعبيرِ بضميرِ خِطابِه ﷺ تخصيصٌ للخِطابِ به، ورفْعُ احتمالِ أنْ يُقْصَدَ بالخطابِ غَيرُهُ ﷺ وليَتَأتَّى أنْ يُقال لَه ﷺ: "أأنْتَ خصوصًا قد أوتيتَ أنْ تُسْمِعَ الصُّمَّ؟ وأنْ يُجْعَلَ في ظَنِّه أنَّه يَستطيعُ إسْماعَهم بمثابةِ مَن ظَنَّ أنَّه قد أوتي قُدْرَةً على إسْماعِ الصُّمِّ"[1].

الغَرَضُ مِنْ تَقْديمِ المُسْنَدِ إلَيْهِ عَلى خَبَرِهِ الفِعْليِّ:

لَيْسَ إسْماعُ الصُّمِّ مِمّا يَدَّعيهِ أحَدٌ

قُدِّمَ المُسْنَدُ إليه على خبرِه الفِعْليِّ في: ﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ﴾؛ لأنَّه مَحطُّ الإنكارِ، بيانُ ذلك أنَّه "لَيس إسماعُ الصُّمِّ مِمّا يَدَّعيه أحَدٌ فيكونُ ذلك للإنكارِ، وإنَّما المعنى فيه التَّمثيلُ والتَّشبيهُ، وأنْ يُنَزَّلَ الَّذي يَظُنُّ بهم أنَّهم يُسْمَعون، أو أنَّه يستطيعُ إسْماعَهم، منزلةَ مَن يَرى أنَّه يُسْمِعُ الصُّمَّ، ويَهْدي العُميَ"[2]. وقُدِّمَ أيضًا المُسْنَدُ إليه على خبرِه الفعليِّ هُنا لإفادةِ القَصْرِ، والقَصْرُ للإفرادِ، حيثُ نُزِّلَ الرَّسولُ ﷺ لحرْصِه الشَّديدِ على هِدايةِ النّاسِ منزلةَ مَن يَعتقدُ أنَّه قادِرٌ مع اللّه تعالى على هدايةِ المُنْكرين لرسالتِه.

الغَرَضُ مِنَ التَّعْبيرِ بِالفِعْلِ المُضارِعِ: ﴿تُسْمِعُ﴾:

تَكَرُّرُ اسْتِماعِ المُشْرِكينَ لآياتِ الله

عُبِّرَ بالفِعْلِ المُضارِعِ دون اسْمِ الفاعِلِ؛ للإشارةِ إلى تَكَرُّرِ استماعِ المُشْرِكين لآياتِ اللّه تعالى والرَّسول ﷺ يتلوها، وفي التَّعبيرِ بالمضارعِ دلالةٌ على اجتهادِه ﷺ في البلاغِ.

الغَرَضُ مِنَ التَّعْبيرِ بِالاسْتِعارَةِ في: ﴿ٱلصُّمَّ﴾:

تَعْليلُ عَدَمِ انْتِفاعِ المُشْرِكينَ بِما يَسْمَعونَ مِنَ القُرْآنِ الكَريمِ

شُبِّهَ المُشْرِكون الَّذين يَستمعون إلى آياتِ اللّه وهي تُتْلى غَضَّةً نَديَّةً منه ﷺ بالصُّمِّ؛ لعَدَمِ انتفاعِهم بما يَسمعون، وبلاغةُ

(1) الجرجانيّ، دلائل الإعجاز، ص: 120.
(2) الجرجانيّ، دلائل الإعجاز، ص: 120.

الاستعارةِ الأصليَّةِ هُنا أنَّها جاءتْ تعليلًا لعدمِ انتفاعِ المُشْركين بما يَسمعون منَ القرآنِ الكريمِ، و"في هَذَيْنِ الاسْتِفْهامَيْن تَرْشيحٌ لاسْتِعارَةِ الصُّمِّ والعُمي لهَؤُلاءِ الكافِرينَ، أي: أنَّ اللّه لَمّا خَلَقَ نُفوسَهم مَفْطورَةً على المُكابَرَةِ والعِنادِ وبَغْضاءِ مَن أنْعَمَ اللّه عليْهِ وحَسَدِهِ، كانَتْ هاتِهِ الخِصالُ حَوائِلَ بَيْنَهم وبَيْنَ التَّأثُّرِ بالمَسْموعاتِ والمُبْصَراتِ، فجيءَ بصيغَةِ الاسْتِفْهامِ التَّعْجيبيِّ المُشْتَمِلَةِ على تَقَوّي الخَبَرِ بتَقْديمِ المُسْنَدِ إلَيْهِ على الخَبَرِ الفِعْليِّ بقوله: ﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ﴾ وقوله: ﴿أَفَأَنتَ تَهْدِى﴾ دون أنْ يُقال: (أتُسْمِعُ الصُّمَّ؟) و(أتَهْدي العُميَ؟)، فكانَ هذا التَّعْجيبُ مُؤَكَّدًا مُقَوًّى"[1].

نَوْعُ الواوِ في: ﴿وَلَوْ﴾:

(لَـوْ) الوَصْليَّةُ لِلدّلالَةِ عَلى المُبالَغَةِ في الأَحْوالِ

"الواوُ في قولِه: ﴿وَلَوْ﴾ عاطفةٌ على جملةٍ محذوفةٍ تقديرُها: أأنت تُسْمِع الصُّمَّ لَو كانوا يَعقلون، ولَو كانوا لا يَعقلون؟. وهي (لَو) الوَصْليَّةُ للدّلالةِ على المُبالغةِ في الأحوالِ حسبَ اقتضاءِ المقامِ"[2]. وهي الَّتي يكونُ ما بَعْدَها أقصى ما يَتَعَلَّقُ به الغرضُ مِن الكلامِ، ولذلك يُقَدِّرون قَبْلَها جملةً معناها ضدُّ الجملةِ الّتي دَخَلَت عليها (لَو).

دلالَةُ الخَتْمِ بِأُسْلوبِ الشَّرْطِ:

تَيْئيسُ النَّبيِّ ﷺ مِنْ هِدايَتِهِم

جملةُ الشَّرطِ في قولِه: ﴿وَلَوْ كَانُواْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ كنايةٌ عن التَّيْئيسِ مِن هدايةِ هؤلاءِ، حيثُ شَبَّهَهم أوَّلًا بالصُّمِّ في عدمِ اهتدائِهم بالقرآنِ، وبولِغ في بيانِ صُدودِهم فجعلَهم مَسْلوبي العقولِ؛ لأنَّ اجتماعَ هاتيْنِ الآفتيْنِ: الصَّمَمِ، وعَدَمِ التَّعقُّلِ والإدراكِ يَسْلبان عمَّن أُصيبَ بهما كُلَّ وسائلِ التَّأثُّرِ، فهُم كالدُّمى، أشكالُها أشكالُ الإنسانِ، وطبيعتُها طبيعةُ الجماد أو الحَيوان[3]. ومِمّا يلْفِتُ الانتباهَ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير 11/178.
(2) المَطْعَنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 2/58.
(3) المَطْعَنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 2/60.

في هذه الآيةِ الكريمةِ والَّتي تليها هو هذا التكثيفُ في إثباتِ عدَم هِدايةِ هؤلاءِ المُعْرِضين، لإعراضِهم عن الحقِّ الَّذي جاء به الرَّسولُ ﷺ ثُمَّ ارتقى الإنكارُ في بيانِ بُعْدِهم عن الحَقِّ فجُعِلوا مَسْلوبي العقولِ؛ لأنَّ اجتماعَ الصَّمم، وعدمِ التَّعقُّلِ يَسُدّان كُلَّ منافذِ التَّأثيرِ أمامَ مَن اتَّصفَ بهما. وفي الآيةِ أيضًا كنايةٌ عن تَيْئيسِه ﷺ مِن هدايتِهم. وفي هذه الآيةِ إدماجٌ بديعٌ، حيثُ جَمعت بَيْن أكثرَ مِن غرضٍ ولَونٍ بلاغيٍّ[1].

نُكْتَةُ التَّعْبيرِ بِالمُضارِعِ في: ﴿يَعْقِلُونَ﴾:

دَلَّ المضارعُ على تجدُّدِ عدمِ انتفاعِهم بالحقِّ كُلَّما استمعوا للّه.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(يَعْقِلون) و(يَفْقَهون):

العقلُ في اللُّغةِ: الحبسُ، والمنعُ، يُقال: عقلتُ البعير أعقِلُه عقلًا: قيّدته بما يحبِسُه عن الانبعاثِ[2]. ومِن ذلك العقل، وهو الحابِسُ عن ذميمِ القولِ والفِعلِ[3]؛ لذلك سُمّي العقلُ بهذا الاسم. والمرادُ بالعقلِ: الفهمُ والإدراكُ والتّدبُّرُ والوعيُ بِمرمى الأشياءِ وأغراضِها.

والفِقهُ في اللُّغةِ: العِلمُ بالشّيءِ، والفهمُ له، والفِطنةُ[4]. تشتركُ الكلمتان: (العقلُ والفِقهُ) في الدّلالةِ على الفهم والوعي والإدراكِ، ويتميّزُ الفِقهُ بِملامِح دلاليّةٍ فارقةٍ؛ هي: التَّأمُّلُ، والاستنباطُ، والإحاطةُ، والتّريُّثُ قبل إصدارِ حُكمٍ[5]. والمُناسِبُ هُنا التّعبيرُ بـ ﴿يَعْقِلُونَ﴾ لأنَّه المرحلةُ الأولى في الفَهْمِ.

يَتَمَيَّزُ الفِقْهُ بِمَلامِحَ دلاليَّةٍ فارِقَةٍ هيَ التَّأَمُّلُ، والاستِنْباطُ، والإحاطَةُ، والتَّرَيُّثُ قَبْلَ إِصْدارِ حُكْمٍ

(1) الرونيّ، البلاغة القرآنيّة في الحديث عن النَّبيّ ﷺ، ص: 709.
(2) السَّمين الحلبيّ، عُمدة الحُفّاظ: (عقل).
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (عقل).
(4) مجمع اللُّغة بالقاهرة، المعجم الوسيط: (فقه).
(5) محمّد محمّد داود، معجم الفروق الدّلاليّة في القرآن الكريم، ص: 362.

﴿وَمِنۡهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيۡكَۚ أَفَأَنتَ تَهۡدِي ٱلۡعُمۡيَ وَلَوۡ كَانُواْ لَا يُبۡصِرُونَ ٤٣﴾ [يونس: 43]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

ذَكَرَ اللّه ﷻ تَقسيمَ المُشركينَ باعتبارِ تَلقّيهم مِنَ النَّبيِّ ﷺ إلى قِسمَين:

العلاقةُ بينَ السّماعِ والمُعاينةِ، وبُلوغُ المُشرِكينَ غايَةَ الضَّلالِ، بتعاميهم عمّا يُسمعُ أو يُقالُ

أحدُهما: مَن يَحضرُ مَجلِسَهُ، ويَستَمِعُ كلامَهُ، وهُمُ المَذكورونَ في الآيةِ المتقدِّمةِ في قولِ اللّه ﷻ: ﴿وَمِنۡهُم مَّن يَسۡتَمِعُونَ إِلَيۡكَۚ أَفَأَنتَ تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوۡ كَانُواْ لَا يَعۡقِلُونَ ٤٢﴾ [يونس: 42].

والآخرُ: مَن لا يَحضرُ مَجلسَهُ، وإنَّما يَتوسَّمونَهُ، ويَنظرونَ سَمتَهُ، وهُمُ المذكورونَ في هذه الآيةِ: ﴿وَمِنۡهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيۡكَۚ أَفَأَنتَ تَهۡدِي ٱلۡعُمۡيَ وَلَوۡ كَانُواْ لَا يُبۡصِرُونَ﴾.

وكلا الحالَين مِن مَسالِكِ الاهتداءِ؛ إذْ سماعُ كلامِ النَّبيِّ ﷺ، والنَّظرُ في هَديه وسَمتِه؛ من أسبابِ الهدايةِ، فلمّا ذَكَرَ اللّه سُبحانَه أنَّ هؤلاء المُشرِكينَ قد بلَغوا الغايَةَ في الضَّلال؛ إذْ أصرّوا على الكُفرِ مع سَماعِهم كلامَ النَّبيِّ ﷺ؛ أتبعَه ببيانِ عدمِ انتفاعِهم بمُعاينةِ ذاتِ النَّبيِّ ﷺ، وما ذاك إلّا لشدَّةِ بُغضِهم إيّاه وحَسدِهم[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلۡعُمۡيَ﴾: أصلُ (عمي): يدُلُّ على سَترٍ وتَغطيَةٍ. مِن ذَلِكَ العَمَى: ذهابُ البَصَرِ كُلِّه، والفعلُ منه عَمِيَ يَعمَى عَمًى[2]، يُقالُ: عَمِيَ الرَّجُلُ: إذا فَقَدَ بَصَرَه فلا يَرى شيئًا. ويُطلَقُ العَمَى على فَقدِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/177.
(2) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (عمي).

البَصيرَةِ، يُقالُ: عَمي فُلانٌ عَن رُشدِهِ، وعَمي عليه طريقُه إذا لم يهتدِ لِطريقِهِ، ورجلٌ عَمٍ، وقومٌ عَمون. وكلَّما ذَكَرَ اللّه ﷻ العَمَى في كتابِه فذمَّه يُريدُ عَمَى القلبِ[1]، وهذا هو المقصودُ مِنَ العَمَى في الآيةِ.

2) ﴿لَا يُبْصِرُونَ﴾: أَصلُ مفردة (البَصَر): وُضوحُ الشَّيءِ، وبَصُرَ الطَّريقُ؛ أي: استبانَ ووَضُحَ، والبَصيرَةُ: البُرهانُ[2]. ويُطلَقُ البَصَرُ على حاسَّةِ العينِ، تقولُ: جاءَ كَلَمحِ البَصرِ؛ أَي: كلمحِ العينِ، والجَمعُ: أبصارٌ[3]. والإبصارُ: الرُّؤيَةُ والنَّظَرُ بالعَينِ[4]. والبَصيرُ والمُبصِرُ: الناظِرُ لِغيرِهِ، وضِدُّه الأعمَى. ويأتي البَصَرُ أيضًا بمعنى: العِلمِ والإدراكِ، وهيَ الرُّؤيَةُ بالقلبِ، كقولِكَ: بَصُرتُ بالشَّيءِ إذا عَلِمتَه وأدرَكتَهُ، والبَصيرَةُ: قوَّةُ الإدراكِ والفِطنَةُ والعِلمُ، والجَمعُ: بَصائِرُ[5]. والمقصودُ بالبَصَرِ في الآيةِ: رُؤيَةُ العَينِ للأشياءِ المَحسوسَةِ. ويعني البصيرةَ أيضًا؛ وهي: نورُ القَلبِ الَّذي يُستبصَرُ بهِ.

❁ المَعْنى الإجْمالِيُّ:

تشير الآية إلى جماعة أخرى من المدعوّين، لها موقفٌ آخر مع النَّبيِّ ﷺ، وقد سَمعتِ القُرآنَ، ثمَّ جعلَت تنظرُ فيه بقلوبٍ مريضةٍ، وعقولٍ سَقيمةٍ، فلم تهتدِ إلى خيرٍ، ولم تتعرفْ إلى حقٍّ، فيخبرُ الحقُّ ﷻ عنهُم بأنَّ مِنهُم مَن ينظُرُ إليك - يا مُحمَّدُ - ولا يَنتفعونَ بذلك النَّظَرِ، أفأنتَ تستطيعُ أن تُرشِدَ العُميَ الَّذين لا بَصرَ لهم ينتَفِعونَ به؟! فكذلك لا تَقدرُ على هِدايةِ هؤلاء؛ لأنَّهُم وإنْ كانوا مُبصِرينَ بأعينِهِم في الظّاهرِ، فَهُم غيرُ مُبصِرينَ بقلوبِهِم في

مَن نَظَرَ بعينِه، ولـم يُـبـصِـرْ بقلبِه، فإنَّه لا ينفعُه بلاغٌ، ولا تُؤثِّرُ فيه مَوعِظَةٌ

(1) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة: (عمي).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (بصر).
(3) ابن سيده، المحكم، وابن منظور، لسان العرب: (بصر).
(4) الكفويّ، الكلّيّات، ص: 247.
(5) ابن منظور، لسان العرب: (بصر)، وإبراهيم مصطفى، المعجم الوسيط: 1/59.

الحقيقة، فلا تستطيعُ هدايتَهُم لفقدِهم نعمةَ البصيرةِ المُدركةِ والعقلِ المُدرِك: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ۝٤٦﴾ [الحجّ: 46][1].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

عِلَّةُ الوصلِ في: ﴿وَمِنْهُم﴾:

جاءَت هذه الآيةُ معطوفةً على سابقَتِها، وهي قولُه سبحانَه: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ﴾ [يونس: 42]، وبينَ الجملتينِ التَّوسُّطُ بينَ الكمالَين؛ إذ كِلتا الجملتَينِ خبريَّةٌ، وبينَهُما مُناسبَةٌ في اللَّفظِ والمعنى؛ فأمّا التَّناسبُ في اللَّفظِ فإنَّ كُلَّ واحدةٍ مِنَ الجملتينِ إسميَّةٌ، واشترَكتا في المُسنَدِ إليه ﴿مَّن﴾، وفي مُتعلَّقِ المُسنَدِ ﴿وَمِنْهُم﴾، وإنَّما اختلفتا في مُتعلَّقِ ذلك، وأمّا التَّناسبُ في المعنى فلأنَّ مَضمونَ الجملتينِ في ذِكرِ أحوالِ المُشركينَ في تَلقّيهم مِنَ النَّبيِّ ﷺ، والمرادُ بيانُ كونِهم مطبوعًا على قُلوبِهم، بحيثُ لا سبيلَ إلى إيمانِهم، فانضمَّ إلى ذلكَ عَدَمُ البَصرِ والبَصيرَةِ، فإنَّ المَقصودَ مِنَ الإبصارِ الاعتِبارُ[2]، فانسَدَّ عليهم بابُ الهُدَى، ولِتَشريكِهم في الحُكمِ عليهم بعدمِ الانتِفاعِ وعدمِ الاهتِداءِ.

تَتميمُ ذِكرِ أحوالِ المُشركينَ في تَلَقّيهم مِنَ النَّبيِّ الأمينِ

دِلالةُ حرفِ الجرِّ (مِنْ) في شبه الجملةِ: ﴿وَمِنْهُم﴾:

حرفُ الجرِّ (مِنْ) في قولِ اللّه ﷻ: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ﴾ دالٌّ على التَّبعيضِ؛ أي: بعضُ هؤلاءِ المذكورينَ مَن يحضرُ مَجلسَكَ، ويستَمِعُ كلامَكَ، ولكنَّه لا ينتفِعُ.

وفي التَّعبيرِ بحرفِ التَّبعيضِ دلالةٌ على إنصافِ القرآنِ الكريمِ مع المُخالِفينَ، فلا يُعَمِّمُ الحُكمَ في مَقامٍ يَقتضي التَّخصيصَ، وفيه تعليمُ العبادِ الإنصافَ كذلكَ.

إنصافُ القرآنِ الكريمِ في الحُكمِ على المُخالِفينَ

(1) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 6/1020، والزّحيليّ، التّفسير المنير: 11/184.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/148.

دِلالةُ تعريفِ المُسنَدِ إليه بالموصوليَّةِ في ﴿مَّن﴾:

المُبالغةُ في الإنكارِ على مَن عايَنَ الأدلَّةَ، واستَمَرَّ في ضلالِهِ

﴿مَّن﴾ في قولِ اللّه ﷻ: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ﴾ اسمٌ موصولٌ مُشتَرَكٌ، وهو هُنا بمعنى (الَّذي) لِغيرِ واحدٍ، وفي التَّعبيرِ بالموصولِ وصِلَتِه تمهيدٌ لِلمُبالغةِ في الإنكارِ عليهم؛ حيث إنَّهم عاينوا أدلَّةَ النُّبوَّةِ وشواهدَها، ولم تَسرِ الهِدايَةُ إلى قلوبِهِم، لا لضعفِ الوارِدِ، وإنَّما لقوَّةِ المانعِ في قلوبِهِم.

نُكتةُ تقديمِ الجارِّ والمجرورِ ﴿وَمِنْهُم﴾:

التَّمييزُ ابتداءً بينَ مَحالِّ الألفاظِ مِن بليغِ البيانِ

قُدِّم الجارُّ والمجرورُ ﴿وَمِنْهُم﴾ مِن قولِ اللّه ﷻ: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ﴾؛ مشاكلَةً لأسلوبِ التَّقسيمِ الّذي صُدِّرَت به الآيةُ المُتقدِّمَةُ، وهي قولُه سُبحانَهُ: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ﴾، ولِلتَّنبيه مِن أوَّلِ الأمرِ على أنَّه خَبَرٌ.

نُكتةُ التَّعبيرِ بالفعلِ المُضارعِ ﴿يَنظُرُ﴾:

توبيخُ المُشركينَ على ضَعفِ بَصائِرِهِم، وعدمِ قصدِهِمُ الانتفاعَ بالهدى

جاءَ التَّعبيرُ بالفعلِ المُضارعِ ﴿يَنظُرُ﴾ مِن قولِ اللّه ﷻ: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ﴾؛ للدّلالةِ على تَجَدُّدِ النَّظرِ وحُصولِه مِنهُم شيئًا فشيئًا، فهو نَظَرٌ مُتجدِّدٌ، وفي هذا: النِّداءُ عليهم بالتَّوبيخِ والتَّقريعِ؛ حيثُ تكرَّرتْ مِنهُم موجِباتُ الهِدايَةِ؛ وهي النَّظرُ في ذاتِ النَّبيِّ ﷺ ومُشاهدَةُ هديِه وسَمتِه، ولم يكُنْ هذا التَّكرارُ موجِبًا لِهدايتِهِم؛ لِشدَّةِ قساوَةِ قلوبِهِم، وعدمِ قصدِهِمُ الانتفاعَ بهذا النَّظرِ المُتكرِّرِ. وفي التَّعبيرِ بالفعلِ المضارعِ، وهو دالٌّ على الحالِ، مع أنَّ هذا النَّظرَ وَقَعَ مِنهُم قبلُ؛ لاستحضارِ الصّورةِ الماضيةِ كأنَّها واقعَةٌ في الحالِ؛ تذكيرًا بقساوةِ قلوبِهِم وضعفِ بصيرَتِهِم.

ولَم يقعِ التَّعبيرُ باسمِ الفاعِلِ، فلم يُرِدِ النَّظمُ القرآنيُّ: (ومِنهُمُ النّاظرُ إليكَ)؛ لأنَّ اسمَ الفاعلِ دالٌّ على ثُبوتِ النَّظرِ واستِمرارِه على حالٍ واحِدَةٍ.

النُّكتةُ في إفرادِ ضميرِ ﴿يَنظُرُ﴾:

قِلَّةُ النّاظِرينَ إلى النُّبوَّةِ مِنَ المُشركينَ مُقارَنَةً بالمُستَمِعينَ

جاءَ الضمير في ﴿يَنظُرُ﴾ مِن قولِ اللّه ﷻ: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ﴾ مُفرَدًا حَملًا على لَفظِ (مَنْ)، والنُّكتَةُ في ذلك الإيماءُ إلى قِلَّةِ النّاظِرينَ أو عدمِ تَمَكُّنِهم مِنَ النَّظرِ إليكَ، بخلافِ الآيةِ المُتقدِّمةِ، وهي قولُ اللّه ﷻ: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ﴾، فقد جُمِعَ الضَّميرُ ﴿يَسْتَمِعُونَ﴾ حَملًا على المَعنَى، وذلك للإيماءِ إلى كثرَةِ المُستَمِعينَ إليه[1] ﷺ.

قال الآلوسيُّ: "وجُمِعَ الضَّميرُ الرّاجِعُ إليهِ؛ رِعايَةً لجانبِ المعنى، كما أُفرِدَ فيما بَعدُ رِعايَةً لجانبِ اللَّفظِ، ولعلَّ ذلك للإيماءِ إلى كَثرَةِ المُستَمِعينَ بناءً على عدمِ تَوَقُّفِ الاستِماعِ على ما يَتَوَقَّفُ عليه النَّظرُ مِنَ الشُّروطِ العاديَّةِ أو العَقليَّةِ"[2].

بَراعةُ الحذف: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ﴾:

طَيُّ ما دَلَّ السِّياقُ عليهِ؛ اقتِصادًا في اللَّفظِ، وإيجازًا في التّركيبِ

في قولِ اللّه ﷻ: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ﴾ إيجازٌ بالحذفِ، وقد دلَّ على المحذوفِ سياقُ التَّقسيمِ بالنِّسبَةِ للتَّلقّي منه ﷺ، والتَّقدير: (ومنهُم مَن ينظرُ إليك، ولا يَنتفعونَ بذلكَ)، كما قال ابنُ عاشور: "وقد أفادَ سياقُ الكلامِ أنَّهُم يَستَمِعونَ إليهِ، ويَنظُرونَ إليهِ، ولا يَنتَفِعونَ بذَلِكَ مِن جِهَةِ أنَّ المُستَمِعينَ إليه والنّاظِرينَ إليه هُنا استَمَرّوا على الكُفرِ، كما دَلَّ عليه قوله: ﴿وَمِنْهُم﴾ في المَوضِعَينِ، فَطوِيَت جُملَةُ: (وَلا يَنتَفِعونَ) أو نَحوها لِلإيجازِ بدلالةِ التَّقسيمِ"[3].

سِرُّ التَّعبيرِ بالجملةِ الاسميَّةِ مع تأخيرِ المُسندِ إليه:

استِمرارُ المُشرِكينَ على ضلالِهِم، مَعَ تَوافُرِ أسبابِ الهِدايةِ

قولُ اللّه ﷻ: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ﴾ جملةٌ اسميَّةٌ، تأخَّرَ فيها المبتدأُ، وفي التَّعبيرِ بها إشعارٌ بأنَّهُم استمرّوا في النَّظرِ إليه

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/161.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 11/125.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/177.

وإلى أدلَّةِ نبوَّتِه، إلّا أنَّه لم تحصلْ مِنهُم هِدايةٌ، بل استمرّوا على انحرافِهم وكُفرِهم.

عِلَّةُ الفَصلِ: ﴿أَفَأَنتَ تَهۡدِي ٱلۡعُمۡيَ﴾:

فُصِلَت هذه الجملةُ عمّا قبلَها؛ لاختلافِهما خبرًا وإنشاءً، فبَينَ الجملتينِ كمالُ الانقطاعِ، والجملةُ استئنافٌ ابتدائيٌّ يُرادُ به نفيُ انتفاعِ المُشركينَ الّذين عَلِمَ اللّه استمرارَهُم على الشِّركِ بشيءٍ مِنَ الأدلَّةِ والبراهينِ الّتي يُعاينونَها بعينِ البصَرِ، أو بعينِ البصيرَةِ، إن وُجدَت فيهم بَقيَّتُها.

عدمُ انتفاعِ مَن عَلِمَ اللهَ تعالى موتَه على الشِّركِ، بما جاءَه مِنَ الحقِّ

ويجوزُ أن يكونَ بينَ الجملَتينِ كمالُ الاتِّصالِ، وذلك إذا حُمِلَ الاستفهامُ في قولِه تعالى: ﴿أَفَأَنتَ تَهۡدِي ٱلۡعُمۡيَ﴾ على معنى النَّفي، فتكونُ الجملةُ إنشائيَّةً في لفظِها، ولكنَّها خبريَّةٌ في معناها، ومِنَ المُتقرِّرِ في بابِ الوصلِ والفصلِ أنَّ العِبرةَ في الجملِ بالمعاني، فيكونُ في الآيةِ تعقيبُ جملةٍ خبريَّةٍ على أخرى خبريَّةٍ، بينَهما اتِّحادٌ في أصلِ المَعنَى، وذلك لأنَّ في قولِه سُبحانَهُ: ﴿وَمِنۡهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيۡكَۚ﴾ محذوفًا، والتَّقديرُ: ومنهُم مَن ينظُرُ إليكَ فلا يَنتفِعونَ، ثُمَّ قوِّيَ هذا المعنَى، وأُكِّدَ بقولِه سُبحانَهُ: ﴿أَفَأَنتَ تَهۡدِي ٱلۡعُمۡيَ﴾؛ أي: أنتَ لا تَهديهِم؛ إذ كانوا عُميَ القلوبِ.

دِلالَةُ الاستِفهامِ في: ﴿أَفَأَنتَ﴾:

الهمزةُ في ﴿أَفَأَنتَ﴾ في قولِه تعالى ﴿أَفَأَنتَ تَهۡدِي ٱلۡعُمۡيَ﴾ للاستفهامِ، والاستفهامُ ههنا ليسَ جاريًا على أصلِ دلالتِه مِن إرادةِ طلبِ العِلمِ بشيءٍ لَم يكُنْ مَعلومًا مِن قبلُ؛ لأنَّ اللّه سُبحانَه عليمٌ بكلِّ شيءٍ لا تَخفى عليه خافيَةٌ، وإنَّما الاستفهامُ يُرادُ به التَّعَجُّبُ مِن حالِهم، حيثُ جَمَعوا مع عَماهُم عدمَ التَّبَصُّرِ، "وبُنِيَ على ذلكَ استفهامٌ عن التَّمَكُّنِ مِن إسماعِ هَؤُلاءِ الصُّمِّ وهَدي هؤلاءِ العُمي، مَعَ أنَّهُم قد ضَمّوا إلى صَمَمِهِم عدمَ العقلِ، وضَمّوا إلى عَماهُم عدمَ التَّبَصُّرِ...فينظرونَ أعمالَه وسيرتَهُ، ولا يَهتَدونَ بِها"[1].

انعِدامُ العقلِ والتَّبَصُّرِ عندَ المُشرِكينَ أودى بهِم إلى التَّهلُكةِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/178.

ويجوزُ أن يكون الاستفهامُ مُرادًا به النَّفيُ؛ أي: أنتَ لا تَهدي العُميَ، ولا تنافيَ بين دلالةِ الاستفهامِ على التَّعجُّبِ ودلالتِه على النَّفيِ، فيُحمَلُ اللَّفظُ على المعنيينِ معًا؛ إذِ النِّكاتُ البلاغيَّةُ تتوارَدُ ولا تتزاحَمُ.

بلاغةُ الحذفِ في سؤالِه عن هِدايةِ العُمي:

عدمُ اهتداءِ المُشركينَ، ليسَ ضَعفَ الحَقِّ، وإنّما انغلاقُ مَنافذِ قُلوبِهم

في قولِ اللّه ﷻ: ﴿أَفَأَنتَ تَهۡدِى﴾ إيجازٌ بالحذفِ، والتَّقدير: ومِنهُم مَن ينظرُ إليكَ ولا يَنتفِعونَ، أفتلومُ نفسَكَ في أمرِ هِدايتِهم، وتَجدُ في نفسِكَ مِن أجلِهم، أنت لا تهدي العُميَ، فعدمُ اهتداءِ هؤلاءِ الضَّربِ مِنَ النّاسِ ليسَ لقصورٍ في الواردِ عليهِم، وإنَّما لخللٍ فيهم أنفُسِهم، وفي هذا تَسليةٌ لَه ﷺ، وألّا يَكتَرِثَ بعدمِ قَبولِهم، فإنَّ الهدايةَ إنَّما هي للّه تعالى، والمُرادُ "أنَّهُم عُميٌ فلا تَقدِرُ على هِدايَتِهم؛ لأنَّ السَّبَبَ الَّذي يُهتَدَى به إلى رُؤيةِ الدَّلائلِ قد فَقَدوهُ، هَذا وَهُم مَعَ فَقدِ البَصرِ قَد فَقَدوا البَصيرَةَ، إذ مَن كانَ أعمَى فإنَّه مُهديه نورُ بَصيرَتِه إلى أشياءَ بالحَدسِ، وهذا قد جَمَعَ بينَ فقدانِ البَصرِ والبَصيرَةِ، وهذه مُبالغةٌ عَظيمةٌ في انتِفاءِ قَبولِ ما يُلقَى إلى هؤلاءِ، إذْ جَمَعوا بينَ الصَّمَمِ وانتِفاءِ العقلِ، وبينَ العمى وفَقدِ البصيرَةِ"[1].

بلاغةُ الاستعارةِ في: ﴿ٱلۡعُمۡيَ﴾:

المَقصودُ مِنَ الإبصارِ الاعتِبارُ والاستِبصارُ، ومَن لا يهتدي هو بِمَنزِلَةِ الأعمى

شُبِّهَ المشركونَ بالعُميِ في قولِ اللّه ﷻ: ﴿أَفَأَنتَ تَهۡدِى ٱلۡعُمۡيَ﴾؛ لِتَعاميهِم عن الحَقِ وعدمِ انتفاعِهم بالبصَرِ، فحُذِفَ المشبَّه وصُرِّحَ بالمشبَّه به على طريقةِ الاستعارةِ التَّصريحيَّةِ الأصليَّةِ، "والمُرادُ تَسليَةُ النَّبيِّ ﷺ؛ أي: كما لا تَقدِرُ أن تُسمِعَ مَن سُلِبَ السَّمعَ، ولا تَقدِرُ أنْ تَخلُقَ للأعمَى بَصَرًا يَهتَدي بِهِ، فكذَلِكَ لا تَقدِرُ أنْ توَفِّقَ هؤلاءِ للإيمانِ"[2]، وإنَّما قال: ﴿تَهۡدِى ٱلۡعُمۡيَ﴾ تربيَةً لإنكارِ هِدايَتِهم،

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/161.
(2) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 8/346.

وإبرازًا لِوُقوعِها في مَعرِضِ الاستحالةِ، وقد أَكَّد ذلكَ حيثُ قال: ﴿وَلَوۡ كَانُواْ لَا يُبۡصِرُونَ﴾؛ أي: ولَو انضمَّ إلى عدمِ البَصرِ عدمُ البَصيرَةِ، فإنَّ المقصودَ مِنَ الإبصارِ الاعتِبارُ والاستِبصارُ، والعُمدَةُ في ذلك هيَ البَصيرَةُ[1]، وفي جَعلهم عُميًا إيماءٌ إلى أنَّه لا يَقدِرُ على إسماعِهم وهدايَتِهم إلّا اللّه ﷻ، كما لا يَقدِرُ على رَدِّ الأصَمِّ والأعمَى، المَسلوبِي العَقلِ، حَديدي السَّمعِ والبَصَرِ، راجِحي العَقلِ، إلّا هو وحدَهُ[2].

دِلالةُ (ال) في ﴿ٱلۡعُمۡيَ﴾:

اللّامُ في ﴿ٱلۡعُمۡيَ﴾ مِن قولِ اللّه ﷻ: ﴿أَفَأَنتَ تَهۡدِي ٱلۡعُمۡيَ﴾ للعهدِ العِلميِّ، والمُرادُ: المَعهودونَ بعَماهُم وانصِرافِهم عَن جادَّةِ الحَقِّ ومَنهَجِ الصَّوابِ، وهُم مَن خُلِقَتْ نُفوسهم مَفطورَةً على المُكابَرَةِ والعِنادِ وبُغضِ مَن أنعَمَ اللّه عليه وحدَهُ، فكانَت هَذِه الخِصالُ مِن شيَمِهِم، فحالَتْ بَينَهُم وبَينَ التأثُّرِ بالمُبصراتِ.

الانصِرافُ عن الحَقِّ ومَنهَجِ الصَّوابِ ضربٌ مِن ضُروبِ العَمى

نُكتةُ تقديمِ المُسنَدِ إليه على المُسنَدِ الفِعليِّ:

في قولِ اللّه تعالى: ﴿أَفَأَنتَ تَهۡدِي﴾ قُدِّمَ المُسنَدُ إليه (أَنۡتَ) على المُسنَدِ الفعليِّ ﴿تَهۡدِي﴾، تقويةً للإنكارِ المُستفادِ مِنَ الاستفهامِ وتأكيدًا له، ووجه ذلك أنَّ فيه تَكرارَ النِّسبَةِ؛ وذلك أنَّ فِعلَ الهدايَةِ ﴿تَهۡدِي﴾ مُسنَدٌ إلى الضَّميرِ المنفصِلِ (أَنتَ)، ومُسنَدٌ أيضًا لِلضَّميرِ المُستَتِرِ فيهِ، وهذا وجه إفادَةِ تقديمِ المُسندِ إليه على المُسندِ الفعليِّ التَّقوية والتَّأكيد، وفي هذا إيماءٌ إلى شدَّةِ حرصِ النَّبيِّ ﷺ على هدايتِهم.

شِدَّةُ حِرصِ النَّبيِّ ﷺ على هِدايَةِ الخَلقِ

دِلالةُ الواو في ﴿وَلَوۡ﴾:

في قولِ اللّه تعالى: ﴿وَلَوۡ كَانُواْ لَا يُبۡصِرُونَ﴾، الواوُ في ﴿وَلَوۡ﴾

تَعَذُّرُ الهِدايَةِ عندَ انعدامِ البَصَرِ والبَصيرَةِ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/148.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/239.

مِنَ الآيةِ الكريمةِ عاطفةٌ على ما سبقَ، والتَّقديرُ: أفأنتَ تهدي العُميَ، ولو انضمَّ إلى عدمِ البصرِ عدمُ البَصيرَةِ؟[1]، ولا مانعَ مِن حملِها على الحالِ على معنى: أفأنتَ تهدي العُميَ حالَ كونِهِم عُميَ البصيرةِ أيضًا؟

معنى ﴿وَلَوْ﴾ ودِلالَتُها:

﴿وَلَوْ﴾ في قولِ اللّه ﷻ: ﴿وَلَوْ كَانُواْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ حرفُ شرطٍ غيرُ جازمٍ، وهي وصليَّةٌ تدلُّ على المُبالغةِ في الأحوالِ؛ وهي الَّتي يكونُ بعدَها أقصَى ما يتعلَّقُ بِهِ، والمعنَى: أفأنتَ تَهديهِم على كُلِّ حالٍ مَفروضٍ، أو أنَّ التَّقدير: تَهديهِم ولَو كانوا لا يُبصِرونَ، والمعنى: "أفأنتَ تَهدي العُميَ لو كانوا يُبصِرونَ، ولو كانوا لا يُبصِرونَ؛ أي: على كُلِّ حالٍ مَفروضٍ، وقد حُذِفَتِ الأولَى في البابِ حَذفًا مُطَّردًا؛ لِدلالةِ الثّانيةِ عليها دلالةً واضِحَةً، فإنَّ الشَّيءَ إذا تَحَقَّقَ عِندَ تَحَقّق المانِعِ أوِ المانِعِ القَويِّ؛ فَلَأنْ يَتَحَقّقَ عِندَ عَدَمِه أو عندَ تَحَقّق المانِعِ الضَّعيفِ أَولَى"[2]، وفيها مِنَ التَّأكيدِ ما فيها.

تَحَقُّقُ أمرٍ ما عِندَ وُجودِ مانِعٍ قَويٍّ يَقتَضي تَحَقُّقَه مَعَ مانِعٍ ضَعيفٍ، أو دونَ مانِعٍ

بلاغةُ الكنايةِ في نفيِ البَصَرِ:

وَرَدَ نَفيُ البَصَرِ عن المشركين في قولِ اللّه ﷻ: ﴿وَلَوْ كَانُواْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ كنايَةً عَن كَونِهِم لا بَصائِرَ لَهُم؛ أي: لا بَصيرَةَ لَهُم يَتَبَصَّرونَ بها، والمُرادُ: لا يَتَأملونَ حَقائِقَ الأشياءَ، ولذلِكَ قيلَ: عَمَى الأبصارِ أهوَنُ مِن عَمَى البصائِرِ[3]، ودَلَّتِ الكنايةُ هُنا على تحقيقِ أنَّهُم لا يَنتَفعونَ بأبصارِهِم، وأنَّهُم لا يَعقِلونَ، ولا يَتَبَصَّرونَ حقائِقَ الأمورِ.

عَمى الأبصارِ أهوَنُ مِن عَمى البصائِرِ

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 4/251.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/149.
(3) الزّمخشريّ، أساس البلاغة: (بصر).

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الإبصارُ والرُّؤيَةُ والنَّظَرُ:

الإبصارُ دالٌّ على وُضوحِ الشَّيءِ، والرُّؤيةُ تَتَمَيَّزُ بالعِلمِ بصرًا أو بصيرةً، والنَّظرُ معقدُه التَّأمُّلُ

تَختَلِفُ هذه الألفاظُ الثَّلاثةُ في أصلِ دِلالتِها اللُّغويَّةِ؛ وذلكَ أنَّ أَصلَ مادَّةِ البَصَرِ تدُلُّ على وُضوحِ الشَّيءِ، تقول: بَصُرتُ بالشَّيءِ؛ إذا صِرتَ به عالمًا بَصيرًا، وتَقولُ: أَبصرتُهُ؛ إذا رأيتَهُ. وأمّا أصلُ مادَّةِ الرُّؤيةِ فتدُلُّ على العِلمِ بالشَّيءِ، عِلمًا بواسطةِ العَينِ، أو عِلمًا قلبيًّا. وأمّا أصلُ النَّظرِ فهو تأمُّلُ الشَّيءِ ومُعايَنَتُه، فالإبصارُ دالٌّ على الوُضوحِ، والرُّؤيةُ تَتَمَيَّزُ بالعِلمِ، والنَّظَرُ يتمَيَّزُ بالتَّأمُّلِ، فثَمَّ ثلاثَةُ مُستوياتٍ؛ أوَّلها: النَّظَرُ، وهو التَّأمُّلُ في الشَّيءِ ومُعايَنَتُه، ثُمَّ إبصارُهُ؛ أي: ظُهورُه لِلعينِ أوِ العقلِ، ثُمَّ رُؤيتُهُ؛ وهيَ العِلمُ به على جهةِ القَطعِ. ووَرَدَت مادَّةُ الإبصارِ في القُرآنِ كثيرًا مُرادًا بها الإدراكُ بحاسَّةِ البَصَرِ أوِ الإدراكُ بالبَصيرَةِ، فَمِنَ الأوَّلِ قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۚ قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ ٩﴾ [السّجدة: 9]، ومِنَ الثّاني قولُه سُبحانَهُ: ﴿وَإِن تَدۡعُوهُمۡ إِلَى ٱلۡهُدَىٰ لَا يَسۡمَعُواْۖ وَتَرَىٰهُمۡ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ وَهُمۡ لَا يُبۡصِرُونَ ١٩٨﴾ [الأعراف: 198].

وقد جُمِعَ بينَ النَّظَرِ والإبصارِ في قولِ اللهِ ﷻ: ﴿وَمِنۡهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيۡكَۚ أَفَأَنتَ تَهۡدِي ٱلۡعُمۡيَ وَلَوۡ كَانُواْ لَا يُبۡصِرُونَ﴾، وهي تبيِّنٌ تبيينًا لا لَبسَ فيه أنَّ النَّظَرَ مُباينٌ للإبصارِ، فالنَّظَرُ يَقَعُ مِنهُم، ولكنَّ الإبصارَ مَنفيٌّ عنهُم.

وذلك أنَّ النَّظَرَ يُرادُ به الصّورةُ الظّاهريَّةُ؛ فَهُم يُحَدِّقونَ بحاسَّةِ البصرِ نحوَ النَّبيِّ ﷺ، ولكنَّ هذا لم يكُن مُؤدِّيًا إلى إدراكِ الحقائقِ الإيمانيَّةِ المُتَقَضيَةِ انقيادَهُم واستِسلامَهُم لِلشَّرعِ المُنَزَّلِ.

والحاصِلُ أنَّ الإبصارَ والرُّؤيةَ والنَّظَرَ تَشتَرِكُ في تأمُّلِ الشَّيءِ بقصدِ إدراكِهِ، ولكنَّ درجاتِ الإدراكِ مُختَلِفَةٌ؛ فأعَلاها دَرجةً: الرُّؤيةُ؛ لاختِصاصِها بالقَطعِ واليَقينِ، ثُمَّ يَليها الإبصارُ؛ لِدِلالَتِه

على الوضوحِ والظُّهورِ، وأدناها النَّظَرُ؛ وهو تَوَجُّه العَينِ إلى الشَّيءِ مِن دونِ رُؤيةٍ، وإنْ كانَ قد يَرِدُ النَّظرُ مُرادًا به التَّدبُّرُ مع رُؤيةِ الشَّيءِ[1].

ولِذا أوثِرَ إثباتُ النَّظرِ إلى المُشركينَ؛ لِكَونِه أقلَّ مَراتِبِ الإدراكِ، ونُفيَ عنهُم أَشرَفُها في قولِ اللّه سُبحانَهُ: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ ۚ أَفَأَنتَ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يُبْصِرُونَ﴾.

(1) محمّد محمّد داود، معجم الفروق الدّلاليّة في القرآن الكريم، ص: 133 - 137.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ ٱلنَّاسَ شَيۡـٔٗا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ٤٤﴾ [يونس: 44]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الرّبطُ بينَ مَن لا يَنتفعونَ بِسمعٍ ولا نظرٍ، ومَن ظلموا أنفسَهُم، دونَ أن يَظلمَهُمُ الله

لَمّا ذَكَرَ اللّه ﷻ أنَّ هؤلاء المُشرِكين لا يَنتفِعون بِسمعِهم ولا بِنظرِهِم، وأنَّه لا طريقَ إلى هِدايَتِهم؛ بيَّنَ سُبحانَه أنَّ ذلك واقعٌ لاستِحقاقِهِم إيّاه؛ بِسببِ ظُلمِهِم أنفُسَهُم، وأنَّ اللّه ﷻ لَم يَظلِمهُم ولَم يَظلِم أحدًا غيرَهُم، فقال سُبحانَه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ ٱلنَّاسَ شَيۡـٔٗا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿لَا يَظۡلِمُ﴾: أصلُ (ظلم): وضعُ الشَّيءِ في غَيرِ مَوضِعِهِ، كقولِهِم: ظَلَمَ الأرضَ: إذا حَفَرَها في غَيرِ مَوضِعِ حَفرِها[1]. والظُّلمُ: الميلُ عنِ القَصدِ، والعربُ تقولُ: الْزَم هذا الصَّوبَ ولا تَظلِم مِنه شيئًا؛ أي: لا تَجُرْ عَنهُ[2]، وضِدُّه: العَدلُ. والظُّلامةُ: مَظلَمَتُكَ تطلُبُها عندَ الظّالِم، وظَلَّمتُه تظليمًا: إذا أنبَأتَه أنّه ظالمٌ. وظُلِمَ فلانٌ فاظَّلَمَ؛ أي: احتَمَلَ الظُّلمَ بطيبِ نفسِهِ[3]. والظُّلمُ في الآيةِ مَحمولٌ على ظاهِرِهِ، وهو نقصُ ما تقتضي الخلقةُ الكاملةُ وجودَهُ[4].

المَعْنى الإِجْمالِيُّ:

اللّه تعالى لا يَظلِمُ النّاسَ شيئًا، ولكنّ النّاسَ أنفسَهُم يَظلمون

بَيَّنَ اللّه ﷻ سُنَّةً مِن سننِه الَّتي لا تتخلَّفُ، فأخبرَنا في هذه الآيةِ: أنّه تعالى لا يفعلُ بخلقِه ما لا يَستحقّونَ منهُ؛ فلا يسلبُ أحدًا الإيمانَ، ولا يصرفُه عنِ الهدَى إلّا إذا استحقَّ ذلك؛ لكمالِ علمِه سبحانَه

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (ظلم).
(2) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (ظلم).
(3) الخليل، العين: (ظلم).
(4) رشيد رضا، تفسير المنار: 11/315.

وحكمتِه وعدلِه، وأيضًا فهو لا يُعاقِبُ مَن لَم يَستوجِبِ العقابَ، ولا يزيدُ في سَيِّئاتِ المُسيئينَ، ولا يَنقُصُ مِن حَسَناتِ المُحسِنينَ، كما قال تعالى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلۡعَبِيدِ ۝٤٦﴾ [فُصّلت: 46]. ولكنَّ النّاسَ هُمُ الّذينَ يَظلِمونَ أنفُسَهم، ويَضُرّونَها بكُفرِهم باللّه ومَعصيتِه، فيستَحِقّونَ عقابَهُ، ولا يَضرّونَ اللّه شيئًا[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

عِلَّةُ الفَصلِ في: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ﴾:

فُصِلَ قولُ اللّه ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ ٱلنَّاسَ شَيۡـٔٗا﴾ عمّا قبلَهُ؛ لوقوعِه استئنافًا بيانيًّا، فبينَ الجُملتينِ شِبه كمالِ الاتِّصالِ، وذلك أنَّ هذه الآيةَ واردَةٌ جوابًا عن سؤالٍ يُفهَمُ مِنَ الأولى، وذلك أنَّ اللّه سُبحانَه لمّا قال: ﴿وَمِنۡهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيۡكَۚ أَفَأَنتَ تَهۡدِي ٱلۡعُمۡيَ وَلَوۡ كَانُواْ لَا يُبۡصِرُونَ﴾ أورثَ ذلك في نفسِ المتَلَقّي سؤالًا، وهوَ: لِمَ حكمَ اللّه سُبحانَه عليهم بعدمِ الاهتداءِ، والأمرُ كُلُّه بيدِهِ؟ فجوابُ الجوابِ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ ٱلنَّاسَ شَيۡـٔٗا﴾، وأنَّ ما فُعِلَ بهم كانَ بسببِ ظُلمِهم أنفسَهُم، ولم يكُنْ ناشِئًا عَن ظُلمِ اللّه تعالى لَهُم؛ إذ هو سُبحانَه لا يَظلِمُ النّاسَ شيئًا.

أثرُ الاستِئنافِ البيانيِّ في إبرازِ مُتابعةِ المُتَلَقّي وشَوقِهِ

نُكتةُ تَوالي المُؤَكِّداتِ في الجملةِ المُصدَّرةِ بالأداةِ ﴿إِنَّ﴾:

قولُ اللّه ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ ٱلنَّاسَ شَيۡـٔٗا﴾، أُكِّدَ بجملةٍ مِنَ المُؤَكِّداتِ؛ وهي: إنَّ، واسميَّةُ الجملةِ، وتأخيرُ المُسندِ الفعليِّ، والقصدُ منه المُبالَغَةُ في نَفيِ الظُّلمِ عن اللّه تعالى، والمعنى: "أنَّه تعالى ما ألجأَ أحدًا إلى هذه القَبائِحِ والمُنكَراتِ، ولكنَّهُم باختيارِ أنفُسِهِم يُقدِمونَ عليها ويُباشِرونَها"[2].

نَفيُ الظُّلمِ عن اللّه تعالى، يَستَلزِمُ إثباتَ كمالِ عَدلِه سُبحانَهُ

(1) ابن جرير، جامع البيان: 12/187، ورشيد رضا، تفسير المنار: 11/316، والسّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 365.

(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/259.

ونفيُ الظُّلم عن الله سبحانَه ليسَ لِكونِه يَتصرَّفُ في مُلكِه، ومَن كانَ كذلكَ لَم يكُنْ ظالمًا؛ كما ذهبَ إليه بعضُ المُتكلِّمينَ، الّذينَ يرَونَ حقيقةَ الظُّلم: تصرُّفُ الواحدِ في غيرِ مُلكِه، وإنَّما حقيقةُ الظُّلْم: وضعُ الشَّيءِ في غير محلِّه اللّائقِ بهِ، وهذا الّذي يكونُ نفيُه كمالًا في حقِّ الله ﷻ؛ لأنَّه يتضمَّنُ كمالَ ضِدِّهِ، وهو كمالُ عدلِه تعالى.

وفي هذا "وَعيدٌ للمُكَذِّبينَ؛ يعني: أنَّ ما يَلحَقُهُم يَومَ القيامَةِ مِنَ العَذابِ لاحِقٌ بِهِم على سبيلِ العَدلِ والاستيجابِ، ولا يَظلِمُهُمُ اللهُ بِهِ، ولكنَّهُم ظَلَموا أنفُسَهُم باقترافِ ما كان سَبَبًا فيهِ"[1].

النُّكتةُ في تَوَسُّطِ النَّفي بينَ المُسنَدِ إليه والمُسنَدِ الفعليِّ:

ظُلمُ النّاسِ أنفُسَهُم يكونُ بارتكابِ المُنكَراتِ

وُسِّطَ النَّفيُّ بينَ المُسندِ إليه والمُسندِ الفِعليِّ في قولِ اللهِ ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ ٱلنَّاسَ شَيۡـًٔا﴾؛ لإفادةِ التَّخصيصِ؛ أي: أنَّ اللهَ تعالى لا يَظلِمُ النّاسَ بِعِقابِ مَن لا يَستَحِقُّ، ولكِنَّ النّاسَ هُم الَّذينَ يَظلِمونَ أنفُسَهُم فَيَستَحِقّونَ العِقابَ؛ والمعنى: يَظلِمونَ أنفُسَهُم بارتكابِ القبائِحِ والمُنكراتِ، فَيُعاقَبونَ عَدلًا مِنه تعالى بسببِ ظُلمِهِم.

بلاغةُ التَّعبيرِ بالفعلِ المضارعِ ﴿يَظۡلِمُ﴾:

الظُّلمُ مَنفيٌّ عن اللهِ تعالى نَفيًا مُستمِرًّا ودائمًا

في قولِ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ ٱلنَّاسَ شَيۡـًٔا﴾، الفعلُ المضارِعُ يُفيدُ في أصلِ دلالتِه على التَّجدُّدِ والحدوثِ، والفعلُ ﴿يَظۡلِمُ﴾ مِن قَولِ اللهِ سبحانَهُ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ ٱلنَّاسَ شَيۡـًٔا﴾ دالٌّ على تجدُّدِ الظُّلمِ وحُدوثِه شيئًا فشيئًا، وتسلُّطُ النَّفي عليه أفادَ استِمرارَ هذا النَّفي لا نَفيَ الاستمرارِ؛ إذْ مِنَ الظّاهِرِ والبيِّنِ أنَّ المرادَ نَفيُ وقوعِ الظُّلمِ مِنَ اللهِ ﷻ مُطلَقًا، في أيِّ زمنٍ مِنَ الأزمانِ، وليسَ المرادُ أنَّه إنْ وَقَعَ مِنه ظُلمٌ فإنَّ هذا الظُّلمَ لا يتجدَّدُ ولا يستمِرُّ، قال الآلوسيُّ: "وصيغةُ المُضارعِ للاستِمرارِ نَفيًا وإثباتًا، أمّا الثّاني فظاهِرٌ، وأمّا

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/239.

الأوَّلُ فلأنَّ حرفَ النَّفي إذا دخلَ على المُضارعِ يُفيدُ بحسبِ المَقامِ استِمرارَ النَّفيِ لا نَفيَ الاستِمرارِ"[1].

دِلالةُ التَّعريفِ بـ(ال) في: ﴿ٱلنَّاسَ﴾:

مَجيءُ اللّامِ في ﴿ٱلنَّاسَ﴾ الأولَى مِن قولِ اللّه ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ ٱلنَّاسَ شَيۡـٔٗا﴾ يُفيدُ استغراقَ عُمومِ جنسِ النّاسِ، فيندرجُ تحتَه كُلُّ ما يتناولُه اللَّفظُ على سبيلِ الحقيقةِ، فهو استغراقٌ حقيقيٌّ، بخلافِ ﴿ٱلنَّاسَ﴾ الثّانيةِ الواردةِ في قولِ اللّه تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾، فاللّامُ فيها لِلاستغراقِ أيضًا، ولكنَّ هذا الاستغراقَ لم يَجرِ على حقيقتِه، وإنَّما المرادُ به الخصوصُ، وهُمُ الّذين وَقَعَ مِنهُم ظُلمٌ لأنفسِهم، فيكونُ هذا مَجازًا مُرسَلًا، بعلاقةِ العموميَّةِ، والنُّكتةُ في التَّعبيرِ بصيغةِ العُمومِ مع أنَّ المرادَ الخصوصُ: الإيماءُ إلى كثرةِ مَن يَظلِمُ نفسَه مِنَ النّاسِ، حتَّى جُعلَت هذه الكثرَةُ بمنزلةِ الأمرِ الشّامِلِ المحيطِ، كما قال ابنُ عاشورٍ: "وعُمومُ ﴿ٱلنَّاسَ﴾ الأوَّلُ على بابِه، وعُمومُ ﴿ٱلنَّاسَ﴾ الثّاني مُرادٌ به خُصوصُ النّاسِ الَّذينَ ظَلَموا أنفُسَهُم بقرينةِ الخبرِ. وإنَّما حَسُنَ الإتيانُ في جانبِ هؤلاءِ بصيغةِ العُمومِ تَنزيلًا لِلكَثرَةِ مَنزِلَةَ الإحاطَةِ؛ لأنَّ ذلكَ غالِبُ حالِ النّاسِ في ذلكَ الوقتِ"[2].

كَثرَةُ مَن يَظلِمُ نَفسَه مِنَ النّاسِ، نُزِّلَت مَنزِلَةَ الحُكمِ الشّامِلِ

بلاغةُ تنكيرِ: ﴿شَيۡـٔٗا﴾:

قولُ اللّه ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ ٱلنَّاسَ شَيۡـٔٗا﴾، وفيه جاءَت كلمةُ ﴿شَيۡـٔٗا﴾ نكرَةً لِتَعُمَّ كلَّ ما تَتعلَّقُ به مصالِحُهُم وكَمالاتُهُم مِن أسبابِ العُلومِ، وأُسُسِ الإدراكاتِ، وإرشادِهِم إلى الحقِّ؛ مِن إرسالِ الرُّسُلِ عليهم السلام، وإقامةِ الأدلَّةِ والبراهينِ؛ تَكرُّمًا منه ﷻ. ووجه إفادَةِ ﴿شَيۡـٔٗا﴾ العُمومَ كونُها نكرةً واردَةً في سياقِ النَّفيِ.

نَفيُ الظُّلمِ عن اللّه تعالى دالٌّ على كمالِ عَدلِهِ

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 11/126.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/180.

بيانُ بُطلانِ أعمالِ المُشركينَ، ورقَّةِ عُقولهم وسَخافَتِها

نُكتةُ تقديمِ المفعولِ الأوَّلِ: ﴿أَنفُسَهُمْ﴾:

قُدِّمَ المفعولُ الأوَّلُ لـ ﴿يَظْلِمُونَ﴾ من قولِ اللّه ﷻ: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾، فلم يَرِدِ النَّظمُ القرآنيُّ: (ولكنَّ النّاسَ يَظلمونَ أنفسَهُم)، وذلك مَراعاةً لِلفاصلةِ مع ضميمةِ إرادةِ الاهتمامِ؛ إذِ التَّعليلُ بمراعاةِ الفاصلةِ وحدَه ليسَ مِنَ المذاهبِ المرضيَّةِ في البيانِ، وليسَ القصدُ مِن هذا التَّقديمِ قصرَ المَظلوميَّةِ عليهم عندَ مَن لا يَرى التَّقديمَ موجِبًا لِلقَصرِ.

ويجوزُ أن يكونَ التَّقديمُ لإرادَةِ قصرِ المظلوميَّةِ، عِندَ مَن يرى أنَّ التَّقديمَ موجِبٌ لِلقصرِ، وهُمُ الجُمهورُ.

وفي إيثارِ قصرِ المظلوميَّةِ على قصرِ الظّالِميَّةِ عليهم: المُبالغةُ في بيانِ بُطلانِ أعمالِهم، ورقَّةِ عُقولهم وسَخافتِها، " على أنَّ قَصرَ الأولى عليهم مُستَلزِمٌ كما قيلَ لِما يَقتَضيه ظاهِرُ الحالِ مِن قَصرِ الثّانيةِ عليهم، فاكتفَى بالقَصرِ الأوَّلِ عن الثّاني مَعَ رِعايةِ ما ذُكِرَ مِنَ الفائِدةِ"[1].

عادَةُ النّاسِ إيقاعُ الظُّلمِ على أنفسِهم

دِلالةُ الواوِ في: ﴿وَلَٰكِنَّ﴾:

الواوُ في قولِ اللّه ﷻ: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ حاليَّةٌ، والمعنى: إنَّ اللّه سبحانَه لا يَظلِمُ النّاسَ شيئًا، ولكنَّ الحالَ أنَّ النّاسَ أنفسَهُم يَظلمونَ، وفي التَّعبيرِ بجملةِ الحالِ اسميَّةً إيماءٌ إلى أنَّ هذا مِن دأبِ النّاسِ وعادَتِهم مع أنفسِهم أن يوقِعوا عليها الظُّلمَ.

بلاغةُ التَّذييلِ في آخرِ الآيةِ الكريمةِ:

تهديدُ المُشركينَ بحلولِ العُقوبَةِ عليهِمْ، كما حلَّت بالظَّلَمَةِ قبلَهُم

قولُ اللّه ﷻ: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ تذييلٌ غيرُ جارٍ مَجرَى المثَلِ؛ لِعدمِ استقلالِه، وتعلُّقه بما قَبلَه للكشفِ عن تمامِ معناهُ.

وهذا التَّذييلُ يشمَلُ عمومَ النّاسِ مِنَ المشركينَ الّذينَ يَستَمِعون،

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 11/126.

ولكنَّهُم لا يَهتدونَ، ويَنظُرونَ ولَكِنْ لا يَتبصَّرونَ، "والمَقصودُ مِن هذا التَّذييلِ التَّعريضُ بالوعيدِ بأنْ سَيَنالُهُم ما نالَ جميعَ الَّذينَ ظَلَموا أنفُسَهُم بتكذيبِ رُسُلِ اللّه"[1].

توجيه القراءاتِ في لفظِ ﴿وَلَٰكِنَّ﴾:

في قولِ اللّه تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾، وفيه قرَأَ الجُمهورُ ﴿وَلَٰكِنَّ﴾ بتَشديدِ النّونِ ونَصبِ ﴿ٱلنَّاسَ﴾ اسمًا لها، وفي التَّشديدِ زيادَةٌ في معنى الظُّلمِ الَّذي ارتَكَبوه في حقِّ أنفُسِهِم، وتأكيدٌ شديدٌ، وبيانٌ لحالِ هذا الظُّلمِ بسببِ أنفسِهِم.

وقرأَ حمزةُ والكسائيُّ وخَلَفٌ البزّارُ بتخفيفِ النّونِ (وَلَكِن) ورَفعِ (النّاسُ)[2]، وقد ذَهَبَ جماعةٌ مِنَ النَّحويّينَ إلى أنَّ الاختيارَ في (لَكِن) إذا قُرِنَتْ بالواوِ أن تكونَ مُشَدَّدةً، وإذا خَلَت مِنَ الواوِ أنْ تكونَ مُخَفَّفَةً؛ وذلكَ لأنَّها إذا خَلَت مِنَ الواوِ أشبَهَت (بَلْ)، ولذا خُفِّفَتْ لِتَكونَ مِثلَها في الاستِدراكِ، وإذا جاءَت بالواوِ خالَفَتها فَشُدِّدَت[3].

مَن لم يندم ويستدرك في الدنيا جنى الحسرة والندامة في الأخرى

دِلالةُ ﴿أَنفُسَهُمۡ﴾ ومَوقِعُها الإعرابيُّ:

النَّفسُ في قولِ اللّه ﷻ: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾ هيَ الرّوحُ الَّتي بينَ جوانِبِهِم، فيكونُ ﴿أَنفُسَهُمۡ﴾ مفعولًا مُقدَّمًا لـ ﴿يَظۡلِمُونَ﴾.

ويجوزُ أن يكونَ ﴿أَنفُسَهُمۡ﴾ تأكيدًا لـ﴿ٱلنَّاسَ﴾، والمَفعولُ به محذوفٌ، فيكونُ بِمَنزِلَةِ ضميرِ الفصلِ مع قَصرِ الظّالِميَّةِ عليهم، ويحتمِلُ أن يكونَ الفعلُ المتعدِّي - على هذا الوجهِ - نُزِّلَ مَنزِلَةَ اللّازمِ؛ أي: أنَّ النّاسَ يصدُرُ مِنهُم ظُلمٌ، وأنَّ ذلك طَبعُهُم مِن غيرِ إرادَةِ تعلُّقِه بمفعولٍ به خاصٍّ.

النّاسُ مَجبولونَ على صُدورِ الظُّلمِ مِنهُم

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/180.
(2) ابن الجزريّ، النّشر: 2/219.
(3) ابن الأنباريّ، البيان في غريب القرآن: 1/413.

وفي التَّعبيرِ "عن فِعلِهم بالنَّقصِ مَعَ كَونِه تفويتًا بالكُلِّيَّةِ وإبطالًا بالمَرَّةِ؛ لِمُراعاةِ جانبِ قَرينَتِه"[1].

بلاغةُ التَّعبيرِ بالفعلِ المضارعِ ﴿يَظۡلِمُونَ﴾:

ظُلمُ النّاسِ أنفُسَهُم مُتَجَدِّدَةٌ أفرادُه حينًا بعدَ حينٍ

في قولِ اللّه ﷻ: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾، عُبِّرَ بالفعلِ المُضارِعِ ﴿يَظۡلِمُونَ﴾؛ للدّلالةِ على تَجَدُّدِ الظّلمِ وحُدوثِه مِنهُم دفعَةً دفعَةً وشيئًا فشيئًا، فهو عَملٌ دائمٌ مُستمِرٌّ لا يَنقَطِعُ مِنهم، قال الآلوسيُّ: "المُضارِعُ المَنفيُّ للاستِقبالِ، والمُثبَتُ للاستِمرارِ، ومَساقُ الآيةِ الكريمةِ على الأوَّلِ لإلزامِ الحُجَّةِ، وعلى الثّاني للوعيدِ، وعلى الوجهينِ هيَ تَذييلٌ لِما سَبَقَ"[2].

توجيه المُتشابِهِ اللَّفظيِّ في آياتِ نَفيِ الظُّلمِ:

وَرَدَ في القرآنِ الكريمِ آياتٌ في نفي الظُّلمِ مع اختلافٍ في مُتعلَّقِ الظُّلمِ، فقال اللّه ﷻ هنا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖۖ﴾ [النّساء: 40]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ ٱلنَّاسَ شَيۡـٔٗا﴾، وقال ﷻ: ﴿وَلَا يُظۡلَمُونَ فَتِيلًا ۝٤٩﴾ [النّساء: 49]، وقال سبحانَه: ﴿وَلَا يُظۡلَمُونَ نَقِيرًا ۝١٢٤﴾ [النّساء: 124].

أمّا الآيتانِ الأوليان؛ وهُما قولُ اللّه سُبحانَه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖۖ﴾ وقولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ ٱلنَّاسَ شَيۡـٔٗا﴾، فقدِ اتّحدَتا في التَّصديرِ بِـ ﴿إِنَّ﴾، والمُسنَدِ إليه ﴿ٱللَّهَ﴾، ونفيِ المضارِعِ المَبنيِّ للفاعِلِ، واختَلَفَتا في مُتعلَّقِ الظُّلمِ، ووجه ذلكَ: أنَّ آيةَ النّساءِ تقدَّمَها قولُ اللّه تعالى: ﴿وَمَاذَا عَلَيۡهِمۡ لَوۡ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِهِمۡ عَلِيمًا ۝٣٩﴾ [النساء: 39]، فلمّا كانَ السّياقُ مُتعَلِّقًا أكثرَ بصفاتِ اللّه سُبحانَه، وبالعُمومِ الّذي دلَّ عليه قولُ اللّه سبحانَه قبلُ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخۡتَالٗا فَخُورًا ۝٣٦﴾ [النساء: 36]، كانَ المناسِبُ نفيَ الظُّلمِ عنِ اللّه تعالى بنفي أقلِّ القليلِ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/149.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 11/126.

منه، فقال ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖۖ﴾؛ حيث إنَّ الذَّرَّةَ مِن أصغرِ الأشياءِ، فهو كنايةٌ عنِ انتفاءِ الظُّلمِ بالكلِّيَّةِ بخلافِ آيةِ يونسَ، فقد تقدَّمَها قولُ اللّه سبحانَه: ﴿وَمِنۡهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيۡكَۚ أَفَأَنتَ تَهۡدِي ٱلۡعُمۡيَ وَلَوۡ كَانُواْ لَا يُبۡصِرُونَ﴾، فلمّا كانَ نفيُ الهدايَةِ عَن هؤلاءِ قد يوهِمُ أنَّ اللّه سبحانَه ظالمٌ لَهُم؛ ناسبَه نَفيُ الظُّلمِ عنه بأقلِّ ما يُعلَمُ ويُخبَرُ عنه، فقال ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ ٱلنَّاسَ شَيۡـٔٗا﴾. وأمّا الآيتانِ الأُخرَيانِ، وهُما قولُ اللّه تعالى: ﴿وَلَا يُظۡلَمُونَ فَتِيلًا ٤٩﴾ [النساء: 49]، وقولُه ﷻ: ﴿وَلَا يُظۡلَمُونَ نَقِيرًا ١٢٤﴾ [النساء: 124]، فقد اتَّفقَتِ الآيتان في نفي الظُّلم بصيغةِ المضارعِ المبنيِّ للمَفعولِ، واختلَفَتا في مُتَعَلَّقِ الظُّلم، ووجه المغايَرَةِ بينَهُما: أنَّ الآيةَ الأولى صُدِّرَت بقولِ اللّه سبحانَهُ: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمۡۚ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ﴾ [النساء: 48]، فلمّا كانَ قصدُ هؤلاء بتَزكيتِهم أنفُسَهُم تَعظيمَها، ونفَى اللّه ذلكَ عنهُم، وكانَ هذا النَّفيُ مُفيدًا حَقارتَهم، ناسبَه ذِكرُ الفَتيلِ؛ لأنَّه يُضرَبُ به المثلُ في الحقارَةِ. وأمّا الآيةُ الثّانيةُ فقد صُدِّرَت بقولِه ﷻ: ﴿وَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ﴾ [النساء: 124]، فلمّا كانَ قولُه تعالى: ﴿مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ مُشيرًا إلى أقلِّ القليلِ، ناسبَه ذكرُ النَّقيرِ، فقال سبحانَهُ: ﴿وَلَا يُظۡلَمُونَ نَقِيرًا ١٢٤﴾ [النساء: 124]؛ لأنَّه يُضرَبُ به المثلُ في القِلَّةِ؛ ولكونِ لفظِ ﴿نَقِيرًا﴾ مُناسبًا للفاصلةِ الرّائيَّةِ الّتي وردَت عليها الآيةُ الّتي تقدَّمَتها، وهي قولُه ﷻ: ﴿وَلَا يَجِدۡ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا ١٢٣﴾ [النساء: 123]، والتَّعليلُ بالتَّناسُبِ يورَدُ ههنا تبعًا لِلعلَّةِ المعنويَّةِ لا على جهةِ الاستقلالِ.

﴿وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ كَأَن لَّمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيۡنَهُمۡۚ قَدۡ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ ٤٥﴾

[يونس: 45]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الرّبطُ بينَ خُسرانِ الدُّنيا الزّائلةِ باقترافِ الشّركِ، وخسرانِ الآخرةِ بالعَذابِ المُقيمِ

لمّا ذَكَرَ اللّه ﷻ ضَلالَ المُشرِكينَ، وطُرُقَ جِدالِهم في باطِلِهم، وكانَ مَن يفعَلُ ذلكَ - ممَّنْ لا يعتقِدُ حشرًا ولا جزاءً - مُستطيلًا الزَّمانَ، آمنًا مِن حوادِثِه؛ حَسُنَ أن يُعَقَّبَ ذلك بأنَّهم يُلاقونَ يومَ القيامَةِ مِنَ الأهوالِ ما يستَقصِرونَ معه مُدَّةَ بقائِهم في الدُّنيا، فَخَسِروا دُنياهُم بجدالِهم الباطلِ ومخالفتِهم الشَّرعَ المُنزَّلَ، وخسروا آخرتَهُم بالعذابِ الدّائمِ الّذي لا انقطاعَ فيه، فقال ﷻ: ﴿وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ كَأَن لَّمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيۡنَهُمۡۚ قَدۡ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ﴾[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَلۡبَثُوٓاْ﴾: أصلُ (لبث): يدُلُّ على تَمَكُّثٍ، وانتظارٍ، واستبطاءٍ. قِيلَ: اللَّبثُ الاسمُ، واللُّبْثُ بالضَّمِّ: المَصدَرُ[2]، يُقالُ: لَبِثَ بالمَكانِ: أقامَ به مُلازِمًا له. وأَلبِثْ عن فلانٍ؛ أي: انتَظِرْه حَتّى يُبدِيَ انتِظارُكَ إيّاه خطأَ رأيِه[3]، واستَلبَثَهُ، إذا استَبطَأَهُ، وهوَ استَفعَلَ مِنَ اللّبثِ، وهوَ الإبطاءُ والتَّأخُّرُ[4]. والمقصودُ باللَّبثِ في الآيةِ: الاستقرارُ في المَكانِ، وهو هنا مُستعارٌ للإبطاءِ.

2) ﴿سَاعَةً﴾: أصلُ (سوع): يدُلُّ على استِمرارِ الشَّيءِ ومُضيِّهِ،

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/131.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (لبث).
(3) ابن عبّاد، المحيط في اللّغة: (لبث).
(4) ابن منظور، لسان العرب، والزَّبيدي، تاج العروس: (لبث).

مِن ذلكَ السّاعَةُ سُمِّيَت بذلكَ. يُقالُ جاءَنا بَعدَ سَوعٍ مِنَ اللَّيلِ وسواعٍ؛ أي: بَعدَ هَدءٍ مِنهُ[1]. والسّاعَةُ في الأصلِ تُطلَقُ بمعنيين: أحدُهما: أن تكونَ عبارةً عَن جُزءٍ مِن أربعةٍ وعشرينَ جُزءًا هيَ مجموعُ اليومِ واللَّيلةِ. والثّاني: أن تكونَ عبارةً عَن جُزءٍ قليلٍ مِنَ النَّهارِ أوِ اللَّيلِ[2]، يُقالُ: جلستُ عِندَكَ ساعَةً مِنَ النَّهارِ؛ أي: وقتًا قليلًا منه، ثُمَّ استُعيرَ لاسمِ يَومِ القيامَةِ[3]. قال الزَّجّاجُ: معنى السّاعَةِ في كُلِّ القُرآنِ: الوَقتُ الَّذي تَقومُ فيه القيامَةُ، يُريدُ أنّها ساعَةٌ خَفيفَةٌ يَحدُثُ فيها أمرٌ عظيمٌ، فَلِقِلَّةِ الوَقتِ الَّذي تقومُ فيه سَمّاها ساعَةً[4]. والمرادُ بالسّاعةِ في الآيةِ: المِقدارُ مِنَ الزَّمانِ.

3) ﴿ٱلنَّهَارِ﴾: أصلُ (نهر): يدُلُّ على تَفَتُّحِ شيءٍ أو فَتحِهِ. وأنهَرتُ الدَّمَ: فَتَحتُه وأرسَلتُهُ. وسُمِّيَ النَّهرَ لأنَّه يَنهَرُ الأرضَ؛ أي: يَشُقُّها[5]. ومِنه النَّهارُ: وهو انفِتاحُ الظُّلمةِ عن الضّياءِ ما بَينَ طُلوعِ الفَجرِ إلى غُروبِ الشَّمسِ. وسُمِّيَ نَهارًا؛ لأنَّ الضّياءَ يَنهَرُ فيهِ؛ أي: يَبرُزُ كما يَبرُزُ النَّهرُ[6]، ورَجُلٌ نَهِرٌ: صاحِبُ نَهارٍ كأنَّه لا يَنبَعِثُ لَيلًا[7]. والمقصودُ بالنَّهارِ في الآيةِ: ما بَينَ الفَجرِ إلى غُروبِ الشَّمسِ.

4) ﴿يَتَعَارَفُونَ﴾: أصلُ (عرف): يدُلُّ على السُّكونِ والطُّمَأنينَةِ، تقولُ: عَرَفَ فُلانٌ فُلانًا عِرفانًا ومَعرِفَةً. وهذا أمرٌ معروفٌ. وهذا يدُلُّ على ما قُلناه مِن سُكونِه إليه؛ لأنَّ مَن أنكَرَ شيئًا تَوَحَّشَ منه ونَبا عنهُ. ومِنَ البابِ العَرفُ، وهي الرّائِحَةُ الطَّيِّبَةُ، وهي القياسُ؛ لأنَّ النَّفسَ تَسكُنُ إليها. يُقالُ: ما أطيَبَ عَرفَهُ!. قال اللهُ ﷻ: ﴿وَيُدۡخِلُهُمُ ٱلۡجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمۡ ٦﴾ [محمد ﷺ: 6]؛ أي: طَيَّبَها. والعُرفُ: المَعروفُ؛ وسُمِّيَ بذلكَ لأنَّ النُّفوسَ تَسكُنُ إليهِ[8]. والمقصودُ بالتَّعارفِ في الآيةِ: إدراكُ الشَّيءِ بتفَكُّرٍ وتَدبُّرٍ لأثرِهِ، ويضادُّه الإنكارُ، وهو تَفاعُلٌ مِن عَرَفَ؛ أي: يَعرِفُ كُلُّ واحِدٍ مِنهُمُ الآخَرَ.

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (سوع).
(2) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن الأثير، النّهاية: (سوع).
(3) الرّاغب، المفردات: (ساعة)، وابن الأثير، النّهاية: (سوع).
(4) الزّجّاج، معاني القرآن: 4/421، وابن الأثير، النّهاية: (سوع).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نهر).
(6) ابن منظور، لسان العرب: (نهر).
(7) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن عبّاد، المحيط في اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (نهر).
(8) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عرف).

5) ﴿بِلِقَآءِ ٱللَّهِ﴾: أصلُ (لقي): يدُلُّ على طَرحِ شيءٍ. اللِّقاءُ: الحُضورُ نحوُ الغَيرِ بقصدٍ أو بغيرِ قَصدٍ وفي خيرٍ أو شرٍّ، ولَقيتُه لَقوَةً؛ أي: مرَّةً واحِدَةً ولِقاءَةً. ولَقيتُه لُقيًا ولُقيانًا. واللُّقيَةُ فُعلَةٌ مِنَ اللِّقاءِ، والجَمعُ لُقًى[1]. والالتِقاءُ: المُحاذاةُ، وصيغَةُ الافتِعالِ فيه للمُبالغةِ[2]. والمرادُ باللِّقاءِ في الآيةِ: حُضورُ أحدٍ عندَ آخَر، والمُرادُ لِقاءُ اللّه تعالى للحِسابِ.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

التَّذكيرُ بمقدارِ ظُلمِ المُشركينَ لأنفُسِهم في الدّنيا، وخسارتِهم لها في الآخرةِ

يقولُ تعالى: ويومَ يَجمَعُ اللّه الكافرينَ في مَوقِفِ الحسابِ، فيَستقِلّونَ حينذاكَ مُدَّةَ مُكثِهم في الدُّنيا، كأنَّهم لم يَعيشوا فيها إلّا ساعةً مِن نَهارٍ، يتعارَفُ النّاسُ بينَهُم يومَ القيامةِ، كما كانوا يَتعارَفونَ في الدُّنيا، قد خَسِرَ ثوابَ اللّه وجَنَّتَه الجاحِدونَ لِلقاءِ اللّه يومَ القيامةِ، فاستحَقّوا دخولَ النّارِ، وما كانوا موفَّقينَ لِلحقِّ بتكذيبِهم بالبعثِ بعدَ المَوتِ[3].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ العطفِ في: ﴿وَيَوْمَ﴾:

افتِضاحُ شِركِ المُشرِكينَ في الحشرِ بمرورِ الحياةِ كساعةٍ مِنَ الدّهرِ

عُطِف قولُ اللّه تعالى: ﴿وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ كَأَن لَّمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيۡنَهُمۡۚ﴾ على قولِه سُبحانَهُ: ﴿وَيَوۡمَ نَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ مَكَانَكُمۡ﴾ [يونس: 28]، وهو مِن بابِ عطفِ القصَّةِ على القصَّةِ؛ رجوعًا إلى المقصودِ مِنَ الكلامِ بعدَ بيانِه وتفصيلِه "وذَمِّ المَسوقِ إليهم وتَقريعِهم، فإنَّه لَمّا جاءَ فيما مَضى ذِكرُ يَومِ الحَشرِ إذ هو حينُ افتِضاحِ ضلالِ المُشرِكينَ ببَراءَةِ شُرَكائِهم مِنهُم؛ أتبَعَ ذلكَ بالتَّقريعِ على عِبادَتِهِمُ الأصنامَ مَعَ وُضوحِ بَراهينِ

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/437.
(2) الزّبيديّ، تاج العروس: (لقي).
(3) ابن جرير، جامع البيان: 12/187، والواحديّ، التّفسير البسيط: 11/215، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 8/348، والسّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 365.

الوحدانيَّةِ للّه تعالى. وإذْ كانَ القرآنُ قد أبلَغَهُم ما كان يَعصِمُهُم مِن ذلكَ المَوقِفِ الذَّليلِ لَو اهتَدَوا بِهِ؛ أتبَعَ ذلكَ بالتَّنويه بالقُرآنِ، وإثباتِ أنَّه خارِجٌ عَن طَوقِ البشرِ، وتَسفيه الَّذينَ كذَّبوهُ، وتَفَنَّنوا في الإعراضِ عنهُ، واستوفيَ الغَرَضُ حَقَّهُ، عادَ الكَلامُ إلى ذِكرِ يَومِ الحَشرِ مرَّةً أُخرَى، إذ هوَ حينَ خَيبَةِ أولئكَ الَّذين كَذَّبوا بالبَعثِ، وهُمُ الَّذينَ أشرَكوا، وظَهَرَ افتِضاحُ شِركِهِم في يومِ الحشرِ، فكانَ مِثلَ رَدِّ العَجُزِ على الصَّدرِ"[1].

نُكتةُ تقديمِ الظَّرفِ ﴿وَيَوْمَ﴾:

ظُهورُ خَسارَةِ المُشرِكينَ يومَ القيامةِ، مَعَ سَبقِ خسارَتِهِم في الدُّنيا

قولُ اللّه ﷻ: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ﴾، قُدِّمَ فيه الظَّرفُ ﴿وَيَوْمَ﴾ على عامِلِه لإرادةِ الاهتمامِ؛ إذِ المقصودُ الأهمُّ ههنا هو تذكيرُهُم بذلكَ اليومِ، وهو يومُ القيامَةِ، وإثباتُ وقوعِهِ، مع تهديدِهِم وتحذيرِهِم بما يَكونُ فيه مِنَ الأهوالِ[2]. وانتصبَ قولُه: ﴿وَيَوْمَ﴾ على الظَّرفيَّةِ، وفي ناصِبِه أوجُهٌ، أحدُها: أنَّه منصوبٌ بالفعلِ الَّذي تَضَمَّنَه قولُه: ﴿كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓاْ﴾، وثانيها: أنَّه منصوبٌ بـ ﴿يَتَعَارَفُونَ﴾، وثالثها: أنَّه منصوبٌ بمقدَّرٍ؛ أي: اذكرْ يومَ[3]، وعلى هذا الأخيرِ، يكونُ التَّقديرُ: اذكرْ يَومَ يجمعُ هؤلاءِ المُشرِكينَ للحسابِ كأنَّهم ما أقاموا في الدُّنيا إلّا ساعةً مِنَ النَّهارِ لِهَولِ ما يَرونَ مِنَ الأهوالِ.

واستَظهَرَ ابنُ عاشورٍ أن يكونَ عاملُه فِعلَ الخُسرانِ ﴿خَسِرَ﴾، "والتَّقديرُ: وقد خَسِرَ الَّذينَ كَذَّبوا بِلِقاءِ اللّه يَومَ نَحشُرُهُم"[4].

سرُّ إضافةِ ﴿وَيَوْمَ﴾:

نكرانُ الكفّارِ ليومِ القيامةِ، لا يَمنعُ شِدَّةَ ما يُقاسونَه مِن شدائِدِ يومِ الحشرِ

أُضيفَ ﴿وَيَوْمَ﴾ إلى الحَشرِ في قولِ اللّه ﷻ: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ﴾ لِلَفتِ انتباهِهِم إلى هذا اليومِ العظيمِ الَّذي أنكروه وأنكَروا

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/181.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/181.
(3) السّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 6/208.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/181.

وُقوعَهُ، ولهولِ ما يُقاسونَه مِن شدائدِ القيامةِ، وطولِ وُقوفِهم فيه للحسابِ، ولأنَّه هوَ اليومُ المخصوصُ بوقوعِ الجزاءِ مَعَ نُكرانِهم إيّاه واستبطائِهم مجيئَه تهكُّمًا واستهزاءً بهِ.

نُكتةُ التَّعبيرِ بالفعلِ المضارعِ ﴿يَحۡشُرُهُمۡ﴾:

إحضارُ صورةِ الحشرِ في نُفوسِ مُنكريهِ؛ ليَكونَ ذلكَ أردَعَ في تَركِهم إنكارَهُ

قولُ اللّه تعالى: ﴿وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ﴾، وفيه الفعلُ المضارعُ في أصلِ استعمالِه، دالٌّ على التَّجدُّد والحدوثِ، وفي قولِ اللّه ﷻ: ﴿وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ﴾ إيماءٌ إلى أنَّ إقامةَ اللّه سبحانَه العبادَ لأجلِ الحسابِ، وإنْ وَقَعَ دفعةً واحدةً، إلّا أنَّ حشرَهُم للجزاءِ يقعُ حالًا بعدَ حالٍ، فحشرُهُم مُتجدِّدٌ باعتبارِ أنَّ كُلَّ جماعةٍ مُتشاكِلةٍ في العملِ تُحشَرُ مع مُشاكِلِها، كما يدُلُّ لذلك قولُ اللّه ﷻ: ﴿۞ٱحۡشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزۡوَٰجَهُمۡ﴾ [الصّافات: 22].

كما أفادَ التَّعبيرُ بالفعلِ المضارعِ ﴿يَحۡشُرُهُمۡ﴾ استحضارَ صورةِ هذا الحشرِ في نُفوسِهم حتَّى يكونوا على ذكرٍ منهُ، وإن كانوا يُنكِرونَه، "فالأفعالُ المضارِعةُ في الكلامِ الحُرِّ مرايا تَعكِسُ لكَ الصّورَ والأحداثَ، فلا تَسمَعُها بأذنِكَ فقط، وإنَّما تراها بعَينَيكَ أيضًا"[1].

توجيه القراءاتِ القرآنيَّةِ في: ﴿يَحۡشُرُهُمۡ﴾:

ما بينَ القراءةِ بالياءِ أو النّونِ بيانٌ لقدرةِ الله على التَّصرُّفِ في مُلكِه الظّاهرِ والمكنونِ

قَرَأَ حَفصٌ عَن عاصِمٍ وحدَه مِن بينِ العشرةِ ﴿يَحۡشُرُهُمۡ﴾ بياءِ الغَيبَةِ؛ لِيشاكِلَ ذلك قولَه سُبحانَه قَبلُ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ ٱلنَّاسَ شَيۡـٔٗا﴾، فلمّا نَفَى اللّه ﷻ الظُّلمَ عن نَفسِهِ، وأثبَتَه لأنفُسِهم، أبانَ لهم أنَّ هُناكَ يومًا يَحشُرُهُم فيه سُبحانَه لِلجزاءِ والحسابِ.

وقرَأَ باقي القرّاءِ (نَحۡشُرُهُم) بالنّونِ[2]، وهي نونُ العَظَمَةِ، وفي ذلك التفاتٌ مِنَ الغَيبَةِ إلى التَّكلُّمِ؛ لِما في أسلوبِ التَّكلُّمِ مِن إدخالِ

(1) محمّد أبو موسى، قراءة في الأدب القديم، ص: 32.
(2) الدّمياطيّ، إتحاف فضلاء البشر، ص: 313.

المَهابةِ على النُّفوسِ، وفي ذلكَ أيضًا مِنَ بيانِ عظيمِ قوَّةِ تصرُّفِه تعالى في مُلكِه وعُمومِ إرادَتِه.

دِلالةُ جملةِ: ﴿كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓاْ﴾:

قولُ اللّه ﷻ: ﴿كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ﴾، يجوزُ أن يكونَ جملة اعتراضيَّة[1] بينَ جملةِ ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ﴾ وجملةِ: ﴿يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْۚ﴾، والتَّقديرُ: يتعارفونَ بينَهُم يومَ يحشرُهُم؛ لِكونِهم قد رأوا مُدَّةَ بقائِهم في الدُّنيا مِنَ القلَّةِ، بحيث لَم يكُنْ ذلك كافيًا لإيقاعِ التَّعارفِ فيها.

النّاسُ سوفَ يَستقلّونَ يومَ الحَشرِ مُدَّةَ بقائِهم في الحياةِ الدُّنيا

ويجوزُ أن تكونَ حالًا مِنَ الضَّميرِ المنصوبِ[2] في ﴿يَحْشُرُهُمْ﴾ - وهوَ (هُم) -، ومالَ إليه الزَّمخشريُّ[3]؛ والمَعنى: ويومَ يحشُرُهُم حالَ كونِهم مُشَبَّهينَ بِمَن لَم يلبثْ إلّا ساعةً.

دِلالَةُ ﴿كَأَن﴾:

﴿كَأَن﴾ مِن قولِ اللّه ﷻ: ﴿كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ﴾ مُخَفَّفَةٌ مِنَ الثَّقيلةِ، واسمُها ضميرُ الشَّأنِ محذوفٌ، وحذفُه هوَ الغالبُ في كلامِ العربِ، وتقديرُه ههنا: كأنَّهُم - أي: المشركون - لَم يَلبثوا إلّا ساعةً مِنَ النَّهارِ، وقد دلَّ على المحذوفِ تَقَدُّمُ الضَّمائرِ العائِدةِ عليهِم.

بيانُ أنّ طَيَّ اللَّفظِ الّذي دلَّ السّياقُ على تعيينِه اقتصادٌ في الكلامِ

بلاغةُ جملةِ التَّشبيه ﴿كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓاْ﴾:

التَّشبيه في قولِ اللّه ﷻ: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ﴾، "تَشبيه المَحشورينَ بَعدَ أزمانٍ مَضَتْ عليهِم في القُبورِ بأنفُسِهم لَو لَم يَلبَثوا في القُبورِ إلّا ساعَةً مِنَ النَّهارِ"[4]. قال الآلوسيُّ: "وليسَ المرادُ مِنَ التَّشبيه ظاهِرَه على ما قيلَ، وقد صرَّحَ في شرحِ

حَسرَةُ الكافِرينَ يومَ القيامةِ على ضياعِ أعمارِهِم سُدًى

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/181.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/181.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/239.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/181.

المِفتاحِ أنَّ التَّشبيهَ كثيرًا ما يُذكَرُ، ويُرادُ به مَعانٍ أُخرُ تَترتَّبُ عليه، فالمرادُ: إمّا التَّأسُّفُ على عدمِ انتفاعِهم بأعمارِهم أو تَمَنِّي أن يَطولَ مُكثُهُم قَبلَ ذلكَ حتَّى لا يُشاهِدوا ما شاهَدوه مِنَ الأهوالِ، فمآلُ الجُملةِ في الآخرةِ نَحشُرُهُم مُتَأسِّفين أَو مُتَمنِّينَ طولَ مُكثِهم قبلَ ذلكَ، ويَجوزُ أن يُرادَ (نحشُرُهُم) مُشَبِّهينَ في أحوالِهم الظّاهِرَةِ لِلنّاسِ بمَن لَم يَلبَثْ في الدُّنيا، ولَم يَتَقَلَّبْ في نَعيمِها إلّا يَسيرًا"[1].

وجملةُ التَّشبيه خبريَّةٌ، يجوزُ أن يُرادَ بها إعلامُ المُخاطَبينَ بما تضمَّنَتهُ، ويجوزُ أن يُرادَ بها التَّأسُّفُ والتَّحسُّرُ - على ما ذكرَه الآلوسيُّ قبلُ - ، فتكون الجملةُ مَجازًا مُرسَلًا مُركَّبًا، ولا مانِعَ مِن إرادَةِ الدّلالَتين معًا؛ لعدمِ تنافيهما بهذا الاعتبارِ.

بلاغةُ القَصرِ بالاستثناءِ المفرَّغِ:

في قولِ اللّه ﷻ: ﴿لَّمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ﴾ أسلوبُ قصرٍ، وهو مِن قصرِ الصِّفةِ على الموصوفِ، وهي صِفَةُ لُبثِهم في الحياةِ الدُّنيا على موصوفٍ، وهي السّاعَةُ، أوِ الوقتُ الزَّمَنيُّ مِنَ النَّهارِ قَصرًا حَقيقيًّا ادِّعائيًّا، وطريقُ القصرِ ههنا: النَّفيُ والاستثناءُ، وهو مُستعمَلٌ في الأصلِ لِما يُنكِرُه المُخاطَبُ، ولا يُقرُّ بهِ.

قِصَرُ مُدَّةِ البَقاءِ في الدُّنيا، يُقابِلُها طولُ الحسابِ في الآخرةِ

دلالةُ التَّعبيرِ باللُّبثِ ﴿لَّمْ يَلْبَثُوٓاْ﴾ مادَّةً وصيغَةً:

قَولُ اللّه تعالى: ﴿لَّمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ﴾، وفيه لفظُ اللُّبثِ بالمَكانِ، وهو الإقامةُ فيه، إلّا أنَّها لَيسَت بالإقامةِ الدّائمَةِ المُتَّصِلَةِ، ولذلِكَ وردَت هذه المادَّةُ في القرآنِ الكريمِ مَقرونَةً بصفةِ القِلَّةِ، كما قال تعالى: ﴿وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٧٦﴾ [الإسراء: 76]، وكما وردَت في هذا المَوضِعِ ﴿إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ﴾، وغَيرُها كَثيرٌ.

قِلَّةُ لبثِ الكُفّارِ في الدُّنيا في مقابلِ ما يَحصُلُ لهُم مِنَ العذابِ في الآخرةِ

ومَجيئُها هُنا مَضروبًا بها المَثَلُ في قلّةِ لُبثِهم في حياتِهم الدُّنيا

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 11/127.

أو في البَرزَخِ، فاستعمالُ اللُّبثِ مَثَلٌ في القِلَّةِ والحقارَةِ في مُقابلِ ما يَحصُلُ لَهُم مِنَ العذابِ الشَّديدِ، وأفادَ التّعبيرُ بصيغةِ المضارعِ استحضارَ صورةِ لبثِهِم في الحياةِ الدّنيا.

نُكتةُ تنكيرِ ﴿سَاعَةَ﴾:

قولُ اللّه ﷻ: ﴿لَّمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ﴾ المرادُ مِنَ السّاعَةِ فيه؛ هي المِقدارُ المعلومُ مِنَ الزّمانِ الَّذي يَعيشُه الإنسانُ، والمرادُ: هُنا لِقلَّتِها وحَقارَتِها، وعادَةً ما يُعَبَّرُ بِها عن الزَّمَنِ القَصيرِ مَع وجودِ قَرينةٍ، ذكر ابنُ عاشور أنّ التَّعريضَ بإبطالِ دَعوَى المُشركينَ إحالَتَهُمُ البَعثَ بِشُبهَةِ أنَّ طولَ اللُّبثِ وتَغَيُّرَ الأجسادِ يُنافي إحياءَها؛ والتَّعبيرُ بها كنايةٌ عَن قِلَّةِ الزَّمنِ الَّذي يُعاشُ تأسُّفًا على حالِهِم وما تَمَنَّوهُ، فضُربَ بها المثلُ: ﴿يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي ٱلْحَافِرَةِ ۝١٠ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا نَّخِرَةً ۝١١﴾ [النّازعات: 10، 11][1].

إبطالُ دَعوى المُشركينَ في زَعمِهِمُ استِحالَةَ البعثِ بعدَ الموتِ

دلالةُ ﴿مِّنَ﴾:

جاءَت ﴿مِّنَ﴾ في قولِ اللّه ﷻ: ﴿لَّمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ﴾؛ للدِّلالةِ على التَّبعيضِ، والمعنى: لم يلبثوا إلّا ساعةً، هي بعضُ النَّهارِ لا كُلُّه، وذلك مبالغةً في تقليلِ مُدَّةِ لُبثِهِم، ولازِمُ ذلك: تحقيرُ تلك المدَّةِ؛ لأنَّ التَّقليلَ يُجامِعُ التَّحقيرَ كثيرًا. و﴿مِّنَ ٱلنَّهَارِ﴾ صفةٌ لقوله: ﴿سَاعَةً﴾، قال ابنُ عاشورٍ: "وهو وصفٌ غَيرُ مُرادٍ مِنه التَّقييدُ؛ إذْ لا فَرقَ في الزَّمنِ القليلِ بَينَ كَونِه مِنَ النَّهارِ أو مِنَ اللَّيلِ، وإنَّما هذا وصفٌ خَرَجَ مَخرَجَ الغالِبِ؛ لأنَّ النَّهارَ هوَ الزَّمنُ الَّذي تَستَحضِرُه الأذهانُ في المُتَعارَفِ"[2].

تَقليلُ مُدَّةِ لُبثِهِم في الدُّنيا وتَحقيرُها إمعانٌ في تهوينِ شأنِها

دلالةُ (ال) في ﴿ٱلنَّهَارِ﴾، ونُكتةُ التَّعبيرِ بالنَّهارِ:

اللّامُ في ﴿ٱلنَّهَارِ﴾ مِن قولِ اللّه ﷻ: ﴿لَّمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ

ساعاتُ النَّهارِ أعرَفُ حالًا مِن ساعاتِ اللَّيلِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/182.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/182.

﴿ٱلنَّهَارِ﴾ لِلعَهدِ الذِّهنيِّ بمعناه عِندَ البلاغيّين لا عندَ النُّحاةِ؛ وهو الدّالُّ على الحقيقةِ ضِمنَ فردٍ مُبهَم؛ والمعنى: لم يَلبَثوا إلّا ساعةً من نهارٍ غيرِ مُعيَّنٍ؛ ولا يُرادُ به العَهدُ العِلميُّ؛ إذ ليسَ المرادُ أنَّهم لبثوا ساعةً مِن نهارٍ معيَّنٍ، كما هو ظاهرٌ.

والنَّهارُ هو الزَّمنُ المعروفُ المُقابِلُ لِزمنِ اللَّيلِ، وتخصيصُ النَّهارِ بالذِّكرِ في الآيةِ؛ لكونِ ساعاتِه أعرَفَ حالًا مِن ساعاتِ اللَّيلِ[1].

المَوقِعُ النَّحويُّ والبيانيُّ لـ: ﴿يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ﴾:

جملةُ: ﴿يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ﴾ مِن قولِ اللّه ﷻ: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ﴾ حالٌ أُخرى، والعامِلُ فيها ﴿يَحْشُرُهُمْ﴾، وهي حالٌ مُقدَّرَةٌ؛ لأنَّ التَّعارُفَ لا يكونُ وقتَ الحَشرِ بل مُتأخِّرًا عنهُ، وقد جاءَتِ الجملةُ مَفصولةً على هذا الوجهِ؛ لأنَّ جملةَ الحالِ إذا صُدِّرَت بفعلٍ مُضارعٍ وَجَبَ خُلوُّها مِنَ الواوِ.

أثرُ المعاني القُرآنيَّةِ في تنوُّعِ مَوقِعِ الجملةِ في السِّياقِ

ويجوزُ أن تكونَ جملةُ: ﴿يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ﴾ واقعةً جوابًا عن سؤالٍ يُفهَمُ مِنَ الجملةِ السّابقةِ، فيكونُ فصلُها لوقوعِها استئنافًا بيانيًّا، وهو المُسمَّى: شبه كمالِ الاتِّصالِ، وذلك أنَّ قولَ اللّه سُبحانَه: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ﴾ يبعَثُ في نفسِ المتلقّي سؤالًا؛ وهو: ماذا يَحدُثُ لهُم بَعدَ الحشرِ وما هُم فيه؟ فجاءَ الجوابُ: ﴿يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ﴾. ويجوزُ أن تكونَ جملةُ ﴿يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ﴾ بيانًا للجملةِ قبلَها، فيكونُ بينَ الجُملتينِ كمال الاتِّصالِ؛ ووجه ذلكَ أنَّ جملةَ التَّعارُفِ وردَت بيانًا للتَّشبيه المُستفادِ مِن ﴿كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓاْ﴾، ودليلًا عليها، قال الآلوسيُّ: "وذلكَ أنَّه لو طالَ العَهدُ لَم يبقَ التَّعارُفُ؛ لأنَّ طولَ العَهدِ مُنسٍ مُفضٍ إلى التَّناكُرِ، لكِنَّ التَّعارُفَ باقٍ، فَطولُ العَهدِ مُنتَفٍ، وهو مَعنى ﴿لَّمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً﴾"[2].

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/150.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 11/128.

فائدةُ التَّعبيرِ بالمضارعِ ﴿يَتَعَارَفُونَ﴾:

إبطالُ اعتِقادِ المُشرِكينَ استِحالةَ البعثِ والحشرِ، مِن مَقاصِدِ البيانِ القرآنيِّ

في قولِ اللّه ﷻ: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْۚ﴾، نجدُ أنّ الفعلَ المُضارعَ ﴿يَتَعَارَفُونَ﴾ يُفيدُ التَّجدُّدَ والحُدوثَ، كأنَّ التَّعارُفَ بينَهُم لا يَنقَطِعُ، يُريدُ كُلُّ واحِدٍ مِنهُم أنْ يَعرِفَ صاحِبَه وحالَهُ، "والتَّعارُفُ: تَفاعُلٌ مِن عَرَفَ؛ أي: يَعرِفُ كُلُّ واحِدٍ مِنهُم يومَئذٍ مَن كانَ يَعرِفُه في الدُّنيا، ويَعرِفُه الآخرُ كذلك. والمَقصودُ مِن ذِكرِ هذِه الحالِ كالمَقصودِ مِن ذِكرِ حالةِ ﴿كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ﴾؛ لِتَصويرِ أنَّهُم حُشِروا على الحالَةِ الَّتي كانوا عليها في الدُّنيا في أجسامِهِم وإدراكِهِم، زيادةً في بيانِ إبطالِ إحالَتِهِم البَعثَ بشُبهَةِ أنَّه يُنافي تَمَزُّقَ الأجسامِ في القُبورِ وانطِفاءَ العُقولِ بالمَوتِ"[1].

عِلَّةُ الفَصلِ في: ﴿قَدْ خَسِرَ﴾:

أثرُ الاستِئنافِ البيانيِّ في إبرازِ مُتابعةِ المُتَلَقّي وشوقِهِ

فُصِلَ قولُ اللّه ﷻ: ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ﴾ عمّا قبلَهُ؛ لِكَونِه استئنافًا بَيانيًّا، وذلكَ لِوقوعِه جوابًا عن سؤالٍ يُفهَمُ مِنَ الجملةِ السّابقةِ، وهي قولُه سبحانَهُ: ﴿يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْۚ﴾، كأنَّه قيلَ: ما الَّذي يَحدُثُ لَهُم بَعدَما وقَعَ بَينَهُم مِن تَعارُفٍ؟ أو ما الحالُ الَّتي تَرَتَّبت على تعارُفِهِم؟ فجاءَ الجوابُ في قولِه ﷻ: ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ﴾، وقد سِيقَت لِلشهادَةِ مِنه سبحانَه على خُسرانِهِم والتّعجيبِ مِنهُ، وهي خَبريَّةٌ لفظًا إنشائيَّةٌ مَعنًى؛ أي: ما نَتيجَةُ مَن يُكَذِّبُ بلقاءِ اللّه[2].

نُكتةُ دُخولِ ﴿قَدْ﴾ على الفعلِ ﴿خَسِرَ﴾:

تَحَقُّقُ خُسرانِ المُكَذِّبينَ بلقاءِ اللّه ربِّ العالَمين

﴿قَدْ﴾ في قولِ اللّه ﷻ: ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ﴾ حرفٌ دالٌّ على التَّحقيقِ، وقد أفادَ تَحَقُّقَ وُقوعِ الخُسرانِ لهؤلاءِ المُكَذِّبينَ،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/183.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 11/128.

وأنَّه لا مَنجى ولا مَهرَبَ منه البَتَّةَ، فصارَ خُسرانُهُم أمرًا مُحقَّقًا لا مَعدِلَ منهُ. ويُؤيِّدُ هذه الدّلالَةَ التَّعبيرُ عنِ الخسرانِ بالفعلِ الماضي ﴿خَسِرَ﴾ المفيدِ الجَزمَ بالوقوعِ.

دلالةُ الجملةِ الخبريَّةِ في: ﴿قَدْ خَسِرَ﴾:

عِظَمُ خسارَةِ المُشرِكينَ، وشِدَّةُ حالِهِم الّتي آلَ إليها أمرُهُم

قولُ اللّه ﷻ: ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ﴾ جملةٌ مُستأنَفةٌ، سِيقَتْ للشّهادَةِ منه تعالى على خُسرانِهم؛ فبيَّنَ ﷻ أنَّ الذين كذَّبوا بلقائه خاسرونَ لا محالَةَ، ولذا قُرِنَ الإخبارُ عن خُسرانِهم بحرفِ التَّحقيقِ ﴿قَدْ﴾[1].

قال الزَّمخشريُّ: "وهو استئنافٌ فيه معنى التَّعجُّبِ، كأنَّه قِيلَ: ما أخسَرَهُم؛ لأنَّهُم وُضِعوا في تِجارَتِهم وبَيعِهِم الإيمان بالكفر"[2].

فلفظُ الجملةِ خَبَرٌ، ومعناها الإنشاءُ؛ على إرادةِ معنى التَّعجُّبِ مِن خُسرانِهِم، وما آلَ إليه أمرُهُم.

ويجوزُ أن تكونَ الجملةُ في محلِّ نصبٍ، وذلك بإضمارِ قولٍ؛ أي: قائلين: ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ﴾...، وعليه فهي مَقولٌ لِقولٍ مُقدَّرٍ وقع حالا مِن ضميرِ ﴿يَتَعَارَفُونَ﴾ أو مِنَ الضَّميرِ في ﴿يَحْشُرُهُمْ﴾[3].

نُكتةُ التَّعبيرِ بالخُسرانِ، ودِلالَةُ حَذفِ مَفعولِه:

الكُفرُ والتَّكذيبُ بلقاءِ الله تعالى ماحِقٌ لِكُلِّ عملٍ صالحٍ

قَولُ اللّه تعالى: ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ﴾، الفعل الماضي دالٌّ في الأصلِ على تحقُّقِ الشّيءِ وحصولِهِ، وهو كذلك في قولِ اللّه ﷻ: ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ﴾، فخسرانُهُم مَقطوعٌ به. وفي الجملةِ حَذف لِمفعولِ الفعلِ، والتَّقديرُ: خَسِروا أنفسَهُم؛ وذلكَ لأنَّهُم تبدَّلوا الكفرَ الماحقَ لأعمالِهم بالإيمانِ المخلِّصِ لَهم مِنَ الضّياعِ والبوارِ، وحَذفُ المفعولِ (أنفسَهم) لقصدِ الإيجازِ، وللعِلمِ بِهِ، ولِلَفتِ الذِّهنِ إلى الأمرِ الأهمِّ مباشرةً؛ وهو تَكذيبُهُم بلقاءِ اللّه.

(1) السّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 6/208.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/239.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 11/128.

بلاغةُ الاستعارةِ في تشبيه أعمالِهم:

مِن بلاغةِ القرآنِ إخراجُ المعاني المعقولةِ بصورةِ المحسوسةِ

وفي التَّعبير بالخسران استعارةٌ؛ لأنَّ أصلَ الخسرانِ انتقاصُ رأسِ المالِ[1]، فشُبِّه محقُ الكُفرِ لأعمالِهم بمَن انتقَصَ رأسُ مالِه؛ بجامعِ الضَّياعِ في كلٍّ؛ فحُذِفَ المشبَّهُ، وصُرِّحَ بالمشبَّه به، على طريقةِ الاستعارَةِ التَّصريحيَّةِ التَّبعيَّةِ، والمَعنى: أنَّهم ضيَّعوا أعمالَهُم الَّتي عَمَلوها في دُنياهُم.

ويجوزُ أن تكونَ الاستعارةُ مكنيَّةً؛ وذلك بتشبيه لقاءِ اللّه والإيمانِ به بتجارةٍ تقومُ بالرّبحِ والخسرانِ مبالغةً فيما وصَلَ إليه حالُهُم مِنَ الضَّياعِ والبوارِ.

وعلى كلا الوجهينِ فيه إخراجٌ للمعاني المَعقولَةِ في قالبِ الصّورِ المحسوسةِ؛ ليكونَ ذلك أعلقَ بالذِّهنِ، وأوضحَ في تصوُّرِ ضياعِهم في الآخرةِ.

نُكتةُ التَّعبيرِ بالاسمِ الموصولِ وصلتِه:

التَّكذيبُ بلقاءِ اللهِ تعالى مِن أعظمِ أسبابِ الخُسرانِ

قول اللّه ﷻ: ﴿قَدۡ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ﴾، وفيه أنّ التَّعبيرَ عن المُشركينَ بالاسمِ الموصولِ مع أنَّ المقامَ مَقامُ إضمارٍ؛ وذلك لقصدِ ذمِّهم بما في حيِّزِ الصِّلةِ، ولِلإشعارِ بعلّيَّتِه لِما أصابَهُم.

ومِنَ المعلوم أنَّ الاسمَ الموصولَ مِنَ الأسماءِ المُبهَمةِ، ولذا تأتي الصِّلةُ بَعدَه لإزالةِ هذا الإبهام، فكانَ في التَّعبير بالاسمِ الموصولِ زيادة تقرير للغرضِ المَسوقِ لَه الكَلامُ؛ وهو بيانُ حالِ هؤلاءِ المكذِّبينَ بلقاءِ اللّه، وما آلوا إليه مِن خُسرانٍ وبوارٍ.

بلاغةُ الكنايةِ في جملةِ: ﴿بِلِقَآءِ ٱللَّهِ﴾:

التَّخويفُ مِن موافاةِ اللهِ تعالى يومَ القيامةِ، بقلبٍ مُكَذِّبٍ كنودٍ

المرادُ بلقاءِ اللّه تعالى في قوله ﷻ: ﴿قَدۡ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ﴾ يومَ القيامَةِ؛ لأنَّه يومُ لقاءِ اللّه تعالى لِلحسابِ والجَزاءِ، ففي

(1) الرّاغب، المفردات: (خسر).

قوله: ﴿بِلِقَآءِ ٱللَّهِ﴾: كنايةٌ، ونُكتَةُ العدولِ عنِ التَّصريحِ بأنَّه يومُ القيامةِ إلى التَّعبيرِ بلقاءِ اللّه تعالى: ما في التَّعبيرِ الكنائيِّ مِنَ الرَّهبَةِ والجلالِ والتَّخويفِ؛ إذ هوَ اليومُ الّذي يَلقى العبدُ فيه مَن له جَميعُ صفاتِ الجلالِ والكمالِ، فكيفَ يكونُ حالُ العَبدِ إذا وافَى اللّه تعالى، وهو مُكَذِّبٌ بلقاءِ مَن هوَ قائمٌ بَينَ يديه للحسابِ؟!

دلالةُ الإضافةِ في المُركَّبِ الإضافيِّ ﴿بِلِقَآءِ ٱللَّهِ﴾:

شَناعَةُ اعتقادِ المُشرِكينَ في تكذيبِهِم بلقاءِ الله تعالى

إضافةُ اللِّقاءِ إلى الاسمِ الأحسنِ في قولِ اللّه سبحانَهُ: ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ﴾؛ تعظيمًا لهذا اللّقاءِ، وتنويهًا بشأنِه، ولازمُ ذلك بيانُ شناعَةِ هذا التَّكذيبِ الصّادرِ مِنَ المُشركينَ؛ إذ كذَّبوا بأعظَمِ لقاءٍ وبأعظَمِ مَن يُلقَى ﷻ.

دلالةُ (الواوِ) في: ﴿وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ﴾:

لا هِدايةَ لِمَن خَسِرَ دُنياه وأعمالَهُ، ولم يتبْ إلى الله

الواوُ في قولِ اللّه ﷻ: ﴿وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ﴾عاطفةٌ جملةً على جملةٍ؛ وذلك أنَّها عطفَت جملةَ نفي الاهتداءِ عن هؤلاءِ على جملةِ ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ﴾، فلمّا خَسِرَ هؤلاءِ دُنياهُم وأعمالَهُم؛ جاءَت هذه الجملةُ لِتنفيَ هدايتَهُم بالكلِّيَّةِ؛ إذ لا هِدايةَ لصاحبِ خُسرانٍ، ويمكنُ أن تكونَ واوًا للحالِ على معنى: قد خَسِروا، والحالُ أنّهُم ما كانوا مُهتَدينَ.

بلاغةُ التَّذييلِ: ﴿وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ﴾:

المُبالغةُ في نَفيِ الهِدايةِ عن المُشرِكينَ بعدَ إثباتِ الخُسرانِ لَهُم

قولُ اللّه تعالى: ﴿وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ﴾، لمّا وَقَعَ مِنَ المُشركينَ التَّكذيبُ بلقاءِ اللّه تعالى، وما فيه مِنَ الحسابِ والجزاءِ، وثبتَ لهم الخسرانُ؛ جاءَت هذه الجملةُ تذييلًا مُتمِّمًا لبيانِ حالِهِم، فقُدِّمَ النَّفيُ مبالغةً وتوكيدًا في نَفيِ هِدايتِهِم.

نُكتةُ التَّعبيرِ بالهِدايةِ مادَّةً وصيغةً:

قولُ اللّه تعالى: ﴿وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ﴾، الهِدايةُ: دَلالةٌ بلُطفٍ، وأمّا

قولُ اللّه تعالى: ﴿فَٱهۡدُوهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡجَحِيمِ ٢٣﴾ [الصافات: 23] فَخُرِّجَ ذلك على أنَّه قد استُعمِل فيه لفظُ الهِدايةِ على جهةِ التَّهكُّمِ؛ مُبالغةً في المعنى.

التَّكذيبُ بلقاءِ اللّه سبحانَه مِن أعظَمِ أسبابِ حَجبِ الهِدايةِ

وهدايةُ اللّه تعالى للإنسانِ الَّتي عمَّ بِجنسِها كُلَّ مُكلَّفٍ مِنَ العقلِ، والفِطنةِ، والمَعارفِ الضَّروريَّةِ، كلٌّ بحسبِه[1]. والمرادُ بنَفي الهِدايةِ في قولِ اللّه تعالى: ﴿وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ﴾: أنَّ اللّه تعالى مَنَعَ هؤلاء تَوفيقَه الَّذي خُصَّ به المُهتدونَ الَّذين تَبَصَّروا حقائقَ الأمورِ، فالتزَموا أوامرَها، واجتنَبوا مَناهيَها، كما ناسبَ التَّعبيرُ بالهِدايةِ المنفيَّةِ هنا حالَ الخاسِرينَ الَّذينَ كذَّبوا بلقاءِ اللّه، وأنكَروا حصولَهُ، فَحَرَمَهُمُ اللّه هذه الهِدايةَ.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

اللُّبثُ والمُكثُ:

اللُّبثُ مِن قولِهم: لَبِثَ بالمكانِ؛ إذا أقامَ به مُلازِمًا له. قال اللّه تعالى: ﴿فَلَبِثَ فِيهِمۡ أَلۡفَ سَنَةٍ﴾ [العنكبوت: 14][2]، وقد يُرادُ به القليلُ والكثيرُ؛ ففي اللُّبثِ إقامةٌ مع مُلازَمةٍ طالَت أم قَصُرت، ووَرَدَت في قولِ اللّه سبحانَهُ: ﴿وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ كَأَن لَّمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيۡنَهُمۡۚ﴾ مُرادًا بها قِصَرُ الإقامةِ وعدم إطالتِها.

اللُّبثُ إقامةٌ مع مُلازمةٍ طالَت أم قَصُرت، والمُكثُ دالٌّ على ثباتٍ مع انتظارٍ

وأمّا المكثُ فهو دالٌّ على ثباتٍ مع انتظارٍ، قال اللّه تعالى: ﴿فَمَكَثَ غَيۡرَ بَعِيدٖ﴾ [النّمل: 22][3]، وفي المُكثِ معنى اللُّبثِ، والمرادُ بقوله: ﴿إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ٧٧﴾ [الزّخرف: 77]: لابِثونَ في العَذابِ لا تَتخلَّصونَ عنه بموتٍ ولا فتورٍ[4].

(1) الرّاغب، المفردات: (هدى).
(2) الرّاغب، المفردات: (لبث).
(3) الرّاغب، المفردات: (مكث).
(4) النّسفيّ، مدارك التّأويل: 3/282.

﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ﴿٤٦﴾﴾ [يونس: 46]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

مُعايَنةُ هَلاكِ الأعداءِ في الدّنيا، وخسرانِهم في الآخرةِ، أقرُّ لِلعينِ، وأسَرُّ لِلنَّفسِ

لمّا أخبرَ اللّه ﷻ بخُسرانِ المُشركينَ المُكذِّبينَ بلقائِه في قولِه سُبحانَهُ: ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ﴾، وكانَ إخبارُ الصّادقِ بهلاكِ الأعداءِ ممّا تقرُّ به الأعينُ، وكانَ مشاهدَةُ هلاكِهم أقرَّ لَها؛ بيَّنَ سُبحانَه أنَّ إصابتَه هؤلاءِ الكفّارَ بما يُهلِكُهم، إمّا أن يكونَ في الدُّنيا، فيراه النَّبيُّ ﷺ بعينِه، وتقرُّ به نفسُهُ، وإمّا في الآخرةِ بعدَ مماتِه، فيرجِعونَ إلى اللّه سُبحانَهُ، ويُري نبيَّه ﷺ في الآخرةِ ما هوَ أقرُّ لعينِه وأسرُّ لقلبِه، فقال ﷻ: ﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾: أصلُ (وفى): كلمةٌ تدُلُّ على إكمالٍ وإتمام، مِنه الوَفاءُ: إتمامُ العَهدِ وإكمالُ الشَّرطِ. ووَفَى: أَوفَى، فهو وَفِيٌّ. ويقولونَ: أَوفَيتُكَ الشَّيءَ، إذا قَضَيتَه إيّاه وافيًا. وتَوَفَّيتُ الشَّيءَ واستَوفَيتُهُ؛ إذا أَخَذتَه كُلَّه حتَّى لم تَترُكْ منه شيئًا[2]. والوفاةُ: المَنيّةُ. وتوفّي فلانٌ. وتوفّاه اللّه، إذا قَبض نَفسه[3]، وتَوَفّي الميتِ استيفاء مُدَّتِه الَّتي وُفيتْ لَه وعَدَد أيامِه وشُهورِه وأعوامِه في الدُّنيا. وتَوَفَّيتُ المالَ مِنه واستوفَيته إذا أخذته كُلَّهُ[4]. والمقصودُ بالتَّوَفّي في الآيةِ: الإماتَةُ، سُمّيَت تَوفّيًا؛ لأنَّها تُنهي حياةَ المَرءِ أو تَستوفيها.

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/132.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (وفى).
(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (وفى).
(4) ابن منظور، لسان العرب: (وفي).

2) ﴿شَهِيدٌ﴾: أصلُ (شهد): يدُلُّ على حُضورٍ وعِلمٍ وإعلامٍ[1]، يُقالُ: شَهِدَ الشَّيءَ: إذا حَضَرَه وعايَنَهُ، وتُطلَقُ بمعنى الإخبارِ والإعلامِ، يُقالُ: شَهِدَ بالأمرِ: إذا أخبَرَ بِهِ، وأعلَمَ غَيرَه بِهِ[2]، فالشَّهادَةُ: إخبارٌ عن عِلمٍ يَحصُلُ عن طَريقِ الحُضورِ أو الرُّؤيَةِ ونحوِ ذلك، والشَّهيدُ: الشّاهِدُ، وهوَ المُؤَيِّدُ والمُصَدِّقُ لِدَعوَى مُدَّعٍ[3]، وهذا المرادُ في الآيةِ.

المَعْنى الإجْماليُّ:

كانَ المشركونَ يُكذِّبونَ النَّبيَّ ﷺ في توعُّدِه لَهُم بالعذابِ، وكانوا يَستعجلونَ نزولَه تكذيبًا له واستهزاءً بِهِ، ويَتمنّونَ موتَه لِتموتَ دعوتُهُ، فردَّ اللّه تعالى عليهم مُخاطِبًا رسولَه ﷺ: إنَّ هؤلاء المشركينَ الَّذين ناصبوكَ العداوةَ أيُّها الرّسولُ الكريمُ لا يخفى علينا أمرُهُم، ونحن إمّا نُرينَّكَ ببصرِكَ بعضَ الَّذي نَعِدُهُم به مِنَ العذابِ الدُّنيويِّ، وإمّا نَتوفَّينَّك، قبلَ ذلكَ، وفي كلتا الحالتين فإنَّ مَرجعَهُم إلينا وحدَنا في الآخرةِ، فنُعاقبهُم العُقوبةَ الَّتي يَستحقّونَها، ﴿وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرًاۗ وَلَا يَظۡلِمُ رَبُّكَ أَحَدٗا ﴿٤٩﴾﴾ [الكهف: 49][4].

عذابُ الكفّارِ مُضاعَفٌ في الدُّنيا والآخرةِ، يراه النّبيُّ الأكرمُ في حياتِه أو بعدَ المماتِ

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالةُ الواوِ في: ﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ﴾:

الواوُ في قولِ اللّه ﷻ: ﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعۡضَ ٱلَّذِي نَعِدُهُمۡ أَوۡ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ استئنافيَّةٌ، والجملةُ بعدَها مُستأنفةٌ[5]، والمرادُ بها بَيانٌ لإمكانِ استِبقائِهِم والإيماءُ إلى إمهالِهِم، وهي واردةٌ أيضًا "إنذارًا بأنَّهُم إنْ

إمهالُ الكفّارِ في الدُّنيا؛ لا يُصَيِّرُهُم مُفلِتينَ مِنَ العِقابِ في الآخرةِ

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (شهد).
(2) نشوان الحميريّ، شمس العلوم: (شهد).
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/152.
(4) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 7/79، والزّحيليّ، التّفسير المنير: 11/192.
(5) الدّعّاس، إعراب القرآن: 2/29.

أُمهِلوا فأُبقيَ عليهم في الدُّنيا؛ فإنَّهُم غيرُ مُفلِتينَ مِنَ المَصيرِ إلى عِقابِ الآخرةِ حينَ يَرجِعونَ إلى تَصَرُّفِ اللّه دونَ حائِلٍ"[1]، قال ابنُ عاشورٍ: "كانَ ذِكرُ تَكذيبِهِمُ الَّذي جاءَ في صَدرِ السّورَةِ بقوله: ﴿قَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٞ مُّبِينٌ ۝٢﴾ [يونس: 2]، ثُمَّ الوَعيدِ عليه بِعذابٍ يَحُلُّ بِهِم، والإشارةُ إلى أنَّهُم كذَّبوا بالوَعيدِ في قوله: ﴿۞وَلَوۡ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ﴾ إلى قوله: ﴿لِنَنظُرَ كَيۡفَ تَعۡمَلُونَ ۝١٤﴾ [يونس: 11 - 14] مُنذِرًا بِترقُّبِ عَذابٍ يَحُلُّ بِهِم في الدُّنيا كما حَلَّ بالقرونِ الَّذينَ مِن قَبلِهِم، وكانَ مَعلومًا مِن خُلُقِ النَّبيِّ ﷺ رَأفَتُه بالنّاسِ ورَغبَتُه أنْ يَتِمَّ هذا الدّينُ، وأنْ يَهتَديَ جَميعُ المَدعوِّينَ إليه، فرُبَّما كانَ النَّبيُّ يَحذَرُ أن يَنزِلَ بِهِم عَذابُ الاستئصالِ فَيَفوتَ اهتِداؤُهُم، وكانَ قوله: ﴿۞وَلَوۡ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسۡتِعۡجَالَهُم بِٱلۡخَيۡرِ لَقُضِيَ إِلَيۡهِمۡ أَجَلُهُمۡۖ فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ۝١١﴾ [يونس: 11] تَصريحًا بإمكانِ استِبقائِهِم، وإيماءً إلى إمهالِهِم"[2].

دلالَةُ ﴿وَإِمَّا﴾:

قَولُ اللّه ﷻ: ﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعۡضَ ٱلَّذِي نَعِدُهُمۡ﴾، وفيه الأداة ﴿وَإِمَّا﴾ في أصلِها (إنْ) الشَّرطيَّةُ، و (ما) صِلَةٌ يُرادُ بها التَّوكيد، والمقصودُ: تأكيدُ مَعنى الشَّرطِ، ولذا زيدَ الفعلُ تأكيدًا بنونِ التَّوكيدِ الثَّقيلةِ، وفي تأكيدِ الفعلِ إيماءٌ إلى أنَّ رؤيةَ إهلاكِ الأعداءِ ممّا تُسَرُّ النَّفسُ بها، ولذا يقَعُ الحمدُ في مُقابِلِها، كما قال اللّه سبحانَهُ: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْۚ وَٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٤٥﴾ [الأنعام: 45].

رُؤيةُ إهلاكِ الأعداءِ، ممّا تُسَرُّ النَّفسُ بها

بلاغةُ التَّعبيرِ بالجملةِ الشَّرطيَّةِ ﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ﴾:

قولُ اللّه ﷻ: ﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعۡضَ ٱلَّذِي نَعِدُهُمۡ﴾ في التَّعبيرِ بجملةِ الشَّرطِ، في طَمأنَةِ النَّبيِّ ﷺ؛ والمعنى: إنْ أريناكَ يا نبيَّنا عذابَهُم

مِن إكرامِ اللّه سُبحانَه لِنبيِّه ﷺ، طَمأنَتُه وإيناسُهُ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/183.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/183.

في الدُّنيا لتُقِرَّ عينَك مِنهُم فذاكَ، وإنْ توفَّيناكَ قبلَ ذَلِكَ فمرجِعُهُم إلينا في الآخرةِ، ولا بُدَّ مِنَ الجزاءِ عاجلًا أم آجلًا، وهذا مِن بابِ الإيناسِ وإلقاءِ الطّمَأنينةِ في نفسِه ﷺ.

نُكتةُ تعليقِ الشَّرطِ بِـ(إنْ) دونَ (إذا) في السّياقِ:

دِقَّةُ البيانِ القرآنيِّ في اختيارِ أداةِ الشَّرطِ المُلائِمةِ لِلمقامِ

قولُ اللّه تعالى: ﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعۡضَ ٱلَّذِي نَعِدُهُمۡ﴾، وفيه حرفُ الشَّرطِ (إنْ)، مُستعمَلٌ في الأصلِ لِما لا يُقطَعُ بوقوعِه، بل يُشكُّ في ذلك، بخلافِ (إذا)، فإنَّها في الأصلِ لِما يُجزَمُ بوقوعِه، وفي التَّعبيرِ بـ (إنْ) في قولِ اللّه ﷻ: ﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعۡضَ ٱلَّذِي نَعِدُهُمۡ﴾؛ لأنَّ الشَّرطَ لمّا كانَ لَه حالانِ؛ لَم يُقطَعْ بوقوعِ أحدِهما؛ فاستُعمِلَت (إنْ) لكونِها أنسبَ لِلمقامِ، ويمكنُ أن تكونَ (إن) هنا خرجَت عن مُقتضَى الظّاهرِ دونَ مُقتضَى الحالِ، فالمحلُّ لـ(إذا)، وجاءَ بحرفِ التّشكيكِ؛ لِيُبيِّنَ أنّ كفرَهُم حريٌّ به ألّا يكونَ، وألّا يصلَ إلى هذه المَواصلِ.

نُكتةُ التَّعبيرِ بفعلِ الرُّؤيةِ مادَّةً وصيغةً:

إراءةُ اللّه تعالى نبيَّه الأكرمَ أنواعًا مِن خزيِ الكافرينَ في الدُّنيا

الرُّؤيةُ في قولِ اللّه ﷻ: ﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعۡضَ ٱلَّذِي نَعِدُهُمۡ﴾ بصريَّةٌ، "وهذا يدُلُّ على أنَّ اللّه تعالى يُري رسولَه أنواعًا مِن ذُلِّ الكافرين وخِزيهم في الدُّنيا، وسيَزيدُ عليه بعدَ وفاتِه"[1]، والرُّؤيةُ هي إدراكُ المَرئيِّ، وقد رأى النَّبيُّ ﷺ ما وَقَعَ بالكثيرِ مِن أهلِ مكَّةَ، كما وَقَعَ في يومِ بدرٍ وغيرِه، والرُّؤيةُ أقوى مِنَ النَّظرِ؛ لكونِ النَّظرِ تقليبَ العَينِ نحوَ مكانِ المَرئيِّ طلبًا للرُّؤيةِ، بخلافِ الرُّؤيةِ؛ فهي إدراكُ المَرئيِّ[2].

المُرادُ بكافِ الخطابِ في: ﴿نُرِيَنَّكَ﴾ و﴿نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾:

تَعذيبُ اللّه ﷻ للكُفّارِ في الدُّنيا مُتَعَدِّدَةٌ صوَرُه وأفرادُه

كافُ الخطابِ في قولِ اللّه ﷻ: ﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعۡضَ ٱلَّذِي نَعِدُهُمۡ أَوۡ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾، يُرادُ بها النَّبيُّ ﷺ؛ وذلك لأنَّه هو المقصودُ بفعلِ الإراءةِ والتَّوفِّي - ﴿نُرِيَنَّكَ﴾ و﴿نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ - ، وقد أراه اللّه تعالى أنواعًا مِن

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 9/110.
(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 76.

عَذابِ الكُفّارِ في الحياةِ الدُّنيا؛ قَتلًا وأسرًا، وأخذًا للأموالِ، وسَبيًا للنّساءِ والذَّراريِّ[1].

نُكتةُ الإسنادِ في: ﴿نُرِيَنَّكَ﴾، و﴿نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾:

عَظَمَةُ اللهِ ﷻ وقُدرَتُهُ، لا مُنتَهى لِكمالِهِما

قولُ اللّه تعالى: ﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾، وفيه أُسنِدَ فعلُ الرُّؤيةِ والتَّوفّي إلى ضميرِ العظمَةِ الدّالِّ على اللّه سُبحانَه في قوله: ﴿نُرِيَنَّكَ﴾؛ أي: نَحنُ، ومثلهُ: ﴿نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾، وإنَّما يُقَدَّرُ الفاعِلُ: نَحنُ؛ لكونِ الفعلِ مَبدوءًا بالنّونِ، فلا يحسنُ تقديرُ ضميرٍ غير (نَحنُ)، وفي إسنادِ الفعلَينِ المذكورَينِ إلى ضميرِ العظمَةِ إيماءٌ إلى أنَّه لا يَقدِرُ على أنْ يُريَه أو يَتوفّاه إلّا اللّه تعالى، وأنَّه ﷺ لا يملِكُ مِن أمرِه شيئًا، وأنَّ اللّه ﷻ هوَ المُتَصَرِّفُ وحدَه في هذا الكونِ حسبَ إرادَتِهِ، وفيه إيماءٌ إلى أنَّ عظمَةَ اللّه سبحانَه وقُدرَتَه لا مُنتَهى لكمالِهِما.

نُكتةُ التوكيدِ في: ﴿نُرِيَنَّكَ﴾ و﴿نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾:

المُبالغةُ في بَيانِ عَظيمِ قُدرَةِ اللهِ سُبحانَهُ، مِنَ البيانِ المُفصِحِ عنِ المُرادِ

الفعلُ ﴿نُرِيَنَّكَ﴾ مِن قولِ اللّه ﷻ: ﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ واقعٌ شرطًا لـ(إن) المؤكَّدَةِ بـ(ما)، وفي هذه الحالِ يكونُ توكيدُ المضارعِ قريبًا مِنَ الواجبِ[2]، والقولُ في ﴿نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ كذلك؛ لكونِه معطوفًا عليهِ، وتأكيدُهَما بنونِ التَّوكيدِ الثَّقيلةِ زادَ المَعنى قوَّةً؛ إذ فيه مبالغةٌ في بيانِ عظيمِ قدرةِ اللّه سبحانَهُ.

بيانُ مَفعولَي الرُّؤيَةِ، ونُكتةُ تَرتيبِهِما:

بيانُ شَرَفِ النَّبيِّ ﷺ، ورِفعَةِ درجتِهِ في خطابِهِ

الكافُ في ﴿نُرِيَنَّكَ﴾ مِن قولِ اللّه ﷻ: ﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ مفعولٌ به أوَّلُ، و﴿بَعْضَ﴾ مَفعولٌ به ثانٍ؛ لأنَّ فِعلَ الإراءةِ يتعدَّى إلى اثنينِ؛ لكونِ الإراءةِ بصريَّةً، فدخولُ الهمزةِ تُصيِّرُه مُعَدًّى إلى اثنين. وتَقديمُ كافِ الخطابِ المرادِ بها النَّبيُّ

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/164.
(2) الحملاويّ، شذا العرف، ص: 44.

ﷺ؛ لكونِه فاعِلًا في المعنى، والأصلُ في مَفعولَي الفعلِ تقديمُ ما كانَ فاعِلًا في المعنى، وفي تقديمِه ههنا مَعنًى آخرُ؛ وهو كونُه المخصوصَ بالخطابِ، فقُدِّمَ اهتمامًا بِهِ، وعنايةً بخطابِهِ، زيادةً في تشريفِه وبيانِ رفعةِ درجتِهِ.

بلاغةُ الكنايةِ في التَّعبيرِ عَن تعجيلِ العذابِ بالرُّؤيةِ:

عُبِّرَ عن تعجيلِ العذابِ بإراءَةِ اللّه تعالى رسولَه ﷺ ذلك، فقال ﷻ: ﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾؛ للإيماءِ إلى أنَّ المرادَ بحالِ تعجيلِ العذابِ هو الانتصافُ للنَّبيِّ ﷺ، بأن يُريَه اللّه تعالى عذابَ مُخالِفيه ومُعانِديه، ولهذا رُتِّبَ على ضدِّ ذلك ضدُّ التَّعجيلِ، فَكُنِّيَ عَن عدمِ تعجيلِ العذابِ بالتَّوَفّي، فيُؤَخَّرُ العذابُ لحكمةٍ يعلمُها اللّه سبحانَهُ[1].

تعجيلُ عذابِ الكُفّارِ في الدُّنيا، يُرادُ بِه الانتصافُ للنَّبيِّ ﷺ

دلالةُ التَّعبيرِ بالفعلِ المضارعِ ﴿نَعِدُهُمْ﴾:

قولُ اللّه سُبحانَهُ: ﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ﴾؛ أي: بعضًا مِنَ العَذابِ، وذلك بأنْ نُعَذِّبَهُم في حَياتِك، فتعاينُ ذلكَ، وفي العدولِ عن صيغةِ الماضي إلى صيغةِ المضارعِ، فلم يَرِدِ النَّظمُ القرآنيُّ: (بعضَ الّذي وعدْناهُم)؛ لاستحضارِ الصّورةِ، أو للإشعارِ بالتَّجدُّدِ والاستمرارِ؛ أي: "نعِدُهُم وعدًا مُتَجدِّدًا حسبَما تَقتضيه الحِكمةُ مِن إنذارٍ بعد إنذارٍ، وفي تخصيصِ البَعضِ بالذِّكرِ رَمزٌ إلى العِدَةِ بإراءةِ بَعضِ المَوعودِ، وقَد أراه يومَ بدرٍ"[2].

تَجَدُّدُ الوعيدِ والإنذارِ، حَسَبَما تَقتضيه حِكمَةُ الواحدِ القهّارِ

فائدةُ التَّعبيرِ بالاسمِ الموصولِ، وصِلَتِه:

في التَّعبيرِ بالموصولِ وصِلَتِه ﴿ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ﴾ في قولِه ﷻ: ﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ﴾ دونَ أن يَرِدَ النَّظمُ القرآنيُّ: (وإمّا نريَنَّكَ تعذيبَهُم)؛ إشعارٌ بأنَّ ما وعدَ اللّه تعالى به لا بدَّ

ما وَعَدَ اللّه سُبحانَه بِهِ؛ فإنَّه كائنٌ لا مَحالَةَ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/184.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/150.

أن يَتحقَّقَ ويكونَ، بخلافِ ما لو عُبِّرَ بالعذابِ؛ فإنَّه لا يُعطي هذا المعنى. وفي التَّعبيرِ بالموصولِ أيضًا: زيادَةُ الغَرضِ المَسوقِ لَه الكَلامُ، والمعنى: كَيفَما دارَتِ الحالُ أرَيناكَ بعضَ ما وعَدناهُم أوَّلًا، وهُم قَد وُعِدوا بعذابَي الدُّنيا والآخرةِ، والمُرادُ: إنْ وَقَعَ عذابُ الدُّنيا بهِم، فعايَنتَهُ، ورأيتَه بنفسِكَ، أو لَم يَقَعْ، وتَوفّاكَ اللّه تعالى، فسيكونُ مصيرُهُم إلينا لا مَحالةَ، وفي ذلك إيماءٌ إلى تنفيذِ مَوعودِ اللّه فيهِم وبِهِم.

دلالةُ ﴿أَوْ﴾:

أثرُ تَعَدُّدِ معاني الحُروفِ في إثراءِ المَعاني القُرآنيَّةِ

قَولُ اللّه ﷻ: ﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾، وفيه ﴿أَوْ﴾ عاطِفَةٌ لجملةِ ﴿نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ على سابِقَتِها ﴿نُرِيَنَّكَ﴾ لِتشريكِها معها في حكمٍ إعرابيٍّ واحدٍ، و﴿أَوْ﴾ تدُلُّ في الأصلِ على التَّخييرِ أو الإباحةِ في الطَّلبِ، والشَّكِّ أو التَّشكيكِ أو الإبهامِ في الخبَرِ، وهي هُنا واردَةٌ في جملةِ الخبرِ، والمرادُ بها الإبهامُ، وإلّا فإنَّ اللّه سُبحانَه عالِمٌ بمَن يُرِي نبيَّه ﷺ تعذيبَهُم في الدُّنيا، ومَنْ يُريهم ذلكَ في الآخرةِ. وجائزٌ أن تكونَ ﴿أَوْ﴾ للتَّقسيمِ، وأنَّ أعداءَ النَّبيِّ ﷺ مُعذَّبونَ لا مَحالةَ، وسيرى تعذيبَ اللّه تعالى إيّاهُم، إمّا في الدُّنيا، وإمّا في الآخرةِ.

دلالةُ الفاءِ في ﴿فَإِلَيْنَا﴾:

تعذيبُ الكُفّارِ في الآخِرَةِ مُقَرَّرٌ وثابتٌ، سواءٌ عُذِّبوا في الدُّنيا أو لم يُعذَّبوا

الفاءُ في ﴿فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾ مِن قولِ اللّه ﷻ: ﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾ رابطةٌ لهذه الجملةِ بما تقدَّمَها، وفي الكلامِ حذفٌ، والتَّقدير: فإلَينا مَرجِعُهُم فَنُريكَ بعضَ ما نعِدُهُم في الآخرةِ، وقوله: ﴿فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾ جوابٌ للشَّرطِ وما عُطِفَ عليه؛ والمعنى: إنَّ عذابَهُم في الآخرةِ مُقرَّرٌ وثابتٌ، سواءٌ عُذِّبوا في الدُّنيا أم لا. ويحتَمِلُ أن يكونَ قوله: ﴿فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾ جوابًا لـ ﴿نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾، كأنَّه قيلَ: إمّا نَتَوَفَّيَنَّك فإلَينا مَرجِعُهُم فَنُريكَه

في الآخرةِ، وأمّا جوابُ ﴿نُرِيَنَّكَ﴾ فمحذوفٌ، والتَّقديرُ: فإمّا نُرِيَنَّكَ فَذاكَ المرادُ أو المُتَمَنّى أو نحوُ ذلكَ[1].

نُكتةُ تقديمِ الجارِّ والمجرورِ ﴿فَإِلَيْنَا﴾:

قُدِّمَ الجارُّ والمجرورُ ﴿فَإِلَيْنَا﴾ في قولِ اللّه ﷻ: ﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾؛ لإفادةِ القَصرِ والتَّخصيصِ والاهتمامِ بالمُقدَّمِ؛ أي: إلينا لا لغيرِنا، فالمَرجِعُ إلى اللّه تعالى لا إلى غيرِهِ، وفي هذا مِنَ التَّهديدِ لِلكُفّارِ ما لا يَخفَى، ولا سيَّما وقد عُبِّرَ بضميرِ العظَمَةِ (نا) المُشعِرِ بعظمةِ هذا الرُّجوعِ وعظمةِ المَرجوعِ إليهِ.

تهديدُ الكُفّارِ وتَخويفُهُم مِن أهوالِ يومِ القيامةِ مِن مَقاصِدِ آيِ القرآنِ

دلالةُ التَّعبيرِ بـ﴿مَرْجِعُهُمْ﴾:

أصلُ الرُّجوعِ: هو العودُ إلى ما كانَ منه البدءُ، أو هو تقديرُ البدءِ فِعلًا كان أو قولًا أو مكانًا، وسواءٌ أكانَ الرُّجوعُ بذاتِه أو بجزءٍ مِن أجزائِه أو بفعلٍ مِن أفعالِه، "فالرُّجوعُ: العودُ، والرَّجعُ: الإعادَةُ"[2].

والمُرادُ بالرُّجوعِ في قولِ اللّه ﷻ: ﴿فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾: الوعيدُ بالعَودِ إلى اللّه تعالى يومَ القيامةِ للحسابِ، وفي التَّعبيرِ بالرُّجوعِ إيماءٌ إلى أنَّه لا مَفَرَّ لَهُم مِنَ العَودِ إليه ﷻ، وكأنَّهم قَضَوا ما قَضَوا في الدُّنيا ثُمَّ يكونُ مصيرُهم إلى عذابِهم في الآخرةِ، وأنَّ هذا العذابَ مُقرَّرٌ لَهُم في الآخرةِ، وهذا الرُّجوعُ أبلغُ في الاستِعمالِ مِنَ العَودِ؛ إذ هو كنايَةٌ عن المَصيرِ الَّذي يَنتَظِرُهُم، إلى جانِبِ ما فيه مِنَ الإيناسِ له ﷺ.

تهديدُ المُعانِدينَ المُخالِفينَ لِلشَّرعِ بالرُّجوعِ إلى اللّه تعالى يومَ القيامةِ

المَوقِعُ النَّحويُّ لِـ: ﴿فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾:

قولُ اللّه ﷻ: ﴿فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾ جوابٌ لِلشَّرطِ في الجملتينِ السّابِقتَينِ، والمعنى: "إنَّ عَذابَهُم في الآخرةِ مُقَرَّرٌ، عُذِّبوا في الدُّنيا

أثرُ التَّوجيهِ النَّحويِّ في إثراءِ المعاني وتكثيرِها مُفيدٌ غايةَ الإفادةِ

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 11/129.
(2) الرّاغب، المفردات: (رجع).

أم لا، وقيلَ: هو جَوابُ ﴿نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾كأنَّه قيلَ: إمّا نتَوَفَّيَنَّكَ فإلينا مَرجِعُهُم فَنُريكَه في الآخِرَةِ، والجَوابُ محذوفٌ؛ أي: إمّا نُرِيَنَّك فَذاكَ المُرادُ أو المُتمنَّى فذاكَ حقٌّ وصوابٌ أو واقِعٌ أو ثابتٌ"[1].

دلالةُ مجيءِ جوابٍ واحدٍ لِفعلَي الشَّرطِ:

في قولِ اللّه تعالى: ﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾، وردَ فعلا شرطٍ؛ وهما ﴿نُرِيَنَّكَ﴾ و﴿نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾، ونُصَّ على جوابٍ واحدٍ وهو ﴿فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾، قال ابنُ عاشورٍ: "لمّا جُعِلَ جَوابُ الشَّرطَينِ إرجاعَهُم إلى اللّه المُكنَّى به عن العقابِ الآجِلِ؛ تَعَيَّنَ أنَّ التَّقسيمَ الواقِعَ في الشَّرطِ تَرديدٌ بَينَ حالَتَينِ لَهُما مُناسَبَةٌ بحالةِ تَحَقُّقِ الإرجاعِ إلى عذابِ اللّه على كلا التَّقديرَينِ، وهُما حالةُ التَّعجيلِ لَهُم بالعذابِ في الدُّنيا، وحالةُ تأخيرِ العذابِ إلى الآخرة. وأمّا إراءةُ الرَّسولِ تَعذيبَهُم وتوفِّيه بدونِ إراءَتِهِ؛ فلا مُناسبةَ لَهُما بالإرجاعِ إلى اللّه على كِلتَيهِما، إلّا باعتبارِ مُقارَنةِ إحداهُما لِحالةِ التَّعجيلِ ومُناسبةِ الأُخرى لِحالةِ التَّأخيرِ"[2].

رُجوعُ المُشرِكينَ إلى اللّه تعالى، هو رُجوعُ إهانةٍ وتعذيبٍ

براعةُ الكنايةِ عن العذابِ في: ﴿فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾:

في قولِ اللّه ﷻ: ﴿فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾ كنايةٌ عنِ العذابِ الأخرَويِّ، ووردَ هذا التَّعبيرُ هُنا بَيانًا وتَحذيرًا لَهُم بأنَّ مَصيرَهُم إليه سُبحانَهُ، فإنَّهُم وإنْ كانَ اللّه قد أمهَلَهُم في الدُّنيا إلّا أنَّهُم لَن يُفلِتوا مِن عَذابِه سُبحانَه، وهذه الكنايةُ تَنخَلِعُ مِنها القُلوبُ العاصيَةُ حينَ تَتَخَيَّلُ أنَّ أمرَها مَوكولٌ إلى اللّه العزيزِ الجَبّارِ، وأنَّهُم ما تُرِكوا في الدُّنيا إلّا لعذابٍ أعظمَ وانتقامٍ أشدَّ.

عذابُ الآخرةِ أعظمُ مِن عذابِ الدُّنيا، وأكثرُ هولًا وألمًا

دلالةُ ﴿ثُمَّ﴾:

﴿ثُمَّ﴾ في قولِ اللّه ﷻ: ﴿ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ﴾ حرفُ

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 11/129.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/184.

عطفٍ لتَرتيبِ الأخبارِ لا لِترتيبِ القصَصِ في أنفُسِها[1]. قال الزَّمخشريُّ: "فإنْ قُلتَ: اللّه شهيدٌ على ما يَفعلونَ في الدّارَين، فَما معنى ثُمَّ؟ قُلتُ: ذُكِرَتِ الشّهادَةُ، والمُرادُ مُقتَضاها ونَتيجَتُها؛ وهوَ العِقابُ، كأنَّه قال: ثُمَّ اللّه مُعاقِبٌ على ما يَفعَلونَ. وقَرَأَ ابنُ أبي عَبلَةَ: (ثَمَّ) بالفتح؛ أي: هُنالِكَ. ويجوزُ أنْ يُرادَ: أنَّ اللّه مُؤدٍّ شهادَتَه على أفعالِهِم يومَ القيامةِ، حينَ يُنطِقُ جُلودَهُم وألسنتَهم وأيديَهُم وأرجُلَهُم شاهِدَةً عليهِم"[2]. والأظهَرُ أنَّ شهادَةَ اللّه سُبحانَه عليهم - الواردةَ في الآيةِ - هيَ على جهةِ الحقيقةِ، وأمّا شهادَةُ الجلودِ ونحوها فهيَ ضربٌ آخَر مِنَ الشَّهادةِ في الآخرةِ.

شهادَةُ اللّه سُبحانَه على أفعالِ أهلِ الشِّركِ، تقتضي عِقابَهُم عليها

بلاغةُ الإظهارِ في مَوضِعِ الإضمارِ:

في قولِ اللّه ﷻ: ﴿ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفۡعَلُونَ﴾ إظهارٌ في مَوضِعِ الإضمارِ؛ وذلك لأنَّ مُقتضَى الظّاهرِ أنْ يَرِدَ النَّظمُ القرآنيُّ: (ثُمَّ أنا شهيدٌ) أو على أسلوبِ التَّعظيمِ (ثُمَّ نحنُ شهداءُ على ما يَفعلون)؛ لِيتوافقَ مع قولِه قبلُ: ﴿فَإِلَيۡنَا مَرۡجِعُهُمۡ﴾، وعُدِلَ عنِ الإضمارِ إلى الإظهارِ؛ لإدخالِ الرَّوعِ، وتَربيةِ المَهابَةِ في نُفوسِهم، وتأكيدِ التَّهديدِ بالوعيدِ الّذي تَوَعَّدَهُم به ﷻ.

إدخالُ المَهابةِ في النُّفوسِ، لعَلَّها تَرعَوي عَن باطِلِها

دلالةُ تقديمِ المُسنَد إليه في: ﴿ٱللَّهُ شَهِيدٌ﴾:

بَعدَ أن أخبرَ ﷻ أنَّ مَرجِعَ هؤلاءِ إليه ﷻ؛ تَشَوَّقَتْ نفسُ السّامِعِ: فماذا يكونُ مِنه سُبحانَهُ؟ فَجاءَ التَّعبيرُ بتقديمِ الاسمِ الأعظَمِ، فقال سُبحانَهُ: ﴿ٱللَّهُ شَهِيدٌ﴾، وهذه الجُملَةُ خَبَرٌ مُستَعمَلٌ في معناه الكِنائيِّ، إذ هو كِنايَةٌ عن الوعيدِ بالجزاءِ على جميعِ ما فعلوه في الدُّنيا بِحيثُ لا يُغادِرُ شيئًا[3].

تَوَعُّدُ اللّه سُبحانَه الكافِرينَ بمُجازاتِهم على جميعِ أفعالِهِم

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 4/256.
(2) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 4/256، والعكبريّ، إملاء ما منّ به الرّحمن: 2/29.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/186.

بَراعةُ التَّعبيرِ بوصفِ ﴿شَهِيدٌ﴾:

إحاطةُ عِلمِ الله تعالى بأفعالِ الخلائِقِ، دليلُ كمالِه وعظمتِه

المُرادُ بالشّهادةِ في قولِ الله ﷻ: ﴿ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفۡعَلُونَ﴾ إمّا مُقتَضاها ونتيجتُها؛ وهي مُعاقَبَتُه تعالى إيّاهُم، وإمّا إقامَتُها وأداؤُها بإنطاقِ الجوارِحِ، والأوَّلُ أظهَرُ مع الإبقاءِ على المعنى الأصليِّ مِن كونِه سُبحانَه شهيدًا عليهم على وجه الحقيقةِ، ثُمَّ يُضافُ إليه مُقتضَى تلك الشَّهادةِ على سبيلِ التَّبَعِ.

و﴿شَهِيدٌ﴾ اسمُ مفعولٍ، بمَعنى فاعِلٍ؛ أي: شاهِد "وحقيقتُهُ: المُخبِرُ عَن أمرٍ فيه تَصديقٌ لِلمُخبِرِ، واستُعمِلَ هنا في العالِمِ عِلمَ تحقيقٍ"[1].

نُكتةُ تنكيرِ ﴿شَهِيدٌ﴾:

بيانُ عِظَمِ أوصافِ الله ﷻ وجَلالَتِها

نُكِّرَ لفظُ ﴿شَهِيدٌ﴾ مِن قَولِ الله سبحانَهُ: ﴿ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفۡعَلُونَ ۝٤٦﴾؛ لإرادَةِ تعظيمِ الوصفِ الّذي تضمَّنه هذا الاسمُ الجليلُ، ولقصدِ المُبالَغَةِ في الشَّهادةِ، وتَعميمِ الأمرِ فيها عليهم مِن كُلِّ جانِبٍ، بالإضافةِ إلى ما في التَّنكيرِ مِنَ التَّعظيمِ والتَّشريفِ لهذه الشّهادةِ، وذلكَ حينَ تَصدُرُ مِنَ الله تعالى.

دلالةُ ﴿مَا﴾:

شَناعَةُ كُفرِ المُشرِكينَ وتكذيبِهم، وإحاطَةُ عِلمِ الله تعالى بجميعِ أفعالِهم

﴿مَا﴾ في قولِ الله ﷻ: ﴿ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفۡعَلُونَ﴾ اسمُ موصولٍ بمعنى الَّذي، وجُملَةُ ﴿يَفۡعَلُونَ﴾ صِلَتُهُ، والعائِدُ مَحذوفٌ، والتَّقديرُ: الَّذي يَفعَلونَهُ. وفي التَّعبيرِ بالاسمِ المَوصولِ عدولٌ عن التَّصريحِ بأفعالِهم إلى الإبهامِ الّذي يقتضيه الاسمُ الموصولُ؛ وذلكَ لِشناعةِ تلك الأفعالِ مِن كُفرِهم بالله سبحانَهُ، وتكذيبِهم رسولَه ﷺ، ونحوِ ذلك، وفي الاسمِ الموصولِ إشارةٌ إلى سعةِ عِلمِ الله تعالى؛ حيثُ إنَّه ﷻ شهيدٌ على جميعِ أعمالِهم؛ وذلك لأنَّ الاسمَ الموصولَ يدُلُّ على العمومِ، ويمكنُ أن تكونَ ﴿مَا﴾ مصدريّةً على معنى: شهيدٌ على فعلِهم.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/186.

نُكتةُ التَّعبيرِ بلفظِ ﴿يَفۡعَلُونَ﴾:

تَنزيلُ المُشرِكينَ مَنزِلَةَ البَهائِمِ في عدمِ تَمييزِهِمُ النّافِعَ مِنَ الضّارِّ

الفِعلُ لفظٌ عامٌّ، سواءٌ أكانَ بإجادةٍ أم بغيرِ إجادةٍ، أو كانَ بعلمٍ أم بغيرِ علمٍ، وقصدٍ أم غيرِ قصدٍ، ويكونُ مِنَ الإنسانِ والحيوانِ وغيرِهما. وأمّا العملُ فهوَ كُلُّ فِعلٍ يكونُ بقصدٍ؛ فَهوَ بهذا الاعتبارِ أخصُّ مِنَ الفعلِ؛ وذلكَ لأنَّ الفعلَ قد يُنسَبُ إلى الحيواناتِ الَّتي يقعُ منها فِعلٌ بغيرِ قَصدٍ، وقَد يُنسَبُ إلى الجماداتِ، بخلافِ العملِ؛ فقلَّما يُنسَبُ إلى ذلكَ، ولَم يُستعمل العملُ في الحيواناتِ إلّا في قولهم: البَقَرُ العَوامِلُ، والعملُ يُستعمَلُ في الأعمالِ الصّالحةِ والسَّيِّئَةِ.

وجاءَ التَّعبيرُ بالفعلِ دونَ العملِ في قولِ اللّه ﷻ: ﴿ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفۡعَلُونَ﴾؛ لأنَّه لَمّا كانَ هؤلاءِ قَدِ ارتَكَبوا الأعمالَ السَّيِّئَةَ والأفعالَ القَبيحَةَ؛ نُزِّلوا مَنزِلَةَ البهائمِ؛ لِعدمِ تمييزِهِم بينَ الصّالحِ والطّالحِ، والنّافعِ والضّارِّ، فَعبَّرَ عَمّا ارتَكَبوه بلفظِ الفعلِ دونَ العملِ.

سرُّ التَّعبيرِ بالفعلِ المضارعِ ﴿يَفۡعَلُونَ﴾:

فَظاعَةُ أفعالِ المُشرِكينَ الإجراميّةِ، وشهادةُ اللهِ عليها

الفعلُ المضارعُ ﴿يَفۡعَلُونَ﴾ مِن قولِ اللّه ﷻ: ﴿ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفۡعَلُونَ﴾ دالٌّ على التَّجدُّدِ والحدوثِ واستِحضارِ صورةِ ما يَفعَلُه هؤلاءِ لِفظاعَتِه وشناعَتِه، وأنَّه واقِعٌ مُتجدِّدٌ منهُم لا يَنقَطِعُ. كما أفادَ التَّعبيرُ بهذا الفعلِ أنَّ اللّه تعالى عليمٌ بما ارتكبوهُ، وما يحدثُ مِن أفعالِهم المنكرةِ وجرائِمِهِمُ القبيحةِ.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الوَفاةُ والمَوتُ:

التَّوفّي أعمُّ والموتُ أخصُّ، وكلاهما بمعنى انتهاءِ الحياةِ بخروجِ الرّوحِ مِنَ الجسدِ

التَّوفّي في الإنسانِ وغيرِه: قَبضُ النَّفسِ عن البَدنِ، بقطعِ تعلُّقِ التَّصرُّفِ فيها عنها، والموتُ إماتَةُ الأبدانِ وسلبُ صحّةِ أجزائِها بالكلّيَّةِ، فلا تبقى حيَّةً حسّاسةً درّاكةً كأنَّ ذاتَها قد سُلِبتْ، والتَّوفّي يكونُ مع النَّومِ وغَيرِه، وفي حالةِ النَّومِ لا يتمُّ فيها إلّا سلبُ الصِّحةِ،

وما يترتَّبُ عليها مِنَ الحركاتِ الاختياريَّةِ وغيرِها، فلا يُميِّزُ ولا يَتصرَّفُ إلّا بعدَ قيامِهِ، وفي الموتِ يُسلَبُ الإنسانُ جميعَ قواه وقدراتِهِ، فالتَّوفّي أعمُّ والموتُ أخصُّ، ومِن هُنا جاءَ التَّعبيرُ في القرآنِ عنِ الموتِ والنَّوم بالتَّوفّي، قال اللّه تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلۡأَنفُسَ حِينَ مَوۡتِهَا وَٱلَّتِي لَمۡ تَمُتۡ فِي مَنَامِهَاۖ فَيُمۡسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيۡهَا ٱلۡمَوۡتَ وَيُرۡسِلُ ٱلۡأُخۡرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّىۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ٤٢﴾ [الزّمر: 42]، وفي الموتِ تزولُ القوّةُ الحيوانيَّةُ المستقرَّةُ في الإنسانِ وغيرِه، مع قطعِ الرَّوحِ وإبانتِها عنِ الجسدِ تمامًا، بعَكسِ التَّوفّي.

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [يونس: 47]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

بيانُ أنّ سُنَّةَ اللهِ ماضيَةٌ بإرسالِ الرّسلِ، والتَّعهُّدِ بإنجاءِ أهلِ الإيمانِ، وإهلاكِ أهلِ الكُفرانِ

لَمّا بَيَّنَ اللهُ سبحانَه حالَ محمَّدٍ ﷺ مع قومِه، وأنَّ المُكذِّبَ المعانِدَ مِنهُم سَيَنالُه عذابُ الآخرةِ قطعًا، وهو العذابُ المؤجَّلُ، وقد يُضافُ إلى ذلكَ تعجيلُ العذابِ لَهُم في الدُّنيا، فقال ﷻ: ﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ﴾، بيَّنَ أنَّ حالَ كلِّ الأنبياءِ مع أقوامِهم كذلكَ؛ فقال سبحانَهُ: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾، فأوضحَ ﷻ أنَّه إذا بعثَ رسولًا إلى أمَّةٍ، فصدَّقَه بعضُهُم وكذَّبَه آخرون؛ فإنَّه تعالى يقضي بينَهُم بالقِسطِ بنجاةِ أهلِ الإيمانِ، وإهلاكِ أهلِ الكُفرِ والتَّكذيبِ[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿قُضِيَ﴾: أصلُ (قضي) يدُلُّ على إحكامِ أمرٍ وإتقانِه وإنفاذِه لِجهتِه، قال اللهُ تعالى: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ﴾ [فصّلت: 12]؛ أي: أَحكَمَ خَلقَهُنَّ[2]، والقَضاءُ: الحُكمُ والفَصلُ، يُقالُ: قَضَى في الأمرِ؛ أي: حَكَمَ وفَصَلَ فيه، والقَضاء: الأَمر. قال اللهُ تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ﴾ [الإسراء: 23]؛ أي: أَمرَ رَبُّكَ[3]، ويأتي بِمعنى الأداء، تقول: قَضَى دَينَهُ؛ أي: أدّاهُ، والقضاءُ: الإنهاءُ والإتمامُ، يُقالُ: قَضَيتُ عَمَلي؛ أي: أنهَيتُه وأتمَمتُهُ، وسُمِّيَ القاضي قاضيًا؛

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/261.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (قضي).
(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (قضي).

لأنّه يَحكُمُ في الأشياءِ، ويُنهي الخِلافَ فيها[1]، والانقِضاءُ: فَناءُ الشَّيءِ وذَهابُهُ، وكذلك التَّقَضّي[2]، ومِن مَعانيه أيضًا: الإيجابُ والإنفاذُ والإتقانُ. وجَمعُ قضاءٍ: أَقْضيَةٌ[3]، والمقصودُ بالقضاءِ في الآيةِ: الفَراغُ والإتمامُ.

2) ﴿بِٱلْقِسْطِ﴾: أصلُ (قسط): يدُلُّ على مَعنَيَينِ مُتَضادَّينِ، والبناءُ واحدٌ، فالقِسطُ: العَدلُ، يُقالُ: أَقسَطَ الرَّجلُ يُقسِطُ فهو مُقسِطٌ؛ أي: عَدَلَ[4]، وأما القَسطُ - بفَتحِ القافِ - فهو: الجَورُ والظُّلمُ، وقَسَطَ إذا جارَ وظَلَمَ فهو قاسِطٌ، والقُسوطُ: العُدولُ عن الحَقِّ. يُقالُ قَسَطَ، إذا جارَ، يَقسِطُ قَسطًا[5]، ويأتي القِسطُ بمعنَى: الحِصَّةُ والنَّصيبُ، وجَمعُهُ: أقساطٌ، تقولُ: تَقَسَّطوا الشَّيءَ بَينَهُم؛ أي: تَقاسَموهُ[6]، والقِسطاسُ: الميزانُ[7]، والقُسوطُ: المَيلُ عنِ الحَقِّ[8]، والمقصودُ بالقِسطِ في الآيةِ: العَدلُ، وهو التَّسويَةُ بين شَيئَين في صفةٍ، والجَزاءُ بما يُساوي المُجزَى عليه[9].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

يُبيِّنُ تعالى في الآيةِ أنَّ لكُلِّ أمَّةٍ رسولًا مِنَ اللّه، يبلّغُهُم ما أمرَه اللّه بتبليغِهِ، ويشهدُ عليهم بذلكَ يومَ القيامةِ، فإذا جاءَ رسولُهُم وشهدَ؛ بأنَّه قد بلّغَهُم ما أمرَه اللّه بِهِ، قضى سبحانه بينَه وبينَهُم بالعدلِ، فَحَكَمَ بنجاةِ المؤمنِ وبعقوبةِ الكافرِ، ولا يَظلمُ ربُّكَ أحدًا[10].

القضاءُ بينَ العِبادِ قائمٌ على العَدلِ، فلا يُعذَّبونَ بغيرِ ذنبٍ، ولا يُؤاخَذونَ بغيرِ حُجَّةٍ

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (قضي).
(2) ابن عبّاد، المحيط في اللّغة: (قضي).
(3) الجوهريّ، الصّحاح: (قضى).
(4) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (قسط).
(5) ابن الأنباريّ، الأضداد، ص: 58، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (قسط).
(6) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (قسط).
(7) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (قسط).
(8) الخليل، العين، وابن عبّاد، المحيط في اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (قسط).
(9) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/92.
(10) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 11/197.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالةُ العطفِ بواو العطفِ في مَطلَعِ الجملةِ:

قولُ اللّه ﷻ: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ﴾ الآيةُ معطوفةٌ على قولِه قَبلُ: ﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ﴾، وهيَ بمَنزِلَةِ السَّبَبِ لِمضمونِ الجملةِ الَّتي قَبلَها، وقد بَيَّنَت أنَّ مَجيءَ الرَّسولِ للأمَّةِ هوَ مُنتهَى الإمهالِ، وأنَّ الأمَّةَ إنْ كَذَّبَت رسولَها استَحَقَّت العِقابَ على ذلكَ، فكانَ ذلكَ إعلامًا بأنَّ تَكذيبَهُمُ الرَّسولَ هوَ الَّذي يَجُرُّ عليهمُ الوعيدَ بالعقابِ، فهيَ ناظِرَةٌ إلى قولِه تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾﴾ [الإسراء: 15][1].

تَكذيبُ الرُّسُلِ مِن أعظمِ أسبابِ استِحقاقِ العذابِ

دلالةُ اللَّامِ في: ﴿وَلِكُلِّ﴾:

اللّامُ في ﴿وَلِكُلِّ﴾ مِن قولِ اللّه ﷻ: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ﴾ يجوزُ أن تكونَ لامَ الأجلِ؛ والمعنى: لأجلِ كُلِّ أمَّةٍ أرسَلنا رسولًا أو أُرسِل إليها رسولٌ، أو لِلاختِصاصِ؛ أي: لِكُلِّ أمَّةٍ مَخصوصَةٍ رسولٌ خاصٌّ بِها.

أرسلَ اللّه ﷻ لكلِّ أمَّةٍ رسولًا خاصًّا بها

نُكتةُ تنكيرِ ﴿أُمَّةٍ﴾ و﴿رَّسُولٌ﴾:

نُكِّرَ لفظُ ﴿أُمَّةٍ﴾ مِن قَولِ اللّه ﷻ: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ﴾ لِبيانِ النَّوعيَّةِ؛ أي: لكلِّ أُمَّةٍ مِن الأُمَمِ لَها خُصوصيَتُها ونوعيَّتُها الموَسومَةُ بها.

والرَّسولُ المُرسَلُ إلى هذه الأُمَمِ كذلكَ خاصٌّ بِهم؛ لِيقعَ تمامُ الإفهامِ والتَّبليغِ، فتنكيرُ ﴿رَّسُولٌ﴾ كذلك يُرادُ به النَّوعيَّةُ؛ ليُشاكلَ ذلك تنويعَ الأمَمِ، وقد يفيدُ تنكيرُه التّعظيمَ.

أرسَلَ اللّه سُبحانَه لِكُلِّ أمَّةٍ رسولًا مِنهُم؛ لِيَقَعَ لَهُم تَمامُ الإفهامِ والتَّبليغِ

سرُّ تقديمِ المُسنَدِ ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ﴾:

قُدِّمَ مُتعلَّقُ الخبرِ في قولِ اللّه سُبحانَهُ: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ﴾؛ لِلتّشويقِ لِلمُسندِ إليه، فعندَ سماعِ صدرِ الجملةِ تتشوَّفُ النّفسُ لمعرفةِ هذا الّذي كانَ لكلِّ أُمَّةٍ.

براعةُ البيانِ القرآنيِّ في التَّصرُّفِ بالألفاظِ، تقديمًا وتأخيرًا

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/187.

دلالةُ الفاءِ في: ﴿فَإِذَا﴾:

أرسَلَ اللهُ تعالى لِكُلِّ أُمَّةٍ مِنَ الأُمَمِ ذَواتِ الشَّرائِعِ رسولًا مَعروفًا

الفاءُ في ﴿فَإِذَا﴾ مِن قَولِ اللّه ﷻ: ﴿فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ﴾ عاطفةٌ على صفةِ (رسول)؛ والمعنى: يبعثُ إليهم ﴿فَإِذَا﴾، وهي تفريعٌ، قال ابنُ عاشورٍ: "وجملةُ: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ﴾ لَيسَت هيَ المَقصود مِنَ الإخبارِ، بَل هيَ تمهيدٌ للتَّفريعِ المُفرَّعِ عليها بقوله: ﴿فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ﴾ إلخ، فلذلكَ لا يُؤخَذُ مِنَ الجملةِ الأولَى تَعَيُّنُ أن يُرسَلَ رسولٌ لِكُلِّ أُمَّةٍ؛ لأنَّ تَعيينَ الأُمَّةِ بالزَّمنِ أو بالنَّسَبِ أو بالمَوطِنِ لا يَنضَبِطُ، وقد تَخلو قَبيلَةٌ أو شَعبٌ أو عَصرٌ أو بِلادٌ عن مَجيءِ رسولٍ فيها، ولو كانَ خُلوُّها زمنًا طويلًا، فالمعنى: ولِكُلِّ أُمَّةٍ مِنَ الأُمَمِ ذَواتِ الشَّرائِعِ رسولٌ معروفٌ جاءَها"[1].

نُكتةُ تعليقِ الشَّرطِ بـ (إذا):

تحذيرُ الكَفَرَةِ مِن مُخالَفةِ الرَّسولِ ﷺ ومُعانَدَتِهِ

عُلِّقَ الشَّرطُ بـ (إذا) في قولِ اللّه ﷻ: ﴿فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ﴾؛ لكونِ (إذا) مُستعملَةً في الأصلِ فيما يُقطَعُ بوقوعِهِ، وهيَ هنا "للظَّرفيَّةِ مُجرَّدة عن الاستِقبالِ، والمعنى: أنَّ في زَمَنِ مَجيءِ الرَّسولِ يكونُ القضاءُ بينَهُم بالقِسطِ"[2].ويجوزُ أن يكونَ معنى الاستقبالِ فيها باقيًا؛ لإرادَةِ حكايةِ الحالِ الماضيَةِ؛ ليكونَ ذلك تهديدًا شديدًا للكُفّارِ الّذين كانوا في زمنِ تنزيلِ القرآنِ الكريمِ.

فائدةُ الإضافةِ ﴿رَسُولُهُمْ﴾:

إرسالُ كُلِّ رسولٍ إلى قومِهِ؛ لِكَونِه أشدَّ في الحِرصِ على هِدايَتِهِم

أُضيفَ لفظُ الرَّسولِ إلى الضَّميرِ الرّاجعِ للأمَّةِ في ﴿رَسُولُهُمْ﴾ مِن قولِ اللّه ﷻ: ﴿فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ﴾ للتَّخصيصِ، فَهي أُمَّةٌ مَخصوصَةٌ، ورسولُهُم معروفٌ لَهُم؛ إذ هوَ مِن أنفُسِهم، ويهمُّه أمرُهُم، وهو شديدُ الحرصِ عليهم، والمرادُ: جاءَهُم رَسولٌ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/187.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/187.

خاصٌّ بهم يُبعَثُ إليهم بشريعةٍ خاصَّةٍ مُناسِبَةٍ لأحوالِهم ليَدعوهُم إلى الحقِّ والهُدى.

دلالةُ جملةِ الجوابِ في ﴿قُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ﴾:

جملةُ جوابِ الشَّرطِ ﴿قُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ﴾ من قولِ اللّه ﷻ: ﴿فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ﴾، يجوزُ أن تكونَ "إخبارًا عَن حالةٍ ماضيَةٍ فَيَكونُ ذلكَ في الدُّنيا، ويكونُ المَعنى: أنَّه بَعَثَ إلى كُلِّ أُمَّةٍ رسولًا يَدعوهُم إلى دينِ اللّه، ويُنَبِّئُهُم على توحيدِه، فَلَمّا جاءَهُم بالبيِّناتِ كذَّبوهُ، فَقُضِيَ بَينَهُم؛ أي: بينَ الرَّسولِ وأُمَّتِه، فأُنجيَ الرَّسول وعُذِّبَ المُكَذِّبونَ. وإمّا أن يكونَ على حالةٍ مُستَقبَلَةٍ؛ أي: فإذا جاءَهُم رسولُهُم يومَ القيامةِ للشَّهادةِ عليهم قُضِيَ بَينَهُم؛ أي: بينَ الأمَّةِ بالعدلِ، فصارَ قَومٌ إلى الجنَّةِ وقومٌ إلى النّارِ، فهذا هوَ القضاءُ بَينَهُم"[1].

القضاءُ العَدلُ في الآخرةِ يؤولُ بأهلِ الإيمانِ إلى الجنَّةِ، وبأهلِ الكُفرِ إلى النّارِ

نُكتةُ تقديمِ مَجيءِ الرَّسولِ:

قُدِّمَ ذكرُ مجيءِ الرُّسلِ على ذكرِ القضاءِ بينَهُم في قولِ اللّه ﷻ: ﴿فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ﴾، فلم يَرِدِ النَّظمُ القرآنيُّ: (قُضِيَ بينَهُم إذا جاءَ رسولُهم)؛ لكونِ المُقدَّمِ في الآيةِ واقعًا شرطًا والآخر جوابًا، والأصلُ تقديمُ الشَّرطِ على جوابِه، وفي هذا التَّقديم أيضًا: تَشويقٌ إلى تَلَقي الخَبَر؛ كأنَّ النَّفسَ تطلَّعَت إلى مَعرِفَةِ ما سَيَحدُثُ لهؤلاءِ المُكذِّبينَ المُعانِدينَ بعدَ مجيءِ الرَّسولِ الَّذي سَيَشهَدُ عليهم بالكُفرِ أو بالإيمانِ.

تَطَلُّعُ أهلِ الإيمانِ إلى مَعرِفةِ جزاءِ المُكَذِّبينَ المُعانِدينَ للرُّسُلِ

نُكتةُ بناءِ الفعلِ ﴿قُضِيَ﴾ لِما لَم يُسَمَّ فاعِلُه:

بُنِيَ الفعلُ ﴿قُضِيَ﴾ لِما لَم يُسَمَّ فاعِلُه في قولِ اللّه ﷻ: ﴿فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ﴾ للعِلمِ به، وهو اللّه تعالى، فالقضاءُ العدلُ الّذي لا ظُلمَ فيه بوَجهٍ مِنَ الوُجوه هو قضاءُ اللّه تعالى وحُكمُهُ،

قضاءُ اللّه سُبحانَهُ، هوَ القضاءُ العدلُ الّذي لا ظُلمَ فيه بوجهٍ مِنَ الوُجوهِ

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/67.

ويدخُلُ فيه قضاءُ أنبيائِهِ؛ لأنَّ ذلك في الحقيقةِ راجِعٌ إلى قضاءِ اللّه سُبحانَهُ، فكانَ إطلاقُ القضاءِ العَدلِ وانتفاء الظُّلم لا يُرادُ به إلّا قضاؤُه سبحانَهُ؛ إذ قضاءُ غيرِه يدخُلُ فيه الحيفُ والجَورُ.

دلالةُ الظَّرفِ (بَينَ):

قضاءُ اللّه تعالى بينَ الأُممِ ورُسُلِها؛ بإنجاءِ المؤمنينَ وإهلاكِ الكافِرينَ

(بَينَ) مِن قولِ اللّه ﷻ: ﴿فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ﴾ ظَرفٌ مُتَعَلِّقٌ بالفعلِ ﴿قُضِيَ﴾، وهي كلمةٌ تدُلُّ على: "تَوَسُّطٍ في شيئَينِ أو أشياءَ، فَتَعَيَّنَ أنَّ الضَّميرَ الَّذي أُضيفَت إليه هُنا عائِدٌ إلى مجموعِ الأُمَّةِ ورَسولِها؛ أي: قُضيَ بينَ الأُمَّةِ ورسولِها بالعدلِ؛ أي: قَضَى اللّه بَينَهُم بِحَسَبِ عَمَلِهِم مَعَ رَسولِهِم"[1].

دلالةُ الباءِ في: ﴿بِٱلْقِسْطِ﴾:

إظهارُ عَدلِ اللّه ﷻ في قضائِه بينَ عبادِهِ

الباءُ في ﴿بِٱلْقِسْطِ﴾ مِن قولِ اللّه ﷻ: ﴿فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ﴾ يُرادُ بها المُصاحَبَة؛ أي: قُضِيَ بينَهُم قضاءً مَصحوبًا بالعَدلِ، مُبالَغَةً مِنه ﷻ في إظهارِ عَدلِه؛ أي: قضاءً مَعَ القِسطِ، وتُسَمَّى هذه الباءُ أيضًا: باء المُلابَسَةِ، أو باء الحالِ، والمعنَى: قُضِيَ بينَهُم حالَ كَونِ اللّه تعالى عادِلًا بينَ الجميعِ.

دلالةُ (ال) في ﴿بِٱلْقِسْطِ﴾:

كمالُ عَدلِ اللّه تعالى في القضاءِ بينَ الخلائِقِ

اللّامُ في ﴿بِٱلْقِسْطِ﴾ مِن قولِ اللّه ﷻ: ﴿فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ﴾ دالَّةٌ على الكمالِ؛ أي: أنَّ اللّه سُبحانَه يَقضي بينَ الخلائِقِ مُؤمنِهم وكافرِهِم، مُطيعِهم وعاصيهِم بالقِسطِ الكامِلِ الّذي لا ظُلمَ فيه بوجهٍ مِنَ الوجوهِ.

دلالةُ الواوِ في: ﴿وَهُمْ﴾:

قضاءُ اللّه سُبحانَه ليسَ فيه شيءٌ مِنَ الظُّلمِ، فهو الحكمُ العدلُ

الواوُ في قولِ اللّه ﷻ: ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ يجوزُ أن تكونَ عاطفةً لجملةِ نَفي الظُّلمِ على الجملةِ السّابقةِ، وهي قوله: ﴿قُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ﴾، ويجوزُ أن تكونَ حاليَّةً، والجملةُ بعدَه حالٌ، وهيَ حالٌ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/187.

لازِمَةٌ؛ لأنَّ قضاءَ اللّه سُبحانَه لا يشتَمِلُ على شيءٍ مِنَ الظُّلمِ في جميعِ الأحوالِ.

ويحتَمِلُ أن تكونَ الجملةُ تذييلًا للجملةِ السّابِقةِ مُؤكِّدَةٍ لها في المعنى؛ لأنَّ القضاءَ بالقِسطِ معناهُ: القضاءُ بما لا ظُلمَ فيهِ، قال الآلوسيُّ: "لكلِّ أُمَّةٍ مِنَ الأمَمِ الخاليَةِ رسولٌ يُبعَثُ إليهم بشريعةٍ اقتَضَتها الحِكمَةُ ليَدعوَهُم إلى الحَقِّ، فإذا جاءَ رسولُهُم فَبَلَّغَهُم ودَعاهُم، فكذَّبوه وخالَفوهُ؛ ﴿قُضِيَ بَيْنَهُم﴾؛ أي: بينَ كُلِّ أُمَّةٍ ورسولِها بالعدلِ"[1].

سرُّ تقديمِ المُسنَدِ إليه:

مَقامُ الانتِقامِ، كثيرًا ما يَقتَرِنُ بالتَّجاوُزِ في أخذِ الحقِّ

قُدِّمَ المسنَدُ إليه على المُسندِ الفِعليِّ في قولِ اللّه ﷻ: ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾؛ تأكيدًا لنفي الظُّلمِ عنِ اللّه سُبحانَهُ، وتحقيقًا لإثباتِ عدلِه ﷻ، ووجه التّأكيدِ أنَّ فعلَ الظُّلمِ أُسنِدَ على وجه النَّفيِ مرَّتين؛ إحداهما إلى الضَّميرِ (هُم)، والأخرى إلى واوِ الجماعةِ في ﴿يُظْلَمُونَ﴾، فكانَ في هذا تَكرارٌ للنِّسبةِ، وهيَ مِن مُؤكِّداتِ الجُملِ، وذلكَ مُناسِبٌ لِمقامِ التَّهديدِ؛ لأنَّ الانتقامَ كثيرًا ما يصحبُه تجاوزٌ في أخذِ الحقِّ في حقِّ البشرِ، فبيَّنَ اللّه سُبحانَه أنَّه مُنزَّهٌ عَن أن يظلِمَ أحدًا.

فائدةُ التَّعبيرِ عن نَفيِ الظُّلمِ بالفعلِ المضارعِ ﴿لَا يُظْلَمُونَ﴾:

أَمَدُ إمهالِ اللّه تعالى العبادَ، هو إبلاغُ الرُّسُلِ مُرادَه مِنهُم

الفعلُ المضارعُ ﴿لَا يُظْلَمُونَ﴾ يُفيدُ التَّجدُّدَ والحدوثَ، قال ابنُ عاشورٍ: "والمعنى: أنَّ اللّه يُمهِلُ الأُمَّةَ على ما هيَ فيه مِنَ الضَّلالِ، فإذا أرسَلَ إليها رسولًا، فإرسالُه أمارَةٌ على أنَّ اللّه تعالى أرادَ إقلاعَهُم عن الضَّلالِ، فانتَهَى أمَدُ الإمهالِ بإبلاغِ الرَّسولِ إليهم مُرادَ اللّه مِنهُم، فإنْ أطاعوه ﷺ وربِحوا، وإنْ عَصَوْه وشاقّوه قَضَى اللّه بينَ الجميعِ بجزاءِ كُلٍّ، قضاءَ حَقٍّ لا ظُلمَ فيهِ، وهو قَضاءٌ في

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 11/129.

الدُّنيا"[1]، ثُمَّ ساعَةَ وُرودِهم عليه في الآخِرَةِ قَرَّرَهُم بذُنوبِهم الَّتي اقتَرَفوها، فاعتَرَفوا فَجزاهُم عليها بعَدلِه، ولَم يَظلِمهُم.

نُكتةُ بناءِ الفعلِ لِما لَم يُسَمَّ فاعِلُه في ﴿لَا يُظۡلَمُونَ﴾:

بُنِيَ الفعلُ ﴿لَا يُظۡلَمُونَ﴾ لِما لَم يُسَمَّ فاعِلُهُ؛ للإشعارِ بسُرعةِ القضاءِ مَعَ كامِلِ عَدلِه ﷻ، ولتعميمِ الفاعِلِ؛ فاللّٰه سُبحانَه لَم يَظلِمهُم، ولَم تَظلِمهُمُ الملائِكَةُ المُوَكَّلَةُ بكتابةِ صحائِفِ أعمالِهم.

الظُّلمُ مَنفيٌّ عن اللّٰه تعالى في قضائِهِ، ومَنفيٌّ عن الملائكةِ الكاتِبينَ أعمالَ العبادِ

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

القِسطُ والعَدلُ:

القِسطُ: هوَ العدلُ البَيِّنُ الظّاهِرُ، ومِنه سُمّيَ المكيالُ قِسطًا، والميزانُ قِسطًا؛ لأنَّه يُصَوِّرُ لكَ العَدلَ في الوَزنِ حتَّى تَراه ظاهِرًا، وقد يكونُ مِنَ العَدلِ ما يَخفَى، ولِهَذا يرِدُ القِسطُ بمعنى النَّصيب الَّذي بيَّنتَ وجوهَهُ، وتقسّطَ القومُ الشَّيءَ: تَقاسَموا بالقِسطِ[2]، قال الرّاغِبُ: "هو النَّصيبُ بالعدلِ كالنّصفِ والنّصفةِ. والقِسطُ: هو أَنْ يأخذ قِسطَ غَيرِه، وذلكَ جَورٌ، والإقساطُ: أنْ يُعطيَ قِسطَ غيرِه، وذلكَ إنصافٌ، ولذلكَ قِيلَ: قَسَطَ الرّجُلُ: إذا جارَ، وأَقسَطَ: إذا عَدَلَ"[3].

العَدلُ المساواةُ في المكافأةِ، والقِسطُ العَدلُ البَيِّنُ الظّاهِرُ

أمّا العَدلُ فيُستَعمَلُ فيما يُدرَكُ بالبَصيرَةِ، كالأحكامِ، والعَدلُ هو المُساواةُ في المُكافأةِ إنْ خَيرًا فَخَيرٌ، وإنْ شرًّا فشرٌّ[4].

وفي التَّعبيرِ بالقِسطِ في قولِ اللّٰه سُبحانَهُ: ﴿فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمۡ قُضِيَ بَيۡنَهُم بِٱلۡقِسۡطِ﴾ إشعارٌ بأنَّ عدلَ اللّٰه تعالى في قضائِه بَينَ الرُّسلِ وأقوامِهم عدلٌ بيِّنٌ لكلِّ أحدٍ.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/188.
(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 248.
(3) الرّاغب، المفردات: (قسط).
(4) الرّاغب، المفردات: (عدل).

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ۚ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [يونس: 48 - 49]

مُناسَبَةُ الآيَتَينِ لِما قَبْلَهُما:

استِمرارُ أَهلِ الشِّركِ في باطِلِهِم، ومُضيُّهُم في غَيِّهِم وانحرافِهِم

لَمّا ذَكَرَ اللّه سُبحانَه تهديدَه أهلَ الكُفرِ والشِّركِ بالعذابِ في الدُّنيا أو في الآخرةِ؛ بيَّنَ ﷻ حالَهُم مَعَ هذا التَّهديدِ، وأنَّهم مُستمِرّونَ في باطلِهِم، ماضونَ في غَيِّهم، فيسألونَ - على وجه الاستهزاءِ به - عن مَوعِدِ هذا العذابِ الّذي هُدِّدوا به، فقال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾، ثُمَّ لمّا كانَ هذا الكلامُ مُتضمِّنًا استعجالَ النَّبيِّ ﷺ بما يُهدِّدُهم به؛ أمرَه اللّه ﷻ أن يتبرَّأَ مِنَ القُدرةِ على شيءٍ لَم يُقدِّرْه اللّه سُبحانَه عليهِ، فقال تعالى: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ضَرًّا﴾: أصلُ الضَّرَرِ: النُّقصانُ يَدخُلُ في الشَّيءِ، يُقالُ: دَخَلَ عليه ضَرَرٌ في مالِهِ[2]، وضِدُّهُ: النَّفعُ والسَّعَةُ. والضَّرَرُ: المَكروه والأذَى، وضَرَّ فُلانًا ضُرًّا وضَرَرًا إذا أَلحَقَ به مَكروهًا أو أذًى[3]، وكلُّ ما كانَ مِن سوءِ حالٍ وفَقرٍ في بدنٍ فهو ضُرٌّ، وما كانَ ضِدًّا للنّفعِ فهو ضَرٌّ[4]، والضُّرُّ المقصودُ في الآيةِ هو: الحالُ الَّذي يُؤلِمُ الإنسانَ والمُنافِرَ له[5].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/134.
(2) الخليل، العين، والفيروزباديّ، القاموس المحيط: (ضر)، وابن سيده، المخصّص: 4/103.
(3) مجمع اللّغة العربيّة بالقاهرة، المعجم الوسيط: 1/537.
(4) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (ضر).
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/163.

2) ﴿نَفْعًا﴾: أصلُ النَّفعِ: الخَيرُ، وخِلافُهُ: الضَّرُّ، يُقالُ: نَفَعَهُ، يَنفَعُهُ، نَفعًا؛ أي: قَدَّمَ له خَيرًا[1]. والنَّفعُ: ما يُستَعانُ به في الوُصولِ للخَيرِ[2]، أو هو: ما يَتَوَصَّلُ به الإنسانُ إلى مَطلوبِه مِن جَلبِ مَصلَحَةٍ أو دَفعِ مَضَرَّةٍ، يُقالُ: انتَفَعَ بالشَّيءِ: إذا وصَلَ به إلى مَنفَعَةٍ ما[3]. والانتِفاعُ: الاستِفادَةُ. ورجل نفّاعٌ: إذا كانَ ينفعُ النّاسَ ولا يضرُّهُم[4]، والنافِعُ: المُفيدُ، وكُلُّ ما يُستَفادُ مِنَ الشَّيءِ فهو مَنفَعَةٌ. والمقصودُ بالنَّفعِ في الآيةِ: ما يَتوصَّلُ به الإنسانُ إلى مَطلوبِه.

3) ﴿يَسْتَـْٔخِرُونَ﴾: أصلُ التَّأخيرِ: فِعلُ الشَّيءِ آخِرًا بَعدَ أجَلِه، والآخِرُ ضِدُّ الأوَّلِ، والتّأخيرُ: التَّأجيلُ، يُقالُ: أَخَّرَ الشَّيءَ يُؤَخِّرُهُ؛ أي: أجَّلَهُ، وضِدُّ التَّأخيرِ: التَّقديمُ والتَّعجيلُ[5]، ويُطلَقُ التَّأخيرُ أيضًا بمعنَى: تفويتِ الشَّيءِ وتَضييعِهِ، يُقالُ: أخَّرَ سَفَرَهُ؛ أي: فَوَّتَهُ، ولَم يأتِ به في وقتِه. والمُؤَخَّرُ خلافُ المُقدَّمِ، ويأتي التّأخيرُ بمعنى: جَعلِ الشَّيءِ خَلفَ غَيرِه[6]، والتَّأَخُّرُ: التَّخَلُّفُ سواءٌ كان في المَكانِ أوِ الزَّمانِ، يُقالُ: تأَخَّرَ عن عَمَلِه؛ أي: تَخَلَّفَ عنهُ، وتأخَّرَ عن مُنافِسِه إذا جاءَ بَعدَه في المكانِ أو الزَّمانِ، والاستِئخارُ مُبالَغَةٌ في التَّأخُّرِ، مثل: استِحباب، فالسّينُ والتّاءُ لِلمبالغةِ[7]. والأُخُرُ: الخَلفُ، والآخِرَةُ: الدارُ الّتي بَعدَ الدُّنيا[8]. والمقصودُ بالتَّأخيرِ في الآيةِ: ضِدُّ التَّعجيلِ، وقد أُطلِقَ على التَّمديدِ والتَّوسيعِ في أجلِ الشَّيءِ.

4) ﴿يَسْتَقْدِمُونَ﴾: أصلُ (قدم): يدُلُّ على سَبقٍ ورَعفٍ[9]. فالقَدَمُ مِن لَدُن الرُّسغِ: ما يَطَأُ عليه الإنسانُ[10]، وجمعُه أَقدامٌ، وبه اعتُبِرَ التَّقدُّمُ والتَّأخُّرُ[11]، يُقالُ: ورَجُلٌ قَدَمٌ،

(1) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (نفع).
(2) الرّاغب، المفردات: (نفع).
(3) الفيوميّ، المصباح المنير، وأحمد رضا، معجم متن اللّغة: (نفع).
(4) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (نفع).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (أخر).
(6) ابن سيده، المحكم، والزَّبيدي، تاج العروس: (أخر).
(7) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/201.
(8) ابن منظور، لسان العرب: (أخر).
(9) الخليل، العين: (قدم).
(10) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن عبّاد، المحيط في اللّغة: (قدم).
(11) الرّاغب، المفردات: (قدم).

وامرأةٌ قَدَمٌ: إذا كانا جَريئَين[1]، والقُدمَة والقَدَمُ: السّابقةُ في الأمرِ[2]، والقَدَمُ أيضًا: كلُّ ما قدَّمتَ مِن خيرٍ[3]، يُقالُ: لِفُلانٍ قَدَمُ صِدْقٍ؛ أي: شَيءٌ مُتَقَدِّمٌ مِن أَثَرٍ حَسَنٍ[4] أو سابقةٍ فضيلةٍ[5]، وقَدَّمتُ فلانًا أَقدُمُهُ: إذا تَقَدَّمتَهُ، قال تعالى: ﴿لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [الأعراف: 34]؛ أي: لا يريدونَ تأخُّرًا ولا تقدُّمًا[6]. والاستِقدامُ مُبالغةٌ في التَّقدُّمِ، فالسّينُ والتّاءُ للمبالغةِ.

❁ المَعْنى الإِجْماليُّ:

يُخبِرُ اللّه تعالى أنَّ المُشرِكينَ يقولونَ مُخاطبينَ النَّبيَّ ﷺ ومَن اتَّبَعه: متى سيأتينا عذابُ اللّه إنْ كُنتُم صادقينَ فيما تَعِدونَنا به مِنَ العَذابِ، فقُلْ لهم - يا مُحمَّدُ -: لا أقدِرُ على ضَرِّ نَفسي ولا نَفعِها في ديني ولا دُنياي، إلّا ما شاءَ اللّه أن أملِكَه وأقدِرَ عليه، ولستُ قادرًا على الإتيانِ بما تسألونَني عنه مِنَ العذابِ، فلكلِّ قومٍ وقتٌ مُحدَّدٌ قدَّرَه اللّه لانقضاءِ مُدَّتِهم، فإذا جاءَ وقتُ انقضاءِ أجَلِ كلِّ أمَّةٍ، فلا يُؤخَّرونَ عن ذلكَ الوَقتِ الَّذي قدَّرَه اللّه لِهلاكِهم ساعةً، ولا يتقدَّمُ أجَلُهُم عنهُ[7].

لا يعلَمُ مِيقاتَ السّاعةِ، ولا كُنهَها، ولا تصريفَ الآجالِ إلّا اللّه تعالى وحدَهُ

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالةُ العطفِ بالواوِ: ﴿وَيَقُولُونَ﴾:

جاءَ قولُ اللّه ﷻ: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ معطوفًا على قولِه سبحانَهُ: ﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ﴾؛ وذلك لأنَّه لمّا بَيَّنَتِ الآيةُ

الوَعيدُ الأتَمُّ، والعذابُ الأشدُّ، هو وعيدُ الآخرةِ وعَذابُها الّذي وَعَدَ

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (قدم).
(2) ابن عبّاد، المحيط في اللّغة: (قدم).
(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (قدم).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (قدم).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (صدق)، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (صدق).
(6) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (قدم).
(7) ابن جرير، جامع البيان: 12/190، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/124، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 8/350، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/273.

السّابقةُ أنَّ تَعجيلَ الوعيدِ في الدُّنيا لَهُم وتأخيرَه عَنهُم سواءٌ عندَ اللّه تعالى؛ إذِ الوَعيدُ الأتمُّ هو وعيدُ الآخرةِ، أُتبِعَت بهذِه الآيةِ حِكايَةً لِتَهَكُّمِهِم على تأخيرِ الوعيدِ[1].

والجملتان كلتاهما خبريَّةٌ، وبينَهُما مُناسبَةٌ؛ لكونِهما قد سيقَتا في شَأنِ العذابِ، مِن جهةِ التَّهديدِ به عاجلًا أو آجلًا، ومِن جهةِ تهكُّمِ المُشركينَ به، فكانَ الوصلُ بينَ الجملتين؛ لِما بينَهُما مِنَ التَّوسُّطِ بينَ الكمالَين.

نُكتةُ التَّعبيرِ بالفعلِ المضارعِ ﴿وَيَقُولُونَ﴾:

جاءَ الفعلُ المضارعُ ﴿وَيَقُولُونَ﴾ مِن قولِ اللّه ﷻ: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾، وكانَ مُقتضَى الظّاهرِ أن يرِدَ النَّظمُ القرآنيُّ: (وقالوا متى هذا الوعدُ)، والنُّكتَةُ في العدولِ عنِ الماضي إلى المضارعِ الإيماءُ إلى استِحضارِ الحالِ الماضيَةِ؛ لكونِ ذلك دالًّا على تَكرُّرِ صُدورِه مِنهُم، وأنَّ العنادَ دأبُهُم وشأنُهُم.

العِنادُ والمُماراةُ دَأبُ أهلِ الكُفرِ والباطِلِ

مَرجِعُ الضَّميرِ في ﴿وَيَقُولُونَ﴾، وغَرضُ الإضمارِ:

الضَّميرُ في ﴿وَيَقُولُونَ﴾ عائدٌ على مُشركي قريش ومَن تابَعَهُم مِن مُنكري البَعثِ، وعُبِّرَ عَنهُم بالضَّميرِ دونَ التَّصريحِ بهم؛ لِبيانِ عدمِ الاهتمامِ بذكرِهِم، أو أنَّه لا فائدةَ مِن التَّعرُّضِ لَهُم تَقبيحًا وإهانَةً لِشَأنِهِم، أو أنَّ قولَهم هذا ليسَ ذا بالٍ حتَّى يُلتفت إليهم أو إليه، ولا بأسَ مِن إرادَةِ هذه المعاني كُلِّها؛ إذِ النِّكاتُ البلاغيَّةُ تتوارَدُ ولا تتزاحَمُ.

تَقبيحُ المُشرِكينَ وإهانَتُهُم، وتَركُ الاهتمامِ بِهِم وبِمَقالاتِهِم

بلاغةُ الكنايةِ في: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾:

الاستفهامُ بـ﴿مَتَىٰ﴾ في قولِ اللّه ﷻ: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ مُستَعمَلٌ في "الاستِبطاءِ، وهو كنايةٌ عَن عدمِ اكتِراثِهِم به، وأنَّهُم

تكذيبُ الكُفّارِ، لِما هُدِّدوا به مِن عذابِ الدُّنيا

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/188، وناجي، الأسماء المضمّنة معنى الاستفهام في القرآن الكريم، ص: 162.

لا يأبَهونَ بِهِ، ليَنتَقلَ مِن ذلكَ إلى أنَّهُم مُكَذِّبونَ بحُصولِه بطريقِ الإيماءِ بقرينَةِ قولهم: ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾؛ أي: إن كُنتُم صادِقينَ في أنَّه واقِعٌ فَعَيِّنوا لَنا وقتَهُ، وهُم يُريدونَ أنَّنا لا نُصَدِّقُكَ حتَّى نَرَى ما وعَدَتنا؛ كنايَةً عن اعتِقادِهِم عَدَمَ حُلولِهِ، وأنَّهُم لا يُصَدِّقونَ بِهِ، والوَعدُ المَذكورُ هُنا: ما هُدِّدوا بِهِ مِن عذابِ الدُّنيا"[1].

دلالةُ الاستفهامِ في سياقِ الكلامِ:

استِعجالُ الكُفّارِ العَذابَ، سَبَبُه إنكارُه واستِهزاؤُهُم بِهِ

الاستفهامُ في قولِ اللّه ﷻ: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ ليس جاريًا على حقيقتِه مِن طلبِ تعيينِ وقتِ مَجيئِهِ، وإنَّما الاستفهامُ مُستعمَلٌ في معنى الاستِعجالِ لِما وُعِدوا بِهِ مِنَ العَذابِ على طريقةِ الاستِهزاءِ بِهِ والإنكارِ حَسبَما يُرشِدُ إليه الجوابُ[2].

نُكتةُ التَّعبيرِ باسمِ الإشارةِ ﴿هَٰذَا﴾:

تَهَكُّمُ المُشرِكينَ بوعيدِ اللّه تعالى، واستِبعادُهُم نُزولَهُ

أفادَ التَّعبيرُ باسمِ الإشارةِ ﴿هَٰذَا﴾ مِن قولِ اللّه ﷻ: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ المبالَغَةَ في تهكُّمِ المُشركينَ بوقوعِ العذابِ الّذي وُعِدوا به، واستبعادِ نُزولِه، واستبطاءِ حُصولِه تحقيرًا لَه وإهانَةً.

دلالةُ (ال) في: ﴿ٱلْوَعْدُ﴾:

وُعِدَ المُشرِكونَ بالاستِئصالِ في الدُّنيا أو بالعَذابِ في الآخرةِ

اللّامُ في ﴿ٱلْوَعْدُ﴾ مِن قولِ اللّه ﷻ: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ للعهدِ العِلميِّ؛ والمعنى: ويقولونَ متى هذا الوَعدُ الَّذي تَتَهَدَّدُنا بِهِ في كُلِّ وقتٍ وحينٍ؛ وهو إمّا الاستئصالُ في الدُّنيا، وإمّا العَذابُ الأخرَويُّ.

نُكتةُ التَّعبيرِ بالمصدرِ ﴿ٱلْوَعْدُ﴾:

مُبالغةُ المُشرِكينَ في تكذيبِهِم وعدَ اللّه تعالى

أُطلِقَ الوَعدُ في قولِ اللّه ﷻ: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾، وهو في الأصلِ مصدَرٌ لِلفعلِ: وعَدَ، يَعِدُ؛ على الأمرِ الموعودِ بِهِ، فالسُّؤالُ عنه باسمِ الزَّمانِ مُؤَوَّلٌ بتقديرٍ يدلُّ عليه المقامُ؛ أي: متى ظُهورُهُ؟

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/189، وناجي، الأسماء المضمّنة معنى الاستفهام في القرآن الكريم، ص: 162 - 163.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/151.

والتَّعبيرُ به مِن قبيلِ المجازِ المُرسَلِ بعلاقةِ التَّعلُّقِ الاشتقاقيِّ، والنُّكتَةُ في ذلك: المبالغَةُ في نفيِ الأمرِ الموعودِ بهِ؛ بإبطالِ أصلِهِ، وهو أن يكونَ الوعدُ صحيحًا.

سرُّ تعليقِ الشَّرطِ بالحرفِ ﴿إن﴾:

دِقَّةُ البيانِ القرآنيِّ في استِعمالِ أدواتِ الشَّرطِ الملائِمَةِ لِسياقاتِها

عُلِّقَ الشَّرطُ بـ ﴿إن﴾ في قولِ اللّه ﷻ: ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾، لإظهارِ عَدمِ تصديقِهِم؛ تَهَكُّمًا واستِبعادًا؛ وذلك لأنَّ ﴿إن﴾ تُستعمَلُ في الأصلِ لِلأمرِ المَشكوكِ فيه الّذي لا يُقطَع بتَحقُّقِه، وقولُهم: ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ بمَنزلةِ استبعادٍ لِما وُعِدوه مِنَ العَذابِ، كما يقولُ المنكِرُ للشَّيءِ لِمَن أمامَه: إنْ كنتَ صادِقًا فافعلْ كَذا وكَذا.

بلاغةُ حذفِ جوابِ الشَّرطِ:

استِعجالُ المُشرِكينَ بالعذابِ على وجه الاستهانَةِ والاستخفافِ بِهِ

حُذِف جوابُ الشَّرطِ في قولِ اللّه ﷻ: ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ لدلالةِ المقامِ عليهِ؛ إذ المرادُ: إنْ كُنتُم صادِقينَ في أنَّ اللّه توَعَّدَنا بالعذابِ؛ فليَأتِنا بهذا العذابِ الآنَ أو عاجِلًا، أو يكون الجوابُ: فمتى هذا الوعدُ، فَحُذِفَ إيجازًا، لِيكونَ ذلك أنسبَ للدّلالةِ على استعجالِهم بهذا العذابِ، ولِما في الحذفِ مِنَ الإشعارِ بكونِ إتيانِه بواسطَةِ النَّبيِّ ﷺ.

نُكتةُ التَّعبيرِ بضميرِ الجمعِ:

أهلُ الإيمانِ تابعونَ للنَّبيِّ ﷺ فيما يقوله

قولُ اللّه تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾، الخطابُ فيه بقولهم: ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ للرَّسولِ ﷺ، فضميرُ التَّعظيمِ صادِرٌ منهُم على سبيلِ التَّهكُّمِ، وهذا المحمَلُ هوَ المُناسبُ لجوابِهِم بقوله: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ﴾، فأُمِرَ النَّبيُّ ﷺ أنْ يُجيبَهُم بهذا لَمّا التَمَسوا تعجيلَ العذابِ أو تعجيلَ السّاعةِ أنْ يقولَ لَهُم: ليسَ ذلك إليَّ، إنَّما ذلكَ إلى اللّه تعالى، وإذا كنتُ لا أملكُ لنفسي نفعًا ولا ضرًّا، فكيفَ أملكُه لِغيري؟

ويجوزُ أن يكونَ الخطابُ للنَّبيِّ وللمُسلِمينَ، جَمَعوهُم في الخطابِ؛ لأنَّ النَّبيَّ ﷺ أخبَرَ بِهِ، والمسلِمينَ آمَنوا بِهِ، فخاطَبوهُم

بذلكَ جميعًا؛ لِتكذيبِ النَّبيِّ ﷺ، وإدخالِ الشَّكِّ في نُفوسِ المُؤمنينَ بِهِ، وإنّما خُصَّ الرَّسولُ ﷺ بالأمرِ بِجَوابِهِم؛ لأنَّه الَّذي أخبَرَهُم بالوعيدِ، وأمّا المُؤمنونَ فَتابعونَ لَه في ذلكَ[1].

عِلَّةُ الفصلِ في: ﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ﴾:

بيانُ استِبعادِ المُشرِكينَ، أن يكونَ العذابُ الموعودُ صادِرًا مِنَ الله سُبحانَهُ

فُصِلَ قولُ اللّه ﷻ: ﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي﴾ عمّا قبلَهُ؛ لكونِه واقعًا جوابًا عن سؤالٍ يُفهَمُ مِنَ الأولى، فبينَ الجُملتينِ شِبه كمالِ الاتّصالِ، وهوَ المسمَّى: الاستِئنافَ البياني، وذلك أنَّه لما حُكيَت عنهم مقالتُهُم بِـ ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ﴾، يَبعثُ هذا في نفسِ المُتَلقّي سؤالًا، وهو: فماذا كانَ ردُّ النَّبيِّ ﷺ، فجاءَ الجوابُ: ﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي﴾.

والآيةُ واردة على طريقةِ أُسلوبِ الحكيم؛ وذلك لأنَّهم ما أرادوا بالسُّؤال حقيقةَ الاستعلام، وإنَّما مُرادُهُم استبعادُ أن يكونَ الموعودُ مِنَ اللّه تعالى، وأنَّ النَّبيَّ ﷺ هو مَن يدَّعي ذلكَ، فطلبوا منه تَعيينَ الوقتِ تَهَكُّمًا وسخرية، فجاءَ الجوابُ ﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي﴾.

نُكتةُ التَّعبيرِ بفعلِ الأمرِ ﴿قُل﴾:

الرَّدُّ مِنَ الله سبحانَه يكونُ أشدَّ إفحامًا لِلخَصمِ، وأقوى في إبطالِ حُجَّتِهِ

صُدِّرتِ الآيةُ بفعلِ الأمرِ ﴿قُل﴾ في قولِ اللّه ﷻ: ﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي﴾؛ ليكونَ الرَّدُّ منه تعالى عليهم، ولبيانِ أنَّ النَّبيَّ ﷺ، لم يُخوَّل له الرَّدُّ إلّا عن طريقِ اللّه تعالى؛ ليَصيرَ أقوى في دَحضِ كلامِهِم وإبطالِ حُجَّتِهِم، وأنَّه ﷺ ما كانَ لِيَرُدَّ أو يَصدُرَ في أمرٍ إلّا بإذنٍ مِنَ اللّه تعالى، وإذا كانَ الجوابُ مِن قِبَلِ اللّه تعالى كانَ أشدَّ إفحامًا للخصمِ.

نُكتةُ التَّعبيرِ بالفعلِ المضارعِ ﴿أَمۡلِكُ﴾:

تَبرُّؤُ النَّبيِّ ﷺ مِنَ الحَولِ والقوَّةِ إلّا بالله سُبحانَهُ

جاءَ التَّعبيرُ بالفعلِ المضارعِ ﴿أَمۡلِكُ﴾ مِن قولِ اللّه ﷻ: ﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي﴾؛ لقصدِ استِحضارِ الصّورةِ في أذهانِهِم، ولإفادةِ

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 11/130، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/151، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/189، ناجي، الأسماء المضمّنة معنى الاستفهام في القرآن الكريم، ص: 163.

تجدُّدِ هذا النَّفيِ واستمرارِهِ، فقوله: ﴿لَآ أَمۡلِكُ﴾ يقتضي تَجَدُّدَ عدمِ مُلكيَّتِه لِنفسِه ﷺ نفعًا ولا ضرًّا إلّا ما شاءَ اللّه تعالى.

دلالةُ اللّامِ في شبه الجملةِ ﴿لِنَفۡسِي﴾:

النَّفعُ والضَّرُّ بيدِ الله تعالى وحدَهُ

اللّامُ في ﴿لِنَفۡسِي﴾ مِن قولِ اللّه سُبحانَهُ: ﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي﴾ يُرادُ بها الاختِصاص؛ أي: لا أملِكُ مِن أمري شيئًا أخصُّ نفسي بِه مِن ضَرٍّ أو نَفعٍ، وإذا كانَ لا يملِكُ لِنفسِه ضرًّا ولا نفعًا، فعدمُ ملكِه نفعَ غيرِه أو ضُرَّه مِن بابٍ أَولى.

سرُّ تقديمِ شبه الجملةِ ﴿لِنَفۡسِي﴾:

قَطعُ الطَّمعِ عن العبادِ في مُلكِهِمُ الضَّرَّ والنَّفعَ

قُدِّمَ الجارُّ والمجرورُ ﴿لِنَفۡسِي﴾ في قولِ اللّه ﷻ: ﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي ضَرّٗا وَلَا نَفۡعًا﴾ على المفعولِ، فلم يَرِدِ النَّظمُ القرآنيُّ: (لا أملِكُ ضرًّا ولا نفعًا لِنفسي)؛ لإفادَةِ الاهتمام، لا لإفادةِ القصرِ والتَّخصيصِ؛ إذْ لا يصحُّ أن يكونَ المرادُ: لا أملِكُ لنفسي ضرًّا ولا نفعًا، ولكن أملِكُهُما لغيري، وإنَّما المرادُ مِنَ التَّقديمِ الاهتمامُ بشأنِ النَّبيِّ ﷺ، ولقَطعِ الطَّمعِ عَن غيرِه في ملكِ الضَّرِّ والنَّفعِ؛ لأنَّه إذا كانَ هو ﷺ لا يملِكُهُما لِنفسِه، فلا يملكُهُما لِغيرِه بطريقِ الأولَويَّةِ والأحرويَّةِ، ولا يَملِكُهُما غيرُه لنفسِه كذلكَ.

ويجوزُ أن تكونَ الآيةُ مِن بابِ الاكتفاءِ، فيكونُ معنى قولِ اللّه سبحانَه: ﴿لَآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي﴾؛ أي: لا أملِكُ لنَفسي ولا لغَيري.

نُكتةُ تنكيرِ ﴿ضَرّٗا﴾ و﴿نَفۡعًا﴾:

نَفيُ مُلكِ النَّبيِّ ﷺ لِشيءٍ مِنَ النَّفعِ والضَّرِّ، ولو كانَ قليلًا

نُكِّرَ ﴿ضَرّٗا﴾ و﴿نَفۡعًا﴾ مِن قولِ اللّه ﷻ: ﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي ضَرّٗا وَلَا نَفۡعًا﴾؛ لإرادةِ التَّقليلِ والتَّحقيرِ؛ أي: لا أملِكُ لِنَفسي أقلَّ نفعٍ وأحقرَه فأنفعها به، أو أقلَّ ضَرَرٍ وأحقرَه فأردّه عنها، وإذا نُفِيَ النَّفعُ القليلُ والضَّررُ القليلُ؛ فانتفاءُ ما فوقَ ذلك مِن بابٍ أولَى؛ لأنَّ الَّذي يملِكُ النَّفعَ والضَّرَّ هوَ اللّه تعالى.

نُكتةُ تقديمِ الضَّرِّ على النَّفعِ:

تقديمُ الضَّرِّ على النَّفعِ مُلائِمٌ لاستبطاءِ المُشرِكينَ ما فيه مَضَرَّتُهُم

قُدِّمَ الضَّرُّ على النَّفعِ في قولِ اللّه ﷻ: ﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي ضَرّٗا وَلَا نَفۡعًا﴾؛ لأنَّه أنسَبُ بالغرضِ الّذي سِيقَت الآيةُ لَهُ؛ لأنَّهُم أظهَروا استبطاءَ ما فيه مَضَرَّتُهُم؛ وهو الوعيدُ، ولأنَّ استِطاعَةَ الضَّرِّ أهوَنُ مِن استِطاعَةِ النَّفعِ، فيكونُ ذِكرُ النَّفعِ بَعدَه ارتِقاءً، والمَقصودُ مِن جَمعِ الأمرَينِ الإحاطَةُ بجِنسَيِ الأحوالِ[1]. وقُدِّمَ الضّرُّ أيضًا؛ لأنَّ مَساقَ النَّظمِ إظهارُ العجزِ عنهُ، وذكر النَّفع لِتَوسيعِ الدّائرةِ تَكمِلَةً لِلعَجزِ[2]، وبَينَ الضر والنفع طِباقٌ، اقتضاه المقامُ، وطَلَبَه الحالُ.

توجيه المُتشابِهِ اللَّفظيِّ بينَ آيتي سورة يونس، والأعراف:

براعةُ البيانِ القرآنيِّ في التَّصرُّفِ بالألفاظِ تقديمًا وتأخيرًا

قال اللّه ﷻ: ﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي ضَرّٗا وَلَا نَفۡعًا﴾، وجاءَ في سورةِ الأعراف: ﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا﴾ [الأعراف: 188]، ووجه المغايرةِ أنَّه قد تَقَدَّمَ في سورةِ الأعرافِ النَّفعُ على الضّرِّ؛ للإشعارِ بأهمّيّتِه، والمقامُ مَقامُهُ، حيثُ سَبَقَ السُّؤالُ عن السّاعَةِ ووَقتِ وقوعِها، وجاءَ تفصيلُ السُّؤالِ بينَه ﷺ وبينَهُم، كأنَّه أوتِيَ عِلمَها ودَرَى مَسارَها، فقال سُبحانَهُ: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرۡسَىٰهَاۖ قُلۡ إِنَّمَا عِلۡمُهَا عِندَ رَبِّيۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقۡتِهَآ إِلَّا هُوَۚ ثَقُلَتۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ لَا تَأۡتِيكُمۡ إِلَّا بَغۡتَةٗۗ يَسۡـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنۡهَاۖ قُلۡ إِنَّمَا عِلۡمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ١٨٧﴾ [الأعراف: 187]، فلمّا كانَ الأمرُ إثباتًا لملكيَّةِ المعرفةِ، وهيَ مِن بابِ المَنافِعِ قُدِّمَ النَّفعُ، والمرادُ في رَدِّه عليهم: لا أملِكُ شيئًا مِن شُؤوني رَدًّا وإيرادًا مَعَ أنَّ ذلكَ أقربُ حصولًا، فكيفَ أملِكُ شُؤونَكُم حتَّى أتَسَبَبَ في إتيانِ عقابِكُم الموعودِ حَسبَما تُريدونَ[3].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/189، وناجي، الأسماء المضمّنة معنى الاستفهام في القرآن الكريم، ص: 163.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/151، والآلوسيّ، روح المعاني: 11/130.

(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 11/130، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/151.

دلالةُ الاستثناءِ بالأداةِ ﴿إِلَّا﴾:

إذا عَجَزَ المرءُ عمّا هو اختصاصٌ بذاتِهِ؛ فهو عمّا سِواه أعجَزُ

الاستثناءُ في قولِ اللّه ﷻ: ﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي ضَرّٗا وَلَا نَفۡعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۗ﴾ استِثناءٌ مُنقَطِعٌ بمعنى (لَكِنْ)؛ أي: لَكِنْ نَفعي وضَرّي هو ما يشاؤه اللّه لي، وهذا الجوابُ يَقتَضي إبطالَ كلامِهِم بالأُسلوبِ المُصطَلَحِ على تَلقيبِه في فنِّ البَديعِ بالمَذهَبِ الكلاميِّ، ويُسمَّى: البَحثَ أيضًا[1]؛ أي: بطريقٍ بُرهانيٍّ لأنَّه إذا كانَ لا يَستَطيعُ لِنَفسِه ضرًّا ولا نَفعًا؛ فعدَمُ استِطاعَتِه ما فيه ضَرُّ غيرِه بهذا الوعدِ أَولَى؛ مِن حيثُ إنَّ أَقرَبَ الأَشياءِ إلى مَقدِرَةِ المَرءِ هو ما لَه اختِصاصٌ بذاتِهِ، فمعنى الجوابِ: أنَّ الوَعدَ مِنَ اللّه لا مِنّي، وأنا لا أقدِرُ على إنزالِه بكُم؛ لأنَّ لَه أجلًا عندَ اللّه[2].

ويحتَمِلُ أن يكونَ الاستثناءُ متَّصِلًا على معنى إلّا ما شاءَ اللّه تعالى أن أملِكَهُ، وتُعُقِّبَ بأنَّه يأباه مَقامُ التَّبَرّي عن أنْ يكونَ لَه ﷺ دَخلٌ في إتيانِ الوَعدِ؛ فإنَّ ذلكَ يَستَدعي بيانَ كونِ المُتنازَعِ فيه ممّا لا يشاءُ أنْ يَملِكَه ﷺ، وقال بعضُ أهلِ العلمِ: إذا كانَ الملكُ بمعنى الاستِطاعةِ يكونُ الاستثناءُ مُتَّصِلًا، وإذا أُبقيَ على ظاهِرِه تَعَيَّنَ الانقطاعُ، ولا يخفى أنَّ الأصلَ الاتّصالُ، ولا ينبغي العدولُ عنهُ، حيثُ أمكَنَ مِن دونِ تعسُّفٍ[3].

دلالةُ ﴿مَا﴾ في سياقِ اختصاصِ استثناءِ المشيئةِ باللّه:

ما شاءَ اللّه كانَ، وما لَم يَشأْ لَم يكُنْ

﴿مَا﴾ في قولِ اللّه ﷻ: ﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۗ﴾ اسمٌ موصولٌ بمعنى: الَّذي، وصِلَتُه جملةُ: ﴿شَآءَ ٱللَّهُۗ﴾، والتَّقديرُ: إلّا الّذي شاءَه اللّه سُبحانَه مِنَ الضُّرِّ والنَّفعِ، أو: إلّا ما شاءَ اللّه سُبحانَه أنْ أقدِرَ عليه مِنهُما؛ فإنّي أقدِرُ عليه بمشيئتِه سُبحانَهُ.

(1) إذا ورد هذا الأسلوبُ في القرآنِ الكريمِ، فالأَولى تسميتُهُ: البحثَ، لأنَّ تسميتَه المذهبَ الكلاميَّ قد يوهِمُ مَعنًى غيرَ لائقٍ.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/190.

(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 11/130.

دلالةُ أسلوبِ القصرِ، وغَرَضُه:

في قولِ اللّه ﷻ: ﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي ضَرّٗا وَلَا نَفۡعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۗ﴾ أسلوبُ قصرٍ، فقد قُصِرَ مُلكُ النَّبيِّ ﷺ الضُّرَّ والنَّفعَ على مشيئةِ اللّه سُبحانَهُ، وهو قصرُ صفةٍ على موصوفٍ قصرًا حقيقيًّا تحقيقيًّا، وقد وردَ بأقوى طرُقِ القصرِ؛ وهو النَّفيُ والاستثناءُ، فلا يملِكُ النَّبيُّ ﷺ - فضلًا عَن غيرِه - شيئًا مِنَ الضُّرِّ والنَّفعِ إلّا ما شاءَه اللّه سُبحانَهُ.

قَصرُ المَشيئةِ على اللّه سُبحانَهُ، هو كمالُ الإيمانِ، بمُطلَقِ تصرُّفِه في الأكوانِ

عِلَّةُ الفَصلِ في: ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌۚ﴾:

قولُ اللّه ﷻ: ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌۚ﴾ "مِنَ المَقولِ المَأمورِ بِه، ومَوقِعُها مِن جملةِ ﴿لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي ضَرّٗا وَلَا نَفۡعًا﴾ مَوقِعَ العِلَّةِ؛ لأنَّ جملةَ ﴿لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي﴾ اقتضَتِ انتِفاءَ القُدرَةِ على حُلولِ الوَعدِ، وجملةُ: ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌۚ﴾ تَتَضَمَّنُ أنَّ سببَ عدمِ المَقدِرَةِ على ذلكَ هو أنَّ اللّه قدَّرَ آجالَ أحوالِ الأُمَمِ. ومِن ذلكَ أجَّلَ حلولَ العقابِ بهِم بحكمةٍ اقتَضَت تلكَ الآجالَ، فلا يَحُلُّ العقابُ بِهِم إلّا عندَ مَجيءٍ في ذلكَ الأجلِ، فلا يَقدِرُ أحدٌ على تغييرِ ما حدَّدَه اللّه"[1].

مِن بدائعِ أساليبِ القرآنِ الكريمِ قرنُ الأحكامِ بعِللِها

دلالةُ اللّامِ في شبه الجملةِ ﴿لِكُلِّ﴾:

اللّامُ في ﴿لِكُلِّ﴾ مِن قولِ اللّه ﷻ: ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌۚ﴾ تدُلُّ على التَّخصيصِ؛ والمعنَى: لكلِّ أُمَّةٍ ممَّن قُضِيَ بينَهُم وبينَ رَسولِهم أجلٌ مُعيَّنٌ خاصٌّ بهم لا يتعدَّى إلى أُمَّةٍ أُخرَى.

لكُلِّ أمَّةٍ مِنَ الأُمَمِ أجلٌ خاصٌّ لا يَتجاوَزونَهُ

نُكتةُ تنكيرِ ﴿أُمَّةٍ﴾ و﴿أَجَلٌۚ﴾:

وردَت لَفظَةُ ﴿أُمَّةٍ﴾ و﴿أَجَلٌۚ﴾ مِن قولِ اللّه ﷻ: ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌۚ﴾ نَكرتَينِ، والمرادُ بهما: نوعٌ مُعيَّنٌ خاصٌّ بِهِم لا يتعدّاهُم إلى غَيرِهِم مِنَ الأُمَمِ الأخرَى، وأجلٌ خاصٌّ مضروبٌ لِعَذابِهم يَحلُّ بِهِم عندَ حلولِه.

بيانُ النَّوعيَّةِ لكلِّ مِنَ الأمَّةِ والأجلِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/190.

سرُّ تقديمِ المُسنَدِ ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ﴾:

بيانُ الدّلالةِ على التَّخصيصِ في الأمَّةِ والأجلِ

قُدِّمَ المُسنَدُ على المُسندِ إليه في قولِ اللّه ﷻ: ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾؛ لإفادةِ قَصرِ المُسندِ إليه على المُسندِ، والتَّنبيه عليه من أوَّلِ الأمرِ أنَّه خبرٌ لا صفةٌ؛ والمعنى: لِكُلِّ أمَّةٍ مخصوصَةٍ أجلٌ خاصٌّ بها لا يشركُها فيه غَيرُها.

عِلَّةُ الفصلِ في: ﴿إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ﴾:

بيانُ شأنِ الأجَلِ المضروبِ للأُمَمِ وأهمِّيَّتُهُ

فُصِلَ قولُ اللّه ﷻ: ﴿إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ﴾ عمّا قبلَهُ، وهو قولُه سُبحانَهُ: ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾؛ لِكَونِها مُبدلَةً منها، فبينَ الجُملَتينِ كمالُ الاتِّصالِ، وقد خَصَّ اللّه سُبحانَه مجيءَ الأجَلِ بعدَ ذِكرِه لِلعنايةِ بشأنِ هذا الأجلِ، ولِكونِه ألزَمَ للحُجَّةِ عليهم، وكَونه أوفَى بالغرضِ المقصودِ مِن ذِكرِ هذا الأجلِ.

نُكتةُ تعليقِ الشَّرطِ بِـ﴿إِذَا﴾:

وَعدُ اللّه تعالى مَقطوعٌ بوقوعِهِ، لا يَتَخَلَّفُ أبدًا

عُلِّقَ الشَّرطُ بِـ﴿إِذَا﴾ في قولِ اللّه ﷻ: ﴿إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ﴾؛ وذلكَ لأنَّ ﴿إِذَا﴾ تُستَعمَلُ في الأمرِ المقطوعِ بوقوعِهِ، ولا تُستَعمَلُ في الأمرِ المَشكوكِ فيهِ، ولمّا ضُرِبَ لهَؤلاءِ أجلٌ مُحدَّدٌ مُعيَّنٌ مَعلومٌ؛ أبانَ عنِ القَطعِ بصحَّةِ وقوعِه وحصولِهِ، وأنَّه ممّا لا يرتابُ فيه مُرتابٌ أو ينكِرُه مُنكِرٌ.

بلاغةُ المَجازِ العقليِّ أو الاستعارةِ:

إبرازُ المَعقولاتِ في صورِ المحسوساتِ أعلَقُ بالذِّهنِ، وأوضحُ في الفَهمِ

أُسنِدَ المجيءُ إلى الأَجَلِ في قولِ اللّه ﷻ: ﴿إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ﴾ مِن بابِ المجازِ العقليِّ لِعلاقةِ الزَّمانيَّةِ، والمرادُ: وقتُ وقوعِه وحُدوثِه، وزمنُ ذلك، ونكتةُ المجازِ: التَّنبيه على المُبالغةِ في حُصولِهِ. ويجوزُ أن يكونَ ذلكَ مِن قبيلِ الاستعارةِ المكنيَّةِ؛ حيثُ شُبِّه الأجل بإنسانٍ - مثلًا - يقعُ منه المجيءُ، فحُذِفَ المشبَّه بِهِ، ودُلَّ عليه بلازِمِهِ؛ وهو المجيءُ، وإثباتُ المجيءِ للأجَلِ تَخييلٌ، وهو قرينةُ المكنيَّةِ، وفي

التَّعبيرِ بالاستعارَةِ إبرازٌ للمعقولِ في صورةِ المحسوسِ؛ لأنَّ ذلك أثبَتُ في الذِّهنِ وأوضحُ.

سرُّ إضافةِ الأجلِ في ﴿أَجَلُهُمْ﴾:

بُلوغُ كُلِّ أُمَّةٍ أجَلَها الخاصَّ بها أمرٌ واقِعٌ، ما له مِن دافعٍ

إن جُعِلَ الضَّمير للأمم المدلولِ عليها بِـ (كُلِّ أُمَّة)، فإظهار الأجلِ مُضافًا إليه في قولِ اللّه ﷻ: ﴿إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ﴾ لإفادةِ المعنى المقصود الَّذي هو بُلوغُ كلِّ أُمَّةٍ أجَلَها الخاصَّ بِها، ومَجيئُه إيّاها بعَينِها مِن بينِ الأمم بواسِطَةِ اكتِسابِ الأجلِ بالإضافةِ عمومًا يفيدُه معنى الجمعيَّةِ، كأنَّه قيلَ: إذا جاءَت آجالُهُم؛ بأن يجيء كلّ واحدةٍ مِن تلكَ الأمَمِ أجلُها الخاصُّ بها، وإنْ جُعِلَ ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ﴾ خاصَّةً، كما هو الظّاهِرُ، فتكونُ الإضافَةُ لإفادةِ كمالِ التَّعيينِ؛ أي: إذا جاءَها أجَلُها الخاصُّ بها[1].

دلالةُ الفاءِ في: ﴿فَلَا﴾:

بيانُ دِقَّةِ الآجالِ المضروبةِ، لكلِّ أمَّةٍ مِنَ الأممِ

الفاءُ في ﴿فَلَا﴾ مِن قولِ اللّه ﷻ: ﴿إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ رابطةٌ لجوابِ الشَّرطِ (لا يَستَأخِرونَ) بجملةِ الشَّرطِ ﴿إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ﴾؛ لبيانِ تَرتُّبِ الجوابِ على شَرطِهِ، و(لا) نافية، وجملةُ ﴿فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ﴾ لا محلَّ لها مِنَ الإعرابِ جوابُ ﴿إِذَا﴾.

دلالةُ دُخولِ السّينِ في ﴿يَسْتَـْٔخِرُونَ﴾ و﴿يَسْتَقْدِمُونَ﴾:

غرضُ المُبالغةِ في نَفيِ التَّأخُّرِ عن الأجَلِ أوِ التَّقدُّمِ عنه

صيغةُ الاستفعالِ ﴿يَسْتَـْٔخِرُونَ﴾ و﴿يَسْتَقْدِمُونَ﴾ في قولِ اللّه ﷻ: ﴿إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾؛ للإشعارِ بعجزِهم عَن ذلك مع طلبِهِم لَه، والمعنى: لا يتأخَّرونَ عنه أصلًا، و﴿يَسْتَقْدِمُونَ﴾ معطوفٌ على ﴿يَسْتَـْٔخِرُونَ﴾؛ أي: لا يتقدَّمونَ عَليه، لَكِن لا لبيانِ انتفاءِ التَّقدُّمِ معَ إمكانِه في نفسِه كالتَّأخُّرِ، بَل للمبالغةِ في انتفاءِ التَّأخُّرِ بنظمِه في سلكِ المُستحيلِ عَقلًا، وهذا هو السِّرُّ

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 11/131، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/152.

في إيرادِ صيغةِ الاستفعال؛ أي: إنَّه بَلغَ في الاستحالةِ مَبلَغًا: أنَّه لا يطلُبُ؛ إذِ المُحالُ لا يُطلَبُ[1].

سرُّ التَّعبيرِ بالأفعالِ المُضارِعةِ في جوابِ الشَّرطِ:

نَفيُ التَّقدُّمِ والتَّأخُّرِ عن كُلِّ أجلٍ قدَّرَه اللهُ سُبحانَهُ

عُبِّر بالفعلِ المضارعِ ﴿يَسْتَـْٔخِرُونَ﴾ و﴿يَسْتَقْدِمُونَ﴾ في قولِ اللهِ سُبحانَهُ: ﴿إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾؛ لإفادةِ التَّجدُّدِ في هذِه الأفعالِ وحُدوثِها شيئًا فشيئًا، وأنَّ كلَّ أجلٍ قدَّرَه اللهُ ﷻ فإنَّه يجري فيه هذا الحُكمُ مِن انتفاءِ التَّقدُّمِ عليه أو التَّأخُّرِ عنهُ.

وبينَ الفِعلينِ ﴿يَسْتَـْٔخِرُونَ﴾ و﴿يَسْتَقْدِمُونَ﴾ طِباقُ إيجابٍ؛ لِتضادِّ كُلِّ واحدٍ مِنهُما صاحِبَهُ.

نُكتةُ تنكيرِ لفظِ ﴿سَاعَةً﴾:

دِقَّةُ الأجلِ المضروبِ للأُمَمِ، فلا يتأخَّرُ شيءٌ ولا يتقدَّمُ، إلّا بقدَرٍ مَعلومٍ

جاءَ التَّعبيرُ بـ ﴿سَاعَةً﴾ مُنكَّرةً في قولِ اللهِ ﷻ: ﴿إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾؛ لإرادَةِ التَّقليلِ، والمرادُ: أنَّهُم لا يَستَقدمونَ شيئًا قليلًا مِنَ الزّمانِ، ولا يَستأخِرونَ مُطلَقًا، ولو مِقدارًا يَسيرًا منه، ولا سيَّما وأنَّ لفظَ (السّاعةِ) يُستَعمَلُ مثلًا في غايَةِ القِلَّةِ مِنَ الزَّمنِ.

و﴿سَاعَةً﴾ في الآيةِ ظرفٌ مُتعلِّقٌ بالفعلِ ﴿يَسْتَـْٔخِرُونَ﴾.

نُكتةُ حَذفِ الظَّرفِ مع الفعلِ ﴿يَسْتَـْٔخِرُونَ﴾:

القُرآنُ الكريمُ مُنَزَّهٌ عَن ذكرِ الألفاظِ الّتي لا يُحتاجُ إليها

قولُ اللهِ تعالى: ﴿إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾، وفيه حُذِفَت كلمةُ ﴿سَاعَةً﴾ معَ الفعلِ ﴿يَسْتَقْدِمُونَ﴾ إيجازًا واختصارًا؛ لِدلالةِ كلمةِ ﴿سَاعَةً﴾ المذكورةِ عليها، ولو أُعيدَ ذِكرُها بأن يَرِدَ النَّظمُ القرآنيُّ: (لا يَستأخِرونَ ساعة ولا يَستقدِمونَ ساعةً، أو لا يَستقدِمونَ أخرى)؛ لكانَ حشوًا لا يُفيدُ معنًى جديدًا،

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 11/131.

ومعلومٌ أنَّ الثّاني يُحذَفُ لِدلالةِ الأَوَّلِ عليه، وذِكره مَعَ عَدَمِ إفادَتِه نوعٌ مِنَ العَبثِ الَّذي نُزِّهَ عنه القرآنُ الكريمُ. ويُضافُ إلى النُّكتَةِ المعنويَّةِ لحذفِه فائدةٌ لفظيَّةٌ - على وجه التَّبعِ - وهي فواتُ التَّناسُبِ بينَ فواصلِ الآياتِ على تقديرِ ذِكرِها، فكانَ في حذفِها براعةٌ في المَعنى، وجمالٌ في اللَّفظِ.

توجيه المُتشابِه اللَّفظيِّ بين آيةِ يونس، والأعراف، والنّحل:

أهمِّيَّةُ التَّصرُّفِ بالألفاظِ ذِكرًا وحَذفًا، بما يُناسِبُ المَقامَ

قال الله ﷻ: ﴿إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾، وقال سُبحانَهُ: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [الأعراف: 34]، وقال ﷻ: ﴿وَلَـٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٦١﴾﴾ [النّحل: 61]. ووجه المغايرةِ بينَها: أنَّه قد قُرِنَت (إذا) بالفاءِ في ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ﴾ مَوضِعَي الأعرافِ والنَّحلِ، وسَقطَت مِن مَوضِعِ يونسَ ﴿إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ﴾، "وذلك أنَّه لمّا سِيقَت الآيةُ جوابًا عن استِعجالِهِمُ العذابَ الموعودَ؛ اعتُنِيَ بأمرِ الشَّرطيَّةِ ولُزومِها كمالَ الاعتناءِ، فأتى بها غيرَ مُتفرِّعةٍ على شيءٍ، كأنَّها مِنَ الأمورِ الثّابتةِ في نَفسِها الغيرِ المُتفرِّعةِ على غَيرِها، وقَوِيَ لزومُ التّالي فيها للمُقَدَّمِ بزيادةِ الفاءِ الّتي بها يُؤتَى للرَّبطِ في أمثالِ ذلكَ، ولا كذلكَ آيةُ الأعرافِ كما لا يَخفى..، وقد يُقالُ: إنَّ إسقاطَ الفاءِ أوَّلًا؛ لِتكونَ الجملةُ في مَوضِعِ الصِّفةِ لـ(أجل)؛ تَهويلًا لِأمرِهِ، وتَنويهًا بشأنِه، حَسبَما يَقتضيه المَقامُ؛ أي: لِكُلِّ أمَّةٍ أجلٌ مَوصوفٌ بأنَّه إذا جاءَ لا يَستأخِرونَ عنهُ، ولا يَستقدِمونَ عليه البتَّةَ"[1].

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 11/131.

﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِنۡ أَتَىٰكُمۡ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوۡ نَهَارٗا مَّاذَا يَسۡتَعۡجِلُ مِنۡهُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ۝٥٠ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓۚ ءَآلۡـَٰٔنَ وَقَدۡ كُنتُم بِهِۦ تَسۡتَعۡجِلُونَ ۝٥١﴾ [يونس: 50 - 51]

مُناسَبَةُ الآيَتَينِ لِما قَبلَهُما:

الرّبطُ بينَ تحديدِ آجالِ الأممِ وفقَ القدرِ، بالتَّحذيرِ مِنِ استِعجالِ عذابِ الله تعالى

لَمّا ذَكَرَ اللّه ﷻ أنَّ قَصدَ المُشرِكينَ بسُؤالِهم عنِ مَوعِدِ العذابِ هوَ الاستِهزاءُ، وكانَ وقوعُ ما توعِّدوا به مُمكِنًا، وكانَ مِن شأنِ العُقلاء أن يَبعُدوا عَن كُلِّ خطرٍ مُحتمَلٍ؛ أمَرَ اللّه نبيَّه ﷺ بجوابٍ آخَرَ لِمَن استَبطَأَ الوعيدَ بالعذابِ في الدُّنيا أو الآخرةِ، فقال سُبحانَهُ: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِنۡ أَتَىٰكُمۡ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوۡ نَهَارٗا مَّاذَا يَسۡتَعۡجِلُ مِنۡهُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾؛ والقصدُ بيانُ أنَّه إذا جاءَ أجلُهُم لا يَستأخِرونَ عنه ولا يَستقدِمونَ؛ فليحذَروا مِنَ الاستعجالِ بالعذابِ[1].

شَرحُ المُفرَداتِ:

1) ﴿أَرَءَيۡتُمۡ﴾: أصلُ (رأى): يدُلُّ على نَظرٍ وإبصارٍ بعَينٍ أو بَصيرَةٍ. فالرَّأيُ: ما يَراه الإنسانُ في الأمرِ، وجَمعُه الآراءُ[2]. والرُّؤيةُ: إدراكُ المَرئيِّ، وذلك أضربٌ بحسب قِوَى النَّفسِ: والأوَّلُ: بالحاسَّةِ، وما يجري مَجراها، نحو: ﴿لَتَرَوُنَّ ٱلۡجَحِيمَ ۝٦ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيۡنَ ٱلۡيَقِينِ ۝٧﴾ [التّكاثر: 6 - 7]. والثّاني: بالوَهمِ والتَّخيُّلِ، نحو قوله: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ [الأنفال: 50]. والثّالثُ: بالتَّفكُّرِ، نحو: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوۡنَ﴾ [الأنفال: 48]. والرّابعُ: بالعَقلِ، وعلى ذلكَ قوله: ﴿مَا كَذَبَ ٱلۡفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ۝١١﴾ [النّجم: 11]. والرَّأيُ: اعتقادُ النَّفسِ أحدَ النَّقيضَينِ عَن غَلَبَةِ الظَّنِّ، وعلى هذا قوله: ﴿يَرَوۡنَهُم مِّثۡلَيۡهِمۡ رَأۡيَ ٱلۡعَيۡنِۚ﴾ [آل

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/135 - 136، والسّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 366.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (رأى).

عمران: 13]، والرُّؤيا: ما يُرَى في المنام[1]. والرُّؤيةُ بالعَينِ تَتعدَّى إلى مفعولٍ واحدٍ، وبمعنى العِلمِ تَتعدَّى إلى مَفعولَينِ. والرُّؤيةُ في الآيةِ بمعنى التَّنبيهِ[2].

2) ﴿بَيَّتَا﴾: أصلُ (بيت): المَأوَى والمَآبُ ومَجمَعُ الشَّملِ. يُقالُ بَيتٌ وبُيوتٌ وأَبياتٌ. وبَيَّتَ الأمرَ إذا دَبَّرَه لَيلًا، قال اللّه تعالى: ﴿إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ [النّساء: 108]؛ أي: حينَ يَجتمعونَ في بُيوتِهم. غَيرَ أنَّ ذلكَ يُخَصُّ باللَّيلِ. والبَيّوتُ: الأمرُ يُبَيِّتُ عليه صاحِبُه مُهتَمًّا بِهِ. والبَياتُ والتَّبييتُ: أنْ تأتيَ العَدوَّ لَيلًا، كأنَّكَ أخَذتَه في بَيتِه. وقد رويَ عن أبي عبيدةَ أنَّه قال: بُيِّتَ الشَّيءُ إذا قُدِّرَ، ويُشَبَّه ذلِكَ بتقديرِ بُيوتِ الشِّعرِ. وهذا ليسَ بِبعيدٍ مِنَ الأصلِ[3]. والمقصودُ بالتَّبييتَ والبَياتِ في الآية: مُباغَتَةُ العَدوِّ ليلًا، وعَكسُه التَّصبيحُ: الغارَةُ في الصَّباحِ[4].

3) ﴿نَهَارًا﴾: أصلُ (نهر): يدُلُّ على تَفَتُّحِ شيءٍ أو فَتحِه. ومنه سُمِّيَ النَّهرَ لأنَّه يَنهَرُ الأرضَ؛ أي: يَشُقُّها[5]. والنَّهارُ: وهو انفِتاحُ الظُّلمَةِ عن الضِّياءِ ما بَينَ طُلوعِ الفجرِ إلى غُروبِ الشَّمسِ؛ وسُمِّيَ نَهارًا؛ لأنَّ الضِّياءَ يَنهَرُ فيهِ؛ أي: يَبرُزُ كما يبرُزُ النَّهرُ[6]. والمقصودُ بالنَّهارِ في الآيةِ: ما بَينَ الفَجرِ إلى غُروبِ الشَّمسِ.

4) ﴿ءَآلْـَٔـٰنَ﴾: أصلُ (أين): تدُلُّ على القُربِ، يُقالُ: آنَ لكَ أنْ تَفعَلَ كذا، أَينًا؛ أي: حانَ[7]، ثمّ تَوَسَّعوا فَجَعَلوه اسمًا لزمانِ الحالِ، فقالوا: أنا الآنَ أفعَلُ كذا. قال أبو العباسِ: "قال قومٌ: آنَ يَئِينُ أَينًا، والهمزةُ مَقلوبةٌ فيه عنِ الحاءِ، وأصلُه: حانَ يَحِينُ حِينًا، قال: وأصلُ الكلمةِ مِنَ الحِينِ"[8]. والآنَ: ظرفُ زمانٍ يدُلُّ على الوقتِ الحاضِرِ الَّذي أنتَ فيهِ، والَّذي يَفصِلُ بينَ زَمانَي الماضي والمُستَقبَلِ، والألِفُ واللّامُ فيه ليسَت للتَّعريفِ أو للعَهدِ الحُضوريِّ[9]. والمرادُ بـ (الآن) في الآيةِ: اسمُ ظرفٍ للزَّمانِ الحاضِرِ.

(1) الرّاغب، المفردات: (رأى)، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (رأي)، والزَّبيدي، تاج العروس: (رأى).
(2) الرّاغب، المفردات: (رأى)، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (رأي).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (بيت).
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/283.
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نهر).
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/179.
(7) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (أين).
(8) الرّاغب، المفردات: (أين).
(9) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/69.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

استعجالُ العذابِ لا نَفعَ فيه، وإنَّما النّافعُ هو الإيمانُ قبلَ فواتِ الأوانِ

أمَرَ اللّه تعالى نبيَّه الكريمَ ﷺ أن يقولَ لِلمشركين: أخبِروني إنْ أتاكُم عذابُ اللّه ليلًا وقتَ نَومِكُم، أو نهارًا وقتَ اشتغالِكُم بمَعاشِكُم، ماذا يَستعجِلُ المُشرِكونَ مِنَ العذابِ إلّا الشَّرَّ الَّذي لا يستطيعونَ دَفعَه عن أنفُسِهم، أإذا نزَلَ عذابُ اللّه بكُم آمَنتُم به حينَ لا ينفَعُكُمُ الإيمانُ، آلآنَ تُؤمِنونَ - أيُّها المُشرِكونَ - بعدَ أن وَقَعَ بكُمُ العذابُ، وقد كنتُم قبلَ مَجيئِه تَستعجِلونَه مُكَذِّبينَ بهِ؟[1]

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

علَّةُ الفصل في: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ﴾:

تأكيدُ الرَّدِّ على استهزاءِ المُشركينَ مُبالَغةٌ في إبطالِهِ

جاءَ قولُ اللّه ﷻ: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوْ نَهَارًا﴾ جوابًا ثانيًا عن سُؤالِهم المُتقدِّم ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾، فَفُصِلَتْ عَن قولِه: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ﴾؛ لِكَونِها مُبدلةً منها أو مُؤكِّدةً لمضمونِ الجملةِ المُتقدِّمَةِ عليها، فالفصلُ لِكمالِ الاتّصالِ؛ والمعنى: إذا حَقَّ الوعدُ الَّذي توعدَهُم به فَسيؤمِنون، وهذا الجوابُ إبداءٌ لِخَلَلِ كلامِهم، واضطرابِ استهزائِهم، وقد جاءَ هذا الأمرُ بأنْ يجيبَهُم هذا الجوابَ بعدَما أُمِرَ أن يجيبَهُم بقوله: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾.

دلالةُ تَصديرِ الآيةِ بفعلِ الأمرِ ﴿قُلْ﴾:

مِن كَرامَةِ النَّبيِّ ﷺ على رَبِّه دِفاعُه تعالى عنه

جاءَ فعلُ الأمرِ ﴿قُلْ﴾ في صدرِ الآيةِ ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوْ نَهَارًا﴾ موجَّهًا للنّبيِّ ﷺ، إلزامًا مِنه تعالى، وإجابةً على لسانِه ﷺ؛ لِتبرئةِ ساحتِه وتنزيه شَخصِه أن يكونَ الجوابُ منهُ، بل ليَكونَ تَلقينًا لَهُم بالحجَّةِ العلويَّةِ، والمرادُ: "قُلْ لهُم بعدما بَيَّنت لهم كيفيَّةَ حالِكَ وجريان سنّةِ اللّه تعالى فيما بينَ الأممِ على الإطلاقِ، ونبَّهتهم

(1) ابن جرير، جامع البيان: 12/190، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/273، والشّوكانيّ، فتح القدير: 2/513، والسّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 366.

على أنَّ عذابَهُم أمرٌ مُقرَّرٌ مَحتومٌ، لا يتوقَّفُ إلّا على مَجيءِ أجلِه المعلومِ؛ إيذانًا بكمالِ دُنوِّهِ، وتنزيلًا لَه مَنزِلةَ إتيانِه حقيقةً"[1].

بلاغةُ الاستِفهامِ ودِلالَتُه:

الاستفهامُ في قول الله ﷻ: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوْ نَهَارًا﴾ لا يُرادُ حقيقتُهُ؛ وهو طلبُ العلمِ بشيءٍ لَم يكُنْ مَعلومًا مِن قَبلُ، وإنَّما جاءَ الاستفهامُ ههنا على سبيلِ التَّلطُّفِ بِهِم، والتَّنبيه لَهُم أنَّ العذابَ لا ينبغي أن يُستعجَلَ. ويجوز أن تكونَ الجملةُ واردةً على سبيلِ التَّعجُّبِ والتَّهويلِ لِلعَذابِ؛ أي: أيُّ شيءٍ شديدٍ تستعجِلونَهُ، والمعنى: قُل لَهُم يا محمَّدُ، أخبروني عَن عذابِ اللّه إن أتاكُم؛ أيُّ شيءٍ تستعجِلونَ منهُ، فَلَيسَ شيءٌ مِنَ العذابِ يَستَعجِلُه عاقِلٌ؛ إذ العَذابُ كلُّه مُرُّ المذاقِ موجِبٌ لِنفارِ الطَّبعِ منهُ[2].

لا ينبغي استِعجالُ العذابِ، إذْ لا يَستَعجِلُ العذابَ ذو عقلٍ

نُكتةُ التَّعبيرِ عن العلمِ بالرُّؤيةِ بـ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾:

عُبِّرَ بالرُّؤيةِ في قولِ اللّه ﷻ: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوْ نَهَارًا﴾، ويجوزُ أن تكونَ بصريَّةً؛ لبيانِ أنَّ مجيءَ العذابِ ثابتٌ وحقٌّ، والدَّليلُ على ثبوتِه رؤيَتُه بالعينِ؛ وذلك ليكونَ أثبتَ لدى النَّفسِ، ويجوزُ أن تكونَ الرُّؤيةُ علميَّةً، فَيُخبرُ بها صادِقٌ لَم يُجرَّب عليه الكذبُ.

بيانُ إثباتِ حُلولِ العذابِ بالكُفّارِ وتَحقيقه

وسواء أكانَ المعنى: أخبروني أم أَعلِموني - لِما بَينَ الرُّؤيةِ والإخبارِ مِنَ السَّببيّةِ والمُسَبَّبيّةِ - فإنَّ التَّعبيرَ بالرُّؤيةِ فيه مِنَ القوَّةِ في الإثباتِ والقَطعِ في الإخبارِ ما لا يَخفى.

نُكتةُ تعليقِ الشَّرطِ بـ﴿إِنْ﴾:

عُلِّقَ الشَّرطُ بـ ﴿إِنْ﴾ في قولِ اللّه ﷻ: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوْ نَهَارًا﴾؛ وذلك لأنَّ (إنْ) في الأصلِ تُستعمَلُ فيما لا

دِقَّةُ البيانِ القرآنيِّ في انتِقاءِ أدواتِ الشَّرطِ المُلائِمَةِ لسياقاتِها

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 11/132.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/165.

يُجزَمُ بحصوله ووُقوعِه؛ والمعنى: (إنْ أتاكُم فأيُّ شيءٍ تستعجلونَ منهُ)، واستعمالُ ﴿إِنْ﴾ خرجَ عن مُقتضَى الظّاهرِ، ولم يخرجْ عن مُقتضَى الحالِ، فالمحلُّ هنا لـ(إذا)، ولكنّه عَدَلَ إلى ﴿إِنْ﴾ مِن بابِ المُجاراةِ لَهُم في عدمِ جَزمِهِم بوقوعِ هذا العذابِ[1].

سرُّ حذفِ جوابِ الشَّرطِ:

في الحذفِ إثراءٌ للمعاني القرآنيَّةِ، وتوسيعٌ لدائِرَتِها

حُذِفَ جوابُ الشَّرطِ مِن قولِ اللّه ﷻ: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوْ نَهَارًا﴾، كما قال الزَّمخشريُّ: "فإنْ قُلتَ: بِمَ تَعَلَّقَ الاستفهامُ؟ وأينَ جوابُ الشَّرطِ؟ قُلتُ: تَعَلَّقَ بـ ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾؛ لأنَّ المعنى: أخبروني ماذا يَستَعجِلُ منه المجرمونَ، وجوابُ الشَّرطِ محذوفٌ؛ وهو: تَندَموا على الاستِعجالِ، أو تَعرِفوا الخطأَ فيه"[2]، وحذفُ الجوابِ يوسِّعُ دائرةَ المعاني المُحتَمَلة، وفي ذلك إثراءٌ لِلمعاني القرآنيَّةِ.

نُكتةُ التَّعبيرِ بالإتيانِ: ﴿أَتَىٰكُمْ﴾:

إذا قضى اللّه سُبحانَه إنزالَ العذابِ؛ فإنَّه لا رادَّ له ولا نَجاةَ مِنه

قولُ اللّه تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوْ نَهَارًا﴾ فيه لفظ ﴿أَتَىٰكُمْ﴾ مِنَ الإتيانِ: وهو مجيءٌ بسهولةٍ، ومنه قِيلَ للسَّيلِ المارِّ على وجهِهِ: أتِيٌّ وأَتاوِيٌّ، والإتيانُ يُقالُ لِلمَجيءِ بالذّاتِ وبالأمرِ وبالتَّدبيرِ، ويُقالُ في الخَيرِ وفي الشَّرِّ وفي الأعيانِ والأعراضِ، نحو قولِه تعالى: ﴿إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ﴾ [الأنعام: 40][3]. أمّا المجيءُ فهو وإنْ كانَ كالإتيانِ، إلّا أنَّه أعمُّ منه، إذْ يُطلَقُ " اعتبارًا بالحُصولِ، ولِمَن قَصَدَ مكانًا أو عملًا أو زمانًا"[4]. ففي التَّعبيرِ بالإتيانِ في قوله: ﴿أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ﴾ كنايةٌ عَن سُرعَةِ نُزولِه عليهِم، وإنْ كانوا قدِ استبطَؤوا نُزولَه تَهكُّمًا واستهزاءً، فأخبرَهُم

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 11/132.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/240.
(3) الرّاغب، المفردات: (أتى).
(4) الرّاغب، المفردات: (جاء).

بعدِم الاستعجالِ؛ لأنَّه سُبحانَه إذا أنزَلَه أنزَلَه كالسَّيلِ المنهَمِرِ، لا يُستَطاعُ ردُّه أو النَّجاةُ منه.

بلاغةُ المَجازِ أو الاستعارةِ:

بيانُ المُبالغةِ في إثباتِ وُقوعِ العذابِ، ونُزولِه بأهلِ الشِّركِ

أُسنِدَ الإتيانُ إلى العذابِ في قولِ اللهِ ﷻ: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوْ نَهَارًا﴾، والمُرادُ: إتيانُ زَمَنِ وقوعِه، وذلكَ على سبيلِ المجازِ العقليِّ لعلاقةِ الزَّمانيَّةِ، أو هو مِن بابِ الاستعارةِ المكنيَّةِ تشخيصًا لهذا العذابِ بإنسانٍ يأتي مَعَ الرَّمزِ إليه بخاصيَّةٍ مِن خواصِّه، وهو الإتيانُ؛ مبالغةً في وُقوعِه ونُزولِه بِهِم.

فائدةُ الإضافةِ في ﴿عَذَابُهُۥ﴾:

الرَّدُّ على استِعجالِ المُشرِكينَ وُقوعَ العذابِ المُتَوَعَّدِ بِهِ

أُضيفَ العذابُ في ﴿عَذَابُهُۥ﴾ مِن قولِ اللهِ ﷻ: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوْ نَهَارًا﴾ لبيانِ مصدرِ هذا العذابِ، وأنَّه يكونُ مِن ﷻ؛ رَدًّا على استعجالِهِم وُقوعَه، واستبطاءِ الوعدِ الَّذي أخبرَهُم به النَّبيُّ ﷺ، وتَهَكُّمِهِم وسخريَتِهِم منه، وأنَّ أخذَه أليمٌ شديدٌ، وأنَّه هوَ المعذِّبُ به لا غيرُهُ.

نُكتةُ التَّعبيرِ بالضَّميرِ الرّاجِعِ إلى الاسمِ الأحسنِ (الله):

المقصودُ بالزَّجرِ والتَّخويفِ رُجوعُ المُخَوَّفِ إلى جادَّةِ الحقِّ والصَّوابِ

عُبِّرَ بالضَّميرِ الرّاجِعِ إلى الاسمِ الأحسَنِ (اللهِ) في قولِه ﷻ: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوْ نَهَارًا﴾؛ تفخيمًا وتعظيمًا لَه ﷻ؛ لئلّا يجريَ ذِكرُه هُنا مَقرونًا بالعذابِ مَعَ إمهالِهِم ليذعنوا إليه بالرُّجوعِ، وليكونَ ذلكَ زجرًا وتخويفًا، فَيَثوبوا إلى رُشدِهِم، ويعودوا إلى جادَّةِ الحقِّ.

سرُّ تنكيرِ ﴿بَيَٰتًا﴾ و﴿نَهَارًا﴾:

بيانُ شدَّةِ العذابِ، وقُربِه مِنهم، ومُفاجأتِه إيّاهُم

نُصِبَ كُلٌّ مِن ﴿بَيَٰتًا﴾ و﴿نَهَارًا﴾ في قولِ اللهِ ﷻ: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوْ نَهَارًا﴾ على الظَّرفيَّةِ؛ فمعنى ﴿بَيَٰتًا﴾: وقتَ بياتٍ، والبياتُ بمعنَى التَّبييتِ، كالسَّلامِ بمعنى التَّسليمِ، و﴿نَهَارًا﴾؛ أي: وقتَ انشغالِكُم بطلَبِ المعاشِ والكَسبِ[1].

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/240.

ومَجيئُهما مُنكَّرَين مِن غيرِ تحديدِ أيِّ جُزءٍ مِن أجزاءِ اللَّيلِ يأتيهم فيه العذابُ، ولا في أيِّ ساعةٍ مِن ساعاتِ النَّهارِ يأتيهم ذلك العذابُ، دليلٌ على مُفاجَأةِ العَذاب في أيِّ جزءٍ مِنهُما؛ تَهويلًا لِهذا العذابِ الموعودِ، قال ابنُ عاشورٍ: "وَقَعَ في خلالِ هذا الجوابِ تَفَنُّنٌ في تَخييلِ التَّهويلِ لِهذا العذابِ الموعودِ بقوله: ﴿إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوْ نَهَارًا﴾ تَخييلًا يُناسِبُ تَحَقُّقَ وُقوعِه، فإنَّ هذين الوَقتَينِ لا يَخلو حُلولُ الحوادِثِ عَن أحَدِهما، على أنَّه ترديدٌ لِمعنى العذابِ العاجِلِ تَعجيلًا قريبًا أو أقلَّ قُربًا، أي: أتاكُم في ليلِ هذا اليومِ الَّذي سألتُموه أو في صبيحَتِه، على أنَّ في ذكرِ هذينِ الوقتَينِ تَخييلًا ما لِصورةِ وقوعِ العذابِ؛ استِحضارًا له لديهِم على وجهٍ يَحصُلُ به تَذكيرُهُمُ انتِهازًا لِفُرصةِ المَوعظةِ"[1].

نُكتةُ التَّعبيرِ بـ ﴿بَيَٰتًا﴾:

يكونُ العَذابُ أكثرَ قساوَةً، إذا حَلَّ في أوقاتِ الغَفلاتِ

جاءَ التَّعبيرُ بالبياتِ في قولِ اللهِ ﷻ: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوْ نَهَارًا﴾ دونَ اللَّيلِ؛ "لِيَظهرَ التَّقابُلُ؛ لأنّ المرادَ الإشعارُ بالنَّوم والغَفلَةُ، والبَياتُ مُتكَفلٌ بذلكَ؛ لأنَّه الوقتُ الَّذي يَبيتُ فيه العدّو، ويوقعُ فيهِ، ويغتَنِمُ فُرصة غَفلَتِه، وليسَ في مفهومِ اللَّيلِ هذا المعنى، ولَم يشتَهِرْ شُهرةَ النَّهارِ بالاشتغالِ بالمَصالحِ والمَعاشِ حتَّى يَحسنَ الاكتفاءُ بدلالةِ الالتزامِ كما في النَّهارِ، وقد يُقالُ: النَّهارُ كُلُّه مَحلُّ الغفلة؛ لأنَّه إمّا زمانُ اشتغالٍ بمَعاشٍ أو زمانُ قَيلولَةٍ بخلافِ اللّيلِ، فإنَّ مَحلَّ الغَفلةِ فيه ما قارَبَ وسَطهُ؛ وهوَ وقتُ البَياتِ، فلذا خُصَّ بالذّكرِ"[2].

وقال الزَّمخشريُّ: "فإن قُلتَ: هَلّا قيلَ ليلًا أو نهارًا؟ قُلتُ: لأنَّه أُريدَ: إنْ أتاكُم عذابُه وقتَ بياتٍ فبيَّتَكُم، وأنتُم ساهونَ نائِمونَ لا تَشعُرونَ، كما يُبَيِّتُ العدوُّ المباغت"[3].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/191.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 11/133.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/240.

المَوقِعُ النَّحويُّ والبيانيُّ لجوابِ الشّرطِ في هذه الآيةِ:

المُبالغةُ في إنكارِ استِعجالِ العذابِ بيانٌ لِمُقتضَى الحالِ

قولُ اللّه ﷻ: ﴿مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ جوابٌ للشَّرطِ؛ حُذِفَت منه الفاء؛ كما تقولُ: إنْ أتيتُكَ ماذا تُطعِمُني، والمرادُ هنا: إنْ حصَلَ هذا المطلوبُ؛ فأيُّ مقصودٍ تَستَعجِلونَه منه، "والجملةُ الشَّرطيَّةُ مُتَعلِّقةٌ بِـ ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾، والمعنى: أخبروني إنْ أتاكُم عَذابُه تعالى أيّ شيءٍ تَستَعجِلونَه منه سُبحانَهُ، والشَّيءُ لا يُمكِنُ استعجالُه بَعدَ إتيانِهِ، والمرادُ به المبالغةُ في إنكارِ استعجالِه بإخراجِه مِن حيِّزِ الإمكانِ، وتنزيلُه في الاستحالَةِ مَنزِلةَ استِعجالِه بعدَ إتيانِهِ"[1].

وقدَّر الزَّمخشريُّ الجَوابَ بقوله: "تَندَموا على الاستعجالِ، أَو تَعرِفوا الخطأَ فيهِ. فإنْ قُلتَ: فهلّا قِيلَ: ماذا تَستَعجِلونَ منه؟ قلتُ: أُريدَتِ الدِّلالَةُ على موجِبِ تركِ الاستعجالِ، وهوَ الإجرامُ؛ لأنَّ مِن حَقِّ المجُرمِ أنْ يخافَ التَّعذيبَ على إجرامِهِ"[2].

دلالَةُ ﴿مَّاذَا﴾:

احتِمالُ الألفاظِ لِمَعانٍ مُتعدِّدَةٍ، يوَسِّعُ الدّلالةَ، ويُبينُ عنِ المرادِ

﴿مَّاذَا﴾ مِن قولِ اللّه ﷻ: ﴿مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ فيها قَولانِ:

أحدُهُما: أنَّ (ما) اسم استفهامٍ، مَوضِعُها رَفعٌ بالابتداءِ، و(ذا) بمعنى الَّذي، و﴿يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ صِلَةٌ له، والعائدُ محذوفٌ، والَّذي وصلتُه خبرُ المبتدَأ.

والآخَرُ: أنَّ (ما) و (ذا) اسمٌ واحدٌ للاستفهامِ، ومَوضِعُه نَصبٌ بـ ﴿يَسْتَعْجِلُ﴾، ولا ضميرَ في الفعلِ، والتَّقديرُ: أيُّ شيءٍ يَستَعجِلُ منه المُجرِمونَ[3].

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/153.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/240.
(3) العكبريّ، إملاء ما منَّ به الرّحمن: 1/26.

دلالةُ الاستفهامِ:

الاستِفهامُ في قولِ اللّه ﷻ: ﴿مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ مُستَعمَلٌ في الإنكارِ عليهم، وفي التَّعجيبِ مِن تَعَجُّلِهِمُ العَذابَ بنيَّةِ أنّهُم يُؤمِنونَ به عندَ نُزولِه.

مِن عجيبِ صَنيعِ المُشرِكينَ استِعجالُهُمُ العَذابَ بنيَّةِ الإيمانِ عندَ نُزولِه

وفائدةُ الإشارةِ إليه بـ(ذا) - لأنَّها في الأصلِ اسمُ إشارةٍ - تَهويلُه أو تَعظيمُه أوِ التَّعجيبُ مِنه كقولِ اللّه سُبحانَهُ: ﴿مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا﴾ [البقرة: 26]؛ فالمعنى: ما هذا العذابُ العظيمُ في حالِ كَونِه يَستَعجِلُه المُجرِمونَ، فَجُملَةُ ﴿يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ﴾ في مَوضِعِ الحالِ مِن اسمِ الإشارَةِ؛ أي: أنَّ مِثلَه لا يُستَعجَلُ، بل شأنُه أن يُستَأخَرَ[1].

نُكتةُ التَّعبيرِ بالفعلِ المضارعِ ﴿يَسْتَعْجِلُ﴾:

الفعلُ المُضارعُ في أصلِ استعمالِه دالٌّ على التَّجدُّدِ والاستمرارِ، ولذا جاءَ التَّعبيرُ بالفعلِ المضارعِ ﴿يَسْتَعْجِلُ﴾ مِن قولِ اللّه ﷻ: ﴿مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾؛ للإيماءِ إلى هذا المعنى، معَ استحضارِ الصّورةِ الماضيةِ؛ دِلالةً على أنَّ استعجالَهُم بهذا العذابِ مُتجدِّدٌ مِنهم لا يَنقطِعُ، ودافعُهُم في ذلك هوَ الاستِهزاءُ والتَّهَكُّم.

الحامِلُ للكُفّارِ على الاستِعجالِ بالعَذابِ، هو الاستِهزاءُ والتَّهكُّمُ

دلالةُ حرفِ الجرِّ (مِنْ):

حرفُ الجرِّ (مِنْ) في قولِ اللّه ﷻ: ﴿مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ دالٌّ على التَّبعيضِ؛ "أي: لا شيءَ مِنَ العذابِ بصالحٍ لاستِعجالِهم إيّاهُ؛ لأنَّ كلَّ شيءٍ مِنه مُهلِكٌ حائِلٌ بَينَهُم وبينَ التَّمَكُّنِ مِنَ الإيمانِ وقتَ حُلولِه"[2].والجملةُ يجوزُ أن تكونَ على معنى "التَّعجيبِ؛ وهو مُستفادٌ مِنَ المقامِ، كأنَّه قِيلَ: أيُّ هولٍ شديدٍ يَستعجلونَ منهُ، فَتكون (مِن) بَيانيَّةً وتَجريديَّةً"[3].

كُلُّ العذابِ مُهلِكٌ، ولا يَصلُحُ شيءٌ منه لاستعجالِهِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/192.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/192.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 11/133.

غَرضُ تقديمِ الجارِّ والمجرورِ ﴿مِنۡهُ﴾:

قُدِّمَ الجارُّ والمَجرورُ ﴿مِنۡهُ﴾ في قولِ اللّه ﷻ: ﴿مَّاذَا يَسۡتَعۡجِلُ مِنۡهُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾؛ للاهتمامِ بالمُقدَّمِ، ولإفادةِ القصرِ؛ كأنَّهم لفَرطِ تهكُّمِهم واستهزائِهم واستِهتارِهم لا يَستعجلونَ إلّا بالعذابِ.

فَرطُ تَهكُّمِ المُشرِكينَ صَيَّرَهُم يَستَعجِلونَ ما فيه حَتفُهُم

دلالةُ (ال) في: ﴿ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾:

اللّامُ في ﴿ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾ مِن قولِ اللّه ﷻ: ﴿مَّاذَا يَسۡتَعۡجِلُ مِنۡهُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾ يُرادُ بها العهد العِلميُّ، والمرادُ بِهِم: أصحابُ جُرمِ الشِّركِ والتَّكذيبِ، وهُم القائِلونَ: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾، وهُم مُشركو مَكَّةَ، ومَن كانَ على شاكِلَتِهِم مِنَ المُنكِرينَ الجاحِدينَ لرسالتِه ﷺ.

أعظمُ الجرائِمِ جَريمَةُ الشِّركِ والكُفرِ باللهِ تعالى

نُكتةُ الإظهارِ في مَوضِعِ الإضمارِ:

في قولِ اللّه ﷻ: ﴿مَّاذَا يَسۡتَعۡجِلُ مِنۡهُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾، وضعٌ لِلمُظهرِ مَوضِعَ المُضمَرِ؛ لأنَّ مُقتضَى الظّاهرِ أنْ يَرِدَ النَّظمُ القرآنيُّ: (ماذا يَستَعجِلونَ مِنهُ)، ولكِنْ أُظهِرَ إبرازًا لهُم؛ "لِتأكيدِ الإنكارِ ببيانِ مُبايَنةِ حالِهم للاستعجالِ؛ فإنَّ حقَّ المجُرِمِ أن يَهلكَ فَزعًا مِن إتيانِ العذابِ فضلًا عن استِعجالِهِ"[1].

حقُّ المُجرِمِ أن يَهلكَ فَزَعًا مِن حُلولِ العذابِ، فضلًا عن أن يَستَعجِلَهُ

قال ابنُ عاشورٍ: "فَوَقَعَ الإظهارُ في مَقامِ الإضمارِ عِوَضَ أن يُقال: (ماذا يَستَعجلونَ منهُ)؛ لِقصدِ التَّسجيلِ عليهم بالإجرامِ، ولِلتَّنبيه على خَطَئِهِم في استعجالِ الوعيدِ؛ لأنَّه يأتي عليهم بالإهلاكِ فَيَصيرونَ إلى الآخرةِ، حيثُ يُفضونَ إلى العذابِ الخالِدِ، فَشأنُهُم أن يَستَأخِروا الوَعدَ لا أن يَستعجلوهُ، فدَلَّ ذلكَ على أنَّ المعنى لا يَستَعجِلونَ منه إلّا شرًّا"[2].

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/153.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/193.

عِلَّةُ الفَصلِ في: ﴿أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ﴾:

نُزولُ العذابِ المُستَأصِلِ لأهلِ الشِّركِ مانِعٌ مِن صِحَّةِ إيمانِهِم

فُصِلَ قولُ اللّه ﷻ: ﴿أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ﴾ عمّا قَبلَهُ، لكونِه واقِعًا ممّا قبلَه مَوقِعَ البيانِ؛ فالجملةُ مُفَسِّرةٌ لِسابِقَتِها لِقَصدِ الرَّدِّ على استعجالِهِم، وقد جاءَت إنكارًا لإيمانِهِم بنزولِ العذابِ بعدَ وقوعِه حقيقَةً، مَعَ ما سَبَقَ مِن إنكارِ استعجالِهِم به بعدَ إتيانِه حُكمًا؛ والمعنى: أَبَعدَ ما وقَعَ العذابُ، وحلَّ بكُم حقيقةً؛ آمنتُم به حينَ لا ينفَعُ الإيمانُ؟ وهذا الإنكارُ واردٌ لأجلِ أن يُقلِعوا عمّا هُم فيه مِنَ العِنادِ، ويَنصرِفوا إلى تَدارُكِ أمرِهِم قبلَ فواتِ الأوانِ.

بلاغةُ توسُّطِ الجملةِ المحذوفةِ بينَ حرفِ العطفِ وبينَ الهمزَةِ:

بيانُ غَلَطِ أهلِ الشِّركِ، وإظهارُ فسادِ رأيِهِم

قولُ اللّه ﷻ: ﴿أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ﴾ مُرادٌ به زيادةُ التَّنديمِ والتَّجهيلِ؛ والمعنى: "أخبروني إنْ أتاكُم عذابُه آمنتُم به بَعدَ وقوعِه حينَ لا يَنفعُكُمُ الإيمانُ، وأصلُ الكلامِ على ما قِيلَ: إنْ أتاكُم عذابُه بياتًا أو نهارًا ووَقَعَ وَتَحقَّقَ آمَنتُم، ثُمَّ جِيءَ بحرفِ التَّراخي بَدَلَ الواوِ؛ دلالةً على الاستبعادِ، ثُمَّ زيدت أداةُ الشَّرطِ دلالةً على استقلالَه بالاستبعادِ"[1].

وقال ابنُ عاشورٍ: "والمُستَفهَمُ عنه هو حصولُ الإيمانِ في وقتِ وُقوعِ العذابِ، وهذا الاستِفهامُ مُستَعمَلٌ في الإنكارِ بمعنى التَّغليطِ وإفسادِ رأيِهِم، فإنَّهُم وعَدوا بالإيمانِ عندَ نُزولِ العذابِ؛ استِهزاءً مِنهم، فَوَقَعَ الجوابُ بمُجاراةِ ظاهِرِ حالِهِم وبيانِ أخطائِهِم؛ أي: أتؤمنونَ بالوعدِ عندَ وُقوعِه على طريقةِ الأسلوبِ الحكيمِ"[2].

دلالةُ حرفِ العطفِ (ثُمَّ):

إيمانُ المشركينَ بالعذابِ حينَ نُزولِه بعدَ إنكارِه أغرَبُ وأعجَبُ مِن استِعجالِهِم بِهِ

جِيءَ بحرفِ العطفِ (ثُمَّ) مِن قولِ اللّه ﷻ: ﴿أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ﴾ المُفيدِ التَّراخيَ؛ دلالةً على الاستبعادِ، والمرادُ: استبعادُ

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 11/134.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/194.

وُقوعِ هذا العذابِ؛ و"لأنَّ إيمانَهُم بالعذابِ الَّذي كانوا يُنكِرونَ وُقوعَه حينَ وُقوعِه بِهِم أغرَبُ وأهَمُّ مِن استِعجالِهِم بِهِ"[1].

دلالةُ ﴿إِذَا﴾:

﴿إِذَا﴾ في قولِ اللّه ﷻ: ﴿أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ﴾ شرطيَّةٌ، وهي "دالَّةٌ على استقلالِه بالاستِبعادِ، وعلى أنَّ الأوَّلَ كالتَّمهيدِ لَهُ، وجيءَ بِـ (إذا) مُؤكَّدَةً بِـ ﴿مَا﴾ تَرشيحًا لمَعنَى الوقوعِ وزيادَةً للتَّجهيلِ، وأنَّهُم لَم يؤمِنوا إلّا بعدَ أن لَم يَنفعْهُمُ الإيمانُ البتَّةَ"[2].

إيمانُ المُشركينَ عِندَ نُزولِ العَذابِ إيمانٌ اضطِراريٌّ لا يُقبَلُ

فائدةُ التَّعبيرِ بالجملةِ الشَّرطيَّةِ:

الجملةُ الشَّرطيَّة في قولِ اللّه ﷻ: ﴿أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ﴾، "اعتراضٌ مُقرِّرٌ لِمضمونِ الاستخبارِ، وقيلَ: الجوابُ قَولُه تعالى: ﴿أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ﴾ إلى آخرِ الآيةِ، والاستفهاميَّةُ الأولَى اعتراضٌ، والمعنى: أَخبِرونِي إنْ أتاكُم عَذابُه آمَنتُم به بعدَ وقوعِهِ، حينَ لا يَنفَعُكُمُ الإيمانُ"[3].

تقريرُ مضمونِ الاستِخبارِ في نفسِ السّامِعِ

نُكتةُ عدمِ التَّصريحِ بفاعلِ ﴿وَقَعَ﴾:

لَم يُصرَّحْ بفاعلِ الفعلِ ﴿وَقَعَ﴾ مِن قولِ اللّه ﷻ: ﴿أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ﴾، بَل أُضمِرَ - وهو مُسنَدٌ إليه - ، والمرادُ: العذابُ الموعودُ؛ وذلك لِعدمِ الفائدةِ مِنَ التَّصريحِ بِهِ؛ لكونِه مَعلومًا، وهو واقِعٌ في جوابِ الاستفهامِ، فتركُ التَّصريحِ به في هذا المقامِ هو مِن بابِ الاحترازِ عن العبَثِ في الكلامِ؛ وهوَ ممّا نُزِّهَ القرآنُ الكريمُ عنه.

الاحترازُ عن العبثِ في الكلامِ مِن مَعالِمِ البلاغةِ

مَوقِعُ جملةِ ﴿ءَامَنتُم بِهِۦٓ﴾:

جملةُ ﴿ءَامَنتُم بِهِۦٓ﴾ لا محلَّ لها مِنَ الإعرابِ؛ لِوقوعِها جوابَ شَرطٍ غيرِ جازِمٍ[4]، والظَّرفُ مُتعلِّقٌ بـ﴿ءَامَنتُم﴾، وفي الكلامِ حذفٌ تقديرُهُ: أتُؤَخِّرونَ إلى أن تُؤمِنوا بِها، وإذا وَقَعَ العذابُ وعايَنتُموه فما

التَّصديقُ حالَ مُعاينةِ عذابِ الإهلاكِ غيرُ نافِعٍ آنئذٍ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/194.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/153.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/153.
(4) صافي، الجدول: 11/143.

فائِدَةُ الإيمانِ؟ وما نَفعُكُم فيه إذا كانَ لا يَنفَعُ حينذاكَ. قال ابنُ جريرٍ الطّبريّ: "أهُنالِكَ إذا وَقَعَ عذابُ اللّه بِكُم - أيُّها المشركونَ - ﴿ءَامَنتُم بِهِۦٓ﴾ يقولُ: صدّقتُم به في حالٍ لا يَنفَعُكُم فيها التَّصديقُ"[1].

بلاغةُ التَّعبيرِ بأسلوبِ الحكيمِ:

بيانُ تغليطِ المُشركينَ وإفسادِ رأيِهِم

الأسلوبُ الحكيمُ هو: تلقّي المُخاطَبِ بغيرِ ما يترقَّبُهُ، ولما كانَ المُستَفهَمُ عنه في قولِ اللّه ﷻ: ﴿أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ﴾ "هوَ حُصولَ الإيمانِ في وقتِ وقوعِ العذابِ، وهذا الاستِفهامُ مُستَعمَلٌ في الإنكارِ بمعنى التَّغليطِ وإفسادِ رأيِهِم، فإنَّهُم وعَدوا بالإيمانِ عندَ نُزولِ العذابِ؛ استِهزاءً مِنهُم، فَوَقَعَ الجوابُ بمُجاراةِ ظاهِرِ حالِهِم وبيانِ أخطائِهِم؛ أي: أتُؤمِنونَ بالوعدِ عندَ وُقوعِه على طريقةِ الأسلوبِ الحكيمِ"[2].

وجاءَ هذا ردًّا عليهم مِن قَبيلِ مُجاراةِ الخَصمِ لِما يَبدو مِن ظاهِرِ حالِهِ، فَهُم قدِ استَعجَلوا نُزولَ هذا العذابِ، فأجابَهُم بغَيرِ ما يَتَوَقَّعونَ: أئِذا نزَلَ آمنتُم بهِ، والإيمانُ لَم يرِدْ بخاطِرِهِم على الإطلاقِ.

دلالةُ الباءِ في: ﴿بِهِۦٓ﴾:

اختصاصُ العذابِ بمَنْ قدَّرَ اللّه تعالى نُزولَه بِهِم

قولُ اللّه تعالى: ﴿أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ﴾، الباءُ لا ينفكُّ عنها معنى الإلصاقِ، والتَّعبيرُ بها في هذه الآيةِ يفيدُ أنَّهُم آمنوا بهذا العذابِ الَّذي نَزَلَ بهِم، وصارَ مُلاصِقًا لَهُم، والضَّميرُ يَعودُ على وقوعِ العذابِ الموعودِ، واختصاصِه بهِم لا بغيرِهِم.

غَرَضُ الاستفهامِ ونوعُه:

إيغالُ المُشرِكينَ في التَّكذيبِ والاستهزاءِ

الاستفهامُ في قولِ اللّه ﷻ: ﴿ءَآلْـَٔـٰنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ﴾ "استفهامٌ إنكاريٌّ عَن حُصولِ إيمانِهِم عندَ حلولِ ما تَوَعَّدَهُم، فَعَبَّرَ عن وقتِ وقوعِه باسمِ الزَّمانِ الحاضِرِ وهو ﴿ءَآلْـَٔـٰنَ﴾؛ حكايةً للسانِ حالِ مُنكِرٍ عليهِم في ذلكَ الوقتِ استحضَرَ حالَ حُلولِ الوَعدِ،

(1) ابن جرير، جامع البيان: 11/122.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/194.

كأنَّه حاضِرٌ في زمنِ التَّكلُّمِ، وهذا الاستحضارُ مِن تَخييلِ الحالةِ المُستَقبَلَةِ واقِعَةً"[1].

ويرى أبو السُّعود أنَّ قولَه تعالى: ﴿ءَآلْـَٔـٰنَ﴾ استئنافٌ مِن جهتِه تعالى غيرُ داخِلٍ تحتَ القَولِ المُلَقَّنِ، مَسوقٌ لِتقريرِ مَضمونِ ما سَبَقَ على إرادةِ القولِ؛ أي: قِيلَ لَهُم عندَ إيمانِهِم بعدَ وقوعِ العذابِ: آلآنَ آمَنتُم بِهِ؟ إنكارًا لِلتَّأخيرِ وتَوبيخًا عليه؛ ببيانِ أنَّه لَم يَكُن ذلكَ لِعَدَمِ سَبقِ الإنذارِ بِهِ، ولا للتَّأمُّلِ والتَّدبُّرِ في شأنِهِ، ولا لِشَيءٍ آخرَ - ممّا عسى أنْ يُعَدَّ عُذرًا في التَّأخيرِ - بل كان ذلكَ على طريقِ التَّكذيبِ والاستعجالِ به على وجه الاستهزاءِ[2].

بلاغةُ الاستعارةِ المكنيّةِ:

الاستعارةُ في قولِ اللهِ ﷻ: ﴿ءَآلْـَٔـٰنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ﴾ مكنيَّةٌ، حيثُ شُبِّه فيها الزَّمنُ المستقبَلُ بزمنِ الحالِ استحضارًا لَهُ، ورُمِزَ إليه بذكرِ لازِمِهِ، وهو اسمُ الزَّمنِ الحاضِرِ ﴿ءَآلْـَٔـٰنَ﴾، وإثباتُه له تخييلٌ، وهو قرينةُ الاستعارةِ المكنيَّةِ الَّتي عَمِلَت على تشخيصِ الزَّمانِ المُستَقبَلِ وحُضورِه ووُقوعِه حالًا.

إبرازُ المعاني في صورِ الأشياءِ المُشَخَّصةِ، يُقَوّي ثُبوتَها في ذهنِ المُتَلَقِّينَ

دلالةُ الواوِ على الحالِ: ﴿وَقَدْ﴾:

الواوُ في قولِ اللهِ ﷻ: ﴿وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ﴾ واوُ الحالِ، والجملةُ بعدَها حاليَّةٌ، قال الزَّمخشريُّ: "يعني: وقد كُنتُم بِهِ تُكَذِّبونَ؛ لأنَّ استعجالَهُم كان على جهةِ التَّكذيبِ والإنكارِ"[3].

قال السَّمينُ الحلبيُّ: "قلتُ: فَجَعَلَه مِن بابِ الكنايةِ؛ لأنَّه دِلالةٌ على الشَّيءِ بلازِمِه نحو: هو طويلُ النِّجادِ؛ كَنيتَ به عن طولِ قامتِهِ؛ لأنَّ طولَ نِجادِه لازِمٌ لِطولِ قامتِهِ، وهو بابٌ بليغٌ"[4].

استعجالُ الكُفّارِ العذابَ كان على وجه التَّكذيبِ والإنكارِ مِنهُم

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/194.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/153.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/241.
(4) السّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 6/218.

فقولُه تعالى: ﴿وَقَدۡ كُنتُم بِهِۦ تَسۡتَعۡجِلُونَ﴾؛ أي: تكذيبًا واستهزاءً، وهي جملةٌ وقعَتۡ حالًا مِن فاعِلِ ﴿ءَامَنتُم﴾ المقَدَّرِ؛ لِتشديدِ التَّوبيخِ والتّقريعِ وزيادةِ التَّنديمِ والتَّحسيرِ[1].

استِعجالُ المُشرِكينَ العذابَ، وسُرعَةُ طَلَبِهِم وُقوعَهُ، دلالةٌ على عدمِ تقديرِ العواقبِ

دلالةُ (قد) على التّحقيقِ في السّياقِ الدّقيقِ:

جاءَ الحرفُ (قَد) في قولِ اللّه ﷻ: ﴿وَقَدۡ كُنتُم بِهِۦ تَسۡتَعۡجِلُونَ﴾ لبيانِ تحقيقِ استعجالِهِم، والحديثِ عَن سُرعَةِ طَلبِهِم وُقوعِ هذا العذابِ، وإذا دَخَلت (قد) على الأفعالِ؛ دلَّ ذلكَ على قوَّتِها، وزيادةِ تأكيدِ هذه الأفعالِ، وما نيطَ بها مِن مُتَعَلّقاتٍ ارتبطَت بِها.

بيانُ الاهتمامِ بالوعدِ الّذي كذَّبَ به المُعانِدونَ

نُكتةُ تقديمِ الجارِّ والمجرورِ ﴿بِهِۦ﴾:

قُدِّمَ الجارُّ والمجرورُ في قولِ اللّه ﷻ: ﴿وَقَدۡ كُنتُم بِهِۦ تَسۡتَعۡجِلُونَ﴾، ولم يَرِدِ النَّظمُ القرآنيُّ: (وقد كنتُم تستَعجِلونَ بِهِ)؛ وذلكَ لإرادَةِ الاهتمامِ بالوعدِ الَّذي كذَّبوا بِهِ.

فائدةُ التَّعبيرِ بالفعلِ المضارعِ ﴿تَسۡتَعۡجِلُونَ﴾:

في التَّعبيرِ بالفعلِ المضارعِ ﴿تَسۡتَعۡجِلُونَ﴾ في قولِ اللّه ﷻ: ﴿وَقَدۡ كُنتُم بِهِۦ تَسۡتَعۡجِلُونَ﴾ استحضارُ الصّورةِ الماضيةِ - صورةِ استعجالِهِمُ العذابَ - وتَجدُّدُ هذا الاستعجالِ مِنهُم، والمُرادُ مِن ﴿تَسۡتَعۡجِلُونَ﴾: تُكذِّبونَ لا تَستعجلونَ، إلّا أنَّه وُضِعَ مَوضِعَهُ؛ لأنَّ المرادَ بِه الاستعجالُ السّابقُ، وهوَ ما حَكاه سبحانَه عَنهُم بقولِه تعالى: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ﴾، وكانَ ذلكَ تَهَكُّمًا منهم وتَكذيبًا واستِبعادًا، وفي العُدولِ استحضارٌ لِتلكَ المَقالةِ الشَّنيعَةِ، فَيَكونُ أبلَغَ مِن تُكذِّبونَ[2].

استحضارُ مَقالةِ المُشرِكينَ الشّنيعةِ، تدُلُّ على أنّ الزّيغَ فيهم طبيعةٌ

❁ الفُروقُ المُعجَمِيَّةُ:

الإتيانُ والمَجيءُ:

الإتيانُ: مَجيءٌ بسهولةٍ، ومنه قِيلَ لِلسَّيل المارِّ على وجهِهِ: أَتِيٌّ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/153.

(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 11/153.

وأَتاوِيٌّ، والإتيانُ يُقالُ لِلمجيءِ بالذّاتِ وبالأمرِ وبالتَّدبيرِ، ويُقالُ في الخيرِ وفي الشَّرِّ، وفي الأعيانِ والأعراضِ، نحو قولِه تعالى: ﴿إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ﴾ [الأنعام: 40][1]. أمّا المجيءُ وإنْ كان كالإتيانِ إلّا أنَّه أعمُّ منهُ، وهو "يُقالُ اعتبارًا بالحصولِ، ولِمَن قَصَدَ مكانًا أو عملًا أو زمانًا"[2]. وقال أبو هلال العسكريُّ: "الفرقُ بينَ قولِكَ: جاءَ فُلانٌ وأَتَى فُلانٌ؛ أنَّ قولَكَ: جاءَ فُلانٌ، كلامٌ تام لا يحتاجُ إلى صِلَةٍ، وقولكَ: أتى فُلانٌ، يقتضي مَجيئه بشيءٍ، ولِهذا يُقالُ جاءَ فلانٌ نَفسُه، ولا يُقالُ أتَى فُلانٌ نفسه، ثُمَّ كَثُر ذلكَ حتَّى استُعمِلَ أحدُ اللَّفظَينِ في مَوضِعِ الآخرِ"[3].

المجيءُ يُقالُ لِمَن قَصَدَ مكانًا أو عملًا أو زمانًا، وهو أعمُّ مِنَ الإتيانِ

(1) الرّاغب، المفردات: (أتى).
(2) الرّاغب، المفردات: (جاء).
(3) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 330.

﴿ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡخُلۡدِ هَلۡ تُجۡزَوۡنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمۡ تَكۡسِبُونَ ٥٢﴾ [يونس: 52]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الرّبطُ بينَ عذابِ الدّنيا وعذابِ الخلدِ في الآخرةِ، وهو أشدُّ وأنكى

لَمّا كانَ ما تقدَّمَ ذِكرُه مِنَ العذابِ هوَ العَذاب الدُّنيويّ؛ أُتبِعَ بالإعلام أنَّ العذابَ الدُّنيويَّ ليسَ هوَ ما يُقتصَرُ عليه في جزائِهم، وإنَّما يَلحَقُهُم عذابُ الآخرةِ أيضًا، فقال الله ﷻ: ﴿ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡخُلۡدِ﴾[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلۡخُلۡدِ﴾: أصلُ (خلد): يدُلُّ على الثَّباتِ والمُلازَمَةِ، فيُقالُ: خَلَدَ: أقامَ، وأخلَدَ أيضًا. ويقولونَ رَجُلٌ مُخلَدٌ ومُخلِدٌ، إذا أبطأَ عنه المَشيبُ؛ لأنَّ الشَّبابَ قد لازَمَه ولازَمَ هو الشَّبابَ[2]. ويُقالُ أخلَدَ إلى الأرضِ إذا لَصِقَ بها. والخُلدُ: مِن أسماءِ الجِنانِ، والخُلودُ: البقاءُ فيها[3]. والخَلَدُ: البالُ، تقولُ: ما يَقَعُ ذلك في خَلَدي؛ وسُمِّيَ بذلكَ لأنَّه مُستَقِرٌّ في القلبِ ثابِتٌ[4]. والمقصودُ بالخُلدِ في الآيةِ: الثَّباتُ الدّائمُ والبقاءُ اللّازمُ الَّذي لا يَنقطعُ[5].

2) ﴿تَكۡسِبُونَ﴾: أصلُ (كسب): يدُلُّ على ابتِغاءٍ وطَلَبٍ وإصابةٍ. يُقالُ: كَسَبتُ الشَّيءَ؛ أي: طَلَبتُهُ[6]، ومِنه الكَسبُ: وهو ما يتَحرّاه الإنسانُ ممّا فيه اجتلابُ نَفعٍ، وتَحصيلُ حظٍّ، كَكَسبِ المالِ، وقد يُستعمَلُ فيما يَظُنُّ الإنسانُ أنَّه يَجلِبُ مَنفعةً، ثمَّ استُجلِبَ به

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/138.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (خلد).
(3) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة: (خلد).
(4) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (خلد).
(5) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/110.
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (كسب).

مَضرَّةٌ. والكَسبُ يُقالُ فيما أخذَه لنَفسِه ولغيرِه؛ ولهذا قد يَتعدَّى إلى مَفعولَين، فيقالُ: كَسَبتُ فلانًا كذا. والاكتِسابُ لا يُقالُ إلّا فيما استفدتَه لنفسِكَ[1]. ويُطلَقُ الكَسبُ على الجرحِ؛ أي: فِعلُ الشَّيءِ بالجارحةِ، والكَواسِبُ: الجَوارحُ مِنَ الإنسانِ والطَّيرِ[2]. والمرادُ بالكَسبِ في الآيةِ: ما يُحصِّلُه المَرءُ بعلمِه لإرادةِ نَفعِ نفسِه.

المَعْنى الإجْمالِيُّ:

الجزاءُ لا يكونُ إلّا جزاءَ الكفرِ والعصيانِ

يُبَيِّنُ اللّه تعالى في الآيةِ أنَّه يُقالُ يومَ القيامةِ للَّذين ظَلَموا أنفُسَهم: تجرَّعوا العَذابَ الدّائمَ الَّذي لا ينقَطِعُ، فهل يُجازيكم اللّه إلّا بما كُنتُم تَعملونَ في الدُّنيا مِنَ الكُفرِ والتَّكذيبِ والمعاصي؟[3].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالةُ ﴿ثُمَّ﴾ في السّياقِ:

بيانُ مَنزِلَةِ عذابِ الآخرةِ مِن عذابِ الدُّنيا، وأنَّه أعظَمُ وأشَدُّ

﴿ثُمَّ﴾ في قولِ اللّه ﷻ: ﴿ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡخُلۡدِ﴾ عاطِفَةٌ على (قيلَ) المقَدَّرَةِ قَبلَ ﴿ءَآلۡـَٔـٰنَ﴾؛ لِتَوكيدِ التّوبيخِ، وهي مُستَعمَلَةٌ هُنا في معنى التَّراخي الرُّتبيِّ، فهذا عذابٌ أعظمُ مِنَ العذابِ الَّذي في قوله: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِنۡ أَتَىٰكُمۡ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوۡ نَهَارًا﴾ [يونس: 50]، فإنَّ ذلِكَ عذابُ الدُّنيا، وأمّا عذابُ الخُلدِ فهو عذابُ الآخرةِ، وهذا أعظَمُ مِن عذابِ الدُّنيا، فذلِكَ مَوقِعُ عطفِ جُملَتِه بحَرفِ (ثُمَّ)[4].

دلالةُ التَّعبيرِ عن المُستَقبَلِ بالفعلِ الماضي: ﴿قِيلَ﴾:

ما أخبَرَ اللّه ﷻ بكونِهِ؛ فهوَ كائِنٌ لا مَحالَةَ

الفعلُ الماضي ﴿قِيلَ﴾ مِن قولِ اللّه ﷻ: ﴿ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡخُلۡدِ﴾ يُرادُ به المستقبَلُ، والمعنى: ثُمَّ يُقالُ للّذينَ ظلَموا، وفي

(1) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (كسب).
(2) ابن منظور، لسان العرب، والزَّبيدي، تاج العروس: (كسب).
(3) ابن جرير، جامع البيان: 12/191، والشّوكانيّ، فتح القدير: 2/514، والسّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 366.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/195، 194.

التَّعبيرِ بالماضي عنِ المستقبَلِ إشعارٌ بتحقُّقِ الوقوعِ، حيثُ نُزِّلَ ما يكونُ مَنزِلَةَ ما هوَ كائنٌ بالفعلِ، وذلك مُشعِرٌ بصدقِ القائلِ، وعظيم قُدرَتِه على إيجادِ ما يُريدُ كَونَهُ، وقد وردَ هذا الأسلوبُ - وهو التَّعبيرُ عنِ المُستقبَلِ بالفعلِ الماضي - كثيرًا في القرآنِ الكريمِ، ومنه قولُ اللّه سُبحانَهُ: ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ﴾ [النّحل: 1].

نُكتةُ بناءِ الفعلِ ﴿قِيلَ﴾ لِما لَم يُسَمَّ فاعِلُه:

بُنِيَ الفعلُ ﴿قِيلَ﴾ في قولِ اللّه ﷻ: ﴿ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡخُلۡدِ﴾ لما لَم يُسَمَّ فاعِلُه للعِلمِ بِهِ؛ إمّا بنسبَةِ القولِ إليه ﷺ، أو بنسبَةِ القولِ إلى الملائكةِ الموكَّلَةِ بحشرِهِم ومُجازاتِهِم. ويجوزُ أن يكونَ الفعلُ ﴿قِيلَ﴾ قد بُنِيَ للمَفعولِ؛ لإرادَةِ العُمومِ؛ أي: يقولُ لَهُم ذلكَ كُلُّ مَن يتأتَّى مِنه القولُ؛ لظهورِ ظُلمِهِم لكلِّ أحدٍ، ووُضوحِ استِحقاقِهِم هذا الجزاءَ.

ظُهورُ ظُلمِ أهلِ الشِّركِ، ووُضوحُ استِحقاقِهِمُ العذابَ في الآخرةِ

دلالةُ اللّامِ في شبه الجملةِ ﴿لِلَّذِينَ﴾:

اللّامُ في ﴿لِلَّذِينَ﴾ مِن قولِ اللّه ﷻ: ﴿ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡخُلۡدِ﴾ أفادَتِ التَّخصيص؛ أي: قِيلَ لَهُم خاصَّةً لِتكذيبِهِم؛ إذْ هُمُ المَخصوصون بهذا التَّوبيخِ والتَّقريعِ لا أحَدَ سِواهُم.

والاسمُ الموصولُ (الّذين) دالٌّ على العُمومِ، والمَعنى: ثُمَّ قِيلَ لكلِّ الظّالِمينَ ذوقوا عذابَ الخلدِ، ويجوزُ أن يكونَ هذا العُمومُ مُرادًا به الخصوصُ، وهُمُ الظّالمونَ الكاملونَ في الظُّلمِ؛ وهُمُ المشرِكونَ الشِّركَ الأكبَرَ، لا عمومَ مَن وَقَعَ في أيِّ ظُلمٍ.

أشدُّ النّاسِ استِحقاقًا لِعذابِ الخُلدِ هُمُ المُشرِكونَ

نُكتةُ التَّعبيرِ بالاسمِ الموصولِ وصِلَتِه:

التَّعبيرُ بالموصولِ في قولِ اللّه ﷻ: ﴿ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡخُلۡدِ﴾ لزيادَةِ تقريرِ الغَرضِ المَسوقِ له الكلامُ؛ وهوَ زيادةُ تقريعِهِم وإهانَتِهِم بَعدَ أن وضَعوا الكُفرَ والتَّكذيبَ مَوضِعَ الإيمانِ والتَّصديقِ، أو ظَلَموا أنفسَهم بتعريضِها لِلعذابِ والهلاكِ، فاستَحقّوا أنْ يُعبرَّ عَنهُم بما تضمَّنَته الصِّلَةُ، وهي ﴿ظَلَمُواْ﴾.

تَقريعُ المُشرِكينَ لِوَضعِهِمِ الكُفرَ مَوضِعَ الإيمانِ، والتَّكذيبَ مَوضِعَ التَّصديقِ

سرُّ الإظهارِ في مَوضِعِ الإضمارِ:

في قولِ اللّه ﷻ: ﴿ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡخُلۡدِ﴾، وضعُ المُظهَرِ مَوضِعَ المُضمَرِ؛ وذلك لأنَّ مُقتضَى الظّاهِرِ أنْ يَرِدَ النَّظمُ القرآنيُّ: (ثُمَّ قِيلَ لَهُم ذوقوا عذابَ الخُلدِ)، والنُّكتَةُ في العُدولِ عنِ المُضمَرِ إلى المُظهَرِ: "تسجيلُ وصفِ الظُّلمِ عليهم، وهو ظُلمُ النَّفسِ بالإشراكِ، ومعنى ظَلَموا: أشرَكوا"[1].وفيه إيذانٌ "بكونِ التَّكذيبِ ظُلمًا، أو بعلِّيَّتِه لإصابَةِ ما أصابَهُم مِن سوءِ العاقبةِ، وبدخولِ هؤلاءِ الظّالمينَ في زُمرتِهم جُرمًا ووعيدًا دخولًا أوّليًّا"[2].

الشِّركُ أعظَمُ أسبابِ سوءِ العاقِبَةِ في الآخرةِ

بلاغةُ المجازِ في التَّعبيرِ عن الإحساسِ بالعذابِ بتذوُّقِهِ:

الذَّوقُ في قولِ اللّه ﷻ: ﴿ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡخُلۡدِ﴾ مُستعمَلٌ مجازًا في الإحساسِ بحاسَّةِ اللَّمسِ، وهو مُجازٌ مُرسَلٌ، بعلاقةِ الملزوميَّةِ؛ إذِ الإحساسُ لازِمٌ للذَّوقِ.

عَذابُ المُشرِكينَ في الآخرةِ مُتَزايِدٌ لا حَدَّ لِمُنتَهاهُ

وجائزٌ أن تكونَ الآيةُ مِن قبيلِ الاستعارةِ؛ وذلك لكونِ الذَّوقِ أقوى الحواسِّ المباشرَةِ للجسمِ، فيُشبَّه به إحساسُ الجِلدِ، فيكونُ في قولِ اللّه سُبحانَهُ: ﴿ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡخُلۡدِ﴾ استعارةٌ تصريحيَّةٌ تبعيَّةٌ.

وفي التَّعبيرِ بالذَّوقِ وعيدٌ عظيمٌ؛ حيثُ جُعِلَ ما هُم فيه مِنَ العذابِ الأليمِ الشَّديدِ بمَنزِلَةِ الذَّوقِ الّذي هوَ مُقدِّمَةٌ للطَّعامِ، فكذلكَ عذابُهُم الّذي يُقاسونَهُ، يَعقُبُه ألوانٌ مِنَ العذابِ أشدُّ ممّا هُم فيه، كما يُشيرُ إلى ذلكَ قولُ اللّه سُبحانَهُ: ﴿فَذُوقُواْ فَلَن نَّزِيدَكُمۡ إِلَّا عَذَابًا﴾ [النّبأ: 30].

نُكتةُ إضافةِ العذابِ إلى الخُلدِ:

في إضافةِ العذابِ إلى الخُلدِ في قولِ اللّه ﷻ: ﴿ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡخُلۡدِ﴾ إيماءٌ إلى استِمرارِهِ، فهو عذابٌ دائِمٌ مُؤلِمٌ لا يَنقَطِعُ عنهُم

شِدَّةُ عذابِ المُشرِكينَ ودوامُهُ، مِن أشدِّ البلاءِ وأقساهُ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/195.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/153.

أبدًا، كما قال اللّه سُبحانَهُ: ﴿لَا يُقۡضَىٰ عَلَيۡهِمۡ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُم مِّنۡ عَذَابِهَاۚ﴾ [فاطر: 36].

والأمرُ بالذَّوقِ في قوله: ﴿ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡخُلۡدِ﴾ دالٌّ على تَحقيرِ شَأنِهم والتَّهَكُّم بِهِم، والمرادُ: هذا العَذابُ الَّذي كُنتُم تَستَعجِلونَه سُخريةً واستهزاءً ذوقوهُ؛ خالِدينَ فيهِ، لا يَنقَطِعُ عنكُم أبدَ الآبِدينَ.

علَّةُ الفَصلِ في: ﴿هَلۡ تُجۡزَوۡنَ﴾:

فُظاعَةُ عذابِ المُشرِكينَ في الآخرةِ، على قَدرِ ما اكتَسَبوه مِنَ الآثامِ في الدُّنيا

فُصِلَ قولُ اللّه ﷻ: ﴿هَلۡ تُجۡزَوۡنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمۡ تَكۡسِبُونَ﴾ عمّا قبلَهُ؛ لِشِبه كمالِ الاتّصالِ، وهو المُسمَّى الاستئنافَ البيانيَّ، وذلكَ أنَّ قولَ اللّه سُبحانَهُ: ﴿هَلۡ تُجۡزَوۡنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمۡ تَكۡسِبُونَ﴾ واردٌ جوابًا عن سؤالٍ يُفهَمُ مِنَ الجُملةِ السّابقةِ؛ والمعنى: ماذا كانَ الرَّدُّ بَعدَ أن قيلَ لَهُم: ﴿ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡخُلۡدِ﴾، وما السَّبَبُ الدّاعي لإذاقَتِنا هذا العذابَ، فكانَ الجوابُ والرَّدُّ: ﴿هَلۡ تُجۡزَوۡنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمۡ تَكۡسِبُونَ﴾، قال ابنُ عاشورٍ: "وجملةُ: ﴿هَلۡ تُجۡزَوۡنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمۡ تَكۡسِبُونَ﴾ استِئنافٌ بيانيٌّ؛ لأنَّ جملةَ: ﴿ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡخُلۡدِ﴾ تُثيرُ سُؤالًا في نُفوسِهم عَن مِقدارِ ذلكَ العذابِ، فيكونُ الجوابُ على أنَّه على قَدرِ فَظاعَةِ ما كَسَبوه مِنَ الأعمالِ مَعَ إفادةِ تعليلِ تسليطِ العذابِ عليهِم"[1].

دلالةُ الاستفهامِ في جملةِ الاستفهامِ ﴿هَلۡ تُجۡزَوۡنَ﴾:

الشِّركُ والتَّكذيبُ أعظمُ أسبابِ التَّعذيبِ

جاءَ الاستفهامُ في قولِ اللّه ﷻ: ﴿هَلۡ تُجۡزَوۡنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمۡ تَكۡسِبُونَ﴾ بحرفِ الاستفهام ﴿هَلۡ﴾، وهيَ هنا بمعنى النَّفي؛ والتَّقديرُ: ما تُجزَونَ هذا إلّا بِسببِ ما ارتَكبتموه مِن أعمالِ الشِّركِ والتَّكذيبِ واستعجالِ العذابِ.

فالاستفهامُ في قولِه: ﴿هَلۡ تُجۡزَوۡنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمۡ تَكۡسِبُونَ﴾

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/195.

استفهامٌ إنكاريٌّ؛ بمعنى النَّفي؛ أي: ما تُجزَونَ، فلمّا قيلَ لَهُم: ﴿ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡخُلۡدِ﴾ كأنَّهم أنكروا وُقوعَه، فقالوا في أنفسِهم: ما سببُ هذِه الإذاقَة؟ فكانَ الرَّدُّ عليهم بهذا الاستفهامِ.

نُكتةُ بناءِ الفعلِ ﴿تُجۡزَوۡنَ﴾ لِما لَم يُسَمَّ فاعِلُهُ:

تحقيرُ شأنِ المُشركينَ المُعَذَّبينَ، والحَطُّ مِن أقدارِهم جزاءَ أفعالِهم

بُنِيَ الفعلُ المضارعُ ﴿تُجۡزَوۡنَ﴾ لِما لم يُسمَّ فاعلُه في قولِ اللّه ﷻ: ﴿هَلۡ تُجۡزَوۡنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمۡ تَكۡسِبُونَ﴾ للعلمِ بمَن يجازيهِم على أفعالِهم، وهوَ اللّه تعالى، أو الملائكةُ الموكَّلةُ بالعذابِ، ولكنَّها صادرةٌ عَن أمرِ اللّه سُبحانَهُ، ويجوزُ أن يُطوَى التَّصريحُ بالفاعلِ؛ تحقيرًا لأمرِهم وتنزيلًا لِشأنِهم.

وسُمّي الحسابُ والعقابُ جزاءً؛ لأنَّ مَن يَعمَلُ عَملًا إنَّما يُجازَى عليه، فأُطلِقَ المُسبَّبُ؛ وهوَ الجزاءُ، وأُرِيدَ السَّبَب؛ وهو ما ارتَكَبوه مِنَ الشِّركِ والتَّكذيبِ.

بلاغةُ القَصرِ الحقيقيِّ:

العذابُ في الآخرةِ على قَدرِ الأعمالِ القبيحةِ، ومَن يعملْ سوءًا يُجزَ بِهِ

في قولِ اللّه ﷻ: ﴿هَلۡ تُجۡزَوۡنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمۡ تَكۡسِبُونَ﴾ قَصرُ صفةٍ على موصوفٍ قصرًا حَقيقيًّا، وهو قَصرُ صفةِ الجزاءِ على كسبِ الأعمالِ القبيحةِ والأفعالِ الشَّنيعةِ مِنَ الشِّركِ والتَّكذيبِ بالوعدِ معَ استعجالِ وقوعِه استهزاءً وسخرية عليهم، وهذا القصرُ واقِعٌ بالنَّفي والاستثناء، وهو أبلغُ طُرقِ القصرِ، وفيه تنبيهٌ على أنَّ اللّه سُبحانَه لم يظلِمهُم، وأنَّه إنَّما أوقَعَ عليهم مِنَ العذابِ ما يُقابِلُ قبيحَ أفعالِهم.

دلالةُ الباءِ و(ما) في: ﴿بِمَا﴾:

الذُّنوبُ والمَعاصي يُعذَّبُ بها الآخذُ بالنّواصي

الباءُ في قولِ اللّه ﷻ: ﴿هَلۡ تُجۡزَوۡنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمۡ تَكۡسِبُونَ﴾ لِلسَّبَبيَّةِ، و(ما) اسمٌ موصولٌ بمعنى: الّذي، والعائدُ محذوفٌ، والمعنى: هل تُجزَونَ إلّا بِسببِ الَّذي كَسَبتُموه مِنَ المعاصي والذُّنوبِ.

نُكتةُ التَّعبيرِ بالكَسبِ مادَّةً وصيغَةً:

الإصرارُ على الكفرِ والعصيانِ، جُعِلَ كأنَّه كَسبٌ بالنِّسبَةِ لَهُم

جاءَ التَّعبيرُ بالكسبِ في قولِ اللّه ﷻ: ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾، و"الكَسبُ: الفعلُ العائِدُ على فاعِلِه بِنفعٍ أَو ضُرٍّ، وقال بعضُهم: الكَسبُ ما وقَعَ بمراسٍ وعِلاج، وقال آخرونَ: الكَسبُ ما فُعِلَ بِجارِحَةٍ، وهو الجرحُ، وبِه سُمِّيَتْ جوارحُ الإنسانِ جَوارحَ، وسُمِّيَ ما يُصادُ بِه جَوارِحَ وكَواسِبَ"[1]، ولَمّا وقعَت مِن هَؤلاءِ الذُّنوبُ والمعاصي وُصِفَتْ هُنا بأنَّها مَكاسِبُ أيديهِم وهوى أنفسِهِم، ومُكتَسِبُ الشَّيءِ مَجزيٌّ بِهِ، والمرادُ: استَمرَرتُم على كَسْبِه في الدُّنيا مِن أصنافِ الكُفرِ الّتي مِن جُملَتِها ما مَرَّ مِنَ الاستعجالِ، وزادَ غيرُ واحدٍ في البيانِ سائرَ أنواعِ المعاصي بناء أنَّ الكُفّارَ مُخاطَبونَ بفروعِ الشَّريعةِ، فَيُعذَّبونَ على ذلكَ[2]. فلمّا كانوا مُصرِّينَ على كفرِهِم وعصيانِهِم؛ جُعِلَ ذلكَ كَسبًا بالنِّسبةِ لَهُم.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الكَسبُ والفِعلُ والعَمَلُ والصُّنعُ:

مِن سعةِ العربيّةِ اختِصاصُ كُلِّ لفظٍ بدلالةٍ تُمَيِّزُه عمّا يُقارِبُهُ

الكَسبُ: "ما يَتَحراه الإنسانُ ممّا فيه اجتلابُ نَفعٍ، وتَحصيلُ حَظٍّ، كَكَسبِ المالِ، وقد يُستَعمَلُ فيما يَظُنُّ الإنسانُ أَنَّه يَجلِبُ مَنفَعَةً، ثُمَّ استُجلِبَ بِه مَضَرَّةٌ. والكَسبُ يقالُ فيما أَخذَه لِنفسِه ولِغيرِه، ولهذا قد يتعدَّى إلى مفعولَينِ"[3].

أمّا الفعلُ فهو "عبارةٌ عَمّا وُجِدَ في حالٍ كانَ قبلَها مَقدورًا، سواء كانَ عنَ سببٍ أو لا"[4].

وقال الرّاغِبُ: "الفِعلُ: التَّأثيرُ مِن جِهَةِ مُؤَثِّرٍ، وهوَ عامٌّ لِما كانَ

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 143.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 11/153.
(3) الرّاغب، المفردات: (كسب).
(4) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 138.

بإجادَةٍ أو غَيرِ إجادَةٍ، ولِما كانَ بعلم أو غيرِ علمٍ، وقصدٍ أو غيرِ قصدٍ، ولِما كانَ مِنَ الإنسانِ والحيوانِ والجماداتِ، والعملُ مثلُهُ، والصُّنعُ أخصُّ منهُما"[1].

(العَمَلُ): إيجادُ الأثرِ في الشَّيءِ، يُقالُ: فُلانٌ يَعمَلُ الطّينَ خَزَفًا، ولا يُقالُ: يَفعلُ[2].

وعندَ الرّاغبِ: "كُلُّ فِعلٍ يكونُ مِنَ الحيوانِ بقصدٍ، فهو أخصُّ مِنَ الفعلِ؛ لأنَّ الفِعلَ قد يُنسَبُ إلى الحيواناتِ الَّتي يقعُ منها فِعلٌ بغيرِ قصدٍ، وقد يُنسَبُ إلى الجماداتِ، والعملُ قلَّما ينسَبُ إلى ذلكَ، ولَم يُستعمَلْ العملُ في الحيواناتِ إلا في قولهم: البَقَرُ العَوامِلُ، والعملُ يُستَعمَلُ في الأعمالِ الصّالحةِ والسَّيِّئةِ"[3].

وأمّا الصُّنعُ فهو تَرتيبُ العملِ وإحكامُه على ما تقدَّمَ عِلمٌ بِهِ، وبما يوصِّلُ إلى المُرادِ منهُ، ولذلكِ قِيلَ للنَّجّارِ صانِعٌ، ولا يُقالُ للتّاجِرِ صانِع؛ لأنَّ النَّجّارَ قد سَبَقَ علمُه بما يُريدُ عَمَلَه مِن سريرٍ أو بابٍ، وبالأسبابِ الَّتي توصِّلُ إلى المُرادِ مِن ذلكَ، والتّاجرُ لا يَعلَمُ، فالعملُ لا يَقتضي العِلمَ بما يَعمَلُ له، والصُّنعُ أيضًا مُضَمَّنٌ بالجودَةِ، ولهذا يُقالُ: ثَوبٌ صنيعٌ وفُلانٌ صَنيعَةُ فلانٍ؛ إذا استخصَّه على غيرِه[4].

وفي مُفرداتِ الرّاغبِ: "الصُّنعُ: إجادةُ الفعلِ، فكلُّ صُنعٍ فِعلٌ، وليسَ كلُّ فعلٍ صُنعًا، ولا يُنسَبُ إلى الحيواناتِ والجماداتِ، كما يُنسَبُ إليها الفعلُ، قال تعالى: ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [النّمل: 88]، يُقالُ للحاذِقِ المُجيدِ: صَنَعٌ، وكما قيل: يَدٌ صَناعٌ"[5].

(1) الرّاغب، المفردات: (فعل).
(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 140.
(3) الرّاغب، المفردات: (عمل).
(4) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 141.
(5) الرّاغب، المفردات: (صنع).

﴿۞وَيَسۡتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَۖ قُلۡ إِي وَرَبِّيٓ إِنَّهُۥ لَحَقّٞۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ ٥٣﴾ [يونس: 53]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

مِن مَقاصِدِ التَّهديدِ رَدُّ المُعانِدِ عن العِنادِ إلى مبادِئِ الانقيادِ

لمّا انقضى ما اشتَمَلَت عليه الآيةُ المُتقدِّمَةُ مِنَ التَّهديدِ والوعيدِ؛ بيَّنَ اللّه سُبحانَه أنَّهم آلوا إلى ما هو حقيقٌ بسامِعِ ذلكَ مِنَ النُّزولِ عن ذلك العِنادِ إلى مبادئِ الانقيادِ، فقال اللّه سُبحانَهُ: ﴿۞وَيَسۡتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَۖ قُلۡ إِي وَرَبِّيٓ إِنَّهُۥ لَحَقّٞۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ﴾[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَيَسۡتَنۢبِـُٔونَكَ﴾: أصلُ (نبأ): الإتيانُ مِن مكانٍ إلى مكانٍ. يُقالُ للَّذي يَنبَأُ مِن أرضٍ إلى أرضٍ نابِئٌ. وسَيلٌ نابِئٌ: أتَى مِن بَلَدٍ إلى بَلَدٍ، ورَجُلٌ نابِئٌ مِثلُهُ. ومِنه النَّبأُ: الخبرُ؛ لأنَّه يأتي مِن مكانٍ إلى مكانٍ. والمُنبِئُ: المُخبِرُ. وأنبَأتُه ونَبَّأتُهُ. والنَّبأةُ: الصَّوتُ؛ لأنَّ الصَّوتَ يجيءُ مِن مكانٍ إلى مكانٍ، ومَن هَمَزَ النَّبيَّ فلأنَّه أنبأَ عن اللّه تعالى[2]. والنُّبوَّةُ: سِفارَةٌ بينَ اللّه وبينَ ذوي العُقولِ مِن عِبادِه لإزاحةِ عِللهم في أمرِ مَعادِهم ومَعاشِهم. وتَنَبَّأَ فلانٌ: ادَّعى النُّبوَّةَ[3]. والاستِنباءُ: الاستِخبارُ[4]، والمقصودُ بالاستنباءِ في الآيةِ: طلبُ النَّبأ، وهو الإخبارُ بأمرٍ غائبٍ[5].

2) ﴿إِي﴾: حرفُ جوابٍ يتعقَّبُه القَسَمُ، وهو بمعنى: نَعَم. ومنه قولهم: إي واللّه. ولو قِيلَ لكَ: أقامَ زيدٌ؟ قلتَ: إي وسكت، أو: إي قامَ زيدٌ لم يجز؛ لعدمِ وجودِ القسَمِ. وبعضُهم يُعبِّرُ عنها بأنَّها كلمةٌ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/139.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نبأ).
(3) الرّاغب، المفردات: (نبأ).
(4) الصّاغانيّ، التّكملة: (نبأ).
(5) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 6/1030.

موضوعةٌ لتحقيقِ كلامٍ مُتقدِّمٍ، نحو: "إي وربّي". وقد كَثُرَ ورودُ هذه الكلمةِ حتّى حذفوا جملتي القَسَمِ وجوابِهِ، وأبقوا حرفًا موصولاً بإي، فيقولون: أي، ويريدون: إي واللّه[1]. والمرادُ بـ ﴿إِى﴾ في الآيةِ: حَرفُ جَوابٍ يُحَقَّقُ به المَسؤولُ عنهُ[2].

المَعْنى الإجْماليُّ:

يطلبُ المشركونَ مِنَ النَّبيِّ ﷺ أخبارًا عَن هذا اليومِ، يوم القيامة، وما يَلقى النّاسُ فيه، وما أعدَّ اللّه للأخيارِ منهُم مِن ثوابٍ، وما رصَدَ للأشرارِ مِن عقابٍ، فإذا تحدَّثَ النَّبيُّ إليهم بشيءٍ مِن هذا، عقَّبوا على ذلكَ مُستهزئينَ ساخرينَ؛ بقولهم: (أحقٌّ هو؟) أي: أهذا الَّذي تُحدِّثُ به هو حقٌّ وجدٌّ؟ أم أنَّك تكذبُ وتهزلُ؟ إنَّهم لا يُصدِّقونَ بهذا اليومِ، ومع هذا فَهُم يَستنبئونَ عن أخبارِهِ. متى هو؟ وأينَ هو؟ وكيفَ هو؟ وذلك كلُّه على سبيلِ الاستهزاءِ والسُّخريةِ. فقُلْ لهم يا محمَّدُ ﷺ: نَعَم، وأُقسِمُ بربّي إنَّ ما وعَدتُكم به لَحَقٌّ واقعٌ، لا شكَّ فيه، وما أنتُم بفائِتي اللّه؛ فهو قادرٌ عليكم[3].

وَعدُ الله تعالى حقٌّ ثابتٌ، وواقعٌ حاصِلٌ، لا يعجزُه شيءٌ، ولا يتأبّى عليه مَأمورٌ

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ العطفِ بالواو في: ﴿وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ﴾:

عُطِفَ قولُ اللّه ﷻ: ﴿وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ﴾ على ما سَبقَ لِكونِها "حِكايةَ فنٍّ مِن أفانينِ تكذيبِهِم، فَمَرَّةً يتظاهرونَ باستبطاءِ الوَعدِ استِخفافًا بِهِ، ومرَّةً يُقبِلونَ على الرَّسولِ في صورةِ المُستَفهِمِ الطّالِبِ فيسألونَهُ: أهذا العذابُ الخالِدُ؛ أي: عذابُ الآخرةِ، حقٌّ. فالجملةُ معطوفةٌ على جملةِ ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾"[4].

سُلوكُ الكُفّارِ أفانينَ مُختَلِفَةً في التَّكذيبِ

(1) السّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (إي)، والمراديّ، الجنى الدّاني، ص: 235.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/196.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 12/191، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 8/351، والسّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 366، والخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 6/1030.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/195.

نُكتةُ التَّعبيرِ بالاستِنباءِ:

هلاكُ المُكَذِّبينَ في الاستهزاءِ والسُّخريةِ بالنّبيِّ الأمينِ

يقولُ الآلوسيُّ: "الاستنباءُ: بمعنى طَلَبِ النَّبأ حقيقَة، لكنْ لا عن الحَقيقَةِ ومُقابِلِها بالمعنى المتَبادَرِ؛ لأنَّهُم جازِمونَ بالثّاني، بَلِ المُرادُ مِن ذلك الجِدُّ والهَزلُ، كأنَّهُم قالوا: إنّا جازِمونَ بأنَّ ما تقولُه كَذِبٌ، لكِنّا شاكّونَ في أنَّه جِدٌّ منكَ أم هَزلٌ، فأخبِرْنا عن حقيقةِ ذلكَ"[1].

فَلَم يقولوا: أنبِئنا، بَل حَكَى القرآنُ استِفهامَهُم واستِخبارَهُم عنه كثيرًا، فصارَ في الأسلوبِ مُفاعَلَةٌ مُستمرَّةٌ لا تَنقَطِعُ تهكُّمًا واستهزاءً، فَمُطالَبَتهم بالاستِخبارِ عنه دائمةٌ مُتجدِّدةٌ، فكأنَّهُم راجَعوه مرّاتٍ ومرّاتٍ: مَتَى هذا الوعدُ؟ والنَّبأ: "خبرٌ ذو فائِدَة عظيمةٍ يَحصُلُ به علمٌ أو غَلَبَةُ ظَنٍّ، ولا يُقالُ لِلخبرِ في الأصلِ نَبَأٌ حتَّى يتضمَّنَ هذِه الأشياءَ الثّلاثةَ، وحقُّ الخبرِ الَّذي يُقالُ فيه نَبَأٌ أَن يتعرَّى عنِ الكذبِ، كالتّواتُرِ، وخبرِ اللّه تعالى، وخبرِ النَّبيِّ ﷺ، ولتضمُّنِ النَّبَإِ معنى الخبرِ يُقالُ: أنبَأتُه بكذا، كقولِكَ: أخبرتُه بِكَذا، ولِتضمُّنِه معنى العِلمِ قِيلَ: أَنبَأتُه كذا"[2].

ودخولُ السِّينِ والتّاءِ على فعلِ النَّبأِ، فصارَ استنباءً على سبيلِ التَّهكُّمِ والاستهزاءِ، كما هو مَعروفٌ عنهُم وعن حالهم، كأنَّهُم أكثَروا مِن سُؤالِهم واستِخبارِهِم مِنَ النَّبيِّ ﷺ.

مَرجِعُ الضَّمائرِ في الفعلِ ﴿وَيَسْتَنْبِـُٔونَكَ﴾:

تَعيينُ مَرجِعِ الضَّمائرِ، يُجَلّي المعنى ويوَضِّحُ المقصودَ

واو الجماعةِ في قولِ اللّه ﷻ: ﴿وَيَسْتَنْبِـُٔونَكَ﴾ راجِعَةٌ إلى المُستَنبِئينَ لا غَيرِهِم، والكافُ فيه ضميرُ خطابٍ للنَّبيِّ ﷺ؛ لأنَّه هوَ المسؤولُ عن الإخبارِ بهذا النَّبأ.

المَوقِعُ النَّحويُّ لجملةِ: ﴿أَحَقٌّ هُوَ﴾:

الهمزةُ في قولِ اللّه ﷻ: ﴿أَحَقٌّ هُوَ﴾ لِلاستِفهامِ الإنكاريِّ

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 11/153.
(2) الرّاغب، المفردات: (نبأ).

استهزاءً وتَهَكُّمًا، و(حَقٌّ) خبرٌ مُقدَّمٌ، و﴿هُوَ﴾ مُبتدأٌ مُؤخَّرٌ، والجملةُ في محلِّ نصبِ مفعولٍ به لـ ﴿وَيَسْتَنْبِئُونَكَ﴾، وقِيلَ: في مَحلِّ نَصبِ بـ﴿وَيَقُولُونَ﴾، وتكون جملةُ ﴿وَيَسْتَنْبِئُونَكَ﴾ مُتَعَدّيةً لمفعولٍ واحدٍ، والأصلُ في استَنبَأَ تَعَدّيه إلى مفعولَين، الأوَّلُ: الكافُ، والآخرُ: جوابُ هذا السُّؤالِ.

أثرُ الإعرابِ في تبيانِ المعاني المُستَتِرَةِ، يبرزُ الدّلالةَ، ويُفصِحُ عنِ المرادِ

بلاغةُ الاستفهامِ في: ﴿أَحَقٌّ هُوَ﴾:

الاستفهامُ في قولِ اللّه ﷻ: ﴿وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ﴾ "على جهةِ الإنكارِ والاستِهزاءِ، وقرأَ الأعمش: (آلحقُّ هو)[1]، وهو أدخَلُ في الاستهزاءِ؛ لتضمُّنِه معنى التَّعريضِ بأنَّه باطلٌ، وذلكَ أنّ اللّامَ للجِنسِ، فكأنَّه قِيلَ: أهوَ الحقُّ لا الباطلُ؟ أو أهو الّذي سَمَّيتُموه الحقَّ"[2].

تعريضُ المُشرِكينَ الباطلُ ببُطلانِ مَوعودِ اللهِ سُبحانَه لهم

يقولُ ابنُ عاشورٍ: "والحقُّ: الثّابتُ الواقِعُ، فهو بمعنى حاقٍّ؛ أي: ثابت؛ أي: أنَّ وُقوعَه ثابتٌ، فأسندَ الثُّبوتَ لذاتِ العذابِ بتقديرِ مُضافٍ يدُلُّ عليه السّياقُ؛ إذ لا توصَفُ الذّاتُ بثُبوتٍ، وجملةُ: ﴿أَحَقٌّ هُوَ﴾ استفهاميَّةٌ مُعَلِّقَةٌ فِعلَ ﴿وَيَسْتَنْبِئُونَكَ﴾ عن العملِ في المفعولِ الثّاني، والجملةُ بيانٌ لجملةِ ﴿وَيَسْتَنْبِئُونَكَ﴾؛ لأنَّ مَضمونَها هوَ الاستثناءُ"[3].

سرُّ تقديمِ المُسنَدِ ﴿أَحَقٌّ﴾ على المسنَدِ إليه ﴿هُوَ﴾:

﴿أَحَقٌّ﴾ خبرٌ مُقدَّمٌ، و﴿هُوَ﴾ متبدأٌ مُؤخَّرٌ، وقُدِّمَ المسندُ للاهتمامِ بِهِ، والمعنى: أنَّ الحقَّ ما تقولُ أم خِلافُهُ؟ وجَعَلَه الزَّمخشريُّ مِن قَصرِ المُسندِ إليه على المُسندِ، حيثُ قال: "كأنَّه قِيلَ: أهو الحقُّ لا الباطِلُ، أو أهوَ الَّذي سمَّيتُموه الحقَّ[4]"، وأشارَ بالتَّرديدِ إلى أنَّ الغرضَ مِن هذا الوجه لا يَختلِفُ جَعلُ الحصرِ حَقيقيًّا تهكُّمًا أو

براعةُ البيانِ القُرآنيِّ في التَّصرُّفِ بالألفاظِ والمعاني

(1) ابن جنيّ، المحتسب في تبيينِ وجوه شواذِّ القراءاتِ: 1/312.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/241.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/196.
(4) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/241.

ادِّعائيًّا، واعتُرِضَ ذلكَ بأنَّه مُخالِفٌ لِما عليه عُلماءُ المعاني في مثلِ هذا التَّركيبِ؛ "إذ المعنى هنا: حَصرُ العذابِ في الحقيقةِ لا حَصرُ الحقيقةِ في العذابِ، وهوَ المُناسِبُ"[1].

أمرُ النَّبيِّ الأكرمِ بالبلاغِ مِن غيرِ اكتراثٍ لاستهزاءِ المُعانِدينَ

علَّةُ الفصلِ في: ﴿قُلْ إِي وَرَبِّيٓ﴾:

فُصِلَ قولُ اللهِ ﷻ: ﴿قُلْ إِي وَرَبِّيٓ﴾ عمّا قبلَهُ؛ لأنَّ بينَ الجملتَينِ شبهَ كمالِ الاتّصالِ، وهوَ المسمَّى: الاستئنافَ البيانيَّ، وذلك أنَّ قوله: ﴿أَحَقٌّ هُوَ﴾ أثارَ سُؤالًا، وهو: فما كانَ جوابُ النَّبيِّ ﷺ، فقيلَ: ﴿قُلْ إِي وَرَبِّيٓ﴾، والمعنى: قُلْ لَهُم غيرَ مُكترِثٍ باستهزائِهم مُغضيًا عمّا قَصَدوا بانيًا للأمرِ على أساسِ الحكمةِ: نَعَم إنَّ ذلكَ العذابَ الموعودَ ثابتٌ لَكُم[2].

إكرامُ النّبيِّ ﷺ بتَوَلّي الرَّدِّ عَلى مَقالاتِ المُشرِكينَ

فائِدَةُ التَّعبيرِ بالفعلِ ﴿قُلْ﴾:

جاءَ فِعلُ الأمرِ ﴿قُلْ﴾ مِن قولِ اللهِ ﷻ: ﴿قُلْ إِي وَرَبِّيٓ﴾ موجَّهًا للنَّبيِّ ﷺ على جِهَةِ الإلزامِ بالرَّدِّ على سُؤالِهم واستِخبارِهم عَن حَقيقَةِ هذا العَذابِ، وأنَّ الرَّدَّ منه ﷺ إكرامًا لَه ﷺ، ولَم يَكُنْ مِن قِبَلِ نَفسِهِ، بَلْ جاءَ الجوابُ تلقينًا لَهُ؛ ليَكونَ الرَّدُّ حاسِمًا.

خُصوصِيَّةُ الواوِ بالقسمِ، وأثرُها في المعنى

دِلالةُ: ﴿إِي﴾:

﴿إِي﴾ مِن قولِ اللهِ ﷻ: ﴿قُلْ إِي وَرَبِّيٓ﴾ حرفُ جوابٍ وتصديقٍ، بمعنى: نَعَم، ولا تُستَعمَلُ إلّا في القسمِ خاصَّةً، والواوُ في ﴿وَرَبِّيٓ﴾ واوُ القسمِ، وتأتي إذا لَم يُذكَرْ معها فِعلُ القسمِ، و(ربّي) مجرورٌ بها، وهُما مُتعلِّقانِ بفعلِ قسمٍ محذوفٍ، والتَّقديرُ: قُلْ أُقسِمُ برَبّي.

مُلاءَمَةُ قوَّةِ التَّوكيدِ؛ لِشدَّةِ إنكارِ المُشرِكينَ

نُكتةُ توالي المؤكِّداتِ:

أُكِّد الجوابُ في قولِ اللهِ ﷻ: ﴿قُلْ إِي وَرَبِّيٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ﴾ بأتمِّ وجوهِ التَّأكيدِ، حسَبَ شدَّةِ إنكارِهم، "فأكَّدَ الجوابَ بالتَّوكيدِ اللَّفظيِّ؛ إذْ

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 11/136.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 11/136.

جَمَعَ بينَ حَرفِ ﴿إِى﴾، وهوَ حرفُ جوابٍ يُحَقَّقُ به المسئولُ عَنهُ، وبينَ الجملةِ الدّالَّةِ على ما دلَّ عليه حرفُ الجوابِ، وبالقسمِ، وإنَّ، ولامِ الابتداءِ، وكُلُّها مُؤَكِّداتٌ، والاعتبارُ الثّاني: اعتبارُ قَصدِهِم مِن استِفهامِهِم، فأُجيبوا بقوله: ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ﴾"[1].

بلاغةُ الأسلوبِ الحكيمِ:

المُتَعَيِّنُ سُلوكُ طريقِ الاسترشادِ لا الاستهزاءِ

اشتَمَلَ الجوابُ المأمورُ به في قولِ اللّه ﷻ: ﴿قُلۡ إِى وَرَبِّيٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ﴾ على مُراعاةِ الحالَتَينِ، فاعتَبَرَ أوَّلًا ظاهِرَ حالِ سُؤالِهِم، فأُجيبوا على طريقةِ الأسلوبِ الحكيمِ، بِحَملِ كلامِهِم على خلافِ مُرادِهِم؛ تنبيهًا على أنَّ الأَولَى بِهِم سؤالُ الاسترشادِ تَغليطًا لَهُم، واغتنامًا لِفُرصةِ الإرشادِ، بناءً على ظاهرِ حالِ سؤالِهِم، والاعتبارُ الثّاني: اعتبارُ قصدِهِم مِن استفهامِهِم فأُجيبوا بقوله: ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ﴾[2].

دلالةُ الواوِ في ﴿وَمَآ﴾:

بيانُ عَجزِ أهلِ الشِّركِ والكُفرِ عن الخلاصِ مِن عذابِ الله تعالى

الواوُ في قولِ اللّه ﷻ: ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ﴾ إمّا عاطفةٌ لهذه الجملةِ على جملةِ جوابِ القَسمِ، أو حاليَّةٌ، أو استئنافيّةٌ، والجملةُ مُستأنَفَةٌ سِيقَتْ لبيانِ عَجزِهِم عنِ الخلاصِ، مَعَ ما فيه مِنَ التَّقريرِ المذكورِ[3]، والخلاصُ هنا خُلوصُه مِن عذابِ اللّه بأيِّ وجهٍ مِنَ الوجوهِ؛ أي: إنَّ هذا العذابَ واقِعٌ لاحِقٌ بِكُم لا خلاصَ لَكُم منه أبدًا.

نُكتةُ تقديمِ النَّفي بالأداةِ ﴿وَمَآ﴾:

بيانُ أنّ لُحوقَ العذابِ أهلَ الشِّركِ، سيكونُ لُحوقًا لا مَهرَبَ لَهُم مِنهُ

قُدِّم النَّفيُ في قولِ اللّه ﷻ: ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ﴾ لإرادةِ تخصيصِهِم بالوصفِ الَّذي وُصِفوا بِهِ، ولو أُخِّرَ النَّفيُ لكانَ فيه إخلالٌ بالمعنى، فلا يكون لهُم، وإنَّما لِغيرِهِم، وهُمُ المخصوصونَ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/196، والآلوسيّ، روح المعاني: 11/136.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/196.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/154.

بذلكَ مَعَ إفادَةِ الثّباتِ والدَّوامِ في نسبَةِ المسندِ إليهِ، وهيَ نِسبَةُ نفيه عن المسنَدِ إليهِ؛ لأنَّ الخُصوصيّاتِ الَّتي تُعتَبرُ في حالةِ الإثباتِ تُعتَبَرُ في حالةِ النَّفي، إذِ النَّفيُ إنَّما هو كيفيّةٌ للنِّسبَةِ، والخصوصيّاتُ مُقتضياتُ أحوالِ التَّراكيبِ، وليسَ يختلفُ النَّفيُ عن الإثباتِ لا في اعتبارِ القُيودِ الزّائِدَةِ على أصلِ التَّركيبِ، فإنَّ النَّفيَ يُعتَبَرُ مُتوجِّهًا إليها خاصَّةً، وهيَ قيودُ المُخالَفَةِ وإلّا بطلتْ خصوصيّاتٌ كثيرَةٌ مفروضةٌ مَعَ الإثباتِ؛ إذ صارَ الكلامُ المُشتَمِلُ عليها مَنفيًّا مِثل إفادةِ التَّجدُّدِ في المُسنَدِ الفِعليِّ، والمعنى: وما هُم بفائتينَ العَذابَ بالهَرَبِ، وهو لاحِقٌ بهِم لا محالةَ[1].

نُكتةُ التَّعبيرِ بـ(مُعْجِزينَ) مادَّةً وصيغَةً:

بيانُ دوامِ انتِفاءِ العجزِ عن الفِرارِ مِن عـذابِ الله سُبحانَهُ

قال اللّه ﷻ: ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ﴾، والباءُ دالَّةٌ على المُصاحبةِ، والمعنى: وما أنتُم بمصاحِبينَ العجزَ بالفواتِ أو الهربِ. و﴿بِمُعۡجِزِينَ﴾ مِنَ العَجزِ، و"أصلُهُ: التَّأَخُّرُ عن الشَّيءِ، وحُصولُه عِندَ عَجُزِ الأمرِ؛ أي: مُؤَخَّرِهِ، وصارَ في التَّعارُفِ اسمًا للقُصورِ عَن فِعلِ الشَّيءِ، وهوَ ضِدُّ القُدرَةِ، وأَعجَزتُ فُلانًا وعَجَّزتُه وعاجَزتُهُ: جَعلتُه عاجِزًا"[2]. والهمزَةُ في فعلِ (أعجَزَ) الّذي اشتُقَّ منه (مُعجِزٌ) دالَّةٌ على التَّعديَةِ، وقوله: ﴿بِمُعۡجِزِينَ﴾، أي: جاعِلينَ مِن طَلَبِكُم عاجزًا عَنكُم غَيرَ قادرٍ على إدراكِكُم. وإيثارُ التَّعبيرِ بصيغةِ اسمِ الفاعِلِ على المُستقبَلِ، فلم يَرِدِ النَّظمُ القرآنيُّ مثلًا: (وما أنتُم تعجِزونَنا)؛ للإيذانِ بِكونِه حقًّا، ولِلدّلالةِ على الدَّوامِ الَّذي يفيدُه العدولُ عن الفِعليَّةِ إلى الاسميّةِ، وهذا الدَّوامُ مُتوجِّهٌ إلى النَّفي، فالمُرادُ: دوامُ انتفاءِ الإعجازِ، والمُعجِزونَ: الغالِبونَ؛ أي: وما أنتُم بغالِبينَ الَّذي طَلَبَكُم؛ أي: بِمُفلِتينَ[3].

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/154، والآلوسيّ، روح المعاني: 11/136.
(2) الرّاغب، المفردات: (عجز).
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/196.

فائدةُ حذفِ مُتَعَلِّقِ (مُعْجِزِينَ):

مفعولُ اسم الفاعِلِ في قولِ اللّه ﷻ: ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ﴾ محذوفٌ، والتَّقديرُ: بمُعجِزينَ اللّه تعالى، وقِيلَ: ما أنتُم ممَّن يُعجِزُ مَن يُعَذِّبُكُم.

تَعَذُّرُ مُمانَعَةِ الرَّبِّ سُبحانَه ومُدافَعَتِهِ، عمّا أرادَه وقضاهُ

ويجوزُ أن يكونَ قد استُعمِلَ استعمالَ اللّازِم؛ لأنَّه قد كثُرَ فيه حَذفُ المفعولِ، حتَّى قالتِ العربُ: (أعجزَ فلانٌ)؛ إذا ذَهَبَ في الأرضِ، فَلَم يُقدَرْ عليهِ[1]، والغرضُ مِنَ المحذوفِ "التَّنبيه على أنَّ أحدًا لا يجوزُ أنْ يُمانِعَ ربَّهُ، ويُدافِعَه عمّا أرادَ وقضى، ثمَّ إنَّه تعالى بيَّنَ أنَّ هذا الجِنسَ مِنَ الكلماتِ، إنَّما يجوزُ عليهم ما داموا في الدُّنيا، فأمّا إذا حَضَروا مَحفِلَ القيامةِ، وعايَنوا قَهرَ اللّه تعالى، وآثارَ عَظَمَتِه تَرَكوا ذلكَ، واشتَغَلوا بأشياءَ أُخرَى"[2].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(يَستَنبِؤونَكَ) و(يَسأَلونَكَ):

النَّبَأُ: خبرٌ ذو فائدةٍ عظيمةٍ يحصُلُ به علمٌ أو غَلَبَةُ ظَنٍّ، ولا يُقالُ للخبرِ في الأصلِ نَبَأٌ حتَّى يَتضمَّنَ هذه الأشياءَ الثَّلاثةَ، وحقُّ الخبرِ الَّذي يُقالُ فيه نبأٌ أن يَتعرَّى عن الكَذِبِ، كالتّواتُرِ، وخَبرِ اللّه تعالى، وخبرِ النَّبيِّ ﷺ، ولِتَضمُّنِ النّبأ معنى الخبرِ يُقالُ: أنبَأتُه بكذا، كقولِكَ: أخبرتُه بكذا، ولِتضمُّنِه معنى العِلمِ، قِيلَ: أنبَأتُه كذا[3].

حِكايَةُ حالِ أهلِ الشِّركِ في استنبائِهِم، وهو لفظٌ أبلغُ مِن لفظِ السّؤالِ، في هذا السّياقِ

والاستِنباءُ: استفعالٌ مِن الإنباءِ، وهوَ الاستخبارُ مرّاتٍ ومرّاتٍ على جهةِ المُفاعَلَةِ؛ مُبالغةً في كثرةِ السُّؤالِ عَن وقوعِ العذابِ ووقتِه.

والسُّؤالُ: استِدعاءُ معرفةٍ، أو ما يؤدّي إلى المعرفةِ، واستِدعاءُ مالٍ، أو ما يُؤدّي إلى المالِ، فاستِدعاءُ المعرفةِ جوابُه على اللِّسانِ،

(1) السّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 6/221.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 9/117.
(3) الرّاغب، المفردات: (نبأ).

واليدُ خليفةٌ لَه بالكتابةِ أو الإشارةِ، واستِدعاءُ المالِ جوابُه على اليدِ، واللِّسانُ خليفةٌ لها إمّا بوعَدٍ أو بِرَدٍّ. فإنْ قِيلَ: كيفَ يَصِحُّ أنْ يُقال السُّؤالُ يكونُ للمعرفةِ، ومعلومٌ أنَّ اللّه تعالى يسألُ عبادَهُ، فالجوابُ: إنَّ ذلكَ سُؤالٌ لِتعريفِ القومِ وتَبكيتِهم، لا لِتعريفِ اللّه تعالى، فإنَّه علّامُ الغيوبِ، فليسَ يخرجُ عن كونِه سُؤالًا عن المعرِفةِ، والسُّؤالُ للمعرفةِ يكونُ تارةً للاستعلامِ، وتارَةً للتّبكيتِ، والسُّؤالُ إذا كانَ للتّعريفِ تعدَّى إلى المفعولِ الثّاني تارَةً بِنَفسِه، وتارَة بالجارّ، تَقولُ: سَألتُه كذا، وسألتُه عَن كذا وبكذا، واستعمالُ (عَنْ) أكثرُ، وإذا كانَ السّؤالُ لاستدعاءِ مالٍ فإنَّه يتعدَّى بنفسِهِ، تقولُ: سألتُه مالًا أو عطاءً[1].

ومجيءُ الاستِنباءِ في قولِ اللّه ﷻ: ﴿وَيَسْتَنْبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ﴾ أبلغُ مِنَ السُّؤالِ حكايةً لِحالَتِهِمُ التَّكذيبيَّةِ واستهزائِهِمُ المتَكَرِّرِ لاستِعجالِ العذابَ، وكَونِه حقًّا لا مِراءَ فيه تهكُّمًا وسُخريةً، كما هوَ دأبُهُم وهجّيراهُم.

(1) الرّاغب، المفردات: (سأل).

﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي ٱلْأَرْضِ لَٱفْتَدَتْ بِهِۦ ۗ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٥٤﴾﴾ [يونس: 54]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

في مناسبةِ هذه الآيةِ لما قبلها وجهان:

الأول: لمّا ذكر الله تعالى أنَّ العذاب حقٌّ في الآية السابقة، وأمر نبيَّه أن يُقسم على حقيقته ﴿وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ ۖ﴾، وأنَّ المشركين لا يفلتون منه، إذ لا منجى لهم من الله، ولن يعجزوه هربًا، ولا شفاعةً من أحد ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾؛ ذكر في هذه الآية بعضَ أحوال الظالمين في الآخرة، وامتناعَ افتداءِ كلِّ نفس من العذاب؛ لامتناع مُلْكِها لما تَفتدي به، فقال: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي ٱلْأَرْضِ لَٱفْتَدَتْ بِهِۦ ۗ﴾[1].

الثاني: لمّا أخبر الله بحقيقة يوم القيامة وأنَّه واقع لا محال، حسُن التَّذكير بما كان من النّاسِ من الظلم في الدنيا، وذلك عند معاينة العذاب وطلبِهم بالسماح لهم ببذل جميع ما في الأرض ليفتدوا أنفسهم دون غيرهم، فقال: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي ٱلْأَرْضِ لَٱفْتَدَتْ بِهِۦ ۗ﴾[2].

القيامةُ حقٌّ وعذابُ الظّالمين ثابتٌ؛ لأنَّه حقُّ المظلومين في رقابِ الظّالمين

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿لَٱفْتَدَتْ﴾: الفاءُ والدالُ والحرف المعتلُّ كلِمَتانِ متباينتان جدًّا؛ فالأولى: أنْ يُجعلَ شيءٌ مكانَ شيءٍ حِمًى لهُ، والأُخرى: شيءٌ من الطعام[3]. والفِدى والفِداء: حفظُ الإنسان عن النّائِبَةِ بما يبذله

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 6/72، والشّعراوي، تفسير الشّعراوي: 10/5988.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 9/140.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (فدي).

عنه[1]، ويقال: فَداه وفاداهُ؛ إذا أعطى فداءَه، فأنقذه، وفَداهُ من الأسر؛ إذا استنقذه بمالٍ أو غيره، فخلَّصه ممّا كان فيه، واسم ذلك المال: الفِديةُ، والفِدية والفِدى والفِداء كلُّه بمعنى واحد، وافتدى: قدَّم الفِدية عن نفسه، وتَفادى فلانٌ من كذا: إذا تَحاماه وانزوى عنه[2]، وتَفادى القومُ: فَدى بعضهم بعضًا، واستَتَرَ بعضُهم ببعضٍ مَخافةً[3]، وكلُّ ما في القرآن من التركيب من الفِداء أو الفِدية: هو ما يُقدَّم لدفْع ضُرٍّ لَزِمَ، كالأسْر، والذَّبْح، وعُقوبةِ الذنب[4]،ومعنى ﴿لَٱفۡتَدَتۡ﴾: لجعلتْ ما في الأرض من خزائنَ وأموالٍ ومنافعَ فديةً لها لتُنْقِذَ نفسها وتخلِّصها من عذاب اللّه.

2) ﴿ٱلنَّدَامَةَ﴾: النون والدال والميم: كلمةٌ تدلُّ على تَفَكُّنٍ[5] لشيء قد كان، يُقال: نَدِم على الشيء نَدَمًا ونَدامة: أسِفَ، فالنَّدم والنَّدامة بمعنًى واحد، والتَّنَدُّمُ: التَّحَسُّر[6]، ونَدِم على ما فعل: أَسِفَ وحَزن وَكَرِهَ الشيء بعد ما فعله، وتَنَدَّم على الأمر: تحسَّر عليه أو على فعله إيّاه[7]، فالنَّدم، غمٌّ يصحبُ الإنسان يتمنّى أنَّ ما وقع منه لم يقعْ، وحقيقةُ النادم أنْ يلومَ نفسه على تفريطٍ وقعَ منه، وأصل النَّدم: الإحساسُ بفقدِ مُعظَمِ شيءٍ أو كلِّهِ مع العجز عن استدراك ما فات[8].

ومعنى ﴿ٱلنَّدَامَةَ﴾ في الآية موافقٌ للمعنى اللغوي.

3) ﴿بِٱلۡقِسۡطِ﴾: القافُ والسينُ والطاءُ أصلٌ صحيحٌ يدلُّ على معنيين متضادَّين والبناء واحد، يُقال: أَقْسَطَ يُقْسِطُ، فهو مُقْسِطٌ؛ إذا عدل، وقَسَطَ يَقْسِطُ، فهو قاسِطٌ؛ إذا جار، فالقِسْطُ بالكسر: العدل، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ۝٤٢﴾ [المائدة: 42]، والمُقْسِطُ: في أسماء اللّه تعالى: هو العادل[9]، والقُسوط: الميل عن الحقِّ، والإقْساطُ: العدل في القسمة والحكم، والقِسْطُ: الحصَّة والنّصيب، وتقَسَّطوا بينهم الشيء:

(1) الراغب، المفردات، ص: 627.
(2) الجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب، ومجمع اللغة العربية في القاهرة، المعجم الوسيط: (فدي).
(3) الخليل، العين: (فدي).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (فدي).
(5) التَّفكُّنُ هو التَّندُّمُ.
(6) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (ندم).
(7) الفيومي، المصباح المنير، ومجمع اللغة العربية في القاهرة، المعجم الوسيط: (ندم).
(8) الزبيدي، تاج العروس، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (ندم).
(9) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (قسط).

اقتسموه بالتسوية والعدل[1]، والقِسْطُ أيضًا: المِيزانُ، سُمّي به؛ لأنَّه يعدل هذا الجانب منه بهذا، ومن ذلك جاء الإقساطُ: العدلُ في القسمة كأنَّما هو إعطاءُ كلٍّ قِسْطَه[2]. ومعنى ﴿بِٱلْقِسْطِ﴾ في الآية: بالعدل، وبالحقِّ الذي يوزن فيه بميزانٍ دقيقٍ لا يغادرُ صغيرةً ولا كبيرةً إلا أحصاها[3].

❁ المَعْنى الإِجْماليُّ:

مصيرُ الظّالمين في الآخـرةِ النَّدامةُ اللّازمةُ والعذابُ الشَّديد

يبيِّن اللّه تعالى أنَّ هول القيامةِ سيكون فوق ما تدركه عقول من كفروا بذلك اليوم، واستهزؤوا به، وأنَّه لو تحقَّق لكلِّ نفس ظلمت بالشرك والعناد، والاعتداء، والشهوات مُلكُ جميع ما في الأرض لبذلته يوم القيامة؛ لتفتديَ به من عذاب اللّه تعالى، ولن يكونَ لها ذلك، ولو قَدرتْ ما قُبِلَ منها[4]، ولشدَّة هذا العذاب الذي عاينه هؤلاء الكفارُ استسلموا، ولم يقدروا على الكلام؛ لأنَّهم بُهتوا؛ لِعظَم ما دَهَمَهم، فلم يُطيقوا بكاءً ولا شِكايةً ولا شيئًا ممّا يفعله الجازع، وقضى اللّه فيهم بالعدل، وقضى بين الظالمين والمظلومين، والظالمين والأظلمين، فلا يُظلم في مملكتهِ أحدٌ وإن كان كافرًا[5].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

معنى الواو في: ﴿وَلَوْ أَنَّ﴾:

التحذير وبيان الأحـوال يعينان على الارتداع

الواو في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي ٱلْأَرْضِ لَٱفْتَدَتْ بِهِۦ﴾ عاطفةٌ؛ عطفتْ هذه الآية على قوله سبحانه: ﴿إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ﴾، إذ إنَّ هذه الآية من بقيَّة القول؛ إعلامًا لهم بهولِ ذلك العذابِ عساهم أن يحذروه، ولذلك حُذِف المتعلَّقُ الثاني

(1) الخليل، العين، والزَّبيدي، تاج العروس: (قسط).
(2) الجوهري، الصحاح، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (قسط).
(3) المراغي، تفسير المراغي: 11/120، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 7/3592.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 9/141.
(5) البقاعي، نظم الدرر: 9/141.

لفعل (افْتَدَتْ)؛ لأنَّه يقتضي مُفْدِيًا به، وَمُفْدِيًا منه، أي: لافتدت به من العذاب[1].

وتحتمل أن تكون الواوُ استئنافيةً على اعتبارِ أنَّ قولَه تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي ٱلْأَرْضِ لَٱفْتَدَتْ بِهِۦ﴾ هو استئنافٌ في الحديث عن أحوال الظّالمين يوم القيامة، إثر الحديث عن إنكارهم له في الدُّنيا.

نكتةُ استعمال ﴿وَلَوْ﴾:

امتناعُ افتداء كلِّ نفسٍ من العذابِ؛ لامتناعِ ملكها لما تفتدي به

﴿وَلَوْ﴾ أداةُ شرطٍ تفيد التعليق في الماضي، وتختصُّ به، وتسميتُها بالشَّرط مجازٌ؛ لشبهها بالشرط من جهة أنَّ فيها ربطَ جملةٍ بجملة[2]، فقد ربطتْ جملة الشرط ﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ بجملة جواب الشرط ﴿لَٱفْتَدَتْ بِهِۦ﴾، وهي حرف امتناع لامتناع، أي: يدلُّ على امتناع الجواب لامتناع الشرط، والمعنى: امتنعَ افتداء كلِّ نفسٍ ظالمة لامتناع مُلْكِها لِما تفدي به ذاتها، وهو جميع ما في الأرض من أموالٍ ومنافع، ولامتناع قَبولِ ذلك منها فيما لو ملكته على سبيل الفَرْض[3].

دلالةُ استعمال ﴿أَنَّ﴾:

الظّالمُ يستهينُ بأهوالِ الحسابِ فتأكيدُها خطابًا يُثبتُها حجَّةً

استعمل البيانُ القرآنيُّ ﴿أَنَّ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ﴾؛ لغرضين:

الأول: إفادة توكيد الجملة الاسميَّة (ما في الأرض كائن لكلِّ نفس) بما يحقِّق إيجازًا؛ إذ إنَّها تقومُ مقامَ تكرير الجملة.

الثاني: توضيحُ المعنى المُراد منها، وهو أنَّه لو امتلكت كلُّ نفسٍ أشركت ما في الأرض ملكًا ثابتًا ثبوتًا مؤكَّدًا لا شكَّ فيه؛ لافتدت به من عذاب اللّه.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/197.
(2) ابن نور الدين، مصابيح المغاني في حروف المعاني، ص: 193.
(3) طنطاوي، التفسير الوسيط: 7/85.

معنى اللّام: ﴿لِكُلِّ﴾:

طلبُ الافتداءِ بملك الأرضِ جميعه برهانُ العذابِ الشَّديد

اللام في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ﴾: هي لامُ الملك، والمعنى: ولو أنَّ ما في الدنيا اليوم من خزائنها وأموالها وجميع منافعها - على كثرتها - هو ملكٌ للنَّفسِ الظالمة؛ لافتدت به، أي: جعلته فديةً لها من عذابِ الله يوم القيامة، وهذا إشارةٌ إلى شدَّة العذاب يوم القيامة، فالنَّفس لا تفتدي نفسها بما تحقِّقُ مُلْكها له إلا عند شدَّة العذاب وتحقُّقه.

الغرضُ من تقديم الجارِّ والمجرورِ: ﴿لِكُلِّ﴾:

تفاهةُ الدُّنيا وما فيها؛ لأنَّها لا تُغني عن ساعةِ عذاب

قدَّمتِ الآيةُ المسندَ خبر ﴿أَنَّ﴾ وهو الجار والمجرور ﴿لِكُلِّ﴾ على المُسند إليه اسم ﴿أَنَّ﴾ وهو ﴿مَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾، إذ ترتيب الكلام على مقتضى الظّاهر الصناعيِّ: (ولو أنَّ ما في الأرض لكلِّ نفس)؛ وسببُ تقديمِ الجارِّ والمجرور الاهتمامُ بالخبر، وبما فيه من العموم، بحيث ينصُّ على أنَّه لا تسْلَمُ نفسٌ أشركتْ من ذلك[1] السُّلوكِ لو تحقَّق لها يومَ القيامة، فإنَّ هولَ القيامةِ يجعل الظّالمين في رتبةٍ واحدةٍ من تمنّي الافتداء للخلاصِ، فليس لأحدٍ أن يخالف في رأيه؛ لما في الأمر من شديد العذاب، وكبير العقاب.

دلالةُ استعمالِ أداةِ العموم ﴿لِكُلِّ﴾:

عذلُ اللهِ مطلقٌ، فما يجري على نفسٍ واحدةٍ يجري على جميعِها

استعملَ البيانُ القرآنيُّ أداةَ العموم ﴿لِكُلِّ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ﴾، ولم يقلْ: (ولو أنَّ لكم ما في الأرض؛ لافتديتم به) أو (لجميعهم ما في الأرض) لأمرين:

الأول: تهويلُ الأمر، وتفظيعُ الحال[2].

الآخر: الدَّلالة على العموم، أي: إنَّ "هذا العذاب لا تتحمَّله

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/197.

(2) الآلوسي، روح المعاني: 3/298.

أيَّة نفسٍ على تفاوت الأنفس في احتمال الآلام"[1]، وعمومُ ﴿لِكُلِّ نَفْسٍ﴾ يشمل نفوس المخاطَبين مع غيرهم[2]، وهذا العموم يشير إلى العدل الإلهيِّ المطلق، وإلى أنَّ الاستثناء في حقِّ الظّالمين يوم القيامةِ ممتنعٌ، فلا يُقبل من أيِّ نفسٍ ظالمة فديةٌ، وفيه إشارةٌ إلى أنَّ النَّفسَ الإنسانيَّة لا تتغيَّر بطرائقِ تفكيرِها، ولا بأساليب البحث عن خلاصِها، كما أنَّ فيه إشارةً إلى خبرٍ غيبيٍّ، فإنَّ هذا العمومَ يلفُّ جميعَ الأنفسِ من غير استثناءٍ، فما يجري على آحادِها يجري على جميعِها.

سرُّ استعمالِ: ﴿نَفْسٍ﴾:

استعملَ البيانُ القرآنيُّ لفظَ ﴿نَفْسٍ﴾ في قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ﴾، ولم يأتِ بغيرها من الألفاظ المرادفة لها، فلم يقل مثلًا: (إنسان)، أو (امرؤ)، أو غيرها من الألفاظ، وذلك لأمرين اثنين:

لفظُ (نفسٍ) يشملُ الإنسَ والجنَّ ويُشيرُ إلى قوَّة الإرادة التي حرَّكتها في الدُّنيا

الأوَّل: أنَّ لفظ ﴿نَفْسٍ﴾ أدلُّ على العموم؛ إذ يشمل كلَّ مكلفٍ من الإنس والجنِّ.

الآخر: أنَّ لفظَ نفسٍ يدلُّ على الذاتِ وقواها الداخلية من فعلٍ وإرادةٍ واختيار، وهو أنسبُ للسياق هنا؛ إذ الكلام عن يوم القيامة، وعذابِ النَّفس التي ظلمت بفعلها واختيارها وإرادتها، ومحاولتها الافتداء من عذاب الله بكلِّ ما تملك.

سرُّ التَّعبير بالتَّركيبِ الوصفيِّ ﴿نَفْسٍ ظَلَمَتْ﴾:

عبَّر القرآن بهذا التركيب الوصفيِّ في قوله تعالى: ﴿نَفْسٍ ظَلَمَتْ﴾، ولم يقل: (لكلِّ ظالم)؛ للإشارة إلى النفس التي ظلمت بأيِّ نوعٍ من أنواع الظلم سواء بالشِّرك، أم التعدِّي على الآخرين، أم غير ذلك من أصناف الظلم، ووقع منها هذا الظلم، ولو مرَّة واحدة

أقلُّ ما يصدق عليه لفظُ الظُّلمِ داخلٌ في الوعيدِ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/197.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/197.

حسبما يفيدهُ كون الصفة فعلًا[1]، فإنَّ التَّعبيرَ بالتَّركيبِ الوصفيِّ يدلُّ على عمومِ الظُّلم الصّادر عنها، ولو قال: (لكلِّ ظالم)؛ لاحتمل ذلك أن يُرادَ به ظالمٌ ذو مواصفات كاملة في الظُّلم، والمرادُ هو الظُّلم المتحقِّق بقطع النَّظر عن كثرته وتكراره، ففيه تحذيرٌ من وخيم أمر الظُّلمِ بذكر سوء عاقبتِه.

نكتةُ إيثارِ صيغة الفعل الماضي ﴿ظَلَمَتْ﴾:

آثرَ البيانُ الإلهيُّ وصفَ ﴿نَفْسٍ﴾ بصيغة الفعل الماضي ﴿ظَلَمَتْ﴾، ولم يأتِ بالوصف اسمًا، فلم يقل: (ولو أنَّ لكلِّ نفسٍ ظالمة)؛ للدَّلالة على الآتي:

الأوَّل: الإيماءُ إلى تحقُّقِ فعل الظُّلم وانقضاءِ مدَّته، وأنَّه قد حانَ وقتُ المحاسبة عليه في اليوم الذي لا ظلم فيه.

الثّاني: أنَّه سبحانه العادل المقْسِط يعاقب على وقوع أدنى ظلم مهما كان قليلًا، قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨﴾ [الزلزلة: 8]، بخلاف ما لو أتى الوصفُ اسمًا؛ فإنَّه يُتوهَّم أنَّه لا يُحاسب على الظلم إلا من تحقَّق وصفه بالظالم، أي: من أصبح الظلمُ صفةً ملازمةً له.

الثّالث: للتناسب مع فعل ﴿لَٱفْتَدَتْ﴾، فالفعلان بصيغة الفعل الماضي، وهذا أكثرُ تناسبًا من أن يُقال: (ولو أنَّ لكلِّ نفس ظالمة ما في الأرض؛ لافتدت).

العادلُ المقْسِطُ سبحانهُ يعاقبُ على وقوعِ أدنى ظلمٍ مهما كان قليلًا

نكتةُ إيثار: ﴿ظَلَمَتْ﴾:

آثرَ البيانُ الإلهيُّ استعمال لفظ ﴿ظَلَمَتْ﴾ في قولِه تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ﴾ دون (أشركت) أو (كفرت) مع أنَّ الحديث عن المشركين؛ لثلاثة أمور:

الظلمُ سببُ الشِّركِ وفسادِ الحياةِ، وهو يشملُ الشِّركَ وغيرَه

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/154.

الأول: الدَّلالة على العموم، لتشمل كلَّ أنواعِ الظلم، وأوَّلها وأعظمها الشرك بالله، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ ١٣﴾ [لقمان: 13]، والمعنى: "ظلمت بالشركِ والعنادِ والاعتداءِ والشهوات، وغير ذلك من الظلم، وهو ظلماتٌ يومَ القيامة"[1]، ولو عبَّر بالشرك؛ لاقتصر الوصفُ عليه فقط.

الثاني: كون الظلمِ واختلالِ ميزانِ العدل سببًا لفسادِ الحياة، وتعطُّل حركتها، ونزول العقاب على الجميع، قال تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةٗ لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ٢٥﴾ [الأنفال: 25]، فإن لم يردع الله ﷻ الظالمَ في الدُّنيا قبل الآخرة؛ لاستشرى الظلم، وإذا استشرى الظلم في مجتمعٍ؛ أخذَ كلُّ إنسان حقَّ غيره، وفسدَ المجتمعُ كلُّه[2]، "فإنَّ الله يقيمُ الدولةَ العادلة، وإنْ كانت كافرة، ولا يقيمُ الدولةَ الظالمة، وإنْ كانت مسلمة"[3].

الثالث: مناسبة هذا اللفظ لفاصلة الآية ﴿لَا يُظۡلَمُونَ﴾، للإشارة إلى أنَّهم رغم ظلمهم، فإنَّهم لا يُظلمون؛ فحُكمُ الله فيهم هو العدل؛ وجزاءُ سيئةٍ بمثلها.

فائدةُ استعمال الاسم الموصول ﴿مَا﴾:

استعملَ البيانُ القرآنيُّ الاسم الموصول ﴿مَا﴾ في قوله تعالى: ﴿مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾؛ لإفادة العموم، أي: كلُّ ما في الأرض؛ لأنَّ الظرفية هنا ظرفيةُ جمعٍ واحتواءٍ[4]، والمعنى: لو أنَّ لكلِّ نفسٍ ظلمتْ كلَّ شيءٍ في ظاهر الأرض وباطنها، وما في الدنيا كلِّها من خزائنها وأموالها، وجميع نفائسها ومنافعها على كثرتها[5]؛ لافتدتْ به من عذاب الله

تضاؤلُ الدُّنيا بجميعِ نعيمها إلى جانبِ عذابِ الله

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 7/3591.
(2) الشّعراوي، تفسير الشّعراوي: 10/5989.
(3) ابن تيمية، مجموع الفتاوى: 28/146.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/197.
(5) الزمخشري، الكشاف: 2/352، والبقاعي، نظم الدرر: 9/140.

عند معاينتها له، وهذا بيانٌ لتضاؤل الدنيا بنعيمها وكلِّ ما فيها، إلى جانبِ عذاب الله تعالى[1].

دلالةُ حرفِ الظَّرفيَّة: ﴿فِي﴾:

دلَّ حرف الجرِّ ﴿فِي﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ على الظرفيَّة، وهي ظرفيَّةُ جمعٍ واحتواء[2]، والمعنى: كلُّ شيء تحتويه الأرض في ظاهرها وفي باطنها، ففيها إشارةٌ إلى ما في الأرض من معادنَ وطاقةٍ وخيراتٍ وكنوزٍ، وأنَّ الأمر ليس مقتصرًا على ظاهرِها، فدلَّ هذا الحرفُ على معنى العموم المتَّسق مع معنى عموم ألفاظ ﴿لِكُلِّ﴾ و﴿نَفْسٍ﴾ و﴿ظَلَمَتْ﴾ و﴿مَا﴾، وعدم تعبيرِ النَّظم بحرف الاستعلاءِ - وهو مقتضى الظّاهر للعلوم البشريَّة - دليلٌ على إعجاز القرآن، فإنَّ ما يقتضيه ظاهر النَّظر البشريِّ أنَّ الإنسان يفتدي بما يراه لا بما يختبئ في باطنِ الأرض، وهذا دليلٌ على أنَّ التَّعبير القرآنيَّ يتناغم مع حقائق الوجود، لا مع ما تدركه عقولُ أرباب الحِجى والنُّهى.

النَّظمُ القرآنيُّ يتناغمُ مع حقائق الوجودِ لا مع مُقتضياتِ العلومِ

معنى التَّعريفِ في: ﴿ٱلْأَرْضِ﴾:

(أل) التعريف في قوله تعالى: ﴿ٱلْأَرْضِ﴾ جنسيَّة استغراقيَّة، تفيد العموم؛ لتشمل جنس الأرض "أي: كلَّها من خزائنها ونفائسها"[3]، "ومن قليل أو كثير"[4]، "من معادنَ وزروعٍ وحدائقَ وجناتٍ ونعيم ثابتٍ وعارضٍ تملكه وما في الأرض جميعًا"[5]، وقد فسَّر أبو السعود الأرضَ بالدنيا فقال: "ما في الدنيا من خزائنها وأموالها ومنافعها قاطبة بما كثرت"[6]، وتكونُ اللّامُ في الأرضِ شبيهةً بتعريف الجنس، وعلى

الأرضُ بما فيها، أو الدُّنيا بماضيها لا تحجبُ عن نفسٍ عذابًا آتيَها

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 7/3592.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/197.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 9/140.
(4) ابن جرير، جامع البيان: 15/103.
(5) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 7/3592.
(6) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/154.

هذا التَّفسير يكون المقصودُ بالأرض الدُّنيا من خَلْقِها إلى بعثها، وهو تفسيرٌ قويٌّ يتَّسق مع الآيةِ في عمومِها، وهو أشدُّ تعبيرًا عن المرادِ من إياسِ الظّالمين من الافتداءِ.

سرُّ الاقتصارِ على ذكر الأرض دون السَّماء: ﴿مَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾:

مقامُ التَّرهيبِ يُرادُ منه ثنيُ الظّالمين لا إشغالُ الجاهلين

اقتصرَ البيانُ الإلهيُّ على الأرض في قوله: ﴿مَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ ولم يذكر السماء؛ وذلك باعتبار ما عهدوه في الحياة الدنيا، فالذي يعرفونه هو ملكُ الإنسان لِما في الأرض من كنوزٍ وزروعٍ وجناتٍ ومعادنَ وغيرها ممّا تحتويه الأرض، ولم يسبقْ وأنْ ملكَ أحدٌ شيئًا من السماء (مِلْكَ تصرُّفٍ وبيعٍ وشراء) وإنْ كان سبحانه قد سخَّر للإنسان ما في السماء والأرض، ولكنَّه استخلفهُ على الأرض، فقال: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: 30]، ولم يستخلفْه على السَّماء؛ ولهذا اقتصر على الأرض، كما أنَّ الأرض تُطلق ويُراد بها الحياة الدنيا، ولم تُطلق السماء على الحياة الدنيا.

ولقائلٍ أنْ يقولَ: لماذا لم يذكرِ السَّماء على سبيل المبالغةِ؟ والجواب: أنَّ ذلك سيكون مدعاةً للسُّخريةِ، والمقامُ مقامُ تهويل العذابِ لترهيب الظالمين، لا لفتح أبواب المناكفةِ، فكان مقتضى الحكمةِ ذكرَ الأرضِ دون السَّماء.

دلالةُ مفردة الافتداء في: ﴿لَٱفْتَدَتْ بِهِۦ﴾:

الافتداءُ إنقاذُ النَّفس بمالٍ أو غيره لتخليصها ممّا هي فيه

دلَّتْ مفردة ﴿لَٱفْتَدَتْ﴾ على طلبِ الخلاص من عذاب الله من خلال صيغتها ومادَّتها؛ أمّا صيغتها؛ فقد جاء التَّعبيرُ في القرآنِ بفعل (افتدى) دون (فدى)؛ لأنَّ في (افتدى) زيادة تاء الافتعال لتدلَّ على زيادة المعنى، أي: لتكلَّفتْ فداءها به طلبًا للخلاص[1]، كما أنَّ معنى افتدى: قدَّم الفِدْية عن نفسه[2].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/197.

(2) مجمع اللغة العربية في القاهرة، المعجم الوسيط: (فدى).

وأمّا مادَّتها: الفِدى والفِداء؛ فهو حفظُ الإنسان عن النائبة بما يبذله عنه[1]، ويُقال: فَداه وفاداه؛ إذا أعطى فداءَه، فأنقذه، وفداهُ من الأسر؛ إذا استنقذه بمال، أو غيره فخلَّصه ممّا كان فيه، فالافتداء: إيقاع الشيء بدل غيره لرفع المكروه[2].

معنى الواو ودلالتها في: ﴿وَأَسَرُّواْ﴾:

اجتمعَ في الواوِ معنى الاستئنافِ والعطفِ والحال

تحتمل الواو في قوله تعالى: ﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ﴾ ثلاثة أوجه:

الأوَّل: عاطفة، وهي عطفُ ما أسرّوه من النَّدامة على تمنّي الافتداءِ، فهي عطفُ الندمِ على التَّمني؛ لأنَّ معنى الجملة السّابقة التَّمنّي، ولمّا كان مستحيلًا؛ كان من نتيجته النَّدم عند معاينةِ العذابِ.

الثاني: استئنافية، ومعنى الاستئناف قريبٌ من معنى العطفِ، وبيان ذلك: أنَّ الاستئنافَ يُرادُ منه ابتداءُ معنًى جزئيٍّ جديد، وهذا المعنى الجزئيُّ في حقيقته معطوفٌ على كلامٍ سابق، ولذلك قال ابن عاشور: "جملةٌ مستأنفةٌ معطوفةٌ عطْفَ كلامٍ على كلام، وضمير أسرّوا عائدٌ إلى ﴿لِكُلِّ نَفْسٍ﴾ باعتبار المعنى، وهو العموم مع تغليبِ المذكَّر على المؤنث"[3].

الثالث: حاليَّة، ذكره الآلوسيُّ بصيغة التَّضعيف، بتقدير قد[4].

وهذه الأوجه الثلاثةُ مقبولةٌ من حيث المعنى، فالاستئنافُ حاضرٌ باعتبارِه الجزئيِّ، والعطفُ حاضرٌ باعتبارِ المعنى، والحالُ حاضرٌ باعتبار مضمون المعنى، فحالُ أولئك النَّدامةُ يوم القيامة.

نكتةُ إيثار فعل: ﴿وَأَسَرُّواْ﴾:

التَّهكُّم بالظّالمين فهم يتمنَّون إسرارَ النَّدامة لكن دون جدوى

استعملَ البيانُ القرآنيُّ لفظة ﴿وَأَسَرُّواْ﴾ دون (أخفوا)؛ لأنَّ الإسرار أوسعُ دلالةً من الإخفاء؛ إذ إنَّ الإسرار من الأضداد، فيأتي

(1) الراغب، المفردات، ص: 627.
(2) الجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب، والزَّبيدي، تاج العروس: (فدي).
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/197.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 6/130.

بمعنى أخفى، وهو المشهور، ويأتي بمعنى أظهر، ويحتمل هنا الوجهين: أمّا الإظهار؛ فإنَّه ليس بيوم تصبُّرٍ ولا تجلُّدٍ، ولا يَقْدِرُ فيه الكافر على كتمان ما نالَهُ، ولأَنَّ حالةَ رُؤيَةِ العذابِ يتحسَّرُ الإنسان على اقترافه ما أوجبه، ويُظْهِرُ النَّدامة على ما فاته من الفوز، ومن الخلاص من العذاب، وقد قالوا: ﴿رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا﴾ [المؤمنون: 106]، قال الزمخشريُّ: "وقيل: أسرّوا النَّدامة: أظهروها، من قولهم: أسرَّ الشيءَ؛ إذا أظهره، وليس هناك تجلُّد"[1]، فيكون استعمالُ الإسرار من قبيل التَّهكُّم؛ إذ لا يستطيعون في ذلك الموقفِ إسرارَ النَّدامة، أي: إنَّهم لو استطاعوا ذلك لفعلوه، لكن ليس في ذلك اليوم شأنٌ للإسرارِ، ولا حضورٌ للإخفاءِ.

وأمّا الخفاء، فالمعنى: إخفاءُ النَّدامة هو من كونهم بُهتوا لرؤيتهم ما لم يحسبوه، ولا خطر ببالهم، ومُعاينتِهم ما أوهى قواهم، فلم يطيقوا عند ذلك بكاءً ولا صراخًا، ولا ما يفعله الجازع، سوى إسرار النَّدم والحسرة في القلوب[2]، وفي هذا مزيدُ ألمٍ؛ لأنَّ "التعبير الحركيَّ لونٌ من التنفيس البدنيِّ، وحين لا يستطيعه الإنسان، فهو يتألَّمُ أكثر"[3].

ومن بلاغة هذه المفردة أنَّها تجمع بين موقفين: موقف يحصل فيه الإخفاء والكتمان، وهو قبل الاحتراق بالنار، وموقف يحصلُ فيه الإظهار، وهو أنَّهم إذا أحرقتهم النّار؛ ألهتهم عن هذا التصنُّع لمن كان يتبعهم في الدنيا، فتركوا هذا الإخفاء، وأظهروا النَّدامة، بدليل قوله تعالى: ﴿قَالُواْ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا﴾ [المؤمنون: 106][4]، فهم في هذه الحال لا يكتمون ندمهم[5].

بلاغةُ الاستعارةِ في استعمال الماضي في: ﴿وَأَسَرُّواْ﴾ و﴿قُضِيَ﴾:

عبَّر البيانُ القرآنيُّ بلفظ الماضي في الفعلين: ﴿أَسَرُّواْ﴾ و﴿وَقُضِيَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ﴾، و﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُم﴾ مع أنَّ الإسرارَ لم يقعْ منهم بعدُ، فسيكون ذلك في الزَّمن المستقبل، وكذلك قضاء الله سبحانه بينهم لم يقعْ بعدُ، وذلك تنبيهًا على تحقيق

(1) الزمخشري، الكشاف: 2/252.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 6/72.
(3) الشّعراوي، تفسير الشّعراوي: 10/5991.
(4) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 17/265.
(5) الواحدي، التفسير البسيط: 11/225، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 8/352.

وقوعه حتى كأنَّه قد مضى، إذ القيامة لمّا كانت واجبة الوقوع؛ جعل الله مستقبلها كالماضي[1]، والمعنى: وسيُسِرّون النَّدامة قطعًا، وسيُقضى بينهم قطعًا[2]، ففي الآيةِ استعارةٌ بتشبيه فعل المستقبل بالماضي على سبيل الاستعارة التَّبعيَّة.

القيامةُ لمّا كانتْ واجبةَ الوقوعِ؛ أخبرَ عن مستقبلها كالإخبارِ عن الماضي

فائدةُ العدول إلى صيغة الجمع ﴿وَأَسَرُّواْ﴾:

عدلَ البيانُ الإلهيُّ إلى صيغة الجمع ﴿وَأَسَرُّواْ﴾ دون أن يقول: (وأسرَّت) العائد على ﴿لِكُلِّ نَفْسٍ﴾ مع تحقُّق العموم في صورة الإفراد أيضًا (وأسرَّت)؛ وذلك لإفادة تهويلِ الخطب بطريق الاجتماع لمّا رَأَوُا العذاب، ويكون الإسرارُ بطريق المعيَّة والاجتماع، ولم يراع ذلك فيما سبق؛ لتحقيق ما يتوخّى من فرض كون جميع ما في الأرض لكلِّ واحدة من النفوس[3].

اجتماعُ الظّالمين في الدُّنيا فرحًا، يستحيل في الآخرة ندمًا

والتعبيرُ بصيغة الجمع المذكَّر ﴿وَأَسَرُّواْ﴾ من بابِ حمل لفظ النَّفس على الشخص، أو لتغليبِ ذكور مدلوله على إناثه[4]. ودلالةٌ أخرى وهي أنَّ الإسرارَ سيكون لمجموعاتِ الظّالمين، ذلك أنَّ الظّالم لا يتمكَّن من ظلمِه في الدُّنيا ما لم يكن له معينون وخَدَمة، فجاء التَّعبيرُ بالجمعِ لبيانِ أنَّ اجتماعَ الظالمين في الآخرة على النَّدامةِ سيكون كاجتماعِهم في الدُّنيا على الظُّلم، وفي ذلك زيادةُ تهويلٍ من شأنِ النَّدامةِ، يتناغم مع عدل الله تعالى، فكما اجتمع الظّالمون في الدُّنيا فرحين بصنيعهم، سيجتمعون نادمين على صنيعهم في الآخرة.

بلاغةُ تعليقِ ﴿لَمَّا رَأَوُاْ ٱلْعَذَابَۖ﴾ بـ: ﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ﴾:

شدَّةُ النَّدامةِ عند معاينةِ العذابِ كتمتِ الأنفاسَ وأغلقتِ الأفواه

﴿لَمَّا﴾ بمعنى (حين) منصوب بـ ﴿أَسَرُّواْ﴾، أي: أسرّوا النَّدامة

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 17/265.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/180.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/154، والقاسمي، محاسن التأويل: 6/34.
(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/154.

حين رأوا العذاب، أو حرفُ شرطٍ حُذِفَ جوابُه لدلالة ما تقدَّم عليه، وهو إسرارُ النَّدامة، أي: لمّا رأوا العذابَ أسرّوا النَّدامة[1].

وعلى كلا الأمرين فقد علَّقَ البيانُ القرآنيُّ إسرارَ الظالمين للنَّدامة برؤية العذاب؛ إشارةً إلى شدَّة هذا العذاب، وأنَّ في رؤيتهم ومعاينتهم له من فظاعةِ الحال، وشدَّة الأهوال ما لم يكونوا يحتسبون، فلم يقدروا على أن ينطقوا بشيء[2]، فأسرّوا النَّدامةَ، وحالُهم وعيونهم ونظرتهم يُظهرها من أوَّل البعث، فكيف عند رؤية العذاب، وعليه تكون الآيةُ قد أشارت إلى أنَّ إسرارَ النَّدامةِ عند رؤية العذابِ يماثل الكتمَ النَّفسيَّ واللفظيَّ عند الصَّدمةِ الأولى، فالأهوال من شأنها توريث النَّدامةِ، لكنَّ لحظة رؤية العذاب كان لها هولها الخاص، فاقتضى التَّعبير عنه بإسرار النَّدامة، فمن شدَّته كُتمت.

نكتةُ استعمال الرُّؤية: ﴿رَأَوُاْ﴾:

رؤيةُ العذابِ بالبصرِ عينُ اليقين

استعملَ البيانُ القرآنيُّ لفظ الرؤية ﴿رَأَوُاْ﴾ في قوله: ﴿لَمَّا رَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ﴾، ولم يقل: (لمّا أحسّوا العذاب)، أو (لمّا شاهدوا العذاب)، أو (لمّا عاينوا العذاب)؛ لأنَّ لفظَ الرؤيةِ أنسبُ للسياق، إذ السياقُ هنا سياقُ تحقُّقِ وقوع العذاب عليهم، واستحقاقهم له، فناسبَ استعمالَ لفظ الرؤية، وهي الرؤية البصريَّة التي تفيد اليقين، كما قال تعالى: ﴿لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ۝٦ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ۝٧﴾ [التكاثر: 6 - 7].

معنى الواو في: ﴿وَقُضِيَ﴾:

الواو بين الاستئنافيَّة والعاطفة

تحتمل الواو في قوله تعالى: ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ﴾ وجهين:

الأول: استئنافيَّة، والجملة هي "جملة أخبارٍ مستأنفة"[3]، وهو الظاهر[4].

(1) الآلوسي، روح المعاني: 6/130، "وهذا عند مَنْ يرى تقديمَ جواب الشرط جائزًا"، ينظر: السمين الحلبي، الدر المصون: 6/222.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السليم: 4/154.

(3) أبو حيان، البحر المحيط: 6/73.

(4) السمين الحلبي، الدر المصون: 6/222.

الآخر: عاطفة، والمعطوف عليه جملة ﴿رَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَۖ﴾ فتكون داخلة في حيِّز لما، والمعنى: أسرّوا النَّدامة حين رأوا العذاب وحين قُضي بينهم بالقسط[1]، وجملة: (قضي بينهم) عطف على جملة: (أسرّوا)[2].

سرُّ إيثارِ المبني للمفعولِ:

آثر البيانُ الإلهيُّ التَّعبيرَ بالمبني للمفعول: ﴿وَقُضِيَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَقُضِيَ بَيۡنَهُم بِٱلۡقِسۡطِ﴾ ولم يأتِ بالمبني للفاعل؛ للتركيز على الحدث، وهو القضاءُ وحصرُ الوعي فيه، وللإيماء بأنَّه أوقِعَ على أيسر وجه وأسهله[3]، ولأنَّه في هذا الموقف العظيم لا أحدَ يملكُ القضاءَ إلا هو سبحانه الملك الأعظم الذي لا مُلْكَ إلّا مُلكُه، ولا حكمَ إلّا حكمه، أي: إنَّ هذا الفعل لا يصلح إلّا لله سبحانه، ولا يكون إلّا منه.

القضاءُ لله وحدهُ سبحانه الذي لا حكمَ إلّا حكمه

نكتةُ تقديم ﴿بَيۡنَهُم﴾:

قدَّم البيانُ القرآنيُّ ﴿بَيۡنَهُم﴾ على قوله: ﴿بِٱلۡقِسۡطِ﴾ في قوله: ﴿وَقُضِيَ بَيۡنَهُم بِٱلۡقِسۡطِ﴾؛ للاهتمام به، وللاعتناء ببيان تعميم القضاء بينهم جميعًا؛ إذ السّياق يشير إلى العدل الإلهيِّ المطلق، فكما أنَّ الاستثناءَ في حقِّ الظّالمين يوم القيامةِ ممتنعٌ، فلا يُقبلُ من أيِّ نفسٍ ظالمة فِدْية، كذلك قضاؤُه سبحانه بينهم شاملٌ للجميع، ولا يُستثنى منه أحد.

عدلُ الله مطلقٌ وقضاؤُه يشملُ الجميع

معنى البينيَّة في: ﴿وَقُضِيَ بَيۡنَهُم بِٱلۡقِسۡطِ﴾:

الكفّار وإنِ اشتركوا في العذاب، فإنَّه لا بدَّ وأنْ يقضي اللّه تعالى بينهم؛ لأنَّه لا يمتنع أنْ يكون قد خانَ، وظلمَ بعضهم بعضًا في الدُّنيا، فيقتصُّ اللّه سبحانه للكافر المظلوم من الكافر الظالم؛ لأنَّ الظالم الكافر إنَّما ظلم مخلوقًا للّه، فالحقُّ سبحانه ربُّ الجميع

منتهى العدلِ الإلهيِّ أنْ يقتصَّ للكافرِ المظلومِ من الكافرِ الظالم

(1) الآلوسي، روح المعاني: 6/130.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/180.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 9/140.

وخالقُ الجميع، وكما أعطاهم بقانون الرُّبوبيَّة كلَّ خير مثلما أعطى المؤمنين، فلا بدَّ أنْ يقضي فيه الحقُّ سبحانه بالفصل والحكم بالعدل[1]، ولا سبيل إليه إلّا بأنْ يخفِّفَ من عذاب المظلومين، ويثقِّلَ في عذاب الظالمين[2].

معنى الباء في: ﴿بِٱلۡقِسۡطِ﴾:

قضاءُ الله سبحانه بين الخلائقِ مصحوبٌ بالعدل وموزونٌ بميزانِ القسط

الباءُ في قوله تعالى: ﴿وَقُضِيَ بَيۡنَهُم بِٱلۡقِسۡطِ﴾ تحتمل وجهين:

أحدهما: المصاحبة والملابسة، أي: قُضي بينهم قضاءً مصحوبًا ومتلبِّسًا بالعدل.

الآخر: الآلة والاستعانة، أي: قُضي بينهم بواسطة القِسْط، وكأنَّ القِسْط آلةٌ للقضاء بينهم بالعدل، وهذا المعنى يشبه قوله تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلۡمَوَٰزِينَ ٱلۡقِسۡطَ لِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَلَا تُظۡلَمُ نَفۡسٞ شَيۡـٔٗاۖ وَإِن كَانَ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٍ أَتَيۡنَا بِهَاۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ٤٧﴾ [الأنبياء: 47].

بلاغةُ التَّذييلِ في: ﴿وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾:

تذييلٌ دلَّ على منتهى العدالةِ الإلهيَّة يومَ القيامةِ حتى مع الظالمين

ختمَ البيانُ الإلهيُّ الآية بقوله: ﴿وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾، وأتتْ هذه الجملة اسميَّة تفيدُ الثبات والدوام على عدم ظلمهم، فكانتْ بمنزلةِ وعد منه سبحانه بأنَّهم لا يُظلمون، وهذا التذييل أفاد معانيَ جليلة منها: التَّأكيد؛ حيث أكَّدت عدم ظلمهم، فقوله تعالى: ﴿وَقُضِيَ بَيۡنَهُم بِٱلۡقِسۡطِ﴾ أفاد أنَّهم لا يظلمون؛ لأنَّه إذا قُضي بينهم بالعدل لا يظلمون.

ومنها: الدَّلالة على العدالة الإلهيَّة المطلقة يوم القيامة حتى إنَّ الذي ظَلم في الدُّنيا، فإنَّه لا يُظلم يوم القيامة، فاختيار ﴿لَا يُظۡلَمُونَ﴾ فيه تناسبٌ مع قوله: ﴿نَفۡسٖ ظَلَمَتۡ﴾، وفيه ملمحُ تعريضٍ بظلم الظالمين، ومزيد من النَّدامة والحسرة أمام عدلِ الله يوم القيامة.

(1) الشّعراوي، تفسير الشّعراوي: 10/5991.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 17/265.

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

النَّدم والحَسْرة:

النَّدمُ إحساسٌ بالغمِّ، فإذا اشتدَّ ألمُه؛ فهو الحَسْرةُ

يتقارب معنى النَّدم والحسرة، ويُعرَّف كلٌّ منهما بالآخر في اللغة: النَّدم: التَّحَسُّر من تغيُّر رأيٍ في أمرٍ فائت[1]، وتندَّمَ على الأمر: أسِفَ، وتحسَّر عليه، وكرهه بعدما فعله[2]، والنَّدامة: غمٌّ يصحب الإنسان يتمنّى أنَّ ما وقع منه لم يقع، وأصل النَّدم: الإحساس بفقد معظم شيءٍ، أو كلِّه مع العجز عن استدراك ما فات، فيلوم نفسه على تفريطٍ وقع منه[3].

ومعنى الحَسْرة: الحاء والسين والراء أصل واحدٌ، وهو من كشفِ الشيء، والحسرة: شدَّة التلهُّف والتأسُّف والحزن والغمِّ والنَّدم على الشَّيء الفائت، وكأنَّه انكشف أمره في جزعه وصبره حتى يبقى النادم كالحسير من الدواب الذي لا منفعة فيه[4]، وحقيقة الحسرة أنْ يلحقه من النَّدم ما يصير به حسيرًا، والحَسير: الذي اشتدَّت ندامتُه على أمرٍ فاته، والحَسْرة: شعورٌ باطنيٌّ بالغُ الحدَّة بالنَّدم، مع عدم فرصة استدراك الأمر[5].

نلحظ أنَّ النَّدم والحسرة يشتركان في أنَّهما شعورٌ داخلي يصحبهُ غمٌّ على أمرٍ فائت، مع العجز عن استدراكه.

ويتميَّز لفظُ الحَسْرة بأنَّه أشدُّ النَّدم، ويكون شعور الحسير بالنَّدم بالغَ الحدَّة، وهو تألُّم القلب بانحساره عن مأموله، وكأنَّه لشدَّة ندمه وتلهُّفه على أمرٍ فائت انكشفَ حالهُ، وانحسر عنه قواه من فرط الغمِّ، أو أدركه إعياء عن تدارك ما فرَّط منه[6].

---

(1) الرّاغب، المفردات، ص: 796.

(2) مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط: (ندم).

(3) الزّبيدي، تاج العروس، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (ندم).

(4) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب، والزَّبيدي، تاج العروس: (حسر).

(5) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (حسر).

(6) أبو حيان، البحر المحيط: 2/65، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: 1/407.

القِسْط والعَدْل:

العَدْلُ هو استواءُ الطَّرفين حكمًا، والقِسْطُ هو تحرّي العدل

بَيْن لفظي القِسْط والعَدْل تقاربٌ دلالي كبير؛ فكلاهما في أصل مادَّته يدلُّ على معنيين متضادَّين، وإذا نظرنا إلى المعنى الأول منهما؛ فكلاهما يعني: الإنصاف والمساواة، وخلاف الجَوْر، ولهذا لم يفرِّق علماء اللُّغة والمفسِّرون بين القِسْط والعَدْل، فجعلوهما كالمترادفين، إلا أنَّه عند إمعان النَّظر في المعنى اللغوي، والاستعمالِ القرآنيِّ لكلٍّ منهما تظهر بعض الفروق الدقيقة بينهما، ويتَّضح ذلك من خلال الآتي:

القِسْطُ في اللغة: أَقْسَطَ يُقْسِطُ، فهو مُقْسِطٌ؛ إذا عدَل، وقَسَطَ يَقْسِطُ، فهو قاسِطٌ؛ إذا جارَ، والقِسْط: العدل، والحصَّة والنصيب، وتقَسَّطوا الشيء بينهم: تقسَّموه على العَدْل والسَّواء، والإِقْساطُ: العدل في القسمة والحكم، والقِسْطُ: المِيزانُ، سُمّي به؛ لأنَّه يعدل هذا الجانب منه بهذا، ومن ذلك جاء الإقساطُ: العدلُ في القسمة كأنَّما هو إعطاءُ كلٍّ قِسْطَه[1].

والعَدْلُ في اللغة: العين والدال واللام أصلان صحيحان، لكنَّهما متقابلان كالمتضادَّين: أحدهما يدلُّ على استواءٍ، والآخر يدلُّ على اعوجاج[2]، فالأول: ضدُّ الجَوْرِ، تقول: هو يعدل أي: يحكم بالحقِّ والعدل، والعَدْلُ من النّاس: المرضيُّ قولُه وحكْمُه، والتَّعادُلُ التَّساوي، والعَدْلُ: الاستواء والاستقامة، وتعديل الشيء: تقويمُهُ؛ وإذا مالَ شيءٌ؛ قُلْتَ: عَدَلْتُه، أَي: أَقمتَه، فاعْتَدَل، أي: اسْتَقامَ، والعَدْلُ: الفداء[3].

وقد جمع القرآن بينهما في آية واحدة في قوله تعالى: ﴿فَأَصْلِحُواْ

(1) الجوهري، الصحاح، والزبيدي، تاج العروس، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (قسط).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عدل).
(3) الخليل، العين، والفيومي، المصباح المنير، وابن منظور، لسان العرب: (عدل).

بَيۡنَهُمَا بِٱلۡعَدۡلِ وَأَقۡسِطُوٓاْۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ۝٩﴾ [الحجرات: 9]، فيُفهم من الاستعمال القرآني أنَّ العدل هو الحكم بين النّاس بالعدل، وأمّا القسط؛ فهو تحرّي العدل.

وقد فرَّق بينهما العسكري، فقال: "القِسْط: هو العدلُ البيِّنُ الظاهر، ومنه سُمّي المكيالُ قِسْطًا، والميزانُ قِسطًا؛ لأنَّه يصوِّر لك العدل في الوزن حتى تراه ظاهرًا، وقد يكون من العدل ما يخفى، ولهذا قلنا: إنَّ القِسْط هو النصيب الذي بُيِّنت وجوهه"[1]. إذًا: القِسْط أخصُّ من العدل؛ لدلالة القِسْط على العدل في الحكم، وأمّا لفظ العدل؛ فأعمُّ من ذلك[2].

(1) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 234.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 5/225.

﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ أَلَآ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ٥٥﴾ [يونس: 55]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الانتقالُ من ذكر الفرضيّات إلى تقرير الحقائق الواقعيّات

في مناسبةِ هذه الآيةِ لِما قبلها وجهان:

أحدهما: أنَّ الله تعالى لمّا ذكر أنَّ كلَّ نفسٍ كافرة، لو تملك ما في الأرض؛ لافتدتْ به بقوله: ﴿وَلَوۡ أَنَّ لِكُلِّ نَفۡسٖ ظَلَمَتۡ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ لَٱفۡتَدَتۡ بِهِۦۗ﴾ [يونس: 54]؛ فبيَّن أنَّها لا تستطيع ذلك؛ لعدم مُلْكِها، فليس لها شيءٌ تفتدي به؛ فإنَّ كلَّ الأشياء ملكٌ لله تعالى، فقال: ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ﴾[1]، فهو انتقالٌ من بيانِ الفرضيّات إلى بيان الواقعيّات، بقصدِ تجلية المعاني، ومعرفةِ الدلائل، والخضوع للحقائق.

والآخر: لمّا حكى الله تعالى عن الكفّار أنَّهم قالوا: أحقٌّ هو؟ وأمرَ الرَّسولَ ﷺ بأنْ يقول: ﴿إِي وَرَبِّيٓ﴾، وهذا جارٍ مجرى الإقناعيّات؛ أتْبعهُ بما هو البرهان القاطع على صحَّته وتقريره، وهو أنَّ القول بالنُّبوَّة والقول بصحَّة المعاد يتفرَّعان على إثبات الإله القادر الحكيم، وأنَّ كلَّ ما سواه؛ فهو ملكه، فعبَّر عن هذا المعنى بقوله: ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ﴾[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَعۡدَ﴾: الواو والعين والدال: كلمة صحيحة تدلُّ على ترجيةٍ بقول، يُقال: وَعَدْتُه أَعِدُه وَعْدًا، ويُستعمل في الخير والشرِّ، ويُعدّى بنفسه وبالباء، فيقال: وَعَدَهُ الخيرَ، وبالخيرِ، وغلب الوعد في

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 17/266، الصّاوي، حاشيته على تفسير الجلالين، ص: 806.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 17/266.

الخير، والإيعادُ في الشرِّ، والوعيد لا يكون إلّا بِشَرٍّ[1]، ووعده الأمر: قال له: إنَّه يُجريه له، أو ينيله إيّاه، ووعده بالخير: منّاه به، وبالشَّرِّ: هدَّدَه به، والموعد: العهد[2].

ومعنى ﴿وَعۡدَ﴾ في الآية: يتضمَّن الأمرين، أي: في كلِّ وعد ووعيد عذابٌ أو رحمة؛ إذ هو وعدٌ بالقيامة، وجزاء العباد إنْ خيرًا؛ فخيرٌ، وإنْ شرًّا؛ فشرٌّ، فإنَّ ما وعد الله تعالى به - على ألسنة رسله - أنَّه سيُجريه، فهو حقٌّ كائنٌ لا محالة[3].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

مالكُ كلِّ شيءٍ هو المحقُّ في الوعدِ والعدْلُ في الحُكمِ

ألا إنَّ لله ملكَ كلِّ ما في السّماوات وكلِّ ما في الأرض، لا شيء فيه لأحدٍ سواه، فليس لهذا الكافر بالله يومئذٍ شيءٌ يملكه، فيفتدي به من عذاب ربِّه، وإنَّما الأشياء كلُّها للذي إليه الحساب، وقد حقَّ جميع ما وعد به سبحانه، وأَوَّلُه عذابه الذي أوعد به هؤلاء المشركين، فلا عليهم ألّا يستعجلوا به، فإنَّه بهم واقعٌ لا شكَّ، ولكنَّ أكثر هؤلاء المشركين لا يعلمون حقيقةَ وقوع ذلك بهم، فهم من أجل جهلهم به مكذِّبون[4].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ استعمالِ حرفِ التَّنبيه ﴿أَلَآ﴾:

إعلامٌ بأنَّ لهُ الملكَ كلَّه، وأنَّ كلَّ الأسبابِ تتفاعلُ بعطاءٍ وتقديرٍ منه

في قوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ﴾ صدِّرتِ الجملةُ بحرف التَّنبيه والتحقيق ﴿أَلَآ﴾ الذي يُفتتح به الكلام؛ "للاعتناء بما بعدها"[5]، ولتنبيهِ الغافلين عن هذه الحقيقةِ والقضيَّة الكبرى، وحضِّهم على التذكُّر والاعتبار والعودة إلى طريق الحقِّ[6]،

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والفيومي، المصباح المنير: (وعد).
(2) مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (وعد).
(3) ابن جرير، جامع البيان: 6/53، والراغب، المفردات، ص: 875، والمراغي، تفسير المراغي: 11/114.
(4) ابن جرير، جامع البيان: 15/104.
(5) الصّاوي، حاشيته على تفسير الجلالين، ص: 806.
(6) طنطاوي، التفسير الوسيط: 7/87.

والتأكيد على استماعها، وإنْ كانوا يعرفونها؛ لكثرة ذهولِ النّاس عن تذكُّر أمثالها[1]، وهذه الحقيقة والقضيَّة الكبرى هي أنَّه سبحانه أَمَرَ الأسباب أنْ تخضعَ لمسبِّباتِ عمل العامل؛ فكلُّ من يأتي بالأسباب، فهي تعطيه، سواء أكان مؤمنًا أم كافرًا، فالذي نَسِيَ مسبِّبَ الأسباب، وارتبط بالأسباب مباشرة، ينال العذاب، فالحقُّ ينبِّههم، أي: تنبَّهوا أيُّها الجاهلون، وافهموا هذه القضيَّة الكبرى: ﴿إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ﴾ وإيّاكم أنْ تغترّوا بالأسباب، أو أنَّكم بأسبابكم أخذتم غير ما يريدُهُ الله لكم، فهو سبحانه الذي أعطاكم، وقدَّر لكم، وكلُّ الأسباب تتفاعل لكم بعطاءٍ وتقديرٍ من الله ﷻ[2].

بلاغةُ التَّوكيدِ في: ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ﴾:

التَّوكيدُ تقريرٌ لقدرتِهِ تعالى على الإثابةِ والعقابِ

أكَّد البيانُ الإلهيُّ الخبر في قوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ﴾ بحرف ﴿إِنَّ﴾ بعد حرف التَّنبيه ﴿أَلَآ﴾؛ للردِّ على المشركين؛ لأنَّهم لمّا جعلوا لله شركاء؛ فقد جعلوها غيرَ مملوكةٍ له[3]، ولأنَّه لمّا كان السَّببُ الحاملُ لملوكِ الدُّنيا على الكذبِ والجَوْرِ والظُّلم؛ العجزَ، أو طلبَ التزيُّد في المُلك، أشار إلى تنزُّهه عن ذلك بقولٍ مؤكَّدٍ: ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ﴾ سَوقًا لهم مَساقَ المُنْكِر؛ لأنَّ فعلَهم في عبادة الأصنام فعلُ من ينكر مضمون الكلام[4].

معنى اللّام الدّاخلة: ﴿لِلَّهِ﴾:

الحَكَمُ العدْلُ من لَهُ الملكُ كلُّه

(اللام) في قوله: ﴿لِلَّهِ﴾ للملك، أي: لَهُ مُلكُ السَّماواتِ والأَرضِ؛ فلا مانع يمنعه من إنفاذ ما وعده"[5]، والحاصل: أنَّه لا يظلم إلّا ناقص المُلك، وأمّا من له الملك كلُّه؛ فهو الحكم العدل؛ لأنَّ جميع

(1) رشيد رضا، تفسير المنار: 11/327.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 1/219، والشّعراوي، تفسير الشّعراوي: 10/5994.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/199.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 9/141.
(5) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 8/353.

الأشياء بالنسبة إليه على حدٍّ سواء، فذكرُ الملك له دون سواه تأكيدٌ لعدلِه تعالى.

غرضُ تقديم ﴿لِلَّهِ﴾:

قدَّم البيان القرآنيُّ خبر إنَّ ﴿لِلَّهِ﴾ على اسمها ﴿مَا﴾ في قوله تعالى: ﴿لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ﴾؛ للاهتمام باسمه تعالى، ولإفادة القصر؛ لردِّ اعتقادهم الشركة[1]، أي: ألا إنَّ للّٰه وحده لا لغيره ملكَ ما في السّماوات وما في الأرض من مخلوقات[2]، فغرضُ التقديم إفادةُ القصر بقصد قلب اعتقاد أن يُشارِكَ اللّٰه أحدٌ في ملكه، أو تنزيل أحد منزلةَ من يُشارك اللّٰه في ملكه.

اختصاصُ الله بالملك يقتضي اختصاصَه بالحكم والجزاء

دلالةُ استعمالِ الاسم الموصولِ ﴿مَا﴾:

الاسم الموصول ﴿مَا﴾ في قولِه: ﴿مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ﴾ مفيدٌ لعموم كلِّ ما ثبتتْ له صلة الموصول من الموجودات الظاهرة والخفيَّة[3]، أي: للّٰه كلُّ ما وُجِد فيهما داخلًا في حقيقتهما، أو خارجًا عنهما متمكِّنًا فيهما، فكلمة ﴿مَا﴾ أعمُّ وأشمل من (مَن)، وهي لتغليب غير العقلاء على العقلاء، وخاصَّة أنَّ الآية التي قبلها تتحدَّث عن الافتداء بالمال ﴿لَٱفۡتَدَتۡ بِهِۦۗ﴾، وفي هذا تقريرٌ لكمالِ قدرته سبحانه على جميع الأشياء، وبيانٌ لاندراج الكلِّ تحت ملكوته يتصرَّف فيه كيفما يشاء إيجادًا وإعدامًا، وإثابة وعقابًا[4].

جميعُ الأشياء تندرجُ تحت ملكوتِه سبحانه يتصرَّفُ فيها كيفما يشاء

توجيهُ المتشابه اللفظي:

جاء التَّشابه اللفظي بين قوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ﴾ وقوله تعالى بعد عشر آيات: ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ

الله مالكُ كلِّ شيءٍ، وما سواه فملكه مجازيٌّ افتراضيٌّ مؤقَّت

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/199.
(2) طنطاوي، التفسير الوسيط: 7/87.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/199.
(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/155.

﴿وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِۗ﴾ [يونس: 66] فعبَّر القرآن في الآية الأولى بـ﴿مَا﴾ وفي الثانية بـ﴿مَن﴾؛ وسبيل الكشف عن ذلك السياقِ، لاسيَّما السابق، فالآية الأولى جاءتْ بعد قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ أَنَّ لِكُلِّ نَفۡسٖ ظَلَمَتۡ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ لَٱفۡتَدَتۡ بِهِۦۗ﴾ [يونس: 54]، وكان المعنى: أنَّ النَّفس الظالمة إذا رأتْ عذابَ الله تعالى لو ملكتْ جميع ما في الأرض؛ لبذلته في فداء نفسها، وهي تحرصُ على اليسير من حطامها في ظلمِ أهلها، فأتْبعَ ذلك بقوله: ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ﴾، أي: إنَّ النَّفس الظالمة لا تملكُ ما في الأرض لتفتديَ به، ولو ملكته لَما قُبِل في فدائها، وكيف يكونُ لها ذلك، والله تعالى مالكُ ما في السّماوات والأرض، وليس للعبدِ ذلك، ولا محلُّه هنالك؟ فناسب لهذا الموضع: ﴿مَا﴾ التي هي أعمُّ وأشمل من ﴿مَن﴾ إذ ﴿مَا﴾ تُستعمل لصفاتِ العقلاء، وذواتِ غير العاقل بخلاف ﴿مَن﴾، فهي تُستعمل لذواتِ العقلاء، وأولي العلم فقط.

وهذا في حملِها على التغليب، أي: تغليب ما لا يعقل على ما يعقل، أمّا إذا حملناها على خصوص ما لا يعقل؛ فيكون المقصود بيانَ أنَّ هذه الأنفس الظّالمة ليس لها أن تملك أصحاب العقول، لا في الدُّنيا، ولا على سبيل الفرض في الآخرة.

وأمّا الموضع الذي ذُكر فيه ﴿مَن﴾؛ فلا يصحُّ فيها غيرها؛ لأنَّ قبله هو قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحۡزُنكَ قَوۡلُهُمۡۘ إِنَّ ٱلۡعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعٗاۚ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ٦٥﴾ [يونس: 65]، والمعنى: لا يحزنك ما يتوعَّدك به الكفّار من القتل وأنواع المكروه؛ فإنَّ العزة لله تعالى، ولا يمنحُ الكفّار قدرة على ما يريدونه منك، بل يعطيك القدرة والغلبة عليهم، فإنَّه يملك من في السّماوات ومن في الأرض، ولا قوَّة لهم إلّا به، ولا قدرة لهم إلّا من عنده، فاقتضى هذا الموضع اختيارَ لفظ: ﴿مَن﴾[1].

بلاغةُ استعمالِ حرفِ الظَّرفيَّة: ﴿فِي﴾:

عبَّرتِ الآيةُ بحرفِ الظرفيَّة ﴿فِي﴾ في قوله: ﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ﴾ للإشارة إلى تغلغلِ ملكه وسلطانه في كلِّ السّماوات والأرض، فلهُ الملك كلُّه، ما ظهر منه وما بطن، وذكر حرفَ الظَّرفيَّة للتَّنبيه على ملكه للظّاهر بالخفيِّ، فإنَّ ما في السّماوات والأرض لا يظهر،

(1) الإسكافي، درة التنزيل: 2/743 - 745، والكرماني، أسرار التكرار في القرآن، ص: 141، وزكريا الأنصاري، فتح الرحمن، ص: 248.

كما هو الذي على الأرض، فنبَّه بما خفي فيها على الظّاهر فوقها؛ لبيانِ قدرته ﷻ على الحكم على مملوكاته كلِّها.

التَّنبيهُ على ملكه سبحانه بالخفيِّ على الظّاهر لبيانِ التَّمكُّن والاقتدار

غرضُ تقديمِ السّماوات على الأرض:

قدَّم البيان الإلهيُّ السّماوات على الأرض في قوله: ﴿مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ﴾؛ لأمور:

البدءُ بالأسبقِ وجودًا والأعظم حالًا والأعلى حسًّا

الأول: مراعاة السَّبق الوجوديِّ؛ إذ السّماوات خُلقت قبل الأرض.

الثّاني: علو السّماوات معنًى وحسًّا وعظمتها[1]، فتقديمها أنسبُ في سياق كمال ملكه سبحانه.

الثالث: لكونِ ملكه سبحانه لِما في السماء أعجبَ وأدلَّ على كمالِ قدرته سبحانه، فإنَّ "الآيات في السّماوات أعظمُ منها في الأرض؛ لسعتها، وعظمها، وما فيها من كواكبها، وشمسها، وقمرها، وبروجها، وعلوِّها، واستغنائها عن عمد تقلُّها، أو علاقة ترفعها، إلى غير ذلك من عجائبها، وما فيها كقطرة في سعتها؛ ولهذا أمر سبحانه بأن يرجع النّاظر فيها البصرَ كرَّةً بعد كرَّةٍ، ويتأمَّل استواءَها، واتِّساقها، وبراءتها من الخلل، والفطور، فالآيةُ فيها أعظمُ من الأرض"[2].

نكتةُ عطفِ الأرضِ على السَّماوات بدون إعادة الاسم الموصول:

لما كانَ المقامُ للغنى عن الظُّلمِ لم يُخوَجِ الحالُ إلى التأكيد

لم يكرِّر البيان الإلهيُّ الاسم الموصول ﴿مَا﴾ في قوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ﴾؛ اكتفاءً بذكرها في الآية التي قبلها: ﴿وَلَوۡ أَنَّ لِكُلِّ نَفۡسٖ ظَلَمَتۡ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ لَٱفۡتَدَتۡ بِهِۦۗ﴾[3]، أي: أغنى لفظها عن إعادتها مع العلم بالمعنى[4]، وللإشارةِ إلى أنَّ المالكَ الحقيقيَّ لما في الأرضِ على الدّاومِ هو خالقُها ﷻ، دون من

(1) البقاعي، نظم الدرر: 9/141.
(2) ابن القيم، بدائع الفوائد: 1/74.
(3) الكرماني، أسرار التكرار في القرآن، ص: 103، وزكريا الأنصاري، فتح الرحمن: 1/248.
(4) ابن جماعة، كشف المعاني في المتشابه من المثاني، ص: 205.

يُعبد من الشُّركاءِ، ولبيانِ أنَّ ملكَ السَّماوات مساوٍ لملكِ الأرضِ سواءً بسواء.

وأمّا حرف الجرِّ ﴿فِي﴾ فلم يُعِدْه البيانُ القرآنيُّ؛ لعدم الحاجة إلى التأكيد؛ لأنَّه "لَمّا كان المقام للغنى عن الظلم لم يُحْوَجِ الحالُ إلى تأكيدٍ بإعادة الجار"[1]؛ إذ لا يَظلمُ إلّا ناقصُ الملك، وأمّا من له الملك كلُّه؛ فهو الحكم العدل.

معنى التَّعريفِ في: ﴿وَٱلۡأَرۡضِۗ﴾:

(أل) التعريف في قوله تعالى: ﴿وَٱلۡأَرۡضِۗ﴾ جنسيَّة استغراقيَّة، تفيدُ العموم، أي: تشمل جنس الأرض، "أي: من جَوهرٍ وعَرَضٍ صامتٍ وناطقٍ، فلا شيءَ خارج عن ملكه يحوجه إلى ظلمٍ، أو إخلافِ وعد"[2].

لا شيءَ في الأرضِ خارجٌ عن ملكه سبحانه

نكتةُ إعادةِ حرف التَّنبيه:

أعادَ البيانُ القرآنيُّ حرف التنبيه ﴿أَلَآ﴾ في قولِه تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ﴾ قضيَّة أخرى وكبرى؛ لتمييزها بهذا التَّنبيه عن سابقتها، لأنَّها مقصودة بذاتها: إذ إنَّ المشركين كانوا يظنّون أنَّ ما وعدهم به الرسول ﷺ هو من باب الترغيب والترهيب، وليس من باب الحقائق الثابتة[3]، فنبَّههم إلى أنَّه إذا وعدَ الله على لسان رسوله؛ فلا رادَّ لِما وعدَ به؛ لأنَّه منزَّه عن أنْ يخلفَ الميعاد؛ لأنَّ عناصر كلِّ الأحداث من الفاعل والمفعول، والزمان والمكان، والسَّبب تخضع لمشيئته سبحانه ولا تتأبّى عليه؛ ولذا فوعدهُ حقٌّ وثابت[4].

إعلامٌ من الله حولَ القضيَّة الكبرى والحقيقةِ الثابتة قضيَّة البعث

بلاغةُ التَّوكيد في: ﴿أَلَآ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ﴾:

أعاد البيان القرآنيُّ تأكيد الخبر بحرف ﴿إِنَّ﴾ بعد حرف

مَنْ شكَّ في البعثِ؛ شكَّ في أنَّ الله مالكُ كلِّ شيءٍ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 9/141.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 9/141.
(3) طنطاوي، التفسير الوسيط: 7/87.
(4) الشّعراوي، تفسير الشّعراوي: 10/5995.

التَّنبيه ﴿أَلَآ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ﴾؛ للاهتمامِ به، ولردِّ إنكار منكري بعضه، والذين هم بمنزلة المنكرين بعضه الآخر[1]، وللتَّأكيدِ هنا موقعٌ أخّاذ بعد تأكيد أنَّ لله ملك السّماوات والأرض، وهو بيان أنَّ قضية ملك السّماوات والأرض توازي قضيَّة البعث في عقل المشرك، فكلتاهما احتاجت إلى تأكيد، وهو تأكيدٌ يُنبئ عن إيضاحِ حقيقةِ البعث بعد إيضاح حقيقةِ الملك، فمن شكَّ في إحداهما؛ كان في الأخرى شاكًّا.

بلاغة التذييل في الآية:

مَنْ كانتْ هذه شؤونه سبحانه لا يَعجزُ عن تحقيقِ ما أخبرَ بوقوعه

في الآية تذييلُ إنهاءٍ للكلام المتعلِّق بصدق الرسول والقرآن، وما جاء به من الوعيد، وترقُّب يوم البعث، ويوم نزول العذاب بالمشركين، فقال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ وقد اشتمل هذا التذييل على مجمل تفصيل ذلك الغرض، وعلى تعليله بأنَّ مَنْ هذه شؤونه لا يعجزُ عن تحقيق ما أخبر بوقوعه، وافتتح هذا التَّذييل بحرف التَّنبيه ﴿أَلَآ﴾، وأُعيد فيه حرف التنبيه؛ للتأكيد على استماعه، وللتنبيه على أنَّه كلامٌ جامعٌ هو محصِّلةُ الغرض الذي سمعوا تفصيله آنفًا[2].

فائدةُ إظهارِ ما حقُّه الإضمارُ:

الوعدُ من العظيمِ سبحانه وعدٌ عظيمٌ

في قولِه تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ﴾ إظهارُ اسمِ الجلالة ﴿ٱللَّهِ﴾ دون الإتيان بضميره، فلم يقلْ: (إلا إنَّ وعده حق)؛ وذلك لتفخيم شأن الوعد، والإشعار بعلَّة الحكم[3]، ولتكون الجملة مستقلَّة؛ لتجري مجرى المثل، والكلام الجامع[4].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/198 - 199.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/198 - 199.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/155.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/199.

معنى الواو ودلالتها في: ﴿وَلَٰكِنَّ﴾:

الواو بين العاطفة والاستئنافيَّة والحاليَّة

الواو في قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ تحتمل ثلاثة أوجه ممّا أدّى إلى ثراء المعنى، وهذه الأوجه هي: عاطفة، عطفتْ جملة ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ على جملة: ﴿إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ﴾[1]، واستئنافيَّة[2]، أتتْ جملة ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ مستقلَّة، لتجري مجرى المثل، والكلام الجامع[3]، وحاليَّة[4]، والمعنى: إنَّ وعد الله حقٌّ، والحال إنَّ أكثرهم لا يعلمون.

بلاغةُ استعمالِ الاستدراكِ في: ﴿وَلَٰكِنَّ﴾:

علَّةُ الشَّكِّ انتفاءُ العلمِ، فمن عَلِمَ؛ استيقنَ وفَهِم

وقع الاستدراك بقوله: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾؛ لمخالفة المخالفين بعد تأكُّد الخبر من فَمِ الأمين الصادق، ومن الله تعالى، وذلك يوجبُ التصديقَ والإذعان والإيمان[5]، ولأنَّ الجملتين اللتين قبلها أُريد بهما الرَّدُّ على معتقدي خلافهما، فصارتا في قوَّة نفي الشَّكِّ عن مضمونهما، فكأنَّه قيل: لا شكَّ يحقُّ في ذلك، ولكنَّ أكثرهم لا يعلمون، فلذلك يشكون[6]، فعلَّةُ الشَّكِّ هي انتفاءُ العلم.

سرُّ ذكرِ الأكثريَّة: ﴿أَكۡثَرَهُمۡ﴾:

الكفّارُ بين جاهلٍ بالحقِّ - وهم الأكثرية - وبين عالمٍ بالحقِّ جاحد لهُ

قيَّد النَّظمُ الإلهيُّ نفي العلم بالأكثر في قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾، ولم يقلْ: (ولكنَّهم لا يعلمون)؛ لأمرين:

الأول: إشارة إلى أنَّ منهم من يعلم ذلك، ولكنَّه يجحده مكابرةً، كما في الآية السابقة: ﴿وَلَوۡ أَنَّ لِكُلِّ نَفۡسٖ ظَلَمَتۡ﴾ وقوله سبحانه:

(1) الهرريّ، حدائق الروح والريحان: 12/272.
(2) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 4/262.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/199.
(4) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 4/262.
(5) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 7/3593.
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/200.

﴿وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦ﴾ [يونس: 40]، فضمير ﴿أَكْثَرَهُمْ﴾ للمتحدَّث عنهم من الفريقين فيما تقدَّم[1].

الثاني: إنصاف القلَّة المؤمنة التي علمت الحقَّ؛ فاتَّبعته وصدَّقته، ووقفتْ إلى جانب الرسول ﷺ تؤيِّده، وتفتدي دعوته بالنَّفس والمال، هذا إنْ كان الضَّمير (هم) عائدًا على عموم النّاس[2].

ويحتمل أنْ يكونَ المراد بذكر الأكثر الجميع؛ لأنَّ عِظَم الشيء يقومُ مقامَ جميعه، فذِكْرُ الأكثر كذكر الجميع[3].

نكتةُ إيثارِ نفي العلمِ على إثباتِ الجهل: ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾:

نفيُ العلمِ وإثبات الجهل مضمون متقارب وأثر متباعد

آثر البيانُ الإلهيُّ التعبيرَ بنفي العلم عنهم في قوله: ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ على أنْ يثبتَ لهم الجهل، فلم يقل: (ولكن أكثرهم جاهلون)؛ لأنَّ نفي العلم يحتمل دلالات عدَّة، فهو أوسع دلالةً من إثبات الجهل، فيحتمل أنْ يكون لمعنى ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾، عدّة أوجه: أوّلًا: لا ينتفعون بعلمهم، فهم محرومون، فنفى عنهم العلم، وإنْ علموا؛ لمّا لم ينتفعوا به، وثانيًا: لم يكتسبوا سببَ العلم - وهو التأويل والنظر في آياته وحججه - لغفلتهم وقصور أنظارهم، وثالثًا: نفي العلم عنهم لما أُعطوا أسباب العلم، فلم يعلموا، فإن كان على هذا؛ فيكونون معذورين، وإن كان على الوجهين قبله؛ فلا عذر لهم في ذلك[4]، ورابعًا: لا يصدِّقون، فهم من أجل جهلهم به مكذِّبون[5].

وكذلك في نفي العلمِ عنهم نوعٌ من استمالتهم، ففرقٌ بين أن يكون الخطابُ في إثبات الجهل لهم، وبين نفي العلم عنهم، فكلاهما حقٌّ، والمضمون متقارب، لكن لمّا كان في اختيارِ الأسلوبِ الألطفِ نوع من الاستمالة؛ كان أدنى للقبولِ، وتحريك الأذهان للتفكير.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/200.
(2) طنطاوي، التفسير الوسيط: 7/87.
(3) الواحدي، التفسير البسيط: 13/164.
(4) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 6/53.
(5) ابن جرير، جامع البيان: 15/104.

﴿هُوَ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ٥٦﴾ [يونس: 56]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

مَنْ خلقَ وملَكَ بالحقِّ؛ أحيا، وأهلك بالحقِّ

بعد أنْ قرَّر سبحانه أنَّه لا شيءَ خارج عن ملكه، وأنَّه تامُّ القدرة - لأنَّه لا منجيَ من عذابه - شاملُ العلم لقضائه بالعدل، صادقُ الوعد؛ لأنَّه لا حامل له على غيره؛ أثبتَ تفرُّده بأنَّه يحيي ويميت، وأنَّه قادرٌ على الإعادة، كما قدرَ على الابتداء، وأنَّ الرَّدَّ لا يكون إلّا إليه، فنبَّه على ذلك بقوله: ﴿هُوَ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾[1].

المَعْنى الإِجْمالِيُّ:

الذي يُحيي ويُميت سبحانه في دنياه يُحيي ليُعيد في أُخراه

إنَّ اللّٰه هو المحيي المميت، لا يتعذَّر عليه فعلُ ما أرادَ فعله من إحياء الموتى، ومنهم هؤلاء المشركون إذا أراد إحياءهم بعد مماتهم، ولا إماتتهم إذا أراد ذلك، وهم إليه يصيرون بعد مماتهم، فيعاينون ما كانوا به مكذِّبين من وعيدِ اللّٰه وعقابه.

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

علَّة الفصلِ في: ﴿هُوَ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ﴾:

استئنافٌ بيانيٌّ دلَّ على كمالِ قدرتِه ونفاذِ وعده

جاءت هذه الآية: ﴿هُوَ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ﴾ بيانًا مستأنفًا لِما قبلها بالإيجاز[2]؛ لذا لم يذكر البيانُ الإلهيُّ العاطف بينها وبين الآية السابقة: ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ أَلَآ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾؛ لأنَّ بين الجملتين شبهَ كمالِ اتصال؛ وذلك بعد أنْ قرَّر سبحانه أنَّه لا شيءَ خارج عن ملكه، وأنَّ وعدَه بيوم القيامة حقٌّ، كأنَّ سائلًا سأل: ما الدليلُ على ذلك؟ فجاء الجواب في قوله تعالى: ﴿هُوَ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ﴾ أي: إنَّه قادرٌ على الإعادة، كما أنَّه قادرٌ على الابتداء.

(1) البقاعي، نظم الدرر: 9/143.
(2) رشيد رضا، تفسير المنار: 11/327.

غرضُ تقديمِ المسند إليه ومجيء المسند فعلًا:

أصلُ الكلام فيما تقتضيه صنعةُ الكلامِ لا بيانه وبلاغته: يحيي هو ويميت، ولكنَّ البيان الإلهيَّ عَدَلَ عن ذلك في قوله: ﴿هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ﴾، وابْتَدأ بالمسند إليه ﴿هُوَ﴾ فقدَّم الضمير ﴿هُوَ﴾ ليحوِّل الجملةَ من فعليَّةٍ إلى اسميَّة، خبرُها فعلٌ مضارع، فأفاد ذلك أمرين:

الأوّل: الاختصاص: إذ إنَّه بتقديم الضمير ﴿هُوَ﴾ وتكريره على تقدير فاعل ﴿يُحْيِۦ﴾ صارَ المعنى حَصْر الإحياءِ والإماتة بالله، وأنَّ ذلك مُحقَّقٌ مؤكَّدٌ، والمعنى: الله وَحدَه هو المتصَرِّفُ بالإحياء والإماتة، فلا يتعذَّرُ عليه إحياءُ المشركين وغيرهم، ولا إماتَتُهم؛ إذا أراد ذلك[1].

الله وَحدَه هو المتصَرِّفُ بالإحياءِ والإماتةِ، وفعلُه متجدِّدٌ غيرُ منقطعٍ

الآخر: الاستمرار التجدُّدي؛ لمجيء الخبر ﴿يُحْيِۦ وَيُمِيتُ﴾ بصيغة المضارع، والمعنى: إحياءُ الله لخلقه، وإماتَتُه لهم أمرٌ متجدِّد غير منقطع.

نكتةُ إيثار الفعل المضارعِ على الاسم: ﴿يُحْيِۦ وَيُمِيتُ﴾:

آثر القرآنُ التَّعبيرَ بالمضارع على الاسم في قوله تعالى: ﴿هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ﴾، ولم يقلْ: (هو المحيي والمميت)؛ لأمرين:

صورةٌ متجدِّدةٌ لخَلْقِ الموتِ والحياةِ تبعثُ في النَّفس الخوفَ منه سبحانه والرَّجاء

الأول: النَّصُّ على تجدُّد الإحياء والإماتة واستمرارهما، أي: الإحياء والإماتة متجدِّدة مستمرَّةٌ منه سبحانه، وليس مجرَّد ثبوتهما كما لو عبَّر بالاسم (المحيي والمميت)، وكان الخبر في الجملة الاسميَّة اسمًا.

الآخر: إفادة حكاية حال الإحياء والإماتة، أي: يثير في المخيَّلة صورةً مستمرَّة متجدِّدة لخَلْق الحياة والموت، بما يُظهر عظمةَ قدرةِ الله وكمالَها، ويكون دليلًا مستمرًّا على ذلك.

(1) ابن جرير، جامع البيان: 12/193.

دلالةُ الواو في: ﴿وَيُمِيتُ﴾:

الإحياءُ والإماتةُ من أفعالِ الله المتقابلة في ذواتِها المترابطة في مآلاتها

(الواو) في قوله تعالى: ﴿وَيُمِيتُ﴾ عاطفةٌ؛ والمعطوف عليه ﴿يُحْيِۦ﴾، والمعنى العام الذي يجمع المعطوف والمعطوف عليه هو أنَّ كليهما من الأفعال التي اختصَّ بها الله، ولا يقدرُ عليها أحدٌ سواه، قال تعالى مبيِّنًا عجزَ الآلهة المزعومةِ عن الإحياء والإماتة: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۖ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [الروم: 40]، فهما من المعاني المتقابلة، وإنْ كان الإحياءُ يختلفُ عن الإماتة؛ فالإحياءُ لا يكون إلّا لله تعالى، أمّا الإماتة؛ فهي له وحده، لكنَّها قد تصدر عن غيرِه سبحانه بعد إذنه، فعلى التَّحقيق مردُّها إليه.

نكتةُ تقديم الإحياءِ على الإماتة في: ﴿يُحْيِۦ وَيُمِيتُ﴾:

تقديمُ الإحياءِ باعتبارِ ما يشهده النّاس في عالمِ الشَّهادةِ

كما أنَّ عطفَ الإماتة على الإحياءِ باعتبارِ أنَّ الإحياءَ كان ممّا يشهدُه النّاس أوَّلًا، ثم تكونُ الإماتةُ، فتقديمُ الإحياءِ باعتبار الشُّهود في عالم الشَّهادةِ، فهو من بابِ الامتنانِ على العبادِ بما يشهدونه، وإلّا فإنَّ الموت سابقٌ للإحياءِ كما قال تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [البقرة: 28]، فأرادَ في هذه الآية الإحياءَ بعد أن كان النّاس أمواتًا، وأرادَ بالإماتة التي تكون بعد الإحياءِ الأوَّل.

بلاغةُ الطِّباقِ في: ﴿يُحْيِۦ وَيُمِيتُ﴾:

تقابُلُ الإحياءِ مع الإماتةِ يزيدُ الكلام حُسنًا ويدلُّ على كمال القدرة

جمع البيان القرآنيُّ بين لفظين متضادَّين، هما: ﴿يُحْيِۦ﴾ و﴿وَيُمِيتُ﴾ ممّا زادَ الكلام حُسنًا وطرافة، ودلَّ على كمال قدرته سبحانه التي تشمل الأشياءَ كلَّها وإنِ اختلفتْ؛ لأنَّ الفعل الصادر من العالم المختار يكون على أحوالٍ متضادَّةٍ، بخلاف الفعلِ المتولِّد عن سببٍ طَبْعيٍّ[1].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 7/388.

معنى الواو ودلالتها في: ﴿وَإِلَيْهِ﴾:

من بيدهِ الإحياءُ والإماتة بيده رجعُ النّاس وحسابهم

(الواو) في قوله تعالى: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ عاطفةٌ؛ والمعطوف عليه ﴿هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ﴾، والمعنى العام الذي يجمع المعطوف والمعطوف عليه: هو أنَّ الذي بيده الإحياء والإماتة بيده رجْعُ النّاس وحسابهم، وإن كان لكلٍّ منهما ما خصَّه الله به، وميَّزه عن الآخر، فهو يحيي ويميت في الدُّنيا امتحانًا واختبارًا، وإليه ترجعون للحساب في الآخرة.

بلاغةُ التَّرتيبِ:

الأسبابُ مقدَّمةٌ على النَّتائجِ والعللُ على مظاهرِها

بدأ البيان القرآنيُّ في قوله: ﴿هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ بالإحياءِ قبل الإماتةِ؛ لشرف الحياةِ، أي: شرف الحيِّ على الميِّت[1]، ولكون الإحياء أعجبَ وأكثرَ دلالةً على كمال القدرة، وخاصةً أنَّ السياق هو الاستدلال على ألوهيَّته سبحانه وقدرته.

وبدأ بالإحياء والإماتة، ثمَّ ذكر الرُّجوعَ؛ لأنَّ الإحياءَ والإماتةَ هما مقدِّمةُ الرُّجوع ودليلٌ عليه، فهي من باب تقديم العلَّة على النتيجة، ومن تقديم السَّبب على المسبَّب، والدَّليل على المدلول.

دلالةُ استعمالِ حرف (إلى):

الحياةُ مبدأ الرُّجوعِ والحسابُ منتهاه

(إلى) حرف جرٍّ، ومعناه في قولِه تعالى: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ انتهاءُ الغاية الزمانيَّة والمكانيَّة، وقد عُدّي بالفعل ﴿تُرْجَعُونَ﴾؛ لإفادة معنى الانتهاء في الرجوع إلى الله، أي: يرجع منتهيًا في رجوعه إلى الله؛ فلا مفرَّ ولا مهربَ منه إلا إليه سبحانه، وفي استعمالِ هذا الحرف براعةٌ لا تتحقَّق إلّا في كتابِ الله تعالى، وهي أنَّ ذكر حرف الانتهاءِ دلَّ على المبدأ، وهو الإحياءُ والإماتةُ، فلمّا ذكرَ مبدأَ الأمرِ بالإحياءِ والإماتةِ معًا؛ عطفَ عليهما الرُّجوعَ، وجعل ذلك بهذا الحرفِ الدّالِّ

(1) السيوطي، معترك الأقران في إعجاز القرآن: 1/131.

على استجماعِ أمر الحياةِ والممات لغايةٍ واحدةٍ وهي الرُّجوع إلى الله تعالى دون سواه.

غرض تقديمِ الجارِّ والمجرورِ في: ﴿وَإِلَيْهِ﴾:

قدَّم القرآن الجارَّ والمجرور ﴿وَإِلَيْهِ﴾ على الفعلِ ﴿تُرْجَعُونَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ لأمرين:

الرجوعُ إليه سبحانه حتمًا، وإليه دون سواه قهرًا

الأول: الاختصاص وقصر الرجوع إليه، أي: إليه وَحْدَه مَصيرُكم لا إلى غيره[1]؛ لأنَّه وعد بذلك في قوله: ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ﴾ [يونس: 4]، وفي قوله: ﴿فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾ [يونس: 46] وفي قوله: ﴿إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ ۖ﴾ [يونس: 53][2].

الثاني: مراعاة للفواصل[3]، بما يحقِّق إحكامَ اللَّفظ وإحكامَ المعنى؛ أمّا إحكامُ اللفظ؛ ففي راحة النَّفس بإعطائها نغمًا متناسقًا مع ما سبقها من فواصل خُتِمت بالواو والنون، والواو من حروف المدِّ التي هي من الحروف الطبيعيَّة في الموسيقى نفسها، وأمّا إحكام المعنى؛ ففي تحقيق قصر الرجوع إليه، بتقديم شبه الجملة ﴿وَإِلَيْهِ﴾ على الفاصلة ﴿تُرْجَعُونَ﴾. ورعاية الفاصلةِ تابعٌ لرعاية المعنى لا العكس، فتقرير المعاني هو مقصودُ النَّظمِ، وأمّا الألفاظُ؛ فهي روادفُ الدِّلالاتِ وتوابعُها.

نكتةُ بناءِ الفعل للمفعولِ في: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾:

مقصودُ السّياق هو الاعتبار بما سيكون بعد مفارقةِ الدّار

آثرَ البيانُ الإلهيُّ التَّعبيرَ بالمبني للمفعول على المبني للفاعل في قوله تعالى: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾؛ لأمرين اثنين:

الأوَّل: التركيز على الحدث، وهو الرُّجوع إلى الله تعالى، وحصر الوعي فيه، الإشارة إلى أنَّ الرجوع إلى الله بعد الموت في الآخرة

(1) ابن جرير، جامع البيان: 12/193، والسمين الحلبي، الدر المصون: 9/143.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 9/143.
(3) السمين الحلبي، الدر المصون: 9/143.

بالبعث والحشر هو بيد الله وحده، ولا فاعل غيره سبحانه، وليس للإنسان أدنى إرادةٍ في ذلك.

الآخر: الاعتناءُ بذكر مجملِ هذا الأمر دون التَّفاصيل، فإنَّ العنايةَ بالتَّفاصيل تقودُ الذِّهنَ إلى الانشغالِ بها، عن المقصود الحقيقيِّ، وهو الاعتبار بما سيكون بعد مفارقة الدّار.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الرُّجوعُ والعَوْدَةُ:

الرُّجوعُ انصرافٌ وانتقالٌ إلى المكان الأصلي، والعودةُ تكرارُ الرُّجوع بعد البدء

عند إمعان النَّظر في استعمال القرآن للّفظين نلحظ أنَّ كلًّا منهما قد اختصَّ بملمحٍ دلالي يميِّزه عن غيره.

فأمّا الرجوع في اللغة، فهو العَوْدُ إلى ما كان منه البدء، وتقدير البدء مكانًا كان أو فعلًا، أو قولًا، وبذاته كان رجوعه، أو بجزء من أجزائه، أو بفعل من أفعاله، فالرُّجوع: العَوْد، والرَّجْعُ: الإعادة[1]، الرُّجوع: نقيضُ الذهاب، ورَجَعَ الشيءُ عن الشيءِ ورجع إليه: صَرَفَه ورَدَّه[2]، والرُّجوع أيضًا: تحوُّلٌ عن الاتِّجاه، أو الحال إلى عكسه، وكلُّ ما في القرآن من التركيب؛ فهو بمعنى العود[3].

وأمّا العَودُ فأصلٌ يدلُّ على تثنية في الأمر، هو تثنية الأمر عَودًا بعد بِدء، تقول: بَدَأ ثمَّ عاد[4]، والعودة: الرُّجوع إلى الشيء بعد الانصراف عنه، إمّا انصرافًا بالذات، أو بالقول والعزيمة[5]. عاد عَودًا وعَودة: رَجَعَ وارتدَّ، يقال: رَجَعَ عَودًا على بَدْء، ورجع عَوده على بِدئه: أي: لم يقطع ذهابه حَتّى وصله بِرُجوعِهِ، والمعاودة: الرجوع إلى الأمر الأول، والمُعاود: المواظِب على أمرٍ، وفيه معنى التجدُّد والتكرُّر[6].

(1) الراغب، المفردات، ص: 342.
(2) الفيومي، المصباح المنير، وابن منظور، لسان العرب، والزَّبيدي، تاج العروس: (رجع).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (رجع).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عود).
(5) الراغب، المفردات، ص: 593.
(6) ابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (عود).

إذًا: يتميَّز الرجوع: بأنَّ فيه معنى الانصراف والتحوُّل عن الاتجاه، أو الحال إلى عكسه، سواء أتمَّ الفعل أم لم يتمَّهُ، وفيه معنى الانتقال إلى المكان الأصلي.

وتتميَّز العَودة: بأنَّ فيها معنى تكرار الفعل، أي: لم يقطع ذهابه حتى يوصله برجوعه، كما أنَّ فيها معنى الرجوع إلى سابق عهده، ومكان بدئه.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ٥٧﴾ [يونس: 57]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

من تمامِ دلائلِ ألوهيَّته سبحانه إنـزالُ خيرِ كتبهِ على خاتمِ رسلهِ رحمةً بخلقه

في مناسبة الآية لما قبلها ثلاثةُ أوجه:

الأول: لَمّا ذكر تعالى الأدلَّة على الألوهيَّة والوحدانيَّة والقدرة بقوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ﴾... ﴿هُوَ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ﴾؛ ذكر الدلائل الدّالَّةَ على صحَّة النُّبوَّة والطَّريقَ المؤدّي إليها وهو القُرآنُ المتَّصف بهذه الأوصاف الشَّريفة بقوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾[1].

الثاني: بعد أنْ ذكر سبحانه الأدلَّة على أسس الدين الثَّلاثة، وهي: الوحدانيَّة والرسالة والبعث؛ قفّى على ذلك بذكر التشريع العملي، وهو القرآن الكريم، وقد أجمل مقاصد هذا التشريع في أمور أربعة بقوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾[2].

الثالث: بعد أن حذَّر الله المشركين من غوائل الضَّلال بما تلا عليهم من القوارع بقوله تعالى: ﴿وَيَسۡتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَۖ قُلۡ إِي وَرَبِّيٓ﴾.... ﴿وَلَوۡ أَنَّ لِكُلِّ نَفۡسٖ ظَلَمَتۡ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ لَٱفۡتَدَتۡ بِهِۦۗ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ﴾؛ رجع إلى استمالتهم نحو الحقِّ، واستنزالهم إلى قبوله بذِكر أنَّ جميع ذلك مسوقٌ لمصالحهم، فقال سبحانه: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾[3].

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 6/74.
(2) المراغي، تفسير المراغي: 11/122.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 6/131.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مَّوْعِظَةٌ﴾: الواو والعين والظاء كلمة واحدة، فالوَعْظ: التخويف، والعِظَة الاسم منه، والموعظة: النُّصح والتذكير بالعواقب[1]، وقيل: الوَعْظُ: التذكير بالخير فيما يرقُّ له القلب[2]، وقيل: الوعظ: زجرٌ مقترنٌ بتخويف، وَعَظَهُ يَعِظُهُ: ذكَّرَهُ بما يُلين قلبه من الثواب والعقاب، والاتِّعاظ: قبول الموعظة[3]، وكأنَّ الواعظَ يذكِّر، وينبِّه غيرَهُ إلى عواقب ما يفعله، أو ما هو مُقدم عليه ليتوقَّف عنه، ويظهر، وأنَّ الأصل في الوعظ أنَّه خاصٌّ بالزجر عمّا له عواقب سيئة، ثمَّ عُمِّم في الحضِّ على ما له ثواب[4].

والمراد بـ ﴿مَّوْعِظَةٌ﴾ في الآية: ذكرى تذكُّركم عقاب الله وتخوُّفكم وعيده[5]، أو وصيَّة بالحقِّ والخير، واجتناب الباطل والشرِّ، بأساليب الترغيب والترهيب التي يرقُّ لها القلب، فتبعث على الفعل أو الترك[6].

2) ﴿وَشِفَآءٌ﴾: الشين والفاء والحرف المعتلُّ يدلُّ على الإشراف على الشيء؛ يقال: أشفى على الشيء؛ إذا أشرفَ عليه، وسُمّي الشفاء شفاءً؛ لغلبته للمرض وإشفائه عليه[7]، والشفاءُ: معروف، وهو البرءُ من السَّقم، وتخلُّص البدنِ من المرض، وشفى الله المريض: عافاه، وأبرأه، وأشفاهُ: وهبَ له شفاءً من الدّاء، واستشفى فلانٌ: طلبَ الشفاء[8].

ومعنى ﴿وَشِفَآءٌ﴾ في الآية: عامٌّ يشملُ الشفاء من مرضِ البدن، وأمراض العقيدة والنَّفس، وعمى القلب، فالقرآن فيه دواء وكشفٌ، وإزالةٌ لكلِّ ما يصيب الصدور من الأسقام العارضة من جهل، وحسد، وحقد، وتباغض، ووساوس الشيطان، وغيرها من الأسقام[9].

---

(1) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة: (وعظ).
(2) الراغب، المفردات، ص: 876.
(3) ابن منظور، لسان العرب، والزَّبيدي، تاج العروس: (وعظ).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (وعظ).
(5) ابن جرير، جامع البيان: 15/104.
(6) المراغي، تفسير المراغي: 11/122.
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (شفي).
(8) الخليل، العين، والفيومي، المصباح المنير، والزَّبيدي، تاج العروس: (شفي).
(9) ابن جرير، جامع البيان: 15/105، والبغوي، معالم التنزيل: 4/138، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 7/3595.

المَعْنى الإِجْمالِيُّ:

يوجِّه اللّه سبحانه نداءً إلى النّاس كافَّة، فيقول: يا أيُّها النّاس، قد أتاكم من ربِّكم قرآنٌ داعٍ إلى كلِّ خير وصلاح؛ يأمركم ويزجركم، ويرقِّق قلوبكم، وهو دواء للقلوب من الشَّهوات والشُّبهات، يشفي من جميع الأمراض، ومنها الجهل، والشكُّ، والنفاق، والغيُّ، وهو هدايةٌ ورشدٌ لمن اتَّبعه من الخلق، فينجيه من الهلاك، وهو رحمةٌ ونعمةٌ يحصل به الخير والإحسان والثواب للمؤمنين؛ لأنَّهم هم الذين انتفعوا بالقرآن دون غيرهم الذين حَرموا أنفسهم من الانتفاع بموعظة القرآن[1].

القرآنُ داعٍ إلى كلِّ خيرٍ وصلاحٍ وهو نعمةٌ لمن انتفعَ به من المؤمنين

الإِيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

غرضُ النِّداءِ وحرفِ التَّنبيه في: ﴿يَٰٓأَيُّهَا﴾:

نادى اللّه النّاس بأداةِ النداء التي تُستعمل للمنادى البعيد (يا) في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾؛ لغرضين:

النداءُ بأداةِ البعيد مراعاةٌ لمقامِ الرُّبوبيَّة وإشارةٌ لبُعد المشركين الغافلين

الأوَّل: مراعاة مقام الرُّبوبيَّة الرفيع، في الأمر والنهي والتوجيه؛ إذْ هو سبحانه العليُّ الأعلى، وهذا يُلحظ في خطاب اللّه لعباده في القرآن أنَّه يُنزِّلُهُم مَنْزِلَة البعيدين عنه، فيناديهم بحرف النّداء (يا)، مع أنَّه أقربُ إليهم من حبْلِ الوريد[2].

الآخر: الإشارة إلى غفلتهم وانشغالهم بالدنيا، وبُعْدِهم عن الرَّحمة، والتوفيق والهداية، وتشديدِ التَّهديد والمبالغةِ في الوعيد، فهم بمنزلةِ البعيد الذي يحتاج إلى أداة النِّداء التي يُنادى بها البعيد، وعليهم أنْ يُصغوا لما يُنادى به عليهم، هذا إذا كان المقصود من النّاس في الآية المشركين بناءً على الأكثر في خطاب القرآن بـ يا أيُّها النّاس.

(1) ابن جرير، جامع البيان: 12/193، والخازن، لباب التأويل في معاني التنزيل: 2/448.
(2) حسن، بلاغة اللغة: 1/245.

كما أنَّ النداء بـ ﴿يَـٰٓأَيُّهَا﴾ يشتمل على: (أيّ) وهي وصلةٌ إلى نداء ما فيه (أل)[1]، وهي نكرةٌ مقصودة، تفيدُ التدرُّجَ من الإبهام إلى التوضيح؛ تشويقًا لما سيُلقى من مضمون الكلام، وهو هنا الموعظة العظيمة.

ويشتمل على: (ها) حرفِ تَنبيهٍ، وهو لازمٌ لأداة (أيّ)، ويفصل بـ(ها) بين (أيّ) في النداء، وبين المنادى المرفوع بعده، ويفيدُ هنا المشاركةَ مع (يا) و(أي) في التَّنبيهِ والتأكيد على أهمِّيَّة المنادى به، وهي الموعظة الجامعة لكلِّ أوصاف الكمال.

دلالةُ استعمالِ لفظِ النّاس: ﴿ٱلنَّاسُ﴾:

لفظ ﴿ٱلنَّاسُ﴾ في قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ يحتمل معنيين:

خطابٌ تعريفيٌّ لجميعِ النّاس بشأنِ القرآن أو ترغيبٌ وترهيبٌ للمشركين

الأول: جميع النّاس، وتكون (أل) التعريف في لفظ النّاس جنسيَّةً، والخطاب يشمل جميع النّاس[2]، وبناء على ذلك تكون الآية استئنافًا أو اعتراضًا، ويجوز أنْ يكونَ لابتداءِ غرضٍ جديدٍ، وهو خطابُ جميع النّاس بالتَّعريف بشأن القرآن وهديه، بعد أنْ كان الكلام في جدال المشركين والاحتجاج عليهم بإعجاز القرآن على أنَّه من عند الله، وأنَّ الآتي به صادق فيما جاء به من تهديدهم وتخويفهم من عاقبة تكذيب الأمم رسلها، وما ذيَّل به ذلك من الوعيد وتحقيق ما توعَّدوا به، وممّا يؤكِّد كون الخطاب لجميع النّاس أنَّه لم يأتِ فيه ما يقتضي توجيهه لخصوص المشركين من ضمائر تعود إليهم، أو أوصاف لهم، أو صلات موصول، والمعنى: أنَّ القرآنَ موعظةٌ لجميع النّاس، وإنَّما انتفعَ بموعظته المؤمنون، فاهتدوا، وكان لهم رحمة.

الآخر: المشركون، وتكون (أل) التعريف عهديَّةً، ووَجْهُ هذا

(1) لأنَّ (يا) لا تدخل عليها في غير يا الله إلا شذوذًا.

(2) عدَّهُ الخازن هو الأصحُّ، وذكر أنَّه اختيار الطبري، ينظر: الخازن، لباب التأويل: 3/194.

القول: هو ملاحظةُ ارتباط الآية بما قبلها؛ إذ بعضه في بيان أحوال قريش[1]، وكون الأكثر في خطاب القرآن بـ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ هو للمشركين، وبناء على ذلك يكون ذكر الثناء على القرآن بأنَّه هدًى ورحمةٌ للمؤمنين إدماجًا[2] وتسجيلًا على المشركين بأنَّهم حَرموا أنفسهم الانتفاعَ بموعظة القرآن وشفائه لِما في الصدور، فانتفع المؤمنون بذلك[3].

نكتةُ استعمالِ حرفِ التَّحقيق ﴿قَدۡ﴾:

أصولُ كمالِ القرآن محقَّقةٌ لا ريبَ فيها

افتتح البيانُ الإلهيُّ الكلام بـ﴿قَدۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ﴾ لتأكيده؛ لأنَّ في المخاطبين كثيرًا ممَّن ينكرُ هذه الأوصاف للقرآن، والتي تُعدُّ أصولَ كمالِه وخصائصه، وهي: أنَّه موعظةٌ، وأنَّه شفاءٌ لما في الصدور، وأنَّه هدًى، وأنَّه رحمة للمؤمنين[4].

بلاغةُ اختيارِ مفردةِ المجيء: ﴿جَآءَتۡكُم﴾:

المجيءُ محقَّقٌ بعيدٌ عن عوامِلِ النقص والتعبيرُ به أنسبُ لمقامِ القرآن العظيم

آثرَ البيانُ القرآنيُّ مفردةَ ﴿جَآءَتۡكُم﴾ دون الإتيان في قوله تعالى: ﴿قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ﴾؛ لأمور منها:

الأوَّل: كون المجيء أعمَّ وأوسع دلالةً من الإتيان، فهو تمام الإتيان؛ فإنَّ الإتيان إذا اكتمل وبلغ مقصده من مكان أو زمان، أو شخص أصبح مجيئًا، وكلُّ مجيءٍ إتيانٌ، وليس كلُّ إتيانٍ مجيئًا.

الثّاني: كون المجيء يُستعمل فيما ثَقُلَ وعَظُمَ شأنه، أمّا الإتيان؛ فهو مجيءٌ بسهولة[5]، ويعبَّر به عن سهولة الفعل وسرعته، فتناسبَ التعبير هنا بالفعل ﴿جَآءَتۡكُم﴾ مع عِظَمِ القرآن وما جاء به.

الثّالث: كون المجيء أنسبَ للسياق؛ إذ المجيء يُقال اعتبارًا

(1) القونوي وابن التمجيد، حاشية على تفسير البيضاوي: 9/495.
(2) الإدماج: أن يُضمَّنَ كلامٌ سِيق لمعنى آخر.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/200 - 201.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/201.
(5) الراغب، المفردات: (أتى).

بالحصول، أمّا الإتيان؛ فقد يُقال باعتبار القصد، وإن لم يكن منه الحصول[1]، والسياق سياقُ تحقُّق؛ فالقرآن قد نزل على رسوله ﷺ، وكونه موعظةً وشفاءً وهدى ورحمة للمؤمنين أمرٌ واقعٌ بعيد عن عوامل النقص، والمجيء هو محقَّقٌ بعيدٌ عن عواملِ النقص من نفيٍ أو شرطٍ أو عمومٍ بلا تفاصيل، أو استفهامٍ، أو رجاءٍ، أو احتمالٍ أو غير ذلك.

الرّابع: السّياقُ الواردُ فيه المجيءُ هو سياقُ خطابٍ وحوار، ولذا عُبِّرَ بالمجيء الذي لم يأتِ في القرآن إلا بصيغة الماضي بما يفيد الحدوث الفعلي، وتحقُّق الوقوع.

بلاغةُ الاستعارةِ التَّصريحيَّة في: ﴿جَآءَتۡكُم﴾:

سماعُ الموعظةِ محقَّقٌ ودليلُه مجيئُها

في قوله تعالى: ﴿قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ﴾ شبَّهتِ الآيةُ سماعَ الموعظةِ بمجيئِها، فإنَّ الموعظةَ تُسمع، وصرَّح بالمشبَّه به، وهو المجيءُ على سبيل الاستعارةِ التَّصريحيَّة التَّبعيَّة، والاستعارةُ أبلغ من الحقيقةِ؛ لأنَّها تجعل السَّماعَ أمرًا متحقِّقًا للمخاطَبين، وليس مجرَّد صوتٍ عابرٍ قد يفوت الكثيرين؛ ففيه إقامةٌ للحجَّةِ، وتسجيلٌ للبرهانِ، في كونِ من وصلتهم الموعظة هم في عدادِ المدعوِّين.

بلاغةُ الاستعارةِ المكنيَّة في: ﴿مَّوۡعِظَةٞ﴾:

الموعظةُ كائنٌ متحرِّكٌ مؤثِّرٌ فيمَن تجيئه

شبَّه البيانُ الإلهيُّ الموعظة في قوله تعالى: ﴿قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ﴾ بشخصٍ يجيء، فحذف (المشبَّه به)، وأبقى شيئًا من لوازمه وهو المجيء، فالاستعارةُ مكنيَّةٌ أصليَّة.

إذ من الممكن أن يقول: (قد جاءكم الرسول بموعظة)، ولكنه ترك ذلك؛ لأنَّ في تعبيره بالاستعارة تصويرًا للموعظة، وكأنَّها قد تجسَّدت، وصار لها مجيء، رغم أنَّ الموعظة هي كلمات، وأراد الله

(1) الراغب، المفردات: (جاء).

تعالى بذلك أن يعطي للموعظة صورةَ الحركة التي تؤثِّر، وتحضُّ على الإيمان[1]، فالاستعارةُ أبلغ من الحقيقةِ؛ لما فيها من تجسيد المعاني وتصويرِ المشهد.

سرُّ اختيارِ الموعظةِ بدلًا من الهدايةِ:

عبَّر القرآنُ بلفظ الموعظة بدلًا من لفظ الهداية أو الوصيَّة في قوله: ﴿قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ﴾، رغم أنَّها تشترك في معنى النُّصح وإرادة الخير بالطرف الآخر؛ لِما تتميَّز به مفردة الموعظة من الزجر المقترن بالتخويف، والتذكير من سوء عاقبة من لم يعمل بها، بينما الهداية تكون بلطف إلى ما يوصل إلى المطلوب، وإلى الغاية المرجوَّة.

من كمالِ بلاغةِ الخطابِ أن يجمع بين تخويفٍ وترقيقٍ يحملان على الامتثال

أي: آثر البيان القرآنيُّ الموعظةَ؛ لكونها أوسعَ دلالةً على المطلوب، فهي تجمع بين "تخويف وترقيق يحملان على الامتثال"[2].

إضافة إلى أنَّ لفظَ الهدى المذكورَ في الآيةِ قد اشتملَ على معنى الهداية، فلا حاجة إلى تكرار ذكرِه بدون فائدة.

وكذلك عبَّر بالموعظة دون الوصيَّة؛ لأنَّ الموعظة هي وصيَّة بالخير، والبعد عن الشرِّ بلفظ مؤثِّر، أي: هي أوسع دلالة من الوصيَّة التي قد تكون بلفظ مؤثِّر، وقد تكون بلفظ غير مؤثِّر، وقد تكون قصيرة، وقد تكون طويلة، أمّا الموعظة؛ فلا تكون إلّا بكلام مؤثِّر، وتكون بعيون المسائل، وفيها إشارة إلى شروط المتحدِّث بها، فهي ثقيلة على الموعوظ، ولا تُتقبَّل إلا ممَّن يُجيد التأثير بجمال الكلمة وصدق الأداء[3].

نكتةُ توالي الألفاظ على صيغة التَّنكيرِ في الآية:

التنكير في المفردات القرآنيَّة التي وردت في الآية وهي: ﴿مَّوْعِظَةٌ﴾

(1) الشّعراوي، تفسير الشّعراوي: 10/5999.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 5/108.
(3) الشّعراوي، تفسير الشّعراوي: 10/6000.

عطاءاتُ القرآنِ عظيمةٌ في كتابٍ عظيمٍ من ربٍ عظيمٍ سبحانه

و﴿وَشِفَآءٌ﴾ و﴿وَهُدًى﴾ و﴿وَرَحۡمَةٌ﴾ يفيدُ التعظيم والتفخيمَ[1] والتكثير، فالموعظة والشفاء والهداية والرحمة من مالكِ أمر النّاس، ومربّيهم هي عظيمةٌ لا يُحَدُّ حدُّها، ولا يُقدَّر قدرُها، ففضلُها كبيرٌ، وأثرُها عظيمٌ، وخيرُها لا ينقطعُ، وكذلك أفاد التَّنكير العمومَ؛ إذ إنَّ موعظةَ القرآنِ عامَّةٌ في كلِّ ما يحتاجُه النّاس في دينِهم، وكذلك شفاءُ القرآن وهداه ورحمته، فهي تعمُّ كلَّ الأحوال، ولو عرَّف، فقال: (قد جاءتكم الموعظة)؛ لبُحث عن المقصودِ بها، وأنَّها موعظةٌ لها دلالةٌ خاصَّة، وهذا غير مرادٍ.

غرض التَّعبير بالمصدر الميمي ﴿مَّوۡعِظَةٌ﴾:

المصدرُ الميمي أقوى دلالةً وآكدُ من المصدر القياسي

عبَّر القرآن بالمصدر الميمي ﴿مَّوۡعِظَةٌ﴾ في قوله تعالى: ﴿قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٌ﴾ دون المصدر القياسي الأصلي (وَعْظ)؛ زيادةً في التأكيد؛ لقوَّة دلالة المصدر الميمي على الحدث، وهو مجيءُ الموعظة التي هي القرآن الكريم وتأكيدها، ولذا كَثُر استخدام المصدر الميمي في الذكر الحكيم.

معنى حرفِ ﴿مِّن﴾:

ابتداءُ الموعظةِ من الرَّبِّ وانتهاؤها إلى قلب العبد

حرف الجرِّ ﴿مِّن﴾ في قولِه: ﴿مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ يحتمل معنيين:

الأول: ابتدائيَّة، إذا كانت متعلِّقة بـ﴿جَآءَتۡكُم﴾، وهو الأليق بسياق الآيةِ، لاسيَّما في دلالتها على العموم، فهي موعظةٌ نازلةٌ ابتداءً من عند اللّه تعالى، انتهاءً إلى قلوبِكم، ففي هذا المعنى قيمةٌ هدائيَّة تربطُ بين العبد ومولاه.

الآخر: تبعيضيَّة؛ إذا كانت متعلِّقة بمحذوف وقع صفة لموعظة، والكلام على حذف مضاف أي: جاءتكم موعظةٌ من مواعظ ربِّكم[2]،

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/155.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 6/131.

وجَعْلُ ﴿مِّن﴾ للتبعيض لا ينافي أنَّ القرآن كلَّه موعظة وشفاء وهدًى ورحمة؛ فالتبعيض في طريقة مجيء المواعظ والشفاء والهدى والرحمة؛ إذ القرآن لم ينزل دفعةً واحدة، وخاصَّة أنَّ الآية مكية.

وسواء كانت تبعيضيَّة أم ابتدائيَّة، فإنَّ فيها مزيدَ ترغيبٍ إلى التمسُّك بهذه الموعظة، فهي من الربِّ سبحانه[1].

بلاغةُ التَّعبير بعنوان الرُّبوبيَّة وإضافته: ﴿رَّبِّكُمْ﴾:

الموعظةُ تربيةٌ ربّانيَّةٌ ورعايةٌ صمدانيَّةٌ وعنايةٌ رحمانيَّةٌ

في التعبير بالرُّبوبيَّة وإضافته إلى ضمير المخاطَبين في قوله تعالى: ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾ تعرضٌ لعنوان الرُّبوبيَّة، وهو حَسَنُ الموقع هنا؛ ففيه تبيينٌ لوجوب الاتِّعاظ بها إيمانًا وتسليمًا؛ لأنَّها من مالك أمر النّاس، ومربّيهم بفضله ورحمته، وعلمه وحكمته[2]، ولذا خصَّها في الآية بأنَّها من الرَّبِّ، لا من الإله؛ لأنَّ الإله يريدك عابدًا، لكنَّ الرَّبَّ هو المربّي والكفيل لك، وإنْ كفرتَ به[3]، وفي هذا تلطُّفٌ في الخطاب، لاستمالتهم نحو الحقِّ، واستنزالهم إلى قبوله، وأنَّ جميع ذلك مسوق لمصالحهم.

إذًا: فالموعظة هي نوع من التربية جاءت من ربِّكم المربّي لكم؛ لأنَّه هو الذي خلق من عَدَم، وأمدَّ من عُدَم، ولم يختصَّ بنعمة الرُّبوبيَّة المؤمنين فقط، بل شملتْ نعمته كلَّ الخلق، فالموعظة تجيء ممَّن يعطي، ولا ينتظر منك شيئًا، فهو سبحانه منزَّه عن الغرض؛ لأنَّه لن ينالَ شيئًا منك، فأنت لا تقدر على شيء مع قدرته سبحانه[4].

العطفُ بالواو وسرُّ ترتيب المعطوفات:

الموعظةُ والشِّفاء توطئةٌ للهدى والرحمة

هذه الأوصاف الأَربعة (الموعظة والشفاء والهدى والرحمة) كلُّها شيءٌ واحد، وهو القرآن، وقد نزلت لتغايرها وصفًا منزلة تغاير الذوات، فساغ العطف بالواو، كما شهر أَنَّ العطف يقتضي التغاير غالبًا.

(1) القونوي وابن التمجيد، حاشية على تفسير البيضاوي: 9/495.
(2) رشيد رضا، تفسير المنار: 11/328.
(3) الشّعراوي، تفسير الشّعراوي: 10/6000.
(4) الشّعراوي، تفسير الشّعراوي: 10/6000.

ويكمنُ سرُّ ترتيب المعطوفات في قوله تعالى: ﴿جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ في أمرين:

أحدهما: أنَّ ذلك من باب تقديم العام، وهو خطاب النّاس كافَّة ﴿مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ﴾ على الخاصِّ، وهو خطاب المؤمنين ﴿وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾.

الآخر: أنَّ بينها تلازمًا في الجملة؛ إذ هي أوصافٌ للقرآن الكريم باعتبار كونه سببًا وآلة وأثرًا لها، فالقرآن سببٌ للاتِّعاظ والشفاء والهداية والرحمة.

والبدء بالموعظة القادمة بالمنهج من الرَّبِّ سبحانه لكونها وصيَّة بالخير فيها عيون الحكمة مع تخويفٍ وترقيقٍ يحملان على الامتثال تخصُّ العقلاء الراشدين، وحركة العاقل الراشد تمرُّ على عقله أوَّلًا ليختار بين البدائل، ثمَّ أَتبعَ بالشِّفاء لِما في الصدور لأهمّيَّته؛ ذلك أنَّ الهوى الذي يَنشأ ممّا في النَّفس والقلب يُفسد حركة اختيار العاقل الذي تخاطبه هذه الموعظة، أي: إنَّه سبحانه قد أنزل عليكم ما يشفي صدوركم من غلٍّ يؤثِّر في أحكامكم، وحقد، وحسد، ومكر، وينقّي باطن الإنسان؛ لأنَّ أيَّ حركة من حركات الإنسان لها نبعٌ وجدانيٌّ، ولا بدَّ أن يُشفى النَّبعُ الوجداني، ويصحَّ حتى تخرج الحركات من الجوارح نابعةً من وجدانٍ طاهرٍ مصفًّى وسليم؛ وبذلك تكون الحركات الصادرة من الإنسان سليمة، إذًا: موعظةُ القرآن تُعالج جذور المرض قبل ظواهره.

ثمّ أتبعَ الشفاء لِما في الصدور بالهدى؛ لكونِ الوجدان الطاهر السليم سببًا لاتِّباع طُرُقِ الهداية والرشد، وهذا كلُّه سببٌ للتحقُّق برحمة الله الَّتي جعلها للمؤمنين الذين انتفعوا بالموعظة والشفاء والهداية[1].

بلاغةُ ذكرِ قيدِ ﴿مِن رَّبِّكُمۡ﴾ مع الموعظة:

قيَّد البيان الإلهيُّ ﴿مَّوۡعِظَةٞ﴾ بقيدِ ﴿مِّن رَّبِّكُمۡ﴾؛ لأمور: منها: تنبيهٌ على أنَّ هذه الموعظة بالغةٌ غايةَ كمالِ أمثالها[2]، وتذكيرٌ بما يزيدها تعظيمًا؛ فالموعظةُ من أحدٍ ما يمكن أن تسمعها، أو ترفضها، ولكن لَمّا تكون الموعظة قادمةً من الرَّبِّ سبحانه؛ فهذا

(1) الشّعراوي، تفسير الشّعراوي: 10/6001.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/201.

أدعى إلى تعظيمها، والاستماع إليها، والعمل بها ممَّنْ له عقل، فهي من كمالات التربية.

القرآنُ موعظةٌ بلغتْ غايةَ الكمالِ وهي عامَّةٌ حتى لمنْ لم يتَّعظْ بها

ولتكون الموعظةُ عامَّةً لمنْ خوطب بـ ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾، ذلك أنَّ كون القرآن موعظةً وصفٌ ذاتيٌّ له؛ لأنَّ الموعظة هي الكلام المحذِّر من الضَّرِّ، أي: القرآن موعظةٌ حتى لمنْ لم يتَّعظْ بها[1].

الغرضُ من التَّعبير بالاستعارةِ في ﴿وَشِفَآءٌ﴾:

شفاءُ القرآنِ هو شفاءٌ تامٌّ متكاملٌ لا وَصَبَ فيه ولا ألم

الاستعارةُ في استعمال لفظِ ﴿وَشِفَآءٌ﴾ تصريحيَّةٌ أصليَّةٌ؛ إذ إنَّ البيانَ الإلهيَّ شبَّه في قوله تعالى: ﴿قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ﴾ إبطاله العقائد الضالَّة بالشفاء من المضارِّ فحذف (المشبَّه)، وصرَّح بـ (المشبه به) وهو الشفاء، بجامع أنَّ كلًّا مزيلٌ للضَّرر، وفي هذه الاستعارة مبالغةٌ في إبرازِ أثرِ القرآنِ في إصلاحِ النُّفوس والمجتمعات من أمراضها.

الغرضُ من الاستعارةِ التَّمثيليَّة:

جاءَ القرآنُ لشفاءِ الأمراضِ السَّقيمةِ وتثبيت الأدويةِ القويمةِ رحمةً بالأمَّةِ الحكيمة

يبيِّن ابن عاشور أثر وصف القرآن بهذا اللَّفظ المستعار ﴿وَشِفَآءٌ﴾ وعلاقته ببقيَّة الألفاظ المستعارة في الآية ﴿مَّوْعِظَةٌ﴾، ﴿وَهُدًى﴾، ﴿وَرَحْمَةٌ﴾ في قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ بأنَّ هذا الوصف يومئ إلى تمثيل حالِ النفوس بالنسبة إلى القرآن، وإلى ما جاء به بحال المُعتلِّ السَّقيم الَّذي تَغيَّرَ نظامُ مزاجه عن حالة الاستقامة، فأصبح مُضْطرِبَ الأحوال خائِرَ القوى، فهو يترقَّبُ الطبيب الذي يُدَبِّرُ له بالشفاء، ولا بدَّ للطبيب من موعظةٍ يحذِّر المريض بها ممّا هو سبب نشوء علَّته ودوامها، ثمَّ ينعتُ له الدواء الذي به شفاؤه، ثمَّ يصفُ له النِّظام الذي ينبغي له سلوكه لتدومَ له

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/203.

الصحَّة، فإنْ هو انتصحَ بنصائح الطبيب؛ أصبحَ معافًى سليمًا لا يَعْتَوِرُهُ ألمٌ، ولا يشتكي وَصَبًا.

وقد كان هذا التمثيل لكماله قابلًا لتفريق تَشبيهِ أجزاء الهيئة المُشَبَّهَةِ بِأجزاء الهيئة المُشَبَّهِ بها، فزواجر القرآن ومواعظه يُشَبَّهُ بنصح الطبيب على وجه المكنيَّةِ؛ وإبطاله العقائد الضالَّة يُشَبَّهُ بنعت الدواء للشفاء من المضار على وجه التَّصريحية، وتعاليمه الدينيَّة وآدابه تُشَبَّهُ بقواعد حفظ الصحَّة على وجه المكنيَّةِ، وعبَّر عنها بالهدى، ورحمتُه للعالمين تُشَبَّهُ بالعيشِ في سلامةٍ على وجه المكنيَّةِ، ثمَّ إنَّ ذلك يتضمَّن تَشبيهَ شأنِ باعث القرآن بالطبيب العليم بالأدواء وأدويتها، ويقوم من ذلك تَشْبيهُ هيئة تَلَقِّي النّاس للقرآن وانتفاعهم به، ومعالجة الرسول ﷺ إيّاهم بتكرير النُّصحِ والإرشاد بهيئة المرضى بين يدي الطبيب، وهو يصفُ لهم ما فيه برؤهم، وصلاحُ أمزجتهم، فمنهم القابل المنتفع، ومنهم المتعاصي الممتنع[1].

نكتةُ التَّعبير بالمصدر ﴿وَشِفَآءٌ﴾:

لفظُ الشِّفاء مصدرُ قوله: شفاه اللّه من مرضه شفاءً، وقد عبَّر به البيان الإلهيُّ؛ للدَّلالة على المبالغة التي يقتضيها التعبير بالمصدريَّة، بحيث كأنَّه الشِّفاءُ كلُّه.

القرآن عينُ الشفاء لا أداته

بلاغةُ استعمال حرفِ الظَّرفيَّة: ﴿فِي﴾:

عبَّر القرآن بالظرفيَّة ﴿فِي﴾ في قوله تعالى: ﴿لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ﴾ دون أنْ يقول: (للصدور)؛ للإشارة إلى أنَّ هذه الأمراض القلبيَّة، والوساوس والشكوك منتشرةٌ في جميع أنحاءِ صدورهم ومنغمسة متغلغلة فيها، وأنَّ القرآنَ جاء شفاءً لتلك الأمراضِ، فإذا شُفيتِ الأمراضُ؛ عولجت الصُّدور، فإنَّ علاجَ الأسبابِ هو

تخليةُ الصُّدورِ من أمراضِها مقدَّمةٌ على تحليتِها بالإيمانِ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/203.

أصلُ الشِّفاء، وفيه إشارةٌ إلى تخلية تلك الصُّدورِ من أمراضِها، قبل تحليتها بالإيمانِ.

دلالةُ التَّعريف في: ﴿ٱلصُّدُورِ﴾:

(أل) التعريف في كلمة ﴿ٱلصُّدُورِ﴾ جنسيَّة استغراقيَّة، ومعلوم أنَّ الجمع المعرَّف بأل الجنسيَّة الاستغراقيَّة يفيد العموم[1]، والمعنى: شفاءٌ لجميع أسقامِ الصدور من النّاس جميعًا مؤمنين وغير مؤمنين، ومن جميع الأَمراض؛ أمراض القلب مثل: الأخلاق الذميمة، والعقائد الفاسدة، والجهالات المهلكة، وتعلُّقات القلوب بما سوى اللّه تعالى، أو غيرها من الوساوس، والشكوك، وكذا الأمراض البدنيَّة من الضيق وغيره.

القرآنُ شفاءٌ لجميعِ صدورِ النّاس من جميعِ الأمراضِ

فائدةُ تخصيصِ الصدورِ بالذكر: ﴿ٱلصُّدُورِ﴾:

خصَّ البيانُ القرآنيُّ الصَّدرَ بالذكر دون القلب فقال تعالى ﴿وَشِفَآءٌ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ﴾؛ لأمور:

الأوَّل: أنَّه أعزُّ موضعٍ في بدنِ الإنسان لمكانِ القلب فيه[2].

الثّاني: أنَّه موضعُ القلبِ وغيره[3]، والتعبير به دون التعبير بالقلب أوسع دلالةً؛ لأنَّه يشمل القلب وغيره من الأعضاء الأخرى التي تشارك القلب في حصول ضيق الصدر، أو انشراحه، وكذا الأمراض البدنيَّة المتعلِّقة بالصدر[4]، إذ لو عبَّر بالقلب؛ لاقتصر على أمراض القلوب فقط، ولذلك كان من عادة القرآن أنَّه ينسبُ الشفاء للصدور لا للقلوب[5].

القرآنُ شفاءٌ عامٌّ تامٌّ لكلِّ ما في الصدور من جميع الأدواء القلبية والبدنية

الثّالث: أنَّه لم يردْ في القرآن نسبة مرض القلوب لعموم النّاس،

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/203.
(2) الخازن، لباب التأويل في معاني التنزيل: 2/448، والخطيب الشربيني، تفسير الشربيني: 2/25.
(3) الخازن، لباب التأويل في معاني التنزيل: 2/448، والخطيب الشربيني، تفسير الشربيني: 2/25.
(4) القاسمي، محاسن التأويل: 6/35.
(5) مثلاً: ﴿ٱلَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝٥﴾ [النّاس: 5]، ﴿وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ۝١٤﴾ [التوبة: 14].

وإنَّما لقلوب الكافرين والمنافقين، وعليه فقد عبَّر هنا بشفاء الصُّدور لا القلوب؛ مراعاةً لكون الخطاب لعموم النّاس لا للكافرين والمنافقين وفق القولِ الأقرب للصَّواب.

نكتةُ التَّعبير بالمصدر ﴿وَهُدًى﴾:

لعظمةِ أثرِ هدايةِ القرآن وُصف بأنَّه عينُ الهدى

عبَّر البيانُ الإلهيُّ عن أحدِ أصول كمال القرآن وخصائصه بالمصدر ﴿وَهُدًى﴾؛ للدَّلالة على المبالغة التي يقتضيها التَّعبير بالمصدرية، بحيث كأنَّه الهدى نفسه، ويكون بذلك المراد بهذا الوصف حصول الهدى به بالفعل[1].

ولأهمية هذا الوصف ﴿وَهُدًى﴾ ورد لفظه وما اشتق منه في (305) موضعًا في اثنتين وستين سورة من سور القرآن الكريم، ذكر فيها علماء الوجوه والنظائر ثمانية وعشرين وجهًا.

براعةُ العدولِ عن النّاس إلى المؤمنين في الفاصلةِ في: ﴿لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾:

القرآنُ هدًى ورحمةٌ لمن اتَّعظَ بموعظتهِ واستشفى بدوائهِ لا لمن أعرض عنه وحاربه

عدلَ القرآن في فاصلة هذه الآية عن التَّعبير بـ(النّاس) مع أنَّ الخطاب ابتدأ في الآية بـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾، فلم يقلْ: (لكم، أو للناس، أو للعباد)؛ لأمورٍ:

الأوَّل: تعليق قوله تعالى: ﴿لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ بقوله تعالى: ﴿وَرَحْمَةٌ﴾ بلا شبهة، وقد خصَّه به جمهور المفسِّرين، ومن المحقِّقين من جعلَهُ قيدًا لـ (هدى ورحمة) ناظرًا إلى قوله تعالى: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢﴾ [البقرة: 2]، فإنَّه لم يجعلْهُ هدًى لغير المتَّقين، والمتَّقون هم المؤمنون[2]، وهو الأظهر عند ابن عاشور حيث قال: "فالأظهر أنَّ قَيْد ﴿لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ راجعٌ إلى ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةٌ﴾ معًا على قاعدة القيْد الوارد بعد مفردات"[3].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/202.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/203.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/202.

الثّاني: الإدماجُ في التقييد بالمؤمنين، وهذا لم يكنْ ليتحقَّق لو كان التعبير بـ (النّاس أو لكم أو العباد) التي تدلُّ على عموم الخطاب، أي: إنَّ المشركين حَرموا أنفسهم الانتفاعَ بموعظة القرآن التي انتفعَ بها المؤمنون[1].

الثالث: مراعاة فواصل السورة الكريمة التي انتهتْ معظمها بالواو والنون أوبالياء والنون، بما يحقِّق إحكامًا في اللفظ والمعنى لهذه الفواصل، من خلال الأثر الصوتي لحروف المدِّ الليِّنة الهوائيَّة التي تتناسب مع سياق الموعظة التي تحمل رقَّةً وتأثيرًا في نفوس المخاطبين.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الموعظةُ والهدايةُ:

الموعظة والهداية كلاهما يشتركان في معنى النُّصح وإرادة الخير بالطرف الآخر، إلا أنَّ هناك فرقًا بينهما، ويظهر ذلك من خلال الرجوع إلى المعنى اللغوي، وإلى الاستعمال القرآنيِّ لكلٍّ منهما:

الموعظةُ مقترنةٌ بزجرٍ وتخويفٍ من سوء العاقبة، والهدايةُ بيانٌ ودلالةٌ بلطف

فالموعظة في اللغة: التخويف والنُّصح والتَّذكيرُ بالعواقب[2]، وقيل: زجْرٌ مقترن بتخويف[3]، وكأنَّ الواعظ يذكِّر وينبِّه غيره إلى عواقب ما يفعله، أو ما هو مُقدم عليه ليتوقَّف عنه، ويظهر، وكأنَّ الوعظ خاصٌّ بالزجر عمّا له عواقب سيِّئة، ثمَّ عُمِّم في الحضِّ على ما له ثواب[4].

أمّا الهدايةُ؛ فهي: الإرشاد والدِّلالة بلطف إلى ما يوصل إلى

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/200 - 201.
(2) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة: (وعظ).
(3) الراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، والزَّبيدي، تاج العروس: (وعظ).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (وعظ).

المطلوب، هَداهُ الطريق: أرشده وعرَّفه، وهَداهُ لهُ: دلَّه عليه، وبيَّنه له، فالهُدى: البيان، وهو ضدُّ الضلال[1]، والهدى والهداية في اللُّغة واحد، لكن قد خصَّ اللّه لفظة الهدى بما تولّاه، وأعطاه، واختصَّ هو به دون ما هو إلى الإنسان، نحو قوله: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢﴾ [البقرة: 2]، والاهتداء يختصُّ بما يتحرّاه الإنسان على طريق الاختيار، إمّا في الأمور الدنيويَّة، أو الأخرويَّة، كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُواْ بِهَا﴾ [الأنعام: 97][2].

إذًا: تتميَّز الموعظة بالزَّجر المقترن بالتخويف، والتذكير من سوء عاقبة ما هو مُقدِم عليه ليتوقَّف عنه، بينما تتميَّز الهداية: بالإرشاد والبيان، والدَّلالة بلطف إلى ما يوصل إلى المطلوب، وإلى الغاية المرجوَّة.

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب، والزَّبيدي، تاج العروس: (هدى).
(2) الراغب، المفردات، ص: 839.

﴿قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ هُوَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ ٥٨﴾ [يونس: 58]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الانتقال من بيانِ أوصافِ القرآنِ إلى الواجب تجاهها

لما نبَّه الله تعالى في الآية السابقة على الأسرار العالية الإلهيَّة للقرآن الكريم بما يكون سبب فرح للمؤمن من كون القرآن موعظةً تطهِّر ظواهر الخلق عمّا لا ينبغي، وشفاءً يطهِّر الأرواحَ عن العقائد الفاسدة والأخلاق الذميمة، وهدًى ينير القلوب بنور الحقِّ، ورحمةً تحقِّق الكمال والإشراق؛ أعقبَ ذلك بقوله تعالى: ﴿قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ هُوَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ﴾[1]، فالمناسبةُ بين الآيتين، في كون الأولى بيانًا لأوصاف القرآن، واللاحقة تنبيهًا على الانتفاع بتلك الأوصافِ، وأنَّ الانتفاعَ بها هو سببُ الفرحِ المحمود، وما سواه فسبب الفرح المذموم.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَلۡيَفۡرَحُواْ﴾: الفَرَحُ: نقيضُ الحزن، وهو السرور والابتهاج والرضا، فيجدُ الإنسان في قلبه خفَّة، ويتخلَّص ممّا يُثقل، ويُغمُّ، ولذَّةُ القلب بنيلِ ما يشتهي[2]، والفرح: انشراحُ الصَّدر بلذَّةٍ عاجلةٍ، وأكثرُ ما يكون ذلك في اللَّذات البدنيَّة الدنيويَّة[3]، والفرحُ: أيضًا الأَشَرُ والبَطَرُ[4]، وذلك عندما يكون سببهُ غيرَ مشروع، أو يؤدّي إلى التجاوز بغيًا وطغيانًا أو ما هو إليه، وقد جاء النهيُ عن هذا

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 17/269.
(2) ابن منظور، لسان العرب، والزَّبيدي، تاج العروس: (فرح).
(3) الراغب، المفردات، ص: 628.
(4) الفيومي، المصباح المنير: (فرح).

النوع من الفرح وذمُّه[1]، والمراد بالفرح في الآية: الفرحُ المنبعثُ عن انشراح الصدر، وشدَّة السرور بفضل الله ورحمته[2].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

تمامُ النِّعمةِ وكمالُ الرَّحمةِ هو الفرح المقترن بالفرح

ينبِّه الله سبحانه أنَّ كونَ القرآن هدًى ورحمةً للمؤمنين هو فضلٌ من الله عليهم، ورحمةٌ بهم يجب عليهم أنْ يفرحوا بهما تعظيمًا، ومحبَّةً، وإيثارًا على غيرهما، وأنْ يعلموا أنَّها نعمةٌ تفوقُ نعمةَ المال التي حُرم منها أكثرُ المؤمنين، ومُنحها أكثرُ المشركين، فيقول على لسان صاحب الرسالة ﷺ: افرحوا بكلِّ فضلٍ من الله ورحمة، وخاصَّةً العلمَ والإيمان والقرآن واتِّباع الرسول، لا بمتاع الدنيا، وأموالها الزائلة؛ فذلك خيرٌ ممّا يجمعه النّاس من حطامها الفاني[3].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ الانتقالِ من خطابِ الجميع إلى خطابِ المفرد:

كثرةُ الدَّلالات ووفرةُ المعاني دليل ثراءِ النَّظم وقوَّة الرَّصف

انتقلَ البيان الإلهيُّ من خطاب الجمع ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ إلى خطاب الفرد ﴿قُلۡ﴾، وذلك لأمورٍ:

الأوَّل: تلوين الخطاب، فإنَّ الجمع بين لونين من الخطابِ أكثر ثراءً وأبلغ دلالةً.

الثّاني: توجيه رسول الله ﷺ ليأمرَ النّاس بأنْ يغتنموا ما في القرآن العظيم من الفضل والرحمة[4].

الثّالث: التَّنويه بمضمون المقول بحيث يُؤمر الرسول أمرًا خاصًّا بأنْ يقولها، وإنْ كان جميع ما ينزَّل عليه من القرآن مأمورًا بأنْ يقوله[5].

---

(1) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (فرح).
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/204، والشّعراوي، تفسير الشّعراوي: 10/6355.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/204.
(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/156.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/204.

الرّابع: الإشارةُ إلى علوِّ مقامِ الرسالة والرَّسول، وأنَّ النَّبيَّ ﷺ هو الوحيد المكلَّف بإبلاغهم وتوجيههم، وأنَّ طاعته من طاعة الله ﷻ.

الخامس: بيانٌ للمرجعية الحقيقيَّة التي يجب أن يرجع إليها النّاس في معرفة الموعظة والشفاء والهدى والرحمة.

نكتةُ حذفِ متعلَّق فعل الأمر ﴿قُلْ﴾:

حذفَ البيانُ الإلهيُّ متعلَّق الفعل ﴿قُلْ﴾ في قوله تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ﴾، فلم يقل: (قل لهم بفضل الله)؛ وذلك لإفادة تعميم المعنى المناسب له؛ ذلك أنَّ الفعل وما هو معناه متى قُيِّد بشيء؛ تقيَّد بهِ، فإذا أطلقه الله تعالى، وحذف المتعلَّق؛ كان القصد من ذلك التعميم، ويكون الحذف هنا أحسنَ من ذكر المتعلِّقات، وأجمع للمعاني النافعة؛ إذ إنَّ الرسول ﷺ رسولٌ للعالمين، ورسالته هي الرسالة الخاتمة، فيترتَّب عن ذلك أنْ يكون خطابُه عامًّا موجَّهًا للجميع غير مقيَّد، وقد جرت عادة القرآن على حذف متعلَّق الفعل ﴿قُلْ﴾، إلا في مواضع قليلةٍ ذكر متعلَّقها لأسبابٍ خاصةٍ بهذه المواضع، فالآيةُ تخاطبُ النَّبيَّ ﷺ بأن يقولَ مضمونها دون تقييدِه بزمنٍ، أو مكانٍ، أو طائفة، أو قبيلة، أو قرية، بل هو عامٌّ صالحٌ للجميع إلى يوم الدّين، ففيه بيان أنَّ من خصائص القرآن أنَّه دعوةٌ عالميَّةٌ، غير محصورةٍ بأحدٍ، فإذا ما أعرض قومٌ؛ أقبل أقوام، وإذا ما أدبر زمانٌ؛ أقبل آخر، فدعوة القرآنِ باقيةٌ ما بقي الزَّمان، وما تعاقب الملوان.

دعوةُ القرآنِ عالميَّةٌ ما بقي الزَّمان وما تعاقب المَلوان

معنى الباءِ في: ﴿بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ﴾:

الباء في قوله تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ﴾ متعلِّقة بأحد فعلين:

إمّا بالفعل (جاءَ) مقدَّرًا، دلَّ عليه المذكور بقوله تعالى: ﴿جَآءَتْكُم﴾، والتقدير: جاءتكم المذكورات بفضل الله وبرحمته، وإمّا بالفعلِ (يفرح) مقدَّرًا؛ دلَّ عليه المذكور بقوله تعالى: ﴿فَلْيَفْرَحُواْ﴾، والتقدير: قل ليفرحوا بفضل الله وبرحمته.

الباءُ جمعت بين الإلصاقِ والسببيَّة بإيجاز لفظٍ وثراء معنى

وعلى كلا القولين فإنَّ الباء تحتمل وجهين:

أحدهما: الإلصاق، ليكون المعنى على التَّقدير الأول: جاءتكم المذكورات من الموعظة والشفاء والهدى والرحمة ملتصقةً بفضل اللّه ورحمته، لا تنفكُّ عنها.

وعلى التقدير الثاني: قلْ ليفرحوا ملتصقين بفضل اللّه ورحمته.

والآخر: السببيَّة، ليكون المعنى على التقدير الأول: جاءتكم الموعظة والشفاء والهدى والرحمة بسبب فضله ورحمته سبحانه.

وعلى التقدير الثاني: قلْ ليفرحوا بسبب تفضُّل اللّه عليهم ورحمته بهم.

وقد جمع أبو حيان بين الإلصاق والسببيَّة في تفسيره للآية بناءً على تعليقه الباء بالفعل (يفرح) بعبارة جميلة إذ يقول: "فالمؤمنون يُقال لهم: فليفرحوا وهم متلبِّسون بعلَّة الفرح وسببه، ومخلِصون لفضل اللّه منتظرون لرحمته"[1].

غرضُ دخول الباء على كلٍّ من الفضل والرحمة:

الفضلُ والرحمةُ كـلٌّ منهما مستقلٌّ بالفرح به أو متعلِّقٌ بأوصافِ القرآنِ المذكورة

في قوله تعالى: ﴿بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ﴾ يتمثَّل غرض دخول الباء على كلٍّ من الفضل والرحمة بأحد أمرين؛ إمّا للدَّلالة على "استقلالِ كلٍّ منهما بالفرح به"[2]، فكلٌّ منهما سببٌ للفرحِ، أو الفرحُ مُلتصقٌ بكلٍّ واحد منهما.

وإمّا للدَّلالة على استقلال كلٍّ منهما بملازمتها والتصاقها بالمذكورات من الموعظة والشفاء والهدى والرحمة، أو بكونها سببها؛ لمجيئها من اللّه سبحانه.

غرض تقديمِ الجارِّ والمجرورِ:

أخَّر البيان الإلهيُّ فعل الأمر ﴿فَلۡيَفۡرَحُواْ﴾، وقدَّم عليه متعلَّقه

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 6/75.
(2) رشيد رضا، تفسير المنار: 11/333.

قصرُ الفرحِ على فضلِ الله ورحمته تعريضٌ باعتقادات المشركين

وهو الجار والمجرور ﴿بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ﴾؛ للاهتمام به، ولإفادة القصر، أي: بفضل الله وبرحمته دون ما سواه ممّا دلَّ عليه قوله: ﴿هُوَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ﴾، فهو قصرُ قلبٍ تعريضيٌّ بالرَّدِّ على المشركين الذين ابتهجوا بعرض المال، فقالوا: ﴿نَحۡنُ أَكۡثَرُ أَمۡوَٰلٗا وَأَوۡلَٰدٗا﴾ [سبأ: 35][1]، كأنَّه قال: إنْ كان في الدنيا شيءٌ يستحقُّ أنْ يُفرحَ به؛ فهو فضلُ الله ورحمته[2].

نكتةُ إضافة الفضل إلى لفظِ الجلالةِ في: ﴿بِفَضۡلِ ٱللَّهِ﴾:

فضلُ الله ورحمته تعمُّ المؤمنين وتخصُّ المحسنين

أضافَ البيانُ القرآنيُّ الفضلَ إلى اسم الجلالة ﴿ٱللَّهِ﴾ الدالِّ على الألوهيَّة في قوله: ﴿قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ﴾، ولم يقل: (قل بفضل ربِّكم وبرحمته) وذلك للطائف عدَّة:

أوَّلًا: مناسبة السياق، ففي قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ أتى بالرُّبوبيَّة؛ لأنَّه خطابٌ عامٌّ يشمل كلَّ مربوب، أمّا في قوله: ﴿قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ﴾؛ فهو خطاب خاصٌّ بالمؤمنين، لذلك أتى بلفظ الألوهيَّة دون الرُّبوبيَّة التي هي أعمُّ وأشمل من الألوهيَّة، فعطاء الرُّبوبيَّة يشمل كلَّ النّاس مؤمنهم وكافرهم، أمّا عطاء الألوهيَّة؛ فهو خاصٌّ بالمؤمنين الذين يتَّبعون منهجه سبحانه[3].

ثانيًا: تأكيدُ عظمة الفضل الذي أعدَّه الله للمؤمنين؛ فاسم الله الجليل يدلُّ على الكمال والعظمة؛ وعليه فإنَّ الفضلَ المضاف إلى الإله العظيم لا بدَّ أنْ يكون عظيمًا.

ثالثًا: تربية المهابة والعظمة في قلوب المؤمنين، فهم يؤمنون بالله إلهًا عظيمًا معطيًا، ممّا يزيدهم أملًا وثقةً بفضله سبحانه.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/204.
(2) رشيد رضا، تفسير المنار: 11/334.
(3) الخفاجي، عناية القاضي: 2/218، والشّعراوي، تفسير الشّعراوي: 9/5277.

معنى الفاءِ في: ﴿فَبِذَٰلِكَ﴾، و ﴿فَلۡيَفۡرَحُواْ﴾:

الفاءُ بين التفريعِ الذي يتمِّم الكلام ويكمِّله وبين إفادةِ معنى الشرط

يحتمل معنى الفاء في قوله تعالى: ﴿فَبِذَٰلِكَ﴾ وفي قولِه: ﴿فَلۡيَفۡرَحُواْ﴾ ثلاثة أوجه:

أحدها: أن يكون الكلام تفريعًا عمّا سبق، فتكون (الفاء) في قوله تعالى: ﴿فَلۡيَفۡرَحُواْ﴾ تفريعيَّة اُفتتِحت بها الجملة؛ لأنَّه تفرَّع عن كونِ القرآن هدًى ورحمة للمؤمنين تنبيهُهُم إلى أنَّ ذلك فضلٌ من الله عليهم، ورحمةٌ بهم يحقُّ لهم أن يفرحوا بهما، وأن يقدروا قدرَ نعمتها، وأن يعلموا أنَّها نعمةٌ تفوقُ نعمةَ المال التي حُرِم منها أكثرُ المؤمنين، ومُنِحها أكثرُ المشركين، وتقديرُ نظم الكلام: قل لهم فليفرحوا بفضل الله وبرحمته بذلك ليفرحوا[1].

وأمّا (الفاء) في قوله تعالى: ﴿فَبِذَٰلِكَ﴾؛ فإنَّ القرآن لَمّا قصدَ توكيد الجملة كلِّها - بما فيها من صيغة القصر - قرنَ اسمَ الإشارة بها؛ تأكيدًا لفاء التفريع التي في ﴿فَلۡيَفۡرَحُواْ﴾؛ لأنَّه لما قُدِّم على متعلَّقه؛ قُرن بالفاء لإظهارِ التفريع في ابتداء الجملة[2].

ثانيها: أن يكون الكلام استئنافًا ناشئًا ممّا تقدَّم من النعمة على المؤمنين بالقرآن، فتكون (الفاء) في قوله تعالى: ﴿فَبِذَٰلِكَ﴾ رابطةً لجواب الشرط، والفاء في ﴿فَلۡيَفۡرَحُواْ﴾ مؤكِّدة للربط؛ لأنَّه لَمّا قدَّم المجرور - وهو ﴿بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ﴾ - حصل بتقديمه معنى الشرط؛ فقُرنت الجملة بعده بالفاء التي تربط الجواب لقصد إفادة معنى الشرط[3]، والمعنى: إنْ علموا ذلك؛ فبذلك فليفرحوا.

ثالثها: أن تكون الفاءُ تفريعيَّةً في قوله تعالى: ﴿فَبِذَٰلِكَ﴾ فصيحةً في قوله تعالى: ﴿فَلۡيَفۡرَحُواْ﴾، والتَّقدير: قل لهم بفضل

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/204.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/204.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/205. وهذا كثير في الاستعمال، كقوله: ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلۡيَتَنَافَسِ ٱلۡمُتَنَٰفِسُونَ ٢٦﴾ [المطففين: 26].

اللّه وبرحمته، فافرحوا، فبذلك الفرحُ إن تحقَّق، فليفرحوا هو خيرٌ ممّا يجمعون.

معنى الباءِ في: ﴿فَبِذَٰلِكَ﴾:

الباء في قوله تعالى: ﴿فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ﴾ تحمل معنيين:

أحدهما: الإلصاق، والمعنى: فليفرحوا ملتصقين متلبِّسين متمسِّكين بالقرآن الذي هو فضلُ اللّه ورحمته، والآخر: السّببية، والمعنى: فليفرحوا بسبب فضل اللّه ورحمته، وهو القرآن الكريم، فهو سببُ كلِّ فرحٍ.

الالتصاقُ بفضل اللـه ورحمته سببُ الفرحِ العظيم

والمعنيان يجتمعان في الآيةِ، فالالتصاقُ بفضل اللّه ورحمته سببٌ للفرح العظيم.

نكتة إظهار اسم الإشارة ﴿فَبِذَٰلِكَ﴾:

اسم الإشارة (ذلك) اسم ظاهرٌ وُضع موضِع المضمر، فلم يقل: (فبهما فليفرحوا)؛ وفائدة هذا الإظهار هو الإشعارُ بعلوِّ شأن الفضل والرحمة بالتَّنصيصِ عليهما إشارةً، وإبرازِهما بالتَّشخيص والتَّجسيد.

الإشعار بعلوِّ شأنِ الفضل والرحمة وتجسيدهما

الغرضُ من التعبير باسم الإشارةِ للبعيد في: ﴿فَبِذَٰلِكَ﴾:

الإشارة في قوله تعالى: ﴿فَبِذَٰلِكَ﴾ للمذكور، وهو مجموعُ الفضلِ والرحمةِ، واختير للتعبير عنه اسمُ الإشارة (ذلك) الذي يُستخدم للبعيد؛ لأمورٍ:

الفرحُ البهيجُ لا يكون إلّا بعد الاجتهادِ والمثابرة

الأوَّل: لِما فيه من الدَّلالة على التَّنويه بفضل اللّه ورحمته، وتعظيمهما، وبيان بُعْدِ درجتهما[1]، مع زيادة التمييز[2].

الثّاني: مقتضى الإشارةِ للبعيدِ دعوةُ المخاطَبين للحرصِ على نيل الفضل والرحمة، وبذل الجهد لذلك، فإنَّ اسم الإشارةِ للبعيدِ يومئ إلى الاجتهادِ والصَّبر لتحصيل ذلك الفرح البهيج.

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/156.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/204.

الثّالث: بيان أنَّ هذا الفرح لا يناله الكسالى ولا البطّالون من النّاس؛ إذ هو بمنزلةٍ سامقةٍ.

بلاغةُ الحذف والإطناب:

الجمعُ بين وجازةِ اللّفظِ وإطنابِ المؤكّدات جزالةٌ وفخامةٌ

في قوله تعالى ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ﴾ حذفَ البيانُ الإلهيُّ الفعل (ليفرحوا) المقدَّر وهو ما تتعلَّق به الباء؛ لدلالة المذكور عليه؛ إذ أصلُ الكلام من حيث الصَّنعة: (بفضل الله وبرحمته فليفرحوا، فبذلك فليفرحوا)[1]، فصار مفيدًا مفادَ جملتين متماثلتين مع إيجازٍ بديع[2].

وبالمقابل أطنبَ البيانُ الإلهيُّ بذكر: ﴿فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ﴾؛ إذ الظاهر أنَّ قوله: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ﴾ جملتان، حذف في الأولى ما تتعلَّق به الباء ﴿فَلْيَفْرَحُواْ﴾، والتقدير: (قل بفضل الله وبرحمته ليفرحوا)، ثمَّ عُطفت الجملة الثانية على الأولى ﴿فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ﴾ على سبيل التوكيد. قال الزمخشري: "والتكريرُ للتقرير والتَّأكيد، وإيجابِ اختصاصِ الفضل والرَّحمة بالفرح دون ما عداهما من فوائد الدنيا"[3]، وتقدير معنى الكلام: قل فليفرحوا بفضل الله وبرحمته لا سواهما فليفرحوا بذلك لا سواه[4]، ولا يخفى أنَّ هذه التَّقديرات مبنيَّةٌ على صنعةِ الكلام، وإلّا فنظم الآيةِ جاءَ بديعًا في معناه وفحواه، وهو لا يحتاجُ إلى تلك التَّقديرات؛ لأنَّها تنقله من مقامِ الإعجازِ إلى مقامٍ آخر، ومن تأمَّل النَّظم؛ عَلِمَ ما فيه من بديع الرَّصفِ وجليلِ الوصفِ.

معنى اللّام ودلالتها في: ﴿فَلْيَفْرَحُواْ﴾:

الأمرُ بقصد الإلهابِ والتَّهييج

(اللام) في قوله تعالى: ﴿فَلْيَفْرَحُواْ﴾ هي لام الأمر، والأصل أنَّ

(1) الزمخشري، الكشاف: 2/30.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/204.
(3) الزمخشري، الكشاف: 2/353، وأبو حيان، البحر المحيط: 6/75.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/204.

اللام في فعل الأمر للمخاطَب والغائب، إلا أنَّ العرب حذفوا اللام في فعل المأمور المخاطَب؛ لكثرة الاستعمال، وحذفوا التاء أيضًا، وأدخلوا ألف الوصل، فأصبحت (افرحوا)، وبقي الأمر باللام في الغائب على الأصل (ليفرحوا)، وغرضُ الأمر التَّحريضُ والإلهاب والتَّهييجُ على إتيانِ أسبابِ الفضل والرَّحمة، أي: إن كان من شيءٍ يُفرحُ به؛ فافرحوا بهذين الأصلين العظيمين.

دلالةُ الإتيانِ بمفردةِ الفرحِ: ﴿فَلۡيَفۡرَحُواْ﴾:

فرحٌ يُشعرُ بسرعةِ خيرٍ يجدُه المؤمنون وسوءِ بَطَرٍ يعيشهُ المشركون

عبَّر البيانُ القرآنيُّ في قوله تعالى: ﴿فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ﴾ بمفردة الفرح دون السرور، رغم أنَّهما - من حيث المعنى اللُّغوي - متقاربان دلاليًّا؛ إذ يشتركان في أنَّهما خلاف الحزن، وبهما يحصلُ الشُّعور بانشراح الصدر وارتياح القلب؛ وذلك لِما في معنى الفرح من مَلْمَحٍ دلالي يُميّزه عن السُّرور، وهو ارتباطه باللَّذة العاجلة، والتخلُّص العاجل من الثقل والغمِّ، وظهور آثاره وعلاماته على ظاهر الإنسان، ولذا كان استخدامه في سياق الحديث عن أحوال المشركين، وما سيلاقونه من حسْرةٍ وندامةٍ بسبب انشغالهم، وفرحهم المذموم بمتاع الدنيا، وتعلُّقهم بأسبابها، وإعراضهم عن خالق الأسباب والمسبِّبات، فكان استخدام الفرح أنسبَ عند الحديث عن حال المؤمنين بما يشير إلى سرعة الخير الذي يجدونه في الدُّنيا قبل الآخرة، وإلى سوء الفرح، وهو البطر الذي عليه المشركون بما يجمعونه من حطام الدنيا؛ إذ بضدِّها تتميَّز الأشياء، كما أنَّ التعبير بمفردة الفرح في الآية الكريمة دون مفردة الاستبشار هو الملائم؛ لأنَّ الفرحَ بالمحبوب يكونُ بعد حصوله، والاستبشار يكون به قبل حصوله؛ إذا كان على ثقةٍ من حصوله، ولهذا قال تعالى: ﴿فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ وَيَسۡتَبۡشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمۡ يَلۡحَقُواْ بِهِم مِّنۡ خَلۡفِهِمۡ﴾ [آل عمران: 170]، وفي هذا إشارةٌ إلى أنَّ فضل الله ورحمته

قد حصل في حياة المؤمنين تعظيمًا ومحبَّةً وإيثارًا؛ فالفرحُ بالعلم والإيمان والقرآن دليلٌ على تعظيمه عند صاحبه، ومحبَّتِه له، وإيثارِه له على غيره، فإنَّ فرحَ العبدِ بالشيء عند حصوله له يكون على قدرِ محبَّته لهُ ورغبته فيه، فمَنْ ليس له رغبة في الشيء لا يُفرحه حصولُه له، ولا يُحزنه فواته، فالفرحُ تابعٌ للمحبَّة والرغبة[1].

سرُّ العدولِ عن خطابِ المقولِ لهم إلى الغيبةِ في: ﴿فَلْيَفْرَحُواْ﴾:

التفتَ البيانُ الإلهيُّ من الخطابِ بقوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى﴾ إلى الغَيبة بقوله تعالى: ﴿فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ﴾، ولم يقل: (فافرحوا)، وذلك لاختزالِ المعاني، والمعنى: قل لهم بفضل اللّه وبرحمته فافرحوا، فبذلك إن تحقَّق؛ فليفرحوا، وهذا على جعل الفاء فصيحةً، فجاءَ قولُه تعالى: ﴿فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ﴾ سادًّا مسدَّ الأمر بالفرح، مع تعليله، مع ما في ذلك من تجديد الانتباه له والتأمُّل فيه، وتغيُّرِ الخطابِ من العام إلى الخاص، فالخطاب أوَّلًا كان مع النّاس جميعهم مؤمنهم وكافرهم، والخطابُ بالغيبة ﴿فَلْيَفْرَحُواْ﴾ للمؤمنين، فعدلَ عن الخطاب إلى الغيبة، لينبِّه على ذلك، وليدخلَ في الخطاب من لم يكن وقت نزول الآية من المؤمنين، فيشملَ بذلك عموم المؤمنين إلى يوم القيامة، ويؤكِّد ذلك حذف متعلَّق ﴿قُلْ﴾ لقصد التعميم.

الفرحُ بفضلِ اللّه ورحمته للمؤمنين جميعًا إلى قيامِ الساعة

الغرض من التعبير بالجملةِ الاسميَّة في: ﴿هُوَ خَيْرٌ﴾:

جاءت الجملة اسميَّةً، وهي قوله تعالى: ﴿هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ لأمرين:

الأول: بيَّنتِ المقصودَ من القصْر المستفاد من تقديم المجرورين في قوله تعالى: ﴿بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ﴾[2]، وهو الفرحُ بفضلِ وبرحمته دون ما سواه من حطامِ الدنيا، والأموال التي

فضلُ اللّه ورحمته نعمةٌ لا توازيها أموالُ الدنيا وهو حكمٌ إلهي ثابتٌ

(1) ابن القيم، مدارج السالكين:/148.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/205.

تتباهى بها قريش، أي: إنْ كان شيءٌ يستحقُّ الفرح؛ فهو فضلُ اللّه ورحمته؛ فهما نعمةٌ تفوقُ نعمةَ المالِ التي حُرِم منها أكثر المؤمنين، ومُنِحَها أكثرُ المشركين بالظُّلم والتسلُّط على أموال المسلمين.

الآخر: أعطتْ هذا المعنى ثباتًا ودوامًا، فهو حكمٌ إلهيٌّ ثابتٌ لا يتبدَّل، ولا يتغيَّر، وأشارت إلى أنَّ السعادات الروحانية أفضلُ من السعادات الجسمانيَّة التي ليست غير دفعِ الآلام، ولا تنفكُّ عنها المكاره، ومتاعها لا يدوم، وتبعاتها حسرات[1].

معنى حرفِ (من) في: ﴿مِّمَّا﴾:

(مِنْ) في قوله تعالى: ﴿مِّمَّا يَجۡمَعُونَ﴾ هي ابتدائيَّةٌ؛ ففضلُ اللّه ورحمتُه خيرٌ ممّا يجمعه النّاس، وهذه الخيريَّة شاملةٌ لكلِّ ما يجمعونه، إذ تبدأ ممّا يجمعه النّاس، وتنتهي بآخره، فهي أفادت الشُّمولَ، فخيريَّة فضل اللّه ورحمته أعلى من كلِّ الذي يجمعه النّاس من متاع الدُّنيا وزينتها وكلِّ ما فيها.

فضلُ اللّه ورحمته خيرٌ من كلِّ متاعِ الدنيا ابتداءً وانتهاءً

معنى (ما) في: ﴿مِّمَّا﴾:

(ما) في قوله تعالى: ﴿مِّمَّا يَجۡمَعُونَ﴾ اسم موصول يفيد العمومَ، والمعنى: عطاءاتُ القرآن من الموعظة والشفاء الهدى والرحمة هي خيرٌ من كلِّ ما يجمعونه من الدُّنيا ماديًّا كان أو معنويًّا.

عمومُ كون ما يجمعُه النّاس ماديًّا ومعنويًّا دون فضلِ الله ورحمته

كما أنَّ في (ما) إجمالًا لم يُفصَّل، وذلك في وجه تفضيل الفضل والرحمة ﴿بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ﴾ على ما يجمعونه؛ لقصدِ إعمال النظرِ في وجوه تفضيله، فإنَّها كثيرةٌ، منها واضحٌ ومنها خفيٌّ[2]، ولتفخيمِ هذه الوجوه.

وقد أفاد مجيءُ العموم والإجمال في (ما) في سياق الآية؛ ليفيد المبالغة في تعظيمِ تفضيلِ عطاءات القرآن على ما يجمعونه

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 17/269، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/207.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/207.

من حُطام الدنيا، فكلُّ ما يجمعونه لا يُداني هذه العطاءات العظيمة الكثيرة.

نكتة الإضافة في: ﴿بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ﴾، والإسناد في: ﴿يَجۡمَعُونَ﴾:

العطاءُ المضافُ إلى الباقي سبحانه باقٍ، والعطاءُ المضافُ إلى الفاني فانٍ

أضافَ البيانُ الإلهيُّ الفضلَ والرحمة إلى الله بقوله: ﴿بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ﴾، وأسندَ فعل يجمعون إلى ضمير النّاس بقوله: ﴿مِّمَّا يَجۡمَعُونَ﴾؛ ليُظهر البونَ الشاسع في الخيريَّة بينهما، فشتّان بين ما أُضيف إلى الله العظيم الباقي، وما أُسند إلى الضعيف الفاني؛ إذ لا مقارنة بينهما، فما أُضيف إلى العظيم الباقي؛ يكون عظيمًا لا يَحدُّه شيء، ولا يُقدَّر قدره، ولا حدَّ لزواله، فيشملُ الفضلَ والرحمة في الدنيا والآخرة، أمّا الأخروي؛ فظاهرٌ، وأمّا الدنيوي؛ فلأنَّ كمالَ النَّفس، وصحَّة الاعتقاد وتطلُّعَ النَّفس إلى الكمالات، وإقبالها على الأعمال الصالحة تكسَبُ الراحة في الدنيا والعيشة الهنيئة[1]، وما أُضيف إلى الضعيف الفاني فانٍ لا قيمةَ له ولا وزنَ له.

بلاغةُ التَّعبير بالفعلِ المضارع في: ﴿مِّمَّا يَجۡمَعُونَ﴾:

كلَّما تجدَّدَ الجمعُ للدنيا؛ زادتْ خيريَّةُ القرآن

عبَّر البيانُ الإلهيُّ بالمضارع في قوله: ﴿يَجۡمَعُونَ﴾ بدلًا من أنْ يقول: (جمعهم)؛ للدَّلالة على تجدُّد جمعِ المال وتكرُّرِه من طلّابه في كلِّ زمان ومكان، وذلك يقتضي عنايتهم بجمع الأموال، والمعنى: أنَّ فضل الله ورحمته خيرٌ ممّا يجمعه الكفار، ويستمرّون في جمعه؛ لأنَّهم وإنْ حصَّلوا ما به بعض الرّاحة في الدنيا؛ فهم شرارُ النُّفوس خساسُ المدارك[2].

كما أنَّ التعبير بصيغة المضارع يشير إلى بقاء خيريَّة القرآن متجدِّدةً بتجدُّد جمعهم للمال إلى قيام الساعة، أي: كلَّما تجدَّد جمعهم للمال؛ تجدَّدت خيريَّةُ القرآن على ما يجمعون.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/207.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/206.

نكتةُ حذفِ مفعولِ ﴿يَجْمَعُونَ﴾:

توبيخُ الجامعين بهذا الوصفِ الغريبِ

حَذَفَ البيانُ القرآنيُّ مفعول ﴿يَجْمَعُونَ﴾؛ فلم يقل: (هو خير مما يجمعونه)؛ لأمورٍ:

الأوَّل: إفادة العموم، فيعمُّ كلَّ ما يجمعه النّاس من متاعِ الحياةِ الدُّنيا وزينتها في كلِّ زمانٍ ومكان، وهذا أبلغُ من ذكرِ المفعول به؛ لأنَّه يؤدّي إلى تخصيص بعضِ ما يجمعه النّاس دون بعض.

والإشارة إلى العموم فيما يجمعه النّاس من أعراض الدنيا يدلُّ على عِظَمِ فضلِ الله ورحمته؛ فإنَّهما خيرٌ وأبقى من كلِّ هذا المجموع مهما بلغ، ولذا فهما أولى بالطلب والتَّحصيل والفرح، فمَنْ فرحَ بهما؛ فقد فرحَ بأجلِّ مفروح به، لا بما يجمعُ أهلُ الدُّنيا منها، فإنَّه ليس بموضعٍ للفرح؛ لأنَّه عرضةٌ للآفات، ووشيكُ الزوال، ووخيمُ العاقبة[1].

الثّاني: إفادة الإبهام، قال الصاوي: "يجمعون، أي: من الدنيا وزخارفها، وأَبْهَمَها؛ إشارةً إلى أنَّها خسيسةٌ لا تساوي جناحَ بعوضة"[2].

الثّالث: معاملة المتعدِّي معاملةَ اللّازم، ففيه توبيخٌ لهم، بجعل صفتهم اللّازمة هي الجمع، كأنَّه وَصَفَهم بالجامعين، وهو وصفٌ غريب عجيبٌ، سببه غرابةُ عنايتهم بالدُّنيا وزخرفها.

توجيهُ القراءات القرآنيَّة في: ﴿مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾:

تقريرُ خيريَّةِ الفرحِ بالله على الفرح بحطامِ الدنيا تثبيتٌ للمؤمنين وتوبيخٌ للكافرين

في قوله تعالى: ﴿مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ قراءتان متواترتان هما:

الأولى: قراءةُ الجمهور بالياء ﴿يَجْمَعُونَ﴾[3]، والضَّمير (الواو) عائدٌ على معلومٍ من الكلام، والمعنى: ليفرح المؤمنون أنْ جعلهم الله من أهل الفضل والرحمة، هو خيرٌ ممّا يجمعه الكفّار من الأموال[4].

(1) ابن القيم، مدراج السالكين: 3/149.
(2) الصّاوي، حاشيته على تفسير الجلالين، ص: 807.
(3) ابن الجزري، النشر في القراءات العشر: 2/285.
(4) البغوي، معالم التنزيل في تفسير القرآن: 2/423، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/206.

الثانية: قراءةُ ابن عامر، وأبي جعفر، ورويس عن يعقوب بالتاء (تجْمَعونَ) بتاء الخطاب[1]، واخْتُلِفَ في توجيه هذه القراءة على أقوال:

الأول: أنَّ الخطاب للمشركين الذين شملهم الخطاب في أوَّل الآية بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾، والمعنى: "فليفرَحِ المؤمنون هو خير ممّا تجمعون أيُّها المخاطَبون"[2]، فإنَّه بعد أنْ عمَّم الخطاب؛ خصَّ المؤمنين بالذكر وبالجدارة بالفرح، فبقي الخطاب لمن عدا المسلمين، وهم المشركون إذ ليس ثَمَّ غيرُ هذين الفريقين من النّاس هنالك، ولا يناسب جعْلُ الخطاب للمسلمين؛ إذ ليس ذلك أي جمعُ المالِ من شأنهم - كما تقدَّم آنفًا - بل إنَّهم ضحّوا به في سبيل الحقِّ، ويؤيِّد ذلك حالهم زمن نزول الآيات، ولأنَّه لا يظهر منه معنى التفضيل إلا بالاعتبار؛ لأنَّ المسلمين قد نالوا الفضل والرحمة، فإذا نالوا معهما المال لم ينقص ذلك من كمالهم بالفضل والرحمة[3].

وبناءً على ذلك يكون في الآية التفاتٌ من الغائب إلى المخاطَب، وهو في المعنى كقراءة الجماعة[4]، وغرضُ هذا الالتفات - مع الحمل على الانتباه والتفكير في المعنى ودفع السآمة والملل - هو التوبيخُ بالتصدّي والمواجهة الذي هو أشدُّ على النَّفس من التهديد بالغَيبة، وكذلك الإيماء بأنَّ حالهم لا يغيبُ عنه سبحانه.

الثاني: أنَّه عنى المخاطَبين والغُيَّب جميعًا، إلّا أنَّه غلَّب المخاطَب على الغائب، كما يُغلِّب التذكير على التأنيث، وكأنَّه أراد المؤمنين وغيرهم[5]، وعلى هذا المعنى يكون غرض الآية التَّنبيه والتحذيرَ من حطام الدنيا للناس جميعًا مؤمنين وكافرين؛ تحذيرٌ للكافرين مع توبيخ وتعنيف، وتنبيهٌ للمؤمنين حمايةً ووقايةً لهم بعد المدحِ والثناء.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الفَرَحُ والسُّرورُ:

قد يُسمّى الفرح سرورًا، وعكسه[6]، إلا أنَّه عند الرجوع إلى المعنى اللُّغوي،

(1) ابن الجزري، النشر في القراءات العشر: 2/285.
(2) البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل: 3/117، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/156.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/206.
(4) السمين الحلبي، الدر المصون: 6/226.
(5) ابن خالويه، الحجة في القراءات السبع: 4/282، والواحدي، التفسير البسيط: 11/234.
(6) الزبيدي، تاج العروس: (فرح).

والاستعمال القرآنيِّ لكلٍّ منهما نلاحظ فروقًا دقيقة بينهما، وتوضيح ذلك:

الفرح في اللغة: نقيضُ الحزن، وهو السُّرور والابتهاج، وهو أنْ يجدَ في قلبه خفَّةً، ويتخلَّصَ ممّا يُثقل ويُغمُّ، والفرح: أيضًا الأَشَرُ والبَطَر[1]، وعرَّف الراغب الفرح بأنَّه: "انشراحُ الصَّدر بلذَّةٍ عاجلةٍ، وأكثر ما يكون ذلك في اللَّذّات البدنيَّة الدنيويَّة"[2].

الفرحُ خفَّةٌ في القلب بلذَّةٍ عاجلة، والسرورُ انشراحٌ خفيٌّ في القلب بلذَّةٍ حقيقيَّة

والسُّرور في اللُّغة: من سَرَّ، وأصل مادة (سرر): الخفاء، والسِّرُّ: خالصُ الشيء، ومنه السُّرور؛ لأنَّه أمرٌ خالٍ من الحزن[3]، والسُّرور: الفرح وهو خلاف الحزن[4]، والسُّرورُ: ما ينكتم من الفرح[5]، والسُّرور: ارتياحٌ في القلب عند حُصول نفعٍ، أَو توقُّعه، أَو اندفاع ضَرَر، وانشراح الصدر بلذَّة فيها طمأنينة الصدر عاجلًا وآجلًا، وقيل: حقيقةُ السُّرور انشراحٌ يحصل في القلب فقط، من غير حصولِ أثره في الظاهر[6]. يتبيَّن من خلال المعنى اللُّغوي للفرح والسُّرور أنَّهما يتقاربان دلاليًّا؛ إذ يشتركان في أنَّهما خلاف الحزن، ويحصل فيهما شعورٌ بانشراح الصدر وارتياح القلب.

وتظهر بعض الملامح الدلاليَّة التي تميِّز كلًّا منهما عن الآخر:

فالفرح: أكثر ما يرتبط باللَّذة العاجلة التي أكثر ما تكون في اللَّذات البدنيَّة الدنيويَّة، فيشعر صاحبه بخفَّةٍ في قلبهِ، ويتخلَّص ممّا يثقل ويُغمُّ، كما أنَّ الفرح قد يصاحبه بطرٌ، فيكون مذمومًا، وأكثر استعمال الفرح في القرآن أتى في معرض الذَّمِّ.

(1) الفيومي، المصباح المنير، وابن منظور، لسان العرب، والزَّبيدي، تاج العروس: (فرح).
(2) الراغب، المفردات، ص: 628.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سر).
(4) الخليل، العين، وابن منظور، لسان العرب: (سرر).
(5) الراغب، المفردات، ص: 404.
(6) الزبيدي، تاج العروس، والمعجم الوسيط، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (سرر).

وأما السُّرور؛ فإنَّه لا يكون مذمومًا، ولم يردْ في معرض الذَّمِّ، ويرتبط "بما هو نفع أو لذَّة على الحقيقة"[1]، ولم يرد السُّرور في القرآن إلا في اللَّذة الأخرويَّة[2]، كما أنَّه يتميَّز بالخفاء، ويختصُّ بالقلوب، فلا تظهر علاماته على ظاهر الإنسان، فالسُّرور هو ما ينكتم من الفرح.

(1) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 278.

(2) المواضع التي ورد فيها هي قوله تعالى: ﴿فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ۝١١﴾[الإنسان: 11]، وقوله: ﴿وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ۝٩﴾[الانشقاق: 9]، وقوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ۝١٣﴾[الانشقاق: 13].

﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزۡقٖ فَجَعَلۡتُم مِّنۡهُ حَرَامٗا وَحَلَٰلٗا قُلۡ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمۡۖ أَمۡ عَلَى ٱللَّهِ تَفۡتَرُونَ ٥٩﴾ [يونس: 59]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

في مناسبةِ هذه الآيةِ لما قبلها ثلاثةُ أوجهٍ:

صنائعُ الصَّنائع يُنادي بعضُها على بعضٍ

الأوَّل: لَمّا ذكر الله تعالى سابقًا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾، وكان المراد بذلك كتاب الله المشتمل على التحليل والتحريم، وذكر في الآية بعدها وجوب العمل والفرح بما تضمَّنه كتابه فقال: ﴿قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ هُوَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ﴾؛ أعقبَ ذلك ببيان فسادِ شرائعهم، وأحكامهم من الحلال والحرام من غير مستندٍ في ذلك إلى وحي، فقال: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزۡقٖ فَجَعَلۡتُم مِّنۡهُ حَرَامٗا وَحَلَٰلٗا﴾[1].

الثاني: لَمّا تحدَّثت الآيات السابقة عن اضطراب تصوُّر المشركين للألوهيَّة، وتكذيبهم بالبعث والقرآن، وعن إبطالِ دعاويهم بأوضح حجَّة أعقبت الآيات ذلك بإظهار خَطَلِ عقولهم واختلال تكذيبهم، فقد ارتَبَكوا في دينهم بما يلزمهم منه مماثلة الحالة التي أنكروها، فقال سبحانه مقيمًا الحجَّة عليهم: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزۡقٖ فَجَعَلۡتُم مِّنۡهُ حَرَامٗا وَحَلَٰلٗا قُلۡ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمۡۖ أَمۡ عَلَى ٱللَّهِ تَفۡتَرُونَ﴾[2].

الثالث: لَمّا ختم الله الآية السابقة بقوله: ﴿هُوَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ﴾ - أي: فضل الله ورحمته خيرٌ من أموال المشركين التي يجمعونها - أعقبَ ذلك تعنيفًا لهم في تحكيمهم؛ إذ بيَّن في هذه الآية أنَّ هذه

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 6/77.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/207 - 208.

الأموال هي التي رزقهم الله إيّاها، فجعلوا منها حلالًا، ومنها حرامًا افتراءً على الله، فقال: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزۡقٖ فَجَعَلۡتُم مِّنۡهُ حَرَامٗا وَحَلَٰلٗا﴾[1].

فالمناسبة بين الآيتين: هي بيانُ أنَّ هؤلاءِ الجامعين لمتاعِ الحياةِ الدُّنيا قادهم هوسُهم في الجمعِ إلى استحلال الحرامِ، والافتراء عليه، فهو من ترتيب شنائعِ الأعمال على غيرها.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَرَءَيۡتُم﴾: الراء والهمزة والياء أصلٌ يدلُّ على نظرٍ وإبصارٍ بعينٍ أو بصيرة، والرَّأْيُ: ما يراه الإنسان في الأمر[2]، والرُّؤية بالضم: إدراكُ المرئيِّ، وذلك أضرب؛ الأول: النظر بالعين التي هي الحاسَّة وما يجري مجراها، والثاني: بالوهم والتخيُّل، والثالث: بالتفكُّر، والرابع: بالقلب، أي: بالعقل[3]، والرُّؤْية: النظرُ بالعين والقلب، والرُّؤْية بالعين يتعدّى إلى مفعول واحد، وبمعنى العلم يتعدّى إلى مفعولين، وإذا عُدّي رأيت بـ (إلى)؛ اقتضى معنى النَّظر المؤدّي إلى الاعتبار، و﴿أَرَءَيۡتُم﴾: من رأى العِلميَّة[4].

والمراد في الآية: ﴿أَرَءَيۡتُم﴾ رأى العِلميَّة، والمعنى: أخبروني أنتم وأعلموني[5].

2) ﴿أَذِنَ﴾: الهمزة والذال والنّون أصلان متقاربان في المعنى، متباعدان في اللفظ، أحدهما أُذُنُ كلِّ ذي أُذُنٍ (الجارحة)، والآخر العِلْم والإعلام، تقولُ العرب: قد أَذِنْتُ بهذا الأمر: أي: عَلِمتُ، وآذَنَني فلان: أعلمني[6]، والأَذانُ: الإعلام، وأَذِنْتُ له في كذا: أَطْلَقْتُ لهُ فعله[7]، والإِذْنُ في الشيء: إعلامٌ بإجازته والرخصة فيه، والاستئذانُ: طَلَبُ الإذن[8]، والإذْنُ يأتي بمعنى الإباحةِ، أو القبولِ والتَّمكين، مع العلم بقدرِ ما مُكِّن فيه[9].

والمراد في الآية بـ ﴿أَذِنَ لَكُمۡ﴾ موافق للمعنى اللغويِّ.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/207 - 208.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (رأى).
(3) الراغب، المفردات، ص: 374.
(4) ابن منظور، لسان العرب، والزَّبيدي، تاج العروس: (رأي).
(5) النسفي، مدارك التنزيل: 2/28، والشّعراوي، تفسير الشّعراوي: 6/3620.
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أذن).
(7) الجوهري، الصحاح، والفيومي، المصباح المنير، والزَّبيدي، تاج العروس: (أذن).
(8) الراغب، المفردات، ص: 71.
(9) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (أذن).

المَعْنى الإجْماليُّ:

التَّحليلُ والتَّحريم عن غيرِ إذنِ الشَّرع افتراءٌ على الله عظيم

يأمرُ اللّه تعالى رسولَه ﷺ أنْ يقول للمشركين: أخبروني، وأعلموني هذا الرزق الذي خلقه اللّه تعالى لكم، وأفاضه عليكم، وجعله حلالًا لكم لتنتفعوا به، فحرَّمتم بعضَه على أنفسكم، وأحللتم بعضه، وقل لهم: هل أباحَ اللّه لكم، ورخَّص تحريم ما حرَّمتم، وتحليل ما أحللتم، أم أنَّكم بهذا التحريم والتحليل تختلقون على اللّه الكذب؟ وفي هذا إنكارٌ وتعنيفٌ لهم على ما ابتدعوه من التحليل والتحريم، وإظهارٌ لكذبهم فيما نسبوه إلى اللّه.

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

نكتةُ الافتتاح بفعلِ الأمر في: ﴿قُلْ﴾ وتكرارِه:

خطابٌ يُظهرُ أهميَّةَ المقولِ ومقامَ النَّبيِّ الرَّسول

افتتحَ البيانُ الإلهيُّ الآية بفعل الأمر ﴿قُلْ﴾، وهو أمرٌ للنَّبيِّ ﷺ في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم﴾؛ لأغراضٍ عدَّة منها:

الأول: قصدُ توجيهِ الأسماع إلى مضمون ما سيُلقى عليهم[1]، أي: لبيانِ أهمية المقول.

الثاني: الإشارة إلى أنَّ النَّبيَّ ﷺ مجرَّدُ مبلِّغٍ ورسولٍ أمينٍ لا يغيِّر، ولا يبدِّلُ حرفًا من عنده، وأنَّه هو الوحيد المكلَّف بإبلاغهم وإنذارهم، بما يدلُّ على علوِّ مقامه ﷺ.

الثالث: يحتمل أنْ يكون الأمر ﴿قُلْ﴾ خطابًا للجميع، فأمرَ كلَّ واحدٍ بأنْ يقول ذلك[2]، وفي هذا دعوةٌ إلى الحوار وإقامة الحجَّةِ.

أمّا ﴿قُلْ﴾ الثانية ﴿قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ﴾ فهي تأكيدٌ لـ ﴿قُلْ﴾ الأولى، أي: تأكيدُ الأمرِ بالاستخبار؛ لزيادة إشرافِ الأسماع عليه[3]،

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/207.
(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/339.
(3) الزمخشري، الكشاف: 2/354، وأبو حيان، البحر المحيط: 6/77، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/208.

والاهتمامِ بمضمونه، وهو تقريعُهم وتعنيفُهم على ما ابتدعوه من التَّحليل والتَّحريم، وإظهار كذبهم فيما نسبوه إلى الشَّرع.

الغرضُ من الاستفهامِ في: ﴿أَرَءَيۡتُم﴾، و ﴿ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمۡۖ﴾:

تقريرُ الوحيِ وإلزامُ المنكرين لهُ من المشركين بالدَّليلِ العقلي

قوله تعالى: ﴿ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمۡۖ﴾ متعلِّق بقوله: ﴿أَرَءَيۡتُم﴾، ولذا فإنَّ الاستفهام في ﴿أَرَءَيۡتُم﴾ تقريريٌّ، باعتبار إلزامهم بأحد الأمرين؛ إمّا أنْ يكون اللّه أذن لهم، أو أنْ يكونوا مفترين على اللّه، وقد شِيب التقريرُ في ذلك بالإنكار على الوجهين[1].

نكتةُ الالتفاتِ من الغيبةِ إلى الخطابِ في: ﴿أَرَءَيۡتُم﴾:

التهديدُ والوعيدُ خِطابًا أوقعُ منه غيبةً

التفتَ البيانُ الإلهيُّ من الغَيبة بقوله: ﴿هُوَ خَيۡرٌ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ﴾ - التي فيها إشارة إلى مقْتِه للمشركين، وتبعيدهم - إلى الخطاب بقوله: ﴿أَرَءَيۡتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزۡقٖ فَجَعَلۡتُم﴾؛ وذلك لِما في الخطاب، - أي: مخاطبتهم - من التَّنبيه الشديد، والإيقاظ بالوعيد؛ لبيان ضلالهم، وما اقترفوه من قلب الحقائق، وحرمان أنفسهم من نِعَمِ اللّه، وعلى رأس تلك النِّعمِ ما في القرآن من الموعظة والشفاء؛ إذ التَّهديدُ والتَّعنيف والتَّقريع خطابًا أشدُّ منه غَيبةً، وللإيماء بأنَّ حالهم لا يغيبُ عنه سبحانه.

معنى ﴿مَّآ﴾:

(مـا) إمّا موصوليَّة تفيدُ العمومَ، وإمّا استفهاميَّة تفيدُ التَّنبيه

﴿مَّآ﴾ في قولِه تعالى: ﴿مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم﴾ تحتمل وجهين:

الأول: اسم موصول بمعنى الذي، والعائد محذوف، أي: ما أنزله، وهو في موضع نصب بـ أرأيتم، وهو المَفْعول الأول، وجملة ﴿ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمۡۖ﴾ هي المفعول الثاني، وغرض ﴿مَّآ﴾ في الآية العمومُ والتفخيم لنعمِ اللّه العظيمة التي لا تُحصى، فهي منزَّلةٌ من العظيم سبحانه.

الثاني: اسم استفهام قُدِّم لصدارته، وهو في موضع نصب

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/208.

بـ﴿أَنزَلَ﴾[1]، وهي مُعَلِّقَةٌ لـ ﴿أَرَءَيْتُم﴾ فتكون ﴿مَّآ﴾ بمعنى أي، والتقدير: أخبروني أيَّ شيء أنزل اللّه لكم. أو في محلِّ رفع بالابتداء، والجملةُ من قوله: ﴿ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمۡۖ﴾ خبره، والعائدُ محذوفٌ، والتقدير: أخبروني أيُّ شيء أَذِن لكم فيه؟ وهذه الجملةُ الاستفهاميّةُ معلِّقَةٌ لـ ﴿أَرَءَيْتُم﴾[2]، وغرض ﴿مَّآ﴾ في الآية: هو التنبيهُ على عِظم هذا الرزق الحلال الذي خلقه اللّه للانتفاع به، فإذا بِهم يُحرِّمون بعضَه حمقًا وضلالًا.

سرُّ التَّعبير بالماضي ﴿أَنزَلَ﴾:

عبَّر البيانُ القرآنيُّ عن إنزالِ الرزق بصيغة الماضي ﴿أَنزَلَ﴾ دون المضارع، مع أنَّ الرِّزقَ ينزل عليهم بتجدُّدٍ واستمرارٍ؟ وذلك لأمرين؛ وهما: الدَّلالة على تحقُّق وقوع إنزال الرزق، فهم قد عاينوه، ويتقلَّبون في آثاره، والآخر: مناسبة قوله تعالى: ﴿أَرَءَيْتُم﴾ التي تعني: أخبروني، وأعلموني، والإخبار يكون عن شيء حدث، وانقضى.

أعظمُ الافتراءِ أن يكون في النِّعمِ الثّابتة والأرزاق المتحقِّقة

نكتةُ التَّعبيرِ بالإنزالِ ﴿أَنزَلَ﴾:

معنى أنزل، أي: خلق وأنشأ، كقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ﴾ [الزمر: 6]، وقوله: ﴿وَأَنزَلۡنَا ٱلۡحَدِيدَ﴾ [الحديد: 25][3]، وقد عبَّر البيانُ الإلهيُّ عن الخلق بالإنزال؛ لأمور:

الأول: التنبيه على أنَّ الرِّزق مقدَّرٌ في السماء محصَّلٌ منها.

الثّاني: بيان أنَّ ما يتوقَّف على وجود الرِّزق أو بقائه يكون بأسباب سماويةٍ من المطر والكواكبِ في الإنضاج والتلوين[4].

الرِّزقُ والشَّرع نازلان من السَّماءِ فالأوَّل قوت الأبدانِ والآخر قوت الأرواح

(1) النحاس، إعراب القرآن: 2/151.
(2) السمين الحلبي، الدر المصون: 6/226.
(3) الكرماني، غرائب التفسير وعجائب التأويل: 1/487.
(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/156.

الثالث: الإشارة إلى أنَّه لا يمكن للمشركين ادِّعاؤه لأصنامهم؛ لنزولِ أسبابه من موضعٍ لا تعلُّق لهم به بوجهٍ[1].

الرابع: الإيماءُ إلى أنَّ هذا الرِّزق رحمةٌ نازلةٌ من اللّه[2]، وهو لصالح الإنسان، لأنَّ معنى أنزل: أوجد وخلق من أعلى، وما دام كلُّ شيء قد وُجد بمشيئة من هو أعلى من كلِّ الوجود، فالإيجادُ إذًا لصالحك أيُّها الإنسان مباشرة أو بوسائط[3].

الخامس: الإشارةُ إلى نزول الشَّرائع، فكما أنَّ اللّه هو الذي أنزل الرِّزق؛ فهو الذي أنزل الشَّرع، فوجب على النّاس اتِّباعُ شرعه، وعدمُ انتهاك أمره، وشكر رزقه وعدم الافتراء فيه.

بلاغةُ التَّصريحِ بلفظِ الجلالة: ﴿ٱللَّهُ﴾:

صرَّح البيانُ الإلهيُّ بالفاعل ﴿ٱللَّهُ﴾ سبحانه، فلم يأتِ به مضمرًا فيقول: (أرأيتم ما أنزل لكم من رزق)، كما أنَّه عبَّر بالاسم الجليل ﴿ٱللَّهُ﴾ بدلًا من لفظ الرُّبوبيَّة (ربّكم) فلم يقل: (أريتم ما أنزل ربُّكم من رزق) ومن المعلوم أنَّ الرِّزقَ من مقتضيات توحيد الرُّبوبيَّة؛ وذلك لأمرين:

للرِّزقِ هيبةٌ ومحبَّةٌ في نفوسِ العبادِ سرُّها لفظُ الجلالة

الأول: تأكيدُ عظمة الرزق المنزَّل من اللّه، فاسم (اللّه) يدلُّ على صفات الكمال والقدرة والعظمة للملك الأعلى المحيط بكلِّ شيء عظمة وعلمًا التي منها الغنى المطلق[4]، وعليه فالقادر العظيم سبحانه لا يخلقُ إلّا عظيمًا.

الآخر: أنَّ لفظ الألوهيَّة (اللّه) يدلُّ على التفرُّد بخلاف لفظ (الربِّ) الذي قد يُضاف للمخلوقين، فنقول: ربُّ الأسرة وربُّ العمل، وفي هذا إشارةٌ إلى تفرُّده سبحانه في إنزال الرزق.

(1) البقاعي، نظم الدرر: 9/148.
(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 7/3597.
(3) الشّعراوي، تفسير الشّعراوي: 10/6007.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 9/147.

غرضُ ذكرِ قيدِ ﴿لَكُم﴾ وتقديمه على ﴿مِّن رِّزْقٍ﴾:

قيَّد البيانُ الإلهيُّ إنزالَ الرزق من الله بـ﴿لَكُم﴾، وقدَّمه على قوله: ﴿مِّن رِّزْقٍ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ﴾؛ للامتنانِ على العبادِ، فإنَّ هذا الرِّزق أنزله الله لهم، فهم مقصودون بالإنزالِ، ففيه ترغيبٌ بالإيمان، وتخجيلٌ من الكفران، وللدَّلالة على أنَّ المرادَ بالرزق ما حلَّ لهم[1]، أي: رزقٌ خاصٌّ بهم[2]؛ لأنَّه بمعنى ما قُضي لانتفاعهم، والمقتضي لانتفاعهم هوَ الحلال، فيكون الرِّزق المذكور هنا قسمًا منه، وهو القسم الحلال، ولذلك وبَّخهم على جعلِ بعضه حرامًا[3].

خطابُ (لكم) ترغيبٌ بالإيمان، وتخجيلٌ من الكفران

معنى ﴿مِّن﴾:

تحتمل ﴿مِّن﴾ في قولِه تعالى: ﴿مِّن رِّزْقٍ﴾ وجهين:

الأوَّل: بيانُ جنسِ الرزق، أي: بيَّنت أنَّ ما أنزله الله هو الرزق، والمعنى: أيَّ رزق كان[4]، وهذه تفيد عموم ما خلقه الله، وسخَّره لنا من سائر منافع الكون، وفيه إشارةٌ إلى أنَّ الأصلَ فيه الإباحةُ، إذ الأصل في الأشياء الإباحة[5].

من اعتدى على شرعِ الله في التَّحليلِ والتَّحريم؛ فقد أعظمَ الفرية

الثاني: التَّبعيض، والمعنى: أنَّ ما أنزلهُ الله هو بعضِ الرزق، وقد ضعَّف ابن عرفة ذلك، ورجَّح كونها لبيان الجنس[6].

وعلى القول بأنَّها بيانيَّة ففيها بيانُ أنَّ المشركين عندهم قابليَّة الاعتداءِ على التَّشريعات، فهم يعتدون على أيِّ رزقٍ كان، فيجعلونه حلالًا وحرامًا، وهذا وإن لم يستوعب الأرزاق فعلًا، لكنَّه قد

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/156.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 9/148.
(3) الشهاب الخفاجي، عنايه القاضي: 5/41، والقونوي وابن التمجيد، حاشية على تفسير البيضاوي: 9/503.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 9/148.
(5) رشيد رضا، تفسير المنار: 11/336.
(6) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/345.

استوعبه قوَّةً، فمن اعتدى على حقِّ اللّه في التَّشريعِ في رزقٍ واحدٍ؛ فقد اعتدى على سائر الأرزاق، وفي الآيةِ تلويحٌ لمن يحرِّم، ويحلِّل من دون اللّه تعالى في سائر الزَّمان.

دلالةُ الفاءِ في: ﴿فَجَعَلْتُم﴾:

المسارعةُ في الاعتداء على حقِّ اللّه في شرعه كفرانُ نعمةٍ ونكرانُ إحسان

الفاء في قولِه تعالى: ﴿فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا﴾ عاطفة، والمعطوف عليه جملة صلة الموصول (أنزل لكم)، وهذه الفاء العاطفة تفريعيَّةٌ، أي: (أرأيتم الذي أنزل اللّه لكم فجعلتم منه)[1]،وهي تفيدُ التعقيب الذي يُشير إلى مسارعتهم في مقابلة رزق اللّه ونعمه بالافتراء والشِّرك والاعتداء على حقِّ اللّه وحده في تشريعِ التحريم والتَّحليل الديني، وهذا في غاية النُّكران، كما أنَّها تحمل في طيّاتها معنى التَّعجُّب والإنكار؛ إذ إنَّ من يُرزق الرزق يقابله بالشُّكر والإحسان، لا الاعتداء والنكران، وهم قد قابلوا إحسانَ اللّه لهم بالاعتداء على حقِّه في التَّشريعِ، وهذا في غاية الكفران.

فائدةُ ذكرِ (من):

إذا لم يكن عَوْنٌ من الله للفتى؛ فأوَّلُ ما يجني عليه اجتهادُهُ

عبَّرَ القرآن بحرف الجرِّ (من) في قوله تعالى: ﴿فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا﴾، ولم يقلْ: (فجعلتموه)؛ للدَّلالة على معنى التَّبعيض، كما هو فعلهم؛ إذ إنَّ (من) تبعيضيَّة، والمعنى: أخبروني عمّا أنزل اللّه من رزق حلالٍ لكم للانتفاعِ به، فجزَّأتموه، أو بعَّضتموه، أي: جعلتم بعضه حرامًا وبعضه حلالًا، وقلتم: هذا حلال، وهذا حرام بزعمكم افتراءً على اللّه[2].

وهذا التَّعبير يومئ إلى أنَّهم حرَّموا، وحلَّلوا بناءً على تفصيلاتٍ يرونها، أي: إنَّهم لم يُشرِّعوا في التَّحليل والتَّحريم إلّا ولهم سابق نظرٍ في ذلك، فدلَّ هذا الحرف على التَّقسيم، أي: جعلتهم منه

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/208.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/156، والزحيلي، التفسير المنير: 11/204.

حرامًا باعتباراتٍ، وجعلتم منه حلالًا باعتبارتٍ أخرى، وهذا يدلُّ على أنَّ ما يطرأ على العقل قد يقضي على صاحبِه باقترافِ الذُّنوبِ العظيمة، وأنَّ على الإنسان ألّا يعتدي على الشَّرع بحجَّة ما يراه صوابًا ومصلحةً، فإنَّ المصلحة هي في حكم الله تعالى لا في حكم سواه.

نكتةُ حذفِ (منه) في: ﴿وَحَلَٰلًا﴾:

حذفَ البيانُ القرآنيُّ لفظة (منه) في قوله تعالى: ﴿فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا﴾، فلم يقلْ: (فجعلتم منه حرامًا ومنه حلالًا) رغم أنَّ الأصل أنْ يُعاد؛ إلا أنَّه لم يُعِدْهُ اختصارًا؛ إذ دلَّ عليه دليلٌ، ولم يَتأثَّرِ المعنى بحذْفِه، فكان الإيجازُ أبلغَ.

إذا تساوى الإثباتُ والحذفُ؛ فالحذفُ أبلغ

بلاغة الطباق في: ﴿حَرَامًا وَحَلَٰلًا﴾:

جمعَ البيانُ القرآنيُّ بين لفظين متقابلين في المعنى، هما: الحرام والحلال؛ للدَّلالة على بشاعة فعلهم وكمالِ قبحه؛ إذ جمعوا بين تحريم الحلال وتحليل الحرام، فهم أتوا على الطّامتين، ولم يكتفوا بإحداهما عن الأخرى، وهذا دليل الاستقصاء، فهم لم يحرِّموا فحسب، أو العكس، بل أتوا بالأمرين معًا، ولم يكتفِ النَّظم بالإشارةِ إلى الآخر بذكر أحدهما، كأن يقول: (فجعلتم منه حرامًا)؛ للنَّصِّ على أنَّهم صنعوا العظيمتين، وارتكبوا الحماقتين.

شمولُ افترائهم للتحليلِ والتحريمِ دليلٌ على كمالِ قبحِ صنيعهم وبشاعةِ فعلهم

الغرض من تقديم ﴿حَرَامًا﴾ على ﴿وَحَلَٰلًا﴾:

قدَّم البيان الإلهيُّ لفظة ﴿حَرَامًا﴾ على لفظة ﴿وَحَلَٰلًا﴾ في قولِه تعالى: ﴿فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا﴾؛ وذلك لأمورٍ:

الأوَّل: لأنَّه خلافُ الأصل، فالرِّزقُ حلالٌ في الأصل، فأوَّل ما يظهر أثرُ الجعلِ - وهو التصيير - فيما حُرِّم، أي: صيَّرتم منه حرامًا على أنفسِكم، ولم يكن كذلك بل كان حلالًا بمقتضى أنَّ الله لم يحرِّمه.

التَّشدُّدُ في الدِّين منهجُ الجاهلين الأوَّلين

الثّاني: لدورانِ التوبيخِ على تحريم الحلال أكثر[1]؛ إذ إنَّه يشير إلى زيادةِ انطماسِ البصيرة عندهم، حيث إنَّ تحليل الحرام فيه طلبٌ للذَّةٍ دنيويَّةٍ محرَّمة تطلبها النَّفس، أمّا تحريم الحلال؛ ففيه منعٌ للذَّةٍ فُطرت النَّفس على طلبها.

الثّالث: الإشارةُ إلى أنَّ تحريمهم هو تشديدٌ على أنفسِهم كما قال تعالى في حقِّ النَّصارى: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ﴾ [الحديد: 27]، فهم يُسارعون إلى التَّشديدِ على أنفسهم؛ لظنِّهم أنَّ التَّشديدَ هو ما يُقنع النّاسَ بهم؛ ليظهروا بمظهر الحرص على الدّين.

الرّابع: الإيماءُ إلى أنَّ هناك مصلحة خفيَّةً لدى من يُحرِّم، فهو يمنع النّاس من بعض الحلال؛ لينتفع هو به، وهذا شائعٌ في خَدَمة الآلهة، كما قال تعالى: ﴿وَقَالُواْ هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا ٱفْتِرَآءً عَلَيْهِ ۚ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿١٣٨﴾ وَقَالُواْ مَا فِى بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا ۖ وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَآءُ ۚ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٣٩﴾﴾ [الأنعام: 138 - 139].

غرضُ الاستفهامِ في: ﴿قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ﴾:

يحتمل الاستفهام في قوله تعالى: ﴿قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ ۖ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾ وجهين:

من تعدّى شرعَ الله؛ وُبِّخ بعد إقــراره بباطلِه وأُنكِر عليه

الأول: تقريريٌّ، وهذا على عدِّ ﴿أَمْ﴾ متَّصلة معادلة للهمزة، والمعنى: (أخبروني الله أذن لكم في التَّحليل والتحريم، فأنتم تفعلون ذلك بإذنه، أم تكذِّبون على الله في نسبة ذلك إليه)"[2]، "فهو استفهامٌ لطلبِ التعيينِ وهو الأَوْلى"[3]، وفي هذا استهزاءٌ بهم وتوبيخٌ

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/156.
(2) الزمخشري، الكشاف: 2/354.
(3) الصّاوي، حاشيته على تفسير الجلالين، ص: 807.

لهم توبيخًا هو في أحكَمِ مواضعه، وقد ساقه على طريق السؤال بحيث إنَّهم لا يقدرون على الجواب أصلًا بغير الإقرار بالافتراء[1].

الثاني: إنكاري؛ باعتبار ﴿أَمۡ﴾ منقطعة تفيد معنى الإضراب الانتقالي من التوبيخ والزجر بإنكار الإذن إلى ما تُفيده همزتُها من التَّوبيخ على الافتراء عليه سبحانه وتقريرِه[2]، أي: الاستفهام الإنكاري هنا إنكارٌ للواقع، فهو بمعنى التَّوبيخ[3]، قال الجرجاني: "واعلم أنَّ الهمزة فيما ذكرنا تقريرٌ بفعلٍ قد كان، وإنكارٌ له لِما كان، وتوبيخٌ لفاعله عليه"[4]،وكفى بهذا زجرًا بليغًا عن التجوُّز فيما يُسأل عنه من الأحكام، وباعثًا على وجوب الاحتياط فيه، وألّا يقولَ أحدٌ في شيء: جائزٌ أو غير جائزٍ إلّا بعد إيقانٍ وإتقان، ومن لم يوقن؛ فليتَّق الله، وليصمتْ، وإلّا فهو مفترٍ على الله[5].

الغرضُ من تقديمِ المسند إليه: ﴿ٱللَّهُ﴾:

قدَّم البيانُ القرآنيُّ المسند إليه، وهو الاسم الجليل ﴿ٱللَّهُ﴾ على المسند الفعلي ﴿أَذِنَ﴾ في قولِه تعالى: ﴿قُلۡ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمۡۖ﴾، ولم يقل: (قل أأذن الله لكم؟)؛ لثلاثة أمور:

الإذنُ في التَّشريعِ متوقِّفٌ على إذنِ اللـه تعـالى وما كان بدونه فباطلٌ

الأول: زيادةُ التعظيم، فإنَّ ذكْرَ لفظ الجلالةِ فيه تعظيمٌ؛ فإذا قُدِّم؛ زاد التَّعظيمُ، وذلك لزيادة تربية المهابة في القلوب، وإدخال الروعة فيها؛ تحذيرًا وتخويفًا لهم من الكذبِ والافتراء على الله بادِّعائهم أنَّه قد أذن لهم في تحريم ما أحلَّ، وتحليل ما حرَّم؛ فالافتراءُ على العظيم أمرٌ عظيم.

الثاني: مناسبةُ السياق الذي هو تعظيم الله تعالى في مواجهة

(1) البقاعي، نظم الدرر: 9/147.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/156.
(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 7/3597.
(4) الجرجاني، دلائل الإعجاز: 1/114.
(5) الزمخشري، الكشاف: 2/354.

اعتدائهم على حقِّ الله تعالى؛ وهو تشريع التَّحريم والتَّحليل الديني الذي ليس لأحدٍ سواه حقٌّ في تشريعهما.

الثالث: الاختصاص؛ ليكون المعنى: أنَّ الإذن والشَّرع مختصٌّ بالله وحده سبحانه، فلا يكون إلّا منه، فلمّا أنكر أن يكون الله قد أذن لهم، فهذا يُفيد أنَّه لا أحد له أن يأذن سواه.

دلالةُ اختيارِ: ﴿أَذِنَ﴾:

كثرةُ المعاني للَّفظ في سياقِه سعةٌ تناسبُ سعةَ رزقِ الله

عبَّر القرآنَ بمفردة ﴿أَذِنَ﴾ في قوله تعالى: ﴿قُلۡ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمۡۖ﴾؛ لاتِّساع دلالتها لمعانٍ عدَّة مجتمعة؛ فقد جاءت في الآية موافقةً لمعانيها اللُّغوية من الإباحة، والقبول، والتَّمكين مع العلم بقدر ما مُكِّن فيه، والإطلاق، والرخصة في الأمر، والإعلام، والإجازة بالشيء؛ فأعطتْ بذلك ثراءً في المعنى، وهذه المعاني مجتمعة تدلُّ على أنَّ الإنكارَ على القومِ كان لجميعِها، فهو يُنكر عليهم ادِّعاء إباحة التَّحليل والتَّحريم، وقبوله بعد ذلك، والتَّمكين في ذلك، والتَّرخُّص فيه، وأنَّ الله أعلمهم به.

معنى اللّامِ في: ﴿أَذِنَ لَكُمۡۖ﴾:

ادِّعاءُ التبليغ عن الله اعترافٌ بالوحيِ الذي ينكرونه

(اللام) في قوله تعالى: ﴿أَذِنَ لَكُمۡۖ﴾ حرف جرٍّ يفيدُ التبليغ؛ لدخولها على السامعِ لقولٍ، أو ما في معناه، وهو الإذن هنا، والمعنى: هل الله هو الذي بلَّغَكُم ذلك التحليل والتحريم بوحيٍ من عنده؟

بلاغةُ استعمال ﴿أَمۡ﴾ حجاجيًّا:

المشركون يدورون في رحى الباطل ولا مخرج لهم إلّا بالاعتراف

﴿أَمۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿قُلۡ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمۡۖ أَمۡ عَلَى ٱللَّهِ تَفۡتَرُونَ﴾ تحتمل وجهين:

أحدهما: متِّصلة عاطفة، وهي معادلة لهمزة الاستفهام، والتقدير: أخبروني: الله أَذِنَ لكم في التَّحليلِ والتَّحريم، فأنتم تفعلون ذلك بإذنه، أم تكْذِبون على الله في نسبةِ ذلك إليه؟

الآخر: منقطعة، ويكون الاستفهام للإنكار، ومعنى (بل) فيها الإضرابُ والانتقال من التوبيخ والزجر بإنكار الإذن إلى ما تفيده همزتُها من التوبيخ على الافتراء وتقريرِه[1]، والتقدير: بل أتفترون على اللّه؟ وذلك تقريرٌ لافترائهم.

والظاهر هو الأول؛ إذ المعادلةُ بين هاتين الجملتين اللَّتين بمعنى المفردين واضحةٌ، إذ التقدير: أيُّ الأمرينِ وَقَعَ: إذْنُ اللّه لكم في ذلك، أم افتراؤكم عليه؟[2]، أي: أنتم أهل حقٍّ أم أهل باطل، ومقصودُ هذه المعادلة التَّوصُّل إلى الحقِّ بالاعترافِ بما اقترفته أيديهم؛ لأنَّهم إن اعترفوا بالافتراء، فهذا دليل صارخٌ على باطلِهم، وإن ادَّعوا الإذن فعليهم بالدَّليل، فأحاط بهم الكذب، فظهر باطلهم على الوجهين، وهذا وجه استعمال (أم) في هذا الحجاج.

نكتةُ تقديمِ الجارِّ والمجرور ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾:

قُدِّم الجارُّ والمجرور ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾ على الفعل ﴿تَفۡتَرُونَ﴾ في قوله تعالى: ﴿قُلۡ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمۡۖ أَمۡ عَلَى ٱللَّهِ تَفۡتَرُونَ﴾، وهما متعلِّقان به؛ لأمور:

الافتراءُ على العظيمِ برهانُ الجرأةِ على الحقِّ وأمارةُ تجاوز الصِّدق

الأول: الإشارةُ إلى زيادةِ التشنيع عليهم من حيث إنَّهم يدَّعون أنَّهم أشدُّ النّاس تبرُّؤًا من الكذب، وقد خصّوا اللّه بتعمُّد الكذبِ عليه[3].

الثاني: الدَّلالة على كمالِ قبحِ افترائِهم؛ إذ الافتراءُ على العظيمِ سبحانه جرمٌ عظيم.

الثالث: تأكيدُ تبكيتهم بالحجَّة وإسكاتهم؛ إذ إنَّه هو سبحانه الذي يفترون عليه المتفرِّد بالعظمة الذي لا يعجزه كيدهم.

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/156.
(2) السمين الحلبي، الدر المصون: 6/227.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 9/148.

الرابع: مراعاةُ فواصلِ السورة[1] التي تنتهي معظمها بالواو والنّون، والتي تتناسب مع طريقة عرضِ سورة يونس في إيقاع رخيٍّ، ونبضٍ هادئ، وسلاسةٍ وديعة.

الخامس: إفادة القصر، كأنَّه قيل: بل أ على الله تعالى خاصّةً تفترون؟ على اعتبار (أم) منقطعة[2]، وهذا فيه إشارةٌ إلى فساد تفكيرهم، فأيُّ فسادٍ في التفكير أن يكون افتراؤهم على الله خالقِهم وخالق الوجود كلِّه، وأنَّهم يعترفون بالخالق، وهو الذي لا شريك له في خلقه، ولكنَّهم يعبدون الأحجار لتكون شافعة عنده، فكانوا سخفاء في شركهم وفي تسويغهِ[3].

سرُّ إظهارِ ما حقُّه الإضمارُ: ﴿ٱللَّهِ﴾:

كلَّما عَظُمَ مقامُ المُفْترى عليه؛ عَظُمَ قبحُ الافتراء

أظهر البيانُ القرآنيُّ الاسمَ الجليل ﴿ٱللَّهِ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾ ولم يضمره، أي: لم يقل: (أم عليه تفترون)؛ للدَّلالة على كمالِ الافتراء[4]، فكلَّما عَظُم مقامُ المفْتَرى عليه؛ عَظُم قبحُ الافتراء، فكيف إذا كان الافتراء على الله العظيمِ الملكِ الأعلى صاحبِ صفات الكمال المطلق، وكذلك في إظهار الاسم الجليل تربيةُ المهابةِ، وإدخالِ الروعة والتخويف من الافتراء على الله، فالمفترى عليه هو الله تعالى، لا أحدٌ سواه، فليحذر المفترون الاستمرار فيما هم فيه.

نكتةُ حذفِ مفعولِ ﴿تَفْتَرُونَ﴾:

الافتراءُ سلوكٌ قائمٌ بذاته عند من يريدُ تحقيقَ لذّاته

يحتمل حذفُ المفعول به في قوله تعالى: ﴿تَفْتَرُونَ﴾ أحدَ وجهين:

الأول: إمّا أنَّه لم يذكره لتعلُّق قصدِ المتكلِّم سبحانه بالإعلام بمجرَّد إيقاع الفعل للفاعل، فاقتُصر عليهما، ولم يَذكر المفعول، ولم

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/156، والشوكاني، فتح القدير: 2/518.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/156.
(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 7/3598.
(4) الشوكاني، فتح القدير: 2/518.

يَنْوِه، إذ المنْوِيُّ كالثابت، ولا يُسمّى حينئذٍ محذوفًا؛ لأنَّ الفعل نُزِّل منزلة ما لا مفعول له، فهو كالفعل اللازم غير المتعدّي، والمعنى: أم على اللّه تفعلون الافتراء عليه.

الثاني: حُذف اختصارًا؛ لقيام الدَّليلِ عليه من سياق الكلام، وهو الإذن من اللّه بهذا التغيير، والمعنى أم على اللّه تفترون إذنه لكم بالتَّحريم والتَّحليل.

دلالةُ الآية على صحَّة السَّبر والتَّقسيم:

صورةٌ بديعةٌ من صورِ الاستدلالِ وإقامةِ الحجَّة على المشركين

في الآية الكريمة: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾ دلالةٌ على صحَّة الاستدلال بالسبر والتقسيم، وهو حصرُ الأقسام وإبطالها سوى المدَّعى عليه؛ إذ المعنى: إنَّكم أيُّها الكفّار حرَّمتم بعض ما رُزقتموه، فلا يخلو تحريمكم لذلك إمّا أنْ يكون بإذنٍ شرعي، أو افتراءٍ منكم، والأوَّل باطل؛ لأنَّ الشرع خصمكم، وهو ينكر الإذنَ لكم فتعيَّن الثاني، وهو أنَّكم حرَّمتموه افتراءً على اللّه وكذبًا عليه، وما كان كذلك لا يُلتفتُ إليه[1].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الافْتِراءُ والكَذِبُ:

الافتراءُ كذبٌ عظيمٌ مختلقٌ متعمَّدٌ بقصدِ الإفساد، والكذبُ إخبارٌ بخلافِ الواقع

يوجد تقارب دلاليٌّ بين لفظي الافتراء والكذب؛ حيث يشتركان في أنَّهما نقيضُ الصدق، ولكنْ بالرجوع إلى معنى كلٍّ منهما في اللغة، وفي الاستعمال يتبيَّن أنَّ:

الافتراء: أصل الفَرْي: قطعُ الشيء وشقُّه لإفساده أو لإصلاحه، فَرَيْتُ الشيء: قَطَعته وشَقَقْته، وفَرَيْتُه: أصلحته، والتَّفَرّي: التَّشَقُّقُ، وفَرى فلانٌ الكذب: إذا اختلقه وابْتَكره من عند نفسهِ، والفِرية:

(1) الطوفي، الإشارات الإلهيّة إلى المباحث الأصولية، ص: 329.

الكذب والقَذف، والفَرِيُّ: الأمر العظيم، وفلانٌ يَفْرِي الفَرْيَ؛ إذا كان يأتي بالعجب[1]، وقيل: فَرَى للإفساد، وأفرى للإصلاح[2]، وقد استعمل القرآن الفري والافتراء في الكذب والشرك والظلم[3].

والكذب: خلاف الصدق[4]، وكَذَبَ: أخبرَ بخلاف ما هو عليه في الواقع[5].

إذًا: يتميَّز الافتراء بأنَّه: اختلاقُ ما لا حقيقة له، ومنه اختلاق الكذب، وفيه معنى: الشيء العجيب النادر والعظيم، ويكون بقصد الإفساد، ويمكن القول بأنَّ الافتراء "هو الاختلاق والكذب المتعمَّد"[6]، فهو كذبٌ عظيمٌ مختلقٌ متعمَّدٌ بقصد الإفساد، وأمّا: الكذب؛ فهو الإخبار بخلاف الواقع، ولو لم يتعمَّد الكذب.

(1) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة: (فري).
(2) الزبيدي، تاج العروس: (فرى).
(3) المفردات، الراغب، ص: 634.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (كذب).
(5) مجمع اللغة العربية في القاهرة، المعجم الوسيط: (كذب).
(6) الشّعراوي، تفسير الشّعراوي: 7/3961.

﴿وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَشۡكُرُونَ ٦٠﴾ [يونس: 60]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الانتِقالُ من ذكرِ أسبابِ الافتراءِ إلى التَّنبيه على مآلها يومَ القيامةِ

لَمّا ذكر اللّه تعالى فَضْلَهُ عَلى النّاس ورحمته بهم، وذكر بعدها أحوال الَّذينَ يتخرَّصونَ على اللّه الكَذِبَ، فيضيفون إليه تحريمَ ما لم يُحَرِّمهُ عليهم من الأرزاق والأقوات، وتحليلَ من الحرام؛ جاءت هذه الآية لتتوعَّدهم بما سيفعل اللّه بهم يومَ القيامةِ بسببِ كَذِبهم وفريَتِهم عليه، ولتُذَكِّرَهم بفضله عليهم أنَّه سبحانه لم يَستعجلْهم في العذابِ، ولم يمنعْهم نِعَمَهُ ورزقه[1]، فمناسبةُ الآية لما سَبَقَ هي الانتقالُ من ذكرِ أسبابِ الافتراء إلى التَّنبيه على ما سيكونُ للمفترينَ يوم القيامة.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ظَنُّ﴾: الظّاء والنّون أَصلٌ صحيحٌ يدلُّ على معنيينِ مختلفَيْن: يقينٍ وشكٍّ[2]، والظَّنُّ: إدراك الذِّهن الشيء مع ترجيحه، وَقد يكون مع اليقين[3]، وأَصْلُ الظَّنِّ اسمٌ لِما يَحْصُلُ عن أَمارَةٍ، ومتى قَوِيَتْ؛ أَدَّتْ إلى العلم، ومتى ضعفت جدًّا؛ لم يتجاوز حدَّ التَّوهُّم[4]، والظَّنّينُ: المُعادي، والظَّنّينُ أيضًا: المُتَّهَمُ، والظِّنَّة: التُّهْمَة، والظُّنونُ: الرجل السَّيِّئ الظَّنِّ بكلِّ أَحَدٍ[5]. وذكر المفسِّرون أنَّ الظَّنَّ في القرآن على

(1) ابن جرير، جامع البيان: 12/203، والبقاعي، نظم الدرر: 9/148، والشّعراوي، تفسير الشّعراوي: 10/6010.

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ظن).

(3) مجمع اللغة العربية في القاهرة، المعجم الوسيط: (ظن).

(4) الراغب، المفردات، ص: 539.

(5) الخليل، العين، وابن دريد، جمهرة اللغة: (ظن).

خمسة أوجهٍ: الشَّكُّ، اليقين، التُّهمة، الحُسْبان، الكذب[1] و﴿ظَنُّ﴾ في الآية: التوقُّع والحسبان، والمعنى: أيحسبون، أو يتوقَّعون أنَّ اللّه لا يؤاخذهم، ولا يعاقبهم على افترائهم يوم القيامة[2].

2) ﴿فَضْلٍ﴾: الفاءُ والضّادُ واللّامُ: أَصلٌ صَحيحٌ يدلُّ على زيادةٍ في شيءٍ، من ذلك الفَضْلُ: الزِّيادَةُ والخير، والإفضال: الإحسان[3]، وفَضَلَ الشيء فَضْلًا: زاد عن الحاجة، فالفضل: الزيادة حسِّيَّةً أو معنويَّة، وأفْضَلَ عليه: أحسنَ إليه، والفَضْلُ: الإحسانُ ابتداءً بلا علَّة[4]، وكلُّ عطيَّةٍ لا تلزم من يعطي؛ يقال لها: فَضْلٌ[5].

ومعنى ﴿فَضْلٍ﴾ في الآية: موافق للمعنى اللغوي، فالفضلُ من اللّه تفضُّلٌ من غير إلزام، وفيها معنى الإحسان والمنِّ والعفو والتَّجاوز.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

إمهالُ اللّه المفْتَرينَ في الدُّنيا استدراجٌ والموعدُ القيامة

توعَّد اللّه المفترين الذين تدخَّلوا في تحريمِ بَعضِ الحلالِ، وتحليلِ بعضٍ من الحرام من غير دليلٍ أو إذْنٍ من اللّه سبحانه بِسوءِ المَصيرِ على جُرأتِهم وكَذِبهم وافترائهم، فقال عنهم: وما يَظُنُّ هؤلاء الذين يَكْذِبونَ على اللّه، أنَّ اللّه فاعِلٌ بهم يوم القيامة بكَذِبهم وعظيم فريتهم عليه؟ أيحسبون أنَّه سيتركُهم بدون عقابٍ؟ كلّا، إنَّ عقابَه لشديدٌ وإنَّ عذابه لعظيم، وتاللّه إنَّ اللّه لذو فَضلٍ على خَلْقِه بنِعَمِه الكثيرةِ، ومنها إمهالُه العاصينَ وعدمُ مُعاجلتهم بالعقوبة، وإنظارُهم وتركُهم، وإبقاءُ الرِّزقِ والنِّعم في أيديهم، وعدمُ سلبها منهم، ومع كلِّ هذا فإنَّ أَكثَرَ النّاس لا يشكرونَ اللّه على نعمه وآلائه.

(1) ابن الجوزي، نزهة الأعين النواظر، ص: 426، والفيروزابادي، بصائر ذوي التمييز: 3/545.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 12/203، والبغوي، معالم التنزيل: 4/139، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 7/3599.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (فضل).
(4) مجمع اللغة العربية في القاهرة، المعجم الوسيط، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (فضل).
(5) الراغب، المفردات، ص: 639.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

معنى الواو في: ﴿وَمَا﴾:

عطفُ حُسبانِ المُفترين على افترائهم لبيان قبيح اجتراحهم

الواو في قوله تعالى: ﴿وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ﴾ عاطفةٌ، والمعطوف عليه هو قوله تعالى: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم﴾، وهو عطفُ جملةٍ على جملةٍ[1]، وليس عطفًا على مقول قول سابق، فلم يأمر الله نبيَّه محمدًا ﷺ أن يقول لهم: ﴿وَمَا ظَنُّ﴾ إنَّما بعد هذا الافتراء في نسبة الحلالِ والحرامِ إلى الله بُهْتانًا وزوْرًا من غير علمٍ أو بيِّنة أوإذنٍ من الله، جاءت هذه الآيةُ تهديدًا ووعيدًا لهم بالعذاب الشديد يوم القيامة، أي: جاء العطف هنا إتمامًا للمعنى العام المشترك الذي يجمع المعطوف والمعطوف عليه، وهو أنَّ كلتا الجملتين حديثٌ عن المفترين على الله بصيغة التهديد، إلا أنَّ الأولى حديثٌ عن أحوالهم وماهية افترائهم، والثانية حديثٌ عن عقوبةِ هذا الافتراء.

الغَرضُ من التعبير بالاستفهام في: ﴿وَمَا﴾:

إبهامُ تفصيلِ الجزاءِ يُظهرُ عظيمَ الوعيدِ وعجيبَ التَّهديدِ

أتى البيان القرآنيُّ بأداة الاستفهام ﴿وَمَا﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ﴾؛ لغرضين:

الأوَّل: تَعْظيمُ وَعيدِ مَنْ يفتري على الله[2] ﷻ؛ لِما يتضمَّنه الاستفهام من الإبهام، أي: أبهمَ الأمرَ، فلم يوضِّحْ جزاءَهم على سبيل الوعيد والتَّهديد العظيم يوم يكونُ الجزاءُ بالإحسان والإساءة[3]، وكَأَنَّ معنى هذا الاستفهام: إنَّ الله لذو فضلٍ على النّاس؛ من تأخير العذاب، وفتح باب التوبة، وبيان طريق الهداية، وتمايز الحقِّ من الباطل، ووضوح طريق الخير وطريق الشرِّ وغير ذلك الكثير، فكيف يفترون على الله الكذبَ مع تضافُرِ نعمه

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/210.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 17/272.
(3) أبو حيان، البحر المحيط: 6/78.

هذه عليهم؟[1] الآخر: التعجُّبُ من حالهِم والتعريضُ بالمشركين؛ ليستفيقوا من غَفلتِهم، ويُحاسِبوا أنفسَهم[2].

سرُّ التَّعبير بالموصول في: ﴿ٱلَّذِينَ﴾:

المفترونَ في التَّحريمِ والتَّحليل هم المفترون في الظُّنون والأوهام

مقتضى الظاهرِ أن يستمرَّ الكلام عن المفترين الذين يحرِّمون، ويحلِّلون وينسِبون ذلك إلى الله زورًا وافتراءً، وأنْ تكونَ الإشارةُ إليهم بالضَّمير، سواءٌ أكان ضميرَ الخطابِ أم ضميرَ الغيبةِ، فيقالُ مثلًا: (وما ظنُّكُم أو وما ظنُّهم)، لكنَّ النَّصَ القرآني عَدَلَ عن مقتضى الظاهرِ إلى الاسم الموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾؛ لأمور:

الأول: إيذانٌ بعلَّةِ التَّعجيبِ من ظنِّهم بأَنفسهم يوم القيامة؛ إذ إنَّ الإتيان بالاسم الموصول بالصلة المختصَّة بهم ﴿يَفۡتَرُونَ﴾ عيَّنَ أنَّهم مفترون، وأنَّ الافتراء قد صار حالهم المختصَّ بهم، بعد بيانِ التَّرديد في الآية السّابقة بين أن يَكونَ الله أذن لهم فيما حَرَّموهُ، وبين أَنْ يكونوا مُفْتَرِينَ عليه قد انْحَصَرَ في القسم الثّاني، وهو كَوْنُهُم مُفْتَرِينَ؛ إذْ لا مساغ لهم في ادِّعاء أَنَّهُ أَذِنَ لهم، فَإِذا تَعَيَّنَ أَنَّهم مُفْتَرونَ؛ فقد صار الافتراء حالَهُمُ المختصَّ بهم.

الثاني: الدَّلالة على العموم، فالتعبيرُ بهِ يشْمَلُ كلَّ مَنْ ثبتت له هذه الصلةُ (الافتراء)، والمعنى: كلُّ من افترى سينالُ جزاءَهُ يومَ القيامةِ.

الثالث: الإيماء بأنَّ سببَ خَسارتِهم وحسرتِهم إنَّما هو الافتراءُ.

دلالةُ التَّعبيرِ بالمضارعِ ﴿يَفۡتَرُونَ﴾:

افتراءُ المشركين سلوكٌ قائمٌ وخلقٌ دائمٌ وكذبٌ جاثمٌ

عبَّرَ القرآنُ بصيغة المضارع في قوله تعالى: ﴿وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ﴾؛ للدَّلالة على استمرار افتراءاتهم وتَجدُّدِها وتكرارها، ولبيان أنَّ افتراءهم هو سلوكٌ قائمٌ بهم لا ينفكُّ عنهم بحال، فهم يكرِّرونَه ليلًا نهارًا، فصارَ الافتراءُ صِفَةً مستمرَّةً فيهم وملازمة

(1) زكريا الأنصاري، فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن: 1/249.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/210.

لهم في جميع أحوالهم، كما أنَّ التَّعبيرَ بصيغة المضارع يفيدُ حكايةَ حالهم الماضيةِ في الافتراء، ليثيرَ في المُخيِّلةِ صورةً لافتراءاتهم المستمرَّة والمتجدِّدة، بما يُظْهِرُ لهم قُبحَ جريمتهم.

الغَرضُ من تقديمِ الجارِّ والمجرور ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾:

بالافتراءِ على الله دون سواه نالَ المشركين كاملُ الغمِّ، وواسعُ الذَّمِّ

قدَّمتِ الآية الجارَّ والمجرور ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾، على مفعولِ ﴿يَفْتَرُونَ﴾ وهو ﴿ٱلْكَذِبَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾؛ لإفادةِ عِظَمِ الافتراءِ والإجرام الذي صَدَرَ من المُشركين، فهو ليسَ افتراءً على أَحَدٍ مِن الخلقِ أو على مَنْ يَسْتَحِقُّ الكلام عليه، بل هو افتراءٌ على الذي خلقهم ورزقهم، ويَعْلَمُ سرَّهم وعلانيتهم ويحاسبهم ويجازيهم على صنيعِهم، وفي هذا التقديم تهديدٌ وتخويفٌ ووعيدٌ وتنبيهٌ؛ لأنَّ المفترى عليه هو اللّه تعالى الذي سيعودون إليه.

كما أنَّ في التَّقديم دلالةَ اختصاصٍ، أي: إنَّ هذا الافتراءَ هو على اللّه سبحانه لا على أحدٍ سواه، وبه نال أولئك كاملَ الغمِّ، واسعَ الذَّمِّ.

معنى التَّعريف في ﴿ٱلْكَذِبَ﴾:

الكذبُ عَلَمٌ على المستقبحِ في العقولِ

لفظُ ﴿ٱلْكَذِبَ﴾ في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾ مفعولٌ لفعل ﴿يَفْتَرُونَ﴾، ويصحُّ أن يكون مفعولًا مطلقًا، واللام فيه لتعريف الجنس، كأنَّه قيل كذبًا، ولكنَّه عُرِّف لتفظيعِ أمرِه، أي: هو الكذبُ المعروفُ عند النّاس المستقبحُ في العقول[1].

بَلاغةُ تعلُّق يوم القيامَة بالظَّنِّ:

الظُّنون الفاسدةُ نتائجُ القلوب البالية والعقول الخالية

في قوله تعالى: ﴿وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ العامل في ﴿يَوْمَ﴾ هو المصدرُ ﴿ظَنُّ﴾، والمصدرُ مُضافٌ إلى فاعله، وهو ﴿ٱلَّذِينَ﴾، ولا يَصِحُّ تعلُّق ﴿يَوْمَ﴾ بكلمة ﴿يَفْتَرُونَ﴾ لفساد

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/210.

المعنى؛ لأَنَّهُ يدلُّ على أنَّهم يفترون يومَ القيامَةِ على اللّه الكذِبَ، وهذا محالٌ، ومعنى الكلام: (وما ظنُّ المفترين يوم القيامة)، لكنَّه أتى بهذا النَّظمِ لبيانِ نكاته السّابقِ ذِكرُها، من ذكرِ الاسم الموصول وصلته، والجارِّ والمجرورِ، والتَّصريح بالمفترى وهو الكذب.

واعتُرض على تعلُّق ﴿يَوْمَ﴾ بـ ﴿ظَنُّ﴾؛ لأنَّ يومَ القيامةِ لا ظَنَّ فيه، إنَّما فيه اليقينُ، ولذا عدَّ بعض العلماء العاملَ محذوفًا، والتقدير: ما حالهم يوم القيامة؟[1] لكنَّ جمهور المفسِّرين على صحَّة تعلُّق الظَّنِّ بيومِ القيامةِ مع انكشافِ الأَمرِ فيه، ورأَوا في ذلك حِكَمًا:

الأولى: توبيخٌ لهم وتهكُّمٌ بهم على الظَّنِّ الذي اختاروه لأنفسهم سبيلًا بدل أنْ يتحرَّوا مستيقنين[2].

الثاني: لفرطِ دَهشتِهم وحَيرتِهم كما يَحْلِفون، ويَقولون: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: 23] مع علمهم بأنَّه لا يَنْفَعُ.

الثالث: يَجوزُ أَنْ يقالَ ههنا: هذا الظَّنُّ منهم ابتداءَ الأمرِ قبل انكشاف الحال، وظهورِ ما هو المآلُ[3].

بلاغةُ ذكرِ لفظِ الكذبِ في: ﴿ٱلْكَذِبَ﴾:

بيانُ كمالِ قُبحِ المفترين بتسجيلِ افترائِهم عليهم

أطنبَ البيانُ القرآنيُّ بذكر لفظة الكذب بعد لفظة الافتراء في قوله تعالى: ﴿وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾، والافتراء لا يكون إلّا كذبًا، بل هو أشدُّ الكذب، ولو قال: (وما ظنُّ الذين يفترون على اللّه يوم القيامة)؛ لصحَّ المعنى، لكنَّه ذكر الكذب وهو مفعول ﴿يَفْتَرُونَ﴾ أو مفعول مطلق؛ لإظهار كمال قبحِ ما افتعلوا، وكونه كذبًا في اعتقادهم أيضًا[4]، ولتسجيل شنيعِ أفعالِهم عليهم.

(1) أبو العباس البسيلي، نكت وتنبيهات في تفسير القرآن المجيد: 1/133.
(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 7/3599.
(3) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاوي: 9/505.
(4) الشوكاني، فتح القدير: 2/518، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/157.

بلاغةُ التَّذييلِ في الآية:

أبلغُ التَّذييلِ ما اتَّسع لمعاني السّياقِ ووفّى بتراكيب النَّظمِ

النّاظر في قوله الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ يرى أنَّ فيه تذييلًا لأكثرَ من موضعٍ:

الأول: تذييلٌ للكلام المفتَتَحِ بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ٥٧﴾ [يونس: 57]، وفيه قطعٌ لعذرِ المشركين، وتسجيلٌ عليهم بالتمرُّدِ بأنَّ الله تَفَضَّلَ عليهم بالرِّزقِ والموعظةِ والإرشادِ، فقابلوا ذلك بالكفر دون الشكر، وجعلوا رزقهم أنَّهم يكذبون، في حين قابله المؤمنون بالفرح والشكر، فانتفعوا به في الدُّنيا والآخرة[1].

الثاني: تذييلٌ لبداية الآية نفسِها: ﴿وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ﴾ مع أنَّ الآية فيها تهديدٌ لكنَّ المقصودَ: إنَّ الله لذو فضلٍ على النّاس حيث أَنعمَ عليهم بالعقلِ والوحي والهدايةِ وتأخيرِ العذابِ وفتح باب التوبة، فكيف يفترون عليه الكذبَ مع توافر نعمه عليهم[2].

الثالثُ: أنَّ قولَه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ يعودُ إلى الآية التي قبلُ، وهي قولُه تعالى: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزۡقٖ فَجَعَلۡتُم مِّنۡهُ حَرَامٗا وَحَلَٰلٗا﴾ وهذا يعني: أنَّ الله لذو فضل عظيم على النّاس في كلِّ ما خلقه لهم من الرزق، وكلِّ ما شرعه لهم من الدّين، ومنه أنَّه جعل الأصل فيما أنزله إليهم من الرِّزق الإباحة، وجعل حقَّ التحريم والتحليل له وحده ﷻ لكيلا يتحكَّمَ فيهم أمثالهم من عبادِه، وهو لم يحرِّم عليهم إلا ما هو ضارٌّ بهم، ولهذا أباح لهم ما حرَّمه عليهم إذا اضطرّوا إليه، وكان تركُه أضرَّ من تناولِه[3].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/211.
(2) أبو بكر الرازي، أنموذج جليل في أسئلة وأجوبة عن غرائب آي التنزيل، ص: 188.
(3) رشيد رضا، تفسير المنار: 11/337.

الرابع: قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ يعودُ على يوم القيامة، وأنَّ الله من فضلِه على النّاس أنْ يُؤخِّر القيامةَ لعلَّ النّاس يرعوون، وإلّا لفاجَأَهُم سبحانه من أوَّل تكذيبٍ، وهذا يبيِّن أنَّ الله تعالى يُمهل الخلق ليزداد فيهم أهل الهدى والإيمان، ومن أمثلة ذلك أنَّ المؤمنين برسول الله لم يأتوا جميعًا مرَّةً واحدة في وقت واحد، إنَّما على فتراتٍ زمنيَّةٍ واسعةٍ، ولا ضيرَ أنْ نقول: إنَّ التذييلَ يصلحُ للمواضع كلِّها، فخطابُ ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ ناسبه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾، وجرمُ المفترين وكذبُهم لا يُبْعِدُهُم عن فضل الله وعطائِه، وكذلكَ من فضل الله أنَّ الحلالَ والحرامَ بيدِه، وأنَّه أخَّرَ يومَ القيامة ليتفضَّل سبحانه بالتوبة على العاصين، وليزدادَ الذين آمنوا إيمانًا.

فضلُ الله كثيرٌ عظيمٌ ثابتٌ لجميعِ النّاس لا ينفكُّ عن أحدٍ منْهُم

بلاغة اجتماع المؤكِّداتِ:

أكَّد ﷻ قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ بمؤكِّدات عدَّة:

الأول: البدء بحرف ﴿إِنَّ﴾ الذي يفيد التأكيد، والذي تبدأ به العرب كلامها؛ إذا أَرادتْ أَنْ تقولَ كلاماً مُؤَكَّدًا.

الثاني: الجملةُ الاسميَّة؛ لأنَّها تَدُلُّ على الثباتِ وقوَّةِ الحُكْمِ وبَقائِه، ولِأَنَّ الخِطابَ بالجملة الاسميَّة وحدَها آكدُ من الخطاب بالجملة الفعليَّة.

الثالثُ: دخولُ اللام على الخبر، وهي تفيد تأكيدَ مضمونِ الجملةِ، ولهذا زحلقوها في باب ﴿إِنَّ﴾ عن صدر الجملة؛ كراهية ابتداء الكلام بالمُؤَكِّدَين، ولأَنَّها تدلُّ بجهة التأكيد، و﴿إِنَّ﴾ تدلُّ بجهتي العمل والتأكيد، والدّالُّ بجهتين مقدَّمٌ على الدالِّ بجهة، وإذا جاءتْ معَ ﴿إِنَّ﴾ كانتْ بمنزلة تكرار الجملة ثلاثَ مراتٍ؛ لأنَّ ﴿إِنَّ﴾ أفادتِ التكريرَ مرَّتين، فإذا دخلتِ اللامُ؛ صارت ثلاثًا[1] كلُّ هذه المؤكِّداتِ

(1) الزركشي، البرهان في علوم القرآن: 2/408.

مجتمعةً مع ما تضمَّنته مفردات الآية من تفخيم الفضل وتعظيمه واستيعابه وشموله أفادتِ المبالغةَ في تأكيدِ فضلِ الله على النّاس كلِّ النّاس لا ينفكُّ عن أحدٍ منْهُم، فهو كثيرٌ عظيمٌ ثابت لا ينقطع.

الغرض من وضع المظهر في موضع المضمر:

جاء الاسم الجليل ﴿ٱللَّهَ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ مظهرًا، لا مضمرًا، فلم يقلْ سبحانه: (إنّه لذو فضل عظيم)؛ وذلك للأمور الآتية:

في مواضع الإفضال يفضل لفظ الجلالة بإظهارِه والتَّحلّي بسماعِه

الأول: الزيادة في الإيضاح بأنَّهُ سبحانه لا يشاركه مع هذا الاسم أحدٌ، فانتسبَ الفضلُ إليه وحدَهُ دونَ سواهُ.

الثاني: التَّعريض بقبح افترائهم على الله المشرِّع صاحب الفضل العظيم، فإنَّهم مع فضله العظيم عليهم افتروا عليه الكذب، وبالمقابل مع افترائهم الكذب عليه لم يقطعْ فضلَه عنهم.

الثالث: تربية النفوس على مهابة الله، بذِكر الاسم الأعظم الجامع لكلِّ صفات الجلال والجمال، والكمال، كما أنَّ السياق هو سياقُ مَهابةٍ وتعظيم، وانتصارٍ للحقِّ وحُججه.

الرّابع: لتجري هذه الجملة مجرى الأمثال السّائرة، والكلمات الجامعة، ولو أضمر؛ لما كان في حسن الإظهارِ، وهذا توجيهٌ تداوليٌّ لا في أصل النَّظم.

دلالةُ التَّعبير بـ﴿عَلَى﴾:

معنى حرف الجر ﴿عَلَى﴾ في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ الاستعلاءُ، وقد أفادَ عظمةَ صاحب الفضل، وتمكُّنَ فضله سبحانه في النّاس واستيعابَه وشمولَه.

غرض تنكيرِ ﴿فَضۡلٍ﴾:

نكَّر البيان الإلهيُّ لفظَ ﴿فَضۡلٍ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو

فضلٌ عظيمٌ لا يُكتنه كُنْهه ولا يوقفُ على حقيقةِ حسنه

﴿فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ في سياق الامتنان بعد إقامة الحجَّة؛ لإفادةِ معنى التكثير والتفخيم والتعظيم[1] لشأنِ هذا الفضل الذي "لا يكتنه كنهه"[2]، ولإفادة معنى التعظيم لحِلْم المتفضِّل؛ ففضلُه كثير وعظيمٌ، ومنه إمهال الكافرين ليتوبوا رغم افتراءاتهم.

معنى (أل) في: ﴿ٱلنَّاسِ﴾:

كمالُ الفضلِ وتمامُ النِّعمة أنْ يكونَ عامًّا للمؤمنين والكافرين

(ألْ) التعريف في قوله تعالى: ﴿ٱلنَّاسِ﴾ جنسيَّةٌ استغراقيَّةٌ؛ تفيدُ العمومَ، أي: على النّاس جميعًا حيث أنعم عليهم بالعقل المميِّز بين الحقِّ والباطلِ، والحسَنِ والقبيحِ، ورحِمهم بإنزال الكتبِ، وإرسالِ الرسلِ، وبيَّن لهم الأسرارَ التي لا تستقلُّ العقولُ في إدراكها، وأرشدهم إلى ما يُهمُّهم من أمر المعاشِ والمعاد[3]، وبما ساقَ إلى النّاس كلِّهم مِن الرِّزق، كافرهم ومؤمنهم، وبما أخَّر عنهم العذابَ، من غير أنْ تكون منهم سابقةُ صنعٍ يستوجبون به ذلك[4].

فائدةُ الاستدراك:

فضلُ الله تعالى قد يُلاقى بحميدِ الشكرِ أو بكثيرِ الكفرِ

﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَشۡكُرُونَ﴾ في قولِه تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَشۡكُرُونَ﴾ حرف استدراكٍ، يأتي للاستدراكِ ممّا تَضَمَّنَهُ الكلام الذي قبلَه، فهي تَنسِبُ لما بَعدها حكمًا مخالفًا لحكم ما قبلَها، فلا بدَّ من أنْ يتقدَّمَها كلامٌ مخالفٌ لِما بعدَها أو مناقضٌ له[5]، وفائدتها في الآية الدَّلالة على قلَّة الشاكرين[6].

والتقدير هنا: إنَّ اللّٰه لذو فضلٍ كثيرٍ على النّاس بنِعَم لا تُعَدُّ ولا تُحصى، فيجب عليهم أنْ يشكروا تَفَضُّلَهُ وإحسانَهُ، لكنَّ أكثرَهم

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/28.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/157.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/157.
(4) أبو حفص النسفي، التيسير في التفسير: 8/90.
(5) نحو: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيۡمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ﴾ [البقرة: 102].
(6) أبو حيان، البحر المحيط: 2/564.

غيرُ شاكرين فضلَه تعالى كما ينبغي؛ أمّا الكفارُ؛ فلم يشكروا أصلًا، وأمّا المؤمنون؛ فلم يبلغوا غايةَ شُكْرِهِ، أو أنَّ المقصود بأكثر النّاس هم الكافرون ليتناسب مع قوله تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ۝١٣﴾ [سبأ: 13][1]، ويؤيّده أنَّ المقامَ مقامُ ذمٍّ للكافرين، وتمييزِ المؤمنين الذين فرحوا بفضل الله ورحمته عليهم.

غرضُ ذكرِ الأكثريَّة:

عدلُ الله حاضرٌ في جميعِ خلقِه وفي بديعِ نظمه

أطنب البيان الإلهي بلفظ الأكثريَّة في قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾، ولم يقلْ: (ولكنهم) رغم أنَّه أخصرُ لفظًا؛ إنصافًا للقلَّة الشاكرة منهم، ومديحًا لهم على استقامتهم وقوَّة إيمانهم، فهم علموا الحقَّ، واتَّبعوه، وصدَّقوا به، ووقفوا إلى جانب الرسول ﷺ يؤيِّدونه ويفدون دعوته بالنَّفس والمال، ولم يحرِّموا، أو يحلِّلوا من عندهم، وكانوا ملازمين لشكر الله تعالى في السرّاء والضرّاء، والعسر واليسر[2]ولو جاء التعبير القرآني بقوله: (ولكنَّهم) لشملَ كلَّ النّاس، وعليه يدخلُ في وصفِ عدم الشكر المؤمنُ وغيرُ المؤمن، والصابرُ مع النَّبيِّ ﷺ وغيرُ الصابرِ، وليس هذا من روح القرآن الذي يقومُ على جبر الخواطر، وإعطاءِ كلِّ ذي حقٍّ حقَّهُ.

وقد ورد أنَّ المؤمن يشكر الله تعالى على نعمه عليه وعلى غيره من خلقه، كما جاء عن قتادة وهو أحد التابعين في تفسير ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾ أنَّه قال: (إنَّ المؤمن لَيشكر نِعَم الله عليه وعلى خلقِه)[3].

توجيهُ المتشابه اللفظي:

الإظهارُ والإضمارُ يتناسبُ مع السياق في المعنى وفي تكرارِ اللفظ

عبَّر البيانُ القرآنيُّ في هذه الآية: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾ بإضمار (النّاس) في حين أظهرها

(1) الآلوسي، روح المعاني: 1/553.
(2) الطنطاوي، التفسير الوسيط: 1/559.
(3) ابن أبي حاتم، تفسير القرآن العظيم: 2/459.

في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ ٦١﴾ [غافر: 61]؛ وذلك لأنَّه في سورة غافر أظهر لفظ ﴿ٱلنَّاسِ﴾، وكرَّره في قوله تعالى: ﴿لَخَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَكۡبَرُ مِنۡ خَلۡقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٥٧﴾ [غافر: 57]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَأٓتِيَةٞ لَّا رَيۡبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ ٥٩﴾ [غافر: 59]، ومقصوده تحريك الخلق للاعتبار والتَّذكير بما نصبَ سبحانه من الدلائل والآيات؛ فاقتضى ذلك تكرار الظاهر، فناسبَ إظهاره في هذه الآية [61] للمشاكلة في الألفاظ.

أمّا في يونس؛ فقد أضمر لفظة (النّاس)، وكرَّر ضمائرَها قبل ذلك مثل قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ فناسب إضمارها لِما ذكرناه من المشاكلة[1]، ولأنَّه لم يتقدَّم تكريرٌ للفظة (النّاس) يُطلب بمناسبة؛ فلذلك ورد الكلام على ما هو الأصل من الإتيان بالضمير؛ ليحصل به ربطُ الكلام، فجاء كلٌّ من الموضعين على ما يقتضيه ما قبله؛ مراعاةً لتناسب الكلام[2].

نكتةُ التَّعبير بالمضارع: ﴿يَشۡكُرُونَ﴾:

في قولِه تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَشۡكُرُونَ﴾ عبَّر القرآن عن عدم شكر أكثر النّاس بصيغة المضارع؛ إشارةً إلى تجدُّد النعم، فمقتضى تجدُّدها تجدُّدُ شكرها، لكن لمّا كان الصّادرُ عنهم نقيضَ مقتضى الشُّكر: وهو الكفر؛ فُهِمَ أنَّ كُفرَ النِّعمة هو المتجدِّد، فعُبِّر عنه بنفي الشُّكر تنبيهًا على وجود النِّعم، فاكتسى النَّظم اختزالًا بديعًا، ثمَّ إنَّ الشُّكرَ إذا ظهر منهم؛ فإنَّه لا يستمرُّ، وأنَّ الدائم منهم هو عدم الشكر وتكرُّر الجحود وتجدُّده آنًا بعد آنٍ[3]؛ فهم

نفي الشُّكر يومئ إلى النِّعم العديدة التي تُمنحُ للنُّفوسِ العنيدة

(1) ابن جماعة، كشف المعاني في المتشابه من المثاني، ص: 323.
(2) أبو جعفر الغرناطي، ملاك التأويل: 1/246.
(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 7/3599.

يخبطون خَبْطَ عشواءَ، ولا يتَّبعون رسله ولا كتبه، ويفعلون ما يغضبهُ سبحانه ولا يصرفون مشاعرهم إلى ما خُلقتْ له، وكان ينبغي أنْ يشكروا اللّه على نعمهِ الواصلة إليهم منه سبحانه في كلِّ وقتٍ من الأوقات وطرفةٍ من الطَّرفات[1]وجاءت صيغة الجمع مناسبةً لحالهم؛ فقد اجتمع أكثر النّاس على عدم الشكر، وتواطؤوا على ذلك، أو سكتوا راضينَ به غيرَ منكرِين، ولا ناصحين بعضهم بعضًا بشكر اللّه تعالى[2].

الغرضُ من حذفِ المفعولِ به لـ: ﴿يَشْكُرُونَ﴾:

حذفَ البيانُ القرآنيُّ مفعول ﴿لَا يَشْكُرُونَ﴾ في قوله: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾ لثلاثة أغراض:

عـدمُ شكرِهم لـنـعـمِ الـلـه الكثيرة دليلٌ على عِظَمِ انحرافهم وعِـظَـمِ حلمِ المنعمِ سبحانه

الأولُ: إفادةُ العموم، أيْ: لا يشكرون كلَّ ما يجبُ أنْ يُشكرَ اللّه تعالى عليه؛ لأنَّهُ لمّا كانَ فضلُ اللّه كبيرًا وكثيرًا ومتنوعًا؛ كان لزامًا أنْ يكونَ الشكر كثيرًا ومتنوِّعًا، فحَذَفَ المفعولَ ليعمَّ الشكرُ كلَّ النعمِ، وكلَّ أفضالِ اللّه تعالى، وهذا أبلغُ من ذكر المفعول به؛ لأنَّه يؤدّي إلى تخصيص كفرهم ببعض النِّعم.

الثاني: مراعاةُ الفاصلةِ في السورة بما يحقِّق إحكامَ اللَّفظِ، أي: التطريب وراحة النَّفس بنغمها؛ إذ خُتمت معظمها بالواو والنون، والواو من الحروفِ المدّيَّة الهوائية، وبما يحقِّقُ إحكامَ المعنى وإكمالَه؛ ففرحُهم برحمةِ اللّه وفضلِه يستلزمُ أنْ يكونوا من الشّاكرين، فارتبطَ اللفظُ مع المعنى.

الثالثُ: الإيجازُ؛ لشهرتِه وظهورِه، فهو المستحقُّ للشكر فعليًّا في هذا الكونِ؛ إذ هو المنعمُ الحقيقي سبحانه الذي ليس قبله منعمٌ، وهو مصدرُ كلِّ فضلٍ وكلِّ خيرٍ وكلِّ عَطاءٍ.

(1) محمد صديق خان، فتحُ البيان في مقاصد القرآن: 6/86.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 9/149.

الشُّكر ثمرةُ الإيمانِ وهو المقصودُ بهذا السّياق

سرُّ التَّعبيرِ بالشُّكرِ: ﴿لَا يَشْكُرُونَ﴾:

عبَّر البيانُ الحكيم بلفظةِ الشُّكر ﴿لَا يَشْكُرُونَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾ دونَ لفظة الإيمان، فلم يقل: (لا يؤمنون)؛ مناسبةً لسياق الكلام؛ إذ إنَّه سبحانه بعد أنْ ذَكَرَ نِعَمَهُ وآلاءَهُ على خلقه، وبيَّنَ أنَّهُ سبحانه ذو فضلٍ على النّاس؛ ناسبَ هذا أن يأتي بالشكر، والشُّكر من نتائج الإيمان، فذِكْرُه يتضمَّنُ ذكرَ الإيمان، لهذا حينَ يقرأ أحدنا قوله تعالى: ﴿لَا يَشْكُرُونَ﴾ يَعْلَمُ أنَّ الأمرَ الذي هو بصدده في مقاييس العقلِ والفِطْرةِ السليمة يستحقُّ الشكرَ[1]، وكذلكَ في ذكرِ الشُّكر تحريضٌ ودعوةٌ إلى أَنْ يَشْكُرَ الخلقُ الخالقَ على نِعَمِهِ وفضله، فإنْ شكروا حقَّ الشُّكْرِ؛ استحقّوا مزيدًا من فضله وعطائه، وبالشكر تدومُ، وتكثرُ النِّعَمُ.

(1) الآلوسي، روح المعاني: 6/135، والشّعراوي، تفسير الشّعراوي: 11/6953.

﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِۚ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾﴾ [يونس: 61]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

في مناسبة الآية وجهان:

بَعدَ وعيدِ المفترين تحسُن تسليةُ سيّد المرسلين

الأول: بعد أنْ ذَكَرَ اللّه تعالى جُملةً من أحوال المُفْتَرِينَ ومذاهبهم، والردَّ عليهم، ومُحاوَرَةَ الرَّسولِ ﷺ لهم، وذكر فضْلَهُ تعالى على النّاسِ، وأَنَّ أكثر النّاس لا يشكرون؛ جاءت هذه الآية ليحصل بها تمامُ السُّلوان والسُّرور للنَّبيِّ ﷺ وللمُطيعين، وتمامُ الخوف للمذنبين، وهو كونه تعالى عالمًا بعملِ كلِّ واحدٍ، وما في قلبه من الدَّواعي والصَّوارف[1].

الثاني: لَمّا ذكّر اللّه تعالى عبادَه بفضله، وما يجبُ عليهم مِن شُكرِه، وبيَّن أنَّ أكثرهم لا يشكرون؛ عطفَ على ذلك تذكيرهُ لهم بإحاطةِ علمه بشؤونهم وأعمالهم كلِّها؛ صغيرها وكبيرها، جليلها وحقيرها، وبكلِّ ما في العوالم علويِّها وسفليِّها؛ ليحاسبوا أنفسهم على تقصيرهم في ذكره وشكره وعبادته فقال تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا﴾[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿شَأْنٍ﴾: الشِّينُ والهمزة والنّون أصل واحِدٌ يَدُلُّ على ابتغاء

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 17/272، وأبو حيان، البحر المحيط: 6/78، وابن عادل، اللباب في علوم الكتاب: 10/362.

(2) رشيد رضا، تفسير المنار: 11/338.

وطلب[1]، والشَّأْنُ: الخَطْب والأمر[2] والشأن: الحال والمنزلة والقدر، يقال: رجلٌ من ذَوي الشَّأْن والخَطْبِ، وجمعُه شُؤونٌ[3]. والشّأْنُ لا يقال إلا فيما يعظم من الأحوالِ والأمور، قال تعالى: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ۝٢٩﴾ [الرحمن: 29][4].

والمراد بـ ﴿شَأْنٍ﴾ هنا عمل من الأعمال، أو الأمر والحال العظيم[5].

2) ﴿تُفِيضُونَ﴾: الفاء والياء والضّاد أَصْلٌ صَحِيحٌ واحِدٌ يَدُلُّ على جريان الشَّيْءِ بِسُهولَةٍ، يُقال: أفاض إناءه: إذا ملأه حتى فاض، وأفاض القوم من عرفة: إذا رجعوا ودفعوا، وأَفاضَ القَوْمُ في الحديث: أخذوا فيه، واندفعوا فيه، والفيضُ: الكثير[6]، وأفاضوا في الحديث: خاضوا فيه، وحديث مُسْتَفِيضٌ: منتشر[7]. ومعنى ﴿تُفِيضُونَ﴾ في الآية موافق للمعنى اللغوي، أي: الدخول في العمل، فتفعلونه، وتخوضون فيه، وتندفعون فيه، وتنشرون القول، وتأخذون فيه، وتتكلمون[8].

3) ﴿يَعْزُبُ﴾: عزب: العين والزّاي والباء أَصْلٌ صَحِيحٌ يَدُلُّ على تباعد وتنحٍّ، والعَزَبُ: الذي لا أهلَ له، يقال: عَزَبَ حِلْمُ فلانٍ، أي: ذهب، وكلُّ شيءٍ يَفوتُك حتى لا تقدرَ عليه، فقد عَزَبَ عنك، ولا يَعْزُبُ عن الله شيءٌ[9]، وعَزَب يَعْزُبُ ويَعْزِبُ: غابَ وبَعُدَ، والعُزوبُ: الغَيْبَةُ، والذهاب، والعُزّابُ: الَّذِينَ لا أزواجَ لهم[10]، والعازِبُ: المتباعدُ في طلب الكلأِ عن أهله[11].والمراد بـ ﴿يَعْزُبُ﴾ في الآية موافق للمعنى اللغوي، والمعنى: لا يغيب، ولا يخفى عن علم الله شيء، ولا يبعد عنه، ولا يفوته شيء[12].

4) ﴿مِّثْقَالِ﴾: (ثقل): الثّاءُ والقاف واللّامُ أصلٌ واحدٌ يَتَفَرَّعُ مِنْهُ كلماتٌ مُتَقارِبَةٌ،

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (شأن).
(2) الخليل، العين، والفيروزابادي، القاموس المحيط: (شأن).
(3) ابن منظور، لسان العرب، ومجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط: (شأن).
(4) الراغب، المفردات، ص: 470.
(5) ابن جرير، جامع البيان: 15/114، ورشيد رضا، تفسير المنار: 11/339.
(6) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة: (فيض).
(7) الراغب، المفردات، ص: 648.
(8) البغوي، معالم التنزيل: 2/424، والقرطبي، أحكام القرآن: 8/356، وأبو حيان، البحر المحيط: 5/172.
(9) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة: (عزب).
(10) الجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب، والزَّبيدي، تاج العروس: (عزب).
(11) الراغب، المفردات، ص: 564.
(12) ابن عطية، المحرر الوجيز: 3/128، والبقاعي، نظم الدرر: 3/460.

وهو ضِدُّ الخِفَّة[1]، والتَّثْقِيلُ: ضِدُّ التَّخْفِيف، والثِّقْلُ: واحدُ الأثقال[2]، والأثقال: الأحمال الثقيلة، ومِثْقالُ الشَّيْءِ: ميزانُهُ من مِثْلِه، وقوله تعالى: ﴿مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ﴾ أي: زنةِ ذرَّة[3]، والمِثْقال: ما يوزن به، وأصله في الأجسام، ثم يُقال في المعاني[4]، وكُلُّ شيءٍ له قدر ووزنٌ يُنافَسُ فيه؛ فهو ثِقْلٌ[5].

والمراد بـ﴿مِّثْقَالِ﴾ في الآية: الوزن[6]، ومعنى قوله تعالى: ﴿مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ﴾: زنةِ نَملةٍ صَغيرةٍ، أي: ما يساوي في الثِّقل نملة صغيرة أو هباء[7]، على تفسير الذرَّة بأنَّها أَصغرُ النَّملِ، ويضرب بها المثل في الصغر، وتُطلقُ الذرَّة كذلك على الدقيقة من الغبار الذي يُرى في ضوء الشمس[8].

المَعْنى الإِجْماليُّ:

الله تعالى رقيبٌ على العبادِ ومحيطٌ بكلِّ شيءٍ علمًا ورعايةً

يقول الله تعالى لنبيِّه محمدٍ ﷺ: وما تكون في أيِّ حالٍ من أحوالك الخاصة بك أو العامة التي تدعو فيها إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، وما تتلو من أجل ذلك الشأن من قرآن ينزل عليك، ولا تعملون - أيُّها الناس - مِنْ عَمَلٍ صغير أو كبير تندفعون فيه بسرعة وخفَّة إلّا كُنّا عليكم شُهودًا فيه، فلا يخفى علينا أصغرُ الأشياء، وإنْ خفَّ في الوزن كلَّ الخِفَّة، ولا أكبرها وإنْ عَظُمَ، وثَقُلَ وزنه؛ إذ هو معلومٌ ومُحصًى في كتابٍ مرقومٍ عظيمِ الشأن تامِّ البيان، وسنجازيكم عليه، فليكنْ عملكم - أيُّها النّاس - فيما يُرضي ربَّكم عنكم[9].

(1) ابن فارس مقاييس اللغة، والأزهري، تهذيب اللغة: (ثقل).
(2) زين الدين الرازي، مختار الصحاح: (ثقل).
(3) الجوهري، الصحاح: (ثقل)، والزَّبيدي، تاج العروس: (ثقل).
(4) الراغب، المفردات، ص: 175.
(5) الكفوي، الكليات، ص: 323.
(6) ابن عطية، المحرر الوجيز: 3/128.
(7) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/158.
(8) المراغي، تفسير المراغي: 11/127.
(9) ابن جرير، جامع البيان: 15/117، والحجازي، التفسير الواضح: 2/73 - 74.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

معنى الواو ودلالتها في: ﴿وَمَا﴾:

تحتملُ الواو معنيين هما:

الأوَّل: أن تكون الواو للعطف، وهو من عطف الجملة على الجملة، والغرض على الغرض، فبَعْدَ أنِ انتهى النَّصُّ القرآني مِن ذكرِ المفترين وتوعُّدِهم على افترائهم وعدم شكرهم لنعم اللّه في قوله تعالى: ﴿وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ﴾؛ جاء الغرضُ الثاني: وهو الوعدُ بالثّواب للرسول على ما هو قائمٌ به من تبليغ أمر اللّه، وتدبير شؤون المسلمين، وتأييد دين الإسلام، وبالثواب للمسلمين على اتِّباعهم الرسولَ فيما دعاهم إليه[1].

الآخر: أن تكون الواو استئنافيَّة[2]، أي: إنَّها جاءتْ لتستأنف كلامًا جديدًا يُخاطَب به النبيُّ ﷺ وتُعْلِمُه أنَّ اللّه يعلمُ كلَّ شأْنٍ فيه، وفيمن معه.

شأنُ النَّبيِّ عظيم إذ يأتي ذكرُه بلسمًا شافيًا بعد ذكر من سواه

معنى ﴿وَمَا﴾:

﴿وَمَا﴾ في الموضعين: ﴿وَمَا تَكُونُ﴾ و﴿وَمَا تَتۡلُواْ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأۡنٖ وَمَا تَتۡلُواْ مِنۡهُ مِن قُرۡءَانٖ﴾ نافية[3]، ودلَّ عليها ما بعدها، ولذلك عَطَفَ بإعادة (لا) النافية، وأَوْجب بـ (إلا) بعد الأفعال لكونها منفيَّةً[4]، وفائدةُ كونها نافيةً: هو توكيدُ خطابِ اللّه لنبيِّه ﷺ وللمؤمنين، أي: لستَ في شأْنٍ، يعني من عبادةٍ أو غيرها، ولست تتلو من قرآن، وما تعملون أنت ومن معك جميعًا أيَّ عملٍ إلّا وربُّك مطَّلعٌ عليكم، كقوله تعالى: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجۡوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمۡ﴾ [المجادلة: 7] أي: إلّا هوَ شاهدهم[5].

كلُّ شؤونه ﷺ وأحواله هي بعلمِ الله ومَعيَّتِهِ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/211.
(2) الدعاس، إعراب القرآن الكريم: 2/33.
(3) الزمخشري، الكشاف: 2/354، وأبو حيان، البحر المحيط: 6/78، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/211.
(4) السمين الحلبي، الدر المصون: 6/228، وابن عادل الدمشقي، اللباب في علوم الكتاب: 10/362.
(5) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 8/356، والفراء، معاني القرآن: 1/470.

نكتةُ استعمالِ: ﴿تَكُونُ﴾ مع: ﴿شَأْنٍ﴾:

في كلِّ أحوالِه وشؤونه عينُ الله تراهُ ومعيَّته ترعاه

استعملَ البيانُ القرآنيُّ لفظة ﴿تَكُونُ﴾، وهو فعلُ كونٍ، واستعمل لفظة ﴿شَأْنٍ﴾ وهي مصدر (شَأَنَ) في قوله تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ﴾، والمراد به الأحوال العظيمة، ومعلوم أنَّ المصدر هو اللفظ الدالُّ على حدث الفعل المجرد من الزمان، متضمِّنًا أحرف فعله، فهو يدلُّ على الحدث من حيث تعلُّقه بفاعله، ولكن على وجه العموم والإبهام، غير مقيَّد بزمن، وقال ابن جني: "وهذا طريق المصدر لمّا كان جنسًا لفعله، ألا ترى أنَّه إذا قام قومةً واحدة؛ فقد كان منه قيام، وإذا قام قومتين؛ فقد كان منه قيام، وإذا قام مائة قومةٍ؛ فقد كان منه قيام"[1].

إذًا المقصودُ من التعبير التركيزُ على جنس الشأن، وهي أحوال النبيِّ ﷺ العظيمة، وأنَّها أحوالٌ دائمةٌ منه لا تنفكُّ عنه في الماضي والحاضر والمستقبل، يقول الراغب: "وما استعمل منه - أي فعل الكون - في جنس الشيء متعلِّقًا بوصفٍ له هو موجود فيه؛ فتنبيه على أنَّ ذلك الوصف لازمٌ له، قليلُ الانفكاك منه"[2].

كما أنَّ مجيء هذا المعنى في قالب الجملة الاسميَّة التي تفيد الثبات والرسوخ، ومجيء ﴿تَكُونُ﴾ بصيغة المضارع الذي تفيد الدوام والاستمرار؛ أفادَ ذلك، وهو ملازمةُ هذه الأحوال العظيمة ومصاحبتها للنبيِّ ﷺ في كلِّ وقتٍ وعلى كلِّ حال، وأنَّ أيَّ أمرٍ من النَّبيِّ ﷺ، قلَّ أو كَثُرَ، فإنَّما هو في عينِ الله ومشاهدته سبحانه.

دلالة صيغة المضارعِ في: ﴿تَكُونُ﴾:

الله مع نبيِّه على الدَّوام في كلِّ شؤونِه وأمورِه

عبَّر البيانُ القرآنيُّ في قوله تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ﴾ بصيغة المضارع في ﴿تَكُونُ﴾؛ لأمرين:

(1) ابن جني، الخصائص: 1/25.
(2) الراغب، المفردات، ص: 730.

الأول: ليتمَّ الترابط الأكمل بين حال النبيِّ ﷺ، وكلِّ شأنه وبين شهادةِ اللّه ومعيَّته له، فالمضارع في ﴿تَكُونُ﴾ أعطى معنى الاستمرار والتجدُّد والدوام، وقوله: ﴿كُنَّا﴾ تفيد معنى الأزليَّة[1]، أي: علمه بحال النبيِّ ﷺ وشؤونه علمُ إحاطةٍ، ومع شمول علم اللّه تعالى شمول الرعاية، ثمَّ شمول الرقابة.

الثاني: لإفادةِ استحضار الحال العظيم من شأن النَّبيِّ ﷺ ومن قراءته القرآن، والدعوة إلى اللّه، وتصوير هذا المشهد العظيم، ولذلك سُبقتْ ﴿تَكُونُ﴾ بحرف النفي ﴿وَمَا﴾ الذي "أصله أنْ يخلِّص المضارع للحال[2].

ومعنًى ثالثٌ لطيفٌ: وهو أنَّ ما يكون للنَّبيِّ ﷺ فهو بتكوينه ﷻ، فاللّه معه في كلِّ تكوينٍ وحركةٍ وسكونٍ، وهذا المعنى حاصلٌ لجميعِ المخلوقين، لكنَّ النَّصَّ عليه تشريفٌ لسيِّد العالمين.

دلالةُ استعمالِ حرفِ الظَّرفيَّة ﴿فِي﴾:

النَّبيُّ ﷺ والحقُّ متلازِمان في جميع الأحوال

حرفُ ﴿فِي﴾ يأتي للظرفيَّةِ المكانيَّة والزمانيَّة، وربما تأتي حقيقيَّة أو مجازيَّة، وهي هنا في قولِه تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ﴾ ظرفيَّة مجازيَّة؛ إمّا فيها أو في مدخولها ﴿شَأْنٍ﴾[3].وقد جاءتْ لتفيد معنى شدَّة التلبُّس[4] والمصاحبة والملازمة، أي: إنَّ النبيَّ ﷺ كان متلبِّسًا متمسِّكًا بما يدعو إليه من عبادة اللّه والإيمان بكتابه، وغير ذلك من جميع شؤونه وأحواله في مجال الدعوة والرسالة.

نكتةُ التَّعبيرِ بالشَّأن في: ﴿شَأْنٍ﴾:

شأنُه ﷺ شأنُ الأمَّةِ كلِّها

عبَّر البيانُ القرآني في خطابه لرسول اللّه ﷺ: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ﴾ بالشأن وهو الأمر العظيم أو ذو البال؛ ليدلَّ على أنَّ جميع

(1) لكونها في حقِّ الله تعالى، الراغب، المفردات، ص: 730.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/212.
(3) حاشية القونوني على تفسير البيضاوي: 9/506.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/212.

أموره وأعماله ﷺ كانتْ عظيمة حتى العادات منها؛ لأنَّه كان قدوةً صالحة فيها[1]، وأنَّه يترتَّب عليها أفعالٌ جسيمةٌ في حياة الأمَّة، فهي رسالةٌ للمؤمنين بأنَّ شأنَ النَّبيِّ ﷺ هو شأنٌ لكم في قابلِ الأيّام.

غرض تنكيرِ ﴿شَأْنٍ﴾:

كلمة ﴿شَأْنٍ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ﴾ جاءتْ نكرة في سياق النفي، فأفادت عمومَ شؤونِ النَّبيِّ ﷺ العامَّة والخاصَّة، وجميع أعمالِه ﷺ حتى العادات منها.

شأنُ النَّبيِّ ﷺ خَيرٌ عظيمٌ ونفعٌ عميم

وأفاد التَّنكير كذلك التَّعظيم، أيْ: كلُّ شأنِ النبيِّ ﷺ مهما كان صغيرًا، فهو عظيم عند الله؛ لأنَّه لَمّا كان الله مشاهِدًا شؤونَ النَّبيِّ ﷺ كلَّها، وعطف عليه أعظم شأنه وحاله، وهو تلاوة القرآن الكريم؛ دلَّ على أنَّ أيَّ شأنٍ للنَّبي ﷺ هو عظيم عند الله تعالى[2].

فائدةُ عطفِ ﴿وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ﴾:

كلمة ﴿شَأْنٍ﴾ ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ﴾ لفظٌ عامٌّ، فيشمل كلَّ شؤونِ النبيِّ ﷺ الدينيَّة والدنيويَّة، فيكون داخلًا فيها تلاوة النَّبيِّ ﷺ للقرآن الكريم، لكن خُصَّ بالذكرِ دونَ سائرِ الأعمالِ، من باب عطفِ الخاصِّ على العامِّ، كما في قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ﴾ [البقرة: 98]؛ وذلك لأمرين:

عطفُ خصوص التِّلاوة على عمومِ الشَّأنِ لمزيَّة ذلك الخاصِّ

الأول: مكانةُ القرآن وأهمّيَّة تلاوته، والمعنى: "وما تتلو من أجل ذلك الشأن من قرآنٍ أنزل عليك تعبُّدًا به، أو تبليغًا له"[3].

الثاني: الإيماءُ إلى وجوبِ زيادة الاهتمام والعناية به[4].

(1) رشيد رضا، تفسير المنار: 11/339.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/136، ورشيد رضا، تفسير المنار: 11/339.
(3) رشيد رضا، تفسير المنار: 11/339.
(4) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 4/30، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/212.

سرُّ التَّعبيرِ بالتِّلاوةِ في: ﴿وَمَا تَتْلُواْ﴾:

تلاوةُ القرآنِ قراءةٌ وعلمٌ وحفظٌ وعملٌ ودعوةٌ

اختارَ البيانُ القرآنيُّ التعبير بلفظة التلاوة دون القراءة في قوله تعالى: ﴿وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ﴾؛ لكون التلاوة أنسبَ مع ذكر القرآن؛ ولكثرةِ الفوائدِ التي يتضمَّنها لفظ التلاوة[1]، فالتِّلاوةُ أوسع دلالةً من القراءة، ويتَّضح ذلك في معاني التلاوة، وهي:

الأوَّل: الاتباعُ والامتثالُ لِما في القرآن الكريم من أمرٍ ونهيٍ وترغيبٍ وترهيبٍ؛ لأنَّ من اتَّبع غيرَه يقال: تلاه فعلًا، قال الله تعالى: ﴿وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ۝٢﴾ [الشمس: 2][2]، كما أنَّ من قَوَّمَ لفظَه، ولم يتَّبعْهُ في العِلمِ والعملِ ليسَ بتالٍ، وإنْ قرعَ دماغَه، ومنْ تَبِعَهُ في العلمِ والعملِ؛ تالٍ، وإنْ لم يتلفظْ به[3].

الثاني: التتابع، فالتلاوة هي القراءة المتتابعة[4]، ممّا يؤدي إلى أنْ يُقِيموا ألفاظَه من غير تحريفٍ ولا لحنٍ، ويتدبَّروا معانيه.

فلو عبَّر بالقراءة لَما شملت التتابع والاتِّباع الذي هو أصل التلاوة، فالتلاوةُ هي قراءةٌ على وجهٍ مخصوصٍ، وتعني: القراءة المتتابعة، مع المتابعة بالعلم والعمل، ولهذا تختصُّ التلاوة باتِّباع كتبِ الله المنزَّلة تارةً بالقراءة، وتارةً بالارتسام لِما فيه من أمرٍ ونهيٍ وترغيبٍ وترهيبٍ[5].

الثالث: أنَّ (تلا) لا تستعمل إلّا للقراءة من مكتوب بصوتٍ[6]، وفي هذا إلماحٌ إلى تبليغ النَّبيِّ ﷺ للقرآن وقراءته على أصحابه، وليس مجرَّد قراءته لنفسه ﷺ.

---

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 4/30، وأبو حيان، البحر المحيط: 1/593.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 4/30.
(3) السمين الحلبي، عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ: 1/268.
(4) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 27.
(5) الراغب، المفردات، ص: 167.
(6) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (تلو).

تعيينُ مرجعِ الضَّمير ﴿مِنْهُ﴾:

إضْمارُ القرآن قبلَ ذكرِه إشارةٌ إلى عظيمِ شأنِه

اختلفَ المفسِّرون في الضمير: ﴿مِنْهُ﴾ في قولِه تعالى: ﴿وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ﴾ إلى ماذا يعود؟ وذكروا فيه ثلاثةَ أوجه:

الأوَّل: راجعٌ إلى القرآن الكريم؛ لدلالة ما بعده عليه، والتقدير: "وما تتلو من القرآن قرآنًا"[1]، ذلك أنَّ اسمَ القرآنِ يطلَقُ على مجموعِه كلِّه، كذلكَ يُطلَقُ على كلِّ جزءٍ من أجزاءِ القرآنِ، وأشار البقاعي إلى ما يُرجِّح ذلك بقوله: "أي: من القرآن المحدَّث عنه في جميع هذه السورة، الذي تقدَّم أنَّهم كذَّبوا به من غير شبهة لهم"[2] وعلى هذا الوجه فالضَّمير يعودُ إلى مذكورٍ متراخٍ عنه، ونكتةُ ذلك؛ "تحصيل التشويق إليه حتى يتمكَّن في نفس السامع"[3]، وللدَّلالة على عظمةِ هذا القرآنِ، وعادة العرب إذا أضمرت، ثم أظهرت؛ فإنَّما تقصد من ذلك التعظيم، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ﴾ [طه: 14][4].

الثاني: راجعٌ إلى الشأنِ؛ "على تقديرِ حَذْفِ مضافٍ تقديرُه: وما تتلو من أجل الشأن، أي: يحدث لك شأنٌ، فتتلو القرآنَ من أجله"[5].

الثالث: راجعٌ إلى الاسم الجليل (اللّه)، ويكون التقدير: وما تتلو من قرآن من اللّه، أي: نازل من عند اللّه[6]، قال ابن جزيٍّ: "والأحسن أنْ يعود على اللّه تعالى لتقدُّم ذكره قبلُ"[7].

معنى: (مِن):

توجيه معنى (من) يُظهرُ إيجازَ القرآنِ في اللَّفظِ وثراءَه في المعنى

في معنى (مِن) الأولى ﴿مِنْهُ﴾ والثانية: ﴿مِن قُرْءَانٍ﴾ في قولِه تعالى: ﴿وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ﴾ أوجهٌ عِدَّةٌ:

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/212.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 9/150.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/212.
(4) الشوكاني، فتح القدير: 2/518.
(5) السمين الحلبي، الدر المصون: 6/228.
(6) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 17/272، وحاشية الطيبي على الكشاف: 7/516، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/212.
(7) ابن عجيبة، البحر المديد في تفسير القرآن المجيد: 2/482.

فعلى الاحتمال الأوَّل بأنَّ الهاء تعودُ على القرآنِ، فالأولى: ابتدائيَّة، والثانية: للتبعيض، والتقدير: وما تتلو ابتداءً من القرآن بعضَه، أو أن تكون الأولى تبعيضيَّة والثّانية بيانيَّة، والمعنى: وما تتلو من القرآنِ قرآنًا.

وعلى الاحتمال الثاني: بأنَّ الهاء تعود على الشأن، فالأولى ﴿مِنْهُ﴾ ابتدائيَّة، والثّانية للتبعيض[1]، أي: وما تتلو من أجل الشأن شيئًا من القرآن، أو لتأكيد النفي واستغراقه، وتكون كلمة ﴿قُرْءَانٍ﴾ بعدها مفعولًا به مصرَّحًا به، أي: وما تتلو من أجل الشَّأن قرآنًا.

وعلى الاحتمال الثالث بأنَّ الهاء تعود على الله تعالى، فالأولى: ابتدائيَّة، والثانية: لتأكيد النفي، والتقدير: وما تتلو من عند الله قرآنًا[2].

وقد جعل القونوي ﴿مِن﴾ الثانية ﴿مِن قُرْءَانٍ﴾ اسمًا بمعنى (بعض)، لا حرفَ جرٍّ، وبيَّن أنَّه يمكن كذلك أنْ تأتي حرف جر؛ فيكون المفعول محذوفًا، وليس مُصرَّحًا به، ومثله قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ﴾[3].

ممّا سبق يتبيَّن أنَّ حرفَ الجر ﴿مِن﴾ الأولى والثانية يحمل معاني كثيرة من البيان والتبعيض والتأكيد، وابتداء الغاية، وهي سمة إعجازيَّة في القرآن، وهي إيجازٌ في اللفظ وثراءٌ في المعنى، وهذه الكثرة من الاحتمالات تتعانق معانيها، ولاتتعاند، وكلُّها مرادةٌ، ولو أراد القرآن أن يحسم المعنى المراد؛ لأتى بنظم صريح لا يقبل هذه المعاني كلَّها، والأقرب لدائرة القبول تصحيح الجميع بنوع تأويل، فإنَّ النَّبيَّ ﷺ يتلو عند ابتدائه من القرآنِ بعضه، ويقرأ من القرآن لأجل شؤونه، ويقرأ القرآن النّازل من عند الله تعالى بعضه، فلا مانع من اجتماع هذه المعاني بنوعِ تأويلٍ من غير اعتسافٍ أو ارتجاف.

غرضُ تنكيرِ ﴿قُرْءَانٍ﴾:

في تنكير لفظة ﴿قُرْءَانٍ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ﴾ غرضان:

أولًا: التفخيم، أي: قرآنٌ عظيمٌ، لا يُحَدُّ حَدُّهُ، ولا يُقدَّر قدرُه، ولا يكتنه كُنهه، ولا تنقضي عجائبه الكثيرة.

(1) الإيجي، جامع البيان في تفسير القرآن: 2/143.
(2) البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل: 3/117، والآلوسي، روح المعاني: 6/135.
(3) القونوي وابن التمجيد، حاشية على تفسير البيضاوي: 9/507.

ثانياً: العموم، لكون لفظة ﴿قُرْءَانٍ﴾ نكرة في سياق النفي، فسواء كانتِ التلاوة لكلِّ القرآن أو لسورةٍ أو آيةٍ أو بعضِ آية منه، فإنَّها داخلةٌ تحتَ هذا العموم، "أي: لقليلٍ أو كثيرٍ"[1] وجاءتْ ﴿مِن﴾ قبل ﴿قُرْءَانٍ﴾ لتؤكِّد هذا العموم وترسِّخه[2].

القرآنُ عظيمٌ خيرُه في كلِّ حرفٍ وكلمةٍ وجملة

بلاغةُ الالتفات:

انتقلَ البيانُ الإلهي من خطابِ المفرد: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ﴾ إلى خطاب الجميع: ﴿وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ﴾، وذلك لأمور:

الرَّسول أصلُ الأمَّة في أعمالِها ومعيارُ الأخلاقِ في إعمالها

الأوّل: الإشارة إلى أنَّ الإحاطة التامَّة الإلهيَّة ليست خاصَّةً بشأن النبيِّ ﷺ فحسب، وإنَّما تشمل كلَّ الناس، وكلَّ ما يعملونه، فهي واقعة على الأعمال شهادةً وعلمًا على أتمِّ ما يكون من كلِّ جهة من غير أنْ يستثني منه نبيًّا ولا مؤمنًا ولا مشركًا، أو يغفل عن عملٍ من الأعمال، فلا يتوهَّمنَّ أحدٌ أنَّ الله يخفى عليه شيء من أمره، فلا يحاسبه عليه يوم القيامة، وليكنْ هذا هو ظنُّه بربِّه يوم القيامة، وليأخذ حذره، وفي هذا إنذارٌ للكافرين وتبشيرٌ للمؤمنين[3].

الثاني: مراعاة ما يليق بكلٍّ من المقامين؛ إذ قصدُ التفخيم والإجلال والتكريم والتعظيم لمقام النبيِّ ﷺ الشريف بتعميم الخطاب إثر تخصيصه بمقتضى الكل؛ ليشمل الجميع بالخطاب، وأوَّلهم رسول الله ﷺ[4].

الثالث: التفنُّن في الفصاحة، والتنويع في الكلام بإخراجه على أساليب عدَّة بما يَلفتُ الانتباه ويشوِّق النَّفس للاستماع؛ إذ بدأ الكلامُ بشؤون النبيِّ ﷺ التي منها ما هو من خواصِّه كقيام الليل،

(1) البقاعي، نظم الدرر: 9/150.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 9/150، ورشيد رضا، تفسير المنار: 11/339.
(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 7/3600.
(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/157.

ثمَّ بما هو من شؤونه بالنِّسبة إلى النّاس، وهو تلاوة القرآن على النّاس، ثم ثلَّث بما هو من شؤون الأمة في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَعۡمَلُونَ مِنۡ عَمَلٍ﴾[1].

الرابع: الانتقال بالسامعين للقرآن، والمبلِّغ إليهم هذا المنهج إلى العمل الجماعي التكليفي نيَّةً وقولًا وفعلًا ﴿تَعۡمَلُونَ﴾ الذي يكون بنشاطٍ وشوقٍ ولهفةٍ وحسنِ استقبال، وإخلاصِ أداء ﴿تُفِيضُونَ﴾ ومراقبةٍ لمنْ لا تخفى عنه خافية[2].

الخامس: الدِّلالة على أنَّ الأمَّة داخلة مع النَّبيِّ ﷺ فيما خوطب به قبلُ[3]، أو جُمعَ تعظيمًا للنَّبيِّ[4] ﷺ، وهذا على رأي من يرى أنَّ الخطاب في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَعۡمَلُونَ مِنۡ عَمَلٍ﴾ للنبيِّ ﷺ.

سرُّ المغايرة في حرف النفي ﴿وَلَا﴾، و ﴿وَمَا﴾:

في قوله تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأۡنٖ وَمَا تَتۡلُواْ مِنۡهُ مِن قُرۡءَانٖ وَلَا تَعۡمَلُونَ﴾ تكرَّر النَّفي من بداية الآية إلى قوله تعالى: ﴿إِذۡ تُفِيضُونَ فِيهِۚ﴾ ثلاث مرات، جاء مرتين بحرف ﴿وَمَا﴾ في قوله: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأۡنٖ وَمَا تَتۡلُواْ مِنۡهُ مِن قُرۡءَانٖ﴾ وعدلَ في المرَّة الثالثة ليعبِّر بـ ﴿وَلَا﴾ في قوله: ﴿وَلَا تَعۡمَلُونَ﴾ ولم يقل: (وما تعملون)، ويكمن سرُّ ذلك في أنَّ النّاظر في معاني هذه الأحرف يرى أنَّ ﴿وَمَا﴾ تخلِّص المضارع للحال، وأنَّ ﴿وَلَا﴾ تخلِّص المضارع للمستقبل، فأراد البيان الكريم استحضار الحال العظيم من شأن النَّبيِّ ﷺ ومن قراءته للقرآن، ثم أراد أن يبيِّن استمرارَ حالِ عملِ الأمَّة في المستقبل على ما كان عليه النَّبيُّ ﷺ ليشمل الأزمنة كلَّها، واجتمعتْ معها قرينة العموم في الأفعال الثلاثة بواسطة النكرات الثلاث المتعلِّقة بتلك

علمُ الله يستوعبُ الأزمنةَ كلَّها بماضيها وحاضرها ومستقبلها

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/212.
(2) الشّعراوي، تفسير الشّعراوي: 10/6015.
(3) الزركشي، البحر المحيط في أصول الفقه: 4/257.
(4) زكريا الأنصاري، فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن، ص: 250.

الأفعال، والواقعة في سياق النفي، ليُعلم أنَّ ما يحصل في الحال، وما يحصل في المستقبل من تلك الأفعال سواء، وهذا من بديع الإيجاز والإعجاز[1].

دلالة التَّعبير بصيغةِ المضارعِ في: ﴿تَعْمَلُونَ﴾:

أعمالُ العبادِ المستمرَّة في مراقبةٍ مستمرَّةٍ

عبَّر البيان القرآني بصيغة المضارع ﴿تَعْمَلُونَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا﴾؛ لبيانِ أنَّ أعمالَ المخاطَبين هي على الدَّوام في مراقبةٍ؛ لأنَّ شهادة الله تعالى على خلقه لا تنقطعُ، ولا تغيبُ، فهو معهم في جميعِ أعمالِهم يحصيها عليهم، فأعمالهم المستمرَّة في مراقبةٍ مستمرة.

دلالةُ ﴿مِن﴾:

العبدُ الفطنُ فطنٌ لأعماله لعلِمه بالمراقبةِ ومن بعدها المحاسبة

حرف الجر ﴿مِنْ﴾ في قوله تعالى: ﴿مِنْ عَمَلٍ﴾ لتأكيد الإغراق في النفي[2]؛ ليعمَّ العمل كلَّه صغيرَه وكبيرَه، شريفَه وحقيرَه، أي: ولا تعملون عملًا مَهما قلَّ إلّا كنّا شهودًا عليكم، فدلَّ هذا الحرفُ على ضرورةِ اليَقَظة لجميعِ الأعمالِ، وأنَّه لا يليق بالعبدِ الفطنِ التَّهاون في أعمالِه مَهْما دقَّت أو صغرت.

غرضُ تنكير: ﴿عَمَلٍ﴾:

مهما قلَّت الأعمالُ فإنَّ الله مطَّلعٌ عليها ومجازٍ بها

نكَّر البيان الإلهي مفردة ﴿عَمَلٍ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ﴾؛ لإفادة العموم، لكونها جاءتْ نكرةً في سياق النفي، فشملتْ كلَّ الأعمالِ أدَقِّها وأحقرِها، وهو في معنى قوله تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨﴾ [الزلزلة: 7 - 8][3]، وسواء كان العملُ قولًا أو فعلًا أو نيَّة، خيرًا أم شرًّا، نافعًا أو ضارًّا، ظاهرًا أو باطنًا؛ لأنَّ العمل يشمل مجموع الأحداث التي تصدر عن الإنسان، فإذا كان العمل باللِّسان صار قولًا، وإذا

(1) ابن عاشور: التحرير والتنوير: 11/212 - 213.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 3/459.
(3) رشيد رضا، تفسير المنار: 11/339.

كان من الجوارح؛ صار فعلًا، فاختيارُ كلمة عمل، ومجيئها نكرة، أفاد العمومَ، وأنَّ كلَّ ما يصدر من الإنسان بعلم الله ومشاهدته، ومما زاد قطعيَّة العموم التي لا تحتمل تخصيصًا ولا استثناءً مجيءُ حرف ﴿مِن﴾ قبل كلمة ﴿عَمَلٍ﴾[1]؛ لأنَّ العلماء لمّا قالوا: إنَّ النكرة في سياق النفي تفيد العموم؛ ليس على الإطلاق، فقد يأتي ما يخصِّصها، لهذا قالوا: ما من عامٍّ إلّا وقد خصَّ بعض أفراده، ورأي جمهور علماء الأصول: أنَّ دلالة العام المطلق دلالةٌ ظنيَّة، فمجيء حرف ﴿مِن﴾ نفى احتمال التخصيص، فصارت دلالته قطعيَّة[2].

بلاغةُ الاستثناءِ في: ﴿إِلَّا﴾:

الاستثناءُ في قوله تعالى: ﴿إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا﴾ استثناءٌ مفرَّغ من عموم أحوالِ المخاطَبين بالأفعال الثلاثة: (عموم الشأن، عموم التلاوة، عموم العمل)، أي: ما تلابسون بشيء منها في حال من الأحوال إلّا حالَ كوننا رقباءَ مطَّلعين عليه حافظين له[3]؛ إذ جملة ﴿كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا﴾ في موضع الحال، ووجود حرف الاستثناء أغنى عن اتِّصال جملة الحال بالحرف (قد)؛ لأنَّ الربط ظاهرٌ بحرف الاستثناء ﴿إِلَّا﴾، وقد تقدَّمها قبلُ فعلٌ، وهذا جائز[4].

لا يكون حالٌ من أحوال الخلقِ إلا والله مطَّلعٌ عليه حافظٌ له

دلالةُ استعمالِ الكون الماضي المضافِ في: ﴿كُنَّا﴾:

آثرَ البيانُ الإلهيُّ استعمالَ فعل ﴿كُنَّا﴾ ماضيًا في قوله تعالى: ﴿كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا﴾؛ للدَّلالة على تأكيد مراقبة الله، وأزليَّة علمه ﷻ؛ لأنَّ فعل الكون في حقِّ الله يدلُّ على الأزليَّة، ومجيئه ماضيًا رغم أنَّ الأفعال التي سبقته جاءتْ كلُّها بصيغة المضارع ﴿وَمَا تَكُونُ﴾...

علمُ الله أزليٌّ وشهودُه على خلقه مستمرٌّ لا ينقطع

(1) رشيد رضا، تفسير المنار: 11/339.
(2) رشيد رضا، المنار: 11/339، والشّعراوي، تفسير الشّعراوي: 10/6015.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 6/136، والسمين الحلبي، الدر المصون: 6/229.
(4) السمين الحلبي، الدر المصون: 6/229، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/213، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 7/3601.

﴿وَمَا تَتْلُواْ﴾... ﴿وَلَا تَعْمَلُونَ﴾ يفيد تحقُّق الوقوع، ولأنَّ باستعماله أصبحتِ الجملة اسميَّة تفيد توكيد إحاطة علمه ومراقبته لخلقه بما تدلُّ عليه الجملة الاسميَّة من الاستمرار والثبوت.

بلاغة طريق الاحتباك:

تقديرُ الاحتباكِ في الصيغِ كتقديرِه في الجمل

يَرِدُ في قوله تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا﴾ احتباكٌ بديع يظهر من خلال الجمع بين صيغة الماضي في الفعل الواقع في موضع الحال ﴿إِلَّا كُنَّا﴾، وصيغ المضارع في الأفعال ﴿تَكُونُ﴾، و﴿تَتْلُواْ﴾، و﴿تَعْمَلُونَ﴾ ليُفيدَ التَّنبيهَ على أنَّ ما حصل، ويحصل، وسيحصل سواء في علم اللّه تعالى على طريقة الاحتباك، كأنَّه قيل: (وما كنتم وتكونون وهكذا، إلّا كنّا ونكون عليكم شهودًا)[1]، أي: إنَّ الاحتباك هاهنا في الصيغ، فقد ذكر في الجملة الأولى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ﴾ صيغ المضارعِ، وذكر في الثّانية: ﴿إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا﴾ صيغة الماضي، وتقدير الكلام: وما كنتم وتكونون وستكونون، إلّا كنّا ونكون وسنكون عليكم شهودًا، وتقدير المستقبل مأخوذٌ من معنى الحاليَّة في خطابِ الجميعِ ﴿وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ﴾.

نكتةُ تقديمِ ﴿عَلَيْكُمْ﴾:

تربيةُ العبادِ على الانتباه والحذر رحمةٌ وحكمةٌ

قدَّمتِ الآيةُ الجارَّ والمجرور ﴿عَلَيْكُمْ﴾ على ﴿شُهُودًا﴾ في قوله: ﴿إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِۚ﴾؛ لإفادة الاختصاص، والاهتمام بتخويف من أُريد تخويفه من المخاطَبين، وحتى يطرقَ أسماعهم، ويلفتَ انتباههم، فالكلام لكم أيُّها المخاطَبون، وجاءت كاف الخطاب ﴿عَلَيْكُمْ﴾، والتَّعبير بضمير العظمة قبلها ﴿كُنَّا﴾

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/213.

وبكلمة الجمع ﴿شُهُودًا﴾ لتزيد ذلك التنبيه والاهتمام بما يُخاطب به، وكأنَّه يقول: عليكم شهود، وليس على غيركم، فانتبهوا، واستعدّوا، وراقبوا أعمالكم[1].

للمبالغةِ شأنٌ في إيراد المعاني على النُّفوس والحقائق على القلوب

نكتةُ استعمالِ جمعِ فعول: ﴿شُهُودًا﴾:

آثر البيان القرآني استعمال لفظة ﴿شُهُودًا﴾ في قوله: ﴿إِلَّا كُنَّا عَلَيۡكُمۡ شُهُودًا إِذۡ تُفِيضُونَ فِيهِۚ﴾ دون (شاهدين) مع أنَّ كليهما جمعٌ لاسم الفاعل (شاهد)، إلا أنَّ لفظ (شهود) هو مصدرٌ سماعي على وزن (فُعول) للفعل (شَهِدَ)، وكلُّ مصدر على وزن (فُعول) يجوز أنْ يُجعل جمعًا لفاعل[2]، وبهذا فإنَّ لفظ (شهود) جمع بين المصدريَّة وبين اسم الفاعل، ممّا أعطى للمعنى المزيدَ من المبالغة والثبوت والدوام للشهادة التي تعني المراقبة والإحصاء والتتبُّع والاستقراء؛ إذ المصدر يفيد المبالغة، واسم الفاعل يفيد الثبوت والدوام، وهذا المعنى لا يؤدّيه لفظ (شاهدين) فيما لو عُبِّر به، وإضافة إلى ذلك فقد أفادت صيغة ﴿شُهُودًا﴾ المبالغة في الإخبار عن كثرة الشهود، فإنَّ لله شهودًا على أعمال النّاس من الملائكة، والله من ورائهم محيطٌ، والإخبار عن تعدُّد الشهادة بعدد حوادثها، فالله تعالى يعلم علم المشاهدة والمعاينة لكلِّ واقعة، وكأنَّه شاهد عليها، وبتعدُّد الحوادث يتعدَّد العلم بالمشاهدة، وكأنَّ علمَه سبحانه - وله المثل الأعلى - علمُ شهود[3].

ظرفٌ دخلَ على المضارع فاستوعبَ الزمن السّابق كلَّه

معنى ﴿إِذۡ﴾:

لَمّا كان المراد بالأفعال السابقة ﴿تَكُونُ﴾ و﴿تَتۡلُواْ﴾ و﴿تَعۡمَلُونَ﴾ الحالةَ المستمرَّة الدّائمةَ المقارنة للزمان الماضي، ناسب أنْ تأتي

(1) الآلوسي، روح المعاني: 6/136.
(2) الأزهري، معاني القراءات: 2/131، وابن يعيش، شرح المفصل: 3/299.
(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 7/3601.

﴿إِذْ﴾ وهي ظرف للوقت الماضي من الزمان، وتُخلِّص المضارع لمعنى الماضي، كأنَّه قال: إذ أفضتم في تلك الأعمال، وللسبب نفسه أوثر في الاستثناء صيغةُ الماضي ﴿كُنَّا﴾[1]، والتقدير: وما كنت في شأنٍ، وما تلوتَ من قرآن، ولا عملتم من عملٍ إلّا كنّا عليكم شهودًا؛ إذ أفضتم فيه[2] وإنَّما عبَّر بالمضارع استحضارًا للحالة الماضية.

براعةُ استعمالِ ﴿تُفِيضُونَ﴾ مع حرفِ الظَّرفيَّة: ﴿إِذْ﴾:

أصلُ الإفاضة الاندفاعُ في العمل بكثرة وبقوة واهتمام[3]، والإفاضة في العمل أخصُّ من إتيانه مطلقًا، و(في) الظرفية تفيد معنى التغلغل في العمل الذي يفيضون فيه، والتمكُّن منه، وتتمثَّل حكمةُ تخصيصِ الإفاضة بالذِّكرِ دونَ اللفظِ الأعمِّ منها، وتعديتها بحرف الظرف (في) بالأمورِ الآتية:

الأعمال المستوعبةُ لعنايةِ الإنسان أرضٌ خصبةٌ للغفلةِ عن الرَّقابة

الأول: أنَّ ﴿تُفِيضُونَ﴾ تتَّسع دلالتها لمعانٍ لغوية تناسب السياق، وتعطي غزارة في المعنى المراد، وهي: "تخوضون، أو تنشرون، أو تدفعون، أو تنهضون، أو تأخذون، أو تنقلون، أو تتكلمون، أو تسعون، أقوال متقاربة"[4]، وتنوُّع هذه المعاني تعطي صورًا متعدِّدة لحالة العمل الذي يعملونه.

الثّاني: أنَّه ينبغي أنْ يُقبِلَ المؤمن على العمل التكليفي باهتمام وسرعة ونشاطٍ وحيويةٍ وشوقٍ ولهفةٍ وحُسْنِ استقبالٍ وإخلاصِ أداءٍ بما يدلُّ على حُسْن الاستجابة للمنهج فور العلم به، كما يفيض ماء الإناء؛ إذا امتلأ لينزل، ومثله قولُ الحق سبحانه: ﴿فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَٰتٍ﴾ [البقرة: 198]، أي: شَرَعْتُم في الذَّهاب مسرعين؛ لأنَّكم أدَّيتم نُسُكًا أخذتم منه طاقة، وتُقبِلون بها على نُسُك ثانٍ[5].

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/158.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 6/79، والسمين الحلبي، الدر المصون: 6/229.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/158، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/213.
(4) أبو حيان، البحر المحيط: 6/79.
(5) الشّعراوي، تفسير الشّعراوي: 10/6015.

الثّالث: أنَّ ما يفيض فيه الإنسان من عمل مهتمًّا به مندفعًا فيه، متقنًا له، جديرٌ بألّا يَنسى أو يَغفل عن مراقبة ربِّه فيه[1].

فتحصَّل من استعمال هذا الفعل أنَّ الإنسانَ إذا عمل عملًا، وأفاض فيه بسعةٍ وعنايةٍ واهتمامٍ، فأصبح غارقًا فيه، متلاشيةً جوارحه عن كلِّ شيءٍ إلا عن هذا العمل، كان عليه أن يتيقَّظ وأن ينتبه وأن يحذر؛ فإنَّ رقابةَ اللّه فوق كلِّ رقابة، وشهادته فوق كلِّ شهادة.

معنى الواو ودلالتها:

إيرادُ الأدلَّةِ بعد الدَّعاوى أمكنُ في تثبيتِها وأرسخُ في بقائِها

تحمل الواو في قوله: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ﴾ أحدَ المعنيين الآتيين:

الأوَّل: أنَّها حرف عطف، وقد عُطفت هذه الجملةُ على جملة: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ﴾، وأفاد هذا العطفُ تعميم تعلُّق علم اللّه تعالى بجميع الموجودات بعد أن بيَّنت الآية تعلُّقَ علم اللّه بعمل النَّبي ﷺ وشأنه، وعمل النّاس وأحوالهم، فكانت الجملة بمنزلة تذييلٍ لِما سبق[2].

الثّاني: أنَّ الواو استئنافيَّة[3]، ويكون الكلام قد انتهى عند قوله تعالى: ﴿إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾، ثم استأنف الحديث عن علم اللّه تعالى وأنَّ علمه بكلِّ صغير وكبير في الأرض، أو في السماء محفوظ ومحصًى في كتاب مبين، ولا يغيب عنه شيء.

فدلالةُ هذه الجملة - سواء بجعل الواو للعطف أو الاستئنافِ - محمولةٌ على إيرادِ الدَّليل بعد الدَّعوى؛ فإنَّ اللّه يراقب أعمالَ العبادِ، ودليلُ ذلك أنَّه لا يبعدُ عنه شيءٌ من أحوالهم.

انتقاءُ ألفاظِ القرآنِ قائمٌ على خصوصيتها المعجميَّة وارتباطها السّياقي

سرُّ التَّعبير بـ ﴿يَعْزُبُ﴾، دون مرادفاتها:

فلم يقل سبحانه: (وما يبعد أو يغيب أو يخفى أو يفوت)؛ لأمور:

(1) رشيد رضا، تفسير المنار: 11/339، المراغي، تفسير المراغي: 11/128.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/214.
(3) الهرريّ، حدائق الروح والريحان: 12/302.

الأوّل: أنَّها أوسعُ دلالةً؛ فهي تتضمَّنُ معنى باقي مرادفاتها من البعد والغياب والخفاء والفوات[1].

الآخر: مراعاةً للسياق؛ فـ"نفي عزوب الشيء عن الربِّ تعالى أخصُّ وأبلغُ من نفي الغيبة أو الخفاء عنه"[2]؛ إذ الفعل هنا ﴿يَعۡزُبُ﴾ قد نُسب إلى الله ﴿عَن رَّبِّكَ﴾ الذي لا يغيب عنه، ولا يبعد، ويخفى عليه، ولا يفوته شيء ﷻ، فالَّذي يغيب عنّا، ولا نشاهده هو في مشاهدة الله سبحانه[3]، كما في قوله تعالى: ﴿۞وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ لَا يَعۡلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ﴾ [الأنعام: 59]، كذلك المصدر ﴿شُهُودًا﴾ أفاد المبالغة في شمول علمه ورقابته ورعايته، وكذلك قوله: ﴿مِن مِّثۡقَالِ ذَرَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصۡغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرَ﴾ الذي جاء تأكيدًا لذلك، وبيانًا لإحاطة علمه بكل شيءٍ، فلا يعزب عنه سبحانه "لا أصغرَ من الذرة ممّا لا تبصرونه من دقائق الكون وخفاياه، ولا أكبر من ذلك، وإن عظم مقداره كعرشه تعالى إلّا وهو معلوم له، ومحصًى عنده في كتابٍ عظيم الشأن"[4].

نكتةُ التَّعبير بالرُّبوبيَّة: ﴿رَّبِّكَ﴾:

اختيار البيانِ القرآني التعبير بلفظ الربوبيَّة ﴿رَّبِّكَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعۡزُبُ عَن رَّبِّكَ﴾ لفتةٌ مهمَّة وتعبيرٌ بليغ؛ إذْ إنَّ الربوبيَّة فيها معنى الرَّحمة والتَّربية "والإشعار باللطف ما لا يخفى"[5]، وفيها معنى الإحسان والعطاء، فالله المربي لكلِّ مخلوق بعامٍّ أفضاله وللنَّبي ﷺ بخاصِّ نعمه وأشرف نواله[6]، ومن منطلق الربوبيَّة، فإنَّ علمه سبحانه ورقابته سببُ رحمة ولطف وعدل في الدنيا والآخرة؛

شهودُ الربِّ وعلمه المحيط بعباده هو رحمةٌ ولطفٌ وعدلٌ وعطاء

(1) الخازن، لباب التأويل: 2/450، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/214.
(2) رشيد رضا، تفسير المنار: 11/339.
(3) المراغي، تفسير المراغي: 11/128.
(4) المراغي، تفسير المراغي: 11/128.
(5) الآلوسي، روح المعاني: 6/136.
(6) البقاعي، نظم الدرر: 9/151، والطّيبي، حاشيته على الكشاف: 14/198.

إذ لا يُظلم في ملكوته أحد، قال تعالى: ﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥ ۝٨﴾ [الزلزلة: 7-8] وفي هذا تطمينٌ بأنَّ "كلَّ خاطرة من خواطر الإنسان إنَّما يشهدها اللّه، ويعلمها، وهو المجازي عليها"[1]. كذلك فإنَّ الربَّ منْ يتولَّى تربية الشيء إلى ما يعطيه مناطُ الكمال، ولا يقتصر ذلك على الدُّنيا فقط، ولكنَّه ينطبق على الدُّنيا والآخرة[2].

نكتةُ الإضافةِ في: ﴿رَّبِّكَ﴾:

تشريفُ النبيِّ ﷺ وتعظيمُه تشريفٌ لأمَّته

نسبَ البيان القرآني الرُّبوبية إلى كاف خطاب النبي ﷺ، فقال: ﴿عَن رَّبِّكَ﴾، ولم يقل: (عَنْ ربِّهم)؛ للأمور الآتية:

الأوَّل: عودةٌ بالخطاب إلى النَّبي ﷺ كما بدأ في أول الآية، تنبيهًا على ما يريده بالنَّبي ﷺ من التشريف والتعظيم والإكرام والشأن العظيم، فناسب ذكر الربوبيَّة مضافًا إلى أحبِّ خلقه إليه، وهنا المقام مقام إيراد أمر يناسب العظمة[3]، وكأنَّ النَّبيَّ هو سبب الرحمة واللطف بهم.

الثّاني: إظهار اللطف به ﷺ والشَّفقة عليه، وخاصَّة أنَّ الآيات الَّتي قبلُ تتحدَّث عن المفترين والمكذِّبين لدعوته ﷺ[4].

الثّالث: بيان أنَّ اللّه هو المربّي لكلِّ مخلوق بعامِّ أفضاله، وللنَّبيِّ ﷺ بخاصِّ نعمه وأشرف نواله[5]، وبهذا فإنَّ المربَّى يبلغ القمَّة في التربية إنْ كان مَنْ ربّاه عظيمًا[6].

(1) الشّعراوي، تفسير الشّعراوي: 10/6018.
(2) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 13/7759.
(3) أبو حيان، البحر المحيط: 6/79، والآلوسي، روح المعاني: 1/230.
(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/176، والآلوسي، روح المعاني: 6/136.
(5) البقاعي، نظم الدرر: 3/460.
(6) الشّعراوي، تفسير الشّعراوي: 17/10643.

دلالةُ استعمال ﴿مِن﴾:

الأصل أنَّ ﴿مِّثْقَالِ﴾ فاعل لـ ﴿يَعْزُبُ﴾، وجاءت ﴿مِن﴾ في قوله تعالى: ﴿مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ﴾ قبل الفاعل؛ لتأكيدِ الإغراقِ في النَّفي[1]، وتأكيد العموم، فالنَّكرة في سياق النفي تفيد العموم، ودخول ﴿مِن﴾ عليها يزيدها في التَّعميم، ويمنعها من التَّخصيص، ورأي جمهور علماء الأصول: أنَّ دلالة العام المطلق دلالة ظنيَّة، ومجيء حرف ﴿مِن﴾ نفى احتمال التخصيص، فصارت دلالته قطعية[2]، والمعنى: وما يعزُب عن علم ربِّك مثقالُ ذرَّة.

كلُّ شيءٍ مهما كانَ صغيرًا؛ فهو في علمِ الله ومشاهدته

بلاغةُ استعمالِ المثقال لوزنِ الذَّرة في: ﴿مِّثْقَالِ﴾:

استعملَ البيانُ القرآنيُّ لفظ ﴿مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ﴾ في قوله تعالى: ﴿مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ﴾، والمعنى: وزن ذرَّة، وأصلُ المثقال من الثِّقَل الذي هو ضدُّ الخفَّة، والشيء الثقيل: ضدُّ الخفيف، وأتى به على وزن مِفْعال، فهو اسم للآلة التي يُعرف بها مقدار ثقل الشيء، وبالمقابل جاء بلفظ ﴿ذَرَّةٍ﴾ التي لا وزن لها، والأصل فيها ألا توزن[3]، ولا تكاد تُرى بالعين المجرَّدة، والتي يُضرب بها المثل في الخفَّة وعدم الوزن وعدم القيمة؛ إذ يُطلق الذَّرُّ إمّا على صغار النَّمل؛ إذ هي أحقر وأصغر ما نشاهده، أو على الدقيقة من الهباء، وهو الغبار الذي لا يرُى إلا في ضوء الشمس، وجعل لها وزنًا وثقلًا وقدرًا، وتوزن بمثقال، وفي هذا مبالغة أيَّما مبالغة، ليدلَّ على عِظم إحاطة علم اللّه سبحانه إذ لا يغيب عنه أدقُّ الأعمال وأصغرها وأحقرها، ولا يضيع عنده أجر أي عملٍ مهما كان صغيرًا، حتى وإن لم يُرَ، كالنيَّة الخفيَّة مثلًا، يقول ابن عاشور: "المبالغةُ في الصغر والدِّقة للكناية

كنايةٌ عن إحاطةِ علم الله تعالى بكلِّ شيء

(1) البقاعي، نظم الدرر: 3/460.
(2) رشيد رضا، المنار: 11/339، والشّعراوي، تفسير الشّعراوي: 10/6015.
(3) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (ذرر).

بذلك عن إحاطة العلم بكل شيء، فإنَّ ما هو أعظم من الذرَّة يكون أولى بالحكم"[1].

فائدة التقييد بلفظ الأرض والسماء:

تقريبُ المعاني للعقولِ أدعى لفهم معانيها وإشاراتها

قيَّد البيانُ الإلهيُّ عدمَ عزوب علمه سبحانه بالسماء والأرض: ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعۡزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثۡقَالِ ذَرَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾مع أنَّه سبحانه لا يغيب عنه شيءٌ، لا فيهما ولا فيما هو خارج عنهما، ولكنَّه قيَّده في الأرض والسماء؛ تقريبًا لعقول العامَّة؛ لأنَّ النّاس لا يشاهدون سواهما، وسوى ما فيهما من المخلوقات[2].

توجيه المتشابه اللفظي بين آيتي سورة يونس وسبأ:

من بلاغةِ البيانِ القرآني تقديمُ الأنسبِ للغرضِ الذي فيه الكلام

قدَّم البيان القرآني الأرضَ على السَّماء في قوله تعالى: ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾، ومقتضى الظّاهر وعموم الاستعمال تقديمُ السَّماء على الأرض؛ إذ هي أعظمُ وأعلى معنًى وحسًّا؛ إلا أنَّه هنا قدَّم الأرضَ مناسبةً للسياق؛ لأنَّ الحديث عن أهل الأرض وشهادته سبحانه على شؤونهم وأحوالهم وأعمالهم، أي: فيها تعلُّقٌ بالغرض الذي فيه الكلام، وذلك أنَّه قال: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأۡنٖ وَمَا تَتۡلُواْ مِنۡهُ مِن قُرۡءَانٖ وَلَا تَعۡمَلُونَ مِنۡ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيۡكُمۡ شُهُودًا إِذۡ تُفِيضُونَ فِيهِۚ﴾ وهو أعمال الناس، فإنَّهم من أهل الأرض[3]، وكذا لمّا كان المثقال في موزون أهل الأرض؛ كان تقديمها أولى[4].

وللسَّببِ ذاته وهو مناسبة المتقدِّم لسياق الكلام؛ قدَّم سبحانه السَّماء على الأرض في سورة سبأ في قوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/214.
(2) الخطيب الشربيني، السراج المنير: 2/82.
(3) الزمخشري، الكشاف: 2/355، ورشيد رضا، تفسير المنار: 11/339، ومثله: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعۡلَمُ مَا نُخۡفِي وَمَا نُعۡلِنُۗ وَمَا يَخۡفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ٣٨﴾ [إبراهيم: 38].
(4) البقاعي، نظم الدرر: 9/151.

تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ ۖ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ ۖ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [سبأ: 3]؛ فإنَّه لمّا كان السِّياق حديثًا عن السّاعة، وعلم السّاعة في السماءِ؛ لاءَمَ ذلك أنْ قُدِّمت السَّماء على الأرض[1]، ولأنَّها في سياق ثنائه تعالى على نفسه، ووصفه بإحاطة علمه، فناسبَ تقديم السماء؛ لأنَّها أعظم[2].

فائدةُ ذكر حرفِ النَّفي والظَّرفيَّة: ﴿وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾:

أطنبَ البيان القرآني بذكر حرفِ النَّفي والظَّرفيَّة في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾، ولم يكتفِ بالمتقدِّم، أي: لم يقل: (وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة في الأرض والسماء)؛ زيادةً في تأكيدِ عدم عزوب أيِّ شيءٍ عن علم اللّه في السماء كما في الأرض، فإنَّ المخاطَبين قد يستبعدون تصوُّر السَّماء على الحقيقةِ؛ فجاء ذكرُها بهذا النَّفي لتأكيد إحاطةِ علمه بكلِّ شيءٍ ممّا يتصوَّره الإنسانُ، وما لا يتصوَّرُه، كما أنَّ في إعادة قراءتها وسماعها استشعارًا بعظمة علمِ اللّه ومراقبته سبحانه.

ما لا يتصوَّرُه الإنسانُ يحتاجُ إلى مزيدِ بيانٍ وتوكيد

دلالةُ أفعل التَّفضيل:

أتى البيان القرآني بلفظ: ﴿أَصْغَرَ﴾ و﴿أَكْبَرَ﴾ بصيغة أفعل التفضيل في قوله تعالى: ﴿وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ﴾، ولفظ أصغر يقابله صغير، ولا يوجد أصغر إلّا إنْ وُجد صغير، وقوله: ﴿وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ﴾ عائد على الذرَّة، إذًا: فهناك ذرَّة، وهناك أصغر من الذرَّة[3]، وقد اكتشف العلم مؤخَّرًا ما هو أصغر من الذرَّة، فمجيء أفعل التفضيل ﴿أَصْغَرَ﴾؛ أدخل كلَّ ما يُمكن أنْ يوجد، ويكونُ أصغرَ من الذرَّة، إذ فعل التفضيل ليس له حدٌّ ولا حصر، وأمّا لفظ

الصغيرُ مهما تناهى في صغره والكبيرُ مهما تناهى في كبره فهو في علمِ الله

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/214، والشّعراوي، تفسير الشّعراوي: 10/3021.
(2) رشيد رضا، تفسير المنار: 11/339، ومثله قوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الزمر: 68]، لأنَّ الساعة تبدأ هناك.
(3) الشّعراوي، تفسير الشّعراوي: 4/2247.

﴿أَكۡبَرَ﴾؛ فهو واضح؛ إذ يدخلُ تحته كلُّ شيء أكبر من الذرَّة مهما بلغ، وفي هذا إفادةٌ لعظمِ علمِ الله، وإحاطته بكلِّ شيء، وأنَّه لا يعزبُ عنه شيءٌ مهما صغر أو كبر.

دلالة أسلوب الطباق:

طباقٌ قادَ الذِّهنَ إلى تصوُّرِ الموجوداتِ كلِّها

جمع البيانُ القرآنيُّ بين لفظين متقابلين في المعنى، هما: ﴿أَصۡغَرَ﴾ و﴿أَكۡبَرَ﴾ في قوله: ﴿وَلَآ أَصۡغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرَ﴾، ويُعرَفُ بالطِّباق وهو من المحسِّنات البديعيَّة؛ إذ إنَّ تقابل المعنيين ممّا يزيد الكلام حسنًا وطرافة، ويدلُّ على كمال سعةِ علم الله التي تشمل كل شيء؛ صغيرًا، مهما بلغ في صغره، وكبيرًا، مهما بلغ في كبره، وهذا الطباق ترك للخيال أنْ يتصوَّرَ تناهي صغر الأشياء وتعاظم كبرها.

سرُّ عطف لفظ ﴿أَكۡبَرَ﴾ على ﴿أَصۡغَرَ﴾:

تتميمُ الكلامِ وتكميلُ المعاني سمةُ الكلامِ الفصيح والنظم الصحيح

عطفَ البيانُ القرآني لفظ ﴿أَكۡبَرَ﴾ على ﴿أَصۡغَرَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلَآ أَصۡغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٍ﴾ ولم يَكتفِ بالأصغر، مع أنَّ من علمَ بالأصغر لا بدَّ وأنْ يعلمَ بالأكبر، وذلك لإفادة إحاطة علمه سبحانه بجميع الأشياء، ومعلوم أنَّ من علم أدقَّ الأشياء وأخفاها؛ كان علمه متعلِّقًا بأكبر الأشياء وأظهرها، وكون الأكبر لا يكبر عليه؛ كما أنَّ الأصغر لا يعزب عنه[1]، وكما أنَّ المرادَ من الكلام بيانُ إثبات الأمور في الكتاب، فلو اقتصرَ على الأصغر؛ لتوهَّمَ متوهِّمٌ أنَّه يثبتُ الصغائر؛ لكونها محلَّ النسيان، وأمّا الأكبر؛ فلا يُنسى، فلا حاجةَ إلى إثباته، فبيَّن أنَّ الإثبات في الكتاب ليس كذلك، فإنَّ الأكبرَ مكتوبٌ فيه أيضًا[2].

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 6/79، ورشيد رضا، تفسير المنار: 11/340.
(2) الهرريّ، حدائق الروح والريحان: 23/186.

فنُّ الاكتفاء:

إذا تساوى الإثباتُ والحذفُ فالحذفُ أبلغ

في قوله تعالى: ﴿وَلَآ أَصۡغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرَ﴾ اكتفى البيانُ القرآني بدلالة ﴿مِن ذَٰلِكَ﴾ في قوله: ﴿وَلَآ أَصۡغَرَ مِن ذَٰلِكَ﴾، ولم يذكرها مع لفظ ﴿أَكۡبَرَ﴾، فلم يقل: (ولا أكبر منه، أو: ولا أكبر من ذلك)؛ لكون السياق قد دلَّ عليه، فأغنتْ ﴿مِن ذَٰلِكَ﴾ عن تكرار ذكرها مع لفظ ﴿أَكۡبَرَ﴾، وذلك كان إيجازًا واختصارًا؛ لأنَّه إذا دلَّ على المحذوف دليلٌ، ولم يَتأثَّرِ المعنى بحذْفِه؛ كان الإيجاز أبلغ، ومعنى الكلام: ولا أصغر من ذلك ولا أكبر من ذلك، وهذا فنٌّ من فنون بلاغة القرآن الكريم وهو الاكتفاء، ويُسمّيه بعضهم بالاستغناءِ، وهو الحذف لوجود الدَّليل اللَّفظيِّ على المحذوف المقدَّر[1].

توجيه القراءات:

العطفُ والاستئنافُ يلتقيان في إثباتِ إحاطةِ العلم للموجودات

قرأ الجمهور قوله تعالى: ﴿وَلَآ أَصۡغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرَ﴾ بفتح الراء فيهما[2]، ووُجِّه على أنَّهما عطف على ذرَّة أو على مثقال على اللفظ[3]. فهما مجروران، وجرهما بالفتحة نيابةً عن الكسرة؛ لأنَّهما ممنوعان من الصرف؛ للوصفية ووزن أفعل.

وقرأ حمزة وخلف ويعقوب: برفع الراء فيهما (ولا أصغرُ من ذلك ولا أكبرُ)[4]، ووُجِّه على أنَّهما عطفٌ على موضع مثقال؛ لأنَّ ﴿مِن﴾ صلة فهو مرفوع بـ ﴿يَعۡزُبُ﴾[5]، وتكون ﴿وَلَا﴾ مقحمة لتأكيد النفي؛ قال الزمخشري: "والوجه النصب على نفي الجنس، والرفع على الابتداء، يكون كلامًا مبتدأ"[6]. فتكون لا نافية للجنس، تعمل

(1) الحذف: إسقاط كلمةٍ للاجتزاء فيها بدلالة غيرها من الحال أو فحوى الكلام. يُنظر: الجرجاني، دَرْجُ الدُّرر: 2/35.

(2) ابن الجزري، النشر في القراءات العشر: 2/285.

(3) أبو حيان، البحر المحيط: 6/79، والهرريّ، حدائق الروح والريحان: 12/29.

(4) ابن الجزري، النشر في القراءات العشر: 2/285.

(5) أبو حيان، البحر المحيط: 6/79، والهرريّ، حدائق الروح والريحان: 12/29.

(6) أبو حيان، البحر المحيط: 6/79، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/215.

عمل ليس، وأصغر: اسم (لا) مبني على الفتح، ويكون بذلك عطفَ جملةً على جملة.

نكتة تقديم الأصغر على الأكبر:

قدَّم البيان القرآني قوله: ﴿وَلَآ أَصۡغَرَ مِن ذَٰلِكَ﴾ على قوله: ﴿وَلَآ أَكۡبَرَ﴾؛ فقال: ﴿وَلَآ أَصۡغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرَ﴾، لأنَّه "لمّا ذكر تعالى أنَّه لا يغيب عن علمه أدقُّ الأشياء التي نشاهدها؛ ناسب تقديم ﴿وَلَآ أَصۡغَرَ مِن ذَٰلِكَ﴾، ثمَّ أتى بقوله: ﴿وَلَآ أَكۡبَرَ﴾، على سبيل إحاطة علمه بجميع الأشياء، ومعلومٌ أنَّ من علم أدقَّ الأشياء وأخفاها؛ كان علمه متعلِّقًا بأكبر الأشياء وأظهرها"[1].

من كانَ علمُه محيطًا بأدقِّ الأشياء وأخفاها بدهيٌّ أنْ يعلم أكبرها وأظهرها

معنى الاستثناء في: ﴿إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ﴾:

الاستثناء في قوله تعالى: ﴿إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ﴾ منقطع بمعنى (لكن) عند جمهور المفسرين والتقدير: (لا يعزب عن ربك شيءٌ ما لكن جميع الأشياء في كتاب مبين، فكيف يعزب عنه شيء منها)؛ ذلك لأنَّ في جعْلِه استثناءً متصلًا، إشكالًا؛ لفساد معناه؛ إذ التقدير (وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة في الأرض، ولا في السَّماء، ولا أصغر من ذلك، ولا أكبر، إلّا في كتاب، فيعزب عنه)[2].

استثناءٌ أكَّد عدم عزوب شيءٍ عن علم الله فكلُّه في كتاب تام البيان

وأجاز بعض المفسرين أن يكون متصلًا إمّا بجعل ﴿يَعۡزُبُ﴾ بمعنى: يَبِين، وينفصل، ويصدر، والمعنى: لا يصدر عنه تعالى شيء إلا وهو في كتاب مبين، أي: اللوح المحفوظ[3]. أو أن يكون من تأكيد الشيء بما يشبه ضدَّه، والمعنى: لا يعزب عنه شيء في الأرض ولا في السماء إلّا في حال كونه في كتاب مبين، أي: إلّا معلومًا مكتوبًا، ويعلم السامع أنَّ المكتوب في كتاب مبين لا يمكن أن يعزب، فيكون انتفاء عزوبه حاصلًا بطريق برهاني[4].

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 6/79.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/215، والصاوي، حاشية الصاوي على الجلالين، ص: 809، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/158.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/158.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/215.

بلاغةُ الكنايةِ في: ﴿كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾:

قوله تعالى: ﴿كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ كناية عن علم الله المحقَّق وشموله[1] وضبطه وحفظه، وثباته واستقراره، والمعنى: أنَّ علمه سبحانه ثابت لا تغيير فيه ولا تبديل، فهو عالم بكل شيء علمًا ثابتًا كالمكتوب البيِّن المسجل في كتاب واضح، لا يخفى منه خافية[2]، وقد جعله ابن عاشور من الاستعارة؛ إذ قال: "الكتاب: علم الله، استعير له الكتاب؛ لأنَّه ثابت لا يخالف الحق بزيادة ولا نقصان"، والكناية أصحُّ وأدقُّ مسلكًا لاسيما فيما يتعلَّق بصفات الله تعالى، وقد فسَّر بعض المفسرين الكتاب في الآية باللوح المحفوظ المشتملِ على علم الله تعالى المكنونِ في الغيب، أي: لم يروا فيه كناية[3].

علم الله محفوظ مضبوط ثابتٌ لا تغيير فيه ولا تبديل

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

التِّلاوة والقراءة:

التلاوةُ والقراءة متقاربتان في المعنى؛ إذ كلاهما يُضاف إلى القرآن، فيقال: تلاوة القرآن، وقراءة القرآن، إلا أنَّه بالرجوع إلى المعنى اللغوي والاستعمال، يتَّضح أنَّ بينهما ملامحَ دلاليَّة فارقة:

أصل التلاوة في اللغة: التاء واللام والواو أصلٌ واحد، وهو الاتِّباع، يُقال: تلوتُه؛ إذا تبعتُه، ومنه تلاوة القرآن؛ لأنَّه يتبع آية بعد آية، وتلا الشيءَ: تَبِعَه تُلوًّا[4]، والتلاوة: اتِّباع الشيء ما يسبقه لحوقًا به من خلفه[5].

وأصلُ القراءة: القاف والراء والحرف المعتلُّ أصلٌ صحيح يدلُّ على جمعٍ واجتماعٍ، ومنه القرآن[6]، كأنَّه سُمّي بذلك لجمعه ما فيه

التِّلاوةُ تكونُ بالتتابعِ والمتابعةِ ولا بدَّ أنْ تكونَ بصوت، والقراءةُ لا يشترطُ فيها ذلك

(1) دروزة، التفسير الحديث: 4/265.
(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 5/2525.
(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 5/2525.
(4) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة: (تلو).
(5) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (تلو).
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قري).

من الأحكام والقصص وغير ذلك، وقرأتُ الشَّيءَ: جمعته، وضممتُ بعضَهُ إلى بعضٍ[1]، فقراءةُ الكلام تعني: ضمَّ حروفه إلى بعضها والتلفُّظ بها مجموعة.

وقد ذكر العلماء فروقًا عدَّة بينهما منها:

التلاوة تختصُّ باتِّباع كتبِ الله المنزَّلة تارةً بالقراءة، وتارةً بالارتسام لما فيه من أمرٍ ونهيٍ وترغيبٍ وترهيبٍ، أو ما يُتوهَّم فيه ذلك، وهو أخصُّ من القراءة، فكلُّ تلاوة قراءة، وليس كلُّ قراءة تلاوةً، فلا يُقال: تلوتُ رقعتكَ، وإنَّما يُقال في القرآن في شيء إذا قرأته؛ وجب عليك اتِّباعه[2].

التلاوةُ لا تكونُ في الكلمة الواحدة، والقراءة تكونُ فيها، تقول: قرأ فلانٌ اسمهُ، ولا تقول: تلا اسمه؛ لأنَّ أصلَ التلاوة: التتابعُ، فإذا لم تكنِ الكلمةُ تتبعُ أختها؛ لم تُستعمل فيها التلاوة، وتُستعمل فيها القراءة[3].

(قرأ) الكتاب قراءة: تتبَّع كلماتِهِ نظرًا، ونطقَ بها، وتتبَّع كلماتِهِ، ولم ينطقْ بها[4]، أي: تُستعمل للقراءة من مكتوبٍ ومن غير مكتوبٍ، بصوتٍ وبغير صوتٍ، وأمّا (تلا)؛ فهي تُستعمل للقراءة من مكتوبٍ وبصوتٍ، ويُتسامح فيها، فتكون من غير مكتوبٍ لكن بصوتٍ، فإذا عُدّيا بـ (على) فهما بصوتٍ ولا بدَّ[5]، والخلاصة: أنَّ التلاوةَ هي قراءةٌ على وجهٍ مخصوصٍ، وتعني: القراءة المتتابعة، مع المتابعة بالعلم والعمل، ولابدَّ أنْ تكونَ بصوت، أمّا القراءة؛ فلا تقتضي التَّتابع ولا المتابعة، ولا يشترط أنْ تكونَ بصوت.

العَزْبُ والبُعْد:

العَزْب: العين والزاي والباء أصلٌ صحيح يدلُّ على تباعُدٍ وتَنَحٍّ، والعَزَبُ: الذي لا أهلَ له، يُقال: عَزَبَ حِلْمُ فلانٍ، أي: ذَهَبَ، وكلُّ شيءٍ يَفوتُك حتى لا تقدرَ عليه، فقد عَزَبَ عنك، ولا يَعْزُبُ عن الله شيءٌ[6]، وعَزَب يَعْزُبُ ويَعْزِبُ: غابَ وبَعُدَ، والعُزوبُ: الغَيْبَةُ،

(1) الجوهري، الصحاح: (قرأ).
(2) الراغب، المفردات، ص: 167.
(3) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 27.
(4) مجمع اللغة العربية في القاهرة، المعجم الوسيط: (قرأ).
(5) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (تلو).
(6) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة: (عزب).

والذهاب، والعُزّابُ: الَّذِينَ لا أَزواجَ لهم[1]، والعازِبُ: المتباعدُ في طلب الكلَأ عن أهله[2]، والعَزْب: ابتعادٌ عن المقرِّ الأصليِّ إلى مستقرٍّ بعيد دون انقطاع عنه، واستعمال العَزْب في الغياب لازمٌ للبعد[3].

العَزْبُ بعدٌ ملازمٌ للغيابِ أو الذهابِ أو الانفرادِ، والبُعدُ خلافُ القرب

والبُعْد: خلاف القرب، بَعُد الرَّجُلُ، أي: تباعد، وهو بعيد، وبَعِدَ بَعَدًا، وبَعُد: هَلَكَ أَو اغْتَرَبَ، والبُعْدُ والبَعَدُ: الهَلاكُ، والأَباعد: خِلافُ الأقارب[4]، والأَبْعَدُ: الخائن، البُعْد: الموت[5]، والبُعد والقُرب ليس لهما حدٌّ محدود، وإنَّما ذلك بحسب اعتبار المكان بغيره، يُقال ذلك في المحسوس، وهو الأكثر، وفي المعقول، والبُعد أكثرُ ما يُقال في الهلاك[6].

نلاحظ من المعاني اللغوية للفظين: أنَّ بينهما تقاربًا دلاليًّا؛ إذ يشتركان في معنى البُعد الذي هو ضدُّ القرب، ويتميَّز البُعدُ بأنَّه يُطلقُ على الهلاك والموت والخائن، بينما يتميَّز العَزْبُ بأنَّه بُعدٌ ملازمٌ لمعنى الغيابِ أو الذهابِ أو الانفرادِ.

(1) الجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب، والزَّبيدي، تاج العروس: (عزب).
(2) الراغب، المفردات، ص: 564.
(3) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (عزب).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (بعد).
(5) الجوهري، الصحاح، والزَّبيدي، تاج العروس: (بعد).
(6) الراغب، المفردات، ص: 133.

﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٦٢ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ٦٣﴾ [يونس: 62 - 63]

مُناسَبَةُ الآيَتَينِ لِمَا قَبْلَهما:

بيانُ أحوالِ أولياءِ اللهِ وأوصافِهم، بعد ذكْرِ إحاطتِه بالكوْنِ قاطبةً

لَمَّا بيَّن سُبحانه إحاطتَه بجميعِ الأشياءِ، وكان في ذلك تقويةٌ لقلوب المُطيعين، وكسرٌ لقلوب العاصين؛ أتْبعه سُبحانه بشرح أحوالِ أوليائه المُخلَصِين[1]، فقال: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾؛ شرحًا على وجه التَّبشير والوعْدِ[2]، ثمَّ ذكَر وصْفَهم، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾، فهم "لا خوفٌ عليهم ممَّا يستقبلونَه مِن أهوالِ الآخرةِ، ولا يَحزنون على ما خلَّفوه وراءَهم في الدُّنيا"[3].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَوۡلِيَآءَ﴾: مصدرُه الوَلْيُ، وهو القُرْب، وأصلُه المطرُ الذي يأتِي بعد المطر، والاسمُ: الوَليُّ، يُقالُ: تباعد بعد وَلْيٍ، أي: قُربٍ، وجلس ممَّا يَليني، أي: يُقاربُني[4]، وتقول: على الولاء، أي: الشَّيء بعدَ الشَّيء. فمعنى الوليِّ: الشَّيءُ القريبُ التَّالي دون فاصلٍ مادِّيٍّ أو زمانيٍّ، فهو ليس التصاقًا، وجميعُ الاستعمالات تدورُ حول هذا المعنى، ويُقال: أولَى، أي: أحقُّ، وذلك لقُربه[5]، سواء أكان القربُ معنويًّا أم ماديًّا، والوَليُّ على وزنِ (فعيلٍ) بمعنى (فاعل)، والمقصودُ في الآية: المؤمنون الَّذين والوه بالطَّاعة والعبادة.

(1) الشَّوكاني، فتح القدير: 2/519، والآلوسي، روح المعاني: 6/138، والهرري، حدائق الرَّوح والرَّيحان: 12/290.

(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/158.

(3) أسعد حومد، أيسر التَّفاسير، ص: 427.

(4) الخليل، العين: (ولي).

(5) الأنباريّ، الأضداد، ص: 46.

2) ﴿لَا خَوۡفٌ﴾: أصلُ الخَوف: الذُّعرُ والفَزَع، خافَه يَخافُه خَوْفًا وخِيفةً، كأنَّ الذي يخاف منخوبُ الفُؤاد، كما قال تعالى: ﴿وَأَفۡـِٔدَتُهُمۡ هَوَآءٞ ١٣﴾ [إبراهيم: 43][1]، والتَّخويفُ والإخافَةُ: الإفزاعُ والإرهابُ[2]، وضِدُّه: الأمنُ، وأصلُه: النَّقْصُ، يُقال: تَخَوَّفْناهُم، أي: تَنقَّصْناهُم، ومنه قولُه تعالى: ﴿أَوۡ يَأۡخُذَهُمۡ عَلَىٰ تَخَوُّفٖ﴾ [النحل: 47]، وناقةٌ خَوْفاءُ، أي: ناقصةٌ بها داءٌ[3]، والمقصودُ في الآية: نفيُ الذُّعر والفَزَع عنِ المؤمنين عند الفَزَعِ الأكبر.

3) ﴿يَحۡزَنُونَ﴾: أصلُ الحُزْنِ الدّلالَةُ على خُشونة الشَّيءِ وشِدَّتِه[4]، والحُزْنُ: الغَمُّ الحاصِلُ لوقوعِ مَكْرُوهٍ أو فَواتِ مَحْبوبٍ في الماضِي، ويُضادُّه: الفرحُ والسُّرورُ. يُقال: حَزَنَه، يَحْزُنُه، وحَزِنَ، يَحْزَنُ، فهو حَزِينٌ[5]، فمجملُ هذه المادَّة تدلُّ على جفافٍ وخشونةٍ تُخالِطُ باطنَ الشَّيء أو تمتدُّ فيه، فيغلظُ ويخشنُ. والمقصودُ في الآية: نفيُ الغمِّ والأسى عنهم. ولعلَّ هذا هو المعنى المُحرَّرُ للحُزن، أعني: الشُّعورَ بقسوة الأمر وشِدَّتِه وخشونتِه.

4) ﴿ءَامَنُواْ﴾: مِنَ (الإيمان): وهو إقرارٌ بالشَّيء عن تصديقٍ به، وضِدّه: الكُفرُ، يُقال: آمن به إيمانًا: صدَّقه. ويُستعملُ تارةً اسمًا للشَّريعة الَّتي جاء بها محمَّدٌ ﷺ، وعلى ذلك: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ﴾ [المائدة: 69]، ويُوصفُ به كلُّ مَن دخل في شريعته مُقرًّا بالله وبنبوَّته ﷺ. ويُستعمل تارةً أُخْرى على سبيل المدح، ويُراد به إذعانُ النَّفس للحقِّ على سبيل التَّصديق، وذلك باجتماع ثلاثةِ أشياء: تحقيقٌ بالقلب، وإقرارٌ باللِّسان، وعملٌ بالجوارح[6]، قال الزَّبيديُّ: "وقد يُطلق الإيمانُ على الإقرار باللِّسان فقط، كقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ﴾ [المنافقون: 3]، أي آمنوا باللِّسان، وكفروا بالجَنان"[7].

5) ﴿يَتَّقُونَ﴾: أصلُ الوِقايةِ دفعُ شيءٍ عن شيءٍ بِغَيره، يُقال: وَقَى نَفْسَهُ مِنَ العَدُوِّ بسلاحه، أي: دفعَهُ به، وفُلانٌ ما له مِن واقٍ، أي: مِن دافِعٍ. والوِقايَةُ: مَا يَقِي الشَّيْءَ،

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (خوف، خيف).
(2) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (خوف).
(3) الكفويّ، الكلّيّات، ص: 428.
(4) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن سيده، المحكم، وابن منظور، لسان العرب: (خوف).
(5) المناويّ، التّوقيف على مهمّات التّعاريف، ص: 139، والزّبيديّ، تاج العروس: (حزن).
(6) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (أمن).
(7) الزَّبيديّ، تاج العروس: (أمن).

وَاتَّقِ اللّه: تَوَقَّهُ، أي اجعل بينكَ وبينهُ وِقايَةِ. قالَ النَّبِيُّ ﷺ: «اتّقُوا النّار ولو بِشِقِّ تمرةٍ»[1]، وكأنّهُ أراد: اجعلوها وِقايةً بينكُم وبينها[2]، والتّقوى: اتِّخاذُ الوِقايةِ والحِمايةِ مِن الشّيء، والتّوقِّي: الحذرُ، وتأتي الوِقايةُ بمعنى الحِفظِ مِن الأذى والضَّرر[3]، والمقصودُ في الآية: الَّذين يتحرَّزون مِنَ المهالك في الدُّنيا[4].

❁ المَعْنى الإجْمالِيُّ:

كلُّ من كان مُؤمنًا تقيًّا، كان - لا محالةَ - لِلّه وليًّا

ألمحتِ الآيةُ إلى مضمون الخطابِ؛ وهو أنَّ مَن تولَّى اللّه تعالى، واقتربَ ممَّا يُرضيهِ، وابتعدَ عمَّا يُغضبُه، فلا خوفَ يجتَليهِ، ولا أحزانَ تعتَليهِ، وقد تولَّى السِّياقُ بيانَ صفاتِ أولئك الأولياء؛ بأنَّهم أصحابُ الإيمانِ الثَّابِتِ، والتَّقوى المتجدِّدةِ، وهي صفاتٌ تعليليَّةٌ لأولئك الأولياءِ، فجمع السِّياقُ التَّعريفَ بالأولياءِ بالمآلِ والحال، حُكمًا وتعليلًا، ووليُّ اللّه هو المحبُّ للّه بحقٍّ، المطيعُ لأوامره بصدقٍ، المجتنبُ لنواهيه دون تقاعسٍ، ويكونُ اللّه تعالى في قلبه دائمًا، لَا يتحرَّك إلَّا في حبِّ اللّه؛ رجاءَ رضاه أوَّلًا، ورحمتِه ثانيًا، واتِّقاء عذابه ثالثًا[5].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالة الاستئناف في: ﴿أَلَآ إِنَّ﴾:

التَّصريحُ بِبشارة أولياء الله تعالى بالأمان والسّعادة في الدّارين

﴿أَلَآ إِنَّ﴾ في قولُه تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ﴾، استئنافٌ للتَّصريح بوعد المؤمنين المُعرَّضِ به في قوله: ﴿إِلَّا كُنَّا

(1) رواه أحمد في مسنده، عن عديّ بن حاتم رضي الله عنه، رقم الحديث: (18253).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (وقى).
(3) السَّمين الحلبيُّ، عمدة الحفاظ، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (وقى)، والمناوي، التَّوقيف على مهمَّات التَّعاريف، ص: 340.
(4) الأزهري، تهذيب اللّغة، وابن سيده، المحكم، وابن منظور، لسان العرب، والزَّبيديّ، تاج العروس: (وقى)، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/432، والمناويّ، التّوقيف على مهمّات التّعاريف، ص: 106.
(5) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/602.

عَلَيۡكُمۡ شُهُودًا إِذۡ تُفِيضُونَ فِيهِۚ وَمَا يَعۡزُبُ عَن رَّبِّكَ﴾ [يونس: 61] الآية، وبتسلية النَّبيِّ ﷺ عمَّا يُلاقيه مِنَ الكفَّار مِن أذى وتهديدٍ، إذ أعلن اللّه للنَّبيِّ والمؤمنين بالأمن مِن مخافة أعدائهم، ومِنَ الحزن مِن جرَّاء ذلك[1]، والمعنى: لَا خوفٌ عليهم مِن عذاب يترقَّبونه، ولا هم يحزنون لخير فاتَهم، وقد نفى الحزنَ عنهم؛ لأنَّ قلوبَهم عامرةٌ باللّه تعالى[2]، فبعد أن خوَّف المفتريَ مغبَّةَ عُقباه، ورجَّى المُطيعَ سعادةَ مثْواه، كان المتوقَّعُ أن يُقال: ليت شعري! ماذا يكون تفصيلُ حال الفريقين في الدَّارين على الجزم؟ فيكونُ الجواب: بأنَّ أولياءَ اللّه فائزون، وأنَّ أعداءَه هالكون، لِيُشَمِّر المطيعُ عن ساعِد جِدِّه، ويبذلَ غايةَ جَهده، في اللَّحاق بالمُخلَصين[3]؛ وليعلم المناوِئون والكافرون أنَّهم لا يُعجزون اللّه؛ لأنَّ علمه محيطٌ بما في السَّماوات والأرض، وأنَّ فظيع أعمالهم مُثْبَتٌ مُستنسَخٌ في كتاب مُبينٍ؛ ليدرك المُفترون على اللّه تعالى يومَ القيامةِ ما سيعْتَريهم مِن هَولٍ، وما سيصيبُهم مِن عذابٍ[4]، وهذا على سبيل التَّلميح لا التَّصريح، كما أنَّ هذه الآيةَ جاءت لتُنَوِّه بالَّذين استجابوا لهذه الرِّسالةِ وتولَّوا اللّه ورسولَه[5]، فَحَسُن الفصلُ بينها وبين ما سبقَها.

السِّرُّ في افتتاح الكلامِ بأداة التَّنبيه ﴿أَلَآ﴾:

الإيماءُ إلى أهميَّةِ شأنِ الكلامِ المُدرجِ والاعتناءِ به

في قوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ﴾ استفتاحٌ وتنبيهٌ بأداة التّنبيه ﴿أَلَآ﴾[6]، مُركَّبَةٌ مِنَ الهمزة ولا النَّافية، مُغيَّرةٌ عن معناها الأوَّل إلى التَّنبيه، وهي حرفُ تنبيهٍ يُستفتح به الكلام[7]، ليتنبَّه السَّامع لما

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/215.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/603.
(3) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 9/153.
(4) أبو السُّعود، إرشاد العقل السليم: 4/158.
(5) محمد عزة دروزة، التفسير الحديث: 3/483.
(6) الثَّعالبي، الجواهر الحسان: 3/253.
(7) محيي الدين درويش، إعراب القرآن الكريم وبيانه: 4/270.

بعدها، ويعتنيَ بها لعظَمِ الخطاب المُفتَتح بها، ومُفادُ المعنى: انتبهوا أيُّها المُخاطَبون إلى أنَّ أولياء اللّه همُ الّذين يتولَّونه بإخلاص العبادةِ له وحدَه، والتَّوكّلِ عليه، ولا يتَّخذون له أندادًا يحبُّونهم كحبِّه، ولا يتَّخذون مِن دونه وليًّا ولا شفيعًا يُقرِّبهم إليه زُلفى[1]، وقد كان افتتاحُ الكلامِ بأداة التَّنبيه إيماءً إلى أهميَّة شأنه، ولذلك أُكِّدتِ الجملةُ بالحرفِ المُؤكِّد ﴿إِنَّ﴾ بعد أداة التَّنبيه[2]، وقد جاء هذا التَّنبيه حَذرًا مِن مغالاة بعض المُلحدين في الوليِّ[3].

دلالةُ ﴿إِنَّ﴾ على التَّوكيد:

تنبيهُ النَّاسِ إلى وجوب الاقتداءِ الحقِّ بأولياء الله الصَّالحين

افتُتحتِ الآيةُ الكريمةُ بالتّنبيه ﴿أَلَآ﴾ المؤكَّدِ بأداة التَّوكيد ﴿إِنَّ﴾، وذلك في قوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ﴾ لتنبيه النَّاسِ إلى وجوب الاقتداءِ بهم، حتَّى ينالوا ما نَاله أولئك الأولياءُ الصَّالحون مِن سعادةٍ دُنيويَّة وأُخرويَّة[4]، والتَّوكيدُ قوَّةٌ في الدَّلالة، وتعبيرٌ جازمٌ بحصول المعنى على جهةِ اليَقينِ، بحيث إنَّ أولياءَ اللّه لا خوفٌ علَيهم في الدَّارين مِن لُحوق مكروهٍ يقينًا، وَلا هم يحزنون مِن فواتِ مطلوبٍ صدقًا[5].

دَلالةُ لفظِ (الأولياء) بين الحقيقةِ والمجازِ:

الدَّلالةُ على معنى القُرب والدُّنوِّ لعلاقة الوليِّ بالقُرب منَ الله

قولُه تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ﴾: الوليُّ: المُوالي، أي: المُحالفُ والنَّاصر، وهو في الأصل ضِدُّ العدوِّ، والأولياء سُمُّوا بذلك لأنَّهم همُ المنصورون باللّه، المُعزَّزونَ به، وكلُّها ترجعُ إلى معنى الوَلْيِ (بسكون اللَّام)، وهو القُرْبُ، وهو قُربٌ مَجازيٌّ يُستعارُ للقُرب من حيث المكانُ، ومن حيث النِّسبةُ، ومن حيث الدِّينُ، ومن

(1) الهرري، حدائق الرّوح والرَّيحان: 12/290.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/216.
(3) ابن عطية، المحرَّر الوجيز: 3/128.
(4) طنطاوي، التَّفسير الوسيط: 7/94.
(5) الجاوي، مراح لبيد لكشف معنى القرآن المجيد: 1/490.

حيث الصَّداقةُ والنُّصرةُ والاعتقاد[1]، بطريق الاستعارة التَّصريحيَّةِ التَّبعيَّةِ، وجاز هُنا كونُه بمعنى الفاعل، أي الَّذين يتولّونه بالطَّاعة، كقوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ ۝٥٦﴾ [المائدة: 56]، فالوليُّ على هذا المعنى على وزن فعيل، مبالغةٌ مِنَ الفاعل، وهو مَن توالت طاعاته من غير أن يتخللها عصيانٌ[2]، ويجوزُ أن يكون (فعيل) بمعنى مفعول، كجريح وقتيل، بمعنى مجروح ومقتول، فيكون الوليُّ من يَتوَالى عليه إحسانُ الله وأفضالُه، ويكون بمعنى كونِه محفوظًا في عامَّة أحوالِه مِنَ المحن، وهو الَّذي يتولَّاه ربُّه بالإكرام، كقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ﴾ [البقرة: 257][3]، فهو قربٌ مِنَ الجانبين[4]، ولذلك فَسَّروه هُنا بأنَّه الَّذي يتولَّى الله بالطَّاعة ويتولَّاه الله بالكرامة[5].

دلالةُ التَّعبيرِ بالغيبةِ: ﴿أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ﴾:

في التَّعبير بـ ﴿أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ﴾ في قولِه تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ﴾: دونَ أن يُؤتَى بضمير الخِطاب الّذي يقتضيه قولُه تعالى في الآية السابقة: ﴿وَلَا تَعۡمَلُونَ مِنۡ عَمَلٍ﴾، إيذانٌ بأنَّ المخاطَبين قد حُقَّ لهم أنَّهم مِن أولياء الله، مع إفادةِ حُكمٍ عامٍّ شَمِلَهُم، وسوف يشملُ مَن يأتي على طريقتِهم[6].

الإشعارُ بأنَّ الحُكمَ يشملُ الموصوفين، لكونِهم مِن أولياءِ الله

دَلالةُ الإضافةِ في: ﴿أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ﴾:

إضافةُ الأولياءِ إلى الاسم الجليلِ ﴿أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ﴾ في قولِه تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ﴾: دليلٌ على التَّشريف والتَّكريم المُؤذِنِ برفعتهم

لفظُ الجلالةِ في السّياقِ، تشريفٌ وتكريمٌ وعظَمةٌ

(1) المظهريّ، التَّفسير المظهريّ: 5/38.
(2) القشيريّ، لطائف الإشارات: 2/104.
(3) القشيريّ، لطائف الإشارات: 2/104، والقاسميّ، محاسن التَّأويل: 6/37.
(4) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 9/511.
(5) الزَّمخشري، الكشَّاف: 2/355، وأبو حيّان، البحر المحيط: 6/81، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/218.
(6) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/216.

وتأهُّلِهم إلى مقاماتِ القُربِ مِن حَضرَة القدسِ التي يكون بها الأُنسُ؛ لأنَّهم بإضافتهم إلى الله نالوا قُربَه، وحازوا رضاه، وهم بذلك القربِ النَّضير، والأُنس الكبيرِ لا خَوفٌ عليهم من لُحوق مكروهٍ، ولا هم يحزنونَ بفواتِ مَأمولٍ[1].

سرُّ أسلوبِ النَّفي:

بيانُ الجزاءِ الأوفَى للأولياء الصَّالحين، بنجاتِهم في الدّارَين

قولُه تعالى: ﴿لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ﴾، يُحتملُ أن يكون في الآخرة، أي: لا يهتمُّون بهمِّها، ولا يخافون عذابًا ولا عقابًا، ولا يَحزنون لذلك، ويُحتملُ أن يكون ذلك في الدُّنيا، أي: لا يخافون أحدًا مِن أهل الدُّنيا، ولا مِن أعراضِها، ولا يَحزنون على ما فاتَهم منها، والأوَّل أظهَرُ، والعمومُ في ذلك صحيحٌ؛ فهُم لا يخافون في الآخرة جملةً، ولا في الدُّنيا الخوفَ الدُّنيويَّ الَّذي هو في فَوتِ آمالِها، وزوالِ منازلها، وكذلك القولُ في الحزن[2].

نُكتةُ تَعْديةِ الخوف بحرف الجرِّ (على):

نفيُ خوفِ غيرِهم عليهم، مع نفيِ استمرارِ خَوفِهم ضمانٌ لهم

قولُه تعالى: ﴿لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ﴾، أي: حالُهم حالُ مَن لا ينبغي أن يخاف، ولذلك لا يَخافُ عليهم أولياؤُهم؛ لأنَّهم يَأمَنونَ عليهم مِن عاقبة ما يتوجَّسون منه خيفةً، فالخوف الذي هو مصدرٌ في الآية، يُقدَّرُ مضافًا إلى فاعله، وهو غيرُهم لا مَحالةَ، أي: لا خوفٌ يخافه خائفٌ عليهم، وهم أنفسهم إذا اعتراهم الخوفُ، لا يلبث أن ينقشع عنهم وتحلَّ السَّكينةُ مَحَلَّه[3]، والخوفُ قد يكون عارضًا يستولي على النَّفس مِنَ التّوجُّس مِن شيء يطرأُ، ويقعُ منه ضررٌ أو ألم أو حرمانٌ، وقد يكون مِن مَنظورٍ آخرَ مُرتبطًا بمَن يخاف عليه بشعور يولِّد لديه الإحساسَ بالخوف عليه، "وفي تعْديةِ الخوف بحرف الجرِّ

(1) ابن عجيبة، البحر المديد في تفسير القرآن المجيد: 2/284.
(2) ابن عطية، المحرَّر الوجيز: 3/128.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/217.

(على) إشارةٌ إلى أنَّ الخوف إنَّما يكونُ مِن توقُّعات المستقبل، فهو مقبلٌ لا مدبرٌ.. ويكون المعنى: لا خوفٌ مقبلٌ عليهم.."[1].

سرُّ استعمالِ الجملةِ الاسميَّةِ:

نفيُ حُصولِ الخوفِ المتمكِّنِ، تمكينٌ لهم

نلاحظُ في الآية الكريمة إيثارَ الجملةِ الاسميَّة ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ في قولِه تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ عِوَضَ الجملة الفعليَّةِ (لا يخافون)، وذلك لتأكيد معنَى الاستمراريَّة والثَّباتِ، في حال الأمان الّذي لا خوفَ يخالِطُه، وهو ملمحٌ لِبثِّ الطُّمأنينة في قلوب أوليائه المتَّقين، وقولُه: ﴿لَا خَوْفٌ﴾ أي: ثابتٌ عالٍ ﴿عَلَيْهِمْ﴾ أي: من شيء يَستقبلُهم[2]، فالمعنى: لا يحصلُ لهم خوفٌ مُتمكِّنٌ ثابتٌ يبقى فيهم ولا يجدون تَخَلُّصًا منه[3].

نُكتةُ الاختلافِ بين الجُملتَين في الاسميَّة والفعليَّة:

اختلافُ شيوعِ كلِّ وصْفٍ منهما بحسب طبيعتِه ووجودِه

قولُه: ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾، اختلافُ شَأنِ الخوف والحزن بشيوع وصْفِ الحزن بعدم الثَّبات، كما قيل: (فَلا حُزْنٌ يَدُومُ ولا سُرور)[4]؛ دون الأوَّل وهو الخوفُ، ولذا ناسبَ أن يُعبِّر بالاسم في الأوَّل وبالفعل المفيدِ للحُدوث والتَّجدُّدِ في الثَّاني[5]، لتتقابلَ الجُملتان فتؤدِّيا المعنى بتكاملٍ واستيعابٍ لكلِّ دلالةٍ في موقعها وظروفِها وملابساتِها.

نُكتةُ تقديمِ المُسنَد إليه:

لا حزنَ مع الإيمان، ولا سعادةَ مع الكُفران

تقديمُ المُسنَدِ إليه ﴿هُمْ﴾، على الخبر الفعليِّ ﴿يَحْزَنُونَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾؛ لتَقوية الحُكم الحاصلِ بالخبر الفعليِّ، أي: لا يحصلُ لهم خوفٌ مُتمكِّنٌ ثابتٌ يبقى فيهم، ولا يجدون

(1) عبد الكريم الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 40/6.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 9/153.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/217.
(4) هذا شطر من بيت للإمام الشافعي، وهو من بحر الوافر، وتكملته: (وَلا بُؤسٌ عَلَيكَ وَلا رَخاءُ). يُنظر: الشافعي، ديوان الإمام الشافعي، ص: 10.
(5) الآلوسي، روح المعاني: 6/138.

تَخَلُّصًا منه[1]. فالمعنى: أنَّهم لا يحزنون ولكن الذي يُصيبه الحزنُ هو غيرُهم منَ الكفرة، فهم أصحابُ الحُزْنِ، فأثبتَ الحزنَ للكفَّار، ونفاه عن أولياء اللّه الأبرارِ، فالتَّقديمُ أفاد الحصْرَ، كقول القائل: (ما أنا فعلتُ هذا)، يعني فعلَه غيري، فأثبتَه لغيرِه مِن حيث إنَّه قد نفاه عن نفسه.

سِرُّ استعمالِ الفعلِ ﴿يَحْزَنُونَ﴾:

نَفْيُ تجدُّدِ الحُزن ونفيُ دوامِه، من رحمةِ اللّه بالمؤمنين

قولُه تعالى: ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾، أي: لا يتجدَّدُ لهم حزنٌ على فائتٍ؛ لأنَّ قلوبهم معلَّقةٌ باللّه سبحانه، فلا يُؤثِّرُ فيهم لذلك خوفٌ ولا حزنٌ أثرًا يقطعُ قلوبَهم، كما يعرضُ لغيرهم[2]. فجعلَ الحزنَ بالفعل وأسندَ إليه، بقوله: ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾؛ فلو قال: (لا خوف عليهم ولا حزن) لَم يصحَّ المعنى؛ لأنَّ معنى (لا حُزْنَ عَلَيْهم) لا يحزنُ عليهم أحدٌ، فيُنفَى الحزنُ عن غيرهم، ولا يُنْفَى عنهم، أي: أنَّهم قد يحزنون، لكن لا يحزنُ عليهم أحدٌ، وهذا قد يكون ذمًّا، كما قال ربُّنا: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾﴾ [النَّحل: 127]، يعني لا يَستحقُّون أن تحزنَ عليهم. إذن لو قال: (لا خوف عليهم ولا حزن) ما استقامَ المعنى، وقد يكون ذمًّا، وليس فيه فائدةٌ ولا ينفعُهم.

دَلالةُ الاستئنافِ:

بيانٌ مَسوقٌ لتوضيحِ حقيقةِ أولياءِ الله

قولُه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾ بيانٌ لِتولّيهم إيّاه[3]، وهو استئنافٌ بيانيٌّ مبنيٌّ على تقدير سؤالٍ مُفترَضٍ، مُفادُه: (من هم أولياء اللّه؟) فكان الجوابُ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾. ففسَّرهم بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أي: أوجدوا هذا الوصْفَ المُصحِّحَ للأعمال،

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/217.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 9/153.
(3) البيضاوي، أنوار التَّنزيل: 3/118.

وبه كمالُ القوَّةِ العِلميَّة[1]، فهو استئنافٌ مَسوقٌ لتوضيح حقيقتِهم[2]، مع الإشارةِ إلى ما به نالوا ما نالوا[3].

بَلاغةُ الاسمِ الموصولِ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ ودَلالتُه:

تفصيلُ الوصْفِ المُنوَّهِ بمن جمعَ بين الإيمان والتَّقوَى

محلُّ الموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾ في قولِه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾ الرَّفعُ على أنَّه خبرٌ لمبتدأ محذوفٍ، وتقديرُ الكلام: (هم الّذين جمعوا بين الإيمان والتَّقوى) المُفضِيَيْن إلى كلِّ خيرٍ، المُنْجِيَين من كلِّ شَرٍّ، وقيل: محلُّه النَّصبُ أوِ الرَّفعُ على المدح أو على أنَّه وصفٌ مادحٌ للأولياء، ولا يقدحُ في ذلك توسُّطُ الخبر[4].

ولا جَرَم أنَّ الذين لَبِسوا هذه الصِّفةَ مِنَ الإيمان السَّابغ، والتَّقوى المُفضيةِ إلى القُرب والانسلاك في نهج أولياء الله، آمنوا بالله حقَّ الإيمان يعبدونه كأنَّهم يرونه، وأحسنوا، كما قال ﷺ: «اعْبُدِ اللهَ كأنَّك تَراهُ فإن لم تَكُن تَراه فإنّه يَراك»[5].

سرُّ التَّعبيرِ عنِ الإيمان بالماضي، وعنِ التَّقوى بالمضارع:

الإشارةُ إلى أنَّ الإيمانَ سابقٌ، وأنَّ الاتِّقاءَ مُفضٍ للإيمان

في التَّعبيرِ عنِ الإيمان بالماضي ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، وعنِ التَّقوى بالمستقبل ﴿وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾ إشارةٌ إلى أنَّ الإيمان يسبقُ التَّقوى، الّتي تقومُ على اتِّقاء محارم الله؛ لأنَّ هذا الاتِّقاء هو من مُعطَيات الإيمان بالله[6]، ففي قوله تعالى: ﴿ءَامَنُواْ﴾ إشارةٌ إلى كمال حالِ القوَّة النَّظريَّة، وقوله: ﴿وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾ إشارةٌ إلى كمال حالِ القوَّة العمليَّة، وفيه قيامٌ آخرُ؛ وهو أن يُحملَ الإيمانُ على مجموع الاعتقادِ والعملِ[7].

---

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 9/153.

(2) طنطاوي، التَّفسير الوسيط: 7/95.

(3) الآلوسي، روح المعاني: 6/139.

(4) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/159، والبروسويّ، روح البيان: 4/59.

(5) هذا الحديث جزء من حديث جبريل عليه السلام الشّهير، متّفق عليه، من رواية البخاري، الجامع الصحيح، الحديث رقم: (48)، ومسلم، صحيح مسلم، الحديث رقم: (10)، كتاب الإيمان عن أبي هريرة رضي الله عنه، ويُنظر: محمّد أبو زهرة، زهرة التفاسير: 7/602.

(6) عبد الكريم الخطيب، التَّفسير القرآني للقرآن: 6/40.

(7) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/275.

نُكتةُ إيراد الفعْلِ الماضي ﴿ءَامَنُواْ﴾:

الإيمانُ لا تُزلزلُه الشُّكوكُ، ولا تُؤثِّرُ فيه الشُّبهاتُ

قولُه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ عبَّرَ عن إيمانهم بالفعل الماضي، للإشارةِ إلى أنَّه إيمانٌ ثابتٌ راسخٌ لا تُؤَثِّر فيه الشُّبهاتُ[1]، ولبيانِ أنَّه كان كاملًا باليقين، لم يُزلزلْه شَكٌّ ولم يحصلْ بالتَّدريجِ[2].

دَلالةُ التَّعبيرِ عن تقواهُم بالفعل المضارع:

التَّقوَى سرٌّ قلبيٌّ يتجدَّدُ باطِّرادٍ ولا يتبدَّدُ

عبَّر النَّظمُ الكريمُ عن تقواهُم بالفعل الدَّالِّ على الحالِ والاستقبالِ ﴿يَتَّقُونَ﴾؛ للإيذانِ بأنَّ اتِّقاءَهم وابتعادَهم عن كلِّ ما يُغضبُ اللّٰه مِنَ الأقوال والأفعالِ يتجدَّدُ ويَستمرُّ دون أن يصرفَهم عن تقواهُم وخوفِهم منه سُبحانه ترغيبٌ أو ترهيبٌ[3]؛ لأنَّ التَّقوى تَتجدَّدُ دائمًا بحسب مُتعلَّقاتها: مِن كسب وحربٍ، وشهوة وغضَبٍ[4]؛ فهذه صفةُ الأولياء؛ آمنوا في الحال، واتَّقوا الشِّركَ في المآل[5].

دَلالةُ توسُّطِ ﴿وَكَانُواْ﴾:

بيانُ أنَّ التَّقوَى ملازِمةٌ لهم، حتَّى صارت لهم جِبِلَّةً وخُلُقًا

في قولِه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾: جاء الفعل ﴿وَكَانُواْ﴾ متوسطا ليفيد أنَّه (كونٌ) صار لهم جِبِلَّةً وخُلُقًا[6]؛ ودلَّ قولُه: ﴿وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾، على أنَّ التَّقوى ملازِمةٌ لهم أخذًا مِن صيغة (كَانُوا)[7]، وقد دخل فعلُ التَّقوى في حيِّز الفعلِ الماضي (كان) ﴿وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾ فكانتِ التَّقوى أيضًا ممَّا حدث مِن هؤلاء المتَّقين، كما حدث منهمُ الإيمانُ مِن قبلُ، وإلَّا ما استحقّوا صفةَ الأولياء، أولياءِ اللّٰه؛ فالإيمانُ ثُمَّ التَّقوى ثُمَّ الولايةُ، يجيءُ بعضُها إثْرَ بعض[8].

---

(1) طنطاوي، التّفسير الوسيط: 7/95.
(2) رشيد رضا، تفسير المنار: 11/416.
(3) طنطاوي، التّفسير الوسيط: 7/95.
(4) رشيد رضا، تفسير المنار: 11/416.
(5) القشيري، لطائف الإشارات: 2/105.
(6) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 9/153.
(7) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/218.
(8) عبد الكريم الخطيب، التَّفسير القرآني للقرآن: 6/1039.

دَلالةُ عطفِ التَّقوَى على الإيمان:

الولايةُ متَّصلةٌ بالتَّقوَى، والتَّقوى أثَرٌ من آثار الإيمانِ

قولُه تعالى: ﴿وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾: فيه إشعارٌ بأنَّ ولايةَ الله للعبد، وولايةَ العبد لله لا تكونُ بالإيمان وحدَه، بل لا بُدَّ من اقترانه بالتَّقوى؛ الَّتي هي فعلُ المأموراتِ على اختلاف أنواعِها، وتركُ المَنهيّات بجميع صُنوفِها، وألوانِها[1]، فلا ولايةَ بغير الإيمان بالله؛ إذِ الولاء حُبٌّ وطاعة وعبادةٌ[2]، وكلُّ مَن كان تقيًّا كان لله وليًّا[3]. وقد تكرَّر ذكرُ التَّقوى بعد الإيمان في كثيرٍ مِن آيِ القرآن، كقوله تعالى: ﴿وَلَأَجْرُ ٱلْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ۝٥٧﴾ [يوسف: 57]، وقولِه: ﴿وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ۝٥٣﴾ [النَّمل: 53]، وقولِه: ﴿وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ۝١٨﴾ [فصِّلت: 18]، وجمعُ الإيمان مع التَّقوى في كثيرٍ مِنَ الآيات القرآنيَّة جديرٌ بالتَّنبيه والتَّنويه، مِن حيثُ كونُ الإيمان أمرًا قلْبيًّا وغَيبيًّا، وكونُ التَّقوى بُرهانًا عليه، يعني التزامَ كلِّ ما أمر الله ورسولُه به، وكلِّ ما نَهيا عنه لينال المؤمنُ رِضا الله تعالى، ويتفادى غضبَه، ولا يمكنُ أن تَصِحَّ دعوى الإيمان إلَّا به، مِن حيث إنَّ التَّقوى هي أعظمُ مظاهرِه[4].

المتشابه اللَّفظيُّ:

نَفْيُ الخوفِ والحُزنِ الثَّابتِ والمُتجدِّدِ من حياة أولياءِ الله

قولُه تعالى: ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾، هذه العبارةُ تكرَّرت في أربعة عشرَ موضعًا مِنَ القرآن الكريم، منها ستَّةٌ في سورة البقرة وحدَها، والخوفُ والحزنُ في قوله تعالى: ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ يَعكسان حالتَين نفسيَّتين؛ يكونُ الخوفُ فيها مِن أجل مكروه يُتوقَّع حصولُه، إذِ الخوفُ: تألُّمُ القلبِ واحتراقُه بسببِ توقُّعِ مكروهٍ في المستقبلِ[5]، والحُزنُ: ما يحصلُ لوقوع مكروهٍ،

(1) الدُّرة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 4/340.
(2) عبد الكريم الخطيب، التَّفسير القرآنيّ للقرآن: 6/1039.
(3) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/242.
(4) محمّد عزّة دروزة، التَّفسير الحديث: 3/483.
(5) الغزاليّ، إحياء علوم الدِّين: 4/155.

أو فواتِ محبوبٍ في الماضي[1]، فمعنى ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾، لا يُخشى عليهم خطرٌ، فقد يكونُ الشَّخصُ خائفًا مِن شيء غيرِ مُخيف ولا خطرَ عليه فيه، فلا يكونُ عليه خوفٌ، سواء أكان خائفًا أم كان غيرَ خائفٍ ممَّا يتوقَّعُه، لذا لم يقل: (لا يخافون)، لأنَّ واقعَ الأمر أنَّهم يخافون، فأمَّنهم اللّه بقوله ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾، وهذا هو المُهِمُّ، وكذلك القولُ في الحزن، فحُزنهم إنْ كانوا يحزنون لما يصيبُهم من أمور في الدُّنيا، كقول النَّبيّ ﷺ: «وَإِنَّا بِفِرَاقِكَ يَا إِبْرَاهِيمُ لَمَحْزُونُونَ»[2]، فذلك حزنٌ وِجدانيّ لا يَسْتَقِرُّ، بل يزول بالصَّبر، ولكنَّهم لا يلحقهم الحزنُ الدَّائمُ، وهو حُزْنُ المذلَّة وغلبةِ العدوِّ عليهم وزوال دينِهم وسلطانِهم[3]، ففي هذا التَّركيب نَفْيُ الخوف والحُزنِ الثَّابتِ والمُتجدِّدِ، وذلك لأنَّ نفيَ الحزن المتجدِّدِ يَنفي الخوفَ المتجدِّدَ، لأنَّ المرءَ يخافُ فيحزنُ، فنفيُ الخوفِ الثَّابتِ يَنفي الحزنَ الثَّابت؛ لأنَّ نفيَ الحزن المتجدِّدِ يَقتضي نفيَ الخوفِ المتجدِّدِ، لأنَّ الأمرَ قبلَ أن يقع مَخُوفٌ منه، فإذا وقع حزِنْتَ عليه، فكلٌّ منهما مُرتبطٌ بالآخر.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الخوفُ والخشيةُ:

الخوفُ: توقُّعُ حلولِ مكروهٍ، أو فواتِ محبوبٍ[4]، والخَشيةُ: تألُّمُ القلب لتوقُّع المكروه مُستقبلًا[5]، وهما متقاربان في اللُّغة؛ أمَّا ما كان منهما منَ العبد في حقِّ ربِّه فإنَّ الخوفَ تألُّمُ النَّفسِ مِنَ العقاب

الخَشيةُ خوفٌ خاصٌّ يَشوبُه تعظيمٌ، وهي أثرٌ مِن آثارِ الخوف

(1) الجرجانيّ، التَّعريفات، ص: 86.
(2) أخرجه البخاريّ، كتاب الجنائز، بابُ قولِ النّبيِّ ﷺ: «إنّا بِك لمحزُونُون»، الحديث رقم: (1303)، ومسلم في الفضائل باب رحمته الصِّبيان والعيال وتواضُعِهِ وفضلِ ذلِك، الحديث رقم: (2315).
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/217.
(4) الجرجانيّ، التَّعريفات، ص: 101.
(5) المناويّ، التَّوقيف على مهمّات التَّعاريف، ص: 155.

المتوقَّع، بسبب ارتكابِ المنهيَّات، والتَّقصيرِ في الطَّاعات، وهو يحصلُ لأكثر الخلْق، وإن كانت مراتبُه مُتفاوتةً جدًّا، والمرتبةُ العُليا منه لا تحصل إلَّا للقليل[1]. والخَشيةُ: حالةٌ تحصلُ عند الشُّعور بمعرفة جلال اللّه وهيبتِه[2]، وخوفِ الحجْبِ عنه، وهذه حالةٌ لا تحصلُ إلَّا لمن عَلِمَ وذاق لذَّة القُرب، ولذا قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: 28]، فالخوفُ مِن شرط الإيمان، والخَشيةُ مِن شرط العلم[3]، فالخَشيةُ: خوفٌ خاصٌّ يَشوبُه تعظيمٌ[4]، ويؤيِّدُ هذا قولُه تعالى واصفًا المؤمنين ﴿وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢١﴾﴾ [الرَّعد: 21]، حيث ذكر الخشيةَ في جانبه سبحانه، والخوفَ في جانب الحساب.

الحزنُ والكربُ:

الحُزن: تكاثفُ الغَمِّ وغِلَظُه، ويحصلُ لوقوع مكروهٍ، أو فواتِ محبوبٍ في الماضي[5]، مأْخُوذٌ مِنَ الأرضِ الحَزَن، وهي: الغَليظةُ الصُّلْبة، والكربُ: تكاثفُ الغَمِّ مع ضِيق الصَّدر، والكُرْبَة: أشدُّ مِنَ الحُزن والغَمِّ، ويُقَال: هو الحُزن الَّذي يُذيب القلبَ، أي: يُحيِّره ويُخرجه عن أعمال الأعضَاء، وربَّما أهلك النَّفسَ[6]. قال تعالى: ﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾﴾ [الأنبياء: 76]، ولهذا يُقال لليوم الحَارِّ: يَوْمُ كَرْب، أي: كَرَبَ مَن فيه، وقد كَرَبَ الرّجلُ وهو مَكْروبٌ، وقد كَرَبَه إذا غمَّه وضَيَّقَ صَدرَه[7].

الحزن انفعال وألم عند وقوع خطب ما، والكرب شدَّة الحزن وقُوَّته

(1) العسكريُّ، معجم الفروق اللُّغويَّة، ص: 218.
(2) الجرجانيُّ، التَّعريفات، ص: 98، والمناوي، التَّوقيف على مهمَّات التَّعاريف، ص: 155.
(3) البعلي، المُطْلِع على ألفاظ المقنع، ص: 239.
(4) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبيُّ، عُمدة الحُفّاظ، والزّبيدي، تاج العروس: (خشي).
(5) الجرجانيّ، التَّعريفات، ص: 86.
(6) الكفويّ، الكلّيّات، فصل الكاف، ص: 772.
(7) العسكريُّ، الفروق اللُّغويَّة، ص: 267.

﴿لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ لَا تَبۡدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ٦٤﴾ [يونس: 64]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الإفصاحُ عن ثوابِ الأولياءِ الكبيرِ، بعد بيانِ حالِهم الأثيرِ

لَمَّا نفى الله ﷻ عن أوليائه الخوفَ والحُزنَ، زادهم فقال مُبَيِّنًا لتولّيه لهم بعد أن شرح تولّيهم له: فقال: ﴿لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰ﴾[1]، فذكر سُبحانه ما ينالُ أولياءَ الله تعالى مِن خير في الدُّنيا والآخرة[2]، وسوف "يتحقَّق وعدُ الله، ولا خُلفَ لما وَعَد الله به، وهذا الَّذي بُشِّروا به في الدُّنيا، وظَفروا به في الآخرة هو الفوزُ العظيمُ"[3].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلۡبُشۡرَىٰ﴾: أصلُ البِشْر - بالكسر - الطَّلاقةُ والبَشاشةُ وبَسطُ الوجه: ﴿فَبَشَّرۡنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٖ ١٠١﴾ [الصّافات: 101]، ﴿وَأَبۡشِرُواْ بِٱلۡجَنَّةِ﴾ [فصلت: 30]، ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَيۡ رَحۡمَتِهِۦ﴾ [الأعراف: 57]، ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗاۖ﴾ [البقرة: 119][4]، والبُشْرى: ما يُعْطَاه المُبشَّر مِنَ الأمر، والجمعُ: بُشَر[5]، وهو الخبرُ الَّذي يُغيِّر البَشَرةَ مِن حُزْنٍ أو سُرورٍ، ثمَّ خُصَّ في عُرْفِ اللُّغة بالسُّرور، ولا تكونُ إلَّا بالخبر الأوَّل[6]، فَيُقالُ: أبْشَرْتُ الرَّجُلَ، وبَشَّرْتُهُ، أي: أخْبَرْتُهُ بِأمْرٍ سارٍّ[7]، وسُمِّيَتْ بذلك مِنَ البِشْرِ، وهو السُّرورُ؛ لأنَّها

(1) البقاعي، نظم الدّرر في تناسب الآيات والسّور: 9/154.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3605.
(3) لجنة من علماء الأزهر، المنتخب في تفسير القرآن الكريم: 1/297.
(4) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (بشر).
(5) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 1/238، وابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس: (بشر).
(6) النّووي، تحرير ألفاظ التّنبيه، ص: 267، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 11/184.
(7) ابن الأنباريّ، الزّاهر في معاني كلمات النّاس: 2/128، والعَوْتَبيّ، الإبانة في اللّغة العربيّة: 2/280.

تُظْهِرُ طَلاقَةَ وَجْهِ الإنسانِ وفرَحَهُ، والمقصودُ بالبشرى في الآية: الخبرُ السَّارُّ المُفرِحُ الَّذي يُظهِرُ البشاشةَ على الوجه.

2) ﴿لَا تَبۡدِيلَ﴾: التَّبدِيلُ: مصدرُ بدَّل، وأصلُه قيَامُ الشَّيءِ مَقامَ الشَّيءِ الذَّاهِبِ. يُقالُ: هذا بدلُ الشَّيءِ وبَدِيلُهُ[1]، وحقيقتُه: أن تُغيَّر الصُّورةُ إلى صُورة أُخرى، والتَّبديل قد يُقال للتَّغيير مُطلقًا، وإن لم يؤتَ ببدَله، قال تعالى: ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوۡلًا غَيۡرَ ٱلَّذِي قِيلَ لَهُمۡ﴾ [البقرة: 59]، ﴿وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنًا﴾ [النُّور: 55] وقال تعالى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمۡ حَسَنَٰتٖۗ﴾ [الفرقان: 70]، قيل: أن يعمَلوا أعمالًا صالحةً تُبطلُ ما قدَّموه مِنَ الإساءة، وقيل: هو أن يعفوَ تعالى عن سيئاتِهم ويَحتسِبَ بحسناتِهم[2]، والمقصودُ في الآية: هو انتفاءُ جنس التَّبديل.

3) ﴿لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ﴾: الكلمةُ: الواحدة مِنَ الكَلِم والكَلام، كلَّمته تكليمًا، وتكلَّمتُ تكلُّمًا. وذكر أبو زيدٍ أنَّ العرب تقول: الرَّجلان لا يَتَكَالَمَانِ، في معنى لا يتكلَّمان[3]، وأصلُ اشتقاقِ الكلام مِنَ الكَلِم، وهو التَّأثير المُدرَكُ بإحدى الحاسَّتين، فالكلامُ: مُدرَكٌ بحاسَّة السَّمع، والكَلْمُ: بحاسَّة البَصَر[4]، وكَلَمتُه: جرحتُه جِراحةً بَانَ تأثيرُها، و﴿تُكَلِّمُهُمۡ﴾ [النَّمل: 82]، أي: تَسِمُهم[5]، والكَلِمَةُ تَقَعُ على الحرف الواحد مِن حروفِ الهجَاءِ، وتقعُ على لفظةٍ مُؤلَّفةٍ مِن جماعةِ حُروفٍ ذاتِ مَعْنًى، وتقعُ على قَصيدةٍ بكمالِها وخُطبةٍ بأسرها[6]، والمقصودُ بـ ﴿لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ﴾ في الآية: الأقوالُ الَّتي أوحَى اللّه تعالى بها إلى الرَّسُولِ ﷺ في الوَعْدِ المُشَارِ إليه في الآية.

4) ﴿ٱلۡفَوۡزُ﴾: أصلُ الفَوْزِ هو النَّجاةُ ممَّا يُحذَرُ، والظَّفَرُ بما يُؤمَّلُ مع حُصُول السَّلامة[7]، يُقال: فَازَ يَفُوزُ، إذا نَجا، وهو فائزٌ. وفاز بالأمرِ، إذا ذَهبَ بِهِ وخَلَصَ[8]، ويُقالُ لِمَنْ ظَفِرَ

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (بدل)، ونشوان الحميريّ، شمس العلوم: 1/460.
(2) الرّاغب، المفردات: (بدل).
(3) ابن دريد الأزدي، جمهرة اللّغة: (كلم).
(4) الرّاغب، المفردات، والسَّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (كلم)، والبيضاويّ، أنوار التنّزيل: 1/73، والمناويّ، التّوقيف على مهمّات التّعريف، ص: 283.
(5) ابن سلَّام، تفسير يحيى بن سلَّام: 2/568، وابن جنّي، المحتسب: 2/189 بلا نسبة.
(6) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن منظور، لسان العرب، والزَّبيديّ، تاج العروس: (كلم)، والنّوويّ، تهذيب الأسماء: 4/118.
(7) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/454.
(8) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (فوز).

بخيرٍ وذهب بهِ. قال الله تعالى: ﴿فَمَن زُحۡزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدۡخِلَ ٱلۡجَنَّةَ فَقَدۡ فَازَۗ﴾ [آل عمران: 185]. وسُمِّيَت الأرضُ القَفْرُ البَعيدَةُ المَخُوفُ مِنَ الهلاكِ فيها مَفازةً على سبيل التَّفاؤُل؛ لأنَّ مَن قطَعها فازَ[1]، والمقصودُ بالفَوزِ في الآية: النَّجاةُ وما يلزمُها منَ التَّنعم بنِعَم الجنَّةِ.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

ضمانُ الله تعالى لأوليائِه ألَّا يَحلَّ بهم خوفٌ مُحدِقٌ، ولا حُزنٌ مُقلِقٌ

أخبرتِ الآيةُ عن تحقُّقِ البُشرى في وجوه أولياءِ الله ﷺ، في زمانَيْن اثنين؛ الأوَّلُ: في الدُّنيا وذلك بما يكون لهم مِنَ الصَّفاء والبهاء والتَّعلُّقِ بالله تعالى، وبما يوفَّقون إليه منَ الطَّاعات والأعمالِ الصَّالحاتِ، وهذه البشرى مقدِّمةٌ للبُشرى الثَّانيةِ بُشرى الآخرةِ، وذلك بدخول الجنَّة، وهذا الوعدُ لا تبديلَ له؛ فإنَّه وعدٌ كريمٌ من ربٍّ كريم، فإذا نال المسلمُ الولايةَ، وكان عبدًا مطيعًا لله تعالى، عاملًا بما أوجب عليه، فإنَّه مشمولٌ بهذا الوعدِ الأكيدِ، ثمَّ أصدرتِ الآيةُ حُكمًا ترغيبيًّا تحفيزيًّا لِمَنْ كان هذا حالُه، بالاتِّصاف بالفوز العظيم؛ لتحصل الطُّمأنينةَ، ويسكنَ القلبُ إلى مولاه.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دَلالةُ الاستئنافِ في: ﴿لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰ﴾:

بيانُ ما أعطَى الله أولياءَه من خيراتٍ، وما حَباهُم من أمنٍ وثباتٍ

قوله تعالى: ﴿لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾: بيانٌ لِما أوْلاهُم مِن خيرات الدَّارَين، بعد بيان إنْجَائِهم مِن شرور الخوف والحُزْنِ ومكارِهِما، والجملةُ مُستأنفةٌ كأنَّه قيل: هل لهم وراءَ ذلك مِن نعمةٍ وكرامةٍ؟ فقيل: لهم ما يَسُرُّهم في الدَّارين مِنَ البشرى[2]؛ وهو مع ذلك استئنافٌ جيءَ به في موضع التَّعليلِ لنفْيِ حُزنهم والخوفِ عليهم[3].

(1) الميدانيّ، مجمع الأمثال: 2/390، وأبو حيّان، البحر المحيط: 3/454.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/160، والبروسويّ، روح البيان: 4/60.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 6/142.

سرُّ تقديمِ الجارِّ والمجرور:

﴿لَهُمُ﴾ في قولِه تعالى: ﴿لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰ﴾: بمعنى خاصَّةً[1]، والضَّميرُ يعودُ على أولياء اللّه، والبُشرى هي التَّبشيرُ بما يُلقي السُّرورَ في أنفسهم، وقد حكمَ اللّه تعالى لهم بالبُشرى في الحياة الدُّنيا وفي الآخرة، وذلك وَعْدٌ حَقٌّ، ولذا قال سُبحانه: ﴿لَا تَبۡدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ﴾[2]، فقولُه تعالى: ﴿لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰ﴾ جاء على سبيل الحصْرِ والتَّخصيص[3]، وكلُّ وليٍّ تقرَّبَ إلى اللّه تنالُه البشارةُ المنوَّهُ بها في هذه الآية؛ باجتهادِه في النَّوافل والصَّلواتِ، ومبادرتِه إلى الخيرات والمبرَّاتِ، رغبةً في الأجر، وطمعًا في الجنَّة، "وهذا معناه أنَّ مثلَ هذا العبد قد دخلَ في مقام الوُدِّ مع اللّه تعالى، وهنا يُفيضُ اللّه ﷻ عليه بما يشاء"[4]، وسوف ينالُ مِن رضوان اللّه الأكبرِ، وعطائه الأوفرِ، ما يكون له قرَّةَ عينٍ في مثواه عند اللّه.

تخصيصُهم بالبِشارةِ المُتحقِّقةِ في العاجلةِ والآجلةِ

فائدةُ اصطفاءِ ﴿ٱلۡبُشۡرَىٰ﴾ ودَلالتُه:

اصطفى النَّظمُ الكريمُ كلمةَ ﴿ٱلۡبُشۡرَىٰ﴾ في قوله تعالى: ﴿لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ زيادةً في التَّكريم والتَّشريف لهم، والبُشرى والبِشارةُ: الخَبَرُ السَّارّ، وهو أخَصُّ مِنَ الخبر، وسُمِّي بذلك لأنَّ أثرَه يظهرُ على البَشَرَةِ، وهي ظاهر جِلدِ الإنسان، فيجعلُه مُتهلِّلَ الوجه، مُنبسطَ الأسارير، مُبتهجَ النَّفس، أي: لهم ما يسرُّهم ويُسعدُهم في الدُّنيا مِن حياةٍ آمنةٍ طيِّبةٍ، ولهم أيضًا في الآخرة ما يَسُرُّهم مِن فوزٍ برضوان اللّه، ومِن دخول جنَّته[5].

مَلمحُ التَّشريفِ والتَّكريمِ بالخبرِ السَّارِّ السَّعيدِ لأوليائِه

غرَضُ الإبهامِ والإجمالِ في: ﴿ٱلۡبُشۡرَىٰ﴾:

إيثارُ الإبهام والإجمالِ في لفظة ﴿ٱلۡبُشۡرَىٰ﴾ في قوله تعالى: ﴿لَهُمُ

لفظُ البشرَى بين الإجمالِ في هذه الآية، والتَّفصيلِ في غيرِها

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 9/154.
(2) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 7/3605.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/277.
(4) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 11/69.
(5) طنطاوي، التَّفسير الوسيط: 7/96.

﴿ٱلۡبُشۡرَىٰ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾؛ للإيذان بكونِها وراءَ البيان والتَّفصيلِ[1]، أو لكونِها مُبَيَّنةً في مواضِعَ مِن كتابِ اللّٰه تعالى[2]؛ فالبشارةُ في الدُّنيا، هي: الثَّناءُ الحسنُ، والمودَّةُ في قلوب المؤمنين، والرُّؤيا الصَّالحةُ، وما يراه العبدُ من لُطفِ اللّٰه به، وتيسيرِه لأحسن الآمالِ والأخلاق، وصرْفِه عن مساوئ الأخلاقِ، وأمَّا في الآخرة، فأوَّلُها، البِشارةُ عند قبض أرواحِهم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَبۡشِرُواْ بِٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ ٣٠﴾ [فُصِّلت: 30]، وفي القبر، ما يُبَشَّر به من رضا اللّٰه تعالى، والنَّعيم المقيم، وفي الآخرة تمامُ البُشرى، بدخول جنَّات النَّعيمِ، والنَّجاةِ مِنَ العذاب الأليمِ[3].

دَلالةُ تعريفِ بـ (أل) في: ﴿ٱلۡبُشۡرَىٰ﴾:

إطلاقُ (البُشرى) على ما يشملُ خيرَي الدُّنيا والآخرة

﴿ٱلۡبُشۡرَىٰ﴾ في قوله تعالى: ﴿لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ أي: الكاملةُ[4]، وتعريف بُشرى تعريفُ الجنس، فهو صادقٌ ببشاراتٍ كثيرةٍ[5]؛ وقد يُرادُ بها متعلَّقُها الَّذي يُبَشَّرون به، ولم يُذكر هنا؛ ليشملَ كلَّ ما بُشِّروا به في كتابِ اللّٰه تعالى، وعلى لسانِ رَسولِه ﷺ، فأمَّا البُشرَى في الحياةِ الدُّنيا، فأهمُّها البِشارةُ بالنَّصرِ، وبحُسنِ العاقِبةِ في كلِّ أمرٍ، وباستخلافِهم في الأرضِ ما أقاموا شَرعَ اللّٰه وسُننَه، ونَصَروا دينَه، وأعلَوا كَلِمتَه، وأمَّا في الآخرةِ فمِن أكمَلِها وأجمَعِها لمعاني الآيةِ لأكمَلِهم قولُه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَبۡشِرُواْ بِٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ ٣٠﴾ [فصّلت: 30][6]. وكلمةُ البُشْرى مصدرٌ إمَّا باقٍ

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/160.
(2) رشيد رضا، تفسير المنار: 11/342.
(3) السَّعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 420.
(4) البقاعي، نظم الدُّرر: 9/154.
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/218.
(6) رشيد رضا، تفسير المنار: 11/342.

على مصدريَّته، والمُبَشَّرُ به محذوفٌ، أي لهمُ البشارةُ فيهما، وإنَّما حُذِفَ للعلم به من آياتٍ أُخرَ كقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ﴾ إلى قوله: ﴿يُبَشِّرُهُمۡ رَبُّهُم بِرَحۡمَةٖ مِّنۡهُ وَرِضۡوَٰنٖ وَجَنَّٰتٖ لَّهُمۡ فِيهَا نَعِيمٞ مُّقِيمٌ ٢١﴾ [التَّوبة: 20 - 21]، وإمّا مُرادٌ به المبشَّرُ به، وتعريفُه للعهد؛ كقوله سُبحانه: ﴿يَوۡمَ تَرَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ يَسۡعَىٰ نُورُهُم بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَبِأَيۡمَٰنِهِم بُشۡرَىٰكُمُ ٱلۡيَوۡمَ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ١٢﴾ [الحديد: 12][1].

بديعُ مُقابلةِ الحزن بالبُشرى:

إثباتُ البُشرى في الدَّارَين، يُحقِّقُ نفيَ الخوفِ والحُزْنِ

ومُقابلةُ ﴿يَحۡزَنُونَ﴾ بـ ﴿ٱلۡبُشۡرَىٰ﴾، في قوله تعالى: ﴿لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾، وقوله: ﴿لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ﴾ من مُحسِّنات الطِّباق[2]؛ لأنَّ البُشرى يُرادُ بها أمران: أحدُهما بشارةُ المُخبِرِ، وهذا يدفعُ الخوفَ، والثَّاني سرورُ المُخبَرِ، وهو يدفعُ حُزنه[3]، فتكونُ البُشرى في الدَّارَين بما يُحقِّقُ نفيَ الخوف والحُزْنِ كائنًا ما كان[4].

دَلالةُ ذكْرِ ﴿ٱلۡبُشۡرَىٰ﴾ قبل ذكْرِ ظَرْفِها:

الغرَضُ مِن تولِّي اللهِ أولياءَه بالكرامة والبُشرَى التّعجيلُ بالمسرَّة

قوله تعالى: ﴿لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ﴾، قدَّم السِّياقُ ذكرَ ﴿ٱلۡبُشۡرَىٰ﴾ على ظرفِها، والمعنى: أنَّهم يُبشَّرون بخيراتٍ قبل حصولِها في الدُّنيا، بما يتكرَّرُ مِنَ البشاراتِ الواردةِ في كلام اللّه تعالى وكلامِ رسوله ﷺ، وفي الآخرة بما يَتَلقَّونه مِنَ الملائكة، وما يسمعونَه مِن أمْرِ اللّه بهم إلى النَّعيم المقيم، كقوله: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ﴾ [البقرة: 25][5]، وفي الآخرة بتلقِّي الملائكةِ إيَّاهم مُسلِّمين مُبشِّرين بالفوز والكرامةِ، تعجيلًا

(1) القاسمي، محاسن التأويل: 6/37.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/219.
(3) ابن القيم، مدارج السَّالكين: 3/151.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 6/143.
(5) ابن عاشور التَّحرير والتَّنوير: 11/219.

لمسرَّتهم وبيانًا لتولّيه لهم[1]، ففي هذا التَّقديم بيانٌ لتلك المِنَنِ العظيمةِ التي امتنَّ اللّه بها على أوليائه، فجعلَ البُشرياتِ المُسْعِدةَ برضا اللّه ورضوانِه، تتنزَّلُ عليهم، بما يكشفُ لهم منازلَهم عند اللّه، وما سَيَلقَون في نعيم جنَّاته، مِن كرامة وتكريمٍ، والبُشرياتُ التي يُبَشَّر بها أولياءُ اللّه في الدُّنيا كثيرةٌ، ففي كُلِّ مرحلة مِن مراحل هذه الرِّحلةِ المُسْعِدَةِ، تطلعُ عليهمُ البُشرياتُ التي تَزُفُّهم إلى الجنَّة، كما تُزَفُّ العروسُ في موكبٍ مِن الفرح والبهجةِ[2].

أثرُ الموقعِ النَّحويِّ للجارِّ والمَجرور:

إفادةُ معنى الحاليَّةِ في البُشرَى والمُبَشَّرِ

قولُه تعالى: ﴿فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ﴾: شِبْهُ الجملة - الجارُّ والمَجرور - في موقع الحالِ مِن ﴿ٱلۡبُشۡرَىٰ﴾، والعاملُ ما في الخبرِ مِن معنى الاستقرار، أي: لهمُ البُشرى حالَ كونِها في الحياة الدُّنيا، وحالَ كونِها في الآخرة، أي: عاجلةً وآجلةً أو مِنَ الضَّمير المجرور، أي: حالَ كونِهم في الحياة، وحالَ كونِهم في الآخرة، بناءً على أنَّها بشارةٌ ناجزةٌ مقصودةٌ بالذَّات، وقيل: ﴿ٱلۡبُشۡرَىٰ﴾ مصدرٌ، وشِبْهُ الجملة - الجارُّ والمَجرور - مُتَعلّق به[3].

دَلالةُ الاستئناف في: ﴿لَا تَبۡدِيلَ﴾:

تحقيقُ المُبَشَّر به وتعظيمُ شأنِه، مِن بلاغة هذه الجملةِ

في قوله تعالى: ﴿لَا تَبۡدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ﴾ أي: لا تغييرَ لأقواله، ولا إخلَافَ لمواعيده، ومنها تبشيرُ المؤمنين بالجنَّة[4]، وهذه الجملةُ اعتراضٌ لتحقيق المُبَشَّر به وتعظيم شأنه[5]. فلمَّا ذَكرَ النَّظمُ الكريمُ صفةَ أولياء اللّه، وشَرَحَ أحوالَهم، قال تعالى: ﴿لَا تَبۡدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ﴾ والمرادُ أنَّه لا خُلْفَ فيها، والكلمةُ والقولُ سواءٌ، ونظيرُه قولُه: ﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلۡقَوۡلُ لَدَيَّ﴾ [ق: 29]، وهذا أحَدُ ما يُقَوّي أنَّ المرادَ بالبشرى

(1) البيضاويُّ، أنوار التَّنزيل: 3/118.
(2) عبد الكريم الخطيب، التَّفسير القرآني للقرآن: 6/1041.
(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/160، وإسماعيل البروسوي، روح البيان: 4/60.
(4) وهبة الزُّحيلي، التَّفسير المنير: 11/212.
(5) البيضاويُّ، أنوار التَّنزيل: 3/118.

وعدُ اللّه بالثَّواب والكرامة لمن أطاعه، بقوله: ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ﴾[1]، فلا خُلْفَ لمواعيده، وذلك لأنَّ مواعيدَه بكلماتِه[2].

غرضُ جملةِ ﴿لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّـهِ﴾:

بيانُ كونِ الكلماتِ مُؤكّدةً للوعد السَّابقِ واللّاحقِ كليْهما

قولُه تعالى: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ﴾، أي: لا تغييرَ لأقواله التي مِن جُملتها مواعيدُه الواردةُ بِشارةً للمؤمنين المتَّقين، فتدخُلُ فيها البشاراتُ الواردةُ هاهنا دخولًا أوَّليًّا، ويَثبُتُ امتناعُ الإخلاف فيها لُطفًا وكرَمًا ثبوتًا قطعيًّا[3]، فهي جملةٌ مُبَيِّنَةٌ لمعنى تأكيدِ الوعد الذي تضمَّنه قولُه: ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْـَٔاخِرَةِۚ﴾، وفيها تذكيرٌ لهم بأنَّ ما وعدَهمُ اللّه به مِنَ البشائر مثلِ النَّصرِ وحسنِ العاقبة أمرٌ ثابتٌ لا يتَخَلَّفُ؛ لأنَّه من كلمات اللّه[4]، فتلك البُشْرى كانت بكلمات اللّه، وكلماتُ اللّه لا تتبدَّلُ[5].

دَلالةُ صيغةِ التَّبديلِ ونفْيِها:

عمومُ نفْيِ جنْسِ التَّبديلِ والتَّغيير، يُؤكِّدُ عظَمةَ أمْرِ الله وخلودَه

كلماتُ اللّه في قوله تعالى: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ﴾: هي الأقوالُ التي أوحى بها إلى الرَّسول ﷺ في الوعد المُشارِ إليه، ويُؤخَذُ مِن عموم كلمات اللّه وعمومِ نفْيِ التَّبديلِ أنَّ كُلَّ ما هو تبديلٌ مَنفيٌّ مِن أصلِه[6]، وأُكِّد بنفيِ الجنس لأنَّ الجبابرةَ يُنكرون ذلك؛ فـ﴿لَا تَبْدِيلَ﴾ أي بوجه مِنَ الوُجوه[7]، فنفَى النَّظمُ الكريم التَّبديلَ بصيغة التَّبرئةِ الدَّالّةِ على انتفاء جنسِ التَّبديل، والتَّبديلُ: التَّغييرُ والإبطالُ؛ لأنَّ إبطالَ الشَّيءِ يستلزمُ إيجادَ نقيضِه[8].

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/277.
(2) القرطبيُّ، الجامع لأحكام القرآن: 8/358.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 6/143.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/219.
(5) الجزائريّ، أيسر التَّفاسير: 2/487.
(6) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/220.
(7) البقاعي، نظم الدُّرر: 9/154_ 155.
(8) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/220.

نُكتةُ تقديم ذِكْرِ ﴿ٱلْبُشْرَىٰ﴾:

تقديمُ التَّخليةِ على التَّحليةِ ضمانٌ، وما فيه من تعجيل المَسَرَّة اطمئنانٌ

قولُه تعالى: ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾، فيه تقديمُ بُشرى الدُّنيا لكونِ التَّخليةِ سابقةً على التَّحليةِ، مع ما فيه من مُراعاة حقِّ المُقابلةِ بين حُسنِ حالِ المؤمنينَ، وسوءِ حالِ المفُترينَ، وتعجيلِ إدخالِ المَسرَّة بتبشير الخلاصِ عن الأهوال[1]؛ وهذه كُلُّها تَظهرُ في مُبشِّرات الدُّنيا تقويةً لقلوب المؤمنين بالنَّصر والتَّمكين، مع تَشوُّفِهم للبُشرى الكُبرى في الآخرة بالرِّضا والنَّعيم المُقيمِ.

دَلالةُ الاعتراضِ والتّذييلِ:

تأكيدُ الجملةِ السَّابقةِ مع تقريرِ مَضمونِها، من فصيحِ البيانِ

جملةُ ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ مُؤكِّدةٌ لجملة ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ﴾، ومُقرِّرةٌ لمضمونها في تحقيق المُبَشَّر به، وتعظيمِ شأنه؛ فلذلك فُصِلَت[2]، وهذه الجملةُ اعتراضٌ ثانٍ[3]، وهو مبنيٌّ على جواز تَعدُّدِ الاعتراض، وعلى أنَّه يجوزُ أن يكون في آخر الكلام، ولذا قال العلَّامةُ الطِّيبي: "لو جُعلتِ الأُولى معترضةً، والثَّانيةُ تذييلًا للمعترضِ والمعترَضِ فيه"[4]؛ أي الأولى اعتراضيَّةٌ، والثَّانيةُ تذييليَّةٌ[5].

سِرُّ ورودِ اسمِ الإشارةِ: ﴿ذَٰلِكَ﴾:

بيانُ أنَّ اسمَ الإشارةِ فيه كمالُ تَمييزٍ لما ذُكِرَ مِنْ قبلُ، وزيادةُ تقريرٍ لمعناه

في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾، أي: ذلك الأمرُ العالي الرُّتبةِ الَّذي ذُكِرَ مِنَ البُشرى بسعادة الدَّارَين هو الفوز العظيمُ الَّذي لا يَعلوه فوزٌ، والَّذي لا يفوقُه نجاحٌ أو فضلٌ[6]؛ وإنَّما هو ثمرةُ الإيمان الحقِّ، والتَّقوى العامَّةِ في حقوق اللّٰه وحُقوق الخَلْقِ[7]؛ فاسمُ الإشارةِ في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ يعودُ إلى ما ذُكر

---

(1) أبو السَّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/160، والبروسويّ، روح البيان: 4/60.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/220.
(3) البيضاويّ، أنوار التَّنزيل: 3/118.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 6/144.
(5) الهرريّ، حدائق الرَّوح والرّيحان: 12/293.
(6) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 9/155، وطنطاوي، التَّفسير الوسيط: 7/96.
(7) رشيد رضا، تفسير المنار: 11/417.

مِنَ البُشرى في الدَّارَين، أو لانتفاء الخوفِ والحُزنِ عنهم، مع ما بُشِّروا به[1]. والظَّاهرُ أنَّ الإشارة بذلك إلى المذكورِ مِن مَضمون الجُملِ الثَّلاثِ المُتقدِّمةِ، واختير اسم الإشارة؛ لأنَّه أجمعُ لِما ذُكرَ، وفيه كمالُ تمييزٍ له لزيادة تقرير معناه[2]، فجاء اسمُ الإشارةِ ﴿ذَٰلِكَ﴾ الَّذي يُفيدُ البُعدَ، إشارةً إلى بُعدِ منزلةِ المُشارِ إليه، وسُموِّ رُتْبتِه في الكمال.

دَلالةُ ضَميرِ الفصْلِ بعدَ اسمِ الإشارةِ:

الإشارةُ تأكيدٌ للبُشرى، وإفادةٌ لحقيقة نَيلِهم للفوز الحقيقيِّ

في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ ذُكِرَ ضميرُ الفصلِ بعد اسم الإشارةِ لزيادة التَّأكيدِ ولإفادة القَصرِ، أي: هو الفوز العظيمُ لا غيرُه ممَّا يتقلَّب فيه المشركون في الحياة الدُّنيا مِن رزقٍ ومَنَعَة وقوَّة، لأنَّ ذلك لا يُعَدُّ فوزًا؛ إذ عاقبته المذلَّةُ والإهانةُ في الدُّنيا، وبعدَه العذابُ الخالدُ في الآخرة، كما أشار إليه قولُه تعالى: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾﴾ [آل عمران: 196 _ 197][3].

سرُّ تَوالي المُؤكِّداتِ في وصْفِ ﴿ٱلْبُشْرَىٰ﴾:

تحقيقُ كونِ البُشرَى في نفسِها فوزًا عظيمًا

ذُيِّلتِ الآيةُ الكريمةُ بقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ تذييلًا جامعًا، فاسمُ الإشارةِ جامعٌ لصفاتِ تلك ﴿ٱلْبُشْرَىٰ﴾، وأُكِّدَ بضميرِ الفَصلِ، وبالجُملةِ الاسميَّةِ، والوَصفِ بـ ﴿ٱلْعَظِيمُ﴾ المفيدِ للأهميَّةِ، بما يجعل ذلكَ كأنَّه نَفسُ الفوزِ العظيم[4].

دَلالةُ وصْفِ ﴿ٱلْفَوْزُ﴾ بصفةِ ﴿ٱلْعَظِيمُ﴾ وحصْرِه عليه:

مقدارُ هذا الفوزِ اللَّائقِ بأولياءِ الله الصَّالحين، كرمُ العطاءِ الثَّمينِ

جاء وصْفُ الفوز بأنّه عظيمٌ، والجنَّةُ دارُ الفائزين، والفوزُ يجمعُ السَّلامةَ مِنَ الشَّرِّ، والظَّفَرَ بالخَيرِ، ومَن فاز بالجنَّة وما فيها مِنَ

(1) ابن عطية، المُحَرَّرُ الوجيز: 3/129، وابن عجيبة، البحر المديد: 3/172.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/220.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/220.
(4) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 2/607 - 610.

النَّعيم المُقيم الَّذي منه رضوانُ الرَّحمن ورؤيتُه، فقد فاز بأعلى ما يطمحُ إليه إنسانٌ مِن جزاءٍ، وحقَّق أعظمَ فوزٍ يخطر ببالٍ؛ لأنَّه ظَفِر بخلودٍ أبديٍّ فيما لا عينٌ رأت، ولا أُذُنٌ سمعَت، ولا خطرَ على قلب بشرٍ، فلا يُكدِّره حزنٌ، ولا يُنغِّصه موتٌ، فحقيقٌ أن يُسمَّى هذا الفوزُ فوزًا عظيمًا، وكبيرًا، ومُبينًا، وأن يُوصفَ أصحابُه بأنَّهم فائزون ومُفلحون، فكيف إذا جَمَعَ مع هذا بُشْرَيات الدُّنيا مِن تثبيت قلوبِهم على الدِّين، وتقويةِ إلهام الحقِّ والخيرِ فيهم، والنَّصرِ على الأعداء، واستخلافِهم في الأرض، وبحسن العاقبة في كلِّ أمر[1]، فقَولُه: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ اشتمَلَ على النَّجاةِ مِن كلِّ محذورٍ، والظَّفَرِ بكلِّ مَطلوبٍ مَحبوبٍ، وحُصِرَ الفَوزُ فيه؛ لأنَّه لا فوزَ لمن لا إيمان يَمنعُهم، ولا تقوى تَردعُهم[2].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

البِشارةُ والخبَر:

البِشارةُ: الإخبار بما يُسرُّ به المُخبرُ به، إذا كان سابقًا لكلِّ خبرٍ سواه[3]، والأمرُ الذي بشَّرك به يسمَّى: بِشارةً، وسُمِّيت بذلك مِنَ البِشر، وهو السُّرورُ؛ لأنَّها تُظهرُ طلاقةَ وجه الإنسان[4]، وهم يتباشرون بذلك الأمرِ، أي: يُبشِّرُ بعضُهم بعضًا، والبِشارةُ إذا أُطلقت فهي للبشارة بخيرٍ[5]، هذا هو الأصلُ، ويجوزُ استعمالُها مقيَّدةً في الشَّرّ، كقوله تعالى: ﴿فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ٢١﴾ [آل عمران: 21]، وقد ورد في القرآن في مواضعَ كثيرةٍ، كقوله تعالى: ﴿فَبَشَّرۡنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ١٠١﴾ [الصّافات: 101] وقال سبحانه: ﴿فَبَشَّرۡنَٰهَا بِإِسۡحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ

البشارةُ إخبارُ المُخبَرِ به بما يسرُّه، مع كونِه سابقًا لكلِّ خبرٍ سواه

(1) رشيد رضا، تفسير المنار: 11/417، والمراغي، تفسير المراغي: 11/130.
(2) السّعدي، تيسير الكريم المنّان، ص: 368.
(3) العسكريُّ، معجم الفروق اللُّغويَّة، ص: 100.
(4) الرّاغب، المفردات: (بشر)، وابن الأثير، النِّهاية: 1/129.
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (بشر).

﴿إِسۡحَٰقَ يَعۡقُوبَ ٧١﴾ [هود: 71] بخلاف الخبرِ فإنّه يكونُ للأمرين حالَ الإطلاق، والبشارةُ تكونُ مِنَ المُخبِرِ الأوَّلِ[1] بخلاف الخبرِ، فإنَّه قد يكون مِنَ الأوَّل والثَّاني والثَّالث وكُلُّهم مُخبِرون، أمَّا البشارةُ فهي مِنَ المُخبِرِ الأوَّل، فإذا جاء واحد وكرَّرها فلا تكونُ بشارةً، وكذلك الخبرُ قد يكون صادقًا أو كاذبًا، أمَّا البشارةُ فإنَّها تختصُّ بالخبر الصَّادقِ السَّارِّ غالبًا.

(1) النَّوويّ، تحرير ألفاظ التَّنبيه، ص: 267، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 11/184.

﴿وَلَا يَحۡزُنكَ قَوۡلُهُمۡۘ إِنَّ ٱلۡعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًاۚ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ٦٥﴾

[يونس: 65]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

العطْفُ بتسليةِ سيِّدِ المرسلين، بعدَ البُشرَى لعمومِ الأولياءِ الصَّالحين

لَمَّا تقدَّمتِ البُشرى بنفْيِ الخوفِ والحزنِ معًا عنِ الأولياءِ الصَّالحين، عُلِمَ أنَّ المعنى: هذه البُشرى للأولياء، وأنت يا محمَّدُ رأسُهم، فلا تخف ولا تحزنْ، فعطَف بتسلية الرَّسول الأكرم، عمَّا لقيَه مِن أعدائه مِن أذى بقوله: ﴿وَلَا يَحۡزُنكَ قَوۡلُهُمۡ﴾[1]؛ لأنَّه لَمَّا ذكرَ النَّظمُ الكريمُ شُبهاتِ الكفَّار المتقدِّمةَ، وأجاب عنها؛ عدَلوا إلى طريقٍ آخَرَ، وهو أنَّهم هدَّدوه، وخوَّفوه بأنَّهم أصحابُ أموالٍ وأتباعٍ، فنسعَى في قَهرِك وفي إبطالِ أمْرِك، فأجاب تعالى عن هذا الطَّريقِ[2] وإذا كان النَّبيّ ﷺ وليَّ الله وهو أوَّلُ الأولياء وهاديهم، فلا يُلتفتُ إلى قول الّذين يناوئونه؛ لأنَّه وليُّ السَّميع العَليم[3]، كما أنَّه ﷻ كما أزال عنِ الرَّسول ﷺ حُزنَ الآخرة، في قولِه: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾، فكذلك أزال حزنَ الدُّنيا، بقوله: ﴿وَلَا يَحۡزُنكَ قَوۡلُهُمۡۘ إِنَّ ٱلۡعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًاۚ﴾[4].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَلَا يَحۡزُنكَ﴾: أصلُ الحزنِ الدّلالةُ على خُشُونَةِ الشَّيْءِ وشِدَّته، يُقال: حَزَنَه، يَحْزُنُه، وحَزِنَ، يَحْزَنُ، فهو حَزِينٌ، ومنه الْحَزْنُ، وهو ما غَلُظَ مِنَ الأرضِ، ومنه كذلك الحُزَنُ: الجبالُ الغِلاظُ. وكذلك هو الغَمُّ الحاصِلُ لِوُقُوعِ مَكْروهٍ أو فَواتِ مَحْبُوب. فعمومُ هذه المادَّة

(1) البقاعيّ، نظم الدُّر: 9/155، وطنطاويّ، التَّفسير الوسيط: 7/97.
(2) ابن عادل، اللُّباب في علوم الكتاب: 10/368.
(3) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 7/3606.
(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/278.

تدلُّ على جفافٍ وخشونةٍ تخالطُ باطنَ الشَّيء أو تمتدُّ فيه فيغلظُ ويخشنُ، والمقصودُ في الآية: الغمُّ والابتئاسُ الحاصلُ من قولهم.

2) ﴿ٱلۡعِزَّةَ﴾: العِزُّ في الأصل: القوَّة والشِّدَّةُ والغَلَبَةُ والرِّفعة والامتنَاعُ، خِلافُ الذُّلِّ[1]، يُقال: عزَّ فلانٌ، أي: صار عزيزًا، أي: قَوِيَ بعد ذِلَّة. وأعزَّه اللّه. وهو يعتزُّ بفلان[2]، ورجلٌ عَزِيزٌ: منيعٌ، لا يُغلب، ولا يُقهر. وعَزَّ الشَّيء: إذا لم يُقدر عليه، وعَزَّ الشَّخص: قَوِيَ وبَرِئَ مِنَ الذُّلّ[3]. فهذه المادَّةُ في كلام العرب لا تَخرجُ عن معانٍ ثلاثةٍ: أحدُها: الغَلَبَة، يقولون: مَن عَزَّ بَزَّ. أي: من غَلَبَ سَلَب، والثَّاني: الشِّدَّة والقوَّة، ومنه: عَزَّ يَعَزُّ. والثَّالث: نَفَاسَة القَدْر، يقال منه: عَزَّ يَعِزُّ. والمقصودُ في الآية: المعاني الثَّلاثة، قال الفرَّاء: "فإنَّها أي: ﴿ٱلۡعِزَّةَ﴾ للّه جميعًا، أي: كلُّ وجهٍ مِنَ العزَّة فلله"[4]، ووجهُ ذلك أنَّ العِزَّة الَّتي للّه تعالى ولرسوله ﷺ وللمؤمنين هي الدَّائمةُ الباقيةُ التي هي العِزَّةُ الحقيقيَّةُ، والعِزَّةُ الَّتي هي للكافرين هي التَّعَزُّزُ، وهو في الحقيقة ذلٌّ، وعلى هذا قولُه: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُواْ لَهُمۡ عِزًّا ٨١﴾ [مريم: 81]، أي: ليتمنَّعوا بها مِنَ العذاب[5].

3) ﴿جَمِيعًاۚ﴾: الجيمُ والميمُ والعينُ أصلٌ واحدٌ، يدلُّ على تَضامِّ الشَّيء، يُقالُ جمعتُ الشَّيءَ جمعًا[6]، وجميعٌ وأجمعُ وأجمَعونَ تُستعملُ لتأكيدِ الاجتماع على الأمر، فأمَّا أجمعون فتوصفُ به المعرفةُ، ولا يصحُّ نصبُه على الحال نحوَ قولِه تعالى: ﴿فَسَجَدَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمۡ أَجۡمَعُونَ ٣٠﴾ [الحجر: 30]، ﴿وَأۡتُونِي بِأَهۡلِكُمۡ أَجۡمَعِينَ ٩٣﴾ [يوسف: 93]، فأمَّا جميع فإنَّه قد يُنصب على الحال فيؤكَّدُ به من حيث المعنى، نحو: ﴿ٱهۡبِطُواْ مِنۡهَا جَمِيعٗاۖ﴾ [البقرة: 38][7]، والمقصود في الآية: لفظٌ لوصفِ ﴿ٱلۡعِزَّةَ﴾.

4) ﴿ٱلسَّمِيعُ﴾: الأصلُ في السَّمع: قوَّةٌ في الأُذن تُدرَكُ بها المسموعاتُ، وفِعلُه يُقال له السَّمْعُ أيضًا، وقد سَمِع سَمعًا، وهو من أبنية المبالغة في الوصْفِ بالسَّمع، يُعبَّرُ تارةً بالسَّمع

(1) ابن الأثير، النِّهاية، وابن منظور، لسان العرب، والزَّبيديّ، تاج العروس: (عزز).
(2) الجوهريّ، الصّحاح، وابن منظور، لسان العرب: (عزز).
(3) أحمد مختار عمر، معجم اللّغة العربيّة المعاصرة، وإبراهيم مصطفى وآخرون، المعجم الوسيط: (عزز).
(4) الفرّاء، معاني القرآن: 2/367.
(5) الرّاغب، المفردات: (عزّ)، وابن الجوزيّ، زاد المسير في علم التَّفسير: 1/113، بتصرف.
(6) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (جمع).
(7) الرّاغب، المفردات، والطِّيبي، فتوح الغيب: 11/159.

عنِ الأذن نحو: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ﴾ [البقرة: 7]، وتارةً عن فِعله كَالسَّماع، نحو: ﴿إِنَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّمۡعِ لَمَعۡزُولُونَ ۝٢١٢﴾ [الشّعراء: 212]، وتارةً عنِ الفَهم، وتارةً عنِ الطَّاعة، تقول: اسمَعْ ما أقول لك، ولم تَسمَع ما قلتُ، وتعني لم تفهم[1]، والاستِمَاعُ: الإصغاءُ، نحوَ: ﴿نَّحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَسۡتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذۡ يَسۡتَمِعُونَ إِلَيۡكَ﴾ [الإسراء: 47]، فإذا وصفتَ اللّه تعالى بِالسَّمعِ فالمرادُ به عِلمُه بِالمسمُوعَاتِ، وتحرِّيه بالمجازاة، وهذا المعنى هو المقصودُ في الآية[2].

❁ المَعْنى الإجْمالِيُّ:

يخاطِبُ اللّه تعالى نبيَّه ﷺ مُسلِّيًا له عمَّا لقيَه مِن أعدائِه مِن أذى، فيقولُ له: ولا يحزُنْك قَولُ المُشرِكينَ، في جانب الرُّبوبيَّة، أو في جانبك بالطَّعن والشَّتم والتَّهديدِ، فالعاقبةُ لك بالنَّصر والعِزِّ، فإنَّ اللّه يُعزُّ أولياءَه، فهو المُنفرِدُ بجميعِ العِزَّة في الدُّنيا والآخرة، فهو مانِعُك مِن أذى المُشرِكين، وهو السَّميعُ لأقوالهم، العليمُ بأفعالهم ونياتِهم، فالدَّاخلُ على اللّه منكورٌ، فكلُّ مَن رام الخصوصيَّة فلْيعوِّلْ على الطَّعن والإنكار، وليتسلَّ بما تسلَّى به النَّبيُّ المختارُ، ولينتظرِ العِزَّ والنَّصر مِنَ الواحد القهَّار[3]، لا مِن الحاسدين والمكذِّبين والكفَّارِ.

لله الغَلَبةُ والقوَّةُ والمَنعةُ، وهو سُبحانه السَّميعُ العليمُ

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دَلالة العطْفِ بالواو:

قولُه سُبحانه: ﴿وَلَا يَحۡزُنكَ قَوۡلُهُمۡۘ﴾، معطوفةٌ على جملةِ ﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾، عطْفَ الجُزئيِّ على

تطمينُ الرَّسولِ وأولياءِ الله، بأنَّهم في كنَفِه الحَصينِ

(1) الرّاغب، المفردات، السَّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (سمع)، والمناويّ، التّوقيف على مهمّات التعاريف، ص: 197، والمعجم الوسيط: 1/449.

(2) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ، والزّبيديّ، تاج العروس: (سمع)، والطّيبيّ، فتوح الغيب: 5/19.

(3) ابن جرير، جامع البيان: 12/226، وابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 3/129، والقرطبيُّ، الجامع لأحكام القرآن: 8/359، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/282، وابن عجيبة، البحر المديد: 2/485.

الكُلِّيِّ، لأنَّ الحُزن المذكورَ هُنا نوعٌ مِن أنواع الحُزن المنفيِّ في قوله: ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾، ولأنَّ الرَّسول ﷺ مِن أولياء الله الَّذين لا خوفٌ عليهم[1]. وفي هذه الجملة الكريمةِ تسليةٌ له ﷺ وتأنيسٌ لقلبه، وإرشادٌ له إلى ما سيقعُ له مِن أعدائه مِن شرور، حتَّى لا يتأثَّرَ بها عند وقوعِها[2]، وتبشيرٌ له ﷺ، بأنَّه ﷻ ينصرُه ويُعِزُّه عليهم، إثْرَ بيانِ أنَّ له ولأتباعه أمنًا مِن كلِّ محذور، وفوزًا بكلِّ مطلوب[3].

دلالة العطْفِ بالواوِ:

إعطاءُ مضمونِ الجملةِ المعطوفةِ استقلالًا بالقصْدِ إليه

قولُه تعالى: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ﴾، في هذه الجملةِ كان مقتضى الظَّاهرِ أن يعطفَ بفاء التَّفريع؛ لأنَّ دفعَ هذا الحُزنِ يتفرَّعُ على ذلك النَّفي، ولكن عَدَلَ إلى العطْفِ بالواو؛ ليُعطيَ مضمونَ الجملةِ المعطوفةِ استقلالًا بالقصْدِ إليه، فيكونَ هذا ابتداءَ كلامٍ مع عدمِ فواتِ معنى التَّفريع، لظهوره مِنَ السِّياقِ[4].

دَلالةُ تخصيصِ النَّهيِ عنِ الحُزن:

بيانُ أنَّ حُزْنَ النَّبيِّ ﷺ كان لتكذيبِهم المقيتِ

تخصيصُ النَّهي عنِ الحُزْنِ بالإيراد في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ﴾، مع شمولِ النَّفيِ السَّابقِ للخوف أيضًا، إذْ لم يكنْ عندَه ﷺ شائبةُ خوفٍ حتَّى يُنهَى عنه، ورُبَّما كان يعتَريه في بعض الأوقات نوعُ حُزْنٍ فسلَّاه عن ذلك[5]، والنَّهيُ عن الحُزن نهيٌ عنِ الاستسلام له والانشغالِ به، بل أمرَه الله أن يَستَمِرَّ في دعوته؛ لأنَّ الله عاصمُه مِنَ النَّاس، وقد علَّل ذلك النَّهيَ بما يُبيِّنُ أنَّ الغَلَبَ في النِّهاية له، فقال ﴿إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾[6]، ولا يخفَى أنَّه إذا قُلنا إنَّ الخوفَ والحُزن مُتقاربان، فإذا اجتمعا افترقا، وإذا افترقا اجتمعا، كان النَّهيُ عنِ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/220.
(2) ابن عطية، المحرَّر الوجيز: 3/129، وطنطاوي، التفسير الوسيط: 7/97.
(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/161.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/221.
(5) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/161.
(6) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3606.

الحُزن نهيًا عنِ الخوف أيضًا، إلَّا أنَّ الأولى عدمُ اعتبار ما فيه تَوَهُّمُ نسبةِ الخوف إلى ساحته ﷺ، وإن لم يكن في ذلك نقصٌ، فقد جاء نهيُ الأنبياء ﷺ عنِ الخوف، كنهيِهم عنِ الحُزن، بل قد ثبت صريحًا نسبةُ ذلك إليهم، وهو ممَّا لا يُخلُّ بمرتبةِ النُّبوَّة؛ إذ ليس كلُّ خوفٍ نقصًا، ليُنَزَّهوا عنه كيف كان[1].

بَلاغةُ الكنايةِ في النّهيِ عنِ الحُزن:

الأمرُ بالانصرافِ عنِ الحُزن وقايةٌ لرسوله وتثبيت لقلبه

قولُه تعالى: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ﴾ خطابٌ للنَّبيِّ ﷺ، وظاهرُ صيغته أنَّه نهيٌ عن أن يُحزِنَه كلامُ المشركين، مع أنَّ شأن النَّهيِ أن يتوَّجه الخطابُ به إلى مَن فعل الفعلَ المنهيَّ عنه، ولكنَّ المقصودَ مِن مثل هذا التَّركيب نهيُ النَّبيِّ ﷺ عن أن يتأثَّرَ بما شأنُه أن يُحزن النَّاسَ مِن أقوالهم، أي: لا تحزنْ لقولهم فيُحزنكَ، وإنَّما وجَّه النَّهيَ إلى قولهم للمُبالغة في نهيه ﷺ عنِ الحُزن، إذ إنّ النَّهى عنِ التَّأثير نهيٌ عنِ التَّأثُّر بأصله[2]، فلمَّا وجَّه الخطابَ إليه بالنَّهي عن عملٍ هو مِن عمل غيرِه، تعيَّن أنَّ المُرادَ بذلك الكنايةُ عن نهيه هو، عن حصول ذلك الحُزن في نفسِه، بأن يصرفَ عن نفسِه أسبابَه وملزوماتِه، فيؤولُ إلى معنى: (لا تترك أقوالهم تُحْزنكَ)، وهذا كما يقولون: (لا أرَيَنَّكَ تفعل كذا)، و(لا أعرفنَّك تفعل كذا)، فالمُتكلِّمُ ينهَى المُخاطَبَ عن أن يراه المتكلِّمُ فاعلًا كذا، والمرادُ نهيُه عن فعل ذلك، حتّى لا يراه المُتكلِّمُ، فهو من إطلاق الملزومِ وإرادة اللَّازم، والنَّهيُ عنِ الحُزن، وهو أمرٌ نفسيٌّ لا اختيارَ للإنسان فيه، المرادُ به هُنا النَّهيُ عن لوازمه، كالإكثار مِن مُحاولة تجديد شأن المصائبِ، وتعظيمِ أمرها، وبذلك تتجدَّد الآلامُ، ويَصعبُ النِّسيانُ[3].

(1) الآلوسي، روح المعاني: 6/144.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 6/144، والبروسويّ، روح البيان: 4/63.
(3) طنطاوي، التَّفسير الوسيط: 7/97، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/221.

أثرُ اختلافِ القراءةِ القرآنيَّةِ في ﴿يَحْزُنكَ﴾:

إفادةُ المبالغةِ في المنعِ عنِ الحزن، وفي الثَّبات على هذا المنعِ

قرأ نافعٌ بضمِّ الياء وكسر الزَّاي، مِن: أحزَنه يُحزِنه، وقرأ الباقون بفتح الياء وضمِّ الزَّاي[1]، وهما لغتان وكلاهما بمعنًى؛ لكنَّ قراءةَ نافعٍ تُفيدُ المبالغةَ في المنع عنِ الحُزن، وفي التَّحضيض على زيادة الوثوق والثَّبات عليه[2]، فكأنَّه قيل: لا تحزن بقولهم ولا تبالِ بكلِّ ما يَتفوَّهون به في شأنك ممَّا لا خيرَ فيه[3].

سِرُّ حذْفِ مَقولِ القولِ:

تفصيلُ أقوالِ المشركين فيما سبقَ مِنَ السُّورة، علَّةٌ في الحذفِ

قولُه تعالى: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ﴾، فيها وقفٌ تامٌّ[4]، والمعنى ولا يحزنْك يا محمَّدُ ويُهمَّك قولُهم، أي: قولُ كفَّار قريش، ولفظةُ القول تعمُّ جُحودَهم واستِهزاءَهم وخِداعَهم وغيرَ ذلك[5]، وفيه: نهاه عنِ الحُزن والغمِّ مِن قولهم الَّذي يقولونَه في تكذيبه الَّذي تقدَّم مُفَصَّلًا في هذه السُّورة، فحذَفَ مقولَ القول للعِلم به[6].

دَلالةُ عوْدِ الضَّميرِ المتَّصلِ في: ﴿قَوْلُهُمْ﴾:

تحقيرُ شأنِهم وشأنِ مقالتِهم، إبانةٌ عنِ المرادِ

الضَّميرُ في: ﴿قَوْلُهُمْ﴾ في قولِه تعالى: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ﴾ يعودُ على المكذِّبين القائلين الأقوالَ التي يتوصَّلون بها إلى القَدْحِ فيه، وعبَّر عنهم بالضَّمير تحقيرًا لشأنِهم وشأنِ أقوالهم، وما يُحزِنُ النَّبيَّ ﷺ هو ما يمسُّ دعوتَه، أو تُنتَهكُ فيه حُرماتُ اللّٰه وشرعُه، فقد كان لا يغضبُ لنفسه، ولكنَّه كان لا يقومُ لغضبِه شيءٌ إذا تُعرِّض للحقِّ بشيء حتَّى ينتصرَ له، وكذلك حُزنُه لم يكن على نفسِه، ولكن على دعوتِه ودينِ ربِّه الَّذي كلَّفَه ببلاغِه.

---

(1) ابن مجاهد، السبعة، ص: 219، وابن الجزريِّ، النَّشر في القراءات العشر: 2/244.
(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 9/514.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 6/144.
(4) السّمعانيّ، تفسير القرآن: 2/394.
(5) ابن عطية، المحرّر الوجيز: 3/129.
(6) رشيد رضا، تفسير المنار: 11/452.

دَلالةُ تخصيصِ النَّهيِ عنِ الحُزن من الأقوالِ:

بيانُ أنَّ غالبَ أذيَّتهم وأكثرَها كانت أقوالًا

قولُه تعالى: ﴿وَلَا يَحۡزُنكَ قَوۡلُهُمۡۘ﴾، يعني لفظُ ﴿قَوۡلُهُمۡۘ﴾: إشراكَهم وتكذيبَهم وتهديدَهم، وقِيل: المُرادُ ادِّعاؤهمُ العزَّةَ لأنفسهم بدليل ما بعدَه مِنَ الكلام[1]، ولفظةُ القول تَعُمُّ جُحودَهم واستهزاءَهم وخداعَهم وغيرَ ذلك[2]، وقد أشار إلى ذلك النَّسفيُّ في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحۡزُنكَ قَوۡلُهُمۡۘ﴾ فقال: "أي: تكذيبُهم وتهديدُهم وتشاورُهم في تدبير هلاكِك وإبطالِ أمرك"[3]، فالحُزن المذكورُ هو الحُزنُ النَّاشئُ عن إيذاء المشركين محمَّدًا ﷺ، بأقوالهم البذيئةِ وتهديداتِهم، ووَجْهُ الاقتصارِ على دحضِه أنَّ النَّبيّ ﷺ لم يكن يَلقى مِنَ المشركين مَحْزَنًا إلَّا أذى القَول البَذيءِ[4]، فيكونُ من إطلاق العامِّ وإرادةِ الخاصِّ، وإمَّا أن يكون ممَّا حُذِفت منه الصِّفةُ المخصِّصةُ، أي: قولُهم الدَّالُّ على تكذيبك ومُعاندتِك[5].

سرُّ الفصْل في: ﴿إِنَّ ٱلۡعِزَّةَ﴾:

من مقاصدِ المعنى النَّهيُ السَّابقُ وتثبيتُ النَّبيِّ، وطمأنةُ قلبِه

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًاۚ﴾، تعليلٌ للنَّهي على طريقة الاستئنافِ، فَكأنَّه ﷺ قد قال: كيف لا أحزنُ والمشركون يتطاولون علينا ويتوعَّدونَنا وهم أهلُ عِزَّةٍ ومَنَعَةٍ؟ فكان الجوابُ: بأنَّ عِزتهم كالعدم؛ لأنَّها محدودةٌ وزائلةٌ، والعزَّةُ الحقُّ للّه الَّذي أرسلك، فالغلبةُ كلُّها، والقوَّةُ كلُّها للّه وحدَه لا لغيره، فهو ناصرُك ومُعينُك ومانعُك[6]، وهو سُبحانه القديرُ على أن يغلِبَهم ويقهرَهم ويعصمَك منهم[7]، فهو استئنافٌ بمعنى التَّعليلِ لدفع الحُزن عنه، ولذلك

(1) الجرجانيُّ، درج الدُّرر: 1/825.
(2) ابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 3/129.
(3) النّسفيّ، مدارك التّنزيل وحقائق التّأويل: 2/31.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/221.
(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/82.
(6) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 8/359.
(7) طنطاوي، التَّفسير الوسيط: 7/97، والزَّمخشريّ، الكشَّاف: 2/357.

فُصِلت عن جملة النَّهي[1]، حيث تمَّ الكلامُ عند جملةِ النَّهي، أي لا يحزنك افتراؤهم وتكذيبُهم لك، ثُمَّ ابتدأ فقال: ﴿إِنَّ ٱلۡعِزَّةَ لِلَّهِ﴾، أي القوَّة الكاملةُ والغلبةُ الشَّاملةُ والقدرةُ التَّامّةُ للّه وحدَه، فهو ناصرُك ومُعينُك ومانعُك[2]، وفي هذا التَّعليل تثبيتٌ للنَّبيِّ، وطمأنينةٌ لقلبه، وأنَّ خلافَ قومِه عليه لا يَضُرُّه، لأنَّه مُؤَيَّدٌ من ربِّه، ربِّ العزَّة التي يَذِلُّ لها الجبابرةُ[3].

دَلالةُ افتتاحِ الجملةِ بالتَّوكيدِ بالحرفِ، واسميَّةِ الجُملةِ:

الاهتمامُ بمدلولِ الجملةِ وتقويةِ حُكمِها

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًاۚ﴾ افتُتحتِ الجملةُ بحرف التَّأكيد للاهتمام بها، ولأنَّه يُفيدُ مُفاد لام التَّعليل، وفاءِ التَّفريع، في مثلِ هذا المقام الذي لا يُقصَدُ فيه دفعُ إنكارٍ مِنَ المُخاطَب[4]، وفي هذا التَّوكيد جوابٌ لسؤالٍ مُقدَّرٍ، كأنَّه قيل: (هل العزَّةُ للّه جميعًا فيقهرُ المشركين وينصرُ المؤمنين؟)، ولمَّا كان السُّؤالُ عن سبب خاصٍّ، أُكِّدَ بلفظة ﴿إِنَّ﴾، مع إيراد الجُملةِ اسميَّةً[5].

دَلالةُ كسرِ همزة ﴿إِنَّ﴾:

دفعُ تَوَهُّم كوْنِ (إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا) من قولِهم، وهو لا يستقيمُ

كُسِرَتْ ﴿إِنَّ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًاۚ﴾؛ للاستئناف بالتَّذكيرِ لما ينفي الحُزْنَ، لا لأنَّها بعدَ القول، لأنَّها ليست حكايةً عنهم[6]. فلا يجوزُ أن تكون كُسِرَتْ لأنَّها وقعت بعد القول؛ لأنَّه يصيرُ حكايةً عنهم، وأنَّ النَّبيَّ ﷺ يحزنُ لذلك وهذا كُفْرٌ[7]، وعليه يحسنُ الوقفُ على كلمة ﴿قَوۡلُهُمۡۘ﴾ لكيلا يَتَوَّهمَ بعضُ مَن يسمعُ جملةَ ﴿إِنَّ ٱلۡعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًاۚ﴾ فيَحسَبَه مقولًا لقولهم فَيَتَطَلَّبَ سؤالًا يقعُ في

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/221.
(2) القرطبيُّ، الجامع لأحكام القرآن: 8/359.
(3) عبد الكريم الخطيب، التَّفسير القرآنيّ للقرآن: 6/1043.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/222.
(5) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 9/514.
(6) النَّيسابوريّ، إيجاز البيان: 1/401.
(7) المجاشعيّ، النَّكت في القرآن الكريم، ص: 242.

الذِّهن، لماذا يكون هذا القولُ سببًا لحزن الرَّسول ﷺ؟ وهو ممَّا يَسُرُّه، لا العكس! فكيف يحزن الرَّسولُ مِن قول ﴿إِنَّ ٱلۡعِزَّةَ لِلَّهِ﴾، وإن كان في المقام ما يهدي السَّامعَ سريعًا إلى المقصود[1]، ولتعيين هذه الأداةِ المؤكِّدةِ، وإبرازِ الجملة الاستئنافيَّةِ التي تبتدئ بها، في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحۡزُنكَ قَوۡلُهُمۡۘ إِنَّ ٱلۡعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًاۚ﴾، وقد "جاء العلماءُ بالوقفِ هنا لندقِّقَ القراءةَ ونُحْسِنَ الفهمَ. ولذلك علينا أن نقرأ ﴿وَلَا يَحۡزُنكَ قَوۡلُهُمۡۘ﴾، ثمّ نتوقَّف قبل أن نتابعَ القراءةَ ﴿إِنَّ ٱلۡعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًاۚ﴾؛ وبهذا نفهمُ المعنى: (يجب ألَّا تحزنَ يا محمَّد؛ لأنّ أقوالَهم لن تُغيِّرَ في مجرى حتميَّة انتصارِك عليهم)"[2].

دَلالةُ التَّقييدِ بالحالِ، وغرضُ تذكيرِها في: ﴿جَمِيعًاۚ﴾:

التّأكيدُ بأنَّ العِزَّة لله، تَسْلِيَة لقلب نبيِّه ومُصطفاه

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًاۚ﴾، أي: حالَ كونِها جميعًا، فسيذلُّهم ويُعزُّ دينه، فالحالُ موكِّدةٌ مضمونَ الجملة قبلها، المفيدَ لاختصاصه تعالى، بجميع جنس العزَّة؛ لدفع احتمالِ إرادةِ المبالغة في مِلكِ ذلك الجنسِ[3]، والمرادُ بذلك التَّسليةُ عن قولهم الذي يُؤذونه به[4]؛ وهو حالٌ مِنَ الضَّمير في الخبر، ولم يُؤنَّث؛ لأنَّ (فعيلًا) مِن صيغ المصدر، وهو يصلحُ بلفظ واحدٍ لكلِّ ما أُريد به، ولو كان هُنَا وصفًا أو توكيدًا لقيلَ: (إنّ العزَّة جميعَها لله)[5].

دَلالةُ (أل) في: ﴿ٱلۡعِزَّةَ﴾:

العزَّة بُرمَّتها لله تعالى، ولا عزَّة لغيره مهما أُوتي من بأسٍ

التَّعريف في ﴿ٱلۡعِزَّةَ﴾ في قولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًاۚ﴾ تعريفٌ للجنس المُفيدِ للاستغراق بقرينة السِّياق[6]، والعزَّةُ: هي الغلبةُ والسُّلطانُ، وجميعُها لله تعالى، فلا عزَّة لغيره مهما كان له مِنَ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/222.
(2) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 10/6044.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/222.
(4) البقاعي، نظم الدُّرر: 9/155.
(5) أطفيش، تيسير التَّفسير: 6/275.
(6) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/222.

القوَّة، وهم لا يَنالونَ من رسولِه، مهما كان ما يُظهرون مِن استكبارٍ، وما يُبدونه مِن علوٍّ وطُغيانٍ، والعزَّةُ المنسوبةُ للّه في قوله: ﴿إِنَّ ٱلۡعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًاۚ﴾، قد محَّضتِ العزَّة للّه تعالى، ولم يُذكر الرَّسول ﷺ؛ لأنَّ عزَّة اللّه سبحانه هي عزّة لنبيِّه، وهو ناصرُه ووليُّه[1].

فائدةُ اللَّام في: ﴿لِلَّـهِ﴾:

العِزَّة لله، ثابتةٌ له جلَّ في علاه، ولا معنى لعزَّةِ مَن سِواه

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًاۚ﴾، أي: في مملكتِه وسُلطانِه لا يملكُ أحدٌ شيئًا منها أصلًا، لا هم ولا غيرُهم[2]. فاللَّام في قوله: ﴿لِلَّهِ﴾ للمِلْك، وقد أفادَ جعْلُ جنس العِزَّة مُلكًا للّه أنَّ جميع أنواعها ثابتٌ له، فيُفيدُ أنَّ له أقوى أنواعِها وأقصاها، وبذلك يُفيدُ أنّ غيرَ اللّه لا يملكُ منها إلَّا أنواعًا قليلةً، فلذلك لا يكونُ لِما يملكُه غيرُ اللّه مِنَ العزَّة تأثيرٌ، إذا صادم عِزَّةَ اللّه تعالى، ولا يكونُ لعزّة بشرٍ تأثيرٌ إلَّا إذا أمهلَه اللّه، فكلُّ عزَّة يستخدمُها صاحبُها في مناوأة مَن أراد اللّه نصْرَه، فهي مدحوضةٌ مغلوبةٌ، كما قال تعالى: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغۡلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ٢١﴾ [المجادلة: 21][3]، فالعزَّةُ كُلُّها للّه، وما سواه ذليلٌ مهينٌ[4].

سرُّ إثباتِ العِزَّة لله وحده في: ﴿إِنَّ ٱلۡعِزَّةَ لِلَّـهِ جَمِيعًاۚ﴾:

كـلُّ عِـزَّةٍ لغير اللـه مُستمَدَّةٌ مِن عِزَّته

لا تَعارُضَ بين قوله سُبحانه: ﴿إِنَّ ٱلۡعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًاۚ﴾ وقولِه في آية أخرى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [المنافقون: 8]؛ لأنَّ كُلَّ عِزَّة لغيره سُبحانه مُستمَدَّةٌ مِن عِزَّته، وكُلَّ قوَّة من تأييده وعونِه، والرَّسولُ ﷺ والمؤمنون إنَّما صاروا أعزّاءَ بفضل رُكونِهم إلى عِزَّةِ اللّه تعالى، وإلى الاعتمادِ عليه، وقد أظهرَها سُبحانه على أيديهم تكريمًا لهم[5].

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3606.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/161، والبروسويّ، روح البيان: 4/63.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/223.
(4) عبد الكريم الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 6/1043.
(5) طنطاوي، التَّفسير الوسيط: 7/97.

دَلالةُ الاستئنافِ في: ﴿هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾:

تسليةُ النَّبيِّ ﷺ وتأكيدُ وعدِه له بالنَّصر

جملةُ ﴿هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ مُستأنَفةٌ استئنافًا آخرَ في تقرير مضمون الأوَّل، وهو تسليتُه ﷺ، وتأكيدُ وعدِه بالعِزَّة ووعيدِ تكذيبِه[1]، حيث إنَّه السَّميعُ لما يقولونه، العليمُ بما يفعلونه، وسيحميك منهم، ويُجازيهم عليه جزاءً وِفاقًا، فلا يَشْغَلَنَّكَ أمرُهم، وفي هذا تثبيتٌ لفؤاد النَّبيِّ ﷺ، وتأكيدٌ لوعده بالنَّصر[2].

سرُّ إجراءِ هذا الخبرِ على الضَّميرِ العائدِ على اسمِ الجلالةِ:

تقويةُ التَّعليلِ الأوَّلِ بآخرَ يُقرِّرُ مضمونَه في نفس المُخاطَبِ

الضَّميرُ ﴿هُوَ﴾ يعودُ إلى لفظ الجلالة، "وإجراءُ هذا الخبرِ على اسم الجلالةِ الواقعِ رُكنًا في الجملة التَّعليليَّةِ، يَجُرُّ معنى التَّعليلِ إلى هذه الجملةِ، فتفيدُ الجملةُ تعليلًا آخرَ أو تكملةً للتَّعليل الأوَّل، لأنَّه إذا تَذَكَّر المُخاطَبُ أنَّ صاحبَ العِزَّة يعلمُ أقوالَهم وأحوالَهم، زاد ذلك قوَّةً في دَفْعِ الحُزْنِ مِن أقوالهم عن نفسه، لأنَّ الذي نهاه عنِ الحُزْنِ مِن أقوالِهم وتَطاوُلِهم، أشدُّ منهم قوَّةً، ومحيطٌ عِلْمُهُ بما يقولونه، وعليمٌ بأحوالِهم، فهو إذْ نهاك عنِ الحُزن مِن أقوالهم، ما نهاك إلَّا وقد ضَمِنَ لك السَّلامةَ منهم، مع ضعفِك وقوَّتِهم، لأنَّه يمدُّك بقوَّته، وهو أعلمُ بتكوين أسباب نصرِكَ عليهم"[3].

سِرُّ تخصيصِ التَّذييلِ بوصْفَيِ السَّمع والعِلْمِ:

تأكيدُ عِزَّةِ الله وإنذارِ المُكذِّبين المُستهزِئين بعاقبةِ ما يقولون

قولُه سبحانه: ﴿ٱلسَّمِيعُ﴾ أي لِمَا يقول هؤلاء المشركون مِن زورٍ وبهتانٍ، ﴿ٱلۡعَلِيمُ﴾ بما تموجُ به صدورُهم مِن شِركٍ وضَلالٍ، وسيجْزيهم بما كَسَبوا[4]، وهذان وصفانِ، يُؤكِّدان عِزَّةَ الله تعالى، وأنَّه وحدَه هو العزيزُ الغالبُ؛ لأنَّه سميع، أي: عالمٌ علمَ مَن يسمعُ، عليمٌ بكلِّ أحوالِهم ما خفي منها وما ظَهَرَ، ومَن كان كذلك فهو

(1) رشيد رضا، تفسير المنار: 11/452.
(2) حجازيّ، التَّفسير الواضح: 2/76.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/223.
(4) عبد الكريم الخطيب، التَّفسير القرآنيّ للقرآن: 6/1044، والآلوسي، روح المعاني: 6/144.

العزيزُ وحدَه، وفي التَّذييل بهذين الوصفين، إنذارٌ لهؤلاء المُستهزئين بعاقبة ما يقولون؛ لأنَّه يُحاسبُهم على ما يقولون ويستهزئون، واللّه هو الوليُّ وهو النَّاصرُ القادرُ على كلِّ شيء[1].

دَلالةُ السِّياقِ على تقريرِ قضايا الدِّينِ الأساس:

الله تعالى ناصرٌ دينَه ورسولَه، بِعزِّ عزيزٍ أو بِذُلِّ ذليلٍ

ما زال السِّياقُ يقرّرُ قضايا الدِّين الثَّلاثِ؛ التَّوحيدِ والنُّبوَّة والبعثِ، حيث قال تعالى مخاطبًا رسولَه محمَّدًا ﷺ: ﴿وَلَا يَحۡزُنكَ قَوۡلُهُمۡۘ﴾، أي لا يجعلْك قولُ المشركين المُفترين: لَسْتَ مُرْسَلاً وإنَّك لشاعرٌ مجنونٌ تحزنُ؛ فإنَّ قولَهم هذا لا يُنتج لهم إلَّا سوءَ العاقبة والهزيمةَ الحَتْميَّة، لأنَّ ﴿ٱلۡعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًاۚ﴾ فربُّك القويُّ القادر، سيهزمهم وينصرُك عليهم، إذًا فاصبر على ما يقولون ولا تَأسَ ولا تحزنْ، إنَّه تعالى هو السَّميع لأقوال عباده، العليمُ بأعمالهم وأحوالِهم، ولا يخفَى عليه شيءٌ مِن أمرهم[2].

❁ المتشابهُ اللَّفظيُّ:

التَّشابهُ اللَّفظيُّ بين آيتَيْ يونس، ويس:

نهيٌ عنِ الحُزن والجَزعِ، وتقريرٌ بأنَّ العزَّةَ والتَّمكينَ لربِّ العالمين

التَّشابه اللَّفظيُّ بين قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحۡزُنكَ قَوۡلُهُمۡۘ إِنَّ ٱلۡعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًاۚ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾، وقولِه تعالى: ﴿فَلَا يَحۡزُنكَ قَوۡلُهُمۡۘ إِنَّا نَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَ ٧٦﴾ [يس: 76] وبينهما تشابهٌ في الوَقف على ﴿قَوۡلُهُمۡۘ﴾ في السُّورتين؛ لأنَّ الوقفَ عليه لازمٌ، و﴿إِنَّ﴾ فيهمَا مكسورةٌ بالابتداءِ بالكتابة، ومحكيُّ القَول محذوفٌ ولا يجوز الوَصلُ لأنَّ النَّبيَّ ﷺ مُنزَّهٌ عَنْ أن يُخَاطَبَ بذلك[3]، والخطابُ في الآيتين كلتيهما مُوجَّهٌ إلى مقام النُّبوَّة الجليلِ، وقد وردتا في فترة الأحزان والامتحان، حيث يُرادُ بهذا الأسلوب الرَّقيقِ التَّسريَةُ عنِ النَّبيِّ

(1) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 7/3606.
(2) الجزائريّ، أيسر التَّفاسير: 2/489.
(3) الكرمانيّ، البرهان في توجيه متشابه القرآن، ص: 212.

والمؤمنين، حينما ضاقت عليهمُ الأرضُ بما رَحُبَت، وكان التَّقولُ بالأباطيل، والإزجافُ بالأكاذيب، والسُّخريةُ مِنَ المُرسَل والرِّسالة في أوْجِها، فكان الخِطابُ توجيهيًّا بليغًا، مُفاده أن يُعرض النَّبيُّ عن كلِّ ذلك، وأن يتوجَّه إلى اللّه تعالى، حيث الأمانُ والحمايةُ والمَنَعةُ.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

العزَّةُ والقوَّةُ:

العِزَّةُ تدلُّ على الشِّدَّةِ والتَّمكُّنِ في القدرةِ، والقوَّةُ مُطلقُ القُدرةِ

العزَّةُ تدلُّ اشتقاقاتُهَا على شدَّةٍ وقُوَّةٍ وما شاكَلَهُما مِنَ الغَلَبةِ والقهْرِ[1]، ومِنه قولُهم: رجلٌ عزيزٌ، أي: مُمْتنعٌ لا يُغلَبُ ولا يُقهر[2]، والعِزَّةُ: حَالٌ مانعةٌ للمرء مِن أن يُغلبَ، وتارةً تقعُ وصْفَ مدْحٍ، وتارةً تكُون وصْفَ ذمٍّ، فأمَّا ما يُذمُّ بها فعزَّةُ الكفَّارِ، قال اللّه سُبحانَهُ: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ۝٢﴾ [ص: 2]، وذلك أنَّ العزَّةَ للّه تعالى ولرسوله، هي العزَّةُ الحقيقيَّةُ، وهي الدَّائمةُ الباقيةُ، بخلاف العزَّةِ التي للكُفَّار، فإنَّما هي تَعَزُّزٌ، وهي في حقيقتها ذُلٌّ؛ لكونِها تَشَبُّعًا بما لم يُعْطَوْا[3]، واسمُ اللّه تعالى العزيز؛ معناه: القويُّ الذي لا يُغلبُ[4]. ولفظُ القوَّة وُضع أوَّلًا لما به يتمكَّنُ الحيوانُ مِن أفعالٍ شاقَّةٍ[5]، ثمَّ نُقل إلى مبدئِه وهي القدرةُ، وهي صفةٌ بها يتمكَّن الحيوانُ من الفعل والتَّرك، والقُوَّةُ تكونُ في البدن نحو: ﴿وَقَالُواْ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ [فصّلت: 15] وفي القلب: ﴿يَٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ بِقُوَّةٖ﴾ [مريم: 12] وفي المُعاوِنِ مِن خارج نحوَ: ﴿قَالُواْ نَحۡنُ أُوْلُواْ قُوَّةٖ وَأُوْلُواْ بَأۡسٖ شَدِيدٖ﴾ [النَّمل: 33]، وفي القُدرةِ الإلهيّةِ نحوَ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٞ ۝٢٥﴾ [الحديد: 25]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلۡقُوَّةِ ٱلۡمَتِينُ ۝٥٨﴾ [الذَّاريات: 58][6].

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عز).
(2) ابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم: (عز).
(3) السَّمين الحلبيّ، بصائر ذوي التَّمييز: 4/61.
(4) ابن الأثير، النِّهاية: (عز).
(5) الجرجانيّ، التَّعريفات، ص: 179.
(6) الكفويّ، الكلّيّات، ص: 718، والتَّهانويّ، كشَّاف اصطلاحات الفنون: 2/1302.

﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنۡ هُمۡ إِلَّا يَخۡرُصُونَ ٦٦﴾ [يونس: 66]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

العلاقةُ بين حصرِ العزَّة في الله وحدَه، وسيطرته على الكونِ ومَن فيه

لمَّا ذكرَ اللّٰه تعالى أنَّ العِزَّةَ له، وهي القَهرُ والغلبةُ، ذكرَ ما يُناسبُ القهرَ، وهو كونُ المخلوقاتِ مُلكًا له تعالى، فهو الرزاق ذو القوّة المتينُ[1]؛ فهم مِلكُه، يتصرَّفُ فيهم كيف يشاءُ[2]، فلمَّا خُتِمَت الآية السَّابقةُ بعموم سمْعِه وعلْمِه بعد قصرِ العِزَّة عليه، كان كأنَّه قيل: إنَّ العِزَّةَ لا تتمُّ إلَّا بالقُدْرَةِ، فأثبتَ اختصاصَه بالملك الذي لا يكونُ إلَّا بها[3]؛ فأقام بذلك الدَّليلَ على كوْنِ العِزَّة للّٰه جميعًا، وكوْنِ الجزاءِ بيده[4].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَتَّبِعُ﴾: أتبعَ القومَ: سبقوه فلحقَهم. يقال: تبعتُهم فأتبعتُهم، أي تلوتُهم فلحقتُهم. وقيل: أتبعَه إذا تبعَه يريدُ به شرًّا، كما أتبع فرعونُ موسى، وهو تابعُه وتبيعُه، وهو له تبَعٌ، وهم له تبعٌ، لأنَّه مصدرٌ وهم أتباعُه وتباعُه[5]. والاتِّباعُ: أصلٌ واحدٌ لا يشذُّ عنه مِنَ الباب شيءٌ، هو التُّلوُّ والقَفْو، يُقال تبعتُ فلانًا إذا تلوتُه واتَّبعتُه، وأتبعتُه إذا لحقتُه[6]، ويأتي بمعنى الاقتداء، وأصلُه: اقتفاءُ أثرِ الماشي، والمشيُ خلْفَه، ثمَّ استُعملَ في العمل بعمل غيرِه[7]، ومِن معانيه أيضًا: الائتمارُ والامتثالُ.

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/83.
(2) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 8/360، والسَّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 368.
(3) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 9/156.
(4) المراغي، تفسير المراغيّ: 11/132.
(5) الزّمخشريّ، أساس البلاغة: 1/89.
(6) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (تبع).
(7) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 7/427.

2) ﴿يَدۡعُونَ﴾: أصْلُ الدُّعاء: النِّداءُ، وهو إمالَةُ الشَّيءِ إليك بصوتٍ وكلام يكونُ منك، تقول: دعوتُ فلاناً، دعاءً ودعوةً، أي: ناديْتُهُ. والدَّعوةُ: المرَّةُ الواحدة مِن الدُّعاء[1]، ويأْتي الدُّعاءُ بِمعنى الطَّلَبِ والسُّؤالِ، يُقال: دَعَوْتُ الله، أدْعُوهُ، أي: سألْتُهُ، ومنه سُمِّيَت الرَّغبةُ إلى الله ﷻ دُعاءً[2]. ويُطلَقُ على الحثِّ على الشَّيءِ والتَّرغيبِ فيه، فيُقال: دَعا قَوْمَهُ إلى اتِّباعِهِ، أي: حثَّهُم ورَغَّبَهُم، والدُّعاء: العبادةُ، ويدلُّ عليه قولُه ﷺ: «الدُّعَاءُ هو الْعِبَادَةُ»، قال تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ﴾، ثُمَّ قال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ٦٠﴾ [غافر: 60][3]، وهذا ما عليه معنى ﴿يَدۡعُونَ﴾ في الآية الكريمة.

3) ﴿شُرَكَآءَۚ﴾: أصلُ (شرك): الشِّرْكَةُ، وهو أن يكُونَ الشَّيءُ بين اثنَينِ لا يَنفرِدُ به أحدُهُما. ويُقالُ: شارَكتُ فلانًا في الشَّيء، إذا صرتَ شَرِيكَهُ. وَأشركتُ فلانًا، إذَا جعلتَه شَريكًا لك[4]، "وجمعُ الشَّرِيكِ شُرَكاءُ"[5]، والشِّركُ: يأتي بِمعنى المُشاركة، وهي الانضمامُ والمُخالَطَةُ بين الشَّريكين، يُقال: شركتُه في الأمر وشارَكتُه: إذا انْضَمَمتُ إليهِ وخالَطتُهُ، وصِرتُ شَرِيكًا لَهُ[6]، ويُطلَقُ على الكُفرِ، والشِّركُ بالله تعالى ضربان: ضربٌ يُجعلُ لله فيه شريكٌ. وهذا - والعياذُ بالله منه - وصفَه تعالى بأنَّه ظُلمٌ عظيمٌ، والثَّاني الشِّركُ الصَّغير، وهو مراعاةُ غيرِ الله في بعض الأمور، وذلك كالرِّياء، والمقصودُ بالشُّركاء في الآية: همُ النُّظراءُ والأندادُ، أي: أنَّهم أشركوا عبادةَ غيرِ الله مع الله تعالى[7].

4) ﴿ٱلظَّنَّ﴾: أصلُ الظَّنِّ هو اسمٌ لما يَحصلُ عن أمَارةٍ، ومتى قَويتْ أدَّت إلى العِلمِ واليَقين[8]، يُقال: ظننتُ ظنًّا، أي: عَلمتُ وأيقَنتُ، ومنه قوله تعالى: ﴿وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلۡفِرَاقُ ٢٨﴾

(1) الجوهريّ، الصَّحاح، وابن فارس، مقاييس اللُّغة، وابن الأثير، النِّهاية: (دعا - دعو).
(2) الفرّاء، معاني القرآن: 2/118، وابن سيده، المحكم: (دعو).
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 5/266، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (دعو).
(4) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (شرك).
(5) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة، والرّاغب، المفردات: (شرك).
(6) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 27، والفيّوميّ، المصباح المنير: (شرك).
(7) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (شرك).
(8) الرّاغب، المفردات، والسَّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (ظن)، والفيروزباديّ، بصائر ذوي التَّمييز: 3/545، والمناويّ، التَّوقيف على مهمَّات التَّعاريف، ص: 231.

[القيامة: 28]، أي: عَلِم وأيقن[1]، وقوله تعالى: ﴿وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ﴾ [ص: 24]، أي: علم. ومتى ضعفت جدًّا لم يتجاوز حدَّ التَّوهُّم، فيكون معناها الشَّكَّ والتَّردُّدَ، يُقال: ظننت الشَّيءَ: إذا شَكَكْتَ فيه ولم تَتَيَقَّنْهُ[2]، ويأْتي الظَّن بمعنى الاتِّهام، والظِّنَّةُ: التُّهمة. وجمْعُه: ظُنونٌ. والمُرَادُ بِالظَّنِّ هنا العلمُ المُخطِئُ.

5) ﴿يَخْرُصُونَ﴾: أَصْلُ الخَرْصِ: حَزْرُ الشَّيءِ وَتَقْدِيرُهُ[3]، يُقَالُ: خَرَصتُ النَّخْلَ أَخْرِصُهُ خَرْصًا إِذَا حَزَرْت ثَمَرَهُ وَقَدَّرْتُهُ[4]، وَبَاعَهُ خَرْصًا، أي: تَقْدِيرًا مِن غَيرِ وَزنٍ. والخَرصُ الكَذبُ، يقال: خَرَصَ وتَخَرَّص واختَرَص، أي: افترى الكذبَ[5]، ودليله قولُه تعالى: ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ۝٢٠﴾ [الزُّخرف: 20]، أي: يكذبون، وحقيقةُ ذلك: أنَّ كلَّ قولٍ مقولٍ عن ظنٍّ وتخمينٍ يُقال فيه: خَرْصٌ، سواء أكان مُطابقًا للشَّيء أم كان مُخالفًا له، من حيث إنَّ صاحبَه لم يقله عن عِلمٍ ولا غلَبةِ ظنٍّ ولا سماع، بلِ اعتمد فيه على الظَّنِّ والتَّخمين، كفِعلِ الخارصِ في خَرْصِه، والمقصودُ في الآية: يُقدِّرونه جُزافًا بالظَّن والتَّخمين، كمن ينظرُ إلى شيءٍ فيُقدِّرُ كيلَه أو وزنَه بالنَّظر إليه دون معيارٍ.

المَعْنى الإجْماليُّ:

الآيةُ الكريمة تعرِض بعضَ مظاهر سُلطان اللّه وقدرتِه، وأنَّه سبحانه له مُلْك السَّماوات والأرض ومَن فيهنَّ، فهو وحدَه الجديرُ بأن يُمجَّد ويُعبَد، وأمَّا الذين يتَّبعُهمُ المشركون ويدعونَهم آلهةً مِن دون اللّه، ويجعلونَهم شركاءَ له، فإنَّما ذلك مِن باطلِهم وضلالِهم،

العزَّةُ والملكُ للّه، ومن ادَّعاهما سِواه، فباطلةٌ دَعواه

(1) الواحديّ، التَّفسير البسيط: 22/170، والقنّوجيّ، فتح البيان: 14/295.
(2) ابن السّكّيت، إصلاح المنطق، ص: 62، وابن سيده، المخصّص: 3/223.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن سيده، المحكم: (خرص - وحزر).
(4) السّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (خرص).
(5) الرّاغب، المفردات، والسَّمين الحلبيّ، عمدة الحُفَّاظ: (ظنّ)، والمناويّ، التَّوقيف على مهمَّات التَّعاريف، ص: 231.

ومِن حصائلِ ظُنونِهم وأوهامِهم؛ فهذا المعتقدُ الَّذي يعتقدونه في معبوداتِهم، وتلك المشاعرُ الَّتي تشدُّهم إليها، إنَّما هي ممَّا يولِّدُه الجهلُ، ويصوِّرُه الضَّلالُ[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دَلالةُ الاستئنافِ:

تيئيسُ المشركين من الانتصار على النَّبيِّ والمؤمنين

قولُه تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِۗ﴾، أي: الذي له الملكُ والإحاطةُ الكاملةُ[2]؛ فالمقصودُ بتوجيه هذا الكلام همُ المشركون، لتيئيسهم مِن كلِّ احتمالٍ لانتصارهم على النَّبيِّ ﷺ والمسلمين، فإنَّ كثيرًا منهم حين يفهمُ ما في الآيات الخَمْسِ السَّابقةِ مِن قوله: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأۡنٖ﴾ [يونس: 61] الآية، إلى هُنا، منَ التَّصريح بهوانِ شأنِهم عندَ اللّه وعندَ رسولِه، ومِنَ التَّعريض باقتراب حُلولِ الغَلَبة عليهم، يُخامرُهم بعضُ الشَّكِّ في صدْق الرَّسولِ، وأنَّ ما توعَّدَهم به حقٌّ، ثُمَّ يُغالطون أنفسَهم، ويُسَلُّون قلوبَهم بأنَّه إن تَحَقَّق ذلك سيجدون مِن آلهتهم وساطةً في دفع الضُّرِّ عنهم، ويقولون في أنفسهم: لمثل هذا عبدْناهم، وللشَّفاعة عندَ اللّه أعددْناهم، فَسِيقَ هذا الكلامُ لقطع رَجائِهم منهم بالاستدلال على أنَّهم دونَ ما يُظَنُّ بهم، فالجملةُ مستأنَفةٌ استئنافًا ابتدائيًّا[3].

فائدةُ وقوعِ الاستئنافِ عَقِبَ: ﴿وَلَا يَحۡزُنكَ قَوۡلُهُمۡۘ﴾:

دَحْضُ أقوالِ المُتقوِّلين، بتعليلِ ما سبقَ مِنَ الحُكم وتأكيدِه

مُناسبةُ وقوعِ هذه الجملةِ عقبَ جملةِ ﴿وَلَا يَحۡزُنكَ قَوۡلُهُمۡۘ﴾، أنَّ أقوالَهم دُحضت بمضمونِ هذه الجملةِ، وأمَّا وقوعُها عَقبَ قولِه: ﴿إِنَّ ٱلۡعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعٗاۚ﴾، فلِأنَّها حُجَّةٌ على أنَّ العِزَّة للّه، لأنَّ الّذي له

(1) البروسويّ، روح البيان: 4/63، والزُّحيليّ، التَّفسير المنير: 11/218، والخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 6/1045.

(2) الثَّعالبيّ، الجواهر الحسان: 3/256، والبقاعيّ، نظم الدُّرر: 9/156.

(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/224.

مَن في السَّماوات ومَن في الأرض، تكونُ له العِزَّةُ الحقَّةُ[1]، فهو تعليلٌ ثانٍ لقوله: ﴿وَلَا يَحۡزُنكَ قَوۡلُهُمۡۘ﴾ أو للتَّفرُّد بالعِزَّة[2].

سِرُّ افتتاحِ الجملةِ بحرفِ التَّنبيهِ: ﴿أَلَآ﴾:

إظهارُ أهميَّةِ العلْمِ بمضمونِ الجُملةِ وتحقيقِه

﴿أَلَآ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِۗ﴾ كلمةُ تنبيهٍ، ومعناهُ أنَّه لا مُلكَ لأحدٍ في السَّماوات ولا في الأرض إلَّا للّه[3] ﷻ؛ وافتتاحُ الجملةِ بحرف التَّنبيهِ، مقصودٌ منه إظهارُ أهميَّة العلْم بمضمونِها وتحقيقِه[4].

دَلالةُ التَّعقيبِ بحرفِ التَّأكيدِ ﴿إِنَّ﴾:

تأكيدُ ما سَبقَ زيادةٌ في تَسليَة النَّبيِّ ﷺ

﴿إِنَّ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِۗ﴾ تعقيبٌ بحرفِ التَّأكيد، بعدَ التَّنبيه ﴿أَلَآ﴾، وفيه تأكيدٌ لما سَبَقَ مِن اختصاص العِزَّة به تعالى، لتزيدَ سَلْوَتُه ﷺ، وبرهانٌ على بُطلان ظُنونِهم وأقوالِهم المَبْنيَّةِ عليها[5]، فقامَ الدَّليلُ على كونِ العِزَّة للّه جميعًا، وكونِ الجزاء بِيَدِه[6] والجملةُ مع ما فيها مِنَ التَّأكيد لِمَا سَبقَ، مِن اختصاص العِزَّة به جَلَّ شأنُه المُوجِبِ لسلْوته ﷺ، وعدمِ مُبالاتِه بمقالات المشركين، تمهيدٌ لما لَحِقَ مِن قوله سُبحانه[7].

نكتةُ تقديمِ المسند على المسند إليه:

قصْرُ المُلْكِ على اللّه تعالى وحدَه، من بَدهيَّاتِ الاعتقادِ

قوله تعالى: ﴿لِلَّهِ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾: أي أنَّ مُلكَ السَّماوات والأرضِ مُخَصَّصٌ ومَقْصورٌ على اللّه، فهو مَالكُ السَّماوات والأرض وما بينَهما ومَن فيهما، لا مُلْكَ لأحدٍ فيهما سِواه، فهو وحدَهُ صاحبُ السُّلطانِ المُطلقِ والتَّصرُّفِ الشَّاملِ[8]، فأكَّدَ النَّظمُ الكريمُ معنى

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/224.
(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 9/157.
(3) الخازن، تفسير الخازن: 2/453.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/224.
(5) القاسميّ، محاسن التَّأويل: 6/46، وشحاتة، تفسير القرآن الكريم: 11/2092.
(6) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 11/132، والهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 12/294.
(7) الآلوسي، روح المعاني: 6/145.
(8) الزُّحيليّ، التّفسير الوسيط: 2/989.

الاختصاصِ بتقديم الجارِّ والمجرور ﴿لِلَّهِ﴾؛ الذي يُفيدُ الحصرَ، فهي لله خَلْقًا ومُلْكًا[1]، لا لغيرِه أصلًا لا استقلالًا ولا اشتراكًا.

دَلالةُ لامِ المُلْكِ في: ﴿لِلَّـهِ﴾:

إفادةُ المُلْكِ التَّامِّ الكاملِ، يقينٌ لا رَيْبَ فيه

اللَّامُ في قوله تعالى: ﴿لِلَّهِ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِۗ﴾ تُفيدُ المِلكَ[2]؛ فالمُلْكُ الحقيقيُّ كاملٌ لله لجميع مَن في السَّماوات ومَن في الأرض، وما بينهما مِن الملائكة والجِنِّ والإنس، فهم جميعًا مملوكون لله تعالى، ومقهورون بسُلطانِه، عبيدٌ له، وكذلك جميعُ الكائنات فهي أيضًا تحت سُلطانه وقهْرِه[3]، فهو المُنشئُ الخالقُ، وصِفَةُ المُلْكِ تدلُّ على القدرةِ الباهرةِ[4]، فالخلقُ كلُّهم عبيدُه وإماؤُه، وهو خالقُهم ورازقُهم، وحُكمُه نافذٌ فيهم[5].

دَلالةُ التَّعبيرِ بـ ﴿مَن﴾:

بيانُ أنَّ نفْيَ المُلْكِ مع الله عنِ العُقلاءِ نفْيٌ عن غيرهم من باب أَوْلى

قَولُ الله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِۗ﴾، عبَّرَ فيه بـ لفظ ﴿مَن﴾ المُوصولةِ التي للعقلاء، والمرادُ كلُّ ما في الكونِ؛ لأنَّ السِّياقَ لِنَفيِ العِزَّة عن غيرِه، والعقلاءُ بها أجدَرُ، فنفْيُها عنهم نفيٌ عن غيرِهم بطريقِ الأَوْلى[6] فإذا كان هؤلاء الذين هم أشرفُ المُمكناتِ عبيدًا، لا يَصْلُحُ أحدٌ منهم للرُّبوبيَّة فما لا يعقلُ منها أَحَقُّ ألَّا يكونَ له نِدًّا أو شريكًا[7]؛ فجاء التَّعبيرُ القرآنيُّ هُنا بلفظِ ﴿مَن﴾ الشَّائعِ في العقلاء؛ للإيذانِ بعدمِ الحاجةِ إلى التَّصريح بغيرِهم؛ لأنَّهم إذا كانوا مع شرفِهم وعُلُوِّ منزلتِهم مملوكين لله تعالى كان غيرُهم مِمَّن لا يَعقلُ أولى بذلك[8].

(1) البيضاويُّ، أنوار التَّنزيل: 1/165، والقونويُّ، حاشيته على تفسير البيضاوي: 5/494.
(2) الشِّهاب الخفاجيّ، حاشيته على تفسير البيضاوي: 5/79.
(3) شحاتة، تفسير القرآن الكريم: 11/2092.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/750.
(5) الماورديُّ، النّكت والعيون: 1/360.
(6) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 9/157.
(7) البيضاويُّ، أنوار التَّنزيل: 3/118.
(8) طنطاوي، التَّفسير الوسيط: 7/98.

فذكْرُ ﴿مَن﴾ إمَّا تغليبٌ للعاقل، أو لأنَّ العاقلَ أشرفُ، فإذا مَلَكَهُ فأحرى أن يَملِك غيرَه، فهو تنبيهٌ على الأعلى بالأدنى[1].

سِرُّ تخصيصِ العُقلاءِ:

تخصيصُ العُقلاءِ تغليبٌ لشَرَفِهم، ولاعتقادِهم أنَّ الآلهةَ عُقلاءُ

خصَّ النَّظمُ الكريمُ العُقَلاءَ المُميِّزين، وهم الملائكةُ والثَّقلان (الإنس والجنُّ)، في قوله: ﴿مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِۗ﴾؛ لِيُؤذِنَ أنَّ هؤلاء إذا كانوا له وفي مُلكِه فهُم عَبيدٌ كُلُّهم، وهو ﷻ ربُّهم، ولا يَصلُحُ أحدٌ مِنهم للرُّبوبيَّةِ[2]، فلفظُ ﴿مَن﴾ الموصولةِ، شأنُها أن تُطلَقَ على العقلاء، وجيءَ بها هُنا مع أنَّ المَقْصِدَ الأوَّلَ إثباتُ أنَّ آلهتَهم مِلكٌ للّٰه تعالى، وهي جماداتٌ غيرُ عاقلةٍ، تغليبًا لشَرَفِهم على غيرِهم[3]، ولاعتقادِهم تلك الآلهةَ عُقلاءَ، وهذا مِن مُجاراة الخَصْمِ في المُناظرة، لإلزامِه بنهوض الحُجَّةِ عليه، حتَّى على لازم اعتقادِه[4]، فخصَّصَ ذوي العقول، إمَّا للتَّغليب، وإمَّا لأنَّ الآية سِيقت لبيان فسادِ عقائدِ أهلِ الشِّرك[5].

دَلالةُ الابتداءِ بِذِكْرِ السَّماوات:

بيانُ عِظَمِ السَّماوات، وكونِها أشرفَ مِنَ الأرض وأعلى

في قولِه تعالى: ﴿مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِۗ﴾ ابتدأ النَّظمُ الكريمُ بالسَّماوات؛ لأنَّ مُلْكَها يدُلُّ على مُلْكِ الأرضِ بطَريقِ الأولى[6]، وأيضًا لعظَمِها، ولأنَّها أشرفُ مِنَ الأرضِ وأعلَى[7]، فهو الخالقُ للسَّماوات وما فيها، مِن بديع المخلوقاتِ، وجميلِ المصنوعاتِ، وقد أوجدَها مِن عدمٍ بقُدرتِه، وأمدَّها مِن عدمٍ بقيُّوميَّتِه مِن غير أن يحتاجَ إلى أحدٍ مِن خلْقِه؛ لأنَّه غنيٌّ بذاته عن كلِّ شيءٍ، وما في

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/348.
(2) الزَّمخشريّ، الكشَّاف: 2/357، وأبو حيَّا، البحر المحيط: 6/83 - 84.
(3) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 9/157.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/225.
(5) حسن بن محمّد نظام الأعرج، تفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان: 3/598.
(6) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 9/156.
(7) ابن جماعة، كشف المعاني، ص: 251، وابن عثيمين، تفسير العثيمين: (الحجرات - الحديد)، ص: 363.

الأرض شيءٌ يسيرٌ لا يُقارَنُ بما في السَّماوات، وقد قدَّم الاستدلالَ بها لعظمة خلْقِها، وتقديمُ الأعظمِ على العظيمِ منهجٌ في الاستدلالِ، واضحٌ في الإبانة والمثالِ.

دَلالةُ ذِكْرِ السَّماوات والأرض:

السَّماواتُ والأرضُ أعظمُ ما يُرى مِنَ المخلوقاتِ

في قولِه تعالى: ﴿مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِۗ﴾ ذَكرَ النَّظمُ الكريمُ السَّماواتِ والأرضَ لاستيعاب أمكنةِ الموجوداتِ، ممَّا يراه النَّاسُ فكأنَّه قيل: ألا إنَّ للّه جميعَ المَوجودات[1]، فخَصَّ السَّماواتِ والأرضَ بالذِّكر، مِن بين المخلوقات؛ لأنَّها أعظمُ مَا يُرَى مِنَ المخلوقاتِ[2]، ولأنَّ السَّماواتِ والأرضَ تحويان ضمنَهما مِن بديعِ المخلوقات، وغرائبِ الموجودات، ما لا يستطيع عقلٌ أن يُحصيَه، ولا بشرٌ أن يستوعبَه، فهي أي السَّماواتُ والأرضُ معجزةٌ في خلقِها إجمالًا، ومُعجزةٌ في مُكوِّناتِها تفصيلًا، وذِكرُ المجملِ يُغني عنِ التَّفصيل، لأنَّ الثَّانيَ مُنْطَوٍ تحتَ الأوَّل، الذي يدلُّ عليه بإجمالِه، فيؤكِّدُ إعجازَه وروعةَ إيجادِه.

دَلالةُ تَوالي المُؤكِّداتِ:

سلْبُ صلاحيَّةِ كلِّ آلهةٍ سوى اللّه، لمنْعِ اتِّخاذِها آلهةً مع الله

قوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِۗ﴾، أُتْبِعَ التَّنبيهُ السَّابقُ بحرف التَّأكيدِ، وزِيدَ ذلك تأكيدًا بتقديم الخبرِ، في قوله: ﴿لِلَّهِ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ وباجتلاب لامِ المُلك[3]، وهي مؤكِّداتٌ مُتواليةٌ، تُؤكِّدُ سلْبَ صلاحيَّةِ الملائكةِ والأصنامِ والمسيحِ وغيرِهم، عنِ اتِّخاذها آلهةً، ولا اتِّخاذها وُسَطاءَ أو شُفعاءَ أو وسائلَ للّه، كما هو شأنُ حُكَّام الدُّنيا والملوكِ الظَّالمين الذين لا يصلُ إليهم إلَّا الوسطاءُ، فجميعُ مَن في السَّماوات والأرض مملوكٌ للّه تعالى[4].

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/225.
(2) أبو حيّان، البَحْرُ المُحيطُ: 2/750.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/224.
(4) الزُّحيلي، التَّفسير المنير: 11/216.

دَلالةُ العطْفِ في: ﴿وَمَا﴾:

تُعَدُّ هذه الجُملةُ كالنَّتيجةِ للجملةِ السَّابقةِ

قولُه تعالى: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَۚ﴾ معطوفٌ على قوله: ﴿لِلَّهِ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِۗ﴾، وهو كالنَّتيجة للجملة الأولى؛ إذِ المعنى أنَّ جميعَ الموجودات مِلكٌ للّه، واتِّباعُ المشركين أصنامَهم اتِّباعٌ خاطئٌ باطلٌ[1]؛ فكأنَّ سائلًا سأل: لمَّا كان مُلكُ جميعِ ما في السَّماوات والأرض للّه وحدَه، فماذا ينبني على هذا الحُكم؟ فجاء الجوابُ بأنَّ اتِّباعَ المشركين لأصنامِهم اتِّباعٌ باطلٌ؛ لأنَّ أصنامَهم ومَعْبُوداتِهم مَمْلوكةٌ لا مَالِكةٌ، فلذا وُصِلَتْ هذه الجُملةُ بما سَبَقَها، لِشِبْهِ كمال الاتِّصال بينهما.

سِرُّ الاختلافِ في معنى (ما):

استحالةُ الشِّراكةِ في ربوبيَّةِ الخلْقِ والمُلْكِ مع الله

نفَى النَّظمُ الكريمُ أن يكونَ للّه في الخَلْق والمُلكِ شريكٌ، بقوله: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ﴾ عاطفًا على ما تقديرُه: فما له شريكٌ ممَّا ادَّعاه المشركون منهما، أو مِن إحداهما[2]، والمعنى: ما يتَّبعون شركاءَ على الحقيقة، وإن كانوا يسمُّونَهم شركاء؛ لأنَّ إشْراك اللّه في الرُّبوبيَّة مُحالٌ؛ إن يتَّبعون إلَّا ظنَّهم أنَّها شركاءُ[3].

دَلالةُ الجملةِ منَ الآيةِ على صيغة الاستفهامِ:

إنكارُ عدمِ تقليدِ المشركينَ معبوديهم في خضوعِهم لله

وعلى القولِ بأنَّ قوله تعالى: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ﴾ في مَعْنى الاستفهام، يكونُ المعنى: أيَّ شيءٍ يتَّبعُ الذين يدعونَهم شُركاءَ مِنَ الملائكة والنَّبيِّين؟ يعني أنَّهم لا يتَّبعون إلَّا اللّه ولا يعبدون غيرَه، فما لكم لا تتَّبعونَهم، وفيه توبيخٌ للمُشركين على عدَمِ اقتدائِهم بهم في ذلك[4]، فيكونُ إلزامًا بعد برهانٍ وما بعده مصروفٌ عن خطابِهم

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/225.
(2) البقاعيّ، نظمُ الدُّرر: 9/157.
(3) السَّمين الحلبيّ، الدُّر المصون: 4/50، والعُليميُّ، فتح الرَّحمن: 3/297.
(4) الزَّمخشريّ، الكشَّاف: 2/357، والسَّمين الحلبيُّ، الدُّرُّ المصون: 6/236، وابن عطية، المحرّر الوجيز: 3/130.

لبيان سندِهم، ومنشأِ رأيِهم[1]، والمقصودُ تقبيحُ فعْلِهم يعني أنَّهم ليسوا على شيءٍ[2].

دَلالةُ ﴿وَمَا﴾، وتَوجيهُ معناها:

إثباتُ كونِ الشُّركاءِ ضُعفاءَ مملوكين لله الحقِّ

وقد تكونُ ﴿وَمَا﴾ موصولةً بمعنى (الّذي) في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ﴾، ويتفرَّع معناها على هذا الرَّأي على وجهين: الأوَّل أن تكونَ ﴿وَمَا﴾ موصولةً، عُطِفَت عَطْفَ نَسَقٍ على ﴿مَن﴾، في قوله: ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾، كأنَّه قيل: (ولله الشّركاءُ الذين يُدعَوْنَ من دون الله)، أي (وله شركاؤهم)، والثَّاني أن تكونَ ﴿وَمَا﴾ هذه الموصولةُ في محلِّ رفعٍ بالابتداء، والخبرُ محذوفٌ تقديرُه: (والّذي يَتَّبِعُه المشركون باطلٌ)، تحقيرًا لشأنِهم[3].

دَلالةُ الاسْمِ الموصولِ وصِلتُه:

تقريرُ كونِهم مُتَّبعين للّه تعالى مُطيعين له

المرادُ مِن ﴿ٱلَّذِينَ﴾، في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ﴾ - على قولٍ - الملائكةُ والمسيحُ وعزيرٌ عليهم الصَّلاة والسَّلام، فكأنَّه قيل: أيّ شيء يتَّبعُ الذين تَدعونَهم حالَ كونِهم شُرَكاءَ في زعمكم مِن الملائكة والنَّبيِّينَ تقريرًا لكونهم مُتَّبعين لله تعالى مُطيعين له، وتوبيخًا لهم على عدم اقتدائِهم بهم في ذلك، كقوله سبحانه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ﴾ [الإسراء: 57]، وحَاصِلُه أنَّ الذين تَعبدونَهم يَعبدون الله تعالى، ولا يَعبدون غيرَه، فما لكم لا تقتدون بهم، ولا تتَّبعونَهم في ذلك[4].

معنى الجارِّ والمجرور ﴿مِن دُونِ﴾ وتقديمُهما:

التَّقصيرُ عنِ الغايةِ في الألوهيَّة مِن كلِّ أحدٍ سوى الله معلومٌ

في قوله تعالى: ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾: لفظُ ﴿دُونِ﴾: نقيضُ فوق، وهو ظرفٌ

(1) المظهري، التَّفسير المظهري: 5/44.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/279.
(3) الزَّمخشريّ، الكشَّاف: 2/357، وأبو حيّان، البحر المحيط: 6/83، والسَّمين الحلبيّ، الدُّرُّ المصون: 4/50، والبقاعيّ، نَظْمُ الدُّرر: 9/157.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 6/145.

يدلُّ على التَّقصير عنِ الغاية[1]، وَصَفوا به ما ليس برفيع[2]، فقالوا: رجلٌ دونٌ، وثوبٌ دُونٌ، وهذا دُونَك في التَّحْقير، ويُقالُ: دُونَك زَيْدٌ في المنزلة والقُرْبِ[3]؛ ولمَّا لم يكن لأحدٍ أن يجوز كلَّ ما دون رُتبته سُبحانه، أثبت الجارَّ فقال: ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾، أي المَلِك الذي له الأمر كُلُّه[4].

دَلالةُ دعاءِ المشركين من دون الله:

قوله تعالى: ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَ﴾، أي له في ربوبيَّته ومُلْكِه، أي أنَّ هؤلاء المُشركين الَّذين يعبدون غيرَ اللّه بدعائِهم في الشَّدائد، واستغاثتِهم في النَّوازل، والتّقرُّب إليهم بالنُّذور والقرابين والوسائلِ، لا يتَّبعون شُركاءَ له في تدبير أمور عبادِه[5]، وإن كانوا يُسمّونهم شركاءَ، لأنَّ إشْراكَ اللّه في الرُّبوبيَّة مُحالٌ[6].

عبادةُ غيرِ اللهِ بالتَّقرُّب بالأصنام زُلفَى استعانةٌ بواسطةٍ، لا ترْكُ عبادته بالكلّيّةِ

وقيل: إنَّها على الحقيقة؛ لأنَّهم يعبدونَها على ظَنِّ أنَّهم شُركاءُ، فيشفعون لهم وليس الأمرُ على ما يَظُنُّون[7].

فائدةُ تقديرِ ﴿وَمَا يَتَّبِعُ﴾ موصولةً:

قوله تعالى: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾، صُرِفَ الخطاب إلى المشركين في قوله تعالى: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ﴾، وهذا على تقدير أنَّ ﴿وَمَا﴾ في قوله: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ﴾ موصولةٌ، والمعنى حينئذ: إن يَتَّبعُ هؤلاء إلّا الظَّنَّ ولا يتّبعون ما يتَّبِعُهُ الملائكةُ والنَّبيُّون عليهم السلام منَ الحقِّ[8]، فما بعدَه مصروفٌ عن خطابهم لبيان سَنَدِهم ومنشأ رأيِهم[9]؛ وهو اتِّباعُ المشركين للظَّنِّ الباطلِ،

صرفُ الخطابِ إلى المشركين إيضاحٌ لمَنشَأ ضلالِهم، وتعليلِ ما وُصِفوا به

(1) الجوهريّ، الصِّحاح، وابن منظور، لسان العرب: (دون).
(2) ابن سيده، المخصَّص: 4/234.
(3) الزَّبيدي، تاج العروس: (دون).
(4) البقاعي، نظم الدُّرر: 9/35.
(5) المراغي، تفسير المَراغي: 11/132، ورشيد رضا، تفسير المنار: 11/453.
(6) محيي الدِّين درويش، إعراب القرآن الكريم وبيانه: 4/272.
(7) البغويُّ، تفسير البغويِّ: 2/427.
(8) الآلوسي، روح المعاني: 6/145.
(9) المظهريّ، التّفسير المظهريّ: 5/44.

والرَّأي الفاسدِ، وقد بيَّن اللّه سببَ ضلالهم وإضلالِهم: بأنَّهم ما يعتقدون ويدينون إلّا عقائدَ ضالَّةً، وأديانًا سخيفةً، ظنُّوها حقًّا، لأنَّهم لم يَستفرغوا مقدرةَ عقولِهم في تَرَسُّم أدلَّةِ الحقِّ.

دَلالةُ أسلوبِ القصْرِ:

تحديدُ اتِّباعِهم وتديُّنِهم في الظَّنِّ الباطلِ، تحقيرًا لعقولهم

قوله تعالى: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾، فيه أسلوبُ قصْرٍ بـ ﴿إِن﴾ النَّافيةِ، والاستثناءِ بـ ﴿أَلَآ﴾ المفيدةِ للاستثناء والحصر[1]، والمعنى ما يتَّبعون في عقائدِهم وآدابِهم وأعمالِهم إلَّا الظَّنَّ[2]، وهو قصرٌ إضافيٌّ قُصِرَتْ فيه صفةُ اتِّباعهم على الظُّنون والأوهامِ التي توهَّمتْها عقولُهم.

دَلالةُ الفعل المضارعِ ﴿يَتَّبِعُونَ﴾:

استمرارُ المشركين في أهوائِهم، مع تجدُّدِها في قلوبِهم دومًا

وجِيءَ بالمضارعِ في ﴿يَتَّبِعُونَ﴾ للدَّلالةِ على أنَّهم سيستمرُّون على اتِّباع الظَّنِّ، وذلك يَدُلُّ على أنَّهم اتَّبعوا ذلك مِن قبلُ، بدلالة لحْنِ القول أو فَحْواه، كما جِيء بالمضارع مجموعًا هُنا ﴿يَتَّبِعُونَ﴾؛ ليكونَ المُرادُ عَامَّةَ الكفَّارِ، كَأَنَّهُ قال: إن يتَّبعُ الكافرون إلَّا الظَّنَّ[3].

ثُمَّ زاد ذلك توكيدًا، بقوله: ﴿وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾، أي وما هم في اتِّباع هذا الظِّن الذي لا يُغني مِنَ الحقِّ شيئًا إلَّا مُتخرِّصون قائِلون بغيرِ علمٍ بما يَقولون[4].

سِرُّ إفادةِ تَكرارِ الفعْلِ (يتّبع):

تأكيدُ (الاتِّباع) مبالغةٌ في بُطلانِ اتِّباعِهم، وفسادِ ظنونِهم

جملة: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ﴾ توكيدٌ لفظيٌّ لجملة ﴿وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ﴾، وأُعيد مضمونُها قضاءً لحقِّ الفصاحة، حيث حصل مِنَ البعدِ بين المُستثنى والمُستثنى منه، بسبب الصِّلَة الطَّويلةِ ما يُشبه

(1) إعراب القرآن الكريم عبد الله بن ناصح العلوان: 2/963، والصّافي، الجدول في إعراب القرآن وصرفه وبيانه: 11/159.

(2) رشيد رضا، تفسير المنار: 8/14.

(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 28/251.

(4) المراغي، تفسير المراغي: 11/132.

التَّعقيدَ اللَّفظيَّ، وذلك لا يليقُ بأفصح كلامٍ مع إفادة تلك الإعادة مُفادَ التَّأكيد؛ لأنَّ المقامَ يقتضي الإمعانَ في إثبات الغرَضِ[1].

دَلالةُ التَّعبيرِ بـ ﴿ٱلظَّنَّ﴾ ووقوعِ مفعوليَّتِه:

أثرُ الأوهام والهواجسِ في عقولهم، وتمكُّنِها من نفوسِهم

قوله تعالى: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنۡ هُمۡ إِلَّا يَخۡرُصُونَ﴾: ليس الظَّنُّ هُنا هو العلمُ الرَّاجحُ وإنَّما هو الأوهامُ والهواجسُ، تَتَوهَّمُها عقولُهم، ثُمَّ تَلِجُ فيها وتَستولي عليها بحُكم التَّزيين، حتَّى تكونَ كالظَّنِّ، بل حتَّى تكونَ كالعلم في عقولِهم التي عشَّشت فيها الأوهامُ، وأيقنتْ بها[2]، فهم يتَّبعون الظُّنونَ الضَّعيفةَ التي لا يصحُّ عقلًا الاحتجاجُ بها، ولا الاعتمادُ عليها، في قضايا العقائدِ الإيمانيَّةِ، والمصالحِ الخاصَّةِ من متاعات الحياة الدُّنيا؛ لأنَّهم لم يتقيَّدوا بمنهج الإسلام في العملِ بالظُّنونِ الرَّاجحةِ، حينما لا يتوافرُ اليقينُ بالأدلَّة القاطعةِ، أو البراهين السَّاطعةِ، و﴿ٱلظَّنَّ﴾ جاء مفعولًا للفعلين ﴿يَتَّبِعُ﴾، و﴿يَتَّبِعُونَ﴾، فإنَّهما كفعل واحد، وليس هذا مِنَ التَّنازُع؛ لأنَّ فعلَ التَّوكيد اللَّفظيِّ لا يطلب عَمَلًا، لأنَّ المقصودَ منه تكريرُ اللَّفظ دون العمل، فالتَّقديرُ: وما يتَّبعُ المشركون إلَّا الظَّنَّ، وإن هم إلَّا يخرصون[3].

دَلالةُ التَّذييلِ بالقصْرِ:

استحالةُ الجمعِ بين التَّحقيقِ والظَّنِّ

قولُه تعالى: ﴿وَإِنۡ﴾ أي: ما، و﴿هُمۡ إِلَّا يَخۡرُصُونَ﴾، أي: يَكذِبون في ذلك، فقد نفَى عنهمُ الهدايةَ المُنبثقةَ عن نورِ الحقيقةِ والعلمِ، وأثبت لهم أنَّهم ينطلقون وراءَ الخيالِ والجهلِ، وهو قصرٌ لصفة الخرْصِ - وهو التَّخمينُ - عليهم؛ لأنَّ التَّخمين لا يجتمع معه التَّحقيقُ والصِّدقُ، فالصِّفةُ المُثْبَتةُ مُنافيةٌ للصِّفة المَنفيَّة، لأنَّه لا يُتصوَّر اجتماعُهما في آنٍ واحدٍ.

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/225.
(2) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 7/3608.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/225.

دَلالةُ استعمالِ: ﴿يَخْرُصُونَ﴾:

ذمُّ الاستدلالِ بالخرْصِ؛ لأنَّه حَزْرٌ وتخمينٌ لا ينْضبطُ

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾: لفظ ﴿يَخْرُصُونَ﴾، معناه يَحدِسون ويُخمِّنون لا يقولون بقياسٍ ولا نظرٍ[1]، وخَرْصُ الشَّيءِ تقديرُه جُزافًا بالظَّنِّ والتَّخمين، كمن يَنْظُرُ إلى شيءٍ فيُقدِّرُ كيلَه أو وزنَه بالنَّظر إليه دونَ مِعيارٍ[2]. فلفظُ ﴿يَخْرُصُونَ﴾ أي يتَّبعُون الظَّنَّ الذي تُرجِّحُه لَهُم أهْواؤُهم، كما يَخرُصُ أهلُ الحرثِ ثمراتِ النَّخيل والأعناب وغيرِها، ويُقدِّرُون ما تأتي به مِنَ التَّمْر والزَّبيبِ، فلا شيءَ منها مبنيٌّ على علمٍ صحيح ثابتٍ، ولا هُو مَنوطٌ بدلائلَ تنتهي إلى اليقين[3].

وأصلُ الخرص: الحزرُ والتَّقديرُ للشَّيء على سبيل الظَّنِّ لا على سبيل الحقيقةِ، وحقيقةُ ذلك أنَّ كُلَّ قولٍ مقولٍ عن ظَنٍّ وتخمين، يُقال له خرصٌ، سواء أكان مُطابقًا للشَّيء أم كان مخالفًا له، من حيث إنَّ صاحبَه لم يقلْه عن علم ولا غلبةِ ظنٍّ ولا سماعٍ، بلِ اعتمد فيه على الظَّنِّ والتَّخمين، كفعلِ الخارِصِ في خَرصه[4].

واستُعمل الخَرصُ في مَوضِع الكذب على سبيل الاستعارة التَّصريحيَّة التَّبعيَّة؛ لأنَّ الخَرصَ يجري على غير تَحقيقٍ، فَشُبِّه بالكذبِ، واستُعملَ في مَوْضِعه[5]، وإطلاقُ الخرصِ على ظنونهمُ الباطلةِ، في غاية الرَّشاقةِ؛ لأنَّها ظُنونٌ لا دليلَ عليها غيرُ ما حسُنَ لظانِّيها؛ فالسِّياق اقتضى ذمَّ الاستدلال بالخَرص، لأنَّه حَزرٌ وتخمينٌ لا ينضبطُ.

السِّرُّ في تَكرارِ ﴿مَن﴾:

بيانُ كونِها أخصَّ مِنَ الآيةِ السَّابقةِ

إن قيل: لِمَ كُرِّرت ﴿مَن﴾ في قوله تعالى: ﴿مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ﴾، ولم تُكرَّرْ في الَّتي قبلها؟ فالجواب: أنَّه لمَّا كانت الأولى

(1) ابن عطيّة، المحرر الوجيز: 3/130.
(2) عبد الكريم الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 6/1040.
(3) رشيد رضا، تفسير المنار: 8/15.
(4) الرّاغب، المفردات: (خرص)، وطنطاويّ، التّفسير الوسيط: 98/7.
(5) العسكريّ، معجم الفروق اللّغويّة، ص: 214، ودرويش، إعراب القرآن وبيانه: 4/271.

أعمَّ مِنَ الثَّانية، أغنى ذلك العمومُ عن تَكرارِها[1]، أمَّا في هذه الآية فقد نَسب ما يدلُّ على العقلاء إلى الأجناس العاقلةِ المخصوصةِ، إذ "إنَّ للّه كلَّ مَن في السماوات والأرض عبيدًا مملُوكِين لَه، لا مَالِكَ لشيءٍ مِن ذلك سِواه، فكيف يكون إلهًا معبودًا ما يعبُدُه هؤلاءِ المشركون مِنَ الأوثانِ والأصنامِ، والعبادةُ للمالكِ دون المملوكِ، وللرَّب دونَ المَربُوبِ"[2].

التَّشابهُ اللَّفظيُّ:

وردَ في سورة يونس قولُه تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ أَلَآ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ۝٥٥﴾ [يونس: 55]، وفي الموضع الآخَر، جِيء بلفظ ﴿مَن﴾ بدل ﴿مَا﴾، قال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنۡ هُمۡ إِلَّا يَخۡرُصُونَ﴾، والفرقُ بينهما راجعٌ إلى مُناسبة السِّياق، فالمُناسبةُ اقتضت لفظَ ﴿مَا﴾ في الأولى، فقد ورد قبْلها قولُه تعالى: ﴿وَلَوۡ أَنَّ لِكُلِّ نَفۡسٖ ظَلَمَتۡ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ لَٱفۡتَدَتۡ بِهِۦۗ﴾ [يونس: 54]، والمقصود بذلك المآل والمأخذُ، فلفظُ ﴿مَا﴾ لغير العقلاء، أمَّا الآية الأُخرى فجاء التَّعبيرُ فيها بلفظ ﴿مَن﴾، والآيةُ نزلت في قومٍ آذَوا رسولَ اللّه، فنزلت فيهم: ﴿وَلَا يَحۡزُنكَ قَوۡلُهُمۡۘ إِنَّ ٱلۡعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًاۚ﴾ [يونس: 65]، فأنَّسَه رَبُّه وثبَّته، فهم لن يضروه بشيء ممَّا يَتوعَّدُونه مِنَ القتل، وأنواعِ المكروه، ثُمَّ أخبره أنَّ العِزَّة للّه وحدَه، وأنَّه يُعِزُّ عباده المؤمنين بعِزِّه، فالمُلك له وحدَه سُبحانه، له مَن في السَّماوات ومَن في الأرض، وعلى هذا جاء لفظُ ﴿مَن﴾؛ لأنَّ المُرادَ العقلاءُ الذين يُعزِّون دينَهم وينصرون نَبيَّهم[3]؛ ولبعض المفسرين تعليلٌ آخرُ للآية الثَّانية التي ورد فيها التَّعبيرُ بـ ﴿مَن﴾ يتمثّل في أنَّ المقصودَ بهم العقلاءُ المميِّزون؛ وهمُ الملائكة والثَّقلان، وإنَّما خَصَّهم ليُؤذِن أنَّ هؤلاء إذا كانوا له وفي مِلكه فهم عبيدٌ كلُّهم، وهو ﷻ ربُّهم، ولا يَصْلُحُ أحدٌ منهم للرُّبوبيَّة، ولا أن يكونَ شريكًا له فيها، فما وراءَهم ممَّا لا يَعْقِلُ أحقُّ ألَّا يكونَ له ندًّا وشريكًا[4]، فهذه حكمةُ ذِكْرِ ﴿مَن﴾ هُنا لا (ما)؛ لأنَّ المقصودَ إثباتُ أنَّ

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/348.

(2) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 11/132.

(3) الخطيب الإسكافيّ، درّة التّنزيل وغرّة التّأويل: 2/743 - 746، وابن الزّبير الغرناطيّ، ملاك التّأويل: 1/243، والكرمانيّ، البرهان في توجيه متشابه القرآن، ص: 141.

(4) الزَّمخشريّ، الكشَّاف: 2/357، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/279، وأبو حيّان، البحر المحيط: 6/83.

الأقوياءَ كالضُّعفاء كُلُّهم في مِلك يَدِهِ سواءٌ، فالسِّياقُ جارٍ فيها مَجراه، وهذا أكثرُ وضوحًا مِن التَّوجيهِ السَّابقِ.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الظَّنُّ والشَّكُّ:

الظَّنُّ: هو الاعتقادُ الرَّاجحُ مع احتمال النَّقيض، ويُستعملُ في اليقين والشَّكِّ، وقيل: الظَّنُّ: أحدُ طرفَي الشَّكِّ بصفةِ الرُّجحانِ[1]، فيكونُ الظَّنُّ يَقينًا ويكونُ شكًّا، وهو مِن الأضداد، كالرَّجاءِ يكونُ أمنًا وخوفًا[2]، أمَّا الشَّكُّ فهو اجتماعُ شيئين في الضَّمير، فهو استواءُ طرفَي التَّجويز، وأصلُ الشَّكِّ في العربيَّة مِن قولك: شَككتُ الشَّيء إذا جمعتَه بشيء تُدخِلُه فيه، بخلاف الظَّنِّ، فإنَّه رُجحَانُ أحدِ طرفَي التَّجويز، والشَّاكُّ يُجوِّزُ كَونَ مَا شكَّ فيهِ على إحدَى الصِّفتَين؛ لأنَّه لا دليلَ هناك ولا أمارَةَ، فالظَّنُّ فيه قُوَّةُ المعنى في النَّفس، وليس كذلك الشَّكُّ الذي هو وقُوفٌ بَين النَّقيضَيْن مِن غير تقويةِ أحدِهما على الآخرِ[3].

الشَّكُّ استواءُ طرفَي المشكوكِ فيه، والظَّنُّ رُجحانُ أحدِهما وتقويتُه

(يخرص) و(يكذب):

الكَذِبُ نقيضُ الصِّدق، وهو الإخبارُ عنِ الشَّيءِ بخلاف ما هو، سواء فيه العمدُ والخطأ[4]؛ والمذمومُ منه شرعًا ما كان مع العلْم به وَقَصْدِ الحقيقةِ[5]. وأمَّا الخرصُ فما يُحزَرُ مِنَ الشَّيءِ، يُقال: كم خِرْصُ نخلك؟ أي: كم يَجِيءُ مِن ثمرته؟ وإنَّما استُعملَ الخرصُ في موضع الكذب؛ لأنَّ الخرصَ يجري على غيرِ تحقيقٍ، فشُبِّه بالكذب، واستُعملَ في موضعه[6].

الكذبُ أعمُّ مِنَ الخرصِ، ويُشَبَّهُ به الخرصُ في جَريانِه على غيرِ التَّحَقُّقِ

(1) الفيّوميّ، المصباح المنير: 2/386، والجرجانيّ، التَّعريفات، ص: 144.
(2) الكفويّ، الكلّيّات، ص: 593.
(3) العسكريُّ، الفروق اللُّغويَّة، ص: 98 - 99.
(4) الفيّوميّ، المصباح المنير: 2/528.
(5) الكفويّ، الكلّيّات، ص: 768، وابن منظور، لسان العرب، والرّازي، مختار الصِّحاح: (كذب).
(6) العسكريُّ، الفروق اللُّغويَّة، ص: 214.

﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًاۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَسۡمَعُونَ ٦٧﴾ [يونس: 67]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

العلاقةُ بين عظمةِ الله وسَعةِ علْمِه، وبين أفعالِه الدَّالّةِ على آياته

لَمَّا نَصَّ النَّظمُ الكريمُ على عظَمة الله تعالى في الآية المتقدِّمة عقَّب ذلك في هذه بالتَّنبيه على أفعالِه لِتُبَيِّنَ العظمةَ المحكومَ بها قَبْلُ[1]، فهذه الآيةُ استدلالٌ على مضمون ما قبْلها، مِن نفي وجودِ شركاءَ له في الخلقِ والتَّقديرِ، ولا الشّفاعَة عنده في التَّصرّف والتَّدبير؛ فهو الذي جعل لكم الوقتَ قسمين، بمقتضى علْمِه ومشيئتِه بدون مساعدٍ ولا شفيعٍ، بل بمحضِ الحِكمة البالغةِ، والرَّحمةِ الشَّاملةِ؛ أحدُهما: اللّيلُ، جعله مظلمًا لأجل أن تسكنوا فيه بعدَ طولِ الحركةِ والتَّقلُّبِ في الأرض، تستريحون مِنَ التَّعب في طلبِ الرّزقِ، والآخَرُ: النَّهارُ، جعلَه مُضيئًا ذا إبصارٍ لتنتشروا في الأرض، وتقوموا بجميع أعمالِ العمرانِ والكسبِ[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿جَعَلَ﴾: بمعنى صنعَ، إلا أنَّ جَعَلَ أعمُّ، يقال: جعلَ يفعلُ كذا، ولا يقال: صنع يفعلُ كذا[3]، و﴿جَعَلَ﴾ لفظٌ عامٌّ في الأفعال كُلِّها، وهو أعمُّ مِن فَعَلَ وصَنَعَ، وسائرِ أخواتها. يأتي لمعانٍ: جَعَلَ الشَّيءَ جَعلاً: وَضَعَهُ، جَعَلَ بَعْضَه فوقَ بعضٍ: ألقاهُ. جَعَلَ القَبِيحَ حَسَنًا: صيَّرهُ، ومنه قولُه تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ﴾ [الأعراف: 27]، أي: صيّرْناهمْ، وقولُه تعالى: ﴿وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ٣٠﴾ [مريم: 30]، أي:

(1) ابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 3/130.
(2) رشيد رضا، تفسير المنار: 11/371.
(3) الحميريّ، شمس العلوم: (جعل).

صَيَّرني. جَعَلَ البَصرة بغدادَ: ظنَّها إيَّاها. جَعَلَ له كذا على كذا: شارَطَهُ بِه عليه، ومنه الجَعالَةُ[1].

2) ﴿لِتَسۡكُنُواْ﴾: أصْلُ مفردةِ (سكن) يَدُلُّ على خِلَافِ الاضْطِرابِ والحركةِ[2]، والسَّكَنُ: الأهلُ الَّذين يَسكنونَ الدَّارَ[3]، والسَّكينةُ: الطُّمأنينة والاستقرارُ والرَّزانة والوقارُ[4]، قال ابن القيِّم: "هي الطُّمأنِينة والوقارُ والسُّكونُ، الَّذي يُنزِله اللّه في قلب عبدِهِ عندَ اضطرابه مِن شدَّة المخاوف، فلا ينزعجُ بعد ذلك لِمَا يردُ عليه، ويُوجبُ له زيادةَ الإيمان، وقوَّةَ اليقين والثَّبات"[5]، وقال الجُرجاني: السَّكِينَة: "ما يجدُه القلبُ مِنَ الطُّمَأنِينة عند تنزُّل الغيب، وهي نورٌ في القلب يَسْكُنُ إلى شاهده ويطمئنُّ"[6]، والمقصودُ في الآية: زوالُ اضطراب عناء النَّهار بالرُّكون للرَّاحة والطُّمأنينةِ.

3) ﴿مُبۡصِرًاۚ﴾: أصلُ مفردةِ (البصر): وضوحُ الشَّيءِ، وبَصُرَ الطَّريقُ أي: اسْتَبانَ وَوَضُحَ، وَالبَصيرَةُ: البُرهانُ[7]، ويُطلَقُ البَصرُ على حاسَّةِ العَينِ، والجَمعُ: أبْصارٌ[8]، والإبصار: الرُّؤيةُ والنَّظرُ بالعينِ[9]، والبَصيرُ والمُبصِرُ: النّاظِرُ لِغَيْرِهِ، وضدُّهُ الأعْمَى. ويأتي البَصرُ أيضًا بِمَعْنَى: العِلم والإدراك، وهي الرُّؤيةُ بالقلب، كقولك: بَصُرْتُ بِالشَّيءِ إذَا عَلِمْتَهُ وَأدْرَكْتَهُ، والبَصيرَةُ: قُوَّةُ الإدراكِ والفِطْنَةُ والعِلْمُ، والجَمعُ: بَصائِرُ[10]، والمُرادُ بـ ﴿مُبۡصِرًاۚ﴾ في الآيةِ: مُضيئًا يُوضِّحُ الأشياءَ ويُجلّيها؛ لأنَّ الإبصار ينشأُ عنه التَّصرّفُ بالمصالحِ، والإظلامُ ينشأُ عنه السُّكونُ.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

يُخاطبُ اللّه تعالى النَّاسَ مُبيِّنًا بعضَ مظاهرِ نِعمِه عليهم، وآثارِ رحمتِه في عِباده،

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (سكن).
(2) الرّاغب، المفردات، والسَّمين الحلبي، عمدة الحُفَّاظ، والزَّبيديّ، تاج العروس: (جعل)، والسُّيوطيّ، الإتقان: 2/225.
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (سكن).
(4) مجمع اللُّغة العربيَّة بالقاهرة، المعجم الوسيط: 1/440.
(5) ابن قيّم الجوزيّة، مدارج السَّالكين: 2/503.
(6) الجرجانيّ، التَّعريفات، ص: 159.
(7) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (بصر).
(8) ابن سيده، المحكم، وابن منظور، لسان العرب: (بصر).
(9) الكفويّ، الكلّيّات، ص: 247.
(10) ابن منظور، لسان العرب: (بصر)، وإبراهيم مصطفى، المعجم الوسيط: 1/59.

وليس لِما يعبدُ المشركون مِن آلهةٍ - صوَّرتْها لهم الظُّنونُ والأوهام - شيءٌ مِن هذا الذي خلَقَه اللّه، وما أفاض به على عباده من نِعم. فهو سُبحانه الذي جعل اللَّيل سَكنًا، يُؤْوي الكائناتِ الحيَّةَ، ويهيئ لها فرصةً للرَّاحة مِن سعْيِها في النَّهار، حتَّى تُجدِّدَ نشاطَها، وتستعيدَ قوَّتَها، لتستقبل السَّعيَ والعملَ في يومٍ جديدٍ، بنشاطٍ مُتجدِّدٍ[1].

فائدةُ جعْلِه اللَّيلَ والنَّهارَ للسَّكن والحركةِ بالعشيِّ والإبكارِ

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دَلالةُ الاستئنافِ:

في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ استدلالٌ على المضمون قَبْلَها، مِن نفي وجود شُركاءَ له في الخلق والتَّقدير، ولا في الشَّفاعة عنده في التَّصرّف والتَّدبير، أي: هو الذي جعلَ لكمُ الوقتَ قسمين بمقتضى عِلْمِه ومشيئتِه بدون مُساعدٍ ولا شفيعٍ، بل بمحْضِ الحكمةِ البالغةِ والرَّحمةِ الشَّاملةِ[2]، فهو استئنافٌ لتقريرِ ما سلف مِن كونِ جميعِ المَوجودات المُمكنةِ تحت قُدرتِه ومُلكِه المُفصِحِ عنِ اختصاصِ العزَّة به سُبحانه[3]، والجُملةُ الكريمةُ بيانٌ لمظاهرِ رحمة اللّه تعالى بعباده، بعدَ بيان سَعةِ علمِه، ونفاذِ قدرتِه، وشمولِها لكلِّ شيءٍ في هذا الكون[4]، ولأجل هذا تُرك العطفُ.

تقريرٌ بأنَّ جميعَ المَوجوداتِ المُمكنةِ تحت قُدْرَةِ اللهِ وهيمنَتِه

دَلالةُ الافتتاحِ بالضَّميرِ ﴿هُوَ﴾:

قولُه تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ﴾، افتُتحتِ الجملةُ بالضَّميرِ المنفصلِ ﴿هُوَ﴾، أي: هو وحدَه[5]، وفيه تنبيهٌ على

التَّنبيهُ على عظيمِ قُدرةِ اللهِ، وشُمولِ نعمتِه لعبادِه

(1) ابن جرير، جامع البيان: 12/227، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/282، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/228، والخطيب، التَّفسير القرآنيّ للقرآن: 6/1046.

(2) رشيد رضا، تفسير المنار: 11/454.

(3) الآلوسي، روح المعاني: 6/145.

(4) طنطاوي، التَّفسير الوسيط: 7/100.

(5) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 9/158.

تفرُّده تعالى بالقُدرةِ الكاملةِ والنِّعمةِ الشَّاملةِ؛ لِيَدُلَّهم على توحُّده سبحانه باستحقاق العبادةِ[1].

دَلالةُ القصْرِ الحقيقيِّ:

الاستدلالُ على انفرادِه تعالى بخصائصِ الإلهيَّة

في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ﴾ طريقٌ مِن طُرقِ القصْرِ، وهو تعريفُ المُسندِ والمسنَدِ إليه؛ وهو هُنا قَصْرٌ حقيقيٌّ وليس إضافيًّا كما توهَّمَه بعضُ الكاتِبين؛ إذ جعلَه قصْرَ تعيينٍ[2]، وهم معترفون به لا يستطيعون دفعَ هذا الاستدلالِ، فالمقصودُ الاستدلالُ على انفراده تعالى بخصائص الإلهيَّةِ الّتي منها الخَلقُ والتَّقديرُ، وأنّ آلهتهم انتفت عنها خصائصُ الإلهيَّة، وقد حصَلَ مع الاستدلالِ امتنانٌ على النَّاس بجعْلِ اللَّيل والنَّهار على هذا النِّظامِ[3].

دَلالةُ الاحتباكِ:

الاكتفاءُ بالمذكورِ عنِ المتروكِ، من بلاغةِ السِّياقِ

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًاۚ﴾، في هذه الآية احتباكٌ؛ حيث حَذَفَ مِن كلٍّ نظيرٍ ما أثبتَه في الآخر، فَحَذَف مِن الأوَّل وصفَ اللَّيل بالإظلام، وذكر حكمتَه، وحذَف مِنَ الثَّاني الحكمةَ وذكر وصْفَه[4]، والتَّقديرُ: جعل اللَّيلَ مُظلمًا لتسكنوا فيه، والنَّهارَ مُبصرًا لتتحرّكوا لمصالحِكم، فحذَف مِن كلٍّ مِن الجانبين ما ذكرَ في الآخر، اكتفاءً بالمذكورِ عنِ المتروكِ[5]؛ وذلك أنَّه ذَكَرَ عِلَّةَ جعْلِ اللَّيل لباسًا، وهي قوله: ﴿لِتَسۡكُنُواْ﴾ وحذفَها مِن جعلِ النَّهار، وذكرَ صفةَ النَّهار، وهي قوله: ﴿مُبۡصِرًاۚ﴾ وحذفَها مِن ﴿ٱلَّيۡلَ﴾ لدلالة المقابلِ عليه، وهذا أفصحُ كلامٍ[6]، ونُلاحظ أنَّ

(1) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/118، والآلوسي، روح المعاني: 6/145.
(2) ذهب الى هذا الشّهاب الخفاجيّ وتبعه في ذلك الآلوسي، يُنظر: الشِّهاب الخفاجيّ، حاشيته على تفسير البيضاوي: 5/80، والآلوسي، روح المعاني: 6/145.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتنوير: 11/227.
(4) أحمد الصَّاوي، حاشية الصَّاوي على الجلالين: 2/110.
(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/84، والقاسميّ، محاسن التَّأويل: 6/47.
(6) السَّمين الحلبيّ، الدُّرُّ المصون: 4/51.

في هذه الألفاظ إيجازًا وإحالةً إلى ذهن السَّامع؛ لأنَّ العبرةَ في أنَّ اللَّيل مظلمٌ أنّه يُسكن فيه، والنَّهار مُبصرٌ، يُتصرَّف فيه، فذكرَ طرفًا مِن هذا، وطرفًا من الجهة الثَّانية[1].

بلاغةُ المجازِ العقلِّي:

المُبالغةُ في حصولِ الإبصارِ في النَّهار، مُعجزةُ الخالقِ القهَّارِ

قوله تعالى: ﴿وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًاۚ﴾: ﴿مُبۡصِرًاۚ﴾: اسمُ فاعل من الفعل أبْصَرَ بمعنى رأى، ووَصْفُ النَّهار بأنَّه مبصر مِن قبيل المجاز العقليِّ؛ لأنَّ نور النَّهار سببُ الإبصارِ، فأضافَ الإبصارَ إليه؛ لأنّ السّامعَ قد فهِمَ المقصود؛ إذِ النَّهار لا يُبْصِرُ، وإنَّما هو ظرفٌ يُفْعَلُ فيه غيرُه[2]، فَوَصْفُ النَّهار بلفظ ﴿مُبۡصِرًاۚ﴾ مجازٌ عقليٌّ، للمُبالغة في حصولِ الإبصار فيه، حتَّى جعل النَّهارَ هو المُبصر[3].

سرُّ استعمالِ الفعْلِ مع اللَّيلِ، والاسْمِ مع النَّهارِ:

التَّفرقةُ بين الظَّرفِ المجرورِ، والظَّرفِ الذي هو سببٌ

قوله تعالى: ﴿ٱلَّيۡلَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًاۚ﴾، استعملَ النَّظمُ الكريمُ الفعلَ مع اللَّيل ﴿لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ﴾، والاسمَ مع النَّهار ﴿مُبۡصِرًاۚ﴾، ولم يُسوِّ بينهما، فلم يقل: ساكنًا ومُبصرًا، ولا لتسكنوا فيه، ولتبصروا فيه، مع أنَّ الاستعمالَ الحقيقيَّ هو: (لتُبْصِرُوا فيه)، وذلك أنَّه جمعَ الحقيقةَ والمجازَ في تعبيرٍ واحدٍ، ولو جعلَهما بصورة تعبيريَّةٍ واحدةٍ، لفاتت هذه المزيَّةُ الفنيَّةُ، فإنَّه ذكرَ نعمةَ اللّه علينا في اللَّيل، فقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ﴾، ولو قال: "هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ سَاكِناً"، لم يكنْ فيه دلالةُ نعمةٍ على الخلْق مِن ناحيةٍ، ولكانت ﴿لَكُمُ﴾ هنا زائدةً ليس لها فائدةٌ، فجيءَ بـ ﴿لَكُمُ﴾ وبالصِّيغة الفعليَّةِ للدَّلالةِ على قصْدِ النِّعمة والتَّفَضُّلِ علينا، ولَمَّا تقرَّرت دلالةُ النِّعمة في صدرِ الآية[4]، كان

(1) الثّعالبيّ، الجواهر الحسان في تفسير القرآن: 3/256.
(2) ابن الجوزيّ، زاد المسير: 2/340.
(3) الزُّحيليّ، التَّفسير المنير: 11/215.
(4) محمَّد بن يوسف أطفيش، تيسير التَّفسير: 6/277.

العُدولُ إلى التَّعبيرِ المجازيِّ بعد ذلك، فعدلَ مِنَ الفعلِ إلى الاسم، ومِنَ الحقيقةِ إلى المجازِ العقليِّ، فقال: ﴿وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًا﴾، وذلك أنَّ النَّهارَ لا يُبصرُ، بل يُبصرُ مَن فيه، والعدولُ عن (لتُبْصِرُوا فِيهِ) الذي يَقتضيه ما قبلُ إلى ما في النَّظم الجليل، للتَّفرقة بين الظَّرف المجرور والظَّرف الذي هو سببٌ يتوقَّف عليه في الجملة[1]، فلم يقل لتُبصروا فيه، ليُوافقَ ما قبْله تفرقةً بين الظَّرفين؛ إذِ الظَّرفُ الأوَّل ليس سببًا للسُّكون والدَّعة، بخلاف الثَّاني فإنَّه ظرفٌ للإبصار، وسببٌ له أيضًا، فجمعَ بين التَّعبيرِ الحقيقيِّ والمجازيِّ، ودلَّ على المقصدِ الأوَّل مِنَ الآية، وهو الدَّلالةُ على النِّعمة، بأقربِ طريق، فأكْسبَ المعنى جمالًا ودقَّة وروعةً[2].

دَلالةُ الاستعارةِ في ﴿وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًا﴾:

المُبالغةُ في تصويرِ حُصولِ الإبصارِ والوضوحِ في النَّهار آيةُ الله في الخلْقِ

في قوله تعالى: ﴿وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًا﴾: يجوزُ أن يجريَ ﴿مُبۡصِرًا﴾ على أنَّه استعارةٌ مكنيَّةٌ، إذا قصدَ التَّشبيهَ حيث شبَّه النَّظمُ الكريمُ النَّهارَ بالإنسان، وذكرَ صفةً مِن صفاتِه وهي الإبصارُ؛ لأنَّ النَّاسَ يُبصرون فيه، فكأنَّ ذلك صفةُ الشَّيء، بما هو سببٌ له، أي للإبصار على طريق المُبالغةِ[3]، كقولهم: نهارُه صائمٌ، وليلُه قائمٌ[4].

سرُّ وَصْفِ النَّهار بوصْفِ العُقلاء:

كونُ آيةِ النَّهارِ مكشوفةَ القِناعِ بيِّنةَ الإبصار

قولُه تعالى: ﴿وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًا﴾: مِن لطائفِ المُناسبة أنَّ النُّورَ الذي هو كيفيَّةُ زمن النَّهار، شيءٌ وجوديٌّ، فكان زمانُه حقيقًا، بأن يُوصفَ بأوصافِ العُقلاء، بخلاف اللَّيل، فإنَّ ظُلمتَه عدميَّةٌ، فاقتصرَ في العبرةِ به على ذكرِ الفائدةِ الحاصلةِ فيه، وهي أن يسكنوا فيه[5]؛

(1) الآلوسي، روح المعاني: 6/145.
(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 17/88، والشِّهاب الخفاجيّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 5/80.
(3) محيي الدِّين درويش، إعراب القرآن الكريم وبيانه: 4/273.
(4) السَّمين الحلبي، الدُّرُّ المصون: 4/51.
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/227.

فجعل اللّه تعالى آيةَ النَّهارِ مكشوفةَ القناعِ، بيِّنةَ الإبصار، على خلاف آيةِ اللَّيل، إذ جُعِلَتْ مُشرجةَ الغلافِ، بهيمة الأطرافِ[1]. وفي هذا إشارةٌ إلى أنَّ ضوءَ النَّهار، هو الذي يُعطي العيونَ قُدرتَها على الإبصارِ، ولولا هذا الضَّوءُ لما كانت العُيونُ مُبصرةً، فهو إذنِ المُبصر لا العيونُ، لأنَّه هو سببٌ أوَّلُ، وهي سببٌ ثانٍ، فكان أولى بالذِّكر منها في هذا المقام[2].

دَلالةُ التَّعليلِ في: ﴿لِتَسْكُنُواْ﴾:

إيضاحُ مُقتضَى الحكمةِ ودلائلِ الرَّحمةِ لا حصرُها في السُّكون

قد يُقال: إنَّ قولَه تعالى: ﴿لِتَسْكُنُواْ فِيهِ﴾ يدلُّ على أنَّه تعالى ما خلَقَ اللَّيلَ إلَّا لهذا الوجهِ، وقولَه: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾، يدلُّ على أنَّه تعالى أراد بخَلْقِ اللَّيلِ والنَّهارِ أنواعًا كثيرةً مِنَ الدَّلائلِ، فالجوابُ: أنَّ قَولَه تعالى: ﴿لِتَسْكُنُواْ﴾ لا يدلُّ على أنّ الحكمةَ هنا مجرّد السّكون فحسْب، بل ذلك يقتضي حصولَ تلك الحكمةِ[3].

سِرُّ الامتنانِ بـ (اللَّيل والنَّهار):

التَّعريضُ في الاستدلالِ بالامتنانِ، بجمْعِهم بين المخالفةِ والكُفرانِ

وهذا الامتنانُ مُستفادٌ مِن قوله تعالى: ﴿جَعَلَ لَكُمُ﴾، ومِن تعليل خلْق اللَّيل بعلَّة سكونِ النَّاسِ فيه، وخلْقِ النَّهار بعلَّةِ إبصارِ النَّاس، وكلُّ النَّاسِ يعلمون ما في سكونِ اللَّيلِ مِن نعمةٍ، وما في إبصارِهم بالنَّهار مِن نعمةٍ كذلك، فإنَّ في العمل بالنَّهار نِعَمًا جمَّةً، مِن تحصيلِ رغبات، ومشاهدةِ محبوباتٍ، وتحصيلِ أموال وأقواتٍ، وأنَّ في السُّكون باللَّيل نعمًا جمَّةً أيضًا، مِن استجمامِ القُوى المُنْهَكَة، والإخلادِ إلى مُحادثةِ الأهل والأولاد، على أنَّ في اختلاف الأحوالِ، ما يدفعُ عنِ المرءِ الملالَ[4].

وفي إدماجِ الاستدلالِ بالامتنان تعريضٌ بأنَّ الذين جعلوا

(1) الشَّريف الرَّضي، تلخيص البيان في مجازات القرآن، ص: 199.
(2) عبد الكريم الخطيب، التَّفسير القرآنيّ للقرآن: 6/1045.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/28.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/227.

لله شركاءَ جمعوا وصْمَتين هما: وصْمةُ مخالفةِ الحقِّ، ووصْمةُ كُفران النِّعمةِ[1].

دَلالةُ الاستئنافِ:

قولُه تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾، جملةٌ مُستأنفةٌ؛ لتقريرِ أنَّ الآياتِ دالَّةٌ على وَحدانيَّة الله تعالى بالإلهيَّة، وأنَّ النِّظامَ الذي نشأ عنه اللَّيلُ والنَّهارُ مشتملٌ على دقائقَ كثيرةٍ مِنَ العلمِ والحكمةِ، والقدرةِ وإتقانِ الصُّنع[2]، وقولُه: ﴿لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ أي: ﴿يَسْمَعُونَ﴾ هذه الآياتِ المتلُوَّةَ ونظائرَها المنبّهةَ، على تلك الآياتِ الكونيّة الآمرةِ بالتَّأمُّل فيها، على أن يكون السَّماعُ واعيًا مُفضيًا إلى تأمُّل الظَّواهر، واستنباطِ الدَّلائل الموصِلةِ إلى اليقين[3].

من سمِعَ بيقينٍ، اهتدَى إلى الحقّ المبين

نُكتة الإشارةِ ﴿ذَٰلِكَ﴾:

قولُه تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ أي: الأمرِ العظيم[4]، ففي اسمِ الإشارةِ ﴿ذَٰلِكَ﴾ مِن معنى البُعدِ ما يفيد بُعْدَ مَنزلةِ المُشارِ إليه وعُلوِّ رُتبتِه[5]، والمعنى المشارُ إليه بلفظِ ﴿ذَٰلِكَ﴾، يُفيدُ أنَّ ذلك الجعْلَ المذكورَ؛ لدلائلَ واضحاتٍ لقوم يسمعون ما يُتلى عليهم سماعَ تدبُّرٍ وتعقُّلٍ، يدلُّ على سَعةِ رحمةِ اللهِ تعالى بعباده، وتَفَضُّلِه عليهم بالنِّعم التي لا تُحصى[6]، وذلك المُشار إليه يَحملُ ملامحَ العظمةِ التي تُنوِّه بها الآيةُ ضمنًا.

الإيذانُ ببُعدِ مَنزلةِ المُشارِ إليه وعُلوِّ رُتبتِه

دَلالةُ السَّمعِ، وغرضُ تخصيصِه:

قوله تعالى: ﴿لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ أي: سماعَ تأمُّلٍ وادِّكار، ولكنَّه حذف (يبصرون)؛ لدلالةِ ﴿مُبْصِرًا﴾ عليه، ويَزيدُ ذلك وضوحًا

تلميحٌ إلى فضيلة التَّأمّلِ والادِّكارِ في الانتفاعِ بالآيات

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/227.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/227.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/162.
(4) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 9/158.
(5) أبو السُّعود، إرشاد العقل: 4/162.
(6) طنطاوي، التّفسير الوسيط: 7/100.

وحُسنًا، كونُ السِّياق لنفيِ الشُّركاء، فهو إشارةٌ إلى أنَّها لا تَسمعُ ولا تُبصرُ أصلًا، فكيف بالاعتبار والافتكار؟ فالذين عبدوهم أكملُ حالًا منهم[1]، وتخصيصُ الآياتِ بالذين يَسمَعون، معَ أنَّها منصوبةٌ لِمَصلحةِ الكلِّ؛ لأنَّهمُ المُنتَفِعون بها[2].

نُكتةُ أسلوبِ التَّعريضِ في وصْفِ القومِ بالسَّماعِ:

الإشارةُ إلى أنَّ الذين لم يَهتَدوا بالآيات بمنزلةِ الصُّمِّ

في قوله تعالى: ﴿لِّقَوۡمٖ يَسۡمَعُونَ﴾ وَصْفُ القوم بأنَّهم يسمعون إشارةٌ إلى أنَّ تلك الآياتِ والدَّلائلَ تنهضُ دَلالتُها للعقول بالتَّأمّلِ فيها، وأنَّ تُوجُّهَ التَّفكير إلى دلائلِها غيرُ محتاجٍ إلَّا إلى التَّنبيه عليها ولفْتِ النَّظرِ إليها، فلمَّا كان سَماعُ تذكيرِ اللّه بها هو الأصلُ الأصيلُ في استخراج دلالتِها، وتَفريعِ مدلولاتِها على تفاوُتِ الأذهان في الفطنةِ وترتيبِ الأدلَّة، جعلَ آياتِ دلالتِها حاصلةً للَّذين يسمعون، ويجوزُ أن يكونَ المُرادُ يسمعون تفاصيلَ تلك الدَّلائلِ، في تضاعيفِ سُوَرِ القرآن، وعلى كلا الاحتمالين فالوصفُ بالسَّمع تعريضٌ بأنَّ الّذين لم يَهتدوا بها ولا تَفطَّنوا لدلالتِها بمنزلةِ الصُّمِّ، كقوله تعالى: ﴿أَفَأَنتَ تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ أَوۡ تَهۡدِي ٱلۡعُمۡيَ﴾ [الزّخرف: 40][3]، فهذا بعضُ السِّرِّ في أن جاءت فاصلةُ الآية: ﴿لِّقَوۡمٖ يَسۡمَعُونَ﴾، بدلًا ممَّا يقتَضيه ظاهرُ النَّظم، وهو أن تكونَ الفاصلةُ هكذا: (لقوْم يُبْصِرُونَ)، وذلك أنَّ كلماتِ اللّه إنَّما يتلقَّاها المتلقُّون عن طريق السَّمع[4].

دَلالةُ ورودِ الصِّفةِ جملةً فعليَّةً ﴿يَسۡمَعُونَ﴾:

الانتفاعُ بالآيات يكونُ بالنَّظرِ المُتجدِّدِ الفَيْنةَ بعد الفَيْنةِ

قولُه تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَسۡمَعُونَ﴾: في التَّعبيرِ بصيغةِ المضارع إلفاتٌ إلى تَكرار النَّظرِ المرَّةَ بعد المرَّةِ في تلك الظَّواهرِ المُتجلِّيةِ من قُدرةِ اللّه سُبحانه، وأنَّها آياتٌ دالَّةٌ على قدرةِ

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 9/159.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل: 4/162.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/228.
(4) عبد الكريم الخطيب، التَّفسير القرآنيّ للقرآن: 6/1045.

اللّه، وعلى تفرُّدِه بالوجود، وأنَّه لن يرى هذه الآياتِ، ولن يتعرّفَ على ما فيها من دلائلَ على قدرةِ اللّه، إلّا مَن ألقى سمْعَه إلى كلمات اللّه، ووعَى ما تُرشده إليه مِن آياتِ اللّه المبثوثةِ في هذا الكون الرَّحيب[1].

دَلالةُ جملةِ الاعتراضِ بين الآيتَيْن:

الاستدلالُ على فسادِ الظّنِّ والكُفرانِ، بشواهدِ خلْقِ اللَّيلِ والنَّهارِ

في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾، جاءت هذه الآيةُ الكريمةُ جملةً معترِضةً بين جُملةِ: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ وجملةِ: ﴿قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ﴾، مجيءَ الاستدلالِ على فساد ظنِّهم وخَرْصِهِمْ بشواهد خلْقِ اللَّيل والنَّهار المشاهَدِ، في كلِّ يوم مِنَ العمر مرَّتين، بُكرةً وعشيًّا، وهم في غفلةٍ عن دلالتِه، وهو خلْقِ نظامِ النَّهار واللَّيل[2].

المُتشابهُ اللَّفظيُّ:

آيةُ يونسَ مَسوقةٌ للاستدلالِ والامتنانِ، وآيةُ النَّملِ للتَّعجيبِ والتَّوبيخِ

جاء في سورة النَّمل قولُه تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٨٦﴾﴾ [النَّمل: 86]، لكوْنِ الإيمان مقصودًا به أنَّه مرجوٌّ منهم، وجيءَ فيه بصيغة المُضارع؛ إذ ليس المقصودُ أنَّ في ذلك آياتٍ للَّذين آمنوا؛ لأنَّ ذلك حاصلٌ بالفحوى والأولويَّةِ، فصار المعنى: إنَّ في ذلك لآياتٍ للمؤمنين ولمن يُرجَى منهمُ الإيمانُ عندَ النَّظر في الأدلَّةِ، ولهذا خُولفَ بين ما هُنا وبين ما في سورة يونسَ: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾؛ لأنَّ آية يونسَ مسوقةٌ مساقَ الاستدلال والامتنانِ، فخاطب بها جميعَ النَّاسِ مِن مؤمنٍ وكافرٍ، فجاءت بصيغة الخطابِ، وجُعلت دلالتُها لكلِّ مَن يسمعُ أدلَّةَ القرآن، فمنهم مُهتدٍ وضالٌّ، ولذلك جيء فيها بالفعلِ ﴿يَسْمَعُونَ﴾ المُؤْذِنُ بالامتثال والإقبالِ على طلب الهُدى، وأمَّا آيةُ النَّمل فمسوقةٌ مساقَ التَّعجيبِ والتَّوبيخ، فجُعلَ ما فيها

(1) عبد الكريم الخطيب، التَّفسير القرآنيّ للقرآن: 6/1045.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/226.

آياتٍ لمن شأنُهمُ الإيمانُ، ليفيدَ بمفهومِه أنَّه لا تحصلُ منه دلالةٌ لمن ليس من شأنِهمُ الإنصافُ والاعترافُ، ولذلك أُوثرَ فيه الفعلُ ﴿يُؤْمِنُونَ ۝٨٦﴾[1] [النَّمل: 86].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الإبصارُ والرُّؤيةُ والنَّظرُ:

الإبصارُ يتميَّزُ بالوضوحِ، والرُّؤيةُ تتميَّزُ بالعلْمِ، والنَّظرُ بالتَّأمّلِ

النَّظرُ عِبارةٌ عن تقليب العينِ نحوَ المَرئيِّ التماسًا لرؤيتِه، وأصلُ (نَظَرَ) في اللُّغة: تأمُّلُ الشَّيءِ ومُعاينتُه، فهو طلبُ ظهورِ الشَّيء، ويكونُ النَّاظرُ الطَّالبَ لظهور الشَّيءِ بإدراكِه مِن جهة حاسَّةِ بصره، أو غيرِها مِن حواسِّه، والنَّظرُ بالقلب مِن جهة التَّفكُّر، والنَّظرُ أيضًا هو الفكرُ والتَّأمُّلُ لأحوال الأشياء[2]، والرُّؤيةُ هي إدراكُ المَرئيِّ، ولذلك قد ينظرُ ولا يراه ولمَّا كانتِ الرُّؤيةُ مِن توابع النَّظرِ ولوازمِه غالبًا، أُجْرِيَ لفظُ النَّظرِ على الرُّؤية على سبيل إطلاقِ اسمِ السَّبب على المسبَّبِ[3]، كما ورد في حكايةٍ عن طلبِ موسى ﴿رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ﴾ [الأعراف: 143]؛ فكان الرّدُّ: ﴿قَالَ لَن تَرَىٰنِي﴾ [الأعراف: 143]، وأيضًا فإنَّه قد يطلُبُ جماعةٌ الهلالَ فيراه جماعةٌ منهم ولا يستطيع الآخرون رؤيتَه مع أنَّهم جميعًا ناظرون[4]؛ فالفرقُ بينهما أنَّ الرُّؤية هي: إدراكُ المرئيِّ، والنَّظر: الإقبالُ بالبصر نحو المَرئيِّ، أمَّا البصرُ فهو إدراكُ العين، ويُطلقُ على القوَّة الباصرة، التي مِن شأنِها إدراكُ أشباحِ الصُّوَر[5]، وأصلُ (الإبصار) في اللُّغة وضوحُ الشّيء، والعينُ هي أداة الإبصار، قال تعالى ﴿أَمۡ لَهُمۡ أَعۡيُنٞ يُبۡصِرُونَ بِهَآۖ﴾ [الأعراف: 195]، وقد يُطلقُ البصرُ ليدلَّ على العلمِ القويِّ المُضاهي لإدراك الرُّؤيةِ،

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 20/44.
(2) العسكريُّ، معجم الفروق اللُّغويَّة، ص: 543.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 29/457.
(4) العسكريُّ، معجم الفروق اللُّغويَّة، ص: 543.
(5) الكفويّ، الكلّيّات، ص: 247، والتَّهانويُّ، كشاف اصطلاحات الفنون: 1/938.

فيُقال: بَصُرَ بالشَّيء: عَلِمَهُ عن عَيانٍ، فهو بَصيرٌ به[1]، قال تعالى: ﴿فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ۝٥﴾ [القلم: 5]، وحينَها يكونُ الفرقُ بين النَّظر والبصر، كالفرق بين النَّظرِ والرُّؤية؛ قال تعالى: ﴿وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ۝١٩٨﴾ [الأعراف: 198]. وخُلاصةُ القول في الفرقِ بينها: أنَّ الإبصارَ يتميَّزُ بالوضوح، والرُّؤية تتميَّزُ بالعلم، والنَّظرَ يُميِّزه التَّأمُّلُ، وهذا واضحٌ في استعمالات القرآن لهذه الألفاظ.

(1) الحميريّ، شمس العلوم: 1/544.

﴿قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبۡحَٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ۖ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ ۚ إِنۡ عِندَكُم مِّن سُلۡطَٰنِۭ بِهَٰذَآ ۚ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ٦٨﴾ [يونس: 68]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

العلاقةُ بين دلائلِ الخلْقِ المُعجزِ، وتفنيدِ أباطيلِ المشركين

ما زال السِّياقُ يُشير إلى تحقيق التَّوحيدِ وتقريره بإبطال الشِّرك وشُبَهِه، قال تعالى: ﴿قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبۡحَٰنَهُۥ ۖ﴾؛ أي: قال المُشركون: إنَّ الملائكة بناتُ الله، وهو قولٌ مُؤسِفٌ مُحزنٌ للرَّسول[1] ﷺ، وهو الّذي أشار إليه من قبْلُ في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحۡزُنكَ قَوۡلُهُمۡ﴾، فهو شروعٌ في ذكرِ ضَرْبٍ آخرَ مِن أباطيل المشركين، وبيانِ بُطلانه[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱتَّخَذَ﴾: الأخذُ: حَوْزُ الشَّيءِ وجَبْيُهُ وجَمعُهُ، قال الخليل: هو خِلافُ العَطاءِ، وهو التَّناوُلُ[3]، والأمر منه خُذ، وأصلُه أُؤْخُذْ إلَّا أنَّهم استثقلوا الهمزتين فحذفوهما تخفيفاً[4]، وهو من الأضداد: يقال: أخذَ الشَّيءَ عَنْوَةً، إذا أخذه غَصْباً وغَلَبَة، وأخذه عنوةً إذا أخذه بمحبَّة ورضًا مِنَ المأْخوذِ منه[5]، وعليه فالاتِّخاذُ في الآية، يَصدقُ على أخْذِ شيءٍ موجُودٍ للاستئثارِ به، ويَصدُقُ على تكوينِ شيءٍ للانتفاعِ به، وهو هنا صالحٌ للمَعْنَيَيْن؛ لأنَّ منهم مَن يَعتقدُ تَولُّدَ الولَدِ عنِ الله تعالى، ومنهم مَن يَعتقدُ أنَّ الله تَبنَّى بعضَ مَخلُوقَاتِه[6].

(1) الجزائريّ، أيسر التّفاسير: 2/491.
(2) السّمرقنديّ، بحر العلوم: 2/124، والآلوسي، روح المعاني: 66/146.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (أخذ).
(4) الجوهريّ، الصّحاح: (أخذ).
(5) ابن الأنباري، الأضداد، ص: 79.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتنّوير: 11/229.

2) ﴿سُبۡحَٰنَهُۥۖ﴾: التَّسْبِيحُ: التَّنْزِيهُ والتَّقْدِيسُ والتَّبْرِئَةُ، يُقال: سَبَّحْتُ اللّه، وسَبَّحت لَهُ، أُسبِّحُهُ تَسْبِيحاً وسُبحاناً، أي: نَزَّهتُهُ وبَرَّأْتُه مِن كُلِّ سوءٍ ونَقصٍ[1]، ويأْتي بِمعنى: سُبْحانَ اللّه، فيُقال: سَبَّحَ الرَّجُلُ، أي: قال: سُبحانَ اللّه. ويُطلَقُ التَّسْبِيحُ أيضاً على التَّنَفُّلِ والتَّطَوُّعِ بِالعبادَةِ، "والتَّسبيحُ يكون في معنى الصّلاة، وبه يُفسَّر قولُه ﷻ: ﴿فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمۡسُونَ وَحِينَ تُصۡبِحُونَ ١٧﴾ [الرّوم: 17]، والآيةُ تأمر بالصَّلاة في أوقاتها، قال الأعشى:

وَسَبِّحْ عَلَى حِينِ العَشِيَّاتِ وَالضُّحَى *** وَلَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ وَاللّه فَاعْبُدَا[2]

والمقصودُ في الآية: التَّنزيهُ والتَّبرئةُ، لأنْ يكونَ للّه ﷻ صاحبةٌ أو ولدٌ.

3) ﴿ٱلۡغَنِيُّۖ﴾: أصلُ الغنَى: عَدمُ الحاجَةِ لِلغَيرِ، يُقال: غَنِيَ يَغْنَى غِنًى، والغَنَاءُ بفتح الغين مع المَدِّ: الْكِفَايَةُ[3]، وضِدُّه: الفَقْرُ. والغَنِيُّ هو الموصوفُ بالغِنَى، سواءٌ أكانَ ذلك في المالِ، أو في القُوَّةِ، أو العِلْمِ، أو غَيْرِ ذلك، فَعِيلٌ للمُبالغةِ، وغِنَى اللّه هو الغِنَى المُطلَقُ، الَّذي لا يَحْتاجُ إلى أحدٍ في شَيْءٍ، وكُلُّ أحَدٍ مُحْتاجٌ إلَيْه، وهذا المَعنى هو المَقصودُ في الآية.

4) ﴿سُلۡطَٰنٍ﴾: السُّلطانُ: الحجَّة والبُرهانُ، ولا يُجمعُ لأنَّ مَجراه مَجرى المصدرِ، قال محمَّد بن يزيد: هو مِنَ السَّليط. وقال الزَّجّاجُ في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٍ ٩٦﴾ [هود: 96]، أي: وحُجَّة بيِّنَةٍ. والسُّلطان إنَّما سمِّي سلطانًا لأنَّه حُجَّةُ اللّه في أرضه[4]، والسُّلطانُ في معنى الحُجَّة، قال تعالى: ﴿هَلَكَ عَنِّي سُلۡطَٰنِيَهۡ ٢٩﴾ [الحاقة: 29]، أي: حُجَّتي. والسُّلطان: قُدرةُ الملك، وقُدرةُ من جُعِلَ ذلك له، وإن لم يكن مَلِكاً[5]، سُمِّيَ سُلطانًا، لأنَّهُ يُكسِبُ المُستدلَّ به سُلطةً على مُخالفه ومُجادِله[6]، والمقصودُ في الآية: القُوَّة والقهرُ.

❁ المَعْنى الإجْمالِيُّ:

بيَّنَ اللّه تعالى في هذه الآية أنَّ مُشرِكي العرَبِ زَعَموا أنَّ للّه ولدًا، تنزَّه سُبحانَه عن

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سبح).
(2) البيت من الطويل، وهو للأعشى، يُنظر: الخليل، العين: (سبح).
(3) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة: (غنى).
(4) ابن منظور، لسان العرب: (سلط).
(5) الخليل، العين: (سلط).
(6) الخليل، العين: (سلط)، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/232.

ذلك، هو الغنيُّ عنِ الزَّوجةِ والوَلَد، وعن جميعِ خَلْقِه، له جميعُ ما في السَّمَاواتِ وما في الأرضِ، فكيف يكونُ له ولدٌ ممَّن خلَقَ، وكلُّ شَيءٍ مملوكٌ له؟ وليس عند هؤلاء المُشرِكينَ دليلٌ على أنَّ اللّٰه اتَّخذَ ولدًا مِن خَلْقِه، أيقولونَ على اللّٰه ما لا يعلمونَ حَقيقتَه وصِحَّتَه؟[1].

الحُجَّةُ ناصرةٌ نَفسَها، ظاهِرةٌ على الباطِلِ، قاهِرةٌ له

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

دَلالةُ الاستئنافِ بين البيانِ والإدماجِ:

يَحتملُ قولُه تعالى: ﴿قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًاۗ﴾ أن يكونَ شروعًا في ذِكر ضَرْبٍ آخرَ مِن أباطيلِ المشركين وبيانِ بُطلانِه[2]، وهو الَّذي أشار إليه قولُه تعالى: ﴿وَلَا يَحۡزُنكَ قَوۡلُهُمۡۘ﴾، وكأنَّه بهذا إجابةٌ عن سؤالٍ أو تساؤلٍ، هو: ما هذا القولُ الذي يقولُه المشركون فيُحزنُ النَّبيَّ ﷺ؟ فكان الجوابُ: ﴿قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًاۗ﴾، وقد تأخَّر الجوابُ عن هذا السُّؤال، فجاء بعد تلك الآياتِ التي عرضَت بعضَ مظاهرِ قدرةِ اللّٰه، وأنَّه سبحانه له العِزَّةُ جميعًا، وأنَّه جَلَّ شأنه، له ملك السَّماوات والأرض، ومَن فيهن، وأنَّه سُبحانه هو الذي أقام هذا الوجودَ على ذلك النِّظامِ المُحكَم البديعِ، فجعلَ اللَّيلَ سكنًا، وجعل النَّهارَ مُبصرًا، وكان هذا العرضُ هو الرَّدَّ الذي سبق هذه الدَّعوى الباطلةَ، ليدحضَها قبْلَ أن تتلفَّظَ بها الأفواهُ، وليقتلَها في مهدها قبْلَ أن ترى وجْهَ الحياة، وهكذا الباطلُ إنَّه شيءٌ منكرٌ، يجبُ أن يموتَ بين يَدَي أهلِه، حتَّى لا يقعَ المكروهُ منه على أحدٍ غيرِهم، فمِنَ الحكمةِ أن يُدْفَعَ الشَّرُّ قبلَ وقوعِه؛ لأنَّ ذلك أهونُ وأيسرُ في الخلاص مِن بَلواه، فإذا وقع كان مُنكرًا، يجبُ على المؤمنين

الإفصاحُ عن ضربٍ مِنَ الكُفرِ، وهو قولُهم (اتَّخَذَ اللهُ وَلَدًا)

(1) ابن جرير، جامع البيان: 12/229، وابن عطيّة، المحرَّر الوجيز: 3/131، والقرطبيُّ، الجامع لأحكام القرآن: 8/361، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/282، والسَّعديّ، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 369.

(2) الآلوسي، روح المعاني: 6/146.

دَفْعُهُ بكلِّ قوَّةٍ مُمكنةٍ لديهم[1]؛ فيكونُ الاستئنافُ على هذا المعنى استئنافًا بيانيًّا. وقد يكون هذا الاستئنافُ بيانًا لجملة ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ﴾ إلى آخرها، وفي هذا البيانِ إدماجٌ بحكايةِ فَنٍّ مِن فنون كُفرِهم مُغايرٍ لادِّعاء شُرَكاءَ لله، لأنَّ هذا كفرٌ خَفِيٌّ من دينِهم، ولأنَّ الاستدلالَ على إبطالِه مُغايرٌ للاستدلال على إبْطال الشُّركاء[2]، ومَساقُ البيان لقوله: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾، وهذا صالحٌ لأنْ يكونَ تعجيبًا مِمَّنِ ادَّعى في الملائكة أو عُزيرٍ أو المسيحِ وغيرِهم[3].

دَلالةُ عَوْدِ الضَّميرِ المتّصلِ بالفعلِ ﴿قَالُواْ﴾:

قولُه تعالى: ﴿قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا﴾: الضَّميرُ في ﴿قَالُواْ﴾ عائدٌ على من نسبَ إلى الله الولدَ، مِمَّن قال: الملائكةُ بناتُ الله، أو عُزيرٌ ابن الله، أوِ المسيحُ ابنُ الله[4]، فهو عائدٌ على المشركين المُصَرَّح بهم من قبلُ في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَ﴾ [يونس: 66]، وليس المُرادُ مِنَ الضَّمير غيرَهم منَ النَّصارى؛ لأنَّ السُّورة مكيَّةٌ والقرآنُ المكيُّ لم يَتَصَدَّ لإبطال زَيْغِ عقائدِ أهلِ الكتاب، ذلك أنَّ كثيرًا منهم كانوا يَزعمون أنَّ لله بناتٍ همُ الملائكةُ، وهم بناتُه مِن سروات نساءِ الجنِّ، ولذلك عبَدَت فِرقٌ مِنَ العرب الجِنَّ، قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ ۝٤٠ قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ۝٤١﴾ [سبأ: 40، 41][5].

الضَّميرُ عائدٌ على المشركين المُصَرَّح بهم من قَبْلُ

دَلالةُ الفعْلِ ﴿ٱتَّخَذَ﴾ وسِرُّ اصطفائِه دونَ سِواه:

الاتِّخاذُ: جعلُ شيءٍ لفائدةِ الجاعلِ، وهو مُشْتَقٌّ مِنَ الأخذ؛ لأنَّ

فسادُ اعتقادِ نسبةِ الولدِ إليه، إذْ ذلك باطلٌ وزورٌ

(1) عبد الكريم الخطيب، التَّفسير القرآنيّ للقرآن: 6/1046.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/229.
(3) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 9/159.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/85.
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/229.

المُتَّخِذَ يأخذُ الشَّيءَ الذي يصطفيه، وكما في قوله تعالى: ﴿أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً﴾ [الأنعام: 74]، وقوله: ﴿وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾ [الأعراف: 146]، فالاتِّخاذُ يَصْدقُ على أخذ شيءٍ موجودٍ للاستئثار به، ويَصدقُ على تكوين شيءٍ للانتفاع به، وهو هُنا صالحٌ للمعنيَيْن؛ لأنَّ منهم من يعتقدُ تَوَلُّدَ الولدِ عنِ اللّه تعالى، ومنهم مَنْ يعتقدُ أنَّ اللّه تبنَّى بعضَ مخلوقاتِه[1]، والاتِّخاذُ صريحٌ في التَّبنِّي، وظاهرُ الآيةِ يدلُّ على أنَّ ذلك قولُ كلِّ المشركين، وإذا ثبت أنَّ منهم مَن يقولُ بالولادة والتَّقديرِ حقيقةً، كان ما هُنا قولَ البعض، ولْيُنظرْ هل يجري فيه احتمالُ إسنادِ ما للبعض للكلِّ؛ لتحقُّق شرطِه أم لا يجري لفقْدِ ذلك؟[2]. وفي كلا المعنيَيْن تبشيعٌ وتشنيعٌ لقولِهمُ الأحمقِ الغريبِ الذي يمَسُّون به الذَّاتَ العليَّةَ فيَحسبون أنَّ اللّه يحتاجُ إلى الولد كما يحتاجُ البشرُ، ولذا قال سُبحانه ردًّا لقولِهم: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ﴾[3].

دَلالةُ الاسمِ الجليلِ ﴿ٱللَّهُ﴾:

قوله تعالى: ﴿قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا﴾: لفظُ الجلالة ﴿ٱللَّهُ﴾ أي المُسَمَّى بهذا الاسمِ الذي تقتضي تسميتُهُ به أن يكون له الكمالُ كُلُّه، فلا يكون مُحتاجًا إلى شيءٍ بوجْهٍ[4]. والسِّياقُ جاء تعجُّبًا مِن قولِهمُ الأحمقِ بأنَّ له ولدًا، ومجرَّدُ أن يكون اسمُه (اللّه) ووصْفُه أنَّه (إله)، يقتضي أنّه لا "مناسبةَ بينه وبين ما يزعمونَه ولدًا، فإنَّ الولد يكونُ من جنس الوالدِ، أو يقال إنّما يطلبُ الولدَ ضعيفٌ يتقوَّى به، أو فقيرٌ ليستعينَ به، أو ذليلٌ ليتشرّف به، أو من يموتُ لبقاء جنْسِه، والكلُّ أمارةُ الحاجةِ"[5]، واللّه ليس مُحتاجًا إلى شيءٍ من ذلك على الإطلاق.

مَن كان له الكمالُ مِن جميعِ الوجوه، كان غَنيًّا عن كُلِّ أحدٍ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/229.
(2) الآلوسي، روح المعانيّ: 6/146.
(3) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 7/3610.
(4) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 9/159.
(5) المظهريّ، التّفسير المظهريّ: 5/45.

نُكتةُ التَّعبيرِ بالإفراد في: ﴿وَلَدًا﴾:

بيانُ كونِه منَ التّعبيرِ بالمصدرِ الّذي يشملُ المفردَ والجمعَ

قولُه تعالى: ﴿قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا﴾: الولدُ: اسمٌ مَصوغٌ على وزن (فَعَلٌ)، مثل: عَمَد، وعَرَب، وأمَل، وهو مأخوذٌ من الولادة، أي النِّتاج، يُقال: ولدتِ المرأةُ والنَّاقةُ، ولعلَّ أصلَ الولد مصدرٌ مُمَات على وزن (فَعَلٌ)، مثل: الفَرَح، ومن أجل ذلك أُطلقَ على الواحد والجمعِ، كما يُوصف بالمصدر، يُقال: هؤلاء ولدُ فلانٍ[1]، وفي الحديث «أنا سيّدُ ولدِ آدم»[2]، والمُراد هنا الجمعُ، لأنَّهم قالوا: الملائكةُ بناتُ اللّه، استولَدَها من سَرَوات الجنِّ، قال تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ سُبْحَٰنَهُۥ﴾ [النَّحل: 57][3].

سِرُّ الفصْلِ في: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ﴾:

إنشاءُ تنزيهٍ للهِ تعالى، وتمجيدٍ له للرّدِّ عليهم

قولُه تعالى: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ﴾ تنزيهٌ للّه تعالى، وتمجيدٌ له، واستبعادٌ لأن يكون له صاحبةٌ أو ولدٌ، إذ لا يَطلبُ المرءُ الصَّاحبَ أوِ الولدَ إلّا ليُكَمِّلَ نقصًا فيه، واللّه ﷻ، هو الكمالُ المطلقُ، فكيف يكونُ له ولدٌ، أو تكونُ له صاحبةٌ[4]؟، فلمَّا عَجِبَ منهم في ذلك لمُنافاتِه بما يدلُّ عليه منَ النَّقص لِما ثبتَ للّه تعالى منَ الكمال، كما مَرَّ، نَزَّه نفسَه الشَّريفةَ عنه فقال: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ﴾ أي تنزّه عن كلِّ شائبةِ نقْصٍ[5]، فالجملة جوابٌ لذلك المَقال، ولذلك فُصِلَتْ عنِ الّتي قبْلَها، فهو تنزيهٌ وتقديسٌ له عمَّا نَسَبوا إليه، وتعجُّبٌ مِن كَلمَتِهم الحمقاءِ[6].

دَلالةُ: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ﴾ بين الحقيقةِ والمجازِ:

الحملُ على معنى التَّنزيهِ والتَّعَجُّبِ، من بلاغةِ البيانِ هنا

قوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ﴾: أي تَنَزَّه ربُّنا عمَّا لا يليقُ بربوبيَّتِه

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/229.
(2) رواه مسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، بابُ تَفْضِيلِ نَبِيِّنَا ﷺ على جميعِ الْخَلائِقِ، الحديث رقم: (2278).
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/229.
(4) عبد الكريم الخطيب، التَّفسير القرآنيّ للقرآن: 6/1046.
(5) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 9/159.
(6) البيضاويّ، أنوار التَّنزيل: 3/119، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/163.

وألوهيَّته، ويمكنُ أن يكون المعنى (عجيب أن تصدر منهم تلك الكلمةُ الحمقاءُ)[1]، فهو إمَّا أنَّه تنزيهٌ تقديرُه: أُسبّحه تسبيحًا أي أنزّهُه تنزيهًا، وإمَّا أنَّه تعجُّبٌ، فيقال في مقام التَّعجُّب: سبحان الله، واستعمالُ اللَّفظ في الأوَّل حقيقيٌّ، وفي الثَّاني مجازيٌّ، فإن قيل: لفظٌ واحدٌ في معنيَين حقيقيٍّ ومجازيٍّ ممنوعٌ، قيلَ: لا يلزمُ أن يكونَ استفادةُ معنى التَّعجُّب منه باستعمال اللَّفظ فيه، بل هي من المَعاني الثَّواني، كما يُقال لكلِّ أعجوبةٍ (سبحان الله)، ووجْهُ إطلاق هذه الكلمةِ عند التَّعجب، هو أنَّ الإنسان عند مشاهدةِ الأمرِ العجيبِ، الخارجِ عن حَدِّ أمثالِه، يَستبعدُ وقوعَه، وتنفعلُ نفسُه منه، فيقول: (سبحان الله) تنزيهًا لله تعالى عنِ العجز عن خَلْقِ أمرٍ عجيب، يُستبعَدُ وقوعُه، لتيقُّنِه بأنَّه تعالى على كلِّ شيء قديرٌ[2].

دَلالةُ الحصْرِ بتعريفِ المسنَدِ والمسنَدِ إليه:

إثباتُ أنَّ الغِنى التَّامَّ مُنْحَصِرٌ فيه لا يُشاركُه فيه أحدٌ

في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلْغَنِيُّ﴾ أي: الغِنى منحصرٌ فيه، وأنواعُ الغِنى مُستغرقةٌ فيه، فهو الغنيُّ، الّذي له الغِنى التَّامُّ، بكلِّ وجهٍ واعتبارٍ، من جميع الوجوه، فإذا كان غنيًّا من كلِّ وجه، فلأيّ شيءٍ يتَّخذُ الولدَ؟ ألِحاجةٍ منه إلى الولدِ؟!، فهذا منافٍ لغِناه، فلا يتَّخذُ أحدٌ ولدًا إلّا لنقْصٍ في غناه[3]؛ لأنَّه إلهٌ، والإلهُ لا يحتاجُ إلى مكمِّل نقْصٍ في الذَّاتِ أوِ الأفعال.

سِرُّ الموقعِ البيانِّي لجملة: ﴿هُوَ ٱلْغَنِيُّ﴾:

تعليلُ التَّنزيهِ السَّابقِ في السِّياقِ، باستعمالِ لفظِ ﴿سُبْحَٰنَهُۥ﴾

قولُه تعالى: ﴿هُوَ ٱلْغَنِيُّ﴾: علَّةٌ لِنَفْيِ الولَدِ؛ لأنّ علّة طلبِ الولدِ - إجمالًا - الحاجةُ، فمَنِ الحاجةُ منتفِيَةٌ عنه، كان الولَدُ عنه مُنتفِيًا[4]، فالله هو الغنيّ عنِ اتّخاذ الولد؛ لأنَّ الإلهيَّةَ تقتضي الغِنى المطلقَ عن

(1) المراغي، تفسير المراغي: 11/135.
(2) البروسويّ، روح البيان: 4/64.
(3) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 421.
(4) الزَّمخشريّ، الكشَّاف: 2/358، وأبو حيّان، البحر المحيط: 6/85.

كلِّ احتياج إلى مكمِّلِ نقْصٍ في الذَّاتِ أوِ الأفعال، واتّخاذُ الولد إمَّا أن يَنشأ عنِ اندفاعٍ طبيعيٍّ لقضاء الشَّهوةِ عن غيرِ قصْدِ التَّوليد، وكونُ ذلك نقصًا غيرُ خفيٍّ، وإمَّا أن ينشأ عنِ القصدِ والتَّفكيرِ في إيجاد الولدِ، وذلك لا يكونُ إلّا لسدِّ ثُلْمةِ نقْصٍ من حاجةٍ إلى معنى في الحياة، أو خلَفٍ بعد الممات، وكلُّ ذلك مُنافٍ للإلهيَّة التّي تقتضي الاتّصافَ بغاية الكمالِ في الذَّات والصّفاتِ والأفعالِ[1]، فالجملةُ عِلَّةٌ لتنزيهِه، وإيذانٌ بأنَّ اتّخاذَ الولدِ من أحكام الحاجةِ، إمَّا للتَّقوّي به، أو لبقاءِ نوْعِه[2].

دَلائلُ استحالةِ أن يكونَ لله تعالى ولدٌ:

مَنِ استغنَى عنِ العونِ والولدِ، تقدَّسَ أن يكونَ له ولدٌ

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلْغَنِيُّ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾، ذكْرُ كونِه تعالى غنيًّا مالكًا لكلِّ ما في السَّماوات والأرض، يدلُّ على أنَّه يستحيلُ أن يكونَ له ولدٌ، وبيانُ ذلك من وجوه: أحدها: أنّه تعالى فردٌ مُنزَّهٌ عنِ الأجزاء والأبعاضِ، وكُلُّ من كان كذلك امتنعَ أن ينفصلَ عنه جزءٌ من أجزائه، والولدُ انفصالُ جزءٍ من أجزاء الإنسان، ثُمَّ يتولَّدُ عن ذلك الجزءِ مثلُه. وثانيها: أنَّه تعالى قديمٌ أزليٌّ باقٍ سرمديٌّ، وكُلُّ من كان كذلك، امتنعَ عليه الانقراضُ والانقضاءُ، ممّا يدلُّ على أنَّه يمتنعُ أن يكونَ له ولدٌ. وثالثها: أنَّه تعالى يمتنعُ أن يكونَ موصوفًا بالشَّهوة واللَّذةِ، وإذا امتنعَ ذلك امتنعَ أن يكونَ له صاحبةٌ وولدٌ[3]. ورابعها: أنَّه تعالى لا يحتاجُ أن يكون له ولدٌ؛ لأنَّ اتّخاذَ الولد إنَّما يكونُ في حقّ من يكونُ مُحتاجًا؛ حتَّى يعينَه ولدُه على المصالح الحاصلةِ والمتوقَّعةِ، واللّه غنيٌّ عنِ المعونة، ولا حاجةَ له إلى شيء منَ المنافع، فهو مُستغنٍ أزلًا وأبدًا[4].

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتّنوير: 11/230.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 6/146، والقاسميّ، محاسن التّأويل: 6/47.
(3) حسن نظام الأعرج، غرائب القرآن: 3/598، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/280.
(4) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 11/135.

وخامسها: الولدُ يكون ولدًا، إذا كان مساويًا لوالده في الطَّبيعةِ والحقيقةِ، ويكونُ ابتداء وجودِه وتكوُّنِه منه، وهذا في حقِّ اللّه تعالى مُحالٌ؛ لأنَّه تعالى غَنيٌّ مُطلقًا، ولا ولدَ له. والوجه السّادس: أنَّه تعالى امتنعَ أن يكونَ له أبٌ وأمٌّ، وكُلٌّ من تقدَّس عن الوالدين، وجبَ أن يكون مُقدَّسًا عنِ الأولاد[1].

دَلالةُ لفظِ ﴿ٱلۡغَنِيُّۖ﴾:

﴿ٱلۡغَنِيُّۖ﴾ في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلۡغَنِيُّۖ﴾: أي: الموصوفُ بالغنى، وهو على وزن فعيل للمبالغة في فعْلِ: غَنِيَ عن كذا إذا؛ كان غيرَ محتاجٍ، وغِنَى اللّه هو الغنَى المُطلَقُ[2].

المبالغةُ في الوصْفِ بالغنَى المطلقِ، تدلُّ على الامتناعِ منَ الافتقارِ

دَلالةُ الاستئنافِ:

قوله تعالى: ﴿لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾: أكَّدَ النَّظمُ الكريمُ التَّنزيهَ السَّابقَ للّه تعالى بقوله: ﴿هُوَ ٱلۡغَنِيُّۖ﴾، ثُمَّ بَيَّن بعضَ مظاهرِ غِناه، بقوله: ﴿لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾، فاللّه غنيٌّ عن خلْقه جميعًا، فإنَّ كُلَّ ما في الوجود منَ العالَم العلويِّ والسُّفليِّ مُلْكٌ له ولا حاجةَ له إلى شيءٍ منه، وجميعُه في حاجةٍ إليه، ولا يُجانسُه شيءٌ منه[3]، فجملةُ: ﴿لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾، مُقرِّرةٌ لوصْفِ الغِنى، بأنَّ ما في السَّماوات وما في الأرض ملكُه، فهو يُسَخِّر كُلَّ موجود لِمَا خلقَه لأجلِه، وهذا مُساوٍ للاستدلال على نفْيِ الشَّريكِ في قولِه آنفًا: ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ [يونس: 66][4].

تقريرُ المعنَى الآنفِ، في تنزيهِ اللّه وبيانِ مظاهرِ غِناه

دَلالةُ (اللَّام) في ﴿لَهُۥ﴾:

قولُه تعالى: ﴿لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾: أي بالمُلْكِ

إبرازُ كمالِ مُلْكِ اللّه للموجوداتِ، وتنزيهُه عنِ اتِّخاذِ الولدِ

(1) حسن نظام الأعرج، غرائب القرآن: 3/598، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/280.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/230.
(3) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 135/11.
(4) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/119، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/231.

والإحاطةِ والخلْقِ[1]؛ لأنَّ المالكَ لجميع الكائناتِ هو الغنيُّ، وما عداه فقيرٌ، وقيل: هو عِلَّةٌ أخرى لتَنَزُّهِه عنِ التَّبنِّي لأنَّه يُنافي المالكيَّةَ[2]؛ لأنَّ الذي له ملكُ السَّماوات والأرض وملكُ ما فيهما، وكلُّهم عبيدُه وإماؤه - لا حاجةَ تقعُ له إلى الولد[3].

وجملةُ: ﴿لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾، مُقرِّرةٌ لوصْفِ الغِنى بأنَّ ما في السَّماواتِ وما في الأرضِ مِلكُه[4].

سِرُّ تَكرارِ ﴿مَا﴾:

تأكيدُ غنَى الله عن جميعِ مخلوقاتِه، سماويّةً كانت أو أرضيَّةً

قوله تعالى: ﴿لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾: لمَّا كان سياقُ الاستدلالِ يَقتَضي التَّأكيدَ، أعاد ﴿مَا﴾ فقال: ﴿وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾، فهو غنيٌّ بالمُلك عن أن يكون شيءٌ منه ولدًا له؛ لأنَّ الولدَ لا يملكُ، وعدَمُ ملكِه نقصٌ منافٍ للغنى[5]، كما أنَّ أكثر معبوداتِ المشركين الباطلةِ، معبوداتٌ أرضيَّةٌ من حجارةٍ وحيواناتٍ وبَشَرٍ، فذِكْرُ ﴿وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾، دليلُ كونِها مملوكةً ضعيفةً، لا مالكةً مُستغنيةً.

دَلالةُ الفصْلِ: ﴿إِنۡ عِندَكُم مِّن سُلۡطَٰنِۭ﴾:

مجيءُ الجوابِ الثَّاني على بُطلانِ زعمِهم اتِّخاذَ الله للوَلَدِ

قولُه تعالى: ﴿إِنۡ عِندَكُم مِّن سُلۡطَٰنِۭ بِهَٰذَآۚ﴾ جوابٌ ثانٍ لقولهم: ﴿ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗاۗ﴾، وفُصلت هذه الجملةُ كما فُصلت جملةُ ﴿سُبۡحَٰنَهُۥۖ﴾، فبعد أنِ استدلَّ على إبطال قولهم، سَجَّل عليهم أنَّهم لا حُجَّةَ لهم في قولهم ذلك[6]، فلمّا نزّه اللّه ﷻ نفسَه عنِ اتّخاذ الولدِ أتبعَه بالإنكار والتَّوبيخِ والتَّقريعِ فقال ﷻ: ﴿إِنۡ عِندَكُم مِّن سُلۡطَٰنِۭ بِهَٰذَآۚ﴾، يعني أنَّه لا حجّةَ عندكم على هذا القول البتّة[7]، ولمّا

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/131.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 6/146.
(3) أبو منصور الماتريديّ، تأويلات أهل السُّنَّة: 6/64.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/231.
(5) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 9/159.
(6) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/231.
(7) الخازن، تفسير الخازن: 2/454.

بَيَّن بالبرهانِ القاطعِ، والدَّليلِ الباهرِ السَّاطعِ، امتناعَ أن يكون له ولد، بكَّتَهم بنفْيِ أن يكونَ لهم بذلك نوعُ حُجَّةٍ، فقال: ﴿إِنۡ﴾[1].

دَلالةُ النَّفْيِ بـ ﴿إِنۡ﴾ وتأكيدُه:

المبالغةُ في تحقيقِ بُطلانِ قولِهم، باستغراقِ نفْيِ جميعِ أنواعِ الحُجج

قوله تعالى: ﴿إِنۡ عِندَكُم مِّن سُلۡطَٰنِۭ بِهَٰذَآۚ﴾: ﴿إِنۡ﴾ حرفُ نَفْيٍ، و﴿مِّن﴾ مزيدةٌ، لتأكيد النَّفيِ بالاستغراق، أي استغراق نفيٍ جميع أنواعِ الحُجَّة قويِّها وضعيفِها، عَقليِّها وشرعيِّها[2]، فهو نفيٌ لِمعارِض ما أقامه منَ البرهان مُبالغةً في تجهيلِهم وتحقيقًا لبُطلانِ قولِهم، "و﴿إِنۡ﴾ تأتي للنّفيِ في مثل قولِ الحقّ سبحانه: ﴿إِنۡ أُمَّهَٰتُهُمۡ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔي وَلَدۡنَهُمۡۚ﴾ [المجادلة: 2]، وفي قول الحقِّ سُبحانه هنا: ﴿إِنۡ عِندَكُم مِّن سُلۡطَٰنِۭ بِهَٰذَآۚ﴾ [يونس: 68]، أي: ليس عندكم حُجَّةٌ تدلُّ على أنّ اللّه تعالى اتّخذ ولدًا[3].

بَلاغةُ الاستعارةِ في ﴿عِندَكُم﴾:

جمالُ السِّياقِ، وانتقاءُ الألفاظِ، تجْليةٌ للمعنى المؤثِّرِ

قوله تعالى: ﴿إِنۡ عِندَكُم مِّن سُلۡطَٰنِۭ بِهَٰذَآۚ﴾، فيه لفظُ (عند) اسمٌ لمكان الحضورِ، وهي في الأصل تَدُلُّ على المكان المختصِّ بالذي أضيفَ إليه لفظُها، فهي ممَّا يُناسبُ الخفاءَ، واستُعملت هُنا مجازًا من قَبيل الاستعارةِ التّصريحيّةِ، حيث شَبَّه وجودَ الحُجَّة لِلمُحتَجِّ، بالكوْنِ في مكانه، ولقد شاعَ استعمالُها في المعنى المجازيِّ حتَّى صارت كالحقيقةِ، والمعنى: لا حُجَّةَ لكم[4].

سِرُّ اصْطفاءِ لفظِ (السُّلطان):

الحُجَّةُ ناصرةٌ نَفسَها بالأدلّةِ، ظاهِرةٌ على الدّعاوَى المُضلّةِ

قولُه تعالى: ﴿إِنۡ عِندَكُم مِّن سُلۡطَٰنِۭ بِهَٰذَآۚ﴾: السُّلطانُ هو الحُجَّةُ، والقرآنُ الكريمُ يَستعملُ كلمةَ السُّلطان في معنى الحُجَّة؛ لأنَّ الحُجَّة الباهرةَ توجدُ بسلطان منَ الحقِّ على الباطل، وسلطةُ الحَقِّ

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 9/160.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/231.
(3) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 10/6077.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/231.

أقوى وأبعدُ من سلطةِ الطُّغاةِ الظَّالمين، وإن كان ذلك الاستعمالُ مجازًا من أبلغ الكلام[1]، بطريق الاستعارةِ التَّصريحيَّةِ التَّبعيَّةِ في تشبيه الحُجَّةِ بالسُّلطان، في القوَّة والإلزام، فسمّى اللّه تعالى الحُجَّةَ العِلميَّةَ سُلطانًا؛ لأنَّها تُوجِبُ تسَلُّطَ صاحِبِها واقتدارَه، فله بها سُلطانٌ على الجاهلينَ، بل سُلطانُ العِلمِ أعظَمُ مِن سُلطانِ اليَدِ، ولهذا ينقادُ النَّاسُ للحُجَّة ما لا ينقادونَ لليَدِ؛ فإنَّ الحُجَّةَ تنقاد لها القلوبُ، وأمَّا اليدُ فإنَّما ينقادُ لها البدنُ، فالحجَّةُ تأسِرُ القلبَ وتقودُه، وتُذِلُّ المُخالِفَ، وإن أظهَرَ العِنادَ والمكابرةَ، فقَلبُه خاضِعٌ لها ذليلٌ، مقهورٌ تحت سُلطانِها، بل سلطانُ الجاهِ إن لم يكُن معه عِلمٌ يُساسُ به، فهو بمَنزلةِ سُلطانِ السِّباعِ والأُسودِ ونحوِها، قُدرةٌ بلا عِلمٍ ولا رحمةٍ، بخلافِ سُلطانِ الحُجَّة، فإنَّه قُدرةٌ بعِلمٍ ورحمةٍ وحِكمةٍ، ومَن لم يكن له اقتدارٌ في عِلمِه، فهو إمَّا لِضَعفِ حُجَّتِه وسُلطانِه، وإمَّا لِقَهرِ سُلطانِ اليَدِ والسَّيفِ له، وإلَّا فالحُجَّةُ ناصرةٌ نَفسَها، ظاهِرةٌ على الباطِلِ، قاهِرةٌ له[2].

دَلالةُ حرفِ الجَرِّ الدَّاخلِ على اسمِ الإشارةِ: ﴿بِهَٰذَآ﴾:

﴿بِهَٰذَآ﴾ في قوله تعالى: ﴿مِّن سُلۡطَٰنِۭ بِهَٰذَآ﴾: الباءُ للملابسة، و﴿بِهَٰذَآ﴾ في موضع صفةٍ لـ﴿سُلۡطَٰنِۭ﴾، أي: سلطانٍ مُلابسٍ لهذا[3]، وقوله ﴿بِهَٰذَآ﴾، أي بما ذُكِرَ مِن القول الباطل؛ وفي هذه الإشارة توضيحٌ لبُطلانه، وتَوهينٌ لأركانه، وهدمٌ لبُنيانِه، بتحقيق سلامةِ ما أقيم مِنَ البرهان السَّاطعِ، عنِ المعارض والمُنافي[4].

بطلانٌ لقولهمُ المُفترى وتقويضٌ لدعاواهُم بين الورَى

سِرُّ الفصْلِ في: ﴿أَتَقُولُونَ﴾:

قوله تعالى: ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾: هذا جوابٌ ثالثٌ

التَّوبيخُ والتَّشنيعُ على المشركين بسببِ جُرأتِهم على الله

(1) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 7/3610.
(2) ابن قيّم الجوزيّة، مفتاح دار السّعادة: 1/58.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/232.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 6/146.

ناشئٌ عنِ الجوابَيْن السَّابقَيْن؛ لأنَّهم لمّا أبطل اللّه قولَهم بالحجَّة، ونفى أن تكونَ لهم على قولهم حُجَّةٌ كانوا أحرِياءَ بالتَّوبيخ والتَّشنيعِ بأنَّهم يجترِئون على جَنابِ اللّه، فيَصفون اللّه بما لا يعلمون، أي بما لا يُوقِنون به، ولكوْنِها جوابًا فُصلتْ، فالاستفهام مُستعملٌ في التَّوبيخ؛ لأنَّ المذكور بعدَه شيءٌ ذميمٌ، واجتراءٌ عظيمٌ، وجهلٌ كبيرٌ مركّبٌ[1].

دَلالةُ الاستفهامِ في الآية:

المبالغةُ في إنكار مقالتِهم الشّنيعةِ، تحقيقٌ للمُحاجّةِ الفاصلةِ

قوله تعالى: ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾: يجوزُ أن يكون ذلك على سبيل الاستفهامِ الإنكاريِّ، والتَّقديرُ: إن عندكم من سلطانٍ بهذا؟ أتقولون على اللّه ما لا تعلمون؟ ويجوزُ أن يكون أسلوبًا خبريًّا، وتكونَ (إنْ) نافيةً، والتَّقديرُ: ما عندكم من سلطانٍ بهذا[2]، حيث بالغَ في الإنكارِ عليهم أن يقولوا قولًا لا يعلمون حقيقتَه وصحَّتَه، ويُضيفون إليه ما لا تجوزُ إضافتُه إليه، جهلًا منهم بما يقولون[3]، وعلى كلا الاحتمالين، فهو توبيخٌ وتقريعٌ على اختلاقِهمُ الكذبَ وجهلِهم، وفيه دليلٌ على أنَّ كلَّ قولٍ لا دليلَ عليه فهو جهالةٌ، وأنَّ العقائد لا بدَّ لها من دليلٍ قاطعٍ، وأنَّ التَّقليدَ فيها غيرُ سائغٍ[4].

سِرُّ التَّذْييلِ بالاستفهامِ الانكاريِّ:

الإيماءُ إلى أنّ العقائدَ لا بُدَّ فيها من دليلٍ قاطعٍ، يَنفي الجهالةَ

قولُه تعالى: ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾، أي أتقولون على اللّه قولًا لا تعلمون حقيقتَه، وتَنسبون إليه تعالى، ما لا يجوزُ إضافتُه إليه، لا سيّما بعد مجيء ما يَنقضُه منَ الأدلّةِ العقليّةِ والوحيِ الإلهيِّ، وفي الآية إيماءٌ إلى أنّ كلَّ قولٍ لا دليلَ عليه جهالةٌ[5]؛ فلمَّا نفَى عنهمُ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/232.
(2) عبد الكريم الخطيب، التَّفسير القرآنيّ للقرآن: 6/1046.
(3) الخازن، تفسير الخازن: 2/454.
(4) البيضاويّ، أنوار التَّنزيل: 119/3.
(5) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 11/135.

البرهانَ بما سَبَقَ جعلَهم غيرَ عالِمين، فدلَّ على أنَّ كُلَّ قولٍ لا برهانَ عليه لقائلِه جهلٌ[1].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الأخذُ والاتِّخاذُ:

الأخذُ حَوْزُ الشَّيءِ وجمْعُه، والاتِّخاذُ جَعْلُ الشَّيءِ لأمْرٍ والاستمرارُ عليه

وهذان الفعلان بمعنى واحدٍ، وقيل: بل هما في الأصل مِن مادَّةٍ واحدةٍ، فقد ذهب فريقٌ مِنَ اللُّغويّين إلى أنَّ (اتّخذَ) مبنيٌّ مِن (أخذ)، جاء في (لسان العرب): "والاتِّخاذُ افتعالٌ أيضًا مِنَ الأخذ إلَّا أنَّه أُدغم بعد تلْيين الهمزة وإبدالِ التَّاء، ثمَّ لمَّا كَثر استعمالُه على لفظ الافتعال، تَوهَّموا أنَّ التَّاء أصليَّةٌ فبنوا منه: فَعِلَ يَفْعَلُ، قالوا: تَخِذَ يَتْخَذُ، وقُرئَ: (لَتَخِذْتَ عليه أجرًا). وذهب آخرون إلى أنَّهما مادَّتان مختلفتان، قال السَّامرَّائيُّ: ويبدو لي أنَّ الرَّأيَ الأوَّلَ أرجحُ، وله نظائرُ في اللُّغة"[2]، والأخذُ مَصْدرُ أَخَذْتُ بيديَّ، ويُستعارُ فيقال: أخذه بلسانِه، إذا تَكَلَّمَ فيه بمكروه، وجاء بمعنى العَذابِ في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ﴾ [هود: 102]، وقولِه تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ۝٧٣﴾ [الحجر: 73]، وأصلُه في العربيَّة حَوْزُ الشَّيء وجَبْيُه وجَمْعُه[3]؛ والاتّخاذُ أخذُ الشَّيء لأمرٍ يَسْتَمِرُّ فيه، فيُستعملُ بمعنى جَعَلَ[4] مثل الدَّار يتَّخذُها مَسكنًا، ويكونُ الاتّخاذُ في التَّسميَةِ والحُكْمِ؛ وهو على صيغة الافتعالِ، وهي دالَّةٌ على التَّكلُّف للمبالغة في تحصيل الفعلِ؛ ومنه قولُه تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً﴾ [الفرقان: 3]، أي سمَّوها بذلك وحكَموا لها به[5].

(1) الزّمخشريّ، الكشَّاف: 2/358.
(2) فاضل صالح السّامرّائيّ، معاني النّحو: 2/30.
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (أخذ).
(4) الفيروزباديّ، القاموس المحيط، ص: 331، والفيوميُّ، المصباح المنير: 1/7.
(5) العسكريُّ، معجم الفروق اللُّغويَّة، ص: 29.

البرهانُ والسُّلطانُ:

البُرهانُ: الحُجَّةُ الفاصلةُ البيِّنةُ، يقال: بَرهَن يُبَرهِنُ بَرهَنةً، إذا جاء بحُجَّةٍ قاطعة لِدفع الخَصم، فهو مُبَرهِنٌ[1] فيُبَرهن بمعنى يُبَيِّنُ، وقد بَرهَنَ عليه: أقام الحُجَّةَ. قال تعالى: ﴿قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١١١﴾﴾ [البقرة: 111]، وفي الحديث: (الصَّدقة برهانٌ)[2]، أي: هي دَليلٌ على صحَّة إيمان صاحبِها لطيب نَفسِه بإخراجها، وذلك لعَلاقةِ ما بين النَّفس والمال[3]، أمَّا السُّلطان عند العرب فيُطلَق على الحُجَّة، ويُذكَّرُ ويُؤَنَّث، فمن ذكَّر السُّلطانَ ذَهبَ به إلى معنى الرَّجل، ومن أنَّثه ذَهبَ به إلى معنى الحُجَّة، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾﴾ [هود: 96] أي: وحُجَّةٍ بَيِّنةٍ، والسُّلطان: الحاكمُ، إنَّما سُمِّيَ سُلطانًا لأنَّه حُجَّةُ اللّٰه في أرضه، أو هكذا ينبغي أن يكون[4] وقولُه تعالى: ﴿هَلَكَ عَنِّي سُلْطَٰنِيَهْ ﴿٢٩﴾﴾ [الحاقّة: 29] معناه: ذهبت عنّي حُجّتي[5]؛ فالسُّلطان أعمُّ.

البُرهانُ الحُجَّةُ الفاصلةُ البيِّنةُ، والسُّلطانُ أعمُّ منه وأشملُ

(1) ابن منظور، لسان العرب: (برهن).
(2) رواه مسلم من حديث أبي مالك الأشعريّ، كتاب الطهارة، باب فضل الوضوء، الحديث رقم: (223).
(3) الزَّبيدي، تاج العروس: (برهن).
(4) الزّجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 5/217.
(5) الثَّعلبي، الكشف والبيان: 10/31، وابن جُزَيّ، التّسهيل لعلوم التّنزيل: 2/407.

﴿قُلْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ مَتَٰعٌ فِى ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾ [يونس: 69 - 70]

مُناسَبَةُ الآيَتَينِ لِمَا قَبْلَهما:

ربطُ أقاويل المُفترين، بما تستحقُّه من الوعيد بالعذابِ الشَّديدِ

لَمَّا بيَّن اللّه تعالى بالدَّليل القاهرِ أنَّ إثباتَ الولد للّه تعالى قولٌ باطلٌ، ثمَّ بيَّن أنَّه ليس لهذا القائل دليلٌ على صحَّة قولِه؛ إذ ظهر أنَّ ذلك المذهبَ افتراءٌ على اللّه، ونسبةٌ لما لا يليقُ به إليه؛ وبكَّتهم عليه مواجهةً - أتْبعَه بما يشيرُ أنَّ مَن هذا حالُه، فإنَّه لا يُفلحُ البتَّةَ[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَفْتَرُونَ﴾: أصلُ الفَرْي: القَطْعُ والشَّقُّ، والإفْراءُ للإفساد، والافْتِراءُ فيهما، وفي الإفساد أكثرُ[2] والفِرْيَةُ الكذِبُ، فَرَى كَذِبًا فَرْيًا، وافْتَراهُ: اخْتَلَقَه، وفي التَّنْزيلِ العزيزِ: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ﴾ [يونس: 38]؛ أي اخْتَلَقَهُ[3] قال السَّجستانيّ: "الافتراء: العظِيم منَ الكذِب، يُقَال لمن عمل عملًا، فَبالغ فيهِ إنَّه ليفري الفريَ يَعْنِي لَيقطعُ الأمرَ العجيبَ"[4]. والمرادُ في الآية: كلُّ هذه المعاني مجتمعةً.

2) ﴿مَتَٰعٌ﴾: أصْلُ المتع: الامتدادُ والارتفاعُ[5]، والمتُوع هو امتدادُ الشَّيء مع قوَّتِه وكمالِ حاله: كتلك الموصوفات، حيث يُلحظُ فيها

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/282، والبقاعيّ، نظم الدُّرر: 9/160.
(2) الرّاغب، المفردات: (فرى).
(3) ابن سيده، المحكم، وابن منظور، لسان العرب: (فرى).
(4) السّجستانيّ، غريب القرآن، ص: 103، والكفويّ، الكلّيّات، ص: 154.
(5) الرّاغب، المفردات: (متع).

الامتدادُ طولًا أو بقاءً مع جَوْدةٍ وكمالِ حالٍ؛ ولذا استُعملَ فيما يبلُغ به الشَّيءُ ذلك مِن قوَّة باطنةٍ وزادٍ وأسْبابِهما. والتَّركيب مُستعملٌ في معنى الإبقاء دهرًا مع الزَّاد ومُستلزماتِ المعيشة، قال تعالى: ﴿يُمَتِّعۡكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى﴾ [هود: 3]، أي: يُبْقيكم بقاءً في عافية إلى وقت وفاتِكم، ولا يستأصلُكم بالعذاب، ﴿وَمَتَّعۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ حِينٖ ٩٨﴾ [يونس: 98][1]، والمتاعُ: ما يَستمتعُ به الإنسانُ في حوائجه مِن أمتعة البيتِ ونحوِه مِن كلِّ شيءٍ. والدُّنيا متاعُ الغُرور، وكلُّ شيءٍ تمتّعْتَ به فهو متاع، تقول: إنَّما العيشُ متاعُ أيَّام ثمَّ يزولُ[2]، والمقصودُ في الآية: نفعٌ فانٍ غارٌّ ولو طال.

3) ﴿مَرۡجِعُهُمۡ﴾: أصلُ الرُّجُوع: "العودُ إلى مكانٍ منه البدوُّ، سواءٌ أكان مكانًا أو قولًا أو فعلًا، وسواء أكان العَودُ بذاته أو بجُزءٍ مِن أجزائه أو بفعْلٍ مِن أفعاله"[3] تَقُولُ: رَجَعَ يَرْجِعُ رُجُوعًا، إذَا عادَ[4]. والمرجِعُ: مَصدَرٌ مِيميٌّ بمعْنَى الرُّجوعِ، وهو العَودُ إلَى الشَّيْءِ، ومعْنَى الرُّجُوعِ إلى اللّه: الرُّجوعُ إلى وَقْتِ نَفاذِ حُكْمِهِ المُباشِرِ فِيهِم، ويجوزُ أن يكونَ المَرجِعُ كنايةً عنِ الموتِ[5]، والمقصودُ في الآية: معادُكم إلى اللّه تعالى.

4) ﴿نُذِيقُهُمۡ﴾: الذَّوقُ أصلٌ واحدٌ، وهو "اختبارُ الشَّيءِ مِن جِهَةِ تَطَعُّم، ثمَّ يُشتقُّ منهُ مجازًا يُقال: ذُقْتُ المأكولَ، أذوقُهُ، ذَوْقًا، وذُقْتُ ما عند فُلانٍ: إذا اختَبرتهُ"[6]، وذَوَّقَهُ الطَّعامَ: جَعَلَهُ يَخْتَبِرُ طَعْمَهُ بِلِسانِهِ. والذَّوق وجودُ الطَّعم بالفم، واستُعملَ في العذاب بكثرة، قال تعالى: ﴿ذُقۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡكَرِيمُ ٤٩﴾ [الدّخان: 49]، واستُعملَ في الرَّحمة أيضًا، قال تعالى: ﴿وَلَئِنۡ أَذَقۡنَٰهُ نَعۡمَآءَ بَعۡدَ ضَرَّآءَ مَسَّتۡهُ﴾ [هود: 10]. فإن كان التَّذوّقُ للنِّعْمَة زيادةً في التَّنعُّم، فالتَّذوُّق للعذاب زيادةٌ في الألم، وهذا هو المرادُ منَ الآية.

المَعْنى الإجْماليُّ:

وجَّه ﷻ الخطابَ إلى نبيِّه ﷺ، فقال: قلْ يا محمَّدُ: إنَّ الذينَ يَختَلِقونَ على اللّه

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (متع).
(2) الخليل، العين: (متع).
(3) الرّاغب، المفردات، والسَّمين الحلبيّ، عمدة الحفَّاظ، والزبيدي، تاج العروس: (رجع).
(4) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (رجع).
(5) الواحديّ، التَّفسير البسيط: 11/257، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/223.
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ذوق).

الكَذِبَ لا يَفوزونَ في الدُّنيا ولا في الآخرةِ، لهم في الدُّنيا متاعٌ قليلٌ، ثمَّ إلينا مَصيرُهم، ثمَّ نُذيقُهم في النَّارِ العذابَ المُوجِعَ؛ بسبَبِ كُفرِهم باللّٰه[1].

مَن افترَى على اللهِ الكذبَ، خسرَ الدُّنيا والآخرةَ

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دَلالةُ أسلوبِ الاستئنافِ:

في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾، استئنافٌ افتُتح بأمْرِ النَّبيِّ ﷺ أن يقول لهؤلاء المشركين على سبيل الإنذارِ والتَّهديدِ: إنَّ الذين يفترون على اللّٰه الكذبَ، بنسبةِ الولدِ إليه، والشَّريكِ له، لا يفلحون ولا يفوزون بمطلوبٍ[2]، وفيه تلوينٌ للخِطابِ، وتوجيهٌ له إلى سيِّد المُخاطَبين ﷺ، ليُبَيِّن سوءَ مغبَّتِهم ووخامةَ عاقبتِهم، وفي ذلك إنذارُهم عنِ الاستمرارِ على ما هم فيه، ولغيرِهم عنِ الوقوع في مثلِه[3].

تهديدُ المُفترين ببيانِ سوءِ عاقبتِهم، ردْعًا لهم ولغيرِهم

سِرُّ الأمْرِ بالفعلِ ﴿قُلْ﴾:

قولُه تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلَّذِينَ﴾، تنبيهٌ للسَّامعين إلى وعْيِ ما يَرِدُ بعد الأمر بالقَوْلِ، بأنَّه أمرٌ مُهِمٌّ، بحيث يُطلبُ تبليغُه، وذلك أنَّ المقول قضيَّةٌ عامَّةٌ، يحصلُ منها وعيدٌ للّذين قالوا: ﴿ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا﴾، على مقالتِهم تلك، وعلى أمثالِها كقولهم: ﴿مَا فِي بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا﴾ [الأنعام: 139] وقولِهم: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ۝٩٠﴾ [الإسراء: 90]، وأمثالِ ذلك، فذلك كلُّه افتراءٌ على اللّٰه؛ لأنَّهم يقولونَه على أنَّه دينٌ، وماهيَّةُ الدِّين أنَّه وَضْعٌ إلهيٌّ، فهو منسوبٌ إليه، ويحصلُ مِن تلك القضيَّة وعيدٌ لأمثال المشركين مِن كلِّ مَن يفتري على اللّٰه ما لم يقُلْه، فالمقولُ لهم ابتداءً

تنبيهُ السَّامِعين إلى الوعْيِ بما يَرِدُ، بعد الأمرِ بالقَوْلِ

(1) ابن جرير، جامع البيان: 12/230، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 8/361، والبغويّ، معالم التّنزيل: 2/428، والخازن، لباب التّأويل: 2/454.

(2) طنطاوي، التّفسير الوسيط: 7/101.

(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/163، والآلوسي، روح المعاني: 6/147.

همُ المشركون[1]، فلا يختصُّ هذا الوعيدُ بالصُّورة المذكورةِ، بل كلُّ مَن قال في ذات اللّه تعالى، وفي صفاته قولًا بغير علْمٍ وبغير حُجَّةٍ بَيِّنَةٍ؛ كان داخلًا في هذا الوعيدِ[2].

دَلالةُ ﴿إِنَّ﴾ بعدَ الأمرِ:

أهميَّةُ تقويةِ المعنى وترسيخِه في ذهن السَّامعِ

بيَّن ربُّنا ﷻ في قوله: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ﴾ أنَّ مَن هذا حالُه في الافتراء واختلاقِ الكذب، فإنَّه لا يُفلحُ البتَّةَ[3]، فأكَّدَ سبحانه عدمَ فلاحِهم بكلمة ﴿إِنَّ﴾[4]؛ تقويةً لهذا المعنى السَّديدِ وترسيخًا للوعيدِ الشَّديدِ.

أثرُ الاسمِ الموصولِ ﴿ٱلَّذِينَ﴾:

إيضاحُ حالِ المُفترين ومن شابهَهُم، وشاركَهُم في حُكم الوعيدِ

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ﴾ عامٌّ يشملُ مَن نسَبَ إلى اللّه الولدَ، ومن قال في اللّه وفي صفاته قولًا بغير عِلْم، وهو داخلٌ في الوعيد بانتفاءِ الإفلاحِ[5]، فالمرادُ بالموصول ما يَعُمُّ أُولئك المخاطَبين وغيرَهم مِمَّن تكون هذه صفتَهم كائِنًا مَنْ كانوا[6].

سِرُّ التَّعبيرِ بلفظِ (الافتراء):

إيضاحُ أنَّ الافتراءَ، هو ارتكابُ ما لا يَصلُحُ قولًا وفِعْلًا

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ﴾: الافتراءُ: افتعالٌ مِنَ الفَرْيِ، وهو أقبحُ الكَذِبِ وأعظمُه، ويكونُ في القول والفعل، فيُقَال لِمَن عَمِلَ عملًا، فَبَالغ فِيهِ إنَّه لَيَفْري الفَرْيَ، يَعْنِي لَيقطعُ الأمرَ العَجيبَ[7]، وأصلُ الافتراء مِنَ الفَري، وهو القَطْعُ ولكوْنِ قطْعِ الشَّيءِ مَفْسدةً له - غالبًا - غلبَ على الإفساد، واستُعمِلَ في القرآن بمعنى الكذبِ والشِّرك والظُّلمِ، فهو ارتكابُ ما لا يصلحُ أن يكونَ قَوْلًا أو فِعْلًا،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/232.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 134/17.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 134/17.
(4) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 7/3612.
(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/85.
(6) الآلوسي، روح المعاني: 6/147.
(7) السِّجِسْتانيُّ، غَريبُ القُرْآنِ، ص: 103.

وهو الأليَقُ بوصف المُشْرِك، فيقعُ على اختلاقِ الكذِب، وارتكابِ الإثم، وهو المُراد هُنا، فالمرادُ معنًى عامٌّ وهو ارتكابُ ما لا يصلحُ[1]، وإنَّما جعلَ اللّه تعالى المشركَ مفتريًا؛ لأنَّه قال زُورًا وإفكًا بِجُحودِهِ وَحدانيَّةَ اللّه، وإقرارِه بأنَّ للّه شَريكًا مِنْ خَلْقِهِ وصاحبةً أو ولدًا؛ فَقائلُ ذلك مُفترٍ، وكذلك كلُّ كاذب، فهو مُفْتَرٍ في كَذِبِهِ مُختلِقٌ له[2].

دَلالةُ تقديمِ الجارِّ والمجرور ﴿عَلَى ٱللَّـهِ﴾:

بيانُ أنَّ الافتراءَ مع عِظَمِ الجُرمِ فيه، يعظُمُ بحسبِ المُفترَى عليه

قوله تعالى: ﴿يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾: قُدّمت كلمة ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾، على كلمة ﴿ٱلْكَذِبَ﴾ لبيان شناعةِ الافتراء، وأنّه على ربّ الوجودِ ومُنشئِه وبارئِه[3]؛ فالافتراءُ يكبرُ ويعظُمُ بحسبِ المُفترَى عليه، وهؤلاء افتَرَوا على خالق الوجودِ، وهو اللّه[4] ﷻ؛ فافتراؤهم أعظمُ افتراءٍ، واجتراؤهم أعظمُ اجتراءٍ.

نُكتةُ اجتماعِ الافتراءِ والكذبِ:

تأكيدُ عِظَمِ فِريتِهم باختلاقِهم للكذب قولًا وعملًا

قوله تعالى: ﴿يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾: الافتراءُ كَذِبٌ واختِلَاقٌ، يُقال: فَرى فلانٌ الكَذبَ يفْريه، إذا اخْتَلقه، وافترى فلانٌ على فلان: إذا قَذَفَهُ بما ليس فيه، أو قَذَفَ أبوَيْه، وأصْلُ الفَرْيِ: قَطْعُ الشَّيْءِ؛ و(الافتراء) الاختلاقُ، وهو ما عَظُمَ مِنَ الكَذِبِ، وكذلك استُعمِلَ في القُرآن في الكذِب والشِّركِ والظُّلْم[5]، والافتراء كما يُطلقُ على القول يُطلقُ على الفعل[6]؛ فذِكْرُ الكذبِ مع الافتراء للتَّأكيد[7]، وللدَّلالةِ على قُبحِ فعلِهم، وعاقبتِهم السيِّئةِ.

(1) الآلوسي، روحُ المعاني: 53/5.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 451/8.
(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 7/3611.
(4) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 7/3611.
(5) الأزهريُّ، تهذيبُ اللُّغةِ: (ر ف ا)، والرّاغب، المُفرداتُ: (فرى)، وابنُ قُتيبة الدّينوريُّ، غريبُ القُرآنِ، ص: 31، 128، 280، والكفويّ، الكلّيّات، ص: 154.
(6) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 7/192.
(7) القنّوجيّ، فتح البيان: 3/261.

سِرُّ التَّعبيرِ بالمضارع:

التَّدليلُ على عدمِ فلاحِ المُفترين حالًا ومآلًا

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ لَا يُفۡلِحُونَ﴾: التَّعبيرُ بالمضارع في كلمة ﴿لَا يُفۡلِحُونَ﴾ يدلُّ على الاستمرار؛ فَمِن شأنِ الكاذبِ على اللّه تعالى ألَّا يُفْلِحَ[1]؛ حالًا ومآلًا، فهم " لا يفوزون بما يُؤَمِّلون مِنَ النَّجاة مِن عذاب الآخرة، والتَّمتُّع بنعيمِها، بشفاعة الولدِ أوِ الشُّركاءِ الذين اتَّخذوهم له تعالى، أو فِدَائِهم لهم مِن عذاب النّار"[2].

سِرُّ إيثارِ لفظِ: ﴿لَا يُفۡلِحُونَ﴾:

وَعيدُ المُفترين بعدمِ النَّجاة مِنَ المكاره، وعدَمِ الفوزِ بالمَطالبِ

﴿لَا يُفۡلِحُونَ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ لَا يُفۡلِحُونَ﴾: الفلاحُ: حصولُ ما قصدَهُ العاملُ مِن عملِه بدونِ انتقاضٍ ولا عاقبةِ سوءٍ، فنفْيُ الفلاحِ هنا نفيٌ لحصولِ مَقصودِهم مِنَ تَكذيبِ محمَّدٍ ﷺ[3]؛ وفي نفْيِ الفلاح عنهم توعُّدٌ لهم، بأنَّهم لا يَظفرون بِبُغيَةٍ ولا يَبقون في نعمةٍ[4]، ولا ينجون مِن مكروهٍ، ولا يفوزون بمطلوب أصلًا، ويندرجُ في ذلك عدمُ النَّجاة مِنَ النَّار، وعدمُ الفوز بالجنَّة، لذا اقتصرَ عليه في مقام المبالغةِ في الزَّجرِ عنِ الافتراء عليه سُبحانه[5].

دَلالةُ الاستئنافِ البيانِّي:

متاعُ الدُّنيا إلى زوالٍ، ومتاعُ الآخرةِ ضمانٌ لحُسنِ المآلِ

في قوله تعالى: ﴿مَتَٰعٞ فِي ٱلدُّنۡيَا﴾: استئنافٌ بيانيٌّ؛ لأنَّ القضاءَ عليه بعدمِ الفلاحِ يتوجَّهُ عليه أن نقول: نحن نراهُم في عزَّة وقُدرةٍ على أذى المسلمين، وصدِّ النَّاسِ عنِ اتِّباعِ الرَّسول ﷺ! فهو جوابٌ على تقدير سؤالٍ، مُفاده أنَّ قائلًا قال: (كيف لا يفلحون وهم في

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3611.
(2) رشيد رضا، تفسير المنار: 373/11.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/233.
(4) ابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 3/131.
(5) الآلوسي، روح المعاني: 6/147.

الدُّنيا مُفلحون بأنواعٍ ما يتلذَّذون به؟!) فيُجابُ السَّائلُ بأنَّ ذلك متاعٌ في الدُّنيا لا يُعبأُ به، أو لهم متاعٌ في الدُّنيا زائلٌ لا بقاءَ له، ثمَّ يَلقَون الشَّقاءَ المؤبَّدَ في الآخرة، وإنَّما عدمُ الفلاح مَظهرُه الآخرةُ[1].

نُكتةُ بيانِ المحذوفِ في: ﴿مَتَٰعٞ فِي ٱلدُّنۡيَا﴾، وأثرُه في المعنى:

اعتبارُ افترائِهم مِن جُملةِ مَتاعِهم

قوله تعالى: ﴿مَتَٰعٞ فِي ٱلدُّنۡيَا﴾: متاعٌ خبرُ مبتدأٍ محذوفٍ، أي: هو، أو ذلك متاعٌ أو يكونُ ﴿مَتَٰعٞ﴾ مبتدأً خبرُه محذوفٌ أي: لهم تمتُّعٌ في الدُّنيا، وساغَ الابتداءُ به لوصْفِه[2]. وما ذُكِرَ مِن كوْنِ ﴿مَتَٰعٞ﴾ خبرَ مبتدأٍ محذوفٍ هو الذي ذهب إليه غيرُ واحدٍ مِنَ المُعْربين، غير أنَّهم قدَّروا المبتدأ (حياتُهم أو تقلُّبُهم أوِ افتراؤهم)، واعتُرِض على تقدير الأخير (افتراؤهم) بأنَّ المتاعَ إنَّما يُطلقُ على ما يكونُ مَطبوعًا عند النَّفس، مرغوبًا فيه في نفسه، يُتَمتَّعُ به ويُنتفعُ، وإنَّما عُدمَ الاعتدادُ به لسرعة زوالِه، ونفسُ الافتراء عليه سُبحانه أقبحُ القبائح عند النَّفس، فضلًا عن أن يكون مطبوعًا عندَها، وأُجيبَ بأنَّ إطلاقَ المتاعِ على ذلك باعتبار أنَّه مطبوعٌ عند نفوسِهمُ الخبيثةِ، وفيه انتفاعٌ لهم به، حَسبَما يرونَه انتفاعًا، وإن كان مِن أقبح القبائح، وكانَ غيرَ مُنتفعٍ به في الأمر نفسِه، أي: افتراؤهم متاعٌ في الدُّنيا يقيمون به رئاستَهم في الكفر أو حياتِهم، ولا يخفى أنَّ الوجه الأوَّلَ مع هذا أوجَهُ[3].

دَلالةُ التَّنكير في: ﴿مَتَٰعٞ﴾:

كونُ المتاعِ زائلًا، يَقْتضي التَّحقيرَ والتَّصغيرَ والتَّهوينَ

التَّنكيرُ في قوله تعالى: ﴿مَتَٰعٞ فِي ٱلدُّنۡيَا﴾: للتَّحقيرِ والتَّقليلِ[4]، أي: ما يقعُ لهم في هذه الدُّنيا مِن زُخرفِها ومتاعِها، هو متاعٌ قليلٌ،

(1) أبو حيّان: 85/6، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 233/11.
(2) البيضاويّ، أنوار التنّزيل: 3/119، ومحيي الدِّين درويش، إعراب القرآن الكريم وبيانه: 4/275.
(3) البروسويّ، روح البيان: 4/64.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 6/147.

وظِلٌّ زائلٌ[1]، فهؤلاء لهم متاعٌ في الدُّنيا حقيرٌ يتلهَّون به في حياة قصيرةٍ، هي الحياةُ الدُّنيا؛ إذ مهما يبلغُ هذا المتاعُ مِنَ العظَمةِ ككثرة مالٍ أو عِظَمِ جاهٍ، فهو قليلٌ بالنِّسبة إلى ما عند اللّه في الآخرة للصَّادقين المُتَّقين[2].

دَلالةُ تقْييدِ المتاعِ: ﴿فِي ٱلدُّنۡيَا﴾:

قوله تعالى: ﴿مَتَٰعٞ فِي ٱلدُّنۡيَا﴾: المتاعُ: المنفعةُ القليلةُ في الدُّنيا، إذ يُقيمون بكذبِهم سيادتَهم وعزَّتَهم بين قومهم ثمَّ يزولُ ذلك، وكلمةُ ﴿مَتَٰعٞ﴾ مُؤذِنةٌ بأنَّه غيرُ دائمٍ، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُسۡتَقَرّٞ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٖ ٢٤﴾ [الأعراف: 24]، وتنكيرُه مُؤْذِنٌ بتقليلِه، وتقييدُه بأنَّه في الدُّنيا مُؤكِّدٌ للزَّوالِ وللتَّقليلِ[3]. وفي هذا دلالةٌ واضحةٌ على الخسارةِ المُحقَّقةِ للكافرين، فإنَّ ما يتوهَّمون أنَّه نجاحٌ في الدُّنيا بالحصولِ على المنافع المادّيَّةِ والمعنويَّةِ، لا قيمةَ له أصلًا في مقابَلةِ ما فاتَهُم في الآخرة، مِن ثواب عظيم، ونعيم مُقيمٍ في جِنان الخُلدِ، فإنَّ الدُّنيا لا تُساوي عند اللّه جناحَ بعوضةٍ[4].

متاعُ الدّنيا يحملُ أوصافَها، زَوالًا وتقلُّبًا ودناءةً

دَلالةُ ﴿ثُمَّ﴾:

قولُه تعالى: ﴿ثُمَّ إِلَيۡنَا مَرۡجِعُهُمۡ﴾: ﴿ثُمَّ﴾ للتّراخي الرُّتْبيّ؛ لأنَّ مضمونَه محقّقٌ أنَّهم لا يفلحون، فهو أهمُّ مرتبةٍ من مضمون لا يفلحون[5]؛ فـ﴿ثُمَّ﴾ في موضعها مِنَ التَّرتيب والتَّراخي، والتَّراخي زمنيٌّ ومعنويٌّ، أمَّا الزَّمنيُّ فخلافُ الرُّجوع إلى اللّه بعد البعثِ والنُّشورِ وقيامِ السَّاعة، وأمَّا المعنويُّ فما بين مُتعةِ الدُّنيا الفانيةِ، وعذابِ الآخرة الباقي[6].

مرجعُ البشرِ إلى اللّه، حيث تتلاشى الآمالُ، وتبقَى الأعمالُ

(1) عبد الكريم الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 6/1047.
(2) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 11/136.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 233/11.
(4) الزّحيليّ، التَّفسير المنير: 11/222.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 233/11.
(6) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3612.

سِرُّ تقديمِ الجارِّ والمجرور: ﴿إِلَيۡنَا﴾:

الوعيدُ بانتفاءِ الخلاصِ، يُؤكِّدُ للمُفترين أنْ لا مناصَ

قولُه تعالى: ﴿ثُمَّ إِلَيۡنَا مَرۡجِعُهُمۡ﴾ فيه تقديمُ كلمةِ ﴿إِلَيۡنَا﴾، على (مرجع)، وفي ذلك معنى الاختصاصِ، ووراءَه الإنذارُ الشّديدُ، أي: إلينا وحدَنا لا إلى غيرنا رجوعُكُم، وقدِ افتريتُمُ الكذبَ، وعبدتُمْ غيرَ اللّه، فلا بدَّ أن تنالوا الجزاءَ الوفاقَ على ما قدّمتُمْ مِن قولٍ باطلٍ، وعقيدةٍ فاسدةٍ، وشِركٍ بيِّن[1]، فنحاسبُهم حسابًا عَسيرًا على أقوالِهم الذَّميمةِ، وأفعالِهم القبيحةِ[2]، فهو توعُّدٌ بِحَقٍّ[3]، فتقديمُ ﴿إِلَيۡنَا﴾ على مُتعلَّقه، وهو المرجعُ للاهتمامِ بالتَّذكير به واستحضارِه، ويجوزُ أن يكونَ المرجعُ كنايةً عنِ الموت[4]، فأشيرَ إلى انتفاء النّجاة عنِ المكروه أيضًا بقوله سبحانه: ﴿ثُمَّ إِلَيۡنَا مَرۡجِعُهُمۡ﴾[5].

دَلالةُ تَكرارِ حرف العطْفِ ﴿ثُمَّ﴾:

مهما طالَ العُمرُ وطابَ، فإلى الله المآبُ

قولُه تعالى: ﴿ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلۡعَذَابَ﴾: الحرفُ ﴿ثُمَّ﴾ هذا مؤكِّدٌ لنظيره الذي في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِلَيۡنَا مَرۡجِعُهُمۡ﴾، على أنَّ المرادَ بالمرجعِ الحصولُ في نفاذ حُكْمِ اللّه، ثمَّ يُرجعون إلى ربِّهم بالبعث بعد الموت، وما فيه مِنَ أهوال الحشْرِ والحسابِ، فيُذيقُهُمُ العذابَ الشَّديدَ، بسببِ كُفرهم بآياتِه، والافتراءِ عليه، وتكذيبِ رُسله بعد أن قامت عليهمُ الحُجَّة[6].

دَلالةُ الاستعارةِ المَكنيَّةِ التَّبعيَّةِ:

إضافةُ العذابِ النّفسيِّ إلى العذابِ الحِسّيِّ، عذابٌ فوقَ العذابِ

قولُه تعالى: ﴿نُذِيقُهُمُ ٱلۡعَذَابَ﴾: استُعْمِلَ التَّجوُّزُ هنا بلفظِ ﴿نُذِيقُهُمُ﴾ عنِ الابتلاء، وملابسةِ العذاب الشَّديدِ، إذ إنَّ الأصلَ في الإذاقةِ أن تكونَ بالفم عن طريق اللِّسانِ، فعبَّرَ عنه بطريق

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3612.
(2) طنطاوي، التّفسير الوسيط: 7/101.
(3) ابن عطيّة، المحرَّر الوجيز: 3/131.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/233.
(5) الآلوسي، روح المعاني: 6/147.
(6) المراغي، تفسير المراغي: 11/136.

الاستعارةِ المكنيَّةِ التَّبعيَّةِ، حيث شبَّه تعذيبَ هؤلاء بالإذاقة، وحذفَ آلة الذَّوقِ وذكرَ صفةً مِن صفاته؛ وإذاقةُ العذاب إيصالُه إلى الإحساس، فأطلقَ عليه الإذاقةَ لتشبيهِه بإحساسِ الذَّوقِ في التَّمكُّن مِن أقوى أعضاءِ الجسمِ حاسّيَّةً، وهو اللِّسانُ[1]، فبُنِيت هذه الاستعارةُ على تشبيه المحسوسِ حسًّا بالمُدرَكِ معنًى، وصَوَّرت هذه الاستعارةُ ما يُصيب مشاعرَهم وأحاسيسَهم، يشعرون به، وكلَّما نضجت جلودُهم بدَّلهمُ اللّٰه تعالى جلودًا غيرَها[2].

دَلالةُ التَّرقّي في التَّرتيبِ الزَّمنيّ: (المتاعِ، المرجعِ، الجزاءِ):

قوله تعالى: ﴿مَتَٰعٞ فِي ٱلدُّنۡيَا ثُمَّ إِلَيۡنَا مَرۡجِعُهُمۡ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلۡعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُواْ يَكۡفُرُونَ﴾: جاءت هذه الآيةُ الكريمةُ واصفةً أحوالَ المُفترين، في تمتُّعِهم القليلِ في حياتِهم الدُّنيا، ثُمَّ موتِهم ثُمَّ محاسبتِهم، وجاءت هذه العبارةُ على سبيل التَّرقّي والتَّرتيبِ الزَّمنيِّ، فإنَّ ذلك المقصودَ الخسيسَ متاعٌ قليلٌ في الدُّنيا، ثمَّ لا بُدَّ مِنَ الموت، وعند الموت لا بُدَّ مِنَ الرُّجوع إلى اللّٰه، وعند هذا الرُّجوع، لا بدَّ مِن أن يذيقَه العذابَ الشَّديدَ، بسبب ذلك الكُفرِ المُتقدِّم، وهذا كلامٌ في غاية الانتظامِ، ونهايةِ الحُسنِ والجَزالةِ[3].

سَوقُ الكلامِ في غايةِ الجَزالةِ، مُفْضٍ إلى مقصدِ الدِّلالةِ

نُكتةُ تجاوُرِ الفعلينِ الماضي والمضارع:

﴿كَانُواْ﴾، و﴿يَكۡفُرُونَ﴾ في قولِه تعالى: ﴿كَانُواْ يَكۡفُرُونَ﴾ يُؤذنُ بتَكَرُّرِ ذلك منهم وتجدُّدِه بأنواع الكفرِ[4]؛ فيَبقون في الشَّقاء المؤبَّدِ بسببِ كُفرِهم المُستمرِّ في الدُّنيا[5]، حيث يدلُّ الفعلُ الماضي والمضارعُ هنا على الاستمرار على كُفرِهم يجدّدونَه آنًا بعد آنٍ[6].

الكُفرُ المستمرُّ، مُوجبٌ للعذابِ الدَّائمِ المستمرِّ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/234.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3612.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/282.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 234/11.
(5) البروسويّ، روح البيان: 4/64.
(6) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 7/3613.

المُتشابهُ اللَّفظيُّ:

توصيفٌ لمتاعِ الدّنيا القليلِ، وأنّ إلى ربِّنا في الآخرةِ المُنتهَى

ملاحظةُ التَّشابهِ بين قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ لَا يُفۡلِحُونَ ١١٦ مَتَٰعٞ قَلِيلٞ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ١١٧﴾ [النّحل: 117]، وقوله تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ لَا يُفۡلِحُونَ مَتَٰعٞ فِي ٱلدُّنۡيَا ثُمَّ إِلَيۡنَا مَرۡجِعُهُمۡ﴾، ففي سورة النَّحل، ذكرَ اللّه ﷻ أنَّ الذين يفترون عليه الكذبَ - أي يختلقونه عليه - كدعواهُم أنَّه حرَّم هذا، وهو لم يحرِّمْه، ونسبتِهم الشّريكَ والولدَ إليه تعالى - لا يفلحون؛ لأنَّهم في الدُّنيا لا يَنالون إلَّا متاعًا قليلًا لا أهميَّةَ له، وفي الآخرة يُعذَّبون العذابَ العظيمَ الشَّديدَ المؤلمَ؛ وأوضحَ هذا المعنى في آية يونس، فقولُه: متاع قليلٌ، بيَّن اللّه تعالى مَحَلَّه في سورة يونس، بأنّه كائنٌ في الدُّنيا، أي: متاعُهم في الدُّنيا متاعٌ قليلٌ[1].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الافتراءُ والكذبُ:

الافتراءُ أخصُّ منَ الكذِبِ؛ وهو أقبحُ الكذبِ وأعظَمُهُ

فالكذبُ عَدَمُ مُطابقةِ الخبرِ للواقعِ[2]، والافتراءُ: افتعالٌ مِنَ الفَرْيِ، وهو أقبحُ الكَذِبِ وأعظمُه، ويكونُ في القول والفعل فيُقَال لِمَن عَمِلَ عملًا فَبَالغ فِيهِ إنَّه لَيَفْري الفَرْيَ، يَعْنِي لَيقطعُ الأمرَ العَجيبَ[3]، قَال جَلَّ شَأْنُهُ: ﴿وَلَا يَأۡتِينَ بِبُهۡتَٰنٖ يَفۡتَرِينَهُۥ بَيۡنَ أَيۡدِيهِنَّ وَأَرۡجُلِهِنَّ﴾ [المُمْتَحِنَة: 13] وقولُه: ﴿قَالُواْ يَٰمَرۡيَمُ لَقَدۡ جِئۡتِ شَيۡـٔٗا فَرِيّٗا ٢٧﴾ [مريم: 27] قيل: معناه عظيمًا وقيل عجيبًا، ووقعَ الافتراءُ في القرآن والمُرادُ به الكذبُ نحوَ: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۖ﴾ [المائدة: 103]، والشِّرْكُ نحو: ﴿وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ إِثۡمًا عَظِيمًا ٤٨﴾ [النساء: 48]، والشَّيءُ العَظيمُ، كُلُّ ذلك بِحَسَبِ المقاماتِ الواردةِ في الكتاب[4].

---

(1) محمّد الأمين الشّنقيطيّ، أضواء البيان: 2/463.

(2) العسكريّ، معجم الفروق اللُّغويّة، ص: 449.

(3) السّجستانيُّ، غريبُ القرآن، ص: 103.

(4) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحُفّاظ، والزّبيدي، تاج العروس: (فرى).

فالافتراءُ: أخصُّ منَ الكذب مِن باب الأقوال؛ لأنَّ الافتراءَ كذبٌ في حقِّ الآخَر بما لا يَرْتَضيهِ، بخلافِ الكذبِ فإنَّه قد يكونُ في حقِّ المتكلِّم نَفْسِهِ، ولذا يُقَالُ لمن قال: فَعَلْتُ كذا ولم أفعل كذا، مع عدم صدْقِه في ذلك: هو كاذبٌ، ولا يُقالُ: هو مُفْتَرٍ، وكذا مَن مَدَحَ أحَدًا بما ليس فيه، يقال: إنَّهُ كاذبٌ في وصْفِه، ولا يُقال: هو مفترٍ؛ لأنَّ في ذلك ممَّا يرتضيه المقولُ فيه غالبًا. وقد ذكرَ اللّه قولَ الكفَّارِ: ﴿ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا﴾ [الأنعام: 93]؛ لِزَعْمِهِمْ أنَّه أتاهم بما لا يرتضيه اللّه سُبحانَه مع نِسْبَتِه إلَيْهِ[1]، ولذا يُطلِقُ الفُقهاءُ الفريةَ والافتراءَ على القَذْفِ، وهو رَمْيُ المُحْصَنِ بالزِّنى مِن غير دليلٍ، ومنه قيل: افترى فُلانٌ على فلان، إذا قَذَفَهُ بما ليس فيه، أو قذفَ أبوَيْه[2].

المتاعُ والمنفعةُ:

المتاعُ ما يُتمتَّعُ به، قال اللّه تعالى: ﴿وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ ٢٠﴾ [الحديد: 20]، ومتَّعه: مِنَ المتاع، قال اللّه تعالى: ﴿نُمَتِّعُهُمۡ قَلِيلٗا﴾ [لقمان: 24]، ومتَّعَ المطلَّقةَ: أعطاها شيئًا تتمتَّعُ به، قال اللّه تعالى: ﴿وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلۡمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلۡمُقۡتِرِ قَدَرُهُۥ﴾ [البقرة: 236][3]، والمَنْفعة تكونُ حَسَنَةً، وهي ما يُسْتَعانُ به في الوُصولِ إلَى الخَيْرِ، وتكونُ قبيحةً، أمَّا النِّعمةُ فهي ما قُصِدَ به الإحْسَانُ ولا تكونُ إلَّا حَسَنَةً[4]. أمَّا المتاعُ فيدلُّ على منفعةٍ وامتدادِ مُدَّةٍ في خيرٍ وقوَّةٍ وكمالِ حالٍ[5]. والمُتُوعُ: الامتدادُ والارتفاعُ، يقال: مَتَعَ النَّهارُ، ومَتَعَ النَّباتُ: إذا ارتفعَ في أوَّل النَّبات، فالمَتاعُ: انتفاعٌ مُمتدُّ الوقت؛ يقال: مَتَّعَهُ اللّه بكذا، وأمْتَعَه، وتَمَتَّعَ به، قال تعالى: ﴿وَمَتَّعۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ حِينٖ

المتاعُ كلُّ ما يُنتفَع ويُتبلَّغُ به، والمَنْفعة ما يُستَعانُ به في الوُصولِ إلَى الخَيْرِ

(1) العسكريّ، الفروق اللُّغويّة، ص: 450.
(2) الرّاغب، المفردات، وابن قتيبة الدّينوريّ، غريب القرآن، ص: 31.
(3) الحميريّ، شمس العلوم: 6215/9.
(4) العسكريّ، الفروق اللُّغَويّة، ص: 196، والزّبيدي، تاج العروس: (نفع).
(5) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (متع)، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصَّل: (متع).

﴿٩٨﴾ [يونس: 98] ومُتْعَةُ الحَجِّ: ضمُّ العمرةِ إليه، نحوَ قولِه تعالى: ﴿فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ﴾ [البقرة: 196][1]، والمتاعُ في الأصْل: كلُّ شَيْء يُنْتفَعُ به ويُتبلَّغُ به ويُتزوَّدُ[2]، والأمتعةُ في قول الله تعالى: ﴿وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ﴾ [النساء: 102] هي ما بها البلاغُ في الأسفارِ[3].

(1) الرّاغب، المفردات: (ممتع).
(2) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة: (متع).
(3) ابن جرير، جامع البيان: 162/9.

﴿۞وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ نُوحٍ إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيۡكُم مَّقَامِي وَتَذۡكِيرِي بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡتُ فَأَجۡمِعُوٓاْ أَمۡرَكُمۡ وَشُرَكَآءَكُمۡ ثُمَّ لَا يَكُنۡ أَمۡرُكُمۡ عَلَيۡكُمۡ غُمَّةٗ ثُمَّ ٱقۡضُوٓاْ إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ ٧١﴾ [يونس: 71]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

بعدَ الرّدودِ القاطِعة على المُفترينَ تُروَى قصّةُ نوحٍ أوّلِ المُرسَلينَ

مُناسبةُ الآيةِ لِما قبلَها أنّ اللّه تعالى لمّا ذَكَرَ "الدّلائلَ على وحدانيّتِه، وذكرَ ما جرى بينَ الرّسولِ وبين الكفّارِ، ذَكَر قَصَصًا مِن قَصَصِ الأنبياءِ، وما جَرى لهم مع قومِهم مِنَ الخِلافِ؛ وذلك تسلية للرّسولِ ﷺ، ولِيَتأسَّى بمَن قبلَهُ منَ الأنبياءِ، فَيَخِفَّ عليهِ مَا يَلقَى منهُم مِنَ التّكذيبِ وقلّةِ الأتْباعِ، ولِيَعلَمَ المَتلُوُّ عليهم هذا القَصَصُ عاقبةَ مَن كَذَّبَ الأنبياءَ"[1]. "ويبدأُ تعالى بقصّةِ نوحٍ عليه السلام فيقول تعالى: أخبرْ يا مُحمّدُ كفّارَ مكّةَ الّذينَ يُكذِّبونَكَ، خبرَ نوحٍ مع قومِهِ الّذين كذّبُوهُ، كيفَ أهلكَهُمُ اللّه، ودمّرَهُم بالغرقِ أجمعين، ولِيحذرْ هؤلاء أن يصيبَهُم مِنَ البلاءِ والهلاكِ والدّمارِ ما أصابَ أولئكَ"[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَٱتۡلُ﴾: (تلو) أصلٌ يدلُّ على الاتِّبَاعِ. يُقالُ: تَلَوْتُهُ إذا تَبِعتَهُ، وتقولُ: توالَت عليَّ الأوالي، ولِلتّوالي عليّ تَوَالي. وهو تِلوُ فلانٍ؛ أي: تاليه. وفلانٌ يُصلِّي ويُتَلِّي، إذا أتبَعَ المكتوبةَ النّافِلَةَ. قالَ البَعيثُ:

عَلَى مَتنِ عَادِيٍّ كأنَّ أرُومَهُ *** رجالٌ يُتَلُّونَ الصَّلاةَ خُشُوعُ

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/86، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/282، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 9/161 - 162.

(2) أسعد حومد، أيسر التّفاسير، ص: 1436.

أي: يُتبِعونَ الصّلاةَ الصّلاةَ لا يَفْتُرونَ[1]، ومنهُ: تلاوةُ القرآنِ؛ لأنّه يُتبِعُ آيةً بعدَ آيةٍ[2]. وتَلا يَتلُو تِلاوَةً؛ يَعني: قرأ قِرَاءَةً، وقولُهُ تَعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَتۡلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾ [البقرة: 121]؛ مَعنَاهُ: يَتَّبعونَهُ حَقَّ اتِّبَاعِهِ، وَيَعمَلُونَ بِهِ حَقَّ عَمَلِهِ[3]، وقولُهُ ﷻ: ﴿وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتۡلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلۡكِ سُلَيۡمَٰنَۖ﴾ [البقرة: 102]؛ "قالَ عَطَاءٌ: على مَا تُحَدِّثُ وتَقُصُّ، وَقِيلَ: مَا تَتَكَلَّمُ بِهِ؛ كَقَولِكَ: فُلَانٌ يَتلُو كِتَابَ اللّه؛ أي: يَقرَؤُهُ ويَتَكَلَّمُ بِهِ"[4].

2) ﴿كَبُرَ عَلَيۡكُم﴾: كَبُرَ عليه الأمرُ، ككَرُمَ: شقَّ واشتدَّ وثَقُلَ، ومنهُ قولُهُ تعالى: ﴿إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيۡكُم مَّقَامِي﴾، وقولُهُ تعالى: ﴿أَوۡ خَلۡقٗا مِّمَّا يَكۡبُرُ فِي صُدُورِكُمۡۚ﴾ [الإسراء: 51][5]، و(كَبَرَ) أصلٌ يَدُلُّ عَلَى خِلَافِ الصِّغَرِ[6]، والكَبِيرُ والصّغيرُ يُستعمَلان في الكَمِّيَّةِ المُتّصِلَةِ كالأجسامِ، وفي الكَمِّيَّةِ المُنفَصلةِ كالعددِ، وأصلُ ذلكَ أن يُستعمَلَ في الأعيانِ، ثمّ استُعيرَ لِلمعاني، وتُستعمَلُ الكبيرةُ فيما يَشُقُّ ويَصْعُبُ، نحو: ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلۡخَٰشِعِينَ﴾ [البقرة: 45]، وقالَ: ﴿كَبُرَ عَلَى ٱلۡمُشۡرِكِينَ مَا تَدۡعُوهُمۡ إِلَيۡهِۚ﴾ [الشّورى: 13]؛ ففيه تنبيهٌ على عِظَمِ ذلك[7].

3) ﴿مَّقَامِي﴾: وهو مِنَ (المقام)؛ بمعنى: الإقامة، "فقد يكونُ بمعنى مَوضِعِ القيامِ؛ لأنَّك إذا جعلتَهُ مِن (قامَ يقومُ) فمفتوحٌ، وإنْ جعلتَهُ مِن (أقامَ يُقيمُ) فمضمومٌ. وقولُهُ تعالى: ﴿لَا مَقَامَ لَكُمۡ﴾ [الأحزاب: 13]؛ أي: لا مَوضِعَ لَكُم، وقُرِئَ: ﴿لَا مُقَامَ لَكُمۡ﴾ [الأحزاب: 13] بالضّمِّ؛ أي: لا إقامةَ لَكُم، وقولُهُ تعالى: ﴿حَسُنَتۡ مُسۡتَقَرّٗا وَمُقَامٗا﴾ [الفرقان: 76]؛ أي: مَوضِعًا"[8]، وفي المثل: (لكلِّ مَقامٍ مَقالٌ)، يقولُ الحطيئةُ:

تَحَنَّنْ عَلَيَّ هَدَاكَ المَلِيكُ *** فَإِنَّ لِكُلِّ مَقَامٍ مَقَالَا[9]

والمَقامُ يكونُ مَصدرًا، واسمَ مكانِ القيامِ وزمانِهِ، نحو: ﴿إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيۡكُم

(1) الزّمخشريّ، أساس البلاغة: (تلو).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (تلو).
(3) الخليل، العين: (تلو).
(4) ابن منظور، لسان العرب: (تلا).
(5) الزَّبيديّ، تاج العروس: (كبر).
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (كبر).
(7) الرّاغب، المفردات: (كبر).
(8) الرّازي، مختار الصّحاح: (قوم).
(9) أبو بكر الأنباريّ، الزّاهر في معاني كلمات النّاس: 1/104.

مَّقَامِي﴾، ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ﴾ [إبراهيم: 14]، ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾ [البقرة: 125][1].

4) ﴿وَتَذْكِيرِي﴾: الذِّكرُ تارةً يُقالُ ويُرادُ بهِ: هَيئة للنَّفسِ بها يُمكِنُ للإنسانِ أن يَحفَظَ ما يَقتَنيهِ منَ المَعرفةِ، وهُو كالحِفظِ؛ إلّا أنّ الحِفظَ يُقالُ اعتبارًا بإحرَازِهِ، والذِّكْرُ يُقالُ اعتبارًا باستحضَارِهِ، وتارةً يُقالُ لِحضورِ الشّيءِ القَلبَ أو القَولَ، ولذلكَ قِيلَ: الذّكرُ ذِكران: ذِكرٌ بالقلبِ، وذِكرٌ باللّسانِ، قالَ تعالى: ﴿وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ﴾ [إبراهيم: 5][2]. والتّذكيرُ يصلحُ لِما هو ضدُّ النّسيانِ، ولمعنى الوعظِ؛ لأنّهُ إذا تذكَّرَ قد يُزْدَجَرُ[3].

5) ﴿فَأَجْمِعُوٓاْ﴾: الإجماعُ: الإعدادُ والعزيمةُ على الأمرِ، والإحكامُ، تقولُ: أجمعتُ الخُرُوجَ وأجمعتُ على الخُرُوجِ، وإحكامُ النّيّةِ والعَزيمةِ، أجمَعتُ الرّأيَ وعزَمتُ عليه بمعنًى، وأجمَعَ أمرَهُ؛ أي: جعلَهُ جَميعًا بعدَ ما كانَ مُتفرِّقًا[4]، والجَمعُ: ضمُّ الشّيءِ بتقريبِ بعضِهِ من بعضٍ، وأجمَعتُ كذا أكثرُ مَا يُقالُ فيما يكونُ جمعًا يُتَوَصَّلُ إليه بالفكرَةِ، نحو: ﴿فَأَجْمِعُوٓاْ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ﴾، وقال تعالى: ﴿فَأَجْمِعُواْ كَيْدَكُمْ﴾ [طه: 64][5].

6) ﴿غُمَّةً﴾: (غَمَّ) أصلٌ يَدُلُّ على تَغطِيَةٍ وإطبَاقٍ؛ تَقولُ: غَمَمتُ الشَّيءَ أغُمُّهُ؛ أي: غَطَّيتُه، وغَمَّهُ الأمرُ يَغُمُّهُ غَمًّا، وَهُوَ شَيءٌ يَغشَى القَلبَ[6]. والغَمُّ: سَتْرُ الشَّيءِ، ومنه: الغَمَامُ؛ لكونهِ ساترًا لضَوءِ الشّمسِ. وغُمَّةُ الأمر، قال تعالى: ﴿ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً﴾؛ أي: كُرْبةً، يُقالُ: غَمٌّ وغُمَّةٌ؛ أي: كَربٌ وكُربَةٌ[7]، ومجازُها: ظُلْمةٌ وضيقٌ وهَمٌّ، وقيل: أي: مُغَطًّى مَستُورًا[8] مُبهَمًا، مِن قولِهِمْ: غُمّ عَلَينا الهِلَالُ؛ فَهُوَ مَغمُومٌ: إذا التَبَسَ[9]، قالَ الشّاعرُ طَرَفة بن العَبد:

(1) الرّاغب، المفردات: (قوم).
(2) الرّاغب، المفردات: (ذكر).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (ذكر).
(4) ابن منظور، لسان العرب: (جمع).
(5) الرّاغب، المفردات: (جمع).
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (غمم).
(7) الرّاغب، المفردات: (غمم).
(8) ابن منظور، لسان العرب: (غمم).
(9) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (غمم).

لَعَمرُكَ ما أمرِي عَلَيَّ بِغُمَّةٍ *** نَهارِي ولَا لَيلِي عَلَيَّ بِسَرْمَدِ[1]

وقِيل: "أمرٌ غمّةٌ؛ أي: مُبهَمٌ مُلتبسٌ. قالَ تعالى: ﴿ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً﴾، قال أبو عبيد: مجازُها؛ ظلمةٌ وضيقٌ وهَمٌّ"[2].

7) ﴿ٱقْضُوٓاْ﴾: القَضَاءُ في اللّغةِ على وجوهٍ، مرجعُها إلى انقطاعِ الشّيءِ وتمامِه. وكلُّ ما أُحكِمَ عملُهُ أو أُتمَّ أو خُتِمَ أو أُدِّيَ أداءً أو أُوجِبَ أو أُعلِمَ أو أُنفِذَ أو أُمضِيَ فقد قُضِيَ[3]. وقولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ ٱقْضُوٓاْ إِلَيَّ﴾ ثمّ افعلُوا ما تريدون؛ معناه: ثمّ امضوا إليّ[4]. والقَضَاءُ: فصلُ الأمرِ قولًا كانَ ذلكَ أو فعلًا، وكلُّ واحدٍ منهما على وجهينِ: إلهيٍّ وبَشَريٍّ؛ فمِنَ القولِ الإلهيِّ قولُهُ تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: 23]؛ أي: أمرَ بذلك، ومِنَ الفعلِ البَشَريِّ قولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ ٱقْضُوٓاْ إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ﴾؛ أي: افرَغُوا مِن أمرِكُم[5].

8) ﴿وَلَا تُنظِرُونِ﴾: (نظر) أصلٌ يَرجِعُ فُرُوعُهُ إلى مَعنًى واحِدٍ، وهو تَأمُّلُ الشَّيءِ ومُعايَنَتُهُ، يَقولونَ: نَظَرتُهُ؛ أي: انتَظَرتُهُ. وهو ذَلِكَ القِيَاسُ، كأنَّهُ يَنظُرُ إلى الوَقتِ الَّذي يَأتِي فِيهِ[6]، والنَّظَرُ: الانتِظَارُ، يُقالُ: نَظَرْتُهُ وانتَظَرْتُهُ وأنظَرتُهُ؛ أي: أخَّرتُهُ، قال تعالى: ﴿وَٱنتَظِرُوٓاْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾ [هود: 122][7]، "وقالَ أبو إسحاق: هذا مثلُ قولِه في هود: ﴿فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ﴾ [هود: 55]؛ يقول: اجهدوا جهدَكُم في مُكايدتي والتّألُّبِ عليَّ، ولا تُنظِرون؛ أي: ولا تُمهلُوني؛ قالَ: وهذا مِن أقوى آياتِ النُّبوَّةِ أن يقولَ النّبيُّ لِقومِهِ - وهُم مُتعاونونَ عليهِ -: افعلُوا بي ما شئتُم"[8].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

يخبرُ اللّه تعالى تسليَةً للنّبيِّ ﷺ، بأنّ "ما ينزلُ بكَ مِن قومِكَ، قد نزلَ بمَن سبقَكَ مِنَ الأنبياءِ، واقرأْ أيُّها الرّسولُ على النّاسِ - فيما يُنزِلُهُ عليك ربُّكَ مِنَ القرآنِ - قصّةَ

(1) طَرَفَة بن العَبْد، ديوان طَرَفَة بن العَبد، ص: 29.
(2) الجوهريّ، الصّحاح: (غمم).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (قضي).
(4) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (قضي).
(5) الرّاغب، المفردات: (قضى).
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نظر).
(7) الرّاغب، المفردات: (نظر).
(8) ابن منظور، لسان العرب: (نظر).

نوحٍ رسول الله، لمّا أحسَّ كراهيةَ قومِهِ وعَداءَهُم لرسالتِهِ، فقالَ لَهُم: يا قوم إنْ كانَ وجودي فيكُم لتبليغِ الرّسالةِ، قد أصبحَ شديدًا عليكم، فإنّي مُستمِرٌّ مُثابِرٌ على دعوتي، مُتوكِّلٌ على الله في أمري، فاحزمُوا أمرَكُم ومعكم شركاؤكم في التّدبيرِ، ولا يكنْ في عدائِكُم لي أيَّ خفاءٍ، ولا تُمهلوني بما تريدونَ لي مِن سوءٍ، إنْ كنتُم تقدرونَ على إيذائي، فإنّ ربّي يَرعاني"[1]. ومعنى الآية: أنّ نوحًا عليه السلام صرّحَ لقومِهِ، داعيًا لهم منجزاته: إنْ شقَّ عليكم دعائي لَكُم إلى الله ومَوعظتي، فاصنعوا بي ما تريدونَ، فإنّي لا أبالي بكم لِتوكُّلي على الله، وثقتي به سبحانَهُ[2].

التّسريةُ على النّبيِّ في معاناتِهِ مع المُشركينَ، بما عاناهُ نوحٌ مع الأوّلينَ

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالةُ (الواو) في ﴿وَٱتۡلُ﴾:

في قولِهِ تعالى: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ نُوحٍ إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦ﴾، ابتدأ بالواو الاستئنافيَّة؛ للانتقالِ مِنَ الاحتجاجِ إلى التّعريضِ، فانتقلَ بالحديثِ مِن "مُقارعةِ المُشركين بالحُججِ السّاطعةِ على بُطلانِ دينِهِم، وبالدّلائلِ الواضِحةِ على تفنيدِ أكاذيبِهِم وتكذيبِهِم، وما تخلَّلَ ذلك مِنَ المَوعظةِ والوَعيدِ بالعذابِ العاجلِ والآجلِ والإرهابِ، إلى التّعريضِ لَهُم بذكرِ ما حلَّ بالأممِ المُماثِلَةِ أحوالُها لأحوالِهِم"[3].

الانتقالُ مِنَ الاحتجاجِ إلى التّعريضِ بتصويرِ ما حلَّ بالأممِ السّابقةِ

سرُّ التَّعبيرِ بالفعلِ ﴿وَٱتۡلُ﴾:

في قولِهِ تعالى: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ نُوحٍ إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦ﴾ آثرَ النّظمُ الكريمُ التّعبيرَ بالفعلِ (اتْلُ)؛ للدّلالةِ على أنّ المطلوبَ أن تقرأ هذه القصّةَ كثيرًا؛ أي: "اقرأْ قراءةً مُتَتابِعةً مُستَعلِيَةً"[4]، والأمرُ بالتّلاوةِ جاءَ هنا في غايةِ الحُسنِ؛ إذ إنّ المقصودَ مِن هذه القصّةِ إبرازُ

ما نزلَ وحيًا مِنَ السّماءِ يقتضي أن يُتلَى بقداسةٍ وتدبُّرٍ

(1) جماعة منَ العلماء، المنتخب في تفسير القرآن الكريم، ص: 298.
(2) ابن جُزَيّ، التّسهيل: 1/360.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/234 - 235.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/162.

أقوالِ نوحٍ عليه السلام الدّالّةِ على غايةِ الإيمانِ واليقينِ؛ تعليمًا لفريقِ المؤمنينَ ذلك، ومُؤانَسةً للنّبيِّ ﷺ، كما أنّ في تلاوةِ هذه القصّةِ إدامةً للتّعريضِ والتّهديدِ للمُشركينَ بحالِ قومِ نوحٍ.

دلالةُ حذفِ الفاعلِ في قولِهِ: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ﴾:

الأمرُ بالتّلاوةِ إشارةٌ إلى صحّةِ ما يُتلَى على أسماعِ النّاسِ

في قولِهِ تعالى: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ نُوحٍ إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦ﴾ حُذِفَ فاعلُ الفعلِ (اتْلُ)؛ وإنّما يُحذفُ فاعل فعلِ الأمرِ؛ اكتفاءً بالعلمِ بهِ مِن توجيهِ الخطابِ إليه؛ إيجازًا في التّعبيرِ، واقتصادًا في المباني. ومِن أوجهِ حذفِ الفاعلِ أن يُحذَفَ مع فعلِ الأمرِ، كما في قولِهِ تعالى: ﴿ٱرۡكَب مَّعَنَا﴾ [هود: 42]، وإذا ذُكِرَ ضميرٌ بارزٌ بعدَ فعلِ أمرٍ فاعلُهُ مُستَتِرٌ أُعرِبَ الضّميرُ توكيدًا للمَحذوفِ، كما في قولِهِ تعالى: ﴿ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ﴾ [البقرة: 35]، والمُخاطَبُ هنا مَعلومٌ، وهو صاحبُ الرّسالةِ الخاتمُ، وهو الّذي طُلِبَ منهُ أن يتلوَ نبأ نوحٍ.

نكتةُ التّقديم في ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ نُوحٍ﴾:

تلاوةُ قصّةِ نوحٍ عِظةٌ ظاهِرةٌ، وحِكمٌ باهِرةٌ

في قوله تعالى: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ نُوحٍ﴾ قدَّمَ شبهَ الجملةِ مِنَ الجارِّ والمجرورِ ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾ على المفعول به ﴿نَبَأَ﴾، فلم يَقُلْ: (واتْلُ نَبأ نُوحٍ عليْهِمْ)؛ اهتمامًا بالمتلوِّ عليهم؛ إذِ الغايةُ ليسَت أن يَرْوِيَ قصّةَ نوحٍ، بل أن يَتْلُوَ عليهم ما مِن شأنِهِ أن يَعِظَهُم، ويُحدِثَ لهم ذِكرًا، وهذا يتحقَّقُ بأيِّ قصّةٍ مِن قَصصِ الأنبياءِ الّذين لم تُصدَّقْ رسالتُهم؛ فلذا كانَ الأهمُّ أن يُقدَّمَ ذكرُ المتلوِّ عليهم تنويهًا بذلك.

سرُّ التّعبيرِ بلفظِ النَّبأِ في: ﴿نَبَأَ نُوحٍ﴾:

اعتبارُ صراعِ نوحٍ مع قومِهِ خبرًا عظيمًا يَستحِقُّ أن يُتّعَظَ بِهِ

في قولِهِ تعالى: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ نُوحٍ إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦ﴾ آثرَ النّظمُ الكريمُ أن يُعَبِّرَ بالنَّبأ دونَ غيرِهِ كالخبرِ؛ لأنّ النّبأ هو الخبرُ العظيمُ، جليل الشّأنِ، فقولُه تعالى: ﴿نَبَأَ نُوحٍ﴾؛ "أي: خَبَرَهُ العظيمَ؛ مُذَكِّرًا بأوّلِ كَونِ الفُلكِ، وأنّهُ كانَ إذْ ذاكَ آيةً غريبةً خارقةً لِلعادةِ عَجيبةً،

وأنّ قومَ نوحٍ لم ينفعْهُم ذلك، ولا أغْنى عنهُم افتراؤُهم وعِنادُهم مع تَطاولِ الأمَدِ وتَباعُدِ المُدَدِ؛ بل صارَ أمرُهم إلى زَوالٍ، وأخذٍ عنيفٍ ونَكالٍ ﴿كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْۚ﴾ [يونس: 45]، مع نَجاةِ رسولِهم، وخَيبةِ مَأمولِهم، قد لَبِثَ فيهم ما لم يَلبَثْهُ نبيٌّ في قومِهِ، ولا رسولٌ في أمّتِه"[1].

سرُّ الإضافة في ﴿نَبَأَ نُوحٍ﴾:

ما يُنسَبُ إلى العظيمِ عظيمٌ، والنُّبوَّةُ عَظَمَةٌ وسُؤدُدٌ

في قولِهِ تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ﴾ أضافَ النّبأ إلى نوحٍ، وليسَ إلى قومِهِ، فلم يقُلْ: (نبأ قومِ نوحٍ)؛ لأنّ شأنَ النّبأِ نالَ أهمّيّتَهُ بتعلُّقِهِ بنوحٍ، وما لاقى في سبيلِ دعوتِهِ وصبرِهِ على قومِهِ الزّمن المتطاول، فالخبرُ خبرُهُ والشّأنُ شأنُهُ؛ وذلك تفخيمٌ لِلخبرِ المَتْلُوِّ، بقصدِ مُؤانسةِ النّبيِّ ﷺ.

دلالةُ الإضافةِ في ﴿لِقَوْمِهِۦ﴾:

لم تكُنْ لقومِ نوحٍ خاصيّةٌ إلّا تكذيبَ نوحٍ ومُشاكستهُ

في قولِهِ تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ﴾ أضافَ القومَ إلى نوحٍ عليه السلام، فعرَّفَهُم بهِ، ولم يقُلْ: (نبأ قومِ نوحٍ)؛ "إذ ليسَ ثمّةَ طريق لِتَعريفِهم غيرُ ذلكَ، إذْ لم يكُنْ لتلكَ الأمّةِ اسمٌ تُعرَفُ بهِ؛ فإنّهم كانُوا أمّةً واحدةً في الأرضِ، فلم يَحصُلْ داعٍ إلى تسميَتِهم باسمِ جَدٍّ أو أرضٍ، إذْ لَم يكُنْ ما يَدعُو إلى تَمييزِهم، إذ ليسَ ثمّةَ غيرُهُم، ألَا تَرَى إلى حكايةِ اللّه عن هودٍ في قولِهِ لقومِهِ: ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾ [الأعراف: 69]، ولمّا حَكَى عن صالحٍ إذ قالَ لقومِهِ: ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ﴾ [الأعراف: 74]"[2].

دلالةُ قصّةِ نوحٍ، وغرضُ الأمرِ بتلاوتِها عليهم:

قصّةُ نوحٍ تُمثِّلُ العِنادَ وبؤسَه، والتّاريخُ مع قريشٍ يُعيدُ نفسَه

قولُهُ تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ﴾ بيانٌ لقصّةِ نوحٍ عليه السلام؛ والغرضُ مِن إيرادِ قصّةِ نوحٍ التّعريضُ بأهلِ مَكّةَ والمُشركينَ،

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/162.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/236.

ففي القصّةِ "توعُّدٌ لِلكُفّارِ بمُحمّدٍ ﷺ، وضربُ مثالٍ لَهُم في أنّهم بحالِ هؤلاء منَ التّكذيبِ، فسيكون حالُهم كحالِهم في التّعذيب"[1]، فالغرضُ التّعريضُ بالمشركينَ، بذكرِ ما حلَّ بالأممِ المُماثلةِ أحوالُها لأحوالِهم؛ استقصاءً لطرائقِ الحجاجِ على أصحابِ اللّجاجِ. وفي القصّةِ - هنا - وجهان منَ الفائدةِ: "الأوّل: أنّ قومَ نوحٍ عليه السلام لمّا أصَرُّوا على الكُفرِ والجَحدِ، عَجَّلَ اللّه هلاكَهُم بالغَرقِ، فذكرَ اللّه تعالى قصّتَهُم؛ لِتصيرَ تلكَ القصّةُ عِبرَةً لهؤلاءِ الكفّارِ، وداعيةً إلى مُفارَقةِ الجَحدِ بالتّوحيدِ والنُّبوَّةِ. والثّاني: أنّ كفّارَ مكّةَ كانوا يَستعجلونَ العذابَ الّذي يذكرُهُ الرّسولُ عليه السلام لَهُم، وكانُوا يقولونَ لهُ كذَبتَ، فإنَّهُ مَا جاءَنا هذا العذابُ، فاللّه تعالى ذكرَ لهم قصّةَ نوحٍ عليه السلام؛ لأنّه عليه السلام كان يُخَوِّفُهم بهذا العذابِ، وكانوا يُكذِّبونَهُ فيه، ثُمَّ بالآخرةِ وقَعَ كما أخبَرَ، فَكذا هَاهنا"[2].

دلالةُ تقييدِ النَّبأ بالظَّرفِ في ﴿إِذْ قَالَ﴾:

الكفرُ ملّةٌ واحدةٌ، وإن تنوَّعَ العُرفُ، وتغيّرَ الظّرفُ

في قولِهِ تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ﴾، قيّدَ النّظمُ الكريمُ النّبأ بزمانِ قولِ نوحٍ عليه السلام؛ "إيماءً إلى أنّ محاورتَه قومَهُ وإصرارَهُم على الإعراضِ، هو مَحَلُّ العِبرةِ؛ لأنّه وَجهُ الشّبَهِ بينَ المُشركينَ وبينَ قومِ نوحٍ عليه السلام في صَمِّ آذانِهم عن دعوةِ رسولِهم، وقولُهُ ذلكَ لَهم إنّما كانَ بعدَ أن كرَّرَ دُعاءَهُم زَمنًا طَويلًا، فكانَ ذلكَ آخرَ جَدَلٍ بينَهُ وبينَهُم، والنّبيُّ ﷺ قد دعا أهلَ مكّةَ سِنينَ وقتَ نُزُولِ هذه السّورةِ، ثمّ حاورَهُم وجادَلَهُم، ولأنّ ذلك الزّمنَ هو أعظمُ مَوقِفٍ وقفَهُ نوحٌ عليه السلام مع قومِهِ، وكانَ هوَ المَوقفُ الفاصِلُ الّذي أعقبَهُ العذابُ بالغَرَقِ"[3].

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/89، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/164.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/283.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/235.

دلالةُ ﴿إِذْ﴾ وإعرابُها:

أهمّيّةُ الظّرفِ مُرتبطةٌ بالمضمونِ الدّعويِّ المُزجَى فيه

في قولِهِ تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ﴾، عبّرَ النّظمُ الكريمُ بظرفِ الزّمانِ ﴿إِذْ﴾؛ لبيانِ ما سيتلو عليهم، فهو "اسمٌ للزّمنِ الماضي، وهو هُنا بَدَلُ اشتمالٍ مِن ﴿نَبَأَ﴾، أو مِن ﴿نُوحٍ﴾"[1]، فنَبَأُ نوحٍ المأمور بتلاوتِهِ على المُشركينَ، هو ما قالَهُ نُوحٌ لِقومِهِ، وما ردُّوا عليهِ بالإعراضِ عنهُ وتكذيبِهِ؛ فالمحاورةُ بينَهُم جزءٌ مِنَ القصّةِ، وليسَت كلَّ القصّةِ؛ وإنّما أبدلَهُ اهتمامًا بالمحاورةِ، وما قالَهُ النّبيُّ لقومِهِ، وما ردّوا عليه بالتّكذيبِ، وما لاقَوْهُ مِنَ الإغراقِ بعدَ دوامِ الإعراضِ.

دلالةُ الفعلِ ﴿قَالَ﴾:

رسالةُ نوحٍ قولٌ ناصحٌ سديدٌ، وحوارٌ عقديٌّ مديدٌ

في قولِهِ تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ﴾، افتتحَ النّظمُ الكريمُ قصّةَ نوحٍ عليه السلام بفعلِ القولِ؛ إيماءً إلى أنّ المرادَ مِنَ القصّةِ إبرازُ أقوالِهِ الّتي خاطبَ بها قومَهُ، وهي أقوالٌ جديرةٌ بأن تفردَ لها قصّة؛ لِمَا تضمَّنَتهُ مِن إعلانِ الافتقارِ إلى اللّه تعالى، والتَّوكُّلِ عليه، وإعلانِ انتفاءِ الخوفِ مِن كلِّ أحدٍ إلّا مِنَ اللّه تعالى، وأنّهُ ليس بصددِ مُطالبةٍ بالأجرِ والمالِ، وما لحِقَهُ مِن أغراضِ الدّنيا، ففي ذلك كلّه بيانٌ لغايةِ الرّسالةِ، وتزكيةٌ لدعوةِ الأنبياءِ؛ لتترفَّعَ عن مَثالِبِ الأطماعِ الدُّنيويَّةِ.

نكتةُ (لام) التّبليغِ في ﴿لِقَوْمِهِۦ﴾:

حين يَبلُغُ المُنذَرين الخبرُ، فقد أُعذِرَ مَن أُنذِرَ

في قولِهِ تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ﴾ تعدَّى فعل القولِ باللّامِ الّتي تدلُّ على التّبليغ[2]؛ تأكيدًا لبلوغِ ذلك القولِ إلى المَقولِ لَهُم، وأنّهُ قد قالَهُ لَهم وبلَّغَهُم، ولم يقُلْ: (إذ قالَ يا قوم)؛ لأنّ التّعبيرَ بذلك يحتملُ أنّهُ قالَهُ مِن غيرِ أن يكونَ بلغَهُم، فلمّا قالَ: ﴿إِذْ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/235.

(2) الخفاجيّ، عناية القاضي: 5/47، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/164.

﴿قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ﴾ كانَ قاطعًا بأنّهُ قالَ ذلكَ على وجهِ الإعلانِ، وأنّ كلامَهُ بلَغَ قومَهُ، فهو نصٌّ ببلوغِهِ لَهم، وتصريحٌ بالمواجهةِ معَهُم بذلك الخطابِ.

الغرضُ من النِّداءِ ﴿يَٰقَوْمِ﴾:

في النّداءِ تنبيهٌ على أهمّيّةِ المَقولِ في تنويرِ العقولِ

في قولِهِ تعالى: ﴿يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى﴾ افتُتِحَ الخطابُ بالنِّداءِ؛ لِما في النّداءِ مِن تنبيهٍ على أهمّيّةِ المَقولِ؛ "لأنّ النّداءَ طلبُ الإقبالِ، ولمّا كانَ هُنا ليسَ لِطَلبِ إقبالِ قومِهِ إليهِ؛ لأنّهُ ما ابتدأ خطابَهُم إلّا في مَجمَعِهِم، تَعَيَّنَ أنّ النّداءَ مُستعمَلٌ مَجازًا في طلبِ الإقبالِ المَجازيِّ، وهو تَوجيهُ أذهانِهِم إلى فَهمِ ما سَيَقُولُهُ"[1].

دلالةُ التّعبيرِ في ﴿يَٰقَوْمِ﴾:

اختيارُ الرّسولِ مُبلِّغًا لقومِهِ ضمانٌ للتّفاعلِ الإيجابيِّ معَهُ

في قولِهِ تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ﴾ بيَّنَ النّظمُ الكريمُ أنّ نبيَّهُم عليه السلام أحسنَ خطابَهُم؛ إذ أضافَهُم إلى نفسِهِ، فقالَ: ﴿يَٰقَوْمِ﴾؛ "أي: يا مَن يَعِزُّ عَلَيَّ خِلافُهم، ويَشُقُّ عليَّ ما يَسُوؤُهم"[2]. وفيه لطفٌ بهم بخطابِهِم، وعطفٌ لمودَّتِهِم. كما أنّ فيه إشارةً إلى أنّه يمحضُهُم النّصحَ، وأنّه حريصٌ عليهم لأنّهم قومُهُ، وهو لا يَغُشُّهُم، ولم يكُنْ لِيكذبَ عليهم، وقد وَرَدَ عنِ النّبيِّ ﷺ في دعوتِهِ قومَهُ، قولُهُ لَهُم: «إنّ الرّائدَ لا يَكذِبُ أهلَهُ، واللّه لو كَذَبْتُ النّاسَ جميعًا ما كَذَبْتُكُم، ولو غرَرْتُ النّاسَ جميعًا ما غرَرْتُكُم، واللّه الّذي لا إله إلّا هو، إنّي لرسولُ اللّه إليكم خاصّةً، وإلى النّاسِ كافّةً»[3].

بلاغةُ حذفِ ياءِ المتكلِّمِ في ﴿يَٰقَوْمِ﴾:

التّلميحُ إلى هضمِ النّفسِ، وهو لونٌ مِنَ التّواضعِ والتّودُّدِ

في قولِهِ تعالى: ﴿يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى﴾ مِنَ المَشهورِ في لغةِ العربِ حَذفُ ياءِ المتكلِّمِ، "مِنَ المنادى المُضافِ إليها، على

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/236.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/162.
(3) الحلبيّ، السّيرة الحلبيّة: 1/405.

الاستعمالِ المَشهورِ في نداءِ المضافِ إلى ياءِ المُتكلِّم"[1]. ولعلَّ حذفَ ياءِ المتكلِّم في سياقِ النُّصحِ والدّعوةِ، فيه إشارةٌ إلى هضمِ النّفسِ، وإلماحٌ لغيابِ الغرضِ النّفسيِّ، كما أنّ فيه إعلاءً للقومِ على النّفسِ. ويؤيّدُ إرادةُ ذلك أنّه أظهرَ الياءَ عندَ إضافةِ المَقامِ إليه، فقال: ﴿يَٰقَوۡمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيۡكُم مَّقَامِي﴾، فَحَذَفَ مع القومِ، وأثبتَ مع المَقامِ.

سرُّ الخطابِ بلفظِ ﴿يَٰقَوۡمِ﴾:

العصبيّةُ للقومِ مُصطلَحٌ قديمٌ انحرفَ عن مفهومِهِ الإيجابيِّ

في قولِهِ تعالى: ﴿يَٰقَوۡمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيۡكُم مَّقَامِي﴾ آثرَ النّظمُ الكريمُ أن يذكرَ خطابَهُ إيّاهُم بلفظِ القومِ دونَ غيرِهِ؛ لِمَا في لفظِ القومِ مِن دلالةٍ على الشّدّةِ والبأسِ والقُوّةِ، وعلى التَّودُّدِ والمُلاطفةِ وخفضِ الجناحِ؛ لأنّ القومَ في كلِّ الأعرافِ يَنصرونَ مَن ينتمي إليهم، ويُؤيّدونَهُ، وقد شاعَت هذه المناصرةُ غير المشروطةِ عندَ العربِ في الجاهليّةِ، وكانَ الرّجلُ يَستجيرُ بقومِهِ فيهبّونَ لِنصرتِهِ هبّةَ رجلٍ واحدٍ؛ لشيوعِ نزعةِ القوميّةِ لديهم على مفهومِ العدلِ والحقِّ، فينصرونَ أخاهُم وإن كانَ ظالمًا، وهو ما عبّرَ عنهُ الشّاعرُ الجاهليُّ مُفتخرًا بقومِهِ وعصبيّتِهِم القبليّةِ، وهذا مِنَ الصّورِ المُجمَلةِ الّتي عليها طابعُ الابتكارِ وروعةُ الجمالِ، وهو مِن بليغِ الاستعارةِ، حيث قالَ:

قَومٌ إذَا الشَّرُّ أبدَى نَاجِذَيهِ لَهُم *** طَارُوا إلَيْهِ زَرَافَاتٍ وَوِحْدَانَا
لَا يَسألُونَ أخَاهُم حِينَ يَندُبُهُم *** في النَّائِبَاتِ عَلَى ما قَالَ بُرهَانَا[2]

وفي قولِهِ ﴿يَٰقَوۡمِ﴾: "ناداهم نوحٌ عليه السلام بما يقرّبُهُ إليهم، وهو أنّهُم قومُهُ الّذي نشأ بينَهُم، وتربّى فيهم، وكان الأولى بهم أن يَستجيبوا له، بدلَ أن يُناوئوه ويكونوا حَربًا عليه"[3].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/236.
(2) البيتان من قصيدة للشّاعر الجاهليّ قريط بن أنيف العنبريّ، مذكور في حماسة أبي تمام: 1/4، والزّبيديّ، تاج العروس: (زرف)، وذكره ابن قتيبة الدّينوريّ، عيون الأخبار: 1/285، والبغداديّ، خزانة الأدب: 7/441، والبرقوقيّ، الذّخائر والعبقريّات: 2/285.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3615.

دلالةُ أسلوبِ الشّرطِ في الآية:

على قدرِ العنادِ والمُكابرة، كانَتِ المداراةُ والمُصابَرَة

في قولِهِ تعالى: ﴿إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيۡكُم مَّقَامِي وَتَذۡكِيرِي بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡتُ فَأَجۡمِعُوٓاْ أَمۡرَكُمۡ﴾، عَبَّرَ النّظمُ الكريمُ عن ثباتِ نوحٍ عليه السلام على دعوتِهِ، وانتفاءِ مُبالاتِهِ بكفرِ قومِهِ به بأسلوبِ الشّرطِ، فجعلَ تحمُّلَهُ تبعاتِ دعوتِهِ وتوحيدِهِ اللّه تعالى، مُتعلِّقًا بامتعاضِ قومِهِ من دعوتِهِ؛ تأكيدًا لمُضيِّهِ في الدّعوةِ، وبيانًا لقوّةِ ثباتِهِ، وفيه إعلامٌ لَهُم بأنّهُ لا ينقطعُ عن دعوتِهِ، مهما لاقى في سبيلِها، فأجرى ذلك مَجرَى العقدِ، فإذا تحقَّقَ ضجرُهُم مِن مَقامِهِ وتذكيرِهِ، فإنّه سيتحقَّقُ على التّأكيدِ صبرُهُ على ما يريدونَ أن يَفعلوا بهِ.

نكتةُ التّعبيرِ في ﴿إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيۡكُم مَّقَامِي﴾:

ليسَ في القرآنِ لفظٌ زائدٌ للتّزيينِ؛ بل لكلِّ لفظٍ مَعنى في سياقِهِ

في قولِهِ تعالى: ﴿يَٰقَوۡمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيۡكُم مَّقَامِي﴾ عَبَّرَ بـ (كان) في فعلِ الشّرطِ؛ للدّلالةِ على الحالةِ الّتي بنى عليها استعدادَهُ لمواجهةِ ما يجمعونَ عليه، فجاءَ اسمُ كان ضمير الشّأنِ، والمعنى: (إنْ كانَ الشّأنُ والحالُ أنّه شُقَّ وثُقِلَ عليكم أمرُ دعوتي فافعلُوا ما شئتُم، فإنّي توكّلْتُ على اللّه تعالى)، ويكونُ خبرُ الفعلِ النّاقصِ هو الجملةَ الفعليّةَ في قولِهِ تعالى: ﴿كَبُرَ عَلَيۡكُم مَّقَامِي﴾، في محلّ نصبِ خبر كان[1]، ونُجِلُّ أسلوبَ القرآنِ الكريمِ عنِ ادّعاءِ مجيءِ (كان) زائدًا لمُجرَّدِ التّزيينِ، فليسَ القولُ: (إنْ كانَ كَبُرَ) بمعنى: (إنْ كبر)، والفرقُ بينَ التّعبيرين؛ أنّ الجملةَ: (إن كَبُرَ) تدلُّ على أنّ فعلَ الشّرطِ هو حدوثُ العِظَمِ والكِبَرِ، أمّا الجملةُ: (إنْ كانَ كَبُرَ) فإنّ فعلَ الشّرطِ هو حالةٌ تدلُّ على رسوخِ المعنى، وأنّه قد صارَ شأنًا معروفًا وحالةً ظاهرةً، وليسَ مُجرَّدَ حدثٍ، وعليه فإنّ التّعبيرَ بـ (كان) في فعلِ الشّرطِ أبلغُ في الدّلالةِ على مَضمونِ الشّرطِ.

(1) محمود صافي، الجدول في إعراب القرآن: 6/166 - 167.

بلاغةُ المجازِ في قولِهِ تعالى: ﴿كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِي﴾:

مقامُ النُّبوَّةِ الطّاهرة أسمى مِنَ التّطاولِ والمُكابرة

في قولِهِ تعالى: ﴿يَقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِي﴾ مجازٌ عقليٌّ؛ فقد أسندَ الكِبَرَ إلى المقامِ، والمقامُ لا يَكْبُرُ، ولكن يَكْبُرُ الحالُ فيه، فالمرادُ أنّ نفسَهُ كَبُرَت عليهم، ذَكَرَ كِبرَ المكانِ، وأرادَ كبرَ مَن حلَّ فيه، فالعلاقةُ بينَ المعنيين المكانيّةُ.

بلاغةُ الكنايةِ في لفظِ ﴿مَّقَامِي﴾:

مقامُ النُّبوَّةِ مَسنودٌ بالله، ومَن يتوكَّلْ عليه حماه

في قولِهِ تعالى: ﴿إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِي﴾ عبّرَ بالمَقامِ، وأرادَ نفسَهُ ومَكانتَهُ؛ فهو مُستعمَلٌ في الآيةِ في معنى شأنِ المرءِ وحالِهِ، كما في قولِهِ تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ [الرّحمن: 46]، فهو مِن قبيلِ الكنايةِ؛ لأنّ مكانَ المرءِ ومَقامَهُ مِن لوازمِ ذاتِهِ، وفيهما مظاهرُ أحوالِهِ[1]، ولكونِهِ مُؤيَّدًا مِنَ اللّه، فإنّ مَقامَهُ محفوظٌ مِنَ اللّه، وهو مَسنودٌ بلطفِهِ، مدعومٌ برعايتِهِ وفضلِهِ، فلا يخافُ درَكًا ولا يَخشَى، "والمَقامُ هو مَقامُ الرّسالةِ الّذي كرّمَهُ اللّه تعالى بهِ، وعظم عن أن تُدرِكَ عقولُهم تذكيرَهُ بآياتِ اللّه، فإنّه بهم لَا يبالي، فقد توكَّلَ على اللّه تعالى، ولم يَعُدْ يحزنُهُ قولهم"[2].

سرُّ العدولِ في ﴿مَّقَامِي﴾:

المَقامُ يَحملُ معنى مَوضِعِ القيامِ وزمانِهِ، وهو أشملُ دلالةً

ذكرَ أئمّةُ التّفسيرِ أنّ المَقامَ هنا يحتملُ الدّلالةَ على الحقيقةِ، فهو بمعنى القيامِ والوقوفِ؛ " لأنّهم كانوا إذا وعظُوا الجماعةَ قامُوا على أرجلِهم يعظونهم؛ ليكونَ مكانُهم بيّنًا وكلامُهم مَسموعًا"[3]، وإنّما عَدَلَ عنِ المصدرِ (قيام) إلى المصدرِ الميميِّ (مَقام)، وخصَّ ذكرُهُ دونَ القيامِ؛ "لصلاحيّتِهِ لمَوضِعِ القيامِ وزمانِهِ، فيكونُ الإخبارُ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/237، والزّمخشريّ، الكشّاف: 2/359، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/164.

(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3615.

(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/359.

بكراهتِهِ لأجلِ ما وقعَ فيهِ مِنَ القيامِ أدلَّ على كراهةِ القيامِ"[1]، فمَشقَّةُ قيامِهِ عليهم لِما وقعَ في قيامِهِ مِنَ الوعظِ والتّذكيرِ، وليس مُجرَّدَ القيامِ. وقِيلَ: المقامُ بالفتحِ المنزلةُ والمكانةُ، قال تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ [الرّحمن: 46]، والمقامُ بالضّمِّ الإقامةُ والقيامُ على الدّعوةِ خلالَ مُدّةِ اللّبثِ؛ لأنّه مَكَثَ فيهم ألفَ سنةٍ إلّا خمسينَ عامًّا[2].

علّةُ التخصيصِ في ﴿وَتَذۡكِيرِى﴾:

التّذكيرُ مهمّةُ البلاغِ الأمينِ الّتي تَشقُّ على المشركينَ

قولُهُ تعالى: ﴿وَتَذۡكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ في هذا السّياقِ، ذكرَ بعضَ ما يشقُّ عليهم مِن أحوالِهِ، ومِن أحوالِهِ الّتي تَشقُّ عليهم نبذُهُ آلهتَهم، وتوحيدُه اللّه تعالى وغيرها، وإنّما خصَّ بالذّكرِ منها تذكيرَه إيّاهُم باللّه تعالى وآياتِهِ؛ "لأنّ ذلك مِن أهمِّ شؤونِهِ مع قومِهِ، فَعَطفُهُ مِن عطفِ الخاصِّ على العامِّ، فمعنى: ﴿كَبُرَ عَلَيۡكُم مَّقَامِى وَتَذۡكِيرِى﴾؛ سَئِمتُم أحوالي مَعَكم، وخاصّةً تذكيري بآياتِ اللّه"[3]، وهذا مصداقٌ لقولِهِ تعالى: ﴿إِنِّى دَعَوۡتُ قَوۡمِى لَيۡلٗا وَنَهَارٗا﴾ [نوح: 5]، وقولِهِ: ﴿ثُمَّ إِنِّى دَعَوۡتُهُمۡ جِهَارٗا ۝٨ ثُمَّ إِنِّىٓ أَعۡلَنتُ لَهُمۡ وَأَسۡرَرۡتُ لَهُمۡ إِسۡرَارٗا﴾ [نوح: 8 - 9].

دلالةُ الإضافةِ في ﴿وَتَذۡكِيرِى﴾:

التّذكيرُ دعوةٌ وعِظةٌ بآياتِ اللهِ، وحُجَجِهِ، وبراهينِهِ

قولُهُ تعالى: ﴿وَتَذۡكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ أضافَ التّذكيرَ إلى ضميرِ المُتكلِّمِ، مِن إضافةِ المصدرِ إلى فاعلِهِ[4]، والمعنى: "وتذكيري إيّاكُم بآياتِهِ الدّالةِ على وحدانيّتِهِ، ووجوبِ عبادتِهِ، فإنّني وقد وكلتُ أمري إلى اللّه الّذي أرسلَني، واعتمدتُ عليه وحدَهُ، بعد أن أدّيتُ رسالتَهُ بقدرِ طاقتي"[5]، فهو تذكيرٌ خاصٌّ بهِ، لهُ شأنٌ مَعروفٌ،

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/162 - 163.
(2) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 4/276.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/237.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/237.
(5) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 11/137.

وهو استمرارُهُ زمانًا طويلًا، وتنوُّعٌ بكيفيّاتٍ عديدةٍ، يوجزُها قولُهُ جلّ شأنُهُ: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِّتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا﴾ [نوح: 13 - 20].

دلالةُ التقييد في: ﴿وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ﴾:

قولُهُ تعالى: ﴿وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ فيه قيّدَ النّظمُ الكريمُ تذكيرَ نوحٍ عليه السلام بأنّه مُلابِسٌ لآياتِ الله تعالى، ولم يكُنْ تذكيرًا مُطلَقًا؛ فبيّنَ أنّ تذكيرَهُ كان مُقيَّدًا بحُججٍ وبراهينَ جديرةٍ بالبيانِ وإظهارِ الحقِّ؛ لأنّها آياتُ الله المبثوثةُ في الكونِ، فتذكيره لهم لم يكنْ مُنقطِعًا عن ما تشاهدُهُ عيونُهُم؛ إيماءً إلى جدارتِهِ بالإقناعِ وإقامةِ البرهانِ.

التّذكيرُ بالآياتِ يُفضي إلى الإقناعِ واليقينِ، إلّا مَن أبى ذلك

دلالةُ (الباءِ) على التّعديةِ في ﴿بِآيَاتِ﴾:

في قولِهِ تعالى: ﴿وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ جاءَ المصدرُ ﴿وَتَذْكِيرِي﴾ عاملًا عَمَلَ فعلِهِ، وقد أُضيفَ إلى فاعلِهِ، وأمّا الباءُ في مُتعلِّقِهِ: ﴿بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ فهي باءُ التّعديةِ، فتعدَّى التّذكير إلى المفعولِ الثّاني بالباء؛ وذلك "لِتأكيدِ تَعدِيَةِ المصدرِ إلى مَفعولِهِ الثّاني، والمَفعولُ الأوّلُ مَحذوفٌ، والتّقديرُ: تَذكيري إيّاكُم، و﴿بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ مَفعولٌ ثانٍ لِلتّذكيرِ، يُقالُ: ذكّرتُهُ أمرًا نَسِيَهُ، فَتَعدِيَتُهُ بالباءِ لتأكيدِ التَّعدِيَةِ"[1].

مَن تقبّلَ التّذكيرَ بآياتِ اللهِ، لم يخشَ إلّا مِنَ اللهِ

سرُّ الإضافةِ في ﴿بِآيَاتِ اللَّهِ﴾:

في قولِهِ تعالى: ﴿وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ أضافَ النّظمُ الكريمُ الآياتِ إلى لفظِ الجلالةِ؛ فهي آياتُ الله "الّذي له الجلالُ والإكرامُ"[2]، وليسَت آياتٍ مُطلَقةً، بل هي مَنسوبةٌ إلى الله تعالى،

ما كانَ مِن وحي اللهِ الأثيرِ، كانَ له تأثيرٌ في التّذكيرِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/237.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/163.

فلذا لم يقُلْ: (وتذكيري بالآياتِ)، وفي ذلك تعظيمٌ لها وتفخيمٌ لشأنِها، وأنّها بمكانٍ بحيث لا يصحُّ أن يتأتّى منكُم المشقّة مِن سماعِها، والملالة من قائلِها، وأنّها جديرةٌ بأن تُحدِثَ لكم ذكرًا، وتُؤثِّرَ فيكم عِظةً وإيمانًا.

بلاغةُ جوابِ الشّرطِ ﴿فَعَلَى ٱللَّـهِ تَوَكَّلۡتُ﴾:

مَن رعَتْهُ عينُ اللهِ لم يضرَّهُ كيدُ أعداءِ اللهِ

قولُهُ تعالى: ﴿إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيۡكُم مَّقَامِي وَتَذۡكِيرِي بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ تضمَّنَ أداةَ الشّرطِ وفِعْلَ الشّرطِ، أمّا جوابُ الشّرطِ فقد ذكرَ أئمّةُ التّفسيرِ فيه ثلاثةَ أقوالٍ: الأوّل: قولُهُ: ﴿فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡتُ﴾؛ لأنّه عبارةٌ عن عدمِ مُبالاتِهِ والتفاتِهِ إلى استثقالِهم، أو هو قائمٌ مَقامَهُ؛ والثّاني: قولُهُ: ﴿فَأَجۡمِعُوٓاْ﴾، ويكون قولُهُ: ﴿فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡتُ﴾ اعتراضًا بينَ الشّرطِ وجزائِه؛ والثّالث: أنّ جوابَ الشّرطِ مَحذوفٌ، وتقديرُهُ: فافعلوا[1]، ويكون قولُهُ: ﴿فَعَلَى ٱللَّـهِ تَوَكَّلۡتُ﴾ دليلَ الجوابِ؛ لأنّ توكُّلَهُ عليه السلام كائنٌ في كُلِّ وقتٍ، وليسَ مُتعلِّقًا بوقتِ خطابِهِم بما خاطبَهُم به، فهو مُتوكِّلٌ على اللّه دائمًا[2]. أمّا مَن ذَهَبَ إلى أنّ الجوابَ قولُهُ جلَّ شأنُهُ: ﴿فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡتُ﴾ فبيَّنُوا أنّهُ مُتعلِّقٌ بالشّرطِ "باعتبارِ أنّ ذلك الشّرطَ تضمّنَ أنّ إنكارَهُ عليهم قد بَلَغَ مِن نفوسِهِم ما لا طاقةَ لَهُم بحملِهِ، وأنّهُم مُتَهَيِّئونَ لِمُدافَعتِهِ، فَأنبَأَهُم أنّ احتمالَ صُدورِ الدّفاعِ مِنهم، وهُم في كَثرةٍ ومَنعَةٍ، وهو في قلّةٍ وضَعفٍ، لا يَصُدُّهُ عنِ استمرارِ الدّعوةِ، وأنّهُ وإنْ كانَ بينَهُم وحيدًا، فَذَلكَ يُوهِنُهُ؛ لأنّهُ مُتوكِّلٌ على اللّه"[3].

الغرضُ مِنَ تقديم ﴿فَعَلَى ٱللَّـهِ تَوَكَّلۡتُ﴾:

مَن يتوكَّلْ على اللهِ فهو حسبُهُ، ويجعل له مِن أمرِهِ يُسرًا

في قولِهِ تعالى: ﴿فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡتُ﴾ قدَّمَ شبهَ الجملةِ على الفعلِ، فلم يقُلْ: (توكَّلتُ على اللّه)؛ حصرًا لكونِ توكُّله كائنًا على اللّه

(1) الخفاجيّ، عناية القاضي: 5/47.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/87، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/283 - 284.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/238، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/164.

تعالى دونَ غيرِهِ؛ أي: "دمتُ على تخصيصِ التَّوكُّلِ به تعالى، ويجوزُ أن يُرادَ بهِ إحداثُ مَرتَبةٍ مَخصُوصةٍ مِن مَراتبِ التَّوكُّلِ"[1].

بلاغةُ المجازِ المُرسَلِ في الآية:

في قولِهِ تعالى: ﴿فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡتُ﴾ عبَّرَ النّظمُ الكريمُ عن انتفاءِ خوفِهِ بالتَّوكُّلِ، وهو مِن إطلاقِ السَّببِ، وهو هنا التَّوكُّلُ على المُسَبَّبِ، وهو انتفاءُ الخوفِ، وذلك مَجازٌ مُرسَلٌ، وفائدتُهُ إعلامُهُم بعظمةِ اللّه تعالى، وحَقارتِهِم بأنّ النّبيَّ المُرسَلَ لا يخافُ كيدَهُم ومكرَهُم[2].

مَن كانَت بعظمةِ اللهِ عصمتُهُ فلا يخشى أحدًا مِن خلقِهِ

بلاغةُ وضعِ الظّاهرِ مَوضِعَ المُضمَرِ في الآية:

قولُهُ تعالى: ﴿وَتَذۡكِيرِي بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡتُ﴾ آثرَ النّظمُ الكريمُ أن يضعَ الظّاهرَ مَوضِعَ المُضمَرِ، فلم يقُلْ: (فعليه توكَّلتُ)؛ لأنّ إظهارَ لفظِ الجلالةِ في سياقِ التَّوكُّلِ عليه أبلغُ مِنَ الإضمارِ؛ إشارةً لِما للاسمِ الجليلِ مِن عظمةٍ وكمالٍ، وإعلامًا لَهُم بأنّهُ قد توكَّلَ على مَن لا يخيبُ المحتمي بحماه؛ "أي: الّذي لهُ العِزّةُ كُلُّها وحدَهُ"[3].

لفظُ (الله) عَلَمٌ على واجبِ الوجودِ بكلِّ معاني الكمالِ فيه

نكتةُ تقديمِ توكُّلِهِ على الله:

في قولِهِ تعالى: ﴿فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡتُ فَأَجۡمِعُوٓاْ أَمۡرَكُمۡ وَشُرَكَآءَكُمۡ﴾ قدَّمَ ذِكْرَ توكُّلِهِ على اللّه تعالى، الّذي يعتصمُ به، ويلجأُ إليه، قبلَ أن يدعوهُم إلى لقائِهِ ومُواجهتِهِ بما يجتمعُ عليه رأيُهم فيه؛ لأنّ اللُّجوءَ إلى التَّوكُّلِ قبلَ مُواجهةِ الخصومِ مِن بابِ الأخذِ بالأسبابِ والاستعدادِ لِما يأتي، وإنّ على المرءِ أن يلجأ إلى كنفِ مَولاهُ، قبلَ أن يعرِّضَ نفسَهُ لخطوبِ الزّمانِ.

اللّجوءُ إلى اللهِ، والأخذُ بالأسبابِ، فرضٌ على المؤمنين

دلالةُ العطفِ بالفاءِ في ﴿فَأَجۡمِعُوٓاْ﴾:

قولُهُ تعالى: ﴿فَأَجۡمِعُوٓاْ أَمۡرَكُمۡ وَشُرَكَآءَكُمۡ﴾ معطوفٌ على قولِهِ

مَن توكَّلَ على اللهِ لا يُعجزُهُ أن يتحدَّى كلَّ مَن سواهُ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/164.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/163.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/163.

جلَّ شأنُه: ﴿فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡتُ﴾، بالفاءِ الدّالّةِ على التّرتيبِ والتّفريعِ؛ لترتيبِ الأمرِ بالإجماعِ على التَّوكُّلِ[1]، فالجملةُ المُفَرَّعَةُ لها "حُكمُ جوابِ الشّرطِ؛ لأنّها مُفرَّعَةٌ على جملةِ الجوابِ، ألَا تَرَى أنّهُ لولا قَصدُهُ المُبادرَةَ بإعلامِهم أنّهُ غيرُ مُكترِثٍ بِمُناوَأتِهم، لكانَ مُقتَضى ظاهرِ الكلامِ أن يقولَ: ﴿إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيۡكُم مَّقَامِي﴾ الآية، فأجمِعُوا أمرَكُم، فإنّي على اللّه توكَّلْتُ"[2].

دلالةُ لفظِ ﴿فَأَجۡمِعُوٓاْ﴾:

في قولِهِ تعالى: ﴿فَأَجۡمِعُوٓاْ أَمۡرَكُمۡ وَشُرَكَآءَكُمۡ﴾ عبَّرَ النّظمُ الكريمُ عن العزمِ والإعدادِ لفعلِ الأمرِ بلفظِ الإجماعِ[3]، وجَمْعُ الأمرِ؛ يعني: جعلَهُ مَجموعًا، بعدَ ما كانَ مُتفرِّقًا، ويعني "العزمَ على الفعلِ بعدَ التَّردُّدِ بينَ فعلِهِ وفعلٍ ضِدَّهُ، وهو مَأخُوذٌ مِنَ الجمعِ الّذي هو ضِدُّ التّفريقِ؛ لأنّ المُتَرَدِّدَ في ماذا يَعمَلُهُ تكونُ عندَهُ أشياءُ مُتفرِّقَةٌ، فَهو يَتدبَّرُ ويَتأمَّلُ، فَإذا استقرَّ رَأيُهُ على شيءٍ منها، فقد جَمَعَ ما كانَ مُتفرِّقًا"[4].

قوّةُ اللهِ لا تُغالَبُ، مهما حَزَمَ المبطلونَ تدبيرَهُمُ اللّئيمَ

نكتةُ إيثارِ قولِهِ: ﴿فَأَجۡمِعُوٓاْ أَمۡرَكُمۡ﴾:

قولُهُ تعالى: ﴿فَأَجۡمِعُوٓاْ أَمۡرَكُمۡ وَشُرَكَآءَكُمۡ﴾ آثرَ فيه النّظمُ الكريمُ تعديةَ الفعلِ بلا حرفٍ على الوجهِ الأفصحِ في العربيّةِ، فأجمَعتُ الأمرَ: أفصحُ مِن أجمعتُ عليهِ[5]، وتسليطُ فعلِ الإجماعِ على الأمرِ بلا حرفٍ؛ يعني: "جعلَهُ مَجمُوعًا بعدَ ما كانَ مُتفرِّقًا، وتَفرُّقُهُ أنّه يقولُ مَرَّةً: أفعَلُ كذا وأخرى أفعَلُ كذا، وإذا عَزَمَ على أمرٍ واحدٍ فقد جَمَعَهُ؛ أي: جعلَهُ جميعًا"[6]، فمعنى (أَجْمِعُوا الأمر) غير معنى

تعديةُ الفعلِ بنفسِهِ أقوى مِن تعديتِهِ بحرفِ الجرِّ وأفصحُ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/164.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/238.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/284.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/238، وأبو حيّان، البحر المحيط: 6/87، والخفاجيّ، عناية القاضي: 5/47.
(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/87.
(6) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/164.

(أَجْمِعُوا عَلَى الأَمْرِ)، فالأولى تعني العزمَ بعدَ التَّردُّدِ، والتَّوحُّدَ بعدَ الشّتاتِ، أمّا الثّانيةُ فتعني إجماعَ مجموعةٍ على فعلِ أمرٍ، والمرادُ في الآيةِ أن يُتركوا لِلتَّردُّدِ، ويُباشروهُ بما يريدونَ إضرارَهُ بهِ. فلمّا دلَّ الإجماعُ على العزمِ "وُصِلَ بـ (على)، فَقِيلَ: أجمعتُ على الأمرِ؛ أي: عزمتُ عليهِ، والأصلُ أجمعتُ الأمرَ"[1].

دلالةُ الواوِ في قولِهِ: ﴿وَشُرَكَآءَكُمْ﴾:

في قولِهِ تعالى: ﴿فَأَجْمِعُوٓاْ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ﴾ جاءَ لفظُ الشّركاءِ مَنصوبًا، فتكون الواو لِلمَعيّةِ، وهي بمعنى (مع)، والمعنى: فأجمعُوا أمرَكُم مع شركائِكُم، ونظيرُهُ قولُهُم: (لو خَلّيْتَ نفسَكَ والأسدَ لأكَلَكَ)[2]، وفائدةُ واوِ المعيّةِ هنا، أنّها تدلُّ "على أنّه لا يخافُهُم وإن كانُوا شركاءَهُم أحياءَ، كَائِنِينَ مَن كانوا، وكانَت كَلِمَتُهم واحدةً لا فُرقةَ فِيها بوجهٍ"[3]، "وهناكَ مَن نصبَها بتقديرِ فعلٍ؛ أي: (فأجمِعُوا أمرَكُم، واجْمَعُوا شُرَكَاءَكُم)، وقِيلَ: التّقدير: (وَادعُوا شُرَكَاءَكُم)، والنّصبُ على تقديرِ الفعلِ، مثل قولِ الشّاعرِ:

إذَا ما الغَانِيَاتُ بَرَزْنَ يَومًا *** وزَجَّجْنَ الحَوَاجِبَ والعُيُونَا

وتقديرُهُ: وَكَحَّلْنَ العُيُونَ؛ لأنَّ العُيُونَ لَا تُزَجَّجُ". وهناك مَن رفعَها "عطفًا على ضميرِ (فَأَجْمِعُوا) المرفوع، لوجودِ الفصلِ بينَ المعطوفِ والمعطوفِ عليهِ، وهو (أَمْرَكُمْ)؛ لأنّ الفصلَ يتنزَّلُ مَنزلةَ التّوكيدِ، كقولِهِ تعالى: ﴿مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ﴾ [يونس: 28]"[4].

حرفُ المعنى ذو أثرٍ في سَوْقِ الدّلالةِ وبلورتِها

دلالةُ إضافةِ لفظِ (الشّركاء) إلى الضّميرِ العائدِ في قولِهِ: ﴿وَشُرَكَآءَكُمْ﴾:

قولُهُ تعالى: ﴿فَأَجْمِعُوٓاْ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ﴾ أضافَ الشُّركاءَ إلى الضّميرِ العائدِ لهم، والمرادُ بهم: "الأندادُ مِن دونِ اللّه، فأضافَهُم

الشّركاءُ وَهْمٌ وظُنُونٌ، يتخيَّلُها الكَفَرَةُ والمُشركُونَ

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/87، والخفاجيّ، عناية القاضي: 5/47.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/359، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/284.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/163.
(4) الزّحيلي، التّفسير المنير: 11/225.

إليهم؛ إذ يَجعلُونَهُم شركاءَ بزعمِهم"[1]؛ إيماءً إلى كونِهم شركاءَ ليسَ على الحقيقةِ، بل باعتبارِ ظنِّهم ومُعتقدِهم الضَّالِّ.

نكتةُ إسنادِ في ﴿فَأَجۡمِعُوٓاْ أَمۡرَكُمۡ﴾:

أسلوبُ التَّهكُّمِ مَسلكٌ في البلاغةِ، يُظهِرُ مَثالِبَ التَّصرُّفاتِ النَّزقةِ

قولُهُ تعالى: ﴿فَأَجۡمِعُوٓاْ أَمۡرَكُمۡ وَشُرَكَآءَكُمۡ﴾ عبَّرَ فيه النّظمُ الكريمُ على سبيلِ التَّهكُّم بهم، بإجماعِ الشّركاءِ معَهُم[2]، والتَّهكُّمُ مَبنيٌّ على مَعنى الشُّركاءِ، فإنْ "كانَ المرادُ بهم مَن على دينِهم فظاهرٌ، وإن أُريدَ بهم الأصنامُ فتهكُّمٌ بهم"[3]، فالأصنامُ بُنِيَت مِن حجارةٍ، وقد علموا أنّها بحيث لا يمكنُ أن تجمعَ أمرًا ولا تحرّكَ ساكنًا، وإنّما طلبَ منهُم ذلك تهكُّمًا بهم، وإظهارًا لضلالِهم، وقِيلَ: إنّ المعنى دعوتُهُم للاجتماعِ على رأيٍ مُوحَّدٍ، يسهرونَ على تنفيذِهِ هُم وشركاؤهم، وقد جاءَ في قالبِ النُّصحِ، رغمَ أنّ بينَهُ وبينَهُم عداوةً، وما كانَ لهُ أن يطلبَ وحدتَهُم بل فرقتَهُم، ولكنّ اعتمادَهُ على اللّه، وثقتَهُ المُطلَقةُ فيه، جعلَتهُ يُوقِنُ برسوخِ أنّه لا يسلمهُ، ولا يتخلَّى عنه؛ فلذلك طلبَ مِنهُم ذلك، على اعتبارِ أنّه منهم بمنجًى، وعنهم بمنأًى، ولن يمكّنَهُم اللّه أبدًا، مِنَ الانتصارِ على دعوةِ الحقِّ المُبينِ، وسوف يُهلِكونَ أنفسَهُم في مُواجهةِ الرّسالةِ وصاحبِها المعصومِ مِنَ النّاسِ بلا ريبٍ[4].

دلالةُ ﴿ثُمَّ﴾ على التّراخي الزّمانيِّ:

تحدّي الكفرةِ بأن يُظهروا قوّتَهُم ظاهرةً غيرَ مُستتِرَةٍ

عُطِفَ قولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ لَا يَكُنۡ أَمۡرُكُمۡ عَلَيۡكُمۡ غُمَّةٗ﴾ على قولِهِ تعالى: ﴿فَأَجۡمِعُوٓاْ أَمۡرَكُمۡ وَشُرَكَآءَكُمۡ﴾ بـ (ثمّ) الدّالّةِ على التّراخي، والتّراخي في الآيةِ المرادُ به التّراخي الزّمانيّ[5]؛ أي: لا يكنْ حالُكُم

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/132.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/359.
(3) الخفاجيّ، عناية القاضي: 5/47.
(4) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 10/6098.
(5) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/165.

بعدَ التّأنّي وطولِ الزّمانِ غُمَّةً، فالتّعبيرُ بـ ﴿ثُمَّ﴾ يُشيرُ "إلى التّأنّي وإتقانِ الأمرِ لِلأمانِ مِن مُعارضتِهِ بشيءٍ مِن حَولٍ منهُ أو قُوَّةٍ"[1]، "هذا أمرٌ على سبيلِ التّعجيزِ، أخبرَ اللّه تعالى عن نوحٍ أنّهُ كانَ واثقًا بنصرِ اللّه، غيرَ خائفٍ مِن كيدِ قومِهِ، علمًا منه بأنّهم وآلهتهم، لا يملكونَ نفعًا ولا ضرًّا إلّا ما شاءَ اللّه"[2].

بلاغةُ وضعِ الظّاهرِ مَوضِعَ المُضمَرِ في الآية:

انتقاءُ عناصرِ الجملةِ الفعليّةِ ظهورًا وإضمارًا، هو لبُّ البيانِ

قولُهُ تعالى: ﴿فَأَجۡمِعُوٓاْ أَمۡرَكُمۡ وَشُرَكَآءَكُمۡ ثُمَّ لَا يَكُنۡ أَمۡرُكُمۡ عَلَيۡكُمۡ غُمَّةٗ﴾ قد وَضَعَ الظّاهرَ مَوضِعَ المُضمَرِ، فلم يَقُلْ: (ثُمَّ لَا يَكُنْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً) بالإضمارِ؛ بل عبَّرَ عنه بالاسمِ الظّاهرِ؛ "لِزيادةِ تقريرٍ يَقتضيها مَقامُ الأمرِ بالإظهارِ الّذي يستلزمُهُ النَّهيُ عَنِ التَّستُّرِ والإسرارِ"[3]، فلمّا دعاهُم إلى مُكاشفتِهِ، بنَهيهِم عنِ الدّوامِ في الغمّةِ وإظهارِ مَكنونِ مَكرِهِم بهِ؛ ناسبَهُ إظهارُ لفظِ الأمرِ؛ ليكونَ السّياقُ اللّغويُّ والمعنى المرادُ مُتناسِقَين في الإظهارِ والانكشافِ.

نكتةُ تَكرارِ لفظ ﴿أَمۡرَكُمۡ﴾:

كلُّ لفظٍ في القرآنِ لهُ دلالةٌ تُميِّزُهُ في إفرادِ ذكرِهِ أو تَكرارِهِ

قولُهُ تعالى: ﴿فَأَجۡمِعُوٓاْ أَمۡرَكُمۡ وَشُرَكَآءَكُمۡ ثُمَّ لَا يَكُنۡ أَمۡرُكُمۡ﴾ لمّا وَضَعَ الظّاهرَ مَوضِعَ المُضمَرِ صارَ اللّفظُ مُكرَّرًا مرّتين؛ أمرهم الّذي يجمعونَهُ، وأمرهم الّذي لا يكونُ عليهم غمّةً، وفي هذا التَّكرارِ اتّساعٌ في المعنى، ففي اللّفظِ المُكرَّرِ "وجهان؛ أحدهما: أن يُرادَ مُصاحَبَتُهم له، وما كانُوا فيه معهُ مِنَ الحالِ الشّديدةِ عليهم المكروهةِ عندَهُم؛ يعني: ثمّ أهلكُوني؛ لِئلّا يكونَ عيشُكُم بسببي غصّةً، وحالُكُم عليكم غُمّةً... والثّاني: أن يُرادَ بهِ ما أُريدَ بالأمرِ الأوّلِ"[4]، وأفادَ تَكرارُهُ التّأكيدَ على العزمِ، وحثَّهُم على إنفاذِ ما يُحيكونَ، وما يَشاؤونَ في شأنِهِ.

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/163 - 164.
(2) المظهريّ، التّفسير المظهريّ: 9/163 - 164.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/165.
(4) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/359 - 360.

الغرضُ مِنَ الاستعارةِ التّصريحيّةِ في الآية:

الحيرةُ العقائديّةُ تجعلُ أمرَ صاحبِها عليه غمّةً

في قولِهِ تعالى: ﴿ثُمَّ لَا يَكُنۡ أَمۡرُكُمۡ عَلَيۡكُمۡ غُمَّةٗ﴾ استعارةٌ تصريحيّةٌ؛ لتشبيهِ حالِهِم في التَّردُّدِ والحيرةِ بالغُمَّةِ، "والغُمّةُ: اسمُ مَصدرٍ لِلغَمِّ، وهو السِّترُ، والمرادُ بها في مثلِ هذا التّركيبِ السِّترُ المَجازيُّ، وهُوَ انبهامُ الحالِ، وعَدَمُ تبيُّنِ السَّدادِ فيه[1]، فشبَّهَ عدمَ تبيُّنِ الحالِ بالغُمَّةِ الّتي يَنعدِمُ فيها النّظرُ، فَحَذَفَ المشبّهَ وأبقى المشبّهَ بهِ، والجامعُ بينَهُما الحيرةُ والبهمةُ، وهي استعارةٌ تصريحيّةٌ.

نكتةُ العطفِ بـ ﴿ثُمَّ﴾:

مراعاةُ الرّتبةِ في عطفِ الجملِ مِن بلاغةِ السّياقِ الحكيمِ

في قولِهِ تعالى: ﴿ثُمَّ ٱقۡضُوٓاْ إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ﴾ آثرَ النّظمُ الكريمُ العطفَ بـ (ثمَّ)؛ لِلدّلالةِ على التّراخي في الرُّتبةِ[2]، "فإنّ رُتبةَ إنفاذِ الرّأيِ بما يُزمِعونَ عليهِ مِن أذاهُ أقوى مِن تدبيرِ ذلك، ومِن رُتبةِ إجماعِ الرّأيِ عليهِ، فهوَ ارتقاءٌ مِنَ الشّيءِ إلى أعلى منهُ، فعطفَ بـ (ثمّ) الّتي تُفيدُ التّراخي في الرُّتبةِ في عطفِها الجُملَ"[3].

الغرضُ مِنَ الاستعارةِ المكنيّةِ في الآية:

استعمالُ الصّورةِ البيانيّةِ في الإيضاحِ غايةٌ في التّعبيرِ والإفصاحِ

في قولِهِ تعالى: ﴿ثُمَّ ٱقۡضُوٓاْ إِلَيَّ﴾ دلَّ قضاءُ الأمرِ على الأداءِ؛ "أي: أدُّوا إليّ؛ أي: أحكِمُوا ذلكَ الأمرَ الّذي تُريدونَ بي ولا تُمهِلُوني"[4]، ففيهِ استعارةٌ مكنيّةٌ؛ أي: نفِّذُوا ذلك الأمرَ أو أدُّوا إليّ ذلكَ الأمرَ، فشبّهَ الأمرَ المحذوفَ بالدَّينِ، ثمّ حَذَفَ المشبّهَ بهِ، وأخذَ شيئًا مِن خصائصِهِ، وهو القضاءُ، يُقالُ قضى فلانٌ دَيْنَهُ؛ أي: أدَّاهُ.

سرُّ تعديةِ الفعلِ ﴿ٱقۡضُوٓاْ﴾ بـ ﴿إِلَيَّ﴾:

اختيارُ حرفِ المعنى دونَ بديلِهِ دقّةٌ وبيانٌ

في قولِهِ تعالى: ﴿ثُمَّ ٱقۡضُوٓاْ إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ﴾ تعدَّى الفعلُ (قضى) بحرفِ الجرِّ (إلى)، ولم يقُلْ: (اقضُوا عَلَيَّ)؛ "لأنّه ضُمِّنَ معنى

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/239.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/164 - 165.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/240.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/165.

الإبلاغِ والإيصالِ؛ تَنصيصًا على مَعنى التَّنفيذِ بالفعلِ؛ لأنّ القَضاءَ يكونُ بالقولِ، فَيَعقُبُهُ التّنفيذُ أو الإرجاءُ أو العفوُ، ويكُونُ بالفعلِ؛ فهو قَضاءٌ بتنفيذٍ، ويُسَمَّى عندَ الفُقَهاءِ بالقَضاءِ الفِعليِّ"[1].

بلاغةُ الإيجازِ في: ﴿ثُمَّ ٱقۡضُوٓاْ إِلَيَّ﴾:

قولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ ٱقۡضُوٓاْ إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ﴾ فيه إيجازٌ بحذفِ المفعولِ بهِ، فلم يَقُلْ: (اقْضُوا إلَيَّ ذَلكَ أمْرَكُمْ)؛ أي: "أنفِذُوا قضاءَكُم نَحوي، ومَفعولُ اقضُوا مَحذوفٌ؛ أي: اقضُوا إلَيَّ ذلكَ الأمرَ، وامضُوا ما في أنفُسِكُم، واقطَعُوا ما بَينِي وبَينَكُم"[2]، فحذفَهُ اتّكاءً على ظهورِهِ في السّياقِ، وطلبًا للإيجازِ بالاستغناءِ عن ذكرِ ما قد عُلِمَ.

مِن خصائصِ القرآنِ الإيجازُ، وهو لُبُّ البيانِ والإعجازِ

دلالةُ النّهي في قولِهِ: ﴿وَلَا تُنظِرُونِ﴾:

قولُهُ تعالى: ﴿ٱقۡضُوٓاْ إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ﴾، فيه نهيٌ عنِ التّأخيرِ في تنفيذِ أمرِهِم بهِ، وقضائِهِم إليهِ، فقولُهُ: ﴿وَلَا تُنظِرُونِ﴾؛ أي: لا تُؤخِّرونَ، والنَّظرةُ تعني التّأخيرَ[3]؛ "وإنّما خاطبَهُم ﷺ بذلك؛ إظهارًا لعدمِ المُبالاةِ بهم، وأنّهم لم يَجِدُوا إليه سبيلًا، وثِقةً باللّه سبحانَهُ، وبما وَعدَهُ مِن عِصمتِهِ وكَلاءَتِهِ"[4]، فالنّهيُ جاءَ للتّحدّي، وإثباتِ صدقِهِ واتّكالِهِ على اللّه وحدَهُ، ولمّا أمرَهُم بالقضاءِ، بقولِهِ: ﴿ثُمَّ ٱقۡضُوٓاْ إِلَيَّ﴾ أعقبَهُ بالنّهي عنِ التّأخيرِ في ذلك القضاءِ؛ مُبالغةً في طلبِ مُواجهتِهِم، وتدليلًا على شدّةِ ثقتِهِ بربِّهِ، وبيانًا على شدّةِ صدقِهِ.

لا مُبالاةَ بتهديداتِ الكافرينَ ممَّن اعتصمَ بربِّ العالمينَ

بلاغةُ الإيجازِ في خطابِ نوحٍ قومَهُ:

قولُهُ تعالى: ﴿إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيۡكُم مَّقَامِي وَتَذۡكِيرِي بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡتُ فَأَجۡمِعُوٓاْ أَمۡرَكُمۡ وَشُرَكَآءَكُمۡ ثُمَّ لَا يَكُنۡ أَمۡرُكُمۡ عَلَيۡكُمۡ غُمَّةٗ ثُمَّ ٱقۡضُوٓاْ إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ﴾ مُجملُ خطابِ نوحٍ عليه السلام،

سياقُ القرآنِ يَستوعِبُ الأحداثَ الجِسامَ في بلاغةٍ وانسجامٍ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/240.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/89.
(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/132.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/164.

وهو خطابٌ مُكوَّنٌ مِن جملةِ شرطٍ وجزاءٍ، ففي الشّرطِ أمران: كِبرُ المقامِ، والتّذكيرُ بالآياتِ، وفي الجزاءِ خمسةُ أمورٍ: (توكّلُهُ، وطلبُ إجماعِ أمرِهِم، وبلا غُمّةٍ، وأن يَقضوا، ولا يُنظِرونَه)، وهذا السّياقُ المُوجَزُ في عباراتٍ مَعدوداتٍ، يُلخِّصُ قرابةَ عشرةِ قرونٍ منَ الصّراعِ المُحتدمِ، والمواجهةِ السّافرةِ بينَ الحقِّ والباطلِ، انتهَت بجأرِ نوحٍ إلى ربِّهِ؛ بأنَّهُ يَئِسَ مِن هؤلاء القومِ الّذين ما آمَنَ معهُ منهُم إلّا قليلٌ، بعدَ أن لَبِثَ فيهم داعيًا ومُذكِّرًا، ألفَ سنةٍ إلّا خمسينَ عامًا، فطلبَ منهُم في آخرِ المَطافِ أن يَجمعُوا أمرَهُم، ويَقضوا إليهِ، وألّا ينظروه، فنجّاهُ اللّه وأهلَكَهُم بالطّوفانِ المُغرِقِ.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

التّلاوةُ، والتّرتيلُ:

"التّلاوةُ تختصُّ باتّباعِ كتبِ اللّه المُنزَّلةِ تارةً بالقراءةِ، وتارةً بالارتِسَامِ لِمَا فيها مِن أمرٍ ونهيٍ وترغيبٍ وترهيبٍ، وهي أخصُّ مِنَ القراءةِ؛ فكلُّ تلاوةٍ قراءةٌ، وليسَ كلُّ قراءةٍ تلاوةً"[1]. أمّا التّرتيلُ فمِنَ الرَّتَلِ، وهو اتّساقُ الشّيءِ وانتِظامُهُ على استقامَةٍ، يُقالُ: رجلٌ رَتَلُ الأسنانِ، والتَّرْتِيلُ: إرسالُ الكلمةِ مِنَ الفمِ بسُهولةٍ واستقامَةٍ. قال تعالى: ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾ [المُزّمّل: 4][2]. والتَّرتيلُ في القراءةِ: التَّرَسُّلُ فيها والتَّبيينُ بغيرِ بغيٍ، وكلامٌ رَتِلٌ بالتّحريكِ؛ أي: مُرَتَّلٌ[3]. وبهذا فإنّ التّرتيلَ كيفيّةٌ مِن كيفيّاتِ القراءةِ، تختصُّ بالاسترسالِ والاتّساقِ والسُّهولةِ، أمّا التّلاوةُ فهي أوسعُ مِنَ التّرتيلِ؛ إذ تدلُّ على الاتّباعِ العمليِّ، كما أنّها تُؤدَّى بالقراءةِ والتّرتيلِ بقراءةِ آياتِ القرآنِ آيةً تلوَ آيةٍ.

التّلاوةُ أعمُّ مِنَ التّرتيلِ الّذي هو كيفيّةٌ في القراءةِ أمرَ بها القرآنُ

(1) الرّاغب، المفردات: (تلو).
(2) الرّاغب، المفردات: (رتل).
(3) الجوهريّ، الصّحاح: (رتل).

(غُمّة) و(تشابَهَ علينا):

الغُمّةُ من (غَمَّ)، والأصلُ يدُلُّ على تَغطِيَةٍ وإطبَاقٍ. تَقُولُ: غَمَمتُ الشَّيءَ أغُمُّهُ؛ أي: غَطَّيتُهُ، وَغَمَّهُ الأمرُ يَغُمُّهُ غَمًّا، وهو شَيءٌ يَغشَى القَلبَ[1]. أمّا الشّبهةُ والاشتباهُ فأصلُهُ يَدُلُّ على تَشَابُهِ الشَّيءِ وتَشَاكُلِهِ لَونًا ووَصفًا. والمُشَبِّهَاتُ مِنَ الأمُورِ: المُشكِلَاتُ. واشتَبَهَ الأمرَانِ؛ إذَا أشكَلا[2]. الشِّبْهُ والشَّبَهُ والشَّبِيهُ: حقيقتُها في المُماثَلةِ من جهةِ الكيفيّةِ؛ كاللّونِ والطّعمِ، وكالعدالةِ والظُّلمِ. والشُّبْهَةُ: هو أنْ لا يتميَّزَ أحدُ الشّيئينِ مِنَ الآخرِ؛ لِما بينَهُما مِنَ التَّشابُهِ عَينًا كانَ أو مَعنًى، قالَ: ﴿إِنَّ ٱلۡبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيۡنَا﴾ [البقرة: 70]، وقالَ: ﴿ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞۖ﴾ [آل عمران: 7]، والمُتَشابِهُ مِنَ القرآنِ: مَا أشكلَ تَفسيرُهُ لِمُشابَهَتِهِ بغيرِهِ، إمّا مِن حيثُ اللّفظُ، أو مِن حيثُ المعنى[3]. فالغُمّةُ تدلُّ على خفاءِ الأمرِ لذاتِهِ؛ لانتفاءِ الرّؤيةِ الواضحةِ فيه، أمّا اشتباهُ الأمرِ فإنّه يكونُ لوجودِ مُشابِهٍ. وفي قولِهِ جلَّ شأنُهُ: ﴿فَأَجۡمِعُوٓاْ أَمۡرَكُمۡ وَشُرَكَآءَكُمۡ ثُمَّ لَا يَكُنۡ أَمۡرُكُمۡ عَلَيۡكُمۡ غُمَّةٗ ثُمَّ ٱقۡضُوٓاْ إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ﴾ لم يكن ثَمّ أمران؛ بل طلبَ منهم ألّا يكونوا مُتردّدين في شأنِهِ، بل يُجاهرونَهُ ويكشفونَ عن خبيءِ قلوبِهِم، فكانَ الأنسبُ لذلك التّعبيرَ بالغُمّةِ لا بالاشتباهِ.

الغُمّةُ تُطلَقُ على الخفيِّ لذاتِهِ، والاشتباه على الخفيِّ بوجودِ شبيهٍ له

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (غمم).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (شبه).
(3) الرّاغب، المفردات: (شبه).

﴿فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَمَا سَأَلۡتُكُم مِّنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۖ وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ٧٢﴾ [يونس: 72]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

العلاقةُ بينَ عدمِ الاكتراثِ بشرِّهِم، وعدمِ الطّمعِ في خيرِهِم ونوالِهِم

مُناسبةُ الآيةِ لِما قبلَها أنّ اللّه تعالى لمّا حكى عن نوحٍ عليه السلام "أنّهُ لا يخافُ منهُم بوجهٍ مِنَ الوجوهِ؛ وذلكَ لأنّ الخوفَ إنّما يَحصُلُ بأحدِ شَيئَينِ؛ إمّا بإيصالِ الشَّرِّ أو بِقَطعِ المَنافِعِ، فَبَيَّنَ فيما تقدَّمَ أنّهُ لا يخافُ شَرَّهُم، وبيَّنَ بهذه الآيةِ أنّهُ لا يخافُ منهُم بِسَببٍ أن يَقطعُوا عنهُ خَيرًا"[1]؛ لأنَّه لم يقمْ بدعوتِهِ؛ لِيتقاضى مُقابلَها أجرًا مادّيًّا مُغرِيًا، فهو يَخشَى عليه الضّياعَ؛ بسببِ إعراضِ الأغلبيّةِ الغالبةِ مِن قومِهِ عنه وعن دعوتِهِ، إنّما يَطلبُ أجرَهُ عليها مِنَ اللّه - وحدَهُ - وقد أمرَهُ أن يكونَ مُسَلِّمًا إليه جميعَ أمرِهِ، بلا تأخُّرٍ ولا تردُّدٍ[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تَوَلَّيۡتُمۡ﴾: (التّولّي) يكونُ بمعنى: الإعراضِ، ويكونُ بمعنى: الاتّباعِ؛ قالَ اللّه تعالى: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوۡاْ يَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ﴾ [محمد ﷺ: 38]؛ أي: تُعرِضوا عنِ الإسلامِ.

وأمّا قولُهُ تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡۗ﴾ [المائدة: 51]؛ فمعناهُ: مَن يتّبعهم وينصرهم[3]، و(وَلِيَ) أصلٌ يدُلُّ عَلَى قُربٍ؛ يُقالُ: تَبَاعَدَ بَعدَ وَلْيٍ؛ أيْ: قُرْبٍ[4]. وتَوَلَّى إذا عُدِّيَ بنفسِهِ اقتَضى معنى الوَلَايَةِ، وحُصُولُهُ في أقربِ المَواضِعِ منه، يُقالُ: وَلَّيْتُ سَمعي كذا، ووَلَّيتُ عيني كذا، ووَلَّيتُ وجهي كذا: أقبَلتُ بِهِ عليهِ، قالَ اللّه

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/285.
(2) لجنة من علماء الأزهر، المنتخب في تفسير القرآن الكريم، ص: 289.
(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: 15/315.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ولي).

ﷻ: ﴿فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا﴾ [البقرة: 144]، وإذا عُدِّيَ بـ (عن) لفظًا أو تقديرًا اقتَضَى معنى الإعراضِ وتَركِ قُربِهِ، كقولِهِ تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [آل عمران: 63][1].

2) ﴿أَجْرٍ﴾: الأجرُ: جزاءُ العملِ... أجرَ يَأْجُرُ، والمفعولُ: مَأجورٌ. والأجيرُ: المُستأجِرُ. والإجارةُ: ما أُعطيتَ مِن أجرٍ في عَمَلٍ. وآجرتُ مَمْلوكي إيجارًا فهو مُؤجَرٌ[2]، ويُستعمَلُ الأجرُ بمعنى الإجارةِ، وبمعنى الأجرةِ، وجمعُهُ: أجورٌ[3]، و(أجَرَ) أصلٌ هو الكِرَاءُ عَلَى العَمَلِ[4]، الأجرُ والأجرةُ: ما يعودُ مِن ثوابِ العملِ دُنيَويًّا كانَ أو أُخرَويًّا، نحو قولِهِ تعالى: ﴿إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ﴾، ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [العنكبوت: 27]، والأُجرَةُ في الثّوابِ الدُّنيَويِّ، وجَمعُ الأجرِ أُجُورٌ[5]. والأَجْرُ: الثّوابُ. تقولُ: أَجَرَهُ اللّه يَأْجِرُهُ ويَأْجُرُهُ أجرًا[6].

المَعْنى الإجْماليُّ:

تفويضُ نوحٍ أمرَهُ لربِّ العالمين، تجسيدٌ لأسمى درجاتِ اليقين

يخبرُ اللّه تعالى عن خطابِ نوحٍ لقومِهِ، أنّه قالَ لهم: "فإنْ دامَ تَوَلِّيكم عَمّا جِئتُ بهِ إليكُم مِن توحيدِ اللّه ورفضِ آلهتِكُم، فلستُ أبالي بكُم؛ لأنّ تَوَلِّيَكُم لا يَضُرُّني في خاصَّتِي، ولا قَطَعَ عنِّي صِلَةً منكُم، إذ ما دعوتُكُم إليهِ وذَكَّرتُكُم بهِ ووعَظتُكم، لَم أسألْكُم عليهِ أجرًا، إنّما يُثيبُني عليهِ اللّه تعالى؛ أي: ما نَصَحتُكم إلّا لوجهِ اللّه تعالى، لا لغرضٍ مِن أغراضِ الدُّنيا، ثمّ أخبَرَ أنّه أمَرَهُ أن يكونَ مِنَ المُسلمينَ، مِنَ المُنقادينَ لأمرِ اللّه الطّائعينَ لهُ"[7].

(1) الرّاغب، المفردات: (ولي).
(2) الخليل، العين: (أجر).
(3) الفيّوميّ، المصباح المنير: (أجر).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (أجر).
(5) الرّاغب، المفردات: (أجر).
(6) الجوهريّ، الصّحاح: (أجر).
(7) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/89.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالةُ (الفاء) في قولِهِ تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ﴾:

التَّوكُّلُ على اللهِ تعالى يُفضي إلى التَّجرُّدِ والتّسليمِ له

في قولِهِ تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ﴾، دلّتِ الفاءُ على تفريعِ الكلامِ اللّاحقِ على السّابقِ، فالشّرطُ في قولِهِ: ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ﴾، "مُرتَّبٌ على الجزاءِ قَبلَهُ؛ أي: إن بقيتُم على إعراضِكُم عن تذكيري بعدَ أمري لَكُم، وعدم مُبالاتي بما أنتُم عليهِ، فلا ضَيرَ عليَّ"[1]، فالفاءُ لترتيبِ التَّوَلِّي على ما سَبَقَ ذِكرُهُ؛ أي: إنْ أعرضْتُم عن تذكيري بعدما شاهدْتُم صحّةَ دعوتي، فإنّي غيرُ مُبالٍ بكُم، وبما يأتي منكُم[2].

دلالةُ التّعبيرِ في ﴿تَوَلَّيْتُمْ﴾:

اتّباعُ الحقِّ يُسْرٌ ونفعٌ، والتَّولِّي عنه مَشقَّةٌ وكلفةٌ

في قولِهِ تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ﴾، عبَّرَ النّظمُ الكريمُ بصيغةِ التَّفعُّلِ دونَ التّفعيلِ، فلم يَقُلْ: (فإن وُلِّيتُم) للدّلالةِ على الكلفةِ، بالتَّوَلِّي عنِ الحقّ؛ أي: "كَلَّفتُم أنفسَكُم الإعراضَ عنِ الحقِّ، بعدَ عجزِكُم عن إهلاكي"[3]؛ إيماءً إلى أنّهم قد عَلِمُوا أنّهُ حقٌّ، واتّباعُ الحقِّ لا يُحْوِجُ إلى التَّكلُّفِ، أمّا الإعراضُ عنه فإنّه لا يكونُ إلّا بكلفةٍ ومُعاناةٍ.

دلالةُ (الفاء) في ﴿فَمَا سَأَلْتُكُم﴾:

مهمّةُ الرّسولِ البلاغُ بالحُجّةِ، وسَوْقُ مرادِ اللهِ على ما يحبُّ

في قولِهِ تعالى: ﴿فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ﴾، أدخلَ النّظمُ الكريمُ الفاءَ في صدرِ الجملةِ؛ لأنّها واقعةٌ جوابًا للشّرطِ مُفتتحة بالنّفي، فلابدَّ مِنَ الفاءِ الرّابطةِ لبيانِ أنّ انتفاءَ سؤالِهِ الأجر ينفي أن تكونَ هناك أسبابٌ جديرةٌ لتولِّيهم عنه، وفي ذلك تزكيةٌ لدعوتِهِ، وإلزامٌ لهم بالحُجّةِ، فليسَ الدّاعي لدعوتِكُم كسبَ الأجرِ؛ بل محض

(1) الخفاجيّ، عناية القاضي: 5/48.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/165.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/164.

النّصحِ والوعظِ، وطلب النّجاةِ لكم، "فلم يكُنْ تَوَلِّيكم عن تفريطٍ منِّي؛ لأنّي سُقتُ الأمرَ على ما يُحِبُّ"[1].

دلالةُ الشّرطِ في الآية:

قولُهُ تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ﴾، عَبَّرَ النّظمُ الكريمُ بأسلوبِ الشّرطِ عن تبرئةِ دعوتِهِ مِن أسبابٍ جديرةٍ تحملُهُم على التَّولِّي عن قبولِها؛ أي: إن أعرضتُم عن تذكيري ونصيحتي، "فما كانَ عندي ما ينفّرُكُم عني وتتّهموني لأجلِهِ، مِن طَمَعٍ في أموالِكُم وطلبِ أجرٍ على عظتِكُم"[2]، فزكّى دعوتَهُ بأنّها خاليةٌ مِنَ الأغراضِ الّتي يطلبُها مَن يبغي الانتفاعَ، فلمّا ظهرَ لكُم ذلكَ، كانَ ينبغي أن لا تَتولَّوا لظهورِ صدقي في دعوتي، لِتجرُّدي عن طلبِ الانتفاعِ؛ "والمعنى: فإنْ كنتُم قد تَولَّيتُم فقد عَلِمتُم أنّي ما سألتُكُم أجرًا فتتَّهمُوني برغبةٍ في نَفعٍ يَنجَرُّ لي مِن دعوتِكُم، حتّى تُعرِضوا عنها شُحًّا بأموالِكُم، أو اتِّهامًا بتَكذيبي، وهذا إلزامٌ لَهُم، بأنّ تَوَلِّيَهم لم يكُنْ فيه احتمالُ تُهمَتِهم إيّاهُ، بتَطلُّبِ نَفعٍ لنفسِهِ. وبِذَلكَ برّأ نفسَهُ مِن أن يكونَ سببًا لِتَوَلِّيهم، وبهذا تَعَيَّنَ أنَّ المُعَلَّقَ بهذا الشّرطِ هو التَّحقُّقُ بينَ مَضمونِ جملةِ الشّرطِ، وجُملةِ الجزاءِ لا وُقوعُ جُملةِ الجزاءِ عندَ وُقوعِ جُملةِ الشّرطِ"[3].

صدقُ دعوةِ الرّسولِ مُتجسِّدٌ في تجرُّدِهِ عن طلبِ الانتفاعِ الذّاتيِّ

دلالةُ التَّولِّي في قولِهِ: ﴿تَوَلَّيْتُمْ﴾:

في قوله تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ﴾، مجيءُ فعلِ التَّولِّي في فعلِ الشّرطِ في الآيةِ يُرادُ منهُ التَّولِّي الّذي قد حَصَلَ واستمرَّ، وليسَ أنّه تولٍّ سيكونُ لاحقًا، فلمّا "كانَ تَوَلِّيهم عن دعوتِهِ قد وَقَعَ واستمرَّ، تَعَيَّنَ أنَّ جَعْلَ التَّوَلِّي في جملةِ الشّرطِ مُرادٌ بهِ

التَّولِّي إعراضٌ عن حقٍّ قامَتِ الأدلّةُ على صحّتِهِ إلى ما يُناقضُهُ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/164.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/360.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/340 - 241.

ما كانَ حَصَلَ لِيُرتِّبَ عليه جوابَ الشّرطِ الّذي هو شيءٌ قد وَقَعَ أيضًا"[1]، وهذا مَلمَحٌ مِنَ الحوارِ الطّويلِ الّذي خلّدَهُ اللّه في القرآن؛ حيث إنّهم كذّبوا واستمرُّوا في كذبِهِم، فرأينا نوحًا عليه السلام قالَ لَهُم: "﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ﴾ عن ما دعوتُكُم إليه، فلا مُوجِبَ لِتولِّيكُم؛ لأنّهُ تبيَّنَ أنّكُم لا تُولّون عن باطلٍ إلى حقٍّ؛ وإنّما تُولّون عن حقٍّ قامَتِ الأدلّةُ على صحّتِهِ، إلى باطلٍ قامَتِ الأدلّةُ على فسادِهِ"[2].

دلالةُ النفي بلفظِ (ما):

قولُهُ تعالى: ﴿فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ﴾، ساقَ لَهم صدقَ دعوتِهِ، بنفي طلبِ الأجرِ، فإنّ نفيَ طلبِ ما يطلبُهُ النّاسُ في العادةِ يُثيرُ الانتباهَ إلى المطلوبِ بدلًا عن ذلك؛ فكان نفيُ سؤالِ الأجرِ، يتضمَّنُ دعوةً لهم إلى التّفكيرِ بشأنِهِ، وبصدقِ دعوتِهِ؛ لأنّ عملَهُ إنّما هو لمحضِ رضوانِ اللّه؛ ولذلكَ قالَ: "﴿فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ﴾ على دعوتي، وعلى إجابتِكُم، فتقولوا: هذا جاءَنا ليأخذَ أموالَنا، فتمتنعونَ لأجلِ ذلك"[3].

يكون عطاءُ الرّسولِ مَبرورًا، حين لا يريدُ جزاءً ولا شُكورًا

نكتةُ ورودِ حرفِ الجرِّ ﴿مِّنْ﴾:

قولُهُ تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ﴾، أدخلَ النّظمُ الكريمُ حرفَ الجرِّ الزّائدِ (من) في سياقِ النّفي للدّلالةِ على الاستغراقِ في النّفي[4]؛ قطعًا لأسبابِ الاتّهامِ والنّفورِ عنِ الدّعوةِ، وتأكيدًا لتزكيَةِ دعوتِهِ عنِ المنافعِ الزّائلةِ الّتي يبتغيها أهلُ الدّنيا، والسّياقُ يحتملُ وجهين: "أحدُهما: فما سألتُكُم مِن أجرٍ تستثقلونَهُ، فتمتنعون مِنَ الإجابةِ لأجلِهِ... والثّاني: ﴿فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ﴾، إنِ انقطعَ عنّي ثَقُلَ عليّ، ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ﴾، وقد حَصَلَ بالدّعاءِ لكُم، إنْ أجبتُم أو أبيتُم[5].

لا يطمحُ الرّسولُ للأجرِ الفاني، وإنّما يتُوقُ لأجرِ اللهِ الباقي

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/240.
(2) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن: 11/240.
(3) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن: 11/240.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/164.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/240.

دلالةُ التّنكيرِ في لفظِ ﴿أَجۡرٍ﴾:

مَن تعلَّقت همّتُهُ بما عندَ الله، زَهَدَ فيما عندَ مَن سِواه

قولُهُ تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَمَا سَأَلۡتُكُم مِّنۡ أَجۡرٍ﴾ آثرَ النّظمُ الكريمُ التّعبيرَ عنِ الأجرِ، بصيغةِ التّنكيرِ؛ استغراقًا لكلِّ ما يُطلَقُ عليه أجرٌ، مهما قلَّ، فالتّنكيرُ هنا للتّقليلِ والتّهوينِ؛ أي: ما سألتُكُم أيَّ أجرٍ كان، قليلًا أو كثيرًا. وعلّةُ عدمِ أخذِهِ أيَّ لونٍ مِنَ الأجرِ، مهما قلَّ؛ "لأنّهُ أرادَ الأجرَ الأعلى، فلو أخذَ منهُم؛ فلسوفَ يأخذُ على قدرِ إمكاناتِهِم، ولكنَّ الأجرَ مِنَ اللّه تعالى، هو على قدرِ إمكاناتِ اللّه ﷻ، وفارقٌ بينَ إمكاناتِ المحدودِ العطاء وهو البشرُ، ومَن له قدرةُ عطاءٍ لا نهايةَ لها، وهو اللّه ﷻ"[1].

المَوقعُ البيانيُّ للجملةِ المُستأنَفةِ في الآية:

غايةُ دعوةِ النّبيّين تحصيلُ ما عندَ اللهِ يومَ الدّين

قولُهُ تعالى: ﴿إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ﴾، جملةٌ مُستأنَفةٌ للتّعليلِ؛ إذ إنّ العاقلَ لا يُقْدِمُ على فعلٍ ما بلا غايةٍ، فاستأنفَ إثرَ نفيه طلبَ الأجرِ منهم؛ لبيانِ غرضِهِ، فهو "تعليلٌ لاستغنائِهِ ﷺ عنهم؛ أي: ما ثَوابي على العِظةِ والتّذكيرِ إلّا عليه تعالى يُثيبُني بهِ آمَنتُم أو تَولَّيتُم"[2].

سرُّ إيثارِ النّفي بـ ﴿إِنۡ﴾:

انتقاءُ أداةِ النّفي الأكثر تأكيدًا يُظهر بلاغةَ التّركيبِ ودقّتَهُ

آثرَ النّظمُ الكريمُ حرفَ النّفي ﴿إِنۡ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ﴾، ولم يأتِ النّفي بـ (ما)؛ لأنّ النّفيَ بأداةِ النّفي (إن) أبلغُ وأكثرُ تأكيدًا؛ وأغلبُ استعمالاتِها في القرآنِ الكريمِ أنّها تقترنُ مع (إلّا)، والقصرُ بها مع إلّا يكونُ أكثرَ تأكيدًا، أمّا (ما) فتأتي مع الحصرِ لكن ليسَ هو الغالبَ عليها، ويُلاحَظُ أنّ هناك تجانسًا في افتتاحِ الحرفين (إنْ) و(إلّا)، فكلاهما افُتتحَ بالهمزةِ المكسورةِ، وهذا يعطي إضافةً للقوّةِ في التّعبيرِ بهذين الحرفين معًا؛ وعليه فإنّ

(1) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 10/6103.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/165، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 9/164.

قولَهُ جلَّ شأنُه: ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۖ﴾، قد سِيقَ على وجهِ التّأكيدِ؛ بيانًا لاكتفائِهِ بالأجرِ المُستَحَقِّ لهُ على وعدِ اللّه تعالى له.

الغرضُ مِن أسلوبِ القصرِ في الآية:

حصرُ الأجرِ على اللهِ عطاءٌ ويقينٌ بأنّه مَصدرُ كلِّ نعمةٍ

عبَّرَ النّظمُ الكريمُ في قولِهِ تعالى: ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۖ﴾، بأسلوبِ القصرِ على تأكيدِ نفي طلبِهِ الأجرَ منهم، وحصر ما يبتغيه مِن أجرٍ، بأنّه كائنٌ مِنَ اللّه تعالى، فهو "تعميمٌ لنفي تَطَلُّبِهِ أجرًا على دعوتِهِم، سواءٌ منهم أم مِن غيرِهِم. فالقصرُ حقيقيٌّ، وبهِ يحصُلُ تأكيدُ جملةِ: ﴿فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍۖ﴾ مع زيادةِ التّعميمِ. وطَريقُ جزمِهِ بأنّ اللّه يُؤجِرُهُ على ذلكَ، هو وَعدُ اللّه إيّاهُ بهِ بِما أوحَى إليه"[1].

دلالةُ استعمالِ الحرفِ ﴿عَلَى﴾:

وعدُ اللهِ مُحقَّقٌ مُنجَزٌ، وأجرُهُ مُميَّزٌ مُعجزٌ

عَبَّرَ النّظمُ الكريمُ في قولِهِ تعالى: ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۖ﴾ على ثباتِ الأجرِ واستحقاقِهِ لنوحٍ بحرفِ الجرِّ ﴿عَلَى﴾، ويدلُّ حرفُ الاستعلاءِ على تمكُّنِ الاستحقاقِ؛ وذلك لأنّ وعدَ اللّه مُؤكَّدٌ، فقولُهُ: ﴿عَلَى ٱللَّهِۖ﴾ تأكيدٌ لَهُم، بأنّ أجرَهُ ثابتٌ مُحقَّقٌ لا يزولُ ولا يُنسَخُ، وهذا يبيّنُ علّةَ النّفي في قولِهِ: ﴿فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍۖ﴾؛ لأنّ مَن وُعِدَ بالأجرِ مِنَ الوهّابِ الكريمِ، فأيُّ أجرٍ آخرَ يبتغيه؟!، ولهذا لم يقُلْ: (من اللّه)؛ إذ لم يُردْ أن يبيّنَ ابتداءَ الأجرِ بأنّه كائنٌ مِنَ اللّه تعالى، بل أرادَ أن يُبيّنَ الاستحقاقَ الثّابتَ على اللّه تعالى؛ إذ إنّ ما يَعِدُ اللّه تعالى به فهو حقٌّ مُحقَّقٌ، لا مريةَ فيه.

دلالةُ نفي الأجرِ مِنَ النّاسِ وطلبِهِ مِنَ الله تعالى في الآيةِ:

ما عندَ النّاسِ يَنْفَدُ، وما عندَ اللهِ باقٍ

قولُهُ تعالى: ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۖ﴾، نفى نوحٌ عليه السلام سؤالَهُ الأجرَ منهم، وأثبتَهُ مِنَ اللّه تعالى؛ لأنّه لمّا عَلِمَ أنّ عطاءَ البشرِ محدودٌ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/241.

على قدرِ الجَهْدِ، وأنّ الأجرَ مِنَ اللّه تعالى لا ينفدُ ولا ينقطعُ، جعلَ طلبَهُ الأجرَ مُتعلِّقًا بكمالِ العطاءِ الّذي يكونُ مِنَ الخالقِ ﷻ.

دلالةُ التّعميمِ لعبارةِ ﴿فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ﴾:

تكرَّرَ في النّظمِ الكريمِ مثلُ قولِهِ تعالى: ﴿فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ﴾، على لسانِ كثيرٍ مِنَ الرُّسلِ عليهم السلام على مرِّ العصورِ؛ لأنّ غايتَهُم واحدةٌ، ومصدرَهُم واحدٌ، ومآلَهُم ذاتُهُ، ومطلبَهُم عينُهُ، وهو رضوانُ اللّه تعالى، والإخلاصُ له بالدّعوةِ، بلا أجرٍ مِنَ النّاسِ، فهُم يمحّضونَ النّاسَ النّصحَ والدّعوةَ لإخراجِهِم إلى نورِ التّوحيدِ والإيمانِ.

الرُّسلُ أبناءُ عَلّاتٍ، أبوهُم واحدٌ وأمّهاتُهم شتّى

دلالةُ الواوِ العاطفةِ في قولِهِ تعالى: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ﴾:

الجملةُ في قولِهِ تعالى: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ معطوفةٌ على الجملةِ في جوابِ الشّرطِ في قولِهِ جلَّ شأنُهُ: ﴿فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ﴾، فلمّا نفى طلبَ الأجرِ "عَطَفَ عليه غرضًا آخرَ، وهو اتِّباعُ الأمرِ خَوفًا مِن حُصُولِ الضُّرِّ"[1]، والتّقديرُ "فإنْ تَولَّيتُم فَأُمِرتُ أن أكونَ مِنَ المسلمينَ؛ أي: أمَرَني اللّه أنْ أتَّبِعَ الدِّينَ الحقَّ، ولو كنتُ وحدِي. وهذا تَأييسٌ لَهُم بأنّ إجماعَهُم على التَّوَلِّي عنهُ لا يَفُلُّ حَدَّهُ، ولا يَصُدُّهُ عن مُخالفةِ دينِهِمُ الضَّلّالِ"[2].

الرَّسولُ مَأمورٌ بالإسلامِ، ولو كانَ وحدَهُ دونَ الأنامِ

نكتةُ التّعبيرِ بـ ﴿وَأُمِرْتُ﴾:

آثرَ النّظمُ الكريمُ في قولِهِ تعالى: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾، أن يُعبِّرَ بالفعلِ الماضي المبنيِّ للمفعولِ؛ لأنّه لا يخفى أنّ الآمرَ بالإسلامِ هو اللّه تعالى، فعدمُ التّصريحِ بهِ اكتفاءً بدلالةِ السّياقِ طلبًا للإيجازِ، ولا سيّما أنّ ذكرَهُ وردَ قريبًا: ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ﴾، فلو قالَ: (إلّا على اللّه وأمرَني اللّه) لكانَ أبعدَ عنِ البلاغةِ بتكرارِ اللّفظِ المذكورِ قريبًا بلا غرضٍ. كما أنّ بناءَ الفعلِ

حضورُ المعنى في الأذهانِ، يغني عنِ الذّكرِ باللّسانِ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/164 - 165.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/241.

لِلمَفعولِ يُصيّرُ المصدرَ في قولِهِ: ﴿أَنۡ أَكُونَ﴾ نائبَ الفاعلِ، وفي ذلك تنبيهٌ على الاهتمامِ بهذه الكينونةِ المأمورِ بها؛ ترغيبًا لها بأن جعلَهُ عُمدةً في الكلامِ، بإقامتِهِ مَقامَ الفاعلِ، وأصلُهُ فُضلة[1].

سرُّ التّعبيرِ بكونِهِ مِنَ ﴿ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾:

عَبَّرَ النّظمُ الكريمُ في قولِهِ تعالى: ﴿وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ عنِ الأمرِ بأن يكونَ واحدًا مِنَ المُسلمينَ، لا بأن يكونَ مُسلِمًا؛ لأنّ الأمرَ بذلك أبلغُ في الدّلالةِ على الاتّصافِ بالمأمورِ بهِ، فهو يدلُّ على أنّ هناك فئةً قد شُهِرَت بهذا الوصفِ، فالأمرُ بأن يكونَ منهم دليلٌ على أنّه قد بَلَغَ أن يكونَ مُتَّصِفًا بذلك، والأمرُ به يدلُّ على الأمرِ بشدّةِ الاتّصافِ به بحيث يكونُ واحدًا منهُم، وذلك بأن يُحقِّقَ الصّفةَ على الوجهِ الأكملِ ليكونَ منهُم.

الاعتبارُ بصفةِ الجماعةِ أبلغُ منه بصفةِ الفردِ

دلالةُ الأمرِ بالكينونةِ في ﴿أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾:

قولُهُ تعالى: ﴿وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ جاءَ الأمرُ بالكينونةِ، ولم يقُلْ: (وأُمِرتُ بالإسلامِ)؛ للدّلالةِ على الاتّصافِ بأقصى ما يمكنُ مِنَ الاستسلامِ؛ أي: ﴿أَنۡ أَكُونَ﴾ "كَونًا أتخلَّقُ بهِ فلا أنفَكُّ عنهُ"[2]، فيكون مُتَّصفًا بهذه الصّفةِ وجوديًّا، فيكون الوصفُ راسِخًا به كرسوخِ مَن يأتي للوجودِ بصفةٍ لا تَنفكُّ عنهُ، وفي ذلكَ مُبالغةٌ في الاستسلامِ.

الإسلامُ إيمانٌ بالوجدانِ، وإقرارٌ باللّسانِ، وعَمَلٌ بالأركانِ

دلالةُ التّعريفِ بـ (اللّام) في ﴿ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾:

في قوله تعالى: ﴿وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ عَرَّفَ المُسلمينَ بالألفِ واللّامِ، والمرادُ بهِ تعريفُ الجنسِ هنا؛ أي: أمرَني أن أكونَ مِن هذا الجنسِ، وليسَت للعهدِ؛ إذ لم يَجْرِ لهم ذكرٌ، وكونه كان أوّلَ الرّسلِ، فلم يُوجَدْ قبلَهُ فئةٌ يُقالُ لها: إنّهُم مُسلمونَ مع رسولٍ أُرسِلَ

دعوةُ نوحٍ أن يكونَ مِنَ المُسلمينَ دليلٌ على عظمةِ الإسلامِ للهِ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/165.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/165.

إليهم، وقد وَرَدَ أنّ نوحًا عليه السلام هو أوّلُ الرُّسلِ، والظّاهرُ أنّه قبلَ نوحٍ لم يُبعَثْ رسولٌ، ومِن هنا ألمحَ بعضُ الدّارسينَ إلى خطأ المؤرّخينَ الّذين قالوا: إنّ إدريسَ عليه السلام كانَ قبلَ نوحٍ، والقرآنُ يقولُ: ﴿۞إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيۡمَٰنَۚ﴾ [النّساء: 163]، وقد جاءَ في حديثِ الشّفاعةِ الطّويلِ عندَ البخاريّ قولُ أهلِ المَوقِفِ لنوحٍ عليه السلام: «يَا نُوحُ أَنْتَ أَوَّلُ الرُّسُلِ إِلَى أهلِ الأرضِ؛ وسَمَّاكَ اللّه عَبدًا شَكُورًا»"[1].

مُناسبةُ ختامِ الآيةِ:

تقدُّمُ الانقيادُ يناسبُهُ الختمُ بوصفِ الإسلامِ

في قولِهِ تعالى: ﴿وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ آثرَ النّظمُ الكريمُ أن يختمَ الآيةَ بصفةِ الاستسلامِ دونَ الإيمانِ وغيره؛ للدّلالة على أنّه مَأمورٌ بالاستسلامِ الّذي يُناسِبُ قولَهُ تعالى: ﴿ثُمَّ ٱقۡضُوٓاْ إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ﴾[2]، فلمّا طلبَ منهُم أن يَجمعُوا أمرَهُم ويَقضُوا بهِ إليهِ، ذَكَرَ عَقِبَ ذلك أنّهُ مَأمورٌ بأن يُسلِمَ وينقادَ لذلك، فناسبَ آخرُ الآيةِ أوّلَها، ومعنى قوله تعالى: ﴿وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾؛ أي: "الّذين لا يأخذونَ على تعليمِ الدّينِ شيئًا، ولا يطلبونَ به دنيا، وهذا مُقتضَى الإسلامِ، والّذي كلُّ مُسلمٍ مَأمورٌ بهِ"[3].

المتشابِهُ اللّفظيّ:

تناسبُ الأولى معَ إسلامِ نوحٍ بأمرِ اللهِ، والثّانيةُ مع الرّدِّ على المُشكِّكينَ في الإيمانِ

التّشابهُ بينَ قولِهِ تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَمَا سَأَلۡتُكُم مِّنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۖ وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾، وقولِهِ تعالى: ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي شَكّٖ مِّن دِينِي فَلَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِينَ تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنۡ أَعۡبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِي يَتَوَفَّىٰكُمۡۖ وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾

(1) ابن حجر العسقلانيّ، فتح الباري شرح صحيح البخاريّ: 6/372.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/285، والخفاجيّ، عناية القاضي: 5/48.
(3) إبراهيم الأبياريّ، الموسوعة القرآنيّة: 10/72.

[يونس: 104]. وقد خصّ النّظمُ الكريمُ كلَّ آيةٍ بخاتمةٍ، حيث خُتِمَت الآيةُ الأولى بقولِه تعالى: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾، وخُتِمَتِ الآيةُ الثّانيةُ بقولِه جلَّ شأنُهُ: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، والسِّرُّ في ذلك أنّ الآيةَ الأولى بدأت بقولِه تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۖ﴾، فلمّا كانَ التَّوَلِّي مُسبِّبًا عن عدمِ انقيادِهم وإسلامِهم للّه تعالى؛ ناسبَ أن يُعلِنَ نوحٌ عليه السلام إسلامَهُ وانقيادَهُ للّه تعالى فقالَ: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾، أمّا الآيةُ الثّانيةُ فبدأت بذكرِ الشّكِّ، ونقيضُ الشّكِّ هو الإيمانُ، فكانَ مِنَ الأنسبِ أن يَختمَ بما يُناقِضُ الشّكَّ بإعلانِ إيمانِه.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الأجرُ، والجزاءُ:

الأجرُ خاصٌّ بثوابِ العملِ النّافعِ، والجزاءُ مُماثَلَةٌ لِلعملِ بمثلِه

(أجر) أصل هو الكِرَاءُ عَلَى العَمَلِ[1]، الأجرُ والأجرةُ: ما يَعُودُ من ثوابِ العملِ دُنيَويًّا كانَ أو أُخرَويًّا، نحو قولِه تعالى: ﴿إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۖ﴾[2]، والجزاءُ: قِيَامُ الشَّيءِ مَقَامَ غَيرِهِ ومُكَافَأَتُهُ إيَّاهُ. يُقَالُ: جَزَيتُ فُلانًا أجزِيه جَزَاءً، وجَازَيتُهُ مُجَازَاةً. وَهَذَا رَجُلٌ جَازِيكَ مِن رَجُلٍ؛ أي: حَسبُكَ. ومَعنَاهُ: أنَّهُ يَنُوبُ مَنابَ كُلِّ أحَدٍ[3]. والجَزَاءُ: الغناءُ والكفايةُ، وهو أيضًا: ما فيهِ الكفايةُ مِنَ المقابلةِ، إنْ خيرًا فَخَيرٌ، وإنْ شرًّا فَشَرٌّ. يُقالُ: جَزَيتُهُ كذا وبكذا، قالَ اللّه تعالى: ﴿وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ﴾ [طه: 76][4]. فالأجرُ يُقالُ في النّفعِ دونَ الضُّرِّ، بخلافِ الجزاءِ، والجزاءُ فيه مُقابلةُ الخيرِ بالخيرِ والشَّرِّ بالشَّرِّ، وأمّا الأجرُ فهو النّفعُ الموضوعُ على عملٍ يُقدَّمُ ويُقامُ بهِ.

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (أجر).
(2) الرّاغب، المفردات: (أجر).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (جزي).
(4) الرّاغب، المفردات: (جزا).

﴿فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾﴾ [يونس: 73]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

ورودُ العقوبةِ بعدَ البيانِ تسريةٌ لِلصّالحين، ووعيدٌ لِلكافرين

مُناسبةُ الآيةِ لِما قبلَها أنّ اللّه تعالى لمّا "حَكى الكلماتِ الّتي جرَت بينَ نوحٍ وبينَ أولئكَ الكُفّارِ، ذَكَرَ ما إليهِ رَجَعَت عَاقِبةُ تلكَ الوَاقِعَةِ، أمّا في حقِّ نُوحٍ وأصحابِهِ فأمران؛ أحدُهُما: أنّه تعالى نجّاهُم مِنَ الكُفّارِ. الثّاني: أنّهُ جعلَهُم خلائفَ؛ بِمعنى: أنّهُم يَخلُفُونَ مَن هَلَكَ بالغَرَقِ، وأمّا في حقِّ الكُفّارِ فهو أنّهُ تعالى أغرَقَهُم وأهلَكَهُم"[1]، وقَد ذَكَرَ السّياقُ هنا قصّةَ نوحٍ، وهي نموذجٌ مِن قَصصِ الأنبياءِ السّابقين؛ تسليةً للرّسولِ الخاتمِ، عمّا يَتعرَّضُ لهُ مِنَ الشّدائدِ والمكائدِ، وتذكيرًا بعاقبةِ المُكذِّبينَ للرُّسلِ ﷺ حتّى يَنزجرَ مَن يَحذو حذوَهُم[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَنَجَّيْنَٰهُ﴾: (نجو): أصلُ النَّجَاءِ: الانفصَالُ مِنَ الشّيءِ، ومنه: نَجَا فلانٌ مِن فلانٍ وأنجَيتُهُ ونَجَّيتُهُ، قال تعالى: ﴿وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [النّمل: 53]، وقال: ﴿إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ﴾ [العنكبوت: 33]، والنَّجوَةُ والنَّجَاةُ: المكانُ المُرتفعُ المُنفصِلُ بارتفاعِهِ عمّا حولَهُ، وقِيلَ: سُمِّي لِكونِهِ نَاجِيًا مِنَ السَّيلِ، وَنَجَّيتُهُ: تركتُهُ بنَجوَةٍ، وعلى هذا: ﴿فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ﴾ [يونس: 92][3].

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/286.
(2) الزّحيليّ، التّفسير المنير: 11/226.
(3) الرّاغب، المفردات: (نجو).

2) ﴿ٱلْفُلْكِ﴾: (فلك) أصلٌ يَدُلُّ على استِدَارَةٍ في شَيءٍ. مِن ذَلِكَ فَلَكَةُ المِغزَلِ، سُمِّيَتْ لاستِدَارَتِها، والفَلَكُ: قِطَعٌ مِنَ الأرضِ مُستَدِيرَةٌ مُرتَفِعَةٌ عَمَّا حَولَهَا. وأمَّا السَّفِينَةُ فَتُسَمَّى فُلْكًا. ويُقَالُ إنَّ الوَاحِدَ والجَمعَ في هَذا الاسمِ سَواءٌ، ولَعَلَّهَا تُسَمَّى فُلْكًا لأنَّها تُدارُ في المَاءِ[1]، والفَلَكُ: مَجرَى الكواكِبِ، وتسميَّتُهُ بذلكَ لِكونِهِ كالفُلكِ، قال: ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: 40][2]، والفُلْكُ: بالضَّمِّ: السَّفِينَةُ، تُذَكَّرُ وَتُؤَنَّثُ، وتَقَعُ على الوَاحِدِ والاثنَينِ والجَمعِ[3].

3) ﴿خَلَٰٓئِفَ﴾: (الخلائفُ) جمعُ (خليفة)، ولِكونِهِ مذَّكر المعنى، جُمِعَ على (خلفاء) وإلّا فقياسُهُ (خلائف) كـ (كرائم) إذا (الفعيلة) بالتّاء لا تُجمَعُ على (فعلاء)[4]. خَلَفَ: أصلٌ يدلُّ على أن يَجِيءَ شَيءٌ بَعدَ شَيءٍ يَقومُ مَقامَهُ[5]، والخِلافةُ: النّيابةُ عنِ الغَيرِ؛ إمّا لِغَيبةِ المَنوبِ عنهُ، وإمّا لِمَوتِهِ، وإمّا لِعَجزِهِ، وإمّا لِتشريفِ المُستخلَفِ، وعلى هذا الوجهِ الأخيرِ استخلفَ اللّه أولياءَهُ في الأرضِ، قالَ تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [فاطر: 39]، والخلائفُ: جمعُ خليفةٍ، وخُلفاءُ جمعُ خَلِيفٍ، قالَ تعالى: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [ص: 26]، ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ﴾ [يونس: 73][6].

4) ﴿ٱلْمُنذَرِينَ﴾: النّذيرُ: المُنذِرُ. والنّذيرُ: الإنذارُ، وأمّا قولُ ابن أحمر:

كَم دُونَ لَيلَى مِنْ تَنّوفيَّةٍ *** لَمَّاعَةٍ تُنذِرُ فِيهَا النُّذُرْ

فيُقالُ: إنّه جمعُ نَذْرٍ، مثل: رَهْنٍ ورُهُنٍ، ويُقالُ: إنّه جمعُ نذيرٍ، بمعنى مَنذورٍ، مثل قتيلٍ وجديدٍ. وقد نذرتُ للّه كذا[7]، و(نذر) أصلٌ يدلُّ على تَخويفٍ أو تَخَوُّفٍ. مِنهُ الإنذَارُ: الإبلاغُ، ولَا يَكادُ يَكونُ إلَّا في التَّخويفِ[8]. فالإنذارُ: إخبارٌ فيه تَخويفٌ، كما أنّ التّبشيرَ إخبارٌ فيه سُرُورٌ، قال تعالى: ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ﴾ [اللّيل: 14][9].

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (فلك).
(2) الرّاغب، المفردات: (فلك).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (فلك).
(4) الكفويّ، الكلّيّات: (خلف).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (خلف).
(6) الرّاغب، المفردات: (خلف).
(7) الجوهريّ، الصّحاح: (نذر).
(8) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نذر).
(9) الرّاغب، المفردات: (نذر).

المَعْنى الإجْماليُّ:

بيانُ استئصالِ المُكذِّبينَ وإغراقِهم، ونجاة المؤمنينَ واستخلافهم

يخبرُ اللّه تعالى عن حالِ قومِ نوحٍ عليه السلام أنّهم "مع هذا المجهودِ وتلكَ المُثابرةِ الّتي بذلَها مِن أجلِ هدايتِهم، أصرّوا على أن يَستمرُّوا في تكذيبِهِ وعدائِهِ، فنجَّاهُ اللّه ومَن معَهُ مِنَ المؤمنينَ بهِ، الرّاكبينَ معَهُ في الفُلكِ، وجعلَهُم عُمَّارًا لِلأرضِ بعدَ هلاكِ الكافرينَ الّذين أغرقَهُمُ الطّوفانُ"[1]. فالآيةُ إخبارٌ وتوعُّدٌ لِلمُشركينَ المُكذِّبينَ بالنّبيِّ مُحمّدٍ ﷺ "وضَربُ المثالِ لَهُم؛ أي: أنتُم بحالِ هؤلاءِ مِنَ التّكذيبِ، فَستكونونَ بحالِهِم مِنَ النِّقمَةِ والتَّعذيبِ"[2].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ حرفِ (الفاء) في ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾:

القَصصُ القرآنيُّ مَعرِضٌ للحروفِ والألفاظِ والمعاني

في قولِهِ تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ أدخلَ النّظمُ الكريمُ الفاءَ الدّالّةَ على التّفريعِ؛ لتفريعِ تكذيبِهِم على ما وجَّهَ لَهُم مِنَ الدّعوةِ؛ أي: "تفريعِ ذكرِ هذهِ الجُملِ على ذكرِ الجُملِ السّابقةِ؛ لأنّ الشّأنَ أن تكونَ لِما بعدَ الفاءِ مُناسَبَةٌ لِما قبلَها تقتضي أن يُذكَرَ بعدَها فَيُؤتَى بالفاءِ، لِلإشارةِ إلى تلكَ المُناسَبَةِ، كقولِهِ تعالى: ﴿ٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ﴾ [الزّمر: 72]، وإلّا فإنّ تكذيبَ قومِ نُوحٍ حَصَلَ قَبلَ أن يقولَ لَهُم: ﴿إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيۡكُم مَّقَامِي﴾ [يونس: 71] الآيةَ؛ لأنّه مَا قالَ لَهُم ذلكَ إلّا وقد رأى منهُم تجهُّمَ دَعوتِهِ"[3].

دلالةُ التّعبيرِ بـ ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾:

مَن كذَّبَ بآياتِ اللهِ كذّابًا، كانَ الجزاءُ هوانًا عندَ ربِّهِ وعذابًا

عَبَّرَ النّظمُ الجليلُ في قولِهِ تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ على استمرارِ تكذيبِهِم وإصرارِهِم عليه؛ أي: "فَأصَرُّوا على مَا هُم عليهِ مِنَ التّكذيبِ، بعدَ ما ألزمَهُمُ الحُجَّةَ، وبيَّنَ لَهُم المَحَجّةَ، وحَقَّقَ أنّ

(1) جماعة من العلماء، المنتخب في تفسير القرآن الكريم، ص: 299.
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/133.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/242.

تَوَلِّيَهم لَيسَ له سَببٌ غيرُ التَّمرُّدِ والعِنادِ، فلا جَرَمَ حَقَّت عليهم كلمةُ العَذابِ"[1]، فكانَ تكذيبُهُم مُتطاوِلًا مُستمرًّا غيرَ مُنقطِعٍ؛ وإنّما دلَّ التّكذيبُ هنا على الإصرارِ والاستمرارِ في العِنادِ؛ "لأنّ السّياقَ دالٌّ على تقدُّمِ تكذيبِهم لهُ، كما يدُلُّ عليهِ قولُهُ: ﴿إِن كَانَ كَبُرَ﴾"[2].

استمرَّ تكذيبُهُم عنيدًا، حتّى بعدَ أن صارَ الإغراقُ أكيدًا

دلالةُ العطف في: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَٰهُ﴾:

في قولِهِ تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَٰهُ﴾ عطفَ النّظمُ الكريمُ نجاةَ نوحٍ عليه السلام على تكذيبِهم بالفاءِ؛ لِلدّلالةِ على أنّ تكذيبَهُم قدِ استمرَّ إلى وقتِ الإغراقِ والنّجاةِ بعدَهُ، فلمّا كانَ تكذيبُهُم قد طالَ زمانُهُ فيكون الإغراقُ قد حَصَلَ، وتكذيبُهُم حاصلٌ كائنٌ، فالإغراقُ حَصَلَ بعدَ التّكذيبِ المُتجدِّدِ المُستمرِّ.

غلقُ البشرِ أبوابَهُم بالتّكذيبِ، يَتلوهُ مِنَ اللهِ الفرجُ القريبُ

دلالةُ الفاءِ في: ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ وفي: ﴿فَنَجَّيْنَٰهُ﴾:

قولُهُ تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ﴾، دخلَتِ الفاءُ على الفعلَين: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَٰهُ﴾، ودلَّتِ الأولى على التّفريعِ، والثّانيةُ على التّرتيبِ والتّعقيبِ، والفرقُ بينَ ذلكَ وذاكَ، أنّ التّفريعَ يدُلُّ على ترتيبِ الذّكرِ، فإنّ مَدخولَ الفاءِ التّفريعيّةِ ترتّبَ ذكرُهُ على ما ذُكِرَ قبلَها، أمّا مَدخولُ الفاءِ العاطفةِ الدّالّةِ على التّرتيبِ والتّعقيبِ، فإنّه يقتضي أنّه حَدَثَ زمانيًّا بعدَ المذكورِ سَابقًا، فهي ليسَت لِمُجرَّدِ ترتيبِ الذّكرِ، كما أنّ مَدخولَ الفاءِ يقتضي أنّهُ جاءَ عَقِبَ المذكورِ قبلَهُ بلا مُهلَةٍ.

الغرضُ مِن رَدِّ العَجُزِ عَلَى الصَّدرِ:

ذِكرُ التّكذيبِ صَريحًا بعدَ التّعريضِ، يُفيدُ أنّه سُبحانَهُ يُمهِلُ ولا يُهمِلُ

قولُهُ تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ﴾، ألمحَ السّياقُ في قصّةِ نوحٍ عليه السلام إلى التّكذيبِ دونَ تصريحٍ مِن قبلُ، ثمّ ذَكَرَ صريحًا هنا في قولِهِ: ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾، فكانَ كَرَدِّ العَجُزِ على

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/165، والزّمخشريّ، الكشّاف: 2/360.
(2) الخفاجيّ، عناية القاضي: 5/48.

الصَّدرِ، وقد بَقِيَ التّكذيبُ ديدنَهُم إلى آخرِ مَشهَدٍ في القصّةِ؛ فَذَكَرَ التّكذيبَ هنا للتّصريحِ بهِ بعدَ أن أُشيرَ إليهِ ضِمنًا، ولعلَّهُ صرَّحَ بالتّكذيبِ هنا؛ لأنّه قَرَنَهُ بالنّجاةِ والإغراقِ، فصرَّحَ بعلَّةِ الإغراقِ قطعًا؛ إظهارًا لِعدلِهِ ﷻ.

نكتةُ تقديم ذكرِ الإنجاءِ على الإغراق:

في قولِهِ تعالى: ﴿فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ وَأَغْرَقْنَا ...﴾، قدَّمَ هنا نجاةَ نوحٍ عليه السلام ومَن معَهُ، على هلاكِ المُكذِّبينَ خِلافًا لِلظّاهرِ الّذي يَقتضي أن يُذْكرَ الهَلاكُ قبلَ النّجاةِ، فأخَّرَ ذكرَ الإغراقِ "عن ذكرِ الإنجاءِ والاستخلافِ - حَسبَما وَقَعَ في قولِهِ ﷻ: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ﴾ [هود: 94]، وفي غيرِ ذلكَ مِنَ الآياتِ الكريمةِ - ؛ لإظهارِ كمالِ العنايةِ بشأنِ المُقدَّمِ، ولِتعجيلِ المَسَرَّةِ لِلسَّامعينَ، ولِلإيذانِ بِسبقِ الرّحمةِ الّتي هي مِن مُقتَضَياتِ الرُّبوبيَّةِ على الغَضَبِ الّذي هو مِن مُستَتبعاتِ جرائِمِ المُجرِمينَ"[1].

سبقَت رحمتُهُ غضبَهُ، فعجَّلَ المَسَرَّةَ، وأخَّرَ العقوبةَ

دلالةُ الإسنادِ في ﴿فَنَجَّيْنَٰهُ﴾:

في قولِهِ تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ﴾، أسندَ الفعلَ إلى ضميرِ التّعظيمِ تعظيمًا للنّجاةِ، فقولُهُ تعالى: ﴿فَنَجَّيْنَٰهُ﴾؛ "أي: تَنجيَةً عَظيمَةً بما لَنا مِنَ العَظمةِ الباهرةِ، بسببِ امتثالِهِ لأوامِرِنا وصِدقِ اعتمادِهِ عَلينا"[2]، والتّعظيمُ مُناسِبٌ لهذا المَوضِعِ؛ إذ إنّ العذابَ بالإغراقِ، كانَ عظيمًا، فلا بدَّ أن تكونَ النّجاةُ كذلكَ.

العذابُ العظيمُ تناسبُهُ النّجيةُ العظيمةُ

دلالةُ العطفِ في ﴿وَمَن مَّعَهُۥ﴾:

عُطِفَ قولُهُ تعالى: ﴿وَمَن مَّعَهُۥ﴾ على قولِهِ: ﴿فَنَجَّيْنَٰهُ﴾؛ تشريكًا لِلتّنجيةِ؛ أي: أنجينا مَن كانَ معهُ مِنَ العُقلاءِ وغيرِهِم[3]، فلمّا عَبَّرَ

مَن قيّضَهُمُ اللهُ لِصُحبةِ سعيدٍ، فإنّهُم سعداءُ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/165 - 166.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/165.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/165.

بصيغةِ التّعظيمِ في قولِهِ تعالى: ﴿فَنَجَّيْنَٰهُ﴾ بيّنَ أنّ وجهَ التّعظيمِ تعلّقُ التّنجيةِ بكثيرٍ مِنَ النّاسِ ومَا حَمَلَ معهُ في الفُلكِ، فالتّعظيمُ كما كانَ مُناسِبًا لكونِ الإغراقِ عظيمًا، كثّرَ مَن أنجاهُم بالعطفِ؛ لبيانِ وجهٍ مِن وجوهِ التّعظيمِ في تلك التّنجيةِ.

سرُّ إيثارِ لفظ ﴿ٱلْفُلْكِ﴾:

السَّفينةُ ما لها صاحب مِنَ المَراكبِ، والفُلكُ باعتبارِ الوظيفةِ العامَّةِ

في قولِهِ تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ﴾ دَأبَ النّظمُ القرآنيُّ التّعبيرَ بالسَّفينةِ، عمّا له صاحب مِن تلك المَراكبِ، أمَّا الفُلكُ فباعتبارِ الوظيفةِ العامَّةِ، فيُلاحَظُ في القرآنِ الكريمِ أنّ استعمالَ السّفينةِ، جاءَ لِما كانَ لها مالكٌ وصاحبٌ، كقولِهِ تعالى: ﴿إِذَا رَكِبَا فِى ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا ۖ قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَآ﴾ [الكهف: 71]، أمّا استعمالُ الفُلكِ فهو باعتبارِ الوظيفةِ العامَّةِ، لا باعتبارِها مملوكةً لشخصٍ دونَ آخر، كقولِهِ تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ﴾ [الحجّ: 65]، وجاءَ الفُلكُ في مَواضِعِ الامتنانِ على العبادِ بتسخيرِهِ لَهُم؛ كقولِهِ تعالى: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ﴾ [البقرة: 164].

دلالةُ التّعبيرِ في ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ﴾:

صيغةُ الجمعِ أنسبُ في مَقامِ الامتنانِ وذكرِ الإنعامِ

عَبَّرَ النّظمُ الكريمُ عن معنى الاستخلافِ في الأرضِ بصيغةِ الجمعِ في قولِهِ: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ﴾؛ لأنّ مَن ركِبَ الفُلكَ مع نوحٍ عليه السلام كانَتِ الأممُ مِن نسلِهِم، فالجمعُ باعتبارِ ذلك، كما لا يَخفى أنّ الجمعَ أنسبُ في مَقامِ الامتنانِ وذكرِ الإنعامِ، فالجمعُ "هنا باعتبارِ الّذين معهُ في الفُلكِ، تَفَرَّعَ على كُلِّ زَوجَينِ منهم أمّةٌ"[1].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/243.

بلاغةُ الإطنابِ بجعلِهم خلائفَ، وعدمُ الاكتفاءِ بالنّجاةِ:

نعمُ اللهِ على المؤمنينَ في المَلمّات، تَتلاحقُ بالعطاءِ والرَّحمات

عُطِفَ قولُهُ تعالى: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ﴾ على ﴿فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ﴾؛ إظهارًا لمزيدِ الامتنانِ، وتصريحًا بعظمةِ الإنعامِ وسعتِهِ، فهو إنعامٌ على وجهِ الكمالِ، إذ لم يُنجِهم وحسب، بل مكَّنَهُم وأنعمَ عليهم حتّى صاروا أُممًا. وهذا إطنابٌ بذكرِ مزيدِ الإنعامِ بعدَ الإنعامِ عليهم بالنّجاةِ مِنَ العذابِ، وكلُّ ذلك "لإظهارِ كَمالِ العِنايةِ بشأنِ المُقَدَّم، ولِتعجيلِ المَسَرَّةِ لِلسَّامِعينَ، ولِلإيذانِ بِسَبقِ الرَّحمةِ الّتي هي مِن مُقتضياتِ الرّبوبيّةِ على الغضبِ الّذي هُوَ مِن مُستَتبعاتِ جَرائِمِ المُجرِمينَ"[1].

دلالةُ التّعبيرِ بضميرِ التّعظيمِ في ﴿وَأَغْرَقْنَا﴾:

الغرقُ كانَ عذابًا مَهولًا، وذلك يَتناسَبُ مع عظمةِ اللهِ

قولُهُ تعالى: ﴿وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ آثرَ النّظمُ الكريمُ التّعبيرَ بضميرِ التّعظيمِ، فقال: ﴿وَأَغْرَقْنَا﴾، ولم يقُلْ: (وأغرقتُ)؛ لأنّه دلَّ على أنّه إغراقٌ ليسَ كأيِّ إغراقٍ، فإنّ اللهَ تعالى العظيمَ هو الّذي أغرقَهُم، وليسَ إغراقًا كما يَحدثُ في العَادةِ، فالتّعبيرُ بنونِ التّعظيمِ يَخلعُ العظمةَ والجلالَ على مَضمونِ المَقولِ.

دلالةُ الاسمِ الموصولِ ﴿ٱلَّذِينَ﴾:

التّعبيرُ عنهُم بما يعرِّفُ علّةَ عذابِهم؛ لإظهارِ عدلِ اللهِ في عقابِهم

في قولِهِ تعالى: ﴿وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ عَبَّرَ النّظمُ الكريمُ عن قومِ نوحٍ بالاسمِ الموصولِ؛ إظهارًا لعلّةِ العذابِ المذكورةِ ضمنَ حيّزِ الصّلةِ؛ وذلك لِلتّدليلِ على أنّ الغرقَ كانَ جزاءً وِفاقًا، ولم تظلمْهُمُ القُدرةُ الإلهيّةُ، بتسليطِ ذلكَ عليهم. وقد تأخَّرَ ذِكرُ الإغراقِ عن ذكرِ الإنجاءِ والاستخلافِ، حَسبَما وَقَعَ في هذه الآيةِ؛ " لأنّه هو الأهمُّ في سياقِ صدقِ الوعدِ والوعيدِ مِن وجهين؛ أوّلهما: تقديمُ مِصداقِ الوعدِ لِتسليةِ النّبيِّ ﷺ وتسريةِ حُزنِهِ على قومِهِ ومنهُم، وثانيهما: كونُهُ هو الأظهرُ في الحُجّةِ على أنّهما - أي: الوعد

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/165.

والوعيد – مِنَ اللّه تعالى القادرِ على إيقاعِهما، على خلافِ ما يَعتقدُ المُشركونَ المُكذِّبونَ"[1].

دلالةُ الصّلةِ في قولِهِ: ﴿ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۖ﴾:

قولُهُ تعالى: ﴿وَأَغۡرَقۡنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۖ﴾، دلَّت جملةُ الصّلةِ على رسوخِ الكذبِ بهم، حتّى إنّهُم عُرِفوا بهِ، بحيث إنّه يُطلَقُ عليهم بدلَ أن يُقالَ: قوم نوحٍ، فالكذبُ مُتأصِّلٌ فيهم، راسخٌ في نفوسِهِم، كما يدلُّ على عراقتِهِم بالإصرارِ على التّكذيبِ.

رسوخُ الكذبِ في القلوبِ صفةٌ ثابتةٌ مُتأصِّلةٌ فيهم

الغرضُ مِنَ التّعبيرِ بالأمرِ في ﴿فَٱنظُرۡ﴾:

قولُهُ تعالى: ﴿فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُنذَرِينَ﴾، أمرَ تعالى بالنّظرِ إلى عاقبتِهِم، والمرادُ منهُ تعظيمُ ما جرى لهم وتهويلُهُ، كما أنّ فيه تحذيرًا لِمَن أنذرَهُم رسولُ اللّه ﷺ عن نزولٍ مثله بهم[2]، فالخطابُ بالأمرِ بالنّظرِ دعوةٌ لِلتَّدبُّرِ والنّظرِ والاعتبارِ، وهي كثيرةٌ في القرآنِ الكريمِ، وهي دعوةٌ عامّةٌ لكلِّ ناظرٍ، وإنّما أُريدَ الاعتبارُ دونَ النّظرِ بالعينِ؛ لأنّهُ لا يمكنُ أن يُنظَرَ إلى ذلك ولا إلى المُنذَرينَ، فهو تعظيمٌ لِمَا جَرَى عليهم، ودلالةٌ على شناعتِهِ[3]، فالغرضُ مِنَ الأمرِ الاعتبارُ.

مَن نَظَرَ في عاقبةِ مَن أنكَر، صَدَّقَ بالحقِّ، ولم يُنكِرْ

المُخاطَبُ بالأمرِ ﴿فَٱنظُرۡ﴾، ودلالته:

المُخاطَبُ بفعلِ الأمرِ في قولِهِ تعالى: ﴿فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُنذَرِينَ﴾، إذا كانَ خاصًّا بالرّسولِ الأكرمِ ﷺ فهو تعظيمٌ لهُ مِن جهةٍ، وتهديدٌ لمعاصريهِ، بأنّهُ سيصيبُهُم ما أصابَ قومَ نوحٍ. ويكونُ خطابًا عامًّا لكلِّ سَامِعٍ، فالآيةُ "مُخاطبةٌ لِلنَّبيِّ ﷺ يُشارِكُهُ في مَعناها جَميعُ الخَلقِ"[4].

الخطابُ مُوجَّهٌ لِلعالَمين مِن خلالِ مُخاطَبةِ النّبيِّ الأمين

(1) الحسيني، تفسير المنار: 11/378.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/360، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/166.
(3) الخفاجيّ، عناية القاضي: 5/48.
(4) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/133، وأبو حيّان، البحر المحيط: 6/89.

الغرضُ مِنَ الاستفهامِ بـ ﴿كَيۡفَ﴾:

عاقبةُ المُهلَكين في الدُّهورِ، صارَت مَوعظةً لكلِّ العصورِ

في قولِهِ تعالى: ﴿فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُنذَرِينَ﴾، جاءَ الأمرُ في النّظمِ الكريمِ بالنّظرِ إلى الكيفيّةِ لا إلى الفعلِ ذاتِه، فلم يقُلْ: (فانْظُرْ إلَى عَاقِبَةِ المُنْذَرِين)؛ إشارةً "إلى أنّهُ أهلٌ لأنْ يُبحَثَ عَن شأنِه"[1]، فهي عاقبةٌ بالغةُ الشّدّةِ، وبَقِيَ ذِكرُها خالدًا على مرِّ العصورِ، وفيها مِنَ الغرابةِ ما ليسَ في غيرِها.

المُتشابِهُ اللّفظيُّ:

السّياقُ في الآيتين يتلاءمُ مع حيثيّاتِهِ وتداعياتِهِ، بدقّةٍ ومَنطِقٍ

التّشابهُ اللّفظيُّ بينَ قولِهِ تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيۡنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَجَعَلۡنَٰهُمۡ خَلَٰٓئِفَ وَأَغۡرَقۡنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُنذَرِينَ﴾، وقولِهِ تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيۡنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَأَغۡرَقۡنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمًا عَمِينَ﴾ [الأعراف: 64]، فقد خصَّ النّظمُ الكريمُ كلَّ آيةٍ مِنَ الآيتين المُتشابهتين بخاتمةٍ؛ حيث خُتِمَتِ الأولى بقولِهِ تعالى: ﴿فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُنذَرِينَ﴾، وخُتِمَتِ الثّانيةُ بقولِهِ: ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمًا عَمِينَ﴾؛ وذلك أنّ الآيةَ في سورةِ يونس بدأت بقولِهِ تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيۡنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَجَعَلۡنَٰهُمۡ خَلَٰٓئِفَ وَأَغۡرَقۡنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۖ﴾، فلمّا كانَ السّياقُ مُتعلِّقًا بالتّسريةِ عن رسولِ اللّه ﷺ ناسبَهُ الإقبالُ عليه بالخطابِ فقالَ: ﴿فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُنذَرِينَ﴾.

أمّا الآيةُ في سورةِ الأعرافِ فقد بدأت بقولِهِ تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيۡنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَأَغۡرَقۡنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآۚ﴾، فلمّا كانَ السّياقُ مُتعلِّقًا بتصريفِ الآياتِ كما دلَّ على ذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَشۡكُرُونَ﴾ [الأعراف: 58]، وكانَ قومُ نوحٍ قد عَمُوا عمّا آتاهُمُ اللّه تعالى مِنَ الآياتِ؛ ناسبَهُ قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمًا عَمِينَ ٦٤﴾ [الأعراف: 64].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/166.

﴿ثُمَّ بَعَثۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوۡمِهِمۡ فَجَآءُوهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ بِهِۦ مِن قَبۡلُۚ كَذَٰلِكَ نَطۡبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ٧٤﴾ [يونس: 74]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

عهدُ اللهِ تعالى بإرسالِ الرُّسلِ، لا يَضرُّهُ تكذيبُ المُعتدِين

مُناسبةُ الآيةِ لِما قبلَها أنّ اللّه تعالى لمّا ذَكَرَ قصّةَ نوحٍ عليه السلام وتكذيبَ قومِهِ لهُ بعدَ أن بيّنَ لَهُم الآياتِ الدّالّةَ على الحقِّ، وما حلَّ بهم، بيّنَ أنّ بعْثَ اللّه الرّسلَ بالبيّناتِ إلى قومِهِم، استمرَّ كما أنّ تلك الأقوامَ تعاهدَت على الكفرِ والاعتداءِ، "ولمّا لم يكُنْ في قَصَصِ مَن بَينَهُ وبينَ مُوسى عليه السلام ممّا يُناسِبُ مَقصودَ هذه السُّورةِ إلّا ما شَارَكُوا فيهِ قومَ نُوحٍ مِن أنّهُم لَم تَنفَعِ الآياتُ مَن أُريدَت شقاوتُهُ منهُم، ذَكَرَهُ سبحانَهُ طاوِيًا لِما عَداهُ"[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿بَعَثۡنَا﴾: بعثَه، كمنعَه، يبعثُه بعثًا: أرسلَهُ وحدَهُ. وبعثَ بهِ: أرسلَهُ مع غيرِهِ، كابتعثَهُ ابتعاثًا فانبعثَ... والبعثُ في كلامِ العربِ على وجهين: أحدُهما: الإرسالُ، كقولِهِ تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِم مُّوسَىٰ﴾ [الأعراف: 103]؛ معناهُ: أرسلنا. والبعثُ: إثارةُ بارِكٍ أوقاعدٍ. والبعثُ أيضًا: الإحياءُ مِنَ اللّه لِلمَوتَى، ومنهُ قولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثۡنَٰكُم مِّنۢ بَعۡدِ مَوۡتِكُمۡ﴾ [البقرة: 56]؛ أي: أحييناكُم[2]، والبعثةُ في المفهومِ اللُّغويِّ تدلُّ على الإرسالِ والتّوجيهِ[3]، وعلى مستوى الاصطلاحِ البعثةُ: هي إرسالُ الأنبياءِ مِن قِبَلِ اللّه تعالى إلى سائرِ النّاسِ؛ لإبلاغِهِم مُراد

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/166 - 167.
(2) الزَّبيديّ، تاج العروس: (بعث).
(3) الخليل، العين: 2/112، والجوهريّ، الصّحاح: 1/273.

اللّه منهم، ودعوتِهم إلى التّوحيدِ ونبذِ الشّركِ، والالتزامِ بالمنهجِ الأخلاقيِّ، في ترسُّمِ القيمِ، وشحذِ الهممِ مِن أجلِ تحقيقِ عبوديّةِ اللّه على الوجهِ الأكملِ.

2) ﴿نَطۡبَعُ﴾: الطّبعُ مِن قولِهم: طُبِعَ الرّجلُ على الشّيءِ طبعًا، إذا جُبِلَ عليه، والطّبيعةُ: الخليقةُ الّتي جُبِلَ عليها، وفَسَّرَ أبو عبيدة قولَهُ ﷻ: ﴿وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ﴾ [التّوبة: 87]؛ أي: غطّاها[1]، وقولهم: (قد طُبِعَ على قلبِ فُلانٍ)، قالَ أبو عبيدة: معناه: قد غُشِيَ على قلبِ فُلانٍ بالصّدأ والدّنَسِ والوسخِ، قالَ اللّه ﷻ: ﴿كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [الرّوم: 59]، وجاءَ في الحديثِ: «تعوّذوا باللّه من طَمَعٍ يُدني إلى طَبَعٍ»[2]، وقالَ الشّاعرُ:

لَا تَطمَعَنْ طَمَعًا يُدني إلَى طَبَعٍ *** إنَّ المَطَامِعَ فَقْرٌ وَالغِنَى اليَاسُ[3]

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

رحمةُ اللهِ بإرسالِ الرُّسلِ، لا تتوقَّفُ بكفرِ الكافرينَ عبرَ الزّمانِ

يخبرُ اللّه تعالى أنّهُ قد أرسلَ مِن بعدِ نوحٍ عليه السلام "رُسُلًا آخرين، داعينَ إلى التّوحيدِ، ومُبشّرينَ ومُنذرينَ، ومُؤيَّدينَ بالمُعجزاتِ الدّالّةِ على صدقِهم، فكذّبَت أقوامُهُم كما كذّبَ قومُ نوحٍ، فما كانَ مِن شأنِ الجاحدينَ منهُم أن يُذعنوا؛ لأنّ التّكذيبَ سَبَقَ التَّبصُّرَ والاعتبارَ، وبذلك طَبَعَ اللّه الباطلَ على قلوبِ الّذين مِن شأنِهِمُ الاعتداء على الحقائقِ وعلى البيّناتِ"[4]، والمرادُ مِن ذلك تحذيرُ الحاضرينَ في زمانِ النّبيِّ ﷺ؛ "أي: كَما حَلَّ بهؤلاءِ يَحِلُّ بِكُم"[5].

(1) ابن دريد، جمهرة اللّغة: (طبع).
(2) الأنباريّ، الزّاهر في معاني كلمات النّاس: 1/335، والحديثُ موجودٌ في غريبِ الحديثِ: 2/218، قال الحاكمُ: مستقيمُ الإسنادِ، وأقرَّهُ الذّهبيّ، لكن قالَ الهيتميّ: إنّ في رواية أحمد والطّبرانيّ عبدَ الله بن عامر الأسلميّ، وهو ضعيفٌ.
(3) الأنباريّ، الزّاهر في معاني كلمات النّاس: 1/335.
(4) جماعة من العلماء، المنتخب في تفسير القرآن الكريم، ص: 299.
(5) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/133.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالةُ العطفِ بالحرفِ (ثمّ):

تـوالي الـرُّسـلِ مِـن بـعـدِ نـوحٍ إلى أقـوامِـهـم؛ لإقـامـةِ الـحُـجَّـةِ عليهم

قولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ﴾ آثرَ النّظمُ الكريمُ العطفَ بـ (ثمّ)؛ للدّلالةِ على أنّ ذلكَ قد وَقَعَ بعدَ زمانٍ طويلٍ[1]، ويحتملُ المرادُ بـ (ثمّ) التّراخي الرُّتبيّ؛ "لأنّ بعثةَ رسلٍ كثيرينَ إلى أُمَمٍ تَلَقَّوْهم بِمِثلِ ما تَلَقَّى بهِ نُوحًا قَومُهُ أعجَبُ مِن شَأنِ قَومِ نُوحٍ، حيثُ تَمالَأَتْ تِلكَ الأُمَمُ على طريقةٍ وَاحدةٍ مِنَ الكُفرِ"[2].

سرُّ إيثارِ التَّعبيرِ بالفعلِ ﴿بَعَثْنَا﴾:

بَـعـثُ رسـالـةِ الـلـهِ عـلى أيـدي الـرُّسـلِ تجديدٌ لِلبلاغِ على المَدى

آثرَ النّظمُ الكريمُ في قولِهِ تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ﴾ التّعبيرَ بالبعثِ دونَ الإرسالِ؛ لأنّ البعثَ أعمُّ؛ لأنّه "يجوزُ أن يُبعَثَ الرّجلُ إلى الآخرِ لحاجةٍ تخصُّهُ دونَكَ ودونَ المبعوثِ إليهِ، كالصَّبيِّ تبعثُهُ إلى المكتبِ، فتقول: بعثْتُهُ، ولا تقولُ: أرسلتُهُ؛ لأنّ الإرسالَ لا يكونُ إلّا برسالةٍ وما يجري مَجرَاها"[3]، فعَبَّرَ بالبعثِ؛ لأنّه لا يقتضي أن يتضمَّنَ رسالةً، بخلافِ الإرسالِ الّذي يقتضي أنّ المُرسَلَ معهُ رسالةٌ، فلمّا ذَكرتِ الآيةُ تتابعَ المُرسَلينَ إلى قومِهم، وكانَ بعضُهُم لا يحملُ رسالةً تتضمَّنُ شريعةً؛ كانَ التّعبيرُ بالبعثِ أنسبَ وأصلحَ. "كلمةُ البعثِ تُشْعِرُكَ بوجودِ شيءٍ، ثمّ انتهاءِ الشّيءِ، ثمّ بعثِ ذلك الشّيءِ مِن جديدٍ... ولم يكُنْ مِنَ المعقولِ أن يَخلقَ اللّه سبحانَهُ البشرَ، ويجعلَ لهم الخلافةَ في الأرضِ، ثمّ يتركَهُم دونَ مَنهجٍ؛ وما دامَتِ الغفلةُ قد طرأت عليهم مِن بعدِ آدمَ عليه السلام جاءَ البعثُ لِلمَنهجِ على ألسنةِ الرُّسلِ المبلّغينَ عنِ اللّه تعالى[4].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/167.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/244.
(3) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 289.
(4) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 10/6116.

دلالةُ التَّعبيرِ بضميرِ العظمةِ في ﴿بَعَثْنَا﴾:

عظمةُ اللهِ تبعثُ ألطافًا تحيطُ بالمُرسَلِ والمُرسَلِ إليهِ

في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ﴾ عَبَّرَ النّظمُ الجليلُ بضميرِ التّعظيمِ في البعثِ؛ لأنّه بعثٌ عظيمٌ، إذ إنّه صادرٌ عن المولى الجليلِ، يحملُ تعاليمَ تَحفظُ القيمَ السّاميةَ الّتي تحتاجُ إليها حياةُ النّاسِ، وتعرّفُهم بالمنهاجِ القويمِ، كما أنّ فيه دلالةً على أنّ مُقتضَى عظمتِهِ ﷻ، أن يُرسِلَ الرُّسلَ إلى أقوامِهم؛ ليعرّفوا النّاسَ بخالقِهم العظيمِ، فكما يَظهَرُ فإنّ العَظمةَ تُحيطُ بهذا البعثِ، فكانَ مِن حُسنِ البلاغةِ أن يُعبَّرَ بضميرِ التَّعظيمِ.

دلالةُ حرفِ الجرِّ مع الظَّرفِ في ﴿مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾:

الإشارةُ إلى استيعابِ المُرسَلينَ لكلِّ مَراحلِ الزّمانِ بعدَ نوحٍ

قولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ رُسُلًا﴾ قَيَّدَ النّصُّ الكريمُ، أنّ البعثَ كائنٌ مِن بعدِهِ، ولم يقُلْ: (ثمّ بعثنا رسلًا)؛ لأنّ الظّرفَ (بعد) يدلُّ على زمانٍ مُطلَقٍ غيرِ مُقيَّدٍ، فلمّا أدخلَ حرفَ الجرِّ (مِن) الدّالِّ على الابتداءِ، بيّنَ أنّ ابتداءَ البعثِ بعدَ نوحٍ عليه السلام لم يَستغرِقْ زمانًا طويلًا، وهذا لا يَتعارَضُ مع دلالةِ (ثمّ)، إذِ الطّولُ والقصرُ في الزّمانِ نسبيٌّ.

غرضُ تنكير ﴿رُسُلًا﴾:

ثبوتُ الحُجّةِ على الخَلقِ بِتَعاقُبِ الرُّسلِ مِن عَدلِ اللهِ وحكمتِهِ

في قولِهِ تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ﴾ آثرَ النّظمُ الكريمُ التّعبيرَ بصيغةِ التّنكيرِ في لفظِ الرُّسلِ؛ "للتَّفخيمِ ذاتًا ووصفًا؛ أي: رُسُلًا كِرامًا ذَوي عَدَدٍ كَثيرٍ"[1]، والتّنكيرُ فيه إبهامٌ في المذكورِ، والإبهامُ يزيدُ ذا الهَيبةِ هَيبةً وفَخامةً، كما أنّهُ يدلُّ على التّكثيرِ، فرُسُلُ اللهِ تعالى كثيرون، والتّنكيرُ أدلُّ على التّكثيرِ.

إبهامُ الرُّسلِ هنا، وذِكرُهُم في مَواضِعَ أخرى:

في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ﴾ أبهمَ النّظمُ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/166.

الإيجازُ في التّعبيرِ اكتفاءٌ بتفصيلِ المُوجَزِ في سياقٍ آخرَ

الكريمُ ذِكرَ الرُّسلِ ولم يُسَمِّهِم، ومنهم هودٌ وصالحٌ وإبراهيمُ ولوطٌ وشعيبٌ عليهم السلام، فأخبرَ أنّه أرسلَهُم بالبيّناتِ، وأنّ أقوامَهُم جَرَوا على مِنهاجِ قومِ نوحٍ في التّكذيبِ، ولم يَزجُرْهُم مَا بلَّغَهُم مِن هلاكِهِم[1]. وإنّما أبهَمَ ذكرَهُم؛ لأنّ المرادَ بيانُ استمرارِ الأقوامِ بتكذيبِ أنبيائِهِم، فعبَّرَ عن ذلكَ بذكرِهِم بطريقةِ الإيجازِ، ثمّ أفضى إلى قصّةٍ أخرى مِن قَصصِ أولي العزمِ.

دلالةُ تخصيصِ كُلِّ أمّةٍ برسولٍ:

بَعْثُ الرُّسلِ بالرِّسالاتِ على فتراتٍ، تجديدٌ لِلعهدِ مع اللهِ باطّرادٍ

في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ﴾ بيّنَ النّصُّ الجليلُ أنّ اللّه تعالى خصَّ كلَّ قومٍ برسولٍ منهُم، فكلُّ رسولٍ يُرسَلُ إلى قومِهِ، وذلكَ لِمَا لِصلةِ القرابةِ مِن أثرٍ في الدّلالةِ على تأكيدِ أنّهُ ناصحٌ لهم، ومُشفِقٌ عليهم، فيكون أدعى لِتصديقِهِم لهُ؛ لأنّ النّاسَ اعتادوا على أن يَثقوا بمَن هو منهُم، ولاسيّما في أهمِّ شأنٍ، وهو شأنُ الدّينِ والاعتقادِ، فكانَ لا بدَّ أن يكونَ الرّسولُ خاصًّا بالأمّةِ.

سرُّ الإضافةِ في ﴿إِلَىٰ قَوْمِهِمْ﴾:

إرسالُ الرَّسولِ على مبدأ صلةِ القرابةِ، أدعى إلى الشّفقةِ والتَّصديقِ

قولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ﴾ أضافَ النَّصُّ الجليلُ لفظَ القومِ إلى ضميرِ الرُّسلِ، والمرادُ أقوامُهُم " لكنْ لا بأنْ أرسَلنا كُلَّ رسولٍ منهُم إلى أقوامِ الكُلِّ، أو إلى قومٍ مَا أيَّ قومٍ كانوا، بل كُلَّ رسولٍ إلى قومِهِ خاصّةً"[2]، فكلُّ رسولٍ مِن أولئكَ الرُّسلِ الكرامِ عليهم السلام، أُرسِلَ إلى قومِهِ وحسب، وهذا يُستفادُ مِن إضافةِ القومِ إلى ضميرِهِم[3].

دلالةُ الفاءِ في ﴿فَمَا كَانُواْ﴾:

لو لم يكُنْ بعثٌ بهدايةِ الإيمانِ، لَمَا ظَهَرَ طغيانُ الكفرانِ

قولُهُ تعالى: ﴿فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ بِهِۦ مِن قَبْلُۚ﴾ تدُلُّ الفاءُ على التّفريعِ، فترتَّبَ على إرسالِ الرُّسلِ، أنّ الأقوامَ لم يُؤمِنوا،

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/286.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/166.
(3) الخفاجيّ، عناية القاضي: 5/48.

فانتفاءُ إيمانِهم ترتَّبَ على الإرسالِ، ولو لم يُرسلِ الرُّسلَ لَمَا ظهرَ كفرُ أقوامِهم، فمَا بعدَ الفاءِ مُترتِّبٌ ذكرًا ووجودًا على ما قبلَها، ومعنى السّببيّةِ ظاهرٌ فيها، لكن ليسَ على اعتبارِ أنّ البعثَ هو سببُ كفرِهم؛ ولكن على اعتبارِ أنّهُم لم يكونوا لِيُظهِروا هذا الكفرَ، لو لم يكُنْ بعثٌ؛ "أي: فَتَسَبَّبَ عن ذلك ضِدُّ ما أُمِرُوا بهِ، وقامَت دَلائِلُهُ"[1].

دلالةُ النفي في قولِهِ: ﴿فَمَا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُواْ﴾:

في قوله تعالى: ﴿فَمَا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ بِهِۦ مِن قَبۡلُۚ﴾ يدُلُّ النّظمُ القرآنيُّ على عدمِ توقُّعِ الإيمانِ منهم مُستقبَلًا، فالإمكانُ غيرُ مُتوقَّعٍ، ولو بقدرٍ يسيرٍ، "فما كانَ إيمانُهُم إلّا مُمتنِعًا كالمحالِ لشدّةِ شكيمتِهم في الكُفرِ، وتصميمِهم عليهِ"[2].

الكُفرُ قديمٌ مَبثوثٌ في الأقوامِ، وبَعثُ الرُّسلِ يُبرزُهُ على الدَّوامِ

دلالةُ النَّفي بصيغةِ الجُحودِ في الآية:

في قوله تعالى: ﴿فَمَا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ بِهِۦ مِن قَبۡلُۚ﴾ جاءَ النّفيُ في الآيةِ بصيغةِ نفي الجحودِ؛ للدّلالةِ على المبالغةِ في النّفي؛ لأنّ "كانَ المنفيّة المقترنة بلامِ الجحودِ تدُلُّ على المبالغةِ في النّفي تقديرًا، وبذلك نفي الصّحةِ والاستقامةِ"[3]، فهذا النّفيُ يدُلُّ على أنّ إيمانَهُم لم يكُنْ لِيقعَ؛ لأنّهُ مَحكومٌ عليهِ بأنّهُ مُمتنِعٌ مِنَ الوجودِ، فالآيةُ "بيانٌ لاستمرارِ عدمِ إيمانِهم في الزّمانِ الماضي، لا لِعدمِ استمرارِ إيمانِهم كما مَرَّ مِثلُهُ في هذه السُّورةِ الكريمةِ غَيرَ مَرَّةٍ؛ أي: فما صَحَّ وما استقامَ لِقَومٍ مِن أولئكَ الأقوامِ في وقتٍ مِنَ الأوقاتِ أن يُؤمِنُوا، بل كانَ ذلكَ مُمتنِعًا منهُم، لِشدَّةِ شكيمَتِهم في الكُفرِ والعِنادِ"[4].

الجمودُ على الكُفرِ ظُلمٌ لِمَداركِ العقلِ والوجدانِ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/167.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/361.
(3) الخفاجيّ، عناية القاضي: 5/49.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/166، وأبو حيّان، البحر المحيط: 6/90.

دلالةُ تأصُّلِ الكُفرِ قبلَ مجيءِ الرُّسلِ وبعدَهُ:

مَن كذَّبَ بمَنهجِ اللهِ في الاعتقادِ لَزِمَ الإصرارَ، ولو خالَفَ كلَّ العبادِ

في قوله تعالى: ﴿فَمَا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ بِهِۦ مِن قَبۡلُۚ﴾ دلَّ القَيْدُ ﴿مِن قَبۡلُۚ﴾، بأنّ هناك تكذيبًا وَقَعَ قبلَهُ، وأنّ الأقوامَ "لم يُقلِعُوا عَن تَكذيبِهِمُ الّذي قابلُوا بِهِ الرُّسُلَ؛ لأنّ التّكذيبَ إنّما يكونُ لِخَبرٍ مُخبرٍ، فَقولُهُ: ﴿ثُمَّ بَعَثۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوۡمِهِمۡ فَجَآءُوهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ مُؤذِنٌ بِحُصولِ التّكذيبِ، فلمّا كذَّبُوهُم (جَاءُوهُم بِالبَيِّنَاتِ) على صدقِهِم، فاستَمَرُّوا على التّكذيبِ فما كانُوا لِيؤمِنُوا بما كذَّبُوا بهِ مِن قَبلُ"[1].

بلاغةُ إيجازِ الحذفِ في الآيةِ:

كلّما كانَ السّياقُ مُوجَزًا كانَ انقداحُ المعاني في الذّهنِ أكثرَ وأكبرَ

قولُهُ تعالى: ﴿فَمَا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ بِهِۦ مِن قَبۡلُۚ﴾ إيجازٌ بالحذفِ؛ حيث حَذَفَ جُملًا كثيرةً يقتضيها السّياقُ؛ قولُهُ: ﴿مِن قَبۡلُۚ﴾ "يقتضي تَكَرُّرَ الدَّعوةِ وتَكَرُّرَ البَيّناتِ، وإلّا لَما كانَ لِقولِهِ: ﴿فَمَا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ بِهِۦ مِن قَبۡلُۚ﴾ وَقْعٌ؛ لأنّ التّكذيبَ الّذي حَصَلَ أوّلَ مَرّةٍ، إذا لَم يَطرَأْ عليهِ ما مِن شأنِهِ أن يُقلِعَهُ، كانَ تكذيبًا واحدًا مَنسِيًّا، وهذا مِن بلاغةِ معاني القرآنِ"[2]، فهو مُؤذِنٌ بِحُصُولِ التَّكذِيبِ، والتّقدير: (فَلَمَّا كذّبُوهُم جاؤُوهُم بِالبَيِّنَاتِ عَلَى صِدقِهِم فَاستَمَرُّوا عَلَى التَّكذِيبِ).

دلالةُ مَوقِعِ الجملةِ البيانِّي في ختامِ الآيةِ:

تساؤلٌ عن دوامِ الطَّبعِ على القلوبِ، وتجدُّده في الأجيالِ اللّاحقةِ

قولُهُ جلَّ شأنُهُ: ﴿كَذَٰلِكَ نَطۡبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾ استئنافٌ بيانيٌّ؛ فلمّا "قرَّرَ عدمَ انتفاعِهِم بالآياتِ، بَنى ما يَليهِ على سُؤالِهِ مَنْ لعلَّهُ يقولُ: هَلِ استمَرَّ الخَلقُ فِيمَن بعدَهُم؟ فَكَأَنَّهُ قِيلَ: نَعَم! ﴿كَذَٰلِكَ﴾؛ أي: مِثلَ مَا طَبعنا على قلوبِهِم هذا الطَّبعَ العَظيمَ ﴿نَطۡبَعُ﴾؛ أي: نُوجِدُ الطَّبعَ ونُجَدِّدُهُ متى شِئنا، بِما لَنا مِنَ العَظَمَةِ"[3].

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/245، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/166.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/245.

(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/168.

علَّةُ اختصاصِ (القلوب) بقولِهِ: ﴿قُلُوبِ ٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾:

في قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَطۡبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾ ذَكَرَ النّظمُ الكريمُ أنّ اللّه تعالى قد جَعَلَ الطّبعَ على القلوبِ جزاءً لَهُم؛ وإنّما جَعَلَ جزاءَهُم ذلك؛ لأنّ تكذيبَ الرّسالاتِ شنيعٌ وجرمٌ كبيرٌ، فناسبَهُ أن يكونَ الجزاءُ مُوافِقًا لِتلكَ البشاعةِ، فكانَ الطَّبعُ على قلوبِهِم.

شناعةُ التَّكذيبِ مُتناسِبَةٌ مع فظاعةِ الطَّبعِ على القلبِ

دلالةُ التَّعبيرِ بالفعلِ ﴿نَطۡبَعُ﴾:

في قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَطۡبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾ عَبَّرَ بالفعلِ ﴿نَطۡبَعُ﴾؛ للدّلالةِ على الحيلولةِ دونَ تأثُّرِ قلوبِهِم بالبيّناتِ، وتأثيرِها فيهِم، "فَإِنَّ الطَّبعَ مُؤذِنٌ بأنَّ قُلُوبَهُم قَد وَرَدَ عَلَيها ما لَوْ خَلَت عندَ وُرُودِهِ عَنِ الطَّبعِ عَلَيها لَكانَ شَأنُهُ أن يَصلَ بِهِم إلى الإيمانِ"[1].

مَن طَبَعَ على قلبِهِ فلا أملَ لهُ في إيمانٍ ولا نجاةٍ

دلالةُ التَّمثيلِ والإشارةِ في ﴿كَذَٰلِكَ نَطۡبَعُ﴾:

في قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَطۡبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾، عَبَّرَ باسمِ الإشارةِ؛ لِلإشارةِ إلى الطَّبعِ العظيمِ المُحكَمِ[2]، وقد جُعِلَ الطّبعُ الّذي وَقَعَ على قلوبِ هَؤلاءِ مَثلًا لِكَيفيّاتِ الطَّبعِ على قُلوبِ المُعتَدِينَ في كُلِّ أوانٍ، فقولُهُ: ﴿كَذَٰلِكَ نَطۡبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾؛ أي: مِثلَ هذا الطَّبعِ العَجيبِ نَطبَعُ على قلوبِ المُعتدِينَ، فَتَأمَّلُوهُ واعتَبِرُوا بِهِ[3].

جُعِلَ طبعُ القُلُوبِ قديمًا يَتشابَهُ مع طبعِها حديثًا

سرُّ إيثارِ اسمِ الإشارةِ ﴿كَذَٰلِكَ﴾:

في قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَطۡبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾ آثرَ النَّظمُ الكريمُ التّعبيرَ باسمِ الإشارةِ الدّالِّ على البُعدِ، ولم يقُلْ: (كهذا الطّبع)؛ إشارةً إلى أنّهُ طَبعٌ بعيدٌ في رُتبةِ المَنعِ والشِّدّةِ؛ تعظيمًا له، وإيماءً إلى أنّهُ طبعٌ بحيث لا يَزولُ، فهو طَبعٌ مُحكَمٌ.

طُبِعَ على قلوبِهِم طَبعًا بعيدَ المَنزِلةِ في الإحكامِ

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/245.

(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/361.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/245.

دلالةُ الاستعارةِ في الآية:

القلبُ القاسي لا تنفعُهُ الموعظةُ، كالأرضِ السَّبخةِ لا ينفعُها المطرُ

في قولِهِ تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَطۡبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾ استعارةٌ مَكنيّةٌ، فاستعارَ الطّبعَ "لعدمِ دُخُولِ الإيمانِ قلوبَهُم"[1]، فشبَّهَ القلوبَ بالشَّيءِ الّذي يُختَمُ عليهِ، فلا يمكنُ أن يتطرَّقَ إليه التّغييرُ، ويمتنعَ دخولُ شيءٍ عليهِ، فكذلك قلوبُ هؤلاءِ امتنعَ دخولُ الإيمانِ عليها، فَحَذَفَ المشبّهَ بهِ، وأبقى الدّليلَ عليهِ، والجامعُ بينَهُما امتِناعُ الدُّخولِ.

دلالةُ (اللّام) في ﴿ٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾:

الاعتداءُ يَنطبِقُ على كُلِّ وَصفٍ عُدوانيٍّ مَشينٍ في كُلِّ زمانٍ

في قولِهِ جلَّ شأنُهُ: ﴿كَذَٰلِكَ نَطۡبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾ أدخلَ النّظمُ الكريمُ الألفَ واللّامَ في قولِهِ: ﴿ٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾؛ للدّلالةِ على جنسِ المُعتدينَ، فالطّبعُ كائنٌ لَهُم "في كُلِّ زَمَنٍ لِكُلِّ مَن تَعمَّدَ العَدوَ فِيما لَا يَحِلُّ لَهُ"[2]، وليسَ المُرادُ قومًا مَعهودينَ بأعينِهِم، فالحُكمُ صالحٌ لكُلِّ زمانٍ، وهو جارٍ مَجرَى الحُكمِ والسُّنّةِ الماضيةِ.

نكتةُ التَّعبيرِ بصيغةِ ﴿ٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾:

الطَّبعُ على القلبِ يُناسِبُ يأسَ (المُعتَدِينَ) مِن أملِ الغُفرانِ

في قوله جلَّ شأنُهُ: ﴿كَذَٰلِكَ نَطۡبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾ عَبَّرَ النّظمُ الكريمُ بصيغةِ الافتعالِ دونَ الفعلِ، فلم يقُلْ: (العادِين)؛ وقد عَبَّرَ بهِ القرآنُ في دلالةٍ أخرى، حينَ قالَ: ﴿فَمَنِ ٱبۡتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡعَادُونَ﴾ [المؤمنون: 7]. وسببُ إيثارِ لفظِ المُعتدِينَ على العادِين أنَّ الطّبعَ على القلوبِ مِن أشدِّ الجزاءِ، وهُو حُكمٌ لا يتغيَّرُ فيهم، فناسبَ أن يكونَ للّذينَ قدِ اعتادُوا الاعتداءَ وتكلَّفُوهُ، ولم يجعلْهُ (للعادِين)؛ لأنّ توبتَهُ تعالى مَفتوحةٌ لِكُلِّ مَن عدا على الحقِّ مرَّةً أو زادَ، أمّا مَنِ اعتادَ الأمرَ وتمرَّسَهُ، فقدِ استأهلَ أن يَطبعَ على قلبِهِ.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/246.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/168.

المُتشابِهُ اللّفظيُّ:

التّشابهُ بينَ قولِه تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوۡمِهِمۡ فَجَآءُوهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ بِهِۦ مِن قَبۡلُۚ كَذَٰلِكَ نَطۡبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾، وقولِه تعالى: ﴿تِلۡكَ ٱلۡقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيۡكَ مِنۡ أَنۢبَآئِهَاۚ وَلَقَدۡ جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ مِن قَبۡلُۚ كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [الأعراف: 101]. لقد خَصَّ النّظمُ الكريمُ التّعبيرَ عَنِ الذّاتِ الجليلةِ بالضّميرِ مرّةً فقالَ: ﴿كَذَٰلِكَ نَطۡبَعُ﴾، وبالاسمِ الجليلِ مرّةً أخرى فقالَ تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ﴾، كما أنّهُ خَصَّ كلَّ آيةٍ بخاتمةٍ؛ حيث خُتِمَت الآيةُ الأولى بقولِه تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَطۡبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾، وخُتِمَتِ الآيةُ الثّانيةُ بقولِه جلَّ شأنُهُ: ﴿كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾، أمّا التّصريحُ بالاسمِ الجليلِ في الآيةِ الثّانيةِ دونَ الأولى فلأنَّ التّعبيرَ بالضّميرِ في الآيةِ في سورة يونس مُرتَبِطٌ ومُناسِبٌ لِما بدأت به الآيةُ؛ حيثُ ابتدأت بقولِه: ﴿ثُمَّ بَعَثۡنَا﴾، فأسندَ الفعلَ إلى ضميرِ التّعظيمِ، فنَاسبَ أن يبنيَ عليه قولَهُ آخرًا: ﴿نَطۡبَعُ﴾ مُراعاةً للتّناظُرِ والتَّقابُلِ[1]. وأمّا الختامُ فخُتِمَتِ الآيةُ الأولى بقولِه: ﴿ٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾، والمُرادُ بهِ المُشركونَ؛ لأنّ الشِّركَ ظلمٌ، وهو أشدُّ الاعتداءِ، فإنّهُم كذَّبُوا الرّسولَ ﷺ، فاعتَدَوا على الصّادِقينَ بِلَمزِهِم بالكذِبِ، وقولُهُ في سورةِ الأعرافِ: ﴿كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ فَهَذا التَّحالُفُ لِلتَّفَنُّنِ في حكايةِ هَذِهِ العِبرَةِ في المَوضِعَينِ[2]، كما أنّهُ يزيدُ مِن بيانِ صفاتِهِم، فبيَّنَ كلَّ مَوضِعِ صفةٍ مِن صفاتِهِم، ولم يُكرِّرْ صفةً واحدةً.

(1) الغرناطيّ، ملاك التّأويل: 1/558.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/246.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ٧٥﴾ [يونس: 75]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

بعدَ أنْ طَبَعَ اللهُ على قلوبِ المُعتدِينَ، مَثَّلَ لذلك بقصّةِ مُوسى وفِرعونَ

مُناسبةُ الآيةِ لما قبلَها أنّ اللّه تعالى لمّا ذَكَرَ قصّةَ نوحٍ عليه السلام على التّفصيلِ، وقصصَ مَن بعدَهُ على الإجمالِ، أتبعَ ذلك قصّةَ موسى عليه السلام مع فرعونَ، ولمّا خَتَمَ الآيةَ السّابقةَ بقولِهِ: ﴿كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾، بيَّنَ أنّ "هذا كما أتى مُوسى عليه السلام إلى فِرعونَ فَدَعَاهُ إلى اللّه فكذّبَهُ، فأخبرَهُ أنّ معَهُ آيةً تُصَدِّقُهُ، فَقَالَ لهُ: إنْ كنتَ جِئتَ بآيةٍ فأْتِ بها إنْ كنتَ مِنَ الصَّادِقينَ، فَلمَّا أتَاهُ بها استمرَّ على تكذيبِهِ، وكانَ كلَّما رأى آيةً ازدادَ تَكذِيبًا، وكانَ فِرعونُ قد قَوِيَ مُلكُهُ، وعَظُمَ سُلطانُهُ، وعَلا في كبريائِهِ، وطَالَ تَجَبُّرُهُ على الضُّعفاءِ، فَطُمِسَت أموالُهُ وآثارُهُ، وبَقيَت أحاديثُهُ وأخبارُهُ، ولِهذا أفصَحَ سُبحانَهُ بقصّتِهِ"[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَمَلَإِيْهِۦ﴾: الملأُ: جماعةٌ مِنَ النّاسِ يجتمعونَ لِيتشاوَرُوا ويَتحادثُوا، والجميعُ: الأمْلاءُ[2]، والملأُ بالقصرِ والهمزِ: الرّؤساءُ والأشرافُ. واحتجَّ بقولِهِ تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [البقرة: 246][3]، ومَلأَ الشّيءَ يَملَؤُه مَلأً، فَهُوَ مَملُوءٌ، والمَلَأُ: الرُّؤَساءُ، سُمُّوا بِذَلِكَ لأنّهُم مِلاءٌ بِمَا يُحتاجُ إليه. وهُم أشرافُ القَومِ ووجُوهُهم ورؤَساؤُهم ومُقَدَّمُوهم، الَّذِينَ يُرجَعُ إلَى قَولِهِم[4]. والمَلَأُ: جماعةٌ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/168.
(2) الخليل، العين: (ملأ).
(3) ابن الأنباريّ، الزّاهر في معاني كلمات النّاس: 2/161.
(4) ابن منظور، لسان العرب: (ملأ).

يَجتمعونَ على رأيٍ، فَيَملَؤُونَ العُيُونَ رِوَاءً ومَنظَرًا، والنّفوسَ بهاءً وجلالًا، قالَ تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [البقرة: 246]، و﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦ﴾ [المؤمنون: 33][1].

2) ﴿فَٱسْتَكْبَرُوا۟﴾: (كبر) الكَافُ والبَاءُ والرَّاءُ أصلٌ صَحِيحٌ يَدُلُّ عَلَى خِلَافِ الصِّغَرِ[2]، والاستِكبارُ يُقالُ على وَجهينِ: أحدُهُما: أن يَتَحرَّى الإنسانُ ويَطلُبَ أن يَصيرَ كبيرًا، وذلك متى كانَ على ما يَجِبُ، وفي المكانِ الّذي يَجِبُ، وفي الوقتِ الّذي يَجِبُ فمحمُودٌ. والثّاني: أن يَتَشَبَّعَ فَيُظهِرَ مِن نفسِهِ مَا ليسَ لهُ، وهذا هُوَ المذمُومُ، وعلى هذا ما وَرَدَ في القرآنِ، وهُوَ ما قالَ تعالى: ﴿أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ﴾ [البقرة: 34]، وقالَ تعالى: ﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ﴾ [البقرة: 87][3].

3) ﴿مُّجْرِمِينَ﴾: أصلُ الجَرْمِ: قَطعُ الثَّمَرَةِ عنِ الشَّجرِ، وأجرَمَ: صار ذا جَرمٍ، نحو: أثمَرَ وألبَنَ، واستُعيرَ ذلكَ لِكلِّ اكتسابٍ مَكرُوهٍ، ولا يكادُ يُقالُ في عامَّةِ كلامِهِم للكَيِّسِ المَحمُودِ، فمِنَ الإجرَامِ قولُهُ ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ﴾ [المطففين: 29][4]، والجُرْمُ: التَّعدِّي، والذَّنبُ، وَالجمعُ أجرامٌ وجُرُومٌ، وهُوَ الجَرِيمَةُ[5]. ويُقالُ: جَرَمَ أجرمَ، ﴿فَعَلَىَّ إِجْرَامِى﴾ [هود: 35]. وفلانٌ جريمةُ أهلِهِ؛ أي: كاسبُهُم، واجترمَ بمعنى: اكتسبَ. والجريمةُ: ما يكتسبُهُ الإنسانُ[6].

المَعْنى الإجْمالِيُّ:

يخبرُ اللّه تعالى أنّه قد أرسلَ مِن بعدِ أولئك الرُّسلِ ﷺ "مُوسى

مِن عظيمِ المُحاوراتِ بينَ الحقِّ والباطلِ قصّةُ مُوسى وهارونَ مع فِرعونَ

(1) الرّاغب، المفردات: (ملأ).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (كبر).
(3) الرّاغب، المفردات: (كبر).
(4) الرّاغب، المفردات: (جرم).
(5) ابن منظور، لسان العرب: (جرم).
(6) السّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (جرم).

وأخاه هارونَ إلى فِرعونَ ملك مصرَ، وإلى خاصّتِهِ، داعينَ إلى عبادةِ اللّه وحدَهُ، ومُؤيَّدينَ بالحُججِ الباهرةِ، فاستكبرَ فِرعونُ وقومُهُ عن مُتابعةِ مُوسى وهارونَ في دعوتِهما، وكانُوا بهذا الرّفضِ مُرتَكِبينَ جرمًا عَظيمًا، آثمينَ بهِ"[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالةُ العطفِ في الآية:

القَصصُ القرآنيُّ تتكامَلُ، وتُقبَسُ كلُّها مِن مِشكاةٍ واحدةٍ

قولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ معطوفٌ على قولِهِ جلَّ شأنُهُ: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ﴾، فهو عطفُ قصّةٍ على قصّةٍ سابقةٍ[2]، وهو مِن عطفِ الخاصِّ، لِما في هذا الخاصِّ مِن عِبرٍ وعِظاتٍ، فاهتمَّ بهِ، وأفردَهُ بالتّفصيلِ دونَ الإجمالِ.

دلالةُ العطفِ بالحرفِ ﴿ثُمَّ﴾:

مُوسى وهارون مِن أعظمِ أنبياءِ بني إسرائيلَ قُدوةً وتأثيرًا

في قولِهِ تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ آثرَ النّظمُ الكريمُ العطفَ بحرفِ العطفِ (ثمّ)، الدّالِّ على التّراخي الرُّتبيِّ؛ "لأنّ بعثةَ مُوسى وهارونَ ﷺ كانَت أعظمَ مِن بعثةِ مَن سَبَقَهُما مِنَ الرُّسُلِ"[3]، ويُحتملُ أن يُرادَ به التّراخي الزّمنيّ، والمعنى: وبعثْنا مُوسى بعدَ زَمنٍ طويلٍ، مِن إهلاكِنا أولئك الأقوام[4].

دلالةُ ﴿بَعَثْنَا﴾:

واجهَ مُوسى وأخوه فِرعونَ باعتبارِهِ مَبعوثَ العنايةِ الإلهيّةِ

في قولِهِ تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ عَبَّرَ السّياقُ الكريمُ بالبعثِ الّذي لا يقتضي أن تكونَ هناك رسالةٌ؛ لأنّه لم يأتِ برسالةٍ إلى فِرعونَ، فكانَ مُجرَّدَ تبليغٍ لَهُم بالوحدانيّةِ، وبإبطالِ ادّعاءِ ألوهيَّةِ فِرعونَ، "وقد جاءَ مُوسى بآياتٍ؛ أي: جاءَ... بالبيّنةِ

(1) جماعة منَ العلماء، المنتخب في تفسير القرآن الكريم، ص: 299.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/167.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/246.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/168.

الدّالّةِ على رسالتِهِ، وجاءَ بالعصا الّتي ألقاها، فإذا هي حيَّةٌ تَسعَى، وكانَ قومُهُ على عِلمٍ بالسِّحرِ، فإذا عَرفوا أنّها ليسَت سِحرًا قامَت عليهم الحُجّةُ"[1].

معنى ضمير العَظمةِ في ﴿بَعَثْنَا﴾:

عظمةُ البعثِ مِن عظمةِ الباعثِ، وقداستُهُ مِن قداسةِ المَضمونِ

في قولِهِ تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ أسندَ الفعلَ إلى ضميرِ التّعظيمِ في البعثِ؛ لأنّهُ أشارَ إلى أنّهُ بَعثٌ عظيمٌ، اكتسبَ عظمتَهُ مِنَ المُرسِلِ المُعظَّمِ نفسِهِ بما يستحقُّهُ مِن تعظيمٍ وجلالٍ، كما اكتسبَ ذلك التّعظيمَ مِنَ الغايةِ الّتي حَصَلَ البعثُ لأجلِها، وهي هدايةُ النّاسِ وإقامَةُ التّوحيدِ.

دلالةُ الزّمنِ في ﴿مِنۢ بَعْدِهِم﴾:

رسالةُ مُوسى وهارون تجديدٌ لِلوصلِ بينَ السّماءِ والأرضِ

في قولِهِ تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ أدخلَ حرفَ الجرِّ (مِن)؛ للدّلالةِ على عدمِ استغراقِ زَمَنِ البُعدِ[2]، والمعنى: أنّ بَعثَ مُوسى وهارونَ عليهما السلام تحقَّقَ بعدَ انتهاءِ مرحلةِ تلك الرُّسلِ، بحيثُ مرَّ زمانٌ بقدرِ يُمكِنُ أن يُقالَ لهُ: إنّهُ مَرحلةٌ جديدةٌ كائِنةٌ بعدَ تلكَ الرّسالاتِ، ودخولُ (مِن) يدُلُّ على أنّ بَعثَ مُوسى عليه السلام كانَ في ذلكَ الوقتِ.

علّةُ التقديمِ في ﴿مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾:

مُوسى رسولٌ بدأَ اللهُ به الدّعوةَ، ثمّ شدَّ عضدَهُ بأخيهِ

في قولِهِ تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ قَدَّمَ النّظمُ الكريمُ ذِكرَ مُوسى قبلَ هارونَ عليهما السلام؛ لأنّهُ المبعوثُ أصالةً، وأمّا هارونُ فكانَ بعثُهُ استجابةً لطلبِ مُوسى، إذ أرادَهُ أن يكونَ مُعينًا لهُ ومُؤازِرًا، فقَدَّمَ المبعوثَ أصالةً؛ لأنّهُ الأجدرُ بالتّقديمِ. وقالَ اللهُ لموسى عليه السلام: ﴿وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ﴾ [طه: 13]، فالأصلُ إذن كانَت رسالةَ مُوسى عليه السلام ثمّ ضمَّ اللهُ سبحانَهُ هارونَ إلى مُوسى؛ إجابةً لسؤالِ

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3619.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/168.

مُوسى، قالَ تعالى: ﴿وَٱجۡعَل لِّي وَزِيرٗا مِّنۡ أَهۡلِي ٢٩ هَٰرُونَ أَخِي ٣٠ ٱشۡدُدۡ بِهِۦٓ أَزۡرِي ٣١ وَأَشۡرِكۡهُ فِيٓ أَمۡرِي﴾ [طه: 29 - 32]، والدّليلُ على ذلك أنّ الآياتِ كلَّها المبعوثةَ في تلك الرّسالةِ كانَت بيدِ مُوسى، وحين يكونُ مُوسى هو الرّسولَ، وينضمُّ إليهِ هارونُ، لابدَّ إذن أن يُصبحَ هارونُ رسولًا. ولذلك نجدُ القرآنَ مُعبِّرًا عن هذا: ﴿إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾ [طه: 47]؛ أي: أنّهما رسولان مِنَ اللّه. وفي آيةٍ أخرى يقولُ الحقُّ سبحانَه: ﴿فَأۡتِيَا فِرۡعَوۡنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الشّعراء: 16][1].

دلالةُ عطفِ الملأ على فِرعونَ في قولِهِ: ﴿إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦ﴾:

قولُهُ تعالى: ﴿إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ عَطفُ الملأِ على فِرعونَ يُفصِحُ عن أنّ مُوسى لم يُبعَثْ إلى فِرعونَ وحسب، بل بُعِثَ إلى فِرعونَ وحاشيتِهِ، وأهلِ الحلِّ والعَقْدِ مِنَ النّاسِ، والمُرادُ بالملأ: "الأشرافُ مِن قومِهِ، فإنّ الأطرافَ تَبَعٌ لَهُم"[2]، وفي ذلك إشارةٌ إلى تأثيرِ هؤلاء في رأي جمهورِ النّاسِ، وأنّ فِرعونَ لم يكُنْ لِيفعلَ ما فَعَلَ لو كانَ وحدَهُ بلا هذهِ الحاشيةِ.

بطانةُ فِرعونَ زيّنَت لهُ الباطلَ، فأُلحِقَت بهِ في الوصفِ والمصيرِ

دلالةُ الإضافةِ في ﴿وَمَلَإِيْهِۦ﴾:

قولُهُ تعالى: ﴿إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ أضافَ الملأ إلى ضميرِ فِرعونَ؛ للدّلالةِ على أنّهُم مُختّصونَ بهِ، وأنّهُم تابعونَ لهُ، وليسَ لهم شأنٌ بمصالحِ النّاسِ، بل ديدنُهم ومُنتهى شأنهم الإخلاصُ إلى فِرعونَ، فهُم بطانتُهُ وحاشيتُهُ؛ لأنّهُم" هُم أشرافُ القومِ، ووجوهُهُ وأعيانُهُ، والمقرَّبون مِن صاحبِ السّيادةِ العليا، ويُقالُ لَهُم: (ملأ)؛ لأنّهُم هُمُ الّذين يملؤونَ العيونَ؛ أي: لا ترى العيون غيرَهُم ... وكانَ الكهنةُ يؤكِّدُونَ أنّ الفرعونَ إلهٌ، ولكُلِّ فِرعونَ مَلأٌ يَصنعونَهُ"[3].

المـلأُ يُبالِغونَ في تصنُّعِهِم، والنّاسُ على دينِ مُلوكِهِم

(1) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 10/6122.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/169.
(3) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 10/6124.

دلالةُ اختصاصِ ذكرِ فئةِ (الملأ):

خطابُ النُّخبةِ والسّراةِ يَنسحبُ على العامّةِ، كما يَنسحبُ على الذّواتِ

قولُهُ تعالى: ﴿إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦ بِـَٔايَٰتِنَا﴾، خصَّ ذِكرَ الملأِ مِن سائرِ النّاسِ؛ "لأصالتِهم في إقامةِ المَصالحِ والمُهمَّاتِ، ومُراجعةِ الكُلِّ إليهم في النَّوازلِ والمُلِمّاتِ"[1]، فالبعثُ وُجِّهَ إلى أشرافِ القومِ والطّبقةِ العليا في الحُكمِ؛ لِما لهؤلاء مِن تأثيرٍ على النّاسِ وعلى فِرعونَ، وإلى مَلَئِهِ؛ أي: خاصّته وأشراف مملكتِهِ، وأركان دولتِهِ، ولذلك اقتصرَ عليهم؛ لأنّ غيرَهُم كالتّابعِ لَهُم[2].

دلالةُ الفاءِ في قولِهِ: ﴿فَٱسۡتَكۡبَرُواْ﴾:

الاستكبارُ إعراضُ المُنذَرينَ عندَ بلوغِهِم الحقَّ، وظهورِ البيانِ

في قولِهِ تعالى: ﴿فَٱسۡتَكۡبَرُواْ وَكَانُواْ قَوۡمٗا مُّجۡرِمِينَ﴾ دلَّتِ الفاءُ على التّفريعِ؛ للدّلالةِ على تفريعِ استكبارِهِم على البعثِ، فإنّ ذلك الاستكبارَ مُترتِّبٌ وجوديًّا على البعثِ، "وتفريعُ (فاستَكبَروا) على جملةِ (بَعثنا) يدلُّ على أنّ كلَّ إعراضٍ منهُم وإنكارٍ في مُدَّةِ الدَّعوةِ والبَعثَةِ، هو استِكبارٌ"[3]، وليسَت لِلسّببيَّةِ؛ لأنّ البعثَ لا يكونُ سببًا لِلاستكبارِ، ويُمكنُ لمحُ السّببيّةِ على معنى أنّ البعثَ سَبَّبَ إظهارَ مكنونِ قلوبِهِم مِنَ الكُفرِ والاستكبارِ، وليسَ هُوَ السّببَ الأصلَ في استكبارِهِم.

دلالةُ التَّعبيرِ بصيغةِ ﴿فَٱسۡتَكۡبَرُواْ﴾:

الاستكبارُ تطلَّبَ الكبرَ، بالتّعالي على شرعِ اللهِ في النّهي والأمرِ

قولُهُ تعالى: ﴿فَٱسۡتَكۡبَرُواْ وَكَانُواْ قَوۡمٗا مُّجۡرِمِينَ﴾ جاءَ الفعلُ الدّالُّ على تكبُّرِهِم على الإيمانِ بصيغةِ الاستفعالِ؛ لِلدّلالةِ على المبالغةِ في التَّكبُّرِ، كما أنّ الصّيغةَ تدلُّ على الطّلبِ، فكأنَّهُم قد طلبُوا هذا الكِبرَ على قبولِ الآياتِ؛ تجسيدًا لِرغبتِهِم في التّعالي على الإيمانِ، كما يدلُّ على أنْ ليسَ لديهم مُوجبات ذلك، فاستكبارُهُم إنّما هو ادّعاءٌ مِن غيرِ استحقاقٍ لذلك، "فاستَكبَرُوا تَعاظَموا عَن

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/167.
(2) طنطاويّ، التّفسير الوسيط للقرآن الكريم: 7/110.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/247.

قَبُولِها، وأعظمُ الكِبرِ أن يَتَعاظَمَ العَبيدُ عَن قَبُولِ رسالةِ ربِّهِم، بعدَ تَبيُّنِها واستِيضاحِها"[1].

دلالةُ التّعبيرِ بالاستكبارِ في ﴿فَٱسۡتَكۡبَرُواْ﴾:

قولُهُ تعالى: ﴿فَٱسۡتَكۡبَرُواْ وَكَانُواْ قَوۡمٗا مُّجۡرِمِينَ﴾ عَبَّرَ عن تكذيبِهم بالاستكبارِ دلالةً على سُوءِ طويّتِهم، فإنّ انبعاثَ كُفرِهم ليسَ عن درايةٍ؛ بل عن تَكبُّرٍ واحتقارٍ لِلمُرسَلِ إليهم، فالمرادُ "أنّهم تَكبَّرُوا عن تَلَقِّي الدَّعوةِ مِن مُوسى؛ لأنّهُم احتَقَرُوهُ، وأحالُوا أن يكونَ رَسُولًا مِنَ اللّه، وهُو مِن قومٍ مُستَعبَدِينَ، استَعبَدَهُم فِرعونُ وقومُهُ، وهذا وجهُ اختيارِ التّعبيرِ عن إعراضِهم عن دَعوتِهِ بالاستكبارِ، كما حَكَى اللّه عنهُم: ﴿فَقَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ لِبَشَرَيۡنِ مِثۡلِنَا وَقَوۡمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ﴾ [المؤمنون: 47]"[2].

الإعراضُ عنِ الإيمانِ، ليسَ إلّا استكبارًا عن جهلٍ وسفاهةِ رأيٍ

الدّلالةُ في ﴿وَكَانُواْ قَوۡمٗا مُّجۡرِمِينَ﴾:

قولُهُ تعالى: ﴿فَٱسۡتَكۡبَرُواْ وَكَانُواْ قَوۡمٗا مُّجۡرِمِينَ﴾ عَبَّرَ عنِ اتِّصافِهِم بالإجرامِ بالفعلِ (كَانوا)؛ لِلدّلالةِ على أنّهُم مُتمرِّسُونَ في الإجرامِ، عريقونَ فيهِ، مِن قديم؛ "أي: وقد كانَ الإجرامُ دَأبَهُم وخُلُقَهم فكانَ استِكبارُهُم على مُوسى مِن جُملةِ إجرامِهِم"[3].

مَنِ استكبرَ صَغُرَ غيرُهُ لديهِ، ومَن شَبَّ على شيءٍ شَابَ عليهِ

دلالةُ ختمِ الآيةِ بقولِهِ: ﴿وَكَانُواْ قَوۡمٗا مُّجۡرِمِينَ﴾:

خَتَمَ النّظمُ الكريمُ الآيةَ بقولِهِ تعالى: ﴿فَٱسۡتَكۡبَرُواْ وَكَانُواْ قَوۡمٗا مُّجۡرِمِينَ﴾؛ تقريرًا وتعليلًا لِما سَبَقَ، فهو "اعتراضٌ مُقَرِّرٌ لِمضمونِ ما قبلَهُ؛ أي: كانوا مُعتادِينَ لِارتكابِ الذُّنوبِ العِظامِ، فإنّ الإجرامَ مُؤذِنٌ بِعِظَمِ الذَّنبِ، ومنهُ الجرمُ؛ أي: الجُثَّةُ، فلذلكَ اجترَؤُوا عَلى ما اجترَؤُوا عليهِ مِنَ الاستِهانةِ برسالةِ اللّه تعالى"[4]، فصفةُ الإجرامِ مُناسبةٌ لِما تَقَدَّمَ مِن وصفِهِمُ الحقَّ بأنّه سِحرٌ.

الاستكبارُ مُفضٍ إلى الإجرامِ المُهلِكِ، والضّلالِ الفاتكِ

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/90، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/167.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/247.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/247.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/167.

المحتويات

الجزء الحادي عشر	**7**
سورة يونس	**9**
- [يونس: 15]	10
- [يونس: 16]	38
- [يونس: 17]	56
- [يونس: 18]	71
- [يونس: 19]	90
- [يونس: 20]	105
- [يونس: 21]	119
- [يونس: 22]	138
- [يونس: 23]	165
- [يونس: 24]	185
- [يونس: 25]	207
- [يونس: 26]	216
- [يونس: 27]	234
- [يونس: 28]	255
- [يونس: 29]	271
- [يونس: 30]	282
- [يونس: 31]	296
- [يونس: 32]	319
- [يونس: 33]	333
- [يونس: 34]	342
- [يونس: 35]	350
- [يونس: 36]	360
- [يونس: 37]	367
- [يونس: 38]	379
- [يونس: 39]	387
- [يونس: 40]	397
- [يونس: 41]	403
- [يونس: 42]	409
- [يونس: 43]	415
- [يونس: 44]	426
- [يونس: 45]	434
- [يونس: 46]	448
- [يونس: 47]	461
- [يونس: 48 - 49]	469
- [يونس: 50 - 51]	484
- [يونس: 52]	500
- [يونس: 53]	508
- [يونس: 54]	517
- [يونس: 55]	536
- [يونس: 56]	546
- [يونس: 57]	553
- [يونس: 58]	569
- [يونس: 59]	585
- [يونس: 60]	601
- [يونس: 61]	615
- [يونس: 62 - 63]	644
- [يونس: 64]	658
- [يونس: 65]	670
- [يونس: 66]	683
- [يونس: 67]	699
- [يونس: 68]	711
- [يونس: 69 - 70]	726
- [يونس: 71]	739
- [يونس: 72]	764
- [يونس: 73]	775
- [يونس: 74]	784
- [يونس: 75]	794

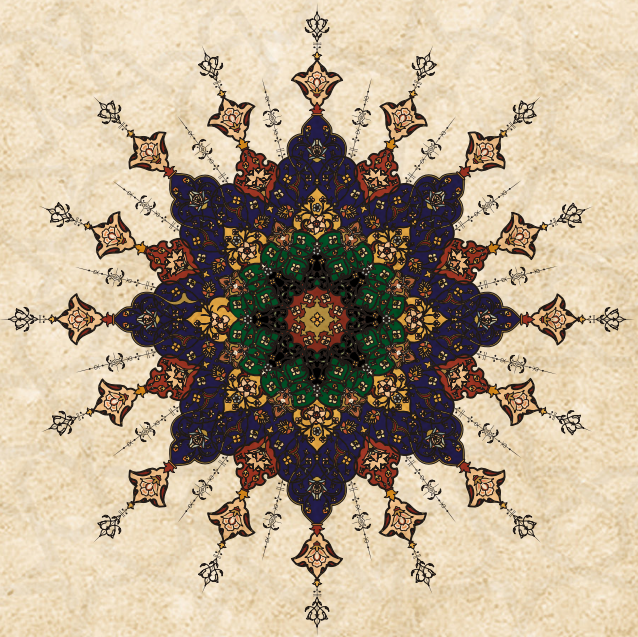

مجمع القرآن الكريم بالشارقة

موسوعة التفسير البلاغي

المُجلَّدُ العِشرُونَ

سورة يونس من الآية 76 إلى سورة هود الآية 40

موسوعة التفسير البلاغي

Government of Sharjah حكومة الشارقة
مجمع القرآن الكريم بالشارقة
HOLY QURAN ACADEMY IN SHARJAH

موسوعة التفسير البلاغي

المُجَلَّدُ العِشرُونَ

سورة يونس من الآية 76 إلى سورة هود الآية 40

نُخْبَةٌ مِنْ عُلَماء مَجْمَعِ القُرْآنِ الكَرِيمِ بِالشّارِقَةِ

منشورات القاسمي
AL QASIMI PUBLICATIONS
20/24

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد العشرون، سورة يونس من الآية 76 إلى سورة هود الآية 40
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد العشرون، سورة يونس من الآية 76 إلى سورة هود الآية 40 [إشراف
مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 20 ، 812 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-17-3
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 20 : المجلد العشرون، سورة يونس من الآية 76 إلى سورة هود الآية 40.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-768-17-3
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-6073958 بتاريخ 2024/02/06م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الجُزْءُ الحَادِي عَشَرَ

سُورَةُ يُونُسَ

﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ مِنۡ عِندِنَا قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰذَا لَسِحۡرٞ مُّبِينٞ ٧٦ قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمۡۖ أَسِحۡرٌ هَٰذَا وَلَا يُفۡلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ٧٧﴾ [يونس: 76 - 77]

مُناسَبَةُ الآيَتَينِ لِمَا قَبْلَهما:

الرّبطُ بينَ تكذيبِ مُوسى وهارونَ، وادّعاءُ المُكذِّبينَ أنّ ما جَاءَا بِهِ سِحرٌ

مُناسبةُ الآيتينِ لما قبلَهما أنّ اللّه تعالى لمّا أخبرَ أنّهُم قدِ استكبَرُوا: ﴿فَٱسۡتَكۡبَرُواْ وَكَانُواْ قَوۡمٗا مُّجۡرِمِينَ﴾ "بَيَّنَ أنّهُ تَسَبَّبَ عَنهُ طَعنُهم في مُعجزاتِهِ مِن غَيرِ تَأمُّلٍ، بل بغايةِ المُبادَرَةِ والإسراعِ بما أشعَرَت بهِ الفاءُ والسّياقُ، فقالَ تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ﴾"[1]، ذلك أنّه" لمّا جاءَهُم مُوسى وهارونُ بالحقِّ الواضحِ، والدّليلِ القاطعِ على صِدقِ نبوّتِهما، قالُوا: إنّ هذا لَسِحرٌ واضحٌ لِمَن رآهُ وعاينَهُ، وهُم يَعلمونَ في قَرارةِ نفوسِهِم أنّهُم كاذبونَ"[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿لَسِحۡرٞ﴾: (سحر) أصلٌ يدلُّ على الخدعِ وشِبْهِهِ، فَالسِّحرُ: إخرَاجُ البَاطِلِ في صُورَةِ الحَقِّ، ويُقَالُ هُوَ الخَدِيعَةُ[3]. والسِّحرُ يُقالُ على مَعانٍ؛ منها: الخِداعُ، وتَخْيِيلاتٌ لا حَقيقةَ لَها، نحو مَا يفعلُهُ المُشَعْوِذُ بصرفِ الأبصارِ عمّا يفعلُهُ لِخفَّةِ يدٍ، ومَا يَفعلُهُ النَّمَّامُ بقولٍ مُزَخرَفٍ عائقٍ لِلأسماعِ، وعلى ذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿سَحَرُوٓاْ أَعۡيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسۡتَرۡهَبُوهُمۡ﴾ [الأعراف: 116]، وقالَ: ﴿يُخَيَّلُ إِلَيۡهِ مِن سِحۡرِهِمۡ﴾ [طه: 66]، وبهذا النّظرِ سمَّوْا مُوسى عليه السلام سَاحِرًا فقالُوا: ﴿يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ﴾ [الزّخرف: 49]، ومنها: استجلابُ مُعاونةِ الشّيطانِ بضربٍ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/170.
(2) أسعد حومد، أيسر التفاسير، ص: 1441.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سحر).

مِنَ التَّقرُّبِ إليهِ، كقولِهِ تعالى: ﴿هَلۡ أُنَبِّئُكُمۡ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ۝٢٢١ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٖ﴾ [الشّعراء: 221 - 222][1].

2) ﴿وَلَا يُفۡلِحُ﴾: (فلح) الفَاءُ واللَّامُ والحَاءُ أصلَانِ صَحِيحَانِ؛ أحَدُهُمَا: يَدُلُّ عَلَى شَقٍّ، والآخَرُ: عَلَى فَوزٍ وبَقَاءٍ[2]. والفَلَح والفَلاحُ: الفَوزُ والنَّجَاةُ والبَقَاءُ في النَّعِيمِ والخَيرِ[3]، وهو: الظَّفَرُ وإدراكُ بُغيَةٍ، وذلك ضربَانِ: دُنيَوِيٌّ وأُخرَوِيٌّ؛ فالدُّنيويُّ: الظَّفرُ بالسَّعادَاتِ الّتي تَطِيبُ بها الحَيَاةُ الدُّنيَا، وهو البقاءُ والغنَى والعِزُّ، وفَلَاحٌ أُخرَوِيٌّ، وذلك أربعةُ أشياء: بَقاءٌ بلا فَناءٍ، وغنى بلا فَقرٍ، وعِزٌّ بلا ذُلٍّ، وعِلمٌ بلا جَهلٍ، كقولِهِ تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ [المجادلة: 22][4].

المَعْنى الإجْماليُّ:

يخبرُ اللّه تعالى عنِ المحاورةِ بينَ مُوسى عليه السلام بعدَ أنّ أظهرَ لَهُم الحقَّ بالبراهينِ القاطعةِ؛ أنّهُم "لمّا ظَهَرَ لَهُم الحقُّ مِن عندِنا على يدِ مُوسى قالوا في مُعجزةِ مُوسى، وهي العصا الّتي انقلبَت حيّةً أمامَ أعينِهِم: إنّ هذا سِحرٌ مُؤكَّدٌ واضحٌ، قالَ لَهُم مُوسى مُستنكِرًا: أتصفونَ الحقَّ الّذي جِئتُكُم بهِ مِن عندِ اللّه بأنّهُ سِحرٌ؟ أتكونُ هذه الحقيقةُ الّتي عاينتُمُوها سِحرًا؟"[5]، والحالُ أنّ السّاحِرينَ لن يُفلِحُوا أبدًا.

تأكيدُ مُوسى أنّ ما جاءَ بهِ مِنَ اللهِ، وليس سِحرًا، فالسَّحرةُ لا يُفلِحونَ

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالةُ التَّدرُّجِ في الآيةِ:

في قولِهِ تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ مِنۡ عِندِنَا قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰذَا لَسِحۡرٞ

الاستكبارُ والتَّولِّي يُفضي إلى الافتراءِ والإفكِ

(1) الرّاغب، المفردات: (سحر).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (فلح).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (فلح).
(4) الرّاغب، المفردات: (فلح).
(5) جماعة منَ العلماء، المنتخب في تفسير القرآن الكريم، ص: 299 - 299.

مُّبِينٌ﴾ بيانٌ لإيغالِهم في الضّلالِ، فلمّا "رَأوا المُعجزاتِ الّتي هي حقٌّ ثابتٌ، وليسَت بِتَخيُّلاتٍ وتَمويهاتٍ، وعَلِمُوا أنّ مُوسى صادِقٌ فيما ادَّعاهُ، تَدَرَّجُوا مِن مُجرَّدِ الإباءِ المُنبَعِثِ عَنِ الاستكبارِ إلى البُهتانِ المُنبَعِثِ عَنِ الشُّعورِ بالمَغلُوبِيَّةِ"[1]، وهذا يُبيِّنُ على سَبقِ إصرارِهِم على مُواجهةِ الحقِّ بالتَّمسُّكِ بضلالِهِم.

دلالةُ الفاءِ الفصيحةِ في ﴿فَلَمَّا﴾:

الفاءُ مُبيِّنةٌ عن مَحذوفٍ ذُكِرَ في مَواضِعَ أُخر

في قولِهِ تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ مِنۡ عِندِنَا﴾ افتتحَ النّظمُ الكريمُ الآيةَ بالفاءِ الفصيحةِ؛ لِتُفْصِحَ عن مَحذوفٍ، قد صُرِّحَ بهِ في آياتٍ أخرى، "كأنَّهُ قِيلَ: قالَ مُوسى: ﴿قَدۡ جِئۡتُكُم بِبَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ إلى قولِهِ تعالى: ﴿فَأَلۡقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعۡبَانٞ مُّبِينٞ ١٠٧ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِيَ بَيۡضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ﴾"[2]، كما أنّ العطفَ بالفاءِ يدُلُّ على السَّببيّةِ والمبادرةِ بلا مُهلةٍ، فبيَّنَ "أنّهُ تَسَبَّبَ عنهُ طَعنُهم في مُعجزاتِهِ مِن غيرِ تَأمُّلٍ، بل بغايةِ المُبادرةِ والإسراعِ بما أشعَرَت بهِ الفاءُ والسِّياقُ، فقالَ تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ﴾"[3].

دلالةُ (لمّا) في ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ﴾:

مِن سوءِ التّقديرِ أن يُبادروا الحقَّ المُستبينَ بالاتّهامِ المهينِ

في قولِهِ تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ مِنۡ عِندِنَا قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰذَا لَسِحۡرٞ مُّبِينٌ﴾ بَيَّنَ النّظمُ الكريمُ أنّ نسبتَهُم لِمَا جاءَ بهِ مُوسى إلى السِّحرِ، كانَ حينَ رأيتهم المعجزة، فعَمَدُوا على وجهِ العجالةِ إلى الافتراءِ، مِن غيرِ تأنٍّ ولا نظرٍ، لما أسقطَ في أيديهِم، إذ لم يجدُوا له رَدًّا يجيبونَهُ بهِ غير نسبتِهِ إلى ما يُجهَلُ، ولا يعرفُ حقيقتَهُ مِنَ الأوهامِ والتَّخييلِ.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/248.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/167.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/170.

دلالةُ التَّعبيرِ بالفعلِ ﴿جَآءَهُمُ﴾:

مجيءُ الحقِّ حجَّةٌ على المُخاطَبينَ بالبلاغِ

في قولِهِ تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ﴾ دلَّ الفعلُ (جَاءَ) على ثبوتِ الحقِّ، والمقصودُ مِن ذكرِ مجيءِ الحقِّ إثباتُ صدقِ مُوسى في رسالتِه، فَمجيءُ الحقِّ ثبوتُهُ، كقولِهِ تعالى: ﴿وَقُلۡ جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَزَهَقَ ٱلۡبَٰطِلُۚ﴾ [الإسراء: 81][1]، ومفادُ السّياقِ: فلمّا جاءَهُمُ الحقُّ مِن عندِنا، وعَرَفُوهُ، قالُوا مِن فَرْطِ عُتُوِّهِم وَعِنَادِهِم، ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسِحۡرٞ مُّبِينٞ﴾ أي: ظاهِرٌ كونُهُ سِحرًا، أو فائِقٌ في بابِهِ، واضِحٌ فيما بينَ أضرابِهِ، وقُرِئَ: (لَساحِرٌ)[2].

الغرضُ مِنَ المجازِ في قولِهِ: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ﴾:

مجيءُ الحقِّ ظاهرٌ ظهورَ الشّخصِ للعيانِ بحضورِهِ

في قولِهِ تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ مِنۡ عِندِنَا قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰذَا لَسِحۡرٞ مُّبِينٞ﴾ أسندَ المجيءَ إلى الحقِّ، والحقُّ لا يأتي؛ ولكِنْ يُؤتَى بهِ، على طريقةِ المجازِ العقليِّ، وهذا يَخْلَعُ على المعنى قوّةً وجمالًا؛ حيث جَعَلَ الحقَّ مُشخَّصًا يأتي بنفسِهِ دليلًا على قُوَّةِ الحضورِ والاتّضاحِ، وفي ذلكَ قالَ الشّهابُ الخفاجيُّ: "جَعَلَ الحقَّ كشخصٍ جاءَهُم مِنَ اللّٰه على طريقِ الكنايةِ والتّخييلِ، وهذا يدُلُّ على غايةِ ظهورِهِ، بحيثُ لا يَخفَى على ذي بَصَرٍ وبَصيرةٍ"[3].

نكتةُ التّعبيرِ بـ ﴿ٱلۡحَقُّ﴾:

التّعبيرُ عنِ الدّعوةِ بلفظِ (الحقّ)، تأكيدٌ لثبوتِها بهذا الوصفِ

قولُهُ تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ مِنۡ عِندِنَا﴾ أطلقَ النّظمُ الكريمُ على رسالةِ مُوسى عليه السلام لفظَ الحقِّ؛ تعبيرًا عن صدقِ الرّسولِ والرّسالةِ، وفي ذلك تصريحٌ بأنّهُم أدركُوا حقّيّةَ الدَّعوةِ وصدقَها، فالتّعبيرُ عنها بالحقِّ تأكيدٌ لِكونِها قد ثَبَتَت لَهُم بهذا الوصفِ، ولو لم يكُنْ قد ثَبَتَ لَهُم ذلكَ لَما أطلقَ عليه (الحقّ)، وقولُهُ: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/249.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/168.
(3) الخفاجيّ، عناية القاضي: 5/50.

ٱلۡحَقُّ مِنۡ عِندِنَا﴾؛ "يَعني: الآياتِ المُزيحَةَ لِلشّكِّ، ﴿قَالُوٓاْ﴾؛ يعني مِن فَرطِ التَّمرُّدِ ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسِحۡرٞ مُّبِينٌ﴾؛ أي: تَلبِيسٌ ظاهِرٌ"[1].

نكتةُ التّعبيرِ بـ ﴿مِنۡ عِندِنَا﴾ وإيجازها:

مصدرُ الآياتِ مِن عطاءِ الرّحمنِ، فهي جديرةٌ بالبيانِ

في قولِهِ تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ مِنۡ عِندِنَا﴾ قَيَّدَ الحقَّ بكونِهِ جاءَ مِنَ اللّه تعالى؛ تَعظيمًا لهُ، وإعلامًا بأنّهُ حقٌّ ظاهِرٌ، بحيثُ إنّهُ لا تغيبُ صحّتُهُ عن أحدٍ، وفيه تأكيدٌ لاستِحقاقِهِ أن يُوصَفَ بالحقِّ لكونه صادرًا مِنَ اللّه تعالى، كما أنّه يُشيرُ إلى علّةِ كونِهِ حقًّا، وهو أنّهُ آتٍ مِن عندِ اللّه العظيمِ.

دلالةُ الإضافةِ في ﴿عِندِنَا﴾:

مجيءُ الحقِّ مِنَ اللهِ تعالى، لا مِنَ المُبلّغينَ

في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ مِنۡ عِندِنَا﴾ أضافَ الظّرفَ إلى ضميرِ التّعظيمِ؛ أي: جاءَهُمُ الحقُّ "على ما لَنا مِنَ العَظمةِ الّتي عَرَفُوا بها أنّهُ مِنَّا، لا مِنَ الرَّسُولَينِ"[2]، كما أنّهُ يُصرِّحُ بأنّهُ حقٌّ صادرٌ مِنَ اللّه تعالى لا مِن مُوسى وهارونَ[3] عليهما السلام.

دلالةُ جملةِ القولِ في قولِهِ: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰذَا لَسِحۡرٞ مُّبِينٌ﴾:

لابُدَّ لِلمَغلوبِ مِن زائفِ العذرِ

في قولِهِ تعالى: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰذَا لَسِحۡرٞ مُّبِينٌ﴾ بيانٌ لِشدَّةِ ما وَقَعُوا بهِ؛ منه: الغَلَبُ بعدَ أن أظهرَ مُوسى عليه السلام آياتِهِ البيّناتِ، فتركُوا الحقَّ، وبادرُوا بالاتّهامِ، فَنَسبُوهُ لِلسِّحرِ، فإنّ "اعتِذارَهُم عن ظهورِ الآياتِ بأنّها سِحرٌ، هو اعتِذارُ المَغلوبِ العَديمِ الحُجَّةِ الّذي قهرَتهُ الحُجَّةُ، وبَهَرَهُ سُلطانُ الحَقِّ، فلَم يبقَ لَهُ مُنتَشَبٌ مِنَ المُعارَضَةِ المَقبُولَةِ، فَهُوَ يَهرَعُ إلى انتِحالِ مُعارَضاتٍ بِمَعاذِيرَ لا تَدخُلُ تحتَ التَّمحِيصِ، ولا تَثبُتُ في مَحَكِّ النَّقدِ"[4].

(1) القاسميّ، محاسن التّأويل: 6/51.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/170.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/361.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/249.

علّةُ وصفِهِم الحقَّ بأنّهُ (سِحرٌ):

وَصَفَ الحقَّ بالسِّحرِ؛ لِكونِهِ يُفضي إلى ما في نفوسِ المَسحورينَ كالسِّحرِ

في قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰذَا لَسِحۡرٞ مُّبِينٌ﴾ نَسَبُوا مُوسى عليه السلام إلى السِّحرِ، ووصفُوا الحقَّ بأنَّهُ سِحرٌ، والغرضُ مِن ادِّعاءِ الحقِّ سِحرًا؛ "أنَّ دَلائِلَهُ مِن قَبيلِ التَّخَيُّلاتِ والتَّمويهاتِ، فَكَذلِكَ مَدلُولُهُ، هُوَ مَدلولُ السِّحرِ، وهُوَ إنشاءُ تَخَيُّلٍ بَاطلٍ في نفوسِ المَسحورينَ، وقد حَمَلَهُمُ استِشعارُهُم وهَنَ مَعذِرتِهِم، على أن أبرَزُوا دَعواهُم في صورةِ الكلامِ المُتَثَبِّتِ صاحِبُهُ، فَأكَّدُوا الكلامَ"[1].

الغرضُ مِن تأكيدِ الخبرِ بثلاثةِ مُؤكِّداتٍ في الآية:

لمّا خافُوا تطرُّقَ الإيمانِ لقلوبِ النّاسِ أكَّدُوا افتراءَهُمُ المشؤومَ

في قولِهِ تعالى: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰذَا لَسِحۡرٞ مُّبِينٌ﴾ لمّا كانَ مجيءُ مُوسى بالآياتِ في مَشهدٍ مِنَ الملأ، والنّاسُ أجرَوْا حُكمَهُم عليهِ بالسِّحرِ على وجهِ التّأكيدِ، فأكَّدُوا ذلكَ بصيغةِ الجملةِ الاسميّةِ، وحرفِ التّأكيدِ (إنّ)، واللّامِ؛ دَفعًا لِمَا يكونُ قد أثّرَ في بعضِ الملأ منهُم، فأعلنُوا نسبتَهُ لِلسِّحرِ بطريقةِ الكلامِ الموثوقِ بهِ والمقطوعِ دَفعًا لِلشّكِّ، فقالُوا ذلك "مُؤكِّدينَ لِما عَلِمُوا مِن تصديقِ النّاسِ بهِ"[2]، "لم يكفِهِم - قبّحَهُمُ اللّه - إعراضَهُم ولا ردَّهُم إيّاهُ، حتّى جعلُوهُ أبطلَ الباطلِ، وهو السِّحرُ: الّذي حقيقتُهُ التّمويه، بل جعلُوهُ سِحرًا مُبينًا، ظاهرًا، وهو الحقُّ المُبينُ"[3].

دلالةُ اللّامِ المُزحلَقةِ في ﴿لَسِحۡرٞ﴾:

التّأكيدُ بأنّ الحقَّ سِحرٌ، قلبٌ لِلمَوازينِ، ومُناوأةٌ لِلهُدى المُبين

في قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰذَا لَسِحۡرٞ مُّبِينٌ﴾ لمّا سَاقُوا الإخبارَ عن كونِهِ سِحرًا على وجهِ التّأكيدِ، ثمّ زادوا التّأكيدَ تأكيدًا بإدخالِ اللّامِ التّوكيديّةِ المُزحلَقةِ على خبر (إنّ)؛ قطعًا لكلِّ احتمالٍ في تطرُّقِ الشَّكِّ مِنَ السّامِعينَ بكذبِ ادّعائِهِم، وقد يكونُ السّياقُ دالًّا على

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/249.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/171.
(3) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 370.

القَسمِ المُقدَّرِ؛ بمعنى: "أي: أقسَمُوا بإنّ هذا الّذي جاءَ بهِ مُوسى مِنَ الآياتِ الدّالّةِ على صدقِهِ، إنّما هو سِحرٌ بيّنٌ ظاهِرٌ، وإنّما السِّحرُ صناعةٌ باطلةٌ، هُمُ أحْذَقُ النّاسِ بها، فكيفَ يتَّبِعونَ مَن جاءَ يُنازِعُهُم سُلطانهم بها"[1].

دلالةُ وصفِ السِّحرِ بـ ﴿مُّبِينٌ﴾:

سِحرُ البشرِ يَتهافَتُ أمامَ آياتِ اللهِ لِمُوسى وأخيهِ

في قولِهِ تعالى: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰذَا لَسِحۡرٞ مُّبِينٌ﴾ وَصَفُوا السِّحرَ بكونِهِ مُبينًا، فلَم يَكتفوا بافتراءِ نسبتِهِ إلى السِّحرِ، وتأكيدِهِم لِذلكَ؛ بل أضافُوا إليهِ وَصفًا يدلُّ على كونِهِ الغايةَ في السِّحرِ؛ أي: هو حَاذِقٌ في السِّحرِ[2]، وسِحرُهُ "ظاهِرٌ كونُهُ سِحرًا، أو فائقٌ في بابِهِ، واضحٌ فيما بينَ أضرابِهِ"[3]، ولا شُبهةَ في ذلك؛ إيغالًا منهُم في إضلالِ النّاسِ وصرفِهِم عن آياتِ مُوسى البيّناتِ.

بلاغةُ الفصلِ في قولِهِ: ﴿قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ﴾:

تقديرُ السّؤالِ في الآيةِ تحريكٌ لِذهنِ السّامِعِ، واستكمالٌ لِهيكلِ القصّةِ

الجُملةُ في قولِهِ تعالى: ﴿قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمۡۖ أَسِحۡرٌ هَٰذَا﴾ استئنافٌ "مَبنيٌّ على سؤالٍ تَنساقُ إليهِ الأذهانُ، كأنَّهُ قيلَ: فماذا قَالَ لَهُم مُوسى حينَئذٍ؟ فقيلَ: قالَ على طريقةِ الاستفهامِ الإنكاريِّ التَّوبيخيِّ"[4]، فقولُ مُوسى عليه السلام جوابٌ لِقولِهِم: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسِحۡرٞ مُّبِينٌ﴾، فَفُصِلَ مِنَ العطفِ؛ لأنّهُ حكايةٌ لِلأقوالِ المُساقةِ على طريقةِ المُحاورةِ[5].

دلالةُ الاستفهامِ في ﴿أَتَقُولُونَ﴾:

تَكرارُ التَّوبيخِ علامةٌ على قُبحِ ما ادَّعَوْهُ

حكى النّظمُ الكريمُ ردَّ مُوسى عليه السلام على تأكيدِهِم وجزمِهِم بأنّ ما جاءَ بهِ سِحرٌ مُبينٌ، فقالَ تعالى حكايةً عَن مُوسى: ﴿أَتَقُولُونَ لِلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمۡۖ﴾ "مُستفهِمًا على جهةِ الإنكارِ والتَّوبيخِ، حيثُ جعلُوا الحقَّ

(1) رشيد رضا، تفسير المنار: 11/381.
(2) الخفاجيّ، عناية القاضي: 5/50.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/167 - 168.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/168، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 9/171.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/250.

سِحرًا: ﴿أَسِحۡرٌ هَٰذَا﴾؛ أي: مِثلَ هذا الحقِّ لا يُدَّعى أنَّهُ سِحرٌ"[1]، فالاستفهامُ في الآيةِ لإنكارِ قولِهم وتوبيخِهم عليهِ، وكَرَّرَ الاستفهامَ، فَقالَ: ﴿أَسِحۡرٌ هَٰذَا﴾؛ لإنكارِ الوقوعِ، أي: أنّهُ ليسَ بسِحرٍ، فكيفَ تقولونَ لِلحَقِّ الّذي هو أبعدُ شيءٍ مِنَ السِّحرِ أنّهُ سِحرٌ؟! والسِّحرُ باطِلٌ مَحضٌ.

دلالةُ التعديةِ بـ ﴿لِلۡحَقِّ﴾:

في قولِهِ تعالى: ﴿قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمۡۖ أَسِحۡرٌ هَٰذَا﴾ آثرَ النّظمُ الكريمُ تعديةَ فعلِ القولِ إلى المَقولِ باللّامِ في قولِهِ: ﴿أَتَقُولُونَ لِلۡحَقِّ﴾، ولم يقُلْ: (أتقولونَ عنِ الحقِّ)؛ لأنّه أرادَ معنى الاستحقاقِ، فأنكرَ عليهم اعتقادَهُم استحقاقَ دعوتِهِ وصفَ السّحرِ، فَهُم جعلُوا الحقَّ الّذي جاءَ به مُوسى مُستحِقًّا أن يُوصَفَ بالسِّحرِ، فأنكرَ عليهِم ذلكَ.

الحقُّ لا يَستحِقُّ بأيِّ وجهٍ كانَ أن يُوصَفَ بأنّهُ سِحرٌ

دلالةُ حذفِ مَقولِ القولِ في الآيةِ:

قولُهُ تعالى: ﴿قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمۡۖ أَسِحۡرٌ هَٰذَا﴾ حَذَفَ النّظمُ الكريمُ مَقولَ القولِ "ثقةً بدِلالةِ مَا قبلَهُ وما بعدَهُ عليهِ، وإيذانًا بأنّهُ ممّا لا ينبغي أن يُتفوَّهَ بهِ، ولَو على نَهجِ الحكايةِ؛ أي: أتقولُونَ لَهُ ما تقولونَ مِن أنّهُ سِحرٌ، يَعني بهِ أنّهُ ممّا لا يُمكِنُ أن يقولَهُ قائِلٌ، ويَتكَلَّمَ بهِ مُتكَلِّمٌ"[2]، فَحَذَفَ ما قالُوهُ، ولم يحكِهِ لدلالةِ الكلامِ عليهِ، وتقديرُهُ: أتقولُونَ لهذا الحقِّ الّذي جاءَكُم: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسِحۡرٌ مُّبِينٌ﴾، فَحَذَفَهُ لأنّهُ قولٌ مُنكَرٌ، يَعِفُّ لسانُ العاقلِ عن مثلِهِ، ثمّ قالَ: ﴿أَسِحۡرٌ هَٰذَا﴾؟ فَهُوَ مِن قولِ مُوسى لا مِن قولِهِم، ومِثلُ هذا التّقديرِ المحذوفِ مَوجودٌ في كلامِ العربِ، فيجوزُ حذفُ مَعمولِ القولِ لِلدّلالةِ عليهِ[3].

حَذفُ ما يُستَنكَرُ ويُحرِجُ مِن أساليبِ البيانِ القرآنيِّ الفصيحةِ

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/91.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/168، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/287.
(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/134، وأبو حيّان، البحر المحيط: 6/91.

نكتةُ التقديمِ في ﴿أَسِحۡرٌ هَٰذَا﴾:

الأجدرُ بالتّقديمِ في السّياقِ، ما كانَ سَببًا لِلحديثِ وأصلًا لهُ

في قولِهِ تعالى: ﴿أَتَقُولُونَ لِلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمۡۖ أَسِحۡرٌ هَٰذَا﴾ قَدَّمَ إنكارَ السِّحرِ على الإشارةِ إليهِ، لأنّ المطلوبَ أوّلًا إنكارُ أن يكُونَ هذا الّذي جاءَ بهِ مُوسى سِحرًا، فَقَدَّمَ "الخبرَ للإيذانِ بأنّهُ مَصَبُّ الإنكارِ"[1]، فالمقصودُ بالإنكارِ قولُهُم أنّهُ سِحرٌ، فتقديمُ ذلكَ أبلغُ في الإنكارِ.

دلالةُ النفي في ﴿وَلَا يُفۡلِحُ﴾:

فلاحُ السَّحرةِ مُنتفٍ في كلِّ زمانٍ، وذلكَ حُكمُ اللهِ المُستحقُّ عليهم

في قولِهِ تعالى: ﴿وَلَا يُفۡلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ﴾ آثرَ النّظمُ الكريمُ أن ينفيَ الفعلَ المضارعَ بلا النّافيةِ؛ للدّلالةِ على تجدُّدِ النّفي في كُلِّ زمانٍ، وليدلَّ على أنّ انتفاءَ الفَلاحِ عنِ السَّحرةِ حقيقةٌ راسِخةٌ دائمةٌ لا تَنتقِضُ، فالصّالحُ لذلك هو نفيُ الزّمانِ في كلِّ حالٍ، وذلكَ هو مَدلولُ النّفي بـ (لا).

دلالةُ النَّفي في قولِهِ: ﴿وَلَا يُفۡلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ﴾:

سِحرُ السَّحرةِ ضلالٌ وخَيْبَةٌ، وآياتُ اللهِ إعجازٌ وفَلاحٌ

في قوله تعالى: ﴿وَلَا يُفۡلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ﴾ جاءَ فيه النّفيُ لتقريرِ أمرِ السِّحرِ، وسُوءِ عقباهُ في الدّنيا والآخرةِ، فَسَلَبَ عنِ السِّحرِ صفةَ الفلاحِ، وهذا يُثبتُ نقيضَها، وهي الخَيبةُ والخسرانُ، كما أنّ فيهِ إثباتًا بأنّ مُوسى صاحبُ المُعجزاتِ المُبطلَةِ للسِّحرِ، والقاهرةِ لِلسَّحرةِ، مُفلِحٌ لأنّهُ ليسَ بساحِرٍ.

دلالةُ إعراب جملة ﴿وَلَا يُفۡلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ﴾:

النُّبوَّةُ مُنزَّهَةٌ عن أباطيلِ السِّحرِ وضلالاتِهِ

قولُهُ تعالى: ﴿وَلَا يُفۡلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ﴾ في مَوضِعِ الحالِ مِن اسمِ الإشارةِ في قولِهِ ﷻ: ﴿أَسِحۡرٌ هَٰذَا وَلَا يُفۡلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ﴾، وفائدةُ هذه الحالِ تأكيدُ الإنكارِ، فلمّا نَسبُوهُ إلى السِّحرِ استلزمَ ذلك أن يكُونَ مُوسى عليه السلام سَاحرًا، فأُكِّدَ "الإنكارُ السّابقُ، وما فيهِ مِنَ التّوبيخِ والتّجهيلِ، بقولِهِ ﷻ: ﴿وَلَا يُفۡلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ﴾، وهو جُملةٌ حاليَّةٌ مِن

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/168.

ضَميرِ المُخاطَبينَ، والرَّابطُ هُوَ الواوُ بلا ضميرٍ...؛ أي: أتقولونَ لِلحقِّ إنّهُ سِحرٌ، والحالُ أنّهُ لا يُفلِحُ فاعِلُهُ؛ أي: لا يَظفَرُ بِمطلوبٍ ولا يَنجُو مِن مَكروهٍ، فكيفَ يُمكِنُ صُدُورُهُ مِن مِثلِي مِنَ المُؤَيَّدِينَ مِن عندِ اللّه العزيزِ الحكيمِ، الفَائِزينَ بكلِّ مَطلَبٍ، النّاجِينَ مِن كُلِّ مَحذُورٍ"[1].

المُتشابِهُ اللّفظيُّ:

التّشابهُ بينَ قولِهِ تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ مِنۡ عِندِنَا قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰذَا لَسِحۡرٞ مُّبِينٞ﴾، وقولِهِ تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ مِنۡ عِندِنَا قَالُواْ لَوۡلَآ أُوتِيَ مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ مُوسَىٰٓۚ أَوَلَمۡ يَكۡفُرُواْ بِمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ مِن قَبۡلُۖ قَالُواْ سِحۡرَانِ تَظَٰهَرَا وَقَالُوٓاْ إِنَّا بِكُلّٖ كَٰفِرُونَ﴾ [القَصص: 48].

الاختلافُ في اتّهامِ مُوسى بالسِّحرِ المبينِ، والمُقارنةُ بالتّكذيبِ مع النّبيِّ الأمينِ

خَصَّ النّظمُ كلَّ آيةٍ بمَقولِ قولٍ مُناسِبٍ لكلٍّ منهما؛ حيثُ سُبِقَت آيةُ يونس بقولِهِ جلَّ شأنُهُ: ﴿ثُمَّ بَعَثۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسۡتَكۡبَرُواْ وَكَانُواْ قَوۡمٗا مُّجۡرِمِينَ﴾، فلمّا كانَ أبرزُ آياتِ مُوسى عليه السلام ما هو كائنٌ مِن جنسِ السِّحرِ ظاهرًا؛ ناسبَهُ أن يحكيَ قولَهُم عنهُ: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ مِنۡ عِندِنَا قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰذَا لَسِحۡرٞ مُّبِينٞ﴾، أمّا الآيةُ في سورةِ القَصصِ فهي مَسبوقةٌ بقولِهِ تعالى: ﴿وَلَوۡلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةُۢ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ فَيَقُولُواْ رَبَّنَا لَوۡلَآ أَرۡسَلۡتَ إِلَيۡنَا رَسُولٗا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [القَصص: 47]، فلمّا كانَ هؤلاء لم يتَّبعوا الآياتِ، إنّما اتَّبعوا اليهودَ حين قالُوا لِمَن كَفَرَ مِنَ العربِ قولُوا لِمحمّد ﷺ: لولا أُوتيتَ مثلَ ما أُوتِيَ مُوسى، فإنّهُ أُوتِيَ التّوراةَ دُفعةً واحدةً؛ ناسبَهُ قولُهُ: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ مِنۡ عِندِنَا قَالُواْ لَوۡلَآ أُوتِيَ مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ مُوسَىٰٓۚ﴾.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الحقُّ والعدلُ:

العَدلُ: مَا قَامَ في النُّفُوسِ أنّهُ مُستقيمٌ، وَهُوَ ضِدُّ الجَوْرِ، وعَدَلَ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/168، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 9/171.

الحاكِمُ في الحُكم يَعدِلُ عَدلًا، وعَدَلَ عَلَيهِ في القضيَّةِ، فَهُوَ عادِلٌ. وفي أسماءِ اللّه سبحانَهُ: العَدْلُ، هو الَّذي لَا يَميلُ بِهِ الهَوَى فيَجور في الحُكم[1]، والعَدَالَةُ والمُعَادَلَةُ: لفظٌ يَقتضي معنى المَساواةِ، والعَدْلُ والعِدْلُ يَتقاربان، لكن العَدْلُ يُستعمَلُ فيما يُدرَكُ بالبصيرةِ كالأحكام، وعلى ذلكَ قولُهُ: ﴿أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا﴾ [المائدة: 95]، والعِدْلُ والعَديلُ فيما يُدرَكُ بالحاسّةِ، كالموزُونات والمَعدُودات والمكيلات[2]، أمّا الحقُّ فأصلُهُ المُطابقَةُ والمُوافَقةُ، كمُطابقةِ رِجْلِ البابِ في حَقِّهِ لِدَوَرانِهِ على الاستقامةِ[3]، والحقُّ يُقالُ على أوجهٍ: الأوّلُ: يُقالُ لِموجِدِ الشّيءِ بسببِ ما تقتضيهِ الحِكمةُ، ولهذا قِيلَ في اللّه تعالى: هو الحقُّ. والثّاني: يُقالُ لِلمُوجَدِ بِحَسَبِ مُقتَضى الحِكمَةِ، ولِهذا يُقالُ: فِعْلُ اللّه تعالى كُلُّهُ حقٌّ، نحو قولِنا: الموتُ حقٌّ، والبعثُ حقٌّ. والثّالث: في الاعتقادِ لِلشّيءِ المُطَابِقِ لِما عليهِ ذلك الشّيءُ في نفسِهِ، كقولِنا: اعتقادُ فُلانٍ في البعثِ والثّوابِ والعقابِ والجنّةِ والنّارِ حقٌّ. والرّابع: لِلفعلِ والقولِ بحسَبِ ما يَجِبُ وبقَدرِ ما يَجِبُ، وفي الوقتِ الّذي يَجِبُ، كقولِنا: فِعلُكَ حقٌّ وقولُكَ حقٌّ، قالَ تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ [يونس: 33][4]. والحقُّ ثابتٌ لا يتغيَّرُ، ونقيضُهُ الباطلُ، ونقيضُ العدلِ الظّلمُ؛ إذ بانتفائِهِ يحدثُ الميلُ. فالحقُّ هو الوجود على الوجهِ المُطابقِ للحقيقةِ، أمّا العدلُ فهو الوجودُ على مُقتَضى الحقِّ والاستحقاقِ.

العدلُ أخصُّ مِنَ الحقِّ؛ لأنّه جزءٌ مِنَ الحقِّ

(1) ابن منظور، لسان العرب: (عدل).
(2) الرّاغب، المفردات: (عدل).
(3) الفيروزابادي، بصائر ذوي التّمييز: (الحقّ).
(4) الرّاغب، المفردات: (حقق).

﴿قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِتَلۡفِتَنَا عَمَّا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلۡكِبۡرِيَآءُ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا نَحۡنُ لَكُمَا بِمُؤۡمِنِينَ ٧٨﴾ [يونس: 78]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لمّا ألزمَهُم مُوسى بقوّةِ الاحتجاجِ عدلُوا إلى البهتانِ واللّجاجِ

مُناسبةُ الآيةِ لما قبلَها أنّ اللّه تعالى لمّا ذَكَرَ إنكارَ مُوسى عليه السلام: ﴿أَتَقُولُونَ لِلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمۡۖ أَسِحۡرٌ هَٰذَا وَلَا يُفۡلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ﴾، فبيّن أنّهُ ليسَ سِحرًا على وجهِ التّأكيدِ والإلزامِ، بَيَّنَ أنّهُم لم يَثْبُتوا أمامَ حُجَّتِه، بل "عَدَلُوا عَن جوابِهِ إلى الإخبارِ بما يَتَضَمَّنُ أنَّهُم لا يُقِرُّونَ بِحَقِّيَّتِه؛ لأنّهُ يَلزَمُ عَن ذَلِكَ تَركُ مَا هُم عليهِ مِنَ العُلُوِّ، وهُم لا يَتركونَهُ، وأوهَمُوا الضُّعَفاءَ أنّ مُرادَهُ عليه السلام الاستكبارُ، مُعَلِّلِينَ لاستِكبارِهِم عَنِ اتِّباعِهِ بما دَلَّ على أنّهُم لا مَانِعَ لَهُم منهُ إلّا الكِبرُ، فقالَ تعالى حِكايةً عنهُم: ﴿قَالُوٓاْ﴾؛ أي: مُنكِرِينَ عليهِ مُعَلِّلِينَ بِأمرَينِ: التَّقليدِ، والحِرصِ على الرِّئاسَةِ"[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿لِتَلۡفِتَنَا﴾: "لفتَه، يَلفته، لفتًا: لواهُ على غيرِ جهتِهِ، واللّفتُ: لَيُّ الشَّيءِ عن جهتِهِ، كما تقبضُ على عنقِ إنسانٍ فتلفته. (و) يُقالُ: اللّفتُ: الصّرفُ، يُقالُ: لفتَهُ عنِ الشّيءِ يلفتُهُ لفتًا: (صرفَهُ)... قالَ الفرّاءُ: اللّفتُ: الصّرفُ"[2]، و(لَفَتَ) أصلٌ يدلُّ عَلَى اللَّيِّ وَصَرفِ الشَّيءِ عَن جِهَتِهِ المُستَقِيمَةِ[3]، لَفَتَ وجهَه عَنِ القَومِ: صَرَفَه، والتَفَتَ التِفاتًا[4]، يُقالُ: لَفَتَهُ عن كذا: صَرَفَهُ عنهُ، قالَ تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِتَلۡفِتَنَا﴾؛ أي: تَصرِفَنَا[5].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/172.
(2) الزَّبيديّ، تاج العروس: (لفت).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (لفت).
(4) ابن منظور، لسان العرب: (لفت).
(5) الرّاغب، المفردات: (لفت).

2) ﴿ٱلۡكِبۡرِيَآءُ﴾: (كبر) أصلٌ يَدُلُّ عَلَى خِلَافِ الصِّغَرِ، وَالكِبْرُ: العَظَمَةُ، وكَذَلِكَ الكِبرِيَاءُ[1]، والكِبرِيَاءُ: التَّرفُّعُ عنِ الانقيادِ، وذلك لا يستحقُّهُ غير اللّه تعالى، فقالَ: ﴿وَلَهُ ٱلۡكِبۡرِيَآءُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾ [الجاثية: 37]، ورُوِيَ عنهُ ﷺ يقول عنِ اللّه تعالى: «الكبرياءُ رِدَائي والعَظَمَةُ إزارِي، فَمَن نَازعَني في واحدٍ منهُما قَصَمتُهُ»[2]، وقالَ تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِتَلۡفِتَنَا عَمَّا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلۡكِبۡرِيَآءُ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [يونس: 78][3].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

إصرارُ قومِ مُوسى على إنكارِ رسالتِهِ والكفرِ بها في استكبارٍ وصَلَفٍ

يخبرُ اللّه تعالى عن تمامِ المُحاورةِ، فقالَ فِرعونُ وقومُهُ لِمُوسى: "إنّما جئتَ إلينا قاصدًا أن تصرِفَنا عن دينِ آبائِنا، وتقاليدِ قومِنا؛ لكي نصيرَ لكما أتباعًا، ويكونَ لكَ ولأخيكَ الملكُ والعظمةُ والرّياسةُ المُسيطِرةُ المُتحكِّمةُ؟ وإذن فلن نؤمنَ بِكُما، ولا برسالتِكُما"[4].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالةُ الفصلِ في سياقِ الآيةِ:

مُراعاةُ فصلِ الجملِ؛ لِتداولِ أطرافِ الخطابِ الكلامِ

الجملةُ في قولِهِ تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِتَلۡفِتَنَا عَمَّا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَا﴾ افتُتِحَت بفعلِ القولِ؛ لأنّها سِيقَت على طريقِ المحاورةِ، فالكلامُ يدورُ بينَ القائلِ ومجيبِهِ، فلا يَلزمُ العطف؛ لأنّ الكلامَ مُتَّصلٌ بالجوابِ والحوارِ الحضوريِّ، أو أنّهُ استئنافٌ بيانيٌّ "مَسوقٌ لبيانِ أنّهُ ﷺ ألقَمَهُمُ الحَجرَ فانقطَعُوا عنِ الإتيانِ بكلامٍ لهُ تعلُّقٌ بِكَلامِهِ ﷺ، فضلًا عنِ الجَوابِ الصّحيحِ، واضطَرُّوا إلى التّشَبُّثِ بذيلِ التّقليدِ الّذي هو دَأبُ كُلِّ عاجزٍ مَحجُوجٍ، ودَيدَنُ كُلِّ مُعانِدٍ

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (كبر).
(2) أخرجه مسلم، صحيح مسلم، كتاب البرّ والصّلة، الحديث رقم: (2620).
(3) الرّاغب، المفردات: (كبر).
(4) جماعة منَ العلماء، المنتخب في تفسير القرآن الكريم، ص: 300.

لَجُوجٍ، على أنّهُ استئنافٌ وَقَعَ جوابًا عمّا قبلَهُ مِن كلامِهِ ﷺ... كأنّهُ قِيلَ فماذا قالُوا لِمُوسى عليه السلام عندما قالَ لَهُم مَا قالَ؟ فَقِيلَ: قالُوا عاجِزِينَ عنِ المُحاجَّةِ: أجِئتَنا..."[1].

دلالةُ التّعبيرِ بصيغةِ ﴿قَالُوٓاْ﴾:

في قولِهِ تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِتَلۡفِتَنَا﴾ عَبَّرَ النّظمُ الكريمُ عن جوابِهِم لِمُوسى عليه السلام بالفعلِ الماضي المُسنَدِ إلى واوِ الجماعةِ، ﴿قَالُوٓاْ﴾ إبرازًا لأقوالِهِم، لِمَا لها مِن أهمّيّةٍ؛ إذ إنّها تحكي مَا واجهُوا بهِ الحقَّ، وتبيّنُ أثرَها في الخطابِ والمُحاجَجَةِ، وقد قالُوا لهُ: "إنّما جئتَ إلينا قاصدًا أن تصرِفَنا عن دينِ آبائِنا، وتقاليدِ قومِنا؛ لكي نصيرَ لكما أتباعًا، ويكونَ لك ولأخيك الملكُ والعظمةُ والرّياسةُ المُسيطِرةُ المُتحكِّمةُ؟ وإذن فلن نؤمنَ بكُما ولا برسالتِكُما"[2].

إيضاحُ القرآنِ لِمَضامينِ المُحاجَجَةِ بينَ مُوسى وقومِهِ

الغرضُ مِنَ الاستفهامِ في ﴿أَجِئۡتَنَا﴾:

في قولِهِ تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِتَلۡفِتَنَا عَمَّا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَا﴾ دلَّت همزةُ الاستفهامِ على إنكارِهِم لغايةِ مجيءِ مُوسى إليهم، فالاستفهامُ إنكاريٌّ؛ حيثُ "بَنَوا إنكارَهُم على تَخطِئَةِ مُوسى فيما جاءَ بهِ، وعلى سُوءِ ظَنِّهِم بهِ وبهارونَ في الغايةِ الّتي يَتَطَلَّبانِها ممّا جاءَ بهِ مُوسى"[3]، فالاستفهامُ البيانيُّ تعبيرٌ عن حالِ المُكابرينَ، إذ يستفرغونَ بهِ حُججَهُم المتهافتةَ، لِيبرّروا إصرارَهُم على كفرِهِم وعنادِهِم.

إذا استولى الجهلُ على الجهلةِ ظنُّوا الباطلَ حقًّا

الغرضُ مِنَ المجازِ في ﴿لِتَلۡفِتَنَا﴾:

في قولِهِ تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِتَلۡفِتَنَا عَمَّا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَا﴾ جاءَ استعمالُ الفعلِ (لفتَ) في غايةِ البلاغةِ، فهو مُستعمَلٌ مَجازًا

تقليدُ الآباءِ في عبادةِ الأصنامِ جمودٌ لِلعقلِ واختلالٌ لِلميزانِ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/169.
(2) لجنة من علماء الأزهر، المنتخب في تفسير القرآن الكريم، ص: 300.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/251.

"في التّحويلِ عنِ العَمَلِ أو الاعتِقادِ إلى غيرِهِ تحويلًا لا يَبقى بعدَهُ نَظَرٌ إلى ما كانَ يَنظُرُهُ"[1]، فالفعلُ (لفتَ) يحكي حقيقةَ ما انطوَت عليهِ قلوبُهُم، مِن أنّهُم حينَ لم يتَّبعُوا الحقَّ، إنّما كانَ ذلكَ مِن أجلِ المُكابرةِ، ومُراعاة لِلتَّمسُّكِ بدينِ آبائِهِم، وليسَ لأنّهُ الأجدرُ بالاتّباعِ.

دلالةُ تجاورِ الفعلَين في ﴿أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا﴾:

استعمالُ أزمنةِ الأفعالِ، يَستوعِبُ القصّةَ والحوارَ والجِدال

في قولِهِ تعالى: ﴿أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا﴾ تَجاورَ الفعلُ الماضي مع الفعلِ المضارعِ، وهما قولُهُ: ﴿أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا﴾؛ تأكيدًا لِمَجيئِه لغايةِ أن يلفتَهُم، مع الدّلالةِ على التَّجدُّدِ والاستمرارِ، فيكون المرادُ أنّ مَجيئَهُ ثابتٌ مُقرَّرٌ ومَقطوعٌ بهِ لتلكَ الغايةِ المُتجدِّدةِ.

دلالةُ اللّامِ في ﴿لِتَلْفِتَنَا﴾:

تهمةُ النّيات دونَ مُدارسةِ الأدلّةِ سبيلُ المُنهزمينَ

في قولِهِ تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا﴾ أدخلَ النّظمُ الكريمُ لامَ التّعليلِ على الفعلِ ﴿لِتَلْفِتَنَا﴾؛ تعليلًا لِلمَجيءِ؛ أي: أجئتَ لهذا الغرضِ، فأنكروا عليه مَجيئَهُ لهذهِ العلّةِ. وهذا مِن خبثِ طويّتِهِم؛ إذْ هُم مَن قرَّرَ له غايتَهُ، ولم يلتفتوا إلى مَقصدِهِ، فساقوها مَساقَ الكلامِ المُسلَّمِ بهِ، مُوجِّهينَ لَهُ السّؤالَ التّقريريَّ مع الإنكارِ عن هذهِ العلّةِ، وكأنّها لَيسَت مجالَ شكٍّ، أو في مَوضِعِ إنكارٍ ونفيٍ.

دلالةُ التّعبيرِ بلفظِ ﴿وَجَدْنَا﴾:

التّعريضُ بالتّقليدِ الأعمى واتّباعِ الآخرينَ مِن غيرِ دليلٍ

في قولِهِ تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا﴾ آثرَ النّظمُ الكريمُ التّعبيرَ بالفعلِ ﴿وَجَدْنَا﴾ دليلًا على أنّ دينَهُم يُؤخَذُ لا مِن علمٍ، بل بالتّقليدِ، فَهُم ألفَوْا آباءَهُم على دينٍ، فَهُم لَهُم تَبَعٌ، فَهُم يَستندونَ على التّقليدِ، ولا يَستحونَ مِن اتّباعِ ما لا دليلَ عليه[2]، وهذا يدُلُّ على شدَّةِ تعلُّقِ الأبناءِ بتقليدِ الآباءِ، وهو هنا تقليدٌ سلبيٌّ مَقيتٌ.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/251، وأبو حيّان، البحر المحيط: 6/91.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/172.

دلالةُ الحرفِ ﴿عَلَيۡهِ﴾:

إرثُ الكفرِ شاهدًا عن شاهدٍ، يُؤكِّدُ رسوخَهُ في العقائدِ

في قولِهِ تعالى: ﴿لِتَلۡفِتَنَا عَمَّا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَا﴾ عَبَّرَ النّظمُ الكريمُ بحرفِ الاستعلاءِ (على)؛ للدّلالةِ على أنّ آباءَهُم كانُوا مُتمسكِّينَ بدينِهِم الّذي ورثُوهُ عنهُم، فَهُم مُتمكِّنونَ مِن ذلكَ، فالإتيانُ "بحرفِ (على) للدّلالةِ على تَمَكُّنِ آبائِهِم مِن تلكَ الأحوالِ ومُلازَمَتِهِم لَها"[1].

دلالةُ تقديمِ الجارِّ والمجرورِ:

الكلامُ عنِ الاعتقادِ مُقدَّمٌ لأهميّتِه، ومُراعاةُ ذلك مِنَ البلاغةِ القويّةِ

في قوله تعالى: ﴿لِتَلۡفِتَنَا عَمَّا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَا﴾ قَدَّمَ النّظمُ الكريمُ الجارَّ والمجرورَ على المفعولِ بهِ، فلم يقُلْ: (لِتلفِتَنَا عَمَّا وَجَدنا آباءَنا عليهِ)؛ لأنّهُ هو الأهمُّ، إذ هو المقصودُ بسياقِ الحديثِ والمُجادلةِ، وليسَ السّياقُ في الحديثِ عنِ الآباءِ، بل عنِ الدّينِ والتّوحيدِ، فكانَ تقديمُ الجارِّ والمجرورِ المُتضمّن الضّمير المعبِّر عن طريقةِ آبائِهم أولى مِن تقديمِ المفعولِ بهِ.

دلالةُ التّعبيرِ بـ ﴿ءَابَآءَنَا﴾:

يُعرَفُ الرّجالُ بالحقِّ، ولا يُعرَفُ الحقُّ بالرّجالِ

في قولِهِ تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِتَلۡفِتَنَا عَمَّا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَا﴾ قد جَعلُوا قَوْلَ آبائِهِم الضّالّينَ حُجّةً، يردّونَ بها الحقَّ الّذي جاءَهُم بهِ مُوسى عليه السلام، ومِنَ الحكمةِ: إنّ الرّجالَ يُعرَفونَ بالحقِّ، ولا يُعرَفُ الحقُّ بالرّجالِ، وحاصلُ كلامِهِم " أنّهُم قالُوا: لا نَترُكُ الدِّينَ الّذي نحنُ عليهِ، لأنّا وَجدْنا آباءَنا عليه، فَقَد تَمَسَّكُوا بالتَّقليدِ، ودَفعُوا الحُجَّةَ الظَّاهِرةَ بمُجرَّدِ الإصرارِ"[2]، "وتلك هي علّةُ الجاهلينَ، وداءُ السُّفهاءِ والحمقى... التَّمسُّكُ بالقديمِ، وعقدُ القلوبِ عليهِ، وإنْ كانَ بلاءً وشرًّا...لأنّهُم أعفوا عقولَهُم مِنَ النّظرِ والتّفكيرِ، ورضُوا بما استقرَّ فيها مِن كُلِّ غَثٍّ وزيفٍ..."[3].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/252.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/287.
(3) عبد الكريم الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 6/1058.

المُرادُ مِن ضميرِ التَّثنيةِ في ﴿لَكُمَا﴾:

كانَ البلاغُ مِن مُوسى وهارونَ، فناسبَهُ الرّدُّ بتوجيهِ الخطابِ إليهما

في قولِهِ تعالى: ﴿وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ﴾ خاطبَ الملأُ مُوسى وهارونَ عليهما السلام، وإنْ كانَ المُتكلّمُ معهم مُوسى وحدَهُ؛ ولكنَّهُم أجرَوُا الخطابَ لِكليهما؛ لِلدّلالةِ على أنّ مَضمونَ الكلامِ، وهو طلبُهُمُ الكبرياءَ والمُلكَ، كائنٌ مِن مَجموعِهما؛ إشعارًا بأنّ هذا أمرٌ دُبِّرَ بينَهُما.

دلالةُ العطفِ في قولِهِ: ﴿وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ﴾:

اتّهامُ الحقِّ بالأباطيلِ، والصّدودُ عنِ الإيمانِ بالمراوغةِ والتّضليلِ

قولُهُ تعالى: ﴿وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ﴾ مَعطوفٌ على الجملةِ في قولِهِ جلَّ شأنُهُ: ﴿أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا﴾؛ أي: أنّهُم قالُوا ذلكَ وقالُوا هذا[1]، فكلتا الجُملتين مِن قولِهِم، كما يُوحي أنّ الجملةَ الثّانيةَ تقعُ مَوقِعَ النّتيجةِ للأولى، فلمّا قَرَرُّوا أنّهُم إنّما جاؤوا طلبًا لِلكبرياءِ بَنَوا على ذلك انتفاءَ إيمانِهِم.

نكتةُ إيثارِ التّعبيرِ بالجملةِ الاسميّةِ:

نفيُ الإيمانِ في الحاضرِ والمُستقبلِ، مِن سفهِ الرّأيِ وسُوءِ التّقديرِ

في قولِهِ تعالى: ﴿وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ﴾ آثرَ النّظمُ الكريمُ التّعبيرَ بالجملةِ الاسميّةِ، ولم يقُلْ: (وَمَا نُؤْمِنُ لَكُمَا)؛ لأنّ الجملةَ الاسميّةَ تدُلُّ على الثّباتِ واللّزومِ، وكون مضمونها مُؤكَّدًا، فلمّا جاءَت مَنفيّةً دلَّ على أنّ النّفيَ فيها جاءَ لتأكيدِ انتفاءِ إيمانِهِم، "نَفَوْا عن أنفسِهِم صفةَ الإيمانِ نفيًا مُؤكَّدًا، وكانَ ذلك: أوّلًا: بذكرِ الضّميرِ الدّالِّ على التّعظيمِ. ثانيًا: بالجملةِ الاسميّةِ، وقولُهُ: (لَكُمَا) لامتناعِ التّسليمِ، بل إنّهُم مُناوئونَ غيرُ مُستسلِمينَ، بل هُم مُنصرِفُونَ"[2].

غرضُ المبالغةِ في ﴿وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ﴾:

المبالغةُ في نفيِ الإيمانِ عنهم، دليلٌ على أنّ إيمانَهُم مَيؤوسٌ منهُ

في قوله تعالى: ﴿وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ﴾ آثرَ النّظمُ الكريمُ أن يأتيَ النّفيُ بالجملةِ الاسميّةِ الدّالّةِ على التّأكيدِ، مع تأكيدِ النّفي

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/173.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/173.

بالباءِ في الخبرِ ﴿بِمُؤْمِنِينَ﴾، مُبالغةً في النّفي، تأكيدًا لِتمسُّكِهِم بدينِهِم مهما جاءَتهُم الآياتُ؛ ارتماءً في بَراثِنِ التّقليدِ، وقَطعًا لأملِ مُوسى عليه السلام بإيمانِهِم لِما رأوا مِن قوّةِ حُجَجِهِ، ووضوحِ صدقِهِ، فأكَّدُوا رغمَ ذلك أن ليسَ هناك مَطمَعٌ في إيمانِهِم.

﴿وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ ٱئۡتُونِي بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٖ ٧٩﴾ [يونس: 79]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

استمرار فرعون في بثّ الأوهام

قولُ فرعونَ فيهِ تلبيسٌ وإيهامٌ على أنَّ ما جاءَ بهِ مُوسى إنّما هوَ سحرٌ، يمكنُ أنْ يعارضوهُ بسحرٍ مثلهِ؛ منعًا للنّاسِ عن اتّباعهِ، فعطفَ قولَ فرعونَ هذا على ما سبقَ منْ قولهِ: ﴿أَجِئۡتَنَا لِتَلۡفِتَنَا﴾؛ أي: مِنَ السّحرِ بزَعْمِهم[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿سَٰحِرٍ﴾: أصلُ (سحر) يدلُّ على خَدْعٍ وشِبْهِه[2]، وحقيقةُ السِّحْرِ صَرْفُ الشَّيءِ عن حَقيقَتِهِ إلى غَيْرِهِ، فكأنَّ السَّاحِرَ لَمَّا أرَى الباطلَ في صُورَةِ الحَقِّ، وخَيَّلَ الشّيءَ على غيرِ حَقيقَتِهِ، قَدْ سَحَرَ الشَّيءَ عَنْ وَجْهِهِ؛ أي: صَرَفَهُ[3]. تَقول العَرَبُ للرَّجُل: مَا سَحَرَكَ عَن وَجْه كَذَا وَكَذَا؟، أي: ما صَرَفَك عَنهُ؟[4]، والسِّحْرُ: الأُخْذَةُ. وكلُّ ما لَطُفَ مَأْخَذُه ودَقَّ، فَهُوَ سِحْرٌ، والجَمْعُ: أسحارٌ وسُحُورٌ، ورجلٌ ساحِرٌ مِنْ قَوْمٍ سَحَرَةٍ، والسِّحْرُ: البيانُ في فِطْنَةٍ[5]، والمقصود بـ ﴿سَٰحِرٍ﴾ في الآيةِ: مَن يَعمل السِّحْرَ، ويُزاوِلُه.

المَعْنى الإجْمالِيُّ:

الظّالمون لا يفتؤون عن مقاومة دعوة المُصلحين

يُخبِرُ اللّه تعالى بأنَّ فِرعونَ قد قال لِمَلَئه بعد أنْ يئس مِن إلزام موسى بالقول: اعملوا على دفع حُجَّته بالفِعل، جِيئوني مِنَ المدائِنِ بكلِّ ساحرٍ مُتقِنٍ للسِّحرِ[6].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/173.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سحر).
(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (سحر).
(4) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (سحر).
(5) ابن منظور، لسان العرب، والزَّبيديّ، تاج العروس: (رهق).
(6) ابن جرير، جامع البيان: 12/241، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/287، والمراغيّ، تفسير المراغيّ: 11/143.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالةُ الواوِ:

المقصودُ بيانُ ذِكْرِ القصّةِ لا بقيْدِ ترتُّبِها

الواوُ في قولِه تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِي بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ﴾ وإنْ كانتْ للعطفِ إلّا أنّها لا تقتضي ترتيبًا ولا تعقيبًا، لما تقرّرَ في معاني الحروفِ أنّها تفيدُ الجمعَ مطلقًا[1]؛ فهذا القولُ ليسَ مُرتّبًا على سابقِه؛ فإنّهُ واقعٌ في ابتداءِ القصّةِ، والغايةُ: بيانُ ذِكْرِ القصّةِ على وجهِ العمومِ، لا بقصدِ التّرتيبِ[2].

فرعون يحشد لمواجهة موسى بعد رَمْيِه بالسِّحر

الآيةُ معطوفةٌ على قولِه تعالى: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰذَا لَسِحۡرٞ مُّبِينٌ ٧٦﴾ [يونس: 76] فهيَ جوابٌ ثانٍ للحرفِ (لَمّا)، فقدْ حكَى أوّلًا نفْيَ فرعونَ أنْ تكونَ دعوةُ مُوسى حقًّا من اللّه، ثمَّ حكَى رميهُ تلكَ الدّعوةَ بالسّحرِ إثباتًا على قُدْرتِهمْ على أنْ يأتوا بمثلِها؛ فإنَّ تحصيلَ مثلِ هذهِ الأسبابِ مِن وظائفِ فرعونَ، لما فيه مِنَ الأمرِ لخاصَّةِ الأُمَّةِ بالاستعدادِ لإبطالِ ما يُخشَى منه[3].

سِرُّ توحيدِ الفِعلِ ﴿وَقَالَ﴾:

الانفراد بالأمر سلوكٌ فرعونيٌّ وكذلك كلّ الطُّغاة

قولُه تعالى: ﴿وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ﴾ وَحَّدَ الفعلَ هنا بعدَ أن كانَ مُسندًا للجَمعِ في الآيةِ الّتي عطفَ عليها؛ المبدوءةِ بـ ﴿قَالُوٓاْ﴾ [يونس: 78]، وسرُّ توحيدِ الفعلِ أنّ الأمرَ من خصائصِ فرعونَ[4] لا يُشاركهُ فيه أحدٌ، وهذا شأنُ الجبابرةِ الظّالمينَ، الّذين لا يرون إلّا ذَوَاتِهم، ولا يسمعون سوى صوت أنفسِهم.

نكتةُ التّصريحِ باسمِ فرعونَ:

بيان خداعه لهم بادّعاء الألوهيّة وطاعتهم له

نُكْتَةُ التّصريحِ باسمِ ﴿فِرۡعَوۡنُ﴾ أنّهُ لَمّا شعرَ بخطورةِ دعوةِ مُوسى عليه السلام على مُلكه، تصدّى للأمرِ بنفسِه؛ بعدما خيَّلَ للنَّاسِ زُورًا وبهتانًا

(1) ابن يعيش، شرح المُفصَّل: 5/7.
(2) الصّاويّ، حاشية على الجلالَيْن، ص: 818.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/253.
(4) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/169.

واستخفافًا بعقولهم السَّاذَجة أنّهُ إلهٌ، ويعني ذلك: أنَّه إذا جاءَ الأمرُ مِنَ الإلهِ فالاستجابة حتمًا ستكون على الفور بلا تَراخٍ، وهوَ ما حصلَ؛ فقدْ جيءَ بالسّحرةِ في الوقت الذي حَدَّده فرعون[1].

علّةُ نسبةِ إتيانِ السَّحرةِ إليه:

الأمرُ من وظائفِ فرعونَ، بوصفه إلهًا عندهم

وقد أُسند الفعل إلى فرعون وَحْدَه؛ لأنَّ الأمر مِن وظائفه هو دونَ الملأ من قومه، وهذا بخلاف الأفعال السَّابقة مِنَ الاستكبار ونحوه، فإنَّها مما تُسنَد إليه وإلى مَلَئِه[2].

دلالة الأمر:

ألزمهم فرعون بالفعل بعدَ اليأسِ مِن إلزامهم بالقولِ

وفي أمرِ فرعونَ لِمَلَئِه أن يأتوهُ بالسّحرةِ الحاذقينَ، دلالةٌ على إرادتهِ أنْ يُرتِّبَ أُسُسَ إلزامِ موسى وهارون ﷺ بالفعلِ، بعدَ أنَ يئسَ منْ أن يُلزمَهُما بالقولِ[3]، إذِ السِّحر - من وجهة نظرِهِ القاصرة - لا يُمكن أن يُواجَهَ بغير السِّحر، ومِنَ السَّحرة الحاذقين، لا من ضعفائهم قليلي الحيلة، ولذلك نجد السَّحرةَ أنفسَهم يُؤكِّدون في موضع آخر على ضرورة التَّكافؤ في قوَّة السِّحر: ﴿فَلَنَأۡتِيَنَّكَ بِسِحۡرٖ مِّثۡلِهِۦ﴾ [طه: 58].

الإلهُ الحقّ غيرُ مُفتقِرٍ إلى غيره:

الاستعانة بالسَّحَرَة عجزٌ ينقضُ ألوهيَّته المزعومة

وفي أمرِ فرعونَ لقومهِ بأن يأتوهُ بالسّحرةِ الحاذقينَ الماهرينَ، دلالةٌ تَنقضُ ادِّعاءهُ الألوهيّةَ مِن قولِه: ﴿وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي﴾ [القصص: 38]، فإنّ أمرَهُ ذاكَ دالٌّ على احتياجهِ لهم، ولا يجوزُ أن يكونَ الإلهُ في حاجةٍ إلى غيرهِ، فإنّها صفاتُ نقْصٍ.

إيثارُ لفظِ الإتيانِ دونَ المجيءِ:

الإتيانُ المجيءُ بسهولةٍ، ويُقالُ باعتبارِ القصدِ

في قولِه تعالى: ﴿وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ ٱئۡتُونِي﴾ آثرَ التّعبيرَ بفعلِ الإتيانِ

(1) الشَّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 10/6142.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/169، والآلوسيّ، روح المعاني: 6/156.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/169.

دونَ فعلِ المجيءِ، معَ تقاربهما في المعنى؛ لأنَّ الإتيانَ مجيءٌ بسهولةٍ، ويُقال باعتبار القَصْدِ[1]، وكلاهُما مُتحقّقانِ في أمرِ فرعونَ لملئِه وسَحرتِه؛ فلا أحدَ يعصي قولَه، وما كان لمغرورٍ مثلِه أن يقول بغير الإتيان، إذْ فيه تأكيدٌ لسطوته وقُوَّته، وإنّ قصْدَهُ بادٍ جليٌّ في معارضةِ مُوسى والغَلبةِ عليهِ، فضلًا عن أنّ الأمر بالإتيان قيل باعتبار القَصْد إلى أن يأتوا بهم، ولم يجيئوا بهم بعدُ، ولو تحقَّق لعبّر بفعل المجيء.

دلالة الباء في قوله: ﴿بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ﴾:

الباءُ في قولِه تعالى: ﴿بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ﴾ دالّةٌ على الاستعانةِ[2]، فإنّ سَحَرَتَهُ الّذين طلبهُم همُ الأداةُ الّتي استعانَ بها في مُعارضةِ مُوسى في دعوتِه إلى الله، واستدفاعًا لها، ظنًّا منه أنّها مِنَ السّحرِ، أو عنادًا ومكابرةً.

سحرةُ فرعونَ أداةٌ يستعينُ بها في استدفاعِ دعوةِ مُوسى جهلًا أو عنادًا

إيثارُ لفظِ (كلّ) دونَ (جميع):

آثرَ لفظَ ﴿بِكُلِّ﴾ دونَ (جميع) في قولِه تعالى: ﴿بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ﴾؛ طلبًا للتَّعاونِ فيما بينهم، ولئلَّا يفوتَه شيءٌ مِنَ السِّحرِ بتخلُّفِ البعضِ[3]، فإنّه أرادَ السّحرةَ الحاذقينَ كلَّهم، بحيث يُعضِّدُ بعضُهم بعضًا، لدلالةِ (كلّ) على الشُّمولِ والاستغراق؛ إذِ العمومُ في هذهِ الجملةِ عمومٌ عُرفيّ؛ فإنّ طَلبَهُ دالّ شاملٌ كلَّ ساحرٍ يعرفونهُ ويَظفرونَ به، أو أُريدَ به معنى التّكثيرِ[4]، ظنًّا منه أنّها تنفعُهُ في استدفاعِ ما جاءَ به مُوسى مِنَ البيِّناتِ، وتسكينٌ لقلقِ نفسه، وتطمينٌ له في مواجهته المُرتقَبة.

شمل كلَّ السَّحَرة ليتعاونوا؛ ولكي لا يفوته شيءٌ مِنَ السِّحْر

سِرُّ التّعبيرِ عنِ السّحرةِ باسمِ الفاعلِ مفردًا:

في قولِه: ﴿بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ﴾ عبرَّ باسمِ الفاعلِ ﴿سَٰحِرٍ﴾؛ لأنّهُ

قصد كلَّ السّحرة الرَّاسخين في عِلمهم، البارعين فيه

(1) الرّاغب، المفردات، ص: 212.

(2) وهو من أشهر معانيها، كقولك: كتبتُ بالقلم، وعملَ النَّجار بالقَدّوم...، ونحو ذلك. ينظر: المُبرّد، المُقتَضَب: 1/39.

(3) النَّسَفيّ، التّيسير في التّفسير: 8/111، والكفويّ، الكلّيّات، ص: 743.

(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/253.

أرادَ كلّ منْ لهُ إلمامٌ وعلمٌ بالسّحرِ، وكلّ منْ هوَ ماهرٌ بهِ، أي: كلّ منْ هوَ قادرٌ على حملِ السّلاحِ في هذهِ المعركةِ[1]، وهو سلاحُ السّحرِ؛ فإنَّ لفظ ﴿سَٰحِرٍ﴾ يعمُّ مَن كانَ لهُ إلمامٌ بالسّحرِ، ومَن هوَ بارعٌ فيه، راسخٌ في عِلْمه.

توجيه قراءة قوله تعالى: ﴿سَحَّارٍ﴾:

وقُرئ قولُه: ﴿سَٰحِرٍ﴾ بصيغةِ ﴿سَحَّارٍ﴾ على وزنِ (فَعّال)، وهي قراءةُ حمزةَ والكسائيّ وخَلَفٍ[2]، وهذه الصِّيغةُ دالَّةٌ على المبالغةِ وتكرارِ الفعلِ مرَّةً بعدَ مرَّةٍ، ثمّ إنّه دالٌّ على المُضيّ[3]، أي: أنّه مارَسَ السّحرَ وباشَرهُ وخَبِرهُ؛ فصارَ ضليعًا به، وهو مناسبٌ لقصدِ فرعونَ الّذي كانَ حريصًا على تهيئةِ الظّروفِ المناسبةِ للانتصارِ على مُوسى.

الدّلالةُ على المبالغةِ مناسبةً لقَصْدِ فرعونَ إلى الانتصار

إيثارُ (العليم) لفظًا وصيغة:

وفي التّعبيرِ بـ ﴿عَلِيمٍ﴾ وصفًا لـ﴿سَٰحِرٍ﴾؛ لقصد فرعون أن يكونَ المدعوُّ لمواجهة موسى ساحرًا واسعَ العلمِ، راسخًا فيه، متميّزًا بالإتقانِ للسّحرِ والعملِ فيه[4].

قَصَدَ السّاحرَ المتقِنَ للسّحرِ العليم به

وفي التّعبيرِ بـ ﴿سَٰحِرٍ عَلِيمٍ﴾ إشارةٌ إلى أنَّ أمرَ فرعونَ كانَ مُقتصرًا على كبار السّحَرةِ ورموزهم في مصر آنذاك، فهم أبصرُ بدقائقه، وأقدَر منْ غيرهِمْ على أنْ يُظهروا من القُدراتِ ما يفوقُ خوارقَ مُوسى - حسب تقدير فرعون ومَنِ استخفه مِن قومه - والتّعبيرُ بـ ﴿عَلِيمٍ﴾ مانعٌ من قدومِ سَحَرَةٍ لا يكونُ عملهُمْ مكافئًا لما يُظهرهُ مُوسى؛ لأنَّ فشلَهمْ ترويجٌ لدعوةِ مُوسى بينَ عامَّةِ الأمّةِ[5].

(1) عبد الكريم الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 10/133.
(2) ابن الجزريّ، النّشر: 2/270.
(3) ابن خالويه، الحُجّة في القراءات السّبع، ص: 160، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 14/333.
(4) رشيد رضا، تفسير المنار: 11/382.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/253.

صيغةُ (فَعِيل) في قولِه (عَلِيمٍ) لإفادةِ المبالغةِ

في قولِه: ﴿عَلِيمٍ﴾ صيغةُ مبالغةٍ زِنةُ (فَعِيل)[1]، فَوَصْفُ السّاحر بالعليمِ دالٌّ على مبالغتهِ، أي: أنّهُ عليمٌ بالسّحرِ، كثيرُ العلمِ بأنواعهِ وعملهِ[2].

توجيهُ المُتشابهِ اللّفظيّ:

تعاظُم خوفِ فرعونَ هو الدَّافع لطلب السَّحرة

تتشابه الآية هنا مع قولِه تعالى: ﴿يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ١١٢﴾ [الأعراف: 112]، وقولُه تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِي بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ﴾، ووجهُ التّشابهِ بينَ الآيتينِ: هو خِتام الآيتين بقولِه: ﴿بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ﴾، والفرقُ بينَ التّعبيرَيْنِ أنَّ القائلينَ في سورةِ الأعرافِ همُ الملأُ منْ قومِ فرعونَ، أمّا في هذهِ الآيةِ؛ فالقائلُ هوَ فرعونُ نفسُه، وسرُّ ذلكَ أنّهُ أرادَ أن يأخذَ معارضةَ مُوسى على الغايةِ مِنَ الأهميّةِ والجدِّ؛ فكانَ الأمرُ صادرًا منهُ، وفيهِ إيذانٌ بالخوفِ والهَلعِ مِنْ دعوةِ مُوسى، حتَّى تصدّى لهُ بنفسهِ.

التّعبيرُ بـ ﴿بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ﴾ في الموضعينِ:

وقولُه: ﴿بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ﴾ في يونسَ مناسبةً لقولِه: ﴿وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ٧٧﴾ [يونس: 77] قبلَه، أمّا في الأعرافِ فمناسبةً لقولِه: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ١٠٩﴾ [الأعراف: 109][3].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

عليم وخبير وحكيم:

العليمُ: القَويُّ العِلْم، وهو في أسمائه تعالى دالٌّ على أكمل العِلْم، أي: العِلْم المحيطِ بكلِّ معلوم. والخَبير: أخصُّ مِنَ العَليم؛ لأنَّه مُشتقٌّ مِن خَبِرَ الشَّيء؛ إذا أحاطَ بمعانيه ودخائله؛ ولذلك يُقال: خبرتُهُ، أي: بلوتُهُ وتطلَّعتُ بواطنَ أمرِه.

(1) سيبويه، الكتاب: 1/110.
(2) الهلال، تفسير القرآن الثّريّ: 11/122.
(3) زكريا الأنصاريّ، فتح الرّحمن: 1/204.

والحكيمُ: وَصْفٌ مِنَ الحِكمة، وهي مُنتهى العِلْم، أو مِنَ الإحكام: وهو إتقان الصُّنع[1].
وناسَبَ طلبَ فرعونَ السَّحرةَ المُتقنين المحيطين بهذا العِلْمِ لفظُ ﴿عَلِيمٍ﴾؛ سعيًا إلى غَلَبَة موسى عليه السلام.

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 22/197، و28/354.

﴿فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلۡقُواْ مَآ أَنتُم مُّلۡقُونَ ٨٠﴾

[يونس: 80]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لـمَّا أحسَّ فرعون بالخطر الـمُحدِق به، قرَّر الاستعانةَ بالسّحرة؛ لمعارضة معجزة موسى ومقاومة دعوته، فأمر بإحضار حُذّاق السّحرة وأمهرهم، من كلّ حَدَبٍ وصَوّب؛ ليُظهرَ للنّاس أنّ ما أتى به موسى نوعٌ مِنَ السّحر، الّذي يريد أن يسْحَر به النّاس ليتّبعوه، فيَصدَّ النّاسَ عنِ اتّباعه، باعتبار أنّه ساحر[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَلۡقُواْ﴾: أصْلُ (لقي) يَدلُّ على طَرْحِ شَيْءٍ[2]، واللَّقَى: الشَّيْءُ الـمُلْقى الـمَنْبُوذ[3]، والإلْقَاءُ: طَرْحُ الشَّيء حيث تلقاه، أي: تراه، ثمَّ صارَ في التَّعارف اسمًا لكلِّ طَرْحٍ[4]، ويُطلَقُ على الإفْضاءِ بالكلام: ﴿يُلۡقُونَ ٱلسَّمۡعَ﴾ [الشُّعراء: 223]، وعلى حُصُولِ الشَّيءِ في النَّفْسِ كأنَّ مُلقيًا ألقاهُ، أي: مِنْ غير سَبْقِ تهيُّؤٍ: ﴿وَأَلۡقَيۡنَا بَيۡنَهُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ﴾ [المَائِدَة: 64][5]، والمُراد بالإلقاء في الآية: رَمْيُ شَيءٍ في اليَدِ إلى الأرْضِ.

المَعْنى الإجْماليُّ:

ثقة المؤمن بربِّه تجعله مُطمئنًّا بنصره

لـمَّا جاء السَّحرةُ، قال لهم موسى: اطرَحوا على الأرضِ ما تُريدون طرحَه، ممّا مَعَكم مِنَ الحِبالِ والعِصِيِّ، بعد أن خيَّروه بينَ

(1) الزّحيليّ، التّفسير المنير: 11/240.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (لقي).
(3) ابن عبّاد، المحيط في اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (لقي).
(4) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحُفّاظ، والزَّبيديّ، تاج العروس: (لقى)
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 4/123.

أنْ يُلقِيَ ما عندَه أوّلًا، أو يُلقوا ما عندَهم، كما جاء ذلك في سورتي الأعراف وطه؛ ليَظْهَرَ الحَقُّ ويُبطلَ الباطل[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالةُ الوَصْلِ بالفاءِ:

عَطَفَ مجيءَ السَّحرةِ، وقولَ مُوسى لهم على جملةِ (وقالَ فِرْعَوْنُ)

قولُه تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ﴾ من بابِ العطفِ؛ فقدْ عطفَ هذه الجملة على ما سبقَها[2] من قولِه: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِي﴾، فوصلَ مجيءَ السّحرةِ بقولِ فرعونَ بالفاءِ، ودلالةُ ذلكَ اتِّصالُ هذهِ الجملةِ معَ سابقتِها اتّصالًا وثيقًا؛ لأنّ الأُولى أمرٌ، وهذهِ جوابُ الأمرِ فلا انفصالَ بينهُما.

دلالةُ الفاءِ في قوله: ﴿فَلَمَّا﴾:

الفاء للتَّعقيب أفادت أنَّ الأمر على الفور لا على التَّراخي

والفاءُ في: ﴿فَلَمَّا﴾ هي فاءُ التّعقيبِ المؤذِنةُ بسرعةِ الاستجابةِ في إحضارِ السّحرةِ، بعدَ أن جاءَ الأمرُ مِن فرعونَ بإحضارِهم؛ فَسُرعَةُ التّعقيبِ تُماثِلُ الإسراعَ بالشّيءِ المأمورِ به[3].

فإذا لمْ يمكنْ عَطْفُ هذهِ الجملةِ على سابقتِها، واقتضى التّركيبُ كلامًا مُقدّرًا يستدعيهِ المقامُ، فهيَ الفاءُ الفصيحةُ المؤذِنةُ بسُرعةِ امتثالِهمْ لأمرِ فرعونَ؛ فالمقامُ لا يَحْتَمِلُ كلامًا آخرَ؛ لسُرعةِ إجابتهم، والتّقديرُ: فأتَوا بكلّ ساحرٍ؛ فلمّا جاؤوا[4] قالَ: ألقوا.

بلاغة حذف المعطوف:

حَذَفَ إتيانَهم بالسَّحَرة واستغنى عنه بدلالة السّياق

في قولِه تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ﴾ حَذْفٌ مُرَتَّبٌ على أمرِ فرعونَ بأن يُؤتَى بكلّ ساحرٍ، فتقديرُ الكلامِ بعدَ أمرِ فرعونَ: (فأتَوا بهم إليه)[5]، فَحَذَفَهُ لضآلةِ جدواهُ، وهوانِ مغزاهُ في الغايةِ الّتي

(1) ابن جرير، جامع البيان: 12/241، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 8/367، والمراغيّ، تفسير المراغيّ: 11/143.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/253.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/253.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/169.
(5) الشّوكانيّ، فتح القدير: 2/529.

سيقتِ القصّةُ لأجلها، ففي السّياقِ ما يُغني عنهُ، ويدلّ عليهِ عقلًا ولفظًا؛ تحقيقًا للإيجازِ[1].

التّعبيرُ عنِ المجيءِ بالماضي:

وعبَّر بالفعلِ الماضي في قولِه: ﴿جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ﴾ دلالةً على امتثالِهم لأمرِ فرعونَ وجمعِهم السّحرةَ[2]، وذلك لما يُؤدّيهِ الفعلُ الماضي مِنَ التَّحَقُّقِ والوقوعِ؛ معارضةً لمُوسى عليه السلام بسحرِهم.

امتثلوا أمرَ فرعونَ، وجُمعَ السّحرةُ لمواجهة مُوسى

سرُّ إيثار التّعبيرِ بـ (المجيءِ) دونَ (الإتيانِ):

أُوثِرَ التّعبيرُ بفعلِ المجيءِ في قولِه: ﴿جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ﴾ دونَ الإتيانِ؛ لما في الفعلِ ﴿جَآءَ﴾ من دلالةِ الحصولِ[3]، أي: إنَّ مجيئَهُمْ حاصلٌ لا محالةَ بلا تباطؤٍ، وكيفَ لا يكونُ كذلكَ والآمِرُ فرعونُ الإلهُ بزعمِه - لعنه الله -، ومِن دِقّة النَّظم القرآنيّ التَّعبيرُ عنِ القصد بالإتيان، وعنِ التَّحقّق بالمجيء.

فعلُ المجيءِ دالٌّ على الحصولِ، فمَجِيءُ السّحرةِ واقعٌ لا محالةَ

دلالةُ (أل) في لفظ: ﴿ٱلسَّحَرَةُ﴾:

التّعريف في قولِه: ﴿ٱلسَّحَرَةُ﴾ دالٌّ على التّعريفِ العهديّ الذِّكريّ، والمعنى: أنّهم السّحرةُ المطلوبونَ الموصوفونَ[4] في أمرِ فرعونَ، وأنَّ مِن صفاتِهم كيتَ وكيتَ، في قولِه: ﴿بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ﴾.

السّحرةُ المطلوبونَ هم المذكورون بالوصف

وجهُ جمعِ: ﴿ٱلسَّحَرَةُ﴾:

و﴿ٱلسَّحَرَةُ﴾ جمعٌ مُكَسّرٌ، مفردهُ (ساحرٌ)، وجاءَ به جمعًا، وهو مِن جموع الكَثْرة على وزن (فَعَلَة) كـ(خَدَمَة)؛ لأنّه أرادَ كلَّ مَنِ اجتمعتْ فيهِ هذهِ الصّفةُ، وهيَ السّحرُ في أرضِ مصرَ[5]، وهم كثيرون آنَذَاك، فطَلَبَهم على كَثرتهم، وحضروا بعديدهم.

أرادَ فرعونُ أن يأتوهُ بجميعِ السّحرةِ في أرضِ مصرَ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/254.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/174.
(3) الرّاغب، المفردات، ص: 212.
(4) رشيد رضا، تفسير المنار: 11/382، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/254.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/174.

وجهُ الفصلِ بالقولِ:

الفصلُ في فعلِ القولِ في قولِه تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ﴾، يجري على طريقةِ المحاوَرةِ؛ فلم يَعْطِفْ دَرءًا لتكرارِ العاطفِ، فَفِعْلُ القولِ يَرِدُ مُكرَّرًا مثلَما تقتضيهِ المحاوراتُ، نحو: (قالَ:...، وقلتُ:...)، وهو أسلوبٌ عربيّ فصيحٌ يَطَّردُ في آيِ التّنزيلِ، في تعويضِ فعلِ القولِ مِن أدواتِ العطفِ.

الجري على طريقةِ القولِ في المحاورةِ دفعًا لتكرارِ العاطفِ

بلاغةُ تقديمِ شِبهِ الجملةِ ﴿لَهُم﴾ على الفاعلِ:

بلاغةُ تقديمِ شبهِ الجملةِ هنا ﴿لَهُم﴾ مُتوجّهٌ إلى الاختصاصِ، فمعنى: ﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ﴾ أي: لهُم لا لغيرِهم، فهُم المعنيّونَ بالإلقاءِ لا يتعدّاهُ إلى غيرِهم.

اختصّهم بالكلامِ لأنّهم المُلْقُونَ لا غيرَهُم

نُكْتَةُ التّصريحِ بالفاعلِ مقابلَ حَذْفِ فرعونَ:

وصرّحَ بالفاعلِ في قولِه: ﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ﴾ وأظهرَ اسمَ مُوسى؛ لأنّهُ لم يَرِدْ "ذِكْرٌ لنداءِ السّحرةِ إيّاهُ وتخييرِهم لهُ"[1]؛ فرامَ إبرازَهُ دفعًا لما يُتوهّمُ أنّهُ ليسَ هو القائلَ؛ لأنّ قولَه: ﴿فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ﴾ جوابٌ لطلبِ فرعونَ، فلو لم يُظْهِر اسمَ مُوسى لتُوهِّمَ أنّ القائلَ هو فرعونُ.

ليسَ في الآيةِ ذِكرٌ لنداءِ السّحرةِ مُوسى وتخييرِهِمْ لهُ فأظهرهُ

دلالةُ فعلِ الأمرِ ﴿أَلْقُواْ﴾:

فعلُ الأمرِ ﴿أَلْقُواْ﴾ في الآيةِ دالٌّ على التّسويةِ على إرادةِ الاختيارِ، وبيانِ عدمِ المبالاةِ وقلّةِ الاهتمامِ لأيٍّ مِنَ الأمرينِ[2]، بأنْ يبتدئوا همْ بالإلقاءِ، أو يكونَ هوَ البادئَ؛ فالأمرُ عندَهُ سواء.

الواثق بنصر ربّه تتملّكه الثّقة

يدلّ فعلُ الأمرِ على الاحتقارِ؛ لأنّ ما جئتُم به مِن سحركُم صغيرٌ وحقيرٌ بالنِّسبةِ إلى ما جاءَ به مُوسى عليه السلام مِنَ المعجزاتِ[3].

سحرُهم حقيرٌ بالنسبةِ لمعجزةِ مُوسى عليه السلام

(1) رشيد رضا، تفسير المنار: 9/57.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/254.
(3) الدّسوقيّ، حاشية على مختصر المعاني: 2/414.

إيثارُ لفظِ (الإلقاء):

فعلُ الأمرِ ﴿أَلْقُواْ﴾ مِنَ الإلقاءِ، ومعناهُ: طَرْحُ الشّيءِ حيثُ تجدهُ، أي: تراهُ وتَعْثُرُ عليهِ، ثمّ غدا الإلقاءُ اسمًا مُتعارفًا عليهِ لكلّ طرحٍ[1]؛ فوردَ على لسانِ مُوسى عليه السلام في مقاولتهِ سَحَرَةَ فرعونَ.

الإلقاءُ طرحُ الشّيءِ حيثُ تراهُ، ثمّ صارَ في العرفِ اسمًا لكلّ طَرْحٍ

وحقيقةُ الإلقاءِ أنْ ترميَ ما في اليدِ إلى الأرضِ، وفي التّعبيرِ عنْ عملِ السّحرِ بلفظِ الإلقاءِ تناسُبٌ في الهيئةِ والمعنى؛ فإنَّ أكثرَ تصاريفِ السّحرةِ في ما يصنعونَ من سحرٍ، يكونُ برَميهم الأشياءَ على الأرضِ[2]؛ ليَسْحروا أعينَ النّاسِ ويَسترهبوهُم، كقولِه تعالى: ﴿فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾﴾ [طه: 66].

الإلقاءُ رميُ الأشياءِ إلى الأرضِ، وهو أكثرُ تصاريفِ السّحرةِ

إيثارُ التّعبيرِ بالموصولِ ﴿مَآ﴾:

آثرَ البيانُ القرآنيُّ التّعبيرَ بـ ﴿مَآ﴾ في قولِه: ﴿مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ﴾؛ لأنّهُ قصدَ بهِ العمومَ البدليَّ، على تقديرِ: (ألقوا أيَّ شيءٍ تُلقونهُ)، وفي ذلكَ زيادةٌ في إبداءِ عدمِ اهتمامهمْ بما جاءَ بهِ أولئكَ السّحرةُ، وتوطئةٌ للملأِ الموجودينَ، بأنَّ الحقَّ سبحانَهُ سيُبطلُ سحرَهمْ على يدِ مُوسى[3] عليه السلام.

إظهارُ عدمِ الاكتراثِ بسِحرِهم تهيئةٌ للحاضرينَ بأنّ اللهَ مبطلٌ عملَهم

سرّ الإتيان بالضَّمير المُنفصل:

السِّر في الإتيان بالضَّمير المُنفصل ﴿أَنتُم﴾ هو إظهارُ قِلَّةِ الاكتراثِ بهم؛ والاستِطالةُ عليهم، وعدَمُ المُبالاة بهم، والتَّخسيس لشأنهم، وتقليلُ منزلتهم على كَثْرتهم وعُلوّ كَعْبهم في عِلْم السّحر، وللإعلام بأنَّهم وما سيفعلونه لا يَسْتَحِقُّ الالتفاتَ إليه.

السَّحرةُ وسِحرُهم لا يستحقانِ الاكتراثَ

وجهُ التَّعبيرِ باسمِ الفاعلِ على صيغةِ الجمعِ:

وجاءَ باسمِ الفاعلِ المجموعِ جمعَ مذكرٍ سالمًا في قولِه: ﴿مُّلْقُونَ﴾

في قوله (مُلْقُونَ) إشارةٌ إلى رسوخِهم في صنعةِ إلقاء ما يتعاطونهُ مِنَ السّحرِ

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 6/156.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/254.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/254.

في سياقِ الجملةِ الاسميّةِ؛ إشارةً إلى ثباتِهمْ ورسوخِهمْ وعراقتِهم في صُنعةِ إلقاءِ ما يتعاطَونَهُ مِنَ السّحرِ[1]، وعلى كثرة ما سيُلْقُونه مِن سحرٍ، ويستعملونه مِن أدواته.

نُكْتَةُ إبهامِ المُلقى:

الـغـرض مِـن طَـيِّ ذِكْـرِ صورةِ سحرِهِمْ وصفُ إعـراضِ فرعونَ ومَلَئِه

في قولِه: ﴿مُّلْقُونَ﴾ إبهامٌ وتعميةٌ بطَيِّ ذِكْرِ سِحرِهمْ هاهنا؛ فإنَّ الغايةَ منْ إيرادِ ذلكَ وصفُ إصرارِ فرعونَ ومَلَئِهِ على الصَّدِّ عنِ الدّعوةِ، وما كابَدَهُ المستضعفونَ الَّذينَ آمنوا بمُوسى، ثمّ ما كانَ مِن عاقبتهم الحُسنى؛ فإنَّ هذا أهمُّ في هذا المقامِ من ذكْرِ سحرةِ فرعونَ، وما كانَ مِنِ انهزامِهمْ واندحارِ سِحْرِهمْ أمامَ معجزةِ مُوسى[2] عليه السلام. وفي إبهامِ المُلْقَى وتعميَتِه إشارةٌ إلى أنّ الّذي جاؤوا به حقيرٌ لا يُعتدّ بهِ، وليسَ له قيمةٌ ولا اعتبارٌ، وليسَ أهلًا لأنْ يُلقَى إليهِ بالٌ، ولا ينبغي الالتفاتُ إليه[3]، وهذا دليلٌ على أنّ مثل هذا يكون مِنَ الأمورِ التي لا يجب الخوضُ فيها، والسُّؤالُ عنها؛ إذْ هي عِلْمٌ لا يَنفع، وجهلٌ لا يَضرّ.

بلاغةُ جناسِ الاشتقاقِ: ﴿أَلْقُواْ﴾ و﴿مُّلْقُونَ﴾:

تـوكـيـدُ الإبـهـامِ زيادةٌ في التَّحقير

في قولِه: ﴿أَلْقُواْ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ﴾ تلوينٌ لفظيٌّ في الخطابِ يُسمّى الجناسَ، وهو ينتمي إلى جناسِ الاشتقاقِ[4]، والغرضُ منه "حُسنُ الإفادةِ معَ أنّ الصّورةَ صورةُ التّكريرِ والإعادةِ"[5]، ففي ﴿مُّلْقُونَ﴾ عودٌ على ﴿أَلْقُواْ﴾، وفيه نوعٌ مِن توكيدِ الإبهامِ، غرضُه: زيادةُ التّحقيرِ والتّخسيسِ لما يُلقونَ، وأنّه ممّا لا يُؤْبَهُ له، ولا يُهْتَمُّ به.

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/174.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/255.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/92، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 9/174.
(4) ضربٌ بديعيّ بأن ترد كلمتان مختلفتان حرفًا متفقتان أصلًا واشتقاقًا. يُنظر: العَلويّ، الطّراز لأسرار البلاغة: 2/187.
(5) الجُرجانيّ، أسرار البلاغة، ص: 17.

توجيهُ المتشابهِ اللّفظيّ:

آيةُ يونسَ قائمةٌ على الإيجازِ، وآيتا الشُّعراءِ على التّفصيلِ

قال تعالى في سورة [يونس: 80 - 81]: ﴿فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلۡقُواْ مَآ أَنتُم مُّلۡقُونَ ٨٠ فَلَمَّآ أَلۡقَوۡاْ﴾، وقال في سورة الشعراء: ﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلۡقُواْ مَآ أَنتُم مُّلۡقُونَ ٤٣ فَأَلۡقَوۡاْ حِبَالَهُمۡ وَعِصِيَّهُمۡ﴾ [الشعراء: 43- 44]، والسُّؤال: لمَ خُصّتْ كلُّ آيةٍ بما وردَ فيها بعدَ طلبِ مُوسى أن يُلقوا ما هم ملقونَ؟ والجوابُ عن ذلكَ؛ أنّ الواردَ في سورةِ يونسَ سياقٌ قائمٌ على الإيجازِ في ذِكْرِ سحرةِ فرعونَ - فلم يذكر المحاورة كما ذكرها في سورة الشعراء في قوله: ﴿فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُواْ لِفِرۡعَوۡنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجۡرًا إِن كُنَّا نَحۡنُ ٱلۡغَٰلِبِينَ ٤١ قَالَ نَعَمۡ وَإِنَّكُمۡ إِذٗا لَّمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ﴾ [الشعراء: 41- 42] - ولهذا الإيجاز الحاصل في سورة يونس في الانتقال إلى حدث الإلقاء مباشرة، ناسبه أن يُوجز ويحذف مفعولَ ﴿أَلۡقَوۡاْ﴾، أمّا سياقُ آيتي الشُّعراء فمبنيٌّ على إظهار توالي الأحداثِ، والتَّفصيلِ بما يتعلّقُ بالسّحرةِ، فذكرَ المفعولَ ﴿حِبَالَهُمۡ وَعِصِيَّهُمۡ﴾ [الشعراء: 44].

إظهارُ فرعون في سورة الأعراف بوصفه المقصودَ من مجيئهم

إظهار المفعول ﴿فِرۡعَوۡنَ﴾ في: ﴿وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرۡعَوۡنَ قَالُوٓاْ إِنَّ لَنَا لَأَجۡرًا إِن كُنَّا نَحۡنُ ٱلۡغَٰلِبِينَ ١١٣﴾ [الأعراف: 113] دليلٌ على أنّه المقصودُ مِن مجيئهم، فهو المكافئُ لهم إنِ انتصروا، والمنعِمُ عليهم إن غَلبوا وأظْهَروه؛ لأنّ مَلْمَحَ سورةِ الأعراف التَّفصيلُ، أمّا هنا فاستغنى بالمذكور عن التَّصريح بفرعون بقوله: ﴿فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلۡقُواْ مَآ أَنتُم مُّلۡقُونَ﴾؛ لأنّ مَلْمَح سورةِ يونس الإيجازُ؛ فالمقطع مِن قصّة موسى عليه السلام جاء بعد إشارةٍ قصيرةٍ إلى نبأ نوحٍ وقومه، تتبعُها لمحةٌ عامّةٌ عنِ الرُّسل مِن بعد نوح، وموقفِ قومِهم منهم، ولذلك نجدها لا تتناول مِنَ التَّفاصيل إلّا القدرَ الّذي يرتبط بموقف فرعونَ ومَلَئِه من موسى، والمصيرِ الّذي لاقاهُ هؤلاءِ نتيجةً لإعراضهم عنِ الدَّعوة وتكذيبِهم بها.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

أَلْقى ورَمَى وقَذَفَ:

يُصرِّفُ السَّحرة أعمالَهم بـ رَمْي أشياءَ إلى الأرض

الإلقاءُ: رَميُ شيءٍ في اليد إلى الأرض، ومنه الإلقاء على عمل السِّحر؛ لأنَّ أكثر تصاريفِ السَّحرة في أعمالهم السِّحريَّة يكون برَمي أشياء إلى الأرض.

والرَّميُ: حقيقته إلقاءُ شيءٍ أمسكَتْه اليدُ، ويُطلق على الإصابة بسُوءٍ مِن فِعْلٍ أو قَولٍ[1]، ويُختصُّ في الأصل بالأشياء المحسوسة، ويُستعار للقذف بالزِّنا والإثم والخطيئة.

والقَذْفُ: الرَّميُ البعيد؛ ولاعتبار البُعد فيه قيل: مَنْزِلٌ قَذَفٌ وقَذِيفٌ، وبَلْدَةٌ قَذُوفٌ: بعيدة. واستُعيرَ القَذْفُ للشَّتْم والعَيب، كما استُعيرَ الرَّمي[2]. ولمّا كان أسلوبُ السَّحرةِ طرحَ أعمالِهم السِّحريّةِ أرضًا، ناسبَ لفظُ الإلقاء الّذي يعني رَميَ شيءٍ في اليد إلى الأرض.

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/254، و9/294.
(2) الرّاغب، المفردات: (قذف).

﴿فَلَمَّآ أَلۡقَوۡاْ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئۡتُم بِهِ ٱلسِّحۡرُۖ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبۡطِلُهُۥٓۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصۡلِحُ عَمَلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ٨١﴾ [يونس: 81]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

أثـر فـي النّـاس إلقاؤهم ما ألْقَوْا

لَمّا طلبَ منهم مُوسى أنْ يُلقوا ما بأيديهم أوّلًا، أجابَهُ السّحرةُ؛ ووقعَ منهم الإلقاءُ بحِبالِهِمْ وعِصيِّهِمْ جوابًا لمقالتهِ، وسحروا أعينَ النّاسِ بما أفسدَ عقولَهُم وزلزلَها[1]، وما علموا أنّه تعالى مُبطِلٌ صنيعَ المفسدينَ.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿سَيُبۡطِلُهُۥٓۖ﴾: أصلُ (بطل): يدُلُّ على ذَهابِ الشَّيءِ وقِلَّةِ مُكْثِهِ وَلُبْثِهِ. وسُمِّيَ الشَّيطانُ: الباطِلَ؛ لأنَّهُ لا حَقيقَةَ لأفْعالِهِ، وكُلُّ شَيءٍ منه فلا مَرْجُوعَ له، ولا مُعَوَّلَ عليه[2]. والإبْطَالُ: التَّضْييعُ وَالإهْدَارُ[3]. والبطل: الشجاع، قال أصحاب هذا القياس سُمّي بذلك لأنه يُعَرِّضُ نفسه لِلْمَتالف[4]. وهو صحيح، يقال: بطل بين البطولة والبطالة.

والإبْطالُ والبُطْلانُ: إفْسادُ الشَّيءِ وإتْلافُه، سَواءٌ كانَ حَقًّا أو باطِلًا[5]، تَقُولُ: بَطَلَ الدَّوَاءُ إذا فَسَدَ وَتَلِفَ وذَهَبَ ضَياعًا وخُسْرَانًا. والمقصود بالإبطال في الآية: إظهارُ أنّ السِّحرَ تخييلٌ وليس بحقيقةٍ؛ لأنَّ إظهار ذلك إبطالٌ لما أُريد منه[6].

2) ﴿ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾: أصْلُ الفَسَاد: الخُرُوجُ عنِ الاعْتِدالِ[7]، يُقال:

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/174.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (بطل).
(3) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة: (بطل).
(4) الخليل، العين، وابن عبّاد، المحيط في اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (بطل).
(5) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحُفّاظ: (بطل).
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/256.
(7) الرّاغب، المفردات، والزّبيديّ، تاج العروس: (فسد).

فَسَدَ الكَلامُ، أيْ: خَرَجَ عن حَدِّهِ. وضِدُّه: الصَّلاحُ[1]، والفَسَادُ في الأرضِ هَيجُ الحروب والفِتَن؛ لأنَّ في ذلك فسادَ ما في الأرض، وانتفاءَ الاستقامة عن أحوال النَّاس والزَّرع والمنافع الدِّينيّة والدُّنيويَّة[2]. والمقصود بالمفسدين في الآية: السَّاعون في أرض الله بما يكرهه.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

التَّوكُّل على الله تعالى من صفات المؤمن القويِّ

لَمَّا طرحوا ما عندهم مِنَ السِّحر قالَ لهُم مُوسى عليه السلام: إنَّ الَّذي جِئتُم به وألقَيتُموه هو السِّحرُ عينُهُ، إنَّ الله سيُصيِّر ما صنعتم باطلًا لا أثر له، فإنَّه لا يُصلِحُ أعمالَ الَّذين يَسعَونَ في الأرض بما يَكرَهُه، فلا يُتِمُّها لهم فينتَفِعونَ بها، ولا يُثيبُهم عليها[3].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالةُ الفاءِ في ﴿فَلَمَّآ﴾:

المجاوبة بين الطَّرفين تقتضي التَّرتيب والتَّعقيب

الفاءُ في: ﴿فَلَمَّآ﴾ هي الفاءُ الدّالَّة على العطف والتّعقيبِ والتَّرتيب، نتيجةَ المجاوَبة والمقاوَلة بينَ الطَّرفيْن، لطلب مُوسى عليه السلام أن يكونوا أوَّل المُلْقين[4].

بلاغةُ الوَصْلِ بالفاءِ:

الفعلُ موصولٌ عطفًا على محذوفٍ مُقدَّر

في قولِه تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَلۡقَوۡاْ﴾ جملةٌ موصولةٌ بما سبقهَا بالفاءِ العاطفةِ؛ فوصلَ فعلَ الإلقاءِ بكلامٍ محذوفٍ مُتّصلٍ بما قبلَهُ تقديرهُ: (فألقى السّحرةُ سِحرهُم أوَ ما عندَهم)[5]، وهذا المحذوفُ المُقدّرُ جوابٌ لطلبِ مُوسى؛ فالجُمَل متعالِقةٌ فيما بينها، شديدةُ الاتّصالِ.

(1) الخليل، العين، وابن منظور، لسان العرب: (فسد).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المُؤصّل: (فسد).
(3) ابن جرير، جامع البيان: 12/244، والواحديّ، التّفسير البسيط: 11/279.
(4) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3621.
(5) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 12/335.

دلالة أداة الشَّرط ﴿فَلَمَّآ﴾:

رتّب الجواب ترتُّبَ المعلولِ على العِلّةِ

﴿فَلَمَّآ﴾ في الجملةِ أداةُ شرطٍ غيرُ جازمةٍ، وهيَ حرفٌ عندَ ابن هشام، ومنْ أنواعِها الدّخولُ على الفعلِ الماضي[1]، وتُسمّى (لَمّا الحِينِيَّةَ)؛ لدلالتِها على الظّرفِ، وتفيدُ تعليقَ الجوابِ على الشّرطِ؛ فإنّهمْ لَمّا ألقوا ما عندهُمْ قالَ لهمْ مُوسى قولتهُ، وفعلُ القولِ جوابُ لَمّا[2]، فقدْ رتّبَ الجواب ترتُّبَ المعلولِ على العلّةِ.

نكتةُ صوغِ فعلِ الإلقاءِ ماضيًا، مجموعًا:

الإلقاءُ واقعٌ حتمًا، وفِعلُ الجمعِ يفوق فِعلَ الأفرادِ

الفعلُ ﴿أَلْقَوْاْ﴾ دالٌّ على المُضِي، مُسنَدٌ لجمعِ السّحرةِ المُلْقِينَ، ودلالةُ صَوْغِهِ ماضيًا مجموعًا؛ أنَّ الإلقاءَ قدْ وقعَ منهُمْ بحِبالِهِمْ جوابًا لمقالتِهِ[3]، والفعلَ الماضي يدلُّ على التّحقُّقِ والوقوعِ، ثمَّ إنَّ كونهُ مجموعًا دالٌّ على حرصِهِمْ على إرهابِ النّاسِ وزلزلةِ عقولِهِمْ، وإخافةِ مُوسى، وإرضاءِ فرعونَ؛ فإنَّ عملَ الجَمعِ فائقٌ طبيعةَ عَمَلِ الأفرادِ.

حذفُ مفعولِ الإلقاءِ:

تنزيلُ فعلِ الإلقاءِ منْزلةَ اللّازمِ؛ لتأكيد الإلقاء والاعتبار بانتصار المُستَضعَفين

لفظةُ ﴿أَلْقَوْاْ﴾ فعلٌ وفاعلٌ حُذفَ مفعولُه، وسِرُّ حَذْفِ مفعولِه أنّهُ أرادَ تنزيلَ الفعلِ المتعدّي منْزلةَ الفعلِ اللّازمِ؛ فالغرضُ بيانُ الإلقاءِ فعلًا وفاعلًا، ولا يتعلّقُ الغرضُ بذِكْرِ المفعولِ وبيانِه، بلْ كانَ الغرضُ الاعتبار ممّا حصلَ منْ نُصرةِ اللّه المستضعفينَ الّذينَ آمنوا بمُوسى، وكيفَ ختمَ لهم الحقُّ سبحانهُ بحسنِ العاقبةِ[4].

وجهُ الإبهامِ في التّعبيرِ بـ ﴿مَا﴾:

ما استُفْهِمَ عنهُ ليسَ جهلًا؛ بل احتقارًا وإنكارًا

وجهُ التّعبيرِ بـ ﴿مَا﴾ الدّالّة على الإبهامِ في قولِه: ﴿مَا جِئْتُم﴾،

(1) ابن هشام، مُغني اللبيب، ص: 369.
(2) الهرري، حدائق الرّوح والرّيحان: 12/335.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/174.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/255.

هوَ على تقديرِ: أيُّ شيءٍ جئتُم بهِ ليسَ جهلًا؛ بل تحقيرًا وتصغيرًا لهم، وإنكارًا لما جاؤوا بهِ[1].

أبهمَهُ لقصدِ الاهتمامِ بذِكْرِهِ والتّشويقِ إلى معرفةِ الخبرِ

ودلالة ﴿مَا﴾ على الإبهامِ في قولِه: ﴿مَا جِئْتُم﴾، الغرضُ منه: الاهتمام بذِكْره، ثمّ جَعَل المخاطَب مُتشوِّقًا إلى معرفة الخبر[2].

بلاغةُ المجازِ في لفظِ المجيء:

الّذي يجيءُ بالشّيءِ يُظهِرُهُ في المكانِ الّذي حلَّ فيه

معنى قولِه: ﴿جِئْتُم بِهِ﴾ أي: أظهرتموهُ لنا، وليسَ المُرادُ أنّهم أتَوا من أمكنةٍ أُخرى ومعهُم السّحرُ؛ لأنّهُ وإن كانَ حاصلًا معَ بعضٍ منهُم، إلّا أنّهُ لا يَطّردُ في كلّ تعبيرٍ مُشابهٍ، فالتّعبيرُ بالمجيءِ ليسَ على وجهِ الحقيقةِ إذنْ؛ بل هوَ مجازٌ؛ فإنّ الّذي يجيءُ بشيءٍ يُظهرهُ في ذلكَ الموضعِ الّذي حلّ فيهِ[3].

دلالةُ الباءِ وَعَودُ ضميرِهِ في ﴿بِهِ﴾:

استعانوا بالسّحرِ طاعةً لفرعونَ ونُصْرةً لمذهبِهِم الباطلِ

الباءُ في ﴿بِهِ﴾ دالَّةٌ على الاستعانةِ بالسّحرِ؛ فإنّهمْ أظهروا سحرَهُمْ أمامَ مُوسى عليه السلام استعانةً منهمْ بهِ في بيانِ مذهبِهِمُ الباطلِ، ونصرةً لضلالِهِمْ، وطاعةً لفرعونَ، والضّميرُ يعودُ على ﴿مَا﴾ بمعنى الّذي[4] المفسَّرِ بالسّحرِ.

سِرّ تقديمِ جملةِ المُسنَدِ ﴿مَا جِئْتُم بِهِ﴾:

حَصْرُ السِّحرِ بهم، وقَصْرُه عليهم

سِرُّ تقديمِ جملةِ: ﴿مَا جِئْتُم بِهِ﴾ على ﴿ٱلسِّحْرُ﴾ أنّهُ أرادَ معنى الحصرِ على القراءةِ المشهورةِ، أي: الّذي جئتُم بهِ هوَ السّحرُ، ولا سِحْرَ غيرهُ ممّا سمّاهُ فرعونُ وقومُه سِحْرًا[5]، ولَمّا أُريدَ الحصرُ فإنّ المحصورَ ﴿ٱلسِّحْرُ﴾ يكونُ مُتأخِّرًا، وغيرُ المحصورِ ﴿مَا جِئْتُم﴾ يَتقدّمُ عليهِ.

---

(1) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 8/368، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 9/174.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/255.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/255.
(4) ابن عطيّة، المُحرَّر الوجيز: 3/135.
(5) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 7/543.

تعريفُ السّحرِ بيَن الجنسِ والعهديّة:

ما جئتُم بهِ هوَ السّحرُ لا الّذي ادَّعاه فرعونُ بتَذليسه

أوردَ لفظةَ ﴿ٱلسِّحۡرُۖ﴾ مُعرَّفةً، والتّعريفُ هنا للجنسِ، أي: عامٌّ في كلِّ ما يدخلُ تحتَ هذا الجنسِ، وهذا النّوعُ مِنَ التّعريفِ يُفيدُ القصرَ الإفراديَّ فضًّا لشراكتهِ مع سِحْرٍ آخَرَ، والمعنى أنَّ الّذي أتيتُمْ بهِ هوَ السّحرُ، لا الّذي ادّعاهُ فرعونُ مِن آياتهِ تعالى؛ فإنّهُ ليس سحرًا[1].

بالَغَ في وَصْفِ سِحْرِهِم لشَناعتهِ وشِدّةِ ضَرَرِهِ

ويجوزُ في تعريفِ لفظةِ ﴿ٱلسِّحۡرُۖ﴾ تعريفًا جنسيًّا أن تكونَ إفادتُها لقصرِ الجنسِ على المُسنَدِ إليهِ قصرًا حقيقيًّا، فلا سحرَ غيرُه، أو يكون قصرًا للمبالغةِ[2]؛ فإنّهُ لشناعتهِ وتمويههِ وتلبيسهِ على النّاسِ، فكأنّه لا سحرَ أضرّ على النّاسِ منهُ.

تعريفُ السّحرِ هنا للعَهدِ؛ لأنّهُ قد تقدّمَ مُنَكَّرًا

ويجوزُ في تعريفِ لفظةِ ﴿ٱلسِّحۡرُۖ﴾ أن يكون للعهدِ؛ لأنّهُ جوابٌ لكلامٍ سابقٍ هو قولُه: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسِحۡرٞ مُّبِينٞ ٧٦﴾ [يونس: 76] بالتّنكيرِ، وكلُّ لفظٍ يَرِدُ مُنكَّرًا أوّلًا يُعادُ مُعرَّفًا إذا كُرِّرَ، كقولكَ: وجدتُّ درهمًا، فتقولُ لهُ: أرني الدِّرهمَ، ولو نكّرتَهُ لكنتَ سائلًا عن درهمٍ غيرِه[3].

توجيهُ القراءةِ في (السِّحر):

قراءةُ الاستفهامِ دالّةٌ على التّوبيخِ

لفظةُ ﴿ٱلسِّحۡرُۖ﴾ في الجملةِ خبرُ ﴿مَا جِئۡتُم بِهِ﴾، وهي قراءةُ عامّةِ القرّاءِ، فيما قرأ أبو عمرو وأبو جعفرٍ ﴿ءَآلسِّحۡرُۖ﴾ بالاستفهامِ[4]، على تقديرِ: أيّ شيءٍ أتيتُم به؟ هل هو السّحرُ؟[5] وهو هنا على معنى التّوبيخِ والتّقريعِ[6]؛ أي: ماذا حملكُم على أن أتيتُم بهذا المُنكرِ المُسمَّى سحرًا؟.

لمْ يكنْ مُوسى يَشُكُّ في أنَّ ما رأى هو السّحرُ بعينهِ

وقراءةُ الخبرِ أقوى، فإنَّ مُوسى لمْ يكنْ يشكُّ في أنّهُ سحرٌ لا

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 6/156، والقونويّ وابن التَّمجيد، حاشية على تفسير البيضاويّ: 9/538.
(2) زاده، حاشية زاده على تفسير البيضاويّ: 4/597.
(3) الفرّاء، معاني القرآن: 1/475، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/135.
(4) ابن الجزريّ، النّشر: 1/378.
(5) الفرّاء، معاني القرآن: 1/475.
(6) النّحّاس، معاني القرآن: 3/308.

حقيقةٌ، وليستْ بهِ حاجةٌ للاستخبارِ عنْ حقيقةِ ما رأى، في كونهِ سِحْرًا أمْ غيرَ ذلك[1].

﴿مَا﴾ بيْن الاستفهاميّةِ والموصوليَّة:

في الموصولة أُريدَ العمومُ، وفي الاستفهاميّة أُريدَ التّوبيخُ والتّحقيرُ

﴿مَا﴾ في قولِه تعالى: ﴿مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ﴾ مُتردِّدةٌ بينَ الموصوليَّةِ والاستفهاميَّةِ، فعلى قراءةِ الجمهورِ في لفظةِ ﴿ٱلسِّحْرُ﴾ بهمزةِ الوصلِ تكونُ ﴿مَا﴾ موصولةً و﴿ٱلسِّحْرُ﴾ عطفَ بيانٍ، والمعنى: الَّذي جئتُم به السِّحْرُ، مع ما تحمله ﴿مَا﴾ من دلالة العموم. وعلى قراءةِ أبي عمرٍو وأبي جعفرٍ ﴿ٱلسِّحْرُ﴾ بهمزةِ الاستفهامِ تكونُ ﴿مَا﴾ استفهاميَّةً، وتكونُ كلمةُ ﴿ٱلسِّحْرُ﴾ بيانًا لـ﴿مَا﴾ المُستَفهَم بها، والغرضُ: إظهارُ كمالِ شناعةِ فعلِهم، فيُرادُ منهُ التَّوبيخُ والتَّحقيرُ[2]، والمعنى: أنّهُ أمرٌ يستطيعهُ ويعرفُ حالَهُ كلُّ أحدٍ، ولا يتصدَّى له ذو عقلٍ وحِجًا[3].

نُكْتَةُ التّوكيدِ بـ ﴿إِنَّ﴾، واسميَّةِ الجملةِ:

في التّوكيدِ زيادةٌ في إلقاءِ الرّوْعِ في نفوسِهم

قولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ﴾ جملةٌ اسميَّةٌ تقعُ خبرًا لـ﴿مَا﴾ الموصولةِ على قراءةِ الجمهورِ، أي: إنّ الّذي جئتُم بهِ هوَ السّحرُ، وإنَّ اللّه سيبطلُهُ بمَا أتيتُ بهِ منَ الحقِّ واليقينِ[4]، وقدْ أكّدها بـ ﴿إِنَّ﴾ زيادةً في تخويفِهم، وإلقاءِ الهَلَعِ في نفوسِهم[5].

توجيهُ إظهارِ لفظِ الجلالةِ:

زيادة المهابةِ في نفوسِ المعانِدينَ

في إظهارِ اسمِ الجلالةِ ﴿ٱللَّهَ﴾ زيادةٌ للمهابةِ وإدخال الخوفِ في نفوسِ المُعانِدينَ مِنْ قومِ فرعونَ وسَحَرَته، بما لهُ تعالى منْ صفاتِ الجلالِ والكمالِ من العلمِ والقدرةِ والإحاطةِ[6].

---

(1) ابن جرير، جامع البيان: 15/160.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/256، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 8/368.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/170.
(4) رضا، تفسير المنار: 11/382.
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/256.
(6) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/174.

دلالةُ السِّين في ﴿سَيُبۡطِلُهُۥٓ﴾:

سينُ الاستقبالِ مؤكِّدةٌ للسِّحر ومؤذِنةٌ بقُربِ إبطاله

والسّينُ في قولِه: ﴿سَيُبۡطِلُهُۥٓ﴾ دالَّةٌ على كَوْن السِّحْر حقيقةً واقعةً، إذْ لوْ كانَ باطلًا في أصلِه لاستحالَ إبطالُه على الاستقبالِ[1]، كما تدلُّ سينُ الاستقبالِ هنا على القريب الأمد، وليس المتطاول بـ (سوف) أو بالمضارع المُجرّد. وفي ذلكَ إشارةٌ إلى دُنُوّ محوِه وإبطالِه، وحصولِ ذلكَ العلم لمُوسى عليه السلام إمّا وحيًا، أو بفعلِ سُنَّتِه الكونيَّةِ؛ بأنّه تعالى لا يُصلحُ عملَ المفسدينَ[2].

ويجوزُ في سينِ الاستقبالِ هذهِ أن تكونَ دالَّةً على التَّأكيدِ، أي: إنّ الحقّ سبحانَهُ سيمحقُ السّحرَ ويُهلكهُ ولا يُبقي لهُ أثرًا، ويُصيِّرهُ باطلًا بما يُظهرُهُ على يَدَيْ مُوسى عليه السلام مِنَ الآياتِ البيِّنة المُعجزة[3].

إيثارُ لفظِ الإبطالِ:

إظهارُ السِّحْر على أنّهُ تخييلٌ إبطالٌ لتأثيره

آثرَ البيانُ القرآنيُّ لفظَ الإبطالِ في قولِه: ﴿سَيُبۡطِلُهُۥٓ﴾؛ لأنَّ الإبطالَ معناهُ: الإظهارُ، أي: إظهارُ أنّهُ ليسَ حقيقةً، بلْ هوَ تخييلٌ وتصويرٌ؛ لأنَّ إظهارهَ على هذهِ الهيئةِ إبطالٌ لما أُريدَ منهُ، فهوَ قائمٌ على فضحِ سِرّهِ، ومنْ ثَمَّ سيَبطلُ تأثيرهُ على النّاسِ[4].

عودُ الهاءِ في ﴿سَيُبۡطِلُهُۥٓ﴾:

أُضْمِرَ العائِدُ تحليةً للَّفظِ وإيجازًا للعبارةِ

الهاءُ في قولِه: ﴿سَيُبۡطِلُهُۥٓ﴾ مفعولٌ للفعلِ يبطلُ وهوَ عائدٌ على السّحرِ[5]، وهوَ من بابِ إيقاعِ المُضْمَرِ بعدَ ذكرِ الظَّاهرِ؛ تحليةً للَّفظِ، وإيجازًا للعبارةِ.

بلاغة الإطناب:

تقرير الخطاب تمكينٌ للخبر في الأذهان، وإيقاعٌ للرُّعب في النُّفوس

في قولِه: ﴿فَلَمَّآ أَلۡقَوۡاْ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئۡتُم بِهِ ٱلسِّحۡرُۖ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبۡطِلُهُۥٓ﴾

(1) السّخاويّ، تفسير القرآن العظيم: 1/372، و(السّين) و(سوف) حرفان يخلّصان الفعل المضارع للاستقبال، و(السّين) أقرب وقوعًا من: (سوف)، يُنظر: السّيرافيّ، شرح كتاب سيبويه: 1/31.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/256.

(3) القنوجيّ، فتح البيان في مقاصد القرآن: 6/107.

(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/256.

(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/255.

نظمَ الكلامَ على طريقةِ بسطِ عنانِ الخطابِ، المُسمَّى عندَ البلاغيِّينَ بالإطنابِ[1]؛ فقدْ جعلَ فعلَ المجيءِ مُسنَدًا إليهِ، منْ غيرِ أنْ يكونَ مفعولًا لفعلِ الإبطالِ، وأنّهَ جاءَ مُبهمًا، ثمَّ فسّرهُ بجُملة: ﴿جِئْتُم﴾، ثمَّ بيّنهُ بعطفِ البيانِ؛ قصْدًا إلى الاهتمامِ والتّشويقِ، ثمَّ مجيءِ المفعولِ ضميرًا للفعلِ ﴿سَيُبْطِلُهُۥٓ﴾، فكلّ ذلكَ على خِلافِ مُقتَضى الظّاهرِ؛ لتتقرّرَ حقيقةُ السّحرِ، وتتمكّنَ في أذهانِ السّامعينَ والمُخاطَبينَ خيرَ تمكُّنٍ، ويقعَ الرُّعْبُ والهَلَعُ في نفوسهمْ[2].

دلالة تقديم ﴿إِنَّ ٱللَّـهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ﴾:

جُملةُ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ﴾ مُقدَّمةٌ على جُملةِ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾، والمرادُ منْ هذا التّقديمِ: أنّهُ لا يتحقّقُ نفيُ الإصلاحِ إلّا بتسليطِ أسبابِ بُطلانهِ عليهِ؛ حتّى يكونَ تأثيرهُ باطلًا، وأنّ فسادَ أعمالِ أمثالهمْ هوَ إبطالُ أغراضِهمْ منها، وفسادُها وإظهارُ بُطلانِها[3].

لا يتحقّقُ نفيُ الإصلاحِ إلّا بتسليطِ أسبابِ بُطلانهِ عليهِ، حتّى يكونَ تأثيرُهُ باطلًا

تكرارُ إظهارِ اسمِهِ الأعظمِ:

في قولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ أعادَ إظهارَ الاسمِ الجليلِ، وعلّةُ هذا التّكرارِ هي إظهارُ الكمالِ كلّهِ له وَحْدَهُ تعالى في ملكوتِهِ[4]، وفي تكرارِه - أيضًا - إلقاءُ للرَّوعةِ، وتربيةُ المهابةِ[5].

الكمالُ كلّهُ للهِ وحدَه ﷻ

فلمْ يقلْ: (إنّ اللّه لا يُصلحُ عملَكُم)؛ فهم المخاطَبونَ بذلكَ؛ وسرُّ ذلكَ تأكيد الإفسادِ عليهم، إذِ السِّحْر مِنَ المفاسد الكبرى الموبِقَة، والإشعارُ بعِلّةِ الحُكمِ، أي: مُسوِّغِ الإبطال.

سجَّلَ عليهم بالإفسادِ والإشعارِ بعلّةِ الحكمِ

(1) ومعناه الاصطلاحيّ: "زيادة اللّفظ على المعنى لفائدة جديدة من غير تكرير، وهو وادٍ من أودية البلاغة، ولا يَرِد إلا في الكلام المُؤتلِف، ولا يُختصُّ بالمفردات، فمعناه لا يحصل إلّا في الأمور المُركَّبة". يُنظر: يحيى العلويّ، الطِّراز: 2/123.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/255.

(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/257.

(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/175.

(5) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/171.

دلالةُ النّفي بـ ﴿لَا﴾:

في قولِه تعالى: ﴿لَا يُصۡلِحُ﴾: ﴿لَا﴾ هنا نافيةٌ، فقدْ نفتِ الإصلاحَ، ونفْيُ الإصلاحِ يكونُ بالتّركِ والإهمالِ[1]، مثلَما يكونُ الإصلاحُ بالمَنْحِ والإعطاءِ، وقد يكون نفيُ الإصلاحِ بعدم إتمام العمل، وبأنْ يمحق تعالى بَرَكَتَه، ويُسلِّطَ عليه الدَّمارَ والبَوَارَ.

إذا نفى اللّهُ إصلاحهَا فذلكَ بتَرْكِهَا وشأنَها

نُكْتَةُ التّعبير عن نفي الإصلاحِ بالمضارعِ:

وجاءَ فعلُ الإصلاحِ المنفيُّ مضارعًا على معنى أنّهُ تعالى يتركهُمْ وإفسادَهُمْ، فإذا كانَ الإصلاحُ مضارعًا، بمعنى: التّجدُّدِ والدَّوامِ؛ فإنَّ نفيَ الإصلاحِ مُتعيَّنٌ فيهِ عدمُ الدَّوامِ وعدمُ الثَّباتِ، فيكونُ باطلًا زائلًا[2]، أي: إنّ نفيَه تعالى لإصلاح عمل المفسدين دائمٌ ومستمرٌّ، فلا بركةَ في أعمالهم، ولا توفيقَ في مآلاتها.

ما لم يُصلحهُ اللهُ لا يدومُ ولا يَثبتُ

بلاغةُ تضمين ﴿يُصۡلِحُ﴾ معنى (يرضى):

والمُرادُ منْ نفي إصلاحِ عملِ المفسدينَ في الآيةِ، أيْ: إنَّه تعالى لا يُؤيِّدهُ، لا نفيَ جَعْلِه صالحًا، فأصلُ الإفسادِ لا يَصيرُ صلاحًا حتّى ينفيَ تصييرَها عن اللّه تعالى[3]، وقوله: ﴿لَا يُصۡلِحُ﴾ مضمّنٌ معنى (لا يرضى)[4]، أي: لا يرضى عملَ المفسدينَ ولا يُؤيِّدهُ؛ بل يُبطلهُ.

لا يَرضى اللهُ عملَ المفسدينَ ولا يُؤيِّدهُ، بل يُبطلهُ

وجهُ الطِّباقِ بيْن ﴿يُصۡلِحُ﴾، و﴿ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾:

وبينَ عدمِ الإصلاحِ في ﴿لَا يُصۡلِحُ﴾، والإفسادِ في ﴿ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ طِباقٌ، فبَيْنَ الإصلاحِ والإفسادِ وشيجةٌ قائمةٌ على الضِّدِّيَّةِ في المعنى، وإنِ اختلفَ الأسلوبُ بينَ الفعليَّةِ والاسميَّةِ، "وعدمُ الإصلاحِ وإنْ لمْ يستلزمِ الإفسادَ، لكنْ بمعونةِ المقابلةِ

عدمُ الإصلاحِ لا يقتضي الإفسادَ، لكنْ حُملَ عليهِ بالمُقابَلةِ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/256.
(2) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 7/544.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/256.
(4) الزّركشيّ، البرهان: 3/342.

حُملَ عليهِ"[1]، فوُرُودُهُما في سياقٍ واحدٍ ممّا يخلعُ على العبارةِ نصاعةً بيانيَّةً.

وجهُ التّعليلِ في جملةِ الفاصلةِ:

قولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصۡلِحُ عَمَلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ جملةٌ تعليليَّةٌ لما سبقَها، تندرجُ تحتَ قاعدةٍ عامَّةٍ وسُنَّةٍ منْ سُننهِ تعالى، في نزاعِ الحقِّ والباطلِ والصّلاحِ والفسادِ، والسِّحرُ مندرجٌ تحتَ بابِ الباطلِ والفسادِ، فالحقّ تعالى لا يجعلُ عملَ السَّحرةِ المفسدينَ صالحًا[2]؛ لكونه يُسبِّب الفسادَ والخرابَ في الأرض، فضلًا عن كونه يتعارض مع تعاليمه سبحانه وسُنَنِه وقوانينه في الأرض؛ الَّتي بلَّغها عن طريق الرُّسل.

تنازعُ الحقِّ والباطلِ والصَّلاحِ والفسادِ، والسّحرُ باطلٌ وفسادٌ لا يُصلحه الله

علَّةُ تعريفِ (العملِ) بالإضافةِ:

قولُه: ﴿عَمَلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ مركّبٌ إضافيٌّ مؤذِنٌ بفسادِ العملِ؛ "لأنَّهُ فِعْلُ مَن شأنهُمُ الإفسادُ؛ فيكونُ نسْجًا على مِنوالِهِمْ، وسِيرَةً على معتادِهِمْ"[3] فالإفسادُ مُكتَسَبٌ ممّا يتعاطونهُ. فمغزى الإضافة التَّخصيصُ والتَّعيين، وفي ذلك انحرافٌ عن عموم العمل؛ بل هو العمل الَّذي يقوم به المفسدون.

الإفسادُ مُكتسَبٌ يتعاطونهُ نسجًا على مِنوالِهِمْ، وسَيْرًا على مُعتادِهِمْ

سِرُّ إطلاقِ لفظِ العملِ على سِحرِهِم:

في إطلاقِ لفظِ (العملِ) على السّحرِ الّذي أتَوا بهِ إشارةٌ إلى هذا الجنسِ مِنَ العملِ؛ لأنّهُ يشملُ كلَّ منْ يَصدقُ عليهِ معنى الإفسادِ، والسِّحرُ داخلٌ فيهِ معَ مَن يقومُ بهِ منْ بابِ أوْلَى[4]، ويُشير اصطفاءُ لفظِ (العمل) أيضًا إلى أنَّ السِّحر ليس مجرّدَ فعلٍ عابرٍ؛ بل هو نشاطٌ مستمرٌّ يتطلّب جهدًا، وكَدًّا، وتخطيطًا.

السِّحر وإن كان إفسادًا إلَّا أنَّه عملٌ يتطلّب جُهدًا مِن صاحبه

(1) القونويّ وابن التّمجيد، حاشية على تفسير البيضاويّ: 9/539.
(2) رشيد رضا، تفسير المنار: 11/382.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/256.
(4) الشّوكانيّ، فتح القدير: 2/529.

نُكْتَةُ إيثارِ لفظِ ﴿ٱلْمُفْسِدِينَ﴾:

آثرَ البيانُ القرآنيُّ التّعبيرَ بـ ﴿ٱلْمُفْسِدِينَ﴾؛ لأنّ القصدَ مِن أعمالِهم السَّيِّئةِ إضلالُ النّاسِ، وزلزلةُ عقولِهم؛ لغرضِ تسخيرِهم وتعميَةِ أسبابِ الأشياءِ عليهم؛ فيكونوا كالأداةِ الطَّيِّعةِ بأيديهم وتحتَ إمْرَةِ سِحْرِهم؛ فلا يَجدُ الهُدى إلى أنفسِهم سبيلًا[1].

قصدُهُم تضليلُ عقولِ النّاسِ غرضًا لتسخيرِهم

أُطْلِقَ على السَّحرةِ وَصْفُ ﴿ٱلْمُفْسِدِينَ﴾؛ لأنّ عملَهُمُ السِّحرَ سببٌ عظيمٌ مِن أسبابِ الفسادِ في الأرضِ، وقد نعى عليهمُ القرآنُ بأنّهم يُفرّقون بهِ بينَ المرءِ وزوجِهِ؛ فَعَمَلُهم هذا الّذي اتَّخذوهُ مِهنةً يُعدُّ فسادًا وتخريبًا وشرًّا في الأرضِ، كما يفعلُ المُفسِدونَ[2].

السِّحرُ مِن أسبابِ الفسادِ في الأرضِ

وجهُ تعريفِ ﴿ٱلْمُفْسِدِينَ﴾:

الألفُ واللّامُ في ﴿ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ تُفيدُ الجِنسَ لأجلِ التّعميمِ؛ إعلامًا للمُخاطَبِ بأنَّ ما يقومونَ بهِ من عملِ السّحرِ إنّما هو مِن جنسِ عملِ المفسدين[3] الّذي لا يرتضيه اللّه تعالى.

سحرهُمْ هوَ مِنْ عملِ المُفسِدينَ

دلالةُ الجمعِ السّالمِ لـ﴿ٱلْمُفْسِدِينَ﴾:

في جَمْعِه ﴿ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ جمعَ مذكّرٍ سالمًا؛ دلالةٌ على الثُّبوتِ والدَّوامِ، أي: إنّ الفسادَ ثابتٌ عندَهم، لما يُعطيهِ الاسمُ مِن هذهِ الخاصَّةِ[4]. ثمّ إنّ الجمع يدلُّ على أنّ الفساد والخَراب لا يقعان نتيجةً لأفعال فردٍ واحدٍ فحسبُ؛ بل تَقْوى وتتمكَّن بتعاضُد مجموعةٍ مِنَ الأفراد عليها.

الفسادُ عندَهم ثابتٌ دائمٌ، وهو فعل جماعتِهم

بلاغةُ حذفِ إلقاءِ مُوسى عصاهُ والْتِقامِ ما أَلْقَوهُ:

قولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ﴾؛ على تقديرِ: فلمّا ابتلعتْ عصا مُوسى ما جاؤوا بهِ مِن حبالهم وعصيّهم جميعًا حالَ كونِها حيّةً؛

فَصَّلتِ السُّورُ الأُخرى إبطالَ السِّحرِ، وأُوجِزَ هنا لهوانه وحقارتِهِ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/257.
(2) الهلال، تفسير القرآن الثّريّ: 11/124.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/256.
(4) الهلال، تفسير القرآن الثّريّ: 11/124.

أدركوا أنّهُ تعالى أبطلَ تلكَ الأعيانَ وأفناها، وأخبرَ تعالى هذا التّفصيلَ مِن إبطاله السّحرَ في سورٍ أخرى[1]، والغرض من الإيجاز في إيراد الحادثة هنا هو الدّلالة على حَقارة السّحر وهَوانه عند الله، والتّأكيد على إبطال عمل المفسدين.

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/288.

﴿وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ٨٢﴾ [يونس: 82]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

يُصلحُ اللهُ عملَ المصلحينَ بتثبيتِ الحقِّ وتقويتِهِ وإظهارِهِ

بعدَ أنْ بيّنَ تعالى أنّهُ لا يُصلحُ عملَ المفسدينَ، عطفَ عليهِ نقيضَهُ وهوَ إصلاحُ عملِ المُصلحينَ[1]، وإثباتُهُ وإظهاره وتقويته، بأوامرِهِ وكلماتِهِ التّكوينيّةِ، ومُقتَضى مشيئتِهِ التّشريعيَّةِ إلى رسلِهِ ولو كره المفسدون المجرمونَ؛ كفِرعونَ ومَن شايعَهُ، ومَن سار على نهجه إلى يوم القيامة.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَيُحِقُّ﴾: أصْلُ (حقّ) يَدُلُّ على إحْكامِ الشَّيءِ وصِحَّتِهِ[2]، فالحَقُّ: الثَّابِتُ، يُقالُ: حُقَّ لَهُ أن يَفْعَلَ كذا، يَحِقُّ، حَقًّا، أيْ: ثَبَتَ. وضِدُّه: الباطِلُ[3]. ويأْتي الحَقُّ بِمعنى المَوجود، وضِدُّه: المَعدومُ. ويُطلَق على الواجِبِ واللَّازِمِ، فيُقَال: يَحِقُّ عليك أن تَفْعَلَ كذا؛ أيْ: يَجِبُ[4]. ويُسْتَعْمَلُ بِمعنى المُؤَكَّدِ المُتَيَقَّنِ. والحَقِيقَةُ: اليَقِينُ، وضِدُّها: الشَّكُّ[5].

2) ﴿بِكَلِمَٰتِهِۦ﴾: أصلُ اشتقاق الكلام مِنَ الكَلْم، وهو التَّأثير المدرَك بإحدى الحاسَّتين، فَالْكَلَامُ: مُدرَكٌ بحاسَّة السَّمع، والكَلْمُ: بحاسَّة البَصَر[6]، وَحقيقته: النُّطْقُ المَفْهُومُ، يُقَالُ: كَلَّمَ يُكَلِّمُ تَكْلِيمًا وكَلَامًا، أيْ: نَطَقَ نُطْقًا مَفْهُومًا، وقيلَ: أصْلُ الكَلَامِ مِنَ الكَلْمِ، وَهُوَ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/175.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حق).
(3) الزّبيديّ، تاج العروس: (حقق).
(4) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة: (حق).
(5) الزّبيديّ، تاج العروس: (حقق).
(6) الرّاغب، المفردات، والسَّمين الحلبي، عمدة الحُفّاظ: (كلم)، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 1/73، والمناويّ، التّوقيف على مهمّات التّعريف، ص: 283.

الجَرْحُ والشّقُّ؛ لِأَنَّهُ يَشُقُّ الأَسْمَاعَ بِوُصُولِهِ إِلَيْهَا، وَقِيلَ: لِأَنَّهُ يَشُقُّ المَعَانِي[1]، وكلماتُ اللّه تعالى: حُجَجُه الَّتي جعلَها لعباده سلطانًا مُبينًا. والمراد بـ ﴿بِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ في الآية: الحُجَّة القويَّة.

3) ﴿ٱلْمُجْرِمُونَ﴾: أَصْلُ الكَلِمَةِ مِنَ الجَرْمِ، وهو: القَطْعُ[2]، وقِيل: أَصْلُه الكَسْبُ، وفُلانٌ جَرِيمَةُ أَهْلِهِ، أي: كاسِبُهُم، ومنه سُمِّيَ الذَّنْبُ جُرْمًا؛ لأَنَّهُ كَسْبٌ لِصاحِبِهِ[3]. والْإِجْرَامُ: ارْتِكَابُ الْجُرْمِ؛ وَهُوَ الْإِثْمُ الْعَظِيمُ، وَأَعْظَمُ بالإجرام الكفْر[4]، يُقال: أَجْرَمَ الرَّجُلُ: إذا ارْتَكَبَ ذَنْبًا أو جَنَى جِنايَةً[5]. وَالْمُجْرِمُ في اصْطِلَاحِ الْقُرْآنِ هو الْكَافِرُ، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضْحَكُونَ ۝٢٩﴾ [المُطفِّفين: 29]، وهو المُراد هنا.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

يُثَبِّتُ اللّه الحَقَّ الّذي جاء مِن عندِه، ويُوضِّحُه ويُظهِرُه على مَن خالَفَه، بكَلِماتِه الكونيَّةِ، وكَلِماتِه التَّنْزيليَّةِ التي يُوحيها إلى رُسُلِه، ومِنها: الإخبارُ بإظهارِ الحقِّ وإعزازِه، ولو كَرِه ذلك الكافرون المُجرِمون مِن آل فرعون[6].

لا يُصلح اللهُ عملَ المفسدين، بل يمحَقُه ويُبطلُه

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ الوَصْلِ بالعطفِ:

قولُه تعالى: ﴿وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ﴾ جملةٌ موصولةٌ بما قبلَها، معطوفةٌ على قولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ﴾؛ فإنّ في إبطال الباطلِ نُصْرةً للحقّ، وتقويةً لهُ، وإحقاقًا وإثباتًا للمعجزةِ[7].

إثرَ إبطالِ الباطلِ يُحقُّ اللهُ الحقَّ ويُقَوِّيهِ وينصرهُ ويُثبتُ المعجزةَ

(1) ابن الجوزيّ، نزهة الأعين النَّواظر في علم الوجوه والنَّظائر، ص: 523.
(2) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (جرم).
(3) ابن عبّاد، المحيط في اللّغة، والجوهريّ، الصِّحاح، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (جرم).
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/210.
(5) ابن عبّاد، المحيط في اللّغة: (جرم).
(6) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 8/369، والشّوكانيّ، فتح القدير: 2/529، رشيد رضا، تفسير المنار: 11/382.
(7) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/257.

والجملةُ معطوفةٌ على ما قبلَها[1] من قولِه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصۡلِحُ عَمَلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾، فإنّ عدمَ إصلاحِ عملِ المفسدينِ مِن سَحَرَةِ فرعونَ ومَن مالَأَهُ هو إصلاحٌ، وهو في حقيقتِه نُصرةٌ للحقِّ وإظهارٌ وتثبيتٌ له.

بيانُ إصلاحِه عملَ المُصلحينَ هوَ إحقاقٌ للحقّ وإظهارٌ لهُ

وعطفُ جملةِ إحقاقِ الحقّ هنا هوَ في حقيقتِه توكيدٌ لنَفْيِ إصلاحِه عملَ المفسدينَ، وتقريرٌ لهُ على طريقةِ الإثباتِ؛ فقدْ جمعَ بينَ النَّفي: ﴿لَا يُصۡلِحُ﴾، وبين الإثباتِ: ﴿وَيُحِقُّ﴾؛ لتقريرِ هذهِ الحقيقة[2]، وأنّه تعالى المصدرُ الوحيد لإحقاق الحقّ، وإبطالِ الفساد، وأنّ نفيَه إصلاحَ عملِ المفسدين وإثباتَ الحقِّ، إحقاقٌ لمنهجه، وترسيخٌ لسُنَنِه الكونيّة.

إحقاقُ الحقّ توكيدٌ لنفي إصلاحِ عملِ المفسدينَ وتقريرٌ لهُ

التّعبيرُ عن فعلِ الحقّ مضارعًا:

قالَ تعالى: ﴿وَيُحِقُّ﴾ فعلٌ بصيغةِ المضارعِ، أيْ: يُثبتُ الحقّ الّذي يأتي بهِ الرّسلُ رحمةً للعالمينَ[3]، والتَّثبيتُ بهِ حاجةٌ إلى العملِ والحركةِ والتَّجدُّدِ، والمضارعُ دالٌّ على الحالِ والاستقبالِ؛ فهوَ متجدّدُ المعاني، وهكذا هو دأبُ الرُّسلِ عليهم السلام ومَنْ تبعهُمْ في إحقاقٍ دائمٍ مستمرٍّ للحقِّ معَ الباطلِ حتّى قيامِ السّاعةِ.

إحقاقُ الحقِّ وتثبيتهُ مستمرٌّ أمامَ الباطلِ حتّى قيامِ السّاعةِ

إظهارُ لفظِ الجلالةِ:

أظهرَ الاسمَ الجليلَ في قولِه تعالى: ﴿وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلۡحَقَّ﴾، والمقامُ مقامُ إضمارٍ بعدَ أن ذَكَرهُ في قولِه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصۡلِحُ عَمَلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾، وفي إظهارِه قصدٌ إلى إلقاءِ الرَّوعِ، وتربيةِ المهابةِ في نفوسِ المخاطَبينَ[4].

إظهارُ اسمِ الجلالةِ وحقّهُ الإضمارُ بغرضِ إلقاءِ الرَّوعِ والمهابةِ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/175.
(2) الطّباطبائيّ، الميزان: 11/111.
(3) مجمع البحوث الإسلاميّة، التّفسير الوسيط: 4/128.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/170، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/257.

تعريفُ لفظِ ﴿ٱلۡحَقَّ﴾:

التّعريفُ للعهدِ، فالمرادُ به دينُ الحقِّ وهوَ الإسلامُ

أوردَ لفظَ ﴿ٱلۡحَقَّ﴾ مُعرَّفًا بالألفِ واللّامِ، والتَّعريفُ هنا للعَهْدِ؛ فالمرادُ بالحقِّ هنا: دينُ الإسلامِ المعروفِ عندَ المسلمينَ وغيرِهم، وهو مبثوثٌ بهذا الاسمِ في مواضعَ كثيرةٍ مِنَ القرآنِ الكريمِ[1].

بلاغةُ جناسِ الاشتقاقِ في ﴿وَيُحِقُّ﴾ ﴿ٱلۡحَقَّ﴾:

الأصلُ في مادَّةِ (الحقّ) هوَ فعلُ الحقّ

بينَ ﴿وَيُحِقُّ﴾ و﴿ٱلۡحَقَّ﴾ جناسُ اشتقاقٍ[2]، ودلالتُهُ: أنّ الأصلَ في مادّةِ الحقّ هوَ فعلُ الحقّ[3]، ونظيرهُ قولُه ﷺ: «لا تَقُولُوا السَّلامُ على اللّه؛ فَإِنَّ اللّه هُوَ السَّلامُ»[4]. وحاصل الجمع بينَ اللَّفظين في هذا الجناس: ديمومة إعلائه تعالى للحَقّ؛ فالحقّ ثابتٌ، وإحقاقُه مُتجدِّد مُستمِرٌّ.

تعليلُ الإحقاقِ بالحقِّ

في قولِه تعالى: ﴿وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلۡحَقَّ﴾ نجد أنَّ محصولَ التّعليلِ هوَ محصولُ المُعلَّلِ نفسِه، وشأنُ العِلّةِ أن تكونَ خِلافَ ذلكَ، فإذا جاءَ التّعليلُ مُساويًا للفعلِ؛ فإنَّ القَصْدَ أن يكونَ إحقاقُ الحَقِّ لذاتِ الفعلِ، لا لغرضٍ آخرَ يعودُ عليه[5].

التّعليلُ يفيدُ الحصر المُستفاد من مُستتبعاتِ التَّركيبِ، وليسَ من دلالةِ اللّفظِ

والتَّعليلُ بالمعلّلِ نفسِه في جملةِ ﴿وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلۡحَقَّ﴾ يتحصّلُ منه معنى الحَصْرِ، أي: إنّهُ لا يحقّ إلّا الحقّ، وهو حصرٌ ناشئٌ مِن مستتبعاتِ الجملةِ أو التَّركيبِ، وليسَ مِن دلالةِ اللّفظِ[6]؛ فإنّ أسلوبَ الحصرِ معروفٌ بألفاظِه وأدواتِه، وليسَ التّعليلُ واحدًا منها.

دلالةُ إحقاقِ الحقّ:

إحقاقُ الحقِّ يكونُ بالدّلائلِ وبتقويةِ أمرِ الحقِّ وقهرِ رؤوسِ الباطلِ، أو بإظهارِ الإسلامِ

والمُرادُ منْ تحقيقِ الحقِّ أوْ إحقاقِه في الآيةِ الإظهارُ، أي: إظهارُ كونِ ذلكَ الحقّ حقًّا، تارةً بإظهارِ البراهينِ والبيِّناتِ، وتارةً بنصرِ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 9/271.
(2) الزّحيليّ، التّفسير المنير: 11/239.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 9/271.
(4) مالك، الموطأ، الحديث رقم: (148).
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 9/272.
(6) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 9/272.

أمراءِ الحقِّ وخذلانِ رؤساء الباطلِ[1]. أو أنّهُ يريدُ أنْ يُظهرَ الإسلامَ على جعلِ الحقِّ اسمًا معرفةً واقعًا على دينِ الإسلامِ، والقولُ بإظهارهِ تحقيقٌ وإحقاقٌ لهُ؛ لأنّ عدمَ ظهورهِ يُصيِّرهُ مُشبهًا الباطلَ[2].

بلاغةُ الطّباقِ:

بين جملةِ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبۡطِلُهُۥٓ﴾؛ وجملةِ ﴿وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلۡحَقَّ﴾ طباقٌ، وهو من بديعِ الأسلوبِ البلاغيِّ، ويُسمّى أيضًا بمجاورةِ الأضدادِ[3]، ففي هاتين الجملتيْنِ معنًى داخلٌ تحتَ هذا الفنّ؛ فالمعنى أنّه تعالى يُبطلُ سِحْرَهمُ الباطلَ ويُحقُّ الحقّ[4]، فإنّ عملَهمُ السّحرَ هو الباطلُ بعينهِ، كما عُلِمَ في الآيةِ السّالفةِ، وأنّه تعالى قادرٌ على إزالته ومَحْقِه، وإثباتِ الحقِّ في الوقت نفسه.

المعنى إنّ اللهَ تعالى يُبطلُ سِحرَهُم الباطلَ ويُحقُّ الحقَّ

معنى الباءِ في قوله: ﴿بِكَلِمَٰتِهِۦ﴾:

الباءُ في قولِه: ﴿بِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ دالَّةٌ على السَّببيَّةِ، أي: إنّ هذا الإحقاقَ كانَ بمدعاةِ كلماتهِ وأوامرهِ الّتي تقعُ لا محالةَ، وفيهِ مدحُ هذا الإحقاقِ؛ لأنّهُ حادثٌ بسببِ كلماتهِ تعالى[5].

الباءُ للسَّببيَّةِ، وهذا الإحقاقُ ممدوحٌ لحصولهِ بموجبِ كلماتِ اللهِ

إيثارُ لفظِ الكلماتِ:

ومعنى (الكلماتِ) في قوله: ﴿وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ﴾: هيَ كلُّ ما أنزلهُ الحقُّ سبحانَهُ في كُتبهِ على رُسُلهِ وأنبيائهِ، المتضمِّنةِ على البراهينِ والأدلَّةِ والحُجَجِ، أو أنّها الوعدُ الصّادقُ لمُوسى عليه السلام في أن يُظهرَهُ، أو وَعْدُهُ السَّابقُ منْ قضائهِ وقَدَرِه في نَصْرِه على السّحرةِ، بأوامرهِ وأحكامهِ وقضائهِ[6].

كلماتهُ سبحانَه هي ما أنزلَ على أنبيائهِ أو بوعدهِ الصّادقِ لمُوسى عليه السلام

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 15/458.
(2) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 7/369.
(3) ابن المعتزّ، البديع في البديع، ص: 65.
(4) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 12/341.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/272، 11/257.
(6) القنوجيّ، فتح البيان في مقاصد القرآن: 6/107.

كلماتُ اللهِ هي ما دلّ على مُرادِهِ؛ حقيقةً أو مجازًا

وآثرَ البيانُ القرآنيُّ مفردةَ الكلماتِ لدقّةِ تعبيرِها؛ فهيَ تدلُّ على مُرادِهِ تعالى وكلامِهِ النّفسيّ، وهو على صنفيْنِ: أن تكونَ على وجهِ الحقيقةِ؛ بأن تأتيَ على الأشكالِ اللّفظيّةِ المعهودةِ الّتي يفهمُها البشرُ ويُبلّغونَ بها؛ كالقرآنِ ونحوِه، وقد تكونُ على وجهِ المجازِ؛ بأن تأتيَ على غيرِ المعهودِ مِنَ الألفاظِ، كخطابِهِ للملائكةِ المحكيِّ في الكتابِ الكريم[1].

كلماتُ اللهِ هيَ أوامرهُ وما قضاهُ

والمرادُ بكلماتِ اللّه الواردةِ في الآيةِ: الأوامرُ والقضايا منهُ[2]؛ وهي تُشير إلى مجموعة مِنَ المفاهيم أو التَّعاليم، والأقضيَةِ الرّبَّانيّة في مختلف الشُّؤون الكونيّة.

بلاغةُ الاستعارةِ في لفظِ ﴿بِكَلِمَٰتِهِۦٓ﴾:

كلماتهُ هيَ تعلّقُ قُدرتهِ تعالى بالإيجادِ

في قولِه تعالى: ﴿وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓ﴾ استعارةٌ؛ فإنَّ لفظَ الكلماتِ ليس على الحقيقةِ، وإنّما هيَ تعلّقُ القُدرةِ الإلهيَّةِ بالإيجادِ، الّذي يعبّرُ عنه بالتّكوينِ الّذي يسيرُ على وَفْقِ إرادتهِ وعِلْمِهِ سبحانَهُ، وهو تعلّقٌ يُشبهُ الكلامَ الّذي يَنْتُج عنه استيعابُ المعاني، مع دلالتهِ على إرادةِ المتكلّم[3].

دلالةُ جمعِ ﴿بِكَلِمَٰتِهِۦٓ﴾:

تدلّ على جمعِ الأوامرِ المقابلةِ للنّواهي

قوله: ﴿بِكَلِمَٰتِهِۦٓ﴾ أي: بأوامره وقضاياه، وحيث جِيء بالكلمات جمعًا فهي الأوامرُ التي تقابل النَّواهي، وحيث جيء بها مُفردًا فهو الأمر الذي هو واحدُ الأمور[4].

تفيدُ عمومَ أنواعِ الكلامِ الّذي يُوحِي بهِ اللهُ

وهذا الجمعُ يدلُّ على العموم؛ فإنَّ الكلماتِ عامّةٌ في أنواعِ الكلامِ الّذي يُوحيهِ سبحانَهُ، وهوَ دالّ على الإرادةِ الرّبّانيّةِ في إحقاقِ الحقِّ وتثبيتِه؛ كآياتهِ القرآنيّةِ في قتالِ الكافرينَ، ووَحْيِهِ إلى الملائكةِ في نُصرةِ المسلمينَ[5].

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 9/271.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/170.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/257.
(4) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 7/544.
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 9/272.

دلالة الواو في قوله: ﴿وَلَوۡ كَرِهَ﴾:

الواوُ في قولِه تعالى: ﴿وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾ دالّةٌ على الحالِ[1]، أي أنّهُ تعالى يُحقّ الحقَّ بكلماتِه في الحالِ الّتي يكرهُ فيها المجرمون ذلك.

يحقّ اللهُ الحقّ بكلماتِهِ في حالِ كَرِهِ المجرمونَ ذلكَ

معنى ﴿وَلَوۡ﴾:

معنى ﴿وَلَوۡ﴾ في الآيةِ هو معنى (إنْ) نفسِه، وهو القطعُ في الشّكِّ؛ فإنَّ حصولَ الكُرْهِ مِنَ المجرمينَ لا يمنعُ مِن إظهارِ الحقِّ؛ فإنّهُ ثابتٌ ولا يُتوَهَّمُ نفيُهُ، وفيهِ إخبارٌ بجهلِهم وحماقتِهم، وأنّ مقامَهمْ مقامُ ظنٍّ، يظنُّ بهِ المرءُ أنّهم لو كرهوا انبعاثَ الحقِّ وظهورَه لمْ يظهرْ[2].

إخبارٌ بجهلِ المجرمينَ ونفي توهُّمِهم أنَّ كُرهَهم مانعٌ مِن إظهار الحقِّ

و﴿وَلَوۡ﴾ وصليّةٌ مقتضيَةٌ أنَّ ما بعدَها غايةٌ لمَنْ يظنُّ تخلّفَ حُكمِ ما سبقَها، وإنّما كانَ الكُرهُ الحاصلُ مِنَ المجرمينَ لإحقاقِ الحقِّ غايةً وغَرَضًا، لما يُظنُّ فيهِ تخلُّفُ الإحقاقِ وعدمُ حصولِه؛ لأنَّ تلكَ الكراهيَةَ باعثٌ لهمْ على معارضتِه ومحاولةِ دَحْضِه[3].

كراهية المجرمين للحقِّ باعثٌ لهمْ على معارضتِهِ ومحاولةِ دَحْضِهِ

التّعبيرُ عنِ الكُرهِ بصيغة الماضي:

جاءَ بفعلِ الكراهيَةِ في قولِه: ﴿وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾ ماضيًا لدلالتِه على ثبوتِه عليهم؛ فإنّهم عريقونَ في ممارستِه والتّخلُّقِ بهِ، وفي قطعِ ما أمَرَ أنْ يُوصَلَ؛ فكانَ أن بطلَ سِحْرُهم، واندحرَ مكرُهم[4]، وظهرَ الحقُّ جليًّا واضحًا؛ بما عبّرَ عنه بإحقاقِه.

الكُرْهُ ثابتٌ فيهم فهم عريقونَ في ممارستِهِ والتّخلُّقِ بهِ

بلاغةُ الكنايةِ في لفظِ (الكُرْه):

التّعبيرُ بفعلِ الكُرْهِ مِن بابِ الكنايةِ[5]؛ فالكراهيَةُ هنا تعبيرٌ

إرادةُ الله نافذةٌ رغمَ كراهيةِ المجرمينَ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/257.
(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/350.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/257.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/175.
(5) الكناية: "لفظٌ أُريد به لازم معناه مع جواز إرادته معه أي: إرادة ذلك المعنى مع لازمه كلفظ: (طويل النِّجاد)، والمُراد به طُول القامة مع جواز أن يُراد حقيقة طول النّجاد أيضًا". يُنظر: التّفتازانيّ، مختصر المعاني: 1/257.

عن لوازمِها، وهيَ الاستعدادُ لمعارضةِ غرضِ تلكَ الإرادةِ، فإرادةُ المشركينَ إحقاقُ الباطلِ، وإرادةُ اللّٰه نافذةٌ رغمًا عن كراهيةِ المجرمينَ، ومجرَّدُ الكراهية ليسَ مانعًا منْ إحقاقِ الحقِّ؛ لقُصورِه على الكارِهِ، إلّا إذا كان الكُرْهُ باعثًا على مُدافعة الحقِّ المكروهِ بزَعْمِهم[1].

وجْهُ تعريفِ ﴿ٱلْمُجْرِمُونَ﴾:

أرادَ بالمجرمينَ فرعونَ ومَلَأَهُ، ويجوزُ عمومُ المجرمين

التّعريفُ في لفظةِ ﴿ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ للعَهدِ، وهم فرعونُ وقومُهُ ممّن تبِعَ سبيلَهُ، أو يُرادُ منهُ الجنسُ؛ فيكونُ الإطلاقُ على المجرمينَ عمومًا، وآلُ فرعونَ داخلونَ تحتَ هذا العمومِ مِن بابِ أوْلى[2].

عِلَّة جمعِ ﴿ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ جمعَ سلامةٍ:

عافوا العقلَ وانضموا إلى زُمرةِ المجرمينَ

المرادُ بـ ﴿ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ كلُّ مَنِ اتّصفَ بالإجرامِ مِن سَحَرةِ فرعونَ وغيرِهم[3]، وفي جمعِهم هذا الجمعَ تشنيعٌ عليهم، وتبشيعٌ لحالِهم؛ فإنّ شأنَ الدّاخلِ تحتَ هذا الجمعِ أن يكونَ عاقلًا[4] لكنّهم تركوا العقلَ والحِجا، وانضموا إلى زُمرةِ المجرمينَ المُستحقّينَ عذابَ اللّٰه وغضبَه.

وجهُ العدولِ عن ضميرِ الخطابِ إلى الاسمِ الظّاهرِ:

وَصَفَهُم بالإجرامِ من بابِ التّعريضِ، ورعايةً للفاصلةِ

في العدولِ عن ضميرِ الخطابِ إلى الاسمِ الظّاهرِ وجهٌ ومعنًى، وهو وصفُهم بالإجرامِ مِن بابِ التّعريضِ بهم[5]، فلو لم يعدلْ لكانَ الكلامُ خاليًا مِن ذاكَ الوصفِ، بقولِه: ولو كرهتُم؛ فيفوتُ المقصودُ، فضلًا عن رعايةِ الفاصلةِ القرآنيَّةِ.

---

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 9/273.

(2) الشّوكانيّ، فتح القدير: 2/529.

(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/169.

(4) جمع المُذكّر السّالم يُشترط فيه العقل وليس كذلك مع جمع التّكسير. يُنظر: ابن السّرّاج، الأصول في النّحو: 1/47.

(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/258.

سِرّ العدولِ عن خطابِهم بصفةِ الإجرامِ:

لايَنَهم بالقولِ تلميحًا لا تصريحًا

عدلَ عن خطابِهم بصفةِ الإجرامِ بأنْ يقولَ لهمْ: (وإنْ كرِهتُمْ أيّها المجرمونَ)؛ لأنّهُ لمْ يُرِدْ أن يُواجهَهُم بالذّمِّ والتّوبيخِ المباشِرِ، وقوفًا عندَ أمرِهِ تعالى بأنَ يُلَاينَهُمْ بالقولِ؛ لقولِهِ تعالى: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا﴾ [طه: 44]؛ فجاءَهمُ الكلامُ في صورةٍ عامّةٍ كلّيَّةٍ، وهم مِن جزئيَّاتِها تلميحًا لا تصريحًا[1].

دلالةُ التّعبيرِ بـ ﴿ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾، والتّعبيرِ بـ ﴿ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ في الآيةِ قبلَها:

لَمّا أفسدوا بسِحرِهم، انقطعوا عن هدايتِهِ سبحانَه، وانفصلوا عنِ الحقّ وأهلِهِ

وصفَهُم البيانُ القرآنيُّ في الآيةِ السّابقةِ بالمفسدينَ؛ لأنَّ السّحرَ سببٌ رئيسٌ مِن أسبابِ الإفسادِ في الأرضِ، فيما وصفَهم هنا بالمجرمينَ، والإجرامُ يعني في أصلِهِ اللُّغويّ: القَطعَ والانفصالَ[2]، فكأنّهم قطعوا سبيلَ الحقِّ والهدايةِ على أنفسِهِمْ، وبَنَوا على ذلكَ أمرَهُم؛ كراهيَةَ عُلُوِّ الحقِّ وظُهورِهِ[3]؛ فيكونُ وَصْفُ الإفسادِ مُتقدِّمًا على الإجرامِ، فإنّهم لَمّا أفسدوا بسِحْرِهِم؛ أوصلَهم ذلك إلى الانقطاعِ عن هدايتِهِ تعالى، والانبتاتِ عنِ الحقِّ وأهلِهِ.

دلالةُ حاليَّةِ جُملةِ الفاصِلةِ:

يُحقُّ اللهُ الحقَّ في كلّ حالٍ

وقولُه تعالى: ﴿وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾ جملةٌ في موضعِ الحالِ مِن الإحقاقِ المذكورِ آنفًا، وهي معطوفةٌ على مُقدَّرٍ؛ فإنَّ إحقاقَ الحقِّ يقعُ في الأحوالِ كلِّها، ولو في هذهِ الحالِ، وإنَّما قَدَّرَ ذلك لاستقصاءِ الأحوالِ جميعًا[4].

ما عُطِفَ على الحالِ حالٌ مثلُهُ

وهذهِ الجملةُ الدَّالةُ على كراهتِهِم إحقاقَ الحقِّ جملةً، التَّحقيقُ فيها أنّها معطوفةٌ على مُقدَّرٍ يقعُ في موضعِ الحالِ، وما عُطفَ على الحالِ حالٌ مثلُه، ومثَّلوا لهُ بقولهم: (أعطوا السّائلَ ولوْ جاءَ على

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/258.
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (جرم).
(3) الطّباطبائيّ، الميزان: 11/111.
(4) الخرّاط، المُجتبى من مُشكل إعراب القرآن: 2/446.

فرسٍ)[1]؛ فإنَّ القولَ أنْ يُعطَى على كلِّ حالٍ، ولوْ كانَ راكبًا على فرسٍ، فحالتهُ تُنافي الصّدقةَ[2].

بيانُ الشَّبهِ بيَن الوصفِ بلفظِ الإجرام والجهل:

وُصِفَ مُشركو مكَّة بالجهل إنكارًا عليهم، وقومُ موسى بالإجرام ترغيبًا ولينًا

عبّرَ في هذهِ الآيةِ بوصفِ ﴿ٱلْمُجْرِمُونَ﴾، فيما عبّرَ في سورةِ الزُّمرِ بـ ﴿ٱلْجَٰهِلُونَ ۝٦٤﴾ في قولِه: ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّيٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ ۝٦٤﴾ [الزُّمر: 64]، والأمرُ هنا مُتعلِّقٌ بمقامهِ ﷺ، فخاطبَهم بهذا الخِطابِ بعدَ أنْ كَرّرَ دعوتَهم مرارًا، وكانوا يُريدونَ مِنَ الرّسولِ عبادةَ آلهتِهم؛ فكانَ الإنكارُ عليهم أبلغَ وأشدّ، أمّا مُوسى عليه السلام فقد كانَ في ابتداءِ دعوتهِ مُلاينًا لهم على أملِ أنْ يؤمنوا[3]، فثَمّة فرقٌ بينَ التّعبيرَيْنِ.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

البُغْض والكَرَاهَة:

قال أبو هلالٍ العَسكريُّ: "الفَرقُ بينَ البُغضِ والكراهةِ: أنَّه قد اتُّسِعَ بالبُغْضِ ما لم يُتَّسَعْ بالكراهةِ؛ فقيل: أُبغِضُ زيدًا، أي: أُبغِضُ إكرامَه ونَفْعَه، ولا يُقالُ: أكْرَهُه، بهذا المعنى، كما اتُّسِع بلفظِ المحبَّةِ، فقيل: أُحِبُّ زيدًا، بمعنى: أحِبُّ إكرامَه ونَفْعَه، ولا يُقالُ: أُريدُه، في هذا المعنى، ومع هذا فإنَّ الكراهةَ تُستعمَلُ فيما لا يُستعمَلُ فيه البُغْضُ، فيُقالُ: أكْرَهُ هذا الطَّعامَ. ولا يُقالُ: أُبغِضُه، كما تقولُ: أحِبُّه. والمرادُ أنِّي أكرَهُ أكلَه، كما أنَّ المُرادَ بقولِك: أُريدُ هذا الطَّعامَ، أنَّك تُريدُ أكلَه أو شِراءَه"[4]. والموضعُ يُناسب لفظَ الكُرْه، بوصفه دالًّا على عدم الرَّغبة في إحقاق الحقِّ، واستيائهم مِن ذلك، وليس للعداءِ الّذي يتضمَّنُه لفظُ (البُغْض)، بوصفه شعورًا أقوى وأعمقَ مِنَ الكُرْه؛ محلٌّ هاهنا.

---

(1) يروى على أنه حديث، والأظهر - كما عند مالك في الموطأ: 2/996 -: أنه مرسل من قول التابعي زيد بن أسلم.

(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/278.

(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/258.

(4) العسكريّ، معجم الفروق اللّغويّة، ص: 104.

﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوۡمِهِۦ عَلَىٰ خَوۡفٖ مِّن فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِمۡ أَن يَفۡتِنَهُمۡۚ وَإِنَّ فِرۡعَوۡنَ لَعَالٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ٨٣﴾ [يونس: 83]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمّا حكى الحقُّ سبحانَهُ أنّهُ أبطلَ السِّحرَ، وأنّه من عملِ المفسدينَ، وأحقَّ الحقّ بكلماتهِ، بيّنَ أنّهُ معَ معاينةِ المعجزاتِ الخارقةِ الّتي جاءَ بها مُوسى، إلّا أنّهُ لمْ يؤمنْ بهِ مِن ذريَّة قومِه إلّا نفرٌ قليلٌ؛ تسليةً للنبيِّ محمدٍ ﷺ، لما كانَ يرى منْ إعراض قومهِ عنْ دعوتهِ[1].

أهلُ الإيمانِ في كلِّ وقتٍ قليلٌ عددُهم، كبيرٌ عندَ اللهِ قدْرُهم

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ذُرِّيَّةٌ﴾: أصْلُ (ذرّ) يَدُلُّ على لَطافَةٍ وانتِشارٍ[2]، ومَصْدَرُه: ذَرَرْتُ، وهو أخذُك الشَّيءَ بأطراف أصابعك تَذُرُّهُ ذَرَّ المِلْحِ المَسْحُوقِ على الطَّعَامِ[3]. والذُّرِّيَّةُ: الخَلْقُ والنَّسْلُ، مَأْخوذَةٌ مِن الذَّرْءِ، فتقول: ذَرَأ اللّه الخَلقَ، أيْ: خَلَقَهُم، وذُرِّيَّةُ الرَّجُلِ: وَلَدُهُ[4]. وقِيل: هو مأخوذٌ مِنَ الذَّرِّ، وهو: النَّشْرُ، فيُقال: ذَرَّ الشَّيءَ، يَذُرُّهُ، أيْ: نَشَرَهُ. أو مِنْ صِغارِ النَّمْلِ؛ لأنَّ اللّه أخْرَجَ الخَلْقَ مِن صُلْبِ آدَمَ كَالذَّرِّ[5]. والجَمْعُ: الذَّراري والذُّرِّيّاتُ. والمقصود من ﴿ذُرِّيَّةٌ﴾ في الآية: نسلُ الإنسان مِن ذُكورٍ وإناثٍ.

2) ﴿يَفۡتِنَهُمۡۚ﴾: أصْلُ الفِتْنَةِ مِنَ الفَتْنِ، وهو الإحْراقُ[6]، يُقالُ:

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/288.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ذرَّ).
(3) الخليل، العين، وابن منظور، لسان العرب: (ذرر).
(4) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (ذرَّ).
(5) الخليل، العين، والجوهريّ، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (ذرَّ - ذرر).
(6) الخليل، العين: (فتن).

فَتَنْتُ الذَّهَبَ، أيْ: أحْرَقْتُهُ بِالنّارِ؛ لِتَمْييزِ الجَيِّدِ مِنَ الرَدِيءِ، ويُسَمَّى الصّائِغُ: الفَتّانَ، وَكَذَلِكَ الشَّيْطَانُ[1]. والفَتْنُ أيضًا: إدْخَالُ الرَّوْعِ وَالاضْطِرَابِ على العَقْلِ؛ بِسَبَبِ تَسْلِيطِ مَا لَا تَسْتَطِيعُ النَّفْسُ تَحَمُّلَهُ[2]، والفِتْنَةُ: الابْتِلاءُ والامتحانُ والاختبارُ، يُقالُ: فَتَنْتُهُ، أفْتِنُهُ، فَتْنًا وفُتُونًا: إذا امْتَحَنْتُهُ[3]. والمقصود في الآية: إدْخَالُ الرَّوْعِ وَالاضْطِرَابِ على العَقْلِ.

3) ﴿لَعَالٍ﴾: أصْل (علو) يَدُلُّ على السُّمُوِّ وَالارْتِفَاع، لا يَشِذُّ عَنْهُ شَيْءٌ[4]، قال الخليلُ: "أصْلُ هَذَا الْبِنَاءِ الْعُلُوُّ. فأمَّا العَلاءُ فالرِّفْعَةُ. وَأمَّا العُلُوُّ فَالعَظَمَةُ والتَّجَبُّرُ. يَقُولُونَ: عَلَا الْمَلِكُ في الْأَرْضِ عُلُوًّا كَبِيرًا. قالَ اللّه تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [القصص: 4]، ويَقُولُونَ: رَجُلٌ عَالِي الْكَعْبِ، أيْ: شَرِيفٌ"[5]، والعُلْوُ: ضِدّ السُّفْل، والعُلْوِيُّ والسُّفْلِيُّ المنسوب إليهما[6]. والعُلُوُّ في الآية مُستعارٌ لِلغَلَبَةِ والاستِبدَادِ.

4) ﴿ٱلْمُسْرِفِينَ﴾: أصْلُ الإسْرَافِ: مجاوزةُ الْحَدِّ، وَالْإِغْفَالُ - أيْضًا - لِلشَّيْءِ. يُقَالُ: أسْرَفَ يُسْرِفُ إسْرَافًا وَسَرَفًا، أيْ: جَاوَزَ الحَدَّ وَلَمْ يَعْتَدِلْ، وَضِدُّهُ: القَصْدُ وَالاعْتِدَالُ[7]، وَأمَّا الْإِغْفَالُ: فَقَوْلُ الْقَائِلِ: مَرَرْتُ بِكُمْ فَسَرِقْتُكُمْ، أيْ: أغْفَلْتُكُمْ[8]. والإسْرَافُ أيْضًا: التَّبْذِيرُ، وَالْمُسْرِفُ: الْمُبَذِّرُ[9]. وَيُطْلَقُ الإسْرَافُ - أيْضًا - عَلَى الإتْلَافِ وَالتَّضْيِيعِ، تَقُولُ: سَرِفَ الطَّعَامُ؛ أيْ: ضَاعَ وَتَلِفَ[10]. والمُرادُ بالإسراف في الآية: تَجَاوُزُ حَدِّ الاعْتِدَالِ الْمَعْرُوفِ فِي فِعْلٍ.

❁ المَعْنى الإجْمالِيُّ:

يُخبِرُ تعالى أنَّه لم يُؤمِنْ لِموسى عليه السلام - مع ما أتى به مِنَ الحُجَجِ والأدِلَّةِ على صِدقِه

(1) ابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (فتن).
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 7/91.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (فتن).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (علو).
(5) الخليل، العين: (علو).
(6) الرّاغب، المفردات: (علا).
(7) الخليل، العين: (سرف).
(8) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (سرف).
(9) ابن منظور، لسان العرب: (سرف).
(10) مجمع اللّغة العربيّة بالقاهرة، المعجم الوسيط: (سرف).

- إلَّا عدَدٌ قليلٌ مِن شَبابِ قَومِه من بني إسرائيلَ، وهم خائفونَ مِن فرعونَ وأشرافِ قَومِهم أن يَفتِنوهم بالعذابِ، فيصدُّوهم عن دينِهم، وإنَّ فِرعونَ لَجبَّارٌ مُستكبِرٌ في الأرضِ، وإنَّه لَمِن المُتَجاوزينَ الحَدَّ في الكُفْرِ والفَسادِ[1].

الصِّدِّيقون قليلون في كلِّ زمان، وإيذاءُ المصلحين لا يخلو منه أوانٌ

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ الوَصْلِ بالفاءِ:

قولُه تعالى: ﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوۡمِهِۦ﴾، الآيةُ هنا موصولةٌ بالفاءِ بما قبلَها لإفادةِ السّببيّةِ، أو أنّها مفرّعةٌ على ما سبقَ، فإنَّ إصرارَ فرعونَ ومَن شايعَهُ على الكفرِ وعدمِ التّصديقِ بمُوسى عليه السلام بعدَ أنْ خابَ سَحَرتُه وخسروا، وبعد ظهورِ الحقِّ وانبلاجِه، ثمَّ عزمِه على قتلِ مُوسى بقولِه: ﴿ذَرُونِيٓ أَقۡتُلۡ مُوسَىٰ وَلۡيَدۡعُ رَبَّهُۥٓۖ﴾ [غافر: 26]، فكلُّ ما سبقَ أشاعَ الرُّعبَ في بني إسرائيلَ[2].

إصرارُ فرعونَ وقومِه على الكفرِ بعدَ ظهورِ الحقِّ أوقعَ الخوفَ في بني إسرائيلَ

والآيةُ تفريعٌ على ما سبقَها مِنَ المقاولةِ والمحاورةِ بينَ مُوسى وفرعونَ، ومَن معه مِن قومِه وسَحَرَتِه، بعدَ أنْ رأى أولئكَ القومُ مِن ظهورِ الحقِّ على يدِ مُوسى؛ إلّا أنَّ فرعونَ ومَن سارَ في ضلالِه لمْ يؤمنوا بما جاءَ به[3] عليه السلام جهلًا واستكبارًا.

لم يؤمنْ فرعونُ ومَلَؤُه بمُوسى رَغمَ ظهورِ الحقِّ على يَدَيْه

والآيةُ معطوفةٌ بالفاءِ على ما سبقَ، معَ أنَّ ما سبقَها بمنزلةِ العَدَمِ المستمرِّ؛ فإنَّ النّفيَ بـ (ما) هو منْ نحوِ قولِكَ: وعظتُهُ فلمْ يتّعظْ، وإنّ دوامَهم على ضلالهم بعدَ وُرودِ ما يُوجِبُ الإقلاعَ عنه هوَ فعلٌ جديدٌ حادثٌ، والمعنى: أنّهُ لمْ يؤمنْ لموسى عليه السلام برؤيةِ تلكَ البراهينِ السّاطعةِ إلّا نفرٌ قليلٌ[4].

لم يتّعظوا بانجلاءِ الآياتِ الباهراتِ وظهورِ الحقّ

(1) ابن جرير، جامع البيان: 12/250، والواحديّ، البسيط: 11/285، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 8/370.

(2) رشيد رضا، تفسير المنار: 11/383.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/258.

(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/170.

كِبْرُهم علّة إصرارهم على الكُفر

والآيةُ معطوفةٌ على ما سبقَها بالفاءِ المفيدةِ التّرتيبَ؛ فعُتوُّهم في ضلالتهِمْ وتيههم سببٌ لعدمِ إيمانهِمْ؛ فلمْ يؤمنْ لموسى ﷺ إلّا ذريةٌ قليلةٌ منْ قومهِ[1].

آمنَ بموسى أوّلَ مبعثِهِ قليلٌ مِنَ الشُّبّانِ أبناءِ الخائفين مِن فرعونَ

وتحتملُ الفاءُ العطفَ فحسبُ لا التّرتيبَ، وذلك بعطفِ هذهِ الجملةِ على سابقتِها، على جعلِ الهاءِ في ﴿قَوْمِهِۦ﴾ عائدةً على مُوسى، أيْ: أنَّ الآيةَ تصفُ حالَ موسى أوَّلَ بِعْثَتِه حينَما لمْ يُؤمنْ به إلّا قليلٌ مِنَ الشُّبَّانِ، وكانَ آباؤهمْ تحتَ خوفٍ وهَلَعٍ منْ فرعونَ ومَلَأ بني إسرائيلَ؛ فالضّميرُ في الملأ يَعُودُ على الذُّرّيّة، فتكونُ الفاءُ عاطفةً لا مُرتِّبةً[2].

بلاغةُ الإيجازِ بالقَصرِ:

حصرُ المؤمنينَ في ذُرِّيّةٍ مِنْ قومِ مُوسى يُفيدُ أنّ غيرَهم لمْ يؤمنُوا البتّةَ

قولُه تعالى: ﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ﴾ مقامٌ فيهِ إيجازٌ بالقصرِ، فالمعنى أنّهُ حصرَ الإيمانَ في ذرِّيَّةٍ مِنْ قومِ مُوسى ﷺ، وهو يفيدُ انتفاءَ الإيمانِ عن غيرهِمْ[3]، وهو المعنى المُرادُ مِنَ الآيةِ على وجهِ التَّمامِ.

بلاغةُ حذفِ إلقاءِ مُوسى عصاهُ، والتقامِ ما ألْقَوهُ:

حذفَ ما حذفَ تعويلًا على ذِكْرِهِ في مواضعَ أخرى، وإيثارًا للإيجازِ

قولُه تعالى: ﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ﴾ معطوفٌ على جُملةٍ مُقدَّرةٍ فصّلَ فيها في مواضعَ أُخرى مِنَ الكتابِ الكريمِ على تقديرِ: (فألقى عَصَاهُ فَإِذَا هيَ تلقف ما يأفِكون) ونحوِهِ مِنَ المعاني الدّالَّةِ على آياتهِ وبراهينهِ، وإنّما لم يُذْكر هنا تعويلًا على ما سبقَ، وإيثارًا للإيجازِ[4].

أظهرَ إعراضَهُم تشبيهًا لهم بحالِ مُشركي مكّةَ

وقد حذفَ أمر إلقاءِ مُوسى عصاهُ ثمَّ التقامِها ما ألْقَوهُ مِن سِحرِهِم، وهو ما حصلَ بينَ المحاورةِ والإعراضِ عن دعوتهِ ﷺ،

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3623.
(2) ابن عطيّة، المُحرّر الوجيز: 3/136.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/258.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/170.

وسببُ ذلكَ أنَّ الغرضَ الّذي سيقت لأجلهِ الآيةُ غيرُ متعلِّقٍ بذلكَ المحذوفِ، بل إنَّ المرادَ هو تصميمهم على الإعراضِ؛ فهو على إرادةِ تمثيلِ أعمالهم بحالِ المشركينَ من أهلِ مكّةَ[1].

وجهُ تعديةِ الفعلِ ﴿ءَامَنَ﴾ باللّامِ:

معنى الإيمان التَّصديق والإذعان

والفعلُ ﴿ءَامَنَ﴾ في قولِه تعالى: ﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ﴾ بمعنى: صدّقَ؛ فكانَ حقّهُ أن يتعدّى بنفسهِ[2]؛ لكنّهُ جاءَ هنا مُتعدّيًا باللّامِ؛ لأنَّه مِنَ الأمانةِ، ومعناهُ: التّصديقُ والإذعانُ لهُ، لا على معنى جعْلِه في مأمنٍ بانتفاءِ الخوفِ عنهُ[3].

معنى اللّامِ في قولِه: ﴿لِمُوسَىٰٓ﴾:

زيدت اللّامُ دفعًا لتوهّمِ التباسِ الفعلِ (آمَنَ) بالفعلِ (آمَنَهُ)

اللّام في قولِه: ﴿لِمُوسَىٰٓ﴾ لامُ التّبيينِ[4] دخلتْ على المفعولِ لتقويتِه أوّلًا، ورفعِ التّوهّمِ في الفعلِ ﴿ءَامَنَ﴾ بمعنى: صدّقَ، أن يكونَ مُلتبسًا بالفعلِ (آمَنَهُ) بمعنى: جعلهُ في مأمنٍ[5]، لو وُصِلَ الفعلُ إلى مفعولِه مِن دونِ اللّامِ، وهو غيرُ مقصودٍ؛ بلِ القصدُ مَن يؤمنُ لهُ، أي: يُصدِّقُهُ ويُذعنُ لهُ.

نُكْتَةُ التّصريحِ باسمِ ﴿لِمُوسَىٰٓ﴾ عليه السلام:

إيمانُهم لموسى بسببِ فِعْلِهِ، ولا يهتدي بالآياتِ كلُّ ضالٍّ خارجٍ عن إرادةِ الله

وجهُ التَّصريحِ باسمِ مُوسى عليه السلام؛ أنَّ هدايتَهمْ وتصديقَهمْ كانَ بسببِه، وأنّ الآياتِ قد لا تكونُ سببًا للهدايةِ؛ إنّما الأمرُ منوطٌ بإرادتِه تعالى ومشيئتِه[6] عز وجل.

بلاغةُ الاستثناءِ في الآيةِ:

ما آمنَ لموسى إلّا بعضٌ مِن أولادِ قومِهِ

قولُه تعالى: ﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ﴾ مُشتمِلٌ على

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/258 - 259.
(2) الزّبيديّ، تاج العروس: (أمن).
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/259.
(4) ابن هشام، مُغني اللّبيب، ص: 292.
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/259.
(6) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/175.

الاستثناء المُفَرَّغ[1]، فإنّه لم يؤمِن لموسى إلّا طائفةٌ مِن ذَراري بني إسرائيل؛ أي: أولادٌ مِن أولاد قومه، أمَّا الآباءُ فحمَلَهم خوفُهم مِن فرعون على عدم الإيمان[2].

في تقليل عدد المؤمنين تسليةٌ للنَّبيِّ محمّدٍ ﷺ

ويُستفادُ من جملةِ الاستثناءِ معنى الحصرِ؛ فإنّ معنى (ما قامَ إلّا زيدٌ)؛ أي: لم يقمْ غيرهُ[3]، والمعنى: أنّهُ لمْ يؤمن إلّا هؤلاءِ، وفيهِ تقليلٌ، وفي هذا التّقليلِ تسليةٌ للرّسولِ ﷺ؛ فقدْ كانَ يغتمُّ لإعراض قومهِ واستمرارهِم على كفرهِم وضلالهم؛ ففي هذهِ التّسليةِ بيانُ أنَّ ذلكَ شأنُ الأنبياءِ، وأنّ ما ابتُلِيَ بهِ موسى أعظمُ؛ فإنّهُ أرَى قومَهُ مِنَ المعجزاتِ رأيَ العينِ، ومعَ ذلكَ ما آمنَ منهم إلّا قليلٌ[4]، وهذا دأبُ المُصلِحين بشكلٍ عامٍّ، والرُّسلِ بشكل خاصٍّ، وفي قِصَّة نوحٍ عليه السلام وغيرِه مِنَ الأنبياء مثلُ ذلك.

دلالةُ التّعبيرِ بالذّرّيّةِ:

الصّغارُ هم الأسرعُ إلى قبولِ الهدايةِ

عبّرَ البيان القرآنيُّ عنِ القِلّةِ القليلةِ الّتي آمنتْ لموسى بلفظِ الذُّرّيَّةِ، وهمُ الصِّغارُ مِنَ الأولادِ والشُّبّان، وهم أسرعُ مِن غيرِهم في القبولِ للتّوفيقِ الإلهيّ؛ حيث لم تتلوّثْ أرواحُهم بعبثِ الدّنيا وأهوائِها، وهم أهل لأن تُذَرَّ فيهم البركة[5].

توجيه جمعِ الذُّرّيّة:

همُ الأحداثُ مِنَ الشُّبّان، أو هم قومُ فرعونَ، أو همُ الصّغارُ والكبار معًا

عبّرَ عنِ الذّرّيةِ بالجمعِ؛ لأنّهم الأحداثُ مِنَ الشّبابِ والمراهقينَ، وقدْ يُطلقُ على الصّغارِ والكبارِ من بابِ العُرْفِ، ويقعُ على الواحدِ والجمعِ، وقيلَ: هم قومُ فرعونَ إلّا أنَّ منهُمْ منْ كانَ يكتمُ إيمانَهُ خوفًا[6].

---

(1) "إذا استثنيتَ بـ (إلّا) من كلام منفيٍّ غيرِ تامّ، وذلك بأن يكون ما قبل (إلّا) مُحتاجًا إلى ما بعدها". يُنظر: ابن يعيش، شرح المُفصّل: 2/67، أو أنّ (إلّا) لا أثر لها في الإعراب.

(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/363، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/170.

(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 6/157.

(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/288.

(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/175.

(6) رضا، تفسير المنار: 11/383.

معنى ﴿مِّن﴾ في قوله: ﴿ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ﴾:

حرفُ الجرّ ﴿مِّن﴾ في قوله: ﴿ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ﴾ دالٌّ على التّبعيضِ، أي: من قومِ مُوسى عليه السلام؛ إذ كان هو نفسُه مِن أبناءِ إسرائيلَ[1]، وتحتملُ أن تكونَ للابتداءِ، والتَّبعيضُ مُستفادٌ مِنَ التّنوينِ[2].

المؤمنون هم بعضُ قومِ موسى

توجيهُ نسبةِ القومِ، وعودُ الضّميرِ فيه:

في قولِه: ﴿ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ﴾، الهاءُ المتّصلةُ في ﴿قَوْمِهِۦ﴾ تعودُ على مُوسى عليه السلام، والمُرادُ بالقومِ: المؤمنونَ مِن بني إسرائيلَ، الّذينَ توالدوا في مصرَ بعدَ دخولِه عليه السلام إليها، أو أولادُ الّذينَ أُرسلَ إليهم مُوسى بعدَ هلاكِ آبائِهم بطولِ الزّمانِ[3].

الهاءُ راجعةٌ إلى مُوسى، والقومُ هم مؤمنو بني إسرائيلَ، أو أولادُ الّذينَ أُرْسِلَ إليهم

يحتملُ معنى: ﴿مِّن قَوْمِهِۦ﴾ أنْ تكونَ الهاءُ راجعةً إلى فرعونَ، وهم في ذلكَ على ضَرْبيْنِ؛ مُعيَّنٌ وغيرُ مُعيَّنٍ، فأمّا المُعيَّنُ: فمنهُم امرأةُ فرعونَ، ومؤمنُ آلِ فرعونَ، وخازنُ فرعونَ، وامرأةُ خازنِه، وماشطتُهُ، وغيرُ المُعيّنِ: وهم نحو سبعينَ بيتًا مِنَ الأقباطِ مِن آلِ فرعونَ، أمهاتهُم مِن بني إسرائيلَ[4].

الهاءُ راجعةٌ إلى فرعونَ، والقومُ على ضَرْبيْنِ مُعيَّنونَ وغيرُ معيَّنينَ

دلالةُ ﴿عَلَىٰ﴾ في قولِه: ﴿عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ﴾:

يدلّ الحرفُ ﴿عَلَىٰ﴾ في قولِه تعالى: ﴿عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ﴾ على المعيّةِ، مُكافئًا لـ﴿عَلَىٰ﴾ في قولِه تعالى: ﴿وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾ [البقرة: 177]، أي: معَ حُبّهِ، والمعنى في الآيةِ محلّ البحثِ؛ أي: إنّ إيمانهُم مُتحقّقٌ معَ خوفِهم مِن فرعونَ وقومِه[5].

آمنوا لموسى معَ خوفِهم من فرعونَ ومَلَئِهِ

والحرفُ ﴿عَلَىٰ﴾ دالٌّ على الاستعلاءِ في أشهرِ معانيه[6]، وقولُه:

(على) يُفيدُ الاستعلاءَ، فهم مستعلون فوقَ الخوفِ

(1) الماتُريديّ، تأويلات أهل السنّة: 6/75.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 6/157.
(3) الثّعلبيّ، الكشف والبيان: 14/260 - 261.
(4) الثّعلبيّ، الكشف والبيان: 14/261.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/259، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3623.
(6) ابن هشام، مُغني اللّبيب، ص: 190.

﴿عَلَىٰ خَوۡفٖ مِّن فِرۡعَوۡنَ﴾ يفيدُ معنى الاستعلاءِ والتّمكُّنِ؛ فيصيرُ المعنى: كأنَّهم مُستعلونَ فوقَ الخوفِ، مُتمكّنونَ منه، يسيرُ بهم أنّى شاءَ في دهاليزِ المواجعِ والآلامِ[1].

سرُّ تنوينِ الخوفِ، وتنكيرِهِ:

التّنوينُ والتّنكيرُ للتّعظيمِ، أي كانوا على خوفٍ عظيمٍ من فرعونَ ومَلَئِهم

وردَ الخوفُ في قولِه تعالى: ﴿عَلَىٰ خَوۡفٖ﴾ مُنكَّرًا مُنوَّنًا، والتَّنوينُ والتَّنكيرُ هنا لإفادةِ التَّعظيمِ، أي: أنّهم كانوا على خوفٍ عظيمٍ، وفزعٍ وقلقٍ شديدَيْن مِن فرعونَ ومَلَئِهم[2].

معنى ﴿مِّن﴾ في قوله: ﴿عَلَىٰ خَوۡفٖ مِّن فِرۡعَوۡنَ﴾:

خوفهُم حاصلٌ بسببِ فرعونَ

﴿مِّن﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿عَلَىٰ خَوۡفٖ مِّن فِرۡعَوۡنَ﴾ واردةٌ على معنى السَّببيَّةِ والتّعليلِ، وهو مِن معانيها[3]؛ فإنّهُ لَمّا "كانَ إنكارُ الملأِ هو بسببِ فرعونَ أن يَسلبَهم رئاستَهُم؛ انحصرَ الخوفُ فيه"[4]، فقولهُ: ﴿مِّن فِرۡعَوۡنَ﴾؛ أي: بسببِ فرعونَ.

وجهُ التّصريحِ باسمِ ﴿فِرۡعَوۡنَ﴾:

لَمّا كان الضّميرُ في (قومِهِ) عائدًا على مُوسى، ذكرَ اسمَ (فرعونَ) تصريحًا

في التّصريحِ بلفظِ ﴿فِرۡعَوۡنَ﴾ وجهٌ ومعنى، وهو أنَّ الضّميرَ في ﴿قَوۡمِهِۦٓ﴾ راجعٌ إلى مُوسى المُتحدَّثِ عنهُ في الآيةِ، وكونهُ أقربَ مذكورٍ، فلو كانَ الضّميرُ عائدًا على فرعونَ لَمْ يظهرْ لفظهُ تصريحًا، ولكانَ التَّركيبُ (على خوفٍ منهُ) بالإضمارِ[5].

في إظهارِ لفظِ (فرعونَ) آيةٌ على تمكُّنِ الخوفِ منهُ عندهُم

في إظهارِ لفظِ ﴿فِرۡعَوۡنَ﴾ مزيدُ عنايةٍ بهِ مِن جهةِ الخوفِ والهَلَعِ منهُ، "فالخوفُ مِن فرعونَ مُتمكِّنٌ لا يحتاجُ معهُ إلى إضمارٍ"[6]، وإنّ في الإظهارِ استحضارَ الهيئةِ والجُثّةِ ممّا يُلقي مزيدًا مِنَ الخوفِ؛ لأنّ الخوفَ متعلِّقٌ حقيقةً بالأفعالِ لا الأعيانِ.

(1) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 10/6149.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 6/158.
(3) ابن هشام، مُغني اللّبيب، ص: 421.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/176.
(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/94.
(6) ابن عطيّة، المُحرّر الوجيز: 3/137.

بيانُ عطفِ ﴿وَمَلَإِيْهِمْ﴾ على ﴿فِرْعَوْنَ﴾:

في قولهِ تعالى: ﴿عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ﴾ عطفَ (الملأ) على ﴿فِرْعَوْنَ﴾ بقولِه: ﴿وَمَلَإِيْهِمْ﴾؛ فالمعلومُ أنّ مع فرعونَ مَن يُتابعهُ ويأتمرُ بأمرِه، ويَرجِعُ إلى قولِه، ويتَّخذُهُ مَرجعًا لهُ[1].

مَلأُ فرعونَ هم أصحابهُ الّذينَ يُطيعونه، والرّؤساءُ الّذينَ يَرجِعُ إلى قولِهم

نُكْتَةُ إضافةِ (المَلأ) إلى ضميرِ الجَمْعِ، وعَودُ الضّميرِ فيهِ:

قال: ﴿وَمَلَإِيْهِمْ﴾ عاطفًا بما اتّصلَ بضميرِ الجمع على ﴿فِرْعَوْنَ﴾ وهوَ واحدٌ، وفي ذلك خلافٌ لمقتضى الظّاهر، ونُكْتَتُهُ أنّ ذِكْرَ الملكِ بخَوفٍ أوْ نحوِه ينصرفُ الذّهنُ إليهِ على وجهِ التّعيينِ، وإلى منْ معهُ أيضًا، ألَا تراهُمْ يقولونَ: قَدِمَ الخليفةُ فَكَثُرَ النّاسُ، أي: إنّهمْ زادوا بـ مَن معهُ[2].

إذا ذُكرَ الملكُ بخوفٍ أو نحوِه، ذهبَ الوَهْمُ إليهِ وإلى مَن معه

ويُحتمَلُ عودةُ الضّميرِ في قوله: ﴿وَمَلَإِيْهِمْ﴾ إلى الذّريةِ، والمعنى: على خَوفٍ مِن فرعونَ ومِن قومِهم؛ فهم بقيَّةُ القومِ الّذينَ غابوا عنِ المشهدِ؛ خوفًا مِن أن يصيبَهم الغضبُ والأذى لإيمانِهم بموسى، ولِظَنّهم بمؤاخذةِ فرعونَ لهم، لما عُهِدَ مِن عادةِ الجبابرةِ في أخْذِ الجميعِ بجريرةِ بعضِهم[3].

الضّميرُ عائدٌ للذُّرّيةِ الّذين هم بقيّةُ القومِ الغائبينَ عنِ المشهدِ

ويُحتمَلُ عَودُ الضّميرِ إلى ﴿فِرْعَوْنَ﴾، وجاءَ بهِ مجموعًا لِمَا اعتيدَ مِنَ التّعبيرِ بهِ في ضمائرِ العُظَماءِ، ولا يأباهُ المقامُ؛ فهو مقامُ بيانِ عُلُوِّهِ في الفسادِ والتّسلُّطِ، والغلوِّ في الشّرِّ والعدوانِ[4].

الضّميرُ لـ(فرعونَ)، والجمعُ تعبيرًا عنِ العَظَمةِ

توجيهُ العُدُولِ عنِ المصدرِ الصَّريحِ إلى المُنْسَبِكِ:

عدَلَ عنِ المصدرِ الصَّريحِ (فتنته) أو (فتنة فرعونَ) إلى المصدرِ المُنْسَبِكِ (أنْ والفعلُ المضارعُ) في قولِه: ﴿أَن يَفْتِنَهُمْ﴾؛

المصدرُ المُنْسَبِكُ دالٌّ على التّعليلِ والتّوكيدِ؛ فهوَ عِلّةُ خوفِهم مِن عذابِه وبَطْشِه

(1) النّحّاس، معاني القرآن: 3/309.
(2) الفرّاء، معاني القرآن: 1/476.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/260.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/170.

لدلالتهِ على التّعليلِ والتّوكيدِ[1]؛ أي: أن يفتنهُم بالعذابِ والقَسْوةِ والبطشِ؛ فهو عِلَّةُ خوفهِم منهُ. فضلًا عن دلالة المصدر المُنْسَبِكِ (أنْ يَفْتِنَهُمْ) على إرادة حَدَث الفتنة، دونَ ملابساته وكيفيّاته.

دلالةُ الفتنةِ في الآيةِ:

الفتنةُ هنا الابتلاءُ والعذابُ والشّدّةُ

قولُه تعالى: ﴿أَن يَفْتِنَهُمْ﴾، أي: أن يبتليَهُم ويُعذِّبَهُم، والأصلُ في الفَتْنِ: تعريضُ الذّهبِ للنّارِ لتتبيّنَ جودتُهُ من رَدَاءتِه، واستُعملَ في الإنسانِ مجازًا بقولهِ تعالى: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ ﴿١٣﴾﴾ [الذّاريات: 13]، وهو هنا بمعنى الشِّدَّةِ والبلاءِ المُتحَصّلِ مِن فرعونَ عليهِم[2].

الفتنةُ هي الابتلاءُ الشّديدُ حملًا على الشّيءِ أوْ تَرْكِه

و(الفتنةُ) بمعنى التّعذيبِ والإرهاقِ، ويُستعملُ (الفُتُونُ) للابتلاءِ والاختبارِ؛ حَمْلًا على الشّيءِ أو تركًا لهُ، واستعملهُ الجبابرةُ كفرعونَ في الاضطهادِ والتّعذيبِ؛ للارتدادِ عنِ الدّينِ وطريقِ الحقِّ بكثرةٍ[3].

التّعبيرُ عنِ الفتنةِ بالمضارعِ:

التّعبيرُ بالمضارعِ يُفيدُ ديمومةَ إكراهِ فرعونَ لهم على اتّباعِه

عبّرَ عنِ الفتنةِ في قولِه تعالى: ﴿أَن يَفْتِنَهُمْ﴾ بالفعلِ المضارعِ، وهو الدّالُّ على التَّجدُّدِ والاستمرارِ، على إرادةِ "أن يُكرِهَهُم على استدامَةِ ما هم عليهِ"[4]، مِن متابعتِه واتّخاذِه إلهًا دونَ اللّه.

حَذْفُ فاعلِ الفتنةِ:

كلُّ ظالمٍ يستمدّ ظُلْمَهُ وجبروتَهُ مِن فرعونَ

حَذَفَ الفاعلَ في قولِه: ﴿أَن يَفْتِنَهُمْ﴾، فلمْ يَقلْ: (أن يفتنوهُم)؛ كي يكونَ فعلُ الفتنةِ شاملًا فرعونَ ومَلَأَهُم؛ فإنّ الخوفَ مِنَ الملأِ سببُهُ فرعونُ، فكلُّ ظالمٍ مُتجبِّرٍ عاتٍ في دولةِ فرعونَ إنَّما يستمدُّ ظُلْمَهُ مِن فرعونَ وطُغيانِه[5].

(1) الهلال، تفسير القرآن الثّريّ: 11/126.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 6/159.
(3) رضا، تفسير المنار: 11/384.
(4) الماورديّ، النّكت والعيون: 2/446.
(5) مجمع البحوث، التَّفسير الوسيط: 4/129.

توجيهُ ذِكْرِ ضميرِ الفتنةِ بالمُفرَدِ:

في قولِه: ﴿أَن يَفۡتِنَهُمۡۚ﴾ أسندَ فعلَ الفتنةِ للمُفردِ بمعنى: يصرفُهم عن دينِهم بالتّعذيبِ والتّرويعِ. ولمْ يُسندْه للجمعِ؛ لأنَّ فيهِ إخبارًا عن فرعونَ وقومِهِ؛ فقومُهُ كانوا على مثلِ ما كانَ عليهِ فرعونُ نفسُه[1]، فقد مالَؤُوهُ وناصروه، حتّى أصبح فعلُهم واحدًا.

في الإفرادِ إخبارٌ عن فرعونَ وقومِهِ، إذْ كانوا على مثلِ ما كان هو عليه

ولمّا أنكرَ المَلَأُ دعوةَ مُوسى عليه السلام؛ مخافةَ أنْ يسلبهُمْ فرعونُ الرّياسةَ، جُعلَ الخوفُ مِنْ فتنتهِ وعذابِهِ مُنحصرًا في فرعونَ؛ فكانتْ إشارتُهُ إلى ذلكَ المعنى بوَحْدَةِ الضّميرِ بقولِه: ﴿أَن يَفۡتِنَهُمۡۚ﴾[2].

وَحْدَةُ الضَّميرِ تُشيرُ إلى انحصارِ الفتنةِ في فرعونَ

وفي إسنادِ فِعْلِ الفتنةِ إليهِ دونَ سواهُ في قولِه: ﴿أَن يَفۡتِنَهُمۡۚ﴾ إيماءٌ إلى أنّ فرعونَ في حقيقتِهِ هو الآمرُ والنّاهي، وغيرُه تَبَعٌ لهُ[3]، فهو مَنْ "قَطّعَ أيديَ المؤمنينَ وصَلَّبَهم في جُذُوعِ النّخْلِ، فنُسبَتِ الفتنةُ إليهِ دونَ مَلَئِهم"[4]، ولذلك قرَّرَ القرآنُ الكريمُ إمامَةَ فرعونَ لأتباعِه، وقيادَتَه لهم يومَ القيامةِ إلى النّارِ، فقال تعالى: ﴿يَقۡدُمُ قَوۡمَهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَأَوۡرَدَهُمُ ٱلنَّارَۖ وَبِئۡسَ ٱلۡوِرۡدُ ٱلۡمَوۡرُودُ ٩٨﴾ [هود: 98].

فرعونُ هو الفاعلُ في الحقيقةِ، وغيرُهُ تَبَعٌ لهُ

وفي التّعبيرِ بضميرِ الواحدِ ﴿يَفۡتِنَهُمۡۚ﴾ لا الجمعِ (يفتنوهُم) مَلْحَظٌ دقيقٌ، ومَغْزًى عميقٌ، وهو أنَّ الزّبانيةَ ومَن لفَّ لفَّهم لا يُمارسونَ التّعذيبَ والقَهْرَ شَهْوةً مِن عندِ أنفسِهم، بل تنفيذًا لشهوةِ الفرعونِ[5] ونزعاتِه النّفسيَّةِ المريضةِ.

في تعذيبِ الزّبانيَةِ إرضاءٌ لرَغبةِ فرعونَ

سِرّ التّوكيدِ بـ (إنّ) والجملةِ الاسميَّةِ واللّام:

في قولِه تعالى: ﴿وَإِنَّ فِرۡعَوۡنَ لَعَالٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أكّدَ الجملةَ بـ ﴿إِنَّ﴾ اهتمامًا بتحقيقِ جبروتِ فرعونَ وبَطْشِهِ، كما أنَّ عُلُوَّهُ مستعارٌ

التّوكيدُ للاهتمامِ بتحقيقِ بَطْشِ فرعونَ ونَفْيِ توقُّعِ إيمانِه

(1) الثّعلبيّ، الكشف والبيان: 14/263.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/176.
(3) المُنتجب الهمذانيّ، الكتاب الفريد: 3/416.
(4) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3623.
(5) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 10/6149.

لاستبدادِه وغَلَبتِه وقَهْرِه[1]، والتّعبيرُ بالجملةِ الاسميَّةِ واللّام فيه دلالةٌ على الثّباتِ والاستقرارِ؛ فإنَّ فرعونَ لمْ يكنْ مُتنازلًا عمّا كانَ فيهِ مِن عُلُوٍّ وطُغيان، ولمْ يكنْ ليُؤمنَ ذاتَ يومٍ.

وجهُ تكرارِ اسم ﴿فِرْعَوْنَ﴾:

في قولِه تعالى: ﴿وَإِنَّ فِرْعَوْنَ﴾ إظهارٌ في محلّ الإضمارِ؛ فقدْ كَرّرَ ذِكْرَ ﴿فِرْعَوْنَ﴾ بعدَ ما صرّحَ به قبلَهُ في قولِه: ﴿عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ﴾، والغرضُ مِن ذلكَ: زيادةٌ في البيانِ، وتقويَةٌ للمعنى وتحقيقُهُ؛ لقصدِ التّخويفِ منهُ، والتّنفيرِ مِن أفعالِه؛ وأنّ مجرّدَ ذِكْرِه كافٍ في تصوُّرِ ما يكونُ منه، مِن تجبُّرٍ وطُغيان وعَنَتٍ وفساد[2]؛ ولأنّ ما بعدَه مُعتمدٌ عليه من عُلوّهِ وإسرافِه. وفي الإظهارِ والتّكرارِ في مواقفِ التّجبّرِ والتّكبّرِ والطُّغيان، مزيدُ ترسيخٍ لشناعةِ فعلِه، وقبيحِ وَصْفِه.

التّكرار والإظهار ترسيخٌ لشناعة الوصْفِ والفعل، وتنفيرٌ منهما

بلاغةُ الاستعارةِ في لفظِ (العُلوّ):

في قولِه تعالى: ﴿وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ استعملَ العُلوَّ للغلبةِ والقهرِ والاستبدادِ استعمالًا مجازيًّا[3] مِن بابِ الاستعارةِ؛ فالمستبدُّ القاهرُ كأنّهُ مُستَعلٍ على مقهورِه متمكِّنٌ منهُ.

المُستبِدّ القاهرُ كأنّهُ مُستَعلٍ على مَقهورِهِ مُتمكِّنٌ منهُ

تخصيصُ العلوّ ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾:

تخصيصُ العلوّ ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾ ومعناهَا أرضُ مصرَ؛ وذلك لكثرةِ ما يوجدُ فيها مِنَ المرافقِ والبُنيانِ كأنّها الأرضُ جميعًا[4].

لكثرةِ ما في أرض مصرَ مِنَ المرافقِ، وكأنّها جميعُ الأرضِ

توجيهُ الحاليَّةِ في جملةِ: ﴿وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي ٱلْأَرْضِ﴾:

جملةُ: ﴿وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ حاليَّةٌ، والمعنى: إنَّ فرعونَ لعالٍ في حالِ خوفِهم الّذي يتمكّنُ منهُم، وفي هذا ثناءٌ ومدحٌ لهم؛ فلم يصدَّهم عنِ الإيمانِ خوفُهم مِن فرعونَ وبَطْشِه[5].

لمْ يصدَّهم عنِ الإيمانِ خوفُهم من فرعونَ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/261.
(2) مجمع البحوث، التّفسير الوسيط: 9/858.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 6/159.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/176.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/259.

فائدةُ التَّعليلِ في الجملةِ:

إنّهمْ مُحِقُّونَ في خوفِهِمُ الشّديدِ

الجملةُ الدَّالةُ على علوِّ فرعونَ جملةٌ تُفيدُ معنى التّعليلِ؛ لخوفِهم من فرعونَ وطُغيانِهِ، فهُم على حقٍّ في خوفهم، بعدَ أن أثنى على إيمانِهِمْ معَ حالِ خوفهم الشّديدِ، الّذي تتطرّقُ آثارُه جميعَ أحوالِ المرءِ بما فيها خَلْوَتُهُ؛ لشِدّةِ مُلابَسةِ قومِه إيَّاهُ، فلا يجدُ مَفرًّا منهم[1]، والقرآن في ذلك يُثبت وجود الخوف كحقيقة وغريزة بشريَّة لا يمكن إنكارها، ولا تنفي وجودَ الإيمان، ولكن هناك مَن يملك شجاعةَ المواجهة مُتحدِّيًا غريزتَه مُستعليًا عليها، حتَّى إنّ موسى وهارون أنفسَهما ﴿قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ﴾ [طه: 45].

تكرارُ التَّوكيدِ في جملةِ الفاصلةِ:

حشدُ المؤكّداتِ في السّياقِ لمزيدِ التَّنفيرِ مِن فرعونَ ومُرتكباتِهِ

ختمَ الحقّ سبحانَه الآيةَ بقولِه: ﴿وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ مُكرِّرًا التّوكيدَ بـ (إنّ، واللّام، وجمعِ السّلامةِ)[2]، وهو توكيدٌ يُفيدُ معنى الاختصاصِ، أي: إنَّه لا غيرُه، وجمعُ السّلامةِ في انتظامه في الجملةِ الاسميَّة يدلّ على الثّبوتِ، أي: ثبوتِ الإسرافِ عندَ فرعونَ[3]، ثمّ إنّ حشدَ المؤكّداتِ في السّياقِ جاءَ لبيانِ تمامِ الاعتناءِ بمضمونِها، ومزيدِ عنايةٍ بالتّنفيرِ مِن فرعونَ ومرتكباتِه.

بيانُ العدولِ مِنَ التّصريحِ باسمِ فرعونَ إلى ضميرِهِ:

التّعبيرُ بالضّميرِ جارٍ مجرى الكنايةِ المفيدةِ الإيجازَ

في قولِه: ﴿وَإِنَّهُۥ﴾ عُدُولٌ مِنَ التّصريحِ باسمِ فرعونَ إلى ضميرِهِ؛ فهو جارٍ مجرى الكنايةِ الّتي تفيدُ الاختصارَ والإيجازَ والإجمالَ، المُغنيَةِ عن طولِ الاسمِ، وهو أبلغُ وأوكدُ مِن ذِكْرِهِ. فضلًا عمّا في العُدُولِ مِنَ التَّلميحِ إلى تخصيصِ الحديثِ عن صفاتِ فرعونَ وخصالِه وأفعالِه، وليس عن شخصِه، لتكتملَ صورةُ الكلامِ عليه شخصًا.

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/260.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3623.
(3) محمد الهلال، تفسير القرآن الرّيّ: 11/126.

دلالةُ ﴿لَمِنَ﴾ في قولِه: ﴿لَمِنَ ٱلۡمُسۡرِفِينَ﴾:

فرعون مِن جملةِ الّذين دأبوا على الإسرافِ قتلًا وإفسادًا وتكبُّرًا

﴿لَمِنَ﴾ في قولِه: ﴿لَمِنَ ٱلۡمُسۡرِفِينَ﴾ دالَّةٌ على التَّبعيضِ؛ فإنّ فرعونَ مِن جُملةِ الّذين داوموا على الإسرافِ، وهوَ مجاوزةُ الحَدِّ في الظُّلمِ، قتلًا وإفسادًا في الأرضِ، كما كانَ مُبالغًا في الكِبْرِ والتَّجبُّرِ والاستعلاءِ[1].

براعةُ العُدولِ مِنَ الوصفِ (إنّه لمسرف) إلى ﴿وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلۡمُسۡرِفِينَ﴾:

الإخبارُ عن فرعونَ بأنّهُ واحدٌ مِن طائفةِ المُسرفينِ أبلغُ

عدلَ عن قولِه: (وإنّهُ لمسرفٌ) بالإفرادِ إلى قوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلۡمُسۡرِفِينَ﴾؛ لأنّ الثّاني أبلغُ في وَصْفِه بالإسرافِ[2]؛ لكون التّعريف في ﴿ٱلۡمُسۡرِفِينَ﴾ تعريفَ جنسٍ؛ فيكونُ خبرًا عن فرعونَ بأنّه واحدٌ مِنَ الطّائفة المعروفةِ عندَ النّاس بأنّها طائفةُ المسرفينَ، وهو من قبيلِ الكنايةِ بإثباتِ الشّيءِ عن طريقِ إثباتِ مَلزومه، وهو أبلغُ مِنَ التّصريح، وهو كقولهم: "فلانٌ مِنَ العلماءِ، أبلغُ من قولكَ: فلانٌ عالمٌ؛ لأنّكَ تشهدُ لهُ بكونهِ معدودًا في زُمرتهِمْ، ومعروفةً مساهمته لهم في العِلْمِ"[3].

وفي قوله ﴿لَمِنَ ٱلۡمُسۡرِفِينَ﴾ أيضًا إشارةٌ إلى أنَّ فرعون ليس شخصًا تنتهي أباطيلُه وبَطْشُه وجبروتُه بموته؛ إنَّما هو فكرة مُتجدِّدة؛ وكما قالوا قديمًا: لكلِّ زمانٍ فراعينُه.

في الجمعِ إثباتُ الذّمّ على فرعونَ بأنّه مِن أهلِ الإسرافِ العَريقِينَ

ولإيرادِه جمعًا مَلْحَظٌ آخرُ، ففي قولِه تعالى: ﴿قَالُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡنَآ أَوَعَظۡتَ أَمۡ لَمۡ تَكُن مِّنَ ٱلۡوَٰعِظِينَ ١٣٦﴾ [الشُّعراء: 136] لم يقل: (أوعظتَ أم لمْ تعظْ)؛ مع أنّه أخصرُ وأوجزُ، والمعنى واحدٌ.

والجوابُ عن ذلكَ: أنّ بينهمَا فرقًا في المعنى؛ "لأنَّ المُرادَ سواءٌ علينَا أفَعَلْتَ هذا الفعلَ الَّذي هو الوعظُ، أمْ لَمْ تكنْ أصلًا من أهلِهِ

(1) مجمع البحوث، التّفسير الوسيط: 4/129.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/261.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/331.

ومباشرته. فهو أبلغُ في قلّةِ الاعتدادِ بوعظهِ مِن قوله: أَمْ لَمْ تعظْ"[1]؛ فالمعنى هنا إثباتُ المَذَمَّة على فرعونَ، وأنّهُ مِنَ الزُّمرةِ المعروفةِ المعهودةِ بالإسرافِ، وأنّهُ مِن أهلِها العريقينَ فيها، فهوَ أبلغُ مِن نعْتِهِ بالإسرافِ مُفرَدًا.

مناسبةُ وصْفَي: (العلوّ، والإسراف):

ختمَ الحقّ سبحانَهُ الآيةَ بصفتيْنِ مِن صفاتِ فرعونَ المذمومةِ؛ الأولى: صفةُ العُلوّ بقولِه: ﴿وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي ٱلْأَرْضِ﴾. والثّانيةُ: صفةُ الإسرافِ بقولِه: ﴿وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾، وفي الجمعِ بينهمَا مناسبةٌ؛ وهيَ أنَّ كِلَا الوصفيْنِ ممّا يمنعُ الاستجابةَ لدعوةِ مُوسى عليه السلام، وممّا يصدُّ عنها، فالعُلوُّ وَصْفٌ ذَميمٌ يُشعِرُ المُتعاليَ أنّهُ فوقَ النّاسِ جميعًا، وأنّهُ ليسَ مِن جنسِهِمْ وطينتِهِمْ، والمسرفُ مُغالٍ في كلِّ شيءٍ عُتُوًّا وفسادًا[2].

كِلَا الوَصفيْنِ ممّا يمنعُ الاستجابةَ لدعوةِ مُوسى عليه السلام ويَصُدُّ عنها

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

العُلُوُّ والصُّعود والرُّقِيُّ والعُرُوجُ:

الصُّعود مقصور على الارتفاع في المكان، ولا يُستعمل في غيره، والارتفاع والعُلُوُّ يُشترط فيهما جميع ذلك[3]. أمَّا الفرق بينَ الرُّقيِّ والصُّعودِ: فالرُّقي أعمُّ مِنَ الصُّعود؛ ألَا ترى أنَّه يُقال: رَقِيْتُ في العِلْم والشَّرَف إلى أبعد غايَةٍ، ورَقِيَ في الفَضْل، ولا يُقال في ذلك صَعَد. فالصُّعود مقصورٌ على المكان، والرُّقِيُّ يُستعمل فيه وفي غيره، فهو أعمّ[4]، زِد على ذلك أنَّ مِن معاني العُلُوِّ التَّجبُّر والطُّغيانُ في الأرض، وتجاوزُ الحدودِ المعهودةِ في الظُّلم والعُدْوانِ. والعُرُوج صعودٌ بِتَأنٍّ. ومن هاهنا اصطُفِيَ في سياق الآية ليُناسبَ وَصْفَ فرعونَ بالتَّجبُّر والطُّغيان.

من معاني العُلُوِّ التَّجبُّر والطُّغيان في الأرض، وهو يناسب وَصْفَ فرعونَ

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/327، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/263 - 264.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3623.
(3) العسكريّ، معجم الفروق اللّغويّة، ص: 314.
(4) العسكريّ، معجم الفروق اللّغويّة، ص: 259.

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوۡمِ إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيۡهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسۡلِمِينَ ٨٤﴾ [يونس: 84]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لا يتحقّقُ الإيمانُ بالأقوالِ حتّى ينضمَّ معها صدقُ الأحوالِ

لَمّا ذَكَرَ الحقُّ سبحانَه في الآيةِ السّابقةِ خوفَهم ورهبتَهم مِن فرعونَ ومَلَئِه وعُلُوِّهِ وإسرافِه، أتبَعَه بما يُوجبُ طمأنينتَهم وإيمانَهم بأن يتوكَّلوا عليهِ سبحانَه[1]؛ فمن توكّلَ عليهِ كفاهُ حالَ اتّصافِهم بأن يجمعوا بينَ تصديقِ القلبِ وإذعانِ الجوارحِ، وهو الإسلامُ الحقُّ.

المَعْنى الإجْماليُّ:

الأمر بالتَّوكُّل والثَّباتِ في المِحَن مِن صفات الرُّسل والمُصلِحين

قال موسى لِقَومِه بني إسرائيلَ لمّا رأى خوفَهم مِن فرعون: ثِقُوا باللّه واعتَمِدُوا عليه، ولا تُبالوا بغيره إن كُنْتُم مُستسلمين لقضاء اللّه، أو مُنقادِين لأحكامه، قائمينَ بطاعته بعد تحصيل الإيمانِ به، وقال لهم ذلك مع عِلْمه بإيمانهم وإسلامهم؛ إنهاضًا لهم، وتحريضًا على الصَّبر، كما تقول: إن كُنتَ رجلًا فافعل كذا[2].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

توجيهُ الوَصْلِ بالعطفِ:

عَطَفَ ما بَقِيَ مِن قصّةِ مُوسى وفرعونَ على أوّلِها

قولُه تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوۡمِ﴾ الآيةَ، موصولةٌ بالعطفِ على ما سبقَها مِن قولِه تعالى: ﴿وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ ٱئۡتُونِي بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٖ﴾، وهو عطفُ ما بقيَ مِن قِصَّةِ مُوسى وفرعونَ على أوّلِها[3]؛ فإنّهُ لَمّا ذكرَ ما كانَ مِن شأنِ فرعونَ ومقاومةِ دعوةِ موسى، أردفَهُ ما كانَ مِن أمرِ بني إسرائيلَ مع موسى عليه السلام، تمهيدًا لخروجِهم مِن مصرَ[4].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/177.
(2) ابن عجيبة، البحر المديد: 2/493.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/261.
(4) الهرريّ، تفسير حدائق الرّوح والرّيحان: 12/314.

إظهارُ الفاعلِ ﴿مُوسَىٰ﴾:

أظهرَ الفاعلَ مُوسى عليه السلام في قولِه تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ﴾، وهو ابتداءُ الحكايةِ لبني إسرائيلَ، وفي إظهارِه إيناسٌ لهم، ونَدْبَةٌ إلى أن يتوكّلوا عليهِ سبحانَه في أن ينصرَهم[1]، وإشاعةً للطّمأنينة والسّكونِ على قلوبهم بعدَ ما رأى الخوفَ والرُّعبَ يعلو وجوهَ المؤمنينَ فَرَقًا مِن فرعونَ ومَلَئِهِ[2].

أظْهَرَ الفاعلَ إيناسًا لهم، وحَثًّا على إفرادِهِ سبحانه بالتَّوكُّل

وفي إظهارِ لفظِ مُوسى عليه السلام الدَّالِّ على الفاعِليَّةِ مَلْمَحٌ لفظيٌّ، وهو دَرْءُ الوَهْمِ واللَّبْسِ بينَهُ وبينَ فرعونَ؛ فإنَّ خاتمةَ الآيةِ الّتي سبقت كانت في شأنِ فرعونَ وعُلُوِّهِ في الأرضِ وإسرافِه، وعدمُ ذكرِ مُوسى يُوقِعُ في اللَّبْسِ بأنّهُ فرعونُ؛ لعودِ الضَّميرِ على أقربِ مذكورٍ.

دَرْءُ الوَهْمِ واللَّبسِ بينَهُ وبينَ فرعونَ، فما سبقَ كانَ في شأنِ فرعونَ

دلالةُ النّداءِ بالياءِ:

قولُه تعالى: ﴿يَٰقَوۡمِ﴾ نادى قومَه بالياءِ استعطافًا بالتّذكيرِ بالقُربِ، ومُنشِّطًا لهم، ومُرغِّبًا بما أُودِعَ فيهم مِنَ القُوّةِ والاستطاعةِ[3]، ولتأليفِ قلوبِهم واستمالةِ نفوسِهم؛ كي يُذعنوا لهُ، ويقبلوا نصيحتَهُ وإرشادَهُ، وفيه إشارةٌ إلى أنّهُ يبتغي لهم الخيرَ، ولا يُضمرُ لهم السّوءَ، وأنّهُ مُشفِقٌ عليهم، رؤوفٌ بهم.

نداءٌ فيه استعطافٌ بالتّذكيرِ بالقُرْبِ

توجيهُ حذفِ الياءِ مِنَ المنادى ﴿يَٰقَوۡمِ﴾:

المنادى ﴿يَٰقَوۡمِ﴾ أصلُهُ (يا قومِي)، لكنّهُ حَذَفَ الياءَ مِن آخرِه، ممّا خلَعَ عليهِ عطفًا وحنانًا ولينًا، وهو قولٌ صدرَ عن مُوسى، بعدَ أن شكا قومُهُ مِن سُوءِ معاملةِ قومِ فرعونَ لهم[4].

نداءٌ فيهِ عطفٌ ولينٌ، بعدَ شكوى بني إسرائيلَ مِن سُوءِ معاملةِ الفراعنة

(1) ابن عطيّة، المُحرّر الوجيز: 3/137.
(2) طنطاوي، التّفسير الوسيط: 7/119.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/177.
(4) الهلال، تفسير القرآن الثّريّ: 11/127.

دلالةُ (إنْ) الشَّرطيّةِ:

أرادَ موسى إقامةَ الحُجّةِ، وتنبيهَ الأنفُسِ، وإثارةَ الأنَفَةِ

جاءَ قولهُ تعالى: ﴿إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم﴾ بـ (إنْ) الشّرطيَّةِ الدَّالَّةِ على الشّكِّ وعدم التَّحقُّقِ؛ فأدخَلَها على فعلِ الإيمانِ في الزّمنِ الماضي، معَ أنّهُ عالمٌ بأنَّ إيمانهم مُتحقِّقٌ؛ لكنّهُ أرادَ أن يُقيمَ الحُجّةَ، ويُنبّهَ النّفوسَ، ويثيرَ الأنَفَةَ فيهم، كما يُقالُ: إنْ كنتَ رجلًا فقاتِلْ، وهو رجلٌ في حقيقته، وإنّما خُوطِبَ بوَصْفِهِ الكائِنِ فيهِ لإقامةِ البيّنةِ[1].

قَصَدَ إثارةَ صِدْقِ إيمانِهم، وإلهابَ قلوبِهم، وبعثَ همَّتِهم

وعبّرَ بـ (إنْ) الدّالَّةِ على الشّكِّ لإثارةِ إيمانِهم إن كانوا صادقينَ فيهِ، وإلهابِ قلوبِهم وتهييجِها، وبعثِ همَّتِهم على التّوكّلِ، بأن علّقَهُ بالشّرطِ المُحتَمَلِ الوقوعِ؛ فتخَوُّفُهم مِن فتنةِ فرعونَ جعلَهُم يكتمونَ إيمانَهم تَقيَّةً[2].

نُكْتَةُ التّعبيرِ بفعلِ الكونِ ماضيًا:

هو كونٌ واقعٌ كالخَلْقِ الّذي لا يزولُ

عبّرَ عن فعلِ الكونِ ماضيًا بقولِه: ﴿إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم﴾؛ لدلالتِه على التَّحَقُّقِ والاستقرارِ؛ بوقوعِ فعلِ الإيمانِ منهم، فإنّهُ كالخَلْقِ غيرُ آيلٍ إلى الزَّوالِ[3].

التّعبيرُ عنِ الإيمانِ ماضيًا:

الإيمانُ حقيقةٌ ثابتةٌ تقومُ بالقلبِ

أوردَ فعلَ الإيمانِ بصيغةِ الماضي بقولِه: ﴿ءَامَنتُم﴾؛ لأنّ الإيمانَ حقيقةٌ ثابتةٌ تقومُ بالقلبِ، ودلالتُهُ على الثّبوتِ واضحةٌ، ولكنّهُ قد يزيدُ وينقصُ كما وردَ في الأثرِ.

دلالةُ الباءِ في قولِه: ﴿ءَامَنتُم بِٱللَّهِ﴾:

ملابَسةُ الإيمانِ باللهِ ومصاحبتُه واقعةٌ منهم حقيقةً

الباءُ في قولِه: ﴿ءَامَنتُم بِٱللَّهِ﴾؛ تحتملُ أن تكونَ بمعنى المُصَاحَبةِ والمُلابَسةِ، وهو مِن أشهرِ معانيها[4]، فهم على مُلابَسةِ الإيمانِ به تعالى ومصاحبتِه حقيقةً، وإنّما أوردَهُ في سياقِ الشّرطِ إلهابًا وتهييجًا.

---

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/96.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/262.

(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/177.

(4) ابن هشام، مُغني اللّبيب، ص: 140.

علّةُ إظهارِ اسمِ الله الأعظمِ:

في إظهارِ الاسمِ الجليلِ علّةٌ وغايةٌ؛ فإنّهُ أرادَ تثبيتَهُم "بذِكْرِ الاسمِ الأعظمِ وما دلَّ عليهِ مِنَ الصّفاتِ"[1]؛ فيتحصَّلُ مِن ذِكْرِهِ تعالى ما يدلُّ على الذّاتِ الإلهيَّةِ، معَ صفةِ العَظَمَةِ والكمالِ القائمةِ، بما يُناسبُ حالَهم مِن خوفِهم الّذي كانوا فيهِ.

في ذِكْرِ الاسمِ الجليلِ تثبيتٌ لهم وتطمينٌ لقلوبهم

دلالةُ الفاءِ في قولِه: ﴿فَعَلَيۡهِ تَوَكَّلُوٓاْ﴾:

الفاءُ في قولِه: ﴿فَعَلَيۡهِ تَوَكَّلُوٓاْ﴾ دالَّةٌ على التّعقيبِ من غيرِ مُهْلةٍ؛ فإنَّ إيمانهم باللّه تعالى يجبُ أن يكونَ مُسرعًا بهم إلى عقدِ العزمِ على التّوكّلِ على اللّه سبحانهُ من غيرِ بُطءٍ ولا تأخيرٍ، بل على وجهِ السّرعةِ والمبادرةِ.

إيمانهُم باللهِ تعالى يُسرِّعُ بهم إلى التّوكُّلِ عليهِ مِن غيرِ إبطاءٍ

وجهُ تقديمِ شِبهِ الجملةِ ﴿فَعَلَيۡهِ﴾:

قدّمَ شبهَ الجملةِ ﴿فَعَلَيۡهِ﴾ في قولِه: ﴿فَعَلَيۡهِ تَوَكَّلُوٓاْ﴾؛ لإفادةِ الحصرِ؛ فإنّ التّوكُّلَ يكونُ عليهِ سبحانَه لا على غيرِهِ؛ فإنّ كلّ ما سواهُ تحتَ مُلْكِهِ وتَصَرُّفِه، وتحتَ حكمِهِ وتدبيرِهِ؛ فيمتنعُ عقلًا أن يَتوكّلَ الإنسانُ على غيرِهِ[2].

كلّ ما سواهُ تحتَ مُلكِهِ وتَصرّفِه وتدبيرِهِ، فكيفَ يُتوكَّلُ على غيرِهِ؟!

وفي تقديمِ الجارِّ والمجرورِ على مُتعلّقِهِ فائدةُ القصرِ الإضافيِّ[3]، يُفسِّرُه ما حُكيَ مِن خوفِهم مِن فرعونَ أن يفتنَهُم؛ فصارَ المعنى إلى نهيِهم عنِ الخوفِ مِن فرعونَ[4] بمدّعاةِ توكُّلِهم على اللّه المُتَّصفِ بالعَظَمةِ؛ فإنّ مَن توكّلَ على اللّه كفاهُ فرعونَ ومَن والاهُ.

في قصرِ التّوكُّلِ عليهِ سبحانهُ نهيٌ عن الخوفِ منْ فتنةِ فرعونَ وأتباعه

إيثارُ الإضمارِ بدلَ إظهارِ لفظِ الجلالةِ:

آثرَ البيانُ القرآنيُّ التّعبيرَ بالضّميرِ في ﴿فَعَلَيۡهِ﴾ على إظهارِ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 9/177.

(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/290.

(3) معنى القصر عمومًا راجع إلى تخصيص الموصوف عند السّامع بوصفٍ دون ثانٍ، وفيه أنواعٌ كثيرةٌ كالإضافيّ والادّعائيّ وغيرها. يُنظر: السّكاكيّ، مفتاح العلوم، ص: 288.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/262.

الاسم الجليلِ (اللّه) في قولِه: ﴿فَعَلَيۡهِ تَوَكَّلُوٓاْ﴾ لأنَّه مذكورٌ قبلَهُ؛ كما هوَ شأنُ الضّمائرِ الّتي تُعوِّضُ مِن تكرارِ الأسماءِ الظّاهرةِ، ولإفادةِ كمالِ الارتباطِ بينَ الجملتينِ بعودِ المُضْمَرِ على الظّاهرِ.

الضّميرُ يُعوِّضُ مِن تَكرارِ الأسماءِ الظّاهرةِ؛ طلبًا للإيجازِ ولكمالِ الارتباطِ بينَ الجملتينِ

دلالةُ التّعبيرِ عنِ التّوكّلِ مجموعًا:

عبَّرَ عنِ التّوكّلِ مجموعًا بإسنادِ فعلِ الأمرِ إلى ضميرِ الجمعِ؛ ليدُلَّ على عُلوِّ الدّرجةِ هنا؛ فإنَّ نوحًا عليه السلام وصفَ نفسَهُ بالتّوكُّلِ على اللّه بقولِه: ﴿فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡتُ﴾ [يُونُس: 71]، وهوَ أمرٌ محمودٌ مرغوبٌ، موصوفٌ بالتّمامِ، أمّا مُوسى فقدْ أمرَ قومَهُ بالتّوكّلِ، فكانَ موصوفًا بأنّهُ فوقَ التّمامِ[1].

أمرَ مُوسى قومَهُ بالتّوكّلِ، فكانَ فوقَ التّمامِ

توجيهُ صيغةِ التّفعُّلِ في ﴿تَوَكَّلُوٓاْ﴾:

الفعلُ ﴿تَوَكَّلُوٓاْ﴾ على زنةِ (تَفَعّلَ)، ومعنى التّفعُّلِ: ممارسةُ الفعلِ وتكريرِه[2]، وإخراجُ طاقةِ المرءِ وجهدِهِ ليحصُلَ المرادُ، وهذا شأنُ التّوكّلِ، فينبغي تكريرُ "الممارسةِ حتّى يألفَها إلفًا، ويختارَها اختيارًا، فيصيرُ التّوكُّلُ والهُدُوُّ والسّكونُ والرّضا والصّبرُ لهُ شعارًا ودِثارًا"[3]؛ فلا يحصلُ التّوكّلُ بينَ ليلةٍ وضحاهَا؛ بل بهِ حاجةٌ للصّبرِ، وبعدهُ يأتي نصرُ اللّه وتأييدُهُ.

التّفعُّلُ في تكريرِ الممارسةِ حتّى تكونَ مألوفةً، فيصيرَ التّوكّلُ شعارًا ودِثارًا

وجهُ حذفِ جوابِ الشّرطِ في قولِه: ﴿إِن كُنتُم مُّسۡلِمِينَ﴾:

في قولِه: ﴿إِن كُنتُم مُّسۡلِمِينَ﴾ شرطٌ ثانٍ، جوابُهُ محذوفٌ، دلّ عليهِ جوابُ الشّرطِ الأوّلِ مِن قولِه: ﴿إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيۡهِ تَوَكَّلُوٓاْ﴾، على تقديرِ: (إن كنتم مسلمينَ، فإن كنتمْ آمنتمْ باللّه فعليهِ توكّلوا)، فحذفَ جوابَ الثّاني لدلالةِ جوابِ الأوّلِ عليهِ[4].

دلّ جوابُ الأوّلِ على الثّاني فحُذف

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/290.
(2) الرّضيّ، شرح الشّافية: 1/92.
(3) الثّعالبيّ، الجواهر الحسان: 3/261. والهُدُوُّ: من الهداية. ينظر: ابن منظور، لسان العرب: (هدى).
(4) الزّركشيّ، البرهان في علوم القرآن: 2/372.

دلالةُ جملةِ ﴿إِن كُنتُم مُّسۡلِمِينَ﴾:

جملةُ: ﴿إِن كُنتُم مُّسۡلِمِينَ﴾ دالَّةٌ على الإلهابِ والتّهييجِ والتّحفيزِ لأجلِ الثّبات[1]؛ لأنّهُ لا يَشْتَرِطُ عليهم الإسلامَ؛ فهم مسلمونَ حقيقةً.

في الجملةِ أسلوبُ إلهابٍ وتهييجٍ لأجلِ الثّبات

بلاغة تكرارِ جملةِ الشّرط:

قولهُ تعالى: ﴿إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيۡهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسۡلِمِينَ﴾ من بابِ تعليقِ الشَّرطِ على الشَّرطِ[2]، ففي الآيةِ شرطانِ: الأوَّلُ: ﴿إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ﴾، والثّاني: ﴿إِن كُنتُم مُّسۡلِمِينَ﴾، والحاصلُ مِنَ الشّرطينِ أنّ توكّلَهُم موقوفٌ على إيمانِهم وإسلامِهم، وفي ذلكَ مزيدُ عنايةٍ بالتّوكُّلِ وملازمتِهِ للإيمانِ والإسلامِ، وأنّ الشّرطَ الثّاني مُبيِّنٌ ومُؤكِّدٌ للأوّلِ[3].

مِن شروطِ التَّوكُّلِ ملازمَتُه للإيمانِ والإسلامِ

وُرودُ شرطِ الإيمانِ مُتقدِّمًا لفظًا، وشرطِ الإسلامِ متأخِّرًا، لا يقتضي التّرتُّبَ الوجوديّ[4]، بل العكسَ؛ فإنَّ شرطَ الإسلامِ مُتقدِّمٌ على شرطِ الإيمانِ؛ فالإيمانُ يقتضي أن يكونوا مسلمينَ أوّلًا، كحالِ طالبٍ معاقَبٍ مِن مديرِ مدرستِهِ بأن يشترطَ عليهِ بقولِهِ: (إنْ جئتَ يومَ السَّبتِ القادمِ قَبِلْتُكَ في المدرسةِ إن كانَ معكَ وليُّ أمْرِكَ)، فَمَجيءُ وليِّ الأمرِ هنا مُقدَّمٌ على مجيءِ الطّالبِ ومُعلَّقٌ عليهِ، ومثلُهُ تعليقُ الشّرطِ الثّاني على الأوّلِ، وتقديمُه عليهِ في المعنى[5].

شرطُ الإسلامِ مُتقدِّمٌ على شرطِ الإيمانِ، الَّذي يقتضي الإسلامَ أوّلًا

موقعُ جملةِ: ﴿فَعَلَيۡهِ تَوَكَّلُوٓاْ﴾:

موقعُ جملةِ: ﴿فَعَلَيۡهِ تَوَكَّلُوٓاْ﴾ واقعةٌ بينَ جُملتيْ: ﴿إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ﴾ و﴿إِن كُنتُم مُّسۡلِمِينَ﴾، وهما شرطانِ؛ أحدهُما مُتقدِّمٌ والآخَرُ

جملةٌ متوسطةٌ بينَ الإيمانِ والإسلامِ، وهيَ جوابٌ للاثنيْنِ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/177.
(2) ألّف فيه ابن هشام الأنصاريّ كتابًا بمسمّى: (اعتراض الشّرط على الشّرط)، وهو " أَن يتوارد شَرْطَانِ على جَوَاب وَاحِد فِي اللَّفْظ على الْأَصَح" وقد ذكر الآية موضع البحث. يُنظر: ابن هشام، اعتراض الشّرط على الشّرط، ص: 43، 31.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/262.
(4) السّمين الحلبي، الدّرّ المصون: 6/258.
(5) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 10/6152.

مُتأخِّرٌ، وهي جوابٌ للشَّرطيْنِ جميعًا[1]، وفيهِ مَلْمَحٌ لطيفُ الصَّنعةِ يكادُ يكونُ خفيًّا؛ فإنّهُ قد وَسَّطَ الجوابَ بينَ الشَّرطيْنِ، في إشارةٍ إلى أنّهُ مُتعلِّقٌ بكليهما؛ فالإيمانُ عن يمينهِ، والإسلامُ عن شِمالهِ، فالأوّلُ واجبٌ، والثّاني ممّا ينبغي لهم تحقُّقُهُ فيهم.

سرّ التّعبيرِ بـ ﴿مُّسۡلِمِينَ﴾ دونَ (مؤمنيْن):

إسلامُ النَّفسِ وخلوصُها مِن حظِّ الشَّيطانِ شرطُ التَّوكّلِ

في قولِه: ﴿إِن كُنتُم مُّسۡلِمِينَ﴾ عبّرَ بلفظِ المسلمينَ دونَ لفظِ المؤمنينَ في إشارةٍ إلى أنّ شرطَ التّوكّلِ على اللّه هوَ الإسلامُ، وهوُ الخلوصُ للحقّ سبحانهُ من غيرِ أن يكونَ للشّيطانِ أدنى حظّ؛ لأنّ التّوكّلَ عليهِ سبحانَه لا يكونُ معَ التّخليطِ[2].

تشفيعُ تصديقِ القلبِ إلى إذعانِ الجوارحِ

وعدلَ عن لفظِ (المؤمنينِ) إلى لفظِ (المسلمينَ)؛ لأنّهُ ذكَّرهُم بالإيمانِ في الجملةِ الشّرطيَّةِ الأولى: ﴿إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ﴾، فلمّا ذَكَرَ الإيمانَ أوّلًا ذكرَ الإسلامَ بعدَهُ ليَجمعَ إذعانَ الجوارحِ إلى تصديقِ القلبِ[3].

ذِكْرُ الإسلامِ فيهِ زيادةُ معنًى

واشتراطهُ أن يكونوا ﴿مُّسۡلِمِينَ﴾ غايتُه أنَّهم أهلُ طاعةٍ وخضوعٍ يُزاد على إيمانِهم المشروطِ، ممّا يشِي بأنّ ذِكْرَ الإسلامِ بعدَ الإيمانِ يدلُّ على زيادةِ معنًى[4]، مِن اطمئنانِ القلبِ وإخلاصِ النّيّةِ.

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/263.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/364.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/177.
(4) ابن عطيّة، المُحرّر الوجيز: 3/138.

﴿فَقَالُواْ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡنَا رَبَّنَا لَا تَجۡعَلۡنَا فِتۡنَةً لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ٨٥﴾

[يونس: 85]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

ما سبقَ مِنِ اشتراطِهِ ﷺ أن يتوكّلوا على الله إن صحَّ منهم الإسلامُ هذا جوابهُ؛ فالشّرطُ يقتضي جوابًا؛ فهما متعالقان، فإنّ الفاءَ أفادتْ ترتُّبَ هذهِ الجملةِ على ما قبلَها، ومناسبتَها لها معَ التّعقيبِ[1]، فتوكّلُهم على الله فيهِ إثباتُ كونهِم مسلمينَ، وأنّ التّوكّلَ مَلْجَؤُهُم ومَعاذُهم، معَ دعواهُمْ بألّا يكونوا موضعَ فتنةٍ للقومِ الظّالمينَ.

على المسلمِ أنْ يكونَ مُتوكِّلًا على اللهِ وحدَهُ بمنأًى عنِ الظّالمينَ

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فِتۡنَةً﴾: والمقصود بالفَتْنِ في الآية - كما تقدّم[2] -: إدخالُ الرَّوعِ والاضْطِرابِ على العَقْلِ بسببِ تَسليطِ ما لا تستطيعُ النَّفْسُ تحمُّلَهُ، والمُراد بالفتنة هنا: الكُفْر[3].

المَعْنى الإجْماليُّ:

أجابوا موسى عليه السلام، فقالوا: على اللّه وَحْدَه - لا شريكَ له - اعتَمَدْنا، وإليه فوَّضْنا أمْرَنا، ربَّنا لا تُسلِّط علينا الظَّالمين، فيَفتِنونا عن ديننا بالتَّعذيب والقتل والإغراء.

التَّوكُّل هو ثمرة الإيمان ونتيجتُه

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

تقديمُ هذهِ الآيةِ على ما بعدَها:

قولهُ تعالى: ﴿فَقَالُواْ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡنَا﴾ الآيةَ، ثمّ بعدَها قولُه:

التّرتيبُ دالٌّ علَى أنّ اهتمامَهم بأمرِ دينِهم يفوق أمرَ دنياهُمْ

(1) القونويّ وابن التّمجيد، حاشية على تفسير البيضاويّ: 9/544.
(2) سبق شرحُ لفظ (الفتنة) في تفسير سورة يونس: الآية: 83.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 7/91.

﴿وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ﴾ الآيةَ، ترتيبٌ يدلُّ على أنَّ اهتمامَ القومِ بأمرِ دينهم في توكّلهم، ودعواهُمْ ألّا يكونوا فتنةً للظّالمينَ، فيُظنّ بُطلانُ الدّينِ وهوَ حقٌّ، وهو مُقدَّمٌ على اهتمامهم بأمرِ دُنياهُمْ، وهوَ طَلَبُ نجاتهِمْ بأبدانهِمْ[1].

معنى (الفاء) في قوله: ﴿فَقَالُواْ﴾:

الفاءُ في قولهِ تعالى: ﴿فَقَالُواْ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾ الآيةَ، عاطفةٌ مُعقّبةٌ هذهِ الجملةَ على مقالةِ مُوسى عليه السلام، خلافًا لمقتضى الحالِ مِن جريانِ الأقوالِ في المحاوراتِ مِن غيرِ عطفٍ، أمّا التّعقيبُ: فإنَّ صدقَ الإيمانِ ونورَ الهَدي النّبويِّ كانَ مُسرعًا في مُبادرتهِمْ إلى عقدِ العزمِ في التّوكُّلِ عليهِ سبحانَه[2].

صدقُ الإيمانِ والنُّورُ النَّبويُّ كانَ مُسرِعًا بهم إلى التّوكُّلِ

دلالةُ فعلِ القولِ ماضيًا مجموعًا:

جاءَ فعلُ القولِ منهم بصيغةِ الماضي في: ﴿فَقَالُواْ﴾؛ لأنّهم كانوا مُخلصينَ مُتوكّلينَ عليهِ سبحانهُ كما هوَ شأنُ الماضي من تحقُّقِ الوقوعِ، وأنّهُ تعالى قَبِلَ توكّلهُم، وأجابَ دعوتَهم جميعًا[3].

لكونهم مخلصينَ؛ قَبِلَ اللهُ سبحانَه توكُّلَهم، وأجابَ دُعاءهُم

معنى ﴿عَلَى﴾ في قوله: ﴿عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾:

﴿عَلَى﴾ في قولهِ تعالى: ﴿عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾ دالّةٌ على الاستعانةِ والاعتمادِ[4] والاتّكاءِ؛ فهو المُعينُ في جميعِ أمورِنا، والرّجوعُ إليه في جملةِ أحوالِنا؛ فهو مالكُ تدبيرِ الأمورِ كلّها، والقادرُ عليها، وكأنَّ المتوكِّلَ مُتَّكِئٌ على الحقّ سبحانهُ.

بيد الله تعالى وحدَه تدبيرُ الأمور

إظهارُ الفاعلِ لفظِ الجلالةِ:

في قولهِ تعالى: ﴿عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾ أظهرَ الفاعلَ، وهو: لفظَ

العَظَمَةُ للهِ وحدَهُ، ومَن يتوكّل عليهِ لَا تُرهبُهُ قوةٌ في الأرضِ

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/290.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/363.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/364.
(4) الهلال، تفسير القرآن الزّريّ: 11/128.

الجلالةِ ﴿ٱللَّهِ﴾؛ لبيانِ عَظَمتهِ تعالى، وأنّها لهُ وحدَهُ[1]، في تلاؤمٍ معَ سياقِ التّوكّلِ، فإنّ مَن يتوكّلْ على اللّه بعَظَمتهِ وجَبَروتهِ، لا تُخيفُه أيَّةُ قوَّةٍ على الأرضِ[2].

تقديمُ الجارّ و(لفظِ الجلالةِ) على فعلِ التّوكُّلِ:

في قوله تعالى: ﴿عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾ قدّمَ الجارّ والاسمَ الجليلَ على فعلِ التّوكُّلِ؛ لإفادةِ خصوصيَّةِ القصرِ المُتضمّنِ أنّهم متجرِّدون كلّ التّجرّد عنِ التّوكّل على غيرِ الحقّ سبحانَه؛ فهو كافٍ أمورَهُم لا أحدَ سواهُ[3].

التّوكّلُ مقصورٌ عليهِ سبحانهُ، وفي التّقديمِ اقتضاءُ التّجرّد له وحده

إسنادُ التّوكّل إلى ضميرِ المتكلّمِ المجموعِ:

قولهُ: ﴿تَوَكَّلْنَا﴾ أسندَ فعلَ التّوكُّلِ إلى ضميرِ المُتكلّم المجموعِ إيذانًا بأنّهم بجمعهم يُفوِّضونَ إليهِ جميعَ أمورهِم[4] لا يَندُّ أحدٌ منهم عن ذلكَ، فإنّ يدَ اللّه معَ الجماعةَ.

أيْ إنّ جميعَهُم يُفوِّضُونَ أمورَهم كلَّها إليهِ سبحانَه

سرّ تقديم التّوكُّل على الدّعاء:

في الآيةِ قدّمَ التّوكُّلَ على الدّعاءِ: ﴿لَا تَجْعَلْنَا﴾ وبعدَهُ ﴿وَنَجِّنَا﴾، في إشارةٍ إلى أنّ على الدّاعي أن يُباشرَ فعلَ التّوكّلِ أوّلًا؛ لكي يكونَ مجابَ الدّعوةِ؛ فإنَّ في التّوكّلِ إسقاطَ الخوفِ والرّجاء عن غيرهِ تعالى[5].

في تقديمِ التّوكُّل على الدُّعاءِ إشارةٌ إلى شرطيَّة التَّوكُّل للاستجابة

وفي تقديمِ التّوكّلِ وتأخيرِ الدّعاءِ؛ تلويحٌ بأنَّ الدّاعيَ يَبني دُعاءَهُ على توكّلهِ على اللّه[6]؛ فالتّوكّلُ كالأساسِ، والدّعاءُ كالبُنيانِ، ولا يقومُ بُنيانٌ منْ غيرِ أساسٍ.

التّوكّلُ أساسٌ، والدّعاءُ بناؤه

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/177.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3624.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/263.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/177.
(5) حقّيّ، روح البيان: 4/72.
(6) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/171.

افتتاحُ الدُّعاءِ بلفظِ الرّبوبيّةِ:

إجابة الدّعاءِ مِن آثارِ التّربيةِ

بعدَ أن بادروا بالإخبارِ عن توكّلِهم عليهِ سبحانَهُ، صَدّروا دعاءَهُم باسمِ الرّبّ: ﴿رَبَّنَا﴾، واختاروا هذا الاسمَ مِن بينِ أسماءِ الجليل السّامية؛ لكون إجابةِ الدّعاءِ مِنْ آثارِ الرّبوبيّةِ؛ ولذلكَ كثُرَ استهلالُ الدُّعاءِ بهذا الاسم[1].

دلالةُ حذفِ ياءِ النّداءِ مِن ﴿رَبَّنَا﴾:

حَذَفَ الياءَ للتّعظيم والإجلال والتّنزيه عن معنى الأمرِ

قولهُم: ﴿رَبَّنَا﴾ نداءٌ حُذِفت منهُ الأداةُ تقديرهُ: (يا ربّنا)، وهوَ شائعٌ سائغٌ في القرآنِ الكريم، ودلالةُ حذفِ (يا النّداءِ) معَ الربِّ تعالى الإشارةُ إلى معنى التّعظيم والتّنزيهِ والإجلالِ لهُ تعالى؛ ذلكَ أنَّ النّداءَ فيهِ شيءٌ مِن معنى الأمرِ، فمعنى (يا فلانُ) أي: (تعالَ أو أدعو فلانًا)[2]؛ فحذفَ الأداةَ لينتفيَ هذا المعنى الّذي لا يجوزُ في حقّهِ تعالى[3].

تقديمُ لفظِ الرّبوبيّةِ:

بذكر الله تعالى تطمئنُّ القلوب

في تقديمِ لفظِ الرّبوبيَّةِ في دعائهم مَلمَحٌ لطيفٌ؛ وهو أنَّ في ذِكْرِهِ سبحانَهُ شعورًا بالطّمأنينةِ والاستقرارِ، وهم الخارجونَ توًّا مِنْ خوفِ فرعونَ وفَزَعِهِ، وفيهِ إشارةٌ إلى عظيم لُطْفِ اللّه ﷻ بعبادِهِ، وتَعَهُّدِهِ إيّاهُم بفضلِهِ ورحمتِهِ؛ وأنّ الّذي خَلَقَهُم وربَّاهم في أحسنِ صورةٍ هو الّذي سيُجيبُ دعاءَهم، وفي ذلك بعثٌ للطّمأنينة في نفوسهم.

إضافةُ لفظِ الرّبّ إلى ضميرهم:

نداؤه تعالى بصيغة التّعظيم سبيلُ استجابة الدّعاء

أضافَ لفظَ الرّبّ إلى ضميرِ الجمعِ (نا) بقولِهِ: ﴿رَبَّنَا﴾، على معنى "ربَّنا يا مَن ربّانا بلطفِكِ، وهدانَا إلى توحيدِكِ؛ لا تجعلنَا

(1) القونويّ وابن التّمجيد، حاشية على تفسير البيضاويّ: 9/544.
(2) ابن السّرّاج، الأصول في النّحو: 1/370.
(3) مكّيّ القيسيّ، مُشكل إعراب القرآن: 1/285.

بِحَوْلِكَ وقوَّتِكَ فتنةً، أي: محلّ فتنةٍ"[1] للقوم الظّالمينَ، ودعاؤه سبحانه بصيغة التَّعظيم والتَّفخيم المُعبَّر عنه بالضَّمير (نا) مظِنّةُ التّذلُّل له، والتّسليم بربوبيّته، والاعترافِ بتفرُّده؛ طلبًا في استجابة الدّعوة.

التّعبيرُ عن نفي الجَعلِ مضارعًا:

الفتنةُ جاريةٌ في كلّ زمانٍ

وقولهُم: ﴿لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً﴾ عبّروا عن نفي جعْلِهم فتنةً بصيغةِ المضارعِ، وفي ذلك إشارةٌ منهم إلى تجدُّد دعائِهم هذا، واستمرارِه، فإنّ الفتنةَ جاريةٌ في كلّ زمانٍ، وطلبُهم غيرُ محدّدٍ بزمانٍ دونَ زمانٍ.

بلاغةُ الالتفاتِ مِنَ الماضي ﴿تَوَكَّلْنَا﴾ إلى المستقبلِ:

حصولُ التّوكّلِ ماضيًا موصِّلٌ إلى إجابةِ دعائِهم مستقبلًا

وبعدَ تعبيرِهم عنِ التّوكّلِ بالفعلِ الماضي: ﴿تَوَكَّلْنَا﴾، دَعَوا اللّه تعالى أن لا يجعلَهم فتنةً بصيغةِ المستقبلِ ﴿لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً﴾، وفيهِ التفاتٌ مِنَ الماضي إلى المستقبلِ، والغايةُ منه أن يُنبهَهم على أمرٍ مُهمٍّ، فيه تطريةٌ لنشاطِ السّامع، حتّى لا يبقى الكلامُ على سَنَنٍ واحدٍ، وأنّ حصولَ التّوكّلِ ماضيًا، موصِّلٌ إلى إجابةِ دعائهم مستقبلًا.

دلالةُ تنكيرِ الفتنةِ:

وجه التّنكير ليشملَ كلَّ معاني الفتنة

في قولهِ تعالى: ﴿لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً﴾ أوردَ لفظَ الفتنةِ مُنكَّرًا؛ لأنّهُ يحتملُ معانيَ عديدةً لا معنًى مُعيَّنًا واحدًا؛ كشأنِ المُعرَّفِ، فيحتملُ معنى الفاتنِ، فلو تسلّطَ عليهم الظّالمونَ لفُتنوا وضَعُفوا وتولَّوا عنِ اتّباعِ النّبيِّ، ولوِ انتصرَ عليهم أهلُ الباطلِ لفُتِنوا وازدادوا كُفْرًا وعنادًا بظهورهم على أهلِ الحقِّ[2]، وقد يكونُ معنى الفتنةِ: العذابَ.

بلاغةُ المجازِ العقلّي في لفظِ الفتنةِ:

سؤالهُمْ أنْ لا يجعلهُمُ اللّهُ سببَ فتنةٍ

التّعبيرُ بالفتنةِ ليس من بابِ الحقيقةِ؛ فالفتنةُ في اللّغةِ مِنَ الاختبارِ والامتحانِ، وأصلُها من تعريضِ الذّهبِ والفضّةِ للنّارِ؛

(1) النّخجوانيّ، الفواتح الإلهيّة: 1/341.
(2) رضا، تفسير المنار: 11/384.

ليتميّزَ الجيّدُ مِنَ الرَّديءِ[1]، ودعاؤهم ألّا يجعلَهم فتنةً، أي: ألّا يجعلَهم سببَ فتنةٍ، فَفِعْلُ الجَعْلِ المُسندِ إلى الضّميرِ إسنادٌ على طريقةِ المجازِ العقليّ بعلاقةِ السّببيّة[2].

سألوا اللهَ ألّا يجعلهُم موضعَ فتنةٍ

ويُحتمَلُ أنْ يكونَ التّقدير: موضعَ فتنةٍ؛ لانعدام صحّةِ الجُملةِ من دونِ هذا التّقديرِ، وحُذِفَ ما حُذِفَ لأجلِ المبالغةِ[3]؛ فقد سألوا اللّه ألّا يجعلَهم موضعَ فتنةٍ.

دلالةُ اللّامِ في ﴿لِّلْقَوْمِ﴾:

في قولِه تعالى: ﴿لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ اللّامُ الدّاخلة على (القومِ) تفيدُ الاختصاصَ[4]، وكأنّهم مخصوصونَ بهؤلاءِ الظّالمينَ في تصييرِهم فتنةً.

لا تجعلْنا مخصوصين بالظّالمينَ على سبيلِ الافتتانِ

سِرّ التَّعبير عنهم بالقوميّة:

سِرّ التّعبيرِ بـ ﴿لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ وعدم الاكتفاءِ بوصفِ ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، فيهِ تيئيسٌ وقطعُ أملٍ عنِ الإقلاعِ والكَفِّ عن ظُلمهم هذا؛ فإنَّ بلوغَهم هذا المبلغَ مِنَ الظّلمِ ممّا لا طَمَعَ ولا رجاءَ فيه بإصلاحهم؛ فقد تمكّنَ الظُّلمُ منهم، وتجذّرَ فيهم، حتّى خالطَهم ولابسَ سجاياهم، وتقوّمَ معَ قوميَّتِهم، وصارَ مِن مُقوِّماتِها[5]، ولو لم يُذكَرْ لكانَ لفظُ ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ بمنزلةِ اللّقبِ، فيصدقُ على مَن كان الظّلمُ غيرَ راسخٍ فيهِ، فهذا مَرجُوُّ الصّلاحِ والعدلِ، والحالُ الّذي هم عليهِ خِلافُهُ.

بَلَغُوا مَبْلَغًا مِنَ الظّلمِ حتّى تمكّنَ منهم وتَجذّر فيهم

إيثار لفظِ ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ ومناسبتُه للسّياق:

آثرَ لفظَ ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ في وَصْفِهِ الكُفّارَ؛ لأنّ الشِّركَ ظُلْمٌ؛

تلبَّسوا بأنواعِ الظّلمِ ظلمِ أنفسِهم، وظُلْمِ الخلائق

(1) الزّبيديّ، تاج العروس: (فتن)
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/263 - 264.
(3) القونويّ وابن التّمجيد، حاشية على تفسير البيضاويّ: 9/544.
(4) الهلال، تفسير القرآن الثّريّ: 11/128.
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 28/189.

ولإشعاره بأنّ الموصوفين قد تلبَّسوا بأنواعِ الظُّلْمِ وخالطوها؛ كظُلمِهم أنفسَهم وظلمِهمُ الخلائقَ[1].

نُكْتَةُ جمعِ ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾:

التّعبيرُ بالجمعِ ليَعُمّ كلَّ ظالمٍ

وعبّرَ عنِ الموصوفينَ بالظّلم جمعًا: ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾؛ لأنّهُ جزاؤهم؛ فالمناسِبُ أن يأتيَ به على صيغةِ الجمعِ ليشملَ كلَّ ظالمٍ، فينزجرَ عن ذلكَ مَن كانت هذهِ صفتهُ، والجمعُ مَظِنّة الكثرةِ، والدّعاء بالنّجاة مِنَ الظّالمين جميعًا أيًّا كانوا، ومهما بلغ عددُهم.

بيانُ المتشابهِ معَ آية الممتحنة:

سبق آيةَ يونسَ حديثٌ عنِ الظُّلم، وسبقت آيةَ الممتحنةِ حكايةُ كُفرِ قومِ إبراهيمَ عليه السلام

قولهُ تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تَجۡعَلۡنَا فِتۡنَةٗ لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، وقولهُ: ﴿رَبَّنَا لَا تَجۡعَلۡنَا فِتۡنَةٗ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ [الممتحنة: 5]، اختصّت كلُّ آيةٍ بما اختصّت به مِنَ المجرورِ؛ مِن حيثُ إنَّ آيةَ يونسَ تَقَدَّمَها حالُ آلِ فرعونَ وما كانَ مِن سَعْيِهِمُ الدّائبِ لمجاوزةِ الحدِّ، ووضعِ الأشياءِ في غيرِ موضعِها، وسلبِ الآخرينَ حقوقَهم، وهذا كلّهُ ممّا يناسبهُ التّعبيرُ بوصفِ ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، أمّا آيةُ الممتحنةِ فقدَ تقدّمتها حكايةُ إبراهيمَ عليه السلام ومَن معهُ: ﴿إِذۡ قَالُواْ لِقَوۡمِهِمۡ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمۡ وَمِمَّا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرۡنَا بِكُمۡ وَبَدَا بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةُ وَٱلۡبَغۡضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحۡدَهُۥٓ﴾ [الممتحنة: 4]؛ فالسّياق هنا في كُفرِ قومِ إبراهيمَ عليه السلام؛ فذِكْرُ ﴿لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ [الممتحنة: 5] يناسبُه أشدَّ المناسبةِ.

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/264.

﴿وَنَجِّنَا بِرَحۡمَتِكَ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٨٦﴾ [يونس: 86]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الاهتمامُ بحفظِ الأديانِ أهمُّ مِنَ الاهتمامِ بحفظِ الأبدانِ

لَمّا كانَ مِن دعوتِهم أن لا يجعلَهم اللّه تعالى فتنةً للقومِ الظّالمينَ مِن قومِ فرعونَ، زادوا هنا دعاءً مُكَمّلًا بأن يُنجيَهم برحمتِه وعطْفِه مِنَ القومِ الكافرينَ، وجعلوهُ آخرَ دعائِهم؛ فإنَّ الاهتمامَ بحفظِ الأديانِ أهمُّ مِنَ الاهتمامِ بحفظِ الأبدانِ[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

(1) ﴿وَنَجِّنَا﴾: أصلُ النَّجَاء: الانفصالُ مِنَ الشَّيء، ومنه: نَجَا فلانٌ مِن فلانٍ، وأنْجَيْتُهُ ونَجَّيْتُهُ، قال تعالى: ﴿وَأَنجَيۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [النّمل: 53][2]، والنَّجاةُ: الخَلاصُ ممَّا فيهِ المَخَافَة، ونَظِيرُها السَّلامَة، والتَّنْجِيَةُ: الإنْجَاءُ: وَهُوَ جَعْلُ الغَيْرِ نَاجِيًا[3]. والنَّجْوَةُ: المكان المُرتفع المنفصل بارتفاعه عمَّا حولَه، وقيل: سُمِّي لكونه نَاجِيًا مِنَ السَّيْل، وَنَجَّيْتُهُ: تركتُه بنَجْوَة، وعلى هذا: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ﴾ [يونس: 92][4]، فالمقصود بالنَّجاة في الآية: الخلاصُ مِن ضُرٍّ وَاقِعٍ.

المَعْنى الإجْمالِيُّ:

بيان أهمية الدُّعاء، وأنَّه من صِفات المتوكِّلين

أضافوا دعاءً مُكَمّلًا لما دَعَوا به، فقالوا: وخلِّصْنا - يا رَبَّنا - برَحمتِك مِن كيدهم، ومِن بَطشِ قَومِ فِرعونَ الكافرينَ وسُلطانِهم، فقدِ استعبدونا وآذَوْنا بالتَّعذيب والقتل[5].

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/290.
(2) الرّاغب، المفردات: (نجو).
(3) الزّبيديّ، تاج العروس: (نجو)، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 23/130.
(4) الرّاغب، المفردات: (نجو).
(5) ابن جرير، جامع البيان: 12/254، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 8/370، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/289.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ وصلِ الدّعاءِ في الآيةِ:

دعاءُ سلامةِ الأبدانِ موصولٌ بدعاءِ سلامةِ الأديانِ

الآيةُ تُلخِّص اشتغالَهم بالدُّعاءِ لأنفسهم بالنّجاة، بعدَ دعائِهم لِأنْ يُثبّتَهُمُ اللّه تعالى على الدّينِ، وألّا يجعلَهم فتنةً؛ فوصلَ هذا الدُّعاء بما قبلَهُ بالعطفِ على الغايةِ مِنَ الكمالِ؛ لأنّهُ مُتَمِّمٌ لهُ، لا ينفصلُ عنهُ، ووُرُودُهُ بعدَه بحسبِ الاهتمامِ منهم، فإنَّ سلامةَ دينِهم أهمُّ عندَهم مِن سلامةِ أنفسِهم[1].

دلالةُ فِعْلِ الأمرِ المُشدَّدِ ﴿وَنَجِّنَا﴾:

طلبوا النّجاةَ مِنَ العذابِ على وجهِ المبالغةِ، فإنّ حُكْمَ الكافرِ لا يُطاقُ

قولهُ تعالى: ﴿وَنَجِّنَا﴾ أوردهُ بصيغةِ التّضعيفِ (فَعّلَ)، الدّالِّ على المبالغةِ والتّكثيرِ في غالبِ أحوالِه في لسانِ العربِ[2]؛ فطلبوا النّجاةَ على وجهِ المبالغةِ والتّكثيرِ؛ لما يرونهُ مِن سلطانِ فرعونَ وعذابِه؛ فإنّهُ كانَ يُسخِّرهم بالأعمالِ الشّاقّةِ المُرهِقة[3].

التّشديدُ يقتضي زمنًا أطولَ، وفيهِ إظهارُ الامتنانِ

ومِن مقتضياتِ التّعبيرِ بالفعلِ المُشدَّدِ ﴿وَنَجِّنَا﴾ - فضلًا عنِ المبالغةِ والتّكثيرِ - أن يكونَ الحَدَثُ بطيئًا، وأن يستغرقَ وقتًا أطولَ[4]، وفي ذلكَ مَلْمَحٌ خَفِيٌّ، وهو إظهارُ امتنانِه سبحانَهُ عليهم؛ فقد نجّاهم بعدَ طُولِ لُبْثٍ وانتظارٍ كانوا تحتَ فرعونَ وعذابِه.

بلاغةُ المجازِ في قوله: ﴿وَنَجِّنَا﴾:

النَّجْوَةُ المكانُ المرتفعُ الّذي يُلْجَأُ إليهِ عندَ حدوثِ السَّيْلِ

الفعلُ المدعوُّ بهِ ليس مِن بابِ الحقيقةِ، بل هوَ مجازٌ، فإنَّ ﴿وَنَجِّنَا﴾، أي: اجعلْنا بنَجْوَةٍ ممّن يتسلّطُ علينا، ويَسُومُنا سُوءَ العذابِ؛ فالنَّجوَةُ: المكانُ المرتفعُ الّذي يَلْجَأُ النّاسُ إليهِ عندَ حدوثِ السَّيْلِ[5]، فاستعملَهُ هنا للنَّجاةِ مِن فرعونَ وقومِه.

---

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/96.
(2) سيبويه، الكتاب: 4/64.
(3) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 8/370.
(4) الهلال، تفسير القرآن الثّريّ: 11/129.
(5) الشّعراوي، تفسير الشّعراويّ: 10/6157.

دلالةُ الباءِ في قوله: ﴿بِرَحۡمَتِكَ﴾:

رحمتهُ سببٌ لنجاتِنا ممّا نحنُ فيهِ مِنَ العذابِ والهَوانِ

قولهُم: ﴿وَنَجِّنَا بِرَحۡمَتِكَ﴾ الباءُ هنا تُفيدُ السَّببيَّة والتّعليلَ، وهو من معانيهَا في لسانِ العربِ[1]، أي: إنَّ نجاتَنا حاصلةٌ بسببِ رحمتِكَ الّتي وسعتْ كلَّ شيءٍ، وإنعامِك علينا؛ فنحنُ المحتاجونَ لهذا الإنعام في دَفْعِ ما وَقَعَ علينا مِن ضُرٍّ وأذًى[2].

أحسَنوا التوسُّل إلى اللهِ ليستجيبَ دعاءَهُم

وتحتملُ الباءُ في قوله: ﴿بِرَحۡمَتِكَ﴾ أن تكونَ دالَّةً على الاستعانةِ[3] والتّوسُّلِ والاستعطافِ؛ فإنّ تعبيرهُم هذا يدخلُ في بابِ حُسنِ التّوسُّلِ، أي: أنّهم توسَّلوا إلى اللّه برحمتهِ كي يستجيبَ دعاءَهُم[4]، وبينَ التّوسُّلِ والاستعانةِ علائقُ ووشائجُ بيِّنةٌ.

وجهُ اختيارِ صفةِ الرَّحمةِ دونَ غيرِها:

اختيارُ صفةِ الرَّحمةِ للتّبرُّؤِ مِنَ الإدلالِ بإيمانِهِم؛ لأنَّ المنّةَ للّهِ عليهم بأن نجَّاهم

وفي دعائهِم أن يُنَجِّيَهمُ اللّه مِنَ القومِ الكافرينَ، زادوا ﴿بِرَحۡمَتِكَ﴾ تبرُّؤًا مِن أن يكون إيمانهُم دافعًا لاستجابةِ دعائِهم ونجاتِهم، بل للإيذانِ بأنّ المنّةَ للّه عليهِم[5]، ﴿قُل لَّا تَمُنُّواْ عَلَيَّ إِسۡلَٰمَكُمۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيۡكُمۡ﴾ [الحجرات: 17] بأن أنقذكُم ونجّاكم برحمتهِ، لا بإيمانكُم. وتوسُّلُ المؤمنين إلى اللّه برحمته لأنَّها المصدرُ الأساسُ لخَلاصِهم وسَلامتِهم.

نُكْتَةُ إضافةِ الرّحمةِ إلى الله تعالى بضميرِ المخاطَبِ:

في القُربِ منه تعالى مزيدُ لطفٍ وعنايةٍ

قولُه: ﴿بِرَحۡمَتِكَ﴾ مِن إضافةِ الاسمِ الظَّاهرِ إلى ضميرِ الخطابِ العائدِ عليهِ سبحانَه، وفي هذهِ الإضافةِ مزيدُ بيانِ لطفهِ تعالى وقُربهِ؛ لأنّ المخاطَبَ قريبٌ، وفي القُربِ مزيدُ وُدٍّ وعنايةٍ.

(1) ابن هشام، مُغني اللّبيب، ص: 139.
(2) الهلال، تفسير القرآن الثّريّ: 11/129.
(3) وهو من معانيها المشهورة، يُنظر: ابن هشام، مُغني اللّبيب، ص: 139.
(4) الجزائريّ، أيسر التّفاسير: 2/500.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/264.

سِرُّ تقديمِ شِبهِ الجملةِ ﴿بِرَحۡمَتِكَ﴾:

النّجاةُ إنّما تكونُ برحمتهِ تعالى، وسببُ النّجاةِ مؤكَّدٌ برحمتهِ

في قولِه تعالى: ﴿بِرَحۡمَتِكَ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ قدّمَ شِبهَ الجملةِ ﴿بِرَحۡمَتِكَ﴾ على ما بَعْدَهُ معَ جوازِ تأخيرِه، وتقديمُ بعضِ المتعلّقاتِ على بعضٍ يجري على نَسَقٍ دقيقٍ، مِن مراقبةِ المعاني وتحرّي الدِّلالاتِ، وهو أنَّ التّقديمَ يكونُ بما هو أوثقُ بغرضِ الكلامِ، وأكثرُ صلةً بسياقِه الّذي يجري فيه[1]، وسرُّ ذلكَ الاهتمامِ أنَّ النّجاةَ إنمّا تكونُ برحمتهِ تعالى، والتّقديمُ يُفيدُ الاهتمامَ وتأكيدَ سببِ النَّجاةِ، وهي الرَّحمةُ، ففي التّقديمِ تأكيدٌ أيضًا.

معنى ﴿مِنَ﴾ في قوله: ﴿مِنَ ٱلۡقَوۡمِ﴾:

دَعَوا اللهَ تعالى أن يُخلِّصَهم ويَميزَهم مِنَ القومِ الكافرينَ

﴿مِنَ﴾ في الآيةِ دالَّةٌ على الفَصْلِ والتّمييزِ، وهو أحدُ معانيها[2]؛ فقد دَعَوا اللّه تعالى أن يُنجِّيَهم، أي: يُخلِّصَهم، ويَميِّزَهم مِنَ القومِ الكافرينَ، وهم قومُ فرعونَ الّذين كانوا يستعبدونَهُم، ويستعملونَهُم في خسيسِ الأعمالِ[3]، وهو ردُّ فعلٍ طبيعيٌّ لخوفهم مِن فرعون وقومه.

تكرارُ لفظِ ﴿ٱلۡقَوۡمِ﴾ مُعرَّفًا:

نزلَ الكُفْرُ منهُم منزلًا ثابتًا راسخًا حتّى لابَسَهُم

كَرّرَ لفظَ ﴿ٱلۡقَوۡمِ﴾ وَوَصَفَه بـ ﴿ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾؛ للدّلالةِ على أنّهم بلغوا مبلغًا مِنَ الكُفْرِ بما ليس فيه أملٌ في رجوعِهم إلى جادّةِ الحقّ والإيمانِ؛ لأنَّ الكُفْرَ قد نزلَ منهم منْزلًا ثابتًا راسخًا، حتّى لابسهُمْ وتقوّمَ مع قوميَّتِهم، وصارَ مِن أُسسِها، وانتفاءُ لفظِ ﴿ٱلۡقَوۡمِ﴾ ممّا يُخفِّفُ مِن معنى الكفرِ فيهم؛ فيَغْدُو كأنّهُ غيرُ راسخٍ فيهم، وأنَّ الأملَ معقودٌ في إيمانهم، وحالُهم يُنبئُ عن غيرِ ذلك؛ فإنَّ الكفرَ مُتقوِّمٌ مُستقِرٌّ فيهم.

(1) أبو موسى، خصائص التّراكيب، ص: 367.
(2) أبو حيّان، ارتشاف الضَّرَب: 4/1720.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 15/171.

بلاغةُ المجازِ:

قولُه: ﴿مِنَ ٱلۡقَوۡمِ﴾ ليسَ على نيّةِ الحقيقةِ، بل مِن بابِ المجازِ؛ فإنَّ دعاءَهُم بأن يُنَجِّيَهمُ اللّه مِن سُوءِ صنيعِ القومِ، ومِن أذى جوارِهم[1]، وليستْ نجاتُهم مِن ذاتِ القومِ؛ فالذَّواتُ لا تتَّصِفُ بالسُّوءِ والأذى والضَّررِ، وإنّما فِعالُ القومِ وأحوالُهُم هيَ مَن تتَّصفُ بذلك.

دعاؤهم بالإنجاءِ مِن سُوءِ جِوارِ القومِ وصنيعِهم لا من ذَواتِهم

والتّعبير بـ ﴿مِنَ ٱلۡقَوۡمِ﴾ على حذفِ مضافٍ، أي: مِن كيدِ القومِ، والتّعبيرُ عنِ التّنجيَةِ مِن ذواتِهم، يُرادُ منه المبالغةُ؛ للإيماءِ إلى سُوءِ حالِهم، وخُبْثِ أفعالِهم، ومَضَرَّةِ كَيدِهم[2].

صَوَّرَ سُوءَ حالِ القومِ وخُبْثَ صنيعِهم وضَررَ كيدِهِم

دلالة اللّام في ﴿ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾:

اللّامُ في ﴿ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ على معنى العهدِ؛ لأنَّ المرادَ بـ ﴿ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾: فرعونُ وآلُه وقومُه السّائرونَ في فَلَكِه، وتحتمِلُ اللّامُ أن تكونَ للجنسِ والاستغراقِ، لتشملَ كلَّ كافرٍ، ويدخل فيهِ فرعونُ ومَن معهُ دخولًا أوليًّا[3].

اللّامُ للعهدِ، والكافرونَ فرعونُ وآلُهُ، وتَحتمِلُ الجميعَ فرعونَ وغيرَه

توجيهُ الوصفِ بـ ﴿ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾:

الكُفْرُ يعني التّغطيَةَ والسَّترَ، فوصْفُهُم بـ ﴿ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ أي: "القاصدينَ سَترَ الحقِّ بأباطيلهمُ الزّائغةِ، الكائدينَ الماكرينَ المُخادِعينَ"[4]، والتّعبيرُ بهذا الاسمِ دالّ على الثُّبوتِ؛ فإنّهم عريقونَ في تغطيةِ البراهينِ والأدلَّةِ[5] على وحدانيَّتِه تعالى.

هُمُ العريقونَ في سَترِ الحقِّ بأباطيلِهم الزّائغةِ

تراتبيَّةُ أوصاف فرعونَ ومَلَئِه:

رُتِّبَتْ أوصافُ فرعونَ ومَلَئِه في الآياتِ السّابقةِ على هذا النَّحو: ﴿ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾، ﴿ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾، ﴿ٱلۡمُسۡرِفِينَ﴾، ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾،

رتَّبَها مِنَ الأقلّ ضررًا وعِصيانًا إلى الأعلى، وكلُّ وصفٍ مُتضمّنٌ معنى ما قبلَه

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 6/159.
(2) القونويّ وابن التّمجيد، حاشية على تفسير البيضاويّ: 9/544.
(3) القونويّ وابن التّمجيد، حاشية على تفسير البيضاويّ: 9/544.
(4) النّخجوانيّ، الفواتح الإلهيّة: 1/341.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/177.

﴿ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾، وهو ترتيبٌ مِنَ الأقلِّ ضررًا وعصيانًا إلى الأعلى؛ فبدأَهُ بالإفساد، ثمّ الإجرام، فالإسراف، ثمَّ الظُّلم، وختمَه بجِماعِ ذلكِ كلِّه وهو الكُفْرُ؛ لأنَّ الكُفْرَ يتضمَّنُ الظُّلْمَ[1]، والظّلمُ يتضمَّنُ الإسرافَ، والإسرافُ إجرامٌ، والإجرامُ يتضمَّنُ الإفسادَ؛ فجاءت الأوصافُ على هذا التَّرتيبِ البديعِ.

(1) الهلال، تفسير القرآن الثّريّ: 11/129.

﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوۡمِكُمَا بِمِصۡرَ بُيُوتٗا وَٱجۡعَلُواْ بُيُوتَكُمۡ قِبۡلَةٗ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٨٧﴾

[يونس: 87]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

مآلُ التّوكّلِ على اللهِ وتفويضُ الأمرِ إليهِ زيادةٌ في الطّمأنينةِ

لَمّا أجابَهُ قومُهُ إلى إظهارِ التّوكُّلِ عليهِ سبحانَه، وتفويض أمرِهِ إليهِ، أتبَعَه ما يزيدهُ أمنًا وسكينةً، من توطُّنهم في أرضِ العدوِّ كنايةً عن عدمِ المبالاةِ، وأن يجعلوا بيوتَهُمْ متعبَّداتٍ لا يَطَّلعُ عليها فرعونُ وملَؤُهُ مِنَ القومِ الكافرينَ[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تَبَوَّءَا﴾: أصل (بوأ) يَدلُّ على الرُّجُوعِ إلى الشَّيءِ[2]، يُقَالُ: بَاءَ يَبُوءُ بَوْءًا، إذَا رَجَعَ، وَالباءَةُ والْمَبَاءَةُ: الْمَوضِعُ الَّذي تَبُوءُ إليه الإبلُ، هذا أصلُها، ثُمَّ جُعِلَت عِبارةً عَنِ الْمَنْزِلِ مُطلقًا، ثمَّ كُنِّيَ بها عَنِ النِّكَاحِ؛ لأنَّ مَن تزوَّج امرأةً بَوَّأها مَنْزِلًا[3]. والتَّبوُّء: تَفَعُّلٌ مِنَ البَوْءِ، أي: الرُّجُوعِ، كَأنَّ صَاحِبَ الْمَسْكَنِ يُكَلِّفُ نَفْسَهُ الرُّجُوعَ إلى مَحَلِّ سَكَنِه، ولو كانَ تَبَاعَدَ عنه في شُؤون اكتِسابه. والمُراد بالتَّبَوُّءِ في الآية: اتِّخَاذ مكانٍ للسَّكن.

2) ﴿قِبۡلَةٗ﴾ أصْلُ القِبْلَةِ مِنَ المُقَابَلَةِ، وهي مُواجَهَة الشَّيْءِ لِلشَّيْءِ[4]. والقِبْلَةُ: الجِهَةُ، يُقال: لَيْسَ لِفُلانٍ قِبْلَةٌ، أيْ: جِهَةٌ يَتَوَجَّهُ إلَيْها ويُقْبِلُ عليها[5]. وتُطلَقُ القِبْلَةُ على كُلِّ ما يُستَقبلُ مِنَ الأشْياءِ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/178.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (بوأ).
(3) ابن عّباد، المحيط في اللّغة، والمطرّزيّ، المغرب، وابن منظور، لسان العرب: (بوأ).
(4) ابن عبّاد، المحيط في اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (قبل).
(5) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 5/51.

ويُتَوَجَّهُ إِلَيْهِ، يُقال: أَيْنَ قِبْلَتُكَ، أيّ: الشَّيْءُ الَّذي تُرِيدُ التَّوجُّهَ إِلَيْهِ[1].
وَالْقِبْلَةُ: اسْمٌ في العَرَبِيَّةِ لِجِهَةِ الكَعْبَةِ، وتلكَ الجِهَةُ هي ما بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ[2]، وجَمْعُ القِبْلَةِ: قِبْلَات. والمُراد بالقِبلة في الآية: جهةُ الكعبة[3].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

يُخبِرُ تعالى أنَّه أوحَى إلى موسَى وأخيه هارونَ أن يتَّخِذا لقومِهما بيوتًا في مِصرَ، تكونُ مساكِنَ لهم، وأن يجعَلوا بُيوتَهم مساجِدَ يُصلُّونَ فيها، وأن يؤدُّوا الصَّلاةَ المفروضةَ في أوقاتِها، وأن يبشِّرَ موسى المؤمنينَ بالنَّصرِ والثَّوابِ منه ﷻ[4].

تأكيد أهميَّةِ الصَّلاة ووجوب إقامتِها في كلِّ الأديان وعلى كلّ حال

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ الوَصْلِ بالعطفِ:

قولُهُ تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ﴾ الآيةَ، معطوفةٌ على قولِه: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ﴾، وتَحتمِلُ هذهِ الآيةُ أن تكونَ معطوفةً على مجموعِ الكلامِ السّابق؛ فيكونَ من بابِ عَطفِ القِصّةِ على القِصّة؛ فإنّ هذهِ القَصصَ هي الأطوارُ الّتي مرّ بها مُوسى عليه السلام[5].

العطفُ على ما سبقَ أو العطفُ على مجموعِ الكلامِ

دلالةُ الوحي، وإسنادُهُ إلى ضميرِ التّعظيمِ:

دلالةُ الوحي في الآيةِ على معنى القولِ[6]، ثمّ إسناده إلى ضميرِهِ تعالى ليَخْلعَ عليهِ التّعظيمَ والتّفخيمَ بما لهُ تعالى مِنَ العَظَمَةِ

في الوحي معنى القولِ الدّالّ على العَظَمَةِ البالغةِ

(1) السّجستانيّ، غريب القرآن، ص: 384، والأزهريّ، تهذيب اللّغة: (قبل).
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/266.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/266.
(4) ابن جرير، جامع البيان: 12/260، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/289، والشّوكانيّ، فتح القدير: 2/531، والسّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 372.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/264.
(6) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/171.

البالغةِ[1] والإجلالِ، فإنّ في ذلكَ تعظيمَ الحقّ ﷻ، وبيانَ ارتفاعِ منزلتهِ، وإدخالَ المهابةِ في نفوسِ المخالفينَ.

دلالةُ وقوعِ الوحي إلى مُوسى وهارونَ:

قولهُ تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ﴾ وقوعُ الوحي إلى مُوسى وأخيهِ عليهما السلام كونهُ مِنَ الأعمالِ الّتي تعودُ إلى تدبيرِ شأنِ الأمّةِ، فيشتركُ فيها الرَّسولُ ومَن يُؤازرُه، وهو هنا أخوهُ هارونُ[2] عليهما السلام.

أمرُ الوحي مِنَ الأعمالِ الرّاجعةِ إلى تدبيرِ أمرِ الأمّةِ الّتي يشتركُ فيها الرَّسولُ ومُؤازِرُه

بلاغةُ المجازِ العقلّي في الآيةِ:

الفاعلُ في قولهِ تعالى: ﴿أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا﴾ هو الّذي يسكنُ بالمباءَةِ، لكنّه أسندَهُ إلى ضميرِ مُوسى وأخيه عليهما السلام من بابِ المجازِ العقليِّ لعلاقةِ السّببيّةِ؛ فهما سببُ تبوُّءِ قومِهما البيوتَ المُتَّخَذَةَ للسّكنى، والقرينةُ أنّ جَعْلَ المباءَةِ كان لأجلِ القومِ[3].

مُوسى وهارونُ هما سببُ تَبَوُّءِ قومِهِمَا للبيوتِ

سِرُّ إظهارِ ﴿مُوسَىٰ﴾:

وفي إظهارِ ﴿مُوسَىٰ﴾ في فعلِ الوحي وتخصيصهِ بالذّكرِ سِرٌّ، وهوَ أنّهُ كانَ سابقًا في الدّعوةِ، وهوَ الأصلُ فيها، أمّا هارونُ فهو معاونٌ لهُ ومؤازرٌ[4].

خُصّ مُوسى بالذّكرِ لسَبْقِهِ بالدّعوةِ وأصالتهِ فيها، وهارونُ معاونٌ لهُ ومؤازِرٌ

وجهُ التّعبيرِ عن هارونَ بلفظِ ﴿وَأَخِيهِ﴾:

في قولهِ تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ﴾ لم يُصَرَّحْ بذِكْرِ هارونَ؛ وإنّما كُنّي عنهُ بلفظِ (الأخِ)؛ لتقدُّمهِ في الذِّكْرِ أوّلًا في قولهِ: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ﴾ [يونس: 75][5]، وهو المناصِرُ والمُعينُ، والأصلُ في (الأخِ) مِن (وَخَى) إذا قصدَ،

الأخُ مؤازرٌ ومُناصرٌ لأخيهِ، وقصدُهُما واحدٌ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/178.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/264.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/265.
(4) جعفر شرف الدّين، الموسوعة القرآنيّة خصائص السور: 4/46.
(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/96.

أي: إنّ الأخَ يَقْصِدُ قَصْدَ أخيهِ[1]؛ فَقَصْدُ هارونَ في الرِّسالةِ هو قَصْدُ موسى نفسِه، لا يخرجُ عنه.

دلالةُ صيغةِ التّفعُّلِ في لفظِ التّبوُّء:

صاحبُ المسكنِ يتكلّفُ العودةَ إلى مسكنهِ بعدَ تباعدهِ عنهُ

وردَ (التّبوُّء) في قولهِ تعالى: ﴿أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا﴾ على صيغةِ التّفعُّل، مِنَ البَوءِ بمعنى الرُّجوعِ، وفي ذلكَ دلالةٌ خفيّةٌ كأنّ صاحبَ المباءَةِ أو السَّكنِ يتكلّفُ العودةَ إلى مسكنهِ بعدَ تباعدِهِ عنهُ، بما يَشْغَلُهُ مِنِ اكتسابِ عيشِه؛ صيدًا أو احتطابًا أو قطفًا للثّمارِ أو نحوهُ[2].

ولمّا كانتْ صيغةُ (تَفَعَّلَ) دالَّةً على الفعلِ المُتكرِّرِ المُؤذِنِ بالتّكثيرِ[3]؛ فإنَّ المعنى مُتَحقِّقٌ هنا، وهوَ كَثْرةُ ممارستِهِمُ التّبوّءَ؛ وهو الرجوعُ إلى مساكنهم بعدَ انقضاءِ شؤونِ اكتسابهم المَعيشيَّةِ مِنَ الصّيدِ والاحتطابِ وغيرِها.

التّعبيرُ عنِ التّبوُّءِ بالمصدرِ المُنْسَبِكِ:

دلالةُ المصدرِ المُنْسَبِكِ تجدّديَّةٌ في الحالِ والاستقبالِ، بما يناسبُ رجوعهم المتكرّرِ لمباءتِهم

عبّرَ عنِ التَّبوُّءِ بالمصدرِ المنسبكِ في قولهِ تعالى: ﴿أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا﴾، ولم يُعبّرْ بالمصدرِ الصّريحِ (تبوئهم)؛ لدلالةِ المصدرِ المنسبكِ على التّجدُّدِ في الحالِ وفي الاستقبالِ؛ إذْ يدلُّ على الحدوثِ معَ لمحِ الزّمنِ؛ وهوَ مُنبئٌ عن حالهم في تجدُّدِ رجوعهم إلى مساكنهم، بما يُعطيهِ معنى التّبوُّءِ، فضلًا عمّا في المصدر المنسَبِكِ مِنَ التَّعبير عن حَدَثِ تبوُّءِ البيوت، بمعزل عن كيفيّته.

معنى اللّامِ في قولهِ: ﴿لِقَوْمِكُمَا﴾:

تحتملُ التّعليلَ؛ أي لأجلِ قومكُما، وتحتملُ التّوكيدَ

اللّام في قولهِ تعالى: ﴿لِقَوْمِكُمَا﴾ تَحتملُ أن تكونَ للتَّعليلِ

(1) ابن منظور، لسان العرب: (أخا).
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/264.
(3) الرّضي، شرح الشّافية: 1/105.

والسّببيَّة، على معنى: لأجلِ قومِكُما[1]، وتَحتمِلُ أن تكونَ زائدةً لأجلِ التّوكيدِ، على تقديرِ: بَوِّءَا قومَكُما؛ أي: أنزلاهُم المنزلَ الملزومَ[2].

معنى الباءِ في قوله: ﴿بِمِصْرَ﴾:

الباءُ في قولِه تعالى: ﴿بِمِصْرَ﴾ تَحتمِلُ الظّرفيةَ[3]، وهو أحدُ معانيها المطّردة في لسانِ العربِ، وهو هنا كذلكَ؛ فالمعنى أن يتّخذا بيوتًا بأرضِ مصرَ[4]، أي: في أرضِ مصرَ.

الباء دالَّةٌ على الظّرفيّة

دلالةُ تحديدِ المكانِ ﴿بِمِصْرَ﴾:

تدلُّ كلمةُ مصرَ على البلدِ المعروفِ، لأنّها مُنعَتْ مِنَ الصَّرفِ، ولأنّهم عثروا على جثمانِ فرعونَ في حدودِها، ولكن يجوزُ أن يكونَ معناها الإقليمَ المعروفَ المُمتَدّ مِنَ البحرِ حتّى بلادِ السّودانِ[5].

معناها الإقليمُ المعروفُ الممتدّ مِنَ البحرِ حتّى بلادِ السّودانِ

إيثارُ لفظِ (البيوتِ) على (المساكنِ) و(الدُّورِ):

في قولِه تعالى: ﴿بُيُوتًا﴾ آثَرَ استعمالَ لفظِ البيوتِ على الدّورِ أو المساكنِ؛ لأنَّ هذهِ البيوتَ عبارةٌ عنْ خيامٍ أو أخصاصٍ أُمروا باتّخاذِها حالَ الارتحالِ والتَّنقّلِ؛ لأنّها ليستْ ديارَهمْ ومساكنَهمُ الّتي كانوا يسكنونهَا قُربَ مدائنِ فرعونَ[6]؛ فهي أقربُ للمساكنِ العابرةِ الّتي يأوونَ إليها للمبيتِ فحسب.

البيوتُ تُتَّخذ في حال الارتحال، والدِّيار والمساكن تكون للإقامة

وجْهُ جمعِ (البيوت) جمعَ كثرة:

يناسب جمعُ البيوت على صيغة الكثرة (فُعُول) الدّلالةَ على كَثْرتها، وكَثْرة ساكنيها، فضلًا عن كون المحلّ المُنتقَلِ إليه يصلح للعيْش والاستقرار؛ فهي أدعى لكثرة المساكن.

جمع (البيوت) دليل كثرتها

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/265.
(2) العُكْبريّ، التّبيان: 2/684.
(3) المُراديّ، الجنى الدّانيّ، ص: 40.
(4) الجزائريّ، أيسر التّفاسير: 2/500.
(5) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 10/6160.
(6) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/265.

علَّةُ تنوينِ البيوتِ وتنكيرِها:

التّعبيرُ في قولِه: ﴿بُيُوتًا﴾ وردَ مُنوَّنًا مُنكَّرًا، وعِلَّةُ ذلكَ أنّ هذهِ البيوتَ لم تكنْ معروفةً لديهم أوَّلًا، وهيَ غيرُ البيوتِ الّتي سكنوا فيها[1].

البيوتُ المأمورُ بتبوُّئِها لم تكنْ بيوتَهم، وإنَّما كانت مجهولةً لهم

بلاغةُ المجازِ العقلّي في جملةِ ﴿تَبَوَّءَا﴾:

فعلُ التّبوُّءِ في قولِه تعالى: ﴿أَن تَبَوَّءَا﴾ مِن بابِ المجازِ العقليّ؛ فإنَّ التّبوُّءَ اتخاذُ المباءَةِ، وهو المرجعُ الّذي يؤوبُ إليهِ الإنسانُ؛ فهو التّوطّنُ، فإذا توطّنَ الإنسانُ مكانًا ما؛ عادَ إليهِ مِرارًا وتكرارًا، وإنْ غابَ عنهُ لطارئٍ[2].

الإنسانُ حين يتَّخذُ وطنًا لهُ فهوَ حتمًا سيُعاودُه مِرارًا

دلالةُ العطفِ بالواوِ:

قولُه تعالى: ﴿وَٱجۡعَلُواْ بُيُوتَكُمۡ قِبۡلَةً﴾ معطوفٌ على اتّخاذِ البيوتِ مباءَةً؛ وهو ما جعل بعضًا مِنَ المفسِّرينَ يذهب إلى أنّ هذهِ البيوتَ مُتَّخَذَةٌ للعبادةِ كالمساجدِ[3]، بجامعِ العودةِ إليها دائمًا، وعلى وجهِ الاستمرارِ؛ فهذا هو شأنُ المسجدِ، يعودُ إليهِ الإنسانُ دائمًا لعبادةِ ربّهِ.

هذهِ البيوتُ مُتَّخَذَةٌ للعبادةِ، بجامعِ العودةِ إليها على وجهِ الدَّوامِ

وإذا كانَ جَعْلُ البيوتِ قِبْلةً على معنى جَعْلِها مُتقابلةً، بعضُها يُقابلُ بعضًا[4]، للحراسةِ وسُهولةِ المراقبةِ والأمنِ؛ فإنّ العطفَ مُتعيِّنٌ أيضًا في العِلّةِ مِن جَعْلِ البيوتِ قِبْلةً.

مقابلةُ البيوتِ للحراسةِ والأمنِ معطوفٌ على اتّخاذِها مَباءَةً

توجيهُ جمعِ الفعلِ، وفاعلُه ضميرُ الرَّفعِ (الواو):

وأسنَدَ فعلَ الجَعْلِ ﴿وَٱجۡعَلُواْ﴾ إلى حرفِ الواوِ الدَّالّ على ضميرِ الجماعةِ؛ لأنّهُ أمْرٌ إلى مُوسى وأخيهِ عليهما السلام وإلى قومِهما؛ فكلُّ واحدٍ منهُم مُكلَّفٌ بأن يكونَ بيتُه قِبْلةً[5].

ذلكَ الجَعْلُ مِن عَمَلِ مُوسى وأخيهِ وقومِهِمَا، فكلُّ أحَدٍ منهُم مُكلَّفٌ بأنْ يجعلَ بيتَهُ قِبْلةً

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/265.
(2) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 10/6061.
(3) النّيسابوريّ، غرائب القرآن: 3/605.
(4) الثّعلبيّ، الكشف والبيان: 5/144.
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/266.

نُكْتَةُ التّعبيرِ عنِ التَّبوُّءِ بالمُثنَّى، وعنِ الجَعْلِ بالجمع:

أوردَ فعلَ التّبوّءِ بالتّثنيةِ ﴿تَبَوَّءَا﴾، فيما أوردَ فِعْلَ جَعْلِ البيوتِ قِبْلَةً جمعًا ﴿وَٱجْعَلُواْ﴾؛ وذلكَ لأنَّ التّبوُّءَ ممَّا يفعلهُ المُكلَّفُ بالرّسالةِ لأجلِ المُرسَلِ إليهم، وهؤلاءِ أحوجُ إلى التَّبوُّءِ من مُوسى وهارونَ؛ فهما محفوظانِ بعينِ اللّه ولا خَوفَ عليهما، أمّا التّعبيرُ عنِ الاتخاذِ بالجَمعِ، فهوَ ممّا يحتاجُ إلى التَّشاورِ وتضامِّ الآراءِ[1].

التّبوُّء ممّا يفعلهُ المُكلَّفانِ بالرّسالةِ، والجَعْلُ يحتاجُ إلى جمعِ الرَّأيِ إلى الرَّأيِ

سرّ تكرار لفظ البيوت:

في إيقاعِ الظّاهرِ موقعَ المُضمرِ في قولهِ تعالى: ﴿وَٱجْعَلُواْ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾ بإعادةِ ذِكرِ البيوتِ، ولمْ يُكَنِّ عنها بالضّميرِ بقولهِ: (واجعلوها)؛ ليُمكِّنَ دلالتَها، ويُقرِّرَ مضمونَها في الذّهنِ؛ فتكونَ الإضافةُ عهديَّةً، يؤيِّدهُ قولهُم: إنّ إعادةَ النّكرةِ معرفة، فهي عينُ الأُولى[2].

إظهارُها في مقامِ الضّميرِ للتّمكّنِ والتّقرّرِ في الذّهنِ

دلالةُ جَعْلِ البيوتِ قِبلةً للصّلاةِ:

في جَعْلِهم البيوتَ قِبلةً للصّلاةِ دلالةٌ؛ فإنَّ الأمرَ بالعبادةِ في تلكَ البيوتِ فيهِ إشارةٌ إلى مكانةِ أرضِها وشرفِها، وسُمُوِّ قدرِها ورفعتِها[3].

الأمرُ بالعبادةِ في بيوتِها إشارةٌ إلى شرفِ أرضِها ورِفعةِ قَدْرِها

علّةُ نسبةِ البيوتِ إليهم:

نسبَ البيوتَ في قولهِ: ﴿بُيُوتَكُمْ﴾ للضّميرِ العائدِ عليهم، وعِلَّةُ ذلكَ: أنّها أصبحتْ معروفةً، وأنّها مِلْكٌ لهمْ؛ فالإضافةُ للعهدِ[4].

البيوتُ أصبحتْ معروفةً ومِلْكًا لهم، والإضافةُ للعهدِ

إيثارُ لفظِ (القِبلةِ):

آثرَ التّعبيرَ بلفظِ القِبلةِ الّتي هيَ اسمٌ لجهةِ الكعبةِ؛ لأنَّ قِبلةَ البلادِ المصريَّةِ كقِبلةِ المدينةِ - وهيَ الجنوبُ - متوسطةً بينَ المشرقِ والمغربِ؛ فيكونُ التّعبيرُ عنها حكايةً لقولِ مُوسى عليه السلام، بمعنى التّوجُّهِ إلى الجهةِ الّتي يتوجّهونَ إليها في صلاتهم؛ وهي قِبلةُ إبراهيمَ

القِبلة بمعنَى التّوجُّهِ إلى الجهةِ الّتي يُصلّونَ إليهَا

(1) القونويّ وابن التّمجيد، حاشية على تفسير البيضاويّ: 9/545 - 546.
(2) القونويّ وابن التّمجيد، حاشية على تفسير البيضاويّ: 9/545.
(3) القلقشنديّ، صبح الأعشى: 3/305.
(4) الآلوسيّ، روح المعاني: 6/160.

عليهما السلام؛ فيكونُ أمرُ بني إسرائيلَ ماضيًا على مِلّةِ إبراهيمَ، قبلَ النَّسخِ والتّوجُّهِ إلى القُدسِ[1].

إذا كانَ جَعْلُ البيوتِ قبلةً، يعني: متقابلةً، بعضُها يُقابلُ بعضًا[2]، فقد يكون الغرضُ مِن هذه الكيفيَّة في السّكن هو الحراسَة وسُهولة المراقبةِ والتّأمين، والتّبليغ وأداء العبادات[3].

نُكْتَةُ تنكيرِ لفظِ ﴿قِبْلَةً﴾:

في تنكيرِ لَفْظةِ ﴿قِبْلَةً﴾ نُكْتَةٌ؛ فإنَّ القِبلةَ بمعنى المصلّى الّذي يُصلُّونَ فيهِ، بمنأى عن فرعونَ وكَيدِهِ؛ ليَأمَنوا على أنفسِهم وأهليهم[4]، وكأنَّ التّعبيرَ القرآنيَّ نَكّرَ اللَّفظةَ بُغيَةَ إخفائِها عن عيونِ فرعونَ وقومِهِ، الّذينَ كانوا يترصّدونَ المؤمنينَ مِن قومِ مُوسى عليه السلام.

بلاغةُ المجازِ في لفظِ ﴿قِبْلَةً﴾:

ومعنى لفظِ القِبلَةِ هنا: المُصلّى أو المساجدُ المتوجِّهةُ نحوَ القبلةِ، وهيَ الكعبةُ، وعلى أيّ التّفسيرَيْنِ فهيَ من بابِ المجازِ بعلاقةِ اللّزومِ أو الكُلّيَّةِ والجزئيَّةِ؛ فتكونُ القِبلَةُ مَجازًا عنِ المُصلّى، أو عنِ المساجِدِ[5].

والقِبْلَةُ هي الأصلُ الّذي يكونُ عليه المرءُ مِنَ الاستقبالِ، فهيَ مكانٌ للصَّلاة عُرفًا، ولَمّا لمْ تكن كذلكَ هنا، فهيَ مؤوَّلَةٌ بالمُصلَّى في حالِ اتِّخاذِ البيوتِ للسُّكنى، فالصَّلاةُ سببٌ لإطلاقِ المُصلَّى على المكانِ، ثمَّ إنَّ شرطَ صِحَّةِ الصّلاةِ هيَ القِبلَةُ[6].

دلالةُ العطفِ بالواوِ:

قولُهُ تعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَۗ﴾ معطوفٌ على ما سبقَهُ، والعطفُ

القِبلةُ مِنَ التّقابلِ؛ أي يجعلوا بيوتَهم متقابلةً؛ لتمكينِ التّبليغِ وإقامَةِ الصّلاةِ

تُصلُّونَ في المساجدِ المتَّخَذَة قِبلةً، مُتَخَفِّينَ مِن كيدِ فرعونَ ومَلَئِهِ؛ لتأمنوا على أنفسكُم

القِبلَةُ دالَّةٌ على المصلّى، أو المساجدِ مجازًا

القِبلَةُ هيَ المُصلَّى، ولا تصحُّ إقامةُ الصّلاةِ فيهِ إلّا باستقبالِ القِبلَةِ

الأمرُ بإقامةِ الصَّلاةِ إتمامُها بركوعِها وسُجودِها

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/266.
(2) الثّعلبيّ، الكشف والبيان: 5/144.
(3) الطّباطبائيّ، الميزان: 11/114.
(4) الدُّرَّة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 4/361.
(5) الآلوسيّ، روح المعاني: 6/160.
(6) القونويّ وابن التّمجيد، حاشية على تفسير البيضاويّ: 9/545.

هنا ذُو دلالةٍ لطيفةٍ تكادُ تكونُ خافيةً؛ فإنَّ هذهِ الجملةَ تكادُ لغيرِ المتبصِّرِ أنْ تكونَ تكرارًا للجملةِ الّتي سبقتْهَا، وهيَ: (جَعْلُ بيوتهمْ قبلةً)، أيْ: للصّلاةِ؛ لتَدُلَّ هذهِ الجملةُ على تمامِ صلاتِهم، بركوعِها وسجودِها[1]، على الرَّغمِ ممَّا يعتريهم مِن خَوفٍ وَوَجَلٍ مِن فرعونَ ومَلَئِهِ؛ ولذلكَ كانَ مِن هَدْيِهِ ﷺ أنَّهُ إذا حَزَبَهُ أمرٌ صَلَّى[2].

معنى جملةِ الأمرِ:

معنى الأمرِ في قولِهِ: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَۗ﴾ أيْ: المفروضةَ عليهم من قَبْلِ مُوسى ومِن بَعْدِه، هو لأجلِ المحافظةِ على هذا الرُّكنِ المهمِّ؛ فإنَّ اتّخاذَهُمُ البيوتَ كانَ وهُم في حالةِ الرّحيلِ والسَّفرِ، ومَن كانت هذهِ حالتُهُ فمَظِنَّتُهُ الانشغالُ عن إقامةِ الصّلاةِ؛ فلذلكَ نبَّهَهُم الحقُّ سبحانَه إلى المحافظةِ عليها مُدَّةَ تَرْحالِهم[3].

اتّخاذُ البيوتِ في الرَّحيلِ مَظِنّةَ الشُّغلِ عن إقامةِ الصّلاةِ؛ فأُمِرُوا بالمحافظةِ علَى إقامتِها

توجيهُ جَمْعِ فِعْلِ الإقامةِ، وفاعلهُ ضميرُ الرَّفعِ (الواو):

وقولُهُ: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَۗ﴾ تعبيرٌ دالٌّ على الجمعيَّة، وهو أمرٌ بأنْ يُقيموا الصَّلاةَ جماعةً[4]، فإنّ إقامتهَا فرضٌ على الجميعِ بأركانِها وحدودِها، جميعًا مُستخفينَ ممّنْ يُؤذيكُم، جامعينَ بينَ سَبَبَي النَّصرِ: الصّبرِ والصّلاةِ؛ تدرُّبًا على الدّينِ وتثبيتًا للقلبِ.

أقيموهَا جماعةً بحدودِها وأركانِها، مستخفينَ ممّن يؤذيكُم؛ تمرُّنًا على الدّينِ، وتثبيتًا له في القلبِ

وفي التّعبيرِ بفعلِ الإقامةِ مجموعًا حِكْمَةٌ؛ فقد أمرَهُم الحقُّ سبحانَه أنَ يتوجَّهوا في صلاتهم إلى جهةٍ واحدةٍ، وهذا التَّوجُّهُ شرطٌ في الصّلاةِ، فهذا الاتّحاد في الاتجّاهِ يَصْحَبُه اتِّحادُ القلوبِ[5]، ففي حديث أبي مسعود، عقبة بن عمرٍو رضي الله عنه قال: «كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَمْسَحُ مَنَاكِبَنَا فِي الصَّلَاةِ، وَيَقُولُ: اسْتَوُوا، وَلَا تَخْتَلِفُوا فَتَخْتَلِفَ قُلُوبُكُمْ»[6].

الاتّحادُ في الاتّجاهِ مُعِينٌ علَى اتّحادِ القلوبِ

(1) السّمرقنديّ، بحر العلوم: 2/128.
(2) رواه أحمد، المسند، الحديث رقم: (23297).
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/267.
(4) الطّباطبائيّ، الميزان: 11/114.
(5) رشيد رضا، تفسير المنار: 11385.
(6) رواه مسلم في صحيحه، الحديث رقم: (432).

وجهُ تعريفِ الصّلاةِ:

والتَّعريفُ في لفظةِ ﴿ٱلصَّلَوٰةَ﴾ للعَهدِ، والمعنى: أنّ الحقّ سبحانَه أمرهُم بأن يُقيموا الصّلاةَ المعهودةَ المعروفةَ عندَهم، الّتي أمرهُم بإقامتِها[1].

أقيمُوا الصّلاةَ الّتي أمركُم اللهُ بإقامتِهَا

سِرُّ تقديمِ جعلِ البيوتِ قِبلةً على إقامِ الصّلاةِ:

قدّمَ جملةَ جَعْلِ البيوتِ قِبْلةً: ﴿وَٱجْعَلُواْ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾، على جملةِ إقامةِ الصّلاةِ: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾؛ لأنّ التّوجُّهَ إلى القِبْلةِ من مُقدّماتِ الصّلاةِ؛ إذْ لا تُقبَلُ صلاةٌ من دونِ ذلكَ، فَبَدأ بتثبيت أوّلِ الشّروط؛ تحقيقًا لتمام ما يتبعُها وصِحَّتِه.

التَّوجُّه إلى القِبْلةِ مِن مُقدّماتِ الصّلاةِ والمدخلُ إليها

وجهُ الاكتفاءِ بالصّلاةِ دونَ الزّكاةِ:

وردَ التّعبيرُ في قوله: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ غيرَ مقترنٍ بإيتاءِ الزّكاة، كما هوَ شأنُهُ في غالبِ القرآنِ؛ لأنَّ فرعونَ كانَ قَدِ استعبدَهُم وسَبَى أموالَهُم؛ فباتوا فقراءَ ليسَ عندهُم ما يُزكُّونهُ، إذْ ليسَ على الفقيرِ زكاةٌ[2].

استعبَدَهُم فرعونُ وأخذَ أموالَهم، فباتوا فقراءَ ليسَ عليهم زكاةٌ

وجهُ إفرادِ فعلِ التّبشيرِ، وجمعِ الأفعالِ قبلَها:

في قولهِ تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أسْنَدَ فعلَ التّبشيرِ لواحدٍ، وهو مُوسى عليه السلام، وإنمّا خَصَّه به مِن بابِ التّعظيمِ والتّفخيمِ للبشارةِ والمُبشّرِ بها على السَّواءِ[3].

خُصَّ مُوسى عليه السلام بالبشارةِ؛ تعظيمًا لها وللمُبشِّرِ بها

في الآيةِ التفاتٌ مِنَ الجمعِ إلى الإفراد، وقبلَهُما التَّثنيةُ؛ فإنّهُ ثَنَّى أوّلًا؛ لأنَّ موسى وهارونَ عليهما السلام هما الرّسولانِ المُطاعانِ، في أن يتبوَّءا البيوتَ لقومِهما، ثمَّ جَمعَ الضّميرَ في إقامةِ الصّلاةِ لأنّها فَرْضٌ على كُلِّ أحدٍ، فاقتضى الجمعيّةَ، ثمَّ وَحّدَ فِعْلَ البشارةِ؛ لأنَّ موسى هوَ الأصلُ في الرّسالةِ؛ فكانَ حَرِيًّا بأن تكونَ صادرةً منه[4].

التّثنيةُ راجعةٌ إلى مُوسى وهارونَ، والتّبشيرُ لموسى لأنّهُ الأصلُ في الرّسالةِ

---

(1) الشّوكانيّ، فتح القدير: 2/531.

(2) الحدّاد، تفسير الحدّاد: 3/406، وحقّي، روح البيان: 4/73.

(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/364، وابن الأثير، الجامع الكبير، ص: 102.

(4) ابن قيّم الجوزيّة، بدائع التّفسير: 2/41، والشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 10/6164.

الخطابُ في جملةِ التّبشيرِ هو للرَّسولِ ﷺ على طريقةِ الالتفاتِ والاعتراضِ

يَحتملُ قولُهُ تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ أن يكونَ خطابًا للرَّسولِ ﷺ على طريقةِ الالتفاتِ والاعتراضِ[1]، تنبيهًا على أنَّ ما يُصيبُ المؤمنينَ مِن عذابٍ وعَنَتٍ، فإنّ عاقبتهُ البُشْرى لهم.

العدول في الخطاب للتَّنويعِ، والتَّوسُّع

والمتتبِّعُ لطريقةِ الخِطابِ في الآيةِ يُلْفِي تنوُّعًا وتَوَسُّعًا فيه؛ فتَثَنَّى في فِعْلِ التّبوُّءِ بقولِه: ﴿أَن تَبَوَّءَا لِقَوۡمِكُمَا﴾، ثمّ جَعَلَهُ جمعًا في اتّخاذِ المساجدِ وإقامةِ الصّلاةِ بقولِه: ﴿وَٱجۡعَلُواْ بُيُوتَكُمۡ قِبۡلَةً وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَۗ﴾، ثمّ أفردَ الخطابَ في فعلِ البِشارةِ بقولِه: ﴿وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾، وفي هذا الانتقالِ المُتكرِّرِ مِنَ التّنويعِ في الخطابِ والتّوسُّعِ فيه[2].

دلالةُ عطفِ جملةِ التّبشيرِ:

جاءتهمُ البُشْرى جزاءَ خوفِهم وتَرقُّبِهم والتَّضرُّعِ لله

لِعَطْفِ جُملةِ التّبشيرِ على ما سبقَها دلالةٌ، فإنَّ العَطفَ مُؤذِنٌ بأنَّ ما أمَرهُم الحقُّ سبحانهُ مِن اتّخاذِ البيوتِ هوَ حالةٌ مُشعِرةٌ بالتّرقُّبِ والخوفِ مِن حصولِ الأخطارِ والأضرارِ؛ لأنّهم دَعَوا اللّه ألّا يجعلَهُم فتنةً، فَدَفْعًا لكلّ ذلكَ جاءَتْهُم البُشرى، بحُسْنِ العاقبةِ والنَّصرِ على الأعداءِ والنَّجاةِ منهم[3].

وجهُ تعريفِ ﴿ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ بـ (ال):

المُخاطَبونَ هم بنو قومِهِ المعروفونَ المعهودونَ لديهِ

(أل) التّعريفِ في لفظِ ﴿ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ هي للعهدِ، أي: "بشّرْ قومَكَ الّذين آمنوا بِكَ بحفظِ اللّه إيَّاهم مِن فتنةِ فرعونَ ومَلَئِهِ الظّالمينَ لهم، وتنجيَتِهم مِن ظُلْمِهم، أو بَشِّرْهُم بالنَّصرِ في الدُّنيا، وبالجنَّةِ في العُقبى"[4] فالمخاطَبونَ هم بنو قومِه المعروفونَ المعهودون لديه.

المُبشَّرونَ هم عامَّةُ المؤمنينَ إلى يومِ القيامةِ

وإذا كانَ المرادُ مِنَ الخطابِ في جملةِ التّبشيرِ هو الرَّسول ﷺ؛

(1) النّيسابوريّ، غرائب القرآن: 3/606.
(2) ابن الأثير، الجامع الكبير، ص: 101، والسّبكيّ، عروس الأفراح: 1/293.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/267.
(4) الهرريّ، تفسير حدائق الرّوح والرّيحان: 12/328.

فإنّ (أل) في لفظِ ﴿ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ تكونُ للجنسِ، أي: أن تَعُمَّ البشارةُ المؤمنينَ جميعًا.

نُكْتَةُ جمعِ ﴿ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾:

في الجمعِ تعبيرٌ عن رُسوخِهم في الإيمانِ، وثباتهم عليهِ

في التّعبيرِ عن ﴿ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ نُكْتَةٌ، فإنّ الجمعَ أبلغُ مِن قولهِ كانَ (مؤمنًا)؛ ففيه دلالةٌ على رسوخِهم في الإيمانِ[1]، وأنّهم المتمرِّسونَ فيهِ، الثّابتونَ عليهِ، المجتمعون على تَمَثُّلِ شرائطه سلوكًا.

مناسبةُ وَصْفِهِم بالمؤمنيَن بعدَ وَصْفِ أتباعِ فرعونَ بمختلفِ النُّعوتِ:

لمدحِهم بالإيمانِ وللإشعارِ بأنّهُ المدارُ في التّبشيرِ

وصَفَهم بـ ﴿ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ بعد أنْ نَعَتَ قومَ فرعونَ وأتباعَه بمختلفِ النّعوتِ، ووضعَهُم هنا موضِعَ ضميرِ القومِ، للإشارةِ إلى أنّهم ممدوحونَ بالإيمانِ، وللإشعارِ بأنَّ الإيمانَ ركنٌ يقومُ عليهِ التّبشيرُ[2].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

البَيْتُ والمنزل والمسكن:

الانتقال يُناسب المأوى المؤقَّت، دونَ النَّظرِ إلى ماهيَّته

البيتُ: اسمُ جِنْسٍ للمكانِ المتَّخَذِ مَسكنًا لواحِدٍ أو عَدَدٍ مِنَ النَّاسِ في غَرَضٍ مِنَ الأغْراضِ[3]، ولا يُشترط فيه أن يكون مبنيًّا، ولكن يُشترط أن يكون لعائلةٍ واحدةٍ، لا يُشاركهم فيه أحدٌ؛ قد يكونُ خيمةً، أو شُقَّةً، أو دارًا، أو كهفًا، أو حتَّى غُرْفةً في دارٍ أو مأوًى أو نُزلٍ.

أمَّا المنزلُ: فاسْمٌ لما يشْتَمل على بيُوتٍ وصَحنٍ مُسقّف ومَطبخ، يسكنهُ الرَّجل بعياله[4]. والمَسْكَن: مَحَلُّ القَرارِ، وهو مَفْعَلٌ، اسْمُ مكانٍ مُشْتَقٌّ مِنَ السُّكُونِ[5]، وهو حيثُ يسكنُ الإنسانُ، مِثل البَيت، ولا يُشتَرط فيه أن يكون مَن يبيتُ في المكان مرتبطًا بالآخرين، فكلُّ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/179.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/171.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 14/237.
(4) الكفويّ، الكلّيّات، ص: 239.
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/29.

بيتٍ مَسكنٌ؛ وليس كلُّ مسكنٍ بيتًا. ولمَّا كان السَّفر والانتقال مَظِنَّة الاستقرار المؤقَّت ببيتٍ يُؤوي دونَ النَّظر إلى اكتمال مَرافِقه؛ ناسَبَ ذلك لفظُ (البيت)، لما تَقدَّم مِن دلالته على البناء دونَ شرط ماهيّته.

التَّبوُّء والاتِّخاذ:

يناسب لفظُ (التَّبوُّءِ) رجوعَهم إلى موطن سُكْناهم السَّابق

التَّبوُّءُ: تفعُّلٌ مِنَ البَوْءِ؛ يعني: الرُّجوعَ، وهو اتّخاذ المباءَة، وهي البُقعة الَّتي يَبُوء إليها صاحبُها؛ أي: يَرْجِع إليها بعدَ انتشاره في أعماله[1].

والاتِّخاذ: جَعْلُ شيءٍ لفائدة الجاعِل، وهو مُشتقٌّ مِنَ الأخذ؛ لأنَّ المتَّخِذَ يأخذ الشَّيء الَّذي يَصطفيه[2].

والجامع بينَ المعنَيَيْن النُّزولُ في شيءٍ ذي فائدةٍ. واختيارُ لفظِ التَّبوُّء لدلالته على الرُّجوع المناسب لعودة بني إسرائيل لمصر الّتي كانوا يسكنونها مِن قَبلُ.

(1) الطّريفيّ، التّفسير والبيان لأحكام القرآن: 3/1595.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/229.

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيۡتَ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةٗ وَأَمۡوَٰلٗا فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَۖ رَبَّنَا ٱطۡمِسۡ عَلَىٰٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ وَٱشۡدُدۡ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَلَا يُؤۡمِنُواْ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ ٨٨﴾

[يونس: 88]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

ولَمّا ختمَ في الآيةِ السَّابقةِ ببشارةِ المؤمنينَ، وكانَ هلاكُ المُشانئِ مِنَ البشائرِ العظيمةِ، فقدْ أضلّ فرعونُ بزينتهِ ومالهِ؛ وما كانَ مِن مُوسى في هذهِ الآيةِ إلّا أن سألَ ربّه أن يُزيلَ ذلكَ كُلَّهُ؛ راحةً من شرِّ فرعونَ ومَن تَبِعَهُ؛ فلا يؤمنوا حتّى يَؤُولَ أمرُهُم إلى العذابِ الأليمِ عَيَانًا، وعندَها لا ينفعُ نفسًا إيمانُها[1].

لَمّا كانَ ضلالُ فرعونَ وقومِه بالزّينةِ والمالِ؛ فقد سألَ مُوسى إزالةَ ذلكَ كلّه

ثمّ إنَّ موسى لَمَّا بالغ في إظهار المعجزات الظَّاهرة القاهرة، ورأى القومَ مُصرِّين على الجُحود والعِناد والإنكار؛ أخذ يدعو عليهم، ومِن حَقِّ مَن يدعو على الغير أن يذكر أوّلًا سببَ إقدامه على تلك الجرائم، وكان جُرمُهم هو أنَّهم لأجل حُبِّهم الدُّنيا تركوا الدِّين[2].

قابَل إصرارَهم على الجحود بالدّعاء بعد أن بالغَ في إظهار المعجزات

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿زِينَةٗ﴾: أَصْلُ (زين) يَدُلُّ عَلَى حُسْنِ الشَّيْءِ وَتَحْسِينِهِ[3]، والزَّيْنُ: نقيضُ الشَّيْنِ. زانه الحُسْنُ يَزينُه زَيْنًا، وازْدانَتِ الأرضُ بعُشْبِها، وازَّيَّنَتْ وتَزَيَّنَتْ، والزّينة: جامعٌ لكُلِّ ما يتزيّن به النَّاسُ، وَمَا يَحْسُنُ فِي أَنْظَارِهِمْ مِنْ طَرَائِفِ الدُّنْيَا، كَالْحُلِيِّ وَالْجَوَاهِرِ[4]. والمقصود بالزِّينة في الآية: ما يَتَزَيَّنُ بِهِ النَّاسُ.

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/179.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/292.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (زين).
(4) الخليل، العين، وابن عبّاد، المحيط في اللّغة: (زين)، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/269.

(2) ﴿ٱطۡمِسۡ﴾: أصلُ الطَّمْسِ يَدُلُّ على مَحْوِ الشَّيْءِ ومَسْحِه، يُقَالُ: طَمَسْتُ الخَطَّ، وَطَمَسْتُ الْأَثَرَ. وَالشَّيْءُ طَامِسٌ أَيْضًا، وقد طَمَسَ هو بِنَفْسِهِ[1]. ويأتي بمعنى ذَهابِ ضوء الشَّيء، يُقالُ: طَمَسَ النَّجمُ: ذَهَبَ ضوؤه، والقمرُ مثلُه[2]، وَيكون الطُّمُوس بِمَنْزِلَة المَسْخ للشَّيْء، كطَمْسِ مال فِرعونَ بدعْوة موسى فصارتْ حِجارَةً[3]، والمُراد مِن الطَّمس في الآية: الْمَحْوُ وَالإِزَالَةُ.

(3) ﴿وَٱشۡدُدۡ﴾: أصلُ (شدّ) يَدُلُّ عَلَى قُوَّةٍ في الشَّيْءِ، وَفُرُوعُهُ تَرْجِعُ إِلَيْهِ، يُقال: شَدَدْتُ العَقْدَ شَدًّا، أيْ: قَوَّيْتُهُ[4]. والشِّدَّةُ: الصَّلابَةُ، يُقال: حَجَرٌ شَدِيدٌ، أيْ: صُلْبٌ[5]، وتأْتي بمعنى الإِسْراعِ، فيُقال: شَدَّ في العَدوِ واشْتَدَّ شَدًّا: إذا أَسْرَعَ[6]. أمَّا المُرادُ مِن ﴿وَٱشۡدُدۡ﴾ في الآية فقد ذهب ابنُ عاشور إلى "أنَّه مُشْتَقٌّ مِنَ الشَّدِّ، وَهُوَ الْعُسْرُ، ومنه الشِّدَّةُ لِلمُصِيبَةِ وَالتَّحَرُّجِ، ولو أُرِيدَ غَيْرُ ذلكَ لقيلَ: واطْبَعْ، أو واخْتِمْ، أو نَحْوُهُما، فيكونُ (شَدَّ) بمعْنَى أَدْخَلَ الشَّدَّ أوِ استعملَهُ مِثْلَ جَدَّ في كَلَامِهِ، أي اسْتَعْمَلَ الجَدَّ"[7].

(4) ﴿ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ﴾: أَصْلُ الكَلِمَةِ مِنَ العَذْبِ، وهو: المَنْعُ، يُقالُ: عَذَبْتُ عَنْهُ الماءَ، أيْ: مَنَعْتُهُ عَنْهُ، وسُمِّيَ العَذابُ عَذابًا؛ لأنّه يَمْنَعُ الشَّخْصَ مِنَ الرُّجوعِ لِلْجَرِيمَةِ[8]، والعَذابُ: الضَّرْبُ بِعَذْبَةِ السَّوْطِ، أيْ: طَرَفِها[9]، ويأْتي التَّعْذِيبُ بمعنى الإيلامِ والإيجاعِ الشَّدِيدِ[10]. والمُرادُ بـ ﴿ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ﴾ في الآية: عذابُ الفَقْرِ والجُوعِ، وعَذَابُ النَّكَدِ في النَّفْسِ[11].

المَعْنى الإجْمالِيُّ:

قال موسى عليه السلام مُخاطِبًا ربَّه، بعد أن فَقدَ الأملَ في إصلاح فرعون ومَلَئِهِ: ربَّنا، إنَّك

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (طمس).
(2) الخليل، العين: (طمس).
(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (طمس).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (شد).
(5) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (شد).
(6) ابن منظور، لسان العرب: (شد).
(7) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/270.
(8) النّوويّ، تهذيب الأسماء واللّغات: 4/10.
(9) الرّاغب، المفردات: (عذب).
(10) الخليل، العين: (عذب).
(11) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/272.

أعطيتَ فرعونَ والرُّؤوس مِن قومه مِن زُخْرُف الدُّنيا وبهارجِها زينةً؛ استدراجًا منكَ لِتَفتِنَهم فيَضِلُّوا ويُضِلُّوا غيرَهم؛ عقوبةً منك لهم، ربَّنا فأهْلِكْ أموالَهم، فلا ينتَفِعوا بها، واختِمْ على قلوبِهم حتَّى لا تنشَرِحَ للإيمانِ، فلا يُؤمِنوا حتَّى يَرَوا العذابَ الشَّديدَ المُوجِعَ[1].

مشروعيّةُ الدُّعاء على الظَّالم

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

الآيةُ بيْن الوَصْلِ والفَصْلِ:

قولُه تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ﴾ الآيةَ، استئنافٌ بيانيٌّ كأنّ سائلًا يسألُ: ماذا قالَ موسى عليه السلام بعدَ ذلكَ الوحي؟ فأجابَ موسى عليه السلام بهذهِ الآيةِ[2].

لجأ موسى إلى الدُّعاء بعد رفضهم الاستجابةَ

دلالةُ الواوِ في قولِهِ: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ﴾:

الواوُ في قولِه تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ﴾ عاطفةٌ؛ إذْ عطفَ هذهِ الآيةَ على ما سبقَها، وهو عطفُ بقيَّةِ القِصَّةِ ممّا يُتَّعظُ منهُ، ويُعتبرُ فيهِ[3].

عَطْفُ بقيَّةِ ما جرَى في القصَّةِ ممَّا فيهِ عِبرةٌ وموعظةٌ

علّةُ إظهار الفاعل ﴿مُوسَىٰ﴾:

أُظْهِرَ اسمُ ﴿مُوسَىٰ﴾ عليه السلام اهتمامًا؛ مِن حيث كونُه محورَ القِصّة، ومصدرَ بناء أحداثها، وهو هنا صاحبُ الدّعاء لِمَا تحمّل مِن أذى، ولاقَى مِن ظُلم فرعون ومَلَئِه في سبيل رسالته، فمِن صور العناية به: إظهارُ الدُّعاء على لسانه؛ ليكونَ الجزاءُ توفيَةً لتِلْكُمُ المعاناةِ.

مِن وجوه العناية بموسى إظهارُ الدُّعاء على لسانه

أدبُ الأنبياءِ في الدُّعاءِ إلى الله تعالى:

في الآيةِ دعاءٌ منْ مُوسى عليه السلام على فرعونَ ومَنْ شايعهُ، غيرَ أنَّ مُوسى وجريًا على عادةِ الأنبياءِ في أدبهم معَ اللّه تعالى، مَهَّدَ لدعائِهِ تمهيدًا فيهِ دلالةٌ على أنّهُ ما دعا على فرعونَ ومَلَئِهِ انتقامًا

دعاء موسى على فرعونَ لمصلحةِ الدّينِ لا للانتقامِ

(1) ابن جرير، جامع البيان: 12/261، وابن عطيّة، المُحرّر الوجيز: 3/139، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/290، وطنطاويّ، التّفسير الوسيط: 7/122.

(2) القونويّ وابن التّمجيد، حاشية على تفسير البيضاويّ: 9/547.

(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/267.

لنفسهِ أو قومِهِ؛ وإنّما لمصلحةِ الدّينِ، فسألَهُ سلبَ النِّعْمةِ مِن فرعونَ وقومِهِ، وإحلالَ العَذابِ مَحلَّهُ؛ قطعًا لشَوْكَتِهِم، وإذْلالًا لِتَجَبُّرِهم؛ حتّى يعودوا عنْ غيّهِم وضلالِهِم[1].

فائدةُ الدّعاءِ:

آذَوا الأنبياءَ فاستحَقُّوا الجزاءَ، وفي فِعْلِهم تحذيرٌ لغيرهم

الآيةُ مشتَمِلَةٌ على دعائهِ ﷺ، وفائدةُ هذا الدُّعاءِ: الإيذانُ باستحقاقِهِمْ هذا الدّعاءَ لَمّا أصرّوا على إيذاءِ الأنبياءِ والأولياءِ، وفيهِ أيضًا: تحذيرُ غيرِهِم مِنَ الكفّارِ والأشقياءِ عنِ ارتكابِ مثلِ هذهِ الأفعالِ الشّنيعةِ، وفيهِ أيضًا: إظهارُ كمالِ المَقتِ والبُغضِ[2].

عِلّةُ الاستغناءِ عن حَرْفِ النّداءِ في خِطابِ الرَّبّ سبحانَهُ:

لَمّا كانَ مِن أعظمِ أهلِ الاصطفاءِ، أسقطَ أداةَ النّداءِ تسنُّنًا بهِم

في قولِهِ: ﴿رَبَّنَآ﴾ لفظةُ الرّبّ مُنادى حُذِفَتْ منهُ أداةُ النّداءِ، أي: يا ربّنا. فإنّ مُوسى ﷺ لَمّا كانَ مِن أهلِ الاصطفاءِ المُعظَّمينَ، أسقطَ الأداةَ مِن بابِ التَّسنُّنِ بهِم[3]. والحذفُ أمَارةُ القُرْبِ؛ فلا واسطةَ بينَه وبينَ اللّه تعالى عند الدُّعاء، وأنْعِم بذلك تشريفًا.

إيثارُ لفظِ الرّبوبيَّةِ مُسنَدًا إلى ضميرِ التّفخيمِ:

أعظمُ إحسانِ اللهِ لأوليائِهِ أن يُهلك عدوَّهم

آثرَ البيانُ القرآنيُّ استعمالَ لفظِ الرُّبوبيَّةِ: ﴿رَبَّنَآ﴾ مُسندًا إيّاهُ إلى ضميرِ التّفخيمِ؛ لأنَّ في ذلكَ إشارةً إلى صفةِ الإحسانِ الّتي أنعمَها الحقُّ سبحانَهُ على عبادِهِ، وأنَّ هلاكَ أعدائهم لهو إحسانٌ عظيمٌ إليهم[4].

سِرّ التَّوكيدِ بـ (إنّ)، وإسنادِه إلى كافِ الخطابِ:

كلمةُ التَّأكيدِ هنا للابتهالِ وكمالِ التّضرُّعِ

في قولِهِ تعالى: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ﴾ أكّدَ النّداءَ بـ (إنَّ)، وأسندَه إلى

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/267 - 268.
(2) القونويّ وابن التّمجيد، حاشية على تفسير البيضاويّ: 9/549.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/179.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/179.

كافِ الخطابِ، وسِرّ هذا التّوكيدِ للابتهالِ والتّذلُّلِ بينَ يَدَي الرَّبِّ سبحانَه، وليحقّقَ كمالَ التَّضرُّعِ[1].

قابل التّوكيدُ الإنكارَ

والتَّوكيدُ في ﴿إِنَّكَ﴾ سببُهُ لِما يكونُ للجَهلةِ والعُمْيِ مِن أنّهم يُنكرونَ أن يكونَ العطاءُ الإلهيّ للمَلكِ الأعظمِ سببًا للإهانةِ والتّحقيرِ[2].

التّوكيدُ للاهتمامِ وليس لدَفعِ تَردُّدٍ أوْ دَفْعِ إنكارٍ

قوله: ﴿إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ﴾ يَحتمِل تأكيدَ الجملة بأنْ قَصَدَ إلى أن يهتم بهذا المعنى الّذي استُعمِل فيه خبرُ الإتيان، إذ ليس المقامُ مقامَ دَفْعِ تَردُّدٍ، أو دفعِ إنكارٍ[3].

إيثار صيغة الإيتاء ومجيئه ماضيًا:

طلبٌ لزوال ما أوتي فرعون من الأموال والزينة

أوثر فعل (الإيتاء) في قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ﴾؛ لأنّه يُستعمل في الأمور المادّية والمعنويّة، مالاً كانت أو غيره، وهو لا يوجب التمليك، ويمكن أن يشمله النّزع على خلاف الإعطاء الذي يوجب التمليك كقوله تعالى ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١﴾ [الكوثر: 1]. ويمكن أنْ يُستعمل الايتاء في مواضع اليسر ولذا خُصّ في دفع الصدقات؛ ليكون ذلك بسهولة من غير تطلع إلى ما يدفعه[4]، والتّعبير عنه ماضيًا يعني: وقوع إيتائه تعالى، وتحقّقُه. وإيثار التّعبير به هنا؛ لأنّ موسى عليه السلام طلب من اللّه تعالى زوال هذه الأموال بإتلافها: ﴿رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ﴾، ويناسب هذا لفظ (الإيتاء) بحسب دلالته على عدم وجوب التمليك، وإمكان النزع، والزوال.

إظهار المفعول ﴿فِرْعَوْنَ﴾:

الإظهار في مواضع الذَّمِّ تشنيع على المُظْهَر

التَّصريحُ بالمفعول ﴿فِرْعَوْنَ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ﴾، وهو موطنُ ذمٍّ وإظهارٍ وإنكارٍ وتشنيعٍ عليه، وتعريضٍ بخِفّة عقلِه، وسوءِ طبعِه؛ إذْ أنكر عطايا اللّه تعالى له؛ بل ادّعى انفرادَه بالألوهيّة، وعُلوَّه بالرَّبوبيّة.

(1) القونويّ وابن التّمجيد، حاشية على تفسير البيضاويّ: 9/547.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/179.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/268.
(4) الزبيدي، تاج العروس: (أتى).

علّة عطفِ الملأ بالواو:

أُوتيَ مَلأُ فرعونَ أيضًا الزِّينةَ والأموالَ

وجهُ عطفِ (الملأ) في قوله: ﴿ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ﴾؛ التَّشريكُ في العطايا، فكما أُوتيَ فرعونُ إيّاها، أوتيَ ملؤُهُ مِن كُبراء قومِه وأشرافِهم ما أُوتيَ مِن زينةٍ ومالٍ؛ ولم يمنعهم مشاركتَهُ فيما أُوتيَ؛ ليُمَالِئُوه على طغيانه وجُحوده، وقد فعلوا.

نسبة الملأ إلى ﴿فِرْعَوْنَ﴾:

الملأُ تَبَعٌ لفرعونَ، يُزيّنون له عَمَلَه

أُضيفَ (الملأ) إلى (فرعون) بعود الضَّمير (الهاء) إليه في قوله تعالى: ﴿وَمَلَأَهُۥ﴾؛ لكونهم تبعٌ له، يُمالِئُونَه على ما يَرى، ويُزيِّنون له ما دَرَى، يُشجّعونه على الطُّغيان والإنكار والفِرَى.

سِرُّ تنكير لفظ الزِّينة:

في تنكير الزِّينة استغراقُ كلّ محتملاتِها

نُكِّرَ لفظُ ﴿زِينَةً﴾ لتدُلّ على العموم، فتتّسِعَ صورُ ما أُوتيَ منها، ما اتّسعت محتملاتُ معاني الزِّينة ممّا يُتزيّن به؛ مِنَ الملابس والفُرُش والأثاث وأنواع الحُليّ والحُلل والمراكب وغيرها، وذلكم أدعى للتَّشنيع عليه؛ لإنكاره وتجبّره.

وجهُ عطفِ ﴿وَأَمْوَٰلًا﴾ بالواو:

الجاحد مسلوبُ التَّوفيق

اجتماعُ الأموال مع الزِّينة إظهارٌ لمديد ما أُوتيَ فرعونُ ومَلَؤُه، وبيانٌ لسُوء تصرُّفِه في واسع ما آتاه الله تعالى مِن عطايا، فالجاحدُ مسلوبُ التَّوفيق.

نُكْتَةُ جمعِ الأموال وتنوينه:

نوّعَ لهم المالَ، وكثّرَهُ لهم

صوغُ لفظ (الأموال) في قوله تعالى: ﴿وَأَمْوَٰلًا﴾ على هيئة الجمع؛ يعني: آتاهم: "أنواعًا كثيرةً مِنَ المال كما يُشْعِر به الجمعُ والتَّنوين"[1].

وَجهُ تقديمِ الزِّينةِ على الأموالِ:

قدّمَ الزِّينةَ على الأموالِ في قولهُ تعالى ﴿زِينَةً وَأَمْوَٰلًا﴾؛ لأنّ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/296.

الزّينةَ "تُلْهِيهم عنِ اتّباعِ المواعظِ، وتُعظِّمُ شأنَهم في أنظارِ قومِهم، والأموالُ يُسخِّرون بها الرّعيّةَ لطاعتِهم"[1]، فقدّمَ ما يكونُ مُختصًّا بالنّفسِ والذّاتِ، على ما يكونُ أمرًا يتجاوزُ به النّفسَ إلى غيرِها، وهم رعيتُهم.

الزّينة مُقدَّمةٌ؛ لأنّها مختصَّةٌ بالنَّفْسِ والذّاتِ

سِرُّ التَّعبيرِ بالحياةِ الدُّنيا:

للتّعبيرِ بالحياةِ الدّنيا سِرٌّ؛ فإنَّ الحقَّ سبحانَه عندما يريدُ أن يُصوِّرَ استغراقَ الإنسانِ في هذهِ الحياةِ واهتمامَهُ بها لا بما بعدَها، واغترارَهُ بشهواتِها وأهوائِها؛ فهوَ في ضلالٍ وعمًى بظنِّه أنّها هيَ الحياةُ الّتي يجبُ أنْ تكونَ، معَ أنّهُ تعالى قد وصفَها بالدُّنيا، لا العُليا الفُضلى السّاميَة الحقّة، ثمَّ إنّهُ تعالى وصفَها بأوصافٍ أُخرى مثلِ: ﴿مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ ١٨٥﴾ [آل عمران: 185]، والرَّاكنُ إليها مُغترٌّ بها، هالكٌ على وجهِه، لا خَلَاقَ لهُ في الآخرةِ[2]، وذلك هو الخسرانُ المبينُ.

هذه الحياة ليست الحياةَ الفُضلَى؛ فعلى الإنسانِ أن لا يغترّ بشهواتِها

وجه تكرار لفظ ﴿رَبَّنَآ﴾، والعدول عنِ الوَصْل بالواو:

أعادَ لفظَ ﴿رَبَّنَآ﴾ في الآيةِ في إشارةٍ إلى أنّ التّضرُّعَ والتّذلُّلَ بينَ يَدَي الحقّ سبحانَه بهِ حاجةٌ إلى الإلحاحِ، وأنّهُ تعالى يُحبُّ المُلحِّينَ في الدُّعاءِ، المُكثرينَ منهُ[3].

في التّكرار إلحاحٌ في التّضرُّعِ، وهيَ صفةٌ يُحبُّها اللهُ تعالى

وفي تكرارِ النّداءِ بينَ الجملتينِ المعلَّلةِ والمعلِّلةِ غرضٌ، هوَ التّوكيدُ، توكيدُ التّذلُّلِ والتّزلُّفِ والتّعرُّضِ للإجابةِ؛ إظهارًا للتّبرُّؤِ مِن أن يكونَ القَصْدُ هو الاعتراض[4].

تأكيد التّذلُّلِ والتّعرُّضِ للإجابةِ، وإظهار التَّبرُّؤِ مِن قَصْدِ الاعتراضِ

دلالة اللّام في قولِهِ تعالى: ﴿لِيُضِلُّواْ﴾:

اللّامُ في قولِه تعالى: ﴿لِيُضِلُّواْ﴾ للعاقبةِ، شأنُها شأنُ اللّامِ في قولِه تعالى: ﴿فَٱلۡتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرۡعَوۡنَ لِيَكُونَ لَهُمۡ عَدُوّٗا وَحَزَنًاۗ﴾ [القصص:

شبّهَ ترتُّبَ ما ليسَ علّةً بترتُّبِ المعلولِ علَى العلّةِ للمبالغةِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/296.
(2) عودة خليل، التّطور الدّلاليّ، ص: 349 - 350.
(3) ملا حويش، بيان المعاني: 3/68.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/269.

8]؛ فهي لامُ التَّعليلِ، لكنّها مستعارةٌ لمعنى التّرتيبِ والتّعقيبِ الموضوعِ لهُ الفاءُ، فشَبّهَ هذا التّرتُّبَ بترتُّبِ المعلولِ على العِلّةِ، معَ أنّهُ ليسَ سببًا لهُ، لكن للمبالغةِ في قُوّةِ التّرتُّبِ، والمعنى: أنّهُ تعالى آتى فرعونَ ومَلَأَهُ ما آتاهُم، فَضَلُّوا وأضَلُّوا[1].

التَّعليلُ استدراجًا، والحذفُ والدّعاءُ، وحذفُ الاستفهامِ، والتّأويلُ بالهلاكِ

وفي اللّامِ خمسةُ وجوهٍ أخرى؛ فالتّعليلُ بأنّكَ فعلتَ ذلكَ معهُمْ من بابِ الاستدراجِ، والثّاني: على حذفِ حرفٍ، تقديرُ الكلامِ: لئِلّا يُضِلّوا، والثّالثُ: أنَّ اللّامَ لامُ الدُّعاءِ، والرّابعُ: على تقديرِ همزةِ استفهامٍ محذوفةٍ، أيْ: أليُضِلّوا عنْ سبيلكَ؟، والخامسُ: على تأويلِ الضّلالِ بمعنى الهلاكِ[2].

عِلّة تكرير النِّداء:

إعادة النِّداء بينَ الجملة المعلَّلَة والجملةِ المعلِّلَة؛ لتأكيد التَّذلُّلِ والتَّعرُّض للإجابة، ولإظهار التَّبرُّؤِ من قَصْد الاعتراض، وأُعيدَ النِّداء مَرَّةً ثالثةً لزيادةِ تأكيد التَّوجُّهِ والتَّضرُّع، والنِّداء في قوله: ﴿رَبَّنَا ٱطۡمِسۡ عَلَىٰٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ﴾ يقوم مقامَ وصلِ الجملة بما قبلَها، بمنزلة حرف العطف[3].

إعادة النِّداء لزيادة تأكيد التَّوجُّه والتَّضرُّع

وجْهُ التّعبير عنِ الضَّلال بالمضارع، وجَعْلِ فاعلِه ضميرَ الجمع:

عبَّر عنِ الضَّلال بصيغة المضارع، وآثر التّعبيرَ عنِ الفاعل بضمير الجمع (الواو)، في قوله: ﴿لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَۖ﴾؛ لِيَدُلّ على اجتماعهم على هذا الفعل، وتمالُئِهم عليه، مُكَرِّرين إيّاه، مُداومين عليه؛ وكأنّ الإضلالَ عن سبيل اللّه خَصْلَةٌ تخلّقوا بها، فظهرت في فعالهم تأثّرًا وتأثيرًا؛ فلا يستمعون لناصح، ولا يُبالون برادعٍ.

اجتمعوا على الإضلال وكرَّروه

بيانُ القراءتيْن في لفظِ ﴿لِيُضِلُّواْ﴾:

في قولِه تعالى: ﴿لِيُضِلُّواْ﴾ قرأ نافعٌ وابنُ كثيرٍ وأبو عمرٍو وابنُ عامرٍ

ضلالهم في أنفسهم وهم قادةُ قومهم، مُضلّون لغيرهم

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/268.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/269.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/270.

وأبو جعفرٍ ويعقوبُ بفتحِ الياءِ ﴿لِيَضِلُّواْ﴾[1]؛ فقراءةُ الضّمِّ على معنى: ليُضلّوا غيرَهُم، وقراءةُ الفتحِ: ليَضِلّوا بأنفسِهم. وهما معنيانِ متّحِدانِ؛ فإنّ ضلالَهم في أنفسِهم - مع كونِهم قادةَ قومِهم - فيهِ تضليلٌ لغيرِهم، وكذا إذا أضلّوا النّاسَ فإنّهم لم يفعلوا ذلك إلّا لأنّهم ضالُّونَ مثلُهُم[2].

دلالةُ قراءةِ الضَّمّ أنّ فرعونَ ضالٌّ مُضِلٌّ

وفي قراءة الضَّمِّ مزيدُ مَعنًى؛ وهو أنّ المُتقدّم مِن وَصْف فرعونَ أنّه ضالٌّ غيرُ مُهْتدٍ؛ فَكَانَ وَصْفُهُ بعد ذَلِك بِأَنَّهُ مَعَ ذَلِك مُضِلٌّ لغيره، يزِيدُ الْكَلَامَ فَائِدَةً وَمَعْرِفَةً بمَا لم يكن مَذْكُورًا فِيمَا تقدَّم مِن وَصْفه[3]؛ فهو ضالٌّ مُضِلٌّ.

دلالة لفظِ (السَّبيل):

من معاني لفظ (السَّبيل) الدِّين

لفظُ ﴿سَبِيلِكَ﴾ في الآية مُستعار للدِّين الَّذي باتِّباعه تكون النَّجاةُ مِنَ العذاب، وبلوغُ دارِ الثَّواب، فالاستعارةُ - هاهنا - للإشارة إلى طريق الحقّ والإرشاد، أو طريقِ الدِّين الحقِّ.

نُكْتَةُ تعريفِ ﴿سَبِيلِكَ﴾ بالإضافة إلى كاف الخطاب:

سبيلُ اللهِ مُشَرّفةٌ، وتاركُها مذمومٌ

كاف الخطاب في قوله تعالى: ﴿لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَ﴾ تعود إلى لفظ (الرّبّ)، ونسبتُها إليه تعالى إعلاءٌ لمكانة هذه السَّبيل، وذمٌّ عليهم أن تركوا سبيلًا حقًّا، جعلَهُ اللّه تعالى هدايةً وإرشادًا.

توجيهُ جملةِ ﴿رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَ﴾ في سياق الخبر والإنشاء:

الخبَرُ مُستعمَلٌ في التَّمهيدِ لطَلَبِ سَلْبِ النِّعمةِ

قوله تعالى: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا﴾ توطِئَةٌ للدُّعاءِ عليهم؛ فليس المقصودُ به حَقيقةَ الإخبارِ بضرورة أنَّ موسى يوقِنُ بأنَّ اللّه يَعلَمُ ذلك، فتَعيَّن أنَّ الخبَرَ مُستعمَلٌ في التَّمهيدِ لطَلبِ سَلْبِ النِّعمةِ عَنهم في قولِهِ: ﴿لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَ﴾، ثمَّ الانتقالِ إلى الدُّعاءِ بسَلبِ ما أُوتوه[4].

---

(1) ابن مهران، المبسوط في القراءات العشر، ص: 201.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/270.
(3) ابن زنجلة، حُجّة القراءات، ص: 335.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/268.

دعاءُ اللهِ بوصفِ الرُّبوبيَّة تذلّلٌ لإظهار العبوديَّة

ووجهُ جملة: ﴿رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَۖ﴾ في السِّياق الإنشائيّ بافتتاح الدُّعاء بالنِّداء لمناسبة المقام، والدُّعاءُ: النّداءُ لله سبحانَه بوَصْف الرُّبوبيَّة؛ تذلُّلًا لإظهار العبوديَّة.

دلالةُ الأمرِ في قوله: ﴿ٱطۡمِسۡ﴾:

أفعالهمُ السَّيئةُ استوجبت أسلوبًا شديدًا

الأمرُ في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا ٱطۡمِسۡ عَلَىٰٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ﴾ أُريدَ به الدُّعاء بما عُلِمَ مِن ممارسة أحوالهم أنَّه لا يكون غيره، كقولكَ: لعنَ الله إبليسَ[1]. وقُوّةُ الطَّلبِ تُناسبُ شنيعَ أفعالِهم، وإصرارَهم على الزَّيغ والإضلال، وكذا التَّوجيه مع الفعل: ﴿وَٱشۡدُدۡ﴾.

بلاغة الاستعارة في لفظ: ﴿ٱطۡمِسۡ﴾:

تشبيهُ فناءِ الأموال بالصُّحف المطموسة

في لفظ: ﴿ٱطۡمِسۡ﴾ استعارةٌ؛ إذ شَبَّه مسخَ الأموال بالصَّحيفة المطموسة؛ لأنّ حقيقة الطَّمسِ مَحوُ الأثرِ، مِن قولهم: طمستُ الكتابَ: إذا مَحَوتُ سُطوره، وطمسَتِ الرِّيحُ رَبْعَ الحيِّ، إذا مَحت رسومَه، فكأنَّ موسى عليه السلام، إنَّما دعا الله سبحانَه بأن يمحوَ معارفَ أموالِهم، حتَّى لا يعرفوها، ولا يهتدوا إليها، وتكونَ مُنقلِبةً عن حال الانتفاع بها؛ لأنَّ الطَّمسَ تَغيّرُ حالِ الشَّيء إلى الدُّثور والدُّروس[2].

دلالة حرف الجرِّ ﴿عَلَىٰٓ﴾ في الآية:

مجيء العذاب مِن عُلوٍّ أشدّ وقعًا على النَّفس

أفادَ حرفُ الجرّ ﴿عَلَىٰٓ﴾ معنى الاستعلاءِ؛ للدّلالة على تمكُّن الطَّمس، وإلَّا فإنَّ (طمس) يتعدَّى بنفسه[3]. وكذا تعديَةُ الفعلِ ﴿وَٱشۡدُدۡ﴾ بـ ﴿عَلَىٰٓ﴾؛ فهو لإرادةِ تَمكُّنِ الفعلِ مِنَ المفعولِ؛ لأنّ مجيءَ العذابِ مِن عُلُوٍّ أنكى، وأشَدُّ وقعًا على النَّفس.

وجه تَعدِية الفعل ﴿ٱطۡمِسۡ﴾ بـ ﴿عَلَىٰٓ﴾:

مِن مقاصد التَّعديَةِ تمكينُ الفعلِ مِنَ المفعول

تعدِيَةُ ﴿ٱطۡمِسۡ﴾ بـ ﴿عَلَىٰٓ﴾؛ لإرادةِ تَمكُّنِ الفعلِ مِنَ المفعولِ، أو

(1) الزُّحيليّ، التّفسير المنير: 11/250.
(2) جعفر شرف الدّين، الموسوعة القرآنيّة: 4/52.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 23/51.

لِتَضمينِ الطَّمسِ مَعْنى الاعتلاءِ بآلةِ المحوِ والإزالةِ؛ فطَمْسُ الأموالِ: إتلافُها وإهلاكُها[1].

بلاغة الاستعارة في الحرف ﴿عَلَىٰ﴾:

التَّعبير بالاستعارة التَّبعيَّةِ في حرف الجرّ ﴿عَلَىٰ﴾ في قوله: ﴿وَٱشۡدُدۡ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ﴾ مُستعارٌ لمعنى الظَّرفيَّة؛ لإفادة تمكُّنِ الشِّدَّةِ، والمعنى: أدْخِلِ الشِّدَّةَ في قلوبهم[2].

استعمال (على) لمعنى الظَّرفيَّة حقَّقَ معنى التَّمكُّنِ مِنَ الشَّيء

نُكْتَةُ التَّعرُّضِ للأموال دونَ الزِّينةِ:

لمّا قَدَّم ذِكْرَ الأموالِ، وهي أعزُّ ما ادَّخَروا، دعا بالطُّموس عليها، فقال: ﴿رَبَّنَا ٱطۡمِسۡ عَلَىٰٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ﴾؛ أي: ربَّنا امحق أموالَهم، وأهْلِكْها بالآفات الّتي تستأصل زروعَهم، والجوائحِ الّتي تُهلك أنعامَهم، وتُنقصُ مكاسبَهم، فيذوقوا ذُلَّ الحاجة[3].

أعزُّ ما يتعلَّق به قلبُ الكافر هو المال، وفي زواله إذلالٌ له

دلالة العطف بالواو:

أفاد حرفُ العطفِ (الواو) في الجملة مشاركةَ المعطوفِ للمعطوف عليه في الحُكم؛ أي: المعنى، فالواو تُفيد أنّ ما بعدَها يشترك مع ما قبلَها في معنًى واحدٍ، ألَا وهو دعاءُ موسى على فرعون ومَلَئِه.

مِن أغراض العطفِ مشاركةُ المعطوفِ للمعطوفِ عليه في الحُكم

بلاغة الاستعارة في الفعل ﴿وَٱشۡدُدۡ﴾:

الاستعارة التَّصريحيَّةُ التَّبعيَّةُ في قوله: ﴿وَٱشۡدُدۡ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ﴾؛ لأنَّ الشَّدَّ حقيقةٌ في رَبْط الأجرام بعضِها إلى بعض، كَشَدِّ الحبال، شَبَّه قسوةَ القلوبِ وتغليظَها وعدمَ لينِها للإيمان بشَدِّ الأجرام وربطِها، على طريقة الاستعارة التَّصريحيَّة[4].

تشبيه قسوةِ القلوبِ للإيمان بِشَدِّ الأجرام ورَبطِها

إيثار لفظ القلوب:

يُعدُّ القلبُ مركزَ الإيمانِ والكفر، والطَّاعةِ والمعصيةِ، والخيرِ

وُجِّه الدّعاء على القلب؛ لأنّه مركز الإيمان

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/270.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/270.
(3) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 12/347.
(4) الهرريّ، الرّوح والرّيحان: 12/378.

والشّرِ، وإيثارُه هاهنا يناسبُ دعوةَ موسى ﷺ، بأنْ يَطبعَ اللّه تعالى عليها؛ حتّى لا تلينَ ولا تنشرحَ بالإيمان.

معنى الفاء في قوله: ﴿فَلَا يُؤۡمِنُواْ﴾:

الفاء السَّببيَّة تُفيد أنّ ما قبلَها سببٌ لما بعدَها

الفاء في قوله: ﴿فَلَا يُؤۡمِنُواْ﴾ سببيَّة في جواب الدُّعاء، أي: افعل بهم ذلك ليُؤمنوا، والفعلُ منصوب بـ (أن) مُضمرةً إضمارًا واجبًا بعد فاء السَّببيّة[1].

سرّ العدول في جملة الفاصلة:

قساوة قلوب الكفّار وشراسة نفوسهم لا تُذلّلها إلّا الآلام الجسديَّة والنَّفسانيَّة

السِّرُّ في العُدول عن إيقاع جواب الدُّعاء بصيغة إثبات الإيمان، إلى إيراده بصيغة النَّفي في جملة الفاصلة: ﴿فَلَا يُؤۡمِنُواْ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ﴾ مُغَيًّا بغايةٍ هي: رؤية العذاب سلوكًا لأسلوب بديع في نظم الكلام؛ لأنَّه أرادَ أن يجمع بين ترتيب الجواب على الدُّعاء، وبينَ ما استبانَ له مِن طَبْع نفوسِهم بطَبْعِ أنَّهم لا تنفع فيهمُ الحُجَجُ، وأنَّ قساوة قلوبِهم، وشراسَةَ نفوسِهم، لا تُذللها إلَّا الآلامُ الجسديَّة والنَّفسانيَّة، وكلّ ذلك علاجٌ بما هو مَظِنَّةُ إيصالِهم مِن طُرق الضَّغطِ والشِّدَّة، حيثُ لم تُجْدِ فيهم وسائلُ الحُجَّة، فقال: ﴿فَلَا يُؤۡمِنُواْ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ﴾، أي: إنَّ شأنهم ذلك[2].

علّة صَوْغِ نَفْيِ الإيمانِ عنهم، ورؤيتِهمُ العذابَ مضارعًا:

الإيمان الدَّائم مشروط برؤية العذاب

في قوله تعالى: ﴿فَلَا يُؤۡمِنُواْ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ﴾ عبّر النَّظمُ الكريمُ عن نَفْيِ الإيمانِ عنهم، ورؤيتِهمُ العذابَ بصيغة الفعل المضارع؛ للدَّلالة على المستقبل، فضلًا عمّا فيهما مِن تلازمٍ؛ فالإيمانُ الدَّائم المُتجدّد باللّه، والإقرارُ بوحدانيَّته مشروطٌ برؤيةِ العذابِ المُوجع.

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/271.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/271.

دلالة ﴿حَتَّىٰ﴾ في قوله: ﴿حَتَّىٰ يَرَوُاْ﴾:

﴿حَتَّىٰ﴾ في فاصلة الآية مستعمَلَةٌ في التّعليل بطريقة المجاز المرسل؛ لأنَّ معنى (حتَّى) انتهاءُ الفعل المذكور قبلَها، وغايَةُ الفعلِ ينتهي الفاعلُ عنِ الفعل إذا بَلَغَها، فهي سببٌ للانتهاء وعِلَّةٌ له.

أفادت (حتَّى) الانتهاءَ إلى الغاية

لفظ الرُّؤية بيَن المجاز والكناية:

الرُّؤية في جملة الفاصلة مُستعملةٌ في الإحساس، على وجه المجاز المُرسل، أو مستعملةٌ كنايةً عن حلول العذاب بهم؛ لأنَّ المشاهدةَ مُلازِمَةٌ لحلول الشَّيء المُشاهَد[1].

الرّؤيةُ مُلازمةٌ لحُلول الشَّيء المرئيّ

سرّ تعريف العذاب:

التَّعريف في العذاب تعريفُ الجنس، الَّذي يشمل جميع أفراد الجنس، فما يوجد مِن عذابٍ أليم إلَّا وهو داخلٌ فيه، واستغراقُه جنسَ العذابِ مَظِنّةُ التَّخويفِ والتَّهديد.

(أل) الجنسيَّةُ تدلُّ على شمول أفراد جنسِ الاسم المعرّف بها

وجهُ وصفِ العذابِ بالأليم:

وَصْفُ العذابِ نفسِه بأنّه أليم، بمعنى مُؤْلِم؛ لبيان أنّ الألم بلغ الغاية؛ لأنَّ الكافرين غارقون في الماديَّة، فآثرَ اللّه وَصْفَ العذابِ بأنَّه أليم؛ لأنَّ الإيلام يكون للمادَّة، فالعذاب قدِ استولى على وُجودِهم، وأحاط بذواتهم، ونفَذَ في بواطنهم، بحيث تَحوَّلوا نفس العذاب، وصار العذابُ عينَ ذواتِهم، كانقلاب الفَحْمِ جَمْرةَ نارٍ بنفوذ النَّار.

العذاب يتفاوت بحسب مِقدار الجُرْم المُرتكَب

بلاغة الإيجاز في جواب الدّعاء:

في قوله تعالى: ﴿فَلَا يُؤْمِنُواْ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ﴾ إيجازٌ كُنهُهُ الجمعُ بينَ جوابِ الدُّعاء وبيانِ علَّة الدّعاء عليهم بذلك، وأصل الكلام: فيُؤمنوا فإنهّم لا يُؤمنون إلَّا إذا رأوا العذابَ الأليمَ.

الجمع بين جواب الدّعاء وعلّته

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/272.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الطّمس والطّمر والمحو والمسح والغمر والدّرس:

الطَّمسُ: إزالةُ الآثار الماثلة، وقد يُطلق الطَّمسُ مجازًا على إبطال خصائصِ الشَّيء المألوفةِ منه. ومنه: طمس القلوب، أي: إبطال آثارِ التَّميُّزِ والمعرفةِ منها. ومنه: مَسْخُ شواهدِ العين، بإزالة سوادِها وبياضِها أو اختلاطِهما، وهو العمى أوِ العَوَر، ويُقال: طريق مطموسة، إذا لم تكن فيها آثار السَّائرين ليقفوَها السَّائرُ[1].

والطَّمْرُ: الإخفاء، وأصلُه: هَوْيُ الشَّيءِ إلى أسْفَلَ، طَمَرْتُ الشَّيءَ: أخْفَيْتُهُ. والمطْمُورَةُ: حُفْرَةٌ تحتَ الأرضِ يُرْمَى فيها الشَّيءُ[2].

والمحو: إزالةُ الشَّيء الثَّابتِ. والمَسْحُ: إمرارُ اليد على الشَّيء، وإزالةُ الأثرِ عنه، وقد يُستعمل في كلِّ واحدٍ منهما[3].

والغَمْرُ: يَدُلُّ عَلَى تَغْطِيَةٍ وَسَتْرٍ فِي بَعْضِ الشِّدَّةِ. مِنْ ذلك: المَاءُ الكَثِيرُ؛ وسُمِّيَ بذلكَ لأنَّهُ يَغْمُرُ ما تَحْتَهُ[4].

والدَّرْسُ: ذهابُ جِدّة الشَّيء الفِطريَّة وقُوّتِه، أو صلابتِه وصعوبتِه بما يعتريه، كما يَفْعَلُ الجرَبُ بالبعير، إذ يُبْلِي جِلْدَه وقوَّتَه الَّتي نشأ بها، ويُضيّعُ قِيمتَه ومنفَعَتَه، ويجعلُه مصدرَ بلاءٍ مُستطيرٍ لصاحبه[5].

والمعنى الجامع لهذه المفردات: هو التَّبدُّدُ في ماهية الشَّيء، أو تحوُّلُه عن صورته؛ بفعلٍ أو أثرٍ أو حالٍ. ويُناسب خصوصَ معنى الطّمسِ القَصْد إلى اصطفائه مِن حيثُ كونُه إبطالًا لفوائدِ أموالِهم، وإزالةَ تأثيرِها، بمحو معارفِها، والاهتداءِ إليها بالمسح لها.

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 5/79، و23/51.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (طمر).
(3) الرّاغب، المفردات: (مسح).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (غمر).
(5) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (درس).

﴿قَالَ قَدۡ أُجِيبَت دَّعۡوَتُكُمَا فَٱسۡتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ ٨٩﴾ [يونس: 89]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

إجابةُ دعاء موسى وأخيه، مع إرشادٍ للاستقامة، واتّباع المهتدين

لمّا سبقَ ذكرُ الدُّعاءِ الَّذي رفعَه موسى عليه السلام لربِّه بقوله: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيۡتَ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةٗ وَأَمۡوَٰلٗا فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَۖ رَبَّنَا ٱطۡمِسۡ عَلَىٰٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ وَٱشۡدُدۡ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَلَا يُؤۡمِنُواْ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ﴾؛ أعقبَهُ بذكرِ إجابةِ الدُّعاءِ، فقال: ﴿قَدۡ أُجِيبَت دَّعۡوَتُكُمَا﴾[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أُجِيبَت﴾: (جوب) أصْلٌ يَدُلُّ على مُراجَعَةِ الكلام، يُقالُ: كلَّمَهُ، فأجابهُ جَوابًا، وقد تَجاوبا مُجاوبةً[2]. والجوابُ يُقال في مُقابلةِ السُّؤال[3]، والاستجابةُ: هي الإجابةُ، وتحقيقُه ما قالَه الرّاغبُ: هو تحرّي الجوابِ، وتَهَيُّؤه له، قال تعالى: ﴿ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ﴾ [الأنفال: 24][4]. والمرادُ في الآية: الاستجابةُ والقَبولُ، أي: إعطاءُ ما سألَ موسى عليه السلام[5].

2) ﴿دَّعۡوَتُكُمَا﴾: الدُّعاءُ: النِّداءُ، وأصْلُه: إمالَةُ الشَّيْءِ إلَيْكَ بِصَوْتٍ وكَلامٍ يكون مِنْكَ، ومنه سُمّيَتِ الرَّغْبَةُ إلى الله عز وجل: دُعاءً، تقولُ: دَعَوْتُ فُلانًا، دُعاءً ودَعْوَةً، أي: نادَيْتُهُ[6]، والدَّعْوَةُ: المَرَّةُ الواحِدَةُ مِنَ الدُّعاءِ[7]. ويأتي الدُّعاءُ بِمعنى الطَّلَبِ والسُّؤالِ، يُقال:

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/182.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (جوب).
(3) الرّاغب، المفردات: (جوب).
(4) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحُفّاظ: (جوب).
(5) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 11/149، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/272.
(6) الجوهريّ، الصِّحاح، وابن فارس، مقاييس اللُّغة، وابن الأثير، النِّهاية: (دعا - دعو).
(7) ابن الأثير، النِّهاية، وابن منظور، لسان العرب: (دعا).

دَعَوْتُ اللّه، أدعوهُ، أي: سَأَلْتُهُ[1]. ويُطلَق على الحَثِّ إلى الشَّيْءِ والتَّرْغيبِ فيهِ، فيُقال: دَعا قَوْمَهُ إلى اتِّباعِهِ، أي: حَثَّهُمْ، ورَغَّبَهُم[2]. والمقصودُ بالدُّعاء في الآية: الطَّلَبُ والسُّؤالُ.

3) ﴿فَٱسْتَقِيمَا﴾: (قَوَمَ) أصلٌ يدلُّ على اعتِدال الشَّيء واستوائِه، يُقال: قامَ الشَّيءُ، واستَقامَ: اعْتدَل واسْتَوى، وأقمتُ الشَّيْءَ، وقوَّمتُه فَقامَ، بِمَعْنى استقام[3]. والاستقامةُ: ضِدُّ الاعوِجاجِ، وهي مُستعملةٌ كثيرًا في معنى الثَّبات على الحقِّ والرُّشدِ؛ لأنَّهُ شاعَ تَشبيهُ الضَّلالِ والفَسادِ بِالاعوِجاج والالتِواءِ، وهي مُستعارةٌ لصلاحِ العملِ الباطِنيِّ: وهو الاعتِقادُ، والظَّاهريِّ: وهو الأفعالُ والأقوالُ تَشبيهًا للعَمَلِ بِخَطٍّ مُستقيم تَشبيهَ مَعقولٍ بِمَحسوسٍ[4]. والمرادُ بالاستقامة في الآية: الثَّباتُ على الدّين والاستمرار بالدَّعوة[5].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

بشارةٌ بالإجابة، وتوجيه إلى اتِّباع الصّالحين، ومجانفة الجاهلين

يُخبرُ اللّه تعالى موسى وهارونَ أنْ قد أجَبْتُ دَعوتَكما على فِرعونَ ومَلَئِه، فاستَقيما، واثْبُتا على دينِكما، واستَمِرّا على دعوتِكما فرعونَ وقَومَه إلى توحيدِ اللّه وطاعتِه، ولا تَسلُكا طريقَ مَن لا يعلَمُ حقيقةَ وعيدي، وأنّي لا أُخلِفُ الميعادَ[6].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ الفصلِ بفعلِ القولِ الماضي في السّياق:

جوابُ المحاورةِ، يُفصَل لشدَّةِ الاتِّصال

قوله تعالى: ﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا﴾ فُصِل عن

(1) الفيوميّ، المصباح المنير: (دعو).
(2) الأمير، التَّحبير لإيضاح معاني التَّيسير: 4/5.
(3) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة، وابن منظور، لسان العرب: (قوم).
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/273، و30/166.
(5) ابن عجيبة، البحر المديد في تفسير القرآن المجيد: 2/495، والمراغيّ، تفسير المراغيّ: 11/149، والسعدي، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 372.
(6) ابن جرير، جامع البيان: 12/273، وابن عطيّة، المحرر الوجيز: 3/140، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 8/376.

سابقِه، ولم يُعطَفْ؛ لأنَّه "جوابٌ من اللّٰه لكلامِ موسى، جرى على طريقةِ حكايةِ المحاوراتِ ألّا تُعطَفَ جُمَلُها"[1]. فسيقتْ على طريقة المحاورةِ، فلا يَلْزَمُ العطفُ؛ لأنَّ الكلامَ متَّصلٌ بالدُّعاء على أنَّه استئنافٌ وقعَ جوابًا عن دعاء النَّبيَّيْنِ عليهما السلام، كأنَّه قيل: فماذا قال اللّٰه تعالى لهما بعدَ دعائِهما؟ فقيلَ: قال: ﴿قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا﴾.

سرُّ التَّعبيرِ عن الإجابةِ بالفعلِ الماضي مع (قَدْ):

وعدُ اللهِ تعالى محقَّقٌ واقعٌ، لا شكَّ فيه ولا ريب

افتتح النَّظمُ الجليل قولَه عزَّ ذِكْرُه: ﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا﴾ بـ (قَدْ) الدّاخلةِ على الفعلِ الماضي، مع أنَّ إجابةَ الدُّعاءِ لمّا تَحْصُلْ وقتَ القول، فكان الظّاهرُ أن يُقالَ: (ستُجابُ دعوتُكما)؛ وذلك للدَّلالةِ على تأكيدِ "الحصولِ في المستقبل، فَشُبِّه بالمضيِّ"[2]. فهو الواقعِ المحقَّقِ.

التَّعبيرُ عن فعلِ الإجابةِ مبنيًّا للمفعولِ:

شدَّةُ الحضورِ تُغني عن الذِّكرِ ويكون ذلك أبلغَ وأظهرَ

آثرَ النَّظمُ الكريمُ في قوله جلَّ شأنُه: ﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا﴾ التَّعبيرَ بالفعل المبنيِّ للمفعول؛ لأنَّ ذلك "أدلُّ على القدرة، وأوقعُ في النَّفس من جهة الدَّلالةِ على الفاعلِ بالاستدلالِ"[3]، فمعرفةُ الفاعلِ لظهوره مُغْنيةٌ عن ذكره، كما يُحقِّق ذلك الإيجازَ والاقتصادَ اللَّذَين هما مطلبُ البلاغة.

سِرُّ تثنيةِ الدُّعاءِ في قولِه تعالى: ﴿دَّعْوَتُكُمَا﴾:

اجتمع الرَّسولان الأخوان في الدُّعاءِ، وترافقا في الدَّعوةِ والابتلاء

في قولِه عزَّ ذكرُه: ﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا﴾ أضاف النَّظمُ الكريم لفظَ الدَّعوةِ إلى الضَّمير العائدِ على النَّبيَّيْنِ الكريمَيْنِ عليهما السلام، وقد مضى الإخبارُ عن فاعل الدَّعوةِ بأنَّه موسى عليه السلام في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ﴾، وذلك؛ لأنَّ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/272.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/272.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/182.

موسى عليه السلام "كان يدعو، وهارونَ يؤمِّنُ، ويجوز أن يكونا جميعًا يدعوانِ إلّا أنَّه خصَّ موسى بالذِّكر في الآية لأصالتِه في الرِّسالة"[1]، فلمّا ذكر في الآية السّابقة أنَّ مَنْ رفع الدُّعاء كان موسى عليه السلام ؛ نبَّه بالتَّثنيةِ على أنَّ هارون عليه السلام كان معَه في الدُّعاء.

نكتة نسبةِ الدُّعاءِ إلى الرَّسولين بالتَّعريفِ بالإضافةِ:

دعاءُ الجماعةِ أَذعى للإجابةِ، والاثنان أقلُّ الجماعة

في قوله تعالى: ﴿قَالَ قَدۡ أُجِيبَت دَّعۡوَتُكُمَا فَٱسۡتَقِيمَا﴾ أُضيف لفظُ الدُّعاء إلى الضَّمير العائدِ على النَّبيَّيْن الكريمَيْن عليهما السلام للدَّلالة على أنَّ دعاءهما كان معًا، وأنَّهما توجَّها بدعائهما إلى الله تعالى جماعةً، كما أنَّ فيه تنصيصًا على أنَّ كلَّ ما دعوَا به قد أُجيبَ، وأنَّه في عُهدة التَّحقيقِ.

دلالةُ الفاءِ على التَّفريع في قوله: ﴿فَٱسۡتَقِيمَا﴾:

هل جزاءُ الإحسانِ بالإجابة إلّا الإحسانُ بالاتِّباع والاستقامة ؟

في قوله جلَّ شأنُه: ﴿أُجِيبَت دَّعۡوَتُكُمَا فَٱسۡتَقِيمَا﴾ ذَكَرَ الأمرَ بالاستقامة بعد ذِكْرِ الإجابةِ مقترنةً بالفاء التَّفريعيَّة، ففرَّع "على إجابة دعوتِهما أمرَهما بالاستقامة، فعُلِم أنَّ الاستقامةَ شكرٌ على الكرامة، فإنَّ إجابةَ الله دعوةَ عبدِه إحسانٌ للعبد وإكرامٌ، وتلك نعمةٌ عظيمةٌ تستحقُّ الشُّكرَ عليها، وأعظمُ الشُّكرِ طاعةُ المنعِم"[2]. ويدلُّ التَّفريعُ بالفاء على الحثِّ على سرعةِ السَّعي إلى الاستقامة باستمرارِ التعبُّدِ، والدَّوامِ عليه وعدمِ الفتورِ فيه أو التماهلِ.

دلالةُ الأمرِ بالاستقامة في قولِه: ﴿فَٱسۡتَقِيمَا﴾:

أَمرُ المستقيمِ بالاستقامة تثبيتٌ له على المعهودِ منه

في قوله عزَّ ذكرُه: ﴿قَالَ قَدۡ أُجِيبَت دَّعۡوَتُكُمَا فَٱسۡتَقِيمَا﴾ أمَرَ تعالى النَّبيَّيْن الكريمَيْن عليهما السلام بالاستقامة، مع أنَّهما مستقيمانِ على ما تقتضيه صفةُ النُّبوَّة، والمرادُ من ذلك الثَّباتُ "أي: فاثْبُتا على التَّعبُّدِ والتَّذلُّلِ والخضوعِ لربِّكما، كما أنَّ نوحًا عليه السلام ثَبُتَ على ذلك، وطال

(1) النّيسابوريّ، غرائب القرآن: 3/607.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/273.

زمنُه جدًّا، واشتدَّ أذاه، ولم يضجُرْ"[1]، فالمرادُ منهما الدَّيمومةُ والثَّباتُ على ما كانوا عليه من الجِدِّ في التَّعبُّد والتَّضرُّع.

إيثارُ لفظِ ﴿فَٱسۡتَقِيمَا﴾ وبيان ما في السّين من دلالة:

الاستقامةُ تتضمَّنُ الامتثالَ والمطاوعةَ لأحكام الشَّريعة الجامعة

في قوله تعالى: ﴿قَالَ قَدۡ أُجِيبَت دَّعۡوَتُكُمَا فَٱسۡتَقِيمَا﴾، آثرَ النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ بالاستقامة موجِبًا عليهما ذلك بعد الإنعام عليهما بإجابة دعوتهما؛ لكونها دالَّةً على الالتزام بجميعِ تعاليمِ الشَّريعةِ، فالاستِقامَةُ تدلُّ على لزوم المنهجِ المستقيم[2] الذي لا عِوج فيه ولا حيدةَ، ولا انحراف، فيكونُ أقربَ إلى المقصود، والاستقامةُ: مشتقَّةٌ من الفعل (استقام)، مطاوعُ قوَّمتُه، فاستقام[3]، فيكونُ المرادُ مطاوعتَهما ما أُمِرا به في شريعتِهما.

سرُّ تثنيةِ فعلِ الاستقامة في قوله: ﴿فَٱسۡتَقِيمَا﴾:

الثَّباتُ على المنهج القويم، ثابتٌ على كلِّ فردٍ مستقيم

في قوله تعالى: ﴿قَالَ قَدۡ أُجِيبَت دَّعۡوَتُكُمَا فَٱسۡتَقِيمَا﴾ جاء فعلُ الأمر موجَّهًا لكلا النَّبيَّيْنِ عليهما السلام؛ لأنَّ البشرى بإجابة الدَّعوةِ وقعت عليهما كِلَيْهما، فكان التَّفريعُ على ذلك بالأمر بالاستقامةِ مقتضيًا أن يكونَ بالتَّثنيَة نصًّا على وجوب الثَّباتِ على المنهج القويمِ عليهما جميعًا، دون تفريقٍ بين مُرسَلٍ بالأصالة أو التَّبعيَّةِ.

دلالةُ عطفِ جملة النَّهي على جملة الطَّلب:

الاستقامةُ تقتضي مفارقةَ الباطلِ، ومجانفةَ كلِّ فعل سافل

الجملةُ في قوله عزَّ ذكرُه: ﴿وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ معطوفةٌ على الجملة في قوله تعالى: ﴿فَٱسۡتَقِيمَا﴾، فهي جملةُ نهي معطوفةٌ على جملة أمرٍ[4]؛ "تنبيهًا على توخِّي السَّلامةِ من العُدول عن طريقِ الحقِّ اهتمامًا بالتَّحذيرِ من الفساد"[5]، ولا يَخفى أنَّ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/183، وأبو حيّان، البحر المحيط: 6/101.
(2) الرّاغب، المفردات: (قوم).
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/191.
(4) السّمين الحلبي، الدّرّ المصون: 6/262.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/273.

الأمرَ بالاستقامة يتضمَّنُ الامتناعَ عن اتِّباعِ غيرِ سبيلِ الحقِّ، فبهذا كان العطفُ لتأكيد الاستقامةِ والثَّباتِ عليها، فأمر بها أوَّلًا، ونهى عن نقيضِها ثانيًا.

طولُ المسير يقتضي ديمومةَ المجاهدةِ، بمفارقةِ الباطلِ وأهله

سرُّ التَّعبير بالفعل المضارع ﴿وَلَا تَتَّبِعَآنِّ﴾:

في قوله عزَّ ذكرُه: ﴿وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ آثر النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ عن الاتِّباع بالفعل المضارعِ مَنْهيًّا عنه، للدَّلالة على أنَّ النَّهيَ دائمٌ لا ينقطعُ، فالنَّهي دائمٌ، والامتثالُ له يجبُ أن يكونَ متجدِّدًا في كلِّ زمان وحينٍ.

تأكيدُ الأمرِ بالنَّهي، دليلُ الاهتمام، بما لِاجْتِناب المنهيّات من مَقام

وجهُ التَّثْنيةِ والتَّوكيدِ بالنُّونِ في قوله: ﴿وَلَا تَتَّبِعَآنِّ﴾:

في قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ جاء النَّهي بصيغة التَّثنيةِ نصًّا على أنَّ كلا النَّبيَّيْنِ عليهما السلام مَنهيٌّ عن ذلك. "ولمّا كان الصَّبرُ شديدًا؛ أكَّد قولَه: ﴿وَلَا تَتَّبِعَآنِّ﴾ بالاستعجال، أو الفترةِ عن الشُّكر"[1]، فأكَّد الفعلَ بالنّون التَّوكيديَّة مبالغةً في النَّهي عن اتِّباعِ سبيلِهم، فأورد النَّهيَ بصيغةٍ تدلُّ على كمال المبالغةِ في التَّحريم.

السَّبيل آثرُ لخصوصِ استعمالِه في المنهجِ، الموسوم بالاتِّباع

إيثارُ لفظِ (السَّبيل) على لفظ (الطَّريق):

في قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ آثرَ النَّظمُ الكريم استعمالَ السَّبيل دونَ الطَّريق؛ لأنَّه يُستعمل لكلِّ ما يُتوصَّل به إلى شيء خيرًا كان أو شرًّا، قال: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ﴾ [النَّحل: 125][2]، وليس المرادُ السَّبيلَ الّذي يطرقُه النّاسُ في مسيرهم، بل المنهجَ والدّينَ، والسُّنَّةَ، والحُجَّة، وهذه يُعبَّرُ عنها بالسَّبيل دونَ الطَّريقِ.

متابعةُ العملِ الجليل، كمتابعةِ المسيرِ في السَّبيلِ

بلاغةُ المجازِ في لفظ (السَّبيل):

في قوله عزَّ ذكرُه: ﴿وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ عبَّر عن المنهاجِ بالسَّبيل، وحقيقةُ السَّبيلِ: الطَّريقُ الذي يسلكُه النّاسُ،

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/183.
(2) الرّاغب، المفردات: (سبل).

وفيه سهولةٌ ويسرٌ، ولكنَّه "هنا مستعمَلٌ للسّيرة والعملِ الغالبِ"[1]؛ لأنَّ العملَ الذي يتَّبعه المرءُ في طول حياتِه يُشْبِهُ السَّبيلَ الذي يتابعُ النّاسُ مسيرَهم عليه.

نكتةُ تعريفِ (السَّبيل) بالإضافةِ:

لا أضلَّ من سبيل بُنيَ على الجهلِ

في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ عرَّف النَّظمُ الجليل لفظَ السَّبيل بالإضافة إلى الموصول؛ لبيان وجهِ كونِه سبيلًا منهيًّا عن سلوكه، فمضمونُ الصِّلةِ يدلُّ على علَّةِ كونِه سبيلًا منهيًّا عنه، كما أفادتْ إضافة السَّبيل إليهم أنَّ مَن انحاز عن السَّبيل القويم إنَّما ينحازُ إلى سبيلٍ ومنهجٍ قائم آخرَ، إشارةً إلى أنَّ سبيل الحقِّ واحدٌ من سبلٍ كثيرةٍ، وأنَّ لتلك السُّبلِ أتباعًا، ولعلَّ سبيلَ الحقِّ على الغالب أقلُّها أتباعًا.

علَّةُ التَّعبيرِ بالاسم الموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾ في سياق الآية:

تعيينُ السَّبيلِ المنهيِّ عن اتِّباعه أبلغُ في البيانِ، وأرشدُ في الاهتداء

في قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ عبَّر النَّظمُ الكريم بالاسم الموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾ دونَ غيره؛ لأنَّ المرادَ قومٌ بعينِهم، تعرَّف السبيلُ بإضافته إليهم؛ لكونِهم جماعةً معروفةً، وهم معهودون معروفون.

دلالةُ جملة النَّفي بـ(لا)، وأثرها في سياق المعنى:

من ضلَّ عن الهدى؛ جهلَ الحقَّ وما اهتدى

في قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ جاءت الجملةُ في صلة الموصولِ منفيَّةً، والمقصودُ منها تعريفُ الذين نُهيَ عن اتِّباع سبيلِهم، فهم المعروفون بأنَّهم لا يعلمون، فانتفاءُ العلمِ عنهم علامةٌ ومَيزةٌ يُعرفون بها، وهي عِلَّةُ النَّهي عن اتِّباع سبيلهم، فكيف يُتَّبع سبيلُ مَن لا يعلمُ؟

نكتةُ نفي العلمِ بالمضارع المجموع في قولِه: ﴿لَّا يَعۡلَمُونَ﴾:

في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ آثر النَّظمُ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/273.

الكريم أن ينفيَ العلم بصيغة الفعلِ المضارعِ للدَّلالةِ على استمرار النَّفيِ، فانتفاءُ العلمِ عنهم لا ينقطعُ؛ إذ هو يتجدَّدُ حينًا بعد حين، وذلك لأنَّ المصدرَ الذي يَرِدون منه لا يُكسبهم العلمَ والهدايةَ، وجاء مجموعًا للدَّلالة على أنَّه منهجٌ متَّبع من كثير من النّاس، وأنَّه شُبَهٌ لا ينجو منها إلّا بتوفيق اللّه واتِّباع هديه.

للجهلِ والضَّلالِ حِزْبٌ يُنسب إلى الجهلِ، ويُسْرع إلى الضَّلالِ بلا مهل

سرُّ حذفِ المفعولِ به في قولِه: ﴿لَّا يَعۡلَمُونَ﴾:

في قوله عزَّ ذكرُه: ﴿وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ أطلق النَّظمُ الجليل العلمَ، ولم يقيّده، فحذفَ المفعولَ به، ولم يبيّنْ أيَّ شيءٍ لا يعلمونه، والمرادُ شمولُ كلِّ ما له صلةٌ بالهداية، فهم لا يعلمون عاداتِ اللّه سبحانَه في تعليقِ الأمورِ بالحِكمة والمصالحِ، أو لا يعلمون سبيلَ الجهلةِ في الاستعجال وعدمِ الوثوقِ بوعد اللّه تعالى[1].

مَنْ جَهِلَ دلائلَ التَّوحيدِ؛ لا يصلُح له أن يتَّبع سبيلَهُ الرَّشيد

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/172.

﴿وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ فَأَتۡبَعَهُمۡ فِرۡعَوۡنُ وَجُنُودُهُۥ بَغۡيٗا وَعَدۡوًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدۡرَكَهُ ٱلۡغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ٩٠﴾ [يونس: 90]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

إثرَ الدُّعاءِ وإجابتِهِ أخبر ببيانِ كيفيَّتِهِ

إنَّ اللّه تعالى لمّا ذكر دعاءَ موسى وهارونَ عليهما السلام وأنَّه قد استجاب دعوتَهما؛ أمرَ بني إسرائيل بالخروج من مصرَ في الوقت المعلوم، ويسَّرَ لهم أسبابَه[1]، فأتبَعَ ذلك ببَيانِ إنعامِه بكيفيَّة إجابةِ الدُّعاء بأنْ أجازهم البحرَ، وأغرقَ عدوَّهم، فبَعدَ الأمرِ بالاستقامة أنعم عليهما بالإجابة.

وبيانُ كيف " حملتِ العزَّةُ فرعونَ على تقحُّمِ البحرِ على إثْرهم، فلمّا تحقَّق الهلاكُ؛ حملته ضرورةُ الحيلة على الاستعاذة، فلم ينفعْهُ ذلك لفواتِ وقتِ الاختيارِ"[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَجَٰوَزۡنَا﴾: أصْلُ (جوز): قَطْعُ الشَّيْءِ، أو عُبورٌ أو نفاذٌ من طَرَفٍ إلى طَرَفٍ، تقول: جُزْتُ المَوْضِعَ: سِرْتُ فيه، وأجَزْتُهُ: خَلَفْتُهُ وقَطَعْتُهُ، وأجَزْتُهُ: نَفَذْتُهُ[3]. والمجاوَزةُ: البُعْدُ عن المكان عَقِب المرور فيه، فإذا قُلتَ: جُزتُ به؛ فأصلُ معناهُ: أنَّكَ جُزتَهُ مُصاحبًا في الجواز به، يُقالُ: جُزتُ به الطَّريقَ؛ إذا سَهَّلتَ له ذلك، وإنْ لم تَسِرْ معه، فهو بمعنى أجزته، كما قالوا: ذهبتَ به بمعْنى: أذهبْتَه، فالمقصود من قوله: ﴿وَجَٰوَزۡنَا﴾: أقْطَعْنا. أي: جعلناهُم قاطعينَ البحرَ، بمعنى: قدَّرنا لهم جَوازه، ويَسَّرناه لهم[4].

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/295.
(2) القشيريّ، لطائف الإشارات: 2/114.
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، وابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصل: (جوز).
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/80، و11/274.

2) ﴿فَأَتۡبَعَهُمۡ﴾: أصْلُ تَبِعَ: التُّلُوُّ والقَفْوُ، يُقالُ: تَبِعتُ فُلانًا؛ إذا تَلوتَهُ، واتَّبَعْتَهُ، وأتْبَعْتُهُ؛ إذا لَحِقْتَهُ[1] كأنَّما لَحِق أو التصق به، وتَطَلَّبه مُتَّبِعًا له[2]. وتَبِعتُ الرَّجُلَ؛ إذا مشيتُ مَعَه، واتَّبعْتُه؛ إذا مشيتَ خَلفَه لتلحقه[3]. ويُقال: أتْبَعْتَ القَوم؛ إذا كانوا قد سبقوك، فلحِقتهم. قالَ: واتَّبعتَهم؛ إذا مرّوا بكَ، فمضيتَ مَعَهم، وتبِعتهم تَبَعًا مثله[4]، وأتبع فلانٌ فلانًا؛ إذا تبعه يُريد بِهِ شرًّا، كما أتبع فِرْعَونُ موسَى عليه السلام . وأمّا التَّتبُّع فأنْ يتتبَّع في مُهْلة شَيئًا بعد شَيْءٍ[5]. والمرادُ بـ ﴿فَأَتۡبَعَهُمۡ﴾ في الآية: لَحِقَهُمْ؛ لطَلَب البَغي والعُدوانِ[6].

3) ﴿بَغۡيًا﴾: البَغْيُ مَصْدَرُ (بَغَى)، وهو الظُّلْمُ والاعتِداءُ، يُقال: بَغى، يَبْغي، بَغْيًا، فهو باغٍ، أي: ظالِمٌ مُعتدٍ. والبغيُ الاعتِداءُ على حقِّ الآخرِ بِسَلْبِ أموالِهم أو بأذاهُم، والكِبْرُ على النّاسِ مِنَ البَغي، وأصْلُ البَغْيِ: الفَسادُ، كَقَوْلِهم: بَغَى الجُرْحُ، أي: فَسَدَ. والبُغاةُ: الَّذين يُفْسِدونَ في الأرْضِ[7]. والمقصودُ بالبغي في الآية: الظُّلمُ والتَّعدّي بالباطل[8].

4) ﴿وَعَدۡوًا﴾: أصْلُ (العَدْو) مِن التَّعَدّي، وهو: مُجاوَزَةُ الحَدِّ، يُقالُ: قَدْ عَدا فُلانٌ عَدْوًا وعُدوًّا، أي: ظَلَمَ ظُلْمًا جاوَزَ فيهِ القَدْرَ[9]، ومنه تَعَدّى النَّهْرَ، أيْ: تَجاوَزَهُ، وعدا عليهِ بِالسَّيْفِ يعدو عَدْوًا[10]. فالعَدْوُ مَصْدَرٌ بِمَعْنى: الظُّلم والتَّجاوز، ولَيْسَ مِنَ الاعْتِداءِ الَّذي مثالُه قولُه تعالى: ﴿جَعَلۡنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلۡمُجۡرِمِينَۗ﴾ [الفرقان: 31]. والمقصود بـ العَدْوِ في الآية: تَجاوُزُ الحَدِّ في الظُّلْمِ[11].

5) ﴿أَدۡرَكَهُ﴾: أصْلُ (دَرَكَ) من الدَّرَك، وهو التَّبِعةُ، يُسَكَّنُ، ويُحَرَّكُ[12]، وهو لُحوقُ الشَّيءِ

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (تبع).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (تبع).
(3) ابن دريد، جمهرة اللُّغة: (تبع).
(4) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة: (تبع).
(5) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة: (تبع).
(6) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 199، وطنطاويّ، التّفسير الوسيط: 7/127.
(7) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (بغي).
(8) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/274.
(9) الأزهريّ، جمهرة اللُّغة، وابن منظور، لسان العرب: (عدو).
(10) ابن دريد، جمهرة اللُّغة: (عدو).
(11) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/274.
(12) ابن منظور، لسان العرب: (درك).

بالشَّيءِ ووُصولُهُ إليْهِ[1]، والدِّراك: إتباع الشَّيء بعضَهُ على بعض في كلِّ شيءٍ[2]، يُقال: أدركتُ الرَّجلَ إدراكًا؛ إذا لحِقتُه، فَهوَ مُدْرَك[3]، وأدْرَكَ الغُلامُ والجاريَةُ؛ إذا بَلَغا، وتَدارَكَ القَوْمُ: لَحِقَ آخِرُهُمْ أوَّلَهُمْ[4]، ومِمّا سَبق نخلُص إلى أنَّ معنى الإدراكِ: هو اللَّحاقُ وانتهاءُ السَّير، وهذا هو المقصودُ من قوله: ﴿أَدْرَكَهُ﴾ في الآية[5].

6) ﴿ٱلْمُسْلِمِينَ﴾: أصلُ الإسلام: الانْقيادُ؛ لأنَّهُ يَسْلَمُ مِنَ الإباءِ والامتِناعِ[6]. والإسْلامُ: الاستِسلامُ لأمرِ اللّه، والانقيادُ لطاعَتِه، وهو دينُ الأنبياء جميعًا، يُقال: سَلَّمْنا للّه رَبِّنا، أي: اسْتَسْلَمْنا له، وأسْلَمْنا، ويُقالُ: فُلانٌ مُسلِمٌ، وفيه قَولانِ: أحدهما هو المُستَسلِمُ لأمر اللّه، والثّاني هو المُخْلِصُ للّه العبادةَ، مِنْ قَولهم: سَلَّمَ الشَّيءَ لِفُلانٍ، أي: خَلَّصَهُ، وسَلِمَ لَهُ الشَّيءُ، أي: خَلُصَ لَهُ[7]. والمقصودُ بالمسلمين في الآية: المنقادونَ لدينِ اللّه[8].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

يقولُ اللّه تعالى: ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ﴾ عندما خرجوا من مِصرَ مع نبيِّهم موسى عليه السلام، فتَبِعَ بني إسرائيلَ فرعونُ وجنودُه؛ استعلاءً عليهم واعتداءً، حتى إذا أحاط الغَرَقُ بفِرعونَ؛ قال عند الموتِ: أقررْتُ بأنَّه لا إلهَ إلّا اللّه الذي آمَنَ به قومُ موسى، وأنا من الموحِّدينَ للّه، المُستَسلِمينَ المُنقادينَ له بالطّاعةِ[9].

بيانُ حمايةِ اللهِ لأوليائِه، وإهلاك فرعونَ الَّذي لم تنفعه وقايةٌ ولا تُقْيَةٌ

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (درك).
(2) الخليل، العين: (درك).
(3) ابن دريد، جمهرة اللُّغة: (درك).
(4) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (درك)، والمناويّ، التّوقيف على مهمات التّعاريف، ص: 159.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/275.
(6) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (سلم).
(7) ابن عباد، المحيط في اللُّغة، وابن منظور، لسان العرب: (سلم).
(8) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 372.
(9) ابن جرير، جامع البيان: 12/274، والواحديّ، التفسير البسيط: 11/302، 303، والسّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 372.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ الوصلِ بالعطفِ في السّياق:

أحداثُ القصَّةِ تتوالى لاستكمالِ المشاهدِ واتِّساقها

الجملةُ في قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ﴾ معطوفةٌ على الجملة في قولِه تعالى: ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوۡمِكُمَا بِمِصۡرَ بُيُوتٗا﴾، "عطَفَ الغرضَ على التَّمهيد، أي: أمَرْناهُما باتِّخاذِ تلك البيوتِ تهيئةً للسَّفر، ومجاوزةِ البحر"[1]، فَهُما خبرانِ في سياق قصَّةٍ واحدةٍ.

إيثارُ التَّعبيرِ بالفعل (جاوز)، دونَ (جاز):

تصويرُ عبورِ بني إسرائيل، بما تضمَّنَ من معجزاتٍ باهرةٍ

في قوله تعالى: ﴿وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ﴾ آثرَ النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ بـ ﴿وَجَٰوَزۡنَا﴾، دون (وجُزْنا)، وإن كانا بمعنًى واحدٍ، فالفعلُ (جاوَزَ) بمعنى: جازَ، من باب فاعَلَ بمعنى فَعَلَ[2]، وأصل (فَعَل) إنَّما يقتضي تكليفَ الفعلِ[3]، فساقَهُ على طريق المفاعلة تعظيمًا له[4]. بزيادة الألف، وذلك مبالغة لِما كان من معجزة فَرْقِ البَحْر، بارتفاع بعضِ أراضيه لعبورِهم، وانخسافِ مائِهِ، وغَرَقِ فرْعونَ وقومِه فيه[5].

والمعنى: "جاوزنا، وجعلنا بني إسرائيل قاطعينَ البحرَ بحيث تركوا البحرَ في خلفِهم"[6]، فلمّا كانت مجاوزةُ أمَّةٍ كاملةٍ البحرَ ليس من يسيرِ الأعمالِ؛ كان التَّعبيرُ عنها بالفعل الأكثرِ حروفًا أدْعى لمقتضى الحالِ.

توجيهُ تعظيمِ الضَّمير للعظيم القدير في قوله: ﴿وَجَٰوَزۡنَا﴾:

معجزة الإغراق العظيم، تقتضي معجزة إنقاذٍ عظيم

في قوله عزَّ ذكرُه: ﴿وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ﴾ عظَّم النَّظمُ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/274، وينظر: البقاعيّ، نظمُ الدّرر: 9/183.
(2) السّمين الحلبي، الدّرّ المصون: 5/442.
(3) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/247، وابن عادل، اللباب: 9/292.
(4) البقاعيّ، نظم الدُّرَر: 3/103.
(5) الجلالان، المفصّل، ص:594.
(6) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 9/553.

الكريم المجاوزةَ المخبَر عنها بإسناد الفعلِ إلى ضمير التَّعظيم، "أي: فعلنا بعظمتنا في إجازتهم فعلَ المناظِر للآخر المباري له"[1]، والتَّعظيمُ مناسبٌ للسّياق؛ إذ إنَّ فَرْقَ البحر والنَّفاذَ منه أمرٌ بالغُ العِظَم، فكان التَّعبيرُ عنه بضمير العظمةِ أوفقَ للبلاغة، وأدلَّ على الواقع على القدر والتَّمكين.

بلاغةُ الالتفاتِ من الغيبةِ إلى التَّكلُّم:

عظمةُ المجاوزةِ تقضي بتعظيمِ المتكلِّم، إبرازًا لإعجازه الأفخم

في قوله عزَّ ذكرُه: ﴿وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ﴾ عبَّر بصيغة المتكلِّم التفاتًا من الغَيبةِ في قوله تعالى: ﴿قَالَ قَدۡ أُجِيبَت دَّعۡوَتُكُمَا﴾؛ وذلك لِما "في هذه المجاوزةِ ومقدِّماتِها ولواحقِها من مظاهرِ العظمة ونفوذِ الأوامر ومضاء الأحكام"[2]، وإنَّما يظهرُ ذلك بالتَّعبير بضميرِ العظمةِ؛ فاقتضى الالتفاتَ من الغَيبةِ إلى التَّكلُّم.

دلالةُ الباءِ على التَّعدية في قوله: ﴿بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾:

لا يُجتازُ البحرُ بالأنفُسِ الضَّعيفة، بَلْ بقوَّةِ اللهِ اللَّطيفة

في قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ﴾ أدخل النَّظمُ الجليل الباءَ على بني إسرائيل، وهي هنا "للتَّعدية، أي: جعلناهم مجاوزين البحرَ بأن جعلناه يَبَسًا، وحفِظناهم حتى بلغوا الشَّطَّ"[3]، وذلك يُشعِر أنَّ المجاوزةَ لم تكن بفعلِهم أو مَحْضِ إرادتِهم، بل هناك قوَّةٌ دافعةٌ بأمر الله تعالى جازتْ بهم؛ فلذا لم يقلْ: (جازوا البحر).

سرُّ التَّعبيرِ بـ ﴿بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ في عُبورٍ ليس له مثيل:

المجاوزةُ بأمَّةٍ كاملةٍ، أبلغُ في الإعجاز، وأغرب في الإنجاز

في قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ﴾ آثر النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ عن قوم موسى عليه السلام بـ (بني إسرائيل) تصريحًا بأنَّ الَّذين جازوا البحرَ كلُّ قبائل بني إسرائيل، وفي ذلك تفخيمٌ للمجاوزة وتعظيمٌ لها؛ إذ إنَّ حركةَ جماعةٍ كبيرةٍ وعبورَهم ذلك

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/183.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/183.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/172.

الممرَّ الحادِثَ؛ أدلُّ على عِظَمِ المعجزةِ، وليست مجاوزةَ النَّفر القليلِ ذلك البحرَ، كمجاوزةِ أُمَّةٍ كاملةٍ، فعبَّر بـ ﴿بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ إشارةً إلى ذلك.

نوعُ (أل) في ﴿ٱلۡبَحۡرَ﴾ دالَّة على العهد:

المعهودُ في الذِّهن، معروفٌ مرادٌ بعيْنه، وعرف بالوحي والتَّأريخ

في قوله عزَّ ذكرُه: ﴿وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ﴾ عرَّف البحرَ بالألف واللّام الدّالَّةِ على العهد؛ لأنَّ المرادَ بحرٌ بعينه، والعهدُ هنا ذهنيٌّ؛ إذ من المعروفِ أنَّ بني إسرائيل عبروا البحرَ مع موسى، وإن لم يجرِ له ذكرٌ في سياق القصَّةِ هنا.

سرُّ إيثارِ (البَحْرِ) على (اليمّ) في هذا السّياق المحكم:

البحرُ يغلب في الإنعام، واليمُّ في جزاء الطُّغيان

في قوله تعالى: ﴿وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ﴾ آثر النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ بالبحرِ دون اليمِّ؛ لأنَّ البحرَ أنسبُ في سياق الإنعام، والبحرُ واليمُّ بينهما فرقٌ: فالبحرُ غالبُ استعمالِه مع النِّعَم، أمّا اليمُّ؛ فمع النِّقم، كما أنَّ اليمَّ يُطْلَقُ على جزءٍ من البحر "اليَمُّ: البَحْرُ، وقيل: لُجَّةُ البَحر"[1]، واستُعمل في القرآن غالبًا في العقابِ أو الشِّدَّةِ، كقوله تعالى: ﴿فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ فَأَغۡرَقۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّ﴾، وقولِه جلَّ شأنه: ﴿أَنِ ٱقۡذِفِيهِ فِي ٱلتَّابُوتِ فَٱقۡذِفِيهِ فِي ٱلۡيَمِّ فَلۡيُلۡقِهِ ٱلۡيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ﴾، وقولِه: ﴿فَأَتۡبَعَهُمۡ فِرۡعَوۡنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلۡيَمِّ مَا غَشِيَهُمۡ﴾.

دلالةُ الفاءِ على المجاوزةِ في الفعل: ﴿فَأَتۡبَعَهُمۡ﴾:

عدمُ الإمهالِ والمسارعة، يفيدُ تلاحق الأحداث وتداخلها

عطف النَّظمُ الجليل الإتّباعَ في قوله جلَّ شأنه: ﴿فَأَتۡبَعَهُمۡ فِرۡعَوۡنُ وَجُنُودُهُۥ﴾ على المجاوزةِ بالفاء للدَّلالةِ على أنَّ إتباعَ فرعونَ بني إسرائيل كان على الفور من مجاوزتِهم، وأنَّه لم يمهلْهم فسحةً من الزَّمان، كما لم يقفْ وقفةَ المتدبِّر إزاءَ ما رأى من عظيم الآياتِ بفَرْق البحرِ، بلْ بادرَ بمتابعتِهم تبعًا لتعنُّته وهواه، فأغفل وازعَ الاتِّعاظ.

(1) الفيروزابادي، البصائر: (يمّ).

دلالةُ التَّعبيرِ عن فعل الإتباعِ بصيغة الماضي:

الإتباع بالإسراع؛ يلمح إلى قد التَّحقُّقِ والانقضاء

في قوله جلَّ شأنُه: ﴿فَأَتۡبَعَهُمۡ فِرۡعَوۡنُ وَجُنُودُهُۥ﴾ عبَّر النَّظمُ الكريم عن إتباعِ فرعونَ موسى عليه السلام وبني إسرائيل بالفعل الماضي للدَّلالة على تحقيق خروجِه ومتابعتِه لهم، ولم يكن فعلًا يحوج إلى بيان تجدُّدِه لسرعةِ إنفاذِه.

إيثارُ الفعل (أتبع) دون (تَبِعَ):

قرينة المتابعة دليلُ الحرصِ على استئصال شأفتهم

في قوله جلَّ شأنُه: ﴿فَأَتۡبَعَهُمۡ فِرۡعَوۡنُ وَجُنُودُهُۥ﴾ آثر النَّظمُ الجليل التَّعبيرَ بالفعل (أتبعَ) دون (تَبِع)؛ للدَّلالة على اجتهاده في ذلك "أي: حَملوا نفوسَهم على تبعِهم"[1]، فكان فعلُهم ذلك متضمِّنًا اجتهادَهم وتكليفَ أنفسِهم بالمتابعة؛ إظهارًا لحرص فرعونَ على الفتْكِ بمخالفيه.

وجهُ إظهارِ الفاعل ﴿فِرۡعَوۡنُ﴾ في السّياق:

خروجُ الجَيشِ برمَّته مع فرعونَ، دليلُ شدَّةِ الغيظِ

في قوله جلَّ شأنُه: ﴿فَأَتۡبَعَهُمۡ فِرۡعَوۡنُ وَجُنُودُهُۥ بَغۡيًا وَعَدۡوًاۖ﴾ آثرَ إظهارَ الفاعل، مع إمكان إضماره؛ تصريحًا بكونِه ضمنَ الجيشِ الذي خرج إثْرَ بني إسرائيل، وكونِه هو الآمرُ والمنفِّذ، وهذا يدلُّ على شدَّة تعنُّتِه، وأنَّه كان في النِّهاية من الاغتياظِ بهم مصداقًا لقوله تعالى: ﴿فَأَرۡسَلَ فِرۡعَوۡنُ فِي ٱلۡمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ٥٣ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرۡذِمَةٞ قَلِيلُونَ ٥٤ وَإِنَّهُمۡ لَنَا لَغَآئِظُونَ ٥٥ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ٥٦﴾ [الشعراء: 53 - 56].

فرعونُ أهلٌ للمذمَّة والإذلال في كلِّ حال:

من أذلَّه الله؛ فما له من مُكرِمٍ سواه

فضلًا عن أنَّ إظهارَ الفاعل في مواطنِ الخيبة والخسران فيه مزيدُ ذمٍّ له، وتشنيعٌ عليه، وإذلالٌ له، ولذلك أرْدَفَهُ ببيان علَّةِ الإتْباعِ (البغي، والعدو)، أو حالهم باغين متعدّين، وفرعونُ أهلٌ لكلِّ ذمٍّ، ومنقصةٍ، وصَغارٍ، ومَثْلَبَةٍ.

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/184.

ما دلالةُ عطفِ الجنودِ على فرعونَ في الآية:

جنود فرعون هم المختصّون به، المنصرفون عن شأنِ غيرِه

في قوله تعالى: ﴿فَأَتۡبَعَهُمۡ فِرۡعَوۡنُ وَجُنُودُهُۥ بَغۡيًا وَعَدۡوًاۖ﴾، عطف الجنودَ على فرعونَ، للدَّلالة على أنَّهم مشاركون له بإتّباعهم بني إسرائيل، وأنَّهم قاموا بذلك طاعةً واتِّباعًا لفرعون، وأفاد أنَّ خروجَ فرعونَ كان على قدر غيظِه وحنْقِه من بني إسرائيلَ، فخرج بإثْرهم، ومعه جيشُه، وقد أضاف الجنودَ إلى ضمير فرعونَ للدَّلالة على أنَّهم مختصّون به، لا ولاءَ لهم لغيره، فلم يكونوا جنودًا للدِّفاع عن النّاس، بل عن فرعونَ، فأوردَهم ذلك المهالكَ.

بيانُ المتشابِهِ بين: ﴿وَجُنُودُهُۥ﴾ و﴿بِجُنُودِهِۦ﴾:

عطْفُ الجنودِ في السّياق إظهارٌ لمشاركتِهم في الحدث

في قوله جلَّ شأنُه: ﴿فَأَتۡبَعَهُمۡ فِرۡعَوۡنُ وَجُنُودُهُۥ﴾ تشابهُ مع قوله تعالى: ﴿فَأَتۡبَعَهُمۡ فِرۡعَوۡنُ بِجُنُودِهِۦ﴾ [طه: 78]، وذلك أنَّ الآيةَ في سورة يونسَ يسبقُها قولُه عزَّ ذكرُه: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيۡتَ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةٗ وَأَمۡوَٰلٗا فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ [يونس: 88]، فلمّا كان السّياقُ متعلِّقًا بالمشاركة في الحكمِ والفعلِ؛ ناسَبَهُ عطْفُ الجنودِ على فرعونَ، أمّا الآيةُ في سورة طه؛ فيسبقُها قولُه تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَسۡرِ بِعِبَادِي﴾ [طه: 77]، فلمّا كان موسى عليه السلام قدْ سارَ بالعباد؛ ناسبَه أن يتْبعَه فرعونُ بالجنود.

سرُّ تنكيرِ لفظَي ﴿بَغۡيًا وَعَدۡوًاۖ﴾:

من الشَّناعةِ العظمى الاعتداءُ والبغيُ بلا مسوِّغٍ

في قوله جلَّ شأنُه: ﴿فَأَتۡبَعَهُمۡ فِرۡعَوۡنُ وَجُنُودُهُۥ بَغۡيًا وَعَدۡوًاۖ﴾ جاء لفظا (العدْو، والبغْي) منكَّريْنِ للدَّلالةِ على تهويلِ الاعتداءِ والبغْي، وذلك أنَّهم لم ينقصوه شيئًا، فلمّا لم تتوفَّر أسبابُ البغْي؛ كان إظهارُه يدلُّ على عِظَمِه في الشَّناعة، فانتفاءُ المسوِّغِ يدلُّ على شدَّةِ القبح.

البغْيُ والعدْو بين الحاليَّة، والمفعول لأجله:

يَصْلح اللَّفظان المنصوبان (البغي والعدْو) في قوله عزَّ ذكرُه: ﴿فَأَتۡبَعَهُمۡ فِرۡعَوۡنُ وَجُنُودُهُۥ بَغۡيًا وَعَدۡوًاۖ﴾ أن "يكونا مفعولين مِنْ

أجلهما، أي: لأجلِ البَغْي والعَدْوِ، وشروطُ النَّصب متوفِّرةٌ، ويجوزُ أن يكونا مصدريْنِ في موضعِ الحال أي: باغينَ معتدينَ"[1]، فالحالُ على تقدير: فأتْبعوهم باغينَ ومعتدينَ، أي: في تلك الحالة، فهيئةُ خروجِهم هي هيئةُ الباغي المعتدي؛ تصويرًا لشدَّتهم وغلظتِهم، وأمّا المفعولُ لأجله؛ فهو إخبارٌ عن مقصدِهم، وبيانٌ لنيَّة فرعونَ، "أكانَ من الممكنِ أن تكونَ نيَّةُ الفرعونِ أن يدعوَ موسى وقومَه إلى العودة إلى مصرَ ليستقرّوا فيها؟ لا، لم تكنْ هذه نيَّةُ الفرعونِ؛ لذلك قال الحقُّ سبحانه عن هذا الإتْباعِ: ﴿بَغْيًا وَعَدْوًا﴾ [يونس: 90]، أي: إنَّه إتْباعٌ رغبةً في الانتقام والإذلالِ والعُدوانِ"[2]. وهذا يدلُّ على أنَّهم كانوا يُقِرّون في سريرة أَنفسِهم أنَّهم خرجوا للظُّلم والاعتداءِ، وألّا مسوِّغَ مشروعًا لخروجِهم، وكلا الوجهينِ مُحْتمَلانِ، وهذا من سرِّ لُغةِ الإعجازِ.

خرج فرعون وجنوده، بلا مسوِّغ شرعيٍّ، بهيئة الظّالم المعتدي

دلالةُ العطفِ بالواو في المعطوفَين: ﴿بَغْيًا وَعَدْوًا﴾:

في قوله تعالى: ﴿بَغْيًا وَعَدْوًا﴾ عطف النَّظمُ العزيزُ لفظَ العدْوِ على البغْي، وهو مصدرٌ من الفعل (عدا) يدلُّ على تجاوزِ الحدَّ في الظُّلم، مسوقٌ لتأكيد البغي، وإنَّما عُطِف لِما فيه من زيادةِ المعنى في الظُّلم[3]، والجمعُ بينهما يدلُّ على أنَّ سوءَ غايته لا يقعُ بوصفٍ واحدٍ من تلك الأوصاف، وإن كان الوصفُ الواحدُ منهما جديرًا بإظهار السّوءِ.

عطفُ المتقارِب في الدَّلالة يسفرُ عن دلالته بالمتعاطفَين معًا

وجهُ إرْدافِ البَغْي بالعدْوِ في سياق الآية:

في قوله عزَّ ذكرُه: ﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا﴾ أتْبَعَ النَّظمُ الكريم ذكرَ البغْي بذكر العدْو تأكيدًا لظلمِه واعتدائِه، فـ "البغْي الإفراطُ في الظُّلم، والعدْو مجاوزةُ الحدِّ"[4]. وشتّانَ بين

الجمع بين البغْي والعدْو، دليلُ الطُّغيان والجبروت

(1) السّمين الحلبي، الدّرّ المصون: 6/263.
(2) الشّعراويّ، تفسير الشّعراوي: 10/6180.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/274.
(4) النّيسابوريّ، غرائب القرآن: 3/607.

المعنيَيْنِ، فالبغْي ظلمٌ، ويتحقَّقُ بالمَيْل عن الحقِّ ووضعِ الشَّيء في غير مكانِه، أمّا الاعتداءُ؛ فهو اختراقُ الحدِّ وتجاوزُه، فيدلُّ على انتهاك الحدودِ التي لا ينبغي تجاوزُها بمانع الدّينِ والقانون والأخلاق، وعليه فإنَّ الجمعَ بينهما تأكيدٌ على غَلْواء فرعونَ في طغيانِه وظلمِه واعتدائِه.

دلالةُ (حتَّى) على الإيغال في العتوّ:

استفراغُ الوُسْعِ بالظُّلم والكفر، حتّى بلوغِ الغرق الأكبر

في قوله جلَّ شأنُه: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدۡرَكَهُ ٱلۡغَرَقُ قَالَ﴾ عبَّر بـ (حتّى) للدَّلالة على مُضيِّ فرعونَ في عتوِّه حتّى الآخِر، و(حتّى) "ابتدائيَّةٌ لوقوع إذا الفجائيةِ بعدها، وهي غايةٌ للإتْباع، أي: استمرَّ إتْباعُه إيّاهُم إلى وقت إدراكِ الغرقِ إيّاه، كلُّ ذلك لا يفتأُ يَجِدُّ في إدراكهم إلى أنْ أنْجى اللّه بني إسرائيل، فاخترقوا البحرَ، وردَّ اللّه غمرةَ الماءِ على فرعونَ وجنودِه، فغرقوا، وهلك فرعونُ غريقًا"[1].

إيثارُ التَّعبيرِ بظرفِ الزَّمان (إذا) في السّياق:

أصاب فرعونَ الغرورُ عن تمثُّل كفرِه، فبحث عن حتفه بظلفه

في قوله جلَّ شأنُه: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدۡرَكَهُ ٱلۡغَرَقُ قَالَ﴾ آثر النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ بظرف الزَّمان (إذا) لِما فيه من دلالةٍ على المفاجأة عند وقوعِه بعد (حتّى)، فـ "حتّى: ابتدائيَّةٌ لوقوع إذا الفجائيةِ بعدها"[2]، وذلك للدَّلالة على مُضيِّه في عُتوِّه إلى أقصى ما يمكنه، وعدم ارعِوائِه برؤية أماراتِ الغرقِ، فإذا به يُفاجأُ بالغرق.

التَّعبيرُ عن فعل الإدراكِ بالماضي ﴿أَدۡرَكَهُ﴾:

الغرقُ حكمٌ ناجزٌ محقَّقٌ، بإعجاز لا يحصره منطق

في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدۡرَكَهُ ٱلۡغَرَقُ قَالَ﴾ آثر النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ عن الإدراك بالفعل الماضي تأكيدًا لتحقُّقِ الغرق، ولو عبَّر بالفعل المضارع؛ لأفاد تصويرَ ذلك الحدث، ولم يُرِدِ السّياق التَّصويرَ هنا، بل أراد بيانَ أنَّه إنَّما أعلن إيمانَه في وقت تحقُّق

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/275.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/275.

الغرق وتيقُّنِه من ذلك، فالسّياقُ في بيان زيفِ إيمان فرعونَ، وليس المرادُ الوعظَ والاعتبارَ بتصوير ذلك المشهدِ لمن يسمعُ القصَّة، والاعتبارُ قد حدث بإنْجاء البَدن.

نكتةُ العدول من الإغراقِ إلى إدراكِ الغرقِ له:

تـدرُّجُ الغـرقِ يدنو منه، وهو ماضٍ في طغيانِه غيرَ آبهٍ

في قوله جلَّ شأنُه: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدۡرَكَهُ ٱلۡغَرَقُ قَالَ﴾ عدَل النَّظمُ الجليل من التَّعبير من الغرقِ المباشرِ، فلم يقلْ: (حتّى إذا غرق) إلى قوله: "﴿أَدۡرَكَهُ ٱلۡغَرَقُ﴾، والإدراكُ "اللَّحاقُ وانتهاءُ السَّير، وهو يُؤذِنُ بأنَّ الغرقَ دنا منه تدريجيًّا بهول البحر ومصارعتِه الموجَ، وهو يأملُ النَّجاةَ منه، وأنَّه لم يُظهِر الإيمانَ حتّى أيِسَ من النَّجاة، وأيقنَ بالموت، وذلك لتصلُّبِه في الكفر"[1]، وكذلك فلو عبَّر بالغرقِ المباشرِ؛ فإنَّه سيتناقضُ مع الإخبارِ بأنَّه قال ما قال؛ فكيف يقول الغريقُ ذلك؟ فدلَّ التَّعبيرُ على أنَّه قال ذلك عند مُشارفتِه الوشيكةِ على الغرق، فبلغ أقصى الغايةِ؛ إذ الإدراكُ هو بلوغُ أقصى الشَّيء، وأدْرَكَ الصَّبيُّ: بلغ غاية الصِّبا، وذلك حينَ البلوغِ[2].

سرُّ تخصيصِ الغرقِ بفرعونَ دون جنودِه:

قَـصَـصُ الـقرآنِ ليست لاستقراءِ الأحداث والآثار، بـــل لـلـعـبرة والازدجار

في قوله جلَّ شأنُه: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدۡرَكَهُ ٱلۡغَرَقُ قَالَ﴾ آثر النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ بالضَّمير المفرَدِ دونَ الجمعِ، فلم يقلْ: (أدركهم) فخصَّ فرعونَ بذلك للإشعارِ "بأنَّ جنودَه، لم يقولوا: آمنّا، ولذا قال: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدۡرَكَهُ ٱلۡغَرَقُ﴾ مع أنَّ الغرقَ أدركهم جميعًا"[3]. ولأنَّ جنودَ فرعونَ غائبون من المشهد، ولا دورَ لهم غيرُ اتِّباعِ فرعون، فكأنَّه لا وجودَ لهم، وكذلك فإنَّ المرادَ من السّياق هو بيانُ جزاءِ طغيانِ الكفر، وكان ذلك متشخِّصًا في فرعون.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/275.
(2) الرّاغب، المفردات: (درك).
(3) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 9/554.

توجيهُ تعريفِ الغرقِ في السّياق المحكم:

الغرقُ مشهدٌ معروفٌ، لاستجلاب صورةِ الغريقِ المهين

في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدۡرَكَهُ ٱلۡغَرَقُ قَالَ﴾ آثر النَّظمُ الكريم المجيءَ بالغرق معرَّفًا بالألف واللّام إشارةً إلى أنَّه هو العذابُ الأليم الذي دعا به موسى عليه السلام، فـ ﴿ٱلۡغَرَقُ﴾ "الموتُ بالماء، كما سأل موسى في أنَّه لا يؤمنُ حتّى يرى العذابَ الأليم"[1]، كما أنَّ الغرقَ في البحر معهودٌ معروفٌ، وهو امتلاءُ الجوف بالماء بما يقطعُ النَّفَس، فعبَّر بذلك لاستجلاب تلك الصّورةِ وإسقاطِها على فرعونَ للإهانةِ والتَّقبيح.

بلاغةُ الإيجازِ بالحذف في السّياق الحكيم:

طوى القِصَّةَ في بلاغة التَّعبير، بغاية التَّشويق والتَّأثير

في قوله عزَّ ذكرُه: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدۡرَكَهُ ٱلۡغَرَقُ قَالَ﴾ جاء تركيبُ الجملة في غايةِ الإيجاز، وقد بيَّن العلّامةُ ابنُ عاشور أنَّ هذه الجملةَ قد أوجزتْ ما يقتضي تفصيلَه أن يأتي في خمسِ جُمل: "جملةٌ: تفيد أنَّ فرعونَ حاول اللَّحاقَ ببني إسرائيلَ إلى أقصى أحوالِ الإمكانِ والطَّمعِ في اللَّحاق. وجملةٌ: تفيد أنَّه لم يلحقْهم، وهاتان مستفادتان من (حتّى)، وهاتان مِنَّةٌ على بني إسرائيل. وجملةٌ: تفيد أنَّه غمرَه الماءُ، فغرق، وهذه مستفادة من قوله: ﴿أَدۡرَكَهُ ٱلۡغَرَقُ﴾ وهي عقوبةٌ له وكرامةٌ لموسى عليه السلام . وجملةٌ: تفيد أنَّه لم يسعْه إلّا الإيمانُ باللّه؛ لأنَّه قهرَتْه أدلَّةُ الإيمان، وهذه مستفادةٌ من ربط جملةِ إيمانه بالظَّرف في قوله: ﴿إِذَآ أَدۡرَكَهُ ٱلۡغَرَقُ﴾، وهذه مَنْقَبَةٌ للإيمان، وأنَّ الحقَّ يغلبُ الباطلَ في النِّهاية. وجملةٌ: تفيد أنَّه ما آمن حتى أيِسَ من النَّجاة لتصلُّبه في الكفر، ومع ذلك غَلبَهُ اللّه، وهذه موعظةٌ للكافرين وعزَّةٌ للّه تعالى"[2].

توجيهُ الفصلِ بفعلِ القولِ: ﴿قَالَ﴾:

شدَّةُ الاتِّصال تكفي في الرَّبط بلا عاطفٍ

في قوله جلَّ شأنُه: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدۡرَكَهُ ٱلۡغَرَقُ قَالَ﴾ جاءت الجملةُ بلا عطفٍ لكمال الاتِّصالِ بين الجملتين: جملةِ إدراكِ الغرقِ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/184.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/275 - 276.

إيّاه، وجملةِ إعلانه الإيمانَ، فالفعل (قال) هو ما تنتهي إليهِ الغايةُ في حتّى.

إيثارُ فعلِ الإيمان ماضيًا ﴿ءَامَنتُ﴾:

المبالغةُ في تحقيق الإيمانِ بالإخبار عنهُ ماضيًا منجزًا

في قوله جلَّ شأنُه: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ عبَّرَ عن إيمانِه "بصيغة الماضي الدّالَّةِ على وقوع مضمونِها باعتبار وضعِها"[1]، وفي ذلك دليلٌ على مبالغتِه في السَّعي إلى تحقُّق إيمانِه.

سرُّ التَّعبير عن إيمانِ فرعونَ بالجملةِ الاسميَّة:

التَّحيُّلُ في تأكيد الإيمانِ طمعًا في تحقيق النَّجاة بعد الفوات

بيَّن النَّظمُ الجليل أنَّ فِرعَونَ عبَّر عن إيمانه بالجملةِ الاسميَّة دونَ المفردِ، فقال جلَّ شأنه: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾، ولم يقلْ: (آمنتُ باللّٰه)؛ بل أتى "بالجملةِ الاسمية الدّالَّةِ على الدَّوامِ والثَّبات بدلًا وبيانًا له"[2]، أي: بدلًا من الفعل (آمنتُ)، كما أنَّه كان في وضعٍ مضطربٍ بحيث غاب عنه ما لا يغيبُ بالضَّرورة، وقد يدلُّ على أنَّه لم يُلقِ بالًا لمضمون أقوالِ موسى عليه السلام حالَ إلقاء دعوتِه، ولم يكلِّفْ نفسَه بأن يعرف اسمَ الإله الذي دُعيَ إليه، "وفي لفظ فرعونَ مجهلةٌ وتعنُّت؛ لأنَّه لم يصرِّح باسم اللّٰه"[3].

تَوجيهُ قراءتَي فتحِ همزةِ (أنّ) وكسرِها وأثرُه في البيان:

الإيمان بالألوهيَّة، في عبارة تنمُّ عن جهلٍ بحقيقة المعبود

في قوله تعالى: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ اختلف القرّاءُ في فتح الألفِ وكسرِها في: ﴿أَنَّهُۥ﴾ فقرأ ابنُ كثير، ونافعٌ، وعاصمٌ، وأبو عمرو، وابنُ عامر: ﴿أَنَّهُۥ﴾ بفتحِ الألف. وقرأ حمزةُ الكسائيُّ (إنّه) بكسرِ الألف. فمن قرأ: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ﴾ فلأنَّ هذا الفعلَ يصلُ بحرف الجرِ في نحو قولِه

(1) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 9/555.
(2) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 9/555.
(3) ابن جُزَيّ، التّسهيل: 1/362.

ﷻ: ﴿يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ﴾، فلمّا حذفَ الحرفَ؛ وصلَ الفعلُ إلى (أنّ)، فصار في موضع نصبٍ أو خفضٍ، ومن قال: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ﴾؛ حمَلَه على القولِ المُضمرِ، كأنَّه قال: آمنتُ؛ فقلتُ: إنَّه لا إله إلّا اللّه، وإضمارُ القول في هذا النَّحوِ كثيرٌ ولإضمار القولِ مزيَّةٌ هنا، فقولُك: إنَّه لا إله إلا اللّه في المعنى إيمانٌ، فإذا قلتَ: آمنتُ؛ فهو تصريحٌ بأنَّه قد ذكر ذلك[1].

دلالةُ ضمير الشَّأنِ في سياق الآية:

تأكيدُ الإيمان بكونِه حقيقةً، يلجأ إليها النّاس عند الإياس

في قوله عزَّ ذكرُه: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ التَّعبيرُ بضمير الشَّأنِ أبلغُ من التَّعبيرِ بسواه، فكأنَّ الحديثَ يساقُ مساقَ القضيَّةِ الكلِّيَّة والحقائقِ الثّابتة التي لا خلافَ فيها، فهو تعبيرٌ عن تصديقِه بأنَّ الشَّأنَ قائمٌ على توحيد الإلهِ الحقِّ، ولم يقلْ: (آمنتُ باللّه)؛ لأنَّ هذا إخبارٌ بقضيَّة مفردةٍ خاصَّةٍ به، أمّا التَّعبيرُ بالشَّأن؛ فهو غيرُ متعلَّقٍ به، بل حقيقةٌ عامَّةٌ مطلقةٌ ثابتةٌ، والمرادُ تأكيدُ إيمانِه بأبلغ عبارة.

نكتةُ التَّوكيد بأنَّ وجملةِ الحصر في السّياق:

لا يكون الإنسان في حالة أصدق منه في ساعة الأزمة

في قوله جلَّ شأنُه: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ عبَّر عن إيمانِه بالجملةِ الاسميَّةِ الدّالَّةِ على تأكيد مضمونِها، وبافتتاحِها بـ (أنَّ) وما في الحصر من دلالةٍ على تأكيد المعنى، وما في (لا) النّافيةِ للجنس من قوَّةٍ في النَّفي، وذلك للقطعِ بكون إيمانِه جاء على وجهِ الصِّدق؛ لأنَّه أتى به في ساعةِ الشِّدة وحيث أدركَه الغرق، وذلك مظنَّةُ التَّكذيبِ والطَّعنِ في صدقِ دعواه، فلذا كسا ألفاظَه أنواعًا من التَّوكيد دفعًا لتلك التُّهمة.

(1) أبو عليّ، الحجّة: 3/205 - 206.

دلالةُ (لا) النّافية للجنس في إقرار فرعون أنَّه لا إله سواه:

ادِّعاء فرعون الألوهيَّة اضطرَّه عند التَّراجع إلى نفيها عن سوى اللهِ

في قوله جلَّ شأنُه: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ جاء النَّفيُ بـ (لا) الدّالَّةِ على نفي الجنسِ لا نفي الوحدةِ تأكيدًا لنفي جنسِ الإلهيةِ عن سوى اللّه تعالى، وذلك لأنَّه قد سبق لفرعونَ أنَّه ادَّعى كونَه إلهًا، فكان الأنسبُ في إعلان إيمانه أن يتضمَّنَ نفيَ الإلهيَّةِ عن كلِّ أحد غيرِ اللّه تعالى، ليكونَ قد نفى تلك الصِّفةَ عن نفسه ساعةَ إعلان إيمانِه.

توجيهُ التَّعبيرِ بجملةِ الاستثناء في السّياق:

النَّفيُ والإثباتُ في الاستثناء، أبلغُ في بيان الإيمانِ والتَّوحيد

في قوله تعالى: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ آثر التَّعبيرَ عن التَّوحيد بصيغةِ الاستثناءِ، ولم يقل: (آمنت باللّه وحده)؛ لدلالةِ الاستثناءِ على الحصر، فيتضمَّنُ الإيمانَ بالتَّوحيد، مع الإعلان بنفيِ الإلهيَّةِ عن غيرِ اللّه تعالى، أمّا العبارةُ (آمنت باللّه وحده)؛ فهي تتضمَّن الإيمانَ بالتَّوحيد، ولكنَّها لا تتضمَّنُ حصرَ الإلهيَّةِ باللّه تعالى وحدَه، فقد يؤمنُ باللّه تعالى، ولكنَّه لا يَنفي أن يكونَ هناك إلهٌ آخرُ؛ فكان التَّعبيرُ بالاستثناء للدَّلالةِ على إثبات الإيمانِ ونفي الإلهيَّةِ عن سواه على سبيل التَّأكيدِ والقطع.

التَّعبيرُ بالاسم الموصولِ (الّذي) دون تصريحٍ بالإله:

صَونُ أسماءِ الله تعالى من أن تَجريَ على ألسنةِ الطُّغاةِ

في قوله عزَّ ذكرُه: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ جاء التَّعبيرُ عن إعلانِ إيمانِه باللّه تعالى بالاسم الموصولِ دونَ التَّصريحِ باسم الجلالةِ، فلم يقلْ: (آمنت باللّه)؛ "للإشعار برجوعِه عن الاستعصاء وباتِّباعِه لمَن كان يستتبعُهم طمعًا في القَبولِ والانتظامِ معهم في سلك النَّجاةِ"[1]. وفي ذلك براعةٌ في العُدول عن التَّصريح باسم اللّه تعالى؛ حيثُ صينَ اسمُ اللّه تعالى أن يجريَ على لسان الطّاغيةِ[2].

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/173.

(2) المطعنيّ، التّفسير البلاغي للاستفهام في القرآن الحكيم: 2/75.

توجيهُ الإطنابِ في الآية:

الإطنابُ يزيلُ الإلباسَ في إعلان الإيمان

في قوله جلَّ شأنُه: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ إطنابٌ، وذلك أنَّه قد ذكر المحصورَ، وهو الموصول وصلتُه، وكان يمكنُ التعبيرُ بالمفرد بإظهار لفظِ الجلالة، فأطْنبَ بذكر الجملةِ؛ لأنَّه أراد إزالةَ الاحتمال بكونِه آمنَ بشيء آخرَ، فأوقع تصديقَه على ما آمنت به بنو إسرائيل، فعيَّنه تعيينًا يُزيل به كلَّ الاحتمالات[1]، كما أنَّ فيه إشعارًا باستعطافِهم.

سرُّ الاختلافِ بين جملة فرعونَ، وجملةِ السَّحرة:

اختلاف العبارة نشئ عن اختلاف الموقف وملابسات الحال

في قوله جلَّ شأنُه: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ عبَّرت الآيةُ عن إيمان فرعونَ بأسلوبٍ مختلفٍ عن إعلانِ السَّحرةِ إيمانَهم حيث قالوا: ﴿ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٢١ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ [الأعراف: 121 - 122] فلم يقلْ فرعونُ كما قال السَّحرةُ، "بل عبَّر عنه تعالى بالموصولِ، وجعل صلتَه إيمانَ بني إسرائيل به تعالى للإشعار برجوعِه عن الاستعصاء، وباتِّباعِه لمَن كان يستَتْبعهم طمعًا في القَبول والانتظامِ معهم في سلك النَّجاة"[2]. أمّا السَّحرةُ؛ فأعلنوا ذلك بمحضرِ موسى وهارونَ عليهما السلام وقتَ إلقائه العصا وظهورِ الحقِّ لهم، فكان التَّعبيرُ بـ ﴿رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ تصريحًا ونصًّا بإعلان تركِهم فرعونَ وتحوُّلِهم إلى الإلهِ الحقِّ إلهِ موسى وهارونَ.

التَّعبيرُ عن إيمان بني إسرائيل بالماضي ﴿ءَامَنتُ﴾:

تأكيدُ إيمانِ فرعون بالإحالةِ على إيمانِ بني إسرائيل الرّاسخِ

في قوله جلَّ شأنُه: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ جاء التَّعبيرُ عن إيمانِ بني إسرائيل بالفعل الماضي للدَّلالةِ على تحقُّق الإيمانِ ورسوخِه بهم، فأحالَ بذلك إلى تأكيدِ إيمانِه، وكونِ الإيمانِ بهذا الإلهِ سابقًا وراسخًا وليس بمُحدَثٍ وطارئ.

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/185.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/173، والآلوسيّ، روح المعاني: 6/170 - 171.

تقديمُ شبهِ الجملةِ ﴿بِهِۦ﴾ على الفاعل:

المقصودُ بالحديث أولى بالتَّقديم

في قوله عزَّ ذكرُه: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ قدَّم النَّظمُ الكريم شبهَ الجملةِ من الجارِّ والمجرور ﴿بِهِۦ﴾ على الفاعل ﴿بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾، فلم يقلْ على مقتضى الظّاهرِ: (آمنت بنو إسرائيل به)؛ للدَّلالةِ على أنَّ بني إسرائيل لا يؤمنون إلّا به، فإيمانُهم مختصٌّ به، وفي ذلك مزيدٌ من تأكيدٍ بكونِه يؤمن بالتَّوحيد، فقد أعلن أنَّه موحِّدٌ بالإحالة إلى توحيدِهم من خلال حصرِ إيمانِهم باللّٰه تعالى.

دلالةُ العطفِ بالواو لعبارة ادِّعاء فرعون بأنَّه مِنَ الْمُسْلِمِيْن:

تأكيدُ الإيمانِ بإعلان الاستسلامِ، بعد فوات الأوان

الجملةُ في قوله تعالى: ﴿وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ معطوفةٌ على الجملة في قوله جلَّ شأنُه: ﴿ءَامَنتُ﴾ تأكيدًا لمضمون الجملةِ الأولى، فلمّا أخبرَ عن إيمانِه؛ أتبعه بكونِه من المسلمين تأكيدًا لتحقيق الإيمان بإجرائِه بأكثرَ من عبارة. "ولعدم علمِه بالصِّفات المختصَّةِ باللّٰه إلّا ما تضمَّنَتْهُ الصِّلةُ؛ إذ لم يتبصَّرْ في دعوةِ موسى تمامَ التبصُّر، ولذلك احتاجَ أن يزيدَ: ﴿وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾؛ لأنَّه كان يسمعُ من موسى دعوتَه؛ لأنْ يكونَ مسلمًا؛ فنطَق بما كان يسمعُه"[1].

توكيدُ جملةِ الفاصلةِ بالجملة الاسميَّةِ:

ادِّعاءُ الرُّسوخِ والثَّباتِ على المعنى بالتَّعبير بالاسميَّة

آثر النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ بالجملة الاسميَّة في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ الدّالَّةِ على الثُّبوت والدَّوام وتأكيدِ مضمونِها، وكان الظّاهرُ أن يقولَ: (وأسلمت له) عطفًا على قوله: ﴿ءَامَنتُ﴾؛ ولكنَّه عدَل إلى التَّعبير بالجملة الاسميَّة؛ لأنَّه أبلغُ في بيان إسلامِه وثبوتِ المعنى، وترسيخِ ادِّعائِه بالإيمان وكونِه من زمرة المسلمين، مع ما فيه من مراعاةِ الفواصل[2].

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/276.

(2) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 9/555، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/173، والآلوسيّ، روح المعاني: 6/171.

دلالة جمعِ لفظ ﴿ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ وتعريفِه:

الصِّفةُ ضِمْنَ جماعةٍ أقوى من صفةِ الفردِ

في قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ آثر النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ بالجمع والتَّعريفِ في: ﴿ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾، "وأراد بهم إمّا بني إسرائيلَ خاصةً، وإمّا الجنسَ، وهم داخلون فيه دخولًا أوَّليًّا"[1]، والتَّعبيرُ بالانتماء ضِمْن جماعةٍ معروفة بالوصف أبلغُ في الدَّلالة على امتثال الصِّفةِ من الاتِّصاف بها في صيغة الإفرادِ بأن يقولَ: (وأنا مسلمٌ)، لما له من دلالةِ الدخولِ مع الجمع المصطفَيْن الأخيار.

سرُّ تكرارِ ذكرِ إيمانِ فرعونَ بثلاثِ عباراتٍ متتاليات:

طولُ الكلامِ دليلُ الحرصِ على القبولِ ساعةَ العسرة رغم اليأس

في قوله عزَّ ذكرُه: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ كرَّر المعنى ذاتَه بأكثرَ من عبارة، وقد كانت واحدةٌ كافيةً في بيان الإيمان، ولكنَّه "لمّا لحِقه من الدَّهَشِ ما لحِقه؛ كرَّر المعنى بثلاثِ عباراتٍ، إمّا على سبيل التَّلعثم؛ إذ ذلك مقامٌ تَحارُ فيه القلوبُ، أو حرصًا على القبولِ، ولم يقبلِ اللّه منه؛ إذ فاتَه وقتُ القبول، وهو حالةُ الاختيار وبقاءُ التَّكليف، والتَّوبةُ بعد المُعاينة لا تنفعُ"[2].

دلالةُ الإسلامِ في الآية على المعنى اللُّغويِّ دون الشَّرعي:

أعلنَ فِرعونُ الإسلامَ بقهرِ الظُّروف، لا بالاقتناع المألوف

في قوله عزَّ ذكرُه: ﴿وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ دلَّ التَّعبيرُ بالإسلام هنا أنَّه من "الذين أسلموا نفوسَهم للّه، أي: جعلوها سالمةً خاصَّةً له تعالى"[3]، فدلَّ على الانقياد للأمر والحكم، "فالإسلامُ هنا بالمعنى اللُّغوي، والإسلام الشَّرعيُّ مختصٌّ بما جاء به نبيُّنا ﷺ على ما هو المختارُ"[4].

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/173.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/102، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/173.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/173.
(4) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 9/554.

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(جاوزَ)، و(عبَر)، و(عدّى):

أصلُ العَبْرِ: تجاوزٌ من حالٍ إلى حالٍ، والعُبورُ يختصُّ بتجاوز الماء، إمّا بسباحةٍ، أو في سفينةٍ، أو على بعيرٍ، أو قنطرةٍ[1]. أمّا المجاوزةُ؛ فيُقال: جُزْتُ البلدَ، أي: تعدَّيتُه، فجاوز بمعنى: تجاوز[2]، جُزْتُ الطَّريقَ، وجازَ الموضعَ، وجاوَزه، وأجاز غيرَه، وجازَه: سارَ فيهِ، وسَلَكَهُ، وأجازَه: خَلَّفه، وقَطَعَهُ[3]. وأمّا العدْوُ؛ فيَدُلُّ عَلَى تَجاوُزٍ في الشَّيْءِ وتَقَدُّمٍ لِما يَنْبَغي أنْ يُقْتَصَرَ عَلَيْهِ[4]، كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ﴾ [الكهف: 28] أي: لا تتجاوز[5]. فيُلاحظُ أنَّ العبورَ يكونُ سباحةً أو بآلةٍ، وأمّا التَّعدّي؛ فهو تجاوزٌ لما لا ينبغي، وأمّا المجاوزةُ؛ فهي تعدّي المكانِ والموضعِ، وهو الأنسبُ للآية.

العبورُ تجاوز الماءِ، والتَّعدّي مجاوزةُ الحدِّ، والمجاوزةُ عبورُ الموضِع

الإتْباع واللَّحاق:

الإتْباع: اقتفاءُ الأثر، يقال: تَبِعه وأتْبَعَه؛ فتارةً يكون بالجسم نحو: تبِعتُه في الطريق وأتْبعتُه فيها، وتارةً بالامتثال، ولَحِقْتُهُ ولَحِقْتُ به: أدركتُه[6]، فهو إدراكُ الشَّيء شيئًا كان يَسبقه متَّصلًا بأثنائه[7]. فالإتْباعُ يأتي بمعنى الاقتفاءِ واللَّحاقِ بشيءٍ أو شخصٍ والسيرِ خلفَه. وهو الأنسبُ للسياق؛ إذ لم يدركْ فرعونُ بني إسرائيلَ، وإنَّما اقتفى أثرَهم.

الإتْباع اقتفاء الأثرِ، واللَّحاق الإدراك لما سبق

الظُّلم والجَوْر والبَغي:

الجَوْر خلافُ الاسْتقامَة في الحكم، والظُّلمُ ضَرَرٌ لا يُسْتَحقُّ،

الظُّلمُ نقصانُ الحقِّ، والجَوْرُ ظلمٌ في الحكم، والبغيُ طلب ما ليس يَحقُّ

(1) الرّاغب، المفردات: (عبر).
(2) السّمين، العمدة: (جوز).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (جوز).
(4) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (عدو).
(5) السّمين، العمدة: (عدو).
(6) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحفّاظ: (تبع)، (لحق).
(7) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (لحق).

ولا يعقِبُ عِوضًا، وأصل الظُّلم نُقْصانُ الحقِّ، والجَوْرُ: العُدولُ عَن الحقِّ، وخُولف بَين النَّقيضيْن، فَقيل: في نقيضِ الظُّلم: الإنصافُ، وهوَ إعْطاءُ الحقِّ على التَّمام، وفي نقيض الجوْرِ: العدْلُ، وهوَ العُدولُ بِالفِعْلِ إلَى الحقِّ، وأمّا البَغيُ؛ فهو شدَّة الطَّلب لِما لَيْسَ بِحَقٍّ بالتَّغليب[1]. وفي الآية الكريمةِ عبَّر بالبغيِ؛ لأنَّه اشتدَّ في طلبهم بلا وجهِ حقٍّ لكونِه كان غالبًا عليهم.

(1) العسكريّ، الفروق، ص: 231 - 232.

﴿ءَآلۡـَٔـٰنَ وَقَدۡ عَصَيۡتَ قَبۡلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ٩١﴾ [يونس: 91]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

مناسبةُ الآية لِما قبلَها: أنَّه لمّا ظهرَ الذُّلُّ على فرعون باضِّطراره إلى إعلانِ الإيمانِ بالذي آمنتْ به بنو إسرائيلَ: "زادَه تعالى ذُلًّا بالإيئاسِ من الفلاحِ بقولِه على لسان الحالِ أو جبريلَ عليه السلام أو ملكِ الموتِ أو غيرِه من الجنود عليهم السلام: ﴿ءَآلۡـَٔـٰنَ﴾، أي: أتجيبُ إلى ما دُعيتَ إليه في هذا الحينِ الذي لا ينفعُ فيه الإجابةُ"[1].

التأييسُ من القبول بعد إعلان الإيمان، في غير وقت القبول

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾: أصْلُ الفَساد: خروجُ الشَّيء عن الاعتدال، قليًلا كانَ الخروجُ عنه أو كثيرًا[2]، يُقال: فَسَدَ الكَلامُ، أي: خَرَجَ عن حَدِّه، ويُقالُ: فَسَدَ الشَّيء فسادًا، وأفسدَه غيرُه، وضِدُّه: الصَّلاحُ[3]، والفسادُ عامٌّ في الكُفر والضَّلال وكلِّ ما هو ضارٌّ، والصَّلاحُ عامٌّ في الإيمان والرُّشدِ وكلِّ نافعٍ[4]. والمقصودُ بـ ﴿ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ في الآيةِ: (الخارجون على الحقِّ بِالجَوْرِ والظُّلمِ والتَّمْويهِ بِالسِّحْرِ)[5].

المَعْنى الإجْماليُّ:

قال اللّه تعالى لِفَرعونَ: آلآن تُقِرُّ للّه بالعبوديَّة، وتستسلِم له بالذِّلَّة، وتُخلصُ له الألوهيَّةَ بعدَ فواتِ الأوانِ، وقد عصيتَهُ قبلَ نزولِ عذابِه، وكنتَ مِن المُفسِدينَ في الأرضِ الَّذين ظَلَموا العبادَ،

إيمانُ اليأسِ لا ينفعُ؛ لفقدِه عنصرَ الاختيارِ، ووجودِه محضَ الاضطرار

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/185.
(2) الرّاغب، المفردات، والزبيديّ، تاج العروس: (فسد).
(3) الخليل، العين، وابن منظور، لسان العرب: (فسد).
(4) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 1/100.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/278.

وأضَلّوهم، وصَدّوهم عن سبيلِ الله، فهلّا أقرَرتَ بما أقرَرتَ به الآن، وبابُ التَّوبةِ لك منفتحٌ[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ الاستفهامِ في قوله تعالى: ﴿ءَآلْـَٔـٰنَ﴾:

في قوله تعالى: ﴿ءَآلْـَٔـٰنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ أدخلَ همزةَ الاستفهام على ظرف الزَّمان، والمرادُ من الاستفهام الإنكارُ أصالةً، وممّا ينشأُ عنه التَّوبيخُ والتَّأييسُ؛ لأنَّه لم يؤمنْ تصديقًا بالبلاغ الإلهيِّ، وإنَّما أظهر ذلك القولَ للنَّجاةِ[2].

الإيمانُ في غير حينِه، يستوجبُ الإنكارَ، وعدم الإقرار

نكتةُ حذفِ فعلِ القولِ في سياق مقول محذوف:

الجملةُ في قوله جلَّ شأنُه: ﴿ءَآلْـَٔـٰنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ مقولٌ لفعل القولِ المحذوفِ تقديرُه: قال الله، و"حَذْفُ الفعلِ المذكورِ وإبرازُ الخبرِ المحكيِّ في صورة الإنشاءِ من الدَّلالة على عِظَمِ السُّخط وشدَّةِ الغضب ما لا يخفى"[3]، والفعلُ المحذوفُ هو ردٌّ وجوابٌ لقول فرعونَ؛ إذ قال: ﴿ءَامَنتُ﴾، فحُذِفَ فعلُ القول؛ ليكونَ البدءُ بالاستفهامِ لإظهار شدَّةِ السُّخطِ.

من الإيجازِ البليغِ، حذفُ ما يدلُّ عليه المقولُ في البيان المفصح

بلاغةُ الإيجازِ بالحذف في السّياق:

في قوله جلَّ شأنُه: ﴿ءَآلْـَٔـٰنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ حذفٌ آخرُ بعد تقديرِ فعلِ القولِ المحذوفِ؛ لأنَّ الإنكارَ ليس متسلِّطًا على الظَّرف، بلْ على إيمانِه في هذا الوقتِ، فتقديرُ المحذوفِ بين الظَّرف والاستفهام، أي: (أتؤمن الآن) "قُدِّر الفعلُ مقدَّمًا؛ لأنَّ الاستفهامَ لكونِه مقتضيًا للحدث أولى بالفعل"[4]، وحذْفُه

تكرارُ الحذفِ أبلغُ في إظهار متانةِ التَّعبيرِ وعلوِّ البلاغةِ

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/292، ورشيد رضا، تفسير المنار: 11/388، والسّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 372.

(2) المطعنيّ، التفسير البلاغي للاستفهام: 2/75.

(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/173، والآلوسيّ، روح المعاني: 6/171.

(4) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 9/556.

لظهوره من السّياق؛ لأنَّه لمّا أعلنَ أنَّه آمنَ أجابَه بإنكار الإيمان عليه، والظَّرفُ ليس هو المقصودُ بالإنكار، بل بإيقاع الإيمانِ فيه.

دلالةُ التَّعبيرِ بالجملة الحاليَّةِ في السّياق:

إفناءُ الحياةِ بالاستكبار والإفسادِ، يدلُّ على زيف الإيمانِ وقتَ العسرة

الجملةُ في قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ مُفْتَتَحَةٌ بالواو الحاليَّة، فالجملةُ في موضعِ "حالٍ من فاعل الفعلِ المقدَّرِ، جِيءَ به لتشديدِ التَّوبيخِ والتَّقريعِ على تأخير الإيمانِ إلى هذا الآن، ببيان أنَّه لم يكن تأخيرُه لعدم بلوغِ الدَّعوةِ إليه، ولا للتَّأملِ والتَّدبُّرِ في دلائله وآياتِه، ولا لشيءٍ آخرَ ممّا عسى يُعَدُّ عُذرًا في التَّأخير، بلْ كان ذلك على طريقةِ الردِّ والاستعصاءِ والإفساد"[1]، أي: أتؤمنُ الآن والحالُ أنَّك قد عصيْت؟

سرُّ ذكرِ المعصيةِ ﴿عَصَيْتَ﴾ دونَ الكفر:

إعلانُ الانقيادِ بالإيمان، ينقضُه العصيانُ

في قوله جلَّ شأنُه: ﴿ءَآلْـَٔـٰنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ وبَّخَه بالعصيان دونَ الكُفْرانِ؛ وذلك لمّا خُتِمت الآيةُ السّابقةُ بإعلان الإسلامِ الدّالِّ على الإذعانِ؛ ناسبَ أن يوبِّخَه "بالعصيان المقابلِ للإذعان، دونَ الكفرِ المقابلِ للتَّصديق"[2].

نكتة التَّعبير عن العصيان بالماضي المسبوقِ بقد:

من دَأَبَ على العصيانِ؛ تحقَّقَ فيه، وصار راسخًا

في قوله جلَّ شأنُه: ﴿ءَآلْـَٔـٰنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ آثر النَّظمُ الكريم وصفَ عصيانِه بالفعل الماضي المسبوقِ بقد للدَّلالة على كونِه كان راسخًا بالعصيان، دائبًا فيه، وأنَّ عصيانَه قد تأكَّدَ، وثبت وتحقَّق بأمارةِ (قد)، وهذا يزيدُ الإنكارَ؛ فإنَّه "كان عاصيًا لله ومفسدًا للدّين الذي أرسلَه الله إليه، ومفسِدًا في الأرض بالجَوْر والظُّلم والتَّمويهِ بالسِّحر"[3].

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/173.
(2) ابن كمال باشا، تفسير ابن كمال باشا: 5/99.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/278.

إيثارُ لفظِ (قَبْلُ) دونَ (من قبل) في السّياق:

في قوله جلَّ شأنُه: ﴿ءَآلْـَٔـٰنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ﴾ جاء الظَّرفُ بلا حرفِ الجرِّ (مِن) للدَّلالة على أنَّ معصيتَه كانت حاصلةً مدَّةَ عُمْرِهِ[1]، وكانت مستغرقةً "جميعَ زمانِ الدَّعوةِ الذي قَبْلَ هذا الوقتِ، ومعصيةُ المَلِكِ توجبُ الأخْذَ والغضبَ كيف كانتْ"[2].

مـن شَـمَـلَ العصيانُ كلَّ حياتِه، لم ينفعه إيمان بعد فواته

بلاغةُ الإيجازِ في حذفِ ما يُضاف إليه ﴿قَبْلُ﴾:

في قوله جلَّ شأنُه: ﴿ءَآلْـَٔـٰنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ آثر النَّظمُ الكريم حذفَ المضافِ إليه، فحذَف ما يُضاف إليه ﴿قَبْلُ﴾ إيجازًا[3]، لظهور المعنى من السّياق، فالمرادُ (قبلَ الآن)، أي: قبلَ وقتِ الغرق.

ظهورُ المعنى يجيزُ الإيجاز، ويؤثره للإفصاح والإبانة عن المراد

وجهُ العطفِ بالواو في الآية:

قولُه تعالى: ﴿وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ معطوفٌ قولِه جلَّ شأنُه: ﴿عَصَيْتَ﴾، فهو "داخلٌ في حيِّز الحالِ، أي: وكنتَ من الغالينَ في الإضلال والضَّلالِ عن الإيمانِ"[4]، فيكونُ التَّوبيخُ في الاستفهام عن إيقاع الإيمانِ وقتَ الغرقِ، وقد سبقَ منك الفسادُ والعصيانُ.

تعميمُ التَّوبيخِ بتأخير الإيمانِ، مع تقدُّمِ الإفسادِ والعصيانِ

دلالةُ فعلِ الكونِ الماضي ﴿وَكُنتَ﴾:

في قوله جلَّ شأنُه: ﴿ءَآلْـَٔـٰنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ عبَّر النَّظمُ الكريم بفعل الكونِ لبيان رسوخِه ودوامِه في الإفساد، فوصفَ "سبْحانه فسادَه بالاستمرار طولَ حياتِه وحياةِ أمثالِه، فعبَّر بـ (كنتَ) التي تدلُّ على الاستمرار، ووضْعِه في صفِّ

الكونُ في وصفٍ ما، دليلُ الرُّسوخِ فيه والمُكْنة

(1) الإيجيّ، جامع البيان: 2/154.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/185.
(3) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 2/75.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/173.

المفسدين في الأرض، وقد كان أشدَّهم عتوًّا وطغيانًا"[1]، وذلك للدَّلالة على كونِه متَّصفًا بالعراقةِ في الفسادِ والإفسادِ.

نوعُ (أل) في قولِه ﴿ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ من السّياق:

في قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَكُنتَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ عرَّف المفسدين بالألفِ واللّامِ الدّالَّةِ على الجنسِ، وليس المرادُ كونَه من قومٍ معهودين بالفسادِ، فوَجْهُ الذَّمِّ ليس لكونِه من أولئك المعهودين، بل لكونِه اتَّصفَ بصفةِ الفسادِ التي هي جنسٌ مخالفٌ للخير والصَّلاح.

من أجناسِ النّاسِ جنسٌ مُفسِدون، لا نفع منهم يرتجى

وجهُ جمعِ لفظ ﴿ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ في السّياق المبين:

عبَّرَ بصيغةِ الجمعِ عن ﴿ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ إشارةً إلى أنَّ المفسدين جمعٌ كبيرٌ، وحزبٌ مُترسِّخٌ في الإفسادِ، فقولُه: ﴿مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ "أي: العريقين في الفساد والإفسادِ"[2]، ويدلُّ على أنَّ هناك فئةً قد شُهرت به، وهذا يدلُّ على شدَّةِ فسادِه.

للإفسادِ حزبٌ عريقٌ، لا ينفكُّ سالكًا له كلَّ طريق

علَّةُ التَّعبيرِ بـ ﴿وَكُنتَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ بدلَ (وكنت مفسدًا):

في قوله جلَّ شأنُه: ﴿ءَآلۡـَٔـٰنَ وَقَدۡ عَصَيۡتَ قَبۡلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ وصفَه بكونِه من المفسدين، وهذا أبلغُ من وصفه بكونِه مفسدًا[3]؛ لأنَّه يقتضي أنَّ هناك فئةً قد شُهرت بالفسادِ، وأنَّه قد بلغَ من شدَّة فسادِه أن كان جديرًا بالتحاقِه بهم.

الكونُ في فئة مشهورةٍ بوصفٍ ما، أبلغُ في الوصفِ من الإفرادِ

دلالة الأسلوبِ الخبريِّ في تحسير فرعونَ وتبكيتِه:

في قولِه تعالى: ﴿ءَآلۡـَٔـٰنَ وَقَدۡ عَصَيۡتَ قَبۡلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ خبرٌ المراد منه تأييسُ فرعونَ، فهو "أسلوبٌ خبريٌّ ليس المرادُ منه فائدةَ الخبر، ولا لازمَ الفائدةِ، بل المرادُ هو تحسيرُ فرعونَ وتبكيتُه، وتعجيلُ المساءةِ إليه؛ لذلك جعلَ اللّه ختامَه شرَّ ختامٍ"[4].

اضطرارُ ادِّعاءِ الإيمانِ، دليلُ التَّحسُّرِ في غيرِ أوانِ

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3628، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 9/185.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/185.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/278.
(4) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 2/76.

العنوانُ بالإفساد، يقرِّرُ سبقَ المعصيةِ وغلبةَ الفساد

بيانُ التَّقريرِ في جملة التَّذييلِ في السّياق الجليل:

ختمَ الآيةَ بقوله عزَّ ذكرُه: ﴿وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾، تذْيِيلًا متضمِّنًا تقريرًا لمضمون الكلامِ قبلَه[1]، فانتفاءُ إظهارِه الإيمانَ في وقته؛ لأنَّه كان راسخًا في الكفر، وقد دأبَ على الإفساد، وأصرَّ عليه؛ فلا يَنْفَكُّ عنه.

(1) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 2/76.

﴿فَٱلۡيَوۡمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنۡ خَلۡفَكَ ءَايَةٗۚ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنۡ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ٩٢﴾ [يونس: 92]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لمّا أنكر النَّظمُ الجليلُ على فرعونَ الإيمانَ وقتَ الإغراق، وقد كان حالُه طولَ حياتِه عاصيًا من زمرة المفسدين، أتبعه بالتَّهكُّم به بإخبارِه أنَّه سينجو بدنًا بلا روحٍ.

كما استوجبَ من قبلُ الإنكارَ، استحقَّ التَّهكُّمَ والاستهزاء بالإخبار

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿بِبَدَنِكَ﴾: أصْلُ البَدَنِ هوَ شَخْصُ الشَّيءِ دونَ شَواهُ، وشَواهُ أطرافُهُ، يُقالُ: هذا بَدَنُ الإنسانِ، والجَمْعُ الأبْدانُ[1]، وبَدُنَ الرَّجلُ: صار بَدينًا؛ فهو مُبدِنٌ، ورَجُلٌ بادِنٌ ومُبَدَّنٌ وامرأةٌ مُبَدَّنةٌ، أي: سَمينانِ جسيمانِ[2]، والبَدَنُ شِبْهُ دِرْعٍ إلّا أنَّه قصير قَدر ما يكون على الجَسَد فَقَط، قَصير الكُمَّيْن[3]. وبَدَنُ الإنسان: جسَدُه، وقولُه تعالى: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ﴾ قالوا: بجَسَدٍ لا روْحَ فيه، قال الأخفشُ: "وأمّا قول من قال: (بدرعك)؛ فليس بشيءٍ ولا له معنًى"[4].

2) ﴿خَلۡفَكَ﴾: أصلُ (خَلَفَ) مِنَ الإخْلافِ، هو مجيءُ شَيْءٍ بَعْدَ شَيْءٍ يَقومُ مَقامَهُ[5]، فالخَلَفُ: المُتَأخِّرُ، سواء كان تَأخُّرُه في الزَّمَنِ، أو في الرُّتبَةِ، يُقال: فُلانٌ خَلَفُ لأبيهِ، أيْ: جاءَ بَعْدَهُ، ويقولون: هو خَلَفُ صِدْقٍ مِن أبيهِ، وخَلَفُ سَوْءٍ مِن أبيهِ، فإذا لم يذكُروا صِدْقًا،

(1) الخليل، العين، وابن دريد، جمهرة اللُّغة، والأزهريّ، تهذيب اللُّغة، وابن فارس، مقاييس اللُّغة: (بدن).
(2) الخليل، العين: (بدن).
(3) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة: (بدن).
(4) الأخفش، معاني القرآن: 1/378، والمجاشعيّ، النكت في القرآن: ص: 245، وابن منظور، لسان العرب: (بدن).
(5) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (خلف).

ولا سَوْءًا؛ قالوا لِلْجَيِّدِ: خَلَفٌ، ولِلرَّديِّ خَلْفٌ - بإسكان اللّام - [1] وضِدُّ الخَلَفِ: السَّلَفُ، وهو: كُلُّ مَن سَبَقَكَ، والخَلَفُ أيضًا: ما اسْتَخْلَفْتَهُ مِن شَيْءٍ، وجمعُه: أخْلافٌ[2]. والمقصود بـ قوله: ﴿لِمَنْ خَلْفَكَ﴾ في الآيةِ: لِمَن بعدَك[3].

3) ﴿ءَايَةً﴾: أصلُ الآيةِ العلامةُ الثابتةُ من قولك: تأيَّيْتُ بالمكان؛ إذا أقمتُ به، وثبتُّ فيه: ومن ثَمَّ يُقال: لأجعلنَّك آيةً، أي: علامةً، مُشتقَّة مِن التَّأيّي الَّذي هو التَّثبُّتُ والإقامةُ على الشَّيء[4]، تَقولُ: خَرِبَتْ دارُ فُلانٍ، وما بَقيَ فيها آيَةٌ، أيْ: عَلامَةٌ، ومِنْهُ سُمّيَت الآيَةُ مِن القُرْآنِ بذلك؛ لأنَّها عَلامَةٌ لانْقِطاعِ الكَلامِ الذي قَبْلَها والذي بَعْدَها، وتُطلَقُ على المَصْنوعِ المُعْجِبِ؛ لأنَّهُ يكونُ علامةً على إتقانِ صانِعِهِ أو عَظَمَةِ صاحِبِهِ[5]، وكذلك تُطلَقُ على الحُجَّةِ المثبَتَةِ؛ لأنَّها علامَةٌ على ثُبوتِ الحَقِّ، وتُطلَقُ أيضًا على العِبْرَةِ، وهي أمرٌ وقع، ومضى، لكن بقيَ ما يُتَّعَظُ به منه، ويُتَّخذ مثلًا[6]، وهو المُرادُ هنا. والجَمْعُ: آياتٌ، وآيٌ، وآيايٌ[7].

4) ﴿ءَايَتِنَا﴾: أصلُ الآيةِ العلامةُ الثّابتةُ الدّالَّةُ على أمْرٍ مِنْ شَأْنِهِ أنْ يَخْفى، وهي في القرآن على وجهين: الأوَّل: العِبرةُ، قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً﴾ [المؤمنون: 50]، أي: عِبرةً يُعْتَبَرُ بها. الثّاني: العلامةُ، قال: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الروم: 22]، أي: ومن العلاماتِ على ربوبيَّته، والوجهانِ مُتقاربانِ يصلُح استعمالُ أحدِهما في موضع الآخرِ[8]. الآياتُ جَمْعُ آيَةٍ، وآياتُ اللّه: عَجائِبُه[9]، والمقصودُ بـ ﴿ءَايَتِنَا﴾ في الآية: العلاماتُ الدّالة على قُدْرَة اللّه في خَلْقِهِ، وغيرِها مِن صِفاتِ العليِّ القدير.

المَعْنى الإجْماليُّ:

الخطابُ هنا لفرعونَ، وهو يُعالجُ سكراتِ الموت، أو وهو ميتٌ، قال اللّه تعالى له: فاليومَ

(1) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللُّغة: (خلف).
(2) الرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (خلف).
(3) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 199.
(4) الخليل، العين، والرّاغب، المفردات: (أى).
(5) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (أيّى).
(6) الزبيديّ، تاج العروس، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (إيي - إي).
(7) الخليل، العين، وابن عباد، المحيط في اللُّغة، والجوهريّ، الصّحاح: (أيا).
(8) العسكريّ، الوجوه والنّظائر، ص: 92.
(9) الزّبيديّ، تاج العروس: (إيي).

نجعَلُ جَسَدَك وما تقلَّدْتَه مِن دروعِ الحربِ بعدَ غَرَقِك على مكانٍ مرتَفعٍ مِن الأرضِ، فيَتبَيَّن للنّاسِ هلاكُك، ولِتَكونَ - يا فرعونُ - لِمَن بَعدَك من النّاسِ عِبرةً بعد إيقانِهم بهلاكِك وقدرةِ اللّه على كلِّ ذلك، فيَنزَجِروا عن الكُفرِ باللّه ومَعصيتِه، ويَرَوا عاقِبةَ الطُّغيانِ، ويخافوا غضَبَ اللّه، وإنَّ كثيرًا مِن النّاسِ مُعرِضونَ عن تأمُّلِ آياتِنا، وعن التفكُّرِ فيها، والاعتبارِ بها، وفي نجاة فرعونَ ببدنِه، وإلقاءِ البحر له جثَّةً هامدة متعفِّنة على الشّاطئ، عِبرةٌ لمعتبِر؛ فهذا الإنسانُ الَّذي كان يملأُ الأرض بغيًا وعدوانًا، ويقول في النّاس: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي﴾ [القصص: 38]، ويقول: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ [النازعات: 24]. هذا الإنسانُ قد صار في لحظاتٍ جثَّةً هامدة، وكومًا مِن لحمٍ باردٍ، فأين مُلكُه؟ وأين سُلطانُه؟ وأين بطشُه وجبروتُه؟ لقد ذهبَ كلُّ ذلك عنه، وتعرَّى مِن كلِّ شيءٍ كان بين يديه[1].

سوءُ عاقبةِ فرعونَ عِبرةٌ للأحياء

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

معنى الفاءِ في قوله: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ﴾ في السّياق:

في قوله جلَّ شأنُه: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنۡ خَلۡفَكَ ءَايَةٗۚ﴾، افتتحَ بالفاء الواقعةِ في جواب شرطٍ محذوفٍ، فتكونُ رابطةً، وكذلك هي مُفْصِحَةٌ عن المحذوفِ، فهي "تُفْصح عن شرطٍ مقدَّرٍ في الكلام يدلُّ عليه السياقُ. والمعنى: فإن رُمْتَ بإيمانك بعد فواتِ وقتِه أن أنجّيك من الغرق، فاليومَ ننجّيك ببدنِك"[2].

نجاة البدن لا تعني نجاة الرّوح

دلالةُ إيثارِ الظَّرفِ ﴿فَٱلۡيَوۡمَ﴾ دون غيره:

في قوله جلَّ شأنُه: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنۡ خَلۡفَكَ ءَايَةٗۚ﴾ عبَّر باليوم دون غيرِه "للإشارةِ إلى أنَّه ينجو ببدنِه في ذلك

استغرق الإنجاءُ يومًا للبدنِ على وفقِ السُّنَنِ

(1) ابن جرير، جامع البيان: 12/283، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 8/381، والسّعديّ، تيسير الكريم المنّان، ص: 372، وعبد الكريم الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 6/1073.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/278، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 9/556.

اليوم"[1]، فـ" اليومُ: ظرفٌ للتنجية"[2]، فكان الإنجاءُ مستغرِقًا اليومَ؛ لأنَّه لم ينقذْه من فوْره لتطاول الحدثِ واحتياجِه استواءَ الماءِ، وقذْفَ الموجِ لبدنه على السّاحل، وهذا يتطلَّبُ وقتًا لا يُمكنُ أن يقعَ بوقتٍ وجيزٍ، ولا يخْفى أنَّ اللّه تعالى قادرٌ على إنجائه من فوره، ولكنَّه أنجاه بالبدن على وفقِ السُّنَنِ.

بلاغةُ الاستعارةِ في لفظ الإنجاء في السّياق:

الإنجاءُ مع البقاء ميِّتًا، دليلٌ على قدرة الله القاهرة لكلِّ جبّار

في قوله جلَّ شأنُه: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنۡ خَلۡفَكَ ءَايَةٗۚ﴾ جاء الإنجاءُ بمعنى الإخراجِ، فهو لم ينجُ حقيقةً، "أي: نخرجُك ممّا وقع فيه قومُك من قَعر البحرِ، ونجعلُك طافيًا، وفي التَّعبير عنه بالتَّنجِيَةِ تلويحٌ بأنَّ مرادَه بالإيمان هو النَّجاةُ كما مرَّ، وتهكُّمٌ به أو نلقيك على نجْوةٍ من الأرضِ ليراك بنو إسرائيلَ"[3]. فالنَّصُّ في إظهار خيبتِه وحسمِ أطماعِه، أي: نخرجُك، ونجعلُك ببدنِك عاريًا عن الرّوح، ولكنَّه عبَّرَ عن ذلك بالتَّنْجيَة مجازًا[4]. أو يكونُ المعنى على الحقيقةِ، أي: "نُلقيك بنجْوةٍ من الأرض، وهي المكانُ المرتفعُ"[5]، ليراه مَن خلفَه من بني إسرائيل وغيرهِم ليكونَ آية.

التَّعبيرُ عن الإنجاءِ بالمضارع ﴿نُنَجِّيكَ﴾:

تصويرُ الإنجاءِ بالفعل المضارع من بليغ السّياق

في قولِه عزَّ ذكرُه: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ﴾ آثر النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ عن الإنجاء بالفعل المضارعِ تصويرًا لمشهد الإنجاءِ، واستجلابًا للحالة والصّورةِ، كما أنَّ التَّنجيةَ لا تقعُ دفعةً واحدةً، بل تتطلَّب معالجةً وأعمالًا.

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3628.
(2) المنتجب الهمذانيّ، الكتاب الفريد في إعراب القرآن المجيد: 3/424.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/174.
(4) الآلوسيّ، روح المعاني: 6/172.
(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/103.

سرُّ تشديدِ فعلِ الإنجاءِ ﴿نُنَجِّيكَ﴾:

في قوله تعالى: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ﴾، جاء التَّعبيرُ عن الإنجاءِ بالفعل المضعَّفِ الدّالِّ على التَّكثيرِ للمبالغةِ في التَّنجية والتَّأكيدِ عليها، ولأنَّها تحوجُ أن تكونَ كذلك لكونِ النَّجاةِ كائنةً من حدثٍ عظيمٍ، فكان لا بدَّ من تكثير التَّنجيةِ، وفي ذلك إيغالٌ في التَّهكُّم.

مبالغةٌ في التَّنجية التَّهكميَّةِ، هي أبلغُ في التَّهكُّم بما آل إليه

التَّعبيرُ عن الإنجاءِ بصيغة العظمةِ ﴿نُنَجِّيكَ﴾:

في قوله جلَّ شأنُه: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنۡ خَلۡفَكَ ءَايَةٗۚ﴾ آثر النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ بصيغةِ التَّعظيمِ في التَّنجية، أي: تنجيةٍ عظيمةٍ[1]؛ مناسبةٍ لهولِ الموقفِ وشدَّةِ الغرقِ التي تقتضي أن يكونَ الإنجاءُ مبالغًا فيه، فكان الإنجاءُ من اللّه تعالى بالعظمةِ على حسْب مقتضى الحالِ. "وأضاف الإنجاءَ إليْه سبحانَه، وجعله واقعًا على فرعونَ باعتبار أنَّه صاحبُ البدنِ؛ ولذا قال تعالى: ﴿بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنۡ خَلۡفَكَ ءَايَةٗۚ﴾، أيْ: دلالة على عظيمِ قدرةِ اللّه تعالى التي قهرَ بها طاغوتَ عصرِه"[2].

لا يُنجي من المهالك العظام إلّا ربٌّ عظيم القدرة والمقام

وجهُ مخاطبةِ فرعونَ بضمير الخطاب المفرد:

في قوله تعالى: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنۡ خَلۡفَكَ ءَايَةٗۚ﴾، جاء التَّعبيرُ عن فرعونَ بضمير المخاطَبِ دونَ ذكرِه باسمِه الصَّريحِ المُقْتضي للغَيبةِ، للدَّلالةِ على أنَّ مآلَ الطُّغاةِ هو الفناءُ وللاعتبار بذلك[3]. كما أنَّ خطابَ فرعونَ بالضَّمير فيه مبالغةٌ في إيقاع التَّهكُّم، فيكون الخطابُ موجَّهًا لَمن أوشك على الغرق، فيخبرُه بالخطاب بأنَّك ستنجو بِبَدَنِك فحسبُ، فهو أوقعُ في الإغاظة والتَّخييبِ.

مواجهةُ المخاطَبِ بالتَّهكُّم أبلغُ في الإغاظة، وأنكى في العقاب

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/185.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3628.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3628.

معنى الباء في شبه الجملة: ﴿بِبَدَنِكَ﴾:

تعلُّقُ الإنجاءِ بالبدنِ لا بالرّوح معجزة خالدة

في قوله جلَّ شأنُه: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ﴾ أدخلَ الباءَ على البدن للدَّلالة على أنَّ الإنجاءَ مُلابسٌ للبدن ولا أكثر من ذلك، "أي: ننجّيك ملابِسًا ببدنِك فقط، لا مع روحِك كما هو مطلوبُك؛ فهو تخييبٌ له، وحسمٌ لأطماعه بالمَرَّة"[1]. وتحتملُ أنَّها للمصاحَبة، والتَّقديرُ: سنُنَجّيكَ مصاحبًا بدنَك، وذلك يتناسبُ مع رأْيِ من قال: إنَّ معنى البدنِ هو الدِّرعُ[2]، "وفي التفسير: لم يُصَدِّقوا بغرقه، وكانت له دِرْعٌ تُعْرَفُ، فأُلقي بنَجْوةٍ من الأرض، وعليه دِرْعُه؛ ليعرفوه، والعربُ تُطلِقُ البدنَ على الدِّرع"[3].

فنُّ الاحتراسِ في اصطفاء البدن للإيهام بالإيناس:

كانت النَّجاةُ للبدن الخالي من الرّوح قطعًا لمسرَّته

في قوله عزَّ ذكرُه: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ﴾ آثر النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ بالبدن دونَ (الجسم)؛ لأنَّ الإخبارَ بالتَّنجية خَبرٌ سارٌّ أتْبع بما يدفعُ هذه المسرَّةَ، فقال: ﴿بِبَدَنِكَ﴾؛ ليدلَّ على أنَّ ذلك بعد نزعِ روحِه، فهو بدنٌ كاملٌ لا روحَ فيه، حتّى لا يقع لبْسٌ في معرفتِه[4]، فالبدنُ "الجسمُ بدون روحٍ، وهذا احتراسٌ من أن يُظنَّ المرادُ الإنجاءَ من الغرقِ، والمعنى: ننجّيك، وأنت جسمٌ، كما يقال: دخلتُ عليه، فإذا هو جثَّةٌ؛ لأنَّه لو لم يكنِ المقصودُ الاقتصارَ على تلك الحالةِ؛ لَما كان داعٍ للبليغ أن يزيدَ ذلك القيدَ؛ فإنَّ كلَّ زيادةٍ في كلام البليغِ يُقصدُ منها معنًى زائدٌ، وإلّا لكانتْ حشوًا في الكلام، والكلامُ البليغُ موزونٌ، ولغةُ العرب مبنيَّةٌ على أساس الإيجازِ"[5]. ويحتمِلُ قولُه: ﴿بِبَدَنِكَ﴾ معنى: بصورتِك التي تُعرف بها، وكان قصيرًا

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/174.
(2) الأخفش، معاني القرآن: 1/378، والمجاشعيّ، النّكت في القرآن: ص: 245، وابن منظور، لسان العرب: (بدن).
(3) السّمين الحلبي، الدّرّ المصون: 6/264 - 265.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/186.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/278 - 279.

أشقرَ أزرقَ قريبَ اللِّحية من القامة، ولم يكنْ في بني إسرائيل شبيهٌ له يعرفونَه بصورته، و﴿بِبَدَنِكَ﴾ إذا عَنَى به الجثَّةَ؛ فهو تأكيدٌ، كما تقول: قال فلانٌ بلسانه، وجاء بنفسه[1].

دلالةُ اللّامِ في لفظ: ﴿لِتَكُونَ﴾ من السّياق:

في قوله عزَّ ذكرُه: ﴿لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً﴾، أدخل النَّظمُ الجليل لامَ التَّعليل على فعلِ الكونِ للدَّلالة على أنَّ المرادَ من ذلك الإنجاءِ أن يتحوَّلَ إلى وجودٍ جديدٍ وهو أنْ يكون آيةً، فَعِلَّةُ الإنجاءِ كما كانت تهكُّمًا به؛ كانت كذلك غايةً للاعتبار، فهو قد مات "ميتةً لا يستطيعون معها الدَّجلَ بأنَّه رُفع إلى السَّماء، أو أنَّه لم يزلْ يتابع بني إسرائيل، أو نحو ذلك من التَّكاذيب؛ لأنَّهم كانوا يزعمون أنَّ فرعونَ لا يُغلب، وأنَّ الفراعنةَ حين يموتون إنَّما يُنقلون إلى دار الخلودِ، ولذلك كانوا يُموِّهون على النّاس، فيبْنون له البيوتَ في الأهرام، ويُودِعون بها لباسَه وطعامَه ورياشَه وأنفَسَ الأشياء عنده، فموتُه بالغرق وهو يتَّبع أعداءه ميتةٌ لا تؤوِّلُ بشيءٍ من ذلك، فلذلك جعلَ كونَه آيةً لمَن خلفَه علَّةً لإخراجِه من غَمْرَةِ الماءِ ميّتًا كاملًا، فهم مضطرّون إلى الاعتراف بأنَّه غرِق إذا نظروا في تلك الآيةِ"[2].

إنجاءُ بدنِ الطّاغيةِ الجبّار، غايتُه العظةُ والاعتبار

التَّعبيرُ بفعل الكونِ مضارعًا في: ﴿لِتَكُونَ﴾:

في قوله جلَّ شأنُه: ﴿لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً﴾ عبَّر النَّظمُ الكريم بالفعل المضارعِ عن كونِه آيةً للدَّلالة على دوامِ هذه الآيةِ، "أي: كونًا هو في غاية الثَّبات"[3]، فكونُه آيةً لمَن خلفَه مستمرَّةٌ لا تختصُّ بالجيل الذي جاء بعدَه، بلْ هي باقيةٌ دائمةٌ.

تجدُّدُ كونِه آيةً في كلِّ زمان

معنى اللّام في عبارة: ﴿لِمَنْ خَلْفَكَ﴾:

في قوله جلَّ شأنُه: ﴿لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً﴾ تعلَّقتِ اللّامُ"بمحذوفٍ

استقرَّتِ الآيةُ عندَهم، لتبقى شاهدةً لمن يخلفون

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/103.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/279.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/186.

وقعَ حالًا من آيةٍ، أي: كائنةً لمن خلفَك"[1]، فهي بِمعنى التَّمليكِ والاختصاص، أيْ: إنَّ هذه الآية في حوزتهم.

إيثارُ الموصولِ (مَنْ) في السّياق المدرج:

إنْجاءُ فرعونَ ببدنه آيةٌ، سارت بذكرِها الرُّكبانُ في كلّ عصرٍ وأوانٍ

في قوله عزَّ ذكرُه: ﴿لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً﴾ آثرَ النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ بالموصول (مَن) الدّالِّ على العموم بمعنى "تكونُ لَمن يأتي بعدَك من الأممِ إذا سمعوا مآلَ أمرِك مِمَّن شاهدَك عِبرةً ونَكالًا من الطُّغيان"[2]، فالتَّعبيرُ بالموصول الدّالِّ على العموم يفيدُ أنَّ تلك الآيةَ كائنةٌ لعموم مَن يأتي بعدَه، لا تختصُّ بجيلٍ ولا بفئَةٍ، فهي آيةٌ سائرةٌ تجري بذكرها الأسفارُ.

إيثارُ الظَّرف (خلْف) دونَ (بعدَ)، أو (وراءَ):

الخلْفُ يشملُ الحكّامَ والعوامَّ على حدٍّ سواء

في قوله تعالى: ﴿لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً﴾ آثر النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ بالظَّرف (خَلْفَ) دونَ غيره لاحتمالِ دلالته على مَن يخلُفه في الحكم، أو مَن يتأخَّرُ عنه من عموم النّاس، فهو يدلُّ على مَن يأتي بعدَه في مقامه ومكانتهِ في حكم البلادِ، ومَن يخلُفه من الفراعنة والكهنةِ والوزراءِ[3]، كما يحْتمل أنْ يُرادَ به مَن يتأخَّرُ عنه في الحياة مِن عموم النّاس[4].

بلاغةُ المجازِ في لفظ ﴿خَلْفَكَ﴾ في السّياق:

لمّا نجا بنو إسرائيل كانوا خلفاءَ فرعونَ، وإنْ كانوا أمامَه

في قوله جلَّ شأنُه: ﴿لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً﴾ إذا كان المرادُ بمَن خلفَه بني إسرائيل، فيكون الخلفُ مجازًا في القدّام، فيُحملُ "الخلفُ على الجهة المكانيَّة أوَّلًا بكونِه موضوعًا لها، ولا صارفَ له عنها في الظّاهر؛ إذ بنو إسرائيل وإنْ كانوا قدّامَهم باعتبارٍ، لكنَّهم خلفَهم باعتبارٍ آخرَ؛ فيكونُ خلفُك في النَّظم الجليلِ مجازًا للقدّام"[5].

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/174.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/174.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/279.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/186.
(5) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 9/558.

نكتةُ الإخبارِ عن المسند الذّاتِ بالمعنى:

تحوُّلُ الذّاتِ إلى آيةِ تصويرِ دقّةِ الإنجاءِ بالبَدنِ الكاملِ

في قوله جلَّ شأنُه: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنۡ خَلۡفَكَ ءَايَةٗۚ﴾ أخبر النَّظمُ الكريم باسم المعنى عن شخصِ فرعونَ "أي: لتكونَ ذاتُه آيةً على أنَّ اللّٰه غالب مَن أشركوا به، وأنَّ اللّٰه أعظمُ وأقهرُ من فرعونَ وآلهتِه"[1]، وفي ذلك مبالغةٌ في كونِه نال من الجزاء ما أفصحَ عن جلال اللّٰه تعالى وعظمتِه، فجعلَ فرعونَ ذاتَه آيةً ومَعْلَمًا يُبيّنُ للنّاس عاقبةَ الطُّغيان والاستكبارِ.

تقديمُ الجارِّ والمجرورِ والظَّرفِ على ﴿ءَايَةٗۚ﴾:

سَوْقُ العِبرة للنّاس أهمُّ من العِبرة ذاتِها

في قوله تعالى: ﴿لِتَكُونَ لِمَنۡ خَلۡفَكَ ءَايَةٗۚ﴾ قدَّم النَّظمُ الجليل شبهَ الجملةِ من الجارِّ والمجرور على خبرِ كان، فلم يقلْ: (لتكونَ آيةً لمَن خلفَك)؛ لِما في التَّقديم من الاهتمام، فليس المرادُ أنْ يكونَ آيةً على وجه الإطلاق، بلْ هو مقيَّدٌ بكونه آيةً كائنةً للمذكورين، فأظهرَ أنَّ المقصودَ من تلك الآيةِ هو مَن يخلُفه، فقدَّم ذكرَهم إظهارًا لعلَّةِ الفعلِ على وجه الاهتمامِ.

سرُّ تنكيرِ ﴿ءَايَةٗۚ﴾ في سياق الآية:

أنْ يجعلَ الشَّخصَ ذاتَه آيةً، دليلُ العظمةِ والإعجاز

في قوله عزَّ ذكرُه: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنۡ خَلۡفَكَ ءَايَةٗۚ﴾ آثر النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ عن الآية بلفظِ التَّنكيرِ تعظيمًا للآية وتفخيمًا لشأنها؛ وذلك أنَّ فرعون ذاتَه هنا تحوَّل إلى آيةٍ، فهي آيةٌ غريبةٌ عظيمةٌ.

معنى الواو في مطلع الجملة المصدَّرة بالأداة (إنّ):

لا تنفعُ كثرةُ الآياتِ مع قسوةِ القلوبِ وإنكارها للمعجزات

افتتح النَّظمُ العزيز قولَه جلَّ شأنُه: ﴿وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنۡ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ﴾ بالواوِ الدّالَّةِ على الحال أو الاعتراضِ[2]، فالحالُ بتقديرِ: أنجيْنا فرعونَ ليكون آيةً للنّاس، والحالُ أنَّ أكثرَهم غافلون

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/279.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/279، والإيجيّ، جامع البيان: 2/154.

عن الآياتِ، أيْ: في هذه الحالةِ، فلا يعترضُ طاعنٌ بأنَّ الكفرَ قد استمرَّ بعد فرعونَ ودامَ، وأمّا الاعتراضُ؛ فهو اعتراضٌ تذييليٌّ ذيَّلَ به الموعظةَ لبيان أنَّ الموعظةَ قليلٌ مَن ينتفعُ بها.

نكتةُ التَّوكيد بإنَّ والجملةِ الاسميَّة واللّامِ:

تكذيبُ الآياتِ الكثيرةِ، مثارُ تعجُّبٍ وإنكارٍ

في قوله عزَّ ذكرهُ: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنۡ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ﴾ جاء الخبُر في الآية مؤكَّدًا بكونِه جملةً اسميَّةً وبـ (إنَّ) وباللّام المزحلقةِ تقويةً لمضمونِ الجملةِ؛ "لأنَّ مثلَه ينبغي - لبعدِه عن الصّواب - ألّا يصدِّقَ أنَّ أحدًا يقع فيه"[1]، فالغفلةُ عن الآيات الكثيرةِ ممّا يُنْكره العقلُ، وهو مثارُ التَّعجُّبِ، والمرادُ من ذلك التَّأكيدِ "دفْعُ توهُّمِ النَّقصِ عن آيات اللّه عندما يُحْرَمُ كثيرٌ من النّاس الاهتداءَ بها، فهي في ذاتِها دلائلُ هدًى، سواءٌ انتفع بها بعض النّاس أمْ لمْ ينتفعوا؛ فالتَّقصيرُ منهم"[2].

وجهُ تنكيرِ لفظ: ﴿كَثِيرًا﴾ في السّياق:

تأكيدُ التَّكثيرِ باللَّفظِ والتَّنكيرِ من فصيحِ التَّعبير

في قوله عزَّ ذكرُه: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنۡ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ﴾ آثر النَّظمُ الكريم المجيءَ بصيغة التَّنكيرِ لبيان كثرةِ الغافلين، وفي ذلك تأكيدٌ على التَّكثير؛ إذ أفاد التَّنكيرُ التَّكثيرَ، فضلًا عن التَّكثيرِ المدلولِ عليه باللَّفظ بدلالتِه المعجميَّة.

دلالةُ (مِن) في شبه الجملة ﴿مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾:

الكثرةُ كائنةٌ من جنسِ النّاس، والغفلة فيهم غالبة

في قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾، عبَّر النَّظمُ الكريم بـ (مِن) البيانيَّة، للدَّلالةِ على جنْس الكثرةِ، فإنَّ الكثيرَ واقعٌ من النّاس، وليستْ هي للتَّبعيض؛ إذ ليس الكثيرُ من بعض النّاسِ، فهو منتقضٌ بأنَّ الكثيرَ هو أغلبُ النّاسِ لا بعضُهم.

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/187.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/280.

نكتةُ جمعِ الآياتِ في: ﴿عَنْ ءَايَٰتِنَا﴾:

رسوخُ الغفلةِ لا يزولُ بكثرة الآياتِ وتعدُّدِها

في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ﴾، جمع النَّظمُ الكريم لفظَ الآياتِ للدَّلالة على أنَّ الآياتِ المغفولَ عنها كثيرةٌ، وفي ذلك إشارةٌ إلى شدَّة غفلةِ النّاسِ وتوغُّلِهم في التَّمادي بالإعراضِ عن واضحِ الآياتِ الكثيرةِ.

وجْهُ نسبةِ الآياتِ إلى ضميرِ التَّعظيمِ ﴿ءَايَٰتِنَا﴾:

الغفلة عن الآياتِ الَّتي هي غايةُ البيانِ من طبيعة الإنسان

في قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ﴾، عرَّف النَّظمُ الجليل الآياتِ بإضافتِها إلى ضمير التَّعظيم، "أي: على ما لها من العظمةِ"[1]، وفي ذلك إظهارٌ لشدَّة التَّكذيبِ، فهو وقعَ في الآيات التي تنتسبُ إلى الله تعالى، فتكونُ على غايةِ الوضوحِ والاستحقاقِ بأن يُستدلَّ بها على ما سيقَتْ له، ولا يُغفلُ عنها.

علَّةُ تأخيرِ خبرِ (إنَّ) وتقديمِ ﴿عَنْ ءَايَٰتِنَا﴾:

الإفصاحُ عن شدَّة الغفلة بكونِها مختصَّةً بالآياتِ العظام

في قوله عزَّ ذكرُه: ﴿عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ﴾ قدَّم النَّظمُ الكريم شِبه الجملةِ من الجارِّ والمجرور على خبرِ (إنَّ)، فلمْ يقلْ: (وإنَّ كثيرًا من النّاس لغافلون عن آياتِنا) على الأصلِ؛ للمبالغةِ بذمِّهم بجعلِ الغفلةِ مختصَّةً بالآياتِ المنسوبةِ إلى الله تعالى، وذلك غايةُ الذَّمِّ، كما أنَّ في التَّقديم تحقيقًا للتَّوافق في الفاصلةِ القرآنيَّةِ.

التَّعبيرُ عن الخبرِ باسم الفاعلِ المجموع:

رسوخُ الغفلةِ، لا يجعلها تزولُ بواضحِ الآياتِ

في قوله عزَّ ذكرُه: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ﴾ آثر النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ باسم الفاعلِ للدَّلالة على رسوخ الصِّفةِ فيهم وثباتِها، أي: ذلك الكثيرُ من النّاس متَّصفون بشدَّةِ الغفلةِ على وجهِ الثَّباتِ واللُّزومِ.

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/187.

بلاغةُ التَّذييلِ في الفاصلة آخر السّياق:

تقريرُ صدِّ النّاسِ عن الآياتِ، كصدِّ فرعونَ عن الإيمان بالبيّنات

الجملةُ في قولِه جلَّ شأنُه: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ﴾ اعتراضيَّةٌ للتَّذييلِ على التَّهكُّم بإنْجاء فرعونَ، فالنّاسُ مُعرِضون عن آيات اللّه تعالى "لا يتفكَّرون فيها، ولا يعْتبرون بها، وهو اعتراضٌ تذييليٌّ جيءَ به عند الحكايةِ تقريرًا لفحوى الكلامِ المَحكيِّ"[1]، فهو يقرِّر، ويبيِّن أنَّ الآياتِ كما لم تنفعْ فرعونَ؛ فإنَّ جعْلَ فرعونَ ذاتِه آيةً لن ينتفعَ بها إلّا مَن شاء اللّه تعالى.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

دلالاتُ البَدَن، والجسَد، والجِسْم:

البَدَنُ: الجسَدُ عظيمُ الجثَّةِ، ومنه قيل: امرأة بادِنٌ وبَدينٌ: عظيمةُ البَدَنِ، وسُمّيت البُدنة بذلك لسَمنها، يُقال: بَدَنَ؛ إذا سَمُنَ[2]، والجسد: يَدُلُّ عَلَى تَجَمُّعِ الشَّيْءِ أيْضًا واشْتِدادِهِ، مِنْ ذَلِكَ جَسَدُ الإنْسانِ[3]. والجسم: يَدُلُّ عَلَى تَجَمُّعِ الشَّيْءِ، فالجِسْمُ كُلُّ شَخْصٍ مُدْرِكٍ[4]، وهو: جَماعَةُ البَدَنِ أو الأعضاء مِنَ النّاسِ والإبل والدَّوابِّ وغَيْرِهِمْ مِنَ الأنواع العَظيمَةِ الخَلْق[5]. ومجملُ ما قاله أئمَّةُ التَّفسير في البَدَنِ: إنَّه الجسمُ الضَّخمُ سواءٌ أكان فيه روحٌ، أم لا، والغالبُ أنَّه بلا روحٍ، وأمّا الجسدُ؛ فإنَّ أكثرَ المفسِّرين على أنَّه الذي لا روحَ فيه، وخلاصةُ الفروقِ بين المفردات الثَّلاث: أنَّ البَدَنَ يتميَّز بالضَّخامة، والجسدَ يتميَّز بالخلوِّ من الرّوح، والجِسمَ يتميَّز بالحياة والرّوح والجمال[6]. ويرى ابنُ عرفةَ أنَّ البدنَ يُطلقُ على ما كثُرت أجزاؤه، وطعنَ في السِّنِّ، وفرعونُ كان قد بلغَ الغايةَ في

البَدَنُ جسْمٌ ضَخْمٌ، والجسْمُ يتميَّز بالحياة، والجسَدُ ما خلا من الرّوح

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/174.
(2) الرّاغب، المفردات: (بدن).
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (جسد).
(4) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (جسم).
(5) ابن منظور، لسان العرب: (جسم).
(6) محمد داود، معجم الفروق الدّلاليّة في القرآن الكريم، ص: 117 - 118.

السِّنِّ، وأمّا الجسدُ؛ فيصدقُ على الصَّغيرِ النّاقصِ الأجزاءِ[1]. وفي الآية عبَّر عن فرعونَ بعد النَّجاةِ بكونِه بَدَنًا؛ لأنَّه بلا روحٍ، فكان الأنسبُ في التَّعبير، فضلًا عمّا يحتملُه من دلالاتِ العُري، وصورتِه الَّتي كان عليها، وغيرِها وهي احتمالاتٌ، ناسبَ لفظُ البَدَنِ التَّعبيرَ عنها دونَ غيرِه.

دلالاتُ النَّجاة، والإنقاذ، والسّلامة:

النَّجاةُ تكونُ من الأذى والمكروه، والإنقاذ من الورطةِ، والسَّلامَةُ من الآفاتِ

إنَّ التخلُّصَ يكون من تعقيدٍ، وإنْ لم يكنْ أذًى، وغرَقُ فرعونَ أذًى كبيرٌ، والنَّجاةُ لا تكونُ إلّا من أذًى، ومكروهٍ، ولا يُقال لمَن لا خوفَ عليه: نجا؛ لأنَّه لا يكونُ ناجيًا إلا مِمّا يخافُ، والإنقاذ: التَّخليصُ من ورْطَةٍ، فهو يتضمَّنُ معنى السَّلامةِ، قال تعالى: ﴿وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا﴾ [آل عمران: 103]. والسَّلامَةُ: تعْني التَّعرّيَ من الآفاتِ الظاهرةِ والباطنةِ، وفرعونُ لم يَسلم منها، ولم يُنْقَذْ بلْ وقعَ فيها، ولذلك عدَل عن لفظِ (سَلِمَ)، و(أُنقِذَ) إلى لفظِ (النجاة) المتضمِّن البدنَ فقط، وهي نجاةٌ ممّا كان يخافُه، وهو الغرقُ لكن ببدنِه[2].

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 3/373.

(2) العسكريّ، الفروق اللُّغويّة: ص: 210 - 211، والرّاغب، المفردات: (سلم)، و(نقذ).

﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ فَمَا ٱخْتَلَفُواْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٩٣﴾﴾ [يونس: 93]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لمّا بـيَّنَ طغيان فرعونَ ونهايتَه، أتْبَعَهُ ببيان أمرِ بني إسرائيل

إنَّ اللّه تعالى لمّا ضربَ مثَلَ السَّوء بفرعونَ وملئِهِ؛ "أتْبعه بمثَلِ الصَّلاحِ بحال الذين صدَّقوا الرَّسول، واتَّبعوه، وكيف كانت عاقبتُهم الحُسْنى؛ ليُظهرَ الفرقَ بين مصيرَي فريقَيْن جاءَهم رسولٌ، فآمن به فريقٌ، وكفر به فريقٌ، ليكونَ ذلك ترغيبًا للمشركين في الإيمان، وبشارةً للمؤمنين من أهل مكَّةَ"[1]. كما أنَّ من المناسَبة جريًا على ما تقْتضيه الحكايةُ من تفصيلِ حالِ كلتا الفئتين، فلمّا "ذكر ما وقعَ عليه الختمُ في واقعةِ فرعونَ وجنودِه؛ أراد أن يذكرَ ما وقع عليه الختمُ في واقعةِ بني إسرائيل، فقال: ﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا﴾"[2].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿بَوَّأْنَا﴾: أصْلُ التّبْوِئةِ: الرُّجوعُ إلى الشّيْءِ، يُقالُ: باء إلى الشّيْءِ، يبوءُ، بوْءًا، أيْ: رجع[3]. والتّبوُّؤ: اتِّخاذُ مكانٍ يسْكُنُهُ، وهو تفعُّلٌ مِن البوْءِ، أيِ: الرُّجوعِ، كأنّ صاحِب المسْكنِ يُكلِّفُ نفْسهُ الرُّجوع إلى محلِّ سكنِهِ[4]، والمُبوّأُ: مكانُ البَوْءِ، أي: الرُّجوعِ، والمُرادُ المسْكنُ، والباءةُ والمباءةُ، وهي منْزِلةُ القوم، حيثُ يتبوّؤون في قُبُلِ وادٍ أو سندِ جبلٍ. والتّبْوِئةُ أيضًا: التّهْيِئَةُ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/281، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 9/188 - 189.

(2) النيسابوريّ، غرائب القرآن: 3/611، وأبو حيّان، البحر المحيط: 6/104، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3629.

(3) ابن دريد، جمهرة اللُّغة، وابن فارس، مقاييس اللُّغة: (بوأ).

(4) ابن منظور، لسان العرب: (بوأ)، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/264.

والإعدادُ، يُقالُ: بوّأهُ منزِلًا، أي: هيّأهُ لهُ[1]. والمقصود بـ ﴿بَوَّأْنَا﴾ في الآية: أنزلنا وأسكنّا، أي: بني إسرائيل[2].

2) ﴿مُبَوَّأَ صِدْقٍ﴾: أصلُ (بوأ): يدلُّ على الرُّجوعِ إلى شَيءٍ، والصِّدْقُ - هُنا - بمعْنَى الخالِصِ في نَوعِهِ، أي: مَنزِلًا مَحمودًا مُختارًا[3].

3) ﴿ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾: أصلُ (طَيَبَ) يَدُلُّ على خِلافِ الخَبيثِ[4]، وهو ما تستلذُّه الحواسُّ، وما تستلذُّه النَّفس[5]، يُقالُ: طابَ الشَّيءُ، يَطيبُ، طيبًا وطابًا، أي: لَذَّ أو زَكا[6]. والطَّيِّبُ: الأفضَلُ مِن كلِّ شَيْءٍ[7]. ويأتي بِمعنى الحلالِ[8]. والطَّعامُ الطَّيِّبُ في الشَّرع: ما كان مُتناولًا من حيث ما يجوز، ومِن المكان الَّذي يجوز، فإنَّه متى كان كذلك؛ كان طَيِّبًا عاجلًا وآجلًا لا يُسْتَوْخَم، وعلى ذلك قولُه: ﴿فَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾ [النحل: 114][9]. والمرادُ بالطَّيِّبات في الآية: الحلالُ المُسْتَلَذُّ.

4) ﴿يَقْضِى﴾: أصْلُ (قَضيَ) يدُلُّ على إحْكامِ أمرٍ وإتقانِه وإنفاذِهِ لِجِهَتِه، قالَ اللّه تعالَى: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ﴾ [فصلت: 12]، أي: أحْكَمَ خَلْقَهُنَّ[10]. والقَضاءُ: الحُكْمُ والفَصْلُ، يُقالُ: قَضَى في الأمْرِ، أيْ: حَكَمَ، وفَصَلَ فيه، والقَضاءُ: الأمرُ. قالَ اللّه تَعالَى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ﴾ [الإسراء: 23]، أي: أمر رَبُّك[11]. ويأْتي بـ معنى: الأداءِ، تقول: قَضَى دَيْنَهُ، أيْ: أدّاهُ، والقضاءُ: الإنْهاءُ والإتْمامُ، يُقالُ: قَضَيْتُ عَمَلي، أيْ: أنْهَيْتُهُ، وأتْمَمْتُهُ، وسُمّيَ القاضي قاضيًا؛ لأنَّه يَحْكُمُ في الأشْياءِ، ويُنْهي الخِلافَ فيها[12]. والانْقِضاءُ: فَناءُ الشَّيْءِ وذَهابُه، وكذلك التَّقَضّي[13]. ومِن مَعانيه أيضًا: الإيجابُ

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (بوأ).
(2) السّعديّ، تيسير الكريم المنّان، ص: 373.
(3) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 199، والسِّجستانيُّ، غريب القرآن، ص: 122، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/282.
(4) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (طيب).
(5) الرّاغب، المفردات: (طيب).
(6) ابن سِيدَه، المحكم: (طيب).
(7) الزّبيديّ، تاج العروس: (طيب).
(8) ابن عباد، المحيط في اللُّغة: (طيب).
(9) الرّاغب، المفردات: (طيب).
(10) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (قضي).
(11) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة: (قضي).
(12) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (قضي).
(13) ابن عباد، المحيط في اللُّغة: (قضي).

والإنْفاذُ والإتْقانُ، وجَمْعُ قضاءٍ: أقْضيَةٌ[1]. والمرادُ بقوله: ﴿يَقْضِي بَيْنَهُمْ﴾ في الآية: يفْصِلُ بينهم[2].

المَعْنى الإجْماليُّ:

تذكيرُ بني إسرائيل على التَّوالي، بما أنعمَ عليهم من النِّعم الغوالي

يُخبِرُ اللّه تعالى عمّا أنعَمَ به على بني إسرائيلَ مِن النِّعَم قائلًا: ولقد أنزَلْنا بني إسرائيلَ مَنازِلَ صالحةً محمودةً، ورَزَقناهم الرِّزقَ الحَلالَ الطَّيِّبَ مِن خيراتِ الأرضِ المُبارَكةِ، فما اختلَفَ بنو إسرائيلَ في الإقرار بنبوَّة محمَّدٍ ﷺ وبمبعثِه، حتَّى جاءَهم ما كانوا به عالِمينَ، فبُعِثَ ﷺ بنعتِه وصفتِه، وجاءَهم القُرآنُ، فاختَلفوا حينئذٍ، فآمن بعضُهم بنبوَّتِه، وكفر بها بعضُهم، ولم يكنْ ينبغي لهم ذلك، إنَّ ربَّك - يا محمد ﷺ - يحكُمُ بين المُختَلِفينَ فيك مِن بني إسرائيلَ يومَ القيامةِ فيما كانوا فيه يختَلِفونَ مِن أمرِك، فيُدخِلُ المؤمنينَ بك الجنَّةَ، ويُدخِلُ المكذِّبينَ بك النّارَ[3].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

توجيهُ العطفِ بالواوِ في مطلع الآية الكريمة:

عطفُ الصّلاحِ على الفسادِ للتَّرغيبِ والتَّرهيبِ

في قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ﴾ افتتح الجملةَ بواوِ العطفِ عطفًا لها على الجملِ السّابقةِ "فإنَّ جميعَ تلك الجملِ مقصودٌ منها موعظةُ الكفّارِ من العرب بأحوالِ مَن سبقَهم من الأمم في مشابهةِ كفرِهم بكفرِهم وبما حلَّ بهم من أنواعِ العذابِ جزاءَ كفرِهم. فلمّا ضرب اللّه مثلَ السَّوءِ؛ أتبعَه بمثلِ الصَّلاحِ بحالِ الَّذين صدَّقوا الرسولَ، واتَّبعوه"[4]. وفي ذلك ردعٌ للمشركين عن المضيِّ في عتوِّهم، وتثبيتٌ للمؤمنين على إحسانِهم، ويجوزُ في الواوِ أن تكونَ

(1) الجوهريّ، الصّحاح: (قضي).
(2) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 12/285، 286، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 8/381، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/296.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/281.

استئنافيَّةً، والكلامُ "مستأنفٌ سِيقَ لبيانِ النِّعمِ الفائضةِ عليهم إثرَ نعمةِ الإنجاءِ على وجه الإجمالِ وإخلالِهم بشكرِها وأداءِ حقوقِها، أي: أسكنّاهم، وأنزلناهم بعدَ ما أنجيْناهم، وأهلكنا أعداءَهم"[1].

سرُّ التَّوكيدِ باللّام وقد في سياق الآية الكريمة:

تأكيدُ التَّباينِ بين النَّقيضيْن؛ والجزاءُ باعتبار الصَّلاحِ والفسادِ

جاء قولُه تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ﴾، مؤكَّدًا باللّام و(قد)؛ تأكيدًا لمضمونِ الخبرِ، وللدَّلالةِ على قوَّةِ النَّقيضِ، فقومٌ أُغْرِقوا، وآخرون أُنْزِلوا مكانًا ذا رزقٍ وخيرٍ.

الإتْيانُ بالفعل (بوّأ) ماضيًا، مضافًا إلى ضميرِ التَّعظيمِ:

عَظمةُ النِّعمةِ من عظمةِ المنعمِ

في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ﴾ آثر النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ بالفعلِ الماضي لتأكيدِ تحقيقِ الحدثِ، وأسندَه إلى ضميرِ التَّعظيمِ إظهارًا لعظمةِ ذلك الإنعامِ، "أي: أسكنّا بما لنا من العظمة التي تنْقطعُ الأعناقُ دون عليائِها، وتتضاءلُ ثواقبُ الأفكارِ عن إحصائِها"[2].

توجيهُ التَّعبيرِ بلفظِ ﴿مُبَوَّأَ﴾:

سَعةُ الدَّلالةِ بالثَّناءِ على المكانِ أو على نوعِ ذلك المُبَوَّأ

في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ﴾، عبَّر النَّظمُ الكريم بلفظِ المبوَّأ الذي يحتملُ أن يكونَ المرادُ به اسمَ المكانِ أو المصدرَ[3]، فإذا كان المرادُ به اسمَ المكان، فيكونُ المعنى: أنَّه أنزلَهم مسكنًا كثيرَ الخير، وإذا أُريد به المصدرُ، فيكونُ بيانًا لنوعِ ذلك الإنزالِ، فهو قد أنزلَهم إنزالًا حسنًا.

توجيهُ المتشابه في آية يونس والجاثية:

ناسبَ كلُّ لفظٍ سياقَ ما قبلَهُ، فدلَّ على سموِّهِ في البيان

قال تعالى هنا: ﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾، وفي [الجاثية: 16] ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾، فخُصَّت الآيةُ هنا بـ ﴿بَوَّأْنَا﴾ وفي الجاثيةِ بـ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/174.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/189.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/282.

﴿ءَاتَيۡنَا﴾؛ لأنَّه لمّا كان إهلاكُ فرعونَ وجنودِه، وتمكينُ بني إسرائيل من أرضِهم وإسكانُهم فيها تبويئًا؛ دلَّ على صدق ما وعدَ اللّٰه تعالى موسى عليه السلام، وناسبَه لفظُ ﴿بَوَّأۡنَا﴾، أمّا آيةُ الجاثيةِ؛ فقد ذكر قبلَها ما آتى اللّٰه جميعَ الناسِ، ناسبَه ذكرُ ما آتاه بني إسرائيل.

إضافةُ لفظِ ﴿مُبَوَّأَ﴾ إلى الصّدقِ:

يُصدِقُ المكانُ بإيفائِه بما يُرادُ منه

في قوله عزَّ ذكرُه: ﴿وَلَقَدۡ بَوَّأۡنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدۡقٖ﴾ أضاف المبوَّأ إلى الصِّدق، وذلك أنَّ من "عادةِ العرب أنَّها إذا مدحتِ الشَّيءَ؛ أضافَتْه إلى الصِّدق؛ لأنَّه مع ثباتِه حبيبٌ إلى كلِّ نفسٍ، ويُصدِقُ ما يُظنُّ به من الخير"[1]، فلمّا كان المَنزِلُ الذي أُنزلوه يأتيهم على ما ينتظرُه السّاكنُ من الرَّغَدِ والأمانِ والخيرِ؛ أُضيف إلى الصِّدق إشارةً إلى إيفائِه بما يُنتظَرُ منه، "فالصِّدقُ هو عنوانُ الفضائلِ؛ لأنَّه يتضمَّن صدقَ القولِ وصدقَ النَّفسِ والضَّميرِ، وهو عنوانٌ لكلِّ عملٍ فاضلٍ ومكانٍ طيّبٍ"[2].

سرُّ تنكيرِ الصِّدقِ في سياق الآية الكريمة:

التَّعظيمُ من دلائلِ التَّنكير، ومن بوّأه الله؛ فقد علا قدره

في قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَلَقَدۡ بَوَّأۡنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدۡقٖ﴾ آثر النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ بصيغة التَّنكيرِ في ﴿صِدۡقٖ﴾ للدَّلالةِ على التَّعظيم والتَّفخيم، وذلك لتعظيمِ الخيرِ الَّذي في ذلك المُبَوَّأ، فالتَّنكيرُ مستعملٌ في التَّعظيمِ والتَّفخيم.

بلاغةُ جناسِ الاشتقاقِ في ﴿بَوَّأۡنَا﴾، و﴿مُبَوَّأَ﴾:

الاهتمامُ باللَّفظِ لتأكيدِ المعنى، من بيان السّياق

في قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَلَقَدۡ بَوَّأۡنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدۡقٖ﴾ جناسٌ اشتقاقيٌّ؛ حيث جيء بلفظَيْن من جَذرٍ واحدٍ في جملةٍ واحدةٍ، والمرادُ من ذلك التَّنبيهُ على مكانةِ ذلك المُبَوَّأ بتكريرِ لفظٍ من ذات الجذرِ، كما أنَّ فيه تشنيفًا للمَسْمَعِ، وكسرًا للمَلالِ بتكريرِ اللَّفظِ بصيغةٍ مختلفةٍ.

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/189.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3629.

وجهُ العطفِ بالواوِ في السّياق الكريم:

تعظيمُ الإنعامِ بالتَّصريحِ بالرِّزق المفهومِ بدلالةِ الالتزامِ

عطف النَّظمُ الجليل رِزقَ الطَّيِّبات في قوله عزَّ ذكرُه: ﴿وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ على قوله جلَّ شأنُه: ﴿بَوَّأْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾؛ لِما بينَ السَّكنِ والرِّزقِ من تلازم؛ فلمّا "كان المَنزِلُ لا يطيبُ إلّا بالرِّزقِ، وكان التَّعبيرُ عنه بالمُبَوَّأ دالًّا على الرِّزقِ بدلالةِ الالتزامِ؛ صرَّح به، فقال: ﴿وَرَزَقْنَٰهُم﴾"[1].

التَّعبيرُ عن فعلِ الرِّزقِ ماضيًا، معظِّمًا:

الإنعامُ بعظيمِ الرِّزقِ، لكونه صادرًا من الرَّزّاقِ الأعظم

في قوله تعالى: ﴿وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾، آثر النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ عن الرِّزق بالفعل الماضي، تأكيدًا لكونِه حَدَثًا مُنْجَزًا، ووعْدًا مُحقَّقًا، ثمَّ أسندَه إلى ضميرِ التَّعظيم، تنويهًا على عظمةِ ذلك الرِّزقِ، أي: رزقناهم "بما لنا من العظمةِ"[2]، فضلًا عن الضَّميرِ العائدِ إلى بني إسرائيل، وإنْ كان اللّٰه تعالى يرزقهم، كما يرزقُ جميعَ الخلائقِ، فأفردَهم بالذِّكرِ للنَّصِّ على أنَّ المقصودَ بذلك الرِّزقِ العظيمِ هم دونَ غيرِهم، إظهارًا لعظيمِ إنعامِه عليهم.

دلالةُ (مِن) في شبه الجملة ﴿مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾:

وسِعَ رزقُه لهم كلَّ ما يطيبُ به العيشُ، ويهنأ به الحال

في قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ أدخلَ (مِن) الدّالَّةَ على البيانِ؛ لبيانِ جنسِ الرِّزقِ الذي أنعمَ عليهم به، وهو أظهرُ من أنْ تكونَ تبعيضيَّةً؛ إذ إنَّ ذلك المُبَوَّأ قد حوى كلَّ ما يبتغيه المرءُ من طيبِ العيشِ، وكونُها بيانيَّةً أنسبُ للسّياقِ في بيانِ الإنعامِ عليهم بالرِّزقِ العظيمِ.

نكتةُ تعريفِ الطَّيِّباتِ وجمعِها في السّياق:

مِن عِظَمِ رزقِه كثرةُ الطَّيباتِ المُنعِم بها على العباد

في قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ جاء لفظُ الطَّيباتِ بصيغةِ الجمعِ دلالةً على التَّكثير، وعرَّفها بالألفِ واللّامِ لكونها

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/189.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/190.

من جنسِ ما يطيبُ للإنسان، فهي تشملُ "الحسّيَّةَ حَلاءً واشتهاءً من الفواكهِ، والحبوبِ، والألبانِ، والأعسالِ، وغيرها. والمعنويَّةَ من الشَّريعةِ، والكتابِ، والمعارفِ كما تقدَّم وعُدُنا لآبائِهم بذلك"[1]، فالجَمعُ يشيرُ إلى عديد ما أنعمَ اللّه تعالى عليهم به من الطّيباتِ من جميعِ الأنواعِ، والتَّكثيرُ المدلولُ عليه بالجمع يناسبُ إسنادَ الرِّزقِ إلى ضميرِ التَّعظيم.

معنى الفاء في عبارة: ﴿فَمَا ٱخۡتَلَفُواْ﴾:

افتتح قولَه جلَّ شأنُه: ﴿فَمَا ٱخۡتَلَفُواْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُۚ﴾ بالفاء السَّببيَّةِ: "أي: فتسبَّبَ عن صدقنا لهم في الوعدِ أنَّهم ما ﴿ٱخۡتَلَفُواْ﴾، أي: أوقعوا الخُلفَ المُفضي إلى جعلِ كلٍّ منهم صاحبَه خلفَه ووراءَ ظهرِه، واستهان به ﴿حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُۚ﴾ الموجِبُ لاجتماعِهم على كلمةٍ واحدةٍ لِما له من الضَّبطِ حتّى يكونَ أتباعُه على قلبٍ واحدٍ"[2].

لمّا أنجزَ اللهُ تعالى وعدَه المصدوق؛ أظهروا اختلافَهم المسوق

دلالةُ التَّعبيرِ عن الاختلافِ بالماضي المجموع:

في قولِه جلَّ شأنُه: ﴿فَمَا ٱخۡتَلَفُواْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُۚ﴾ آثر النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ عن اختلافِهم بالفعل الماضي للدَّلالةِ على تحقُّقِ الاختلافِ، وأسندَه إلى ضميرِ الجماعةِ للإعلام بكونِهم، فعلوه جماعةً، فكان الخلافُ بينهم منتشرًا ظاهرًا، لم يَسْلَمْ منه أحدٌ.

اختلافُهم ظاهرٌ محقَّقٌ، وذكره في الوحي منقول مصدَّقٌ

وجهُ التَّعبيرِ عن الاختلافِ بصيغةِ الافتعالِ:

في قوله جلَّ شأنُه: ﴿فَمَا ٱخۡتَلَفُواْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُۚ﴾ عبَّر النَّظمُ الجليل عن الاختلاف بصيغةِ الافتعالِ، و"أُريدَ به شدَّةُ التَّخالفِ، ولا يُعرف لمادةِ هذا المعنى فعلٌ مجرَّدٌ، وهي مشتقَّةٌ من الاسم الجامدِ، وهو الخَلفُ بمعنى الوراءِ، فتعيَّن أنَّ زيادةَ التّاءِ للمبالَغة، مثل: (اكتسب) مبالغةٌ في (كسب)، فيُحملُ على خلافِ تشديدٍ، وهو

كان اختلافهم فظيعًا، فتجرّأ بعضُهم على بعض بالتَّكفير

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/190.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/190.

مُضادَّةُ ما جاء به الدِّينُ، وما دعا إليه الرَّسولُ ﷺ، وهو المناسبُ للسّياق؛ فإنَّ الكلامَ ثناء مُردَفٌ بغاية تؤذِن أنَّ ما بعدَ الغايةِ نهايةٌ للثناء وإثباتٌ للَّوم؛ إذْ قدْ نفى عنهم الاختلافَ إلى غايةٍ تؤذِن بحصول الاختلافِ منهم عندَ تلك الغايةِ، فالذين لم يختلفوا هم الذين بوَّأهم الله مُبَوَّأ صدقٍ، وقد جاؤوا بعدَهم إلى أنْ جاءَ الذين اختلفوا على الأنبياءِ"[1].

دلالةُ (حَتّى) في السّياق الكريم:

دوام النِّعمةِ بالاتِّباعِ، ومآلها في الاختلافِ إلى الانقطاع

في قوله تعالى: ﴿فَمَا ٱخۡتَلَفُواْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُۚ﴾ عبَّر بـ (حتّى) الدالَّةِ على الغايةِ بعد ذكرِ الاختلافِ المنفي، وتعقيب ذلك النَّفي المُشْعِرِ بالمدحِ والثَّناء "بالغاية يؤذِن بأنَّ ما بعد الغاية منتَهى حالةِ الشُّكرِ، أي: فَبَقَوا في ذلك المبوَّأ، وفي تلك النِّعمةِ، حتّى اختلفوا، فسُلبتْ نعمتُهم"[2].

بيانُ تعريفِ العلمِ ودلالتُه في السّياق البليغ:

لم يكن اختلافُهم إلّا بمجيء العلمِ الدّاعي للمعرفةِ والتَّبصُّر

في قوله عزَّ ذكرُه: ﴿فَمَا ٱخۡتَلَفُواْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُۚ﴾ عرَّف العلمَ إشارةً للوحي المنزَّلِ إليهم، "أي: ما تفرَّقوا على مذاهبَ شتّى في أمر دينِهم إلّا من بعدِ ما جاءَهم العلمُ الحاسمُ لكلِّ شبهةٍ، وهو ما بين أيديهم من الوحي الذي يَتْلونَهُ، أي: وما كان حقُّهم أن يختلفوا، وقد بيَّنَ الله لهم، وأزاحَ عنهم اللَّبسَ"[3]، فأسبابُ الاختلافِ منتفيةٌ، ومع ذلك اختلفوا.

بلاغةُ المجازِ المرسلِ في الآية:

أنزلَ ما جاءهم من الوحي منزلةَ العلمِ كلِّهِ لكفايتِه ونبله

في قوله تعالى: ﴿فَمَا ٱخۡتَلَفُواْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُۚ﴾ مجازٌ مرسلٌ، والعلاقةُ المفعوليَّة؛ إذ أطلقَ المصدرَ على المفعولِ، أي: جاءهم

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/282.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/283.
(3) القاسميّ، محاسن التّأويل: 6/61.

المعلومُ، فالعلمُ هو ما بلغَهم من الوحي[1]، فأطلقَ عليه العلمَ للمبالغةِ في مكانةِ ما جاءَهم، فجعلَه العلمَ كلَّه لِما احتواه من الحقائقِ الصَّحيحةِ.

بلاغةُ الاستعارةِ المكنيَّةِ في سياق العِلْم:

مجيء العلم كمجيء الشَّخصِ الَّذي لا يَخفى على العينِ

في قوله جلَّ شأنُه: ﴿فَمَا ٱخۡتَلَفُواْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُۚ﴾ استعارةٌ مكنيَّةٌ؛ حيث شبَّه العلمَ بشخصٍ يجيء، فحذفَ المشبَّهَ به، وأبقى قرينةَ المجيءِ، بجامع الظُّهورِ والانكشافِ والبيانِ، فالعلمُ حاضرٌ مكشوفٌ كحضورِ الشَّخصِ الذي لا يُشكُّ به، وكذلك العلمُ الذي حصل لهم، فهو استعارةٌ مكنيَّةٌ الغرض منها تأكيدُ حصولِ العلمِ الذي لا شبهةَ فيه لهم.

متشابه النّظم:

جيء بـ الحرف (حتّى)، وتفصيلُ الكفر والبغي يناسبُه التَّأكيدُ بالقصر

قوله عزَّ ذكرُه: ﴿فَمَا ٱخۡتَلَفُواْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُۚ﴾ يشابِهُ قوله تعالى: ﴿فَمَا ٱخۡتَلَفُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۚ﴾ [الجاثية: 17]، فلِمَ خُصَّتْ كلُّ آية بما فيها بعدَ قوله: ﴿فَمَا ٱخۡتَلَفُواْ﴾؟ والإجابةُ عن ذلك: أنَّ الآيةَ في سورةِ يونس بدأت بقوله: ﴿وَلَقَدۡ بَوَّأۡنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدۡقٖ وَرَزَقۡنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ فلمّا كان مجيءُ العلمِ نهايةَ عدم اختلافِهم؛ ناسبَهُ قولُه: ﴿فَمَا ٱخۡتَلَفُواْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُۚ﴾. أمّا الآيةُ في سورةِ الجاثية؛ فقد بدأت بقوله: ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُم بَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِۖ﴾ بعد قوله: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحُكۡمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقۡنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلۡنَٰهُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الجاثية: 16]؛ فلمّا كان ذلك تفصيلًا وتأكيدًا لِما آتاهم اللّه من وسائل العلمِ التي تمنعُهم من الاختلاف؛ ناسبَهُ تأكيدُ اختلافِهم بأسلوب القصرِ (ما وإلّا)، وذكرَ سببَ الاختلافِ بقوله: ﴿فَمَا ٱخۡتَلَفُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۚ﴾.

(1) القاسميّ، محاسن التّأويل: 6/61.

بلاغةُ التَّذييلِ بالجملة آخر الآية:

تهديدٌ ووعيدٌ للحاضرين بسالفِ القَصصِ

الجملةُ في قوله جلَّ شأنُه: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ جاءتْ في ختام الآيةِ، بعد ذكرِ الإنعام واختلافِهم بعد مجيء العلم، فهي "تذييلٌ وتوعُّدٌ، والمقصودُ منه: أنَّ أولئك قومٌ مضوا بما عملوا، وأنَّ أمرَهم إلى ربِّهم كقوله: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ﴾ [البقرة: 134]، وفيه إيماءٌ إلى أنَّ على الحاضرين اليوم أنْ يفكِّروا في وسائلِ الخلاصِ من الضَّلال والوقوع في المؤاخذةِ يومَ القيامةِ"[1].

نكتةُ التَّوكيدِ بإنَّ في قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾:

الإخبارُ بالغيبِ يقتضي التَّأكيدَ، لضمان التَّصديق

في قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ افتتح الجملةَ الخبريَّةَ بحرف التَّأكيد (إنّ) تأكيدًا للخبر، وهذا التَّأكيدُ يقتضيه سياقُ الإخبارِ عن الإنعام عليهم، ثمَّ إتباعُه بكونِه سيحاسبُهم بالإنعامِ عليهم بالدُّنيا قد يُفهم منه دوامُ الإنعام بغَضِّ النَّظرِ عن أعمالِهم، فجاء تأكيدُ الإخبارِ عن حسابهم دفعًا للإنكارِ المظنونِ، ولكونه إخبارًا بالغيب فيقتضي تأكيدَ مضمونِه، كما أنَّ هذا التَّأكيدَ يُعَدُّ تمهيدًا لذكر الشَّكِّ الآتي في الآيةِ اللّاحقةِ.

نكتةُ إيثارِ لفظِ الرُّبوبيَّةِ في قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾:

القائمُ على مصالحِ العبادِ، لا تضيعُ الحقوقُ عندَه مطلقًا

في قوله عزَّ ذكرُه: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ آثر النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ بلفظ الرُّبوبيَّةِ دون الاسمِ الجليلِ إشارةً إلى أنَّ الرَّبَّ المحسنَ القائمَ على مصالح العبادِ هو مَن يقومُ على مصالحِهم يومَ القيامةِ بإعطاء كلِّ ذي حقٍّ حقَّه.

بيانُ إضافةِ لفظِ الرَّبِّ إلى كافِ الخطابِ:

مَن سبقَ منه الإحسانُ، يُنتظرُ منه الدَّوامُ بغاية الاطمئنان

في قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ﴾ آثر النَّظمُ الكريم إضافةَ لفظِ الرَّبِّ إلى ضمير المخاطبِ العائدِ للنَّبيِّ ﷺ تثبيتًا له وتأييدًا،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/283.

أي: إنَّ ربَّك "المحسنَ إليك بإيصاءِ الأنبياء بك ووصفِك في كتبِهم وجعلِك صاحبَ لواءِ الحمْدِ في القيامة ﴿يَقْضِي بَيْنَهُمْ﴾"[1]، ففيه تطمينٌ وحِفْظٌ من الضِّيق.

بلاغةُ الالتفات بالخطابِ باسم الرُّبوبيَّة تأنيسٌ للمخاطبِ المكرم:

أسلوب الالتفات تشويق للإخبار وتلوين للسّياقات

في الآية التفاتٌ من التَّكلُّم إلى الغَيْبة؛ والغايةُ من ذلك: التَّعبيرُ بصفة الرُّبوبيَّةِ مضافًا إلى ضمير الخطابِ العائدِ للنَّبيِّ ﷺ تأنيسًا له بأنَّ مَن يحكمُ بينهم هو ربُّك القائمُ على أمرك، ومن ضِمْنِ شأنِك أنْ ينزِّلَ بمن كذَّب رسالتَك ما يستحقُّه من سوءِ المآلِ.

فائدةُ صيغةِ المضارعِ في لفظِ ﴿يَقْضِي﴾:

زمانُ القضاءِ ممتدٌّ متطاولٌ، لا حدود له ولا آماد

في قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾، آثر النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ بالفعل المضارعِ عن قضائِه ﷻ للدَّلالةِ على أنَّه قضاءٌ يدومُ زمانًا طويلًا، وأنَّه يقتضي التَّجدُّدَ والدَّوامَ.

فائدةُ الإطنابِ بقولِه: ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾:

التَّهويلُ بالإشارة إلى أنَّه كائنٌ في يومٍ عظيمٍ

في قوله عزَّ ذكرُه: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ إطنابٌ بذكر ما لا يُجهل، فلا خلافَ أنَّ قضاءَ اللّٰه تعالى بين النّاس في الخلافِ كائنٌ يومَ القيامة، فالإخبارُ به من الإعْلامِ بما هو معلومٌ؛ فلا بدَّ في الكلامِ البليغِ من فائدةٍ تتحصَّلُ من الإخبارِ بذلك، فلمّا كان ما سبقَ تهديدًا عظيمًا، زاده هولًا وعظمةً بالإخبار عن كونِه سيكونُ في يومٍ هو أعظمُ الأيامِ[2].

معنى (في) في قوله: ﴿فِيمَا كَانُواْ﴾:

المُختلَفُ فيه مَيْدانٌ للقضاءِ، وموئل للرَّجاء

في قوله جلَّ شأنُه: ﴿فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ عبَّر بـ (في) الدّالَّةِ على الظَّرفيَّةِ المجازيَّةِ، فكأنَّ القضيَّةَ التي يُحكم فيها تتحوَّلُ إلى ميدانٍ للتَّحاكمِ والقضاءِ.

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/190.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/190.

إيثارُ الموصولِ (ما) في قولِه: ﴿فِيمَا كَانُواْ﴾:

حكمُ العدالةِ لا يغيبُ عنه شيءٌ، لإحاطته بكلِّ شيء

في قوله عزَّ ذكرُه: ﴿فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ﴾ آثر النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ باسم الموصولِ (ما) الدّالِّ على العموم، للدَّلالةِ على أنَّ القضاءَ سيتعلَّقُ بكلِّ ما وقع فيه خلافٌ بينهم، والحاكمُ العادلُ لا يخفى عنه شيءٌ، ولا يغيبُ عن داعي العدالة أيُّ شيء مصداقًا لقوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٍ أَتَيۡنَا بِهَاۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾ [الأنبياء: 47].

فائدةُ فعلِ الكينونةِ (ماضيًا، مجموعًا):

رسَخوا في الاختلافِ، وكان كلُّ حزبٍ بما لديهم فرحين

في قوله تعالى: ﴿فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ﴾، لمّا كانوا في الاختلافِ راسخين، وعليه دائمين وثابتين، حتّى كأنَّهم امتهنوه، ودَأبوا عليه الزَّمانَ الطويلَ عبَّر عن ذلك بالفعلِ (كان) للدَّلالةِ على رسوخِ ذلك الفعلِ فيهم، والتَّعبيرُ عن ذلك بضميرِ الجمعِ للدَّلالةِ على أنَّهم كانوا في ذلك الفعلِ مُتَوافقين، والخلافُ بينهم واقعٌ على مستوى الجماعةِ لا الأفرادِ.

سرُّ تقديمِ شبهِ الجملةِ (فيه) على ﴿يَخۡتَلِفُونَ﴾:

المحكومُ فيه أهمُّ من الاختلافِ، فقُدِّم للاهتمام به

في قوله جلَّ شأنه: ﴿كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ﴾ قدَّم النَّظمُ الجليل شبهَ الجملةِ من الجار والمجرور ﴿فِيهِ﴾ على الجملة الواقعةِ خبرًا للفعلِ النّاقصِ، فلم يقلْ: (فيما كانوا يختلفون فيه)، لِما في ذلك من مراعاةٍ للفاصلةِ اهتمامًا بالتَّأثير الصَّوتيِّ، كما فيه إشارةٌ إلى أنَّ الاهتمامَ بما يحكمُ فيه كائنٌ على ما وقع فيه اختلافٌ، فالقضيَّةُ المختَلَفُ فيها أهمُّ من الاختلافِ ذاتِه، فقدَّم ذكرَ ضميرِها في الجارِّ والمجرورِ إشارةً إلى تلْكُمُ الأهميَّة.

بلاغةُ ردِّ العجزِ على الصَّدرِ:

ردُّ آخرِ الكلامِ على أوَّلِه، يزيدُ الرَّصفَ سبكًا والسّياقَ ربطًا

في قوله عزَّ ذكرُه: ﴿فَمَا ٱخۡتَلَفُواْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقۡضِي بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ﴾ [يونس: 93] من فنون

البديعِ بردِّ العجزِ على الصَّدرِ[1]؛ إذ جاء أحدُ اللَّفظين المكرَّرَيْن (اختلفوا، ويختلفون) في أوَّل العبارةِ والآخرُ في آخرِها؛ وفائدةُ ذلك الاهتمامُ باللَّفظِ المكرَّرِ، وعلى الأخصِّ مجيئه في الختام، حيث تتعلَّقُ الأسماعُ بختمِ الكلامِ، فإذا به يعودُ على أوَّله، فيزيدُ ذلكَ ربطَ الكلامِ وسبكَه.

فنُّ الإرصادِ أو التَّسهيمِ في سياق الآية:

تهيئةُ السّامعِ بذكرِ القضاءِ والاختلافِ، لجودةِ السَّبكِ المعنويِّ

في قوله جلَّ شأنُه: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ فنُّ الإرصاد، أو التَّسهيم[2]، لِما في الآيةِ من ألفاظٍ تفيد التَّهيئةَ والإعدادَ، فلمّا ذكر القضاءَ يومَ القيامة بينهم؛ دلَّ ذلك على التَّمهيدِ لذكرِ الاختلافِ، لا سيَّما وأنَّ في الآية ردَّ العجزِ على الصَّدرِ بتكرارِ لفظَيْن من الاختلافِ، فتعاضدَ ذلك على حسنِ السِّياقِ وجمالِ البناءِ وجودةِ السَّبكِ.

سرُّ إيثارِ التَّعبيرِ بالفعلِ ﴿يَخْتَلِفُونَ﴾ دونَ (مختلفين):

اختلافُهم دائمٌ لا ينقطعُ، وذلك قانونُ الحياةِ والوجودِ

في قوله عزَّ ذكرُه: ﴿فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ آثر النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ بالفعل المضارع دونَ الاسم تعبيرًا عن اختلافِهم؛ للدَّلالةِ على استمرارِهم بالاختلاف، وكأنَّ اختلافَهم لمّا يزلْ إلى حين الحكمِ والمقاضاةِ.

توجيهُ المُتشابَه بين هذه الآية في يونس، وآيتي يونس والنَّمل:

كلُّ سياقٍ ورد في عبارة (إنَّ ربَّكَ يقضي بينهم) ناسب سياقه بدقَّة

في قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ يوجد تشابهٌ مع قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُم بِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [النّمل: 78]، وقوله جلَّ شأنه: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ

(1) ردّ العجز على الصَّدر: ويسمّى التَّصدير: هو "أن يجعل أحد اللَّفظين المكرَّرَيْن أو المتجانسيْن أو الملحقيْن بهما في أوَّل الفقرة، والآخرَ في آخرها". يُنظر: بهاء الدّين السّبكي، عروس الأفراح: 2/293.

(2) الإرصاد: "ويسمّيه بعضهم: التَّسهيم، وهو أن يجعل قبلَ العجز من الفقرة أو من البيت ما يدلُّ عليه إذا عرف الرويَّ، نحو: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَـٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾". يُنظر: الإسفراييني، الأطول شرح تلخيص مفتاح العلوم: 1/99.

يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [السّجدة: 25]، حيث ورد في آيتي يونس والنَّمل قوله تعالى: ﴿يَقْضِى﴾، وفي آيةِ السَّجدةِ وَرَدَ قولُه: ﴿هُوَ يَفْصِلُ﴾، وفي آيتي يونسَ والسَّجدةِ قولُه: ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾، ولعلَّ ذلك يرجعُ إلى أنَّ آيتي يونسَ والسَّجدةِ تتحدَّثان عن بني إسرائيل واختلافِهم فيما جاءَهم من العلم، والمرادُ به رسولُ الله ﷺ والقرآنُ في آيةِ يونسَ، أو اختلافُهم في القرآن الكريم، فمنهم مَن يؤمنُ، ومنهم مَن لا يؤمنُ به في آيةِ السَّجدةِ، ولمّا كانت الدُّنيا دارَ اختلافٍ، والآخرةُ دارَ قضاءٍ وفصلٍ بين المختلفين، وكان القضاءُ معناه بيان أيِّ المختلفين على هدًى وأيُّهم في ضلال مبين، وكان الفصل معناه التَّفريقُ بين المختلفين تفريقًا حاسمًا لا رادَّ له بوجوب الجنَّةِ ووجوبِ النّارِ، وكان القضاءُ مقدِّمةً للفصل، وكانت سورةُ يونسَ قبلَ سورةِ السَّجدةِ ترتيبًا ونزولًا؛ ناسبَ ذلك اختصاصَ سورة يونسَ بقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ﴾، واختصاصَ سورة السّجدةِ بقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ﴾. ولمّا كان أكثرُ بني إسرائيل لا يؤمنون بالرَّسولِ ﷺ ولا بالقرآنِ حسدًا، وبعدَ أن كان بنو إسرائيل مفضَّلين على العالمين، ولمّا اعترضوا على مرادِ الله واختيارِه، ولمّا كان هذا الاعتراضُ لا قيمةَ له؛ ناسبَ ذلك إنزالُ المُنكرِ منزلةَ غيرِ المُنكرِ، فأكَّد الخبرَ بمؤكِّدٍ واحدٍ (إنّ) في آية يونسَ، ولمّا كان بنو إسرائيل لا يؤمنون بالقرآن؛ ناسبَ ذلك تأكيدَ الخبرِ بأكثرَ من مؤكِّدٍ (إنّ) وضميرِ الفصلِ الذي يفيدُ قصرَ ما بعدَه عليه في آية السَّجدةِ؛ مراعاةً لحال بني إسرائيل، وتثبيتًا من الله لرسولِه ﷺ، وأتْباعِه، أمّا آيةُ النَّملِ؛ فهي خاصَّةٌ بمَن آمن بالقرآن الكريم، ومَن لم يؤمنْ به من جميعِ الأممِ، فهؤلاء يقضي بينهم الله بحكمه، ولمّا كان ذلك عامًّا، وليس خاصًّا باختلافهم في القرآن؛ ناسبه عدم ذكر قوله: ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾، ولمّا كان القضاءُ بالحكم يلزمُه قوَّةٌ تنفِّذُه، وتَغلِبُ كلَّ شيءٍ، ولا يَغلبُها شيءٌ، ويلزمُه علمٌ راسخٌ كاملٌ تامٌّ بكلِّ شيءٍ؛ ناسبه وصفُ الله بأنَّه العزيزُ العليمُ بقوله: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ﴾.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

دلالةُ (يقضي)، و(يحكم):

القضاءُ: يَدُلُّ عَلى إحْكامِ أمْرٍ وإتْقانِهِ وإنْفاذِهِ لِجِهَتِهِ، قالَ اللّه تَعالى: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ

القضاءُ الفصلُ في الأحكام، والحكمُ منعُ الظُّلمِ وإقامةُ العدلِ

سَمَٰوَاتٍ فِي يَوۡمَيۡنِ﴾ [فصلت: 12] أي: أحْكَمَ خَلْقَهُنَّ. والقَضاءُ: الحُكْمُ، قالَ اللّه سُبْحانَهُ في ذِكْرِ مَنْ قالَ: ﴿فَٱقۡضِ مَآ أَنتَ قَاضٍۖ﴾ أي: اصْنَعْ واحْكُمْ، ولِذَلِكَ سُمّيَ القاضي قاضيًا؛ لِأَنَّهُ يُحْكِمُ الأحْكامَ، ويُنْفِذُها[1]. وهو فصل الأمر قولًا كان ذلك أو فعلًا، كقوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: 23] أي: أمرَ بذلك، وقال: ﴿وَقَضَيۡنَآ إِلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ فِي ٱلۡكِتَٰبِ﴾ [الإسراء: 4]، فهذا قَضاءٌ بالإعلامِ والفصلِ في الحكم، أي: أعلمْناهم، وأوحيْنا إليهم، ومن القولِ: قضى الحاكمُ بكذا، فإنَّ حُكْمَ الحاكم يكونُ بالقول[2]. والحُكم: المَنْعُ. وأوَّلُ ذَلِكَ الحُكْمُ، وهوَ المَنْعُ مِنَ الظُّلْمِ[3]. والحُكْم بالشيء: أن تقضي بأنَّه كذا، أو ليس بكذا، سواءٌ ألزمت ذلك غيرَه، أو لم تلزمْه، قال تعالى: ﴿وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ﴾ [النساء: 58][4]، وأحْكَمْتُ وحَكَّمْتُ بِمَعْنى: مَنَعْتُ ورَدَدْتُ، ومِنْ هَذا قيلَ لِلْحاكِمِ بَيْنَ النّاسِ: حاكِمٌ؛ لأنَّه يَمْنَعُ الظّالمَ مِنَ الظُّلْمِ[5]. وعبَّر في الآية بالقضاء؛ لأنَّه يفصل بينهم، ولم يرِدْ أنَّه يمنع الظُّلْمَ بينهم يومَ القيامة؛ لأنَّهُ لا ظلمَ هناك.

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (حكم).
(2) الرّاغب، المفردات: (قضى).
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (حكم).
(4) الرّاغب، المفردات: (حكم).
(5) ابن منظور، لسان العرب: (حكم).

﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ فَسۡـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقۡرَءُونَ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكَۚ لَقَدۡ جَآءَكَ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ ٩٤﴾ [يونس: 94]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

شقاء بني إسرائيل بما أوتوا، وكون الحقِّ ما أنزل على نبيِّ الختام

لمّا كان "ما مضى - من آياتِ هذه السّورةِ المبيِّنةِ أنَّ مَن أُريدت شقاوتُه لا ينفعُه مشاهدةُ الآياتِ - سببًا لنفي الشَّكِّ عنها وإثباتِ اليقينِ بمضامينِها بما سلفَ من الأدلَّةِ على تلك المضامين. وكان ﷺ - كما مضى في آخرِ التي قبلَها - أشفقَ الخَلْقِ لا سيَّما على العربِ وعلى قومِه منهم خصوصًا، وكانت الوصيَّةُ قد برزت من الجنابِ الإلهيِّ له بما يوافق طَبعَه من بذلِ الجهدِ في ملاطفتِهم، كان ذلك جديرًا بأن يحرِّكَ طبعَ البشرِ لتمنّي الإجابةِ لِما يقترحون، وكان طلبُ ذلك بعد الفطامِ عنه من أفعال الشَّكِّ في الجملةِ، فأُريد صرفُ النَّفسِ عنه بالكلّيَّةِ، ولو بالحضورِ في البال، فقيلَ مسبَّبًا عمّا قبلَه: ﴿فَإِن كُنتَ﴾"[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿شَكٍّ﴾: أصلُ الشَّكِّ يَدُلُّ على التَّداخُلِ، ومِنْ ذلكَ قَولُهُم: شَكَكْتُهُ بالرُّمحِ؛ وذلكَ إذا طَعَنْتَهُ، فَداخَلَ السِّنانُ جِسْمَهُ، ومِنْ هذا البابِ الشَّكُّ، الَّذي هو خِلافُ اليقينِ؛ إنَّما سُمّيَ بذلكَ؛ لأنَّ الشّاكَّ كأنَّهُ شُكَّ له الأمرانِ في مَشَكٍّ واحدٍ، وهو لا يَتيقَّنُ واحدًا منهُما، فمن ذلكَ اشتقاقُ الشَّكِّ[2]. والشَّكُّ أيضًا: الرَّيْبُ[3]. ويأتي بمعنى

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/204.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (شكك).
(3) ابن سِيدَه، المخصّص: 4/346.

التباسِ الأمرِ وعدمِ اتِّضاحِه[1]. والشَّكُّ في قوله: ﴿فَإِن كُنتَ فِي﴾: من باب التَّهييجِ والتَّثبيتِ، وقطعِ الأطماعِ عنه ﷺ كقوله تعالى: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ [القصص: 86][2].

2) ﴿ٱلْمُمْتَرِينَ﴾: أصلُ المَرْيِ من: مَرَيْتُ النّاقةَ؛ إذا مَسَحْتُ ضرعَها للحَلْب[3]، والمِرْيَةُ: التَّردُّد في الأَمْرِ، وهو أخصُّ مِن الشَّكِّ، قال تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ﴾ [الحج: 55][4]، والامتراءُ: المحاجَّةُ فيما فيه مرية، قال تعالى: ﴿قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ [مريم: 34]. والمِراءُ أيضًا: الجِدالُ، والمُماراةُ: المُجادَلَةُ على مَذْهبِ الشَّكِّ والرّيبة، ويُقالُ للمُناظَرَةِ: مُماراةٌ؛ لأنَّ كلَّ واحدٍ يَسْتَخْرِجُ ما عنْدَ صاحِبِه، ويَمْتَريه، كَما يَمْتَري الحالِبُ مِن الضَّرْعِ[5]، والمقصود بـ ﴿ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ في الآية: المتردِّدين[6].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

الأمـرُ بسـؤالِ أهلِ العلمِ، لمَن وقع له شَكٌّ أو شبهةٌ

يخاطبُ اللّه تعالى النَّبيَّ ﷺ والمرادُ سواه، يقولُ تعالى: فإنْ كنتَ - يا محمد ﷺ - في شكٍّ مِن حقيقةِ ما أخبَرْناك في القرآنِ مِن أنَّ بني إسرائيلَ لم يختَلِفوا في أمرِك إلّا مِن بعدِ مَجيئِك - لأنَّهم يَجِدونَك مكتوبًا عندهم، ويَعرِفونك بصِفاتِك الواردةِ في كُتُبِهم - فاسألْ أهلَ الكِتابِ الذين يقرَؤونَ التَّوراةَ والإنجيلَ مِن قبلِك؛ فإنَّهم يَعلَمونَ صحَّةَ ذلك، لقد جاءك الحَقُّ اليقينُ مِن رَبِّك بأنَّك رسولُ اللّه، وأنَّ هؤلاءِ اليَهودَ والنَّصارى يعلمونَ صِحَّةَ ذلك، ويَجِدونَ صِفتَك في كُتُبِهم، ولكِنَّهم يُنكِرونَ ذلك مع عِلمِهم به، فلا تكونَنَّ من الشّاكّينَ في صِحَّةِ ذلك[7].

(1) الفيوميّ، المصباح المنير: (شكك).
(2) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/124.
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (مري).
(4) الرّاغب، المفردات: (مرى).
(5) الزبيدي، تاج العروس: (مري).
(6) السجستانيّ، غريب القرآن، ص: 434، والرّاغب، المفردات: (مرى)، وابن الهائم، التّبيان، ص: 97.
(7) ابن جرير، جامع البيان: 12/285، 286، وابن عطيّة، المحرر الوجيز: 3/143، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/296.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ إضمارِ الخطابِ العامّ في الخطابِ الخاصّ:

خطابُ الأمَّة بقائدِها أدلُّ على الإلزامِ وأدعى للالتزام

في قوله تعالى: ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ﴾ جاء الخطابُ بالضَّمير المفردِ، والمرادُ به لكلِّ سامعٍ غيرِ النبيِّ ﷺ؛ "وكثيرًا ما يأتي الخطابُ في ظاهرِه لشخصٍ، والمرادُ غيرُه"[1]. وإنَّ خطابَ الأمَّةِ من خلال الضَّميرِ الذي ظاهرُه أنَّه عائدٌ للنَّبيِّ ﷺ فيه حثٌّ على الامتثال؛ فإنَّ "الأمرَ بإمامِ القومِ وسيّدِهم يستلزمُ الأمرَ لتوابعه، وهذا اللّازمُ هو المرادُ هنا؛ لقيام القرينةِ المانعةِ عن إرادةِ ظاهرِه منفردًا أو مع قومِه"[2]؛ لأنَّ النَّبيَّ ﷺ لا يشكُّ أصلًا، وقد عَدَلَ النَّظمُ عن خطاب الأمَّةِ مباشرةً؛ لأنَّ الله "ﷻ يُضْمِرُ خطابَ الأمَّةِ في خطاب رسولِه ﷺ؛ لأنَّ الأتْباعَ حين يقرؤون، ويسمعون الخطابَ، وهو موجَّه بهذا الأسلوبِ إلى الرَّسول ﷺ فَهُمْ لن يستنْكِفوا عن أيِّ أمر يصدُرُ إليهم... وجاء الأمرُ هنا لرسول الله ﷺ؛ لتفْهمَ أمَّتُه أنَّ الرَّسولَ ﷺ ما كان لِيتأبّى على أمرٍ من أوامرِ الله، بل هو ﷺ ينفِّذُ كلَّ ما يُؤمَرُ به بدقَّةٍ؛ وذلك من بابِ خطابِ الأمَّة في شخصيَّةِ رسولِها ﷺ"[3]، وذلك بحسْبِ مضمونِ الكلام، فلمّا كان الشَّكُّ في الدّين من خطيرِ الأسبابِ المؤدّيةِ للكفرِ؛ جاء التَّعبيرُ عنه بهذا الأسلوبِ البليغِ.

دلالة الفاءِ على السَّببيَّة، وأثرها في السّياق:

احتمالُ وقوعِ الشَّكِّ بسببِ ما يقع في روايةِ القَصَصِ

في قوله جلَّ شأنه: ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ﴾، عبَّرَ بالفاءِ الدّالَّةِ على السَّببيَّةِ للدَّلالةِ على أنَّ الشَّكَ المفترضَ قد يتسبَّبُ عن القَصَصِ السّابقِ؛ إذ إنَّ حكايةَ القَصَصِ سببٌ للشَّكِّ، مع قطعِ النَّظرِ عن قائلِه[4].

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/106، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/175.
(2) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 9/563.
(3) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 10/6198.
(4) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 9/562.

دلالةُ التَّعبيرِ بالجملةِ الشَّرطيَّةِ:

تأكيدُ الحقِّ بوجودِ الإجابةِ عن كلِّ شكٍّ

في قوله جلَّ شأنُه: ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ فَسۡـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقۡرَءُونَ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ عبَّر النَّظمُ الكريم بالجملةِ الشَّرطيَّةِ تأكيدًا لكونِه ﷻ على الحقِّ، "فإنَّ مضمونَ الشرطيةِ إنَّما هو تعليقُ شيءٍ بشيءٍ من غيرِ تعرُّضٍ لإمكانِ شيءٍ منهما، كيف لا؟ وقد يكونُ كلاهما ممتنعًا، كقوله ﷻ: ﴿قُلۡ إِن كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ وَلَدٞ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡعَٰبِدِينَ﴾، وقوله تعالى: ﴿لَئِنۡ أَشۡرَكۡتَ لَيَحۡبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ ونظائرِهما"[1]. فأجرى افتراضَ وجودِ الشَّكِّ مجرى العقدِ المنجَزِ بتعليقِه بالسُّؤال، تحقيقًا لرفعِ الشَّكِّ، والغرضُ من ذلك تأكيدُ أنَّه على حقٍّ، فعلى سبيلِ الافتراضِ لو وقعَ شكٌّ فإنَّ الشَّكَّ يُزالُ بالسُّؤال؛ لأنَّ العلمَ بحقِّيَّةِ المُنزَلِ إليك معروفةٌ للسّابقين عليك.

إيثارُ أداةِ الشَّرطِ (إنْ) دونَ (إذا):

افتراضُ الشَّكِّ بلا تعرُّضٍ لإمكانِه، ينفي وجوده في إبّانه

في قوله عزَّ ذكرُه: ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ﴾ عبَّر النَّصُّ الكريم بـ (إنْ) الشَّرطيَّةِ دون (إذا)؛ لأنَّ "(إنْ) الشَّرطيَّةَ تقتضي تعليقَ شيءٍ على شيءٍ، ولا تستلزمُ تحتُّمَ وقوعِه ولا إمكانِه، بل قد يكونُ ذلك في المستحيلِ عقلًا كقولِه تعالى: ﴿قُلۡ إِن كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ وَلَدٞ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡعَٰبِدِينَ﴾ ومستحيلٌ أن يكونَ له ولدٌ، فكذلك هذا مستحيلٌ أن يكونَ في شكٍّ، وفي المستحيل عادةً كقوله تعالى: ﴿فَإِنِ ٱسۡتَطَعۡتَ أَن تَبۡتَغِيَ نَفَقٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ أَوۡ سُلَّمٗا فِي ٱلسَّمَآءِ فَتَأۡتِيَهُم بِـَٔايَةٖ﴾ أي: فافعلْ، لكن وقوعَ (إنْ) للتَّعليقِ على المستحيلِ قليلٌ، وهذه الآيةُ من ذلك"[2]؛ وذلك لأنَّ الشَّكَّ غيرُ متصوَّرٍ مِنَ النَّبيِّ ﷺ.

بيانُ توجيهِ الخطابِ بالفعلِ ﴿كُنتَ﴾ في السّياق:

في قوله جلَّ شأنُه: ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ﴾، عبَّر

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/175.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/105 - 106.

النَّظمُ الجليل عن الشَّكِّ افتراضًا بالفعلِ (كان) للدَّلالةِ على نوعٍ من الشَّكِّ بعينِه، وليس الشَّكُّ الَّذي يأتي بخاطرةٍ أو فكرةٍ عابرةٍ، بل المرادُ وجودُه في الشَّكِّ وكينونتُه فيه، والمرادُ من ذلك المبالغةُ في شأن الشَّكِّ الَّذي سِيقَ الكلامُ لأجْلِهِ، بحيثُ أن يكونَ شكًّا في أصل الوحي والنُّبوَّةِ والدّينِ.

الشَّكُّ المعتبرُ أن يكون عقديًّا لا عرضيًّا ولا مَرَضيًّا

معنى (في) في قوله: ﴿فِي شَكٍّ﴾ في السّياق الحكيم:

في قوله عزَّ ذكرُه: ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ﴾ أدخلَ النَّظمُ الجليل (في) الدّالَّةَ على الظَّرفيَّةِ على الشَّكِّ، فهي "للظَّرفيَّة المجازيَّة، كالتي في قولِه تعالى: ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرۡيَةٖ مِّمَّا يَعۡبُدُ هَٰٓؤُلَآءِۚ﴾ [هود: 109]"[1]؛ إذ إنَّ الشَّكَّ ليس وِعاءً للإنسانِ، فجعلَ الشَّكَّ الذي هو معنًى ظرفًا للإنسانِ فيه مبالغةٌ بذلك الشَّكِّ، بحيثُ إنَّه تضخَّمَ حتّى احتوى صاحبَهُ.

جَعْلُ الشَّكِّ ظرفًا مبالغةٌ في شأنِهِ وفي أثره وتأثيره

إيثارُ لفظِ (الشَّكِّ) دونَ (الرَّيبِ) في سياق الآية:

في قوله جلَّ شأنُه: ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ﴾، آثر النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ بالشَّكِّ دونَ الرَّيبِ؛ لأنَّ المرادَ الشَّكُّ بوجود الوحي من عدمِه، وعدمُ اليقينِ بالشَّيءِ وجودًا وعدمًا يُعبَّرُ عنه بالشَّكِّ لا بالرَّيبِ؛ فالشَّكُّ هو "اختلافُ النَّقيضَيْن عند الإنسانِ وتساويهُما، وذلك قد يكونُ لوجودِ أمارتَيْن متساويتَيْن عندَه في النَّقيضَيْن، أو لعدم الأمارةِ فيهما، والشَّكُّ رُبَّما كان في الشَّيء، هل هو موجودٌ أو غيرُ موجودٍ"[2]، أمّا الرَّيبُ؛ فهو أخصُّ من الشَّكِّ؛ فهو شكٌّ مع تهمةٍ، أو هو مجرَّدُ التَّوهُّم، فالرَّيبُ هو "أن تتوهَّم بالشَّيءِ أمرًا ما، فينكشفُ عمّا تتوهَّمُه"[3].

الشَّكُّ أعمُّ في الدَّلالةِ على عدمِ اليقينِ، والرَّيبُ شكٌّ مع تهمةٍ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/285.
(2) الفيروزاباديّ، البصائر: (شك).
(3) الرّاغب، المفردات: (شكك).

فائدةُ استحضارِ الشَّكِّ في قولِه: ﴿فِي شَكٍّ﴾:

مَن خالجَتْهُ شبهةٌ؛ ينبغي حلُّها بالرُّجوعِ إلى أهلِ العلمِ والبصيرة

في قوله عزَّ ذكرُه: ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ﴾، ذكر النَّصُّ الجليل الشَّكَّ على سبيلِ الافتراض يتضمَّنُ تنبيهَ النَّبيِّ ﷺ "إلى صدقِ ما أخبرَه، ويثبِّتُ فؤادَه، وفي النَّهي عن الشَّكِّ أمرٌ بالتَّثبُّتِ واليقينِ والاطمئنانِ إلى أنَّه الحقُّ، فقولُه تعالى: ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ﴾ هو فرضٌ غيرُ واقعٍ، والغرضُ منه: أوَّلًا: تثبيتُ النَّبي ﷺ، ثانيًا: بيانُ أنَّ الكتبَ السّابقةَ ثابتٌ فيها هذا. ثالثًا: تذكيرُ النَّبيِّ ﷺ بما حدث للنَّبيِّين قبلَه. رابعًا: بيانُ أنَّ القَصَصَ الصّادقَ يرَبّي اليقينَ"[1]. كما أنَّ في ذكرِ الشَّكِّ هنا " تنبيهًا على أنَّ مَن خالجَتْهُ شبهةٌ في الدّين ينبغي أن يسارِعَ إلى حلِّها بالرُّجوعِ إلى أهلِ العلم"[2].

وجهُ ذكرِ الشَّكِّ احتمالًا في السّياق المحكم:

ما نُسب إلى الرَّسول المعصوم افتراضًا، هو منزَّهٌ عنه بإطلاق

في قوله جلَّ شأنُه: ﴿لَقَدۡ جَآءَكَ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ﴾، يثيرُ تساؤلًا للبحث، مفادُه: كيف قالَ لرسول الله ﷺ: ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ﴾ مع قولِه في الكفرَة: ﴿وَإِنَّهُمۡ لَفِي شَكٍّ مِّنۡهُ مُرِيبٍ﴾ [هود: 110]؟ وإجابةُ ذلك: أنَّ بينَهما فرقًا عظيمًا؛ ففي قوله: ﴿وَإِنَّهُمۡ لَفِي شَكٍّ مِّنۡهُ مُرِيبٍ﴾، أثبتَ الشَّكَّ لهم على سبيل التَّأكيدِ والتَّحقيق، أمّا قولُه: ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ﴾ فإنَّه بمعنى الفرضِ والتَّمثيلِ، كأنَّه قيلَ: فإنْ وقع لك شكٌّ مثلًا، وخَيَّل لك الشَّيطانُ خَبالًا منه تقديرًا؛ ﴿فَسۡـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقۡرَءُونَ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكَۚ﴾[3].

دلالةُ التَّنكيرِ وأثرها في سياق قولِه: ﴿فِي شَكٍّ﴾:

كلُّ درجاتِ الشَّكِّ معتبرةٌ، داعيةٌ للسُّؤالِ، صغُر أو عظُم

في قوله تعالى: ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ﴾ آثر النَّظمُ

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3631 - 3632.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/175.
(3) الزمخشريّ، الكشاف: 2/370.

العزيز أن يعبِّرَ بصيغة التَّنكيرِ في الشَّكِّ للدَّلالةِ على التَّقليلِ، أي: إن كنتَ "في شكٍّ ما يسيرٍ على الفرْضِ والتَّقديرِ"[1]. وذلك باعتبارِ أنَّ الشَّكَّ في حقيقةِ ما عليهِ النَّفسُ في أمر الوحيِ والدّينِ معتَبرٌ فيه ما صغُرَ منه وما عظُمَ.

بلاغةُ الكنايةِ في لفظِ الشَّكِّ في قوله: ﴿فِي شَكٍّ﴾:

في قوله جلَّ شأنُه: ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ﴾ ذهبَ بعضُ أئمَّةِ التَّفسيرِ إلى أنَّ المرادَ بالشَّكِّ في الآيةِ الكريمةِ الكنايةُ، فكنّى به "عن الضّيق أي: فإن كنتَ في ضيقٍ من اختلافِهم فيما أُنزل إليك وتعنُّتِهم عليك، وقيل: كنّى بالشَّكِّ عن العجبِ، أي: فإن كنتَ في تعجُّبٍ من عنادِ فرعونَ، ومناسبةُ المجازِ: أنَّ التَّعجُّبَ فيه تردُّدٌ، كما أنَّ الشَّكَّ تردُّدٌ بين أمرَيْنِ"[2].

التَّردُّدُ بين الحقيقةِ ونقيضِها، يتضمَّنُ الشَّكَّ والتَّعجُّبَ والضّيقَ

تِبيانُ تركيبِ ﴿مِّمَّآ﴾ في قولِه: ﴿فِي شَكٍّ مِّمَّآ﴾:

في قوله جلَّ شأنُه: ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ﴾ تركَّبَ حرف الجرِّ (مِن) مع الموصولِ (ما)، وهي دالَّةٌ على الابتداءِ، والمعنى: في شكٍّ ناشئٍ ممّا ﴿أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ﴾ من أوَّلِ الأمرِ، بأن تشكَّ فيه[3]. فيكونُ المرادُ بذلك الشَّكِّ في أوَّليَّةِ الرِّسالةِ وأصلِها.

الشَّكُّ في السّياقِ هو الشَّكُّ الواقعُ في أصلِ الرِّسالةِ وأوَّليَّتِها

إيثارُ الموصولِ (ما) في السّياق:

في قوله جلَّ شأنُه: ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ﴾، آثر النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ باسم الموصولِ (ما)، الدّالِّ على التَّعميم، تعميمًا لكلِّ ما أُنزل إليه فيدخلُ في حيّزِ الشَّكِّ "القرآنُ أو الشَّرعُ بجملتِه"[4]، فيدخلُ فيه ما ذُكر في السّياق من قَصَصِ بني إسرائيل، "أي: إن كنتَ في شكٍّ مِنَ القَصَصِ المنزَّلةِ إليك التي من جملتِها

يحرم الشَّكُّ في بعض القرآن بلهَ كلّه

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/175، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 9/205.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/106.
(3) القنّوجيّ، فتح البيان: 6/122.
(4) ابن جُزَيّ، التّسهيل: 1/363.

قصَّةُ فرعونَ وقومِه، وأخبارُ بني إسرائيل"[1]. فمَن شكَّ في شيءٍ من القرآن؛ كان كمن شكَّ في كلِّ شيءٍ فيه، فالشَّكُّ في جزءٍ كالشَّكِّ في الكلِّ.

وجهُ إضافةِ ﴿أَنزَلْنَآ﴾ إلى ضميرِ التَّعظيمِ:

المنزَلُ من اللهِ تعالى عظيمُ الشَّأنِ، باعتبار مصدر نزوله

في قوله جلَّ شأنُه: ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ﴾ أسندَ النَّظمُ الجليل فعلَ الإنزالِ إلى ضميرِ التَّعظيمِ لاستحضارِ العظمةِ في ذلك التَّنزيلِ، أي: بما لنا من عظمةٍ[2]، وذلك تفخيمٌ لشأنِ المنزَلِ.

بيانُ تخصيصِ الإنزالِ بشِبْهِ الجملةِ: ﴿إِلَيْكَ﴾:

مقصودُ الخطابِ الوحيُ الَّذي بلغَ النَّبيَّ ﷺ

في قوله جلَّ شأنُه: ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ﴾ خصَّصَ بليغَ النَّظم الجليل بشِبْهِ الجملةِ ﴿إِلَيْكَ﴾ للدَّلالةِ على الوصولِ، أي: جعلناه واصلًا إليك[3]، وذلك لِما في حرفِ الجرِّ (إلى) من الغاية، فهو ليس إنزالًا مطلقًا، بل إنزالٌ مع بيان الجهةِ التي بلغَها ذلك المُنزَلُ، وهو ما وقع فيه افتراضُ الشَّكِّ، فالشَّكُّ المرادُ هو الشَّكُّ في المُنزَلِ إليك، وليس الشَّكُّ في غيره، فهو شاكٌّ في شأنِ ما أُنزل إليه.

سرُّ التَّعبيرِ عن القرآن بـ ﴿أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ﴾:

التَّعبيرُ عن القرآنِ بلفظِ النُّزولِ، مناسبٌ للشَّكِّ في أصلِ الرِّسالةِ

آثر النَّظمُ البليغ في قوله جلَّ شأنُه: ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ﴾ أن يعبِّرَ عن القرآنِ بالجملةِ الفعليَّةِ ﴿أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ﴾، ولم يقلْ: (من القرآن، أو من الوحي)؛ تصريحًا بكونِه منزلًا من اللّٰه تعالى، وهو الأنسبُ في سياق النَّهيِ عن الشَّكِّ، كما أنَّه يتضمَّنُ متعلَّقَ الشَّكِّ، وهو الشَّكُّ في شأنِ نزولِه من عدمِه؛ لأنَّ الوصول إلى نفي إنزالِه تحقيقٌ لبشريَّةِ مصدرِه.

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 6/178.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/205.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/205.

معنى الفاء في لفظ: ﴿فَسْـَٔلِ﴾ من السّياق:

افتتح قولَه عزَّ ذكرُه: ﴿فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ بالفاء الدّالَّةِ على السَّبب، أي: بسبب ذلك الشَّكِّ اسألْهم[1]، فما بعدهَا يكونُ بسبب ما قبلَها، فالسُّؤالُ كائنٌ بسبب الشَّكِّ.

التَّوجيهُ بالسُّؤالِ كائنٌ بسببِ الشَّكِّ العارض في الافتراض

دلالةُ إجابةِ الشَّرطِ بالأمرِ ﴿فَسْـَٔلِ﴾:

في قوله عزَّ ذكرُه: ﴿فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ﴾ .. ﴿فَسْـَٔلِ﴾ وقع فعلُ الأمرِ في جوابِ الشَّرطِ، "وإنَّما تكون جملةُ: ﴿فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ﴾ جوابًا للشَّرط باعتبارِ ما تفيدُه مادَّةُ السُّؤال من كونِهم يجيبون بما يُزيل الشَّكَّ، فَبِذلك يلْتئمُ التَّلازمُ بين الشَّرطِ والجوابِ"[2].

الشَّكُّ يقتضي البحثَ عن الحقِّ، والسُّؤالُ يثيرُ الجواب لرفعه

التَّعبيرُ عن المفعولِ بالاسمِ الموصولِ ﴿ٱلَّذِينَ﴾:

في قوله جلَّ شأنُه: ﴿فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ﴾، عبَّر عن المسؤولِ بالاسم الموصول؛ لأنَّه أراد كلَّ مَن تحقَّقتْ فيه الصِّلةُ، فيكون شاملًا لمَن آمنَ من أهل الكتابِ، ومَن لم يؤمنْ، وإن كان إرادةُ مَن لم يؤمنْ أبلغَ في بيان الحقِّ؛ لأنَّه يجيءُ من مُعاندٍ، والحقُّ ما شهدتْ به الأعداءُ، و"لأنَّ إخبارَهم بما يوافقُ ما أُنزل، المترتِّبِ على السُّؤالِ أجدى في المقصودِ"[3].

كلُّ مَن تحقَّقتْ فيه صلةُ الموصولِ، فهو جديرٌ بأن يُسأل

نكتةُ جعْلِ القراءةِ صلةً للموصول:

في قوله جلَّ شأنُه: ﴿فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ﴾، جاءت صلةُ الموصول جملةً فعليَّةً، متضمِّنةً فعلَ القراءة، "وفي جعْلِ القراءةِ صلةَ الموصولِ إشارةٌ إلى أنَّ الجوابَ، لا يتوقَّف على أكثرِ منها"[4].

القراءةُ ملمح شرعيٌّ، أمر به النَّبيُّ مع أوَّل آية أنزلت

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/205.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/285.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 6/178.
(4) الآلوسيّ، روح المعاني: 6/178.

نكتةُ مجيءِ فعلِ القراءةِ مضارعًا ﴿يَقْرَءُونَ﴾:

شرطُ اعتبارِ القراءةِ دوامُها، والانتفاعِ بها

في قوله جلَّ شأنُه: ﴿فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَۚ﴾ عبَّر النَّظمُ الكريم عن القراءة بالفعلِ المضارعِ، أي: الذين يتابعون القراءةَ[1]، فيكونُ ذلك كالقيدِ بأنَّ الذين يُسألون يجبُ أن يكونوا من الَّذين يداومون على قراءةِ الكتابِ.

نكتةُ التَّعبيرِ عن بني إسرائيل بالفعل ﴿يَقْرَءُونَ﴾:

الحقُّ مؤكَّدٌ معروفٌ لكلِّ مَن قرأ الكتابَ، فلا يصحُّ الشَّكُّ

في قوله جلَّ شأنُه: ﴿فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَۚ﴾ عبَّر عن أهل الكتاب بـ ﴿ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ ولم يقلْ: (بني إسرائيل، أو أهلَ الكتاب) للدَّلالةِ على أنَّ "ذلك محقَّقٌ عندَهم ثابتٌ في كتبهم حسْبما ألقَينا إليْك، والمرادُ إظهارُ نبوَّتِه ﷺ بشهادة الأحبارِ حسْبما هو المسطورُ في كتبِهم، وإنْ لمْ يكنْ إليه حاجةٌ أصلًا"[2]. وفيه تخصيصٌ للسُّؤال، فليس المرادُ سؤالَ كلِّ واحدٍ من أهل الكتابِ، ولا حصرَ السؤالِ بالأحبار، بل كلُّ قارئٍ قد قرأ الكتابَ يكونُ ممَّن يُسأل؛ لأنَّهم يعرفون الحقَّ بمجرَّدِ قراءةِ الكتابِ.

سرُّ تعريفِ (الكتابِ) في السّياق:

المقروءُ جنسُ الكتابِ المنْزَلِ، لا كتابٌ بعينِه

في قوله عزَّ ذكرُه: ﴿فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَۚ﴾، جاء النَّظمُ الكريم بالكتاب معرَّفًا بالألفِ واللّامِ الدّالَّةِ على الجنسِ، فـ "المرادُ بالكتابِ جنسُه فيشملُ التَّوراةَ والإنجيلَ"[3].

معنى (مِنْ) في شبه الجملة: ﴿مِن قَبْلِكَۚ﴾:

ابتداءُ القَبْليَّة لا مطلق القَبْلِ، وهُمْ أهلُ آخرِ كتابٍ قبلَك

في قوله عزَّ ذكرُه: ﴿فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَۚ﴾ أدخلَ (مِن) الجارَّةَ على الظَّرفِ (قبل) للدَّلالةِ على الابتداءِ الملاصقِ للقبليَّةِ، لا القبليَّةُ المطلقةُ، فيكونُ المرادُ الزَّمانَ الذي

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/205.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/175.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 6/178.

سبقَك، فابتدأتْ قراءتُهم في ذلك الزَّمانِ، والمرادُ بهم أهلُ آخرِ كتابٍ قبلَ مجيئِك.

دلالةُ التَّقييدِ بالقبليَّةِ في السّياق:

انتهى اختصاصُهم بقراءةِ الكتابِ ببعثةِ نبيِّ الختام

في قوله عزَّ ذكرُه: ﴿فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ﴾ قيَّدَ الذين يقرؤون الكتابَ بأنَّهم كائِنون قبلَ النَّبيِّ ﷺ إشارةً إلى أنَّ تخصيصَهم بقراءةِ الكتابِ قد انتهتْ بمجيءِ النَّبيِّ ﷺ، وفيه إيماءٌ إلى أنَّ هناك من يقرأ الكتابَ غيرهُم، وهو القرآنُ، كما أنَّ فيه احتراسًا من أن يكونَ المرادُ الّذين يقرؤون القرآنَ.

بلاغةُ الاستئنافِ البيانِّي لجملةِ ﴿لَقَدْ جَآءَكَ﴾:

بعدَ السُّؤالِ النّاشئِ عن الشَّكِّ، يأتي التَّأكيدُ القاطعُ

الجملةُ في قوله عزَّ ذكرُه: ﴿لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ استئنافيَّةٌ "استئنافًا بيانيًّا لجوابِ سؤالٍ ناشئٍ عن الشَّرط وجوابِه، كأنَّ السّامعَ يقولُ: فإذا سألتُهم ماذا يكونُ؟ فقيل: ﴿لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾"[1].

سرُّ التَّوكيدِ بـ (اللّام)، و(قد) في السّياق:

دَفْعُ الإنكارِ بالتَّأكيدِ إثرَ إيرادِ القَصَصِ العجيبِ

جاءت الجملةُ في قوله جلَّ شأنُه: ﴿لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ مؤكَّدةً باللّامِ و(قدْ) تقويةً للخبرِ وللجزمِ به[2]، كما أنَّ في تأكيدِ الجملةِ ردًّا على الإنكار؛ لأنَّ المقصودَ من الخطابِ الأمَّةُ وليس النَّبيُّ ﷺ فهو ليس بمحلِّ الحاجةِ للتَّأكيدِ والإعلامِ بأنَّه على الحقِّ، فلمّا أُريد الرَّدُّ على الإنكارِ المتسبِّبِ عن إيرادِ تلك القصصِ؛ قُرنتِ الجملةُ بحرفَيِ التَّأكيدِ[3]، وإنَّما وقع ذلك "لزيادةِ التَّثبيتِ والعصمةِ، هذا هو الوجهُ، وعليه النَّظمُ والتَّأليفُ؛ فإنَّه تعالى لمَّا قال لحبيبِه ﷺ تهْييجًا وإلهابًا: فإن كُنت في شكٍّ أنَّ ما أنزلناه إليكَ حقٌّ، وأنَّك نبيٌّ مرسلٌ، فاسألْ أهلَ الكتابِ من الذين آمنوا،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/285.
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/143.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/286.

فإنَّهم يشهدون بذلك، واللّه ﷻ بجلالتِه وعظمتِه أيضًا يشهدُ، ويؤكِّدُ الشَّهادةَ بالقسمِ"[1].

بلاغةُ الاستعارةِ في جملةِ ﴿جَآءَكَ ٱلۡحَقُّ﴾:

شدَّةُ ظهورِ الحقِّ، كمجيءِ الشَّخصِ بمرأى العينِ، لا تشوبُه شبهةٌ

قوله جلَّ شأنُه: ﴿لَقَدۡ جَآءَكَ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾، وفيه استعار النَّظمُ الجليل المجيءَ للدَّلالة على الحصولِ والتَّحقُّقِ، فالمجيءُ مختصٌّ بالأجسام، فشبَّهَ الحقَّ بشخصٍ قد جاء، وحضر، وصار مشاهَدًا، ثمَّ حذفَ المشبَّهَ به: وهو الشَّخصُ، وأبْقى قرينتَه: وهي المجيءُ، والجامعُ بينهما: الحصولُ والظُّهورُ والوضوحُ، والاستعارةُ تبعيَّةٌ؛ لكونها جاءتْ بالفعل، ومكنيَّةٌ لكونِ المشبَّهِ به محذوفًا[2]. فجعل الحقَّ كرجلٍ يأتي شاخصًا حاضرًا، والمرادُ شدَّةُ الحضورِ والتَّمكُّنِ من كونِه ظاهرًا بحيث لا تشوبُه شُبْهَةٌ.

وجهُ التَّعبيرِ بفعلِ المجيءِ ماضيًا:

تحقَّقَ المجيءُ، وثبتَ الحقُّ

في قوله عزَّ ذكرُه: ﴿لَقَدۡ جَآءَكَ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ آثر النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ بالفعل الماضي للدَّلالةِ على تحقُّقِ المجيءِ المفضي إلى تثبيتِ الحقِّ "الَّذي لا محيدَ عنه، ولا ريبَ في حقّيَّتِه"[3].

سرُّ تعديةِ الفعلِ جاء إلى ضميرِ المُخاطَبِ في ﴿جَآءَكَ﴾:

المبالغةُ بالمجيءِ بلا واسطةٍ

في قوله عزَّ ذكرُه: ﴿لَقَدۡ جَآءَكَ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ﴾، استعمل الفعلَ (جاء) متعدّيًا بنفسِه بلا حرفِ جرٍّ؛ للمبالغةِ في وصولِ الحقِّ إليه، بحيث إنَّه باشرَه بلا واسطةٍ، كما أنَّه يدلُّ على شدَّةِ الالتصاقِ بين القادمِ والمستقبِل له.

دلالةُ تعريفِ (الحقِّ) في السّياق:

الحقُّ الجامعُ لصفاتِ الثُّبوتِ والوضوحِ، الدّافعُ لكلِّ موارِدِ الشَّكِّ

في قوله جلَّ شأنُه: ﴿لَقَدۡ جَآءَكَ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ عرَّف الحقَّ بالألفِ

(1) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 7/566.
(2) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 9/563.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/175.

واللّام للدَّلالة على جنس الحقِّ، وذاتِه، أي: جاءك الحقُّ الثّابتُ "الواضحُ، الذي لا مَحيدَ عنه، ولا ريبَ في حقّيَّتِه"[1]، فجمعَ بالتَّعريف كلَّ صفاتِ الحقِّ، وهو المناسبُ في سياق التَّأكيدِ وقطعِ الشَّكِّ، ولا يناسبُ السّياقَ أن يأتيَ بالتَّنكيرِ، فلو قال: (جاءك حقٌّ)؛ لفاتَ كلُّ ذلك.

معنى (مِن) في قولِه: ﴿مِن رَّبِّكَ﴾:

في قوله جلَّ شأنُه: ﴿لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ أدخل النَّظمُ الجليل حرفَ الجرِّ (من) الدّالَّةِ على الابتداءِ تشريفًا لشأنِ المنزَّل، والمنزَّلِ إليه، فقد ابتدأ النُّزولُ من الرَّبِّ المحسنِ المُنعمِ على النّاس.

تشريفُ المُنزَّلِ والمُنزَّلِ إليه، بإيرادِ جهةِ النُّزولِ

وجهُ التَّعبيرِ بلفظِ الرُّبوبيَّةِ في قولِه: ﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾:

في قوله جلَّ شأنُه: ﴿لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ آثر النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ بلفظ الرُّبوبيَّةِ دون الاسم الجليل إيماءً إلى أنَّ موردَ الحقِّ من ربِّك المحسنِ إليك، تشريفًا وتفخيمًا لشأنه[2] وللإشعارِ بأنَّ مَن أحسنَ إليك سابقًا هو من أنزلَ إليك كتابَه مُريدًا بذلك اللُّطفَ بك والإحسانَ إليك، فأنّى يكونُ في ذلك شكٌّ؟

موردُ الحقِّ ممَّنْ سبقَ إحسانُه، فأنّى يكونُ في ذلك شكٌّ

إضافةُ لفظِ (الربِّ) إلى ضميرِ المخاطَب:

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾، وفيه أضاف النَّظمُ العزيز لفظَ الرَّبِّ إلى ضمير المخاطبِ العائدِ للنَّبيِّ ﷺ، تشريفًا له وترغيبًا فيه، أي: إنَّ ربَّك المحسنَ إليك هو مَن اصطفاكَ لذلك[3].

إضافةُ الاسمِ الكريمِ إلى ضميرِ الخطابِ غايةُ التَّشريفِ والتَّكريمِ

دلالةُ الفاءِ في قولِه: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾:

افتتح النَّظمُ الكريم قولَه عزَّ ذكرُه: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ بالفاءِ الدّالَّةِ على السَّببيَّةِ، أي: "فإذا ثبتَ أنَّه الحقُّ، أي: الثّابتُ أعلى الثَّباتِ تسبَّبَ عنه البُعدُ مِن تَزَلْزُلِ مَن جاءَه"[4].

ثبوتُ الحقِّ يقطعُ أسبابَ الامتراءِ

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 6/179.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/206، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/175.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/206، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/175.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/206.

بلاغةُ التَّعريضِ في جملةِ النَّهي:

النَّهيُ أمرٌ بالدَّوام على انتفاءِ إحداثِ الفعلِ، وتعريضٌ بالسّامعين

في قوله جلَّ شأنُه: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾، جاء النَّهي للنَّبيِّ ﷺ عن الامتراءِ فيما أنزل اللّه عليه، بل المرادُ أن "تستمرَّ على ما أنتَ عليه من اليقينِ وانتفاءِ الشَّكِّ، ويمكنُ أن يكونَ هذا النَّهي له تعريضًا لغيره، كما في مواطنَ من الكتاب العزيزِ، وفي هذا التَّعريضِ من الزَّجرِ للممترين والمكذِّبين ما هو أبلغُ وأوقعُ من النَّهي لهم أنفسهم؛ لأنَّه إذا كان يُنهى عنه مَنْ لا يُتصوَّر صدورُه عنه؛ فكيف بمَن يمكنُ منه ذلك؟"[1]. فليس المرادُ الكفَّ عن الفعل؛ لأنَّه غيرُ مُتصوَّرٍ منه ﷺ، بل المرادُ الدَّوامُ على انتفاءِ ذلك، أو التَّعريضُ بغيرِه ﷺ.

نكتةُ التَّعبيرِ بفعلِ الكونِ مضارعًا ﴿تَكُونَنَّ﴾:

الدَّوامُ على النَّأيِ عن المُمْترين، نهيٌ من الله ربِّ العالمين

قوله جلَّ شأنُه: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ دلَّ الفعلُ المضارع في النَّهيِ عن الكينونةِ من المُمْترين، أنَّ النَّهيَ على وجه الدَّوام والاستمرارِ، أيِ: "اثبتْ ودُمْ على ما أنت فيه، من انتفاءِ المِرْيةِ والتَّكذيبِ"[2].

سرُّ توكيدِ الفعلِ ﴿فَلَا تَكُونَنَّ﴾ بنونِ التَّوكيدِ الثَّقيلةِ:

قوَّةُ الحقِّ تقضي بالنَّهيِ المؤكَّدِ عن العدولِ عنه

قوله تعالى: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ جاء النَّهيُ بصيغة التَّأكيدِ، بإدخالِ نون التَّوكيدِ الثَّقيلةِ على المضارع؛ لأنَّ الحقَّ جديرٌ بألّا يَنْثَني عنه أحدٌ بوجه من الوجوهِ[3]، فتأكيدُ النَّهيِ؛ لأنَّ الحقَّ من الوضوحِ بمكانٍ لا ينبغي لأحدٍ أن يسلكَ سبيلَ الشُّبَهِ والشَّكِّ، وينتهي بأن يكونَ من المُمْترين.

دلالة إيثار لفظِ المُمْترين ونوعُ (أل) فيه:

الامتراءُ شكٌّ بعد يقينٍ، يُوصف به المتَرون

بعد ذكرِ الشَّكِّ في صدر الآيةِ على سبيل الافتراضِ جاء قولُه

(1) القنّوجيّ، فتح البيان: 6/123 - 124.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/106.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/206.

جلَّ شأنُه: ﴿لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ للنَّهي عن الامتراءِ بعد تأكيدِ الحقِّ، والامتراءُ أخصُّ من الشَّكِّ؛ لأنَّه الشَّكُّ فيما لا شُبْهَةَ للشَّكِّ فيه[1]، "الشَّكُّ بعد اليقينِ، فالنَّهيُ عن الامتراءِ هو للاستمرارِ على اليقينِ والإيمانِ، وألّا يتزلزلَ ذلك اليقينُ بفعلِ المشركين، وأن مُؤَدّى ذلك القولِ هو تأكيدُ الحقِّ وتثبيتُه لأتْباعِ محمدٍ ﷺ، ولتثبيتِ فؤادِ النَّبيِّ ﷺ وإيمانِه الرّاسخِ كالجبالِ أو أشدَّ، فكثرةُ الدّلائلِ تثبِّتُ اليقينَ"[2]. وتحتَملُ (أل) أن تكونَ عهديَّةً وجنسيَّةً، فيكونَ قد نهى أن يكونَ من جنس المُمْترين، أو من الفئةِ التي شُهِرَتْ بهذا الوصفِ.

وجهُ جمْعِ المُمْترين في سياق الآية الكريمة:

التَّحلّي بوصفٍ ضمنَ جماعةٍ، شُهِرَتْ به أدلُّ على الاتِّصافِ به

قوله تعالى: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ آثر النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ بصيغة الجمعِ، ولم يَقُلْ: (ولا تكونَنَّ مُمْتريًا)؛ لأنَّ الانتماءَ إلى فئةٍ قد اشتهروا بالامتراءِ أبلغُ من أن يكونَ مُمْتَريًا على وجْهِ الإفرادِ، وذلك للدَّلالةِ على أنَّه قد بلغَ من الوصفِ أن يستأهلَ به أن يكونَ من تلك الفئةِ المُتَمالِئَةِ على الامتراء.

التَّعبيرُ عن الامتراءِ باسم الفاعلِ:

النَّهي عن الامتراء باعتباره صفةً راسخةَ الدَّوامِ والثُّبوتِ

قوله عزَّ ذكرُه: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾، جاء التَّعبيرُ عن الامتراءِ المنهيِّ عنه باسم الفاعلِ للدَّلالةِ على أنَّ المنهيَّ أن يكونَ الامتراءُ قد تحوَّلَ إلى صفةٍ راسخةٍ في المرءِ، فليس المنهيُّ عنه طروءَ حدثِ المِراءِ مرَّةً أو مرَّتيْن، بل أن يكونَ هذا الفعلُ صفةً راسخةً، يزاولُها على وجْه الدَّوامِ والثُّبوتِ.

حذْفُ مُتعلَّقِ الامتراءِ:

لمّا عُلِم المرادُ؛ أوجزَ بالإحالةِ على السّياقِ

جاء الامتراءُ في قوله جلَّ شأنُه: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/286.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3633.

مطلقًا بلا قيدٍ، فحَذفَ متعلَّقَه اتِّكاءً على ظهورِ المعنى من السّياقِ، وهو مفهومٌ من قوله تعالى: ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ﴾، والمعنى: لا تكنْ من المُمْترين "بالتّزلْزُلِ عمّا أنت عليْه من الجزمِ واليقينِ، ودُمْ على ذلك كما كنتَ من قبلُ"[1].

بيانُ التَّعريضِ في جملةِ الفاصلةِ في السّياق:

جاءت الجملةُ في الفاصلةِ في قولِه تعالى: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ﴾، للتَّعريضِ بالمشركين، "بأنَّهم بحيث يُحْذَرُ الكَونُ منهم"[2]، فالمنهيُّ أن يكون من المشركين الذين امتَهنوا المِراءَ وحَذِقوه، "وهذا النَّهيُ والَّذي بعدَه يدلّان على أنَّ فرضَ وقوعِ الشَّكِّ، والسُّؤالَ فيما قبلَهما عنه، تعريضٌ بالشّاكّين المُمْترين والمكذِّبين له ﷺ من قومِه"[3].

النَّهيُ عن الامتراءِ، ومآلُهُ النَّهيُ عن الكَون مع المشركين

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الشَّكُّ، والرَّيب، والامتِراء:

"الامترِاءُ أخصُّ من الشَّكِّ؛ لأنَّ الشَّكَّ هو التَّردُّدُ في أمرٍ دليلُه قابلٌ للظُّهور والخَفاءِ، والامترِاءُ هو التَّردُّدُ في أمرٍ دليلُه ظاهرٌ قويٌّ لا يخْفى على أحدٍ، ويؤيِّدُ ذلك قولُه: ﴿لَقَدۡ جَآءَكَ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾"[4]. والشَّكُّ هو الوقوفُ بين النَّقيضيْن، والامترِاءُ؛ طلبُ التَّشكُّكِ مع ظهورِ الدَّليلِ[5]، لذا فهو كائنٌ بعد اليقين[6]، فهو مذمومٌ شرعًا. أمّا الرَّيبُ؛ فهو أخصُّ من الشَّكِّ؛ لأنَّه شكٌّ مع تهمةٍ، أو هو مجرَّدُ التَّوهُّم، فالرَّيبُ هو "أن تتوهَّمَ بالشَّيء أمرًا ما، فينكشفُ

الامترِاءُ شكٌّ بعد يقينٍ، والرَّيبُ شكٌّ مع تهمةٍ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/175.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/286.
(3) رشيد رضا، تفسير المنار: 11/392.
(4) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/351.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/207.
(6) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3633.

عمّا تتوهَّمُه"[1]. فعبَّرَ في ختام الآيةِ بالامترِاء في سياق النَّهيِ؛ لأنَّه كائنٌ بعد اليقين، فلا بدَّ أن ينبِّهَ المؤمنين، وأنْ ينهاهُم عن ذلك، وقد بدأت الآيةُ بالشَّكِّ، وانتهتْ بالامترِاء؛ فالشَّكُّ جاء على سبيلِ الافتراضِ؛ لأنَّه أمرٌ محتملُ الوقوعِ، ولا يقدَحُ في إيمان المرءِ، أمّا الامترِاءُ؛ فجاء منهيًّا عنه؛ لأنَّه لا يكونُ إلّا بعد اليقينِ، والتَّردُّدُ فيه كائنٌ مع وجودِ دليلٍ ظاهرٍ حاسمٍ، فالامترِاءُ حالةٌ منكَرةٌ منهيٌّ عنها، بخلافِ الشَّكِّ.

(1) الرّاغب، المفردات: (شكك)

﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٩٥﴾ [يونس: 95]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

تحرّي الحقِّ يستدعي النَّهيَ عن الامتراء، وعن التَّكذيبِ الآيل للخسران

لمّا نهى النَّظمُ الجليل عن الامتراءِ، ولم "يبقَ ممّا اقتضتْهُ القسمةُ العقليَّة إلّا العنادُ ممَّن يَمْكُنُ منه، كما فعلَ بنو إسرائيلَ بعد مجيءِ العلمِ، أَتْبَعَهُ النَّهيَ عن مثل حالِهم بقولِه: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ﴾"[1].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

الدَّعوةُ إلى تجنُّبِ التَّكذيبِ بالحقيقةِ

يقول الحقُّ تعالى مخاطِبًا النَّبيَّ ﷺ، والمرادُ سواه: ولا تكونَنَّ - يا محمد ﷺ - من المكذِّبينَ بآياتِ القُرآنِ وحُجَجِه في الأكوانِ - ممّا يدلُّ على وحدانيَّته وقدرتِه على إرسالِ الرُّسلِ لهدايةِ البشرِ - فتكونَ من الخاسرينَ أنفُسَهم بدخولِ النّارِ، المُضَيِّعينَ سعادةَ الدُّنيا والآخرةِ، فاثبُتْ على ما أنت عليه من التَّصديقِ بالقُرآنِ.

ولهذا النَّوعِ من الخطابِ فائدةٌ لا تَتَأتّى بمخاطَبةِ النّاسِ مباشرةً، فهو يُفيد شدَّةَ التَّخويفِ؛ لأنَّه إذا كان رسولُ اللّه ﷺ يُحذَّرُ مِن مِثْلِ هذا؛ فغيرُه مِن النّاس أولَى أن يُحذَّر، ويُتَّقى على نفسِه[2].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بيانُ وصلِ الآيةِ بما قبلَها في السّياق:

النَّهيُ متَّجهٌ إلى الامتراءِ والتَّكذيبِ، تعريضًا بذلك

قولُه جلَّ شأنُه: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ معطوفٌ على قولِه تعالى: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ﴾، فالنَّهيُ متَّجهٌ لكلا الفعلَيْن الامتراءِ والتَّكذيبِ، وذلك ليكونَ التَّعريضُ مشترَكًا بينَهما[3].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/206.

(2) ابن جرير، جامع البيان: 12/289، وابن عطيّة، المحرر الوجيز: 3/143، ورشيد رضا، تفسير المنار: 11/392، والسّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 374، والمراغيّ، تفسير المراغيّ: 11/155.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/286.

بلاغةُ التَّعريضِ في جملةِ النَّهيِ ﴿وَلَا تَكُونَنَّ﴾:

تقريرٌ لصدقِ القرآنِ في خطابِه

والنَّهيُ في هذه الآيةِ والآيةِ الَّتي قبلَها ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾، يدلّان على أنَّ فرضَ وقوعِ الشَّكِّ، والسُّؤالَ فيما قبلَهما عنه، تعريضٌ بالشّاكّين المُمْترين والمكذِّبين له ﷺ من قومِه[1].

سرُّ تقديمِ النَّهيِ عن الامتراءِ على النَّهيِ عن الكذبِ:

التَّكذيبُ أخطرُ شأنًا، فأخَّره للتَّدرُّجِ

قوله جلَّ شأنُه: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ۝٩٤ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ﴾، بدأ بالنَّهيِ عن الامتراءِ وأتْبعَه بالنَّهيِ عن الكذبِ؛ لأنَّ الامتراءَ "أمرُه أسهلُ من أمرِ المكذِّبِ، فَبَدَأ به أوَّلًا، فَنَهى عنه، وأتْبعَ بذكرِ المكذِّبِ، ونهى أن يكونَ منهم"[2]، فأخَّر ذكرَ الأخطرِ شأنًا للتَّدرُّجِ من الأدْنى إلى الأعْلى.

توجيهُ تكرارِ النَّهيِ بلفظِ ﴿وَلَا تَكُونَنَّ﴾:

مع كلِّ فعلٍ قبيحٍ، يُعادُ النَّهيُ الصَّريح

في قولِه عزَّ ذكرُه: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ﴾ تكرَّرَ النَّهيُ بعد أن تقدَّمَ النَّهيُ عن الامتراءِ في ختامِ الآيةِ التي قبلَ هذه الآيةِ، "والمرادُ بذلك إعلامُ أنَّ الامتراءَ والتَّكذيبَ قد بلغا في القُبحِ والمحذوريَّةِ إلى حيثُ ينْبغي أنْ يُنهى عنهما مَنْ لا يُمكنُ أنْ يتَّصفَ بهما، فكيف بمَنْ يُمكنُ اتِّصافُه، وفيه قطْعٌ لأطماعِ الكَفَرَةِ"[3].

وجهُ نهيِ النَّبيِّ ﷺ عن التَّكذيب:

تقبيحُ التَّكذيبِ بحيثُ يَنْهى مَن لا يُتصوَّرُ التَّكذيبُ منه

قوله عزَّ ذكرُه: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ﴾ جاء الخطابُ للنَّبيِّ ﷺ بالنَّهي عن التَّكذيبِ، فالتَّكذيبُ ممّا لا يصدُر عنه ﷺ ؛ وهو غيرُ متصوَّرٍ عقلًا منه، ولا محقَّقٍ وجودًا، وإنَّما المُرادُ أمَّتُه وأتباعُه[4]، وهو "مِن بابِ التَّهييج

(1) رشيد رضا، تفسير المنار: 11/392.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/106، حقّي، روح البيان: 4/80.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 6/179.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/206.

والإلهابِ، والمرادُ به إعلامُ أنَّ التَّكذيبَ من القُبحِ والمحذوريَّةِ، بحيث ينْبغي أن يُنهى عنه مَن لا يُتصوَّرُ إمكانُ صدورِه عنه، فكيف بمَن يمكنُ اتِّصافُه به"[1]. والمرادُ من النَّهيِ التَّعريضُ بالشّاكّين المُمْترين والمكذِّبين له ﷺ من قومِه[2].

سرُّ العُدولِ من الصِّفةِ إلى الموصول:

إظهارُ علَّةِ ضلالِهم، وأنَّ الكذبَ فعلٌ معهودٌ منهم

عَدَلَ من (فلا تكونَنَّ من المكذِّبين)، إلى ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ﴾؛ وذلك "لبيانِ أنَّ صلةَ الموصولِ سببٌ لانْغمارِهم في الضَّلالةِ؛ إذِ الآياتُ الكونيَّةُ واضحةٌ، وآياتُه القرآنيَّةُ تحدّى بها الرَّبُّ أنْ يأْتوا بمثلِها، فعجَزوا"[3]. وعبَّرَ بالموصولِ (الّذين) للدَّلالةِ على قومٍ معهودٍ منهم الكذبُ، والنَّهيُ عن الكونِ من فئةٍ مخالِطةٍ حاضِرةٍ أبلغُ من النَّهيِ عن الكونِ، في صفةٍ لجنسِ (المكذِّبين) الَّتي تدلُّ على العمومِ.

نكتةُ التَّعبيرِ عن فعلِ الكذبِ ماضيًا مشدَّدًا ﴿كَذَّبُواْ﴾:

من كذب وتحرّى الكذبَ؛ كُتبَ في ديوانِ الكذّابين

في قوله عزَّ ذكرُه: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾، جاء فعلُ التَّكذيب بصيغةِ التَّفعيلِ دلالةً على أنَّ المرادَ بهم أولئك الَّذين اعتادوا الكذبَ، وبالغوا فيه، وكرَّروه، وأكثروا منه حتّى امتهنوه، وصار لهم سجيَّةً.

سرُّ جمعِ الآياتِ في قوله: ﴿بِـَٔايَٰتِ ٱللَّـهِ﴾:

آياتُ الله تعالى مبثوثةٌ في الكونِ، ومنزَّلةٌ في الوحي

في قوله تعالى: ﴿كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ جاء النَّظمُ الجليل بلفظِ الآياتِ بصيغةِ الجمعِ؛ لأنَّها آياتٌ كثيرةٌ، فـ "آياتُ اللّه سبحانه كما نعرفُها متعدِّدةٌ؛ إمّا آياتٌ كونيَّة، وهي الأصلُ في المعتَقدِ الأوَّلِ بأنَّ خالقَها هو الخالقُ الأعلى سبحانَه، وتُلْفِتُ هذه الآياتُ إلى بديع صُنْعِه سبحانَه، ودقَّةِ تكوينِ خلقِه، وشمولِ قدرتِه، وكذلك يُقصدُ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/175.
(2) رشيد رضا، تفسير المنار: 11/392.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3634.

بالآياتِ؛ المعجزاتُ المُنزَلةُ على الرُّسُل ﷺ ؛ لتُظهِر صدقَ كلِّ رسولٍ في البلاغِ عن الله تعالى"[1].

وجهُ إضافةِ الآياتِ إلى الله سبْحانَه:

عظُمَتِ الآياتُ بنسْبَتِها لله تعالى، وعظُم كفرُهم بصدِّهم عنها

في قوله جلَّ شأنُه: ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ أضاف النَّظمُ الكريم لفظَ الآياتِ إلى الاسم الجليلِ للدَّلالةِ على عظمتِها، أي: "الَّتي لا أعظمَ منها بإضافتها إلى مَن لا أعظمَ منه"[2]، فاكتسبَ المضافُ من المضافِ إليه التَّعظيمَ؛ تنويهًا بأنَّها كانت جديرةً بأنْ تؤثِّرَ فيهم فقهًا وعظةً، ولكنَّهم قد سبقَت عليهم كلمتُه، فأعْماهم، وأصمَّ أبصارَهم.

معنى الفاءِ في: ﴿فَتَكُونَ﴾ من السّياق:

يتعلَّقُ التَّكذيبُ بالخسرانِ، تعلُّقَ السَّببِ بالمسبَّبِ

افتتحَ التَّحذيرَ في قوله تعالى: ﴿فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ بالفاءِ الدالَّةِ على السَّببيَّةِ لبيانِ أنَّ ما بعد الفاءِ مسبَّبٌ عمّا قبلَها، فقد ترتَّبَ الخسرانُ على تكذيبِ الآياتِ، أي: "إنَّهُ يترتَّبُ على تكذيبِ آياتِ اللّه أن تكونَ في صفوفِ الخاسرين الَّذين خسِروا الإيمانَ، وهذا أساسُ الخسْران، فخسِروا الإيمانَ باليوم الآخرِ، وما فيه مِن جزاءٍ بعدَ الحِساب، وخسِروا، فزعموا أنَّ الحياةَ الدُّنيا وحدَها هي الحياةُ، وهذا هو الخسْرانُ المبينُ"[3].

نكتةُ التَّعبيرِ بفعل الكونِ مضارعًا:

من معالمِ الخسْرانِ الدَّيمومةُ فيه

آثر النَّظمُ الكريم في قولهِ عزَّ ذكرُه: ﴿فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ التَّعبيرَ بالفعل المضارعِ للدَّلالةِ على دوام الكينونةِ في الخسْرانِ، وذلك إيماءٌ إلى كونِه راسخًا في الخسْران[4].

(1) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 10/6201.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/206.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3634.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/206.

دلالةُ صيغةِ اسمِ الفاعلِ ﴿ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾:

ليس بعدَ نَيْلِ الخسرانِ من تغييرٍ، لهذا الوصف الدّائم الخطير

في قوله جلَّ شأنُه: ﴿فَتَكُونَ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾، عبَّر النَّظمُ الجليل عن الخسران باسمِ الفاعلِ للدَّلالةِ على أنَّ الجزاءَ بالخسرانِ، سيكونُ على جهةِ الثَّباتِ، والرُّسوخِ في الصِّفة؛ فَصِفَةُ الخسرانِ لن تتغيَّرَ، ولن تزولَ، وفي ذلك مبالغةٌ في الرَّدعِ عن التَّكذيبِ بآياتِ اللّٰه تعالى.

سرُّ جمعِ لفظ (الخاسرين) ودلالة تعريفِها:

الخاسرُ محشورٌ في زُمرةِ الخاسرين

في قوله جلَّ شأنُه: ﴿فَتَكُونَ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ عبَّر النَّظمُ الجليل عن الخسران بصيغةِ الجمعِ للدَّلالةِ على كونِه إذا سلَك في مدرَجِ التَّكذيبِ؛ فإنَّه لن يكونَ خاسرًا فحسبُ، بل سيكونَ من زُمرةِ الخاسرين محشورًا معهم، وهذا أبلغُ في بيانِ الخُسْرانِ ممّا لو قال: (فتكون خاسرًا)؛ إذ إنَّ الانضمامَ إلى فئةٍ مشهورةٍ بصفةٍ ما يدلُّ على المبالغةِ في تلك الصِّفةِ.

نكتةُ حذفِ متعلَّقِ (الخسران):

من خسِر اللهَ؛ فقد خسِر كلَّ شيءٍ في دنياه وأخراه

جاء التَّعبيرُ عن الخاسرين في قوله جلَّ شأنُه: ﴿فَتَكُونَ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ بالإطلاقِ، فلم يبيِّنْ أيَّ شيءٍ خسِروا، فجعله عامًّا؛ ليدلَّ على أنَّهم خسِروا كلَّ ما يتعلَّقُ به الخسْرانُ، فهم "﴿مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ أنفسًا وأعمالًا"[1].

علَّةُ التَّعبيرِ بلفظ (الخاسرين) دونَ (الكافرين):

التَّرهيبُ بالخسْران، أبلغُ من التَّحذيرِ من الفعلِ ذاتِه

في قوله تعالى: ﴿فَتَكُونَ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ جاء التَّعبيرُ بالخسران دونَ الكفرِ؛ لأنَّه "أظهرُ في التَّحذير من التَّعبيرِ بالكافرين"[2]؛ لأنَّ الخسْرانَ يتضمَّنُ مآلَ الكفرِ، فهو أبلغُ وأوجزُ، والتَّحذيرُ من الخسْران أبلغُ من التَّحذيرِ بالكيْنونةِ من الكفرِ؛ لأنَّ بيانَ السَّببِ الدّافعِ لترك الكفرِ أبلغُ من التَّحذيرِ عن الكفرِ.

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/175.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 6/179.

بلاغةُ التَّعريضِ في جملةِ الفاصلةِ:

نـهـيُ مَـن لا يُتصوَّر صدورُ التَّكذيب عنْه، زجْرٌ لمن يُمكنُ منه ذلك

قوله جلَّ شأنُه: ﴿فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾، جاء عَقِبَ النَّهي عن التَّكذيبِ للتَّعريضِ بالمُمْترين والشّاكّين، فإنَّ النَّبيَّ ﷺ لا يُتصوَّرُ منه ذلك، "لا سيَّما بعد تعقيبِه بقوله: ﴿فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ وفي هذا التَّعريضِ من الزَّجرِ للمُمْترين والمكذِّبين ما هو أبلغُ وأوقعُ من النَّهي لهم أنفسِهم؛ لأنَّه إذا كان يُنهى عنْه مَن لا يُتصوَّر صدورُه عنْه، فكيف بمَن يُمكنُ منه ذلك؟"[1].

(1) القنّوجيّ، فتح البيان: 6/123 - 124.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتۡ عَلَيۡهِمۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ ٩٦﴾ [يونس: 96]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لمّا بيَّن جزاءَ المشركين؛ أرْدَفَهُ بالعلَّةِ المانعةِ بالأصلِ

لمّا عرَّضَ إلى المشركين بأنَّهم أهلُ شكٍّ، وأنَّ عاقبَة ذلك الخسرانُ المبينُ، "أعقبَ ذلك بأنَّهم من زمرَةِ الفِرَقِ الذين حقَّتْ عليهم كلمةُ اللّه ألّا يؤمنوا، فَهُمْ لا تُجدي فيهم الحُجَّةُ؛ لأنَّهم أهلُ مكابرةٍ"[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿حَقَّتۡ﴾: أصلُ (حقَّ): يدلُّ على إحكام الشَّيءِ وصِحَّتِه[2]، يُقال: حَقَّ الشَّيْءُ، يحِقُّ، حَقًّا؛ إذا ثَبَتَ ولَزِمَ[3]. ويأْتي الحَقُّ بمعنى الصَّحيحِ، وضِدُّهُ: الباطِلُ[4]. والحَقيقَةُ: الشَّيْءُ الصَّحيحُ يَقينًا[5]. وتَحَقَّقَ الأمْرُ؛ إذا صَحَّ. والمرادُ بـ ﴿حَقَّتۡ﴾ في الآية: ثبَتَتْ[6].

2) ﴿كَلِمَتُ﴾: أصْلُ الكَلام: النُّطْقُ المَفْهومُ، يُقالُ: كَلَّمَ يُكَلِّمُ تَكْليمًا وكلامًا، أيْ: نَطَقَ نُطْقًا مَفْهومًا، وقيلَ: أصْلُ الكلامِ مِنَ الكَلْمِ: وهوَ الجُرْحُ والشَّقُّ؛ لأنَّهُ يَشُقُّ الأسْماعَ بِوُصولِهِ إلَيْها[7]، وقيلَ: لأنَّهُ يَشُقُّ المَعاني، والكَلِمَةُ القَضيَّة، فكلُّ قضيَّة تُسمَّى: كلمةً، سواء كان ذلك مَقالًا أو فعالًا[8]، والمُتَكَلِّمُ: النَّاطِقُ، والكَلِمُ أيْضًا: القَوْلُ واللَّفْظُ، وقيلَ: الكَلِمُ لا يَقِلُّ عَنْ ثلاث كَلِماتٍ، والكلامُ يَشْمَلُ القَليلَ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/286، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 9/207، والنيسابوريّ، غرائب القرآن: 3/613.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (حق).
(3) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللُّغة: (حق).
(4) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (حق).
(5) إبراهيم مصطفى، المعجم الوسيط: (حق).
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/287.
(7) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (كلم).
(8) الرّاغب، المفردات: (كلم).

والكَثيرَ، والمرادُ بقوله: ﴿كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ في الآية: قضاؤُه وحكمُه الَّذي أوجبَه، وأوقعَه عليهم[1].

المَعْنى الإجْماليُّ:

يُخاطِبُ اللّه تعالى نبيَّه ﷺ قائلًا له: إنَّ الَّذين وجبَت عليهم كَلِمةُ رَبِّك - يا محمد ﷺ - بأنَّهم يصيرونَ إلى ما قدَّرَه اللّه لهم مِن الاستمرارِ على الكُفرِ والموتِ عليه؛ لا يُؤمِنونَ إيمانًا ينفَعُهم قبل مَوتِهم؛ لرسوخِهم في الكفرِ والطُّغيانِ، وإحاطةِ خطاياهم بهم، وإعراضِهم عن آياتِ اللّه الَّتي خلقها في الأكوانِ، بما يُرشدُ إلى وحدانيَّتِه وكمالِ قُدرتِه[2].

مَن لم يأخذْ بأسبابِ الهدى، ولم يتبصَّر بالنّور؛ فلن يهتدي، ولن يستنير

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ الفصلِ في الآيةِ:

الجملةُ في قوله جلَّ شأنُه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتۡ عَلَيۡهِمۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ مستأنفةٌ، فهي "شروعٌ في بيان سرِّ إصرارِ الكفرةِ على ما همّ عليه من الكفرِ والضَّلالِ، أي: ثبتتْ ووجَبتْ بمقتضى المشيئةِ المبْنيَّةِ على الحكمةِ البالغة"[3].

الحكمُ بالاستحقاقِ يكون على وفْقِ القدرةِ والاستعدادِ

توجيهُ الافتتاحِ بالتَّوكيدِ بـ (إنَّ):

افتتح النَّظمُ الجليل قولَه جلَّ شأنُه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتۡ عَلَيۡهِمۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ بـ (إنَّ) الدالَّةِ على التَّأكيدِ للدَّلالة على "التَّحقيقِ، أي: لا شكَّ أنَّ هؤلاء مِن أولئك، فقدِ اتَّضحَ أمرُهم واليأسُ من إيمانِهم"[4]، فإنَّ اللّه تعالى بعلمِه الغيبَ ساقَ الخبرَ على وجهِ التَّأكيدِ، فيؤكِّدُ "سبْحانَه أنَّ الَّذين ثبتتْ عليهم كلمةُ اللّه تعالى

عِلْمُ اللهِ الغيبَ مؤكَّدٌ قاطعٌ

(1) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 6/1083.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 12/290، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/296، والشوكانيّ، فتح القدير: 2/538، والسّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 374، والمراغيّ، تفسير المراغيّ: 11/155.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/175.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/287.

أنَّهم في سجلِّ الكافرين، لا يؤمنون، ولو جاءتْهم كلُّ آيةٍ، ولو كانتْ ممّا يطلبون، أي: لو تضافَرتِ الآياتُ معجزاتٍ كلَّها، وجاءتْ مجتمِعةً لا يؤمنون، وأقربُ القولِ أنْ يقولوا: سُحِرَتْ أعْيُنُنا، فالجحودُ ملازمٌ لهم، لا يُزايلُهم أبدًا"[1].

دلالةُ التَّعبيرِ بالموصولِ ﴿ٱلَّذِينَ﴾:

ثبوتُ انتفاءِ إيمانِهم، استحقاقٌ لإظهارِ تكذيبِهم

في قوله عزَّ ذكرُه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ عبَّر عن المذكورين باسم الموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾ للدَّلالةِ على معهودينَ[2]، والعهدُ ذِكريٌّ؛ فقد تقدَّمَ ذكرهُم في قولِه: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾، فالَّذينَ حقَّتْ عليهم الكلمةُ هم الذين كذَّبوا بآياتِ اللّٰه تعالى، فكانوا من الخاسرين.

إيثارُ لفظِ ﴿حَقَّتْ﴾ دون (ثَبتتْ):

استحقّوا الإبعادَ لاستكبارِهم عن بليغِ الآياتِ

في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾، عبَّر عن ثباتِ الكلمةِ عليهم بالفعلِ (حقّ) ولم يقلِ: (الّذينَ ثبتتْ)؛ للدَّلالةِ على أنَّ ثباتَ ذلك عليهم كان استحقاقًا، وليس إجبارًا وقهرًا، ولا ظلمًا وقسرًا.

التَّعبيرُ بالفعلِ ﴿حَقَّتْ﴾ ماضيًا:

انتفاءُ إيمانِهم مقطوعٌ به، لا رجعةَ عنه

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾، وفيه عبَّر بالفعل الماضي الدّالِّ على تحقُّق الفعلِ، وتأكيدِ حدوثِه تعبيرًا عن وقوعِ كفرِهم، وثباتِه فيهم.

بلاغةُ الاستعلاءِ المجازيِّ في: ﴿حَقَّتْ عَلَيْهِمْ﴾:

تمكُّنُ الاستحقاقِ منهم يُفْصِحُ عنْ شدَّةِ عتوِّهم

في قوله جلَّ شأنُه: ﴿حَقَّتْ عَلَيْهِمْ﴾، عبَّر بليغُ النَّظمِ الجليلِ بحرف الاستعلاءِ (على)، مستعملًا إيّاه "للاستعلاء المجازيِّ، وهو تمكُّنُ الفعلِ الذي تعلَّقتْ به"[3]، فثبوتُ الكلمةِ بحيث إنَّه مسلَّطٌ

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3634 - 3635.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/287.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/287.

عليهم لا يزولُ، فالاستحقاقُ راسخٌ ومقطوعٌ به عليهم، وهذا يُفْصِحُ عن شدَّة عتوِّهم وتمسُّكِهم بما همّ عليه من الضَّلالِ.

سرُّ تعريفِ الكلمةِ بالإضافةِ:

إضافةُ الكلمةِ يشيرُ إلى انتفاءِ التَّبديلِ

في قوله جلَّ شأنُه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتۡ عَلَيۡهِمۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ أضاف النَّظمُ المعجزُ لفظَ الكلمةِ إلى اللّه تعالى دلالةً على إنجازِ ذلك الاستحقاقِ وثباتِه؛ لأنَّ كلمةَ اللّه تعالى لا يشوبُها التَّغييرُ مصداقًا لقولِه تعالى: ﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلۡقَوۡلُ لَدَيَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ﴾ [ق: 29].

إيثارُ لفظِ الرُّبوبيَّة في: ﴿كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾:

عذابُ الكافرين إحسانٌ إلهيٌّ للمؤمنين

في قوله جلَّ شأنُه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتۡ عَلَيۡهِمۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ أضاف النَّظمُ الكلمةَ إلى لفظِ الرُّبوبيَّةِ "المفهِم للإحسانِ؛ إعلامًا بأنَّه ما أوجبَ عليهم العذابَ إلّا إحسانًا إليه بما يُقاسي من معالجتِهم، وغيرَ ذلك من الحكمةِ"[1].

نسبةُ لفظِ الرَّبِّ إلى ضميرِ المخاطَبِ:

التَّذكيرُ بسابقِ الإحسانِ، تأكيدٌ بدوامِ الاهتمامِ

قوله عزَّ ذكرُه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتۡ عَلَيۡهِمۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ أضاف لفظَ الرُّبوبيَّةِ إلى الضَّميرِ العائدِ على النَّبيِّ ﷺ؛ إشارةً إلى أنَّ ذلك الجزاءَ الذي كتبَه لهم لم يكنْ إلّا إحسانًا إليك؛ لما تُقاسي من عُتوِّهم، أي: إنَّ ذلك من الذي سبقَ إليك منه الإحسانُ[2]، فلفظُ الرُّبوبيَّةِ أنسبُ للسّياقِ المتضمِّنِ إشاراتِ الإحسانِ.

دلالةُ تركيبِ: ﴿كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾:

كلامُ اللهِ وإخبارُه بسوءِ مآلِهم، وما يصيرون إليه

في قوله جلَّ شأنُه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتۡ عَلَيۡهِمۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ يدلُّ التَّركيبُ: ﴿كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ على استحقاقِهم النّارَ، والكلمةُ هي حكمُه وقضاؤه بأنَّهم يموتون على الكفرِ، ويُخَلَّدون في النّار كقولِه تعالى: ﴿وَلَٰكِنۡ حَقَّ ٱلۡقَوۡلُ مِنِّي لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ﴾، فالمرادُ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/207.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/207.

منها كَلِمُ اللّه بذلك، وإخبارُه عنه[1]. وفي هذا التَّركيبِ تحذيرٌ "وإعلامٌ بسوءِ حالِ هؤلاء المحتومِ عليهم، والمعنى: أنَّ اللّه أوجبَ لهم سخطَه في الأزلِ، وخلقَهم لعذابِه، فلا يؤمنون، ولو جاءَهم كلُّ بيانٍ، وكلُّ وضوحٍ إلّا في الوقتِ الذي لا ينفعُهم فيه إيمانٌ، كما صنع فرعونُ وأشباهُه من الخلقِ، وذلك وقتَ المعاينةِ"[2].

بلاغةُ الكنايةِ في: ﴿كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾:

يدلُّ قولُه: ﴿كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ على أنَّ "عدمَ إيمان هذا الفريقِ إلى حينِ وقوعِ اليأسِ وموتِهم على الكفرِ مكتوبٌ عند اللّه، وثبت عليهم قولُه في الأزلِ بما يجري عليهم، لكنَّها كتابةُ معلومٍ لا كتابةُ مقدَّرٍ ومرادٍ"[3]، فالعبارةُ كنايةٌ عن القضاءِ والحكمِ الأزليِّ بالشَّقاوةِ.

كلمتُه تعالى حكمةٌ، وإرادتُه كنايةٌ عن القضاء الأزليّ بالشَّقاوةِ

دلالةُ نفيِ الفعلِ المضارعِ في: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾:

في قوله عزَّ ذكرُه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ آثر النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ عن انتفاء إيمانِهم بإدخالِ لا النّافيةِ على الفعل المضارعِ للدَّلالةِ على انتفاء قَبولِهم تجدُّدَ الإيمانِ[4]، فهم قد يؤمنون، ولكن ليس إيمانًا دائمًا، فهم لا يؤمنون "إيمانًا نافعًا واقعًا في أوانِه، فيندرجُ فيهم المؤمنون عند معاينةِ العذابِ مثلَ فرعونَ"[5]. ويدلُّ المضارعُ على استمرارِهم بالكفر، وأنَّ "الإيمانَ ليس من شأنِهم، وأنَّهم لا يُذعنون، وليس من طبعِهم أنْ يؤمنوا بشيءٍ، بل الجحودُ شأنُهم"[6].

انتفاءُ قبولِهم لتجديدِ الإيمانِ، لا إظهارِ الإيمانِ وادِّعائِه

(1) حقّي، روح البيان: 4/81، وأبو حيّان، البحر المحيط: 6/107.
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/143.
(3) النّيسابوريّ، غرائب القرآن: 3/613، والآلوسيّ، روح المعاني: 6/179.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/207.
(5) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/176.
(6) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3634 - 3635.

سرُّ حذفِ متعلَّقِ الإيمان في ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾:

نـفـيُ مـطـلـقِ إيـمـانِـهـم، بـأيِّ لـون مـن ألـوان الإيمان

في قولِه عزَّ ذكرُه: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ نفى متعلَّقَ الإيمان؛ ليعمَّ نفيُ إيمانِهم، واستغراقه لكلِّ متعلَّق من الإيمانِ باللّه، ورسلِه، وآياتِه المنزَّلةِ عليهم، وغيرِ ذلك، وذلكم أدْعى للذَّمِّ، وأقوى في التَّعبيرِ عن الإنكارِ والجحودِ.

﴿وَلَوۡ جَآءَتۡهُمۡ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ ٩٧﴾ [يونس: 97]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لمّا نفى إيمانَهم؛ بيَّنَ أنَّ ذلك ليس لعدمِ الآياتِ، بل لانتفاءِ الاستعدادِ

إنَّ اللّه تعالى لمّا أخبرَ بسَبْقِ الكلمةِ عليهم، وأنَّهم لا يؤمنون، أتْبعَ ذلك بتأكيدِ ثباتِ كلمتِه، وأنَّ كفرَهم ليس لقصورِ الآياتِ وقلَّتِها، بلْ لرسوخِهم بالكفر وتشبُّثِهم به.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

المتكبِّرون لا يؤمنون، بأيِّ آيةٍ تدلُّ على الحقِّ وتثبِّته

يُخبر اللّه تعالى النَّبيَّ ﷺ قائلًا له: ولو جاءتْهم كلُّ آيةٍ مِن الآياتِ الكونيَّةِ المُعجزة الخارقةِ، والآياتِ الشَّرعيَّةِ المُنزَّلةِ كالقُرآنِ، فإنَّهم لا يُؤمِنونَ حتَّى يُعاينوا العَذابَ الأليمَ بأعيُنِهم، ويذوقوه حين يَنْزِلُ بهم، فيكونُ إيمانُهم اضطرارًا لا اختيارًا مِنهم، فلا يترتَّبُ عليه عملٌ منهم يُطهِّرُهم، ويُزكّيهم، ويُقال لهم إذْ ذاك: ﴿ءَآلۡـَٔـٰنَ وَقَدۡ كُنتُم بِهِۦ تَسۡتَعۡجِلُونَ﴾ [يونس: 51][1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ الوصل بالعطف في السّياق:

من جاءته الآيات، ولم يؤمن، فهو منتكس مرتكس

قولُه جلَّ شأنُه: ﴿وَلَوۡ جَآءَتۡهُمۡ كُلُّ ءَايَةٍ﴾ معطوفٌ على قوله تعالى: ﴿لَا يُؤۡمِنُونَ﴾، فلمّا نفى على وجهِ الاستمرارِ أنَّهم لا يؤمنون عطفَ عليه نفيَ إيمانِهم مع توفُّر الآياتِ؛ بيانًا لغلوِّهم في الكفر وارتكاسِهم به.

دلالةُ (لو) في بيان المبالغة في وصف التعنُّت:

تيئيس من إيمانهم ولو جاءتهم كلُّ الآيات

في قولِه تعالى: ﴿وَلَوۡ جَآءَتۡهُمۡ كُلُّ ءَايَةٍ﴾، لمّا نفى عنهم الإيمانَ بكلِّ وجهٍ؛ أتْبع ذلك بتأكيدِ النَّفيِ بـ (لو)، فهي هنا "وصليَّةٌ

(1) ابن جرير، جامع البيان: 12/290، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 8/383، رشيد رضا، تفسير المنار: 11/393.

للمبالغةِ، أي: لا يؤمنون، ولو جاءتْهم كلُّ آية، فكيف إذا لم تجئْهم إلّا بعضُ الآيات؟"[1].

وجهُ إضافةِ المجيءِ إليهم:

في قولِه جلَّ شأنُه: ﴿وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ﴾ جعل المجيءَ واقعًا عليهم، وأوصلَ الفعلَ بضميرِهم إشارةً إلى تخصيصِ المجيءِ إليهم، وفيه بيانُ قوَّةِ الحُجَّةِ، وأنَّها قد بلغَتْهم، وأنَّهم اختصّوا بها، وهذه تومِئُ إلى أنَّ الحُجَّةَ قد قامت عليهم من حيثُ الاحتجاجُ والتَّبليغُ.

لن يُظهروا الإيمانَ، ولو كانت الآياتُ قاصدةً لهم

نكتةُ تأنيثِ فعلِ (كلّ) في السّياق:

في قولِه عزَّ ذكرُه: ﴿وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ جاء الفعلُ ﴿جَآءَتْهُمْ﴾ بصيغة التَّأنيثِ وهو مسنَدٌ إلى ﴿كُلُّ﴾؛ لأنَّه مضافٌ إلى ﴿ءَايَةٍ﴾ المؤنَّثةِ، فاكتسب منها التَّأنيثَ[2].

ممّا يكتسبُ المضافُ من المضافِ إليه التَّأنيث

توجيهُ عموميَّةِ (كلّ آية) في السّياق:

في قولِه جلَّ شأنه: ﴿وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ﴾ استعمل (كلّ) وهي لفظةٌ تدلُّ على عمومِ ما تُضافُ إليه، وهي هنا مستعمَلةٌ في معنى الكثرةِ، كما جرى ذلك في كثيرٍ من المواضعِ في القرآن الكريم، كقولِه تعالى: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾، والمعنى: ولو جاءتْهم آياتٌ كثيرةٌ، حتّى لو أنَّها استغرقتْ جميعَ الآياتِ المُمْكِنِ مجيئها[3].

مَن لم تكفِه أمارةٌ ليؤمنَ، لن تكفيَهُ الآياتُ الكثيرة

بيانُ تنكيرِ الآيةِ وإفرادِها:

في قولِه تعالى: ﴿وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ آثرَ النَّظمُ الكريم التَّنكيرَ في لفظِ (الآيةِ) للتَّكثيرِ، وهو منضمٌّ بذلك إلى دلالةِ التَّكثيرِ المرادةِ من (كلّ)، فيكونُ تأكيدًا للكثرةِ المفترَضَةِ المرادَةِ من السّياق، وتأكيدًا لرسوخِ الكفرِ فيهم ورسوخِهم فيه.

مهما كثُرَتِ الآياتُ وأبهرت، فإنَّ رسوخَ كفرِهم لا يزولُ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/287.
(2) حقّي، روح البيان: 4/81.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/287.

دلالةُ (حتّى) في سياق الآية الكريمة:

من رأى العذاب؛ فقد فاتته فرصة المتاب

في قولِه عزَّ ذكرُه: ﴿حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ﴾ عبَّر بـ (حتّى) دلالةً على استمرارِهم بكفرِهم وتجدُّدِ انتفاءِ إيمانِهم، ومُكْثِهم في عتوِّهم واستكبارِهم عن اتِّباعِ الآياتِ الَّتي تأتيهم تباعًا حتّى بلغوا مرحلةَ العذابِ، وَرَأوه بأعينِهم فعندها أظهروا إيمانَهم طلبًا للنَّجاة، "أي: حينَ لا ينفعُهم الإيمانُ لفواتِ شرطِه، كما لم ينفعْ فرعونَ لذلك"[1].

التَّعبيرُ عن فعلِ الرّؤيةِ مضارعًا ﴿يَرَوُاْ﴾:

الكافرون العتاة لا يؤمنون بالعذابِ حتّى يَرَوْنَه أمامَهم

في قولِه جلَّ شأنُه: ﴿حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ﴾ آثر النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ بالفعلِ المضارعِ عن رؤيتِهمُ العذابَ إشارةً إلى تجدُّدِ الرُّؤية ودوامِها، فهم لا يؤمنون إلّا أن يكونَ النَّظرُ منهم إلى العذاب مستمرًّا ليدركوا صدقَ الوعيدِ، وهذا يومئُ إلى شدَّةِ تمسُّكِهم بالمادّيةِ التي لا يؤمنون بما هو أبعدُ منها، فإنَّهم لا يؤمنون حتّى يَشْخُصَ لهم العذابُ المعنويُّ، فيكونَ في عالمِ المادَّةِ، فَيَرَوْنَ أثرَه فيهم.

بلاغةُ الكنايةِ في رؤيةِ العذابِ في السّياق:

رؤيةُ العذابِ منجَزةٌ بنزولِه بهم، وحلولِه فيهم

في قولِه جلَّ شأنُه: ﴿حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ﴾ عبَّر النَّظمُ البليغ عن نزول العذابِ بهم بالرُّؤيةِ، والعذابُ معنويٌّ فأنّى يُرى؟ فالمرادُ من الرُّؤيةِ الكنايةُ عن "حُلولِه بهم، والمعنى: أنَّهم لا يؤمنون إلّا حينَ لا ينفعُهم الإيمانُ؛ لأنَّ نزولَ العذابِ هو ابتداءُ مجازاتِهم على كفرِهم، وليس بعدَ الشُّروعِ في المجازاةِ عفوٌ"[2].

إيثارُ لفظِ العذابِ دونَ العقابِ:

العذابُ أشدُّ من العقابِ، وأعمُّ

العذابُ يتضمَّنُ دائمًا ملمحَ الشِّدَّةِ، حتى وإنْ لم يُوصَف بالشَّديد أو الأليم، ولذلك استعملَ العذابَ في الدُّنيا وفي الآخرةِ؛ فهو أعمُّ، أمَّا العقابُ؛ فقد يكونُ يسيرًا؛ لارتباطِ العقوبةِ بالذَّنبِ، فإذا عَظُمَ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/207.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/288.

الذَّنبُ؛ عظُمت العقوبةُ، وإذا صَغُر؛ كان العقابُ على قدرِه، ومن هنا استعمل العقابَ للشَّيءِ والسَّريعُ يكون في الدُّنيا.

فائدةُ وصفِ العذابِ بالأليمِ:

التَّصريحُ بصفةِ الأليمِ، لا ينفي كون الرَّحيمِ يعذِّبُ الآثمين

في قولِه عزَّ ذكرُه: ﴿وَلَوۡ جَآءَتۡهُمۡ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ﴾ يكفي بالعذابِ ألمًا أن يكونَ من اللّه تعالى، والتَّصريحُ بما هو معلومٌ في كلامِ البلغاءِ لا بدَّ أن يكونَ لغايةٍ بلاغيةٍ، فكان التَّصريحُ بصفةِ الألمِ هنا للمبالغةِ في بيانِ هذه الصِّفةِ، وللتأكيد للسّامعين بأنَّ العذابَ من اللّه المتِّصفِ بكونِه الرحمنَ الرحيمَ، متَّصفٌ بكونِه أليمًا، دفعًا لما قد يُتوهَّمُ من المتَّصفِ بالرَّحمةِ أن يمتنعَ عليه التَّعذيبُ الأليمُ.

بلاغةُ الفذْلكةِ في الآياتِ الأربعِ الأخيرةِ:

تقريرٌ لصدقِ القرآنِ في خطابِه بروعةِ أساليبه وبيانه

الآياتُ الأربعُ من قوله ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ فَسۡـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقۡرَءُونَ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكَۚ﴾ [يونس: 94] إلى قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ جَآءَتۡهُمۡ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ ٩٧﴾ [يونس: 97]" فذْلكةُ هذا السّياقِ الَّذي كان ذِكْرُ قَصَصِ الأنبياءِ شواهدَ فيه، وهي تقريرُ صدقِ القرآنِ في دعوتِه ووعدِه ووعيدِه، وكونِه لا مجالَ للامتراءِ فيه، وبيانُ الدّاعية النفسيَّة للمكذِّبين بآياتِه، وتوجيهُ الاعتبارِ إلى أهلِ مكَّةَ مقرونًا بالإنذارِ، بأسلوبِ التَّعريضِ والتلطُّفِ في العبارةِ، على حدِّ: إيّاكِ أعْني، واسمعي يا جارة"[1].

(1) رضا، تفسير المنار: 11/391.

﴿فَلَوۡلَا كَانَتۡ قَرۡيَةٌ ءَامَنَتۡ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوۡمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُواْ كَشَفۡنَا عَنۡهُمۡ عَذَابَ ٱلۡخِزۡيِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَمَتَّعۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ حِينٖ ٩٨﴾ [يونس: 98]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

وردت قصّة يونس تكميلٌ لبيان سُنَّة الله في الأمم مع رُسُلِهِم

لمّا بيَّن الله تعالى من قَبْلُ أنَّ: ﴿ٱلَّذِينَ حَقَّتۡ عَلَيۡهِمۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ ٩٦ وَلَوۡ جَآءَتۡهُمۡ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ﴾؛ أَتْبَعَهُ بهذه الآية؛ لأنَّها دالَّة على أنَّ قوم يونس آمنوا بعد كفرهم، وانتفعوا بذلك الإيمان، وذلك يَدُلُّ على أنَّ الكفار فريقان: منهم من حُكِمَ عليه بخاتمة الكفر، ومنهم من حُكِمَ عليه بخاتمة الإيمان، وكلُّ ما قضى الله به فهو واقع[1]، وأيضًا فهذه الآية والآيتان بعدها تفريعٌ على الآيات السّابقة، وتكميل لها في بيان سُنَّة الله في الأمم مع رُسُلِهِمْ[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَنَفَعَهَآ﴾: أصْلُ النَّفْعِ: الخَيْرُ، وخِلافُه: الضَّرُّ، يقال: نَفَعَهُ، يَنْفَعُهُ، نَفْعًا، أي: قَدَّمَ له خَيْرًا[3]. والاسم: المنفعة، وعليه اقتصر الجوهريُّ[4]، والنَّفعُ: ما يُستَعانُ به في الوُصولِ للخَيْرِ[5]، أو هو: ما يَتَوَصَّل به الإنْسانُ إلى مَطْلُوبِهِ مِن جَلْبِ مصلحة أو دَفْعِ مَضَرَّةٍ، يُقَال: انْتَفَعَ بِالشَّيْءِ: إذا وَصَل به إلى مَنْفَعَةٍ ما[6]، والانْتِفاعُ: الاسْتِفادَةُ. ورجل نفّاعٌ؛ إذا كَانَ ينفع النَّاس، وَلَا يضرُّهم[7]، والنَّافِعُ:

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/303 - 304.
(2) رشيد رضا، تفسير المنار: 11/393.
(3) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (نفع).
(4) الزَّبيديّ، تاج العروس: (نفع).
(5) الرّاغب، المفردات: (نفع).
(6) الفيّوميّ، المصباح المنير، وأحمد رضا، معجم متن اللّغة: (نفع).
(7) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (نفع).

المُفِيدُ، وكُلُّ ما يُسْتَفادُ مِنَ الشَّيءِ فهو مَنْفَعَةٌ، والمقصود بالنَّفع في الآية: ما يستفاد منه للوصول إلى مصلحة.

2) ﴿كَشَفْنَا﴾: أصْلُ الكَشْفِ: إزالَةُ شَيءٍ عَن شَيءٍ، وتَعْرِيَتُهُ منه، كالثَّوْبِ يُسْرى عن البَدَنِ، ويُقال: كَشَفْتُ البَدَنَ، أكْشِفُهُ؛ إذا أزَلْتُ الثَّوْبَ عنه[1]. والكَشْفُ: رَفْعُ الغِطاءِ والحِجابِ، يُقَال: كَشَفَ الشَّيءَ، يَكْشِفُهُ، كَشْفًا، وكَشَّفَهُ، فانْكَشَفَ، وتَكَشَّفَ؛ إذا رَفَعَ عنه غِطاءَهُ وحِجابَهُ[2]. والمقصود بالكَشْفِ في الآية: إزَالَةُ ما هو ساتِرٌ لِشَيءٍ، وهو هنا مَجازٌ في الرَّفْعِ، والمُرادُ: تَقْدِيرُ الرَّفْعِ وإبْطَالُ العَذابِ قبل وقوعِهِ[3].

3) ﴿ٱلْخِزْيِ﴾: خزي الرَّجلُ يخزى خزيًا، وهو خزيان؛ إذا استحيا من قبيحٍ يفعله، والاسم الخزاية، وخزي الرَّجلُ يخزى خزيًا من الهوان، وأخزاه اللّه يخزيه؛ إذا مقته وأبعده، والاسم الخزي[4]، وأصْلُ الخِزْي: ذلٌّ يُسْتَحى منه؛ ولذلكَ يُسْتَعْمل في كلٍّ منهما، أي: الذُّلُّ والاسْتِحْياء[5]، وقيل: أصلُه: الإبعاد، فقولُهُم: أخْزاهُ اللّه، أي: أبْعَدَهُ وَمَقَتَهُ[6]، والخِزْيُ الفَضِيحةُ، وَقَدْ خَزِيَ يَخْزَى خِزْيًا؛ إذا افْتَضَح، وتَحيَّر فَضِيحَةً[7]، والخِزْيُ أيضًا: السّوء[8]، والهَوانُ[9]، والمقصود بالخزي في الآية: الإهانَةُ والذُّلُّ[10].

4) ﴿وَمَتَّعْنَٰهُمْ﴾: أصْلُ المَتْعِ: بُلوغُ الغايَةِ مِنَ الشَّيْءِ، يقال: مَتَع النَّهارُ يَمْتَعُ مَتْعًا، أي: بَلَغَ غايَةَ ارْتِفاعِهِ، والماتِعُ: الجَيِّدُ البالِغُ الجَوْدَةِ[11]، وقولهم: (أمْتَعَ اللّه بكَ)، قال أبو بكر: معناه: أطال اللّه عمرك، وهو مأخوذ من الماتع، والماتع عند العرب الطَّويل[12]، والمَتاع فِي الأصل: كلُّ شَيْء يُنتفَع به، ويُتبلَّغ به، ويتزوَّد، والفناء يأتي عليه في الدُّنيا[13]،

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (كشف).
(2) الرّاغب، المفردات: (كشف).
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/290.
(4) ابن دريد الأزديّ، جمهرة اللغة: (خزي).
(5) الزَّبيديُّ، تاج العروس: (خزي).
(6) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (خزي).
(7) ابن منظور، لسان العرب: (خزي).
(8) الخليل، العين، والأزهريُّ، تهذيب اللُّغة، وابن عبّاد، المحيط في اللّغة: (خزي).
(9) الزّبيديّ، تاج العروس: (خزي).
(10) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/290.
(11) الأزهريُّ، تهذيب اللُّغة، وابن منظور، لسان العرب: (متع).
(12) أبو بكر الأنباريُّ، الزّاهر في معاني كلمات النّاس: 1/319.
(13) ابن منظور، لسان العرب: (متع).

والتَّمْتيعُ: الإمْهَالُ، وأيضًا: التَّعْمِيرُ، ومنه قوْلُه تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ﴾، أي: أطَلْنا أعْمارَهُم[1]، والمقصود بالمتاع في الآية: الإهمال والانتظار.

5) ﴿حِينٍ﴾: أصْلُ الحِيْن يدلُّ على الزَّمان، فالحِينُ الزّمانُ قليلُهُ وكَثيرُهُ[2]، قال الرّاغِبُ: الحِينُ: وقْتُ بلوغِ الشَّيءِ وحصولِه، وهو مُبهَمُ المعنى، ويَتَخَصَّصُ بالمُضافِ إلَيْه، ومَنْ قالَ: (حِيْن) تأتي على أوْجُهٍ: للأجَلِ، والسَّنَة، وللسّاعَةِ، وللزَّمان المُطْلَق؛ فإنَّما فسَّرَ ذلِكَ بحَسَبِ مَا وجدَ وعلقَ به[3]، وقال الفَرّاءُ: الحِينُ حِينانِ، حِينٌ لَا يُوقَفُ على حَدِّهِ، وهو الأكْثَرُ، وحِينٌ ذَكَرَهُ اللّه تَعالى: ﴿تُؤْتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ﴾ [إبراهيم: 25]، وهذا مَحْدُودٌ؛ لأنَّهُ سِتَّةُ أشْهُرٍ[4]، وأمّا المَحْمُولُ على هذا، فقولُهم للهلاكِ: حَيْنٌ، وهو مِنَ القياسِ؛ لأنَّهُ إذا أتى؛ فلا بُدَّ لَهُ مِنْ حِينٍ، فكأنَّهُ مُسَمًّى بِاسْمِ المَصْدَرِ[5]، والمقصود بـ (حين) في الآية: المُدَّة مِنَ الزَّمَنِ.

❁ المَعْنى الإجْمالِيُّ:

نموذجُ غفرانِ اللّه لقوم يونس الَّذين تفادوا العذاب، ومُتِّعوا إلى حين

يُخاطِبُ اللّه نبيَّه ﷺ، قائلًا له: ما آمَنَ أهلُ قريةٍ مِن القُرى الهالكةِ في وقتٍ ينفَعُهم إيمانُهم فيه، إلّا قَومَ النَّبيِّ يُونُسَ عليه السلام، آمَنوا كُلُّهم في وقتٍ يَنفَعُهم فيه الإيمانُ، حين رأوا آيةً تدُلُّ على العذابِ قبل نُزولِه بهم، ولَمّا آمَنَوا؛ رَفَعْنا عنهم عذابَ الذُّلِّ الَّذي وعدَهم به نبيُّهم في الحياةِ الدُّنيا - وكان قد قرُبَ نُزولُه بهم - وتَرَكْناهم يستَمتِعونَ في الدُّنيا إلى آخِرِ أعمارِهم المكتوبةِ[6].

(1) الزَّبيديُّ، تاج العروس: (متع).
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والزَّبيديُّ، تاج العروس: (حين).
(3) الرّاغب، المفردات: (حين).
(4) الفرّاء، معاني القرآن: 2/45.
(5) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (حين).
(6) السّمرقنديّ، بحر العلوم: 2/133، والواحديّ، الوجيز، ص: 508، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/144، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 8/385، ورشيد رضا، تفسير المنار: 11/394.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالةُ فصلِ ﴿فَلَوۡلَا كَانَتۡ قَرۡيَةٌ﴾:

قولُه: ﴿فَلَوۡلَا كَانَتۡ قَرۡيَةٌ﴾ كلامٌ مُستأنَفٌ؛ لتقريرِ ما سبَق مِن استِحالةِ إيمانِ مَن حقَّت عليهم كلمتُه تعالى؛ لِسوءِ اختِيارِهم مع تَمكُّنِهم مِن التَّدارُكِ[1]؛ والاستئناف هُنا نحويٌّ، وهو تفريع على الآيات اللَّواتي قبلهنَّ، وتكميل لهنَّ في بيان سنَّة الله في الأمم مع رُسلهم، وفي خَلْقِ البشر مُستعدِّين للأمور المتضادَّة من الإيمانِ والكفر، وفي تعلُّق مشيئة الله وحكمته بأفعاله وأفعال عباده، ووقوعها على وفقهما[2].

تقريرُ ما سبَق مِن استِحالةِ إيمانِ مَن حقَّت عليهم كلمتُه تعالى

معنى (الفاء) بين التَّقرير والتَّفريع:

الفاء في قوله تعالى: ﴿فَلَوۡلَا﴾ لتفريع التَّغليظ على امتناع أهلِ القرى من الإيمانِ بالرُّسل، قبل أن ينزل بهم العذاب، على الإخبارِ بأنَّ الَّذين حقَّت عليهم كلمة الله ألّا يؤمنوا، لا يؤمنون حتّى يروا العذاب، فإنَّ أهل القرى من جملة الَّذين حقَّت عليهم الكلمةُ بألّا يؤمنوا، والغرض من ذكر أهل القرى التَّعريض بالمقصودين، وهم أهل مكَّة، فإنَّهم أهل قرية، وقد وُصِفت في القرآن بذلك، وسمِّيت أمَّ القرى في قوله تعالى: ﴿مُّصَدِّقُ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلۡقُرَىٰ وَمَنۡ حَوۡلَهَاۚ﴾ [الأنعام: 92]، وقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلۡقُرَىٰ وَمَنۡ حَوۡلَهَا﴾ [الشّورى: 7]، فكان ذلك كالتَّخلُّص بالتَّعريض إلى المخصوصين به، وللإفضاء به إلى ذِكْرِ قوم يونس، فإنَّهم أهلُ قرية[3]، فهي بهذا المعنى مسوقةٌ أيضًا لتقرير هلاكهم[4].

تفريع التَّغليظ على المقصودين بالعذاب، وتعريض بأهل مكَّة

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/176.
(2) رشيد رضا، تفسير المنار: 11/393.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/288.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 6/179.

دلالةُ حرف التَّحضيض (لولا):

إفادةُ الاستفهام فعلَ المُستَفْهَمِ عنه، ومعنى التَّوبيخ والنَّفي أيضًا

(لولا) هُنا هي التَّحضيضيَّة التي صَحِبَهَا التَّوبيخ، وكثيرًا ما جاءت في القرآن للتَّحضيض، والتَّحضيض أن يُريد الإنسان فعلَ الشَّيء الَّذي يُحَضُّ عليه[1]، وهي هُنا بمعنى هلَّا الَّتي تفيد الاستفهام، ويُراد من الاستفهام بها الحثُّ والحضُّ على فعل المُسْتَفْهَم عنه بعدها، والإغراء به من جهة، ومعنى التَّوبيخ والنَّفي من جهة أخرى، فـ (لولا) كلمة التَّحضيض في الأصل، استُعملت هُنا للنَّفي؛ لأنَّ في الاستفهام ضربًا من الجَحْد كأنَّه قيل: (ما آمنت أهلُ قرية من القرى المشرفة على الهلاك، فنفعهم إيمانُهم إلَّا قومُ يونس)[2]، ولمّا كان معنى (لولا) النَّفي؛ كان التَّقدير: (لكن لم تؤمن قرية منهم إلَّا عند صَدْمِ العذاب)، كما فعل فرعون، لو آمن عند رؤية البحر على حال الفلق، أو عند توَسُّطه، وقبل انسيابه عليه؛ قُبِل، ولكنَّه ما آمن إلَّا بعد انهماره ومسِّه، وذلك حين لا ينفع لفوات شرطهِ من الإيمان بالغيب[3].

فهي أيضًا للتَّوبيخ على ترك الإيمان، ولِما فيها من معنى النَّفي الَّذي يَقتضي أنَّه لم تُؤمن قرية من القُرى أصلًا، وخُصَّت بأنَّ المُراد من القرى الَّتي أُهلكت بالاستئصال ولم تُؤمن قبل نزول العذاب[4]. والحاصل: أنَّها تضمَّنت تحضيضًا وتوبيخًا ونفيًا، فالنَّفي راجع لمن مضى، والتَّوبيخ والتَّحضيض راجعان لمن يسمع[5].

دلالةُ دخول (لولا) على الفعل الماضي (كان):

التَّغليطُ والتَّنديم على تفويت الإيمان من إرادة لازم التَّوبيخ

أصلَ معنى (لولا) التَّحضيض، وهو طلب الفعل بِحَثٍّ، فإذا

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/107.
(2) البغويّ، معالم التَّنزيل: 2/434، والبروسويّ، روح البيان: 4/81.
(3) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 9/208.
(4) الخفاجيّ، حاشيّة الشّهاب على تفسير البيضاويّ: 5/103.
(5) الصّاويّ، حاشية الصَّاوي على الجلالين: 2/119.

دخلتْ على فعل قد فاتَ وقوعه؛ كانت مُستعملةً في التَّغليط والتَّنديم، والتَّوبيخ على تفويته، ويكون ما بعدها في هذا الاستعمال فعلَ مُضيٍّ؛ وهذه الآية أصْرَحُ في ذلك لوجود (كان) الدّالَّة على المُضيِّ والانقضاء، والمقصود: التَّعريض بأنَّ مُشركي أهل مكَّة يُوشَك أن يكونوا على سَنَنِ أهل القرى، فهي هنا مستعملة في لازم التَّوبيخ، كناية عن التَّغليط[1]، ونظير هذه الآية - استعمالًا ومعنًى - قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ﴾ [هود: 116][2].

دلالةُ تنكير لفظ ﴿قَرْيَةٌ﴾:

قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ﴾، أي: واحدةٌ من قرى الأمم الماضية الَّتي أهلكناها[3]، والقرية هي المدينة العظيمةُ التي يجتمع فيها الناس، وإذا كان الكلام تغليطًا لأهل القرى المُعرضين عن دعوة الرُّسل، وتعريضًا بالتَّحذير مِمَّا وقعوا فيه؛ كان الكلام إثباتًا صريحًا، ووقوع ﴿قَرْيَةٌ﴾ - وهو نكرة في مساق الإثبات - أفاد العمومَ بقرينة السّياق مثل قول الحريري: "يا أهل ذا المغنى وقيتم ضُرّا"[4] أي: كُلَّ ضُرٍّ لا ضُرًّا مُعيَّنًا، وبقرينة الاستثناء، فإنَّه معيار العموم[5].

إفادةُ العموم بقرينة السّياق والاستثناء، تجليةٌ للمعنى

غرض التَّقييد بالوصف بالجملة الفعليَّة:

جملة ﴿ءَامَنَتْ﴾ جملة فعليَّة صفة للقرية؛ لأنَّ الجُمَلَ بعد النَّكرات صفاتٌ، والغَرَضُ منها التَّحضيض على هذه الصِّفة الشَّريفة[6] فما أكثر القُرى التي مرَّ ذِكْرُها! ولكن أكثر هذه القرى لم تؤمن، وإنَّما

التَّحضيض على صفة الإيمان سبيلٌ للرُّسوخ والإيقان

(1) أبو حيّان الغرناطي، البحر المحيط: 6/107، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/288.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/288.
(3) الخطيب الشربيني، تفسير الخطيب الشِّربيني: 2/43.
(4) هذا شطر من بيت روايته:
يا أهل ذا المغنى وقيتمْ شرًّا *** ولا لَقيتُمْ ما بَقيتُمْ ضُرّا.
يُنظر: الحريري، مقامات الحريري، ص: 48.
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/289.
(6) الآلوسي، روح المعاني: 6/179.

آمنت منها قِلَّة، فكانت الصِّفة الغالبة هي صفة عدم الإيمان، وكان وصف الإيمان عزيزًا في الأمم.

دلالةُ مجيء الفعل ماضيًا في قوله: ﴿ءَامَنَتْ﴾:

بيان عقبى المُسارعة للإيمان، والتَّعريض بكفّار مكَّة المنكرين له

قوله تعالى ﴿ءَامَنَتْ﴾، أي: قبل معاينة العذاب، ولم يُؤَخَّروا إلى حالةِ الغرغرة، كما أُخِّرَ فرعون[1]، فسارعوا بالنَّجاة، وأزالوا آثار ما اقترفوا[2]، وفي هذا الحديث عن القرية بالماضي، استنكار تأخُّر أهل مكَّة في الإيمان، لمعرفتها بأمانة الرَّسول، وامتلاكها اللِّسان العربيَّ المبين، وكونها أمَّ القرى، فمجيء الفعل ماضيًا يُشير إلى أنَّ إيمانها قد تأخَّر كثيرًا، وأنَّه كان المتوقَّع منها أن تكون أوَّل من يستجيبُ للنَّبي ﷺ؛ لأنَّه أحد أبنائها، تعرفه، وتعرف نسبه فيها، ونشأته بين ربوعها، وما عهدَتْ فيه من صدقٍ وأمانة، وعفَّة واستقامة، ممّا لم تعهده في شبابها أو شيبها؛ ولأنَّها تملك اللِّسان العربيَّ الَّذي التقت عليه ألسنة العرب جميعًا، والَّذي نزل القرآن به، فهي أقدر العرب جميعًا على النَّظر في المعجزة الَّتي جاءها بها هذا النَّبيُّ في كتاب كريم، تنزيل من ربِّ العالمين، فلو أنَّ هذه القرية استجابت للنَّبيِّ الكريم من يوم أن حمل إليها رسالة ربِّهِ، ودعاها إلى الإيمان به؛ لنفعها إيمانُها، ولكانت في ذلك الوقت الَّذي تسمع فيه قول الله هذا، على حالٍ غير حالها تلك، وعلى صفة غير صفتها هذه الَّتي هي عليها الآن من كُفْرٍ وضلال[3].

بلاغةُ المجاز المُرسل:

الأنبياءُ بُعثوا في منابت الحضارة، وحواضر العمران

القرى في قوله: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ﴾؛ أي: أهل قرية[4]، والمرادُ بالقرية أهلُها، وهم أقوام الأنبياءِ؛ فإنَّهم كُلَّهم بُعِثوا في

(1) المظهريّ، التَّفسير المظهريّ: 5/55.
(2) محمَّد أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 7/3636.
(3) عبد الكريم الخطيب، التَّفسير القرآنيّ للقرآن: 6/1084.
(4) البغويّ، معالم التَّنزيل: 2/434.

أهل الحضارة والعمران دون البادية[1]، فأُطلقتِ القرية، وأريد بها أهلوها من بابِ إطلاق المحلِّ على الحالِّ[2]، ومثله المذكور في قوله تعالى: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ [يوسف: 82]؛ أي: أهلها، مجازًا شائعًا، والقرينة هُنا أظهرُ من أنْ تُخفى[3].

دلالةُ الفاء في دخولها على الفعل:

في قوله تعالى: ﴿فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ﴾؛ أي: فتسبَّبَ عن إيمانها ذلك أنَّه نفعها بأن تَقَبَّلَهُ الله تعالى منها، وكشَفَ العذابَ عنها[4]، فجملة ﴿فَنَفَعَهَآ﴾ معطوفةٌ على الصِّفة عطْفَ المسبَّب على السَّبب[5].

تعقيبُ عطف المُسبَّب على السَّبب، وأثره في السّياق

بلاغةُ الاستثناء بين الاتِّصال والانقطاع:

في قوله تعالى: ﴿إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ﴾، نجد (قومَ) منصوبًا على الاستثناء المنقطع، وهو قول جمهور المفسِّرين، وقول سيبويه، والكسائي، والفرّاء والأخفش من النُّحاة؛ حيث استثنى ﴿قَوْمَ يُونُسَ﴾؛ فهو بحسب اللَّفظ استثناءٌ منقطعٌ، ويجوز أن تكون الجملة في معنى النَّفي لتَضَمُّنِ حرف التَّحضيض معناه، فيكون الاستثناءُ مُتَّصِلًا؛ لأنَّ المُراد من القرى أهاليها، كأنَّه قال: (ما آمن أهلُ قريةٍ من القرى العاصية، فَنَفَعَهُم إيمانُهم إلّا قومَ يونس)[6]. قال الزَّمخشري: "ويجوز أن يكون مُتَّصِلًا، والجملة في معنى النَّفي، كأنَّه قيل: ما آمنت قريةٌ من القرى الهالكة إلّا قَوْمَ يونس"[7]، وقال ابن عطيَّة: "هو بحسب اللَّفظ استثناءٌ منقطع، وكذلك رسمه النَّحويون، وهو بحسب المعنى مُتَّصل؛ لأنَّ تقديره ما آمن أهل قرية إلّا قومَ يونس"[8].

تحديدُ الدَّلالة البلاغيَّة في السّياق باعتبار اللَّفظ أو المعنى

(1) رشيد رضا، تفسير المنار: 11/482.
(2) السَّمين الحلبيّ، الدَّر المصون: 4/69.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 6/179.
(4) البقاعي، نظم الدُّرر: 9/208، والخطيب الشِّربيني، تفسير الشِّربيني: 2/43.
(5) الآلوسي، روح المعاني: 6/179.
(6) البيضاويُّ، أنوار التَّنزيل: 3/124، وأبو حيّان، البحر المحيط: 6/107.
(7) الزَّمخشري، الكشّاف: 2/371.
(8) ابن عطيَّة، المحّرر الوجيز: 3/144.

وجهُ إفادةِ (إلّا) الاستدراكُ والاستثناء معًا:

من ثاب إلى الله وتاب؛ وقاه الله سوءَ العذاب

أمّا معنى ﴿إِلَّا﴾ في قوله: ﴿إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ﴾ فهو ممّا يُسأل عنه: أين المستثنى منه؟ والجواب: أنَّ ﴿إِلَّا﴾ تفيد مع الاستثناء، الاستدراكَ بمعنى (لكن)، ولمّا كان الاستثناء، يُفيد في مضمونه معنى الاستدراك والتَّعقيب على المُستثنى منه؛ فقد حَسُنَ استعمالُ ﴿إِلَّا﴾ مكان (لكن)؛ إذ كانت قرية يونس تكاد تكون استثناءً بين القرى التي جاءها رسلُ الله، فكفرت، ولم يؤمن منها إلّا هذه القرية، فأداة الاستثناء هُنا تفيد استثناءً واستدراكًا معًا: لفظُها الاستثناءُ، ومعناها الاستدراك وذلك من خصوصيات النَّظم القرآنيِّ وَحْدَهُ، وعلى هذا فمعنى الآية الكريمة: (هلَّا أسرعت مكَّةُ إلى الإيمان بالنَّبيِّ المبعوث منها وفيها، فانتفعتْ بهذا الإيمان قبل غيرها؛ لأنَّها أولى به، إذ كان مطلَعُه في أفقها؟ ولكنَّ الواقع أنَّها لم تؤمن، فحُرِمت هذا الخيرَ، وأصبحت في معرض نقمة الله وبلائه)، هذا هو موقف هذه القرية، وذلك هو حال معظم الأقوام مع أنبيائهم، إلّا قومَ يونس، فإنَّهم آمنوا، فنجّاهم الله من العذاب الَّذي أوشك أن يحلَّ بهم، ومتَّعهم بما كانوا فيه، إلى أنِ انتهت آجالهم المقدورة لهم[1].

دلالة جملة ﴿لَمَّآ ءَامَنُواْ﴾ على الاستئناف:

تفصيلُ ما في الاستثناء من إجمال، يُبرِز ما في التَّركيب من جمال

جملة: ﴿لَمَّآ ءَامَنُواْ﴾ مستأنفةٌ لتفصيل مجمل معنى الاستثناء[2]، فكأنَّ النَّفس تتشوَّف لما سيُذكر بعد الاستثناء، إذا كان الله قد استثنى قوم يونس من الأمم الهالكة، فما وجه إخراجهم من جملة من أهلكه الله؟ فجاء الجواب بأنَّهم آمنوا أوَّل ما رأوا أمارة العذاب، ولم يؤخِّروا إلى حلوله، فجاء القرار الفوريُّ من مسيِّر الوجود،

(1) عبد الكريم الخطيب، التَّفسير القرآنيّ للقرآن: 6/1084.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/289.

وصاحب الكرم والجود، ﷺ، ملخِّصًا في قوله: ﴿كَشَفۡنَا عَنۡهُمۡ عَذَابَ ٱلۡخِزۡيِ﴾، بعد ما أظلَّهم، وكاد يحلُّ بهم، فيكون قوله تعالى: ﴿لَمَّآ ءَامَنُواْ﴾، استئنافًا لبيان نفع إيمانه[1].

دلالةُ (لَمَّا) الحينيَّة:

الدَّلالةُ على التَّردُّد والتَّلكُّؤ والتَّلبُّث ديدنُ الكافرين

﴿لَمَّآ﴾ في قوله تعالى: ﴿لَمَّآ ءَامَنُواْ﴾ هي (لمّا) الحينيَّة، وهي ظرفُ زمان، وفيها إشارة إلى أنَّ قوم يونس لم يُبادروا بالاستجابة لرسولهم، بل كان منهم تلكُّؤٌ وتَعَلُّلٌ، ولكنَّهم آمنوا آخِرَ الأمر، فتداركهم اللّه برحمته، وشملهم بعفوه، والنّاظر في ﴿لَمَّآ﴾ هذه، وما يسمعه إلى ما يقع الأذن من نغمها الممتدِّ المتماوج، وما فيه من رعشة واهتزاز، يجد أنَّها تحكي في دقَّة وروعة تلبُّثَ القوم وتلكُّؤَهُم واضطرابَ خطوِهم، قبل أن يؤمنوا، ويستقيموا على طريق الحقِّ، والنّاظر مرَّةً أخرى - في هذا الَّذي لمحتَه من الحرف ﴿لَمَّآ﴾ وما طَلَعَ به من إشاراتٍ مضيئة، كشفتْ عن حال تلك القرية - قرية يونس - وما كان من توقُّفها، وتلكُّئِها، ثُمَّ استجابتها لرسولها، والإيمان بربِّها، والانتفاع بهذا الإيمان - يجد وجهًا آخر من وجوه الإعجاز القرآني، فيما يجيء به من أنباء الغيب، وأنَّ قريشًا ستأخذ مأخذَ قومِ يونسَ، وأنَّهم إذ يقفون من النَّبي هذا الموقف العنيد العنيف، ستكون خاتمةُ أمرهم، الإيمانَ باللّه، والانتفاع بهذا الإيمان[2].

بلاغةُ الاستعارةِ المكنيَّةِ التَّبعيَّة في: ﴿كَشَفۡنَا﴾:

الخِزيُ غُمَّةٌ وهلاك، وكشْفُه إزالةٌ ووقايةٌ وإدراك

الكشف: إزالةُ ما هو ساتر لشيء ما، وهو في قوله: ﴿كَشَفۡنَا عَنۡهُمۡ عَذَابَ ٱلۡخِزۡيِ﴾ مجازٌ في الرَّفع؛ إذ عَبَّر عن العذاب المتوقَّع بالعذاب الواقع فحُذف المشبَّه به، ورُمز له بشيء من لوازمه، وهو الكشف على جهة الاستعارة المكنيَّة التَّبعيَّة، والمُراد: تقدير الرَّفع

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السليم: 4/176.
(2) عبد الكريم الخطيب، التَّفسير القرآني للقرآن: 6/1084.

وإبطال العذاب قبل وقوعه، فعبَّر عنه بالكشف تنزيلًا لمُقاربة الوقوع منزلةَ الوقوع[1]؛ لأنَّ الكشفَ يكون بعد الوقوع أو إذا قَرُبَ[2]، وهو هُنا كُشِفَ عنهم بعد أن تدلّى عليهم، ولم يكن بينه وبينهم إلّا ميل، أو رأوا دلائل العذاب، ولم يروه، ولو رأوه؛ لما قُبِلتْ توبتُهم كفرعون[3].

معنى ضمير العظمة والكبرياء (نا):

الدَّلالة على مُطْلَقِ القُدرة والجبروت وعلى الإحاطة بالملكوت

قوله تعالى: ﴿كَشَفْنَا﴾؛ أي: رفعنا وصرفْنا بعظمتنا[4]، فأتى بنونِ العَظَمةِ وضمير الكبرياء للدَّلالة على التَّعظيم والإجلال، فلا كاشفَ للكروب إلّا هو ﷻ، ولا رافعَ لعذابه وبأسه الَّذي لا يُرَدُّ عن القوم المجرمين، "فهم مستثنون من العموم السّابق، ولا بدَّ لذلك من حكمة لعالم الغيب والشَّهادة لم تصل إلينا، ولم تدركها أفهامنا"[5].

نكتةُ تقديم الجارِّ والمجرور:

الاعتناءُ بشأن المُقَدَّمِ والتَّشويق إلى المُؤَخَّرِ من بيان القرآن

الجارُّ والمجرور ﴿عَنْهُمْ﴾ في قوله تعالى: ﴿كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْيِ﴾ متعلِّقان بـ: ﴿كَشَفْنَا﴾، وتقديمهما دليل العناية والاهتمام بالمقدَّم، وهو من توجَّه إلى الله بالتَّوبة والإنابة، والتَّشويق إلى معرفة المؤخَّر، فانكشف لهم بهذه العناية صبحُ الوصال، من مطالع الجمال، بعد ذهاب دُجى الضَّلال، فعاينوه بعد التجائهم، فعكس أنوار طلوع شمس الألوهيَّة عليهم، فجازهم من سطوات القهر؛ لأنَّ رحمته سبقت غضبَه، ولولا كشفُ جمالهِ لهم؛ لبقوا في حجاب النَّكرة، واحترقوا[6].

دلالةُ إضافة العذاب إلى الخزي:

جوازُ كون الإضافةِ بيانيَّةً للإيضاح، وحقيقيَّةً للتَّخصيص

الخزي: الإهانة والذُّلُّ، وإضافة العذاب إلى الخزي في قوله:

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/290.
(2) البغوي، معالم التنزيل: 2/434.
(3) العزُّ بن عبد السَّلام، تفسير العزِّ بن عبد السّلام: 1/278.
(4) البقاعي، نظم الدُّرر: 9/208، والسَّمرقنديّ، بحر العلوم: 2/132.
(5) السّعدي، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 374.
(6) البقليّ، عرائس البيان: 2/99.

﴿عَذَابَ ٱلۡخِزۡيِ﴾، يجوز، كونَها بيانيَّةً؛ لأنَّ العذابَ كلَّهُ خزيٌ؛ إذ هو حالة من الهلاك غيرُ معتادة، فإذا قدَّرها اللّه لقوم؛ فقد أراد إذلالهم، ويجوز أن تكون الإضافةُ حقيقيَّةً للتَّخصيص، ويكون المُراد من الخزي الحالةَ المتصوَّرة من حلوله، وهي شناعةُ الحالة لمن يشاهدهم، مثل الخسف والحرق والغرق، وأشنع الخزي ما كان بأيدي أناس مثلهم، وهو عذابُ السَّيف الَّذي حلَّ بصناديد قريشٍ يوم بدر، والَّذي كاد أن يحلَّ بجميع قريش يوم فتح مكَّة، فنجّاهم اللّه منه كما نجّى قوم يونس[1].

سِرُّ اختيارِ لفظة ﴿ٱلۡخِزۡيِ﴾ دون غيرها:

بيانُ أنَّ الجزاء من جنسِ العملِ

اختارَ النَّظمُ الكريمُ لفظَ ﴿ٱلۡخِزۡيِ﴾ لهذا المقامِ، دون لفظِ (الذُّلِ) وما يُرادفُه؛ لأنَّ "الخزيَ ذلٌّ مَعَ افتضاح، والخزاية الاستحياء؛ لأنَّه انقماع عَنِ الشَّيء لما فيه من العَيب"[2]، وهو مقام مناسب لفعلتهم، فالكفرُ باللّه قابلَهُ الذُّلُّ مع الفضيحة؛ لأنَّ الكفر سترٌ وتغطيَةٌ، وجحد للإيمان، والخزي غُمَّةٌ وهلاك، ولا يكون كشف هذا إلّا بانكشاف أنوار الإيمان في القلب في ذاك؛ فكان الجزاءُ من جنس العمل.

دلالةُ الجارِّ والمجرور:

عذابُ الأمم الكافرة عقابٌ في الدُّنيا، ويعقبه عذابٌ في الآخرة

قوله تعالى: ﴿فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ صفة لقوله: ﴿عَذَابَ ٱلۡخِزۡيِ﴾، للإشارة إلى أنَّ العذاب الَّذي يَحِلُّ بالأمم الكافرة، هو عقاب في الدُّنيا، ومنه ما يفتضحون به في المتأخِّرين، فيتألَّمون به بعد الموت وراء التألُّم بعذاب الآخرة[3]، وأنَّ الأمم الَّتي لم تُعَذَّب في الدُّنيا، قد ادَّخر لها عذاب الآخرة[4]، ففيه إشارة ضمنيَّة إلى وجود عذاب

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتّنوير: 11/290.
(2) العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 250.
(3) المهائميّ، تبصير الرَّحمن وتيسير المنّان: 1/335.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/291.

الآخرة، وأنَّ الأمم الَّتي تُعذَّب في العاجلة، ادَّخر لها ما هو أشنع في الآجلة.

دلالةُ لفظة التَّمتيع:

بيان أنَّ التَّمتيع هو الإمهال إلى حلول الآجال

قوله تعالى: ﴿وَمَتَّعۡنَٰهُمۡ﴾، أي: بمنافعها والمُراد به التَّمتيع بالحياة، لا بكشف العذابِ؛ لأنَّهم بعد موتهم ناجون من العذاب؛ إذ كانوا قد آمنوا، وأخلصوا، والتَّمتيع هو إبقاؤهم إلى حين انتهاء آجال آحادهم[1]، وسبب هذا التَّمتيع أنَّ نبيَّهم ﷺ، خرج بدون إذنٍ من الله تعالى له، فلم تَتِمَّ عليهم الحجَّة، ولا حقَّت عليهم كلمة العذاب، وقد استدلُّوا بذهابه مُغاضبًا لهم على قرب وقوع العذاب، كما أنذرهم فتابوا، وآمنوا، فكشفه الله عنهم[2].

دلالةُ إسنادِ التَّمتيع إلى ضمير العظمة (نا):

بيان عِظَمِ التَّمتيع، الصَّادر عن المنعم العظيم

قوله تعالى: ﴿وَمَتَّعۡنَٰهُمۡ﴾؛ أي: تمتيعًا عظيمًا[3]، فجيء بنون العظمة وضمير الكبرياء لتأكيد أنَّ مصدر الإنعام بذلك هو الله تعالى، دون سواه؛ وهذا يدلُّ على عِظَم التَّمتيع والإنعام، فمعنى ﴿وَمَتَّعۡنَٰهُمۡ﴾، أي: "بمتاع الدُّنيا بعد كشفِ العذاب عنهم... إلى حينٍ مقدَّرٍ لَهُمْ في علم الله سبحانه"[4].

دلالةُ إبهام اللفظ (حين):

بيانُ كون الحين مختلفًا باختلاف آجال آحادهم

قوله: ﴿وَمَتَّعۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ حِينٍ﴾ إبهام (حين)؛ لأنَّه مختلفٌ باختلاف آجال آحادهم[5]، إلى زمن معلوم، هو عمرهم الطَّبيعيُّ الَّذي يعيشه كلٌّ منهم بحسب سنَّته تعالى في استعداد بنيته ومعيشته[6]، وهي

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/291.
(2) رشيد رضا، تفسير المنار: 11/482.
(3) البقاعي، نظم الدُّرر: 9/208.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/176.
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتنوير: 11/291.
(6) رشيد رضا، تفسير المنار: 11/482.

مختلفة بتقدير الله لها، كلٌّ واحد منهم في وقته المضروب له[1]؛ لأنَّ الإنسان وإن نجا من الأسباب المهلكات، فلن ينجو من الموت، بل لا بدَّ له منه، طال الزَّمن أم قصر، وقد قيل:

أيَّ يَوْمَيَّ مِنَ الْمَوْتِ أفِرُّ *** يَوْمَ لَا يُقْدَرُ أَوْ يَوْمَ قُدِرْ
يَوْمَ لَا يُقْدَرُ لَا أَرْهَبُهُ *** وَمِنَ المَقْدُورِ لَا يَنْجُو الحَذِرْ[2].

سِرُّ الجمع بين قصة نوح وموسى وقوم يونس في هذا الموضع:

ذكر الماء والإغراق والإنجاء في كلِّ هذه القصص

ذكر الحقُّ ﷻ في هذا المقام قصَّة نوح عليه السلام بإطناب، ثُمَّ جاء بقصة موسى وهارون عليهما السلام، ثُمَّ ذكر قصَّة يونس عليه السلام، فالسّورة تضمُّ ثلاثًا من الرّسالات، ولم تأتِ في السُّورة قصَّةُ هودٍ، وثمود، وشعيب، وكان لا بدَّ أن تكون هناك حكمة من ذلك، وهذه الحكمة فيما تجلّى لنا: أنَّ الحقَّ ﷻ يعرض موكب الرِّسالة، وموكب المعارضين لكلِّ رسول، والنَّتيجة الَّتي انتهى إليها أمر الأعداء، وكذلك النَّتيجة الَّتي انتهى إليها أمر الرَّسول ومَنْ آمن به، فنجد الذين ذكرهم الله سبحانه هُنا، قد أهلكوا إهلاكًا مُتَّحدًا بنوع واحد في الجميع، فإهلاك قوم نوح كان بالغرق، وكذلك الإهلاك لقوم فرعونَ، كان بالغرق، وكذلك كانت قصَّة سيِّدنا يونسَ لها علاقة بالبحر، فقد ابتلعه الحوت وجرى في البحر، إذًا فمَنْ ذُكِر هُنا من الرُّسل، كان له علاقة بالماء، فالماء هو السَّبب، فالثَّلاثة لهم ارتباط بالماء بوجهٍ من الوجوه، أمَّا بقيَّة الموكب الرِّساليّ؛ فلم تكن لهم علاقة بالماء، ونحن نعرف أنَّ الماء به الحياة، وبه الإهلاك؛ لأنَّ واهبَ الحياة يهب الحياة بالشَّيء، ويُهلِك بالشَّيءِ نَفْسِهِ، وكأنَّ الحقَّ سُبحانه يبيِّن لنا الحكمةَ: أنا أهلكتُ بالغرق هُناك، ونجَّيْتُ من الغرق هُنا، وهذا

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 9/208.
(2) البيتان يُنسبان للإمام عليّ بن أبي طالب، وقد ورد البيت الأوّل برواية أخرى شاهدًا في لسان العرب: 5/75، وفي المحكم والمحيط الأعظم، لابن سيده المرسيّ: 6/301، وورد البيتان برواية أخرى في شرح نهج البلاغة، لابن أبي الحديد: 5/132.

كلُّه ليُبَيِّن اللّه تعالى قدرتَه المطلقة على الأشياء، فهو الذي يُغرِق بالشَّيءِ، وهو الذي يُنجي منه بأمره تعالى[1].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(الذُّلُّ) و(الخزيُ):

الذُّلُّ والذِّلَّة والمذَلَّةُ ما كانَ عن قهر وضعف وهوان، يُقال: ذَلَّ المرءُ؛ إذا ضعُف وهان، فهُو ذَليلٌ والجمع أذِلَّاءُ[2]، والخزي ذُلٌّ مع افتضاح، وَقيل: هُوَ الانقماع لقبح الفعل، والخزاية الاستحياء؛ لأنَّهُ انقماع عن الشَّيء لما فيه من العيب، يقال: خَزِيَ يَخْزى خِزْيًا؛ إذا استحيا من سوء فعلهِ[3]، فالخزي لا يكونُ إلّا ما يجري مَجرى العقوبة منَ الهوان والإذلال، فكلُّ ما هذه صفته يدخلُ تحتهُ، وذلك رَدْعٌ منَ اللّه تعالى[4]. فآثر الخزيَ ليناسبَ فعلتهم، فالكفر باللّه قابلَهُ الذُّلُّ مع الفضيحة؛ لأنَّ الكفر سترٌ وتغطيَةٌ، وجَحْدٌ للإيمان، والخزي غُمَّةٌ وهلاك، ولا يكون كشف هذا إلّا بانكشاف أنوار الإيمان في القلب في ذاك؛ فكان الجزاءُ من جنس العمل.

الذُّلُّ ضَعْفٌ وهوان، والخزي ذُلٌّ مع افتضاح جارٍ مجرى العقوبة

الفرق بين ألفاظ (المتاع) و(المنفعة) و(النِّعمة):

النِّعْمَةُ هي المَنْفَعَةُ المَفْعولةُ على جهة الإحسانِ إلى الآخرين، فخَرَجَ بِالمَنْفَعَةِ المَضَرَّةُ، كمَنْ أحسنَ إلى جاريةٍ لِيَرْبَح فيها، أو أرَادَ استدراج غيره بمحبوبٍ إلى ألم، أو أطْعَمَ غيرَه نحو: سُكْرٍ أو سُمٍّ لِيَهْلِكَ، فليس بنعمة[5]، فالمَنْفعة تَكونُ حَسَنَةً، وهي ما يُسْتَعانُ به في الوصول إلى الخير، وتكون قبيحة، أمَّا النِّعمةُ؛ فهي ما قُصِدَ به الإحْسَانُ، ولا تكون إلّا حَسَنَةً[6]. أمّا المتاع؛ فيدلُّ على منفعةٍ وامتدادِ

النِّعمةُ ما قُصِدَ به الإحْسَانُ، والمنفعة الحسنة، والمتاعُ منفعة في مدَّة

(1) الشَّعراويّ، تفسير الشَّعراويّ: 10/6210.
(2) الفيومي، المصباح المنير: 1/210، والكفويّ، الكلّيّات، ص: 462.
(3) أبو هلال العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 250.
(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 12/4.
(5) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 1/220، والمناويُّ، التّوقيفُ، ص: 327، والرّاغب، المُفرداتُ: (نعم).
(6) أبو هِلال العسكرِيُّ، الفُروقُ اللُّغويةُ، ص: 196، والزّبيدي، تاجُ العروسِ: (نفع).

مُدَّةٍ في خيرٍ وقوَّةٍ، وكمالِ حالٍ[1]، والمُتُوعُ: الامتداد والارتفاع، يقال: مَتَعَ النَّهار، ومَتَع النَّبات؛ إذا ارتفع في أوَّل النَّبات، فالمَتَاعُ: انتفاعٌ ممتدُّ الوقت، يقال: مَتَّعَهُ اللّه بكذا، وأمْتَعَه، وتَمَتَّع به، قال تعالى: ﴿وَمَتَّعۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ حِينٖ﴾، ومُتْعَةُ الحَجِّ: ضمُّ العمرة إليه، نحو قوله تعالى: ﴿فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلۡعُمۡرَةِ إِلَى ٱلۡحَجِّ فَمَا ٱسۡتَيۡسَرَ مِنَ ٱلۡهَدۡيِۚ﴾[2]، والمتاع في الأصْل: كلُّ شَيْء يُنتفَعُ به، ويُتبلَّغ به، ويتزوَّدُ[3]، والأمتعةُ في قول اللّه تعالى: ﴿وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ تَغۡفُلُونَ عَنۡ أَسۡلِحَتِكُمۡ وَأَمۡتِعَتِكُمۡ﴾، هي ما بها البلاغُ في الأسفار[4]، ومن هنا حسُنَ اختيارُ لفظ التمتيع الذي يعني: الانتفاعَ الممتدَّ إلى حينٍ مقدَّرٍ لَهُمْ في علم اللّه سبحانه.

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (متع)، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصَّل: (متع).
(2) الرّاغب، المفردات: (متع).
(3) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة: (متع).
(4) ابن جرير، جامع البيان: 9/162.

﴿وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَأٓمَنَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ كُلُّهُمۡ جَمِيعًاۚ أَفَأَنتَ تُكۡرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ٩٩﴾ [يونس: 99]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الرَّبط بين هلاك الكفرة الأوَّلين والآخرين، وأنَّه لا هداية إلّا بمشيئة الله

لمّا كان ما مضى رُبَّما أوجب اعتقاد أنَّ إيمان مثل أولئك محال؛ جاءت هذه الآية في مقام الاحتراس منه مع البيان؛ لأنَّ حرصَ الرَّسول ﷺ على إيمانهم لا ينفع، ومبالغته في إزالة الشُّبهات وتقرير الدَّلائل، لا تُفيد إلّا بمشيئة اللّه تعالى لتوفيقهم وهدايتهم، ولو كان ذلك وحده كافيًا؛ لآمنوا بهذه السّورة؛ فإنَّها أزالت شبهاتهم، وبيَّنتْ ضلالاتهم، وحقَّقتْ بقصَّتَي نوح وموسى عليهما السلام ضعفَهم، ووهنَ مدافعاتهم[1]؛ فهذه الآية تذييل لما تقدَّم من مشابهة حال قريش مع النبيِّ ﷺ بحالِ قوم نوح وقوم موسى وقوم يونس[2]. وأيضًا لَوْ ﴿شَآءَ رَبُّكَ﴾؛ لأراهم علامة ليضطَّروا إلى الإيمان، كما فعل بقوم يونس، ولكن لم يفعل ذلك؛ لأنَّ الدُّنيا دارُ ابتلاءٍ[3].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿شَآءَ﴾: شاء زيدٌ الأمرَ يشاؤه شيئًا، من باب نال بمعنى أراده، والمشيئة اسم منه بالهمز والإدغام غير سائغ إلّا على قياس من يحمل الأصليَّ على الزّائد، لكنَّه غيرُ منقول[4]، والمَشِيئَةُ: الإرادَةُ والقَصْدُ، يقال: شاءَ الرَّجُلُ، يشاءُ، شَيْئًا ومَشيئَةً ومَشاءَةً، فهو شاءٍ، أي: أرادَهُ وقَصَدَهُ[5]. والمَشيءُ: المُرادُ الذي يَتَعَلَّقُ به القصد، وأصْلُ

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 9/209.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/292.
(3) السَّمرقنديّ، بحر العلوم: 2/134.
(4) الفيّوميُّ، المصباح المنير: 1/330.
(5) ابن منظور، لسان العرب: (شيء).

المَشيئَةِ: الإيجادُ، مَأْخوذَة من الشَّيْءِ، وهو: كُلُّ موجود إمّا حسًّا أو معنًى[1]. والمقصود بالمشيئة في الآية: إرادةٌ إلى اتِّخاذ الشَّيء.

2) ﴿جَمِيعًا﴾: أصلُ (جَمَعَ) يدلُّ على تضامٍّ الشَّيءِ، يُقالُ: جمعتُ الشَّيء جمعًا[2]، ويُقال للمَجموع: جمْعٌ وجميعٌ وجماعةٌ، وجميعٌ وأجْمَعُ وأجْمَعُونَ تُستعمل لتأكيد الاجتماع على الأمر، فأمّا أجمعون؛ فتُوصف به المعرفة، ولا يصحُّ نصبه على الحال، نحو قوله تعالى: ﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ [الحجر: 30]، وأمَّا جميع؛ فإنَّه قد ينصب على الحال، فيؤكَّد به من حيث المعنى، نحو: ﴿ٱهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعًا﴾ [البقرة: 38][3]. والمقصود بـ ﴿جَمِيعًا﴾ في الآية: تأكيد لزيادَة رَفْعِ احتمال العُموم العُرْفيّ دونَ الحقيقيّ[4].

3) ﴿تُكْرِهُ﴾: أصل الكلمة من الكُرْه، وهو: البغضُ، وخلافه: الرِّضا والمَحَبَّة، وهو حمْلُ الآخرِ على ما يكره، تقول: أكرهتُ فلانًا إكراهًا؛ إذا حملتَه على أمر يكرهه، يقال: كرهتُ الشَّيءَ أكرهه كُرهًا، ويأتي بمعنى: الإلْزام، يُقال: أكْرَهْتُهُ على الشيء، أي: ألزمْتُه به، والكَراهة من الكُرْهِ أو الكَرْهِ، وهو المَشَقَّةُ والشدَّةُ، يقالُ: قُمْتُ على كُرْهٍ، أي: على مشقَّةٍ[5]، وقال الفرّاء: الكُره بالضَّمِّ: المشقَّة، يقال: قمتُ على كُره، أي: على مشقَّة، قال: ويقال: أقامني فلانٌ على كَره بالفتح، إذا أكرهك عليه؛ قال: وكان الكسائيُّ يقول: الكُره والكَره لغتان، وأكرهته على كذا: حملْتُه عليه كرهًا، وكرَّهتُ إليه الشَّيءَ تكريهًا: نقيض حبَّبْتُه إليه[6]، والمكاره: الشَّدائد، والمكروه: ما يكرهه الإنسان ويشقُّ عليه[7]، ومنه سمّي ما نفَّر عنه الشَّرع والطَّبع مكروهًا؛ لأنَّ الطَّبع والشَّرع لا ينفِّران إلّا عن شدَّة ومشقَّة تلحق بالمكلَّف[8]، والمقصود بالإكراه في الآية: الإلجاءُ والقسر[9].

(1) الرّاغب، المفردات: (شيء).
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (جمع).
(3) الرّاغب، المفردات: (كره)، والطيبي، فتوح الغيب: 11/159.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/192.
(5) ابن منظور، لسان العرب: (كره).
(6) الجوهريّ، الصّحاح تاج اللّغة وصحاح العربيّة: (كره).
(7) ابن الأثير، النِّهاية: (كره)، وابن منظور، لسان العرب: (كره).
(8) عبد الكريم النَّملة، المُهذَّب في علم أصول الفقه المقارن: 1/283.
(9) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/294.

❁ المَعْنى الإجْمالِيُّ:

مِن مُقتضى إرادة الله تعالى أن يُؤمِن مَن اهتدى، ويكفر من أبى

يُخبر الله تعالى نبيَّه ﷺ بقوله: ولو شاء ربُّك - يا محمد ﷺ - لألْهَمَ كلَّ من في الأرضِ الإيمانَ، فآمنوا بالله، وبما جِئتَ به، لكنَّه لم يشَأْ ذلك؛ لِمُخالفتِه مقتضَى حِكمتِه سُبحانَه، أفأنت - يا محمد ﷺ - تُلزِمُ النّاسَ، وتضطرُّهم إلى الإيمانِ، حتّى يكونوا مؤمنينَ بما جئتَهم به؟ ليس ذلك إليك، ولا قُدرةَ لك عليه، بل الله تعالى هو من يَهدي، ويُضِلُّ مَن يشاءُ مِن عباده، لا بإكراهك لهم على ذلك[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالةُ (الواو):

تسليَةُ النَّبيِّ الأكرم وطمأنة قلبه، جرّاء ما لقيه من أذى قومه

قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَأٓمَنَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ عطفٌ على جملة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتۡ عَلَيۡهِمۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ [يونس: 96]، لتسلية النَّبيِّ ﷺ على ما لقيه من قومه، وهذه الجُملة كالمقدِّمة الكليَّة للجملة التي بعدها، وهي جملة: ﴿أَفَأَنتَ تُكۡرِهُ﴾ المفرَّعة على الجملة الأولى، وهي المقصود من التَّسلية[2]، فالمتبادر أنَّها جاءت مُعقِّبة على الفصول السَّابقة الَّتي حكت أقوال الكفَّار ومواقفهم وحجاجهم، ثُمَّ على الفصول القصصيَّة التَّذكيريَّة والتَّمثيليَّة التي أعقبتها بقصد تسليَةِ النَّبيِّ ﷺ، وإدخال الطُّمأنينة على قلبه، وتخفيف حُزنه[3]، وذلك أنَّه كان حريصًا على أن يُؤمن جميعُ النَّاس، فأخبره الله جلَّ ذِكْرُهُ: أنَّه لا يؤمن إلّا من سبق له السَّعادة، ولا يَضِلُّ إلّا من سبق له مِنَ الله الشَّقاوة[4].

---

(1) ابن جرير، جامع البيان: 12/299، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/298، والسَّعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 374.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/292.

(3) محمَّد عزَّة دروزة، التَّفسير الحديث: 3/497.

(4) البغوي، معالم التَّنزيل: 2/436.

دلالة (لو) غير الجازمة:

بيانُ اقتضاء حكمة الله في عدم تواطؤ النّاس على الإيمان

(لو) في قوله: ﴿وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَأٓمَنَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ تقتضي انتفاء جَوابها لانتفاء شرطها، فالمعنى: لكنَّه لم يشأ ذلك، فاقتضت حكمته أن خلق عقول النّاس متأثِّرةً ومنفعلة، بمؤثِّرات التَّفاوت في إدراك الحقائق، فلم يتواطؤوا على الإيمان، فما كان لنفس أن تُؤمن إلَّا إذا استكملت خِلْقَةَ عَقْلِها بما يهيئها للنَّظر الصَّحيح، وحُسْنِ الوعي لدعوة الخير ومُغالبة الهوى في الاعتراف بالحقِّ[1]، ولكن اقتضت حكمته أن يخلقَهم هكذا، يوازنون باختيارهم بين الإيمان والكفر، فيؤمن بعضٌ، ويكفر آخرون[2]، "فشاء أن يؤمن به من علم منه أنَّه لا يختار الكفر، وألّا يؤمن به من علم منه أنَّه لا يؤمن به تكميلًا لحكم القبضتين، وتحصيلًا لأهل النَّشأتين، وجعل الكلَّ مستعدًّا ليصحَّ التَّكليف عليهم"[3].

سِرُّ حذف مفعول المشيئة:

حذفُ المفعول من بلاغة البيان؛ لكونه مضمونَ الجزاءِ

مفعولُ المشيئة في قوله: ﴿وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ﴾ محذوفٌ، بحسب المعهود في نظائره في القرآن الكريم، أي: لو شاء سبحانه إيمان مَنْ في الأرض من الثَّقلين، لآمن كُلُّهُمْ[4]؛ فلو شاء ربُّك - يا محمد ﷺ - إيمانَ أهلِ الأرض كلِّهم جميعًا؛ لآمنوا، دون أن يتخلَّف منهم أحدٌ، ولكنَّه سُبحانه لم يشأ ذلك؛ لأنَّه مُخالف للحكمةِ الَّتي عليها أساس التَّكوين والتَّشريع، والإثابة، والمعاقبة، فقد اقتضت حكمتُهُ سبحانه أن يخلقَ الكفرَ والإيمان، وأن يحذِّرَ من الكفر، ويَحُضَّ على الإيمان، ثُمَّ بعد ذلك من كفر؛ فعليه تقع عقوبة كفره، ومن آمن؛

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/293.
(2) المراغي، تفسير المراغي: 11/158.
(3) إسماعيل حقّي، روح البيان: 4/84.
(4) السَّمرقندي، تفسير السَّمرقندي: 2/134، والآلوسي، روح المعاني: 6/181.

فله ثواب إيمانه[1]، فحذْفُ مفعولِ المشيئةِ؛ لِوُجودِ ما يَقْتَضيه مِن وقوعِها شرطًا، وكونِ مَفعولِها مضمونَ الجزاءِ، وألّا يكونَ في تَعلُّقِها به غرابةٌ[2].

دلالةُ التَّعبير بالرُّبوبيَّة دون الألوهيَّة:

بيانُ تمام الرِّعاية والإحسان من الرَّبِّ سبحانه لأهل الإيمان

لفظ ﴿رَبُّكَ﴾ في قوله: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ﴾، معناه المُحسِن إليك بإقبال من أقبلَ؛ لعلمِه الخير فيه وإدبار من أدبر لعدم قابليَّتِه للخير[3]. فذكر الرُّبوبيَّة هُنا لبيان تمام الرِّعاية والعناية والإحسان من الله لأهل الإيمان، وترْكِ الاختيار مع القدرة على الإجبار من لطف الرُّبوبيَّة، لا من قهر الألوهيَّة، وقد ذكر لفظ الرَّبِّ دائمًا مع تقرير الاختيار، ومنه قوله تعالى في سورة هود: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود: 118 - 119].

دلالةُ تعليق الإيمان بالمشيئةِ:

تحقيقُ دورانِ إيمان جميع المكلَّفين على قطب المشيئة الإلهيَّة

صرَّح تعالى في قوله: ﴿لَّآمَنَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ﴾، أنَّه لو شاء إيمانَ جميع أهل الأرض؛ لآمنوا كلُّهم جميعًا، وهو دليلٌ واضح على أنَّ كفْرَهم واقعٌ بمشيئته الكونيَّة القدريَّة، وبيَّن ذلك أيضًا في آيات كثيرة، كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا۟ ۗ﴾ [الأنعام: 107] الآية، وقوله: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا﴾ [السَّجدة: 13]، وقوله: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ۚ﴾ [الأنعام: 35] إلى غير ذلك من الآيات[4]. وفي هذا الفعل تحقيقٌ لدوران إيمان جميع المكلَّفين وجودًا وعَدَمًا على قطب مشيئته[5] ﷻ.

(1) طنطاوي، التَّفسير الوسيط: 7/136.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/177.
(3) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 9/209.
(4) الشِّنقيطيّ، أضواء البيان: 2/367.
(5) الآلوسي، روح المعاني: 6/181.

سرُّ اصطفاء الاسم الموصول (مَنْ):

بيانُ أنَّ المُرادَ بخطاب الإيمان، هم عموم العقلاء

﴿مَن﴾ في قوله تعالى: ﴿مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ اسم موصول لجمع العُقلاء وهو الاسم الموصول الدَّال على العموم المشترك بين الإفراد والجمع والتَّذكير والتَّأنيث، فاصطفاء هذا الاسم؛ لأنَّ المخاطَبين بخطاب الإيمان والتَّكليف، هم العُقلاء من الإنس والجنِّ، وهم الموصوفون بالإيمان أو عدمه في الخطاب الشَّرعي، وقوله: ﴿وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَأٓمَنَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ كُلُّهُمۡ جَمِيعًاۚ﴾، "بأن يلهمهم الإيمان، ويوزِّع قلوبهم للتَّقوى، فقدرته صالحةٌ لذلك، ولكنَّه اقتضت حكمته أن كان بعضُهم مؤمنين، وبعضهم كافرين"[1].

دلالةُ لفظ ﴿كُلُّهُمۡ﴾:

تأكيدُ التَّنصيص على العموم المُستفاد من الاسم الموصول

معنى ﴿كُلُّهُمۡ﴾؛ في قوله تعالى: ﴿لَأٓمَنَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ كُلُّهُمۡ جَمِيعًاۚ﴾ أي: بحيث لا يَشِذُّ عنهم أحدٌ[2] وجيء بهذا التَّأكيد للتَّنصيص على العموم المُستفاد مِنْ (مَنْ) الموصولةِ، فإنَّها للعموم[3]، و"في الآيات تقريرٌ ربّانيٌّ بأنَّ الله تعالى لو شاء لآمن من في الأرض جميعًا، وسؤالٌ للنَّبي ﷺ، عمّا إذا كان هو مع ذلك يريد أن يرغم النّاس جميعًا على الإيمان"[4]، ولفظ ﴿كُلُّهُمۡ﴾، يستوعب البشريَّة قاطبةً، ولا أحد مهما عظم شأنه، وارتفع قدره، وعظمت قوَّته، يستطيع أن يتأبّى على مشيئةِ الله، قال تعالى: ﴿إِن نَّشَأۡ نُنَزِّلۡ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةٗ فَظَلَّتۡ أَعۡنَٰقُهُمۡ لَهَا خَٰضِعِينَ﴾ [الشّعراء: 4].

دلالةُ ورود لفظي ﴿كُلُّهُمۡ﴾ و﴿جَمِيعًاۚ﴾ مُتجاوِرَيْنِ:

التَّأكيدُ بعد التَّأكيد لزيادة رفْعِ احتمال العموم

النَّصب في ﴿جَمِيعًاۚ﴾ على الحال، وهي حال مؤكِّدة[5]، جيء بها

(1) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 374.
(2) القاسميّ، محاسن التَّأويل: 6/65.
(3) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 9/209 - 210.
(4) دروزة، التفسير الحديث: 3/496.
(5) ابن عطية، المحرَّر الوجيز: 3/145.

بعد ﴿كُلُّهُمْ﴾ للتَّأكيد كقوله تعالى: ﴿لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ﴾ [النّحل: 51] فنُصِبَ على التَّأكيد بعد التَّأكيد[1]، وقيل: أتى بها مع أنَّ كلًّا منهما يُفيد الإحاطة والشُّمول للدَّلالة على أنَّ وجود الإيمان منهم بصفة الاجتماع الَّذي لا يدلُّ عليه ﴿كُلُّهُمْ﴾[2]، ففي الإتيان بلفظ ﴿جَمِيعًا﴾ بعد ﴿كُلُّهُمْ﴾ قولان: أحدهما أنَّه زيادة تأكيد، ونصبه على الحال، وقيل: لمّا كان (كل) يقع تأكيدًا، ويَقَعُ اسمًا غير تأكيد؛ أتى معه بما لا يكون إلّا تأكيدًا، وهو ﴿جَمِيعًا﴾، فجمع بينهما، ليُعلم أنَّ معناهما واحدٌ، وأنَّه للتَّأكيد[3]؛ وقد سبق أنَّ التَّأكيد بلفظ ﴿كُلُّهُمْ﴾ للتَّنصيص على العموم المستفاد من (مَنْ) الموصولة، فإنَّها للعموم، فجيء بالتَّأكيد بلفظ (جميعًا) لزيادة رفع احتمال العموم العرفيِّ دون الحقيقيِّ، وهو من فصيح الكلام[4]، ومعنى ﴿جَمِيعًا﴾، أي: "مجتمعين على الإيمان لا يختلفون فيه، لكنَّه لا يشاؤه؛ لكونه مخالفًا للحِكمة التي عليها بُنِيَ أساسُ التَّكوين والتَّشريع، وفيه دِلالةٌ على أن مَن شاء اللّه تعالى إيمانَه يؤمن لا محالة"[5].

الموقع البيانيُّ لجملة الإنشاء: ﴿أَفَأَنتَ﴾:

الجملة ﴿أَفَأَنتَ تُكۡرِهُ ٱلنَّاسَ﴾ مُفرِّعةٌ على الَّتي قبلها؛ لأنَّه لمَّا تقرَّر أنَّ اللّه لم تتعلَّق مشيئتُه باتّفاق النَّاس على الإيمان باللّه؛ تفرَّع على ذلك إنكارُ ما هو كالمحاولة لِتحصيل إيمانهم جميعًا[6]، فيكون ورود قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَأٓمَنَ ...﴾، كالمقدِّمة الكليَّة، لقوله تعالى: ﴿أَفَأَنتَ تُكۡرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ﴾، وفيه عزاءٌ للنَّبي الكريم ومُواساةٌ له عن مصابه في قومه الذين أبوا أن يستجيبوا له،

السّياق مُواساة للنَّبيِّ الكريم، لمصابه في قومه المناوئين

(1) عبد القاهر الجُرجانيّ، درج الدُّرر: 1/832.
(2) القنّوجيّ، فتح البيان: 3/281.
(3) مكّي القيسيّ، الهداية إلى بلوغ النِّهاية: 5/3330.
(4) ابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 3/145، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/292.
(5) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/177.
(6) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/293.

وأن يتقبَّلوا الخير الذي جاءهم به، فإنَّه لا إكراه في الدِّين، وذلك لأمرين: الأمر الأوَّل: أنَّ الدّين عقيدةٌ، والعقيدة إيمانٌ بالمُعتقد فيه، والإيمان بالشَّيء لا يكون حتّى يرضاه العقل، وتميل إليه النَّفس، ويطمئنَّ له القلب، وليس في شيء من هذا مكان للإكراه، بل إنَّ الإكراه هو الآفة الَّتي تحجب القلبَ عن الإيمان، وتغتال الإيمان إذا هو وجد طريقًا إلى القلب، والأمر الثَّاني: أنَّ القلوب التي هي مستودع الإيمان، بيد الله ﷻ، إن شاء ساق إليها الإيمانَ، وهيَّأها لاستقبالهِ، ونفعها به، فأزهر فيها، وأثمر، وإن شاء صرفها عن الإيمان، وختم عليها، فلم تقبله، ولم تنتفع به[1].

دلالةُ الهمزة الاستفهاميَّةِ:

الاستفهامُ من أساليب التَّأديب لنفي وقوع الإيمان بالإكراه

الهمزةُ في قوله تعالى: ﴿أَفَأَنتَ تُكۡرِهُ ٱلنَّاسَ﴾ للاستفهام، وهو هُنا إنكاريٌّ، وهو بالنِّسبة لمقام النَّبي ﷺ تأديبيٌّ[2]، أي: أفأنت يا محمَّد تُلزِمُ النَّاس، وتلجئهم إلى الإيمان، ليس ذلك عليك ولا إليك، بل إلى الله وعليه، فالإيمان لا يتمُّ بالإكراه والإلجاء والقسر، وإنَّما يتمُّ بالطَّواعية والاختيار[3]، فالإنكارُ يرادُ به التقريرُ، ويُلمح فيه أيضًا معنى النَّفي[4].

دلالةُ المحذوف على معنى الإكراه والدّافع إليه:

بيانُ شدَّة حِرصِ النَّبيِّ على إيمان قومه، وحزنه على كفرهم

الهمزةُ الاستفهامية هُنا داخلةٌ على محذوفٍ، والفاء عاطفة على ذلك المحذوف، والتَّقدير: (أتحزن يا محمَّد ﷺ، على عدم إيمانهم، وتتأسَّف عليه، فأنت تُكرِهُ النَّاس، أي: تريد أن تجبرهم على الإيمان؟)[5] وكان رسول الله ﷺ لشدَّة حرصه ورغبتهِ في

(1) عبد الكريم الخطيب، التَّفسير القرآني للقرآن: 6/1088.
(2) الهرري، حدائق الرَّوح والرَّيحان: 12/361.
(3) الثَّعالبي، الجواهر الحسان: 3/269، ووهبة الزُّحيليّ، التَّفسير المنير: 11/272.
(4) النَّسفيّ، مدارك التَّنزيل: 2/254.
(5) الصّاويّ، حاشية الصَّاويّ علي الجلالين: 2/120، والهرريّ، حدائق الرّوح: 12/361.

إيمانهم، كاد أن يُكرههم على الإيمان إشفاقًا عليهم، كقوله: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ﴾ [الشعراء: 3][1].

دلالة الفاء:

بيانُ تفرُّعِ الإنكار على ما ورد قبلُ، من ذكر عدم المشيئة

الفاء في قوله تعالى: ﴿أَفَأَنتَ تُكۡرِهُ ٱلنَّاسَ﴾، للتَّفريع والمقصود تَفَرُّع الإنكار على ما ورد قبْلُ، وقيل: إنَّ الهمزة في موضعها والعطف على مقدَّر ينسحب عليه الكلام، كأنَّه قيل: (أربُّك لا يشاء ذلك، فأنت تُكرههم؟)[2]، فيجوز أن تكون الفاءُ لترتيب الإنكار على عدم مشيئته تعالى، بناء على أنَّ الهمزة متأخِّرة في الاعتبار، وإنَّما قُدِّمت لاقتضائها الصَّدارة، كما هو رأي الجمهور وأيًّا ما كان، فالمشيئة على إطلاقها؛ إذ لا فائدة بل لا وجه لاعتبار عدم مشيئة الإلجاء خاصَّة في إنكار التَّرتيب عليه أو ترتيب الإنكار عليه[3].

فائدةُ تقديم الضمير ﴿أَفَأَنتَ﴾ على المسند الفعلِّي ﴿تُكۡرِهُ ٱلنَّاسَ﴾:

تقويةُ حكمِ الإنكار بالدَّلالة على أنَّ خلاف المشيئة مُستحيل

تقديم الاسم في الاستفهام على الفعل للإعلام، بأنَّ الفعل - وهو هُنا الإكراه - ممكن لكن من غير ذلك الاسم؛ فاللّٰه وحده هو القادر على تحويل الطِّباع، فإنَّ قُدرته قاهرةٌ لكلِّ شيء، ومشيئتُه نافذةٌ في كلِّ شيء، مع الدَّلالة على أنَّ وقوع خلاف المشيئة مستحيل، لا يمكن لغيره تعالى بإكراه ولا غيره، والمُراد تخفيف ما يلحق النَّبي ﷺ من التَّحسُّر للحرص على إيمانهم[4]، فتقديم الضَّمير على الفعل للدَّلالة على أنَّ خلاف المشيئة مُستحيلٌ، فلا يمكن تحصيله بالإكراه عليه فضلًا عن الحثِّ، والتَّحريض عليه[5]. ولأجل كون هذا الحرص الشَّديد، هو محلُّ التَّنزيل، ومصبُّ الإنكار، وقع تقديم الضمير

(1) الماتريديّ، تفسير الماتريديّ: 6/88.
(2) الآلوسي، روح المعانيّ: 6/181.
(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/177.
(4) الكشّاف: 2/372، والبقاعيّ، نظم الدُّرر: 9/210، وأبو حيّان، البحر المحيط: 6/108.
(5) البيضاويّ، أنوار التَّنزيل: 3/124.

على المسند الفعليِّ، فالتَّقديم لتقويَةِ حكم الإنكار[1]، وليس مفيدًا للتَّخصيص؛ أي: القصر؛ لأنَّ المقامَ غير صالح لاعتبار القصر؛ إذ مجرَّدُ تنزيل النَّبيِّ ﷺ منزلة من يستطيع إكراه النَّاس على الإيمان، كافٍ في الإشارة إلى تشبيه حرصه على إيمانهم، بحرص من يستطيع إكراههم عليه[2].

دلالةُ الفعل المضارع:

بيانُ الحرص النَّبويِّ على هداية النّاس، وتكرارها وتجدُّدها

معنى ﴿تُكۡرِهُ ٱلنَّاسَ﴾: تُلجئهم إلى الإيمان وتضطرُّهم إليه[3]، فلكثرة حرصه ﷺ على هداية النّاس، وتكرار دعوته لهم وتجدُّدها منه، حينًا بعد حين، عبَّر عن لازم هذا الحرص بالفعل المضارع، وهذا تعريضٌ بالثَّناء على النَّبيِّ ﷺ، ومعذرة له على عدم استجابتهم إيّاه، ومن بلغ المجهود حُقَّ له العذر[4].

بلاغةُ الاستعارة:

تصويرُ حرص الرَّسول على إيمانهم بحرص من يرنو إلى إكراههم عليه

في قوله تعالى: ﴿أَفَأَنتَ تُكۡرِهُ ٱلنَّاسَ﴾، استعارة تصريحيَّة تبعيَّة؛ وذلك بتشبيه حرصه ﷺ على إيمانهم، بحرص من يستطيع إكراههم عليه، فنُزِّل النَّبيُّ ﷺ، لحرصه على إيمان أهل مكَّةَ، وحثيث سعيه لذلك، بكلِّ وسيلة صالحة، منزِلةَ من يحاول إكراههم على الإيمان، حتّى ترتَّب على ذلك التَّنزيل إنكارُهُ عليه[5].

إيثار لفظ ﴿ٱلنَّاسَ﴾ ودلالة التَّعبير به:

خطابُ البلاغ النَّبويِّ مكرَّسٌ لمن أمر بدعوتهم

في قوله تعالى: ﴿أَفَأَنتَ تُكۡرِهُ ٱلنَّاسَ﴾ كان المتبادر (أفأنت تُكرِه من في الأرض) جريًا على اللَّفظ الأوَّل ﴿مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾، لكنّه عَدَلَ عن ذلك وجاء بلفظ ﴿ٱلنَّاسَ﴾ والناس هُنا هم العرب، أو أهل مكَّة

(1) البروسويّ، روح البيان: 4/84.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/293.
(3) عبد الرّزاق الرَّسعنيّ، رموز الكنوز: 3/107.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/293.
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/293.

منهم، وذلك إيماءٌ إلى أنَّهم المقصود من سَوْق القَصَص الماضية، ابتداءً من قوله تعالى: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ نُوحٍ﴾ [يونس: 71]، فالمُراد بالنّاس: من طُبِعَ عليهم، والذين عاش النَّبيُّ ﷺ بين ظهرانيهم، أو الجميع؛ مبالغةً[1].

العِلَّة في اختيار ﴿يَكُونُواْ﴾ بدلًا من (يُصْبِحُوا):

رعايةُ معنى إلهامهم إلى الإيمان مع إرشادهم إليه

قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَكُونُواْ﴾، أي: كونًا جبليًّا[2]، بأن يلهمَهم الإيمانَ، ويوزِّع قلوبهم للتَّقوى، فقدرته صالحةٌ لذلك، ولكنَّه اقتضت حكمته أن كان بعضهم مؤمنين، وبعضهم كافرين[3]، فعبَّر النَّظم بلفظ ﴿يَكُونُواْ﴾ بدل (يُصْبِحُوا): مع أنَّ التَّحوُّل في الثَّانية أظهر من الأولى رعايةً لهذا المعنى.

سِرُّ التَّعبير بـ اسم الفاعل: ﴿مُؤۡمِنِينَ﴾ بدلًا من: (حتّى يُؤْمِنُوا):

الرُّسوخ في الإيمان، هي الحال اللّائقة، بمن عرَف الحقَّ واتَّبعه

قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ﴾، أي: راسخين في الإيمان[4]، فجيء بالاسم دون الفعل للدَّلالة على الرُّسوخ في الإيمان، وأنَّه هو المعتبر والمنتظر، ممَّن دُعِيَ إلى الحقِّ، فعرَفه، فآمن به، وثبت عليه، "والمعنى: تلك هي مشيئتنا، لو أردنا إنفاذها؛ لنفَّذناها، ولكنَّنا لم نشأ ذلك، فهل أنت - يا محمد ﷺ - في وسعك أن تُكْرِهَ النّاس الَّذين لم يرد الله هدايتهم على الإيمان؟ لا، ليس ذلك في وسعك، ولا في وسع الخلق جميعًا، بل الَّذي في وسعك هو التَّبليغ لما أمرناك بتبليغه"[5].

دلالةُ حذف مُتَعَلَّق ﴿مُؤۡمِنِينَ﴾:

بيانُ أنَّ ما جاء به النَّبي المبلِّغ، هو الإيمان الَّذي أمر الله به

قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ﴾، أي: لك، مُصدِّقين على ما

(1) الآلوسي، روح المعاني: 6/181، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/292.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 9/210.
(3) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 374.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/210.
(5) طنطاويّ، التّفسير الوسيط للقرآن الكريم: 7/136.

جئتهم بهِ من عند ربِّك[1]؛ إذ ما جاء به النَّبي ﷺ، هو الإيمان الَّذي أرسل اللّه به رسله، وخاطب به عباده، ودلَّهم عليه، وأرشدهم إليه.

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الإكراه والإجبار:

الإجبارُ حملُ الإنسانِ غيرَه على الفعل مع الإيعاد على تركِهِ، والإكراه أعمُّ

الإكراه: خلاف الرِّضا والمحبَّة، ويقال في حمل الإنسان على ما يكرهه[2] قسْرًا وجبْرًا، فمعنى الإكراه لغةً يدور حول المشقَّة والشِّدَّة، وعدم الرِّضا والمحبَّة وعدم الاختيار، وحَمْل الآخرِ على ما يكرهه بالوعيد الشَّديد، والإلزام والإجبار على ما يكرههُ الإنسان طبعًا أو شرعًا[3]، والمقصود بالإكراه في الدّين إجبارُ الإنسان على اعتناق دين جبرًا عنه، بأيِّ نوع من أنواع الجبر والقهر، ويُعرَّف الإجبار لغةً بالقهر والإكراه، يقال: جَبَر الرَّجلَ على الأمر يَجْبُرُهُ جبرًا وجبورًا وأجبره: أكرهه[4]. فالإكراه في اللُّغة يساوق الإجبار، كما عرَّفه اللُّغويّون، إلَّا أنَّ بعض المحقِّقين جعله أعمَّ منه؛ إذ ذهب إلى أنَّ الإجبار هو حمْلُ الإنسان غيرَهُ على الفعل مع الإيعاد على تركه، في حين قد يصدق الإكراه بالحمل على الفعل من دون إيعادٍ على تركه، كما إذا طلب منه أبوه أو أمُّه أو زوجته فعلًا ولم يكن مجبرًا عليه، إلَّا أنَّه يريد إرضاءَهم وعدم مخالفتهم. وفي الإجبار معنى الاستعلاء أيضًا[5]. ولعموم الإكراه، وخلوِّه من معنى الاستعلاء اختيرَ في الآية ليناسب خطابَ النَّبيِّ ﷺ.

(1) ابن جرير، جامع البيان: 15/213.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات: (كره).
(3) الجرجانيّ، التَّعريفات، ص: 50.
(4) ابن منظور، لسان العرب، والجوهريّ، الصِّحاح: (جبر).
(5) التَّهانويّ، كشَّاف اصطلاحات الفنون: 1/549.

﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۚ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ١٠٠﴾ [يونس: 100]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

بيانُ تبعيَّة إيمان النُّفوس لمشيئته تعالى، بعد بيان دوران كلِّ شيء عليها

تأتي هذه الآية؛ تأكيدًا للمعنى الوارد في الآية السّابقة؛ فقد خلقَ الإنسان، ويَسَّر له أسبابَ الهداية، ومن سنن الله تعالى، أنَّه يسَّر الإيمان والهداية، لمن أخذ بالأسباب، وأعملَ عقلَه وفطرته، وتابع ذلك بالتَّأمل، والنَّظر، والتَّفكر[1]، ففي هذه الآية، رَدٌّ لكلِّ أمرٍ إلى الله تعالى، وإلى أنَّ الحول والقوَّة لله في إيمان من يُؤمن[2]، وتعليلٌ للإنكار الذي تضمَّنه الاستفهامُ في الآية السَّابقة: ﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ﴾، ذلك أنَّه إذا كان الإيمان رَهْنًا بمشيئة الله؛ فليس يجدي بحال أبدًا هذا الحرص الشَّديد الَّذي يبدو من النَّبيِّ ﷺ، وهو يدعو أهله وقومه إلى الإيمان بالله، وإنَّ المطلوب منه هو أن يرفع مصباح الهدى للنَّاس، وأن يكشف لهم به الطَّريق إلى الله، فمن كان ممَّن أراد الله لهم الهداية اهتدى، ومن كان ممَّن أضلَّهم الله؛ فلا هادي له[3]. وخلاصة ذلك كلِّه: أنَّ في هذه الآية بيانًا لتبعيَّة إيمان النُّفوس لمشيئته تعالى وجودًا وعدمًا، بعد بيان الدَّوران الكُلّي عليها كذلك[4].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِۚ﴾: الإذنُ لغةً الإطلاقُ في الفعل، ويكون الأمر إذنًا، وكذلك الإرادة، وقال الحرّاليُّ: هو رفْعُ المنع وإيتاء المُكنة كونًا وخلقًا،

(1) شحاتة، تفسير القرآن الكريم: 11/2124.
(2) ابن عطيَّة الأندلسي، المحرَّر الوجيز: 3/145.
(3) عبد الكريم الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 6/1089.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 6/182.

وقال ابن الكمال: هو فكُّ الحجر وإطلاق التَّصرُّف لمن كان ممنوعًا شرعًا[1]. فالإذْنُ: مَصْدَرُ أذِنَ، يَأْذَنُ، وأصْلُه: رَفْعُ المَنْعِ، وإطلاقُ الفِعْلِ، والإباحَةُ، يقال: أذِنْتُ لَهُ في شَيْءٍ، أي: أطْلَقْتُ له فِعْلَهُ[2]، ويُطْلَقُ الإذْنُ على الإعْلام، ومنه الأذان: وهو الإعْلامُ بِدخولِ الوقتِ، وأذِنْتُ بالشَّيء: عَلِمْتُ به، والاستئذانُ: طَلَبُ الإذْنِ[3]، والإذْنُ في الآية إذْنُ تَكْوينٍ وتَقْدِيرٍ[4].

2) ﴿ٱلرِّجۡسَ﴾: الرِّجس: القَذَرُ، والرِّجس: الحرام، وقال أبو زيد: رجستِ السَّماء: رعدَتْ[5]، والرِّجس: القذر، وقد يُعبَّر به عن الحرام، والفعل القبيح، والعذاب، واللَّعنة، والكفر، قال الفرّاء: إذا بدؤوا بالنَّجس، ولم يذكروا معه الرِّجس؛ فتحوا النّون والجيم، وإذا بدؤوا بالرِّجس ثمَّ أتبعوه النَّجِس كسروا الجيم[6]، وأصل (رَجَسَ): يدلُّ على اختلاط. والرِّجس: القذر، وقيل: الشَّيء القَذِر. ورجس الشَّيء يرجس رجاسة، وإنَّه لرجسٌ مرجُوس، وكلُّ قَذَر رِجْسٌ[7]، الرِّجْسُ: المَأْثَمُ، والكُفر، والرَّجْسُ، بِالفَتْحِ: شِدَّةُ الصَّوْتِ. والمقصود بالرِّجس في الآية: العَذَابُ. قال الفرّاءُ: إنَّه العِقَابُ والغَضَبُ[8] والرِّجس في الآية مقصود منه: الكُفْر[9].

3) ﴿لَا يَعۡقِلُونَ﴾: أصل (عقل): مَا دلَّ على حُبْسَةٍ في الشَّيءِ أو ما يُقارِبُ الحُبْسَةَ. مِنْ ذلك العَقْلِ، وهو الحابِسُ عن ذَميمِ القولِ والفِعْلِ[10]، وهو ضِدُّ الحُمق والجَهل[11]، والجَمع: عُقولٌ، ويأتي العَقْلُ بمعنى: الفَهْم والتَّمييز، يقال: عَقَل الشَّيء يعقله عقلًا، أي: فَهِمَهُ، والعَقْلُ أيضًا: الشَّدُّ والرَّبطُ، تقولُ: عَقَلَ الدّابة، أي: شدَّها ورَبطَها[12]، والمُرَاد بقوله: ﴿لَا يَعۡقِلُونَ﴾: نَفيُ العَقْلِ المُستقيم.

(1) الزّبيديّ، تاج العروس: 34/161.
(2) المناويّ، التّوقيف على أمّهات التّعاريف، ص: 44، والزّبيديّ، تاج العروس: (أذن).
(3) الفيّوميّ، المصباح المنير: (أذن).
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/294.
(5) إبراهيم بن إسحاق الحربيّ، غريب الحديث: 1/14.
(6) ابن الأثير، النِّهاية: 2/200.
(7) الأزهريّ، تّهذيب اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (رجس).
(8) الفرّاء، معاني القرآن: 1/480، وابن سيده، المحكم، وابن منظور، لسان العرب: (رجس).
(9) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/294.
(10) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن سيده، المحكم: (عقل).
(11) الخليل، العين: (عقل).
(12) الرّاغب، المفردات: (عقل).

المَعْنى الإجْماليُّ:

تعلُّق مشيئةِ اللهِ وحكمته بأفعاله وأفعال عِباده، ووقوعها وِفقهما

يُخاطِبُ اللّه تعالى النَّبيَّ ﷺ قائلًا: ما ينبغي لنفسٍ أن تؤمِنَ وتهتديَ إلّا بقضاءِ اللّه وقَدَرِه ومَشيئَتِه، فلا تُجهِدَنَّ نفسَك - يا محمد ﷺ - في طلَبِ هُداها، وبلِّغْها وعيدَ اللّه، ثمَّ خَلِّها؛ فإنَّ هُداها بيَدِ خالِقِها، ولا تكفي دعوتُك في حصولِ الإيمانِ حتّى يأذَنَ اللّه لِمَن دَعَوتَه أن يؤمنَ، ويجعلُ اللّه غضبه وعذابه على الَّذين لا يعقلون آياتِه، وحُجَجَه، ومواعِظَه، وأوامره ونواهيه[1].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالة (الواو) على العطف:

التَّقريرُ والتَّعليل ببيان تبعيَّة الإيمانِ لمشيئة الرَّحمن

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۚ﴾، معطوفٌ على جملة: ﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ﴾، لتقرير مضمونها؛ لأنَّ مضمونها إنكار أن يقدر النَّبيُّ ﷺ على إلجاء النّاس إلى الإيمان؛ لأنَّ اللّه هو الَّذي يقدر على ذلك، ويجوز أن تكون الواو للحال من ضمير المُخاطب، أي: كيف يمكنك أن تُكرِه النّاس على الإيمان، والحال أنَّه لا تستطيع نفسٌ أن تؤمن إلّا بإذن اللّه لها بالإيمان[2]؟ فهو تعليل للإنكار الَّذي تضمَّنه الاستفهام في الآية السّابقة[3]. وفيها بيان لتبعيَّة إيمان النُّفوس الَّتي علم اللّه تعالى إيمانها لمشيئته تعالى - وجودًا وعَدَمًا - بعد بيان الدَّوران الكُلّي عليها كذلك[4].

دلالةُ القصر بالنَّفي والاستثناء:

ورود الصِّفة حال كونها ملابسةً بإذنه تعالى وتوفيقه

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۚ﴾، أي: ما ينبغي أن تؤمن نفسٌ إلّا بقضائه وقدره ومشيئته وإرادته[5]، أي: حال

(1) ابن جرير، جامع البيان: 12/299، 300، والقرطبيُّ، الجامع لأحكام القرآن: 8/386، وابن القيِّم، شفاء العليل، ص: 60، والسَّعدي، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 374.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/294.

(3) عبد الكريم الخطيب، التَّفسير القرآني للقرآن: 6/1089.

(4) الآلوسي، روح المعاني: 6/182، والصَّاوي، حاشيّة الصَّاوي على الجلالين: 2/120.

(5) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 8/385.

كونها ملابسة بإذنه تعالى وتسهيله وتوفيقه، فلا تجهد نفسك في هداها، فإنَّه إلى الله[1]. وخُصِّصت النَّفس بالصِّفة المذكورة من باب قصر الموصوفِ على الصِّفة؛ لأنَّ الاستثناء مفرَّغٌ من أعمِّ الأحوال، فلا بدَّ من كون الإيمان ممّا يؤول إليه حالها، فإنَّ النُّفوس الَّتي علم الله تعالى أنَّها لا تُؤمن، ليس لها حالٌ تؤمن فيها، حتّى تُستثنى تلك الحال من غيرها[2]، فالمنفيُّ هو استطاعة الخروج عن هذا النِّظام العامِّ، لا الاستطاعة الخاصَّة الموافقة له[3].

دلالةُ الكون المنفيِّ:

تقييدُ إيمان النُّفوس بالسُّنن والأقدار

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ﴾ أي: وما ينبغي، ولا يتأتّى[4] لنفس ولا من شأنها، فيما أشير اليه من استقلالها في أفعالها، ولا ممّا أعطاها الله من الاختيار فيما هداها من النَّجدين، وما ألهمها من فجورها وتقواها الفطريَّيْن، أن تؤمن إلّا بإرادة الله ومُقتضى سنَّته، في استطاعة التَّرجيح بين المتعارضين، فهي مختارة في دائرة الأسباب والمسبَّبات، ولكنَّها غير مستقلَّة في اختيارها أتمَّ الاستقلال، بل مقيَّدة بنظام السُّنن والأقدار[5]، ففي هذا النَّفي تأكيدٌ لما اشتملت عليه الآية السّابقة من قدرة نافذةٍ لله تعالى[6] في قوله: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾.

العلَّة من التَّعبير بـ المضارع في قوله: ﴿تُؤْمِنَ﴾:

نفي تجدُّد الإيمانِ إلّا بمشيئة الله تسليَةٌ للدُّعاة وتأديبٌ لهم

قوله تعالى: ﴿أَن تُؤْمِنَ﴾ أي: يقع منها إيمان في وقتٍ ما[7]، تجدُّدًا لهذا الإيمان أو استمرارًا عليه، وفي هذا تسليَةٌ لأهل التَّذكير حين

(1) البروسويّ، روح البيان: 4/84.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 6/182.
(3) رشيد رضا، تفسير المنار: 11/484.
(4) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 9/210.
(5) رشيد رضا، تفسير المنار: 11/484.
(6) طنطاوي، التفسير الوسيط: 7/136.
(7) البقاعي، نظم الدُّرر: 9/210.

يرون النَّاس لم ينفع فيهم تذكيرهم، وفيها تأديبٌ لمن حرص على هداية النَّاس كلِّهم، أو يتمنّى أن يكونوا كلُّهم مؤمنين، فإنَّ هذا خلاف حكمته تعالى[1].

بلاغةُ المجاز في لفظ الإذن:

لا يقع شيءٌ في الكون إلا بمشيئة الله تعالى

في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۚ﴾ مجازٌ مرسلٌ بإطلاق الإذن على المشيئة، أي: إلّا بمشيئة الله تعالى؛ لأنَّ الغالب أنَّ الإذن في الشيء لا يقع إلّا بمشيئة الآذِن، واختياره الملازمة مصحِّحة للمجاز[2].

إيثار لفظ (الإذن) في قوله: ﴿إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّـهِۚ﴾:

الإذنُ إذنُ تكوينٍ وتقدير، لتَهييءِ النَّفس لما خُلقت له

الأصل في الإذن بالشَّيء الإعلامُ بإجازته والرُّخصة فيه ورفْعُ الحَجْرِ عنه[3]، ومعنى (الإذن) في هذه الآية الإرادة والتَّقدير لذلك، فهو العلم والتَّمكين[4]؛ وهو إذن تكوين وتقدير، لتَهييءِ النَّفس لما خُلقت له، فهو خَلْقُ النَّفسِ مستعدَّةً لقبول الحقِّ مميِّزةً بين الحقِّ والباطل، والصَّلاح والفساد، متوصِّلة بالنَّظر الصَّحيح إلى معرفة ما ينبغي أن يتَّبع وما لا ينبغي، مُتمكِّنة بصحَّة الإرادة من زجر داعية الهوى والأعراض العاجلة، ومن اتِّباع داعية الحقِّ والعاقبة الدّائمة، حتّى إذا وجِّه إليها الإرشاد؛ حصل فيها الهدى[5].

السِّرُّ في إيثار اسم الجلالة في: ﴿إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّـهِۚ﴾،:

مُراعاةُ المقام وتربيَةُ المهابة من مقاصد السّياق

ولكون المقام مقامَ توحيدٍ وإيمان عبَّر النَّظم الكريم بالألوهيَّة المقتضية للعبادة والتَّوحيد تربيةً للمهابة في النُّفوس وإشعارًا بعلَّة الحكم، والمعنى: "وما كانَ لِنَفْسٍ أنْ تُؤْمِنَ إلَّا بإذن الله

(1) ابن عجيبة، البحر المديد: 3/187.
(2) عفيف، الشامل في بلاغة القرآن: 2/31.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 6/182.
(4) ابن عطيّة الأندلسي، المحرّر الوجيز: 3/145.
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/294.

بمشيئته وألطافه وتوفيقه، فلا تجهدْ نفسك في هداها، فإنَّه إلى اللّه تعالى"[1].

دلالةُ العطف:

الدَّلالة على المذكور، دلالة الضِّدِّ على الضِّدِّ، والنَّقيض على النَّقيض

قوله: ﴿وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ﴾ معطوفٌ على محذوف، تقديره: فيريد اللّه الإيمان للبعض، ويجعل الرِّجس على الذين لاٰ يَعْقِلُونَ[2]، وهذا العطفُ على المحذوف يدلُّ عليه المذكور دلالة الضِّدِّ على الضِّدِّ، أو النَّقيض على النَّقيض، فالقرينة مُقابلته بالإيمان كالمقابلة الَّتي في قوله: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾.. إلى قوله: ﴿فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾ [التّوبة: 124، 125][3]. فإذ كان كلُّ شيء بإذنه وتيسيره ومشيئته التي تجري بقدره وسنَّته، فهو يجعل الإذنَ وتيسير الإيمانِ للَّذين يعقلون آياته في كتابه وفي خلقه، ويوازنون بين الأمور، فيختارون خير الأعمالِ على شَرِّها، ويُرَجِّحون نفعها على ضرِّها بإذنه وتيسيره، ويجعل الخذلان والخزي المرجِّح للكفر والفجور على الَّذين لا يعقلون ولا يتدبَّرون، فهم لِأفَنِ رأيهم، واتِّباع أهوائهم، يختارون الكفر على الإيمان والفجور على التَّقوى[4].

إيثار لفظ الرِّجس ودلالته:

الكفرُ خُبثٌ نفسانيٌّ، يُوجِب لصاحبه العذاب

الرِّجس: حقيقته الخبث والفساد، ويُطلقُ على الشَّيء القبيح المُستقذَر، وأُطلق هُنا على الكفر؛ لأنَّه خُبثٌ نفسانيٌّ، فالمعنى: ويجعل الكفر وما يترتَّب عليه من عذاب على القوم الَّذين لم يستعملوا عقولهم، فيما يهدى إلى الحقِّ والخير، بل استعملوها فيما يوصل إلى الأباطيلِ والشُّرور[5]، فعبَّر عن الكفر بالرِّجس؛ لكونه علمًا

(1) ابن عجيبة، البحر المديد في تفسير القرآن المجيد: 2/500.
(2) الهرري، حدائق الرَّوح والرَّيحان: 12/362، وطنطاوي، التَّفسير الوسيط: 7/136.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/294.
(4) رشيد رضا، تفسير المنار: 11/484.
(5) طنطاوي، التَّفسير الوسيط: 7/136.

في الفساد والاستقذار، وقيل: المراد به العذاب، وعبَّر عنه بذلك لاشتراكهما في الاستكراه والتَّنفير، وإرادة الكفر منه باعتبار أنَّه نُقِلَ أوَّلًا عن المُستقذر إلى العذاب للاشتراك، فيما ذُكِرَ، ثُم أطلق على الكفر؛ لأنَّه سببه، فيكون مجازًا في المرتبة الثّانية، واختار المحقِّقون من أهل التَّفسير المعنى الأوَّل، تحاشيًا ممّا في إطلاق المُستقذَر على عذاب اللّه تعالى[1].

دلالةُ الفعل المضارع ﴿وَيَجۡعَلُ﴾:

الرِّجس يوصف به من غَمَسَ نفسَهُ في حمْأة الكفر

قوله تعالى: ﴿وَيَجۡعَلُ﴾، أي: ويُوقِعُ الكُفْرَ على الَّذينَ لا يَعْقِلُونَ[2]، والمضارع المذكور هنا للاستمرار[3]، فالكافر مرجوسٌ منكوس مادام مستمرًّا في كفره، فالرِّجس ملازم له لاينفكُّ عنه، وكونه تعالى: ﴿وَيَجۡعَلُ ٱلرِّجۡسَ﴾، أي: الخذلان والخزي المرجِّح للكفر والفجور[4]، ووجوده مستمرًّا نكسةٌ على صاحبه وسوء مصير.

دلالةُ اختلاف القراءة القرآنيَّة في لفظ ﴿وَيَجۡعَلُ﴾:

ضميرُ العظمة تعظيم لشأن الجعل، وبعثٌ للمهابة في النُّفوس

قرأ الجمهور ويجعل الرِّجس بياء الغيبة، والضَّمير عائد إلى اسم الجلالة الَّذي قبله، وقرأه أبو بكر عن عاصم: ﴿وَنَجۡعَلُ﴾ بنون العظمة[5]، وفيه بيانٌ لعظيم هذا الجعل، وبعثٌ للمهابة في نفوس السّامعين، وذلك أدعى إلى تلقّي الوعيد بعناية وخشية.

دلالةُ حرف الجرِّ ﴿عَلَى﴾:

إفادةُ الاستعلاء المجازيِّ المستعمل في التَّمكُّن

﴿عَلَى﴾ في قوله تعالى: ﴿وَيَجۡعَلُ ٱلرِّجۡسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعۡقِلُونَ﴾، للاستعلاء المجازيِّ المستعمل في التَّمَكُّنِ[6]، وهُوَ تمكُّن الكفر منهم، حتَّى كأنَّه يَقَعُ فوقهم، والرِّجس هو الكفر، وهو رجس مستقذرٌ،

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/177، والآلوسي، روح المعاني: 6/182.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/295.
(3) أَطَّفْيِّش، تيسير التَّفسير: 6/318.
(4) رشيد رضا، تفسير المنار: 11/395.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتنّوير: 11/295.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتنّوير: 11/295.

ولكنَّهم لم ينظروا منه ذلك الوجه المستقبح، فكان جعْلُه عليهم وبالًا وضلالًا، وعليه فلا غرابة أن يستعمل هنا حرف الاستعلاء المجازيِّ ﴿عَلَى﴾.

بلاغة النَّفي بـ (لا):

الكفرُ يحول دون هداية العقل إلى إدراك الحقائق الإيمانيَّة

المراد بالنَّفي في قوله تعالى: ﴿لَا يَعۡقِلُونَ﴾ نفي العقل المستقيم، أي: الَّذين لا تهتدي عقولهم إلى إدراك الحَقِّ، ولا يستعملون عقولهم بالنَّظر في الأدلَّة[1]. وفي ذلك إشارة " إلى أنَّ الكفر هو وليد الجهل والحمق، وعدم استعمال العقل وتوجيهه إلى تعقُّل الآيات المبثوثة في هذا الكون الَّذي تتجلّى في آفاقه آياتُ الخالق المبدع، وقدرة الحكيم العليم، الخالق المصوِّر"[2].

بديعُ المقابلة بين حال أهل الإيمان، وحال من لا يعقل:

تصويرُ حُسْنِ أحوال المؤمنين، وتبشيع أحوال الكافرين

يومِئ المعنى الأوَّل من الإذن في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفۡسٍ أَن تُؤۡمِنَ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ﴾ قوله في مقابله: ﴿وَيَجۡعَلُ ٱلرِّجۡسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعۡقِلُونَ﴾ فقابل هذه الحالة بحالة الَّذين لا يعقلون، فَعُلِمَ أنَّ حالة الإيمان حالةُ من يعقلون[3].كما أنَّ وضع الرِّجس في مُقابل الإيمان، إشارة إلى أنَّ الإيمان طُهْرٌ وتزكيَةٌ وتطييب للمؤمن، على خلاف الكفر، فإنَّه قذر ونجس ورجس يلبس صاحبه ويشتمل عليه كما يلبس الجِلْدُ الجسدَ ويحتويه[4]. فَشكَّلت هذه المُقابلة البديعة بين كلِّ هذه المعاني صورةً إعجازيَّة بديعة، لمن أعمل الفكر في تدبُّرها، وحرَّر القول في التَّذكير بها وتَذَكُّرِها.

دلالةُ وَضْعِ الّذين ﴿لَا يَعۡقِلُونَ﴾ بدل الَّذين (لَا يُؤۡمِنُونَ):

الكُفر وليد الجهل والحُمْقِ، وعدمِ استعمال العقلِ

في وضع الَّذين ﴿لَا يَعۡقِلُونَ﴾ بدل الَّذين (لَا يُؤۡمِنُونَ) - بحسب

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتنوير: 11/295.
(2) عبد الكريم الخطيب، التَّفسير القرآني للقرآن: 6/1090.
(3) عبد الكريم الخطيب، التَّفسير القرآني للقرآن: 11/295.
(4) عبد الكريم الخطيب، التَّفسير القرآني للقرآن: 6/1089.

ما يَقْضي به السّياق - إشارة إلى أنَّ الكُفر هو وليدُ الجهل والحمق، وعدمِ استعمال العقلِ، وتوجيهه إلى تعقُّل الآيات المبثوثةِ في هذا الكون، الَّذي تتجلّى في آفاقه آيات الخالق المبدع، وقدرة الحكيم العليم الخالق[1].

عِلَّةُ حذف المفعول بِهِ للفعل ﴿يَعۡقِلُونَ﴾:

التَّنويهُ بإعمال الفكر في تحصيل المعنى، وتنويع دلالاته

حُذِفَ مفعول ﴿لَا يَعۡقِلُونَ﴾، والتَّقدير: لا يعقلون حُجَجَ اللّٰه تعالى وأدلَّته، فهو العادل الحكيم في هداية من هدى، وإضلال من أضلَّ[2]، أو لا يعقلون أحكامه لما على قلوبهم من الطَّبع[3]، فهم لا يتدبَّرون في آيات اللّٰه تعالى، لكي ينتفعوا بها، وهم يدَّعون أنَّهم أعقل النّاس، ويتساقطون في مساوئ الأخلاق، وهم يدَّعون أنَّهم أبعد النَّاس عنها[4].

تنزيلُ الفعلِ المتعدّي منزلة اللازم:

انتفاءُ عقلهم مناط الذَّمِّ ولذلك كان مرادًا

في قوله تعالى: ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعۡقِلُونَ﴾ تنزيلٌ للفعل المتعدّي منزلة اللازم، وذلك لصرف العناية والاهتمام إلى الفعل، وأنَّه هو المراد في ذاته لا وصوله إلى المفعول[5]. لكونه مظنَّة الذمِّ والمؤاخذة.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الرِّجْزُ والرِّجْسُ:

الرِّجْزُ يختصُّ بالعذاب، والرِّجْسُ بالتَّعبير عن القَذَرِ حسِّيًّا أو معنويًّا

(الرِّجْزُ)، و(الرِّجْسُ) متَقارِبانِ لفْظًا ومَعْنًى، فإنَّ الرِّجْزَ يدلُّ على اضطرابٍ، والرِّجْسَ يدلُّ على اختلاطٍ، إلَّا أنَّ الرِّجْزَ في القرآن الكريم اختصَّ بالعذاب، بخلافِ الرِّجْسِ فإنَّه يغلِبُ في التَّعبير عن القَذَرِ حسِّيًّا كان أو معنويًّا؛ لِمَا في القذَرِ مِن اللَّطْخِ والخَلْطِ.

(1) عبد الكريم الخطيب، التَّفسير القرآني للقرآن: 6/1089.
(2) الإيجي، جامع البيان: 2/157.
(3) الشهاب الخفاجي، حاشية الشِّهاب على البيضاوي: 5/106.
(4) الخطيب الشِّربيني، تفسير الشِّربيني: 2/44.
(5) عفيف، الشامل في بلاغة القرآن: 2/31.

والرِّجْسُ وإن استُعمِلَ في القرآن الكريم مرادًا به العذابُ، كما في قولِ اللّه سُبحانَهُ: ﴿قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ﴾ [الأعراف: 71]، إلّا أنَّهُ قد جُعِلَ ما أفضى إلى العذابِ رجسًا؛ استقذَارًا لَهُ، فَلَمْ يخْرُجْ عَنْ أصلِ دِلالَتِهِ، أمّا الرِّجْزُ؛ فلا يَخْرُجُ عَن معْنَى العذابِ، وذلك لِما يُتَصوَّرُ فيه من اضطرابٍ وحركةٍ وجلبةٍ؛ إذِ العذابُ النّازِلُ لا بُدَّ فيه للمنزولِ بهم مِن أن يَضْطَرِبُوا لأجْلِهِ. وثَمَّ ملمحٌ دلاليٌّ بين الرِّجْزِ والرِّجْسِ، يُومئُ إليهِ الحرفَانِ اللَّذانِ وقعَ فيهما الاختلافُ بين الكلمتَيْن وهما الزّايُ والسِّينُ؛ فإن الرِّجْزَ اختصَّ بالعذابِ؛ لِمَا في الزَّاي مِنَ الجهْرِ، والجَهْرُ من صفاتِ القُوَّةِ في الحروفِ، فهو بهذا الاعتبار أقوى مِنَ السِّين الَّتي من صفاتِها الهمسُ - وهو أي: الهمسُ - مِن صفاتِ الضَّعْفِ، فاختصَّ الرِّجْسُ بما ليس في معناه مِنَ الشِّدَّة الَّتي في الرِّجْزِ[1]. ولأنَّ الكفر: قذرٌ، ونجسٌ، وانحطاط في العمل إلى درك الجهل والضلالة والكبر والجحود ناسبَه العقاب الأشدُّ المعبَّر عنه بلفظ الرِّجز.

(1) الدّوري، دقائق الفروق اللّغويّة في البيان القرآنيّ: 336 - 358.

﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَمَا تُغۡنِي ٱلۡأٓيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ ١٠١﴾ [يونس: 101]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

العلاقةُ بين كون الإيمان حاصلًا بالمشيئة، والنَّظر في بدائع الخلق في الكون

لمّا بيَّن ﷺ أنَّ الإيمان لا يحصل إلّا بمشيئة الله تعالى؛ أمر هنا بالنَّظر والاستدلال بالدَّلائل السَّماوية والأرضيَّة، حتّى لا يُتَوَهَّمَ أنَّ الحقَّ هو الجبر المحض، فقال: ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ﴾[1]، وذلك رجاء الالتفات إلى أنَّه تعالى "يدبِّر أمرها، ويقوم على وجودها، ويسيِّرها بإرادته، لا تتحرَّك حركة عن حركة إلّا بإذنه سبحانه بديع السَّموات والأرض"[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تُغۡنِي﴾: أصْلُ الغنى يَدُلُّ على الكِفاية والسَّعة، وكَثْرَةِ المال، يُقال: غَنِيَ الرَّجُلُ، يَغْنَى، فهو غَنِيٌّ؛ إذا كان مُوسِعًا كَثِيرَ المالِ، وضِدُّه: الفَقْرُ[3]، وحقيقَتُه: عَدَمُ الحاجَةِ للآخرين، سَواءً كان ذلك في المالِ، أو في القُوَّةِ، أو العِلْمِ، أو غَيْرِ ذلك. والغَناءُ: الاستِغْناءُ والكِفايةُ، ورجلٌ مُغْنٍ، أي: مجزئ، وقد غَنِيَ عنه، فهو غانٍ[4]، والمراد بالغنى في الآية: عدم الجدوى.

2) ﴿ٱلۡأٓيَٰتُ﴾: أصلُ الآية العلامة الثّابتة الدّالَّةُ على أمْرٍ مِنْ شَأْنِهِ أنْ يَخْفَى، وهي في القرآن على وجهين: الأوَّل: العِبرة، قال تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةٗ﴾ [المؤمنون: 50]، أي: عِبرة يعتبر بها. الثّاني: العلامة، قال: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ خَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [الرُّوم: 22]، أي: ومن العلامات على ربوبيَّتِه. والوجهان مُتقاربان يصلح

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/306، والهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 12/363.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3639.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (غني).
(4) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن عبّاد، المحيط في اللّغة: (غني).

استعمال أحدهما في موضع الآخر[1]، فالآيَاتُ جَمْعُ آيَةٍ، وآياتُ اللّه: دلائله وعَجائِبُه[2]، وهي ما أشار إليه سبحانه قَبْل ذلك بقوله: ﴿مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ﴾[3].

3) ﴿وَٱلنُّذُرُ﴾: من نذر، والإنذار: الإبلاغ، والاسم النَّذر، ومنه قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ [القمر: 16]، أي: إنذاري، والنَّذير المنذِر، والإنذار أيضًا. و(النَّذر) واحد (النُّذور)، وقد نذر للّه كذا من باب ضرب ونصر[4]، وأصْلُ (نذر): يَدُلُّ على تَخْويفٍ أو تَخَوُّفٍ، ومنه الإنْذارُ: الإبلاغُ، ولا يَكادُ يَكونُ إلَّا في التَّخويفِ[5]، والنُّذُرُ: جَمَاعةُ النَّذيرِ (الرُّسُل)، وهو الاسم من الإنْذَار. والتَّنَاذُرُ: إنْذَارُ بَعْضِهم بَعْضًا[6]. ومِنْهُ النَّذْرُ، وَهُوَ أنَّهُ يَخَافُ؛ إذا أخْلَفَ. والنَّذْرُ أيْضًا: ما يَجِبُ، كَأنَّهُ نُذِرَ، أيْ: أُوجِبُ[7]، والمراد بالنُّذُر في الآية: مَن يُخبِر غيرَه بأمرٍ مخُوفٍ حتَّى يحذَره[8].

المَعْنى الإجْماليُّ:

وجُـوبُ النَّظر في دلائل القدرة للاهتداء بها إلى معرفة الخالِق

يقول الحقُّ ﷻ: قُلْ - يا محمد ﷺ - للمُشرِكينَ الَّذين يسألونَك الآياتِ: انظُروا ماذا في السَّمواتِ مِن الشَّمسِ والقَمَرِ والنُّجومِ والسَّحابِ، وفي الأرضِ مِن الجِبالِ والبِحارِ، والأنهارِ والأشجارِ، والثِّمارِ والدَّوابِّ وغيرِ ذلك من المخلوقاتِ الصَّغيرةِ والكبيرةِ، فتفَكَّروا فيها واعتَبِروا؛ فإنَّها دالَّةٌ على وحدانيَّةِ اللّه في ربوبيَّتِه وألوهيَّتِه، وعلى كمالِ قُدرتِه وعظيمِ صِفاتِه، فتُغنيكم عن طلب

(1) العسكريّ، الوجوه والنّظائر، ص: 92.
(2) الزّبيديّ، تاج العروس: (إبي).
(3) العسكريّ، الوجوه والنّظائر، ص: 92.
(4) الرّازي، مختار الصّحاح، ص: 308.
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نذر).
(6) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن عبّاد، المحيط في اللّغة: (نذر).
(7) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نذر).
(8) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 7/137.

الآياتِ، والآياتُ والعِبَرُ والرُّسُلُ المُنذِرةُ، لا تنفَعُ قومًا لا يُؤمنونَ بشيء من ذلك؛ لإعراضِهم وعنادِهم[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالة الجملة الاستئنافيَّةِ: ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ﴾ في السّياق:

النَّظرُ العقليُّ في الكون دعوة إلى الإقناع دون إكراه

لمَّا تقرَّر ما مضى من النَّهي عن الإصغاء إليهم في طلب الآيات، وختم بتعليق الأمر بمجرد المشيئة، كان كأنَّه قيل: فماذا يُقال لهم إذا طلبوا؟ فقال: ﴿قُلِ﴾ أي: يا أشرف الخلق لهم غير مهتمٍّ بأمرهم، ومنبِّهًا لهم على إبطال مذهب الجبر المتعلِّق أصحابه بنحو هذه الآية؛ لأنَّ المشيئة مغيَّبة، والعبد مأمورٌ ببذل الجهد في الطّاعة بما له من القدرة والاختبار[2]. فهذه الجملة استئناف ناشِئ عن قوله: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًاۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ﴾، فقسَّم النّاس إلى قسمين: مؤمنين وكافرين، أي: فادعهم إلى النَّظر في دلائل الوحدانيَّة والإرشاد إلى تحصيل أسباب الإيمان، ودفْعِ غشاوات الكفر، وذلك بالإرشاد إلى النَّظر والاستدلال، بما هو حول الإنسان من أحوال الموجوداتِ، وتصاريفها الدّالَّة على الوحدانيَّة، مثل أجرام الكواكب، وتقادير مسيرها، وأحوالِ النّور والظُّلمة، والرّياح والسَّحاب والمطر، وكذلك البحارُ والجبال[3].

دلالةُ الفعل ﴿قُلِ﴾:

الدَّعوةُ إلى الاهتمام بالنَّظر في صنع الله في كونه

افتُتحتِ الآية: ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ﴾ بـ (قل) للاهتمام بمضمونها[4]، والمعنى: قلْ لهم يا أكمل الرُّسل على

(1) ابن جرير جامع البيان: 12/300، 301، والواحديّ، التّفسير البسيط: 11/327، 328، وابن عطيّة، المحرر الوجيز: 3/145، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/299، ورشيد رضا، تفسير المنار: 11/396، والسّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 375.

(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 9/211.

(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/295.

(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/295.

مقتضى رتبة النُّبوَّة، تهييجًا لهم وتحريكًا على ما في استعداداتهم وقابلياتهم[1]، وفيه إيذانٌ بأهمِّيَّة المقول، وتفخيمٌ لشأنه؛ لما فيه من البراهين الساطعة، والأدلّة القاطعة على فطريَّة الإيمان بالله الخالق المصوِّر المُبْدِئ المُعيد القائم على كلِّ نفس بما كسبت[2].

دلالة الفعل ﴿ٱنظُرُواْ﴾:

الـدّلالـةُ على إعمال النَّظرين القلبيِّ والبصريِّ في الآيـات الكونيَّة

في قوله تعالى: ﴿ٱنظُرُواْ﴾ أمرٌ للكفّار بالاعتبار، والنَّظر في المصنوعات الدّالَّة على الصّانع من آيات السَّموات وأفلاكها وكواكبها، وسحابها، ونحو ذلك، والأرض ونباتها ومعادنها وغير ذلك، المعنى: انظروا في ذلك، فهو ينهيكم إلى المعرفة بالله وبوحدانيَّته[3]. والمقصود: انظروا ما يدلُّكم على جواب هذا الاستفهام، فكلُّ شيء له حالة، فهو مراد بالنَّظر العقليِّ بتركيبه في صورة مفعولين، نحو: انظروا الشَّمس طالعة، وانظروا السَّحاب ممطرًا، وهكذا، وكلُّ شيء هو في ذاته آية، فهو مراد بالنَّظر البصريِّ، نحو: انظروا إنبات الأرض بعد جدبها؛ فهو آية على وقوع البعث[4]. فالنَّظر: هُنا مستعملٌ فيما يصلح للنَّظر القلبيِّ والنَّظر البصريِّ، ولذلك عدل عن إعماله عمل أحد الفعلين، لكيلا يتمحَّضَ له، فجيء بعده بالاستفهام المعلَّق لِكِلا الفعلين، بحيث أصبح حمْلُ النَّظر على كليهما على حدِّ السَّواءِ، فصار صالحًا للمعنيَين الحقيقيِّ والمجازيِّ، وذلك من مقاصد القرآن[5]. أي: انظروا بأبصاركم وبصائركم؛ لتخرجوا بالانتفاع بالعقل عن عدادِ البهائم[6]، وتتحرَّروا من ظلمات الوهم، إلى معارج الفهم، ومن غشاوات الضَّلالة إلى أنوارِ الاهتداء ومعالم الدِّلالة.

(1) نعمة الله علوان، الفواتح الإلهيّة: 1/344.
(2) المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 2/80.
(3) الثَّعالبيّ، الجواهر الحسان: 3/269.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/296.
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/2956.
(6) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 9/211.

بلاغةُ الاستعارةِ في لفظ ﴿ٱنظُرُواْ﴾:

التفكُّرُ يُظهرُ الحقَّ

في فعل ﴿ٱنظُرُواْ﴾ في قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ استعارة تبعيَّةٌ؛ إذ استُعير النظر للتفكُّر المُفضي إلى الإيمان الصادق، بجامع الوضوح في كلٍّ؛ أي: تفكَّروا تفكُّرًا يُجلي لكم الحقَّ، كما يُجلي النَّظر صور المرئيات[1].

فائدةُ الأمرِ بالنَّظر بعد تأكيد المشيئة في الآيات السَّابقة:

الأمرُ بالنَّظر والتَّفكير وإنذار المهملين لهما

جاء الأمرُ في قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ بالنَّظر بعد تأكيد المشيئة، حتَّى لا يُزْهَدَ في النَّظر اتِّكالًا على المشيئة، أي: انظروا في عجائب صنعه لتدُلَّكم على وحدته وكمال قُدرته[2]، وهو أمر منه تعالى لعباده بالتَّفكُّر بخلق الملكوت، وما فيها من الآيات الباهرة ذات النِّظامِ البديع، كالكواكب النيِّرة، والمجرّات العجيبةِ، والبحار الواسعة، وقد قيل:

فيا عَجَبًا كَيفَ يُعْصَى الإلَـ *** ـهُ أَمْ كَيفَ يَجحَدُهُ الجاحِدُ
وَفي كُلِّ شَيْءٍ لَهُ آيَةٌ *** تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ واحِدُ
وَلِلّه في كُلِّ تَحريكَةٍ *** وَتَسْكينَةٍ أَبَدًا شاهِدُ[3]

سِرُّ حذف جواب الأمر بعد قوله: ﴿ٱنظُرُواْ﴾:

وقوعُ الأمر عَقِبَ ذكر أسباب الإيمان الدّالَّة عليه

طُوي في الكلام جواب الأمر، لوقوع الأمر عقبَ أسباب الإيمان، وتقديره: (انظروا؛ تروا آيات موصلة إلى الإيمان)[4]، وفي ذلك الحذف بلاغةٌ ساميَةٌ، فهو يقول لرسوله ﷺ، كي يخاطب أهلَ مكَّةَ من العتاة الطُّغاة، فيقول لهم: "تفكَّروا، أيُّ شيء بديع في السَّموات والأرض من عجائب صنع اللّه الدّالة على وحدته وكمال قدرته"[5].

---

(1) المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 2/80.
(2) البيضاويّ، أنوار التّنزيل وأسرار التّأويل: 3/125.
(3) الأبيات نسبها بعضهم إلى الشّاعر لبيد بن ربيعة، والصّحيح أنّها لأبي العتاهية، يُنظر: ديوانه، ص: 104.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/296.
(5) الجاويّ، مراح لبيد لكشف معنى القرآن المجيد: 1/497.

موضعُ الاستفهام ودلالته بعد الأمر:

الدَّلالةُ على الاستفهام والتَّنبيه على عجائب الملكوت

في قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾، ﴿مَاذَا﴾: استفهامٌ وتنبيه على عجائب السَّموات، وارتباط نجومها وأبراجها برباط مُحكم، لا يمكن أن يسير نجمٌ في غير مساره[1]، فانظروا ما فيها من الآيات والعِبَرِ، وعجائب الصُّنع، ليدلَّكم على وحدانيَّة الله تعالى، وكمال قدرته[2].

دلالةُ التَّركيب بين حرف الاستفهام والموصول:

التَّعميمُ لتوجيه كلِّ نفس إلى الأيسر، استدلال عليه لديها

تعني ﴿مَاذَا﴾ في قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾: ما الَّذي، و(ما) استفهام، و(ذا) أصله اسم إشارة، وهو إذا وقع بعد (ما) قام مقام الاسم الموصول، و﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ قائم مقام صلة الموصول، وأصل وضع التَّركيب: ما هذا في السَّموات والأرض، أي: ما المشار إليه حال كونه في السَّموات والأرض، فكثر استعماله، حتَّى صار في معنى: ما الَّذي[3]، فعمَّم ما في السَّموات والأرض، لتتوجه كلُّ نفس إلى ما هو أقرب إليها، وأيسر استدلالًا عليه لديها[4].

أثرُ القطع والوصل في ﴿مَاذَا﴾ على معنى الآية:

شمولُ دلالة الموصول (ذا) على وحدانيَّة الله، مع القطع والوصل

﴿مَاذَا﴾ يحتمل أن تكون (ما) استفهامية مبتدأ، و(ذا) اسم موصول خبر، وتكون الجملة في محلِّ نصب لتعليق العامل، وهو ﴿ٱنظُرُواْ﴾، ويحتمل أن تكون ﴿مَاذَا﴾ بتمامها استفهامًا في محلِّ رفع مبتدأ، وفي السَّموات خبرُه، وعلى الأوَّل يكون الجارُّ والمجرور متعلِّقين بمحذوف، هو الصِّلة للموصول، أي: ما الَّذي استقرَّ في السَّموات والأرض[5].

(1) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 7/3639.
(2) ابن عجيبة، البحر المديد في تفسير القرآن المجيد: 3/188.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/296.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/296.
(5) الدرويش، إعراب القرآن الكريم وبيانه: 4/303.

فلفظ (ذا) لما قام مقام اسم الموصول، صار من صيغ العموم، فشمل جميع الأجرام وأعراضها الدَّالة على وحدانيَّة اللّٰه وحكمته، وأخصُّ ذلك التَّأمُّل في خُلق النَّبيِّ ﷺ ونشأة دعوته، والنَّظرِ فيما جاء به، فكلُّ ذلك دلائل على كماله وصدقه[1]. فلفظ (ماذا) جُعل بالتَّركيب اسمًا واحدًا مغلِّبًا فيه الاستفهام على اسم الإشارة، ويجوز أن يكون اسمين بمعنى (ما الَّذي)، على أن تكون (ما) استفهاميَّة مرفوعة على الابتداء، والظَّرف صلةُ الَّذي، والجملة خبر للمبتدأِ، وعلى التَّقديرين فالمبتدأ والخبر في محلِّ النَّصب بإسقاط الخافض، وفعل النَّظر معلَّقٌ بالاستفهام[2].

بلاغةُ جَمْعِ السّمواتِ، وإفرادِ الأرْضِ وعطفها عليها:

بيانُ كونِ السَّموات أجناسًا مختلفةً، والأرضِ جنسًا واحدًا

قوله: ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾، جُمعتِ السَّموات؛ لأنَّها أجناسٌ مُختلفة، كلُّ سماء من جنس غير الأخرى، وَوَحَّد الأرض؛ لأنَّها كلَّها تُراب[3]، ولأنَّ الأرض عالمٌ واحد[4]، والسَّموات كلٌّ، والأرض جزء من السَّماء الدُّنيا، وكلاهما جزء من المجرَّة الَّتي ينتميان إليها، وفي عظمة السَّموات على اختلاف طبقاتها دليلٌ على عظمة خالقها، وكونه خلق السَّموات الفسيحة مع اتِّساعها وفخامتها، لا يعجزه أنْ يخلق الأرض، وهي جِرم صغير؛ إذا ما قورن بالسَّموات الفخام.

بلاغة إيجازِ القصر:

عجائبُ ملكوت الله تفخيمٌ إثرَ تفخيم

جملة ﴿مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ تفخيمٌ إثرَ تفخيم لعجائب ملكوتِ اللّٰه تعالى، وهو من الكلام القليل المتضمِّن كلامًا كثيرًا ليندرج ضمن إيجاز القصر في كلا طرفيه: فالذي في السَّموات

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/296.
(2) البروسوي، روح البيان: 4/85.
(3) النَّيسابوريُّ، التَّفسير البسيط: 3/453، والبغويُّ، معالم التَّنزيل: 1/195.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/77.

رفعها بغير عمدٍ، وما فيها من أجرامٍ، والذي في الأرض ما فيها من شواخصَ، وغير ذلك كثيرٌ[1].

سرُّ تقديم السَّموات على الأرض:

مكانةُ السَّمواتِ وعظمتُها، وكونُها مصدرَ تنزُّل القرآن الكريم

قُدِّمَ ذِكْرُ السَّمواتِ على الأرضِ، جريًا على عادةِ القرآنِ الكريم؛ فإنَّ القرآنَ قدَّمَ ذكرَ السَّمواتِ على الأرضِ بما يزيدُ عن مئةِ آيةٍ، ولم يتأخَّرْ ذكرُها إلّا في آيتينِ لموجبٍ دلاليٍّ، وقُدِّمت أيضًا من باب تقديم الأعظمِ والأعلى، فالشَّأنُ أنْ يتقدَّمَ ذكرُ الأعظمِ والأعلى مكانًا على غيرِه، إلّا إنْ كانَ هناكَ ما يوجبُ خلافَه، والتَّقديمُ للأهمِّيَّةِ والقداسةِ، فالسَّماء فيها العرشُ والكرسيُّ، والأرواحُ تصعدُ إليها، وفيها الجنَّةُ والملأ الأعلى، وسوى ذلكَ من الغيبيّاتِ.

الموقع البيانيُّ لجملة ﴿وَمَا تُغْنِي ٱلْآيَٰتُ﴾:

الدَّلالةُ على التَّوكيد والتَّقويةِ ملمحٌ بلاغيٌّ مؤثِّر في السّياق

جملة: ﴿وَمَا تُغْنِي ٱلْآيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾، إمّا حاليَّةٌ من الواو في قوله: ﴿ٱنظُرُواْ﴾ كأنَّه قيل: (انظروا والحال أنَّ النَّظر لا ينفعكم)، وإمّا معترضة و(ما) نافية، أو استفهاميَّة في محلِّ نصبٍ، على أنَّها مفعول مطلق لتغني، أي: أيَّ غناءٍ تُغني، وهي على كلا الاحتمالين توكيدٌ، لما قرَّرته الآيات السَّابقة، من أنَّه لا تؤمن نفس إلَّا بإذن الله، فهذا النَّظر لن يصل بصاحبه إلى الإيمان، ولن يفتحَ قلبه له، إلَّا إذا كان هذا النّاظر ممَّن أراد الله لهم أن يكونوا مؤمنين[2].

فائدةُ استعمال (ما):

إفادةُ النَّفي والاستفهام توبيخ المشركين، من عهد النَّبيّ الأمين

(ما) في ﴿وَمَا تُغْنِي ٱلْآيَٰتُ﴾ إمّا نافية، أو استفهاميَّة[3]، فعلى الاحتمال الأوَّل يكون المعنى: الآيات والنُّذر، وهم الأنبياء، لا تغني إلّا بمشيئته؛ وعلى الاحتمال الثّاني تكون (ما) استفهامًا إنكاريًا على جهة التَّقرير الَّذي في ضمنه نفيُ وقوع الغنى، فيكون المعنى: وأيَّ

(1) المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 2/80.
(2) عبد الكريم الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 6/1090.
(3) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 9/212.

شيء تجدي الآيات السَّماوية والأرضيَّة، والنُّذر بحججها وبراهينها، أمام قوم جاحدين معاندين، قد استحبّوا العمى على الهدى؟ وفي الآية على هذا: توبيخ لحاضري النَّبيّ ﷺ[1].

بلاغةُ الاستعارة في لفظ ﴿تُغۡنِي﴾:

كلمة ﴿تُغۡنِي﴾ في جملة ﴿وَمَا تُغۡنِي ٱلۡأٓيَٰتُ﴾ وردت على سبيل الاستعارة التبعيَّة، استُعير الغنى فيها للإفادة، يعني: لا تفيد، والجامع حُصول النّفع في كلٍّ منهما، وسدُّ الحاجة، والذين لا يؤمنون فقراء محتاجون لأسباب الهداية، ومع وجود تلك الأسباب ظلُّوا فقراء؛ لأنَّهم لم يتنفعوا منها؛ لإعراضهم عنها[2].

من يُعرض عن أسباب الهدايةِ؛ يعشْ في بؤس

بلاغةُ المجاز العقلي:

في إسناد ﴿تُغۡنِي﴾ إلى الآيات مجازٌ عقليٌّ؛ لأنَّ الآيات والنذر أسباب ذلك الغنى المنتفي في حقِّهم؛ لعدم الأخذ بها، والعناية بمضمونها بوصفها سبلَ هداية، وطرق فلاح[3].

الآيـاتُ والنُّـذر أسبابٌ للهداية

بلاغةُ تذييل في الآية:

جملة ﴿وَمَا تُغۡنِي ٱلۡأٓيَٰتُ﴾، ذُيِّلَتْ بها جملة: ﴿ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ فيجوز أن تكون متمِّمة لمقول القول ممّا أمر النَّبيُّ ﷺ أن يقوله لهم، ويجوز أن تكون استئنافَ كلام من الله تعالى، والمعنى: أبلِغهم ما أمرت بتبليغه إليهم، وليست تغني الآيات عن قوم، لا يؤمنون، أي: الَّذين جعل الله نفوسهم لا تؤمن[4]، ويكون بهذا تذييلًا جاريًا مجرى المثل.

الجملةُ المتمِّمة، تجري مجرى الأمثال، وتقوّي ما سبق من مقال

معنى (الآيات) وسرُّ التَّعبير بها:

قوله: ﴿وَمَا تُغۡنِي ٱلۡأٓيَٰتُ﴾ أي: الأدلة، فهي وإنْ كانت ظاهرة،

الآيـاتُ دلائل قويَّةٌ، وبراهين واضحة جليَّةٌ

(1) ابن عطية، المحرّر الوجيز: 3/145، والثَّعالبيّ، الجواهر الحسان: 3/269، وطنطاوي، التَّفسير الوسيط: 7/137.

(2) المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 2/80.

(3) المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 2/80.

(4) ابن عاشور، التَّحرير والتّنوير: 11/296.

فما تُغني إذا كانت البصائر مسدودة، كما أنَّ الشُّموس وإنْ كانت طالعة، فما تُغني إذا كانت الأبصار عن الإدراك بالعمى مردودة، كما قيل:

وَمَا انْتِفَاعُ أَخِي الدُّنْيَا بِمُقْلَتِهِ *** إذَا اسْتَوَتْ عِنْدَهُ الأَنْوَارُ وَالظُّلَمُ[1]

والدَّلائل المقصودة هُنا إمَّا أن تكون من عالم السَّموات، أو من عالم الأرض، أمّا الدَّلائل السَّماوية، فهي حركات الأفلاك، ومقاديرها وأوضاعها، وما فيها من الشَّمس والقمر والكواكب، وما يختصُّ به كلُّ واحد منها من المنافع والفوائد، وأمَّا الدلائل الأرضيَّة؛ فهي النَّظر في أحوال العناصر العلويَّة، وفي أحوال المعادن وأحوال النَّبات، وأحوال الإنسان بخاصَّة، ثُمَّ ينقسم كلُّ واحد من هذه الأجناس إلى أنواع لا نهاية لها، ولو أنَّ الإنسان أخذ يتفكَّر في كيفيَّة حكمة الله سبحانه في تخليق جناح بعوضة؛ لانقطع عقله قبل أن يصل إلى أقلِّ مرتبة من مراتب تلك الحكم والفوائد، ولا شكَّ أنَّ الله سبحانه أكثر من ذكر هذه الدَّلائل في القرآن المجيد، فلهذا السَّبب ذكر قوله: ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ﴾، ولم يذكر التَّفصيل، فكأنَّه تعالى نبَّه على القاعدة الكليَّة، حتَّى إنَّ العاقل يتنبَّه لأقسامها، وحينئذٍ يشرع في تفصيل حكمة كلِّ واحد منها، بقدر القوَّة العقليَّة والبشريَّة[2]، فحسُنَ وقعُ التَّعبير عنها بالآيات هُنا، وكان التَّعبيرُ بالآيات كالإظهار في مقام الإضمار[3].

دلالة عطف (النُّذُر) على (الآيات):

قوله: ﴿وَمَا تُغْنِي ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ﴾، زيدت (النُّذُرُ)، فعُطِفت على الآيات لزيادة التَّعميم في هذه الجملة، حتَّى تكون أوسع دلالةً

مـن لا تـنـفـع فيه الدلائل ولا المخوِّفات منكِرٌ جاحدٌ

(1) عبد الكريم القشيريّ، لطائف الإشارات: 2/117. والبيت للمتنبّي في ديوانه، ص: 323، وهو فيه بلفظ (ناظره) لا (مقلته).

(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/306.

(3) ابن عاشور، التَّحرير والتّنوير: 11/296.

من الَّتي قبلها، ولتكونَ كالتَّذييل لها، وذلك أنَّ القرآن جاء للنّاس بالاستدلال وبالتَّخويف، ثُمَّ سُجِّل على هذا الفريق، بأنَّه لا تنجع فيه الآيات والأدلَّة، ولا النُّذر والمخوِّفات[1].

اشتركوا في الأحوال خيرِها وشرِّها

وعطف (النذر) على (الآيات) هو من عطف الخاصِّ على العام؛ لأنَّ الآياتِ تكون في الخيرِ والشرِّ، والنُّذر لا تكون إلا في الشَّرِّ، والجمع بينهما إعلامٌ بأنَّ حالهم في المطمع، والمفزع سواء[2].

دلالةُ استعمالِ لفظ (النُّذر) بدَلَ (الرُّسُلِ):

بيانُ عمومِ لفظة النُّذر وشمولها للرُّسل وغيرهم

النُّذُرُ جمع نذير، على أنَّه فعيل بمعنى: مُنْذِر، أو على أنَّه مصدر، أي: لا تنفع الآيات الأنفُسيَّة والآفاقية الدّالَّة على الوحدانيَّة، والرُّسل المنذرون أو الإنذارات شيئًا[3]؛ فالنُّذُرُ يشمل الرُّسل والعلماء وغيرهم، كالشَّيب وموت الأقران[4].

فائدة تقديم ﴿ٱلْآيَٰتُ﴾ على ﴿وَٱلنُّذُرُ﴾:

بيانُ عدمِ انتفاعهم بالآيات الكونيَّة، ولا بالآيات المتلوَّة الرَّبانيَّة

قوله: ﴿وَمَا تُغْنِي ٱلْآيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ﴾، أي: إنَّ الآيات الكونيَّة على ظهور دلالتها، والرُّسل على بلاغة حُجَّتها، لا تُجدي نفعًا لقوم لا يُتَوقَّع إيمانهم؛ لأنَّهم لم يُوَجِّهوا أنظارهم إلى الاعتبار بالآيات والاستدلال بها، على ما تدلُّ عليه من وحدانيَّة اللّٰه وقدرته، والاعتبار بسننه في خلقه، والاستفادة منها فيما يُزكّي النَّفس، ويرفعها[5]، فلا تنفعهم الآياتُ الدّالَّة على وحدة الذّات المتجلّية، في عموم الكوائن والجهات، ولا تكفيهم أيضًا النُّذُرُ المبيِّنون المنبِّهون على مدلولاتها[6]بالآيات المتلوَّة، فلم تغنِ الآياتُ المتلوَّة عنهم، كما

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتّنوير: 11/296.
(2) المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 2/80.
(3) البروسويّ، روح البيان: 4/85.
(4) المظهريّ، التَّفسير المظهريّ: 5/59، وعلي المهائميّ، تبصير الرَّحمن وتيسير المنّان: 1/336.
(5) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 11/159.
(6) نعمة الله علوان، الفواتح الإلهيّة: 1/344.

لم تغنِ آياتُ السَّموات والأرض[1]. وفي هذا التَّقديم للآيات على النُّذر بيانٌ لعدم انتفاعهم بالآيات الكونيَّة الجليَّة على وجه العموم، وبالنُّذر الَّذين جاؤوهم بالآيات المتلوَّة المُنَبِّهة على مدلولاتها على جهة الخصوص، فهو تخصيص بعد تعميمٍ.

وإنَّ الأصل في الدَّعوة، والتبليغ، والتوعية - أيًّا كان مصدرها - التَّبصرةُ قبل الوعيد، والدعوةُ إلى التفكُّر والتَّدبُّر قبل التخويف والتحذير.

دلالةُ تنكيرِ لفظ ﴿قَوْمٍ﴾:

الإشارةُ إلى تحقيرِ شأنِهم، وتسفيه عقولهم

القومُ في قوله تعالى: ﴿عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ الجماعة من الرِّجال، ويطلق على قبيلة الرَّجل، ويطلق على الأمَّةِ، وقد جيءَ بهذا اللَّفظ منكَّرًا في مقام نفي الإيمان عنهم، تحقيرًا لشأنِهم وتسفيهًا لعقولهم الَّتي حجبتهم عن رؤيةِ الآيات الواضحات، والحُججِ البالغات.

نكتةُ إجراء الوصفِ بالجملة الفعليَّةِ المنفيَّةِ على لفظ ﴿قَوْمٍ﴾:

الوصفُ استدلالٌ على السَّجيَّة الرَّاسخة في الموصوفين

لفظ ﴿قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ يُفيد أنَّ انتفاء الإيمان عنهم وصف عُرِفوا به، وأنَّه مُستقرٌّ من نفوسهم؛ لأنَّ اجتلاب لفظ ﴿قَوْمٍ﴾ هُنا مع صِحَّةِ حُلول غيره محلَّه يُشير إلى أنَّ الوصف المذكور بعده من مقوِّمات قوميَّتهم؛ لأنَّه صار من خصائصهم، بخلاف ما لو قيل: (عَمَّن لا يؤمنون)، فإنَّ للقبائل والأمم خصائصَ تميِّزها، وتشتهر بها، كما قال تعالى: ﴿وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ﴾ [التَّوبة: 56]، وقد تكرَّر هذا في مواضع كثيرة من القرآن ومن كلام العرب، أي: قومٌ هذه سجِيَّتُهم، وهو هُنا أبدعُ؛ لأنَّه عَدَلَ به عن الإضمار، وهذا من بدائع الإعجاز هُنا[2].

(1) أطفيّش، تيسير التَّفسير: 6/319.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/297.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الإبصار والرُّؤية والنَّظر:

الإبصارُ يتميَّز بالوضوح، والرُّؤية تتميَّز بالعلم، والنَّظر يميِّزه التَّأمُّل

النَّظر عبارة عن تقليب العين نحو المرئيِّ التماسًا لرؤيته، وأصل مادَّة (نَظَرَ) في اللُّغة: تأمُّل الشَّيءِ ومُعاينته، فهو طلب ظهورِ الشَّيء، ويكون النّاظر الطَّالب لظهور الشَّيء بإدراكه من جهة حاسَّة بصرهِ أو غيرها من حواسِّه، والنَّظر بالقلب من جهة التَّفَكُّر، والنَّظر أيضًا هو الفكر والتَّأمُّل لأحوال الأشياء[1]، والرُّؤية: هي إدراك المرئيِّ، ولذلك قد ينظر، ولا يراه، ولمّا كانت الرُّؤية من توابع النَّظر ولوازمه غالبًا؛ أُجْرِيَ لفظُ النَّظر على الرُّؤية على سبيل إطلاق اسم السَّبب على المسبَّب[2]، كما ورد في حكاية عن طلب موسى ﴿رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ﴾ [الأعراف: 143]؛ فكان الرَّدُّ: ﴿قَالَ لَن تَرَىٰنِي﴾ [الأعراف: 143]، وأيضًا فإنَّه قد يطلُب جماعة الهلال، فيراه جماعة منهم، ولا يستطيع الآخرون رؤيتَهُ مع أنَّهُم جميعًا ناظرون[3]؛ فالفرق بينهما: أنَّ الرُّؤية هي: إدراك المرئيِّ، والنَّظر: الإقبال بالبصر نحو المرئيِّ. أمّا البصر هو إدراك العين، ويُطلق على القوَّة الباصرة الَّتي من شأنِها إدراك أشباح الصُّور[4]، وأصل مادَّةِ (بصر) في اللُّغة وضوح الشَّيء، والعين هي أداة الإبصار، قال تعالى: ﴿أَمۡ لَهُمۡ أَعۡيُنٞ يُبۡصِرُونَ بِهَآۖ﴾ [الأعراف: 195]، وقد يُطلق البصر ليدلَّ على العلم القويِّ المُضاهي لإدراك الرُّؤية، فيُقال: بصر بالشَّيء: عَلِمَهُ عن عيان، فهو بصير به[5]، قال تعالى: ﴿فَسَتُبۡصِرُ وَيُبۡصِرُونَ ۝٥﴾ [القلم: 5]، وحينها يكون الفرق بين النَّظر والبصر، كالفرق بين النَّظر والرُّؤية، قال تعالى:

(1) أبو هلال العسكريُّ، معجم الفروق اللُّغويّة، ص: 543.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 29/457.
(3) أبو هلال العسكريُّ، معجم الفروق اللُّغويّة، ص: 543.
(4) الكفويّ، الكلّيّات، ص: 247، والتَّهانويُّ، كشاف اصطلاحات الفنون: 1/938.
(5) نشوان الحميري، شمس العلوم: 1/544.

﴿وَتَرَىٰهُمۡ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ وَهُمۡ لَا يُبۡصِرُونَ ١٩٨﴾ [الأعراف: 198]. وخُلاصة القول في الفرق بينهم أنّ الإبصار يتميَّز بالوضوح، والرُّؤية تتميَّز بالعلم، والنَّظر يُميِّزه التَّأمُّل، ولذلك اختير في الآية مرادًا به استعمالُه فيما يصلح للنَّظر القلبيِّ والنَّظر البصريِّ؛ لكون الحديث يدور حول التَّحرُّر من ظلمات الوهم، ومن غشاوات الضَّلالة، إلى أنوار الاهتداء؛ وهذا صنيعُ قوامه التأمُّل والتفكُّر.

﴿فَهَلۡ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثۡلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِهِمۡۚ قُلۡ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُنتَظِرِينَ ١٠٢﴾ [يونس: 102]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

تهديدُهم بالعذاب المنزَلِ على الأمم السّابقة، بعد إقامة الحُجَّة عليهم

لمَّا كان ما في السَّمواتِ والأرضِ مِن الآياتِ، في غايةِ الدَّلالةِ؛ نبَّه سبحانَه على أنَّ التَّوقُّفَ عن الإيمانِ بعدَ التَّنبيهِ على كيفيَّةِ الاستدلالِ معاندةٌ، فقال: ﴿وَمَا تُغۡنِي ٱلۡأٓيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ﴾، فكان ذلك سببًا لتهديدِهم بقولِه: ﴿فَهَلۡ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثۡلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِهِمۡۚ﴾[1]. فإذا أهمل الكفَّار والمشركون المكذِّبون المُعاندون النَّظر في آياتِ اللّه وأسراره، حتَّى ولو كانوا بُسطاء أو أُمِّيِّين، فهل ينتظرون أو يتوقَّعون إلّا نزول العذاب المماثل، لوقائع الأمم الماضية المكذِّبة لرسلهم[2]؟

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَنتَظِرُونَ﴾: الإنظار: التَّأخيرُ والإمهال. يقال: أنْظرتُه أُنْظِرُه. ونظر الشَّيء: باعَهُ بنظرة. وأنظر الرَّجل: باع منه الشَّيء بنظرة، واستنظره: طلب منه النَّظرة، واستمهله[3]، وأصلُ الإنْظَارِ: تَأمُّل الشَّيْءِ ومعاينتُهُ، ثُمَّ يُسْتعارُ، ويُتَّسَعُ فيه، فيقال: نظرْتُ إلى الشيء أنظرُ إليه؛ إذا عاينتَه. ويقولونَ: نظرْتُهُ، أي: انتظرْتُهُ. وسُمّي الإمهالُ إنْظارًا؛ لأنَّهُ ينظر إلى الوَقْتِ الَّذي يَأْتِي فِيه[4]، وضدُّهُ: التَّعْجيلُ، ويأتي الإنظار بمعنى: التَّأخيرِ والتَّأجيلِ[5]، والاسْتِنْظارُ:

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 9/212.
(2) وهبة الزّحيليّ، التَّفسير الوسيط: 2/1013.
(3) ابن منظور، لسان العرب: (نظر).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نظر).
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/19.

طَلبُ الإنْظَارِ، واستَنْظَرَ المُشْتَرِي فُلانًا: سَأَلَهُ الإنْظَارَ، والتَّنَظُّرُ: تَوَقُّعُ الشَّيء[1] والمقصود بالإنظار في الآية: الانتظار[2].

2) ﴿أَيَّامِ﴾: أصلُ اليَوْم: الوَاحِدُ مِنَ الأيّام، ثُمَّ يستعيرونَهُ في الأمر العظيم، ويَقولُونَ: نِعْمَ فُلَانٌ في اليوم؛ إذا نزل[3]، واليَوْمُ أيضًا: مِقْدارٌ مِن الزَّمانِ، أوَّلُهُ طُلوعُ الشَّمْسِ إلى غُروبِها[4]، أو مِن طُلوعِ الفجر الصّادق إلى غُروبِ الشَّمْسِ[5]، وأُطلِقتِ الأيّامُ على ما يَقَعُ فيها مِنَ الأحداثِ العَظيمَةِ، ومن معاني اليوم: الوقْتُ، والزَّمَنُ، والحينُ، سواء كان نَهارًا أو ليلًا، تقولُ: خَبَّأْتُ المالَ لِهذا اليَوْمِ، أي: لهذا الوَقْتِ، والجَمعُ: أيّامٌ. والمقصود بالأيّامِ في الآية: الوقائع والأحداث العظيمة.

3) ﴿خَلَوْاْ﴾: أصلُ الخُلُوِّ: الفَراغُ، يُقال: خَلا المكانُ، يخلو، خلوًّا وخلاءً؛ إذا لم يَكُن فيه أحَدٌ، ولا شيء فيه، ويقال: مَكانٌ خالٍ، أي: فارِغٌ[6] وخلا مكانُهُ: مات، ومضى، والقُرونُ الخاليةُ: الماضِيَة[7]، ويأتي الخلوُّ بمعنى الانفرادِ، تقول: خلا الرَّجُلُ بِنَفْسِهِ، أي: انفرد بها[8]، والمقصود بالخلوِّ في الآية: ما مضى من الزَّمان.

المَعْنى الإجْماليُّ:

يقول اللّه تعالى لنبيِّه ﷺ محذِّرًا مُشركي قومه: هل ينتَظِرُ هؤلاء المُشركونَ المكَذِّبونَ لك - يا محمد ﷺ - من النِّقمةِ والعذابِ، إلّا مِثلَ وقائعِ اللّه تعالى في الأُممِ الماضيةِ مِن قَبلهم، المكَذِّبةِ لِرُسُلِهم؟ وقُل

وعيد الكفّار وتهديدهم بإنزال العذاب بهم؛ إذا لم يؤمنوا

(1) ابن عبّاد، المحيط في اللّغة: (نظر).
(2) السّمين الحلبي، عمدة الحفّاظ: (نظر)، وابن عاشور، التّحرير والتنّوير: 11/298.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (يوم).
(4) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، والرّاغب، المفردات: (يوم).
(5) الزّبيديّ، تاج العروس: (يوم).
(6) ابن منظور، لسان العرب: (خلو).
(7) ابن عبّاد، المحيط في اللّغة، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، والفيروزاباديّ، القاموس المحيط: (خلى - خلو).
(8) ابن منظور، لسان العرب، والفيّومي، المصباح المنير: (خلو).

لهم منذِرًا مهدِّدًا: انتظروا عقاب الله ونزول سخطه بكم، إنّي مِن المنتظرين هلاككم بالعُقوبة التي تحلُّ بكم، وإنّي على بيِّنة بما وعد الله به، وصدق وعده للمُرسلين، وإنَّ الَّذين يصرُّون على الجُحود والعِناد، سيكونون مِن الهالكين[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالة (الفاء) وموقعها:

من الإفصاح دلالةُ الحرف على التَّرتيب، وتجليَةُ معاني التَّركيب

الفاء في كلمة ﴿فَهَلْ﴾، لترتيب ما بعدها على ما قبلها، أي: إنَّه يترتَّب على استمرارها في غوايتهم وضلالهم أنَّهم لا ينتظرون إلّا قارعةً مثل الَّذين مضوا قبلهم[2]. ففي الفاء تفريع على جملة ﴿وَمَا تُغْنِي ٱلْآيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ﴾، باعتبار ما اشتملت عليه من ذكر النُّذر، وهي خطاب من الله تعالى لرسوله ﷺ، أي: يتفرَّع على انتفاء انتفاعهم بالآيات والنُّذر وعلى إصرارهم أنْ يسأل عنهم: ماذا ينتظرون، ويجاب بأنَّهم ما ينتظرون إلَّا مثل ما حلَّ بمن قبلهم ممَّن سيقت قصصهم في الآيات الماضية[3].

غرض الاستفهام الإنكاريِّ:

السِّياق مفاده التَّقريرُ والتَّوَعُّدُ، والحَضُّ على الإيمان

قولُه: ﴿فَهَلْ يَنتَظِرُونَ﴾، استفهام إنكاريٌّ لإنكار الوقوع بمعنى النَّفي، أي: فهل ينتظر هؤلاء المشركون من قومك - يا محمد ﷺ - إلَّا أن يقع لهم مثلُ ما وقع للَّذين مضوا من قبلهم ممَّن عاندوا في الحقِّ، وحاربوه، وفتنوا أهله[4]، وفي هذا الاستفهام أيضًا تقريرٌ وتَوَعُّدٌ، وحَضٌّ على الإيمان، فإذا لجّوا في الكفر حلَّ بهم العذاب، وإذا آمنوا نجوا، هذه سُنّة الله في الأمم الخالية[5].

---

(1) ابن جرير، جامع البيان: 12/301، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 8/386، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/299، والمراغيّ، تفسير المراغيّ: 11/160.

(2) محمّد أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 7/3640.

(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/297.

(4) محمَّد أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 7/3640، والهرري، حدائق الرُّوح والرَّيحان: 12/364.

(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/110، والثَّعالبي، الجواهر الحسان: 3/269.

سِرُّ انتخاب الاستفهام بالحرف (هل):

إفادةُ تحقيق السُّؤال، باعتبار تحقيق المسؤول عنه

في قولِهِ: ﴿فَهَلۡ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثۡلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِهِمۡۚ﴾، وقَع الاستفهامُ بـ (هَلْ) لإفادَتِها تَحقيقَ السُّؤالِ، وهو باعتبارِ تحقيقِ المسؤولِ عنه، وأنَّه جديرٌ بالجوابِ بالتَّحقيقِ[1]، إمّا أن يراد: فهل يقصدون في الانتظار بكم إلّا مثل ما حلَّ بالأمم السّالفة؟ أو يراد: فهل حالهم في الانتظار لما يحلُّ بهم إلّا حال الأمم السّالفة؟ فهذا انتظار عن غير قصد[2].

دلالةُ الاستعارة التَّهكُّميَّةِ الإنكاريَّةِ في: ﴿يَنتَظِرُونَ﴾:

تصويرُ المكذِّبين في صورة المجرمين الَّذين ينتظرون عقوبة جُرمهم

والاستفهام في قوله تعالى: ﴿فَهَلۡ يَنتَظِرُونَ﴾ مجازٌ تهكُّميٌّ إنكاريٌّ، والمعنى: إذا كان الأمر كما قصصنا عليك من إثابتنا للمؤمنين، وجَعْلِ الرِّجس على الَّذين لا يعقلون، فهل ينتظر هؤلاء المكذِّبون لدعوتك، إلّا العذاب الَّذي نَزَلَ بالمكذِّبين لدعوة الرُّسُلِ من قبلك؟ فالاستفهام للتَّهكُّم والتَّقريع[3]. ونُزِّلوا فيه منزلةَ من ينتظرون شيئًا يأتيهم ليُؤمنوا، وليس ثمَّة شيء يَصْلُحُ لأنْ ينتظروه إلا أنْ ينتظروا حُلول مثل أيام الذين خَلَوا من قبلهم التي هلكوا فيها[4] بطريق الاستعارة التَّهكُّميَّة، فشبَّه حال تمهُّلهم إلى الوقت الذي سَيَحُلُّ عليهم فيه العذاب بمجرم ينتظر مصيره، والحكم عليه بالعقوبة التي يستحقُّها[5]؛ وإن كانوا ليسوا بمنتظرين ذلك؛ إذ هم جاحدون وقوعه.

دلالةُ الاستثناء المفرَّغ:

النَّفي المُضَمَّن في الاستفهام، يجعل الاستثناء مفرَّغًا

ضُمِّنَ الاستفهام السَّابق معنى النَّفي بقرينة الاستثناء المُفَرَّغ في قوله تعالى: ﴿فَهَلۡ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثۡلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ﴾؛ والتَّقدير: فهل

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/297 - 298.
(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/351.
(3) طنطاوي، التَّفسير الوسيط: 7/137.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/298.
(5) شحاتة، تفسير القرآن الكريم: 11/2126.

ينتظرون شيئًا؟ ما ينتظرون إلَّا مثل أيّام الَّذين خلوا من قبلهم[1]، قال أبو زهرة: "والاستفهام إنكاريٌّ، لإنكار الوقوع بمعنى النَّفي، أي: لا ينتظرون إلّا أن يقع مثل ما وقع للَّذين مضوا من قبلهم، ممَّن عاندوا في الحقِّ، وحاربوه، وفتنوا أهله"[2].

شبَّه حالهم مع حال سابقيهم بمآلهم إلى الهلاك

وفي جملة الاستثناء تشبيهٌ؛ إذ شبَّه انتظارهم بأيام من مضوا قبلهم، ووجه الشبه (الهلاك)، والتقدير: إلّا أيّامًا مثل أيام الذين خلوا في الهلاك[3].

معنى المفعول المحذوف:

بيان عِلْمِهم بالأحداث التي أصابت من قبلَهم، إنْ كانوا يعتبرون

متعلَّق قوله تعالى: ﴿فَهَلۡ يَنتَظِرُونَ﴾ محذوف تقديره: (أيّامًا ووقائع)[4]، مثل أيّام الَّذين خلوا من قبلهم، فهي أيامٌ حدثت فيها أحداث يعلمونها، فهل هم ينتظرون أيامًا مثل هذه؟ بالطَّبع ما كان يصحُّ لهم أن يستمرئوا الكفر، حتَّى لا تَتَكَرَّر معهم مآسٍ كالَّتي حَدَثت لمن سَبَقَهم إلى الكفر[5].

دلالةُ الظَّرف ﴿أَيَّامِ﴾ بين الحقيقةِ والمجاز:

بيانُ الأحداث الَّتي كانت في الغابر، بهلاك كلِّ مناوئ كافر

جاء استعمال الأيّام في قوله: ﴿إِلَّا مِثۡلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِهِمۡۚ﴾ في الوقائع كقولهم: (أيَّام العرب)، وهو مجازٌ مشهورٌ من التَّعبير بالزَّمان، عمَّا وقع فيه، كما يُقال: المغرب للصَّلاة الواقعة فيه، والمُراد بالموصول المشركون من الأمم الماضية[6]، والعرب تُكَنّي بالأيّام عن الشُّرور والحروب، وقد يُقصد بها أيّامُ السُّرور والأفراح؛ إذا قام دليل بذلك[7]، والعرب تسمّي العذاب: أيّامًا والنِّعم أيّامًا؛

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/298.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3640.
(3) المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 2/82.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/213.
(5) الشَّعراويّ، تفسير الشَّعراويّ: 10/6241.
(6) الآلوسي، روح المعاني: 6/183.
(7) الرَّسعني، رموز الكنوز: 3/108.

كقوله تعالى: ﴿وَذَكِّرۡهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِۚ﴾ [إبراهيم: 5]، وكلُّ ما مضى على المرء من خيرٍ وشرٍّ، فهو أيّام[1]، وهو مجاز مرسل تسمية للحال باسم المحلِّ الَّذي هو الزَّمان[2]. بعلاقة الظَّرفيَّة، وقد يكون اليوم على حقيقته، أي: إلَّا يومًا يُعاينون فيه من عذاب الله، مثل أيّام أسلافهم الَّذين كانوا على مثل ما هم عليه من الشِّرك والتَّكذيب[3]، والمُراد أنَّ الأنبياء المتقدِّمين عليهم السلام، كانوا يَتوعَّدون كُفَّار زمانهم، بمجيء أيّام مُشتملة على أنواع العذاب، وهم كانوا يكذِّبون بها، ويستعجلونها على سبيل السُّخريَّة[4].

دلالة الاسم الموصول:

بيان أنَّ الكفار الجدد، سَيَخْلُوْنَ كسابقيهم

المراد بالموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِلَّا مِثۡلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ﴾: المشركون من الأمم الماضية مِنْ قبلهم، متعلّقٌ بـ ﴿خَلَوۡاْ﴾، جيء به للتَّأكيد والإيماء بأنَّهم سَيَخْلُوْنَ كما خَلَوا[5]، ومفاد القول: "قل لهم - أيُّها النَّبيُّ ﷺ -: إذا كنتم تنتظرون غير ذلك، فانتظروا إنّي منتظر معكم، وستصيبكم الهزيمةُ القريبة، والعذاب يوم القيامة"[6].

سرُّ إيثار الفعل ﴿خَلَوۡاْ﴾:

لمّا أساؤوا؛ انمحى أثرهم

أُوْثِر الفعل ﴿خَلَوۡاْ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِلَّا مِثۡلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ﴾ على غيره من مثل قولهم: (مَضَوْا)؛ لِمَا في الفعل (خلا) من معنى الفراغ، والزوال، وانمحاء الأثر[7].

سِرُّ المجيء بالجارِّ مع الظَّرف في قوله: ﴿مِن قَبۡلِهِمۡۚ﴾:

الإشارة إلى أنَّ مِنَ الأُمَمِ السّابقة، مُهلَكًا وناجيًا

ولمّا كان أهلُ الأيّام المهولة، بعض من كان قبلُ؛ أتى بالجارِّ،

(1) البغويّ، تفسير البغويّ: 2/437.
(2) أَطَّفَيِّش، تيسير التَّفسير: 6/320.
(3) المراغي، تفسير المراغي: 11/160.
(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/307، ونظام الأعرج، غرائب القرآن: 3/614.
(5) الآلوسي، روح المعاني: 6/183.
(6) لجنة من علماء الأزهر، المنتخب في تفسير القرآن الكريم، 304.
(7) المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 2/82.

فقال: ﴿مِن قَبۡلِهِمۡۚ﴾ أي: من مكذِّبي الأمم، وهم القبط وقوم نوح ومن طُوِيَ بينهما من الأمم، ثُمَّ نُنَجِّي الرُّسُلَ ومن آمن بهم، حقًّا علينا ذلك للعدل بين العباد[1].

دلالة فصل جملة: ﴿قُلۡ فَٱنتَظِرُوٓاْ﴾ على ما سبق:

تجديدُ التَّهديد لَفْتٌ للانتباه مفيد

لمّا تقدَّمت الإشارة إلى أنَّ الكلمة حقَّت على الكافرين بعدم الإيمان والرِّجس الَّذي هو العقاب؛ زاد في تهديدهم بالاعتراض بما سببه عن فعلهم، فعل من ينتظر العذاب بقوله: ﴿قُلۡ فَٱنتَظِرُوٓاْ﴾، أي: بجميع جهدكم ما ترونه واقعًا بكم، بسبب ما تقرَّر عندكم ممّا كان يقع بالماضين في أيّام اللّه[2]، وجملة: ﴿قُلۡ فَٱنتَظِرُوٓاْ﴾، مفرِّعة على جملة: ﴿فَهَلۡ يَنتَظِرُونَ﴾، وفصل بين المفرَّع والمفرَّع عليه بـ ﴿قُلۡ﴾ لزيادة الاهتمام[3].

دلالة الأمر في ﴿قُلۡ﴾:

التَّهديد والوعيد لمخالفي دعوة الرُّسل والأنبياء

﴿قُلۡ﴾ في قولِهِ: ﴿قُلۡ فَٱنتَظِرُوٓاْ﴾، أمرٌ مُرادٌ منه التَّهديدُ، أي: قل يا محمَّد لهؤلاء الجاحدين للحقِّ الَّذي جئت به: إذًا فانتظروا العذاب الَّذي نزل بالسّابقين من أمثالكم، إنّي معكم من المُنتظرين لوعد ربّي لي، فهو أمرٌ من اللّه تعالى لنبيِّه ﷺ، بأن يستمرَّ في تهديدهم ووعيدهم[4]. ووجوب مواجهتهم للتّحسير والتّبكيتِ، فالأمرُ لِتَفظيع شأن المَقول بحسب دلالة المقال[5].

موقع الفاء التَّفريعيَّة ودلالتها:

الإيجازُ بعطف التَّلقين، بالانتقال في الخطاب من جهة إلى أخرى

جيء بالفاء في قوله: ﴿فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُنتَظِرِينَ﴾؛ لينتقل من مخاطبة اللّه ورسوله ﷺ، إلى مُخاطبة الرَّسول قومَهُ،

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 9/213.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 9/213.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/298.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/110، وطنطاوي، التَّفسير الوسيط: 7/137.
(5) المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 2/82.

وبذلك يصير التَّفريع بين كلامين مختلفي القائل شبيهًا بعطف التَّلقين الَّذي في قوله تعالى: ﴿قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾ [البقرة: 124]، على أنَّ الاختلاف بين كلام الله وكلام الرَّسول ﷺ، في مقام الوحي والتَّبليغ، اختلاف ضعيف؛ لأنَّ مآلهما إلى كلام واحد، وهذا موقع غريب لفاء التَّفريع، وبهذا النَّسج حصل إيجاز بديع؛ لأنَّه بالتَّفريع اعتبر ناشئًا عن كلام الله تعالى، فكأنَّ الله بَلَّغه النَّبيَّ ﷺ، ثُمَّ أمر النَّبيَّ بأنْ يُبَلِّغَهُ قومه، فليس له فيه إلّا التَّبليغ، وهو يَتَضَمَّن وعد الله نبيه، بأنَّه يرى ما ينتظرهم من العذاب، فهو وعيدٌ، وهو يَتَضَمَّن النَّصر عليهم، وسيصرِّح بذلك في قوله: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا﴾[1].

دلالةُ حذف متعلَّقِ (انتظروا):

بالغ في تبكيتهم وتهويل مآلهم تهديدًا ووعيدًا

في الأمر (انتظروا) في قوله: ﴿فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ﴾ دلالةٌ على المبالغة في تبكيتهم، والتَّهكُّم عليهم، وإهانتهم، وحذف مفعوله للتهويل، والتفظيع؛ إذ يُومِئ الحذفُ إلى أنَّه لغرابته لا يكاد يُصوَّر عن طريق اللغة، وإنَّما بالمعاينة، والمشاهدة يوم يحلُّ بهم[2].

دلالةُ الاستئناف المؤكَّد في ﴿إِنِّي مَعَكُم﴾:

زيادةُ التَّحذير والتَّخويف، والإشارة إلى تَرقُّبِه النَّصرَ عليهم

جملةُ: ﴿إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ﴾ استئنافٌ بيانيٌّ ناشئٌ عن جملةِ: ﴿فَٱنتَظِرُوٓاْ﴾؛ لأنَّها تُثيرُ سُؤالَ سائلٍ يَقولُ: ها نحن أولاءِ نَنتظِرُ، وأنت ماذا تَفعَلُ؟ وهذا مُستعمَلٌ كنايةً عن تَرقُّبِه النَّصرَ؛ إذ لا يُظَنُّ به أنَّه يَنتظِرُ سوءًا؛ فتَعيَّن أنَّه يَنتظِرُ مِن ذلك ضِدَّ ما يَحصُلُ لهم[3]، فزاد التَّحذير بهذا الاستئنافِ المؤكَّد لما لهم من التَّكذيب: ﴿إِنِّي﴾[4].

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/298.
(2) المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 2/82.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/298 - 299.
(4) البقاعي، نظم الدُّرر: 9/213.

فائدةُ تقديمِ شبه الجملة:

تـأكـيـدُ تـرَقُّـبِ النَّصر يقينًا على المكذِّبين

(مَعَ) في قوله تعالى: ﴿إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ﴾: حَالٌ مُؤَكِّدَةٌ، والمعيَّةُ هُنا في أصلِ الانتظارِ، لا في الحاصلِ بالانتظارِ[1]، وتأكيد انتظاره، ليقين انتصاره، وهو يقول لهم: "فستعلمون من تكون له العاقبة الحسنة، والنَّجاة في الدُّنيا والآخرة، وليست إلّا للرُّسل وأتباعهم"[2].

نكتةُ رَدِّ العجز على الصَّدرِ:

بيان أنَّ مُتَعَلَّق الانتظار واحد بالذّات

قوله: ﴿مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ﴾ مردود على قوله: ﴿فَٱنتَظِرُوٓاْ﴾، فقوله تعالى: ﴿إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ﴾، أي: من المنتظرين هلاككم، أو فانتظروا هلاكي، إنّي معكم من المنتظرين هلاككم، أو من المنتظرين موعد ربِّي[3]، فأعلمهم بالنَّصفة بقوله: ﴿مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ﴾[4]. فمُتَعَلَّق الانتظار واحد بالذَّات وهو الظّاهر، فيكون تهديدًا لهم، على معنى: انتظروا ما يجب أن تنتظروه من وقائع اللّه بكم[5]. وجُوِّزَ أن يكون مختلفًا بالذَّات متَّحدًا بالجنس، أي: فانتظروا إهلاكي إنّي معكم من المنتظرين هلاككم[6]، فهو تحقيق لما يُنتظر من وعيد بصيغة التلويح بالتَّهديد.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

المِثْلُ والنَّظِيرُ:

المثل المُكافئ في الذّات، والنَّظير المقابل في الفعل

(المثل) مَا تكافأ مع مثله في الذّات؛ فيقال لما يُشَارِكهُ في الجوهر، والنَّظير ما قَابل نَظيره فِي جنس أفعاله، وَهُوَ مُتَمَكِّن مِنْهَا

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/298 - 299.
(2) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن في تفسير كلام المنان: 11/298 - 299.
(3) وهبة الزُّحيليّ، التَّفسير المنير: 11/277.
(4) البقاعي، نظم الدُّرر: 9/213.
(5) الرَّسعنيّ، رموز الكنوز: 3/108.
(6) الآلوسي، روح المعاني: 6/183.

كالنَّحْويِّ نظير النَّحْويِّ، وإن لم يكن له مثل كَلَامه في النَّحْو، أو كُتُبِهِ فيه، ولا يقال: النَّحْوِيّ مثل النَّحْوِيّ، لأنَّ التَّماثُل يكون حقيقة في أخصِّ الأوصاف، وهو الذّات[1]. وأعمُّ الألفاظ الموضوعة للمشابهة: المثل. ولدلالته هذه اختيرَ لفظ (مثل) في سياق الآيةِ ليدلَّ على الشبه في عموم حالات أيام من سلف من المعاندين والكافرين.

(1) أبو هلال العسكريّ، الفروق اللُّغويَّة، ص: 155، والكفويّ، الكلّيّات، ص: 906.

﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيۡنَا نُنجِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٠٣﴾ [يونس: 103]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

خَتْمُ الآيات السّابقة ببيان سُنَّة الله في إنجاء أوليائه

لمّا تقدَّم قوله: ﴿فَهَلۡ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثۡلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِهِمۡۚ قُلۡ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُنتَظِرِينَ﴾، وكان ذلك مُشْعِرًا بما حلَّ بالأمم الماضية المكذِّبة، ومُصَرِّحًا بهلاكهم في غير ما آيةٍ، أخبر تعالى عن حكاية حالهم الماضية، فقال: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا﴾، والمعنى: إنَّ الذين خلوا أهلكناهم لمّا كذَّبوا الرُّسل، ثُمَّ نَجَّينا الرُّسُلَ والمؤمنين[1].

وكذلك لَمّا أُمِرَ الرَّسولُ في الآيةِ السّابقةِ، أن يوافق الكُفّار في انتظارِ العذاب؛ ذكر التَّفصيلَ، فقال: العذابُ لا ينزِلُ إلّا على الكُفّارِ، وأمّا الرَّسولُ وأتباعُه؛ فهم أهلُ النَّجاةِ[2]. فختم سبحانه هذه الآيات الكريمة، ببيان سُنَّةٍ من سُننِهِ الَّتي لا تتخلَّف، ولا تتبدَّل، فقال: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا﴾[3].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿نُنَجِّي﴾: أصْلُ الإنجاءِ: الخَلاصُ مِنَ الشَّيْءِ، نَجا يَنْجو نَجْوًا ونَجاءً، مَمْدُودٌ، ونَجاةً، مَقْصُورٌ، وأنْجَيْتُ غيري، ونجَّيْتُه، واستَنْجى مِنْهُ حَاجَتَهُ: تخَلَّصها، وانْتَجَى مَتاعَه: تَخلَّصه وسَلبَه، ومعنى نجَوْتُ الشَّيءَ: خَلَّصتُه وألْقَيْتُه. والنَّجاةُ: الخلاصُ مِنْ ضُرٍّ واقِعٍ[4]، والنَّجْوَةُ والنَّجاةُ: ما ارتفَع مِنَ الأرض، فَلَمْ يَعْلُه السَّيلُ،

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/110.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/307.
(3) طنطاويّ، التَّفسير الوسيط: 7/138.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/130.

فَظَنَنْتُهُ نَجاءَك، والجَمْعُ نجاءٌ[1]، والمقصود بالإنجاء في الآية: وهو جَعْلُ الآخرين ناجين.

2) ﴿حَقًّا﴾: الحقُّ في الأصل: الثُّبوت، والشَّيء الثّابت، يقال: حُقَّ الأمرُ يحقُّ حقًّا، فهو حقٌّ، أي: ثبت واستقرَّ، وضِدُّه: الباطِلُ[2]، ويأتي الحَقُّ بمعنى المَوجود، وضِدُّه: المَعدومُ. ويُطلَق على الواجِبِ واللّازِمِ، فيقال: يَحِقُّ عليك أن تَفْعَلَ كذا، أي: يَجِبُ، ويُسْتَعْمَلُ بمعنى المُؤَكَّدِ المُتَيَقَّنِ، والحَقِيقَةُ: اليَقينُ، وضِدُّها: الشَّكُّ[3]، والمقصود بالحقِّ في الآية: واجب بطريق الوعد على سبيل التَّفضُّل[4].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

يُخبر اللّه تعالى نبيَّه الكريم ﷺ: أنَّ سُنَّتنا في رُسُلنا مع أقوامهم الَّذين يبلِّغونهم الدَّعوة، ويقيمون عليهم الحُجَّة، وينذرونهم سوء عاقبةِ التَّكذيب - فيؤمن بعضٌ، ويصرُّ آخرون على الكفر - أنْ نُهلك المكذّبين، ونُنجّي رسُلَنا والمُؤمنينَ بهم مِن عَذابِنا الواقِعِ على قَومِهم، كما أنجَينا الرُّسُلَ السّابقينَ والمؤمنينَ بهم حين نزولِ العَذابِ، حقًّا ووعدًا أوجَبْناه علينا لا نُخلِفُه[5].

لا نجاةَ في الدُّنيا والآخرة، إلّا للرُّسل المكرمين، وأتباعهم المؤمنين

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالةُ العطف وأثره على المعطوف عليه:

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا﴾ عُطِفَ على جملة: ﴿فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ﴾؛ لأنَّ مثل تلك الأيّام أيّام عذاب، ولمّا كانوا مُهدَّدين بعذاب يحُلُّ بموضع فيه الرَّسول ﷺ والمؤمنون، عَجَّلَ

تعجيلُ البشارة للرَّسول ﷺ والمؤمنين

(1) ابن منظور، لسان العرب: (نجو).
(2) السَّمين الحلبّي، عمدة الحفّاظ: (حقق).
(3) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (حقق).
(4) السَّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (حقق).
(5) ابن جرير، جامع البيان: 12/303، والواحديّ، التَّفسير الوسيط: 11/332، والقرطبيُّ، الجامع لأحكام القرآن: 8/387، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/299، والمراغيّ، تفسير المراغيّ: 11/160.

اللّه البشارة للرَّسول ﷺ والمؤمنين بأنَّه ينجيهم من ذلك العذابِ بقدرته، كما أنجى الرُّسل مِن قبلِه[1]. فهو تبشير للمؤمنين، وتطمينٌ لهم من أن يصيبَهم شيء من هذا المكروه الَّذي سيحِلُّ بالكافرين، فالمؤمنون بمنجاة من هذا المكروه؛ لأنَّهم مع رسلِ اللّه، واللّه ﷻ لن يتخلّى عن رسله، ولن يريهم منه إلّا ما يسرُّهم من الأمن والعافية، والدَّرجات العُليا عنده[2].

دلالةُ العطف على محذوفٍ:

التَّهديدُ والمبالغة في تشديد الوعيد على المكذِّبين

ويجوز أنْ يكون قوله: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا﴾ معطوفًا على كلام محذوف، يَدُلُّ عليه قوله: ﴿فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ﴾، كأنَّه قيل: نهلك الأمم، ثُمَّ ننجِّي رسلنا، على حكاية الأحوال الماضية[3]، وجيء به مسارعةً إلى التَّهديد ومبالغة في تشديد الوعيد[4]. وهذا التَّعبير على هذا التَّقدير من أعجب إيجاز القرآن المُعْجِزِ الذي انفرد به في العطف على محذوفٍ، وهو ذكر شيء يدلُّ دلالة واضحة على أمرٍ عامٍّ: كسُنَّة اجتماعية تُسْتَنْبَط من قصَّة أو قصص واقعة، ثُمَّ يأتي بجملة معطوفة لا يصحُّ عطفها على ما قبلها من الجُمَلِ، فيتبادر إلى الذِّهن وجوبُ عطفِها على ذلك الأمر العامِّ، بحرف العطف المُناسب للمقام، بحيث يُستغنى به عن ذكره، وتقديره هُنا: تلك سنَّتنا في رسلنا مع قومهم: يبلِّغونهم الدَّعوة، ويقيمون عليهم الحُجَّة، وينذرونهم سوء عاقبة الكفر والتَّكذيب، فيؤمن بعض، ويُصِرُّ الآخرون، فنهلك المكذِّبين، ثُمَّ ننجّي رسلنا والَّذين آمنوا بهم، كذلك حَقًّا علينا ننجّي المؤمنين[5].

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/299.
(2) عبد الكريم الخطيب، التَّفسير القرآني للقرآن: 6/1091.
(3) الزَّمخشري، الكشاف: 2/373، وأبو حيّان، البحر المحيط: 6/110، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/178.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 6/183.
(5) رشيد رضا، تفسير المنار: 11/397.

سِرُّ اصطفاء العطف بـ ﴿ثُمَّ﴾:

إفادةُ التَّراخي والبعد الزَّمنيِّ والمعنويِّ، عاقبةُ الابتلاء الوخيمة

في الإنجاء الوارد في: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا﴾ قولان: أحدهما: ننجّيهم من العذاب إذا نزل بالمكذِّبين، والثّاني: ننجّيهم في الآخرة من النّار[1]، فتكون ﴿ثُمَّ﴾ للتَّراخي والبعد الزَّمني والمعنويِّ؛ لأنَّ ما ينزل بالكافرين، يكون بعد إمهالٍ يتمادون فيه، ثُمَّ يكون الهلاك، ثُمَّ تكون النَّجاة، والبعد الفارق بين أن ينزلَ البلاءُ وبين النَّجاة من عذابٍ يعمُّ، ولا يَخُصُّ[2]، فقد أفادت الآية السّابقة: أنَّ المُكذِّبين ينتظرون عذابًا، مثل عذاب قوم نوح، ومن بعدهم، وأفادت هذه الآية: أنَّه بعد عذاب المكذِّبين، ينجّي اللّه المرسلين، وينجّي معهم من آمن بهم، وتلك سنَّة اللّه، ولن تجدَ لسنَّة اللّه تبديلًا[3]؛ فأشار بأداة التَّراخي ﴿ثُمَّ﴾ إلى طول زمان الابتلاء، وعظيم رُتبة النَّتيجة[4].

عِلَّةُ حذف (الإهلاك) مُقابل الإنجاء:

دلالة السّياق على انتظار وعد الله ووعيده

حذف (الإهلاك) دلَّت عليه الإشارة، فالسّياق يشير إلى أنَّهم ينتظرون أن يهلكوا، مثل الَّذين خلوا من قبلهم، في قوله: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ﴾، فحذف مقابل الإنجاء؛ لأنَّ المقام بعد قوله: ﴿قُلْ فَٱنتَظِرُوٓاْ﴾؛ فلمّا أمر الرَّسول في الآية الأولى، أن يوافق الكفَّار في انتظار العذاب ذكر التَّفصيل، فقال: العذاب لا ينزل إلّا على الكفّار، وأمّا الرَّسول وأتباعه، فهم أهل النَّجاة[5].

دلالةُ مجيء ضمير العظمة في قوله: ﴿نُنَجِّي﴾:

بيانُ عظمة الإنجاء، لكونهِ من الله العظيم

قولهُ تعالى: ﴿نُنَجِّي﴾ أي: تَنجية عظيمة، وننجّيهم إنجاءً

(1) ابن الجوزي، زاد المسير: 2/353.
(2) محمَّد أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 7/3641.
(3) شحاتة، تفسير القرآن الكريم: 11/2127.
(4) البقاعي، نظم الدُّرر: 9/213.
(5) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/307، والبقاعي، نظم الدُّرر: 9/213.

عَظيمًا[1]، "أي: أهلكنا الأمم، ثمَّ نجَّينا رسلَنا المرسلةَ إليهم، والَّذين آمَنوا؛ لأنَّ العذابَ لا ينزل إلّا على الكفّار"[2].

نكتةُ التَّعبير بالمضارع عن حكاية الحال الماضية:

استحضارُ صورةِ ماضي إهلاكِ الظّالمين مفيدٌ للمخاطَبين

عبَّرَ النَّظْمُ الكريم بالمضارع ﴿نُنَجِّي﴾ على حكاية الحالِ الماضية؛ إذ الظّاهر أن يُقال: (ثُمَّ نَجَّيْنَا)، لكن عبَّر بالمضارع لحكاية الحالِ الماضية، إظهارًا للقدرة الكاملة باستحضار الصُّورة البديعة الباهرة[3]، لتكون من العذاب، كأنَّها مشاهدة[4]، وفيه تهويلٌ لأمرِها باستحضارِ صورتها[5].

توجيهُ القراءاتِ في قوله تعالى: ﴿نُنَجِّي﴾:

في تضعيف الفعل، معنى تأكيد النَّجاة والسَّلامة

قرأ يعقوب (نُنْجي) بالتَّخفيف وقرأ الباقون بالتَّشديد ﴿نُنَجِّي﴾[6]، وفي التَّضعيف معنى تأكيد النَّجاة والسَّلامة[7].

سِرُّ تأخير حكاية التَّنجية عن حكاية الإهلاكِ:

مُراعاةُ مُناسبة اتِّصال الجملة بما بعدها من كلام

تأخير حكاية التَّنجية عن حكاية الإهلاك، على عكس ما جاء في غير موضع، ليتَّصل به قوله سبحانه: ﴿كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، أي: ننجّيهم إنجاء كذلك الإنجاء الّذي كان لمن قبلهم[8].

دلالةُ إضافة ضمير العظمة (نا) إلى الرُّسل:

تشريفُ مكانة الرُّسل، وتعظيم منزلتهم

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا﴾، أي: الَّذين عظمتهم من عظمتنا[9]، فأضاف ربُّنا سُبحانه الرُّسل إليه، تشريفًا لمكانتهم، ولبيان أنَّهم ينطقون عن اللّه تعالى، ولا يأتون ببهتان يفترونه[10]،

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 9/213.
(2) الجاويّ، مراح لبيد لكشف معنى القرآن المجيد: 1/497.
(3) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 9/574.
(4) أطفيش، تيسير التَّفسير: 6/320.
(5) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/373، وأبو حيّان: 6/110، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/178.
(6) ابن الجزريّ، النَّشر: 2/287.
(7) محمّد أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 7/3641.
(8) الآلوسي، روح المعاني: 6/183.
(9) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/214.
(10) محمَّد أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 7/3641.

وقد قال له: "أي: كذلك الإنجاء، ننجّي المؤمنين معك أيُّها الرَّسول، ونهلك المصرّين على تكذيبك، وعدًا حقًّا علينا، لا نخلفه ﴿سُنَّةَ مَن قَدۡ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ مِن رُّسُلِنَاۖ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحۡوِيلًا﴾ [الإسراء: 77]، وقد صدق وعده، كما قال.

سِرُّ عطفِ الاسم الموصول على الرُّسل في الآية:

المُلازمون للرُّسل معهم في الجزاء مقابل الوفاء

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، أي: بالرُّسل، وهم معهم في زمانهم، ولو كانوا في أدنى درجات الإيمان، تشريفًا للرُّسل، فإنَّهم بصدد الرُّسوخ بملازمتهم[1].

بلاغةُ التَّشبيه التَّمثيلِّي:

تشبيهُ إنجاء الخَلَفِ الأمين، بإنجاء سَلَفِهِمْ المكين

قولهُ: ﴿كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيۡنَا نُنجِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾، أي: مثل ذلك الإنجاء[2]، والكاف في محلِّ نصب بمعنى (مثل) لسدِّها مَسَدَّ المفعول المطلق، والمعنى ننجي المؤمنين، إنجاءً مثلَ إنجاء الرُّسل ﷺ، ومَنْ آمن معهم، فالكاف للتَّشبيه، ولفظ ذلك إشارة إلى التَّنجية، المدلول عليها بقوله: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا﴾[3]، تشريفًا للرّاسخين وترغيبًا في مثل حالهم[4]. والتَّمثيل ممّا يكشف المعاني، ويوضِّحها[5]، ومعنى التَّشبيه في ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أنَّ بعضه كبعض، فقد شبَّه نجاة من بقي من المؤمنين بنجاة من مضى، ووجه الشَّبه استحقاق كلٍّ منهم النَّجاة، وأصل: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أنْ يَدُلَّ على تشبيه شيءٍ بشيء، والمشبَّه به ظاهرٌ مشار إليه، أو كالظّاهر ادِّعاء.

بلاغةُ الاعتراض في قوله: ﴿حَقًّا عَلَيۡنَا﴾:

تأكيدُ وعد اللّه تعالى للمؤمنين وأنَّه لن يُخلَف

قوله تعالى: ﴿حَقًّا عَلَيۡنَا﴾، جملة مُعترضة بين الفعل ومعموله،

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 9/214.
(2) البروسويّ، روح البيان: 4/85.
(3) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 9/574.
(4) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 9/214، وأبو حيّان، البحر المحيط: 6/110.
(5) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 15/134.

ونصبه بفعله المقدَّر، أي: حقَّ ذلك علينا حقًّا؛ لأنَّ المصدر بدلٌ من الفعل، وجعله اللّه حقًّا عليه تحقيقًا للتَّفضل به والكرامة، حتّى صار كالحَقِّ عليه[1]. فهي معترضةٌ لتأكيد وعدِ اللّه تعالى للمؤمنين، وأنَّه لن يختلف، فسمّاه سبحانه حقًّا عليه، وهو الَّذي لا واجب عليه، ولا يُسأل عمّا يفعل[2].

دلالةُ نون العظمة والضَّمير في ﴿عَلَيْنَا﴾:

تعظيمُ الحقِّ الواجب من الجناب الأعظم

قوله تعالى: ﴿حَقًّا عَلَيْنَا﴾، "اعتراض بين العامل والمعمول، أي: حقَّ ذلك حقًّا، وقيل: بدلٌ من المحذوف الَّذي ناب عنه، كذلك، أي: إنجاءٌ مثل ذلك حقًّا"[3]، ومعناه بما أوجبناه على جنابنا الأعظم[4]، فجيء بضمير العظمة والكبرياء لتعظيم هذا الحقِّ الَّذي أوجبه اللّه على نفسه فضلًا وكرمًا، وبسبب الوَعْدِ والحُكم، أوجبه اللّه على نفسه، فضلًا وكرمًا، فقال: ﴿حَقًّا عَلَيْنَا﴾؛ إشارة إلى أنَّ هذا الوعدَ الَّذي وعَدَهُ اللّه رُسلَه والمؤمنين، هو وعدٌ حقٌّ لا شَكَّ فيه، كما يقول ﷻ: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[5].

دلالة التَّأكيد بجملة:

تبشيرٌ للنَّبيِّ ﷺ بأنَّ العاقبة للمُتَّقين

قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، هو تأكيدٌ بعد تأكيد؛ وفي ذلك تبشيرٌ للنَّبيِّ ﷺ بأنَّ العاقبة للمتَّقين، وأنَّ الظّالمين مهما أرعدوا، وأبرقوا؛ فأمرهم إلى زوال، وأنَّه ﷺ ناجٍ من كيدهم وتدبيرهم، وغالبٌ هو ومن معه في هذا الميدان الدُّنيويِّ بين الخير والشَّرِّ والإيمان والكُفْرِ[6].

---

(1) البروسويّ، روح البيان: 4/85، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/299.
(2) محمَّد أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 7/3641.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4178.
(4) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 9/214.
(5) عبد الكريم الخطيب، التَّفسير القرآني للقرآن: 6/1091، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/307.
(6) محمَّد أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 7/3641.

بلاغةُ الاحتباك في عدم ذكرِ الرُّسل:

الرُّسلُ أوّل المؤمنين، والأقرب مكانةً من ربِّ العالمين

في قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيۡنَا نُنجِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾، لم يذكر إنجاء الرُّسل إيذانًا بعدم الحاجة إليه؛ لأنَّهم أوَّل المؤمنين، والأقرب مكانةً من ربِّ العالمين، فهم في حماية الله دومًا[1]، فعدمُ ذكرِ الرُّسل هُنا من الاحتباك؛ إذ حُذِف من الأواخر ما جاء نظيره في الأوائل.

نكتةُ تنوّع القراءات في فعل الإنجاء في الآية:

التَّنبيه على أنَّ مدارَ الإنجاء هو الإيمان

قرأ الجمهور ﴿نُنَجِّ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ بفتح النُّون الثّانية وتشديد الجيم، وقرأ الكسائيُّ، وحفص عن عاصم ويعقوب ﴿نُنجِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾[2] بسكون النّون الثّانية، وتخفيفِ الجيم من الإنجاء، فالمخالفة بينه وبين نظيره الَّذي قَبْلَهُ تَفَنُّنٌ، والمعنى واحد[3].

دلالةُ حذفِ الياء من الرَّسم العثمانيِّ لغير جازم في ﴿نُنجِ﴾:

الكشف عن مزيد فضل الله وإحسانه إلى عباده المؤمنين

في جزم الفعل ﴿نُنجِ﴾ ما يكشف عن مزيد من فضلِ الله وكرمه وإحسانه، إلى عباده المؤمنين، ففي مجيء الفعل ﴿نُنجِ﴾ مجزومًا، ولا جازم له، يفتح الطَّريق إلى تقدير فعل أمْرٍ، ليقع هذا الفعل تحت سلطان الأمر من الله ﷻ، وهو أمرٌ مِنَ الله سبحانه إلى الله سبحانه، والتَّقدير: كذلك حقًّا علينا إنجاءُ المؤمنين فلننجِّهمْ إذًا، فسبحانه من ربٍّ كريم، يفيض على المؤمنين من عباده ما لا يفيض الأبُ البَرُّ الرَّحيم على صغاره من عطفه وحنانه[4].

فائدة المغايرة بين ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ و﴿ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾:

بيانُ أنَّ العِلَّةَ في الإنجاء هو الاتِّصاف بالإيمان

تغايرَ اللَّفظان في وصف أهل الإيمان، وذلك مبنيٌّ على سؤال مَن لعلَّه يقول: هل حقوق النَّجاة مُخْتَصَّةٌ بالرُّسل ومن معهم؟ فقيل: لا، بل ﴿نُنجِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ في كلِّ زمن، وإنْ لم يكن بين ظهرانيهم رسولٌ؛

(1) البروسويّ، روح البيان: 4/85.
(2) ابن الجزري، النشر في القراءات العشر: 2/287.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/299.
(4) عبد الكريم الخطيب، التَّفسير القرآني للقرآن: 6/1091.

لأنَّ العِلَّةَ الاتِّصافُ بالإيمان الثّابت[1]، فالمراد بالمؤمنين، إمّا الجنسُ المتناول للرُّسل ﷺ والأتباع، أو من بعدهم من أهل الإيمان، وأيًّا ما كان ففيه تنبيهٌ على أنَّ مدار الإنجاء، هو الإيمان[2].

فائدةُ التَّعبير بالاسم في ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ دون الفعل:

بيان نجاة العريقين في الإيمان، في كلِّ عصر وأوان

قوله تعالى: ﴿نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: العريقِين في الإيمان، ولو كانوا بعد موت الرُّسل، تنجيَةً عظيمة، وتنجيهم إنجاءً عظيمًا[3]. و"عادةُ اللّه سلفت، بإنجاء رسله ومتَّبعيهم عند نزول العذاب بالكَفَرَةِ، ﴿كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾"[4].

بلاغةُ التَّذييل:

التَّنبيه على سنَّةِ اللّه في إنجاء المؤمنين في كُلِّ زمانٍ ومكان

قولُه تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ تذييلٌ لما قبلَه مقرِّرٌ لمضمونِه[5]، ومعنى ﴿نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، من كلِّ شِدَّةٍ وعذابٍ، وفيه تنبيهٌ على أنَّ مدار النَّجاة، هو الإيمان، وهذه سنَّة اللّه تعالى في جميع الأمم، فإنَّ اللّه تعالى كما أنجى الرُّسل المتقدِّمين ومن آمن بهم، وأنجز ما وعد لهم، كذلك أنجى رسول اللّه صلَّى اللّه تعالى عليه وسلّم، ومن معه من أصحابه، وحقَّق لهم ما وعد لهم، وسينجي إلى قيام السَّاعة جميع المؤمنين من أيدي الكفرة وشرورهم؛ ما دام الشَّرع باقيًا، والعمل به قائمًا[6].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(نَجَّى) و(أَنْجَى):

الإنجاءُ هو الخلاص قبل الوقوعِ في المَهْلَكَة، والتَّنجيةُ بعد الوقُوع فيها

نصَّ جماعةٌ مِن أهل العلم على أنَّ التَّنجيةَ والإنجاءَ واحدٌ، وأنَّهُ:

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 9/214.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 6/183.
(3) البقاعي، نظم الدُّرر: 9/214.
(4) الثعالبي، الجواهر الحسان في تفسير القرآن: 3/269.
(5) أبو السّعود، إرشاد العقل السليم: 4/178.
(6) البروسويّ، روح البيان: 4/85.

الإنقاذُ مِنَ المكروه[1]، وفَرَّق آخرونَ بينَهما بأنَّهما يشتركان في التَّخليص من المَهْلكة، ثُمّ يختصُّ الإنجاء بأنَّه الخلاص قبل الوقوعِ في المَهْلكة، وتختصُّ التَّنجيةُ بأنَّها الخلاص بعد الوقوع فيها[2]. ويدلُّ على المعنى المذكور للإنجاء قول الله تعالى: ﴿ثُمَّ صَدَقْنَٰهُمُ ٱلْوَعْدَ فَأَنجَيْنَٰهُمْ وَمَن نَّشَآءُ وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ ۝٩﴾ [الأنبياء: 9]؛ فإنَّ الكلام ههنا عَنِ الأنبياء؛ لأنَّه قال قبلها: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ﴾ [الأنبياء: 7]، وقد أنجاهمُ اللّه تعالى مِنَ العذاب قبل وقوعِهِ على أممهم، ويدلُّ على المعنى المذكور للتَّنجيةِ قولُ اللّه سبحانه: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾؛ فإنَّ تنجيةَ اللّه تعالى لبني إسرائيلَ كان بعد وقوع العذابِ عليهم[3]. ويُشكِلُ على هذا الفرقِ ذِكْرُ اللّه سبحانه إنجاءَ بني إسرائيل بصيغة (أنْجَى) بعد وقوع العذابِ عليهم، كقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ [الأعراف: 141]. إلَّا أنَّهم يُجيبون عَن هذا بأنَّ الصِّيغتَين قد تختلفان، إمّا بحسب اللُّغةِ، وإمّا مجازًا، وثَمَّ تفريقٌ آخَرُ بين الفعلين في السّياق القرآنيِّ، وذلك أنَّ الغالبَ استعمالُ (نجّى)، لِما فيه تلبُّثٌ وتمهُّلٌ في التَّنجية، بخلاف (أنجى)، فهو للإسراع فيها، فالإنجاء - على هذا - أسرع مِنَ التَّنجية في التَّخلُّص من المَهْلكة، كما في قول اللّه تعالى: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ۝٤٩ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَٰكُمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ۝٥٠﴾ [البقرة: 49 - 50]، فاستُعمِلَ ههنا كِلا الفعلين؛ فـ (نَجَّى) لِمَا كان فيه التَّخليصُ بعد شدَّةٍ وعذابٍ طالَ أمدُهُما، وهو تذبيحُ الأبناء واستحياءُ النِّساء، بخلاف (أنجى)، فهو مستعمَلٌ في التَّخليص من هَوْلِ البحر بفَرْقِهِ، وتلك الشِّدَّةُ لم تَطُلْ عليهم.

وقد يُستعمل في الحادثة الواحدة الفعلانِ - (أنجى) و(نجَّى) - في موضعين مختلفين، وذلك بحسب ما يقتضيه السّياقُ؛ فقد يتطلَّبُ المقامُ ذكر الإسراعِ في النّجاة، فيُستعمل الفعل (أنْجَى)، وقد لا يتطلَّب ذلك، فيُستعمل الفعلُ (نَجَّى)، وذلك لأنَّ طولَ الزَّمن وقِصَرَهُ أمران نسبيّانِ، فقد يستطيل أحدٌ أمرًا، وقد يستقصِرُهُ، بحسب المقامِ[4].

(1) الواحديّ، التَّفسير الوسيط: 1/134، والسَّمعانيّ، تفسير القرآن: 1/76، والشّنقيطي، أضواء البيان: 2/285.
(2) أبو هلال العسكريّ، معجم الفروق اللّغويَّة، ص: 77.
(3) أبو هلال العسكريّ، معجم الفروق اللّغويَّة، ص: 77.
(4) فاضل السّامرائيّ، بلاغة الكلمة في التَّعبير القرآنيّ، ص: 66 - 71.

﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي شَكّٖ مِّن دِينِي فَلَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِينَ تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنۡ أَعۡبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِي يَتَوَفَّىٰكُمۡۖ وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٠٤﴾ [يونس: 104]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

العلاقة بين بيان مآل الكفر والإيمان، ودعوة الرَّسول إلى هدى الله الحقِّ

بعد أن بيَّن تعالى طريق الهدى، وطريق الضَّلال، وأنذر وحذَّر، وواعد وأوعد في الآيات السَّابقة بما لا مزيد عليه أمر رسوله هُنا، أن يواجه المشركين من أهل مكَّةَ وغيرهم بالتَّقرير التَّالي، فقال: ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾[1]، لمّا ذَكَرَ الله تعالى الدَّلائل على أقصى الغايات، وأبلغ النِّهايات، أمر رسوله بإظهار دينه، وبإظهار المُباينة عن المشركين؛ لكي تزول الشُّكوك والشُّبهات في أمره، وتخرج عبادة الله من طريقة السِّر إلى الإظهار[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿شَكّٖ﴾: أصلُ الشَّكِّ يَدُلُّ على التَّداخل، ومِن ذلك قولُهم: شَكَكْتُهُ بالرُّمحِ، وذلك إذا طَعَنْتَهُ، فَداخَلَ السِّنانُ جِسْمَهُ، ومِنْ هذا الباب الشَّكُّ الَّذي هو خِلافُ اليقينِ؛ إنَّما سُمِّيَ بذلكَ؛ لأنَّ الشّاكَّ كأنَّهُ شُكَّ له الأمرانِ في مَشَكٍّ واحِدٍ، وهو لا يَتيقَّنُ واحِدًا منهُما، فمن ذلكَ اشتقاقُ الشَّكِّ[3] والشَّكُّ أيضًا: الرَّيْبُ، تَقولُ: رابَني الشَّيءُ، وأرابَني، أي: شَكَّكَني[4]، ويُطلَقُ بمعنى الالتِباس، يُقال: شَكَّ في الأمر: إذا التَبَسَ عليه، ولم يَتَّضِح له[5]، والمقصود بالشَّكِّ في الآية: الالتباس[6].

(1) الجزائريّ، أيسر التّفاسير: 2/514.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/308.
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (شكك).
(4) ابن سيده، المخصّص: 4/346.
(5) الفيوميّ، المصباح المنير: (شكك).
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/300.

2) ﴿يَتَوَفَّىٰكُم﴾: أصلُ (وفى) كلمةٌ تدُلُّ على إكمالٍ وإتمام، منه الوَفاءُ: إتْمَامُ العهد وإكمالُ الشَّرْطِ، ووَفى: أوْفَى، فهو وَفِيٌّ، ويقولون: أوفَيتُكَ الشَّيءَ، إذا قَضَيْتَهُ إيّاهُ وافيًا. وتَوَفَّيتُ الشَّيءَ، واسْتَوْفَيْتُهُ؛ إذا أخَذْتَهُ كُلَّهُ حتَّى لم تَترُكْ منه شيئًا[1]، والوفاة: المنيَّة، وتُوفّي فلان. وتوفّاه اللّه؛ إذا قَبض نَفْسه[2]. وتَوَفِّي الميتِ: اسْتِيفاءُ مُدَّتِه الَّتي وُفِيتْ له، وعَدَدِ أيامِه وشُهوره وأعْوامه في الدُّنيا. وتَوَفَّيْتُ المالَ مِنْهُ، واسْتَوْفَيتُه؛ إذَا أخذتَه كُلَّهُ[3] والمقصود بالتَّوَفِّي في الآية: الإماتَةُ، سُمِّيَتْ تَوفِّيًا؛ لأنَّها تُنهي حياةَ المَرء أو تستوفيها.

المَعْنى الإجْمالِيُّ:

يقولُ اللّه تعالى: قُل - يا محمد ﷺ - لهؤلاء النّاسِ: إن كنتم لا تعرفون ديني، فأنا أبيِّنه لكم على سبيل التَّفصيل، وإن كنتم في شكٍّ من صحَّةِ ما جئتكم به من الدّين الحنيف الَّذي أوحاه اللّه إليَّ، فاعلموا وصفَهُ، وأنَّه لا مجال للشَّكِّ فيه، وهو أنِّي لا أعبدُ الَّذين تَعبُدونَ مِن دونِ اللّه، من الأصنام والأوثان وغيرها من المخلوقاتِ الَّتي لا تستحِقُّ العبادةَ، ولكن أعبدُ اللّه الَّذي يُميتُكم، ويقبض أرواحَكم، ثمَّ يبعثُكم، وإليه مَرجِعُكم؛ لِيُجازيَكم بأعمالكم، فهو وَحْدَه المُستحِقُّ للعِبادةِ، وأمرني اللّه أن أكونَ من جملة المؤمنين المصدِّقينَ بما أوحى إليَّ، الموعودينَ بالنَّجاة من العذاب، والنَّصرِ على أعدائهم وأعدائه[4].

دِيـنُ الـلـه حقٌّ لا مـريـةَ فيه، وما سواه باطل لا يرتضيه إلّا سفيهٌ

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (وفى).
(2) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (وفى).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (وفى).
(4) ابن جرير، جامع البيان: 12/304، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 8/387، والشّوكانيّ، فتح القدير: 2/542، والزّحيليّ، التّفسير المنير: 11/281.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالةُ تكرار لفظ ﴿قُلۡ﴾ وتصدير الجملة بها:

بيان اتِّصال هذا الأمر بسابقه، تحقيقًا للتَّوحيد بعد بيان أدلَّته

قوله تعالى: ﴿قُلۡ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾، هذه الجملة مُتَّصلة المعنى بجملة: ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾؛ إذ المقصود من النَّظر المأمور به هنالك النَّظر للاستدلال على إثبات الوحدانيَّة، فإنَّ جحودهم إيّاها هو الَّذي أقدمهم على تكذيب الرَّسول ﷺ، في قوله: إنَّ الله بعثه بإثباتها، وأبطل الإشراك، فلمّا أمرهم بالنَّظر المؤدّي إلى إثبات انفراده تعالى بالإلهيَّة؛ أعقبه بأن يُخبرَهم بأنَّهم إن استمرّوا على الشَّكِّ فيما جاء به الرَّسول ﷺ، فإنَّ الرَّسول ﷺ ثابت على ما جاء به، وأنَّ دلائل صِحَّة دينه بيِّنةٌ للنّاظرين[1].

دلالةُ النِّداء للبعيد (يا) في ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾:

الإشارةُ إلى بُعْدِ نفوسهم عن الحقِّ، ومجافاتهم له

أمر سبحانه رسوله ﷺ، بأن يظهرَ التَّباين بين طريقته وطريقة المشركين مخاطِبًا للكُفَّار من النَّاس، أو لأهل مكَّة[2] الَّذين هُم في حيِّز الاضطراب، فلم ترقَ هِمَمُهُم إلى رتبة الثَّبات[3]. فصدَّر النَّظم الكريمُ النِّداءَ بحرف النِّداء (يا) الدّال على نداء البعيد، لبيان بُعْدِ نفوسهم، ومجافاتهم للحقِّ، ونأيهم عن الرَّسول الأكرم ﷺ.

إيثارُ الخطاب باسم الجنس (النَّاس):

تعميمُ الخطاب للتَّبليغ، وإظهار العناية بما بلغهم

المخاطَبون بـ (الـ) أهل مكَّة، و(الـ) للعهد، وهم المعهودون؛ لأنّ الشَّمس النَّبويَّة طلعت من بينهم، ويجوز أن يكون (الـ) للجنس، فيكون المراد المكلَّفين من أهل مكَّة وغيرهم، أي: قريش وغيرهم، الحاضرين والغائبين، من وجد، ومن سيوجد؛ والأوَّل أولى؛ لأنَّ أصل الخطاب أن يكون للموجود الحاضر، وغيرهم مستفادٌ من

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/300.
(2) القنوجي، فتح البيان: 3/283.
(3) البقاعي، نظم الدُّرر: 9/215.

النَّصِّ الآخر العامِّ[1]. وأوثر الخطاب باسم الجنس (النَّاس) مع تصديره بحرف التَّنبيه، تعميمًا للخطاب، وإظهارًا لكمال العناية بشأن المُبَلَّغ إليهم[2].

دلالة (في) على الظَّرفيَّة المجازيَّة:

تشبيهُ تمكُّن إحاطة الصِّفة بتمكُّن الظَّرف من المظروف

(في) من قوله: ﴿إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ﴾ للظَّرفيَّة المجازيَّة المستعملة في التَّمكُّن تشبيهًا لتمَكُّن الصِّفة بتمكُّن الظَّرف من المظروف من جهة الإحاطة، وهي من بليغ البيان[3].

دلالةُ التَّعبيرِ بأسلوب الشَّرط:

تنزيلُ المحقَّقِ منزلة المشكوك فيه، تنزيهًا للدِّين من الشُّكوك فيه

إنَّما قال: ﴿إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِّن دِينِي﴾، وشرطه يدلُّ على الشَّكِّ في شَكِّهِم، وهو ﷺ لا يُشَكُّ فيه؛ لأنَّه نزَّل دينه منزلة ما لا ينبغي أن يشكُّوا فيه لشِدَّة ظهوره، وتألُّق نوره[4]، فإنَّ وضوحَ صحَّته، وبرهان أحقِّيَّته أوضحُ من الشَّمس في رائعة النَّهار[5]. فعبَّر عن شكِّهم (بإنْ) المفيدة؛ لعدم اليقين، مع أنَّهم قد شكُّوا فِعْلًا في صحَّة هذا الدِّين، بدليل عدم إيمانهم به، تنزيلًا للمُحَقَّق منزلةَ المشكوك فيه، وتنزيهًا لساحة هذا الدّين عن أن يتحقَّق الشَّكُّ فيه من أي أحد، وتوبيخًا لهم على وضعهم الأمور في غير مواضعها[6].

دلالةُ الشَّكِّ ووجهُ وقوعه منهم:

الإشارةُ إلى اختلاف درجات التَّكذيب والاضطراب

إن قيل: كيف قال: ﴿إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ﴾، وهم كانوا يعتقدون بطلان هذا الدِّين؟[7] وعن هذا ثلاثة أجوبة: أحدها: أن يكون التَّقدير: من كان شاكًّا في أمري، وهو مصمِّمٌ على أمره فهذا حكمه. والثَّاني: أن يكون

(1) أطفيش، تيسير التَّفسير: 6/321.
(2) القاسمي، محاسن التَّأويل: 6/67، وطنطاوي، التفسير الوسيط: 7/139.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/300.
(4) رشيد رضا، تفسير المنار: 11/488.
(5) القاسمي، محاسن التَّأويل: 6/67.
(6) طنطاويّ، تفسير الوسيط: 7/139.
(7) البغويّ، معالم التَّنزيل: 2/437.

المعنى: أنَّهم في حكم الشّاكِّ لاضطراب أنفسهم عند ورود الآيات.

والثّالث: أن يكون فيهم الشّاكُّ وغير الشّاكِّ، فجرى على التَّغليب[1].

فقوله: ﴿فِي شَكٍّ﴾ مع أنَّهم في جزم ببطلان الدِّين للإشارة إلى أنَّهم عارفون الحقَّ، وجحدوه، كما يخاطب الجازم خطابًا بصورة الشَّكِّ تثبيتًا؛ أو كأنَّهم عرفوه لظهور دلائله، وإنَّ أقصى ما يبقى للعاقل إذا قصَّر أن يشكَّ، وأمّا الجزمُ؛ فعناد محضٌ، ولا سبيل إليه البتَّة[2]. فالشَّكُّ إنَّما يكون عند عدم تصوُّر حقيقة هذا الدِّين بالكُنْهِ، وعدم الاستدلال عليه، فالشَّكُّ في صدقهِ يستلزم الشَّكَّ في ماهيَّته؛ لأنَّهم لو أدركوا كُنهه؛ لما شَكُّوا في حقّيَّته[3].

دلالةُ (من) في قوله: ﴿مِّن دِينِي﴾:

التَّعبير بـ (من) وهو ابتداء يؤول إلى معنى السَّببيَّة، إلى شكٍّ سببه الدِّين، أي: في كونه حقًّا من اللّه، و﴿مِّن﴾ إشارة إلى أنَّ فعلهم ذلك ابتدأ من الدِّين، ولو عبَّر بـ (في)؛ لأفهم أنَّهم دخلوا فيه؛ لأنَّهم في الشَّك والشَّك في الدِّين، والظَّرف لظرف الشَّيء ظرف لذلك الشَّيء[4]. فلفظ (من) في قوله: ﴿مِّن دِينِي﴾ للابتداء المجازيِّ، أيُّ شكٍّ آتٍ من ديني، وهو ابتداء يؤول إلى معنى السَّببيَّة، أي: إن كنتم شاكّين شكًّا سببه ديني، أي: يتعلَّق بحقِّيَّته، لأنَّ الشَّكَّ يُحمل في كلِّ مقام على ما يناسبه، كقوله: ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ﴾ [يونس: 94]، وقوله: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ [البقرة: 23][5].

الدَّلالة على الابتداء المجازيِّ؛ لأنَّ فعلَهم بدأ من الدِّين

دلالةُ التَّعبير بـ لفظ ﴿دِينِي﴾ بدلًا من (إيماني):

ظاهر هذه الآية يدلُّ على أنَّ هؤلاء الكفّار، ما كانوا يعرفون دينَ

الخصومةُ بين الأنبياء وأقوامهم لأسباب دينيَّةٍ، لا لغاية ذاتيَّةٍ

(1) ابن فضال المجاشعي، النُّكت في القرآن الكريم، ص: 246.
(2) أطفيّش، تيسير التّفسير: 6/321.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/300.
(4) البقاعي، نظم الدُّرر: 9/216.
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/300.

رسول الله ﷺ، وفي الخبر أنَّهم كانوا يقولون فيه: قد صبأ، وهو صابئٌ، فأمر الله تعالى أن يبيِّنَ لهم أنَّه على دين إبراهيم حنيفًا مسلمًا لقوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا﴾ [النّحل: 120]، ولقوله: ﴿وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا﴾ [الأنعام: 79]، ولقوله: ﴿لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢﴾ [الكافرون: 2]، والمعنى: أنَّكم إن كنتم لا تعرفون ديني، فأنا أبيِّنه لكم على سبيل التَّفصيل، ثمَّ ذكر فيه أمورًا[1]. فعلَّق الظَّرف بذات الدِّين، والمراد الشَّكُّ في حالة من أحواله، وهي الحالة المتلبِّسة بهم، أعني حالةَ حقِّيَّته، فالشَّك في الدِّين، هو الشَّكُّ في كونه حقًّا، وكونه من عند الله؛ كما تقرَّر ذِكْرُه آنفًا[2].

نكتةُ الإيجازِ بالحذف للجُمل المقدَّرة في الكلام:

دلالةُ الظّاهر والسّياق على المحذوفات من البيان القرآنيّ

هذه الآية يتَّسق معناها بمحذوفات يدلُّ عليها هذا الظّاهر الوجيز، والمعنى: إن كنتم في شكٍّ من ديني، فأنتم لا تعبدون الله، فأنا مُستيقنٌ في دينكم ومعبودكم أنَّهما باطلان، ﴿فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾، فاقتضت فصاحةُ الكلام وإيجازه اختصارَ هذا كلِّه[3].

سِرُّ تقديم النَّفي عن الإثبات:

الإيذانُ بمخالفتهم، وتقديم التَّخلية على التَّحلية

قدَّم النَّظم الكريم النَّهي في ﴿فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ على قوله: ﴿وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ﴾؛ لأنَّ إزالةَ النُّقوش الفاسدة عن اللَّوح، لا بدَّ وأن تكون مقدَّمة على إثبات النُّقوش الصَّحيحة في ذلك اللَّوح، وإنَّما وجب هذا النَّفيُ؛ لأنَّ العبادةَ غاية التَّعظيم، وهي لا تليق إلَّا بمن حصلت له غايةُ الجلال والإكرام، وأمّا الأوثان؛ فإنَّها أحجار والإنسان أشرف حالًا منها، وكيف يليق بالأشرف أن

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/308.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/300.
(3) ابن عطيَّة الأندلسي، المحرَّر الوجيز: 3/146، والسَّمرقندي، تفسير السَّمرقندي: 2/135.

يشتغل بعبادة الأخسِّ[1]، ولكن تليق العبادة لمن بيده النَّفع والضُّرُّ، وهو قادر على الإماتة والإحياء[2]. فقدَّم سبحانه ترْكَ عبادةِ الآخرِ على عبادته ﷻ، إيذانًا بمخالفتهم من أوَّل الأمر، ولتقديم التَّخلية على التَّحلية[3].

فائدةُ وقوع جملة: ﴿فَلَآ أَعۡبُدُ﴾ موقعَ جواب الشَّرط:

جوهرُ الدِّين تخصيص العبادة الخالصة لله، دون معبود سواه

قوله تعالى: ﴿فَلَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِينَ تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾، واقعةٌ موقع جواب الشَّرط ودالَّة عليه في المعنى، فالتَّقدير الجواب: فأنا على يقين من فساد دينكم، فلا أتَّبعه، فلا أعبد الَّذين تعبدونهم ولكن أعبد اللّه[4]، وجواب الشَّرط هُنا جاء على غير ما يقتضيه السّياق، فالشَّرط وهو قوله تعالى: ﴿إِن كُنتُمۡ فِي شَكّٖ مِّن دِينِي﴾، مطلوبُه أن يكون الجوابُ على هذا النَّحو، فلا تدخلوا في هذا الدِّين، أو: فأنتم وشأنكم، ولكنَّ الجواب الَّذي جاء به القرآن الكريم، هو الجواب الَّذي لا يجيء إلّا من الحكيم العليم ربِّ العالمين، فكان هكذا: ﴿فَلَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِينَ تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾، وفي هذا الجواب تنكشف أمور: فأوّلًا: أنَّ النَّبيَّ صلوات اللّه وسلامه عليه مُتَمسِّكٌ بهذا الدِّين الَّذي يَشُكُّ فيه هؤلاء الشّاكُّون، وأنَّ شكوكهم لا تثير في نفسه أيَّ ريب في هذا الحقِّ الَّذي بين يديه، وفي هذا ما ينبئ عن ثقة النَّبيِّ، ويقينه، بهذا الدّين الَّذي يُؤمن به، ويدعو إليه، وثانيًا: أنَّ النَّبيَّ صلوات اللّه وسلامه عليه، لن يتحوَّل عن هذا الدّين، إلى الدِّين الَّذي عليه هؤلاء المشركون، ولن يعبد تلك الآلهة الَّتي يعبدونها من دون اللّه، وثالثًا: أنَّ هذه الآلهة الَّتي يعبدونها هي الضَّلال، ولا يعبدها إلّا الضّالّون، ولا يمسك بها إلّا المبطلون، وأنَّ آلهتهم تلك لا تملك

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/308.
(2) الخازن، تفسير الخازن: 2/467.
(3) طنطاوي، تفسير الوسيط: 7/139.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/301.

لهم ضرًّا، وأنَّهم لو تركوها، ونفضوا أيديهم منها، فلن تضرَّهم شيئًا، ورابعًا: أنَّه صلوات الله وسلامه عليه متَّبع لما أمر به، وهو أن يكون من المؤمنين، فهو من المؤمنين؛ لأنَّه مؤمنٌ بهذا[1]. فجعل هذه الجملة باعتبار مضمونها جوابًا بتأويل الأخبار، وإلّا فلا تَرَتُّب لها على الشَّرط بحسب الظّاهر، فالمعنى: إن كنتم في شَكٍّ من ذلك، فأخبركم أنَّه تخصيص العبادة به تعالى، ورفض عبادة ما سواه من الأصنام وغيرها، ممّا تعبدونه جهلًا، وقد كثرَ جعْلُ الأخبارِ بمفهوم الجملة جزاءً نحو: إن أكرمتني اليوم؛ فقد أكرمتك أمسِ، وعلى هذا الطِّراز قوله تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ [النَّحل: 53]، فإنَّ استقرار النِّعمة ليس سببًا لحصولها من الله تعالى، بل الأمر بالعكس، وإنَّما سببٌ للإخبار بحصولها منه تعالى[2].

لفتةُ التَّعبير بالموصول الدّال على العاقل:

مجاراةُ السّياق لما يعتقدونه في الأصنام من العقل والتَّدبير

﴿ٱلَّذِينَ﴾ في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ هم الأصنام؛ وعوملت الأصنام معاملة العُقلاء، فأُطْلِقَ عليها اسم الموصول الَّذي لجماعة العقلاء، مجاراةً لما يعتقدونه فيها من العقل والتَّدبير؛ إذ يعدُّونها من العقلاء، ويعبدها كبراؤهم من المشركين والضّالّين، ونظير هذا في القرآن كثير[3].

دلالةُ الجملة المُتضمِّنة (لكنْ) الاستدراكيَّة:

عبادةُ الله له هو، وتمنع عبادةَ كلِّ معبودٍ إلّا هو

معنى قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ﴾، أي: بل أعبدُ الله الَّذي يقبض الخلقَ، فيُميتُهم؛ إذا شاء، وينفعُهم، ويضرُّهم؛ إذا أراد، ومثل هذا هو الحقيق بأن يُعبَد، وأن يُخاف، وأن يُتَّقى، دون من لا يقدر على شيء من ذلك، وفي ذلك تعريضٌ

(1) عبد الكريم الخطيب، التَّفسير القرآني للقرآن: 6/1092.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 6/184.
(3) التَّحرير والتَّنوير: 11/301، ومحمّد أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 7/3641.

لطيف وإيماء إلى أنَّ مثل هذا الدّين لا يُشكّ فيه، وإنَّما ينبغي أن تشكّوا فيما أنتم عليه من عبادة الأصنام الَّتي لا تعقل، ولا تضرُّ، ولا تنفع، إذ عبادة الخالق لا يستنكرها ذوو الفطرةِ السَّليمة، أمّا عبادة الأصنام، فيستنكرها كلُّ ذي لُبٍّ وعقل سليم[1]، فالاستدراك؛ لنفي أنَّ أوثانهم تُحيي، أو تميت، وهو يتضمَّن إثباتَ عبادة اللّه وحده لا شريك له[2].

دلالةُ الإطناب بالجمع بين النَّفي والإثبات:

بيانُ أنَّ طرفَ النَّفي هو الأهمُّ، لاقتضاء المقام ذِكْرَهُ

والجمع بين نفي أن يَعبد الأصنام، وبين إثباتِ أنَّه يعبد اللّه يقوم مقامَ صيغة القصرِ لو قال: (فلا أعبد إلّا اللّه)، ووجه العدول عن صيغة القصر: أنَّ شأنها أن يُطوى فيها الطَّرف المنفي للاستغناء عنه بالطَّرف المثبت؛ لأنَّه المقصود، وذلك حين يكون الغرض الأصليُّ هو طرف الإثبات، فأمَّا إذا كان طرفُ النَّفي هو الأهمُّ كما هنا، وهو إبطال عبادة الأصنام أوَّلًا عدل على صيغة القصرِ إلى ذكر صيغتَي نفيٍ وإثبات، فهو إطنابٌ اقتضاه المقام[3].

سِرُّ إسناد الفعل إلى الله في قوله: ﴿وَلَٰكِنۡ أَعۡبُدُ ٱللَّـهَ﴾:

بيانُ أنَّ الله هو المستحقُّ وحده للعبادة دون سواه

قوله: ﴿وَلَٰكِنۡ أَعۡبُدُ ٱللَّهَ﴾ أي: الجامع لأوصاف الكمال، عبادةً مُستمرَّةً[4]، فهو المستحقُّ للعبادة، وحده لاشريك له، وقوله: ﴿وَلَٰكِنۡ أَعۡبُدُ ٱللَّهَ﴾، ذلك أنَّ خلاصة دينه الَّذي يعبد اللّه به، قائمٌ على "إخلاص العبادة لمن بيده الإيجادُ والإعدام، دون ما هو بمعزل منهما من الأصنام..".

دلالةُ التَّعبير باسم الجلالة (الله) بدلًا من لفظ (الرُّبوبيَّة):

الاسم الأعظم (الله) مناسبٌ لمقام العبوديَّة

قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنۡ أَعۡبُدُ ٱللَّهَ﴾، عبَّر في مقام العبوديَّة

(1) ابن جرير، جامع البيان: 11/121، والمراغيّ، تفسير المراغي: 11/161.
(2) محمّد أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3641.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتّنوير: 11/302.
(4) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 9/216.

بالاسم الجليل (اللّه)؛ لأنَّ معنى اللّه (المألوه) أي: المعبود محبَّةً وتعظيمًا، فناسب ذِكْرُ الاسم الأحسن في هذا مقام ذِكرَ العبادة ومُحاججة المُشركين.

اختيارُ صفة التَّوفِّي هُنا في نعت اسم الجلالة:

ذكر (التَّوفِّي) للتَّذكير بالموت، وبيان عجز أصنامهم الباطلة

جاء النَّظم الكريم بالدَّليل الَّذي لا مراء فيه، الدَّليل القويِّ، وهو أنَّ الحقَّ ﷻ هو وحده المُسْتَحِقُّ للعبادة؛ لأنَّه الَّذي يتوفّاكم، ولا يُوجد من يقدر، أو يتأبّى على قَدَرِ اللّه سبحانه حين يُميته[1]. فإن قيل: ما الحكمةُ في ذكر المعبود الحقِّ في هذا المقام بهذه الصِّفة وهي قوله: ﴿ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمۡۖ﴾؟ والجواب من وجوه: الأوَّل: يحتمل أن يكون المُراد أنِّي أعبد اللّه الَّذي خلقكم أوَّلًا، ثُمَّ يتوفّاكم ثانيًا، ثُمَّ يعيدكم ثالثًا، وهذه المراتب الثَّلاث قد قرَّرها القرآن مِرارًا وأطوارًا، فَههنا اكتفى بذكر التَّوفِّي منها؛ لكونه مُنَبِّهًا على البواقي. الثّاني: أنَّ الموت أشَدُّ الأشياء مهابةً، فخَصَّ هذا الوصف بالذِّكر في هذا المقام، ليكون أقوى في الزَّجر والرَّدع. الثَّالث: أنَّهم لما استعجلوا نزول العذاب، قال تعالى: ﴿فَهَلۡ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثۡلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِهِمۡۚ قُلۡ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُنتَظِرِينَ ١٠٢ ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ﴾ [يونس: 102، 103] فهذه الآية تَدُلُّ على أنَّه تعالى يُهلك أولئك الكفّار، ويُبقي المؤمنين، ويُقَوِّي دولتهم، فلمّا كان قريب العهد بذكر هذا الكلام؛ لا جَرم قال هَاهنا: ﴿وَلَٰكِنۡ أَعۡبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمۡۖ﴾ وهو إشارة إلى ما قرَّره، وبَيَّنه في تلك الآية، كأنَّه يقول: (أعبد ذلك الذي وعدني بإهلاكِهم وبإبقائي)[2].

وفي اختيار صفة التَّوفّي في نعت اسم الجلالة هُنا أيضًا لما فيها من الدَّلالة على كمال التَّصرف في المخلوق، فإنَّ المشركين لم يبلغ

(1) الشَّعراويّ، تفسير الشَّعراويّ: 10/6245.

(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/308، وأبو حيّان، البحر المحيط: 6/111.

بهم الإشراك إلى ادِّعاء أنَّ الأصنام تحيي وتميت[1]. فذكر التَّوفِّي للتَّذكير بالموت، وقرع النُّفوس به، والمصير إلى الله بعده، والفقد للأصنام التي كانوا يعتقدونها ضارَّة ونافعة[2].

سرُّ ذكر لفظ ﴿يَتَوَفَّىٰكُمۡۖ﴾ دون لفظ (يُحييكم):

استعمال وصف التَّوفِّي لدلالته على الخلق والإعادة والمهابة

قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنۡ أَعۡبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِي يَتَوَفَّىٰكُمۡۖ﴾، تخصيص هذا الوصف؛ لأنَّه يَدُلُّ على الخلق أوَّلًا وعلى الإعادة ثانيًا، أو لأنَّ الموت أشَدُّ الأحوال مَهَابَةً في القلوب، فكان أقوى في الزَّجر والرَّدع والتَّهديد[3]، ففي ذِكْرِ هذا الوصف الوسط الدّال على التَّوفِّي؛ دلالة على البدء وهو الخلق، وعلى الإعادة، فكأنَّه أشار إلى أنَّه يعبد الله الَّذي خلقَكم ويتوفّاكم، ويعيدكم[4].

سِرُّ بناء الفعل للمفعول:

لم يُذكَرِ الفاعل للعلم به؛ لأنَّه حاضِرٌ في النَّفس دائمًا

قوله تعالى: ﴿وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ﴾، أي: بأمر جازم ماضٍ ممَّن لا أمر لأحد معه[5]، جاء ذِكْرُ الأمر، ولم يَذْكُرِ الآمِرَ ﷻ الَّذي يعرفون أنَّه الخالق وحده؛ لأنَّه حاضر في النَّفس دائمًا؛ لأنَّ الأمر من الله يكون معه أمرُ العقل والإدراك المستقيم، والبرهان الصّادق الَّذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، فالأمر إذا جاء من الله الخالقِ الواحد الأحد، جاء من العقل المدرك، وجاء من الآيات البيِّنات[6]، وفيه تأكيدٌ لإخلاص عبادته ﷻ لله وحده[7].

الانتقال من ذكرِ العبادة إلى ذكرِ الإيمان:

لا يستقرُّ الإيمان في الباطن، إلّا بعمل صالح في الظّاهر

قوله تعالى: ﴿أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ بعد قوله: ﴿أَعۡبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِي

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/301.
(2) ابن عطية، المحرَّر الوجيز: 3/146.
(3) نظام الأعرج، غرائب القرآن: 3/615.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/111.
(5) البقاعي، نظم الدُّرر: 9/217.
(6) محمد أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 7/3641.
(7) طنطاوي، لتفسير الوسيط: 7/139.

﴿يَتَوَفَّىٰكُمۡۖ﴾ انتقالٌ من العبادة التي هي جِنْسٌ من أعمال الجوارح إلى الإيمان والمعرفة، وفيه دلالةٌ على أنَّه ما لم يَصِرِ الظَّاهر مُزَيَّنًا بالأعمال الصَّالحة، لا يستَقرُّ في القلب نور الإيمان والمعرفة، فإنَّ اللّٰه تعالى جعل أحكام الشَّريعة أساس المعرفة، فإذا زال الأساس؛ زال ما بُنِي عليه وأيضًا العمل لِبَاسُ المعرفة، فإذا انسلخت المعرفة عن هذا اللِّباس؛ صارت كسراج على وجه الرّيح[1]، فانتقل من عمل الجوارح إلى نور المعرفة، وطابق الباطنُ الظّاهرَ[2].

تخصيص ذِكْرِ الإيمان:

الإيمان الرّاسخ، ينسخ الشُّكوك، ويزيل الشُّبهات

لمّا كان السّياق لما يحتمل الشَّك من الأمر الباطن؛ عبَّر بالإيمان الَّذي هو للقلب، فقال: ﴿مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ أي: الرَّاسخين في هذا الوصف[3]. "وهو تصريحٌ بأنَّ ما هُو عليه من دين التَّوحيدِ، ليس بطريق العقلِ الصِّرْفِ، بل بالإمداد السَّماويِّ والتَّوفيق الإلهيِّ "[4].

سِرُّ جعل النَّبي ﷺ من المؤمنين:

تشريف النَّبيِّ الأكرم لجمع أهل الإيمان تحت رايته المعصومة

النَّبيُّ ﷺ سيِّد المؤمنين وحبيب ربِّ العالمين، وفي جعله من جُملة المؤمنين تشريفٌ لهذا الجمع وتنويه به[5]، وهو يؤكِّد أنَّه من المؤمنين، وهم "الَّذين وعدهم اللّٰه بالنَّجاة من عذابه، وينصرهم على أعدائهم وأعدائه، واستخلافهم في أرضه"[6].

سِرُّ العدول عن (أنْ أكُونَ مُؤْمِنًا):

الكناية عن الرُّسوخ في الإيمان من بليغ البيان

قوله تعالى: ﴿أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ أبلغ من أن يُقال: (أنْ أكُونَ مُؤْمِنًا)، فإنَّ إخبار المتكلِّم عن نفسه بأنَّه من المؤمنين، يُفيد

(1) البروسويّ، روح البيان: 4/86.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/111.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/217.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/179.
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/302.
(6) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/302.

أنَّه واحد من الفئة التي تُعرف عند النّاس بفئة المؤمنين، أي: أكون من زُمرة الرَّاسخين في الإيمان البالغين درجةَ عينِ اليقين من معرفة اللّه تعالى؛ فيُفيد أنَّه مؤمنٌ إفادة بطريقة تشبه طريقة الاستدلال، فهو من قبيل الكناية التي هي إثباتُ الشَّيء بإثبات مَلزومه، وهي أبلغُ من التَّصريح[1]، فإنَّ قول القائل: فلانٌ من العلماء، أبلغ من قوله: فلانٌ عالم؛ لأنَّه يشهد له بكونه معدودًا في زمرتهم، ومعروفةً مُساهمتُه لهم في العلم[2].

بلاغةُ المتشابه اللَّفظيّ بين آية يونس (104) وآية النَّمل (92):

حملُ قوله (من المؤمنين) و(من المسلمين)، على ما يلائمها معنى

في قولِه تعالى: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ مناسَبةٌ حسَنةٌ؛ إذ قال اللّه تعالى هُنا: ﴿مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، وقال في سورةِ النَّملِ: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [النَّمل: 91]، فاختُصَّ هذا المكانُ بـ (المؤمنين)، واختُصَّ آخِرُ سورةِ النَّملِ بـ (المسلمين)؛ ووجهُ ذلك: أنَّ قبل هذه الآيةِ في سورةِ يونسَ قولَه تعالى: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: 103]، فقال بعدَه: (وأُمِرتُ أن أكونَ مِنهم) وأمّا في سورةِ النَّملِ؛ فإنَّ قبلَ هذه الآيةِ منها: ﴿وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِى ٱلْعُمْيِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ﴾ [النَّمل: 81]، فكأنَّه قال: وأُمِرتُ أن أكونَ ممَّن إذا سَمِع بآياتِه؛ آمَن بها، وكان مِن المسلمين الَّذين مُدِحوا بأنَّ النَّبيَّ يُسمِعُهم؛ إذْ يَنتفِعون بما يَسمَعونه منه، فلمَّا تقاربَتِ اللَّفظَتان، وكانَتا تُستعمَلان لمعنًى واحدٍ؛ حُمِلَت كلُّ واحدةٍ مِنهما على اللَّفظِ الَّذي تَقدَّمها ولاءَمها[3]. وأيضًا لأنَّ آيةَ سورةِ يونسَ قد ورَد قبلَها قولُه تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ

(1) ولهذا الأسلوب نظائر كثيرة في القرآن الكريم. ينظر: ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 7/316.
(2) الزَّمخشريّ، الكشَّاف: 3/331.
(3) الإسكافيّ، دُرَّة التَّنزيل: 2/748 - 749، والكرمانيّ، أسرار التَّكرار، ص: 142 - 143، والأنصاريّ، فتح الرّحمن، ص: 255.

تُكۡرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَمَا كَانَ لِنَفۡسٍ أَن تُؤۡمِنَ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ﴾، وبعدَ هذا: ﴿وَمَا تُغۡنِي ٱلۡأٓيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ﴾، وبعدَ هذا: ﴿كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيۡنَا نُنجِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾، وبعدَ هذا، الآيةُ المذكورةُ من قولِه: ﴿وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾، وتناسُبُ هذا كلِّه ظاهرٌ، ثمَّ إنَّ ما تقدَّم قبلَ آيةِ يونُسَ من تَكْرارِ اسم الإيمان لم يَكُنْ لِيُلائِمَه إطلاقُ اسم الإسلام؛ لأنَّ رُتبةَ الإيمانِ فوق رُتبةِ الإسلام، ومَقامَه أعلى، وهذا على إطلاقِ كلٍّ واحدٍ من الاسمَين على مُسمَّاه لغةً، وعلى رَغْمِ التَّفصيلِ، فكأنْ يكونَ عَكْسَ التَّرقِّي إلى الأعلى أبَدًا، فلا يمكن في آية يونُسَ إلّا ما ورَدَت عليه، أمّا آيةُ النَّملِ؛ فإنَّ قبْلَها قولَه: ﴿إِنَّمَآ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلۡبَلۡدَةِ ٱلَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَيۡءٖۖ﴾ [النَّمل: 91]، وقوله: ﴿وَلَهُۥ كُلُّ شَيۡءٖۖ﴾، يَقتَضي تسليمَ كلِّ شيءٍ له، والتَّبرّيَ مِن توهُّمِ شَريكٍ أو نظيرٍ؛ فناسبَ هذا قولَه: ﴿وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ [النَّمل: 91]، وجاء كلٌّ على ما يَجِبُ[1].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الظَّنُّ والشَّكُّ:

الشَّكُّ استواء طرفي المشكوك فيه، والظَّنُّ رُجحان أحدهما وتقويته

(الظَّنُّ): هو الاعتقاد الرّاجح مع احتمال النَّقيض، ويستعمل في اليقين والشَّكِّ، وقيل: الظَّنُّ: أحد طرفي الشَّكِّ بصفة الرُّجحان[2]، فيكون الظَّنُّ يَقِينًا، ويكون شكًّا، وهو من الأضداد، كالرَّجاء يكون أمنًا وخوفًا[3]. أمّا (الشَّكُّ): فهو اجتماع شَيْئَيْنِ في الضَّمير، فهو اسْتِواء طرفَي التَّجويز، وأصل الشَّكِّ في العَرَبيَّة، من قولك: شَككتُ الشَّيْءَ؛ إذا جمعته بِشَيْءٍ تدخله فيهِ، بخلاف الظَّنِّ، فإنَّه رُجْحَان أحد طرفَي التَّجويز، والشّاك يجوز كَون مَا شكَّ فيهِ على إحْدى

(1) الغرناطيّ، ملاك التَّأويل: 1/250 - 251.
(2) الفيّوميّ، المصباح المنير: 2/386، والجرجانيّ، التَّعريفات، ص: 144.
(3) الكفويّ، الكلّيّات، ص: 593.

الصَّفتين، لأنَّهُ لَا دَليل هُناكَ ولا أمارَة، فالظَّنُّ فيه قُوَّة المعنى في النَّفس، وليس كَذَلِك الشَّكُّ الَّذي هُوَ وقُوف بين النَّقيضين من غير تقويَةِ أحدهما على الآخر[1]. وهذا التردُّد المجانب للرُّجحان هو المعنى المراد من الشَّكِّ في الدين في الآية الكريمة المعبِّر عن تخبُّط الكافرين وشدَّة ضلالهم.

الوَفَاةُ والموتُ:

الوفاة أعمُّ من الموت، فكلُّ مُتَوفًّى مَيِّتٌ، وليس كُلُّ مَيِّتٍ متوفًّى

(الموتُ) عبارةٌ عن زوال القوَّة الحيوانيَّة وإبانة الرُّوح عن الجسَد[2]، أمّا (الوفاة)؛ فهي أعمُّ مِنَ الموتِ، فهناك الوفاة الصُّغرى، وهي النَّوم، فإن نام الإنسانُ؛ خرجت روحُه من جَسَده إلى أجلٍ مُسمًّى، فإن كُتب لها العودةُ؛ عادت، وإلّا فارقت جسدَها، ورحلت عنه إلى الأبَدِ؛ مصداقًا لقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلۡأَنفُسَ حِينَ مَوۡتِهَا وَٱلَّتِي لَمۡ تَمُتۡ فِي مَنَامِهَاۖ فَيُمۡسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيۡهَا ٱلۡمَوۡتَ وَيُرۡسِلُ ٱلۡأُخۡرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّىۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الزّمر: 42]، وكلُّ مُتَوَفًّى مَيِّتٌ، وليس كُلُّ مَيِّتٍ متوفًّى، ولكون لفظ التوفّي يدلُّ على الخلق أوَّلًا، وعلى الإعادة ثانيًا، كان ذلك حالًا موصوفًا بالمهابَة في القلوب، فكان أقوى في الزَّجر والرَّدع والتَّهديد.

(1) أبو هلال العسكريُّ، الفروق اللُّغويَّة: 98 - 99.
(2) السَّمين الحلبيُّ، عُمدة الحفَّاظ: 4/123.

﴿وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٥﴾ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾﴾ [يونس: 105 - 106]

مُناسَبَةُ الآيَتَينِ لِمَا قَبْلَهُما:

ناسبَ أمرُ الله نبيَّهُ بالإيمان، أمره هنا بالاستقامة وعدم الميلان

﴿وَلَا تَدْعُ﴾ عطْفٌ تفسيريٌّ على قوله: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾[1]، وإقامة الوجه تكون بالاستقامة في الدّين، بأداء الفرائض اللّازمة، والانتهاء عن القبائح الآثمة، منتهجًا نهجًا حَنيفًا، مائلًا عن الشِّرك وتوابعِه إلى الدِّين الحقِّ وضوابطه، بعيدًا عن الظُّلم بالإشراك، ودعوة من لا يضرُّ، ولا ينفع؛ لأنَّ الشِّرك ظلمٌ عظيم[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿حَنِيفًا﴾: أصلُ (حنف): المَيلُ، يُقالُ: تَحَنَّفَ فُلانٌ إلى الشَّيْءِ، تَحَنُّفًا: إذا مالَ إليه، وحقيقته: الاعوجاجُ والمَيلُ في الرِّجْلِ إلى داخِلٍ، مِن قَولِهِم: رَجُلٌ أحْنَفُ[3]، ومنه سُمِّي المُوحِّدُ: حَنِيفًا؛ لأنَّه مائِلٌ إلى الدِّين المُستَقِيم وثابِتٌ عليه[4]، ومَن أقْبَلَ على شَيْءٍ؛ مالَ عن غيرِهِ[5]، والأصل هذا، ثمَّ يُتَّسَعُ في تفسيره، فيقال: الحنيفُ النّاسِكُ، ويقال: هو المَخْتونُ، ويقال: هو المُسْتَقِيمُ الطَّرِيقَةِ، ويقال: هو يَتَحَنَّفُ، أي: يَتَحَرّى أقْوَمَ الطَّرِيقِ[6] والمقصود بالحنيف في الآية: المائل عن كلِّ دِين مِنَ الأديان إلى دِين الإسلام المُجانِب لِلباطِلِ[7].

(1) المظهريّ، التّفسير المظهري: 5/61.
(2) وهبة الزّحيليّ، التّفسير المنير: 1/280.
(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (حنف).
(4) الزّجاج، معاني القرآن: 4/184.
(5) ابن عبّاد، المحيط في اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (حنف).
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حنف).
(7) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/316، وطنطاويّ، التّفسير الوسيط: 7/140.

2) ﴿وَلَا تَدْعُ﴾: الدُّعاءُ: النِّداءُ، وأصلُه: إمالَةُ الشيء إليك بصوت وكلام يكون منك، ومنه سُمِّيَتِ الرَّغْبَةُ إلى الله ﷻ دُعاءً، تقول: دَعَوْتُ فلانًا، دُعاءً ودعوةً، أي: نادَيْتُهُ[1]. والدَّعوة: المَرَّةُ الواحدةُ مِن الدُّعاء[2]. ويأتي الدُّعاءُ بمعنى: الطَّلَبِ والسُّؤالِ، يقال: دَعَوْتُ اللّه، أدْعُوهُ، أي: سَأَلْتُهُ[3]، والدُّعاءُ أيضًا: العِبادةُ والضَّراعة[4]، ويُطلَق على الحَثِّ إلى الشيء والترغيب فيه، فيقال: دعا قومه إلى اتِّباعِهِ، أي: حَثَّهُمْ ورَغَّبَهُم[5]، والمقصودُ بالدُّعاء في الآية: العبادة والضَّراعة.

3) ﴿لَا يَنفَعُكَ﴾: أصْلُ النَّفْعِ: الخيرُ، وخلافُه: الضَّرُّ، يقال: نفعه، يَنْفَعُهُ، نَفْعًا، أي: قَدَّمَ له خيرًا[6]. والنَّفع: ما يُستَعانُ به في الوصول للخير[7]، أو هو: ما يتوصَّل به الإنسانُ إلى مطلوبه من جَلْبِ مصلحة أو دَفْعِ مَضَرَّةٍ، يقال: انتفع بالشيء: إذا وَصَل به إلى مَنْفَعَة ما[8]، والانْتِفاعُ: الاستفادة، ورجل نفّاعٌ: إذا كانَ ينفع النّاس، ولا يضرُّهم[9]، والنافع: المُفِيدُ، وكلُّ ما يستفاد من الشَّيء، فهو منفعة، والمقصود بالنَّفع في الآية: ما يتوصَّل به الإنسان إلى مطلوبه.

4) ﴿وَلَا يَضُرُّكَ﴾: أصلُ الضَّرَرِ: النُّقْصَانُ يدخل في الشَّيء، يقال: دخل عليه ضَرَرٌ في ماله[10]، وضِدُّهُ: النَّفْعُ والسَّعَةُ. والضَّرَرُ: المكروه والأذى، وضَرَّ فُلانًا ضُرًّا وضَرَرًا؛ إذا ألحَقَ به مكروهًا أو أذًى[11]. وكلُّ ما كان من سوء حالٍ وفَقْرٍ، في بدنٍ، فهو ضُرٌّ، وما كان ضدًّا للنَّفع، فهو ضَرٌّ[12] والضُّرُّ المقصود في الآية هو: الحالُ الَّذي يُؤْلِمُ الإنسان والمنافر له[13].

(1) الجوهريّ، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن الأثير، النِّهاية: (دعا - دعو).
(2) ابن الأثير، النِّهاية، وابن منظور، لسان العرب: (دعا).
(3) الفيّوميّ، المصباح المنير: (دعو).
(4) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3644.
(5) الأمير، التَّحبير لإيضاح معاني التَّيسير: 4/5.
(6) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (نفع).
(7) الرّاغب، المفردات: (نفع).
(8) الفيّوميّ، المصباح المنير، وأحمد رضا، معجم متن اللّغة: (نفع).
(9) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (نفع).
(10) الخليل، العين، والفيروزباديّ: (ضرر)، وابن سيده، المخصّص: 4/103.
(11) المعجم الوسيط: 1/537.
(12) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (ضرر).
(13) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/163.

المَعْنى الإجْماليُّ:

وجُـوب التَّوجه في العبادة إلى الله وحدَه دون التفات إلى سواه

أمَرَ اللّه تعالى نبيَّه ﷺ، بالاستقامة في الدِّين والثَّبات عليه، وعدم التَّزلزل عنه بحالٍ من الأحوال، فقال: أقِم - أيُّها الرَّسولُ - نَفسَك على دين الإسلام مُستقيمًا عليه، غيرَ مائلٍ عنه، ولا تكونَنَّ ممَّن يُشرِكُ في عبادة ربِّه الآلهةَ والأنداد، فتكونَ مِن الهالكينَ، ولا تعبُدْ مِن دونِ اللّه شيئًا من الأوثان والأصنام وغيرها؛ لأنَّها لا تنفَعُ، ولا تضُرُّ، فإن فعَلْتَ ذلك، وعبَدْتَها مِن دونِ اللّه؛ فإنَّك إذًا من الظّالِمينَ لأنفُسِهم بالشِّركِ، الواضعينَ العبادةَ في غير موضعها[1].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالةُ (الواو) العاطفة وأثرها:

يستعملُ الحرف الـرّابـط لتكرير الـفـعـل تـأكـيـدًا وتأنُّقًا في الكلام

الواو في قوله تعالى: ﴿وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ﴾ عاطفةٌ، و(أنْ) وما في حيّزها عطْفٌ على ما قبلها، كأنَّه قيل: وقيل لي: وأقم، ولكن يُشكل إعراب المصدر؛ لأنَّ عطْفَه على أن أكون فيه إشكالٌ لامتناع عطف الإنشاء على الخبر، ولكنَّ سيبويهِ سوَّغ أن توصل أن بالأمر والنَّهي، وشبَّه ذلك بقولهم: (أنت الَّذي تفعل) على الخطاب؛ لأنَّ الغرض وصْلُها بما تكون معه بمعنى المصدر، والأمر والنَّهي دالّان على المصدر، دلالة غيرِهما من الأفعال[2]. والتَّحقيق أنَّ أسلوب نظم الآية، على هذا الوجه، لم يقع إلّا لمقتضى بلاغيٍّ، فلا بدَّ من أنْ

(1) ابن جرير، جامع البيان: 12/304، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/147، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 8/388، وطنطاويّ، التّفسير الوسيط: 7/140.

(2) وقد لَخَصَّ البيضاويُّ ما أفاض فيه سيبويه، فقال: "﴿وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ﴾ عطْفٌ على أَنْ أَكُونَ غير أَنْ صلة أَنْ محكية بصيغة الأمر، ولا فرق بينهما في الغرض، لأنَّ المقصودَ وصلها بما يتضمَّن معنى المصدر، لتدلَّ معه عليه، وصيغ الأفعال كلّها كذلك سواء الخبر منها والطَّلب، والمعنى وأمرت بالاستقامة في الدّين بأداء الفرائض، والانتهاء عن القبائح، أو في الصَّلاة باستقبال القبلة" ينظر: البيضاويّ، أنوار التنّزيل: 3/125.

وهو تلخيصٌ لما قاله الزَّمخشريُّ أيضًا، وجرى عليه أبو السُّعود. ينظر: الزَّمخشريّ، الكشَّاف: 2/374، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/179، أمَّا غيرُهما، فاختار أنَّ (أَنْ) المصدريَّة وما في حيِّزها في محلِّ رفعٍ بفعل مقدَّرٍ، أي: وقيل لي. ينظر: الدَّرويش، إعراب القرآن وبيانه: 4/306.

يكون لصيغة: ﴿أَقِمْ وَجْهَكَ﴾ خصوصيَّة في هذا المقام، وذلك بجعل الواو مُتَوَسَّعًا في استعمالها، بأن استعملت نائبة منابَ الفعل الَّذي عُطفت عليه، أي فعل ﴿وَأُمِرْتُ﴾، دون قصد تشريكها لمعطوفها مع المعطوفِ عليه، بل استعملت لمجرَّدِ تكريره، والتَّقدير: (أمرْت أنْ أقمْ وجْهَكَ)، فتكون (أن) تفسيرًا لما في الواو من تقدير لفظ فعل (أُمرت)، لقصد حكاية اللَّفظ الَّذي أمره اللّه به بلفظه، وليتأتّى عطف ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾، وهذا من عطف الجملِ لا من عطف المُفردات، وهو هُنا أوعب[1]، والخطاب فيه أوكدُ وألذُّ[2].

بلاغةُ الالتفات بين هذه الآيات:

هُنا يتحوَّل السّياق من الحكاية والتَّكلُّم في ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، إلى الأمر المباشر بالخطاب ﴿وَأَنْ أَقِمْ﴾، كأنَّ الرَّسول ﷺ يتلقّاه في مشهدٍ حاضر للجميع، وهذا أقوى وأعمقُ تأثيرًا، والأمر هُنا مُستعملٌ في طلب الدَّوام[3].

تصويرُ الخطاب في مشهد حاضر تحفيزٌ لتلبية الأمر الرَّباني المباشر

دلالةُ (أنْ) المصدريَّة وما بعدها:

(أنْ) حرف مصدريٌّ؛ يفيد التَّعليل والتَّوكيد، والجملة على تقدير: أنَّ الخبر قبلها، وهو قوله تعالى: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، هو في معنى الأمر، أي: تلقيت هذا الأمر، بأن قيل لي: كن من المؤمنين، ﴿وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾، فجعل قول اللّه ﷻ له صلوات اللّه وسلامه عليه، أمرًا لازمًا لا انفكاك له منه، وهذا أبلغ في الدَّلالة على الامتثال، والطّاعة والولاء لربِّ الأرض والسَّماء[4].

جعْلُ القيام لله أمرًا لازمًا، أبلغُ في الدَّلالة على الامتثال والولاء

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/303.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 9/217.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 21/88.
(4) عبد الكريم الخطيب، التَّفسير القرآنيّ للقرآن: 6/1094.

بلاغةُ المجازِ المرسل في: ﴿أَقِمْ وَجْهَكَ﴾:

الوجهُ دليل على الذّات كلِّها بقرينة الجزئيَّةِ

قوله تعالى: ﴿أَقِمْ وَجْهَكَ﴾، أي: انصبَّهُ ووجِّهْهُ إلى الدِّين الَّذي هو الإسلام والإيمان والإحسان، بأن تَتَوَجَّه بقلبك وقصدك وبدنك، إلى إقامة شرائع الدِّين الظّاهرة كالصَّلاة، والزَّكاة، والصَّوم، والحجِّ ونحوها؛ وشرائعه الباطنة كالمحبَّة والخوف والرَّجاء والإنابة[1]، وأصل الإقامة: جَعل الشَّيء قائِمًا، وهي هُنا مُستعارة لإفراد الوجه بالتَّوجُّه إلى شيء مُعَيَّنٍ والثَّبات عليه، وعدم التَّحوُّل عنه لا يترك وجهه ينثني إلى شيء آخر[2]، وهو تمثيلٌ لإقباله على الدِّين واستقامته عليه وثباته، واهتمامه بأسبابه، فإنَّ من اهتمَّ بالشَّيء؛ عقد عليه طَرْفَهُ، وسدَّد إليه نظره، وقوَّم له وجهه، مقبلًا به عليه[3]، فإقامةُ الوجه بمعنى الذّات مجازٌ مرسل؛ لأنَّ سمة الاتِّجاه تكون بالوجه، والوجه دليل على الذّات كلِّها بقرينة الجزئيَّة، أي: أقم ذاتك للدِّين، وتوجُّه بكلِّ ذاتك للدِّين الَّذي أنزله الله ﷻ، وذلك أنَّ الوجه إذ يستقيم على طريق، فإنَّه لا يلتفت إلى طرق أخرى، فإقامةُ الوجه على الدِّين: توجيهُ الوجهِ إليه كلِّهِ، دون أن يخطف خطفةَ بصرٍ إلى غيره[4].

بلاغةُ الكناية في: ﴿أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ﴾:

لا معنى للعبوديَّة، إلّا بالإقبال على الله بالكليَّة

وذلك في قوله تعالى: ﴿وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا﴾، حيث إنّ إقامة الوجه للدّين كنايةٌ عن توجيه النَّفس بالكلّيَّة إلى عبادته تعالى، وهي عبادةٌ مطلوبة ومستحقَّةٌ، وذلك بتمحيض العبوديَّة له، والإعراض عمّا سواه، "فإنَّ من أراد أن ينظر إلى شيء نظر استقصاء، يقيم وجهه في مقابلته، بحيث لا يلتفت يمينًا ولا شمالًا،

(1) السَّعديّ، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 641.
(2) طنطاوي، التَّفسير الوسيط: 11/83، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/303.
(3) الزَّمخشريّ، الكشَّاف: 3/479.
(4) عبد الكريم الخطيب، التَّفسير القرآنيّ للقرآن: 6/1094.

إذ لو التفت؛ بطلت المقابلة، فلذا كنِّي به عن صرف العمل بالكليَّة إلى الدّين، فالمراد بالوجه الذّات. أي: اصرف ذاتك، وكلّيَّتك للدّين"[1]، وقد أكسبت الكنايةُ السّياقَ جمالًا، وأضفت عليه مسحةً من التَّصوير البديع الَّذي يكمِّل الصّورة السّالفة، في ملمحيَّة المجاز، وذلك أبلغ في الدَّلالة من قوله: (التزم الدّين) وما يشبهها.

فائدة إيثار قوله: ﴿حَنِيفًا﴾:

الميلُ عن الشِّرك والباطل إقبالٌ على التَّوحيد والحقِّ

قوله: ﴿حَنِيفًا﴾: صيغة مُبالغة في الاتِّصاف بالحَنَفِ وهو الميل[2]، أي: مائلًا عن الأديان الباطلة مَيْلًا لا رجوع فيه[3]، مُقبلًا على التَّوحيد والإخلاص، وقد غلب استعمال هذا الوصف في الميل عن الباطل، أي: العدول عنه بالتَّوجُّه إلى الحقِّ، أي: عادلًا ومنقطعًا عن الشِّرك[4]. وجيء بهذا اللَّفظ ﴿حَنِيفًا﴾؛ لأنَّ الدِّين لا يجيءُ برسول جديد ومعجزة جديدة؛ إلّا إذا كان الفساد قد عمّ؛ فيأتي الدّين؛ ليدعو النّاس إلى الميل عن هذا الفساد، وفي هذا اعتدال لسلوك الأفراد والمجتمع[5].

دلالةُ دخول اللّام على الدِّين:

الدَّلالةُ على العِلَّة والاختصاص مفيدةٌ في البيان عن المراد

قولُه تعالى: ﴿وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا﴾ اللّامُ في ﴿لِلدِّينِ﴾ للعلَّةِ، أي: لأجلِ الدِّين، فيصير المعنى: مَحِّضْ وجهَكَ للدّين، لا تجعل لغير الدّين شريكًا في توجُّهك، وفيه توجيهُ نفسه بأسرها، لأجل ما أمره اللّه به من التَّبليغ وإرشاد الأمَّة وإصلاحها، وقريب منه قوله: ﴿أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ﴾ [آل عمران: 20][6].

---

(1) جمال الدّين القاسميّ، محاسن التّأويل: 6/67.

(2) وقيل: إنّ ﴿حَنِيفًا﴾ معناه، أي: مستقيمًا، والحنف الميل في كلام العرب، وأصله في الأشخاص وهو في المعاني مُستعار، فالمُعْوَجُّ في الأجرام أحنف على الحقيقة، أي: مائل، والمستقيم فيها أحنف على تَجَوُّز كأنَّه مال عن كل جهة إلى القوام. ينظر: ابن عطية، المحرَّر الوجيز: 2/314.

(3) الآلوسي، روح البيان: 3/128.

(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 21/89.

(5) الشَّعراوي، تفسير الشَّعراوي: 10/6250.

(6) أبو حيّان: 6/112، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/303.

دلالةُ تخصيص الوجه دون سائر الأعضاء بالأمر:

الوجه أشرف الأعضاء وبه تقع المواجهة والتَّميُّز

خصَّ الوجه بالذِّكر في قوله تعالى: ﴿وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ﴾؛ لأنَّه أشرف الأعضاء، والمعنى: أنَّ اللّٰه سبحانه أمره بالاستقامة في الدِّين، والثَّبات عليه، وعدم التَّزلزل عنه بحال من الأحوال[1].

دلالة النَّهي في الآية:

إفادةُ النَّهي المؤكِّد لمعنى الأمرِ السّابق، تعريضًا وتهديدًا للمُشركين

قولُه تعالى: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾، أي: ولا تكونن ممَّن يُشرِك في عبادة ربِّه غيرَه فيهلك، وهو نهيٌ مؤكِّدٌ لمعنى الأمرِ الَّذي قَبْلَه (أقِمْ)[2]، وفيه تعريض بالمُشركين، وتهديدٌ لهم، إذ كانوا على أمر محظور منهيٍّ عنه، يتعرَّض مُقترِفه للنِّقمة والبلاء[3]. وقيل: إنَّ النَّهي عن عبادة الأوثان، قد تقدَّم في الآية المتقدِّمة، فوجب حمل هذا النَّهي على معنى زائد، وهو أنَّ من عرف اللّٰه ﷻ، وعرف جميع أسمائه وصفاته، وأنَّه المستحقُّ للعبادة لا غيره، فلا ينبغي له أن يلتفت إلى غيره بالكليَّة، وهذا هو الَّذي يسمّيه أصحاب القلوب بالشُّكر[4].

نكتةُ اتِّصال المضارع بنون التَّوكيد الثَّقيلة:

المُبالَغةُ في النَّهي عن الشِّرك؛ اعتِناء بالتَّبرُّؤِ مِنه

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾، فيه تأكيدُ الفعلِ المنهيِّ عنه بنونِ التَّوكيدِ؛ للمُبالَغةِ في النَّهي عنه اعتِناءً بالتَّبرُّؤِ مِن الشِّركِ[5]، وقد كان تأكيد النَّهي عن الشِّرك بنون التَّوكيد الثَّقيلة، والثِّقل والمبالغة جاءت هنا؛ لأنَّ الشِّرك يدخل إلى النَّفس من مسارب شيطانيَّة كثيرة، يحسبها النّاس صغائرَ، وهي كبائر، فالمراءاةُ في العبادات شركٌ، وأعمال أخرى كثيرة، وقد قال ﷺ: «مَنْ صَلَّى يُرائي؛ فَقَدْ أَشْرَكَ، وَمَنْ صَامَ يُرائي؛ فَقَدْ أَشْرَكَ، ومَنْ

(1) طنطاوي، التّفسير الوسيط: 7/140.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/304.
(3) عبد الكريم الخطيب، التّفسير القرآني للقرآن: 6/1094.
(4) الخازن، تفسير الخازن: 2/468.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/304.

تَصَدَّقَ يُرائي؛ فَقَدْ أَشْرَكَ»[1]، وقال تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝٥ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ۝٦﴾ [الماعون: 4- 6][2].

الإسناد بشبه الجملة لا بالمشتقّ:

المُبالغة في التَّبرُّؤ من الطّائفة المشركة

مجيء قوله: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ أبلغُ في الاتِّصاف كأن يقول: (ولا تكن مُشركًا)، لما فيه من التَّبرُّؤ من الطّائفة ذات نحلة الإشراك[3]. والمعنى: لا تكن من "أصحاب الدّيانات الوثنيَّة الباطلة الَّذين يجعلون بينهم وبين اللّه تعالى حجابًا من الوسطاء والأولياء والشُّفعاء، يوجِّهون قلوبهم إليهم، عند الشِّدَّة تصيبهم، والحاجة الَّتي تستعصي على كسبهم"[4].

دلالةُ العطف بالواو:

تأكيدٌ وتفصيلٌ للنَّهيِ السَّابق، لإظهار كمالِ العنايةِ بالأمرِ

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ﴾ تأكيدٌ للنَّهيِ المذكورِ: وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ، وتفصيلٌ لما أُجمِلَ فيه؛ إظهارًا لكمالِ العنايةِ بالأمرِ، وكشفًا عن وجهِ بُطلانِ ما عليه المشركون[5]. ويحتمل أن يكون استئنافَ نهيٍ، ويحتمل أن يكون معطوفًا على (أقم)، فيكون في حيِّز (أن) على قسميها من كونها مصدرية، وكونها حرفَ تفسير، وإذا كان دعاء الأصنام مَنهيًّا عنه؛ فأحرى أن يُنهى عن عبادتها[6]، وهو تعريضٌ أيضًا بالمشركين، وتهديدٌ لهم، وأنَّهم يعبدون من دون اللّه ما لاينفعهم، ولا يضرُّهم، وأنَّهم بهذا قد ظلموا أنفسهم، وباعوها في سوق الضَّلال، بهذا النَّقد الزّائف الذي لا قيمة له إذا عرض في سوق الحقِّ[7].

(1) الحديث مرويّ عن شدّاد بن أوس، ذكره الإمام أحمد في المسند: 28/364.
(2) انظر: أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3644.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/304.
(4) رشيد رضا، تفسير المنار: 11/399.
(5) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/179 - 180.
(6) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/112.
(7) عبد الكريم الخطيب، التّفسير القرآني للقرآن: 6/1095.

نكتةُ النَّهي بلفظ (لا):

شناعةُ المنهيِّ عنه، وتهويل خطره

معنى قوله تعالى: ﴿وَلَا تَدۡعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾، أي: ولا تدعُ - أيُّها الرَّسولُ - غيره تعالى، دعاء عبادة لا على سبيل الاستقلال، ولا على سبيل الاشتراك بوساطة الشُّفعاء، ما لا ينفعك في الدُّنيا ولا في الآخرة، ولا يضرُّك إن تركت دعاءه[1]، وفي خطاب النَّبي صلوات اللّه وسلامه عليه بهذا النَّهي، تغليظ لشناعة المنهيِّ عنه، وتهويل للخطر الَّذي يتهدَّد النّاس منه، وأنَّ على كلِّ إنسان أن يوقظ وجوده كُلَّه، حتَّى لا يقع في هذا المحذور، أو يدنو منه، وكفى أن يكون المنهي عنه هو الشِّرك باللّه، وكفى أن ينبَّه النبيُّ الكريم إلى هذا الخطر، وهو أعلم النَّاس باللّه[2].

عدمُ تأكيد الفعل ﴿تَدۡعُ﴾ بالنُّون:

وجود ما يُومئُ إلى التَّعليل بما فيه غُنية عن التَّوكيد

ولم يُؤَكَّد الفعل ﴿تَدۡعُ﴾ في قوله ﴿وَلَا تَدۡعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ بنون التَّوكيد كسابقه في النَّهي: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ﴾، لئلّا يمنعَ وجودها من حذف حرف العلَّة، بأنَّ حذفه تخفيف وفصاحة، ولأنَّ النَّهي لمَّا اقترن بما يُومئ إلى التَّعليل، كان فيه غنية عن تأكيده؛ لأنَّ الموصول في قوله: ﴿مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَۖ﴾، يُومئ إلى وجه النَّهي عن الدُّعاء، إذ دعاء أمثالها لا يقصده العاقل[3].

بديعُ الطِّباق بين النفع والضرِّ:

تزكُّهم ما ينفع ويَضُرُّ، إلى ما لا نفع فيه ولا ضرر

جعل الخطاب بالنَّفع والضَّرر في قوله تعالى: ﴿مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَۖ﴾ لمن يدعوها إشارة، إلى أنَّهم تركوا ما ينفع، ويَضُرُّ إلى ما لا ينفع، ولا يَضُرُّ، وذِكرُ هذه الحقيقة فيه تعليل للنَّهي عن عبادتها؛ لأنَّه إنَّما يُعبد الجديرُ بالعبادة، ويُوفي الشُّكر لمن ينفع، ويخشى عذابه، أمَّا الأوثان؛ فلا نفع فيها يُرتجى؛ ولا ضرر منها يتَّقى[4].

(1) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 11/163.
(2) عبد الكريم الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 6/1095.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/304.
(4) محمّد أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3644.

سِرُّ تقديم النَّفع على الضُّرِّ هُنا، والعكس في أوَّل السّورة:

بيانُ كونِ النَّفعِ أحبَّ للنَّفس مع مُراعاة ما سَبَقَ ذكره

قدَّم النَّفع على الضُّرّ في هذه الآية؛ لأنَّ سياقَ الآيات في الإيمان، والإيمان نفع للعبد؛ لأنَّه يوصله إلى الجنَّة ورضوان اللّه، فقدَّم النَّفع؛ لأنَّه أحبُّ إلى النَّفس، وليس في السّياق ما يُوجِبُ تأخيره[1].

فائدة الاعتراض بإدماج جملة ﴿مِن دُونِ ٱللَّـهِ﴾ بين الفعل ومفعوله:

الحَثُّ على دعاء الله تعالى وحده دون ما سواه

﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ هُنا اعتراضٌ بين فعل (تدع) ومفعوله، وهو إدماجٌ للحثِّ على دعائه اللّه[2]، و"مَنْ يدعو من دون اللّه ﷻ، هو دعاء لمن لا ينفع، ولا يضرُّ، ومَنْ يفعل ذلك يكون من الظّالمين؛ لأنَّ الظُّلم هو إعطاء حقٍّ لغير ذي حقٍّ، سواء أكان في القمَّة، أو في غير القمَّة"[3].

معنى (مِنْ) في قوله: ﴿مِن دُونِ ٱللَّـهِ﴾:

بيانُ سفول رتبة كلِّ المعبودات الباطلة من غير الله

لمّا كان الدُّعاء الحاصل من المشركين لمعبوداتهم هو عين الشِّرك المنهيِّ عنه فيما سبق؛ نهى عن ذلك، فقال مُشيرًا إلى سفول رُتْبَة المعبودات الباطلة بإثبات الجارِّ: ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾[4].

معنى لفظ (دون) وإضافتها إلى لفظ الجلالة:

بيان التَّقصيرِ عن الغاية في النَّفع والضُّرِّ، من كلِّ أحدٍ سوى الله

(دون): نقيض فوق، وهو ظرف يَدُلُّ على التَّقصير عن الغاية[5]، وصفوا به ما ليس برفيع[6]، فقالوا: رجلٌ دونٌ وثوبٌ دُونٌ، وهذا دُونك في التَّحْقيرِ، ويقالُ: دُونُك زَيْدٌ في المنْزِلَةِ والقُرْبِ[7]، ولما كان ليس لأحد أنْ يجوز كلَّ ما دون رتبته سبحانه؛ أثبت الجار فقال: ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾، أي: الملك الذي له الأمر كلُّه[8].

---

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 8/187، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/207.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/304.
(3) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 10/6252.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/195.
(5) الجوهريّ، الصّحاح، وابن منظور، لسان العرب: (دون).
(6) ابن سيده، المخصّص: 4/234.
(7) الزّبيديّ، تاج العروس: (دون).
(8) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/35.

دلالةُ (فاء) العطف:

تفريعُ مقام التَّعليل للنَّهيَين لربط الجملة بما قبلها

قولُه تعالى: ﴿فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ تفريعٌ على النَّهيَين: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾، ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ﴾؛ للإشارة إلى أنَّه لا معذرة لمن يأتي ما نُهيَ عنه بعد أن أُكِّد نهيُه، وبُيِّنت عِلَّته، فمن فعله؛ فقد ظلم نفسه، واعتدى على حقِّ ربه[1]، فـ (الفاء) في مقام التَّعليل للنَّهي، أي: إنَّ عبادةَ ما لا ينفع، ولا يضرُّ ظلم[2].

سِرُّ الإيجاز بالتَّعبير عن الدُّعاء بالفعل:

شأنُ النَّبيِّ الأكرم أرفعُ من أن يُنسِبَ إليه عبادةُ غيرِ اللّه

قوله تعالى: ﴿فَإِن فَعَلْتَ﴾ كنّى بالفعل عن الدُّعاء إيجازًا، أي: فإن دعوتَ ما لا ينفعك ولا يضرُّك[3]، وكُنِّيَ عن ذلك على ما قيل؛ تنويهًا لشأنه ﷺ، وتنبيهًا على رفعة مكانه ﷺ، من أنْ يُنسب إليه عبادة غير اللّه تعالى، ولو في ضمن الجملة الشَّرطيَّة[4]؛ فكنَّى عنه بالفعل للاختصار[5].

دلالةُ أسلوب الشَّرط:

بيان ارتباط الفعل (فعل) بوصف الظُّلْمِ دومًا

جاءت الجملة بصيغة الشَّرط والجزاء في قوله: ﴿فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ﴾؛ ليُبيِّن ارتباط الفعل بوصف الظُّلْم، أي: إنَّ هذا الفعل مُترتِّب عليه وصف الظُّلم لا محالة، وقد ذكر ذلك بالشَّرط الدّال على الارتباط أوَّلًا، والإيماء إلى الارتباط، بقوله: (إذًا)، أي: إنَّه إذا كان الأمر كذلك؛ فإنَّك من الظّالمين[6]، فجواب الشَّرط (فإنَّك) وخبرها، وتوسَّطت (إذًا) بين اسم إنّ والخبر، ورتبتها بعد الخبر، لكن روعي في ذلك الفاصلة[7].

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/304.
(2) محمّد أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3644.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/112.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 6/186.
(5) نظام الأعرج، غرائب القرآن ورغائب الفرقان: 3/615.
(6) محمّد أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3644.
(7) أبو حيّان ، البحر المحيط: 6/112.

دلالةُ الافتراض في الآية:

بيانُ عِظَمِ فظاعةِ هذا الفعل المخالف للعقيدة الصَّحيحة

المقصودُ من الفرض الوارد في قوله تعالى: ﴿فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ تنبيهُ النّاس على فظاعة عظمِ هذا الفعل، حتّى لو فعله أشرف المخلوقين؛ لكان من الظّالمين على حدِّ قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزُّمر: 65][1].

دلالةُ التَّوكيد في قوله: ﴿فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾:

المبالغةُ في التَّحذير، مهمَّة في استبشاع الشِّرك

أكَّد كونه من الظّالمين على ذلك التَّقدير بالأداة (إنَّ)، لزيادة التَّحذير[2]، ومعنى قوله: ﴿فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، "أي: لو اشتغلْت بطلب المنفعة والمضرَّةِ من غير اللّه، فأنت من الواضعين للشَّيء في غير موضعهِ"[3].

دلالةُ الإيجاز بحرفِ الجواب ﴿إِذًا﴾:

الجوابُ على السُّؤال بحرفٍ يدلُّ على جملة من السّياق

وأُتي بلفظ (إذًا) للإشارة إلى سؤال مقدَّرٍ، كأنَّ سائلًا سأل: فإن فعلت؛ فماذا يكون؟[4] وليست إذًا هذه الكلمة المعهودة، وإنَّما هي (إذا) الشَّرطيَّة، حذفت جملتها الَّتي يُضاف إليها، وعُوِّضَ عنها التَّنوين كما في يومئذٍ[5].

دلالةُ استعمال حرف الجَرِّ (مِنْ):

إفادةُ كون التَّعبير بحرف (مِنْ)، آثر وأبلغ في الوصف

قوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، أي: العريقِين في وضع الدَّعوة في غير محلِّها[6]؛ لأنَّه لا ظلمَ أكبر من الشِّرك باللّه تعالى، ومن الظُّلم وضعُ العبادة في غير موضعها[7]، ومعنى (مِنْ) أي: معدودًا في

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/304.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/304 - 305.
(3) الجاوي، مراح لبيد لكشف معنى القرآن المجيد: 1/497.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/304 - 305.
(5) الآلوسي، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم: 6/186.
(6) البقاعي، نظم الدّرر في تناسب الآيات والسّور: 9/218.
(7) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/309، والزّحيليّ، التّفسير المنير: 11/282. 282.

عِدادهم[1]، وهو أبلغ في الاتِّصاف، من نحو: (فإنَّك ظالم)، فـ(مِنْ) تأكِيدٌ مثل ما تقدَّم في قوله: ﴿مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ [يُونُس: 105] ونظائره[2].

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الفعلُ والعملُ والصُّنع:

الصُّنْعُ أَخَصُّ المعاني الثّلاثَةِ وأَرْسَخُها، والفعل أَعَمُّها، والعَمَلُ أَوْسَطُها

(الفِعْلُ) لفظ عامٌّ يدلُّ على إحْدَاثِ شيء من عَمَلٍ وغيره[3]، فهو مُطْلَقُ التَّأثير من جهة مُؤَثِّرٍ[4] سواء كان عن سبب أو لا، ويُقال لِمَا كان بإجادة وبدونها، ولِمَا كان بِعِلْمٍ أو غير عِلْمٍ، وقَصْدٍ أو غير قَصْدٍ[5]، وأمَّا العمل؛ فهو عبارة عن إيجاد الأثر في الشَّيءِ مع امتداد زمان، ولا يُقالُ إلَّا لما كان بقصد وعِلْمٍ دون ما لم يكن عن قصد وعلم، قال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [البقرة: 25] فعبَّر عن ذلك بالعمل؛ لأنَّه لا يكون إلّا بِقَصْدٍ وامتداد زمان، وأمَّا الصُّنْعُ؛ فهو: تَرْتيبُ العمل وإحْكامُهُ على ما تَقَدَّمَ عِلْمٌ به، وبما يُوصِلُ إلى المُراد منه، ولذا قيل للعِلم المتعلِّق بكيفيَّة العمل: صناعةٌ[6]، ويَدُلُّ على رسوخ العمل وإجادَتِه، فيقال للنَّجار: صانِعٌ؛ لأنَّ النَّجار قد سبق عِلْمُهُ بما يريدُ عملَهُ، وعَلِمَ بالأسبابِ الَّتي تُوصِلُ للمراد من ذلك والصُّنْعُ؛ فالصُّنْعُ أَخَصُّ المَعاني الثَّلاثَةِ، والفعل أَعَمُّهَا، والعَمَلُ أَوْسَطُها، فكلُّ صُنْعٍ عَمَلٌ، وليس كُلُّ عَمَلٍ صُنْعًا، وكلُّ عملٍ فِعْلٌ، وليس كُلُّ فِعْلٍ عَمَلًا[7]. ولعموم الفعل ودلالته على ما كان بإجادة وبدونها، ولِما كان بِعِلْمٍ أو غير عِلْمٍ، وقَصْدٍ أو غير قَصْدٍ، ناسب اصطفاءه مع النَّهي عن عبادة غير اللّه تعالى ممّا لا ينفع، ولا يضرُّ لِعِظَم الذَّنبِ وكُبْرِه.

---

(1) الآلوسي، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم: 6/186.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/305.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (فعل).
(4) الرّاغب، المفردات: (فعل).
(5) زين الدّين المناويّ، التّوقيف على مهمّات التّعاريف، ص: 262.
(6) الجرجانيّ، التّعريفات، ص: 134، والتّهانويّ، كشّاف اصطلاحات الفنون: 1097/2.
(7) أبو هلال العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 134.

﴿وَإِن يَمۡسَسۡكَ ٱللَّهُ بِضُرّٖ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَۖ وَإِن يُرِدۡكَ بِخَيۡرٖ فَلَا رَآدَّ لِفَضۡلِهِۦۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۚ وَهُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ١٠٧﴾ [يونس: 107]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

ظالِمٌ لِنفْسِه مَنْ يعتمدُ على غير الله في رجاءِ نَفْعٍ أو دفْعِ ضُرٍّ

لمّا قضى الله ﷻ نفْيَ إمكانِ النَّفْعِ والضُّرِّ عن كلِّ ما سِواه سبحانه، وقضى بعدم الإمكانِ هذا بطريق النهي في قوله: ﴿وَلَا تَدۡعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَۖ فَإِن فَعَلۡتَ فَإِنَّكَ إِذٗا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٠٦﴾ [يونس: 106]؛ قضى هنا في هذه الآية ثبوتَ القدرةِ على الضُّرِّ مسًّا وكشْفًا، وعلى الخير تحقيقًا وتثبيتًا له وحده سبحانه، لا يُنازِعه أحدٌ في ذلك، فكأنَّه قال: لا تدعُ من دون الله ما لا ينفعك، ولا يضرُّك؛ لئلّا تكون ظالمًا، والزَمْ طريق العدلِ برجاءِ الله وحدَه في جلب الخير ودفْعِ الضُّرِّ.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿كَاشِفَ﴾: مِنَ الكشْف، وأصله: إزالةُ الغطاءِ ونحوِه عمّا يُواريه، ويُغطّيه، ويُستعار بذلك في المعاني، كما في كَشْفِ الضُّرِّ، بمعنى: إزالةِ آثارِه التي أخرجَتِ البدنَ، أو الحالَ عن حدِّ الاعتدال، فتعودُ بإزالتِه السَّلامةُ والصِّحَّة[1].

2) ﴿رَآدَّ﴾: مِنَ الردِّ، وهو: صرفُ الشيء عن وجهه، ونقْله من حالةٍ إلى حالة، أو إبداله بغيره، ومنه: ردَّ عليه الشيء: إذا لم يقْبَله، أو خطَّأه، فهو تحوُّلٌ مع حِدَّة، والردُّ حاصل في الذات أو في الحال، فمِن الردِّ بالذّات قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنۡهُ﴾ [الأنعام:

(1) الرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (كشف).

28]، ومن الردِّ إلى حالةٍ كان عليها قولُه هنا: ﴿فَلَا رَآدَّ لِفَضۡلِهِۦۚ﴾ أي: لا دافع ولا مانع له[1].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

وإن يُصِبْك الله - أيُّها الرسول - بشدَّةٍ أو بلاءٍ أو سوءٍ في الحال أو في المالِ أو في البدن؛ فلا مُزيلَ لذلك ولا رافِعَ له إلّا هو ﷻ، فلا تتوسَّلْ لأحدٍ سِواه، وإنْ يُرِدْك برخاءٍ أو نعمةٍ أو عافيةٍ؛ فلا يقدِرُ أحدٌ أبدًا أنْ يمنع عنك ما أراده بك سبحانه، ذلك أنَّ الله يُصيب بالسَّراء والضرّاء مَن يَشاء مِن عبادِه، وهو الغفور للذُّنوب، الكاشف للكروب، فيستُر عباده، ولا يقْصِمُهم بالبلاء، الرحيم بالطائعين فيعوِّضُهم بالخير والرخاء، ويُزيل شدائدهم[2].

اللهُ هو النافع الضارُّ الذي ينفع ويضرُّ، والنفع يشاؤه لعباده، والضرر يكتبه عليهم

وترشدُ الآية الكريمة إلى أنَّ الخلقَ لو اجتمعوا على أن ينفعُوا أحدًا بشيء؛ لم ينفعوهُ إلّا بما كتبه الله، ولو اجتمعوا على أن يضرُّوا أحدًا؛ لم يقدروا على شيء من ضَرره؛ إذا لم يردْه الله، فإذا عرفَ العبدُ بالدليل القاطع أنَّ الله هو المُنفرد بالنِّعم، وكشفِ النِّقَم، وإعطاءِ الحسنات، وكشفِ السيئات والكُربات، وأنَّ أحدًا من الخلقِ ليس بيده من هذا شيءٌ إلّا ما أجراه الله على يده؛ جزمَ بأنَّ الله هو الحقُّ، وأنَّ ما يدعون من دونه هو الباطل[3].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغة العطف في: ﴿وَإِن يَمۡسَسۡكَ﴾:

جملة ﴿وَإِن يَمۡسَسۡكَ ٱللَّهُ بِضُرّٖ﴾ معطوفةٌ على جملة ﴿وَلَا تَدۡعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَۖ﴾ [يونس: 106] في الآية السابقة،

لا نَفْعَ ولا ضُرَّ إلّا بأمرِ اللهِ وحدَه

(1) الجوهري، الصّحاح، والرّاغب، المفردات: (ردّ)، والكفويّ، الكلّيّات، ص: 476، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (ردد).

(2) مجمّع الملك فهد، التفسير الميسّر، ص: 221.

(3) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 221.

وفائدة العطف: تقريرُ مضمونِ الصِّلةِ في قوله: ﴿مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ﴾ [يونس: 106] ومضمون الصِّلة: هو النفْع المنفيُّ والضُّرُّ المنفيُّ عن ذات الموصول المُعبَّر عنه بـ ﴿مَا﴾[1].

معنى ﴿وَإِن﴾، وسرُّ الاشتراط بها:

جعلَ اللهُ في تقديرِ الضُّرِّ خيرًا وحِكْمةً ولُطْفًا

﴿وَإِن﴾ الشرطيَّة دخلتْ - هنا - على فعل المسِّ بالضُّرِّ، والإرادة بالخير في قوله: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ﴾ ﴿وَإِن يُرِدْكَ﴾؛ لِتعاقُبِ الشرِّ والخير على الإنسانِ، فلا هو في خيرٍ أبدًا، ولا هو في شرٍّ أبدًا، فلاعتبارِ كون الفِعلينِ عارضَيْن لم يُحقِّقْ وقوعهما بـ (إذا)، وأيضًا لعدم تحقُّق الضرِّ والخير في ذاتِهما بالنسبة إلى العَبْدِ، فيتفاوتُ تحقُّقهما في حقِّ العبد، فما يكون ضُرًّا في حقِّ عبدٍ لا يكون ضُرًّا - هو ذاتُه - في حقِّ آخرَ، والخير كذلك، وأيضًا للدَّلالة على أنَّ إصابة الضرِّ وإصابة الخير ليستا مُرادتين في مقصود الإرادةِ لذاتِهما، بل لكونِهما ممّا يُمْتَحنُ بهما، فالمتحقِّق في القصد هو الامتحان، وليس الضُّرَّ والخير في ذاتهما، فلمّا كان بناءُ الفعلِ جاريًا على غير متحقِّقٍ في القصد لذاتِه؛ شَرَطَه بـ ﴿وَإِن﴾ دون (إذا)[2].

نكتةُ التَّعبير بالمسِّ مادَّةً وصيغةً:

الضُّرُّ مُخفَّفٌ بالألطاف، وليس الغرضُ منه الإتلافَ

التعبير بالمَسِّ في جانب الضُّرِّ في قوله تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ﴾ تَكتَنِفُه جهتان: جهةٌ معنويَّة وجهةٌ لفظيَّة، أمّا المعنويَّة: فللالتفات إلى ثلاثِ دلالات:

الأولى: معنى اللُّطف، فالإصابةُ بالضُّرِّ مَشوبةٌ باللُّطفِ والمَرحمة، ولذا فهي ليستْ إصابةً محضةً به أو خالِصةً فيه.

الثانية: معنى الظّاهر، فالإصابةُ بالضُّرِّ هي مَسٌّ ظاهريٌّ، كما

(1) الآلوسي، روح المعاني: 6/186.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/180.

تَمَسُّ اليَدُ الأجسامَ والأجرام، فليستْ إصابةً تَجوزُ إلى بواطنِ الأشياء بالتَّلَفِ والإهلاك.

الثالثة: معنى التخفيف، فالأضرار مُخَفَّفةٌ بالألطاف، ولو نالتِ العبدَ من غير تخفيفٍ؛ لأهلكتْهُ، ولو كانتْ كذلك؛ لم يكن مجالٌ لِكشْفِها، فلمّا قال الله تعالى: ﴿فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَۖ﴾؛ عَلِمْنا أنَّها أضرارٌ صالحةٌ للاستدراك، ولا تكون كذلك إلّا بِخفَّتِها وعدم استحكامِها.

والذي أعانَ على هذه التوجيهات الثلاثة: أنَّ المَسَّ يُقال في تأثُّر الحاسَّةِ بالمؤثِّر، وتأثُّر الحاسَّةِ هو أوَّل عَلامَاتِ التأثُّر، وأسرعه حصولًا فيها، فإنْ زال المؤثِّر؛ كان أسرعه زوالًا عنها، فلسرعةِ الحصول وسرعة الزَّوال؛ كان المسُّ خفيفًا لطيفًا ظاهرًا، وهذا لا يتعارض مع قوَّة انفعال الحاسَّة بالشيء الماسِّ ونفاذه فيها.

وأمّا من جهة البناء اللفظي؛ فهو يُعزِّزُ دلالةَ التخفيف المعنويَّة آنِفةَ الذِّكْرِ، فالفِعل ﴿يَمْسَسْكَ﴾ جاء بفَكِّ التضعيفِ في السِّين، فهو مخَفَّفٌ لفظًا ومعنًى، فلم يقل: (يَمَسَّك)، وجاء بصيغة المضارعة للدَّلالةِ على معنى العادةِ والسُّنَّةِ المكرورة، فمن عادةِ الدنيا أنَّ أحوال الكَدَر فيها متكرِّرةٌ، كما أنَّ أحوال الصَّفَاءِ فيها كذلك، فهذه تَتَوالى مع تلك، ودوامُ حالٍ منها من المُحال[1].

بلاغةُ المجاز المرسل في: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ﴾:

في التعبير عن الإصابة بالمسِّ في قوله تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ﴾ مجاز مرسلٌ علاقته الملزوميَّة، حيث أطلق الملزوم: وهو المسُّ، وأراد لازِمَه: وهو الإصابة؛ لتقرير هيئة الإصابة، وأنَّها ليستْ كأيِّ إصابة، بل هي إصابةُ المسِّ[2].

العبدُ ضعيفٌ مع الابتلاءِ ولو كانت إصابةً ضئيلة

(1) السّمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (مسس)، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (مس).
(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 9/581، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/306.

نكتةُ تقديم المفعول به:

النَّجاةُ من الضُّرِّ بعد مُعاينتِه يريدُ الامتنانِ بالنِّعَمِ بعد إيلافِها

قُدِّم ضمير الخطاب على اسم الجلالة، في قوله: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ﴾؛ لِكونه ضميرَ نصبٍ متَّصلًا مفعولًا به، وإذا كان كذلك؛ فلا بدَّ أنْ يتَّصل بالعامل، وهو الفعل، وإذا اتَّصل بالعامل، وهو مفعول؛ فلا بدَّ أنْ يتقدَّم على الفاعل، ونُكتةُ مجيئه كذلك، دون أنْ يُقال: (وإن يَمسَّ اللّه الناسَ.. أو يمسَّ اللّه إيّاك) على الانفصال؛ لتوفُّر العنايةِ على المُصاب، وهو الإنسان، لِكونه مَحلَّ الضُّرِّ النازل به، ولكونِ المَسِّ لصيقًا به في الواقع، والمعنى ألصَقَه به في اللفظِ والتركيب، فكأنَّما النَّظم الجليل يريد للسّامع أنْ يتصوَّرَ هيئةَ الإنسان، وحالُ الضرِّ تغشاه، وهي لصيقةٌ به؛ ليتصوَّرَ بعد ذلك هيئتَه؛ إذا انفكَّتْ عن الضرِّ، وانفصلتْ بالكشْفِ والمُعافاةِ الإلهيَّة.

غرضُ توجيه الخطاب للنبيِّ ﷺ:

رسول اللهِ ﷺ هو مِثالُنا في تَأثُّرِنا بالسَّرَّاءِ والضرّاء

وجِّهَ الخطابُ للنبيِّ ﷺ في قوله: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ﴾، ﴿وَإِن يُرِدْكَ﴾، لغرضين:

الأوَّل: تسليةً للنبيِّ ﷺ وتبشيرًا له؛ لِكونه أولى الناس بنفي الضُّرِّ عنه وتحقيق الخير له.

الثاني: لتبشير النّاس وتسليتِهم؛ إذا أصابهم الضُّرُّ، أو رغِبوا في الخير أنْ يسألوا اللّه من غير واسطة فيما أمَّلوه من ذلك، ووجْه البُشرى: أنَّ النبيَّ ﷺ قد خوطِبَ قبلهم بذلك، وأُجْرِيَ عليه الضُّرُّ والخير قبلهم، فإذا كانوا على مِثالِه في الإصابةِ بالضرِّ والخير، فلا يحزنوا؛ لأنَّهم على مِثالِه كذلك في كشْفِ الضرِّ عنهم ونزول الخير بهم، فيحصلُ لهم بذلك التعليم في سؤال اللّه من غير واسطة، وأنَّه لا مُغيِّرَ لأحوالهم إلّا هو، والتسليةُ بمقام النَّبيِّ ﷺ الذي أجْرِيَ عليه ذلك قبلهم، والبُشرى بأن يحصل لهم من العاقبة نظير ما حصل لنبيِّهم، والمعنى الجامع في ذلك كلِّه: خطابُ النبيِّ ﷺ بالمقامِ الذي

تفتقِر الناسُ إلى احتذاء أنموذجٍ فيه، لعدم جاهزيَّتِهم له من غير مُعِينٍ وقُدوة[1].

فائدة التَّعبير بالجملة الشَّرطيَّة:

اللهُ يُعوِّضُ بعد الضُّر بالخير، ويَجزي بعد الخير بالفضْل

التعبير بالجملة الشرطية في قوله: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ﴾ أفاد التعليق والترتُّب واللزوم بين جملة الشرط وجملة الجواب، فكشْفُ الضرِّ مُعلَّقٌ على المسِّ به، وكشْفُه نتيجةٌ مترتِّبةٌ عن الإصابة به، ويَلزمُ مِنْ تقديره ووقوعه أنْ يُكشَفَ وينجلي، والنُّكتةُ الدقيقة في أسلوب الشرط هنا: أنْ يتنزَّل الخبرُ منزلةَ الوعد والجزاء، فكأنَّه في معنى: يَعِدُكُمُ الله - إنْ أصابكم الضرُّ - ألَّا يكشفه عنكم إلّا هو، وأيضًا لِتعذُّر مجيء النَّظم على أسلوب الخبر المحض من غير أن يَقتضي معنى الشرط، فلو قال بالخبر الصريح: (يَمْسَسُك الله بالضرِّ؛ فلا يكشفه عنك إلّا هو)، لكان أضعفَ من وجهين:

الأوَّل: أنَّ هذا الخبر في معنى الشرط لعطف الجملتين بالفاء التي تقتضي ترتيب مدخولها على المعطوف عليه، فالقول: (يَمْسَسُك الله بالضرِّ؛ فلا يكشفه عنك إلّا هو) هو في قوَّة شرطِ المعطوف عليه بالمعطوف لوصلِهما بالفاء، فيكون الخبر في قوَّة الشرط، فكان التعبير بالشرط الصريح أبلغَ وأتمَّ.

الثاني: أنَّه لو قال: (يَمسُّك الله بالضرِّ) بالخبر الصريح من غير أداة الشرط؛ لاقتضى تقريرَ وقوعِ المَسِّ بالضرِّ وتحقيقه، فكأنَّ وقوعه ثابتٌ متقرِّر، وهذا خلاف المعنى الذي قرَّره الشرط بـ ﴿وَإِن﴾ في قوله: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ﴾ بأنَّه مُحتَمَل الوقوع، فقد يحصل، أو لا يحصُل، فكان التعبير بأسلوب الشرط أبلغَ لإدخالِ أداة الاحتمال

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/306.

(إنْ)، ويتفرَّع عن هذا نُكتَةٌ عزيزة، وهي أنَّه لو قال بالخبر الصريح: (يَمسّك اللّه بالضرِّ)؛ لكان فيه إيحاشٌ وتقنيطٌ للمخاطَبِ وللسامع؛ إذْ يتقرَّر عندهما أنَّ اللّه يُصيبُ بالضرِّ، فيحصل التشاؤمُ من الخبَرِ، فلمّا قال: ﴿وَإِن يَمۡسَسۡكَ﴾ بالشرط؛ أبْعَدَ المُخاطَبَ والسّامع عن الإيحاشِ والانقباض.

معنى الباء في ﴿بِضُرّٖ﴾:

جعل اللهُ الضرَّ لتأديبِ خَلْقِه، ولولاه لَبَغوا

الباء في قوله: ﴿وَإِن يَمۡسَسۡكَ ٱللَّهُ بِضُرّٖ﴾ للتعدية، وهي قائمة مقام همزة التعدية، كأنَّه قال: (وإنْ أمَسَّك اللّه ضُرًّا)، أي: يجعلك ماسًّا له، وفعلُ (يَمْسَس) يتعدّى بذاتِه، ويتعدّى بحرف الجرِّ، أو تكون الباء للاستعانة وهي المُسمّاة بباء الآلة، كأنَّه جعل الضُّرَّ آلةً لإيصالِ المَسِّ، ومعنى التعديةِ حقيقة، ومعناها على الآلةِ مجاز[1].

بلاغةُ الاستعارة في التَّعبير بالمسِّ:

تشبيهُ إصابةِ الضرِّ الإنسانَ بِمَسِّ اليَدِ للشيءِ على سبيل التَّحسس

في قوله تعالى: ﴿وَإِن يَمۡسَسۡكَ ٱللَّهُ بِضُرّٖ﴾ استعارَةُ المَسِّ لإصابةِ الشيءِ بالشيء، فشَبَّه إصابةَ الضرِّ الإنسانَ بِمَسِّ اليدِ للشيءِ تَحَسُّسًا له، بجامع الإيصالِ في كلٍّ، على سبيل الاستعارة التصريحيَّة التبعيَّة، فكأنَّه قيل: أصابك بالضرِّ، كما تقول: أصابك بالسكّين، على معنى ذِكْر آلةِ الفِعلِ في كلٍّ.

نكتةُ تنكير ﴿بِضُرّٖ﴾:

لله حكمتُه في تقديرِ نوعِ الضُّرِّ فلا يُسألُ عمّا يفعل

تنكير كلمة ﴿بِضُرّٖ﴾ في قوله: ﴿وَإِن يَمۡسَسۡكَ ٱللَّهُ بِضُرّٖ﴾؛ للتنويع بين القِلَّةِ والكثرة، أي: بضرٍّ عَظِيم أو هيِّن، فتنكيرُ لفظِ الضُّرِّ هنا يفيد استغراقَ أنواعه؛ لأنَّه نَكرةٌ في سياق الشرط، فتعمُّ[2].

معنى الفاءِ ودلالتُها في ﴿فَلَا﴾:

الفاء في قوله: ﴿فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ﴾ واقعة في جواب فعل الشرط،

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/455، والسّمين الحلبي، الدّرّ المصون: 4/563، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 9/582، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 7/163.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/306.

وهي رابطةٌ لِجوابِ الشرط بفعله، وتفيد ترتيبَ الجوابِ على شرطِه، وهو جملة: ﴿وَإِن يَمۡسَسۡكَ ٱللَّهُ﴾، ومعنى الربْطِ المذكور: إقْرانُ مدخولِ الفاء وإلحاقُه بحيّز الشرط، ولو جُرِّدَتِ الجملة الاسميَّة عن الفاء، فقيل: (لا كاشِفَ لَهُ إلّا هوَ)؛ لَكانتْ جملةً منفصلةً عن حيِّز الشرطيَّة، ولَما أفادتِ الجوابيَّة عن الشرطِ قبلها، فلمّا اقترنتْ بالفاء؛ أفاد أنَّها جملةُ جوابٍ مُترتِّبةٌ ومتعلِّقةٌ ولازِمةٌ عن الجملةِ قبلها، وهي جملة الشرط: ﴿وَإِن يَمۡسَسۡكَ ٱللَّهُ بِضُرّٖ﴾[1].

قُدِّرَ مع الضُّرِّ كَشْفُه ولُطفُه ولكنَّ الإنسانَ يَعجَل

معنى ﴿فَلَا﴾:

﴿فَلَا﴾ في قوله تعالى: ﴿فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَۖ﴾ لِنفي الجنس، أي: نفيُ الخَبَرِ عن الجنسِ المذكور بعدها على جهةِ الاستغراق، والاستغراقُ هنا حقيقيٌّ لا ادِّعائيٌّ، ونصّيٌّ لا احتماليٌّ، فالنفيُ هنا نفيٌ مُستغرِقٌ جَميعَ أفرادِ الكاشفين على جهةِ الحصر، ومعنى النفي: لا قادرَ على كشْفِ الضرِّ بوجهٍ من الوجوه أصلًا إلّا الذي قَدَرَ على الإصابةِ به، ونفيُ الجنسِ في الآية يقطع أطماعَ الناسِ في النّاس عند حصول الضرِّ، ويُجرِّد المُبْتَلى به من الاتِّكال على المخلوقينَ في دفْعِه عنه بأيِّ وجْهٍ من وجوه التعلُّق، فنفيُ الجنسِ المُستغرِق أفْرَادَ الكاشفين مؤذِنٌ بنفيِ التعلُّقِ بهم من كلِّ وجْه ولَوْن[2].

لا يَكشِفُ الكروبَ إلّا الذي قدَّرها وأجراها

نكتةُ التَّعبير بـ ﴿كَاشِفَ﴾ مادَّةً وصيغةً:

﴿كَاشِفَ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَۖ﴾ لفظٌ جاء على بِناءِ اسم الفاعل، ولم يَرِد بصيغة الفعل، فلم يقل: (فلا يكْشِفُهُ إلّا هو) لثلاثةِ أغراض:

إذا هُرِعَ المُبْتَلى إلَى حِمَى القدير الرحيم أغاثَه وحَماه

الأوَّل: لاستحضار ذاتِ الفاعِل - وهو اللّه الجليل - للدَّلالة على أنَّ كَشْفَه لِلضُّرِّ أثرٌ من آثار قُدرتِه القائمةِ بذاتِه ﷻ، وهذا ينفي عنه

(1) صافي، الجدول: 11/208.

(2) صافي، الجدول: 11/208، ودرويش، إعراب القرآن: 4/305.

الطُّروء والانقطاع، فقدرتُه على كشْفِ الضرِّ ليس طارئًا أو عارضًا، وليس يَنقطِع بعد حدوثه، بل هو أمرٌ ثابتٌ في كلِّ ضُرٍّ، ومستمرٌّ في كلِّ حال، وفائدة ذلك: تثبيتُ مَنْ أصيبَ بالضُّرِّ بإخباره أنَّه سيلجأ في كشْفِه إلى ركنٍ شديدٍ دائمٍ لا يتحوَّلُ عن الكشْفِ لِعارض، ولا تتفاوتُ قدرتُه عليه بحالٍ.

الثاني: لإفادةِ استمرارِ فِعلِه بعد ثبوتِ الاتِّصافِ به، فكشْفُه سبحانه للضُّرِّ يحدثُ في كلِّ وقتٍ، فقد حدثَ في الماضي، وهو يحدثُ في الحاضر، وسيحدث في المستقبل، وسيستمرُّ حدوثُه وتجدُّده.

الثالث: لاستحضار معنى الحدَثِ، وهو (الكَشْف)، فكأنَّه حين يقول: ﴿فَلَا كَاشِفَ﴾ يجعلُ صاحبَ الضُّرِّ يستحضرُ الكشْفَ الذي سَيندفِعُ به الضرُّ، فهو في مقامٍ من يَرى الدَّواءَ إلى جانِبِ الدّاء، فلا يجزع، فدلَّ اسم الفاعل ﴿كَاشِفَ﴾ على ذاتِ الفاعِل، وزَمَنِ فِعلِه، ومادَّة الفِعل التي هي معنى المصدرِ والحدثِ المجرَّد للوصفِ المذكور، وهو (الكشْف)[1].

علَّةُ مجيءِ جملة جواب الشَّرط جملةً اسميَّة:

السرُّ في مجيء جملة جواب الشرط جملةً اسميَّة - وهو قوله تعالى: ﴿فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَۖ﴾ - لإفادةِ حصولِ الكشْفِ من الله على جهة الثبوتِ والدَّوام، وهو أبلغُ من لو جاءت الجملةُ فعليَّةً، كأن يُقال: (فلا يَكْشِفُه)؛ لكونها ستقتصرُ على تقرير الهيئةِ الزمنيَّة للفِعل، دون إفادةِ ثبوتِ ذلك وديمومتِه في وضعِ الزَّمَن.

مَتى تحقَّق المُبْتَلى بالإيمان؛ أرضاه الله، وجَبَر خاطِرَه

معنى اللّام في ﴿لَهُۥٓ﴾:

اللام في قوله: ﴿لَهُۥٓ﴾ لام الجرِّ، والمجرور بها هاء الضمير العائدة على الضرِّ، وهي ومجرورها متعلِّقة بمحذوف خبر (لا)

يَكْشِفُ اللهُ الضُّرَّ عن عبدِه، وكأنَّهُ يُحيي الأرضَ بعد موتها

(1) فاضل السامرائي، معاني الأبنية، ص: 41.

النافية للجنس، وتقدير المتعلَّق: موجود؛ أي: لا كاشفَ له موجود، أو لا كاشفَ له عنك، وعدَّى اسمَ الفاعل باللام، ولم يقل: (فلا كاشِفَهُ)؛ لإفادة معنى التبيينِ والعهدِ باللام، للدلالة على الضُّرِّ بذاتِه ومادَّته، وهو ليس تبيينًا بعد إبهام، بل هو تبيينٌ لزيادة التنصيص والمبالغة في تعيين مرجِع الضمير؛ ليفيد تخصيص الكشفِ المذكور بمفعوله، وهو الضمير العائد على الضرِّ بتحقيقِ نِسبَتِهِ إلى الفِعل، فكأنَّ اللام في معنى إظهار المفعول، مع الوجازةِ والإضمار، فكأنَّه قال: (فلا كاشِفَ لذلك الضرِّ إلّا هو)[1].

بلاغةُ أسلوب القصر في: ﴿فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَۖ﴾:

أسلوبُ القصر المُستفاد من تركيب النفي والاستثناء في قوله: ﴿فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَۖ﴾ أفاد دلالتين:

الحمد للهِ أنَّهُ لا يَقدِرُ على كشْفِ الضرِّ وجلْبِ النَّفْعِ إلّا هو

الأولى: نفيُ القدرةِ على رفْع الضُّرِّ عن كلِّ ما سوى الله ﷻ على جهة الاستغراق، ويدخل في هذا الاستغراق دخولًا أوَّليًّا معبوداتُهم التي أشركوها مع الله وعبدوها من دونه.

الثانية: إثباتُ القدرةِ على رفع الضُّرِّ لله وحده بلا شريكٍ ولا نظيرٍ يكافِئُه، أو يشترك معه في تلك القدرة، وفائدةُ مجيء التركيب على طريقة القَصْرِ بصيغة النفي والاستثناء؛ للتعريضِ بأصنامهم ومعبوداتهم بتحقيق عجزهم؛ لأنَّهم إذا عجَزوا عن دفْع الضرِّ - وهو أدنى وجوه المنافع - فعجزُهم عن تحصيل النفْع المحضِ أثبتُ وأجدر، فإذا انتفى النَّفْعُ بوجْهِه السلبيِّ الذي هو درء المفاسد؛ فهو مُنْتَفٍ بالكليَّة بوجْهِه الإيجابيِّ الذي هو جلْب المصالح، ولا يخفى ما في ذلك من تفخيمِ قدرةِ الله وإعظامِها التي لا تتناهى في سَلْبِ المضارِّ، وإيجابِ المنافع على جهة التفرُّد والاستقلال[2].

(1) المرادي، الجنى الداني، ص: 96.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/180.

براعةُ الإيجاز في الآية بالتَّعبير بالضمائر:

تقديرُ الضُّرِّ هيِّنٌ على اللهِ الجليل وكشْفُه عليهِ أهون

الضمائر الواردةُ في الآية على ثلاثة أقسامٍ:

الأوّل: ضمير الخطاب في قوله تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ﴾ ... ﴿وَإِن يُرِدْكَ﴾.

والثاني: ضمير يعود على الضُّرِّ في قوله: ﴿فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ﴾، وعلى الخير في قوله: ﴿يُصِيبُ بِهِۦ﴾.

والثالث: ضمير الجلالةِ في قوله: ﴿فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ﴾ ... ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ﴾، وفي قوله: ﴿فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ﴾، وفي قوله: ﴿مِنْ عِبَادِهِۦ﴾.

فضميرُ الخِطابِ إيذانٌ بالقُربِ من المُخاطَب، وبتشريفِه بحديثِ الإلهِ معه، وإكرامِه بجعلِه في مقامٍ من تُوجَّه إليهم النَّصيحة والإرشاد من ربِّ العالمين، وضمير الغَيْبَةِ الذي يعود على الضُّرِّ لِطَيِّ ذِكْرِه وكراهةِ إعادتِه بلفظِه؛ ليكونَ خفيفًا في أذُنِ السّامِع، كما كان المَسُّ به خفيفًا في القلبِ والبَدَن، وضميرُ العظَمَةِ في قولِه: ﴿فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ﴾، ولم يقل: (إلّا الله)؛ إذْ كَشْفُهُ على الله هَيِّن، فلا حاجةَ أنْ يُعيدَ معه التصريح باسم الذّات، بل أعاده بالضمير إيجازًا واكتفاءً بالظاهر السّابق؛ للإشارة إلى هوانِ كشْفِه عليه، فاكتفى بإظهار اسم الذّات في جانبِ المَسّ: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ﴾؛ لأنَّ القُدرة على الإصابة أعظمُ من القدرة على الكشْف، فالقدرة على إيقاع الشيء أدلُّ على القدرةِ على إزالتِه، فصرَّح باسم الكمال في أقوى الطَّرفين وأصعبِ الجانبين.

نكتةُ الإضمار بعد الإظهار في: ﴿هُوَ﴾:

البلاءُ شُغْلٌ لِلنَّفْسِ عن مُلاحظَةِ شأنِ سواه

الإتيان بضمير الجلالة ﴿هُوَ﴾ بعد إظهار مَرجِعه ﴿ٱللَّهُ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ﴾؛ لِدَوَاعٍ في النَّظْمِ تقتضيه:

الأوَّل: مُراعاة الأصل، وهو الاكتفاء بالاسم الظّاهر في أوَّل الكلام، فإذا أعيدَ؛ ذُكِرَ بضميره المناسب؛ دفعًا للتكرار المُستثقَل مع عدم وجودِ مُسوِّغٍ للتصريح.

الثاني: وضوح الضمير في الدلالةِ على مَرجِعِه المُحَقَّق مع عدم وجود احتمالٍ قد يتأتّى معه الإيهام واللَّبْس في تعيينِ مَدلولِ الضمير.

الثالث: اتحادُ التركيب اقتضى عدم الإظهار، فالجملةُ الشرطيَّة مِن الشرط وجوابِه هي جملةٌ واحدةٌ، فلا يظهر فيها اللفظُ نفسُه مرتين؛ لِعدم وجود الفاصِل، ولِقُربِ الضميرِ من مَرجِعِه، وإنْ عُدَّتْ جملةُ جواب الشرط: ﴿فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَۖ﴾ جملةً منفصلةً عن جملة الشرط: ﴿وَإِن يَمۡسَسۡكَ ٱللَّهُ بِضُرّٖ﴾ فهما جُمْلَتانِ لا جملة واحدة، فهي على هذا الاعتبار أيضًا داخِلةٌ في حكم الجملةِ الأولى، فكانتَا في حكمِ الجملةِ الواحدة.

الرابع: الجَرْسُ الصوتيُّ للضمير في التركيب أوقعُ في السَّمْع من إظهار اللفظ، فلو قيل: (وإنْ يَمْسَسْك الله) مع القول: (فلا كاشفَ له إلا الله)، لم يكن مُستحسَنًا في خِفَّةِ الصوتِ وسلاستِه.

الخامس: مِنْ دواعي إضمار الاسم الجليل في قوله: ﴿فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَۖ﴾ عدم تعلُّقِ الغرضِ بمقام يُجَلِّيهِ الإظهار، أو يزيده وضوحًا وتحقيقًا، فروعِيَ الأصلُ، فأُضْمِرَ؛ إذِ الغرضُ يتعلَّقُ بالضُّرِّ والمَسِّ به، والضُّرِّ والكشْفِ له، وعنايةُ السّامعِ متوفِّرةٌ على ذلك، فلا يَشغلهُ أكثرُ من الإخبارِ بفاعِلِ المسّ وفاعِلِ الكشْف، وهو الله الجليل، من غير مُبالغةٍ بتحقيقِ ذلك، أو تأكيده بأسلوبٍ كالإظهار في موضعِ الإضمار، لانْصِبابِ هِمَّتِه على النّازِلِ به لا الفاعلِ له[1].

معنى الواو في: ﴿وَإِن يُرِدۡكَ﴾:

الواو في قوله: ﴿وَإِن يُرِدۡكَ بِخَيۡرٖ﴾ عاطِفةٌ مدخولَها على جملة: ﴿وَإِن يَمۡسَسۡكَ﴾، وسبب الوصل بالواو بين الجملتين: تمامُ المُناسبةِ بينهما لتقريرِ ما بينهما من تَقابُلٍ واشتراكٍ في الحكْمِ المعنويِّ، والحكمِ اللَّفظيِّ بمجيءِ كُلٍّ على صيغةِ الشرط[2].

في كلِّ حالٍ من الضُّرِّ أو الخير امتحانٌ وجزاء

(1) الزركشي، البرهان في علوم القرآن: 2/501، ومحمد أبو موسى، خصائص التراكيب، ص: 241.
(2) صافي، الجدول: 11/208.

نكتةُ العدول عن المسِّ:

سَبَقَتْ إرادةُ الخير المَسَّ بالضُّرِّ

في قولِه تعالى: ﴿وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ﴾ لم يُقَل في السياق الكريم: (وإنْ يَمْسَسْكَ بخيرٍ)، كما قال: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ﴾ فعبَّر بالمسِّ في جانب الضرِّ، وبالإرادة في جانبِ الخير؛ لتقرير أنَّ الخيرَ أصلٌ في الإرادةِ دون الضرِّ، وإنْ كان المسُّ بالضرِّ حاصلًا بالإرادة كذلك، إلا أنَّ عدمَ إجراءِ الإرادة عليه دون الخير مؤذِنٌ بأنَّ الخيرَ أمْكَنُ في الإرادةِ مِنَ الضُّرِّ، ووجْه ذلك: أنَّ إرادة الشيء تفيد تحقيقَه في القصد والعزم عليه في الفعل، وأنَّ المَسَّ لفظٌ يفيد التخفُّفَ من تحقيق القصد والخِفَّةَ في العزم، فثَبتَ أنَّ لفظ الإرادة أقوى وأبلغ، وأنَّ لفظ المسِّ أضعف وأخفُّ، فيأخذ حكمَهما ما جُعِلَ في حيِّزِهما وهو (الضرُّ) في المسِّ، و(الخير) في الإرادة[1].

بلاغةُ المتشابه اللَّفظيِّ مع آية الأنعام:

كلُّ عظيمٍ في قدرةِ اللهِ هيِّنٌ

اختصَّ اللّه موضعَ سورةِ الأنعام بالتعبير بالمَسِّ في جانبَي الضرِّ والخير، فقال: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾﴾ [الأنعام: 17]؛ لِمُناسبةِ ختام الآية بالقدرةِ، ثم التعقيب عليها بثبوتِ القهْر في قوله: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ﴾ [الأنعام: 18]، ووجْه المناسبة في ذلك: أنَّ تقريرَ القُدرةِ والقهرِ للّه ﷻ اقتضى إيقاعَه للضرِّ والخير على جهةِ التمكُّنِ منهما والاقتدار عليهما، فيَقَعانِ منه سبحانه، كما تقع أدنى الأفعال - كالمَسِّ - في سهولتِها ويُسْرِها، فهما إلى جانبِ القدرة العظيمة والقوَّةِ القاهرة مَسٌّ خفيف، وأمّا في سورة يونس؛ فالمناسبةُ هنا تقتضي إسنادَ المسِّ إلى الضُّرِّ، وإسنادَ الإرادة إلى الخير؛ لأنَّ الآيةَ مسبوقةٌ بإبطال الغُرور في كلِّ ما سوى اللّه في التعلُّقِ به، لدفْع الضرر أو تحصيل النَّفع؛ وذلك في قوله: ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 9/582.

﴿مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٠٦﴾ [يونس: 106]، فلمّا أبطَلَ قدرةَ الأنداد، ورهَّبَ من التَّعلُّق بها في النفع والضرِّ؛ ناسَبَ التعقيبَ بما يقتضي قوَّة التعلُّقِ بفضلِه في إرادة الخير وكشْفِه في إرادة الشرِّ، فقوّى جانبَ الخير بإسناد الإرادة إليه، وقوّى جانبَ الكشْفِ للضرِّ بإخبارِ أنَّه مسٌّ، فإزالتُه أهونُ على الله، ليَقوى بذلك التعلُّقُ بالله، ويَزولَ من القلوبِ التعلُّقُ بسواه[1].

بلاغةُ المقابلة والطِّباق في ﴿يَمْسَسْكَ﴾ و﴿يُرِدْكَ﴾، و﴿بِضُرٍّ﴾ و﴿بِخَيْرٍ﴾، و﴿كَاشِفَ﴾ و﴿رَآدَّ﴾:

في قوله: ﴿يَمْسَسْكَ﴾ مطابقةٌ معنويَّة مع قوله: ﴿يُرِدْكَ﴾، ولفظ (الضُّرِّ) يُطابِقُ لفظَ (الخير)، وتركيب: ﴿فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ﴾ يُقابل تركيب: ﴿فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ﴾؛ لأنَّ الكشفَ رفْعٌ، والردَّ دفْعٌ، والطِّباق والمقابلةُ في الآية واقعانِ على جهة اللفظ لا جهة المعنى[2]؛ " لأن مقابل الضُّرِّ النفع، ومقابل الخير الشَّرُّ، فجاءت لفظة الضُّرِّ ألطفَ وأخصَّ من لفظة الشر، وجاءت لفظة الخير أتمَّ من لفظة النفع، ولفظةُ المسِّ أوجزُ من لفظ الإرادة، وأنصُّ على الإصابة، وأنسبُ لقوله: ﴿فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ﴾، ولفظ الإرادة أدلُّ على الحصول في وقت الخطاب وفي غيره، وأنسبُ للفظ الخير، وإن كان المسُّ والإرادة معناهما الإصابة، وجاء جواب ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ﴾ بنفي عام وإيجاب، وجاء جواب ﴿وَإِن يُرِدْكَ﴾ بنفي عام"[3].

الضرُّ أخصُّ من الخير، والخير أعمُّ من النفع، والإرادة صفةُ ذات، والمسُّ صفة فِعل

معنى الباء في ﴿بِخَيْرٍ﴾:

الباء في قوله: ﴿بِخَيْرٍ﴾ للتعدية، وهي بمعنى الإلصاق، ولذا قال: ﴿يُرِدْكَ بِخَيْرٍ﴾، ولم يقل: (يُرِد بك خيرًا)؛ للدَّلالة على شدَّةِ تعلُّقِ

خيرُ اللهِ أقربُ ما يكون، ولكنَّ العبدَ لا يستبصِر

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 12/494، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/457، والآلوسي، روح المعاني: 4/108.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 7/163.

(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/113.

الخير به وعدم انفكاكه عنه، أي: لصيقًا بالخير، أو هي للتَّبيين، لإزالةِ الإبهام في فعل الإرادة بتعيينِ مُتعلَّقِها من المُرادات، وتركيبُ جملة: ﴿وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ﴾ يدلُّ على زيادة العناية بالإنسان، وأنَّه مقصودٌ بالإرادةِ لِتَسلُّطِها على ذاتِه من غير فاصلٍ بحرف الجرِّ، فلم يقل: (وإنْ يُرِد بك)، ودخول الحرف على الخير دالٌّ على أنَّ الخيرَ مُرادٌ ومخلوقٌ لأجْلِه[1].

نكتةُ تنكير الخير:

إذا أراد اللهُ الخيرَ؛ أراد ما يليقُ بعظمتِهِ من الجبْرِ والعِوَض الجزيل

لفظ ﴿بِخَيْرٍ﴾ في قوله: ﴿وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ﴾ نكرةٌ في سياق الشرط، فتفيد العموم، أي: خيرٌ تامٌّ في عمومِه واستغراقه لأفراده، فيشمل الخيراتِ الظّاهريَّةَ والباطنيَّة والمادّيَّة والرُّوحيَّة، وكلَّ ما يَصلُحُ للإنسان منه، وما يَصلُحُ الإنسانُ به[2]، أي: "بِكُلِّ ما أراد مِنَ الخَيْر"[3].

معنى الفاءِ ودلالتُها في ﴿فَلَا﴾:

كلُّ أفعالِ اللهِ مع العبادِ خيرٌ لو كانوا يعلمون

الفاء في قوله: ﴿فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ﴾، كالفاء في قوله: ﴿فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ﴾ رابطةٌ لجواب الشَّرط، وهي مِثْلُها في المعنى والبيان[4].

نُكْتَةُ التَّعبير بـ ﴿رَآدَّ﴾ مادَّةً وصيغةً:

اللهُ يحكمُ لا مُعقِّبَ لِحُكْمِه

التعبير باسم الفاعل دون الفعل في قوله: ﴿فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ﴾؛ لِنفيِ الذّات المُريدة، "وهذا يفيد أنَّه لا يوجد من يستطيع ردَّه، فليس الكلام لمجرَّد الردِّ، بل هو نفيٌ لوجودِ من يستطيع الردَّ، ويقدر عليه"[5]، وفي التعبير باسم الفاعلِ المنفيِّ تسجيلٌ بِهوانِ كلِّ ساعٍ في ردِّ ما قدَّر اللّه؛ "مبالغةً في سلبِ المقدرة عمَّن يريد معارضة مرادِه

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/310، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 7/3646.
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 3/147.
(3) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 8/388.
(4) صافي، الجدول: 11/208.
(5) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 7/3645.

تعالى كائنًا من كان، بحيث لا يستطيع التعرُّض للّه في خيرِه، ولو كان بمجرَّد إرادتِه قبل حصول فِعلِه"[1].

بلاغةُ الكناية في: ﴿وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ﴾:

الإرادة في قوله: ﴿وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ﴾ كِنايةٌ عن الإصابة؛ إذْ هي لازِمةٌ عنها والمقصودةُ منها، وقرينةُ الكناية قوله بعده: ﴿يُصِيبُ بِهِۦ﴾، وقوله قبله: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ﴾؛ لأنَّ المسَّ مجازٌ في الإصابة[2].

لا يُصيبُ اللهُ إلّا بإرادتِه، وإذا أرادَ؛ أصاب

براعةُ الاحتباك في التركيب:

في قوله: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ﴾ احتباكٌ، وَهُوَ حاصِلٌ من جهتين:

معيّة الله تعالى ملازِمة للعبد، وتوجيه الخير يستوجب الشّكر لاستدامته، والضّرّ سحابة ابتلاء وتنجلي

الأولى: في المسِّ بالضرِّ مع الإرادة بالخير في قوله: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ﴾ مع قوله: ﴿وَإِن يُرِدْكَ﴾، فذَكَر المسَّ الذي هو الإصابة في جانب الضرِّ، واختصَّ الخير بالإرادة دون الإصابة، مع أنَّه لا يُصيبُ إلّا بإرادة، وإذا أراد؛ أصاب، فكلا المعنيين (الإرادة والإصابة) حَاصِلٌ في كلٍّ من الضرِّ والخير، فدلَّ بما ذَكَرَ في جانب الضرِّ على ما تُرِك في جانبِ الخير، أي: الإصابة المذكورة في الضُّرِّ دلَّتْ على الإصابة المتروكة في الخير، والإرادة المذكورة في الخير دلَّتْ على الإرادة المتروكة في الضرِّ على جهةِ الاحتباك للاختصار والإيجاز، ولِدفْع التشاؤم من الضرِّ بإسناد المَسِّ إليه، وتقويةِ التفاؤلِ بخيرِ اللّه بإسنادِ الإرادة إليه، ولذا عدَلَ عن ذكْر الاثنين معًا (المسّ والإرادة) في جانبي الضرِّ والخير.

الثانية: الاحتباك في (الضُّرِّ)، و(الخير)؛ إذْ جُعِلَ (الخيرُ) في موضع المُقابَلةِ المعنويَّة مع (الضُّرِّ)، مع أنَّ الذي يُقابل (الضُّرَّ) هو النَّفع، والذي يُقابِل (الخير) هو الشرُّ، فدلَّ بذلك على المقابلةِ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/306.

(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 2/581، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/306.

اللفظيَّة المحذوفة مع الجانبين، فكأنَّه قال: (وإنْ يَمْسَسْك اللّه بِضرٍّ وشَرٍّ، وإنْ يُرِدك بنفْعٍ وخيْر)[1].

نكتةُ العدول عَنْ أسلوب القَصْر إلى أسلوب النَّفي:

الإرادةُ الكونيةُ من اللـه يلزمُ منها وقوعُ ما أراده الله، وهي شاملةٌ كُلَّ ما قضاه

لم يقل في السياق الكريم: (وإن يُرِدْك بخيرٍ؛ فلا رادَّ لفضلِه إلّا هو)، كما استثنى في جانب الضُّر من قوله: ﴿فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَۖ﴾؛ لأنَّ ما أراده اللّه ﷻ لا يصحُّ الاستثناء منه؛ لأنَّه إذا أراده؛ فقد حكمَ به، وإذا حكمَ به؛ فلا معقِّب لحكمِه؛ إذْ " صحَّةُ الاستثناءِ تكون بإرادةِ ضدِّه في ذلك الوقت، وهو محال، وهذا بخلافِ مسِّ الضُّرِّ، فإنَّ إرادةَ كشفِه لا تستلزم المُحالَ، وهو تعلُّق الإرادتين بالضِّدَّين في وقتٍ واحد"[2]، "فما أراده لا يردُّه رادٌّ لا هو ولا غيره؛ لأنَّ إرادته قديمة لا تتغيَّر"[3]، فلذلك لم يجئ التركيبُ بالاستثناء منه؛ لكون الإرادة الكونيةِ من اللّه هي التي يلزمُ منها وقوعُ ما أراده اللّه، فما تعلَّقت به إرادتُه سبحانه لا بدَّ وأن يقع، وأمّا تركيب قوله: ﴿فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَۖ﴾؛ فقد اقتضى معناه وقوع الاستثناء منه؛ لأنَّه مُتَّجِهٌ إلى إبْطَالِ ما اعتادتْ عليه الطبائع في التماس دفع الضرر بوسائط المخلوقين، فاستحضار الوسائط في النَّظم اقتضى الاستثناءَ، وحسَّنَ موقِعَه.

سرُّ الإضافةِ في: ﴿لِفَضْلِهِۦۚ﴾:

فضلُ اللهِ عظيمٌ واسِع لا يَضيقُ عن سائِل

إضافة الفضل إلى ضمير الجلالة في قوله: ﴿فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦۚ﴾ تعريفٌ للفضلِ وإعظامٌ له، إذِ المضافُ يأخذُ من معنى ما أضيفَ إليه ووصفِه، وضمير الجلالة عائد إلى ذاتِ الجليل العظيم ﷻ، فكذلك فضلُه لا يكون إلّا كذلك، وإضافة الفضل إلى ضَمِيرِ الجلالة

(1) الشهاب، عِنايةُ القاضي وكِفايةُ الراضي على تفسير البَيضَاوي: 5/65، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 8/582، والآلوسي، روح المعاني: 6/187.
(2) الشهاب، عِنايةُ القاضي وكِفَايةُ الراضي: 5/65، والآلوسي، روح المعاني: 6/187.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/113.

مؤكِّدٌ لمضمون النفي في قوله: ﴿فَلَا رَآدَّ﴾؛ لأنَّ الفضلَ المنسوبَ للّه هو شيءٌ منيعٌ عظيمٌ في نفسِه، ولذا فهو عَصِيٌّ على مَنْ يُحاولُ ردَّه.

بلاغةُ الإظهار بالتصريح بلفظ الفضل في مقام الإضمار:

لو اطَّرد النَّظْم في سياقه؛ لقيل: (وإنْ يُردك بخيرٍ؛ فلا رادَّ له) بعوْد الضمير على الخير، ولكنَّه عدل عن الإضمار، وأظْهرَ بالتصريح بلفظ الفضل، فقال: ﴿فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦۚ﴾، وفي هذا الإظهار ثلاثُ نِكات:

اللهُ يَجودُ بالخير تفضُّلًا على عبيده لا عن استحقاقٍ لهم به

الأولى: تقرير وصفٍ للخير المذكور، حيث سمّاه فضلًا، وعبَّر عنه بذلك، وفي هذا التعبير مَدْحٌ للخير المذكور وتزكيةٌ له، فهو خيرٌ عالٍ في رُتْبَتِه؛ لأنَّه ممدوحٌ بالأفضليَّة.

الثانية: تقرير أنَّ الخير المذكور في قوله: ﴿وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ﴾ ليس عن استحقاق، بل عن محضِ فضْل من اللّه الوهّاب.

الثالثة: الإظهارُ لأجل التمكُّن من إضافة اللفظ إلى ضمير الجلالة؛ لأنَّه لو أضمر؛ لقال: (فلا رادَّ له)، فلم يُضَفْ للّه، فكان لا بدَّ من مجيء المُظْهَر لإسناده إلى ضمير الجلالة؛ لتقرير أنَّ هذا الخير ليس ممّا يَتوهَّمُه الإنسان خيرًا، وهو ليس كذلك في نفْسه، بل هو خيرٌ مقطوعٌ بخيريَّته؛ لأنَّه مُضافٌ بأمدحِ أوصافه إلى اللّه الجليل[1].

نكتةُ الفصل في: ﴿يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦۚ﴾:

كلٌّ من النَّفْع أو الضَّرر مكتوبٌ قد شاءَه الله

جملة: ﴿يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦۚ﴾ استئنافٌ بياني لِمَا قبله، كأنَّه قيل: فأيُّ العبادِ يَحصلُ له الضرُّ، أو يُرادُ به الخير؟ فأجيب: (يُصيبُ به ما يشاء من عباده) أي: بكلِّ واحدٍ من الضرِّ والخير يُصيبُ به من يشاء من عباده، ولمّا امْتَنَعَ اقْتِرَانُ الاستئناف البياني مُمتنعًا اقترانُه بالواو؛ فُصِلَتْ تلك الجملة ممّا قبلها[2].

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/180، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 7/3646.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/306، وصافي، الجدول: 11/208.

غرضُ التَّعبير بالإصابة مادَّةً وصيغةً:

عبَّر بالإصابة في قوله: ﴿يُصِيبُ بِهِۦ﴾، ولم يقل: (يَمسّ به)، أو (يُريد به)؛ ليدلَّ على أنَّ غايةَ المَسِّ والإرادة المذكورتَينِ في الضرِّ والخير هو إصابة العبد بهما على جهة الحقيقةِ والوقوع، وفيه إيذانٌ بلازِمِه، وهو أنَّ الإنسان لا ينفكُّ أبدًا عن الإصابة بالضرِّ أو بالخير، ولذا عبَّر بصيغة المضارع ﴿يُصِيبُ﴾؛ ليدلَّ على استمرار امتحانه بالضرِّ والخير، وأنَّهما حالان لا بدَّ أنْ يُصابَ بهما، ويتناوبا عليه حتى يَقْضي[1].

لا مَهْرَبَ للإنسانِ من قَدَرِ الله، هو بقدَرِ الله وُلِدَ ويَحيا ويموت

معنى الباء في ﴿بِهِۦ﴾ وعود الضَّمير:

الباء في قوله: ﴿يُصِيبُ بِهِۦ﴾ للتعدية، ويصحُّ أن تكون للاستعانة؛ لدخولها على ما في معنى الآلة، فكأنَّ مجرورها هو آلةُ الإصابةِ وأداتُها، ومرجِع الضمير يعود على مضمونِ معنى كلٍّ من الضرِّ والخير، وهو: المُقَدَّر، والمعنى: يُصيبُ بالمُقَدَّر من الضرِّ والخير من يشاء، فهو عائد عليهما بتوزيع الضمير على كلِّ واحدٍ منهما، أي: يُصيب بواحدِ الضرِّ وواحدِ الخير من يشاء، ولا يُقال: إنَّه عائدٌ على أقرب مذكور، وهو الخير في قوله: ﴿وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ﴾؛ لأنَّ الخبَر واردٌ في الضرِّ والخير معًا، واللّه يُصيبُ العباد بكليهما، فوجَبَ عوْدُ الضمير على مضمونِ معناهما معًا لا على لفظيهما؛ لأنَّ الضمير مفرد، ولا يُقال: إنَّه يعود على الخير، والإخبار عنه كالإخبار عن مُقابِلِه، إذِ الخير يدلُّ على نظيره من الضرِّ، فإنَّه وإنْ صحَّ ذلك في أصله، لم يصحَّ في رجحانِه؛ لأنَّه سيُحتاجُ معه إلى تقديرِ نظيره المحذوف في الذِّهن، وما يتأتّى من غير تقدير أولى وأحسن من إجرائه على التقدير[2].

يَتَسَلّى المؤمِنُ بأنَّ كلَّ حالٍ تُصيبُه هي من الله فلا يجزع

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (صوب).
(2) الواحدي، البسيط: 11/335.

نكتةُ تقديم شبه الجملة ﴿بِهِۦ﴾:

العبدُ هو محلُّ عنايةِ اللهِ فيما يقدِّره له

قدَّمَ الجار والجرور ﴿بِهِۦ﴾ في قوله: ﴿يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾، ولم يقل: (يُصيبُ من يشاءُ به)، تقديمًا للحالِّ على المَحلِّ، فالمُقدَّر النازل من الضرِّ أو الخير هو الذي يَحِلُّ بعد تعلُّق المشيئةِ بإيصاله لمحلِّه الذي هو العبد، فالمُقدَّر النازل هو المقصود بالإيصال أولًا قبل العبد، فالمشيئة تتعلَّق به أولًا، ولكونه أيضًا هو المُبتَغَى خيرًا والمحذور ضُرًّا، ولذا تقدَّم لفظُه من الجار والمجرور ﴿بِهِۦ﴾؛ لتخصيصِه وكمال العناية به، وتوفُّر المقاصدِ عليه[1].

فائدةُ مَجيءِ ﴿مَن﴾:

يُجري اللهُ أقداره على أساسِ حكمتِه وعِلمه وإرادته

جاء التعبير بـ ﴿مَن﴾ في النَّظم الكريم في قوله: ﴿يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦۚ﴾؛ للدلالة على الإبهام والعموم الذي يدلُّ على الإنسانِ عمومًا دون تحديدٍ لجنسِه، أو تعيينٍ لشَخْصِه، أو تنصيصٍ عليه، ذلك أنَّ ﴿مَن﴾ موصولٌ مشتركٌ غير خاصٍّ، يُستعمل في الأفراد والجموع والذُّكور والإناثِ، ولذا فالإتيانُ به يفيدُ تعميمَ حيِّز الإصابةِ المذكورة، وأنَّ الضرَّ والخير مُقَدَّرانِ في كلِّ الناس، والغرض من ذلك: إفادة أنَّه لا فئةَ في الناس أولى من فئة أخرى في الإصابة بهما، فهما من سُنَنِ الأقدار التي يُجريها اللّه في خلقِه لا لِمفاضَلَةٍ بين فئةٍ وأختها، بأنْ يكون الضرُّ مثلًا للعاصي والكافر، والخير للمؤمن والطّائع، لا على أساس ذلك، بل على أساس حِكْمَتِه العامَّة التي تستغرقُ عمومَ عبادِه[2].

سرُّ مجيءِ صلة الموصول: ﴿يَشَآءُ﴾ بمادَّتها وصيغتها:

مشيئةُ اللهِ جاريةٌ على معنى العدل والفضل لا تخرج عنهما

جاءتْ صِلةُ الموصولِ بفعل المشيئةِ في قوله: ﴿يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦۚ﴾؛ ليؤكِّد ما في الموصول ﴿مَن﴾ مِن معنى العموم، ووجْه

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/180.
(2) فاضل السامرائي، معاني النحو: 1/129.

ذلك: التنبيهُ على كوْنِ الإصابة المذكورة حاصلةً بمشيئتِه، فهي سببُ الإصابة، وهي من صفاتِ اللّه الفعلية، فاللّه خالقُ كلِّ شيء، وربُّه، ومليكُه؛ ولا يكون خالقًا إلّا بقدرته ومشيئته، وليس في الوجود موجِبٌ، ومقتضٍ إلا مَشِيئَةُ اللّه وحده؛ ولذا تقع في عموم الخلْق دون مُفاضَلةٍ أو تعيين[1]، وأفاد التَّعبير عنها بالمضارع أنَّها من صفات الأفعال، وترتبط بتجدُّدها وحدوثها.

معنى ﴿مِنۡ﴾:

لا يخرجُ العبادُ عن مشيئةِ ربِّهم

﴿مِنۡ﴾ في قوله: ﴿يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۚ﴾ بيانيَّة، وهي تُجلّي الإبهام الذي اشتمل عليه الاسم الموصول ﴿مَن﴾، فإذا حَارَ السامعُ بأيِّ شيءٍ تعلَّقتْ مشيئةُ الإصابةِ المذكورة؟ فيُبيَّنُ هذا بقوله: ﴿مِنۡ عِبَادِهِۦۚ﴾، وهذا الأسلوب من التركيب: ﴿مِنۡ عِبَادِهِۦۚ﴾ أزالَ الإبهامَ في الموصول، لكنَّه أكَّد عمومَه، ولم يرفَعْهُ؛ لأنَّ (العباد) لفظٌ عام.

نكتةُ إضافة العباد إلى ضمير العظمة:

وما تشاؤون إلا أنْ يشاء اللهُ ربُّ العالمين

إضافة العباد إلى ضميرِ العظَمَةِ في قوله: ﴿مِنۡ عِبَادِهِۦۚ﴾ في معنى التعليلِ؛ لتقديرِ الإصابة المذكورة، أي: لِأنَّهم عبادٌ مُضافون إليه مَنسوبون إلَيْهِ، فهم خالِصون له، مُختَصّون به، فيفعل بهم ما يشاءُ، ولا يُسألُ عمّا يفعل؛ لاختصاصه - جلَّ في علاه - بالحجَّة البالغة والحِكمةِ التامَّة، فالإضافةُ إلَى ضَمِيرِ الجلالة للتَّخصيص[2].

موقِعُ جملةِ التّذييل:

أفلَحَ مَنْ عاشَ في كَنَفِ رحمةِ اللهِ ومغفرتِه

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ معطوفٌ على قوله: ﴿يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾، وهو تذييلٌ مُبَيِّنٌ لكون الإصابةِ بالضرِّ والخير صادرةً عنْ مغفرةٍ ورحمة، فلولا غفرانُه ورحمتُه؛ لأهلَكَهم بالضرِّ، ولم

(1) البقاعي، نظم الدرر: 4/180.
(2) فاضل السامرائي، معاني النحو: 3/117.

يكشِفُه عنهم، ففَضحهم وما سَتَرَهم، وعذَّبَهم به، فلم يرحمْهم بإزالتِه عنهم، ولولا غفرانُ اللّه ورحمته لما كانوا أهلًا لإنزالِ الخير عليهم[1]، ولا مانع من أن تكون الواو للحال على معنى: يفعلُ ما يفعلُ، والحالُ أنَّه الغفور الرَّحيم.

نكتةُ القَصْر بتعريف طرفَي الإسناد:

جاء قوله: ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ بتعريف الطرفين (المسند إليه والمسند)؛ لإفادة اختصاصِ المسنَد إليه بحكْم المسْنَد على جهة الكمال في الوصف، فهو سبحانه الغفور تامُّ المغفرة، والرحيم كامل الرحمة[2].

كمالُ اللهِ في صِفاتِه أحوجَ العبادَ إلى عبوديَّتِه

فائدة التَّذييل بهذيْن الاسميْن الجليليْن: ﴿ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾:

نُكتةُ التذييلِ بهذين الاسمين الشريفين: ﴿ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ - دون غيرِهما من أسماء اللّه الحُسنى - مُراعاةٌ لِمُناسبةِ المقام، فإنَّ الضُّرَّ إذا استبدَّ بالعبد؛ فضَحَه، فإذا تولّاه ربُّه بكشْفِ الضرِّ؛ فقد ستَرَه من عَوَزِ الضرِّ وفاقتِه، والسَّتر يُناسبُ اسم الغفور، الذي ينبئُ عن نوعِ مبالغةٍ لا ينبئ عنها اسم (الغفار)؛ فوزنُ (فَعُول) ينبئُ عن جودةِ الفعل، وكماله، وشموله، فهو بمعنى تامِّ المغفرة، فإذا أصاب اللّه عبدَه بالخير بعد انكشاف الضرِّ؛ فقد عوَّضَه بعد الضرِّ خيرًا، وهذا من تمام الرحمة بعد المغفرة والسَّتر، فناسبَ إتباعَ اسمِ اللّه الرحيم، الدالِّ على الرحمةِ الواسعة للمؤمنين، ويظهرُ من هذا أيضًا سببُ تقديم ﴿ٱلْغَفُورُ﴾ على ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾.

اللهُ غفورٌ يكشِفُ الضرَّ، ورحيمٌ يُعوِّضُ بالخير

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الإرادة والمشيئة:

المشيئة في الأصل: إيجادُ الشيءِ وإصابتُه، فهي تقتضي وجودَ

الإرادة احتمالية، والمشيئة قطعيَّة

(1) البقاعي، نظم الدرر: 9/219، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/307، وصافي، الجدول: 11/209، ودرويش، إعراب القرآن: 4/307.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 9/219.

الشيء، فإذا شاء الله أمرًا؛ أوجَدَه لا مَحالة، والإرادة في الأصل: قوَّة النُّزوع والقصْد، المركَّبةُ في النَّفْسِ نحوَ الشيءِ مع الحُكمِ فيه بأنَّه ينبغي أن يُفعَل، أو لا يُفعَل، وإذا استُعمِلتْ في حقِّ الله؛ فالمرادُ بها حُكْمُه تعالى في الأمور أنَّها كذا، وليستْ بكذا، ولا يُرادُ بها النُّزوع؛ إذْ هو سبحانه متنزِّهٌ عن ذلك. فالإرادة أعمُّ من المشيئة من حيث التحقُّق والنَّفاذ، فالإرادة قد يراد بها التحقُّق، فيجِب أن تقع، كقوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ سُوٓءٗا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ﴾ [الرعد: 11]، وقد يراد بها الحكْم والأمر مع احتمال عدم وقوعها، كقوله: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلۡعُسۡرَ﴾ [البقرة: 185] أي: يأمر باليسر، ولا يأمر بالعسر، ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمۡۚ﴾ [النساء: 28]، أي: حكَمَ بالتخفيف، لكن لا يلزم إنفاذها، وأمّا المشيئةُ؛ فهي أخصُّ، وهي جارية في الواقع النَّافِذِ الحاصلِ وجوبًا، ولذا عُلِّقَتْ عليها مشيئاتُ الخلق، قال سبحانه: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ [الإنسان: 30]، ولذا عبَّر هنا بقوله: ﴿يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ بالمشيئةِ دون الإرادة؛ لأنَّ الإرادة احتمالية، والمشيئة قطعيَّة، ولو قال هنا: (يُصيبُ به مَنْ يُريد)؛ لكان غير مناسبٍ لقوله: ﴿يُصِيبُ﴾، لأنَّ الإصابة هي وقوع الشيء المقدور، فعلَّقه على ما يفيد الوقوع قطعًا، وهو فِعل المشيئة، ومن الفرق بينهما: أنَّ إرادةَ الإنسانِ قد تحصُل من غيرِ أن تتقدَّمها إرادةُ الله، فإنَّ الإنسان قد يريد ألّا يموتَ، ويأبى الله ذلك، وأمّا مشيئةُ الإنسان؛ فلا تكون إلّا بعد مشيئتِه تعالى[1].

(1) الرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (شيأ، رود)، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (شيأ، ريد).

﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُمُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡۖ فَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيۡهَاۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِوَكِيلٖ ١٠٨﴾ [يونس: 108]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لمّا أوحَى اللّه في السّورةِ ما أوحَى من البلاغِ والموعظةِ والتكاليف والقصص؛ ختمَ ذلك بِخلاصةِ البيان، وفصلِ الخِطاب، وهو أنَّ فائدةَ طاعةِ الحقِّ الذي جاءهم ليستْ راجعةً إلّا إليهم، وضررَ الإعراضِ ليس عائدًا إلّا عليهم[1].

لا ينفع اللهَ طائعٌ، ولا يَضُرُّهُ عاصٍ

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿بِوَكِيلٖ﴾: الوكيلُ مِن وَكَلَ: وهو أصلٌ يدلُّ على الاعتمادِ على غيرِك في أمْرك، ومن ذلك: الوكيلُ الفاعِل الذي يَتوكَّل، والوكيل المفعول المتوكَّل عليه، وليس شرطًا أن يكون التوكُّل عن ضعفٍ وعجزٍ في المتوكِّل؛ لأنَّه مُطلَقُ إنابةِ غيرِك عنك ليقومَ مقامَك، والمراد هنا: وما أنا بموكَّلٍ بكم حتى أجْبِركم على الإيمان[2].

المَعْنى الإجْماليُّ:

يأمُرُ اللّه نبيَّه ﷺ أنْ يقول للنّاسِ جميعًا: قد جاءكم الحقُّ من ربِّكم: الرَّسولُ، والقرآنُ، فمن اهتدى بالحقِّ اتِّباعًا وطاعةً؛ فنفْعُ عملِه له، ومن أعرضَ عن الحقِّ، وأصرَّ على الضلال؛ فضَرَرُ ضلالِه على نفْسِه، وما أنا موكَّلٌ بكم حتى تكونوا مؤمنين، فما عليَّ إلّا بلاغُ ما أُرسِلْتُ به[3].

أوامرُ الله تعالى هاديةٌ إلى سواء السَّبيل، وداعيةٌ إلى الخير مبيِّنةٌ طريقَي الهداية والغَواية

(1) البقاعي، نظم الدرر: 9/219.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (وكل).
(3) مجمّع الملك فهد، التفسير الميسّر، ص: 221.

وترشدُ الآية الكريمةُ إلى أنَّ اللّه تعالى أنزل إلى الناسِ هذا القرآنَ فيه الخبرُ الصادقُ المؤيَّدُ بالبراهين، الذي لا شكَّ فيه بوجهٍ من الوجوه، وفيه تبيانٌ لكل شيء، وفيه من أنواع الأحكامِ والمطالبِ الإلهية والأخلاقِ المَرْضية، ما فيه أعظمُ تربيةٍ لكم، وإحسانٍ منه إليكم، فقد تبيَّن الرشدُ من الغَيِّ، ولم يبقَ لأحد شبهةٌ، وتقرِّرُ الآية الكريمةُ أنَّ المرءَ يسعدُ، ويشقى بكسبه، لا بكسبِ غيره[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

نُكْتَةُ الفصلِ: ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا﴾:

تُشْفَعُ الرسالات التفصيليَّة بالبياناتِ المُلَخِّصَةِ لغرضِها

قوله تعالى: ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ﴾ استئنافٌ ابتدائيٌّ يُقرِّرُ مضمونَ ما مضى في السّورةِ كلِّها من استدلالاتٍ ومُجادلاتٍ وقَصَصٍ وترغيبٍ وترهيبٍ، فأتَمَّ مضامينَ السورة، ثم ابتدأ بتقريرِ أنَّ ما سبق حقٌّ وهدًى واجبُ الاتِّباع، فالجملة تعقيبٌ مَسوقٌ مَساقَ التقاريرِ المُستقلَّة التي تَتْبَعُ الأخبار، وهي جاريةٌ مجرى الخُلاصة التي تُفْرَدُ بعد التفصيل، ولذلك فُصِلَتْ لكونها في معنى البيانِ الذي تُشْفَعُ به البلاغاتُ والرِّسالات[2].

فائدة التَّعبير بفعل الأمر ﴿قُلْ﴾ ودلالته:

رسولُ اللهِ بلَّغَ الكتابَ، كما نزَل، لم يتصرَّف في حرفٍ فيه

صُدِّرَتِ الآيةُ بفعل الأمرِ ﴿قُلْ﴾؛ لتنزيل الجُملةِ مَنْزلةَ البلاغ الذي يُوَصَّلُ، كما صَدَر مِنْ جِهَتِه؛ لزيادةِ العنايةِ بمضمونه، ولإعطائِهِ وَسْمَ العِباراتِ الخاصَّة التي تدلُّ بمنطوقها على أنَّ مُبلِّغَها تَلقّاها من جهةٍ أعلى، وليستْ مَقولةً مِنْ عِنْديّاتِ نفْسِه[3].

سِرُّ مجيء التركيب على أسلوب الإنشاء الطلبي:

لم يقل في السياق الكريم: (قُل للنّاس قد جاءكم الحقُّ من

(1) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 221، والجزائري، أيسر التفاسير: 2/517.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/308، وصافي، الجدول: 11/210.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/308.

ربِّكم)، بل جاء بأسلوبِ النِّداء لِتضمينِ الخبر الذي سيُتْلى عليهم معنى الإنشاءِ؛ لأنَّ النِّداء إنشاءٌ طلبيٌّ بما استوجبه من معنى طلَبِ الإقبال، فإذا كان الطلبُ المذكور لأجْل الإخبار بما له تعلُّقٌ بالأحكام التكليفيَّة، كان النداءُ حينئذٍ إنشاءً طلبيًّا اقترن بما يستلزِم تكليفًا، والتكليفُ إمّا أمرٌ أو نهي، وذلك إنشاء، فكانتِ الجملة الخبرية: ﴿قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ الواقِعةُ جوابًا للنداء مُتضمِّنَةً معنى الإنشاء، أي: اتَّبِعوا الحقَّ من ربكم، واهتَدُوا، ولا تَضِلّوا.

في نداءاتِ اللهِ على النّاس إيذانٌ بمقامِ النّاسِ عنده

معنى ﴿قَدْ﴾ ودلالة دخولها على الفعل الماضي:

اقترنتْ جملة جوابِ النداء بحرف التحقيق ﴿قَدْ﴾ في قوله تعالى: ﴿قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ﴾، لإفادة أمرين:

الأوَّل: تحقيقُ الحقِّ في ذاتِه، وأنَّه حَقُّ اليقينِ لا ريبَ فيه.

الثاني: تحقيقُ مَجيءِ الحقِّ إليهم، وإبلاغِه لهم، وعِرفانِهم به، وعدم خفائِه عليهم، وفي هذا تسجيلٌ عليهم بالحُجَّةِ، وقطْعٌ لأعذارهم في الرَّفْضِ وعدمِ الإيمان[1].

الحقُّ ثابتٌ في نفْسِه لا يُوهِنُه زَيْغُ مُرتابٍ ولا كَيْدُ كَفور

دلالةُ (ال) في ﴿ٱلْحَقُّ﴾:

(الـ) في لفظ ﴿ٱلْحَقُّ﴾ من قوله تعالى: ﴿قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ﴾ لِبيان الحقيقةِ والماهية، وهي لاستغراقِ صفاتِ الجنس وخصائصِه، ولذا فهي تفيد الدلالة على الكمال، أي: قد جاءكم من اللّه الحقُّ الكامل الذي لا نقصَ يشوبه، ولا شُبْهةَ تعتريه[2].

الحقُّ لا يكون إلّا كامِلًا

بلاغة المجاز في إسناد المجيء إلى الحقِّ:

في إسناد المجيء إلى الحقِّ في قوله: ﴿قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ﴾ أكثر من توجيه بيانيٍّ، فيمكن أن تُحمل على الاستعارةِ

سُمّي الرسولُ والقرآنُ بالحقِّ؛ لأنَّهما واسِطَتا إظهارِه

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/308، وصافي، الجدول: 11/210.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 9/220.

التَّصريحيَّة، حيثُ شبَّه مجيء الرسول ﷺ إليهم بمجيء الحقِّ ذاتِهِ، بجامع المطابقةِ للواقع في كلٍّ وصدقِ الرسول ﷺ في نفسِه، ويمكن أن يكون في إسناد المجيء إلَى الحَقِّ مجازٌ عقليٌّ؛ لأنَّ فاعل المجيء هو الرسول، وليس الحقَّ ذاتَهُ، ويصحُّ إجراؤهُ مجازًا مرسلًا علاقته المُسبَّبيَّة، حيث عبَّر بالمُسبَّب ﴿ٱلۡحَقُّ﴾، وأراد السَّبَبَ، وهو الرسول ﷺ؛ لأنَّه سبَبُ الحقِّ وواسطتُهُ[1].

دلالة ﴿مِن﴾:

لا يُعرَفُ الحقُّ إلّا بالله، ولا يكونُ إلا منه

﴿مِن﴾ في قوله تعالى: ﴿قَدۡ جَآءَكُمُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡۖ﴾ حرفُ ابتداءٍ، وهو ومدخولُه نَصٌّ في تعيينِ المصدرِ والجهةِ التي ابْتُدِئَ منها مجيء الحقِّ، وابتداء الغاية هنا مجازيٌّ، وفي معنى هذا الحرفِ نُكتةٌ جليلة: وهي الإشارة إلى أنَّ الحقَّ لا يكون إلّا من اللّٰه الجليل[2].

فائدةُ التَّعبير بلفظ الرُّبوبيَّة، وغرض إضافته:

كلُّ ما أضيفَ إليه وصفُ الرُّبوبيَّة أريدَ به الإحسان

عبَّر بلفظ الرُّبوبيَّة وأضافه إلَى ضَميرِ النّاس في قوله تعالى: ﴿قَدۡ جَآءَكُمُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡۖ﴾ لغرضين:

الأول: أنَّه لو عبَّر بغير وصف الربوبيةِ؛ لكان في غير موقع الإضافة، كما لو قيل: قد جاءكم الحقُّ من اللّٰه أو من العزيز أو الرحمن أو غيرها من أسماء اللّٰه تعالى لم يُضَف، فلمّا كانت الإضافة إلى ضَميرِ المخاطبين مقصودةً؛ جاء بلفظٍ عريقٍ في الإضافة.

الثاني: أنَّ اصطفاء التعبير بالربوبية دونَ غيره لِكونِ مجيءِ الحقِّ إليهم ممّا يُصلِحُهم، وينفعهم، ويُقِيمُ أحوالهم وشؤونهم على السياسةِ السليمة والتدابير المستقيمة، والسّيادةُ، وَالقِوَامَةُ،

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 9/583.
(2) السّمين الحلبي، الدّرّ المصون: 6/276، وابن عادل، اللباب: 10/424.

والإصلاحُ من شؤون الربوبيَّة الكاملة، فعبَّر بِأَنْسَبِ ما يوافِقُ المعنى، ويُلائِمُ السّياقَ الجليل[1].

موقع جملة ﴿فَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ﴾:

قوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ﴾ معطوفةٌ على جملة جواب النداء: ﴿قَدۡ جَآءَكُمُ﴾، وهي مُسَبَّبَةٌ عنها مُفرَّعَةٌ عليها، أي: إذا جاءكم الحقُّ؛ فتسبَّبَ عن ذلك هدايةُ الطائع وضلال العاصي فكذا، فالوصل بالفاء إشارة إلى تَرتُّبها على ما قبلها، وهي في معنى التفصيل، أي: النّاس بعد مجيء الحقِّ فَريقان: مهتدٍ أو ضالٌّ، أو هي الفصيحة، فمدخولها معطوفٌ على شرطٍ مُقدَّرٍ هو جوابُه، أي: إذا كان ذلك كذلك؛ فمن اهتدى؛ فإنَّما يهتدي لنفسه[2].

النّاسُ إمّا بائعٌ نفسَه للهُدى أو للهوى

دلالة ﴿فَمَنِ﴾:

﴿فَمَنِ﴾ في قوله: ﴿فَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ﴾ شرطيَّة أو موصوليَّة، فباعتبارها شرطيَّة، فالفاء في قوله: ﴿فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي﴾ واقعة في جواب الشرطِ، وهي الرَّابطةُ للجزاءِ بالشرط، وباعتبارها اسم موصول، فالفاء لِعطْفِ مدخولها ﴿فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي﴾ على صِلةِ الموصول ﴿فَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ﴾، أو أنَّ الفاء تعقيبيَّة لإلحاقِ مدخولها ﴿فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي﴾ بجملةِ الجزاء، لِشبَهِها بها، لكون الموصولِ مُضمَّنًا معنى الشرط، وباعتبارها عاطفة تكون جملة ﴿فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي﴾ متَّصلة مع ما قبلها لتمامِ المناسبةِ واتِّصال المعنى[3].

كلٌّ مرهونٌ بما كَسَب

معنى الفاء في: ﴿فَإِنَّمَا﴾:

الفاء في قوله: ﴿فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦۖ﴾ تُشيرُ إلى كونِ الشرطِ، وهو قوله: ﴿فَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ﴾ سببًا للجزاء المذكور، فالفاء سببيَّة[4].

يَزدادُ الإنسانُ مِنْ جنْسِ ما تلبَّسَ به

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/308.

(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 9/583، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/308، ودرويش، إعراب القرآن: 4/308.

(3) السّمين الحلبي، الدّرّ المصون: 6/276، ودرويش، إعراب القرآن: 4/308، والخطيب، التفصيل في إعراب آيات التنزيل: 6/261.

(4) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 9/583.

بلاغة القصر في: ﴿فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦۖ﴾:

(إنّما) لفظٌ يفيد المبالغة والتأكيد، وينضمُّ إليه - هنا - إفادة معنى القصْر، أي: لا يَنْفَع المهتدي إلّا نفسَه، ولا يَقعُ ضررُ الضالِّ إلّا على نفسِه، وغرضُ مجيء التركيبِ على طريقةِ القَصر قطعُ توهُّم الكافرين أنَّهم بإيمانِهم يَمُنّونَ على الرسولِ والمؤمنين، أو أنَّهم بكفْرِهم يَضُرّون الرَّسولَ أو أتباعَه بإضعافِهم أو إغاظَتِهم[1]، وهو من قصر الصِّفة على الموصوف.

لا يَقعُ ضررُ الضالِّ إلّا على نفْسِه

فائدة التَّعبير بالمضارع في: ﴿يَهۡتَدِي﴾:

لم يطَّرِد السِّياقُ مع صيغة الماضي في فعل الشرط، فلم يقل: (فمن اهتدى فقد اهتدى لنفسِه)، بل جاءَ التعبيرُ بصيغة المضارع في قوله: ﴿فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦۖ﴾؛ للمُغايرةِ بين معنى الهدايتين، فالهداية الأولى هدايةُ الدُّخولِ في الإسلام بالإقرارِ والاعتراف، والهداية الثانية هدايةُ الاستمرار على ذلك وتَجديدِ استحداثِ العمَلِ والتَّقوى المُصَدِّقَةِ للاهتداء، فقوله: ﴿فَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ﴾ هو أصل الهُدى المُحقَّق، ولذا عبَّر عنه بالماضي لتحقُّقه ووقوعه، وقوله: ﴿فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي﴾ هو زيادةُ الهُدى ولذا عبَّر عنه بالمضارع؛ لأنَّ الاستزادة متجدِّدة، كنحوِ قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ زَادَهُمۡ هُدٗى﴾ [محمد ﷺ: 17].

الإيمانُ كشجرةٍ أصلها ثابتٌ إنْ لمْ تُسْقَ لم يكن لها ثَمَرٌ

معنى اللّام في: ﴿لِنَفۡسِهِۦۖ﴾:

أفاد حرفُ الاختصاص اللام في قوله: ﴿فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦۖ﴾ معنى المِلْك والاستحقاق، كأنَّه قال: الهُدى له، كما يُقال: الغلامُ له والعبدُ له، أو اللام للتعليل، أي: يهتدي لأجلِ نفسِه أي: لِنَفْعِها، أو للعاقبة والصيروة باعتبار أنَّ نَفْع النَّفسِ بالهدى أو إضرارها بالضلال قد لا يكون غرضًا للفاعل وهو المُهتدي أو الضالُّ، فيكون النَّفع أو الإضرار مُترتِّبًا عن فعل الفاعل لا مُعلَّلًا به[2].

يَحصدُ العبدُ عاقبةَ ما يفعله، قَصَدَهُ أم لم يقصِده

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/500، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/309.

(2) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 10/6261، والخضري، من أسرار حروف الجر، ص: 217، 259.

موقعُ جملة: ﴿وَمَن ضَلَّ﴾:

قوله تعالى: ﴿وَمَن ضَلَّ﴾ معطوفٌ على قولِه: ﴿فَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ﴾، وغرضُ الوصل بالواو: استِتْمامُ التفصيلِ في أحوال النّاس بعد مجيء الحقِّ إليهم، فذكَر حالَ المهتدين وما يُقابِلهم من صِنْفِ الضّالّين[1].

ما أقربَ الشَّيءَ مِنْ ضِدِّه في اللفظ! وما أبعدَه عنه في المعنى!

معنى (على):

(على) في قوله: ﴿فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيۡهَاۖ﴾ للاستعلاء المجازي، وفي التعبير بـ (على) في جانب الضلال تصويرُ معنى الخصومة بين الضالِّ ونفْسِه، كأنَّه بضلالِه قد استعلى على نفْسِه بالخصومةِ فأوْبَقَها، وأرداها بضلاله، فكان بذلك عليها، وهي تحتَه مهزومةٌ مقهورة[2].

الضّالُّ ساعٍ في إهلاكِ نفْسِه بِسوءِ عمَلِه

بلاغةُ الطباق والمقابلة:

بين قوله: ﴿ٱهۡتَدَىٰ﴾ و﴿ضَلَّ﴾، وقوله: ﴿يَهۡتَدِي﴾ مع ﴿يَضِلُّ﴾، وقوله: ﴿لِنَفۡسِهِۦۖ﴾ مع ﴿عَلَيۡهَاۖ﴾ طِباقٌ سِيقَ لِلمُفاصَلةِ والمُفاضَلة بين الحال وضدِّه، لِتَتَمايَزَ الأحوالُ وعواقِبُها بين الفريقين، فبالأضدادِ تتمايزُ الأشياءُ، ونكتةُ سَوْقِ الكلامِ على أسلوب الطِّباق: استيفاء البيان وإقامةُ الحجَّة التي تقطع الأعذارَ بأخصر عبارةٍ، وأتمِّ توصيفٍ، وبين مجموع التركيب في قوله: ﴿فَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦۖ﴾ مع تركيب ﴿وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيۡهَاۖ﴾ مُقابلةٌ بديعة تَصوغُ التركيبين مَصاغ الأمثال السّائرة والقوانين المُطَّرِدةِ المُحكَمَة[3].

تَتَمايَزُ الأشياءُ بأضدادِها

معنى الواو في: ﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِوَكِيلٖ﴾:

جملة: ﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِوَكِيلٖ﴾ معطوفةٌ على جملة جواب النِّداء: ﴿فَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ﴾، والعطفُ لإتمام التفريع الحاصل في جملتَي التفصيل: ﴿فَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ﴾ و﴿مَّن ضَلَّ﴾؛ "لأنَّه إذا كان اهتداءُ

الرسولُ ناصِحٌ ومُبَلِّغٌ لا ضامِن ولا وكيل

(1) صافي، الجدول: 11/210.
(2) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 10/6261.
(3) ابن عطية، المحرر الوجيز: 3/147.

المهتدي لنفسِه، وضلالُ الضالِّ على نفسِه؛ تحقَّقَ أنَّ النبيَّ ﷺ غيرُ مأمورٍ من اللّه بأكثرَ من التبليغِ، وأنَّه لا نفعَ لنفسِه في اهتدائِهم، ولا يَضرُّه ضلالهم"[1]، ويصحُّ توجيهُ الواوِ إلى معنى الاستئناف، باعتبار أنَّ جملة: ﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِوَكِيلٖ﴾ تأسيسٌ لبيانِ وظيفةِ الرسولِ فيهم، وأنَّها مُحدَّدَةٌ في النُّصحِ والتبليغ، فليس وكيلًا عنهم أو ضامِنًا لهم[2]، كما أنَّه لا مانع من صرفها على الحال، والمعنى: والحالُ في ذلك كلِّه أنّي لست عليكم بوكيل.

فائدة التَّعبير بالجملة الاسميَّة الَّتي تقدَّم النَّفي فيها:

كلٌّ مسؤولٌ عن نفسِه، فلا تُغْني نفسٌ عن نفْسٍ شيئًا

أفاد التعبيرُ بالجملة الاسميَّة المنفيَّة في قوله: ﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِوَكِيلٖ﴾ دوامَ الحكْمِ المنفيِّ المذكور، وهو نفيُ وكالتِه ﷺ عنهم في أمر الاهتداء أو الضَّلال، فهم مالِكون لأمْرِهم مُختارون لِما يَتحمَّلون عاقِبتَه وحدهم[3]، وفي تقديم النَّفي على المسند إليه والمسند الفعليِّ ما يُعطي معنى التَّخصيص، أي: لستُ أنا وكيلًا عليكم، لكنَّ غيري قد يتولّاكم بذلك.

نكتةُ تقديم شبه الجملة: ﴿عَلَيۡكُم﴾:

تقديمُ ما حقُّه التأخيرُ يكون لتخصيصِه أو قصْرِه

تقديمُ قوله: ﴿عَلَيۡكُم﴾ على قوله: ﴿بِوَكِيلٖ﴾، ولم يقل: (وما أنا بوكيلٍ عليكم) لِغرضين:

الأوَّل: تقديمُ ما دارَ حوله المقصود على ماهو تَبَعٌ له، فلمّا كان الحكْمُ مَسوقًا أصالةً لنفي تصرُّفِه ﷺ في شأنِ اهتدائهم أو عدَمِه؛ قدَّم ضميرَ الناس؛ لأنَّ عائِدَ الحكْم مُتعلِّقٌ بهم.

الثاني: تقديمُ ما هو أثْقَلُ في الفاصِلة؛ لِلْخَتْم بما هو أخفُّ وألْيَقُ بموقِع الحرفِ والصَّوت، فلو قال: (وما أنا بوكيلٍ عليكم)؛ لكانَ التعبيرُ قَلِقًا في الفاصلة، غيرَ قارٍّ فيها ولا مَكين[4].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/309.
(2) صافي، الجدول: 11/210.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/309.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 9/220.

معنى الباء في: ﴿بِوَكِيلٍ﴾:

الباء في قوله: ﴿بِوَكِيلٍ﴾ للتأكيد، وهي تفيد استغراق النَّفي لِما في حيِّزِه مِنْ حُكْم، أي: وما أنا عليكم بوكيلٍ أدنَى وِكالةٍ[1].

لا اختصاص لأحدٍ بوكالةِ الرسول عنه

دلالة التَّعبير بـ ﴿بِوَكِيلٍ﴾ مادّة وبناءً:

اختيرَ التعبيرُ بلفظ: ﴿بِوَكِيلٍ﴾؛ للدلالة على معنى النيابة في الموكولِ إليه، ومعنى الاعتماديَّة في الموكولِ عنه، وجاءت على صيغة (فَعِيل) لإفادة المبالغة في معنى الوصف، و(فَعِيل) - هنا - يصحُّ إجراؤها على معنى (فاعِل)، أي: قائِمٌ بالوكالة، أو على معنى (مفعول)، أي: موكولٌ إليه الأمر، ومجيئها على (فعيل) دون (فاعل) أو (مفعول)؛ للدَّلالة على ثبوتِ الصِّفةِ لصاحبِها فكأنَّها سَجيَّةٌ له، وعلى اتصافِه بها بالفعلِ حالًا واستقبالًا، أي: الوصفُ قائمٌ بصاحبه، لا أنَّه سيتَّصِفُ به مستقبلًا مع إمكان عدم اتِّصافه به في الحال، وفي مجيء اللفظ على هذا الوزن إيماءٌ إلى أنَّ وصف الوكالة عليهم منفيٌّ عن الرسول ﷺ من جميع الوجوه، فلا هو وكيلٌ عنهم لا في الحال ولا في الاستقبال ولا على جهةِ الدوام ولا على جهة الاستمرار[2].

الوكيلُ في محلِّ مَن ينوب عنه في التَّصرُّف والضَّمان

بلاغة الختم بـ ﴿بِوَكِيلٍ﴾:

خُتمت الآيةُ بكلمة ﴿بِوَكِيلٍ﴾؛ لأنَّها تُنَاسِبُ معنى الآية وسياقها، وتنسجم مع فواصل الآيات السابقة واللاحقة في سورة يونس عليه السلام.

فمن حيث المعنى: فكلمةُ ﴿بِوَكِيلٍ﴾ تعني الحافظَ والقائم بالأمر[3]، وهي صفةٌ من صفات الله تعالى، كما قال: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ١٣٢﴾ [النساء: 132]، ﴿وَقَالُواْ

التناسبُ مع معنى الآية وسياقها، والانسجامُ مع فواصل الآيات السابقة واللاحقة

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 7/3647.
(2) فاضل السامرائي، معاني الأبنية، ص: 55.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (وكل).

﴿حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ ١٧٣﴾ [آل عمران: 173] وتدلُّ على علمه وقدرته وحكمته ورحمته. فاللّه هو الوكيلُ على كل شيء، وهو الذي يدبِّر أمورَ الخلقِ، ويقضي فيها بما يشاء، واللّه هو الوكيلُ على رسوله، الذي ينصره، ويعزِّره ويحميه من الأعداء، واللّه هو الوكيلُ على المؤمنين، الذي يرزقُهم، ويغفرُ لهم، ويهديهم، ويصبِّرُهم، واللّه هو الوكيلُ على الكافرين الذي يضلُّهم، ويخزيهم، ويمهلهم، ويعاقبهم، فبذكر هذه الصفة في نهاية الآية، يتَّضحُ أنَّ اللّه هو المتولِّي لجميع الأمور، وأنَّه لا يحتاجُ إلى شريكٍ أو وسيط أو معين، وأنَّ الرسولَ ليس مسؤولًا عن هداية النَّاسِ أو ضَلالَتِهم، بل هو بشيرٌ ونذير، وأنَّ اللّه هو الذي يهدي من يشاء، ويضلُّ من يشاء، وأنه هو الحسيبُ والمنتقم والشفيع والمولى.

ومن حيث السياقُ: فكلمةُ ﴿بِوَكِيلٍ﴾ تناسبُ موضوعَ السورة، وهو الدعوة إلى التوحيد والإيمان بالرسول واليوم الآخر، والردُّ على الشرك والكفر، وبيان القصص والأحكام، ففي كلِّ هذه الموضوعات تتجلّى صفة اللّه تعالى بكونه وكيلًا لجميع الأمور، والمتولي لجميع الشؤون، والمدبِّر لجميع الأحوال.

ومن حيث الانسجامُ الصَّوتي: فكلمةُ ﴿بِوَكِيلٍ﴾ تنسجمُ مع فواصل الآيات السابقة واللاحقة في هذه السُّورة الكريمة التي ينتهي معظمُ فواصلها بحرفَي الميم والنون.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الوكيل والكفيل:

الوكيلُ هو الذي يَتولّى مُباشَرةَ أمْرٍ لغيرِه نيابةً عنه فيه، والكفيل: هو الذي يتحمَّل أمْرَ المكفولِ، ويَضْمَنُ القيامَ به.

الوكالةُ تبرُّعٌ، والكفالةُ إلزامٌ

والفرق بينهما: أنَّ الوكيلَ يقوم بالنيابةِ عن الموكِّل على جهةِ

التبرُّع لا الإلزام، أي: ليس مُلزمًا بإتمامِ الأمرِ إذا عجز عنه الموكِّل، وأمّا الكفيل؛ فهو ضامِنٌ للقيام بالشيء عن المكفول، ويلزمُه الإتمامُ عند عجز المكفول، أو يَلزمُه الاستمرار في كفالتِهِ حتّى يتحقَّقَ الغرض، ولذلك قالوا: الوكيل مؤتمَن، والكفيل ضامِن، والوكيل متبرِّع والكفيلُ مُلتَزِم، وعليه: فالوكيلُ أعمُّ، والكفيلُ أخصُّ، فليس كلُّ وكيلٍ كفيلًا، وكلُّ كفيلٍ وكيلٌ[1].

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (كفل، وكل).

﴿وَٱتَّبِعۡ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ وَٱصۡبِرۡ حَتَّىٰ يَحۡكُمَ ٱللَّهُۚ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ١٠٩﴾ [يونس: 109]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لا يَضُرُّ العبدَ من ضلَّ؛ إنْ هو اهتدى

لمّا وعظَهمُ اللّه في أنفسِهم بالاهتداء بالحقِّ الذي جاءهم وعدم الضلال عنه؛ خاطَبَ رسولَه ﷺ بما يجبُ عليه في خاصَّةِ نفْسِه، فأمره باتِّباع الحقِّ الذي أوحي إليه، اهتدى النّاس أم ضلُّوا[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَحۡكُمَ﴾: مِنَ الحُكْم، وأصله: المنعُ للإصلاحِ ونفيِ الظُّلم، ومنه الحِكمة؛ لأنَّها تمنع من الجهلِ والسَّفَه، والمراد هنا: يَفصِلُ بينك ومَنِ اهتدى معك وبين مَنْ أعرضَ وضلَّ، بِغلَبَتِك عليهم وتأييده لك على من يُعاديك[2].

المَعْنى الإجْماليُّ:

القيامُ بالتكليفات الشرعية كلِّها، والصبرُ على مشاقِّها وصِعابها

اتَّبِع - أيُّها الرسول الكريم - ما يأتيك من الوحيِ بالامتثال والتَّبليغ، ولا تنشغل بمن ضلَّ، وحاد، ولكنِ اصبِرْ على طاعة اللّه تعالى، وعن معصيته، وعلى أذى المُكذِّبين لك، وعلى أذى مَن آذاك في تبليغ رسالة ربِّك، حتّى يأذَنَ اللّه لك بالظُّهور عليهم، ويحكمَ بدينونَتِهم لك، واعلم أنَّ اللّه هو خير الحاكمين، فأيقِنْ، ولا تستعجِل، واسْكُنْ، ولا تجزع؛ فإن حُكمَه تعالى مشتملٌ على العدلِ التامِّ[3].

وترشدُ الآية الكريمةُ إلى اتِّباع الوحيِ الإلهيِّ الذي تضمَّنه

(1) البقاعي، نظم الدرر: 9/220.

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحفاظ، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (حكم).

(3) البيضاوي، أنوار التنزيل: 3/126، والسيوطي، تفسير الجلالين: ص: 283، ومجمّع الملك فهد، التفسير الميسّر، ص: 221.

القرآنُ العزيز والسنة الصحيحة، وإلى فضيلة الصبرِ وانتظارِ الفَرَج من الله تعالى، وأنَّ عاقبتَه حميدة، وأنَّه لا يأتي إلّا بالخير؛ فقد امتثلَ رسولُ الله ﷺ أمرَ ربِّه، وثبَت على الصراطِ المستقيم، حتى أظهرَ الله دينَه على سائر الأديان، ونصرَه على أعدائه بالسَّيف والسِّنان، بعد ما نصره عليهم، بالحجَّة والبرهان، فلله الحمدُ، والثناءُ الحسن[1].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

موقع جملة ﴿وَٱتَّبِعۡ﴾:

الأنبياءُ مُحاسَبون يومَ يَسألُ اللهُ الصّادقين عن صِدقِهم

جملة: ﴿وَٱتَّبِعۡ مَا يُوحَىٰٓ﴾ إمّا معطوفةٌ على قوله: ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُمُ﴾، فتكون داخِلةً في حيِّز مَقولِ القولِ الذي أُمِر ببلاغِه، والأحسن أنْ تكون مستأنَفةً ممّا قبلها لاستبعاد عطفِ الإنشاء: ﴿وَٱتَّبِعۡ﴾ على الخبر: ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُمُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡۖ﴾، فهذه الجملةُ، وإنِ افتُتِحتْ بالإنشاء اللفظيِّ، وهو فعل الأمر ﴿قُلۡ﴾ وجملة النِّداء، إلّا أنَّ معناها خبريٌّ لا إنشائي؛ إذِ المقصود من فعل القول وأسلوب النداء التوسُّلُ إلى الخبر، وهو قوله: ﴿قَدۡ جَآءَكُمُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡۖ﴾، فيكون قوله: ﴿وَٱتَّبِعۡ﴾ مؤسِّسًا لمعنًى جديد، وهو تكليفُ النبيِّ ﷺ باتِّباع الوحي في جميع الأحوال سواء اهتَدَوا أم ضَلُّوا، وبعد مُفاصَلَتِه عنهم بصرْفِه عن أنْ يكون وكيلًا عنهم بحال، فكأنَّه يقول له: لستَ وكيلًا عليهم، فكُنْ وكيلًا عن نفْسِك باتِّباعِك وعمَلِك، ولا تكترثْ بما عَمِلُوا من الهدى أو الضلال، فالكلامُ تأسيسٌ لحالٍ ثالثةٍ هي حال النبيِّ ﷺ بعد افتراق الناسِ لفريقين بعد بلاغِه لهم[2].

(1) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 221، والجزائري، أيسر التفاسير: 2/518.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 9/220، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/310، ودرويش، إعراب القرآن: 4/308.

دلالة الأمر في ﴿وَٱتَّبِعۡ﴾:

لا رُتْبَةَ للعبادِ عند الله إلّا بالطّاعةِ والتقوى

الأمر في قوله: ﴿وَٱتَّبِعۡ﴾ دلَّ على أنَّ النبيَّ ﷺ مُكلَّفٌ بنفْسِ ما يُكلِّفُ النّاسَ به، من اتِّباع الحقِّ والهدى، فصيغة الأمر أفادتِ التنصيصَ على ذلك، لاستفادتِه بالنَّصِّ المنطوق، لا بمجرَّدِ المُقتضى المفهوم، فالأمر فيها على ظاهره في إفادة الوجوب، ويمكن حمله على المجاز بإفادته معنى الزِّيادة أو الثَّبات؛ لأنَّ النَّبيَّ ﷺ متَّبعٌ لربِّه مطيعٌ له في كلِّ ما أمره به.

نكتةُ الاستعارة في ﴿وَٱتَّبِعۡ﴾:

الطاعةُ والاتِّباعُ فيهما امتثالٌ واحتذاء

شبَّه الطّاعة بالاتِّباع على سبيل الاستعارة التَّصريحيَّة بنقل اللفظ من معنى إلى معنى آخر لوجود شبه بينهما؛ لأنَّ كلًّا منهما فيه امتثال واحتذاء.

معنى ﴿مَا﴾:

كلَّما تجدَّدَ شيءٌ من الوحي؛ أحدَثَ المؤمنون له شيئًا من الاتِّباع

﴿مَا﴾ في قوله تعالى: ﴿وَٱتَّبِعۡ مَا يُوحَىٰٓ﴾ موصولة، أي: اتَّبِع الذي يُوحَى، والتعبير بالموصول المُشترك ﴿مَا﴾؛ للدَّلالةِ على جميع ما يُؤخَذُ بالوحي، ويدخلُ فيه القرآنُ دخولًا أوَّليًّا، ثمَّ يَندرجُ تحتَه سائرُ ما يُوحى ممّا ليس قُرآنًا، ويَبْعُدُ - هنا - إجراءُ ﴿مَا﴾ على معنى المصدريَّة، لِعُسْرِ تقديرِ المصدرِ المؤوَّل مع الجار والمجرور ﴿إِلَيۡكَ﴾[1].

فائدةُ بناء الفعل ﴿يُوحَىٰٓ﴾ لما لم يُسمَّ فاعله:

الوحيُ من خصائص الألوهيَّة فلا يدَّعيه أحدٌ سوى الله

جاء فِعلُ ﴿يُوحَىٰٓ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَٱتَّبِعۡ مَا يُوحَىٰٓ﴾ على بناء ما لم يُسَمَّ فاعلُه؛ لتقصيرِ الكلام على السّامِع، وتوفيرِ عنايتِه للغرضِ المقصودِ وحده، وهو توجيهه لمادَّة الوحي محلِّ الاتِّباع المأمور به، وليس الغرضُ الإنباءَ عن الفاعلِ، لوضوحِه وعدم التباسِه، فلا يتعلَّق الغرض بالكشْفِ عنه.

(1) صافي، الجدول: 11/210.

معنى الواو في: ﴿وَٱصۡبِرۡ﴾:

الواو في قوله: ﴿وَٱصۡبِرۡ﴾ عاطفةٌ مدخولَها على جملة: ﴿وَٱتَّبِعۡ﴾؛ إيذانًا بأنَّ اتِّباع الوحي يستلزِم إدامَتَه والاستمرار عليه بالصَّبر[1].

لا يكونُ اتِّباعٌ بغير صَبْرٍ، ولا صبْرٌ بغير اتِّباع

دلالة الأمر في ﴿وَٱصۡبِرۡ﴾:

التعقيبُ بفعل الأمر ﴿وَٱصۡبِرۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَٱصۡبِرۡ حَتَّىٰ يَحۡكُمَ ٱللَّهُۚ﴾ بعد الأمر بالاتِّباع في قوله تعالى: ﴿وَٱتَّبِعۡ مَا يُوحَىٰٓ﴾ للإشارة إلى أمرين:

لا يَتحقَّق بالصبر إلّا أولو العزم من البشرِ

الأوَّل: أنَّ الاتِّباع المذكور لا يتِمُّ إلّا بالصبر عليه، وإلّا انقطعَ بالملالِ وخِفَّةِ العزم، فَلَا بدَّ من إدامتِه بعزيمةِ الصبر.

الثاني: الأمر بالصَّبر بعد الاتِّباع إيماءٌ إلى أنَّه قد يحصل مكروه وأذيَّةٌ له من المُخالفين والخصوم بسببِ اتِّباعه، فإنْ كان: فليستَوْثِقْ بالصَّبر، ففي الأمْر بالصَّبرِ نهيٌ عن ضِدِّه من الجزَعِ وانْفِساخِ العزم وضعفِ الحيلة[2]، فالأمر على ظاهره في إفادة الوجوب، وقد يُحمل على المجاز بإرادة معنى الزّيادة في الصَّبر أو الثَّبات عليه.

معنى ﴿حَتَّىٰ﴾:

﴿حَتَّىٰ﴾ حرف غايةٍ أو تعليل، ويُراد بها - هنا - في قوله: ﴿وَٱصۡبِرۡ حَتَّىٰ يَحۡكُمَ ٱللَّهُۚ﴾ الغاية، فما بعدها جُعِلَ غايةً لما قبلها، فغَيّا الصبرَ بحكم الله، وفي النَّصِّ على تلك الغاية إيذانٌ بالنَّصر بعد الصَّبر، وبالجَبْرِ والعِوَض بعد العناء والتَّعب[3].

غايةُ الصَّبرِ أنْ يحكم اللهُ بالفرَج

نكتةُ التَّعبير بالمضارع في ﴿يَحۡكُمَ﴾:

مجيء الفعل ﴿يَحۡكُمَ﴾ بصيغة المضارع؛ للدَّلالة على استقبالِه واستمرارِه، وهو مؤذِنٌ بِطولِ الاستمتاعِ به في الدُّنيا؛ فإنَّ حُكْمَ

لا يتعلَّق المؤمن إلّا بحكمِ ربِّه

(1) صافي، الجدول: 11/211.

(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/311.

(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/197، وعضيمة، دراسات لأسلوب القرآن: 2/143.

اللّه يتضمَّنُ التأييد والإكرام للمؤمنين، وهذا من النَّعيم العاجل والمُتعةِ الحاضرة.

سرُّ العدول من لفظ الرُّبوبيَّة إلى لفظ الألوهيَّة:

أحكامُ اللهِ كاملةٌ لا شططَ فيها ولا جَوْر

أسند الحكم إلى اسم الذّات ﴿ٱللَّهُ﴾ في قوله تعالى: ﴿يَحۡكُمُ ٱللَّهُ﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّه حُكْمٌ كاملٌ مِنَ الذّاتِ الكاملة العليَّة في صفاتِها من العِلمِ والقدرةِ والحِكْمةِ والقهْر، وهي موجباتُ الحُكْم الكامل والقضاء العادل، فأتى بالاسم الجليل دون غيره؛ لتضمُّنه جميع الصِّفات التي تستوجِبُ الحُكْمَ، ولو عبَّر بغير اسم الذّات؛ لأطْنَبَ السّياقُ في تعديدِ أكثرَ من صفةٍ من صفات اللّه لاقتضائِها جميعًا حُكْمَ الحكيم، ولم يُعبَّر باسم الرُّبوبيَّة، فلم يَقُل: (حتى يحكمَ ربُّك)؛ لِما في الرُّبوبيَّة من معاني الإحسان والرِّفق، خلافًا لِمقام الحُكْم الذي هو مقامُ شِدَّةٍ وقوَّةٍ بتأييدِ المُحِقِّ وغلبةِ المُبطِل، ولِكون الحكم مَبنيًّا على الاستحقاق والعدل، دون المُحاباةِ والتفضيل المحض، وإلّا كان فيه شُبْهةُ إجحافٍ بالخَصْمِ المُخالِف.

نُكتةُ حذف مُتعلَّق الحُكْم:

الصَّبرُ لله مُتَعبَّدٌ به في كلِّ حال

لم يقل في السّياق الكريم: (واصبِر على كذا حتّى يحكم اللّه في كذا)، فلم يُعلِّق (الصَّبر) و(الحُكْمَ) على زمانٍ أو مكانٍ، ولم يُحدِّدهما بمجالٍ، لغرضين مُهِمَّين:

الأوَّل: لِلإيذانِ بأنَّ الصَّبرَ تكليفٌ مُصاحِبٌ لِلْأحْوَالِ كَافَّةً، مقرونٌ بجميع أسبابه ومُقتضياتِه العامَّة والخاصَّة والحقيرةِ والعظيمة، فهو تكليفٌ لا تتِمُّ سائرُ الأحوال والأعمال إلّا به، ولذا لم يحدِّدْه بمجال، أو يُعلِّقْه بظرفٍ أو حال.

الثاني: لم يقل: (حتّى يحكمَ اللّه في كذا)؛ لِثقةِ المؤمنين بكون اللّه حاكمًا، فيكفيهم أنَّ اللّه هو من يحكم، فلا يحتاجون إلى تَحْديدِ مجالِ الحكم أو موقعه، فحيثما كان حكمُ اللّه كان الخيرُ والإصلاح،

وأيضًا: لوضوح مُتعلَّقِ الحكم حذَفَهُ إيجازًا، فإنَّ مُتعلَّق الحكم إمّا بَيْنيٌّ بين طرفين، أو فرديٌّ أحاديٌّ، فتقديره على الأوَّل: حتى يحكم اللّه بينك وبينهم، وتقديره على الثاني: حتى يحكمَ اللّه في أمرك، وكلا التقديرين بمعنًى؛ لأنَّ معنى الأخير: حتى يحكم اللّه في أمرك بمجازاتك على عملِك، وفي أمرك مع المخالفين.

موقعُ جملة: ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾:

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ تذييلٌ قُصِدَ به الثناءُ على اللّه، فهو منْ تَتِمَّةِ الغايةِ المذكورة في قوله: ﴿حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُۚ﴾، وواوُ الوصلِ استئنافيَّة لاعتبار الابتداء في: ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ فالجملة من مبتدأ وخبر، فروعي مع الاستقلال معنى الاستئناف، أو أنَّ الواو حاليَّة، لاعتبار جملة: ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ حال من اسم الجلالة في قوله: ﴿حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُۚ﴾، وعلى الاعتبارين، فجملة: ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ مُقرِّرة ومؤكِّدة لمضمون الجملة قبلها، وهو قوله: ﴿حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُۚ﴾؛ لدلالة اسم الذّات على معنى ﴿خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾، فكأنَّه قيل: واصبِر حتى يحكمَ خيرُ الحاكمين[1].

ما دامَ اللهُ هو خير الحاكمين، فلا يستوحِشُ المؤمنُ في حالٍ أبدًا

بلاغةُ القصر بتعريف طرفي الإسناد:

قوله: ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ تعرَّفَ فيه طرَفا الإسناد المبتدأ والخبر، فأفاد قصرَ حكمِ المُسنَدِ على المُسنَد إليه، فلا يَتّصِفُ بخير الحاكمين إلّا هو سبحانه، فهو من قَصْر الصِّفة على الموصوف، وهو قصرٌ حقيقيٌّ يُؤذِنُ بالتحريضِ على إتمام ما عُلِّقَ به من تكليفٍ بالصبرِ على الاتِّباع، وعدم الجزع من تَحَرُّشِ المُخالفين؛ لأنَّ مآلَه إلى حكمِ خير الحاكمين وخير الحاسبين، فالقصر مُضَمَّنٌ معنى البُشرى والجزاء.

مآل الأمور كلِّها إلى حكمِ خير الحاكمين والحاسبين

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/310، وصافي، الجدول: 11/211، والخطيب، التّفصيل في إعراب آيات التنزيل: 6/262.

وجهُ الكناية في: ﴿وَٱصۡبِرۡ﴾، و﴿خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ﴾:

حياةُ الإنسانِ أوّلُها صبرٌ، وآخِرها حُكمُ خيرِ الحاكمين

قوله: ﴿وَٱصۡبِرۡ﴾ كنايةٌ عن تعرُّضه لأسباب الصَّبر من المُضايقةِ والعناءِ والأذى، وقوله: ﴿وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ﴾ كنايةٌ عن مُكافأتِه على ذلك ومعاقبةِ الظّالمين له بالخصومةِ والتكذيب والأذى، وقرينةُ الكناية: تعليقُ الصَّبر بغايةِ حكم الله، والأمْرِ به بعد الأمر باتِّباع الوحي، فتحييزُ الصبر بين الاتِّباع والحكم مؤذِنٌ بأنَّه صبرٌ خاصٌّ دالٌّ على لازمِ معناه المذكور[1].

نكتةُ التَّعبيرِ بصيغة التَّفضيل:

جعلُ المفضولِ بإزاءِ الأفضلِ يُبرِزُ كمالَ الأفضل

مجيء التركيب على صيغة التفضيل في قوله: ﴿وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ﴾؛ لإثبات الخيريَّة المُطلَقَة في حكمِه ﷻ على حكْم من سواه، وإنْ وُجِدَ في حكمِ من سواه خيرٌ وعدل، إلا أنَّ حكْمَه لا يحتمِل الخطأ والسَّهو أو نقصَ العِلم، وحُكْمَ من سواه تعتريه احتمالاتُ النَّقص، ولذا كان هو سبحانه خيرَ الحاكمين؛ لاستحالة الخطأ أو الخفاء في شأنِ حُكْمِه[2].

معنى (ال) في ﴿ٱلۡحَٰكِمِينَ﴾:

الصِّفات على قَدْرِ الذَّوات

(الـ) التعريف في قوله: ﴿ٱلۡحَٰكِمِينَ﴾ هي (الـ) الموصولة الدّاخِلة على أسماء الفاعلين، ولها دلالةٌ على إفادة الكمال، وهو استغراق خصائص أفراد الجنس، أي: هو خيرُ الحاكمين ذَوي الأهليَّة الذين استوفَوا صِفاتِ استئهالِ الحُكْم، واستكملوا خصائصه وحقائقَه، ودلالتها على الموصوليَّة حقيقة، ودلالتها على الكمال مجازٌ، ولا تَعارض بين الدلالتين؛ لأنَّ معنى الموصوليَّة مطَّردٌ في (الـ) ثابتٌ بنفْسِه من غير قرينة، والذي أعان على دلالة الكمال ليس (الـ) وحدها، بل قرائنُ السياق، وهي في هذا التركيب: مجيء الكلام

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/310.

(2) البيضاوي، أنوار التنزيل: 3/126، والآلوسي، روح المعاني: 6/188، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/310.

بصيغة التفضيل التي تؤذِنُ بثبوتِ أفضليَّةٍ مرجوحةٍ للمفضول، ولِكوْنِ التفضيلِ في جانبِ اللّه سبحانه؛ تأكَّدَ معنى الكمالِ في ﴿ٱلۡحَٰكِمِينَ﴾؛ إذ لا يُفاضَلُ بَيْنَ اللّه تَعَالَى وَالحاكمين الجائرين أو النّاقصين، وكذا تعريف اللفظ بـ (الـ) الجنسيَّة الدّالة على استغراق صفاتِ الأفراد وعدَدِهم[1].

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

يحكم ويقضي:

الحـكـمُ غـيرُ إلـزامـيٍّ، والقضاء إلزاميٌّ

الحُكْمُ هو: ضَبْطٌ يَمْنع التَّسَيُّب، ويمكِّن من جَعْل الشيء - أو جريانه - على ما يَنبغي ويُراد، والقضاء: هو إجراءُ الحكْم وإنفاذُه، ويُطلَق كلٌّ منهما على الآخَر، فالقضاءُ يُستعمَل بمعنى الحكم؛ لأنَّ "القاضيَ يَضْبِط أمرَ كلٍّ من الفريقين، ويفصل، مانِعًا أن يَدخل أيٌّ منهما على الآخر في حقِّهِ"، ويستعمل الحكم بمعنى القضاء؛ لِأنَّ القاضيَ "يُحكِمُ الأحكامَ، ويُنْفِذها"، فكلُّ قضاءٍ حُكم، وليس كلُّ حُكْمٍ قضاءً؛ لأنَّ القضاء هو نهايةُ الشيء وإتمامه والفراغ منه، ولذا فالقضاء ليس مجرَّد إصدارِ الحكمِ فقط، بل إجراؤه وإنفاذُه، وأمّا الحكمُ؛ فهو القضاء بالشيء أن يكون كذا، أو ليس كذا، سواء أَلْزَمتَ ذلك غيرَك، أو لم تُلْزِمْه، فالحكمُ أعمُّ، والقضاءُ أخصُّ[2].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/310.

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحفاظ، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (حكم، قضى).

سُورَةُ هُودٍ

سُورَةُ هُودٍ

التَّعريف العامُّ بالسّورة:

الأصح أنَّ سورة هود كلَّها مكيَّة

سورةُ هودٍ مكيَّةٌ كلُّها عند الجمهور، بل ورد نقلُ الإجماعِ على مكيَّتِها، ونقْلُ الإجماعِ وإنْ كان فيه نظَرٌ، إلّا أنَّه يُرجِّح كونَ جميعها مكّيَّة، وقيل: هي مكيَّة إلّا ثلاثَ آياتٍ منها، وهي: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌۢ بَعۡضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ﴾ [هود: 12]، ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ [هود: 17]، ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ﴾ [هود: 114][1]، "والأصحُّ أنَّها كلَّها مكيَّةٌ، وأنَّ ما روي من أسباب النزول في بعضِ آيِها تَوَهُّمٌ "[2].

والمؤكَّد هنا أنَّها السُّورة الحادية عشرة في ترتيب المصحف الشريف، تقع بين سورتَي يونس ويوسف، حسب التَّرتيب التَّوقيفيِّ لسُوَر القرآن الكريم، وهو التَّرتيب الَّذي تعاضدت عليه آراء جهابذة العلماء والمحقِّقين من قدماء ومعاصرين، وذكر بعض المفسِّرين أنَّ ترتيبها النُّزوليَّ الثانية والخمسون، بعد سورةِ يونس، ونزلَ بعدها سورة يوسف[3].

وآياتُها مِائَةٌ وإحدى وعشرون آيةً في المدنيِّ الأخير والمكيِّ والبصريِّ، واثنتانِ وعشرون آيةً بعد المائةِ في المدنيِّ الأول والشاميِّ، وثلاث وعشرون آيةً بعد المائة في الكوفيِّ.

واختِلافُ العدِّ في سبْعِ آيات، هي: ﴿أَنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ٥٤﴾ [هود: 54] عدَّها الكوفيُّ، ولم يعدَّها الباقون. ﴿يُجَٰدِلُنَا فِي قَوۡمِ لُوطٖ ٧٤﴾

(1) ابن الضرّيس، فضائل القرآن، ص: 34، والنحاس، الناسخ والمنسوخ: 2/472، والفيروزابادي، بصائر ذوي التمييز: 1/246، والبقاعي، مصاعد النظر: 2/170، وعبد الرزاق حسين، المكي والمدني: 2/680.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/312.

(3) السيوطي، تَناسُق الدرر في تَناسُب السور، ص: 95، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/312، ودروزة، التفسير الحديث: 1/15.

[هود: 74] لم يعدَّها البصْريُّ، وعدَّها الباقون، ﴿مِّن سِجِّيلٍ﴾ [هود: 82] عدَّها المدنيُّ الأخير والمكيُّ، ولم يعدَّها الباقون. ﴿مَّنضُودٍ ۝٨٢﴾ [هود: 82] لم يعدَّها المدنيُّ الأخير والمكيُّ، وعدَّها الباقون. ﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَۚ﴾ [هود: 86] عدَّها المدنيّان والمكيُّ، ولم يعدَّها الباقون. ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخۡتَلِفِينَ ۝١١٨﴾ [هود: 118] لم يعدَّها المدنيّان والمكيُّ، وعدَّها الباقون. ﴿إِنَّا عَٰمِلُونَ ۝١٢١﴾ [هود: 121] لم يعدَّها المدنيُّ الأخير والمكيُّ، وعدَّها الباقون[1].

دلالةُ التَّوقيت الزَّمني لنزول السّورة:

المُدَّةُ التي نزلت فيها هذه السّورة هي الظُّروفُ نَفْسُهَا الَّتي نزلت فيها سورتا يونس ويوسف، فترتيبها المصحفيُّ بين هاتيْن السّورتَيْن هو التَّرتيبُ النُّزوليُّ لها ذَاتُهُ، وهي فترة حافلةٌ بأحداث جِسام عاشها المسلمون الأوائل في مكَّة المكرَّمة، حيث نزلت بعد فترة طويلة من حياة المسلمين بها، وبعد كَبَدٍ وَمعاناةٍ واضطهادٍ، فنزلت عقب حادثة الإسراء والمعراج، وبعد أن تقلَّبت عليهم فيها أحوالٌ من التَّكذيب والتَّشكيك، ونزلت بعد وفاة عمِّ النبي ﷺ أبي طالب وزوجِه خديجة، حيث سُمّي هذا العام بعام الحزن؛ بسبب توقُّف دعوة النَّبيِّ ﷺ فيه، وبسبب ما لقيه من أذًى في داخل مكَّة وفي خارجها من أهل الطّائف، حيث ردُّوه خائبًا بعد أن أدموْه، وغرَّروا به صبيانهم وسفهاءهم، فوجد النَّبيُّ ﷺ في نفسه ما وجد من مَشَقَّةٍ وعناءٍ، حيث فقد في أثناء ذلك كلِّه السَّند العاطفيَّ والعقليَّ بفقْدِ زوجه السيِّدة خديجة، وفقَدَ فيها السَّند الاجتماعيَّ والسّياسيَّ بوفاة عمِّه أبي طالب، فجاءت السّورة تحمل في طيّاتها ما تثبِّت به فؤاده، وترفع من معنويّاته، فجاءت لتعالج مواقف المشركين من قضايا العقيدة الرئيسة كالنُّبوَّة والوحي: ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۝١ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ إِنَّنِي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ﴾، وموضوع البعث: ﴿وَلَئِن قُلۡتَ إِنَّكُم مَّبۡعُوثُونَ مِنۢ بَعۡدِ ٱلۡمَوۡتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ۝٧﴾ [هود: 7]، وحقيقة الحياة: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيۡهِمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ فِيهَا وَهُمۡ فِيهَا لَا يُبۡخَسُونَ ۝١٥ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيۡسَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ۝١٦﴾ [هود: 15 - 16]، وخلال ذلك كلِّه عرضت بعض جوانب رحلة الأنبياء مع أقوامهم، وبيَّنت طبيعة هذا الإنسان:

(1) الداني، البيان في عدّ آي القرآن، ص: 165.

﴿وَلَئِنۡ أَذَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِنَّا رَحۡمَةٗ ثُمَّ نَزَعۡنَٰهَا مِنۡهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٞ كَفُورٞ ۝٩ وَلَئِنۡ أَذَقۡنَٰهُ نَعۡمَآءَ بَعۡدَ ضَرَّآءَ مَسَّتۡهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّيٓۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٞ فَخُورٌ ۝١٠ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ ۝١١﴾ [هود: 9 - 11]، وخُتمتِ السّورة بالتَّسرية عن النَّبيِّ ﷺ، وبتوصيته بالثَّبات على دعوته: ﴿وَكُلّٗا نَّقُصُّ عَلَيۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَۚ وَجَآءَكَ فِي هَٰذِهِ ٱلۡحَقُّ وَمَوۡعِظَةٞ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ۝١٢٠ وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ إِنَّا عَٰمِلُونَ ۝١٢١ وَٱنتَظِرُوٓاْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ۝١٢٢ وَلِلَّهِ غَيۡبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَإِلَيۡهِ يُرۡجَعُ ٱلۡأَمۡرُ كُلُّهُۥ فَٱعۡبُدۡهُ وَتَوَكَّلۡ عَلَيۡهِۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ۝١٢٣﴾ [هود: 120 - 123]، إذًا نزلت السّورة في جوٍّ مشحونٍ يمثِّل ذروة الصّراع بين الحقِّ والباطل في مرحلة ساخنة من مراحل الدَّعوة في مكَّة.

أسماء السّورة الكريمة:

سورةُ (هود) عليه السلام لم تُسَمَّ باسمِ غيرِه

ليس لهذه السّورة إلّا اسمٌ واحد، هو (هُود)، وسمّيت به في جميع المصاحف، وكُتُب التَّفسير والسُّنَّة، وهو اسمها الثابتُ رِوايةً وشُهرةً، فعن ابن عباسٍ قال: قال أبو بكر: يا رسول الله قَدْ شِبْتَ، قالَ: «شَيَّبَتْنِي "هُود" "والواقِعَةُ" "والمُرْسَلاتُ" "وعَمَّ يَتَساءَلُونَ" "وإذا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ"»(1).

وسبب تسميتها بهذا الاسم أنَّه كان بسبب تَكْرار اسم (هود) عليه السلام فيها خمس مرّاتٍ من أصل سبع مرّاتٍ وردت في القرآن، وهي قوله: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمۡ هُودٗاۚ﴾ [هود: 50]، ﴿قَالُواْ يَٰهُودُ مَا جِئۡتَنَا بِبَيِّنَةٖ﴾ [هود: 53]، ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا هُودٗا﴾ [هود: 58]، ﴿أَلَا بُعۡدٗا لِّعَادٖ قَوۡمِ هُودٖ ۝٦٠﴾ [هود: 60]، ﴿مِّثۡلُ مَآ أَصَابَ قَوۡمَ نُوحٍ أَوۡ قَوۡمَ هُودٖ﴾ [هود: 89]، ولم يَحصلْ هذا

(1) أخرجه الترمذي في جامعه، كتاب التفسير، باب: (ومن سورة الواقعة)، الحديث رقم: (3308)، والحاكم في المستدرك، كتاب التفسير، تفسير سورة (هود)، الحديث رقم: (3314)، وتفسير سورة (الواقعة)، الحديث رقم: (3777)، وغيرهما.
قال الترمذي: "حسن غريب"، وقال الحاكم: "صحيح على شرط البخاري"، ووافقه الذهبي. ويُنظر: الألباني، السلسلة الصحيحة الحديث رقم: (955).

العدد لنبيٍّ آخر من الأنبياء المذكورين في السّورة، ولأنَّ ما حُكِيَ عنه ﷺ في هذه السّورة أطول ممّا حُكِيَ عنه في غيرها من السّور[1].

والحقُّ أنَّه لا بدَّ من أسباب أخرى أكثر عمقًا وإقناعًا، فمرّات ذكر اسم النَّبيِّ ليست مرتبطة بتسمية السّورة باسمه، فسورة البقرة ذُكر فيها النبيُّ الكريمُ إبراهيم ﷺ خمس عشرة مرَّةً، ولم تُسمَّ باسمه، وذُكر فيها موسى ﷺ إحدى عشرة مرَّةً، ولم تُسمَّ باسمه أيضًا. وأمّا أنَّ السّبب في أنَّ سورة هود أطالت في تفصيل قصَّته، فليس سببًا مقنعًا؛ لأنَّ قصَّة نوح ﷺ في سورة هود كانت الأطول ذكرًا في القرآن الكريم ومع ذلك فلم تُسمَّ السّورة باسمه، إذًا لا بدَّ من البحث عن سببٍ آخر يرتبط بمحور السّورة وشخصيَّتها المميّزة لها، وإذا كانت سورة هودٍ قد أخذت على عاتقها بيانَ أثر الإصلاح القائم على منهجٍ سليمٍ في تحقيق النُّهوض الحضاريِّ، من حيثُ تحقيقُ الشُّهود أو الاضمحلال الحضاري، فإنَّ قوم عاد هم الأنموذج الأمثل في ذلك؛ فقد كانوا أصحاب مدنيَّة قويَّة شهد لها القرآن في أكثر من موضع: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُواْ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾﴾ [فصلت: 15]، وقال عنهم: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ﴿٧﴾ ٱلَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي ٱلْبِلَٰدِ ﴿٨﴾﴾ [الفجر: 6 - 8].

فلم يشهد القرآن لغيرهم بهذا الامتداد في القوة والتمكين في العُمْران، لكنَّ عناصر ديمومة حضارتهم كانت قاصرةً، فلم يتحقَّق فيها ركن العقيدة الصحيحة، بل كانت مبادؤهم فاسدةً، وأفعالهم قبيحة، صوَّرها القرآن في أكثر من موضع، واصفًا إيّاهم بالاستكبار والتَّكذيب وغيرها من الصِّفات، وقال عنهم في هذه السّورة: ﴿وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْاْ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾﴾ [هود: 59].

فقوم عاد هم رمزٌ بارزٌ في الاستبداد السّياسيِّ والطُّغيان المادّيِّ، وإنَّ الحديث عن فسادهم هذا هو الأقرب إلَى سُورَةٍ كان من أهمِّ موضوعاتها بيانُ أثر الإصلاح في النُّهوض أو الاضمحلال الحضاريِّ؛ لأنَّ حضارتهم القويَّة قد زالت بسبب فسادهم وعدم

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/311.

استجابتهم لداعي الإصلاح بينهم، فضلًا عن التَّشَابُهِ في جَوَانِبَ كَثِيرَةٍ بَيْنَ قصَّة هود عليه السلام مع عادٍ، وَقصَّة نبيِّنا محمَّد ﷺ مع قومه في جوانب كثيرة، فقد قالت عادٌ لنبيِّهم في هذه السّورة: ﴿قَالُواْ يَٰهُودُ مَا جِئۡتَنَا بِبَيِّنَةٖ وَمَا نَحۡنُ بِتَارِكِيٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوۡلِكَ وَمَا نَحۡنُ لَكَ بِمُؤۡمِنِينَ ٥٣﴾ [هود: 53]، وفي السّورة السّابقة قالت قريش لنبيّنا: ﴿وَيَقُولُونَ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦۖ فَقُلۡ إِنَّمَا ٱلۡغَيۡبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُنتَظِرِينَ ٢٠﴾ [يونس: 20]، وفي هذه السّورة قال هود عليه السلام لقومه: ﴿قَالَ إِنِّيٓ أُشۡهِدُ ٱللَّهَ وَٱشۡهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ٥٤ مِن دُونِهِۦۖ فَكِيدُونِي جَمِيعٗا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ٥٥ إِنِّي تَوَكَّلۡتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٥٦﴾ [هود: 54 - 56]، وفي سورة الأعراف قال نبيُّنا ﷺ لقومه: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ شُرَكَآءَكُمۡ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ١٩٥ إِنَّ وَلِيِّيَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡكِتَٰبَۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ١٩٦﴾ [الأعراف: 195 - 196]

الموضوعاتُ الرئيسة للسُّورة:

مَـــدارُ الـسّـورةِ عَلَى تقريرِ أصولِ العقيدة وأركان الإيمان

أوَّلًا: تقرير أصل العقيدة وهو عبادة الله وحده لاشريك له: ﴿أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ﴾.

ثانيًا: الإيذانُ بأنَّ مصدَر الاعتقاد الصحيح هو الوحي، ويتمثَّلُ ذلك في الواسطة البشريَّة وهو الرسول ﷺ: ﴿إِنَّنِي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ وَبَشِيرٌ﴾، والواسطةِ الكِتابيَّة، وهو القرآن: ﴿كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾.

ثالثًا: تقرير العمل الصالح أصلًا من أصول الإيمان: ﴿وَأَنِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ﴾.

رابعًا: بيان أصناف النّاس في تَأَثُّرِهِمْ بِبَلاغ الرّسولِ ﷺ، وخطابِ الكتاب، وأنَّهم بين مُستجيبٍ ومُعرِض.

خامسًا: تقرير عقيدة البعثِ واليوم الآخِر وما يقترِنُ بها من

مبدأ الثواب والعقاب: ﴿وَأَنِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُمَتِّعۡكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى وَيُؤۡتِ كُلَّ ذِي فَضۡلٖ فَضۡلَهُۥۖ وَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ كَبِيرٍ ٣ إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾.

سادسًا: تقرير عقيدة القضاء والقَدَر وما يتَّصل بها من كتابة الأرزاق والآجال والأحوال والمآلات: ﴿۞وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا وَيَعۡلَمُ مُسۡتَقَرَّهَا وَمُسۡتَوۡدَعَهَاۚ كُلّٞ فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ٦﴾ [هود: 6].

سابعًا: الاستدلال على عقيدة البعثِ الآخِر بالقُدرةِ على الخلْقِ الأوَّل: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ وَكَانَ عَرۡشُهُۥ عَلَى ٱلۡمَآءِ﴾ إلى قولِه: ﴿وَلَئِن قُلۡتَ إِنَّكُم مَّبۡعُوثُونَ مِنۢ بَعۡدِ ٱلۡمَوۡتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ٧﴾ [هود: 7].

ثامنًا: بيان تباين طبائع النّاس واختلاف استعداداتِهم تجاه تلك الأصول والعقائد الحَقَّة: ﴿وَلَئِن قُلۡتَ إِنَّكُم مَّبۡعُوثُونَ مِنۢ بَعۡدِ ٱلۡمَوۡتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ٧﴾ [هود: 7]، ﴿وَلَئِنۡ أَخَّرۡنَا عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٖ مَّعۡدُودَةٖ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحۡبِسُهُۥٓۗ﴾ [هود: 8]، ﴿وَلَئِنۡ أَذَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِنَّا رَحۡمَةٗ ثُمَّ نَزَعۡنَٰهَا مِنۡهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٞ كَفُورٞ ٩﴾ [هود: 9]، ﴿وَلَئِنۡ أَذَقۡنَٰهُ نَعۡمَآءَ بَعۡدَ ضَرَّآءَ مَسَّتۡهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّيٓۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٞ فَخُورٌ ١٠﴾ [هود: 10]، ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ ١١﴾ [هود: 11].

تاسعًا: الاستدلالُ على صحَّة القرآنِ ومصدرِه الإلهيِّ بإقرار التَّحدِّي معه ومحاولة الإتيان بمثله: ﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ فَأۡتُواْ بِعَشۡرِ سُوَرٖ مِّثۡلِهِۦ مُفۡتَرَيَٰتٖ﴾ [هود: 13].

عاشرًا: عرضُ تفصيلٍ من مشاهد الثواب والعقاب لمن يريد الحياة الدنيا وزينتها، ومن يريد الآخرةَ ورضوانها: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيۡهِمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ فِيهَا وَهُمۡ فِيهَا لَا يُبۡخَسُونَ ١٥ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيۡسَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُۖ﴾ [هود: 15 - 16] إلى أن قال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخۡبَتُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٢٣﴾ [هود: 23].

حادي عشر: تأكيد المقارنة بين أصناف النّاس وتباينهم: ﴿۞مَثَلُ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ كَٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡأَصَمِّ وَٱلۡبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِۚ هَلۡ يَسۡتَوِيَانِ مَثَلًاۚ﴾ [هود: 24].

ثاني عشر: ذِكْر الأمثلةِ الحيَّة من سِيَرِ الرُّسُل في إبلاغ العقيدة للناس، وأحوال النّاس معهم، وتباينهم في المآل والجزاءِ، كما تباينوا في التصديق والتكذيب.

ثالث عشر: حشْدُ مشاهدَ من أحوال اليوم الآخر وانتهاء النّاس فيه إلى شقيٍّ وسعيد وثوابِ كُلٍّ وعقابِهم.

رابع عشر: خطابُ الرسولِ ﷺ وأمَّتِه بالاستقامة والانتظام في سلك السُّعداء وعدم الركون إلَى الأشْقِيَاءِ الظالمين، والاستعانة على ذلك بالأعمال الصالحات بأداء الصلوات واكتساب الحسنات.

خامس عشر: تقريرُ سنَّةِ اللّه الثابتة في اختلاف النّاس في الإيمان والكفر، بما يترتَّبُ عليه استحقاقُهم لتبايُنِ المصير بينهم، ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾﴾ [هود: 118]، ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾﴾ [هود: 119].

سادس عشر: ختامُ السّورةِ كان مُلخِّصًا عجيبَ الإشارة إلى كلِّ ما ورد فيها من مقاصد وأصول، فأشار إلى انْقِسام الناس واختلافهم: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾﴾ [هود: 118]، وأشار إلى عقيدة القدر: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ﴾ [هود: 119]، وأشار إلى جميع ما ورد فيها من قصص بما يقرر النبوّات: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ [هود: 120]، وأشار إلى الغيبيات وجزاء اليوم الآخر ووعيده: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾﴾ [هود: 119]، وأشار إلى عقيدة الوحي وصدق الكتاب: ﴿وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ﴾ [هود: 120]، وأشار إلى وظيفته في البلاغ بالبشارة والنِّذارة، فقال في البشارة: ﴿وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾﴾ [هود: 120]، وفي النِّذارة: ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَٰمِلُونَ ﴿١٢١﴾ وَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ [هود: 121 - 122]، وكما بدأ السّورةَ بإخلاص العبوديَّة له وكونِ رجوعنا إليه، وكونه يعلم ما يسرّون، وما يعلنون، ختمها كذلك بالتكليف بعبوديَّته، لِكونِ مَرجِعِ الأمر كلِّه له ولكونه يعلم أعمالَنا، ولا يَغفُل عنّا: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾﴾ [هود: 123].

بيان محورها العام والموضوعات التي تأتلف فيهِ وتَلْتَفُّ بِهِ:

المحور العامُّ الَّذي يجمع موضوعات هذه السُّورة هو تناولها أثَرَ الإصلاح المنهجيِّ السَّليم

في نهوض الحضارات أو اضمحلالها، من خلال عَرضِها نَماذِجَ من الأنبياء المصلحين الَّذين كان لهم دورٌ بارزٌ في إصلاح فساد أقوامهم، وقد جاء ذلك صريحًا على لسان شعيب عليه السلام: ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾﴾ [هود: 88]، مبيِّنةً وسائلهم في الإصلاح الَّذي انتهجوه، ومجالات الفساد العقديِّ والسياسيِّ والاقتصاديِّ والأخلاقيِّ الَّذي واجهوه، مبرزة آثار هذا الإصلاح مع أقوامهم عند عدم استجابتهم له سواء أكان دنيويًّا أم أخرويًّا، مبيِّنةً في أثناء ذلك كلِّه بعضَ سنن اللّه الاجتماعيَّةِ وقوانينه الثّابتة في شأن الرَّبط بين الإصلاح والنُّهوض أو الاضمحلال الحضاريِّ.

إنَّ السّورةَ تَطَرَّقَتْ إلَى شعار الإصلاح الَّذي انتهجه الأنبياء المصلحون، القائم على التَّخلية ثمَّ التَّحلية، وهو الاستغفار وطلب التوبة، ثمَّ توحيد اللّه والاستقامة على شريعته: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۚ إِنَّنِى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴿٢﴾ وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ ۖ وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾ [هود: 2 - 3]، وهو الشعار الذي ردّده الأنبياء عليهم السلام في محاوراتهم لأقوامهم على ما بيّنتْه السورة في الآيات: [هود: 25 - 26، 50، 61، 84].

وقد اختُصِرَ هذا الشِّعار بدعوة نبيِّنا محمّد ﷺ: ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا۟ ۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾﴾ [هود: 112]

وقد تنوَّعت وسائل هؤلاء الأنبياء المصلحين في دعوتهم لأقوامهم الَّذينَ تَكْتَنِفُهُمْ أحْوالٌ شَتَّى، لكنَّها اشتركت في الإنذار والتَّبشير والتَّذكير والحوار، فهي سورة الحواراتِ المطوَّلة للأنبياء مع أقوامهم، ولا أدلَّ على ذلك من شهادة قوم نوح لنبيِّهم: ﴿يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا﴾ [هود: 32].

وقد بيَّنت السّورةُ الآثار الدُّنيويَّة الإيجابيَّة للاستجابة إلى دعوات الإصلاح على لسان هود عليه السلام الَّذي تسمَّت السّورة باسمه: ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾ [هود: 52].

وبيَّنت الآثار السَّلبيَّة لعدم الاستجابة على لسانه أيضًا: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ ۚ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّى قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴿٥٧﴾﴾ [هود: 57].

وكشفت السّورةُ الكريمة جوانب هذا الاستبدال بِالأقْوَامِ المفسدة الَّذين تناولتهم السّورة قَوْمًا آخَرِينَ، فقوم نوح قد أصابهم الغرق، وقوم هود أتبعوا اللّعنة في هذه الدّنيا، وقوم صالح وقومُ شعيب أخذتهم الصيحة فأُبيدوا عن بكرتهم، وكذا أقوام لوط وملأ فرعون وبقيَّة القرى.

وبيَّنت السّورةُ قواعدَ الإصلاح وسننَهُ الرَّبّانيَّة الَّتي لا تقبل التَّغيير والتَّبديل وَقَدْ ربطت بقوَّة بين هذا الإصلاح وبين الشُّهود أو الاضمحلال الحضاريِّ في أكثر من آية، فقال في السُّنَّة الرَّبّانيَّة الأولى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [هود: 7]، فسنَّة البلاء هي مناط الأمر وذروة سنامه، وبيَّنت سنن الله في إهلاك الظّالمين، حيث إنَّ لفظة الظُّلم قد وردت في هذه السّورة نحو أربع عشرة مرَّة، فقد قال تعالى عن الأقوام الغابرة: ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴿١٠١﴾﴾ [هود: 101]، وكذا في الآيات [113، 116، 117].

وبيَّنت السّورة حال الفريقَيْن: المصلحين والمفسدين، وعاقبة أمرهم في الآخرة: ﴿۞مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [هود: 24]، وقال: ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾﴾ [هود: 105]، واستكملت السورة بيان أحوال كل فريق.

بيانُ المناسبةِ بين السورة وسابقتها ولاحقتها:

سورةُ (هود) بين سورةِ (يونُس) وسورة (يوسف) في النُّزول وفي ترتيب المصحف

سورةُ هود مُكمِّلةٌ لسورة يونس، وباسِطةٌ لِما أُجمِلَ فيها، ووجه اتِّصالهما وتناسبِهما: اتحادُ السّورتين في تقرير أصولِ الدّين، والاستدلال عليها، ودفعِ شُبَهِ المُعارضين وتحدّيهم وإقامةِ الحجَّة عليهم، وذكر اليوم الآخر، وتصنيف النّاس بتباين أحوالهم في الدنيا بين مُخالفٍ وطائع، وتباين جزاءاتِهم في الآخرة، فاتَّفقتْ مع سورة يونس في الجوانب الآتية:

أولًا: توارد السّورتين على إثباتِ تنزيل القرآن وتحدّي المعارضين به.

ثانيًا: أكْمَلَتْ سورةُ هود جانبَ القصص الذي أوجزَ في سورة يونس.

ثالثًا: توافقهما في المطلع، فمطلعُ سورة يونس يتحدَّث عن الكتابِ الحكيم: ﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ ١﴾ [يونس: 1]، والرسول البشير النَّذير: ﴿أَنۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ رَجُلٖ مِّنۡهُمۡ أَنۡ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ [يونس: 2]، وكذلك المطلع في سورة هود: ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ﴾، ﴿إِنَّنِي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ﴾.

رابعًا: توافقهما في الخاتمة، فخاتمة يونس في الأمر باتِّباع الوحي والصَّبر حتى يحكم الله بين الرسول والكافرين: ﴿وَٱتَّبِعۡ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ وَٱصۡبِرۡ حَتَّىٰ يَحۡكُمَ ٱللَّهُۚ﴾، وخاتمة سورة هود عن تثبيتِ الوحي لمن اتَّبعه: ﴿مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَۚ﴾، والأمر بانتظار حكم الله مع الاستقامة على هذا الاتِّباع بعبادته والتَّوكُّل عليه: ﴿وَٱنتَظِرُوٓاْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ١٢٢﴾ [هود: 122]، ﴿وَإِلَيۡهِ يُرۡجَعُ ٱلۡأَمۡرُ كُلُّهُۥ فَٱعۡبُدۡهُ وَتَوَكَّلۡ عَلَيۡهِۚ﴾ [هود: 123].

خامسًا: توافقُ ختام سورة يونس مع مطلع سورة هود، فإنَّ قوله في ختام يونس: ﴿وَٱتَّبِعۡ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ﴾ [يونس 109]، هو نظيرُ قوله في مطلع هود: ﴿كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود: 1].

سادسًا: نزلت سورة هود بعد سورة يونس، ونزلت سورة يونس بعد الإسراء وقُبَيْل الهجرة، فيكون نزول سورة هود في ذلك التاريخ أيضًا، وهو من تمام المناسبة في ترتيب النزول وترتيب المصحف[1].

وأمّا عن علاقتها بسورة يوسف؛ فلأنّ سورة يوسف متمِّمة لما في سورة هود من قصص الرسل، والاستدلال بذلك على كون القرآن وحيًا من عند الله دالًّا على رسالة محمد ﷺ خاتم النّبيين، والفرق بين القصص في سورة يوسف وفيما قبلها: أنَّ السابق كان قصص الرسل مع أقوامهم في تبليغ الدَّعوة والمحاجَّة فيها وعاقبة من آمن منهم، ومن كذَّبوهم لإنذار مشركي مكَّة ومن تبعهم من العرب[2].

(1) السيوطي، تَناسُق الدّرر في تَناسُب السوَر، ص: 95، ورشيد رضا، تفسير المنار: 3/12، وطنطاوي، التفسير الوسيط: 7/148، وجعفر شرف الدين، الموسوعة القرآنية: 4/65.

(2) المراغي، تفسير المراغي: 11/112.

﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ١﴾ [هود: 1]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

القرآنُ الكريم مُستودَعٌ لِحكمِ اللهِ وأحكامِه

لمّا ذكر الله ﷻ - في آخر السورة التي قبلها - انتظارَ حُكْمِ خير الحاكمين، وكان القرآنُ الكريم مُستودَعًا لِحُكمِ الله وأحكامِه، ذكرَ الله ﷻ ما يدلُّ على ذلك الحُكمِ المُحكَم فقال: ﴿كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾، أي: في الآياتِ المُحكمَةِ المُفصَّلة تَجِدُ حُكْمَ الله الذي آذَنَك به.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أُحۡكِمَتۡ﴾: مِنْ (حكم)، وهو أصلٌ يدلُّ على المنْع، ومنه الحُكْم، وهو المنْع لأجل الإصلاح، ومنه الحِكمة، وهي الإصابةُ للحقِّ، فهي تمنع من الجهل والباطل، ومنه الإحكام، أي: إتقانُ الشيء، فهو مانِعٌ من الخَلَلِ في أجزائِه وجودةِ ظاهرِه، والمعنى هنا في: ﴿أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ﴾ إفادةُ أنَّها حكيمةٌ في معناها، مُحكمَةٌ في مبناها، أي: مُتقَنة، وهي تفيدُ الحُكمَ، فمنها يُتعرَّفُ على أحكام الله وأقضِيَتِه[1].

2) ﴿فُصِّلَتۡ﴾: أصلُ التفصيلِ: من الفصْل، وهو: قطعُ الشيء وإبانَتُه وتفريقُهُ عمّا سواه؛ ليتميَّزَ، ويستقلَّ، ويَبينَ من غيرِه، ومعنى تفصيلِ الكتابِ: جَعْلُ حقائقِه ومسائلِه المرادِ بيانُها مفصولًا بعضُها مِنْ بعضٍ بحيثُ لا تَشْتَبِه[2].

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات: (حكم).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (فصل)، ورشيد رضا، تفسير المنار: 8/393.

المَعْنى الإجْماليُّ:

هذه الحروف حروفٌ هجائية لا معنى لها في نفسها؛ إذا جاءت مفردةً، ولها معنًى ومغزًى، إذا جاءت مركبةً مثل مطلع السورة: ﴿الٓرۚ﴾؛ فهي من الحروف المقطَّعة في أوائل السور، وفيها إشارةٌ إلى إعجاز القرآن؛ فقد وقعَ به تحدّي المشركين، فعجَزوا عن معارضتهِ، وهو مركَّب من هذه الحروفِ التي تتكوَّنُ منها لغة العرب، فدَلَّ عجز العرب عن الإتيانِ بمثلهِ - مع أنَّهم أفصحُ الناس - على أنَّ القرآن وحيٌ من الله، هذا الكتابُ الذي أنزله الله على رسول الله ﷺ قد أُحكِمَتْ آياتُه من الخلَلِ والباطل، ثم بُيِّنَتْ بالأمرِ والنَّهي وبيانِ الحلالِ والحرامِ مِنْ عندِ حكيمٍ في تدبيرِه وتشريعِهِ، خبيرٍ بأحوالِ عبادِه، وبما يُصلِحُهُم[1].

كِتابُ اللهِ مُحكَمٌ في نفْسِه حاكِمٌ على ما سِواهُ، ولهُ شرفٌ حقيقيٌّ في إعجازه

وترشدُ الآيةُ الكريمة إلى أنَّ استقراءَ القرآن العظيم يرجِّحُ أنَّ السّورَ التي افتُتِحت بالحروف المقطَّعة يُذكرُ فيها غالبًا عقب الحروف المقطعة الانتصارُ للقرآن وبيانُ إعجازِهِ، وأنَّه الحقُّ الذي لا شكَّ فيه، وذكرُ ذلك بعدها دائمًا دليلٌ استقرائيٌّ على أنَّ الحروف المقطعة قُصدَ بها إظهارُ إعجاز القرآن، وأنَّه حقٌّ، وترشدُ الآيةُ إلى أنَّ هذا القرآنَ كتابُ الله الخالد في الوجود الإنسانيِّ، كان مع حلاوة نَغَمه وتواصله وعبارتِه وتساوقِ معانيه مبيِّنًا مفصِّلًا لأبواب الحلال والحرام والعقائد والمواعظ[2].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

الموقع النَّحويُّ لقوله: ﴿كِتَٰبٌ﴾:

قوله: ﴿كِتَٰبٌ﴾ إمّا خبر لقوله: ﴿الٓرۚ﴾ أو خبر لمبتدأ محذوف،

الحروف المقطَّعةُ من الكتابِ الذي أحكِمتْ آياتُه

(1) مجمّع الملك فهد، التفسير الميسّر، ص: 2/221، وجماعة من العلماء، المختصر في تفسير القرآن، ص: 221.

(2) الشنقيطي، أضواء البيان: 3/8، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 7/3660.

أي: ذلك كتابٌ، أو ﴿كِتَٰبٌ﴾ مبتدأ، وما بعده خبرٌ أو صفة، وساغَ الابتداء بالنَّكِرة لكونها نكرةً موصوفةً بما بعده، أو لكونها سيقتْ ممدوحةً؛ إذْ تنكيرُها لتعظيمها، أو قُصِدَ بها النَّوع لا الفرد، فزالَ إبهامُها، فصَلُحَتْ للإخبار عنها بقوله: ﴿أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ﴾[1].

نكتة تنكير ﴿كِتَٰبٌ﴾:

تنكيرُ الكتاب في قوله: ﴿كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ﴾ لإفادةِ الكمالِ النوعيِّ، أي: هو نوعٌ من أنواع الكُتُبِ الكاملة المُنَزَّلَةِ سَلَفًا، فليس بِدْعًا منها، فالتنكيرُ لدفْع استبعادِ تنزُّله، وثبوتِ إمكانِه، أو التنكير للتعظيم، أي: كتابٌ عظيمُ الشأنِ في وَصْفِه، أو التنكير للتعجيب، أي: كتابٌ يُعجَبُ منه في لُغَتِه ووجوه إعجازه، وكوْنِه نازلًا على أُمّيٍّ لم يَتْلُ كِتابًا قبلَه، ولم يَخُطَّ بالقلمِ شيئًا، وعلى إرادة النوعيَّة لم يُنْظَر إلى شخصِ القرآنِ وعينِهِ بل نوعِهِ، وعلى إرادة التعظيم والتعجيب فالمراد التشخيص[2].

الموقع النَّحويُّ والبيانيُّ لـ: ﴿أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ﴾:

جملة: ﴿أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ﴾ صفةٌ للكتاب، أي: كتابٌ موصوفٌ بالإحكام، وشبه الجملة خبر في قوله: ﴿مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾، أو ﴿أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ﴾ خبر، والجار والمجرور متعلِّقٌ به أو بالمعطوف عليه، وهي قوله: ﴿ثُمَّ فُصِّلَتۡ﴾[3].

نكتة التَّعبير بـ ﴿أُحۡكِمَتۡ﴾ مادَّة وصيغة:

التَّعبيرُ بلفظ ﴿أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ﴾ تَضمَّنَ ثلاثَ دلالات:

الأولى: أنَّها جُعِلَتْ حكيمةً، فهي من (حَكُمَ الشَّيءُ)، أي: اتَّصف

القرآنُ هو الكتابُ الكاملُ في إحكامه وتفصيله

إذا كان الكتابُ من لدن حكيمٍ خبيرٍ؛ فهو الكتابُ المعصوم

الكتاب الموصوف بالإحكام والحِكمة حريٌّ بأنْ يُحَكَّمَ ويُقَدَّم

(1) الآلوسي، روح المعاني: 6/190، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 8/10، وصافي، الجدول: 11/213، والخطيب، التفصيل في الإعراب: 6/265.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 8/10، وفاضل السامرائي، معاني النحو: 1/40.

(3) السّمين الحلبي، الدّرّ المصون: 6/278، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/314، وصافي، الجدول: 11/213.

بالحكمة، وتكون الهمزة للتعدية والنقل، وكونها حكيمةً، مؤذِنٌ بتنزيهِها من العبَثِ واللغو.

الثانية: أنَّها حُكِمَتْ من الباطلِ والكذِب، أي: مُنِعَتْ منهما، مِن (حُكِمَ بالقَيْد)؛ إذا مُنِعَ به، وتكون الهمزة للنقل والتعدية في ﴿أُحْكِمَتْ﴾، وهذا المعنى دالٌّ على أنَّها خالِصةٌ للحقِّ خالِيةٌ مِمّا يُخالِفُه.

الثالثة: أنَّها من أحكَمَ الشيءَ؛ إذا أتْقنَه، فالهمزةُ فيه ليستْ للتَّعدية، ومدلول ذلك: أنَّ الكتابَ مُتْقَنٌ في نَظْمِه وسَبْكِه، لإحكامِهِ في جمالِ مَبْناه وجلالِ معناه.

وجاءت الكلمةُ بصيغة الماضي لإفادة التَّحقُّق، فهو إحكامٌ تامٌّ قد فُرِغَ منه، وحُكِمَ به[1].

دلالاتُ ﴿ثُمَّ﴾ ومعانيها:

تفصيلُ الكتابِ مُقتَرِنٌ بإحكامِه

أوَّلًا: ﴿ثُمَّ﴾ في قوله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾، للتراخي والترتيب الذِّكريِّ في اللفظِ لا في المعنى، وفي التركيب لا في الواقع، كمن يَسْرُدُ أخبارًا، فيقول: فلانٌ كريمُ الأصل، ثمَّ كريم الفِعل، فكأنَّه قيل: هي مُحكمةٌ أحْسَنَ الإحكام، ثمَّ مُفصَّلةٌ أحْسَنَ التَّفصيلِ، وهذا مَبنيٌّ على اعتبار أنَّ الإحكام مُصاحبٌ للتفصيل، فهي حالَ تفصيلِها مُحكمَةٌ، وحال إحكامِها مُفَصَّلة؛ إذِ التَّفصيلُ بمعنى اشتمالها على الأحكام الفاصِلة بين الحلال والحرام والبيِّنات التفصيليَّة، وهذا مُلازِمٌ للإحكام من أوَّل الأمر لا ينفكُّ عنه[2].

ثانيًا: على استحضار أنَّ تفصيلَ الآياتِ لا يتِمُّ إلّا بإحكامها، فيكون معنى ﴿ثُمَّ﴾ للتراخي الرُّتبي، فهو من باب الترقِّي والتدرُّج

(1) السّمين الحلبي، الدّرّ المصون: 6/278.

(2) الزمخشري، الكشاف: 2/377، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/313، والرّضي، شرح الكافية: 4/390.

في رُتَبِ المعاني؛ لأنَّ الإحكام أهمُّ رُتْبَةً، ثمَّ يَلِيهِ التفصيلُ، إذْ هو كالأساسِ له[1]، والتراخي هو التراخي المعنويُّ، ذلك لأنَّ الناسَ ألِفوا أنَّ الكلامَ المحكمَ في نغمه وألفاظه وكلماته وأسلوبه لا يكون مفصَّلًا في معانيه، أي: لا يكون مبيَّنًا واضحًا؛ لأنَّ النَّغَمَ يَشغلُ القارئين عن المعاني، ولكنْ هذا القرآنُ كتابُ اللّٰه الخالد في الوجود الإنسانيِّ، كان مع حلاوةِ نَغَمِه وتواصله وعبارته وتساوقِ معانيه مبيِّنًا مفصِّلًا لأبواب الحلال والحرام والعقائد والمواعظ، والترتيبُ ليس للترتيب الزمني، إنَّما هو للترتيب الفِكري والترابطِ النفسي، فكلمةُ ﴿ثُمَّ﴾ هنا للترتيب والتراخي[2].

ثالثًا: على معنى أنَّ التَّفصيل بمعنى التنجيم وهو نزوله مُفَرَّقًا، فإحكامُه واقِعٌ أوَّلًا، وتفصيلُه لاحِقٌ له زَمَنًا، فتكون ﴿ثُمَّ﴾ على بابِها من إفادة الترتيب والتَّراخي الزَّمنيِّ[3].

نكتةُ التَّعبير بـ ﴿فُصِّلَتْ﴾ مادَّة وصيغة:

لا يُفْقَهُ المُحكَم إلا بتفصيلِه

التعبير بالتفصيل في قوله: ﴿ثُمَّ فُصِّلَتْ﴾ دلَّ على اتِّصافِ الآياتِ بالمُبايَنَةِ والمُمايَزَةِ والمُفاصلَةِ في ثلاثةِ أشياء:

الأوَّل: المعاني، فمعانيها مُتباينةٌ بين حلالٍ وحرام، وزجْرٍ ووعظٍ، وحِكَمٍ وأحكام.

الثاني: المباني، فتراكيبها فواصلُ ورؤوسُ آي، وهي مقاطِعُ وسُوَر، وتقاسيمُ وتفاريق.

الثالث: هيئةُ الحصول، فالآياتُ حاصِلةٌ بالتنزيل المُفرَّق، فأجزاؤها منفصِلةٌ عن بعضِها في نزولها، فهي متباينةٌ في حصولِها، مُتَقَطِّعَةٌ في نُزولِها، مُنْفَصِلَةٌ في وُصولِها.

(1) سيبويه، الكتاب: 1/34، وابن القيّم، بدائع الفوائد: 1/61، والآلوسي، روح المعاني: 6/191.
(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 7/3660.
(3) السّمين الحلبي، الدّرّ المصون: 6/279، والآلوسي، روح المعاني: 6/191.

وجاء التعبير بصيغةِ البناءِ الماضي لِما لم يُسَمَّ فاعِلُه؛ لتفخيم أمْرِ تفصيلها، بإفراغِ ذِهْنِ السّامع من ملاحظةِ الفاعل، ليتفرَّغَ لمُلاحظةِ الفِعلِ والعكوفِ على معناه، والاطِّرادِ بمجامِعِ هِمَّتِه مع حقائقِ الفِعلِ وهيئتِه[1].

جماليةُ الاستعارة في: ﴿أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ﴾:

أعزُّ ما تتَّصِفُ به الكُتُب أنْ تكون مُحكمَةً مُفصَّلة

في التعبير بالإحكام ثم التفصيل في قوله: ﴿أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ﴾ استعارةٌ تمثيليَّة، حيثُ شبَّه آياتِ القرآنِ في نظْمِها المُحكَم في معناها ومبناها، بالبناء المَرصوص المُتْقَن في أساسِه وتَشْييدِه؛ إذ جاءت آياتُ القرآن الكريم في أسلوب محكم وفصيح، يتَّسِمُ بالبلاغة والفصاحة، كما أنَّها جاءت مرتَّبةً ومنظَّمة، يسهل على القارئ فهمُها، وشبَّه القرآنَ في فُصولِه وفواصِلِه وتفصيلِ مضامينه، بالعِقْدِ الثَّمين، واللؤلُؤِ المنظوم في تفصيلِ فُصوصِه، وتَجْزِئةِ خَرَزاتِه، وتقسيمِ هيئاتِه[2]؛ ولذلك فإنَّ الاستعارة التمثيلية في هذه الآية تُبرز جمالَ القرآن الكريم وبلاغته، وتُبيِّن مدى عنايةِ اللّٰه تعالى في ترتيبِ آياته وتنسيقِها.

معنى ﴿مِن﴾:

وثوقيَّةُ المصدر برهانٌ على وثوقيَّةِ الصّادرِ عنه

﴿مِن﴾ في قوله: ﴿كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ على معنى الابتداء، أي: كتابٌ موصوفٌ بصفتين: أنَّه أحكِمتْ آياتُه، وفصِّلتْ، وأنَّه صادرٌ وواصِلٌ ومُبتَدأٌ من عند الحكيم الخبير، فـ﴿مِن﴾ مع مجرورها صفةٌ ثانيةٌ للكتاب[3].

علَّةُ ختم الآية بهذَيْن الوصفَيْن الجليلَيْن:

الإحكامُ أثَرُ اسمِ الحكيم والتفصيل أثَرُ اسمِ الخبير

ختْمُ الآيةِ باسمَي الحكيم والخبير هو ختْمٌ لوحظَ فيه مَطْلعُ الآية، فكأنَّه قال: أُحكِمَتْ آياتُه من لدن حكيم، وفُصِّلَتْ آياتُه من

(1) البقاعي، نظم الدرر: 9/225.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 6/191.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 6/191.

لدن خبير عالم بالتفاصيلِ والكيفيَّات، فَفِعْلُ: ﴿أُحْكِمَتْ﴾ أثَرُ صِفَةِ (الحكيم)، وفِعلُ: ﴿فُصِّلَتْ﴾ أثَرُ صِفةِ (الخبير)، وقد انبنَى هذا التقديرُ على أسلوبين الأوَّل: اللَّفُّ والنَّشْر على الترتيب، والثاني: مُراعاةُ النَّظيرِ بالمُزاوَجَةِ بين طَرَفَي الكلامِ في المُناسبةِ المعنويَّة[1].

نكتةُ تنكيرِ هذَيْن الاسمَيْن الجليلَيْن:

صِفاتُ اللهِ واسِعةٌ لا تَقْصُرُ عن شيء

جاء النَّظْمُ الكريمُ بتنكيرِ الاسمين الجليلين في قوله: ﴿مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾؛ لإطلاق الصِّفَتَيْنِ المذكورتين تعظيمًا لذاتِ المتَّصِفِ بهما، وتفخيمًا لِسَعةِ الوَصفين في مُتعلَّقاتِهما، فكأنَّه قال: حكيم أيِّ حكمةٍ! وخبيرٍ أيِّ خِبْرةٍ! ليفيدَ بالتَّنكير قدْرًا مُبْهَمًا في الصِّفتين لا يُقادَرُ قَدرُه، ولا يُبْلَغُ كُنْهُه[2].

سرُّ صيغ المبالغة في الاسمَيْن الجليلَيْن:

صِفاتُ اللهِ كامِلةٌ دائمةٌ لا تنقطع آثارها

في قوله تعالى: ﴿مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ جاء الوصفانِ الجليلانِ ﴿حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ على وزن (فَعيل)، وهما مَصوغان من اللازم الثلاثي (حَكُمَ وخَبُرَ) على وزن (فَعُلَ) الدّالِّ على الصفات الثّابتة اللازمة كالطبائع والغرائز والسَّجايا، فصيغة (فعيل) - هنا - صِفةٌ مُشبَّهة؛ إذْ هي مُنْقاسَةٌ من (فعُل) اللازم، ونكتةُ التعبير بها: الدَّلالة على ديمومة الصِّفةِ وثبوتها، فمعنى حكيم: دائمُ الحكمة، الموصوفُ بكمال الحكمة، وبكمال الحُكم بين المخلوقات، وخبير: دائمُ الخِبرة، الذي أحاط علمُه ببواطن الأشياء، وخفاياها كما أحاطَ بظَواهرها، ثمَّ يجوزُ أنْ تُحمَل الصيغة هنا على المبالغة بطريق اللُّزوم؛ إذْ ديمومةُ الصِّفة يلزم عنها كثرتُها؛ لأنَّ الصِّفَةَ لا تدومُ مع قِلَّة، فيدلُّ الوصفان المذكوران على الديمومة والكثرةِ معًا[3].

---

(1) الآلوسي، روح المعاني: 6/192، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/315.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/183.

(3) برهان الدين ابن القيم، إرشاد السّالك: 1/680، والمرادي، توضيح المقاصد: 2/22، وشوقي ضيف، تيسيرات لغويَّة، ص: 96، وفاضل السامرائي، معاني الأبنية، ص: 84.

فائدةُ تقديم صفة الحكمة:

تـزدانُ الصِّفاتُ بـالـحِـكـمـةِ والحُكْم

أوَّلًا: قدَّمَ ﴿حَكِيمٍ﴾ على ﴿خَبِيرٍ﴾ في قوله: ﴿مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾؛ لترتيبِ اللَّف والنشرِ في الآية، فقوله: ﴿أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ﴾ مُتقدِّمٌ، وقد وافقَ معنى ﴿حَكِيمٍ﴾، وقوله: ﴿ثُمَّ فُصِّلَتْ﴾ متأخِّرٌ، وقد وافقَ معنى ﴿خَبِيرٍ﴾، فوافق ترتيبُ الاسمين ترتيبَ ما ناسَبَهما في المعنى في مطلع الآية، فلِمُقتضى الحكمة أحكمَ الآيات، ولمقتضى الخبرة فصَّلها.

ثانيًا: لجَريانِ الخِبْرةِ بعد الحِكمة، فالحكمة من لوازم الإرادة والقدرة؛ إذ هي كمال الحكمة وكمالُ الحُكْم، فهو مُبدِع الأشياء ومتقِنُها بمراعاة مقاديرها ووضعها في مواضعها، وصفة الخبيرِ من لَوَازِمِ العِلم، وتعلُّقها بدقائق الجزئيات وخفايا المعلومات، فكأنَّه يريد، ويحكُم ويُبدِعُ ويُتقِن، وما أتْقَنَه وأحكَمَه إجمالًا وظاهرًا، فقد عَلِمَ به تفصيلًا وباطنًا، وخَبَرَ خفاياه وجزئيّاتِه[1].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(فُصِّلَتْ) و(بُيِّنَتْ):

الـتـفـصـيـل هـو غايةُ التبيين، فلا يمكِن التفصيل من غيرِ بيان، ولا يلزم العكس

التفصيل: هو التَّمييز بين شيئين، بحيث تُقيم فاصلًا بينهما، فلا يتداخلان، أو يتمازجان، والبيان: هو كشْفُ الشيء وتجْلِيَتُه وإيضاحه باستقلال من غير اشتراط وقوعه مُوَازَنًا بغيره أو استصحاب غيره معه، ولذلك فالتفصيلُ بيانٌ زوجيٌّ أو جَمْعيٌّ لمتعدِّد، والتَّبيين بيانٌ فرديٌّ لا يلزم فيه استحضار معنى الثنائيَّة أو التَّعدُّديَّة، والتَّفصيل هو الانتقال بين الفصول والمُقابَلات. والتَّبيين هو مطلق الإيضاح، وعليه: فالتفصيل أعمُّ من البيان، فهو بيانٌ مَزيدٌ بتحريرِ المُبَيَّنات بعضِها عن بعض وإقالتِها، بحيث

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/183.

لا يُحتَمَل معها تداخل أو التباس، ولا يقع عليها إيراد أو إشكال، ولا تفتقر إلى اسْتِيفاءٍ واستتمام، والتفصيل هو غاية التبيين، فلا يمكن التفصيل من غير بيان، ولكن يمكن التبيين من غير تفصيل[1].

(1) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 59، وابن فارس، مقاييس اللغة: (بين، فصل)، والزمخشري، أساس البلاغة: (فصل)، وابن الجوزي، نزهة الأعين، ص: 212، والكفويّ، الكلّيّات، ص: 230.

﴿أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ إِنَّنِي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ ٢﴾ [هود: 2]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

البِشارةُ والنِّذارةُ تَقْتَضيان سَبْقَ التكليفِ والتشريع

لمّا أخبَر اللّه سبحانه في الآية السابقةِ أنَّ الكتابَ مُحكَمٌ ومفَصَّلٌ في آياتِه؛ بيَّنَ هنا وجهًا من وجوه إحكامه وتفصيلِه، فذكَر أصولَ الأحكامِ التي هي غايةُ إحكامِ الآيات، وأوردَها مُقسَّمَةً مُفَصَّلةً، فذكرَ الإلهيات، ثمَّ النبوّات، ثمَّ التكاليف، على هذا الإحكام، وذلك التفصيلُ والتَّقسيم.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿نَذِيرٞ﴾: النَّذير، مِنْ (نذر)، وهو أصلٌ يدلُّ على تخويفٍ، ولا يكاد يكون إلا في التَّخويف، ومنه الإنذار: الإبلاغُ بما يُحذَر في مدَّةٍ تتَّسع للاحتراز منه؛ فإنْ لم يكنْ في مدَّةٍ تَسَع التوقّي منه، فهو مجرَّد إخبارٍ وإبلاغٍ بوقوع المكروه، وليس إنذارًا منه[1]. ومعنى الآية: مُخَوِّفٌ لكم من عذاب اللّه إن كفرتم به، وعصيتموه.

2) ﴿وَبَشِيرٞ﴾: البشير هو فاعلُ (التبشيرِ) وهو الإخبار بما يؤثِّر في البَشَرةِ (ظاهرِ الجِلدِ) تغيُّرًا، وغلبَ استعمالُه في الإخبار بما يَسُرُّ ويُفرِح، فهو ضِدُّ النَّذير؛ لأنَّه يُخبر بالمكروه، والمراد هنا: أنَّه يُخبرهم بالوعد السّارِّ على العمل الصّالح[2].

المَعْنى الإجْمالِيُّ:

قَصْرُ العبادة على الله وحده، والإقرارُ بمبدأِ الثّوابِ والعقاب

يخبِرُ اللّه تعالى أنَّ مضمونَ هذا الكتاب الذي انبنى عليه إحكامُه وتفصيله، هو إقرار العبادة للّه وحده لا شريك له، والنَّهي عن الشِّرك والكُفْر، ذلكَ أنَّني مُحذِّرٌ لكم - أيُّها النّاس - من عقابِ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نذر).
(2) الزبيدي، تاج العروس: (بشر).

اللّه إنْ عصيتموه، أو كفرتم به، فاحترِزوا، وقُوا أنفسَكم منه، ومُبشِّرٌ لكم بالثواب وحُسْنِ العاقبة إنْ أطعتُم، وشكرتُم، فاختاروا لأنفسكم الخير.

وترشدُ الآيةُ الكريمةُ إلى أنَّ بيانَ العلةِ في إنزال الكتاب وأحكام آيِهِ وتفصيلِها هي أن يُعبَد اللّه تعالى وحده، وترشدُ إلى وجوبِ التخلّي عن الشِّرك أوَّلًا، ثم العبادة الخالصة للّه ثانيًا[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

موقع: ﴿أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ﴾:

أحكَمُ ما جاء به الكتاب التكليفُ بعبادة الله وحده

جملة: ﴿أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ﴾ فُصلت عن سابقتها، ولم تُعطف عليها لأكثر من تعليل: فالفصل إمّا لكمال الاتِّصال؛ لأنَّها جملة تفسيريَّةٌ لقوله: ﴿أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ﴾، فهي ترفع الإبهامَ في الإحكام والتفصيل المذكورين، والتقدير: أُحكِمتْ، أو فُصِّلتْ إحكامًا وتفصيلًا مقولًا فيه: ألّا تعبدوا إلّا اللّه، فالجملةُ تفسيريَّةٌ مسبوقةٌ بما له معنى القولِ دون نصِّه وحروفه، وعليه: فـ(أنْ) تفسيريَّة، و(لا) ناهية، وهو الوجْهُ؛ "لأنَّ قوله: ﴿وَأَنِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ﴾ معطوفٌ على قوله: ﴿أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ﴾، فيجب أن يكون معناه، أي: لا تعبدوا؛ ليكون الأمر معطوفًا على النَّهي، فإنَّ كونه بمعنى (لئلا تعبدوا) يمنع عطف الأمر عليه"[2]. أو جملة: ﴿أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ﴾ مفصولة عن سابقتها للاستئناف البيانيِّ، فهي جملة تعليليَّة لما قبلها، لبيانِ الغايةِ من الإحكامِ والتفصيل، فكأنَّه قيل: أُحكمتْ آياته، وفُصِّلتْ لِئلّا تعبدوا إلّا اللّه، أو بألّا تعبدوا إلّا اللّه، فـ(أنْ) مصدريَّة، و(لا) نافية، وهذا الوجْه على إضمار لام التعليل أو باء السَّببيَّة، أو جملة: ﴿أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ﴾ كلامٌ مستأنفٌ منقطعٌ عمّا قبله على لسان الرسول ﷺ على سبيل

(1) الجزائري، أيسر التفاسير: 2/521.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/314.

الإغراء، بحذف فعلٍ مقدَّر، فكأنَّ الرسول ﷺ يقول لهم: الزموا عبادةَ اللّه إنَّني لكم منه نذيرٌ وبشير، فجملةُ ألّا تعبدوا في حيّز المفعول لفعل الإغراء المقدَّر، فلكونِ الجملة تفسيريَّةً أو تعليليَّةً أو منقطعة عمّا قبله فُصِلَتْ، ولم توصَل بالواو[1].

بلاغةُ القَصْرِ في: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ﴾:

في قوله تعالى: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ﴾ هو قَصرٌ حقيقيٌّ تحقيقيٌّ، طريقه النَّهيُ والاستثناء؛ إذِ النهيُ مع الاستثناء، كالنَّفي - تمامًا - مع الاستثناء في إفادةِ القَصْر؛ لأنَّ النَّهي هو طلبُ نفيِ الشيء بعدم ارتكابه، فالنَّهيُ مُشتملٌ على معنى النفي وزيادة، وقد قصرَ - هنا - العبادةَ على اللّه - وحده - قصرَ صفةٍ على موصوف.

النَّهيُ هو طلبُ نفْيِ الفِعلِ بتركِه

دلالةُ جِهةِ الخطابِ في: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ﴾:

الخطاب في قوله: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ﴾ لعموم النّاس، ويدخلُ فيهم مَنْ ليس مؤمنًا دخولًا أوَّليًّا؛ إذْ هذا الخطابُ بالنسبة إلى غَيْرِ المؤمنِ تأسيس، وبالنِّسبة إلى المُؤْمِنِ تثبيت[2].

عمومُ الخطابِ يشْملُ المؤمنَ بتجديدِ العهْدِ معه، والكافرَ بإنشاءِ تكليفِه

موقع جملة: ﴿إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾:

يَصحُّ إجراءُ الجملةِ في قوله: ﴿إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾ على الاحتمالاتِ الآتية:

- الجملة استئنافٌ بيانيٌّ، فكأنَّه لمّا خوطبوا بجملة النهي والاستثناء، سأل سائِلٌ: فما برهانُ هذا التكليف وما الدّاعي إلى قبوله؟ فأجيب: ﴿إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾، فهي جملة تعليليَّة لما سبقها.

وجودُ الثوابِ والعقابِ لازمٌ عن سبْقِهما بالتَّكليف

- الجملة اعتراضيَّةٌ خبريَّة بين جملتين إنشائيتين، وهو قوله:

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/378، وأبو حيّان، البحر المحيط: 6/120، والسّمين الحلبي، الدّرّ المصون: 6/280، والآلوسي، روح المعاني: 6/193، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/315.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/316.

﴿أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ﴾، وقوله: ﴿وَأَنِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ﴾، وغرضُ الاعتراض بها: إتْباع التكليف بما يُسوِّغه، ومباغتةُ المخاطَب به قبل استتمامِ الخطابِ التكليفيِّ معه؛ ليكون أعونَ وأنهضَ للمخاطَب على استدامةِ الوعي بما يُلقى إليه حتى استتمامِه، فكأنَّه قال: لا تعبدوا إلّا الله، ثمَّ أراد استدامةَ انتباههم، فلم يُتْبِعه بأمرٍ آخر مباشرةً، توقُّعًا لاستثقالهم ونفورهم عن التكليف، فأخبرهم بما يَحملهم على استمرارهم في القبولِ منه، بأنَّه بشيرٌ ونذيرٌ لهم، أي: أنصِتوا، ولا تستكبروا، ثمَّ قال: ﴿وَأَنِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ﴾[1].

بلاغةُ تعاقُبِ الجُمَل الثَّلاث على هذا الترتيب:

الوصْفُ بالبشير والنذير يقتضي الإرسال بالتكليف

الجُملةُ الأولى وهي قوله: ﴿أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ﴾، ثم الجملة الثانية في قوله: ﴿إِنَّنِي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ﴾، والثالثة في قوله: ﴿وَأَنِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ﴾، حيث جاءت هذه الجمل على هذا الترتيب دون تأخيرِ ما قُدِّم، أو تقديم ما أُخِّر، لتقريرِ الأهمِّ فالمُهمِّ في بابِ أصولِ التكاليف، فقوله: ﴿أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ﴾ تكليفٌ بأصل الأصول، وهو حقُّ الإله العظيم ﷻ في عبادتِه وحده لا شريك له، فبدأ ببابِ الإلهيّات، وقوله: ﴿إِنَّنِي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ﴾ إيماءٌ إلى حقِّ الرسول ﷺ في الاتِّباع وطاعته في بلاغِه التَّكاليفَ، فثنّى ببابِ النبوّات، وقوله: ﴿وَأَنِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ﴾ تكليفٌ بالاستغفار والتَّوبة، وهو كنايةٌ عن التشريع الذي هو برهانُ الاعتقادِ في الألوهيَّة والنبوَّة، فثَلَّثَ ببابِ الأعمالِ الصّالحات بعد الإيمان بالله والرسول.

سرُّ مجيء الخبر في معنى الإنشاء:

لا بدَّ من الإيمان بالرسول أنَّه مُبَلِّغ عن الله

قوله تعالى: ﴿إِنَّنِي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ﴾ خبَرٌ مقْحَمٌ بين جملتي إنشاءٍ، وهما قوله: ﴿أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ﴾، وقوله: ﴿وَأَنِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ﴾، ممّا يُعينُ على تضمين الجملة الخبريَّة، وهي قوله: ﴿إِنَّنِي

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/316، وصافي، الجدول: 11/215.

﴿لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾ معنى الإنشاء والأمر، فكأنَّه قيل: اعبدوا اللّه وحده، وآمِنوا بي بشيرًا ونذيرًا، واستغفروا، وتوبوا.

نُكتةُ مجيء: ﴿إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾ بلفظِ الخبر:

مجيءُ القرآن بكلامِ الرسولِ عن نفسِه تزكيةٌ لشخصِه الشريف

جاء البيان الإلهي في قوله تعالى: ﴿إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾ بلفظ الخبر، دون الإنشاء، رغم أنَّه مُقحَمٌ بين جملتي إنشاءٍ، فلم يقل في السّياق الكريم: (آمِنوا بي بشيرًا ونذيرًا)؛ لِقصدِ استحضار ذاتِ المُخاطِب عند المُخاطَب، بالدَّلالةِ والنصِّ والتَّعيينِ لشخصِ المُبَلِّغ للخطاب في قوله: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ﴾، وهو الرسول ﷺ، ولتَعيُّنِ هذا القصد جاء الخبر بضمير المتكلِّم دون الغائب، فلم يقل: (ألّا تعبدوا إلّا اللّه إنَّه لكم منه نذيرٌ وبشير)، بل قال: ﴿إِنَّنِي﴾؛ إمعانًا في استحضار ذاته الشريفة ﷺ، وهو ينطِقُ بالخطابِ والبَلاغ، وغرضُ هذا الاستحضار المذكور: إدخالُ السّامعِ البلاغَ في حال المُعايَنَة واليقين لِواسطةِ التبليغ، بما يَحمله على حقِّ اليقين وعينِ اليقين في ما يُبَلَّغُ به من مفرداتِ الإيمانِ وتكاليفه.

غرضُ تقديم الصِّفة على موصوفها المُنكَّرِ لفظًا:

نَفيُ أنْ يكون الرسول وكيلًا وإثبات كونِه بشيرًا ونذيرًا

لم يقل في السّياق الكريم: (إنَّني نذيرٌ وبشيرٌ لكم)، فقدَّم الجارَّ والمجرور، لإيقاعه موقِعَ الحال لا الصِّفة، لثلاثة أغراضٍ:

الأوَّل: لتقديم ضميرهم: ﴿لَكُم﴾ عنايةً بهم؛ لأنَّ إرسال الرسول ﷺ كان لأجلِهم؛ رحمةً بهم، فهم المقصودون في المعنى، فقصَدَهم أوَّلًا في اللفظ.

الثاني: لِلْبِدارِ بتعيينِ جهةِ الإرسال؛ إذْ هي حَرِيَّةٌ بالتقديم، وقد نصَّ عليها بـ (مِنْ) الابتدائيَّة، أي: إنَّني لكم مِنْ جهة اللّه نذيرٌ وبشير.

الثالث: إفادةُ معنى الاختصاص بتقديم ما حقُّه التأخيرُ، فتقديم

الجار والمجرور في قوله: ﴿لَكُم﴾ أفاد معنى الاختصاص، أي: إنَّني لكم أنتم خاصَّة[1].

دلالةُ تنكير لفظي: ﴿نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾:

قيامُ الرسول بالنِّذارة والبشارة من اللهِ على أتمِّ الوجوه والأحوال

التنكير في قوله: ﴿نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾؛ لتفخيم الموصوف، وتعميم الصِّفة، أي: بشيرٌ بكلِّ خير، ونذيرٌ من كلِّ شرٍّ، أي: إنَّ النذير والبشير هما من أعظم الألقاب التي أكرم اللّٰه بها رسوله ﷺ، فهو ينذرُ الناس من عذاب اللّٰه ويبشِّرهم برحمته وجنَّته، وهذا هو شأن الرسالة والرسل. وفيه إظهارُ عظمة الرسالة التي جاء بها النبي ﷺ، حيث إنَّه جاء برسالة عظيمة، وهي رسالة التوحيد، متضمِّنة النِّذارة والبشارة، وهي رسالةٌ تشمل جميع الناس، سواء أ كانوا صالحين أم غير ذَلِكَ، وتأكيدُ أنَّ النبي ﷺ جاء برسالة حقيقية، وأنَّها ليست مجرَّدَ رسالة من صنعه أو من صنع غيره، وإنَّما هي رسالةٌ من اللّٰه تعالى.

نُكتةُ تقديم الوصفِ بالإنذار على البِشارة:

مَنْ خافَ من اللهِ سَلِم وغَنِم

قدَّم الوصف بالنَّذير على البَشير في قوله: ﴿إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾؛ لأنَّ الإنذار يقتضي تركَ ما يُسِيء، والبشارة تقتضي فِعل ما يَحسُن، والتخليةُ مُقدَّمَةٌ على التَّحْليَة، ولأنَّ التخويفَ ممّا يَضرُّ أعونُ وأنهضُ على استجلابِ ما ينفَع، ولأنَّ الوقاية من النَّذير نافعةٌ من غير البشير، بخلاف البشارة لا تنفع إلّا باجتناب محلِّ الإنذار، ولأنَّ الخطابَ في قوله: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ﴾ موجَّهٌ أصالةً للمشركين، فناسَبَ تحذيرهم بالإنذار قبل البشرى، ولِمراعاةِ النَّظيرِ في السّياق، فختمَ الآيةَ بما يُناسِبُ مَطلَعَها، وهو قوله: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ﴾، فالنَّهيُ في قوله: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ﴾ يوافِق النِّذارة، وجملة الاستثناء في قوله: ﴿إِلَّا ٱللَّهَۚ﴾ يوافِقُ البِشارة، وهو من بديع التقابل

(1) السّمين الحلبي، الدّرّ المصون: 6/281، والبقاعي، نظم الدرر: 9/226، والآلوسي، روح المعاني: 6/193.

بين المطلع والخاتمة، مع ما في كلٍّ من تركيب المطلع، وتركيب الختْم من المقابلة بين المعنى وضِدِّه[1].

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الإنذار والتّخويف والتّرهيب والتّهديد:

يَقترنُ الإنذارُ بِمُدَّةٍ تَسْمَح للمُخاطَبِ أنْ يَحترِزَ مِمّا خُوِّفَ مِنْه

الإنذار: هو الإعلامُ بما يُخافُ؛ ليقع الحذَرُ والسلامةُ منه، ويكون غالبًا من المكارِه وسوء الأحوال، ويقترنُ بمدَّةٍ تتَّسع للتحرُّز والتوقِّي من المَخوفِ منه.

التَّخويف: هو قصدُ إخافةِ المُخاطَب، بإعلامِه بموضع الخوف، ولا يُشترطُ فيه إمهال المُخَوَّف ليحترزَ أو يتوقّى من المَخوفِ منه.

التَّرهيب: هو المُبالغةُ في التَّخويف حتّى يضطربَ لذلك الرَّهاب، وهو عظْمُ الصَّدرِ المشرِفُ على البطن، فالترهيب فيه زعزعةٌ وإقلاقٌ وقلقلةُ المُخاطَب بالاضطراب والتخويف من عدم الاستجابة، فالترهيبُ يُقصَدُ به مآلُ عدم القبول والعصيان، بخلاف الإنذار فإنَّه يتعلَّق بالمُخوَّف، وموضع المخافة، وهو المَخُوفُ منه، ويتعلَّق بالعاقبة، وشرطٌ فيه مدَّةُ الإمهال للتحرُّز، والترهيب لا يلزم فيه إمهالٌ للتحرُّز، ويتعلَّق بنتيجة عدم الطّاعة، فلا يلزم منه بيان حال المَخوفِ منه.

التَّهديد: مِنَ (الهَدِّ) وهو هدْمٌ له وقْع، وسقوط شيءٍ ثقيلٍ له هَدَّة، وهي صوتُ وقْعِه، وهو ينهار، والتهديد: هو الزَّعزعةُ بالوعيد، فيرتعِبُ الخصمُ حتى يتسيَّب، وينهار، والفرق بين التهديد والإنذار: أنَّ الإنذار يكون عن نصيحةٍ وإشفاق بالمُخاطَب، والتهديد يكون عن غَيظٍ وغضب وعدمِ اكتراثٍ بمصلحةِ المُخاطَب، وقد يكون عن خصومةٍ وكراهية[2].

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/120، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/183، ورشيد رضا، تفسير المنار: 7/12، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/316.

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نذر، رهب)، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (رهب، نذر، هدد).

﴿وَأَنِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُمَتِّعۡكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى وَيُؤۡتِ كُلَّ ذِي فَضۡلٖ فَضۡلَهُۥۖ وَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ كَبِيرٍ ٣﴾ [هود: 3]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

العملُ الصّالِحُ حِرزُ الإيمان

لمّا أمرَ في الآية السّابقة بإخلاص العبادة للّه وحده لا شريك له، وأسَّس بِشارة النبيِّ ونِذَارتَه على هذا الأصل، أعقبَ ذلك الأصلَ بما يُثَبِّتُه، ويَصونُه، ويُديمُه من العمل والطّاعة، وهو الأمر بالاستغفار والتوبة، وأتْبَعَهُ بتفصيل موضع البشارة والنِّذارة من الثواب والعقاب.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يُمَتِّعۡكُم﴾: مِنْ (متع) وهو أصلٌ يدلُّ على طولِ المُدَّةِ في الخيرِ والمنفعة، ومنه المَتاع: وهو انتفاعٌ مُمْتَدُّ الوقت، ومنه المُتْعة: وهي لذَّةُ النِّعمةِ حال الاستمتاع بها، ومعنى: ﴿يُمَتِّعۡكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا﴾: يُعمِّرُكُم في طَيِّبِ العيْش والمتاعِ السَّهلِ الذي لا شَقْوةَ فيه[1].

المَعْنى الإجْماليُّ:

وسائلُ تمتيعِ اللهِ عبادَه متاعًا حسنًا بالنِّعم والأرزاق والخيرات

أقبِلوا على ربِّكم، واسألوه أنْ يغفِر لكم ذنوبَكم، ثمَّ ارجِعوا إليه نادِمين تائبين، فإنْ فعلتُم؛ فإنَّه يُمتِّعكم في دنياكم متاعًا حسنًا بالحياةِ الطَّيِّبة والعيشِ السَّهل الهيِّن، إلى أن يَحين أجلُكم، ويُعطى كلُّ ذي فضلٍ من علمٍ وعملٍ جزاءَ فضلِه كاملًا لا نقصَ فيه، جزاءً يليقُ بسَعةِ فضلِ اللّه، وإنْ تُعرِضوا عمّا أدعوكم إليه؛ فإنّي أخشى عليكم عذاب يومٍ شديدِ الأهوال، وهو يوم القيامة[2].

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحفاظ، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (متع).

(2) مجمّع الملك فهد، التفسير الميسّر، ص: 221.

وترشدُ الآيةُ الكريمةُ إلى أنَّ من زادَ في الإحسان، زادَ اللّه له في الثوابِ بقدْرِ ما زادَ من الحسناتِ والأعمالِ الصالحة، كما قال سبحانه: ﴿وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦۚ وَٱلْكَٰفِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿٢٦﴾﴾ [الشورى: 26].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ عطف الآية على سابقتها:

برهانُ العبوديَّةِ رجـاءُ المغفرة وحسْنُ التوبة

جملة: ﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ﴾ معطوفةٌ على قوله: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ﴾ وحسُنَ الوصل بالواو لاتِّحادها مع ما قبلها في معنى الإنشاء، فجملة: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ﴾ نهيٌ عن مرهوب، وجملة: ﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُواْ﴾ أمْرٌ بمرغوب، و(أنْ) في الجملتين تفسيريَّة؛ إذِ الجملتانِ بيانٌ لِما في قوله: ﴿أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ﴾ من إجمال[1].

معنى ﴿وَأَنِ﴾ ونكتةُ إعادتِها:

لا اشتباهَ ولا إبهامَ في أصول التكاليف والأحكام

﴿وَأَنِ﴾ في قوله: ﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُواْ﴾ إمّا تفسيريَّة، وقد سبق بيانُ أنَّه الراجح، لعدمِ الإضمار ولعطفِ الإنشاء على الإنشاء، ونكتةُ إعادتها في: ﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُواْ﴾ مع عدم الاكتفاء بها أوَّل مرَّة في قوله: ﴿أَن لَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۖ﴾؛ لوجود الفاصل بينها وبين معطوفها، وهو قوله: ﴿إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾، فلو جاء النَّظمُ: (ألا تعبدوا إلا اللّه إنَّني لكم منه نذيرٌ وبشير، واستغفروا)؛ لأوْهَمَ عدمَ دخول جملة الأمر بالاستغفار في حيِّز تفسيرِ الجملة المتضمِّنة معنى القولِ: ﴿أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ﴾، فأعاد (أنْ) لإلحاقها بتفسير الإجمال السابق عليها، فهي قسيمةُ الجملةِ الأولى: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ﴾ في التفسير، ولو حذفَ (أنْ)؛ لأوهمَ انقطاعها عن هذا التقسيمِ التفسيريِّ[2].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/317.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 12/312.

دلالةُ الأمر في: ﴿ٱسۡتَغۡفِرُواْ﴾:

ليس القصدُ قولَ الاستغفار، بل الدُّخولَ في حالِ الاستغفار

فعل الأمر في قوله: ﴿ٱسۡتَغۡفِرُواْ﴾ يفيد وجوب الدُّخولِ في حال الاستغفار بعد التبرُّؤِ من الشِّرك وإفراد الله وحده بالعبادة، وفائدةُ الأمْرِ به: طلبُ العفوِ عمّا مضى من حالِ الشِّرك والإبعاد بالمعاصي، وسؤال السَّترِ بالوقايةِ من عدم القبول، أو الوقاية من عاقبة السّوء في الحال والاستقبال.

نكتةُ التَّعبير بلفظ الربوبيَّة وإضافته إلى ضمير المخاطَب:

مغفرةُ اللهِ مضمونةٌ بتحقيقِ الاستغفار

أوَّلًا: إسناد الاستغفار إلى لفظِ الرُّبوبيَّة؛ لِما بينهما من حُسْنِ المُناسبة، فإنَّ الاستغفار استعطافٌ من العبدِ لله الكريم أنْ يتفضَّل عليه بعطايا الغفران من السَّتر والوقاية وحسن العاقبة، ولا يَتِمُّ ذلك للعبدِ إلّا بِمَدَدِ الرُّبوبيَّة ومقتضاها من الإحسانِ والإنعام، فكأنَّ في إسنادِ الأمرِ إلى وصفِ الربوبيَّة وَعْدًا بالمغفرةِ وإيذانًا بها.

ثانيًا: في إضافةِ لفظ الربوبيَّةِ إلى ضمير الخطاب إيذانٌ بِقربِ الله من المُستغفرين وتودُّدِه إليهم بإسراع إجابتهم وإيناسِ خواطرهم بالمغفرة والقبول.

معنى ﴿ثُمَّ﴾:

لا ينفكُّ المؤمن عن حال الاستغفار والتوبة

﴿ثُمَّ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَأَنِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ﴾ على بابِها من التَّراخي الزَّمني؛ لأنَّ مَرتبةَ العملِ بالتَّوبة متأخِّرةٌ عن مرتبةِ القولِ بالاستغفار، فكَمْ مِنْ مُستغفرٍ وهو مُصِرٌّ على الذنب، وهذا محمولٌ على اعتبار التبايُنِ بين التَّوبةِ والاستغفارِ في الحقيقةِ المعنويَّة فينفصلان في الحدوث.

وأمّا بالنَّظرِ إلى اعتبار اتِّحادهما في الشَّرطيَّة والتَّمام، إذ لا يصحُّ الاستغفار إلّا بالتوبة، ولا تتمُّ التوبة إلا بالاستغفار، فـ﴿ثُمَّ﴾ محمولةٌ على التراخي الرُّتبيِّ لا الزَّمنيِّ، فهي تفيد - حينئذٍ -

الترتيبَ والتَّراخي؛ "للدَّلالة على البُعد بين المقامين: مقامِ الاستغفار عن الشِّرك، ومقامِ التوبة، فالتوبة ذاتها عبادة، ولا تراخي في الزمن، بل الزَّمن واحد، ولكنَّ البُعد في الرُّتْبة"[1]، ووجْه الرُّتْبيَّة بين الاستغفار والتوبة: أنَّ مُسمّى التوبة بتصحيحِ حال الشِّرك بالعبوديَّة الخالصةِ لله، أهمُّ وأعلى رتْبةً من مجرَّد سؤال المغفرة على ما كان، فالتركيبُ من باب الترقّي من الأدنى إلى الأعْلى[2].

دلالةُ الأمر بقوله: ﴿تُوبُوٓاْ﴾:

التوبةُ أجْمَعُ من الاستغفار

الأمر بالتوبةِ في قوله: ﴿تُوبُوٓاْ﴾ الأصل فيه الوجوب، ويفيد معنى اتِّصافِ العبدِ بالبُعدِ عن الله قبل توبتِه، وبالعودةِ إلى خلْقِه الأوَّل بُعدها من الفطرة المستقيمة والطَّبْع السليمِ الصّالِح للعبوديَّة الخالصة وَالكَارِهِ لِلْفُسُوقِ والعصيان[3].

نكتةُ تقديم الأمر بالاستغفار على الأمر بالتوبة:

الاستغفار ندمٌ على الماضي، والتوبةُ تصحيحٌ للحاضر

تقديمُ الاستغفار على التَّوبةِ في قوله: ﴿وَأَنِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ﴾ لِتقدُّمِ مُتعلَّق الاستغفار على متعلَّقِ التَّوبةِ في الزَّمَن، فالاستغفار يتعلَّق بسؤال المغفرة ممّا مضى، وانقضى، وفات من العمَل أنْ يُغْفَر، ويُستَر، والتوبةُ فيها ملابسةٌ لعملٍ صالحٍ حاضر، ونيَّةٌ تتعلَّق بالمستقبل في الإقلاع عن الذَّنب وعدم العوْدة، وندمٌ يتعلَّق بما فات، ومضى من السّوء، وجُزْؤها الذي يتعلَّق بالماضي يقومُ به حال الاستغفار، فثبتَ أنَّ الاستغفار أخلصُ بالماضي، والتوبةُ أخْلَصُ للحال والاستقبال، والماضي أسبق، فوقَع الاستغفار سابقًا في النَّظمِ على التوبة[4].

---

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 7/3662.

(2) ابن جرير، جامع البيان: 12/312، وابن عطية، المحرر الوجيز: 3/149، والزّمخشريّ، الكشّاف: 2/378، وأبو حيّان، البحر المحيط: 6/120، ورشيد رضا، تفسير المنار: 12/7، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/317.

(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 7/3662.

(4) الفرّاء، معاني القرآن: 2/3، والماوردي، النكت والعيون: 2/456، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/315.

الموقع النَّحويُّ لـ: ﴿يُمَتِّعۡكُم﴾:

الفعل المضارع في قوله: ﴿يُمَتِّعۡكُم﴾ مجزومٌ لوقوعه جوابًا للأمر في قوله: ﴿ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ﴾، مع عدم اقترانه بالفاء، وجملةُ جوابِ الأمر لا محلَّ لها من الإعراب؛ لأنَّها على تقدير شرط: (إنْ تستغفروا، وتتوبوا؛ يُمتِّعْكُم)[1].

المتاع الحسن جزاءُ الاستغفار والتوبة

غرضُ التَّوكيد بالمفعول المطلق ﴿مَّتَٰعًا﴾:

أكَّد الفِعلَ بالمفعول المطلق في قوله: ﴿يُمَتِّعۡكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا﴾؛ لِقصْدِ إجراء الوصفِ عليه بقوله: ﴿حَسَنًا﴾، فلولا الإطنابُ بمجيء اسم المصدر ﴿مَّتَٰعًا﴾؛ لَمَا تأتّى مجيءُ الوصف بالحُسن، فكان المفعولُ المطلقُ وُصْلَةً يُتَوَسَّلُ بها الوصف المذكور[2].

ليس كلُّ متاعٍ يُطلَبُ، فلا يُرجى إلّا المتاعُ الحسَن

دلالةُ التعبير باسم المصدر دون لفظِ المصدر:

لم يقل في السياق الكريم: (يُمَتِّعكم تَمْتيعًا) بالمصدر، بل عبَّر باسم المصدر: ﴿مَّتَٰعًا﴾؛ لأنَّ اسمَ المصدر يدلُّ على الاسم المفهوم من الحدث، والمصدر يدلُّ على الحدث، فالمتاع هو اسم الشيء الحاصل من حدَثِ التَّمتيع وهو مادَّةُ الشيء المُتَمَتَّع به، فاسم المصدر يدلُّ بموجبِه على اسم الشَّيء وعلى الذاتِ التي تعلَّق بها، ولذا جاز أن يكون لفظ ﴿مَّتَٰعًا﴾ مفعولًا به، باعتبار دلالتِه كاسمِ مصدرٍ على "اسمِ ما يُنتفع به من منافع الدنيا من الأموال والبنين وغير ذلك"[3]، لا على اعتبار أنَّه في موقع المصدر[4].

القناعةُ والرِّضا متاعٌ حسَن، فليس كلُّ المتاع مادَّةً وأعيانًا

وجهُ إطلاق لفظ (المتاع) على منافع الدنيا:

عبَّر عن منافع الدنيا بالمتاع، تسميةً للشيء بما يؤول إليه، ويُبتغَى منه على سبيل المجاز المرسل لاعتبار ما يكون، وهي علاقةُ الأيلولة؛

متاعُ الدُّنيا سريعُ الزوالِ سريعُ الفواتِ سريعُ التحوُّل

(1) صافي، الجدول: 11/217.
(2) السّمين الحلبي، الدّرّ المصون: 6/283.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 6/194.
(4) فاضل السامرائي، معاني النحو: 3/164.

إذِ المنفعةُ تؤولُ إلى المُتْعَةِ، فالمنافع تُحصَّل للاستمتاعِ بها غالبًا، وتُحصَّل لغرضِ استدامتها مُدَّةً طويلة لِضمانِ الاستقرارِ في خَيْرِها؛ إذِ الالتذاذُ والتَّمتُّع لا يتمُّ إلّا ببقاء المنفعةِ زمنًا، فسَمّى المنافع باسمِ مقاصِدِ أصحابها منها، وفي تسميةِ المنافع بالمتاع دلالةٌ على سرعةِ انقضائها في الوقت، وسرعةِ زوالها في الإحساس والشُّعور؛ لأنَّها ماداماتْ متاعًا، فهي مؤقَّتَة، والمؤقَّتُ محدودٌ وإنْ طال، وما دامتْ تُبْتَغى لِلَّذَّة، فاللَّذَّةُ تَزولُ بالاعتياد، وتتْلفُ بعوارضِ الكَدَر، فثبتَ أنَّ المتاعَ سريعُ الفواتِ، غيرُ ثابتٍ، ولا مضمون، وما كان كذلك، فجديرٌ بالعاقل ألّا يركنَ إليه، وألّا يَغفُل به عن اللّه الجليل الذي جادَ به[1].

فائدةُ وصف المتاع بـ ﴿حَسَنًا﴾:

لا يُمْدَحُ متاعُ الدُّنيا إلا إذا كان حسَنًا طيِّبًا

وصفُ المتاع بقوله: ﴿حَسَنًا﴾؛ للنَّصِ على حقيقةِ الجزاء، فإنَّ الجزاءَ والمكافأة على الاستغفار والتوبة ليستْ في مجرَّد حصول المتاع؛ إذْ عرفتَ أنَّ المتاعَ غير ممدوحٍ في ذاتِه، لِما فيه من معاني السَّلب والانقطاع، بل الجزاءُ في حُسْنِ المتاعِ لكونِه متَّصِفًا بذلك، فالوصفُ لتقييد نوعِ المتاعِ المذكور، بأنَّه متاعٌ خاصٌّ للمستغفرين التائبين، وهو تمتيعٌ حسَنٌ يليقُ بقُربِ مقامهم من اللّه[2].

براعةُ اصطفاء لفظِ ﴿حَسَنًا﴾ لوصفِ المتاع به:

أهل الاستغفار والتوبة هم أهل الإحسان المَجْزِيُّون به

إنَّما وصَفَ المتاع بـ ﴿حَسَنًا﴾ دون غيره من الأوصاف؛ للإشارةِ إلى أنَّه جزاءٌ يُقابِلُ جِنْسَه من العمل، فهو يؤذِنُ بأنَّ الاستغفار والتوبة المأمور بهما في قوله: ﴿ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ﴾ من مقاماتِ الإحسانِ في العمل، ولا يَتحقَّقُ بهما إلّا المحسِنون، ولذا جازاهم عليه بالإحسان، مُطَابِقٌ مع عادة القرآن في مُجازاة الإحسان بالإحسان،

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/316، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (متع).
(2) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 6/95، وابن جُزَيّ، التسهيل لعلوم التنزيل: 1/365، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/317.

كما صرَّح به في قوله: ﴿وَأَحۡسِن كَمَآ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ﴾ [القصص: 77]، وقوله: ﴿هَلۡ جَزَآءُ ٱلۡإِحۡسَٰنِ إِلَّا ٱلۡإِحۡسَٰنُ ٦٠﴾ [الرّحمن: 60].

دلالةُ التنكير في: ﴿مَّتَٰعًا حَسَنًا﴾:

المتاع الحسَن لا يلزمُ منه أن يكون كثيرًا

التنكير في قوله: ﴿مَّتَٰعًا﴾ لإفادة الإطلاق والشّيوع المُبْهَم، أي: متاعًا أيَّ متاعٍ، فلا يُعرَف له نوعٌ ولا مقدار، فلمّا وصِفَ بالنَّكِرة ﴿حَسَنًا﴾؛ أفاد تنكيرُها تعيينَ النَّوع، أي: نوعٌ محدَّدٌ في المتاع هو النَّوع الحسَن[1]. فالتنكيرُ هنا للتبيين والتوضيحِ، أي: إنَّ اللّٰه تعالى يمتِّعُ عبادَه المستغفرين والتائبين بمتاعٍ حسن، لا يختلطُ بشرٍّ، ولا يلحَق به ضُرٌّ، ولا يتغيَّر بحالٍ، بل يبقى على حُسنه وجماله وكمالِه، وفيه إظهارُ عظمةِ النِّعَم التي يُنعِم اللّٰه تعالى بها على عباده المَوْصُوفِينَ بالاستغفار والتوبة، حيث إنَّها ليست مجرَّدَ نعم مطلقة، بل هي نِعَمٌ حسنةٌ طيبة ومباركة، تعود على العباد بالخير والنفع.

دلالة ﴿إِلَىٰٓ﴾:

يستوي النّاسُ في انتزاعِ المتاعِ عنهم ببلوغ الأجَل

﴿إِلَىٰٓ﴾ ومدخولها في قوله تعالى: ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى﴾ متعلِّقٌ بقوله: ﴿يُمَتِّعۡكُم﴾، وهو غايةٌ للتمتيع المذكور، بدلالة حرف الانتهاء ﴿إِلَىٰٓ﴾ الذي هو نَصٌّ على تحديد نهايةِ الفعلِ، فكأنَّه قيل: يمتِّعكم متاعًا ذا نهاية، أو مُنتهيًا، فالجار والمجرور في معنى الوصف بالانتهاء الذي يُشير إلى أنَّ المقصود بالمتاع متاعُ الدُّنيا؛ إذْ هو المتاع الذي سينتهي[2].

نكتة تنكير الأجل:

إبهامُ الأجَل اعتباريٌّ نِسْبيٌّ، فباعتبار صاحبه مجهول، وبالنِّسبة لجاعِلِه معلوم

تنكيرُ لفظ الأجل في قوله: ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى﴾ على بابه من إفادة معنى الإبهام، أي: أجلٍ منكورٍ غير معلوم، ووصْفُه بـ ﴿مُّسَمّٗى﴾ لم يرفع إبهامَه عند السامع، بل أفاد أنَّه غير مُبهَمٍ في نفْسه، فإبهامُه

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/317.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/317.

حاصِلٌ من جهة السامع، مَعْلُومٌ وظاهرٌ في جهتِه العليا عند اللّه، وهو يفيد أنَّ إبهامَه مقصودٌ مُرادٌ لِحِكْمَة؛ إذْ هو من صَفَحاتِ الغَيْب.

فائدةُ مجيء اسم المفعول ﴿مُّسَمًّى﴾:

مجيء وصف الأجَل بصيغة اسم المفعول ﴿مُّسَمًّى﴾ في قوله تعالى: ﴿يُمَتِّعۡكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّى﴾ دلَّ على ثلاثةِ معانٍ: الدَّلالة على ذات المفعول، وهو الأجلُ نفسُه بمقداره وكيفيَّته، والدَّلالة على الحدَثِ الثّابت، فتسميَةُ الأجل ثابتةٌ دائمة؛ لأنَّها حُكمٌ مَقْضيٌّ، والدلالة على الحدوث، وهي الفعليَّة، فهو حادِثٌ في الزَّمنِ الماضي، وباعتبار ميلاد كلِّ إنسان، فأجَلُه يبدأُ في الحدوثِ معه[1].

لا حيلةَ للعبدِ في رزقِه وأجَلِه فكلاهما قدَرٌ مُسمًّى

معنى الواو في: ﴿وَيُؤۡتِ﴾:

جملة: ﴿وَيُؤۡتِ كُلَّ ذِي فَضۡلٖ فَضۡلَهُۥۖ﴾ معطوفةٌ على جملة: ﴿يُمَتِّعۡكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّى﴾، فهي داخلةٌ في حيِّز جوابِ الأمر في قوله: ﴿وَأَنِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ﴾، وفائدةُ العطف بها تقسيمُ الجوابِ إلى جزأين مُتقابلين: جزءٌ يتعلَّق بالدنيا، وهو المتاع الحسَن المنتهي بالأجَل، وجزءٌ يتعلَّق بالآخرة، وهو إيتاءُ كلِّ ذي فضْلٍ فضْلَه[2].

اللـه يُجازي أولياءَه في الدُّنيا قبل الآخرة

نكتةُ التَّعبير بـ ﴿وَيُؤۡتِ﴾ مادّة وصيغة:

﴿وَيُؤۡتِ﴾ من الإيتاء بمعنى الإعطاء، وفي التَّعبير به دلالةٌ على علوِّ المؤتي وسَعةِ إفضالِه وبَسْطَةِ يدِه؛ لأنَّ الإيتاء إنَّما يُسنَدُ إلى العطاء العظيم، ولذا أسنِدَ هنا إلى (الفضْل) وهو الشيء الوافِر الفائضُ الكثير، وفي التعبير بالإيتاء - أيضًا - دلالةٌ على أنَّهم يَنالونَ ما يَنالون من غير عناء بل في تمامِ هناء؛ إذِ الإيتاء يدلُّ على أنَّ الجزاء يأتي إليهم، ويَحضُر من غيرِ مُعاناةٍ في التَّطلعِ إليه أو السَّعيِ له، بل يأتيهم في يُسْرٍ ورَغَادة[3].

الإيتاءُ أبلغ من الإعطاء وأدلُّ منه على السَّعةِ والهناءة

(1) فاضل السامرائي، معاني الأبنية، ص: 52.
(2) صافي، الجدول: 11/217.
(3) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 6/96.

غرضُ حذف فاعل ﴿وَيُؤْتِ﴾:

لا تَصَرُّفَ بالمنْع والمنْح يوم الدّين إلّا لِلّه

لم يقل في السّياق الكريم: (ويؤتِ اللّه كلَّ ذي فضلٍ فضلَه)، فطوى ذِكْرَ الفاعِل إيجازًا، لثلاثةِ وجوه:

الأوَّل: أنَّه في مقام لا إيتاء فيه إلّا له سبحانه، فهو مالك يومِ الدّين، لا أحدَ يُنسَبُ إليه مُلْكٌ ولا عطاءٌ ولا شيء إلّا له سبحانه، ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴿١٩﴾﴾ [الانفطار: 19]، فلمّا كان قوله: ﴿وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ ۖ﴾ مقصودًا به جزاءُ الآخِرة؛ لم يُحتَج إلى الإطنابِ بالتَّصريح بالفاعل؛ إذْ لا يَخفى أنْ لا فاعِلَ فيه إلّا اللّه.

الثاني: ظهورُ الفاعلِ في السّياق في قوله: ﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم﴾، فاكتَفى بذِكْرِه السابق عن إعادةِ التصريح به.

الثالث: أنَّ جملة: ﴿وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ ۖ﴾ داخلةٌ في حيِّزِ جوابِ الأمر بالعطف على جملة الجواب ﴿يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا﴾؛ فهي في حكمِها إعرابًا ومعنًى، والفاعِلُ مُضمَرٌ فيها في ﴿يُمَتِّعْكُم﴾، فيُضمَرُ كذلك في الجملةِ التي في حكْمِها؛ لِتحصُل الموافقةُ من جميع الوجوه.

مدلولُ الفَضْلَيْن في: ﴿وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ ۖ﴾:

أهلُ المعروف في الدُّنيا هم أهل المعروف في الآخرة

معنى قوله تعالى: ﴿وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ ۖ﴾، يؤتي اللّه كلَّ صاحبِ فضلٍ من العملِ فَضْلَهُ من الجزاء، فالفضْل الأوَّل للإنسان، والفضل الثاني لِربِّ العالمين[1].

دلالةُ تسميةِ الأعمال بالفضل:

مدحُ العملِ مدحٌ لصاحبِه

قوله: ﴿وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ﴾، أي: صاحبِ عمَل، فسَمّى العمَل فضْلًا، وفيه أربع نِكات:

(1) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 6/96.

الأولى: ليَدُلَّ على أنَّه عملٌ صالحٌ من معالي الأخلاق والخصال.

الثانية: لإفادةِ أنَّه كان في وسْعِهم بلوغ هذا الفضل، ولذا كان فضلًا، أي: فائضًا يقدرون على بَذْلِه من غير عناء، وهو يفيد أنَّ الله لم يُكلِّف نفسًا إلّا بما في وسْعِها.

الثالثة: للدلالة على أنَّ تلك الأعمال هي أجدرُ ما يؤتَى ويُفعَل؛ لأنَّها فاضلةٌ في نفسِها فهي حقيقةٌ بالالتزام وإنْ لم يكنْ جزاءٌ عليها[1].

الرابعة: أنَّ الله سَمَّى أعمالَهُم (فضْلًا) تزكيةً لأعمالهم ومدحًا لها؛ إذْ مدحُ العملِ مدحٌ لصاحبِه، فلمّا كان المُقامُ مقامَ جزاء، كان كأنَّه جازاهم مرَّتين مرَّةً بمدحهم بإعظام أعمالِهم وتسميتِها فضْلًا، ومرَّةً بإعطائهم مُقابِلَها من الفضلِ والثَّواب، ووجْه تسميتِها فضلًا باعتبارين: باعتبار جبْر خواطرهم بِتَثْمينِ أعمالِهم وتنزيلها منزلةَ الكثير، وإنْ كانت قليلةً ضعيفةً في ذاتِها، وباعتبار أنَّه سبحانَه ربّاها، وضاعَفَها لهم بفضله - والله يُضاعفُ لمن يشاء - فلمّا ضاعَفَها؛ كَثُرتْ، فصارتْ فضلًا عظيمًا، فَوُصِفَتْ كذلك بحسَبِ قَدْرِه سبحانه من الكرم والفضل، لا بِقَدْرِهِم من الوُسْعِ المحدود.

نكتة تنكير ﴿فَضْلٍ﴾:

التنكير في لفظِ ﴿فَضْلٍ﴾ في قوله: ﴿وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ﴾؛ لإرادة الجنس، أي: كلُّ ما يُقالُ له فضْل، وكلُّ ما يُوصَفُ بأنَّه من الأعمال الفاضلة يُجازَى العبدُ عليه بالفضل، قليلًا كان أو كثيرًا، عظيمًا أو حقيرًا، لقوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الأنبياء: 47][2].

الفضلُ من العبدِ ناقِصٌ قليل، وفضلُ الله كامِلٌ عظيم

معنى عود الضمير في ﴿فَضْلَهُۥ﴾:

الضميرُ في كلمة ﴿فَضْلَهُۥ﴾ مِنْ قوله تعالى: ﴿وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 9/229، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/318.
(2) فاضل السامرائي، معاني النحو: 1/40.

فضلُ العبدِ فائضٌ عن حاجة، وفضلُ الله فائضٌ عن وُسْعٍ وغِنًى

﴿فَضۡلَهُۥۖ﴾ يُحتَمَل أنْ يعود على ﴿ذِي﴾، أي: عامِل الفضل، والتقدير: يؤتِ كلَّ صاحبِ فضلٍ استحقاقَه هو - أي: العامل - من الفضل والجزاء.

أو يعود على الله ﷻ، أي: يؤتِ الله فضلَه العظيم من الجزاء لكلِّ ذي فضلٍ من العامِلين، وهذا الوجه أولى؛ لاشتماله على نُكتَةٍ معنويَّة، وهي تعظيمُ الفضل (الجزاء) وتكثيرُه بإضافته إلى ضمير العظَمَةِ الذي يدلُّ على الكمال، أي: الفضل الكامل، وهذا المعنى لا يَظهر بإضافتِه إلى ضمير الإنسان[1].

معنى الواو في: ﴿وَإِن تَوَلَّوۡاْ﴾:

من لم يستغفِر، ويتُبْ؛ فقد تولّى

جملة: ﴿وَإِن تَوَلَّوۡاْ﴾ معطوفة على جملة الخطاب بالأمر في قوله: ﴿وَأَنِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ﴾ تَتْميمًا للمقابلة بين أعمال البِشارة والنِّذارة، فجملة: ﴿وَأَنِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ﴾ تقتضي التبشير، وجملة: ﴿وَإِن تَوَلَّوۡاْ﴾ تقتضي النَّذير، والجمَل الثلاث: ﴿أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ﴾، ﴿وَأَنِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ﴾، ﴿وَإِن تَوَلَّوۡاْ﴾ جميعها داخلة في حيّز التفسير لجملة: ﴿أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ﴾، وهَذِهِ الجُمَل تأكيدٌ لمضمونِ الوصفِ النبويِّ في قوله تعالى: ﴿إِنَّنِي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ﴾؛ إذ هي بيانٌ لمضمون الوصفين المذكورين[2].

فائدة الاشتراط بـ ﴿وَإِن﴾:

لم يَجزِم اللهُ بإعراض العاصين لئلّا يجزِمَ أحدٌ بمصير أحد

جاء قوله: ﴿وَإِن تَوَلَّوۡاْ﴾ مُصدَّرًا بـ ﴿وَإِن﴾ الشرطيَّة التي تفيد الاحتمالَ وعدم القطع فيما دخلتْ عليه، إذْ إعراضهم وتولّيهم عن التكليف مظنونٌ غير مُحقَّق، إذِ العادةُ جاريةٌ بوقوع الطاعةِ والمعصيةِ كليهما، فلا يمكن الجزمُ بإحْدَاهُمَا على الأخرى، فلمّا كان ذلك كذلك؛ عبَّر بما يفيد الشكَّ، أو يكون التَّعبير بـ (إن) خروجًا عن مقتضى الظّاهر دون مقتضى الحال، بإنزال الأمر المحقَّق منزلةَ الأمر المشوك فيه لعدم الرَّغبة في وقوعه.

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 3/149، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 9/4.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/318، ودرويش، إعراب القرآن: 4/311.

فائدة مجيءِ الجملة الشَّرطيَّة:

مَـــنْ يَـعـمَـلْ سُوءًا؛ يُجْزَ به

صوغُ الإخبار عن حال تولّيهم وإعراضهم بطريق الشرط، لِقصدِ تعيينِ الوعيدِ الجزائيِّ وترتيبه على التولّي وتسببِه عنه، فللنصِّ على السببيَّة والتعليل صاغه بالشرط؛ لكونِ أسلوبِ الشرطيَّة أخصرَ طريق وأحكمَه في الإنباء عن ذلك، ولو أخبر عن ذلك القصد من غير هذا الطريق؛ لكان فيه إطنابٌ وعدم إحكام، فكأنَّ قوله: ﴿وَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ كَبِيرٍ﴾ قام مقام من يقول: (تولّيكم سببٌ في عذابكم)، أو (عذابكم حاصلٌ لأجلِ تولّيكم)، فالشرط قائم مقام جملتين، الأولى على تقدير السببية والثانية على تقدير العِلِّيَّة، فكان أتمَّ وأوجز.

نكتةُ التَّعبير بالمضارع في ﴿تَوَلَّوْاْ﴾ و﴿أَخَافُ﴾:

أرادَ اللهُ رحمةَ المُعرضين فأقبَلَ عليهم بخطابِه

التعبير بالمضارع في قوله: ﴿تَوَلَّوْاْ﴾، وأصله (تَتَوَلَّوا)، فحذَف إحدى التَّاءَيْنِ تخفيفًا، ويؤيِّد أنَّه مضارعٌ للخطاب نَسَقُ الكلام ونظمُه في خطاب مَنْ تقدم في قوله تعالى: ﴿أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ﴾ ﴿إِنَّنِي لَكُم﴾ ﴿وَأَنِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ﴾، ويؤيِّد المضارعةَ والخطاب كذلك نظمُ الكلام بعده في قوله: ﴿فَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ﴾ بالمضارع في ﴿أَخَافُ﴾، والخطاب في ﴿عَلَيۡكُمۡ﴾، فيكون الكلام جاريًا على نسقٍ واحد، وهو الخطاب، وهذا أولى من اعتبار ﴿تَوَلَّوْاْ﴾ فعلًا ماضيًا، للاضطرار إلَى تَقْدِيرِ العدول والالتفات معه؛ لأنَّه قال بعدها: ﴿فَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ﴾ والالتفاتُ غير وجيهٍ مُتمكِّنٍ هنا؛ لأنَّه خاطبهم في العبادة والاستغفار والتوبة، أي: خاطبهم بحال الطاعة وعاقبتها، فمن تمام الكلام أن يُخاطبهم بحال المعصية كذلك ومآلِها، فوجْهُ الالتفات مفضول، ووجْه الخطابِ أفضلُ وأحسن لموجِباتِه الصريحة هنا[1].

(1) السّمين الحلبي، الدّرّ المصون: 6/283.

يُقبلُ اللهُ على المعرضين بخطابه، ويُقبلُ الرسولُ عليهم بخوفِه

معنى الفاء في ﴿فَإِنِّيٓ﴾:

الفاء في قوله: ﴿فَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ﴾ رابطة لجواب الشرط، وهي تفيدُ ترتيب الجواب عن الشرط، وتعليل الشرط بالجواب، أي: عذابكم لأجلِ تولّيكم[1].

لا يُسْنَد إلى الله ما لا يليقُ إلّا بالمخلوق

مدلولُ الفاعل في: ﴿فَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ﴾:

فاعل الخوف في قوله: ﴿فَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ﴾ للرسول ﷺ، وليس لله سبحانه؛ لتنزيه الله عن إسناد الخوف إليه، إذِ الله لا يخاف[2] ﷻ.

الله لطيفٌ بعباده فيُؤنِسُهم ولا يُوحِشُهم

بلاغة الالتفاتِ في: ﴿فَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ﴾:

لم يقل في السياق الكريم: (وإن تولّوا يُعذِّبكم)، كما قال: ﴿ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُمَتِّعۡكُم﴾ فعدَل عن ذاتِ الله إلى شخصِ الرسولِ ﷺ، والْتَفَتَ من الغيبة إلى المُتَكَلِّم، وفي ذلك نُكتةٌ بديعة هي أنَّ الله ﷻ لم يُسنِد تعذيبهم إلى نفسِه، كما أسند تمتيعهم إلى نفسِه؛ إجلالًا مِنَ المَلِكِ لنفسِه أنْ يُخاطبهم بالوعيد بعد خطابهم بالفضل، فأوْكلَ الرسول ﷺ لإبلاغهم بالوعيد وانفرد هو سبحانه بالوعد، وذلك - ولله المَثَل الأعلى - كحاكِمٍ أو سُلطانٍ ألزمَ رعيَّتَه بتكليفٍ، وأخبرهم به بنفسِه، ثمَّ وعدهم بجزيل المكافأة والإفضال عليه، فلئلا يُكدِّر المقام عليهم، أو يُوحِشهم لَمْ يَصِل وعدًا بوعيد، بل ترك إخبارهم بالوعيدل لِمَنْ ينوبُ عنه في البلاغ؛ إجلالًا لمقام مُلْكِه أن يتكدَّر بما يؤلِم ويُوحِش، ويُعينُ على هذا التوجيه في هذا السياق: أنَّ الله عبَّر عن جزاء الطاعة بثوابين في قوله: ﴿يُمَتِّعۡكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا﴾ و﴿وَيُؤۡتِ كُلَّ ذِي فَضۡلٖ فَضۡلَهُۥۖ﴾ وأمّا في حال الإعراض؛ فعبَّر بوعيد واحد وعلى لسان رسوله: ﴿فَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ كَبِيرٍ﴾،

(1) محمود صافي، الجدول: 11/216.

(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 7/3663.

فهو يبسُط في مقام الوعد، ويقبِضُ، ويوجِز في مقام الوعيد، فكان من تمام القبضِ وعدم البسطِ في الوعيد ألّا يُسنِدَه إلى ذاته، بل يُنيبُ في الإبلاغ به الواسِطَةَ عنه.

دلالة التعبير بالفعل ﴿أَخَافُ﴾:

لم يقل في السياق الكريم: (وإن تولّوا فإنّي أعدكم بعذاب) بل عبَّر بالخوف: ﴿أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾؛ للإشارة إلى رحمة الرسول ﷺ في بلاغِه؛ إذِ التعبير بالخوف قبل العذاب مُضَمَّنٌ معنى الشَّفقةِ على مَنْ تولّى وأعرض، فكأنَّه حزينٌ وهو يُبلِّغه ويُوعِدُه.

الرسول ﷺ أمَنَةٌ لأمَّتِه من المخاوِف

نكتةُ التَّعبير بـ (إنَّ) والجملة الاسميَّة:

التَّعبير بـ (إنَّ) والجملة الاسميَّة في قوله: ﴿فَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ﴾ لتأكيد الخوف المذكور في نفْسِ المُبَلِّغ، فكأنَّه يقول: أخاف عليكم خوفًا مُتمكِّنًا منّي، فهو تحذيرٌ خالص مِمَّنْ يَصدُقُهم النَّصيحة، وليس تحذيرًا مُلْقًى على عواهِنِه، كمن يقول لغيره دُونَ قصد: أنا خائفٌ عليك إنْ فعلتَ كذا، وهو لا يقصد خوفًا، ولا يقصد من تعبيره حِرصًا، وأيضًا في الافتتاح بذلك قصدٌ لتأكيدِ المَخُوفِ منه، وهو وقوع العذاب بهم حالَ مُخالفتِهم[1].

ليس أنصحَ ولا أخوفَ على الناس أحدٌ من رسول الله ﷺ

معنى (على):

(على) في قوله: ﴿فَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ﴾ أفادت الاستعلاءَ المجازيَّ، فكأنَّه بخوفِه مِنْ أنْ يَقع العذابُ بهم، قد اسْتَضَمَّهُم إليه، وأحاطهم من الخوف، فكان في هيئةِ المُستحوِذِ والمُسْتَعلِي عليهم، لا مِنْ كِبْرٍ أو خصومة، بل من خوفٍ وإشفاق، أو (على) في معنى التعليل، كأنَّه قال: (إنّي أخاف لأجْلِكم أو لِأجل رحمتي بكم).

النبيُّ أولى بالعالَمين من أنفسِهم

نكتةُ تقديم شبه الجملة ﴿عَلَيْكُمْ﴾:

تقديم الجار والمجرور في قوله: ﴿فَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ﴾، ولم

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/319.

النّاصِحُ الثِّقة أقــربُ الـنّـاس لـلـمـنـصـوح وأحرصهم عليه

يقل: (إنّي أخاف عذاب يوم كبيرٍ عليكم)؛ لإفادة الاختصاص والقُرب، أي: أخاف عليكم أَنتم خاصَّة، وكذلك للغرض اللفظي في مراعاة الفاصلة، فإنَّ الجرسَ الصوتيَّ لتركيب الآيةِ مع تقديم الجار والمجرور أوقعُ وأتمُّ وأحسن من إجراء النَّظم على غير ذلك.

غرضُ إضافة العذاب إلى ﴿يَوْمِ﴾:

يُـقَـدَّر الـشيء بمقدارِ ما أضيفَ إليه

إضافة العذاب إلى ﴿يَوْمِ﴾ في قوله: ﴿أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾؛ لتخصيص العذاب بالظرف، فهو عذابٌ مخصوصٌ بإضافتِه إلى يَوْمٍ مخصوص، وليس كأيِّ عذابٍ في أيِّ وقت، ففي الإضافة تفظيعٌ للعذابِ وتهويل له؛ إذ هو مضافٌ إلى يومٍ موصوفٍ بأنَّه كبير[1].

نكتة تنكير ﴿يَوْمِ﴾:

من رحمة الله أنْ فـصَّـل في الثواب وأجمَلَ في العقاب

تنكير كلمة ﴿يَوْمِ﴾ في قوله: ﴿فَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾ للتهويل؛ "لِتذهبَ نفوسُهم للاحتمالِ الممكِن أنْ يكون يومًا في الدنيا أو في الآخرة؛ لأنَّهم كانوا يُنكرون الحشر، فتخويفهم بعذابِ الدُّنيا أوقعُ في نفوسهم، وبذلك يكون تنكير ﴿يَوْمِ﴾ صالحًا لإيقاعه مقابلًا للجزاءين في قوله: ﴿يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ﴾، فيقدِّر السامع: إنْ تولَّيتم فإنّي أخاف عليكم عذابين، كما رجوتُ لكم إن استغفرتم ثوابين"[2].

المجاز العقلّي في وصف اليوم بالكِبَر:

يُوصَفُ الظَّرفُ بـــوصـــفِ ما يُلابِسُه ويقع فيه

إسنادُ الكِبَرِ إلى اليوم مجازٌ عقليٌّ؛ إذِ الكِبَرُ في الحقيقةِ لِما يَقَعُ فيه من الهَوْلِ والعذاب، فوصِفَ اليومُ بوصفِ ما يكون فيه؛ إذِ الظروفُ موصوفةٌ بمظروفاتِها، ويصحُّ أنْ يكون إسناد الوصف إلى الظرف حقيقيًّا لا مجاز فيه، باعتبار أنَّ اليوم كبيرٌ في نفسِه لأنَّه

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/319.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/319.

ليس كسائر الظُّروف والأوقات، بل هو مُعَدٌّ ومجعولٌ لتلك الشدائد والأهوال، فليس له نظيرٌ يُقاسُ عليه. ويصحُّ أنْ يكون وصفُ ﴿كَبِيرٍ﴾ للعذابِ، ويكون لفظُ ﴿كَبِيرٍ﴾ مخفوضًا لِمُجاورةِ المخفوض، وهو لفظ ﴿يَوْمٍ﴾، وعلى ذلك لا مجاز في الإسناد[1].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الإعطاء والإيتاء:

يُسْنَدُ العطاءُ إلى الكثير والقليل، أمّا الإيتاءُ؛ فيُسْنَدُ إلى الكثيرِ والعظيم

العطاء: هو مُناولَةُ الشيءِ للآخرين، فهو أصلٌ في الأخْذِ والتناول. والإيتاء: هو إحضارُ الشيءِ وإيصالُه لِلْمُعطى، وجعلُه يأتي إليه، فهو أصلٌ في المجيءِ والحضور، واستعمالُ الإيتاء في الإعطاءِ لكونِ العطاءِ يقتضي مُناوَلَةَ الشيءِ بعد إحضارِه، فالإيتاءُ أوَّلًا ثمَّ العطاءُ، ويختلف الإيتاء عن الإعطاء من ثلاثةِ وجوه:

الأوَّل: أنَّ الإيتاءَ يكون عن طِيبِ نفْسٍ لا عن إكراه، والعطاء قد يَحتَمِلُ معنى الإكراه، كما قال في الجزية: ﴿حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [التوبة: 29]، فجعل الإعطاء فيما كان عن غلبةٍ وقهْر.

الثّاني: أنَّ الإيتاء يكون في الشيء عَزيزِ القِيمة، كَثِيرِ المنفعة، عَظِيمِ القَدر، والعطاء قد يكون في البخْسِ والقليل، كما يكون في العظيم الكثير، فقد أسند العطاء إلى القليل في قوله: ﴿وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ ﴿٣٤﴾﴾ [النجم: 34]، ولذا كان الإعطاءُ فيما يُنتقَل عنه إلى ما هو أعلى منه؛ ولذا قال: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ﴿١﴾﴾ [الكوثر: 1]، لانتقاله من الكوثر إلى ما هو أعلى منه، وهو الجنَّة ومزايا النَّعيم الأحسن، وأمّا الإيتاءُ؛ فلم يُسنَد إلّا إلى العَظِيم والكثير ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ﴾ [ص: 20]، ﴿ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ﴿٩٩﴾﴾ [طه: 99]، ﴿وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾﴾ [النساء: 54].

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/121، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/184، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/319.

الثالث: الإيتاء لا يتوقَّف على قبولِ الآخِذِ وموافقتِه، فهو حقيقٌ بالإيتاء من غير اعتبار موقِفه، ولذا كان فعلُ الإيتاء أقوى من الإعطاء، ولذا ففِعل الإيتاء لا مُطاوع له من لفظِه، كما في الإعطاء، يقال: آتاني، فأخذته، وفي الإعطاء يقال: أعطاني، فعَطَوْت؛ وما له مطاوعٌ أضعفُ في إثباتِ مفعولِه ممّا لا مُطاوِع له، ولذا لم يَقُل في الزَّكاة: (ويُعطون الزّكاة)؛ لئلّا يُحْتَمَلَ توقُّفه على القبول، كما قال: ﴿حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ﴾ [التوبة: 29]، فإنَّ عطاءهم الجزية متوقِّف على قبولِ المسلمين منهم ذلك[1].

(1) الجوهري، الصحاح: (عطا)، وابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (أتى، عطو)، والعسكري، الفروق اللغوية، ص: 86، والكفويّ، الكلّيّات، ص: 212.

﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ٤﴾ [هود: 4]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الإيمانُ بالمصيرِ إلى الله يُهوِّنُ الصَّعب

لمّا ذكر اللّه ثوابَ الطائعين الذي يُبشَّرون به، وذكر عذابَ العاصين الذي يُنْذَرونَ به؛ فقد حدَّد هنا محلَّ حصول ذلك، فعيَّن ذلك بأنَّه يوم الرُّجُوعِ إلَيْهِ سبحانه وَمَكَانُهُ.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مَرۡجِعُكُمۡۖ﴾: المَرجِع من (رجع) وهو أصلٌ يدلُّ على العَوْدِ إلى ما كان منه البَدء، سواءٌ كانت العودة بالقول أم بالفعل أم للمكان أم للحال، معنويَّةً أم حسِّيَّة، و(المرجِع) مصدرٌ مِيمِيٌّ على غير القياس بمعنى الرُّجوع، ويصحُّ إجراؤه - في غير هذا الموضع - اسمَ مكانٍ أو اسم زمانٍ (مَفعِل) على غير القياس، بمعنى وقتِ الرُّجوع ومكانه، لكنَّه - هنا - في قوله: ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡۖ﴾ مصدرٌ ميميٌّ[1]، أي: إلى اللّه رجوعكم[2].

المَعْنى الإجْماليُّ:

التحذيرُ من الإعراضِ عن دينِ اللهِ؛ إذ الجهلُ بصفاتِ اللهِ سببُ الفسوقِ والعِصيان

إلى اللّه القديرِ رجوعُكم بعد موتِكم جميعًا، فاصبروا على طاعتِه، وانتظِروا ثوابَه، واجتنِبوا معصيتَه، واحذروا عِقابَه، وهو سبحانه بِقدرتِه على كلِّ شيءٍ قادِرٌ على بعْثِكم وإعادتِكم وحسابِكم.

وترشدُ الآيةُ الكريمة إلى إحياءِ اللّه الموتى؛ فإنَّه تعالى قديرٌ

(1) أجراه البِقاعيّ في هذا الموضع على معنى المصدر الميميّ مع إرادةِ معنى اسم الزّمان والمكان، فقال: ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡۖ﴾ أي: إلى اللهِ رُجوعُكم ووَقْتُهُ ومَكانُهُ لِأجْلِ الحِسابِ. يُنظر: البقاعي، نظم الدرر: 9/234.

وقد ردَّ ذلك ابنُ منظورٍ، فقال: "ولا يَجوزُ أن يَكُونَ هاهُنا ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡۖ﴾ اسمَ المَكانِ، لأنَّه قَدْ تعدّى بـ(إلى)، وانْتَصَبَتْ عَنْهُ الحالُ، واسْمُ المكانِ لَا يتعدَّى بحرفٍ، ولا تَنْتَصِبُ عنه الحالُ، يُنظر: ابن منظور، لسان العرب: (رجع).

(2) الرّاغب، المفردات: (رجع).

على كلِّ شيء، وهي كالدَّليل على حصولِ ذلك؛ إذ من جملةِ الأشياء إحياءُ الموتى، وقد أخبر به وهو أصدقُ القائلين، فيجبُ وقوعُه عقلًا ونقلًا[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

نكتة فصل الآية عن الآية السّابقة:

جملة: ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡۖ﴾ في معنى التعليل لجملة: ﴿فَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ كَبِيرٍ﴾، ولذلك فُصِلَتْ، كأنَّه قيل: أخاف عليكم العذاب ذلك اليوم؛ لأنَّكم صائرون إلى الله فيه، فتخريج الجملة على الاستئناف البيانيِّ، كأنَّه حين قال: ﴿أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ كَبِيرٍ﴾؛ قيل: وأيُّ يومٍ هذا؟ فأجيب: هو يوم مرجعكم إلى الله، وجملة الاستئناف البياني تُفصَل، ولا توصَل بالواو، أو الجملة مُستأنفة تأكيدًا لمضمون ما قبلها من الوعيد، فكأنَّه لمّا توعَّدهم بقوله: ﴿أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ كَبِيرٍ﴾؛ أيَّدَ هذا الوعيد بالكشْفِ عن طريقه، فعذاب اليوم الكبير آتٍ إليهم من طريق مرجعهم إلى الله، كأنَّه قال: إلى عذابِ الله رجوعكم، ووجْه توكيدِها للوعيدِ قبلها أنَّها على تقديرِ: كأنَّه قال: فإنّي أخاف عليكم يومًا تُرجعون فيه إلى الله[2].

جميعُ مَن أطاع ومَن أعرَض صائرون إلى الله مُنقلِبون

فائدة تقديم شبه الجملة ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾:

تقديم الجار والمجرور على العامل في قوله: ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡۖ﴾؛ لإفادة الاختصاص والحصر، فمرجعهم ليس إلّا إلى الله، ولا يختصُّ به أحد سواه، ولا ينقضُ إفادة الحصر أنَّهم لا يعترفون بالبعثِ؛ إذْ قصْدُهُم لا يؤثِّر في حقيقة الأمر، فالحصر واقعٌ طوعًا منهم أو كَرهًا، بل إفادة الحصر هي لدفع اعتقادِهم وإبطالِهِ بأنَّه لا مَرجِع لهم لا في الدنيا ولا في الآخرة[3].

لمّا كان المَرجِع إلَى اللهِ وحده كانتِ الطّاعةُ له وحده

(1) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 221.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 9/234، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/319.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/317.

سرُّ مجيء المسند إليه ﴿مَرۡجِعُكُمۡ﴾ مصدرًا ميميًّا:

يرجِع النّاس إلى اللهِ بذواتِهم حامِلينَ ما اجترحوا، وما اقترفوا

صيغة (مَرجِع) على وزن (مَفْعِل)، وهي صيغةُ المصدر الميميِّ على غير القياس، فتدلُّ على الحدثِ المجرَّد مع دلالتها على الذاتِ، فإنَّ المَرجِع يحمِل معه الدَّلالة على الذّاتِ الرّاجِعَة، والدَّلالة على تمام الحدثِ وغايتِه، فالمرجِعُ يدلُّ على تمام الرجوع ونهايتِه، وهذه نكتة إيثار التعبير بالمصدر الميمي دون غيرهِ من المصادر كالرجوعِ والرَّجعة والإرجاع التي تدلُّ على الحدث مجرَّدًا من غير اقتران معنًى إضافيٍّ به[1].

فائدة الخبر ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ﴾:

المصيرُ إلى الله مُقتَضى عدلِ اللهِ في خلْقِه

أفاد الإخبار بمرجعهم إلى الله دلالاتٍ عِدَّةً:

الأولى: تقرير محلِّ الوعيد، فهم سَيُعاقَبون في اليوم الذي يُرجَعون إلى الله.

الثانية: تقريرُ البعثِ الذي لا يؤمِنُ به الكافرون، وفي تقريره إغاظةٌ لهم وتبكيت؛ لأنَّه يُجابِهُهُم بما يَستريحون بإنكاره، وينزعجون باستحضاره.

الثالثة: التعريضُ بهم؛ إذْ في التعبير بالمرجِع كنايةٌ عن لازمِه من إرادةِ الرَّدع وَتَحْقِيرِ الانفلاتِ والطغيان، فكأنَّه يقول لهم: لعصيانكم نهاية، ولِفجوركم رادِعٌ وصادٌّ.

الرّابعة: إرادة تعميمِ المرجِع بإضافتِه إليهم، فكلُّ مَرجِعٍ لهم في شيءٍ إنَّما هو بالله ومنه وإليه، فالمرجِع كنايةٌ عن العواقِب الحاصلة لهم في الدنيا وفي الآخرة، فلا يقتصِر على المصير الأخرويِّ فقط[2].

وجهُ عدمِ ورود لفظ (جميعًا) في الآية:

لم يَرِد لفظ (جميعًا) في قولِه تعالى: ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ وَهُوَ

(1) فاضل السامرائي، معاني النحو، ص: 31.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/319.

الخطابُ لجميع الناس واللهُ هو ربُّ الجميع

﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾؛ لأنَّها تخاطبُ جميعَ الناس، سواء سواء أكانوا مسلمين أم غير ذَلِكَ، صالحين أم طَالِحِينَ؛ وذلك لأنَّ اللّٰه تعالى هو ربُّ الجميع، وهو الذي خلقهم، ورزقهم، وهداهم، وهو الذي سيحاسبهم على أعمالهم يومَ القيامة، وتتحدَّثُ الآية الكريمة عن مَصِيرِ النَّاسِ كُلِّهِمْ، وهو الرجوعُ إلى اللّٰه تعالى للحساب والجزاء، واللّٰه تعالى هو القاضي العدل، وهو الذي سيحاسب كلَّ إنسان على أعمالِهِ، مهما كانت هذه الأعمال؛ فالآيةُ الكريمة لا تحتاجُ إلى إضافة لفظ (جميعًا)؛ لأنَّ المخاطَبين بها هم جميع الناس، لَكِنْ عندما تناولتِ الآياتُ التي ورد فيها الرجوع إلى اللّٰه مع لفظ (جميعًا)، فإنَّها تحدَّثت عن طوائفَ منهم، كما في الحديث عن جَعْلِهِ سبحانه لكلِّ أمَّة شريعةً؛ ليختبر اللّٰه الجميع، فيظهر المطيعُ من العاصي، فطلبَ إليهم المسارعةَ إلى فعل الخيرات وترك المنكرات، فقال: ﴿لِكُلّٖ جَعَلۡنَا مِنكُمۡ شِرۡعَةٗ وَمِنۡهَاجٗاۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَلَٰكِن لِّيَبۡلُوَكُمۡ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمۡۖ فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ ٤٨﴾ [المائدة: 48]. وعندما ذَكَر المؤمنين إذا ألْزَمُوا أنفُسَهم بالعمل بطاعة اللّٰه واجتناب معصيته، وداوموا على ذلك، وإن لم يَسْتجبِ الناسُ لهم، فإذا فعلوا ذلك؛ فلا يضرُّهم ضلالُ مَن ضلَّ؛ إذا لزموا طريق الاستقامة، وأمروا بالمعروف، ونهَوا عن المنكر، فقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ١٠٥﴾ [المائدة: 105].

معنى الواو في: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾:

قـــدرةُ الـلـهِ مُتَجَلّيَةٌ في كلِّ شيءٍ لا يُنكرُها إلّا المجرمون

جملة: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾ معطوفةٌ على قوله: ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡۖ﴾ تقريرًا وتأكيدًا لتَحقُّقِ المَرجع وعدمِ الرَّيْبِ فيه بحالٍ من الأحوال، كما أنَّ التذييل بجملةِ القُدرة مَسوقٌ مَساقَ التعليل العام

والبرهان المُطلَق على جميع ما سبقه من مضامين الوعد والوعيد من التمتيع الحَسَن، والمُجازاة بالفضل لذوي الفضل، والتخويف بالعذاب الكبير لأهل الإعراض، فالتذييل لتقرير أنَّ اللّٰه قادرٌ على تلك المذكوراتِ جميعًا لا يُعجزه شيء منها؛ ليَقطع أعذار المُرتابين، ويعصِم الصادقين من الرِّيبَةِ وعدم اليقين، ويصِحُّ إجراء الجملةِ على الاستئناف تقريرًا لِعموم القُدرة[1]، ومن الممكن أن تكون الواو حاليَّةً على معنى: والحال أنَّ اللّٰه على كلِّ شيء قدير.

بلاغة العموم الذي أريد به الخصوص:

قدرةُ اللّٰه تستغرقُ الكليّات والجزئيات

التذييل بجملة: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾ من باب العموم الذي أريد به الخصوصُ، على سبيل المجاز المرسلِ لِعلاقةِ العموم، فمعنى الكُلِّيَّة والشمول في التركيب محمولٌ على إرادة الأشياء المخصوصةِ بالذِّكر في النَّظم، وهي قوله: ﴿يُمَتِّعۡكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى وَيُؤۡتِ كُلَّ ذِي فَضۡلٖ فَضۡلَهُۥۖ﴾، وقوله: ﴿فَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ كَبِيرٍ ۝٣ إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡۖ﴾، ونُكتةُ مجيء التركيب على العام مع إرادة الخاص؛ لأنَّ القُدرةَ على كلِّ شيءٍ يستلزِمُ القُدرةَ على تلك الأشياء المخصوصة، فدلَّ بمعنى العَامِّ على الخاصِّ[2].

نكتة تذييل الآية بصفة القدرة:

ما من عظيمٍ أو كبيرٍ إلَّا تحتَ قدرةِ الله مغلوب

ذُيِّلت الآيةُ بصفةِ القدْرةِ في قوله: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾؛ لتقريرِ كِبَرِ اليومِ المدلولِ عليه بقوله: ﴿عَذَابَ يَوۡمٖ كَبِيرٍ﴾، فإنَّ وصفَ الكِبَرِ بما تضمَّنه من معاني العِظَمِ والثِّقَلِ فيما يُلابسه من أهوالٍ وشدائدَ وحوادثَ يُناسِبُه، ويُلائِمُه وصْفُ القُدرةِ التي تُغالِبُ، وتُحَادُّ هذه الأوصاف[3].

(1) الآلوسي، روح المعاني: 6/195، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/320، وصافي، الجدول: 11/217.
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 3/150، وابن التمجيد، حاشية ابن التمجيد على تفسير البيضاوي: 10/5.
(3) البيضاوي، أنوار التنزيل: 3/128.

نكتة تنكير المسند ﴿قَدِيرٌ﴾:

العِلم بصفاتِ الله سببُ الخشيةِ والإيمان

تنكير لفظ ﴿قَدِيرٌ﴾ لإفادة العموم في اتِّساع القُدرةِ وإحاطتها بجميع المتعلَّقات، ووقوع كلِّ الجزئياتِ تحتها من غير فواتِ شيءٍ منها، وهو مؤذِنٌ بتعظيم الصِّفة وكمالها وإجلالِ الموصوفِ وكمالِه.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

المرجِع والمصير:

المرجع متضمِّنٌ معنى الاسترداد، والمصير مُتضمِّنٌ معنى التَّحوُّل

المرجِع: مِنَ الرُّجوع، وهو العَودُ من لاحقٍ إلى سابق، فهو انتقالُ الشيء إلى الحالِ التي كان عليها، فهو عوْدٌ إلى نفْسِ الحالِ الأولى، سواء كان ذلك في القول أم الفعل أمْ في المكان ونحو ذلك، ففيه معنى استردادِ السّابق، وأمّا المَصير، فهو من الصَّيرورة بمعنى الانتقال والتحوُّل من حالٍ إلى أخرى، سواء كانت هذه الأخرى موجودةً من قبل أم غير موجودة، ولذا كان المصيرُ في معنى العاقِبة والجزاء؛ إذِ العاقِبةُ حالٌ جديدة لم يكن عليها الإنسان من قبل، ولكنَّه تحوُّلٌ من حالِه الحاضرةِ إليها، بخلاف المرجِع، فهو عوْدٌ إلى حالٍ كان منها البدء[1].

(1) ابن فارس، والرّاغب، المفردات: (رجع، صير)، وابن منظور، لسان العرب: (رجع)، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (رجع، صير).

﴿أَلَآ إِنَّهُمۡ يَثۡنُونَ صُدُورَهُمۡ لِيَسۡتَخۡفُواْ مِنۡهُۚ أَلَا حِينَ يَسۡتَغۡشُونَ ثِيَابَهُمۡ يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ٥﴾ [هود: 5]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لمّا ذكَرَ في الآيةِ السابقة أنَّ مَرجِعَ النّاس جميعًا إليه: الذين تابوا، والذين تولَّوا، أخبر هنا عن حالٍ من أحوال تولّي المُعرِضين التي سيُحاسبون عليها يوم يُرجَعون إليه، بما يقتضي اطِّلاعه عليهم وعِلمَه بشؤونهم؛ ليُخبِر بذلك: أنَّ رجوعهم إليه للحساب هو جارٍ بمقتضى قُدرتِه وعِلْمِه.

بَعْثُ النّاسِ للحساب جارٍ بُمقْتضى قُدرةِ اللهِ وعِلْمِه

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَثۡنُونَ﴾: مِنَ الثَّنْي، وهو رَدُّ بَعضِ الشيء على بعضِه الآخَر، وطَيُّ أحدِ جزئيه على جُزئِه الثاني، فأصل (ثَنَيَ) تكرير الشيء مرَّتينِ اثنتينِ، أو جعْله شيئين متواليَيْنِ أو مُتباينَين، والمراد هنا: طَوَوا صدورهم على الكفر والغِلِّ والإعراض حتى جعلوها كجُزْأينِ اثنين، جزْءٍ خفيٍّ على السّوء، وَجزْءٍ ظاهرٍ خِلافُه[1].

المَعْنى الإجْماليُّ:

ألا إنَّ هؤلاء المشركين يُضمِرون في صدورِهم الكفْر؛ ظنًّا منهم أنَّه يَخفى على اللّه ما تُضمِره نفوسُهم، ألا يعلمون حين يغطُّون أجسادهم بثيابهم أنَّ اللّه لا يَخفى عليه سِرُّهم وعلانيتهم؟ إنَّه عليم بِمَكْنوناتِ صدورِهم من النِّيّات والضمائر والسرائر[2].

الكُفْرُ يَحْجُبُ البصيرةَ عن العقل

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (ثني).
(2) مجمّع الملك فهد، التفسير الميسّر، ص: 221.

وترشدُ الآيةُ الكريمةُ إلى جهل المشركين، وشدَّةِ ضلالهم، وإلى أنَّ العداوةَ والبغضاء التي يَطوون قلوبَهم عليها تدفعُهم إلى عملِ ما لا يجوزُ، ويَفْتِنون المؤمنين عن دينهم، وأنَّ ازورارَهم عمّا لا يحبون من الحقِّ، وانصرافَ صدورهم عنه، وهم يريدون أن يَسْتَخْفُوا عن النبي ﷺ، وينسَون أنَّ اللّه بكلِّ شيء عليم[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

نكتةُ فصل الآية عن سابقتها:

كلُّ إعراضٍ عن اللّه من ضعف العقل أو استحسان الهوى

جملة: ﴿أَلَآ إِنَّهُمۡ يَثۡنُونَ صُدُورَهُمۡ﴾ استئنافٌ بيانيٌّ مما قبلها، ولذلك فُصِلَتْ، كأنَّه لمّا تقدَّم تبشيرُهم بالفضْلِ الكثير إنْ أقبَلوا، وإنذارُهم بالعذابِ الكبير إنْ تولَّوا، فقيل: ماذا كان حالُهم؟ أعْرَضوا أم أقبلوا؟ فأجيب: لا، بل تَوَلَّوا ظاهرًا كما تولَّوا باطنًا[2].

نكتة العدول من الخطاب للنبيِّ ﷺ إلى الحديث عنهم بضمائر الغيْبة:

مَنْ يُعرِض عن اللهِ يُعرِض اللهُ عنه

العدول من خطاب النبيِّ ﷺ لهم في قوله: ﴿إِنَّنِي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ وَبَشِيرٌ﴾ وخطابهم بقوله: ﴿أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ كَبِيرٍ﴾، وقوله: ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡۖ﴾ إلى الحديثِ عن أشخاصهم بطريق الغَيْبة: ﴿أَلَآ إِنَّهُمۡ يَثۡنُونَ صُدُورَهُمۡ﴾؛ للإشارة إلى كمالِ عِلمِ اللّه بهم واطِّلاعه على ظواهرهم، بعد تقرير كمال قدرته عليهم في قوله: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾؛ للتَّنبيه على تلازم كمالِ قدرتِه مع كمال عِلْمِه، وأنَّ مَرجِعهم إليه في قوله: ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡۖ﴾ حاصِلٌ بأثَرِ تلك الصِّفتين: القدرة والعِلم، فلم يقل: (ألا إنّكم تَثْنون صدوركم)، ونُكتَةُ الالتفات من الخطاب للغيبة؛ لإبعادِهم والإعراضِ عنهم؛ إذِ التركيبُ في قوله: ﴿أَلَآ إِنَّهُمۡ يَثۡنُونَ صُدُورَهُمۡ لِيَسۡتَخۡفُواْ مِنۡهُۚ﴾ جارٍ في معنى الإخبار عن صُدودِهم وإعراضِهم، فلمّا أعرَضوا في الظّاهر؛

(1) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 221، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 7/3664.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 9/235، والآلوسي، روح المعاني: 6/195.

أعرضَ عنهم في ظاهِرِ النَّظْمِ كذلك بتركِ خِطابِهم، والحكايةِ عنهم بطريق الغَيبة؛ لتقرير الإعراضِ وعدمِ المواجَهة[1].

براعةُ الاستهلال بالمؤكِّدات في صدر الآية:

تحقيقُ أوصاف الكافرين لئلّا يلتبس حالهم على أحد

افتُتِحت الآيةُ الكريمةُ: ﴿أَلَآ إِنَّهُمۡ يَثۡنُونَ صُدُورَهُمۡ لِيَسۡتَخۡفُواْ مِنۡهُۚ﴾ بـ ﴿أَلَآ﴾ الاستفتاحيَّة و(إنّ) التحقيقيَّة المؤكِّدة لجملة الإسنادِ الاسميَّة، لثلاثة وجوه:

الأوَّل: الاستفتاحُ بها على القلوب، لِتَعي وتَنْتَبِه لمضمون الخبرِ، تنبيهًا على غرابتِه وعَجَبِه، ولذا استحقَّ الالْتِفَاتَ إلَيْه والتمهيدَ لَهُ.

الثاني: الإشارة إلى تَحقُّقِ ما بعد ﴿أَلَآ﴾، ولذا تُساقُ (إنّ) بعدها تقريرًا لهذا التَّحقُّق، ومُبالغةً في وقوعِه وحصولِه.

الثالث: العناية بتعليم الناسِ أنَّ الله ذو عِلمٍ وإحاطةٍ تامَّةٍ بخلْقِه؛ إذْ أنْبأ عن دقيقِ أحوالِهم بطريقِ التأكيدِ والتحقيق، ونَدْبِ السّامعين للإصغاء والإقبالِ والتفرُّغ لما سيُلقى ويُحكى[2].

نكتةُ التَّعبير بـ ﴿يَثۡنُونَ﴾ من حيث مادَّتُها وصيغتها:

قلوبُ الكافرين فاسدة، تَلفِظُ الصحيح وتَستَمْلِح القبيح

قوله: ﴿يَثۡنُونَ﴾ من ثنى الشيءَ؛ إذا لَواهُ، وطَواه، فردَّ أوَّلَه على آخِرِه، وفي إسناد الثَّنْيِ إلى الصدور ثلاث دلالات:

الأولى: أنَّهم خارِجون عن حدِّ الاعتدال والسَّويَّة في التَّفاعُلِ مع الحقِّ، فصدورُهم مَثْنيَّةٌ عليه بالشَّكِّ والإعراض والغِلِّ والكراهية.

الثانية: أنَّ قلوبهم مائِلةٌ غيرُ قابِلة، فكأنَّ الحقَّ لا يَنْفُذُ إليها، وإذا نفذَ؛ تدحرج منها، فلا تَصلُح له، ولا يَثْبُتُ فيها.

الثالثة: أنَّ صدورهم تحتفِظُ بالوسخ والدَّرَن، كما يحتفظُ الشيء المَثْنيُّ بكثْرةِ الدَّخَلِ والقَذَرِ، فحاصِل التعبير بِثَنْيِ الصُّدور: الدَّلالة على أنَّ صدورهم لافِظَةٌ للصَّحيح، مُمْسِكَةٌ للقبيح[3].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/320.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/320.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 6/196.

بلاغةُ الحقيقةِ والاستعارة في ثني الصُّدور:

الكافِرُ جاهلٌ بربِّه لا يَقْدُرُهُ حقَّ قدرِه

المراد من قوله: ﴿يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ﴾ الهيئة الجسمانيَّة؛ إذْ كان الواحد من المشركين يلقى النبيَّ ﷺ، فيُطأطِئُ رأسَه، ويَحني ظهرَه، فيَثْني صدره؛ كراهيةً للقاءِ النبيِّ ﷺ وابتعادًا منه ورغبةً عنه، وعلى هذا المعنى فالكلام جارٍ على الحقيقة، ويصحُّ إجراء الكلام على المجاز بتوجيه معنى الجملة إلى الهيئة النفسيَّة المُشَبَّهةِ بهيئةٍ جسديَّة، على سبيل الاستعارة التمثيليَّة بتشبيه حالِهم في إضمار العداوة للنبيِّ ﷺ في نفوسِهم وتمويه ذلك عليه وعلى المؤمنين بحال من يَثني صدرَهُ لِيُخْفيه ومن يَسْتَغْشي ثوبَه على ما يريد أن يَسْتُره به، أو هو مجازٌ على سبيل الكنايةِ عن الإعراضِ عن الحقِّ؛ لأنَّ ثَنْيَ الصدر معناه تَرْكُ الإقبال على الشيء؛ لأنَّ مَنْ أقبلَ على شيءٍ؛ واجهَهُ بصدرِه، ومنْ أعرضَ؛ ثَنَى صدرَه، وأعطاه ظهْرَه، أو الكنايةُ جاريةٌ في معنى الخفاء؛ لأنَّ ثَنْيَ الصُّدور يلزم عنه انطواؤها على خفيٍّ، فيكون عبارةً عن إضمار الكفر وتمكُّنه من بواطنهم[1].

معنى اللّام في: ﴿لِيَسْتَخْفُواْ﴾:

الكافرون لا تتجاوز عقولُهم ما ظهر لهم

اللام في قوله: ﴿لِيَسْتَخْفُواْ﴾ للتعليل، أي: الاستخفاءُ عِلَّةٌ لِثَنْيِ صدورِهم، والفعل (يستخفوا) مضارع منصوب بأنِ المضمرة، فالتقدير: (أنْ يستخفوا)، والجملة في تقدير مصدرٍ مؤوَّلٍ بمعنى (الاستخفاء)، أي: يفعلون ثَنْيَ الصدور لعلَّةِ الاستخفاء، وعليه: فلامُ التعليل متعلِّقة بـ ﴿يَثْنُونَ﴾، ويجوز تعلُّق اللام بفعلٍ مُضمَرٍ على الإرادة، على أنَّه حال، أو معطوف على ما قبله، أي: ويريدون لِيستخفوا[2].

نكتةُ زيادة السّين والتاء في ﴿لِيَسْتَخْفُواْ﴾:

السين والتاء في قوله: ﴿لِيَسْتَخْفُواْ﴾ للتأكيد، والفعل من

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 3/150، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 10/16، والآلوسي، روح المعاني: 6/196.

(2) الزمخشري، الكشّاف: 2/379، وأبو حيّان، البحر المحيط: 6/123، والآلوسي، روح المعاني: 6/196.

الاستخفاء، وأصل الكلام: (لِيَخْتَفُوا)، فالفعل من الاختفاء، ونظيره في التوكيد والمبالغة في إرادة الفعل: استجابَ، بمعنى أجابَ[1].

استخفاء الكافرين من الله أو من رسوله دليلُ حماقتِهم

معنى (من):

(مِنْ) في قوله: ﴿لِيَسْتَخْفُواْ مِنْهُۚ﴾: في معنى التعليل، أي: الرسول ﷺ هو عِلَّة استخفائهم، أي: يستخفون لأجل كراهيتهم لك وبغضهم للحقِّ، وآثَر التعبير بـ (مِنْ) دون حرف العِلَّة للدلالة على مَنشأِ استخفائهِم الذي حملهم عليه، ويصحُّ أنْ تكون (مِنْ) بمعنى المُجاوزة؛ لأنَّ قوله: ﴿لِيَسْتَخْفُواْ﴾ يحمِلُ معنى الانصراف والإعراض، أي: يستخفون عنك انصرافًا وإعراضًا، وإنَّما عبَّر بـ ﴿مِنْهُۚ﴾ دون (عنْه) لإفادة القُرب، فـ(مِنْ) تدخل على ما قرُبَ من الأسماء، و(عن) تكون لِما بَعُد منها، فهم يستخفون منه رغم أنَّه قريبٌ منهم وقريبون منه، وهو نعيٌ على عقولهم بأنَّ استخفاءَهم غيرُ خافٍ على الله ورسوله، وغير مفيدٍ لهم؛ إذِ القُربُ ممَّن يستخفون منه يجعل فِعلَهم هَدَرًا وعبَثًا، ويصحُّ أنْ تكون على بابها من إفادة معنى ابتداء الغاية، أي: الرسول ﷺ هو مَبْدأ استخفائهم، ثمَّ يشتدُّ الأمر، فيستخفون من الله خالقِهم، فالغرض بيان أنَّ استخفاءهم هو أيسرُ أحوالهم التي يُبادِئون بها الرسول، وما وراء الاستخفاء أشدُّ وأعظم، فابتداء الغاية يفيدُ تعيين الجهةِ التي يُباشرون الفعلَ معها[2].

يتنكَّر الكافرُ من رسول الله وهو أرحمُ الناس به

عوْدُ الضمير في ﴿مِنْهُۚ﴾:

الضمير في ﴿مِنْهُۚ﴾ في قولِه: ﴿يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُواْ مِنْهُۚ﴾ يعود على الرسول ﷺ، وذلك من وجهين: الأوَّل: على اعتبار تعلُّق اللام في ﴿لِيَسْتَخْفُواْ﴾ بـ ﴿يَثْنُونَ﴾. الثاني: بإجراء ثني صدورهم على الهيئة الجِسميَّة الحقيقيَّة، وتولية ظهورهم للنَّبيِّ ﷺ لئلّا

يَستَخفُون من الرسول ﷺ فيُطلِعُه اللهُ عليهم

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/323.

(2) المرادي، الجنى الداني، ص: 321، والخضري، من أسرار حروف الجرّ، ص: 333.

يَرَوْهُ، لِشدَّة كَرَاهِيَتِهِمْ له، ويحتمل عود الضمير على الله ﷻ من وجهين: الأوَّل: على إضمار فعل الإرادة، أي: (ويريدون الاستخفاء من الله).

الثاني: بإجراء ثني الصُّدور على الهيئة النفسيَّة المجازيَّة، عبارةً عمّا تنطوي عليه صدورهم من البُغض والغِلِّ وإعراض الباطن، فعلى هذا يعود الضمير على الله، أي: يريدون أن يستخْفوا من الله؛ فلا يطَّلع رسولُه ولا المؤمنون على ما في قلوبهم، فيقع استخفاؤهم في قصْدِهم من النّاس لا من الله، وقد حكى القرآن هذه الحال في قوله: ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ﴾ [النساء: 108][1].

نكتةُ الفصل في: ﴿أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ﴾:

جملة: ﴿أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ﴾ من تمام قوله: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ﴾، فهي قسيمةٌ لها ونظيرةٌ لها في تقرير معنًى بإزائها، ولكمال الاتصال بينهما وإجراء الثانية مجرى التأكيد لما قبلها فُصِلَتْ[2].

يتخفّى الكافرون بثيابهم والله من ورائهم محيط

فائدةُ إعادة ﴿أَلَا﴾:

أعيدتْ ﴿أَلَا﴾ في قوله: ﴿أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ﴾، بعد ذِكْرِها في قوله: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ﴾؛ لزيادةِ تحقيق الخبر، ولِقصدِ حكايةِ كلِّ حالٍ من ثَنْيِ الصدور، واستغشاء الثياب باستقلالٍ في العنايةِ والتنبيه إلَى نظيرَتِها، فالغرض تَكرار العناية، والتنبيه على محلِّ الجملتين، فمحلُّ الجملة الأولى: التنبيه على انصرافهم ليستخفوا، ومحلُّ الجملة الثانية: التنبيه على وقت استخفائهم، وهو حين يَسْتَغْشون ثيابهم[3].

المؤمنُ وإنْ كان عَريض القَفَا أعقل من كلِّ كافرٍ جَفَا

(1) ابن جُزَيّ، التسهيل لعلوم التنزيل: 1/365، والخطيب، التفصيل في إعراب آيات التنزيل: 6/273.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/323.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/318، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/323.

دلالة ﴿حِينَ﴾:

﴿حِينَ﴾ في قولِه: ﴿أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ﴾ ظرف زمان متعلِّق بـ ﴿لِيَسْتَخْفُواْ﴾ أي: يستخفون حين كذا، أو متعلِّق بـ ﴿يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ﴾، والفرقُ بين المُتعلَّقَين يظهر في الوقفِ والوصل، فعلى التعلُّق الأوَّل: يجوز الوقفُ على ﴿ثِيَابَهُمْ﴾، وجملةُ: ﴿يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ﴾ استئنافٌ، وعلى التعلُّق الثاني: فالوقف على ﴿ثِيَابَهُمْ﴾ قبيحٌ، للفصِل بين الظَّرف وعامِلِه[1].

أضغانُ الكافرين مفضوحةٌ ولو جَهَدُوا في كتمانِها

سرُّ التَّعبير بـ ﴿يَسْتَغْشُونَ﴾:

الفِعلُ ﴿يَسْتَغْشُونَ﴾ في قوله: ﴿أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ﴾، أي: يَغْشُون، فالسين للمبالغة والتأكيد، ويجوز أن تكون للطلب والاستقبال، أي: يلتمِسون ثيابهم غطاءً لهم، ولفظ الاستغشاء دالٌّ على إحكام الغطاء، فليس غرضُهم مجرَّدَ التغطية والسَّتر، بل الغرضُ السَّتْر الكامل الذي يحجُبُهُم عن رؤيةِ الرسول وسماعِه[2].

نكتةُ التَّعبير بالمضارع في ﴿يَعْلَمُ﴾:

أفاد التعبير بالمضارع في قوله: ﴿يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَۚ﴾ أنَّ أفعالهم في موضع الترصُّد المستمرِّ، فكلَّما أعلنوا قولًا أو فعلًا أو أسرّوا قولًا أو فعلًا فالله يعلمُه، فكلُّ فعلٍ منهم يُقابِله عِلمٌ من الله بهذا الفعل خاصة، فالأفعال معلومةٌ بتفصيلها وجزئياتها وآحادها، فالتعبير بالمضارع ﴿يَعْلَمُ﴾ إشارةٌ إلى تمام علم الله بالجزئيات، كما يعلم الكليّات.

الله يعلمُ السِّرَّ وأخفى، فكيف بالظاهِر

معنى ﴿مَا﴾:

﴿مَا﴾ في قوله: ﴿يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَۚ﴾ موصولة، أي: الذي يسرّونه ويُعلِنونه، وهي هنا مستعملة في صفات العقلاء، وتفيد

الله يعلمُ الأشياء بحقائقها ودقائِقِها

(1) ابن جُزَيّ، التسهيل لعلوم التنزيل: 1/366.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/323، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (غشو - غشى).

الإبهام والعموم، فتقع على كلِّ شيء يَدخله السِّرُّ والعلانية منهم، ويصحُّ أن تكون ﴿مَا﴾ مصدريَّة تؤَوَّل مع الفعل بعدها بمصدر، أي: يعلم سِرَّهم وعلانيتهم، ودلالتها على اعتبار المصدريَّة: الجمع بين معنى المصدر ومعنى الفِعل في مَوْرِدٍ واحد[1].

نكتة التَّعبير بالمضارع في ﴿يُسِرُّونَ﴾ و﴿يُعْلِنُونَ﴾:

أفاد التَّعبير بالمضارع في قوله: ﴿يُسِرُّونَ﴾ و﴿يُعْلِنُونَ﴾ مُزاولتَهم المستمرَّة لحالَي الإسرار والإعلان، فهم لا ينفكّون عن هاتين الحالَين، وما الإنسانُ إلّا كذلك.

ما من سِرٍّ أَوْ عَلَنٍ إِلَّا وَيَعْلَمُهُ اللهُ

موقع جملة: ﴿يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾:

جملة: ﴿يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ استئنافٌ بيانيٌّ ممّا قبلها، كأنَّه لما قال: إنَّهم يثنون صدورهم، ويستغشون ثيابهم ليستخفوا، سأل سائلٌ: كانَ حالُهُم مع الله الاستخفاء، فكيف حالُ الله معهم؟ فقيل: يعلم ما يسرّون، وما يعلنون، فالجملة في معنى المقابلة مع ما سبقها؛ لبيانِ الفرقِ بين حالهم مع الله الذي هو الاستخفاء منه، وحال الله معهم الذي هو تمام الاطلاع عليهم وكمال الإحاطة بهم، ويصحُّ إجراؤها استئنافيَّةً لتقرير أنَّه لا فائدة لهم مِن استخفائهم[2].

الكافرُ لا حياءَ عنده؛ إذْ لا حياءَ له مع ربِّه ولا عقْل

غرضُ تقديم العلم بالإسرار على الإعلان:

قدَّم العِلم بالإسرار على الإعلان، لإفادةِ تمكُّنِ عِلمِه ﷻ من جميع المعلومات، فكأنَّه يُشيرُ إلى سَبْقِ تعلُّقِ عِلمِه بالخفيِّ قبل الظاهر، ففي التقديم إشارةٌ إلى كمالِ الصِّفة في الكشْفِ والإدراك والدِّراية[3].

القدرةُ على الأعلى تقتضي القدرةَ على الأدنى

(1) سيبويه، الكتاب: 2/309، والسّمين الحلبي، الدّرّ المصون: 6/289، وفاضل السامرائي، معاني النحو: 1/131.

(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/318، وصافي، الجدول: 11/219.

(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/186.

نكتةُ ذِكْر المفضول وعدم الاكتفاء بالفاضل:

في قوله: ﴿يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَۚ﴾ ذكَرَ حال الإعلان، مع أنَّه مدلولٌ عليه بحال السرِّ، إذ من يعلمُ السرَّ أولى به أن يعلم العلانية؛ لدلالة تحقُّق الفاضل على تحقُّق المفضول، والنكتة في زيادة العلانية لِدفعِ توهُّم علمِهِ بالخفيّات دون الظواهر، فقطَع الوهمَ في ذلك على أهل الزَّيغ ذَوي العقول الضئيلة[1].

عِلمُ الله شامِلٌ كامِل وتفصيليٌّ جزئيٌّ

بلاغة المقابلة في الآية:

قوله: ﴿يَثۡنُونَ صُدُورَهُمۡ﴾، وقوله: ﴿يَسۡتَغۡشُونَ ثِيَابَهُمۡ﴾ يُقابِل قوله: ﴿وَمَا يُعۡلِنُونَۚ﴾؛ إذْ هيئة ثَنْي الصدور وهيئة استغشاء الثياب حالةٌ ظاهرة بمنطوقها، فقابَلتِ العلانية، والدُّخول في حال الاستخفاء بعد ثَنْي الصدور، واستغشاء الثياب حالٌ باطنة خافية، فقابلتْ قوله: ﴿مَا يُسِرُّونَ﴾، فكلُّ نظيرٍ مَسبوقٌ بنظيرِه الموافِق له في السياق، فالنَّظم مُطَّرِدٌ على مراعاة المناسبة وتوليدِ الألفاظ بعضها من بعض بحسب تواردِ المعاني وجريانها في النَّصِّ.

العباد مشمولون بعلم الله في كلِّ حالٍ من السرِّ أو العلانية

نكتةُ الفصل في: ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾:

جملة ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ تعليليَّةٌ لما قبلها، ولذلك فُصِلتْ، أي: يعلم ما يسرّون وما يعلنون؛ لأجلِ أنَّه شديد العلم بأخفى الأشياء وأبطنِها، وهو علمه بخفايا الصدور، فعِلمُه بالسرِّ العام أولى وعِلْمه بالجهرِ والعلانيةِ أيْسَرُ وأتَمُّ[2].

الله عليمٌ بنزَغاتِ الصُّدور التي هي أخفى من السِّرِّ

علَّةُ ختمِ الآية بصفة العلم:

ختْمُ الآيةِ بصفة العلم لِمُلاحظةِ المعلوماتِ في المطلَع، وهي الأحوال المُنْكَشِفَةُ بتلك الصِّفة، فلا يُجَلّيها إلّا العِلمُ، وهي ثني الصدور واستغشاء الثياب وحال الإسرار والإعلان، فنَاسبَ ختْمَها

فوق كلِّ ذي عِلمٍ عليم ولا منتهَى لعِلمِ الله

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/323.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/323.

بما لا تنكشِفُ إلّا به، وفي ختمِ الفاصلة بصفة العِلم ﴿عَلِيمٌ﴾ نكتةٌ جليلةٌ أخرى، وهو أنَّه سبحانه لمّا عبَّر عن العِلم كَصِفةِ فِعلٍ بصيغة المضارع في ﴿يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَۚ﴾؛ استوفى تحقيق ذلك بالإنباء عن العِلمِ كصفةِ ذاتٍ ثابتة بوصف المبالغة ﴿عَلِيمٌ﴾، فاللّه ذو العلمِ المطلق والكامل، الذي لم يُسبق بجهل، ولا يَلحقه نسيانٌ، فهو العالَم الواسعُ المحيطُ بكل شيء جملةً، وتفصيلًا، سواء ما يتعلَّق بأفعاله، أو أفعال خلقه، وهو العالم بالسرائر، والخفيات التي لا يدركها عِلمُ الخلقِ.

لطيفةُ تنكير ﴿عَلِيمٌ﴾:

تنكير صفةِ الجلالِ ﴿عَلِيمٌ﴾ في قوله: ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾؛ لإفادة التعظيمِ والكمال في الموصوف، وفي الوصفِ بنسبتِه إلى ذات الجليل، فهو عليمٌ عظيمٌ في ذاتِه، وكاملٌ في عِلمِه، ولإفادة العموم والشمول، أي: عليمٌ بكلِّ شيءٍ لا يَعزُبُ عن عِلْمِه مثقالُ ذرَّةٍ.

عِلمُ الله دائمٌ كامِل لا حدَّ له ولا مَدَّ

نكتةُ المبالغة في صيغة (فَعِيل) لصفة العلم:

مجيء صفة الذّات الجليلة ﴿عَلِيمٌ﴾ في قوله: ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ على وزن (فعيل) الذي يَصلُح على مِثالِ الصِّفة المشبَّهة ومثالِ المبالغة لإفادة معنى الديمومة، أي: دائمُ العلم لا يتغيَّر، ولا يَغيب، وكامِلُ العِلم لا يَنْقُص، فصيغة (فعيل) أفادت استقصاءَ التعبير عن إحاطةِ العلم وسَعتِه بكلِّ ما تحملُه كلمةُ الإحاطةِ والسَّعةِ من معنًى ومدلول[1].

صفاتُ اللّه وَاسِعَةُ الاشْتِمال، ولا يُحاذيها مِثالٌ في جَمِيعِ الأَحْوَال

غرضُ التعبير بالجملة الاسمية:

عبَّر بالجملة الاسميَّةِ المؤكَّدة في قوله: ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ ولم يقل: (إنَّه يعلم)؛ للدلالة على دوام الاستمرار، فهو

اللّه يعلم بما يكونُ قبل كوْنِه

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/324.

سبحانه لم يَزَل عالِمًا بذلك، وللدَّلالة على أنَّه سبحانه يعلمُ بالأشياء قبل وجودِها الخارجيِّ؛ إذِ الأشياءُ قبل ظهورها كانت مُضمَرةً في الصُّدور، وهو عليمٌ بذات الصدور[1].

لطافةُ الإيجاز بالحذف في: ﴿بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾:

الصُّدور أوعيةٌ للقلوبِ وأحوالِها

قوله: ﴿عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾، أي: عليمٌ بالأشياءِ أو بالأسرارِ ذاتِ الصُّدور، فالكلام على حذف موصوف، أي: المُضمَرات والأسرار صَاحبةُ الصُّدور، أي: تلابِسُها، وتُساكِنُها مُلابسةَ الصّاحبِ لِصاحبِه ومساكنتَهُ[2].

بلاغة المجاز في: ﴿بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾:

اللهُ سبحانه أقربُ إلى العبدِ ممّا في صدرِه من الخواطر والأفكار

قوله: ﴿بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ كنايةٌ عن القلوب التي في الصُّدور، أو كناية عن الأسرار المُستكِنَّةِ في الصدور، والأسرارُ لمّا كانت مُضمرةً في الصدورِ؛ قيل لها: ذاتُ الصدورِ، فشَبَّه ما في الصدورِ من القلوبِ وأحوالها، أو الأسرار بالصاحِبِ في المُلابسةِ التامَّةِ لِصاحبِه، فذَكَرَ لفظَ المُشَبَّهِ به، وهو (ذات) بمعنى الصّاحب، وأريدَ المُشبَّه: وهو (الأسرار) على سبيل الاستعارة التصريحية، أو التمثيليَّة بملاحظةِ تشبيه هيئةٍ بهيئة وحالٍ بحالٍ في الملابسةِ والملازَمَة، وليس المراد بـ (ذات) هنا حقيقة الشيء أو نفْس الشيء، كما يَصلُحُ في (ذات بينِكم)؛ لأنَّ ذات على هذا المعنى تكون مُقْحمةً لتحقيق الحقيقة مُبالغةً وتأكيدًا، ولا هي من بابِ إضافة المسمّى إلى اسمِه، وليس هذا بمستقيمٍ هنا؛ إذْ يكون معناه: عَليمٌ بنفْسِ الصُّدور، ولا يُفيدُ هذا شيئًا؛ لأنَّ مواقعَ الصدور ونفْسَ الصُّدور معلومةٌ، وإنَّما إعجازُ صِفةِ العِلم في الإحاطةِ بما يَسْرِي فيها من الخواطرِ، وما يَجول فيها من الأحوال[3].

(1) الآلوسي، روح المعاني: 6/198.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/323.
(3) الشهاب، عِنايةُ القاضي وكِفايةُ الرّاضي على تفسير البَيضاوي: 5/71، والآلوسي، روح المعاني: 6/198.

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الإعلان والجهر:

الجهر يكون بصوتٍ، والإعلان بصوتٍ وبغير صوت، فهو أعمُّ

الإعلان: هو مُطلَقُ إظهار الشيء سواء بإبرازه وكشْفِه، أو بالإشارةِ إليه لِيُلْمَح، أو بالدلالةِ عليه بالصَّوتِ والحاسَّة، ويَغْلِبُ استعمالُه في المعاني دون الأعيان، فالمعنى: إذا ظهر للنَّفسِ، واسْتَظْهَرَتْهُ؛ فقد أُعلِنَ.

وأمّا الجهر؛ فهو إظهارُ الشَّيء بِإفراطِ حاسَّة السَّمع أو البصر، ومعنى إفراط الحاسَّة: انفعالها بإفراطٍ للمحسوس، صوتًا كان أو صورة، وأكثرُ ما يستعمل في الصَّوت، وقد ورد كلاهما في القرآن، فأمّا الجهرُ للسَّمع؛ ففي قوله: ﴿وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ﴾ [الحجرات: 2]، وأمّا الجهر للبصر؛ ففي قوله: ﴿أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ [النساء: 153]، أي: عِيانًا رؤيةً مُفرطَةً بالبصر[1].

الإسرار والإخفاء:

الإخفاء في الأعيان والمعاني، ويَغْلِبُ الإسرارُ في المعاني

الإسرار: هو إنزال الشيء منزلةَ السِّرِّ، والسِّرُّ: هو إخفاء الشيءِ في النَّفْس، ويُقال: في هذا الكلام سِرٌّ؛ تشبيهًا له بما يُستودَعُ في النَّفْس، ولذا غلبَ استعمالُه في المعاني دون الأعيان، فلا يُقال: أسررتُ تحتَ الثيابِ قطعةَ خُبْزٍ، بل يقول: أخفيتُ، والإخفاء: هو سَتْرُ الشيء عن الحواسِّ، فلا يُرى، ولا يُسمَع، وكما يستعمل في الأعيان يستعمل في المعاني، ولذا أسند إلى الصدورِ ﴿وَمَا تُخْفِي ٱلصُّدُورُ ۝١٩﴾ [غافر: 19]، واستُعمِل في عموم كلِّ مَخْفيٍّ: ﴿وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ﴾ [الممتحنة: 1]، فالإخفاء أعمُّ من الإسرار[2].

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، والسّمين الحلبي، عمدة الحفاظ، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (جهر، علن).

(2) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 447، 533، وابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات: (خفى، سرر).

الجُزْءُ الثَّانِي عَشَرَ

﴿۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا وَيَعۡلَمُ مُسۡتَقَرَّهَا وَمُسۡتَوۡدَعَهَاۚ كُلّٞ فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ٦﴾ [هود: 6]

۞ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا سبقَها:

الرّبطُ بينَ علمِ اللهِ بما يسرُّ المشركونَ وما يُعلنونَ، وبينَ علمِهِ بكلِّ دابّةٍ ورزقِها

لَمّا أخبرَ اللّه تعالى في الآيَةِ السّابقةِ أنَّهُ ﴿يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَۚ﴾ [هود: 5] أردَفَهُ بالدّليلِ على كَونِهِ تعالى عالِمًا بجَميعِ المَعلوماتِ مع تأكيدِه بما فيهِ غايَةُ الامتِنانِ، ونِهايَةُ الإحسانِ، فلمّا كانَ اللّه تعالى رازقَ الدّوابِّ الّتي لا حيلةَ لها في الاكتسابِ دلَّ على أنَّه تعالى عالمٌ بجميعِ أحوالِها، فلولا أنّهُ عالمٌ بجميعِ المَعلُوماتِ لَما حَصَلَتْ هذِهِ المُهِمّاتُ[1].

۞ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿دَآبَّةٍ﴾: الدَّبُّ والدَّبيبُ: هو المشيُ الخفيفُ، أو هو الانتِقالُ الخَفيفُ البَطيءُ، والدّابَّةُ: اسمٌ عامٌّ يَشمَلُ كُلَّ حيوانٍ ذي روحٍ ذكرًا كانَ أو أنثى مميّزٍ وغيره، وَغَلَبَةُ لَفظِ الدّابَّةِ على ما يُركَبُ مِنَ الخَيلِ والبِغالِ والحَميرِ عُرفًا لا لُغَةً[2]، والمرادُ بالدّابّةِ هنا كُلُّ حَيَوانٍ يَدِبُّ على وَجهِ الأرضِ[3].

2) ﴿مُسۡتَقَرَّهَا﴾: يدورُ معنى (قرَّ) على الثّباتِ والتَّمكُّنِ؛ أي: ثَبات ما شأنُهُ التَّسيُّبُ وامتساكُهُ في قاعٍ عميقٍ مُستديرٍ: كقُرَّةِ القِدْرِ، وكالماءِ في مُستقرِّهِ، ويُقالُ: أقرَّهُ في مكانِهِ فاستَقَرَّ؛ أي: صارَ في وضعٍ ثابتٍ مُتمكِّنٍ في المكانِ، وكلُّ (مُستقَرٍّ) بفتحِ القافِ يصحُّ أن يكونَ مصدرًا أو مكانَ استقرارٍ[4]، ومعنى ﴿مُسۡتَقَرَّهَا﴾

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/318، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 9/236 - 237.
(2) الرّاغب، المفردات: (دب)، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (دبب - دبدب).
(3) البغويّ، معالم التّنزيل: 4/161.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (قر)، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (قرر).

في الآيةِ: المأوى الّذي تأوي إليه ليلًا وسكنها نهارًا، وقِيلَ: الوَلَدُ في صلبِ الأبِ[1].

3) ﴿وَمُسۡتَوۡدَعَهَاۚ﴾: يدورُ معنى الكلمةِ على بقاءِ الشّيءِ ساكنًا قارًّا في مَقرٍّ أو مَقام بلا حركةٍ ولا استعمالٍ، وأصلُ ودَعَ يدلُّ على تَركٍ وتخليةٍ، وودَّعَ الثّوبَ وأودعَهُ: صانَهُ في صِوانِهِ، لا يَصِلُ إليه غُبارٌ ولا رِيحٌ، والإيداعُ: الوَضعُ والدَّخرُ، واستَودعَهُ مالًا وأودعَهُ دفعَهُ إليه ليكونَ عندَهُ وَديعَةً، ومعنى ﴿وَمُسۡتَوۡدَعَهَاۚ﴾: المَوضِعُ الّذي يُودعُها إمّا بموتِها فيهِ، أو دفنِها، وقِيلَ: مُستَودَعُها في رَحِمِ الأمِّ قَبلَ بُرُوزِها إلى الأرضِ[2].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

اللهُ خالقُ أرزاقِ كلِّ ما يَدبُّ في الكونِ، وهو مُحيطٌ بعوالِمِ استقرارِها واستيداعِها

وما مِن دابَّةٍ في أيِّ جزءٍ مِن أجزاءِ الأرضِ، إلّا تكفَّلَ اللّه برزقِها ومعاشِها؛ لِيصلَ إليها تفضُّلًا ورحمةً، وكما تكفَّلَ برزقِها أينما كانَ يَعلمُ مكانَ استقرارِها ومَوطنِها الّذي وُلِدَت ونشأت فيهِ، ومأواها الّذي تأوي إليه ليلًا أو نهارًا، ويَعلمُ مُستودعَها الّذي تَرحلُ إليه لِطلبِ الرّزقِ وغيرِهِ، والمَوضِعَ الّذي يودعُها بموتِها فيه، كُلٌّ واحدٍ مِنَ الدّوابِّ وأحوالِها في كِتابٍ مُبينٍ عندَ اللّه قبلَ أن يخلقَها ويُوجدَها[3].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالةُ الواو في مَطلَعِ الآيةِ الكريمةِ:

اقترانُ الدّليلِ بالحُكمِ أدعى إلى الاقتناعِ والانقيادِ

جاءَتِ الآيةُ على طريقِ الوَصلِ، والجهةُ الجامعةُ بينَهُما أنّها بمثابةِ الدّليلِ على أنَّ اللّه تعالى يَعلمُ ما يُسِرّونَ وما يُعلِنونَ، وتقديرُ الكلامِ: فمَن كانَ قد عَلِمَ ذلك منهُم قبلَ أن يُوجدَهم،

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (ودع).
(2) ابن جرير، جامع البيان: 15/243.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 15/240، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/128، مَجمَع البحوث، التّفسير الوسيط: 4/163.

لا يَخفى عليهِ ما تنطوي عليه نفوسُهم إذا ثَنَوا به صدورَهُم، واستغشَوا عليه ثيابَهُم[1].

بلاغةُ التّعبيرِ بأسلوبِ النّفي الدَّالِّ على الاستغراقِ والعُمومِ:

تعميمُ رزقِ اللهِ كلَّ دابّةٍ آيةٌ على إحاطةِ علمِهِ بكلِّ أحوالِها

لمّا جاءتِ الآيةُ في مَقامِ الاستدلالِ على إحاطةِ علمِ اللّه تعالى بجميعِ الكائناتِ وأحوالِها وأعمالِها، ظاهِرِها وَخَفِيِّها، نُظِمَ الكَلامُ على هذا الأسلوبِ تَفَنُّنًا لإفادَةِ التَّنصيصِ على العُمومِ بالنَّفيِ المُؤَكَّدِ بـ ﴿مِن﴾، ولإدماجِ تَعميمِ رِزقِ اللّه كُلَّ دابَّةٍ في الأرضِ في أثناءِ إفادَةِ عُمومِ عِلمِهِ بأحوالِ كُلِّ دابَّةٍ، فلأجلِ ذَلِكَ أُخِّرَ الفِعلُ المَعطوفُ ﴿وَيَعۡلَمُ﴾؛ لأنَّ في التَّذكيرِ بأنَّ اللّه رازِقُ الدَّوابِّ الَّتي لا حِيلَةَ لها في الاكتِسابِ استِدلالًا على أنَّه عَليمٌ بأحوالِها، فإنَّ كَونَهُ رازِقًا لِلدَّوابِّ قَضيَّةٌ مِنَ الأُصولِ المَوضوعَةِ المَقبولَةِ عندَ عُمومِ البَشرِ، فَمِنْ أجلِ ذَلِكَ جُعِلَ رِزقُ اللّه إيّاها دَليلًا على عِلمِهِ بما تَحتاجُهُ[2]. وحرفُ الجرِّ ﴿مِن﴾ يفيدُ النّصَّ على استغراقِ النّفيِ؛ لدفعِ أيِّ تأويلٍ قد يَرِدُ مِنَ المُخاطَبينَ، كي لا يَتوهَّموا أنّهُ على معنى الكثرةِ لا الإحاطةِ، لِمَا يقتضيهِ إثباتُ الأمورِ العقديَةِ مثل: إثبات وصفِ إحاطةِ علمِ اللّه تعالى بالخلقِ مِن دفعِ تَوهُّمِ المبالغةِ في الوصفِ؛ والمعنى: كلُّ ما يُطلَقُ عليه دابَّةٌ، صَغُرَت أو كَبُرَت.

الغرضُ مِن أسلوبِ القصرِ بالنّفي بـ ﴿وَمَا﴾ و﴿إِلَّا﴾:

تمكينُ معنى إحاطةِ اللهِ بالأرزاقِ ضمانٌ لِلمُؤمنينَ، وتحذيرٌ لِلمُشركينَ

سَلَكَ في الحصرِ مَسلكَ النّفي والاستثناءِ في قولِهِ تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا﴾؛ لأنَّ المشركينَ لمّا كانوا يَعتقدون أنَّهُم في مُكنَةٍ مِن إخفاءِ بَعضِ أحوالِهِم عَنِ اللّه تعالى ومُنكِرينَ عِلمَ اللّه بهِم، وكانوا مُصرِّينَ على هذا بما يَظهرُ مِن أعمالِهِم

(1) ابن جرير، جامع البيان: 15/243، والماتريديّ، تأويلات أهل السّنّة: 6/99.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/5.

وتصرُّفاتِهم[1]، جاءَ بأسلوبِ الحصرِ بطريقِ النّفي والاستثناءِ؛ للرَّدِّ على اعتقادِهِمُ الخاطئِ وجهلِهِم باللّه تعالى لإثباتِ إحاطةِ علمِ اللّه تعالى بطريقِ الدّليلِ وإثباتِ الحجّةِ عليهم، وهذا الأسلوبُ في قوّةِ جملتين نفيًا وإثباتًا.

سببُ إيثارِ النّفي لِلذّواتِ دونَ الأحوالِ:

لمّا كانَ النّفيُ لعمومِ الذّواتِ شاملًا لنفي عُمومِ الأحوالِ؛ لأنَّه تابعٌ لها، جاءَ الاستثناءُ مِن عُمومِ الأحوالِ التّابعِ لِعُمومِ الذَّواتِ والمَدلُولِ عليهِ بِذِكرِ رِزقِها الَّذي هو مِن أحوالِها[2]، ونكتةُ مجيءِ النّفي لِعمومِ الذّواتِ دونَ عُمومِ الأحوالِ؛ أي: لم يكنِ النّظمُ: وما مِن رزقٍ لأيِّ دابّةٍ إلّا على اللّه، أو ما في معناهُ، مع أنَّ المُرادَ إثباتُ أنَّ رزقَ جميعِ الدَّوابِّ على اللّه تعالى؛ لأنَّ نفيَ الذَّواتِ الدَّالَّ على نفي الأحوالِ أبلغُ في استغراقِ النّفي مِن نفي الأحوالِ فقط، كما أنَّ في التّعبيرِ بهذا الإسنادِ تقويةً لِلحُكمِ؛ للإخبارِ عنِ المسندِ إليهِ ﴿دَآبَّةٍ﴾ بالجملةِ الاسميّةِ ﴿عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا﴾، كما أنَّهُ تَوسُّلٌ بهذا الأسلوبِ لإدماجِ تعميمِ علمِ اللّه بجميعِ الدّوابِّ، وأحوالِها، بعلمِه سبحانَه بمستقرِّها ومُستودعِها، ليكونَ الإدماجُ مِن تمامِ الدّليلِ ومَقصِدِه.

نفيُ الذّواتِ الشّاملُ لنفي الأحوالِ، أبلغُ مِن نفي الأحوالِ

الغرضُ مِنَ التّعبيرِ بـ ﴿دَآبَّةٍ﴾، وغايةُ تنكيرِه:

لمّا كانَ لفظُ الدّابَّةِ مِنَ الدّبيبِ الّذي هو بمعنى السّيرِ البطيءِ الحثيثِ، ودلَّ الكلامُ في الرّزقِ على أنّه يحتاجُ إلى السَّعيِ إليه، ويدخلُ العقلاءُ في اللّفظِ دخولًا أوّليًّا؛ لأنَّ السّياقَ فيهم، ولأنّ الدَّوابَّ تشبهُ ذوي العقولِ مِن جهةِ أنَّها طالبةٌ لِأرزاقِها عندَ الحاجةِ[3]. وإيرادُها مُنَكَّرةً لِلدّلالةِ على عُمومِ كلِّ ما يَتحرَّكُ مِنَ المخلوقاتِ، فالوصفُ العامُّ الشّاملُ يناسبُهُ التّنكيرُ.

الرّزقُ يحتاجُ إلى السّعيِ الحثيثِ، لا القبوعِ المتواكلِ في البيوتِ

(1) السّكّاكيّ، مفتاح العلوم، ص: 294.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/5.
(3) النّيسابوريّ، غرائب القرآن: 4/217.

دلالةُ التّعبيرِ بحرفِ الجرِّ ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾:

الدّابّةُ تشمَلُ ما على الأرضِ وما في باطنِها، وما في جـوِّهـا وفي بحرِها

لم يقُلْ: (على الأرضِ) مع أنَّه أنسَبُ بتَفسيرِ الدّابَّةِ لغةً؛ لأنَّها ما يَدِبُّ على الأرضِ، والسّببُ أنَّهُ لمّا كانَ حرفُ ﴿فِي﴾ يفيدُ معنى الظّرفيَّةِ كانَ أعمَّ مِن (على)؛ لأنَّه يتناوَلُ مِنَ الدَّوابِّ ما على ظَهرِ الأرضِ، وما في بَطنِها كما هو مُشاهَدٌ[1]، وللإشعارِ بأنَّ الرّزقَ يكونُ في الأرضِ على ما هو في الظّاهرِ، ولِيَعُمَّ لفظُ الدّابَّةِ ما يَمشي على وجهِها وما في أطباقِها، ويَدخُلُ في الدّابَّةِ الطّائرُ والعائمُ ونحوُهما، فإنّها في الأرضِ، ويَدخُلُ كذلكَ ما ماتَ مِنَ الحيوانِ قبلَ أن يَتَغَذَّى؛ فقد اغتَذى في بطنِ أمِّهِ بوَجهٍ مَا[2].

الغرضُ مِنَ التّعبيرِ بشبهِ الجملةِ ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾:

أنسبُ الخطابِ، ما كـانَ أقـربَ لحسِّ المُخاطَبين

خُصِّصَ الكلامُ بقولِهِ: ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾؛ لأنَّه الأقربُ لحسِّ المُخاطَبينَ، ولِتَأكيدِ مَعنَى ﴿دَآبَّةٍ﴾ في التَّنصيصِ على أنَّ العُمومَ مُستَعمَلٌ في حَقيقَتِهِ؛ أي: كلُّ ما يَدِبُّ على الأرضِ.

الغرضُ مِنَ تقديمِ شبهِ الجملةِ:

الـرّزقُ لا يُطلَبُ إلّا مِـنَ الـلـهِ، وحقيقةُ الشُّكرِ يـكـونُ لِـلـرّازقِ المُنعِمِ

لمّا تقدَّمَ المُسندُ ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾ على المُسندِ إليه ﴿رِزۡقُهَا﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا﴾ أفادَ القصرَ؛ لإثباتِ أنَّ اللّه تكفَّلَ برزقِها، ولم يُهملْهُ، ويتضمَّنُ لزومًا النّفيَ عن غيرِهِ سبحانَه؛ أي: على اللّه رزقُها لا على غَيرِهِ؛ لأنّ القصرَ في قوّةِ جملتين إثباتٌ لِتفرُّدِ الذّاتِ العليّةِ، ونفيٌ عن غيرِها، ففيهِ مُبالغةٌ وإيجازٌ واختصارٌ وتَمكينٌ لِلمَعنى.

سرُّ التّعبيرِ بالمُسندِ إليه مُضافًا ﴿رِزۡقُهَا﴾:

رزقُ اللـــهِ مَـقـسـومٌ لِـلـبرِّ والـفـاجـرِ، والمؤمنِ والكافرِ

لمّا أخبرَ عنِ الدّابّةِ بأنَّهُ على اللّه رزقُها في قوله تعالى: ﴿وَمَا

(1) الأنصاريّ، فتح الرّحمن، ص: 258.

(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/151، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 9/237، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/6.

مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا﴾ دلَّ على أمرين؛ أحدُهما: دلالتُهُ على لزومِ احتياجِ كلِّ حيوانٍ إلى رزقِهِ سبحانَه، فبه يكونُ قِوامُهُ وغذاؤُهُ ومَعاشُهُ، والثّاني: أنّه لمّا وعدَكُم بالرّزقِ وضَمِنَهُ لكُم، فلا تُرهِقوا أنفسَكُم بالرّزقِ، واشتغلوا بعبادتِهِ، ولا تَفتُرُوا عنها، فهو عَالِمٌ بكلِّ نفسٍ، فلا تَخشَوا مِن أنَّه يَنسى أحدًا، كما أفادَ أنَّ الرِّزقَ مَقسومٌ لكلِّ أحَدٍ مِن بَرٍّ وفاجرٍ، ومُؤمنٍ وكافرٍ[1].

الغرضُ مِنَ الاستعارةِ في حرفِ الجرِّ ﴿عَلَى﴾:

يحتملُ لفظُ ﴿عَلَى﴾ في قوله تعالى: ﴿إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا﴾ أن يكونَ على المجازِ؛ لِيكونَ استعارةً تبعيّةً، وبيانُهُ أنّه شبَّهَ ما وَعَدَ به مِنَ الرّزقِ لكلِّ الدّوابِّ بما يجبُ عليه إيذانًا بأنَّ وعدَهُ لا يتخلَّفُ؛ أي: لمّا كانَ المقامُ مَقامَ تفضُّلٍ دلَّ على أنَّه تعالى لمّا ضَمِنَ أن يَتفضَّلَ بالرّزقِ عليهم صارَ بمنزلة الوعدِ أن يرزقَهُم، فصارَ حقًّا عليه ﷻ بحسب الوعدِ فضلًا وإحسانًا؛ أي: لمّا كانَ اللّه لا يُلزِمُهُ أحَدٌ شَيئًا، فما أفادَ مَعنَى اللُّزُومِ في القرآنِ، فإنَّما هو التزامُهُ بِنَفسِهِ بِمُقتضَى صِفاتِهِ المُقتَضِيَةِ ذَلِكَ لَهُ، كما أشارَ إليهِ قَولُهُ تعالى: ﴿وَعۡدًا عَلَيۡنَآۚ﴾ [الأنبياء: 104] وقَولُهُ: ﴿حَقًّا عَلَيۡنَا﴾ [يونس: 103].

مباشرةُ الأسبابِ لا تمنعُ مِنَ التَّوكُّلِ على اللهِ تعالى ربِّ الأسبابِ

ونكتةُ التّعبيرِ بلفظِ الوجوبِ تحقيقُ وصولِ رزقِهِم إليهم بهدايتِهِم إلى طلبِهِ وتحصيلِهِ، ويترتَّبُ على هذه الفائدةِ الحملُ على التَّوكُّلِ على اللّه في الرِّزقِ، والثّقةِ بِهِ تعالى في وصولِهِ، والإعراضِ عن إهلاكِ النّفسِ في طلبِهِ، فإنَّه إذا عرفَ العبادُ بأنَّ الرّزقَ كالواجبِ على اللّه، وأنَّه صارَ حقًّا عليه يزدادُ توكُّلُه واغتناؤُهُ بوصلِ ما قَسَمَ لهُ مِنَ الرِّزقِ فلا يشقَّ على نفسِهِ، بل يُجملُ في الطّلبِ، ولا يمنعُ مِنَ التَّوكُّلِ مباشرةُ الأسبابِ، مع العلم بأنّه سبحانَهُ المُسبِّبُ لها، وأجازَ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/237.

بعضُ المفسِّرينَ أن تكونَ ﴿عَلَى﴾ بمعنى (مِن)؛ والتّقديرُ: وما مِن دابّةٍ في الأرضِ إلّا مِنَ اللّه رزقُها[1].

الغرضُ مِنَ الاستعارةِ في ﴿رِزْقُهَا﴾:

لمّا كانَ الرِّزقُ قد اشتُهرَ استعمالُهُ في كلامِ العربِ ومَواردِ القرآنِ الكريمِ في ما يَحصُلُ بِهِ سَدُّ ضروراتِ الإنسانِ وحاجاتِهِ في الحَياةِ مِنَ الأطعِمَةِ والأنعامِ والحَيَوانِ والشَّجَرِ المُثمِرِ كانَ إطلاقُهُ على ما يَتَناوَلُهُ الحَيَوانُ مِنَ المَرعَى والماءِ على طريقِ المَجازِ[2]؛ ليكونَ استعارةً تصريحيّةً بتشبيهِ كُلِّ ما يَدِبُّ على الأرضِ بالإنسانِ بجامعِ الحياةِ والمشي في الأرضِ.

الرّزقُ كلُّ ما يحصُلُ بهِ سدُّ ضروراتِ الإنسانِ، وحاجاتِه في الحَياةِ

سرُّ الإضافةِ في: ﴿رِزْقُهَا﴾:

لمّا كانَتِ الإضافةُ هنا على معنى اللّامِ دلَّ على أنّ المرادَ رزقٌ لها، وفائدتُهُ الإشعارُ بأنَّ المرادَ رزقُها الّذي صارَ مُختصًّا بها؛ أي: قد جاءَها؛ والمعنى: كلُّ حيوانٍ جاءَهُ رزقٌ أو كانَ مَرزُوقًا، فإنَّما هو مِنَ اللّه تعالى لا مِن غيرِهِ، فتدلُّ الإضافةُ على أنَّ رزقَ الدّابَّةِ المَسوقَ إليها إنّما هو مِنَ اللّه فقط[3].

كلُّ رزقٍ يُعطاهُ المخلوقُ، هو مِنَ اللهِ تعالى المعطي بلا حدودٍ

دلالةُ الواوِ على العطفِ في: ﴿وَيَعْلَمُ﴾:

تحتملُ الواو أن تكونَ عاطفةً لِتفيدَ عطفَ جملةِ: ﴿وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾ على جملةِ ﴿إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾؛ لِتكونَ داخلةً في حيّزِ ﴿إِلَّا﴾؛ والمعنى: وما مِن دابّةٍ في الأرضِ إلّا يعلَمُ مُستقرَّها ومُستودعَها؛ ليفيدَ العطفُ الحصرَ في الأمرين؛ أي: في أن يكونَ رزقُ الدّوابِّ على اللّه وحدَهُ، وأنَّهُ تعالى هو وحدَهُ العالِمُ بهِم وبأحوالِهم،

رزقُ كلِّ الدّوابِّ على اللهِ وحدَهُ، وهو العالِمُ بما يُصلِحُ أحوالَهُم

(1) ابن جرير، جامع البيان: 15/240، والماتريديّ، تأويلات أهل السّنّة: 6/99، والزّمخشريّ، الكشّاف: 2/379، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/128، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/186، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 10/20، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/6.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/235.

(3) الخفاجيّ، حاشية على تفسير البيضاويّ: 5/123، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 10/19.

ولِتفيدَ الواو ترتُّبَ الاستدلالِ؛ بمعنى: أنَّ تكفُّلَ اللّه تعالى برزقِ جميعِ أقسامِ الحيوانِ وأصنافِهِ يقتضي أن يكونَ عالمًا بها وبأحوالِها، كما يفيدُ العطفُ أنّه ما مِن دابَّةٍ في الأرضِ إلّا يرزقُها اللّه تعالى، حيثُ كانَت مِن أماكنِها يسوقُهُ إليها، كما تحتملُ الواوُ أن تكونَ استئنافيّةً، فتكون جملةُ ﴿وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾ استئنافًا بيانيًّا[1]؛ لِتكونَ في جوابِ سؤالٍ تقديرُهُ: إنْ كانَ رزقُ كلِّ دابَّةٍ على اللّه تعالى، فهل يعلمُ جميعَ أحوالِها؟ فقالَ: ﴿وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾.

دلالةُ التّعبيرِ بصيغةِ (مفعَل) في لفظي: ﴿مُسْتَقَرَّهَا﴾ وَ﴿وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾:

تتنوّعُ أماكنُ استقرارِ الدّوابِّ بعلمِ اللهِ تعالى وحكمتِهِ

الظّاهرُ أنَّ المرادَ بالمُستَقَرِّ والمُستَودَعِ اسمُ المكانِ؛ أي: مَوضِع استقرارِها وإيداعِها، وعَبَّرَ باسمِ الجنسِ الشّاملِ لجميعِ أماكنِ استقرارِها وإيداعِها، واختُلِفَ في المُرادِ مِنَ اللّفظينِ، فيحتملُ أن يكونَ المعنى: ويَعلمُ أماكنَها في الحياةِ والمماتِ، ووجهُ هذا المعنى: أنَّ اللّه جلَّ ثناؤه لمّا أخبرَ أنَّ ما رُزِقَتِ الدّوابُّ مِن رزقٍ فَمِنهُ، كانَ الأولى أنْ يتبعَ ذلك أنْ يَعلمَ مَثواها ومُستقرَّها، أو يكونَ المعنى: ويَعلمُ مُستقرَّها في الأصلابِ ومُستودعَها في الأرحامِ، وإنّما خُصَّ كُلٌّ مِنَ الاسمَينِ بما خُصَّ بهِ مِنَ المَحَلَّينِ؛ لأنّ النُّطفَةَ بالنّسبةِ إلى الأصلابِ في حَيِّزِها الطّبيعيِّ ومَنشَئِها الخِلْقيِّ، وأمّا بالنّسبةِ إلى الأرحامِ، وما يَجري مَجرَاها، فهي مُودَعَةٌ فيها إلى وقتٍ مُعيَّنٍ باعتبارِ حالتِها الأخيرةِ لرعايةِ المناسبةِ بينَها وبينَ عُنوانِ كونِها دابَّةً في الأرضِ، كما يحتملُ أن يكونَ المعنى: ويَعلَمُ مَساكنَها في الأرضِ ومكانَ استقرارِها فيها، ويَعلَمُ مُودَعَها مِنَ الموادِّ؛ أي: التُّراب والأغذية، ويحتملُ أن يكونَ ﴿مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾ مَصدرين؛ أي: يَعلمُ كلَّ حركةِ استقرارٍ أو حدثِ إيداعٍ فيها[2].

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/187، والآلوسيّ، روح المعاني: 6/205.

(2) ابن جرير، جامع البيان: 15/243، والبغويّ، معالم التّنزيل: 1/149، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/153، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/128، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم، القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 10/21.

الغرضُ مِنَ التّعبيرِ بالكنايةِ:

في قولِهِ تعالى: ﴿وَيَعۡلَمُ مُسۡتَقَرَّهَا وَمُسۡتَوۡدَعَهَاۚ﴾، نجدُ أنّهُ لمّا كانَ السّياقُ في بيانِ إحاطةِ علمِ اللّه بالمُشركينَ الجاهلينَ بعلمِهِ سبحانه بما يثنونَ به صدورَهم؛ لِيستخفوا به، وبَيَّنَ تعالى أنَّه يَعلَمُ ما يُسرّونَ وما يُعلنونَ، وأنَّه عليمٌ بذاتِ الصّدورِ، أفادَ قولُهُ: ﴿وَيَعۡلَمُ مُسۡتَقَرَّهَا وَمُسۡتَوۡدَعَهَاۚ﴾ على طريقِ اللّزومِ، الإخبارَ عنِ العلمِ بها في كلِّ حالٍ؛ أي: في حالِ سكونِها، وفي حالِ حركتِها؛ لأنَّها لا تخلو إمّا أن تكونَ ساكنةً أو مُتحرِّكةً؛ أي: يَعلَمُ عنها كُلَّ حالِها[1].

عِلمُ اللهِ مُحيطٌ بكلِّ حركةٍ لِلدّوابِّ، وكلِّ سكونٍ لها

دلالةُ التّعبيرِ بـ ﴿كُلُّ﴾:

لمّا جاءَ لفظُ ﴿كُلُّ﴾ مِن ألفاظِ العموم، وجاءَ نكرةً مُنوَّنًا تنوينَ عوضٍ، وكان اللَّفظُ مُلازِمًا للإضافةِ دلَّ على أنَّ المضافَ إليه محذوفٌ؛ لإفادةِ عمومِ ما تقدَّمَ، وللإيجازِ، والمعنى: كلُّ واحدٍ مِنَ الدّوابِّ ورزقُها ومُستَقَرُّها ومُستودَعُها في كتابٍ مُبينٍ، فيشمَلُ الدّوابَّ وحالاتِها جميعًا، أو لإفادةِ العُمومِ المُطلَقِ؛ والمعنى: كلُّ ما ذُكِرَ وغيرُهُ ممّا يَعلمُهُ اللّه مُثبَتٌ في كتابٍ مُبينٍ[2].

تعظيمُ شأنِ علمِ اللهِ تعالى ذي الجلالِ، وإحاطتِه بالأشياءِ في كلِّ الأحوالِ

الغرضُ من تنكيرِ: ﴿كِتَٰبٖ﴾:

أفاد تنكيرُ اللَّفظِ تعظيمَهُ وتفخيمَهُ؛ لدلالةِ السِّياقِ عليه، لضمِّ الكتابِ المذكورِ العلمَ بكلِّ الدّوابِّ وبرزقِها وبأماكنِها في الحياةِ والمماتِ.

تفخيمُ الكتابِ وتعظيمُهُ، لِما يحملُ مِن رمزيّةٍ واختصاصٍ بقدرِ اللهِ دونَ سواهُ

بلاغةُ التّعبيرِ بالمجازِ في: ﴿كِتَٰبٖ﴾:

يحتملُ الكِتابُ هُنا أن يكونَ مَصدَرًا كقولِهِ: ﴿كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡۚ﴾ [النّساء: 24]، فيكون استعارةً تصريحيّةً للتَّعبيرِ بهِ عن مَعنى

كلُّ ما في الكتابِ الّذي عندَ اللهِ مُثبَتٌ، لا تغييرَ لهُ إلّا بأمرِ اللهِ

(1) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنّة: 6/99.

(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/380، والآلوسيّ، روح المعاني: 6/205، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/6.

تَقديرِ العِلمِ وتَحقيقِهِ؛ أي: لِتشبيهِ ما لا يقبلُ التّغييرَ والتّبديلَ بالكتابةِ الّتي يقصدُ منها أنْ لا يُزادَ في الأمرِ ولا يُنقَصَ وَلا يُبطَلَ، والمعنى: كلُّ ذلكَ لا يَقبَلُ زِيادَةً ولا نُقصانًا ولا تَخَلُّفًا،

كما يحتملُ اللّفظُ أن يكونَ مَجازًا باستعمالِهِ بمعنى اسمِ المفعولِ بتقديرِ: مَكتوبٍ مُبينٍ؛ أي: كلُّ ذلك مُثبَتٌ مَكتوبٌ مَحفوظٌ، فيفيدُ أنَّه لا يَقبلُ تغييرًا ولا تبديلًا، فمآلُ المعنى واحدٌ على الوجهين[1].

سرُّ التّعبيرِ بالمجازِ العقلِّي في: ﴿مُّبِينٍ﴾:

الكتابُ يبيّنُ أنّ كلَّ شيءٍ مُثبَتٌ مَكتوبٌ، قبلَ أن يخلقَ الدَّوابَّ

وَصَفَ الكتابَ بصيغةِ اسمِ الفاعلِ لإفادةِ أنَّه بنفسِهِ مُبينٌ؛ وفيه مجازٌ عقليٌّ في الإسنادِ للدّلالةِ على معنى المبالغةِ في بيانِهِ ووضوحِهِ، لِاستلزامِ العلمِ الإبانةَ. والصّفةُ هنا ليسَت صفةَ تقييدٍ، بل هي للإيضاحِ والبيانِ؛ لأنَّ الكتابَ الّذي عندَ اللّه، وهو اللَّوحُ المحفوظُ هنا لا يكونُ إلّا مُبينًا، فهو كتابٌ يُبيِّنُ لِمَن قرأَهُ أنّ ذلكَ مُثبَتٌ مَكتوبٌ قبلَ أن يخلقَ الدّوابَّ ويوجدَها، وهو بيِّن لِمَن يَنظُرُ فيه مِنَ المَلائكةِ عليهم السلام، ويحتملُ أن يكونَ لفظُ ﴿مُّبِينٍ﴾، الّذي هو مِن (أبانَ) بِمَعنَى أظهَرَ، تَخييلًا لاستعارَةِ الكِتابِ لِلتَّقديرِ، كما تقدَّمَ في أحدِ وجهي دلالةِ الكتاب[2].

بلاغةُ التّعبيرِ بـ: ﴿كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ بيَن الكنايةِ والتّتميمِ:

اللهُ تعالى عالِمٌ بأحوالِ الحيواناتِ كُلِّها، فلا تخفى عليهِ خافيةٌ

لمّا أفادَ الكلامُ أنَّ أقسامَ الحَيَواناتِ وأنواعَها الكَثيرَةَ - وهيَ الأجناسُ الَّتي تَكونُ في البَرِّ والبَحرِ والجوّ- كلَّها في كتابٍ مُبينٍ عندَ اللّه، دلَّ لازمُهُ على أنَّه تعالى عالمٌ بها وبأحوالِها لِبيانِ عمومِ علمِهِ سبحانَهُ، وأنَّه تعالى عالمٌ بالأشياءِ كلِّها، وتحتملُ أن تكونَ كالتّتميمِ لِمعنى وُجوبِ تَكَفُّلِهِ سبحانه برزقِ الدّوابِّ جميعِها، والعلمِ بها،

(1) ابن جرير، جامع البيان: 15/243، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/6.

(2) ابن جرير، جامع البيان: 15/243، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/187، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/6.

وبأحوالِها، فهو ثابتٌ مَرقومٌ، فيكون كَمَن أقرَّ بشيءٍ في ذمَّتِهِ، ثمّ كَتَبَ عليه صَكًّا[1].

بلاغةُ التّذييلِ في آخرِ الآيةِ الكريمةِ:

بيانُ عظمةِ الخالقِ، ببيانِ عظيمِ علمِهِ الشامل

تذييلُ الآيةِ بهذه الجملةِ؛ للإيذانِ بأنَّه تعالى لا يبتدئُ العلمَ بأحوالِ الدّوابِّ ابتداءً، بل علمُهُ بها أزليٌّ قديمٌ، فهو ثابتٌ مَكتوبٌ، وواضحٌ لديهِ أمرُها قبلَ خلقِها ورزقِها وإيوائِها في مُستقرِّها ومُستودعِها، وأنَّه دبَّرَ أمرَها أزلًا على النَّحوِ الفائقِ العجيبِ الّذي أرادَهُ لها، وأبرزَها عليه وفقَ تدبيرِهِ الأزليِّ القديمِ، فتباركَ اللّه أحسنُ الخالِقينَ، وفي جملةِ التّذييلِ بيانُ عظمةِ الحقِّ سبحانه في أنَّ كلَّ ما ذُكِرَ مكتوبٌ مُثبَتٌ مُبينٌ؛ فإنَّه ليسَ كلُّ ما يَعلمُهُ العبدُ يَقدِرُ على كتابتِهِ، ولا كُلُّ ما يَكتبُهُ يكونُ مُبيَّنًا، بحيثُ إنَّه كلَّما أرادَ الكشفَ منهُ وَجَدَ ما يُريدُهُ، وإذا وجدَهُ كانَ مُفهِمًا لهُ[2].

(1) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/128، والطّيبيّ، فتوح الغيب: 8/18، والآلوسيّ، روح المعاني: 6/205.
(2) الواحديّ، التّفسير البسيط: 4/164، والثّعلبيّ، الكشف والبيان: 14/321، والبغويّ، معالم التّنزيل: 4/162، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 9/238.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۗ وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝٧﴾ [هود: 7]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

اقترانُ كمالِ علمِ اللهِ وسعتِهِ بكمالِ قدرتِهِ في خلقِ الكونِ، وتسييرِ العبادِ

لَمّا أثبَتَ اللّه تعالى في الآيةِ السّابقةِ بالدَّليلِ المُتَقَدِّم كَونَهُ عَالِمًا بالأشياءِ كلِّها، أثبَتَ بهذا الدَّليلِ كَونَهُ تعالى قادِرًا على كُلِّ المَقدوراتِ، وفي الحَقيقَةِ فكُلُّ واحِدٍ مِن هَذينِ الدَّليلَينِ يدُلُّ على كمالِ عِلمِ اللّه وعلى كمالِ قُدرَتِهِ[1]. وأيضًا: لمّا كانَ خلقُ ما منهُ الرِّزقُ، وهو خلقُ السّماواتِ والأرضِ وما بينَهما، أعظمَ مِن خلقِ الرِّزقِ وتوزيعِهِ في شمولِ العلمِ والقُدرةِ معًا، تلاهُ بهذهِ الآيةِ.

وأيضًا لمّا أخبرَ اللّه تعالى عن إحاطةِ علمِهِ وشمولِ قدرتِهِ برزقِ كُلِّ الدّوابِّ في الآيةِ السّابقةِ عَطَفَ عليها هذه الآيةَ، فإنَّ خَلقَ السَّماواتِ والأرضِ مِن أكبرِ مَظاهِرِ عِلمِ اللّه، وتَعَلُّقاتِ قُدرَتِهِ، وَإتقانِ الصُّنعِ، فالمَقصودُ مِن هذا الخَبَرِ لازِمُهُ، وهو الاعتِبارُ بِسِعَةِ عِلمِهِ وقُدرَتِهِ[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿لِيَبْلُوَكُمْ﴾: يُقالُ: بَلِيَ الثّوبُ بِلًى وبَلاءً؛ أي: خَلَقَ، وبَلاه يَبلوهُ بَلوًا، إذا جَرَّبَه واختبرَهُ، وبَلَوتُهُ: اختبرتُهُ، كأنّي أخلَقتُهُ مِن كثرةِ اختباري لهُ، وسُمِّيَ الغَمُّ بَلاءً مِن حيثُ إنّه يُبلي الجسمَ، ويُقالُ

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/319.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/7.

أبلى ذَلِك اليومَ بلاءً حَسَنًا إذا اجتهدَ في كرمٍ أو حربٍ، كأنَّهُ جرّبَ وامتحنَ فأظهرَ الحسنَ، وبُلِيَ فلانٌ وابتُلِيَ إذا امتُحنَ، والبَلاءُ يكونُ في الخَيرِ والشَّرِّ، والابتِلاءُ اختِبارُ شَيءٍ لِتَحصِيلِ عِلمٍ بِأحوالِهِ، ومعنى ﴿لِيَبْلُوَكُمْ﴾: لِيختبرَكُم[1].

2) ﴿مَّبْعُوثُونَ﴾: يدورُ المعنى المحوريُّ للّفظِ (بعث) على إثارةِ الحيِّ مِن مكانٍ يلزمُهُ بقوّةٍ فيندفع ناهضًا أو مُبتعدًا، أو على إثارةِ الشّيءِ مُطلَقًا، وقد يكونُ معه توجيهٌ إلى مكانٍ أو يكونُ من غيرِ توجيهٍ، ويَختلفُ البعثُ بحسبِ اختلافِ ما عُلِّقَ بهِ، فَبَعَثتُ البعيرَ: أثرتُهُ وسيّرتُهُ، وبَعثُ الرّسلِ إنهاضُهُم وتوجيهُهم، والبعثُ يومَ القيامةِ بمعنى إحياءِ الموتى وتوجيههم إلى الحشرِ[2].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

وهو الّذي خلقَ السَّماواتِ والأرضَ في ستَّةِ أيّام، وكانَ عَرشُهُ على الماءِ قبلَ أنْ يخلُقَ السَّماواتِ والأرضَ؛ لِيختبرَكم، فينظُرَ أيُّكم أحسَنُ له طاعةً وعملًا، ولَئِن قلتَ - أيّها الرّسولُ - لِلمُشركينَ: إنَّ اللّه سَيبعَثُكُم يومَ القيامةِ أحياءً بعدَ مَوتِكم، لَيَقولنَّ تكذيبًا وعنادًا ما هذا الّذي تقولُهُ إلّا سِحرٌ واضِحٌ، يَظهَرُ لِمَن يَستمِعُهُ أنَّهُ سِحرٌ، فأثبتَ اللّه تعالى في هذهِ الآيةِ أنَّهُ خالقُ العالَمِ قادرٌ نافذُ الحُكمِ بالأمرِ والنّهي، وأثبتَ الإحياءَ بعدَ الموتِ، والبعثَ، والحشرَ، حتَّى يحصُلَ الثَّوابُ والعقابُ يومَ القيامةِ[3].

مِن حِكمةِ خَلقِ السّماواتِ والأرضِ ابتلاءُ أعمالِ الإنسانِ في الإيمانِ والكُفرانِ

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالةُ التّعبيرِ بالضّميرِ ﴿وَهُوَ﴾:

لمّا ذَكَرَ الاسمَ الجليلَ في قولِهِ تعالى: ﴿عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾، وعادَ الضّميرُ إليه في قولِهِ: ﴿وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾، أعادَ ذكرَ

تقريرُ عظمةِ اللّهِ في علمِهِ وقدرتِهِ مِن مَعاقِدِ الإيمانِ بجلالِهِ وكمالِهِ

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (بلو)، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (بلوي)، والرّاغب، المفردات: (بلى)، وابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 474.

(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (بعث).

(3) ابن جرير، جامع البيان: 15/251،

الضّميرِ هنا فقالَ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾؛ فالكلامُ على مُقتضَى الظّاهرِ؛ لِيشيرَ الضّميرُ إلى الأوصافِ الّتي ذُكِرَت بسببِ عودِهِ على الاسمِ الظّاهرِ الجليلِ المُقرَّرِ في ذهنِ السّامِعِ؛ بمعنى: أنَّ الّذي تكفَّلَ برزقِ الدَّوابِّ كلِّها، والّذي يَعلمُ مُستقرَّها ومُستودعَها هو نفسُهُ الّذي خَلَقَ السّماواتِ والأرضَ، وكانَ عرشُهُ على الماءِ؛ فيكون مجيءُ الضّميرِ على معنى استجماعِ الأوصافِ السّابقةِ واللّاحقةِ؛ لزيادةِ المَهابةِ، ولِيُفيدَ بالدّليلِ على أنَّهُ تعالى عليمٌ بالأشياءِ كلِّها، وقديرٌ على كُلِّ المَقدوراتِ.

دلالةُ التّعبيرِ بالماضي في الفعلِ ﴿خَلَقَ﴾:

خلقُ السّماواتِ والأرضِ أمرٌ ثابتٌ مُتعيَّنٌ مُتَعَيِّنٌ، فما يُبنَى عليه ثابتٌ كذلك

لم يأتِ مَعَ السّماواتِ والأرضِ مِن مادَّةِ الخاءِ واللّامِ والقافِ إلّا الفعلُ الماضي (خلقَ)؛ لدلالةِ الفعلِ على الواقعِ الثّابتِ المُتعيِّنِ مِن شأنِ السّماواتِ والأرضِ، بمعنى: أنّهُ مَقطوعٌ بوقوعِهِ بدليلِ المُشاهدةِ فيكونُ المبنيُّ عليه قطعيًا ثابتًا كذلك[1].

سرُّ جمعِ لفظِ ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾، وإفرادِ لفظِ ﴿وَٱلْأَرْضَ﴾:

السّماواتُ مختلفةُ الطّبائعِ والآثارِ، مَعَ الأرضِ ذاتِ البحارِ والأنهارِ

جمعُ ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ دونَ ﴿وَٱلْأَرْضَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾؛ لِلإيذانِ بأنَّها أجرامٌ مُختلفةُ الطّبائعِ ومُتفاوتةُ الآثارِ والأحكامِ، فهي مُختلِفةٌ بالأصلِ والذّاتِ دونَ الأرضِ، كما أنَّ الجمعَ في سياقِ المدحِ يفيدُ زيادةً في التّعظيمِ[2].

الغرضُ مِن تقديمِ لفظِ ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ على لفظِ ﴿وَٱلْأَرْضَ﴾:

آثارُ قدرةِ اللهِ في السّماواتِ أظهرُ مِنَ الأرضِ وأعجبُ

في قولِه تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ قَدَّمَ السّماواتِ على الأرضِ؛ لِشرفِها وعلوِّ مكانِها، ولِتقدُّمِ وجودِها، كما أنَّ آثارَ قدرةِ اللّهِ تعالى فيها أظهرُ وأعجبُ[3].

(1) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 2/85.
(2) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/128، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/187.
(3) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 10/23.

نكتةُ تحديدِ المُدّةِ بستّةِ أيّامٍ في خلقِ السّماواتِ والأرضِ:

تعدّدُ حِكَمِ خلقِ السّماواتِ في ستّةِ أيّامٍ

لمّا كانَ اللّه تعالى قادرًا على أنْ يَخلُقَ السّماواتِ والأرضَ وما بينَهما في أقلَّ ممّا ذَكَرَ، بل في أقلَّ مِن لمحِ البصرِ، كانَ ذكرُ العددِ لحِكَمٍ منها: الإشعارُ بأنَّه تعالى قادرٌ مُختارٌ في أفعالِه، وفيه كنايةٌ عن قِصرِ الزَّمنِ الّذي كمُلَ فيه هذا الإبداعُ العظيمُ، وحثٌّ للعبادِ على التَّأنِّي في الأمورِ، وأنَّ الشَّيءَ إذا عُمِلَ بالتّدريجِ كانَ أتقنَ[1].

دلالةُ العطفِ بالواو في: ﴿وَكَانَ عَرۡشُهُۥ عَلَى ٱلۡمَآءِ﴾:

ذِكرُ الماءِ في بدايةِ الخَلقِ بيانٌ بتعلُّقِ حياةِ النّاسِ بِهِ

قولُهُ: ﴿وَكَانَ عَرۡشُهُۥ عَلَى ٱلۡمَآءِ﴾، إذ إنَّه لمّا كانَ الفعلُ ﴿وَكَانَ﴾ للماضي دلَّ على أنَّه ما كانَ تحتَ العرشِ خَلقٌ - قبلَ خلقِ السّماواتِ والأرضِ - إلّا الماءُ، وفيه دليلٌ على أنّ العرشَ والماءَ كانَا مَخلُوقَين قبلَ السّماواتِ والأرضِ. ودلالةُ العطفِ هنا بيانُ عظيمِ قدرتِهِ سبحانه عطفًا على بيانِ عظيمِ خلقِهِ، فالعرشُ مع كونِهِ أعظَمَ مِنَ السّماواتِ والأرضِ كانَ على الماءِ، فلولا أنَّهُ تعالى قادرٌ على إمساكِ الثَّقيلِ بِغَيرِ عَمَدٍ لَما صَحَّ ذَلِكَ، كما أنَّه تعالى أمسَكَ الماءَ لا على قَرارٍ، فاللّه مُمسِكٌ كلَّ ذلك بقدرتِهِ، وكلَّما ازدادَتِ الأجرامُ كانَت أحوجَ إليه وإلى إمساكِهِ، كما أنَّ في ذِكرِ الماءِ بيانًا بتعلُّقِ حياةِ النّاسِ بِهِ[2].

سرُّ الإضافةِ في: ﴿عَرۡشُهُۥ﴾:

تعظيمُ شأنِ العرشِ بالتّصريحِ بإضافتِهِ للهِ تعالى

لمّا كانتِ الإضافةُ هنا على معنى اللّامِ بمعنى مُلكِ اللّه تعالى للعرشِ وتخصيصِهِ بِهِ سبحانه دلَّ على تعظيمِ العرشِ؛ لِما في التّصريحِ بإضافتِهِ للّه مِن معنى التّفخيمِ والتّشريفِ؛ لِيدُلَّ على عظمةِ اللّه تعالى وكبريائِهِ وعظيمِ قُدرتِهِ.

دلالةُ اللّامِ في: ﴿لِيَبۡلُوَكُمۡ﴾:

أفادَتِ اللّامُ معنى التّعليلِ المجازيِّ، ولمّا كانَ ﴿لِيَبۡلُوَكُمۡ﴾ مُتعلِّقًا

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/187.

(2) ابن جرير، جامع البيان: 12/330، والزّمخشريّ، الكشّاف: 2/380، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/319.

بالفعلِ ﴿خَلَقَ﴾ الّذي هو مِن صلةِ الموصولِ، دلَّ على أنَّ الصِّلةَ؛ أي: قولُهُ: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ وَكَانَ عَرۡشُهُۥ عَلَى ٱلۡمَآءِ﴾ سببٌ للاختبارِ، فأفادَ أنَّ خلقَهُما لحكمةٍ بالغةٍ، ودلَّ كذلك على أنَّ في الكلامِ إيجازًا بالحذفِ على المعنى؛ أي: خلَقَ السّماواتِ والأرضَ، وما فيهما مِنَ المَخلوقاتِ الّتي مِن جُملتِها أنتُم، ورَتَّبَ فِيهما جميعَ ما تَحتاجونَ إليهِ لِيبلوَكُم، أيُّكم أحسَنُ عَملًا، فأفادَتِ اللّامُ أنَّ اللّه تعالى لم يخلقِ السّماواتِ والأرضَ، وما فيهما لأنفسِها؛ إنَّما خلقَها لِلمُمتحَنِ فيهما، ففي الكلامِ تكريمٌ للإنسانِ وتشريفٌ له[1].

تكريمُ الإنسانِ وتشريفُهُ، بأنْ خلقَ اللهُ لأجلِهِ السّماواتِ والأرضَ

الغرضُ مِنَ الاستعارةِ التّمثيليّةِ في: ﴿لِيَبۡلُوَكُمۡ﴾:

لمّا كانَ اللّه تعالى عالمًا بما يُسِرُّ النّاسُ وما يُعلنونَ، وهو علّامُ الغيوبِ، وكانَ الاختبارُ دالًّا على عدمِ علمِ المُخْبَرِ بالمخبَرِ عنهُ دلَّ على امتناعِ حقيقةِ الابتلاءِ، فإنَّه إنّما يفعلُ الابتلاءَ مَن يجهلُ حالَ مَن ابتلاهُ واختبرَهُ، فيختبرُهُ لِيَطَّلِعَ على ما لم يعلمْهُ مِن حالِهِ، ولمّا كانَ اللّه عالمًا بكلِّ شيءٍ لا تخفى عليه خافيةٌ، فلا يحتاجُ في علمِهِ بالأشياءِ إلى اختبارٍ وابتلاءٍ، جاءَ لفظُ الابتلاءِ على طريقِ الاستعارةِ التّمثيليّةِ، إذ شبَّهَ اللّه تعالى حالَهُ مَعَ العبادِ في تكاليفِهِ، وفي خلقِ المنافعِ لهُم مع تمكينِهِم مِنَ الطّاعةِ والمعصيةِ بحالِ المُختبِرِ مع المُختبَرِ، هل يَعملُونَ الصّالحاتِ، ويَشكرونَ فيُثابونَ أو يَعصونَ فيُعاقبُونَ؟! والمعنى: لِيُعامِلَكُم مُعامَلَةَ المُبتَلي لأحوالِكُم كيفَ تَعملُونَ؟![2].

النّاسُ في ابتلاءٍ بينَ الطّاعةِ والثّوابِ، أو المعصيةِ والعقابِ

سرُّ مجيءِ الفعلِ ﴿لِيَبۡلُوَكُمۡ﴾ مُعلَّقًا باسمِ الاستفهامِ:

لمّا كانَ تعليقُ الفعلِ عنِ التّعديةِ باسمِ الاستفهامِ لا يكونُ إلّا مع أفعالِ القلوبِ دلَّ على أنَّ الفعلَ ﴿لِيَبۡلُوَكُمۡ﴾ مُضمَّنًا معنى العلمِ؛ لِما

مآلُ اختبارِ النّاسِ في الدّنيا ظهورُ حالِهم وظهورُ علمِ اللهِ بهِم

(1) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنّة: 6/101، والزّمخشريّ، الكشّاف: 2/380، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/152، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/128، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/187.

(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/380، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/128، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 10/25، وابن التّمجيد، حاشية على تفسير البيضاويّ: 10/24.

في الاختبارِ مِن مَعنى العلم؛ لأنَّه طريقٌ إليه فهو مُلابِسٌ له، كما تقولُ: انظرْ أيُّهم أحسنُ وَجهًا؛ لأنّ النَّظرَ مِن طريقِ العلم، والمعنى: لِيختبرَكُم ويُظهِرَ علمَهُ في أعمالِكُم، ويحتملُ أن يكونَ الفعلُ ﴿يَبْلُوكُمْ﴾ قد سُلِكَ به طريقُ الاستعارةِ التَّبعيّةِ، بتشبيهِ الابتلاءِ بالعلمِ باعتبارِ أنَّ مآلَ الاختبارِ ظهورُ حالِ المُختبَرِ والعلمُ به[1].

الغرضُ مِنَ التّعبيرِ باسمِ الاستفهامِ ﴿أَيُّكُمْ﴾:

الاختبارُ في الدّنيا لتمييزِ النّاس على مبدأ الثّوابِ أو العقابِ

لمّا كانَ اسمُ الاستفهامِ (أيُّ) لعُمومِ السّؤالِ عمّا يميّزُ أحدَ المُتشاركَينِ في أمرٍ يَعمُّهما، دلَّ على أنَّ الاختبارَ لتمييزِ كلِّ إنسانٍ عنِ الآخرِ في العملِ الّذي يَعُمُّ النّاسَ جميعًا، ولمّا تَعلَّقَ ﴿أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ باسمِ الاستفهامِ دلَّ على أنَّ المعنى: أهَذا أحسَنُ عملًا أم هَذا، وفيه إيجازٌ؛ لإغنائِهِ عنِ التَّعدادِ، بأن يقولَ: أهذا أم هذا أم هذا، وهكذا، ولم يقُلْ: (لِيبلوَكُم أيُّ أعمالِكُم أحسنُ) مع أنَّ الجزاءَ على الأعمالِ؛ لأنَّ الابتلاءَ لِلذّواتِ على ما يَرتكبونَهُ مِنَ الأعمالِ، كما أنَّ أثرَ الثّوابِ والعقابِ يكونُ لِلذّواتِ، فأفادَ اسمُ الاستفهامِ المضافِ إلى الذّواتِ في قولِهِ: ﴿أَيُّكُمْ﴾ أنَّ الاختبارَ للإنسانِ على أعمالِهِ، والجزاء له بالثّوابِ أو العقابِ.

نكتةُ التّعبيرِ بلفظِ ﴿أَحْسَنُ﴾:

الحثُّ على محاسنِ الأعمالِ، والتّرقّي دائمًا في مَراتِبِ الكمالِ

لم يقُلْ: (أكثرُ عملًا)؛ لِلإيذانِ بأنَّ العِبرةَ بِحُسنِ العملِ لا بأكثرِهِ.

سرُّ التّعبيرِ بصيغةِ التّفضيلِ ﴿أَحْسَنُ﴾:

لمّا كانَت أعمالُ المؤمنينَ هي الّتي تتفاوتُ إلى حَسَنٍ وأحسَنَ، وكانَ الابتلاءُ شاملًا جميعَ المُكلَّفينَ مِنَ المؤمنينَ والكافرينَ باعتبارِ أعمالِهِمُ المُنقسمةِ إلى حَسَنٍ وقبيحٍ، ولمّا كانَ المتّقونَ هُم أحسن عملًا، وهُمُ الّذينَ استَبَقوا إلى تَحصيلِ ما هو مَقصودُ اللّه

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/380، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/187.

مِن عبادِهِ؛ خَصَّهُمُ اللهُ بالذِّكرِ، واطَّرَحَ ذِكرَ مَن وراءَهُم تَشريفًا لَهُم، وتنبيهًا على مكانِهِم منهُ، وعلى انحطاطِ مَنزِلةِ المُسيئينَ، وليكونَ ذلك تَيقُّظًا لِلسّامِعينَ، وتَرغيبًا في حيازةِ فَضلِهِم، وأيضًا لِتحريضِ المُؤمنينَ على أحاسِنِ المَحاسِنِ، والتّحضيضِ على التَّرقِّي دائمًا في مَراتِبِ العلمِ والعملِ، أو يُقالُ: لمّا ذَكَرَ اللهُ تعالى أنَّه خلقَ السّماواتِ والأرضَ على النَّمطِ الرّائعِ، وأنَّه تعالى أبدعَ تلكَ البدائعَ في خلقِهِ مِن أجلِ ظُهورِ كمالِ إحسانِ المُحسِنينَ، اقتضى أن يكونَ العملُ بموجبِهِ بحيثُ لا يَحيدُ أحدٌ عن سَنَنِهِ المُستَبِينِ، بل يَهتدي كلُّ فَردٍ إلى ما يُرشِدُ إليهِ مِن مُطلَقِ الإيمانِ والطّاعةِ، وإنّما التّفاوتُ بينَهُم في مَراتبِهِما بحسبِ القُوّةِ والضَّعفِ، وأمّا الإعراضُ عَن ذلكَ والوقوعُ في مَهاوي الضَّلالِ فَبِمَعزلٍ مِنَ الوقوعِ، فَضلاً عن أن يَنتظِمَ في سِلكِ الغايةِ لذلك الصُّنعِ البَديعِ، وإنَّما هُوَ عملٌ يَصدُرُ عن عامِلِهِ بسوءِ اختيارِهِ مِن غيرِ مُصحِّحٍ لهُ أو مُسوِّغٍ. ويحتملُ أن تكونَ صيغةُ التّفضيلِ ليسَت على بابِها؛ أي: بمعنى (حسن)؛ لِيشمَلَ الخطابُ جميعَ المُكلَّفينَ، ونكتةُ مجيءِ اللّفظِ بصيغةِ التّفضيلِ الحثُّ على عملِ الأحسنِ والمبادرةِ إليهِ في جميعِ الأعمالِ الحسنةِ[1].

الترغيبُ في التَّرقّي إلى مَدارِجِ الطّاعاتِ، والزّجرُ عن مُباشرةِ نقائضِها

نكتةُ التّنكيرِ في: ﴿عَمَلًا﴾:

لمّا كانَ اللّفظُ نكرةً في سياقِ الاستفهامِ دلَّ على عُمومِ العملِ؛ لِيشمَلَ عملَ القلبِ، وعملَ الجوارحِ، فالمرادُ مِنَ العملِ المفهومُ المُشتركُ بينَ عملِ القلبِ وعملِ الجارحةِ[2].

حُسنُ العملِ يشمَلُ عملَ القلبِ والجوارحِ معًا

سرُّ التّعبيرِ بالتّمييزِ في: ﴿أَحْسَنُ عَمَلًا﴾:

أفادَ التّمييزُ هنا الإيجازَ في اللّفظِ؛ لأنَّ التّمييزَ هنا على معنى: أيُّكُم عملُهُ أحسنُ مِن عملِ غيرِهِ؟، كما أفادَ الإطنابَ مِن وجهٍ آخرَ

براعةُ التَّمييزِ في الخطابِ في جمعِهِ بينَ الإيجازِ والإطنابِ

(1) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/128، وأبو حيّان، البحر المحيط: 6/126، والنّيسابوريّ، غرائب التّفسير: 4/8، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/188.

(2) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/128.

هو الإجمالُ بعدَ التّفصيلِ، فإنَّه لمّا قالَ: ﴿أَيُّكُمْ أَحْسَنُ﴾ أجملَ في السّؤالِ عن وجهِ الأحسنيَّةِ، فلمّا ذَكَرَ التّمييزَ فصَّلَ الإجمالَ وبيَّنَهُ، ولا يَخفى حسنُ مَوقعِهِ؛ إذ بَرَزَ الكلامُ في مَعرِضِ الاعتدالِ نظرًا إلى إيجازِهِ في اللّفظِ مِن جهةٍ، وإلى إطنابِهِ لِلإجمالِ والتّفصيلِ مِن جهةٍ أُخرى[1].

دلالةُ الواو في: ﴿وَلَئِن﴾:

خلقُ السّماواتِ والأرضِ دليلٌ على حصولِ الحشرِ يومَ القيامةِ

تحتملُ الواو أن تكونَ عاطفةً، وبيانُ مُناسبةِ العطفِ مِن وجهين: أحدُهما: أنَّهُ لمّا كانَ الابتلاءُ يتضمَّنُ حديثَ البعثِ أتبَع ذلك بذكرِهِ، والثّاني: أنَّهُ لمّا بَيَّنَ أنَّهُ خَلَقَ هذا العالَمَ لأجلِ ابتلاءِ المُكَلَّفينَ وامتحانِهِم، كانَ هذا مُوجِبًا القَطعَ بِحُصُولِ الحَشرِ والنَّشرِ: لأنَّ الابتلاءَ والامتحانَ يُوجِبُ تَخصيصَ المُحسِنِ بالرَّحمَةِ والثَّوابِ، وتَخصيصَ المُسيءِ بالعِقابِ، وذلِكَ لا يَتِمُّ إلّا مَعَ الاعترافِ بالبعثِ بعدَ الموتِ وبالقِيامَةِ[2]، أو يُقالُ: لمّا أخبرَ اللّه تعالى أنَّهُ خَلَقَ السّماواتِ والأرضَ كانَ مِن حِكمةِ خَلقِ الأرضِ صدورُ الأعمالِ الفاضلةِ مِن أشرَفِ المخلوقاتِ فيها، ثمَّ إنَّ ذلك يقتضي الجزاءَ على الأعمالِ؛ إكمالًا لمُقتضَى الحِكمةِ؛ ولذلك أُعقِبَت بقَولِهِ: ﴿وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ﴾[3]. وتحتملُ الواو أن تكونَ حاليّةً؛ للإيذانِ بإقامةِ الحُجّةِ عليهم، وذلك ببيانِ حالةِ التّناقضِ الّتي هُم عليها، والتّعجيبِ مِن إنكارِهم وقولِهم الّذي قالُوهُ، والمعنى: إنّ اللّه ﷻ هذه صفاتُهُ، وهذه أفعالُهُ، والحالُ أنَّهُم يُنكِرُونَ ما هو دُونَ ذَلِكَ، وهو إعادَةُ خَلقِ النّاسِ، ويَجهَلونَ أنَّهُ لَولا الجَزاءُ لَكانَ هذا الخَلقُ عَبَثًا؛ أي: إنَّ هؤلاء بكفرِهِم في حَيِّزٍ، إنْ قلتَ لَهُم: إنّهُم مَبعوثونَ كَذَّبُوا،

(1) السّكّاكيّ، مفتاح العلوم، ص: 284.

(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 7/13، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/187، والقنّوجيّ، فتح البيان: 6/145.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/6.

وقالُوا: هذا سِحرٌ، ففي الكلامِ توبيخٌ لَهُم، وتعجيبٌ مِن قولِهِم؛ لِتناقضِهم؛ إذ مَن كانَت هذه صفاتُهُ فهو قادرٌ على أن يبعثَكُم بعدَ موتِكُم، والحالُ أنَّكُم تُنكِرونَ البعثَ مِنَ القبورِ، وهو أيسرُ مِن خلقِ السّماواتِ والأرضِ بكثيرٍ؛ إذِ البداءةُ أعسَرُ مِنَ الإعادةِ، وخلقُ السّماواتِ والأرضِ أكبَرُ مِن خلقِ النّاسِ[1].

سببُ إيثارِ التّعبيرِ بأسلوبِ الشّرطِ:

لمّا كانَ الشّرطُ والجزاءُ على معنى تعليقِ تحقُّقِ الجزاءِ كلَّما تحقَّقَ الشّرطُ عُبِّرَ به هنا؛ لإفادَةِ تَجَدُّدِ تكذيبِهم عِندَ كُلِّ إخبارٍ بالبَعثِ[2].

تجدُّدُ تكذيبِ الكافرينَ بالبعثِ عادةٌ مُستمرَّةٌ عندَهُم

الغرضُ مِن تتابعِ التّأكيدِ في الجملةِ الشّرطيّةِ:

لمّا أُكِّدتِ الجملةُ الشّرطيَّةُ باللّامِ المُوَطِّئَةِ لِلقَسمِ في قولِهِ: ﴿وَلَئِن قُلْتَ﴾؛ لأنَّه بتقديرِ: واللهِ إنْ قلتَ إنَّكُم مَبعوثونَ مِن بعدِ الموتِ، وأُكِّدَت كذلك بنُونِ التَّوكيدِ في قولِهِ: ﴿لَيَقُولَنَّ﴾، أفادَ تتابعُ التّأكيدِ تَنزيلَ السّامعِ مَنزِلَةَ المُتَرَدِّدِ في صُدورِ هذا القَولِ مِنهُم لِغَرابَةِ صُدورِهِ مِنَ العاقِلِ، فَيَكُونُ التَّأكيدُ القَوِيُّ مُستَعمَلًا في لازِمِ مَعناهُ، وهُوَ التَّعجيبُ مِن حالِ الَّذينَ كَفَروا أن يُحيلوا إعادَةَ الخَلقِ، وقد شاهَدوا آثارَ بَدءِ الخَلقِ، وهو أعظَمُ وأبدَعُ[3].

التّعجيبُ مِن حالِ المُكذِّبينَ بإعادةِ الخَلقِ، وهُم يُشاهدونَ آثارَ بدءِ الخَلقِ

بلاغةُ مجيءِ الشّرطِ على خلافِ مُقتضَى الظّاهرِ:

عُبِّرَ بأداةِ الشّرطِ (إنْ) الّتي تفيدُ في الأصلِ الخلوَّ عنِ الجزمِ بوقوعِ الشّرطِ، ولمّا كانَ رسولُ اللهِ ﷺ يُذكِّرُهُم دائمًا بالبعثِ بعدَ الموتِ، وبيومِ القيامةِ، دلَّ على مجيءِ الشّرطِ على خلافِ مُقتضَى الظّاهرِ، ونكتةُ التّعبيرِ بـ (إنْ) دونَ (إذا) تنزيلُ الكافرِ مَنزِلَةَ الجاهلِ لِعدمِ جريهِ على مُوجِبِ العلمِ، فإنَّهُم لمّا لَم يَنتفعوا بتذكيرِهِ

تنزيلُ الكافرِ مَنزِلَةَ الجاهلِ؛ لعدمِ جرْيِهِ على مُوجِبِ العلمِ

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/153، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 9/240، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/8.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/9.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/9.

بالبعثِ بعدَ الموتِ، ولم يؤْمنوا بهِ، ولم يَعملوا بما يقولُ، كان قولُهُ ﷺ لَهُم بمثابةِ العدمِ، فتذكيرُهُ وعدمُ تذكيرِهِ لَهُم سواءٌ.

دلالةُ التّعبيرِ بضميرِ الخطابِ في قولِهِ ﴿إِنَّكُم﴾:

مَـدحُ مَـن آمـنَ باللهِ ورسولِهِ، بـمُـجـرَّدِ سماعِ الخطابِ

يُحتملُ أن يكونَ الخطابُ مُوجَّهًا في ﴿إِنَّكُم﴾ إلى جميعِ المُكلَّفينَ، بدلالةِ أنَّ الابتلاءَ لِجميعِ المُكلَّفينَ، فيكون الجوابُ المذكورُ بالموصولِ وصلتِهِ في قولِهِ: ﴿لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ للتّخصيصِ؛ أي: لَيَقولَنَّ الّذين كفروا مِنهُم، وسببُ التّخصيصِ التّصريحُ بتوبيخِهِم، وبيانُ أنَّ الصِّنفَ المقابلَ وهُمُ المؤمنونَ قد نجحوا في اختبارِهِم. ويحتملُ أن يكونَ الخطابُ مُوجَّهًا إلى الكافرينَ فقط؛ لِيكونَ واردًا على طريقةِ الذَّمِّ، ولِلإشعارِ بأنَّ المؤمنينَ قد آمنوا بمُجرَّدِ سماعِهِم الخطابَ، ولم يحتاجوا إلى تأكيدِ الأمرِ وتقريرِهِ[1].

الغرضُ مِنَ التّعبيرِ بالموصولِ وصلتِهِ:

المـنـسـوبُ إلى الكفرِ مَذمومٌ، ومصيرُهُ مَعلومٌ

لمّا قالَ تعالى: ﴿لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ أفادَ أنّ الّذين قالوا هذا القولَ مَعروفونَ بكفرِهِم، وأنَّ جملةَ الصِّلةِ مَعلومةُ الانتسابِ إليهم، كما أفادَ التّعبيرُ أنَّ كفرَهُم هو السّببُ في إنكارِ البعثِ، وأفادَت جملةُ الصّلةِ كذلك ذمَّهُم وإهانتَهُم بنسبتِهِم إلى الكفرِ، لذا عَبَّرَ بالاسمِ الموصولِ لِيستدعيَ جملةَ الصّلةِ الدّاعيةَ إلى القولِ القبيحِ.

الغرضُ مِن حذفِ مُتَعَلّقِ الفعلِ ﴿كَفَرُوٓاْ﴾:

أقـبـحُ الـكـفـرِ ما كـانَ سَـجـيَّـةً، واستحكمَ لِيجرَّ صـاحـبَـهُ إلى التّكذيبِ عمدًا

يحتملُ أن يكونَ حذفُ مُتعلّقِ الفعلِ ﴿كَفَرُوٓاْ﴾ لإفادةِ العُمومِ؛ أي: إنّهُم كَفروا باللهِ وبرسولِهِ وبجميعِ ما آمنَ بهِ المؤمنونَ؛ لِيدلَّ على عُمومِ كُفرِهِم، ويحتملُ أن يكونَ حذفُ المتعلّقَ لإفادةِ أنَّ الكُفرَ صارَ سجيَّةً لَهُم، فكلَّما تُلِيَ عليهم القرآنُ عَمِدوا إلى تكذيبِهِ؛ تماديًا منهُم وعنادًا.

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/188.

الغرضُ مِنَ التّعبيرِ بمَقولِ القولِ جملةً اسميّةً في السّياقِ:

قولُهُ: ﴿إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ﴾، فيه أفادَ مجيءُ الجملةِ الاسميّةِ ثبوتَ مَضمونِ الجملةِ؛ للإيذانِ بأنَّ البعثَ بعدَ الموتِ أمرٌ ثابتٌ مُقرَّرٌ، والإيمانُ بالبعثِ هو رأسُ الإيمانِ بالغيبِ ومركزُهُ، لذا احتيجَ الإيرادُ بجملةٍ تدُلُّ على الثّبوتِ والدّوامِ المُؤكَّدِ.

البعثُ بعدَ الموتِ أمرٌ ثابتٌ، لا ريبَ فيهِ

دلالةُ التّأكيدِ في: ﴿إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ﴾:

جاءَتِ الجملةُ الاسميّةُ الدّالَّةُ على الثّبوتِ مُؤكَّدةً بـ (إنَّ)؛ للإيذانِ بأنَّهم كانوا مُنكرينَ للبعثِ، فاقتضى الخبرُ الإنكاريُّ التّأكيدَ بـ (إنَّ) والجملةِ الاسميَّةِ؛ ليردَّهُم عن إنكارِهُمُ البعثَ بعدَ الموتِ إلى الاعتقادِ بهِ، فمَن قويَ إنكارُهُ يحتاجُ إلى زيادةِ تأكيدٍ وتقريرٍ.

ويحتملُ أن يكونَ الخبرُ طلبيًّا؛ بأن تكونَ (إنَّ) هي المؤكَّدةَ دونَ الجملةِ الاسميّةِ، فيكون قد أقامَهم مَقامَ المتردّدِ المُتحيِّرِ في أمرِهِ لِقُربِ الأدلَّةِ على البعثِ مِن بعدِ الموتِ وظهورِها، ومِن تردُّدٍ يحتاجُ إلى تأكيدٍ أقلَّ مِنَ الأوّلِ[1].

المُنكِرُ لِلبعثِ يحتاجُ إلى الأدلَّةِ الكثيرةِ، والمُتردِّدُ فيه يحتاجُ إلى أدلَّةٍ أقلَّ

سرُّ التّقييدِ بشبهِ الجملةِ:

لمّا كانَ البعثُ المدلولُ عليهِ بقولِهِ: ﴿مَّبْعُوثُونَ﴾ بمعنى إحياء الموتى وتسييرهم إلى يومِ القيامةِ، أفادَ التّصريحُ بقولِهِ: ﴿مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ﴾ بيانَ غايةِ ابتداءِ البعثِ، وتذكيرَهُم بابتداءِ الغايةِ الزّمانيّةِ لِلمَوتِ[2]،. كما أفادَ الإخبارَ عن أطوارِ الحياةِ كلِّها في أوجزِ لفظٍ وأخصرِهِ، إذ ذَكَرَ خلقَ السّماواتِ والأرضِ، وما بينَهُما، وخَلقَ العرشِ، وخَلقَ النّاسِ بما يدُلُّ عليهِ لفظُ ﴿لِيَبْلُوَكُمْ﴾، ثمَّ ذَكَرَ الموتَ والبعثَ، وأشعرَ كلُّ هذا بذكرِ الحسابِ والثّوابِ والعقابِ بما تقضيه الحكمةُ مِنَ الاختبارِ والامتحانِ.

مِن براعةِ القرآنِ الإخبارُ عَن أطوارِ الحياةِ في أوجزِ العباراتِ

(1) السّكّاكيّ، مفتاح العلوم، ص: 170 - 171، والتّفتازانيّ، المطوّل، ص: 184 - 185.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/420.

تخويفُ الكافرينَ وتحذيرُهم مِن أبلغِ عاداتِ القرآنِ في الخطابِ

دلالةُ (اللّام) في: ﴿ٱلۡمَوۡتِ﴾:

لمّا كانَ البعثُ لايكونُ إلّا للنّاسِ جميعًا، دلَّ على أنَّ (اللّام) عوضٌ عنِ المضافِ إليه، بمعنى مِن بعدِ موتِ النّاسِ، ففيه تخويفٌ وتحذيرٌ لِلكافرينَ لِعظمِ المَوقِفِ.

مِن عادةِ الكافرينَ التّكذيبُ سواء أكانَ إجابةً عن دعوةٍ إلى الإيمانِ أم لا

سرُّ العدولِ في قولِهِ ﴿لَيَقُولَنَّ﴾:

عَبَّرَ بـ ﴿لَيَقُولَنَّ﴾؛ والمعنى: لَيُجيبنَّكَ الّذين كفروا[1]، وفائدةُ العدولِ إلى القولِ الإشعارُ بأنَّ من عادتِهم أن يقولوا هذا القولَ، سواء أكان إجابةً عن قولٍ وُجِّهَ إليهم، ودُعُوا إلى الاعتقادِ بهِ أم لا.

المقولاتُ الباطِلَةُ تُخلِّدُ التّشنيعَ على قائِليها على الدّوامِ

دلالةُ التّعبيرِ بالمضارعِ في: ﴿لَيَقُولَنَّ﴾:

عُبِّرَ بالفعلِ المضارعِ المؤكَّدِ لإفادةِ تقريرِ استمرارِ قولِهِم هذا وتجدُّدِهِ؛ إشعارًا بأنَّهم كانوا يَقولونَهُ عنِ اعتقادٍ ثابتٍ.

الغرضُ مِنَ التّعبيرِ باسمِ الإشارةِ ﴿هَٰذَآ﴾:

عُبِّرَ باسمِ الإشارةِ (الّذي) لِلقريبِ؛ لِلإشعارِ بأنَّ الحقَّ؛ أي: قول الرَّسولِ أو القرآنِ أو الرّسول نفسه - على الاختلافِ في عودِ اسمِ الإشارةِ - قريبٌ منهم، فهو واضحٌ، ومع هذا يُنكِرونَ ويُكذِّبونَ، ففيه معنى التّعجيبِ مِن قولِهِم.

دلائلُ الحقِّ قريبةٌ مِن جميعِ النّاسِ، ولا عذرَ لِمَن يُكذِّبُ ويُنكِرُ

دلالةُ الجمعِ بيَن الكُفرِ والإنكارِ والتّكذيبِ:

في هذه الجملةِ جمعوا بينَ الكفرِ والإنكارِ والتّكذيبِ، فأثبتَ لَهُمُ الكفرَ في قولِهِ: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾، ونَسَبَ إليهم الإنكارَ والتّكذيبَ في قولِهِ: ﴿إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ﴾، ففيه زيادةٌ في التّوبيخِ والتّقبيحِ.

مِن أقبحِ أوصافِ الكفرِ الإيغالُ في أبشعِ مُمارساتِ الضّلالِ

تنوُّعُ القراءاتِ القرآنيّةِ:

في قولِهِ تعالى: ﴿إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ﴾، قرأ حَمزَةُ والكِسائيُّ وخَلَفٌ (ساحِرٌ) بصيغةِ الفاعلِ، وقرأ الباقونَ ﴿سِحۡرٞ﴾[2]، ويختلفُ

مَن وَصَفَ الهدى المبين بأنَّه سِحرٌ، فهو كافرٌ

(1) رضا، تفسير المنار: 12/17.

(2) ابن مجاهد، السّبعة في القراءات، ص: 249، وابن الجزريّ، النّشر: 2/256.

المعنى باختلافِ المدلولِ عليهِ مِن اسمِ الإشارةِ: فإذا كانَ لفظُ ﴿هَٰذَآ﴾ إشارةً إلى القولِ المذكورِ؛ فالمعنى: قولُكَ إنَّنا مَبعوثونَ مِن بعدِ الموتِ كالسِّحرِ المُبينِ في الخديعةِ أو البطلانِ؛ أي: كما أنَّ السِّحرَ خديعةٌ وباطلٌ فقولُكَ كَذلكَ، أو المعنى: أنَّهُ كَلامٌ مِن قَبيلِ الأقوالِ الَّتي يَقولُها السَّحَرَةُ لِخَصائِصَ تُؤَثِّرُ في النُّفوسِ. وإذا كانَ (هذا) إشارةً إلى البعثِ المُستفادِ مِن قولِهِ تعالى: ﴿مَّبۡعُوثُونَ﴾، فالمعنى: إنِ البعثُ إلّا كالسِّحرِ في بطلانِهِ، ويحتملُ أن يكونَ إشارةً إلى القرآنِ؛ لأنَّهم عندَ سماعِهم ذلك تخلَّصُوا إلى القرآنِ؛ لإنبائِهِ عنِ البعثِ في كلِّ مَوضِعٍ، فعمَدُوا إلى تكذيبِهِ وتَسميتِهِ سِحرًا تماديًا مِنهُم في العِنادِ، وتفاديًا عن سَنَنِ الرَّشادِ، كأنَّه قِيلَ: لو تلوتَ عليهُم مِنَ القرآنِ ما فيهِ إثباتُ البعثِ لَقالوا: هذا المتلوُّ سِحرٌ. وعلى هذه الوجوهِ الثّلاثةِ يكونُ الكلامُ مِنَ التّشبيهِ البليغِ بحذفِ أداةِ التّشبيهِ ووجهِ الشّبهِ،

ويحتملُ أن يكونَ (هذا) إشارةً إلى الرّسولِ ﷺ، فيكونُ على سبيلِ المبالغةِ، بالإخبارِ عنِ الرّسولِ بالمصدرِ ﴿سِحۡرٞ﴾، كقولِهم: (رجلٌ عدلٌ)، ومَن قرأ: (ساحِرٌ) فالإشارَةُ بِقَولِهِ هذا إلى الرَّسولِ ﷺ المَفهُومِ مِن ضَميرِ ﴿قُلۡتَ﴾؛ أي: إنَّه يَقُولُ كَلامًا يَسحَرُنا بذلكَ؛ أي: ما هو إلّا ساحرٌ، والسّاحرُ كاذِبٌ مُبطِلٌ، فيكون كلامُهُ باطلًا، وعلى هذه القراءةِ لا يُحمَلُ الكلامُ على التّشبيهِ البليغِ[1].

الغرضُ مِنَ التّعبيرِ بالكنايةِ:

في قوله تعالى: ﴿وَلَئِن قُلۡتَ إِنَّكُم مَّبۡعُوثُونَ مِنۢ بَعۡدِ ٱلۡمَوۡتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ﴾ المرادُ من هذه

إنكارُ صدقِ القرآنِ أو الرَّسولِ إنكارٌ لِلبعثِ، وإنكارُ البعثِ إنكارٌ لِلقرآنِ

(1) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/128، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/188، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ، ص: 1027، والآلوسيّ، روح المعاني: 6/214، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/9.

الجملةِ إنكارُ البعثِ بطريقِ الكنايةِ الإيمائيَّةِ، وبيانُهُ: أنّه إنْ كانَ المدلولُ عليه مِنِ اسمِ الإشارةِ هو القول؛ فالمعنى: إنْ هذا القولُ إلّا سِحرٌ مبينٌ، بمعنى إنكارِ البعثِ؛ لأنَّ الجملةَ جاءَت على سبيلِ الرّدِّ على الدّعوةِ إلى الإيمانِ بالبعثِ بعدَ الموتِ، وفي هذا المعنى إشعارٌ بأنَّهم اعتادوا نسبةَ كلِّ شيءٍ إلى السِّحرِ، حتَّى الأشياءِ الّتي لا تحتملُ السِّحرَ، وهو الإخبارُ؛ لأنَّ السِّحرَ إنَّما يكونُ في تقليبِ الأشياءِ ظاهرًا، وأمّا فيما يُخبَرُ عن شيءٍ يكونُ فلا، ففيه تعجيبٌ مِن قولِهم، وتوبيخٌ لهم، إذ وَصفوا بالسِّحرِ ما لا يقعُ فيهِ أصلًا، وإنْ كانَ المدلولُ عليه هو القرآنَ أو الرّسولَ فقد أجابوا بما هو أعمُّ، فإنَّ إنكارَ صدقِ القرآنِ أو الرَّسولِ إنكارٌ للبعثِ، كما أنَّ إنكارَ البعثِ إنكارٌ للقرآنِ، فيدخل في إنكارِ صدقِ القرآنِ أو الرّسولِ إنكارُ وقوعِ البعثِ دخولًا أوّليًّا بالوجهِ البرهانيِّ؛ لمناسبةِ السّياقِ، وفيه بيانُ غلوِّهم في الكفرِ والتَّكذيبِ[1].

سرُّ اصطفاءِ النّفي والاستثناءِ طريقًا لِلقَصرِ:

تخصيصُ القَصرِ بهم تعبيرٌ عن شدّةِ الإنكارِ

أفادَ القصرُ بـ ﴿إِنْ﴾ النّافية و﴿إِلَّا﴾ تأكيدَ القصرِ وتقريرَهُ؛ لأنَّ النّفيَ بـ (إنْ) أقوى مِنَ النّفي بـ (ما)؛ لِلإيذانِ بشدّةِ تكذيبِهم وإنكارِهم، وهو الطّريقُ الملائمُ للتّعبيرِ عنِ الإنكارِ.

الغرضُ مِنَ التّعبيرِ بأسلوبِ القصرِ في السّياقِ:

تهمةُ الكافرينَ محاولةٌ لِرَدِّ المؤمنينَ عنِ اعتقادِهم بالبعثِ

عَبَّرَ عن تكذيبِ الكافرين بأسلوبِ القصرِ؛ ليكونَ مِن قصرِ الموصوفِ على الصّفةِ، بمعنى تخصيصِ الموصوفِ المُشارِ إليهِ بـ ﴿هَٰذَآ﴾ بوصفِ السِّحرِ، وكأنَّه ليسَ له وصفٌ سواهُ على سبيلِ المبالغةِ في التّكذيبِ، وجاءَ القصرُ بأسلوبِ (إنْ) و(إلّا)؛ لِلإيذانِ بأنَّ الكافرينَ المُكذِّبينَ كانُوا يَعتقدونَ أنَّ المؤمنينَ مُخطئونَ في

(1) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنّة: 6/101، والطّيبيّ، فتوح الغيب: 8/23، والخفاجيّ، حاشية على تفسير البيضاويّ: 5/75.

اعتقادِهِم بالبعثِ بعدَ الموتِ، وأنَّهُم يجبُ أن يتخلَّوا عن إصرارِهم على الإيمانِ، ففي هذا الأسلوبِ مَدحٌ لِلمؤمنينَ بأنَّ الكافرينَ ما قالوا هذا القولَ إلّا لمّا رأوا المؤمنينَ مُعتقِدينَ بالبعثِ ثابتينَ على اعتقادِهِم[1].

(1) السّكّاكيّ، مفتاح العلوم، ص: 294.

﴿وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُۥٓۗ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝٨﴾ [هود: 8]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

مَقالاتُ الكافرينَ مَظِنَّةٌ لِمعاجلتِهم بالعذابِ، والله تعالى يُعاملُهُم بالإمهالِ لا بالإعجالِ

لمّا حَكَى اللّه تعالى عَنِ الكُفّارِ أنَّهُم يُكَذِّبونَ الرَّسولَ ﷺ بِقَولِهِم: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ عطفَ عليه نَوعًا آخَرَ مِن أباطيلِهِم، وهو أنَّهُ مَتى تأخَّرَ عَنهُمُ العَذابُ الَّذي تَوَعَّدَهُمُ الرَّسُولُ ﷺ بِهِ أخَذُوا في الاستِهزاءِ، وأنكروا إنذارَ رسولِ اللّه ﷺ لَهُم بعذابِ الدّنيا والآخرةِ، وكانوا يَقولونَ: ما السَّبَبُ الَّذي حَبَسَهُ عَنّا؟ فَأجابَ اللّه تعالى: بأنَّهُ إذا جاءَ الوَقتُ الَّذي عَيَّنَهُ اللّه لِنُزولِ ذَلِكَ العذابِ الّذي كانوا يَستهزئونَ بِهِ لَم يَنصَرِفْ عَنهُم، وأحاطَ بهم ذلكَ العذابُ[1]، وأيضًا لمّا كانَ ما تَقَدَّمَ عنهُم مِنَ الأفعالِ القبيحةِ، ومَضى مِنَ الأقوالِ المُنكَرةِ مَظِنَّةً لِمُعاجلتِهم بالعذابِ، وكانَ الواقعُ أنَّه تعالى يُعامِلُهم بالإمهالِ فَضلًا منه وكَرَمًا، حَكَى مَقالَتَهُم في مُقابلةِ رحمتِهِ لَهُم، فجاءَت هذهِ الآيةُ[2]، وأيضًا في هذه الآيةِ، والّتي قبلَها وَصفُ فَنٍّ مِن أفانينِ عِنادِ المُشركينَ، وتَهَكُّمِهم بالدَّعوَةِ الإسلاميَّةِ، فإذا خَبَّرَهُمُ الرَّسُولُ ﷺ بالبَعثِ، وأنَّ شِركَهُم سَبَبٌ لِتَعذيبِهِم جَعَلوا كَلامَهُ سِحرًا، وإذا أنذَرَهُم بِعُقوبَةِ العَذابِ على الإشراكِ استَعجَلوهُ، فإذا تَأخَّرَ عَنهُم إلى أجَلٍ اقتَضَتهُ الحِكمَةُ الرَّبّانِيَّةُ استَفهَموا عَن سَبَبِ حَبسِهِ عَنهُمُ استِفهامَ تَهَكُّمٍ، ظَنًّا أنَّ تَأخُّرَهُ عَجزٌ[3].

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/321.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/241.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/166.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أُمَّةٍ﴾: تُطلَقُ الأمّةُ على الأصلِ، والمَرْجِعِ، والجَماعَةِ، والدِّينِ، وكلُّ جيلٍ مِنَ النّاسِ أمَّةٌ على حدةٍ، والأمَّةُ الحين أو مُدّةٌ مِنَ الزّمنِ مُتتابِعةٌ، ومنه قوله تعالى: ﴿وَٱدَّكَرَ بَعۡدَ أُمَّةٍ﴾ [يوسف: 45]، وذهبَ بعضُ اللّغويّينَ إلى أنَّ المرادَ بالأمّةِ انقضاءُ جيلٍ مِنَ النّاسِ، ومجيءُ جيلٍ آخرَ، كأنَّهُم راعَوا أنَّها الأمَدُ الَّذي يَظهَرُ فِيهِ جِيلٌ، فَأُطلِقَت على مُطلَقِ المُدَّةِ، فيكونُ اللّفظُ على أصلِهِ مِن معنى الاجتماعِ، فأصلُ الأمِّ لكلِّ شيءٍ هو المَجمَعُ والمَضَمُّ، ومنه الأُمُّ: الوالدةُ؛ لأنَّ أولادَها يرتبطون بها، وهي أصلُهُم ومَجمَعُهُم، و﴿إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعۡدُودَةٍ﴾ في الآية بمعنى إلى انقضاءِ أمَّةٍ مِنَ النّاسِ، أو بمعنى إلى مُدّةٍ ووقتٍ مَعلومٍ[1].

2) ﴿يَحۡبِسُهُۥٓ﴾: يدورُ معنى الحبسِ على مَنعِ الشَّيءِ مِنَ الانبعاثِ بحيثُ لا ينفذُ ولا يتسيَّبُ، فهو بمعنى إلزامِ الشَّيءِ مَكانًا لا يَتَجاوَزُهُ، ومنه: حَبسُ اللِّصِ، ومِن معنى الإمساكِ عنِ الانطلاقِ قولُهُ تعالى: ﴿تَحۡبِسُونَهُمَا مِنۢ بَعۡدِ ٱلصَّلَوٰةِ﴾، وحَبسُ الشَّيءِ: منعُهُ أو تأخيرُهُ لمدَّةٍ مَعلومةٍ، ومعنى ﴿مَا يَحۡبِسُهُۥٓ﴾ ما يَمنَعُهُ مِن وقوعِ العذابِ أو ما يؤخِّرُهُ[2].

3) ﴿مَصۡرُوفًا﴾: يدورُ معنى الصَّرفِ على تقلُّبِ الشّيءِ، وتحوّلِهِ مِن حالةٍ إلى حالةٍ، أو إبدالِهِ بغيرِهِ، والصَّرفُ أن تَصرِفَ إنسانًا عَن وجهٍ يُرِيدُهُ إلى مَصرِفٍ غَيرِ ذَلِكَ، ويُقالُ: صَرَفتُ الرّجلَ عنّي فانصَرَفَ؛ أي: رددتُهُ مِن حالةٍ إلى حالةٍ أخرى، ومنهُ تصريفُ الرّياحِ: تحوُّلُها مِن جِهَةٍ إلَى جِهَةٍ؛ أي: جَنوبًا وشمالًا مثلًا، وكذلكَ تصريفُ السُّيُولِ والأمورِ، وتصريفُ الآياتِ الإتيانُ بها مِن جهاتِ التّرغيبِ والتّرهيبِ والإعذارِ والإنذارِ وغيرِها. والحرفُ الّذي تُعدَّى به (إلى، عن) يُوَجِّهُ معنى لفظِ الصَّرفِ، و﴿لَيۡسَ مَصۡرُوفًا عَنۡهُمۡ﴾؛ بمعنى: ليسَ العذابُ مَدفوعًا عنهُم، أو ليسَ مُتحوِّلًا عنهُم[3].

4) ﴿وَحَاقَ﴾: يدورُ معنى الحَوقِ أو الحيقِ - على الخلافِ في أصلِ الكلمةِ - على

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (أمم)، والرّاغب:، المفردات: (أمّ)، وابن جرير، جامع البيان: 15/252، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/321، وأبو حيّان، البحر المحيط: 6/126.

(2) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (حبس)، وابن جرير، جامع البيان: 15/254، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/129.

(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (صرف)، وابن جرير، جامع البيان: 15/254، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/129.

الإحاطةِ بالشّيءِ بحيثُ يأتي عليه كلِّه، ومنه: الحوق المِكْنَسَةُ، وحُقتُ البَيت حَوْقًا: كنستُهُ، والحَيقُ ما يحيطُ بالإنسانِ مِن مَكرٍ أو سُوءٍ يعملُهُ فَيَنزِلُ ذَلِك بِهِ، ويُقالُ: حاقَ بِهِ العذابُ؛ أي: أحاطَ به، بحيثُ يحلُّ به ويصيبُهُ، مُؤثِّرًا فيه، ومنه حاقَ السّيفُ: أثَّرَ وقطعَ بحيثُ يكونُ قطعُهُ غائرًا، واللّفظُ يُستعمَلُ في المكروهِ مِنَ الأمورِ، ومعنى ﴿وَحَاقَ بِهِم﴾ نَزَلَ بهمُ العذابُ، وأصابَهُم مُحيطًا بهم[1].

❁ المَعْنى الإجْمالِيُّ:

عـذابُ الله إذا أتـى لا يصرفُه صـارفٌ، إذ لا رادَّ لِحكمِهِ، ولا مُعقِّبَ لكلماتِهِ

ولَئِنْ أخَّرنا عن هؤلاءِ المشركين العذابَ إلى أجلٍ معلومٍ فاستبطؤوه، لَيقولُنَّ استهزاءً وتكذيبًا: أيُّ شيءٍ يمنعُ هذا العذابَ مِنَ الوقوعِ إنْ كان حقًّا؟ ألَا يومَ يأتيهم ذلك العذابُ لا يستطيعُ أنْ يصرفَهُ عنهُم صارفٌ، ولا يدفعَهُ دافعٌ، وأحاطَ بهم مِن كلِّ جانبٍ عذابُ ما كانوا يَستهزئونَ بِهِ قبلَ وقوعِه بهِم.

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

جـمـعُ أفـانـين الكفرِ وصنوفِ الـعـنـادِ بـيـانٌ لسببِ تعذيبِ الـكـفـرةِ مِـنَ العبادِ

دلالةُ الواوِ العاطفةِ في: ﴿وَلَئِنْ﴾:

الواو عطفٌ على ما سبقَ، ودلالةُ العطفِ أنّ جمعَ أفانين عنادِ الكافرينَ، وتهكمهم بالدّعوةِ الإسلاميّةِ بعضِها إلى بعضٍ، تقبيحٌ لَهُم، وتَشنيعٌ عليهم، وبيانٌ لِسببِ كفرِهِم.

الغرضُ مِنَ التّعبيرِ بأسلوبِ القسمِ:

استـهـزاؤُهُـم بـتـمـتـيـعِـهِـم بتأخيرِ العذابِ مُحقَّقُ الوقوعِ لا مَنأى عنهُ

أسلوبُ القسمِ مُشعِرٌ بتحقُّقِ وقعِ المُقسمِ عليه، فقولُهُم المُستهزِئُ السّاخِرُ واقعٌ لا مَحالةَ، وهو تأكيدٌ لحصولِ سببِ عذابِهِم.

فائدةُ تتابعِ التّأكيدِ في الجملةِ الشّرطيّةِ:

تتابَعَ التَّأكيدُ في جملةِ الشّرطِ وجزائِها كما في الآيةِ السّابقةِ،

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (حيق)، والرّاغب، المفردات: (حاق)، والزجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 2/231، وابن الهائم، التّبيان، ص: 155.

فجاءَتِ اللّامُ المُوَطِّئَةُ لِلقَسَمِ في قولِهِ: ﴿وَلَئِنۡ أَخَّرۡنَا﴾؛ لأنَّه بتقديرِ: واللّه إنْ أخَّرنا عنهُمُ العذابَ، وأُكِّدَتِ الجملةُ كذلك باللّامِ الواقعةِ في جوابِ الشّرطِ وبنُونِ التَّوكيدِ في قولِهِ: ﴿لَّيَقُولُنَّ﴾؛ فأفادَ تتابعُ التّأكيدِ تَنزيلَ الكافرينَ المُنكرينَ لِلبعثِ مَنزلَةَ المُتَرَدِّدِ في صُدُورِ السّؤالِ مِنهُم لِغَرابَةِ صُدُورِهِ مِنَ العاقِلِ، فيكونُ التّأكيدُ القويُّ مُستَعمَلًا في لازِمِ مَعناهُ كذلك، وهو زيادةُ التَّعجيبِ مِن سؤالِهِم، وتعنُّتِهِم في الإنكارِ واستعجالِهُمُ العذابَ.

التّعجيبُ مِن حالِ الكافرين في الإنكارِ، وغرابةُ استعجالِهُمُ العذابَ

فائدةُ التّعبيرِ بالمُسندِ إليه ضميرِ العظمةِ المتّصلِ بالفعلِ:

قولُهُ ﴿أَخَّرۡنَا﴾، لمّا كانَ الضّميرُ (نا) هنا لإفادةِ تعظيمِ المُتكلِّمِ، وهو اللّه تعالى، دلَّ على أنَّ المعنى لَئِن أخَّرنا عنهُمُ العذابَ بما لنا مِنَ العظمةِ الّتي لا يَفوتُها شيءٌ[1].

تأخيرُ العذابِ أو تعجيلُهُ بما للهِ مِنَ العظمةِ الّتي لا يفوتُها شيءٌ

دلالةُ التّعبيرِ بالماضي في ﴿أَخَّرۡنَا﴾:

لمّا كانَ لفظُ ﴿أَخَّرۡنَا﴾ هنا بمعنى تأجيلِ ميعادِ العذابِ بعدَ وقتِهِ أفادَ أنَّهُم كانوا قد استحقُّوا العذابَ؛ بكفرِهِم وتكذيبِهِم رسولَ اللّه ﷺ، وإنكارِهِم للبعثِ مِن بعدِ الموتِ، فكانَ تأخيرُ العذابِ وبالًا عليهم؛ لأنَّهم ازدادوا كُفرًا؛ إذ استعجلوهُ، وقالوا: ما يحبسُهُ؟ استهزاءً وسخريةً، ففيه معنى التّعجيبِ مِن حالِهِم، إذ كانَ ينبغي لِلعاقلِ أن يتفكَّرَ في أمرِهِ، ويَنتفعَ مِن تأخيرِ العذابِ، فيتوبَ إلى اللّه، ويحمدَهُ على تأخيرِ العذابِ، ولكنَّهُمُ ازدادوا كفرًا وتكذيبًا، فقالوا: ﴿مَا يَحۡبِسُهُۥٓۗ﴾، والتّعبيرُ بالماضي يفيدُ تحقُّقَ وقوعِ العذابِ.

تأخيرُ العذابِ على الكافرينَ يكونُ وَبالًا عليهم غالبًا

دلالةُ تقديمِ شبهِ الجملةِ ﴿عَنۡهُمۡ﴾:

تقدَّمَ الجارُّ والمجرورُ ﴿عَنۡهُمۡ﴾ على المفعولِ به ﴿ٱلۡعَذَابُ﴾ للاهتمامِ بهِم، وكأنَّ تأخيرَ العذابِ خصوصيّةٌ لهم؛ لِتذكيرِهِم بمنَّةِ

تذكيرُ الكافرينَ بمنَّةِ الإمهالِ؛ لعلَّهُم يرعوونَ عن غيِّهِم

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/241.

الإمهالِ لعلَّهُم يَتوبونَ ويَتذكرونَ، ولِمُناسبةِ ما سبقَهُ في السّياقِ نفسِهِ مِن تقديمِ الجارِّ والمجرورِ في قولِهِ تعالى: ﴿فَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ كَبِيرٍ ٣﴾ [هود: 3]

دلالةُ (اللّام) في لفظ ﴿ٱلۡعَذَابَ﴾:

(أل) هنا للعهدِ، والمعهودُ ما ذُكِرَ في قولِهِ تعالى: ﴿فَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ كَبِيرٍ ٣﴾ [هود: 3]، فيكونُ المرادُ عذابَ الآخرةِ، ويحتملُ أن يكونَ المرادُ العذابَ الّذي يكونُ بالقتالِ في الدّنيا مثلَ يومِ بدرٍ، والأولى أن تكونَ (اللّام) لِلجنسِ فيتناولُ اللّفظُ العذابَ الشّاملَ لِلكفرةِ دونَ ما يُخَصُّ ببعضٍ منهُم، سواء أكانَ في الدّنيا أم في الآخرةِ[1].

العذابُ يَتناولُ كلَّ ألوانِهِ، وفي إبّانِهِ المَقدورِ وأوانِهِ

سرُّ التّعبيرِ بـ: ﴿أُمَّةٖ مَّعۡدُودَةٖ﴾:

جَعَلَ النّظْمُ الكريمُ انتهاءَ تأخيرِ العذابِ إلى ﴿أُمَّةٖ مَّعۡدُودَةٖ﴾، ولم يقُلْ مثلًا: ولَئِن أخّرنا عنهُمُ العذابَ إلى وقتٍ معلومٍ؛ لأنَّ الأمّةَ المعدودةَ دالَّةٌ على معنى انقضاءِ جيلٍ؛ لإفادةِ أنَّ تأخيرَ العذابِ عنهُم يكونُ إلى حين اجتماعِ الوقتِ المُحدَّدِ لنزولِ العذابِ بهم؛ لِلإشعارِ بأنَّه لايأتيهُمُ إلّا بعدَ اجتماعِ صروفِ الإنذارِ والإعذارِ لَهُم، لِيناسبَ مَعنى التَّدرُّجِ في الأمرِ والحكمةِ فيهِ، كما هو حالُ التَّدرُّجِ والحكمة في خلقِ السّماواتِ والأرضِ وما فيهما ممّا ذُكِرَ في الآياتِ السّابقةِ.

العذابُ لا يأتي إلّا بعدَ اجتماعِ صروفِ الإنذارِ والإعذارِ

نكتةُ الوصفِ في: ﴿مَّعۡدُودَةٖ﴾:

لمّا كانَ لفظُ ﴿أُمَّةٖ﴾ دالًّا على وقتٍ ليسَ بالقليلِ؛ لأنَّه يكونُ بانقضاءِ جيلٍ مِنَ النّاسِ، دلَّ على أنَّ كثرةَ الوقتِ هي بالنّسبةِ إليهم، فلمّا تقيَّدَ بالصّفةِ ﴿مَّعۡدُودَةٖ﴾ آذنَ بأنَّها محصورةُ الأيّامِ؛ أي: قصيرةٌ مَعلومةٌ عندَنا؛ أي: عندَ اللّه تعالى، فتومِئُ الصّفةُ أنَّ

كلُّ ما كانَ مَعدودًا فهو قليلٌ، في اعتبارِ ما يُقدَّمُ مِن دليلٍ

(1) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/129، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/189، والخفاجيّ، حاشية على تفسير البيضاويّ: 5/130، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 10/28، والآلوسيّ، روح المعاني: 6/215.

المدّةَ لَيسَت مَديدَةً كما يَتوهَّمونَ مِن تتابعِ السّنين عندَهُم؛ لأنَّهُ شاعَ في كلامِ العَرَبِ إطلاقُ العَدِّ والحِسابِ ونَحوِهما على التَّقليلِ؛ لأنَّ الشَّيءَ القَليلَ يُمكِنُ ضَبطُهُ بالعَدَدِ، ولذَلِكَ يقولونَ في عَكسِهِ: بغَيرِ حسابٍ[1]، فالعذابُ قريبٌ منهُم ليسَ ببعيدٍ، وفي الكلامِ معنى التّهديدِ والتّخويفِ.

الغرضُ مِنَ اللّامِ في: ﴿لَّيَقُولُنَّ﴾:

هذه اللّامُ تفيدُ التّأكيدَ، كما أنَّها تفيدُ التّنبيهَ على القسمِ المحذوفِ في قولِهِ: ﴿وَلَئِنۡ أَخَّرۡنَا﴾.

جحدُهُم نعمةَ التّمتيعِ أمرٌ مُتيقّنٌ لتأصُّلِ الجحودِ في طبعِهِمُ الذّميمِ

مناسبةُ تكريرِ الفعلِ: ﴿لَّيَقُولُنَّ﴾:

كَرَّرَ الفعلَ ﴿لَّيَقُولُنَّ﴾؛ للإيذانِ بمُغالاتِهِم في كفرِهِم، وأنَّ قولَ الكفرِ يَتجدَّدُ منهُم في كلِّ مُناسبةٍ، فَهُم مُستمرُّونَ عليهِ.

الكافرونَ يتجدَّدُ كفرُهُم، كما أنَّ المؤمنينَ يَتجدَّدُ إيمانُهُم

مناسبةُ التّعبيرِ بالضّميرِ في: ﴿لَّيَقُولُنَّ﴾:

جاءَ فاعلُ ﴿لَّيَقُولُنَّ﴾ ضميرًا، ولم يأتِ بالاسمِ الظّاهرِ؛ أي: لم يقُل: (لَيقولَنَّ الّذين كفروا)؛ لِيشيرَ الضّميرُ إلى الاسمِ الظّاهرِ العائدِ إليه المُقرَّرِ في أذهانِ السّامِعينَ في قولِهِ: ﴿لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ﴾ مع وصفِ التّكذيبِ وإنكارِ البعثِ في قولِهِم: ﴿إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ﴾؛ بمعنى: أنَّ الّذين قالوا: ﴿مَا يَحۡبِسُهُۥٓۗ﴾ هُم نفسُهُم الّذين كفروا ووصفوا القولَ بالبعثِ أو الرّسولَ بالسِّحرِ كما تَقدَّمَ؛ إشعارًا بتكثُّرِ طغيانِهِم، وأنّهم ازدادوا كُفرًا إلى كُفرِهِمُ السّابقِ، فيكونُ مجيءُ الضّميرِ على معنى استجماعِ معنى الذّاتِ العائدِ إليها مع الأوصافِ السّابقةِ واللّاحقةِ.

تنوُّعُ طغيانِ الكافرينَ، بتنوُّعِ تكذيبِهِمُ الضّالِّ، وعنادِهِمُ المهينِ

الغرضُ مِنَ التّعبيرِ بالاستفهامِ المجازيِّ في السّياقِ الإعجازيِّ:

لمّا كانَ هؤلاء القوم الكافرون مُكذِّبينَ لرسولِ اللّه ﷺ ومُنكِرينَ

الاستفهامُ لِلإنكارِ لا لِلاستفسارِ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/241، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/189، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/10.

لِلبعثِ مِن بعدِ الموتِ كانَ استفهامُهُم على سبيلِ المجازِ، فلم يَقصدوا السُّؤالَ عن سببِ المنعِ مِن مجيءِ العذابِ، بل قالُوهُ على سبيلِ التّكذيبِ وإنكارِ وقوعِ العذابِ عليهم أصلًا؛ لأنّهُم أرادوا مِنَ الاستفهامِ الاستعجالَ بالعذابِ، والتّقديرُ: أيُّ شيءٍ يمنعُ العذابَ مِنَ المجيءِ؟، وإنَّما كانوا يقولونَهُ استعجالًا لِلعذابِ على سبيلِ الاستهزاءِ، لقولِهِ تعالى: ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾، ومرادُهُم إنكارُ المجيءِ والحَبسِ رأسًا لا الاعترافُ بهِ، والاستِفسارُ عَن حابِسِهِ[1].

نكتةُ التّعبيرِ بـ ﴿مَا﴾:

استعمالُ (ما) لِما يَعُمُّ العالمَ وغيرَهُ

وردتْ ﴿مَا﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿مَا يَحۡبِسُهُۥٓ﴾ دونَ (مَن)؛ لأنّها قد تُستعمَلُ لِلعاقلِ (العالم) وغيرِ العاقلِ (غير العالم)؛ لِلإشعارِ بشدّةِ تكذيبِهِم واستهزائِهِم، لِيشمَلَ التّعبيرُ بـ ﴿مَا﴾ أيَّ مانعٍ يمنعُ العذابَ مِنَ الوقوعِ؛ والمعنى: أيُّ شيءٍ من الأشياءِ يَحبِسُ العذابَ[2]؟.

دلالةُ الفصلِ لجملةِ ﴿أَلَا يَوۡمَ يَأۡتِيهِمۡ﴾:

مُخالفةُ الكافرينَ لِلمَعقولِ في السّؤالِ عن تأخيرِ العذابِ، دليلٌ على خطئِهِم

هذِهِ الجُملَةُ واقِعَةٌ مَوقِعَ الجَوابِ عَن سؤالِهِم، فلذَلِكَ جاءَت بطريقِ الفصلِ مِن دونِ واو العطفِ، كَما تُفْصَلُ المُحاوَرَةُ، وهذا تَهديدٌ وتَخويفٌ بأنَّهُ لا يُصرَفُ عَنهُم، ولَكِنَّهُ يُؤَخَّرُ، ولمّا كانَ السّؤالُ عن سببِ المنعِ؛ أي: أيُّ شيءٍ يمنعُهُ؟ كانَ مُقتضَى الجوابِ أن يكونَ مُوافِقًا لِلسّؤالِ، لكنَّه أعرضَ عن جوابِهِم، وأخبرَ عنِ العذابِ أنَّه ليسَ مَصروفًا عنهُم، وأنَّهُم عاجزونَ عن دفعِهِ عندَ وقوعِه؛ إشعارًا بأنَّ العاقلَ لا ينبغي أن يسألَ عن مثلِ ذلكَ إلّا بعدَ قُدرتِهِ على الدّفعِ، فهو بمثابةِ إقامةِ الدّليلِ على خَطئِهِم، وإعلامًا بأنَّهُم عَكسوا في

(1) الماورديّ، النّكت والعيون: 2/64، والواحديّ، التّفسير البسيط: 11/357، والنّسفيّ، مدارك التّنزيل: 2/48، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/189.

(2) السّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 7/574.

السّؤالِ، فخالَفوا المطلوبَ لِقلَّة عقولِهم، كما أنَّ فيه تحقيقًا لوقوعِ العذابِ؛ لأنَّ ما استهزؤوا بهِ، لاحقٌ بهم لا مَحالةَ[1].

فائدةُ التّعبيرِ بأداةِ التّنبيهِ ﴿أَلَا﴾:

افْتُتِحَ الكَلامُ الواقعُ مَوقعَ الجوابِ بحَرفِ التَّنبيهِ؛ لِلإيذانِ بتنبيهِ المؤمنينَ، وتذكيرِهم بيومِ وقوعِ العذابِ على الكافرينَ لِيطمَئنُّوا إلى إيمانِهم، وللتَّنبيهِ الزّاجرِ لِلكافرينَ لِغفلتِهم عنِ الوعيدِ بوقوعِ العذابِ، ولِلإشعارِ بأنَّهُم سيكونونَ غافِلينَ كذلكَ حينَ وقوعِ العذابِ، ولِلاهتمامِ بالخَبرِ لِتحقيقِهِ وتقريرِ مَضمونِهِ، ولإدخالِ الرَّوعِ في ضمائِرِهم، كما تتضمَّنُ الأداةُ معنى التّحذيرِ مِن نزولِ العذابِ بهِم؛ لمناسبةِ السّياقِ[2].

تحذيرُ الكافرينَ مِن غفلتِهم عندَ وقوعِ العذابِ تنبيهٌ لَهُم مِن سوءِ المآبِ

الغرضُ مِن تقديمِ الظّرفِ ﴿يَوْمَ﴾:

لمّا كانَ أصلُ الكلامِ (ألَا ليسَ مَصروفًا عنهُم يومَ يأتيهم)، دلَّ على أنَّ ظرفَ الزّمانِ قُدِّمَ عن أصلِ مَوضعِهِ، وذلكَ لِلإيماءِ بأنَّ إتيانَ العَذابِ لا شَكَّ فيهِ، فهوَ مُخصَّصٌ بيومٍ مَعلومٍ، حتَّى إنَّهُ يُوَقَّتُ بوَقتٍ[3].

إتيانُ العذابِ مُخصَّصٌ بيومٍ معلومٍ، ووقتٍ مُحدَّدٍ مَوسومٍ

فائدةُ التّعبيرِ بلفظِ ﴿يَوْمَ﴾:

عُبِّرَ بلفظِ ﴿يَوْمَ﴾؛ لِيفيدَ الدّلالةَ على مُدّةٍ مِنَ الزّمانِ قلَّت أو كَثُرَت، ففيهِ إبهامٌ في تحديدِ وقتِ نزولِ العذابِ فيهِم؛ لِتخويفِهِم وتهويلِ العذابِ عليهِم.

إبهامُ وقتِ نزولِ العذابِ على الكافرينَ؛ لِلتَّهويلِ والتَّخويفِ

دلالةُ النّفي بـ ﴿لَيْسَ﴾:

أفادَ النّفيُ بـ ﴿لَيْسَ﴾ هنا نفيَ الحالِ كما هو الأصلُ في دلالةِ (ليس)، ونفيَ الاستقبالِ ممّا يدلُّ عليه السّياقُ؛ أي: ليسَ العذابُ مَصروفًا عنهُم لا في الحالِ، ولا في المُستقبلِ إلى أن يَنزِلَ بهِم.

دلالةُ (ليس) على نفي الحالِ والاستقبالِ، بقرينةِ السّياقِ في المَقالِ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/241، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/11.
(2) الرّضيّ، شرح كافية ابن الحاجب: 4/58، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/11.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/11.

نكتةُ التّعبيرِ بلفظِ الخبرِ ﴿مَصْرُوفًا﴾:

العذابُ إذا نَزَلَ بقومٍ لا يتحوَّلُ مَسلكُهُ، ولا يتغيَّرُ مهيعُهُ

لم يقُلْ: (ليسَ مَحبوسًا عنهُم) كما جاءَ في السّؤالِ؛ لنكتةٍ هي أنَّ العذابَ إذا نَزَلَ بهِم يكونُ قاصدَهُم فلا يتحوَّلُ مَسلكُهُ، ولا يتغيَّرُ طريقُهُ إليهِم، فلا يرفعُهُ رافعٌ أبداً إنْ أُريدَ بهِ عذابُ الآخرةِ، ولا يدفعُهُ دافعٌ، بل هو واقعٌ بهِم إنْ أُريدَ به عذابُ الدّنيا.

مناسبةُ مجيءِ اللّفظِ بصيغةِ الاسمِ المبنيِّ للمفعولِ:

تعظيمُ حدثِ العذابِ المصبوبِ، وتعظيمُ شأنِهِ على الكافرِ المكروبِ

لمّا قالَ: ﴿لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ﴾ دلَّ على تهويلِ الفعلِ والمفعولِ بهِ؛ أي: تعظيمُ وقوعِ العذابِ، وهو حَدَثُ الوقوعِ، وتفخيمُ شأنِ العذابِ نفسِهِ.

مناسبةُ ورودِ لفظِ ﴿مَصْرُوفًا﴾ مَنفيًّا بـ ﴿لَيْسَ﴾:

لا يُصرفُ العذابُ، بوفرةِ أعوانٍ، ولا بكثرةِ غلابٍ

لم يقُل: ألَا يومَ يأتيهِمْ هو مَصروفٌ إليهِم بطريقِ الإثباتِ؛ لإفادةِ نفيِ صرفِهِ عن أيِّ جهةٍ سوى الجهةِ الّتي هُم فيها، وأنْ لا أحدَ يستطيعُ أن يُحوِّلَ صرفَ العذابِ عنهُم، لا بكثرةِ أعوانٍ، ولا بحيلةِ مُحتالٍ، ولا بقوَّةٍ مِن قِبَلِهم، ولا مِن قِبَلِ آلهتِهِم، فيفيدُ النّفيُ بـ ﴿لَيْسَ﴾ مع تعلُّقِ اسمِ المفعولِ بحرفِ المجاوزةِ (عن) معنى الحصرِ، وقَصْرِ العذابِ عليهم.

دلالةُ الواوِ في: ﴿وَحَاقَ بِهِم﴾:

تنوُّعُ معنى الواوِ يفيدُ تنوُّعَ المعنى في الآيةِ الكريمةِ

تحتملُ الواو أن تكونَ عاطفةً، وأن تكونَ حاليَّةً[1]، فإذا كانَت عاطفةً أفادَت عطفَ جملةِ ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ على ﴿يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ﴾، فيكونُ الفعلُ ﴿لَيْسَ﴾ على معنى نفيِ الحالِ والاستقبالِ، وهو الظّاهرُ، ويكونُ حرفُ التّنبيهِ داخلًا على الجملتين كلٍّ على حدةٍ؛ إيذانًا بتحقيقِ مَضمونِ الجملتين، ولِلتّنبيهِ على غفلةِ الكافرينَ عنِ الوعيدِ في الجملةِ الأُولى، وعن وقتِ وقوعِ العذابِ ونزولِهِ بهِم في الجملةِ الثّانيةِ.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/11.

وتحتملُ الواو أن تكونَ حاليَّةً؛ بمعنى: أنّ العذابَ ليسَ مَصروفًا عنهُم في وقتِ وقوعِ العذابِ وحلولِهِ فيهم، فإذا نَزَلَ فيهِم لا ينتقلُ عنهُم، فلا يُدفَعُ ولا يُتحوَّلُ، فيكونُ الفعلُ ﴿لَيْسَ﴾ على معنى النّفي في المُستقبلِ.

الغرضُ مِنَ التّعبيرِ بالكنايةِ:

لمّا كانَ لفظُ ﴿وَحَاقَ﴾ بمعنى الإحاطةِ بالشّيءِ واستدارتِهِ بهِ، ولمّا كان اللّفظُ لايأتي إلّا في المكروهِ، كانَ المرادُ من حوقِ العذابِ بهم الكنايةَ عن إصابتِهِم بهِ، ونزولِهِ بهِم جميعًا، بحيثُ يكونُ غائرًا فيهم؛ أي: إنَّهُ حالٌّ بِهِم حُلولًا لا مَخْلَصَ مِنهُ بِحالٍ لإحاطتِهِ بهِم جميعًا[1].

المرادُ مِن حوقِ العذابِ إحاطتُهُ بالكافرينَ، وإصابتُهُم حتّى يغورَ فيهِم

دلالةُ الباءِ في: ﴿بِهِۦ﴾:

الباءُ سببيّةٌ، بمعنى: حاقَ بهِم ما كانوا بسببِهِ يَستهزئونَ، وذِكرُ الأسبابِ مُقنِعٌ في الأحكامِ، فالإحاطةُ بهِم ودمارُهُم نتيجةُ استهزائِهِم، والاستهزاءُ بذاك مِن أعظمِ الجُرمِ الصّادرِ مِن أهلِ الكُفرِ.

الاستهزاءُ أعظمُ جُرمٍ، يستتبعُ أشملَ العذابِ وأشدَّهُ

دلالةُ الضّميرِ في: ﴿بِهِۦ﴾:

يعودُ الضّميرُ إلى الاسمِ الموصولِ ﴿مَا﴾؛ أي: العذابُ الّذي كانوا يَستَعجلونَ به استهزاءً[2].

معادُ الضّميرِ المستفادِ تأكيدٌ على المرادِ

سببُ تقديمِ شبهِ الجملةِ ﴿بِهِۦ﴾:

قُدِّمَ الجارُّ والمجرورُ ﴿بِهِۦ﴾ على الفعلِ ﴿يَسْتَهْزِءُونَ﴾ إشارةً إلى شِدَّةِ إقبالِهِم على الهُزءِ بهِ، حتّى كأنَّهُم لا يَهزَؤونَ بغَيرِهِ[3].

تَسارُعُ الكافرينَ إلى الاستهزاءِ بوعيدِ القرآنِ دليلٌ على سفاهةِ النّكرانِ

دلالةُ التّعبيرِ بالموصولِ وصلتِهِ:

في التّعبيرِ عنِ العذابِ بالاسمِ الموصولِ ﴿مَا﴾ تهويلٌ لهُ، وأفادَت جملةُ الصّلةِ ﴿كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ الإيذانَ بأنَّ سببَ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/11.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/189.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/241.

نزولِ العذابِ بهم وإحاطتِهِ بهم هو استهزاؤُهُم بقولِ الرّسولِ ﷺ وإنكارُهُم لهُ[1].

الإنكارُ والاستهزاءُ يجلبان أشدَّ العذابِ، وأسوأَ البلاءِ

نُكتَةُ مَجيءِ الكلامِ على خلافِ مُقتضَى الظّاهرِ:

قولُهُ: ﴿وَحَاقَ بِهِم﴾ نجدُ مُقتضَى الظّاهرِ المناسبِ لما في سياقِ الآيةِ، في كونِ العذابِ سيأتيهم في المُستقبلِ أن يقولَ: (ويحيقُ بهم)، لكنّه جاءَ على خلافِ مُقتضَى الظّاهرِ، فعُبِّرَ بصيغةِ الماضي في قولِهِ: ﴿وَحَاقَ بِهِم﴾؛ لِيكونَ واردًا على عادةِ اللّه تعالى في أخبارِهِ؛ لأنَّها في تحقُّقِها، وتيقُّنِها بمنزلةِ الكائنةِ المَوجودةِ؛ لِيكونَ مُبالغةً في تأكيدِ الوقوعِ وتقريرِهِ، وفي ذلكَ مِنَ الفَخامةِ والدّلالةِ على عُلُوِّ شأنِ المُخبِرِ وتَقريرِ وُقوعِ المُخبَرِ بهِ ما لا يَخفى، ففي التّعبيرِ بلفظِ الماضي ﴿وَحَاقَ﴾ استعارةٌ تبعيّةٌ؛ لاستعارةِ زمنِ المضيِّ لِلمُستقبلِ، وفيه مُبالغةٌ في التَّهديدِ، لإبرازِ ما سَيقعُ في مَعرِضِ الواقعِ مِن قبيلِ عطفِ المَعلولِ؛ والمعنى: هو آتِيهم عن قريبٍ فَلْيَعتَدُّوا لِذلكَ[2].

أخبارُ اللهِ تعالى في تحقُّقِها، بمَنزِلَةِ الموجودةِ الكائنةِ يقينًا

الغرضُ مِنَ التّعبيرِ بالكنايةِ بلفظِ الاستهزاءِ:

لمّا أرادوا بقولِهم: ﴿مَا يَحْبِسُهُۥٓ﴾ استعجالَ العذابِ؛ لِكونِهم مُكذِّبينَ لرسولِ اللّه ومُنكِرينَ وقوعَ العذابَ، كما تَقَدَّمَ، كانَ الظّاهرُ أن يقولَ: (وحاقَ بهم ما كانوا بهِ يَستعجلونَ)، فجاءَ الكلامُ على خلافِ مُقتضَى الظّاهرِ، لمّا وَضَعَ ﴿يَسْتَهْزِءُونَ﴾ مَوضِعَ (يَستعجلونَ)؛ لِلإيذانِ بأنَّ استعجالَهُم كانَ استهزاءً، فكانَ المرادُ مِنَ الاستعجالِ في السّؤالِ الاستهزاءَ؛ أي: كانَ كنايةً عنِ الاستهزاءِ بوقوعِ العذابِ وبالقرآنِ وبالرّسولِ المُقتضي لِلتّكذيبِ[3].

استعجالُ الكافرينَ بالعذابِ على معنى الاستهزاءِ مِن سوءِ التّقديرِ لِلعواقبِ

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 6/215، ورشيد رضا، تفسير المنار: 12/24.

(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/381، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/321، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/129، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 9/241، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/189، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 10/30.

(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/381.

نكتةُ التّعبيرِ بصيغةِ المضارعِ ﴿يَسْتَهْزِءُونَ﴾:

عُبِّرَ بصيغةِ المضارعِ لِلإشعارِ بتجدُّدِ استهزائِهِم بالعذابِ، واستمرارِهِم عليهِ.

دلالةُ الهمزةِ والسّينِ والتّاءِ في: ﴿يَسْتَهْزِءُونَ﴾:

أفادتِ الهمزةُ والسّينُ والتّاءُ التَّنبيهَ على أنَّهُم كانوا يُوجِدونَ الهُزءَ بالعذابِ وبالوعيدِ عليه إيجادًا عظيمًا، حتّى كأنَّهُم يَطلبونَ ذلكَ، ويَجتهدونَ فيهِ[1].

الاستهزاءُ المُتجدِّدُ أقبحُ أعمالِهِم، وأجدرُها بالتّنديدِ

اجتهادُ الكافرينَ في طلبِ الاستهزاءِ بالقرآنِ المبينِ، وبالرّسولِ الأمينِ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/242.

﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ ۝٩﴾ [هود: 9]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الاستدلالُ على سوءِ طبائعِ الكافرينَ، واستحقاقِهِمُ العذابَ المهينَ، بيأسِهِمُ المَاثِلِ، وكفرِهِمُ الحاصلِ

لمّا أخبرَ اللّه تعالى أنَّ الابتلاءَ لِكلِّ المُكلَّفينَ، وبيَّنَ ما يقعُ مع الكافرينَ، بيَّنَ في هذهِ الآياتِ الثّلاثِ حالَ الإنسانِ في اختبارِ اللّه لهُ؛ لِينتقلَ مِنَ الخصوصِ إلى العُموم، ولِيكونَ كالدّليلِ على سُوءِ طبائعِ الكافرينَ بما جُبِلوا عليهِ مِن كفرِهِم بنعماءِ اللّه، وعلى استحقاقِهِمُ العذابَ، إذِ استَعجلوهُ استهزاءً منهُم بعدَ أنْ أخّرَهُ اللّه تعالى[1].

كما أنّ هذه الآيةَ عَطفٌ على جملةِ ﴿وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ﴾؛ فإنَّه لمّا ذَكَرَ تعالى عنِ المُشركينَ أنَّ مَا هُم فيه مَتاعٌ إلى أجَلٍ مَعلومٍ عندَهُ، وأنَّهُم بَطِروا نعمةَ التَّمتيعِ، فَسَخِروا بتأخيرِ العذابِ؛ بَيَّنَت هذه الآيةُ أنَّ أهلَ الضَّلالةِ راسِخونَ في ذلكَ؛ لأنَّهُم لا يفكِّرونَ في غيرِ اللَّذّاتِ الدُّنيويَّةِ، فَتجري انفعالاتُهُم على حَسبِ ذلك دونَ رجاءٍ لِتَغَيُّرِ الحالِ، ولا يَتفكَّرونَ في أسبابِ النَّعيمِ والبُؤسِ، وتصَرُّفاتِ خالقِ النّاسِ، ومُقَدِّرِ أحوالِهِم، ولا يتَّعِظونَ بِتقَلُّباتِ أحوالِ الأمَمِ، فَشَأنُ أهلِ الضَّلالةِ أنَّهُم إنْ حَلَّت بهِمُ الضَّراءُ بعدَ النِّعمةِ مَلَكَهُمُ اليأسُ مِنَ الخيرِ، ونَسُوا النِّعمةَ فَجَحَدوها وكَفَروا مُنعِمَها، فإنَّ تأخيرَ العذابِ رَحمةٌ، وإتيانَ العذابِ نَزعٌ لتلك الرَّحمةِ[2].

كما أنّ إذاقةَ النَّعماءِ ومِساسَ الضّرّاءِ فصلٌ من بابِ الابتلاءِ واقعٌ مَوقِعَ التّفصيلِ مِنَ الإجمالِ الواقعِ في قولِهِ تعالى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/321، وأبو حيّان، البحر المحيط: 6/127، ورشيد رضا، تفسير المنار: 12/24.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/12.

﴿أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾؛ والمعنى: أنَّ كلاًّ مِن إذاقةِ النَّعماءِ ونزعِها مع كونِهِ ابتلاءً لِلإنسانِ أيشكُرُ أم يكفُرُ لا يَهتدي إلى حسنِ الصّوابِ، بل يحيدُ في كلتا الحالتين عنه إلى مَهاوي الضّلالِ، فلا يَظهرُ منهُ حسنُ عملٍ إلّا مِنَ الصّابرينَ الصّالحينَ، أو مِن حيثُ إنّ إنكارَهُم بالبعثِ واستهزاءَهُم بالعذابِ بسببِ بَطرِهم وفخرِهم، كأنّهُ قِيلَ: إنّما فعلُوا ما فعلُوا لأنّ طبيعةَ الإنسانِ مَجبولةٌ على ذلك، وهذه المناسبةُ تشمَلُ الآياتِ الثّلاثَ[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَذَقْنَا﴾: الذَّواقُ والمَذاقُ مَصدران للفعلين ذاقَ يذوقُ، ويكونانِ طَعْمًا، ويدورُ أصلُ الكلمةِ على اختِبارِ الشَّيءِ مِن جِهَةِ تَطَعُّمٍ بالفم، وأصلُهُ فيما يَقِلُّ تناوُلُهُ دونَ ما يَكثُرُ، فإنّ ما يَكثُرُ منهُ يُقالُ لهُ الأكلُ، ويُقالُ: ذُقتُ المأكولَ فوجدتُهُ طيِّبًا، ومِنَ المجازِ ذُقتُ ما عندَ فلانٍ؛ أي: اختَبرتُهُ، وكُلُّ ما نَزَلَ بإنسانٍ مِن مَكروهٍ فقد ذاقَهُ، وأمرٌ مُستَذاقٌ؛ أي: مُجَرَّبٌ مَعلُومٌ، ويُستَعملُ الذّوقُ مجازًا فِيما يُكرَه، ويُحمَدُ، كما أنَّ الطّعمَ قد يكونُ حلوًا، وقد يكونُ مرًّا، ومعظمُ ما جاءَ في القرآنِ مِنَ التّركيبِ (ذوق) مجازيٌّ، ويتأتّى مِنَ الإحساسِ بالطّعمِ معرفةُ الأمرِ اختبارًا وتجربةً[2].

2) ﴿نَزَعْنَاهَا﴾: أصلُ النَّزعِ الجَذبُ والقَلعُ بقوّةٍ، ويدورُ معنى النّزعِ على اقتلاعِ شيءٍ خارجٍ عن مَقرِّهِ بجَذبٍ قويٍّ ممّا يلتحمُ به، أو يكونُ مُلتصقًا به، ومنهُ قولُهُم: نزَعَ بيَدِهِ: إذا استَقَى بدَلوٍ عُلِّقَ فيها الرِّشاءُ، ونزَعَ القوسَ إذا جذَبَها، ونَزَعَ الشّيءَ؛ أي: قلعَهُ مِن مَقرِّهِ وجَذبَهُ، ونزعَ الشّيءَ مِن فلانٍ سلبَهُ بعدَ أن كانَ مُتمسِّكًا فيه، ومنه: نزعُ الملائكةِ الأرواحَ مِنَ الأبدانِ، والتَّنازُعُ والمُنازَعَةُ: المُجاذَبَة، بأن يريدَ كلُّ واحدٍ أن يقتلعَ أمرًا مِن يدِ صاحبِهِ[3].

3) ﴿لَيَـُٔوسٌ﴾: اليَأسُ: قَطعُ الرَّجاءِ وانتفاءُ الطّمعِ، ويُقالُ: هو القُنوطُ، و(يَئُوسٌ) على وزن (فَعولٌ) صيغةُ مبالغةٍ مِن (يئس) إذا كانَ كثيرَ اليأسِ[4].

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/190.
(2) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (ذوق).
(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (نزع).
(4) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (يأس).

4) ﴿كَفُورٌ﴾: يدورُ معنى الكفرِ على تغطيةٍ تامّةٍ كثيفةٍ لا يظهرُ معها شيءٌ مِنَ المُغطَّى، وكَفَرَ النِّعمَةَ وبالنِّعمَةِ أيضًا جَحَدَها؛ أي: أنكرَها وغطَّاها بجحودِهِ، أو تغطَّى عنها كأنَّها غيرُ مَوجودةٍ، فاللّفظُ مُستَعارٌ مِن كَفَرَ الشَّيءَ إذا غَطّاهُ، وهو أصلُ البابِ. والفرقُ بينَ الكُفرِ باللّه والكُفرِ بالنّعمةِ هو أنَّ الكُفرَ الّذي هو ضدُّ الإيمانِ يتعدَّى بالباءِ، فيُقالُ: كَفَرَ باللّه تعالى. والكفرُ الّذي هو ضِدُّ الشُّكرِ يتعدَّى بنفسِهِ، فيُقالُ كفرَ النّعمةَ وكفرَ المُنعِمَ، و﴿كَفُورٌ﴾ صيغةُ مبالغةٍ بمعنى المبالغِ في كفرانِ نعمةِ اللّه وعدمِ شكرِها[1].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

ولَئِن أعطينا الإنسانَ منّا نعمةً مِن صحَّةٍ وأمنٍ وسعةٍ في العيشِ، ثم سَلبْناها منهُ، إنَّهُ لَشديدُ اليأسِ مِن رحمةِ اللّه، ومِن أن تعودَ إليه مثلُ تلك النّعمةِ المسلوبةِ، جَحودٌ بالنِّعم الّتي أنعمَ اللّه بها عليهِ[2].

تقبيحُ تمرُّدِ الإنسانِ وطغيانِهِ، عندَ سَلبِ النّعمةِ منهُ بيأسِهِ وكفرانِهِ

بطرُ النّعمةِ عادةٌ مُتأصّلةٌ في أهلِ الضّلالِ والمفاسدِ الحاصِلةِ

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالةُ الواو في: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا﴾:

الواو عطفٌ على جملةِ ﴿وَلَئِنْ أَخَّرْنَا﴾، فإنّه لمّا ذَكَرَ أنّ ما هُم فيهِ متاعٌ إلى أجلٍ مَعلومٍ عندَ اللّه، وأنّهُم بطروا نعمةَ التّمتيعِ، فَسخروا بتأخيرِ العذابِ، بيّنَتِ الآيةُ الكريمةُ رسوخَ أهلِ الضّلالِ في ذلكَ، وكأنّهُ مِن بابِ عطفِ العامِّ على الخاصِّ تأكيدًا على ما عليهِ الحال خاصًّا وعامًّا، وفي ذلك تأكيدُ ما عليه عادة أهلِ الضّلالةِ مِن بطرِ النّعمةِ، فالجملةُ في قوّةِ التّذييلِ لِمَا مَضى.

الغرضُ مِنَ التّعبيرِ بأسلوبِ القسمِ ﴿وَلَئِنْ﴾:

اللّامُ مُوطِئةٌ لِلقسمِ، والغرضُ مِنَ التّعبيرِ بأسلوبِ القسمِ تأكيدُ

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (كفر)، والكفويّ، الكلّيّات، ص: 763.

(2) نخبة من أساتذة التّفسير، التّفسير الميسّر، ص: 222.

حصولِ جوابِهِ ووقوعِهِ على وجهِ اليقين، وهو آيةٌ على غضبِ اللّه على هذا الإنسانِ الجاحدِ نعمتَهُ، فهو إعلانٌ مُغاضَبةٍ، وتأكيدٌ على حصولِ الجوابِ المُوقِعِ لِلعذابِ.

القَسمُ مُغاضبةٌ مِنَ اللهِ لِجاحدي نعمِهِ، والمحاربين دينَهُ في كلِّ اتّجاهٍ

دلالةُ تتابعِ التّأكيدِ:

تتابَعَ التّأكيدُ في جملةِ الشّرطِ والجزاءِ في الآيةِ، فورد تأكيدُ الجملةِ باللّامِ الموطِّئةِ للقَسَمِ على معنى (واللّه إنْ) في ﴿وَلَئِنْ﴾، وبـ ﴿وَلَئِنْ﴾ واللّامِ في جُملةِ جوابِ القَسَمِ المغني عن جوابِ الشّرطِ في قولِهِ: ﴿إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٞ﴾؛ لِقصْدِ تحقيقِ مَضمونِ جملةِ الشّرطِ والجزاءِ، وأنَّ الأمرَ حقيقةٌ ثابتةٌ، لا مُبالَغةَ فيها، ولا تَغليبَ، فإنَّ كلَّ أحدٍ يُنكِرُ أن يكونَ طبعُهُ كذلكَ، فالكلامُ على طريقةِ الخبرِ الإنكاريِّ[1].

يأسُ الكافرِ وكفرانُهُ عندَ سلبِ النّعمةِ، حقيقةٌ ثابتةٌ بلا منّةٍ

بلاغةُ مجيءِ الجملةِ الشّرطيّةِ مُصدّرةً بـ ﴿وَلَئِنْ﴾:

أفادَ التّعبيرُ بـ ﴿وَلَئِنْ﴾ الشّرطيّةِ أنَّ يأسَ الإنسانِ وكفرَهُ النّعمةَ يجبُ أن لا يكونَ إلّا على مُجرَّدِ الفرضِ والتقديرِ، كما تفرضُ المحالاتُ؛ لاشتمالِ المَقامِ على ما يزيلُهُ، ويقلعُهُ مِن أصلِهِ، وهو أنَّه وَقَعَ للاختبارِ، ولِيُظهرَ لكُم أيُّكُم أحسنُ عملًا، ففيهِ توبيخٌ لِمَن ييأسُ ويكفرُ نعمةَ اللّه وتبكيتٌ له؛ لعدمِ صبرِهِ على سلبِ النّعمةِ وانتفاءِ ثقتِهِ باللّه تعالى[2].

سلبُ النّعمةِ للاختبارِ، والنّظرُ فيما يترتّبُ عن طغيانِ الكُفّارِ

كما أفادَ التّعبيرُ بكلمةِ الشكِّ ﴿وَلَئِنْ﴾ أنَّ إذاقةَ الإنسانِ الرّحمةَ، ثمّ نزعَها منهُ؛ أي: من حيثُ وقوعُها في نفسِ الأمرِ، تحتملُ أن تقعَ في المُستقبلِ، وأنْ لا تقعَ، فيحتملُ بقاءَ الرّحمةِ ويحتملُ نزعَها[3].

سرُّ تقييدِ الإذاقةِ بالرّحمةِ:

لمّا كانتِ الرّحمةُ النّعمةَ مُطلَقًا، فتَعُمُّ جميعَ ما يُنتفَعُ بهِ مِن

الرّحمةُ لا تكونُ إلّا نعمةً مَرغوبةً، والتّمسّكُ بها سنّةٌ مَطلوبةٌ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 4/3، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/13.
(2) التّفتازانيّ، المطوّل، ص: 321.
(3) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 10/31.

مَطعومٍ وغيرِهِ؛ أي: مِن مَلبوسٍ وصحّةٍ وأمنٍ وجاهٍ وغيرِ ذلك، وكانَ الذّوقُ بمعنى اختبارِ طعمِ المَطعومِ باللّسانِ مُلائمًا كانَ أو غيرَ مُلائمٍ، كانَ تقييدُ الإذاقةِ بالرّحمةِ على المعنى الأخصِّ للإذاقة؛ أي: مايُلائِمُ ويُستَلَذُّ منه، والمعنى الأعمِّ للرّحمةِ، والمعنى: لَئِن أعطيناهُ نعمةً بحيثُ يجدُ لذَّتَها[1].

نكتةُ التّعبيرِ بـ ﴿أَذَقْنَا﴾:

الدُّنيا قَليلَةٌ، والحاصِلُ مِنها قَليلٌ، والإذاقَةُ مِنَ القليل قَليلٌ

عُبِّرَ بلَفظِ ﴿أَذَقْنَا﴾ لِيفيدَ أنَّهُم قد أدركُوا ما يحبّونَهُ وما يَشتهونَهُ ويريدونَهُ؛ لأنَّ الإنسانَ لا يَذوقُ إلّا ما يَشتَهيه، ولهذا لم يقُلْ هنا: (وإذا أنعمْنا)، فإنَّه يجوزُ أن تكونَ نعمَةً لا تُشتَهى، أو لم تُطْلَبْ[2]، ولمّا كانَ لفظُ الإذاقةِ يُطلَقُ على أقلّ ما يُوجَدُ بِهِ الطَّعمُ، دلَّ على أنَّ الإنسانَ بوِجدانِ أقلِّ القَليلِ مِنَ الخيراتِ العاجِلَةِ يَقَعُ في التَّمَرُّدِ والطُّغيانِ، وبإدراكِ أقَلِّ القَليلِ مِنَ المِحنَةِ والبَلِيَّةِ يقعُ في اليَأسِ والقُنوطِ والكُفرانِ.

وفائدةُ التّعبيرِ بهذا: الإيذانُ بأنَّ الدُّنيا في نَفسِها قَليلَةٌ، والحاصِلَ مِنها للإنسانِ الواحِدِ قَليلٌ، والإذاقَةَ مِن ذَلِكَ المِقدارِ خَيرٌ قَليلٌ، ثُمَّ إنَّهُ في سُرعَةِ الزَّوالِ يُشبِهُ أحلامَ النّائِمينَ وخَيالاتِ المُوَسوَسينَ، فهذهِ الإذاقةُ مِن قَليلٍ، ومع ذَلِكَ فإنَّ الإنسانَ لا طاقَةَ لَهُ بتَحَمُّلِها، ولا صَبرَ لَهُ على الإتيانِ بالطَّرِيقِ الحَسَنِ مَعَها[3].

بلاغةُ الاستعارةِ في: ﴿أَذَقْنَا﴾:

إفادةُ لفظِ الإذاقةِ إعطاءُ النِّعمةِ، ووِجدانُ لذّتِها

جاءَ لفظُ ﴿أَذَقْنَا﴾ على الاستعارةِ التّصريحيَّةِ التّبعيَّةِ، بتشبيهِ الإعطاءِ المُشتَمِلِ على إدراكِ أثرِ النّعمةِ مِنَ الطّعامِ والمَلبَسِ والصّحّةِ وغيرِها مِن سائرِ المحسوساتِ، بحيث يجدُ لذَّتَها بذوقِ

(1) الخفاجيّ، حاشية على تفسير البيضاويّ: 5/76.
(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 197، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/12.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/322.

ما يُؤكَلُ ممّا يُشتهَى ويُرغَبُ فيه، ووجهُ الشّبهِ تحصيلُ الشّيءِ والانتفاعُ بهِ على وجهِ حصولِ تمامِ المقصودِ منهُ، فإنَّ وجدانَ اللّذَّةِ كما يترتَّبُ على الإذاقةِ يترتَّبُ على الإعطاءِ المذكورِ، فأفادَ التّعبيرُ بلفظِ الإذاقةِ إعطاءَ النّعمةِ مِن صحّةٍ وأمنٍ وجِدَةٍ وغيرِها، وإيصالَها إليهِ، فينتفعُ مِن كلِّ نوعٍ مِن أنواعِ النّعمِ تمامَ الانتفاعِ، بحيثُ يجدُ فائدتَهُ ولذَّتَهُ منهُ[1].

دلالةُ (اللّام) في لفظِ ﴿ٱلۡإِنسَٰنَ﴾:

تنوُّعُ دلالةِ (أل) فيه توسيعٌ لِلمَعنى

الظّاهرُ أنَّ (أل) هنا لِلجنسِ، والمرادُ هو جنسُ الإنسانِ، فيدخلُ فيه المُؤمِنُ والكافرُ، وهو قولُ جمهورِ المُفسِّرينَ، ودليلُهُم أنَّهُ تعالى استَثنى مِنهُ قَولَهُ فيما يأتي: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، والاستِثناءُ يُخرِجُ مِنَ الكَلامِ ما لَولاهُ لَدَخَلَ؛ والمعنى: أنَّ هذا الخَلقَ في سجيَّةِ النّاسِ وطبعِهم، ثمّ استثنى منهُمُ الّذين صبروا وعملوا الصّالحاتِ. وذهبَ آخرونَ إلى أنَّ (أل) هنا عهديّةٌ، والمرادُ الكافرُ؛ لأنَّ الصِّفاتِ المَذكورَةَ للإنسانِ في هذهِ الآيَةِ لا تَليقُ إلّا بالكافرِ؛ لأنَّهُ وَصَفَهُ بِكَونِهِ يؤوسًا كَفورًا، ووَصَفَهُ أيضًا بأنَّهُ عِندَ وِجدانِ الرّاحَةِ يقولُ: ﴿ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّيٓۚ﴾، وسيأتي فائدةُ الفرقِ بينَ الوجهين عندَ قولِهِ تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾[2].

سرُّ القيدِ بشبهِ الجملةِ في: ﴿مِنَّا﴾:

رحمةُ اللهِ للعبادِ مَحضُ فضلٍ وإنعامٍ لا مناطَ استحقاقٍ للأنامِ

لِبيانِ أنَّ الرّحمةَ ابتدأت منه ﷻ بمحضِ الفضلِ والإنعامِ لا باستحقاقِ الأنامِ، وللإشعارِ بأنَّها عَواريُ مِن اللّهِ يمنَحُها مَن شاءَ مِن عِبادِهِ، فتقديمُ الصِّلةِ ﴿مِنَّا﴾ دليلٌ على العاريَةِ[3].

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/153.

(2) الزّجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 3/41، والزّمخشريّ، الكشّاف: 2/381، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/322.

(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/242، والخفاجيّ، حاشية على تفسير البيضاويّ: 5/76، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 10/30.

غرضُ تقديمِ شبهِ الجملةِ ﴿مِنَّا﴾ على المفعولِ بهِ الثّاني ﴿رَحْمَةً﴾:

التّقديمُ يفيدُ العنايةَ والاهتمامَ بمَن تكونُ منهُ الرّحمةُ سبحانه فالعِبرَةُ ليسَت بالرّحمةِ، ولكنّ العِبرَةَ بمَن تكونُ منهُ الرّحمةُ، إذِ العطايا على قَدرِ مُعطيها.

العِبرَةُ بمَن تكونُ منهُ الرّحمةُ، فيكونُ منهُ انهمالُ النّعمةِ

الغرضُ مِنَ التّنكيرِ في لفظِ ﴿رَحْمَةً﴾:

لمّا كانَ لفظُ ﴿رَحْمَةً﴾ نكرةً في سياقِ الشّرطِ دلَّ على عُمومِ الرّحمةِ على البدلِ أو على اجتماعِ بعضِها؛ لِيشمَلَ أنواعَها، وقليلَها وكثيرَها، وصغيرَها وكبيرَها، فأفادَ تنكيرُها قصدَ النّوعِ للنّظرِ إلى لفظِ الإذاقةِ[1]؛ لأنَّ تنوُّعَ أفرادِ الرّحمةِ يحصُلُ منها تمامُ الإذاقةِ.

تنوُّعُ أفرادِ الرَّحمةِ يحصُلُ منه تمامُ الإذاقةِ

فائدةُ التّعبيرِ بـ ﴿ثُمَّ﴾:

أفادَ التّعبيرُ بالحرفِ ﴿ثُمَّ﴾ أنَّ نزعَ الرّحمةِ قد تراخى عن ذوقِها، وأنَّها قد بقيَت عندَهُ مُدّةً مِنَ الزّمنِ؛ لِيظهرَ أمرُ الابتلاءِ والامتحانِ في الصّبرِ على فُقدانِها، والشّكرِ على إذاقتِها.

التّراخي في نزعِ الرّحمةِ بابٌ مِنَ الامتحانِ والابتلاءِ

دلالةُ التّعبيرِ بالماضي في: ﴿نَزَعْنَٰهَا﴾:

عَبَّرَ بالماضي لِلدّلالةِ على تحقُّقِ نزعِ النّعمةِ عندَ عدمِ القيامِ بحقِّها، مع شدّةِ استمساكِ المُنعَمِ عليهِ بالنّعمةِ وتَعلُّقِهِ بها.

نزعُ النّعمةِ لايدفعُهُ استمساكُ المُنعَمِ عليهِ بها

سببُ نسبةِ الفعلِ إلى (نا) المتكلِّمِ في: ﴿نَزَعْنَٰهَا﴾:

أشعرَ التّعبيرُ بـ ﴿نَزَعْنَٰهَا﴾ أنَّ نزعَها بأمرِ اللّه، وفيه توبيخُ اليؤوسِ الكفورِ؛ لأنَّه لم يثِقْ باللّه، ولم يَصبِرْ على هذا الاختبارِ مع أنَّ اللّه تعالى نسبَ النّزعَ إليهِ، ومعنى الكلامِ: ثمّ نزعْناها منهُ بما يَحدُثُ مِنَ الأسبابِ بمُقتَضَى سُنَّتِنا في الخَلقِ مِن مَرَضٍ وعُسرٍ وفِتَنٍ ومَوتٍ وغيرِها[2]، ولمّا لم يكنْ مُقابلُ النّزعِ أيَّ مَسٍّ للإنسانِ بضُرٍّ، بلِ

نزعُ النِّعمةِ بأمرِ اللهِ بما يحدثُ مِنَ الأسبابِ بمُقتضَى سنَّةِ اللهِ بلا ارتيابٍ

(1) السّكّاكيّ، مفتاح العلوم، ص: 239.
(2) رضا، تفسير المنار: 12/24.

اكتفَى بنزعِ الرّحمةِ كانَ وقوعُ جزاءِ الشّرطِ بأنَّه يَؤوسٌ كفورٌ تَعجيبًا لحالِه، ولِقلَّةِ صبرِه، وكثرةِ جزعِه.

دلالةُ (مِنْ):

تحتملُ (مِنْ) في قولِه تعالى: ﴿مِنْهُ﴾ أن تكونَ تعليليَّةً؛ لِلتَّنبيهِ على أنَّ سببَ نزعِ الرّحمةِ مِنَ الإنسانِ شؤمُ مَعاصيه، وعدمُ الإقامةِ على شكرِها، فالأمرُ عائدٌ إلى سوءِ طبعِه، فنيلُ الإنسانِ الرّحمةَ بفضلِ اللّه ونزعُها منه بقبحِ أفعالِه وسوئِها، ويدلُّ عليه آياتٌ مِنَ القرآنِ الكريمِ، منها: قولُهُ تعالى: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَۚ﴾ [النّساء: 79]. كما تحتملُ أن تكونَ ابتدائيَّةً؛ أي: صلةً للفعل ﴿نَزَعْنَٰهَا﴾؛ بمعنى: أنَّ ابتداءَ نزعِ الرّحمةِ كانَ مِنَ الإنسانِ الّذي أذقناهُ تلك الرّحمةَ[1].

ينالُ الإنسانُ الرّحمةَ بفضلِ اللهِ، وتُنزَعُ منهُ بقبحِ الأفعالِ والسّفاهِ

دلالةُ التّأكيدِ بـ ﴿وَلَئِن﴾:

لمّا جاءَ حرفُ التّأكيدِ ﴿وَلَئِن﴾ في صدرِ جملةِ الجزاءِ كانَ بمثابةِ التَّنبيهِ إلى أنَّ النّزعَ بسَببِ كُفرانِهم بما كانوا يتَقلَّبونَ فيه مِن نِعَمِ اللّه ﷻ[2].

نَزعُ الرّحمةِ سَببُهُ كُفرانُ نِعَمِ اللهِ مِنَ المالِ والولدِ والجاهِ

بديعُ الاستعمالِ وبيانُهُ في: ﴿إِنَّهُۥ﴾:

لمّا كانَ الظّاهرُ أنَّهُ قد قَصَدَ مِن ﴿ٱلْإِنسَٰنَ﴾ الجنسَ بمعنى عموم النّاسِ؛ لِيشمَلَ المؤمنَ والكافرَ والصّابرَ وغيرَهُ، وكانَ اليَؤوسُ الكَفُورُ نوعًا مِنَ الإنسانِ دلَّ على أنَّهُ قد وَقَعَ استخدامٌ في عَوْدِ الضّميرِ[3]، إذ عادَ الضّميرُ على نوعٍ منهُ، وهو الّذي لا يصبرُ ولا يَشكرُ، وفائدةُ استخدامِ لفظِ ﴿ٱلْإِنسَٰنَ﴾ الّذي استُعمِلَ في مَعنيين: أحدهما بما يدُلُّ عليه ظاهرُ اللّفظِ، والثّاني بما دلَّ عليه الضّميرُ العائدُ إليه؛

التّوبيخُ والتّبكيتُ للّيؤوسِ الكفورِ، مِنَ النّوعِ المذكورِ

(1) الخفاجيّ، حاشية على تفسير البيضاويّ: 5/76، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 10/30.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/190.
(3) التّفتازانيّ، المطوّل، ص: 653، والسّبكيّ، عروس الأفراح: 2/246، والكفويّ، الكلّيّات، ص: 140.

الإشعارُ بأنَّ ما يَقَعُ للَّفظِ الأوّلِ ﴿ٱلۡإِنسَٰنَ﴾، وهو إذاقةُ الرّحمةِ، ثمّ نزعُها منه هُو مِن فعلِ اللّه تعالى، وإنّما التّوبيخُ والتّبكيتُ لِليؤوسِ الكفورِ، ويَدخلُ فيه الكافرُ باللّه إن كانَ يَؤوسًا كفورًا لِنعمةِ اللّه دخولًا أوّليًّا.

سرُّ مجيءِ ﴿لَيَـُٔوسٞ كَفُورٞ﴾ جوابًا مُغنيًا عن جوابِ الشّرطِ:

لمّا كانَ قولُهُ: ﴿لَيَـُٔوسٞ كَفُورٞ﴾ جوابًا لِلقسمِ، وهو سادٌّ مَسدَّ جوابِ الشّرطِ[1]، فيكونُ جوابُ القسمِ هو جزاءَ الشّرطِ في المعنى، فكانَ قولُهُ: ﴿لَيَـُٔوسٞ كَفُورٞ﴾؛ بمعنى أنَّ إذاقتَهُ الرّحمةَ، ثمَّ نزعَها منه سببٌ لأنْ يكونَ يؤوسًا كفورًا، فَسَبَبُ وقوعِ شدّةِ اليأسِ جزاءً للشّرطِ، هو أنَّ الكافرَ لا يعزو حصولَ النّعمةِ إلى اللّه تعالى، بل يَعتَقِدُ أنَّ السَّبَبَ في حُصولِ تلكَ النِّعمَةِ سَبَبٌ اتِّفاقِيٌّ، ولمّا كانَ الأمرُ كذلكَ، فإنَّهُ يَستَبعِدُ حُدُوثَ ذَلِكَ الاتِّفاقِ مرَّةً أُخرى، فلا جَرَمَ يَستَبعِدُ عَودَ تلكَ النِّعمَةِ فَيَقَعُ في اليَأسِ، فكانَت إذاقةُ الرّحمةِ، ثمّ نزعُها منه، سببًا في أن يكونَ يؤوسًا، وأمّا المُسلِمُ الَّذي يَعتَقِدُ أنَّ تلكَ النِّعمَةَ إنَّما حَصَلَت مِنَ اللّه تعالى وفَضلِهِ وإحسانِهِ وَطَوْلِهِ فإنَّهُ لا يَحصُلُ لَهُ اليَأسُ، بَل يَقولُ لَعَلَّهُ تعالى يَرُدُّها إليَّ بَعدَ ذلكَ أكمَلَ وأحسَنَ وأفضَلَ ممّا كانَت. كما أنَّ سببَ وقوعِ وصفِ ﴿كَفُورٞ﴾ جزاءً للشّرطِ؛ هو أنَّهُ لَمّا اعتَقَدَ أنَّ حُصولَها إنَّما كانَ على سَبيلِ الاتِّفاقِ أو بسَبَبِ أنَّ الإنسانَ حَصَّلَها بِسَبَبِ جِدِّهِ وَجُهدِهِ، فَحينَئِذٍ لا يَشتغِلُ بِشكرِ اللّه تعالى على تِلكَ النِّعمَةِ، فالحاصِلُ أنَّ الكافرَ يكونُ عندَ زوالِ تلكَ النّعمةِ يؤوسًا، وعِندَ حُصولِها يَكونُ كَفورًا[2].

الكافِرُ لا يعزو حصولَ النّعمةِ إلى اللهِ تعالى، بل يَعتَقِدُ أنَّها أمرٌ اتِّفاقِيٌّ

براعةُ التّعبيرِ بالوصفَين ﴿لَيَـُٔوسٞ كَفُورٞ﴾:

لمّا كانَ معنى الوصفين أنّه شديدُ القُنوطِ مِن رَوحِ اللّه، قَطوعٌ

الكافرُ يجمعُ بينَ اليأسِ مما نُزِعَ منهُ، والكفرِ بما بَقِيَ لهُ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/190.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/323.

رجاءَهُ مِن عَودِ أمثالِ تلك النّعمةِ المسلوبةِ من غيرِ صبرٍ، ولا تسليم لِقضائِهِ، ولا استرجاعٍ، وأنَّه كَفُورٌ عظيمُ الكفرانِ لِما سَلَفَ لهُ مِنَ التَّقلُّبِ في نعمةِ اللّه، نَسّاءٌ له؛ كانَ الجمعُ بينَ الوصفين؛ لِلإشعارِ بأنَّه يجمعُ بينَ كثرةِ اليأسِ بعودةِ ما نُزِعَ منهُ، وشدّةِ الكفرِ بما بَقي لهُ، كما أنَّ إيرادَ اللّفظين بصيغةِ المبالغةِ إيذانٌ بأنَّ الوصفَين صارا لازمَين له مع شدّتِهما وكثرتِهما، فيفيدُ أنَّه ﴿لَيَـُٔوسٞ كَفُورٞ﴾ عاجِلًا وآجِلًا، لِحرمانِهِ مِن فضيلتي الصّبرِ والشّكرِ، ففي الجمعِ بينَ الوَصفين توبيخٌ شديدٌ[1].

مناسبةُ تقديمِ ﴿لَيَـُٔوسٞ﴾ على ﴿كَفُورٞ﴾:

فيه إشارةٌ إلى أنّ اليأسَ أشدُّ قُبحًا مِنَ الكفرانِ، لقولِهِ تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ٨٧﴾ [يوسف: 87]، وأنّه صارَ كفورًا؛ لأنَّه كانَ يرى نزعَ الرّحمةِ منه جَورًا وظلمًا، فبكثرةِ يأسِهِ من نزعِ الرّحمةِ صارَ كفورًا،. وفي التّقديمِ إشعارٌ بأنَّ النّزعَ إنّما كانَ بسببِ كُفرانِهم بما كانوا يَتقلَّبونَ فيهِ مِن نعمِ اللّه ﷻ، وتأخيرُهُ عن وصفِ يأسِهم - مَعَ تَقَدُّمِهِ عليهِ - لرعايةِ الفواصلِ، على أنّ اليأسَ مِن فضلِ اللّه سبحانَهُ، وقَطْعَ الرَّجاءِ عن إضافةِ أمثالِهِ في العاجلِ، وإيصالِ أجرِهِ في الآجلِ مِن بابِ الكُفرانِ لِلنّعمةِ السَّالِفةِ أيضًا[2].

اليأسُ أشدُّ قُبحًا مِن كفرِ النّعمةِ

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الرَّحمةُ والنِّعمةُ:

الرَّحمَةُ هي الإحسانُ على المُحتاجِ إلَيهِ على وجهِ التَّفضُّلِ، بمعنى ظهورِ الفضلِ، ولا تكونُ إلّا خيرًا، وأمّا النِّعمةُ فقد لا تكونُ لِمَن يحتاجُ

الرَّحمَةُ إحسانٌ وتفضُّلٌ، وهي نقيضُ العذابِ، والنّعمةُ نقيضُ الحرمانِ

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/381، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/190، والمراغيّ، تفسير المراغيّ: 12/8.

(2) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنّة: 6/103، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/190.

إليها، وقد تكونُ خيرًا، وقد تكونُ استدراجًا، كما أنّ النّعمةَ قد تكونُ ظاهرةً، وقد تكونُ خفيَّةً.

والرّحمةُ نقيضُ العذابِ، والنّعمةُ نقيضُ الحرمانِ، فالرّحمةُ لَيسَت كالنِّعمَةِ؛ لأنَّك إذا أنعَمتَ بِمالٍ على إنسانٍ، وتعطيه إيّاهُ، فقد أنعَمتَ، وَلا تَقولُ: إنَّك رَحمتَهُ[1].

اليأسُ والقنوطُ:

القنُوطُ أشدُّ مُبالغَةً مِنَ اليَأسِ، ولمّا كانَ اليَأسُ فِعلًا قَلبيًّا، وهو اعتِقادُ عدمِ حُصُولِ المَيْؤوسِ مِنه، وكانَ انفِعالًا بَدَنِيًّا مِن أثَرِ اليَأسِ، بحيثُ تظهرُ آثارُ الانكسارِ والتَّضاؤلِ في الأحوالِ الظّاهرةِ، كانَ القُنوطُ تابعًا لِليأسِ[2].

اليأسُ اعتِقادُ عدمِ حُصُولِ المَيْؤوسِ مِنه، والقنوطُ قطعُ الأملِ مِنَ الأمرِ بالكلّيّةِ

الكفرُ والجَحْدُ:

كفرُ النِّعمةِ: سترُها أو إخفاؤُها بتركِ أداءِ شكرِها والقيامِ بحقِّها، والجَحْدُ: هو نفيُ ما في القلبِ إثباتُهُ[3]، فجحودُ النِّعمةِ بمعنى أن يكونَ عالمًا بِمَن أوْلاها وأسْداها، ولا يُقِرُّ بلسانِه بذلك، فعَبَّرَ بِكَفورٍ؛ لأنّهُم يَسترونَها ويُخفونَها.

كفرُ النِّعمةِ سَترُها وإخفاؤُها، والجحودُ إنكارُ وجودِها بتاتًا

النّزعُ والسّلبُ:

النّزعُ: نَزَعَ الشّيءَ: جَذَبَهُ مِن مَقرِّهِ كَنَزعِ القوسِ عن كبدِهِ، ويُستعمَلُ ذلك في الأعراضِ، ومنه: نَزعُ العَداوةِ والمَحبَّةِ مِنَ القلبِ، قالَ تعالى: ﴿وَنَزَعۡنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنۡ غِلٍّ﴾ [الأعراف: 43]، ومنه قولُهُ: ﴿تَنزِعُ ٱلنَّاسَ﴾ [القمر: 20]، قِيلَ: تَقلعُ النّاسَ مِن مَقرِّهِم لِشدَّةِ هُبوبِها[4].

والسّلبُ: نَزعُ الشّيءِ مِنَ الغيرِ على القَهرِ قالَ تعالى: ﴿وَإِن

النّزعُ قلعُ الشّيءِ مِن محلِّهِ، والسّلبُ نَزعُ الشّيءِ مِنَ الغيرِ على القَهرِ

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 195.

(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 245، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 27/572، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/11.

(3) الرّاغب، المفردات: (جحد)، (كفر).

(4) الرّاغب، المفردات: (نزع).

﴿يَسۡلُبۡهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيۡـٔٗا لَّا يَسۡتَنقِذُوهُ مِنۡهُۚ﴾ [الحجّ: 73]، والسَّلِيبُ: الرَّجلُ المَسلوبُ[1]. وقد أوردَ لفظَ النّزعِ دونَ السّلبِ، فلم يقُل: (ثمَّ سلبناها منه)؛ لأنَّ السّلبَ هو أخذُ الشَّيءِ بِخِفَّةٍ واختِطافٍ على جهةِ القهرِ، ومنه: الرَّجلُ المَسلوبُ، والسَّلبُ يكونُ فيما ظَهَرَ، ولهذا قِيلَ: كُلُّ شيءٍ على الإنسانِ مِنَ اللّباسِ فهو سَلَبٌ، ويُقالُ لِلحَاءِ الشّجرِ المنزوعِ منهُ سَلَبٌ، ومنه: سَلَبَ القَصَبَةَ والشَّجَرَة: قَشَّرَها، ولهذا عُبِّرَ بالسَّلبِ مع الذُّبابِ، فقالَ اللّه تعالى: ﴿وَإِن يَسۡلُبۡهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيۡـٔٗا لَّا يَسۡتَنقِذُوهُ مِنۡهُۚ﴾ [الحجّ: 73]؛ لخفَّةِ الذُّبابِ في السَّلبِ، ولأنَّه يَختطِفُ الشّيءَ اختِطافًا.

وأمّا لفظُ النّزعِ فإنّه لا يكونُ إلّا فيما قَوِيَ ثباتُهُ، فيكونُ معه القلعُ والجذبُ بقوّةٍ، وهو المُطابقُ للإذاقةِ ليكونَ أقضى لحقِّ البلاغةِ، فكانَ إيرادُ لفظ النّزعِ؛ للإشعارِ بشدّةِ تعلُّقِه بالرّحمةِ وشدَّةِ حِرصِهِ عليها، فكأنَّ الرّحمةَ تُقلَعُ منه قلعًا حينَ تُؤخَذُ منهُ؛ لِشدَّةِ تمسُّكِهِ بها مع أنَّه لم يَحْصُلْ منها إلّا الذَّوقُ الّذي هو أقلُّ ما يُوجدُ بهِ الطَّعمُ[2].

(1) الرّاغب، المفردات: (سلب).

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/190، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 10/30.

﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ۝١٠ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ۝١١﴾ [هود: 10 - 11]

مُناسَبَةُ الآيَتَينِ لِما قَبْلَهما:

تنوُّعُ حالِ الكافرينَ عندَ حصولِ النّعمةِ وزوالِها، ولا يفوزُ إلّا الصّابرونَ الصّالحونَ

لمّا كانَت أحوالُ الدّنيا غَيرَ باقيَةٍ، بَل هيَ أبَدًا في التَّغَيُّرِ والزَّوالِ والتَّحَوُّلِ، وفيها يكونُ الاختبارُ والامتحانُ، ذكرَ اللّه تعالى حالَةَ الإنسانِ إذْ تأتيهِ النِّعمَةُ ولَم يَسبِقْها الضُّرُّ فيكونُ يؤوسًا كفورًا، ثمَّ عَطَفَ عليه ذِكرَ حالِهِ إذا جاءَتهُ النِّعمَةُ بَعدَ الضُّرِّ فيكونَ فَرِحًا فَخورًا، وكلا الفريقين مَذمومٌ، ثمّ استَثنى منهُم الّذين ردَّتهُمُ الشّرائعُ والإيمانُ إلى الصّبرِ والعملِ الصّالحِ[1].

وأيضًا لمّا بَيَّنَ اللّه تعالى أنَّ الكافِرَ عِندَ البلاءِ لا يكونُ مِنَ الصّابِرينَ، وعِندَ الفَوزِ بالنَّعماءِ لا يكونُ مِنَ الشّاكِرينَ، ثُمَّ لَمّا قَرَّرَ ذلكَ قالَ: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ لِلإيذانِ بأنّهُم عِندَ البَلاءِ مِنَ الصّابِرينَ، وعِندَ الرّاحَةِ والخَيرِ مِنَ الشّاكِرينَ[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿نَعْمَآءَ﴾: النِّعمةُ الحالةُ الحسنةُ ونضارةُ العيشِ مِن مالٍ وولدٍ وجاهٍ وعلمٍ وصحّةٍ وخيرٍ وفضيلةٍ خاصّة، وتُقالُ لِلقليلِ والكثيرِ، ويُقالُ امرأةٌ ناعمةٌ ومُنَعَّمَةٌ حَسَنَةُ العيشِ والغِذاءِ مُترَفَةٌ، والتَّنَعُّمُ: التَّرَفُّه، والنَّعماءُ إنعامٌ يَظهَرُ أثرُهُ على صاحبِهِ؛ لأنَّها أُخرِجَت

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/127.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/323.

مَخرَجَ الأحوالِ الظّاهرةِ نحو: حَمراءَ وسَوداءَ، وهذا هو الفرقُ بينَ النِّعمةِ والنَّعماءِ، ويأتي لفظُ النَّعماءِ بإزاءِ الضَّرّاءِ[1].

2) ﴿ضَرَّآءَ﴾: الضّرُّ ضِدُّ النَّفعِ، وهو سُوءُ الحالِ، وكلُّ ما كانَ مِن سُوءِ حالٍ وفقرٍ في بدنٍ فهو ضُرٌّ، وَما كانَ ضِدًّا للنّفعِ فهو ضَرٌّ، والضَّرّاءُ: مَضرَّةٌ يَظهَرُ أثرُها على مَن أُصيبَ بها، ويكثرُ استعمالُ الضَّرّاءِ فيما يخصُّ البَدَنَ، فكلمةُ ضَّرّاءَ بإزاءِ نَعماءَ في أنَّها أُخرِجَت مَخرَجَ الأحوالِ الظّاهرةِ نحو: حمراءَ، كما تَقَدَّمَ[2].

3) ﴿ٱلسَّيِّـَٔاتُ﴾: السُّوءُ هو كلُّ ما يغُمُّ الإنسانَ، ويكرهُهُ مِنَ الأمورِ الدّنيويّةِ والأُخرويّةِ، ومِنَ الأحوالِ النّفسيّةِ، والبدنيّةِ، والخارجةِ، مِن فَواتِ مالٍ، وجاهٍ، وفَقدِ حميمٍ، ومصيبةٍ، ومنه يُقالُ: ساءَني كذا، وأسَأتَ إلى فلانٍ، وتُطلَقُ السّيّئةُ باعتبارِ الشّرعِ، فتكون بمعنى الخطيئةِ، وباعتبارِ الطّبعِ؛ أي: ممّا يغُمُّ الإنسانَ مِن ضُرٍّ وفَقرٍ ونحوِهما، وهو المرادُ بالسّيّئاتِ هنا[3].

4) ﴿فَخُورٌ﴾: يدورُ معنى الفخرِ على المُباهاةِ أمامَ النّاسِ في الأشياءِ الخارجةِ عنِ الإنسانِ كالمالِ والجاهِ بعدّها على جهةِ تعظيمِها، ويُعبَّرُ عن كلِّ نفيسٍ بالفاخرِ، فيُقالُ: ثوبٌ فاخرٌ، وناقة فَخورٌ: عظيمةُ الضّرعِ، كثيرةُ الدَّرّ، وأصلُ الفخرِ عِظَمُ الشّيءِ، ومنه: نَخلَةٌ فَخورٌ: عَظيمَةُ الجذعِ غَليظَةُ السَّعَفِ، والتَّفَخُّرُ: التَّعَظُّمُ، والتّفاخرُ: التّعاظمُ، والفخرُ - بالفتحِ والضّمِّ والتّحريكِ -: التَّمدُّحُ بالخصالِ، وعَدُّها لِتعظيمِ القدْرِ وتكثيرِ المآثرِ. والفخرُ يجُرُّ إلى العُجْبِ والتّطاولِ، وهو مَذمومٌ. ومعنى ﴿فَخُورٌ﴾ في الآيةِ: المتَطاولُ على النّاسِ، المتباهي عليهم، بِتَعديدِ مآثرِه[4].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

ولَئِنْ منحْنا هذا الإنسانَ النِّعمَ، وظهرَت عليه آثارُها مِنَ الرّزقِ والصّحّةِ ورخاءِ العيشِ وغيرِها بعدَ ضيقٍ مِنَ العيشِ كانَ فيهِ، لَيقولنَّ عندَ ذلكَ: ذهبَ الضّيقُ والعُسرةُ عنّي،

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، والرّاغب، المفردات: (نعم)، والواحدي: التّفسير البسيط: 11/360، وابن عادل، اللّباب: 10/444.
(2) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، والرّاغب، المفردات: (ضر)، والواحدي، التّفسير البسيط: 11/360، وابن عادل، اللّباب: 10/444.
(3) الرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (سوأ)، والواحدي، التّفسير الوسيط: 2/566.
(4) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (فخر)، والسّمعانيّ، تفسير السّمعانيّ: 2/416.

وزالَتِ الشّدائدُ والمَكارهُ إنَّ الإنسانَ لبَطِرٌ بالنّعَم، مُبالِغٌ في الفخرِ بها والتّعالي بينَ النّاسِ، فلا يقابلُ النّعمَ بشكرِ اللّه عليها، لكنِ الَّذينَ صَبَرُوا على ما أصابَهُم مِنَ الضّرّاءِ إيمانًا باللّه واحتِسابًا لِلأجرِ عندَهُ، وعَمِلوا الصّالِحاتِ شكرًا للّه على نعمِه، هؤلاء لهم مَغفرةٌ لِذنوبِهم، وثوابٌ جزيلٌ على أعمالِهمُ الصّالحةِ الّتي عَملوها في دارِ الدّنيا[1].

الإنسانُ قد يتحوَّلُ مِن النِّعمةِ إلى المِحنةِ فيصبرُ، وإمّا بالعَكسِ فيُشكَرُ ويُؤجَرُ

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالةُ الواو على العطفِ في: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ﴾:

جاءَتِ الواو عاطفةً ما بعدَها على ما قبلَها عطفَ تتميمٍ للّتي قبلَها؛ لأنّها حَكَت حالةً ضدَّ الحالةِ الّتي قبلَها.

المقابلةُ بينَ حالاتِ الإنسانِ كاشفةٌ عن تقلُّبِهِ

الغرضُ مِنَ التّعبيرِ بأسلوبِ القسمِ المُقترِنِ بالشّرطِ:

قولُهُ تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ﴾، جاءَ فيه التّعبيرُ بأسلوبِ القسمِ المُقترِنِ بالشّرطِ، تأكيدًا على وقوعِ مضمونِ جملةِ الشّرطِ وجوابِ القسمِ؛ لأنّ الخالِقَ بخلقِهِ عليمٌ بما تكونُ عليه تقلُّباتُ أحوالِهم.

تأكيدُ ما سيقعُ، وما سيكونُ، آيةٌ على كونِهِ العليمَ بأحوالِ خلقِهِ

دلالةُ تتابعِ التّأكيدِ:

تتابعَ التّأكيدُ في جملةِ الشّرطِ والجزاءِ في الآيةِ، فوردَ تأكيدُ الجملةِ باللّامِ الموطِّئةِ للقَسَمِ على معنى (واللّه إنْ) في: ﴿وَلَئِنْ﴾، وباللّامِ الواقعةِ في جوابِ القسمِ في: ﴿لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ﴾؛ لقصْدِ تحقيقِ مَضمونِ الجملةِ؛ للإيذانِ بأنَّ هذا الأمرَ حقيقةٌ ثابتةٌ، لا مُبالَغةَ فيها، ولا تَغليبَ، كما كانَ ذِكرُ القسمِ الأوّلِ في الآيةِ السّابقةِ على وَفْقِهِ ونهجِهِ، فيكونُ بمثابةِ الرّدِّ على كُلِّ مَن يُنكِرُ أن يكونَ طبعُهُ كذلك، فيكون الكلامُ على طريقةِ الخبرِ الإنكاريِّ أيضًا[2].

سوءُ طبعِ الإنسانِ حقيقةٌ ثابتةٌ، لا تغييرَ لها على المدى

(1) ابن جرير، جامع البيان: 15/256، والبغويّ، معالم التّنزيل: 2/441، ونخبة من أساتذة التّفسير، التّفسير الميسّر، ص: 222.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 4/3، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/13.

نكتةُ المخالفةِ في التّعبيرِ بيَن هذه الآيةِ والّتي قبلَها:

الإنسانُ يحبُّ اللّذَّةَ والتَّنعُّمَ بطبعِهِ

لمّا ذَكَرَ اللّه تعالى في الآيةِ السّابقةِ تحوّلَ النِّعمةِ إلى الشّدَّةِ، فقالَ: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَٰهَا﴾، وكانَت هذه الآيةُ في بيانِ العكسِ: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ﴾ كانَ الظّاهرُ أنْ يذكُرَ تحوُّلَ الشِّدَّةِ إلى النِّعمةِ، فيُقدِّمَ مسَّ الضُّرِّ على ذوقِ النَّعماءِ، ولكن خُولِفَ في التّعبيرِ بينَهما، ولم يكونا على نسيجٍ واحدٍ، حيثُ بُدِئَ في الأوَّلِ بإعطاءِ النِّعمةِ وإيصالِ الرَّحمةِ، ولم يبدأْ في الثّاني بإيصالِ الضُّرِّ على نمطِهِ؛ تنبيهًا على سَبقِ الرَّحمةِ على الغَضَبِ، واعتناءً بشأنِها، ولِلتَّنبيه على أنَّ الإنسانَ بطبعِهِ يحبُّ اللَّذَّةَ والتَّنعُّمَ، ولموافقةِ النّظمِ في الآيتين في البدءِ بالإذاقةِ[1].

بلاغةُ مجيءِ الشّرطِ مُصدَّرًا بالأداة ﴿وَلَئِنْ﴾:

توبيخُ مَن يَعتقدُ أنَّ النِّعمَ مِن سعيهِ، لا مِن إنعامِ اللهِ عليهِ، فلا يَشتغلُ بِشكرِها

أفادَ التَّعبيرُ بـ ﴿وَلَئِنْ﴾ الشّرطيّةِ الّتي لِلشّكِّ أنَّ فرحَ الإنسانِ وتعاليَه بينَ النّاسِ ممّا ينبغي أن لا يقعَ إلّا على مُجرَّدِ الفَرْضِ والتّقديرُ كما تفرضُ المحالات؛ لاشتمالِ المَقامِ على ما يزيلُهُ مِن أصلِهِ، وهو أنَّ إذاقةَ النّعماءِ بعدَ ضرّاءَ مَسّتهُ، إنّما هُو للاختبارِ والامتحانِ؛ لِيظهرَ لكُم أيُّكُم أحسنُ عملًا، ففي مجيءِ الشّرطِ مُصدَّرًا بـ ﴿وَلَئِنْ﴾ توبيخٌ لِمَن يَعتقدُ أنَّ النِّعمَ الّتي هو فيها مِن سَعيهِ وجَدِّهِ وجُهدِهِ، ولا يَعتقدُ أنّها مِن إنعامِ اللّه عليهِ، فلا يَشتغلُ بِشُكرِها[2]. كما أفادَ التّعبيرُ بكلمةِ الشَّكِّ ﴿وَلَئِنْ﴾ أنَّ إذاقةَ النَّعماءِ بعدَ الضَّرّاءِ؛ أي: مِن حيثُ وقوعُها في نفسِ الأمرِ تحتملُ أن تقعَ في المُستقبلِ، وأن لا تقعَ[3].

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 6/216.
(2) التّفتازانيّ، المطوّل، ص: 321.
(3) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 10/31.

دلالةُ التّعبيرِ بالاستعارةِ بـ ﴿أَذَقْنَٰهُ نَعْمَآءَ﴾:

إفـــادةُ لـفـظِ الإذاقـــةِ معنى إعـطـاءِ النّعمةِ وإيـصـالِـهـا ثـمَّ وجدانِ فائدتِها

جاءَ لفظُ ﴿أَذَقْنَٰهُ﴾ على الاستعارةِ التّصريحيَّةِ التّبعيَّةِ، بتشبيهِ الإعطاءِ المُشتَمِلِ على إدراكِ أثرِ النّعمةِ مِنَ الطّعامِ والمَلبَسِ والصّحّةِ وغيرِها مِن سائرِ المَحسوساتِ، بحيثُ يجدُ لذَّتَها بذوقِ ما يُؤكَلُ ممّا يُشتَهى ويُرغَبُ فيه، ووجهُ الشّبهِ تحصيلُ الشّيءِ والانتفاعُ بهِ على وجهِ حصولِ تمامِ المقصودِ منه، فإنَّ وجدانَ اللّذَّةِ كما يَترتَّبُ على الإذاقةِ يَترتَّبُ على الإعطاءِ المذكورِ، فأفادَ التّعبيرُ بلفظِ الإذاقةِ إعطاءَ النّعمةِ مِن صحّةٍ وأمنٍ وجِدَةٍ وغيرِها، وإيصالَها إليهِ، فينتفعُ مِن كلِّ نوعٍ مِن أنواعِ النّعمِ تمامَ الانتفاعِ، بحيثُ يَجِدُ فائدتَهُ ولذَّتَهُ منهُ[1].

فائدةُ مجيءِ الضّميرِ في: ﴿أَذَقْنَٰهُ﴾:

اليؤوسُ الكفورُ فَرِحٌ فَخورٌ، عندَ إذاقتِهِ النّعماءَ بعدَ ضرّاءَ مَسَّتهُ

جاءَ الكلامُ على مُقتضَى الظّاهرِ فذُكِرَ الضّميرُ العائدُ على الإنسانِ لِقربِ ذكرِهِ، ولم يأتِ بالاسمِ الظّاهرِ؛ أي: لم يقُل: (ولَئِن أذقْنا الإنسانَ نعماءَ)، وفائدتُهُ: تثبيتُ المعنى الّذي تقرَّرَ في ذهنِ السَّامعِ، فالكلامُ على الإنسانِ نفسِهِ في بيانِ الحالةِ الثّانيةِ الّتي تصيبُهُ، ولمّا عادَ الضّميرُ على الإنسانِ الّذي ذُكِرَت أوصافُهُ في الآيةِ السّابقةِ دلَّ على أنَّ ذلك الإنسان الّذي هو يؤوسٌ كفورٌ عندما تُنتَزَعُ منهَ الرّحمةُ بعدَ أن نُذيقَهُ إيّاها، هو نفسُهُ فَرِحٌ فَخورٌ عندما نُذيقُهُ النّعماءَ بعدَ ضرّاءَ مَسَّتهُ؛ لِلتّعجيبِ منهُ في الحالتين، وتوبيخِهِ على عدمِ صبرِهِ؛ لاتّصافِهِ بكثرةِ اليأسِ، وكُفْرِ النّعمةِ، وعلى عدمِ شُكرِهِ بالبطرِ والتّباهي بينَ النّاسِ.

دلالةُ التّعبيرِ بـ ﴿نَعْمَآءَ﴾ و﴿ضَرَّآءَ﴾:

ظـهـورُ النّعـمةِ عـلى الإنـسـانِ بعدَ ضُرٍّ مَسَّهُ، أوجـبُ لـشكـرِ الرّحمنِ

لم يقُلْ: (ولَئِن أذقنَاهُ نعمةً بعدَ ضرٍّ مَسَّهُ)؛ لأنَّه لمّا كانَ المَقامُ مَقامَ إظهارِ الشّكرِ على نعمِهِ ﷻ على الإنسانِ، ذَكَرَ لفظَ ﴿نَعْمَآءَ﴾ الّذي هو بمعنى النّعمةِ الّتي يَظهرُ أثرُها على صاحبِها؛ أي: على

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/153.

بدنِهِ وحالِهِ، بإزاءِ لفظِ ﴿ضَرَّآءَ﴾ الّذي هو بمعنى مَضرَّةٍ يَظهرُ أثرُها على صاحبِها؛ أي: على بدنِهِ وحالِهِ؛ لِلإشعارِ بأنَّ ظهورَ الحالةِ الحسنةِ على الإنسانِ بعدَ ظهورِ الحالةِ السّيّئةِ عليه، كصحّةٍ ظاهرةٍ بعدَ سَقَمٍ مُضرٍّ ببدنِهِ، وغنىً ظاهرٍ بعدَ عُدمٍ يَظهرُ أثرُهُ السّيّئُ على بدنِهِ وحالِهِ - أوجبُ لحقِّ الشّكرِ للّه تعالى وأوفى لهُ؛ لِظهورِ أثرِ نعمةِ اللّه تعالى وتفضُّلِهِ عليهِ بتبدُّلِ الحالِ عندَهُ، وعندَ النّاسِ مِن مَضرَّةٍ إلى نعمةٍ، والشُّعورِ بها، وأمّا (النّعمةُ والمَضرَّةُ) فإنّهُما أعمُّ؛ لأنَّهُما يَشمَلانِ الباطنَ والظّاهرَ[1]، فعُبِّرَ بالأخصِّ لِمُقتضَى المَقامِ.

الغرضُ مِنَ التّعبيرِ بأسلوبِ الطّباقِ في: ﴿نَعۡمَآءَ﴾ و﴿ضَرَّآءَ﴾:

عُبِّرَ بأسلوبِ الطّباقِ لِلجمعِ بينَ الحالينِ المُختلفينِ، وقد جاءَا مُتطابقينِ زنةً تأكيدًا على التّضادِّ المُثبَتِ انقلابَ حالِ الإنسانِ مِن حالٍ إلى حالٍ مُباينةٍ لِلأُولى، وذَكَرَ الإضرارَ قبلَ الإنعامِ؛ لأنّه ألذُّ، وجَمَعَ بينَهُما في صورةٍ واحدةٍ؛ لأنّ الضِّدَّ يُظهِرُهُ الضِّدُّ، والإنعامُ بِهِ أظهرُ.

حُصولُ الإنعامِ بعدَ الإضرارِ ألذُّ لِلمرءِ، وأنفعُ لِلاعتبارِ

الغرضُ مِن حذفِ حرفِ الجرِّ (مِن) في: ﴿بَعۡدَ ضَرَّآءَ﴾:

جاءَ ظرفُ الزّمانِ بنزعِ الخافضِ منهُ، فلم يقُل: (مِن بعدِ ضرّاءَ مَسّتهُ)؛ لِيدلَّ على اتّصالِ زمنِ الضُّرِّ بالقولِ؛ لِلإشعارِ بأنَّهُ قالَ: ﴿ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّيٓۚ﴾ مع قربِ عهدِهِ بالضَّرّاءِ، لِيكونَ زيادةً في توبيخِهِ، وإيذانًا بأنَّ قولَه ما هو إلّا خفَّةٌ وطَيشٌ[2].

طيشُ الكافرِ وخفَّتُهُ حينَ إذاقتِهِ النّعماءَ بعدَ الضّرّاءِ

سرُّ التّعبيرِ بظرفِ الزّمانِ ﴿بَعۡدَ﴾:

لمّا كانَ السّياقُ في بيانِ لذَّةِ النّعمةِ وتذوّقِها عُبِّرَ عن وقوعِ الإذاقةِ بعدَ مَسِّ الضُّرِّ؛ لِيفيدَ أنَّ لذّةَ إذاقةِ النَّعماءِ على أتمِّها؛ لأنَّ الشُّعُورَ بها عَقِبَ زَوالِ ضِدِّها يَكونُ أتَمَّ وأكمَلَ، فيقتضي أن يكونَ الشُّكرُ أتمَّ وأوفى[3].

حُصولُ النّعمةِ بعدَ الضُّرِّ، يكونَ الشّكرُ به أتمَّ وأوفى

(1) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 10/31.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/234.
(3) رضا، تفسير المنار: 11/274.

نكتةُ اختلافِ المُسندِ إليه في الفعلين: ﴿أَذَقْنَٰهُ﴾ و﴿مَسَّتْهُ﴾:

مُرادُ الله بعبادِهِ اليُسرُ، وما ينالُهُم مِنَ الضُّرِّ نيلًا يَسيرًا، هو لطفٌ منه ورحمةٌ

وَقَعَ الاختلافُ في المُسندِ إليه في الفعلين، فقد أسندَ الذّوقَ إلى الضّميرِ الدّالِّ على التّعظيمِ لوقوعِ الفعلِ على الرّحمةِ والنّعماءِ؛ لِيؤذنَ بلذَّتِهما وكَونِهما ممّا يُرغَبُ فيه، وإسنادُ المسِّ إلى الضّرّاءِ لِيشعرَ بكونِها في أدنى ما يُطلَقُ عليهِ اسمُ المُلاقاةِ مِن مَراتبِها، ففي مُقابلةِ التّعبيرين إيماءٌ إلى أنَّ إصابَةَ الضَّرّاءِ أخَفُّ مِن إصابَةِ النَّعماءِ، وأنَّ لُطفَ اللّه شاملٌ لِعبادِهِ في كُلِّ حالٍ.

كما أنَّ في لفظِ الإذاقةِ والمَسِّ تنبيهًا على أنَّ ما يَجدُهُ الإنسانُ في الدُّنيا مِنَ النِّعمِ والمِحَنِ كالأنمُوذَجِ لِما يَجدُهُ في الآخرةِ. كما أنّ إسنادَ الإذاقةِ إلى ضميرِ المتكلِّمِ العائدِ إلى اللّه تعالى، وإسنادَ المسِّ إلى الضّميرِ العائدِ على الضّرّاءِ، فلم يقُل: (مَسسْناه)؛ لِلدّلالةِ على أنّ مُرادَهُ تعالى إنّما هو إيصالُ الخيرِ المَرغوبِ فيهِ على أحسَنِ ما يكونُ، وأنّه إنّما يُريدُ بعبادِهِ اليُسرَ دونَ العُسرِ، وإنّما ينالُهُم الضُّرُّ بسوءِ اختيارِهم نيلًا يَسيرًا، كأنّما يُلاصِقُ البَشَرَةَ مِن غيرِ تَأثيرٍ، كما أنَّ فيه إشعارًا بأنَّ مِن مَقامِ الشّكرِ مُراعاةَ الأدبِ مع ربِّ العالَمين. وذَكَرَ المسَّ المُنبئَ عنِ الضّعفِ؛ للإشعارِ بتلهُّفِ الإنسانِ للنّعمةِ، ورغبتِهِ فيها، وشدّةِ تمسُّكِهِ بها، وضجرِهِ مِنَ الضُّرِّ، وعدمِ تحمّلِهِ له، وإنْ مَسَّهُ مَسًّا خفيفًا. كما يفيدُ أنَّه يقعُ في الكُفرانِ والبَطَرِ بأدنى شيءٍ؛ لأنَّ المَسَّ أوّلُ الوصولِ[1].

الغرضُ مِن إسنادِ جَوابِ القَسمِ إلى القولِ في ﴿لَيَقُولَنَّ﴾:

نزولُ الضّرّاءِ يحبسُ اللّسانَ، وحضورُ النّعماءِ يُطلقُهُ

جُعِلَ جَوابُ القسمِ هنا القَولَ، وجُعِلَ في الآيةِ السّابقةِ قولُهُ: ﴿إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٞ كَفُورٞ﴾؛ للإشعارِ بالحالةِ النَّفسيَّةِ الّتي تُصيبُ الإنسانَ إذا نُزِعَتْ منه النّعَمُ، وهي عدمُ ظهورِ الكلامِ منهُ لِغمِّهِ ويأسِهِ، وإذا

(1) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/129، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 9/243، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/19.

أذاقَهُ اللّه نعماءَ بعدَ ضرّاءَ مَسَّتهُ تهيَّجَ لِلقولِ، وتَبَجَّحَ، وتَفاخَرَ، وتَباهى بالنّعمةِ أمامَ النّاسِ[1].

الغرضُ مِنَ التّعبيرِ بالمَجازِ العقلِّي:

قولُهُ: ﴿ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّيٓۚ﴾، أرادَ بالسّيّئاتِ كلَّ ما يَسوءُ مِن ضُرٍّ وفقرٍ ومَرضٍ ومُصيبةٍ، بمعنى: ذَهَبَ الّذي يَسوؤُني، ولن يَعتَرِيَني بَعدُ أمثالُها؛ فإنَّ التَّرقُّبَ لِورودِ أمثالِها، ولا سيّما في حالِ النَّعماءِ ممّا يُكدِّرُ السُّرورَ، ويُنغِّصُ العيشَ. وإسنادُ الذّهابِ إلى السّيّئاتِ مِن بابِ إسنادِ الفعلِ إلى سببِهِ، مُبالغةً في بيانِ أهمّيّةِ السّببِ، وأنّ ما وَقَعَ عليهم إنّما هو بسببِهِم.

تَرقُّبُ ما يَسوءُ في حالِ النّعماءِ، يُكدِّرُ السّرورَ، ويُنغِّصُ العَيشَ

الغرضُ مِنَ الكنايةِ في: ﴿ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّيٓۚ﴾:

أفادَ الإخبارُ بذهابِ السّيّئاتِ عنهُ مَعنيين على سبيلِ الجمعِ بينَ المعنى الظّاهرِ والكنائيِّ: أحدهما المعنى الظّاهر، فإنّهُ لمّا أذاقَهُ اللّه النّعماءَ بعدَ ضرّاءَ مَسّتهُ اعتقدَ أنَّ السّيّئاتِ ذهبَت عنهُ، ولن تَرجعَ إليه، والثّاني: هو كنايةٌ عن أنّهُ يقولُ هذا القولَ لِلازدهاءِ ولِلإعجابِ ولِلتَّباهي[2].

جمعُ المعنيين الظّاهرِ والكنائيِّ مُفصِحٌ عن بلاغةِ السّياقِ ومَقاصدِهِ

دلالةُ التّعبيرِ بحرفِ الجرِّ في: ﴿عَنِّيٓۚ﴾:

لمّا كانَ حرفُ الجرِّ (عن) يُستعمَلُ لِلمُجاوزةِ أشعرَ الكلامُ بأنَّهُ يعتقِدُ أنَّ السّيّئاتِ تجاوزَتهُ وذهبَت، ولن ترجعَ إليه، كما أنَّ في التّعبيرِ بـ ﴿عَنِّيٓۚ﴾ إشارةً إلى اعتقادِ كُلِّ واحدٍ مِنَ الكافرين أنَّهُ حَقيقٌ بأنْ تَذهَبَ عَنهُ كلُّ المصائبِ الّتي تَسوؤُهُ، غُرُورًا مِنهُ بِنَفسِهِ، كما في قَولِهِ تعالى: ﴿وَلَئِنۡ أَذَقۡنَٰهُ رَحۡمَةٗ مِّنَّا مِنۢ بَعۡدِ ضَرَّآءَ مَسَّتۡهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِي وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةٗ وَلَئِن رُّجِعۡتُ إِلَىٰ رَبِّيٓ إِنَّ لِي عِندَهُۥ لَلۡحُسۡنَىٰۚ﴾ [فُصّلت: 50][3].

غرورُ الكافرِ أنّهُ حقيقٌ بِهِ، أن تَذهبَ عنهُ كلُّ المصائبِ الّتي تَسوؤُهُ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/14.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/190.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/14.

شبهُ كمالِ الاتّصالِ في الجملةِ المُؤكَّدةِ بالأداةِ (إنَّ):

مُنتهَى غايةِ الكافرِ الفوزُ بالسَّعاداتِ الدُّنيويّةِ؛ لإنكارِهِ السَّعاداتِ الأخرويّةِ

قولُهُ: ﴿إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾، أفادَت ﴿إِنَّهُۥ﴾ ربطَ الجملةِ الّتي بعدَها بما قبلَها على معنى بيانِ علَّةِ قولِهِ: ﴿لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ﴾، والمعنى بسببِ شدّةِ فرحِهِ بالنّعمةِ بعدَ الضّرّاءِ الّتي مَسّتهُ، وكثرةِ فخرِهِ بها، قالَ تلك المقولةَ الّتي وردَت على سبيلِ ذمِّ قائلِها، لتباهي صاحبِها وإعجابِهِ بما حصلَ لهُ، فكأنّها في جوابِ سؤالٍ تقديرُهُ: ما سببُ قولِهِ تلك المَقولَةِ، فجاءَ الجوابُ ﴿إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾[1]؛ أي: بسببِ اتّصافِهِ بهذين الوصفين اللّذين صارا لازمَين لهُ، وتحتملُ جملةُ ﴿إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾ أن تكونَ استئنافًا ابتدائيًّا؛ للتَّعجُّبِ مِن حالِهِ[2]، وأفادَتِ الآيةُ أنَّهُ عندَ انتقالِ الإنسانِ مِنَ المحنةِ إلى النِّعمةِ، يكونُ الكافرُ فَرِحًا فخورًا؛ لأنَّ مُنتهَى طبعِ الكافرِ هو الفَوزُ بهذهِ السَّعاداتِ الدُّنيويّةِ، وهُو مُنكِرٌ لِلسَّعاداتِ الأخرَويَّةِ[3].

سرُّ مجيءِ تأكيدَين في: ﴿إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾:

على الإنسانِ شكرُ اللهِ بدلًا مِن أن يكونَ فَرِحًا فَخورًا

أفادَ التّأكيدُ بـ ﴿إِنَّهُۥ﴾ واللّامِ أنَّ الجملةَ وقعَت جوابًا لِمُنكِرٍ[4]؛ بمعنى: أنَّه لمّا أذاقَهُ اللّه تعالى النّعمةَ بعدَ الضُّرِّ الّذي مَسَّهُ اعتقدَ أنَّ الّذي أصابَهُ مِنَ النّعمةِ بجدِّهِ واجتهادِهِ، فهو باستحقاقِهِ، ولا يَراهُ مِنَ اللّه تعالى؛ جاءَ قولُهُ تعالى: ﴿لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّيٓ﴾؛ لِلإشعارِ بأنَّهُ مُنكِرٌ لأنْ يكونَ فرحُه وتباهيه على النّاسِ بغيرِ حقٍّ، فجاءَ قولُهُ تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾ ردًّا على ما يعتقدُهُ، لِيؤذنَ بتوبيخِهِ على كونِهِ فَرِحًا فَخورًا، ولِيُفيدَ أنّهما قد ذُكِرَا على جهةِ الذّمِّ، وأنَّهُ كانَ ينبغي أن يَشكُرَ اللّه بدلًا مِن أن يكونَ فَرِحًا فَخورًا.

(1) عبد القاهر الجرجانيّ، دلائل الإعجاز، ص: 316 - 324.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/14.
(3) ابن عادل، اللّباب: 10/445.
(4) السّكّاكيّ، مفتاح العلوم، ص: 171.

بلاغةُ الإيجازِ في الآيةِ الكريمةِ:

نُسِجَت هذه الآيَةُ على هذا المِنوالِ مِنَ الإجمالِ، فَذَكَرَ فيها الإنسانَ مُطلَقًا، ولم يقيّدهُ بالكافرِ؛ لِتَذهَبَ نُفوسُ السّامِعينَ مِنَ المؤمِنينَ في طُرُقِ الحَذَرِ مِن صِفَتَي اليَأسِ وكُفرانِ النِّعمَةِ، ومِن صِفَتَي الفَرَحِ والفَخرِ كُلَّ مَذهَبٍ مُمكِنٍ[1].

تحذيرُ المؤمنينَ مِنَ الاتّصافِ بأوصافِ الكافرينَ المذمومةِ

دلالةُ الاستثناءِ بيَن الاتّصالِ والانقطاعِ:

يحتملُ أن تكونَ اللّامُ للجنسِ في ﴿ٱلۡإِنسَٰنَ﴾ - المستثنى منه - في قولِه: ﴿وَلَئِنۡ أَذَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِنَّا رَحۡمَةٗ﴾، فَيُحمَلُ على الاستغراقِ لِعُمومِ النّاسِ، فيكونُ الاستثناءُ ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ﴾: مُتّصِلًا، وهو قولُ كثيرٍ مِنَ النّحاةِ والمفسِّرينَ، فيكونُ على مِنوالِ قولِه: ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [العصر: 2 - 3]، ويحتملُ أن يُحمَلَ الإنسانُ على الكافرِ، فتكونُ (اللّام) لِلعهدِ، ويكونُ الاستثناءُ مُنقطِعًا، وتكون ﴿إِلَّا﴾ بمعنى (لكن) كأنَّه قِيلَ: مِن ديدنِ الكافرين وعادتِهم أن لا يَصبروا على الضّرّاءِ، ولا يَشكروا على السّرّاءِ، ولكنْ عادةُ المؤمنينَ الصّبرُ والشّكرُ[2].

ديدنُ الكافرين أنْ لا يَصبروا ولا يَشكروا، ولكنْ عادةُ المؤمنينَ خلافُ ذلكَ

الغرضُ مِنَ التّعبيرِ بالموصولِ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ وصلتِهِ ﴿صَبَرُواْ﴾:

عُبِّرَ بالاسمِ الموصولِ لِتضمُّنِه صلةً تكشفُ سببَ الاستثناءِ، ولمّا كانَ مِن معاني الصَّبرِ انتِظارُ الفَرَجِ أُوثِرَ هُنا وَصفُ ﴿صَبَرُواْ﴾ دُونَ (آمَنُوا)؛ لأنَّ المُرادَ مُقابَلَةُ حالِهم بحالِ الكُفّارِ في قولِه: ﴿إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٞ كَفُورٞ﴾.

مُقابَلَةُ حالِ المؤمنينَ الصّابرينَ، بحالِ الكُفّارِ اليائِسينَ

سرُّ التّعبيرِ بالفعلِ غيرِ مُقيَّدٍ في قولِهِ ﴿صَبَرُواْ﴾:

لم يُقيَّدِ الفعلُ ﴿صَبَرُواْ﴾؛ لِيفيدَ العُمومَ؛ بمعنى: أنّهُم صبروا على الضّرّاءِ وعنِ الشّهواتِ وعلى الطّاعاتِ[3]، وهو أبلغُ في مدحِهِم، وأجلى لِمكانِهِم.

الصّبرُ معنًى عامٌّ يشمَلُ الصّبرَ على الضّرّاءِ والشّهواتِ والطّاعاتِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/14.
(2) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 8/27.
(3) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 10/33.

دلالةُ العطفِ في سياقِ جملتي الصّبرِ والعملِ الصّالحِ:

الشّكرُ قرينُ الصّبرِ، والأعمالُ الصّالحةُ ضميمةُ الإيمانِ

قولُهُ: ﴿ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، دلَّ عطفُ قولِهِ: ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ على ﴿صَبَرُواْ﴾ على تضمينِ الصَّبرِ معنى الإيمانِ؛ لأنَّ الأعمالَ الصّالحةَ ضميمةُ الإيمانِ، ودلَّ ذكرُ الصّبرِ على تضمينِ الأعمالِ الصّالحاتِ معنى الشّكرِ؛ لأنَّ الشُّكرَ قرينُ الصّبرِ، فكأنَّه ذَكَرَ هنا الصّبرَ والشّكرَ والإيمانَ والعملَ الصّالحَ، ففيه تكثيفٌ في المعنى،. كما أنَّ الاستثناءَ مِنَ الكلامِ السّابقِ يقتضيه، فإنَّه لمّا كانَ شأنُ الإنسانِ ومُوجبُ جبلَّتِهِ؛ أنَّه إذا أصابَتهُ الضَّرّاءُ بعدَ السَّرّاءِ لم يَصبرْ، وإذا انقلبَت هذه الحالةُ لم يَشكر، استثنى منه المؤمنينَ، ولكنّهُ وَضَعَ ﴿ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ مَوضِعَ (المؤمنين) كنايةً؛ لِيُصرِّحَ بهذا المعنى لِمُناسبتِهِ لِلمَقامِ ولاقتضائِهِ لهُ[1].

دلالةُ التّعبيرِ بالاستثناءِ:

التّحذيرُ مِنَ الوُقوعِ، فيما يُماثِلُ صفاتِ الكافِرينَ

قولُهُ: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، لمّا كانَ الاستثناءُ هو بمعنى الاستدراكِ ممّا مضى مِنَ الكلامِ دلَّ على أنَّ المرادَ مِنَ الإنسانِ أن يَكونَ عندَ البلاءِ مِنَ الصّابرينَ، وأن يَكونَ عندَ الرّاحَةِ والخَيرِ مِنَ الشّاكرينَ،. ولمّا كانَ الاستثناءُ على معنى إخراجِ المُستَثنى مِن حُكمِ المُستَثنى منهُ دلَّ على أنَّ الّذينَ صبروا وعَمِلوا الصّالحاتِ مُتَّصِفونَ بضدِّ صفاتِ المُستَثنى مِنهُم، وفي هذا تَحذيرٌ مِنَ الوُقوعِ فيما يُماثِلُ صفاتِ الكافِرينَ[2].

الغرضُ مِنَ التّعبيرِ باسمِ الإشارةِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾:

عاقبةُ الصّبرِ والعملِ الصّالحِ المَغفرةُ والأجرُ عندَ اللهِ تعالى

لمّا كانَ اسمُ الإشارةِ عائدًا إلى الاسمِ الموصولِ مع صلتِهِ في قولِهِ: ﴿ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ دلَّ على أنَّ سببَ بناءِ الخبرِ على اسمِ الإشارةِ هو لأجلِ ما ذُكِرَ في حَيّزِ الصّلةِ، فأفادَ أنّهم استَحَقُّوا

(1) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 8/27، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 10/33.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/323، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/15.

المغفرةَ والأجرَ الكبيرَ لأجلِ مَا ذُكِرَ مِن وصفِهم بالصّبرِ والعملِ الصّالحِ. ولمّا كانَ اسمُ الإشارةِ ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ﴾ فيه معنى البُعدِ آذنَ بِعلوِّ درجتِهم وبُعدِ مَنزلَتِهم في الفضلِ؛ أي: أولئكَ المَوصوفونَ بتلكَ الصّفاتِ الحميدةِ لَهُم مَغفرةٌ وأجرٌ كبيرٌ[1].

الغرضُ مِنَ التّقديمِ والتّأخيرِ:

قولُهُ: ﴿لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ﴾، وفيه تقديمُ الخبرِ ﴿لَهُم﴾ على المبتدأ ﴿مَّغۡفِرَةٞ﴾، وإنْ كانَ في عرفِ القواعدِ النّحويّةِ واجبَ التّقديمِ، ولكنّه لا يخلو مِن فائدةِ الحصرِ الادعائيِّ؛ بمعنى أنَّ أولئكَ المذكورينَ في الموصولِ وصلتِهِ هُم وحدَهُم لَهُم مَغفرةٌ وأجرٌ كبيرٌ دونَ اليؤوسِ الكَفورِ والفَرِحِ الفَخورِ؛ لِيفيدَ الحصرُ المبالغةَ في المدحِ، ولِتنبيهِ المؤمنينَ على المبادرةِ إلى الاتّصافِ بالصّبرِ والعملِ الصّالحِ.

المبادرةُ إلى الاتّصافِ بالصّبرِ والعملِ الصّالحِ مِنَ اللهِ تعالى

دلالةُ التّعبيرِ بالجملةِ الاسميّةِ المُصدَّرةِ: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ﴾:

قوله تعالى: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ﴾، وفيه أنّه لمّا كانَ قولُهُ تعالى: ﴿لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ﴾ خبرًا عن ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ﴾، وكانَتِ الجملةُ اسميّةً مِنَ الطّرفين؛ أي: الجملةُ الكبرى والصّغرى دلَّ هذا على تقويةِ ثبوتِ المغفرةِ والأجرِ الكبيرِ للّذين صبروا وعَملوا الصّالحاتِ وتأكيدِهِ؛ لأنّ في التّعبيرِ بالجملةِ الاسميّةِ استعلاءً على الزّمنِ واستمرارًا للحدث.

التّعبيرُ بالجملةِ الاسميّةِ استعلاءٌ على الزّمنِ، واستمرارٌ لِلحدثِ

دلالةُ اللّامِ في: ﴿لَهُم﴾:

لمّا كانَ حالُ الكافرين مِنَ النّعماءِ في الدُّنيا هي الإذاقةَ فقط، فهي لا تفيدُ مُلكًا لِلشّيءِ ولا الاختصاصَ به، فغايةُ الذّوقِ أقلُّ ما يُدرَكُ به طعمُ المطعومِ وما يجري عليه، فلمّا كانَ الأمرُ كذلك ذَكَرَ اللّه تعالى حالَ المؤمنينَ يومَ القيامةِ على سبيلِ المقابلةِ؛ أي: لَهُمُ

مُجازاةُ الّذين صبروا وعَمِلوا الصّالحاتِ، بتَمامِ المَغفرةِ والأجرِ الكبيرِ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/190، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/15.

المَغفرةُ والأجرُ الكبيرُ على جهةِ الاختصاصِ؛ لِما تفيدُهُ اللّامُ في ﴿لَهُم﴾ مِن معنى الاختصاصِ؛ بمعنى: أنّهُم لا يكتفونَ بذوقِ المَغفرةِ والأجرِ الكبيرِ فيفيدُ حصولَهُم على أقلِّ الأمرِ، بل المَغفرةُ والأجرُ الكبيرُ مُختصّانِ بهِم، فتفيدُ اللّامُ حصولَهم على تَمامِ المَغفرةِ وتمامِ الأجرِ الكبيرِ.

دلالةُ الواو في: ﴿مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾:

لمّا كانَت واوُ العطفِ على معنى الجمعِ بينَ المعطوفِ والمعطوفِ عليه؛ لِتفيدَ التّشريكَ في الحكمِ، دلَّ على ثبوتِ حصولِ المَغفرةِ والأجرِ الكبيرِ على سبيلِ الاجتماعِ.

فائدةُ تنكيرِ: ﴿مَّغْفِرَةٌ﴾:

أفادَ التّنكيرُ تعظيمَ المَغفرةِ؛ بمعنى: لَهُم مَغفرةٌ عظيمةٌ لِذنوبِهِم، وإنْ جَمَّت[1].

بلاغةُ جملةِ التّذييلِ في السّياقِ الكريمِ:

قولُهُ: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ جملةُ التّذييلِ، حيث أنّه إنَّه لمّا كانَ غايةُ الفلاحِ هي الخلوصَ مِنَ الأذى والضُّرِّ، وتحصيلَ الرّحمةِ، والتَّرفُّهَ بالنِّعمِ يومَ القيامةِ، جَمَعَ اللّه لِلمُؤمنينَ هَذَينِ المَطلُوبَينِ، فكانَ أحَدُهُما: زَوالُ العِقابِ والخَلاصُ منه، وهو المُرادُ مِن قَولِهِ: ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾، والثّاني: الفَوزُ بالثَّوابِ، وهو المُرادُ مِن قَولِهِ: ﴿وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾[2].

توجيهُ المُتشابِهِ اللّفظيِّ في آيتي: سورةِ هود، وسورةِ فُصّلت:

قالَ اللّه تعالى هنا في سورةِ هودٍ: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾، وقالَ في سورةِ فُصِّلَت: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَـٰذَا لِى

جمعُ المتعاطفين تأكيدٌ على حصولِ المغفرةِ والأجرِ معًا، لا أحدِهما فقط

الصّابرونَ الشّاكرونَ لَهُم مَغفرةٌ عظيمةٌ لِذنوبِهِم، وإنْ تكاثرَت

جَمَعَ اللّهُ لِلمُؤمنينَ يومَ القيامةِ زوالَ العقابِ والفوزَ بالثَّوابِ

مُناسبةُ التّعبيرِ لِمُناسبةِ المقامِ في الآيتين الكريمتين

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/190.

(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 1/377.

﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً﴾ [فُصّلت: 50]؛ ففيه زيادةُ ﴿مِّنَّا﴾ وزيادةُ ﴿مِنْ﴾ في سورةِ فُصِّلَت عمّا في سورةِ هودٍ:

ووجهُ ذلك أنَّه لم يَرِد في هودٍ ما يَستَدعي تلك الزِّيادةَ، وأمّا سورةُ فُصِّلَت فتقدَّمَ فيها قولُهُ: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآءِى﴾ [فُصّلت: 47] قَطعًا بهم، وتَنبيهًا على سُوءِ مُرتَكَبِهم، وقد عايَنوا الحقَّ، وضلَّ عنهُم ما كانوا يَدّعونَ مِن قَبلُ مِن شُركاءِ اللّه سبحانَهُ، وأيقَنوا وعَلِموا أنَّه لا مَحيصَ لهم ولا مَفرَّ؛ فلمّا تَقدَّم ذِكرُ الشُّرَكاءِ قالَ تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا﴾ [فُصّلت: 50]، فنبّهَ تعالى بقولِهِ: ﴿مِّنَّا﴾ على أنْ لا شريكَ لهُ، ولا مُعطيَ غيرُهُ، وأنَّه لا يأتي العبدَ شيءٌ مِن سواهُ سبحانَهُ. ولمّا لم يَتقدَّمْ في سورةِ هود ذكرٌ لِذلكَ لم يَرِدْ فيها التَّنبيهُ بقولِهِ: ﴿مِّنَّا﴾.

وأمّا زيادةُ: ﴿مِنْ﴾ في قولِهِ: ﴿مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ﴾ [فُصّلت: 50] فَمُناسِبٌ لإطنابِ هذا الغرضِ في هذهِ السّورةِ؛ لإفادتِهِ تعيينَ ابتداءِ زمنِ إذاقةِ النَّعماءِ مِن بعدِ إمساسِهِ بالضّرّاءِ؛ لِيكونَ أوثقَ في ظهورِ منّةِ اللّه تعالى عليه، فناسبَ ذلك الزّيادةَ. وأمّا حذفُ (مِنْ) في سورةِ هودٍ فقد تَقَدَّمَ أنَّه لإفادةِ اتّصالِ زمنِ الضُّرِّ بالقولِ؛ لِلإشعارِ بأنَّه قالَ: ﴿ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ﴾ مع قُربِ عهدِهِ بالضّرّاءِ، كما أنَّ مَا أطنبَ في سورةِ فُصّلت ممّا يَتعلَّقُ بالتّوحيدِ قد أوجزَ، فناسبَهُ سقوطُ (مِنْ)، فجاءَ كلٌّ على ما يُناسِبُ ويَجِبُ، ولم يكنْ لِيُلائِمَ كلًّا مِنَ الموضوعين إلّا ما وَرَدَ فيه[1].

وفي توجيه المتشابهِ المذكورِ وجهٌ آخرَ، وهو أنَّه في سورةِ فُصِّلَت بيَّنَ تعالى جهةَ الرَّحمةِ، بقولِهِ: ﴿لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ﴾ [فُصّلت49]؛ فناسَبَ ذِكرُ ﴿مِّنَّا﴾، وحَذَفَهُ هنا اكتفاءً بقولِه قبلُ: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً﴾ [هود: 9]، وزادَ ﴿مِنْ﴾ في سورةِ فُصِّلَت؛ لأنَّه لَمّا حدَّ الرَّحمةَ وجِهَتَها حدَّ الظَّرفَ بعدَها؛ لِيَتشاكلا في التَّحديدِ، وهنا لَمّا لم يَذكُرِ الأوَّلَ، لم يَذكُرِ الثّانيَ لِيتشاكلا[2].

(1) الغرناطيّ، ملاك التّأويل: 2/253.

(2) الكرمانيّ، أسرار التّكرار في القرآن، ص: 223، والأنصاريّ، فتح الرّحمن، ص: 259 - 260.

﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعۡضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدۡرُكَ أَن يَقُولُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ كَنزٌ أَوۡ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٞۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٌ ١٢﴾ [هود: 12]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

ثباتُ الرّسولِ الأكرمِ على دعوتِهِ، على الرّغمِ مِن تكرُّرِ التّكذيبِ والاستهزاءِ

لمّا كانَ مِن شأنِ تكذيبِ الكُفّارِ وعنادِهِم واستهزائِهِم أن يدخلَ اليأسُ في قلبِ رسولِ اللّه ﷺ مِن انتفاعِهِم بدعائِهِم إلى التّوحيدِ وإلى شرائعِ الإسلامِ؛ جاءَ التّفريعُ في الآيةِ على قولِهِ: ﴿وَلَئِن قُلۡتَ إِنَّكُم مَّبۡعُوثُونَ مِنۢ بَعۡدِ ٱلۡمَوۡتِ﴾ إلى قولِهِ ﴿يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾؛ لِيُشيرَ هَذا التَّفريعُ إلى أنَّ مَضمونَ الكلامِ المُفَرَّعَ عليهِ سَبَبٌ لِتَوجيهِ هذا التَّوَقُّعِ؛ لأنَّ مِن شَأنِ المُفَرَّعَ عليهِ اليأسَ مِن ارعِوائِهِم لِتَكَرُّرِ التَّكذيبِ والاستِهزاءِ يَأسًا قد يَبعَثُ على تَركِ دُعائِهِم[1].

كما أنّه لمّا استثنى اللّه سبحانه مِنَ الجارينَ مَعَ الطّبعِ الطّائشينَ في الهوى؛ مَن تَحَلَّى بِرَزانةِ الصّبرِ النّاشِىءِ عن وَقارِ العِلمِ المُثمِرِ لِصالحِ العملِ، وكانَ رسولُ اللّه ﷺ رأسَ الصّابرينَ، وكانَ ما مَضى مِن أقوالِهِم وأفعالِهِم مِثلَ قولِهِم: ﴿مَا يَحۡبِسُهُۥٓۗ﴾، وتَثَنِّيهِم صُدُورَهم أسبابًا لِضيقِ صدرِهِ ﷺ، فَرُبّما كانَت مَظِنَّةً لِرجائِهِم تَركَهُ ﷺ بعضَ ما يُوحَى إلَيهِ مِن عيبِ آلهتِهِم وذِكرِ البعثِ والعذابِ يومَ القيامةِ، وغيرِ ذَلكَ ممّا يَشُقُّ عليهِم طَمَعًا في إقبالِهِم أو خَوفًا مِن إدبارِهِم، فإنَّهم كانُوا يَقولونَ: ما نراهُ يَذكُرُ مَن خالفَ دِينَهُ مِنَ اليهودِ والنّصارى بمثلِ الّذي يَذكُرُنا بهِ مِنَ الشَّرِّ؛ قالَ تعالى مُسَبِّبًا عَن ذلكَ ناهيًا في صيغةِ الخبرِ: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعۡضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدۡرُكَ﴾[2].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/16.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/245.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَضَآئِقُۢ﴾: يدورُ معنى الضّيقِ على خِلافِ السَّعَةِ، يُقالُ: ضاقَ المكانُ والدّارُ والثّوبُ، ضدّ اتّسعَ، ثمَّ استُعملَ في الضّيقِ المعنويِّ، ومنهُ يُستعمَلُ (الضَّيقَةُ) في الفَقرِ والبُخلِ والغَمِّ ونحوِ ذلكَ، ومنهُ ضاقَ بهِ صدرُهُ، والضِّيْقُ: إذا كانَ عارضًا غيرَ لازمٍ يُعبَّرُ عَنهُ (بضائق) مثل: (سَائد) و(جَائد) و(حَاسن) في سيِّد وجَواد وحَسن[1].

2) ﴿كَنزٌ﴾: يدورُ معنى (كنز) على تَجَمُّعٍ في شَيءٍ إلى حدِّ الامتلاءِ، ويُقالُ: شدَدْتَ كنزَ القربَة إذا ملأتَها، ورجلٌ مُكتنِزُ اللّحم وكَنيزُ اللّحم؛ أي: كثيرُهُ، وكَنَزتُ التَّمرَ في وعائِهِ إذا جمعتَهُ حتّى امتلأَ، والكَنيزُ: التَّمرُ يُكتَنَزُ للشِّتاءِ في أوعيةٍ، وفلانٌ يَكتنزُ المالَ: يَجمعُ المالَ الكثيرَ بعضَهُ إلى بعضٍ على سبيلِ الادّخارِ. والأصلُ في الكنزِ أن يُطلَقَ على المالِ المَدفونِ تحتَ الأرضِ، ثمَّ أُطلِقَ على المالِ العظيمِ المجموعِ في وعاءٍ، ومعنى ﴿كَنزٌ﴾ في الآيةِ مالٌ خطيرٌ مَخزونٌ.

3) ﴿وَكِيلٌ﴾: الوكيلُ في صِفةِ اللّه جلَّ وعزَّ الَّذي توكَّلَ بالقِيامِ بِجَميعِ ما خَلَقَ، ويُقالُ: قَد أوكلتَ على أخِيكَ العَمَلَ: خلَّيتَه كلَّهُ عليهِ، وأصلُ التَّوكِيلِ: أن تعتمدَ على غيرِكَ، وتجعلَهُ نائبًا عنكَ لِيتولَّى الأمورَ، ففيه معنى التَّعهُّدِ بالشّيءِ والقيامِ بأمورِهِ، كما أنَّ معنى الهيمنةِ مُتحقِّقٌ في كلِّ لفظِ (وكيل)، والوَكِيلُ فَعيلٌ بمعنى المفعول؛ أي: قد وُكِلَت إليه الأمورُ كلُّها، وربّما فُسِّرَ الوَكِيلُ بالكفيلِ، والوَكيلُ أعمُّ؛ لأنّ كلَّ كفيلٍ وَكيلٌ، وليسَ كلُّ وَكيلٍ كفيلًا، كما يأتي الوكيلُ بمعنى الحفيظِ.

المَعْنى الإجْماليُّ:

فلعلَّكَ - أيُّها الرّسولُ لِعظمِ ما تَراهُ منهُم مِنَ الكُفرِ والتّكذيبِ

الدّاعي إلى اللهِ لا يَصُدَّهُ اعتراضُ المُعتَرِضينَ، ولا قَدحُ القادِحينَ، بل يثبتُ على اليقين

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (ضيق)، والكفويّ، الكلّيّات، ص: 575.

- تاركٌ بعضَ ما يُوحَى إليكَ ممّا أنزلَهُ اللّه عليكَ وأمرَكَ بتبليغِهِ، وضائقٌ به صدرُكَ؛ خشيةَ أن يَطلبوا منكَ بعضَ المَطالِبِ على وجهِ التَّعنُّتِ، كأن يَقولوا: لولا أُنزِلَ عليهِ مالٌ كثيرٌ، أو جاءَ معهُ مَلكٌ يصدقُهُ في رسالتِهِ، فيبلّغُهم ما أوحيتُهُ إليكَ؛ فإنّه ليسَ عليك إلّا الإنذارُ بما أُوحِي إليك، واللّه على كلِّ شيءٍ حفيظٌ، فهو الّذي يتولّى جميعَ شؤونِ خلقِهِ.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالةُ الفاءِ في: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌۢ﴾:

تهكُّمُ الكافرينَ واستهزاؤُهُم ينبغي أن لايُورثَ اليأسَ، ويبعث على تركِ دعائِهِم

أفادَتِ الفاءُ التّفريعَ والسَّببيّةَ؛ لِيشيرَ إلى أنّ ما تَقَدَّمَ مِن تكذيبِ الكُفّارِ وعنادِهِم وتهكُّمِهِم واستهزائِهِم في قولِهِ تعالى: ﴿وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾، وقولِهِ: ﴿وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُۥٓ ۗ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾، سببٌ في هذا التّفريعِ، ولتوجيهِ قولِهِ تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ﴾، ففيه إشعارٌ بأنَّ قولَ الكافرينَ هذا ينبغي أنْ لا يُورثَ اليأسَ ممّا قد يَبعثُ على تركِ دُعائِهِم[1].

الغرضُ مِنَ التّعبيرِ بالاستعارةِ:

النّهيُ بمقصِدِ التّحذيرِ مِن تركِ التّبليغِ، خرجَ مَخرَجَ التّأمينِ لرسولِهِ وعصمتِه مِن ذلك

قولُهُ تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ﴾، جاءَ ﴿فَلَعَلَّكَ﴾ الّذي هو حرفُ إشفاقٍ لِتوقُّعِ مَحذورٍ هنا على معنى النّهي عن فعلِهِ، ويفيدُ هنا بمعونةِ السّياقِ التّحذيرَ، فاستُعيرَ ﴿فَلَعَلَّكَ﴾ استعارةً تبعيّةً حرفيّةً لمعنى التّحذيرِ مِن فعلِ المكروهِ؛ لِلإشعارِ بشدّةِ تكذيبِهِم وكثرةِ استهزائِهِم وتأثيرِهِ في رسولِ اللّه ﷺ، فأفادَ ﴿فَلَعَلَّكَ﴾ تحذيرَ مَن شأنُهُ التّبليغ مِن تركِ بعضِ ما يُوحَى إليه، أو مِن أن يضيقَ صدرُهُ بما يَقولونَ، وإنْ كانَ مَعلومًا أنَّ الرّسولَ ﷺ لا

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/16.

يفعلُ ذلك؛ أي: لا تتركْ بعضَ ما يُوحَى إليك، وهو كما يقولُ الرَّجلُ لآخرَ: لعلَّكَ تريدُ أنْ تفعلَ كذا، وهو ينهاهُ عنهُ.

ويَحْتَمِلُ أن يكونَ التَّوقُّعُ المُستفادُ مِن ﴿فَلَعَلَّكَ﴾ بتقديرِ استِفهامٍ حُذِفَت أداتُهُ، والتَّقديرُ: أَلَعلَّكَ تارِكٌ؟! فيكونُ الاستفهامُ مُستعمَلًا في النَّفيِ لِلتَّحذيرِ، فالكلامُ عمومًا جاءَ على خلافِ مُقتضَى الظّاهرِ، فحرَّكَ اللّه تعالى بهذا الأسلوبِ مِن رسولِهِ ﷺ، وهيّجَهُ لأداءِ الرّسالةِ وطَرحِ المُبالاةِ بِرَدِّهِم واستِهزائِهِم واقتراحِهِم[1].

وفي الآيةِ وجهٌ آخرَ: فإنّه لمّا جاءَ الكلامُ على معنى النّهي بمَقصِدِ التّحذيرِ مِن تركِ التّبليغِ خرجَ مَخرَجَ البشارةِ للرّسولِ ﷺ بما كانَ يخافُ مِن ضيقِ صدرِهِ واشتغالِ قلبِهِ عندَ سوءِ مُعاملتِهِم إيّاهُ، فيقعُ له فيهِ تأخيرٌ في إبلاغِ ما أُمِرَ بتبليغِهِ فَأمِنَهُ اللّه عن ذلكَ وعَصمَهُ[2].

دلالةُ التّعبيرِ باسمِ الفاعلِ ﴿تَارِكٌ﴾ و﴿وَضَآئِقٌ﴾:

أفادَ التّعبيرُ بصيغةِ اسمِ الفاعلِ أنَّ التّحذيرَ مِنَ التّركِ والضِّيقِ، إنّما هو في الزّمنِ المُستقبَلِ، فدلَّ على أنَّ رسولَ اللّه ﷺ لم يترُكْ تبليغَ بعضَ الوحيِ، ولا كُلَّه كما أنَّه لم يضِقْ صدرُهُ، فهو مُتوقَّعٌ لا واقعٌ[3]، بمعنى: أنّه لمّا عاينَ رسولُ اللّه ﷺ اجتراءَ الكافرينَ على اقتراحِ مثلِ هذهِ العظائمِ، وشاهد مُكابرتَهُم ومُسارعتَهُم إلى التّكذيبِ والاستهزاءِ، مَثَّلَ حالَهُ ﷺ بحالِ مَن يُتوقَّعُ منهُ تركُ تبليغِ بعضِ ما يُوحَى إليه، وأن يضيقَ صدرُهُ بتلاوةِ تلك الآياتِ السّاطعةِ عليهِم، وتبليغِها إليهِم[4].

أفعالُ الكُفّارِ وأقوالُهُم تبعثُ على ضيقِ الصّدرِ، لولا أنَّ رسولَ اللهِ مُكلَّفٌ بإنذارِهِم

(1) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنّة: 6/105، والزّمخشريّ، الكشّاف: 2/382، والسّكّاكيّ، مفتاح العلوم، ص: 110، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/191، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/16.

(2) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنّة: 6/105.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/16.

(4) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 10/37.

دلالةُ التّعبيرِ بالمفعولِ بهِ:

الكافرونَ يَخشَونَ آياتِ إنذارِهِم وتخويفِهِم

في قولِهِ تعالى: ﴿بَعۡضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ﴾، ذَلِكَ البَعضُ هو ما فيهِ دَعوَتُهُم إلى الإيمانِ باللّه تعالى وتوحيدِهِ وتركِ آلهتِهِم، وإنذارُهُم بالعَذابِ، وإعلامُهُم بالبَعثِ، كَما يدُلُّ عليه قَولُهُ تعالى في آيَةٍ أُخرَى، ﴿وَإِذَا لَمۡ تَأۡتِهِم بِـَٔايَةٖ قَالُواْ لَوۡلَا ٱجۡتَبَيۡتَهَاۚ﴾ [الأعراف: 203]، ويؤيّدُهُ تعقيبُهُ بقولِهِ تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٞۚ﴾، وإنّما عَبَّرَ النّظمُ الكريمُ بكلمةِ (بعض) إبهامًا لِلمُرادِ، واكتفاءً بما أشارَت إليه المَواطِنُ الأخرى، وما جاءَ في كتبِ السّيرِ مِن مساواماتِهِم رسولَ اللّه ﷺ، وفي التّعبيرِ بطريقِ الإبهامِ تناسبٌ مع عدمِ تركِهِ ﷺ أيَّ شيءٍ مِنَ البلاغِ.

دلالةُ مجيءِ الفعلِ مَبنيًا لِلمَفعولِ في: ﴿يُوحَىٰٓ﴾:

التّعامي عنِ الآياتِ البيّناتِ لِلتّمادِي في العنادِ والتّكذيبِ

لَمّا كانَ المُوحَى به قد صارَ مَعلومًا لَهُم - وإنْ نازعوا فيه - بَنَى لِلمَفعولِ[1]، كما أشعرَ أنَّ عنادَهُم في القرآنِ المُوحَى إليكَ، ولمّا كانَ قولُهُ: ﴿يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ﴾؛ بمعنى: يُوحَى إليكَ مِنَ الآياتِ البيّناتِ الدّالّةِ على حقيقةِ نبوَّتِكَ المناديَةِ بكونِها مِن عندِ اللّه ﷻ، دلَّ على أنَّهُم بقولِهِم هذا مُتعامُونَ عنِ البراهينِ الواضحةِ، لِيفيدَ تماديَهُم في العنادِ والتّكذيبِ.

دلالةُ التّعبيرِ بـ ﴿وَضَآئِقُۢ﴾:

رسولُ اللهِ الأكرمُ، أوسَعُ النّاسِ صدرًا، والضّيقُ عندَهُ عارِضٌ لِلإشفاقِ

لَمّا كانَ لفظُ ﴿وَضَآئِقُۢ﴾ يُذكَرُ للضِّيقِ العارضِ، والضِّيقُ يُذكَرُ للضِّيقِ اللّازمِ، عَدَلَ عن لفظِ ضيّقٍ إلى ضَائقٍ؛ لِلإيذانِ بأنَّ الضّيقَ الّذي حَذَّرَ مِن حصولِهِ لِرسولِ اللّه ﷺ مِن كلامِهِم، هو ضِيقٌ عارِضٌ لا ثابتٌ؛ لأنَّ ﴿وَضَآئِقُۢ﴾ لا دلالةَ فيه على تَمَكُّنِ وَصفِ الضّيقِ مِن صَدرِهِ بخلافِ ضَيِّقٍ، إذ هو صفَةٌ مُشبَّهَةٌ، وهي دالَّةٌ على تَمَكُّنِ الوَصفِ مِنَ المَوصوفِ، إيماءً إلَى أنَّ أقصى ما يُتَوَهَّمُ تَوَقُّعُهُ في جانِبِهِ ﷺ هو ضِيقٌ قَليلٌ يَعرِضُ لَهُ؛ لأنَّه ﷺ كانَ أوسَعَ النّاسِ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/245.

صدرًا، ففي التّعبيرِ بلفظِ ﴿وَضَآئِقُۢ﴾ تخفيفٌ على رسولِ اللّه ﷺ مِن تأثيرِ قولِهِم، كما أنَّ التّعبيرَ بـ ﴿وَضَآئِقُۢ﴾ يوافِقُ نظيرَهُ في قولِهِ: ﴿تَارِكُۢ﴾ في بناءِ الصّيغةِ واللّفظِ، فَهو أحسنُ فَصاحةً[1].

سرُّ إيثارِ ذكرِ ضيقِ الصّدرِ:

لمّا كانَ رسولُ اللّه ﷺ يخافُ اللّه في كتمانِ الوحي وتركِ إظهارِهِ، وكانَ يخافُ لائمةَ قومِهِ في إظهارِ الآياتِ الّتي تَعيبُ آلهتَهُم وتدعوهُم إلى توحيدِ اللّه وإلى الإيمانِ بالبعثِ، وإنذارِهِم بالعذابِ، عَبَّرَ بقولِهِ: ﴿وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدۡرُكَ﴾ للإشارةِ إلى هذا[2].

خوفُ الكتمانِ يدفعُ الخوفَ مِن أيِّ لائمةٍ

الغرضُ مِنَ التّعبيرِ بالمجازِ في سياقِ ضيقِ الصّدرِ:

الأصلُ في الضِّيقِ أن يكونَ في المكانِ، وهو ضدُّ السَّعةِ، وجاءَ هنا على سبيلِ المجازِ؛ لِلدّلالةِ على الغَمِّ والأسَفِ، فكأنَّ الغمَّ يملأُ الصّدرَ، فيضيق به، حتّى لا يبقى فيه مَكانٌ لِلفرحِ والمَسَرَّةِ[3].

ضيقُ الصّدرِ يُذهِبُ الفرحَ والمَسرَّةَ، ويملأُ المكانَ غمًّا

فائدةُ الباءِ في: ﴿بِهِۦ﴾:

الباءُ سببيّةٌ[4]، بمعنى: لعلّكَ ضائقٌ صدرُكَ بسببِ بعضِ مَا يُوحَى إليكَ.

بيانُ السّببِ يدفعُ إلى تركِهِ إنْ كانَ

دلالةُ عودِ الضّميرِ في: ﴿بِهِۦ﴾:

يحتملُ أن يعودَ الضّميرُ في قولِهِ: ﴿وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدۡرُكَ﴾ إلى ﴿بَعۡضَ﴾ أو إلى ﴿مَا﴾ في قولِهِ: ﴿بَعۡضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ﴾، وأجازَ بعضُ المُفسِّرينَ أن يعودَ الضّميرُ إلى مُتأخِّرٍ؛ أي: إلى ﴿أَن يَقُولُواْ﴾، والتّقديرُ: وضائقٌ بـ ﴿أَن يَقُولُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ كَنزٌ أَوۡ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌۚ﴾ صدرُكَ، وفي هذا التّقديرِ معنًى بلاغيٌّ لطيفٌ، وبيانُهُ أنَّه

تحذيرُ الرّسولِ مِن أن يضيقَ صدرُهُ مِن مُقترحاتِ الكافرينَ

(1) النّسفيّ، التّيسير في التّفسير: 8/170، والزّمخشريّ، الكشّاف: 2/382، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/154، وأبو حيّان، البحر المحيط: 6/129، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/16.

(2) الواحديّ، التّفسير البسيط: 11/362.

(3) الزّمخشريّ، أساس البلاغة: (ضيق)، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/16.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/16.

سيكونُ تَحذيرًا مِن أن يَضيقَ صَدرُهُ لاقتراحِهِمُ الآياتِ بأن يَقولوا: ﴿لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ كَنزٌ أَوۡ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌۚ﴾، مع ذلكَ التَّحذيرُ مِن أن يَضيقَ صَدرُهُ مِن قَولِهِم: ﴿إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٌ﴾، ومِن قَولِهِم: ما يَحبِسُ العَذابَ عَنّا، بِواسِطَةِ كَونِ ﴿وَضَآئِقُۢ﴾ داخِلًا في تَفريعِ التَّحذيرِ على قَولَيهِمُ السّابِقَينِ.

وإنَّما جِيءَ بالضَّميرِ، ثُمَّ أُبدِلَ منهُ لِقَصدِ الإجمالِ الَّذي يَعْقُبُهُ التَّفصيلُ لِيكُونَ أشَدَّ تَمَكُّنًا في الذِّهنِ، ولِقَصدِ تَقديمِ المَجرورِ المُتَعَلِّقِ باسمِ الفاعِلِ على فاعِلِهِ تَنبيهًا على الاهتِمامِ بالمُتَعَلِّقِ؛ لأنَّهُ سَبَبُ صُدورِ الفِعلِ عَن فاعِلِهِ فَجيءَ بالضَّميرِ المُفَسَّرِ فيما بَعدُ لِما في لَفظِ التَّفسيرِ مِنَ الطُّولِ، فَيَحصُلُ بِذِكرِهِ بُعدٌ بَينَ اسمِ الفاعِلِ ومَرفوعِهِ، فلِذلِكَ اختُصِرَ في ضَميرٍ يَعودُ عليهِ، فَحَصَلَ الاهتِمامُ، وقَوِيَ الاهتِمامُ بما يدُلُّ على تَمَكُّنِهِ في الذِّهنِ[1].

دلالةُ ذكرِ سببِ الضّيقِ:

لمّا كانَ قولُهُ تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعۡضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدۡرُكَ﴾ على معنى التّحذيرِ مِن تركِ تبليغِ الوحي وضيقِ صدرِهِ ﷺ، جاءَ ذكرُ سببِ الضّيقِ كشفًا، وفي ذكرِ السّببِ إيضاحٌ وبيانٌ حتّى لاتذهبَ النّفوسُ مَذاهِبَ شتّى في بيانِ سببِ ضيقِ صدرِهِ ﷺ "فاقتراحُ الكافرينَ الآياتِ إنّما هو على سبيلِ التَّعنُّتِ لا الاسترشادِ؛ لأنَّهُم لو كانوا مُسترشِدينَ لكانَت آيةٌ واحدةٌ، ممّا جاءَ به، كافيةً في رشادِهِم[2].

اقتراحُ الكافرينَ الآياتِ، إنّما هو على سبيلِ التَّعنُّتِ لا الاسترشادِ

سرُّ الحذفِ قبلَ: ﴿أَن يَقُولُواْ﴾:

في التّعبيرِ حذفٌ يُفيدُ معنى السّببيّةِ، ويدُلُّ عليهِ السّياقُ، والتّقديرُ: مخافة أن يقولوا لَولا أُنزِلَ عليهِ كَنزٌ أو جاءَ معهُ مَلَكٌ،

تجدُّدُ مُقترحاتِ الكافرينَ وأقوالِهِم؛ لِلنّيلِ مِنَ القرآنِ، والطّعنِ في الدّينِ

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/154، وأبو حيّان، البحر المحيط: 6/129، والكرمانيّ، لباب التّفاسير، ص: 729، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/17.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/382.

ويحتملُ أن يكونَ التّقديرُ: لأن يَقولوا أو بأنْ يَقولوا[1]، وعلى هذا التّقديرِ يكونُ الفعلُ المضارعُ بتقديرِ الماضي؛ لأنَّهُم قد قالُوا هذا القولَ.

دلالةُ التّعبيرِ بالمضارعِ في: ﴿يَقُولُوٓنَ﴾:

الكافرونَ مُجدِّدونَ لهذا القولِ مُستمرّونَ فيهِ

نكتةُ التّعبيرِ بصيغةِ المضارعِ الدّالِّ على الحالِ والاستقبالِ دونَ الماضي الإشعارُ بتجدُّدِ هذا القولِ وتكرُّرِهِ منهُم، وأنَّهُم مُستمرّونَ عليه، ولِتصويرِ الحالةِ القبيحةِ في قولِهِم، وعلى القولِ بأنَّ الضّميرَ في ﴿بِهِۦ﴾ يعودُ إلى المصدرِ المؤوّلِ ﴿أَن يَقُولُوٓنَ﴾ فلا حَذفَ ولا تقديرَ كما تَقَدَّمَ، ويفيدُ الفعلُ المضارعُ ﴿يَقُولُوٓنَ﴾ المضيَّ، ونكتةُ التّعبيرِ بهِ دونَ الماضي هو التّجدُّدُ كذلكَ[2].

سرُّ التّعبيرِ بحرفِ التّمنّي: ﴿لَوۡلَآ﴾:

تعنّتُ الكافرينَ سببٌ لِتحذيرِ الرّسولِ مِن تركِ التّبليغِ وضيقِ الصّدرِ

جاءَ حرفُ التّمنّي ﴿لَوۡلَآ﴾ في قولِهِ: ﴿لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ كَنزٌ أَوۡ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌۚ﴾؛ لِيفيدَ محبّةَ الكافرينَ لِما اقترحوهُ وطلبَهُم لهُ، ولمّا اقترنَ به الفعلُ الماضي ﴿أُنزِلَ﴾، ﴿جَآءَ﴾ أفادَ التّنديمَ؛ بمعنى: قصدوا تنديمَ رسولِ اللّه والمؤمنينَ على تركِ إنزالِ الكنزِ إليهِ، ومجيءِ المَلَكِ معَهُ، فكأنَّهُم قصدوا لومَهُ على تركِ حصولِ ما اقترحوا، ولومَهُ كذلك على أنَّ المُنزّلَ هو القرآنُ، وأنَّ رسولَ اللّه هو الّذي أُرسِلَ إليهِم، فكأنَّهُم قالوا: هلّا أُنزِلَ عليهِ ما اقترحْنا نحنُ مِنَ الكنزِ والملائكةِ، ولِمَ أُنزِلَ عليهِ ما لا نريدُهُ ولا نقترحُهُ، فأفادَ هذا القولُ مَبلغَ تعنُّتِ الكافرين وقُبحِ قولِهِم وتهاونهم بالقرآنِ وعدم اعتدادِهِم به، لِيُؤذنَ بأنَّهُ كانَ سببًا لقولِهِ تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعۡضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدۡرُكَ﴾[3]، وذهبَ بعضُ المفسِّرينَ إلى أنَّ

(1) ، والواحدي، التّفسير البسيط: 11/362، والزّمخشريّ، الكشّاف: 2/382.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/17.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/382، والسّكّاكيّ، مفتاح العلوم، ص: 307، والتّفتازانيّ، المطوّل، ص: 408.

﴿لَوۡلَآ﴾ لِلتّحضيضِ بمعنى: (هلّا)[1]؛ بمعنى تحضيضِ الرّسولِ على أن يُنزَلَ إليه كنزٌ أو يأتي مَعَهُ مَلكٌ.

سرُّ العدولِ عنِ التّعبيرِ بالمُستقبلِ إلى التّعبيرِ بالماضي:

عِظَمُ الرّغبةِ تُخرِجُ المَرغوبَ في صورةِ الموجودِ

عَبَّرَ النّظمُ الكريمُ بالماضي ﴿أُنزِلَ﴾، والأصلُ أن يُعبَّرَ بالمُستقبلِ: لولا يُنزَلُ... لكنّهُ عَبَّرَ بالماضي كشفًا عن حرصِهم على تحقُّقِ مَرغوبِهم، فإنّ النّفسَ إذا اشتدَّ تعلُّقُها بالشّيءِ تصوَّرَتهُ في صورةِ الموجودِ.

دلالةُ مجيءِ الفعلِ ﴿أُنزِلَ﴾ مَبنيًّا لِلمفعولِ:

عنادُ الكافرينَ في تكذيبِ القرآنِ، مع علمِهم أنَّه هو الآيةُ العُظمى

بُنِيَ الفعلُ لِلمفعولِ؛ لأنَّ المقصودَ مُطلَقُ الحصولِ، وكأنَّ المعنى: ليُنزِلَ عليكَ كنزًا مِنَ السّماءِ أيُّ أحدٍ كانَ، لِيفيدَ تعنّتَهُم في الأمرِ وعنادَهُم في التّكذيبِ، كما أنَّ في قولِهم هذا إشعارًا بتكذيبِهم نزولَ القرآنِ وتهاونَهم فيه، لِعلمِهم أنَّه الآيةُ العُظمى، فَكانوا لا يَعُدُّونَهُ آيةً عِنادًا ومُكابَرةً[2].

دلالةُ التّعبيرِ بـ ﴿عَلَيۡهِ كَنزٌ﴾:

تعظيمُ المالِ الوفيرِ عندَ الكافرينَ أعماهُم عن تعظيمِ القرآنِ

لمّا طلبوا مِن رسولِ اللّه ﷺ أنْ يُنزَّلَ عليه كنزٌ أو أنْ يأتي معه مَلَكٌ دلَّ على أنَّ لِلكنزِ والمَلَكِ مَحلًّا في قلوبِ أُولَئِكَ وقَدْرًا، وأفادَ أنّهُم لا يقدرونَ القرآنَ المُنزَّلَ قَدرَهُ، ولا وجودَ رسولِ اللّه بينَ أظهرِهم، فإذا أُنزِلَ عليهِ كنزٌ عظّموهُ وصدَّقوهُ على مَا يدَّعِي[3]، كما أنّ في ذلك بيانًا لأنماطِ فكرِهم، وفضحا لها، وأنّهُم يَربطونَ السّيادةَ بالمالِ، وأنّه وحدَهُ سببُ التّعظيمِ، وهذه آفةُ الكافرينَ في كلِّ زمنٍ.

دلالةُ العطفِ في قولِهِ ﴿أَوۡ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌۚ﴾:

آفةُ الاستكبارِ تستبعدُ الجمعَ بينَ الرّسالةِ والبشريّةِ

بَيَّنَ العطفُ دواخلَ نفوسِهم، وقبحَ تَصوّراتِهم، إذ يدفعُهُمُ

(1) القنّوجيّ، فتح البيان: 6/149، والقاسميّ، محاسن التّأويل: 6/342، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/17.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/382، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 9/245.
(3) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنّة: 6/105.

الاستكبارُ إلى استبعادِ الجمعِ بينَ البشريّةِ والرّسالةِ، والمَلَكُ له محلٌّ عظيمٌ عندَهُم إذا كانَ معهُ عظمَّوهُ وصدّقوهُ[1].

بلاغةُ التّعريضِ:

قولُهُ تعالى ﴿أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌۚ﴾، وفيه أفادَ اقتراحُهُم تنزيل الكنزِ ومجيء المَلَكِ التّعريضَ بالكافرينَ، وتوبيخَهم، والإيذانَ بضعف عقولِهم؛ إذْ تركوا القرآنَ المنزّلَ، وطلبوا الكنزَ، وما علموا أنَّ القرآنَ أفضلُ مِنَ الكنزِ، وأعرضوا عَن رسولِ اللّه ﷺ، وطلبوا مجيءَ مَلَكٍ مِنَ الملائكة معه شاهدًا على رسالتِه، وجهلوا أنَّ رسولَ اللّه ﷺ أفضلُ مِنَ المَلَكِ، وهذا مِن جَهلِهم بحَقائِقِ الأُمورِ، وتَوَهُّمِهم أنَّ اللّه يَعبأُ بإعراضِهم، ويَتَنازَلُ لإجابَةِ مُقتَرَحِ عِنادِهِم[2]، فأشعرَ الكلامُ أنَّه كانَ ينبغي أن يكتفوا بالوحي المنزَّلِ وبرسولِ اللّه ﷺ، وينتفعوا مِنهُما.

الغباءُ يودي بصاحبِهِ إلى المَهالِكِ؛ لعدمِ التَّبصُّرِ بالعَواقِبِ

الغرضُ مِن أسلوبِ القصرِ: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌۚ﴾:

أفادَ القصرُ هنا قصرَ إفرادٍ بمعنى تخصيصِ الرّسولِ ﷺ بوصفِ النِّذارةِ، وكأنَّه ليسَ له وصفٌ سوى هذا الوصفِ؛ بمعنى إثباتِ وصفِ النِّذارةِ، وانتفاءِ أيِّ وصفٍ آخرَ لهُ ﷺ ليكونَ على طريقِ القصرِ الإضافيِّ، فلا يضرُّ كونُهُ ﷺ بشيرًا، وعَبَّرَ بالأداةِ ﴿إِنَّمَآ﴾ للإشعارِ بأنَّ وَصفَ رسولِ اللّه بالنِّذارةِ جليٌّ وواضحٌ في نفسِ الأمرِ، فلا يحتاجُ إلى تحقيقٍ ودليلٍ[3]، ولمّا كانَ النّبيُّ ﷺ شديدَ الحرصِ على هدايةِ الخَلقِ، وما كانَ مُتمنّاهُ سوى رجوعِ الكافرينَ عنِ الكفرِ، وكانَت شفقتُهُ عليهم، ورغبتُهُ لَهُم، تجعلُهُ يتكلَّمُ معَهُم بالنّذارةِ والبشارةِ، أبرزَ ذلك في مَعرِضِ المُتردّدِ بينَ وصفي النّذارةِ والبشارةِ، فَقَصَرَ

بعضُ الكافرينَ لا تنفعُ معَهُمُ البشارةُ، ولا يستحقّونَها، وليسَ لَهُم إلّا النِّذارة

(1) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنّة: 6/105.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/17.
(3) السّكّاكيّ، مفتاح العلوم، ص: 295.

وصفَهُ على النِّذارةِ قصرَ إفرادٍ؛ لِيفيدَ أنَّ هؤلاء لا تنفعُ معَهُمُ البشارةُ ولا يَستحقّونَها، وليسَ لَهُم إلّا النِّذارة لِمَا يَرتكبونَهُ مِن قبائحِ الأقوالِ والأعمالِ، وأفادَ التّعبيرُ بالأداةِ ﴿إِنَّمَآ﴾ تأكيدَ المعنى وتقريرَهُ، ويحتملُ أن يكونَ القَصرُ قصرَ قَلبٍ؛ أي: أنتَ نَذيرٌ لا مُوَكَّلٌ بإيقاعِ الإيمانِ في قُلوبِهِم إذ لَيسَ ذلِكَ إليكَ بَل هو للّه، كما دلَّ عليهِ قَولُهُ قَبلَهُ ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌۢ بَعۡضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدۡرُكَ﴾[1].

سرُّ إيثارِ ذكرِ وصفِ النِّذراةِ:

الاقتصارُ على النِّذارةِ لِلمُتعنِّتينَ المُستحقِّينَ لها راحةٌ لِلمُنذرِ المعصومِ

كانَ الاقتصارُ على النّذيرِ في أقصى غايةٍ مِن إصابةِ المَحزِّ؛ لأنَّ المقامَ مَقامُ تخويفٍ لِلمُتعنِّتينَ المُكذِّبينَ وترهيبٍ لَهُم مِن أن يُؤذوا رسولَ اللّه ﷺ، أو أنْ يجعلوا صدرَهُ ضائِقًا، فكيفَ إنْ زادوا على ذَلِكَ؟، فالمَقامُ يَقتضي الاقتصارَ على النِّذارةِ لأنَّهُم أهلٌ لها[2]. كما أنَّه لمّا أفهمَ التّعبيرُ بـ ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌۢ بَعۡضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ﴾ الإنكارَ لِما يفتُرُ عنِ الإنذارِ، كانَ كأنَّه قِيلَ لهُ: لا تترُكْ بعضَ ما يُوحَى إليك، ولا يضِقْ صدرُكَ ممّا يَقولون؛ لأنَّ المَقصودَ الأعظمَ مِنَ الرّسالةِ هو النِّذارةُ؛ لأنَّها هي الشَّاقَّةُ على النُّفوسِ، وأمّا البشارةُ فكلُّ مَن قامَ يقدرُ على إبلاغِها، فَبلِّغْهُم ما أُرسِلتَ بهِ[3].

نكتةُ مجيءِ: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌۚ﴾:

صاحبُ الدّعوةِ إلى اللهِ نَذيرٌ لا وَكيلٌ على تَحصيلِ إيمانِ الكافرينَ

لمّا جاءَ قولُهُ: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌۚ﴾ إثرَ قولِهِم: ﴿لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ كَنزٌ أَوۡ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌۚ﴾ دلَّ على أنَّه جاءَ لردِّ ما قبلَهُ؛ أي: عليكَ أن تنذرَهُم، وليسَ أنْ تأتيَهُم بما يَقترحونَ، فلا عليكَ بما رَدُّوا أو اقترَحُوا، فما بالُكَ يَضيقُ بهِ صدرُكَ، كما أنَّ تصديرَ الجملةِ بـ ﴿إِنَّمَآ﴾ يُفيدُ أنَّها جاءَت في مَوقِعِ العِلَّةِ للتَّحذيرِ مِن تَركِهِ بَعضَ ما يُوحَى إليهِ وضِيقِ

(1) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 10/36، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/17.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 3/129، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/191.
(3) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنّة: 6/105.

صَدرِهِ مِن مَقالَتِهِم، فكأنَّهُ قِيلَ: لا تَترُكْ إبلاغَهُم بَعضَ ما يُوحَى إليكَ ولا يَضِقْ صَدرُكَ مِن مَقالِهِم؛ لأنَّكَ نَذيرٌ لا وَكيلٌ على تَحصيلِ إيمانِهِم، حتَّى يَتَرَتَّبَ على يَأسِكَ مِن إيمانِهِم تَركُ دَعوَتِهِم[1].

الغرضُ مِنَ التّعبيرِ بالكنايةِ:

قولُهُ: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌۚ﴾ جملةُ القصرِ هذه كنايةٌ عنِ البشارةِ بالأمنِ ممّا يُخافُ أنْ يلحقَ رسولَ اللّه ﷺ مِن جهةِ الكُفّارِ، كما أنَّ فيها إيذانًا بِلُزومِ التَّبليغِ؛ وذلكَ أنَّ الأخيارَ إذا ابتُلوا بالأشرارِ فَقد يُؤذَنُ لَهُم بِمفارقَتِهِم، وتركِ الأمرِ فيهِم، فبيَّنَ أنَّه ليسَ لهُ ذلكَ، وعليهِ التَّبليغُ مع ذلك[2].

الأخيارُ إذا ابتُلوا بالأشرارِ قد يُؤذَنُ لَهُم بمفارقتِهِم

بلاغةُ التّعريضِ في: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌۚ﴾:

في جملةِ القَصرِ تَعريضٌ بالمُشرِكينَ بِرَدِّ اعتِقادِهِم أنَّ الرَّسولَ يأتي بما يُسألُ عنهُ مِنَ الخَوارِقِ، فإذا لَم يأتِهِم بِهِ جَعَلوا ذَلِكَ سَنَدًا لِتَكذيبِهِم إيَّاهُ رَدًّا حاصِلًا مِن مُستَتبَعاتِ الخِطابِ، كَما تَقَدَّمَ عِندَ قَولِهِ تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌۢ بَعۡضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ﴾، إذْ كَثُرَ في القُرآنِ ذِكرُ نَحوِ هَذِهِ الجُملَةِ في مَقامِ الرَّدِّ على المُشرِكينَ والكافِرينَ الَّذينَ سَألُوا الإتيانَ بِمُعجِزاتٍ على وَفْقِ هَواهُم[3].

رسولُ اللهِ لا يملكُ الإتيانَ بالخوارقِ بل الأمرُ للهِ أوَّلًا وأخيرًا

بلاغةُ الجملةِ التّذييليّةِ:

قولُهُ: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٌ﴾، وفيه أنّه لمّا جاءَت جملةُ التّذييلِ على معنى القصرِ الحقيقيِّ بتقديمِ شبهِ الجملةِ ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ على الخبرِ ﴿وَكِيلٌ﴾؛ أي: اللّه وحدَهُ على كلِّ شيءٍ وكيلٌ، أفادَ ما أنتَ عليهِم بوكيلٍ على إلجائِهِم إلى الإيمانِ، وفيهِ تعريضٌ بأنَّه ليسَ عليكَ أن تتوصّلَ إلى ردِّهِم إلى الإيمانِ بالقَهرِ والغلبةِ بل الوكيلُ

التَسليَةُ بأنَّ اللّهَ مُطَّلِعٌ على مَكرِ الكافرينَ، وحافظٌ للرّسولِ وللمؤمنينَ

(1) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنّة: 6/105، والواحديّ، التّفسير الوجيز، ص: 514، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/129، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/17.

(2) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنّة: 6/105.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/17.

هو اللّه الفاعِلُ لِما يشاءُ، فهو الّذي يحفَظُ أحوالَكَ. وجاءَت جملةُ التّذييلِ مَعطوفةً على جملةِ القصرِ الّتي قَصرَت وصفَ الرَّسولِ على النِّذارةِ؛ للإشعارِ بالأمرِ بالتَّوكُّلِ على اللّه، وبأنَّهُ تعالى وكيلٌ على قلوبِ المُكذِّبينَ وهُمُ المقصودُ، وإنَّما جاءَ الكلامُ بصيغَةِ العُمومِ لِيَكونَ تَذييلًا وإتيانًا لِلغَرَضِ بما هو كالدَّليلِ لِما تَقَدَّمَ، ولينتقلَ من العمومِ إلى تسليةِ النَّبيِّ ﷺ بأنَّ اللّه مُطَّلِعٌ على مَكرِ أُولَئِكَ، وأنَّ اللّه عالِمٌ بِبَذلِ النَّبيءِ جُهدَهُ في التَّبليغِ، والمعنى: فتوكَّلْ عليهِ في جميعِ أمورِكَ، فإنّه فاعِلٌ بهِم ما يليقُ بحالِهِم جزاءَ أقوالِهِم وأفعالِهِم، كما أنَّ عمومَ جملةِ التّذييلِ وكُلّيّتَها جعلَها بمثابةِ المثَلِ في جريانِها في الكلامِ[1].

دلالةُ التّعبيرِ بِ حرفِ الاستعلاءِ ﴿عَلَىٰ﴾:

قولُهُ: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٌ﴾، وفيه لمّا كانَ حرفُ ﴿عَلَىٰ﴾ لِلاستعلاءِ كان على معنى العُلوِّ، فدَلَّ على تضمينِ لفظِ ﴿وَكِيلٌ﴾ معنى رَقِيبٍ ومُطَّلِعٍ، فهو المُهيمِنُ[2]؛ أي: واللّه مُتولِّي الأمورِ كلّها، وهو مُطَّلِعٌ عليها؛ والمعنى: إنّما أنتَ نذيرٌ، واللّه هو الّذي يَتولَّى أمورَكَ وأمورَهُم، فهو الرّقيبُ عليكُم، وعلى أعمالِكُم وأقوالِكُم جميعًا.

اللهُ تعالى الّذي يَتولَّى أمورَ الخلقِ كلَّها هو الرّقيبُ عليهِم جميعًا

(1) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/129، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/18.
(2) الكفويّ، الكلّيّات، ص: 1078.

﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾﴾ [هود: 13]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

مواساة النّبيّ ﷺ في مَواجهةِ الافتراءاتِ، بأنّ القرآنَ دَليل على صدقِهِ

لمّا كانَ القومُ قد طلبوا تركَ بعضِ ما يُوحَى إلى الرّسولِ ﷺ لدعواهم أنَّه مُفترًى، وكانوا قد طَلبوا منه المُعجزَ بإنزالِ الكنزِ أو مَجيءِ مَلَكٍ جاءَت هذه الآيةُ، فكانَ كأنَّه قيلَ ما يطلبونَه منكَ، إنَّما هو على وجهِ التَّعنُّتِ، وأنَّ المُعجزَ هو ما يُوحَى إليكَ، وهو القرآنُ، ثمَّ أقامَ الدّليلَ على إعجازِه.

وأيضا لمّا طَلَبَ المشركونَ مِن رسولِ اللّه ﷺ المُعجزَ، قالَ: مُعجزي هَذا القُرآنُ، ولمّا حَصَلَ المُعجزُ الواحدُ كانَ طَلَبُ الزّيادَةِ بإنزالِ الكنزِ أو مَجيءِ المَلكِ بَغيًا وجَهلًا، ثُمَّ أقامَ الحُجّةَ على كَونِهُ مُعجزًا بأنْ تَحدّاهُم بالمُعارَضةِ[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱفْتَرَىٰهُ﴾: الفَرْيُ: قَطعُ الجلدِ لِلخَرزِ والإصلاحِ، وَمِنَ البابِ: فُلانٌ يَفري الفَريَّ، إذا كانَ يَأتي بالعَجَبِ، كأنَّهُ يَقطَعُ الشَّيءَ قَطعًا عَجَبًا، وأفرَيتُ الثّوبَ، إذا أنتَ قَطَعتَهُ للإفسادِ، ويُستعمَلُ الإفراءُ في الإفسادِ أكثرَ، وكذلكَ استُعمِلَ في القرآنِ كناية عن الكذبِ والشّركِ والظّلمِ، وفَرَى الكذبَ وافتراه: اختلقهُ؛ أي: ابتكرَهُ مِن عندِ نفسِهِ وهيّأهُ، وسُمّيَ الكذبُ: فريةً وافتراءً؛ لأنَّ المفتريَ يقتطعُ الكلامَ اقتِطاعًا مِن تلقاءِ نفسِهِ، ويقطعُ، ويفسدُ في عِرْضِ غيرِهِ، ولا يكونُ الافتراءُ إلّا فيما عَظمَ أمرُهُ، وكلُّ ما في القرآنِ مِن لفظِ الافتراءِ فهو بمعنى اختلاقِ ما لا حقيقةَ له[2].

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/324.

(2) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (فري)، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (فرى)، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (فرئ).

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

إقامةُ الحجّةِ على إعجازِ القرآنِ، وأنّه مُنزَّلٌ مِنَ اللهِ لا ريبَ فيه

لا يضِقْ صدرُكَ - يا محمد ﷺ - ممَّا يرميكَ به هؤلاءِ المشركونَ، فإنَّهُم لم يكتفوا بما طلبوهُ منكَ، بل تجاوزوا ذلكَ إلى ما هو أشدُّ جُرمًا، وهو قولُهُم: إنَّك افتريتَ القرآنَ الكريمَ، واخترعتَهُ مِن عندِ نفسِكَ، قلْ لَهُم: إنْ كانَ الأمرُ كما تزعمونَ فأتوا بعشرِ سورٍ مثل القرآنِ مُفترياتٍ، واستعينوا بمَنِ استطعتُم مِنْ دونِ اللّه إلى المعاونةِ على مُعارضةِ القرآنِ، إنْ كُنتُم صادِقينَ في قولِكُم: افتراهُ[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالةُ ﴿أَمْ﴾ المنقطعة:

القولُ بافتراءِ القرآنِ أشنعُ مِن عدمِ الاعتدادِ بهِ، وأدلُّ على عنادِ أهلِ الكفرِ

الظّاهرُ أنَّ ﴿أَمْ﴾ هنا مُنقطِعةٌ، ولمّا كانَت ﴿أَمْ﴾ المنقطعةُ مُضمّنةً معنى (بَلْ) وهمزةِ الاستفهامِ، وهي للإضرابِ الانتقاليِّ، وكانَت همزةُ الاستفهامِ فيها للإنكارِ المُضمَّنِ معنى النّهي، والمفيدِ غرضَ التّوبيخِ والاستبعادِ والتّعجيبِ، أفادَتِ انتقالَ الكلامِ بها مِن غرضِ التّوبيخِ والتّعجيبِ مِن اقتراحِهُمُ المعجزاتِ إلى غرضٍ آخرَ هو الإنكارُ على قولِهِم: إنَّ الرَّسولَ قدِ افترى القرآنَ، وتوبيخُهُم عليهِ، والتّعجيبُ مِن قولِهِم واستبعادُهُ، ولمّا كانَت ﴿أَمْ﴾ لِلتَّوسُّطِ في الكلامِ دلَّ على أنَّ هذا التّوبيخَ والتَّعجيبَ له علاقةٌ بما قبلَهُ؛ لأنّهُما في موضوعٍ واحدٍ، فهو استفهامٌ مُعترِضٌ في وسطِ الكلامِ، ولهذا قالَ: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ﴾، ولم يقُلْ: (أيقولون افتراه)؛ ولمّا كانَت ﴿أَمْ﴾ للإضرابِ الانتقاليِّ لِما هو أهمُّ أفادَتِ الانتقالَ لِما هو أشنعُ مِن عدمِ اعتدادِهِم بما يُوحَى إلى الرّسولِ ﷺ، وأقبحُ مِن اقتراحِهِمُ المعجزاتِ وهو قولُهُم: إنَّه مُفترًى، وليسَ مِن عندِ اللّه[2]، ويُحتمَلُ أن تكونَ ﴿أَمْ﴾

(1) ابن جرير، جامع البيان: 15/259، والواحديّ، التّفسير الوسيط: 2/567، وطنطاوي، التّفسير الوسيط: 7/174، ونخبة من أساتذة التّفسير، التّفسير الميسّر، ص: 223.

(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/383، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/155، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/130، والرّضيّ، شرح كافية ابن الحاجب: 4/416، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 10/37.

مُتَّصلةً لِتفيدَ عطفَ ما بعدَها على ما قبلَها في المعنى؛ لِيكونَ العطفُ على وجهِ المعادلةِ والمقايَسةِ، والتّقديرُ: أيكتفونَ بما أوحينا إليكَ مِنَ القرآنِ أو أيقرُّونَ بما أُوحِي إليكَ أنّهُ مِن عندِ اللّه أم يقولونَ افتراهُ؛ لِيفيدَ تمامَ إقامةِ الحُجّةِ عن طريقِ النّظرِ والاستدلالِ[1].

دلالةُ الفعلِ المضارعِ ﴿يَقُولُونَ﴾:

أفادَ التّعبيرُ بالفعلِ المضارعِ استمرارَ قولِهم هذا وتجدُّدَهُ وقتًا فوقتًا، وفيه إشعارٌ بقولهم بأنَّ القرآنَ مُفترًى سيقولُهُ ناسٌ آخرونَ؛ لاقترانِ الكلامِ بالدّليلِ على إبطالِ هذه الفريةِ.

تجدُّدُ القولِ بافتراءِ القرآنِ مع ثباتِ الدّليلِ على بطلانِ هذا الزّعمِ

نكتةُ التّعبيرِ بـ ﴿ٱفۡتَرَىٰهُۖ﴾:

عُبِّرَ بالافتراءِ دونَ الكذبِ أو الاختلاقِ مثلًا؛ للإشعارِ بتعنُّتِهم ومُكابرتِهم في أنْ نسبوا إلى رسولِ اللّه ﷺ اختلاقَ القرآنِ وتهيئتَهُ مِن عندِهِ، فالضَّميرُ المُستَترُ في ﴿ٱفۡتَرَىٰهُۖ﴾ عائدٌ إلى النّبيِّ ﷺ المَذكورِ في قولِهِ: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعۡضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ﴾ [هود: 12]، ولمّا كانَ الافتراءُ لا يكونُ إلّا في أمرٍ مُنكَرٍ عظيمٍ، كانَ كأنَّهُم قصدوا تعظيمَ اللّه تعالى مِن أن يُنسبَ القرآنُ إليه، وكأنَّهم كانوا أكثرَ حرصًا على حدودِ اللّه مِن رسولِهِ ﷺ، ففيه تعجيبٌ مِن حالِهم وإنكارٌ على جهلِهم.

الـقـولُ بـافـتـراءِ الـقـرآنِ مُـكـابـرةٌ وجَـهـلٌ بـالـقـرآنِ وبالرّسولِ ﷺ

دلالةُ الضّميرِ البارزِ في: ﴿ٱفۡتَرَىٰهُۖ﴾:

لمّا كانَ الضّميرُ عائدًا على الاسمِ الموصولِ ﴿مَا﴾ في قولِهِ: ﴿بَعۡضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ﴾، دلَّ على أنَّهم نسبوا القرآنَ إلى الافتراءِ مع علمِهم في قرارةِ أنفسِهم أنَّه قد أُوحِي إليكَ بهِ، لِمَا تفيدُهُ جملةُ الصّلةِ مِن كونِها معلومةَ الانتسابِ إلى مُشارٍ إليهِ عندَ السّامعينَ[2].

علمُ الكافرينَ في قـرارةِ أنفسِهم بحقّيّةِ القرآنِ

(1) السّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 6/295، وابن عادل، اللّباب: 10/333، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 10/37.

(2) السّكّاكيّ، مفتاح العلوم، ص: 181.

سرُّ الفصلِ في الجملةِ المُصدَّرةِ بـ: ﴿قُلْ﴾:

لا بُدَّ في إثباتِ الدّينِ مِن تقريرِ الدَّلائِلِ بالمحاورةِ والحجاجِ

قولُهُ: ﴿قُلْ فَأْتُواْ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ﴾، نجدُ أنّه لمّا قالَ: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ﴾ لم يُعرِضْ عن قولِهِم، بل أرخى لهم العنانَ، وأجابَهُم بالقولِ المُضمَّنِ بالحجّةِ، فهو جوابٌ لِكلامِهِم، فلذلكَ فُصِلَتْ على ما هوَ مُستَعمَلٌ في المُحاوَرَةِ؛ وفيه إشعارٌ بأنَّه لا بُدَّ في إثباتِ الدّينِ مِن تَقريرِ الدَّلائِلِ والبَراهينِ بالمحاورةِ والحجاجِ؛ وذلكَ لأنَّهُ تعالى أورَدَ في إثباتِ نُبوَّةِ مُحمَّدٍ ﷺ هذا الدَّليلَ وهذِهِ الحُجَّةَ، ولولا أنَّ الدّينَ لا يَتِمُّ إلّا بالدّليلِ لم يكُنْ في ذكرِهِ فائدةٌ[1].

نكتةُ مجيءِ لفظِ ﴿قُلْ﴾:

تسليةُ الرّسولِ ﷺ وتكريمُهُ وتشريفُهُ بالإجابةِ

لمّا أخبرَ اللّه تعالى عنِ استهزاءِ المشركينَ وتعنُّتِهِم لرسولِ اللّه ﷺ، وذكرَ قولَهُ: ﴿وَضَآئِقٌۢ بِهِۦ صَدْرُكَ﴾ [هود: 12]، أمرَ حبيبَهُ ﷺ أنْ يجيبَهُم تكريمًا له وتشريفًا وتسليةً، كما أنَّ فيه تقريرًا لِما تقدَّمَ مِن أنّهُ يُبلِّغُ ما يُوحَى إليهِ، فيكونُ التّعبيرُ مِن تمامِ الحجّةِ على أنَّ القرآنَ مِن عندِ اللّه، وأنَّ رسولَهُ ﷺ مُبلِّغٌ عَنِ اللّه تعالى.

دلالةُ الفاءِ في: ﴿فَأْتُواْ﴾:

إذا كانَ الافتِراءُ يأتي بهذا القرآنِ، فَما للكافرينَ لا يفترونَ مِثلَهُ!

أفادتِ الفاءُ تعلُّقَها بشرطٍ مُقدَّرٍ لِوقوعِها في الجوابِ، والتّقديرُ: قُلْ إنْ كانَ الأمرُ كما تزعمونَ أو إنْ صحَّ أنّي اختلقتُهُ مِن عندِ نفسي، فأتوا أنتُم بعَشرِ سوَرٍ مِثلِهِ مُفتَرَياتٍ، فتفيدُ الفاءُ معنى التّعقيبِ والتّرتيبِ، فنكتةُ مجيءِ الفاءِ الإشعارُ بوجودِ الشّرطِ والجزاءِ؛ لإظهارِ إقامةِ الحجَّةِ عليهِم، ولمّا كانَ الشّرطُ على معنى السّببِ لِلجزاءِ أفادَ معنى المُلازَمَةِ بَينهما؛ أي: إذا كانَ الافتراءُ يأتي بهذا القرآنِ، فما لَكُم لا تَفتَرونَ أنتُم مِثلَهُ، فَتَنهَضَ حُجَّتُكُم، فإنْ عَجزتُم دلَّ على بطلانِ الشّرطِ المُقدَّرِ[2].

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/325، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/19.

(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/347، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/191، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 10/39، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/21.

بلاغةُ الأمرِ في: ﴿فَأۡتُواْ﴾:

عجزُ المُشركينَ عنِ الإتيانِ بمثلِ القرآنِ عجزٌ لغيرِهم بطريقِ الأَولى

لمّا كانَ قولُ المشركينَ، بأنَّ القرآنَ مُفترىً مِن عندِ رسولِ اللّه ﷺ بمثابةِ نفي إعجازِه، كانَ قولُهُم كَمَنِ ادّعَى أنَّ في وسعِهم فِعلَهُ والإتيانَ بمثلِه؛ لأنَّه على وفقِ دَعواهُم هو مِن كلامِ البشرِ، فلمّا ادّعوا أمرًا ليسَ في وسعِهم كانَ الأمرُ في قولِه: ﴿فَأۡتُواْ﴾ على معنى امتناعِ أن يكونَ المطلوبُ بالأمرِ الإتيانَ بعشرِ سورٍ مثلِه لعلمِ اللّه بامتناعِه منهُم، فتوجَّهَ الأمرُ على مطلوبٍ ممكنِ الحصولِ، وهو بيانُ عجزِهم؛ لِيكونَ الأمرُ على طريقِ المجازِ، وتولَّدَ منه التَّعجيزُ؛ أي: إظهارُ عجزِهم، وإفحامُهُم عنِ الإتيانِ بعشرِ سورٍ مُفترياتٍ، وفي تعجيزِهم بالأمرِ زيادةُ بيانٍ وتثبيتٍ لإعجازِ القرآنِ بطريقِ التّحدّي، فإنَّ كلَّ ظهيرٍ مِن سواهُم دونَهُم في البلاغةِ، فعجزُهُم عَجزٌ لِغيرِهم بطريقِ الأولى[1].

دلالةُ واوِ الجمعِ في: ﴿فَأۡتُواْ﴾:

الإيذانُ بقوّةِ حُجّةِ القرآنِ في أنّه مُعجِزٌ في كلِّ زمانٍ ومكانٍ

لمّا جاءَ الأمرُ بصيغةِ الجمعِ دلَّ على أنَّه مُوجَّهٌ إلى جميعِ المُخاطَبينَ الّذينَ قالوا بالافتراءِ، فالخطابُ لا يختصُّ بمعيَّنينَ وقتَ نزولِ القرآنِ؛ لِيتناولَ كلَّ مَن يقولُ بافتراءِ القرآنِ، ويدخل فيه المشركون وقتَ النّزولِ دخولًا أوَّليًّا، ونكتةُ التّعبيرِ بصيغةِ الخطابِ الإيذانُ بقوّةِ حُجّةِ القرآنِ في أنّهُ مِن عندِ اللّه في كلِّ زمانٍ ومكانٍ.

نكتةُ التّعبيرِ بـ ﴿فَأۡتُواْ﴾:

التَّحدِّي بالإتيانِ بعشرِ سورٍ، سواءٌ كانَ بالاسترفادِ أم بالاختراعِ

لم يقُلْ نحو: (فليقولوا عشرَ سورٍ مثلِه مُفترياتٍ)، وعُبِّرَ بالأمرِ بالإتيانِ؛ لأنَّه لمّا كانَ الإتيانُ بالشَّيءِ بمعنى جلبِه وإحضارِه، سواءٌ كانَ بالاسترفادِ مِنَ الغَيرِ أم بالاختراعِ مِنَ الجالبِ، أفادَ التَّوسعةَ عليهِم في التَّحدِّي؛ أي: سواءٌ أكانَ الإتيانُ مِن قِبَلِكُم أم مِن جهةٍ أخرى تقومُ مقامَكُم؛ ليُظهِرَ عجزَهُم مِن جميعِ الجهاتِ[2].

---

(1) النّسفيّ، التّيسير في التّفسير: 8/171، والسّكّاكيّ، مفتاح العلوم، ص: 304، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 9/249، والسّبكيّ، عروس الأفراح: 1/464.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/19.

سببُ إيثارِ ذكرِ العددِ في: ﴿بِعَشْرِ سُوَرٍ﴾:

لا فرق في التحدّي بأيّ سُوَرٍ عشرة من القرآن كان

لمّا كانَ القرآنُ على تنوُّعِ سورِهِ لا يوجدُ فيه اختلافٌ مِن جهةِ المعاني والألفاظِ والإخبارِ عنِ المغيَّباتِ والقصصِ والأحكامِ والأخلاقِ وغيرِ ذلك، ولم يكُنْ فيه تناقضٌ، خُصِّصَ العددُ لأمرين: أحدهما لإيثارِ طريقِ القصدِ في العددِ، والثّاني للإيذانِ بأنَّ هذا العددَ ممّا تختلفُ بهِ المعاني؛ وذلكَ لِدفعِ الافتراءِ، ونفيِ التُّهمَةِ، والاحتجاج على أنَّه مِن عندِ اللّه لا مِن عندِهِ، يعني: لو كانَ مُفترًى مِن عندي لَوجدتُم فيهِ اختلافًا كثيرًا[1].

دلالةُ الضّميرِ في: ﴿مِّثْلِهِۦ﴾:

لمّا كانَ القرآنُ وحيًا مِن عندِ اللهِ اقتضى أنْ لا يكونَ له مِثلٌ ولا نظيرٌ

لمّا عادَ الضّميرُ على الاسمِ الموصولِ في قولِهِ: ﴿مَا يُوحَىٰٓ﴾ [هود: 12] دلَّ على أنَّ المعنى: فأتوا بعشرِ سورٍ مثلِ الّذي يُوحَى إليكَ مُفترياتٍ، فأفادَ عودُ الضّميرِ تعظيمَ شأنِ القرآنِ، وتقريرَ وصفِهِ؛ بأنَّهُ وحيٌ مِنَ اللّه إلى رسولِهِ ﷺ، وفيه إيذانٌ بأنَّ كونَهُ وحيًا مِنَ اللّه يقتضي أنْ لا يكونَ لهُ مثلٌ، فيدلُّ على أنَّ الطّلبَ جاءَ على سبيلِ التّعجيزِ والتّبكيتِ.

مناسبةُ إفرادِ الصِّفة في: ﴿مِّثْلِهِۦ﴾:

التّوافقُ في المعاني والألفاظِ في سورِ القرآنِ مُوصِلٌ إلى مرتبةِ الإعجازِ

لمّا كانَ مِن شرطِ النّعتِ مُساواتُهُ المنعوتَ في الإفرادِ والجمعِ كانَ الظّاهرُ أن يقولَ: (بعشرِ سورٍ أمثالِه) لتعدُّدِ الموصوفِ؛ لكنْ جاءَ الوصفُ في قولِهِ: ﴿مِّثْلِهِۦ﴾ مُفردًا مُراعاةً لِمُقتضَى الحالِ؛ للإيذانِ بأنَّ سورَ القرآنِ كلَّها شيءٌ واحدٌ، فلا اختلافَ في معانيها ولا في بلاغتِها؛ لِيدُلَّ على اعتبارِ أفرادِ المعدودِ واحدًا واحدًا لا باعتبارِ مجموعِ السّورِ العشرِ، ويحتملُ أن يكونَ المرادُ المفهومَ مِن مجموعِ السّورِ العشرِ؛ أي: أنْ يكونَ المُرادُ هوَ المَجموعَ؛ لأنَّ مَجموعَ السّورِ العَشرَةِ شيءٌ واحِدٌ؛ للإيماءِ إلى أنَّ وجهَ الشّبهِ ومدارَ المماثلةِ في

(1) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 8/31.

الجميعِ شيءٌ واحدٌ هو التّوافقُ في المعاني والألفاظِ المؤدِّيةِ إلى مرتبةِ الإعجازِ، فكأنّ الجميعَ واحدٌ، أو لأنَّ لفظَ ﴿مِّثۡلِهِۦ﴾ مصدرٌ في الأصلِ، فيُوصَفُ بها المثنى والمجموعُ والمؤنَّثُ، كقولِهِ تعالى: ﴿أَنُؤۡمِنُ لِبَشَرَيۡنِ مِثۡلِنَا﴾ [المؤمنون: 47]، ويجوزُ المطابقةُ كما في قولِهِ تعالى: ﴿وَحُورٌ عِينٞ ٢٢ كَأَمۡثَٰلِ﴾ [الواقعة: 22 - 23]، وقولِهِ تعالى: ﴿ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمۡثَٰلَكُم ٣٨﴾ [محمد ﷺ: 38][1].

دلالةُ: ﴿مِّثۡلِهِۦ﴾:

أفادَ لفظُ المثلِ أنَّ المرادَ مثلُهُ في نوعِ إعجازِ القرآنِ، لِما يدُلُّ عليهِ لفظُ ﴿مِّثۡلِهِۦ﴾ من أنَّ المرادَ وجهٌ من وجوهِ المُماثَلةِ، وهو هنا النّظمُ والبلاغةُ وحسنُ البيانِ المُتآلِفِ مع المعنى؛ أي: وإنْ لم يكُنْ مثلَهُ في سردِ المعاني والأحكامِ؛ لأنَّه لمّا قالَ: ﴿مُفۡتَرَيَٰتٖ﴾ دلَّ على أنَّ المرادَ مثلُهُ في البلاغةِ، وإنْ كانَ مُفترًى مِن عندِ أنفسِكُم، وفيه إشعارٌ بأنَّكُم غيرُ مُلزَمينَ بحقائقِ المعاني وصدقِ الأخبارِ؛ لِيكونَ أقوى في إثباتِ الحجَّةِ بعدَ التَّوسُّعِ في التّحدِّي[2].

التَّوسُّعُ في التَّحدِّي؛ لِتقويةِ الحجّةِ وظهورِ عجزِ الكافرينَ عنِ الإتيانِ بمثلِهِ

نكتةُ مجيءِ: ﴿مُفۡتَرَيَٰتٖ﴾:

جاءَ اللَّفظُ على مُقتضَى سؤالِهِم، وهو كالقولِ بالمُوجِبِ المذكورِ في علمِ البديعِ؛ ليكونَ أظهرَ في إقامةِ الحجّةِ عليهم، فإنَّهُم لمّا زعموا أنَّ القرآنَ مُفترًى خاطَبَهُم على وَجْهِ التَّبْكيتِ لَهُم والمقابَلَةِ لِلَفْظِهِمْ فَقالَ: ﴿مُفۡتَرَيَٰتٖ﴾؛ لِيُقيمَ عليهم تمامَ الحجَّةِ مِنَ اللّفظِ الّذي وصفوا به القرآنَ، فيكونُ اللّفظُ على معنى المقابلةِ لقولِهِم، لا لِتحقيقِ وصفِ القرآنِ بأنَّه مُفترًى، يعني: إنْ كانَ كما تزعمونَ

مُسايرةُ القائلينَ بالافتراءِ؛ لِتمامِ إظهارِ الحُجّةِ عليهم، فيما يَفترونَ

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/324، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/130، والطّيبيّ، فتوح الغيب: 8/3395، والسّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 6/2، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/191، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 10/38.

(2) عبد القاهر الجرجانيّ، الرّسالة الشّافية ضمن دلائل الإعجاز، ص: 606، والزّمخشريّ، الكشّاف: 2/383، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/155، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 9/248.

مُفترًى، وأنّي اختلقتُهُ مِن نفسي، ولم يوحَ إليَّ كما قلتُم، فأتوا أنتُم بعشرِ سورٍ مثلِهِ مُفترياتٍ، فأنتُم عربٌ فصحاءُ مثلِي لا تعجزونَ عن فَصيحِ الكَلامِ وبَليغِهِ[1].

براعةُ التّعبيرِ بوصفِ ﴿مُفۡتَرَيَٰتٖ﴾:

الإشعارُ بأنَّ وجهَ إعجازِ القرآنِ هو في بلاغتِهِ ونظمِهِ

في التّعبيرِ بوصفِ ﴿مُفۡتَرَيَٰتٖ﴾ إشعارٌ بأنَّ وجهَ إعجازِ القرآنِ هو بلاغتُهُ لا باشتمالِهِ على المغيّباتِ وكثرةِ العلومِ؛ لأنَّهُ لو كانَ وَجهُ الإعجازِ هو كَثرَةَ العُلومِ أوِ الإخبارَ عَنِ الغُيوبِ أو عَدَمَ التَّناقُضِ لم يَكُنْ لِقولِهِ: ﴿مُفۡتَرَيَٰتٖ﴾ معنًى، أمّا إذا كانَ وَجهُ الإعجازِ هوَ البلاغةَ صَحَّ ذلِكَ؛ لأنَّ فصاحةَ الفصيحِ تَظهرُ بالكلامِ، سواءٌ كانَ الكلامُ صِدقًا أو كَذِبًا[2].

بلاغةُ التّعريضِ في: ﴿مُفۡتَرَيَٰتٖ﴾:

ما قالَ المُشرِكونَ بالافتراءِ إلّا لوقوعِهِ منهُم وتعوّدِهِم عليهِ خلالَ معاركِهِم مع الحقِّ

في التَّعبيرِ بلفظِ ﴿مُفۡتَرَيَٰتٖ﴾ تعريضٌ بالكافرينَ بأنّ الافتراءَ إنّما يقعُ مِنهُم لِتعوّدِهِم عليهِ، وفيه إشعارٌ بوقوعِ الافتراءِ منهُم لمّا تقوّلُوا على رسولِ اللّه ﷺ، ونسبوهُ إلى الافتراءِ، وتوبيخٌ لَهُم كذلكَ، فإنَّه ما دعاهُم إلى الافتراءِ إلّا لِقدرتِهِم عليهِ.

براعةُ تقديمِ وصفِ ﴿مِّثۡلِهِۦ﴾ على ﴿مُفۡتَرَيَٰتٖ﴾:

براعةُ البلاغةِ القرآنِ في تقديمِ المقصودِ بالتّحدّي في السّياقِ البليغِ

أُخِّرَ وصفُ ﴿مُفۡتَرَيَٰتٖ﴾ عن قولِهِ: ﴿مِّثۡلِهِۦ﴾؛ لأنَّ المماثلةَ هي الصّفةُ المقصودةُ بالتّكليفِ والتّحدِّي، إذ بها يَظهرُ عجزُهُم وقُعودُهُم عنِ المُعارَضةِ، وأمّا وصفُ الافتراءِ فلا يَتعلَّقُ بهِ غرضٌ يَدورُ عليهِ شيءٌ في مَقامِ التّحدِّي، وإنّما ذُكِرَ على نهجِ المُساهَلَةِ وإرخاءِ العِنانِ، كما أنَّ في التّقديمِ احتراسًا؛ لأنَّه لو عُكِسَ التَّرتيبُ لَرُبَّما تُوُهِّمَ أنَّ المرادَ هو المُماثَلةُ في الافتراءِ، فيكون فيه إثباتُ

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/383، والطّيبيّ، فتوح الغيب: 8/31، والسّبكيّ، عروس الأفراح: 2/278.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/325، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 10/39.

الافتراءِ لسورِ القرآنِ[1]، فانظرْ إلى لطيفِ بلاغةِ القرآنِ وحسنِ تأليفِهِ ونظمِهِ.

دلالةُ الواو في: ﴿وَٱدۡعُواْ﴾:

أفادتِ الواوُ التَّشريكَ بينَ الجملتين على معنى الجمعِ بينَهما؛ لِتكونَ الجملتانِ مِن مَقولِ القولِ؛ لِيفيدَ العطفُ دعوتَهُم إلى آخرِ مَراتبِ التّحدِّي، بأنْ يَقوموا بالأمرِ بأنفسِهم وفي الوقتِ نفسِهِ لِيدعوا مَن يعينُهُم فيهِ؛ لِيكونَ فعلُ الآخرين تقويةً لفعلِهم، فالمُرادُ منهُ: تَعليمُ أنَّهُ كيفَ يُمكِنُ الإتيانُ بهذِهِ المُعارَضَةِ لَو كانوا قادرينَ عليها، وتَقريرُهُ أنَّ الجماعةَ إذا تَعاوَنَت وتَعاضَدَت صارَت تلكَ العُقولُ الكَثيرَةُ كالعَقلِ الواحِدِ، فإذا تَوَجَّهوا نَحوَ شيءٍ واحدٍ، قَدَرَ مَجموعُهُم على ما يَعجَزُ كُلُّ واحِدٍ مِنهُم، فكأنَّ لسانَ البلاغِ يخاطبُ البشريةَ: هَبْ أنَّ عَقلَ الواحدِ والاثنَينِ مِنكم لا يَفي باستِخراجِ مُعارَضَةِ القُرآنِ فاجتَمِعوا، وليُعِنْ بَعضُكُم بَعضًا في هذِهِ المُعارَضةِ، فإذا عَرَفتُم عَجزَكُم حالةَ الاجتماعِ وحالةَ الانفرادِ عَن هذِهِ المُعارَضةِ، فحينَئِذٍ يَظهَرُ أنَّ تَعَذُّرَ هذِهِ المُعارَضةِ إنَّما كانَ لأنَّ قُدرَةَ البَشرِ غَيرُ وافيَةٍ بها، فَحينَئِذٍ يَظهَرُ أنَّ ذلكَ فِعلُ اللّهِ لا فِعلُ البشرِ، ويحتملُ أن يكونَ العطفُ على معنى التّرقّي في التّحدِّي؛ أي: فأتوا بعشرِ سورٍ مثلِهِ مُفترياتٍ، فإنْ عجزتُم عنِ الإتيانِ بها مِن تلقاءِ أنفسِكُم، فَلَكُم أن تَدعوا مَن يُعينُكُم ممَّن تَتَوَسَّمونَ فيهِ الاستطاعةَ على ذلكَ.

العجزُ عنِ الإتيانِ بعشرِ سورٍ دليلٌ قاطِعٌ على إعجازِ القرآنِ الخالدِ

بلاغةُ التّعريضِ في: ﴿وَٱدۡعُواْ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم﴾:

لمّا قالَ اللّهُ تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ إِفۡكٌ ٱفۡتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيۡهِ قَوۡمٌ ءَاخَرُونَۖ﴾ [الفرقان: 4]، وكانَ نزولُ سورةِ الفرقانِ قبلَ سورةِ هود جاءَ قولُهُ تعالى: ﴿وَٱدۡعُواْ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾؛

الرَّدُّ على دعوى إعانةِ قومٍ آخرينَ لرسولِ اللّهِ ﷺ في الافتراءِ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/191.

للتّعريضِ بما قالَهُ الكافرونَ، وللرَّدِّ عليهم في دعوى إعانةِ قومٍ آخرينَ لرسولِ اللّه ﷺ.

بلاغةُ الكنايةِ في: ﴿وَٱدۡعُواْ﴾:

دعـــاءُ مَـن يـسـتـطـيـعُ المعاونةَ أقوى في المـؤازرةِ، وأظهرُ في الـتّـحـدِّي والمواجهةِ

عُبِّرَ بـ ﴿وَٱدۡعُواْ﴾ على طريقِ الكنايةِ أو المجازِ[1]، والكنايةُ أظهرُ؛ لِما يلزمُ مِن دعاءِ قومٍ إلى أمرٍ عظيمٍ أنْ يستعينوا بهم، ويَستمدّوا منهُم، ويتَّفقوا معهُمْ في اختلاقِ السّورِ، وعُبِّرَ بـ ﴿وَٱدۡعُواْ﴾ دونَ (واستعينوا) على طريقِ الكنايةِ؛ لأنَّ الدّعاءَ هنا هو نداءُ كلِّ مَن يستطيعُ إعانتَهُم بمَعنَى طَلَبِ حُضورِهِ؛ لِيكونَ أقوى في المؤازرةِ، وفيه كذلك معنى طلبِ استعطافِه وسؤالِه للإتيانِ بالسّورِ المُفترياتِ، ويشمَلُ الدُّعاءُ نداءَ القريبِ والبعيدِ، كما أنَّه يقتضي الاستجابةَ بالقبولِ أو الانتفاءِ، ولهذا أعقبَهُ بقولِهِ: ﴿فَإِلَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَكُمۡ﴾، فتكونُ الكنايةُ هنا على معنى الجمعِ بينَ اللّازمِ والمَلزومِ، ويحتملُ أن يكونَ التّعبيرُ بـ ﴿وَٱدۡعُواْ﴾ على طريقِ المجازِ المُرسَلِ؛ لأنَّ الاستعانةَ تنشأُ عنِ النّداءِ إلى المُعاونةِ[2].

دلالةُ فعلِ الأمرِ في: ﴿وَٱدۡعُواْ﴾:

إفحامُ الكافرينَ المُتحامِلينَ بعجزِهِم عنِ الإتيانِ بالمطلوبِ

الأمرُ هنا للإباحَةِ؛ أي: فَلَكُم أن تَدعوا مَن ترونَ فيهم المَقدِرَةَ على ذلكَ ليُعاوِنوكُم، وفي مجيءِ الأمرِ بمعنى الإباحةِ، إلهابٌ لعزيمةِ الكافرينَ، وإفحامٌ لَهُم بأنَّهُم عاجزينَ عنِ الإتيانِ بالمَطلوبِ.

الإيجازُ بحذفِ مُتعلَّقِ الفعلِ ﴿وَٱدۡعُواْ﴾:

روعةُ البيانِ في إيجازِ التّركيبِ، ودقّةِ المذكورِ والمُقدَّرِ

لمّا كانَ الدّعاءُ لأمرٍ مُعيَّنٍ، وقد دلَّ عليه المقامُ، حُذِفَ مُتَعَلَّقُ الفعلِ، والتَّقديرُ: وادعُوا لِذَلِكَ[3]؛ أي: للإتيانِ بعشرِ سورٍ مثلِ القرآنِ مُفترياتٍ، فالحذفُ للإيجازِ.

(1) الخفاجيّ، حاشية على تفسير البيضاويّ: 5/52، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 9/466.
(2) النّخجوانيّ، الفواتح الإلهيّة: 1/349، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/339: 12/20.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/20.

فائدةُ التّعبيرِ بالاسمِ الموصولِ: ﴿مَنِ﴾:

تعميمُ الدّعوةِ لكُلِّ عاقلٍ؛ لِيظهرَ إعجازُ القرآنِ بيّنًا جليًّا للجميعِ

عُبِّرَ بالاسمِ الموصولِ ﴿مَنِ﴾ دونَ (الّذي) في قوله تعالى: ﴿وَٱدۡعُواْ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم﴾؛ لأنّه أكثرُ عمومًا وأوفقُ بمَقامِ التّحدِّي بالإتيانِ بعشرِ سورٍ مُفترياتٍ؛ لِدلالتِهِ على العاقلِ في الاستعمالِ الغالبِ، والمعنى: ادعوا كلَّ مَن استطعتُم دعاءَهُ لِيعينَكُم مِن دونِ اللّه، فيدخلُ فيه كلُّ عاقلٍ، ومَن يَعرِفُ العربيّةَ، ومَن لايَعرِفُها بأنْ يعينَهُ بطريقةٍ ما؛ لِيظهرَ إعجازُ القرآنِ للجميعِ.

نكتةُ التّعبيرِ بـ: ﴿ٱسۡتَطَعۡتُم﴾:

عدمُ الاستطاعةِ على خوضِ غمارِ التّحدّي دليلٌ على العجزِ التّامِّ عن ذلك

عُبِّرَ في الآيةِ بقولِهِ: ﴿مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم﴾، ولم يقُلْ: (مَن قدرتُم)؛ للفرقِ بينَ الاستطاعةِ والقُدرةِ، فلفظُ الاستطاعةِ يَتضمَّنُ معاني مُناسِبةً للسّياقِ لا توجدُ في لفظِ القُدرةِ، فيُشعِرُ التّعبيرُ بـ ﴿ٱسۡتَطَعۡتُم﴾ بتهيُّئِهِم للإتيانِ بعشرِ سورٍ مُفترياتٍ، بما يَتملكونَهُ مِن سلامةِ آلةِ الفصاحةِ والبلاغةِ، وأنَّ الأمرَ بإرادتِهِم مِن غيرِ عائقٍ أو مَانعٍ يمنعُهُم، كما أشعرَ اللّفظُ بدعوتِهِم إلى الاستعانةِ بمَن يُعينُهُم على الإتيانِ بها، والأخذِ بأسبابِ ما يتوقَّفُ عليه فعلُ الاستعانةِ، وبكلِّ مَن أمكنَهُم دعوتُهُ، ولمّا كانَ العجزُ ضدَّ الاستطاعةِ عُبِّرَ بها؛ للتّنبيهِ على أنَّهُم إنْ لم يَستطيعوا فقد عجزوا، وهو المقصودُ مِنَ الكلامِ[1].

بلاغةُ الحذفِ في: ﴿مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم﴾:

حذفُ المفعولِ هنا أقضى لحقِّ البلاغةِ، وأدلُّ على دقّةِ البيانِ

حذفُ مفعولِ ﴿ٱسۡتَطَعۡتُم﴾ للإيجازِ في الكلامِ، ولِتقريرِ معنى العمومِ الواردِ في لفظِ ﴿مَنِ﴾، ولوضوحِ المعنى مِنَ السّياقِ، فالتّقديرُ: (وادعوا مَنِ استطعتُم دعاءَهُ مِن دونِ اللّه)، ولو ذُكِرَ المفعولُ لكانَ الكلامُ غثًّا، وكانَ شيئًا يَمجُّهُ السّمعُ، وتَعافُهُ النّفسُ، بَلْ مِنَ البَلاغةِ أن يُجاءَ بهِ كذلك مَحذوفًا[2].

(1) الكفويّ، الكلّيّات، ص: 108 - 109.
(2) عبد القاهر الجرجانيّ، دلائل الإعجاز، ص: 164.

بلاغةُ الاستعارةِ في: ﴿مِّن دُونِ ٱللَّـهِ﴾:

لمّا كانَ لفظُ ﴿دُونِ﴾ يُستعمَلُ لأقربِ مكانٍ إلى ما يُضافُ إليهِ استُعملَ على طريقِ المجازِ بمعنى أسفل مَرتبة؛ للإيذانِ بأنَّ المضافَ إليهِ أعلى مَرتبةً، ولمّا كانَتِ الرُّتَبُ كلُّها تحتَ رتبتِهِ تعالى، والنّاسُ مُقرِّونَ بذلكَ قالَ: ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: المَلِكِ الأعلى[1]، فإذا كانَ كلُّ ما سوى اللّه تحتَ رتبتِهِ سبحانَهُ دلَّ على أنَّ كتابَ اللّه أعلى رُتبةً مِن جميعِ الكُتُبِ.

كتابُ اللهِ أعلى رتبةً مِن جميعِ الكتبِ، وقد ظهرَ إعجازُهُ في بديعِ نظمِهِ

دلالةُ حرفِ الجرِّ ﴿مِّن﴾:

لمّا كانَ ﴿مِّن﴾ حرفَ ابتداءٍ دلَّ على إدخالِ كُلِّ مَن سوى اللّه تعالى؛ والمعنى: ادعوا مَنِ استطعتُم دعاءَهُ، وليبتدئْ دعاؤُكُم مِن أيِّ عاقلٍ يعينُكُم دونَ اللّه؛ لِيفيدَ تحقيقَ معنى الإحاطةِ والعمومِ لكلِّ مَن هو دونَ اللّه[2].

تحقيقُ معنى الإحاطةِ والعمومِ في دعاءِ كلِّ مَن هو دونَ اللهِ للتّحدِّي

براعةُ مجيءِ الوصفِ في: ﴿مِّن دُونِ ٱللَّـهِ﴾:

ذُكِرَ هذا الوَصفُ لِلتّذكيرِ بأنَّ هذا القرآنَ مِن عندِ اللّه، وأنَّهُم أنكَروا أن يكونَ مِن عندِ اللّه، فلمّا عَمَّمَ لَهُم في الاستعانةِ بِمَنِ استطاعوا، أكَّدَ أنَّ مَن يدعونَهُم دونَ اللّه تعالى في الرّتبةِ والعلمِ والقُدرةِ، فإنْ عَجَزوا عنِ الإتيانِ بعشرِ سورٍ مِثلِهِ - مَعَ تمكُّنِهِم مِنَ الاستعانةِ بكُلِّ مَن عدا اللّه - تبيَّنَ أنَّ هذا القرآنَ مِن عندِ اللّه تعالى[3].

إبرازُ ملامحِ الإعجازِ الّتي تطالُ كلَّ المخلوقاتِ، وتؤكِّدُ صدقَ الآياتِ

إيثارُ التّعبيرِ باسمِ الجلالةِ: ﴿ٱللَّـهِ﴾:

أُوثِرَ التَّعبيرُ باسمِ الجلالةِ في قولِهِ: ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ دونَ لفظِ (الرّحمن) أو غيرِهِ؛ لأنَّ الاسمَ الجليلَ (اللّه) علمٌ على الذّاتِ العليَّةِ، لا يُسمَّى به غيرُهُ، قال تعالى: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا

اسمُ الجلالةِ خاصٌّ به سبحانَهُ، وهو جامعٌ لكلِّ أسمائِهِ وصفاتِهِ الحسنى

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/249.
(2) الكرمانيّ، لباب التّفاسير، ص: 780.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/20 - 21.

بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾﴾ [مريم: 65]، وهو جامعٌ لكلِّ صفاتِهِ؛ دالٌّ على العظمةِ، وكلِّ معاني الألوهيَّةِ؛ ولذا ذَكَرَ لفظَ الجلالةِ الّذي يُربِّي المهابةَ، وخشيتُهُ سبحانَهُ في النُّفوسِ؛ لأنَّه المعبودُ وحدَهُ.

مناسبةُ التّعبيرِ بأداةِ الشّرطِ ﴿إن﴾:

قولُهُ تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾، وفيه إيرادُ كلمةِ الشّكِّ الدّالَّةِ هنا على استحالةِ الوقوعِ للإيذانِ بأنَّ صدقَهُم في مَقامِ الاستحالةِ، ومجيءُ الكلامِ بأسلوبِ الشّرطِ إلهابٌ لعَزيمةِ الكافرينَ الطّاعنينَ في القرآنِ؛ ليَأتوا بعشرِ سورٍ مِثلِهِ مُفترياتٍ؛ لِيَكونَ عدَمُ إتيانِهِم بمِثلِهِ حُجَّةً على كَذِبِهِم.

استحالةُ صدقِ الكافرينَ في قولِهِم بالافتراءِ؛ لأنّ الدّلائلَ عكسُ ذلكَ

دلالةُ حذفِ المُتعلَّقِ في: ﴿صَٰدِقِينَ﴾:

المُرادُ إنْ كُنتُم صادِقينَ في ادِّعاءِ كَونِهِ مُفتَرًى، أو إنْ كنتُم صَادقينَ في ادّعاءِ أنّي افتريتُهُ، وجاءَ هذا التّقديرُ لِقولِهِ بدايةَ الآيةِ: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ﴾، ونكتةُ حذفِ المُتعلَّقِ هي إنكارُ اتّصافِهِم بصفةِ الصّدقِ على وجهِ المبالغةِ؛ للإشعارِ بأنَّ مَن يُكذِّبُ رسولَ اللّه ﷺ فقد انتفى عنهُ وصفُ الصّدقِ، ويدخلُ فيهِ كذبُهُم في الادّعاءِ المذكورِ دخولًا أوّليًّا، وعُلِّقَ الإتيانُ على كونِهِم صادِقينَ في ادّعائِهِم؛ لأنَّ ذلك يَستلزِمُ إمكانَ الإتيانِ بمثلِهِ، وهو أيضا يَستلزِمُ قدرتَهُم عليه، فلمّا لم يأتوا بعشرِ سورٍ مثلِهِ دلَّ على كذبِهِم وعجزِهِم، ففيه توبيخٌ لهم وتبكيتٌ.

مَنْ يُكذِّبُ الرّسولَ الأمينَ والقرآنَ المبينَ، فليسَ مِنَ الصّادقينَ

سرُّ حذفِ جوابِ الشّرطِ:

لمّا كانَ جوابُ الشَّرطِ محذوفًا، وقد دلَّ عليه المذكورُ قبلُ[1]، كانَ التّقديرُ: إنْ كنتُم صادِقينَ فأتوا بعشرِ سورٍ مثلِهِ مُفترياتٍ، وادعوا مَنِ

تأكيدُ عجزِ الكافرينَ عنِ الإتيانِ بعشرِ سورٍ مُفترياتٍ

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 6/223.

استطعتُم مِن دونِ اللّه، فالكلامُ بمثابةِ المكرَّرِ لتأكيدِ عجزِهم عنِ الإتيانِ بعشرِ سورٍ مثلِه، ووجهُ الملازَمةِ بينَ الشَّرطِ وجَزائِه؛ أنَّه إذا كانَ الافتراءُ يأتي بهذا القرآنِ؛ فما لَكُم لا تَفترونَ أنتُم مِثلَهُ، فَتَنهَضَ حُجَّتُكُم[1].

توجيهُ المُتشابِهِ اللّفظيِّ:

التَّدرُّجُ في التَّحدِّي على سبيلِ التَّهكُّمِ بهم، مُتنزِّلًا معهم إلى الأخفِّ فالأخفِّ

قالَ اللّه تعالى في سورةِ هود: ﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ فَأۡتُواْ بِعَشۡرِ سُوَرٖ مِّثۡلِهِۦ مُفۡتَرَيَٰتٖ وَٱدۡعُواْ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾، وقالَ في سورةِ البقرة: ﴿وَإِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّمَّا نَزَّلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّن مِّثۡلِهِۦ وَٱدۡعُواْ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٢٣﴾ [البقرة: 23]، وقالَ في سورةِ يونس: ﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّثۡلِهِۦ وَٱدۡعُواْ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٣٨﴾ [يونس: 38]، وتوجيهُ هذه الآياتِ هو أنَّه في سورةِ هود لمّا قالوا: ﴿ٱفۡتَرَىٰهُۖ﴾ قابلَ قولَهُم بـ ﴿مُفۡتَرَيَٰتٖ﴾، فلمّا وسَّعَ عليهم بأن سمحَ لَهُم بأنْ يأتوا بالكلامِ المُفترَى ناسبَهُ التّوسعةُ في العددِ المطلوبِ، فقالَ: ﴿بِعَشۡرِ سُوَرٖ مِّثۡلِهِۦ﴾؛ لأنَّ الكلامَ المُفترَى أسهلُ، فناسبَتهُ التّوسعةُ، فهذه غايةُ التّوسعةِ، وليسَ المعنى: عَارِضوا عشرَ سوَرٍ بعشرٍ، أمّا الواردُ في سورةِ البقرةِ وفي سورةِ يونس فلم يذكُرْ لَهُم فيها أنْ يكونَ مُفترًى، بل السّابقُ مِنَ الآيتينِ المماثَلةُ مُطلَقًا، فذلك أصعبُ وأشقُّ عليهم معَ عجزِهم في كلِّ حالٍ، فوَقَعَ الطّلبُ حيث التَّضييقُ بسورةٍ واحدةٍ، وحيثُ التَّوسعةُ بعشرِ سورٍ، ففيه مُناسبةٌ جليلةٌ واضحةٌ، ويؤيِّدُ هذا النَّظرَ أنَّ التَّكليفَ في آيةِ البقرة إنَّما هو بسببِ الرَّيبِ؛ لقولِه تعالى ﴿وَإِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّمَّا نَزَّلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا﴾ [البقرة: 23]، ولا يُزيلُ الرَّيبَ إلّا العلمُ بأنَّهُم لا يَقدِرونَ على المُماثَلةِ التّامَّةِ، وفي آيةِ سورةِ هود إنَّما التَّكليفُ بسببِ قولِهم ﴿ٱفۡتَرَىٰهُۖ﴾، فَكُلِّفوا نحوَ ما قالُوا[2].

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/192، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/21.
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/155، والغرناطيّ، ملاك التّأويل: 1/27.

توجيهُ الفرقِ بيَن ﴿مِّن مِّثۡلِهِۦ﴾، و﴿مِّثۡلِهِۦ﴾:

"تنزَّلَ معَهم في هذه المرتبةِ مِن طلبِ المُماثِلِ إلى طلبِ شيءٍ ممَّا يماثلُ، كأنَّه يقولُ: لا أكلِّفُكُم بالمماثلةِ العامَّةِ، بل حسبُكُم أن تأتوا بشيءٍ فيه جنسُ المماثلةِ ومُطلقُها، وبما يكونُ مثلًا على التّقريبِ لا على التّحديدِ، وهذا أقصى ما يمكنُ مِنَ التَّنزُّلِ؛ ولذا كانَ هو آخرَ صيغِ التَّحدِّي نزولًا، فلم يجئِ التّحدِّي بلفظِ ﴿مِّن مِّثۡلِهِۦ﴾ [البقرة: 23] إلّا في سورةِ البقرةِ المدنيَّةِ، وسائرِ المَراتبِ بلفظِ ﴿مِّثۡلِهِۦ﴾ [يونس: 38] في السّورِ الّتي نزلَت قبلَ ذلكَ بمكّةَ"[1].

أقصى ما يتنزّلُ إليهِ معَهُم مِنَ التّحدِّي، هو طلبُ شيءٍ ممّا يماثِلُ على سبيلِ التّقريبِ

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الافتراءُ والكذبُ والبهتانُ:

الافتراءُ أخصُّ مِنَ الكذبِ؛ لِأنَّ الكذبَ في حقِّ الآخَرِ بما لا يرتضيه، بخلافِ الكذبِ، فإنَّه قد يكونُ في حقِّ المُتكلّمِ نفسِهِ، ولذا يُقالُ لِمَن قالَ: (فعلتُ كذا، ولَم أفعلْ كذا) مع عدمِ صدقِهِ في ذلك: هو كاذبٌ، ولا يُقالُ: هو مُفترٍ، وكذا مَن مَدحَ أحدًا بما ليسَ فيهِ، يُقالُ: إنَّه كاذبٌ في وصفِهِ، ولا يُقالُ: هو مُفترٍ؛ لأنَّ في ذلكَ ممّا يرتضيهِ المَقولُ فيه غالبًا، ولا يُستعمَلُ الافتراءُ إلّا فيما بَهَتَ به المرءُ وكابرَ، وجاءَ بأمرٍ عظيمٍ منكَرٍ، فالافتراءُ أعظمُ مِنَ الكذبِ، ومِنَ الفروقِ بينَهُما أنَّ مُتَعَلَّقَ الافتراءِ القولُ، ومُتَعَلَّقَ الكذبِ الفعلُ، فمَن قالَ: (قالَ زيدٌ كذا)، ولم يكُنْ قالَهُ فهو افتراءٌ، وإنْ قالَ: (قامَ زيدٌ)، ولم يقُمْ فهو كَذِبٌ، وأيضًا قد يحسنُ الكذبُ على بعضِ الوجوهِ، كالكذبِ في الحربِ، وإصلاحِ ذاتِ البينِ، بخلافِ الافتراءِ، فهو مذمومٌ دائمًا، والفرقُ بينَ الافتراءِ والبهتانِ أنَّ البهتانَ يكونُ بِحَضرَةِ المَقولِ فيهِ؛ أي: يُواجَهُ به صاحبُهُ على وجهِ المُكابرةِ بخلافِ الافتراءِ فإنَّه يكونُ بغيبتِهِ[2].

الافتراءُ أخصُّ؛ فهو القولُ في حقِّ الآخرِ بما لا يرتضيه

(1) دراز، النّبأ العظيم: هامش (1)، ص: 84.

(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/155، والبسيليّ، نكت وتنبيهات: 2/227، والكفويّ، الكلّيّات، ص: 450.

﴿فَإِلَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَكُمۡ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلۡمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ ١٤﴾ [هود: 14]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

العجزُ عن معارضةِ القرآنِ أو قليلٍ منهُ، دليلٌ على أنَّه مُنزَّلٌ بعلمِ اللهِ؛ لإقناعِ مَن يُسلمُ

لمّا دعاهُم إلى مُعارضةِ عشرِ سورٍ مُفترياتٍ؛ ليكونَ حُجّةً عليهم، قرّرَ في هذه الآيةِ هَذا الاحتِجاجَ مِن أنَّ العَجزَ عَنِ المُعارَضةِ دليلٌ على أنَّ القرآنَ مِنَ العِلمِ الإلَهيِّ؛ فقال: ﴿فَإِلَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَكُمۡ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلۡمِ ٱللَّهِ﴾[1].

وأيضًا لمّا قالَ اللّه تعالى: ﴿وَٱدۡعُواْ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم﴾ [هود: 13] فرَّعَ عليهِ هذه الآيةَ؛ ليكونَ أثبتَ في قيامِ الحجّةِ عليهم؛ أي: فإنْ لم يَستَجِبْ لكُم مَن تَدعوهُم، فأنتُم أعجَزُ مِنهُم؛ لأنَّكُم ما تَدعونَهُم إلّا حينَ تَشعُرونَ بعَجزِكُم دونَ مُعاوِنٍ، فلا جَرَمَ يكونُ عَجزُ هَؤلاءِ مُوقِعًا في يَأسِ الدَّاعِينَ مِنَ الإتيانِ بعَشرِ سُوَرٍ[2].

المَعْنى الإجْماليُّ:

العلمُ بأنَّ القرآنَ مِن عندِ اللهِ يقتضي العلمَ بوحدانيّتِهِ تعالى والإسلامَ له

فإنْ لم يستجبْ لكُم - أيُّها المشركونَ - مَن تدعونَ مِن دونِ اللّه إلى أنْ يأتوا بعشرِ سوَرِ مثلِ هذا القرآنِ مُفترياتٍ، ولم تطيقوا أنتُم وهُم أنْ تأتوا بذلكَ، فاعلموا وأيقنوا أنَّه إنّما أُنزِلَ القرآنُ بعلمِ اللّه وإذنِهِ، وأنَّ محمَّدًا لم يفتَرِهِ، ولا يقدرُ أنْ يفتريَهُ، وأيقنوا أيضًا أنْ لا مَعبودَ يستحقُّ الألوهيَّةَ على الخلقِ إلّا اللّه، فهل أنتُم مُنقادونَ للّه، مُخلِصونَ لهُ في العبادةِ[3].

ويحتملُ المعنى: فإنْ لم يستجبْ هؤلاء المشركونَ لكُم - أيّها

(1) رضا، تفسير المنار: 12/39.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/21.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 15/261، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/155.

الرّسولُ ومَن آمنَ معَكَ - لِما تدعونَهُم إليه؛ لِعَجزِ الجميعِ عن ذلكَ، ازدادوا علمًا ويقينًا أنَّ هذا القرآنَ إنَّما أنزلَهُ اللّه على رسولِهِ بعلمِهِ، وليسَ مِن قولِ البشرِ، وازدادوا يقينًا أنْ لا إلهَ يُعبَدُ بحقٍّ إلّا اللّه، فهل أنتُم ثابتونَ على إسلامِكُم، مُلتزمون فيهِ[1].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالةُ الفاءِ في: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ﴾:

جاءتِ الفاءُ لِلتّفريعِ على الطَّلبِ في قولِهِ: ﴿وَٱدْعُواْ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم﴾؛ للإشعارِ بأنَّ المُخاطَبَ ينتظرُ ما يحصلُ بعدَ أنْ يدعوا مَنِ استطاعوا أنْ يعينَهُم مِن دونِ اللّه.

عدمُ الاستجابةِ للبلاغِ، لا يثني الدّاعيةَ عنِ اليقينِ بنصرِ اللهِ، عاجلًا أو آجلًا

دلالةُ الشّرطِ في: ﴿فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ﴾:

تصديرُ الشَّرطِ بكلمةِ الشَّكِّ ﴿فَإِلَّمْ﴾؛ للإشعارِ بأنَّ حقَّ استجابتِهِم أن يكونَ ضعيفًا مَشكوكَ الوقوعِ، وإيرادُ كلمةِ الشَّكِّ مع الجزمِ بعدمِ الاستجابةِ مِن جهةِ مَن يدعونَهُ؛ إمّا أن يكونَ تهكُّمًا بهم وتسجيلًا عليهم بكمالِ سخافةِ العقلِ، وإمّا أنْ يكونَ بناءً على حسبِ ظنِّهِم، فإنَّ العجزَ قبلَ التَّدبُّرِ في بلاغتِهِ لم يكُنْ مُحقَّقًا عندَهُم[2].

التَّهكُّمُ بمَن يدّعي الافتراءَ؛ لِسخافةِ عقلِهِ، وعظيمِ جهلِهِ

دلالةُ النّفي بـ الأداةِ ﴿فَإِلَّمْ﴾:

أفادَ التّعبيرُ بأداةِ النّفي (لم) في قولِهِ تعالى: ﴿فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ﴾ أنَّ نفيَ استجابتِهِم مَقطوعٌ بها، ولمّا سبقَ حرفُ النّفي (إنْ) الشّرطيّة الدّالّ على المستقبلِ دلَّ على استمرارِ نفي استجابتِهِم في الماضي والحالِ والمُستقبلِ على سبيلِ القطعِ؛ لِيفيدَ عدمَ قدرتِهِم على المعارضةِ.

القطعُ باستمرارِ مُعارضةِ القرآنِ، وأنّ نفيَ الاستجابةِ هو حالُ الكافرينَ

(1) ابن جرير، جامع البيان: 15/262، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/156، ونخبة من أساتذة التّفسير، التّفسير الميسّر، ص: 223.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/192، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 10/40، والآلوسيّ، روح المعاني: 6/223.

مناسبةُ الاكتفاءِ بنفي الاستجابةِ:

الاكتفاءُ بنفي الاستجابةِ إيذانٌ بالعجزِ عنِ المعارضةِ

لمّا قالَ تعالى: ﴿وَٱدۡعُواْ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾، وكانَ الأمرُ يقتضي التّفريعَ باحتمالِ الاستجابةِ وعدمِها، كانَ الاكتفاءُ بنفي استجابتِهم إيذانًا بعجزِ كلِّ مَن يدعونَهُم إلى المعاونةِ عنِ الإتيانِ بعشرِ سُورٍ مُفترياتٍ؛ أي: لا يحصُلُ سوى انتفاءِ الاستجابةِ، ففيهِ إشارةٌ إلى الإخبارِ بالغيبِ عنِ المُستقبلِ.

نكتةُ التّعبيرِ بالفعلِ ﴿فَإِلَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ﴾:

تَحقُّقُ إعجازِ القرآنِ، وظهورُ التّحدِّي على كمالِهِ

عُبِّرَ عنِ الفعلِ بنفي الاستجابةِ؛ إذ الظّاهرُ أن يقولَ (فإنْ لم تَفعلوا) كما في سورةِ البقرةِ - على القولِ بأنَّ الخطابَ للرّسولِ ﷺ - إيماءً إلى أنَّه ﷺ كانَ على كمالِ أمنٍ مِن أمرِه، وأنَّ أمرَهُ لَهُم بالإتيانِ بمثلِهِ دعاءٌ لَهُم إلى أمرٍ يريدُ وقوعَهُ؛ ليتحقَّقَ إعجازُ القرآنِ، ويظهرَ التّحدِّي على كمالِهِ[1].

دلالةُ الخطابِ في: ﴿فَإِلَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ﴾:

حقُّ المؤمنين أنْ لا ينفكّوا عن نصرةِ رسولِ اللهِ ودينِهِ

لمّا اشتملَتِ الآيَةُ المُتَقَدِّمَةُ على خِطابَينِ: أحدُهُما: خِطابُ الكُفّارِ، وهو قَولُهُ: ﴿وَٱدۡعُواْ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ والثّاني: خِطابُ الرَّسولِ المُصدَّرُ بلفظِ ﴿قُلۡ﴾، وهو قولُهُ: ﴿قُلۡ فَأۡتُواْ بِعَشۡرِ سُوَرٖ مِّثۡلِهِۦ مُفۡتَرَيَٰتٖ﴾ فلمّا أتبعَهُ بقولِهِ: ﴿فَإِلَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَكُمۡ﴾ احتَمَلَ أن يَكونَ المُرادُ أنَّ الكُفّارَ لَم يَستَجيبوا في المُعارَضةِ لِتَعَذُّرِها عليهِم، واحتَمَلَ أنَّ مَن يَدعونَهُ مِن دونِ اللّه لم يَستجيبوا، فلهذا السَّببِ اختلفَ المُفسِّرونَ على قولَينِ في توجيهِ الخطابِ في الآيةِ: فيحتملُ الخطابُ في ﴿لَكُمۡ﴾ أن يكونَ خطابَ النّبيِّ ﷺ للكفّارِ، فيكونُ مِن تمامِ مَقولِ ﴿قُلۡ﴾، وضميرُ (الواو) في ﴿يَسۡتَجِيبُواْ﴾ يعودُ إلى الاسمِ الموصولِ في ﴿مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم﴾؛ أي: فإنْ لم يستجبْ مَن تدعونَهُ مِن دونِ اللّه إلى المعاونةِ على المُعارَضةِ ولا قَدِرَ جميعُكُم

(1) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 10/40.

عليها، فأذعنوا حينئذٍ، واعلموا أنَّه مِن عندِ اللّه، واعلموا عندَ ذلكَ أنْ لا إلهَ إلّا اللّه وحدَهُ، وذهبَ إلى هذا التّوجيهِ الطّبريُّ وابنُ عطيّة وأبو حيّان وغيرُهُم، ويحتملُ الخطابُ في ﴿لَكُمْ﴾ أن يكونَ خطابَ اللّه تعالى للرّسولِ ومَن معَهُ مِنَ المؤمنينَ، والواو في ﴿يَسْتَجِيبُواْ﴾ يعودُ إلى المُشركينَ، والتّقديرُ: فإنْ لَم يَستجيبوا لكَ ولِلمؤمنينَ؛ لأنّ رسولَ اللّه ﷺ والمؤمنين كانوا يَتحدّونَهُم، ففي صيغةِ الجمع إدخالٌ للمؤمنين؛ لِيكونوا مع الرّسولِ في التّحدِّي، وفيه تنبيهٌ لطيفٌ على أنَّ حقَّ المؤمنينَ أنْ لا ينفكّوا عنهُ ﷺ، وأنْ يُناصِبوا معهُ لمعارضةِ المُعارِضينَ، كما كانوا يفعلونَهُ في الجهادِ، وفيه إرشادٌ إلى أنَّ التّحدِّيَ ممّا يُوجِبُ رسوخَ إيمانِهم وقوّةَ يقينِهم فلا يَغفلونَ عنهُ، ولذلك رُتِّبَ عليه قولُهُ ﷻ: ﴿فَٱعْلَمُوٓاْ﴾ كما سيأتي، أو أن يكونَ خطابَ اللّه تعالى لرسولِ اللّه ﷺ دونَ المؤمنينَ، ويكونَ الجمعُ لتعظيمِ رسولِ اللّه ﷺ، واختارَ هذا الوجهَ الزّمخشريُّ وغيرُهُ[1].

سببُ إيثارِ التّعبيرِ بـ ﴿يَسْتَجِيبُواْ﴾:

آثرَ التّعبيرَ بالاستجابةِ على الإجابةِ، إذ لم يقُلْ: (فإنْ لم يُجيبوكم)؛ لأنّ الاستجابةَ خاصّةٌ بتحصيلِ المطلوبِ، والإجابةَ بمعنى إعطاءِ الجوابِ، فتعمُّ الجوابَ بتحصيلِهِ أو دونِهِ[2]؛ فالمعنى: فإنْ لَم يستجيبوا بأنْ لم يحصِّلوا المطلوبَ بالإتيانِ بعشرِ سورٍ مُفترياتٍ.

الاستجابةُ تحصيلُ المطلوبِ، فهي أقوى وأعمُّ مِنَ الإجابةِ

سببُ إيثارِ حذفِ مُتعلَّقِ الفعلِ ﴿يَسْتَجِيبُواْ﴾:

قد يُقالُ ما الشّيءُ الّذي لم يَستجيبوا فيه؟ وجوابُهُ التّقدير: (فإنْ لم يَستَجيبوا لَكُم في الإتيانِ بعشرِ سورٍ مثلِ القرآنِ مُفترياتٍ)، وحَذَفَ هذا المُتعلَّقَ للإيجازِ بما دلَّ عليه السّياقُ، وفيهِ إشعارٌ بأنَّ

الإيجازُ ودلالةُ السّياقِ مِن بيانِ الدّلالةِ في الآيةِ

(1) ابن جرير، جامع البيان: 15/261، والبغويّ، معالم التّنزيل: 2/442، والزّمخشريّ، الكشّاف: 2/383، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/156، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/325، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/130، وأبو حيّان، البحر المحيط: 6/131.

(2) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 10/40.

عدمَ الاستجابةِ ديدنُهُم وعادتُهُم، فليسَ الأمرُ مُختصًّا في المعارضةِ بالقرآنِ وتحدِّيهم فيهِ.

توجيهُ المُتشابِهِ بين آيتي: سورة هود، والقَصص:

تحويلُ المُخاطَبةِ مِنَ الإفرادِ إلى الجمعِ تعظيمًا وتفخيمًا، ومُخاطَبةُ الرّسولِ في سورةِ القَصصِ

جاءَ الضّميرُ في هذه الآيةِ بصيغةِ الجمعِ فقالَ تعالى: ﴿فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ﴾، وفي سورةِ القَصص قالَ تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكَ فَٱعْلَمْ﴾ [القَصص: 50] جاءَ مُفردًا، ووجهُ جمعِ الخِطابِ هاهنا في قولِهِ: ﴿لَكُمْ﴾، وتوحيدِهِ في القَصَصِ في قولِهِ: ﴿لَكَ﴾، أنَّ ما في هذه السّورةِ خِطابٌ للرَّسولِ وللمؤمنينَ، ويجوزُ أنْ يكونَ الجمعُ لتَعظيمِ رسولِ اللّه ﷺ، وقِيلَ: لأنَّه خِطابٌ لِلكفّارِ، والفعلُ يَعودُ لـ ﴿مَنِ ٱسْتَطَعْتُم﴾، وأمّا ما في القَصصِ فهو خطابٌ للنَّبيِّ ﷺ، والفِعلُ للكفّارِ، فناسبَ وضعُ كلٍّ ضمير سياقَهُ[1].

بلاغةُ الالتفاتِ في: ﴿فَٱعْلَمُوٓاْ﴾:

تقويةُ المعنى في نفوسِ المُخاطَبين، وتهديدُهُم بمغبّةِ الافتراءِ

إنْ كانَ الخطابُ لِلكفّارِ في قوله: ﴿فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ﴾ فيكونُ الكلامُ على طريقِ الالتفاتِ إلى الخطابِ مِنَ الغيبةِ، والأصلُ: (فليَعلموا)؛ لِيناسبَ ما جاءَ في سياقِهِ في قولِهِ: ﴿فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ﴾، وفائدةُ الالتفاتِ تقويةُ المعنى في نفوسِ المُخاطَبينَ وتقريرُهُ؛ لمجيئِهِ في صيغةِ الخطابِ، كما أنَّ فيه إيماءً إلى تهديدِهِم إنِ استمرّوا على قولِهِم بالافتراءِ.

دلالةُ الفاءِ في: ﴿فَٱعْلَمُوٓاْ﴾:

ترتُّبُ حصولِ العلمِ بتوحيدِ اللهِ على العجزِ عن معارضةِ القرآنِ

أفادَتِ الفاءُ الواقعةُ في جوابِ الشّرطِ في قولِهِ تعالى: ﴿فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ﴾ التَّرتُّبَ والسّببيّةَ، بمعنى يترتَّبُ على نفي الاستجابةِ على المعاونةِ وعدمِ قدرتِهِم على الإنزالِ وظهورِ عجزِهِم وجوبُ حصولِ العلمِ بأنَّ القرآنَ أُنزِلَ بعلمِ اللّه، والعلمُ بأنَّه لا إلهَ إلّا هو.

(1) الكرمانيّ، أسرار التّكرار في القرآن، ص: 143.

الكناية والمجاز المُرسَل في ﴿فَٱعۡلَمُوٓاْ﴾:

الإيمانُ باللهِ يتبعُ العلمَ، وهو لازمٌ له، لا ينفكُّ عنه ولا ينفصمُ

إنْ كانَ المرادُ مِنَ العلم حقيقتَهُ، فيكونُ كنايةً عنِ الإيمانِ والتّصديقِ، فإنَّ الإيمانَ يتبعُ العلمَ، وهو لازمٌ لهُ، والمعنى: طَلَبُ علمِهم وطَلَبُ الإيمانِ بالقرآنِ وبتوحيدِ اللّه تعالى؛ لِما يَترتَّبُ على العلم بعجزِهم عنِ الإتيانِ بعشرِ سورٍ مثلِهِ مُفترياتٍ مِنَ الإيمانِ بالقرآنِ وبالتّوحيدِ، فتكونُ الكنايةُ هنا على إرادةِ المعنيين معًا، وعُبِّرَ به دونَ أن يقولَ: (فآمنوا)؛ للإشعارِ بأنَّ الإيمانَ مَبنيٌّ على العلم، ويحتملُ أن يكونَ ﴿فَٱعۡلَمُوٓاْ﴾ على طريقِ المجازِ المُرسَلِ، فإنَّ العلمَ العمليَّ إذا أُمِرَ بهِ لم يُرَدْ منهُ العلمُ المجرَّدُ؛ لأنَّه مَقصودٌ بالعرضِ، والمقصودُ بالذّاتِ هو الإيمانُ، بقرينةِ السّياقِ، والعلاقةُ هي اللُّزومُ؛ بمعنى: ذَكرَ الملزومَ وأرادَ اللّازمَ، فالمرادُ هو العلمُ الّذي يَلزَمُ منه الإيمانُ، وإنْ كانَ المرادُ مِنَ العلم مجازَهُ، فيكون كنايةً عنِ الثّباتِ على علمِهم؛ أي: اثبتوا على علمِكُم، بأنَّ القرآنَ مُنزَّلٌ بعلمِ اللّه، واثبتوا على التّوحيدِ، أو ازدادوا علمًا إلى علمِكُم، وازدادوا يقينًا في توحيدِ اللّه، وعُبِّرَ بهِ للإيذانِ بأنَّ ما عداهُ مِن مَراتبِ العلمِ ليسَ بعلم، لكنْ لا للإشعارِ بانحطاطِ تلكَ المَراتبِ بل بارتفاعِ هذه المَرتَبةِ[1].

دلالةُ ﴿أَنَّمَآ﴾:

تعظيمُ شأنِ القرآنِ علمًا وعملًا؛ لِنزولِهِ بعلمِ اللهِ

﴿أَنَّمَآ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلۡمِ ٱللَّهِ﴾ تفيدُ الحصرَ، بمعنى: ما أُنزِلَ إلّا مُلتَبِسًا بعلمِهِ تعالى لا بعلمِ غيرِهِ[2]؛ أي: حَصْرَ أحوالِ القرآنِ في حالِ إنزالِهِ بأنَّه مُلتَبِسٌ بعلمِ اللّه، وفائدةُ التّعبيرِ بـ ﴿أَنَّمَآ﴾ هو أنَّه لمّا زَعَمَ الكفّارُ أنَّ القرآنَ مُفترًى، ونسبوهُ

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/383، وأبو حيّان، البحر المحيط: 6/131، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/192.

(2) الخفاجيّ، حاشية على تفسير البيضاويّ: 5/137، والآلوسيّ، روح المعاني: 6/223، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/21.

إلى رسولِ الله ﷺ جاءَ بـ ﴿أَنَّمَآ﴾ ليرُدَّ عليهم قولَهُم[1]، وينفيَ افتراءَه، ويثبتَ إنزالَهُ بعلمِ الله، ونفيَهُ عن علمِ غيرِهِ سبحانَهُ، فالأداةُ تفيدُ قصرَ القلبِ.

مناسبةُ بناء الفعلِ ﴿أُنزِلَ﴾ لما لم يسمَّ فاعله:

قولُهُ: ﴿أُنزِلَ بِعِلۡمِ ٱللَّهِ﴾، جاءَ الفعلُ بصيغةِ المبنيِّ للمفعولِ لمناسبتِهِ للفعلِ في قولِهِ: ﴿مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ﴾، إذ أُعيدَ إليه الضَّميرُ في قولِهِ: ﴿ٱفۡتَرَىٰهُۖ﴾، ولأنَّ المقصودَ بالنَّظرِ هو المُنزَّلُ، وهو القرآن الكريم.

القرآن أعرفُ المعارفِ

دلالةُ الباءِ في: ﴿بِعِلۡمِ ٱللَّهِ﴾:

الباءُ هنا للمُلابسةِ؛ بمعنى: أنَّه ما أُنزِلَ إلّا مُلتَبِسًا بعلمِ الله؛ للإيذانِ بأنَّ القرآنَ نزلَ محفوظًا بعلمِ الله، وأنَّ معانيهِ ومبانيهِ هي بعلمِهِ تعالى، فإذا كانَ مُلتَبِسًا بعلمِهِ على معنى حصرِ القلبِ، فمعناهُ: لا يعلمُ حقيقةَ العلمِ به إلّا هو؛ للإشعارِ بعظمِ مزايا القرآنِ الّتي بها يقعُ الإعجازُ والتَّحدِّي[2].

نزلَ القرآنُ وكلُّ معانيهِ ومبانيهِ بعلمِ اللهِ

بلاغةُ الكنايةِ في: ﴿أُنزِلَ بِعِلۡمِ ٱللَّهِ﴾:

ليسَ المرادُ بهذه الجملةِ مُجرَّدَ الإخبارِ بأنَّه أنزلَهُ، وأنَّه مَعلومٌ لهُ، كما يعلمُ سائرَ الأشياءِ، فإنَّ كلَّ شيءٍ معلومٌ له سبحانَهُ مِن حقٍّ وباطلٍ، وإنَّما المعنى: إنزالُهُ مُلتَبِسًا بعلمِهِ سبحانَهُ، فإذا كانَ إنزالُهُ مُشتمِلًا على علمِهِ فيكون آيةَ كونِهِ مِن عندِهِ، ففيه كنايةٌ بذكرِ الملزومِ وإرادةِ اللّازمِ؛ أي: فإذا كانَ مِن عندِهِ فإنَّهُ حقٌّ وصدقٌ، وليسَ مُفترًى[3].

الاستدلالُ على حقّيّةِ القرآنِ، بأنَّه أُنزِلَ بعلمِ اللهِ

سببُ إيثارِ التّعبيرِ بـ: ﴿بِعِلۡمِ ٱللَّهِ﴾:

لم يقُلْ: (أنَّما أُنزِلَ بقدرةِ الله) بل قال: ﴿أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلۡمِ ٱللَّهِ﴾

كلُّ ما في القرآنِ مِن ألفاظٍ، هو مُتّصِلٌ بعلمِ اللهِ وحكمتِهِ

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/353.
(2) الخفاجيّ، حاشية على تفسير البيضاويّ: 5/138.
(3) ابن القيّم، التّفسير القيّم، ص: 200.

لِمَا يُشعِرُ به الكلامُ مِن أنَّه لا يقدرُ أحدٌ على إنزالِ القرآنِ غيرُ اللّه تعالى، فلمّا قيَّدَ الإنزالَ بعلمِ اللّه أفادَ أنّ نفيَ العلمِ بالشّيءِ يَستلزمُ نفيَ القدرةِ؛ لأنَّه لا يقدرُ أحدٌ على ما لا يعلمُ، فأفادَ إثباتَ إنزالِه بعلمِ اللّه ونفيِه عن غيرِه سبحانَهُ أنَّه أُنزِلَ بعلمِ اللّه، وأنَّه لا يقدرُ أحدٌ عليه سوى اللّه تعالى؛ لظهورِ عجزِهم وعجزِ مَن استعانوا به[1]، والظّاهرُ أنَّ سببَ تقييدِ الإنزالِ بالعلمِ هو تقريرُ التّحدِّي بالقرآنِ وإثباتُ إعجازِه؛ لأنَّ فيه إيذانًا بأنَّ ما في القرآنِ مِن بديعِ النّظمِ وسرِّ المعاني لا يستطيعُ أحدٌ أن يأتيَ بمثلِه؛ لأنَّ كلَّ ما فيه مِن ألفاظٍ مُفردةٍ ومنظومةٍ ومعانٍ مَرسومةٍ مُلتَبِسٌ بعلمِ اللّه، فالقرآنُ قائمٌ على علمِ اللّه في نظمِه ومعانيه.

بلاغةُ التّعريضِ بـ ﴿بِعِلۡمِ ٱللَّهِ﴾:

لم يقُلْ: (مِنْ عندِ اللّه)؛ لأنَّ قولَهُ: ﴿بِعِلۡمِ ٱللَّهِ﴾ تعريضٌ بقولِهم: (افْتَراهُ)؛ أي: هو بعلمِ اللّه، ولم يفترِه على اللّه، وفيه إشارةٌ إلى علمِه بقولِهم الّذي قالوهُ، ففيه توبيخٌ وتهديدٌ لَهُم، مع دلالتِه على أنَّه مِن عندِ اللّه[2].

دقّةُ اختيارِ اللّفظةِ؛ لِلتّعريضِ بقولِ الكافرينَ، والتّنديدِ بافترائِهم المشينِ

مناسبةُ العطفِ:

في قوله: ﴿وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ﴾ أفادَ العطفُ بالواو أنَّ العلمَ؛ بأنَّ القرآنَ مُنزَّلٌ بعلمِ اللّه، سببٌ للعلمِ بتوحيدِ اللّه والإيمانِ به؛ لاشتمالِ القرآنِ على معاني الإيمانِ، ولِما يتضمّنُهُ مِن كونِه مُعجزًا في بلاغتِه ونظمِه، فلمّا ثَبَتَ كونُ القرآنِ حقًّا ثَبَتَ كونُ مُحَمَّدٍ ﷺ صادقًا في دَعوَى الرِّسالةِ، ولمّا ثَبَتَ كونُهُ مُحقًّا في دَعوى الرّسالةِ ثَبَتَ قولُهُ: ﴿وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ﴾، وأيضًا لأنَّهُم إذا عَجَزوا عنِ الإتيانِ بعشرِ سورٍ مثلِه مُفترياتٍ، هُم ومَن استنصروهُم، فقد ظَهَرَ أنَّ مَن

ثبوتُ حقّيّةِ القرآنِ، يدُلُّ على ثبوتِ نبوَّةِ النّبيِّ ﷺ

(1) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 10/42، والآلوسيّ، روح المعاني: 6/223.
(2) البسيلي، نكت وتنبيهات: 2/229.

استَنصَروهُم مِن آلهتِهِم وغيرِهم لا يَستَطيعونَ نَصرَهُم، فَثَبَتَ انتفاءُ الإلهيَّةِ عن سوى اللّه تعالى، فيكونُ العطفُ مِن عطفِ المُسبَّبِ على السّببِ، أو المعلولِ على العلَّةِ[1]، وذهبَ البسيليُّ إلى أنَّ ذِكرَ المعطوفِ ﴿وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ﴾ جاءَ على سبيلِ الاحتراسِ والتّكميلِ؛ لأنّهُ إذا لم يكُنْ إلهٌ غيرُهُ تعيّنَ كونُهُ مِن عندِهِ، إذْ لا يلزمُ مِن إنزالِهِ بعلمِهِ كونُهُ مِن عندِهِ إلّا بعدَ ثبوتِ الوحدانيّةِ[2].

بلاغةُ التّعبيرِ في جملةِ توحيدِ الألوهيّةِ:

يجري قولُهُ: ﴿وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ﴾ مَجرَى التَّهديدِ، كأنَّهُ قيلَ: لَمّا ثَبَتَ بهذا الدَّليلِ كَونُ محمَّدٍ ﷺ صادِقًا في دَعوَى الرِّسالةِ، وعَلِمتُم أنَّهُ لا إلهَ إلّا اللّه، فكونوا خائِفينَ مِن قَهرِهِ وعذابِهِ، واترُكوا الإصرارَ على الكُفرِ، واقبَلوا الإسلامَ، كما أنَّ فيه إيذانًا بأنَّ مِن خصائِصِ الإلَهِ أنْ يَعلَمَ ما لا يَعلَمُهُ غَيرُهُ، وأنْ يَعجِزَ كُلُّ مَن عَداهُ عَن مِثلِ ما يَقدِرُ هوَ عليهِ، كما ظَهَرَ بهذا التَّحدِّي عَجزُكُم وعَجزُ آلِهَتِكُم وغَيرِهِم عَنِ الإتيانِ بِعشرِ سورٍ مثلِهِ مُفترياتٍ[3].

العجزُ عن معارضةِ القرآنِ يُوجِبُ العلمَ بتوحيدِ اللهِ، وتركِ الإصرارِ على الكفرِ

دلالةُ ﴿وَأَن﴾ في جملةِ التّوحيدِ بصفةِ الألوهيّةِ:

﴿وَأَن﴾ هي المخفَّفةُ مِنَ الثّقيلةِ فيكونُ اسمُها ضميرَ الشّأنِ محذوفًا؛ لِيفيدَ الكلامُ تعظيمَ شأنِ خبرِ ﴿وَأَن﴾.

تعظيمُ شأنِ اللهِ، وتبريزُ مَظهَرِ ألوهيّتِهِ

دلالةُ الفاءِ في مَطلَعِ جملةِ الاستفهامِ:

قولُهُ: ﴿فَهَلۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾، أفادَتِ الفاءُ معنى التّرتُّبِ والسّببيّةِ، فإذا كانَ الخطابُ للكافرينَ فتفيدُ الفاءُ تنبيهَهُم على قيامِ مُوجِبِ إسلامِهِم بتقريرِ الحجّةِ وزوالِ العذرِ بما ادّعوهُ مِنَ الافتراءِ؛ أي: فهل أنتُم داخلونَ في الإسلامِ بعدَ قيامِ الحجّةِ، وإذا كانَ الخطابُ

تنبيهُ الكافرينَ على قيامِ مُوجِبِ الإسلامِ بظهورِ الحجّةِ

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/326، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 10/42، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/21.

(2) البسيليّ، نكت وتنبيهات: 2/229.

(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/327، ورشيد رضا، تفسير المنار: 12/40.

للرّسولِ ﷺ والمؤمنين معه فتكونُ الفاءُ جوابَ شرطٍ مُقدَّرٍ، تقديرُهُ: إذا تحقَّقَ إعجازُهُ عندَكُم، فهل أنتُم ثابتونَ على الإسلامِ راسِخونَ فيه مُخلِصونَ[1].

بلاغةُ الاستفهامِ في: ﴿فَهَلْ﴾:

اجتماعُ التّرغيبِ والتّرهيبِ والتّنبيهِ في أسلوبِ الاستفهامِ

إنْ كانَ الخطابُ للكافرينَ فيكونُ الاستفهامُ على معنى الطّلبِ المُضمَّنِ معنى التّحريضِ على الدّخولِ في الإسلامِ، والحثِّ عليه بدونِ تأخيرٍ، بأبلغِ عبارةٍ، فيدخُلُ فيه الإذعانُ لكونِ القرآنِ مِن عِندِ اللّه تعالى دخولًا أوّليًّا، أو يكونُ الاستفهامُ على معنى طلبِ الانقيادِ إلى الحقِّ الّذي هو كونُ القرآنِ مِن عِندِ اللّه تعالى، وتاركون لِما كنتُم فيهِ مِنَ المُكابرةِ والعِنادِ، وفيهِ تهديدٌ لَهُم إنْ لم يُسلموا، وفيه كذلك تنبيهٌ لَهُم على قيامِ مُوجِبِ إسلامِهم بتقريرِ الحُجّةِ وزوالِ العذرِ بما ادّعوهُ مِنَ الافتراءِ، وإقناطٌ مِن أن يُجيرَهُم آلهتُهُم مِن بأسِ اللّه، فَجَمَعَ الاستفهامُ هنا بينَ التّرغيبِ والتّرهيبِ والتّنبيهِ، وإنْ كانَ الخطابُ لِلمُسلمينَ فيكونُ الاستفهامُ على معنى تقريرِ ما هُم عليه مِنَ الإسلامِ والانقيادِ وطلبِ الزّيادةِ فيه لِتحقُّقِ إعجازِ القرآنِ عندَهُم[2].

دلالةُ الجملةِ الاسميّةِ:

انقطاعُ معارضتهم للقرآنِ، أكسبَ اليَقينَ بصحّةِ الإسلامِ

لمّا كانَتِ الجملةُ الاسميَّةُ دالَّةً على ثبوتِ مَضمونِها، ودوامِهِ، وتقريرِ المعنى، وتأكيدِهِ، عُبِّرَ بها هنا، ولَم يَقُلْ: (فَهَل تُسلِمونَ)؛ لأنَّ حالَةَ عدمِ الاستجابَةِ لمعارضةِ القرآنِ تُكسِبُ اليَقينَ بصحَّةِ الإسلامِ، فَتَقتَضي تَمَكُّنَهُ مِنَ النُّفوسِ، وذلِكَ التَّمَكُّنُ تدُلُّ عليهِ الجملةُ الاسميّةُ[3].

---

(1) ابن جرير، جامع البيان: 15/261، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/130، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 10/43.

(2) الواحديّ، التّفسير الوسيط: 2/567، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/155 - 156، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/327، وأبو حيّان، البحر المحيط: 6/131، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 9/250، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/193.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/22.

نكتةُ التّعبيرِ بـ ﴿مُّسْلِمُونَ﴾:

الإسلامُ هو الانقيادُ لأمرِ اللهِ

عُبِّرَ بلفظِ ﴿مُّسْلِمُونَ﴾ دونَ أن يقولَ: (فهل أنتُم مُؤمنونَ) مثلًا؛ لأنَّه إنْ كانَ الخطابُ لِلمشركينَ فيكونُ على معنى طلبِ دخولِهِم في الإسلامِ؛ بمعنى: فهل أنتُم داخلونَ في الإسلامِ، كما أنَّهم لمّا نسبوا إلى رسولِ اللّه صلَّى اللّه عليه سلَّم افتراءَ القرآنِ كانَ عملُهُم على سبيلِ المُكابرةِ والعِنادِ، فناسبَ أن يخاطبَهُم بلفظٍ يدُلُّ على الانقيادِ لِلحقِّ وتركِ المُكابرةِ، فقالَ: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾، وإنْ كانَ الخطابُ لِلمُسلمينَ فيكونُ على معنى التّرقيةِ في الانقيادِ لأمرِ اللّه والثّباتِ عليهِ؛ لِيكونَ في مُقابلةِ مُكابرةِ المُشركينَ وعنادِهِم.

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيۡهِمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ فِيهَا وَهُمۡ فِيهَا لَا يُبۡخَسُونَ ١٥﴾ [هود: 15]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

كشف ما وراء تكذيب الكفرة للنّبيِّ الأكرمِ ﷺ

لمّا كانَ الكُفّارُ يُنازِعونَ رسولَ اللّه ﷺ في القرآنِ، وينسبونَهُ إلى الافتراءِ، فَكانوا يُظهِرونَ مِن أنفُسِهِم أنَّ رسولَ اللّه مُبطِلٌ، ونَحنُ مُحِقُّونَ، وإنَّما نُبالِغُ في مُنازَعتِهِ لِتحقيقِ الحَقِّ وإبطالِ الباطِلِ، وليسَ لغرضٍ في الحياةِ الدّنيا، كذَّبَهُم في هذه الآيةِ، وبيَّنَ أنَّ غرضَهُم هو حرصُهُم على الحياةِ الدّنيا وزينتِها[1].

وأيضًا لمّا جاءَ في الآياتِ السّابقةِ الحثُّ على الثّباتِ على الإسلامِ والدّخولُ فيه والوعيدُ على التّقاعسِ عنهُ ما مِن حَقِّ السّامعِ أن يُبادِرَ إليه، وكانَ حقُّ المسلمِ الإعراضَ عنِ الدّنيا لسوءِ عاقبتِها، وكانَ أعظمُ الموانعِ لِلمُشركينَ مِنَ التّصديقِ بالقرآنِ استيلاءَ أحوالِ الدّنيا عليهِم، جاءَت هذه الآيةُ لبيانِ سببِ التّقاعُسِ والمانعِ مِنَ الرّضوخِ لِلحَقِّ[2].

وأيضًا لمّا أقامَتِ الآياتُ السّابقةُ الحُجَّةَ على أنَّ القرآنَ مِن عندِ اللّه تعالى جاءَت هذه الآيةُ؛ لبيانِ أنَّهم إنْ كانوا طالِبينَ الحَقَّ والفَوزَ فقدِ استَتَبَّ لَهُم ما يَقتَضي تَمَكُّنَ الإسلامِ مِن نُفوسِهِم، وإنْ كانوا إنَّما يَطلُبونَ الكِبرياءَ والسِّيادَةَ في الدُّنيا، ويأنَفونَ مِن أنْ يكونوا تَبَعًا لِغيرِهِم، فَهُم مُريدونَ الدُّنيا، فلذلِكَ حُذِّروا مِن أن يَغتَرُّوا بالمَتاعِ العاجِلِ، وأُعلِموا بأنَّ وراءَ ذلكَ العذابَ الدّائِمَ، وأنَّهُم على الباطِلِ[3].

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/327.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/251.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/22.

وأيضًا بَعدَ أنْ قامَتِ الحُجَّةُ القَطعيَّةُ على إعجازِ القرآنِ، وحَقِّيَّةِ دعوَةِ الإسلامِ، بما يَقطَعُ ألسِنَةَ المُفتَرينَ، ويُبطِلُ مَعاذيرَهُم، بَيَّنَ لَهُم في هاتينِ الآيتينِ الصّارِفَ النَّفسيَّ لَهُم عَنهُ، وكَونهُ شَرًّا لَهُم لا خَيرًا، وهو أنَّهُ لا حظَّ لَهُم مِن حَياتِهِم إلّا شَهَواتُ الدُّنيا وزينَتُها[1]. ونكاتُ المناسباتِ لا تتزاحمُ.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَزِينَتَهَا﴾: يدُلُّ لفظُ (زين) على حُسنِ الشَّيءِ وتَحسينِهِ. فالزَّينُ نَقيضُ الشَّينِ، والزّينةُ تحسينُ الشّيءِ ظاهرًا بغيرِهِ مِن لبسةٍ أو حليةٍ أو هيئةٍ، فالزّينةُ زيادةٌ ظاهرةٌ تتعَلَّقُ بظاهرِ الشّيءِ، ومنه زَينُ الدّيكِ عرفُهُ، وزينةُ الأرضِ النّباتُ، ثمَّ عُمِّمَ اللَّفظُ في كلِّ ما يُستَحلَى، ومعنى ﴿وَزِينَتَهَا﴾ الزّينةُ الدّنيويّةُ مِنَ المالِ والقصورِ والقوّةِ والجاهِ وغيرِها[2].

2) ﴿نُوَفِّ﴾: الوافي: الّذي بلغَ التّمامَ والإكمالَ، ويدورُ المعنى المحوريُّ للكلمةِ على نموٍّ أو زيادةٍ يبلغُ بها الشّيءُ تمامَ قوامِهِ، ويُقالُ: كيلٌ وافٍ؛ أي: تمَّ، ومنه: أوفَيتُ الكيلَ والوزنَ بمعنى مَلَأْتَهُ إلى التّمامِ، وتَوَفَّيتُ الشَّيءَ واستَوفَيتُهُ إذا أخَذتَهُ كُلَّهُ حتَّى لم تَترُكْ مِنهُ شيئًا، ومعنى ﴿نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا﴾ في الآيةِ نُؤتِهِم ثوابَ أعمالِهِم فيها كاملًا[3].

3) ﴿يُبْخَسُونَ﴾: البخسُ هو النّقصُ القليلُ الطّفيفُ على سبيلِ الظّلمِ، ومنه: بَخسُ الكيلِ والميزانِ: نقصُهُ، وثَمَنٌ بَخْسٌ؛ أي: ناقصٌ، ومعنى ﴿لَا يُبْخَسُونَ﴾ لا يُنقَصونَ شيئًا مِن جَزائِهِمُ الدُّنيَويِّ[4].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

مَنْ كانَ يُريدُ الحَياةَ الدُّنيا ومَتاعَها بما يعملُ مِن أعمالِ الخيرِ والإحسانِ نُوصِّلُ إليهِم

(1) رضا، تفسير المنار: 12/41.
(2) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، السّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (زين).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (وفى)، وابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 202.
(4) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (بخس)، وابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 202.

جزاءَ أعمالِهم في الدّنيا مِنَ الصّحّةِ والرّئاسةِ وسعةِ الرّزقِ وكثرةِ الأولادِ، وهُم فيها لا يُنْقَصونَ شيئًا مِن أجورِهم[1].

مَن أحسنَ القيامَ بالأسبابِ أعطَتهُ، بسننِ اللهِ في الكونِ، ما يرتجيهِ

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالةُ الشّرطِ بـ ﴿مَن﴾:

أفادَ لفظُ ﴿مَن﴾ العمومَ؛ ليتناولَ كلَّ مَن يريدُ زينةَ الحياةِ الدّنيا، ولمّا كانَ السّياقُ في بيانِ أوصافِ الكافرينَ وأحوالِهم دخلَ فيه عمومُ الكافرينَ ومنافقيهم دخولًا أوّليًّا، ويؤيّدُه حصرُهُم في الآيةِ التّاليةِ في الكينونةِ في النّارِ، في قولِه تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيۡسَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُۖ﴾، ولمجيءِ الآيةِ على طريقِ الاستئنافِ يدخلُ أهلُ الرّياءِ في الطّاعاتِ في لفظِ العمومِ، ويكونُ المرادُ مِن سَوقِها التّغليظَ في الوعيدِ لِلمُرائين، فيحملُ كلُّ فريقٍ منها ما يقتضيه الوصفُ والجزاءُ، ويكونُ معنى الحصرِ في الآيةِ التّاليةِ في حَقِّ المُرائينَ: ليسَ يجبُ لَهُم، ولا يَحِقُّ لَهُم إلّا النّارُ، فإنْ عفا اللهُ عنهم فبفضلِهِ ورحمتِه[2].

الكافرونَ والمنافقونَ أكثرُ النّاسِ حرصًا على الحياةِ الدّنيا، وزينتِها الفانيةِ

دلالةُ التّركيبِ: ﴿كَانَ يُرِيدُ﴾:

أفادَ هذا التّركيبُ استمرارَ إرادتِهم الحياةَ الدّنيا وزينتَها وتجدُّدَها منهُم، وكأنَّه ليسَ لَهُم شأنٌ سوى فيما وصفَهُم بهِ، فإدخالُ ﴿كَانَ﴾ على الفعلِ ﴿يُرِيدُ﴾ دلَّ على استمرارِ إرادتِها منهُم، بحيثُ لا يكادونَ يريدونَ الآخِرةَ أصلًا[3].

إفادةُ تركيبِ (كانَ يفعلُ) استمرارَ الفعلِ والمداومةَ عليه

نكتةُ التّعبيرِ بـ ﴿يُرِيدُ﴾:

عُبِّرَ بلفظِ ﴿يُرِيدُ﴾ للإشعارِ بأنَّ المرادَ مَنْ سعى إلى الحياةِ الدّنيا، مُتوجِّهًا إليها، قاصدًا إيّاها، ومَن توجَّهَ إلى أمرٍ مالَ عن

مَن توجَّهَ إلى الحياةِ الدّنيا قاصدًا إيّاها مالَ عنِ الآخرةِ

(1) ابن جرير، جامع البيان: 15/262، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 2/130.

(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/156، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/328، وابن الجوزيّ، زاد المسير: 2/362، وأبو حيّان، البحر المحيط: 6/132.

(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/193.

مقابلِه، فلمّا كانَتِ الآخرةُ في مُقابلِ الحياةِ الدّنيا كانَ المعنى: مَن كانَ يريدُ الحياةَ الدّنيا، بحيث يكونُ مُتوجِّهًا إليها، راغبًا فيها، مَائِلًا عن إرادةِ الآخرةِ.

بلاغةُ تقييدِ فعلِ الشّرطِ في مَقامِ الخطابِ:

المذمومُ هو إرادةُ الحياةِ الدّنيا فقط، وتركُ إرادةِ الآخرةِ

لمّا جاءَ فعلُ الشّرطِ في المقامِ الخطابيِّ لا البرهانيِّ أفادَ اقتِصارَ الفاعِلِ على ذلكَ الفعلِ، فالمَعنَى: مَن كانَ يُريدُ الحياةَ الدُّنيا وزينتَها فقط؛ أي: تكونُ إرادتُهُ مقصورةً على حُبِّ الدّنيا وزينتِها، بِقَرينَةِ قَولِه تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيۡسَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُۖ﴾، إذ حُصِرَ أمرُهُم في استِحقاقِ النّارِ، وهو مَعنَى الخُلودِ[1].

نكتةُ ذكرِ: ﴿ٱلۡحَيَوٰةَ﴾:

الحياةُ الدّنيا زخرفٌ زائلٌ، لا يدومُ بها الحالُ

لم يقُلْ: (مَن كانَ يريدُ الدّنيا)؛ للإشارةِ إلى أنَّهم يريدونَ التَّمتُّعَ في الحياةِ الدّنيا، كما أنَّ عطفَ ﴿وَزِينَتَهَا﴾ يقتضي ذكرَ الحياةِ؛ لِعودِ الضّميرِ في ﴿وَزِينَتَهَا﴾ إلى ﴿ٱلۡحَيَوٰةَ﴾.

مناسبةُ العطفِ في: ﴿وَزِينَتَهَا﴾:

تحذيرُ المسلمينَ مِنَ الركونِ إلى الدّنيا وزينتِها، وتركِ العملِ للآخرةِ ونعيمِها

عَطفُ ﴿وَزِينَتَهَا﴾ على ﴿ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا﴾ يفيدُ أنَّ إرادةَ الحياةِ الدّنيا بطولِ العمرِ والتَّعلُّقِ بالحياةِ غيرُ إرادةِ زينتِها والتَّعلُّقِ بها، فهما أمران مُتغايران، وأنَّ المعطوفَ عليه سببٌ لحصولِ المعطوفِ، وفي العطفِ إشعارٌ بأنَّ ما كانوا يَختلقونَهُ مِن افتراءِ القرآنِ إنّما كانَ بسببِ إرادتِهم الحياةَ الدّنيا وزينتَها وتعلُّقِهم بها، كما أنَّه لمّا جاءَ في سياقِ الآياتِ طلبُهُم أن يُنزَّلَ إلى رسولِ اللّه كنزٌ دلَّ على تعظيمِهم للمالِ الّذي هو مِن زينةِ الحياةِ الدّنيا ورغبتِهم فيه، وأفادَ العطفُ تقريرَ أنَّ المرادَ مِن إرادةِ الحياةِ الدّنيا هو التَّمَتُّعُ بِلَذّاتِها وطَيِّباتِها، والانتِفاعُ بخَيراتِها وشَهَواتِها، والرّكونُ إليها،

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/327، وابن عادل، اللّباب: 10/451، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/23.

وفيه تحذيرٌ لِلمسلمينَ مِن إرادتِهِم لها على جهةِ الاقتصارِ عليها، وتوجُّهِ قصدِهِم إليها.

فائدةُ الإضافةِ في: ﴿وَزِينَتَهَا﴾:

لمّا أضافَ الزِّينةَ إلى الضّميرِ العائدِ إلى الحياةِ الدّنيا، وكانَتِ الإضافةُ على معنى التّخصيصِ، دلَّ على أنَّ الزّينةَ المذمومةَ هنا هي المخصَّصةُ بالحياةِ الدّنيا على معنى توجُّهِ الإنسانِ إليها وتعلُّقِهِ بها فقط دونَ الآخرةِ.

الزّينةُ المذمومةُ هي المخصَّصةُ بالدّنيا دونَ الآخرةِ

دلالة التّعبيرِ بالفعلِ المضارعِ ﴿نُوَفِّ﴾ في جزاءِ الشّرطِ:

كانَ الظّاهرُ أن يقولَ: (وفَّينا)؛ لأنَّه لمّا جاءَ فعلُ الشّرطِ ماضيًا ناسبَهُ أن يكونَ فعلُ الجزاءِ ماضيًا كذلكَ[1]، لكنّه قال: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا﴾ فلمّا عَدَلَ إلى المضارعِ دلَّ على أنَّ اللّه تعالى يُوفِّي إليهم أعمالَهُم في الدّنيا شيئًا شيئًا إلى أن يُتمِّمَ جزاءَ أعمالِ برِّهِم وإحسانِهِم فيها.

مَن يُتقِنْ عملَهُ في الدّنيا يأخُذْ ثمرةَ عملِهِ فيها

فائدةُ التّعبيرِ بصيغةِ ﴿نُوَفِّ﴾:

أشعرَ التّعبيرُ بنونِ العظمةِ أنَّ توفيةَ ثوابِ الأعمالِ بفضلِ اللّه ومنَّتِهِ، وبما يليقُ بعظمتِهِ سبحانَهُ ومشيئتِهِ، وليسَ واجبًا عليه، فهو المَلِكُ الأعلى.

تعظيمُ شأنِ اللهِ بتوفيتِهِ سبحانَهُ الكافرَ حقَّهُ في الدّنيا

بلاغةُ التّضمينِ في: ﴿نُوَفِّ﴾:

لمّا كانَ الفعلُ ﴿نُوَفِّ﴾ مُتعدِّيًا إلى مَفعولين كانَ الظّاهرُ أن يقولَ: (نوفِّيهِم أعمالَهُم)، ولكنْ عُدِلَ إلى ﴿نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ﴾؛ فتعدَّى الفعلُ بـ ﴿إِلَيْهِمْ﴾ لتضمينِ الفعلِ معنى (نُوَصِّلُ أو نُبلِغُ)؛ لِيفيدَ التّعبيرُ بالفعلِ ﴿نُوَفِّ﴾ معنى تمامِ الجزاءِ على أعمالِهِم وإيصالِهِ إليهم، وفيه إشعارٌ بأنَّ ثوابَ أعمالِهِم قد يصلُ إليهم، وهُم لا يعلمونَ أنَّ ما يَصلُهُم ممّا يَتمتّعونَ بهِ في الحياةِ الدّنيا هو

مَن أجادَ عملًا في الدّنيا أخذَ حظًّا فيه، سواء أكانَ مُؤمِنًا أم كافرًا

(1) الكرمانيّ، غرائب التّفاسير: 1/499.

جزاءُ أعمالِهم، وهذِهِ التَّوفيَةُ مُتَفاوِتَةٌ، والقَدرُ المُشتَرِكُ فيها بَينَهُم هو خَلُوُّهُم مِن كُلَفِ الإيمانِ ومَصاعِبِ القيامِ بالحَقِّ والصَّبرِ على عِصيانِ الهَوَى، فكأنَّهُ قِيلَ نَترُكُهُم وشَأنَهُم في ذلكَ، وفي هذا المعنى جاءَ قولُهُ تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾﴾ [الإسراء: 18]، كما يحتملُ أن يكونَ الفعلُ ﴿نُوَفِّ﴾ قد جاءَ على طريقِ المجازِ بذكرِ التّوفيةِ وإرادةِ الإيصالِ؛ ليكونَ على سبيلِ المجازِ اللّغويِّ، والمآلُ في المعنى واحدٌ[1].

فائدةُ مجيءِ الفعلِ بنونِ الجمعِ ﴿نُوَفِّ﴾:

عُبِّرَ بنونِ الجمعِ للتّعظيمِ؛ بمعنى قدرةِ اللّه المَلِكِ الأعظمِ على توفيةِ جميعِ ثوابِ أعمالِهم مِن غيرِ أن ينقصَ منها شيءٌ، ومجيءُ فعلِ التّوفيةِ الّذي بمعنى تمامِ الجزاءِ يناسبُ تعظيمَ ما شأنُهُ التّعظيمُ.

توفيةُ جميعِ ثوابِ الكافرينَ تعظيمٌ لشأنِ عدلِ اللهِ

فائدةُ تقديمِ ﴿إِلَيْهِمْ﴾:

قُدِّمَ الجارُّ والمجرورُ: ﴿إِلَيْهِمْ﴾ على المفعولِ بهِ: ﴿أَعْمَٰلَهُمْ﴾؛ للإشعارِ باستعجالِ تمامِ التّوفيةِ إليهم قبلَ انقضاءِ آجالِهم.

إتمامُ توفيةِ أعمالِ برِّ الكافرينَ، قبلَ انقضاءِ آجالِهم

بلاغةُ الحذفِ في: ﴿نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ﴾:

لمّا كانَتِ الأعمالُ لا تُوفَّى دلَّ على أنَّ المعنى (جزاء أعمالِهم)، فيكونُ مِنَ المجازِ بالحذفِ، أو يكونُ قد ذكرَ الأعمالَ، وأرادَ ثمراتِها على سبيلِ المجازِ المُرسَلِ[2]، وعُبِّرَ بطريقِ المجازِ للإيذانِ بتوفيةِ جزاءِ جميعِ أعمالِهم، وللإشعارِ بأنَّه كأنَّ أعمالَهُم رُدَّت عليهم، ورجعَت إليهم؛ لعدمِ انتفاعِهم منها في الآخرةِ.

مَن عملَ لدارِ الزّوالِ زالَت أعمالُهُ بزوالِها

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/384، والخفاجيّ، حاشية على تفسير البيضاويّ: 5/139، والآلوسيّ، روح المعاني: 6/225، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/24.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/193، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 10/44، والآلوسيّ، روح المعاني: 6/225.

بلاغةُ العدولِ إلى الجمعِ في: ﴿أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾:

لمّا قالَ في الشّرطِ ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ﴾ كانَ الكلامُ لِلمُفردِ على سبيلِ العمومِ، ثمَّ عَدَلَ في الجزاءِ، فجاءَ بصيغةِ الجمعِ بإضافةِ الأعمالِ إلى ضميرِ (هُمْ)، ولم يقُلْ: (نوفِّ إليهِ أعمالَهُ)؛ لأنَّه لمّا كانَتِ التّوفيةُ تدلُّ على معنى التّمامِ ناسبَ أنْ يقرنَ بها صيغةَ الجمعِ؛ للإشارةِ إلى أنَّهم جميعًا يوفَّونَ أعمالَهُم، كما أنَّ إضافَةَ الأعمالِ إلى الضَّميرِ أفادَت أنَّها الأعمالُ الَّتي عَنَوا بِها، وأعَدّوها لِصالِحِهِم[1].

توفيةُ جميعِ مَن يريدونَ الحياةَ الدّنيا، ويقتصرونَ عليها، أجورَ أعمالِهم في الدّنيا

دلالةُ ﴿فِيهَا﴾:

لمّا كانتِ التّوفيةُ هنا؛ بمعنى إيصالِ تمامِ أجورِ أعمالِهم، وكانَ الجارُّ والمجرورُ ﴿فِيهَا﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿أَعۡمَٰلَهُمۡ فِيهَا﴾ في مَوضِعِ الحالِ، دلَّ المعنى على أنَّ كُلَّ ما يَستَحِقّونَ فيها مِنَ الثَّوابِ فإنَّهُ يَصِلُ إليهِم حالَ كَونِهِم في دارِ الدُّنيا، وأفادَ بطريقِ اللّازمِ أنَّهم إذا خَرَجوا مِنَ الدُّنيا لَم يَبقَ مَعَهُم مِن تِلكَ الأعمالِ أثرٌ مِن آثارِ الخَيراتِ، ويلزمُ منه أنْ لَيسَ لَهُم مِنها إلّا النّارُ[2]، فكأنَّ مجيءَ الجارِّ والمجرورِ حالًا، أفادَ التّكنيةَ بالتّوفيةِ على حصرِ كينونتِهِم في النّارِ، ويكونُ قولُهُ تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيۡسَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُۖ﴾ كالتّصريحِ بعدَ التّلويحِ زيادةً في التّبكيتِ.

متعةُ الدّنيا ليسَت دليلًا على متعةِ الآخرةِ

دلالةُ الواوِ في: ﴿وَهُمۡ فِيهَا لَا يُبۡخَسُونَ﴾:

تحتملُ الواوُ أن تكونَ حاليَّةً[3]؛ بمعنى: نوفِّ إليهِم جزاءَ أعمالِهِم في حالِ هُم في الحياةِ الدّنيا لا يُبخسونَ هذا الجزاءَ، ولو كانَ شيئًا طفيفًا قليلًا؛ ليكونَ الحالُ على معنى تأكيدِ التّوفيةِ وتقريرِها، وتحتملُ الواوُ أن تكونَ عاطفةً لهذهِ الجملةِ الاسميّةِ على جملةِ ﴿نُوَفِّ

الكُفرُ لا يَمنَعُ مِن نِعمَةِ اللّهِ؛ لأنّه تعالى يرزقُ المؤمنَ والكافرَ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/24.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/328.
(3) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 4/326.

﴿إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا﴾؛ لتفيدَ الجملةُ معنىً آخر مُغايرًا لتوفيةِ جزاءِ أعمالِهم، وهو إفادةُ أنَّهم لا يُجازَونَ على كُفرِهم بِجَزاءِ سَلبِ بَعضِ النِّعَمِ عنهُم بَل يُترَكونَ وشَأنَهُم استِدراجًا لهُم وإمهالًا، فالكُفرُ لا يَمنَعُ مِن نِعمَةِ اللّه، فتكونُ الجملةُ المعطوفةُ كالتَّكمِلَةِ لِمعنى جملَةِ: ﴿نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا﴾[1].

بلاغةُ الاحتراسِ بتكرارِ ﴿فِيهَا﴾:

تأكيدُ توفيةِ ثوابِ أعمالِ الكفّارِ في الحياةِ الدّنيا

قولُهُ: ﴿وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾، وفيه لمّا كانَ الظّاهرُ أنّ الضّميرَ في الجارِّ والمجرورِ يعودُ إلى الحياةِ الدّنيا كانَ على سبيلِ التّكرارِ، وفائدتُهُ بيانُ أنَّ عدمَ البخسِ ليسَ إلّا في الدّنيا، فلو لم يذكرْ ﴿فِيهَا﴾ لَتوهَّمَ أنَّ عدمَ البخسِ مُطلَقٌ في الدّنيا والآخرةِ، كما أفادَ التّكرارُ تأكيدَ توفيةِ ثوابِ أعمالِهم في الحياةِ الدّنيا، والإعلامَ بأنَّ الآخرةَ لَيسَت كالدُّنيا في وَفاءِ كَيلِ الجَزاءِ وفي بَخسِهِ[2].

دلالةُ النفي وصيغة المضارع في ﴿لَا يُبْخَسُونَ﴾:

اللهُ عدلٌ لا يبخسُ النّاسَ شيئًا

تفيدُ ﴿لَا﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿لَا يُبْخَسُونَ﴾ استمرارَ نفي البخسِ المقيَّدِ، بكونِهِ في الحياةِ الدّنيا.

وللإشعارِ بأنَّ نفيَ بخسِ جزاءِ أعمالِهم يكونُ شيئًا فشيئًا، كما هو ظاهرٌ في الحياةِ الدّنيا، فليسَ مِن ديدنِ العدلِ الإلهيِّ بخسٌ ولا تطفيفٌ.

نكتةُ التّعبيرِ بصيغة ﴿يُبْخَسُونَ﴾:

تجلّي العدلِ الإلهيِّ للكافرينَ في انتفاءِ بخسِ أعمالِهم

عُبِّرَ بالبخسِ الّذي هو نقصُ الحقِّ، مع أنَّه ليسَ لَهُم شائبةُ حقٍّ فيما أُوتوهُ، كما عُبِّرَ عن إعطائِهِ بالتَّوفيةِ الّتي هي إعطاءُ الحقوقِ، مع أنَّ أعمالَهُم بمعزلٍ عن كونِها مُستَوجَبَةً لِذلِكَ؛ بناءً لِلأمرِ على ظاهرِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/22.

(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 6/225، ورشيد رضا، تفسير المنار: 12/41.

الحالِ، ومُحافَظةً على صورِ الأعمالِ، ومُبالَغةً في نفيِ النَّقصِ، كأنَّ ذلكَ نقصٌ لِحقوقِهِم، فلا يَدخُلُ تحتَ الوقوعِ والصّدورِ عنِ الكريمِ أصلًا، والمعنى: أنَّهُم في الحياةِ الدّنيا خاصّةً لا يُنقَصونَ ثَمَراتِ أعمالِهِم وأُجورَها نَقصًا كُلِّيًّا مُطَّرِدًا، ولا يُحرَمونَها حِرمانًا كُلِّيًّا، وأمّا في الآخرةِ فَهُم في الحِرمانِ المُطلَقِ واليأسِ المُحَقَّقِ[1]، فالأمرُ على جهةِ المقابلةِ والمقايسةِ بينَ حالِهِم في الحياةِ الدّنيا والآخرةِ.

فائدةُ مجيءِ الخبرِ جملةً فعليَّةً:

أفادَ مجيءُ خبرِ المبتدأ ﴿وَهُمْ﴾ جملةً فعليَّةً في قولِهِ: ﴿لَا يُبْخَسُونَ﴾ تقويةَ الحكمِ وتقريرَهُ بنفسِ التّركيبِ، والمرادُ تحقيقُ انتفاءِ نقصِ جزاءِ أعمالِهِم عندَ السّامِعينَ، وليسَ المرادُ تخصيصَ انتفاءِ نقصِ الجزاءِ بهِم[2].

المرادُ هنا انتفاءُ نقصِ الأعمالِ عندَ السّامِعينَ للخطابِ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/193.
(2) السّكّاكيّ، مفتاح العلوم، ص: 221.

﴿أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيۡسَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَـٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٦﴾ [هود: 16]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لمّا بيَّنَ حالَ مَن يريدُ الحياةَ الدّنيا وزينتَها، بيَّنَ حالَهُم في الآخرةِ فقالَ: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيۡسَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُۖ﴾.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿حَبِطَ﴾: يدورُ معنى الحبطِ على الفسادِ والألم، فأمّا الفسادُ فمنهُ قولُهُم: حبطَ عملُهُ، وذلك إذا عَمِل الرّجلُ عملًا، ثمَّ أفسدَهُ، وأمّا الألَمُ فمنهُ: حبطُ البعيرِ، وهو الوجعُ الّذي يأخذُهُ لكثرةِ الأكلِ حتّى ينتفخَ بطنُهُ فيهلكَ بسببِهِ، وكذلِكَ عَمَلُ المُنافقِ والمُشرِكِ يَحبطُ فَيهلكُ بسببِه[1]، ومعنى ﴿حَبِطَ﴾ فسدَ[2].

2) ﴿وَبَـٰطِلٞ﴾: يدورُ معنى الكلمةِ على ذَهابِ الشَّيءِ وقِلَّةِ مُكثِهِ ولُبثِهِ، والباطلُ ما لا ثباتَ لهُ عن فحصِهِ والتّنقيرِ عنهُ، فهو الشّيءُ الزّائلُ، والباطلُ نقيضُ الحقِّ الّذي هو الشّيءُ الثّابتُ، والبَطَلُ: الرّجلُ الشّجاعُ المُعرِّضُ نفسَهُ للموتِ. فقيل: سُمِّي بذلكَ لأنّه مُبطِلٌ لِدمِهِ، وكلُّ ما ذُكِرَ في القرآنِ مِنَ هذا اللّفظِ ومُشتقّاتِهِ فهو بمعنى المُهْدَرِ؛ لأنّه غيرُ صحيحٍ أو غيرُ نافعٍ، والباطِلُ كلُّ ما تقتضي ذاتُهُ أن لا تُنالَ به غايةٌ في ثوابٍ ونحوِهِ، واستُعملَ اللّفظُ هنا بمعنى فسادِ العملِ المُقتضي لِعدمِ الثّوابِ[3].

المَعْنى الإجْمالِيُّ:

أولئكَ الّذين ذكرتُ أنّا نوفّيهم أجورَ أعمالِهم في الدّنيا، وليسَ لَهُم في الآخرةِ إلّا النّارُ يصلونَها، وذهبَ ما عَملوا في الدّنيا، وبطلَ ما كانوا يعملونَ؛ لأنَّهم كانوا يعملونَ لغيرِ اللّه، فأبطلَهُ اللّه.

مَن كانَتِ الدّنيا مُرادَهُ، ولها يعملُ، ليس له في الآخرةِ نصيبٌ

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (حبط).
(2) السّجستانيّ، غريب القرآن، ص: 186، وابن الهائم، التّبيان في تفسير غريب القرآن، ص: 106.
(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (بطل).

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

فائدةُ مجيءِ اسمِ الإشارةِ ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ﴾:

مَن يدخلِ النّارَ فهو مُستحقٌّ لها؛ لأنّ اللهَ لا يظلمُ أحدًا

أفادَ اسمُ الإشارةِ العنايةَ بتمييزِ المذكورينَ أكملَ تمييزٍ بما ذكرَ مِن أوصافِهِم؛ لِتصييرِهِم كالمشاهدِينَ؛ أي: أولئكَ المَوصوفونَ بتوفيتِهِم ثمراتِ أعمالِهم من غيرِ نقصٍ، فقد اجتَنَوا ثمراتِها من غيرِ نقصٍ وبإرادتِهِم الحياةَ الدّنيا وزينتَها، فلم يكونوا يريدونَ بها شيئًا آخرَ، فلا جَرَمَ لم يكُنْ لَهُم في الآخرةِ إلّا النّارُ، وفي التّعبيرِ باسمِ الإشارةِ تَنبيهٌ على أنَّ المُشارَ إليهِم استَحَقّوا النّارَ وعذابَها المُخلَّدَ، وأنَّهُم جديرون بما حَكَمَ عليهم، أحقّاءُ بهِ من أجلِ الصّفاتِ الّتي ذُكِرَت قبلَ اسمِ الإشارةِ[1].

نكتةُ التّعبيرِ باسمِ الإشارةِ: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ﴾:

سفالةُ المحلِّ في الآخرةِ مُؤذنٌ ببعدِ المَنزلةِ في سوءِ الحالِ

التّعبير باسمِ الإشارةِ للبعيد للإيذانِ ببُعدِ مَنزلتِهِم في سوءِ الحالِ وبعدِهِم عن ساحةِ القبولِ في الآخرةِ، كما أنَّ سفالةَ مَحلِّهِم - وهي النّارُ - أنزلَتهُم مَنزلة بعد المسافة[2].

دلالةُ الحصرِ بالمُسندِ والمُسنَدِ إليهِ:

المبالغةُ في ذمِّ الّذين يريدونَ الحياةَ الدّنيا، مُقتصِرينَ عليها

قولُهُ: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ﴾ وفيه لمّا جاءَ المُسندُ والمُسندُ إليه مَعرِفَتَين، أفادَ الإسنادُ القصرَ، بمعنى: أنَّ نفيَ الحصولِ على أيِّ شيءٍ في الآخرةِ لا يكونُ إلّا لأولئكَ المُوصوفِينَ بالصّفاتِ المذكورةِ؛ لِلمبالغةِ في ذمِّهِم، وتقبيحِ أعمالِهِم، ولتأكيدِ المعنى وتقريرِهِ، فهو من قصرِ الصِّفةِ على الموصوفِ قصرًا إضافيًّا.

دلالةُ الحصرِ:

خيبةُ مَن يَقصِدُ بسعيهِ الحياةَ الدّنيا، فليسَ له في الآخرةِ إلّا النّارُ

قولُهُ: ﴿لَيۡسَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُۖ﴾، وفيه الحصرُ هنا بأسلوبِ

(1) التّفتازانيّ، المطوّل، ص: 223 - 224، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/194، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/25.

(2) التّفتازانيّ، المطوّل، ص: 223، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/193، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/24 - 25.

النّفي و﴿إِلَّا﴾، وعُبِّرَ بهذا الأسلوبِ لِيفيدَ أنَّه أنزلَهُم مَنزِلةَ مَن يعتقدُ أنَّ جزاءَهُم في الآخرةِ الجنَّةُ لِما عملوهُ مِن أعمالِ البرِّ والإحسانِ، وأنَّهُم لن يكونوا في النّارِ، فلمّا كانوا مُخطِئينَ في اعتقادِهِم، وكانوا مُصرِّينَ عليهِ بدلالةِ أعمالِهِمُ القبيحةِ الباطلةِ، عُبِّرَ بالنّفي والاستثناءِ دونَ غيرِهِ مِن أساليبِ الحصرِ، وأفادَ الأسلوبُ قصرَ الصّفةِ على الموصوفِ؛ بمعنى حصولِهِم في الآخرةِ على أمرٍ واحدٍ فقط، هو النّارُ.

فائدةُ الاستثناءِ بـ ﴿إِلَّا﴾:

﴿لَيۡسَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُۖ﴾، وفيه أفادَ الاستثناءُ المُفرَّغُ نفيَ عمومِ المُستثنى؛ بمعنى: لَيسَ لَهُم شيءٌ مِمّا يُعطاهُ النّاسُ في الآخرةِ إلّا النّارُ، ففيه كنايةٌ عن خلودِهِم فيها[1]، وفيه تعريضٌ بأنَّ غيرَهُم ممّن أرادَ الآخرةَ، وعملَ لها بصدقٍ وإحسانٍ، ليسَ لهُ إلّا الجنّةُ.

مَن ليسَ لهُ في الآخرةِ إلّا النّارُ، يخلدُ فيها، ويذوقُ عذابَها باستمرارٍ

دلالةُ الواوِ في: ﴿وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا﴾:

الواو هنا حاليَّةٌ؛ بمعنى: أنَّ جملةَ ﴿وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا﴾ حالٌ مِنَ الضّميرِ المجرورِ في ﴿لَيۡسَ لَهُمۡ﴾، وتُشعِرُ جملةُ الحالِ بمعنى السّببيَّةِ، فكأنَّه قيلَ: ليسَ لَهُم في الآخرةِ إلّا النّارُ لِحالِ حبطِ ثوابِ ما صَنعوا، فجملةُ الحالِ بمثابةِ العِلَّةِ لِما قبلَها[2].

حبطُ العملِ سببٌ لدخولِ النّارِ، والخلودِ فيها

براعةُ التّعبيرِ في: ﴿وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا﴾:

لمّا كانَ الصّنعُ هو إجادةَ الفعلِ بجمعِ شيءٍ أو تحصيلِهِ بتدبيرٍ وإحكامٍ[3] أخبرَ عن ما صنعوهُ أو عن صنعِهِم بأنَّه ﴿وَحَبِطَ﴾؛ للإيذانِ بأنَّ ما كانوا يتّكلونَ عليهِ مِن أعمالِ البرِّ والخيرِ والإحسانِ، ممّا كانَ

شرطُ الاعتدادِ بالعملِ الصّالحِ التّوحيدُ والإخلاصُ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/25.

(2) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 2/130، والخفاجيّ، حاشية على تفسير البيضاويّ، ص: 141، وابن التّمجيد، حاشية على تفسير البيضاويّ: 10/46.

(3) الرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (صنع).

يعظمُ عندَهُم؛ لإجادتِهم إيّاهُ في العملِ، قد فَسَدَ وهَدَرَ، فأشعرَ لفظُ ﴿وَحَبِطَ﴾ أنَّهُم لم ينتفعوا ممّا صنعوهُ مِنَ الأعمالِ، الّتي كانَت تؤدّي إلى الثّوابِ، لو كانَت مَعمولةً لِلآخرةِ؛ لأنَّها قد فسدَت؛ إذ شرطُ الاعتدادِ بها التّوحيدُ والإخلاصُ.

بلاغةُ الاستعارةِ التّصريحيَّةِ في: ﴿وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا﴾:

بيانُ فسادِ أعمالِ الكافرينَ، وهُم يظنّونَ أنّهُم يُحسِنونَ صُنعًا

﴿وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا﴾ وفيه عُبِّرَ عن فسادِ أعمالِهم وعدمِ إنتاجِ ثمرتِها بالحبطِ على طريقِ المجازِ؛ ليكونَ استعارةً تصريحيَّةً تبعيَّةً، فشبَّهَ حالَ مَن عملَ أعمالَ البرِّ فلم يجدْ لَها أثرًا نافعًا بالأنعامِ الّتي تأكلُ الخضرَ بكثرةٍ وشهوةٍ للشّبعِ، فَتستطيبُهُ حتَّى ينتفخَ بطنُها وتفسدَ أحشاؤُها فتهلكَ؛ لِما يصيبُها مِنَ الحبَطِ، وهو وجعُ البطنِ؛ للإشعارِ بأنَّهُم كانوا يَتلذّذونَ بأعمالِهم كما يتلَذَّذُ الحيوانُ بالأكلِ، وهو غيرُ نافعٍ لهُ بل هو سببُ هلاكِهِ، فظاهِرُ كَثرَةِ الأكلِ للأنعامِ أنَّهُ سَبَبٌ للقوَّةِ، فكانَ في هذِهِ الحالةِ سَبَبًا للضَّعفِ والهلاكِ، كذلكَ ما ظاهِرُهُ البرُّ والإحسانُ مِن أعمالِ النّاسِ، إذا كانَ الباعِثُ عليه الاقتصارَ على إرادةِ الحياةِ الدّنيا وزينتِها والعملِ مِن أجلِها[1].

فائدةُ الإخبارِ بالفعلِ الماضي: ﴿وَحَبِطَ﴾:

التّعبيرُ بالفعلِ الماضي للإيذانِ بتحقُّقِ الوقوعِ

أفادَ التّعبيرُ بصيغةِ الماضي الإيذانَ بتحقُّقِ وقوعِ حبوطِ ما صنعوا.

دلالةُ ﴿مَا﴾ بيَن الموصوليّةِ والمصدريّةِ:

التّعبيرُ بالموصولِ (ما)؛ لِلمبالغةِ في استيعابِ عمومِ كُلِّ أعمالِهم

تحتملُ ﴿مَا﴾ في قوله تعالى: ﴿مَا صَنَعُواْ﴾ أن تكونَ بمعنى (الّذي)، فالعائدُ محذوفٌ، والتّقديرُ: حبطَ الّذي صنعوهُ فيها، فيكونُ الحبطُ للأعمالِ، وعُبِّرَ بـ ﴿مَا﴾ دونَ (الّذي) لِلمبالغةِ في استيعابِ عمومِ كلِّ أعمالِهم فردًا فردًا، وتحتملُ أن تكونَ مصدريّةً، والتّقديرُ: وحَبِطَ صنعُهُم فيها، فيكونُ الحبطُ للحدثِ

(1) رضا، تفسير المنار: 12/42.

الّذي قاموا به على سبيلِ المبالغةِ، فإنَّه إذا حبطَ الحدثُ حبطَ ما نتجَ منه، وهو الأعمالُ[1].

دلالةُ عودِ الضّميرِ المجرورِ في: ﴿فِيهَا﴾:

حَبطُ الأعمالِ في الدّنيا، وظهورُهُ للعيانِ في الآخرةِ

الظّاهرُ أن يكونَ الضَّميرُ في قولِه: ﴿مَا صَنَعُواْ فِيهَا﴾ عائدًا على ﴿ٱلْأَخِرَةِ﴾، والجارُّ والمجرورُ ﴿فِيهَا﴾ مُتَعَلِّقٌ بـ ﴿وَحَبِطَ﴾؛ والمعنى: وظَهَرَ في الآخرةِ حُبوطُ ما صَنَعوا مِنَ الأعمالِ الّتي كانَت تؤدّي إلى الثّوابِ لو كانَت مَعمولَةً للآخرةِ، كما يحتملُ أن يكونَ عائدًا إلى ﴿ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ في الآيةِ السّابقةِ، فيكونُ الجارُّ والمجرورُ مُتعلِّقًا بالفعلِ ﴿صَنَعُواْ﴾؛ والمعنى: حبطَ الّذي صنعوهُ في الحياةِ الدّنيا مِن أعمالِ البرِّ[2].

دلالةُ الواوِ على الحالِ:

العملُ الباطلُ لا يثمرُ الثّوابَ الجزيلَ عندَ اللهِ

تحتملُ الواو أن تكونَ حاليَّةً، وتكون جملةُ ﴿وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ حالًا مِنَ الضّميرِ في ﴿صَنَعُواْ﴾؛ لِتفيدَ الحالُ معنى التّعليلِ لِما قبلَها؛ أي: حبطَ ثوابُ صنيعِهِم؛ لأنَّ ما كانوا يَعملونَهُ في نفسِهِ باطلٌ، والباطلُ لا يُثمرُ الثَّوابَ[3]، كما تحتملُ أن تكونَ عاطفةً لجملةٍ على جملةٍ، فيكونُ ﴿وَبَٰطِلٌ﴾ خبرًا مُقدَّمًا للاسمِ الموصولِ ﴿مَا﴾، وفائدةُ عطفِ الجملةِ على الجملةِ أنَّه قد أخبرَ عن ذواتِهِم الموصوفةِ بما تقدَّمَ وعن أعمالِهِم؛ للاهتمامِ بشأنِ مآلِ أعمالِهِم الّتي كانوا يريدونَ بها الحياةَ الدّنيا، كما أنَّ الجملةَ الاسميّةَ تفيدُ أنَّ بطلانَ أعمالِهِم وصفٌ لازمٌ ثابتٌ فيهِم[4]، كما تحتملُ الواو أن تكونَ عاطفةً لمفردٍ على مفردٍ؛ أي: تعطفُ ﴿وَبَٰطِلٌ﴾ على ﴿ٱلَّذِينَ﴾، والتّقديرُ: (أولئكَ باطلٌ ما كانوا يَعملونَ)، ويكونَ الاسمُ الموصولُ ﴿مَا﴾ فاعلًا لاسمِ الفاعلِ ﴿وَبَٰطِلٌ﴾، فيكون قد أخبرَ

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/133، وابن عادل، اللّباب: 10/454.

(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/133، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/194.

(3) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 2/130، والخفاجيّ، حاشية على تفسير البيضاويّ، ص: 141، وابن التّمجيد، حاشية على تفسير البيضاويّ: 10/46.

(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/194.

عن ذواتِهِمُ الموصوفةِ خبرين؛ للإيذانِ بأنَّ السّببَ واحدٌ؛ وهو إرادتُهُم بأعمالِهِمُ الحياةَ الدّنيا وزينتَها، والتّقديرُ: أي أولئكَ الّذين ليسَ لَهُم في الآخرةِ إلّا النّارُ، وحبطَ ما صنعُوا فيها، وأولئكَ باطلٌ ما كانوا يَعملونَ[1].

فائدةُ الإخبارِ بـ: ﴿وَبَٰطِلٞ﴾:

في قولِهِ تعالى: ﴿وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ إخبارٌ عنِ الّذي كانوا يعملونَهُ مِن أعمالِ الخيرِ لِتحصيلِ المَطالبِ الدّنيويّةِ، بأنَّه في نفسِهِ باطلٌ؛ أي: زائلٌ ليسَ ثابتًا.

أعمالُ الخيرِ الّتي تكونُ لغيرِ اللهِ زائلةٌ، لا نفعَ منها في الآخرةِ

براعةُ التّعبيرِ بـ: ﴿وَحَبِطَ﴾، و﴿وَبَٰطِلٞ﴾:

في قوله تعالى: ﴿وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا﴾، و﴿وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ إشارة إلى أنّه لمّا كانَت أعمالُ البرِّ والإحسانِ الّتي كانوا يَعملونَها مِن شأنِها استتباعُ الثّوابِ والأجرِ، وأنّ سقوطَها إنّما هو لعدمِ مُقارنتِها للإيمانِ والنِّيَّةِ الصّحيحةِ، عُلِّقَ الحبوطُ بما صنعوا ممّا كانوا يجيدونَهُ مِنَ الأعمالِ، فآذنَ التّعبيرُ بالحبوطِ بسقوطِ أجرِهِ بصيغةِ الفعلِ الماضي المُنبِىءِ عن وقوعِ الحبوطِ وتَحقُّقِهِ، ولمّا كانَ الّذي كانوا يَعملونَهُ ممّا ليسَ لهُ جهةٌ صالحةٌ قطُّ عُلِّقَ بهِ البُطلانُ المُفصِحُ عن كونِهِ لا طائلَ تحتَهُ أصلًا.

الحبوطُ لِما حَسُنَ مِنَ الأعمالِ، والبطلانُ لِمَا ليسَ له جهةٌ صالحةٌ أصلًا

دلالةُ تركيبِ: ﴿مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾:

أفادَ تركيبُ ﴿كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ أنَّهُم كانوا في الدّنيا مُستمرِّينَ على عملِهِمُ الّذي كانوا يُريدونَ به الحياةَ الدّنيا وزينتَها، وأنَّه كانَ يتجدَّدُ منهُم وقتًا فوقتًا، وفي زيادةِ ﴿كَانُواْ﴾ هنا دونَ أن يقولَ في الأوّلِ: (حبطَ ما كَانوا يَصنعونَ)؛ لِلإيماءِ إلى أنَّ صدورَ أعمالِ البرِّ منهُم – وإنْ كانَ لغرضٍ فاسدٍ – ليسَ في الاستمرارِ والدّوامِ كصدورِ الأعمالِ الّتي هي مِن مُقدِّماتِ مَطالبِهِمُ الدّنيَّةِ[2].

حرصُ مَن يريدُ الحياةَ الدّنيا على المطالبِ الدّنيويّةِ أكيدٌ وجليٌّ

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/133، وابن عادل، اللّباب: 10/455.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/194.

﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ ۚ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ ۚ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٧﴾﴾ [هود: 17]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

ربطُ حبطِ الأعمالِ وجزاءِ الضّلالِ بعدمِ التّسويةِ بينَ المُهتدِي والمُعتدي

لمّا اتَّضَحتِ الحُجَجُ، وانتهضتِ الدَّلائلُ، فأغرقَتهُم عوالي اللُّججِ، كانَ ذلك مَوضِعَ الإنكارِ على مَن يُسوِّي بينَ المُهتدِي والمُعتدِي، فكيفَ بمَن يُفضِّلُ إمّا باعتبارِ النَّظرِ إلى الرّئاسةِ الدُّنيويّةِ غفلةً مِن حقائقِ الأمورِ، وإمّا عنادًا كمَن قالَ مِنَ اليهودِ لِلمُشركين: أنتُم أهدى منهُم، فقالَ تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾[1].

وأيضًا: لمّا ذَكَرَ اللّه تعالى المُكذِّبينَ بالقرآنِ، وذكرَ أوصافَهُم ومُكابرتَهُم، وبيَّنَ أحوالَهُم، فرَّعَ عليه تفريعَ الضّدِّ على ضدِّهِ، فَذَكَرَ حالَ مَن هُم عكسُ أولئكَ ممّن نفعَتهُمُ البيّناتُ والشّواهدُ، فَهُم يُؤمنونَ بالقرآنِ، وهُمُ المُسلمونَ، فجاءَت هذه الآيةُ في بيانِ أوصافِ المؤمنينَ في مُقابلِ أوصافِ أولئكَ المُكذِّبينَ[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿بَيِّنَةٍ﴾: يدورُ معنى الكلمةِ على الوضوحِ وظهورِ الشّيءِ، بحيثُ لا يشكُّ فيهِ، وبانَ الشَّيءُ: اتّضَحَ فهو بَيِّنٌ، والبيّنةُ هو الأمرُ الظّاهرُ الواضحُ في نفسِهِ، فَيُسَلَّمُ مِنَ الجدالِ، وقد تكونُ عقليّةً أو

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/252.

(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/134، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/26.

محسوسةً، يُقالُ بَيَّنْتُهُ وأبَنْتُهُ: إذا جعلتَ لهُ بيانًا تكشِفُهُ[1]، و﴿بَيِّنَةٍ﴾ هنا بمعنى الفطرةِ أو القرآنِ[2].

2) ﴿وَيَتْلُوهُ﴾: يدورُ معنى جذر الكلمةِ على اتّباعِ الشّيءِ ما يسبقُهُ لحوقًا بهِ مِن خلفِهِ، وإمّا أن يكونَ لفظُ ﴿وَيَتْلُوهُ﴾ هنا مِنَ التُّلوِ، وهو الاتِّباعُ، يُقالُ: تَلَوتُهُ إذا تَبِعتَهُ مُتابعةً ليسَ بينَهُم ما ليسَ منهَا، ويكونُ الاتّباعُ بالجسمِ أو بالاقتداءِ في الحُكمِ، ومعنى ﴿وَيَتْلُوهُ﴾ على هذا التّوجيهِ (يتبعُهُ)، وإمّا أن يكونَ مِنَ التّلاوةِ؛ بمعنى: القراءةِ، ومِنهُ تِلاوةُ القُرآنِ؛ لأنَّهُ يُتبِعُ آيةً بَعدَ آيةٍ، والمعنى على هذا التّوجيهِ (يقرأُهُ)[3].

3) ﴿ٱلْأَحْزَابِ﴾: الحِزبُ والحِزباءُ: الأرضُ الغليظةُ الشّديدةُ، وهو الأصلُ في الكلمةِ، ومِن ذلكَ: حِزبُ الرّجلِ: أصحابُهُ وجُندُهُ الّذين على رأيِهِ، فَهُم مجموعةٌ مُتماسِكةٌ مُتميّزَةٌ عنِ الآخرين، والحِزبُ الجماعةُ المُتماسِكةُ مِنَ النّاسِ، المُتميّزةُ عنِ الآخرينَ، المتَّفقةُ في الرّأيِ والهوى، والّتي يكونُ فيها غلظةٌ بتماسُكِها، والطّائِفَةُ مِنَ النّاسِ حِزبٌ[4]، ومعنى ﴿ٱلْأَحْزَابِ﴾ في الآيةِ جميعُ أهلِ الملِلِ المُتحزِّبةِ من غيرِ المُسلمينَ[5].

4) ﴿مِرْيَةٍ﴾: المِريةُ التَّردُّدُ في الأمرِ، وهي أخصُّ مِنَ الشّكِّ، وذهبَ بعضُ اللّغويّينَ إلى أنَّها الشَّكُّ، وأصلُ الكلمةِ مِن (مَرَيتُ النّاقةَ)، إذا مَسَحتُ ضَرعَها باليدِ للحَلبِ، ومِن هذا: المِراءُ بمعنى المجادلةِ؛ إذ هي بسببِ الشّكِّ وعدمِ اليقينِ في ما يقولُ الآخرُ[6].

المَعْنى الإجْماليُّ:

اختلفَ المفسّرونَ في بيانِ معنى هذه الآيةِ للاختلافِ في المرادِ مِن أربعِ كلماتٍ؛ هي: ما المرادُ بمَن وَصَفَهُ اللّه تعالى بأنَّهُ على بَيِّنَةٍ مِن ربِّهِ مَن هوَ؟ وما المُرادُ بهذهِ البيِّنَةِ؟ ودلالةُ قولِهِ: ﴿وَيَتْلُوهُ﴾، هل بمعنى تلاوةِ القُرآنِ أو بمعنى أن يقعَ عَقيبَ غيرِهِ؟ والمُرادُ بالشّاهدِ

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (بين)

(2) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/311، والنّيسابوريّ، إيجاز البيان، ص: 409.

(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (تلا)، والرّاغب، المفردات: (تلى)، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (تلو - تلى)، والبغويّ، معالم التّنزيل: 4/176، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/158.

(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (حزب).

(5) ابن جرير، جامع البيان: 15/278، والبغويّ، معالم التّنزيل: 4/167.

(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (مري)، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (مرى)، وابن الجوزيّ، تذكرة الأريب، ص: 160.

ما هوَ؟ فهذِهِ الألفاظُ الأربَعَةُ مُجمَلَةٌ، فلهذا كَثُرَ اختِلافُ المُفَسِّرينَ في هذِهِ الآيةِ، كما وَقَعَ خلافٌ في عودِ بعضِ الضّمائرِ فيها، وذُكِرَت تفسيراتٌ مُتنوِّعةٌ لهذهِ الآيةِ، وقد أوجزَ ابنُ عطيّة اختلافَهُم، فيمكنُ الرّجوعُ إليهِ[1]، ونوجزُ هنا المعنى الإجماليَّ بذكرِ وجهين لِلمعنى ممّا ذكرَهُ جمهورُ المفسِّرينَ، ويلتئمُ بهِ مَبنَى الآيةِ وسياقُها.

قراءةُ القرآنِ مِن غيرِ إيمانٍ لا تنفعُ في الآخرةِ، والتّكذيبُ بالقرآنِ سببٌ لِلخلودِ في النّارِ

أفمَن كانَ على حجَّةٍ وبرهانٍ مِن ربِّهِ وهو القرآنُ، ويتلوه برهانٌ آخرُ شاهِدٌ مِن ربِّ العالمينَ، وهو جبريلُ أو محمَّدٌ عليهما الصّلاةُ والسّلام، ويؤيّدُ ذلك برهانٌ ثالثٌ مِن قبلِ القرآنِ، وهو التّوراةُ كتابُ مُوسى الّذي جعلَهُ اللّه إمامًا يُؤتمُّ بهِ في الدّينِ، ورحمةً لِمَن عملَ بهِ مِن بني إسرائيلَ قبلَ نسخِهِ بالقرآنِ، فقد بَشَّرَ بمجيءِ محمَّدٍ ﷺ وبالقرآنِ، كمَن كانَ يُكذِّبُ بالقرآنِ، ويريدُ الحياةَ الدّنيا وزينتَها، ويعرضُ عنِ الآخرةِ؟! لا يَستويان، أولئكَ يُصدِّقونَ بهذا القرآنِ، ويَعملونَ بأحكامِهِ، ومَن يكفرْ بهذا القرآنِ أنَّه مِن عندِ اللّه مِنَ الّذين تحزَّبوا على رسولِ اللّه ﷺ، فالنّارُ مكانُ وعدِهِ، يصيرُ إليها في الآخرةِ، يَرِدُها لا مَحالةَ، فلا تكُ أيُّها الرّسولُ في شكٍّ مِن أمرِ القرآنِ، وكونِهِ مِن عندِ اللّه تعالى بعدَ ما شهدَت بذلكَ الأدلّةُ والحججُ، إنّ هذا القرآنَ الّذي أنزلناهُ إليكَ هو الحقُّ مِن ربِّكَ لا شكَّ فيهِ، ولكنّ أكثرَ النّاسِ لا يُصدِّقونَ بأنَّ ذلكَ كذلكَ[2].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ الاستفهامِ المجازيِّ:

شتّانَ بينَ مَن كانَ على بيّنةٍ مِن ربِّهِ، ومَن يريدُ الحياةَ الدّنيا وزينتَها فقط

قولُهُ: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾، وفيه تحتملُ الهمزةُ أن تكونَ للاستفهامِ الإنكاريِّ، وتكونَ الفاءُ للتّعقيبِ، بمعنى إنكارِ أنْ يَعقُبَ مَن كانَ على بيّنةٍ مِن ربِّهِ من كانَ يريدُ الحياةَ الدّنيا وزينتَها؛

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/157، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/330.

(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/159، ونخبة من أساتذة التّفسير، التّفسير الميسّر، ص: 223.

أي: إنكارُ تَوهُّمِ المقاربةِ بينَهُما في المَنزِلةِ، وتقديرُهُ: أفَمَن كانَ على بَيِّنَةٍ كَمَن كانَ يريدُ الحياةَ الدّنيا؛ أي: أيثبتُ في العقولِ، ويحصلُ في الوجودِ، مثلُ هذا التَّوهُّمِ؟!، فيفيدُ الإنكارُ تباينَ المَنزِلتين، كما تحتملُ أن تكونَ لِلتّقريرِ بمعنى تقريرِ إيمانِ مَن كانَ على بيّنةٍ مِن ربِّهِ، وتكونَ الفاءُ للتّفريعِ، بمعنى: إنْ كَفَرَ بها هؤلاء الّذينَ يريدونَ الحياةَ الدّنيا وزينتَها فيؤمنْ بها مَن كانَ على بيّنةٍ مِن ربِّهِ[1].

دلالةُ الاسمِ الموصولِ ﴿أَفَمَن﴾:

يفيدُ الاسمُ الموصولُ هنا معنى العموم، فيَعَمُّ كُلَّ مُؤمِنٍ مُخلِصٍ، ويدخلُ فيه النّبيُّ ﷺ دخولًا أوّليًّا، وذهبَ بعضُ المفسِّرينَ إلى أنَّ المرادَ به النّبيُّ ﷺ، وذهبَ آخرون إلى أنَّ المرادَ مُؤمِنو أهلِ الكتابِ[2].

كلُّ مُؤمِنٍ هو على بيّنةٍ مِن ربِّهِ، وهو في حمى رحمتِهِ ولطفِهِ

براعةُ الحذفِ في الآيةِ الكريمةِ:

حُذِفَ المُقابِلُ في الآيةِ اكتفاءً بدلالةِ ما ذُكِرَ عليه منه، والتّقديرُ: أفمَن كانَ على بيّنةٍ مِن ربِّهِ، ويتلوهُ شاهِدٌ منهُ، ومِن قبلِهِ كتابُ موسى إمامًا ورحمةً، كمَن يريدُ الحياةَ الدّنيا وزينتَها، فهوفي الضّلالةِ مُتردِّدٌ فيها، أو يكونُ قد حَذَفَ الأوّلَ وذَكَرَ الثّاني؛ والتّقديرُ: أفمَن كانَ يريدُ الحياةَ الدّنيا وزينتَها كمَن كانَ على بيّنةٍ مِن ربِّهِ، وفائدةُ حذفِ المُقابلِ بيانُ أنَّ بينَ الفريقين تفاوتًا بعيدًا وتبايُنًا بيِّنًا[3]، والإيماءُ لنفي إمكانِ التّكافؤِ بينَ الفريقين، بحيثُ لا يمكنُ مقارنتُهُ، وفيه إيجازٌ بالحذفِ، كما أفادَ الحذفُ معنى العموم؛ أي: لِتذهبْ نفسُ السّامعِ كلَّ مَذهَبٍ مُمكِنٍ في تقديرِ المقابِلِ مِن قبائحِ أعمالِ مَن لا يكونُ على بيّنةٍ مِن ربِّهِ، فيشمَلُ مَن يريدُ الحياةَ الدّنيا وزينتَها، ومَن كابرَ، وعاندَ، وطلبَ إنزالَ الكنزِ، أو مجيءَ المَلكِ مع الرّسولِ ﷺ، ومَن كفرَ باللّه، وكذَّبَ

لا تكافؤَ بينَ مَن هو على بيّنةٍ مِن ربِّهِ، ومَن هو في الضّلالةِ مُتردِّدٌ فيها

(1) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/131، والطّيبيّ، فتوح الغيب: 8/38.

(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/158، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/131.

(3) ابن جرير، جامع البيان: 15/277، والزّمخشريّ، الكشّاف: 2/384، وأبو حيّان، البحر المحيط: 6/134، والسّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 6/299، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/26.

رسلَهُ، ومَن يفتري على اللّه الكذبَ، وكلُّ ما يجري في هذا السّياقِ، وفيه كذلك إبقاءُ ذهنِ السّامعِ على مكثٍ بخلافِ ما لو عُيِّنَ، فإنَّه يُعرِضُ عنهُ بعدَ التَّعيينِ، ويَذهلُ عنهُ بسرعةٍ لِتوطينِ نفسِهِ عليهِ، فكانَ حذفُ المقابِلِ مع كلمةِ التّشبيهِ هنا أبلغَ مِنَ الذّكرِ[1].

فائدةُ حرفِ الاستعلاءِ: ﴿عَلَىٰ﴾:

عَبَّرَ بحرفِ الاستعلاءِ للإشعارِ بتمَكُّنِهِم مِنَ البيّنةِ، وثباتِهِم عليها، وتمسُّكِهِم بها.

مَن تمسَّكَ بالبيّنةِ أدركَ حقَّهُ دونَ مَظلمةٍ

دلالةُ تنكيرِ: ﴿بَيِّنَةٍ﴾:

أفادَ التّنكيرُ تعظيمَ البيّنةِ وتفخيمَها؛ أي: برهانٍ نَيِّرٍ واضِحٍ عظيمِ الشّأنِ[2].

نكتةُ التّعبيرِ: ﴿بَيِّنَةٍ﴾، ودلالتُهُ:

لمّا كانَتِ البيّنةُ بمعنى الدّليلِ الشّاملِ للعقليِّ والنّقليِّ، وأفادَ اللّفظُ أنَّهُ كثيرُ الوضوحِ والبيانِ في نفسِهِ باقترانِهِ بالتّاءِ الّتي للمُبالغةِ، دلَّ بلازمِ معناهُ على أنَّه كثيرُ الإرشادِ إلى الحقِّ والصَّوابِ، المناسب للفظِ العمومِ ﴿أَفَمَن﴾؛ والمعنى: أفمَن كانَ على برهانٍ مِنَ اللّه يدلُّهُ على الحقِّ والصَّوابِ فيما يأتيهِ ويَذرُهُ[3].

البيّنةُ مِن ربِّ العالَمين، واضِحةٌ في نفسِها، مُرشِدةٌ إلى الحقِّ

فائدةُ مجيءِ حرفِ الجرِّ ﴿مِّن﴾:

أفادَ مجيءُ ﴿مِّن﴾ الّتي لابتداءِ الغايةِ المجازيّةِ هنا؛ أنَّ البيّنةَ الممدوحَةَ هي الّتي تكونُ مِن ربِّهِ القائمِ على تربيتِهِ وإصلاحِهِ، ولم يقُلْ: (بيّنة ربِّهِ) على الإضافةِ؛ لدلالةِ ﴿مِّن﴾ على مَعنى الابتداءِ؛ للإشعارِ بخصوصيَّةِ هذهِ البيّنةِ.

فضلُ اللهِ على عبادِهِ المؤمنينَ، بإرشادِهِم وهدايتِهِم إلى الحقِّ المُستبينِ

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/159، والحنفيّ، الأطول شرح التّلخيص: 2/75.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/195.
(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/157، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/131، والخفاجيّ، حاشية على تفسير البيضاويّ: 5/83.

دلالةُ التعبير: ﴿مِّن رَّبِّهِۦ﴾:

صلاحُ الأحوالِ في الدّنيا والآخرةِ، بالثّباتِ على البيّنةِ

لمّا أسندَ البيّنةَ إلى لفظِ الرّبوبيّةِ أفادَ أنَّه تعالى أقامَهُم على البيّنةِ بفضلِهِ ومنّتِهِ، وأنَّه الهادي لَهُم، المُصلِحُ لأحوالِهِم بمُقتضَى ما ركَزَهُ سبحانَهُ في النّفوسِ، وبمُقتضَى ما هَدَى إليهِ بالرّسالاتِ الإلهيّةِ، وأنَّ بهذهِ البيّنةِ صلاحَ الأحوالِ في الدّنيا والآخرةِ، كما أفادَ الإسنادُ قوّةَ هذه البيّنةِ، وزيادةَ تعظيمِها بكونِها مِن ربِّ العالَمين، وليسَت مِن غيرِهِ[1].

سببُ إيثارِ صيغةِ المضارعِ: ﴿وَيَتْلُوهُ﴾:

تصويرُ الحالةِ وتجدُّدُها

لمّا جاءَ الفعلُ بصيغةِ المضارعِ دلَّ على استمرارِ التَّلوِ أو التّلاوةِ - على كلا المعنيَين - وتجدُّدِها؛ ليفيدَ تجدُّدَ فعلِ الشّاهدِ، كما أنَّ في إيرادِ هذه الصّيغةِ تصويرًا للحالةِ؛ ليكونَ أكثرَ تأثيرًا في نفوسِ السّامِعينَ.

دلالةُ الضّميرِ في ﴿وَيَتْلُوهُ﴾:

البيّنةُ هي الأساسُ، والإيمانُ هو المقصودُ، وغيرُه تبعٌ لهُ

يعودُ ضميرُ الهاءِ في ﴿وَيَتْلُوهُ﴾ إلى ﴿بَيِّنَةٍ﴾، سواء أكانَتِ البيّنةُ بمعنى القرآنِ أوِ البرهانِ مِنَ الفطرةِ أو العقلِ، وذُكِرَ الضَّميرُ مُراعاةً لِلمعنى، فلمّا قالَ: ﴿وَيَتْلُوهُ﴾ آذنَ بأنَّ البيّنةَ هي الأساسُ، وأنَّ الإيمانَ هو المقصودُ.

دلالةُ تنكيرِ: ﴿شَاهِدٌ﴾:

تفخيمُ الشّاهدِ هنا مَلمَحٌ في الدّلالةِ عنِ المُرادِ

يفيدُ التّنكيرُ هنا تفخيمَ الشّاهدِ وتعظيمَهُ[2]، بما دلَّ عليه السّياقُ، وبتعلُّقِ الجارِّ والمجرورِ في قولِه: ﴿مِّنْهُ﴾؛ أي: مِن ربِّهِ.

دلالةُ الواوِ في: ﴿وَمِن قَبْلِهِۦ﴾:

تنوُّعُ المعنى لِتنوُّعِ التّوجيهِ في السّياقِ الوجيهِ

تحتملُ الواو أن تكونَ عاطفةً لِمُفردٍ على مُفردٍ، فإذا كانَ ﴿وَيَتْلُوهُ﴾ بمعنى التّلاوةِ؛ أي: القراءةِ، فالتّقديرُ: يتلوهُ شاهدٌ منهُ، ويتلوهُ مِن

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3685.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/195.

قبلِهِ كتابُ مُوسى، وعُطِفَ ﴿كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ﴾ على ﴿شَاهِدٌ﴾ مع كونِهِ مُقدَّمًا عليهِ في النّزولِ، فكأنَّهُ قِيلَ: أفَمَن كانَ على بيّنةٍ مِن ربِّهِ، ويَشهَدُ به شاهدٌ منه، وشاهدٌ آخرُ مِن قبلِهِ هوَ كتابُ مُوسى، وإنَّما قُدِّمَ في الذّكرِ المُؤخَّرِ في النّزولِ؛ لكونِهِ وَصفًا لَازمًا لهُ غيرَ مُفارِقٍ عنهُ، ولِعراقتِهِ في وصفِ التَّلْوِ[1]، وإذا كانَ الفعلُ بمعنى التّلاوةِ، ففيه مَجازٌ بإسنادِ التّلاوةِ الّتي هي القراءةُ إلى الكتابِ، وفائدتُهُ تقريرُ معنى مَضمونِ الكتابِ المؤيِّدِ للبيّنةِ، وإذا كانَ ﴿وَيَتْلُوهُ﴾ بمعنى عقيبه، فالمعنى: يتلو القرآنَ ويُتبِعُهُ؛ لكونِ كتابِ مُوسى شاهدًا يَشهدُ بصحَّةِ البيّنةِ، وتحتملُ أن تكونَ عاطفةً لجملةٍ على جملةٍ؛ لتكونَ جملةُ ﴿وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ﴾ خبرًا مُقدَّمًا ومُبتدأً مُؤخَّرًا؛ لِتفيدَ تقريرَ شهادةِ كتابِ مُوسى على القرآنِ، وعلى نبوَّةِ سيّدِنا محمَّدٍ ﷺ، كما تحتملُ أن تكونَ استئنافيّةً[2].

سببُ تخصيصِ ﴿كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ﴾ - التّوراةِ - بالذّكرِ:

إيرادُ الدّليلِ المُجمَعِ عليهِ أوفى في قيامِ الحجَّةِ وتقريرِها

قد يُقالُ: لِمَ لَمْ يذكرِ الإنجيلَ، وهو بينَ القرآنِ وكتابِ مُوسى؟ وجوابُهُ: أنَّه خَصَّ كتاب موسى - التَّوراةَ - بالذِّكرِ؛ لأنَّ المِلَّتَينِ - أي اليهود والنّصارى - مُجمِعَتانِ على أنَّهما مِن عندِ اللّه، والإنجيلُ ليسَ كذلكَ؛ لانَّ اليهودَ يُخالِفونَ فيهِ، فكانَ الاستشهادُ بما تقومُ به الحُجَّةُ على الطّائفتينِ أولى: وهذا يجري مع قولِ الجنِّ: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ﴾ [الأحقاف: 30][3].

نكتةُ إيثارِ ﴿كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ﴾:

الوحيُ الّذي أُنزِلَ على مُوسى هو نفسُهُ الّذي أنزلَ القرآنَ على النّبيِّ الخاتمِ

ذُكِرَ ﴿كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ﴾ دونَ أن يقولَ (التّوراة)؛ للإيماءِ إلى تكثيرِ الشّهادةِ، بذكرِ المضافِ والمضافِ إليهِ، وفيه إشارةٌ إلى أنَّ الوحيَ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/195.
(2) الزّجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 4/441، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 9/17، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/131، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/28.
(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/158، وأبو حيّان، البحر المحيط: 6/135.

الّذي أنزلَ الكتابَ على مُوسى عليه السلام هو الوحيُ نفسُهُ الّذي أوحى القرآنَ إلى رسولِ اللّه محمَّدٍ ﷺ، وفيه تنبيهٌ كذلكَ إلى أنَّ المُعتَبَرَ هو الكتابُ الّذي أُنزِلَ على مُوسى، وليسَ الكتابُ الّذي حُرِّفَ بعدَ موسى؛ أي: التّوراةُ المُحرَّفةُ.

بلاغةُ الاستعارةِ في: ﴿إِمَامًا﴾:

لمّا كانَ الإمامُ هو القدوةَ الّذي يُؤتمُّ بهِ شبَّهَ كتابَ مُوسى بالإمامِ بجامعِ الاقتداءِ بهِ في الدّينِ، وأشعرَتِ الإضافةُ أنَّ الممدوحَ بوصفِ الإمامةِ والرّحمةِ هو الكتابُ الّذي نَزَلَ على مُوسى، وليسَ الّذي حرّفوهُ.

المَمدوحُ بوصفِ الإمامةِ، هو التّوراةُ غيرُ المُحرَّفةِ مِنَ البشرِ

بلاغةُ المجازِ المُرسَلِ في: ﴿وَرَحْمَةً﴾:

وُصِفَ كتابُ مُوسى بأنَّه رحمةٌ؛ لأنَّهُ يَهدي إلى الحقِّ في الدُّنيا والدّينِ، وذلكَ سَبَبٌ لِحُصولِ الرَّحمةِ والثَّوابِ، فلمّا كانَ سببًا للرَّحمةِ أطلَقَ اسمَ الرَّحمَةِ عليهِ إطلاقًا لاسمِ المُسَبَّبِ على السَّببِ[1].

التّوراةُ غيرُ المُحرَّفةِ سببٌ لرحمةِ اللهِ في الدّنيا والآخرةِ

مناسبةُ مجيءِ الحالَين ﴿إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾:

لمّا جاءَ الحالانِ على معنى المدحِ لكتابِ مُوسى عليه السلام الّذي هو شاهدٌ آخرُ على البيّنةِ أفادا مَدحَ المتلوِّ وتفخيمَهُ؛ إذ التَّعرُّضُ لِلوصفين في سياقِ كونِ كتابِ مُوسى شاهدًا يقتضي فخامةَ المتلوِّ، وهو القرآنُ، إنْ كانَ المرادُ مِنَ البيّنةِ القرآنَ، أو مدح البرهانِ الفطريِّ والعقليِّ إنْ كانَ المرادُ مِنَ البيّنةِ الفطرةَ والعقلَ[2].

مدحُ المتلوِّ وتفخيمُهُ، تأكيدٌ لجلالِهِ وقدسيّتِهِ

نكتةُ التّعبيرِ باسمِ الإشارةِ ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ﴾:

أشارَ بـ ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ﴾ إلى مَنْ كانَ على بيِّنةٍ مِن ربِّهِ، وجَمَعَ على المعنى؛ أي: النّبيّ ومَن معهُ مِنَ المؤمنينَ، ونكتةُ التّعبيرِ باسمِ الإشارةِ بيانُ أنَّهُم استحقُّوا أنْ يُؤمنوا به بما اتَّصفوا بهِ مِن تلكَ الأوصافِ،

الإيمانُ بالقرآنِ دليلُ الهدايةِ مِنَ اللهِ الرّحمنِ

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/330.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/195، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 10/51.

وهيَ كَونُهُم على بيِّنةٍ مِن ربِّهم مُعَضَّدَةٍ بشاهدٍ يَتلوهُ ومن قَبلِهِ كتابُ موسى؛ أي: التَّوراةُ غيرُ المُحرَّفةِ[1].

فائدةُ التّعبيرِ بصيغةِ المضارعِ: ﴿يُؤْمِنُونَ﴾:

الإيمانُ الممدوحُ هو القائمُ على البرهانِ لا التّقليدِ

أفادَ التّعبيرُ بصيغةِ المضارعِ ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ استمرارَ إيمانِهم وتجدُّدَهُ حالًا فحالًا بسببِ ما ذُكِرَ مِنَ الأوصافِ الّتي قبلَ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾؛ لِيفيدَ أنَّ إيمانَهُم مُتجدِّدٌ بالحقائقِ لا بالتّقليدِ، حسبما تشهدُ بهِ الشّواهدُ الحقّةُ المُعربةُ عن حقِّيَّتِهِ[2].

مِن مُناسباتِ التّعبيرِ:

الإقرارُ بالإيمانِ لِلمُؤمنينَ، والتّمهيدُ لِلكلامِ عنِ الكافرينَ

مِن مُناسباتِ التّعبيرِ بـ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦۚ﴾ أنّه لمّا كان مَن كانَ على بيّنةٍ مِن ربِّهِ يقتضي أن يكونَ مُؤمِنًا بالقرآنِ كانَ التّصريحُ بإيمانِهِم بالقرآنِ بعدَ ذكرِهِ مُجملًا؛ للإشعارِ بالاعتدادِ بإيمانِهِم، وكونِهِ إيمانًا مُقرًّا بهِ، ولتمهيدِ الكلامِ على ضدِّهِم، وهُمُ الّذين يَكفرونَ بهِ[3].

دلالةُ الإخبارِ عنِ اسمِ الإشارةِ:

تتابعُ البراهينِ سببُ اليقينِ لدى المؤمنينَ

لمّا ذَكَرَ قولُهُ تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦۚ﴾ تمكُّنَ المؤمنينَ مِنَ البيّنةِ، وتأييدَهُ بشاهدٍ مِن ربِّ العالَمين، وهو القرآنُ، ومِن قبلِ القرآنِ كتابُ مُوسى عليه السلام، أفادَ أنَّ اجتماعَ هذهِ الثَّلاثةِ قد بَلَغَ بهذا اليَقينِ في القوَّةِ والظُّهورِ والجلاءِ إلى حيثُ لا يُمكِنُ الزِّيادَةُ عليه[4].

دلالةُ الواوِ في: ﴿وَمَن يَكۡفُرۡ بِهِۦ﴾:

الجمعُ بينَ التّرغيبِ والتّرهيبِ؛ لتقويةِ الإيمانِ وتثبيتِهِ

أفادتِ الواوُ العطفَ على جملةِ ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّهِۦ﴾؛ فيكونُ بعدَ أنْ مَدَحَ المؤمنينَ بالقرآنِ عَطَفَ عليهِ التّحذيرَ مِنَ الكُفرِ به والإعراضِ عمّا تبيَّنَ لهُ مِن بيِّنةِ ربِّهِ وشواهدِ رُسُلِهِ؛ لِيجمعَ بينَ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/28.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/195.
(3) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 10/51.
(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/330.

التّرغيبِ والتّرهيبِ؛ والمعنى: مَن يكفُرْ بالقرآنِ، ولَم يُصَدِّقْ بتلكَ الشّواهدِ الحقَّةِ الواضحةِ مِن أيِّ جماعةٍ مُتحزّبةٍ، فالنّارُ مَوعِدُهُ[1].

نكتةُ التّعبيرِ بـ ﴿ٱلْأَحْزَابِ﴾:

عُبِّرَ بلفظِ ﴿ٱلْأَحْزَابِ﴾ للإيذانِ بأنَّ أهلَ كُلِّ ملَّةٍ كافرةٍ مُتحزِّبةٌ مُتماسِكةٌ على المؤمنين، ففيه إشعارٌ بقوّتِهم وغلظتِهم، وأنَّ قوّتَهُم لا تغني عنهُم مِنَ اللّه شيئًا؛ إذ جَعَلَ مَصيرَهُمُ النّارَ، وفيه تعريضٌ بكفرِ مَن تجمَّعَ على حربِ رسولِ اللّه[2] ﷺ، وأفاد التعريف بـ (أل) الاستغراقَ، فيتناولُ اللّفظُ جميعَ أهلِ الملِ مِن غيرِ المؤمنينَ.

قوّةُ المُتحزِّبينَ على المؤمنينَ لا تُغني عنهُم مِنَ اللهِ شيئًا

فائدةُ التّعبيرِ بـ ﴿أَفَمَن﴾:

يفيدُ اسمُ الشّرطِ العمومَ، وجاءَ قولُهُ ﴿مِنَ ٱلْأَحْزَابِ﴾؛ بيانًا للإبهامِ المُضمَّنِ في اسمِ الشّرطِ، ولمّا كانَ لفظُ (مَن) يُؤذِنُ بعمومِ الأفرادِ، كما دلَّ عليه عودُ الضّميرِ في قولِهِ: ﴿مَوْعِدُهُۥ﴾، دلَّ على أنَّهُم، وإنْ كانوا مُتحزِّبينَ مُستقوينَ لاجتماعِهِم، لكنّهُم سيحاسبونَ فردًا فردًا، فجزاءُ كلِّ فردٍ يكفرُ مِنَ الأحزابِ هو النّارُ.

جزاءُ كلِّ فردٍ يكفرُ مِنَ الأحزابِ هو النّارُ

دلالةُ الجملةِ الفعليّةِ:

أفادَ مجيءُ خبرِ اسمِ الشّرطِ جملةً فعليَّةً في قولِهِ: ﴿يَكْفُرْ بِهِۦ﴾ تقويةَ الحُكمِ؛ بمعنى تحقيقِ تعليقِ أنْ تكونَ النّارُ مَوعِدَ مَن يكفرُ بالقرآنِ.

وأفاد التعبير بصيغة المضارع لا بصيغة الماضي الإشعار باستمرارِ كفرِهِم بالقرآنِ، وتجدُّدِ هذا الكفر حالًا فحالًا بتجدّد زواجر القرآن ونواهيه في مسامِعهم.

تحقيقُ تعليقِ الشّرطِ؛ لتقويةِ الحُكمِ المُعلَّقِ وتقريرِهِ

دلالةُ مجيءِ جزاءِ الشّرطِ جملة اسمية مصدّرة بالفاء:

في قوله تعالى: ﴿فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ﴾، وقعت الفاء في محلّ جزاء الشرط: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ﴾، فدلّتْ على التَّرتُّبِ والسّببيّةِ وأفادَت أنَّ

الكفرُ بالقرآنِ سببٌ للخلودِ في النّارِ، وبئسَ القرارُ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/195، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/29.
(2) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 10/52.

وقوعَ الجزاءِ بسببِ كفرِهم بالقرآنِ، وأنّ هذا الجزاء ثابتٌ بما دلّ عليه التعبير بالجملة الاسمية لكون النّارِ موعدَهم، ومَن كانَتِ النّارُ مَوعِدَهُ سيكونُ في سعيرِها مَوردُهُ.

براعةُ الكنايةِ في: ﴿مَوْعِدُهُۥ﴾:

لا مفرَّ لمَن يكفرُ بالقرآنِ مِن ورودِ النّارِ والخلودِ فيها

في قوله: ﴿فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ﴾ أخبرَ عَنِ النّارِ بأنَّها مكانُ وَعدِهِ الَّذي يَصيرُ إليه، فيفيدُ أنَّه يَرِدُ هذا المكانَ لا مَحالةَ مع مقاساةِ حرِّها؛ لأنَّ وعدَ اللّه لا يتخلَّفُ، ولدلالةِ الجملةِ الاسميّةِ ﴿فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ﴾ على ثبوتِ المعنى، كما أشعرَ بالورودِ قَطعًا لزومُ وقوعِ الجزاءِ بوقوعِ الشّرطِ، وأنْ لا مَفرَّ لهُ منها، وفي جعلِها مَوعِدًا إشعارٌ بأنَّ لهُ فيها ما لا يُوصَفُ مِن أفانينِ العَذابِ[1].

مفهومُ الشّرطِ والجزاءِ في سياقِ جعلِ النّارِ جزاءً لِمَن كفرَ:

النّارُ مَوعِدُ الكافرينَ بالقرآنِ، والجنَّةُ مَوعِدُ المؤمنينَ بِهِ

لَمّا دَلَّ قوله: ﴿وَمَن يَكۡفُرۡ بِهِۦ مِنَ ٱلۡأَحۡزَابِ فَٱلنَّارُ مَوۡعِدُهُۥ﴾ على أنَّ مَنْ يَكفُرُ بالقرآنِ فالنّارُ مَوعِدُهُ، دَلَّت على أنَّ مَنْ لا يَكفُرُ بِهِ لَن تكونَ النّارُ مَوعِدَهُ، أو يُقالُ لمّا كانَتِ النّارُ مَوعِدَ الكافرينَ بالقرآنِ كانَتِ الجنَّةُ مَوعِدَ المؤمنينَ بهِ، فَحَذَفَ جزاءَ مَن آمنَ وذَكَرَ جزاءَ مَن كَفَرَ؛ لأنَّ المقامَ مَقامُ تهديدٍ ووعيدٍ لِمن نَسَبَ إلى الرّسولِ ﷺ افتراءَ القرآنِ، وعاندَ، وكذَّبَ، وطلبَ المعجزاتِ، وفي التّعبيرِ حثٌّ على الإيمانِ بالقرآنِ والعملِ بهِ[2].

براعةُ التّعبيرِ بالخطابِ في النّهي عنِ المريةِ منهُ:

التّحريضُ على النّظرِ الصّحيحِ المُزيلِ للشّكِّ، في أنَّ القرآنَ مِن عندِ اللهِ

ظاهر الخطابِ في قوله: ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرۡيَةٖ مِّنۡهُۚ﴾ لِلنَّبيِّ ﷺ، ولكنْ لأنَّ النَّهيَ يَقتَضي فسادَ المَنهيِّ عنهُ ونَقصَهُ، فمِنْ لوازِمِهِ ذمُّ المُتَلَبِّسِ بالمَنهيِّ عنه، ولمّا كانَ المُخاطَبُ غيرَ مَظِنَّةٍ لِلتَّلَبُّسِ بالمَنهيِّ عنهُ، فيُطلَبُ مِنه تَركُهُ، ويكونُ النَّهيُ طَلَبَ تَحصيلِ الحاصِلِ، تَعَيَّنَ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/195، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 10/52.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/331.

أن يكونَ النَّهيُ غيرَ مُرادٍ بِهِ الكَفُّ والإقلاعُ عَنِ المَنهيِّ عنهُ، فَيَكونُ مُستَعمَلًا في لازِمِ ذلِكَ بقرينةِ المَقامِ، ولازِمُهُ هو جميعُ المُكلَّفينَ[1]، أو يكونُ كنايةً تعريضيّةً بالكافرينَ بالقرآنِ، والكلامُ على الوجهين يكونُ على خلافِ مُقتضَى الظّاهرِ، ونكتةُ توجيهِ الخطابِ للنّبيِّ ﷺ التَّهييجُ وزيادةُ التّثبيتِ، ولِتحقيقِ حقّيَّةِ القرآنِ، وأنَّه بحيثُ لايشكُّ فيه، والتّحريضِ على النّظرِ الصّحيحِ المُزيلِ للشّكِّ في أنَّ القرآنَ مِن عندِ اللّه، باجتنابِ أسبابِ الشّكِّ والأخذِ بلوازمِ الحقِّ، وفيه تعريضٌ كذلك بأنَّه إذا كانَ النّبيُّ مُخاطَبًا في النّهي فنهيُ غيرِهِ مِنَ المُكلَّفينَ عنِ الشّكِّ في القرآنِ أولى وأحرى، ويدخلُ فيه الكافرون دخولًا أوّليًّا[2].

فائدةُ التّعبيرِ بـ ﴿فِي﴾:

النّهيُ عنِ الشّكِّ في القرآنِ، والانغماسِ فيه

أفادَ حرفُ الجرِّ ﴿فِي﴾ الظّرفيَّةَ المجازيّةَ، بمعنى النّهي عن أن يكونوا مُتلبِّسينَ في المِريةِ، بحيثُ تكونُ المِريةُ ظرفًا لَهُم، فيكونُ الكلامُ كنايةً عن ذمِّهِم، بما أشعرَ بهِ اللّفظُ مِن أنَّ مِريتَهُم في القرآنِ قد تَمكَّنَت منهُم، وهُم مُنغمسونَ فيها؛ لِشدَّتِها[3].

دلالةُ الضّميرِ في: ﴿مِّنْهُ إِنَّهُ﴾:

تنوُّعُ عودِ الضّميرِ توسُّعٌ في المعنى الأثيرِ

يحتملُ الضّميرُ في ﴿مِّنْهُ﴾ و﴿إِنَّهُ﴾ أن يعودَ على الضّميرِ في قولِهِ تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ﴾، والتّقديرُ: فلا تكُ في مِريةٍ مِنَ القرآنِ، إنَّ القرآنَ الحقَّ مِن ربِّكَ، ويحتملُ أن يعودَ على المفهومِ مِن جزاءِ الشّرطِ، والتّقديرُ: فلا تكُ في مِريةٍ مِن أنَّ مَوعِدَ الكافرِ النّارُ، والأوّلُ أظهرُ وأليقُ بالسّياقِ[4].

(1) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 9/18.
(2) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 10/52، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/29.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/29.
(4) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/350، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/331.

سببُ إيثارِ النّهي عَنِ المِريةِ دونَ التّكذيبِ:

إذا كانَ الشَّكُّ في القرآنِ مَذمومًا، فالاعتقادُ بكذبِ القرآنِ أشدُّ ذمًّا وقبحًا

اختيرَ النَّهيُ على المِريَةِ دونَ النَّهي عَنِ اعتِقادِ أنَّهُ كَذِبٌ كما هوَ حالُ المُشرِكينَ؛ لأنَّ النَّهيَ عَنِ الامتِراءِ في القرآنِ يَقتَضي النَّهيَ عَنِ الجَزمِ بالكذِبِ بالأولَى؛ فالنَّهيُ عنِ العامِّ يقتضي النّهيَ عنِ الأخصِّ منهُ، فإذا كانَ التَّردُّدُ في القرآنِ، والشّكُّ فيه مَذمومًا مَنهيًّا عنهُ، كانَ الاعتقادُ بكذبِ القرآنِ أشدَّ ذمًّا وقبحًا، فإنَّ الشّكَّ في القرآنِ مبدأٌ للتّكذيبِ فيهِ، فنهى عنِ الأدنى؛ لتعظيمِ شأنِ الإيمانِ بالقرآنِ، وفيه تَعريضٌ بأنَّ ما فيهِ المُشرِكونَ مِنَ اليَقينِ بكذِبِ القُرآنِ أشدُّ ذمًّا وشناعةً[1].

فائدةُ التّعبيرِ بـ ﴿مِن﴾:

الشَّكُّ في نُزولِ القرآنِ مِن عندِ اللهِ شَكٌّ في مَجموعِ حقيقَتِهِ

لمّا كانَت ﴿مِن﴾ ابتدائيَّةً كانَ المعنى فلا تكُ في شكٍّ ناشئٍ عَنِ القرآنِ؛ لِيفيدَ الشّكَّ في ذاتِهِ وحقيقتِهِ وفي نزولِهِ وفي كونِهِ كتابًا مِن عندِ اللّه، فالشَّكُّ النّاشِئُ على نُزولِهِ شكٌّ في مجموعِ حقيقتِهِ[2]، ولو قالَ: (فلا تكُ في شكٍّ فيه) لأفادَ الشّكَّ في معانيهِ ودلالاتِهِ، فكانَ مجيءُ ﴿مِن﴾ أعمَّ وأشملَ في المعنى.

براعةُ التّعبيرِ في: ﴿إِنَّهُ ٱلۡحَقُّ﴾:

القرآنُ حقيقةٌ واضحةٌ، فلا يَنبَغي أن يُمتَرَى في صِدقِهِ

لمّا نهى اللّه تعالى عنِ المِريةِ في القرآنِ أقامَ الحجّةَ والدّليلَ بحرفِ التّأكيدِ، فكأنَّ ﴿إِنَّهُ﴾ قامَ مَقامَ بيانِ السّببِ، مع تقريرِ ما دلَّت عليه جملةُ ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرۡيَةٖ مِّنۡهُۚ﴾؛ بمعنى: أنَّه مِن وضوحِ حقيقتِهِ لا يَنبَغي أنْ يُمتَرَى في صدقِهِ، كما أنَّ حرفَ التَّأكيدِ يقومُ مَقامَ الأمرِ باعتِقادِ حقّيَّتِهِ لِما يدُلُّ عليهِ التَّأكيدُ مِنَ الاهتمامِ[3].

براعةُ مجيءِ: ﴿ٱلۡحَقُّ﴾ مُعرَّفًا:

تعريفُ ﴿ٱلۡحَقُّ﴾ بـ (ألـ) الجنسيّة؛ للإيذانِ بقصرِ جنسِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/31.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/29.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/29.

الحقِّ على القرآنِ، وهو قصرٌ إضافيٌّ؛ للإشعارِ بكمالِ الحقِّ فيه؛ أي: في حقيقتِهِ ونزولِهِ ومعانيهِ ومبانيهِ، حتَّى كأنَّهُ لا يوجدُ حقٌّ غَيرُهُ، كما في قولِ العربِ: حاتمٌ الجَوادُ، ويحتملُ أن يكونَ قصرًا حقيقيًّا بالنّظرِ إلى الكتبِ المُنَزَّلَةِ في وقتِ نزولِ القرآنِ؛ لِيفيدَ حصرَ الحقِّ فيه دونَ سائرِ الكتبِ؛ للإشعارِ بأنَّها قد حُرِّفَت عمّا كانَت عليه.

كمالُ الحقِّ في القرآنِ؛ لأنّه الحقُّ بيقينٍ، دونَ سائرِ الكتبِ

سببُ إيثارِ التّعبيرِ بـ ﴿رَّبِّكَ﴾:

لم يقُل: (إنّه الحقُّ مِنَ اللّه) أو (إنَّه الحقُّ مِن ربِّهِم)، وبيانُهُ أنَّه لمّا كانَ الرَّبُّ هو المُصلِحَ لأحوالِ النّاسِ، القائمَ عليهِم وعلى شؤونِهِم، اختيرَ لفظُ الرّبوبيّةِ هنا ليدُلَّ على أنَّ القرآنَ الحقَّ يُصلِحُ أحوالَهُم وشؤونَهُم، وهو الّذي يتولّاهُم، ويقومُ بتربيتِهِم، إنْ أقاموا عليهِ، فالقرآنُ يُرَبِّيكَ في دينِكَ ودُنياكَ[1].

القرآنُ الّذي هو الحقُّ يصلِحُ أحوالَ النّاسِ وشؤونَهم، ويقومُ بتربيتِهِم

دلالةُ الإضافةِ في: ﴿رَّبِّكَ﴾:

أفادتِ الإضافةُ إلى كافِ الخطابِ تشريفَ رسولِ اللّه ﷺ وتفخيمَ شأنِهِ الكريمِ؛ والمعنى: هو مُتولّيكَ وقائمٌ بأمرِكَ، وإنْ كذّبوكَ، وكفروا بالقرآنِ، كما أفادَتِ الإضافةُ الإيذانَ بأنَّ تكذيبَ رسولِ اللّه تكذيبٌ للحقِّ الّذي هو مِن عندِ ربِّكَ يا محمَّد ﷺ.

تكذيبُ رسولِ اللّهِ تكذيبٌ للحقِّ الّذي هو مِن عندِ اللهِ

دلالةُ الواوِ في: ﴿وَلَٰكِنَّ﴾:

تفيدُ الواوُ الحاليَّة؛ بمعنى: إنَّ القرآنَ هو الحقُّ مِن ربِّكَ، والحالُ: أنَّ أكثرَ النّاسِ لا يُؤمنون، وفي مجيءِ واوِ الحالِ هنا تعجيبٌ مِن انتفاءِ إيمانِهِم مع ظهورِ حقّيَّةِ القرآنِ ووضوحِها.

التَّعجيبُ مِنَ الكُفرِ بالقرآنِ، مع ظهورِ حقّيَّتِهِ ووضوحِها

سببُ إيثارِ الاستدراكِ في: ﴿وَلَٰكِنَّ﴾:

لمّا حَصَرَ اللّه تعالى الحقَّ في القرآنِ دلَّ بمُقتضَى العقلِ أن يؤمنَ بهِ كلُّ النّاسِ، فجاءَ الاستدراكُ ليفيدَ رفعَ تَوهُّمِ أنَّ كلَّ النّاسِ قد

مَن لم يؤمنْ بالقرآنِ، إمّا لقلَّةِ نظرِهِ، وإمّا لعنادِهِ ومُكابرتِهِ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/195.

آمنوا به، ففيه كنايةٌ عن التّعجيبِ من حالِهم، كما دلَّ على أنَّ مَن لم يؤمنْ بهِ فلقلَّةِ نظرِهِ واختلالِ فكرِهِ أو لعنادِهِ ومُكابرتِهِ[1].

دلالةُ حذفِ مُتعلَّقِ الفعلِ في: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾:

تغليبُ الهوى على اتّباعِ الحقِّ مِن أوصافِ الكافرينَ

يحتملُ أن يكونَ حذفُ المتعلَّقِ لإفادةِ العمومِ؛ والمعنى: لايؤمنونَ باللّه ولا بالقرآنِ ولا بالرّسولِ وغير هذا ممّا هو مِن مُقتضياتِ الإيمانِ وأصولِهِ، ففيه إيذانٌ بانتفاءِ حقيقةِ الإيمانِ عَنهُم في كُلِّ ما طُلِبَ الإيمانُ بِهِ مِنَ الحَقِّ؛ أي: إنَّ في طباعِ أكثرِ النّاسِ تَغليبَ الهَوَى على الحقِّ، فإذا جاءَ ما يُخالِفُ هَواهُم لم يُؤمنوا[2]، ويحتملُ أنْ يكونَ المُرادُ لا يُؤمِنونَ بما تقدّمَ ذكرُهُ مِن وصفِ القرآنِ.

مناسبةُ مجيءِ جملةِ التّذييلِ:

متابعةُ الحقِّ وعدمُ المبالاةِ بالجاهلينَ الّذين لا يؤمنونَ بالقرآنِ

قولُهُ: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾، أفادَت جملةُ التّذييلِ هاتِهِ تسليةَ الرّسولِ ﷺ والمؤمنين، والتّقدير: لَمّا ظَهَرَ الحَقُّ ظُهورًا في الغايَةِ، ودلَّت عليه البراهينُ القيّمةُ، فكُنْ أنتَ والمؤمنون مُتابِعين له، وَلا تُبالوا بالجُهّالِ الّذين لا يُؤمنونَ[3].

توجيهُ المُتشابِهِ اللّفظيِّ بيَن آيتي: سورةِ هود، والسّجدة:

حُذِفَتِ النّونُ مِنَ المضارعِ المجزومِ إيجازًا ومبالغةً، وأثبتَت في السّجدةِ مُجاراةً لطولِ الكلامِ

جاءَتِ النّونُ محذوفةً هنا في قولِهِ تعالى: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ ۚ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ ۚ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾، وقالَ في آيةٍ أخرى مِن هذه السّورةِ في قولِهِ: ﴿فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبْلُ ۚ﴾ [هود: 109]، وثبتَتِ النّونُ في سورةِ السَّجدةِ في قولِهِ تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ ۖ﴾ [السجدة: 23]، ومُناسبةُ هذا الاختلافِ: أنَّ تخفيفَ اللّفظِ بحذفِ النّونِ في سورةِ هود يُناسِبُ إيجازَ الكلامِ المُتعلِّقِ بقولِهِ: ﴿فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ

(1) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/131، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/195.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/31.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/331.

مِّنْهُۚ﴾، والمتَّصِل به تَمامُهُ، تمامُ مَعنى المقصودِ، وذلك قولُهُ: ﴿إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾، وكذلك قولُهُ في آخِرِ السّورةِ: ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰٓؤُلَآءِۚ﴾ [هود: 109] إلى قولِهِ: ﴿غَيْرَ مَنقُوصٍ ١٠٩﴾ [هود: 109]، ووَرَدَ في سورةِ السَّجدةِ على أصلِ الكلمةِ قبلَ حذفِها، فقِيلَ: ﴿فَلَا تَكُ﴾؛ ليَجريَ ذلكَ مع ما وَرَدَ في هذه السّورةِ مِن طولِ الكلامِ المُتعلِّقِ بقولِهِ: ﴿فَلَا تَكُن فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦۖ﴾ [السجدة: 23]؛ فنُوسِبَ الإيجازُ بالإيجازِ والطّولُ بالطّولِ[1]، ويحتملُ أن يكونَ حذفُ صوتِ النّونِ؛ للإشعارِ بالنّهي عن أقلِّ ما يُطلَقُ عليه مِريةٌ في كونِ القرآنِ مِنَ اللّه تعالى، ويُناسبُهُ تسلُّطُ النّهي على الكونِ.

(1) الغرناطيّ، ملاك التّأويل: 2/253 - 254.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَٰدُ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْۚ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ١٨ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْأٓخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ١٩﴾ [هود: 18 - 19]

مُناسَبَةُ الآيَتَينِ لِما قَبْلَهما:

مَن نَسَبَ الفِريةَ إلى رسولِ اللهِ ﷺ هو المُفتري على اللهِ تعالى

لمّا كانَ الكافرونَ قد كَذَبوا على اللّه بما أحدَثوهُ مِنَ الدّينِ مِن غيرِ دليلٍ، وما نَسبوا إليهِ النّبيَّ ﷺ مِنَ الافتراءِ، أتبع البيان الإلهي هاتين الآيتين، فذَكَرَ أنَّهُم هُمُ المفترونَ على اللّه، فَذَكَرهُم وذَكَرَ أوصافَهُم[1].

ولمّا انقضَى الكلامُ مِن إبطالِ زَعمِهم أنَّ النَّبيَّ ﷺ افتَرَى القرآنَ ونَسَبَهُ إلى اللّه، وتَعجيزُهُم عَن بُرهانٍ لِما زَعَموهُ، كَرَّ عليهِم، فَوَضَّحَ أنَّهُمُ المُفتَرونَ على اللّه عِدَّةَ أكاذيبَ، مِنها نَفيُهُم أنْ يكونَ القرآنُ مُنَزَّلًا مِن عِندِهِ، وذَكَرَ أنَّهُم مع افترائِهِم كانُوا يَصدّونَ عن سبيلِ اللّه، ويَبغونَها عِوجًا[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يُعْرَضُونَ﴾: يدورُ المعنى المحوريُّ للكلمةِ على اتّساعِ ما يواجهُ النّاظرَ مِنَ الشّيءِ الكثيفِ، وأصلُ الكلمةِ يرجعُ إلى العَرضِ الَّذي يُخالِفُ الطّولَ، وعُرْضُ الشّيءِ: ناحيتُهُ مِن أيِّ وجهٍ جئتَهُ، ووسَطُه، وعرضُ الشَّيءِ: بمعنى إمرارِهِ أمامَ النّظرِ أو إتاحتهِ بقصدِ أن يُنظَرَ إليهِ.

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/254.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/32.

2) ﴿ٱلۡأَشۡهَٰدُ﴾: جمعُ شاهدٍ، مثلُ: أصحابٍ جمعُ صاحبٍ، أو جمعُ شهيدٍ مثلُ: شريفٍ وأشرافٍ، وهُمُ الملائكةُ والأنبياءُ الّذين شَهِدُوهُم، وحفظوا عليهِم ما كانوا يَعملونَ، وقِيلَ: الملائكةُ والأنبياءُ والمؤمنون جميعًا[1].

3) ﴿لَعۡنَةُ﴾: اللّعنُ يدلُّ على إبعَادٍ وإطّرَادٍ على سبيلِ السَّخطِ، واللَّعنَةُ على وزنِ الفَعلَةُ، ولَعَنَ اللّه الشَّيطانَ: أبعدَهُ عَنِ الخيرِ والجنَّةِ، ولَعَنَهُ اللّه بمعنى: أقصاهُ وأبعدَهُ مِن رحمتِهِ وتوفيقِهِ في الدّنيا، واستحقاق العذابِ في الآخرةِ، ويُعبَّرُ به عن شدَّةِ الغضبِ والسّخطِ[2].

4) ﴿يَصُدُّونَ﴾: يدورُ معنى الصَّدِّ على اعتراضٍ بقَوِيٍّ أو كثيفٍ يَرُدُّ المُقبلَ أو يمنعُهُ كالجبلِ، وصَدَّهُ عنِ الأمرِ: مَنَعَهُ وصَرَفَهَ، وتصدَّى لفلانٍ: تعرّضَ له، ففيه معنى الاعتراضِ والصَّرفِ والرَّدِّ، ولمّا كانَ الفعلُ يحتملُ التّعدّيَ واللّزومَ، فالصَّدُّ والصّدودُ قد يكونُ صرفًا ومنعًا إذا كانَ الفعلُ مُتعدِّيًا، بمعنى: يَصدّونَ غيرَهُم، وقد يكونُ انصرافًا عنِ الشّيءِ، وإعراضًا عنه، وامتناعًا، إذا كانَ الفعلُ لازمًا غيرَ مُتعدٍّ، ويتبيّنُ ذلكَ بالمصدرِ، ففي الإعراضِ بنفسِهِ يُقالُ: صدَّ يصُدُّ صُدُودًا؛ كقولِهِ تعالى: ﴿يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودٗا ٦١﴾ [النساء: 61]، وفي صرفِ غيرِهِ يُقالُ: صدَّ يصُدُّ صدًّا[3].

5) ﴿وَيَبۡغُونَهَا﴾: بَغَى الشّيءَ يبغيه: طلبَهُ على سبيلِ التّزايدِ في الطّلبِ والمبالغةِ فيه، ومنهُ بَغيُ المطرِ، وهو شدَّتُهُ ومُعظمُهُ، وبَغَى عليهم: عَدَلَ عنِ الحقِّ واستطالَ وظلمَ، ففيه معنى التّزيُّدِ في التّعدِّي، وكلُّ مجاوزةٍ وإفراطٍ على المقدارِ الّذي هو حدُّ الشّيءِ يُقالُ لهُ: بغيٌ، والبغيُ هنا على معنى تجاوزِ الحقِّ إلى الباطلِ[4].

6) ﴿عِوَجٗا﴾: أصلُ الكلمةِ يدُلُّ على عطفٍ عن حالِ الانتِصابِ، والعَوَجُ هو ميلٌ في شيءٍ مُمتدٍّ كالميلِ في الحائِطِ، والعَوَجُ يُقالُ في المحسوساتِ كاعوجاجِ الحائطِ والعودِ والعصا، وفي المعاني كاعوجاجٍ في الدّينِ والمَعَاشِ، والأعوَجُ يُكنَّى به عن سَيِّئِ الخُلُقِ، وسائرُ ما جاءَ من تركيبِ ﴿تَبۡغُونَهَا عِوَجٗا﴾ [آل عمران: 99] في القرآنِ للخطابِ أو الغيبةِ؛

(1) الزجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 3/44، والواحديّ، التّفسير البسيط: 11/379.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (لعن)، وابن جرير، جامع البيان: 3/245، والماتريديّ، تأويلات أهل السّنّة: 6/113.
(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (صد)، والرّاغب، المفردات: (صدد)، والماتريديّ، تأويلات أهل السّنّة: 6/113.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (بغي)، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (بغو - بغى).

بمعنى: يطلبونَ لسبيلِ اللّه اعوجاجًا عنِ الاستقامةِ، وانحِرافًا لها بإيهامِ النّاسِ ذلكَ[1].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

ولا أحدَ أظلمُ ممَّنِ اختلقَ على اللّه كذبًا، فأولئكَ الكاذبونَ سيُعرَضونَ على ربِّهِم يومَ القيامةِ؛ لِيحاسبَهُم على أعمالِهِم، ويقولُ الأشهادُ مِنَ الملائكةِ والنّبيّينَ وغيرِهِم: هؤلاء الّذين كَذَبوا في الدّنيا على ربِّهِم قد غَضِبَ اللّه عليهِم، ولَعَنَهُم لعنةً لا تنقطعُ بسببِ ظلمِهِم وكذبِهِم[2].

لا أحـدَّ أشـدُّ ظـلـمًـا مـمَّـن كذَبوا على الله، وسيحاسبُهُمُ اللهُ على رؤوسِ الأشـهـادِ يـومَ القيامةِ

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ الاستفهامِ بيَن الإنكارِ والتّقريرِ:

يحتملُ الاستفهامُ أن يكونَ إنكاريًّا بمعنى إنكارِ ظلمِهِم؛ لأنّهُم كانوا أظلمَ النّاسِ، فيفيدُ تَهويلَ ظُلمِ مَنِ افتَرَى على اللّه كَذِبًا، ويحتملُ أن يكونَ استفهامًا تقريريًّا؛ بمعنى تقريرِ أنَّهُم أظلمُ النّاسِ لافترائِهِمُ الكذبَ على اللّه، وجاءَ الإنكارُ أو التّقريرُ بطريقِ الاستفهامِ حتّى يجيبَ المُخاطَب، ويقولَ: لا أحدَ أظلمُ منه، فيكونُ ظهورُ الحجّةِ عليه أوضحَ وأبينَ[3].

الافتِراءُ على اللّهِ تـعـالى أعـظَـمُ أنـواعِ الظُّـلمِ، وأشدُّها عقوبةً

دلالةُ الاسمِ الموصولِ في: ﴿مِمَّنِ﴾:

أفادَ الاسمُ الموصولُ العمومَ، بمعنى تناولِهِ لكلِّ مَنِ افترى على اللّه الكذبَ، وعُبِّرَ بـ ﴿مِمَّنِ﴾ دونَ (الّذي)؛ لأنَّ ﴿مِمَّنِ﴾ أكثرُ عمومًا لِمناسبةِ المَقامِ، وللإشعارِ بأنَّ مَن له أدنى عقلٍ لا يفتري على اللّه الّذي هو خالقُهُ.

مَـن لـه أدنى عـقـلٍ لا يفتري على اللهِ، واللهُ يـعـلـمُ مـا في الصّدور

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (عوج)، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (عوج - عيج).

(2) البغويّ، معالم التّنزيل: 4/168، ونخبة من أساتذة التّفسير، التّفسير الميسّر، ص: 123.

(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/159.

بلاغةُ التّعبيرِ باسمِ التّفضيلِ ﴿أَظۡلَمُ﴾:

لمّا نَسَبوا القرآنَ إلى غَيرِ مَن أنزَلَهُ، وزَعَموا أنَّ الرَّسولَ ﷺ افتَراهُ، كانوا بالِغينَ غايةَ الظُّلمِ وأشدَّهُ في الافتراءِ على اللّه، حتَّى لَقَد يُسألُ عَن وُجودِ فريقٍ أظلَمَ مِنهُم سُؤالَ إنكارٍ أو تقريرٍ يؤولُ إلى معنى النَّفيِ؛ أي: لا أحدَ أظلَمُ على نفسِهِ ممّنِ افترى على اللّه الكذبَ، فهو أظلمُ مِن غيرِهِ؛ لأنَّه نفى عنِ اللّه كلامَهُ، وأضافَهُ إلى غيرِهِ؛ والمعنى: لا أحدَ أفحشُ ظلمًا على نفسِهِ مِن غيرِهِ ممّنِ افترى على اللّه الكذبَ[1].

لا أحدَ أظلَمُ ممّنِ افترى على اللهِ كذبًا، أو نَسَبَ الوحيَ إلى غيرِ اللهِ

دلالةُ تركيبِ جملةِ ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ﴾:

هذا التّركيبُ المُركَّبُ مِن اسمِ الاستفهامِ الإنكاريِّ مع اسمِ التّفضيلِ، وإنْ كانَ سبكُهُ على إنكارِ أن يكونَ أحدٌ أظلمَ منهُم مِن غيرِ تعرُّضٍ لإنكارِ المساواةِ ونَفيِها، ولكنّ المقصودَ بهِ قَصدًا مُطَّرِدًا إنكارُ المساواةِ ونفيُها، وإفادةُ أنَّهُم أظلمُ مِنْ كُلِّ ظالمٍ[2].

مَن يختلق على اللهِ الكذبَ، فلا يساويه أحدٌ في ظلمِهِ وجرأتِهِ

بلاغةُ التّعريضِ في الآيةِ:

قولُهُ: ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًاۚ﴾، أفادَ الاستفهامُ الإنكاريُّ التّعريضَ بأنَّهُم هُمُ الكاذِبونَ إبطالًا لِتَكذيبِهِم إنزالَ الكتابِ[3]، فإذا كانوا كاذبينَ دلَّ على صدقِ القرآنِ في أنَّه حقٌّ مِن عندِ اللّه، كما أنَّ فيه ردًّا عليهِم، حينَ نسبوا الافتراءَ إلى رسولِ اللّه ﷺ.

إثباتُ حقّيّةِ القرآنِ بطريقِ الحجّةِ العقليّةِ

فائدةُ تنكيرِ: ﴿كَذِبًاۚ﴾:

أفادَ تنكيرُ لفظِ ﴿كَذِبًاۚ﴾ العمومَ؛ لورودِهِ في سياقِ النّفيِ، فلَم يقُلْ: (ومَن أظلمُ ممّنِ افترى على اللّه الكذبَ)؛ ليتناولَ الاسمُ النّكرةُ قليلَ الكذبِ وكثيرَهُ، ويشملَ جميعَ أنواعِهِ، فيدخل فيهِ كلُّ ما

قليلُ الكذبِ على اللهِ تعالى وكثيرُهُ سواءٌ في عِظَمِ الافتراءِ وقُبحِهِ

(1) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنّة: 6/11.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/196.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/374.

يُسمَّى كذبًا، فكانَ قليلُ الكذبِ على اللّه تعالى وكثيرُهُ سواءً في عظمِ الذّنبِ، وأنّه أشدُّ ظلمًا وقبحًا مِن غيرِهِ.

بلاغةُ الاستئنافِ البيانِّي:

استدرارُ الأسماعِ فيما عَظُمَ شأنُ جزائِهِ يومَ القيامةِ

لمّا قالَ اللّه تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًاۚ﴾، وعَلِمَ السّامعُ أنَّ فاعِلَ هذا أظلمُ النّاسِ، تَطلَّبَ بيانَ جَزاءِ المُفتَرِي على اللّه الكذبَ، فكأنَّ السّامِعَ في مَقامِ السّائلِ عن جزائِهِ يومَ القيامةِ، فجاءَتِ الجملةُ في قولِهِ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ استئنافًا بيانيًّا؛ استدرارًا لأسماعِ المُخاطَبينَ فيما عَظُمَ جزاؤُهُ يومَ القيامةِ، ولِتشويقِهِم، ولإغنائِهِم عنِ السّؤالِ.

بلاغةُ مجيءِ اسمِ الإشارةِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾:

عَرضُ المفترينَ على ربِّهِم يومَ القيامةِ، هو عَرضُ ذلَّةٍ ومهانةٍ

تَصديرُ الجملةِ الاستئنافيّةِ باسمِ الإشارةِ للتَّنبيهِ على استحضارِ وصفِهِمُ القبيحِ، أي: الموصوفون بالظّلمِ البالغِ الّذي لا يوجدُ أظلمُ منه، وللإشعارِ بأنَّهُم استحقّوا أن يحكمَ عليهِم بما بَعدَ اسمِ الإشارةِ بِسببِ افترائِهِم على اللّه الّذي هو أعظمُ الافتراءِ، ولمّا آذنَ اسمُ الإشارةِ أنَّ ما قبلَهُ علَّةٌ لِما بعدَهُ، عُلِمَ أنَّ عَرضَهُم على ربِّهِم، عَرضُ زَجرٍ وانتِقامٍ وذلَّةٍ ومهانةٍ[1].

نكتةُ التّعبيرِ بـ ﴿يُعْرَضُونَ﴾:

عرضُ المفترينَ على ربِّهِم؛ ليكونُوا أكثرَ حسرةً وندامةً

لمّا كانَ اللّه تعالى عالمًا بالمفترينَ وبأعمالِهِم، وكانَ العرضُ يومَ القيامةِ لكلِّ النّاسِ كانَ تخصيصُ عرضِهِم لِلتّشهيرِ بخزيِهِم، ولتأكيدِ حالِهِم بالانتقامِ منهُم، فشبّهَ حالَهُم بحالِ مَن يُعرَضون على المَلكِ؛ للإشعارِ بأنَّ إحضارَهُم إحضارٌ بإراءةٍ؛ لِما يدُلُّ عليه العرضُ مِن أنَّه إظهارُ الشّيءِ بحيث يُرى للتّوقيفِ على حالةٍ، ولِما تدُلُّ عليه تعديةُ الفعلِ بحرفِ ﴿عَلَىٰ﴾؛ ليكونَ العرضُ المُضمَّنُ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/33.

معنى الحبسِ والإراءةِ وعرضِ الأعمالِ أكثرَ حسرةً عليهم، وأظهرَ لكذبِهم وافترائِهم[1].

سببُ إيثارِ العرضِ للذّواتِ في: ﴿يُعۡرَضُونَ﴾:

عرضُ العاملِ مع عملِهِ أفظعُ مِن عرضِ عملِهِ مع غَيبتِهِ

لمّا تقرّرَ أنَّ العرضَ يكونُ للأعمالِ، كان إيثارُ أن يكونَ العرضُ بذواتِهم للأبلغيَّةِ، فإنَّ عرضَ العاملِ بعملِهِ أفظعُ مِن عرضِ عملِهِ مع غَيبتِهِ، كما أنَّه بإيرادِ اسمِ الإشارةِ حَصلَتِ الغُنيَةُ عن إسنادِ العرضِ إلى أعمالِهم، ويحتملُ أن يكونَ مِنَ المجازِ في النِّسبةِ؛ لأنَّ العرضَ في الحقيقةِ إلى الأعمالِ لا إلى الذّواتِ، كما يحتملُ أن يكونَ كنايةً عن عرضِ الأعمالِ[2].

نكتةُ إيرادِ لفظِ الرّبِّ في: ﴿عَلَىٰ رَبِّهِمۡ﴾:

مِن أقبحِ الظّلمِ مقابلةُ نعمِ اللهِ بالافتراءِ عليه ﷻ

عَبَّرَ هنا بقولِهِ: ﴿رَبِّهِمۡ﴾ دونَ أن يقولَ: (على اللّه)؛ للإيماءِ إلى بطلانِ رأيِهم في اتّخاذِهم أربابًا مِن دونِ اللّه[3] ﷻ، وللتّعريضِ بتوبيخِهم على افترائِهم على اللّه تعالى مع أنَّه مُتفضِّلٌ عليهم بتربيتِهم وإصلاحِ حالِهم، فقد قابلوا نعمَهُ بالافتراءِ عليهِ سبحانَه.

فائدةُ العطفِ في: ﴿وَيَقُولُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ﴾:

فضيحةُ المُفترينَ على اللهِ بالإشهادِ عليهم يومَ القيامةِ

قولُهُ: ﴿وَيَقُولُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمۡۚ﴾، وفيه فائدةُ إخبارِ الأشهادِ بما اللّه يعلمُهُ، وتعظيمُ الأمرِ على المشهودِ عليهم، وحسمُ طمعِهم مِن أنْ يجدوا سبيلًا إلى التَّخلُّصِ ممّا هُم فيهِ بالجحدِ أو بالمُدافَعةِ، كما أنَّ فيه توبيخًا آخرَ لَهُم غيرَ التّوبيخِ الّذي يكونُ بالعرضِ، وهو توبيخُ الأشهادِ لِمَن افترى على اللّه كَذِبًا، لِهتكِ سترِهم، وللمُبالغةِ في إظهارِ فضيحتِهم وتبكيتِهم، فَحَصَلَ

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/159، وابن الجوزيّ، زاد المسير: 2/365، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/131، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 9/256، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 10/53، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/33.

(2) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنّة: 6/112، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/196، والخفاجيّ، حاشية على تفسير البيضاويّ: 5/85، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 10/53.

(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/196.

لَهُم مِنَ الخِزيِ والنَّكالِ ما لامَزِيدَ عليهِ، فكلا الفِعلَينِ ﴿يُعۡرَضُونَ﴾، ﴿وَيَقُولُ﴾ مَقصودٌ بالإخبار عَنِ اسمِ الإشارَةِ[1].

دلالةُ التعبير بـ ﴿ٱلۡأَشۡهَٰدُ﴾:

فضحُ المُفترينَ بالجمعِ بينَ قولِ الأشهادِ وحضورِهِم

يحتملُ أن يكونَ اللّفظُ جمعًا لـ(شاهد)؛ لِيكونَ مِنَ الشّهادةِ على المُفترينَ، ويحتملُ أن يكونَ جمعًا لـ(شهيد)؛ لِيكونَ مِنَ الحضورِ[2]، والجمعُ بينَ المعنيين على سبيلِ الاشتراكِ سائغٌ، ولاسيَّما أنَّ فيه تكثيرًا لِلمعنى مع اقتضائِهِ لِلمَقامِ؛ لِيجتمعَ قولُ الأشهادِ وحضورُهُم، فيكونَ أشدَّ فضيحةً ومَهانةً على المُفترينَ، فلا سبيلَ لَهُم إلّا الإقرارُ.

مناسبةُ التّعبيرِ باسمِ الإشارةِ ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾:

إشهارُ المُفترينَ على اللهِ بالسّوءِ، وتحقيرُهُم لسوءِ مُرتَكَبِهِم

عُبِّرَ باسمِ الإشارةِ دونَ الضّميرِ لِتمييزِهِم أكملَ تمييزٍ للنّاسِ كلِّهِم بأوصافِهِمُ المذكورةِ حتَّى يَشتَهِرَ ما سَيُخبِرُ بِهِ عَن حالِهِم، والمقصودُ مِن ذلكَ شُهرَتُهُم بالسّوءِ وافتِضاحُهُم، وللإشعارِ بحضورِهِم فتكونُ الإشارةُ إليهِم حسًّا أوضحَ وأبينَ، كما أنَّ في التّعبيرِ باسمِ الإشارةِ هنا تحقيرًا لَهُم، وإصغارًا بسوءِ مُرتَكَبِهِم[3].

دلالةُ مجيءِ المُسندِ والمُسندِ إليه مُعرَّفتين:

حصرُ الكاذِبينَ على اللهِ يومَ القيامةِ في الموقفِ؛ للإشهارِ بفضيحتِهِم

قولُهُ تعالى: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمۡۚ﴾، وفيه لمّا جاءُ المُسندُ إليه اسمَ إشارةٍ على معنى تمييزِهِم أكملَ تمييزٍ بما وُصِفوا به، وجاءَ المُسندُ اسمًا موصولًا أُزيلَ إبهامُهُ بصلتِهِ المعلومةِ الانتسابِ إلى مُشارٍ إليه عندَ المُخاطَبينَ دلَّ على حصرِ الكاذبينَ على اللّه يومَ القيامةِ، وجمعِهِم في الموقفِ؛ للإشهارِ بفضيحتِهِم وفعلتِهِمُ الشّنيعةِ.

---

(1) الواحديّ، التّفسير البسيط: 11/380، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/332، والنّيسابوريّ، غرائب القرآن: 4/13، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/33.

(2) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 10/53.

(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/136، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/33.

فائدةُ مجيءِ الموصولِ مع صلتِهِ:

في قولِه تعالى: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمۡۚ﴾ جاءَ الاسمُ الموصولُ لِتعيينِ مَن صَدَرَ منهُ الكذبُ كأنّ وقوعَهُ أمرٌ واضحٌ غنيٌّ عنِ الشّهادةِ، ولمّا كانَت جملةُ الصّلةِ معلومةَ الانتسابِ عندَ المُخاطَبينَ أفادَ التّعبيرُ بها؛ أنَّ الحاضرينَ يومَ العرضِ يَعرفونَهُم بكذبِهِم على ربِّهِم، فلم يُصرِّحوا بما كَذَبوا بهِ، كأنّهُ كانَ أمرًا معلومًا عندَ أهلِ ذلك المَوقِفِ، ولِهَذا لا يذكرُ الأشهادُ في أيِّ شيءٍ كانَ كذبُهُم.

الكذبُ على اللهِ أشدُّ مِنَ الكذبِ على المَخلوقينَ

سببُ إيثارِ التّعبيرِ بـ ﴿عَلَىٰ رَبِّهِمۡ﴾:

عُبِّرَ بلفظِ الرَّبِّ لِلإيذانِ بقبحِ عملِهِم وقلَّةِ عقولِهِم، إذِ افتروا على مَن يُحسِنُ إليهِم، ويَملِكُ نَواصيَهُم؛ للإشعارِ بأنَّهُم كانوا جَديرينَ أنْ لا يَكذِبوا عليهِ، وقد أحسنَ إليهِم في خلقِهِم وحياتِهِم[1].

حقُّ اللهِ وجليلُ نعمِهِ على العبادِ أن لا يُكذَبَ عليه

فائدةُ مجيءِ ﴿أَلَا﴾:

جاءَ الافتتاحُ بحرفِ التّنبيهِ ﴿أَلَا﴾ لِمُناسبةِ مَقامِ التّشهيرِ، ولمّا كانَت تفيدُ تقريرَ معنى ما يأتي بعدَها عندَ السّامِعينَ، وتأكيدَهُ لعظمِ شأنِهِ، أفادَت معنى التّهويلِ العظيمِ ممّا يَحيقُ بهِم حينئذٍ لِظُلمِهِم بالكذبِ على اللّه، ولأنَّ كُلَّ مَن يراهُم يلعنُهُم[2].

تقريرُ الهولِ العظيمِ، ممّا يصيبُ المُفترينَ مِن لعنةِ اللهِ

بلاغةُ مجيءِ الكلامِ على خلافِ مُقتضَى الظّاهرِ:

قولُهُ: ﴿أَلَا لَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، هذا التّركيبُ إخبارٌ مِنَ اللّه تعالى عن لعنتِهِ على الظّالمين، مُستَعمَلٌ في الدُّعاءِ خِزيًا وتحقيرًا لَهُم، ولمّا جاءَ على طريقِ الجملةِ الاسميّةِ دلَّ على ثبوتِ اللَّعنِ عليهم، فبيَّنَ أنَّهُم في الحالِ مَلعونونَ عندَ اللّه مع ثباتِ اللّعنِ عليهم واستمرارِه، وفيه كذلكَ تعليمٌ لِلخَلقِ أنْ يَلعنوهُم، ويحتملُ أن يكونَ

المُفترونَ ملعونونَ في حالِ افترائِهِم، مع ثباتِ اللَّعنِ عليهِم واستمرارِهِ

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/136.

(2) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/131، والخفاجيّ، حاشية على تفسير البيضاويّ: 5/85، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3690.

من تمامِ كلامِ الأشهادِ؛ أي: يقولونَ: هؤُلاءِ الَّذينَ كَذَبوا على ربِّهِم، ويقولونَ: ألَا لَعنَةُ اللّه على الظّالِمينَ الَّذينَ ظَلَموا أنفُسَهُم بالافتراءِ[1].

دلالةُ ﴿عَلَى﴾:

أفادَ التّعبيرُ بحرفِ الجرِّ استغراقَ لعنةِ اللّه للظّالِمينَ، وتمكُّنَها مِنهُم.

مَن استغرقَتهُمُ اللّعنةُ فَهُم مِنَ الهالِكينَ

بلاغةُ الإظهارِ في مَوضِعِ الإضمارِ:

لمّا كانَ الكلامُ على المُفترينَ على اللّه تعالى كانَ الظّاهرُ أن يقولَ: (ألَا لعنةُ اللّه عليهِم)، فلمّا جاءَ بالاسمِ الظّاهرِ ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أفادَ إثباتَ وصفِ الظّلمِ عليهِم، ولِبيانِ أنّ هذا الظّلمَ قد بَلَغَ أقصى حدودِهِ، وأنَّه هو السّببُ في بُعدِهِم عن رحمةِ اللّه تعالى، ولِيفيدَ الحكمُ معنى العمومِ؛ لِيشمَلَ كُلَّ ظالمٍ مُتَّصفٍ بالصّفاتِ المذكورةِ[2].

عمومُ اللّعنةِ على كُلِّ ظالمٍ أثيمٍ

نكتةُ التّعبيرِ بالمُشتقِّ في: ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾:

أفادَ التّعبيرُ باسمِ الفاعلِ المُشتقِّ أنَّهُم استحقُّوا اللّعنةَ بما اتَّصفوا بهِ مِنَ الظّلمِ، وعَبَّرَ بصيغةِ الجمعِ؛ للإشعارِ بأنَّهُم ظالمونَ في حالِ كونِهِم فُرادى، وفي حالِ كونِهِم مُجتمِعينَ، والتَّعبيرُ عنهُم بالظّالِمينَ تعريفٌ لَهُم بوَصفٍ، جَرى مَجرَى اللَّقبِ، تُعرَفُ بِهِ جَماعَتُهُم.

الافتراءُ على اللهِ نوعٌ مِن أنواعِ الظّلمِ السّاحقِ الماحِقِ

فائدةُ حذفِ مَفعولِ: ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾:

لم يقُل: (الظّالمينَ أنفسَهُم أو الظّالمينَ النّاسَ)؛ لِيُفيدَ عمومَ ظلمِهِم؛ أي: إنّهُم ظلموا أنفسَهُم وضرّوها إذ وَضعوا العبادةَ في غيرِ مَوضِعِها[3]، وظلموا النّاسَ بالافتراءِ عليهِم، وصدِّهِم عن سبيلِ اللّه، وطلبِهِم لها الاعوجاجَ، فيكونُ المرادُ بالظّالِمينَ ما يَعُمُّ الظّالِمينَ بالافتراءِ، والظّالِمينَ بغيرِ ذلكَ، ويَدخُلُ فيه الأوّلونَ دُخولا أوّليًّا[4].

المُفترونَ ظلمُوا أنفسَهُم، وظلمُوا النّاسَ، بصدِّهِم عن سبيلِ اللهِ

(1) النّسفيّ، التّيسير في التّفسير: 8/179، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/332، وأبو حيّان، البحر المحيط: 6/136، والشّوكانيّ، فتح القدير: 2/556، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/33.

(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3690.

(3) النّسفيّ، التّيسير في التّفسير: 8/179.

(4) الآلوسيّ، روح المعاني: 6/231.

فائدةُ التّعبيرِ بالاسمِ الموصولِ، وصلتِهِ:

الظّلمُ سببٌ في استحقاقِ لعنةِ اللهِ تعالى

قولُه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجًا﴾ وفيه لمّا جاءَ الاسمُ الموصولُ وَصفًا لِمَن حَكَمَ عليهم باللّعنةِ دلَّ على أنَّ ما وصفوا بهِ مِنَ الصّدِّ والبغي المذكورين، وتكرّر هذه الأوصافِ منهُم، سببٌ لاستحقاقِهِمُ اللّعنةَ، كما أفادَتِ الصّلةُ أنَّ المُخاطَبينَ يَعلمونَ مَن هُمُ الّذين يَصدّونَ عن سبيلِ اللّه، ويَبغونها عِوجًا، وأنَّ الظّالمينَ كذلكَ يَعلمونَ أنَّ هذهِ هي أوصافُهُم؛ لِمَا تشيرُ إليهِ جملةُ الصّلةِ مِن كونِها مَعلومةَ الانتسابِ عندَ المُخاطَبينَ، وفي التّعبيرِ إيماءٌ إلى تعظيمِ قبحِ أفعالِهِم، وفيه تنبيهُ المُخاطَبينَ إلى أنَّ هذا هو طريقُ المَلعونينَ.

مجيءُ الفعلِ ﴿يَصُدُّونَ﴾ بيَن التّعديةِ واللّزومِ:

الصّادُّ عن سبيلِ اللهِ صادٌّ لِنفسِهِ ولغيرِهِ

يحتملُ أن يكونَ أصلُ الفعلِ ﴿يَصُدُّونَ﴾ مُتعدِّيًا، فإمّا أن يكونَ مِن بابِ حذفِ المفعولِ؛ لإفادةِ عمومِ صدِّهِم؛ أي: يَصدّونَ المؤمنينَ السّائرينَ في سبيلِ اللّه بردِّهِم عن سبيلِهِ، بإلقاءِ الشّبهِ وغيرِها، ويَصدّونَ غيرَ المؤمنينَ باعتراضِهِم ومنعِهِم عن سبيلِ اللّه، ولمّا جاءَ الفعلُ مِن غيرِ ذكرٍ لمصدرِهِ أفادَ عمومَ معنى الصَّدِّ؛ لِيشمَلَ صدَّ نفسِهِ عن سبيلِ اللّه، وصدَّ عمومِ النّاسِ عن سبيلِهِ، بإلقاءِ الشّبهِ عليهِم؛ والمعنى: يَصدّونَ أنفسَهُم والنّاسَ مِنَ المؤمنينَ وغيرِهِم عن سبيلِ اللّه، ففي التّعبيرِ بالصّدِّ عنِ المعنيين إيجازٌ، وإمّا أن يكونَ من بابِ تضمينِ الفعلِ معنى اللّزومِ؛ بمعنى: صارَ الصّدُّ سجيّةً لَهم؛ أي: شأنُهُم هو الصَّدُّ عن سبيلِ اللّه، كما يحتملُ أن يكونَ أصلُ الفعلِ لازمًا مِنَ الصّدِّ؛ بمعنى المنعِ، والتّقديرُ: يَمتنعونَ عن سبيلِ اللّه، ويُعرِضونَ عنهُ، والوجهُ الأوّلُ أظهرُ وأكثرُ معنى[1].

توبيخُ الكافِرينَ إذا استبدَلوا سلوكَ سبيلِ اللهِ السّهلِ، بالصَّدِّ عنهُ

نكتةُ التّعبيرِ بـ ﴿سَبِيلِ﴾:

لم يقُلْ هنا طريقِ اللّه ولا صراطِ اللّه، لِما في لفظِ السَّبيلِ من

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/160، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 9/19.

معنى القصدِ لِمَنْ يسلكُهُ، والشّروعِ فيه معَ الرَّغبةِ في سلوكِهِ[1]، ولمّا كانَ السَّبيلُ بمعنى الطّريقِ الّذي فيه سهولةٌ[2] دلَّ النّهيُ على قبحِ ما يَفعلونَهُ مِن صدِّ مَنْ آمنَ حينَ يَقصِدُ سلوكَ سبيلِ اللّه، ويشرعُ فيهِ على سبيلِ المحبَّةِ، وفي التّعبيرِ توبيخٌ لَهُم إذ لَم يَسلكوا سبيلَ اللّه السّهلَ بل صدُّوا عنهُ.

مجازُ التّعبيرِ بـ ﴿سَبِيلِ﴾:

في التّعبيرِ بلفظِ ﴿سَبِيلِ﴾ استعارةٌ بتشبيهِ الدِّينِ بالسَّبيلِ؛ لاستقامتِهِ ووضوحِهِ وسهولتِهِ، فحَذَفَ المشبَّهَ، وصَرَّحَ بالمشبَّهِ بهِ؛ لِيكونَ استعارةً تصريحيَّةً[3].

دينُ اللّه سهلٌ واضحُ المَعالِمِ، لا تكلُّفَ فيه ولا غلوّ

مناسبةُ الإضافةِ في: ﴿سَبِيلِ ٱللَّـهِ﴾:

أفادَتِ الإضافةُ الاختصاصَ، فهُم يَصدّونَ عن سبيلِ اللّه، وليسَ عن سبيلِ الشّيطانِ، كما أفادَتِ الإضافةُ تشريفَ هذا السَّبيلِ وتعظيمَهُ، وفيها إشعارٌ بالتّحذيرِ مِنَ الصَّدِّ لإضافةِ السَّبيلِ إلى الاسمِ الجليلِ الّذي فيه معنى الألوهيّةِ.

إفادةُ الإضافةِ التّخصيصَ؛ لِتعظيمِ سبيلِ اللّهِ وتشريفِهِ

مناسبةُ مجيءِ الأفعالِ بصيغةِ المضارعِ ﴿يَصُدُّونَ﴾ ﴿وَيَبْغُونَهَا﴾:

أفادَتِ الصّيغتانِ تكرُّرَ فعلِ الظّالِمينَ بصدِّهِم وبغيهِم سبيلَ اللّه عِوَجًا في الدّنيا، وأفادَتا أنَّهُم كانوا مُستمرِّينَ على هذين الأمرَين، ولمّا كانَ المُؤَذِّنُ بلَعنِ هؤلاءِ الظّالمينَ الّذين أُسنِدَ إليهِمُ الصَّدُّ عن سبيلِ اللّه وبَغيها عِوَجًا بصيغةِ المُضارِعِ، ووُصِفوا بالكُفرِ بالآخرةِ في الآخرةِ بعدَ أنْ زالَ الكُفرُ بها بعَينِ اليقينِ فيها، وفاتَ زمنُ الصَّدِّ عنها، وبَغيها عِوَجًا، كانَ التّعبيرُ بصيغةِ المضارعِ لِتصويرِ حالةِ التَّجدُّدِ الَّتي كانوا عليها في الدُّنيا، ولبيانِ ما ترتَّبَ عليها ما صاروا إليهِ في الآخرةِ، لِيَتذَكَّروها هُم، وكُلُّ مَن سَمِعَ التَّأذينَ بها، ويَعلَموا

تحذيرُ المؤمنينَ مِنَ الاتِّصافِ بأوصافِ الظّالِمينَ

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 298.

(2) الرّاغب، المفردات: (سبل).

(3) الخفاجيّ، حاشية على تفسير البيضاويّ: 5/85، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 10/53.

عَدلَ اللّه بِعقابِهِم عليها، ولِيَعتَبِرَ بها في الدُّنيا مَنْ يَتَصَوَّرُ حالَهُم هذه، فَكانَتِ البلاغةُ أنْ يَعدِلَ هُنا عَن صيغةِ الماضي إلى صيغةِ الحالِ حتَّى يُخَيَّلَ أنَّهُ هوَ الواقِعُ عندَ إطلاقِ الكلامِ[1].

دلالةُ الواو في: ﴿وَيَبْغُونَهَا﴾:

الظّالمونَ على علمٍ باستقامةِ دينِ اللهِ، وأنّهُ الحقُّ المُبينُ

الواو هنا عاطفةٌ لجملةٍ على جملةٍ؛ لتكونَ الصّلةُ مُكوَّنةً مِن جملتين، فيفيدُ الكلامُ أنَّ اللَّعنةَ على مَن جَمَعَ بينَ الوصفَين، ويدلُّ التّركيبُ على أمرين: أحدهما: أنّهُم كانوا على علمٍ باستقامةِ سبيلِ اللّه، وبكَيفيَّةِ العِوَجِ بِما يلقونَهُ مِنَ الشُّبُهاتِ وتَقريرِ الضَّلالاتِ، والثّاني: الإيماءُ إلى أنَّ كلَّ سبيلٍ غيرِ سبيلِ اللّه هي عِوجٌ؛ والمعنى: يبغونَ سبيلًا غيرَ سبيلِ اللّه، وهي عِوجٌ، ليسَت مُستقيمةً[2].

نكتةُ التّعبيرِ بالفعلِ ﴿وَيَبْغُونَهَا﴾:

بيانُ حرصِ الظّالِمينَ على المبالغةِ في طلبِ الزّيغِ عن سبيلِ اللهِ

عُبِّرَ بلفظِ ﴿وَيَبْغُونَهَا﴾؛ لإفادةِ المبالغةِ في طلبِ زيغِ السّبيلِ، وتعدّيهِم في هذا البغي، وإفراطِهِم فيه، وأفادَ التّعبيرُ كذلك أنّهُم ظالمونَ فيهِ؛ لِحرصِهِم على طلبِ تجاوزِ الحقِّ إلى الباطلِ.

دلالةُ التعبير في: ﴿وَيَبْغُونَهَا﴾:

سبيلُ اللهِ مُستقيمةٌ، وإنْ وَصَفَها الظّالمونَ بالعِوَجِ لِلتَّنفيرِ عنها

يحتملُ أن يكونَ المعنى يَصِفونَها بالعِوَجِ والالتِواءِ لِلتَّنفيرِ عنها، والمرادُ أنّهُم يَصفونَها بذلِكَ، وهِيَ مُستقيمةٌ، وإطلاقُ الطّلبِ على الوصفِ مَجازٌ مِن إطلاقِ السّببِ على المُسبَّبِ؛ لأنَّ مَن طَلَبَ شيئًا لآخرَ كأنَّهُ سببٌ لاتِّصافِهِ بِهِ، ويحتملُ أن يكونَ المعنى يُريدونَ أهلَ سبيلِ اللّه أنْ يَعوَجُّوا عنها، أو يُريدونَ أنْ تكونَ عَوجاءَ بموافَقَتِها لأهوائِهِم مِنَ الشّركِ، وإباحةِ الظُّلمِ والفِسقِ[3].

(1) رضا، تفسير المنار: 8/383.

(2) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنّة: 6/113، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/332.

(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/386، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/131، والخفاجيّ، حاشية على تفسير البيضاويّ: 5/85، ورشيد رضا، تفسير المنار: 12/48.

مناسبةُ عودِ الضّميرِ في: ﴿وَيَبْغُونَهَا﴾:

ثباتُ استقامةِ سبيلِ اللهِ، وإنْ بالغَ الكافرونَ في محاولةِ زيغِها

يعودُ الضَّميرُ إلى ﴿سَبِيلِ﴾، ولمّا كانَ السَّبيلُ مُضافًا إلى اللّه تعالى دلَّ على أنّهُم لن يَستطيعوا زيغَها، وإنْ بَالغوا في الطَّلبِ؛ لثباتِ السّبيلِ واستقامتِها؛ لأنّها سبيلُ اللّه.

براعةُ التّعبيرِ بيَن الحقيقةِ والمجازِ:

طريقُ الحقِّ لا يعوجُّ، ولا يحيدُ عنِ الهدى والخيرِ

يحتملُ قولُهُ تعالى: ﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ أنْ يكونَ على الظّاهرِ بمعنى يَطلبونَ الزَّيغَ والضَّلالَ لمَنْ يَطلبُ الإيمانَ، بإلقاءِ الشُّبَهِ على المؤمنينَ، أو وصفِها للنّاسِ بأنَّها مُعوَجَّةٌ، ويحتملُ أن يكونَ على سبيلِ المجازِ تَهكُّمًا بهِم؛ أي: إنَّهُم يَطلبونَ لسبيلِ اللّه ما هو محالٌ؛ لأنّ طريقَ الحقِّ لا يَعوَجُّ[1].

دلالةُ الواوِ ﴿وَهُم﴾:

التّعجيبُ مِن حالِ مَن هو على الباطلِ، ويصدُّ النّاسَ عنِ الحقِّ

قولُهُ: ﴿وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ﴾، الواو هنا حاليَّةٌ، بمعنى: والحالُ أنَّهُم كافرونَ بالآخرةِ، ولمّا كانَ الحالُ على معنى اقترانِهِ بصاحبِهِ دلَّ على أنَّهُم كافرونَ بالآخرةِ في حالِ صدِّهِم عن سبيلِ اللّه وبغيِهم لها عِوَجًا؛ ليفيدَ الحالُ التّعجيبَ مِن حالِهِم؛ أي: كيفَ يَصُدّونَ النّاسَ عن طريقِ الحقِّ، وهُم على الباطِلِ البَحتِ، كما أنَّ في الحالِ معنى العلّيَّةِ، وبيانِ السّببِ في إمعانِهِم في الكفرِ؛ والمعنى: كفرُهُم بالآخرةِ جعلَهُم يَفترونَ على اللّه الكذبَ، ولا يؤمنونَ إلّا بالدّنيا وزينتِها، وظنّوا أنَّها وحدَها هي الحياةُ؛ ممّا أدّى بهِم إلى هذا الغباءِ، وهذه اللّجاجةِ فيهِ، وفي الحالِ كذلك زيادةٌ في التّوبيخِ والتّبكيتِ، إذِ اتّصفوا بالكفرِ بالآخرةِ بعدَ كفرِهِم باللّه وبكتابِهِ[2].

---

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/128، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 14/315، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/23.

(2) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/131، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 10/53، والشّوكانيّ، فتح القدير: 2/557، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/23961.

دلالةُ الجملةِ الاسميّةِ:

الظّالمونَ المفترونَ على اللهِ كافرونَ في ضمائرِهم وظواهرِهم

قولُهُ: ﴿وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ﴾، لمّا كانَ النَّظرُ شديدًا إلى بيانِ كذبِهم وتكذيبِهم، بُولِغَ في تأكيدِ المعنى، فجاءَ المبتدأُ ﴿هُمۡ﴾ مُخبَرًا عنه بجملةٍ اسميّةٍ ﴿هُمۡ كَٰفِرُونَ﴾، وعَبَّرَ بالضّميرِ ﴿هُمۡ﴾؛ للإيذانِ بأنَّ الإخبارَ هو عنِ المذكورينَ بصفاتِهم المَعلومينَ في أذهانِ السّامِعينَ، وللإشعارِ بأنَّهُم بضمائرِهم وظواهرِهم بالآخرةِ هُم كافرون[1].

سببُ المخالَفةِ في التّعبيرِ بيَن الاسميّةِ والفعليّةِ:

مُناسبةُ التّعبيرِ بالصّيغةِ الموافِقةِ لِلمعنى

في قولِهِ تعالى: ﴿وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ﴾ عُبِّرَ بالجملةِ الاسميّةِ، وفي قولِهِ: ﴿يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجًا﴾ عُبِّرَ بصيغةِ الفعلِ، ومُناسبتُهُ أنَّه لمّا كانَ الكفرُ مِنَ الاعتقاداتِ العقليَّةِ الَّتي لا يُناسِبُها التَّكرُّرُ؛ لأنَّه مِنَ الانفعالاتِ، وليسَ مِنَ الأفعالِ، عُبِّرَ بالجملةِ الاسميّةِ؛ لإفادةِ ثباتِ الكفرِ فيهم، وتمكُّنِهِ منهُم، ولمّا كانَ الصَّدُّ وبغيُ إظهارِ العوجِ مِنَ الأفعالِ القابلةِ للتّكريرِ عُبِّرَ بصيغةِ الفعلِ، فناسبَ كلٌّ معناهُ وصيغتُهُ[2].

سببُ تقديمِ شبهِ الجملةِ ﴿بِٱلۡأٓخِرَةِ﴾:

حسنُ النّظمِ ودقّةُ المعنى مِن بديعِ نسجِ القرآنِ

لمّا كانَ تكذيبُهُم بالآخرةِ شديدًا، وأرادَ أن يُؤكِّدَ المعنى، ويكونَ لهم اختصاصٌ بمزيدِ كفرٍ، قَدَّمَ قولَهُ ﴿بِٱلۡأٓخِرَةِ﴾ على مُتعلَّقِهِ، ولايحسنُ مجيئُهُ على أصلِ الكلامِ بأنْ يُقالَ: (وهُم هم كافرونَ بالآخرة)، فلمّا تقدَّمَ الجارُّ والمجرورُ حَسُنَ النّظمُ وقَوِيَ المعنى.

سببُ تكرارِ ﴿هُمۡ﴾:

كفرُ المُفترينَ على اللهِ بالآخرةِ أعظمُ أنواعِ الكفرِ وأشدُّهُ

تكرَّرَت ﴿هُمۡ﴾ على جهةِ تأكيدِ تعيينِ أنَّهُم هُمُ الكافرونَ بالآخرةِ، واختصاصهم بهِ، على معنى الاختصاصِ الادّعائيِّ حتَّى كأنَّ كُفرَ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/256.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/140.

غيرِهم غَيرُ مُعتَدٍّ بِهِ بالنِّسبةِ إلى عظيمِ كُفرِهم، فيكونُ الكلامُ على معنى الاختصاصِ الادِّعائيِّ مبالغةً في كفرِهم بالآخرةِ، فكأنَّ كُفرَ غيرِهم بها ليسَ بكُفرٍ في جنبِهِ[1].

فائدةُ مجيءِ اسمِ الفاعلِ: ﴿كَٰفِرُونَ﴾:

عـــراقـــةُ كـفـرِ المُفترينَ الظّالمينَ

لمّا أخبرَ عنهُم بأنَّهُم كافرونَ بصيغةِ المُشتقِّ أفادَ أنّهُم عريقونَ في وصفِ الكُفرِ، حتّى صارَ صفةً مِن صِفاتِهم، فَقَد كفروا بالآخرةِ فيما مَضَى في الحياةِ الدّنيا، فلا يخافونَ عِقابًا على إجرامِهم، فيَتوبوا مِنهُ[2].

سببُ إيثارِ الإخبارِ بالجملةِ عنِ الضّميرِ ﴿هُمْ﴾:

أفادَ الإخبارُ بالجملةِ الاسميّةِ ﴿بِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ﴾ تقوِّيَ الحكمِ وتقريرَهُ، فمَن كَفَرَ بالآخرةِ خَسرَ الدّنيا والآخرةَ.

توجيهُ المُتشابِهِ اللّفظيِّ بين آيتي: سورة هود، والأعراف:

زيادةُ (هم) هنا، يُناسِبُ مَقامَ إنكارِهِمُ البَعثَ وتَقريرِهِ

اختُصَّتْ هذهِ الآيةُ على نظيرِها في الأعرافِ بزيادَةِ ﴿هُمْ﴾ في قولِهِ: ﴿هُمْ كَٰفِرُونَ﴾، وهوَ توكيدٌ يُفيدُ تَقَوِّيَ الحُكمِ؛ لأنَّ المَقامَ هُنا مَقامُ تَسجيلِ إنكارِهِمُ البَعثَ وتَقريرِهِ؛ إشعارًا بما يَتَرَقَّبُهُم مِنَ العِقابِ المُناسِبِ، فَحُكِيَ بِهِ مِن كلامِ الأشهادِ ما يُناسِبُ هذا، وما في سورَةِ الأعرافِ في قولِهِ: ﴿ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ كَٰفِرُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [الأعراف: 45] حكايَةٌ لِما قِيلَ في شأنِ قَومٍ أُدخِلوا النّارَ، وظَهَرَ عِقابُهُم فلا غَرَضَ لِحِكايةِ ما فيهِ تأكيدٌ مِن كلامِ الأشهادِ، وكلتا المَقالَتَينِ واقِعٌ، وإنَّما يَحكي البَليغُ فيما يَحكيهِ ما لَهُ مُناسبةٌ لِمَقامِ الحِكايَةِ[3].

وأيضًا لمّا تقدَّمَ قولُهُ تعالى في سورةِ هود: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ

(1) الزّجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 3/54، والزّمخشريّ، الكشّاف: 2/386، والشّوكانيّ، فتح القدير: 2/557.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/256، ورشيد رضا، تفسير المنار: 8/382.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/33.

عَلَىٰ رَبِّهِمۡۚ﴾، ثمَّ قالَ: ﴿أَلَا لَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، ولَم يقُلۡ: (عَلَيهِم)، كما هو الظّاهرُ بأنۡ يذكرَ الضّميرَ لقربِ الاسمِ الظّاهرِ، وقد تبيَّنَ سببُ العدولِ إلى الاسمِ الظّاهرِ، فلمّا جاءَ بالاسمِ الظّاهرِ احتملَ الكلامُ اللَّبسَ، بأنّهُم هُم أم غَيرهم، فكرَّرَ، وقالَ: ﴿وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ﴾؛ لِيعلمَ أنّهُم هُمُ المذكورونَ لا غيرُهُم[1].

(1) الكرمانيّ، أسرار التّكرار، ص: 119.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَمۡ يَكُونُواْ مُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنۡ أَوۡلِيَآءَۘ يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلۡعَذَابُۚ مَا كَانُواْ يَسۡتَطِيعُونَ ٱلسَّمۡعَ وَمَا كَانُواْ يُبۡصِرُونَ ٢٠﴾ [هود: 20]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لا ملجأ من الله إلّا إليه، ولا مَحيصَ منَ العرْضِ عليه

لَمَّا هدّدَ ربُّ العزّة سُبحانه المُكذّبين بأمورِ الآخرةِ؛ بيّنَ أنَّه سبحانه القادرُ على تعجيلِ العذابِ لهم في الدّنيا دونَ أنْ يجدُوا النّصيرَ أو مَن يَدفعُ عنهمُ العذابَ؛ فهو الذي أحاطتْ قُدرتُه بكلّ المُمكناتِ؛ ولَكِنّه ﷻ أخّرَ ذلك لحكمةٍ تَقْتَضِيهِ[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مُعۡجِزِينَ﴾: العجْزُ: الضَّعْفُ، وهو نقيضُ الحزْمِ[2].

وأصلُه في المعنى يدورُ حول رخاوةٍ في الشَّيءِ، ومن هذا الأصلِ يكونُ الضَّعفُ[3]، والتَّعْجيزُ: التَّثْبيطُ، وكذلك نسبةُ الشَّخصِ أوِ الشَّيءِ إلى العَجْز. وأعجزني فلانٌ إذا عجزتُ عن طلبِه وإدراكِه، والإعجازُ: الفوتُ والسَّبقُ. ومنه قولُ اللّه ﷻ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَمۡ يَكُونُواْ مُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾. أي: لم يكونوا فائِتين من عذابِ اللّه ولا سابِقين، ولا مُفلِتين أنفُسَهم من أخذِه لو أرادَ ذلك[4]، و"المعنى: أنّهم لا يُعجِزون اللّه إذا أرادَهم بالعذاب والانتقامِ منهم، بل هم في

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/331، والبقاعي، نظم الدّرر: 9/257، وأبو السّعود، إرشاد العقل السليم: 4/197، والآلوسي، روح المعاني: 6/232، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/34.

(2) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح، وابن فارس، المجمل، وابن منظور، لسان العرب: (عجز).

(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (عجز).

(4) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 9/19، والبغوي، معالم التنزيل: 2/444، والآلوسي، روح المعاني: 6/232.

قبضتِه وملكِه، لا يَقدرون على الامتناعِ منه إذا طلبَهم"[1]، "والمُعجِزُ هنا: الذي أفلتَ ممَّن يرومُ إضرارَه"[2].

2) ﴿أَوْلِيَآءَ﴾: الوَليُّ: النَّصيرُ، وهو ضدُّ العدوِّ، والوِلايةُ: النُّصرةُ[3]. وأصلُه يدورُ حول معنى القُربِ[4]. وكذلك الوَليُّ: الصَّديقُ والمحبُّ التَّابعُ، وهو ضدُّ العدوِّ أيضًا[5] وجمعُ الوَليِّ: أولياء. ومنه قولُه تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ﴾. أي: ما لهم من أنصارٍ وأعوانٍ يحفظونَهم من عذابِ اللّٰه وعقابِه إذا أرادَ بهم ذلك[6].

3) ﴿يُضَٰعَفُ﴾: الضِّعْفُ: ضِعْف الشَّيء مِثلَاه[7]، "وأضعفتُ الشَّيءَ إضعافًا، وضَاعَفْتُه مُضَاعَفةً، وضَعَّفْتُه تَضْعِيفًا، وهو إذا زاد على أصلِه فجعلَه مثْلَين أو أكثرَ"[8]، فهو عند العرب: المِثْلُ إلى ما زاد، وليس مقصورًا على المِثلَين. وضِعْفُ الشَّيء: مِثلُه، وضِعْفَاه: مِثلَاه، وأضْعافُه: أمْثَالُه[9]. وأصلُ معناه: هو أن يُزاد الشَّيءُ مثلَه[10].

المَعْنى الإجْماليُّ:

هؤلاء الَّذين وصَفهمُ اللّٰه تعالى منَ المشركين بالصَّدِّ عن سبيلِه لم يكونوا سابِقين ولا فائِتين من عذاب اللّٰه وبطْشِه في الدُّنيا ولا في الآخرةِ؛ لأنَّهم في قبضتِه وتحت قهْرِه وسُلطانِه، وهو قادرٌ على

لا نجاةَ ولا نصيرَ لمن أصمَّ عنِ الحقِّ سمعَه وأعمى بصرَه

(1) الخازن، لباب التأويل في معاني التنزيل: 2/479.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/35.
(3) الأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح، وابن فارس، المجمل، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (ولي).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ولي).
(5) الأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (ولي).
(6) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 9/19، والبغوي، معالم التنزيل: 2/444، والخازن، لباب التأويل في معاني التنزيل: 2/479.
(7) ابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (ضعف).
(8) الخليل، العين، وابن فارس، المجمل: (ضعف).
(9) الأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح: (ضعف).
(10) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ضعف).

الانتقام منهم في أيِّ وقتٍ شاءَ، ولن يكونَ لهم من دونِه سُبحانه أعوانٌ وأنصارٌ يحفظونَهم ويَدفعون عنهم هذا العذابَ إذا نزلَ بهم، وسَيُزادُ لهم العذابُ والانتقامُ؛ لعلَّةٍ هي صمَمُهم عن سماع القرآنِ، وعدمُ إبصارِهم آياتِ اللّه في الكون[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دَلالةُ الاستئنافِ في: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ لَمۡ يَكُونُواْ﴾:

اللّه عزيزٌ حكيمٌ، يُمهلُ ولا يُهملُ

قولُه تعالى: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ لَمۡ يَكُونُواْ مُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ استئنافٌ بيانيٌّ ناشئٌ عنِ الاقتصارِ في تهديدِهم على وَصْفِ بعضِ عقابِهم في الآخرةِ؛ فإنَّ ذلك يثيرُ في نفس السَّامعِ أن يسألَ: هل هم سالمون من عذاب الدُّنيا؟ فأجيبَ بأنَّهم لم يكونوا مُعجِزين في الدُّنيا؛ أي: لا يَخرجون عن مقدرةِ اللّه تعالى على تعذيبِهم في الدُّنيا إذا اقتضت حكمتُه سُبحانَه تعجيلَ عذابِهم[2].

بَلاغة تَكرار التَّعبيرِ باسم الإشارةِ ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ﴾:

المشركون استحقُّوا عذابَ اللّه في الدُّنيا قبلَ الآخرةِ

إعادةُ الإشارةِ إلى المذكورين بقولِه تعالى: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ﴾ بعد أن أُشيرَ إليهم بقولِه سُبحانه: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ يُعۡرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمۡ﴾ [هود: 18] لتقريرِ فائدةِ اسْمِ الإشارةِ السَّابقِ، وهي: التَّنبيهُ على أنَّهم حريُّونَ بما سَيردُ بعد اسمِ الإشارةِ منَ الخبرِ بسببِ ما قبْلَ اسمِ الإشارة منَ الوصْفِ، ولِما يُؤذِنُ به اسمُ الإشارة من معنى تعليلِ ما قبلَه فيما بعدَه[3]. فالإشارةُ إلى الموصوفين بصفاتٍ تدلُّ على أنَّ هذه الصِّفاتِ سببٌ لِما يقومون به مِن تحدٍّ للّه تعالى؛ ولذا قال سُبحانه: ﴿لَمۡ يَكُونُواْ مُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾[4]، والمعنى: أنَّهم يَصيرون إلى حُكم

(1) ابن جرير، جامع البيان: 12/370، والبغوي، معالم التنزيل: 4/169، ومجمّع الملك فهد، التفسير الميسّر: 1/224.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/38.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/33.

(4) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 7/3692.

ربِّهم في الآخرة، ولم يكونوا مُعجِزيه أن يعذِّبَهم في الدُّنيا متى شاء تعذيبَهم، ولكنَّه تعالى أرادَ إمهالَهم[1].

دَلالةُ التَّعبيرِ بلامِ البُعدِ في ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾:

الكافرون مُبعَدون عن رحمةِ الله

عُبِّرَ عنِ الكافرين الظَّالمين الذين يَصدُّون عن سبيلِ الله، ويَبغونَها عِوجًا باسْمِ الإشارةِ المُشارِ به إلى البعيدِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ للدِّلالةِ على بُعدِهم عن كلِّ خيرٍ وكلِّ فضيلةٍ، فمعنى "﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾؛ أي: البُعَداءُ عن حضرةِ الرَّحمةِ"[2]، البُعَداءُ في درجة الكفرِ والإشراكِ، المُتميِّزون مِنْ غيرِهم منَ الخلْقِ[3].

وفي هذا إشارةٌ لطيفةٌ إلى أنَّهم كما حالوا بين النَّاسِ وسبيل الإيمانِ فأبْعَدوهم عن أنوارِ الوحيِ الإلهيِّ، أُبعِدُوا يومَ القيامة، ونُبِذوا نبْذَ ما لا يُعتَدُّ به، وهذه غايةُ الإهانةِ!

دَلالةُ التَّعبيرِ بقولِه: ﴿مُعۡجِزِينَ﴾:

الظَّالمون عاجِزون عنِ الفرارِ من عقابِ الله

أُوثرَ التَّعبيرُ بالاسمِ ﴿مُعۡجِزِينَ﴾ دونَ الفعلِ (يُعجزون) للدِّلالةِ على الدَّيمومةِ التي لا ترتبطُ بزمنٍ دونَ زمنٍ، فقد نفَى عنهم بذلك أن يُعجِزوا اللّه سُبحانه ألبتَّةَ، في الماضي وفي الحال وفي المستقبل، وهذا ضربٌ من ضروب التَّوكيدِ، فقد "نفَى عنهم صفةَ الإعجازِ أصلًا؛ أي: لن يُفلِتوا من عذاب اللّه وعقابِه. وجاء بالاسمِ الذي هو أثبتُ وآكدُ منَ الفعل"[4].

بَلاغةُ التَّعبيرِ بالمسنَدِ جملةً اسميَّةً:

عذابُ الكافرين في الدُّنيا لا مَهربَ منه

جاء المُسندُ في قول اللّه تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَمۡ يَكُونُواْ مُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ جملةً اسميَّةً مُصدَّرةً بالفعلِ النَّاقصِ مُسنَدًا إلى ضميرِ جمعِ الغائِبين المُشارِ إليهم. وقد حقَّق هذا غيرَ فائدةٍ بلاغيَّةٍ، حيث

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/35.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 9/257.
(3) حجازي، الواضح: 2/112.
(4) الهلال، الثري الجامع: 5/183.

أفادَ مجيءُ المُسندِ جملةً تقوِّيَ الحُكْم وتوكيدَه، وأفاد مجيئُه جملةً اسميَّة الثُّبوتَ؛ فإنَّ مِن شأن الجملةِ الاسميَّةِ أنْ تدلَّ على الثُّبوت[1]، وفي ذلك تأكيدٌ لوقوعِه وتهديدٌ لهم.

معنى اللَّامِ ودَلالتُها في ﴿ٱلْأَرْضِ﴾:

اللَّامُ في ﴿ٱلْأَرْضِ﴾ لبيان الجنْسِ، فهي تصْدقُ على كلِّ ما تدلُّ عليه كلمةُ (أرض)، والمقصودُ من هذا التَّعريفِ الاستغراقُ، فإنَّهم لم يكونوا مُعجزين في أيِّ أرضٍ، وهذا الاستغراقُ يفيدُ تأكيدَ النَّفيِ"فهذا نفيٌ للملاجئِ والمعاقلِ التي يَستعصمُ فيها الهاربُ[2].

لا ملجأَ للكافرين منَ الله؛ فالأرضُ جميعًا تحت سُلطانِه

نُكتةُ تخصيصِ ﴿ٱلْأَرْضِ﴾ بالذِّكْرِ:

خصَّ النّظمُ الكريمُ الأرضَ بالذِّكرِ؛ لأنَّ تصرُّفَ ابنِ آدم وتمتُّعَه إنَّما هو فيها، وهي قُصاراهُ لا يستطيعُ النُّفوذَ منها[3]، وأشار إلى عجْزِهم بأنَّهم لا يَقدرون على بلوغ العالَمِ العُلويِّ بقوله: ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾.

الكافرون تحت سُلطانِ الله؛ فالأرضُ كلُّها في قبْضتِه

معنى الحرفِ ﴿فِي﴾ ودلالتُه:

﴿فِي﴾ هنا في قولِه تعالى: ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾ تفيدُ الظَّرفيّةَ المكانيَّةَ، وهي على أصلِ معناها، حيث جُعلتِ الأرضُ كالوعاءِ الجامعِ لِما فيه[4]، وأمَّا دلالتُه هنا فهي بيانُ مدَى ضعْفِ هؤلاء المُخاطَبين؛ إذ هم في الأرض لا يَستطيعون النُّفوذَ منها.

الكافرون في ملكِ الله، والأرضُ وِعاؤُهم

تنوُّعُ إعراب جُملة ﴿لَمْ يَكُونُواْ﴾ ودَلالتُه:

قولُه تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ في محلِّ رفعٍ مبتدأٌ، وجُملةُ ﴿لَمْ يَكُونُواْ مُعْجِزِينَ﴾ في محلِّ رفعٍ خبرُ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾، و﴿مُعْجِزِينَ﴾ خبرُ

لن يَذرأَ الكافرون عذابَ الله؛ فهو القاهرُ فوق عبادِه

(1) الصعيدي، بغية الإيضاح: 1/187.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/197، والآلوسي، روح المعاني: 6/232، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/35.

(3) ابن عطية، المحرر الوجيز: 3/160.

(4) السامرائي، معاني النحو: 3/57.

﴿يَكُونُواْ﴾[1]، ويجوزُ أن تكونَ جملةُ ﴿لَمۡ يَكُونُواْ مُعۡجِزِينَ﴾ حالًا، وجملةُ ﴿يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلۡعَذَابُۚ﴾ خبرًا أوَّلَ[2]، فالآيةُ صيغتْ في قالبِ الجملةِ الاسميَّةِ، والتَّعبيرُ بالجملةِ الاسميَّةِ يفيدُ الثُّبوتَ، فهذا هو الحالُ الدَّائمُ الذي لن يتغيَّرَ، فاللّه تعالى قويٌّ عزيزٌ لا يُغالَبُ، وهم لن يَبلُغوا أن يَدْرؤوا عن أنفسِهم العذابَ.

دَلالةُ الحالِ في قولِه: ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾:

لاخـــروجَ عـن قبْضةِ الله

قولُه تعالى: ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ حالٌ منَ الضَّميرِ البارزِ المتَّصلِ في ﴿يَكُونُواْ﴾، ودَلالةُ هذه الحالِ بيانُ ملازمتِها لصاحبِها؛ أي: أنَّهم لا يَخرُجون عن قبضةِ اللّه سُبحانه على كلِّ حالٍ[3]، فأنَّى يُعجِزونه وقد ملكَهم وأحاطَ بهم؟!

دَلالةُ العطْفِ في ﴿وَمَا كَانَ﴾:

ما كان للكافرين مِـــن أنـــصـــارٍ يَمنعونَهم من عقابِ الله

قولُه تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنۡ أَوۡلِيَآءَۘ﴾ معطوفٌ على قولِه سُبحانه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَمۡ يَكُونُواْ مُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾، وقد حَسُن هذا العطفُ؛ لِما بين الجُملتين الكريمتين ممَّا يُسمّيه البلاغيُّون التوسُّطَ بين الكمالَيْن، إضافةً إلى أنَّ هذا العطفَ قد عدَّد مظاهرَ قُدرةِ اللّه عليهم مع التَّدليل على ضعْفِهم، فلمَّا نفَى التَّعذُّرَ بأنفسِهم، نفاه من جهة غيرِهم[4]، "فجمع لهم نفيَ سببَيِ النَّجاةِ مِن عذاب القادرِ، وهُما: المكانُ الذي لا يصلُ إليه القادرُ، أو معارضةُ قادرٍ آخرَ إيَّاه يمنعُه من تسليط عقابِه"[5].

دَلالةُ ﴿وَمَا﴾ في ﴿وَمَا كَانَ لَهُم﴾:

﴿وَمَا﴾ في قولِه تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنۡ أَوۡلِيَآءَۘ﴾

(1) درويش، إعراب القرآن: 4/330، وبهجت صالح، الإعراب المفصل: 5/152.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/36.
(3) درويش، إعراب القرآن: 4/330.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 9/257.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/35.

عجزُ الكافرين وأنصارِهم عن دفعِ عذابِ الله

هي نافيةٌ[1]، والمعنى: نفيُ الإعجازِ عنهم، ونفيُ وجودِ الأولياء لهم. "وقيل: (ما) بمعنى: الذي. تقديرُه: أولئك لم يكونوا مُعجِزين، لا هم ولا الذين كانوا لهم من أولياءَ مِن دون الله"[2]، فالأوَّل فيه نفيٌ لشيْئَين عن فريقٍ واحدٍ: أن يكونوا مُعجِزين، وأن يكونَ لهم أولياءُ. والثَّاني فيه نفيٌ لشيءٍ واحدٍ، وهو الإعجازُ ولكن عن فريقين: الكافرين وأوليائِهم.

سرُّ التَّنوُّعِ بين ﴿لَمۡ يَكُونُواْ﴾، و﴿وَمَا كَانَ﴾:

نفيُ الإعجازِ والأولياءِ عنِ الكافرين في الماضي والمُستقبلِ

جاء النَّفيُ في الآية مُتنوِّعًا بين نفيِ المضارع في قولِه تعالى: ﴿لَمۡ يَكُونُواْ مُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾، ونفيِ الماضي في قولِه تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنۡ أَوۡلِيَآءَ﴾ ويرجعُ الفرقُ بينهما إلى دلالةِ كلِّ أداةٍ منهما على النَّفيِ في أصل الوضْعِ؛ فإنَّ (ما) النَّافيةَ هي حرفٌ لا عملَ له إذا دخل على الفعل، يَنفي الماضي والمضارعَ، أمّا (لم) فهو حرفُ نفيٍ وقلبٍ وجزمٍ، وتختصُّ بالدُّخول على المضارع، ويَقلبُه منَ الزَّمن الحاضرِ إلى الماضي ويَستغرقُ الماضيَ والمستقبلَ[3]، والملحوظُ أنَّ نفيَ المضارع - الذي قَلبت (لم) زمنَه إلى الماضي - جاء مع الإعجازِ، وذلك للدَّلالةِ على أنَّ حدَثَ الإعجازِ لم يَحصلْ في الماضي مع تطاوُلِ المدَّة واستمرارِها، وكثرةِ تقلُّبِ أحوالِ المخاطَبين، وهذا مبالغةٌ في تأكيد النَّفيِ[4]، وجاء نفيُ الماضي مسبوقًا بـ (ما) مع الأولياء، للدَّلالةِ على أنَّ هذا الأمرَ لم يقعْ ألبتَّةَ، وفي هذا تعريضٌ بهم، فإنَّ كلَّ مَن ظنُّوا أنَّه سيَنصرُهم مِن دون الله لم يكن لينصرَ نفسَه فضلًا عن أن ينصُرَهم[5].

(1) درويش، إعراب القرآن: 4/330.
(2) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 9/19.
(3) السامرائي، معاني النحو: 4/193، 197.
(4) السامرائي، معاني النحو: 4/195.
(5) السامرائي، معاني النحو: 4/197.

نكتةُ تقديمِ الجارِّ والمجرورِ ﴿لَهُم﴾:

العنادُ عاقبَتُه تخصيصُهم بعذابٍ

قُدِّم الجارُّ والمجرورُ ﴿لَهُم﴾ للتَّخصيصِ والاهتمامِ، فهؤلاء الكافرون المُعانِدون الذين ظنُّوا أنَّهم دفَعوا عن أنفسِهم العذابَ باستنصارِهم بأندادِهم وأصنامِهم فعَلوا ذلك ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ﴾، فهذا بيانٌ لِمدى جُحودِ القوم ومدَى تجرُّئِهم على ربِّهم ﷻ.

معنى اللَّام ودَلالتُها في ﴿لَهُم﴾:

ليس للكافرين أنصارٌ يَمنعونَهم من عذابِ الله

اللَّامُ في قولِه تعالى: ﴿لَهُم﴾ للاختصاصِ، ومعناها هنا أنَّهم: لا يَملِكون مَن ينصرُهم ويدافعُ عنهم بين يدي اللّٰه تعالى، وليس معهم ما يَدفَعون به عن أنفسِهم العذابَ، أو يَفتدون به أنفسَهم منَ النَّار.

معنى ﴿مِّن﴾ ودَلالتُها:

الله وحدَه هو الوليُّ النَّصيرُ

﴿مِّن﴾ في قوله تعالى: ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ هي (مِن) الجارَّةُ التي تُزادُ في الظُّروف غيرِ المتصرِّفةِ[1]. وقد دلَّت على نفْيِ إمكانِ الولايةِ يومَ القيامة عن كلِّ مَن هو دونَ اللّٰه تعالى، فإنَّ اللّٰه سُبحانه هو وحدَه الوليُّ والنَّصيرُ، فلمَّا كانت الرُّتبُ التي هي دونَ عظمتِه سُبحانه متكاثرةً جدًّا، بيَّن أنَّهم معزولون عن كلٍّ منها بإثبات الجارِّ فقال: ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: الملكِ الأعظمِ[2].

معنى ﴿دُونِ﴾ ودَلالتُها:

الله سُبحانه هو القاهرُ فوق عبادِه

قولُه تعالى: ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ بمعنى: من غيرِ اللّٰه، فـ﴿دُونِ﴾ اسمٌ غيرُ ظرفٍ[3] وتدور معاني جذرِه حول القُربِ[4]، والخفضِ عنِ الشَّيء، والقصورِ عنِ الغاية، والخِسَّةِ والحقارةِ[5]، ففيه دَلالةٌ على

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/36.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 9/257.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/36.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (دون).
(5) الجوهري، الصحاح، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (دون).

عُلوِّ اللّه سبحانه على جميع خلْقِه، فهو سُبحانه العليُّ، وجميعُ خلْقِه دونَه، وفيه دَلالةٌ أيضًا على حقارةِ ما كان الكافرون يَستنصرون بهم، وما دامَ المُستنصَرُ به حقيرًا فإنَّ مَنِ استنصرَ به أذلُّ وأحقرُ!

سِرُّ التَّعبيرِ في قوله: ﴿مِّن دُونِ ٱللَّـهِ﴾:

الله هو القهَّارُ الغالبُ على كلِّ شيءٍ

عُبِّرَ بلفْظِ الجلالةِ في قوله تعالى: ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ لِما في الألوهيَّةِ من مَعاني العُلوِّ والقهْرِ والغلَبةِ والغِنى والكمالِ المُطلَقِ والاستحقاقِ للعبوديَّة، ولِما يتضمَّنُه لفظُ ﴿دُونِ﴾ منَ السُّفولِ والانحطاطِ والخِسَّةِ، فهذه المقابلةُ الصَّارخةُ بين الدِّلالتَيْن ممَّا له أبلغُ الأثرِ في إيقاع المعاني في القلوبِ.

معنى ﴿مِّن﴾ ودَلالتُها:

ليس للكافرين أيُّ وَلِيٍّ يَنصرُهم من دونِ الله

﴿مِّن﴾ الجارَّةُ لـ﴿أَوْلِيَآءَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ﴾ لتأكيدِ استغراقِ الجنسِ المَنفيِّ؛ أي: ما كان لهم فردٌ من أفرادِ جنسِ الأولياء[1]، فهي المُسمَّاةُ بـ (مِن) الاستغراقيّةِ؛ فقدِ استغرقتِ النّفيَّ المطلقَ، وعمَّمتْه، وأفادتِ التَّوكيدَ؛ أي: تأكيدَ نفيِ وجودِ الوليِّ[2]؛ أي: ما كان لهم أيُّ وليٍّ منَ الأولياء[3].

دَلالةُ التَّعبيرِ بالأولياء دونَ غيرِها:

الوليُّ هو القريبُ الـذي يَـنـصـرُ ويُعينُ

تدورُ معاني الولايةِ حولَ القُربِ، والدّنوِّ، واللُّزومِ، والمتابعةِ، والرِّعايةِ بالقيام على المصالحِ[4]. وقد عُبِّرَ عنِ الحلفاءِ والأنصارِ والأعوانِ هنا بلفْظِ الأولياءِ لِما في الولايةِ من معاني المحبَّةِ والنُّصرةِ التي تلازمُ القُربَ غالبًا أو تنشأُ عنه، فنفَى اللّه سُبحانه في الآية وجودَ أولياءَ يَنصرون الكافرين، وأغرقَ في النَّفيِ بقوله: ﴿مِنْ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/36، والآلوسي: روح المعاني: 6/232.
(2) الهلال، الثري الجامع: 5/184.
(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 7/3692.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة، والجوهري، الصحاح، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (ولي).

﴿أَوۡلِيَآءَ﴾؛ أي: يفعلون معهم ما يفعلُ القريبُ من تَولّي المصالحِ، والحمايةِ مِن المصائبِ، ومَن لم يقدرْ على الامتناعِ وهو حيٌّ لم يمتنعْ بعد موتِه[1]، ويجوزُ أن يُرادَ بالأولياءِ الأصنامُ التي تولَّوْها؛ أي: أخلَصوا لها المحبَّةَ والعبادةَ، ومعنى نفْيِ الأولياءِ عنهم بهذا المعنى نفْيُ أثرِ هذا الوصْفِ؛ أي: لم تنفعْهُم أصنامُهم وآلهتُهم[2].

نُكتةُ الجمْعِ في ﴿أَوۡلِيَآءَ﴾:

جاء لفظُ ﴿أَوۡلِيَآءَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنۡ أَوۡلِيَآءَ﴾ بصيغة الجمع، وذلك إمَّا باعتبار أفرادِ الكفرةِ، فكأنَّه قيل: وما كان لأحدٍ منهم مِن وليٍّ، وإمَّا باعتبار تعدُّد ما كانوا يَدْعون من دونِ اللّه تعالى، فيكونُ ذلك بيانًا لحالِ آلهتِهم مِن سقوطِها عن رُتبةِ الولايةِ[3].

لا يُغني الأولياءُ من دونِ الله مهما كثُروا وتنوَّعوا

بَلاغةُ الاستئنافِ في ﴿يُضَٰعَفُ﴾ ودَلالتُه:

قولُه تعالى: ﴿يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلۡعَذَابُۚ﴾ استئنافٌ بيانيٌّ ناشئٌ عن سؤالٍ مقدَّرٍ بعد قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنۡ أَوۡلِيَآءَ﴾، فكأنَّه قيل: هؤلاء الذين لن يكونَ لهم يومَ القيامة مَن ينصرُهم أو يدفعُ عنهم: ماذا يُفعل بهم؟ فقيل: ﴿يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلۡعَذَابُۚ﴾؛ أي: يُفعل فيه فعْلُ من يناظرُ آخَرَ في الزِّيادة[4]، فهي جملةٌ مستأنَفةٌ تتضمَّنُ حِكمةَ تأخيرِ المُؤاخذةِ، وتبيِّنُ ما يكونُ لهم ويَحلُّ بهم[5]، ولتأكيدِ أنَّ تأخيرَ العذابِ والتَّراخي عن تعجيلِه لهم ليكونَ عذابًا مُضاعَفًا بسبب صدِّهم عن سبيل اللّه وإنكارِهمُ البعثَ، بعدَ الموتِ[6].

عذابُ الكافرين مُضاعَفٌ؛ لأنّهم صَدّوا عن سبيلِ الله

(1) البقاعي، نظم الدرر: 9/257.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/35 - 36.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/197، والآلوسي، روح المعاني: 6/232.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 9/257.
(5) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/197، والآلوسي، روح المعاني: 6/232.
(6) الشوكاني، فتح القدير: 2/557، والقنوجي، فتح البيان: 6/162.

دَلالةُ التَّعبيرِ بصيغة ﴿يُضَٰعَفُ﴾:

مَن يتولَّى تعذيبَ هؤلاء الكافرين هو الله ﷻ وحدَه

بُنِي الفعلُ ﴿يُضَٰعَفُ﴾ للمفعول فلم يُسمَّ فاعلُه للعلْم به، وهو الله ﷻ، فهذا أمرٌ لا يقدرُ عليه إلا الله، ولأنَّ المراد وجودُ المضاعفةِ مطلقًا[1]، فمقصودُ الآية إثباتُ مضاعفةِ العذاب تنكيلًا بالكافرين الذين ظنُّوا أنَّ تأخيرَ العذابِ عنهم بسببِ أنَّ أولياءَهم وأنصارَهم منَ الأوثان قد حمَوهم ودافَعوا عنهم، فالآية تردُّ عليهم، وتُثبتُ وجودَ ما ادَّعَوا عدمَه!

نُكتةُ تقديم ﴿لَهُمُ﴾ على ﴿ٱلۡعَذَابُۚ﴾:

الكافرون لهم عذابٌ يخصُّهم وحدَهم

قُدِّم الجارُّ والمجرورُ ﴿لَهُمُ﴾ للدِّلالة على الاختصاصِ؛ أي أنَّ هذا العذابَ العظيمَ المُضاعَفَ إنَّما هو لهم هم، قد أُعِدَّ خصوصًا لهم؛ وذلك لعظَمِ جُرمِهم، فما كان الله ﷻ ليَظلمَ أحدًا ولو مثقالَ ذرَّةٍ.

تنوّعُ القراءاتِ في ﴿يُضَٰعَفُ﴾:

عذابُ الكفرةِ شديدٌ كثيرٌ، وهو مُستمرٌّ مُتوالٍ

قُرئَ في المتواترِ بالتَّضعيف: (يُضعَّف لهم العذاب)، وبصيغة المفاعلة: ﴿يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلۡعَذَابُۚ﴾، والفرقُ بينهما عائدٌ إلى الفرق بين صيغةِ (فاعَلَ)، وصيغة (فعَّل)، فأمَّا الأولى فتدلُّ على المشاركةِ بين شيئَين، وتدلُّ على المُوالاةِ والمتابعةِ، وأمَّا الثَّانية فتدلُّ على التَّكثير والتَّعديةِ والإزالةِ وغيرها[2]، وممَّا سبق يُلحظُ في المفاعلة معنى: الموالاةِ؛ أي: الاستمراريةِ وعدمِ الانقطاع. ويُلحظُ في التَّفعيل معنى: التَّكثير، وكلا المعنيَيْن مرادٌ هنا، فإنَّ عذابَ هؤلاء الكفرةِ الفجرةِ شديدٌ وكثيرٌ، وهو مع شدَّتِه مُستمرٌّ ومُتوالٍ، فمعنى المضاعفة: الشِّدَّةُ؛ لأنَّهم يُعذَّبون عذابَيْن: عذابًا على ضلالِهم في أنفسِهم، وعذابًا على إضلالِهم غيرَهم[3]، والعذابُ المضاعَفُ هو

(1) البقاعي، نظم الدرر: 9/257.
(2) الحملاوي، شذا العرف، ص: 31 - 32.
(3) الصاوي، حاشية على الجلالين: 2/211.

عذابُ الآخرة بقرينة قوله: ﴿لَمۡ يَكُونُواْ مُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ المُشْعِرِ بتأخيرِ العذابِ عنهم في الدُّنيا لا عن عجْزٍ[1].

نُكتةُ توجيهِ معنى ﴿يُضَٰعَفُ﴾:

إن قيل: ما معنى تضعيفِ العذابِ، وقد قال في موضعٍ آخرَ: ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَا﴾ [الأنعام: 160]؟

فالجوابُ من وجهين: أحدُهما: أنَّ مضاعفةَ العذاب بمضاعفةِ الجُرم.

والآخرُ: أنَّ الآية في رؤساءِ أهلِ الشّرك، وتضعيفُ العذابِ عليهم بتضليلِ الأتباعِ ودُعائِهم إيَّاهم إلى شركِهم[2].

سَيِّئاتُ أهلِ الكفْرِ مُضاعفةٌ؛ لذا تَقتضي عِقابًا مُضاعَفًا

تنوّعُ الموقعِ الإعرابيِّ في ﴿يُضَٰعَفُ﴾ ودَلالتُه:

قولُه تعالى: ﴿يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلۡعَذَابُۚ﴾ خبرٌ عن اسْم الإشارةِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾، ويجوزُ أن تكونَ جملةُ ﴿لَمۡ يَكُونُواْ مُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ خبرًا أوَّلَ، وجملةُ ﴿يُضَٰعَفُ﴾ خبرًا ثانيًا، ويجوزُ أن تكونَ جملةُ ﴿لَمۡ يَكُونُواْ مُعۡجِزِينَ﴾ حالًا وجملةُ ﴿يُضَٰعَفُ﴾ خبرًا أوَّلَ[3]، ودَلالةُ الخبرِ حُكمٌ للمسندِ إليه، ودَلالةُ الحال قيْدٌ لحالِهم في العذاب.

مُضاعفةُ العذاب حكمٌ ثابتٌ، وحالٌ مُستمرٌّ

معنى ﴿مَا﴾ ودَلالتُها في قوله: ﴿مَا كَانُواْ﴾:

في قوله تعالى: ﴿مَا كَانُواْ يَسۡتَطِيعُونَ﴾ يجوزُ في ﴿مَا﴾ هذه ثلاثةُ أوجُه:

أحدُها: أن تكونَ نافيةً، نفى عنهمُ السَّمعَ والبصرَ لمَّا لم يَنتفعوا بهما وإن كانوا ذَوي أسماعٍ وأبصارٍ، أو يكونُ متعلَّقُ السَّمع والبصرِ شيئًا خاصًّا.

والثَّاني: أن تكونَ مصدريَّةً، وفيها حينئذٍ تأويلان:

أحدُهما: أنَّها قائمةٌ مقامَ الظَّرف؛ أي: مدَّةَ استطاعتِهم ذلك،

الكافرون لا يستطيعون سماعَ الحقِّ ولا رُؤيتَه

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/36.
(2) السمعاني، تفسير القرآن: 2/421.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/36.

وتكونُ ﴿مَا﴾ منصوبةً بـ ﴿يُضَٰعَفُ﴾؛ أي: يضاعَفُ لهمُ العذابُ مدَّةَ استطاعتِهم السَّمعَ والإبصارَ؛ أي: أبدًا، كقوله تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾ [هود: 107]؛ أي: مدَّةَ دوامِ السَّماوات والأرض؛ أي: أبدًا.

الثَّاني: أنَّها منصوبةُ المحلِّ على إسقاط حرفِ الجرِّ، كما يُحذف من أنْ وأنَّ أختيها، وإليه ذهب الفرَّاءُ، وذلك الجارُّ المقدَّرُ متعلِّقٌ أيضًا بـ ﴿يُضَٰعَفُ﴾؛ أي: يضاعفُ لهم بسبب كونِهم كانوا يَسمعون ويُبصرون ولا يَنتفعون.

الثَّالث من أوجُه ﴿مَا﴾: أن تكون بمعنى الذي، وتكونُ على حذْفِ حرفِ الجرِّ أيضًا، أي: بسببِ الذي كانوا، وفيه بُعدٌ؛ لأنَّ حذْفَ الحرفِ مع (ما) الموصولة لا يطَّردُ، والجملةُ من قوله تعالى: ﴿يُضَٰعَفُ﴾ مستأنَفةٌ[1].

تنوّعُ الموقعِ الإعرابيِّ ودَلالتُه في ﴿مَا كَانُواْ﴾:

يجوزُ أن يكونَ قولُه تعالى: ﴿مَا كَانُواْ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُواْ يُبْصِرُونَ﴾ خبرًا عنِ اسْمِ الإشارةِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ أو حالًا منه، فتكونُ استطاعةُ السَّمعِ المَنفيَّةُ عنهم مُستعارةً لكراهيتِهم سماعَ القرآن وأقوالِ النَّبيِّ ﷺ. ويجوزُ أن تكونَ الجملةُ حالًا لـ﴿أَوْلِيَآءَ﴾، وسوَّغَ كونَها حالًا منَ النَّكرةِ أنَّ النَّكرةَ وقعتْ في سياقِ النَّفْيِ، والمعنى: أنَّهم جعَلوها آلهةً لهم في حالِ أنَّها لا تستطيعُ السَّمعَ ولا الإبصارَ! وإعادةُ ضميرِ جمْعِ العقلاءِ على الأصنامِ على هذا الوجْهِ منظورٌ فيه إلى أنَّ المشركين اعتقَدوها تعقلُ، ففي هذا الإضمارِ مع نفْيِ السَّمعِ والبصرِ عنها ضربٌ منَ التَّهكُّمِ بهم[2].

أهلُ الصَّممِ والعَمى لا يَصلُحون للولايةِ

(1) السمين الحلبي، الدر المصون: 6/302، وأبو حيّان، البحر المحيط: 6/137، والزحيلي، التفسير المنير: 12/44.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/36.

سِرُّ التَّعليلِ بجُملةِ: ﴿مَا كَانُواْ يَسۡتَطِيعُونَ﴾:

فُصِل قولُه تعالى: ﴿مَا كَانُواْ يَسۡتَطِيعُونَ ٱلسَّمۡعَ وَمَا كَانُواْ يُبۡصِرُونَ﴾ عن سابقِه لِما بينَهما من شِبْه كمالِ الاتِّصال، إذ قد ينشأُ سؤالٌ عن قوله تعالى: ﴿يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلۡعَذَابُۚ﴾ مُفادُه: ما علَّةُ مضاعفةِ العذابِ لهم؟ وما الذي جعلَهم يَستحقُّون هذا الوعيدَ الشَّديدَ؟ فتكونُ الإجابةُ: ﴿مَا كَانُواْ يَسۡتَطِيعُونَ ٱلسَّمۡعَ وَمَا كَانُواْ يُبۡصِرُونَ﴾، فلأجلِ أنَّهم أصَمّوا آذانَهم عن سماع الحقِّ، وكرِهوه أشدَّ الكراهةِ، واستثْقَلوا سماعَه أعظَمَ الاستثقالِ، وتعامَوْا عن آيات الملكِ المتعالِ[1]، وكان هذا منهم إصرارًا على الكفرِ والصَّدِّ عن سبيل الله - لأجل هذا كلِّه - ضوعِفَ عذابُهم، فلم يُجْزَوا إلَّا بما عملوا، فكان جزاءً وِفاقًا، وليس المرادُ نفْيَ السَّمعِ والبصرِ، بلِ المقصودُ أنَّهم - وإن كانوا يَسمعون ويُبصرون في الظَّاهر - ما استَخْدَموا هاتين الحاسَّتَيْن استخدامًا صحيحًا في تلقِّي المعارفِ والمعلوماتِ وتكوين العقيدةِ السَّليمةِ، ونظرًا لعنادِهم وعُتوِّهم وكراهتِهم الحقَّ والهُدى، ما كانوا يُطيقون سمْعَ آياتِ القرآن والتَّبصُّرَ بآيات الكونِ[2].

ليستِ العِبرةُ بوجودِ الآلةِ وإنّما العِبرةُ بحسْنِ استثْمارِها

الغرَضُ منَ التَّشبيهِ التَّمثيلِّي في ﴿مَا كَانُواْ يَسۡتَطِيعُونَ﴾:

البديهةُ دلَّت على أنَّهم كانوا يَسمعون الأصواتَ والحروفَ، فوجبَ حمْلُ اللّفظِ على الثَّاني[3]، فليس المرادُ أنَّهم صُمٌّ حقيقةً، بل شُبِّهت حالُهم بحالِ الأصمِّ الذي لا يستطيعُ السَّمعَ؛ ذلك لأنَّهم لا يَتدبَّرون ما يَسمعون من دعوةٍ إلى الحقِّ وآياتٍ تُتلى وفيها الإعجازُ، فكانوا كأنَّهم لا يَسمعون[4] فقد شُبِّه حالُهم في إعراضِهم عنِ الحقِّ وبُغضِهم له واستثْقالِهم سماعَه لداء الكِبْرِ في نفوسِهم بحال مَن

مثلُ الكافرِ كمثلِ الأصمِّ الأعمَى؛ لا تنفعُه أُذناهُ ولا تَهْديه عيناهُ

(1) الآلوسي، روح المعاني: 6/232.
(2) الزحيلي، التفسير المنير: 12/47 - 48.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/333.
(4) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 7/3693.

لا يستطيعُ أن يَسمعَ الأصواتَ لداءٍ في أذنِه بجامعِ عدمِ الانتفاعِ بالمسموعِ في كلٍّ. وكذلك شُبِّه حالُهم في تعاميهِم عن رؤيةِ الدَّلائلِ الباهرةِ والحُججِ السَّافرةِ بحال مَن لا يُبصرُ لداءٍ في عينَيْه بجامعِ عدمِ الانتفاعِ في كلٍّ، فهو تشبيهٌ لهم بالأعمَى والأصمِّ، ولمَّا كان وجهُ الشَّبه مُنتزَعًا من عدَّة أمورٍ كان تمثيليًّا؛ لأنَّه تشبيهُ مركَّبٍ بمركَّبٍ[1]، وقيل: في الكلام استعارةٌ تصريحيَّةٌ تبعيَّةٌ، ولا مانعَ من اعتبارِ الاستعارةِ التّمثيليَّةِ بدلَها[2]؛ لأنَّ نفْيَ استطاعةِ السَّمع والبصرِ مع سلامةِ الحواسِّ هو استعمالٌ معروفٌ للخاصَّة والعامَّة، يقولون: لا أُطيقُ النَّظرَ إلى فلانٍ ولا أستطيعُ أن أسمعَ كلامَه مِن بُغضِه ونفرتِه عنه[3]، وكذا قول القائل: العاشقُ لا يستطيعُ أن يسمعَ كلامَ العاذلِ[4].

بَلاغةُ الكنايةِ في الآية:

أهـــلُ الـكـفـرِ يَـكـرهـون الحقَّ ويُعرِضون عنه

في قولِه تعالى: ﴿مَا كَانُواْ يَسۡتَطِيعُونَ ٱلسَّمۡعَ﴾ كنايةٌ عن عدمِ قَبولِهم للحقِّ، وأنَّ شدَّةَ إعراضِهم عنه وصلت إلى حدٍّ صارت فيه تُوصَفُ بعدمِ الاستطاعةِ؛ كما يقول الإنسانُ لِما تشتدُّ كراهتُه له: هذا ممّا لا أستطيعُ أن أسمعَه[5]، وبلاغةُ الكنايةِ تتأتَّى من كونِها تأتي بالمعنى المُرادِ التَّعبيرُ عنه مصحوبًا بالدَّليلِ عليه في إيجازٍ.

نُكتةُ البدْءِ بنفْيِ السَّمعِ ثمَّ نفْيِ البَصرِ:

السّمعُ مُقدَّمٌ على البصرِ

قُدِّمَ السَّمعُ في هذه الآية على البصر؛ لأنَّ حاسَّتَه أشرفُ من حاسَّةِ البصرِ، إذ عليه تُبنى في الأطفالِ معرفةُ دلالاتِ الأسماءِ، وهو كافٍ في أكثرِ المعقولاتِ دونَ البصر، إلى غير ذلك من

(1) درويش، إعراب القرآن: 4/331.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 6/232.
(3) ابن القيم، مفتاح دار السعادة: 1/280.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 6/232.
(5) البقاعي، نظم الدرر: 9/258.

أسباب التقديم[1]، ويدلُّ التّقديمُ على أهميَّة السَّمعِ على البصرِ، قال الله سبحانه: ﴿وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ٧٨﴾ [النحل: 78][2].

دَلالةُ نفْيِ الاستطاعةِ في السَّمع:

ليس حجْبُ السَّمع كحجْبِ البصرِ

في قولِه تعالى: ﴿مَا كَانُواْ يَسۡتَطِيعُونَ ٱلسَّمۡعَ﴾ خُصِّص السَّمعُ بنفيِ الاستطاعةِ فيه دونَ البصر؛ لأنَّ نفْيَ الاستطاعةِ أعرقُ في العيْبِ، وأدلُّ على النَّقصِ، وأنكأُ من نفيِ السَّمع؛ لأنَّهم قد يحملونَه على الإجابة، وأمَّا نفيُ البصر فغير مُنفكٍّ عنِ النَّقص سواءٌ كان للعين أو للقلب[3]؛ لذا بولِغ في نفيِ الأوَّل عنهم واكتُفِي في الثَّاني بنفيِ الإبصار[4]، فعبِّر مع السَّمع بنفيِ الاستطاعة، ولم يقل هنا: وما كانوا يستطيعون أن يُبصِروا؛ لأنَّهم كانوا يبصرونَها، ولكنَّ مجرَّدَ الإبصار غيرُ كافٍ في حصول الاستدلالِ حتى يُضمَّ إليه عملُ الفكر بخلاف السَّمعِ في قولِه: ﴿مَا كَانُواْ يَسۡتَطِيعُونَ ٱلسَّمۡعَ﴾[5].

بَلاغةُ عطْفٍ في الآية:

تنوّعت أسبابُ ضَلالِ الكافرين وصُوَرُ إعراضِهم عنِ الحقِّ والرّشادِ

قولُه تعالى: ﴿وَمَا كَانُواْ يُبۡصِرُونَ﴾ معطوفٌ على قوله تعالى: ﴿مَا كَانُواْ يَسۡتَطِيعُونَ ٱلسَّمۡعَ﴾، وقد حسُنَ الوصلُ لِما بين الجُملتَيْن من المناسبةِ، واتِّفاقِهما في الخبريَّة، ولأنَّه قد قُصد تشريكُ الثَّانيةِ مع الأُولى في الحُكمِ الإعرابيِّ؛ فجملةُ: ﴿وَمَا كَانُواْ يُبۡصِرُونَ﴾ لا محلَّ لها منَ الإعراب؛ لأنَّها معطوفةٌ على جملةِ ﴿مَا كَانُواْ يَسۡتَطِيعُونَ ٱلسَّمۡعَ﴾ وهي جملةٌ تعليليَّةٌ[6]، وهذا العطفُ أفادَ تعديدَ الصِّفاتِ الخبيثةِ

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 3/161.
(2) الهلال، تفسير القرآن الثري الجامع: 5/184.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 9/258.
(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/197، والآلوسي، روح المعاني: 6/232.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/37.
(6) محمود صافي، الجدول: 6/243.

المَقيتةِ التي اتَّصفَ بها هؤلاء الكافرون الصّادّون عن سبيل اللّه، والتي استحَقّوا بها مضاعفةَ العذابِ لهم.

معنى ﴿وَمَا﴾ في ﴿وَمَا كَانُواْ﴾ ودَلالتُها:

تأكيدُ نفيِ سماعِ الكافرين وإبْصارِهم

﴿وَمَا﴾ في قولِه تعالى: ﴿وَمَا كَانُواْ يُبْصِرُونَ﴾ هي نافيةٌ[1]، ولمَّا كانت (ما) أبلغَ في الدِّلالةِ على النَّفي من (لم) من حيث كوْنُها تأتي ردًّا على زعْمٍ خاطئٍ يَسبقُها؛ دلَّ مجيئُها في هذا السِّياقِ على المبالغةِ في النَّفي، مع تضمُّنِها الردَّ على مَن يقول منَ المشركين: بل سمِعْنا وأبصرْنا ولم نجدْ في هذا حُجّةً لكي نؤمنَ!

دَلالةُ المضارعِ ﴿يَسْتَطِيعُونَ﴾ و﴿يُبْصِرُونَ﴾:

تكرُّرُ صَمِّ الكافرين وعَماهُم عن آياتِ رَبِّهم، واستمرارُ هذه الحالِ

عُبِّر بالمضارع في قولِه تعالى: ﴿يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ﴾، و﴿يُبْصِرُونَ﴾ للدَّلالةِ على التَّجدُّدِ والاستمرارِ في الماضي، وذلك هو المفهومُ من سبْقِ الفعلَيْن ﴿يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ﴾، و﴿يُبْصِرُونَ﴾ بالفعل الماضي ﴿كَانُواْ﴾ والمفهومُ منَ النَّفي بـ ﴿مَا﴾، وما تُضْفيه دلالةُ المضارع على السِّياقِ أنَّ دواعِيَ السَّمع والإبصارِ قد توالت عليهم وتكرَّرتْ لهم، من آياتٍ تُتلَى، وآياتٍ تُرَى، ومع هذا لم يحصلْ منهم مجرَّدُ السَّماعِ ولا الإبصارِ، فضلًا عنِ التَّدبُّرِ والاعتبارِ.

لطيفةُ الإتيانِ بأفعالِ الكوْنِ:

تحقُّقُ عدَمِ سماعِهم وإبصارِهم في الماضي والمستقبل

أُوثر الإتيانُ بأفعال الكوْنِ في هذه الجمل من الآية الكريمة أربعَ مرَّات ابتداءً بقوله: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ لَمْ يَكُونُواْ مُعْجِزِينَ﴾ إلى حتى قوله: ﴿وَمَا كَانُواْ يُبْصِرُونَ﴾ لإفادةِ ما يدلُّ عليه فعلُ الكونِ من تمكُّنِ الحدثِ المُخبَرِ به، فقولُه: ﴿لَمْ يَكُونُواْ مُعْجِزِينَ﴾ آكدُ من: لا يعجزون، وكذلك أخواتُه[2]. والجمعُ بين الماضي والمستقبل في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانُواْ يُبْصِرُونَ﴾ للدِّلالةِ على استمرارِ غفلتِهم عنِ الآيات

(1) بهجت صالح، الإعراب المفصل: 5/153.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/37.

وتجدُّدِها وقتًا بعدَ آخرَ، فكلمةُ ﴿كَانُواْ﴾ تدلُّ على الماضي، وكلمةُ ﴿يُبْصِرُونَ﴾ تدلُّ على المستقبل، وكذلك الأمرُ في قوله تعالى: ﴿مَا كَانُواْ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ﴾[1]، وروعِيَ الاختلافُ بين صِيَغ أفعالِ الكون إذ جاء أوَّلُها بصيغةِ المضارع والثَّلاثةُ بعدَه بصيغة الماضي؛ لأنَّ المضارع المجزومَ بحرف (لم) له معنى المُضيِّ، فليس المخالفةُ منها إلا تفنُّنًا[2].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الولايةُ والنَّصرُ:

الواو واللّام والياء أصلٌ واحدٌ يدلُّ على القُرب[3]، وأصلُ الوَلْيِ جعلُ الثّاني بعد الأوّلِ من غيرِ فصْلٍ من قولهم: هذا يَلي ذاك وَليًا. ووليَ فلانٌ فلانًا: تبعَه من غير فصْلٍ[4]، وكلُّ مَن يَليك أو يُقاربُك فهو وَليٌّ[5].

والنّون والصّاد والرّاء أصلٌ واحدٌ يدلُّ على إتيان خيرٍ وإيتائِه[6]. ومعناه المحوريُّ: الإمدادُ بما فيه زيادةٌ مناسِبةٌ وقوَّةٌ، ومن مَلحظِ الإمدادِ بالزِّيادةِ والقوَّةِ جاء النّصرُ، والنُّصرةُ: الإعانةُ[7]. فالملحَظُ في لفظِ ﴿أَوْلِيَآءَ﴾ القُربُ، وفي لفظِ (ناصرين) الإمدادُ بالقوَّةِ والإعانةِ، وهؤلاء ما كان لهم من دونِ اللّه أولياءُ يَفعلون معهم ما يفعلُ القريبُ من تَولّي المصالحِ والحمايةِ منَ المصائبِ[8]؛ لذا أُوثر لفظُ ﴿أَوْلِيَآءَ﴾.

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 7/3693.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/37.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ولي).
(4) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 284، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (ولي).
(5) أبو البقاء الكفويّ، الكلّيّات، ص: 918.
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نصر).
(7) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل، والرّاغب، المفردات: (نصر).
(8) البقاعي، نظم الدرر: 9/257.

﴿أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ٢١﴾ [هود: 21]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

تجارةُ الكافرين خـــاســـرةٌ، وعملُهم مُحبَطٌ

لَمَّا أعرَضوا عنِ الشّريفِ الرّفيعِ، ورَضوا بالخسيسِ الوضيعِ؛ بيّنَ اللّه ﷻ أنَّهم لا شيءَ، وأنَّهم الخاسِرون من كلِّ وجْهٍ؛ فلا هم حصَّلوا مصلحةً دُنيويّةً ولا منفعةً أُخرويّةً، ولا اسْتطاعوا سترَ عَوارِ ادّعاءاتِهم الكاذبةِ على ربِّ العالَمين ﷻ[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿خَسِرُوٓاْ﴾: الخُسْرُ والخُسْران: النَّقصُ، يقالُ: خَسِر يَخْسَرُ خُسْرًا وخُسْرَانًا؛ أي: نقصَ. ويقال: كِلتُه ووَزَنْته، فخَسَرْته وأخْسَرْته: نَقَصْته وأنْقَصْته[2]. وأصلُه يدورُ حول معنى نقْصِ الشَّيء بذهابِ أجزاءٍ منه[3]، ويُستعملُ الخُسرانُ كذلك في "المُقتنيات النَّفسيَّةِ كالصِّحَّةِ والسَّلامةِ، والعقلِ والإيمانِ، والثَّوابِ، وهو الذي جعلَه اللّه تعالى الخُسرانَ المبينَ"[4]. وخَسِر وخُسْرَانًا وخَسَارة وخَسَارًا، فهو خاسرٌ وخَسِرٌ، كلُّه بمعنى: ضلَّ. ومنه قولُ اللّه ﷻ: ﴿خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ ١١﴾[5] [الحج: 11]. وأما قولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ٢﴾ [العصر: 2]. أي: في عقوبةٍ بذنوبِه، وأن يخسرَ أهلَه ومنزلَه في الجنّة[6].

---

(1) ابن جرير، جامع البيان: 12/372، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/334، والبقاعي، نظم الدّرر: 9/258، والآلوسي، روح المعاني: 6/233، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/38.

(2) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب: (خسر).

(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (خسر).

(4) الرّاغب، المفردات: (خسر).

(5) الجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (خسر).

(6) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (خسر).

2) ﴿وَضَلَّ﴾: الضَّلالُ: ضدُّ الهُدى والرَّشادِ[1]، وهو العُدولُ عن الطَّريق المستقيم[2]. والفعلُ منه: ضَلَّ يضِلُّ ضلالًا وضلالةً، وأصلُه من ضياعِ الشَّيءِ وذهابِه في غير حقِّهِ[3]، ويقالُ أيضًا: ضلَّ الشَّيءُ إذا ضاع وهلكَ، فيكونُ الضَّلال بمعنى الضَّياع والتَّلف والفَواتِ[4]. ومنه قولُه تعالى: ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾. يعني: ضاع افتراؤُهم، وبطلَ ما كانوا يَزعُمون[5].

3) ﴿يَفْتَرُونَ﴾: الفَرْيُ: الإصلاحُ. فَرَيْتُ الشَّيءَ أفْرِيه فَرْيًا: قَطَعتُه لأصلِحَه[6]. ومعناه المحوريُّ: قَطْعُ الشَّيء مع تهيئتِه لإصلاحٍ أو غيرِه كإفسادٍ ونحوِه[7]، وفرَّى الشَّيءَ: شَقَّه وأفسده، وأفراه: كذلك بمعناه. يقال: أفراه يُفْرِيه إفراءً: أفسده. وفَرَى فلانٌ الكذبَ يَفْرِيه فَرْيًا، وافتراه يَفتريه افتراءً: خلَقَه واختلقَه[8]. و"استُعملَ في القرآن في الكذبِ، والشّركِ والظُّلمِ"[9]، ومنه قولُه تعالى: ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾. أي: "وبطلَ كذبُهم وإفكُهم وفِريتُهم على اللّه وادِّعاؤُهم أنَّ الملائكةَ والأصنامَ تشفعُ لهم"[10].

المَعْنى الإجْماليُّ:

أولئك الَّذين غَبنوا وفوَّتوا أنفسَهم حظوظَها من رحمة اللّه تعالى

الصَّدُّ عن سبيلِ اللّه عاقبَتُه خُسرانُ النَّفسِ، وحِرمانُ الشَّفعاءِ

(1) ابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (ضلل).
(2) الرّاغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ، والزبيدي، تاج العروس: (ضلل).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (ضلل).
(4) الجوهري، الصحاح، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (ضلل).
(5) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 9/20، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 3/237، والنسفي، مدارك التنزيل وحقائق التأويل: 2/53.
(6) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، تهذيب اللغة، والرّاغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (فرى).
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة، وجبل، المعجم الاشقاقي المؤصل: (فرى).
(8) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (فرى).
(9) الرّاغب، المفردات: (فرى).
(10) الخازن، لباب التأويل في معاني التنزيل: 2/479.

بافترائِهم عليه؛ فَحُرِموا أعظمَ الثَّوابِ واستحقُّوا أشدَّ العذابِ، وبَطَل كذبُهم وافتراؤُهم على اللّه بادِّعائِهم أنَّ له شركاءَ، وغاب عنهم ما كانوا يَزعُمون من شفاعةِ الملائكةِ والأصنامِ[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

الغرَضُ من كمالِ الاتّصالِ في ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ﴾:

عـــدمُ انـتـفـاعِ الكافرين بالآياتِ أنـزَلَـهـم مـنـازلَ الخاسِرين

بيْنَ الجملةِ ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ﴾ وسابقتِها كمالُ اتّصالٍ؛ لأنَّها في حُكمِ التَّوكيدِ لمضمونِها والبيانِ لما فيها؛ ذلك أنَّ الآيةَ السَّابقةَ - وهي قولُه تعالى: ﴿يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلۡعَذَابُۚ مَا كَانُواْ يَسۡتَطِيعُونَ ٱلسَّمۡعَ وَمَا كَانُواْ يُبۡصِرُونَ﴾ - قد بيَّنتِ السَّببَ الدَّاعِيَ لأنْ يُضاعَفَ لهم العذابُ، "فعدمُ الإيمان مُسبَّبٌ عن حرمانِهم الانتفاعَ بأفضلِ نافعٍ. ويتسبَّبُ عن عدمِ الإيمان خُسرانٌ آخرُ، وهو خسرانُ الفوزِ في الدُّنيا بالسَّلامة منَ العذاب، وفي الآخرة بالنَّجاة منَ النَّار، وذلك يقال له خُسرانٌ ولا يقالُ له خُسرانُ الأنفس. وقد أشار إلى الخُسرانَيْن قولُه تعالى: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ۝٢١ لَا جَرَمَ أَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ هُمُ ٱلۡأَخۡسَرُونَ﴾"[2]. فلمَّا كانتِ الآيةُ مبيِّنةً لما قبْلَها مُؤكِّدةً لمضمونِها أُوثِرَ فيها الفصلُ على الوصلِ، فاستُؤنِف بها، وأُوثِرَ الفصلُ أيضًا؛ لأنَّ الوصلَ قد يُوهِمُ أنَّ الكلامَ انتقل إلى فريقٍ آخرَ غيرِهم، فقيل: أولئك لم يكونوا مُعجِزين، وأولئك الذين خَسِروا أنفسَهم، فكأنَّهم فريقانِ، فلمَّا كان العطفُ قد يُوهِمُ خلافَ المقصودِ مِن أنَّ المُشارَ إليهم فريقٌ واحدٌ، وُصِفوا تارةً بأنَّهم لم يكونوا مُعجِزين، وتارةً بأنَّهم خسِروا أنفسَهم - لمَّا كان ذلك كذلك - كان كمالُ الاتّصالِ أنسبَ.

(1) ابن جرير، جامع البيان: 12/372، والبغوي، معالم التنزيل: 4/169، والجزائري، أيسر التفاسير: 2/534.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 7/154.

دَلالةُ التّعبيرِ باسم الإشارة ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ﴾:

تصديرُ الآية باسْمِ الإشارةِ للتَّنبيه على أنَّهم حَرِيُّون بما سيَرِدُ بعد اسم الإشارة منَ الخبرِ بسببِ ما قبْلَ اسمِ الإشارة منَ الوصْفِ، ولِما يُؤْذِنُ به اسمُ الإشارة من معنى تعليلِ ما قبْلَه فيما بعدَه[1]. واسمُ الإشارةِ هنا تأكيدٌ ثانٍ لاسمِ الإشارةِ في قوله: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ [هود: 18][2] والتَّعبيرُ باسْمِ الإشارةِ في هذا السِّياقِ يفيدُ التَّحقيرَ؛ ذلك أنَّ مِن أغراضِ التَّعبيرِ باسمِ الإشارةِ: إفادةَ التَّحقيرِ، وذلك إذا وردَ في سياق الذَّمِّ، وممَّا يزيدُ هذا الذَّمَّ والتَّحقيرَ أنَّه عُبِّر فيه بصيغة البُعدِ؛ ليفيدَ بُعْدَهم عن كلِّ خيرٍ ورحمةٍ.

سببُ خُسرانِ الكافرين هو كفْرُهم وصَدُّهم عن سبيل الله

الغرَضُ منَ التَّعبيرِ باسم الموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾:

مجيءُ المُسنَدِ اسمَ موصولٍ يفيدُ اتِّصافَ المُسندِ إليه بمضمون صلتِه، وأنَّ هذا الخُسرانَ لازَمَهم حتى أصبح شأنًا من شؤونِهم لا يَنفكُّ عنهم.

من لم يُزكِّ نفسَه بالهُدى عاقبَه اللهُ بخُسران نفسِه

الغرَضُ منَ الاستعارةِ في ﴿خَسِرُوٓاْ﴾:

الخُسرانُ مُستعارٌ لإضاعةِ ما شأنُه أن يكون سببَ نفعٍ، وذلك أنَّهم لمَّا أعرضوا عنِ التَّدبُّرِ في صدقِ الرَّسول ﷺ أضاعوا عن أنفسِهم أنفعَ سببٍ للفوز في العاجل والآجلِ، فكان ذلك سببَ أنْ لا يؤمنوا باللّه والرَّسولِ ﷺ واليومِ الآخرِ[3]، فالتَّعبيرُ عمَّا لحِقَهم منَ الضُّرِّ بالخسارة استعارةٌ؛ لأنَّه ضرٌّ أصابَهم من حيث كانوا يَرجون المنفعةَ، فهُم مثلُ التُّجّار الذين أصابَتْهم الخسارةُ من حيث أرادوا الرِّبح[4]؛ إذ إنَّهم اشتروا عبادةَ الآلهة بعبادة اللّه، فكان خُسرانُهم

الكافرون خَسِروا بما بدَّلوا وضاعَ عنهم ما حصَّلوا فلم يَبقَ معهم سِوى الخَسرةِ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/32 - 33.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/38.
(3) ابن عاشور التحرير والتنوير: 7/154.
(4) ابن عاشور التحرير والتنوير: 12/39.

في تجارتهم أعظمَ خُسرانٍ[1]؛ لأنَّهم باعوا النَّفيسَ، واشتروا شيئًا هو سببُ عذابِهم المؤبَّدِ[2].

الغرَضُ من حذفِ المضافِ في: ﴿أَنفُسَهُمْ﴾:

في قوله تعالى: ﴿خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ أُضيفَ الخُسرانُ إلى أنفسهم دون تعيينٍ لِما خسروه[3]، وهو على حذف مضافٍ؛ أي: خسروا راحةَ أو سعادةَ أنفسِهم، وإلا فأنفسُهم باقيةٌ معذَّبةٌ[4]، وأُوثرَ حذفُ الرَّاحة أوِ السَّعادة مع إبقاء النَّفسِ؛ لأنَّه أنسبُ لمرام المقام؛ فإنَّ البقاء مع التَّعذيبِ كلَا بقاءٍ! إذِ المقصودُ منَ البقاء الانتفاعُ به، وأين الانتفاعُ ببقاءٍ في الجحيمِ[5]!

دَلالةُ التَّعبيرِ بالماضي في ﴿خَسِرُوٓاْ﴾:

في التَّعبير بالماضي إفادةُ التَّحقُّق، وأنَّ هذا الأمرَ قد وقعَ وانتهى حدوثُه في زمن المُضِيِّ، وهذا ممَّا يفيدُ التَّوكيدَ.

دَلالةُ العطْفِ في ﴿وَضَلَّ﴾:

قولُه تعالى: ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾ معطوفٌ على قوله: ﴿خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾، وقد ناسبَ أن يوصَلَ بينَهما لِما بينَهما مِن تمام المناسبةِ؛ حيث إنَّهما جملتان خبريَّتان، فعليَّتان، فعلُهما ماضٍ، وجيء بهما لتعديد عقوباتِ الكافرين الصَّادِّين عن دين اللّٰه تعالى.

دَلالةُ التَّعبيرِ بالماضي في ﴿وَضَلَّ﴾:

في قوله تعالى: ﴿وَضَلَّ عَنْهُم﴾ عُبِّر عن ضلالِ المعبوداتِ الباطلةِ عمَّن عبَدوها بالفعلِ الماضي المفيدِ لتمامِ الوقوعِ، وأنَّ هذا أمرٌ كائنٌ لهم لا محالةَ، فلا مهربَ منه ولا مَحيدَ عنه. وآثرَ صيغة الماضي دونَ غيرِها للدِّلالةِ على تأكُّد هذا الخطأِ عند هؤلاء، وتحقُّقِ ضياعِهم

الكافرون خسرتْ صفقتُهم، وبارت بضاعتُهم، ولَقُوا الهوانَ، وذاقُوا الحِرمانَ

خسارةُ الكافرين مُؤكَّدةٌ

الكافرون خاسِرون؛ لأنّهمُ اشتَرَوا الضّلالةَ بالهُدى

الضَّلالُ سبيلُ الافتراءِ ومُنتهاه

(1) القنوجي، فتح البيان: 6/163.
(2) الإيجي، جامع البيان: 2/169.
(3) الشهاب، حاشية على البيضاوي: 5/87.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/137.
(5) البروسوي، روح البيان: 4/113.

و﴿وَضَلَّ﴾ معناه: تلفَ، ولم يَجدوه حيث أمَّلوه[1]. والمعنى: أنَّهم لمَّا باعوا الدِّينَ بالدُّنيا خسِروا؛ لأنَّهم أعْطَوا الشَّريفَ، ورضوا بأخذِ الخسيسِ، وهذا عينُ الخُسران في الدُّنيا، ثمَّ في الآخرة فهذا الخسيسُ يضيعُ ويهلِكُ ولا يبقَى منه أثرٌ، وهو المرادُ بقوله: ﴿وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ﴾[2].

معنى حرفِ الجرِّ ﴿عَنۡهُم﴾ ودَلالتُه:

يومَ القيامة يَتبرَّأُ الذين اتُّبِعوا ممَّن اتَّبعَهم منَ الكافرين

(عن) في قوله تعالى: ﴿وَضَلَّ عَنۡهُم﴾ تفيدُ المجاوزةَ، ومعنى المجاوزةِ الابتعادُ[3].

وهذه مبالغةٌ في نفور المعبوداتِ الباطلةِ ممَّن عبَدها من دونِ اللّه، ومبالغةٌ في بيان ما سيكونُ يومَ القيامة مِن تبرُّؤ المَتبوعين مِن أتباعِهم، والتَّعبيرُ بـ (عن) دلَّ على بُعد المسافةِ بينهم وبين ما زعَموه إلهًا، وهذا تدليلٌ على فداحةِ الخسارةِ!

معنى ﴿مَّا﴾ ودَلالاتُها في ﴿مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ﴾:

عبادةُ الكفرةِ الأصنامَ ضَلالٌ وافتراءٌ

﴿مَّا﴾ تحتملُ: الموصولةَ، والموصوفةَ، والمصدريَّةَ، فعلى الأوَّلَين مبنيَّةٌ على السُّكون في محلِّ رفعٍ فاعلٌ، والجملةُ الفعليَّةُ بعدَها صلتُها، أو صفتُها، والعائدُ، أوِ الرّابطُ: محذوفٌ، وتقديرُ الكلام: ضلَّ عنهمُ الذي، أو شيءٌ كانوا يفترونه، وعلى اعتبار ﴿مَّا﴾ مصدريَّةً: تُؤوَّل مع الفعلِ بعدَها بمصدرٍ في محلِّ رفعٍ فاعلٌ. والتّقديرُ: وضلَّ عنهمُ افتراؤهم[4]، وفي التَّعبيرِ عنِ الأوثانِ بقوله تعالى: ﴿مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ﴾ إشارةٌ إلى أنَّها لا وجودَ لها في ذاتِها، وأنَّ وجودَها كآلهةٍ إنَّما هو في أوهامِهم وافترائِهم[5].

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 3/161.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/334.
(3) السامرائي، معاني النحو: 3/53.
(4) الدرة، تفسير القرآن: 4/413.
(5) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 7/3694.

سِرُّ إسنادِ الضَّلالِ إلى الأصنامِ:

كيفَ للكافرين أن يَهتدوا بمن لا يَسمعُ ولا يُبصرُ ولا يُغني شيئًا؟!

في إسناد الضّلالِ إلى الأصنام تهكُّمٌ على أصحابها؛ حيث شُبّهت أصنامُهم بمَن سلك طريقًا ليلحقَ بمَن استنجدَ به؛ فضلَّ في طريقه[1]، فكأنَّه قيل لهم: هذه أصنامُكم التي كنتم تَدعون، وبها تَطوفون، وعندها تجْأرون، وتحت أحجارها تَذبَحون.. ولم تكن تسمعُ ولا تبصرُ، ولم تغنِ عنكم شيئًا..

دَلالةُ التَّعبيرِ بفعلِ الكوْنِ:

افتراءُ الكافرين دائمٌ فضَلالُهم مُحقَّقٌ

التَّعبيرُ بفعل الكوْنِ في زمن الماضي: ﴿كَانُواْ﴾ جاء لإفادةِ ما يدلُّ عليه فعلُ الكون من تمكُّنِ الحدَثِ المُخبَر به، فقوله: ﴿مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ﴾ آكدُ من: ما يَفترون[2]؛ لأنَّه يُعبِّر بماضيَّته عنِ التَّحقُّقِ والوقوعِ، وأنَّ هذا الوقوعَ كان متكرِّرًا في الماضي، وهو بمادَّته يعبِّر عمَّا فُطِروا عليه منَ الافتراء؛ فقولُه تعالى: ﴿وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ﴾؛ أي: كوْنًا جُبِلوا عليه، فصاروا لا يَنفكُّون عنه[3].

دَلالةُ التَّعبيرِ بالمضارعِ ﴿يَفۡتَرُونَ﴾:

افتراؤهُم مُتكرّرٌ مُتجدِّدٌ

التَّعبيرُ بالمضارع ﴿يَفۡتَرُونَ﴾ يفيدُ تكرُّرَ وقوعِ الفعلِ من فاعلِه، والإتيانُ به بعدَ الماضي ﴿كَانُواْ﴾ يدلُّ على أنَّ هذا الفعلَ كان ممَّا تكرَّرَ منهم في الماضي، فكأنَّهم مَرَدُوا على الافتراءِ، وتمرَّسوا فيه، فتجدَّدَ منهم وتكرَّرَ، وكلَّما جاءتْهُم آيةٌ من آيات اللّه ردُّوها وكفَروا بها، فوجبَ أن يوقَعَ بهم أقسى وأفظعُ ألوان العذابِ.

الغرَضُ من حذْفِ مُتعلِّق الفعلِ ﴿يَفۡتَرُونَ﴾:

لا ينفعُ الكافرين كلُّ ما افتَرَوْه بعبادةِ غيرِ الله

حُذِف مُتعلَّقُ الفعل ﴿يَفۡتَرُونَ﴾، وتقديرُ المحذوفِ: ﴿مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ﴾ من دونِ اللّه منَ الآلهة والأندادِ والأصنامِ، وشفاعتِها، فلم تُجدِ عنهم شيئًا، بل ضرَّتْهم كلَّ الضَّرَر[4].

---

(1) ابن عاشور التحرير والتنوير: 12/38.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/37.

(3) البقاعي، نظم الدرر: 9/259.

(4) الزمخشري، الكشاف: 2/386، وابن كثير، تفسير القرآن: 4/314.

وسرُّ هذا الحذفِ هو القصدُ إلى التَّعميمِ في المفعول وامتناعِ أن يَقصرَه السَّامعُ على ما يُذكرُ معه دون غيره مع الاختصارِ[1]، وللاقتصارِ على إثبات المعاني، التي اشتُقَّت منها الأفعالُ لفاعليها، من غير تعرُّضٍ لذِكر المفعولين[2].

بَلاغةُ تنوعِ الجُملِ بين الاسميَّةِ والفعليَّةِ:

الكافرون ثابتون على حال خَسارتِهم بسببِ افتراءاتِهم المتكرّرة

الجملةُ الاسميَّةُ هي قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ﴾ والجملةُ الفعليَّةُ هي قوله: ﴿خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ﴾، وقوله: ﴿وَضَلَّ عَنۡهُم﴾، وقوله: ﴿كَانُواْ يَفۡتَرُونَ﴾ فالجملةُ الاسميَّةُ تفيدُ الدِّلالةَ على الثُّبوت والدَّيمومةِ؛ لذا أُوثرت في أوَّل الآية لتجعلَ ما بعد اسْم الإشارة مُلازمًا له ملازَمةَ الصِّفة للموصوف، ثابتًا مُستقرًّا لا يتغيَّرُ. فناسبتِ الجملةُ الاسميَّةُ - بثبوتها - التَّعبيرَ عن الوصف، أمَّا الجملةُ الفعليَّةُ فتدلُّ على التجدُّدِ والحدوثِ؛ لذا أُوثرت مع بيان الخُسران، وبيانِ الافتراء؛ لأنَّ هذا في وصْفِ أفعالِهم التي استوجَبوا بها أشدَّ العذاب، فناسبتِ الجملةُ الفعليَّةُ - بتجدُّدها - التَّعبيرَ عنِ الفعل كما ناسبتِ الجملةُ الاسميَّةُ - بثبوتها - التَّعبيرَ عنِ الوصْفِ، فجاءت كلُّ جملةٍ - بدلالاتها - مُناسِبةً لما عبَّرت عنه.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الافتراءُ والكذبُ:

الافتراءُ أخصُّ منَ الكذبِ

الافتراءُ: افتعالُ واختلاقُ ما لا يصحُّ أن يكونَ[3]، واستُعمِل في القرآن في الكذبِ والشِّركِ والظّلم، وأصلُه القطعُ، والمُلاحظُ في استعماله القطعُ للإفساد[4]. أمّا الكذبُ فأصلُه النَّقصُ؛ فهو نقصٌ وفقدٌ للمُتوقّع منَ الكلام ولِما وُجِد من أجلِه وهو التَّعبيرُ عن حقيقةِ

(1) أحمد مطلوب، أساليب بلاغية، ص: 167.
(2) أحمد بدوي، من بلاغة القرآن، ص: 98.
(3) الكفويّ، الكلّيّات، ص: 154.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، والفيروزابادي، بصائر ذوي التّمييز: (فرى).

ما في النّفس[1]. والافتراءُ هو افتعالُ الكذبِ من قول نفسِه، أمّا الكذبُ فقد يكونُ على وجه التّقليدِ للغيرِ فيه[2].

والافتراءُ: أخصُّ منَ الكذب؛ لأنَّه الكذبُ في حقِّ الغير بما لا يرتَضيه، بخلاف الكذبِ فإنَّه قد يكونُ في حقِّ المتكلِّم نفسِه، ولذا يقال لمن قال: (فعلت كذا ولم أفعل كذا) مع عدمِ صدقِه في ذلك: هو كاذبٌ، ولا يقال: هو مُفترٍ، وكذا من مدح أحدًا بما ليس فيه، يقالَ: إنَّه كاذبٌ في وصْفِه، ولا يقال: هو مُفترٍ؛ لأنَّ في ذلك ما يرتَضيه المقولُ فيه غالبًا. والكذبُ قد يجوزُ في بعض الأمور، كالكذبِ في الحرب، والكذبِ لإصلاح ذاتِ البَيْن، وذلك بخلاف الافتراء[3].

والكذبُ يُستعمَل في المقال والفعال[4]، أمَّا الافتراءُ فمُتعلِّقٌ بالقول؛ ومثالُ ذلك مَن قال: "قال زيد كذا" ولم يكن قالَه فهو افتراءٌ وكذبٌ، وإن قال: "قام زيد" ولم يقم فهو كذِبٌ[5].

(1) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (كذب).
(2) الهرري، حدائق الروح والريحان: 15/385، 23/193.
(3) العسكري، معجم الفروق اللغوية، ص: 449 - 450.
(4) الرّاغب، المفردات: (كذب).
(5) البسيلي، نكت وتنبيهات في تفسير القرآن المجيد: 1/158.

﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ۝٢٢﴾ [هود: 22]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لمَّا بالغ المجْرِمون في ادّعاءاتِهم وافتراءاتِهم على ربِّ العالمين ﷻ؛ أخبرَ أنّهم الأشدُّ خُسرانًا، وقد ضلَّ سعيُهم مع حُسبانِهم أنّهم يُحسنون صُنعًا؛ حيث إنّهم استبدلوا الدّركاتِ بالدّرجاتِ، والخبيثَ بالطيّب؛ فاجتمع لهم بذلك ما افترقَ بين الأممِ الضّالّةِ من أسباب الشّقاءِ والعذابِ[1].

المُفترون هم أشدُّ النّاس خسارةً؛ باعوا منازلَ الجِنانِ؛ فعَظُم الذّنبُ وزادَ الخُسرانُ

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿جَرَمَ﴾: الجَرْمُ: القَطْعُ، وجَرَم النّخلَ يَجرِمه جَرْمًا، واجترمه يَجترمه اجتراما: قطعَه[2]. وأصلُ هذا الجذرِ يدورُ حول معنى القطعِ[3]، والجريمةُ والجُرمُ: الذَّنبُ. يقال: جرَمَ وأجرمَ جُرمًا وإجرامًا: إذا أذنبَ. والجارمُ: الجاني، والمجترِمُ: المذنبُ[4]. وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ﴾ [المائدة: 2]. أي: لا يَحملنَّكم بغضُ قوم[5]. و(لا جرَمَ)، هي في الأصل بمعنى: لا بدَّ، ولا محالةَ، ويُفسَّر بمعنى حقًّا. ومِن ذلك قولُ الله ﷻ: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ﴾. أي: حقًّا إنّهم في الآخرة همُ الأخسرون[6].

---

(1) ابن جرير، جامع البيان: 15/288، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/334، والبقاعي، نظم الدرر: 9/259، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/38.

(2) الأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح، وابن فارس، المجمل، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (جرم).

(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (جرم).

(4) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح، وابن فارس، المجمل، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (جرم).

(5) الأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (جرم).

(6) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (جرم).

2) ﴿ٱلۡأَخۡسَرُونَ﴾: الخُسْر والخُسْرانُ: النَّقصُ، يقال: خَسِر يَخْسَر خُسْرًا وخُسْرَانًا؛ أي: نقصَ. ويقال: كِلتُه ووَزَنْته، فخَسَرْته وأخْسَرْته: نَقَصْته وأنْقَصْته[1]. وأصلُه يدورُ حول معنى نقْصِ الشَّيء بذهاب أجزاءٍ منه[2]. ويُستعملُ الخُسران في "المُقتنيات النَّفسيِّةِ كالصِّحَّة والسَّلامةِ، والعقلِ والإيمانِ، والثَّوابِ، وهو الذي جعلَه اللّه تعالى الخُسرانَ المبينَ"[3]. وخَسِر خُسْرًا وخُسْرَانًا وخَسَارة وخَسَارًا، فهو خاسرٌ وخَسِرٌ، كلُّه بمعنى: ضلَّ. ومنه قولُ اللّه ﷻ: ﴿خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ ١١﴾[4] [الحج: 11]. وأما قوله تعالى: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ هُمُ ٱلۡأَخۡسَرُونَ﴾. أي: "لا أحدَ أبينُ وأكثرُ خُسرانا منهم"[5].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

المُشركون بالله هـمُ الأخسَرون بلا شكٍّ في الدُّنيا والآخرةِ

لا محالةَ ولا شكَّ في أنَّ عاقبةَ هؤلاء الَّذين ذكرتُهم ممِّن اتَّصَفوا بهذه الصِّفاتِ من المشركين في الآخرة أنَّهم أشَدُّ النَّاسِ عذابًا وخُسرانًا؛ لحرمانِهم النَّعيمَ المخَلَّدَ، واستبدالِ العذابِ المؤبَّدِ به، وذلك هو الخُسران الواضحُ المبينُ[6].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دَلالةُ الاستئناف في ﴿لَا جَرَمَ﴾:

نتيجةُ الافتراءاتِ خَسارةُ الجنّاتِ

قولُه تعالى: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ هُمُ ٱلۡأَخۡسَرُونَ﴾ جملةٌ مُستأنَفةٌ واقعةٌ موقعَ النَّتيجةِ للجملِ المتقدِّمةِ من قوله تعالى:

(1) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب: (خسر).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (خسر).
(3) الرّاغب، المفردات: (خسر).
(4) الجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (خسر).
(5) البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل: 3/132، والآلوسي، روح المعاني: 6/233.
(6) ابن جرير، جامع البيان: 12/373، والمراغي، تفسير المراغي: 12/22.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُعۡرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمۡ﴾ [هود: 18]؛ لأنَّ ما جُمعَ لهم منَ الزَّجِّ للعقوبةِ، ومنِ افتضاحِ أمرِهم، ومن إعراضِهم عنِ استماعِ النُّذُرِ، وعنِ النَّظرِ في دلائلِ الوَحدانيَّةِ؛ يوجبُ اليقينَ بأنَّهم الأخسرون في الآخرة[1]. فقولُه تعالى: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ هُمُ ٱلۡأَخۡسَرُونَ﴾ زيادةٌ في تأكيد خُسرانِهم[2]؛ ولذلك حسُنَ الفصلُ بين الجُملتَين لِما بينَهما من شِبْه كمالِ الاتِّصال.

معنى ﴿لَا﴾ في ﴿لَا جَرَمَ﴾ ودَلالتُها:

الكافِرون لا مَحالةَ خاسِرون

﴿لَا﴾ في قوله تعالى: ﴿لَا جَرَمَ﴾ نافيةٌ للجنسِ، و﴿جَرَمَ﴾ اسمُها مبنيٌّ معها على الفتح، وهي واسمُها في محلِّ رفعٍ بالابتداء، وما بعدَهما خبرُ ﴿لَا﴾ النَّافيةِ، ومعناها: (لا محالة ولا بدَّ)[3]. وهذا التَّأويلُ؛ أي: تأويلُ ﴿لَا﴾ بأنَّها النَّافيةُ للجنس ممّا يفيدُ التَّوكيدَ؛ لأنَّها تَنفي خبرَها عن جميع جنْسِ اسمِها، وهذه الدِّلالةُ تأتي مَتَّسقةً مع باقي المُؤكِّداتِ في الآية.

معنى ﴿جَرَمَ﴾ ودَلالتُه:

خُسران الكافرين واقعٌ مُحقَّقٌ

﴿جَرَمَ﴾ معناه: (حقًّا) هو مأخوذٌ من ذلك؛ فإنَّ ما لا بُدَّ ولا مَفَرَّ منه هو واقعٌ حقًّا[4]. فاتَّضحَ من هذا أنَّ تفسيرَها بـ (حقًّا) هو تفسيرُ معنًى لمجموعِ الكلمتَيْن؛ لأنَّه إذا نُفِيَ في مثل هذا السِّياقِ الظَّنُّ ثبتَ اليقينُ والقطعُ[5]، وعليه فإنَّ ﴿لَا جَرَمَ﴾ كلمةُ جزمٍ وتأكيدٍ ويقينٍ، جرتْ مجرَى المَثَلِ[6].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/38.
(2) طنطاوي، التفسير الوسيط: 7/186.
(3) السمين الحلبي، الدر المصون: 6/303، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/39، والسامرائي، معاني النحو: 1/384 - 385.
(4) جبل، الاشتقاقي المؤصل: (جرم).
(5) البقاعي، نظم الدرر: 9/262.
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/38، والفراء، معاني القرآن: 2/8.

بَلاغةُ الجملةِ الاسميَّةِ في هذا السِّياق:

الكافرون في الآخرة ثابتون على حال الخسارةِ؛ فهم في النّارِ خالِدون

قولُه تعالى: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ﴾ جملةٌ اسميَّةٌ، وللجملةِ الاسميَّةِ خصائصُها التي تُميِّزها عنِ الفعليَّةِ، منها: أنَّها أدلُّ على حصول المطلوبِ منَ الجملةِ الفعليَّةِ[1]، وأنَّها تدلُّ على الثُّبوت والدَّوامِ بقرينة المقامِ[2]، ولمَّا كان المقامُ مقامَ تأكيدٍ لخسارة هؤلاء الكافرين البُعداءِ عن كلِّ خيرٍ ورحمةٍ وفضلٍ ناسبَه أنْ يُعبَّر فيه بالجملةِ الاسميَّةِ الدَّالَّةِ على الثُّبوتِ؛ لتدلَّ على أنَّ خَسارَتهم أمرٌ ثابتٌ مُتحقِّقٌ لا شكَّ فيه، كما أنَّه دائمٌ لن يتغيَّرَ.

موقعُ المصدر المؤول ﴿أَنَّهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ﴾ ودَلالتُه:

خَسارةُ الكافرين كبيرةٌ وهي واقعةٌ لا مَحالةَ

قولُه تعالى: ﴿أَنَّهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ﴾ مصدرٌ مؤوَّلٌ مكوَّنٌ مِن أنَّ واسمِها وخبرِها، في محلِّ جرٍّ بحرف جرٍّ محذوفٍ تقديرُه (في) أو (مِن)؛ أي: لا محالةَ في أنَّهم، أو لا بُدَّ مِن أنَّهم. وهو متعلِّقٌ بخبرِ (لا)[3]. وهذا أمرٌ يكثرُ: أنْ يجيء بعد (لا جرم) أنَّ واسمُها وخبرُها فتكونَ (أنَّ) معمولةً لحرف جرٍّ محذوفٍ، والتّقديرُ: لا جرم مِن أنَّ الأمرَ كذا. ولِما فيها من معنى التَّحقيقِ والتَّوثيقِ؛ تعامَلُ معاملةَ القسَم، فيجيءُ بعدَها في ما يصلحُ لجواب قسَمٍ، نحوَ: لا جرمَ لأفعلنَّ[4].

سِرُّ التَّوكيدِ بـ ﴿أَنَّهُمْ﴾:

خَسارةُ الكفرةِ لا مَحالةَ مُحقّقةٌ

في قولِه تعالى: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ﴾ توكيدٌ بـ (أنَّ). وفائدةُ التَّوكيدِ بها إفادةُ التَّحقيقِ مع تجنُّبِ التَّكرارِ؛ إذ إنَّها تنوبُ منابَ تكريرِ الجملةِ مرَّتين. وتكونُ مع ما بعدَها في تأويلِ مصدرٍ، فتقلبُ معنى الجملة إلى الإفراد، وتصيرُ في مذهبِ المصدرِ المؤكِّدِ[5].

(1) الزركشي، البرهان: 4/178.
(2) الصعيدي، بغية الإيضاح: 1/187.
(3) محمود صافي، الجدول: 6/244.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/39.
(5) ابن يعيش، شرح المفصَّل: 4/526.

سِرُّ التَّوكيدِ بضميرِ الفصْلِ ﴿هُمُ﴾:

الضَّميرُ المنفصلُ في قولِه تعالى: ﴿هُمُ ٱلۡأَخۡسَرُونَ﴾ ضميرُ فصْلٍ يفيدُ القصْرَ[1]، وجيءَ به لإفادة تأكيدِ الاختصاصِ. وإنْ جُعِل مبتدأً وما بعدَه خبرُه، والجملةُ خبرُ (أنَّ) أفادَ تأكيدِ الحُكم[2]، وسِرُّ التَّوكيدِ به أنَّه لمَّا كان المقامُ جديرًا بالمبالغةِ في وصْفِهم بالخسارةِ، أُعيدَ الضَّميرُ، فقال تعالى: ﴿هُمُ﴾؛ أي: خاصَّةً ﴿ٱلۡأَخۡسَرُونَ﴾[3].

أكثرُ النّاسِ خسارةً هم هؤلاء الكافِرون

بَلاغةُ القصْرِ في ﴿هُمُ ٱلۡأَخۡسَرُونَ﴾:

يجوزُ أن يكونَ قولُه تعالى: ﴿هُمُ ٱلۡأَخۡسَرُونَ﴾ مبتدأً وخبرَه، وأن تكونَ الجملةُ الاسميَّةُ ﴿هُمُ ٱلۡأَخۡسَرُونَ﴾ في محلِّ رفعٍ خبرَ (أنَّ)[4]. وإذا كان ذلك كذلك فإنَّ طرفَي الإسناد جاءا مَعرفتَيْن، الأوَّل كونُه ضميرًا، والثَّاني لوجودِ (أل). وتعريفُ الجُزأين يفيدُ الحصرَ حقيقةً أو مبالغةً[5]. وهو هنا قصرٌ ادِّعائيٌّ؛ لأنَّهم بلَغوا الحدَّ الأقصَى في الخسارة، فكأنَّهم انفرَدوا بالأخسريَّةِ[6]، فهذا القصْرُ أفادَ حصْرَ الخسارِ فيهم، بل جعلَ لهم منه أشَدَّه لشدَّةِ حسْرتِهم وحِرمانِهم وما يُعانون منَ المشقَّةِ والعذابِ، نَستجيرُ باللهِ من حالِهم[7]! وهذا كلُّه ممَّا أفادَ التَّوكيدَ مع ما سبقَه مِنَ التَّعبير بأسلوبِ ﴿لَا جَرَمَ﴾، والتَّوكيدِ بـ (أنَّ) وجُملتِها الاسميَّةِ؛ "لأنَّ القصْرَ ليس إلا تأكيدًا على تأكيدٍ"[8].

الكافِرون في الآخرةِ أشدُّ خُسرانًا، وأوفرُ - منَ الخيراتِ - نُقصانًا

الغرَضُ من تقديم المَجرورِ ﴿فِي ٱلۡأٓخِرَةِ﴾:

قُدِّم الجارُّ والمجرورُ ﴿فِي ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ لإفادة نُكتةِ التَّخصيص، فإنَّ

حياةُ الكافرين خُسرانٌ دائمٌ؛ فالآخرةُ هي الحيوانُ، والحياةُ الدّنيا قصيرةٌ زائلةٌ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/39.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 6/233.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 9/259.
(4) السمين الحلبي، الدر المصون: 6/305، وبهجت صالح، الإعراب المفصل: 5/155.
(5) السيوطي، الإتقان: 3/173.
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/39.
(7) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 380.
(8) الصعيدي، بغية الإيضاح: 2/232.

الكافرين الصّادّين عن سبيلِ اللّه تعالى - وإن كانوا في الدُّنيا منَ الفائِزين بمالٍ أو جاهٍ - فإنَّهم لا محالةَ خاسِرون في الآخرة، فالتَّقديمُ هنا لتخصيصِ الخسارةِ بالآخرة؛ إذ هي ميزانُ الأعمالِ الحقُّ لأنَّها الباقيةُ، أمَّا الدُّنيا فهي ذاهبةٌ فانيةٌ، ويُضافُ إلى نُكتة التَّخصيصِ نُكتةٌ أخرى هي أنَّهم لمَّا بالَغوا في إنكار الآخرةِ كانت خسارتُهم مخصوصةً بما أنكروه[1]؛ ليكونَ ذلك أنْكى في تبْكيتِهم وتعذيبِهم.

دَلالةُ التَّعبيرِ بصيغةِ التَّفضيلِ ﴿ٱلۡأَخۡسَرُونَ﴾:

المَغبونون وصَلوا في الخُسران إلى حدٍّ يتقاصَرُ عنه غيرُهم

عُبِّر عنِ الكافرين الصّادّين عن سبيل اللّه بأنَّهم ﴿هُمُ ٱلۡأَخۡسَرُونَ﴾، وإنَّما كانوا أخسَرين؛ لأنَّهم اجتمعتْ لهم خسارةُ الدُّنيا والآخرة[2]، ولأنَّهم خسِروا أنفسَهم، ولمَّا كان خُسرانُ النّفسِ أعظمَ الخُسران، حكمَ عليهم بأنَّهم همُ الزَّائدون في الخُسران على كلِّ خاسرٍ سِواهم مِن العُصاةِ مآلُه إلى الرَّاحةِ وإلى انقطاعِ خُسرانِه، بخلاف هؤلاء؛ فإنَّ خُسرانَهم لا انقطاعَ له[3]، فأفعلُ التَّفضيل للزِّيادةِ إمَّا في الكَمِّ وإمّا في الكيفِ[4]، وأفعلُ التَّفضيلِ هنا يدلُّ على أقصَى درجاتِ الخسارة؛ أي: لا خسارةَ فوقَها أو مثلُها، بل هي فوق كلِّ خسارةٍ، ذلك أنَّها خسارةٌ مُؤدَّاها البقاءُ في الجحيم خالدين فيها إلى ما شاء اللّه تعالى[5].

الغرَضُ منَ الاستعارةِ في ﴿ٱلۡأَخۡسَرُونَ﴾:

خَسارةُ المعنى أشَدُّ من خَسارةِ المادّةِ

في قولِه تعالى: ﴿هُمُ ٱلۡأَخۡسَرُونَ﴾ عبِّر عمَّا لحقَهم منَ الضُّرِّ بالخسارةِ على جهة الاستعارةِ؛ لأنَّه ضُرٌّ أصابَهم من حيث كانوا يَرجون المنفعةَ، فهُم مثلُ التُّجَّار الذين أصابَتْهمُ الخسارةُ من

(1) البقاعي، نظم الدرر: 9/259.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/39.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/138.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 6/233.
(5) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 7/3694.

حيث أرادوا الرِّبحَ[1]؛ ذلك أنَّهم اشتَرَوا عبادةَ الآلهة بعبادةِ الله، فكان خُسرانُهم في تجارتِهم ما لا خُسرانَ أعظمُ منه لأنَّهم خَسروا أنفسَهم[2]، وباعوا منازلَهم منَ الجِنان بمنازل أهلِ الجنَّة منَ النَّار؛ وذلك هو الخُسران المُبينُ[3].

دَلالةُ اللّام في ﴿ٱلۡأَخۡسَرُونَ﴾ ومعناها:

خَسارةُ الكافِرين أكملُ الخَساراتِ

اللّامُ في قوله تعالى: ﴿هُمُ ٱلۡأَخۡسَرُونَ﴾ هي لامُ الجنسِ التي تفيدُ الاستغراقَ، والمقصودُ بها هنا استغراقُ صفاتِ الخَسارةِ؛ "أي: همُ الكاملون في الخُسران، كأنَّ خُسران غيرِهم في جنب خُسرانِهم ليس بخُسرانٍ"[4]، فتعريفُ المُسندِ بلام الجنس يفيدُ الحصْرَ[5]؛ أي: حصْرَ صفةِ الخُسران فيهم.

نُكتةُ حذْفِ المفضَّلِ عليه في ﴿ٱلۡأَخۡسَرُونَ﴾:

لا أحدَ أكثرُ خُسرانًا منهم؛ باعوا النَّعيمَ المخلَّدَ واشتَرَوا به العذابَ المؤبَّدَ

بُنِيَ قولُه تعالى: ﴿هُمُ ٱلۡأَخۡسَرُونَ﴾ بناءَ أسلوبِ التَّفضيلِ، وذُكرَ فيه المُفضَّلُ عليه، وحُذفَ المفضَّلُ عليه؛ وذلك لإفادةِ نُكتةٍ بلاغيَّةٍ وهي: "أنَّ حذْفَ المفضَّلِ يفيدُ العمومَ، فيكونُ المعنى: أنَّهم أخسَرُ من كلِّ أحدٍ، وهو بمنطوقِه يفيدُ الأخسريَّةَ فيهم"[6].

نُكتةُ تَوالي المُؤكِّداتِ وتنوُّعِها في الآية:

إنكارُ الكافرين يُناسبُه توكيدُ العذابِ الواقعِ بهم بأكثرَ من مُؤكِّدٍ

في قول الحقِّ ﷻ: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ هُمُ ٱلۡأَخۡسَرُونَ﴾ توالتِ المُؤكِّداتُ وتنوَّعت.. فأمَّا بالنَّظرِ إلى الجُملِ فنجدُ أنَّ الآيةَ قد تضمَّنت ثلاثَ جُملٍ، وكلُّها اسميَّةٌ، الأُولى هي قولُه تعالى: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ هُمُ ٱلۡأَخۡسَرُونَ﴾، والثَّانيةُ هي قولُه تعالى: ﴿أَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ هُمُ ٱلۡأَخۡسَرُونَ﴾. والثَّالثةُ هي قولُه تعالى: ﴿هُمُ ٱلۡأَخۡسَرُونَ﴾.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/39.
(2) الزمخشري، الكشاف: 2/386.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 12/373.
(4) الطيبي، حاشية على الكشاف: 8/47.
(5) الآلوسي، روح المعاني: 6/233.
(6) الشهاب، حاشية على البيضاوي: 5/87.

ولمَّا كانتِ الجُملةُ الاسميَّةُ تفيدُ الثُّبوتَ والدَّوامَ كان التَّعبيرُ بها يدلُّ على الاستقرارِ، وهذا ممَّا يفيدُ التَّوكيدَ؛ أي أنَّ الأمرَ ثابتٌ على هذه الصِّفة لا يتغيَّرُ. وأمَّا بالنَّظرِ إلى الأحرُفِ فنجدُ أنَّ المُؤكِّداتِ قد تمثَّلت في (لا) النَّافيةِ للجنس، التي تؤكِّدُ نفيَ خبرِها عن جميع جنْسِ اسمِها، و(أنَّ) المُشبَّهةِ بالفعل والمُفيدةِ التَّوكيدَ، والضَّميرِ المنفصلِ (هم)، ولامِ الجنْسِ في ﴿ٱلۡأَخۡسَرُونَ﴾. وأمَّا بالنَّظرِ إلى الأساليبِ والصِّيغِ فنجدُ أنَّ المؤكِّداتِ قد تمثَّلت في أسلوبِ (لا جرم) الذي يفيدُ تأكيدَ الحصولِ بقطع النَّفي، مع تضمُّنِه معنى القسَمِ، وتقديمِ الجارِّ والمجرور ﴿فِي ٱلۡأٓخِرَةِ﴾، والقصْرِ بتعريف طرفَيِ الإسنادِ في ﴿هُمُ ٱلۡأَخۡسَرُونَ﴾. وهذا الحشدُ الكبيرُ منَ المؤكِّداتِ في آيةٍ قليلةِ المبنى يدلُّ دلالةً قاطعةً على عظَمِ الجُرمِ الذي اقترفَه أولئك الكفرةُ الفجرةُ، وما ترتَّبَ عليه من عِظَمِ العذابِ يومَ القيامة. وقد حسُنَ تَوالي هذه المُؤكِّداتِ؛ لأنَّ الخطابَ مُوجَّهٌ إليهم وهم مُنكرون لِما فيه، مُعرِضون عنه، مُستهزِئونَ به، فأُكِّدَ بأكثرَ من مُؤكِّدٍ؛ لأنَّه مُوجَّهٌ إلى مخاطَبٍ مُنكِرٍ، وهذا من باب إقامة الحُجَّةِ، وقطعِ العُذرِ.

مُتشابهُ النَّظمِ:

جاء قولُه تعالى: ﴿هُمُ ٱلۡأَخۡسَرُونَ﴾ في سورة هود هنا، وجاء في مقابلِه في سورة النحل: ﴿هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ١٠٩﴾ [النحل: 109]، فما علَّةُ ذلك مع اتِّفاق أوَّلِ الآيتين؟

إنَّ الآيةَ التي في سورة (هود) قد تقدَّمَها قولُه تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنۡ أَوۡلِيَآءَۘ يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلۡعَذَابُۚ مَا كَانُواْ يَسۡتَطِيعُونَ ٱلسَّمۡعَ وَمَا كَانُواْ يُبۡصِرُونَ﴾، فأخبرَ عنِ السَّبب الذي من أجلِه استحقُّوا أنْ ﴿يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلۡعَذَابُۚ﴾، وهو أنَّهم ﴿يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجٗا وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ١٩﴾ [هود: 19]، فقد صدّوا

الـجـزاءُ مِن جنْسِ العملِ، ومَن ضلَّ وأضلَّ كان جُرمُه أعظمَ وعقابُه أشقَّ

عنِ الدّين صُدودًا، وصَدّوا غيرَهم عنه صدًّا؛ فاستحقُّوا تضعيفَ العذابِ؛ لأنَّهم ضلُّوا وأضلُّوا، فمِن ثَمَّ كانوا (أخسرين).

وأمَّا الآيةُ التي في سورة (النَّحل) فإنَّه لم يُخبرْ فيها عنِ الكفَّار بأنَّهم مع ضلالِهم أضلُّوا غيرَهم، وإنَّما قال فيهم: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّواْ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [النحل: 107]، فلم يذكرْ ما يوجبُ مضاعفةَ العذاب، ولا أنَّهم تسبَّبوا في ضلالِ غيرِهم، فكانوا أقلَّ منَ المذكورين في سورة هود؛ فلذا كانوا (خاسرين)[1].

ويُضافُ إلى ذلك أنَّ آيةَ "هود" تقدَّمَها ما يُفهِمُ المفاضَلَةَ، فإنَّ قولَه تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ﴾ [هود: 17]، يُفهمُ من سياقه أنَّ المرادَ: أفمَن كان على بيِّنة من ربِّه كمَن كفرَ وجحدَ وكذَّبَ الرُّسلَ؟ ثمّ أتبعَ هذا بقوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ [هود: 18]، فهذا صريحُ مفاضلةٍ، ثمَّ استمرّتِ الآيُ في وصفِ مَن ذُكر، وعرْضِهم على ربِّهم، وقولِ الأشهاد: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَٰدُ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٨﴾ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [هود: 18-19] إلى ذكْرِ مضاعفةِ العذاب لهم، واستمرَّ ذكرُهم إلى قوله: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ﴾ [هود: 22]، فناسبَ لفظُ الأخسرين بصيغة التَّفاضُلِ، ومقصودُ التَّفاوتِ ما تقدَّم ممّا يُفهم ذلك[2].

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الجَرْمُ، والشَّكُّ:

أصلُ الجرم القطعُ. يقال: جرمَ التّمرَ: صرمَه، أي: قطعَ عذوقَه المتدلّيةَ منَ النّخل جَنْيًا له، والجُرامةُ: ما سقطَ منَ التّمر إذا جُرِم، ويقال: جَرَمتُ صوفَ الشّاة وأخذتُه. وجرَّمنا هذه السّنةَ، أي: خرجنا منها، وجرَّمنا القومَ: خرجنا عنهم[3]، وتلك الاستعمالاتُ تُعطي معنى الانفصالِ، ومنه (لا جرم) أي: لا فكاكَ ولا انفصالَ[4]. وعلى هذا معنى ﴿لَا جَرَمَ﴾، أي: لا قطْعَ قاطعٍ عن أنّهم في الآخرة همُ الأخسرون، إلَّا أنه كثرَ حتى صار

(1) الإسكافي، درة التنزيل: 2/753، 755، والكرماني، أسرار التكرار، ص: 143.
(2) الغرناطي، ملاك التأويل: 2/254.
(3) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (جرم).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (جرم).

كالمَثلِ، فإذا قالوا: لا جرمَ، فكأنهم قالوا: حقًّا، والأصلُ ما ذُكِر، ووُضِع موضعَ القسَم في قولهم: لا جرمَ لأفعلَنَّ كذا، كما قالوا: حقًّا لأفعلنَّ، إذ جعلوه بدلاً منَ اليمين[1]، وقد عُلمَ من هذا أنَّ جميعَ تصاريفِ المادَّةِ تدورُ على الاضطرابِ وهو بيِّنٌ في غير العقلِ، وأمَّا فيه فإنَّه بقدرِ العقلِ يكون اضطرابُ الرَّأي؛ لأنَّ العاقل كلَّما أنعم النَّظرَ انفتح له ما كان مُغلقًا فيعدِلُ إليه، فإذا ظهر هذا ظهرَ أنَّ معنى ﴿لَا جَرَمَ﴾ لا ظنَّ ولا اضطرابَ في أنَّهم، ويكونُ نفيُ الظَّنِّ في مثل هذا السِّياقِ نفيًا لجميع ما يقابلُه إلَّا العِلمَ الذي هو بمعنى القطعِ، كما إذا قيل: لا شكَّ في كذا ولا ريبَ.

أمّا الشّكُّ فأصلُه يدلّ على التّداخُلِ، ومن ذلك قولُهم: شككتُه بالرّمح، وذلك إذا طعنتَه فداخل السِّنانُ جسمَه. قال عنترةُ:

فشَكَكْتُ بالرُّمحِ الأصَمِّ ثيابهُ *** ليس الكريمُ على القَنا بمُحرَّمِ

ومن هذا الباب الشّكُّ، الذي هو خلافُ اليقين، وإنّما سُمِّي بذلك؛ لأنَّ الشّاكَّ كأنّه شُكَّ له الأمران في مَشَكٍّ واحدٍ، وهو لا يَتيقَّنُ واحدًا منهما، فمن ذلك اشتقاقُ الشَّكّ. تقول: شككتُ بين ورقتَيْن، إذا أنت غرزتَ العودَ فيهما فجمعتَهُما[2].

(1) الواحدي، التفسير البسيط: 11/385.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (شكَّ).

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخۡبَتُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٢٣﴾ [هود: 23]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

يُعْلي العليُّ سُبحانه قدْرَ أهلِ الإيمان كما يضعُ قدْرَ أهلِ الجُحودِ والنّكرانِ

لَمَّا ذكرَ اللّه تعالى أحوالَ أهل الجُحودِ والتّكذيبِ والنّكرانِ، البالغين الغايةَ في الخُسران؛ ذكرَ سُبحانه حالَ مَن بلَغوا أعلى درجاتِ الإيمانِ والتّسليمِ والإذعانِ، فَكوفِئوا بتحصيل الرّضا والخلودِ في الجِنان؛ حيث إنَّ معرفةَ الضّدِّ ممَّا تَشْرئِبُّ إليه دائمًا نَفْسُ الإنسان[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَأَخۡبَتُوٓاْ﴾: الخَبْتُ: الأرضُ المُطمئنَّةُ المُتَّسِعةُ[2]. ومعناه المحوريُّ: انخفاضٌ مع اتِّساعٍ واستقرارٍ[3]. والإخباتُ: الخشوعُ، والمُخبِتُ: الخاشعُ المتضرِّعُ إلى اللّه. يقال: خَبَت يَخْبِتُ، وأخْبَتَ يُخْبِتُ إخباتًا إلى اللّه، وكذلك: خبتَ قلبُه للّه، أي: خشعَ وتضرَّعَ[4].

المَعْنى الإجْمالِيُّ:

المُؤمنون الصّادِقون بصَلاحِهم سابِقون، وفي جنّةِ ربِّهم خالِدون

إنَّ الَّذين صدَقوا واعتَرفوا للّه ورسوله بخالص إيمانِهم؛ فآمنت قلوبُهم وعملت جوارحُهم الأعمالَ الصَّالحةَ قولًا وفعلًا منَ الإتيان بالطَّاعاتِ وتركِ المُنكرات، وأنابوا لربِّهم بمحبَّتِه وخوفِه ورجائِه، وخضَعوا له واسْتكانوا وذَلّوا لعظمتِه وسُلطانِه، أولئك المَوْصوفون

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/335، والخازن، لباب التأويل: 2/480، وأبو حيّان، البحر المحيط: 6/138، وابن عادل، اللّباب: 10/462، والبقاعي، نظم الدّرر: 9/263، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/39.

(2) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب: (خبت).

(3) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (خبت).

(4) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب: (خبت).

بتلك الصِّفاتِ الجميلةِ هم سكَّانُ الجنَّةِ الَّذين لا يَخرجون منها ولا يموتون، بل هم فيها لابِثون إلى غيرِ نهايةٍ دائِمون[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دَلالةُ الاستئنافِ في ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾:

ذكْرُ حالِ الأشقياءِ يَستدْعي وصْفَ حالِ السُّعداءِ

لَمَّا توعَّدَ الكافرين وأخبرَ عن مآلِهم، كان موضعَ أن يُسألَ عن حالِ المؤمنين؛ فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾[2]؛ فالجملةُ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ مستأنفةٌ استئنافًا بيانيًّا؛ لأنَّ النّفوسَ تشرئبُّ عند سماعِ حُكمِ الشّيءِ إلى معرفة حُكمِ ضدِّه[3]؛ فلمَّا ذكرَ تعالى حالَ الأشقياءِ ثنَّى بذكْرِ السُّعداء، وهمُ الذين آمنوا وعملوا الصّالحاتِ[4].

دَلالةُ التَّعبيرِ بـ ﴿إِنَّ﴾:

تأكيدُ إثابةِ المؤمنين إغراءً لهم على الاستِمرارِ في العملِ الصّالحِ

التَّعبيرُ بـ (إنَّ) يدلُّ على توكيد معنى الآيةِ، وهو أنَّ الذين جمَعوا تلك الصّفاتِ الجليلةِ (الإيمانَ، والعملَ الصّالحَ، والإخباتَ إلى اللّه)؛ هم أصحابُ الجنَّة المُخلَّدون فيها[5].

سِرُّ التَّعبيرِ بالاسمِ الموصولِ ﴿ٱلَّذِينَ﴾:

الإيمانُ والعملُ الصّالحُ والإخباتُ لله أسبابٌ للفلاحِ والفوزِ بالجنّاتِ

عدلَ عنِ التّعبيرِ بـ (المؤمنين) إلى التَّعبيرِ بالاسْمِ الموصولِ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ﴾ في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخۡبَتُوٓاْ﴾؛ للدّلالةِ على أنَّ سببَ الجزاءِ الذي يُعْطيهم ربُّهم، والثّناءِ الذي أضفاه عليهم[6]؛ اتِّصافُهم بتلك الصّفاتِ الصّالحةِ.

دَلالةُ عطْفِ العملِ الصّالحِ على الإيمانِ:

العملُ الصّالحُ منَ الإيمانِ

عطفَ العملَ الصّالحَ على الإيمانِ للدّلالةِ على بيانِ أهمّيةِ العملِ؛ فالعملُ الصّالحُ من كمالِ الإيمانِ.

---

(1) البغوي، معالم التنزيل: 4/170، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/273.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 9/263.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/39.
(4) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/273.
(5) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 380.
(6) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 7/3695.

سِرُّ ترتيبِ الإيمانِ والعملِ والإخباتِ:

ذكرَ اللّه للمؤمنين أعمالًا ثلاثةً:

العملُ الصّالحُ ثمرةُ الإيمانِ، والإخباتُ لله نتيجةُ دَوامِهما

أوّلُها: الإيمانُ الذي يقذفُه اللّه في قلب المؤمنِ؛ فيخضعُ للحقِّ، ويُذعنُ له. وإنَّ القلبَ إذا أشرقَ بالإيمان واسْتضاءَ به كانتِ الحكمةُ والاستقامةُ في القولِ والعملِ، فلا يكونُ منه إلا الخيرُ والإذعانُ للحقِّ.

وثانيها: العملُ الصّالحُ وهو ثمرةُ الإيمان. وإنَّ الايمانَ إنْ لم يُصاحبْه العملُ كان ذلك نقصًا في الإذعان، فإنَّ الإخلاصَ يتولَّدُ عنه الحكمةُ التي يتولَّد عنها القولُ الطيّبُ والعملُ الطيّبُ.

وثالثُها: هو الإخباتُ إلى اللّه، والإخباتُ هو الاطمِئْنانُ. والاطمِئنانُ يتضمَّنُ تصديقَ ما وعدَ اللّه به، والخضوعَ لما أمرَ ونهى[1]. فهذا التّرتيبُ الحكيمُ جاء على وَفْقِ العلاقاتِ بين هذه المعاني؛ فالإيمان يكونُ قَبْلًا، وثمرتُه العملُ الصّالحُ.

الغرَضُ منَ الاستعارةِ في قوله: ﴿وَأَخۡبَتُوٓاْ﴾:

المُؤمنون لرَبِّهم خاشِعون

أصلُ اللّفظ منَ (الخبت)، وهو البراحُ القَفْرُ المُستوي أوِ المُنخفضُ منَ الأرض؛ فكأنَّ المُخبِتَ في القَفْرِ قدِ انكشف واستسلمَ وبقي دون مَنعةٍ[2]، فأُطلقَ الإخباتُ الذي هو نزولُ الخبتِ على اطمئنان النّفسِ والخشوعِ تشبيهًا للمعقول بالمحسوس[3]، وهذه الاستعارةُ المكنيَّةُ بيَّنتْ شدَّةَ خضوعِ النّفوس المؤمنةِ لربّها ﷻ واطمئنانِها إليه وخشوعِها له.

معنى ﴿إِلَىٰ﴾ ودلالتُه في ﴿إِلَىٰ رَبِّهِمۡ﴾:

خشوعُ المؤمنين وإخلاصُهم مُوجَّهٌ إلى الله ﷻ

معنى الحرفِ (إلى) في قوله: ﴿وَأَخۡبَتُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ﴾ أي: لربِّهم[4]، ولمَّا كان المؤمنون يَعمدون بإخباتِهم إلى اللّه[5]؛ أُوثرتْ ﴿إِلَىٰ﴾ على

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 7/3695.
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 3/161.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 6/234.
(4) البغوي، معالم التنزيل: 4/170.
(5) ابن جرير، جامع البيان: 15/291.

اللّام، رغمَ أنَّ العادةَ جاريةٌ بأنْ يُقال: أخبَتُوا لربِّهم؛ فالمعنى: وجَّهوا خوفَهم وخشوعَهم وإخلاصَهم إلى ربِّهم، واطْمأنّوا إلى ربّهم؛ فقد يجوزُ في العربيّةِ: فلانٌ يُخبتُ إلى اللّه، يريدُ: يفعلُ ذلك مُوجِّهَه إلى اللّه[1].

علَّةُ التَّعبيرِ بالرُّبوبيّةِ ﴿رَبِّهِمْ﴾:

ربُّ العبادِ لَطيفٌ بالمؤمنين به المُخبِتين إليه

أُوثرَ التَّعبيرُ بالرُّبوبيَّةِ دونَ الألوهيَّةِ في قوله تعالى: ﴿وَأَخْبَتُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾؛ لأنَّ المقامَ مقامُ رعايةٍ لعباد اللّه المؤمنين، فلفظُ (الرَّبِّ) مُشتمِلٌ على المعيَّةِ والرِّعايةِ والرَّحمةِ، وفيه إشارةٌ إلى أنَّ من مُقتضياتِ الرُّبوبيَّةِ بثَّ الطّمأنينةِ في نفوس عبادِه المؤمنين العامِلين بأوامرِه رحمةً منَ الرَّحمن لهم ولُطفًا منَ اللّطيفِ بهم، فقال تعالى: ﴿إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ لِما يفيدُه معنى الرّبوبيّةِ والخلْقِ والقيامِ على حفظِهم وتربيَتِهم وما يترتّبُ على ذلك منَ الاطْمئنان والخضوعِ وعدمِ التّمرّد عليه سُبحانه والخروجِ عن طاعتِه[2].

سِرُّ الإضافةِ ﴿رَبِّهِمْ﴾:

الإضافةُ إلى الرّبِّ طُمأنينةٌ للمؤمنِ ووعيدٌ للكافرِ

أُضيف لفظُ (الرَّبِّ) إلى الضَّميرِ العائدِ على المؤمنين لتشريفِهم مع تطْمينِهم، فلمّا كان السِّياقُ سياقَ وصْفٍ للمؤمنين بصفاتٍ جليلةٍ (الإيمانِ، والعملِ الصّالحِ، والإخباتِ) كانت هذه الإضافةُ - وهي إضافتُ كلمة "الرَّبِّ" إليهم - بليغةً مُؤدِّيةً لهذا المعنى، مُفيدةً أعلى درجاتِ الإجلالِ والتَّشريفِ مع تمامِ الطّمْأنةِ لنفوسِ هؤلاء المؤمنين، لِما تحملُه لفظةُ (ربّ) من معانٍ.

دَلالةُ اسْمِ الإشارة ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾:

المُؤمنون العامِلون المُخبِتون هم أصحابُ الجنّةِ الخالِدون

التَّعبيرُ باسم الإشارة ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الذي يُفيدُ جمْعَ العقلاء مُذكّرًا أو مؤنّثًا؛ يدلُّ على زيادةِ تمييزِ المؤمنين والمؤمنات، وتخْصيصِهم

(1) ابن الجوزي، زاد المسير: 2/367.
(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 7/3695.

بتلك الصّفاتِ الصّالحةِ؛ للتّنبيهِ على أنّهم حريُّون بما سيردُ بعد اسْمِ الإشارة منَ الخبرِ، بسببِ ما قبْلَ اسْمِ الإشارةِ منَ الوصْفِ[1]؛ والإشارةُ إلى صفاتِهم من إيمانٍ وعملٍ صالحٍ وإخباتٍ إلى ربّهم إيضاحُ أنَّها سببُ ذلك الجزاءِ العظيم[2]، فالمؤمنون العاملون المُخبتون حريُّون بالجزاء الحسنِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾؛ أي: إنَّ أولئك المَوصوفين بتلك الصّفاتِ الجليلةِ ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾[3].

سِرُّ التَّعبيرِ بلفظِ ﴿أَصۡحَٰبُ﴾:

المعنى المِحوريُّ للصُّحبة: لُزوقُ الشّيءِ بكثافةٍ أو قوّةٍ على ظاهر أصْلِه؛ أي: مُلازمتُه إيّاه. فالأصلُ في (الصّحبة) المُلازمةُ، وعبِّرَ بـ (أصحاب) في هذا التّركيبِ ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ﴾ الذي صار مُلازِمًا لهم كأنَّه كنايةٌ عنهم؛ لأنَّ المُؤمنين سيَصيرون ملازِمين للجنّة؛ فهم أهْلوها ومُلّاكُها الذين يعيشون فيها[4]، ولمَّا كان معنى المُلازمةِ لا يُؤدَّى بلفظةِ (الأهل) أوِ (المُلّاك) - لأنّه ليس كلُّ (أهل) مُلازِمين مكانَهم، وليس كلُّ (مالكٍ) مكانٍ مُقيمًا فيه - ناسبَ في هذا المقامِ التَّعبيرُ بـ ﴿أَصۡحَٰبُ﴾ التي تحملُ بين حروفِها معنى المُلازَمةِ.

المُؤمنون العامِلون المُخبِتون هم أهلُ الجنة ومُلّاكُها

دَلالةُ الضَّميرِ ﴿هُمۡ﴾:

عُبِّر بالضّميرِ ﴿هُمۡ﴾ في قوله: ﴿هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ للتّنويع بين اسْمِ الإشارةِ والضّميرِ ولإفادةِ التَّوكيدِ، فلم يقل: (وأولئك خالدون فيها) وإنّما عُبِّر بالضّمير ﴿هُمۡ﴾؛ والمعنى: المُؤمنون العامِلون المُخبِتون خالدون في الجنّة، وليس المرادُ حصْرَ الخلود فيهم؛ لأنَّ العُصاةَ منَ المؤمنين يَدخلون الجنّةَ عند أهل الحقّ

الذين آمنوا وعمِلوا الصّالحاتِ وأخْبَتوا لله خالِدون في الجنّةِ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/32.
(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 7/3695.
(3) الشوكاني، فتح القدير: 2/558.
(4) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (صحب).

ويَخلُدون فيها. ولعلَّ من يدَّعي ذلك يريدُ بنفْيِ الخلودِ عنِ العصاة نقْصَه من أوّلِه[1].

فلمَّا أكَّدَ اللّه ﷻ جزاءَ المُؤمنين العامِلين المُخبِتين بأنّهم ملازِمون للجنّة، وأنّهم أصحابُها الذين لهمُ اختصاصٌ يُشبهُ ملكَ المالكِ لما يَملكُ؛ أكَّد قولَه أيضًا بضميرِ الموصولِ ﴿هُمْ﴾؛ فقال: ﴿هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾[2].

المُؤمنون العامِلون المُخبِتون همُ الخالِدون في الجنّةِ

موقعُ جُملةِ ﴿هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ ودَلالتُه:

جملةُ ﴿هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ خبرٌ ثانٍ لـ﴿إِنَّ﴾[3]، وقد جاءت في موضع البيانِ لجملةِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ﴾؛ لأنَّ الخلودَ في المكان هو أحقُّ الأحوالِ بإطلاقِ وصْفِ الصّاحبِ على الحالِّ بذلك المكانِ؛ إذ إنَّ الأمكنةَ لا تُقصدُ إلَّا لأجل الحُلولِ فيها؛ فتكونُ الجملةُ مستأنَفةً لبيانِ ما قبْلَها، فمنزلتُها منزلةُ عطْفِ البيانِ[4].

بَلاغةُ التَّعبيرِ بالجُملةِ الاسميّةِ:

المُؤمنون في الجنّةِ خالِدون

عُبِّر بالجُملة الاسميَّةِ ﴿هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ الدَّالّةِ على الثُّبوت، أي: ثبوتِ المعنى وتحقُّقِه؛ لأنّ المَنعوتين بتلك النُّعوتِ الجليلةِ الشّأنِ (الإيمان، العمل، الإخبات) هم في الآخرة أصحابُ الجنّةِ، خالِدون فيها، دائِمون أبدًا[5].

نُكتةُ تقديم ﴿فِيهَا﴾ على الخبرِ:

في الجنّةِ لا في غيرِها يَحيا المؤمنون خالِدين

التّقديمُ في الجُملةِ للاهتمامِ بالمُتقدّم، فقُدِّم شبْهُ الجملة ﴿فِيهَا﴾ في قولِه: ﴿هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ للاهتمام بمكان المؤمنين في الآخرةِ وتخصيصِهم بالجنّةِ؛ أيْ: أنَّ المؤمنين في الجنّةِ خاصَّةً لا في غيرِها[6].

---

(1) الآلوسي، روح المعاني: 6/234.
(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 7/3695.
(3) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 4/334.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/40.
(5) الآلوسي، روح المعاني: 6/234.
(6) البقاعي، نظم الدرر: 9/263.

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الإخباتُ والخشوعُ:

الإخباتُ اطْمئنانٌ وخشوعٌ

الخشوعُ: يدورُ معناه المِحوريُّ حول هبوطِ ما شأنُه الارتفاعُ والغلظُ لتسيُّب أثنائِه. قال الله ﷻ: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا﴾ [الحشر: 21]؛ أي: هابطًا ومتسيِّبًا[1]، وخشع يخشعُ خُشوعًا: رمى ببصره نحو الأرض وغضَّه وخفضَ صوتَه. واختشع، إذا طأطأ صدرَه وتواضعَ[2].

والمعنى المِحوريُّ للخبتِ هو الانخفاضُ باتساعٍ واستقرارٍ، ومنه (أَخْبَتَ الرّجلُ) أي: اطْمأنّ وتواضعَ وخَشَع؛ كمَن نزَلَ الخبْتَ[3].

ولمَّا كانت نفوسُ المؤمنين مُطمئنّةً خاشعةً لربّها ﷻ مُطلقَ الاطمئنانِ والخُشوع؛ عبَّر عن خضوعِها واطْمئنانِها واستقرارِها على الإيمان بمحسوسٍ[4] يدلُّ تمامَ الدّلالةِ على هذا المعنى وهو الإخباتُ، أي: نزولُ الخبتِ (المنخفض المُستوي منَ الأرض) فناسب ذلك لفظُ الإخبات دونَ الخشوعِ؛ لأنّه يحملُ معنى الاطْمئنانِ والخشوعِ.

(1) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (خشع).
(2) الأزهري، التهذيب، والجوهري، الصحاح، وابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (خشع).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (خبت).
(4) الآلوسي، روح المعاني: 6/234.

﴿۞مَثَلُ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ كَٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡأَصَمِّ وَٱلۡبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِۚ هَلۡ يَسۡتَوِيَانِ مَثَلًاۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ٢٤﴾ [هود: 24]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

ضـــربُ المـثـالِ يُقرّبُ الصّورةَ، ويَصفُ الحالَ، ويُغْني عن كثيرِ المقالِ

لمَّا بيّن اللّه سُبحانه حالَ الفريقَين: المؤمنِ والكافرِ، وجزاءَهما في الآخرة، ضربَ سُبحانه المثلَ المبيِّن لحال كلِّ فريقٍ منهما؛ وهو تشبيهُ الفريقِ الكافرِ بالأعمَى والأصمِّ؛ حيث إنّهم عَمُوا عنِ الحقّ وأصَمُّوا آذانَهم عن سماع دعوتِه، وتشبيهُ الفريقِ المؤمنِ بالبصيرِ والسّميع؛ حيث إنّهم أبصَروا الحُججَ، وأقرّوا بواحديّة اللّه، وسمِعوا داعيَ اللّه؛ فأجابوا دعوتَه، وعمِلوا بمقتضى هذه الاستجابةِ[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مَثَلُ﴾: المِثْلُ والمَثَل والمثيلُ: الشِّبْهُ، تقول: هذا مِثْله ومَثَلُه ومثيلُه، كما تقول: هذا شِبْهُه وشَبَهه وشبيهُه[2]. وأصلُه يدورُ حول مناظرةِ الشَّيءِ للشَّيءِ، ومشابهتِه له[3]. ومثلُ الشَّيء صفتُه والخبرُ عنه. وذلك نحوُ قولِه تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلۡمُتَّقُونَۖ﴾[4] [الرعد: 35]، والمَثَلُ أيضًا والمِثَالُ: "عبارةٌ عن قولٍ في شيءٍ يُشبِه قولًا في شيء آخرَ بينهما مشابهةٌ؛ لِيبيِّن أحدُهما الآخرَ ويُصوِّرَه"[5]. ومِن هذا المعنى الأخيرِ الأمثالُ التي ضربَها اللّه في القرآن.

(1) ابن جرير، جامع البيان: 12/376، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/335، وأبو حيّان، البحر المحيط: 6/138، وابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 10/464، والبقاعي، نظم الدّرر: 9/263، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/40.

(2) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (مثل).

(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (مثل).

(4) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (مثل).

(5) الرّاغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (مثل).

2) ﴿ٱلۡفَرِيقَيۡنِ﴾: الفَرْقُ: خلافُ الجمع. يقال: فرَقَه يفرُقه فرقًا، وفرَّقه: إذا فصلْتَ بين الشَّيئين[1]. ومعناه المِحوريُّ: التَّمييزُ والفصلُ بين شيئين[2]. والفِرْقُ، والفِرْقةُ، والفَريقُ: الطَّائفةُ منَ النَّاس، لكنَّ الفريقَ أكثرُ منَ الفِرْق والفِرْقة[3].

3) ﴿كَٱلۡأَعۡمَىٰ﴾: العمَى: ذهابُ البصر كلِّه من كلتا العينَيْن، ولا يقال هذا فيمن ذهب بصرُ عينٍ واحدةٍ من عينيه، بلِ العينين معًا[4]. ومعناه المِحوريُّ: السَّتْرُ والتَّغطيةُ، واحتجابُ الرُّؤيةِ[5]. والعمَى أيضًا: ذهابُ نظرِ القلب. والموصوفُ بافتقاد البصرِ وافتقادِ البصيرةِ، يقال في كليْهما: أعمى، أما عَمٍ فيقال في افتقاد البصيرةِ فقط[6].

4) ﴿وَٱلۡأَصَمِّ﴾: الصَّمَمُ: انسدادُ الأُذُن، وثِقَلُ السَّمع أو ذهابُه بالكليِّة[7]. ومعناه المِحوريُّ: تضامُّ الشَّيء، وانسدادُه بزوالِ الخرقِ[8]. ويوصفُ بالصَّمَم أيضًا من لا يُصغي إلى الحقِّ، ولا يقبلُه[9]. والأصَمُّ من به صَمَمٌ، وجمعُه: صُمٌّ. ومنه قولُه تعالى: ﴿صُمُّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ فَهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ١٧١﴾ [البقرة: 171]. "جعلَهم كذلك بمنزلةِ من لا يسمعُ ولا يَنطقُ ولا يُبصرُ ولا يَعي لعدمِ وعْيِهم واعتبارِهم بما عايَنوه من قدرةِ اللّٰه"[10].

5) ﴿وَٱلۡبَصِيرِ﴾: البَصَرُ: العينُ، وكذلك حاسَّةُ الرؤيةِ والقوَّةُ التي تحصل بها الرّؤيةُ[11]. ومعناه المِحوريُّ: العلمُ بالشَّيء[12]. ومنه كذلك البَصَرُ بمعنى: نفاذٍ في القلب، وهو العلْمُ. ويقال لهذا المعنى بصيرةٌ أيضًا[13]. ويقال: بصُرت بالشَّيء، وتبصَّرْتُه، واستبصرْتُه:

(1) الأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (فرق).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (فرق).
(3) الأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (فرق).
(4) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (عمى).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (عمى).
(6) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (عمى).
(7) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (صمم).
(8) ابن فارس، مقاييس اللغة، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (صمم).
(9) الرّاغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (صمم).
(10) الزبيدي، تاج العروس: (صمم).
(11) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (بصر).
(12) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بصر).
(13) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (بصر).

علمتُه، وصرتُ ذا بصيرةٍ فيه[1]، أمَّا في الرّؤية، فيقال: أبْصَرْتُ الشَّيءَ، أُبْصِره: رأيتُه. والبصيرُ: خلافُ الضَّرير. وكذلك في معنى البصيرة والعلمِ بالشَّيء، يقال لصاحبها: بصيرٌ[2]، ومِن "أسماءِ اللّه تعالى البصيرُ: هو الذي يشاهدُ الأشياءَ كلَّها ظاهرَها وخافيَها بغير جارحةٍ"[3].

6) ﴿وَٱلسَّمِيعُ﴾: السَّمْع: الأُذُن، وكذلك: قوَّةٌ في الأذن بها تُدركُ المسموعاتُ، وكذلك: ما وَقَر في الأُذُن من شيء تسمعُه. ويُطلَقُ السَّمْعُ أيضًا على مصدر سمِع يسمعُ، فهو سامعٌ[4]. والسَّميعُ: هو الموصوفُ بأيِّ معنًى من هذه المعاني[5]. والسَّميعُ من أسماء اللّه ﷻ: وهو الذي وَسِع سمعُه كلَّ شيءٍ بغير جارحةٍ، فلا يعزُب عنه شيءٌ منَ المسموعاتِ وإن خفيَ[6]. ومعناه المِحوريُّ: إيناسُ الشَّيءِ بالأُذن[7].

❁ المَعْنى الإجْمالِيُّ:

لا يَستَوي مُؤمنٌ وكـافـرٌ كـمـا لا يَستَوي أعمَى وبصيرٌ

مثلُ الفريقَين المذكورَين اللَّذينِ وُصفا سابقًا، وهما الكفَّارُ بالشَّقاء، والمؤمنون بالسَّعادة كمثلِ هذين الصِّنفَين منَ النَّاس، الأوَّلُ وهو الكافرُ الموصوفُ بالأعمى الَّذي لا يرى بعينِه شيئًا؛ لتَعاميهِ عن وجه الحقِّ في الدُّنيا والآخرة، وعدمِ اهتدائِه إليه، والموصوفُ كذلك بالأصمِّ الَّذي لا يسمعُ ما يُرشدُه إلى النَّجاة، والثَّاني وهو المؤمنُ الموصوفُ بالبصيرِ الذي يُبصرُ حُججَ اللّه ودلائلَ قُدرتِه ووَحدانيتِه فينتفعُ بها ويَهتَدي إليها، وبالسَّميعِ الَّذي يسمعُ ما ينتفعُ به، ويَهتَدي إليه، ويُبعدُه من

(1) الأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (بصر).
(2) الجوهري، الصحاح، وابن فارس، المجمل، وابن منظور، لسان العرب: (بصر).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (بصر).
(4) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، الجوهري، الصحاح، والرّاغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (سمع).
(5) ابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (سمع).
(6) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (سمع).
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سمع).

مواضعِ الهلاك؛ فهل يَستوي هذان الفريقانِ مع اختلافِ أمرَيْهما في الحال والمآلِ؟ أفلا تتفكَّرون أيُّها النَّاسُ فيما بين الباطل والحقِّ من خلافٍ فتَعتبروا به، وتَسيروا على الصِّراط المستقيمِ[1].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دَلالةُ الاستئنافِ في ﴿مَثَلُ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ﴾:

لمّا استوفى أوْصافَ الحِزبَين وجَزاءَهما ضرَبَ للكلِّ مثَلًا

بعد أن تبيَّنَ الاختلافُ بين حال المُشركين المُفترين على الله كذبًا، وبين حالِ الذين آمنوا وعملوا الصّالحاتِ في منازل الآخرةِ؛ أعقبَ ببيانِ التّنظيرِ بين حالَي الفريقين المُشركين والمؤمنين بطريقةِ تمثيلِ ما تستحقُّه من ذمٍّ ومدحٍ. فالجملةُ فذلكةٌ للكلامِ، وتحصيلٌ له، وتحذيرٌ من مُواقَعة سببِه[2].

الغرَضُ من التَّشبيهِ في ﴿مَثَلُ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ﴾:

مُقارنةٌ بين حالَيْ فريقِ أهلِ الكفرِ وفريقِ أهلِ الإيمانِ

إنَّ حالةَ الفريقَين (المُشركين والمؤمنين) تشبهُ حالَ (الأعمَى الأصمّ) من جهةٍ وحالَ (البصيرِ السّميع) منَ الجهةِ الأخرى، فالكلامُ تشبيهٌ وليس استعارةً لوجود كافِ التّشبيه، وهو أيضًا تشبيهٌ مفردٌ لا مركّبٌ[3]، فكلُّ فريق شُبّه بشيئَين، أو شبّه بمَن جمعَ بين الشّيئَين، فالكافرُ شُبِّه بمَن جمع بين العمَى والصّمم، والمؤمنُ شُبِّه بمَن جمعَ بين السّمعِ والبصرِ[4]، فهناكَ تَشبيهانِ[5]، أو تمثيلٌ بمثالَين[6] حيث شبَّه الله سُبحانه حالَ فريق الكفّارِ في عدمِ الانتفاعِ بالنّظر في دلائلِ وَحدانيتِه الواضحةِ من مخلوقاتِه بحالِ الأعمَى، وشبّهَهُم في عدمِ الانتفاعِ بأدلّة القرآنِ بحالِ مَن هو أصمُّ. وشبَّه

(1) ابن جرير، جامع البيان: 12/376، وطنطاوي، التفسير الوسيط: 7/187.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/40.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/40.
(4) الشوكاني، فتح القدير: 2/558.
(5) الآلوسي، روح المعاني: 6/235.
(6) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/198.

اللّه ﷻ حالَ فريق المؤمنين في ضدِّ ذلك بحالِ مَن كان سليمَ البصر، سليمَ السّمع؛ فهو في هدًى ويقينٍ من مُدركاتِه[1]، فجعل فريقَ الغَوايةِ كالأعمَى الذي لا يُبصرُ والأصمِّ الذي لا يسمعُ، وفريقَ الهدايةِ كالبصيرِ الذي أُوتيَ حدّةً في البصرِ حتى كان بصيرًا يرى الأشياءَ والحقائقَ، والسّميعِ الذي أُرْهِفَ سمْعُه حتى صار يسمعُ دبيبَ النّمل[2].

الاستبصارُ سبيلُ الإيمانِ، والإدبارُ سبيلُ الكفرانِ

دَلالةُ الواوِ في ﴿وَٱلۡأَصَمِّ﴾ و﴿وَٱلسَّمِيعِۚ﴾:

الواوُ في قوله تعالى: ﴿وَٱلۡأَصَمِّ﴾ وفي قوله: ﴿وَٱلسَّمِيعِۚ﴾ لعطْفِ الصّفة على الصّفةِ[3]، فلمّا كانتِ الواوُ لعطف الصّفات؛ تبيّن أنَّ هذا تمثيلٌ للمؤمنين بمثالٍ واحدٍ، وهو من جمَعَ بين السّمع والبصرِ، وتمثيلٌ للكفّار بمثالٍ واحدٍ وهو من جمَعَ بين العَمى والصّمم[4]. وقد يَظنُّ النّاظرُ أنَّ المناسبَ تركُ عطْفِ صفةِ الأصمِّ على صفةِ الأعمى، كما لم يُعطفْ نظيراهُما في قوله تعالى: ﴿صُمُّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ﴾ في سورة [البقرة: 18] ظنًّا بأنَّ موردَ الآيتَين سواءٌ في أنَّ المرادَ تشبيهُ مَن جمَعوا بين الصّفتَين، وذلك أحدُ وجهَين ذكرَهما صاحبُ (الكشّاف). وقد أجاب أصحابُ حواشي (الكشاف) بأنَّ العطفَ مبنيٌّ على تنزيل تغايُرِ الصّفات منزلةَ تغايُرِ الذّواتِ. ولم يَذكروا لهذا التّنزيلِ نُكتةً، ولعلَّهم أرادوا أنه مجرَّدُ استعمالٍ في الكلام، الدّاعي إلى عطْفِ صفةِ الأصمّ على صفة الأعمَى أنّه ملحوظٌ فيه أنّ لفريق الكفّارِ حالَيْن كلُّ حالٍ منهما جديرٌ بتشبيهِه بصفةٍ من تَيْنِكَ الصّفتَين على حدةٍ.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/40.
(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 7/3695.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/198.
(4) ابن جُزَيّ، التسهيل لعلوم التنزيل: 1/368.

الغرَضُ من اللّفِّ والنَّشرِ في ﴿مَثَلُ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ﴾:

الكافرُ أعمَى عنِ الحقِّ أصمُّ عنِ الرّشادِ، والمؤمنُ بصيرٌ بحُججِ اللهِ سميعٌ لداعيهِ

الكلامُ في قوله تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ كَٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡأَصَمِّ وَٱلۡبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِۚ﴾ من باب اللّفِّ والنّشر، واللّفُّ إمَّا تقديريٌّ إن اعتُبرَ في الفريقين؛ لأنّه في قوّة الكافرين والمؤمنين، أو تحقيقيٌّ إن اعتُبر فيما دلَّ عليه قولُه تعالى: ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ﴾ الآية، وقولُه سُبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ﴾ الآية، وأمرُ النّشر ظاهرٌ[1] فإنَّ الكافرَ ذُكرَ فيما قبلُ أوّلًا ﴿كَٱلۡأَعۡمَىٰ﴾ أي: العامِّ العمَى في بصره وبصيرتِه، ﴿وَٱلۡأَصَمِّ﴾ في سمْعِه كذلك، فهذا للكافرين. ﴿وَٱلۡبَصِيرِ﴾ بعينِه وقلبِه، ﴿وَٱلسَّمِيعِۚ﴾ على أتمِّ أحوالِهما، وهذا للمؤمنين[2]. والواوُ في قولِه: ﴿وَٱلۡبَصِيرِ﴾ لعطْفِ التّشبيهِ الثّاني على الأوّل، وهو النّشرُ بعد اللّفِّ؛ فهي لعطْفِ أحدِ الفريقَين على الآخرِ، والعطفُ بها للتّقسيمِ والقرينةُ واضحةٌ[3].

الغرضُ من الطّباقِ في الآية:

الكفرُ عَمًى عنِ الحقِّ وصممٌ عنِ الرّشادِ، والإيمانُ إبصارٌ واستجابةٌ لداعي الله

في قوله تعالى: ﴿كَٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡأَصَمِّ وَٱلۡبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِۚ﴾ محسِّنُ الطّباقِ بين الأعمى والبصير، وبين الأصمِّ والسّميع[4]، وفيه مقابلةٌ بين الأعمى والأصم وبين البصير والسّميع؛ لتأكيدِ المفارقةِ وتوضيحِ التّبايُنِ بين الفريقَين الكافرِ والمؤمنِ؛ فالكافرُ أعمَى عن وجهِ الحقِّ في الدّنيا، وفي الآخرةِ لا يَهتدي إلى خيرٍ ولا يعرفُه، أصمُّ عن سماعِ الحُجج، فلا يسمعُ ما ينتفعُ به، ﴿وَلَوۡ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمۡ خَيۡرٗا لَّأَسۡمَعَهُمۡۖ وَلَوۡ أَسۡمَعَهُمۡ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعۡرِضُونَ ٢٣﴾ [الأنفال: 23]. أمَّا المؤمنُ ففطِنٌ ذكيٌّ لبيبٌ، بصيرٌ بالحقِّ، يُفرِّقُ بينه وبين الباطل؛ فيتَّبعُ الخيرَ ويتركُ الشّرَّ، سميعٌ للحُجَّة، يفرّقُ بينها وبين الشُّبهةِ؛ فلا يَرُوجُ عليه باطلٌ[5].

(1) الآلوسي، روح المعاني: 6/235.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 9/264.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/41.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 6/235.
(5) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/273.

لطائف الترتيب في الآية:

في قوله تعالى: ﴿كَٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡأَصَمِّ وَٱلۡبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِۚ﴾: جاء ترتيبُ الحالَين المُشبَّهِ بهما في الذِّكر على ترتيب ذِكر الفريقين فيما تقدَّم، وهذا التّرتيبُ المناسبُ يُنبئُ بالمرادِ من كلِّ فريقٍ على طريقة النّشر المرتَّب - والتّرتيبُ في اللّفِّ والنّشر هو الأصلُ والغالبُ - وقد عُلمَ أنَّ المشبَّهين بالأعمى والأصمِّ هم الفريقُ المقُولُ فيهم: ﴿مَا كَانُواْ يَسۡتَطِيعُونَ ٱلسَّمۡعَ وَمَا كَانُواْ يُبۡصِرُونَ﴾[1].

الكافرُ أعمَى وأصمُّ لِتَعاميه عن آياتِ الله، أمَّا المؤمنُ فبَصيرٌ سميعٌ

فإنَّه سُبحانه لمَّا ذكر الكفّارَ، ووصَفَهم بأنَّهم ﴿مَا كَانُواْ يَسۡتَطِيعُونَ ٱلسَّمۡعَ وَمَا كَانُواْ يُبۡصِرُونَ﴾ ثم ذكَرَ المؤمنين، ووصَفَهم بالإيمان والعملِ الصّالحِ والإخباتِ إلى ربّهم، فوصَفَهم بعبوديّةِ الظّاهرِ والباطنِ؛ جعل أحدَ الفريقَين كالأعمى والأصمِّ من حيث كان قلبُه أعمَى عن رؤية الحقِّ أصَمَّ عن سماعِه، والفريقَ الآخرَ بصيرَ القلب سميعَه[2].

الغرضُ من كمالِ الانقطاعِ في ﴿هَلۡ يَسۡتَوِيَانِ مَثَلًاۚ﴾:

وقعتْ جملةُ ﴿هَلۡ يَسۡتَوِيَانِ مَثَلًاۚ﴾ موقعَ التّعليلِ للتّشبيه، وهو نفيُ استواءِ حالِهما، ونفيُ الاستواء كنايةٌ عنِ التّفضيلِ، والمفضَّلُ منهما معلومٌ منَ المقام، أيْ: معلومٌ تفضيلُ الفريقِ الممثَّل بالسّميع والبصير على الفريق المُمثَّلِ بالأعمى والأصمِّ[3].

لا يَستوي فريقُ الكفرِ وفريقُ الإيمانِ أبدًا

الغرض من الاستفهامِ في ﴿هَلۡ يَسۡتَوِيَانِ مَثَلًاۚ﴾:

الاستفهامُ في قولِه: ﴿هَلۡ يَسۡتَوِيَانِ مَثَلًاۚ﴾ للإنكار[4]، والتّوبيخ[5]؛ فهو ممَّا يُتوقَّعُ جوابُه بالنّفي[6]. وهذا الاستفهامُ الإنكاريُّ مذكِّرٌ - على ما قيل - لِما سبَقَ من إنكارِ المُماثلةِ في قولِه سُبحانه: ﴿أَفَمَن كَانَ

الكفرُ والإيمانُ لا يَستَويان

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/40.
(2) ابن القيم، التفسير القيم، ص: 324.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/43.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/43.
(5) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 4/335.
(6) السامرائي، معاني النحو: 4/249.

﴿عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ الآية[1]. وقد قال أبو عبيدةَ: ﴿هَلۡ﴾ هاهنا بمعنى الإيجابِ، لا بمعنى الاستفهامِ، والمعنى: لا يَستويان[2].

والمعنى: كما أنَّ مثَلَيْ هذَين الفريقَين لا يَستويان عندكم أيُّها النّاسُ، فإنَّ حالَ الكافرِ والمؤمنِ كذلك لا يَستويان عندَ اللّه[3] وقال الفرّاءُ: لم يقُل (هل يستوون)؛ لأنَّ الأعمَى والأصمَّ في حيّزٍ كأنَّهما واحدٌ؛ لأنَّهما من وصْفِ الكافر، والبصيرُ والسّميع في حيّزٍ كأنَّهما واحدٌ، لأنّهما من وصْفِ المؤمنِ[4].

تنوُّعُ موقعِ ﴿مَثَلًاۚ﴾ ودَلالتُه:

حالُ الكافرِ وحالُ المؤمنِ لا يَستَويان

معنى ﴿مَثَلًاۚ﴾ أي: حالًا، وصفةً[5]، وتشبيهًا[6]. وهو منصوبٌ على التّمييزِ، من فاعلِ يَستويان[7]، والأصلُ: هل يَستوي مثلاهُما[8]. ويجوزُ أن يكونَ حالًا[9]، وفيه بُعد[10]، والمعنى: لا يستوي الفريقان تمثيلًا أو صفةً أو حالًا، بل يفترقان ويكونان بما يتَّفقُ مع حالِ كلٍّ منهما، فالأعمى الذي لا يرى حتى يعرفَ الطّريقَ، والأصمُّ الذي لا يسمعُ الهادِيَ الذي يُرشدُه؛ فهو يتردّى في المَهاوي غيرَ رشيدٍ ولا مُسترشدٍ. والبصيرُ الذي يرى أعلامَ سبيلِ اللّه تعالى وهو السّميعُ الذي يسمعُ المرشدَ الهاديَ إلى سواء السّبيل؛ لا بدَّ أن يسلكَ الطّريقَ الأقومَ، فلا يَستويان في الابتداء والانتهاء؛ ففريقٌ في الجنّةِ، وفريقٌ في السّعير[11].

(1) الآلوسي، روح المعاني: 6/235، والشوكاني، فتح القدير: 2/558.
(2) ابن الجوزي، زاد المسير: 2/367.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 12/378.
(4) البغوي، معالم التنزيل: 4/170.
(5) الآلوسي، روح المعاني: 6/235.
(6) الزمخشري، الكشاف: 2/387.
(7) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/198.
(8) الآلوسي، روح المعاني: 6/235، وأبو حيّان، البحر المحيط: 6/139.
(9) ابن عطية، المحرر الوجيز: 3/162.
(10) الآلوسي، روح المعاني: 6/235.
(11) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 7/3696.

الغرضُ منَ الاستفهامِ في ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾:

عـلاجُ العمَى والصّممِ يكونُ بالسَّعْيِ

قولُه: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ يعني: أفلا تذكرون عدمَ استوائِهما، وأفلا ترونَ ما بينَهما منَ التّفاوُتِ الظّاهرِ الذي لا يخفَى على من له تذكُّرٌ، وعنده تفكُّرٌ وتأمُّلٌ. وصُدِّر قولُه تعالى: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ بالهمزة لإنكار عدمِ التّذكّرِ واستبعادِ صدورِه عنِ المخاطَبين[1].

الحديثُ عن أمْرٍ منَ البديهيّاتِ لا يحتاجُ إلى أكثرَ منَ التّذكُّر؛ فلا يقتضي تفكيرًا، ولمَّا كان المقصودُ تنبيهَ المشركين لِما هم فيه منَ الضّلالة - لعلَّهم يتداركون أمْرَهم - فرّعَ عليه بـ (الفاء) جملةَ ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾[2].

سِرُّ حذْفِ المفعولِ في ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾:

أولـو الألـبـابِ يَـعـتـبِرون، لا يَغفَلون

ختمَ اللّه الآيةَ الكريمةَ مُوجِّهًا القولَ إلى النّاس ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾، وهو استفهامٌ للتّنبيهِ والتّحريض على التّذكُّر والاعتبارِ وإنَّ في ذلك لعبرةً لأولي الأبصارِ[3].

وحُذفَ المفعولُ به من جملةِ ﴿تَذَكَّرُونَ﴾ لإفادةِ عمومِ التّذكُّرِ لأيٍّ ممَّا تقدَّم ذِكرُه.

لَطيفةٌ في تنوُّعِ القراءاتِ في ﴿تَذَكَّرُونَ﴾:

قليلٌ منَ التّذكُّرِ يُجدي

قرأ الجمهورُ ﴿تَذَكَّرُونَ﴾ بتشديد الذّال، وأصلُه (تتذكَّرون) فأُبدِلت التّاءُ ذالًا لقُربِ مخرَجَيْهما ولِيتأتَّى الإدغامُ تخفيفًا، وقرأه حفصٌ، وحمزةُ، والكسائيّ - بتخفيف الذّال - على حذفِ إحدى التّاءَين من أوّل الفعل[4] وفي التّخفيف النّاتجِ عنِ الحذفِ في ﴿تَذَكَّرُونَ﴾ - إدغامِ (التّاء) في الأصلِ في (الذّال)[5] - دلالةٌ على

(1) الشوكاني، فتح القدير: 2/558.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/43.
(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 7/3697.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/43.
(5) المحلي والسيوطي، تفسير الجلالين: 1/288.

القليل منَ التّذكُّر بالقليلِ منَ الجُهد؛ فقوله: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أي: يحصل لكم أدنَى تذكُّرٍ - بما أشارَ إليه الحذف - فتَعلَموا صدقَ ما وُصِفوا به بما ترونَه من أحوالِهم، وذلك ما قُدِّم في حقِّ الكفّار من قولِه: ﴿مَا كَانُواْ يَسۡتَطِيعُونَ ٱلسَّمۡعَ﴾[1].

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

العمَى والعَمَه والكَمَه:

كلُّ أكمَه أعمَى، وليس كلُّ أعمَى أكمَهَ

العمى: ذهابُ البصرِ كلِّه منَ العينَين كلتيْهما[2]، ويدورُ معناه المِحوريُّ حول احتجابِ الرّؤيةِ[3]. ويقال في افتقاد البصرِ والبصيرةِ، ويقال في الأوّل: أعمَى، وفي الثّاني: أعمَى وعَمٍ، وعلى الأوّل قولُ اللّه ﷻ: ﴿لَّيۡسَ عَلَى ٱلۡأَعۡمَىٰ حَرَجٞ وَلَا عَلَى ٱلۡأَعۡرَجِ حَرَجٞ﴾ [النور: 61]، وعلى الثّاني ما وردَ من ذمِّ العمى في القرآن نحوَ قولِ اللّه ﷻ: ﴿صُمُّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ فَهُمۡ لَا يَرۡجِعُونَ ١٨﴾ [البقرة: 18]، وقولِه ﷻ: ﴿فَعَمُواْ وَصَمُّواْ﴾ [المائدة: 71][4].

أمّا العَمَه فأصلُه في العين، وهو أن يحارَ بصرُ الإنسان فلا يرى في تلك الحالة، ولكنّه كان يرى في غيرها[5]، ثم استُعمِل مجازًا في التّحيُّر والتّردُّد في الرَّأي، وفلانٌ يعمَهُ في أمره: يتحيَّرُ فيه[6]. والعَمَه: التردُّدُ في الضّلالة، والتّحيُّرُ في منازعةٍ أو طريقٍ، والعامِه: الذي يتردَّدُ متحيِّرًا لا يَهتدي لطريقِه ومذهبِه[7]. ويقال: رجلٌ عامِهٌ وعَمِهٌ: حائرٌ متردِّد[8]. قال اللّه ﷻ: ﴿وَيَمُدُّهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 9/264.
(2) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (عمى).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (عمى).
(4) الرّاغب، المفردات: (عمى).
(5) ابن الهائم، التبيان في تفسير غريب القرآن، ص: 52.
(6) ابن الأنباري، الزاهر في معاني كلمات الناس: 2/37، ومحمد الدوري، دقائق الفروق اللغوية في البيان القرآني، ص: 176.
(7) الأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح، وابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (عمه).
(8) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 1/209.

﴿١٥﴾ [البقرة: 15]؛ أي: في كفرِهم وضلالِهم يتردَّدون متحيِّرين[1]. وقدِ اقترن الفعلُ (يعمهون) بالطّغيان في خمس آياتٍ، وبالسَّكرةِ في آية وبالتّزيين في الآية الباقية؛ ممّا يدلُّ على فقد العَمِه التبصُّرَ والتنبُّهَ[2].

والفرقُ بين العَمَى والعَمَه أنَّ العمى عامٌّ في البصرِ والرّأي، والعمَه في الرّأي خاصّةً، والعمه يقال في عمى البصيرة الذي محلُّه القلبُ، أمّا العمَى فيقال في عمى العينِ والقلبِ، قال الله ﷻ: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾ [الحج: 46]؛ ذلك في عمى البصيرة، وقال ﷻ في عمَى البصر: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١﴾ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ﴿٢﴾﴾ [عبس: 1 - 2][3].

أمّا الكمَه فهو أن يعتريَ البصرَ ظُلمةٌ تطمسُ عليه، وهو العمى الذي يولَد به الإنسانُ[4]، والأكمه: الذي يولَد مطموسَ العين، أوِ الذي يولَد أعمى[5].

(1) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 1/209، والبغوي، تفسير البغوي: 1/68.

(2) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (عمه).

(3) الزمخشري، الكشاف: 1/69، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 2/311، والأزهري، تهذيب اللغة: (عمه)، ومحمد الدّوري، دقائق الفروق اللغوية في البيان القرآني، ص: 176.

(4) ابن سيده، المخصص: 1/102، والأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (كمه).

(5) الجوهري، الصحاح، والأزهري، تهذيب اللغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (كمه).

﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ إِنِّي لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٌ ٢٥﴾ [هود: 25]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا بيّن اللّه تعالى حالَ البُغضاءِ المُبعَدين، المُفترين على اللّه الكذبَ المبينَ، وتوعَّدَهم يومَ القيامة بالعذاب المهين؛ ذكّرَهم بعاقبةِ من كذّبَ منَ الأوّلين؛ لتكونَ لهم فيهمُ العِظةُ والعِبرةُ، ولتكونَ تثبيتًا للنّبيِّ الكريم ﷺ وتسليةً، وتأييدًا له وتعزيةً؛ لئلّا يضيقَ صدرُه بشيءٍ ممّا أُمرَ بإبلاغِه حِرصًا على إيمان أحدٍ وإن كان أقربَ الخلائقِ إليه وأعزَّهم عليه[1].

القصصُ القرآنيُّ عظةٌ للمُعتبِرين، وتسليةٌ للمُبتَلين

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿نَذِيرٞ﴾: الإنذارُ: إخبارٌ وإبلاغٌ مع تخويفٍ وتحذيرٍ[2]. وأصلُه منَ التَّخويفِ والتَّحذيرِ ممّا يُخشى منه[3]، ومنه النَّذيرُ بمعنى المُنذِر، والنَّذيرُ بمعنى الإنذار، وجمعُه نُذُرٌ[4]. والإنذارُ الإعلامُ بالشّيء يُحذَّر منه، والمُنذِر هو المبلّغُ والمُعلِم بهذا الشَّيءِ. والمُنذِر كذلك الرَّسولُ أوِ النَّبيّ يبلِّغُ الأمرَ العظيمَ من شأن الآخرة يُخوِّفُهم ويحذِّرُهم منها[5].

2) ﴿مُّبِينٌ﴾: البيانُ: الفصاحةُ والإيضاحُ والكشفُ عنِ الشَّيء. وكذلك: ما يتبيَّنُ به الشَّيءُ منَ الدِّلالة وغيرِها من: بان الشَّيءُ بيانًا، فهو بيِّن: اتَّضحَ. وأبان الشّيءُ والشيءَ - يُستعملُ لازمًا ومتعدِّيًا -

(1) ابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 10/465، والبقاعي، نظم الدّرر: 9/264، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/43، والهرري، حدائق الروح والريحان: 12/313.

(2) الجوهري، الصحاح، وابن فارس، المجمل، والرّاغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (نذر).

(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (نذر).

(4) الجوهري، الصحاح، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ، وابن منظور، لسان العرب: (نذر).

(5) الأزهري، تهذيب اللغة، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (نذر).

فهو مُبين: اتَّضحَ إن كان لازما، وأوضحَه إن كان متعدِّيًا[1]. وأصلُه يدورُ حول معنى انكشافِ الشَّيء[2].

ومعنى مُبِين: "مُبَيِّن، أي إنّه مُبَيِّن خيرَه وبركَته، مُبَيِّنٌ الحقَّ منَ الباطل، والحلالَ والحرامَ، ومُبَيِّنٌ أنَّ نبوَّة النَّبيِّ ﷺ حقٌّ، ومُبَيِّنٌ قصصَ الأنبياء"[3].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

حُجّةُ الله قائمةٌ على عبادِه بإرسالِ الرُّسلِ بِشارةً ونَذارةً

يُخبرُ المولى ﷻ عن نوحٍ عليه السلام، وكان أولَّ رسولٍ بعثه اللّه إلى أهل الأرضِ منَ المشركين عبدةِ الأصنام، أنَّه قال لقومه إنِّي مُخوِّفٌ ومحذِّرٌ لكم تحذيرًا واضحًا من عذاب اللّه وبأسِه، إن خالفتُم أمرَه سبحانه وعبدتُم غَيرَه، ومُوضِّحٌ لكم كذلك مُوجباتِ العذابِ ووجْهَ الخلاص، فآمنوا باللّه وأطيعوا أمرَه سُبحانه[4].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دَلالةُ الواو في ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا﴾:

عطْفُ الموعظةِ بالقَصصِ على الإنذارِ لزيادةِ وعيدِ الكافرين

الواوُ ابتدائيَّةٌ، وقد عطفَت قولَه: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا﴾ على ما جاء في مطلع السُّورة من قوله: ﴿إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ۝٢﴾ [هود: 2] إذ هو إقرارٌ بنبوَّة النَّبيِّ ﷺ ورسالتِه، فهي من باب عطفِ القصَّة على القصَّةِ، فقولُه تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا﴾ هو انتقالٌ من إنذارِ المشركين ووصْفِ أحوالِهم وما ناسبَ ذلك إلى موعظتِهم بما أصاب المُكذِّبين قبْلَهم منَ المصائب، وفي ذلك تسليةٌ للنَّبيِّ ﷺ بما لاقاه الرُّسلُ عليهم السلام قبْلَه من أقوامِهم[5]. والمعنى: واتلُ عليهم نبأ

(1) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (بان).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بان).
(3) الأزهري، تهذيب اللغة: (بان).
(4) البيضاوي، أنوار التنزيل: 3/132، والسعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 380.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/43.

نوحٍ؛ يعني: إنْ لم يتَّعِظوا بما ذكرت، فاتْل عليهم خبرَ نوحٍ[1]، فالآيةُ فيها تمثيلٌ لقريشٍ وكفَّارِ العرب، وإعلامٌ بأنَّ محمّدًا ﷺ ليس ببِدعٍ منَ الرُّسل[2].

الغرضُ من القسَمِ في ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا﴾:

زيادةُ التّوكيدِ مناسِبٌ لشدّةِ إنكارِ الكافرين

قولُه تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ﴾ جوابٌ لقسَمٍ محذوفٍ؛ أي: واللّه لقد أرسلنا نوحًا إلى قومه. والدَّليلُ على هذا القسَم وجودُ لامِه في بدء الجملةِ[3]، وأُكِّدتِ الجملةُ بلام القسَم و(قد)؛ لأنَّ المخاطَبين لمَّا غفلوا عنِ الحذر ممَّا بقوم نوحٍ مع مماثلة حالِهم؛ نُزِّلوا منزلةَ المنكِر لوقوعِ رسالتِه[4]، وقد كان للقسَم عند العربِ منَ التَّأثير في تأكيد الكلامِ ما لا يخفَى على عالِمٍ بحالِهم ولغتِهم وطرائقِهم في التَّعبير[5].

سرُّ إسنادِ الفعلِ في ﴿أَرْسَلْنَا﴾:

الرُّسلُ صلواتُ اللّه عليهم أرسَلَهُمُ العظيمُ ﷻ

أُسندَ الفعلُ إلى نون العظَمةِ في قوله تعالى: ﴿أَرْسَلْنَا﴾ لبيان كمالِ العنايةِ بأمرِ الإرسالِ، ولتشريفِ الرَّسول وتعظيمِ الرِّسالة، ولإبرازِ غايةِ التَّشنيع على مَن يجحَدُها. فقولُه تعالى: ﴿أَرْسَلْنَا﴾؛ "أي: بما لنا منَ العظَمةِ"[6]، فويلٌ لمَن يكفرُ بها أو يُعرضُ عنها، أو يَفتري على اللّه كذبًا فيقولُ: ما أرسلَ اللّه مِن رسولٍ، وما جاءنا مِن بشيرٍ ولا نذيرٍ!

معنى حرف الجرّ ﴿إِلَىٰ﴾ ودَلالتُه:

أدّى نوحٌ عليه السلام الأمانةَ وبلّغَ الرّسالةَ إلى قومِه

الأصلُ في (إلى) أن تكونَ لانتهاء الغايةِ[7]، فهذا المعنى هو أصلُ

(1) السمرقندي، بحر العلوم: 2/145.
(2) الثعالبي، الجواهر الحسان: 3/279.
(3) طنطاوي، الوسيط: 7/189.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/43.
(5) رشيد رضا، تفسير المنار: 12/52.
(6) البقاعي، نظم الدرر: 9/265.
(7) السامرائي، معاني النحو: 3/16.

معانيها[1]، وقد أفادت أنَّ رسالةَ نوحٍ عليه السلام ونذارتَه قدِ انتهت إلى قومه، فبلغَتْهم ولم تقصرْ عنهم، وفيها إقامةٌ للحُجّة عليهم وتعذيبُهم.

سرُّ الإضافةِ في ﴿قَوْمِهِۦٓ﴾:

يُصْطفَى الرّسولُ منَ النّاس الذين يُرسلُ إليهم، فهو ليس غريبًا عنهم

قومُ الرَّجل: هم أقرباؤه الذين يجتمِعون معه في جَدٍّ واحدٍ، وقد يقيمُ الرَّجلُ بين الأجانب فيُسَمّيهم قومَه مجازًا للمجاوَرة[2]، فقوله تعالى: ﴿قَوْمِهِۦٓ﴾؛ أي: الذين هم على لسانِه[3]، الذين يألفُهم ويألفونَه، ويعرفون مقامَه فيهم، ونسبَه منهم، وقد ناداهم نداءَ الحدبِ عليهم المُحبّ المُنذرِ لهم[4].

بَلاغةُ حذْفِ فعلِ القولِ ودَلالتُه:

حذفُ القولِ للإيجازِ واستحضارِ المَشْهَدِ

قولُه تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى﴾؛ أي: فقال: إنِّي؛ لأنَّ في الإرسال معنى القولِ[5]. وحذْفُ فعْلِ القولِ مع بقاء المَقولِ كثيرٌ في القرآن، وهو يؤدِّي المعنى بأقصر طريق، وأقوى تحقيق، ويصرفُ الانتباهَ إلى المَقول لأهميَّتِه، كما أنَّه يلخِّصُ وظيفةَ الرِّسالة كلِّها ويُترجمُها إلى حقيقةٍ واحدةٍ: ﴿إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾.

موقعُ جملةِ ﴿إِنِّى﴾ ودَلالتُه:

الرّسولُ مُحذِّرٌ لقومِه منَ العذابِ

جملةُ: ﴿إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ﴾ في محلِّ نصبٍ مقولِ لقولٍ مقدَّر، والقولُ المقدَّرُ حالٌ من ﴿نُوحًا﴾[6]، وهذا قد جعل الجملةَ في موقع الاستئنافِ البيانيِّ النَّاشئِ عنِ السُّؤال المقدَّرِ في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا﴾، فكأنَّ سائلًا قال: وما أوَّلُ ما قال نوحٌ لقومه؟ وماذا كان شأنُه معهم؟ فجاءت الإجابةُ: ﴿إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾؛ أي: "يا

(1) المرادي، الجنى الداني، ص: 385.
(2) طنطاوي، الوسيط: 7/189.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 9/265.
(4) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 7/3698.
(5) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 9/22.
(6) محمود صافي، الجدول: 6/248.

قومُ إنِّي لكم محذِّرٌ تحذيرًا واضحًا من مُوجبات العذابِ التي تتمثَّلُ في عبادتِكم لغير اللّه تعالى"[1].

تنوُّعُ القراءاتِ في ﴿إِنِّي﴾:

أُرسلَ نوحٌ لإنذارِ قومِه منَ العذاب

تنوعّتِ القراءاتُ في قوله: ﴿إِنِّي﴾، فقرأ عامَّةُ قُرَّاء الكوفةِ وبعضُ المدنيِّين بكسر (إنَّ) على وجه الابتداء؛ إذ كان في الإرسال معنى القول. وقرأ بعضُ قُرَّاء أهل المدينةِ والكوفةِ والبصرةِ بفتح (أنَّ) على إعمال الإرسالِ فيها، كأنَّ معنى الكلام عندهم: لقد أرسلنا نوحًا إلى قومه بأنِّي لكم نذيرٌ مبين[2]. فقراءة ﴿إِنِّي﴾ بكسر الهمزة على أنَّه محكيٌّ بفعل قولٍ محذوفٍ في محلِّ حال، أي: قائلًا. وقراءةُ (أني) بفتح الهمزة على تقدير حرف جرٍّ، وهو الباءُ للملابسة؛ أي: أرسلناه مُتلبِّسًا بذلك؛ أي؛ بمعنى المصدرِ المَنسبِك من (أنِّي نذير)؛ أي: متلبِّسًا بالنِّذارة البيِّنة[3]، فكأنَّ القراءةَ الأولى تعني الرِّوايةَ عن قصَّة البلاغِ، والقراءةَ الثَّانية تحدِّدُ مضمونَ الرِّسالةِ[4].

سِرُّ توكيدِ الجُملة بـ ﴿إِنِّي﴾:

توكيدُ مضمونِ الرّسالةِ مُناسبٌ لإعراض الكافرين وإنكارِهم

أُكِّد قولُه: ﴿إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ بـ (إنَّ) المشبَّهةِ بالفعل، وفائدةُ التَّوكيد بها إفادةُ التَّحقيق مع تجنُّب التَّكرارِ؛ إذ إنَّها تنوبُ مَنابَ تكريرِ الجملة، فتُؤدّي المعنى مُوجزًا بلا تكرير في اللَّفظ، مع حصول الغرضِ منَ التَّأكيد[5].

معنى اللَّام ودَلالتُها في ﴿لَكُمْ﴾:

نوحٌ عليه السلام مُرسلٌ لإنذار قومِه خاصَّةً

اللَّامُ تفيدُ الاختصاصَ، وهذا هو أصلُ معانيها[6]. فقوله تعالى: ﴿لَكُمْ﴾؛ أي: خاصَّةً[7]، وهذا الاختصاصُ يُؤدّي معنى جليلًا، وهو أنَّ

(1) طنطاوي، الوسيط: 7/189.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 12/378.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/44.
(4) الشعراوي، الخواطر القرآنية: 10/6425.
(5) ابن يعيش، شرح المفصَّل: 4/526.
(6) المرادي، الجنى الداني، ص: 96، والسامرائي، معاني النحو: 3/64.
(7) البقاعي، نظم الدرر: 9/265.

اللّه ﷻ لم يترك النَّاسَ سُدًى، بل بيَّن لهمُ الطَّريقَين، وهداهمُ النَّجدَين، وأمرَهم بالتَّوحيد والإيمانِ، ونهاهُم عنِ الكفر والعصيانِ، وأنَّه تعالى أرسل لكلِّ أمَّة رسولًا يعرفونَه ويفهمونَه يُخبرُهم بمرادِ اللّه منهم لئلَّا يكونَ للنَّاس على اللّه حجَّةٌ بعد الرُّسل، وكان حَريًّا بقوم نوحٍ أن يُعظِّموا نعمةَ اللّه عليهم إذ أرسلَ لهم وحدهم خاصَّةً رسولًا منهم يبيِّنُ لهم، ولكنَّهم كفَروا فاستحقُّوا أشدَّ العذاب، وهذا تحذيرٌ للكافرين المخاطَبين مِن أُمَّة النَّبيِّ ﷺ.

الغرضُ من تقديمِ ﴿لَكُمْ﴾ على خبرِ إن:

غالبًا ما يكونُ التّخصيصُ لازمًا للتّقديمِ

قُدِّم الجارُّ والمجرورُ في قوله تعالى: ﴿إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ على خبرِ (إنَّ) بحيث فَصلَ بين اسْمِ النَّاسخ وخبرِه، لإفادة التَّخصيصِ الذي هو لازمٌ للتَّقديم غالبًا[1]، فقوله: ﴿لَكُمْ﴾؛ أي: لكم أنتم خاصَّةً، وفي هذا غايةُ الرِّفق في النُّصحِ، والإشفاقِ في البلاغ.

دَلالةُ تنكيرِ الخبرِ ﴿نَذِيرٌ﴾:

نوحٌ عليه السلام أحدُ الرّسلِ الكثيرين الذين كُذِّبوا

جاء المُسندُ في قوله: ﴿نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ نكرةً لقصد الإخبارِ بثبوتِ المُسنَدِ للمسنَدِ إليه من غير إرادةِ عهدٍ أو تخصيصٍ[2]، فكأنَّه عليه السلام قال لهم: إنِّي لكم نذيرٌ من نُذُر اللّه الكثيرين الذين لا يعلمُ عدَّتَهم إلَّا هو سُبحانه، فآمنوا بي، وبكلِّ نذيرٍ يأتيكم مِن ربِّكم.

الغرَضُ من وصْفِ الخبرِ بـ ﴿مُّبِينٌ﴾:

بيَّن نوحٌ عليه السلام لقومِه مُوجباتِ العذابِ، ووجْهَ الخلاصِ منه

الإبانةُ: إظهارُ المعنى للنَّفس بما يمكنُ إدراكُه، وأصلُه القطعُ، فالإبانةُ: قطعُ المعنى مِن غيره لِيظهرَ في نفسه[3]، فقولُه: ﴿مُّبِينٌ﴾ بمعنى أنَّه بيَّنَ ذلك الإنذارَ على الطَّريق الأكملِ والبيانِ الأقوى الأظهرِ[4] بيانًا زالَ به الإشكالُ[5]، وفيه بيانٌ لكمالِ الحُجّة.

(1) أحمد شعيب، بحوث منهجية في علوم البلاغة، ص: 278.
(2) حسن إسماعيل، البلاغة الصافية، ص: 144.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 9/268.
(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/336.
(5) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 380.

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الإرسالُ والبعثُ:

البعثُ أشدُّ منَ الإرسالِ

الرّاء والسّين واللّام أصلٌ واحدٌ مُطّردٌ مُنقاسٌ، يدلُّ على الانبعاثِ والامتدادِ[1].

والرِّسْلُ: الانبعاثُ على التّؤَدةِ، ومنه: الرَّسولُ المُنبعثُ، وتُصوّرَ منه تارةً الرِّفقُ، فقيل: على رِسلك، إذا أمرته بالرِّفق، وتارةً الانبعاثُ؛ فاشْتقّ منه الرَّسولُ[2].

والباء والعين والثّاء أصلٌ واحدٌ، وهو الإثارةُ[3]؛ فأصلُ البعث الإثارةُ والتّوجيهُ[4].

ويفترقُ الإرسالُ عنِ البعث بأنَّ الإرسالَ: يكونُ بإرسال شيءٍ جديدٍ؛ أي: برسالةٍ جديدةٍ، أو منهجٍ جديدٍ، أو تغيّرٍ، أو تعديلٍ في المنهج السّابقِ، حسبَ الزّمان والمكانِ. أمّا البعثُ: فهو إحياءُ منهجٍ كان موجودًا سابقًا، وغفلَ عنه النّاسُ، فإذا أراد اللّه ﷻ إحياءَ نفسِ المنهج الذي غفلَ عنه النّاسُ، بعث اللّه رسولًا أو نبيًّا لإحياء معالمِ ذلك المنهجِ السّابقِ الذي اندثرَ[5].

والإرسالُ: لا يصاحبُه إثارةٌ ولا تهييجٌ ولا حثٌّ كما في البعث. أمّا البعثُ: فيصاحبُه إثارةٌ وحضٌّ وتهييجٌ على القيام بالعمل، وحثٌّ عليه[6]. والإرسالُ: يكون من مكانٍ إلى مكانٍ، أو إلى مكان جديدٍ. أمّا البعث فيكونُ إلى نفس المكان، أوِ القرية، أوِ المدينةِ[7].

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (رسل).
(2) الرّاغب، المفردات: (رسل).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بعث).
(4) الرّاغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (بعث).
(5) محمد الهلال، تفسير القرآن الثري الجامع: 1/221.
(6) محمد الهلال، تفسير القرآن الثري الجامع: 1/221.
(7) محمد الهلال، تفسير القرآن الثري الجامع: 1/221 - 222.

﴿أَن لَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۖ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ أَلِيمٖ ٢٦﴾

[هود: 26]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا ضربَ اللّه تعالى المثلَ لمكذّبي مكّةَ بالهالِكين من قوم نوحٍ؛ لِيرتدِعوا ويَزدجِروا؛ بيّن سُبحانه أنَّ أعظمَ ما جاء به نوحٌ عليه السلام والنّبيّون من بعدِه هو الدّعوةُ إلى عبادة الإله الواحدِ، وخلْعِ عبادةِ ما سواه؛ حيث إنَّ قومَ نوحٍ هم أوَّلُ المتلبّسين بالشّركِ واتّخاذِ الأنداد؛ وكان جَزاؤهم عذابًا أليمًا، وأخذًا شديدًا[1].

العُبوديّةُ للمؤمن عِزّةٌ وفَخارٌ، والانسلاخُ منها ذِلّةٌ وصَغارٌ

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تَعۡبُدُوٓاْ﴾: والعبادةُ: الطَّاعةُ. يقال: عَبَد يَعْبُدُ عبادةً، لمن يعبدُ اللّه فقط، ومَن عَبَد مِن دونه إلهًا فهو منَ الخاسرين، أما عَبَدَ يخدمُ سيّدَه ومولاه، فلا يقال: عَبَدَه يَعْبُده، وعَبَد اللّه يَعبُده عبادةً: تألَّه له[2]، و"العُبوديّةُ: إظهارُ التّذلُّل، والعبادةُ أبلغُ منها؛ لأنّها غايةُ التّذلُّل، ولا يَستحقُّها إلا مَن له غايةُ الإفضال، وهو اللّه تعالى، ولهذا قال: ﴿أَن لَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۖ﴾". والعبادةُ ضربان: عبادةٌ بالتَّسخير، وهي تعمُّ جميعَ الخلْقِ المَربوبين للّه، وعبادةٌ بالاختيار، وهي لذوي النّطقِ والفكرِ والاختيارِ منَ البشر[3].

2) ﴿أَخَافُ﴾: الخوفُ: الذُّعْرُ والفَزَع، وهو توقُّعُ المكروه عن أمارةٍ مظنونةٍ أو معلومةٍ[4]. ومعناه المِحوريُّ يدورُ حول معاني الذُّعْرِ

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/139، والبقاعي، نظم الدّرر: 9/268، والآلوسي، روح المعاني: 6/236، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/43، والهرري، حدائق الروح والريحان: 12/313.

(2) ابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (عبد).

(3) الرّاغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (عبد).

(4) ابن فارس، المجمل، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (خوف).

والفَزَع[1]. ومنه الخِيفةُ: بمعنى الحالةِ التي عليها الإنسانُ منَ الخوف[2]. يقال: خَاف الرَّجُل يَخَافُ خَوفًا ومَخَافَةً، فهو خائفٌ[3].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

التَّوحيدُ سبيلُ نجاةِ العَبيدِ يومَ الوعيدِ

آمرُكُمْ أن لا تعبُدوا إلَّا اللّٰه سُبحانه، وأن لا تتَّخذوا من دونه شريكًا بعبادتِكم الآلهةَ والأوثانَ واتِّخاذِكمُ الأندادَ، فإن استمررتُم على عنادِكم وكفرِكم؛ فلم تقوموا بتوحيدِ اللّٰه، وتخصيصِه بالعبادة، وخلْعِ ما دونَه منَ الأوثان والأندادِ، ولم تُطيعوني فيما أمرتُكم به ونهيتُكم عنه؛ فإنِّي أخافُ عليكم عذابَ يومٍ مؤلمٍ عِقَابُه شَديدٍ عذابُه، وهو يومُ القيامة أوِ الطُّوفان[4].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

موقعُ قوله: ﴿أَن لَّا تَعۡبُدُوٓاْ﴾ ودَلالتُه:

تتلخَّصُ رسالةُ نـــوحٍ عليه السلام إلى قومِه في عبادة اللـه وحـــدَه لا شريكَ له

جملةُ ﴿أَن لَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۖ﴾ بدلٌ من قوله: ﴿إِنِّي لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٌ﴾؛ أي: أرسلناه بأن لا تعبُدوا إلا اللّٰه، فتقديرُ الآية كأنَّه تعالى قال: ولقد أرسلنا نوحًا إلى قومِه بهذا الكلام، وهو قولُه: ﴿إِنِّي لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٌ﴾، ثم قال: ﴿أَن لَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۖ﴾، فهو بدلٌ منه[5].

ويجوزُ أن تكونَ جملةُ: ﴿لَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۖ﴾ مُفسِّرةً لجملة ﴿أَرۡسَلۡنَا﴾؛ لأنَّ الإرسالَ فيه معنى القولِ دونَ حروفِه، ويجوزُ كونُها تفسيرًا لـ﴿نَذِيرٞ﴾ لِما في ﴿نَذِيرٞ﴾ مِن معنى القول؛ كقولِه في سورة نوح: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٌ ۝٢ أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ﴾ [نوح: 2-3]. وهذا الوجهُ متعيِّنٌ على قراءة فتحِ همزةِ (أني) إذا اعتُبرت

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (خوف).
(2) الجوهري، الصحاح، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (خوف).
(3) الجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (خوف).
(4) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 380، والزحيلي، التفسير المنير: 12/53.
(5) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/336.

(أنْ) تفسيريَّةً، ويجوزُ جعلُ (أنْ) مخفَّفةً منَ الثَّقيلةِ فيكونَ بدلًا من (أني لكم نذير مبين) على قراءة فتحِ الهمزة، واسمُها ضميرُ شأنٍ محذوفٌ؛ أي: أنَّه لا تعبدوا إلا اللّٰه[1].

معنى ﴿أَن﴾ ودَلالتُها في الآية:

دَعوةُ نوحٍ عليه السلام كانت إلى التّوحيدِ الخالصِ لله عز وجل

يمكنُ حملُ ﴿أَن﴾ في قوله تعالى: ﴿أَن لَّا تَعۡبُدُوٓاْ﴾ بحسبِ قراءةِ مَن كَسَر ﴿إِنِّي﴾ في قوله: ﴿إِنِّي لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٌ﴾، على ثلاثةِ أوجُهٍ: إمَّا أن تكونَ مصدريَّةً ناصبةً، وإمَّا مفسِّرةً، وإمَّا مخفَّفةً منَ الثَّقيلة، فأمَّا المصدريَّةُ النَّاصبةُ فهي معمولةٌ لـ﴿أَرۡسَلۡنَا﴾ في محلِّ جرٍّ أو نصبٍ[2]، فتقديرُ الجرِّ: أرسلنا نوحًا بأن لا تعبدوا إلَّا اللّٰه، فالباءُ مقدَّرةٌ هنا للتَّعديةِ، و(لا) ناهيةٌ؛ أي: أرسلناه مُتلبِّسًا بالنَّهيِ عن عبادة غيرِ اللّٰه[3].

معنى ﴿لَّا﴾ ودَلالتُها في الآية:

نهى نوحٌ عليه السلام قومَه عن عبادةِ غيرِ الله

﴿لَّا﴾ في قولِه تعالى: ﴿أَن لَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۖ﴾ هي النَّاهيةُ، ودَلالتُها أنَّها تخلِّصُ الفعلَ المضارعَ للاستقبال؛ لأنَّها نقيضةٌ لـ(تفعل) المُخلِّصةِ للحال[4]، فالمعنى أنَّ نوحًا عليه السلام ينهَى قومَه عن عبادة غيرِ اللّٰه أبدًا. وهو نهيٌ غرضُه النُّصحُ والإرشادُ يؤيِّده قولُه بعدَه: ﴿أَنصَحَ لَكُمۡ﴾ [هود: 34] وقيل: هي (لا) النَّافيةُ[5]، والتَّقديرُ: أرسلنا نوحًا إلى قومه برسالة تتضمَّنُ إبطالَ عبادةِ غيرِ اللّٰه، وهذه هي وظيفةُ الرُّسُل: إقامةُ التَّوحيد، وإبطالُ الشِّرك والكفر.

نُكتةُ حذفِ مُتعلّق الفعلِ ﴿تَعۡبُدُوٓاْ﴾:

نهيٌ عامٌّ عن عبادةِ أحدٍ من دونِ الله عز وجل

في قولِه تعالى: ﴿أَن لَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۖ﴾ حُذِفَ متعلَّقُ الفعل

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/44.
(2) السمين الحلبي، الدر المصون: 6/309.
(3) القاسمي، محاسن التأويل: 6/86.
(4) المالقي، رصف المباني، ص: 339.
(5) السمين الحلبي، الدر المصون: 6/280.

﴿تَعۡبُدُوٓاْ﴾، وتقديرُه: (الأصنامُ، أوِ الكواكبُ، أو غيرُها) لنُكتةٍ بلاغيَّةٍ، وهي قصدُ التَّعميم مع الاختصارِ؛ لأنَّ حذفَ المعمول يُؤذنُ بالعموم[1]، وعليه فإنَّ قوله: ﴿لَّا تَعۡبُدُوٓاْ﴾؛ معناه: شيئًا أصلًا ﴿إِلَّا ٱللَّهَۖ﴾؛ أي: الملكُ الأعظمُ[2].

الغرضُ من القصْرِ في ﴿لَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۖ﴾:

قولُه تعالى: ﴿أَن لَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۖ﴾ استثناءٌ منَ النَّهي، فهو يوجِبُ نفيَ غيرِ المُستثنى، وإيجابَ المُستثنى، وهذا يفسِّرُ الإنذارَ المتقدِّمَ في قوله: ﴿إِنِّي لَكُم نَذِيرٞ مُّبِينٞ﴾، فقد بيَّن تعالى أنَّ ذلك الإنذارَ إنَّما هو بنهْيِهم عن عبادة غيرِ اللّه، والأمرِ بعبادتِه جلَّ ذِكرُه[3]، والغرضُ منَ القصْرِ: تمكينُ الكلام وتقريرُه في الذِّهن مع المبالغةِ في المعنى[4]؛ إذ إنَّه يُستخدمُ لحبس الصِّفةِ على الموصوف بها مع نفْيِها عن غيره، فقولُه: ﴿لَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۖ﴾؛ أي: احبِسوا العبادةَ على اللّه تعالى فقط، واترُكوا كلَّ ما تعبدونَه من دونِه، وهذا فيه مِن التَّوكيدِ ما لا يخفَى، كما أنَّ القصْرَ من ضروب الإيجازِ الذي هو أعظمُ ركنٍ من أركان البلاغةِ، إذ إنَّ جملةَ القصْرِ في مقام جُملتين، فجملةُ (لا إله إلا اللّه) تعادلُ: اللّه إلهٌ، وليس إلهًا غيرُه[5]، وهو أيضًا درجةٌ عُليا من درجات التَّوكيدِ[6]، وسِرُّ إيثارِ القصْرِ بهذه الصُّورة يظهرُ من ثلاثةِ أوجُهٍ:

نهَى نوحٌ عليه السلام قومَه عن عبادةِ غيرِ الله، وأمرَهم بعبادتِه وحدَه

أحدُها: أنَّ القصْرَ باستخدام الاستثناءِ المُفرَّغِ أعمُّ من صُوَرِ الاستثناءِ الأخرى وأشملُ، وذلك أنَّه لو قيل: (ما حضرَ إلا زيدٌ) فقد

(1) عبد العزيز عتيق، علم المعاني، ص: 130.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 9/268.
(3) ابن عادل، اللباب في علوم الكتاب: 10/466.
(4) الهاشمي، جواهر البلاغة، ص: 170.
(5) الهاشمي، جواهر البلاغة، ص: 173.
(6) حسن طبل، علم المعاني، ص: 178.

نُفِي كلُّ حضور غيرِ حضور زيدٍ، فهذه الصُّورة منَ الاستثناء تَسلبُ الوصْفَ عن كلِّ أحدٍ، ثمَّ تُثبتُه لواحدٍ بعينه، فلا يكاد أحدٌ يتَّصفُ به سواه؛ ولذلك أُوثرت هذه الصُّورةُ في كلمة التَّوحيد العظمى: (لا إله إلا الله)، وهو معنى ما قاله نوحٌ عليه السلام لقومه: ﴿لَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۖ﴾؛ أي: اصْرِفوا العبادةَ عن كلِّ أحد، ووجِّهوها لله وحده، ولا شكَّ أنَّ هذا أبلغُ في التَّأكيد وأقوَى.

والثَّاني: أنَّ (إلَّا) تفيدُ الاختصاص، فإذا قيل: (قام الرِّجال إلَّا زيدًا) فقد أُثبِتَ القيامُ لجميع الرِّجال، ونُفِي عن زيد حصْرًا، وإذا قيل: (ما قام إلَّا زيدٌ) فقد نُفِي القيامُ عن كلِّ أحدٍ وأُثبِت لزيد حصْرًا، وهذا هو المرادُ هنا: نفيُ الألوهيَّة عن كلِّ أحدٍ، وإثباتُها لله تعالى حصْرًا.

والثَّالثُ: أنَّ القصْرَ بالنَّفي والاستثناء إنَّما يكونُ لِما يُنكره المخاطَبُ، كأن يقال: (ما حضر إلَّا زيدٌ) إذا كان المخاطَبُ ينكرُ أن يكون الحاضرُ زيدًا. ولذلك لا يصحُّ استعمالُ هذه العبارةِ في الأمر الظَّاهرِ، فلا يقال لمَن يُرَقِّقُ على أخيه، ويُنبِّهُ لِما يجبُ عليه من صلةِ الرَّحم: (ما هو إلا أخوك)[1].

سِرُّ اختيارِ ﴿ٱللَّهَۖ﴾ مَقصورًا عليه:

الله هو الإلهُ الحقُّ المُستحقُّ للعبادةِ

في قوله تعالى: ﴿لَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۖ﴾ جاء المقصورُ (العبادةُ) والمقصورُ عليه لفظُ الجلالةِ (الله)، ومنَ المعلوم أنَّ القصْرَ يفيد التَّخصيصَ؛ أي: تخصيصَ أمْرٍ بآخر[2]، وهو بهذا التَّخصيصِ يفيدُ أعلى درجاتِ التَّوكيدِ[3]، والمعنى هنا: تأكيدُ نفيِ الألوهيَّةِ وتوجيهِ العبوديَّة عن كلِّ ما سوى الله تعالى، وإثباتِها له وحدَه سُبحانه،

(1) السامرائي، معاني النحو: 2/250.
(2) أحمد شعيب، بحوث منهجية في علوم البلاغة، ص: 292.
(3) حسن طبل، علم المعاني، ص: 178.

وتخصيصِه بها ﷻ، وهذا قصرٌ حقيقيٌّ، مِن قصرِ الصِّفة التي هي الألوهيَّةُ واستحقاقُ العبوديَّة على موصوفٍ واحدٍ هو اللّه ﷻ، ويُراد منه قلبُ تصوُّرِ مَن يوجَّهُ له الخطابُ.

موقعُ جُملةِ ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ﴾ ودَلالتُه:

قولُه: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ أَلِيمٖ﴾ جُملةٌ تعليليَّةٌ لموجبِ النَّهيِ، والمعنى: نهيتُكم عن عبادة غيرِ اللّه لأنِّي أخاف عليكم. وفيها تصريحٌ بالمحذورِ، وتحقيقٌ لمعنى الإنذار[1]؛ فإنَّ شأنَ النِّذارة أنْ تثقُلَ على النُّفوسِ فكانت جديرةً بالتَّعليل لدفْعِ حرجِ ما يُلاقونَه[2]، وما حملَه عليه السلام على هذا التَّحذير الواضحِ إلَّا خوفُه على قومِه، وشفقتُه بهم، فهو منهم وهم منه بمقتضى القرابةِ والنَّسبِ[3].

مِن شأنِ النِّذارةِ أن تَثقُلَ على النُّفوسِ، فمتى عُلِّلت بالخوفِ قُبِلت

دَلالةُ التَّعبيرِ بالمضارعِ ﴿أَخَافُ﴾:

التَّعبيرُ بالفعلِ المضارعِ يفيدُ تجدُّدَ الحدثِ وتَكرارَه واستمرارَه، وهو في هذا السِّياق يدلُّ على تكرُّر وقوعِ الخوفِ من نبيِّ اللّه نوحٍ عليه السلام على قومه، وفيه إشارةٌ إلى تَكرار إنذارِه إيَّاهم مع استمرارِ إعراضِهم عنه.

تكرُّرُ خوفِ نوحٍ عليه السلام على قومِه من عقابِ الله

نُكتةُ التَّعْدِيةِ في ﴿عَلَيۡكُمۡ﴾:

جملةُ ﴿أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ﴾ ونحوُها مثل: أخشَى عليك، تُستعملُ للتَّوقُّع في الأمرِ المظنونِ أوِ المقطوعِ به باعتبارِ إمكانِ الانفلاتِ منَ المقطوعِ به، فيتعدَّى الفعلُ بنفسِه إلى الخوف منه، ويتعدَّى إلى المَخوفِ عليه بحرف (على) كما في الآية[4]، والأصلُ الذي تدورُ عليه معاني الحرف (على) هو الاستعلاءُ، حقيقيًّا كان أو

حِرْصُ نوحٍ عليه السلام على استنقاذِ قومِه جميعًا من عذابِ الله

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/200، والشوكاني، فتح القدير: 2/559.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/44.
(3) طنطاوي، الوسيط: 7/190.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/44.

مجازيًّا[1]، فكأنَّ نبيَّ اللّه نوحًا ﷺ جعلَ الخوفَ رداءً سابغًا نشرَه عليهم فجللهم به.

سِرُّ الإضافةِ في ﴿عَذَابَ يَوْمٍ﴾:

في إضافةِ العذابِ إلى زمن الوقوعِ فيه تهويلٌ له لشمولِه مُدّة اليومِ كلِّه ولطولِ المّدّة أثرٌ بالغٌ في قدرِ العذابِ.

هَـولُ الـعـذابِ شاملٌ لليوم كلِّه الـذي لايـعـلـمُ مُدّتَه إلا الله

الغرضُ منَ المجازِ في ﴿أَلِيمٍ﴾:

إنَّما وُصِفَ اليومُ بالألم؛ لأنَّ الألمَ فيه يقعُ، والمعنى: عذابَ يومٍ مُؤلمٍ؛ أي: موجِعٍ[2].

الـيـومُ الآخـرُ مُـؤلـمٌ كـلُّـه للكافرين لشدّةِ الـعـذابِ الواقعِ بهم

ووصْفُ اليومِ بالأليمِ مجازٌ عقليٌّ، وهو أبلغُ من أن يوصَفَ العذابُ بالأليمِ؛ لأنَّ شدَّةَ العذابِ لمَّا بلغتِ الغايةُ جعل زمانَه أليمًا؛ أي مُؤلمًا[3]. وهذا تعظيمٌ للعذابِ المحذَّرِ منه، ومبالغةٌ في التَّخويف به، فإذا كان اليومُ مُؤلمًا فما الظَّنُّ بما فيه منَ العذاب[4]!

والمُتألِّمُ حقيقةً هو الشَّخصُ المعذَّبُ المُدرِكُ، لا وصفُه، ولا زمانُه، وإذا وُصِفَا بالتّألُّم دلَّ على أنَّ الشَّخص بلغَ في تألُّمِه إلى حيث سرَى ما به منَ التَّألُّم إلى ما يُلابسُه منَ الزَّمان والأوصاف، فالأليمُ بمعنى: المُؤلَم - بفتح اللَّام - على أنَّه اسمُ مفعولٍ منَ الإيلام، ويجوزُ أن يكونَ بمعنى المُؤلِم - بكسر اللَّام - على أنَّه اسمُ فاعلٍ، وهو صفةُ اللّه تعالى في الحقيقة؛ إذ هو الخالقُ للألم[5].

دَلالةُ صيغة ﴿أَلِيمٍ﴾:

بناءُ فعيل في الصِّفة المُشبَّهةِ يدلُّ على الثُّبوت فيما هو خِلْقةٌ أو بمنزلتِها، كطويلٍ، وقصيرٍ، وفقيهٍ، وخطيبٍ، وهو في المبالغة

عـذابُـهـم ثـابـتٌ عـــلـى حـــال إيلامِـهـم؛ لأنّـه دائمُ الشّدَّةِ

(1) ابن يعيش، شرح المفصل: 4/497، والسامرائي، معاني النحو: 3/47.
(2) الزجاج، معاني القرآن: 3/46.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/44.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 9/268.
(5) البروسوي، روح البيان: 4/116.

يدلُّ على معاناة الأمرِ وتَكرارِه، حتى أصبح كأنَّه خِلقةٌ في صاحبِه وطبيعةٌ فيه، كعليم؛ أي أنَّه لكثرةِ نظرِه في العلم وتبحُّرِه فيه أصبح العلْمُ سجيَّةً ثابتةً فيه، وهذه الدِّلالةُ تنطبقُ على وصْفِ (الأليم) لِما يُعانيه المعذَّبُ من آلام التَّعذيبِ الحِسِّيِّ والنَّفسيِّ، فتنبعثُ أصواتُ تَألُّمه، وتُلازِمُه وتصيرُ ثابتةً له كالصِّفات الخَلقيَّة[1]، وقد جاء قولُه: ﴿أَلِيمٍ﴾ نكرةً لإفادة التَّهويل والتَّعظيمِ والتَّرويعِ؛ لتذهب النَّفسُ في تخيُّلِه كلَّ مذهبٍ من حيث الشِّدَّةُ والسَّطوةُ على صاحبه، ومن حيث الاستمرارُ والدَّوامُ، وهذا هو المناسبُ لمقام الزَّجرِ والإنذارِ والتَّخويفِ[2].

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الخوفُ والخشيةُ:

الخَشيةُ خوفٌ خاصٌّ وهي أشدُّ منَ الخوفِ

الخوفُ: توقُّعُ مكروهٍ عن أمارةٍ مظنونةٍ، أو معلومةٍ، كما أنَّ الرّجاءَ والطّمعَ توقُّعُ محبوبٍ عن أمارةٍ مظنونةٍ، أو معلومةٍ، ويُضادُّ الخوفُ الأمنَ لِما فيه منَ الطّمأنينة. ويُستعملُ الخوفُ في الأمور الدّنيويّةِ والأخرويّةِ[3]، والخوفُ: فزعُ القلبِ تخفُّ له الأعضاءُ، ولخفّةِ الأعضاء به سُمِّي خوفًا[4].

والخَشيةُ: خوفٌ يشوبُه تعظيمٌ، وأكثرُ ما يكونُ ذلك عن علْمٍ بما يُخشَى منه[5]، وأصلُها طمأنينةٌ في القلب تبعثُ على التّوقّي[6]، والخشيةُ لا تكونُ إلا لمؤمنٍ مصدِّقٍ؛ لذا خصَّ اللّه العلماءَ بها في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: 28][7].

(1) عبد الرحمن فودة، في رحاب النص، ص: 8.
(2) عبد الرحمن فودة، في رحاب النص، ص: 9.
(3) الرّاغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (خوف).
(4) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 2/170.
(5) الرّاغب، المفردات: (خشي).
(6) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 2/170.
(7) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 11/332، والرّاغب، المفردات: (خشي).

والخشيةُ: أشدُّ منَ الخوف؛ لأنَّها مأخوذةٌ من قولهم: شجرةٌ خاشيةٌ: أي يابسةٌ[1]، وتفترقُ الخشيةُ عنِ الخوف بأنَّها تكونُ عن يقينٍ صادقٍ بعظمة مَن نخشاه، كما يفترقُ الخشوعُ عنِ الخضوع، بأنّنا لا نخشعُ إلا عنِ انفعال صادقٍ بجلالِ مَن نخشعُ له، أمّا الخوفُ فيجوزُ أن يحدثَ عن تسلُّطٍ بالقهر والإرهابِ، كما أنَّ الخضوعَ قد يكونُ تكلُّفًا عن نفاقٍ وخوفٍ، أو تقيَّةٍ ومداراةٍ[2]، وبين الخوفِ والخشيةِ فرقٌ آخرُ، وهو أنَّ الخوفَ يتعلَّقُ بالمكروه وبترْكِ المكروه، أمّا الخشيةُ فتتعلَّقُ بمُنزلِ المكروهِ ولا يُسمَّى الخوفُ من نفس المكروهِ خَشيةً[3].

(1) أبو البقاء الكفويّ، الكلّيّات، ص: 428.

(2) عائشة عبد الرحمن، الإعجاز البياني للقرآن، ص: 226.

(3) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 241.

﴿فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [هود: 27]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

إثارةُ الشُّبهاتِ مَسلكُ المُفترين، وحِيلةُ المُضلِّلين

لمَّا حَكى ربُّ العزّة سُبحانه عن نوحٍ عليه السلام أنّه دعا قومَه إلى عبادة اللّه تعالى حَكى عنهم أنّهم طعَنوا في نبوّتِه بأنواعٍ منَ الشُّبهات؛ لِيبيّنَ لمكذّبي مكّةَ أنَّ محمّدًا ﷺ ليس بِدَعًا، وأنَّ حالَه معهم كحالِ مَن قبْلَه منَ الرّسلِ عليهم السلام مع أقوامِهم جملةً وتفصيلًا[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلْمَلَأُ﴾: المَلْء: مصدرُ مَلَأْتُ الإناءَ، وهو الامتلاءُ. والمِلْء: اسمُ ما يأخذُه الإناءُ منَ الماء إذا امتلأ[2]. وأصلُه منَ المُساواة والكمالِ في الشَّيء[3]، والمَلَأ: لجماعةٍ منَ النَّاس، يجتمعون للتَّشاوُرِ والتَّحادُثِ؛ لأنَّ من معاني المَلَأ أيضًا التَّشاوُرَ[4]. وكذلك المَلأ: أشرافُ النَّاس ورؤساؤهم؛ سُمُّوا بذلك لأنَّهم مُمتلئون بما يُحتاجُ إليه، ولأنَّهم يملَؤون القلوبَ هيبةً، والعيونَ جلالةً[5] ومالَأْتُه على الأمر: عاونْتُه وظاهرتُه عليه، وصرتُ من مَلَئه. وتمالَؤوا على فلان: اجتمعوا عليه[6].

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 24/520، وأبو حيّان، البحر المحيط: 6/140، والبقاعي، نظم الدّرر: 9/269، ورشيد رضا، تفسير المنار: 12/51، والمراغي، تفسير المراغي: 12/24، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/45، والهرري، حدائق الروح والريحان: 12/313.

(2) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (ملأ).

(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ملأ).

(4) الخليل، العين، والجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (ملأ).

(5) الأزهري، تهذيب اللغة، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ، وابن منظور، لسان العرب: (ملأ).

(6) الرّاغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (ملأ).

2) ﴿أَرَاذِلُنَا﴾: الرَّذْلُ والرَّذيلُ والأَرْذَلُ: الدُّونُ منَ النَّاس، والرَّديءُ من كلِّ شيءٍ[1]. ومعناه المِحوريُّ: تميُّزُ الشَّيء ضعيفًا، رديئًا كان أو فاسدًا[2].

ورَذُل يَرْذُل، ومصدرُه رَذَالَة. والموصوفُ به الأَرْذَلُ والرَّذيلُ والرَّذْل، وجمع الأرذل: الأراذلُ، والأرذلون، والأرذال. وجمع الرَّذيل: الرُّذَلَاء. وجمع الرَّذْل: الرَّذْلون. وجميعُهم بمعنى واحدٍ، وهو الخسيسُ أوِ الدَّنيء من كلِّ شيء، المرغوبُ عنه لرداءتِه وخِسَّته[3]. وفي قول الله ﷻ: ﴿وَٱتَّبَعَكَ ٱلۡأَرۡذَلُونَ ١١١﴾ [الشعراء: 111]. قال قومُ نوح لنوحٍ: اتَّبعك أَرَاذلُنا، نسَبوهم إلى الحياكةِ والحجامةِ، والصِّناعاتُ لا تَضرُّ في باب الدِّيانات[4]. وفي قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمۡ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ ٱلرَّأۡيِ﴾. أي: أخِسَّاؤنا[5].

3) ﴿بَادِيَ ٱلرَّأۡيِ﴾: بدا الأمرُ، يبدو بَدْوًا وبُدُوًّا: ظهرَ. وأبديتُه: أظهرتُه[6]. وأصلُه من ظهور الشَّيءِ[7]، وبادي الرَّأي: ظاهرُه. إذا كان بغير همزٍ، وإذا هُمزت: يكونُ مِن الفعل بدأتُ، معناه: أوّلُ الرَّأي. وبكليْهما جاء قولُ الله تعالى حكايةً عن قوم نوح: ﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمۡ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ ٱلرَّأۡيِ﴾. فعلى قراءة بادي الرأي: اتّبعوك، وهم أراذلُنا فيما يظهرُ لنا منَ الرَّأي. وعلى قراءة الهمز معناه: في أوّل الرَّأي وابتدائِه[8].

4) ﴿فَضۡلٍ﴾: الفضلُ: الزِّيادةُ على الاقتصادِ، وكذلك الخيرُ أيضًا. وهو ضدُّ النَّقصِ والنَّقيصةِ، وجمعُه: فُضُول[9]. والإفضالُ: الإحسانُ. يقال أفْضَلَ الرَّجلُ على غيره: أناله مِن فضله وأحسنَ إليه. وكذلك تَفَضَّل عليه، بالمعنى نفسِه[10]، والفَضْلُ أيضًا: الشَّرَفُ،

(1) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (رذل).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (رذل).
(3) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح، والرّاغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (رذل).
(4) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (رذل).
(5) الزبيدي، تاج العروس: (رذل).
(6) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (بدا).
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بدا).
(8) الأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (بدا).
(9) الجوهري، الصحاح، وابن فارس، المجمل، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (فضل).
(10) الأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (فضل).

يقال: فضَل يفضُلُ فضلا: شَرُفَ. ورجلٌ فاضلٌ، أي: ذو فضلٍ[1]. و"الفضلُ ضربان: محمودٌ، كفضل العلْمِ والحِلم. ومذمومٌ: كفضل الغضبِ على ما يجبُ أن يكونَ عليه، والفضلُ في المحمود أكثرُ استعمالًا، والفُضُولُ في المذموم"[2]. ومعناه المِحوريُّ: زيادةٌ في الشَّيء متميِّزةٌ عنه[3].

5) ﴿نَظُنُّكُمْ﴾: الظَّنُّ: "اسمٌ لِما يحصلُ عن أمارةٍ، ومتى قويتْ أدَّت إلى العلْمِ، ومتى ضعفتْ جدًّا لم يتجاوزْ حدَّ التَّوهُّم"[4]، فهو يأتي بمعنى اليقين وبمعنى الشكِّ كذلك[5]، ومعناه المِحوريُّ: "توقُّعُ وجودِ شيء مهمٍّ في باطنٍ لأمارةٍ قويَّةٍ على ذلك"[6]، ومنه قولُه تعالى حاكيًا قولَ الملأ من قوم نوح: ﴿بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ﴾. أي: نتيقّنُكم كاذِبين[7].

المَعْنى الإجْماليُّ:

دعوةُ الأنبياء مُواجَهةٌ بالتَّكذيب منَ المُتكبِّرين، وبالتَّسليمِ منَ المُستضْعَفين

فقال الكبراءُ والأشرافُ رادِّين دعوةَ نوح ونبوَّتَه عليه السلام: ما نراك إلَّا آدَميًّا مثلَنا في الخلْقِ والصُّورة والجنسِ، ولا مزيَّةَ لك علينا تخصُّك بالنُّبوَّة ووجوبِ الطَّاعة دونَنا؛ وذلك على سبيل الإنكار والمكابرةِ والتَّكذيبِ، وما نراك اتَّبعك وأطاعك في دعوتِك إلَّا الَّذين هم سِفْلَتُنا وأخِسَّاؤنا من أهل المِهن المُحتَقَرةِ مِنْ غير تفكُّرٍ وتدبُّرٍ وتروٍّ في بادئ رأيِهم فيما يظهرُ لنا، وما نتبيَّن كذلك لكم علينا مِنْ فضلٍ من علمٍ أو قوَّةٍ أو أصالةِ رأيٍ نلْتُمُوهُ بمخالفتِكم إيَّانا في عبادة الأوثانِ إلى عبادةِ اللّه؛ حتَّى نتَّبِعَكم ونقبلَ قولَكم، بل نظنُّكم كاذبين

(1) ابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (فضل).
(2) الرّاغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ، والزبيدي، تاج العروس: (فضل).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (فضل).
(4) الرّاغب، المفردات، والزبيدي، تاج العروس: (ظن).
(5) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (ظن).
(6) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (ظن).
(7) ابن الجوزي، زاد المسير: 2/369.

فيما تدَّعونَه لكم منَ البرِّ والصَّلاحِ والعبادةِ والسَّعادةِ في الدَّار الآخرة إذا صرتُم إليها[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

معنى الفاءِ ودَلالتُها في ﴿فَقَالَ﴾:

مُبادرةُ أشرافِ الكفّارِ وزعمائِهم إلى تكذيبِ نوحٍ عليه السلام ومجادلتِه بالباطلِ

الفاءُ عاطفةٌ، عُطِف بها قولُ الملأ من قومِه على فعلِ ﴿أَرْسَلْنَا﴾ للإشارةِ إلى أنَّهم بادَروه بالتَّكذيبِ والمجادلةِ الباطلةِ لمَّا قال لهم: ﴿إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ إلى آخره. ولم تقعْ حكايةُ ابتداءِ محاورتِهم إيَّاه بـ (قال) مجرَّدًا عنِ الفاء كما وقعَ في الأعراف؛ لأنَّ ابتداءَ محاورتِه إيَّاهم هنا لم يقعْ بلفظ القولِ، فلم يحكِ جوابَهم بطريقةِ المُحاوراتِ بخلافِ آيةِ الأعراف[2]، فقوله: ﴿فَقَالَ﴾؛ أي: فتسبَّبَ عن هذا النُّصحِ العظيمِ أن قال أشرافُ قومه: ﴿مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا﴾[3]، ودَلالةُ الفاء هنا هي بيانُ السُّرعةِ والمبادرةِ؛ أي: فبادرَ الأشرافُ والزُّعماءُ الذين كفَروا من قوم نوحٍ عليه السلام إلى الجواب؛ ليكونَ الدَّهماءُ تبعًا لهم كعادتِهم، وليُبطلوا بمبادرتِهم إلى الرَّدِّ دعوتَه بزعْمِهم[4].

سِرُّ الإسنادِ في ﴿ٱلْمَلَأُ﴾:

المُبادِرون بالكفرِ هُمُ الملأ من قومِ نوحٍ عليه السلام

أُسندَ الفعلُ إلى الفاعلِ المحلَّى باللَّام في قوله تعالى: ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَأُ﴾ لتعْيين الكافرين من قوم نوحٍ عليه السلام، فإنَّ قولَه تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ﴾ فيه تعْيينٌ للمرسَلِ إليهم، وهم جميعُ أفرادِ قومِ نوحٍ عليه السلام، فلمَّا قال سُبحانه بعدَه: ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ تعيَّنَ أنَّ الذين كفروا همُ الملأ، وهم طائفةُ الأشرافِ والكبراءِ من قوم نوحٍ عليه السلام، فأخرجتِ اللّامُ التي في ﴿ٱلْمَلَأُ﴾ غيرَ الملأ مِن كبيرة الكفرِ.

(1) ابن جرير، جامع البيان: 12/379، والبغوي، معالم التنزيل: 4/171، والمراغي، تفسير المراغي: 12/25.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/45.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 9/269.
(4) رشيد رضا، تفسير المنار: 12/52.

معنى اللَّام ودَلالتُها في: ﴿ٱلۡمَلَأُ﴾:

اللّامُ في قوله: ﴿فَقَالَ ٱلۡمَلَأُ﴾ هي لامُ العهد، وهي هنا للعهدِ الحُضوريِّ، والمقصودُ بها الملأُ الحاضرون في المجلس الذي كان يجلسُ فيه أكابرُ قوم نوحٍ وأشرافُهم إذ قدِمَ عليهم نوحٌ عليه السلام ليَدْعوَهم إلى عبادة اللّه وحدَه ونبْذِ عبادةِ الأصنام.

أوّلُ الكفرةِ المُجادِلين من قومِ نوحٍ عليه السلام هُمُ الأشرافُ والزّعماءُ الحاضِرون

دَلالةُ اسم الموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾:

وُصِفَ الملأُ الكافرون من قوم نوحٍ عليه السلام بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾، وهو اسمٌ موصولٌ خاصٌّ، وجاءت صلتُه جملةً فعليَّةً، فأمَّا التَّعبيرُ بالموصولِ فلِأنَّه أريدَ به الوصفُ بما تضمَّنَتْه صلةُ الموصول؛ أي أنَّه سُبحانه وصفَهم بالكفر لِذمِّهم والتَّسجيلِ عليهم بذلك من أوَّل الأمرِ، لا لأنَّ بعضَ أشرافهم ليسوا بكفَرةٍ[1]. وأمَّا التَّعبيرُ بالماضي في جملةِ الصِّلةِ فللتَّأكيد على أنَّ هذا الوصفَ قد تحقَّقَ فيهم وتمكَّنَ منهم، وكأنَّهم - لفرْطِ إعراضِهم عنِ الحقِّ - كفروا مِن قَبْلِ ما تأتيهمُ الدَّعوةُ إليه!

شدّةُ إعراضِ هؤلاء الزُّعماءِ تبيِّنُ وكأنَّ الكفرَ تحقَّقَ في نفوسِهم قبلَ سماعِ الدّعوةِ

دَلالةُ حرفِ الجرِّ ﴿مِن﴾ ومعناه:

يجوزُ أن تكونَ ﴿مِن﴾ في قوله تعالى: ﴿مِن قَوۡمِهِۦ﴾ تبعيضيَّةً أو لبيان الجنسِ، فعلى الأوَّل يكونُ المعنى أنَّ الملأ هم بعضُ قومِ نوحٍ عليه السلام، وقد مُلئوا بالكفر، أمَّا البقيَّةُ الذين وصفَهم الملأُ بقولهم: ﴿أَرَاذِلُنَا﴾ فهمُ الذين آمنوا به واتَّبعوه، وعلى الثَّاني يكونُ المعنى أنَّ الكافرين ما هم إلَّا طائفةٌ من قوم نوحٍ عليه السلام، فليسوا غرباءَ عنهم، وليسوا بوافِدين، بل هم من جنسِ القومِ.

أوّلُ الكافرين بنوحٍ عليه السلام طائفةٌ من أشرافِ قومه

سِرُّ الإضافةِ في ﴿قَوۡمِهِۦ﴾:

إضافةُ الضَّميرِ العائدِ إلى نوحٍ عليه السلام إلى كلمةِ (قوم) في قوله

(1) الآلوسي، روح المعاني: 6/237.

أوَّلُ مَن كذَّب نوحًا عليه السلام وكفرَ بدعوتِه وآذاه همُ الأقرَبون من قومِه

تعالى: ﴿مِن قَوۡمِهِۦ﴾ يبيِّنُ أنهم أقاربُ أعزَّةٌ؛ أي: الذين هم في غاية القوَّةِ لِما يريدون محاولةَ القيامِ به[1]، فهذه الإضافةُ تدلُّ على أنَّ طعنةَ الألم بالعُتوِّ والاستكبارِ والعصيانِ جاءتْه منَ الأقربين الذين يُضافون إليه قرابةً ونسبًا ويُضافُ هو إليهم كذلك، وفي هذا تسليةٌ للنَّبيِّ ﷺ كي لا يحزنَ قلبُه الشَّريفُ بما يُلاقيه من قومِه وبعضِ أعمامه منَ الكفر والعَداءِ.

الغرضُ منَ القصْرِ ﴿مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرٗا مِّثۡلَنَا﴾:

يَستنكرُ الكافرون أن يكونَ الرَّسولُ بَشرًا، وما كانوا هم مَلائكةً

عُبِّر عن قيلِ الملأ من قومِ نوحٍ عليه السلام بأسلوب القصْرِ لإفادة عددٍ منَ الأغراض، منها:

التَّوكيدُ؛ فإنَّ القصْرَ يُعدُّ درجةً عُليا من درجات التَّوكيدِ[2]، والتَّعريضُ، وهذا من مرامي القصرِ[3]، والغرضُ منه التَّعريضُ بنوحٍ عليه السلام، فقد أرادوا أن يقولوا: ما دمتَ بشرًا مثلَنا فلِمَ اختصَّك اللّه بالنّبوَّة من دونِنا؟ وهذا أيضًا ردٌّ على كفَّار قريشٍ الذين قالوا للنَّبيِّ ﷺ مثلَما قال قومُ نوح لنوحٍ عليه السلام. وقد جاء القصرُ بالنَّفي والاستثناءِ وهو آكدُ صُوَرِ القصْرِ وأعمُّها وأشملُها خصوصًا إذا جاء مُفرَّغًا، إضافةً إلى ما تتضمَّنُه (إلَّا) من معنى التَّخصيص[4]، كما أنَّ القصرَ باستخدام النَّفي والاستثناءِ يُوجَّهُ إلى المخاطَبِ المنكِرِ أو مَن ينَزِّلُ منزلتَه[5]، ففيه دليلٌ على أنَّهم نزَّلوا نوحًا عليه السلام منزلةَ مَن يُنكرُ أنَّه بشرٌ، وهذا من فرْطِ غُلوِّهم في اعتقادِهم الباطلِ أنَّ الرُّسلَ لا يكونون إلَّا ملائكةً، كما حكى القرآنُ عنهم في موضعٍ آخرَ: ﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةٗ﴾ [المؤمنون: 24].

(1) البقاعي، نظم الدرر: 9/269.
(2) حسن طبل، علم المعاني، ص: 178.
(3) أحمد شعيب، بحوث منهجية في علوم البلاغة، ص: 298.
(4) السامرائي، معاني النحو: 2/249 - 250.
(5) الهاشمي، جواهر البلاغة، ص: 170.

سِرُّ إيثارِ التَّعبيرِ بالرُّؤيةِ:

في قوله تعالى: ﴿فَقَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرٗا مِّثۡلَنَا﴾ عبَّر الملأُ عنِ اعتراضِهم بما يَبدو لهم من ظاهرِ الأمر رأيًا يرونَه بأعينِهم. ومرادُهم: ما أنت إلَّا بشرٌ مثلُنا، ليس فيك مزيَّةٌ تخصُّك من دونِنا بما تدَّعيه منَ النُّبوَّة، ولو كان كذلك لرأيناه، لا أنَّ ذلك محتملٌ ولكن لا نراه[1]، وفي التَّعبيرِ بالرُّؤيةِ إشارةٌ إلى سفَهِ القوم إذْ وقَفوا عندَ ظواهر الأشياء ولم يتعمَّقوا في حقائقِها.

مِن ضيقِ العَطَنِ الوقوفُ عندَ الظَّواهرِ، وعدمُ التَّدبُّرِ في الحقائقِ البواهرِ

دَلالةُ التَّعبيرِ بالمضارعِ ﴿نَرَىٰكَ﴾:

في التَّعبير بالمضارع في قول الملأ: ﴿مَا نَرَىٰكَ﴾ إفادةٌ لمعنى تجدُّدِ الرُّؤية، ومرادُهم مِن ذلك أنَّهم كلَّما رأوا نوحًا عليه السلام رأوْه على حالٍ لا تتغيَّرُ، فكأنَّهم أرادوا أنْ يَنسِبوا له صفةً ثابتةً لا تتغيَّرُ مهما تغيَّرتِ الرُّؤيةُ زمانًا أو مكانًا، فقالوا: ﴿مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرٗا مِّثۡلَنَا﴾، فلستَ تتقلَّبُ بين البشريَّةِ وغيرِها، بل أنت بشرٌ مثلُنا، وهذا يدلُّ أيضًا على تكرُّرِ ورودِ المَرئيِّ - وهو نوحٌ عليه السلام - عليهم في مجالسِهم ممَّا يُفهَمُ منه تكرُّرُ الدَّعوة والإنذارِ على ما حكاه القرآن الكريم: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوۡتُ قَوۡمِي لَيۡلٗا وَنَهَارٗا ۝٥﴾ [نوح: 5].

لا يَكفُّ الرُّسلُ عن دعوةِ أقوامِهم، وغِشيانِهم في مجالسِهم ونَواديهم

دَلالةُ المقصورِ عليه نكرةً ﴿بَشَرٗا﴾:

جاء المقصورُ عليه نكرةً في قول الملأ: ﴿مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرٗا﴾ للدِّلالةِ على أنَّهم أرادوا التَّحقيرَ والتَّصغيرَ، والتَّجاهلَ والاستهزاءَ[2]؛ تقليلًا من شأن نوحٍ عليه السلام وتقليلًا من شأن أتباعِه، واستبعادًا لفكرةِ أن يكون الرَّسولُ منَ البشر.

إثباتُ استهزائِهم تقبيحٌ لشأنِهم

سِرُّ إيثارِ التَّعبيرِ بالبشريَّةِ:

المرادُ بقولهم: ﴿بَشَرٗا﴾؛ أي: آدميًّا. والمعنى: أنَّهم قالوا له: ما

مَن عمِيَ عن جليِّ حكمةِ ربِّه مَنعَ أن يكونَ النَّبيُّ بشرًا وجعَلَ الإلهَ حجرًا

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/200.
(2) السامرائي، معاني النحو: 1/41.

نراك إلا آدميًّا مثلَنا في الخَلْق. فأنكروا أن يُرسلَ اللّه ﷻ بشرًا إلى الخلْق[1]؛ أي: لستَ بملَكٍ، ولكنَّك بشرٌ، فكيف أوحِي إليك من دونِنا[2].

دَلالةُ وصْفِ المقصورِ بـ ﴿مِّثْلَنَا﴾:

المِثل: السَّادُّ مسدَّ غيرِه في الحسِّ، بمعنى أنَّه لو ظهرَ للمشاهدة لَسَدَّ مسَدَّه[3]. وقولُهم: ﴿مِّثْلَنَا﴾؛ أي: في مُطلق البشريَّة، لستَ بملَك تصلح لِما لا تصلحُ له من الرِّسالة[4]؛ يعني: أنت مساوينا في البشريَّة ولا فضلَ لك علينا، فكيف امتزت بأنَّك رسولُ اللّه[5]؟

تَمادي المُشركين في السّخريةِ والاستهزاءِ منَ الرُّسلِ

سِرُّ الإضافةِ ﴿مِّثْلَنَا﴾:

إضافةُ الصِّفةِ إلى ضميرِ الجمعِ (نا) في قول الملأ: ﴿مِّثْلَنَا﴾ أريدَ بها الاستهزاءُ والتَّهكمُ؛ كمَنْ يقولُ لمن يسخرُ منه: هذا رئيسنا وزعيمُنا، مع أنَّه لا يصلح إلَّا أن يكون تابعًا خادمًا، وهكذا أرادوا، بل إنَّهم ادَّعَوْا لأنفسهم الشَّرفَ والفضلَ إذ جعلوه عليه السلام منسوبًا ومضافًا إليهم، فكأنَّهم همُ الأصلُ المعوَّلُ عليه.

يدَّعي المُشركون لأنفسِهم الشَّرفَ، ولا يُوَقِّرون إلَّا أهلَ الغِنى والتَّرفِ

دَلالةُ الواو في ﴿وَمَا نَرَىٰكَ﴾:

الواو في قول الملأ: ﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ﴾ عاطفةٌ لا محلَّ لها منَ الإعراب، وجملةُ: ﴿وَمَا نَرَىٰكَ﴾ في محلِّ نصبٍ معطوفةٌ على جملة مقولِ القول[6]، ولأجل قصْدِ هذا التَّشريك بين الجُملتَين في المحلِّ الإعرابيِّ، ولكوْنِ الجملتَين خبريَّتَين، ولتمامِ المناسبةِ بينَهما؛ أوثِرَ أن يوصَلَ بينَهما بالواو، وقد دلَّ الوصلُ على شدَّةِ مجادلةِ الملأ من قوم نوحٍ نوحًا عليه السلام، وأنَّهم أخذوا يُعدِّدون الحُجج - بزعمهم - ليُبطلوا بها نبوَّتَه عليه السلام.

حُجَّةُ المُشركين داحضةٌ، وأهواؤهم على قلوبِهم رابِضةٌ

(1) مكي، الهداية: 5/3375.
(2) القاسمي، محاسن التأويل: 6/87.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 9/271.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 9/269.
(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/140.
(6) محمود صافي، الجدول: 6/250.

الغرَضُ من أسلوبِ القصْرِ:

الغرض من أسلوب القصر في قوله تعالى: ﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمۡ أَرَاذِلُنَا﴾ هو المبالغةُ في المعنى وقصْدُ توكيدِه، وذلك عن طريق استخراجِ مُثبَتٍ واحدٍ من عموم ما نُفيَ، فلمَّا نفَوا الرُّؤيةَ عنه فتشوَّفَ السَّامعُ إلى ما يقعُ عليه من المعاني، بيَّنوا أنَّ مرادَهم رؤيةُ من اتَّبعه فقالوا: ﴿ٱتَّبَعَكَ﴾؛ أي: تكلَّفَ اتِّباعَك ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمۡ﴾؛ أي: خاصَّةً ﴿أَرَاذِلُنَا﴾[1] وقد اختيرَ النَّفيُ والاستثناءُ في صياغة أسلوبِ القصْرِ لِما يفيدُه من التَّأكيد والعموم، ولِما في (إلَّا) من معنى الاختصاص[2]؛ إذ إنَّهم أرادوا تخصيصَ اتِّباع دعوةِ نوحٍ عليه السلام بالأراذل من قومِه، ليكونَ هذا مطعنًا يوجِّهونَه إلى الدَّعوةِ المباركةِ بزعْمِهم، بالإضافة إلى أنَّهم نزَّلوا نوحًا عليه السلام مَنزلةَ المُنكِرِ لِما يقولونه[3]؛ مبالغةً في التَّعريض به، والإنكارِ عليه.

مبالغتُهم في تحقير نوحٍ تأكيدٌ لاستِحقاقِهمُ العذابَ الشّديدَ

دَلالةُ التَّعبيرِ بالمضارعِ ﴿وَمَا نَرَىٰكَ﴾:

يدلُّ التَّعبيرُ بالمضارعِ على تجدُّدِ الحدثِ وتَكرارِه، والمقصودُ به هنا أنَّ هؤلاء الملأ الكافرين كلَّما نظَروا إلى مَن آمنَ بنوحٍ عليه السلام واتَّبعه فيما يقولُ رأوْا أنَّهم منَ السُّوقةِ، والضُّعفاءِ، فصدَّهم هذا عنِ الإيمان به، وكأنَّهم - لعنهم الله - أرادوا أن يجعَلوا سُخريتَهم منه عليه السلام محلَّ اعتذارٍ عن عدم اتِّباعه، فقالوا: لو اتَّبعك واحدٌ من أشرافِنا وكبرائِنا لاتَّبعناك لكنَّ هذا لم يحصلْ!

حركاتُ الدَّاعِيةِ مَرصودةٌ من أعدائِه، مَتبوعةٌ من أوليائِه

دَلالةُ بالماضي ﴿ٱتَّبَعَكَ﴾:

يفيدُ التَّعبيرُ بالماضي التَّحقيقَ والتَّأكيدَ، وذلك بأصلِ الوضعِ؛ إذ إنَّه يدلُّ على أنَّ الفعْلَ قد وقع في الزَّمان الماضي وانتهى، وهذا مرادُ

مَن وقرَ الإيمانُ في قلبِه اطْمأنَّ به، ومَن قُضِيَ عليه بالشَّقاءِ فلن يَهْديَه هادٍ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 9/270.
(2) السامرائي، معاني النحو: 2/249، وحسن طبل، علم المعاني، ص: 178.
(3) حسن عبد الرزاق، البلاغة الصافية، ص: 175، وأحمد مطلوب، أساليب بلاغية، ص: 183.

هنا، وهو ما يفيدُه الفعلُ الماضي: ﴿ٱتَّبَعَكَ﴾؛ لأنَّ هؤلاء الملأ أرادوا أن يجْعَلوا حجَّتَهم قويَّةً ليَدحَضوا بها نبوَّةَ نوحٍ عليه السلام.

موقعُ جُملةِ ﴿ٱتَّبَعَكَ﴾ ودَلالتُه:

يقعُ الكافرُ اللّائمُ على المُؤمنِ فيما عابَ فيه عليه، وهيهاتَ أن يَستويا

قولُ الملأ ﴿مَا نَرَىٰكَ﴾ يجوزُ أن تكون هذه الرُّؤيةُ قلبيَّةً، وأن تكونَ بصريَّةً، فعلى الأوّل يكونُ قولُه: ﴿ٱتَّبَعَكَ﴾ في محلِّ نصبٍ مفعولًا ثانيًا، وعلى الثَّاني في محلِّ نصبٍ على الحال[1]، وعلى كلا التَّقديرين يدلُّ موقعُ الجملة على ما وقرَ في قلوب الملأ من اعتقادِهم الباطلِ النَّاشئِ عن مجرَّد النَّظرِ الظَّاهريِّ لا المتأمِّلِ، ومن هنا يظهرُ أنَّهم وقَعوا فيما جعَلوه بزعْمِهم عيْبًا في أتباعِ نبيِّ الله نوحٍ عليه السلام إذ قالوا: ﴿بَادِىَ ٱلرَّأْىِ﴾. فما أظلَمَهم!

سِرُّ المقصورِ عليه بالاسم الموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾:

لا يعلمُ الكافرون إلَّا ظاهِرًا منَ الحياةِ الدُّنيا، تُغْريهمُ الظَّواهرُ، وتَغرُّهمُ المَظاهِرُ

عبَّر عنِ المؤمنين بنوحٍ عليه السلام بالموصولِ والصِّلةِ لحكايةِ أنَّ في كلام الذين كفروا إيماءً إلى شُهرة أتباعِ نوحٍ عليه السلام بين قومِهم بوصْفِ الرَّذالةِ والحقارةِ، وكان أتباعُ نوحٍ عليه السلام من ضعفاءِ القوم، ولكنَّهم من أزكياءِ النُّفوس ممَّن سبقَ لهمُ الهُدى[2]، وإنَّما لم يقولوا: (إلا أراذلنا)؛ مبالغةً في استرذالِهم، لِما في التَّعبير بالموصول منَ التَّأكيد على ما تضمَّنَتْه جملةُ الصِّلة من وصْفٍ أريد إلصاقُه بالموصوفِ، وكأنَّهم إنَّما استرْذَلوهم لفقْرِهم؛ لأنَّهم لمَّا لم يعلَموا إلا ظاهرًا منَ الحياة الدُّنيا كان الأشرفُ عندَهم الأكثرَ منها حظًّا، والأرذلَ من حُرِمها، ولم يَفقهوا أنَّ الدُّنيا بحذافيرِها لا تَعدلُ عند الله تعالى جناحَ بُعوضةٍ، وأنَّ النَّعيمَ إنَّما هو نعيمُ الآخرة، والأشرفُ مَن فاز به والأرذلُ مَن حُرِمه[3].

(1) السمين الحلبي، الدر المصون: 6/309 - 310.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/48.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 6/237.

نُكتةُ اسمية جملةِ الصّلةِ ﴿هُمْ أَرَاذِلُنَا﴾:

بالمعاني يحصلُ الامتيازُ لا بالمَباني

في مجيء صلةِ الموصول جملةً اسميَّةً توكيدٌ لِما تضمَّنَتْه من صفةٍ أريدَ وصفُ الموصول بها، ومبالغةٌ في إلصاقِها بالموصوف بها. وقد أفاد هذا المعنى ما في الجملةِ الاسميَّةِ منَ الدِّلالة على الثُّبوتِ والدَّيمومةِ، وزاد من هذا التَّوكيدِ وقوعُ هذه الجملةُ صلةً لموصولٍ موصوفٍ به أتباعُ نوحٍ عليه السلام، وأنَّ هذه الصِّفةَ ملازمةٌ لهم غيرُ مُنفكَّةٍ عنهم، فقد كانوا كذلك في الماضي، ولم يتغيَّرْ حالُهم بعد اتِّباعِهم نوحًا عليه السلام، وفي هذا تعريضٌ بنوحٍ عليه السلام، وكأنَّهم قالوا له: لم ينفعْ أتباعَك اتِّباعُهم إيَّاك، فلم تتغيَّرْ حالُهم!

الغرَضُ منَ القصْرِ في ﴿هُمْ أَرَاذِلُنَا﴾:

الكفّارُ يُريدون تأكيدَ إلصاقِ صِفةِ الرّذالةِ بالمؤمنين

في قول الملأ: ﴿هُمْ أَرَاذِلُنَا﴾ حصْرٌ مُستفادٌ من تعريفِ طرفَي الإسنادِ أفادَ تخصيصَ صفةِ الرَّذالة بالأتباع المؤمنين كما رماهُم بها الملأ الكافرون لعنَهمُ اللّه، وقد دلَّ على المبالغةِ في الإخبار، وكأنَّه مُؤْذِنٌ بتأكيدِ حصْرِ مَن اتَّبعه، وأنَّهم همُ الأراذلُ لم يَشركْهم شريفٌ في ذلك[1].

دَلالةُ مجيء الجمع ﴿أَرَاذِلُنَا﴾:

سبيلُ الذَّمِّ لا يَسلكُها إلَّا مَن عجز عنِ الحِجاجِ، فيَستر ضعْفَه باللِّجاجِ

الأراذِلُ فيه وجهان، أحدُهما: أنه جمعُ الجمعِ، والثَّاني: أنَّه جمعٌ فقط. والقائلون بالأوَّل اختلَفوا فقيل: جمعٌ لـ (أرْذُل)، وأرْذُل جمعٌ لـ(رَذْل)؛ نحو: كَلْب وأكْلُب وأكَالب. وقيل: بل جمعٌ لـ(أرْذال)، وأرْذال جمعٌ لـ(رَذْل) أيضًا. والقائلون بأنَّه ليس جمعَ جمعٍ، بل جمعٌ فقط قالوا: هو جمعٌ لـ(أرْذَل)، وإنَّما جاز أن يكونَ جمعًا لـ(أرْذَل)؛ لجرَيانِه مجرَى الأسماء من حيث إنَّه هُجِرَ موصوفُه كالأبْطحِ والأبرقِ.

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/140.

وقال بعضُهم: هو جمعُ (أرْذَل) الذي للتَّفضيل، وجاء جمعًا كما جاء ﴿أَكَٰبِرَ مُجۡرِمِيهَا﴾ [الأنعام: 123] و«أحاسِنُكم أخلاقًا»[1]. وهذا هو الظَّاهرُ أنَّه جمعُ (أرْذَل) التي هي أفعلُ التَّفضيل[2]؛ أي: وما نراك اتَّبعك يا نوحُ إلا الذين هم أقلُّنا شأنًا، وأحقرُنا حالًا، وأهونُنا أمرًا من غير أن يتثبَّتوا من حقيقة أمرك، ولو تَثبَّتوا وتَفكَّروا ما اتَّبعوك[3].

وهذه مبالغةٌ منهم في تحقيرِ شأنِ أتباعِ نبيِّ الله نوحٍ عليه السلام لتكونَ ذريعةً لتحقير الدَّعوةِ والدَّاعي؛ ولذلك عظُمَ انتقامُ الله تعالى منهم.

سِرُّ العُدولِ في ﴿أَرَاذِلُنَا﴾:

قولُ الملأ: ﴿أَرَاذِلُنَا﴾؛ أي: أخسَّاؤنا وأدانينا، وهو جمعُ (أرذل)، والأغلبُ الأقيَسُ في مثله إذا أريد جمعُه أن يُجمَع جمعَ سلامةٍ؛ كـ﴿ٱلۡأَخۡسَرُونَ﴾، جمع: (أخسر)، وهو ما جاء في سورة الشعراء ﴿۞قَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلۡأَرۡذَلُونَ ١١١﴾ [الشعراء: 111] لكنَّه كُسِر هنا؛ لأنَّه صار بالغلبة جاريًا مجرَى الاسم؛ ولذا جُعل الرَّذلُ والأرذلُ بمعنى، وهو الخسيسُ الدَّنيء، ومعنى جريانِه مجرَى الاسم أنَّه لا يكاد يُذكرُ الموصوفُ معه كالأبطحِ والأبرقِ[4] فكأنَّهم من فرْطِ مُبالغتِهم في وصفِ أتباع نوحٍ عليه السلام بالرَّذالة جعَلوها علَمًا عليهم لا مجرَّد وصْفٍ فحسبُ!

بالغَ الكفَّارُ في ذمِّ المؤمنين حتى جعَلوا فقْرَهم عَلَمًا عليهم لا مُجرَّدَ وصْفٍ زائلٍ

سِرُّ الإضافةِ في ﴿أَرَاذِلُنَا﴾:

(أراذل) جمعُ (أرْذَل) التي هي للتَّفضيل، والأصلُ فيه أن يقال: هو أرذلُ من كذا، ثم كثرَ حتى قالوا: هو الأرذلُ، فصارت الألف واللَّام عِوضًا عنِ الإضافة[5]، ولمَّا أضيفَ إلى الضَّمير حُذفتِ الألف

عظُمتْ نفسُ الكافر لدَيه فأبى أن يُخضِعَها إلا لهواه، فأضلَّه وأذلَّه وأوْداه

(1) السمين الحلبي، الدر المصون: 6/310.
(2) الزمخشري، الكشاف: 2/388، وأبو حيّان، البحر المحيط: 6/140.
(3) طنطاوي، الوسيط: 7/191.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 6/237.
(5) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/337.

واللَّامُ. وقدِ اختير له أن يُضافَ إلى ضميرِ جماعةِ المُتكلِّمين لتعيين القبيلةِ؛ أي: أراذلُ قومِنا[1]، وفي هذا ما فيه مِنَ الكبْرِ والصَّلَف، حيث جعَلوا أنفسَهم الأعْلَيْن، ثمّ عبَّروا عن أتباع نوحٍ ﷺ بأنّهم أراذلُ، ثمَّ أضافوهم إلى الضَّمير العائدِ إليهم، فكأنَّهم قالوا: هم خدمُنا وحُقراؤنا.

دَلالةُ وصْفِ المقصورِ عليه بـ ﴿بَادِيَ ٱلرَّأۡيِ﴾:

دلَّ وصفُ المقصورِ عليه، وهو الاسمُ الموصولُ، بـ ﴿بَادِيَ ٱلرَّأۡيِ﴾[2] على المبالغةِ في تسفيه الدَّعوةِ والدَّاعي عن طريق تسْفيهِ مَن آمن بها واتَّبعها؛ فإنَّ المعنى: أفنكونُ مع هؤلاء في صفٍّ واحدٍ؟! على أنَّ إقبالَ هؤلاء عليك واتِّباعَهم لك في بادئ الأمر وظاهرِه بدون تأمُّلٍ ولا تفكُّرٍ ولا نظرٍ في عواقب الأمور وبواطنِها، ولو أنَّهم أعْمَلوا فكرَهم ما اتَّبعوك! وكلُّ هذا يدعونا نحن إلى مخالفتِك وعدمِ اتِّباعك[3].

مِن فرْطِ إعجابِ الكافرِ بنفسه يذهبُ فيُسفِّهُ عقْلَ مَن لم يكْفُرْ ككُفرِه

سِرُّ إضافةِ ﴿بَادِيَ﴾ إلى ﴿ٱلرَّأۡيِ﴾:

إضافةُ ﴿بَادِيَ﴾ إلى ﴿ٱلرَّأۡيِ﴾ من إضافة الصِّفةِ إلى الموصوفِ، ومعنى كلامِهم: لا يلبثُ أن يرجعَ إلى متَّبعيك رُشدُهم فيُعيدوا التَّأمُّلَ في وقتٍ آخرَ ويُكشفَ لهم خَطؤهم[4]، ومرادُ الكافرين تحقيقُ رأيِهم في تسْفيه المؤمنين بإضافةِ رأيِهم إلى ما يَبدو لهم، دونَ تدبُّرِ العواقبِ.

إيمانُ المؤمنِ صادِرٌ عن قناعةٍ، ورأي الكافر صادر عن هوى

تنوُّعُ القراءاتِ القرآنيّةِ في ﴿بَادِيَ ٱلرَّأۡيِ﴾:

قولُ الملأ: ﴿بَادِيَ ٱلرَّأۡيِ﴾ اختلف القُرَّاءُ في قراءتِه، فقرأه عامَّةُ قُرَّاء المدينة والعراق: ﴿بَادِيَ ٱلرَّأۡيِ﴾ بغير همز ﴿بَادِيَ﴾، بمعنى: ظاهرُ الرَّأي، من قولهم: بدا الشّيءُ يبدو، إذا ظهرَ، معناه: اتَّبعوك

رأيُ السُّفهاء ابتداؤه من هواهم وما يبدو لهم

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/48.

(2) وهو وصف معنويٌّ لا نحويٌّ، إذ إنَّ ﴿بَادِيَ ٱلرَّأۡيِ﴾ منصوب على الظرفيَّة، يُنظر: العكبري، التبيان: 2/695.

(3) محمود حجازي، التفسير الواضح: 2/117.

(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/49.

ظاهرًا من غير أن يتدبَّروا ويتفكَّروا باطنًا[1]، وقرأ بعضُ أهل البصرةِ: ﴿بَادِئَ﴾، مهموزًا، بمعنى: مبتدأ الرَّأي، من قولِهم: بدأتُ بهذا الأمر، إذا ابتدأت به قبْلَ غيره[2]. وقرأ آخرون بغير همز، أي: ظاهر الرَّأي من قولهم: بدا الشَّيء: إذا ظهر.

الموقعُ النَّحويُّ والبيانيُّ لجملة: ﴿بَادِيَ ٱلرَّأۡيِ﴾:

قولُ الملأ: ﴿بَادِيَ ٱلرَّأۡيِ﴾ منصوبٌ على الظَّرفيَّة لـ﴿ٱتَّبَعَكَ﴾ أو على النِّيابة عنِ الظَّرف على معنى: اتَّبعوك في ظاهر رأيِهم أو أوَّلِه؛ أي: في وقت الرَّأي دون بحثٍ عن خَفيِّه، أو في الرَّأي الأوَّلِ دون إعادةِ نظرٍ، فحُذفَ ذلك، وأُقيم المضافُ إليه مقامَه. أرادوا: أنَّ اتِّباعَهم لك إنَّما هو شيء عنَّ لهم بديهةً من غير رَويَّة ونظرٍ، ولم يتأمَّلوا ولم يتثبَّتوا، ولو فعلوا ذلك لم يتَّبعوك، وغرضُهم من هذا: المبالغةُ في عدمِ اعتبارِ ذلك الاتِّباع. وقيل: المعنى: إنَّهم اتَّبعوك في أوَّل رأيهم أو ظاهرِه، وليسوا معك في الباطن. وقيل: هو ظرفٌ لـ﴿نَرَىٰكَ﴾؛ أي: ما نراك في أوَّل رأينا أو فيما يظهرُ منه[3].

ويجوز أن يتعلَّق ﴿بَادِيَ ٱلرَّأۡيِ﴾ بقوله: ﴿أَرَاذِلُنَا﴾ أي: كونُهم كذلك أمرٌ ظاهرٌ لكلِّ من يراهم عَيانًا؛ لأنَّ رذالتَهم مكشوفةٌ لا تحتاجُ إلى تأمُّلٍ. ويتأكَّد هذا التَّأويلُ بما نُقل عن مجاهدٍ أنَّه قرأ (إلَّا الذين هم أراذلنا باديَ رأي العين) وإنَّما استرْذَلوا المؤمنين لاعتقادِهم أنَّ المزيَّةَ عند الله سُبحانه بالمال والجاهِ ولم يعْلَموا أنَّ ذلك مُبعِدٌ منَ الحقِّ لا مُقرِّبٌ منه، وأنَّ الأنبياءَ ما بُعثوا إلَّا لترك الدُّنيا والإقبالِ على الآخرة فكيف يُجعلُ قلَّةُ المال طعْنًا في النُّبوَّة وفي متابعة النَّبيِّ ﷺ[4]؟!

زعمَ الكفَّارُ أنَّ المزيَّةَ عندَ الله بالمالِ والجاهِ، فطَمِعوا أن يُؤتَوا مثلَما أوتي رُسُلُ الله

(1) البغوي، معالم التنزيل: 4/171، وابن الجوزي، زاد المسير: 2/368.

(2) ابن جرير، جامع البيان: 12/380.

(3) الزمخشري، الكشاف: 2/388، والآلوسي، روح المعاني: 6/238، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/49.

(4) النيسابوري، غرائب القرآن: 4/18.

الغرضُ منَ الكنايةِ في ﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ﴾:

في قول الملأِ الذين كفَروا من قومِ نوحٍ عليه السلام: ﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمۡ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ ٱلرَّأۡيِ﴾ كنايةٌ عن صفةِ عدمِ الرُّشد، حيث إنَّ الملأ الكافرين قدِ اتَّهموا المؤمنين من قومِ نوحٍ عليه السلام بالسَّفهِ وعدمِ الرُّشد، ولكنَّهم لم يُصرِّحوا بذلك، بل عَمدوا إلى الكنايةِ ﴿بَادِيَ ٱلرَّأۡيِ﴾؛ لِما في الكناية من إثباتِ المعنى والمبالغةِ فيه عن طريقِ تجسيمِه والإتيانِ بالدَّليل عليه[1]. وهذا يضافُ إلى حشْدِ المُؤكِّدات في الآية الكريمةِ، منَ التَّعبير بأسلوبِ القصْرِ مرَّتين نفيًا واستثناءً، ومرَّةً بتعريف الجُزأين، إلى جانب إيثارِ الجُملة الاسميَّة تارةً، والفعليَّةِ ذاتِ الفعل الماضي تارةً، والتَّعبيرِ بالاسم الموصول الذي يفيدُ تأكيدَ اتِّصال الصِّفة بما جاء في صلتِه، وغيرِ ذلك من المُؤكِّدات، وفيه دليلٌ على تمكُّن الكفْرِ من قلوبِهم، وأنَّه صار لهم بمنزلة العقيدةِ الرَّاسخةِ.

إذا تمكَّنَ الكفرُ منَ القلوبِ غلَّفَها بِبطَرِ الحقِّ وغَمْطِ النَّاسِ

دَلالةُ الواو في ﴿وَمَا نَرَىٰ﴾:

الواوُ في قول الملأ: ﴿وَمَا نَرَىٰ لَكُمۡ عَلَيۡنَا مِن فَضۡلِۭ﴾ هي العاطفةُ، حيث عطفتْ جملةَ ﴿وَمَا نَرَىٰ﴾ على جملة مَقولِ القول، فهي في محلّ نصبٍ على العطف[2]، وقد أوثِرَ الوصلُ هنا لأغراض، منها: اتِّفاقُ الجملتَيْن في الخبريَّةِ، واتِّفاقُهما لفظًا ومعنى، وتناسُبُهما في الفعليَّة والمضارعةِ، وعدمُ وجودِ ما يوجبُ الفصلَ بينَهما، فمِن ثمَّ حسُنَ الوصلُ بينهما، وهذا هو المعروفُ بـ (التَّوسُّط بين الكمالَين) كما يُسمِّيه البلاغيُّون[3]. وقد أفاد هذا العطفُ تعديدَ مقالاتِ الملأِ الكافرين التي حاجَجوا بها نوحًا عليه السلام، والتي دلَّت على كِبْرٍ في نفوسِهم، وحقْدٍ في صدورِهم، وسفَهٍ في عقولِهم، ودلَّت كذلك على شدَّةِ ما كابدَه نوحٌ عليه السلام معهم.

جَنى عقْلُ الكافر عليه، وصوَّرَ له الحَقَّ باطلًا، والباطلَ حقًّا

(1) أحمد شعيب، بحوث منهجية في البلاغة، ص: 212.
(2) محمود صافي، الجدول: 6/250.
(3) القزويني، الإيضاح: 3/127.

نُكتةُ تَكرارِ الفعْلِ (نَرَى) ثلاثَ مرّات:

أصمَّ الكفْرُ آذانَ الكافرين وأعمَى أبصارَهم، فما عادوا يَرَوْن حقًّا ولا بيِّنةً

هؤلاء الكفرةُ من قومِ نوحٍ عليه السلام لمَّا قصُروا عن إدراك أسبابِ الكمالِ وتطلَّبوا الأسبابَ من غيرِ مكانِها نظَروا نوحًا عليه السلام وأتباعَه فلم يَروه من جنسٍ غيرِ البشرِ، وتأمَّلوه وأتباعَه فلم يَروا في أجسامهم ما يُميِّزُهم من النَّاس وربَّما كان في عمومِ الأُمَّة مَن هُم أجملُ وجوهًا، أو أطولُ أجسامًا، من أجل ذلك أخطؤوا الاستدلالَ فقالوا: ﴿مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا﴾، فأسْنَدوا الاستدلالَ إلى الرُّؤيةِ، والرُّؤيةُ هنا رؤيةُ العين لأنَّهم جعَلوا استدلالَهم ضروريًّا منَ المحسوس من أحوالِ الأجسامِ؛ أي: ما نراك غيرَ إنسان، وهو مماثلٌ للنَّاس لا يزيدُ عليهم جوارحَ أو قوائمَ زائدةً[1]، وهذا دليلٌ على أنَّهم إنَّما اعتَمَدوا في حُجَّتهم على الظَّواهرِ دونَ سبْرِ أغوارِ الحقائقِ البواهرِ، فوقَعوا فيما عابوا فيه المؤمنين بأنَّهم لم يُعْمِلوا عقولَهم ولم يدَّبَّروا الأمرَ.

الغرَضُ من تقديمِ ﴿لَكُمْ﴾:

لا يُقرُّ الكافرون اتِّباعَ مَن لم يُؤتَ مُلكًا ولا مالًا وإن كان نَبيًّا يوحَى إليه

في تقديم الجارِّ والمجرور ﴿لَكُمْ﴾ على عاملِه تخصيصٌ للمتقدِّم بالحُكم أفادَ قصْرَ الحُكم عليه، وهذا هو سرُّ التَّقديم هنا؛ فإنَّ هؤلاء الكافرين أرادوا أن يجعَلوا عدمَ اتِّباعهم نوحًا عليه السلام وعدمَ الإيمان به كما آمن به الضُّعفاءُ منهم؛ أرادوا أن يجعَلوا ذلك أمرًا مَنطقيًّا بناءً على مقدِّمةٍ ادَّعَوا صحَّتَها، فقالوا: لستَ يا نوحُ بملَكٍ، ولكنَّك بشرٌ، فكيف أوحِيَ إليك من دوننا؟ ثمَّ ما نراك اتَّبعك إلَّا أراذلُنا كالباعةِ والحاكةِ وأشباهِهم، ولم يتَّبعْك الأشرافُ ولا الرُّؤساءُ منَّا، ثمَّ إنَّ هؤلاء الذين اتَّبعوك لم يكن اتِّباعُهم إيَّاك عن تروٍّ منهم ولا فكرةٍ ولا نظرٍ، بل بمجرَّد ما دعوتَهم أجابوك فاتَّبعوك، ثمَّ ما نرى لكم أنتم خصوصًا يا مَن تريدون منَّا نحن الأشرافَ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/47.

أن نتَّبعكم في دعوتِكم أيَّ تقدُّمٍ يُؤهِّلكم للنُّبوَّةِ واستحقاقِ المتابعةِ، فكيف تَطلبون بعد هذا كلِّه أن نتَّبعكم[1]؟

دَلالةُ حرْفِ الجرِّ في ﴿عَلَيْنَا﴾ ومعناه:

يدلُّ الحرفُ (على) على معنى الاستعلاءِ والفوقيَّةِ، سواء أكان استعلاءً حقيقيًّا أم مَجازيًّا، وهذا هو أصلُ معانيه[2]، وقد أشار استخدامُه هنا إلى ما انْطوت عليه نفوسُ هؤلاء الملأِ الكافرين منَ الكِبْرِ والغُرورِ، وأنَّهم ما عادوا يَرون النَّاسَ إلَّا على منزلتَين: منزلةِ السَّادة الأعْلين، ومنزلةِ العبيدِ الأدْنين؛ فلذلك واجَهوا نوحًا عليه السلام والذين آمنوا معه بهذا الخطاب.

انْطوت نفوسُ الكافرين على الكِبْرِ والغُرورِ

دَلالةُ ﴿مِن﴾ ومعناها في ﴿مِن فَضْلٍ﴾:

جيء بحرفِ الجرِّ ﴿مِن﴾ في قول الملأِ: ﴿وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ﴾ لإفادة الاستغراقِ؛ أي: استغراقُ النَّفي ليعمَّ كلَّ أجزائِه، فيحصلُ به التَّأكيدُ فقد أغْرَقوا في النَّفي بقولهم: ﴿مِن فَضْلٍ﴾[3]؛ أي: وما نرى لك ولمنِ اتَّبعك علينا أدنى فضْلٍ تمتازون به في جماعتِكم، كالقوَّةِ والكثرةِ والعلم[4]، يَعنون أنَّ اتِّباعَهم لك لا يدلُّ على نبوَّتِك ولا يُجديهم فضيلةً تَستتبعُ اتِّباعَنا لكم، واقتصارُهم ههنا على ذكر عدمِ رؤيةِ الفضل - بعد تصريحِهم برذالتِهم فيما سبق - باعتبار حالِهم السَّابقِ واللَّاحقِ، ومرادُهم أنَّهم كانوا أراذلَ قبْلَ اتِّباعِهم لك، ولا نرى فيهم وفيك بعد الاتِّباع فضيلةً علينا[5].

تأبَى نفسُ الجاحدِ أن يجمَعَه بالفقيرِ دِينٌ يُساوي بينَهما

دَلالةُ تنكيرِ ﴿فَضْلٍ﴾:

جاء الفضلُ نكرةً لإفادة التَّقليلِ مع العمومِ المُستفادِ منِ استغراق

عُبَّادُ الدُّنيا لا يُفاضِلون بين أهلِها إلَّا بمقياسِ المالِ

(1) مأمون حموش، التفسير المأمون: 4/36.
(2) المالقي، رصف المباني، ص: 433، والسامرائي، معاني النحو: 3/47.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 9/270.
(4) رشيد رضا، تفسير المنار: 12/53.
(5) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/201.

النَّفيِ بـ (مِن)؛ أي: لانرى لكم علينا أيَّ فضلٍ وإنْ قلَّ، بل لا نرى لكم علينا فضلًا أصلًا.

معنى ﴿بَلۡ﴾ ودَلالتُها في ﴿بَلۡ نَظُنُّكُمۡ﴾:

﴿بَلۡ﴾ في قول الملأِ: ﴿بَلۡ نَظُنُّكُمۡ كَٰذِبِينَ﴾ حرفُ إضرابٍ، ويدلُّ هنا على الإضرابِ الانتقاليِّ، حيث انتقل الكلامُ من غرَضِ التَّعريضِ إلى غرض التَّكذيبِ، مع عدم إرادةِ إبطالِ الكلام الأوَّلِ[1]، وقيل: هو إضرابُ إبطالٍ، وجملةُ ﴿بَلۡ نَظُنُّكُمۡ كَٰذِبِينَ﴾ إبطالٌ للمنفيِّ كلِّه الدَّالِّ على صدْقِه في دعواه بإثباتِ ضدِّ المنفيِّ، وهو ظنُّهم إيَّاهم كاذبين؛ لأنَّه إذا بطلَ الشَّيءُ ثبت ضدُّه، فزعموا نوحًا عليه السلام كاذبًا في دعوى الرِّسالةِ، وأتباعَه كاذبين في دعوى حصولِ اليقينِ بصدْقِ نوحٍ عليه السلام، بل ذلك منهم اعتقادٌ باطلٌ، وهذا الظَّنُّ الذي زعَموه مُستندٌ إلى الدَّليل المحسوسِ في اعتقادِهم[2].

لا يجدُ الكافرون حُجَّةً يردُّون بها الحقَّ إلَّا اتِّهامَ دُعاتِه بالتَّكذيبِ

سِرُّ التَّعبيرِ بالمضارعِ ﴿نَظُنُّكُمۡ﴾:

التَّعبيرُ بالمضارعِ يفيدُ التَّجدُّدَ وتَكرارَ الحدوث؛ ولهذا عبَّر الملأُ الكافرون بالمضارعِ ﴿نَظُنُّكُمۡ﴾ ليفيدَ تجدُّدَ هذا الظَّنِّ منهم، وقد دلَّ على أنَّ نوحًا عليه السلام وأتباعَه قد تكرَّرت منهمُ الدَّعوةُ وتجدَّدتْ لهؤلاء الكافرين لِيتركوا كُفرَهم، وكلَّما تجدَّدتْ هذه الدَّعوةُ تجدَّدت منَ الكافرين اتِّهامُ النَّبيِّ وأتباعِه بالكذب، وهذا ما حكاه القرآنُ على لسان نوحٍ عليه السلام: ﴿فَلَمۡ يَزِدۡهُمۡ دُعَآءِيٓ إِلَّا فِرَارٗا ٦﴾ [نوح: 6].

لا تملأُ البراهينُ المتُكبِّرَ إلَّا عِنادًا، ولا تَزيدُه عنِ الحقِّ إلَّا ابْتِعادًا

المقصودُ بالظَّنِّ ودَلالتُه في ﴿نَظُنُّكُمۡ﴾:

استُعمل الظَّنُّ هنا في العلْم كقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ﴾ [البقرة: 46] وهو إطلاقٌ شائعٌ في الكلام[3]. وإنَّما لم يَبتُّوا القول

لا يتَّبعُ الكافرون إلَّا ظنًّا وما هم بمُستيقِنين، ويَتَّهمون المؤمنين مُتكبِّرين

(1) السامرائي، معاني النحو: 3/257.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/49.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/49.

بذلك مع جزْمِهم به وإصرارِهم عليه إراءةً بأنَّ ذلك لم يصدرْ عنهم جُزافًا، بل بعد التَّأمُّلِ في الأمر والتَّدبُّرِ فيه، ولذلك اقتصَروا على ذلك الظَّنِّ[1] واقتصروا على الظَّنِّ كذلك احترازًا منهم عن نسْبتِهم إلى المجازفةِ كما أنَّهم عبَّروا بما عبَّروا أوَّلًا لذلك مع التَّعريض من أوَّل الأمر برأي المُتَّبعين، ومُجاراةً معه عليه السلام بطريق الآراء على نهج الإنصاف[2]، ثمَّ كرَّموا أنفسَهم بعدمِ الجزمِ بالتَّكذيب فعبَّروا عنه بالظَّنِّ[3].

الغرضُ منَ التَّعبيرِ في ﴿لَكُمْ﴾ و﴿نَظُنُّكُمْ﴾:

في تغليبِ الحاضِرين على الغائِبين في قول الملأ: ﴿لَكُمْ﴾، و﴿نَظُنُّكُمْ﴾ دَلالةٌ على أنَّ هؤلاء المتكَلَّم عنهم كانوا حاضرين ساعةَ قال الملأ ما قالوا، وهو يشيرُ إلى دلالةٍ لطيفةٍ، وهي أنَّ أتباع نوحٍ عليه السلام لم يتركوه، بل لازَموه في سيرِه وقعودِه، وشاركوه في الدَّعوة؛ ولذلك قال له الملأ: ﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ﴾ دون أن يقولوا مثلًا: (آمن بك)، وهذا يدلُّ على صدْقِ إيمانِ الأتباعِ، وشدَّةِ كفرِ الكبراءِ وتمكُّنِ الكِبر من نفوسِهم؛ إذ إنَّهم لم يتورَّعوا أنْ يسبُّوهم في حضورهم.

أتباعُ الأنبياءِ أنصارٌ لهم وأعوانٌ، وهذا من أثرِ بَشاشةِ الإيمانِ

سِرُّ الانتقالِ من المفردِ إلى الجمْعِ:

يُلاحِظُ المتأمِّلُ في محاورة الملأِ الكافرين نوحًا عليه السلام أنَّهم خاطَبوه في الوجهَين الأوَّلَين منفردًا، وفي هذا الوجهِ خاطَبوه مع مُتَّبعيه[4]، فقالوا: ﴿بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ﴾، والمرادُ منه تكذيبُ نوحٍ عليه السلام في دعوى الرِّسالةِ[5]؛ وذلك أنَّهم إنَّما كذَّبوا نوحًا دون أتباعِه، لأنَّ أتباعَه لم يكونوا رُسلًا، وأخرج الخطابَ وهو واحدٌ مخرجَ خطابِ الجميع،

ما أقبحَ الكِبرَ! يُطغي النَّفسَ، ويُقعدُ عنِ الفضل، ويُلقي في الرَّذْلِ

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/200.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/201، والآلوسي، روح المعاني: 6/238.
(3) رشيد رضا، تفسير المنار: 12/53.
(4) القنوجي، فتح البيان: 6/167.
(5) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/337.

كما قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ [الطلاق: 1]. وتأويلُ الكلام: بل نظنُّك يا نوحُ كاذبًا في دعواك أنَّ اللّٰه ابتعثَك إلينا رسولًا[1]. وقيل: بلِ الخطابُ لأتباعِه ﷺ فقط فيكونُ التفاتًا؛ أي: ما نرى لكم علينا شرَفًا في تلك التَّبعيَّة لِنوافقَكم فيها. ﴿بَلۡ نَظُنُّكُمۡ كَٰذِبِينَ﴾ جميعًا لكوْنِ كلامِكم واحدًا ودعوتِكم واحدةً[2]؛ يعني: تواطأْتُم على الدَّعوةِ والإجابةِ تسبيبًا للرِّئاسة[3]. والحاصلُ أنَّهم لمَّا وصفوا كلَّ فريق منَ التَّابع والمتبوع بما يَنفي سيادةَ المتبوع وتزكيةَ التَّابع جمَعوا الوصْفَ الشَّاملَ لهما، وهو المقصودُ منَ الوصفَين المفرَّقَين، وذلك قولُهم: ﴿وَمَا نَرَىٰ لَكُمۡ عَلَيۡنَا مِن فَضۡلِۭ﴾ فنفَوا أن يكونَ لنوحٍ ﷺ وأتباعِه فضلٌ على الذين لم يؤمنوا به حتى يكونَ نوحٌ ﷺ سيِّدًا لهم ويكونَ أتباعُه مُفضَّلين بسيادةِ متبوعِهم[4].

الغرَضُ من أسلوبِ التَّعريضِ في ﴿مَا نَرَىٰكَ﴾:

يحسدُ الكافرون الرُّسلَ على ما آتاهمُ اللّٰه من فضلِه، واللّٰه يُؤتي مُلكَه مَن يشاء

في قوله تعالى: ﴿فَقَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرٗا مِّثۡلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمۡ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ ٱلرَّأۡيِ﴾ تعريضٌ بنوحٍ ﷺ وبمَن آمن معه، وغرضُهم هنا منه التَّعريضُ بأنَّهم أحقُّ منه بالنُّبوَّة، وأنَّ اللّٰه لو أراد أن يجعلَها في أحدٍ لَجعَلَها فيهم، وقد زعمَ هؤلاء أنْ يحجُّوا نوحًا ﷺ مِن وجهين: أحدُهما: أنَّ المتَّبِعين أراذلُ، ليسوا قدوةً ولا أسوةً. والثَّاني: أنَّهم مع ذلك لم يتروَّوْا في اتِّباعه ﷺ ولا أمْعَنوا الفكرةَ في صحَّة ما جاء به، وإنَّما بادَروا إلى ذلك ارتجالًا ومن غير فكْرٍ ولا رويَّةٍ[5]، فنفَوا عنه سببَ السِّيادة من جهتَيْ ذاتِه وأتباعِه، وذلك تعريضٌ بأنَّهم لا يتَّبعونه لأنَّهم يترفَّعون

(1) ابن جرير، جامع البيان: 12/381.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 6/238.
(3) النسفي، مدارك التأويل: 2/54.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/49.
(5) درويش، إعراب القرآن: 4/340.

عن مخالطةِ أمثالِهم، وأنَّه لو أبعدَهم عنه لاتَّبعوه؛ ولذلك ورد بعدَه قولُه: ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۚ﴾ [هود: 29] الآية[1].

دَلالةُ التَّعبيرِ باسمِ الفاعلِ ﴿كَٰذِبِينَ﴾:

عبَّر الملأُ عنِ اتِّهامهم نوحًا ﷺ وأتباعِه بالكذب باسم الفاعل: ﴿كَٰذِبِينَ﴾ للدِّلالةِ على ثبوت الصِّفةِ وتمكُّنِها منَ الموصوف؛ أي: لكم هذا الوصفُ لازمًا دائمًا لأنَّكم لم تتَّصِفوا بما جعلناه مَظنَّةَ الاتِّباع ممَّا يوجبُ العظمةَ في القلوب والانقيادِ للنُّفوس بالتَّقدُّم في الدُّنيا بالمالِ والجاه؛ فكان داؤهم بطرَ الحقِّ وغمْطَ النَّاس، وهو احتقارُهم[2].

إذا تمكَّنتْ من أرضِ التَّكذيبِ الأقدامُ، كلَّتْ عنِ الاستبصارِ الأفهامُ

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الظَّنُّ والحِسبانُ:

الحِسبانُ أنْ يَحكمَ الإنسانُ لأحدِ النَّقيضَين من غير أن يخطرَ الآخرُ بباله، ويكونُ بعرض أن يعتريَه فيه شكٌّ، ويُقاربُ ذلك الظَّنَّ، لكنَّ الظَّنّ أن يَخطُرَ النَّقيضان بباله فيغلبَ أحدُهما على الآخر[3].

والظَّنُّ ضربٌ منَ الاعتقاد وقد يكونُ الحِسبانُ ليس باعتقادٍ؛ فيقال: أحسبُ أنَّ زيدًا قد مات ولا يجوزُ أن تعتقدَ أنَّه مات مع علْمِك بأنَّه حيٌّ.

وأصلُ الحسبان منَ الحساب، يقال: أحسبُه بالظَّنّ قد مات كما يقال: أعدُّه قد مات ثم كثرَ حتّى سُمِّي الظَّنُّ حِسبانًا على جهة التّوسُّعِ وصارَ كالحقيقة بعد كثرة الاستعمالِ، وفُرِّق بين الفعْلِ منهما والمصدرِ؛ فيقال في الظَّنِّ: حَسِب حِسبانًا، وفي الحساب: حَسَب حُسبانًا[4].

الظَّنُّ بخطورِ النَّقيضَين، والحِسبانُ بخطورِ واحدٍ منهما

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/48، والإبياري، الموسوعة القرآنية: 10/91.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 9/271.
(3) الرّاغب، المفردات: (حسب).
(4) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 99، وابن فارس، المقاييس: (حسب).

والظّنُّ: هو رجحانُ كفَّةِ الإثباتِ على كفَّة النّفيّ. والحسبان: هو الظّنُّ القائمُ على حسابٍ حسّيٍّ وقلبيٍّ، أوِ الاعتقادِ القائم على النّظرِ والتّجربةِ، بخلاف الظّنّ الذي يَدخلُ الذِّهنَ ويُلابسُه لأدنى سببٍ، وقال الله ﷻ: ﴿وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ﴾ [يوسف: 42]، هنا أوثِرَ لفظُ الظّنِّ على الحِسبان؛ لأنَّه ظنٌّ بناه على رُؤيا وليس في ذلك عملٌ حِسابيٌّ[1].

البشرُ والإنسانُ:

الإنسانُ فيه معنى الأُنسِ والأُلفةِ وهذان ليسا في أصلِ البشرِ

أصلُ الإنس والإنسان: منَ الإيناس وهو الإبصارُ، يقال: أنَسته وأنِسته: أي: أبصرتُه، ويقال: آنستُ الشّيءَ: إذا رأيتُه[2]. وقيل: سُمِّي الإنسانُ بذلك لأنّه يأنسُ بكلِّ ما يألفُه، ومعناه المحوريُّ: الأُنسُ والأُلفة[3]، وسُمِّي الإنسانُ إنسانًا لأنّه يَنسَى ما علِمَه، قال ابن عبّاس رضي الله عنهما: إنّما سُمِّي الإنسانُ إنسانًا لأنّه عُهِد إليه فنَسِيَ[4].

والباءُ والشّينُ والرّاءُ أصلٌ واحدٌ، وهو ظهورُ الشّيء مع حسنٍ وجمالٍ[5]. وعُبِّر عنِ الإنسان بالبشرِ اعتبارًا بظهورِ جلدِه منَ الشَّعر، بخلاف الحيواناتِ التي عليها الصّوفُ أوِ الشَّعرُ أوِ الوبرُ، وذلك بأنَّ البَشَرةَ ظاهرُ الجِلد[6]، أو سُمِّي البشرُ بذلك لظهورِهم[7]، أو لأنَّ لفظَ (البشر) مُشتقٌّ منَ البَشارة، وهي حُسنُ الهيئة، يقال: رجلٌ بشيرٌ وامرأة بشيرةٌ إذا كانا حسنَي الهيئة[8]. وقد كان من جملةِ ما نقمَ الكفّارُ به على الرُّسل بَشريَّتَهم؛ لأنّهم لم يكونوا يَتصوَّرون اتّفاقَ الخلقةِ بينهم وبين الرُّسُلِ، وأنّهم يَظهرون ويَتراءون للنّاظرِ،

(1) الهلال، تفسير القرآن الثري الجامع: 4/48، 49، والسامرائي، معاني النحو: 2/23.
(2) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، المقاييس: (أنس).
(3) الرّاغب، المفردات، ص: 94، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (أنس).
(4) ابن منظور، لسان العرب: (أنس)، والعسكري، الفروق اللغوية، ص: 274.
(5) ابن فارس، المقاييس: (بشر).
(6) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (بشر).
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بشر).
(8) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 276.

بل أرادوا غيرَ جنس البشرِ حتّى يؤمنوا؛ لذا كان إنكارُهم مقرونًا بتعجُّبِهم من بشريّة الرُّسلِ[1]، ممّا سبقَ يظهرُ أنَّ لفظَ (البشر) مقصودٌ منه أصلُ المادّة؛ فهُم إمّا أن يُرادَ بهم حُسنُ الهيئة وتناسقُ الأعضاء، كما صرَّحت بذلك آياتُ أصلِ الخلْقِ، أو أنَّ البشرَ سُمّوا بذلك لظهورِهم كما كشفت آياتُ الرّسل، ويندرجُ تحتَها منَ الآيات ما يرادُ منها الصّورةُ، كقول الله ﷻ: ﴿فَٱتَّخَذَتۡ مِن دُونِهِمۡ حِجَابٗا فَأَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرٗا سَوِيّٗا ١٧﴾ [مريم: 17]؛ أي: إنَّ المَلَك تشبَّحَ لها وتراءى لها بصورةِ بشرٍ[2]، ولِعنايتِهم بالمظهرِ عبّرَ بـ (بشرا).

(1) محمد الدّوري، دقائق الفروق اللغوية في البيان القرآني، ص: 96.

(2) الرّاغب، المفردات: (بشر)، محمد الدّوري، دقائق الفروق اللغوية في البيان القرآني، ص: 99.

﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتۡ عَلَيۡكُمۡ أَنُلۡزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمۡ لَهَا كَٰرِهُونَ ٢٨﴾

[هود: 28]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

شُبهاتُ المُضلِّلين دائمًا تُنبِئُ عن ضَحالةِ عقولِهم، وسَخافةِ تَفكيرِهم

لمّا حَكى ربُّ العزّة ﷻ شُبَه المُكذّبين بدعوة نوحٍ عليه السلام؛ ذكر ﷻ جوابَ نوحٍ عليه السلام المُبيِّنَ لضلالاتِهم، الكاشفَ عن جهالاتِهم، الدّاعيَ إلى الإشفاقِ عليهم؛ الدّالَّ على سخافة شُبهاتِهم وسطحيّتِها، المُخبِرَ أنَّ الجهلَ والإصرارَ على الباطل والإنكارِ والجحودِ هو دَيْدَنُ الكفّارِ المعانِدين في كلِّ زمانٍ[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿بَيِّنَةٖ﴾: البيِّنةُ: الحُجَّةُ الواضحةُ الظَّاهرةُ، عقليَّةً كانت أو محسوسةً، وتُطلقُ على المعجزةِ، فتكونُ بمعنى الآية[2]. وهي مِنَ البيان بمعنى الإيضاحِ والكشفِ عنِ الشَّيء. وكذلك: ما يَتَبيَّنُ به الشَّيءُ منَ الدَّلالة وغيرِها. نقول: بان الشّيءُ بيانًا، فهو بيِّن: اتَّضحَ. وأبان الشَّيءُ والشيءَ يُستعمل لازما ومتعدِّيًا، فهو مُبِين: اتضح إن كان لازمًا، وأوضحه إن كان متعدِّيًا[3]. وأصلُها يدورُ حول معنى انكشاف الشَّيء وظهورِه[4].

(1) الرّزي، مفاتيح الغيب: 17/338، وأبو حيّان، البحر المحيط: 6/142، والبقاعي، نظم الدّرر: 9/271، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/201، والآلوسي، روح المعاني: 6/239، والمراغي، تفسير المراغي: 12/26، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/50، والهرري، حدائق الروح والريحان: 13/60.

(2) الرّاغب، المفردات: (بان)، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 3/133، والآلوسي، روح المعاني: 6/314، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/51.

(3) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (بان).

(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بان).

2) ﴿رَحۡمَةٗ﴾: الرَّحمةُ: رقَّةٌ وتعطُّفٌ يقتضي الإحسان[1]. ومعناها المِحوريُّ: اتِّساعٌ في الشَّيء مع رقَّةٍ وعطفٍ ورأفةٍ[2]. والرَّحمةُ أيضا: المغفرةُ؛ لأنَّها من مقتضيات الإحسان[3]. والرَّحمةُ في قوله تعالى حاكيًا قولَ نوحٍ عليه السلام: ﴿وَءَاتَىٰنِي رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِهِۦ﴾. تعني: النُّبوَّة. ومثلُها قولُه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَخۡتَصُّ بِرَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ﴾ [البقرة: 105]، أي: بنبوَّته[4].

3) ﴿فَعُمِّيَتۡ﴾: عَمِيَ عليه الأمرُ، وعُمِّي عليه: اشتبهَ عليه والتبسَ حتى صار كالأعمى، والمصدرُ: التَّعميةُ[5]. وهو منَ العَمى الذي هو ذهابُ البصر كلِّه من كلتا العينَين، ولا يقال هذا لمن ذهب بصرُه من عين واحدة، بل منهما معًا[6]. ومعناه المِحوريُّ: السَّتْرُ والتَّغطيةُ، واحتجابُ الرُّؤية[7].

4) ﴿أَنُلۡزِمُكُمُوهَا﴾: اللِّزام: الدَّوامُ على الشَّيء وعدمُ الانفكاك عنه. "والالتزام: الاعتناقُ". وشرٌّ لازمٌ، أي: دائمٌ. "واللَّازمُ: ما يمتنعُ انفكاكُه عنِ الشَّيء. ورجلٌ لُزَمَة: يَلزَمُ الشَّيءَ فلا يفارقُه"[8] والمعنى المِحوريُّ: شدُّ شيءٍ إلى شيءٍ شدًّا لا يُمَكِّنُ منَ المفارَقة والإفلاتِ؛ فيكونُ مصاحبًا مصاحبةً دائمةً[9]، والإلزام ضربان: ضربٌ بالتَّسخير منَ اللّه، أو بالقهر منَ الإنسان، وضربٌ بالأمرِ والحُكم[10]. والمعنى في الآية: أنُكرِهُكم على قَبولها ونَقهرُكم على الاهتداء بها[11]؟

5) ﴿كَٰرِهُونَ﴾: الكَره والكُره: الإباءُ. وكَرِه الشَّيءَ كراهيةً: لم يُرِدْه فهو كارِه. والكُره على ضربين: أحدُهما: ما يعافُه الإنسانُ من حيث الطَّبعُ، والثّاني: ما يعافُه من حيث

(1) الأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح، والرّاغب، والمفردات، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (رحم).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (رحم).
(3) الزبيدي، تاج العروس: (رحم).
(4) ابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (رحم)، والبيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل: 3/133، والآلوسي، روح المعاني: 6/239.
(5) الأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (عمى).
(6) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (عمى).
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (عمى).
(8) الأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ، والزبيدي، تاج العروس: (لزم).
(9) ابن فارس، مقاييس اللغة، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (لزم).
(10) الرّاغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ، والفيروزابادي، بصائر ذوي التّمييز: (لزم).
(11) الزمخشري، الكشاف: 2/390، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 3/133، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/201، والآلوسي، روح المعاني: 6/239.

العقلُ والشَّرعُ[1]. ومعناه المِحوريُّ: الصَّدُّ والرَّدُّ وعدمُ القَبول؛ لأنَّ القَبول دخولٌ وتغلْغلٌ في النَّفس[2]. والكارِه: المُبغِض للشَّيء. والمعنى في الآية: أنَّهم لا يريدونها ولا يختارونها، فهم مُعرضون عنها غيرُ مُتدبِّرين فيها[3].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

قال يا قومي أخبروني ماذا ترَوْن إنْ كنتُ على علْمٍ ومعرفةٍ من رَّبي بصحَّة دَعْواي، ورزقني منه نعمةَ التَّوفيق والنُّبوَّةِ والحكمةِ فالتزمتُ أمرَ ربي، فخفيتْ والتبستْ عليكم هذه النِّعمةُ فلم تَهتدوا إليها؛ فكيف نُجبرُكم على قَبولها، وأنتم لها كارهون[4]؟

الإيمانُ الصَّادقُ يكونُ عنِ اقتناعٍ واختيارٍ لا عن إكراهٍ وإجبارٍ

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

الغرضُ من شبْهِ كمالِ الاتِّصال في ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ﴾:

قولُه تعالى: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ﴾ استئنافٌ بيانيٌّ[5] ناشئٌ عن سؤالٍ مستفادٍ منَ الآية السَّابقةِ، فكأنَّ سائلًا قال: بماذا أجاب نوحٌ عليه السلام الملأ الكافرين من قومه الذين قالوا له ما قالوا؟ فجاءت هذه الآيةُ بالإجابة، ففُصلتِ الجملةُ عنِ التي قبْلها على طريقة حكايةِ الأقوال في المُحاورات، فهذه لمَّا وقعت مُقابلًا لكلامٍ محكيٍّ يقالُ، فُصلت الجملةُ ولم تُعطَفْ[6]، فالجملةُ مستأنَفةٌ مَسوقةٌ للتَّلطُّف بهم في الخطاب ومُناصفتِهم[7].

لم يأخُذِ الرُّسلُ أقوامَهم بالشِّدَّةِ والقَسوةِ، بل حاوَروهم مُناصفةً ورحمةً

(1) الرّاغب، المفردات، السمين الحلبي، عمدة الحفاظ، والفيروزابادي، بصائر ذوي التّمييز، والزبيدي، تاج العروس: (كره)، وأبو البقاء الكفويّ، الكلّيّات، ص: 769.

(2) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (كره).

(3) البغوي، معالم التنزيل: 4/171، والزمخشري، الكشاف: 2/390، والنسفي، مدارك التنزيل: 2/55، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/201، والآلوسي، روح المعاني: 6/239، 240، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/53.

(4) ابن جرير، جامع البيان: 12/381، والبغوي، معالم التنزيل: 4/171، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/275.

(5) الآلوسي، روح المعاني: 6/239.

(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/50.

(7) درويش، إعراب القرآن: 4/338.

الغرَضُ من النِّداءِ في ﴿يَقَوْمِ﴾:

افتُتحت مراجعةُ نوحٍ ﷺ قومَه بالنِّداء لطلب إقبالِ أذهانهم لوعْيِ كلامِه[1] ﷺ، فقال مخاطبًا إيَّاهم: ﴿يَقَوْمِ﴾ وشرع يكرّرُ هذه اللَّفظةَ في كلِّ مقالةٍ تذكيرًا لهم بأنَّه منهم لِتعْطِفهمُ الأرحامُ وتردَّهمُ القراباتُ عن حسده أوِ اتِّهامه إلى قَبول ما يُلقي إليهم منَ الكلام، وأشار بأداة البُعد - مع قُربِهم - إلى مباعدتِهم فيما يقتضي غايةَ القُرب[2].

مَن نأَى بنفسِه عنِ اتِّباع الحقِّ نأتْ به نفسُه عن مجالسِ أهلِه

دَلالةُ اصطفاء (قوم) مُنادًى:

النِّداءُ في قوله: ﴿يَقَوْمِ﴾ نداءُ استعطافٍ لهم[3]، وفيه غايةُ التَّلطُّف بهم[4]، والاستدراجِ لهم[5]، أي: يا أهلي وعشيرتي الذين يسُرُّني ما يسُرُّهم ويُؤلمني ما يُؤلمُهم[6]. وخاطبَهم ﷺ بلقب القومِ مضافًا إلى ضمير المتكلِّم الذي حُذف منَ الرَّسم مُراعاةً للنُّطق؛ استعطافًا وإيذانًا بأنَّه ﷺ يَدعوهم إلى ما هو خيرٌ لهم[7]، واستنزالًا لطائرِ نفورِهم تذكيرًا لهم بأنَّه منهم فلا يريدُ لهم إلا خيرًا[8].

امتلأت قلوبُ الرُّسلِ رحمةً بأقوامِهم، وألسنتُهم حُسنًا مِن طِيب أقوالِهم

الغرَضُ منَ الاستفهامِ في: ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾:

قوله تعالى: ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾؛ أي: أخبروني؛ فإنَّ الرُّؤيةَ سببٌ للإخبار[9]؛ أي: أخبروني. وفيه إيماءٌ إلى ركاكةِ رأيِهمُ المذكورِ[10]، و﴿أَرَءَيْتُمْ﴾ استفهامٌ عنِ الرُّؤية بمعنى الاعتقادِ، وهو استفهامٌ

هيهاتَ لا ينفعُ مع الجاهلِ نُصحٌ، ولا ينجحُ في المُصرِّ وعْظٌ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/50.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 9/272.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 9/273.
(4) القنوجي، فتح البيان: 6/168.
(5) الآلوسي، روح المعاني: 6/240.
(6) طنطاوي، الوسيط: 7/193.
(7) رشيد رضا، تفسير المنار: 12/54.
(8) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/50.
(9) البروسوي، روح البيان: 4/118.
(10) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/201.

تقريريٌّ إذا كان فعلُ الرُّؤية غيرَ عاملٍ في مفرد، فهو تقريرٌ على مضمون الجملةِ السَّادَّةِ مَسدَّ مفعولَيْ (رأيتم)؛ ولذلك كان معناه آيلًا إلى معنى (أخبروني)، ولكنَّه لا يُستعملُ إلَّا في طلبِ مَن حالُه حالُ مَن يجحدُ الخبرَ[1]، فالاستفهام للتَّقرير ليجعلَ المعنى على سبيل العرْضِ لهم والاستدراجِ للإقرار بالحقِّ، وقيامِ الحُجَّة على الخصمِ، ولو قال: على أنِّي على حقٍّ من ربِّي لقالوا له: كذبت.

الغرضُ منَ التَّعبير بأسلوبِ الشَّرطِ:

احتمالُ الصّوابِ يُلزمُ العقلاءَ بالتّفكيرِ في عواقبِ التّكذيبِ

دخولُ الشَّرط في قوله: ﴿إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي﴾: لا يوجِب شكًّا لحقِّ النَّبيِّ نوحٍ عليه السلام في أمره، لكنَّ الشَّكَّ لاحقٌ للمخاطَبين، وتلخيصُ الكلامِ: قل أرأيتم إن كنتُ على بيِّنة من ربِّي عندكم، وفيما يصحُّ من عقولِكم وتقبلُه أفهامُكم، فدخل الشَّرطُ في كلام النَّبيِّ عليه السلام لهذا التَّرتيب[2].

معنى أداةِ الشّرطِ ﴿إِن﴾ ودَلالتُها:

آتى الله رُسُلَه الحُجَّةَ على أقوامِهم، وبعثَهم بالرَّحمة والشَّفقةِ عليهم

تُستعمل (إنْ) في المعاني المحتملةِ الوقوعِ، والمشكوكِ في حصولِها، والموهومةِ، والنَّادرةِ، والمستحيلةِ، وسائرِ الافتراضات الأخرى، فهي لتعليق أمرٍ بغيره عمومًا. وربَّما وردَ بعدَها المُتيقَّنُ قليلًا، وتُستخدمُ في هذه الحال لمعانٍ، منها: تنزيلُ المخاطَب منزلةَ الجاهل، لعدمِ جرْيِه على موجِبِ العلم[3]، وهذا هو المقصودُ هنا، فإنَّ نوحًا عليه السلام لم يتشكَّك في إيتاء اللّه إيَّاه النُّبوَّةَ والبيِّناتِ، ولكنَّه تنزَّلَ مع قومه لإقامة الحُجَّةِ عليهم.

معنى حرْفِ الجرِّ ﴿عَلَىٰ﴾ ودَلالتُه:

صاحبُ البيِّنةِ مُستعلٍ بها على المُشكِّكين، مُستعينٌ بالحقِّ على المُبطِلين

معنى ﴿عَلَىٰ﴾ في قوله: ﴿عَلَىٰ بَيِّنَةٍ﴾ هو الاستعلاءُ؛ لأنَّ صاحبَ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/51.
(2) الواحدي، البسيط: 11/389.
(3) السامرائي، معاني النحو: 4/69.

البيِّنة يكونُ مُستعليًا على سواه[1]؛ أي: على يقين وجزم، مُتمكِّنٌ من ذلك أشدَّ التّمكُّن، يعني: وهو الرَّسولُ الكاملُ القدوةُ، الذي ينقادُ له أولو الألبابِ، ويَضمحلُّ في جنْب عقلِه عقولُ الفحولِ منَ الرِّجال، وهو الصَّادق حقًّا، فإذا قال: إنِّي على بيِّنة من ربِّي، فحسبُ المخاطَبِ بهذا القول شهادةً له وتصديقًا[2].

الغرَضُ منَ الاستعارة في ﴿عَلَىٰ﴾:

يفيدُ الحرفُ ﴿عَلَىٰ﴾ معنى الاستعلاءِ، حقيقيًّا كان أم مجازيًّا[3]، وهو هنا من باب الاستعلاءِ المَجازيِّ، حيث شبَّه البيِّنةَ بأكَمَةٍ يقفُ عليها الدَّاعي ثابتًا فوقَها مُتمكِّنًا منها، يُشرفُ منها على المخاطَبين، بحيث يراهم، ولا يخفى عليه حالُهم، أو بفرسٍ قويٍّ يَمتطي فارسُه صهوتَه، ويتحكَّمُ فيه، ومن بديع هذه الاستعارة أنَّها تجعلُ صاحبَ البيِّنة مُستعليًا بالحقِّ على المُبطلين المُضلِّين، مُتمكِّنًا منه أشدَّ التَّمكُّن. فقولُه: ﴿عَلَىٰ بَيِّنَةٍ﴾؛ أي: مع بيّنةٍ، أي: مصاحبًا لبيِّنةٍ[4]. فاستُعير الحرفُ ﴿عَلَىٰ﴾ دون غيرِه لأداء هذا المعنى، وقد حَسُنَت استعارتُه على طريقة الاستعارةِ التَّبعيَّةِ، باعتبارِ أنَّ معانيَ الحروف تابعةٌ للمعاني في الأسماء.

مَـنِ امتـطَـى صهوةَ البيِّناتِ هابَتْه فوارسُ الشُّبهاتِ

معنى حرْفِ الجرِّ ﴿مِّن﴾ ودَلالتُه:

يدلُّ الحرف ﴿مِّن﴾ على ابتداء الغاية، أوِ ابتداء الفعل، وإليه تعودُ أغلبُ معانيه[5]. وقولُ نوحٍ عليه السلام: ﴿عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي﴾ يدلُّ على أنَّ ابتداءَ إرسال هذه البيّنةِ كان منَ اللّه تعالى، فمصدرُها منه سُبحانه، وهو تعالى الآمرُ والمُقدِّرُ. وإذا كان ذلك كذلك فإنَّه يدلُّ

مَـنِ اقتبسَ منَ الوحْيِ استنارَ، ومَـنْ أعـرضَ أكلَتْه النَّارُ

(1) درويش، إعراب القرآن: 4/338.
(2) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 380.
(3) المالَقي، رصف المباني، ص: 433، وفهد زايد، الحروف، ص: 134.
(4) الجمل، حاشية على الجلالين: 3/425.
(5) السامرائي، معاني النحو: 3/76.

على اصطفاءِ اللّه نبيَّه نوحًا ﷺ بالرِّسالة، وفيه ردٌّ على الملأ من قومه الذين زعَموا أنَّ نوحًا ﷺ كاذب - حاشاه - في ادِّعاء النُّبوَّةِ، وأنَّ الرُّسلَ لا يكونون منَ البشرِ.

دَلالةُ لفظ ﴿رَّبِّي﴾ وسِرُّ إضافتِه:

في الرُّبوبيَّةِ جمالُ الرِّعايةِ، وفي النُّبوَّةِ كمالُ الرَّحمةِ والعنايةِ

اختيرَ وصفُ الرَّبِّ دون اسم الجلالة في قوله: ﴿عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي﴾ للدَّلالة على أنَّ إعطاءَه البيِّنةَ والرَّحمةَ فضلٌ منَ اللّه أراد به إظهارَ رِفقِه وعنايتِه به[1]، ويُضاف إلى ذلك أنَّه ﷺ أراد أن يزيدَ من ترغيب قومِه في الإيمان باللّه ﷻ؛ لذلك قال: ﴿مِّن رَّبِّي﴾ مُضافًا لياء المتكلِّم؛ أي: الذي أوجدني وأحسنَ إليَّ بالرِّسالة وغيرِها يشهدُ بصحَّةِ دعْواي شهادةً لا يتطرَّقُ إليها عند المُنصفِ شُبهةٌ فكيف بالظَّنِّ[2]!

دلالة العطف بالواو في ﴿وَءَاتَىٰنِي﴾:

بين البَيِّنةِ والرَّحمةِ عُمومٌ وخصوصٌ

الواو هي العاطفةُ، حيث عطفت جملةَ ﴿وَءَاتَىٰنِي﴾ على جملةِ: ﴿أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي﴾، وعطفُ الرَّحمةِ على البيِّنةِ يقتضي المغايرةَ بينهما، وهي مغايرةٌ بالعموم والخصوص؛ لأنَّ الرَّحمةَ أعمُّ منَ البيِّنة؛ إذِ البيِّنةُ على صدْقِه من جملة الرَّحمةِ به؛ ولذلك لمَّا أُعيدَ الضَّميرُ في قوله: ﴿فَعُمِّيَتْ﴾ أعيدَ على الرَّحمة لأنَّها أعمُّ[3].

الغرَضُ من تنكيرِ ﴿رَحْمَةً﴾:

النُّبوَّةُ رحمةٌ جليلةٌ، يُنقذُ اللّه بها عبادَه منَ المهالكِ والمُوبقاتِ

جاء لفظُ ﴿رَحْمَةً﴾ نكرةً في قول نوحٍ ﷺ لقومه: ﴿وَءَاتَىٰنِي رَحْمَةً﴾ لإفادة التَّعظيم؛ لأنَّها في سياق المدْحِ، وذكرِ عظيمِ فضلِ اللّه تعالى عليه؛ أي: آتاني ربِّي نعمةً عظيمةً منه سُبحانه[4]، ورحمةً من عنده خاصَّةً بي فوق رحمتِه العامَّةِ للنَّاس جميعًا[5]، والمرادُ بتلك الرَّحمةِ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/52.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 9/272.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/51.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 6/239.
(5) محمود حجازي، الواضح: 2/118.

إمَّا النُّبوَّةُ وإمَّا المعجزةُ الدَّالَّةُ على النُّبوَّة[1]، وإنَّما جُعلت النُّبوَّةُ رحمةً؛ لأنَّ اللّه ﷻ يُنقذُ بها الخَلقَ منَ العطَب والهلَكةِ[2].

معنى حرفِ الجرِّ ﴿مِّن﴾ ودَلالتُه:

في قوله: ﴿مِّنْ عِندِهِۦ﴾ دخلت ﴿مِّن﴾ على الظَّرفِ ﴿عِندِهِۦ﴾، وإذا دخلت (من) على الظُّروف فإنَّها تعني ابتداءَ الغاية[3]؛ أي: أنَّ ابتداءَ الوحْيِ كان مِن عند اللّه تعالى، ففيه ما يدلُّ على تعظيم هذا الوحْيِ، وبيانِ مصدرِه ومنشئِه.

الوحْيُ سببٌ، طرفُه عندَ الله، والآخرُ عند المؤمنين به من عبادِه

دَلالةُ الظَّرف ﴿عِندِهِۦ﴾ وسِرُّ إضافتِه:

في قول نوحٍ عليه السلام: ﴿وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ﴾ تقييدٌ للرَّحمة بكونِها ﴿مِّنْ عِندِهِۦ﴾ تأكيدًا كما قال: ﴿يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾ [الأنعام: 38]، وفائدتُه رفعُ الاشتراكِ ولو بالاستعارة[4]. وفي إضافتِه للضَّمير العائدِ على الاسم الجليلِ تعظيمٌ وتشريفٌ، وبيانُ رِفعةِ قدْرِ هذه الرَّحمةِ التي أوتيها نوحٌ عليه السلام، فهي من عند العليِّ الرَّحيم سُبحانه. فالتَّعبيرُ بالعِنديَّة يوحي بكمال الرِّفعةِ، وعظَمةِ التَّنزيلِ، وشُمولِ الرَّحمةِ للمُجتَبَى بها.

التّعبيرُ بالعِنديّةِ كمالٌ للرّفعةِ وتعظيمٌ للتّنزيلِ

معنى حرفِ الفاءِ ودَلالتُه في ﴿فَعُمِّيَتْ﴾:

الفاءُ لترتيب ما بعدَها على ما قبْلَها؛ أي: جاءتِ البيِّنة فلمْ تدركوها فخَفِيَت عليكم[5]. وعطفَ (عميت) بفاء التَّعقيب إيماءً إلى عدم الفترةِ بين إيتائِه البيِّنةَ والرَّحمةَ وبين خفائِها عليهم، وهو تعريضٌ لهم بأنَّهم بادروا بالإنكار قبلَ التَّأمُّل[6].

الكفّارُ عندهم عمَى بصيرةٍ يظهرُ نورُ الحُجّةِ فلا يَرونَه

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/338.
(2) الواحدي، البسيط: 11/398.
(3) أبو حيّان، التذييل: 11/151، والسامرائي، معاني النحو: 3/77.
(4) ابن عطية، المحرر الوجيز: 3/164.
(5) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 7/3700.
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/52.

الغرَضُ منَ الاستعارة في ﴿فَعُمِّيَتْ﴾:

العلمُ نورُ البصيرةِ الباطنةِ، والأبصارُ نورُ البصرِ الظَّاهرِ

معنى ﴿فَعُمِّيَتْ﴾: فخفيت، وهو استعارةٌ، إذْ شُبِّهت الحُجَّةُ التي لم يُدركْها المخاطَبون كالعمياءِ في أنَّها لم تصلْ إلى عقولهم كما أنَّ العمياء لا يَهتدي للوصول إلى مقصدِها فلا يصلُ إليه. ولمَّا ضمِّن معنى: الخفاء عُدِّي فعلُ ﴿فَعُمِّيَتْ﴾ بحرفِ على تجريدًا للاستعارة، ويجوز أن يكون هناك استعارةٌ تمثيليَّةٌ بأن شبَّه الذي لا يهتدي بالحُجَّة لخفائِها عليه بمَن سلك مفازةً لا يعرفُ طُرقَها واتَّبع دليلًا أعمَى فيها[1].

سرُّ إيثارِ التَّعبيرِ بالعمَى دونَ الخفاءِ:

قد يَخفَى عنِ العينِ المُبصرةِ شيءٌ، لكنْ يَخفَى عنِ العينِ الكفيفةِ كلُّ شيءٍ

التَّعبيرُ بـ ﴿فَعُمِّيَتْ﴾ مخفَّفةً ومُشدَّدةً أبلغُ منَ التَّعبير بـ (خَفِيَتْ) و(أُخْفِيَتْ)؛ لأنَّه مأخوذٌ منَ العمَى المُقتضي لأشَدِّ أنواعِ الخَفاءِ[2]، والخطابُ أرفقُ ما يكون لقُربِهم إليه، ولم يقل: كفرتُم بل قال: خفيتْ عليكم. وترك الأمرَ لاختيارِهم، ووجَّه أنظارَهم إلى أنَّ الأمرَ ليس لفضلٍ شخصيٍّ، ولكن لهدْيٍ إلهيٍّ، ولأنَّ رسالاتِ اللّٰه بيِّناتٌ وهدايةٌ[3].

نُكتةُ مقابلةِ الاستعارة للقول المَحكي عنهم:

مِن إحْقاقِ الحقِّ إعلاءُ شأنِ الفاضلِ، وبيانُ مآثرِ الكريمِ

قولُه: ﴿فَعُمِّيَتْ﴾ وقولُه: ﴿مَا نَرَىٰكَ﴾ و﴿وَمَا نَرَىٰكَ﴾ و﴿وَمَا نَرَىٰ﴾: إنَّما قصد نبيُّ اللّٰه نوحٌ عليه السلام بهذا القول لقومه أن يرُدَّ عليهم قولَهم: ﴿وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ﴾ ليظهرَ فضلُه عليهم بأنَّه على بيِّنة من ربِّه جل جلاله، وأنَّ اللّٰه سُبحانه قد آتى نوحًا عليه السلام رحمةً من عنده، وهم قد سُلِبوا ذلك، فأيُّ فضلٍ أعظمُ منه[4]؟

ومن بديع هذه الاستعارةِ هنا أنَّ فيها طِباقًا لمقابلة قولِهم في

(1) الآلوسي، روح المعاني: 6/239، والهرري، الحدائق: 13/84.
(2) رشيد رضا، تفسير المنار: 12/55.
(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 7/3700.
(4) الماوردي، النكت والعيون: 2/466.

مجادلتِهم ﴿مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا﴾، ﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ﴾، ﴿وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ﴾. فقابلَ نوحٌ عليه السلام كلامَهم مقابلةً بالمعنى واللّفظ إذ جعل عدمَ رؤيتِهم من قَبيل العمَى[1]، وفي هذا فنٌّ رفيعٌ من فنون البديع، وهو الجمعُ مع التَّقسيم، وهو أن يجمعَ المتكلِّمُ بين شيئين أو أكثرَ، ثمَّ يقسِّمُ ما جمعَ. وفي هذه الآيات ردٌّ على ما أوردوه من شُبَه، حيث قالوا في الآية السَّابقة: ﴿مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ﴾ فردَّ عليهم ردًّا يمكنُ إرجاعُه إلى ما أوردوه من شُبَه[2].

تنوُّعُ القراءةِ في ﴿فَعُمِّيَتْ﴾:

اختلف القُرَّاءُ في قراءة ذلك، فقرأه عامَّةُ قُرَّاءِ أهلِ المدينة وبعضُ أهل البصرة والكوفة: ﴿فَعَمِيَتْ﴾ بفتح العين وتخفيفِ الميم، بمعنى: فعَمِيتِ الرَّحمةُ عليكم، فلم تَهتدوا لها، فتُقرُّوا بها، وتُصدِّقوا رسولَكم نوحًا عليها، وقرأ عامَّةُ قُرَّاء الكوفيِّين: ﴿فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ﴾ بضمِّ العين وتشديد الميم، لقُربِه من قوله: ﴿أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ﴾، فأضاف الرَّحمةَ إلى اللّه، فكذلك تعميتُه على الآخرين[3]، فعلى قراءةِ ما لم يُسَمَّ فاعلُه يكون المعنى: أُلبِسَتْ وشُبِّهَتْ. وعلى قراءة فتح العين وتخفيف الميم، بمعنى: الْتَبَسَتْ وَاشْتَبَهَتْ[4]، وعلى هذه القراءة أُسندَ الفعلُ إليها مجازًا[5]، ففي إسناد العمَى إلى الضمير العائدِ على البيّنةِ مَجازٌ عقليٌّ يفيدُ المبالغةَ في كُرهِ البيّنةِ لهم وبغْضِهم لدرجة أنَّها تتوارى عنهم بُغضًا لهم ومَقتًا.

مَن أراد الهدايةَ وسعَى لها هُديَ بإذنِ الله، ومَنِ استَعمى عنِ الحقِّ أضلَّه الله

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/51.
(2) محمود صافي، الجدول: 6/257.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 12/298.
(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/338.
(5) السمين الحلبي، الدر المصون: 6/313.

تَوجيهُ عوْدِ الضَّميرِ في ﴿فَعُمِّيَتْ﴾ ودَلالتُه:

يُعاقَبُ المُعرِضُ عنِ الهدايةِ بالضَّلالِ والعَمايةِ

اختُلِفَ في الضَّمير في ﴿فَعُمِّيَتْ﴾ هل هو عائدٌ على البيِّنة، فيكونَ قولُه: ﴿وَءَاتَىٰنِي رَحْمَةً﴾ جملةً مُعترضةً بين المُتعاطفَين؛ إذ حقُّه (على بَيِّنَةٍ مِّن ربي فَعُمِّيَتْ)، أم هو عائدٌ على الرَّحمةِ فيكونُ قد حُذفِ منَ الأوَّل لدلالة الثَّاني، والأصلُ: على بيِّنة من ربي فَعُمِّيَتْ[1]، ويجوزُ عوْدُ الضَّمير إلى البيِّنة لاقتضاء خفائِها خفاءَ الرَّحمةِ كما هو شأنُ الدَّليل مع المدلول، ويجوزُ عودُه إلى الرَّحمة باعتبار ذكْرِها بعد البيِّنة كأنَّه قال: فخفيت عليكم رحمةُ اللّه لكم بهذه النُّبوَّةِ لخفاء البيِّنةِ الدَّالَّة عليها، أو لأنَّ البيِّنةَ خاصَّةٌ به ﷺ، وهي العلمُ الضَّروريُّ الذي يعلمُ به النَّبيُّ أنَّه نبيٌّ[2].

معنى حرفِ الجرِّ في ﴿عَلَيْكُمْ﴾ ودَلالتُه:

إذا عَميتِ البصائرُ تَبِعتْها الأبصارُ

قولُه: ﴿عَلَيْكُمْ﴾ متعلِّقٌ بـ ﴿فَعُمِّيَتْ﴾ وهو حرفٌ تتعدَّى به الأفعالُ الدَّالَّةُ على معنى الخفاء، مثل: خفي عليك، ولمَّا كان (عمي) في معنى (خفي) عُدِّي بـ (على)، وهو للاستعلاءِ المجازيِّ؛ أي: التَّمكُّن؛ أي: قوَّةُ ملازمةِ البيِّنة والرَّحمةِ له[3]، وشدَّة تجلُّل قومِه بالعَماءِ عن إبصارِ نورِ الحقِّ، والمبالغةِ في التَّدثُّرِ منه! وهو كما حكاه القرآنُ في موضعٍ آخرَ على لسان نوحٍ ﷺ: ﴿وَٱسْتَغْشَوْاْ ثِيَابَهُمْ﴾ [نوح: 7].

الغرَضُ منَ الاعتراضِ في الآية:

الأنبياءُ هم رَحمةُ الحَقِّ بالخلْقِ

جملةُ: ﴿وَءَاتَىٰنِي رَحْمَةً﴾ لا محلَّ لها منَ الإعراب لأنَّها اعتراضيَّةٌ بين جملةِ ﴿كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ﴾ وجملةِ ﴿فَعُمِّيَتْ﴾ المعطوفةِ عليها[4]، إذ حقُّه (على بينة من ربي فعميت)[5]، والغرَضُ من هذا الاعتراضِ تخصيصُ إيتاء الرَّحمةِ بزيادة التَّأكيدِ في أمرٍ عَلِقَ بها، وهي كونُها

(1) السمين الحلبي، الدر المصون: 6/314.
(2) رشيد رضا، تفسير المنار: 12/55.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/51.
(4) محمود صافي، الجدول: 6/252.
(5) السمين الحلبي، الدر المصون: 6/314.

من عند اللّه تعالى[1]، ولإفادة التَّقريرِ في نفس السَّامعِ أنَّ اللّه تعالى هو الذي اصطفى نوحًا واجْتباه ومَنَّ عليه بالرِّسالة، وهي من أعظمِ صُوَرِ رحمةِ اللّه تعالى بخلْقِه[2].

الغرَضُ من حذفِ جوابِ الشَّرطِ:

يُعاقَبُ المُعرِضُ عنِ الهدايةِ بالضَّلالِ والعَمايةِ

قول نوحٍ عليه السلام: ﴿إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ﴾ جملةُ شرطٍ حُذفَ جوابُها، ودلَّ عليه فعلُ ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾ وما سدَّ مسَدَّ مفعولَيْه، وتقديرُ الكلام: يا قوم إن كنتُ على بيِّنة من ربِّي إلى آخره أترون أنلزمُكم قبولَ البيِّنة، وأنتم لها كارهون[3]؟ فنُكتةُ حذفِ الجوابِ هي العلمُ به لتقدُّمِ معناه. والتَّقديرُ: إن كنت على بيِّنة من ربِّي فأخبروني ... إلخ[4].

بَلاغةُ التَّعبيرِ بلفظِ ﴿أَنُلْزِمُكُمُوهَا﴾:

في حمْلِ النَّفسِ على ما تكرهُ مَشقَّةٌ وضَنًى، لفظًا ومعنى

جاءت هذه الكلمةُ في سياق خطابِ نوحٍ عليه السلام إلى قومه، وقد أعْرَضوا عنِ الهُدى، وصمَّموا على رفض الهُدى والإسلام، لذا فإنَّ نوحًا عليه السلام أحسَّ بالصُّعوبةِ الشَّديدةِ في إبلاغِهم الهدايةَ، بل هي مستحيلةٌ، وكأنَّه يُرغمُ إنسانًا على شيءٍ وهو كارهٌ له، نافرٌ منه، فجاءت كلمة ﴿أَنُلْزِمُكُمُوهَا﴾ بلفظِها المديدِ أوَّلًا، وقد حُشِر فيها الضَّميران: الكاف (وها)، وإشباعِ حركةُ الميم التي هي ضمَّةٌ، فأصبحت واوًا ثانيًا، وورودُ الاستفهامِ الاستنكاريِّ في بدايتها ثالثًا، وجرسُ حروفِها وإيقاعِها رابعًا، لتتضافر هذه العواملُ، وترسمَ معنى الإكراه ومحاولةِ إبلاغ الشَّيء بصعوبةٍ شديدةٍ إلى من يرفضُه ويأباه، ولو وضعْنا بديلًا عنها: (أنلزمكم إيَّاها) لَتَلاشَى ذلك الجرسُ والإيقاعُ الذي كان لها، وضعُفت فيها القوَّةُ التي كانت تُؤدّيها؛ فهذا سِرٌّ من أسرار الإعجازِ[5].

(1) القزويني، الإيضاح: 3/216.
(2) المراغي، علوم البلاغة، ص: 197.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/52.
(4) بهجت صالح، الإعراب المفصل: 5/161.
(5) محمود صافي، الجدول: 6/257.

الغرَضُ منَ الاستفهامِ في ﴿أَنُلْزِمُكُمُوهَا﴾:

لا يُكرِهُ الرُّسلُ النَّاسَ حتّى يَكونوا مُؤمِنين

الاستفهامُ إنكاريٌّ؛ أي: ما كان لنا ذلك؛ لأنَّ اللّه لم يأمرْه بإكراهِهم إعراضًا عنِ العنايةِ بهم فتركَ أمرَهم إلى اللّه، وذلك أشدُّ في توقُّع العقابِ العظيمِ، وهذا تعريضٌ بأنَّهم لو تأمَّلوا تأمُّلًا بريئًا منَ الكراهيةِ والعداوةِ لعلِموا صدْقَ دعوتِه[1] ﷺ، فكأنَّه قال: إن شئتم تلقِّيَها فزَكّوا نفوسَكم، واتْرُكوا إنكارَكم، ففي طيِّ جوابِه ﷺ حثٌّ على تدبُّرِها، وردٌّ عنِ الإعراض عنها، بأسلوبٍ فائقٍ[2]، ويجوزُ أن يكونَ الاستفهامُ للحمْلِ على الإقرارِ لمناسبتِه مقامَ المُحاجَّة، وحينئذٍ يكونُ كلامُه ﷺ جوابًا عن شُبَههم التي أدْرَجوها في خلال مَقالِهم من كونِه ﷺ بشرًا قُصارَى أمرِه أن يكونَ مثلَهم من غير فضْلٍ له عليهم، وقطْعًا لشأفة آرائِهم الرَّكيكةِ[3].

سِرُّ ضميرِ المُتكلّمِ المشارك في ﴿أَنُلْزِمُكُمُوهَا﴾:

لا يَعدمُ الحقُّ أعوانًا وأنصارًا

في قولِه: ﴿أَنُلْزِمُكُمُوهَا﴾ ضميران متَّصلان، وتقدَّمَ ضميرُ الخطاب لأنَّه أخصُّ، ولو جيء بالغائب أوَّلاً لانفصل الضَّميرُ وجوبًا، وقد أجاز بعضُهمُ الاتِّصالَ[4]، وإسنادُ الإلزامِ لضمير الجماعة إمَّا للتَّعظيمِ أو لاعتبار متَّبِعيه ﷺ معه في ذلك[5]، وجيء بضميرِ المتكلِّم المشاركِ هنا للإشارة إلى أنَّ الإلزامَ لو فُرض وقوعُه لكان له أعوانٌ عليه، وهم أتباعُه، فأراد أن لا يُهملَ ذكرَ أتباعِه، وأنَّهم أنصارٌ له لو شاء أن يُهيبَ بهم. والقصدُ من ذلك: التَّنويهُ بشأنِهم في مقابلة تحقيرِ الآخرين إيَّاهم[6].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/51 - 52.
(2) القاسمي، محاسن التأويل: 6/89.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/202.
(4) السمين الحلبي، الدر المصون: 6/315.
(5) الآلوسي، روح المعاني: 6/240.
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/52.

بَلاغةُ الجملةِ الاسميّةِ في ﴿وَأَنتُمۡ لَهَا كَٰرِهُونَ﴾:

كراهيةُ الحقِّ تُعمي عنه وتُصِمُّ

يفيدُ التَّعبيرُ بالجملةِ الاسميَّةِ الثُّبوتَ والدّيمومةَ، وأريد بها هنا تأكيدُ إثبات الصِّفةِ للموصوف بها، أي: إثباتُ كراهيةِ الاهتداءِ والإيمانِ للملأ الكافرين من قوم نوح عليه السلام، فقوله: ﴿وَأَنتُمۡ لَهَا كَٰرِهُونَ﴾ مع تسميتِه لها بيِّنةً إشارةٌ إلى أنَّها لم تُعمّ ولا خفيت عليهم لقوَّة نورِها وشدَّة ظهورِها، وإنَّما هم معانِدون في نفيِهم لفضله وفضلِ من تبعَه، والتَّعبيرُ عن ذلك بالجملةِ الاسميَّةِ واسم الفاعل إشارةٌ إلى أنَّ أفعالَهم أفعالُ مَن كراهتُه لها ثابتةٌ مستحكِمةٌ[1].

الغرَضُ من تقديمِ ﴿لَهَا﴾ على الخبرِ:

ما كُرِه الحقُّ إلَّا بسببِ مرضٍ في القلب مُؤثِّرٍ، وإعراضٍ عنِ التَّدبُّرِ

عُدِّي قولُه: ﴿كَٰرِهُونَ﴾ باللَّام إلى مفعوله لزيادة تقويةِ تعلُّقِ الكراهيةِ بالرَّحمةِ أوِ البيِّنة؛ أي: وأنتم مُبغضون قَبولَها لأجل إعراضِكم عنِ التَّدبُّر فيها، وتقديمُ المجرورِ على ﴿كَٰرِهُونَ﴾ لرعايةِ الفاصلةِ مع الاهتمامِ بشأنِها. والمقصودُ من كلامِه بعثُهم على إعادة التَّأمُّلِ في الآيات، وتخفيضُ نفوسِهم، واستنزالُهم إلى الإنصافِ، وليس المقصودُ معذرتَهم بما صنعوا ولا العُدولَ عن تكرير دَعْوتِهم[2].

مُتشابهُ النَّظْمِ:

قال تعالى في قصة نوحٍ عليه السلام: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِهِۦ﴾

وقال في قصَّة صالحٍ عليه السلام: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي مِنۡهُ رَحۡمَةٗ﴾ [هود: 63].

حيث خاطب النَّبيَّان نوحٌ وصالحٌ عليهما السلام قومَهما بلفظين تساويا إلَّا

(1) البقاعي، نظم الدرر: 9/272.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/53.

فيما اختلفا فيه من تقديم المفعول الثَّاني في الآية الأولى على الجارِّ والمجرور وتأخيرِه عنهما في الآية الثَّانية، فما علَّةُ ذلك؟

مَن بالَغَ في إساءةِ الجوابِ بولِغَ له في تأكيدِ الخطابِ

إنَّ قومَ صالح عليه السلام بالغوا في إساءة الجوابِ حين قالوا: ﴿قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ﴾ [هود: 62]؛ أي: قد كنتَ مرجوًّا أن تسودَ فينا حتى نقطعَ عن رأيكِ ونرجعَ إليك من أمورنا، فرَموا مقامَه النَّبويَّ بحطٍّ مرتبتِه عنهم، فلمَّا بالغوا في إساءة الجوابِ جاوبَهم صالحٌ عليه السلام ردًّا لمقالِهم الشَّنيعِ بقوله: ﴿أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي مِنْهُ رَحْمَةً﴾ [هود: 63]، ولا شكَّ أنَّ صالحًا عليه السلام كذلك، وأنَّه على بصيرةٍ من أمره، ولكنَّه خاطبَهم على ما يَجري في مناظرةِ مَن فَرَضَ ما لا يعتقدُه المناظرُ على حسبِ نطقِه، ولكنَّه يستنزل بذلك مُناظرَه ليقيم الحُجَّة عليه، فيقول: هبْ كذا على ما تقولُه، فعلى هذا جرى قولُ النَّبيِّ الكريم عليه الصلاة والسلام: ﴿أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي﴾؛ أي: كيف ترون إن كنتُ على واضحةٍ وعلى يقينٍ من ربّي، وآتاني منه رحمةً فعصيتُه بموافقتِكم، فإنْ فعلتُ ذلك فمَن ينصرُني ويمنعُني من عذابِه؟ فخاطبَهم عليه السلام بطريقة فرْضِ هذا: إن كان كذا، وهو عليه السلام العليمُ بحاله الجليلِ، وعلى بيِّنةٍ من ربِّي، وأكّدَ بتقدُّم المجرورِ في قوله ﴿وَءَاتَىٰنِي مِنْهُ رَحْمَةً﴾ [هود: 63]؛ لِما يُحرزُ تقديمُه من التَّأكُّد، ويَعيه مفهومُه من أنَّ الرَّحمةَ منه سُبحانه لا يُشركُ فيها غيرَه، فهو مخصوصٌ لا يحصلُ مع تأخيره، فتقديمُ هذا الضَّمير المجرورِ كتقديمِه في قولِه سُبحانه: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾ [الإخلاص: 4]، فلمَّا بالَغوا في قُبحِ الجوابِ؛ بالغَ عليه السلام في ردِّ مقالِهم، فقدَّم المجرورَ لتأكيدِ أنَّ الرَّحمةَ من عند الله تعالى: ﴿وَءَاتَىٰنِي مِنْهُ رَحْمَةً﴾ [هود: 63].

ولمَّا لم يكن في مراجعةِ قومِ نوحٍ عليه السلام مثلُ هذا في شناعة الجوابِ، لأنَّ أقصَى المفهومِ من قولِهم: ﴿مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا﴾ إلحاقُه بهم

ومُماثلتُه إيَّاهم، وكلُّهم يقولون: لو كنتَ رسولًا لكنتَ منَ الملائكة ولم تكن لِتُماثِلَنَا. فلم يكن في قول هؤلاء ما في قول قومِ صالحٍ عليه السلام، فجرَى جوابُه عليه السلام على نسبةِ ذلك، فقال: ﴿وَءَاتَىٰنِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ﴾، فأتى بالمجرور مؤخَّرًا في محلِّه على ما يجبُ، حيث لا يُقصدُ في إحراز المفهومِ ما قُصدَ في الآية الأخرى، فوردَ كلٌّ على ما يلائمُ[1].

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الإيتاءُ والإعطاءُ:

الإيتاءُ أقوى منَ الإعطاءِ

يفترقُ الإيتاءُ عنِ الإعطاء بأنَّ الإعطاء له مُطاوعٌ يقال: أعطاني فعطوت، ولا يقال في الإيتاء آتاني فأتيتُ، وإنّما يقال: آتاني فأخذتُ، والفعلُ الذي له مطاوعٌ أضعفُ في إثبات مفعولِه منَ الذي لا مطاوعَ له؛ لأنّه يقال: قطعتُه فانقطع، فيدلّ على أنَّ فعلَ الفاعل كان موقوفًا على قَبول المحلِّ ولولاه لما ثبت المفعولُ، ولهذا يصحُّ قطعتُه فما انقطعَ، ولا يصحُّ فيما لا مطاوعَ له ذلك، فلا يجوزُ أن يقال: ضربتُه فانْضرب أو ما انْضرب ولا قتلتُه فانقتل أو ما انقتل؛ لأنَّ هذه الأفعالَ إذا صدرت منَ الفاعل ثبت لها المفعولُ في المحلّ، والفاعلُ مستقلّ بالأفعال التي لا مطاوعَ لها؛ فالإيتاء إذن أقوَى منَ الإعطاء في إثبات مفعولِه[2].

ويدلُّ أيضًا على أنَّ الإيتاءَ أقوى منَ الإعطاء أنَّ الإيتاءَ في أكثرِ مواضعِ القرآن في ما له ثباتٌ وقرارٌ، كالحكمةِ والسّبعِ المثاني، والمُلكِ الذي لا يُؤتَى إلّا لذي قوَّةٍ، والإعطاءُ فيما ينتقلُ منه بعد قضاء الحاجةِ منه كإعطاء كلّ شيءٍ خلقَه لتكرّر حدوثِ ذلك باعتبارِ الموجوداتِ، وإعطاءِ الكوثرِ للانتقال منه إلى ما هو أعظمُ منه،

(1) الغرناطي، ملاك التأويل: 2/255 - 256.

(2) بدر الدين الزركشي، البرهان في علوم القرآن: 4/85، وأبو البقاء الكفويّ، الكلّيّات، ص: 212.

وكقولِ اللّه ﷻ: ﴿وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ ۝٥﴾ [الضحى: 5]؛ لأنَّ اللّه تعالى بعدما يُرضي النّبيَّ ﷺ يزيدُه وينتقلُ به من كلِّ الرِّضا إلى أعظمِ ما كان يَرجو منه[1].

عـنـدَ أعــمُّ من لَدُن

عندَ ولدُن:

الفرق بينهما أنَّ (عند) لا يَستدعي حضورًا؛ فهو للحاضر والغائب، و(لَدن) يَستدعي حضورًا، تقول: عندي مال وإن كان غائبًا عنك، ولا تقول: لدنِّي مالٌ إلا والمالُ حاضرٌ عندك؛ فـ (عند) بهذا الاعتبارِ أعمُّ من (لدن)[2]، وممّا يجعلُ (لدن) أخصَّ من (عند) أنَّ (لدن) يدلُّ على ابتداء نهايةٍ، نحوَ: أقمتُ عنده من لَدُنِ طلوع الشّمس إلى غروبِها ولَدُن أقربُ مكانًا وأبلغُ من عند. ومن لدنّا: تُستعمَلُ للشّيء الخاصّ الذي يرادُ إعطاؤه لشخص مُقرَّبٍ إلى اللّه تعالى؛ مثل: شيءٍ من علْمِ الغيبِ، قال اللّه ﷻ: ﴿فَوَجَدَا عَبۡدٗا مِّنۡ عِبَادِنَآ ءَاتَيۡنَٰهُ رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَا وَعَلَّمۡنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلۡمٗا ۝٦٥﴾ [الكهف: 65][3]؛ (عند) في لسان العرب لِما ظهر، و(لدن) لِما بطن، فيكونُ المرادُ بالرّحمة ما ظهرَ من كراماتِه، وبالعلْمِ الباطنَ الخفيَّ المعلومَ قطعًا أنَّه خاصٌّ باللّه ﷻ. ولـمَّا كان هذا العلمُ أشرفَ الأشياء استُعمِلَ معه (لدن) الأخصُّ تنبيهًا على شرفِه[4].

(1) بدر الدين الزركشي، البرهان في علوم القرآن: 4/86، وأبو البقاء الكفويّ، الكلّيّات، ص: 212.
(2) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 298، وابن منظور، لسان العرب، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (لدن)، وبدر الدين الزركشي، البرهان في علوم القرآن: 4/290.
(3) الرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (لدن)، ومحمد الهلال، تفسير القرآن الثريّ الجامع: 6/482.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 12/106، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (لدن).

﴿وَيَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مَالًاۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۚ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ قَوۡمٗا تَجۡهَلُونَ ٢٩﴾ [هود: 29]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

مواصلةُ مناقشةِ نوح عليه السلام قومَه، ورَدُّ شُبُهاتِهِم بالحجج الدّامغة

لَمّا ذَكَرَ نوحٌ عليه السلام لَهُم أوَّلًا: أنَّهُ على حُجَّةٍ ظاهِرَةٍ وبَيِّنَةٍ واضحَةٍ مِن رَبِّهِ لا مِراءَ فيها، وأنَّ نُبوَّتَهُ ليست كَسْبًا بَشَرِيًّا ولا هَوًى نَفْسِيًّا، وأنَّهُ لَيسَ مِثْلَهُم، فهوَ مُرْسَلٌ من ربِّه مُبَلِّغٌ عنه، وقد أوتيَ منه رَحْمَةً عُمِّيَتْ عليهم بَراهِيْنُها ودَلائِلُها؛ أردف ذلك بذكر الدليل على صدقه معهم وإخلاصه لهم، مبيِّنًا أنَّه لا يُريدُ مالًا على بَلاغِه، وإنَّما الَّذي يكافِئُهُ ويكافئ من آمن معه من الضعفاء الَّذينَ ناصَروهُ، وصَدَّقوا بَلاغَه، هوَ رَبُّهُ الَّذي أرْسَلَهُ.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مَالًاۖ﴾: المالُ: الأجرُ أو العَطيَّةُ مُقابِلَ عَمَلٍ ونَحْوِهِ، وهوَ مِن المَيْلِ، قال الرّاغِبُ: "والمالُ سُمّي بذَلِكَ؛ لِكَونِهِ مائِلًا أبَدًا وزائِلًا، ولِذَلِكَ سُمّي عَرَضًا"[1] والمراد هنا: عطيّة مقابل عمل.

2) ﴿أَجۡرِيَ﴾: الأجرُ هوَ الجَزاءُ، "والأُجرَةُ: ما يَعودُ مِن ثَوابِ العَمَلِ دُنْيَويًّا كانَ أو أُخرَويًّا، وجَمْعُ الأجْرِ أُجورٌ... والأجرُ والأُجرَةُ يُقالُ فيْما كانَ عَن عَقْدٍ، وما يَجْري مَجرى العَقْدِ، ولا يُقالُ إلّا في النَّفْعِ دونَ الضُّرِّ"[2]، وهو المراد هنا.

3) ﴿بِطَارِدِ﴾: الطَّرْدُ هوَ الإبعادُ والإقْصاءُ، يُقالُ: "طَرَدَهُ طَرْدًا وطَرَدًا، وطَرَدَهُ وأطْرَدَهُ: أبْعَدَهُ ونَحّاهُ، وهوَ شَرِيْدٌ طَرِيْدٌ، ومُشَرَّدٌ مُطَّرَد"[3].

(1) الرّاغب، المفردات: (ميل).
(2) الرّاغب، المفردات: (أجر).
(3) الزّمخشريّ، أساس البلاغة: (طرد).

وقالَ الرّاغِبُ: الطَّرْدُ: هوَ الإزعاجُ والإبْعادُ على سَبيلِ الاسْتِخفافِ، يُقالُ: طَرَدْتُهُ[1]، والمراد هنا: ولست بمبعدهم عن مجلسي استخفافًا بهم وتحقيرًا[2].

4) ﴿تَجْهَلُونَ﴾: الجَهلُ ضِدُّ العِلْمِ بالشَّيءِ والإحاطَةِ بهِ، وعدمُ الفهْمِ والتَّعَقُّلِ، قال الزَّمَخْشَري: "فُلانٌ جَهولٌ، وقَد جَهِلَ بالأمْرِ، وجَهِلَ حَقَّ فُلانٍ، وهوَ يَجْهَلُ على قَوْمِهِ: يَتَسافهُ عَلَيهِم.. واستجهله: عدَّه جاهلًا، وتجاهل: أرى من نفسه أنَّه جاهل، وجاهلَه: سافهه"[3] والمراد هنا: تسفهون، وتفعلون أفعال أهل الجهل، فتكذبون[4].

❁ المَعْنى الإجْمالِيُّ:

من أدلَّة صدق الرَّسول، أنَّهُ لا يطلبُ أجرًا على تبليغ دَعْوَتِهِ، ولا تثنيه جهالةٌ ولا إنكارٌ.

في هذه الآيَةِ الكَريمَةِ يُنادي نَبيُّ اللّه نوحٌ ﷺ قَومَهُ قائلًا لَهُم: "لا أطْلُبُ مِنْكُم على تَبْليغِ رِسالَةِ ربي مالًا، وإنَّما أطْلُبُ جَزائي مِن اللّه، وما أنا بطارِدِ الَّذينَ آمَنوا برَبِّهِمْ عَن مَجْلِسي ومُعاشَرَتي، لِمُجَرَّدِ احتِقارِكُمْ لَهُمْ؛ لِأنَّهم سَيُلاقونَ رَبَّهُم يومَ القيامَةِ، فيَشْكونَني إلَيهِ إنْ طَرَدْتُهُمْ لِفقْرِهِمْ، ولكنّي أراكُمْ قَوْمًا تَجْهَلونَ، ما يَصِحُّ أنْ يتفاضلَ بهِ الخَلْقُ عِنْدَ اللّه، أهوَ الغِنَى والجاهُ، كَما تَزْعُمونَ؟ أم اتِّباعُ الحَقِّ وعَمَلُ الخَيرِ؟"[5].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالَةُ الواو في قَولِهِ: ﴿وَيَٰقَوْمِ﴾:

الواو هُنا عاطِفةٌ لِجُملَةِ ﴿وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ﴾ على الجُملَةِ

دَعـوَةُ الأنبياءِ، قـائِـمَـةٌ على الحوارِ الفعّال، والمُـنـاقَـشَـةِ الإيجابيَّة

(1) الرّاغب، المفردات: (طرد).
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/55.
(3) الزّمخشريّ، أساس البلاغة: (جهل)
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/374.
(5) لجنة من علماء الأزهر، المنتخب في تفسير القرآن الكريم، ص: 312.

السّابقة: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي﴾ [هود: 28] وهو من عَطفِ الجُمَلِ على بَعضِها لاتِّفاقِ الجُملتَينِ في الإنشائيةِ، ولِتَشْريكِ الجُملتَينِ في حُكمٍ واحِدٍ، وهوَ مُناقَشَةُ قَومِهِ ورَدُّ شُبُهاتِهِم.

الغَرضُ مِن النِّداءِ في قوله: ﴿وَيَٰقَوۡمِ﴾:

رَدَّدَ سَيدُنا نوحٌ عليه السلام النِّداءَ لِقَومِهِ بـ (يا) الدالَّةِ على بُعْدٍ، والمراد بالبُعد هنا: البُعدُ في المنزلة ورِفعَةِ القَدر، فلا شكَّ أنَّه عليه السلام كان حريصًا على إيمان قومه، مشغولًا بشأنهم.

بيانُ أدَبِ الأنْبياءِ مَعَ أقوامِهِم، وتَعظيمِ شَأنِهِم

سرُّ إعادة النِّداء بـ ﴿وَيَٰقَوۡمِ﴾، وسرُّ عطفه بالواو:

وفي إعادَة الخِطابِ بـ ﴿وَيَٰقَوۡمِ﴾ تَأْكيدٌ لِما في الخِطابِ بِهِ أوَّلَ مَرَّةٍ من الدلالة على حرصه على إيمان قومه، لاستنزال طائر نفورهم تذكيرًا لهم، بأنَّه منهم، فلا يريد لهم إلّا خيرًا[1].

إعادة النِّداء لونٌ من الحرص والإشفاق عليهم

وأمّا عَطْفُ النِّداءِ بالواوِ مَعَ أنَّ المُخاطَبَ بِهِ واحِدٌ، وشَأْنُ عَطْفِ النِّداءِ أنْ يَكونَ عِنْدَ اخْتِلافِ المُنادَى... فأمّا إذا اتَّحَدَ المُنادى؛ فالشَّأْنُ عَدَمُ العَطْفِ"[2]، بحيث "يتعيّن هنا أن يكون العطف من مقول نوح عليه السلام لا من حكاية الله عنه، ثمّ يجوز أن يكون تنبيهًا على اتّصال النّداءات بعضها ببعض، وأنّ أحدها لا يغني عن الآخر، ولا يكون ذلك من قبيل الوصل؛ لأنّ النّداء افتتاح كلام، فجملته ابتدائيّة، وعطفها - إذا عطفت - مجرّد عطف لفظيّ، ويجوز أن يكون ذلك تفنّنًا عربيًّا في الكلام عند تكرّر النّداء استحسانًا للمخالفة بين التّأكيد والمؤكَّد"[3].

دِلالَةُ التَّعبيرِ بالمُنادى (قَومِ) في السّياق:

حينَ أرادَ نوحٌ عليه السلام مُخاطَبةَ هَذا الجمعِ ناداهُم بكَونِهِم قَومَه، وليسوا

تلطُّف الدّاعي بالمدعوّين من أخلاق المرسلين

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/50.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/53.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/54.

بَعيدينَ عنهُ أو غُرَباءَ، بَل جَعَلَهُم الأهلَ والعشيرةَ تَلَطُّفًا بهم واستدراجًا لَهُم؛ لَعَلَّه يَجدُ منهم صَوابًا أو إرشادًا، فإنَّ المُحبَّ دَومًا يَرى قَومَهُ أولَى النّاسِ بالقُربِ، فخاطَبَهُم خِطابًا في غايَةِ التَّلَطُّفِ بهم"[1].

دلالَةُ الفعلِ المُضارِعِ المَنفيِّ ﴿لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ﴾ في الآية:

الأنبياءُ لا يُريدونَ نَفْعًا دُنيَويًّا، ولا عرضًا ماديًّا

عبَّر هُنا بالفعلِ المُضارِعِ الدّالِّ على التَّجَدُّدِ والحدوثِ دِلالَةً على تَجَدُّدِ مَقولَتِهِ لَهُم وتكرُّرِها لإشعارهم، بعَدَمِ حاجَتِهِ إلَى مالهم لِكَونِهِ مَمدودًا بغِنى اللّه تعالى وعَطائِهِ، والمُرادُ أنَّهُ عليه السلام: "لَمّا أظْهَرَ لَهُمْ نوحٌ عليه السلام أنَّهُ يُجْبِرُهُمْ على إيمانٍ يَكْرَهونَهُ؛ انْتَقَلَ إلى تَقْريبِهِمْ مِنَ النَّظَرِ في نَزاهَةِ ما جاءَهُمْ بِهِ، وأنَّهُ لا يُريدُ نَفْعًا دُنْيَويًّا بأنَّهُ لا يَسْألُهُمْ على ما جاءَ بِهِ ما لا يُعْطونَهُ إيّاهُ، فبماذا يَتَّهِمونَهُ حَتَّى يَقْطَعوا بكَذِبِهِ"[2].

مَعنَى حَرْفِ الجَرِّ (على) ودِلالَتُه:

نفاسةُ دَعوَةِ الرُّسُلِ الكِرامِ، وعلوُّ قدرِ ما يدعون إليه

حَرْفُ الجَرِّ (على) يَأتي مُفيدًا لِلاسْتِعْلاءِ، ولَمّا كانَ ما جاءَ بِهِ نوحٌ عليه السلام أمرًا عاليَ القدْرِ رَفيعَ الشَّأنِ، وهوَ دَعْوَتُهُ لَهُم بإفرادِ اللّه تعالى بالوَحْدانيَّةِ والعُبوديَّةِ الخالِصَةِ المُطْلَقَةِ صارَ إبْلاغُه وإنذارُهُ مِن أعْلى ما يُلتَفتُ إلَيهِ إشعارًا بعُلوِ هذهِ الدَّعْوَةِ ورِفعَةِ قدْرِها.

مَرْجِعُ الضَّميرِ في ﴿عَلَيۡهِ﴾، وعلاقَتُهُ بالمَعْنى:

عُلوُّ البَلاغِ والإنْذارِ مِن اللهِ ورُسُلِهِ عليهم السلام

الضَّميرُ في قَولِهِ: ﴿عَلَيۡهِ﴾ إمّا " لِلتَّبْليغِ المَفْهومِ مِمّا تَقَدَّمَ، وقيلَ: الضَّميرُ لِلإنْذارِ، وإفرادِ اللّه سُبحانَهُ بالعِبادَةِ، وقيلَ: لِلدُّعاءِ إلى التَّوحيدِ، وقيلَ: غَيرُ ذَلِكَ، وكُلُّها أقوالٌ مُتَقارِبَةٌ"[3].

أو أنَّه: "عائِدٌ إلى المَذْكورِ بمَنْزِلَةِ اسْمِ الإشارَةِ في قَوْلِهِ: ومَنْ يَفْعَلْ ذلِكَ؛ فإنَّ الضَّميرَ يُعامَلُ مُعامَلَةَ اسْمِ الإشارَةِ "[4]، وكلُّ وجهٍ ينتج معنى، وكلُّها تتعانق، والرَّسم واحد، وهو من الإيجاز البليغ.

(1) الصّاوي، حاشية الصاوي على الجلالين: 7/118.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/54.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 12/41.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/55.

نُكْتَةُ تَنْكِيرِ المَفْعولِ ﴿مَالًا﴾ في السّياق:

حقارةُ المالِ في مُقابِلِ البلاغِ عن الله ذي الجلال

جاءَ لَفظُ ﴿مَالًا﴾ نكرةً "لِلتَّحقيرِ والتَّقليلِ مِن قيمَةِ هَذا المَطْلوبِ - إذا طُلِب - لأنَّ الأنْبياءَ الكِرامَ صَلَواتُ اللّه وسَلامُهُ عَلَيهِم ما بُعِثوا أُجَراءَ لِأحدٍ؛ لأنَّ المُتكفِّلَ بأجرِهِم هوَ مَن أرْسَلَهُم ﷻ، ولا يَكونُ مِنْهُم أيُّ التِفاتٍ إلى تَفاهاتِ الدُّنيا وما حَوَتْهُ، وكُلُّ ما اسْتَقَرَّ في أيدي البَشَرِ بالنِّسْبَةِ لَهُم مِن مُحَقِّراتِ الأُمورِ، فأعيُنُهُم مَنْصوبَةٌ إلى ما عِنْدَ اللّه تعالى مِن عَظيمِ الأجْرِ والنَّعيم.

بَلاغَةُ الاحْتِراسِ في قَولِهِ: ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۚ﴾:

اللهُ وحدَهُ مَن يُعْطي الأجورَ العظامَ لِأنْبيائِهِ الكِرامِ

أدَبُ النُّبوةِ أدَبٌ راقٍ، والبَلاغُ عِنْدَ اللّه تعالى لا يَكونُ إلّا مِن أصْحابِ الهِمَّةِ العاليَةِ، ولِمَ لا؟ وهُم مَنْ ربّاهُمُ اللّه تعالى على عَيْنِهِ، واصْطَفاهُمْ لِحَمْلِ مَنْهَجِهِ ودَعْوَتِهِ إلى الخَلائِقِ، وسَيدُنا نوحٌ عليه السلام؛ "لَمّا نَفى أنْ يَسْألَهُمْ مالًا، والمالُ أجْرٌ، نَشَأ تَوَهُّمُ أنَّهُ لا يَسْألُ جَزاءً على الدَّعْوَةِ، فجاءَ بجُمْلَةِ ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۚ﴾ احْتِراسًا"[1].

الغَرَضُ مِن التَّعبيرِ بأسلوبِ القَصْرِ في السّياق:

أجرُ المرسلين على التَّبليغ مضمون بنصِّ الوعد البليغ

في قوله تعالى: ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۚ﴾ قَصَرَ سيّدُنا نوحٌ أجْرَهُ على اللّه تعالى قَصْرًا حَقيقيًّا، وهو هُنا يُفيدُ القَلْبَ؛ أي: قَلْبَ مُعْتَقَدِ هَؤلاءِ القَوم - وبَيانَ أنَّ أجرَهُ لَيْسَ على أحَدٍ مِنْهُم، إنَّما أجْرُهُ على اللّه تعالى وحْدَهُ، قال الإمامُ البِقاعي رَحِمَهُ اللّه تعالى: "ولَمّا كانَ نَفْيُ ذَلِكَ عامًّا لِلفضْلِ الدُّنْيَوي، وكانَ الاتِّصافُ بقِلَّةِ ما في اليَدِ إنَّما يَكونُ ضارًّا؛ إذا كانَ صاحِبُهُ يَسْألُ غَيْرَه؛ نَفى عنهُ هَذا اللازِمَ العائِبَ، فقالَ مُجيبًا عَن نَفْيِهِم الفضلَ عنهُ وعَن أتباعِهِ بأنَّه قَد يُريدُ مِنهُم على ذَلِكَ ثَوابًا دُنْيَويًّا.. ونَبَّهَ بهَذا على أنَّهُ لا غَرَضَ لَهُ مِن عَرَضٍ دُنيَويٍّ يُنَفِّرُ المَدعو عنهُ، فوَجَبَ تَصْديقُهُ، وفيهِ تَلْقينٌ لِلجَوابِ عَن قَولِ قُرَيشٍ: لَولا أُلقيَ إليهِ كَنْزٌ"[2].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/55.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر في تناسب الآيات والسور: 9/274، 273.

نُكتَةُ خِلافِ الظّاهِرِ بالمُغايَرةِ بَيْن ﴿مَالًا﴾ و﴿أَجْرِىَ﴾:

نفيُ النَّفعِ الدُّنيويِّ على التَّبليغِ ابتغاءَ للأجرِ من الله وحده

"والمُخالَفةُ بَيْنَ العِبارَتَيْنِ في قَوْلِهِ: ﴿مَالًا﴾ و﴿أَجْرِىَ﴾ تُفيدُ أنَّهُ لا يَسْألُ مِنَ اللّه مالًا، ولَكِنَّهُ يَسْألُ ثَوابًا، والأجْرُ: العِوَضُ على عَمَلٍ، ويُسَمّى ثَوابُ اللّه أجْرًا؛ لأنَّهُ جَزاءٌ على العَمَلِ الصّالِحِ"[1].

أو أن يكون التَّعبير بالأجر بعد التَّعبير بالمال؛ نفيًا لظنِّهم أن يكون عوضًا، والمعنى: "أي: على ما قُلتُه في أثناءِ دَعوَتِكُم ﴿مَالًا﴾ تؤدّونَهُ إلَيَّ بعدَ إيمانِكُم واتِّباعِكُم لي، فيكونُ ذَلِكَ أجرًا لي في مُقابلةِ اهتِدائِكُم ﴿إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ﴾ الَّذي يُثيبُني في الآخِرَةِ، وفي التَّعبيرِ عَنهُ حينَ نُسبَ إلَيهِم بالمالِ ما لا يَخفَى مِن المَزيَّة"[2]. ففي التَّعبير بالأجْرِ إحاطَةٌ بالعوض بكلِّ سبيل إمّا بالمالِ، وإمّا بالثَّوابِ والجَزاءِ، وفي المغايرة دلالة الارتِقاءِ بعلوِّ الهِمَّةِ ورُقيٍّ في النَّفْسِ.

دِلالَةُ العَطفِ في عبارة: ﴿وَمَآ أَنَا۠﴾:

الإيمان بالله سببٌ للقرب، والاعتقاد بأفضليَّة المال عليه سببٌ للبُعد

طَلَبَ قَومُ نوحٍ مِنهُ أنْ يُقصيَ، ويُنَحِّي عَنهُ المؤمنينَ برِسالَتِهِ إزراءً لَهُم وتَقْبيحًا لِشَأنِهِم لِضَآلةِ منزلتِهِم - مِن وُجهةِ نَظرِهِم السيئةِ - وكَما قيلَ: "وَلَكِنَّ عَينَ السُّخطِ تُبدي المَساوِيا"، فجاءَ قولُه عليه السلام نافيًا هَذا الطَّلَبَ وعاطِفًا إيّاهُ على قَولِهِ السابق: ﴿لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا﴾، فعَطَف جُمْلَةَ ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ على جملَةِ ﴿لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا﴾؛ لِأنَّ مَضمونَها كالنَّتيجَةِ لِمَضمونِ المَعطوفِ عَلَيْها؛ لِأنَّ نَفْيَ طَمَعِهِ في المُخاطَبينَ يَقْتَضي أنَّهُ لا يُؤْذي أتْباعَهُ لِأجْلِ إرْضاءِ هَؤُلاءِ"[3]. "ولَمّا كانَ التَّعبيرُ برَذالَةِ المُتَّبِعِ مِمّا يُنَفِّرُ أهلَ الدُّنيا عَن ذَلِكَ التّابِعِ؛ بَيَّنَ لَهُم أنَّ شَأنَهُ غَيرُ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/55.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 12/55.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/55.

شَأنِهم، وأنَّه رَقيقٌ على مَن آمنَ بهِ رَفيقٌ به، رَحيمٌ لهُ، وإنْ كانَ متأخِّرًا في الدُّنيا مَحرومًا مِنها خَوفًا مِن اللّه الَّذي اتَّبَعوه فيهِ، فقالَ: ﴿وَمَآ أَنَا۠﴾، وأغرَقَ في النَّفي بقولِهِ: ﴿بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۚ﴾، أي: أقَرّوا بألسنَتِهم بالإيمانِ"[1].

لطيفةُ ارتباط نفي الطَّرد بجملة: ﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ﴾:

تَعانُقُ الجُمَلِ مَعَ بعْضِها، يَجْعَلُ لِلكَلامِ مَزِيَّةَ التَّعانُق والتَّواصل

في قَوله: ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۚ﴾ قيلَ: هوَ جَوابٌ عَمّا لوَّحوا بهِ بقولِهِم: ﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمۡ أَرَاذِلُنَا﴾ [هود: 27]، مِن أنَّهُ لَو اتَّبَعَهُ الأشرافُ؛ لَوافقوهُمْ، وأنَّ اتِّباعَ الفُقَراءِ مانِعٌ لهَمُ عن ذَلِكَ، كَما صَرَّحوا بهِ في قَولِهِم: ﴿قَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلۡأَرۡذَلُونَ ١١١﴾ [الشعراء: 111]، فكانَ ذَلكَ التِماسًا مِنهُم لِطَردِهِم، وتَعليقًا لإيمانِهِم بهِ عليه السلام بذَلكَ؛ أنَفةً مِن الانتظامِ مَعهم في سلكٍ واحدٍ"[2].

سِرُّ التَّعبيرِ بالجُملَةِ الاسْميَّةِ في السّياق:

الثَّباتُ على المَبْدَأ شِعارُ المُخْلِصينَ الرَّبانيين

نجد في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۚ﴾ أنَّ التعبيرَ بالجُمْلَةِ الاسْميَّةِ يفيد الدَّلالة على الثُّبوتِ والدَّوام والاسْتِمرارِ على مَبْدَأِ الحَقِّ، والتِزامِ الرَّأفةِ والرَّحمَةِ بقَومِهِ، فهوَ لا يَتَغَيَّرُ، ولا يَتَحَوَّلُ عَن هذه المَبادِئِ - وهَذا شَأنُ الأنبياءِ جَميعًا - فهُم مَفْطورونَ على الرَّأفةِ والرَّحمَةِ واللّينِ ومَكارِمِ الأخلاقِ[3].

بَلاغَةُ التَّعبيرِ بالمسنَدِ إلَيهِ ضَميرِ التَّكَلُّم ﴿أَنَا۠﴾:

حِفْظُ كرامةِ الفقراء، واستيفاءُ حقوقِهم، دأْبُ الأنبياءِ وديدنهم

عَرَّضَ قَومُ نوحٍ بِجبروتِهم وكِبَرِ نُفوسِهم ألّا يُؤمِنوا بنوحٍ ودَعْوَتِهِ إلّا إذا أبْعَدَ هَؤلاءِ الأراذِلَ، "وهُم سفلةُ النّاسِ، وإنَّما وصَفوهُم بذَلِكَ لِفقْرِهِم، جَهْلًا مِنْهُم واعْتِقادًا أنَّ الشَّرَفَ هوَ بالمالِ والجاهِ، ولَيْسَ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/274.

(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 12/41، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/202.

(3) قال الشَّيخُ عبد القاهر: "الفرقُ بينَ الخَبَرِ إذا كانَ بالاسمِ، وإذا كانَ بالفِعلِ: أنَّ موضوعَ الاسمِ على أنْ يُثبِتَ بِهِ المَعنَى لِلشَّيءِ مِن غَيرِ أن يَقتَضي تَجَدُّدَهُ شَيئًا بَعدَ شَيءٍ، وأمّا الفِعلُ، فمَوضوعُهُ على أنَّه يَقتَضي تَجَدُّدَ المَعنَى المثبتِ بِهِ شَيئًا بَعدَ شَيءٍ"، يُنظر: الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص: 174.

الأمْرُ كَما اعْتَقَدوا، بلِ المُؤمِنونُ كانوا أشْرَف مِنْهُم على حالِ فقْرِهِم وخُمولِهِم في الدُّنيا"[1].

ومِن هُنا أسْنَدَ ﷺ نَفْيَ طَرْدِهِم إلَى نَفْسِهِ بضَميرِ المُتَكَلِّم مُبالَغَةً في نَفْي أنْ يَقَعَ مِنْهُ ما أرادَهُ هَؤلاءِ، والتَّعْبيرُ بإضافةِ النَّفْيِ إلى المُتَكَلِّم نَفْسِهِ أقوى في أداءِ المُرادِ مِن أنْ لَو عَبَّرَ بقَولِهِ: "لَنْ أطرُدَهُم"؛ ليَكونَ الرَّدُّ أقوَى وأبْلَغَ على غُرورِ أنْفُسِهِم وصَلَفِ عِنادِهِم.

مَعنَى الباء ودلالَتُها في قَولِهِ: ﴿بِطَارِدِ﴾:

المُؤمِنونَ المُسْتَضْعَفونَ، موصولون بأنبيائهم ملاصِقونَ لهم باطِّراد

الباءُ في قَولِهِ: ﴿بِطَارِدِ﴾ حَرفُ جَرٍّ زائدٌ جاءَ تَأكيدًا مِنْهُ ﷺ نَفيَ طَرْدِ هَؤلاءِ الأتْباعِ عَن مَجْلِسِهِ أو التَّعامُلِ مَعَهُم لِكَونِهِم همُ المُصَدِّقينَ لَهُ ﷺ وقَد قالوا ذَلِكَ؛ "التِماسًا مِنْهُم لطردِهِم، وتَعْليقًا لِإيمانِهِم بهِ ﷺ أنَفةً مِن الانْتِظامِ مَعَهُمْ في سِلْكٍ واحِدٍ، فأدَّتِ الباء هُنا دَوْرًا بارِزًا تَأكيدًا لِعَدَمِ وُقوعِ الطَّردِ لَهُم مِنْهُ[2] ﷺ. "وقرئ: ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾، بالتنوينِ على الأصلِ"[3]. ممّا يدلُّ على أنَّ زيادةَ الباءِ هُنا لتوكيد المعنى، فهو حرفٌ يُتوصَّل به لزيادة التوكيد.

سِرُّ إضافةِ خَبَرِ (ما) لِلاسْمِ المَوصولِ:

الحُكمُ يَكونُ بالظَّواهِرِ المعلنة الدّالَّةِ على صِدقِ الإيمانِ ورسوخه

أُضيف خبرُ ما الحِجازيَّةِ هُنا، إلى الاسم المَوصولِ ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾، لِكَونِهِم المَخصوصينَ بالطَّردِ والإبعادِ، والتَّنبيهِ على خَطَأِ هَؤلاءِ القَومِ في طَلَبِهِم هَذا، مَعَ وصْفِ هَؤلاءِ المُرادِ إبعادُهُم، بكَونِهِم آمَنوا بنَبيِّ اللّه نوحٍ ﷺ وناصَروهُ، ولِأنَّ مَصيرَهُمْ إلَى اللّه تعالى؛

(1) ابن جُزَيّ، التّسهيل لعلوم التّنزيل: 1/368.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/202.

(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/266. وفي معنى قول الزمخشري: "التنوين على الأصل"، قال السمين: "يعني: أن أصل اسم الفاعل بمعنى الحال والاستقبال العملُ، وهو ظاهرُ قولِ سيبويه. قال أبو حيّان: ويمكن أن يُقال: الأصلُ الإضافةُ لا العملُ، لأنه قد اعتوره شَبَهان، أحدهما: لشَبَهه بالمضارع وهو شَبَهٌ بغير جنسه، والآخر: شَبَهُه بالأسماء، إذا كانت فيه الإضافة، فكان إلحاقُه بجنسه أَوْلى"، يُنظر: السّمين الحلبي، الدّرّ المصون: 6/317.

فيُحاسِبُهُم على سِرِّهم وعَلَنِهم، أمّا أنا، فأكتَفي مِنْهُم بظَواهِرِهم الَّتي تَدُلُّ على صِدقِ إيمانِهم وشِدَّةِ إخلاصِهم.

سِرُّ التَّعبيرِ بالاسْمِ المَوصولِ ﴿ٱلَّذِينَ﴾:

شَرَفُ التَّعبيرِ بوَصفِ الإيمانِ تنويهٌ بما يقتضيه من علوِّ الشَّأنِ

عَبَّر سَيدُنا نوحٌ عليه السلام "عن أتْباعِهِ بطَريقِ المَوْصوليَّةِ بقَوْلِهِ: الَّذينَ آمَنوا لِما يُؤْذِنُ بِهِ المَوْصول من تَغْليظ قَوْمِهِ في تَعْريضِهِمْ لَهُ بأنْ يَطْرُدَهُمْ بما أنَّهُمْ لا يُجالِسونَ أمْثالَهُمْ؛ إيذانًا بأنَّ إيمانَهُمْ يوجِبُ تَفْضيلَهُمْ على غَيْرِهِمُ الَّذينَ لَمْ يُؤْمِنوا بِهِ، والرَّغْبَةَ فيهِمْ، فكَيْف يَطْرُدُهُمْ؟ وهَذا إبْطالٌ لِما اقْتَضاهُ قولهمْ: ﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا﴾ [هود: 27] مِنَ التَّعْريضِ بأنَّهُمْ لا يُماثِلونَهُمْ في مُتابَعَتِهِ، والطَّرْدُ: الأمْرُ بالبُعْدِ عن مَكانِ الحُضورِ تَحْقيرًا أو زَجْرًا"[1].

مَوقِعُ جُملَةِ ﴿إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ﴾ مِمّا قبلَها ودِلالَتُها:

أهلُ الإيمانِ لا يُضامونَ عِندَ مُلاقاةِ رَبِّهِم، بل في ملاقاتهم لهُ سموٌّ ومقام

هذه الجملة ﴿إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ﴾ مفصولة عمّا قبلها، لما بينهما من (كمال الاتصال)، فقد جيء بها على سبيل الاستئناف؛ "تعْليلًا لامْتِناعِهِ عليه السلام عن طَردِهِمْ، أي: إنَّهُم فائِزونَ في الآخِرَةِ بلِقاءِ رَبِّهِم، موقِنونَ بِهِ، عالِمونَ أنَّهُم مُلاقوهُ لا مَحالَةَ، فأطْرُدُهُمْ؟ أو أنَّهُم مُلاقوا رَبِّهِم، فيُخاصِمونَ طارِدَهُمْ عِندَهُ، فيُعاقِبُهُ على ما فعَل، وقيلَ: المعنى: إنَّهُم يُلاقونَهُ تعالى، فيُجازيْهِم على ما في قُلوبِهِم مِن إيْمانٍ ثابِتٍ، كَما ظَهَرَ لي أو على خِلافِ ذَلِكَ مِمّا تَعرِفونَهُم بِهِ مِن بناءِ أمرِهِم على بادِئِ الرَّأي مِن غَيرِ تَعَمُّقٍ في الفِكْرِ، وما عَلَيَّ أنْ أشُقَّ عن قُلوبِهِم، وأتَعرَّف سِرَّ ذَلِكَ مِنهُم حَتَّى أطرُدَهُم، إنْ كانَ الأمرُ كَما تَزعُمونَ[2].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/55.

(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 12/41، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/202، والزّمخشريّ، الكشاف: 2/266.

دلالَةُ التَّعبيرِ بالجُملَةِ الاسميَّةِ المُؤكَّدَةِ في السّياق:

تَذْكيرٌ بالعَودَةِ إلَى اللهِ القدير، ولِقاءِ فضله المغدق الأثير

جاءَتْ جُملَةُ ﴿إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ﴾ مُؤكَّدَةً؛ لِأنَّ المَلأ الَّذينَ كَفروا مِن قَومِهِ كانوا يُنْكِرونَ البَعثَ والحِسابَ، فخاطبهم القرآنُ الكريم خطابَ المتردِّد بالتأكيد بإنَّ واسمية الجملة تعريضًا بشكِّهم في يوم البعث وإنكارهم له، ففي التَّأكيد "تَنْبيهٌ على العَودَةِ إلى اللّه ولِقاءِ جَزائِهِ، فيوصلُهُم إلَى حَقِّهِم عِندي إنْ ظَلَمتُهُم بالطَّردِ"[1].

وهذا التَّوجيه مبنيٌّ على كون المراد بلقائهم ربَّهم حَقيقَتَهُ، أي: يوم القيامة، فيكون واردًا "لِرَدِّ إنْكارِ قَوْمِهِ البَعْثَ، وإنْ كانَ اللِّقاءُ مَجازًا؛ فالتَّأْكيدُ لِلاهْتِمامِ بذَلِكَ اللِّقاء"[2].

سرُّ الحملِ على الحقيقة أو المجاز:

لِقاءُ اللهِ تعالى مانعٌ من ظلم النّاس؛ لما فيه من رهبةِ الملاقاة

قوله سبحانه: ﴿إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ﴾ من حيث الحمل على الحقيقة أو المجاز قولان:

الأول – الحمل على الحقيقة: وعليه، تكون " جُملَةُ ﴿إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ﴾ في مَوْضِعِ التَّعْليلِ لِنَفيِ الطَّرد"[3].

الثاني – الحمل على المجاز: وعليه، فإنه يحتمل أن يكون المراد بلقاء اللّه تعالى، أي: في الصلاة، أو حين حضورهم مجلسَهُ ﷺ على معنى:

"أنّهُم يدعون ربّهُم في صلاتِهِم، فينتصِرُ اللّه لهُم... أو أنّهُم مُلاقو ربِّهِم حين يحضُرون مجلِس دعوتي؛ لِأنّي أدعو إلى اللّه لا إلى شيء يخُصُّني، فهُم عِند مُلاقاتي، كمن يُلاقون ربّهُم؛ لِأنّهُم يتلقّون ما أوحى اللّه إليّ"[4].

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/165.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/56، 55.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/55.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/55.

سِرُّ الإضافة في لفظ ﴿رَبِّهِمْ﴾:

الإضافةُ إلى المَلِكِ العَلّامِ شَرَفٌ لِكُلِّ الأنامِ

جاء التّعبير المُفصِحُ عَن حِوار نوحٍ عليه السلام مع قومه في قوله: ﴿إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ﴾ بإضافة الضّمير العائد إلى الثلّة المؤمنة التي آمنت به إلَى اسم الربِّ إضافةَ تَشْريفٍ وتعظيمٍ لِعُمق يقينهم وإيمانهم به سبحانه، والمُرادُ: أنَّهُم أيْقَنوا، وأذْعَنوا بإيمانٍ ويَقينٍ لله تعالى، فهو مَنْ أوْجَدَهُمْ، ورَبّاهُمْ، وتَكَفَّلَ بهم، وهو المُحْسِنُ إلَيهم بَعْدَ إيْجادِهم، ورَبّاهُمْ على عَينِ بَصيرَتِهِ ونورِ هِدايَتِهِ، وتَكَفَّلَ لَهُم بالثَّوابِ والعَطايا.

مَعنى الواوِ ودلالتُها في لفظ ﴿وَلَٰكِنِّيٓ﴾:

يُحجبُ المُتَكَبِّرونَ - بجهلهم - عَن الخَيرِ، لما في الجهالة من الضّير

الواوُ هُنا إمّا أنْ تَكونَ حاليةً حِكايَةً لِحالِ رؤيته هَؤلاءِ القومَ في نَظرَتِهِم القاصِرَةِ إلَى المُؤمِنينَ الموحِّدينَ، وأنَّهُم مِن الزرايَةِ بمَكانٍ، لا يَستَحِقونَ مُعامَلَةً أو مُجامَلَةً، وإمّا عاطِفةً لِجُملَةِ ﴿أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾ وصْفًا لَهُم بجَهالَةِ هَؤلاءِ المُتَكَبِّرينَ وعِنادِهِمْ، فجاءتِ الجُملَةُ معطوفةً على ما سَبَقَ رَدًّا على شُبُهاتِهِم المَزعومَةِ بسَفاهَةِ هَؤلاءِ المُؤمِنينَ وتَحْقيرِ شَأنِهِم.

دِلالَةُ التَّعبيرِ بالاسْتدراكِ في لفظ ﴿وَلَٰكِنِّيٓ﴾:

جَهْلُ القيمِ الَّتي يُقَدَّرُ بها النّاسُ عِندَ اللهِ مِن أسوَءِ الجَهْلِ وأقساه

جاءَ قَولُهُ: ﴿وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمْ﴾ اسْتِدْراكًا مُؤكِّدًا لِمَضمونِ ما قَبْلَه، أي: لَنْ أطْرُدَهَم؛ لأنَّ ذَلِكَ لَيْسَ مِنْ حَقّي بَعْدَ أنْ آمَنوا، وبَعْدَ أنْ تَكَفَّلَ اللهُ بمُحاسَبَتِهِم، ولَكِنّي مَعَ هَذا البَيانِ المَنْطِقي الواضِحِ، أراكُمْ قَوْمًا تَجْهَلونَ القِيمَ الحقيقيةَ الَّتي يُقَدَّرُ بها النّاسُ عِندَ اللهِ[1]، "فمَوْقِعُ الاسْتِدْراكِ هوَ أنَّ مَضْمونَ الجُمْلَةِ ضِدُّ مَضْمونِ الَّتي قَبْلَها، وهيَ جملَة ﴿إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ﴾، أيْ: لا رَيْبَ في ذَلِكَ، و﴿وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾، فتَحْسَبونَهُمْ لا حَضْرَةَ لَهُمْ، وأنْ لا تَبِعَةَ في طَرْدِهِمْ"[2].

(1) طنطاويّ، التفسير الوسيط: 7/195.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/56.

دَلالَةُ التَّعبيرِ بالفِعلِ المُضارِعِ ﴿أَرَىٰكُمْ﴾ في السّياق:

جَهلٌ مُحكَمٌ مُتَجَدِّدٌ تنبئ به العبارة في هذه الآية

في قوله تعالى: ﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا﴾ عَبَّرَ سيدُنا نوحٌ ﷺ هُنا بقَولِ: ﴿أَرَىٰكُمْ﴾ فِعْلًا مُضارِعًا دالًّا على تَجَدُّدِ الرُّؤيَةِ لِحالَةِ الجَهلِ الَّتي هُمْ عَلَيها واستمرارها، كَما عبَّروا هُمْ سابِقًا في قَولِهِم: ﴿وَمَا نَرَىٰكَ﴾ بالفِعلِ المُضارِعِ الدّالِّ على تَجَدُّدِ اسْتهزائِهِم وسُخْريَّتِهِم مِنهُ ﷺ فهوَ لَمْ يَصِلْ إلَى دَرَجَةٍ أعلَى مِن دَرَجَتِهِم البَشَريَّةِ، وهَذا مِن بابِ (مُراعاةِ النَّظيرِ) بَرَدٍّ الألفاظِ ومَعانيها إلَى وادٍ واحِدٍ، وهوَ وادي الرُّؤيَةِ، فجاءَ التَّعبيرُ بها هُنا موافِقًا لِتَعبيرِهِم جَوابًا بجَوابٍ ورَدًّا بِرَدٍّ.

سِرُّ التَّعبيرِ بِ لفظ ﴿قَوْمَا﴾، بَعدَ ضَميرِ الخِطابِ ﴿أَرَىٰكُمْ﴾:

زيادَةُ تَجهيلِ فِكرِهِم ونَهْجِهِم، وكأنَّه سجيَّة فيهم

أقحم ﷺ لَفظَ ﴿قَوْمَا﴾ مَعَ أنَّهُ يَجوزُ حَذْفُها زيادَةً في الإهانَةِ، ومُبالَغَةً في تَجهيلِ أمرِهِم، وبيانًا لكون الجهل فيهم، كأنَّه طبعٌ وسجيَّةٌ، فأراد ﷺ بالنصِّ عليه بيانَ أنَّهم مطبوعون على هذا الجهل وتلك السفاهة، وبَيانَ أنَّهُم هُم المَخصوصونَ بهَذا الوَصفِ، المقصودون به دون غيرهم، وأنَّه الأليَقُ بهِم، ولَو لم يُذكَر لَرُبَّما انْتَفى عَنهُم هَذا.

سِرُّ التَّعبيرِ بالفِعلِ المُضارِعِ ﴿تَجْهَلُونَ﴾:

الشَّرَفُ الحَقيقيُّ قَرينُ الإيمانِ، والجهل قرين الكفران

جاءَ الفعلُ ﴿تَجْهَلُونَ﴾ مُضارِعًا لِلدِّلالَةِ على التَّجَدُّدِ والاسْتِمرارِ، والمَعنَى: تَتَسافهونَ على المُؤمِنينَ بِنِسْبَتِهِم إلَى الخَساسَةِ، وتَتَطاوَلونَ عَلَيهِم تَطاولًا يَدُلُّ على طُغْيانِكُمْ وسَفاهَتِكُمْ، وتَدَّعونَهُمْ أراذِلَ النّاسِ زَعمًا مِنْكُم أنَّ الرَّذالَةَ بالفقرِ، وأنَّ الشَّرَفَ بالغِنَى، وهَذا يَدُلُّ على أنَّ جَهْلَهُمْ مُتَجَدِّدٌ مَعَهُمْ ما تَجَدَّدَتْ حَياتُهُمْ.

نُكْتَةُ حَذْفِ المَفعولِ للفعل ﴿تَجْهَلُونَ﴾:

شِدَّةُ الجَهلِ، مَجْلَبَةٌ لِظُلُماتِ الكُفرِ

حَذفُ مَفعولِ ﴿تَجْهَلُونَ﴾ لِلعِلْمِ بهِ، ولِلإشارَةِ إلَى شِدَّةِ جَهْلِهِم، أي: تَجْهَلونَ كُلَّ ما يَنبغي ألّا يَجْهَلَهُ عاقِلٌ"[1]، فالمراد توفير العناية

(1) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 7/194.

على الفعل، والمراد من الحذف التعميم، والمعنى: ﴿تَجْهَلُونَ﴾ بكُلِّ ما يَنبَغي أنْ يُعلَمَ، ويَدخُلُ فيهِ جَهْلُهُم بلِقاءِ اللهِ ﷻ وبمَنْزِلَتِهِم عِنْدَهُ وباستيجابِ طَرْدِهِمْ، لِغَضَبِ اللهِ - عليهم - وبِرَكاكَةِ رَأْيِهِم في التِماسِ ذَلِكَ، وتَوقيفِ إيْمانهم عَلَيه أنَفةً عَن الانْتِظامِ مَعَهُم في سِلْكٍ واحِدٍ"[1].

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/202، والآلوسيّ، روح المعاني: 12/42.

﴿وَيَٰقَوۡمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمۡۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ٣٠﴾

[هود: 30]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

عـلى شاكلة ما سبق، رَدُّ شُبهَةٍ أُخرَى مِن شُبُهاتِ صَلَفِهِم في أمرِهِ بطَردِ المُؤمِنينَ بِهِ

جاءَ قولُهُ: ﴿وَيَٰقَوۡمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ﴾؛ رَدًّا آخَرَ على عِنادِهِم وعُتوِّهِم، ففي الآيَةِ السّابِقَةِ بَيَّنَ لَهُم عَدَمَ حاجَتِهِ إلَى ما لَدَيهِم مِن مالٍ أو عَطاءٍ على دَعوَتِهِ لَهُم وإنْذارِهِ إيّاهُم؛ لأنَّ ثَوابَهُ وجَزاءَهُ مِن اللّه تعالى، وردَّ على دعوتهم إيّاه طرْدَ الَّذين آمنوا من مجلسه، لكونهم فقراء لا يدانون مكانتهم؛ إذ هم أغنياء ومن عِلية القوم، فأبى أن يجيبهم إلى طلبهم ونفاه نفيًا مؤكَّدًا، ووصفهم بالجهل المركَّب في طبعهم، بعد ذلك بيَّن لهم سبب رفضه هذا، لعلَّهم إن علموه؛ أفاقهم من غيِّهم، وهذا السبب هو خَوْفهُ مِن عقابِ اللّه تعالى؛ إذا طَرَدَ عباده المؤمنين من مجلسه، أو أساءَ إلَيهِم.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَنصُرُنِي﴾: قال الرّاغِبُ: "النَّصْرُ والنُّصْرَةُ: العَوْنُ، ونُصْرَةُ اللّه لِلعَبدِ ظاهِرَةٌ، ونُصْرَةُ العَبدِ للّه هوَ نُصرَتُه لِعِبادِهِ، والقيامُ بحفظِ حُدودِهِ، ورِعايَةُ عُهودِهِ، واعتِناقُ أحْكامِهِ، واجتِنابُ نَهيِهِ"[1]. والمراد هنا: يَحميني، ويُجيرُني مِن عَذابِ اللّه.

2) ﴿طَرَدتُّهُمۡۚ﴾: الطَّردُ الإبعادُ والمَنْعُ، جاءَ في المُفرَداتِ: "الطَّرْدُ: هوَ الإزعاجُ والإبعادُ على سَبيلِ الاسْتِخْفافِ، يُقالُ: طَرَدْتُهُ، ويقال: أطْرَدَهُ السّلطانُ، وطَرَدَهُ؛ إذا أخرجَهُ عَن بَلَدِهِ، وأمرَ أنْ يَطْرُدَ مِن مَكانِ حِلِّهِ"[2]. والمراد: إن أبعدتهم عن مجلسي.

(1) الرّاغب، المفردات: (نصر).
(2) الرّاغب، المفردات: (طرد).

المَعْنى الإجْماليُّ:

يُبيِّنُ نبيُّ اللّه نوحٌ ﷺ في هذا القولِ بعد نِدائِهِ على قومِهِ، فيُضِيفُهُم إلى نفسِهِ أن لا أحد يستطيعُ منع عِقابِ اللّه عنهُ إن طرد هؤلاءِ المُؤمنين بهِ، وكيف تُصِرّونَ على جهالتِكم بعدما بيّنتُ لكُم، ولا تتذكّرون أنّ لِهؤلاءِ المؤمنين ربًّا ينصُرُهُم، وينتقِمُ لهُم، وهُم أكرمُ عِندهُ ﷻ مِنكُم، فكيف إذًا يحِقُّ لي أن أطردهُم؟ أفلا تتذكّرون، وتتّعِظون؟ فإنّهُم يُفوِّضون أمرهُم إلى من لهُ العظمةُ، ولو لم يشكني إليهِ لِاطِّلاعِهِ على ما دقّ وعظُم.

المُؤمِنُ الحَقُّ، يَخافُ عِقابَ اللهِ، إنْ تَجاوَزَ في حَقِّ العِبادِ أو ظلمهم

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالَةُ العَطفِ في قَولِهِ: ﴿وَيَٰقَوۡمِ﴾:

وجَّهَ نوحٌ ﷺ نِداءً ثالثًا لِقومِهِ لَعَلَّهُم يَفيئونَ إلَى رُشْدِهِمْ رَدًّا على قَولِهِم: ﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمۡ أَرَاذِلُنَا﴾ [هود: 27] فعَطَف جُملَةَ ﴿وَيَٰقَوۡمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ﴾ على ما سَبَقَ في قَولِهِ: ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۚ﴾، وهَذا مِن بابِ عَطفِ الجُمَلِ.

وفيهِ بَيانٌ لِعُقوبَةِ طَرْدِهِ هَؤلاءِ المُؤمنينَ التي يستحقها لو أنَّه أطاعهم، وفعل هذا، وإتمامٌ لِلفائِدَةِ حيْنَ وصَفهُمْ بالجَهْلِ، حيث أقرَّ لهم أنْ لا ناصِرَ لَهُ مِن اللّه إذا فعَل فِعْلَتَهُ تلكَ، وهيَ طَرْدُ هَؤلاءِ المُؤمِنينَ الفُقَراءِ مِن مَجلِسِهِ، فمَنْ ذا يَحميهِ، ويُجيرُه مِن عَذابِ اللّه تعالى؟

طَرْدُ المُؤمِنينَ الفُقَراءِ من مَجالِسِ الأنبياءِ، غير مقبول، وقد بعثهم الله رحمة لا نقمة

سِرُّ تَكرارِ المُنادَى (قَوْمِ):

جاءَ النِّداءُ بلَفْظِ (قَوْمِ) تَلَطُّفًا بهم، وحُنوًّا عَلَيهِم؛ لِأنَّهُ - كَما ذَكَرْنا - أنَّ قومَ الرَّجُلِ هُمْ أقْرَبُ النّاسِ إلَيهِ، وهُم الَّذينَ يعْنيهِ أمرُهُمْ مَعَ رَجاءِ الخَيْرِ والنَّفعِ لَهُم، فـ" قولُهُ: ﴿وَيَٰقَوۡمِ﴾ هَذا خِطابٌ في غايَةِ التَّلَطُّفِ بهم"[1].

تَلطُّفٌ زائدٌ مِنْهُ ﷺ لبيان رحمة الله المودعة في قلبه

(1) الصّاوي، حاشية على تفسير الجلالين: 7/118.

سِرُّ إضافةِ المُنادَى إلى ياءِ المُتَكَلِّمِ:

جاءَ لَفظُ (قَومِ) المكرَّرُ هُنا في القِصَّةِ مَنْسوبًا ومُضافًا إلَيهِ عليه السلام مُرادًا بهِ التخصيصُ، فهُمْ قَومُهُ الأقرَبونَ، والَّذينَ أُرسِلَ إلَيهِم خاصَّةً، فهُم أولَى النّاسِ باتِّباعِهِ، وإنَّما أضافهُم إلَيه مِن بابِ اسْتمالَةِ قُلوبِهِم شَفقَةً عَلَيهِم وبِرًّا بعَهْدِ القُربِ والصِّلَةِ الَّتي تَربِطُهُ بهِم، فعَلَيهِم أنْ ينزَجِروا، ويَكُفّوا عَمّا هُمْ فيهِ.

اسْتِمالَةٌ كُلُّها رَحْمَةٌ وشَفقَةٌ، تَعبِّرُ عن خفض الجناح للمؤمنين

الغَرضُ مِن الاسْتِفهامِ في سياقِ الآيةِ:

في قوله: ﴿مَن يَنصُرُنِي﴾ استفهامٌ إنْكاريٌّ متضمِّن معنى النَّفي، أي: لا أحد ينصرني من ذلك، "والنَّصْرُ: إعانَةُ المُقاوِمِ لِضِدٍّ أو عَدوٍّ، وضُمِّنَ مَعْنى الإنْجاءِ، فعُدّيَ بـ (مِنْ)، أيْ: مَنْ يُخَلِّصُني؟ أيْ: يُنْجيني مِنَ اللّه، أيْ: مِنْ عِقابِهِ؛ لِأنَّ طَرْدَهُمْ إهانَةٌ تُؤْذيهِمْ بلا موجِبٍ مُعْتَبَرٍ عِنْدَ اللّه، واللّه لا يُحِبُّ إهانَةَ أوْليائِهِ"[1].

اللّهُ تعالى لا يُحِبُّ إهانَةَ أوْليائِهِ، بل إنَّهم لا خوف عليهم ولا هم يحزنون

أو أن يكون الاستفهامُ "بمعنَى التَّقريرِ والتَّوقيفِ، أي: لا ناصِرَ يَدفعُ عَنّي عِقابَ اللّه إنْ ظَلَمتُهُم بالطَّرد عَن الخَيرِ الَّذي قَبِلوه، ثُمَّ وقفهُم بقَولِهِ: أفلا تَذَكَّرونَ؟ وعَرَضَ عليهم النَّظَرَ المُؤدّي إلَى صِحَّةِ هَذا الاحتِجاجِ"[2].

دلالَةُ التَّعبيرِ بالفِعلِ المُضارِعِ ﴿يَنصُرُنِي﴾:

جاءَ التَّعبيرُ بالفِعلِ المُضارِعِ في قَولِهِ: ﴿مَن يَنصُرُنِي﴾ دلالةً على نفي أن يستطيع أحد أن ينصره من اللّه تعالى نصرًا متواصلًا متجدِّدًا؛ لأنَّ النُّصرَةَ والمَنَعَةَ لا تكون إلّا مِن اللّه تعالى وكذا الحِمايَةَ لا تكون إلّا مِنهُ ﷻ أمّا أنتم؛ فلا تستطيعون أن تجيروني من عذاب اللّه إن أراد معاقبتي على طردي المؤمنين، فإذا التَزَمَ العبدُ حُدودَ ربِّه فاللّه وحده هو ناصره، أمّا إذا خالَفها، وتَعَدّاها؛ فلا حاميَ لَهُ

تَجَدُّد الاتِّباعِ يَجلِبُ تَجَدُّدَ النَّصرِ، وبِتَجدُّدِ المُخالَفةِ يَتَجَدَّدُ العِقابُ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/56.
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/165.

ولا مُناصِرَ، فمَعَ تَجَدُّدِ الاتِّباعِ يَقَعُ النَّصرُ، وتوجَدُ الحِمايَةُ، ومَعَ تَجَدُّدِ المُخالَفةِ يَتَجَدَّدُ العِقابُ، ولا مُدافعَةَ مَعَهُ حينَئذٍ.

مَعْنَى حَرفِ الجَرِّ (مِن) ودِلالَتُهُ في قَولِهِ: ﴿مِنَ ٱللَّـهِ﴾:

جاءَ التَّعبيرُ بقَولِهِ: ﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾، و﴿مِنَ﴾ هُنا حَرْفُ جَرٍّ داخِلٌ على مَحْذوفٍ، أي: مِنْ عِقابِ اللّه وعَذابِهِ، لِبَيانِ كَونِ مَصدَرِ هَذا العَذابِ هوَ عِصيانُ أوامِرِ اللّه تعالى لِأنَّهُ هوَ الَّذي يَملِكُ، ويَقْدِرُ على العِقابِ وغَيرِهِ، والتَّعبيرُ بهَذا الأُسلوبِ فيهِ مَزيدُ زَجرٍ وتَخويفٍ لِلمُتَعرِّضِ لِهَذا العِصيانِ، فمَن ذا يُجيرُ مِن عِقابِ اللّه إنْ نَزَلَ؟ وميزانُهُ تعالى في تَقويمِ النّاسِ لَيْسَ كَميزانِ البَشَرِ، وأُسنِدَ النَّصرُ والمَنَعَةُ إلَيهِ سبحانه تَهويلًا لِلأمرِ الَّذي طَلَبوهُ، وهوَ طَرْدُ هَؤلاءِ المُؤمِنينَ.

عصيانُ أوامِرِ اللّهِ تعالى، جالِبٌ لِعِقابِهِ لا محالة

دَلالَةُ التَّعبيرِ باسْمِ الجَلالَةِ ﴿ٱللَّـهِ﴾:

أكَّد نوحٌ عليه السلام كَلامَهُ بأنَّه لا يستطيع أحد نُصْرَتَهُ مِن اللّه تعالى لو طرد عباده، وأوثر التعبير بالاسم الجليل ﴿ٱللَّهِ﴾؛ لأنَّه إذا أُطْلِقَ اسْمُ الجلالةِ (اللّه)؛ كانَ لِتَربيَةِ المَهابَةِ في النُّفوسِ، وليَكونَ ذَلِكَ التصريح باسمه الجليل زَجرًا وتَخويفًا لكونِهِ صاحِبَ القوة والقُدرة، بعَكسِ التَّعبيرِ باسْمِ (الرَّبِ) الَّذي يَأتي في سياقِ الرَّحمَةِ والتَّذكيرِ بالنِّعَمِ.

تضمُّن العبارة الزَّجرَ والتَّخويف لِأهلِ الجَورِ والحيف

الغَرَضُ مِن التَّعبيرِ بأُسلوبِ الشَّرطِ في الآيةِ:

ورَدَ التعبيرُ هُنا بقَولِهِ: ﴿إِن طَرَدتُّهُمْۚ﴾ الدّالِّ على الشَّرطِ غَيرِ المَقطوعِ بوقوعِهِ؛ لأنَّه عليه السلام لم يكن ليفعل هذا، فلذا ساق جملة الشرط بحرف التقليل ﴿إِن﴾ دون (إذا).

ويمكن حمل الشَّكِّ الذي تفيده (إنْ) محملًا آخر كَأنَّه عليه السلام صارَ شاكًّا فيما يطلُبونه مِنهُ، أي: لِماذا هَذا الأمرُ خاصَّةً، وهوَ إبعاد المُؤمِنينَ الفقراءِ مِن مجلسه، وإصرارُهم على أنَّ إيمانَهم لَن يَتَحَقَّقَ إلّا بتَنفيذِ هَذا الشَّرطِ؟ كَما أنَّ التَّعبيرَ بـ ﴿إِن﴾ يُفيدُ أنَّه عليه السلام

بيانُ أنَّ الفُقَراءَ المُؤمِنينَ في مُجاوَرَةٍ دائمَةٍ لِأنبيائِهم المرسلين

لَن يُقْدِمَ على هَذا الأمرِ أبدًا، كما مضى ذكره، ففيه تَيْئِيسٌ لَهُم وصَرفٌ لَهُم أنْ يَتَعَلَّلوا بأمرٍ غَيرِ هَذا.

دَلالَةُ التَّعبيرِ بفعِلِ الشَّرطِ ماضيًا ﴿طَرَدتُّهُمْۚ﴾:

جاءَ التَّعبيرُ بالفعلِ الماضي في ﴿طَرَدتُّهُمْۚ﴾ الدالِّ على تَحَقُّقِ الوقوعِ مِن طَرَفِهِ ﷺ مِن بابِ المُجاراةِ لِطَلَبِهِم، والمُرادُ: أتَظُنونَ أنْ يَقَعَ مِنّي طَردٌ؟ ولو وقَعَ؛ فهَلْ أنْتُمْ ناصِروني؟ فهوَ يَنْفي أنْ يَقومَ بهذهِ الفِعلَةِ النَّكراءِ بأرقَى أُسْلوبٍ ليَقودَهُم إلَى التَنبُّهِ والتَّعقُّلِ والرُّجوعِ عَن طَلَبِهِمْ.

مُجاراةٌ مَحمودَةٌ، تَستَدعي التَّعَقُّلَ والرُّجوعَ إلى سبيلِ الرُّسلِ المعهودة

سِرُّ حَذْفِ جوابِ الشَّرطِ:

حُذِفَ جوابُ الشَّرطِ مِن قَولِهِ: ﴿إِن طَرَدتُّهُمْۚ﴾ لِدَلالَةِ ما قبلَهُ عَلَيهِ، والمَعْنَى: إنْ طَرَدتُّهُم؛ فمَن يَنْصُرُني إذًا؟ وفي حذف الجوابِ - بعد الاختصار والإيجاز - إلماعٌ على عدم وجود النَّصر مع طرد المؤمنين، فغاب من النص ما غاب عن الواقع، ليشاكل النص مع الواقع.

بروزُ مشاكلةِ النَّصِّ للواقعِ، حيث يغيب من هذا ما غاب من ذاك

الغَرَضُ مِنَ التَّعبيرِ بأُسلوبِ الاسْتِفْهامِ ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾:

قَولُهُ: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ لَمّا تَمَّ الجَوابُ عَن ازْدِرائِهِم؛ سَبَّبَ عنهُ الإنْكارَ لِعَدَمِ تَذَكُّرِهِمْ ما قالهُ لَهُم بما يَجِدونَهُ في أنْفُسِهِم، فقالَ: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾"[1]، فقد: "فرَّعَ على ذَلِكَ إنْكارًا على قَوْمِهِ في إهْمالِهِمُ التَّذكُّرَ، أي: التَّأمُّلُ في الدَّلائِلِ ومَدْلولاتِها، والأسْبابِ ومُسَبِّباتِها"[2]، والاسْتِفهامُ "لِتَوْبيخِهِم وزَجرِهِم، والجُملَةُ مَعْطوفةٌ على مُقدَّرٍ.

إهْمالُ الكفرةِ للتَّذَكُّرِ، مَدْعاةٌ لِلتَّعَجُّبِ من التنكُّر

سِرُّ حَذفِ المَعطوفِ وتَقديرُهُ في: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾:

الهَمزَةُ في قَولِهِ: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ لِلاسْتِفهامِ الإنْكاري، وهي إمّا داخِلَةٌ على مُقَدَّرٍ، تَقْديرُهُ: أتَأمُرونَني بطَردِهِم، فلا تَذَكَّرونَ؟

إسقاطُ طلبهم من الوجود، وجعله في حكم غير الموجود

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر في تناسب الآيات والسّور: 5/275.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/56.

وإمّا مُقَدَّمَة مِنْ تَأخيرٍ، والأصلُ: فألا تَذَكَّرونَ، وقُدِّمَتِ الهَمْزَةُ على الفاءِ؛ لِأَنَّ لَها الصَّدارَة"[1]، وفي حذف المعطوف إسقاطٌ لأي طلب منهم وإدخاله في حكم المعدوم.

دَلالَةُ التَّعبيرِ بالفِعْلِ المُضارِعِ ﴿تَذَكَّرُونَ﴾ مُخَفَّفًا مِن الإدغامِ:

مغبَّةُ الجَهلِ المُستَمِرِّ، وعَدَمُ التَّذَكُّرِ والتَّبصُّرِ

الفعل ﴿تَذَّكَّرُونَ﴾ مضارع حُذفت منه إحدى التاءين، "وأَصْلُهُ: تَتَذَكَّرونَ، فأُبْدِلَتِ التّاءُ ذالًا، وأُدْغِمَتْ في الذّالِ (تذَّكَّرون). وقَرَأَهُ حَفْصٌ ﴿تَذَكَّرُونَ﴾ بتَخْفيفِ الذّالِ وبِحَذْفِ إحْدى التّاءَيْنِ"[2].

والمعنى: "أَتَسْتَمِرُّونَ على ما أنتُم عَلَيهِ مِن الجَهلِ المَذكورِ، فلا تَتَذَكَّرونَ ما ذُكِرَ مِن حالِهِم حَتَّى تَعرِفوا أنَّ ما تَأتونَهُ بمَعْزِلٍ عَن الصَّوابِ، ولِكَونِ هذه العِلَّةِ مُستَقبَلَةً بوجهٍ مَخصوصٍ ظاهِرِ الدَّلالَةِ على وُجوبِ الامتِناعِ عن الطَّردِ، أُفرِدَتْ عَن التَّعليلِ السّابِقِ، وصُدِّرَتْ بـ ﴿وَيَٰقَوۡمِ﴾"[3]، والتَّعبيرُ بالفعلِ المُضارِعِ مفيدٌ للتَّجدُّدِ والاستمرارِ واستحضارِ حالَتِهِم الماضيَةِ، فعَدَمُ التَّذكُّرِ عِنْدَهُم مُتَجَدِّدٌ ومُلازِمٌ لَهُم، لا يَنقَطِعُ عِنْدَهُم أبَدًا.

(1) الدّرويش، إعراب القرآن وبيانه: 4/342.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/56.
(3) إرشاد العقل السّليم: 4/203، روح المعاني: 12/42.

﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٞ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزۡدَرِيٓ أَعۡيُنُكُمۡ لَن يُؤۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيۡرًاۖ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا فِيٓ أَنفُسِهِمۡ إِنِّيٓ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٣١﴾ [هود: 31]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

تفصيلُ الرَّدِّ على تعلُّلهم، بعدم إيمانهم بأنَّه بشر مثلهم، بتأكيد عبوديَّته واستمداده من ربِّه

وذلك أنَّهم لما قالوا: ﴿مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرٗا مِّثۡلَنَا﴾، فتعلَّلوا في عدم إيمانهم به، بهذه العلَّة الواهية، وهي كونه بشرًا مثلهم، وليس لأجل أنَّ رسالته لا تعبِّر عن صدقه، وهي حجَّة عليلة، ولو كانوا منصفين؛ لآمنوا به، ولحمدوا الله أنَّه أرسل إليهم بشرًا منهم، يأنسون إليه، ويتلقّون عنه، حيث الجنس إلى جنسه آنس، لكنه عليه السلام يعلم أنَّهم كاذبون، وأنهم لم يؤمنوا به جحودًا وحسدًا، فراح يفنِّد لهم هذه العلَّة، ويبيِّن لهم أنَّه لم يَدَعْ لنفسه فضلًا عليهم إلّا في بلاغ الوحي، فقال لهم كما حكت الآية الكريمة: ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٞ﴾ رَدًّا مفصَّلًا على قَولِهِم: ﴿مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرٗا مِّثۡلَنَا﴾ [هود: 27].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿خَزَآئِنُ﴾: "خَزَنَ المالَ في الخِزانَةِ: أحْرَزَهُ، واختَزَنَهُ لِنَفْسِهِ، واسْتَخزَنَهُ المالَ، ولَهُ مَخْزَنٌ حَريزٌ، وهوَ صاحِبُ مَخْزَنِ الأمير"[1] والخزائِنُ: جَمعُ خِزانةٍ - بكسر الخاء - وهوَ المَكانُ الَّذي يُخَزَّنُ فيهِ المالُ أو الطَّعامُ أو غَيرُهُما خَشْيَةَ الضَّياع، والمُراد هُنا: "أنواعُ رِزْقِهِ سبحانه الَّتي يَحتاجُ إلَيها عِبادُه"[2].

2) ﴿تَزۡدَرِيٓ﴾: الزّاءُ والرّاءُ والحَرْفُ المُعْتَلُّ، أصل (زرى): "يَدُلُّ

(1) الزّمخشريّ، أساس البلاغة: (خزن).
(2) طنطاويّ، التفسير الوسيط: 7/195.

على احْتِقارِ الشَّيْءِ والتَّهاوُنِ بهِ، يُقالُ: زَرَيْتُ عليه؛ إذا عِبْتَ عليه، وأزْرَيْتُ بهِ: قَصَّرْتَ به"[1] قال الرّاغب: "زَرَيْتُ عليه: عِبتَه، وأزْرَيْتُ به: قصَّرت به، وكذلك ازْدَرَيْتُ، قال: ﴿وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزۡدَرِيٓ أَعۡيُنُكُمۡ﴾، أي: تستقلُّهم، تقديره: تَزْدَريهِمْ أعينكم، أي: تستقلُّهم، وتستهين بهم"[2].

3) ﴿خَيۡرًاۖ﴾: قال الرّاغِبُ: "الخَيْرُ: ما يَرغَبُ فيهِ الكلُّ، كالعَقلِ مثلًا، والعَدْلِ، والفضلِ، والشَّيءِ النّافِعِ، وضِدُّهُ: الشرُّ"[3]، والمراد بـ ﴿خَيۡرًاۖ﴾ هنا، أي: تَوفيقًا وهُدًى.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

نفى نوحٌ عليه السلام في قوله تعالى: ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٞ﴾ هذه الثَّلاث؛ لأنَّ الكُفّارَ مَعَ الأنبياءِ جَميعًا كانوا يَعْتَقِدونَ لِنَظرَتِهِم المادّيَّةِ لِلأشياءِ أنَّ الأنْبياءَ لا بُدَّ أنْ يَكونوا أغْنياءَ موسِرينَ، يَعلَمونَ الغَيبَ، ويَجِبُ أنْ يَكونوا مِن المَلائِكَةِ لا مِن البَشَرِ وإلّا كانوا كَسائِرِ النّاسِ لا فضلَ لَهُم، فكَيف يَدَّعونَ النُّبوَّةَ؟"[4].

بيانُ رَدِّهِ عليه السلام على ما أثاروه مِن شُبَهٍ باطِلَةٍ، ما أنزل الله بها من سلطان

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

دَلالَةُ الواوِ في قَولِهِ: ﴿وَلَآ أَقُولُ﴾:

الواو في قَولِهِ: ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ﴾ عاطِفةٌ لِهَذا الرَّدِّ على ما سَبَقَ، نَفيًا لِما أثاروه مِن شُبَهٍ، في كَونِهِ بَشَرًا مِثلَهُم، وأنَّ أتباعَهُ هُم أراذِلُ النّاسِ وأحقَرُهُم، فجاءَ رَدُّهُ هَذا إبطالًا لِزَعمِهِم وأكاذيبِهِم.

الواو لها دورٌ في بناء الجملة وسياقها الدّلاليّ

دِلالَةُ العَطفِ في قَولِهِ: ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ﴾:

قَولُه تعالى: ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ﴾ مَعطوفٌ على ما سَبَقَ شُروعًا"،

موقع قوله (ولا أقول لكم)، ومنزلته من سوابقه

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (زرى).
(2) الرّاغب، المفردات: (زرى).
(3) الرّاغب، المفردات: (خير).
(4) الفيروزاباديّ، بصائر ذوي التّمييز: 2/118.

وهَذا تَفْصيلٌ لِما رَدَّ به مَقالَةَ قَوْمِهِ إجْمالًا، فهُمُ اسْتَدَلّوا على نَفْيِ نُبوَّتِهِ بأنَّهُمْ لَمْ يَرَوا لَهُ فضْلًا عليهم، فجاءَ هوَ في جَوابِهِمْ بالقَوْلِ بالموجِبِ - وهو: "حَمْلُ لَفظٍ وقَعَ في كَلامِ الآخَرِ على خِلافِ مُرادِهِ، مِمّا يَحتَمِلُه بذِكرِ مُتَعَلِّقِه"[1] - أنَّهُ لَمْ يَدَعْ فضْلًا غيرَ الوَحْيِ إلَيْهِ، واقْتَصَرَ على بَعْضِ ما يَتَوَهَّمونَهُ من لَوازِمِ النُّبوءة، وهوَ أنْ يَكونَ أغْنى مِنْهُمْ، أو أنْ يَعْلَمَ الأُمورَ الغائِبَةَ، والقَوْلُ بمَعْنى الدَّعْوى"[2]، وهذا "شُروعٌ في دَفعِ الشُّبَهِ الَّتي أورَدوها تَفصيلًا، وذَلِكَ مِن قَبيلِ النَّشْرِ المُشَوَّشِ ثِقَةً بعِلْمِ السّامِعِ، وتَخَلُّلِ ما تَخَلَّلَ بَينَ شُبَهِهِم؛ لِأنَّهُ مقدِّمةٌ وتَمهيدٌ لِلجَوابِ"[3].

دلالَةُ التَّعبيرِ بالفِعلِ المُضارِعِ المَنفي ﴿وَلَآ أَقُولُ﴾:

الفعل المضارع يختلف في أداء المراد هنا عن الماضي

جاءَ تَعبيرُهُ عليه السلام هُنا بالفِعلِ المُضارِعِ دِلالَةً على تَجَدُّدِ هَذا القَولِ النافي لصدور ذلك عنه عليه السلام في الحال، أي: ﴿لَّآ أَقُولُ لَكُمْ﴾ واستِمرارِه مِنهُ، واستِحضارًا لِصورَتِه الماضيةِ في تَوالي رُدودِه عَلَيهِم نَفيًا لِمَزاعِمِهِم وأراجيفِهِم، وكَأنَّ قَولَهُ ذَلِكَ صارَ حَديثَ هَؤلاءِ وحَديثَه مَعَهُم في كُلِّ وقْتٍ مِن الأوقاتِ يثيرون فيه؛ كونه بشرًا مثلهم.

و(لا) لنفي الحال، "وإنَّما نفى ذلك بصيغة المضارع للدَّلالة على أنه منتفٍ عنه ذلك في الحال، فأمّا انتفاؤه في الماضي؛ فمعلوم لديهم حيث لم يقله، أي: لا تظنُّوا أنّي مضمِرٌ ادِّعاء ذلك، وإن لم أقلْهُ"[4].

نُكتَةُ تَقديمِ المَجرورِ ﴿لَكُمْ﴾:

قد يفيد المقدَّم أمرًا، لا يفيده؛ إذا أُخِّر، وذلك من بلاغة السّياق

قَدَّمَ نوحٌ عليه السلام هُنا الجارَّ والمَجرورَ ﴿لَكُمْ﴾ لِلتَّخصيصِ والاهتِمامِ في كَونِ الحَديثِ مَعَهُم، فهُم المَخصوصونَ بالحوارِ لِرَدِّ شُبُهاتِهِم، أي: أقولُ لَكُم لا لِغَيرِكُم، فهُم مَصدَرُ الحوارِ وأساسُه.

(1) القزوينيّ، الإيضاح في علوم البلاغة: 6/87.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/57.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 12/42.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/57.

دلالَةُ التَّعبيرِ بالظَّرفِ ﴿عِندِى﴾ مُقَدَّمًا في السّياق:

قَولُهُ: ﴿عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ﴾، ظَرفُ مَكانٍ مُتعَلِّقٍ بمَحذوفِ خَبَرٍ مُقَدَّمٍ لِنَفي تَخصيصِ نوحٍ عليه السلام في كَونِهِ يَملِكُ خَزائِنَ الأرضِ وما فيها؛ لأنَّ هَذا لَيسَ مِن سَمتِ الأنبياءِ ولا خُصوصيّاتِهِم، ولا من شروط النُّبوَّة، والمُرادُ نَفيُ الملكيَّةِ على الإطلاقِ، فلَيسَت عِندَه ﴿خَزَآئِنُ ٱللَّهِ﴾، ولا في مقدوره إيجاد هذه الخَزائِنِ إطلاقًا.

تَخصيصٌ آخَرُ لِلردِّ على شَرطِ هَؤلاء، أنْ يَكونَ النَّبيُّ مِن ذَوي الثَّراءِ

نُكتَةُ تَأخيرِ المُسنَدِ إلَيهِ ﴿خَزَآئِنُ ٱللَّـهِ﴾:

هُنا أخَّر نوحٌ عليه السلام المُسنَدَ إلَيه ﴿خَزَآئِنُ ٱللَّهِ﴾ المُبتَدأ المُؤَخَّرَ لِتَخصيصِ المُسنَدِ - عِنْدي - بالمُسنَدِ إلَيه ونَفيهِ عَن غَيرِه، إذِ المُرادُ تَخصيصُ خَزائِنِ اللّه بكَونِها لَدَيهِ، وعِندَه هوَ لا عِندَ غَيرِه، وعَلَيه قُدِّمتِ العِنديَّةُ، وأُخِّرَتِ الخَزائِنُ.

خَزائنُ اللهِ تعالى لا يَملِكُها إلّا الله، ولا يتصرَّف فيها أحد سواه

الغَرَضُ مِنَ الاستِعارَةِ المكنيَّة في ﴿خَزَآئِنُ ٱللَّـهِ﴾:

"ذِكْرُ الخَزائِنِ هُنا في قوله تعالى: ﴿عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ﴾ اسْتِعارَةٌ مَكْنيَّةٌ شُبِّهَتِ النِّعَمُ والأشْياءُ النّافِعَةُ بالأمْوالِ النَّفيسَةِ الَّتي تُدَّخَرُ في الخَزائِنِ، ورَمَزَ إلَى ذَلِكَ بذِكْرِ ما هوَ مِنْ رَوادِفِ المُشَبَّهِ بهِ، وهوَ الخَزائِنُ، وإضافةُ ﴿خَزَآئِنُ﴾ إلَى اللّه لِاخْتِصاصِ اللّه بها"[1]، والذي سوَّغ هذه الاستعارة ما بين الخزائن، وصنوف النعم هو التَّقاربُ والتَّداني في المعنى، "وإنَّما استَعارَتِ العَربُ المَعنَى لِما لَيسَ لَهُ؛ إذ كانَ يُقارِبُه، أو يُدانيه، أو يُشبِهُهُ في بَعضِ أحوالِه، أو كانَ سَببًا مِن أسبابِهِ، فتكونُ اللَّفظَةُ المُستَعارَةُ حينئذٍ لائقةً بالشَّيءِ ومُلائمَةً لِمَعناهُ"[2].

ما بين الخزائن وصنوف النِّعَم، علاقة تسوِّغُ المشابهةَ بينهما

دلالَةُ التَّعبيرِ بجملة مَقولِ القول اسميَّة مؤكَّدة:

أعادَ عليه السلام ردَّه عَلَيهم نافيًا كَونه مِن المَلائِكَة، فقَولُهُ: ﴿وَلَآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ﴾ نَفْيٌ لِشُبْهَةِ قَوْلِهِمْ: ﴿مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا﴾ [هود: 27]، ولِذَلِكَ

أنبياءُ اللهِ تعالى بشرٌ، ليسوا مِن الملائكة، خِلقةً ولا مهمَّةً

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/57.

(2) الآمديّ، الموازنة بين شعر أبي تمّام والبحتريّ، ص: 214، 213.

أعادَ مَعَهُ فِعْلَ القَوْلِ؛ لِأَنَّهُ إِبْطالُ دَعْوَى أُخْرَى أَلْصَقوها بِهِ، وتَأْكِيدُهُ بـ (إنَّ)؛ لِأَنَّهُ قَوْلٌ لا يَقولُهُ قائِلُهُ إلّا مُؤَكَّدًا لِشِدَّةِ إنْكارِهِ لَوِ ادَّعاهُ مُدَّعٍ، فلَمّا نَفاهُ؛ نَفى صيغَةَ إثْباتِهِ"[1].

لَطيفةٌ في عَلاقَةِ جُملَة نفي الملائكيَّة بتأكيد البشريَّة:

تعلُّق الكلام بعضه ببعض، له ارتباط بأداء المعنى

"لَمّا أرادَ إبْطالَ قَوْلِهِمْ: ﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا﴾ [هود: 27]؛ أبطلهُ بطريقةِ التّغليطِ؛ لِأنّهُم جعلوا ضعفهُم وفقرهُم سببًا لِانتِفاءِ فضلِهِم، فأبطلهُ بأنّ ضعفهُم ليس بحائِلٍ بينهُم، وبين الخيرِ مِن اللّه؛ إذ لا ارتِباط بين الضّعفِ في الأُمورِ الدُّنيويّةِ مِن فقرٍ وقِلّةٍ وبين الحِرمانِ مِن نوالِ الكمالات النّفسانيّةِ والدّينيّةِ، وأعاد معهُ فِعل القولِ؛ لِأنّهُ أراد مِن القولِ معنًى غير المُرادِ مِنهُ، فيما قيل، فالقولُ هُنا كِنايةٌ عنِ الاعتِقادِ؛ لِأنّ المرء إنّما يقولُ ما يعتقِدُ، وهي تعريضيّةٌ بالمخاطبين؛ لأنّهم يضمرون ذلك ويُقدِّرونهُ"[2]، وهناك لطيفة أخرى أنّها "ردٌّ لِقولِهِم: ﴿مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا﴾ [هود: 27]، أي: لا أقولُ ترويجًا لِما أدّعيهِ مِن النُّبوّةِ إنّي ملكٌ حتّى تقولوا لي ذلِك، وتُكذِّبوني، فإنّ البشريّة ليست مِن موانِعِ النُّبوّةِ، بل مِن مباديها، يعني: كما قيل: إنّكُم اتّخذتُم فُقدان هذه الأُمورِ الثّلاثةِ، ذريعةً إلى تكذيبي، والحالُ أنّي لا أدّعي شيئًا مِن ذلك ولا الّذي يتعلّقُ بشيءٍ مِنها، وإنّما الّذي أدّعيهِ يتعلّقُ بالفضائِلِ الّتي تتفاوتُ بها مقاديرُ البشرِ، وقيل: أراد بهذا لا أقولُ: إنّي روحانيٌّ غيرُ مخلوقٍ مِن ذكرٍ وأُنثى، بل إنّما أنا بشرٌ مِثلُكُم، فلا معنى لِردِّكُم عليّ بقولِكُم: ما نراك إلّا بشرًا مِثلنا، وعلى القولينِ لا دليل فيهِ على أنّ الملائِكة أفضلُ مِن الأنبياءِ عليهم السلام خِلافًا لِمن استدلّ بهِ"[3].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/57.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/57.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 12/43.

دِلالَةُ العَطفِ في قَولِهِ: ﴿وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ﴾:

ردٌّ آخر مِن رُدودِهِ، على إبطالِ شُبُهاتِهِم، يجلّي الحقَّ ويرسّيه

جاءَ قَولُهُ تعالى: ﴿وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزۡدَرِيٓ﴾، مَعطوفًا على الرَّدَّينِ السّابِقَينِ مِنهُ عليه السلام - وهُنا " لَم يَكتَفِ نوحٌ عليه السلام بهَذا الرَدِّ المُبطِلِ لدعواهم الفاسِدَةِ، بَل أضاف إلَى ذَلِكَ - كَما حَكَى القُرآنُ عَنهُ - ﴿وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزۡدَرِيٓ أَعۡيُنُكُمۡ لَن يُؤۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيۡرًاۖ﴾ "[1]، "وقيل: هو ردٌّ على قولِهِمُ: اتّبعك أراذِلُنا، أي: لستُ أحكُمُ عليهم بألّا يكون لهُم خيرٌ لِظنِّكُم بهم، إنّ بواطِنهُم ليست كظواهِرِهِمُ، اللّه ﷻ أعلمُ بما في نُفوسِهِم"[2].

سِرُّ استِخدامِ الاسمِ المَوصولِ ﴿لِلَّذِينَ﴾:

تعظيم أهل الإيمان، وتحقير أهل الكفران

جاءَ التَّعبيرُ في قَولِهِ: ﴿لِلَّذِينَ﴾ باسمِ المَوصولِ للتَّنبيهِ على خَطَأ ما يَقصِدُه هَؤلاءِ القَومُ مِن الازدِراءِ الحاصِلِ لهَؤلاءِ الضُّعَفاءِ، والمُرادُ: "لَيسَ احتِقارُكُم إيّاهُم يُنقصُ ثَوابَهُم عِندَ اللّه تعالى، ولا يُبطِلُ أُجورَهُم، ولَستُ أحكُمُ علَيهِم بشَيءٍ مِن هَذا، وإنَّما الحُكمُ بذَلِكَ لِلَّذي يَعلَمُ ما في أَنفُسِهِم، فيُجازيهِم عَلَيه"[3]، ومن لطيف التَّناسب أنَّه "لَمّا كانَ تَعريضُهُم بنَفي المَلَكيَّةِ عَنهُ مِن بابِ الإزراءِ؛ أتبَعَهُ تَأكيدَ قَبولِهِ لِمَن آمَنَ كائنًا مَن كانَ، وإن ازدَرَوه بقَولِهِ: ﴿وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ﴾، أي: لِأجلِ الَّذينَ ﴿تَزۡدَرِيٓ﴾، أي: تحتَقِرُ ﴿أَعۡيُنُكُمۡ﴾، أي: تُقصِرونَ بِهِ عَن الفضلِ عِندَ نَظَرِكُم لَهُ، وتُعيبونَه"[4].

نُكتَةُ تَقديمِ المَجرورِ ﴿لِلَّذِينَ﴾:

قد يُقَدَّم الشَّيء على أصله، ليفيد فائدة زائدة

قُدِّم الاسم المَوصول المَجرور باللّام على مَقولِ القَولِ ﴿لَن يُؤۡتِيَهُمُ﴾، والجارُّ والمجرورُ مُتَعلِّقٌ بالفِعلِ ﴿أَقُولُ﴾ لِتَخصيصِ الحَديثِ عَن هَؤلاءِ الضُّعَفاءِ، ولِكَونِهِم عَصَبَ الحَديثِ وأساسَه،

(1) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 7/195.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/218.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 12/44.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 5/275.

ولَو أخَّرَ المَوصولَ هُنا ما أفادَ مَعنى، ولَكانَ رَدُّ نوح عليه السلام غَيرَ مُفيدٍ، فينصَرِفُ الذِّهْنُ إلَى ما لا طائِلَ تَحتَهُ.

دلالَةُ التَّعبيرِ بالفِعلِ المُضارِعِ ﴿تَزْدَرِىٓ﴾:

جاءَ التَّعبيرُ بالفِعلِ المُضارِعِ على لِسانِ سَيدِنا نوحٍ عليه السلام ﴿تَزْدَرِىٓ﴾ دِلالَةً على تَجَدُّدِ هَذا الازدِراءِ واستِمرارِه منهُم مَعَ استِحضارِ صورَتِهِ في أنْفُسِ السّامِعينَ.

استحضار الجريمة السّابقة، تبشيع للمجرمين، وتشنيع بفعالهم

لطيفة في تكرار الفعل ﴿أَقُولُ﴾ ثلاث مرّات:

جاء التّعبير بقوله: ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ﴾ ثلاث مرات ردًّا على مقولاتهم: ﴿مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا﴾ [هود: 27] و﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا﴾ [هود: 27]، و﴿وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ﴾ [هود: 27] فجاءتِ الرُّدودُ والأجوبة ثَلاثًا، كَما جاءَ الصَّلَفُ والعِنادُ والمُكابَرَةُ مِنْهُم ثَلاثًا، فهذهِ ثَلاثٌ بثَلاثٍ، وكَأنَّها تُشيرُ مِن طَرفٍ خَفيٍّ إلَى مُراعاةِ النَّظيرِ لِلنَّظيرِ وإلحاقِ الشَّيءِ بلفْقِه، وإعادَةِ الألفاظِ للتأكيد على الرَّدِ ونَفي المَزاعِمِ الكاذِبَةِ والأوهامِ المَغلوطَةِ.

تكرار القول أكثرَ من مَرَّةٍ، للتأكيد، ونَفي المَزاعِمِ والأوهامِ

والمَعنَى: ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ﴾ حينَ أدَّعي النُّبوَّةَ ﴿عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ﴾ أي: رزقُهُ وأموالُهُ حَتَّى تَستَدِلوا بعدمِها على كَذِبي بقَولِكُم: ﴿وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ۝٢٧﴾ [هود: 27] فإنَّ النُّبوَّةَ أعزُّ مِن أن تُنالَ بأسبابٍ دُنيويَّةٍ ودَعواها بمَعزِلٍ عَن ادِّعاءِ المالِ والجاه.. ﴿وَلَآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ﴾ حَتَّى تَقولوا: ﴿مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا﴾ [هود: 27]، فإنَّ البَشَريَّةَ لَيسَتْ مِن مَوانِعِ النُّبوَّةِ بَل مِن مَباديها، يَعني: أنَّكُم اتخَذْتُم فُقدانَ هذه الأُمورِ الثَّلاثَةِ ذَريعَةً إلَى تَكذيبي، والحالُ أنّي لا أدَّعي شَيئًا مِن ذَلِكَ..﴿وَلَآ أَقُولُ﴾ مُساعَدَةً لَكُم، كَما تَقولونَ: ﴿لِلَّذِينَ تَزْدَرِىٓ أَعْيُنُكُمْ﴾، أي: تَقتَحِمُهُم، وتَحْتَقِرُهُم"[1].

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/203.

سِرُّ جَمعِ الفاعِلِ وإضافته لِضَميرِ المُخاطَبِ:

لَمّا كثُر المُزدَرون، كَثُرت الأعينُ المَغرورَةُ

قَولُهُ تعالى: ﴿وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزۡدَرِيٓ أَعۡيُنُكُمۡ﴾ كِنايَةٌ عَن أنَّ الَّذينَ عيبوا بكَونِهم ضُعَفاءَ، وأنَّ أمرَهُم حَقيرٌ لا يُؤبَه لهم؛ كَثيرونَ، كَثُرَتِ الأعينُ المحتقِرةُ لَهُم، وإن كانتِ الأعْيُنُ هُنا جَمعَ قِلَّةٍ، وهَذا دَليلٌ على أنَّهُم جَميعًا وقَعوا في ازدِراءِ الفُقَراءِ، وأنَّ كَلِمَتَهُم واحِدَةٌ، ومَطلَبَهُم واحِدٌ، وهوَ طَردُ الفُقَراءِ المُؤمِنينَ مِن مَجلِسِهِ ﷺ والمُفتَرَضُ في غَيرِ هَذا التَّعبيرِ بـ (تَزْدَري عُيونُكُم)، لكنه عبَّر بصيغة القلَّة تحقيرًا للأثر.

بلاغة المجاز العقلّي في إسناد الازدراء إلى الأعين:

الازدراء بناءً على الظّاهر، دلالةٌ على تفاهة المُزدرى

إسنادُ الازدِراءِ إلَى الأعيُنِ إنَّما هوَ مِن أفعالِ النَّفسِ (مَجازٌ عَقليٌّ)؛ لِأنَّ الأعيُنَ سَبَبُ الازدِراءِ غالِبًا؛ لِأنَّ الازدِراءَ يَنشَأُ عن مُشاهَدَةِ الصِّفاتِ الحَقيرَةِ عِندَ النّاظِرِ"[1]، و﴿تَزۡدَرِيٓ أَعۡيُنُكُمۡ﴾ التَّعبيرُ هُنا لِلمُبالَغَةِ والتَّنبيه على أنَّهُم استَرذَلوهُم بادي الرُّؤيَةِ، أي: بمُجَرَّدِ النَّظَرِ إلَيهِم مِن غَيرِ رَوِيَّةٍ بسَبَبِ ما عايَنوه مِن رَثاثَةِ حالِهِم وقِلَّةِ مَنالِهِم.

دلالَةُ وقوعِ مَقولِ القَولِ جملةً فعليةً ﴿لَن يُؤۡتِيَهُمُ﴾:

الدّلالَةُ علَى المُرادِ، تختلفُ بينَ الفِعليَّةِ والاسميَّةِ

جاءَ قَولُهُ: ﴿لَن يُؤۡتِيَهُمُ﴾ جُملَةً فِعليَّةً منفية "بحرف ﴿لَن﴾ الدالة على تأكيد نفي الفعل في المستقبل، تعريضًا بقومه؛ لأنَّهم جعلوا ضَعْف أتباع نوح ﷺ وفقرهم دليلًا على انتفاء الخير عنهم، فاقتضى دوام ذلك ما داموا ضعفاء فقراء، فلسان حالهم يقول: لن ينالوا خيرًا، فكان ردُّه عليهم بأنَّه لا يقول: ﴿لَن يُؤۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيۡرًاۖ﴾[2].

ففيه دلالةٌ على تَجَدُّدِ دعواهم على عَدَمِ الإتيانِ واستِمرارِ مَنعِهِ واستِحضارِ حالَتِهِم الماضيَةِ، فقد "يُرادُ من ﴿لَن يُؤۡتِيَهُمُ﴾ (ما

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/57.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/58.

آتاهُم)، فكَأنَّهُم قالوا: إنَّهُم اتَّبَعوكَ، وآمَنوا بكَ بلا تَأمُّلٍ، ومثل ذَلِكَ الإيمانُ في مَعرِضِ الزَّوالِ، فهُم لا يَثبُتونَ عَلَيهِ، ويرتَدّونَ، فرَدَّ عَلَيهِم عليه السلام بأنّي لا أحكُمُ على أوَلئكَ بأنَّ اللّه تعالى ما آتاهُم إيمانًا لا يَزولُ، وأنَّهُم سَيرتَدّونَ كَما زَعَمتُم"[1].

مَعنَى حَرفِ النَّفي ﴿لَن﴾ ودِلالَتُهُ:

﴿لَن﴾ هُنا: حَرفُ نَفيٍ ونَصبٍ جاءَت لِنَفي إتيانِ هَؤلاءِ الفُقَراءِ خيرًا مِنهُ ﷻ - على حَدِّ زَعمِ هَؤلاءِ المُتَكَبِّرينَ - والتَّعبيرُ بها لِنَفي هَذا الإتيانِ في المُستَقبَلِ، وإن كانَ الإتيانُ محتملًا لكونِه في الماضي.

ما تفيده (لن) من معنًى، أوضح وأمكن من سواها

سِرُّ إسنادِ الفِعْلِ لاسمِ الجَلالَة ﴿ٱللَّهُ﴾:

قولُهُ تعالى: ﴿لَن يُؤۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيۡرًاۖ﴾ تعبيرٌ عن نَفي إيتاءِ اللّه تعالى أولئكَ الخَيرَ، كَما يَزعُمُ هؤلاءِ المُتَكَبِّرونَ، ويرغبون، ثم إنَّهم لِشِدَّةِ جَهلِهِم حاولوا إقرار ذلك علة تسوِّغ لهم عدم اتِّباعه عليه السلام.

المُعطي والمانِحُ لِلخَلائِقِ، هوَ اللهُ الخالق

وإسنادُ الإيتاءِ إلَى اللّه تعالى إسنادٌ حقيقيٌّ، فاللّه تعالى هوَ المُعطي وحدَه، وعَطاؤه لا يَنقَطِعُ أبَدًا، وخَزائنُه مُمتَلِئَةٌ على الدَّوامِ.

نُكتَةُ تَنكيرِ المَفعولِ به ﴿خَيۡرًاۖ﴾ في الآية:

ورَدَ المَفعولُ في قَولِهِ تعالى: ﴿لَن يُؤۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيۡرًاۖ﴾ منكَّرًا للتَّحقير تناسبًا مع السياق الحاكي معنى ما قالوه من الازدراء مجاراةً لهم، أو التعظيم لكونه حكاية عن معنى ما قاله نوح عليه السلام.

قد يُنَكَّرُ الشَّيءُ إمّا تعظيمًا لِشَأنِهِ، أو لبيانِ نوعِهِ

مَوقِعُ جُملَة ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ﴾ مِمّا قبلَها:

قَولُهُ تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ﴾ تَعليلٌ لِنَفيِ أنْ يَقولَ: ﴿لَن يُؤۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيۡرًاۖ﴾، ولِذَلِكَ فُصِلَتِ الجُمْلَةُ، ولَمْ تُعطَفْ"[2]. وجاءَت رَدًّا على قَولِهِم: ﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمۡ أَرَاذِلُنَا﴾ [هود: 27] على ما

ملمح كمال الاتِّصال في كون الجملة مفصولة عمّا قبلها

(1) الآلوسي، روح المعاني: 12/44.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/58.

يَظهَرُ مِنهُم"، فالمَعنى: لَستُ أنا أحكُمُ عَلَيهِم بألّا يكونَ لَهُم خَيرٌ بظَنِّكُم بهِم أنَّ بَواطِنَهُم لَيسَتْ كَظَواهِرِهِم، اللّه ﷻ أعلَمُ بما في نُفوسِهِم"[1]، وهو" تَسليمٌ للّه تعالى، أي: لَستُ أحكُمُ عَلَيهِم بشَيءٍ مِن هَذا، وإنَّما يَحكُمُ عَلَيهِم بذَلِكَ، ويَخرُجُ حُكمُهُ إلَى حَيِّزِ الوجودِ، اللّه تعالى الَّذي يَعلَمُ ما في نُفوسِهِم، ويُجازيهِم بذَلِكَ"[2].

دلالةُ وُقوعِ المُسنَدِ ﴿أَعْلَمُ﴾ على صيغَةِ (أفعَل):

ورودُ المُسنَدِ هُنا ﴿أَعْلَمُ﴾ على وزنِ أفعلَ، لَيسَ مُرادًا بهِ التَفضيلُ، وإنَّما المَقصودُ كَثرَةُ العِلمِ وشدَّتُهُ، فلَيسَ هُنا مفضِّلٌ ولا مفضَّلٌ عَلَيه حَتَّى يُحكَمَ بكَونِهِ للتفضيلِ، وإنَّما أُريدَ بهِ العِلمُ الكامِلُ المُحيطُ بدَقائقِ الأمورِ وخَفاياها، فالمُفاضَلَةُ هُنا لا وُجودَ لَها أبدًا.

ورود العلم هنا على صيغة أفعل، ودلالة ذلك

مَعنَى حَرفِ الباء في قوله: ﴿بِمَا﴾ ودِلالَتُه:

الباءُ هُنا حَرفُ جَرٍّ أُريدَ به الملابسةُ، ولا يَنفكُّ عَنها مَعنَى الإلصاقِ، وقَد دَخَلَتْ على (ما) المَوصولَةِ، والمَعنَى: ما تَلَبَّسَت بهِ أنفُسُهُم مِن الخَيرِ وسائِرِ الكَمالاتِ، وما وهَبَهُم اللّه مِن هَذا الخَيرِ الَّذي أُشرِبَتهُ نُفوسُهُم، والتَّعبيرُ أفادَ تَعظيمَ ما حَوتْهُ أنفُسُهُم مِنَ الإيمانِ والخَيرِ، واستِصحابِ هَذا الإيمانِ إلَى أن يَلقَوا اللّه تعالى، فيُجازيَهُم عَلَيه.

لا أعظَمَ مِن استِصحابِ الإيمانِ، والثَّباتِ عَلَيه في كلِّ آنٍ

دلالة (ما) الموصولة، وسرُّ إيثارِها على غيرِها:

ورَدَت (ما) هُنا اسمًا مَوصولًا بمَعنَى الَّذي، والمُرادُ بالَّذي في نُفوسِهِم، أي: ما يَتَأَهَّلونَ بهِ لإفاضَةِ التَّوفيقِ عَلَيهِم، وهوَ المَدارُ لِذَلِكَ، لا الأحوالُ الظّاهِرَةُ مِمّا لا أقولُ بهِ، وأوثرت (ما) على (الذي) لكونها أعمَّ وأشمل في الدلالة، وفي إبراز هذه الجملة ﴿وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزۡدَرِيٓ أَعۡيُنُكُمۡ لَن يُؤۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيۡرًاۖ﴾؛ إشارة إلى أنَّهم

شمول علم الله تعالى، لكلِّ خَبايا النُّفوسِ الصّالِحَةِ، وتَعظيمها

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/165.
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/165.

طلبوا منه ﷺ أن يقول ذلك، فأجابهم بالنَّفي، "وإنَّما اقتُصِر على نَفي القَولِ المَذكورِ، مع أنَّهُ ﷺ جازِمٌ بأنّ اللّه سُبحانهُ سيُؤتيهِم خيرًا عظيمًا في الدّارينِ، وأنّهُم على يقينٍ راسِخٍ في الإيمانِ، جريًا على سُننِ الإنصافِ مع القومِ، واكتفاءً بمُخالفةِ كلامِهِم، وإرشادًا لهُم إلى مسلكِ الهِدايةِ بأنّ اللّائق لِكُلِّ أحدٍ ألّا يبُتّ القول إلّا فيما يعلمُه يقينًا، ويبني أُمورهُ على الشّواهِدِ الظّاهِرةِ، ولا يُجازِفُ فيما ليس فيهِ على بيِّنةٍ ظاهِرةٍ"[1].

سِرُّ الاستعارة التَّبعيَّة في التَّعبيرِ بحرفِ الجَرِّ ﴿فِيٓ﴾:

استقرارُ الإيمانِ في النُّفوسِ، دَليلُ الإيمانِ الحَقِّ

جاءَ التَّعبيرُ بحرفِ الجَرِّ ﴿فِيٓ أَنفُسِهِمۡ﴾ الدّالِّ على الظَّرفيَّةِ، للدلالة على تمكُّن علمه سبحانه بكلِّ ما في النُّفوس من خلجاتها وخفاياها من إيمان وغيره، ودِلالَةُ الظَّرفِ هُنا استِعارَةٌ تَبَعيَّةٌ، حيث استُعيرَ الحَرفُ ﴿فِيٓ﴾ مِن مَعناهُ الحَقيقيِّ، وهوَ تَمَكُّنُ الظَّرفِ مِن المَظْروفِ تمكُّنًا حقيقيًّا للدلالةِ على استِقرارِ الإيمانِ في نُفوسِهِم، وكانَ يُمكِنُ الاكتِفاءُ بأنْ يَكونَ التَّعبيرُ (اللّه أعْلَمُ بأنْفُسِهِمْ)، دون ذكر حرف الظَّرف ﴿فِيٓ﴾، لكنَّ ذكره بيَّن أنَّ هَؤلاء قَد استَقَرَّ الإيمانُ في بَواطِنهم، وتشرَّبته نفوسُهم، فجاء التعبير بحرف الجر ﴿فِيٓ﴾ مدحًا لهم، وتعظيمًا لشأنهم ورفعة لحالهم.

إيثارُ التَّعبيرِ بـ ﴿أَنفُسِهِمۡ﴾ على (نُفوسِهِم):

تَبادُلُ الجُموعِ بَينَ القِلَّةِ والكَثْرَةِ، يؤكِّد بأنَّ لكُلٍّ منها غرضَه الدَّلاليَّ

قَد يُعبَّرُ بجَمعِ القِلَّة في مَوضِعِ الكَثرَةِ وبالعَكسِ إلّا أنَّ مَجيءَ (أنفُس) هُنا جمع قلة دلالة على قلة العدد الذي آمن معه ﷺ، فأوثر التَّعبيرُ بجَمعِ القِلَّةِ؛ ليناسب لفظ (الأنفس) العددَ الَّذي آمَن بهِ بدَليلِ قولِهِ تعالى: ﴿وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٞ ۝٤٠﴾ [هود: 40].

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/204، 203.

موقع جملة ﴿إِنِّيٓ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ ممّا قبلَها:

رَدٌّ آخر بنَفي الظُّلمِ عَن الضُّعَفاءِ

قَولُهُ تعالى على لِسانِ سيِّدنا نوحٍ ﷺ: ﴿إِنِّيٓ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، جُملَةٌ تَعليليَّةٌ لا محَلَّ لَها مِن الإعرابِ، وجاءَت تَعليلًا ثانيًا لِنَفي أنْ يَقولَ: ﴿لَن يُؤۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيۡرًاۖ﴾.

سِرُّ التّعبيرِ بحرفِ الجَوابِ ﴿إِذٗا﴾:

التَّعبيرُ بحرفِ الجَوابِ، ودَورُه في بنيَةِ الجُملَةِ في السّياق

في قوله: ﴿إِنِّيٓ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ نجد أنّ ﴿إِذٗا﴾ حرفُ جوابٍ وجزاءٍ مُهملٌ، والتّعبيرُ بهِ "مجازاةٌ لِلقولِ، أي: لو قُلت ذلِك؛ لكُنت مِن الظّالِمين، وذلِك أنّهُ يظلِمُهُم بالقضاءِ عليهم بما لا يعلمُ مِن حقيقتِهِم، ويظلِمُ نفسهُ، باقتِحامِ القولِ بما لا يصدق"[1]. وهذا أُسلوبُ ردعٍ مِنهُ لهُم، على معنى: إنّي إن قلتُ ذلِك؛ فسأكونُ ظالِمًا مُستحِقًّا لِلعِقابِ.

نُكتَةُ تَقديمِ ﴿إِذٗا﴾ على خَبَرِ (إنَّ):

تأكيد وقوع ما وقع عليه حرف الجواب، وهو كونه من الظّالمين لو أطاعهم

جاءَت ﴿إِذٗا﴾ مُقَدَّمَةً على الجُملَةِ الخَبَريَّة مُبالَغَةً مِنْهُ، وتَأكيدًا على وُقوعِ ظُلمِ نَفْسِه، إنْ فعَلَ ما أرادوه مِنهُ، كَما ورَدَتْ ﴿إِذٗا﴾ هُنا مُنَوَّنَةً مُبالَغَةً في تَصويرِ نَفْسِه بكَونِه مِن الظّالِمينَ العَريقينَ في الظُّلمِ إنْ أقدَمَ على مُرادِهِم.

دلالَةُ التَّوكيدِ بثَلاثَةِ مُؤكِّداتٍ في الجملة:

توكيد الكلام، دليل على كونه من الأهميَّة بمكان

قوله: ﴿إِنِّيٓ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، "أكَّدَهُ بثلاثةِ مُؤكِّداتٍ: إنَّ ولامِ الابْتِداءِ وحَرْفِ الجَزاءِ، تَحْقيقًا لِظُلْمِ الَّذينَ رَمَوا المُؤْمِنينَ بالرَّذالَةِ، وسَلَبوا الفضْلَ عنهُمْ؛ لِأنَّهُ أرادَ التَّعْريضَ بقَوْمِهِ في ذَلِكَ"[2]. و"تَحْقيقًا لِظُلْمِ كُلِّ مَن يَدَّعي شَيئًا مِن هذه الدَّعاوى، وتَكذيبًا لِأولئكَ الكافِرينَ الَّذينَ احتَقَروا المُؤمِنينَ، وزَعَموا أنَّ اللّه تعالى لَن يُؤتيَهُم خَيرًا"[3]، وتعريضًا بأنَّهم أشدُّ الناس ظلمًا.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/58.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/58.
(3) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 7/196.

نكتة إيثار قوله: ﴿لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، على قوله: (إنّي ظالِمٌ):

دلالَـةُ التَّعبيرِ بـحَـرفِ الـجَـرِّ (مِن)، ودوره في البيان

قوله: ﴿لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أبْلَغُ في إثْباتِ الظُّلْم مِنْ: إنّي ظالمٌ، لِأنَّهُ على الأوَّلِ أدخَلَ نَفسَهُ في جُملَةِ الظّالِمينَ، لا يَنْفكُّ عنهُم أبَدًا، أمّا قَولُهُ: (إنّي ظالمٌ)؛ فربَّما يَكونُ قالهُ حَياءً دونَ إثباتِ الظُّلم إثباتًا تامًّا، وكَذَلِكَ يَكونُ مُرادُهُ بالتَّعبيرِ الأوَّلِ مِن الظّالِمينَ لِأنفُسِهِم بذَلِكَ، وفي الكَلامِ تَعريضٌ بأنَّهم ظالِمونَ في ازدِرائِهِم.

دلالَةُ التَّعبيرِ بجملة ﴿لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ في السّياق:

الظُّـلـم أبشعُ وصـفٍ، وأقبح مظهر للتَّعامل الجائر

المُرادُ بالظّالِمينَ هُنا العَريقونَ في وضعِ الشَّيءِ في غَيرِ مَوضِعِهِ، وتعريفُهم بـ (أل) لِاستِغراقِ الوصفِ جميعَ الظّالِمينَ وجميع أنواعِ الظُّلمِ أيضًا، ووَبالُ الظُّلمِ راجِعٌ دَومًا إلَى أنْفُسِ الظّالِمينَ.

والمعنى: لو أطعتكم فيما طلبتم منّي؛ إنّي إذًا لمن هؤلاء الظالمين المطبوعين على الظُّلم حتى صار فيهم سجيَّة وخُلُقًا.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(يؤتي) و(يعطي):

هناك في القرآن الكريم أفعال مستعملة في مواطنها، لا يعبَّر عنها غيرها

يقال: (أتى) الشَّيءَ: هيَّأهُ، وسَهَّلَهُ، وأتَى فُلانًا الشَّيءَ: أتَى بهِ إلَيهِ: أعطاهُ إيّاه، و"الإتيانُ: مَجيءٌ بسُهولَةٍ، ومِنه قيلَ لِلسَّيلِ المارِّ على وجهِهِ: أتيٌّ وأتاويٌّ، وبه شُبِّه الغَريبُ، فقيلَ: أتاويٌّ، والإتيانُ يُقالُ لِلمَجيءِ بالذّاتِ وبِالأمرِ وبِالتَّدبيرِ، ويُقالُ في الخَيرِ وفي الشَّرِّ وفي الأعيانِ والأعراضِ"[1].

(يُعطي): "العَطْوُ: التَّناول، والمعاطاة: المناولة، والإعطاء: الإنالة، واختصَّ العطيَّة والعطاء بالصِّلة،

يعطي من يشاء"[2]، وعطا الشيء عطوًا تناوله، والعطاء ما يعطى، والجمع أعطياتٌ".

(1) الرّاغب، المفردات: (أتى).
(2) الرّاغب، المفردات: (عطا).

قال أبو هلال العسكري: "الإعْطاء: هوَ اتِّصال الشَّيْء إلَى الآخِذ لَهُ ألا ترى أنَّك تُعْطي زيدًا المال ليَرُدَّهُ إلَى عَمْرو، وتعطيه ليتَّجر لَك به، ثمَّ كثر اسْتِعْمال الإعْطاء حَتَّى صار لا يُطلق إلّا على التَّمْليك، فيُقال: أعطاهُ مالًا؛ إذا ملَّكه إيّاه"[1].

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 175.

﴿قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدۡ جَٰدَلۡتَنَا فَأَكۡثَرۡتَ جِدَٰلَنَا فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ٣٢﴾ [هود: 32]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

مواصلة قصّة قوم نوح، لتأكيد أنَّ يَأْس من لا حُجَّةَ لَهُ، ينصرف به إلى تمنّي الهلاك

لمّا يئس الكُفّارُ مِن حِوارِهِم مع نوحٍ عليه السلام وردِّه عليهم كُلّ ما أثاروه مِن شُبهٍ، لجؤُوا إلى أُسلوبِ الهارِبِ مِن مُجادلةِ قويِّ الحُجّةِ، فأوردوا هذه الشُّبهة عليهِ، مِمّا يدُلُّ على أنّهُ عليه السلام كان قد أكثر في الجِدالِ معهُم، ولمّا لم يجِدوا وسيلةً معهُ؛ استعجلوا العذاب الّذي كان يتوعّدهُم بهِ.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿جَٰدَلۡتَنَا﴾: (جدل) الجيمُ والدّالُ واللّامُ أصْلٌ واحِدٌ، وهوَ مِنْ بابِ اسْتِحْكامِ الشَّيْءِ في اسْتِرْسالٍ يَكونُ فيهِ، وامْتِدادِ الخُصومَةِ ومُراجَعَةِ الكَلامِ، وهوَ القياسُ الَّذي ذَكَرْناهُ"[1]. والجدال "هو المعارضة على سبيل المنازعة والمغالبة، وأصله من جَدَل الحَبْل: أحكم فتْلَهُ كأنَّ كلًّا من المتجادلينَ يفتِل الآخرَ عنْ رأيه، وقد ورد في القرآن على وجوه مختلفةٍ منها: معارضة نوح وقومه: ﴿يَٰنُوحُ قَدۡ جَٰدَلۡتَنَا﴾[2].

2) ﴿تَعِدُنَآ﴾: الوَعْدُ يكون في الخَيرِ والشَّرِّ، يُقالُ: وعَدْتُهُ بنفع وضرٍّ وعْدًا ومَوْعِدًا وميعادًا، والوَعيدُ في الشَّرِّ خاصَّة، يقال منه: أوْعَدْتُهُ، ويقال: واعَدْتُهُ، وتَواعَدْنا"[3]. ومرادهم هنا بما تعدنا به من العذاب.

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (جدل).
(2) الفيروزباديّ، بصائر ذوي التمييز: 2/373.
(3) الرّاغب، المفردات: (وعد).

المَعْنى الإجْماليُّ:

بيانُ اشتِداد الحالِ على الكافرين حَتَّى استَعْجَلوا العَذابَ المهين

عِنْدَما وجَدَ كفار قوم نوح أنفُسَهُم عاجزينَ عَن الرَّدِ على نَبيِّهِم بأُسلوبِ مُقارَعَةِ الحُجَّةِ؛ لجؤوا - على عادَةِ طَبَقَتِهِم - إلَى أُسْلوبِ التَّحَدّي، وقَد أخَذَتْهُم العِزَّةُ بالإثم، كَما حَكَى القُرآنُ عنهُم، وقالوا: ﴿يَٰنُوحُ قَدۡ جَٰدَلۡتَنَا فَأَكۡثَرۡتَ جِدَٰلَنَا فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾، أي: خاصَمْتَنا، ونازَعْتَنا، فأكثَرْتَ في ذَلِكَ حَتَّى أنَّكَ لَمْ تَدعْ لَنا مَنْفذًا للرَّد عَلَيكَ، ثُمَّ أضافوا إلَى هَذا العَجزِ عَن مُجابَهَةِ الحُجَّة سَفاهَةً في القَولِ، فقالوا: "فَأْتِنا بالعَذابِ الَّذي تَتَوَعَّدُنا بِهِ، إنْ كُنتَ مِن الصّادِقينَ في دعواكَ النُّبوَّة، وفي وعيدِكَ لَنا بعِقابِ اللّه، فإنَّنا مُصِرّونَ على عِبادَةِ آلِهَتِنا، وكارِهونَ لِما تَدعونا إلَيهِ"[1].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالةُ فصل الجُمَلةِ مع وجود شبه كمال الاتِّصال:

أثر الاستئناف البيانيِّ في اكتمال الحوار وتناسقه

لَمّا "اسْتَوفى نوحٌ عليه السلام نَقْضَ ما أبرَموه في زَعمِهِم مِن جَوابِهِم على غايَةِ الإنصافِ واللّينِ والاستِعْطافِ؛ استَأْنَفَ الحِكايَةَ عَنهُم بقَولِهِ: ﴿قَالُواْ﴾، أي: قَولَ مَن لَم يَجِدْ في رَدِّهِ شبهةً يُبديها ولا مَدفعًا يُغير بِهِ"[2]،والجُملَةُ هُنا مُستَأنَفةٌ استئنافًا بيانيًّا، وهي مَفصولَةٌ عَمّا سَبَقَ فصْلًا"، على طَريقَةِ حِكايَةِ الأقْوالِ في المُحاوَراتِ"[3]. أي: كأنَّ هنالك من سأل: فماذا قال قوم نوح بعد أن امتنع نوح عليه السلام من مطاوعتهم؟ فجاء الجواب: ﴿قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدۡ جَٰدَلۡتَنَا فَأَكۡثَرۡتَ جِدَٰلَنَا﴾.

الغَرَضُ مِن أُسلوبِ النِّداءِ:

استهزاء قوم نوح بنبيِّهم دليل فشلهم في الحوار

في قوله: ﴿قَالُواْ يَٰنُوحُ﴾ أُعيدَ نِداؤهُم لِنَبي اللّه نوح عليه السلام إحضارًا لَهُ في مَشْهَدِ مُحاوَرَتِهِم، ولِكَونِهِ مَقْصَدَ الحَديثِ هُنا ولبَيانِ حُجَّةِ

(1) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 7/197، 196.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر في تناسب الآيات والسّور: 5/277.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/58.

المُجادَلَة عَلَيه، وألّا يَكونَ بمَعزِلٍ عَن حَديثِهِم، ثُمَّ إنَّهُم نادوه نِداءَ البَعيدِ؛ تَهَكُّمًا واستِهزاءً، ويَعْكِسُ هَذا بُعدَ ما يَدعوهُم إلَيهِ مِن الإيمانِ عَن قُلوبِهِم.

ضيق الكافرين ذرعًا بنوح عليه السلام، نموذجٌ للصِّراعِ بين الحقِّ والباطل

دلالة ﴿قَدْ﴾ على التَّحقيق في السّياق الكريم:

في قوله: ﴿قَدْ جَٰدَلْتَنَا﴾ قَد: حَرفُ تَحقيقٍ ودَورُها هُنا تَحقيقُ أمرِ هذه المُجادَلَةِ، وأنَّه طالَ مِنْهُ الجِدالُ.

إثبات المشاركة في الجدال، دلالة على شدَّة الخصومة.

دَلالَةُ التَّعبيرِ بالماضي في ﴿جَٰدَلْتَنَا﴾ بصيغَةِ التَّشارُكِ:

التَّعبيرُ بالفِعلِ الماضي ﴿جَٰدَلْتَنَا﴾ لِتَحَقُّقِ وُقوعِ هَذه المُجادَلَةِ، وهي المُراجَعَةُ والمُخاصَمَةُ، والمُقابَلَةُ بالأقوالِ حَتَّى تَقَعَ الغَلَبَةُ، والفِعلُ مَأخوذٌ مِن فِعالٍ، مَصدَرِ فاعَلَ، وهو يَقَعُ مِن اثنَينِ، ومِنه ما هو مَحمودٌ، ومِنهُ ما هو مَكْروهٌ[1]، "وإنَّما أرادوا أنَّهُ جادَلَهُمْ فيما هوَ شَرٌّ، فعَبَّرَ عن مُرادِهِمْ بلَفْظِ الجِدالِ الموَجَّهِ"[2].

كثرة الجدال مبالغة في الخصومة المفضية للضَّلال

مَعنَى حَرفِ الفاءِ في لفظ ﴿فَأَكْثَرْتَ﴾ ودِلالَتُه:

الفاءُ هُنا لِلتَّعقيب، وعَطفِ إكثارِ جِدالِهِ مَعَهُم على جِدالِهِم، قال الآلوسيُّ: "عطَفَ على ما قبلَهُ على مَعنَى شَرَعتَ في جِدالِنا، فأطَلْتَهُ، أو أتَيتَ بنَوعٍ مِن أنواعِ الجِدالِ، فأعقَبْتَه بأنواعٍ أُخَر"[3].

حدوث الإكثار في المجادلة، أمرٌ محقَّقٌ بيقين

دِلالَةُ التَّعبير بالماضي (أكثرت) في السّياق:

التّعبيرُ بالفِعل الماضي دِلالةٌ على تحقُّقِ وُقوعِ الإكثارِ في المُجادلة وحُدوثِها، وقد "تعيّن أنّ تِلك المُجادلة كانت آخِر مُجادلةٍ جادلها قومهُ، وأنّ ضجرهُم وسآمتهُم مِن تكرارِ مُجادلتِهِ حصل ساعتئِذٍ، فقالوا قولهُم هذا، كانت كُلُّها مُجادلاتٍ مضت، وكانتِ المُجادلةُ الأخيرةُ هي الّتي استفزّتِ امتعاضهم مِن قوارِعِ جدلِهِ

(1) ابن عطّية، المحرّر الوجيز: 3/165.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/58.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 12/45.

حتّى سئِموا مِن تزييفِ مُعارضتِهم وآرائِهم شأن المُبطِلِ؛ إذا دمغتهُ الحُجّةُ"[1].

سِرُّ تَقييدِ الفِعلِ ﴿جِدَٰلَنَا﴾ بالمَفعولِ به:

أعادَ هَؤلاءِ التَّعبيرَ بالمَفعولِ بهِ ﴿جِدَٰلَنَا﴾ مَعَ إمكانِ الاستِغْناءِ عَنهُ وحَذفِهِ، ويَكونُ تَعبيرُهُم (قدْ جادَلْتَنا، فأكْثَرْتَ) مَعَ العِلمِ بهَذا المَفعولِ إلّا أنَّهُم أعادوه لِتَذَمُّرِهِم، وتَضجُّرِهِم ويَأسِهِم مِن الإقناعِ، وتَعبيرُهُم هَذا (كِنايَةٌ) عَن التَّمادي والاستِمرارِ في حالَةِ الكُفرِ المُخَيِّمَةِ عَلَيهِم.

تذمُّر أهل الباطل من حجج أهل الحقِّ، وصفٌ دائم لأهل الباطل

سِرُّ إضافةِ المَفعولِ بهِ ﴿جِدَٰلَنَا﴾ إلى الضَّميرِ:

أضاف قَومُ نوحٍ عليه السلام المفعولَ إلَى أنفُسِهِم في ﴿جِدَٰلَنَا﴾، تَعظيمًا لِشَأنِهِم، وتَشريفًا لَهُم، مِن وُجهَةِ نَظَرِهِم، كَأنَّهُم قالوا: جادلتَنا، وما ينبَغي لِمثلِنا أن يُجادَلَ، فنَحنُ أعزُّ وأرفعُ مِن ذَلِكَ، والتَّشريفُ هُنا مِن تَشريفِ المُضافِ إلَيهِ.

المغرور بنفسه، لا يستبين الحقَّ، ولا يهتدي إلى الصِّراط السَّويِّ

دَلالَةُ الفاءِ في قَولِهِ: ﴿فَأْتِنَا﴾:

الفاءُ هُنا فصيحَةٌ، وهي الَّتي تُفصِحُ عَن شَرطٍ مُقَدَّرٍ، والمُرادُ: إنْ كُنتَ صادِقًا في قَولِكَ؛ فأتِنا، والتَّعبيرُ بالفاءِ كَشَفَ عَن مَدى غُرورِهِم وتَكذيبِهِم لِنَبيِّهِم نوحٍ عليه السلام إذ المُرادُ: ائتنا بالعَذابِ على الفورِ، فلَم يَترُكوا لِأنفُسِهِم فُرصَةً لِلتَرَوّي ومُراجَعَةِ الأمرِ، فقد حذف الجواب لدلالة ما سبق عليه، وفي ذلك عونٌ على التَّدبُّر.

الحذف إيجازٌ واختصار، يزيد في بيان السّياق وجماله

الغرضُ مِن التَّعبيرِ بفِعلِ الأمرِ ﴿فَأْتِنَا﴾:

ورَدَ التَّعبير بفِعلِ الأمرِ هُنا ﴿فَأْتِنَا﴾ تَعجيلًا مِنهُم بوقوعِ العَذابِ وعدَمِ إنظارِه وانتِظارِه، وبَلَغَ مِن كِبْرِهِم أنَّهُم عَبَّروا بالإتيانِ الَّذي يَأتي غالِبًا في الشَّيءِ المَحبوبِ السَّهلِ[2]. وهَذا مِن كِبرِهِم وعِنادِهِم

استِعجالُ العَذابِ، هُروبٌ مِن الجِدالِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/60.

(2) حمدان، الإتيان والمجيء، فقه دلالتهما واستعمالهما في القرآن الكريم، ص: 17.

واستهزائِهم، والمُرادُ: إنْ وقَعَ ما تَوَعَّدتَنا بهِ مِن العَذابِ؛ فهَذا أمرٌ سَهلٌ عَلَينا، ومُحَبَّبٌ إلَى قُلوبِنا، وجائز أن يكونوا قد استَعجَلوا وُقوعَ العَذابِ يَأسًا مِنْهُم في الغَلَبَةِ والانتِصارِ في المُجادَلَةِ، فأعيَتْهُم الحُجَّةُ، وضاقَتْ عَلَيهِم السُّبُلُ، فاستَعجَلوا العَذابَ، والأوَّلُ أرجَحُ؛ لِأنَّهم في نِهايَةِ الآيَةِ شَكَّكوا في صِدْقِهِ ﷺ والسّياق مشعرٌ بأنَّ فعل الأمر، المراد به هنا التَّعجيز.

مَعنَى حَرفِ الجَرِّ ودِلالَتُه في شبه الجملة ﴿بِمَا﴾:

المبالغة في التَّعجيز، بتأكيد تحقُّق الموعود به

الباءُ في قَولِهِ: ﴿بِمَا﴾ حَرفُ جَرٍّ زائدٌ جاءَ تَأكيدًا لِأمر الصِّلة المَطلوبِ مِنهُ ﷺ وهوَ استِعجالُ العَذابِ خَلاصًا مِن المُجادَلَةِ.

دلالة (ما) الموصولة في شبه الجملة ﴿بِمَا﴾:

إفادة السّياق أنَّ اليَأسَ ينْقَلبُ إلَى استِهزاءٍ، وتَهَكُّمٍ أحيانًا

في قوله: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾ ما: اسمٌ موصولٌ، وهو اسم مبهم الدّلالة؛ لولا صلته الكاشفة للمراد به، والتي يحصل بها التعريف، وهذا الإبهام الأوّليّ في اسم الموصول يُحدِث في نفس السّامع تشوّفًا، وتطلّعًا لمعرفة المراد به عن طريق صلته، فتتلقّفها نفسُه بالدّافع الذّاتي إلى المعرفة[1]، والتَّعبيرُ بهِ أفادَ التَّهَكُّمَ والاستِهزاءَ مِنهُ ﷺ ومن العَذابِ الَّذي تَوَعَّدَهُم بهِ، وهَذا شَأنُ الجاهِلِ المعانِدِ، أنَّهُ يُشهِرُ السَّيف إذا أعجزتْهُ الحُجَّةُ، ويُعلِنُ التَّحدي؛ إذا يَئِسَ عَن مواجَهَةِ الحَقِّ.

الغَرَضُ استعمال لفظ ﴿تَعِدُنَآ﴾ بمعنى (تَتَوَعَّدُنا):

بيان أنَّ الكِبْرَ يَقْلِبُ الحَقائقَ، ويَخْلِطُ المَفاهيمَ

في قوله: ﴿تَعِدُنَآ﴾ استعارةٌ تَهَكُّميَّةٌ حيثُ نُزِّلَ التَّضادُ بَينَ الوَعدِ والوَعيدِ منزِلَةَ التَّناسُبِ بَينَهُما، ثُمَّ شُبِّه الوعدُ بالوَعيدِ، واشتُقَّ مِن الوَعدِ الفعلُ تَعِدُنا على سَبيلِ الاستِعارَةِ التَّهَكُّميَّةِ، وهي أيضًا عِناديَّةٌ؛ لِعَدَم تَأتّي اجتِماعِ الوَعدِ والوَعيدِ في شَيءٍ واحِدٍ، وهَذا مِنْ

(1) حسن، بلاغة اللغة: 1/429.

كِبْرِهِم وعِنادِهِم واستِهزائِهِم، وذَلكَ حينَ جَعَلوا أمرَ ما توعِّدوا بِهِ سَهْلًا عَلَيهِم ومُحَبّبًا إلَى قُلوبِهِم.

الغَرَضُ مِن الأُسلوبِ الخَبَريِّ في الجملة المصدَّرة بـ ﴿قَدْ﴾:

قَولُهُم: ﴿قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا﴾ خَبَرٌ مُستَعمَلٌ في التَّذَمُّرِ والتَّضجُّرِ والتَّأْييسِ مِنَ الاقْتِناعِ، أجابَهُمْ بالمُبادَرَةِ لِبَيانِ العَذابِ؛ لِأنَّ ذَلِكَ أدْخَلُ في المَوْعِظَةِ، فبادَرَ بِهِ؛ ثُمَّ عادَ إلَى بَيانِ مُجادَلَتِهِ"[1].

بيان ملمح التَّذَمُّرِ والتَّأْييسِ مِنَ الاقْتِناعِ

مَوقِعُ أُسلوبِ الشَّرطِ مِمّا قبلَهُ:

قَولُهُم: ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ شَرطٌ جَوابُه دَلَّ عَلَيهِ ما قَبلَهُ، والمَعنَى: إنْ كُنتَ مِن الصّادِقينَ؛ فأتِنا، فجاءتِ الجُملَةُ الشَّرطيَّةُ مِنهُم استِهزاءً وتَهَكُّمًا واستِعجالًا لِوُقوعِ هَذا العَذابِ، وهي تأكيد لمعنى الجملة السّابقة إمعانًا في التَّهكُّم والاستهزاء.

أُسلوبُ الشَّرطِ، مُستَعمَلٌ مِن قِبَلِهِم تَهَكُّمًا

دلالَةُ التَّعبيرِ بحَرفِ الشَّرطِ ﴿إِن﴾ الدالَّةِ على التَّقليلِ:

التَّعبيرُ بـ ﴿إِن﴾ يَأتي لِلفِعلِ المَشكوكِ في وُقوعِهِ، و(إذا) تَأتي لِلأمرِ المَقطوعِ بوُقوعِهِ، وَقولُهُم: ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾، شَكٌّ في كَونِهِم مصدِّقيه في مُجادَلَتِهِ، بدِلالَةِ استِعجالِهِم العذابَ تَهَكُّمًا واستهزاءً، والمُرادُ: إن كُنتَ تَزْعُمُ أنَّك مِن الصّادِقينَ؛ فأتنا بهَذا العذابِ.

فرقٌ في التَّعبيرِ بـ (إنْ) عن (إذا)، لتنوُّعِ المعنى بتنوُّعِ الاستعمال

سرُّ إيثارِ التَّعبيرِ بـ ﴿مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾:

جاءَ التَّعبيرُ هُنا بقَولِهِ: ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾، بَيانًا لِتَعريفِهِ في جُملَةِ جَميعِ الصّادِقينَ؛ لِأنَّ (أل) في الصّادِقينَ تُفيدُ الجنسَ، والمُرادُ بهِم العَريقونَ في الصِّدقِ المَوسومونَ بِهِ الَّذينَ لا تَنحَلُّ عنهُم صفةُ الصِّدقِ، ولأنَّ المُعرَّف بـ (أل) الجنسيَّة يُفيدُ العُمومَ والشُّمولَ، فالمراد: أنَّك من جنس الصّادقين المجبولين على الصِّدق الثّابتين عليه، وهَذا أبلَغُ مِن أنْ يُقالَ: (إن كنت صادقًا).

انتقاء الصّيغة الملائمة للمعنى دليلٌ على دقّة اللُّغة ورقائها

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/60.

التَّهكُّمُ والاستِهزاءُ، دَيدَنُ الكَفرَةِ المُعانِدينَ

حَذفُ ما يُعلَمُ جائِزٌ، وهو من فصيح البيان

الغَرَضُ مِن أُسلوبِ التَّعريضِ في جملة جواب الشَّرطِ:

قَولُهُم لَهُ عليه السلام: ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾، تَعريضٌ مِنهُم بكَذِبِهِ - حاشاه - في وعْدِهِ إيّاهُم بإتيانِ عَذابِ اللّه عَلَيهِم، فقالوا ذَلِكَ؛ تَهَكُّمًا وتعْجيزًا ظَنًّا مِنْهُم أنَّ اللّه تعالى سَيَخْذُلُهُ وألّا يَنصُرَه.

بَلاغَةُ حَذفِ الجَوابِ، وتَقديرُه ﴿فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾:

حَذفُ جَوابِ الشَّرطِ في قَولِهِ: ﴿فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾، والتَّقديرُ: وقالوا: فَأْتِنا بما تَعِدُنا مِن العَذابِ المُعَجَّل، ويُحذَفُ؛ إذا سَبَقَ في الكَلامِ ما يَدُلُّ عَلَيهِ؛ إذْ "يَجوزُ أنْ يَكونَ المُرادُ بهِ العَذابَ الَّذي أُشيرَ إلَيهِ في قَولِهِ: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ أَلِيمٖ ٢٦﴾ [هود: 26] بناءً على ألّا يَكونَ المُرادُ باليَومِ يَومَ القيامَةِ"[1].

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 12/45.

﴿قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ٣٣﴾ [هود: 33]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

ردُّ نوح عليه السلام عليهم، حين استعجلوا وقوع العذاب، بأنَّ الله لا يعجزه ذلك

على نهج الآيات في الرَّدِّ على لسان نوح عليه السلام على المشركين من قومه في دعاويهم الباطلة جاء قوله: ﴿قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾؛ ردًّا عليهم في قولهم: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾، وهذا الردُّ منه عليه السلام قصْمٌ لظهورهم، فلا تتعجَّلوا عذابه؛ إذ إنَّ ما تستعجلونه واقعٌ لا محالة، ولكن يأتي به اللّه إن شاء، ولستم بمعجزيه سبحانه وتعالى.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿بِمُعْجِزِينَ﴾: "العَيْنُ والجيمُ والزّاي أصْلانِ صَحيحانِ، يَدُلُّ أحَدُهُما على الضَّعْفِ، والآخَرُ على مُؤَخَّرِ الشَّيْءِ، فالأوَّلُ عَجِزَ عَنِ الشَّيْءِ يَعْجِزُ عَجْزًا، فهوَ عاجِزٌ، أيْ: ضَعيفٌ، وقولهمْ: إنَّ العَجْزَ نَقيضُ الحَزْمِ، فمِنْ هَذا؛ لِأنَّهُ يَضْعُفُ رَأْيُهُ، ويَقولونَ: "المَرْءُ يَعْجِزُ لا مَحالَةَ". ويُقالُ: أعْجَزَني فُلانٌ؛ إذا عَجِزْتُ عن طَلَبِهِ وإدْراكِهِ، ولَنْ يُعْجِزَ اللّه تعالى شَيْءٌ، أيْ: لا يَعْجِزُ اللّه تعالى عنهُ مَتى شاءَ"[1].

المَعْنى الإجْمالِيُّ:

مُستعجِلُ الشَّيءِ يلْقاه، وإنْ طالَ الزَّمن واتَّسع مَداهُ

قال نوحٌ عليه السلام رَدًّا عَلَيهِم: هَذا الأمرُ الَّذي تطلبونه بيدِ اللّه تعالى؛ فهوَ وحدَهُ الَّذي يَأتيكُم بهِ - إن شاءَ - حَسَبَ حِكمَتِهِ وإرادَتِه، ولَستُم بناجينَ أو مُفلِتينَ مِن عَذابِهِ إن وقَعَ بكُم أو جاءَ مَوعِدُه، فاللّه سبحانه وتعالى لا يُعجِزُهُ شَيءٌ في الأرضِ ولا في السَّماءِ.

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عجز).

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

مَوقِعُ الجُملَةِ مِمّا قبلها، وأثر الفصل في شبه كمال الاتِّصال:

المجابهة بين الحقِّ والباطل أمر واقع ما له من دافع

وقَعَتْ هذه الجُملَةُ مِن سابِقَتِها موقعَ الاستئناف البيانيِّ، ومِن هُنا فُصِلَتْ عنها لِشِبهِ كَمالِ الاتِّصالِ، فكَأنَّه قيلَ: فما كانَ رَدُّه ﷺ عَلَيهِم حينَ استَعجَلوا العَذابَ؟ فجاءَ رَدُّه على طَريقَةِ الأقوالِ السّابِقَةِ والمُحاوَراتِ الَّتي مَرَّت قال: ﴿إِنَّمَا يَأۡتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ﴾.

السِّرُّ في تَعبيرِه ﷺ بأُسلوبِ القَصرِ:

بيانُ حمْلِ كلام المجادل على الظّاهر على طَريقَةِ مُجاراةِ الخَصْمِ في المُناظَرَةِ

في قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّمَا يَأۡتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ﴾ قَصْرُ صفةٍ على موصوفٍ، فقد قَصَرَ فيه الإتيانَ بالعَذابِ عَلَيهِ ﷺ إذا اقتضت مشيئتُه، والمغزى مِن هذا الإتيانِ لا يكونُ هُنا إلّا مِنهُ ﷺ: "والقصرُ... قصرُ قلبٍ بناءً على ظاهِرِ طلبِهِم، حملًا لِكلامِهِم على ظاهِرِه على طريقةِ مُجاراةِ الخصمِ في المُناظرةِ، وإلّا فإنّهُم جازِمون بتعذُّرِ أن يأتيهُم بما وعدهُم؛ لِأنّهُم يحسبونهُ كاذِبًا، وهُم جازِمون بأنّ اللّه لم يتوعّدهُم، ولعلّهُم كانوا لا يُؤمِنون بوُجودِ اللّه"[1].

والمقصود من أسلوب القصر تأكيدُ المعنى وإيجازه؛ لأنَّ القصر في قوَّة جملتين، وهو قصر قلب جاء ردًّا على مطالبتهم نوحًا ﷺ أن يأتيهم بالعذاب، فكان قصرُ القلب أنسبَ أسلوبٍ في الرَّدِّ عليهم.

سِرُّ إيثار أداة القصر ﴿إِنَّمَا﴾ في معرض السّياق:

إتيان الله بالعذاب، ممّا لا يجهله المخاطب، ولا ينكره

جاءَ بأُسلوبِ القَصرِ هُنا بـ ﴿إِنَّمَا﴾؛ لِتَنبيههِم إلَى وُقوعِ ما يُنكِرونَهُ، فلا تَنصَرِفُ عُقولُهم إلَى عَدَمِ وُقوعِهِ؛ لِأنَّهم ما قالوا ذَلِكَ إلّا استِهزاءً وتَهَكُّمًا بِهِ ﷺ كَما أنَّ فيهِ تَعريضًا بأنَّه ﷺ لا يَستَطيعُ أنْ يُنزِلَ بهِم هَذا العَذابَ؛ إذ لَيسَ في مَقدورِهِ، وسِرُّ التَّعبيرِ بها أنَّها تكون فيما لا ينكره المخاطَب، ولا يجهله؛ تعريضًا بجهلهم.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/60.

دلالَةُ التَّعبيرِ بالفعلِ المُضارِعِ ﴿يَأۡتِيكُمۡ﴾:

مَفادُ التَّعبيرِ بالفِعلِ (يَأتي)

عَبَّرَ نَبيُّ اللّه نوحٌ عليه السلام عَن إتيانِ عَذابِ اللّه تعالى بالفعلِ المُضارِعِ الدالِّ على وُقوعِهِ إمّا حالًا، وإمّا مُستَقبَلًا مَع إعْطاءِ المُهلَةِ للرُّجوعِ والإنابَةِ، والفعلُ المُضارِعُ دالٌّ على التَّجَدُّدِ والاستِمرارِ مَعَ الوقوعِ واستِحضارِ صورَتِهِ ليلتَزِموا طريقَ الحَقِّ.

نُكتَةُ تَقديمِ المَجرورِ ﴿بِهِ﴾ على الفاعِلِ ﴿ٱللَّهُ﴾:

تَقديمُ الشَّيءِ يُفيدُ فائِدَةَ أفضَلَ مِن تَأخيرِهِ

جاءَ تقديمُ الجارِّ والمجرورِ هُنا (بهِ) على فاعِلِهِ اسمِ الجَلالَةِ (اللّه) لِتَخصيصِ وُقوعِ العَذابِ والإتيانِ لِكونِهِ المقصودَ بالذِّكرِ، وتَقديمُهُ تَهويلٌ لِلأمرِ وردٌّ سَريعٌ مِنهُ عليه السلام بلِسانِ الحالِ عَلَيهِم، أي: هوَ آتٍ لا مَحالَةَ، والمُرادُ هوَ آتيكُم بهَذا العَذابِ الَّذي تَنتَظِرونَهُ لا بغيرِه، وفيهِ مِن تَخويفِهِم بالمَوعودِ ما لا يَصلُحُ مَعَهُ إلّا التَّقديمُ، قال الآلوسيُّ: "وفيهِ كَما قيلَ: ما لا يَخفى مِن تهويلِ المَوعودِ، فكَأنَّهُ، قيلَ: الإتيانُ بهِ أمرٌ خارِجٌ عَن دائرَةِ القوى البَشَريَّةِ، وإنَّما يَفعَلُه اللّه تعالى. وفي الإتيانِ بالاسمِ الجَليلِ الجامِعِ تَأكيدٌ لِذَلكَ التَّهويلِ"[1].

الغَرضُ مِن ذِكرِ جُملَةِ الشَّرطِ ﴿إِن شَآءَ﴾:

الأمرُ إلَى مالِكِه سبحانه يوقِعُهُ حَسَبَ مَشيئتِه

قوله: ﴿إِن شَآءَ﴾ احْتِراسٌ راجِعٌ إلَى حَمْلِ العَذابِ، على عَذابِ الدُّنْيا، والمَعنَى: يَأتيكُم بهِ اللّه الَّذي لَهُ الإحاطَةُ الشّامِلَةُ، بكُلِّ شَيءٍ، وهَذا أدَبٌ عالٍ مِنهُ عليه السلام في إسنادِ الأمرِ إلَى القادرِ عَلَيهِ، فهو يَبرَأُ مِن الحَولِ والقوَّةِ، ويَردُّ ذَلِكَ إلَى مَن لَهُ الحَولُ والقوَّةُ، فرَدَّ إلَيه الأمرَ مُحتَرِسًا، فقالَ: ﴿إِن شَآءَ﴾، والمُرادُ: أنَّه مُخَيَّرٌ في إيقاعِهِ أو عَدَمِهِ، والتَّعْليقُ بـ ﴿إِن شَآءَ﴾ مَنْظورٌ فيهِ، إلَى كَوْنِ العَذابِ مُعَجَّلًا أو مُؤَخَّرًا"[2].

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 12/45.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 5/278، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/60، بتصرّف.

دلالَةُ الواوِ في قَولِهِ: ﴿وَمَآ أَنتُم﴾:

بيان رَدِّ نوح عليه السلام مُبيِّنًا لَهُم حالَهُم مِن عَذابِ الله تعالى

في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنتُم﴾، الواو هُنا: حاليَّة؛ لِبَيانِ حالتِهم مِن العَجزِ والخَطَأ في كَونِهِم مُعَرَّضينَ للهلاكِ؛ فإنَّهُم لا يُعجِزونَهُ ﷻ لا فوتًا ولا هَرَبًا.

الغرض من التَّعبير بالجملة الاسميَّة في قوله: ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ﴾:

البَشرُ عاجِزونَ، لا يملِكونَ مِن أمرِهِم شَيئًا، ولا يعجزون الله شيئًا

جاءَ التَّعبيرُ بالجملة الاسمية المنفية ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ﴾: لبيان عجزِهم الكاملِ عَن النَّجاةِ مِن العَذابِ إن حَلَّ بهِم، والتَّعبيرُ بالجُملَةِ الاسميَّةِ دَليلٌ على ثبوت العجز لهم واستمراره منهم حَتَّى وإن وُصفوا في بَعضِ الأحوالِ بالقوَّةِ، إلّا أنَّهَم أمامَ مَقدورِ اللّه لَيسوا بناجينَ، ولا مُفلِتينَ مِن عِقابِهِ في أيِّ وقتٍ مِن أوقاتِ حَياتِهِم، أو بَعدَ حَياتِهِم، وأنَّ العذابَ الَّذي استعجَلوه واقِعٌ لا مَحالَةَ، والمعنى: ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ﴾ بمُصَيِّريهِ ﷻ عاجِزًا بدَفعِ العَذابِ أو الهَربِ منه، والباءُ زائِدَةٌ للتَّأكيدِ، والجُملَةُ الاسميَّةُ لِلاستمرارِ، والمُرادُ: استمرارُ النَّفي وتأكيدُه لا نَفي الاستمرارِ"[1].

دلالَةُ الخطاب بالضَّمير ﴿أَنتُم﴾:

بيان التَّحدّي بالعَذابِ، والتَّأكيد بأنَّه لا هَربَ ولا إفلاتَ

جاءَ التَّعبيرُ هُنا بقولِهِ: ﴿أَنتُم﴾، والعادة أنَّ التَّعبير بالضَّمير هَذا، إمّا أن يُخاطَبَ بهِ معيَّنٌ، أو يخاطَبَ بهِ مَن يصلحُ لَهُ الخِطابُ على سبيلِ البَدَلِ والتَّناوُبِ، وهُنا الخِطابُ لمعيَّنينَ مُشاهَدينَ يُحاوِرونَه، ويُحاوِرُهُم، وقَد ينسحِبُ الحُكْمُ على غَيرِهِم، ممَّن يَنْهَجُ نَهجَهُم، ويَسيرُ على مِنوالهم، إلّا أنَّه عليه السلام يقولُ: ﴿أَنتُم﴾ لا غَيرُكُم؛ لِكَونِهِم المخصوصينَ بهَذا الوعَيدِ دونَ سِواهُم، فلا هَرَبَ يَقَعُ مِنهُم ولا إفلاتَ، والمَقامُ هُنا مقامُ خطابٍ لهُم، فخاطَبَهُم خطابَ الحاضِرِ المشاهَدِ المعيَّنِ المعاينِ.

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 12/45.

دلالة الباءِ ﴿بِمُعۡجِزِينَ﴾ في خَبَر ﴿وَمَآ﴾:

جاءَ قولُهُ تعالى: ﴿بِمُعۡجِزِينَ﴾ مقترِنًا بالباءِ الَّتي جاءَت لتَأكيدِ وصفِهِم بالعَجز، وكانَ في غيرِ هذا التَّعبيرِ أنْ يقولَ: (وما أنتُم مُعجِزينَ) إلّا أنَّ المَقامَ لمّا كانَ مَقامَ تحدٍّ وإظهارِ المُعاندة مِنهُم؛ أكَّدَ الاسمَ بالباءِ الَّتي دَلَّتْ - أيضًا - على أنَّ وصفهُم بالعَجزِ صارَ مُلاصِقًا لَهُم لا ينفكُّ عنهُم أبدًا.

ورود السّياق بإبراز عَجزهم الدّائِم المُلاصِق لَهُم

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(يَأْتيكُم) و(يَجيئُكُم):

﴿يَأۡتِيكُمۡ﴾: الإتيان بالشَّيء: الإتيان: مجيء بسهولة، والإتيان يقال للمجيء بالذّات وبالأمر وبالتَّدبير، ويقال في الخير وفي الشَّرِّ وفي الأعيان والأعراض"[1].

هنالك أفعالٌ مستعمَلَةٌ في مواطِنِها، لا يُعبِّر عَنها غَيرُها

(يجيئكم): المجيء: "المجيء كالإتيان، لكن المجيء أعمُّ؛ لأنَّ الإتيان مجيء بسهولة، والإتيان قد يقال باعتبار القصد، وإن لم يكن منه الحصول، والمجيء يقال اعتبارًا بالحصول، ولما يكون مجيئه بذاته وبأمره، ولمن قصد مكانًا أو عملًا أو زمانًا"[2].

قال أبو هلال العسكريُّ: "الفرق بَين قَوْلك: أتَى فلان، وجاء فلان: أنَّ قَوْلك: جاءَ، كَلام تامٌّ لا يحْتاج إلَى صلَة، وقولك: أتَى فلان، يَقْتَضي مجيئه بشَيْء، ولِهَذا يُقال: جاءَ فلانٌ نَفسه، ولا يقال: أتَى فلانٌ نَفسه، ثمَّ كثر ذَلِك حَتَّى استُعمِل أحد اللَّفْظَيْنِ، في مَوضِع الآخر"[3].

(شاءَ) و(أرادَ):

قال أبو هلالٍ العَسكَريُّ: "الفرق بَين الإرادَة والمشيئة: أنَّ الإرادَة تكون لما يتراخى وقته، ولما لا يتراخى، والمشيئة لِما لَم يَتراخَ، والشّاهِد

الإرادَة تكون لما يتراخى وقته، ولما لا يتراخى، والمشيئة لِما لَم يَتراخَ فقط

(1) الرّاغب، المفردات: (أتى).
(2) الرّاغب، المفردات: (جاء).
(3) العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 330.

أنَّك تَقول: فعلتُ كَذا شاءَ أو أبى، فيقابل بها إيّاه، وذَلِكَ يكون عِنْد محاولة الفِعْل، وكَذَلِكَ مَشيئَةٌ إنَّما تكون بَدَلًا من ذَلِك في حاله"[1].

وقال الرّاغب: "والمَشيئَةُ عند أكثر المتكلِّمين كالإرادة سواء، وعند بعضهم: المشيئة في الأصل: إيجاد الشيء وإصابته، وإن كان قد يستعمل في التُّعارف موضع الإرادة، فالمشيئةُ من اللّه تعالى: هي الإيجادُ، ومن النّاس هي الإصابَةُ، قال: والمشيئةُ من اللّه تقتضي وجودَ الشَّيء، ولِذلكَ قيلَ: (ما شاءَ اللّه كان، وما لم يَشَأْ لم يكن)، والإرادة منه لا تقتضي وجود المراد لا محالة"[2].

(1) العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 128، 129.

(2) الرّاغب، المفردات: (شيء).

﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِيٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْۚ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ٣٤﴾ [هود: 34]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا طال الحوار جدًّا بين نوح عليه السلام وقومه بلا جدوى ولا بارقة أمل فيها، وما أكثر ما رَدَّ عليهم نوحٌ عليه السلام فيما أوردوه من شُبَهٍ وآراء فاسدة! جاءَ قولُه: ﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِيٓ﴾ ختامًا للكَلامِ معهُم بَعدَ كلِّ ما أثاروا مِن شُبَهٍ وافتراءاتٍ، وأجابَهُم عَلَيها الواحدةَ تِلو الأخرى، جاءَ هُنا بخاتِمَةٍ قاطِعَةٍ بقولِهِ: ﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِيٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ﴾ قال ذلك لَمّا لَم يتحقَّق له ما أرادَ مِن نُصحِهِم الَّذي طال أمده كثيرًا، ثُمَّ دَعوتِهِم، وإقامَةِ الحُجَّةِ عليهِم، حيث إنَّه يئس مِن حالِهِم، فقالَ قولتَه تلكَ.

ختم ما مضى من قصَّة نوح عليه السلام مَعَ قومِه بما مفاده (اللَّهُم هَل بلَّغتُ)

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَنفَعُكُمْ﴾: "النَّفْعُ: ما يُسْتَعانُ به في الوُصولِ إلى الخَيْراتِ، وما يُتَوَصَّلُ به إلى الخَيْرِ، فهو خَيْرٌ، فالنَّفْعُ خَيْرٌ، وضِدُّهُ الضُّرُّ"(1). والمراد هنا النَّفع ضدُّ الضرِّ.

2) ﴿نُصْحِيٓ﴾: النّونُ والصّادُ والحاءُ أصْلٌ يَدُلُّ على مُلاءَمَةٍ بَيْنَ شَيْئَيْنِ وإصْلاحٍ لَهُما.. ومِنْهُ النُّصْحُ والنَّصيحَةُ: خِلافُ الغِشِّ، ونَصَحْتُهُ أنْصَحُهُ، وهوَ ناصِحُ الجَيْبِ لِمَثَلٍ، إذا وُصِفَ بخُلوصِ العَمَلِ، والتَّوْبَةُ النصوحُ مِنْهُ، كَأنَّها صَحيحَةٌ لَيْسَ فيها خَرْقٌ ولا ثُلْمَةٌ"(2). والنُّصح: قول أو عمل يريد صاحبه صلاح المعمول لأجله، وأكثر ما يطلق على الأقوال النافعة المنقذة من الأضرار، ويكون أيضًا بالعمل، كقوله تعالى: ﴿إِذَا نَصَحُواْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦۚ﴾ في سورة التوبة [91](3).

(1) الرّاغب، المفردات: (نفع).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نصح).
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/61.

3) ﴿يُغْوِيَكُمْۚ﴾: الغَيُّ: جهل من اعتقاد فاسد، وذلك أنَّ الجهل قد يكون من كون الإنسان غير معتقدٍ اعتقادًا، لا صالحًا، ولا فاسدًا، وقد يكون من اعتقاد شيء فاسد، وهذا النَّحو الثاني، يقال له: غَيٌّ"[1]. والمراد: أن يضلَّكم[2].

❁ المَعْنى الإجْمالِيُّ:

موقفُ المفاصلةِ الأخيرُ بينَ سيِّدنا نوحٍ وقومِهِ الرّافضينَ دَعوتَه وهديه

لمّا فرَغَ نوحٌ عليه السلام مِن إجاباتِهِ المتعدِّدةِ رَدًّا على ما أثاروه من شُبهات، وقابَلَ منهم عدمَ الإذعانِ لدعوتِهِ؛ عَلِمَ أن لا نفعَ يُرجَى مِن نُصحِهِ إيّاهُم، وأنَّه ما تَوانَى، ولا قَصَّرَ في دعوتِهِم، ولا في نَصيحَتِهِم، وأنَّهم لا زالوا في غوايتِهِم وكِبرِهِم، أضَلَّهم اللّه تعالى عن طَريقِ الحَقِّ والخيرِ، لما كان منهم مِن عِنادِهِم وصَلَفِهِم وغُرورِهِم، فأعلَمَهُم عليه السلام أنَّ مصيرَهم راجعٌ إليه ﷻ، وسيجازيهم الجزاءَ الَّذي يستحقونه.

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالَةُ العطفِ في ﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ﴾:

خِتامُ الحوارِ مع القومِ، ببيانِ عدمِ نفعِ النُّصحِ لهُم

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ﴾" عَطْفٌ على وعْظِهِمْ بحُلولِ العَذابِ وتَوَقُّعِهِ بَيانَ حالِ مُجادَلَتِهِ إيّاهُمُ الَّتي امْتَعَضوا مِنْها بأنَّها مُجادَلَةٌ لِنَفْعِهِمْ وصَلاحِهِمْ، وفي ذَلِكَ تَعْريضٌ بتَحْميقِهِمْ وتَسْفيهِ آرائِهِمْ حَيْثُ كَرِهوا ما هوَ نَفْعٌ لَهُمْ"[3].

دلالَةُ التَّعبيرِ بالفعلِ المُضارِعِ ﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ﴾:

إلحاحٌ في الدَّعوةِ مع طول الزَّمان، ومع ذلك فلا جَدوى ولا إيمان

ورد التَّعبيرُ بالفعل المضارِعِ ﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ﴾ المنفي دِلالَةً على تَجَدُّدِ عدم النَّفعِ وحدوثِهِ واستمرارِه طالَما أنَّه لَم يَجدْ آذانًا صاغيةً أو قُلوبًا متقَبِّلةً للنُّصحِ مَعَ استحضارِ صورةِ هذا النُّصحِ الَّذي تَكرَّر مرارًا وتكرارًا.

(1) الرّاغب، المفردات: (نغوى).
(2) الرّاغب، المفردات: 3/167.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/61.

نُكتَةُ تَقديمِ المفعولِ به (كُم) على الفاعِلِ ﴿نُصۡحِيٓ﴾:

مَن يُخصُّ بالحديثِ؛ يُقصَدُ بالنَّظرِ، فيصيرُ مُقدَّمًا

في قولِهِ تعالى: ﴿وَلَا يَنفَعُكُمۡ﴾ قُدِّمَ المفعولُ بهِ على فاعِلِه ﴿نُصۡحِيٓ﴾ لِلاختصاصِ، لِكَونِهِم المَخصوصينَ بالنَّفعِ لا غَيرِهِم، ولِقَصدِ حُصولِ التَّبكيتِ والتَّعجيبِ مِن حالِهِم.

سِرُّ إضافةِ الفِعلِ إلى ياءِ المُتكَلِّم ﴿نُصۡحِيٓ﴾ ودلالته:

شَرفُ المضافِ، مَن شَرَفِ المضافِ إلَيه

أضاف نوحٌ عليه السلام النُّصحَ إلَى نَفسِهِ تَشريفًا وتَعظيمًا لِأمرِ هَذا النُّصحِ لِكَونِهِ نُصحًا خالِصًا مِن مُخلِصٍ، "والنُّصحُ: قَوْلٌ أو عَمَلٌ يُريدُ صاحِبُهُ صَلاحَ المَعمولِ لِأجْلِهِ، وأكْثَرُ ما يُطْلَقُ على الأقْوالِ النّافِعَةِ المُنْقِذَةِ مِنَ الأضْرارِ، ويَكونُ بالعَمَلِ، والمُرادُ بالنُّصحِ هُنا هوَ ما سَمّاهُ قَوْمُهُ بالجِدالِ، أيْ: هوَ أوْلَى بأنْ يُسَمَّى نُصْحًا؛ لِأنَّ الجِدالَ يَكونُ لِلْخَيْرِ والشَّرِّ، كَما تَقَدَّمَ"[1].

الغَرضُ من الاعتراضِ بأسلوبِ الشَّرطِ في السّياق:

النُّصح دليل الاهتمام، وهو لبُّ الدّين، وأسُّ إصلاح الأنام

قوله تعالى: ﴿إِنۡ أَرَدتُّ أَنۡ أَنصَحَ لَكُمۡ﴾، هوَ شَرْطٌ مُعْتَرِضٌ بَيْنَ الشَّرْطِ وبَيْنَ دَليلِ جَوابِهِ؛ لِأنَّهُ لَيْسَ هوَ المَقْصودُ مِنَ التَّعْليقِ ولَكِنَّهُ تَعْليقٌ على تَعْليقٍ، وغَيْرُ مَقْصودٍ بِهِ التَّقْييدُ أصْلًا، فلَيْسَ هَذا مِنَ الشَّرْطِ في الشُّروطِ المَفْروضَةِ في مَسائِلِ الفِقْهِ وأُصولِهِ في نَحْوِ قَوْلِ القائِلِ: إنْ أكَلْتِ، إنْ شَرِبْتِ؛ فأنْتِ طالِقٌ؛ لِأنَّها مَفْروضَةٌ في شَرْطٍ مُقَيِّدٍ لِشَرْطٍ آخَرَ، على أنَّ المَقْصودَ إذا اجْتَمَعَ فِعْلا الشَّرْطَيْنِ؛ حَصَلَ مَضْمونُ جَوابِهِما"[2]، وتقييد عدم نفع النُّصح بإرادته مع أنَّه لا محالة؛ للإيذان بأن ذلك النصح مقارن للإرادة والاهتمام به.

نُكتَةُ حَذفِ جَوابِ الشَّرطِ في الجملة الشَّرطيَّة:

الإيجازُ في موطِنِهِ، يدُلُّ على المُرادِ باختصارٍ

في قوله تعالى: ﴿إِنۡ أَرَدتُّ أَنۡ أَنصَحَ لَكُمۡ﴾ شرطٌ حُذف جوابه لدلالة ما سبق عليه، وليس جوابًا لامتناع تقدُّم الجواب على الشرط

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/61.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/61.

على الراجح، والتقدير: "إنْ أرَدْتُ أنْ أنْصَحَ لَكُمْ لا يَنفعُكُمْ نُصْحي، وهذه الجملة دليل على ما حذف من جواب قوله: ﴿إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْۚ﴾[1]. وفي حذف الجواب دلالة على عدم جدوى نصحهم ولا انتفاعهم به.

دِلالَةُ التَّعبيرِ بـ ﴿إِنْ﴾، المستعملةِ فيما يَقِلُّ وُقوعُهُ:

كَـثْرَةُ الجِـدالِ، تَصرِفُ الإنسانَ إلَى قِلَّةِ نُصحِهِ لِلمُجادِلِ

ورَدَ التَّعبيرُ على لِسانِهِ عليه السلام بـ ﴿إِنْ﴾ الدالَّةِ على الشَّكِ، وعَلَى قِلَّةِ وُقوعِ الشَّيءِ المَقطوعِ بصِحَّةِ وُقوعِهِ، كَما تُستَعمَلُ إنْ في مَقامِ التَّوبيخِ إنكارًا لِحُدوثِ الفعلِ مِن فاعِلِه، لِذا عَدَلَ نوحٌ عليه السلام إلَى ﴿إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ﴾ مُؤْذِنٌ بعَزْمِهِ على تَجْديدِ النُّصْحِ في المُسْتَقْبَلِ؛ لِأنَّ واجِبَهُ هوَ البَلاغُ وإنْ كَرِهوا ذَلِكَ"[2]. ومراده من فعل النُّصح هنا "الإعلام بموضع الغيِّ ليُتَّقى، والرشد ليُتَّبع"[3].

الغرض من التَّعبير بأسلوب الشَّرط في سياق الآية الكريمة:

ارتِباطُ الكلامِ، يجعلُ بعضَه آخِـذًا بِحُجزِ بعضِه الآخرِ

الغرض من تعبيره عليه السلام في قوله: ﴿إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْۚ﴾، بأسلوب الشرط زيادة تأكيد منه عليه السلام لعموم قدرة الله وإرادته، والمعنى: إنْ كانَ الله يُريدُ أنْ يُغْوِيَكُمْ، فإنْ أرَدْتُ أنْ أنْصَحَ لَكُمْ؛ لا يَنْفعُكُمْ نُصْحي، وذلك أنَّ القاعدة - كما يقول النُّحاة - إذا اجتمع في الكلام شرطان وجواب؛ يُجعل الجواب للثاني والشرط الثاني وجوابه جواب عن الأول.

"وجُمْلَةُ الشَّرْطِ في قَوْلِهِ: ﴿إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْۚ﴾ هيَ المَقْصودُ مِنَ الكَلامِ، فجَوابُها في مَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِيٓ﴾، ولَكِنَّ نَظْمَ الكَلامِ بُنِيَ على الإخْبارِ بعَدَمِ نَفْعِ النُّصْحِ اهْتِمامًا بذَلِكَ، فجُعِلَ مَعْطوفًا على ما قَبْلَهُ، وأُتيَ بالشَّرْطِ قَيْدًا لَهُ"، "وأشارَ بقَوْلِهِ: ﴿إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْۚ﴾ إلَى ما هُمْ فيهِ مِنْ كَراهيَةِ دَعْوَةِ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/204، والآلوسيّ، روح المعاني: 12/46.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتّنوير: 12/62.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر في تناسب الآيات والسّور: 5/279.

نوح ﷺ سَبَبُهُ خِذْلانُ الله إيّاهُمْ، ولَوْلاهُ؛ لَنَفعَهُمْ نُصْحُهُ، ولَكِنَّ نوحًا ﷺ لا يَعْلَمُ مُرادَ الله مِنْ إغْوائِهِمْ ولا مَدَى اسْتِمْرارِ غَوايَتِهِمْ، فلِذَلِكَ كانَ عليه أنْ يَنْصَحَ لَهُمْ إلَى نِهايَةِ الأمْرِ"[1].

سِرُّ التَّعبيرِ بِ فعل الكينونة ﴿كَانَ﴾:

لا يقعُ في مُلكِ اللهِ شَيءٌ، كبر أو صغر على خِلافِ ما نهى وما أمر

جاءَ التَّعبيرُ هُنا بزيادَةِ الفعلِ ﴿كَانَ﴾ لِلإشعارِ بتَقَدُّمِ إرادَتِه تعالى زَمانًا كَتقدُّمِها رُتبةً ولِلدِّلالَةِ على تَجَدُّدِها واستِمرارِها، وإنَّما قُدِّمَ على هَذا الكَلامِ ما يَتَعَلَّقُ بقولِهِم: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾ منَ قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ﴾؛ رَدًّا عَلَيهم مِن أوَّلِ الأمرِ وتَسجيلًا عَلَيهم بحُلولِ العَذابِ مَعَ ما فيهِ مِن اتِّصالِ الجَوابِ بالسُّؤالِ، وفيهِ دَليلٌ على أنَّ إرادَتَه تعالى يَصِحُّ تعلُّقُها بالإغواءِ، وأنَّ خِلافَ مُرادِه غيرُ واقِعٍ"[2].

الغَرضُ مِن التَّعبيرِ باسمِ الجَلالَةِ ﴿ٱللَّهُ﴾:

ورود اسم اللهِ تعالى، يكون لِتَربيةِ المَهابَةِ في النُّفوسِ عادة

وردَ التَّعبيرُ باسم الله الأعظَم سبحانَهُ، والمُرادُ مَن بيَدِهِ مقاليدُ الأُمورِ كلِّها، فإذا أرادَ إضلالَكُم لِكَونِ هَذا ما جُبِلَتْ عَلَيهِ نفوسُكم، ويُركِبُكم طَريقًا غَيرَ طَريقِ الصَّوابِ، فإنَّ إرادَتَه ﷻ تَغلِبُ إرادتي وتتعَدّاها، وهُنا لا ينفعُكُم أيُّ شَيءٍ، فلا تستطيعونَ دَفْعَ الضُّرِّ عنكُم، ولا تَرُدّونَ عَذابَهُ، فاحذَروا غَضَبَهُ.

دِلالَةُ التَّعبيرِ بالفعلِ المُضارِعِ ﴿يُغْوِيَكُمْ﴾:

الغَوايةُ متجدِّدةٌ، ومَن كتب الله عليه الغوايةَ؛ خسر الدُّنيا والآخرة

وردَ التَّعبيرُ بالفِعلِ المُضارعِ ﴿يُغْوِيَكُمْ﴾ المنصوبِ دِلالَةً على ما هم فيه من غواية متجددة، تُرجمت في كراهيتهم نوحًا ﷺ، وعدم الانصياع لدعوته إيّاهم إلى التَّوحيد.

مَوقِعُ جُملَةِ ﴿هُوَ رَبُّكُمْ﴾، مِمّا قبلها ودِلالَتُه:

وقعت جملةُ ﴿هُوَ رَبُّكُمْ﴾ "ابتدائيَّةً لِتَعْليمِهِمْ أنَّ الله رَبُّهُمْ إنْ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/62.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/205، والآلوسيّ، روح المعاني: 12/47.

تـذكـيرٌ بـالـلـهِ رَبِّـهِـم، لَعلَّهُم يَرجِعونَ

كانوا لا يُؤْمِنونَ بوُجودِ اللّه، أو لِتَذْكيرِهِمْ بذَلِكَ إنْ كانوا يُؤْمِنونَ بوُجودِهِ، ويُشْرِكونَ مَعَهُ ودًّا، وسواعًا، ويَغوثَ، ويَعوقَ، ونَسْرًا"[1]، فالرُّبوبيَّة معنًى تأسيسيٌّ، يجب اصطحابه دائمًا.

دِلالةُ التَّعبيرِ بالجُملَةِ الاسميَّةِ ﴿هُوَ رَبُّكُمْ﴾:

الامـتـنـانُ على البَشَريَّةِ بعَطايا الرُّبوبيَّةِ، يُلقي في النَّفسِ وازِعَ الإيمانِ

دلَّ تَعبيرُه ﷻ بقوله: ﴿هُوَ رَبُّكُمْ﴾ جُملَةً اسميَّةً وقعت بَينَ طَرَفينِ: طَرَفٍ يَخُصُّ الدُّنيا وافتراءاتِها، وطَرَفٍ يُعيدُ النَّفسَ إلَى عالَمِها الأخرَوي، لِتنزَجِرَ، وتتَّعِظَ إن كانَ لَدَيها الاستعدادُ الكامِلُ لِذَلكَ، وفي ورود قَوله تعالى: ﴿هُوَ رَبُّكُمْ﴾ كذلك جُملةً اسميَّةً مُعرَّفةَ الطَّرَفينِ تَأكيدٌ وبَيان لِلنُّفوسِ بأنَّ خالِقَها ومُدَبِّرَ أمرِها ومَن أوجَدَها، ومَنَحَها؛ هوَ الرَّبُّ الَّذي يَجِبُ الإيمانُ بهِ والإذعانُ لِجَنابِهِ.

سِرُّ اصطِفاءِ المُسنَد ﴿رَبُّكُمْ﴾، وإضافته إلى ضميرهم:

وصـفُ الـرَّبِّ ﷻ، إلـزامٌ لهم بالإقرار بالنِّعَمِ

سَبَقَ في العُنوانِ المُتَقَدِّم مَعنَى الرَّبِ، ومَجيءُ المسندِ هُنا، وهوَ الخَبَرُ ﴿رَبُّكُمْ﴾ مُضافًا إلَيهم تَشريفًا لَهُم وتنبيهًا على ضَرورَةِ النَّظَرِ إلَى نِعَمِ اللّه عَلَيهِم، وتَعريفُهُ بالضَّميرِ هوَ وإنْ كانَ ضَميرَ غَيبَةٍ إلّا أنَّه حاضِرٌ في النُّفوسِ والقُلوبِ لا يَغيبُ فيُستَدرَكَ، ولا يبعدُ فيُنتظرَ، وعبَّر به هنا تنبيهًا وتذكيرًا بعطاءاتِ اللّه الَّتي لا تنقطع، للدِّلالَةِ على أنَّه حقيقٌ أن يُعبد.

دِلالَةُ العطفِ في ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾:

ضـرورةُ المرجِعِ إلَيهِ ﷻ والمآل في كـلِّ وضـعٍ وحال

جاءَ قَولُهُ تعالى: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ تَذييلًا وخِتامًا لِحواراتِه ﷺ مَعَ قَومِهِ، وهوَ يتضمَّنُ إخبارًا في ضِمنِهِ وعيدٌ وتَخويفٌ لَهُم، والمُرادُ: بَعدَ ما فعَلْتُم، وغَوَيتُم، وانقَلَبتُم على أعقابِكُم في دُنياكُم، اعلَموا أنَّ مَصيرَكُم ومَآلَكُم إلَى هَذا الَّذي لَم تُذعِنوا لَهُ بالإيمانِ، ولَم تلجؤوا إلَيه ليُخَلِّصَكُم مِمّا أنتُم فيهِ، وهوَ الَّذي سَيُجازيكُم على أعمالِكُم لا مَحالَةَ، فلَستُم بناجينَ ولا مُفلِتينَ مِن عَذابِهِ.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/63.

نُكتَةُ تَقديمِ الجارّ والمَجرورِ ﴿وَإِلَيۡهِ﴾ في السّياق:

اختِصاصُهُ سُبحانَهُ بكَونِ الرُّجوعِ إِلَيه وحدَه

وردَ التَّعبيرُ هنا بتقديمِ المسنَد الجارِّ والمجرورِ ﴿وَإِلَيۡهِ﴾ على مُتَعَلِّقِه، وهوَ ﴿تُرۡجَعُونَ﴾، للاهتمام ولِرعايَةِ الفاصِلَة، ولَيْسَ لِلْقَصْرِ؛ لِأَنَّهُمْ لا يُؤْمِنونَ بالبَعْثِ أصْلًا، بَلْهَ أنْ يَزْعُموا أنَّهُمْ يَحْضُرونَ إلَى اللّه وإلَى غَيْرِه"[1].ولا مانِعَ مِن كَونِ المراد تأكيدَ الرُّجوعِ إلَيهِ سُبحانَه لا إلَى غَيرِه: ﴿وَإِلَيۡهِ﴾، أي: لا إلى غيره ﴿تُرۡجَعُونَ﴾، أي: بأيسرِ أمرٍ وأهوَنِه بالمَوتِ، ثُمَّ البَعثِ، فيُجازيكُم على أعمالِكُم، كَما هيَ عادَةُ المُلوكِ مَعَ عُمّالِهم"[2].

دلالَةُ التَّعبيرِ بالفعلِ المُضارِعِ ﴿تُرۡجَعُونَ﴾، مبنيًّا للمفعول:

الفرق بين (رجَعُوا) و(سيرجِعون)

جاءَ التَّعبير القرآنيُّ هُنا بالفعلِ المضارعِ ﴿تُرۡجَعُونَ﴾ مبنيًّا للمفعول، دلالة على أنَّ رجوعه إلى اللّه تعالى هو أمر واقع عليهم، وليس اختيارًا منهم، فبقدرته سبحانه يبعثهم من موتهم.

وهو هنا كِنايَةٌ دَقيقَةٌ عن أنَّهُم لا يستطيعونَ نَجاةً ولا هَربًا ولا إفلاتًا من عقابِهِ معَ ما في عبارَةِ الرُّجوعِ من تخويفٍ وزجرٍ تهتزُّ من أراجيفِ حوادِثِهِ النُّفوسُ المؤمنةُ الموقنةُ بأمرِ اللّه.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الغَيُّ والضلال:

أكثر استعمال الغيِّ في الدّين خاصَّة، والضَّلال استعماله أعمُّ

(الغيُّ): "أصل الغيِّ: الفسادُ، ومِنْه يُقال: غوي الفصيل؛ إذا بشم من كَثْرَة شرب اللَّبن، وإذا لم يُروَ من لبن أمِّه؛ فماتَ هزلًا، فالكلمة من الأضداد، وأصلُ (الضَّلال) الهَلاكُ، ومِنْه قَوْلهم: ضَلَّت النّاقة؛ إذا هَلَكت بضياعِها، وفي القُرْآن ﴿أَءِذَا ضَلَلۡنَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [السجدة: 10] أي: هلكنا بتقطُّع أوصالنا، فالَّذي يوجِبهُ أصل الكَلِمَتَيْن أن يكون الضَّلالُ عَن الدّين أبلغَ من الغَي فيهِ، ويسْتَعْمل الضلال أيْضًا في

(1) ابن عاشور، التّحرير والتَّنوير: 12/63.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر في تناسب الآيات والسّور: 5/280.

الطَّريق، فيُقال: ضلَّ عَن الطَّريق إذا فارقه، ولا يستعمل الغي إلّا في الدّين خاصَّة رُبما اسْتُعْمل الغيُّ في الخيبة، يُقال: غوى الرجل؛ إذا خابَ في مطلبه"[1]. ويأتي (الضَّلال) بمَعْنى الضّياع، يُقال: هوَ ضالٌّ في قومه، أي: ضائع، والضلال يتَصَرَّف في وُجوه، لا يتَصَرَّف الغي فيها.

(تُرْجَعونَ) و(تحشرون):

(الرّجوع): "هو المصير إلى الموضع الذي قد كان فيه قبلُ، هوَ الرُّجوع إلَى مُنْتَهى المَقْصد والرُّجوع يكون لذَلِك ولغيره، ألا ترى أنَّه يُقال: رَجَعَ إلَى بعض الطَّريق"[2].

في الحشر معنى زائد، هو الاجتماع، وأمّا الرُّجوع؛ فهو مطلق الإعادة

(الْحَشْر) هوَ الجمع مَعَ السَّوق، ومِنْه يَوْم الحَشْر؛ لِأنَّ الخلق يجمعونَ فيهِ، ويساقون إلى الموقف"[3].

قال الراغب: "الرُّجوعُ: العود إلى ما كان منه البدء، أو تقدير البدء مكانًا كان أو فعلًا، أو قولًا، وبذاته كان رجوعه، أو بجزء من أجزائه، أو بفعل من أفعاله. فالرُّجوعُ: العود، والرَّجْعُ: الإعادة، والرَّجْعَةُ والرِّجْعَةُ في الطَّلاق، وفي العود إلى الدُّنيا بعد الممات"[4]، و" الحَشْرُ: إخراج الجماعة عن مقرِّهم وإزعاجهم عنه إلى الحرب ونحوها، ويقال ذلك في الإنسان وفي غيره، يقال: حَشَرَتِ السنةُ مالَ بني فلان، أي: أزالته عنهم، ولا يقال الحشر إلّا في الجماعة"[5].

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 227، 226.
(2) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 324، 323.
(3) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 150.
(4) الرّاغب، المفردات: (رجع).
(5) الرّاغب، المفردات: (حشر).

﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ إِنِ ٱفۡتَرَيۡتُهُۥ فَعَلَيَّ إِجۡرَامِي وَأَنَا۠ بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُجۡرِمُونَ ٣٥﴾ [هود: 35]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

ربط غوايتهم واليأس من نصحهم، بالانتقال مِن شَبيهٍ إلى شَبيهِهِ، ومِن مُقارِنٍ إلى مُقارِنٍ

بعدَ أنْ أنهَى اللّه تعالى الكَلامَ عَن قِصَّةِ نوحٍ وما جَرَى بَينَهُ وبَينَ مُكَذِّبي قَومِهِ لَهُ انتقَلَت السّورَةُ انتِقالًا آخَرَ سَريعًا إلَى الحَديثِ عَن مُشركي مَكَّة مَعَ رَسولِ اللّه ﷺ حينَ زَعَموا في قَولِهِم: ﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ فَأۡتُواْ بِعَشۡرِ سُوَرٖ مِّثۡلِهِۦ مُفۡتَرَيَٰتٖ﴾ [هود: 13]، وأنكروا كَونَ هَذا القرآنِ المنزَّل مِن عِندِ اللّه، وكانَ موقِفُهُم شَبيهًا بمَوقِفِ قَومِ نوحٍ عليه السلام فجاءَت الآيَةُ رَدًّا عَلَيهِم بقوله: ﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ إِنِ ٱفۡتَرَيۡتُهُۥ فَعَلَيَّ إِجۡرَامِي﴾.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱفۡتَرَىٰهُۖ﴾: افترى: قطعٌ على الكَذِبِ وإخبارٌ به؛ لِأنَّ أصل افترى: قطع[1]، قال الرّاغِبُ: الفرْيُ: قطعُ الجِلدِ لِلخَرزِ والإصلاحِ، والإفْراءُ للإفساد، والافْتِراءُ فيهما، وفي الإفساد أكثر، وكذلك استعمل في القرآن في الكذب والشِّرك والظُّلم"[2]،وهم أرادوا به التَّكذيبَ والاختِلاقَ، فالافتِراءُ كَذِبٌ مُتعَمَّدٌ مَعَ عَدَمِ وجودِ أدنى شُبهَةٍ في الكَلامِ.

2) ﴿إِجۡرَامِي﴾: (جِرْمٌ) الجيمُ والرّاءُ والميمُ أصْلٌ واحِدٌ يَرْجِعُ إلَيْهِ الفُروعُ، فالجِرْمُ القَطْعُ"[3]. وهوَ هُنا مُستَعارٌ مِن القَطعِ إلَى الكَسبِ، فالجُرمُ اكتِسابُ الشَّيءِ القَبيحِ المستحقُّ فاعِلُه العِقابَ عَلَيهِ.

(1) العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 44 بتصرّف.
(2) الرّاغب، المفردات: (فرى).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (جرم).

المَعْنى الإجْمالِيُّ:

بيان أنَّ سوء عاقبة الافتراء والإجرام، تعود على صاحبها بالوبال وسوء الختام

جادَلَ قومُ نوحٍ كثيرًا، وفاضتْ رُدودُه عَلَيهم دونَ جَدوَى رُجوعٍ أو إذعانٍ منهُم لدَعواهُ، وبعدَ أن واجَهَهُم بالكَثيرِ مِن الحُجج والبَراهين، لعلَّهُ يَجِدُ منهُم الآذانَ الصاغيَةَ أو القُلوبَ الواعيَةَ لَم يزدهُم ذلكَ إلّا عِنادًا وصَلَفًا وغُرورًا، انتقَلَ الحديثُ مُباشَرَةً إلَى ما أثاره مشركو مَكَّة مَعَ رسول الله ﷺ في أنَّه قَد اختلَقَ القرآنَ، وافتَراهُ مِن عِنديّاتِ نفسِهِ ومِن بُنَيّاتِ أفكارِه، فجاء هَذا نَعيًا عَلَيهم بما رَمَوهُ بِهِ، إنْ كانَ أمرُه كذلكَ؛ فعلَيه عاقبةُ إجرامِهِ، وهُم بريئونَ منها تمامًا.

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

معنى ﴿أَمْ﴾ بين الإضراب والاستفهام ودلالتها:

الارتباط بين قصة نوح عليه السلام وبين موقف مشركي مكّة من القرآن

قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ﴾ أمْ: هُنا منقطعة بمعنى (بل) التي هي لِلْإضْرابِ، وهو الانتقالُ مِنْ غَرَضٍ إلى غَرَضٍ، "فالاسْتِفْهامُ الَّذي يُؤْذِنُ بِهِ حَرْفُ (أمْ) المُخْتَصُّ بعَطْفِ الاسْتِفْهامِ اسْتِفْهامٌ إنْكاريٌّ، ومَوْقِعُ الإنْكارِ بَديعٌ لِتَضَمُّنِهِ الحُجَّةَ عليهم"[1].

الآية الكريمة بين الاعتراض وعدمه:

تنوُّع الموقع، يثري المعنى، ويبين عن الدّلالة

هذه الجملة "جُمْلَةٌ مُعْتَرِضَةٌ بَيْنَ جُمْلَةِ أجْزاءِ القِصَّةِ، ولَيْسَتْ مِنَ القِصَّةِ، ومَنْ جَعَلَها مِنْها؛ فقدْ أبْعَدَ، وهيَ تَأْكيدٌ لِنَظيرِها السّابِقِ في أوَّلِ السّورَةِ، ومُناسَبَةُ هَذا الاعْتِراضِ أنَّ تَفاصيلَ القِصَّةِ الَّتي لا يَعْلَمُها المُخاطَبونَ تفاصيلُ عَجيبَةٌ تَدْعو المُنْكِرينَ إلَى أنْ يَتَذَكَّروا إنْكارَهُمْ، ويُعيدوا ذِكْرَهُ، وكَوْنُ ذَلِكَ مُطابِقًا لِما حَصَلَ في زَمَنِ نوحٍ عليه السلام وشاهِدةً بِهِ كُتُبُ بَني إسْرائيلَ يَدُلُّ على صِدْقِ النَّبي ﷺ لِأنَّ عِلْمَهُ بذَلِكَ مَعَ أُمّيَّتِهِ وبُعْدِ قَوْمِهِ عن أهْلِ الكِتابِ آيَةٌ على أنَّهُ وحْيٌ مِنَ اللّه لا يَأْتيهِ الباطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ، ولا مَنْ خَلْفِهِ"[2].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/64.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/63.

والمَعنَى: لَقَد سُقنا لَكَ - يا محمد ﷺ - مِن أخبارِ السابِقينَ ما هوَ الحَقُّ الَّذي لا يحومُ حَولَه باطِلٌ، ولَكِنَّ المُشركينَ مِن قَومِكَ لَم يَعتَبِروا بذَلِكَ، بَل يَقولونَ: إنَّكَ قَد افتَريتَ هذا القُرآنَ، قُلْ لَهُم: إن كُنتُ قَد افتريتُه - على سَبيلِ الفرضِ - فعَلَى وحدي تَقَعُ عُقوبَةُ إجرامي وافترائي الكَذِب، وأنا بَريءٌ مِن عُقوبَةِ إجرامِكُم وافترائِكُم الكَذِب.

وإمّا أن تكون غيرَ معترضة، وإنَّما هي من قصَّة نوحٍ ﷺ وعليه يكون المعنى: بل أيقول قوم نوحٍ: إنَّ نوحًا ﷺ قد افترى واختلق ما جاء به من عند نفسه، ثمَّ نسبه إلى اللّه تعالى؟ قل لهم: إن كنتُ قد افتريتُه؛ فعليَّ سوءُ عاقبة إجرامي وكذبي، وأنا بريء مما تقترفونه من منكرات، وما تكتسبونه من ذنوب"[1].

دِلالَةُ التَّعبيرِ بالفِعلِ المُضارِعِ ﴿يَقُولُونَ﴾:

وردَ التَّعبيرُ بالفِعلِ المُضارِعِ ﴿يَقُولُونَ﴾ لِلدِّلالَةِ على تَجَدُّدِ هَذا القَولِ وتكرُّرِه واستِمرارِهِ مِنهُم مَعَ استحضارِ هذه الصّورَةِ، وجَعْلِها ماثِلَةً في العُقولِ.

استحضار الصّورة، يبشّع الفعل، ويجلّي خطورته

دِلالَةُ التَّعبيرِ بجُملَةِ مَقولِ القَولِ بالفِعلِ الماضي ﴿ٱفۡتَرَىٰهُۖ﴾:

وردَ التَّعبيرُ في مَقولِ القَول: ﴿ٱفۡتَرَىٰهُۖ﴾ ماضيًا لتَحقُّقِ وُقوعِ هذا الافتراءِ وحُصولِهِ مِنهُ ﷺ وكَأنَّه اختَلَقَه، وادَّعاهُ لِبَيانِ صِدقِهِ، وعَلَى كُلِّ حالٍ إذا كانَ المَقصودُ نوحًا ﷺ فإنَّه اختَلَقَ هذه الأخبارَ، ومَوَّهها عَلينا، أو كانَ المقصودُ محمَّدًا ﷺ فإنَّه اختَلَقَ هَذا القُرآنَ مِن عِندِ نفسِه.

التَّعبيرُ بالتَّعريضِ إلَى نِسبَةِ الافتراءِ إلَيهِ

الغَرضُ مِن التَّعبيرِ بأُسلوبِ الأمرِ: ﴿قُلۡ﴾:

جاءَ التَّعبيرُ بفعلِ الأمرِ رَدًّا عَلَيهِم في تَكذيبِهِم ودَعواهُم

تَلقين الردّ من الله تعالى له ﷺ آية على ضرورة الردّ

(1) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 7/199، وأبو حيّان، البحر المحيط: 5/220، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/167.

الباطِلَةِ، ومَعلومٌ أنَّ الأمرَ هوَ طَلَبٌ على جِهَةِ الاستِعلاءِ، وآمِرُهُ بالردِّ هوَ اللّه تعالى، وقَد خَرَجَ الأمرُ إلَى الإرشادِ حَيثُ أرشدهُ تعالى إلَى الرَدَّ عَلَيهِم بمثلِ ما رَمَوْه بهِ، وجاءَت الجُملَةُ مَفصولَةً عَمّا سَبَقَ لِشبه كَمالِ الاتِّصالِ، والمُرادُ: فما كانَ رَدُّه عَلَيهِم؟ فقيلَ: ﴿قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ﴾ الآية، وهنا أُمرَ ﷺ أنْ يُعرِضَ عن مُجادَلَتِهِم بالدَّليلِ؛ لأنَّهم لَيسوا أهلًا لِذَلكَ حيثُ أُقيمَت عَلَيهِم الحُجَّةُ أكثرَ مِن مَرَّة، ولَم تُقَدِّمْ شَيئًا مَعَهُم.

الغَرَضُ مِن التَّعبيرِ بأُسلوبِ الشَّرط:

وردَ التَّعبيرُ بقوله: ﴿إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ﴾ وهي جُملَةٌ شَرطيَّةٌ مُقترِنةٌ بـ ﴿إِنِ﴾ الدالَّةِ على الشَّكِّ لِبَيانِ أنَّه على سَبيلِ الفرضِ مِنهُ، والمَعنَى: إنِ افْتَرَيْتُهُ كَما تَزعُمونَ، وهَذا أيضًا مِن بابِ المُشاكَلَةِ اللَّفظيةِ، فإنَّهُم لَمّا قالوا: ﴿ٱفْتَرَىٰهُ﴾؛ جاءَ رَدُّه مَن جِنسِ ما تَفوَّهوا بهِ؛ ليَكونَ أقطعَ للخَصمِ في دَحضِ الحُجَّةِ بالحُجَّةِ، وأنَّهُم ما قالوا ذَلِكَ إلّا عِنادًا، وهُم يَعلَمونَ خِلافَهُ بَعدَ ما قامَتْ عَلَيهِم الحُجَّةُ.

أدَبُ النُّبوَّةِ، أدَبٌ راقٍ، عَلَّمَهُم اللهُ إيّاه

دِلالَةُ التَّعبيرِ بجُملَةِ جَوابِ الشَّرطِ اسميَّة:

جاء التَّعبير بقوله: ﴿فَعَلَيَّ إِجْرَامِى﴾، جملة اسميَّة مكوَّنة من خبر مقدَّم، ومبتدأ مؤخَّر للدَّلالة على ثبوت الإجرام ودوامه، إن وقع منه هذا الافتراء، وفي الكلام حذفٌ، والمعنى: فعليَّ عقوبة إجرامي، فعُبِّر بالسبب وأراد المسبَّب، ومعلوم أنَّ التعبير بالجملة الاسمية يكون أقوى في الدلالة على المراد لثبوت دوامها.

دائمًا ما يتحمَّل الكريم تبعات غيره، مع نزاهته وبراءته

نُكتَةُ تَقديمِ الخَبرِ ﴿فَعَلَيَّ﴾، على المُبتَدَأ ﴿إِجْرَامِى﴾:

كانَ مِن أدَبِهِ ﷺ أن يَجعَلَ الجُرمَ خاصًّا بهِ لا يَتعَدّاه إلَى غَيرِه، ومِن هُنا وجدنا التَّعبيرَ بتقديمِ الجار والمجرورِ لِغَرضِ القَصرِ والتَّخصيصِ، والمُرادُ "تقديمُ ﴿فَعَلَيَّ﴾ مُؤْذِنٌ بالقَصرِ، أيْ: إجْرامي عَلَيَّ لا عَلَيْكُم، فلماذا تُكْثِرونَ ادِّعاءَ الافْتِراءِ،

الواثِقُ باللهِ تعالى؛ لا تَهُزُّه الأراجيفُ

كَأَنَّكُمْ سَتُؤَاخَذونَ بتَبِعَتِهِ، وهَذا جارٍ على طَريقَةِ الاسْتِدْراجِ لَهُمْ والكَلامِ المُنْصِفِ"[1].

دِلالَةُ حَرفِ الجَرِّ ﴿فَعَلَيَّ﴾ ومعناهُ:

الإجرام يستعلي على صاحبه، ويوبقه في المخازي والآثام

التَّعبيرُ بحرفِ الجَرِّ ﴿فَعَلَيَّ﴾ يفيد الاستعلاءَ، أي: عُلوَّ الشَّيء على شَيءٍ، "وذِكْرُ حَرْفِ ﴿فَعَلَيَّ﴾ مَعَ الإجْرامِ مُؤْذِنٌ بأنَّ الإجْرامَ مُؤاخَذٌ بهِ، كَما تَقْتَضيهِ مادَّةُ الإجْرامِ"، وهذا ردٌّ كريمٌ مِن نَبيٍّ كريمٍ، وإن كانَ أبعدَ النّاس أنْ يُلقى على نَفسِه تَبِعَةُ إجرامِهم وافتراءاتِهم.

سِرُّ إضافةِ المبتَدَأ إلى ياءِ المُتَكَلِّمِ في ﴿إِجْرَامِي﴾:

مُجاراةٌ ومُباراةٌ لِلتَّوَصُّلِ إلَى إبطالِ مزاعم الخصم

أضيف الاسم إلى الضَّمير العائد على نوح عليه السلام إعلانًا لتحمُّله وحده نتيجة إجرامه لو كان، وفيه تعريضٌ بإجرامهم هم وتحمُّلهم عقوبة ذلك. والمَعنَى: إنْ كُنتُ افتريتُه - كَما تَزعُمونَ - فهو جُرمٌ عَظيمٌ وقَعَ مِنّي، وعَلَيَّ وحدي إثمُه، حَيثُ كُنتُ السَّببَ المُحدِثَ لَه، "فهذا أُسلوبٌ جَدَليٌّ بَيانيٌّ فيهِ مُجاراةٌ مؤقَّتةٌ لِلخَصمِ لِلتَّوَصُّلِ إلَى إبطالِ دَعواهُ"[2].

لطيفةُ المُغايرَةِ بيَن الشَّرطِ وجَزائِهِ، والفرق بين الإجرام والافتراء:

الافتراء أشدُّ الإجرام، والإجرام منبوذٌ في الدِّين والقانون

(قُل: إنِ افتَريتُه؛ فعَلَيَّ افترائي): "لَمّا كانَ الافْتِراءُ على اللّه إجْرامًا؛ عَدَلَ في الجَوابِ عَنِ التَّعْبيرِ بالافْتِراءِ مَعَ أنَّهُ المُدَّعي إلَى التَّعْبيرِ بالإجْرامِ، بحيث لا تبدو حاجةً إلَى تَقْديرِ: فعَلَيَّ إجْرامُ افْتِرائي"[3]، وفي المغايرة تأكيد أنَّ الافتراء إجرامٌ.

دِلالَةُ التَّعبيرِ بجُملَةِ التَّذييلِ اسميَّةً:

براءة الأنبياء من الإجرام ثابتة، وإجرام الكافرين متجدِّد

هذه الجملة "تَذْييلٌ لِلْكَلامِ وتَأْييدُهُ بمُقابِلِهِ، أيْ: فإجْرامي عَلَيَّ لا عَلَيْكُمْ، كَما أنَّ إجْرامَكُمْ لا تَنالُني مِنْهُ تَبِعَةٌ"، وفي هَذا التَّذييلِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/64.
(2) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام في القرآن الحكيم: 2/107.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/64.

تَعريضٌ بكَونِهم المجرمين لا هوَ ﷺ ولا حاجَةَ إلَى تَقْديرِ المُضافِ في قَوْلِهِ: مِمّا تُجْرِمونَ، أيْ: تَبِعَتِه، وإنَّما هوَ تَقْديرُ مَعْنًى، لا تقديرُ إعْرابٍ، والشَّيْءُ يُؤَكَّدُ بضِدِّه"[1]. وقد عَبَّرَ النَّظم الكريم في جانب نوح ﷺ بالجُملَةِ الاسميَّةِ لِلدَّلالَةِ على الثُّبوتِ والدَّوام، وعَنهُم بالجُملَةِ الفعليَّةِ الدالَّةِ على التَجَدُّدِ والحُدوثِ مِمّا يَدُلُّ على أنَّ جُرمَهُم واقِعٌ مِنهُم، ومُتَجَدِّدٌ لا ينقطِعُ، ففي كُلِّ وقتٍ يَقَعُ مِنهُم جُرمٌ.

الأنبياءُ معصومونَ، ولا يمكن لهم أن يفتروا على الله الكذب

بلاغة الاحتباك في سياق الآية الكريمة:

في قوله تعالى: ﴿فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا۠ بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ﴾ إيجاز بالحذف، وهو النَّوع المعروف بـ (الاحتباك)، والإيجاز في الكلام يفيد فائدة، إذ لو ذكر المحذوف؛ لكان حشوًا لا طائل تحته، وفي هذهِ الجُمْلَةِ تَوْجيهٌ بَديعٌ، وهوَ إفادَةُ تَبْرِئَةِ نَفْسِهِ مِنْ أنْ يَفْتَرِيَ القُرْآنَ، فإنَّ افْتِراءَ القُرْآنِ دَعْوَى باطلةٌ ادَّعَوْها عليه، فهيَ إجْرامٌ مِنْهُمْ عليه، فيَكونُ المَعْنَى: وأنا بَريءٌ مِنْ قَوْلِكُمُ الَّذي تُجْرِمونَهُ عليَّ باطِلًا"[2].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/64.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/64.

﴿وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [هود: 36]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

العلاقةُ بين البراءة والافتراء، ونهي نوح عن الابتئاس؛ لأنَّه لن يؤمن إلّا من آمن في الأساس

بَعدَ أن ذَكَر القرآنُ دعوةَ نوحٍ عليه السلام مَعَ طول ما دَعا وأنذَرَ، ومجادلتَهم لَهُ، فلَم يَرعَووا، ولَم يُقرِّوا بوَحدانيَّةِ اللّه تعالى مَعَ صَبرِهِ عَلَيهِم، وما جابَهَهُم بهِ مِن دَلائِلَ وبَراهين إلّا أنَّهُم ظَلّوا على كُفرِهِم وعِنادِهِم؛ أوحَى اللّه لَهُ بصُنعِ السَّفينَةِ؛ لتَكونَ سَبيلَ النَّجاةِ لَهُ، ولِمَن مَعَهُ وهَلاكًا للظّالمين، فجاءتْ هذه الآيةُ فرْقًا بينَ حالتي الإيمانِ بنجاةِ أهلِه، وحالةِ الكُفر بهَلاكِ حِزبِهِ.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تَبْتَئِسْ﴾: الابتئاس افتعالٌ من البؤس، وهو الهمُّ والحزن، أي: لا تحزن، "والبائس الرجل؛ إذا لحقه بَأْسٌ، وإذا لحقه بؤسٌ أيْضًا، وقالَ تعالى: ﴿فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ﴾، أي: "لا يلحقك بؤسٌ، ويجوز أن يكون من البَأْس، أي: لا يلحقك خوف بما فعلوا"[1].

2) ﴿يَفْعَلُونَ﴾: "الفاءُ العَيْنُ واللّامُ أصْلٌ صَحيحٌ يَدُلُّ على إحْداثِ شَيْءٍ مِنْ عَمَلٍ وغَيْرِهِ، مِنْ ذَلِكَ: فعَلْتُ كَذا أفْعَلُهُ فعْلًا، وكانَتْ مِنْ فُلانٍ فعْلَةٌ حَسَنَةٌ أو قَبيحَةٌ"[2]، و"الفِعْل عبارَة عَمّا وجد في حال كانَ قبلها مَقْدورًا سَواء كانَ عَن سَبَب أو لا"[3].

المَعْنى الإجْمالِيُّ:

دعوة الله نوحًا عليه السلام، لعدم اليأس مِن عِنادِ قومِهِ وصَلَفِهِم

أوحَى اللّه تعالى إلَى نوحٍ عليه السلام أنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إلّا مَنْ قدْ

(1) العسكري، الفروق اللُّغويَّة، ص: 209.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (فعل).
(3) العسكريّ، الفروق اللُّغويَّة، ص: 138.

آمَنَ، فلا تَحزَنْ على كُفرِهِم، ولا تبتئسْ لِفعلِهِم، فقَد سَبَقَ فيهِم القَضاءُ، وحَقَّتْ كلمَةُ ربِّكَ على الَّذينَ كَفروا.

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالَةُ العطفِ بالواوِ، وبَيانُ معنَى العطفِ:

مسلكُ نوحٍ عليه السلام أن ينفض يديه من الأمل في إيمانهم باليأس منه

قوله تعالى: ﴿وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ﴾ جملة معطوفة بالواو على قوله تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا﴾، والمراد: بعد ذلك ﴿وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ﴾ وهذا "إقناط له عليه السلام من إيمانهم، وإعلام بأنَّه لم يبقَ فيهم من يتوقَّع إيمانه"[1]، "أيَّأسَهُ اللّه مِنْ إيمانِهِمْ، وأنَّهُ صارَ كالْمُسْتَحيلِ عَقْلًا بإخْبارِهِ تعالى عنهُمْ. ومَعْنَى ﴿إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ﴾، أيْ: مَنْ وُجِدَ مِنْهُ ما كانَ يَتَوَقَّعُ مِنْ إيمانِهِ، ونَهاهُ تعالى عَنِ ابْتِئاسِهِ بما كانوا يَفْعَلونَ، وهوَ حُزْنُهُ عليهم في اسْتِكانَةٍ"[2].

دِلالَةُ التَّعبيرِ بالفعلِ المبني للمَفعولِ ﴿وَأُوحِيَ﴾:

العِلمُ بفاعِلِ الشَّيءِ يغني عَن ذِكرِه

ورَدَ التَّعبيرُ في قَولِهِ تعالى: ﴿وَأُوحِيَ﴾ بالبِناءِ لِما لَم يُسمَّ فاعِلُه، وهوَ المسندُ، ولا يحتاجُ إلى التَّصريحِ بالفاعِلِ؛ لِكَونِهِ مَعلومًا ومَركوزًا في العقل، فمن دواعي الاختصار والبلاغة عدم التَّصريح بما يمكن الاستغناء عن ذكره، فمعلومٌ أنَّه لا موحيَ إلّا اللّه تعالى، إضافةً إلى ما يفيده أيضًا من صرف الاهتمام إلى الأمر الَّذي أوحيَ بهِ إلَيه، وما يترتبُ على ذَلِكَ مِن نُزولِ العَذابِ والوسيلَةِ الَّتي سَينجو بها نوحٌ عليه السلام ومَن مَعَهُ من المؤمنينَ.

علَّة التَّصريحِ بالموحَى إليه ﴿إِلَىٰ نُوحٍ﴾:

المقصودُ بالحَديثِ يُنَوِّهُ بهِ، وهو هنا نوح عليه السلام، وفيه تسليةٌ له

صرَّح باسم الموحَى إلَيه، وهو نوحٌ عليه السلام لِكَونِهِ المخصوصَ بالوحي، وهوَ المَقصودُ مِن الحديثِ، وأيضًا للتَّسليَةِ لَهُ والتَّسريَةِ عَن قَلبِهِ بإذهابِ حُزنِهِ وأسفِهِ على عَدَمِ إيمانِ هؤلاءِ القَومِ.

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 12/48.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/220.

دِلالَةُ التَّعبيرِ بالموحَى بِهِ جُملَةً اسميَّة:

لا يَقَعُ إيمانٌ إلّا بتوفيقٍ مِن اللهِ تعالى وتيسير منه سبحانه

أوثر أن يكون التَّعبير عن الموحى به في قوله تعالى: ﴿أَنَّهُۥ لَن يُؤۡمِنَ مِن قَوۡمِكَ إِلَّا مَن قَدۡ ءَامَنَ﴾ جُملَةً اسميَّةً، مُكَوَّنَةً من (أنّ)، واسمها ضميرِ الشَّأن، وخَبرِها المنفيِّ على التَّأبيدِ، سدّت مسدّ نائبِ الفاعِلِ؛ للدّلالة على خُطورة الأمرِ الموحَى، ولِنَفي السَّآمَةِ عنه ﷺ، وتأكيدِ بيان نهاية من كفر به، وانتهاء دعوته.

مَرجِعُ الضَّميرِ في قوله تعالى: ﴿أَنَّهُۥ﴾:

ورود الحرف بين روابط الحديث يقوّيها

وَرَدَ التَّعبيرُ هُنا بـ ﴿أَنَّهُۥ﴾، واسْمُها ضَميرُ الشَّأنِ ليدلّ على أنَّ مفاد الجُمْلَة بعده يتضمّن أمْرًا خَطيرًا؛ لأنَّها تَأْييسٌ لنوح ﷺ من إيمانِ بَقيَّةِ قومه[1]، وضَميرُ الشَّأنِ في ﴿أَنَّهُۥ﴾ يَتَناسَبُ مَع ما سبقَ مِن بناءِ الفِعلِ للمَفعولِ، وتَصويرِ شِدَّة الهَولِ وخُطورَةِ ما سَيحدُثُ، فالجَزمُ بعَدَمِ إيمانِهِم يُلَوِّحُ بنُزولِ العَذابِ، واشْتِدادِ غَضَبِ الجَبّارِ عَلَيهِم.

الغَرضُ من التَّعبيرِ بأُسلوبِ القَصرِ في السّياق:

بيانٌ بسَبْقِ القَولِ منهُ تعالَى بإيمانِ مَن آمَنَ، ونَفي ضِدِّه

وَرَدَ التَّعبيرُ بأسلوبِ القَصرِ في قولِهِ تعالى: ﴿لَن يُؤۡمِنَ مِن قَوۡمِكَ إِلَّا مَن قَدۡ ءَامَنَ﴾ ليفيدَ الكلامُ الإقناطَ على أتَمِّ وجهٍ وأبلَغِه، أي: لَن يحدُثَ مِن قومِكَ إيمانٌ، ويُحَصِّلَهُ بعدُ إلّا مَن قَد أحدثَهُ، وحَصَّلَهُ قَبلُ، وذَلِكَ مِمّا لا يُمكِنُ لِما فيه مِن تَحصيلِ الحاصِلِ، وإحداثِ المُحدث، فإحداثُ الإيمانِ وتحصيلُه بَعدُ مِمّا لا يُكونُ أصلًا"[2].

نكتة اختيارِ طَريقِ النَّفي والاستثناءِ، طَريقًا لِلقَصْرِ:

حُكمُ اللهِ تعالى، بإيمانِ مَن آمَنَ، وتَحَقُّقُه

وردَ التَّعبيرُ عَن تَحَقُّقِ إيمانِ المؤمنينَ بأقوى طُرقِ القَصر، وهوَ النَّفيُ والاستثناء، ليؤكدَ به انتفاء إيمانهم، وليفيدَ أنَّه لن يَحصُلَ إيمانٌ فوقَ ما حصلَ قبلَ صُدورِ الأمرِ بهَلاكِهِم، "وقيلَ: إنَّ الاستثناءَ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/65.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 12/49.

منقطعٌ، وأنَّ المَعنَى لا يؤمنُ أحدٌ بَعدَ ذَلِكَ غيرَ هَؤلاءِ؛ لَكانَ معنى بَليغًا، فتَدَبَّرْ"[1].

مَعنَى الحَرفِ ﴿لَن﴾ ودِلالَتُه في السّياق:

تأكيد عدم إيمانهم مستقبلًا، معجزة غيبيَّة قطعيَّة

حرف ﴿لَن﴾ حرف نفي، من شأنه الدلالة على نفي وقوع المنفي مستقبلًا، وأوثر التعبير به للدلالة على هذا، كما هو مصرَّح به في الآية: ﴿لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ﴾ وفي التَّعبير به راحة لقلب نوح عليه السلام وطمأنة له، بأنَّه قد أدَّى ما عليه تجاههم، وصبر معهم صبرًا استحقَّ به أن يكون من أولي العزم من الرسل.

دِلالَةُ التَّعبيرِ بالفعلِ المُضارِعِ ﴿يُؤْمِنَ﴾:

التَّأكيد على استمرار عدم حصول ما سُلِّط عليه النَّفي

جاءَ التَّعبيرُ بالفعلِ ﴿يُؤْمِنَ﴾ مضارعًا، ووَرَدَ تَسليطُ أداةِ النَّفي عَلَيه لتقطعَ كُلَّ رَجاءٍ في إيمانِ هَؤلاءِ المُعانِدينَ المُتَكَبِّرينَ، فلا تَتَوقَّعْ منهم إيمانًا.

علَّة القيدِ بالمجرورِ ﴿مِن قَوْمِكَ﴾:

القَليلُ من قوم نوح عليه السلام هوَ الَّذي آمَنَ بهِ وصَدَّقَهُ

قُيِّد التَّعبير بـ ﴿مِن﴾ الجارة في ﴿مِن قَوْمِكَ﴾، للدَّلالة على قلَّتهم فـ﴿مِن﴾ هي التبعيضيَّة، والمُرادُ بهِم بَعضُ مَن آمنَ بهِ، وهم القَليلونَ الَّذينَ وصَفهُم الأشرافُ مِن قَومِهِ بالأراذِلِ، كَأصحابِ الحِرَفِ الصَّغيرَةِ والصَّنائِعِ الرَّخيصةِ - على حدِّ زعمهم - حَتَّى قالوا لَهُ: "لَوْ كُنْتَ صادِقًا؛ لاتَّبَعَكَ الأكْياسُ مِنَ النّاسِ والأشْرافُ مِنْهُمْ"[2]. والتخصيص بـ ﴿مِن قَوْمِكَ﴾ لكونه مرسلًا إليهم خاصَّةً، أي: من قومك لا من غيرهم.

سِرُّ إضافةِ القَومِ إلَى ضَميرِ الخِطابِ في ﴿قَوْمِكَ﴾:

الإضافة للتَّخصيص أو لأدنى ملابسة

وفي إضافة ضميره عليه السلام إلى لفظ (قوم)؛ لكونه منهم منتسبًا إليهم، ورسالته كانت خاصَّة بهم، ويجوز أن تكون الإضافة لأدنى

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 12/49.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 9/219.

ملابسة؛ لأنَّ قومه، لم يؤمنوا به، فليس للانتساب إليهم شرف، وعليه فقد نفى ربُّه سبحانه أن يكون ابنه الكافر من أهله في قوله جل شأنه: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبۡنِي مِنۡ أَهۡلِي وَإِنَّ وَعۡدَكَ ٱلۡحَقُّ وَأَنتَ أَحۡكَمُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ۝٤٥ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖۖ﴾ [هود: 45، 46].

مَعنَى ﴿قَدۡ﴾ ودُخولُها على الماضي:

تَمييزُ المؤمنِ، من أهلِ الزَّيفِ والإلحادِ

استِخدامُ حَرفِ التَّحقيقِ ﴿قَدۡ﴾ هُنا الدّاخِلِ على الفِعلِ الماضي ﴿ءَامَنَ﴾، "للتنصيص على أن المراد من حصل منهم الإيمان يقينًا دون الذين تردَّدوا"[1].

وكذلك ليُفيدَ حَصرَ النَّجاةِ في المؤمنينَ الصّادقينَ الَّذينَ وقَرَ الإيمانُ في صُدورِهم، وتَحقَّقَ في جَميعِ جَوارِحِهم، وبِهَذا يَخرُجُ كُلُّ أهلِ الزَّيفِ والإلحادِ مِن قَومِهِ.

مَعنَى حَرفِ الفاءِ ودِلالَتُه في ﴿فَلَا تَبۡتَئِسۡ﴾:

تَطييبُ اللهِ تعالى لِقَلبِ نوحٍ عليه السلام من لطفه بأنبيائه

جاءَ قَولُهُ تعالى: ﴿فَلَا تَبۡتَئِسۡ﴾ مُقترِنًا بفاءِ التَّفريعِ، لِتَفريعِ التَسْليةِ على الخَبَرِ المُحْزِنِ، ولِتَهْوينِ الأمرِ على نَفسِ نَبيِّه نوحٍ عليه السلام يذكِّرُهُ بأفعالِهم وصدِّهم عَن دَعوتِه، ولَمّا كانَ الأمرُ شَديدًا عَلَيه؛ جاءَ مُعَقِّبًا لَهُ ذَلِكَ بتَسليَتِه بعَدَمِ الابتِئاسِ مِن نُفورِ هَؤلاءِ وصَلَفِهم وما ارتَكَبوهُ مَعَهُ مِن حَماقاتٍ.

دِلالَةُ اختيارِ الفعلِ المضارعِ بصيغةِ افتَعَل:

طُمأنينة رَبّانيَّةٌ لِرُسلِ اللهِ، وأوليائِه، والمؤمنين

أرادَ اللهُ أن يُلقي الطُّمأنينةَ في نفسِ سيدِنا نوحٍ عليه السلام فجاء النَّظم الكريم بالفعل المضارع الكثير الحروف، ومَعلومٌ أنَّ الفعلَ المُضارِعَ يَدُلُّ على تَجَدُّدِ الفعلِ واستمراريَّتِه واستحضارِ صورَتِه، فوَرَدَ التَّعبيرُ بالفعلِ ﴿تَبۡتَئِسۡ﴾ وهو تفعيلٌ مِن البُؤسِ، وهو الحزنُ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/66.

الشَّديدُ؛ ليُصَوِّرَ شِدَّة الأمرِ على نَفْسِ نوحٍ ﷺ وما أصابَه مِن الغَمِّ والضّيقِ، فالبُؤسُ أشدُّ إيلامًا لِلنَّفسِ مِن الحُزنِ، ونوحٌ مُرَشَّحٌ لِلبؤسِ الَّذي هو أقسَى مِن الحُزنِ؛ لِأنَّ هَؤلاءِ الَّذينَ لَن يؤمنَ منهُم إلّا مَن قَد آمنَ، هُم مِن ناحيَةِ قومِهِ، واللّه مُحيطٌ عِلمُهُ أنَّ نوحًا سيحزنُ لِمُصيبةِ قَومِهِ، والغَرقُ أُمُّ المصائِبِ، واللّه يُرشِدُه إلَى ألّا يَصِلَ إلَى هذه الدَّرجَةِ"[1].

مَعنَى حرف الباءِ ودِلالَتُه في شبه الجملة ﴿بِمَا﴾:

هَلاكُ الإنسانِ، بسَبَبِ خَطاياهُ، أمرٌ واقع مجرَّب

الباءُ في قَولِهِ: ﴿بِمَا﴾ سَبَبيَّة، أي: بسَبَبِ أفعالِهِم وما حَدَثَ مِنهُم، لا تشغَلْ نَفسَكَ بهذه الأفعالِ، وما وقَعَ منهم مِن تكذيبٍ وجِدالٍ وصَلَفٍ واستِكبارٍ.

دِلالَةُ التعبير بِ الأداة ﴿بِمَا﴾:

التَّعبير بـ لفظ (مـــا) أجـمـع وأخصر

جاء التَّعبيرُ بـ ﴿بِمَا﴾ الَّتي هي اسمُ موصولٍ، وهي أعمُّ الموصولات وأدخلها في الإبهام؛ لتشمل كلَّ صنوف العمل، وتَذكيرًا لَهُ ﷺ بكَثرَةِ أفعالِهِم وأعمالِهِم الَّتي صَنَعوها مَعَهُ؛ لِأنَّ اسم الموصولِ هُنا يُفيدُ العمومَ مَعَ الكَثرَةِ - كما مضى التنويه عن ذلك - أي: كَثيرًا ما فعلوهُ مَعَكَ، وأنتَ تَلتَزِمُ مَعَهم كُلَّ رَوابِطِ الصَّبرِ وتَحَمُّلِ الأذَى، وحَيثُ إنَّه لا مَطمَعَ في إيمانِ أحدٍ من قومِكَ بعدَ اليومِ، فانفُضْ يَدَكَ مِن الاهتِمامِ بشَأنِهِم ولا تَحزنْ عَلَيهِم.

دِلالَةُ التَّعبيرِ بالفِعلِ المُضارعِ ﴿يَفْعَلُونَ﴾:

الآيَةُ بدايتُها أمرٌ تَحَقَّقَ، وخِتامُها أمرٌ يَتَجَدَّدُ

جاءَ ختامُ الآيَةِ هنا تَعبيرًا بالفعلِ المُضارع ﴿يَفْعَلُونَ﴾ الدّالِّ على تَجَدُّدِ الفِعلِ، واستِمرارِهِ مَع استحضارٍ لصورَةِ هذه الأعمالِ، كَأنَّها شاخِصَةٌ أمامَ عَينَيه عَن طَريقِ صيغَةِ الفِعلِ المُضارِعِ، ولَم يَقُلْ: (بما فعَلوا) حيث الغَرَضُ جَعْلُ ما فعَلوه مَشاهَدًا في دائِرَةِ

(1) عودة الله منيع القيسيّ، الإعجاز اللُّغويّ في قصّة نوح ﷺ في القرآن الكريم، ص: 87.

الضَّوءِ، وهَذا يُزيلُ الغَمَّ عنه، فلا يَلتَزِمُ البُؤسَ، ولا يَحزَنُ بسَببِ "ما كانوا يَتَعاطونَهُ مِن التَّكذيبِ والاستِهزاءِ والازدراء والإيذاءِ في هذه المُدَّةِ الطَّويلَةِ، فقَد حانَ وقتُ الانْتِقامِ مِنهُم"[1].

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(يَفْعَلونَ) و(يَعْمَلونَ):

أفعال مستعملة في مواطنها، لا يعبِّر عنها غيرها

الفِعْلُ: التَّأثيرُ مِن جِهَةِ مُؤثِّر، وهو عامٌّ لِما كانَ بإجادَةٍ أو غَيرِ إجادَةٍ، ولِما كانَ بعِلمٍ أو غيرِ عِلمٍ، وقَصدٍ أو غَيرِ قَصدٍ، ولِما كانَ مِن الإنسانِ والحَيَوانِ والجَماداتِ، والعَمَلُ مثلُه"[2]. فاصطفى النّظم الكريم الأعمَّ، وأمّا العَمَلُ: فكُلُّ فعلٍ يَكونُ مِن الحَيَوانِ بقَصدٍ، فهوَ أخصُّ مِن الفِعلِ؛ لِأنَّ الفعلَ قَد يُنسَبُ إلى الحَيَواناتِ الَّتي يَقَعُ مِنها فِعلٌ بغَيرِ قَصدٍ، وقَد يُنسَبُ إلَى الجَماداتِ، والعَمَلُ قَلَّما يُنسَبُ إلى ذَلِكَ، ولَم يُستَعمل العَمَلُ في الحيواناتِ إلَّا في قَولِهِم: البَقَرُ العَوامِلُ، والعَمَلُ يستعملُ في الأعْمالِ الصّالِحَةِ والسَّيِّئة"[3].

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 12/49.
(2) الرّاغب، المفردات: (فعل).
(3) الرّاغب، المفردات: (عمل).

﴿وَٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ بِأَعۡيُنِنَا وَوَحۡيِنَا وَلَا تُخَٰطِبۡنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْۚ إِنَّهُم مُّغۡرَقُونَ ٣٧﴾ [هود: 37]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

بَعدَ اليَأسِ يَأتي الفرجُ، وإثرَ العسرِ، لا مندوحة من اليسر

لمّا نَهَى اللّه تعالَى نَبيَّه نوحًا عليه السلام ألّا يَحزنَ وألّا ييأسَ مِن عَدَمِ إيمانِ قومِه، وألّا يبتئسَ مِن أفعالِهم المُشينةِ؛ كانَ هَذا مُؤذِنًا بأنَّ اللّه تعالى ينتصرُ لَهُ، فأعقَبَهُ بالأمرِ بصُنعِ السفينَةِ لِتهيئَةِ نَجاتِه، ونَجاةِ مَن آمنَ به من العَذابِ الَّذي قَدَّره اللّه لقومِه، لا سيَّما وقَد دَعا ربَّهُ، فقالَ: ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَغۡلُوبٞ فَٱنتَصِرۡ ١٠ فَفَتَحۡنَآ أَبۡوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٖ مُّنۡهَمِرٖ ١١ وَفَجَّرۡنَا ٱلۡأَرۡضَ عُيُونٗا فَٱلۡتَقَى ٱلۡمَآءُ عَلَىٰٓ أَمۡرٖ قَدۡ قُدِرَ ١٢ وَحَمَلۡنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلۡوَٰحٖ وَدُسُرٖ ١٣ تَجۡرِي بِأَعۡيُنِنَا جَزَآءٗ لِّمَن كَانَ كُفِرَ ١٤﴾ [القمر: 10 - 14]

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَٱصۡنَعِ﴾: الصُّنع تَرْتيب العَمَل وإحكامه على ما تقدم علمٌ بهِ، وبِما يوصل إلَى المُراد مِنْهُ، ولذَلِك قيل للنجّار: صانعٌ، ولا يُقال للتاجر: صانع؛ لِأنَّ النجار قد سبق علمه بما يُريد علمه من سَرير أو باب، وبالأسبابِ الَّتي توصِّل إلَى المُراد من ذَلِك، والتّاجر لا يعلم إذا اتَّجر أنَّه يَصِلُ إلَى ما يُريدهُ من الرِّبْح أو لا، فالعَمَل لا يَقْتَضي العلم بهِ"[1]. قال الرّاغب: "الصُّنْعُ: إجادةُ الفعل، فكلُّ صُنْعٍ فِعْلٌ، وليس كلُّ فعل صُنْعًا، ولا ينسب إلى الحيوانات والجمادات، كما ينسب إليها الفعل... والاصْطِناعُ: المبالغةُ في إصلاحِ الشَّيء"[2].

2) ﴿ٱلۡفُلۡكَ﴾: السَّفينة، ويستعملُ ذَلكَ للواحدِ والجَمعِ، والفَلَكُ: مجرَى الكَواكِبِ، وتَسميتُه بذَلكَ لِكَونِهِ كالفُلكِ"[3].

(1) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 141.
(2) الرّاغب، المفردات: (صنع).
(3) الرّاغب، المفردات: (فلك).

3) ﴿تُخَٰطِبۡنِي﴾: الخَطْبُ والمُخاطَبَة والتَّخاطُب: المراجعة في الكلام، ومنه: الخُطْبَة والخِطْبَة لكن الخُطبة تختصُّ بالموعظة، ويقالُ من الخُطْبَة: خاطِب وخطيب، وفصل الخِطاب: ما ينفصلُ به الأمرُ مِن الخِطاب"[1].

4) ﴿مُّغۡرَقُونَ﴾: (غرق) أصْلٌ واحِدٌ صَحيحٌ يَدُلُّ على انْتِهاءٍ في شَيْءٍ يَبْلُغُ أقْصاهُ"[2]، قال الرّاغب: "الغَرَقُ: الرّسوب في الماء وفي البلاء، وغَرِقَ فلان يَغْرَقُ غَرَقًا، وأغْرَقَهُ، وفلان غَرِقَ في نعمة فلان تشبيهًا بذلك"[3].

❁ المَعْنى الإجْمالِيُّ:

معنى قوله تعالى: ﴿وَٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ﴾ إلى آخِرِ الآيَةِ، أي: "وقلنا لَهُ: اصنَع الفُلكَ لِنُنَجّيكَ عَلَيها بعِنايَتِنا، وتحتَ رِعايَتِنا، ولا تُخاطِبْني في شَأنِ هؤلاءِ الظالمينَ؛ لِأنَّني استجبتُ دعاءَكَ، وأمرتُ بإهلاكِهِم غَرَقًا"[4].

تَوجيهُ وإرشادُهُ ﷺ باتِّخاذِ أسبابِ نجاتِهِ في صُنعِ السَّفينةِ

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالةُ العطفِ في قوله تعالى: ﴿وَٱصۡنَعِ﴾:

قوله تعالى: ﴿وَٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ﴾ ورد معطوفًا على قوله: ﴿فَلَا تَبۡتَئِسۡ بِمَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ﴾ لَمّا كانَ نَهْيُهُ عَنِ الابْتِئاسِ بفِعْلِهِمْ مَعَ شِدَّةِ جُرْمِهِمْ مُؤْذِنًا بأنَّ اللهَ يَنْتَصِرُ لَهُ؛ أعْقَبَهُ بالأمْرِ بصُنْعِ الفُلْكِ؛ لِتَهْيِئَةِ نَجاتِهِ ونَجاةِ مَنْ قدْ آمَنَ بِهِ مِنَ العَذابِ الَّذي قَدَّرَهُ اللهُ لِقَوْمِهِ، فجُمْلَةُ ﴿وَٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ﴾ عَطْفٌ على جُمْلَةِ ﴿فَلَا تَبۡتَئِسۡ﴾، وهيَ بذَلِكَ داخِلَةٌ في الموحَى بِهِ، فتَدُلُّ على أنَّ اللهَ أوْحَى إلَيْهِ كَيْفِيَّةَ صُنْعِ الفُلْكِ"[5].

إذا كانَ الأمرُ المتضمِّن وعدًا بالنَّجاةِ من القادرِ، فالنَّجاةُ واقِعَةٌ مهما كانت المخاطر

(1) الرّاغب، المفردات: (خطب).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (غرق).
(3) الرّاغب، المفردات: (غرق).
(4) المنتخب في تفسير القرآن الكريم، ص: 313.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 12/66.

الغرضُ من التَّعبيرِ بفعلِ الأمرِ ﴿وَٱصۡنَعِ﴾:

صُنعُ السَّفينةِ بشارة بوسيلة النَّجاة، ونذارة بإغراق الهالكين

الأمرُ هُنا هَل هو لِلإيجابِ أم الإباحَةِ؟ قال الإمام الفخر الرّازيُّ: "فإنْ قيلَ: قوله تعالى: ﴿وَٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ﴾ أمْرُ إيجابٍ أو أمْرُ إباحَةٍ؟ قُلْنا: الأظْهَرُ أنَّهُ أمْرُ إيجابٍ؛ لِأنَّهُ لا سَبيلَ لَهُ إلَى صَوْنِ روحِ نَفْسِهِ وأرْواحِ غَيْرِهِ عَنِ الهَلاكِ إلّا بهَذا الطَّريقِ، وصَوْنُ النَّفْسِ عَنِ الهَلاكِ واجِبٌ، وما لا يَتِمُّ الواجِبُ إلّا بهِ؛ فهوَ واجِبٌ، ويَحْتَمِلُ ألّا يَكونَ ذَلِكَ الأمْرُ أمْرَ إيجابٍ بَلْ كانَ أمْرَ إباحَةٍ، وهوَ بمَنْزِلَةِ أنْ يَتَّخِذَ الإنْسانُ لِنَفْسِهِ دارًا ليَسْكُنَها، ويُقيمَ بها"[1]، وفي هذا الأمر بشارةٌ بوسيلة النَّجاة، ونذارة للهالكين بطريق الهلاك.

دِلالَةُ التَّعبيرِ بالمفعولِ بهِ، مُعرَّفًا باللّام:

لِكُلِّ شَيءٍ سببٌ، والسّفينةُ سببُ نَجاتِهِم

وردَ التَّعبيرُ عَن الفُلكِ مُعرَّفًا باللّامِ العَهديَّةِ، كَأنَّه قَد عَهِد إليه، أو أوحي إلَيه بشَأنِها، "والظّاهِرُ مِنْ تَعْريفِهِ هُنا أنَّ اللّه تعالى كانَ أخْبَرَهُ خَبَرَهُ"[2]. وكلمة (الفُلك) تطلق على المفردِ والجَمعِ، والوزنُ واحدٌ، فإطلاقها على المُفردِ كَما هُنا: ﴿وَٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ﴾، وعلى الجمع كَما في قَولِهِ تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمۡ فِى ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمۡ فِى ٱلۡفُلۡكِ﴾ [يونس: 22]، وقَد عَبَّر عنها بالفُلكِ في جَميعِ المَواضِعِ، وبِالسَّفينةِ في موضعٍ واحدٍ، في قَولِهِ: ﴿فَأَنجَيۡنَٰهُ وَأَصۡحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ﴾ [العنكبوت: 15].

التَّعبير بالجارّ والمجرور: ﴿بِأَعۡيُنِنَا﴾، وما فيه من الكناية:

الحِفظُ والرِّعايَةُ مِن اللهِ، مانعٌ قويٌّ مِن الغَرَقِ

الباء في قوله تعالى: ﴿وَٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ بِأَعۡيُنِنَا﴾ لِلمُلابَسَةِ، أي: متلبِّسًا بحفْظِنا ورِعايَتِنا، وهي هُنا في مَوضِعِ حالٍ مِن الضَّميرِ في الفِعلِ ﴿وَٱصۡنَعِ﴾، والتَّعبيرُ بلَفظِ الأعيُنِ كنايةٌ عن الحراسة والحفظ؛ "لِأنَّ مَنْ كانَ عَظيمَ العِنايَةِ بالشَّيْءِ؛ فإنَّهُ يَضَعُ عَيْنَهُ عليه،

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 9/230.
(2) رشيد رضا، تفسير المنار: 12/62.

فلَمّا كانَ وضْعُ العَيْنِ على الشَّيْءِ سَبَبًا لِمُبالَغَةِ الاحْتياطِ والعِنايَةِ؛ قال المُفسِّرونَ: مَعْناهُ بحِفْظِنا إيّاكَ حِفْظَ مَنْ يَراكَ، ويَمْلِكُ دَفْعَ السّوءِ عنكَ، وحاصِلُ الكَلامِ: أنَّ إقْدامَهُ على عَمَلِ السَّفينَةِ مَشْروطٌ بأمْرَيْنِ أحَدُهُما: ألّا يَمْنَعَهُ أعْداؤُهُ عن ذَلِكَ العَمَلِ. والثّاني: أنْ يَكونَ عالِمًا بأنَّهُ كَيْفَ يَنْبَغي تَأْليفُ السَّفينَةِ وتَرْكيبُها ودَفْعُ الشَّرِّ عنهُ"[1].

دلالة عَطفِ الوحي على الأعيُنِ في ﴿وَوَحْيِنَا﴾:

قولُه تعالى: ﴿وَوَحْيِنَا﴾ مَعطوفٌ على ﴿بِأَعْيُنِنَا﴾ لِلدِّلالَةِ على عَدمِ كونِهِ نَجّارًا؛ إذ لَو كانَ كَذَلكَ؛ لَهَداهُ عَقلُه إلَى صِناعَتِها، إنَّما هوَ صَنَعَها بوحيٍ مِن اللّه وتوجيهاتِهِ ورِعايَتِهِ، "والمُرادُ بالوَحْيِ هُنا الوَحْيُ الَّذي بِهِ وصَفَ كَيْفيَّةَ صُنْعِ الفُلْكِ، كَما دَلَّ عليه عَطْفُهُ على المَجْرورِ بباءِ المُلابَسَةِ المُتَعَلِّقَةِ بالأمْرِ بالصُّنْعِ"[2].

قوة السَّبب (الفلك) من قوّة المسبِّب (الله تعالى) الآمر

الغَرضُ مِن أُسلوبِ النَّهي في ﴿وَلَا تُخَٰطِبۡنِي﴾:

ورَدَ قولُه تعالى: ﴿وَلَا تُخَٰطِبۡنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ﴾ مرادًا به نهيه عليه السلام لأنَّ كُفّارَ قَوْمِهِ سَيَنْزِلُ بهم عِقابٌ عَظيمٌ؛ لِأنَّ المُرادَ بالمُخاطَبَةِ المَنْهيِّ عنها المُخاطَبَةُ الَّتي تَرْفعُ عِقابَهُمْ، فتَكونُ لِنَفْعِهِمْ كالشَّفاعَةِ، وطَلَبِ تَخْفيفِ العِقابِ لا مُطْلَقَ المُخاطَبَةِ[3]، وفي النَّهي من شدَّة المغاضبة ما فيه، ومن تعجيل عذابهم ما فيه، والمعنى: "لا تَطْلُبْ مِنّي تَأْخيرَ العَذابِ عنهُمْ، فإنّي قدْ حَكَمْتُ عليهم بهَذا الحُكْمِ، فلَمّا عَلِمَ نوحٌ عليه السلام ذَلِكَ؛ دَعا عليهم بَعْدَ ذَلِكَ، وقالَ: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرۡ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ٢٦﴾ [نوح: 26] أو المعنى: ولا تُخاطِبْني في تَعْجيلِ ذَلِكَ العِقابِ على الَّذينَ ظَلَموا، فإنّي لَمّا قَضَيْتُ إنْزالَ ذَلِكَ العَذابِ في وقْتٍ مُعَيَّنٍ؛ كانَ تَعْجيلُهُ مُمْتَنِعًا"[4].

لا جَدوَى لِلتَوسُّلِ لِمَن خالَفَ أوامرَ اللهِ؛ إذ لا نَجاةَ لَهُ منه

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 9/231.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/66.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/66.
(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 9/231.

معنَى حَرفِ الجَرِّ ﴿فِي﴾ ودلالتُه:

نَهَى اللّه تعالى نوحًا ﷺ عَن مُخاطَبَتِه ودِفاعِهِ في شَأنِ قومِهِ، ووردَ التَّعبيرُ بحرفِ الجرِّ ﴿فِي﴾ الدالِّ على الظَّرفيَّة المتوغِّلَة، فكَأنَّه ألحَّ في مُخاطَبَتِهِ ربَّه ﷻ وأغرق فيها إغراقًا، لَو استَطاعَ مَعَهُ دَفْعَ الأذَى؛ لَفعَلَ، ودَخَلَتْ ﴿فِي﴾ هُنا على مَحذوفٍ، والمَعنَى: ولا تُخاطِبْني في شَأنِ هَؤلاءِ الظّالِمينَ ولا في أمرِ مُعاقَبتِهِم، فمَصيرُهُم إلَى الغَرقِ والهَلاكِ لا مَحالَةَ.

رَحمَةُ الأنبياءِ بأقوامِهِم مستمرَّةٌ وإن كثُرَ لددُهُم

نُكتَةُ التَّعبيرِ بالاسمِ المَوصولِ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ في السّياق:

وردَ التَّعبيرُ بالاسمِ الموصول ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ﴾ مَعَ التَّعبيرِ بالفعلِ الماضي لِتَحقُّقِ الظُّلمِ مِنهُم وحصولِهِ، وقيلَ: المُرادُ بـ ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ﴾ مَن لَم يُؤمِن مِن قَومِهِ مُطلَقًا، وقيل: زَوجَتُه وابنُه"[1]، "ولَعَلَّ هَذا تَوطِئَةٌ لِنَهْيِهِ عن مُخاطَبَتِهِ في شَأنِ ابْنِهِ الكافِرِ قَبْلَ أنْ يَخْطُرَ ببالِ نوحٍ ﷺ سُؤالُ نَجاتِهِ حَتَّى يَكونَ الرَّدُّ عليه حينَ السُّؤالِ أَلْطَفَ"[2].

الإعلامُ عن علَّة النَّهي عن الدُّعاء، والظُّلم أبشع شيء

مَوقِعُ جُملَةِ ﴿إِنَّهُم مُّغۡرَقُونَ﴾ ودِلالَتُه:

قَولُهُ تعالى: ﴿إِنَّهُم مُّغۡرَقُونَ﴾ جُملَةٌ مُستأنفةٌ استئنافًا بَيانيًّا مَفصولَةً عَمّا سَبقَ لِشبْهِ كَمالِ الاتِّصال، فكَأنَّهُ ﷺ قال: ولِم لا أُخاطِبُكَ فيهم يا رَبِّ؟ فجاءَ الجَوابُ: ﴿إِنَّهُم مُّغۡرَقُونَ﴾، والجُملَةُ "إخْبارٌ بما سَيَقَعُ، وبَيانٌ لِسَبَبِ الأمْرِ بصُنْعِ الفُلْكِ"[3].

النِّهايَةُ مَحسومَةٌ، وقَضاءُ اللهِ نافِذٌ، ما منه مفرٌّ

الغَرضُ مِن خُروجِ الكَلامِ على خلافِ مُقتضَى الظّاهِرِ:

وردَ قولُهُ تعالى: ﴿إِنَّهُم مُّغۡرَقُونَ﴾ عِندَ البلاغيين بما يُعرَفُ بـ "خُروجِ الكَلامِ على خِلافِ مُقتضَى الظّاهِر"، بأنْ يُنزَلَ غَيرُ السّائلِ منزِلَةَ السّائل، فيُؤكَّدُ له الكَلامُ على سَبيلِ الاستِحسانِ، وأن يُنزَلَ

القَضاءُ المَحسومُ، لا رادَّ لَهُ، لكونه قدر الله المحتوم

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 12/50، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 9/231.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/67.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/67.

غيرُ المُنكر منزلةَ المُنكر، فيُؤكَّدُ له الكَلامُ بأكثرَ من مُؤكَّد، وأن يُنزَلَ المُنكرُ منزلةَ غيرِ المُنكرِ، فلا يُؤكَّد لَه، وَهُنا وردتِ العِبارَةُ ﴿إِنَّهُم مُّغۡرَقُونَ﴾ لتنزيلِ غيرِ السائلِ منزلةَ السّائلِ؛ إذْ هو في الحَقيقَةِ لَيسَ بسائلٍ إلّا أنَّ الخِطابَ الَّذي خوطِبَ به جَعَلَهُ يُقَلِّبُ الأمرَ، فيسألُ عَن الغايَةِ والنَّتيجَةِ، وإن لَم يَتلَفظْ بسُؤالِهِ، فجاءَ الكَلامُ ردًّا عَلَيه.

دَلالَةُ التَّعبير بالجُملَةِ الاسميَّة في الآية القرآنية:

جاء التَّعبيرُ بقوله: ﴿إِنَّهُم مُّغۡرَقُونَ﴾ جُملةً اسميَّةً لتصويرِ تَحَقُّق أمرِ الغَرَقِ بالنِسبَةِ لَهُم، فلَم يَقُل: (سَأُغرِقُهُم)، وقالَ: مُغرَقونَ لِما في الاسمِ مِن الدِّلالَةِ على الثُّبوتِ والتَّحقُّق.

تحقُّق أمر الله، فيهم حتميٌّ، لا مندوحة عنه

دلالَةُ التَّعبيرِ بخبرٍ هو اسم مفعول في ﴿مُّغۡرَقُونَ﴾:

لم يقل النَّظم الكريم: (غارقونَ)؛ لِأنَّ كلمة (غارِقينَ) توحي بأنَّ سببَ غرقِهِم كانَ لِعدمِ معرفتِهِم بالسِباحَةِ، أمّا ﴿مُّغۡرَقُونَ﴾؛ فهي أدَلُّ في سياقِها على أنَّ غَرَقَهَم كانَ رغمَ أُنوفِهِم بأمرٍ مِن اللّه تعالى جَزاءَ خَطيئاتِهِم وطُغيانِهِم، كَما جاءَ في قَولِهِ تعالى: ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمۡ أُغۡرِقُواْ﴾ [نوح: 25]. والإيقاعُ في نِهايَةِ الأمرِ ﴿إِنَّهُم مُّغۡرَقُونَ﴾ يصوّر لنا النّهاية الحتميّة المرتقبة حيث أحدثت (إنّ) المضعّفة تأكيدًا للعبارة يتوغّل في النّفس عبر قوّة التّوكيد للمعنى، يزاد على ذلك توافق إنّ المضعّفة مع نهاية الفاصلة في حرف النّون الّتي امتدّ الإيقاع بها مع حرف الواو لتحكي لنا نهاية الأمر، وهو الغرق"[1].

إغراقهم في الطّوفان كان بسبب إغراقهم في الكفر والشّرك

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(الفُلْك) و(السَّفينة):

كلمة (الفلك) تدلُّ على المفرد والجمع، والوزن واحد في المفرد والجمع، وتطلق على الكبير من السُّفن، وعبَّر عن فُلك نوح عليه السلام،

الفُلْكَ تطلق على الكبير من السُّفن، والسَّفينة وسيلة نقل للإنسان والبضائع فوق الماء

(1) العلياني، تصوير هلاك المكذّبين في القرآن الكريم، ص: 230، رسالة دكتوراه في كليّة اللُّغة العربية جامعة أمّ القرى.

في جميع المواضع بالفُلك، والتَّعبير بالسَّفينة، جاء في موضع واحد، مُعبِّرًا به عن حال رسوِّها واستوائها، على الأرض.

والسَّفينة مأخوذة من السَّفن؛ لأنَّها تسفِن على وجه الأرض، أي: تلزق بها، أو أنَّها تسفِن الرَّمل؛ إذا قلَّ الماء، أي: تقشره، قال ابن سيده: "السَّفينَة فعيلة، بمَعْنى فاعلة، مُشْتَقَّة من السُّفن، أي: القشر؛ لِأنَّها تسفِن الماء، كَأنَّها تقشره"[1]، والمناسب للسّياق هنا الفُلك.

(ظَلَموا) و(كَفروا):

الظُّلْمُ عندَ أهل اللُّغة وكَثيرٍ من العلماء: وضعُ الشَّيء في غيرِ موضعِهِ المختصِّ به، إمّا بنقصان أو بزيادةٍ، وإمّا بعدولٍ عن وقتِه أو مَكانِهِ، والظُّلْمُ يقالُ في مُجاوَزَةِ الحَقِّ الَّذي يَجري مَجرَى نقطةِ الدَّائرة، ويقالُ فيما يَكثُر، وفيما يَقِلُّ من التَّجاوزِ، ولِهَذا يُستعمل في الذَّنْبِ الكَبيرِ، وفي الذَّنب الصَّغير"، والمناسب للسّياق التَّعبير بالظُّلم، والكُفْرُ في اللُّغة: ستر الشَّيء، ووصف اللَّيل بالكافِرِ لستره الأشخاص، والزُّرّاع لسترِهِ البذر في الأرض، وكُفْرُ النِّعمة وكُفْرانُها: سترها بترك أداء شكرها، والكُفْرانُ في جحود النِّعمة، أكثر استعمالًا، والكُفْرُ في الدِّينِ أكثرُ، يُقالُ: كَفرَ، فهو كافِرٌ"[2].

الظُّلم أعمُّ من الكفر؛ لأنَّه يشمل الكفر وغيره، ممّا هو أدنى منه من المعاصي

(1) ابن سيده، المخصّص، وابن منظور، لسان العرب: (سفن).
(2) الرّاغب، المفردات: (ظلم، كفر).

﴿وَيَصۡنَعُ ٱلۡفُلۡكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيۡهِ مَلَأٞ مِّن قَوۡمِهِۦ سَخِرُواْ مِنۡهُۚ قَالَ إِن تَسۡخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسۡخَرُ مِنكُمۡ كَمَا تَسۡخَرُونَ ٣٨﴾ [هود: 38]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الاستجابةُ النَّبويَّةُ للأمرِ الإلهيِّ سرُّ النَّجاةِ ومبدأُ الفلاحِ

المُناسبة بين هذه الآية والتي قبلها جليَّةٌ واضحة، وهي أنَّ الله ﷻ لمّا أمر نبيَّه نوحًا عليه السلام بصُنع الفُلك في قوله: ﴿وَٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ بِأَعۡيُنِنَا وَوَحۡيِنَا﴾ [هود: 37]؛ أخبر هُنا أنَّه امتثل ذلك بقوله: ﴿وَيَصۡنَعُ ٱلۡفُلۡكَ﴾[1]، ففي هذه الآية بيانٌ لامتثال نوحٍ لأمر ربِّهِ ﷻ[2]، فهي مناسبةٌ لبيان ترتُّب الاستجابةِ النَّبويَّة على الأمر الإلهيِّ دون توانٍ أو تردُّدٍ، بل مسارعة ومسابقة.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَيَصۡنَعُ﴾: من الجذر اللغوي (صنع)، وهو أصلٌ صحيح يدلُّ على عملِ الشيء صُنعًا، تقول: امرأة صَناعٌ، ورجل صَنَعٌ؛ إذا كانا حاذِقَينِ فيما يصنعانِه[3]، فهو العمل الذي ينتهي بتشكيل هيئةٍ جديدة وتحصيلها بإحكام[4]، فالصُّنع: إجادة الفعل[5]، يُقال: صنَعْتُ الشَّيءَ أصنَعُه صُنْعًا[6]، والصُّنّاع: الذين يعملون بأيديهم[7]، ومعنى ﴿وَيَصۡنَعُ﴾ في الآية: يبني، وينحتُ، ويُشَكِّلُ غايةً في الإتقان والإحكام[8].

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 9/283.
(2) البغوي، معالم التَّنزيل: 2/447، وطنطاوي، التَّفسير الوسيط: 7/202.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (صنع).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (صنع).
(5) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحفّاظ: (صنع).
(6) ابن دريد، جمهرة اللُّغة: (صنع).
(7) الخليل، العين: (صنع).
(8) السمرقندي، بحر العلوم: 2/149، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (صنع).

2) ﴿ٱلْفُلْكَ﴾: السَّفينة: والفاءُ واللّامُ والكافُ تدور تصاريفُها عَلى اسْتِدارَةٍ في شَيْءٍ، والفَلَكُ: قِطَعٌ من الأرْض تستديرُ، وترتفع عَمّا حولها[1]، وفَلَكُ كُلِّ شَيْءٍ: مُسْتدارهُ ومُعْظمه[2]؛ ومنه سمِّيت السَّفينَةُ فُلْكًا؛ لِأنَّها تُدارُ في الماءِ[3].

3) ﴿مَرَّ﴾: أصل مرَّ يدلُّ على مُضيِّ شَيءٍ، ومَرُّ السَّحابِ: انْسِحابُهُ ومُضيُّهُ[4]، يُقال: مَرَّ يَمُرُّ مَرًّا ومُرورًا: جازَ، وذَهَبَ، ومَرَّ بهِ، ومَرَّه: جازَ عَلَيْهِ[5]، فالمرورُ: هو المُضيُّ والاجتياز بالشَّيء دون توقُّفٍ، ويُقال لما هو خِلافُ الحلاوة والطّيب: المُرُّ، فمرارة الشَّيء تمنع النّاس من المكث فيه، فسُمّي الأمَرّ؛ لأنَّه غيرُ طيّب، ثمَّ سمِّيت بعد ذلك كلُّ شدَّة وشديدة بهذا البناء، يقولون: أمررتُ الحبلَ: فتلتُه، وهو مُمَرٌّ، والمَرُّ: شدَّةُ الفَتْل، والمَرير: الحبل المفتول[6]. وقد استُعمل المرور في القرآن فيما كان اجتيازًا سريعًا دون توقُّف، فمن ذلك قوله تعالى: ﴿وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُواْ مِنْهُ﴾، وقد استعمل القرآن ما كان لجزء يسير من الزَّمان مرَّةً، ومرَّتين، قال تعالى: ﴿لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ﴾ [الإسراء: 5]، استبشارًا بسرعة الزَّوال.

4) ﴿مَلَأٌ﴾: أصل ملأ يدلُّ على الكمال في الشَّيْءِ[7]، والملأ: الأشْرافُ والرُّؤساء منَ النّاسِ، وهو اسْمُ الجَماعَةِ، كالقَوْم والرَّهْطِ والجَيْشِ، وجَمْعُهُ أمْلاءٌ، وأصْلُها: منَ المَلْءِ، وهُمُ الَّذينَ يَمْلَؤونَ العُيونَ هَيْبَةً ورواءً، وقيلَ: هُمُ الَّذينَ يَمْلَؤونَ المَكانَ؛ إذا حَضَروا، والرُّؤَساءُ سُمّوا بِذَلِكَ؛ لِأنَّهم يَمْلَؤونَ القُلوبَ بِما يُحْتاجُ إلَيْهِ من قَوْلِهِمْ: مَلَأَ الرَّجُلُ يَمْلَأُ مَلْأَةً، فَهو مَليء[8].

5) ﴿سَخِرُواْ﴾: السُّخرية: تَعَجُّبٌ مَشوبٌ باحْتِقارِ الحالِ المُتَعَجَّبِ منْها، فيدلُّ على احتقار واستذلال، ومن الباب: سَخِرتُ منه، إذا هزِئتُ به، وسَخِرْتُ بِهِ، واسْتَسخرتُه للهزْءِ منه،

(1) الأزهري، تهذيب اللُّغة: 10/142.
(2) ابن منظور، لسان العرب: (فلك).
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (فلك).
(4) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (مرَّ).
(5) ابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم: 10/247، وابن منظور، لسان العرب: 5/165.
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (مرّ).
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: 5/346.
(8) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 6/168، وابن الأنباريّ، الزّاهر في معاني كلمات النّاس: 2/161.

أصل (سخر): انقيادٌ بيُسرٍ مع عدم مقاومةٍ، ومن الانقيادِ مع عدم المقاومة، وهو خفَّةُ حالٍ وقَدْر، قالوا: "سَخِر منه سِخْريًّا وسُخْريًّا: هَزِئ"، وهذا يعبِّر عنِ الاستخفافِ وعدم التَّقدير[1].

وقد وردت مشتقّات الجذر (سَخِرَ) في هذه الآية أربع مرّات، وتُطلق السُّخرية على ثلاثةِ معانٍ، وهي: الهُزْءُ بالشَّخص، والمجازاة جزاءَ السُّخرية[2]، والعمل بدون أجر، والمعنى الأخير غير مُراد هُنا في هذا الموضع؛ قال الزَّمخشري "فلان سُخْرةٌ: يضحك منه النّاس، ويضحك منهم، وسَخِرْتُ منه واستسخرت، واتَّخذوه سخريًّا، وهو مَسخرة من المساخر، وتقول: رُبَّ مَساخِرَ يَعُدُّها النّاس مفاخر، وسخَّره الله لك، وهؤلاء سُخرة للسُّلطان يتسخَّرهم: يستعملهم بغير أجر"[3].

المَعْنى الإجْماليُّ:

تُبيِّن الآية حالَ نوحٍ عليه السلام حين أمره الله تعالى بصناعةِ الفُلك بعيدًا عن البحر، فامتثل أمرَ ربِّه، وشرع في صناعةِ السَّفينة دون توانٍ أو تباطؤٍ، وتُصوِّر الآيةُ حالَ الملأ الذين اعتادوا المرورَ عليه لإبداءِ السُّخرية المضمَّنةِ بالعَجب؛ فهو يقومُ بصناعةِ أمرٍ لا فائدةَ منه في نظرِهم، وهو ما جعل عجَبَهم القاصرَ المضمر في نفوسهم سخريةً ظاهرةً مكرورةً عند المرورِ به، فكان جوابُه مناسبًا لسخريتِهم مساويًا لهزئهم؛ بأن توعَّدهم السُّخرية الحقيقيَّة عند مجيءِ الوعدِ الصّادق في المستقبل القريبِ، وهو غرق السّاخرِ اليوم الذي سيُسخر منه غدًا، ونجاة المسخور منه اليوم الذي سيَسخر غدًا، فالآيةُ أصلٌ في الثِّقةِ بالله تعالى، والصَّبر على أمرِه إلى حين لقائه.

الثِّقةُ بالله تعالى في الأمرِ كلِّه عمادُها الإيمانُ ووقودُها الصَّبر

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، والسَّمين الحلبيُّ، عمدة الحفّاظ، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (سخر)، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/296.

(2) ابن الحداد، كتاب الأفعال: 3/547.

(3) الزَّمخشري، أساس البلاغة: 1/443.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالةُ الواو في ﴿وَيَصۡنَعُ﴾:

الامتثالُ للأمرِ الإلهيِّ استسلامٌ وخضوعٌ موازٍ للسُّجود والرُّكوع

الواو في قولِه تعالى: ﴿وَيَصۡنَعُ ٱلۡفُلۡكَ﴾: إمّا أنَّها عطفٌ على جملة ﴿وَٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ﴾ [هود: 37]، أي: أوحيَ إليه: اصنع الفلك، وصنعَ الفلك[1]، وإمّا أنَّها استئنافيَّةٌ بذاتِها، أو استئنافيَّة باعتبارِها معطوفةً على محذوفٍ مُستأنف، فتأخذ حكمَه، أي: يتهيَّأ للصُّنع بعد أمرنا له به، ويصنع[2].

وعلى كلا التَّقديرَيْنِ فهذه الجُملة تُبَيِّن استجابة نبيِّ اللّه نوح عليه السلام وامتثاله لأمر رَبِّه؛ فلمّا أمره تعالى؛ أخبر أنَّه امتثل ذلك بقوله عاطفًا على ما تقديره: فأيس من إيمان أحد منهم، فترك دعاءهم، وشرع يسلّي نَفْسه، وطفق يصنع الفلك[3].

سرُّ التَّعبيرِ بالمضارع ﴿وَيَصۡنَعُ﴾:

استحضار صورة الصُّنع العجيبة التي لم يُعهد مثلُها حكايةٌ للحال الماضية

جاء التَّعبير بالفعل المضارع مع أنَّ الصُّنع كان في الماضي؛ استحضارًا لصورة الصُّنع العجيبة التي لم يُعهد مثلها، فهي حكايةٌ للحال الماضية، كأنَّها حاضرة يُشاهدها سيِّدنا محمَّد ﷺ وغيره، حال كونِ نوحٍ عليه السلام يصنعها[4].

والتَّقدير: فشرع يصنع، فحُكيت حال الاستقبال[5]، أي: يصنع الفلك الآن، ويدلُّ على أنَّ الصُّنع بدأ منذ حينٍ وأنَّه مستمرٌّ، وفيه ملاءمةٌ للاستمرار المفهوم من الجملة الواقعة حالًا ﴿وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيۡهِ مَلَأٞ مِّن قَوۡمِهِۦ سَخِرُواْ مِنۡهُۚ﴾ من ضميره[6]، أي: حالَ استمرار العمل،

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 12/67.
(2) أطفيش، تيسير التَّفسير: 6/389.
(3) البقاعي، نظم الدُّرر: 9/283، وطنطاوي، التَّفسير الوسيط: 7/202.
(4) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاوي: 10/76، وطنطاوي، التَّفسير الوسيط: 7/202، وأطفيش، تيسير التَّفسير: 6/389.
(5) الثَّعالبي، الجواهر الحسان: 3/282.
(6) أبو السُّعود، إرشاد العقل السليم: 4/206.

وليس بداية العمل، فهي نقلٌ للمُخاطَب إلى المشهد، ونوحٌ مُنهمكٌ في العمل، لتخييل السّامع أنَّ نوحًا عليه السلام بصدد العمل، كقوله: ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابٗا﴾ [فاطر: 9]، وقوله: ﴿يُجَٰدِلُنَا فِي قَوۡمِ لُوطٖ ٧٤﴾ [هود: 74][1].

نكتةُ اختيارِ لفظ الصُّنع: ﴿وَيَصۡنَعُ﴾:

الصُّنْعُ: تَرْتيبُ العَمَلِ وإحْكامُهُ على ما تَقَدَّمَ عِلْمٌ به، وبما يوصِلُ إلى المُراد منه، ولذا قيل لِلعِلْم المُتَعَلِّق بكيفيَّةِ العملِ: صِناعةٌ[2]، ويَدُلُّ على رسوخ العَمَلِ وإجادَتِه، فَيُقالُ للنَّجّار: صانِعٌ؛ لأنَّ النَّجار قد سَبَقَ عِلْمُهُ بما يُريدُ عَمَلَهُ، وعَلِمَ بالأسبابِ التي توصِلُ إلى المُرادِ من ذلك؛ فالصُّنْعُ أخَصُّ من غيرِه، وقد وصِفَ نوحٌ عليه السلام بهذا الوصف، فدلَّ على الرُّسوخ والتَّمكُّن في الصُّنع، فقد أحكم نوحٌ صَنْعَةَ السَّفينة، وأجادها حتَّى قارعت أمواجًا عظيمةً، وصفَها اللّه تعالى بأنَّها في عِظَمها وحجمها كالجبال، فقال: ﴿وَهِيَ تَجۡرِي بِهِمۡ فِي مَوۡجٖ كَٱلۡجِبَالِ﴾.

رسوخ الصَّنعة والتَّمكُّن فيها عنايةٌ إلهيَّةٌ ورعايةٌ ربّانيَّة

وفي أمرِ اللّه تعالى بصنعِ السَّفينةِ، والتَّعبير عن بناءِ السَّفينةِ بالصُّنعِ؛ إشارةٌ سرمديَّة إلى أنَّ نوحًا عليه السلام سيُتقن الأمرَ، فعبَّر عمّا سيكون، وأخبر بما هو كائنٌ، ترسيخًا للمعاني الثّابتة، وإلهابًا للنُّفوسِ الآمنة، أنَّها ستزداد إيمانًا في مركبٍ صُنِعَ بأمرِ اللّه تعالى، وبقوَّة اللّه كان، وبرحمته استقرَّ وجال.

ولا شَكَّ أنَّ سفينة نوح لم تكن سفينة عاديَّة، ولم تنتهِ بسهولة مع وسائل ذلك الزمان وآلاته؛ إذ كانت سفينة كبيرة تحمل بالإضافة إلى المؤمنين الصّادقين زوجين اثنين من كلِّ نوع من الحيوانات، وتحمل متاعًا وطعامًا كثيرًا يكفي للمدَّة التي يعيشها المؤمنون والحيوانات في السَّفينة حال الطّوفان، ومثل هذه السَّفينة بهذا

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 12/67.
(2) الشّريف الجرجانيّ، التّعريفات، ص: 134، والتّهانويّ، كشّاف اصطلاحات الفنون: 2/1097.

الحجم وقدرة الاستيعاب، لم يسبق لها مثيل في ذلك الزَّمان بل حتَّى في هذه الأزمنة ممّا يَدُلُّ على إحكام صُنعها، وتمكُّن صانعها من تلك الصَّنعة العجيبة، وعليه فذِكْرُ لفظ الصُّنع هو الأنسب بالسّياق والمقام، فالسّياق هو حديث عن أعجوبةٍ، ولفظ الصُّنع هو الأليق بها، والمقام حديثٌ عن سفينة، ولفظُ الصُّنع هو الملائم لها؛ لأنَّ السَّفينة لا تُفعل، ولا تُعمل؛ بل تُصنع.

سرُّ إضمارِ المسندِ إليه في ﴿وَيَصۡنَعُ﴾:

شُهرةُ نوحٍ عليه السلام بصنع الفلك أغنى من أن تُذكر

لم يُظهرِ النَّظمُ الكريم المُسند إليه ﴿نُوحٌ﴾ هُنا، فأتى به مُضمرًا لكونه معلومًا معيَّنًا، في قوله تعالى: ﴿وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤۡمِنَ مِن قَوۡمِكَ إِلَّا مَن قَدۡ ءَامَنَ﴾ [هود: 36]، فمقتضى الحالِ الإضمارُ؛ لأنَّ سياق المقطع في قصَّته، وسياقُها صرَّح به، والذي صنع الفُلك هو لا سِواه عليه السلام، فشُهرةُ أمره أعلى من ذكرِه، ومن كان كذلك؛ كان إضمارُ اسمه أولى من إظهارِ حرفِه ورسمه.

دلالةُ الواوِ في: ﴿وَكُلَّمَا﴾:

شأنُ قادةِ الكفرِ تثبيطُ الهمم وزعزعةُ القِمم

الواوُ في قولِه تعالى: ﴿وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيۡهِ مَلَأٞ﴾ حاليَّة، ومعنى الكلام: يصنع الفُلكَ، وحاله في وقتِ صناعةِ الفلك مع قومه: أنَّه كلَّما مَرَّ ملأٌ؛ سخروا منه، فالحال تُبيّن صعوبةَ الصُّنعِ مع سخريةِ القوم، فهو فوق أنَّه منهمكٌ في صناعةِ الفلك، لمعرفتِه بغاية الصُّنعِ؛ يمرّون أولئك فيسخرون، ومن صور السُّخرية التي قالها المفسِّرون: إنَّهم كانوا يقولون له: صرتَ نجارًا بعد أن كنتَ نبيًّا[1]، فأشار بقوله تعالى: ﴿وَكُلَّمَا﴾ إلى أنَّهم ازدادوا بَغْيًا، فسخروا منه[2].

سرُّ التَّعبير بتركيب (كلَّما):

في قوله تعالى: ﴿وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيۡهِ مَلَأٞ﴾، جاءت كلمة (كلّما) وهي

(1) الصّاوي، حاشية الصّاوي على الجلالين: 2/135.
(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 9/284، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 12/68.

مُركَّبة من (كُلَّ) و (ما) الظَّرفية المصدريَّة الوقتيَّة، وانتصبت (كلّ) على الظرفيَّة؛ لأنَّها اكتسبت الظرفيَّة بالإضافة إلى الظَّرف، وهو متعلِّقٌ بـ ﴿سَخِرُواْ﴾، وهو جوابه من جهة أخرى، والمعنى: وسخر منه ملأ من قومه في كلِّ زمنِ مرورهم عليه[1].

السُّخرية هي المرامُ والغايةُ، والمرورُ هو الأداةُ والوسيلة

فتركيب ﴿وَكُلَّمَا﴾: ظرفُ زمانٍ مُتضمِّنٌ معنى الشَّرط، متعلِّقٌ بقوله: ﴿سَخِرُواْ﴾[2]، فهذا الظَّرف يَدُلُّ على تَكَرُّر فعل السُّخرية منهم في كُلِّ وقتٍ يمرّون عليه فيه، ونكتةُ التَّعبير به دون أن يقول: (وسخروا منه عند مرورهم)، ونحوِه؛ لبيانِ أنَّه ما خلا مرورٌ من سخريةٍ واستهزاءٍ؛ ففيه إشارةٌ إلى أنَّهم يمرّون لأجلِ السُّخرية لا لأجل المرور، فالسُّخرية غايتُهم، والمرورُ وسيلتهم، وبه يتبيَّن مدى حقدِ القوم وحسدِهم وعداوتِهم لنوحٍ عليه السلام ومن معه من المؤمنين، فلا تجزعْ على غرقِهم، بل افرح بتطهير الأرض من دنسهم.

نكتةُ استعمالِ المرور في ﴿مَرَّ﴾:

قومُ نوحٍ عليه السلام جمعوا في موقفِهم منه بين الخَبْطِ الشُّعوريِّ والحسد

استعمل النَّظم القرآنيُّ مفردةَ المرور ﴿مَرَّ﴾ في قوله تعالى: ﴿مَرَّ عَلَيۡهِ مَلَأٞ﴾، دون أن يقول: (وكلَّما أتوه) ونحو ذلك، لبيانِ أنَّ مرورهم كان مَرًّا سريعًا، فإنَّ مفردةَ المرور تدلُّ على الاجتيازِ السَّريع، وتتضمَّنُ في أثناء دلالاتها المعجميَّة مرارة المعنى، ويُؤكِّد ذلك أو ينفيه استعمال السّياق، والسُّرعةُ دليلُ الحسد والحقد، فإذا تكرَّر؛ دلَّ على الخَبْطِ الشعوريِّ، فهم يمرّون مسرعين، ولا يرغبون بأن يُشعَر بأنَّ مرورهم كان للاطِّلاعِ، فيوارون هذا المقصد بالسُّرعةِ، لكنَّ تَكرارَ المرور كاشفٌ، أنَّى لهم بدفعِه؟

دلالةُ الحرف (على):

في قوله تعالى: ﴿وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيۡهِ مَلَأٞ﴾ تدلُّ (على) على أنَّ سيِّدنا

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 12/68.
(2) القنوجي، فتح البيان: 3/312.

تصويرُ المشهدِ التّاريخيِّ في مرورِ الملأ قصدًا لا وفاقًا

نوحًا عليه السلام لا يَصْنَعُ الفُلك في طريق المارَّة، وإنَّما في مكانٍ متنحٍّ منخفضٍ، ولذلك لم يقل: (وكلما مروا به)، كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ۝٣٠﴾ [المطفّفين: 30]، فحرف (على) استُعمل للاستعلاء الحقيقي، وهذا ما يقتضيه الظّاهر ما لم يرد مانعٌ من ذلك، فهم يمرّون آتين من مكانٍ مرتفعٍ، وهو مُتَنَحٍّ عنهم في مكانٍ منخفضٍ، فهو ليس في طريقِهم، وهذا ما يُؤكِّد أنَّهم قصدوا المرور، لا أنَّه جاءَ لِمامًا، وهي إشارةٌ من النَّظم، تُصوِّر المشهد التّاريخيَّ، لاستحضارِ الصّورةِ، واستجلاءِ الحقيقة.

فائدة استعمالِ: ﴿مَلَأٌ﴾:

في الأوقاتِ العصيبةِ يتولّى الملأ الأعمال الميدانيَّة

جاءَ استعمالُ لفظةِ ﴿مَلَأٌ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ﴾، دون أن يقولَ: (جماعةٌ، أو طائفةٌ، أو فرقةٌ) ونحو ذلك؛ لبيانِ أنَّ الغيظَ والحسدَ والانشغال قد أصاب الملأ، وهم أشراف القوم وكبراؤهم[1]، الذين استحقّوا هذا الوصْفَ وهُم الذين يملؤون صدور المَجالس، وتمتلئ القلوب من هَيْبَتِهم، وتمتلئُ الأبصارُ من رُؤيتهم، وهذه الصِّفاتُ لا تحصل إلّا في الرُّؤساءِ[2]، فهم الذين يعادون نوحًا عليه السلام على الحقيقةِ، وهم الذين يُحرِّكون الجماهير التَّعيسة من قوم نوحٍ عليه السلام، وهم الذين يمرّون بأنفسهم دون أن يوكلوا ذلك لآحادِ النّاس، ففيه إشارةٌ إلى أنَّهم أصحابُ فضولٍ كبيرٍ، وتراودهم أفكارٌ ومشاعر، كتلك التي راودت قريشًا عند سماعِ القرآنِ، فتناقضت مشاعرُهم بين الرَّغبةِ في المشاهدة، والمقاومة لتلك الرَّغبة، فأبرز النَّظمُ تلك التَّصرفات الرَّعناء، والأفعال الحمقاء، بألفاظٍ دلَّت على المراد، وكشفت عن المقصود.

(1) عبد الكريم الخطيب، التَّفسير القرآني للقرآن: 6/1139، ووهبة الزُّحيلي، التَّفسير المنير: 12/68.
(2) ابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 9/179.

الغرضُ من تنكيرِ: ﴿مَلَأٌ﴾:

أشارتِ الآيةُ بتنكير لفظة ﴿مَلَأٌ﴾ دون تعريفِها إلى أنَّ الذين كانوا يتحرَّكون هم جزءٌ من الملأِ لا جميعهم، ففيه أنَّهم كانوا يقومون بجولاتٍ تفقديَّة، وينقسمون إلى فِرَقٍ، كلُّ فرقةٍ تقوم بدورِها الفاحص حول ما يقوم به نوحٌ عليه السلام، ولو قال: (الملأ)؛ لفُهِمَ أنَّ المرادَ بالملأِ هنا: جميعُهم، والنَّظم أفاد أنَّ الذين يمرُّون هم بعضُ الملأِ، وهذه إشارةٌ إلى أنَّهم كانوا منتظمين على المرور، متناوبين في الأعمال، لسانُ أفعالِهم كلسانِ قولِ المشركين: ﴿وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُواْ وَٱصْبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ ۝٦﴾ [ص: 6].

الملأُ يتقاسمون الأدوارَ، ويتناوبون فيما بينهم خوفًا باعثُه الجهل من القادم

دلالةُ ﴿مِّن﴾:

حرف ﴿مِّن﴾ في قوله تعالى: ﴿مِّن قَوْمِهِۦ﴾ معناه التَّبْعيض[1]، فالملأُ هم بعضُ القوم، وهم قادتهم الذين تصدّوا لمجادلة نوح والمُناضلة عن دينهم، فإنَّ قوم نوح، وإن كان أكثرهم قد كفر بدعوته ورسالته، وما آمن لنوحٍ إلّا قِلَّةٌ قليلةٌ منهم، كما قال الله تعالى: ﴿وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ﴾؛ إلّا أنَّ الذين تَصَدّوا لمجادلته هم الرُّؤساء والأشراف الأغنياء المتبوعون الذين قد جرت العادة باستكبارهم على الحقِّ، ومجادلتهم لرسلهم[2]، فالملأُ هم من قوم نوحٍ عليه السلام الذين ينطقون عن عامَّةِ النّاسِ، وعامَّةُ النّاس يوافقونَهم في العادةِ.

المتصدّون لعداوةِ الحقِّ هم رؤساءُ القوم لا رعاعُهم، والأسيادُ لا الأسيافُ

سرُّ الإضافةِ في ﴿قَوْمِهِۦ﴾:

أُضيف لفظ (القوم) في قولِه تعالى: ﴿مِّن قَوْمِهِۦ﴾ إلى الضَّميرِ العائدِ على نوحٍ عليه السلام؛ لبيانِ أنَّهم يعرفونه، ويعرفون صدقَه وحسنَ سيرته، فكان حريًّا بهم تصديقه واتِّباعه، وأنَّهم القوم أنفسهم الذين خاطبهم، ودعاهم مرارًا، وعايشهم سنين طويلة، فهم من

إعراضُ قوم الدّاعي عن الإيمان حسرةٌ عظيمةٌ ولهفةٌ جسيمةٌ

(1) ابن عادل، اللُّباب في علوم الكتاب: 9/179.
(2) السَّعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 293.

قومه لا من قومٍ آخرين، فالحديث عن ملأٍ من قومه، ممّا يزيد من أسى نوحٍ عليه السلام من عدم إيمانِهم وسخريتِهم وعنادِهم؛ فإنَّ المؤمنَ عظيمُ الأخلاقِ، تزدادُ شفقتُهُ ورحمتُهُ بقومه الذين كابد في سبيل هدايتِهم، وفي طريق يقظتهم.

سخريةُ الملأِ ثابتةٌ في كلِّ زمان والرَّدُّ عليها بما يوافقُ كلَّ مقام

توجيهُ جوابِ الشَّرطِ:

لتعيينِ جواب ﴿وَكُلَّمَا﴾ في قوله تعالى: ﴿وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُواْ مِنْهُۚ قَالَ إِن تَسْخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ﴾ احتمالان:

الأوَّل: أن يكون الجوابُ قولَه تعالى: ﴿سَخِرُواْ مِنْهُۚ﴾، فيكون المعنى: كُلَّما مَرَّ الملأ عليه؛ سخروا، فالسُّخرية مستمرة عند كلِّ مُرور، وتكون جملة ﴿قَالَ إِن تَسْخَرُواْ مِنَّا﴾ استئنافيةً[1]، وتكون الجملة بالشَّرطِ وجوابه كاملةً بقولِه تعالى: ﴿وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُواْ مِنْهُۚ﴾، وحينها لا يدلُّ على أنَّ الإجابة ﴿قَالَ إِن تَسْخَرُواْ مِنَّا﴾ كانت في كلِّ مرَّة يسخر الملأ فيها من نوحٍ عليه السلام، وإنَّما سخريتهم هي التي كانت في كلِّ مرَّةٍ.

الآخر: أن يكون جواب ﴿وَكُلَّمَا﴾ قولَه تعالى: ﴿قَالَ إِن تَسْخَرُواْ مِنَّا﴾، وجملة ﴿سَخِرُواْ مِنْهُۚ﴾ صفة للملأ[2]، فيكون المعنى: (كُلَّما مَرَّ عليه ملأ ساخر؛ قال: إنْ تسخروا منّا)، فهو لا يترك ملأً ساخرًا إلّا رَدَّ عليه، وكلَّما سخر ملأٌ؛ أجابه نوح عليه السلام بقوله: ﴿إِن تَسْخَرُواْ مِنَّا﴾، أي: إنَّ الإجابةَ والرَّدَّ كان في كلِّ سخريةٍ صادرةٍ عن الملأِ المارِّ بنوحٍ عليه السلام[3].

والاحتمالُ الأوَّل أقربُ إلى القبول؛ لما فيه من سلاسةِ التَّوجيه،

(1) أبو حيّان، النَّهر المادُّ: 2/66، والقنوجي، فتح البيان: 3/312.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/149، والنيسابوري، تفسير غرائب القرآن: 4/20.
(3) الزَّمخشري، الكشّاف: 2/394، والآلوسي، روح المعاني: 6/248.

واتساق المعاني، وهو ما يتوافق مع طبيعةِ تعامل الأنبياءِ مع أقوامهم، فإنَّ الصَّواب يقتضي أن يكون الرَّدُّ بما تقتضيه الحكمةُ، وتستحسنه الفكرة.

دلالةُ التعبير بالفعل ﴿سَخِرُواْ﴾:

ذكر المفسِّرون في معنى لفظ السُّخريَّة في الآيةِ معانيَ كثيرةً، تدلُّ على التَّحطيم المعنويِّ، وتكريس ملمح الصِّراع بين الحقِّ والباطل، ومعنى ﴿سَخِرُواْ﴾ العام: هو هزِئُوا منه، وأسمعوه ما يؤذيه من قوارص الكلم، وقالوا عنه ما حكاه القرآن عنهم في قوله تعالى: ﴿فَكَذَّبُواْ عَبۡدَنَا وَقَالُواْ مَجۡنُونٞ وَٱزۡدُجِرَ ۝٩﴾ [القمر: 9][1]، وفي سخريتهم منه وجوهٌ أخرى مذكورةٌ عند المفسِّرين، يحتملها اللَّفظُ القرآنيُّ، ولا ينفر عنها السّياق، وهي وجوهٌ دالَّةٌ على سعة المعنى في اللَّفظِ القرآني، بما يدلُّ على حيويَّته وثرائه:

لا يوفِّر الظّالم المعتدي شيئًا من مظاهرِ السُّخرية وألفاظ الاستهزاء إلّا ذكره

الأول: أنَّهم كانوا يقولون: يا نوح كنتَ تدَّعي رسالة الله تعالى، فَصِرْتَ بعد ذلك نجّارًا.

الثاني: أنَّهم كانوا يقولون له: لو كنت صادقًا في دعواك؛ لكان إلهك يُغنيك عن هذا العمل الشّاق.

الثالث: أنَّهم ما رأوا السَّفينة قبل ذلك، وما عرفوا كيفية الانتفاع بها، وكانوا يتعجَّبون منه، ويسخرون.

الرابع: أنَّ تلك السَّفينة كانت كبيرة، وهو كان يصنعها في موضع بعيدٍ عن الماء جدًّا، وكانوا يقولون: ليس هاهنا ماء، ولا يمكنك نقلها إلى الأنهار العظيمة وإلى البحار، فكانوا يعدّون ذلك من باب السَّفه والجنون.

الخامس: أنَّه لمّا طالت مُدَّته مع القوم، وكان ينذرهم بالغرق،

(1) عبد الكريم الخطيب، التَّفسير القرآني للقرآن: 6/1139.

وما شاهدوا من ذلك المعنى خبرًا ولا أثرًا؛ غلب على ظنونهم كونه كاذبًا في ذلك المقال، فلمّا اشتغل بعمل السَّفينة؛ لا جرم سخروا منه، وكلُّ هذه الوجوه مُحتمَلةٌ[1]، ففي التعبير بالفعل ﴿سَخِرُواْ﴾ إيجازٌ بليغ لشمول كلِّ هاتيك المعاني.

دلالةُ اختلافِ التَّعبيرِ في المقابلةِ:

التَّنبيه على الفرق بين السُّخريَّتين وتغاير المسلكين

في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّا نَسۡخَرُ مِنكُمۡ﴾ تغييرٌ في الأسلوب عن قوله تعالى: ﴿إِن تَسۡخَرُواْ مِنَّا﴾، وذلك بجعله جملةً اسميَّة مصدَّرة بالتَّأكيد للتَّنبيه على الفرق بين السُّخريتين في قوله تعالى: ﴿إِن تَسۡخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسۡخَرُ مِنكُمۡ﴾، أي: سخرية الملأِ وسخرية نوحٍ عليه السلام، وعلى تغاير المَسْلَكَيْنِ، والتَّنبيه بناءً على ظاهره لذمِّهم، وعلى كون سخريتهم أعرفَ عندهم[2]، وهذه عادةُ القرآنِ أن يُنبِّهَ على اختلاف المعاني بوساطةِ اختلافِ التَّعبير في الألفاظِ المتقابلةِ.

دلالةُ المسخورِ منه في الجملة الشرطية:

كثرةُ التّقديرات الدّلاليَّة مقصدٌ أداتُه الإيجاز لدَرْك الإعجاز

اختُلف في تعيينِ المسخورِ منه في جملة الشَّرطِ وجوابِها في قوله تعالى: ﴿إِن تَسۡخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسۡخَرُ مِنكُمۡ﴾ على خمسةِ أقوالٍ، وهي:

الأوّل: إن تسخروا من قولنا؛ فإنّا نسخر من غفلتكم.

الثّاني: إن تسخروا من فعلنا عند بناء السَّفينة؛ فإنّا نسخر منكم عند الغرق[3].

الثّالث: إن تسخروا منّا في الدنيا؛ فإنّا نسخر منكم في الآخرة[4].

الرّابع: إن تستجهلونا؛ فإنّا نستجهلكم[5].

---

(1) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 9/30، وابن الجوزي، زاد المسير: 2/372، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب، 17/345.

(2) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاوي: 10/76.

(3) العِزُّ بن عبد السَّلام، تفسير العزِّ بن عبد السَّلام: 1/283.

(4) ابن جرير، جامع البيان: 15/310.

(5) الخازن، تفسير الخازن: 2/483.

الخامس: إن تسخروا منّا؛ فإنّا نستنصر اللّه عليكم، فسمّى هذا سخرية؛ ليتّفق اللَّفظان كما في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَسۡتَهۡزِئُ بِهِمۡ﴾ [البقرة: 15][1].

وتظهر بلاغةُ التَّقدير في عدم تعيين المسخورِ منه، وإطلاقِ الكلام، وتنزيلِ النَّفس في قوله تعالى: ﴿مِنَّا﴾ منزلةَ المسخورِ منه، فإنَّ مدارَ سُخرية الملأِ نوحٌ عليه السلام ومن معه، كما أنَّ مدارَ سُخريةِ نوحٍ عليه السلام هم الملأُ، فكان ذِكرُ المقصودِ بالسُّخريةِ وحذف القيود المتعلِّقة مرادًا لبيانِ كثرة أصناف السُّخرية التي يوجِّهها الملأُ لنوحٍ عليه السلام ومن معه، وهذا يدلُّ على طول زمانِ السُّخرية، ومرارة المعاناة، ولا يمنع أن تكون هناك تقديراتٌ أخرى سوى المذكور. وما جاء عليه النَّظم الكريم هو عمود البلاغةِ؛ إذِ الإطلاقُ مقصودٌ، وعدمُ التَّقييدِ مرادٌ.

دلالة التَّعبير بالمضارع ﴿تَسۡخَرُواْ﴾ و﴿نَسۡخَرُ﴾:

جاء التَّعبير بالفعل المضارع في قوله تعالى: ﴿إِن تَسۡخَرُواْ مِنَّا﴾، ولم يقل: (إن سخرتم منّا)؛ للدَّلالة على أنَّ السُّخرية قد صدرت عنهم في وقتِ قول نوحٍ عليه السلام: ﴿إِن تَسۡخَرُواْ مِنَّا﴾، أي: (إن تسخروا منّا الآن)، فدلَّ الفعل المضارع على استحضارِ فعل السُّخرية الصّادر عن الملأ؛ ليكون الجواب: ﴿فَإِنَّا نَسۡخَرُ مِنكُمۡ﴾ في المستقبل، أي: إن تسخروا منّا الآن، فتستمرّوا على سخريتكم، وتصرّوا عليها؛ فإنّا نسخرُ منكم في المستقبل بسببِ عنادِكم على سخريَّتكم التي هي كنايةٌ عن الكفر، فاستحضار سخرية الملأِ لغرضِ إقامة الدَّليل على استحقاقهم السُّخرية في المستقبل، وهي العقوبةُ في الدُّنيا غرقًا، وفي الآخرةِ عذابًا.

سخريةُ الملأِ كنايةٌ عن الكفر، وسخرية المؤمنين كنايةٌ عن عقوبة الدُّنيا وعذاب الآخرة

سرُّ اختلافِ مقابلةِ الجمعِ للمفردِ في ﴿مِنۡهُۚ﴾ و﴿مِنَّا﴾:

في قوله تعالى: ﴿سَخِرُواْ مِنۡهُۚ قَالَ إِن تَسۡخَرُواْ مِنَّا﴾ جاء التَّعبير

(1) ابن الجوزي، زاد المسير: 2/372.

السُّخريةُ من النَّبيِّ تستلزمُ السُّخرية من الأتباعِ

القرآنيُّ عن جواب نوح عليه السلام بضمير الجمع (نا) دون أن يقول: (إن تسخروا مني)؛ وذلك: إمّا لأنَّ سُخريَّتهم منه عليه السلام سخريَّةٌ من المؤمنين عن طريق دلالةِ اللُّزوم، فإنَّ من سخر من الدّاعي؛ فهو ساخرٌ بمن آمن به أيضًا، وإمّا لأنَّهم كانوا يسخرون من نوحٍ عليه السلام والمؤمنين معًا، إلّا أنَّه اكتفى بذكر سخريَّتهم منه عليه السلام في قوله تعالى: ﴿سَخِرُواْ مِنۡهُ﴾ باعتبارِه صاحب الرِّسالة، وهذا يدخل كذلك في دلالةِ اللُّزوم؛ ولذلك تعرَّض الجميع للمجازاة في قوله تعالى: ﴿نَسۡخَرُ مِنكُمۡ﴾، فتكافأ الكلام من الجانبين[1]، فاكتفى النَّظمُ القرآنيُّ بذكر ضمير الإفرادِ للتَّنبيه على أنَّه المقصودُ أصالةً، وهذا من كلام الله تعالى في ذكر الحدث، وجمع الضَّمير لمّا كان الكلام جاريًا على لسانِ نوحٍ عليه السلام؛ لبيانِ أنَّه والمؤمنين يدٌ واحدةٌ، فكان إفرادُ الضَّمير في الإخبارِ عن الحدث، وجمعه في نقل كلام نوحٍ عليه السلام بلاغةً عاليةً لا يُضاهيها كلامٌ آخر.

دلالة التَّعبير بالمضارع: ﴿نَسۡخَرُ﴾:

قَصْدُ المجازاة في الدُّنيا بالغرق وفي الآخـــرة بالحرق

ذكر النّظمُ القرآنيُّ ردَّ نوحٍ عليه السلام على الملأِ بصيغة الفعل المضارع ﴿نَسۡخَرُ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّا نَسۡخَرُ مِنكُمۡ﴾، ولم يقل: (سنسخر منكم) أو (سوف نسخر منكم)، وذلك أن الفعل (نسخر) يحتمل الحال والاستقبال، وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّا نَسۡخَرُ مِنكُمۡ﴾ يحتمل أنَّهم يسخرون من الكافرين في الحال لعدم معرفتهم بما سيحيق بهم وهم لاهون عابثون ساخرون، وهؤلاء يستحقون أن يُسخر منهم في هذه الحال والمستقبل أيضًا، عندما يحلُّ عليهم العذاب، فيأخذهم الطوفان، فيغرقهم أجمعين، ويسخرون منهم في الآخرة، وهم في السَّعير[2].

(1) الآلوسي، روح المعاني: 6/248.
(2) السّامرائي، على طريق التَّفسير البياني: 3/150.

فقوله: ﴿فَإِنَّا نَسۡخَرُ مِنكُمۡ﴾ يستوفي حال نوحٍ والمؤمنين مع الكافرين، في حال سخريَّتهم، وعند الغرق، ويوم يُبعث النّاس لربِّ العالمين في القيامة، ولذا قيل: يكون ذلك في الدُّنيا عند الغرق، وفي الآخرة عند الحرق[1]، فهو استيعابٌ للحاضرِ والمستقبل القريبِ والبعيد، وهذا أدقُّ في تعيينِ المراد.

التعبير بالسخرية بين المشاكلة والمجاز:

سخريةُ الأنبياءِ من السّاخرين منهم مجازاةٌ عادلةٌ، وإصابةٌ ناجزةٌ

في قوله تعالى: ﴿نَسۡخَرُ مِنكُمۡ﴾ أثار بعض المفسِّرين سؤالًا، مفاده أنَّ السُّخريَّة من آثار المعاصي وإطلاقها على قوم نوحٍ حقيقةٌ، فكيف يليق صدورها من الأنبياء عليهم الصَّلاة والسَّلام؟ والجواب عن ذلك بأحد الأوجه الآتية:

الأوّل: أن تكونَ من قبيل المُشاكلة؛ لأنَّها لا تليق بالأنبياء عليهم السلام، فجيء بالألفاظِ المشاكلةِ للألفاظِ التي قالها القوم جزاءً وفاقًا.

الثّاني: أن يكون الكلام من قبيل المجاز المرسل بعلاقة السَّببيَّة؛ لأنَّ الاستجهال سببٌ للسُّخرية، فأُطلقت السُّخرية، وأريد سببها[2]، والمعنى: إن تستجهلوني؛ فإنّي أستجهلكم فيما أنتم عليه من الكفر والتَّعرُّض لسخط الله وعذابه، فأنتم أولى بالاستجهال منّا، أو إن تستجهلونا؛ فإنّا نستجهلكم في استجهالكم؛ لأنَّكم لا تستجهلون إلّا عن جهل بحقيقة الأمر. واستجهاله لهم باعتبار إظهاره لهم ومشافهتهم، وإلّا فهم عنده جُهّال قبل هذا وبعده[3]، وبناء على ظاهر الحال كما هو عادة الجهلة في البُعد عن الحقائق[4].

الثالث: أن تُحمل على المجازاةِ بالمقابلةِ، ويكون الاستعمالُ

(1) الآلوسي، روح المعاني: 6/248.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 6/248.
(3) القِنَّوجي، فتح البيان: 3/312.
(4) الزَّمخشري، الكشّاف: 2/393، والخازن، تفسير الخازن: 2/483.

حقيقيًّا، والمعنى: إن تسخروا منا فسترون عاقبة سخريتكم[1]؛ فالمقصود من هذه السُّخرية إصابة جزاء السُّخرية، وكلُّ أحدٍ إنَّما يُجازى من جنس عمله لا من خلاف جنسه، فالآية نظير قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضۡحَكُونَ ٢٩﴾ [المطففين: 29]، وقال بعدها في الجزاء: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلۡكُفَّارِ يَضۡحَكُونَ ٣٤﴾ [المطففين: 34] ثُمَّ تمَّمَ بقوله تعالى: ﴿هَلۡ ثُوِّبَ ٱلۡكُفَّارُ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ٣٦﴾ [المطففين: 36]؛ فسمّيتِ المقابلةُ سُخريَّة، كما في قوله تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ﴾ [الشّورى: 40][2].

فهي منه عليه السلام على الحقيقة لمّا كانت لجزائهم من جنس صنيعهم؛ فلا تَقبحُ، ولا حاجة لارتكاب خلاف الظّاهر؛ فلا مانع من أن يُراد الظّاهر، ولا ضرر في ذلك؛ ومن هُنا قال بعضهم: إنَّ في الآية دليلًا على جواز مُقابلة الجاهل والأحمق بمثل فعله، ويشهد له قوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ بِمِثۡلِ مَا ٱعۡتَدَىٰ﴾ [البقرة: 194]، وقوله تعالى: ﴿وَإِنۡ عَاقَبۡتُمۡ فَعَاقِبُواْ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبۡتُم بِهِۦۖ﴾ [النّحل: 126] إلى غير ذلك[3]، أي: أنتم محلُّ السُّخرية والاستهزاء، لأنَّ من كان على أمرٍ باطلٍ؛ فهو أحقُّ بالاستهزاء و السُّخرية، وعليه فلا حاجة لكون الكلام من باب المشاكلة[4].

غرضُ التوكيد في: ﴿فَإِنَّا نَسۡخَرُ مِنكُمۡ﴾:

ثـقـةُ الـنَّـبـيِّ بـالـموعـود كـأنَّـه مُـشـاهـد قـبـل الـوجـود

ورد مؤكِّدان في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّا نَسۡخَرُ مِنكُمۡ﴾، هما: أداة التوكيد: (إنَّ)، واسميَّة الجملة؛ بقصد توكيد وقوع المعنى لا محالة؛ لأنَّه وعد الله للمتَّقين، بأن ينتهي بهم الحال بالتَّمكين؛ فنظر نوح

(1) البغوي، معالم التّنزيل: 4/175.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/345.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 6/248.
(4) الصّاوي، حاشية الصّاوي على الجلالين: 2/135.

عليه السلام إلى الموعود بطرف التَّصديق، فكان كالمُشاهد له قبل الوجود[1]، وتأكيدُ السُّخرية هو كنايةٌ عن وقوعِ العذاب.

معنى الكافِ في ﴿كَمَا﴾:

تعليلُ الأعمالِ للمخالفِ أدعَى لقبولِها وأبيَنُ في حضورِها

يجوز في (الكاف) في قوله تعالى: ﴿كَمَا تَسْخَرُونَ﴾ احتمالاتٌ عدَّة:

الأول: أن تكون اسمًا بمعنى (مثل)، مبنيًّا على الفتح في محلِّ نصب صفة.

الثّاني: أن تكون نائبًا عن المفعول المطلق المحذوف، بتقدير: (نسخر منكم سخريَّة مثل سخريتكم).

الثالث: أن تكون تعليليَّة كالتي في قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ﴾ [البقرة: 198]، والمعنى: فإنّا نسخر منكم؛ لأنَّكم تسخرون منا، فيُفيد التَّفاوتَ بين السُّخريَّتَيْن؛ لأنَّ السُّخرية المعلَّلَة أحقُّ من الأخرى، فالكفار سَخروا من نوحٍ عليه السلام لعملٍ يجهلون غايته، ونوح عليه السلام وأتباعه سخروا من الكفار لِعلمهم بأنَّهم جاهلون في غرور، كما دَّل عليه قوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ بعد ذلك؛ وبذلك يتَّضح وجه التَّشبيه في قوله تعالى: ﴿كَمَا تَسْخَرُونَ﴾ فهو تشبيه في السَّبَبِ الباعث على السُّخرية، وإن كان بين السَّببين بونٌ[2]، فالمعنى: إنّا نسخر منكم سخرية متحقِّقة واقعة، كما تسخرون منّا كذلك، أو متجدِّدة متكرِّرة، كما تسخرون منّا كذلك، وهذا التَّشبيه واقع إمّا في مجرَّد التَّحقُّق والوقوع، وإمّا في التَّجدُّد والتَّكرُّر حسبما صدر عن ملأ بعد ملأ[3].

(1) القشيري، لطائف الإشارات: 2/136.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 12/68.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 6/248.

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

(يصنعون) و(يعملون) و(يفعلون):

الصُّنْعُ أخَصُّ المعاني الثَّلاثَةِ وأرْسَخُها، والفعل أعَمُّها، والعَمَلُ أوْسَطُها

الفِعْلُ لَفْظٌ عامٌّ يَدُلُّ عَلَى إحْداثِ شَيْءٍ منْ عَمَلٍ وغَيْرِه[1]، فَهو مُطْلَقُ التَّأثيرِ من جهة مُؤَثِّرٍ[2] سواء كان عن سبب أم لا، ويُقال لِما كان بإجادة وبدونها، ولِما كان بِعِلْمٍ أو غَيْرِ عِلْمٍ، وقَصْدٍ أو غَيْرِ قَصْدٍ[3].

وأمّا العمل؛ فهو عبارة عن إيجاد الأثر في الشَّيءِ مع امتداد زمان، ولا يُقالُ إلّا لما كان بقصد وعِلْمٍ دون ما لم يكن عن قصد وعلم، قال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [البقرة: 25]، فعبَّر عن ذلك بالعمل؛ لأنَّه لا يكون إلّا بِقَصْدٍ وامتداد زمان.

وأمّا الصُّنْعُ؛ فَهو: تَرْتيبُ العَمَلِ وإحْكامُهُ على ما تَقَدَّمَ عِلْمٌ به، وبما يوصِلُ إلى المُراد منه، ولذا قيل لِلْعِلْم المُتَعَلِّقِ بكيفيَّةِ العملِ: صناعةٌ[4]، ويَدُلُّ على رسوخ العَمَلِ وإجادَتِه، فَيُقالُ للنَّجار: صانِعٌ؛ لأنَّ النَّجار قد سَبَقَ عِلْمُهُ بما يُريدُ عَمَلَهُ، وعَلِمَ بالأسبابِ التي توصِلُ إلى المُراد من ذلك والصُّنْع.

فالصُّنْعُ أخَصُّ المَعاني الثَّلاثَة، والفعل أعَمُّها، والعَمَلُ أوْسَطُها؛ فكلُّ صُنْعٍ عَمَلٌ، وليس كُلُّ عَمَلٍ صُنْعًا، وكلُّ عملٍ فِعْلٌ، وليس كُلُّ فِعْلٍ عَمَلًا[5].

السُّخرية والاستهزاء:

الفرق بينهما من وجهين: لفظيٍّ ومعنويٍّ

فأمّا اللَّفظيُّ؛ فالغالبُ في فِعْلِ الاسْتِهْزاءِ أنْ يتعدَّى بـ (الباء)، والغالب في فعل السُّخريَّة أن يتعدّى بحرف (من)، وتعديةُ كلِّ واحدٍ بالحرف المذكورِ مُطَّردٌ في القرآنِ الكريم لا يتخَلَّفُ، ولكنْ ورَدَ منْ غير الغالبِ في كلام العربِ[6].

---

(1) ابن فارِس، مقاييس اللّغةِ: (فعل).
(2) الرّاغب، المفردات: (فعل).
(3) المناويّ، التّوقيف على مهمّاتِ التّعاريفِ، ص: 262.
(4) الجرجانيّ، التّعريفات، ص: 134.
(5) العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 134.
(6) الزبيدي، تاج العروس: 11/521.

وأمّا المعنويُّ؛ فَيَظْهَرُ بملاحظَةِ أصْلِ المادَّةِ؛ فالسُّخريَّةُ مَلْحوظٌ فيها مَعْنى التَّسْخيرِ والطّاعة؛ والمسخِّرُ غيرَه يَراه دونَهُ، فيتَّصِفُ بالكِبْرِ والطُّغيان[1]، فالسّاخِرُ مُتكبِّرٌ في تعامُلِهِ مع المَسْخورِ منْهُ، كما في قوله تعالى: ﴿وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُواْ مِنْهُ﴾[2].

أمّا الاسْتِهْزاءُ؛ فَمَلْحوظٌ فيه معنى الخِفَّة والحركة اللّاهيَة، وهو ما يورِّثُ لَدَى المستهزئِ معنى الاستخفافِ والاسْتِصْغارِ بالمهزوءِ بِهِ، وعليه فمعنى الكِبْرِ والطُّغيان أوْضَحُ في كلمة السُّخريَّةِ، ومعنى الاستخفافِ والاحتقارِ أوْضَحُ في كلمةِ الاِسْتِهْزاء، وهما يشتَرِكان في أصل المعنَى، فإذا اجتَمعا؛ افترقا، وإذا افترقا؛ اجْتَمَعا.

وهنالك أمران يُذكران في الاستعمال القرآنيِّ لهذين اللَّفظين: أوَّلهما: أنَّ الاستهزاء عامٌّ سواء تعلَّق بالأشخاص أم بغير الأشخاص، قال تعالى: ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوًا﴾ [المائدة: 58] فالصَّلاة ليست شخصًا، وإنَّما أقوالٌ وأفعالٌ، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا﴾ [الجاثية: 9]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا﴾ [البقرة: 231]، فالاستهزاء عامٌّ في الأشخاص وفي غير الأشخاص، أمّا السُّخرية؛ فتكون من الأشخاص تحديدًا، قال تعالى: ﴿وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُواْ مِنْهُ قَالَ إِن تَسْخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ﴾؛ فالاستهزاء أعمُّ من السُّخرية.

والأمر الثّاني: أنَّ الإنسان يُستهزَأُ به من غير أن يسبقَ منه فعلٌ يُستهزَأ به من أجله، والسُّخرية تدلُّ على فعلٍ يسبقُ من المسخور منه، وذلك أنَّك تقول: استهزَأْتُ به، فتعدّي الفعل منك بالباء، والباء للإلصاق، كأنَّك ألصقت به استهزاءً من غير أن يدلَّ على شيء وقع الاستهزاء من أجله، وتقول: سخرتُ منه، فيقتضي ذلك من وقع السُّخر من أجله، كما تقول: تعجَّبت منه، فيدلُّ ذلك على فعلٍ وقع التعجُّب من أجله[3].

فالسُّخرية تتعلَّق بالأفعال، أمّا الاستهزاء؛ فلا يتعلَّق بالفعل؛ فقوم نوحٍ مثلًا سخروا منه، وهو يصنع الفلك، وهذا عملٌ، وهم سخروا من فعلٍ يفعله، ومثله قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ﴾ [التَّوبة: 79] هذا فعل.

(1) القاضي عياض، مشارق الأنوار: 2/209، والصُّحاري، الإبانة في اللُّغة العربيَّة: 3/224.
(2) العسكريّ، الفروق اللُّغويَّة، ص: 50، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 7/147.
(3) المصطفوي، التَّحقيق في كلمات القرآن: 5/76.

﴿فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ مَن يَأۡتِيهِ عَذَابٞ يُخۡزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيۡهِ عَذَابٞ مُّقِيمٞ ٣٩﴾ [هود: 39]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

عند التَّمادي بالاستهزاء يجب التَّنادي بالاستخزاء

لمّا كان مدار سخريَّة قوم نوح استجهالَهُم إيّاه عليه السلام في مكابدة المشاقِّ الفادحة لدفع ما لا يكادُ يدخل تحت الصِّحة على زعمهم من الطّوفان ومقاساة الشَّدائد في عمل السَّفينة، وكانوا يَعُدّونه عذابًا، فلمّا جهلوا حقيقة السَّفينة والغرض منها، ولم يحسبوا لمخبّآت الدَّهر ومُلِمّاته، فاسترسلوا مع أهوائهم يهزؤون، ويسخرون، قيل بعد استجهالهم: ﴿فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ﴾ من يُعذَّب[1]، فالمناسبة بين الآيتين هو أنَّ الأولى وصفٌ لواقع المجرمين بالتَّمادي بالاستهزاءِ والسُّخرية، فجاءتِ الآيةُ الثّانية لبيانِ مآل هذا الاستهزاء، وهو طلبُ الاستخزاء، وإلحاق العار بهم في الدُّنيا، والعقوبة في الآخرة.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يُخۡزِيهِ﴾: أصْلُ الخِزْي ذلٌّ يُسْتَحَى منْهُ؛ ولذلكَ يُسْتَعْمل في كلٍّ منهما، أي: الذُّلُّ والاسْتِحْياء[2]، وقيل: أصلُه: الإبعاد، فقولُهُم: أخْزاهُ اللّه، أي: أبْعَدَهُ ومَقَتَهُ[3]، والخِزْيُ الفَضيحةُ، وقَدْ خَزِيَ يَخْزى خِزْيًا؛ إذا افْتَضَحَ وتَحيَّرَ فَضيحَةً[4]، الخِزْيُ أيضًا: السّوء[5]، والهَوانُ[6]، والمقصود بالخزي في الآية: الإهانَةُ والذُّلُّ[7].

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/207، والآلوسي، روح المعاني: 6/250.
(2) الزَّبيدي، تاج العروس: (خزي).
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (خزي).
(4) ابن منظور، لسان العرب: (خزي).
(5) الخليل، العين، والأزهريُّ، تهذيب اللُّغة، وابن عبّاد، المحيط في اللُّغة: (خزي).
(6) الزَّبيدي، تاج العروس: (خزي).
(7) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/290.

2) ﴿وَيَحِلُّ﴾: أصلُ الحَلِّ فَتْحُ الشَّيء[1]، ومنه حَلَّ المسافر عُقَدَ أحمالِه لينزِل بالمكان، ثمَّ جُرِّد استعمالُه للنُّزول[2]، والحِلَّة هيئة النُّزول، ومكانه والنّازلون[3]، والمَحَلَّةُ: المكانُ يَنْزِلونَ فيه[4]، يُقال حَلَّ يَحُلُّ حُلولًا؛ إذا نزل، والمعنى هُنا: ينزلُ عليه عذاب دائمٌ[5].

3) ﴿مُّقِيمٌ﴾: أصل (قوم) يدلُّ عَلَى انْتِصابٍ؛ يُقال: قامَ قيامًا؛ إذا انْتَصَبَ[6]، والمُقام يُقال للمصدر والزَّمان والمكان والمفعول[7]، يُقال: أقامَ الشَّيْءَ يُقيمه إقامَةً؛ إذا أدامَهُ، ومنْهُ قَوْلُهُ تَعالَى: ﴿وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [البقرة: 3][8]، فيُعبَّر بالإقامة عن الدَّوام والاستقرار، كقوله تعالى: ﴿عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾؛ يعني: هو دائمٌ مستمرٌّ، ولا ينقطع أبدًا[9].

المَعْنى الإجْماليُّ:

جزاءُ السُّخرية الطَّويلة الخزيُ واستمرارُ العذاب

تقصُّ الآيةُ خطابَ نوحٍ عليه السلام بعد أن سخر قومُه من صنع الفلك، موجِّهًا كلامَه لجملتهم بخطابٍ تهديديٍّ أخير ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾، وقد ذكرتِ الآيةُ صفتين للعذاب في الدُّنيا والآخرة، الأولى: الخزي، والأخرى: الدَّوام، وهاتان الصفتان عذابان فوق العذاب، فكيف يكون العذاب؟ وذلك يكون جزاءً وفاقًا، فإنَّ من سخر من المؤمنين سيُخزى، ومن أدام السُّخرية؛ حُقَّ له دوام العذابِ.

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (حلل).
(2) الفيروز آبادي، بصائر ذوي التَّمييز: 2/493، والرّاغب، المفردات: (حلَّ).
(3) الأزهري، تهذيب اللُّغة، مادَّة: (حل)، وجبل، المعجم الاشتقاقيُّ المؤصّل: (حلل).
(4) ابن عبّاد، المحيط في اللُّغة: (حلل).
(5) السَّمرقندي، بحر العلوم: 2/150، والقنوجي، فتح البيان: 6/178.
(6) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: 5/43.
(7) الفِيروزباديّ، بصائر ذوي التَّمييز: 4/311، والأحمد نكري، دستور العلماء: 3/216.
(8) الرازي، مختار الصِّحاح، والجوهري، الصِّحاح: (قوم).
(9) الرّاغب، المفردات، والسَّمين الحلبي، عمدة الحفّاظ: (قوم)، وابن كثير، تفسير القرآن الكريم: 4/277.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

معنى الفاء في ﴿فَسَوْفَ﴾:

التَّهديدُ بالعذابِ نتيجةٌ لازمةٌ عند الإفراطِ في السُّخرية

الفاء في قوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ تحتمل معنيين:

الأوَّل: أن تكون استئنافيَّة سببيَّة؛ إذ سَبَقَهُ ذِكر وعدٍ يجري مجرى السَّبب[1]؛ لأنَّه لما كان قوله: ﴿نَسْخَرُ مِنكُمْ﴾ واقعًا موقع هذا الإخبار، وهي ذاتها معنى الفاء التَّفريعيَّة، وهي التي يُذكر ما بعدها نتيجةً لما قبلها، فهذا التَّهديد هو تفريعٌ على جملة ﴿فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ﴾ أي: سيظهر من هو الأحقُّ بأن يُسخر منه[2]، فقوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ تفريعٌ على الجملة الشرطيَّة السّابقة ﴿إِن تَسْخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ﴾، فالتَّفريعيَّة والسَّببيَّة ملتقاهما واحدٌ؛ إذِ التَّفريع هو إنشاءُ معنًى متفرِّعٍ عن السّابق، ففيها معنى الاستئنافِ والسَّببيَّة.

الآخر: أن تكون عاطفةً جيء بها تهديدًا لأولئك السّاخرين[3]، فأضاف نوحٌ عليه السلام إلى تهديدهم تهديدًا آخر بقوله: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾[4].

وهذه التوجيهات الاصطلاحيَّة للفاءِ تلتقي في كون ما بعدها نتيجةً لما قبلها، فالتَّهديد نتيجة السُّخرية، وهي ردٌّ عادلٌ لمن تصدَّى للحقِّ، وركب متن الحماقة، بدلًا من ركوب متن النجاة.

توجيه المتشابه اللَّفظي:

إدخال الفاء ونزعُها للتَّفنُّن في البلاغة مع أنَّ نَزْعَها أبلغُ في التَّهويل

إدخال الفاء في قوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ﴾ وصلٌ ظاهرٌ بحرفٍ موضوعٍ للوصل - كما سبق بيان ذلك - لاسيَّما على جعل الفاء تفريعيَّةً للجملة السّابقة ﴿قَالَ إِن تَسْخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ﴾.

---

(1) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاوي: 10/77. والدَّعاس، إعراب القرآن الكريم: 2/56.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 12/69.
(3) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 9/33، وابن عطيَّة الاندلسي، المحرَّر الوجيز: 3/170.
(4) طنطاوي، التَّفسير الوسيط: 7/203.

وأمّا حذفها في قوله تعالى: ﴿سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ مَن يَأۡتِيهِ عَذَابٞ يُخۡزِيهِ﴾ [هود: 93]؛ فهو وصلٌ خفيٌّ تقديريٌّ إمّا بالاستئناف البيانيِّ الذي هو جوابٌ لسؤالٍ مقدَّر، كأنَّهم قالوا: فماذا يكون إذا عَملنا نحن على مكانتنا، وعملت أنت على مَكانَتِكَ؟ فقال: سوف تعلمون، وإمّا من باب البدل؛ فهو كمال اتِّصال؛ إذ جملة ﴿وَيَٰقَوۡمِ ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ إِنِّي عَٰمِلٞۖ﴾ أفادت التَّهديدَ، وكذلك جملة ﴿سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ مَن يَأۡتِيهِ عَذَابٞ يُخۡزِيهِ﴾، وكلتاهما للمستقبل، فجاءت كلُّ جملةٍ بما يُناسبها من ذكر الفاءِ وحذفها.

دلالة استعمال ﴿فَسَوۡفَ﴾ دون (السين):

الخزيُ للسّاخرين واقعٌ حتمًا وإن طالَ زمانه

نلحظ في قول الحقِّ ﷻ: ﴿فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ﴾ أنَّ الفعل الذي يعلمه نوح عليه السلام، وهو أمر الإغراق سيحدثُ مُستقبلًا؛ لأنَّ الكلام عن حدثٍ لم يأتِ زمنه، فالأمر يقتضي أن يُسبق الكلام عن الاستقبال البعيد، فجيء بكلمة ﴿فَسَوۡفَ﴾؛ لأنَّ نوحًا عليه السلام قضى العديد من السِّنين، وهو يصنع السَّفينة قبل أن يقع الإغراق، فجاء بـ﴿فَسَوۡفَ﴾؛ لتدلَّ على أوسع مدًى زمنيٍّ[1]، كما أنَّ فيها معنى التَّوكيدِ، فهو يُؤكِّد لهم أنَّه مهما طال الزَّمان؛ فسيقع العلمُ بإتيان العذاب المخزي، والعذاب الدّائم.

سرُّ التعبير بقوله: ﴿فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ﴾:

أبلغ ردٍّ على الساخرين التهديد والوعيد

جيء بهذه الجملة لتحقيق العلم؛ لأنَّه سيكون علمَ معاينةٍ لا علم إخبارٍ به، وهذا وعيدٌ لهم[2] وتهديدٌ جزاء سخريتهم، وقد اختيرت مفردة العلم في قوله تعالى: ﴿فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ﴾ لبيانِ وقوع عاقبة التَّكذيب والاستهزاء، أو لبيان من هو أحقُّ بالسُّخرية، ومن هو أحمد عاقبةً[3]، وجَعْلُ العلم بمعنى المعرفةِ راجعٌ إلى أنَّه لمّا كان

(1) الشَّعراوي، تفسير الشَّعراوي: 11/6468.
(2) السمرقندي، تفسير السَّمرقندي: 2/150.
(3) ابن الجوزي، زاد المسير: 2/372، والرّازي، تفسير الفخر الرّازي: 17/346.

مدارُ سخريتِهم استجهالَهم إياه ﷺ في مكابدة المشاقِّ الفادحةِ لدفع ما لا يكادُ يدخُل تحتَ الصِّحةِ على زعمهم من الطّوفان ومقاساةِ الشَّدائِد في بناء السفينةِ، وكانوا يعدّونه عذابًا، قيل بعد استجهالِهم: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ مَنْ يَأْتيهِ العذابُ، يعني: أنَّ ما أُباشرُه ليس فيه عذابٌ لاحقٌ بي، فسوف تعلمون مَنِ المعذَّبُ؟ ولقد أصاب العلمُ بعد استجهالِهم مَحزَّهُ[1]، فناسبَ لفظُ العلم بما سيقع عليهم معنى الاستجهال الصّادر عنهم، أي: إذا كنتم ترونَنا جهلةً؛ فتسخرون منّا، فإنَّنا نحن من يُعلِمكم بما سيكون، فأتى على الضِّدِّ من استجهالِهم، وهو تعليمهم؛ ففيه معنى التَّهكُّم.

توجيهُ معنى فعل: ﴿تَعْلَمُونَ﴾:

يحتملُ الفعلُ ﴿تَعْلَمُونَ﴾ معنيين، وهما: الأوَّل: أن يكون من باب اليقين فيتعدَّى لاثنين.

والآخر: أن يكونَ فعل ﴿تَعْلَمُونَ﴾ من باب العِرفان، فيتعدّى لواحد.

والمعنيان قويّان في السّياق، لكنَّ المعرفة هي المرادةُ في الآيةِ؛ إذ هو يُخبرهم بأنَّهم سيعرفون الذي يأتيه عذابٌ يُخزيه، وأمّا العلم اليقينيُّ؛ فهو تحصيلُ حاصلٍ بعد وقوعِ العذابِ، وعليه فإخبارُ نوحٍ ﷺ وقت أن خاطبَهم بقولِه: ﴿تَعْلَمُونَ﴾ أريدَ بالعلم العرفانُ، وهو ما يقتضيه لفظُ ﴿تَعْلَمُونَ﴾ في السّياق، أمّا كونهم بعد تحقُّقِ العلم سيستيقنون؛ فهذا من اللّازم السّياقي لا اللّازم اللَّفظيِّ.

معنى المعرفةِ هو الألصقُ بفعل العلم سياقًا ومقامًا ودلالةً، واليقين حاصلٌ باللُّزوم

نكتةُ إسنادِ فعلِ العلم ﴿تَعْلَمُونَ﴾:

أسندَ النَّظم الكريم - في قولِه تعالى: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ - فعل ﴿تَعْلَمُونَ﴾ إلى واو الفاعل العائدِ على المخاطَبين، وهم السّاخرون، دون أن يأتي بضميرٍ مشارِكٍ للطَّرفين؛ المخاطَب والمتكلِّم، بأن يقال:

مقصودُ الخطابِ يتبعه اختيارُ النَّظم وبراعةُ التَّعبير

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السليم: 4/207.

(فسوف نعلم)، إيماءً إلى أنَّ المُخاطَبين هم الأحقُّ بعلم ذلك؛ لأنَّ الخطابَ خطابٌ تهديديٌّ، فتوجيهه إلى المهَدَّدِ هو المقصود أصالةً، فجاء النَّظم على ما يقتضيه الظّاهر والحال معًا، وهذا يُفيد بأنَّ من هو على الحقِّ، لا تزعزعه سفاهة السُّفهاء، بل عليه هو وأتباعه أن يسخروا من السّاخرين، ليقينهم بأنَّ العاقبة لهم دونهم[1].

دَلالَةُ ﴿مَن﴾:

مجيءُ العذابِ يحتاجُ إلى تعيين صاحبِه لتهديدِه ووعيدِه

تحتمل ﴿مَن﴾ في قوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ﴾ معنيين:

الأوَّل: الاستفهام، فتكون ﴿مَن﴾ وما بعدها سادَّةً مَسَدَّ المفعولين، على جعل ﴿تَعْلَمُونَ﴾ بمعنى اليقين، ومفعولًا لفعل ﴿تَعْلَمُونَ﴾ على معنى العرفان.

الآخر: الموصوليَّة، فتكون ﴿مَن﴾ إمّا في موضع المفعول الأوَّل، والثّاني: محذوف، وقد جوَّز هذا الوجه طائفةٌ من المفسِّرين، كابن عطيَّة - رحمه الله تعالى - حين قال: "وجائز أن تكون التعدية إلى مفعولين، واقتصر على الواحد"[2]، ومنعه آخرون[3]، وإمّا أن تكون مفعولًا لفعل ﴿تَعْلَمُونَ﴾ على معنى العرفان.

وحملُها على الموصوليَّة أوضحُ دلالةً، لاسيَّما على ترجيح معنى المعرفة في الفعل ﴿تَعْلَمُونَ﴾، أي: فسوف تعلمون الذي يأتيه عذابٌ يُخزيه.

سرُّ إيثارِ الغَيْبةِ في ﴿يَأْتِيهِ﴾:

دفعُ المُجادلةِ وقَطْعُ الخصومةِ حكمةُ الرُّسلِ في مواضعِ النِّهايات

في قوله تعالى: ﴿مَن يَأْتِيهِ﴾ تَرْكٌ للتَّصريح بذكْرِ الذين سخروا من صنعِ الفلك، والمواجهة لهم - فذكَّر بطريق المُنصفين - لأنَّ هذا أدخل في دفع مُجادلتهم الباطلة وقطع خصومتهم

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 12/69.
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 3/170.
(3) السَّمين الحلبيُّ، الدُّرُّ المصون: 4/98.

الفاسدة[1]، فإنَّه آثر الإخبار عن ذلك بطريق الغيبة لا الخطاب لدفعِ مجادلتهم عن أنفسِهم، فإنَّهم مبادرون في السُّخرية، فكيف بدفاعِهم عن أنفسهم؟

دلالةُ إسناد فعل الإتيان إلى العذاب:

مفاجأةُ العذاب للظّالمين عذابٌ فوق العذاب

إتيانُ العذاب – في قوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ﴾ – حلوله وحصوله، وهو مجازٌ عقليٌّ؛ لأنَّ حقيقة الإتيان المجيء، وهو الانتقال من موضع بعيد إلى الموضع الذي استقرَّ فيه مفعول الإتيان، فيُطلق مجازًا على حصول شيء لم يكن حاصلًا، وأُسند فعل ﴿يَأْتِيهِ﴾ إلى العذاب المخزي؛ لأنَّ الإتيان مُشعرٌ بأنَّه يُفاجئهم، كما يأتي الطّارق؛ وكذلك إسناد فعل ﴿وَيَحِلُّ﴾ إلى العذاب المقيم[2].

نكتةُ الاستعارةِ في لفظِ الإتيانِ:

تشبيه وقوع العذاب بالإتيان استعارةٌ تصريحيَّة

شبَّهتِ الآيةُ – في قوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ﴾ – وقوعَ العذابِ المفاجئ بالسّاخرين من قوم نوحٍ عليه السلام بالإتيان، على طريق الاستعارة التَّصريحيَّة التَّبعيَّة، لما في ذلك من تأكيدِ الإتيانِ، بتجسيده في أذهان المخاطَبين؛ فإنَّ المعاني إذا تجسَّدت؛ فُهمت.

دلالةُ التّنكير في: ﴿عَذَابٌ﴾:

العذابُ الآتي عظيمٌ في وقوعه هائلٌ في آثارِه

تنكيرُ ﴿عَذَابٌ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ في الموضعين لتعظيمه وتفخيمه وتهويل أمره بحسب المُدَّة؛ فالعذاب الأوَّل: وهو عذاب الخزي، وإن كان في الدُّنيا؛ فإنَّ شدَّته بالغةٌ وألمَه عظيمٌ؛ وأمّا عذاب الآخرة المقيم؛ فهو نوعٌ منه مجهولُ الكمِّ والكيف، لا يَعلم شِدَّته وعظمته إلّا اللّه تعالى، فأفاد التَّنكير النَّوع، مع استحضارِ التَّعظيم والتفخيم والتَّهويل، وهي معانٍ مستقاةٌ من السّياق.

(1) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاوي: 10/77.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 24/21.

سرُّ وصف العذاب بالجملة الفعلية:

من أرادَ الخزيَ لأهل الكرامةِ لَحِقَه بلا كرامة

وُصِفَ العذابُ - في قولِه تعالى: ﴿عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ - بجملة فعلية، فعلُها مضارع للتنبيه على أنَّ الخزي متجدِّدٌ مستمرٌّ، لقاء سخريتهم المتجدِّدة في الدُّنيا من نوحٍ وقومه، واختارَ النَّظمُ الكريمُ لفظَ الخزي في قوله تعالى: ﴿مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ لهذا المقام، دون لفظِ الذُّلِّ وما يُرادفُه؛ لأنَّ الخزيَ ذلٌّ مَعَ افتضاح، والخزاية الاستحياء؛ لأنَّه انقماعٌ عَن الشَّيء لما فيه من العَيب[1]، وهو لفظٌ مُناسب لفعلتهم الشنعاء، ولما في الاستهزاء والسُّخرية من لحوق الخزي والعار عادَةً[2]؛ فكان هذا من قبيل المُشاكلة والمجانسة الفعليَّة لأفعالهم التي كانوا يسترذلون بها المؤمنين سخريَّةً وإيذاءً؛ فوصف عذابهم بما يُذلُّهم، ويجلب لهم العار والتَّبار في الدُّنيا[3] جزاءً وفاقًا.

سرُّ اختلافِ التَّعبير بين إتيان العذابِ وحلولِه:

الإتيان لا يستلزم الدَّوامَ، بخلاف الحُلول؛ فهو دوامٌ واستقرارٌ

ذكرتِ الآيةُ في قوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ فعلَين للعذابِ: الأوَّل: فعل إتيانِ العذاب في قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهِ عَذَابٌ﴾، والآخر: فعل حلولِ العذابِ في قوله تعالى: ﴿وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ﴾، والفرْقُ بينهما: أنَّه في عذاب الدُّنيا قال: ﴿يَأْتِيهِ﴾، والإتيان لا يستلزم الثَّبات والدَّوام، فقد يأتي، وقد يذهب، وأمّا في عذاب الآخرة؛ فقال: ﴿وَيَحِلُّ﴾ أي: يحلُّ عليه حلولَ الدَّين والحقِّ اللّازم الذي لا انفكاك له عنه[4]، فالحلول ضِدُّ الرَّحيل، ويفيد النُّزول من أعلى إلى مكان الإقامة، فحلَّ بالمكان، أي: نَزَلَ ليُقيم به[5]، فالحلول هو الوجوب والثَّبات والدَّوام؛ لأنَّ هذا

(1) العَسكري، الفروق اللُّغويّة، ص: 250.
(2) الجاوي، مراح لبيد: 1/507، وإسماعيل البروسوي، روح البيان: 4/126.
(3) محمَّد رشيد رضا، تفسير المنار: 12/74.
(4) الزَّمخشري، الكشّاف: 2/393، والبيضاوي، أنوار التَّنزيل: 3/134.
(5) الشَّعراوي، تفسير الشَّعراوي، ص: 6468.

العذاب يجب، ولا يذهب، ولا ينفك عنهم، ولا يرحل، أو يتحوَّل[1]؛ فاختلف الفعل لاختلاف الدَّلالة.

فقدِ اختارَ لكلٍّ موصوفٍ الصِّفةَ الأليق به باعتبارِ زمانِ وقوعه، وباعتبارِ الفعل الذي أُسنِد إليه العذاب، أمّا الأوَّل: وهو قوله تعالى: ﴿مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ فالمقصودُ به عذاب الدُّنيا، وهو عذابٌ يخزي أصحابه في العاجلةِ، وهو مناسبٌ لفعل الإتيان، وأمّا الآخر؛ وهو قوله تعالى: ﴿وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾، فالمقصود به عذاب الآخرة، وهو عذابٌ مقيم لخلودِ النّارِ، وهو المناسب لفعل الحلول، فإنَّ مقتضى الحلول البقاءُ الدّائمُ، فجاء كلٌّ وصفٍ بما يناسبُ زمانَ الموصوف، وفعلَهُ الذي أُسند إليه.

نكتةُ الاستعارة في: ﴿وَيَحِلُّ﴾:

سعةُ احتمالاتِ الاستعارةِ دليلُ قوَّة البيانِ وعظيم التَّصوير

في قوله تعالى: ﴿وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ فعل ﴿وَيَحِلُّ﴾: إمّا أن يُحمل على الاستعارة المكنيَّة، أو التَّمثيليَّة، أمّا المكنيَّة؛ فهي من تشبيه العذاب الأخرويِّ الذي قضى اللّه تعالى به في حقِّهم بالدَّين المُؤَجَّل الواجب الحلول، وأثبتَ له الحلولَ الذي هو من لوازمه[2]، فقوله تعالى: ﴿وَيَحِلُّ﴾ أي: حلول الدَّين المطلوب لصاحبِه الذي لا انفكاك عنه؛ ففي الكلام استعارةٌ مكنيَّة تبعيَّة.

وأمّا الاستعارة التَّمثيليَّة[3]؛ فهي من تشبيه الحصول بحلول القادم إلى المكان[4].

دلالةُ تعدية فعل ﴿وَيَحِلُّ﴾ بحرف الاستعلاء:

جمعَ اللّه عليهم العذابَ المعنويَّ والحسيَّ

تعدَّى فعلُ ﴿وَيَحِلُّ﴾ بحرف "على" للدَّلالة على تَمَكُّنِه؛ لأنَّه دائمٌ عليهم سَرْمَدٌ[5]، ونكتةُ ذلك: تصوير مشهد الحلولِ من أعلى إلى

(1) السّامرائي، على طريق التَّفسير البياني، ص: 153.
(2) إسماعيل البروسوي، روح البيان: 4/126.
(3) أطفيش، تيسير التفسير: 6/392.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 12/69.
(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/150.

أسفل، وحلول العذاب عليهم من أشرف مواضع الجسد إلى أخمص القدمين، وفيه معنى الخزي؛ فإنَّ علوَّ العذابِ - وهم دونه - خزيٌ وعارٌ وتبابٌ، جمعَ اللّه لهم في هذا التَّعبير العذابَ الماديَّ والمعنويَّ.

سرُّ المغايرة بين أوصافِ العذاب:

عذابُ الخزيِ عامٌّ في الدّارين، والإقامةُ خاصَّةٌ بعذاب الآخرة

في قوله تعالى: ﴿عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ و﴿عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ حمل أكثرُ المُفسِّرين العذابَ الذي يُخزي على الغرق؛ لقوله بعده: ﴿وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾، فإنَّ المُراد به عذاب الآخرة، والدَّليل على ذلك هو المُقابلة، وتكرُّرُ العذاب مُنَكَّرًا في اللَّفظ، ووصفُ الأوَّل بالإخزاء والثّاني بالإقامة، فحسُنَ التَّقابلُ بذلك[1].

ويجوز حملُ العذاب المُخزي على العموم، والمقيم على عذاب الآخرة، تخصيصًا بعد تعميم، وتهويلًا لعذاب الآخرة لشدَّته ودوامه، وهذا أبلغ، والأوَّل أظهر لتبادر أنَّ الأصل عدم العموم ثُمَّ التَّخصيص[2]، وأيًّا ما كان، فالخزيُ حاصلٌ في الدُّنيا والآخرة، والإقامةُ مختصَّةٌ في الآخرةِ. وقد غاير النَّظمُ الكريم بين وصفَي العذاب، فجاء في قوله تعالى: ﴿عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ بالصّيغة الفعليَّة، وجاء في قوله تعالى: ﴿عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ بالصّيغة الاسميَّة، وهو العذاب السَّرمديُّ الأبديُّ؛ فعبَّر بالفعل في إتيان عذاب الخزي في الدُّنيا؛ لأنَّه لا يستلزم الدَّوام، ثُمَّ جاء بلفظ ﴿مُّقِيمٌ﴾؛ للدَّلالة على دوام العذاب، ورفع اللَّبس، وإبعاد الاحتمال؛ فالعذاب المقيم: هو عذابُ النّار الدّائم، وفي نعته بالاسم تهديدٌ بليغ[3]؛ إذ كلُّ ما في الدُّنيا فهو هيِّن ليِّن بالنِّسبة إلى ما يكون في الآخرة لانقضائه وزواله، وبقاء ذاك ودوامه[4]، فالمُغايرة في نعت كلِّ عذابٍ للتَّنبيه

(1) القونوي، حاشية القونوي: 10/77.
(2) أطفيش، تيسير التفسير: 6/392.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/207.
(4) المراغي، تفسير المراغي: 12/35.

عَلى أنَّ عذاب الآخرَة أشَدُّ وأبقى، وأنَّ عذاب الدُّنْيا في جنبها كَلا عذاب[1].

بلاغةُ المجازِ في التَّعبير بلفظ (الإقامة):

الإقامةُ دوامٌ لا يزول، واستقرارٌ لا يتحوَّل

معنى ﴿مُّقِيمٌ﴾، أي: دائمٌ مستمرٌّ أبدًا[2]، والتعرُّض لحلول العذاب المُقيم للمُبالغة في التَّهديد[3]، فَحلَّ بهم عذابُ الغرق حتَّى ماتوا، وصاروا معذَّبين في البرزخ إلى يوم القيامة، ثُمَّ مَردُّهم إلى عذاب النّار، وبئس المصير[4]، فصفة ﴿مُّقِيمٌ﴾ تَدُلُّ على الدَّوام والاستمرار، واستُعيرت الإقامة للدَّوام من قبل المجاز اللُّغوي؛ إذ الدَّوام يستلزم الإقامة، ويجوز أن يكون مَجازًا إسناديًّا، أي: مقيمٌ فيه صاحبه[5].

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

المجيءُ والإتيانُ والحلولُ:

المَجيءُ: إتْيانٌ مُحَقَّقٌ، والحلول: إتيان بقصد الإقامة

الإتْيانُ: مجيءٌ بسهولة، وهو بدايَةُ المجيءِ[6]، فإذا اكتمل، وبَلَغَ مَقْصدَهُ من مكان أو زمان أو شخص؛ أصبح مجيئًا، فالمجيءُ هو إتيانٌ مُحَقَّقٌ بَعيدٌ عن عوامل النَّقص، قال تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أُوذِينَا مِن قَبۡلِ أَن تَأۡتِيَنَا وَمِنۢ بَعۡدِ مَا جِئۡتَنَاۚ﴾ [الأعراف: 129]، فالإتيانُ بداية المجيء زمانيًّا أو مكانيًّا، وقد لا يتمُّ، فلا يكونُ مَجيئًا، أمّا المجيءُ؛ فهو إتيانٌ مُحَقَّقٌ قريبٌ زمانيًّا ومكانيًّا[7].

أمّا الحلول؛ فهو ضِدُّ الرَّحيل، ويفيد النُّزولَ والإتيانَ من أعلى إلى مكانٍ بقصد الإقامة، يُقال: حلَّ بالمكان، أي: نَزَلَ ليُقيم به[8].

---

(1) حاشيتا القونوي وابن التمجيد على البيضاوي: 16/535.
(2) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/277، ووهبة الزُّحيلي، التَّفسير الوسيط: 2/1041.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/207، والآلوسي، روح المعاني: 6/250.
(4) ثناء الله المظهري، التَّفسير المظهري: 5/84.
(5) القونوي، حاشية القونوي: 10/77.
(6) الرّاغب، المفردات، ص: 283.
(7) جبل، المعجم الاشتِقاقيّ المؤصّل: 1/264.
(8) ابن عبّاد، المحيط في اللُّغة: 1/158، والكفوي، الكلِّيّات، ص: 827، والشَّعراوي، تفسير الشَّعراوي: 11/6468.

الذُّلُّ والخزي:

الذُّلُّ والذِّلَّة والمذَلَّةُ ما كانَ عن قهرٍ وضعفٍ وهوانٍ، يُقال: ذَلَّ المرءُ؛ إذا ضعُف، وهان؛ فهو ذَليلٌ، والجمع أذِلّاءُ[1]، والخزي ذُلٌّ مع افتضاح، وقيل: هو الانقماع لقبح الفعل، والخزاية الاستحياء؛ لأنَّهُ انقماعٌ عن الشَّيء لما فيهِ من العَيْب، يُقال: خَزيَ يَخْزى خِزْيًا؛ إذا استحيا من سوء فعله[2]، فالخزي لا يكونُ إلّا ما يجري مَجرى العقوبةِ منَ الهوان والإذلال، فكلُّ ما هذه صفته يدخلُ تحتهُ، وذلك رَدْعٌ منَ اللّه تعالى[3].

الـــذُّلُّ ضَـعْـفٌ وهوان، والخزي ذُلٌّ مع افتضاحٍ جـــارٍ مـجـرى العقوبة

(1) الفيومي، المصباح المنير: 1/210، والكفوي، الكليّات، ص: 462.
(2) العسكري، الفروق اللُّغويَّة، ص: 250.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 12/4.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلۡنَا ٱحۡمِلۡ فِيهَا مِن كُلّٖ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَأَهۡلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيۡهِ ٱلۡقَوۡلُ وَمَنۡ ءَامَنَۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٞ ٤٠﴾ [هود: 40]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

بعد التَّهديد الصّادقِ يقع العذابُ الماحقُ

هذه الآية الكريمة بيَّنت حُكم الله الفاصل في شأن قوم نوح عليه السلام بعد أن لَبِثَ فيهم زمنًا طويلًا يدعوهم إلى الحقِّ، ولكنَّهم صَمّوا آذانهم، ولم يزِدهم تطاولُ الأيام إلّا كفرًا، و صمَّموا على عقد تكذيبهم؛ فما كان من أمره وأمرهم بعد ذلك إلّا أنْ جاءهم وعْدُ الله الذي لا يتخلَّف، فأمر الله تعالى نوحًا عليه السلام أن يحمل في السَّفينة - بعد أن أتَمَّ صُنعها - مَن آمنَ معه من المؤمنين، وأن يحمل معهم من كلِّ نوعٍ من أنواع الحيوانات ذكرًا وأنثى، ثم نَزَلَ الطّوفان، ففار الماء من التَّنور المسجور، وجادت السَّماء بالمطر المعبور، ذلك الطوفان الذي طهَّر سطح الأرض من لوث المستكبرين؛ ففي هذه الآية بيانٌ لمرحلة جديدة من مراحل قصَّة نوح عليه السلام مع قومه[1]؛ إذ الآية تتعرَّض لموضوعٍ ثالثٍ، وهو كيف كانت النِّهاية؟ وكيف تحقَّق نزولُ العذابِ على القوم الكافرين.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَفَارَ﴾: أصل (فور) يدُلُّ عَلَى غَلَيانٍ، يُقالُ: فارَتِ القِدْرُ تَفورُ فَوْرًا غلت، والفوّارة ما ترمي به القدر عند فورانها، وفَوّارة الماء على التَّشبيه بذلك[2]، ومعنى فار: اندفع وجاش، والفوران جَيَشانٌ

(1) القشيري، لطائف الإشارات: 2/136، وطنطاوي، التَّفسير الوسيط: 7/203.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والسَّمين الحلبي، عمدة الحفّاظ: (فور).

إلى أعلى بقوَّة واندفاع، يقال: فارَ الماءُ من العين يَفور؛ إذا جاشَ[1]، والمعنى هُنا: نبعَ منه الماءُ، وارتفع بشدَّة، كما تفور القِدْرُ بغَليانها[2].

2) ﴿ٱلتَّنُّورُ﴾: أصل معنى (التَّنر) امتلاءُ الجوف بشيءٍ لطيف الجِرْم أو الحركة، يَنفذ منه كالماء في مَفْجَره، وكالنّار في جوف التَّنور؛ ومنه القول بأنَّ التَّنور يُطلق على تنوير الصُّبح، وله وجهٌ من معنى التَّركيب لِلُطف الضَّوءِ واسترساله[3]، والتَّنّورُ: الكانونُ أو المَوْقِدُ الذي يُخبَزُ فيه[4]، وكُلُّ مَفْجَر ماءٍ تَنّورٌ كسَفّود؛ وصاحِبُه تَنّار، ويُطلق على وجْه الأرْضِ، وعلى المَوْضِع الذي يَنْبُعُ منه الماءُ من العَيْنِ[5].

واختُلف فيه وفي مادته؛ فقيل: إنَّه عربيٌّ وزنه (تفعول) من النّور، وأصله تَنْوور، فَقُلِبَتِ الواو الأولى همزة لانضمامها، ثُم حُذفت تخفيفًا، ثُمَّ شُدِّدَت النّون عوضًا عمّا حُذِفَ، وهذا القول عن ثعلب، وقال أبو علي الفارسي: وزنه (فعول)، وقيل على هذا: إنَّه أعجميٌّ، والاشتقاق له ومادَّته (تنر)، وليس في كلام العرب نون قبل راءٍ - مثل نرجس - معرب أيضًا، وعلى هذا فلا اشتقاق له، والمشهور أنَّه مما اتَّفق فيه لغة العرب والعجم كالصّابون[6].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

تنتقل الآية لبيانِ المشهد العظيم بعد إتمام الفُلك التي أمر اللّه نوحًا عليه السلام بِصُنْعِها، حتَّى إذا جاء الأمر الإلهيُّ بالإهلاكِ، فتذكرُ الآيةُ علامةَ الإغراق بفَوران التَّنور الذي

(1) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (فور).
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/208.
(3) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: 1/221.
(4) ابن منظور، لسان العرب، والزَّبيدي، تاج العروس: (تنر)، وابن جرير، جامع البيان: 12/401.
(5) ابن عبّاد، المحيط: (تنر).
(6) قال الزَّبيدي: "التَّنّورُ: الكانونُ الَّذي يُخْبَزُ فيهِ، يُقال: هو في جَميع اللُّغاتِ كذلك، وقالَ اللَّيْثُ: التَّنّورُ عَمَّتْ بكلِّ لسانٍ. قالَ أبو مَنْصور: وهذا يَدُلُّ على أنّ الاسمَ في الأصل أعْجَميٌّ، فعَرَّبَتْها العربُ، فصارَ عربيًّا على بناءِ فَعولٍ، والدَّليلُ على ذلك أنّ أَصلَ بنائِه تنر، قالَ: ولا نعرفُه في كَلام العرب، لأنه مُهْمَلٌ، وهو نَظيرُ ما دَخَلَ في كلام العربِ من كلام العَجَم، مثلُ الدّيباجِ، والدّينارِ، والسّنْدُسِ، والإسْتَبْرَقِ، وما أشبَهها، ولمّا تكلَّمتْ بها العربُ صارَت عربيَّةً". يُنظر: ابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم، وابن منظور، لسان العرب، والزَّبيدي، تاج العروس: (تنر)، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاوي: 10/77، والسَّمين الحلبيُّ، الدُّرُّ المصون: 4/98.

بـدايـةُ نـزولِ العـذابِ لحظةَ إنـقـاذِ المؤمنين تأييدًا ونصرةً

كانوا يخبزون فيه؛ إعلامًا ببدء الطّوفان، وحينها أمر الله نوحًا عليه السلام أن يحمل في السَّفينة من كلِّ نوعٍ من أنواع الحيوانات ذكرًا وأنثى، وأهل بيتك جميعًا - إلّا مَن سبق عليه القول ممَّن لم يؤمن بالله؛ كابنه وامرأته - ومَن آمنَ معه من قومه، وهم عددٌ قليلٌ.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ استعمال ﴿حَتَّىٰٓ﴾:

جمعت (حتّى) بين وظيفتين؛ كونها ابتدائيَّة وكونها غايةً لما قبلها

﴿حَتَّىٰٓ﴾ في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا﴾ لبيانِ ابتداءِ الغاية ممّا ذُكر قبله من الاستعداد لهلاك قوم نوح، أي: وكان يصنع الفُلكَ كما أُمر، ويُقابل السُّخرية بغير ابتئاس ولا ضجر، إلى زمن مجيء أمرنا بهلاكهم[1].

ف﴿حَتَّىٰٓ﴾ هُنا هي التي يُبتدأ بها الكلام، دخلت على الجملة الشَّرطيَّة وهي مع ذلك غاية لقوله تعالى: ﴿وَيَصۡنَعُ ٱلۡفُلۡكَ﴾؛ فإنَّ كونها حرفَ ابتداءٍ لا يُنافي كونَ ما بعدها غايةً لما قبلها؛ فإنَّ بين المفرَّع والمفرَّع عليه تناهيًا برجوع المفرَّع إلى المفرَّع عليه[2]، وهذا من بديع الاستعمالِ، أن تكون ﴿حَتَّىٰٓ﴾ ابتدائيَّةً، وهي غايةٌ لما قبلها؛ فجمعت بين وظيفتين في غايةِ الإبداع.

دلالة ﴿إِذَا﴾ الظَّرفيَّة الشَّرطيَّة وجوابها:

تـرتُّـبُ الأمـر بحـملِ زوجـين على وقت مجيءِ الأمر

في قوله تعالى: ﴿إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا﴾: ﴿إِذَا﴾ ظرفٌ مُضَمَّنٌ معنى الشَّرط، ولذلك جيء له بجواب في هذه الآيةِ؛ وهو جملة ﴿قُلۡنَا ٱحۡمِلۡ﴾، وجُعِلَ الشَّرط وجوابه غايةً باعتبار ما في حرف الشَّرط من معنى الزَّمان، وإضافتِه إلى جملة الشَّرط، فحصل معنى الغاية عند حصول مضمون جملة الجزاء، وهو نظمٌ بديعٌ بإيجازه[3].

(1) رضا، تفسير القرآن الحكيم: 12/75، والخطيب، التَّفسير القرآني: 6/1140، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 12/69.

(2) البيضاوي، أنوار التَّنزيل: 3/134، والبروسوي، روح البيان: 4/126.

(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 12/69 - 70.

نكتةُ استعمال لفظ ﴿جَآءَ﴾:

مع نزول العقوبةِ استعمل (جاء) وقبل نزولِها استعمل (أتى)

يُستعمل الفعل ﴿جَآءَ﴾ لما هو أشقُّ وأصعب[1] من (أتى) في غالبِ التّعبير القرآنيِّ، ويُستعمل فعل (أتى) أيضًا للعذاب، كما ورد في الآية السابقة: ﴿فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ مَن يَأۡتِيهِ عَذَابٞ﴾، فالعقوبة لم تنزل بعدُ، وهُنا في قوله تعالى: ﴿إِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا﴾ استُخدِم فعلُ ﴿جَآءَ﴾؛ لأنَّ العقوبة نزلت، وأصبحت واقعًا مشاهدًا، وهذا استعمالٌ غالبٌ في القرآن، وفي هذه السورة على وجه الخصوص، كقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا هُودٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ﴾ [هود: 58]، وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا صَٰلِحٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ﴾ [هود: 66]، وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا جَعَلۡنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهَا حِجَارَةٗ مِّن سِجِّيلٖ مَّنضُودٖ ٨٢﴾ [هود: 82]، وقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا شُعَيۡبٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ﴾ [هود: 94]، فمعوَّل الكلام قائمٌ على مُلابسات الحدث نفسِه.

دلالةُ لفظ ﴿أَمۡرُنَا﴾:

الأمرُ شاملٌ لأمر التَّكوين وأمر الشَّأن

المُراد بالأمر في قوله سبحانه: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا﴾ قَدَرُنا بحلول وقت نزول العذاب بهم، فهو مفرد الأمور، أي: حتى إذا حلَّ بهم وقت عذابنا، قلنا: احمل فيها من كلٍّ زوجين اثنين؛ ويَصِحُّ أن يكون المراد به الأمر بالشَّيء على أنَّه مفرد الأوامر، فيكون المعنى: حتَّى إذا جاء أمرنا لنوح بركوب السَّفينة، وللأرض بتفجير عيونها، وللسَّماء بإنزال أمطارها[2]، أو أمرُنا للماء بالفوران[3]، أو للسَّحاب بالإرسال، أو للملائكة بالتَّصرف في ذلك، ونحو هذا ممّا يُقدَّر في النّازلة[4]، قُلنا: احمل فيها، فيكون واحدَ الأوامر، فالأمر هُنا دائرٌ بين احتمال

(1) يُنظر الفروق المعجميَّة في الآية السابقة.
(2) السَّعدي، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 437، وطنطاوي، التَّفسير الوسيط: 7/204.
(3) الثَّعالبي، الجواهر الحسان: 3/283.
(4) ابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 3/170.

أمر التَّكوين بهلاك الكثرة الكافرة، ونجاة القلَّة المؤمنة، واحتمال الشَّأن، وهو حادث الغرق[1].

سِرُّ إضافة الأمر إلى ضمير العظمة:

تعظيمُ الأمر وتهويل شأنه

أُضيف الأمرُ في قولِه تعالى: ﴿جَآءَ أَمۡرُنَا﴾ إلى ضمير العظمة والكبرياء (نا)؛ لتهويله وتعظيم شأنه، وأنَّه فوق ما يعرفون ويتصوَّرون[2]، فهو أمرُ اللّٰه تعالى غيرُ المعهود، لا أمرُ غيرِه ممّا يعهدونه.

دلالةُ الاستعارة في: ﴿وَفَارَ﴾:

تصوير شدَّة نبوع الماء وقوَّة تفجُّره وتدفُّقه

في قوله تعالى: ﴿وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ﴾ استعارةٌ، ومعنى فوران التَّنور: نبعَ منها الماء، وارتفعَ بشدَّة، كما تفور القدر بغليانها[3]، والفوران: غليان القدر، ويُطلق على نبع الماء بشدَّة، تشبيهًا بفوران ماءٍ في القدر؛ إذا غُلي، وهو محمول على ما جاء في آيات أخرى من قصة نوح عليه السلام مثل قوله تعالى: ﴿وَفَجَّرۡنَا ٱلۡأَرۡضَ عُيُونٗا﴾ [القمر: 12]، ففي الكلام على هذا المعنى استعارة تصريحيَّةٌ تبعيَّة، حيث شبَّه نبوعَ الماء وظهورَهُ من التَّنور بفوران القِدْرِ في شدَّة الحركة والخُروج، فذكر المُشبَّهَ به، وأُريد المُشبَّهُ[4].

لفظُ ﴿ٱلتَّنُّورُ﴾ بين الحقيقة والمجاز:

جعل هذه الحالة من نبوعِ الماء من التَّنور وارتفاعهِ علامةً لحدوث هذه الواقعة

اختلف المفسِّرون في التَّنّورُ، فقالت فرقةٌ وهي الأكثرُ: إنَّهُ تنّور الخبز الذي يُوقد فيه[5]، فهو على حقيقته، وجعل الفوران خروج الماء من أحد التَّنانير، وأنَّه علامةٌ جعلها اللّٰه لنوح عليه السلام على هذا الأمرِ العظيم، فإذا فار الماء من داخل التَّنور - الذي يُصنع في مكانٍ يابسٍ ومحفوظٍ من الرُّطوبة - فغيره أشَدُّ فورانًا، وبهذا يعلمون أنَّ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 12/70.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 12/70.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 6/250.
(4) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاوي: 10/77، والبيضاوي، أنوار التَّنزيل: 3/134.
(5) ابن عطيَّة الأندلسي، المحرَّر الوجيز: 3/170، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 9/33.

أمرًا مُهمًّا قد حدث، وأنَّه قد ظهر في التَّكوين أمرٌ خطير، وعلموا أنَّ ذلك مبدأ الطّوفان، فركب نوحٌ الفُلكَ، وأركب من معه، فكان ذلك علامة لنوح عليه السلام وأصحابه أن ينهضوا ويتهيَّؤوا[1]؛ لأنَّ هذه واقعة عظيمة، وقد وعد اللّه تعالى المؤمنين النَّجاة، فلا بُدَّ أن يجعل لهم علامةً بها يَعرفون الوقتَ المعيَّن، فجعل هذه الحالة علامةً لحدوث هذه الواقعة[2].

ويجوز أن يكون فوران التَّنور مجازًا عن ظهور العذاب وشِدَّة الهول[3] بطريق الاستعارة التَّمثيليَّة، كما قال ﷺ لشدَّة الحرب يوم حنين: «حمي الوطيس»[4]، والمراد ما وقع من حَرِّ القِراع وشِدَّة المصاع، والتفاف الأبطال، واختلاط الرِّجال، وكأنَّما تمثَّل لك دماء ناريَّة أو نارًا دموية[5]، والوطيس أيضًا: مُستوقَد النّار، فلا فرق بين حَميَ وفار؛ إذ يستعملان في النّار؛ قال اللّه تعالى: ﴿سَمِعُواْ لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ ۝٧﴾ [الملك: 7] ولا فرق بين الوطيس والتَّنور[6]، وذلك يُخيّل إلى السّامع أنَّ هناك صورةً شبيهة بصورته في حَميها وتَوقُّدِها؛ فأُخرج الكلام مخرج التَّمثيل لحضور العذاب واشتداد الحال[7]، والعرب تقول: فارت قِدرُ القوم؛ إذا اشتدَّ حربهم، قال الشّاعر[8]:

تَرَكْتُمْ قِدْرَكُمْ لا شَيءَ فيها *** وقِدْرُ القوم حاميةٌ تَفورُ[9].

وقيل: إنَّ التَّنور هو وجه الأرض، لا تنّور الخبز، والعرب يسمّون وجه الأرض تَنّورًا، إمّا حقيقةً أو مجازًا، وقيل: التَّنور هو أشرف مواضع الأرض، أي: أعلى مكانٍ فيها، فأخرج

(1) ابن جُزي، التَّسهيل لعلوم التنزيل: 1/370، والخازن، تفسير الخازن: 2/484، والبغوي، معالم التَّنزيل: 2/448، والجزائري، أيسر التفاسير: 2/546.

(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/346، وطنطاوي، التَّفسير الوسيط: 7/204.

(3) قال ابن عاشور: "والذي يظهر لي أنَّ قوله: ﴿وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ﴾ مثلٌ لبلوغ الشَّيء إلى أقصى ما يتحمَّل مثله، كما يُقال: بلغ السَّيل الزُّبى، وامتلأ الصّاع، وفاضت الكأس". ينظر: ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 12/70 - 71.

(4) وهو طرف من حديث، رواهُ مسلم، والعبارة بتمامها: «هَذا حينَ حمي الوطيس». يُنظر: مسلم، صحيح مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب في غزوة حنين، برقم: (1775).

(5) الشَّريف الرَّضي، المجازات النَّبوية، ص: 46، والرّافعي، إعجاز القرآن والبلاغة النَّبوية، ص: 223.

(6) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/151.

(7) قال القاسميُّ: "عندي أنَّه أظهرُ الأوجه المذكورة وأرقُّها وأبدعها وأبلغها، كأنَّه قيل: واشتد الأمر، وقوي انهمار الماء ونبوعه، وهذا الإيجاز في مجازه الرَّهيب، قد بيَّنته آياتٌ أخر، وهي: ﴿فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ۝١١ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ۝١٢﴾ [القمر: 11 - 12] الآيات، ومما يؤيده شموله لشدَّة الأمر من السَّماء والأرض، فيُطابق هذه الآيات، وأمّا غيره فمقصور على ناحية الأرض فقط وجليٌّ أنَّ الأمر كان أعمَّ". يُنظر: القاسمي، محاسن التَّأويل: 6/93.

(8) البيت من الوافر، وهو لجبل بن جوال الثَّعلبي. ينظر: ابن هشام: سيرة ابن هشام: 2/272، والسُّهيليُّ، الرَّوض الأنف: 6/358، وأبو تمام، الوحشيات، ص: 173.

(9) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 9/33.

اللّه تعالى الماء من ذلك الموضع؛ ليكون ذلك معجزة له ﷺ، كما أنَّ نبوع الماء من تنّور الخبز الذي يوقد فيه النّار معجزة له، ونبوع الماء من الأمكنة المرتفعة القولُ به أقرب من القول بوجه الأرض؛ إذ الأمكنة المرتفعة شِبْهُ التَّنانير في الارتفاع[1].

وقيل: إنَّ المُراد بالتَّنور موضع اجتماع الماء في السَّفينة، وقيل: بل هو طلوع الفجر من قولهم: تَنَوَّر الفجر[2]. والأصل حمل الكلام على حقيقته، ولفظ التَّنور حقيقة في الكانون الذي يُخبز فيه، فوجب حمْلُ اللَّفظ عليه، لأنَّ اللَّفظ إذا دار بين الحقيقة والمجاز؛ كان حمله على الحقيقة أولى[3].

دلالة (اللام) في ﴿ٱلتَّنُّورُ﴾:

تقوية احتمال الحقيقة في مُسمّى التَّنور

ذُكِرَ التَّنور بالألف واللّام، وهذا إنَّما يكون لمعهودٍ سابقٍ معيَّنٍ معلومٍ عند السّامع، ولا يبعد أن يُقال: إنَّ ذلك التَّنور كان لنوح ﷺ بأن كان تنُّورَ آدم أو حواء أو كان تنُّورًا عيَّنه اللّه تعالى لنوح ﷺ، وعرَّفه بأنَّك إذا رأيت الماء يفور؛ فاعلم أنَّ الأمر قد وقع، كما سبق بيان ذلك في معنى التَّنور، وعلى هذا التَّقدير يكون تقويةً للكلام السابق في إرادة الحقيقة من معنى التَّنور، فلا حاجة إلى صرف الكلام عن ظاهره[4].

دلالة إسناد القول إلى ضمير العظمة:

تعظيم القول وتفخيم شأنه

معنى قوله تعالى: ﴿قُلْنَا﴾ أي: بعظمتنا[5]، فإضافة هذا القول إلى ضمير العظمة والكبرياء (نا) لتعظيم هذا القول وتفخيم شأنه، وأنَّه قوله ﷻ الذي هو فوق كلِّ قول، وأنَّه قولٌ حقٌّ ليس بالهزل.

(1) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاوي: 10/77.
(2) طنطاوي، التَّفسير الوسيط: 7/204.
(3) الخازن، تفسير الخازن: 2/484، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/346، وطنطاوي، التَّفسير الوسيط: 7/204.
(4) الخازن، تفسير الخازن: 2/484، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/346.
(5) البقاعي، نظم الدُّرر: 9/285.

سِرُّ اصطفاء (في):

رعايةُ الله تعالى لعبادِه وأخذُه بالأسبابِ

آثر النَّظم القرآني في قوله تعالى: ﴿ٱحۡمِلۡ فِيهَا﴾ استعمال حرف الظرفيَّة (في) دون (على)، والحمل يكون على السَّفينة، وذلك أنَّه لمّا كان الله تعالى قد أمر نوحًا عليه السلام أن يجعل للسَّفينة غِطاءً - كما قاله بعض أهل التَّفسير - لئلّا تَمتلئَ من شِدَّة الأمطار المُتتابعة والهتّان الذي لا يُقلع ولا يفتر[1]، والذي وصف الله انهماره وتدفُّقَه بقوله تعالى: ﴿فَفَتَحۡنَآ أَبۡوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٖ مُّنۡهَمِرٖ ١١﴾ [القمر: 11]، كانت الظَّرفيَّة فيها بخلاف غيرها من السُّفن واضحة، فلذلك قال: ﴿فِيهَا﴾، أي: السَّفينة[2].

والظّاهر أنَّ مجيء (في) هُنا لرعاية جانب المحلّيَّة والمكانيَّة في الفُلْكِ؛ لأنَّه يكون مظروفًا فيها، وإن جلس على ظهرها، كقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ﴾ [يونس: 22]، وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُواْ فِي ٱلۡفُلۡكِ﴾ [العنكبوت: 65][3]، فالمقصود أن يحمل نوحٌ عليه السلام في السفينةِ في داخلِها، لا على ظهرها، ولو قال: (واحمل عليها)؛ لكان لا بدَّ من تقدير محذوفٍ، وهو الظَّهر، ففي استعمال هذا الحرف بيانُ عناية الله تعالى بعبادِه، حمايةً لهم من أسباب الهلاك، وأخذًا بالأسباب.

فائدة الأمر بحمل عموم الحيوان قبل غيره:

المحمولُ مقدَّمٌ على الحاملِ، ولولا العاقلِ لما حُملت البهائم

قُدِّم الأمر بحمل الحيوان في قوله تعالى: ﴿قُلۡنَا ٱحۡمِلۡ فِيهَا مِن كُلّٖ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ﴾ على الأهل وسائر المؤمنين؛ لأنَّه إنَّما يُحمل بمباشرة البَشر، فهو يحتاج إلى مزاولة وسياسة، كما يُحتاج في تمييز بعضه من بعض وتعيين الأزواج، وأمّا البشر؛ فإنَّما يدخل الفُلكَ باختياره، فيخفُّ فيه معنى الحمل[4]، فالأمر لنوحٍ عليه السلام، والذي سيُنفِّذ الأمر هم

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/278.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 9/285.
(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/209، ومحمَّد رشيد رضا، تفسير القرآن الحكيم: 12/76.
(4) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/207، والشَّربيني، تفسير الشَّربيني: 2/64.

المؤمنون، فهم الذين سيقودون الحيوانات إلى السَّفينةِ، ويُركبونها فيها، فإذا رَكِبَ الإنسان العاقل، فمن هذا الذي سيُركب تلك البهائمَ؟

فإن قيل: الإنسان أشرف من سائر الحيوانات، فلِمَ بدأ بالحيوان؟ أجيب: بأنَّ الإنسان عاقل، فهو لعقله مُضطرٌّ إلى دفع أسباب الهلاك عن نفسه، فلا حاجة فيه إلى المُبالغة في التَّرغيب، بخلاف السَّعي في تخليص سائر الحيوانات، وكذلك لأنَّ قوام حياة الإنسان وصلاحها يكون بالحيوان، فكيف يعيش الإنسان إذا لم يكن هناك حيوان يأكل منه، ويحتاجه في قضاء حوائجه فلهذا السبب وقع الابتداء بِحملِ الحيوان[1].

توجيهُ القراءات القرآنيَّة في ﴿كُلٍّ﴾:

القراءة بالتَّنوين نصٌّ في الجنس والعموم، والقراءة بالإضافة نصٌّ على العدد

تعدّدتِ القرّاءاتُ في قوله تعالى: ﴿مِن كُلٍّ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ﴾، فروى حفص ﴿كُلٍّ﴾ بالتَّنوين، وقرأ الباقون بغير تنوين (من كُلِّ زوجين اثنين) على الإضافة[2]، فالمعنى عند من قرأ على الإضافةِ: احمل اثنين من كُلِّ صنفِ ذكرٍ وصنف أنثى، لا تزد على اثنين[3].

ومن قرأ بالتَّنوين على حذف المضاف إليه، والتَّقدير: أن احمل فيها من كلّ جنسٍ وكلِّ نوعٍ زوجين ذكرٍ وأنثى؛ لأنَّ الأنثى زوجُ الذَّكر، والذَّكرَ زوج الأنثى، يُقال: عندي زوجا حمامٍ ذَكَرٍ وأنثى[4].

فتنوين لفظ ﴿كُلٍّ﴾ تنوين عوضٍ عن مضاف إليه[5]؛ ومن قرأ بالإضافة أعملَ (الحمل) في قوله: ﴿ٱثۡنَيۡنِ﴾، وجاء قوله: ﴿زَوۡجَيۡنِ﴾ بمعنى العموم، أي: من كلِّ ما له ازدواج[6].

(1) الشَّربيني، تفسير الشَّربيني: 2/64.
(2) ابن الجزري، النَّشر: 2/288.
(3) البيضاويُّ، أنوار التنزيل: 3/134، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 12/72.
(4) ابن خالويه، إعراب القراءات السَّبع وعللها: 1/280.
(5) طنطاوي، التَّفسير الوسيط: 7/204.
(6) ابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 3/170، والسَّمين الحلبي، الدُّرُّ المصون: 4/98.

نكتةُ اختيار لفظ (زوج):

الوعدُ الضِّمنيُّ على إبقاء النَّسل بعد الطّوفان

في قوله تعالى: ﴿ٱحۡمِلۡ فِيهَا مِن كُلّٖ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ﴾، الزوجان: كلُّ اثنين لا يستغني أحدهما عن الآخر، يُقال لكلِّ واحد منهما: زوج، والزَّوج: شيء يكون ثانيًا لآخر في حالة، وأصله: اسم لما ينضمُّ إلى فرد؛ فيصير زوجًا له لا يكمل نفعُه إلّا به[1]، يُقال: زوجُ خُفٍّ وزوجُ نعلٍ، والمراد بالزَّوجين هاهنا: الذَّكر والأنثى[2]، وكلٌّ منهما زوجٌ للآخر؛ فنكتةُ ذكر الزوجين هنا دون الاثنين، أو عددٍ آخر؛ لبقاء أصل النَّسل بعد الطّوفان[3]، وفيها وعدٌ ضمنيٌّ أنَّ الله ﷻ سيُحافظ على حياةِ الأزواج لتتكاثر وتتناسل.

دلالةُ الاحتراس في ﴿ٱثۡنَيۡنِ﴾:

تعيينُ المحمول بأنَّه اثنان لا أقلَّ ولا أكثر

في قولِهِ تعالى: ﴿زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ﴾، لفظ ﴿ٱثۡنَيۡنِ﴾ صفةٌ مؤكِّدةٌ لمفعول ﴿ٱحۡمِلۡ﴾، وهو ﴿زَوۡجَيۡنِ﴾، وذلك لفائدتين:

الأولى: زيادةُ بيانٍ، كقوله تعالى: ﴿لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ﴾ [النَّحل: 51][4]، وهو بيانٌ لئلّا يتوهَّم أن يحمل من كلِّ زوجين واحدًا منهما؛ لأنَّ الزَّوج هو واحدٌ من اثنين مُتَّصلين، كما في قوله تعالى: ﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزۡوَٰجٖۖ﴾ [الأنعام: 143]، ودفعُ التَّوهُّم هذا ليس لنوحٍ عليه السلام، فهو يعلمُ أمرَ ربِّه، ويفقَهُ عنه، بل لمن يقرأ هذا الكلام، فيظنُّ أنَّه حملَ اثنين، فحصل تكاثرٌ بفعلٍ خارقٍ.

الأخرى: لئلّا يحمل أكثر من اثنين من نوعٍ؛ فتضيق السَّفينة وتثقل[5]، وهذا كذلك إرشادٌ للسّامعين، ونوحٌ عليه السلام يعلم المراد، وإنَّما ذكره في هذا السّياق لتعليم النّاس مرادَ الله تعالى.

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 9/285.
(2) البغوي، معالم التنزيل: 2/448.
(3) القرطبيُّ، الجامع لأحكام القرآن: 9/33.
(4) إسماعيل البروسوي، روح البيان: 4/126.
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 12/72.

سِرُّ الكنايةِ والإفراد في ﴿وَأَهۡلَكَ﴾:

الإشـــارة إلى تـوخّـي نـجـاة الأهـل؛ لأنَّـهـم الأقـرب والأولى بالنَّجاة والعناية

المُرادُ بالأهل - في قوله تعالى: ﴿وَأَهۡلَكَ﴾ - أهلُ بيته كزوجته وأولاده، وأكثر ما يُطلق لفظ الأهل على الزَّوجة، كما في قوله تعالى: ﴿۞فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلۡأَجَلَ وَسَارَ بِأَهۡلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارٗاۖ﴾ [القصص: 29]، وقوله تعالى: ﴿قَالَ لِأَهۡلِهِ ٱمۡكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا﴾ [طه: 10]؛ فأهل الرجل: قرابته وأهل بيته، وهو اسم جمع لا واحد له، وزوجُه أوَّل ما يُتبادر من اللَّفظ، ويطلق لفظ الأهل على امرأة الرجل[1].

وفي ذكر الأهل هنا إشارة إلى توخّي نجاة الأهل؛ لأنَّهم الأقرب والأولى بالنَّجاة، وقد ورد في القرآن: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلۡأَرۡحَامِ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلَىٰ بِبَعۡضٖ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِۚ﴾ [الأنفال: 75]؛ ولهذا أفرد لفظ (الأهل) منهم لمزيد العناية بهم[2].

دلالةُ الاستثناء:

سبْقُ القولِ قبل ركوبِ السَّفينةِ كـالـغـرغـرة للميِّت في عدم قبول الإيمان

الاستثناءُ في قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيۡهِ ٱلۡقَوۡلُ﴾ استثناءٌ من الأهل، أي: احمل فيها أهلَك إلّا من سبق عليه قضاؤنا بكُفره منهم فلا تحمله، والمراد بمن سبق عليه القول: زوجته التي جاء ذِكْرُها في سورة التَّحريم في قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱمۡرَأَتَ نُوحٖ﴾ [التحريم: 10]، وابنه الذي أبى أن يركب معه السَّفينة[3]؛ وهذا الاستثناء مشعرٌ بأنَّ كُلَّ من سبق عليه القول؛ فإنَّه لا يتغيَّر عن حاله[4].

والاستثناء إمّا أن يكون منقطعًا إن أريد بالأهل الأهلُ إيمانًا؛ فيدخل فيه كلُّ كافرٍ سواءٌ أكانوا من الأقاربِ أم من غيرهم، وإمّا أن

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 12/72، وطنطاوي، التَّفسير الوسيط: 7/204.
(2) القِنوجي، فتح البيان: 3/314.
(3) طنطاوي، التَّفسير الوسيط: 7/204.
(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/346.

يكون مُتَّصلًا إن أريد بالأهلِ الأهلُ قرابةً، ويُكتفى في صِحَّة الاستثناء المعلوميَّة عند المراجعة إلى أحوالهم والتَّفحُّص عن أعمالهم[1].

نكتةُ تعديةِ الفعل ﴿سَبَقَ﴾:

تضمين معنى فعل (سَبَقَ) معنى الحُكْم بالعقوبةِ بسببِ الكفر

معنى السبقِ في قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيۡهِ ٱلۡقَوۡلُ﴾: الحكم على من سخر، وعاند عن إرادةٍ واختيارٍ بالشَّقاوة والكفر، وهذا لا يُحمل في سفينة النَّجاة، وعُدّي الفعل ﴿سَبَقَ﴾ بحرف (على) لتضمين ﴿سَبَقَ﴾ معنى: حَكَمَ، كما عُدّي باللّام في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ سَبَقَتۡ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلۡمُرۡسَلِينَ ١٧١﴾ [الصافات: 171] لتضمينه معنى الالتزام النّافع[2]؛ فجيء بحرفِ (على) لكون السّابق ضارًّا لهم، كما جيء باللّام فيما هو نافعٌ لهم من قوله ﷻ: ﴿وَلَقَدۡ سَبَقَتۡ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلۡمُرۡسَلِينَ ١٧١﴾[3] [الصافات: 171].

دلالةُ (أل) في ﴿ٱلۡقَوۡلُ﴾:

الإشارةُ إلى وعيدِ الله الذي لا يُرَدُّ، وحكمه الذي لا يُنازع

معنى ﴿ٱلۡقَوۡلُ﴾ في قوله تعالى: ﴿مَن سَبَقَ عَلَيۡهِ ٱلۡقَوۡلُ﴾: الوعيدُ بالعذاب[4]، فالتَّعريفُ في لفظِ ﴿ٱلۡقَوۡلُ﴾ لِلْعَهْدِ، وفيه تعريفٌ بأنَّ حُكم الأزل لا يُردُّ، والحقُّ سبحانه لا ينازَع، والجبّار لا يُخاصَم، وأنَّ من أقصاه ربُّه؛ لم يُدنه تنبيهٌ ولا برٌّ ولا وعظ[5].

نكتةُ التَّعبيرِ بالإفرادِ: ﴿ءَامَنَ﴾:

الإشعارُ بقلَّة عدد المؤمنين

قوله تعالى: ﴿وَمَنۡ ءَامَنَ﴾، أي: احملِ المؤمنين من غير أهلك[6]، وإيثار صيغة الإفراد في ﴿ءَامَنَ﴾ مراعاةٌ للفظ ﴿وَمَنۡ﴾ للإيذان بقلَّتهم، كما أعرب عنه قوله عزَّ من قائل: ﴿وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السليم: 4/207.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 12/72.
(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/207.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 12/72، وابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 3/170.
(5) القشيري، لطائف الإشارات: 2/136.
(6) الثَّعالبي، الجواهر الحسان: 3/283، والدُّرَّة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 4/436.

﴿قَلِيلٌ﴾[1]، فهم نزرٌ يسيرٌ مع طول المدَّة والمقام بين أظهرهم ألفَ سنةٍ إلّا خمسين عامًا[2].

سِرُّ ذِكر المعيَّة في ﴿مَعَهُۥٓ﴾:

المعيَّة المعتبرةُ هي معيَّة الأبرار في السَّرّاء والضَّرّاء

جاء التَّعبير في قولِه تعالى: ﴿وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ﴾، دون أن يقولَ: (وما آمن إلّا قليل) ومعلومٌ أنَّهم آمنوا معه، وذلك لاعتبارِ المعيَّةِ في إيمانِهم، فإيمانُهم كان بمعيَّتهم لنوحٍ عليه السلام، لا إيمانَ منفصلٍ عنه، فقد يؤمن الإنسانُ، وينفرد بنفسِه عن رسولِه الذي آمن به، وهذا غير معتبر، فالمعتبر هو الإيمان المصاحب للنَّبيِّ في السَّرّاء والضَّرّاء، وكذلك حالُ عموم المؤمنين، يجب أن يكون إيمانًا بالمعيَّة لأهل العلم الرَّبانيّين، دون انفصالٍ عنهم وانفرادٍ عن مصاحبتهم، فهو إيماءٌ إلى المعيَّةِ في مَقرِّ الأمانِ والنَّجاةِ[3].

دلالةُ الاعتراض بالقصر:

الصّالحون قلَّةٌ قليلةٌ وفئةٌ عزيزةٌ؛ بهم يبقى نورُ الله في الأرض، وبذهابِهم تقوم السّاعة

جملة ﴿وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ اعتراضٌ لتكميل الفائدة من القصَّة في قلَّة الصّالحين، وهو من قبيل قصر صفة الإيمان على موصوفٍ، وهم القِلَّة القليلة من قوم نوح عليه السلام، قيل: كان جميع المؤمنين به من أهله وغيرهم نيِّفًا وسبعين بين رجالٍ ونساء[4].

وتشير هذه الجملة من جهة أخرى: إلى أنَّ ثمرة جهاد نوح عليه السلام بعد هذه السِّنين الطِّوال والسَّعي الحثيث المتواصل في التَّبليغ لدعوته، لم يكن سوى هذا النَّفر المؤمن القليل، وهذا الأمر يَدُلُّ على ما كان عليه هذا النَّبيُّ العظيم من الصَّبر والاستقامة في درجةٍ قصوى؛ بحيث كان مُعَدَّلُ ما يبذله من جهدٍ لهداية

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/208، والقاسمي، محاسن التَّأويل: 6/94.
(2) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/278.
(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السليم: 4/208.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 12/73.

شخصٍ واحد عشرَ سنواتٍ تقريبًا، وهذا الجهد الذي لا يبذله النّاس حتّى لأولادهم.

توجيه المتشابه اللّفظيّ:

الحملُ إدخالٌ عامٌّ، والسَّلك إشارةٌ إلى لتفصيل العموم

ذكر الله ﷻ - في قوله تعالى: ﴿قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ - أنَّه أمر نبيَّه نوحًا ﷺ: أن يحمل في سفينته من كلِّ زوجين اثنين، وبيَّن في قوله تعالى في سورة (المُؤمنون): ﴿فَٱسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ [المؤمنون: 27] أنَّه أمره أن يسلكهم، أي: يُدخلهم فيها، فَدَلَّ ذلك على أنَّ فيها بيوتًا يدخل فيها الرّاكبون، ومعنى ﴿فَٱسْلُكْ﴾: أدخلْ فيها من كلِّ زوجين اثنين، تقول العرب: سلكتُ الشَّيءَ في الشيء: أدخلتُه فيه، وأصل السَّلك يَدُلُّ على نُفوذِ شَيْءٍ في شَيْءٍ، ومنه السِّلْكُ، أي: الخيط الذي يُسلَك، أي: يُدخل في الخرز لينظم[1].

روعي في التَّفصيلِ ألفاظُ العموم، وفي الإيجازِ ألفاظُ الخصوص

كما أنَّ لفظ ﴿ٱحْمِلْ﴾ أوسعُ موقعًا في اللُّغة، وأكثر تصرُّفًا في الكلام، تقول: حملتُ الشَّيء إلى فلان، وحملته على كاهلي، وحملتُ العلم عن فلان، وحملَ فلانٌ الأمانة، وحملَهُ الغضبُ على كذا، وحملَ الفارسُ على صاحبه، وحملَتِ المرأةُ والشَّجرُ، ولا تقول في شيء من هذا: سلك إلّا أن يكون المحصور فيه حسبما تعاقب (سلك) و(حمل)، إن لم يعرض في المعنى ما يمنع، وأمّا (سلك)؛ فإنَّ العرب تقول: سلكتُ الشَّيء في الشيء وأسلَكْتُه، أي: أدخلتُه، وكل ما يُخْرِجُ (سلك) عن هذا المعنى من الدُّخول حقيقةً ومجازًا، ففيها من حيث معناها الخصوص، وأمّا (حمل)؛ ففيها اتِّساعٌ لا يكون في (سلك)، فوجهُ ورودها في سورة هود مُناسبتُها للمعنى من حيث ما اقترن بها من لفظ: ﴿قُلْنَا﴾، فطال الكلام لفظًا مع ما تدلُّ عليه من سعة المحامل، وناسب مجموعَ هذه العبارة ما ورد في سورة هود من استيفاء قصَّة نوح ﷺ، وطولِ الكلام بذلك قولُه

(1) الشِّنقيطي، أضواء البيان: 3/19، وابن فارس، مقاييس اللُّغة: (سلك).

تعالى: ﴿قُلۡنَا ٱحۡمِلۡ فِيهَا﴾ إخبارًا عمّا كان من الله تعالى إلى نوح ﷺ من الأمر بحمل ما يحمله في السَّفينة، ومَن يحمله من المؤمنين، وتقدَّم إليه بإعدادهم للرُّكوب معه، ومنعِ من حُظر عليه استصحابه، ثُمَّ بعد ذلك أمره بقوله: ﴿ٱرۡكَبُواْ فِيهَا﴾، فالأوَّل أمرٌ بتهيئته ما يستبقي من الحيوان، ومَن يستبقي من المؤمنين، والثّاني أمرٌ بركوب السَّفينة، والثّالث أمرٌ بالهبوط منها بقوله: ﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهۡبِطۡ بِسَلَٰمٖ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيۡكَ﴾ [هود: 48]، فالذي جاء في سورة هود جاء على مقتضى أوامر الله تعالى المفصَّلة من إعداد مَن يركب معه، وأمّا آية (المؤمنون)؛ ففي قصَّة نوح -فيها- إيجاز وإجمال، ألا ترى أنَّها في كلمها وعدد حروفها في آية هود على الضِّعف أو أطول ممّا في سورة المؤمنون، فلذلك ورد في سورة المؤمنون لفظ ﴿فَٱسۡلُكۡ﴾ لإيجازه من حيث معناه تجرُّده عن اقتران لفظ (قلنا) أو غيره ممّا يحرز الطُّول، بخلاف ما في سورة هود، وممّا يُعضِّد هذا المقصود، ويشهد له قوله تعالى في سورة هود: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا﴾، وفي سورة المؤمنون: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا﴾، فتأمَّل ﴿حَتَّىٰٓ﴾، وهي على أربعة أحرف بفاء التَّعقيب في سورة (المؤمنون) في قوله: ﴿فَإِذَا﴾ [المؤمنون: 27]، وإنَّما الفاء على حرفٍ واحد، فناسب بالفاء موضعها المبنيُّ على الإيجاز، وبِـ ﴿حَتَّىٰٓ﴾ موضعها المبنيُّ على الاستيفاء والطُّول[1].

(1) الإسكافي، دُرَّة التَّنزيل: 1/937 - 938، وابن الزُّبير الغرناطي، ملاك التَّأويل: 2/256 - 257.

المحتويات

الجزء الحادي عشر 7

سورة يونس 9

- [يونس: 76 - 77] 10
- [يونس: 78] 21
- [يونس: 79] 28
- [يونس: 80] 35
- [يونس: 81] 43
- [يونس: 82] 55
- [يونس: 83] 65
- [يونس: 84] 80
- [يونس: 85] 87
- [يونس: 86] 94
- [يونس: 87] 100
- [يونس: 88] 113
- [يونس: 89] 127
- [يونس: 90] 135
- [يونس: 91] 155
- [يونس: 92] 161
- [يونس: 93] 174
- [يونس: 94] 189
- [يونس: 95] 206
- [يونس: 96] 212
- [يونس: 97] 218
- [يونس: 98] 222
- [يونس: 99] 238
- [يونس: 100] 250
- [يونس: 101] 260
- [يونس: 102] 274
- [يونس: 103] 284
- [يونس: 104] 294
- [يونس: 105 - 106] 309
- [يونس: 107] 322
- [يونس: 108] 345
- [يونس: 109] 356

سورة هود 365

- [هود: 1] 376
- [هود: 2] 385
- [هود: 3] 392
- [هود: 4] 409
- [هود: 5] 415

الجزء الثاني عشر 427

- [هود: 6] 428
- [هود: 7] 439
- [هود: 8] 454
- [هود: 9] 466
- [هود: 10 - 11] 478
- [هود: 12] 492
- [هود: 13] 505
- [هود: 14] 520
- [هود: 15] 531
- [هود: 16] 540
- [هود: 17] 546
- [هود: 18 - 19] 562
- [هود: 20] 578
- [هود: 21] 596
- [هود: 22] 605
- [هود: 23] 615
- [هود: 24] 622
- [هود: 25] 633
- [هود: 26] 640
- [هود: 27] 649
- [هود: 28] 672

- [هود: 29] 689
- [هود: 30] 702
- [هود: 31] 708
- [هود: 32] 722
- [هود: 33] 729
- [هود: 34] 735
- [هود: 35] 743
- [هود: 36] 749
- [هود: 37] 756
- [هود: 38] 763
- [هود: 39] 782
- [هود: 40] 794

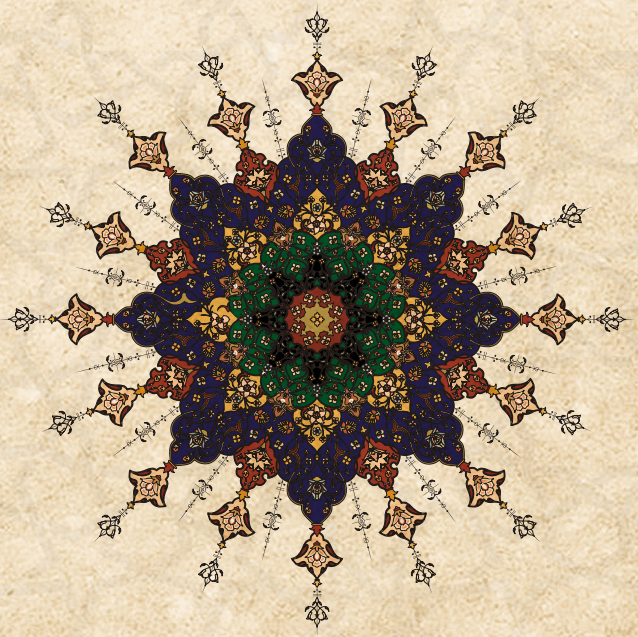

مجمع القرآن الكريم بالشارقة

موسوعة التفسير البلاغي

المُجَلَّدُ الحَادي والعِشرونَ

سورة هود من الآية 41 إلى الآية 114

موسوعة التفسير البلاغي

حكومة الشارقة
Government of Sharjah
مجمع القرآن الكريم بالشارقة
HOLY QURAN ACADEMY IN SHARJAH

موسوعة التفسير البلاغي

المُجَلَّدُ الحَادي والعِشرونَ

سورة هود من الآية 41 إلى الآية 114

نُخبَةٌ مِنْ عُلَماء مَجمَعِ القُرآنِ الكَريمِ بِالشّارِقَةِ

منشورات القاسمي
AL QASIMI PUBLICATIONS
20/24

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الحادي والعشرون، سورة هود من الآية 41 إلى الآية 114
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الحادي والعشرون، سورة هود من الآية 41 إلى الآية 114 [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 21 ، 808 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-18-0
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 21 : المجلد الحادي والعشرون، سورة هود من الآية 41 إلى الآية 114.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-768-18-0
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-9725944 بتاريخ 2024/02/06م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الجُزْءُ الثَّانِي عَشَرَ

سُورَةُ هُودٍ

﴿۞وَقَالَ ٱرۡكَبُواْ فِيهَا بِسۡمِ ٱللَّهِ مَجۡرٖىهَا وَمُرۡسَىٰهَآۚ إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ٤١﴾ [هود: 41]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

ابتداءُ إهلاكِ المجرمين يُقارنُه إنجاءُ المؤمنين

بعد بيانِ مجيءِ علامات الطّوفان، وأمارات الإهلاك، والأمر بتحميل سفينة النَّجاةِ بمن بهم تستمرُّ الحياةُ، حسُن بعد ذلك ذكرُ الاستجابةِ، وأنَّها بأمر الله تعالى لا بأمر أحدٍ من خلقه، فالمناسبةُ هي بيانُ ترتُّبِ الأمر بالرُّكوبِ والاستجابةِ لأمر الواحد القهّار على الأمر بحملِ ما يستحقُّ أن يُحمل، ومن يستحقُّ أن يكون على متنها.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مَجۡرٖىهَا﴾: أصلُ (جري): يدلُّ على انسياحِ شَيءٍ، يُقالُ: جرى الماء يجري جريةً وجَرْيًا وجَرَيانًا[1]، وجرت السفينةُ جريًا، والجارية: السَّفينة، وهي صفةٌ غالبة[2]، وفي التَّنْزيل: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلۡمَآءُ حَمَلۡنَٰكُمۡ فِي ٱلۡجَارِيَةِ ١١﴾ [الحاقَّة: 11]؛ سُمّيت بذلك لجريها في البحر، ومنه قيل للأمَة: جاريةٌ، على التَّشبيه لجريها[3]، و﴿مَجۡرٖىهَا﴾، أي: مَسيرُها، وإجراؤها بمعنى المصدر الميمي ذي الأصل الرُّباعي من أجريتُه مَجرى وإجراء، أو بمعنى الوقت[4].

2) ﴿وَمُرۡسَىٰهَآۚ﴾: أصلُ (رسو): يدلُّ على ثبات الشَّيء بلزوم أسفله أو باطنه، ورَسَت السَّفينة: بلغ أسفلُها القَعْرَ، وانتهى إلى قَرار الماء،

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (جرى).
(2) الجوهري، الصِّحاح، وابن سيده، المُحكم والمحيط الأعظم: (جرى).
(3) الفيّومي، المصباح المنير: 1/98.
(4) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 204، والنَّيسابوري، إيجاز البيان: 1/412، وابن جرير، جامع البيان: 12/413، وابن الهائم التِّبيان، ص: 234.

فثبتَتْ[1]، ومعنى ﴿وَمُرۡسَىٰهَآۚ﴾، أي: رُسوُّها، وموقفها ومحبسها[2] وانتهاءُ سَيرِها، بمعنى المصدر الميمي ذي الأصل الرُّباعي من أرسيته إرساء.

المَعْنى الإجْماليُّ:

رحمةُ الله بالمؤمنين هي في إنجائِهم من رؤيةِ الأشرارِ ونقلِهم إلى دارِ الأبرار

شرعتِ الآية في ذكر قولِ نوحٍ ﷺ آمرًا أهله والمؤمنين بالرُّكوبِ في السَّفينةِ، مستعينًا باسم الله تعالى في حالِ جريها وإرسائها، معلِّلًا ذلك الأمر بأنَّ الله تعالى هو الرَّبُّ الذي يرعى عبادَه المؤمنين، بغفرانِ ذنوبِهم، وبرحمتهم بأن يُنجّيهم من البقاءِ في دارٍ، الأشرارُ فيها باقون، إلى دارٍ نقيَّةٍ من أعمالِهم، عامرةٍ بالطّاعة والإيمانِ، فهي رحمةٌ تسبقها مغفرةٌ، ومآلها نجاةٌ في الدّارين.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالةُ الواو في ﴿وَقَالَ﴾:

الدَّلالة على كمال الامتثال لأمر الكبير المتعال

الواوُ في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱرۡكَبُواْ فِيهَا﴾ عَطْفٌ على جملة ﴿قُلۡنَا ٱحۡمِلۡ فِيهَا﴾، أي: قلنا له ذلك، وقال نوحٌ ﷺ لمن أُمر بحمله: اركبوا[3]، فالآية الكريمة معطوفة على مضمون الجملة السّابقة مع إضمارِ المعاني، والتقدير: قلنا له ذلك، فامتثلَ أمرنا، وقال لمن معه من المؤمنين: سلِّموا أمركم لمشيئة الله تعالى، وقولوا عند ركوب السَّفينة: باسم الله[4]، وهذا يدلُّ على كمال امتثال نوح ﷺ لأمر الله وسرعة استجابته لربِّه ومولاه.

(1) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 204، وابن جرير، جامع البيان: 12/415، وابن فارس، مقاييس اللُّغة: 2/394، والزَّبيدي، تاج العروس: 19/459، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (رسو).
(2) الكجراتي، مجمع بحار الأنوار: 2/327.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 12/73.
(4) طنطاوي، التَّفسير الوسيط: 7/207.

تعيينُ القائلِ في: ﴿وَقَالَ ٱرۡكَبُواْ فِيهَا﴾:

النَّظم والسّياقُ يعزِّزان أنَّ القائل هو نوحٌ عليه السلام

اختُلف في تعيين الفاعل في فعل ﴿وَقَالَ﴾، هل هو لنوحٍ عليه السلام أو لله تعالى؟

فقيل: إنَّ الضَّمير المستكن في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ﴾ عائدٌ على نوحٍ عليه السلام، وهو المتبادر من سياق الآية، فلحاق الآيةِ يدُلُّ على أنَّه لنوح لقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٞ رَّحِيمُۢ﴾، وقيل: إنَّه عائد على الله جلَّ في علاه، والتَّقدير: وقال الله لنوحٍ ومن معه[1]: ﴿ٱرۡكَبُواْ﴾، ويدلُّ عليه سياق الآية: ﴿قُلۡنَا ٱحۡمِلۡ فِيهَا﴾، ويكون التفاتًا بالخروج من التَّكلم إلى الغَيبة[2]، والأظهر والأسعد بسياق الآية الكريمة، وهو ما تقتضيه بلاغةُ النَّظم وفصاحة الألفاظ؛ القول الأول.

الغرض من الاستعارة في (الرُّكوب):

السَّفينة مركبُ الانتصار ومرتعُ الأبرار ومحلُّ الفرار

الرُّكوبُ في الأصل العُلوُّ على الشَّيء وغلبته فيه، فيتعدَّى بنفسه، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱلۡخَيۡلَ وَٱلۡبِغَالَ وَٱلۡحَمِيرَ لِتَرۡكَبُوهَا﴾ [النَّحل: 8]، وقد يُطلق على الصَّيرورة والدُّخول، فيكون معنى ﴿ٱرۡكَبُواْ فِيهَا﴾ صيروا فيها، وجعل ذلك ركوبًا؛ لأنَّها في الماء كالمركوب في الأرض، ففيه استعارة تصريحيَّة تبعيَّة من حيث تشبيه الصَّيرورة فيها بالرُّكوب[3]، ويلزم له كون الصَّيرورة فيها كالرُّكوب في الأنعام[4]، ولأجل هذا تعدّى الفعل بحرفِ ﴿فِي﴾ الدّال على المحلّيَّة، كقوله تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُواْ فِي ٱلۡفُلۡكِ﴾ [العنكبوت: 65]؛ فإنَّهم في داخل البطن الأعلى، أو في الوسط، وليسوا على أعلاها، كما يكون الرّاكب على أعلى الدّابَّة، فَشُبِّهوا براكب الدّابَّة[5]، فالجامع بين الرُّكوبَيْن السَّيرُ،

(1) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 9/36، وأبو حيّان، البحر المحيط: 6/155.
(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/356.
(3) الشِّهاب الخفاجي، حاشية الشِّهاب على تفسير البيضاوي: 5/165، والآلوسي، روح المعاني: 6/254.
(4) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاوي: 10/80.
(5) أطفيش، تيسير التَّفسير: 6/397.

غير أنَّ ركوبَ الدّابَّة يتعدَّى بنفسه، وركوب الفُلك يتعدَّى بحرف الجرِّ ﴿فِي﴾ للفرق بين الأصلِ وهو ركوب الدّابة، والفرعِ وهو الرُّكوب في السَّفينَة، ولا يتعارض هذا مع قوله تعالى: ﴿وَعَلَيۡهَا وَعَلَى ٱلۡفُلۡكِ تُحۡمَلُونَ ٢٢﴾ [المؤمنون: 22]؛ لأنَّ فيه التفاتًا إلى المَركوب لا الرّاكب؛ لأنَّ الرّاكبَ محمول على ظهر السَّفينَة.

سِرُّ الخطاب بضمير العُقلاء في: ﴿ٱرۡكَبُواْ﴾:

إركابُ الحيواناتِ إركابُ تسييرٍ، وإركابُ البشرِ إركابُ تخييرٍ

خاطبتِ الآيةُ الكريمة المؤمنين من النّاس، أي: ذوي العقول، دون التَّعرُّضِ لغيرِهم من الكائنات المحمولة، وذلك لظهوره وعدم الاعتناء بشأنها كالاعتناءِ بذوي العقول؛ إذ المقصود من الأمر المذكور هو التَّسمية حين الرُّكوب، وهو لا يتصوَّر إلّا في العقلاء[1]، ويحتمل الكلام أن يكون عليه السلام قال هذه المقالة بعد إدخال ما أُمر بحمله من الأزواج، كأنَّه قيل: فحَملَ الأزواج، وأدخلَها في الفلك، وقال للمؤمنين: اركبوا فيها[2].

والأوجَهُ من ذلك أنَّ لفظ ﴿ٱحۡمِلۡ﴾ يدخل فيه الحيوانات والبشر جميعًا، لكن على تفصيل: أمّا حمْلُ الحيوانات؛ فهذه وظيفة البشر بسوقها إلى السَّفينة، وأمّا حمل البشر؛ فبأمرِهم ﴿ٱرۡكَبُواْ فِيهَا﴾، ولذلك فإنَّ إركاب الحيوانات؛ هو إركابُ تسيير، وإركاب البشر؛ فهو إركاب تخيير.

سِرُّ تأنيث الضَّمير ﴿فِيهَا﴾:

الفُلك باعتبار الاسم العلم، والسفينة باعتبار وظيفتها في الحمل

ذكرتِ الآيات السابقة أنَّ الله تعالى أمر نوحًا عليه السلام بصناعةِ الفلك: ﴿وَٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ﴾، وقال في الإخبارِ عن نوح عليه السلام بأنَّه: ﴿وَيَصۡنَعُ ٱلۡفُلۡكَ﴾، والفُلك لفظٌ مذكَّرٌ لا مؤنَّث، ولم يُذكَرْ لفظُ السَّفينةِ، فيُسأل عن نكتةِ تأنيث الضَّمير العائد على الفُلكِ في قوله تعالى:

(1) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاوي: 10/80.
(2) القنوجي، فتح البيان: 3/316.

﴿وَقَالَ ٱرۡكَبُواْ فِيهَا﴾؛ إذ لم يقل: (اركبوا فيه)؟ ونكتتُهُ: أنَّ النَّظم فسَّرَ الفُلك بالسَّفينة، وأنَّه فُلكٌ باعتبارِ عنوانها، وسفينةٌ باعتبار وظيفة الحَمْل، ولذلك ذكَّر الفُلك باعتبارِ الاسم، لكن لمّا جاء على اعتبار وظيفة الحَمْل أتى بضميرِ التأنيث، أي: في السَّفينة، كقوله تعالى: ﴿وَحَمَلۡنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلۡوَٰحٖ وَدُسُرٖ ١٣﴾ [القمر: 13].

سِرُّ تعدية الفعل ﴿ٱرۡكَبُواْ﴾ بـ(في):

رعاية المحلّيَّة والمكانيَّة في السَّفينة والإشارة إلى هيئة صنعها

عُدّي فعلُ الأمر بالرُّكوب في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱرۡكَبُواْ فِيهَا﴾ بحرف (في)؛ لاعتبار الصَّيرورة، وإلّا فالفعل يتعدَّى بنفسِه؛ لأنَّه ضُمِّنَ معنى صيروا، فهم أُمروا أن يكونوا في جوفِها لا على ظهرها[1]، لرعاية جانب المحلّيَّة والمكانيَّة في الفُلْكِ[2]، ولمّا كانت الظَّرفيَّة أغلب على السفينة؛ قال: ﴿فِيهَا﴾[3]، وهذا يُعطينا إلماحةً، وهي: أنَّ نوحًا عليه السلام صنع السَّفينة بوحيٍ من الله تعالى على نظامٍ متقنٍ، فهُمْ لم يركبوا على سطحها، بل بُنيت بما يتيح لهم السَّكن فيها، خُصوصًا وأنَّ تلك السَّفينة تحمل وُحوشًا وهوامّا وحيوانات بجانب البشر؛ لذلك كان لا بُدَّ من بنائها على هيئة طبقاتٍ وأدوار[4].

الباء في ﴿بِسۡمِ﴾ بين الحقيقة والمَجاز:

الباء في قوله تعالى: ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ﴾ تحتمل معنيين أساسيَّين:

الباء إمّا للملابسة على الحقيقة، أو الاستعانة على المجاز

الأول: أن تكون للملابسة، ويُعبِّر أهل العلم عنه بالإلصاق والمَصاحبة أيضًا، فهذه مترادفات في الدَّلالة على هذا المعنى[5]، وهي في موضع الحال من ضمير ﴿ٱرۡكَبُواْ﴾، أي: اركبوا ملابسين لاسم الله، وهي ملابسة القول لقائلِه، أي: قائلين: باسم الله، وقت

(1) القرطبيُّ، الجامع لأحكام القرآن: 9/36.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 6/254.
(3) البقاعي، نظم الدُّرر: 9/287.
(4) الشَّعراوي، تفسير الشَّعراوي: 11/6473.
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/147.

إجرائها وإرسائها، أو مكانهما على أنَّ المجرى والمرسى للوقت، أو المكان، أو المصدر[1]، فبتسخيره وقُدرته مجراها حين تجري أو حين يجريها، ومُرساها حين يُرسيها، لا بحول البشر ولا قوَّتهم[2].

الآخر: أن تكون الباءُ للاستعانة، واسْتِعْمالُها في ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ﴾ لمعنى الاستعانة يحتمل الآتي:

أولًا: تحتمل أن تَكونَ من باب الاستعارة المكنيَّة التَّبعيَّة[3]؛ لأنَّ استعارَةَ الحُروف تبعيَّة[4]، وهي تجري في متَعَلَّقات معانيها أوَّلًا، ثُمَّ تَسْري فيها ثانيًا[5]، حيث شُبِّهَ الارتباطُ على وجه الاستعانة بالارتباط على وجه الإلصاق، بِجامع مُطْلَقِ الارتِباط في كُلٍّ، فسَرى التشبيهُ للجزئيّات، واستعيرَتِ الباء الموضوعة للإلصاق الجُزْئيِّ للاستعانة الجُزئيَّة على طريق الاستعارة التَّبعيَّة[6].

والمعنى: وقال: اركبوا فيها مستعينين باسم الله في جريانها وإرسائها، فهو الذي يتولَّى ذلك بحوله وقوَّته، وحفظه وعنايته، وفي هذا بشارةٌ لهم بحفظه تعالى لها ولهم[7].

ثانيًا: تحتمل أن تكون من باب المَجازِ المُرسَلِ، علاقتُه: الإطلاق والتَّقييدُ؛ ووجْهُ ذلك أنَّ الباء لارْتِباطٍ مُقَيَّدٍ بالإلصاقِ، فأُطلِقَ عن القَيْدِ، واسْتُعْمِلَت في الارتِباط على وجْهِ الاسْتعانة[8].

بلاغةُ الاحتراس في: ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ﴾:

سبق آنفًا بيانُ أنَّ الباء في قولِه تعالى: ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ﴾؛ للاستعانةِ،

ذكرُ الاسم لبيانِ أنَّ المقصودَ هو التَّيمُّن لا اليمين

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 3/135، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/73.
(2) محمد رشيد رضا، تفسير القرآن الحكيم: 12/76.
(3) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 1/10.
(4) السُّبْكي، عروس الأفراح: 2/172.
(5) السَّكّاكي، مفتاح العلوم، ص: 380.
(6) الدّسوقي، حاشية على مختصر المعاني: 1/3.
(7) محمد رشيد رضا، تفسير القرآن الحكيم: 12/76.
(8) الدّسوقي، حاشية على مختصر المعاني: 1/3 - 4.

ففي الجملةِ إطنابٌ بزيادَةِ (اسم)، ومقتضى الظّاهرِ أن تكون: (باللّه)؛ إذِ الاستعانَةُ تكون باللّه تعالى لا باسْمِهِ، وفائدةُ ذكر (اسْم): دَفعُ اللَّبْسِ؛ إذْ لو قيل: (باللّه)؛ لاحتَمَلَ الكلامُ أنْ يكونَ قسمًا، فجيءَ بـ لفظِ (اسم) للتَّمْييزِ بين التَّيمُّنِ واليَمين[1]، ففيه احتِراسٌ؛ بقصد دفع إيهام القسم؛ ويَحْتَملُ أنْ لا إطنابَ فيها؛ إذِ الاستعانَةُ تكون تارةً باللّه تعالى، وتارةً باسمه، ولكلٍّ وجهه[2].

دلالةُ الإضافة في: ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ﴾:

استحضار معاني الألوهيَّة في المواقف العظيمة نجاةٌ وعبوديَّة

أُضيف لفظ ﴿بِسۡمِ﴾ إلى الاسم الجليل ﴿ٱللَّهِ﴾؛ لأنَّ المقام مقامٌ عظيمٌ، والموقف موقفٌ جسيمٌ، فالطّوفان الذي سيغمر الأرض طوفانٌ هائلٌ مهولٌ، لا يتخيَّله الذِّهن، ولا يحيط به التَّصوُّر، فهُنا يستحضر المؤمن عظمة الآمر لهذا الطّوفان، والمسيِّر له، والحافظِ لتلك السَّفينةِ والثُّلةِ المؤمنة في لجَّة ذلك الموج العظيم، واستحضارُ معاني الألوهيَّة الدّالة على العظمة ضرورةٌ؛ لاحتياج المؤمن إلى تقرير كمال ألوهيَّته ﷻ في نفسه في كلِّ موقفٍ يحتاج فيه إلى مساندته وحوله وقوَّته.

سرُّ تقديم ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ﴾:

اسمُ الله قبل كلِّ شيءٍ؛ لأنَّه أرسخُ من كلِّ شيءٍ

إذا كان تقدير الآية: (إجراؤها وإرساؤها باسم اللّه) الذي هو في الأصل جملة مكوَّنة من مبتدأ وخبر[3]، ففيها تقديم المعمولِ على العامل، ونكتةُ ذلك أنَّه أوقعُ؛ لأنَّه أهمُّ وأدلُّ على الاختصاص، وأدخل في التَّعظيم، وأوفق للوجود، فإنَّ اسمه ﷻ مُقدَّم، كيف لا؟

(1) الواحديُّ، التَّفسير البسيط: 1/443.

(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 1/9 - 10.

(3) السُّيوطي، نواهد الأبكار: 1/89، ويكون إعراب الآية على هذا التَّقدير: ﴿بِسۡمِ﴾ جارٌّ ومجرورٌ متعلِّقان بمحذوف هو خبر مقدَّم، و﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ﴾ لفظ الجلالة مضاف إليه مجرور، و﴿مَجۡرٖىٰهَا﴾: (مجرى): مبتدأ مؤخَّر مرفوع وعلامة الرفع الضمَّة المقدَّرة على الألف. ينظر: محمود صافي، الجدول في إعراب القرآن: 12/269.

والفعل لا يتمُّ، ولا يعتدُّ به شرعًا ما لم يصدَّر باسمه تعالى[1]، فكان هذا التَّقديم أحسنَ وقعًا، وأزيدَ وقوعًا في قلب السّامع من تقديم العامل، فَقُدِّمَ لكون اسمه تَعالى أهمَّ، فإجراؤها وإرساؤها باسم اللّه فقط، لا بهبوب الرِّياح في الأول، وإلقاء المرساة في الثّاني[2].

توجيه القراءات في: ﴿مَجْرِىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ﴾:

حشدُ المعاني بالقراءات تنويعٌ بليغٌ وتفنُّنٌ بديع

قرأ الجمهور قولَه تعالى: ﴿مُجْرَىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ﴾ بضم الميمين[3]، وهُما مصدران، فأجرى السَّفينة إذا جعلها جاريةً، أي: سيَّرها بسرعة، وأرساها إذا جعلها راسيةً، أي: واقفة على الشّاطئ[4]، والمعنى: إجراؤها وإرساؤها بأمر اللّه[5].

وقرأ حمزة، والكسائي، وحفص عن عاصم، وخَلَفٌ بفتح الميم في ﴿مَجْرِىٰهَا﴾[6] على أنَّه مَفْعَلٌ للمصدر أو الزَّمان أو المكان[7]، منْ جَرَتِ السَّفينَةُ جَريًا ومجرًى، وقالوا: إنَّ معنى ذَلِك: بِسم اللّه حينَ تجري، وحجَّتهم قَولُهُ بَعْدها: ﴿وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ﴾ فالإسنادُ إلى السَّفينَةِ في اللَّفْظِ والمعْنَى[8]، فالسفينة جاريةٌ راسية حقيقةً، واللّه هو الذي أجراها، وأرساها، وهذا من باب تكثير المعاني بين جريانها وإجرائها، ومكان جريها، ومكان إجرائها، وزمان جريها وزمان إجرائها.

وأمّا ﴿وَمُرْسَىٰهَآ﴾؛ فبضمِّ الميم للجميع؛ لأنَّه لا يُقال: (مَرساها) بفتح الميم؛ ووجْهُ العدول عن الفتح في مُرساها في كلام العرب -

(1) البيضاوي، أنوار التَّنزيل: 1/25.
(2) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاوي: 1/88.
(3) ابن الجزري، النَّشر: 2/288.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 12/73 - 74.
(5) السَّمرقندي، تفسير السَّمرقندي: 2/151.
(6) ابن الجزري، النَّشر: 2/288.
(7) ابن عاشور، التَّحرير والتنوير: 12/73 - 74.
(8) ابن زنجلة، حُجَّة القراءات، ص: 340.

مع أنَّه في القياس مماثل (مجراها) - دَفْعُ اللَّبس لئلّا يَلْتَبِسَ باسم المَرسى الذي هو المكان المُعَدُّ لرُسوِّ السُّفن[1].

موقع جملة ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ مَجۡرٖىٰهَا وَمُرۡسَىٰهَآۚ﴾:

قوله تعالى: ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ مَجۡرٖىٰهَا وَمُرۡسَىٰهَآۚ﴾ إمّا أن يكون مقتضبًا ممّا قبله، أو حالًا منها:

التَّنبيهُ على استصحاب ذكر الله عند الرُّكوب، واستحضاره عند الانطلاق والحلول

الأول: أن تكون الجملة مُقتضبة[2] منقطعة عمّا قبلها؛ لاختلافهما خبرًا وطَلَبًا، على أنَّ نوحًا عليه السلام أمرهم بالرُّكوب في السَّفينة، ثم أخبرهم بأنَّ إجراءها وإرساءها بسم الله تعالى[3]، فلا مُناسبة بين الأمر بالرُّكوب، وبين الإخبار بأنَّ مَجرى السَّفينة ومُرْساها سيكون بذكر اسم الله؛ لاختلاف الإنشائية والخبريَّة[4]، فيكونان كلامَين له عليه السلام[5]، وهذا يدلُّ على أنَّه لمّا ركب السَّفينة؛ أخبر القوم بأنَّ السَّفينة ليست سببًا لحصول النَّجاة، بل الواجب ربطُ الهِمَّة وتعليقُ القلب بفضل الله تعالى، وأخبرهم أنَّه تعالى هو المُجري والمُرسي للسَّفينة، فإيّاكم أن تعوِّلوا على السَّفينة، بل يجب أن يكون تعويلكم على فضل الله، فإنَّه هو المُجري والمرسي لها، وفي ذلك إزالةٌ لما عسى أن يختلج في قلوبهم من خوف الغرق ونحوه[6].

الآخر: أن تكون الجملة في موضع الحال من ضمير ﴿ٱلۡفُلۡكَ﴾، أي: اركبوا فيها مُجراةً ومُرساةً باسم الله؛ فيكون الرُّكوب مقرونًا بهذا الذِّكر، وهي حالٌ مُقدَّرة؛ إذ لا إجراء ولا إرساء وقت الرُّكوب[7]،

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتنوير: 12/73 - 74.

(2) الاقتضاب: الانتقال مما افتتح به الكلام إلى المقصود من غير مناسبة، ينظر: التنوخي، الأقصى القريب في علم البيان، ص: 84، والصَّعيدي، بغية الإيضاح: 4/712، فهو: الإتيان بالشَّيء استئنافًا بغتة، أُطلق على الإتيان بالكلام بعد الآخر بلا ربط ومناسبة. يُنظر: المغربي، مواهب الفتاح: 2/710.

(3) القاسمي، محاسن التَّنزيل: 6/94.

(4) محيي الدّين زاده، حاشية زاده على البيضاوي: 4/644.

(5) أبو السُّعود، إرشاد العقل السليم: 4/209.

(6) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/348، والآلوسي، روح المعاني: 6/254.

(7) الآلوسي، روح المعاني: 6/254.

وهذا المعنى يُشير إلى أنَّ الإنسان لا ينبغي أن يشرع في أمرٍ من الأمور إلّا ويكون في وقت الشُّروع فيه ذاكرًا لاسم الله تعالى بالأذكار المقدَّسة، حتَّى يكون ببركة ذلك الذِّكر سببًا لتمام ذلك المقصود[1].

بلاغةُ شبه كمال الاتصال:

الاستئناف البيانيُّ كاشفٌ عن رحمةِ الله مع تعليل الأمر

قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ جملةٌ مُستأنفةٌ استئنافًا بيانيًّا؛ كأنَّه قيل: هل نجاتهم من هذا الهول العظيم بركوبهم في الفلك الجسيم؟ هل هم مُستحقّون بذلك أو بمحضِ لُطفهِ تعالى وعفوهِ ورحمته؟ فأجيب بذلك بقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[2].

أي: لولا مغفرته ورحمته إيّاكم لما أنجاكم من هذه الطّامة إيمانكم، وفيه دلالة على أنَّ نجاتهم لم تكن عن استحقاق؛ بسبب أنَّهم كانوا مؤمنين، بل بمحض رحمة الله تعالى وغفرانه، ومنعُ صلاحية كونها علَّةً لقوله تعالى: ﴿ٱرۡكَبُواْ﴾؛ لعدم المناسبة؛ فَيُقدَّر ما يصحُّ به الكلام بأن يُقال: امتثلوا هذا الحكم لينجيكم من الهلاك بمغفرته ورحمته، أو يقال: ﴿ٱرۡكَبُواْ فِيهَا﴾ ذاكرين الله تعالى، ولا تخافوا الغرق لما عسى فرط منكم من التَّقصير؛ لأنَّ الله تعالى شأنه غفورٌ للخطايا والذُّنوب رحيمٌ بعباده[3]. وفيها معنى التَّعليل للأمر بالرُّكوب المصاحب لذكر الله تعالى، أي: إنَّ ربي لعظيم المغفرة ولعظيم الرَّحمة لمن كان مُطيعًا له مُخلصًا في عبادته، وفي التَّعليل بالمغفرة والرَّحمة إشارةٌ إلى أنَّ الله وعد بنجاتهم، وذلك من غفرانه ورحمته[4].

دلالة التَّوكيد بأكثر من مؤكِّدين:

من غفَرَ؛ رَحِمَ، ومن رَحِمَ؛ نجَّى عبادَه من هولِ الأقدار

علَّل النَّظم الكريم نجاتهم بالإجراء والإرساء اعترافًا بأنَّه لا نجاة إلّا بعفوه، وأكَّد ذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/348.
(2) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاوي: 10/84.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 6/254.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 12/74، وطنطاوي، التفسير الوسيط: 7/207.

بحرف ﴿إِنَّ﴾ واسمية الجملة بقوله: ﴿إِنَّ رَبِّي﴾[1] تأكيدًا للكلام وتقريرًا له في نفوس السّامعين، وزاد النَّظم الكريم في التَّأكيد تطمينًا لقلوب مَن مع نوح عليه السلام، مُعرِّفًا لهم بأنَّ أحدًا لن يقدر الله حَقَّ قدره، وأنَّ العبد لا يسَعهُ إلّا الغُفران، فقال: ﴿لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[2]؛ تحقيقًا للمؤمنين بأنَّ الله رحمهم بالإنجاء من الغرق[3]؛ لكون المقام مقامَ الخوف لهولِ أمر الطّوفان.

سرُّ وضع المظهر موضع المضمر:

التَّعرُّض لعنوان الرُّبوبيةِ لتربيَةِ مبادي المغفرةِ والرَّحمة في قلوب السّامعين

آثر النَّظم الكريم إظهار لفظ الرُّبوبيَّة في قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، فلم يقل: (إنَّه لغفورٌ رحيم)، وذلك للتَّعرُّض لعنوان الرُّبوبيةِ لتربيَةِ مبادي المغفرةِ والرَّحمة في قلوب السّامعين، اعترافًا للمولى بما أنعمَ من أفضال ربوبيَّته، فكانت النَّجاة والتَّمكين للمؤمنين، بعد هلاك الكافرين؛ وأُجري على اسم الجلالة صفة الرُّبوبيَّة استدلالًا على صِحَّةِ التَّوكُّل عليه في دفع الضُّر عنهم وجلب النَّفع والخير لهم؛ لأنَّه مالكهم ومُربّيهم بإنعامه يدفع عنهم الضُّرَّ، ويجلب لهم الخير.

دلالةُ ذكر المغفرة والرَّحمة:

بذكرِ الأضداد تبينُ المحامد وتشخص النِّعم

ذِكرُ المغفرةِ والرحمة بعد ذِكرِ الانتقام من الكافرين بإغراقهم أجمعين هو في الجملة شأن القرآن في بيان الأضداد و المتقابلات، وهو مسلكٌ قرآنيٌّ مطَّرد، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ١٦٧﴾ [الأعراف: 167]، وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ ۖ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ٦﴾ [الرَّعد: 6]، ونحو ذلك من الآيات التي تقرن بين الرَّحمة والانتقام، وذِكرُ المغفرة

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 9/287.
(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 9/287.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 12/74.

والرَّحمة في وقت الإهلاك وإظهار القهر؛ لبيان فضل الله على عباده الذين نجّاهم، فهم في جميع الأحوال بحاجةٍ إلى إعانة الله وفضله وإحسانه، والإنسانُ لا ينفكُّ عادةً عن أنواع الزَّلات والخطايا، فإنَّ نجاتهم لا ببركة عملهم - كما قد يَظنُّون - وإنَّما بمحض فضلٍ من الخالق المنّان الرَّحيم الرَّحمن[1]، كما أنَّ وصف الرَّحمة أنسبُ؛ لأنَّه نَسَبَ نوحًا إلى عمل السَّفينة لينجو فيها هو وقومه[2]، فآية المغفرة والرَّحمة - في هذا المقام الخطير وقت الإهلاك والغرق - في غاية الإشعار بفضل الله ورحمته على عباده المؤمنين الذين نجّاهم[3].

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

المغفرةُ والرَّحمة:

الفرقُ بينَهما من أوجهٍ:

أوَّلًا: أنَّ أصلَ الغَفْرِ في اللُّغة: السَّتْرُ[4]، وأصلَ الرَّحْمَةِ: الرِّقَّةُ والعَطْفُ[5].

في المغفرة سَتْرٌ للذَّنب السّابق وفي الرَّحمة تحصيلٌ للمطلوب

ثانيًا: أنَّ أحدهما سبَبٌ في الآخَرِ، ومال ابنُ عرفة إلى أنَّ الرَّحمة سببٌ في المغفرة؛ لأنَّ الرِّقَّةَ والعطفَ توجِبُ عادةً سَتْرَ الزَّلَلِ[6]، ولله المثَلُ الأعلى، أمّا في فعل المخلوق؛ فإنَّ الاستغفار وطلب المغفرة هو الجالب للرَّحمة والسَّبب فيها، كما قال تعالى: ﴿لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾﴾ [النَّمل: 46].

ثالثًا: أنَّ المغفرة والرَّحمةَ إذا جُمعا في محلٍّ واحدٍ؛ فالمغفرةُ لسَتْرِ ما مضى من الذُّنوبِ، والرَّحمةُ للسَّلامةِ منْها فيما يُستقبَلُ[7].

(1) وهبة الزُّحيلي، التَّفسير المنير: 12/69.
(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/356.
(3) وهبة الزُّحيلي، التَّفسير الوسيط: 2/1042.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (غفر).
(5) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (رحم).
(6) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/435 - 2/258.
(7) ابن عثيمين، شرح ثلاثة الأصول وأدلَّتها، ص: 19.

رابعًا: أنَّ المغفرةَ فيها زَوالُ المكروه من آثار الذُّنوب، والرَّحمةَ فيها تحصيلُ المطلوب[1].

المغفرة والعفو:

الفرقُ بينَهما من أوْجُهٍ:

الغفر سترٌ والعفو محوٌ

أوَّلًا: أنَّ أصلَ الغَفْرِ في لُغة العربِ: السَّتْرُ[2]، وأصلَ العفو: المحْوُ وتركُ الشَّيء[3].

ثانيًا: أنَّ الغالبَ استعمالُ العفوِ في ترك الواجبات، واستعمالُ المغفرة في فعل المحرَّماتِ[4].

ثالثًا: أنَّ أحدَهُما أبلغُ منَ الآخر، وقد وقع خلافٌ في تعيين الأبلَغِ منهما على قولَيْنِ:

أحدُهما: أنَّ العفو أبلغُ منَ المغفرة؛ لأنَّ المغفرةَ تُنْبِئُ عَنِ السَّتْرِ، بخلاف العفو فإنَّه مشعِرٌ بالمحو، والمحوُ أبلغُ من السَّتْرِ[5].

والآخرُ: أنَّ المغفرةَ أبلغُ منَ العفوِ؛ لأنَّ المغفرةَ متضمِّنَةٌ وقايةَ المغفورِ له شرَّ ذنبِهِ، وإقبالَ الغافِرِ عليهِ ورضاهُ عنه، بخلاف العفوِ؛ فإنَّهُ متضمِّنٌ لإسقاط صاحب الحقِّ حقَّهُ ومسامحتِهِ، فقد يعفو ولا يُقْبِلُ على من عفا عنه، ولا يرضى عنه، وبهذا يكون العفوُ تركًا محضًا، والمغفرةُ إحسانًا وفضلًا وجودًا[6].

والأوَّلُ أشهَرُ، والاشتقاقُ اللُّغَويُّ يدلُّ عليه.

(1) ابن عثيمين، تفسير الفاتحة والبقرة: 3/66.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (غفر).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عفو)، وابن الأثير، النِّهاية في غريب الحديث والأثر: (عفا).
(4) ابن عثيمين، شرح العقيدة الواسطيَّة: 1/341.
(5) الصَّفّوري، نزهة المجالس ومنتخب النَّفائس: 1/88.
(6) ابن تيميَّة، مجموع الفتاوى: 14/140.

﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَٰبُنَيَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ ٱلْمَآءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾﴾

[هود: 42 - 43]

مُناسَبَةُ الآيَتَينِ لِما قَبْلَهُما:

الاستجابةُ لأمر الله تعالى هي طريق النَّجاةِ الوحيدة

لمّا ذكر ﷻ في الآيات السّابقة أمرَه بركوبِ السفينة، وحَمْل ما يجب حَمْلُهُ؛ بَيَّن هنا آثار الاستجابة لأمر الله تعالى، وأنَّها طريق النَّجاةِ، فبيَّن حال السَّفينة، وهي تمخر بهم عُباب الماء بعد أن ذكر الله ﷻ أمْرَ نوحٍ لمن معه بركوب السَّفينة مُتَوكِّلين على الله تعالى، ثُمَّ ذكر ما دار بين نوحٍ وابنه من مُحاوراتٍ في تلك اللَّحظات الحاسمة المؤثِّرة، التي يبذل فيها كُلُّ أبٍ ما يستطيع بذله من جهود لِنَجاة ابنه وفلذة كبده[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مَعْزِلٍ﴾: أصلُ (عزل): يدلُّ على تَنحيةٍ وإمالة[2]، وعزله يعْزِلُهُ؛ إذا نَحّاهُ في جانبٍ[3]، والمعْزِلُ: مَكانُ العُزْلَةِ، أي: الانفراد، والمعنى هُنا: كان في مكان عَزلَ فيه نفسَهُ عن أبيه وعن السَّفينة[4]، ومعنى ﴿مَعْزِلٍ﴾: مكانٍ مُنقَطعٍ، يُقال: عزلتُ الشَّيءَ نحَّيتُه، ورأيته في مَعزلٍ، أي: في ناحيةٍ عن القوم مُعتزلًا[5].

(1) طنطاوي، التَّفسير الوسيط: 7/208.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، وابن سيده، المحكم: (عزل).
(3) ابن الجوزي، تذكرة الأريب، ص: 162.
(4) النَّيسابوري، غرائب القرآن: 4/23.
(5) الخليل، العين: (عزل).

2) ﴿سَـَٔاوِيٓ﴾: أصلُ (أوى): يدلُّ على تَجمُّعٍ[1]؛ وتأوَّتِ الطَّير؛ إذا انضمَّ بعضُها إلى بعض، فهنَّ أويٌّ[2]، وأويْتُ عن كذا، أي: تَرَكْتُ العَمَلَ، ورَجَعْتُ إلى مَأْوايَ[3]، والمَأْوى: مَكانُ كُلِّ شَيْءٍ يُؤْوى إليْهِ لَيْلًا أوْ نَهارًا، والمعنى هنا: أرجِعُ، وألجأُ، وأنْضمُّ إلى جبل[4]، ومعنى ﴿سَـَٔاوِيٓ﴾: أرجِعُ، يُقال: أوى الإنسان إلى منزله يأوي أُويًّا؛ إذا رجع[5].

3) ﴿يَعْصِمُنِي﴾: أصلُ (عصم) يَدُلُّ عَلَى إمْساكٍ ومَنْعٍ ومُلازَمَةٍ، ومنْ ذَلِكَ العِصْمَةُ: بمعنى الحفظِ والمنع[6]، يُقال: واعتصمتُ باللّه، أي: امتنعتُ به منَ الشَّرِّ[7]، وأعْصَمْتُ الرَّجل: هَيَّأت له ما يَعْتَصِم به[8]، والمعنى هُنا: يَمْنَعُني (منَ الماءِ)، فَلا أغْرَقُ[9]، ومعنى ﴿يَعْصِمُنِي﴾: يمنعني، يُقال: عَصَمَ يَعْصِمُ عَصْمًا: منع ووقى[10].

4) ﴿وَحَالَ﴾: أصل الحَوْلِ تغيُّرُ الشَّيءِ وانفصاله عن غيره، وكُلُّ ما حَجَزَ بينَ شَيئَينِ؛ فقد حالَ بينَهما[11]، كأنَّما تَحوَّل إلى المكان الذي بينهما، أي: وقف فيه، فحال بينهما[12]، والمعنى هُنا: وفَصَلَ الموجُ بهديرِهِ وسُرعته بين الابن وأبيه[13]، ومعنى ﴿وَحَالَ﴾: حَجَزَ وفَصَلَ، يُقالُ: حال الشَّيءُ بين الشَّيْئَيْنِ يحولُ حولًا وتحويلًا، أي: حَجَزَ[14].

5) ﴿ٱلْمُغْرَقِينَ﴾: أصل (غرق) يَدُلُّ عَلى انتِهاءٍ في شَيْءٍ يَبْلُغُ أقْصاهُ[15]، ومعنى ﴿ٱلْمُغْرَقِينَ﴾: المهلكون بالغرق، أغرَقَهُ في الماءِ إغْراقًا مثلَ غرَّقَهُ تغْريقًا، فَهو مُغْرَقٌ

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (أوى).
(2) الخليل، العين: (أوى).
(3) ابن عبّاد، المحيط في اللغة: (أوى).
(4) الرّاغب، المفردات: (أوى)، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 9/39، والماتريدي، تأويلات أهل السنة: 6/134.
(5) الخليل، العين: (أوى).
(6) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، الجوهري، الصِّحاح: (عصم).
(7) ابن عبّاد، المحيط في اللُّغة: (عصم).
(8) الخليل، العين: (عصم).
(9) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 9/39، وابن جرير، جامع البيان: 15/331.
(10) الزَّبيدي، تاج العروس: (عصم).
(11) الزَّبيدي، تاج العروس: (حول).
(12) جبل، المعجم الاشتقاقي: (حول).
(13) طنطاوي، التَّفسير الوسيط: 7/209.
(14) ابن منظور، لسان العرب: (حول).
(15) ابن فارس، مقاييس اللغة: (غرق).

وغَريقٌ[1]، والغرقُ الرُّسوب في الماء وفي البلاء[2]، والمعنى هُنا: كانَ ممَّنْ أهْلَكَهُ اللّه بالغَرَقِ[3].

المَعْنى الإجْماليُّ:

مشهدُ الجبالِ المائية تُزاحم الجبال الصَّخريَّة بينهما جبالٌ عاطفيَّةٌ؛ مشهدٌ لا يتكرَّر

ترسم الآيتان مشهدًا من مشاهد التّاريخ البشريِّ بعنايةٍ بلاغيةٍ، وبسرٍّ بيانيٍّ لم يشهده البشر من قبلُ، فكأنَّهم يرونه بأمِّ أعينهم، ذلك أنَّ هذا المشهد يُترجم حالةَ إنقاذ البشريَّة، فهو مشهدٌ يخصُّ الجميع، ويتعلَّق بكلِّ نفسٍ تتنفَّس على أرض البسيطة، فالسَّفينة تسير بمن فيها في موج عظيم كالجبال في علوِّها وقسوتِها وعظمتها وجبروتها وقطعها للأنفاس، وفي هذه الحال العصيبةِ تتحرَّك العاطفة العجيبة، من أبٍ يرى ابنه يغرق في ظلماتِ الماءِ، فيناديه نداءَ الباكي المشفق على المصير الحتميِّ، لكنَّ الإجابة كسرت كلَّ توقُّع، وأتتْ على كلِّ شعور لتفجأه بجواب الكفرِ، بأنَّه سيعتصم بجبلٍ صخري من الجبل المائي، فكان التَّنبيه الذي لا استجابة له بأنَّه لا عاصم اليوم من أمر اللّه تعالى، لكن أنّى لهذا الجاحد أن يفقه رسالةَ الأبِ بعد طول زمانٍ من الدَّعوة، والتَّربيَةِ، والرِّعاية، فقد ران على قلبِه كسبُه، وجحوده، وكفرُه، وحينها فصل بينهما الموج ليُنهي حوارًا، فيكون عبرةً لكلِّ زمانٍ قادم، وكلِّ جيلٍ لاحق.

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالة (الواو) في ﴿وَهِيَ تَجْرِي﴾:

الإشارة إلى سرعة امتلاء الأرض من الماء وصيرورته فيها أمثال الجبال عَقِبَ ركوبهم من غير تراخٍ

الواو في قوله تعالى: ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ﴾ تحتملُ ثلاثةَ أوجهٍ من المعنى:

الأول: أن تكون واو الحال، وتكون جملة ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ﴾ حالًا

(1) الزَّبيدي، تاج العروس: (غرق).
(2) الرّاغب، المفردات: (غرق).
(3) ابن جرير، جامع البيان: 12/419.

إمّا من محذوف، دلَّ على هذا المحذوف قولُه تعالى: ﴿ٱرۡكَبُواْ﴾، والتَّقدير: فَرَكبوها مُسَمّينَ، وهي تجري بهم، وهم فيها[1]، فالجملة حالٌ من الفعل المقدَّر (فركبوها)؛ لظهوره في قوة الملفوظ، وتقدير: (فركبوا) للدَّلالة على سرعة امتثال الأمر - لاسيَّما - إذا كان الأمر منه تعالى واجبًا.

وإمّا أن تكون حالًا من الضَّمير المُستتر في قوله تعالى: ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ﴾، والتَّقدير: جريانُها استقرَّ باسم الله حالَ كونها جاريةً[2].

الثّاني: أن تكون الواو استئنافيَّةً، وجملة ﴿وَهِيَ تَجۡرِي بِهِمۡ﴾ مكوَّنة من مبتدأ وخبر، وهو إخبارٌ بما كان بعد الأمر بركوبها.

الثّالث: أن تكون الواو اعتراضيَّةً، وجملة ﴿وَهِيَ تَجۡرِي بِهِمۡ فِي مَوۡجٖ كَٱلۡجِبَالِ﴾ معترضةً، دعا إلى اعتراضِها هنا ذكرُ ﴿مَجۡرٖىٰهَا﴾؛ إتمامًا للفائدة، ووصفًا لعِظَم اليوم، وعجيب صنع الله تعالى في تيسير نجاتهم[3]؛ وهذا أوجَهُ الأوجه، فمعنى الحال مضطربٌ فيها؛ إذ كيف ركبوا في حال كونها تجري في موجٍ كالجبال؟ وكذلك معنى الاستئناف، فلا يتَّجه لاسيَّما بعد ذكر نداءِ نوحٍ عليه السلام ابنَه، وأمّا الاعتراض؛ فلبيانِ هولِ الأمر، ولعطفِ نداءِ نوحٍ عليه السلام على قوله: ﴿ٱرۡكَبُواْ﴾، فيكون الاعتراضُ وجيهًا، ومتمِّمًا للفائدة المرجوَّة.

سِرُّ استعمال الضَّمير ﴿وَهِيَ﴾:

اختار النَّظم الكريم - في قوله تعالى: ﴿وَهِيَ تَجۡرِي بِهِمۡ﴾ - الضَّمير البارز ﴿وَهِيَ﴾ الراجع إلى السَّفينة في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱرۡكَبُواْ فِيهَا﴾؛ إذ قد أنَّث الضَّمير دون تذكيرِه كما سبق بيانه، وذلك إيجازٌ للفظِ، وتنبيهٌ على خصوصِ جريانِها؛ فإنَّ الضَّمير يكون أقوى

تقويةُ النَّظم وإيجازُ اللَّفظِ وتكثير المعنى من محاسنِ الكلام

(1) الزَّمخشري، الكشّاف: 2/396، والبيضاوي، أنوار التَّنزيل: 3/135.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 6/256.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/74.

في لفت الانتباه من الاسم الظّاهر؛ إذا كان معلومًا لدى المخاطَب، ففرقٌ بين قوله تعالى: ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ﴾، وبين قولنا: (والسفينة تجري بهم)، من حيث قوَّةُ السَّبك، وتأثير اللَّفظ ووجازته.

دلالةُ تقديم المُسنَد إليه ﴿وَهِيَ﴾:

تَقْوِيةُ الحكم وتحقيق وقوعه

قُدِّم المسندُ إليه ﴿وَهِيَ﴾ على المسند الفعليِّ ﴿تَجْرِي بِهِمْ﴾؛ لغرضِ تقويةِ الحكم وتحقيقه[1]، وللفتِ الأنظارِ إلى عجيبِ ذلك المشهدِ، وإنَّما جاء التأكيد من الإسناد مرتين؛ مرَّةً بإسناد الخبر إلى المبتدأ، وأخرى بإسناد الفعل إلى الفاعل.

غرضُ استعمال المضارع ﴿تَجْرِي﴾:

تصوير جريان السَّفينة كأنَّها حاضرةٌ في مرأى السّامعين

مشهد الطّوفان حدثٌ قديمٌ، لكنَّ القرآن قصَّه علينا، وكأنَّه يقع الآن، فجاء التَّعبير بصيغة المضارعِ في قوله تعالى: ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ﴾ دون الماضي؛ لاستحضار الحالة، وتصوير الحدث، ونقل المشهد، وإشعار المخاطَبِ بتفاصيل الحدثِ، فوصف جريانها بالحالِ لا بالماضي، لتكون حاضرةً في مرأى السّامعين، وفي ذهن المخاطَبين، وفي مشاعر المستجيبين، إحياءً للقلوبِ، وإنعاشًا للصدورِ، وتحريكًا للعقول.

سرُّ استعمال ﴿فِي مَوْجٍ﴾:

تشبيه المُحاطِ بالأمواجِ بما هو غارقٌ فيها للإيماء إلى معجزةِ النَّجاة

ظاهر النَّظم في قوله تعالى: ﴿فِي مَوْجٍ﴾ يدلُّ على أنَّ السَّفينة تجري داخل الموج، ولكن المُراد أنَّ الأمواج لَمَّا أحاطت بالسَّفينة من الجوانب كلِّها شُبِّهت بالَّتي تجري في داخل الأمواج[2]؛ لأنَّ الماء لمّا كان مهيَّأً للإغراق؛ كان السَّير على ظهره من الخوارق، وأشار إلى ذلك بالظَّرف، فقال: ﴿فِي مَوْجٍ﴾[3]، فاستعمال حرف (الوعاء)

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 12/74.
(2) إسماعيل البروسوي، روح البيان: 4/130.
(3) البقاعي، نظم الدُّرر: 9/287.

لتشبيه ما هو مُحاطٌ بالأمواجِ، بما هو فيها؛ لشدَّة اقترابِ الأمواجِ من ظهرها وجوانبِها العليا، كأنَّ حرف الظَّرفيَّة ينطق بالإغراقِ، والنَّظم ينطق بالنَّجاةِ، ونكتَتُهُ بيانُ أن لا نجاةَ في ذلك اليوم إلّا بقدرةِ الواحد الأحد.

الغرض من تنكير: ﴿مَوْجٍ﴾:

بيانُ عِظَم ذلك الموج وشدَّة الطُّوفان

نُكِّر لفظُ ﴿مَوْجٍ﴾ للدَّلالة على أنَّه موجٌ عظيمٌ هائلٌ في غاية الشِّدَّة، والموجُ ما ارتفع من الماء بسبب اشتداد عصف الرّياح، وقد شبَّهه الله تعالى في عظمته بالجبال[1]، فهذا التنكير يدلُّ على عِظَم الطُّوفان، ويُؤكِّده التَّشبيه.

نكتةُ إفرادِ: ﴿مَوْجٍ﴾:

أفرد النَّظم لفظَ الموج، فقال: ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ﴾، ولم يقل: (في أمواجٍ كالجبال)، مع أنَّ دواعيَ الجمع ظاهرةٌ، من مثل التَّشبيه بالجبالِ، وهي؛ وجمعُ الأمواج أهيَبُ من إفرادِها، ووراء ذلك أمران:

الأوَّل: أنَّ إفرادَ الموجِ دالٌّ على ما يقتضيه المعنى، فإذا كانت السَّفينة تجري في موجٍ واحدٍ كالجبالِ، ويُحيط بها من كلِّ جانبٍ؛ فكيف ببقيَّة الأمواج في ضخامتها وعظمتها؟ فهي أمواجٌ لا موجٌ واحدٌ، فذِكرُ الموجِ الواحد للدَّلالةِ على ما وراءه من بقيَّة الأمواج؛ فأتى النَّظم بما يقتضيه الحال، وهو أقوى في التَّصوير واستحضار المشهد.

الآخر: أنَّ هذا الموجَ مشبَّهٌ لا بجبلٍ واحدٍ بل بسلسلةِ جبالٍ، ففهمنا من ذلك أنَّ الموجَ في أصله واحدٌ، وفي تضاريسه العليا أمواجٌ كالجبالِ، وبه يكون إفرادُ المشبَّه مومئًا إلى قاعدة الموج، وجمْعُ الجبال إيماءٌ إلى ظاهرِ الموجِ وأعلاه، وبه يحسُن التَّشبيه إيجازًا وكثرةً، وهذا من بديع تشبيه المفرد بالجمعِ في القرآن الكريم.

(1) ملا حويش، تفسير القرآن العظيم: 3/118.

دلالةُ التَّشبيه في: ﴿فِي مَوۡجٖ كَٱلۡجِبَالِ﴾:

تصوير شِدَّة الهول والفزع والمنظر المهيب العجيب للطّوفان العظيم

الموج ما ارتفع من الماء؛ إذا اشتدَّت عليه الرّيح، وشبَّهه النَّظمُ الكريم بالجبال في عِظَمه وتراكُمه وارتفاعه على الماء[1]، وهذا يدلُّ على حصول رياحٍ عاصفةٍ شديدةٍ حينذاك، والمقصود: بيان شدَّة الهول والفزع[2]، وهذا التَّشبيه يرمي إلى تصوير الموج عاليًا ضخمًا، فتوحي كلمة (الجبال) به إلى النَّفس، مع أنَّ السَّفينة محوطةٌ بالعناية الإلهيَّة، فليست في خطر الغرق[3].

ومَن كابدَ ما يحدث في البحار العظيمة؛ عَرَفَ ما يحدُث فيها من ارتفاعِ الأمواج حينما تُهيِّجُها الرّياح الشَّديدة، وعَرَفَ أنَّ المبالغة في هذا التَّشبيه غير بعيدة، فإنَّ السَّفينة لتُرى كأنَّها تهبط في غورٍ عميقٍ كوادٍ سحيقٍ يُرى البحرُ من جانبيه كجبلَين عظيمَين يكادان يُطبِقان عليها، وبعد هُنيهةٍ يرى أنَّها قد اندفعت إلى أعلى الموج، كأنَّها في شاهقِ جبلٍ تريد أن تنقضَّ منه، والملّاحون يربطون أنفسهم بالحبال على ظهرها وجوانبها؛ لئلّا يجرفهم ما يفيض من الموج عليها[4].

وتشبيه الموجِ بالجبال في ضخامته هُنا إمّا لكثرة الرّياح التي تعلو الماء، وإمّا لدفع دفقات الماء الواردة من السُّيول والتقاء الأودية بالماء السّابق لها، فإنَّ حادث الطّوفان ما كان إلّا عن مثل زلازلَ تفجَّرت بها مياه الأرض، وأمطارٍ جمَّة تلتقي سيولُها مع مياه العيون، فتختلِطُ، وتجتمع، وتصبُّ في الماء الذي كان قبلها حتَّى عمَّ الماءُ جميعَ الأرض التي أراد الله إغراقَ أهلها[5].

(1) البغوي، معالم التَّنزيل: 2/450، والبقاعي، نظم الدُّرر: 9/287.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/350.
(3) ياسوف، جماليات المفردة القرآنية، ص: 129.
(4) المراغي، تفسير المراغي: 12/37، ومحمَّد رشيد رضا، تفسير القرآن الحكيم: 12/78.
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 12/74، ص:75.

توجيه ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ﴾:

قوله تعالى: ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ﴾ له توجيهان من حيث ترتيبُه الزَّماني، فهل هو قبل نداء نوحٍ ابنه، أو بعده؟ ومعلومٌ أنَّ جملة ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ﴾ معطوفةٌ على أعْلَقِ الجُمل بها اتِّصالًا، وهي قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱرْكَبُواْ فِيهَا﴾[1].

ترتيبُ الجملِ على ظاهره ولا داعي للقولِ بالتَّقديم والتَّأخير

التوجيه الأول: نداءُ نوح عليه السلام ابنَه كان قبل جريان السَّفينة في موجٍ كالجبال؛ إذ يتعذَّر إيقافُها بعد جريها؛ لأنَّ الرّاكبين كُلَّهم كانوا مُستقرّين في جوف السَّفينة[2]، قال بعض المحقِّقين: إنَّ هذا النِّداء إنَّما كان قبل الرُّكوب في السَّفينة[3]، وهذا يتَّجه على القولِ بأنَّ الواو اعتراضيَّةٌ، دعا إلى اعتراضِها هنا ذِكرُ ﴿مَجْرِىٰهَا﴾ إتمامًا للفائدة، ووصفًا لعِظَم اليوم، وعجيب صُنْعِ الله تعالى في تيسير نجاتهم[4]، وعلى مقتضى هذا التَّوجيه؛ ففي الكلام تقديمٌ وتأخير؛ وهو خلاف الظّاهر.

التوجيه الآخر: ترتيبُ الجمل على ظاهرِه، حيثُ أمر المؤمنين بركوبِ السَّفينة، ثم جرتِ السَّفينةُ بهم في موجٍ كالجبالِ، وهو في تلك الحال أبصَر ابنه - وكان في معزلٍ - فناداه؛ ليُنقذه، ولا يُقال ما قد قيل بأنَّه يتعذَّر إيقافُ السَّفينةِ لإركابِه، بل الذي يتعذَّر هو إيقافُ العاطفةِ الأبويَّة لنداءِ الابن، لإنقاذه من الغرق الحتميِّ، بل ما الذي يمنع من إيقاف السَّفينةِ ثقةً بالله تعالى، وهو الذي قال: ﴿رَبِّ إِنَّ ٱبْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾، فالذي يدعو الله ليُنجي ابنَه بعد الغرق؛ سيدعو الله لإيقاف السَّفينة قبل الغرق، وعلى هذا الوجه يتَّجه حمل الواو على الحاليَّة أو الاستئناف بل الاعتراضيَّة، وهو التَّوجيه الأوجَه، والأقربُ لصحَّة النَّظم، والسَّير على الظّاهر.

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتنوير: 12/75.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتنوير: 12/75.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/210، والآلوسي، روح المعاني: 6/256.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/74.

سرُّ التَّعبير في ﴿وَقَالَ ٱرۡكَبُواْ﴾ ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبۡنَهُۥ﴾:

بُعْدُ المنادى مكانًا وإيمانًا مع قربِ العاطفةِ الأبويَّة مدعاةٌ للنِّداءِ لا للقولِ

عبَّر القرآنُ عن خطاب نوحٍ عليه السلام فيمن سيركبُ في السَّفينة بقولِه تعالى: ﴿وَقَالَ ٱرۡكَبُواْ فِيهَا﴾، ولم يقل: (وناداهم أن اركبوا فيها)، وعند خطابِ الابن قال: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبۡنَهُۥ﴾، فاختلف التَّعبيران باختلافِ المفردة، فالأوَّل بالقول والآخر بالنِّداءِ، فيُسأل عن نكتةِ ذلك؟

والجواب: أنَّه لما خاطب الرّاكبين؛ وجَّه لهم الكلام بالقول، دون حاجةٍ للنِّداءِ، فهم قريبون من نوحٍ عليه السلام، ولمّا خاطب ابنَهُ؛ فلأنَّه كان بعيدًا بمنأًى عنه، وبمكانٍ لا يصلح معه إلّا النِّداء، وهو إيماءٌ إلى تلك اللَّحظة الرَّهيبة الحاسمة التي أبصر فيها نوحٌ عليه السلام ابنَه الكافرَ، وهو مُنعزلٌ عنه[1]، فنادى بأعلى صوتِه لينقذه من الغرقِ؛ وفيه من توصيف المشاعر الإنسانيَّة، وعاطفة الأبوَّة الفطريَّة، ما لا يُحيط به خيال، ولا يستوفي وصْفَهُ مقال، فجمعَ النِّداءُ الدّلالةَ على بُعدِ مكان ابن نوحٍ عليه السلام، وبُعد مكانته الإيمانيَّة، مع قُربِ العاطفةِ الأبويَّة التي أنتجَت هذا النِّداءَ.

دلالةُ الواو في ﴿وَكَانَ﴾:

الانفراد عن المؤمنين كالانخراطِ في المشركين

الواو في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ فِي مَعۡزِلٍ﴾ للحالِ، أي: نادى نوحٌ عليه السلام ابنَه في حال عزلتِه التي استقرَّ فيها، وفيها إيماءٌ إلى أنَّ هذه حاله التي تجعله مذمومًا، فإنَّ العزلةَ عن الإيمانِ؛ كالخلطةِ في الكفران، والانفرادَ عن المؤمنين، كالاشتراك في صفوف المشركين، وهذه جملةٌ دالَّةٌ على الضِّدّيَّة بين الابن المنعزلِ عن المؤمنين، والأب المنخرطِ فيهم، وكاشفةٌ عن البَوْن الشّاسع بين حالتَيْهما، وما أبدعَ النّظْمَ القرآنيّ: ﴿ٱرۡكَب مَّعَنَا﴾ الدّالَّ على ذلك الانخراطِ!

(1) طنطاوي، التفسير الوسيط: 7/208.

دلالةُ استعمالِ ﴿فِي﴾:

استقرارُ الكافرِ في كفرِه سببُ غرقِه وهلاكه

آثرَ النَّظمُ استعمالَ حرفِ الظَّرفيَّة ﴿فِي﴾ في قوله تعالى: ﴿فِي مَعۡزِلٖ﴾ دون الباءِ؛ لبيان أنَّ ابن نوح عليه السلام كان مستقرًّا في عزلةٍ حسيَّةٍ ومعنويَّةٍ، فهو معزولٌ عن أسباب النَّجاةِ الإيمانيَّة والماديَّة.

دلالةُ استعمالِ اسم المكان ﴿مَعۡزِلٖ﴾:

بُعدُ المكانِ الحسيِّ والمكانةِ الإيمانيَّة

المعزل: مكان العُزلة، أي: الانفراد، وهو مَفعِل، اسمٌ للمكان، من عزله عنه؛ إذا أبعده[1]، والمعنى هنا: كان ابن نوح عليه السلام في مكانٍ عزل فيه نفسَه عن أبيه والمؤمنين، أو عن دينهم، إمّا لأنَّه كان لم يؤمن بنوح عليه السلام؛ فلم يصدق بوقوع الطّوفان، وإمّا لأنَّه ارتدَّ، فأنكر وقوع الطّوفان، فكفر بذلك لتكذيبه الرَّسول[2]، أو في بُعْدٍ عن السَّفينة في مكانٍ شاهقٍ خوفًا من الطّوفان، فلم ينفعه[3]؛ واللَّفظ يعمُّها[4].

الغرض من التعبير بالنِّداء: ﴿يَٰبُنَيَّ﴾:

نداءُ نوحٍ عليه السلام عاطفةٌ جيّاشةٌ وشفقةٌ عظيمة

قوله تعالى: ﴿يَٰبُنَيَّ ٱرۡكَب مَّعَنَا﴾ بيانٌ لجملة ﴿وَنَادَىٰ﴾، ولم يقل: (ونادى نوح ابنه، وكان في معزل، اركب معنا) بحذف ﴿يَٰبُنَيَّ﴾؛ لأنَّها "إرشادٌ له ورفقٌ به"[5]، واستعمل (يا) لنداءِ البعيدِ لبيانِ بُعد الابن، وشفقة الأب عليه، وجاء المنادى بصيغة التَّصغير (بُنَيَّ) زيادةً في بيان الشَّفقة، ومضافًا إلى ياء المتكلم؛ للإشعار بالانتماءِ، فهو ابنُه لا ابن غيره.

غرضُ الأمر ﴿ٱرۡكَب﴾:

إنقاذُ الغريقِ وإرشادُ الضّالِ رحمةٌ لا تضيع

غرضُ الأمر في قوله تعالى: ﴿ٱرۡكَب مَّعَنَا﴾ هو الإنقاذُ، وترجمة الشَّفقة والرَّحمة الفطريَّة، وجاءَ التَّعبير عن الرُّكوبِ بالسَّفينةِ

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 3/135.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 12/75.
(3) ابن الملقن، تفسير غريب القرآن، ص: 169.
(4) الثَّعالبي، الجواهر الحسان: 3/284، وابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 3/173.
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 12/75.

بقوله تعالى: ﴿ٱرۡكَب مَّعَنَا﴾، دون أن يقول: (اركب في السفينة، أو فيها)؛ لتعيُّنها؛ لأنَّ غشيان الطّوفان لا تتأتّى معه مركوبةٌ سواها، وللإيذان بضيق المقام، حيث حالَ الجريضُ دون القَريضِ - كما يُقال - مع إغناء المعيَّة عن ذكرها[1].

الغرض من الكناية ﴿ٱرۡكَب مَّعَنَا﴾:

الدَّعوةُ إلى الوسيلةِ لتحقيق الغاية حكمةٌ نبويَّةٌ ومنهجٌ حكيم

دعا نوح عليه السلام ابنَه إلى الإيمانِ بطريقِ الكناية، فقال له: ﴿ٱرۡكَب مَّعَنَا﴾؛ فهي كناية عن دعوته إلى الإيمان بطريقة العرض والتَّحذير[2]، فدلَّ على أنَّه طلب منه الإيمان بدليل نهيه عن مُصاحبة الكافرين بعد ذلك، ونكتةُ ذلك أنَّ ابنَهُ كان كافرًا ورافضًا للدُّخولِ في دين اللّه تعالى، فآثر نوحٌ عليه السلام أن يدعوه إلى الإيمانِ بطريق الدَّعوة إلى النَّجاةِ، فاستعمل الوسيلة لخدمةِ الغاية، وهذا هو مقتضى الحكمة في الدَّعوة.

براعةُ التَّعبير بالمعيَّة في ﴿ٱرۡكَب مَّعَنَا﴾:

معيَّة المؤمنين نجاةٌ والعزلةُ عنهم غرقٌ

ذكر المعيَّة في قوله تعالى: ﴿ٱرۡكَب مَّعَنَا﴾؛ لبيانِ أنَّها سببُ النَّجاة، فمعيَّة المؤمنين نجاةٌ، والعزلةُ عنهم غرقٌ، كما قال تعالى: ﴿وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥ﴾ [الكهف: 28]، وأسند المعيَّة إلى ضمير الجمع لا إلى ضميرِ المفرد، فلم يقل: (اركب معي)، مع ما فيه من تأكيد الشَّفقة الأبويَّة؛ لبيانِ أنَّ النَّجاةَ نجاةٌ إيمانيَّة، وأنَّ ركوبَه في السَّفينة هو باعتبارِ ما اجتمعوا عليه من الإيمانِ، لا باعتبارِ ما انفرد به من الأبوَّة، فالأبوَّة دفعت نوحًا عليه السلام ليُنادي، لكنَّ النَّجاة لا تكون إلّا باعتبار الإيمان.

دلالةُ عطفِ النَّهي على الأمر:

النُّكولُ عن سفينة النَّجاةِ نكولٌ عن مركبِ الإيمان

النَّهي في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ معطوفٌ على

(1) الآلوسي، روح المعاني: 6/256.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 12/76.

الأمرِ في قوله تعالى: ﴿ٱرۡكَب مَّعَنَا﴾؛ لإعلامه بأنَّ إعراضه عن الرُّكوب يجعله في صفِّ الكُفّار؛ إذ لا يكون إعراضه عن الرُّكوب إلّا أثرًا لتكذيبه بوقوع الطّوفان[1]، فمعنى قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ لا تُتابعهم في الكفر، واركب معنا، ففيه تأكيدٌ على دعوته للإيمان المكنَّى عنها بقوله تعالى: ﴿ٱرۡكَب مَّعَنَا﴾[2]، وليس هذا التَّوكيدُ هو المقصودَ بتوكيدِ اللَّفظ للَّفظ؛ إذ لا يأتي بالعطف، بل هو توكيد المعنى للمعنى، فمعنى الأمر بالرُّكوب، هو معنى النَّهي عن البقاءِ مع الكافرين، وهو من التَّوسط بين الكمالين، فهو عطفُ إنشاءٍ على إنشاءٍ.

سِرُّ التَّعبير بأداةِ ﴿مَّعَ﴾:

جاء التَّعبير بأداة ﴿مَّعَ﴾ دون (من) في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ في البُعد عنّا، فتهلك معهم، ولم يقل: (ولا تكن من الكافرين) وهو منهم، فنهاه نوحٌ عليه السلام أن يكون معهم في كفرِهم خارجَ السَّفينة، ولو قال: (ولا تكن من الكافرين) لاضطرب المعنى، ذلك أنَّه عليه السلام كان كافرًا قبل هذا الخطابِ، فإذا نهاه أن يكون منهم، وهو منهم؛ لكان الكلام قلقًا، فأتى التَّعبيرُ بأداة ﴿مَّعَ﴾ لبيان أنَّ النَّهي إنَّما كان للبقاءِ على الكفرِ، فمعنى ﴿وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾، أي: لا تبقَ كافرًا، وآمنْ، بدلَ أن تبقى كافرًا معهم، فتغرق.

النَّهي عن الكون مع الكافرين خارج السَّفينة، والتَّلويح بنهيه عن الكون معهم في كفرهم

غرض شبه كمال الاتصال:

جملة ﴿قَالَ سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٖ﴾ كلامٌ مُستأنف بيانيًّا؛ كأنَّه قيل: فما أجابه ابنُه حين سَمعَ ذلك النِّداء تخلُّصًا عن هذا الابتلاء؟ فأجيب بأنَّه قابله بإساءة الأدب لجهالتهِ عن انتفاء العاصم ما عدا الرَّبِّ، فقال: ﴿سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٖ﴾ من الجبال الشّامخة لا يصل الماء

الحوار يقتضي الفصل بين الأقوال

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 12/76.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/350.

إليه لارتفاعه يعصمني من الماء[1]، ففُصِلت جملة ﴿قَالَ سَـَٔاوِيٓ﴾ لوقوعها في سياق المحاورة[2].

دلالةُ السّين في ﴿سَـَٔاوِيٓ﴾:

كان جواب ابن نوح عليه السلام لأبيه: بأنَّه سيأوي إلى جبلٍ يعصمه من الماءِ، فأتى النَّظم بحرف (السّين) للتَّعبير عن كلامه، وذلك للدَّلالة على القُرب في الفعل، أي: إنَّهُ سيجتهد بمجرَّد الانتهاء من قوله: ﴿سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعۡصِمُنِي مِنَ ٱلۡمَآءِۚ﴾ ليعتصم به، لكنَّ أمرَ اللّٰه كان أقرب، فحال الموجُ بين الأب وابنه، فغشيه الموجُ، وأدركه الغرق، فكان أمر اللّٰه وقدَرُه أسبقَ من مسابقته التي دلَّ عليها التَّعبير بحرف (السّين) الدّالِّ على التَّوكيد والسُّرعة في التَّنفيذ.

مـوجُ الإغـراقِ أسرعُ من إيواءِ الجبال

دلالةُ التَّهكُّم في: ﴿سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعۡصِمُنِي﴾:

دلَّ قولُه تعالى: ﴿سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعۡصِمُنِي﴾ على أنَّ الابنَ كان مُتماديًا في الكُفْرِ مُصِرًّا عليه مُكذِّبًا لأبيه فيما أخبر عنه[3]، بل من المستكبرين عن الإيمانِ في أحلكِ الظُّروفِ، فقال مجيبًا بتهكُّمٍ عجيبٍ: ﴿سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعۡصِمُنِي مِنَ ٱلۡمَآءِۚ﴾[4].

مَـنْ جـمَـعَ إلى كـفـرِه وقـاحـةً؛ فقد تمادى فيه

الجملةُ ﴿يَعۡصِمُنِي﴾ بين الصِّفة والاستئناف:

قولُه تعالى: ﴿يَعۡصِمُنِي مِنَ ٱلۡمَآءِۚ﴾ إمّا أنَّه صفةٌ لجبل، أو استئنافٌ بيانيٌّ، فكأنَّه استشعر أنَّ نوحًا عليه السلام يسأله: لماذا ستأوي إلى جبل؟ فقال: ﴿يَعۡصِمُنِي مِنَ ٱلۡمَآءِۚ﴾[5]، فاختير الفصل لما زعم الابن أنَّ الجبل عاصم[6].

الأولـى حـملُ (يَعْصِمُني) على الصِّفة لدلالةِ السّياق وقوَّة معناه

(1) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاوي: 10/88.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتنوير: 12/76.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/352.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 12/76.
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 12/77.
(6) القونوي، حاشية القونوي: 10/88.

والصَّحيح أنَّ هذه الجملة أقربُ أن تكون صفةً لا استئنافًا بيانيًّا، فهو يُبرهن على قوَّة هذا الجبل الذي سيعتصم به، فوصفه بأنَّه عاصم، ويُقوّي أن يكون صفةً قولُه تعالى: ﴿قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾، ففَهِمَ نوحٌ عليه السلام أنَّ ابنه يبحث عن جبلٍ متَّصفٍ بالعصمة، فقال له: ﴿لَا عَاصِمَ﴾، أي: لا جبل عاصم.

دلالةُ ﴿مِنَ ٱلْمَآءِ﴾:

من قاسَ مياهَ النِّقم على مياهِ النِّعَم فقد وقع في النِّقم

ذكر الابنُ أنَّه سيعتصم بجبلٍ من الماءِ، ومعنى ﴿مِنَ﴾ الابتداء، أي: ابتداءً من وصولِ الماءِ إليه، والماء معرَّفٌ، وأراد به الابنُ الماءَ النّازلَ من السَّماء، والنّابعَ من الأرض، زعمًا منه أنَّ هذا الماء كسائر المياه والسُّيول المعتادة التي ربَّما يُتَّقى منها بالصُّعود إلى الرُّبى، وأنَّى له ذلك، وقد بلغ السَّيل الزُّبى، وجهلًا بأنَّ ذلك إنَّما كان لإهلاك الكفرة أنْ لا محيص من ذلك سوى الالتجاء إلى ملجَأ المؤمنين[1].

غرضُ شبه كمال الاتصال: ﴿قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ﴾:

جـــوابٌ قـاطـعٌ بمضمونٍ حتميٍّ

أجاب نوحٌ عليه السلام ابنَه بقوله: ﴿لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾، أي: مأموره وهو الطّوفان، إلّا من رَحِمَ، فيه ذكر المهروب منه؛ وهو الماء المغرِق[2]، وهذا الجوابُ مَبْنيٌّ على سؤالٍ قد ينشأ من جواب ابنه: ﴿سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٖ يَعۡصِمُنِي مِنَ ٱلۡمَآءِۚ﴾، فكأنَّ سائلًا قال: فماذا كان جوابُ أبيه؟ فجاء الجواب: ﴿قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ فهو استئنافٌ بيانيٌّ جاء بطريق المحاورة.

سِرُّ التعبير بنفي الجنس في ﴿لَا عَاصِمَ﴾:

أمـــرُ الـلـه إذا جاءَ؛ فلا عاصم منـه في عـالـم التَّصوُّرات

في قوله تعالى: ﴿لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ﴾ نفْيُ جنس العاصم، فيندرج تحته العاصم من الغرق في ذلك اليوم اندراجًا أوَّليًّا[3]، وهذا النفي

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/210، وإسماعيل البروسوي، روح البيان: 4/131.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 12/77.
(3) الهرري، حدائق الرَّوح والرَّيحان: 13/97.

منتظم لنفي جميع أفراده ذاتًا وصفةً للمبالغة في نفي كون الجبل عاصمًا[1]، وفائدةُ هذه المبالغة تنبيهُ الابنِ على ضرورةِ الأوبة إلى الله تعالى، والدُّخول في سلك المؤمنين.

غَرَضُ الكِناية في ﴿أَمْرِ ٱللَّهِ﴾:

أمرُ الله قد يكونُ ماءً مغرِقًا أو شهابًا مُحرِقًا أو ريحًا محدِقًا

قال تعالى: ﴿لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾، ولم يقل: (لا عاصِمَ اليَوْمَ منْ الماء)؛ وذلك لأنَّ أمر الله تعالى جاء بجعْلِ العذابِ ماءً، وقد عبَّر عن الماء في محلِّ إضماره بأمر الله، أي: عذابه الذي أشير إليه أوَّلًا بقوله سبحانه: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا﴾ للآتي:

أولًا: تفخيمُ شأنه، وتهويلٌ لأمره، فإنَّ أمر الله سبحانه لا يُغالَب، وعذابه لا يُرَدُّ[2]؛ فليس الأمر أمرَ ماءٍ يُتَّقى بالأسباب العاديَّة، وإنَّما هو انتقام من أشرارِ العباد الذين أشركوا بالله، وظلموا أنفسهم، وظلموا النّاس بطغيانهم في البلاد، فهو يحفظ مَن رحِمَهُ الله، وقد اختصَّ بهذه الرَّحمة مَنْ حملَهم في السَّفينة[3].

ثانيًا: تنبيهٌ للابن على خطئِهِ في تسميته ماءً، وتوهُّمه أنَّه كسائر المياه التي يُهرب منها إلى بعض الأمكنة المرتفعة.

ثالثًا: تمهيد لحصر العِصمة في جنابه عزَّ جارُهُ بالاستثناء بعد ذلك؛ كأنَّه قيل: لا عاصم من أمر الله إلّا هو[4].

سِرُّ التَّقييدِ بـ: ﴿ٱلْيَوْمَ﴾:

الإشارة إلى أنَّه ليس كسائر الأيّام مُبالغةً في الإقناط وفي انتفاء أسباب النَّجاة

نصَّ النَّظمُ على ذكر ﴿ٱلْيَوْمَ﴾ في قولِه تعالى: ﴿لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾؛ للتَّنبيه على أنَّه ليس كسائر الأيام التي تقع فيها الوقائع، وتلمُّ فيها الملمّات المعتادة التي ربَّما يُتَخَلَّص منها بالالتجاء إلى بعض الأسباب العاديَّة[5]، وإنَّما قيَّده باليوم - مع أنَّه لا عاصم

(1) الآلوسي، روح المعاني: 6/257.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 6/257.
(3) المراغي، تفسير المراغي: 12/38.
(4) البروسوي، روح البيان: 4/131.
(5) الآلوسي، روح المعاني: 6/257.

في جميع الأزمان سوى الرَّحمن - مُبالغةً في الإقناط، وفي انتفاء الأسباب العادية للنَّجاة في هذا اليوم، فلا مفهوم لهذا بالاتفاق، ولهذه النكتة قال: ﴿مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾، ولم يقل: ﴿مِنَ ٱلْمَآءِ﴾ مع أنَّ السِّياق يقتضيه[1].

سرُّ الإضافةِ في ﴿أَمْرِ ٱللَّهِ﴾:

تعظيم شأن هذا الأمر؛ لأنَّه أمرُ العظيم ﷻ

أُضيف الأمر للفظ الجلالةِ في قوله تعالى: ﴿أَمْرِ ٱللَّهِ﴾؛ لتهويل الأمر، وتعظيم شأنه، أي: الملك الأعظم المحيط أمره وقدرته وعلمه بكلِّ شيء، وأمرهُ هُنا هو حُكمه بالغرق على كلِّ ذي روحٍ لا يعيش في الماء[2].

دلالةُ الموصول في ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ﴾:

العِصمةُ أثرٌ من آثارِ صفة الرَّحمة

مقتضى ظاهر النَّظم: (لا عاصم اليوم من أمر الله إلّا هو)، أي: لا أحد يعصم اليوم من أمر الله إلّا الله، والعدول إلى اختيار الموصول لزيادة التَّفخيم، وللتَّنبيه على أنَّ العِصمة من آثار صفة الرَّحمة[3].

نكتةُ أسلوب القَصْر:

كثرةُ الاحتمالاتِ وتنوع الدّلالات أمارة الإيجاز وبرهان الإعجاز

في قوله تعالى: ﴿لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ﴾ قَصْرٌ حقيقيٌّ، وهو من قصر الصِّفة على الموصوف، وفيه ثلاثة أوجه:

الوجه الأوَّل: أنَّ ﴿عَاصِمَ﴾ اسمُ فاعلٍ على بابه؛ فعلى هذا يكون الاستثناءُ في قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ﴾ فيه وجهان:

أحدهما: استثناء مُتَّصل، و﴿مَن رَّحِمَ﴾ بمعنى الرّاحم، أي: لا عاصم إلّا الله، تفخيمًا لشأنه الجليل بالإبهام ثُمَّ التَّفسير، وبالإجمال ثُمَّ التَّفصيل، وإشعارًا بعلّيَّة رحمته في ذلك بموجب سَبْقِها على غضبه.

(1) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاوي: 10/88.
(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 9/289.
(3) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاوي: 10/88.

الثّاني: استثناءٌ مُنقطع، أي: لكن مَن رَحِمهُ اللّه يعصمه.

الوجه الثّاني: أنَّ ﴿عَاصِمَ﴾ بمعنى معصوم، مثل: ماء دافق، أي: مدفوق، فعلى هذا يكون الاستثناء مُتَّصلًا، أي: إلّا مَن رحمهُ اللّه.

الوجه الثّالث: أنَّ ﴿عَاصِمَ﴾ بمعنى: ذي عصمة على النَّسب، مثل: حائض وطالق؛ فالاستثناء على هذا مُتَّصل أيضًا، ولا يجوز أن يكون خبرُ ﴿لَا﴾ على هذا ﴿ٱلْيَوْمَ﴾؛ لأنَّ ظرف الزَّمان لا يكون خبرًا عن الجُثَّة، بل الخبر ﴿مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾، و﴿ٱلْيَوْمَ﴾ معمولٌ ﴿مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾، ولا يجوز أن يكون ﴿ٱلْيَوْمَ﴾ معمولَ ﴿عَاصِمَ﴾؛ إذ لو كان كذلك لنوِّن[1]. فالاحتمالات المُمكنة هُنا أربعة: لا عاصم إلّا راحمٌ، ولا معصوم إلّا مرحومٌ، ولا عاصم إلّا مرحومٌ، ولا معصوم إلّا راحمٌ، فالأوَّلان استثناء من الجنس، والآخران استثناء من غير الجنس، فيكون منقطعًا[2]، والغرض من التعبير بالقصر تمكينُ المعنى وإيجازه، والمبالغة في المعنى، واصطفى النظمُ الكريم طريقَ النفي والاستثناء لكونه أقوى الطُّرق في مواجهة المنكرين، وهو الأنسَبُ بالسِّياق الكاشف عن مقالة الابنِ العاقِّ وظنِّه أنَّ غير اللّه يعصمهُ ﴿سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٖ يَعۡصِمُنِي﴾.

دلالة التَّعبير بالفعل ﴿وَحَالَ بَيۡنَهُمَا﴾:

معنى قوله تعالى: ﴿وَحَالَ﴾: فصلَ الموجُ بهديره وسُرعته بين الابن وأبيه، بحيث لم يبقَ أحدُهما يُشاهد الآخر، ولم يسمع صوته ولا يرى إشارته؛ لأنَّه بعد ما طافت السَّفينة ارتفع ارتفاعًا هائلًا، وصار لِشِدَّة عُلوِّه كالسَّدِّ بينهما، وقد شبَّه اللّه الموجَ بالجبال لعظم ارتفاعه[3]، والتَّعبير بلفظة (حالَ) يُشعرُ بسرعة

سُرعة فصلِ الماء بين المتحاورين؛ عـذابٌ لـلابـنِ ونجاةٌ للأب

(1) الدَّرويش، إعراب القرآن الكريم وبيانه: 4/357.

(2) البروسوي، روح البيان: 4/131، والدَّرويش، إعراب القرآن الكريم: 4/357، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/352.

(3) ملا حويش، تفسير القرآن العظيم: 3/119.

فيضان الماء واشتداده، حتَّى لكأنَّ هذه السُّرعة لم تُمهلهما ليُكملا حديثهما[1].

الغرض من تقديم شبه الجملة الظرفية:

حيلولة الموجِ بين الأب والابن مقصودةٌ لقطع الحوار وإيقاف الكلام

قال تعالى: ﴿وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ﴾، ولم يقل: (وحال الموج بينهما)؛ لبيان أنَّ حيلولة الموج بين الأب وابنه في آخر المحاورة مقصودةٌ أن تكون بينهما، وتقطع حديثهما، وهي تُشير إلى سرعة فيضان الماء حينَ المحاورة[2]، وكان الماء قد بدأ يرتفع أثناء الحديث حتَّى حال بين الولد ووالده، فكان من المغرقين الهالكين[3]، فكما فرَّق الضَّلال بين الابن وأبيه سابقًا، حتَّى ليأبى الولد، وهو بين يدي هذا البلاء المحيط به، أن يستجيب لأبيه، وأن يستمع له، فيخرج عن أمره، وهو يدعوه إلى ما فيه سلامته ونجاته، فكذلك يحول الموج بين مَن نجا ومَن هلك، ويوفَّى كلٌّ من الأب والابن جزاء ما كسب، فينجو الأب بإيمانه، ويهلك الابن الكافر بكفره[4].

دلالة استعمال الفاء في: ﴿فَكَانَ﴾:

وقع الإغراقُ بغير مُهلةٍ بعد حيلولة الماء بعجلةٍ

قوله تعالى: ﴿فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ﴾ إنَّما يتفرَّع على حيلولة الموج بينه عليه السلام وبين ابنه، لا بينه وبين الجبل؛ لأنَّه بمعزلٍ عن كونه عاصمًا، وإن لم يحُلْ بينه وبين الملتجأ إليه موج، وأُجيب بأنَّ التَّفريع لا يُنافي ذلك؛ لأنَّ المُراد: فكان من غير مُهْلَةٍ أو هو بناء على ظَنِّهِ أنَّ الماء لا يصل إليه، وفي الآية دلالةٌ على غرق سائر الكفرة على أبلغ وجهٍ، فَكَأنَّ ذلك أمرٌ مُقرَّرُ الوقوع غيرُ مفتقرٍ إلى البيان[5].

(1) طنطاوي، التَّفسير الوسيط: 7/208.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 12/77.
(3) المراغي، تفسير المراغي: 12/38.
(4) عبد الكريم الخطيب، التَّفسير القرآني للقرآن: 6/1141.
(5) الآلوسي، روح المعاني: 6/257.

دلالة التعبير بالفعل النّاقص ﴿فَكَانَ﴾:

بيان كونه من المغرقين في علم الله وبالماء بعد الطوفان

استعمال ﴿فَكَانَ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ﴾ دون أن يقول: (فغرق)؛ للإيماءِ بأنَّه كان منهم في حكم الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ﴾ بعد أن اختار طريق الكفر، فهو كان حيًّا بينهم قبل الإغراق، مطمئنًّا إلى كُفرهم، ساعيًا بمعتقدِهم، فكان منهم قبل الإغراق، وكان منهم بعده.

ويَحتمل الفعل النّاقص ﴿فَكَانَ﴾ معنى: صار من المغرقين، ويحتمل كان في علم الله أنَّه يغرق، فالمعنى: فكان من المغرقين في علم الله بالفعل، وصار من المغرقين بالماء، وفي إيراد ﴿فَكَانَ﴾ دون (صار) مُبالغةٌ في كونه منهم[1].

دلالة استعمال حرف الجر ﴿مِنَ﴾:

الدَّلالة على هلاك سائر الكفرة

حرف ﴿مِنَ﴾ للتبعيض في قوله تعالى: ﴿فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ﴾، أي: فكان مُغرَقًا من الغارقين، وفيه إشارةٌ إلى أنَّه غرقَ مع الآخرين، وليس وحده، بل غرقَ معه كلُّ من كان على شاكلته في الكفر ممَّن توعَّده الله بالغرق[2]، ففيه دلالةٌ على هلاك سائر الكفرة على أبلغ وجه، وهو إيجازٌ بديع[3].

سرُّ اختيار ﴿مِنَ﴾:

التَّنبيه على أنَّ حِفْظَ الأديان سببٌ لحفظ النفوس والأبدان

جاءَ اختيارُ حرف ﴿مِنَ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ﴾، ولم يقل: (مع المغرقين) إشارةً إلى أنَّ من له عقلٌ وهمَّة ينبغي أن يكون تحفُّظُه على صون نفسِه؛ لأنَّ حفظَ الأديان له حظٌّ من حفظ النُّفوس[4]، والمعيَّةُ ثابتةٌ له ابتداءً، فهو مع المغرقين قبل الغرق،

(1) الماتريدي، تأويلات أهل السُّنة: 6/134، والبروسوي، روح البيان: 4/131، والقنوجي، فتح البيان: 6/186.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 12/77.
(3) البروسويُّ، روح البيان: 4/131.
(4) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/356.

ومنهم بعد الغرق، ولو قال: (فكان مع المغرقين) لظُنَّ أنَّه لم يكن كافرًا، وأصبح اليوم معهم، فاستعمال ﴿مِنَ﴾ يستلزم المعيَّة.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

العصمة والحفظ:

العصمة تطلق على معانٍ عدَّة ترجعُ إلى المنع، قال في اللِّسان: "العصمة في كلام العرب: المنع، وعِصْمة الله عبدَه: أن يعصمه ممّا يوبِقُه، يُقال: عصمه يعصمه عَصْمًا: منعه ووقاه"[1]، ويُقال: عصمته من الطَّعام؛ أي: منعته عن تناوله، وعصمته من الكذب، أي: منعتُه منه، ومنه قوله تعالى: ﴿قَالَ سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٖ يَعۡصِمُنِي مِنَ ٱلۡمَآءِۚ﴾، أي: يمنعني من الغرق، وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ فَٱسۡتَعۡصَمَۖ﴾ [يوسف: 32]، أي: امتنعَ امتناعًا شديدًا، وجاء في الحديث: «أُمرْت أن أقاتلَ النّاسَ حتى يقولوا: لا إله إلّا الله، فمَن قالَها؛ فقد عصَمَ منِّي مالَه ونفسَه»[2] أي: منع منّي مالَه ونفسه، وسمِّيت العصمة عصمةً؛ لأنَّها تمنع من ارتِكاب المعصية[3].

فعلى هذا المعنى للعِصْمة يكون قول بعضِهم: العصمة لله وحْده؛ غيرَ صحيح؛ لأنَّ العصمة إنَّما تكون من الجرائم والذُّنوب، ولا يصحُّ نِسْبتها إلى الله ﷻ، أمّا الحفظُ فمن معاني العصمة، ويزيد عليها أنَّ من معانيه ضبْطَ الشَّيء في النَّفس، ويُضادُّه النِّسيان والإضاعة[4]، ويُستعمل الحفظ في كلِّ تفقُّدٍ وتَعَهُّدٍ ورعاية[5].

في العصمة معنى المنع، وهي أشمل من الحفظ، وفي الحفظ معنى التَّفقُّد والتَّعهُّد والرِّعاية

(1) ابن منظور، لسان العرب: (عصم).
(2) أخرجه البخاري في كتاب الزكاة، باب وجوب الزكاة، برقم: (1312)، ومسلم في كتاب الإيمان، باب الأمر بقتال الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله محمد رسول الله، برقم: (20).
(3) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 9/184.
(4) العسكري، الفروق اللُّغوية، ص: 26.
(5) المناوي، التَّوقيف، ص: 142.

﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ٤٤﴾ [هود: 44]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

بعد الانتهاءِ من ظُلمةِ الظّالمين، يأتي ذكرُ إشراقِ المؤمنين

لَمّا انتهى المشهد السّابق بإغراق ابن نوح مع الكافرين نظرًا لعِناده واختياره فريق الكفر، وانسدل السِّتار على المشهد بقوله تعالى: ﴿فَكَانَ مِنَ ٱلۡمُغۡرَقِينَ﴾؛ حسُنَ الانتقالُ إلى إعلان انْتِهاءِ الطّوفانِ[1]، وذكر النِّهاية المشرقة لأهل الإيمان، والمصير المشؤوم للظّالمين المُغرَقين، ورُسوِّ السَّفينة بالمرحومين النّاجين على الجوديِّ، وعودة الحياة إلى طبيعتها بالأمر التَّكويني الصّادر عن ربِّ العالمين.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱبۡلَعِي﴾: أصل البلع: جذب الشَّيء إلى الجوف بقوَّة[2]؛ وحقيقة البَلْعِ اجْتيازُ الطَّعام والشَّرابِ إلى الحَلْقِ بدونِ اسْتِقْرارٍ في الفَم، يقالُ: بَلَعَ الطَّعام والماء والرّيق يبلَعُه، مثل: مَنَعَ يَمْنَعُ، وبَلِعَ يَبْلَعُ، مثْلُ: حَمِدَ ويَحْمَدُ، وبَلِعَ الطَّعام وابتَلَعه وتبلَّعه؛ إذا سرَطَه وجَرَعَه من غير أن يمضغه، والبالوعَةُ[3] ثَقْبٌ في وسَطِ الدّارِ يَجْري فيها ماءُ المَطَر ونَحْوهُ[4]، والمَبْلَعُ والبُلْعُم والبُلْعومُ، كلُّه: مَجْرى الطَّعام ومَوْضِعُ الابْتِلاعِ منَ الحَلْقِ[5]، والمعنى هُنا، أي: تَشَرَّبي ماءك[6].

2) ﴿أَقۡلِعِي﴾: أصل (قلع)، يَدُلُّ على انْتِزاعِ شَيْءٍ منْ شَيْءٍ[7]،

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/78.
(2) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (بلع).
(3) ابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم: (بلع)، وابن القوطيَّة، كتاب الأفعال، ص: 281.
(4) الجوهري، الصِّحاح، والزَّبيدي، تاج العروس: (بلع).
(5) ابن منظور، لسان العرب: (بلع).
(6) ابن جرير، جامع البيان: 15/334، والقنوجي، فتح البيان: 6/187.
(7) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (قلع)، وابن الجوزي، تذكرة الأريب، ص: 162.

والإقلاعُ الإمساكُ والكفُّ والإزالة[1]، وأَقْلَعَتِ السَّماءُ؛ إذا انقطع مَطَرُها، وأَقْلَعَتِ الحُمَّى، إذا: كَفَّتْ، وزالت عن صاحبها، يُقال: أقلعَ الرَّجلُ عن عمله؛ إذا كفَّ عَنهُ، وأقلعت السَّماء بعْدما مَطَرت؛ إذا أمْسَكت[2]، والإقلاعُ عن الأمْرِ: الكفُّ عَنْهُ[3]، والمعنى هنا، أي: أمسِكي عن إرسال المطر[4].

3) ﴿وَغِيضَ﴾: أصل (غيض) يدُلُّ على نُقْصانٍ في شَيْءٍ وقِلَّةٍ، وغيض: نَقَصَ، يُقالُ: غاضَ الشَّيْءُ، وغِضْتُهُ أنا، كَما يُقالُ: نَقَصَ بِنَفْسِهِ، ونَقَصَهُ غَيْرُهُ[5]، ويُقال: غاض الماءُ يَغيضُ: خِلافُ فاضَ، وغيضَ؛ إذا نَقَصَهُ غَيْرُهُ[6]، ويَجوزُ"غُيضَ" بِضَمِّ الغَيْنِ، والمرادُ ذهابُ الماء في أعماق الأرض، وغَوْرُهُ، وغيبتُه في الأرْضِ عَلى جِهَةِ النَّشَفِ[7].

4) ﴿وَٱسْتَوَتْ﴾: الاستواء والاستقرار والرّسوُّ، واسْتَوى عَلَى ظَهْرِ دابَّتِهِ، أي: اسْتَقَرَّ وثبت[8]، وأصلُ (سوي) يدُلُّ عَلَى استقامةٍ واعتِدالٍ بين شيْئَيْنِ[9]، والمُرادُ: رست السَّفينة، واستقرَّت على الجوديِّ[10].

5) ﴿ٱلْجُودِيِّ﴾: اسْمُ جَبَلٍ بَيْنَ العِراقِ وأرْمينيا[11].

6) ﴿بُعْدًا﴾: هَلاكًا وسُحْقًا لَهُمْ؛ مصدرٌ من الفعل (بَعِدَ)، يُقال: بَعِدَ يَبْعَدُ بُعْدًا[12]؛ وأصل البُعد الهلاك[13]، ويستعمله العربُ في الدُّعاء بالإهلاك والذَّمِّ، والأكثر أن يقالَ: (بَعِدَ) بكسر العين في البُعْدِ المَجازيِّ بمعنى الهلاك والموت، وبَعُدَ بضم العين في البُعد الحقيقيِّ[14].

(1) السَّمين الحلبي، عُمدة الحفّاظ: (قلع).
(2) الأزهري، تهذيب اللُّغة: (قلع).
(3) الزَّبيدي، تاج العروس: (قلع).
(4) البروسوي، روح البيان: 4/135.
(5) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 204.
(6) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (قلع).
(7) ابن سيده، المخصص: 3/38، والرّاغب، المفردات: (قلع).
(8) الرّازي، مختار الصِّحاح: (سوا).
(9) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (سوي).
(10) ابن جرير، جامع البيان: 15/335.
(11) الحموي، معجم البُلدان: 2/259.
(12) الخليل، العين، وابن عبّاد، المحيط في اللغة: (بعد).
(13) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (بعد).
(14) ابن منظور، لسان العرب، والزَّبيدي، تاج العروس: (بعد).

المَعْنى الإجْماليُّ:

إيجازُ قصَّة سفينةِ النَّجاةِ بأوجزِ عبارةٍ، وأرسخِ ألفاظٍ، وأبلغِ نظمٍ

هذه آيةٌ من آياتِ إعجازِ القرآنِ المجيد، آيةٌ كاشفةٌ عن مسيرِ آيةِ النَّجاة الحاملةِ للأصول البشريَّة، تأتي بعد انتهاءِ الغرضِ الذي لأجلِه كان الطّوفان، من إغراق المجرمين، وإعادةِ إعمارِ الأرض بعد تطهيرِها من دنسِهم، فالتَّخلية قبل التَّحلية، ولا يبرأُ الجرحُ ما لم يُطهَّر من عِلله وآفاتِه، وهذه الآية تنهيدةُ الأرض بعد التَّخلُّص من فسادِها، فإنَّ فسادَ الأرض إذا طال؛ مَقتتِ الأرضُ ساكنيها، وها هو أمر الأرض: ﴿يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ﴾، وأمر السَّماءِ: ﴿وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي﴾، والإخبارُ باستقرارِ الأمورِ، ﴿وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ﴾ بعد أن فاض، ﴿وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ﴾ بعد أن جاء، ﴿وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ﴾ لتكون علامةَ صدقٍ وأمارةَ حقٍّ، ﴿وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾؛ الذين تجاوزوا حدَّهم في الكفر والفجور والهزء بدينِ الله تعالى.

وقد قصَّتِ الآيةُ القِصَّةَ مُستوعبَةً بأخصر عبارة[1]، وفي هذه الآية من الإيجاز ما يعجز البيان عن استيفاء تحليله وشرحه، فقد أمر فيها ربُّنا، ونَهَى، وأخبرَ، ونادى، ونعَتَ، وسمّى، وأهْلَكَ، وأبْقى، وأسْعَدَ، وأشْقى، وقصَّ من الأنباء ما حقَّق به الغاية القصوى من البيان[2].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

الغرض من الوصْل بالواو في ﴿وَقِيلَ﴾:

الإعلامُ بانتهاء الطّوفان بعد تحقُّقِ إغراقِ الظّالمين

لمّا أفاد قولُه تعالى: ﴿فَكَانَ مِنَ ٱلۡمُغۡرَقِينَ﴾ وقوعَ الغرق الموعود به على وجه الإيجاز؛ انتقل الكلام إلى الحديث عن انتهاء الطوفان[3]، فقال: ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ﴾ ولم يقل: (قيل يا أرض) مثلما قال بعدها في آخر القصة: ﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهۡبِطۡ بِسَلَٰمٖ﴾ [هود: 48]؛ فلمّا تقدَّم الإخبار

(1) الآلوسي، روح المعاني: 6/265.
(2) ابن معصوم، أنوار الربيع، ص: 430.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 12/78.

عن نوح مع قومه مُرتَّبًا موصولًا وصْلَ جملةٍ بجملةٍ، مَعطوفًا عطْفَ لاحقٍ على سابق من الإرسال، وبالإيحاء إليه في شأنهم، وأمرِه أن يصنع الفُلك، والإخبار بالأمر لها، وبمجيء الأمر بإهلاكهم، وبالرُّكوب في الفلك والإخبار عنها، وبنداء نوحٍ ابنه، وبحَوْلِ الموج بينهما؛ وصَلَهُ بقوله: ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ﴾، فوقعَ ذلك كُلُّه معطوفًا بالواو على أحسن نسقٍ وألطفِ وصلٍ بخلاف قوله: ﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهۡبِطۡ﴾، فإنَّه وقع جوابًا لتعوُّذ نوحٍ بربِّه أن يسأل ما ليس له به علم، فتعيَّن الفصل لذلك، ولو وصل بالعطف لانقطع الكلام، ولم يكن للسُّؤال جوابٌ، فظهر ما بينهما من كمال الانقطاع، وما بين ذلك من كمال الاتِّصال[1]، وفي هذا الوصل إعلامٌ بأنَّه لمّا غرق أهلُ الأرض، ولم يبقَ ممَّن كفرَ بالله ديّار؛ أمر تعالى الأرضَ أن تبلعَ ماءها الذي نبعَ منها، واجتمع عليها، وأمر السماء أن تُقلع عن المطر، فنضب الماء، وقُضي أمر الله بإنجاء من نجا، وإهلاك من هلك[2].

دلالةُ التَّعبير بصيغة المبني للمفعول:

الإيجازُ الدّالُّ على كثرةِ المعاني وتعدُّد الدَّلالات

شرعتِ الآية بالفعل المبنيِّ لما لم يُسَمَّ فاعلُه: ﴿وَقِيلَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي﴾؛ لأمورٍ بيانيَّة عظيمة موجزها الآتي:

الأوَّل: أنَّ الفاعل الحقيقيَّ معلومٌ ظاهرٌ لا خلاف في تعيينِه، وعدم ذكره؛ لأنَّ المقام يصرِّح به، ويومئ إليه، والحال ينطق به؛ إذ لا يُسْمع الأرضَ غيرُه، ولا يأمر السَّماء، فتمتثل أمرَه سواه[3].

الثّاني: مثْل هذا القول العظيم: ﴿يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي﴾ لا يَصْدُرُ إلّا منَ الله العظيم العليم الحكيم القادر المُقتدر؛

(1) ابن الجزري، كفاية الألمعي في آية يا أرض ابلعي، ص: 161.
(2) القاسمي، محاسن التَّأويل: 6/97.
(3) عبد الكريم الخطيب، التَّفسير القرآني للقرآن: 6/1141.

فقد تقرَّر في العقول: أنَّه لا حاكم في العالمين، ولا متصرِّف في العالم العلوي والعالم السُّفلي إلّا هو[1]، فبناء فعل ﴿وَقِيلَ﴾ للمفعول هُنا اختصارٌ لظهور فاعل القول وتَعَيُّنه؛ لأنَّ المقام مقام اختصار[2].

الثّالث: الإشارةُ إلى أنَّ الأرضَ والسَّماء تمتثل لأمرِ اللّه تعالى بأدنى إشارةٍ آمرةٍ بالامتثالِ، تعريضًا بمن أعرضَ، وكفر، وعاند رسول اللّه نوحًا عليه السلام ألفَ سنةٍ إلّا خمسين عامًا، فلا حاجة لاستحضارِ الهيبة وتأثيرِها في نفوس المخاطَبين، فهو أمرٌ تستجيب له الأرض والسَّماء بأن يُشار، فكيف إذا قيل؟!

الرابع: إفادة الإبهام ليذهب السّامع كُلَّ مذهب، ويطلبَ الصَّوابَ من مقصدٍ ومطلب، ويُعملَ العالِم فِكره الصَّحيح ليظهرَ له وجه الصَّواب بالتَّرجيح، فيتحققَّ أنَّ القائل في هذا المقام هو في الحقيقة الملك المقتدر العلّام[3].

بلاغةُ التَّعبير بالنِّداء ﴿يَٰٓأَرۡضُ﴾:

آثر النَّظم الكريم التَّعبيرَ بقوله تعالى: ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ﴾؛ فلم يقل: (وقيل للأرض) كذا (وللسماء) وذلك للآتي:

تنزيلُ غير العاقل هنا منزلةَ العقلاء للتنويه بذكره والتّشريف لقدره

الأوَّل: ظهور العناية بالإقبال على المنادى تنويهًا بذكره وتشريفًا لقدره، ولهذا نزَّله منزلة العاقل، فكان لامتثال أمره غيرَ غافل، كقوله تعالى: ﴿يَٰنَارُ كُونِي بَرۡدٗا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ ٦٩﴾ [الأنبياء: 69].

الثّاني: التَّنبيه على أنَّ القُدرة العظيمة صالحةٌ بأنْ تصيِّر هذه الأجرام الجسيمة إلى حال من يعقل، وتوصَل مثل هذه الجمادات الكثيفة إلى رتبة من يعقل، وإلّا فخطابُ مَن لا يعقل مُهمَل، والإقبال عليه بالأمرِ أمرٌ مُعضَل[4].

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/353.
(2) البروسوي، روح البيان: 4/134، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 12/78.
(3) ابن الجزري، كفاية الألمعي، ص: 162.
(4) ابن الجزري، كفاية الألمعي، ص: 163.

الثّالث: التَّعريض بمن نودي مئات السِّنين من العقلاءِ، فلم يستجب، فكانت الجمادات أشرفَ وأكرمَ منه؛ فكان من إكرامها استعمالُ أدوات العقلاءِ ومعاملتها على أساس التَّكريم.

نكتةُ استعمال أداة نداء البعيد:

إظهار عظمة المُنادي الجليل والإيذان بشأن المُنادى الخاضع لمولاه

اختيار حرف النِّداء (يا) في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَرۡضُ﴾، وفي قوله تعالى: ﴿وَيَٰسَمَآءُ﴾، دونَ سائرِ أخَواتِها من أدوات النِّداء، هو لِكَوْنِها أمَّ باب النِّداء، وأكثر أدواته استعمالًا، وهي تدلُّ عَلى بُعْدِ المُنادى الَّذي يستدعيه مقامُ إظهار العظمة المُؤْذِنُ بالبُعدِ الشّاسع بين المنادِي والمنادَى، وبيان ضَعْفِهِ وخضوعه لمولاه وخالقه الجليل[1].

نكتة عدم استعمال: (أيَّتُها):

الاحتراز من تَكَلُّف التَّنبيه لمن ليس من شأنه التَّنبُّه

لم يقل: (يا أيَّتُها الأرضُ) مع كثرته في نداء أسماء الأجناس؛ قصدًا إلى الاختصار والاحتراز عن تكلُّف التَّنبيه المُشعِرِ بالغفلة التي لا تُناسب ذلك المقام[2]، أي: تَكَلُّفُ التَّنبيه لمن ليس من شأنه التَّنبيه[3] حيث يُتوصَّل إلى ندائها بـ (أيِّ)؛ لعلَّها كانت غافلة، فتسمع آخر النِّداء؛ إذ لا يمكن الغفلة عن أيِّ حرف يصدر عن هذا المنادي[4].

دلالةُ إفراد (أرض) و(سماء) وتنكيرهما:

مقامُ إظهار العظمة والكبرياء للخالقِ تُناسبُه ألفاظُ التَّواضع والهوان لمخلوقاته

في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي﴾ جيء بالإفراد في لفظتَي (أرض) و(سماء) دون الجمع لما في الجمع من صورة الاستكثار المتأبّي عنها مقامُ إظهارِ الكبرياء[5]، كذلك جيءَ بهما نكرتين دون تعريفهما بأل، لعدم انتظام ذلك إلّا بدخولِ

(1) السَّكاكي، مفتاح العلوم، ص: 419.
(2) السَّكاكي، مفتاح العلوم، ص: 419، والقاسمي، محاسن التَّأويل: 6/97.
(3) النَّيسابوري، غرائب القرآن: 4/24.
(4) السّامرائي، على طريق التَّفسير البياني، ص: 164.
(5) الآلوسي، روح المعاني: 6/263.

(أيَّتُها)، وهو غير مرادٍ - كما سبق بيانه - ولإعلام السّامعين أنَّها أرضٌ وسماءٌ للّه تعالى من أراضيه وسماواته.

سِرُّ اختيار نداءِ الأرض والسَّماء بهذين الاسمين:

الأصل جريانُ الأمورِ على اعتيادِها وارتيادِها

اختيرَ لفظُ الأرض والسَّماء على سائر أسمائهما كالمُقلة، والغبراء، وكالمظلة، والخَضراء؛ لكونهما أخصر، وأوْردَ في الاستعمال وأوفى بالمُطابقة، فإنَّ تقابلهما إنَّما اشتهر بهذين الاسمين[1]، ولبيانِ أنَّ الأمرَ اتَّجه إلى الأرضِ والسماءِ بهذا الاعتبارِ لا بأيِّ اعتبارٍ آخر، فالأصل جريانُ الأمور على ظواهرِها، ومضيُّها على معتادِها.

سرُّ تقديم النِّداء على الأمر:

تنبيه المنادى مقدَّمٌ على أمرِه

قَدَّم النَّظم النِّداءَ عَلى الأمْرِ، فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي﴾، ولم يقل: (ابلعي ماءك يا أرض، وأقلعي يا سماء)؛ وذلك كانَ جَرْيًا عَلى مُقْتَضى اللّازِم فيمَن كانَ مَأْمورًا حَقيقَةً من تَقْديم التَّنْبيهِ أوَّلًا؛ ليَتَمَكَّنَ الأمرُ الواردُ عَقيبَهُ في نفس المُنادى كما في نداء الحي[2]، فهي تنزيلٌ للأرض والسَّماء منزلةَ الأحياءِ في التَّنبيه بالنِّداء فالأمرِ.

سِرُّ اختيارِ ﴿ٱبۡلَعِي﴾ دون مرادفاتها:

بلعُ الماءِ سرعةُ استجابةٍ تستلزمُ تطهيرَ الأرضِ من دنسِها

استعمل النَّظم الكريم - في قولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ﴾ - لفظة ﴿ٱبۡلَعِي﴾ دون مرادفاتها لاعتبارين اثنين:

الأوَّل: اعتبارٌ معنويٌّ: وهو أنَّه لا يقوم لفظٌ مرادفٌ آخرُ في معنى البلع، وهو ازدرادُ اللُّقمة ونحوها في الحلقوم ونحوه دفعة واحدةً من غير توقُّفٍ لمضغٍ ولا نحوه، فلمّا أمر اللّه تعالى بتفجير الأرض عيونًا نبع الماء من تلك العيون، فلمّا انتهى أمر الطُّوفان؛ أمر اللّه تعالى الأرض أن تبتلع ماءها، بحيث يرجع الماء غائرًا في تلك العيون

(1) السَّكاكي، مفتاح العلوم، ص: 419، والآلوسي، روح المعاني: 6/263.
(2) النَّيسابوري، غرائب القرآن: 4/26.

تبتلعه الأرض بأسرع وقتٍ لأمر اللّه تعالى وإذنه، وهذه السُّرعةُ مؤذنةٌ بتطهير الأرضِ من دنسِها، فإنَّ الماءَ إذا سارع إلى جوفِ الأرض؛ أخذ معه العوالق.

الآخر: اعتبار لفظيٌّ: فهو مراعاة حُسْنِ الجناس بين لفظة ﴿ٱبۡلَعِي﴾ ولفظة ﴿أَقۡلِعِي﴾ الواردة بعدها[1]، وهذا الاعتبارُ في حقيقته مردودٌ للأوَّل، فالمراعاة اللَّفظيَّة تأتي بعد المراعاة المعنويَّة؛ إذِ الفرع مردودٌ إلى أصله، ولو كانت المراعاة اللَّفظيَّة مقصودةً لذاتِها؛ لرأيناها حاضرةً في كلِّ تقابلٍ قرآنيٍّ.

الغرض من التعبير بالاستعارة المكنيَّة:

الاستعارةُ المكنيَّة في تشبيهِ الأرضِ والسَّماءِ بشخصٍ يُنادَى لبيانِ سرعة الامتثال وإرادة الاستجابة

في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي﴾: شبَّه النَّظمُ الأرضَ والسَّماءَ بالعقلاء، حيث ناداها بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَرۡضُ﴾، وبقوله تعالى: ﴿وَيَٰسَمَآءُ﴾، ففي خطابِ الأرض تشخيصٌ وتشبيهٌ لها بالعقلاء الذين يُخاطَبون، فيعقِلون، فيُبادرون إلى تنفيذ الأمر عن قبولٍ وطواعيّةٍ وخشيةٍ، فما هو إلّا أمرٌ وامتثال؛ أمرُ من قال للشَّيء: كن فيكون[2]، فالسَّماء والأرض مع عِظَم جِرمهما تابعتان لإرادته إيجادًا وإعدامًا وتغييرًا وتصريفًا؛ كأنَّهما عقلاء مميِّزون قد أحاطا علمًا يوجب الامتثال والإذعان لخالقهما[3]، قد عرفوا عظمته وجلالته وثوابه وعقابه وقدرته على كلِّ مقدور، وتبيَّنوا تَحَتُّمَ طاعته عليهم وانقيادهم له، وهم يهابونه، ويفزعون من التَّوقُّف دون الامتثال له، والنُّزول على مشيئته على الفور من غير ريث[4].

فخطاب الأرض والسَّماء بطريقة النِّداء استعارةٌ مكنيَّةٌ تبعيَّةٌ[5]،

(1) ابن الجزري، كفاية الألمعي، ص: 165.
(2) محمَّد الحجازي، التَّفسير الواضح: 2/125.
(3) النَّيسابوري، غرائب القرآن: 4/25.
(4) الزَّمخشري، الكشَّاف: 2/397، والشِّهاب الخفاجي، حاشية الشهاب على البيضاوي: 5/170.
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 12/78.

تشبيهًا لهما بالمأمور المنقاد، وأثبت لهما ما هو من خواص المشبَّه به، وهو النِّداء، والخطاب بالأمر ترشيح للمكنيَّة في المنادى، فخاطب في الأمر دون أن يقول: (ليبلع)؛ ترشيحًا لاستعارة النِّداء؛ إذ كونه مُخاطَبًا من صفات الحيِّ، كما أنَّ كونه مُنادًى من صفاته[1]، حيث نادى ربُّنا ﷻ الأرْضَ والسَّماءَ بِما يُنادى بِهِ الإنْسانُ المُمَيِّزُ عَلى لَفْظِ التَّخْصيصِ والإقْبالِ عَلَيْهِما بالخِطابِ من بَيْنِ سائِرِ المَخْلوقات، وهو قَوْلُهُ: ﴿يَٰٓأَرۡضُ﴾ و﴿وَيَٰسَمَآءُ﴾، ثُمَّ أمرهما بِما يُؤْمَرُ به أهلُ التَّمييز والعقل من قوله تعالى: ﴿ٱبۡلَعِي مَآءَكِ﴾ و﴿أَقۡلِعِي﴾، تصويرًا لاقتداره العظيم، وإنَّ السَّموات والأرض، وهذه الأجرام العظام تابعةٌ لإرادته إيجادًا وإعدامًا، ولمشيئته فيها تغييرًا وتبديلًا، كأنَّهما عقلاء مُميِّزون، وقد عرفوه حقَّ معرفته، وأحاطوا علمًا بوجوب الانقياد لأمره، والإذعان لحُكمه، وتحتَّم بذلُ المجهود عليهم في تحصيل مُراده، وتصوَّروا مزيدَ اقتداره، فعظمت مهابتُه في نفوسهم، وضربتْ سُرادِقَها في أفنية ضمائرهم، فكما يلوِّح لهم إشارته كان المشار إليه مقدَّمًا، وكما يرد عليهم أمرُه؛ كان المأمورُ به متمَّمًا[2].

الغرض من التعبير بالاستعارة التَّمثيليَّة:

الاستعارة التَّمثيليَّة في بيان هيئة الأرض والسَّماء بعد النِّداءِ والأمرِ

في قولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي﴾ شُبِّهت الهيئة المنتزعة من كمال قدرة الله على رَدِّ ما انفجر من الأرض إلى بطنها، وجعْلِه مضمحلًّا بحيث لا يبقى له أثرٌ ولا رسمٌ، وقَطْعِ انصباب المطر من السماء؛ بالهيئة المنتزعة من أمرِ الآمر المطاع، وطاعة مأمورٍ مطيعٍ لهذا الآمر، فذُكِرَ اللَّفظُ المركبُ الدّال على الهيئة المشبَّهة به ﴿يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي﴾، وهو وجودُ

(1) النَّيسابوري، غرائب القرآن: 4/25.

(2) السَّكاكي، مفتاح العلوم، ص: 418، والزَّمخشري، الكشّاف: 2/397، وأبو حيّان، البحر المحيط: 6/159.

نداءٍ ومنادًى وآمرٍ ومأمور، وأريد به الهيئةُ المشبَّهة، وهي بلعُ الأرضِ لمائها، وإقلاعُ السَّماءِ عن صبِّ الماءِ، ووجهُ الشبه: هو الهيئة الحاصلة من الانقياد والامتثال بلا توقُّفٍ ولا تلعثم[1]، وسرعة حصول هذين المُرادين ووجودهما على الفور من غير امتناع[2].

فالاستعارةُ في هذا التَّشبيه هي استعارةٌ تمثيليَّةٌ؛ بتمثيلِ حال الأرضِ والسَّماءِ بحال عاقلٍ يمتثل لأمرِ آمرٍ يُناديه، فيستجيب دون أدنى تأخُّرٍ أو تردُّدٍ.

بلاغة الاستعارة في: (البلع):

سرعة الأرض في تنفيذ الأمر الإلهي

في إجراء الاستعارةِ في لفظ (البلع) - من قولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي﴾ - توجيهان[3]: الأول: أن يكون من باب تشبيه النَّشفِ بالبلع، والآخر: أن يكون من باب تشبيه غور الماء في الأرض بالبلع، وكلاهما على سبيل الاستعارةِ التَّصريحيَّة التَّبعيَّة، وهذا بيانهما:

الأول: شبَّهتِ الآيةُ النَّشفَ بالبلعِ، فهي استعارةٌ تصريحيَّة، فمادَّة البَلْع مُستعارة لإدْخالِ شيءٍ في باطِنِ شَيْءٍ بِسُرْعَةٍ، والبلع حقيقته اجتياز الطَّعام والشَّراب إلى الحلق بدون استقرار في الفم، وهو هنا استعارة لإدخال الماءِ في باطن الأرض بسرعة، ومعنى بَلْعِ الأرْضِ ماءها: دخوله في باطنها بسرعةٍ كسرعة ازدراد البالع، بحيث لم يكن جفاف الأرض بحرارة شمسٍ أو رياح، بل كان بعملٍ أرضيٍّ عاجل، كأن يكون ذلك بإحداث اللّه زلازلَ وخسفًا انشقَّت به طبقةُ الأرض في مواضع كثيرةٍ حتى غارت المياه التي كانت على سطح الأرض[4]، ففيه

(1) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاوي: 10/90، والشهاب الخفاجي، حاشية الشِّهاب على البيضاوي: 5/170.

(2) عمر الأسبري، الرسالة الجودية في الآية النوحية، ص: 35.

(3) جاء في الكشاف: "جعل البلع مستعارًا لنشف الأرض الماء وهو أولى، فإنَّ النشف دالٌّ على جذبٍ من أجزاء الأرض لما عليها، كالبلع بالنسبة إلى الحيوان، ولأنَّ النَّشف فعل الأرض، والغور فعل الماء". يُنظر: الزمخشري، الكشاف: 2/397، والشِّهاب الخفاجي، حاشية الشهاب على البيضاوي: 5/170.

(4) ابن عطيَّة، المحرر الوجيز: 3/175.

دلالةٌ على أنَّه ليس كالنَّشَفِ المعتاد التَّدريجيِّ[1]، والاستعارةُ أبلغ من الحقيقةِ؛ لأنَّ النَّشف دالٌّ على الوضع المعتادِ، فهو نشفٌ غير معتادٍ، ولذلك نجد أنَّ هذه الاستعارة تُلامسُ الحقيقةَ.

الآخر: تشبيه غور الماء في الأرض بالبلعِ، ووجه الشَّبه الذَّهابُ إلى مَقَرٍّ خفيٍّ، فالبلع الذي هو إعمالُ القوَّة الجاذبة في المطعوم شُبِّه به غور الماءِ، وهو الذَّهاب في الأرض[2]، وتكون قرينة الاستعارة نسبة الفعل إلى المفعول[3]، وهي استعارة تصريحيَّة تبعيَّة[4]. والحاصل أنَّ في لفظ ﴿ٱبۡلَعِي﴾ - باعتبار جوهره - استعارةً لنشفِ الأرض أو لغَوْرِ الماء، وباعتبار صورته - أي: كونه صورةَ أمْرٍ - استعارة أخرى لتكوين المُراد، وباعتبار كونه أمْرَ خطاب ترشيحٌ للاستعارة المكنيَّة التي في المنادى، فإنَّ قرينتها النِّداء، وما زاد على قرينة المكنيَّة يكون ترشيحًا لها[5]، فتنوَّعت الاستعارات بين أن تكون في مجموع الكلام، أو تكون في المفردات، ولا تنافي بينهما[6].

نكتةُ استعمال صيغة ﴿ٱبۡلَعِي﴾:

اختار النَّظم لفظَ ﴿ٱبۡلَعِي﴾ دون (ابتلعي) في قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ﴾، فهو بلعٌ لا ابتلاعٌ؛ لسببين:

البلع دالٌّ على فوريَّة الامتثال والابتلاع دالٌّ على التَّدرُّج فيه

الأول: سببٌ دلاليٌّ وهو المعتبر، فإنَّ الابتلاعَ يدلُّ على كلفةٍ ومشقَّةٍ في العمل، ومن شأنه أن يأخذ وقتًا تدريجيًّا، فأتى النَّظم بالصِّيغة الدّالَّة على سرعةِ الاستجابة، وفوريَّة الامتثال، لبيان أن الذي وقع هو بلعٌ سريعٌ لا ابتلاعٌ تدريجيٌّ.

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/211.
(2) السَّكاكي، مفتاح العلوم، ص: 418.
(3) النيسابوري، غرائب القرآن: 4/25.
(4) محيي الدّين زاده، حاشية زاده على البيضاوي: 4/650، والبروسوي، روح البيان: 4/134.
(5) الآلوسي، روح المعاني: 6/262.
(6) الأسمري، الرِّسالة الجودية، ص: 35.

الآخر: سببٌ لفظيٌّ وهو تابعٌ للسّابق، فلكون لفظِ (بلع) أخصرَ من ابتلع، ولمجانستِه للفظِ ﴿أَقْلِعِي﴾ أوفر[1]؛ لأنَّ همزة الوصل إن اعتُبرت تساويًا في عدد الحروف وإلّا تقاربًا فيه؛ بخلاف ابتلعي[2].

دلالةُ الاستعارة المكنيَّة في: ﴿ٱبْلَعِي مَآءَكِ﴾:

تشبيه الماءِ بالغذاءِ لتقويةِ الأرضِ ورفدِها بغذائها

في جعل الماء مكان الغذاء استعارة مكنيَّة، حيث شبَّه الماء بالغذاء؛ لتقوى الأرض به في الإنبات للزُّروع والأشجار تقوّي الآكلِ بالطَّعام الذي يقوّي بدنه، فيَقْوى به على الإنبات وسائر المنافع[3]، وحذف المشبه به: وهو الآكل، وذَكَرَ صفة من صفاته: وهي البلع، فلفظة ﴿ٱبْلَعِي﴾ قرينةٌ على الاستعارة؛ لكونها موضوعةً للاستعمال في الغذاء دون الماء[4]؛ لتخصيص البلع بما يُؤكل على المشهور عند اللُّغويين[5].

الغرض من تقديم بلع الماءِ على حبسهِ:

نزولُ ماءِ السماء لتطهير بقايا الأوباش من الأرضِ وتنظيف الأرض من أيِّ علائق

قد يسأل سائلٌ عن سرِّ تقديم الأمر ببلع الماءِ على حبس الماءِ النّازلِ من السَّماء في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِي مَآءَكِ﴾ على قوله تعالى: ﴿وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِي﴾؟ وما يقتضيه ظاهر الأمر أنَّ منعَ إنزال الماءِ هو المقدَّم؛ لأنَّه الرّافد للأرضِ، فمنْعُ الرّافدِ مقدَّمٌ في هذه الحال على بلعِ المرفود، وفي الإجابةِ عن هذا توجيهاتٌ عديدةٌ:

الأول: قُدِّم ذكرُ أمرِ الأرض على أمر السَّماء، وابتُدئ به لابتداء الطّوفان منها، قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾؛ ونُزِّلت الأرضُ في القصَّة منزلة الأصل، والأصل بالتَّقديم أولى[6]، فقُدِّمت الأرضُ هاهُنا باعتبارِ الزَّمان

(1) السَّكاكي، مفتاح العلوم، ص: 419.
(2) أبو السَّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/211.
(3) البقاعي، نظم الدُّرر: 9/291.
(4) النيسابوري، غرائب القرآن: 4/25.
(5) الآلوسي، روح المعاني: 6/259.
(6) السَّكاكي، مفتاح العلوم، ص: 419.

والرُّتبة، وذلك أنَّ الماء نبع أوَّلًا من الأرض، ولكون السَّفينة وأهلها على وجهها[1].

الثاني: قُدِّم ذكرُ الأمر بالبلع؛ لأنَّه السَّبب الأعظم لغيض الماء[2].

الثّالث: الماءُ النّابع من الأرض والنّازل من السَّماءِ في الأرض، فلمّا كان الماءُ مجتمعًا في الأرضِ كان البَدْءُ به أمثل.

الرّابع: المقصود حصولُ استقرارِ السَّفينة؛ فكان الأهم هو البدء بالأرض التي تستقرَّ فيها إذا بلغت ماءها، حتَّى تتمكَّن السَّفينة من الرُّسوِّ على اليابسة، ويخرج ركّابها لمباشرة الحياة[3].

الخامس: نزول الماءِ من السَّماءِ بعد ابتلاع ماءِ الأرض له وظيفةٌ تطهيريَّة، وهي أنَّ جثث الأوباش وعلائقهم قد يبقى لها أثرٌ في الأرض، فإنزال ماءِ السَّماءِ بعد ابتلاعِ ماءِ الأرض يكون تطهيرًا أخيرًا لظاهرِ الأرض من تلك الجثث، ويُعزِّزه قولُ الحقِّ سبحانه: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرۡ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ٢٦﴾ [نوح: 26].

السادس: تصويرُ السماء بإنزال آخر مائها بعد بلع الأرض لكلِّ مائها، بمن أراد تنظيف بيته من آخر أوساخه، بصبِّ الماءِ على ظاهره صبًّا أخيرًا.

فائدةُ ذكرِ المفعولِ في: ﴿مَآءَكِ﴾:

بلْعُ الماءِ دون غيرِه جوابٌ لمن يسأل عن ماهيَّة المبلوع

عيَّن النَّظم الكريم المبلوع ﴿مَآءَكِ﴾ في قوله تعالى: ﴿ٱبۡلَعِي مَآءَكِ﴾؛ لئلّا يَعُمَّ فتبتلع كلَّ شيء على ظهرها[4]، من جبالٍ وتلالٍ وبحارٍ وساكنات الماء بأسرهِنَّ، نظرًا لمقام ورود الأمر الذي هو مقام عظمة وكبرياء[5]، فالغرض من ذكر المفعول هو إفهام السّامعين أنَّ الله ﷻ

(1) ابن الجزري، كفاية الألمعي، ص: 165.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 12/78.
(3) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/357.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 9/291.
(5) السَّكاكي، مفتاح العلوم، ص: 419، والبقاعي، نظم الدُّرر: 9/291.

إنَّما أمر الأرض ببلعِ شيءٍ واحدٍ وهو الماء، فلم يذهب شيءٌ آخر في جوف الأرض، ففي ذكره جوابٌ عن سؤالٍ قد يُثيرُه الذِّهن، وهو: هل ابتلعت الأرضُ شيئًا سوى الماء؟ فذِكْرُ المفعول يقطع قول كلِّ سائلٍ، كما أنَّ ذكر المفعول فيه بيانُ أنَّ الأرض عوملت معاملة العقلاء في تعيين وظيفتها بدقَّةٍ، فهو ترشيحٌ للاستعارات المذكورة آنفًا.

سرُّ إضافة الماء إلى الأرض دون السَّماء:

بيانُ عظيم قدرةِ الله تعالى بفصلِ ماءِ الأرضِ عن غيرِه

جاء النَّظمُ بإضافة الماء إلى الأرض: ﴿مَآءَكِ﴾ في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ﴾، ولم يقل: (يا أرض ابلعي الماءَ)، كما قال: ﴿وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ﴾، فإنَّه لمّا كان ماءُ الطّوفان ماءين: ماءً نبع من الأرض، وماءً نزل من السَّماء، أمرَ الأرض ببلع الماء الذي نبع منها، كأنَّه قال: أدخلي الماء الذي خَرج منك فيك[1]؛ لأنَّ البلع هو الاستراط في المتصل، يُقال: بلعت ريقي، وأبلعته، وابتلعت ما في فمي، ولا يُقال: ابتلعت ما في القصعة والكأس[2]، فالأرضُ قد أخرجت ماءها، كما يُخرج الإنسان ريقه، ثم ابتلعته، ولم تأتِ على ماءٍ آخر، كان موجودًا قبل الطّوفان، كما أغنت إضافة الماء إلى الأرض عن إضافته إلى السَّماء؛ لأنَّ ما نزل من السَّماء صار في الأرض، ولو أضاف؛ لطال الكلام؛ لأنه سيكون: يا أرضُ ابلعي ماءك الخارجَ منك، وماءَ السَّماء الذي أُنزل عليك؛ فإضافة الماء إلى الأرض إيجاز.

سرُّ المجاز في: ﴿ٱبۡلَعِي مَآءَكِ﴾:

تصويرُ الأرض بالحريصةِ على مائها كحرص المالك على ملكه

شُبِّه اتِّصال الماءِ بالأرض في قوله تعالى: ﴿ٱبۡلَعِي مَآءَكِ﴾ باتصال الملكِ بالمالك، فإنَّ إضافَةَ الماءِ إلى الأرْضِ هو من قبيل الاستعارة المكنيَّة في الهيئة الإضافيَّة الدّالة على الاختصاص المُلْكي، تَشْبيهًا لِاتِّصالِ الماءِ بالأرْضِ باتِّصالِ المُلْكِ بالمالِكِ، فشُبِّهتِ الأرضُ بمن

(1) السيواسي، عيون التَّفاسير: 2/203.
(2) الجرجاني، درج الدُّرر: 2/103.

من شأنه أن يملك، وحُذف المشبه به، ورُمز له بشيء من خصائصه، وهو الإضافة على تقدير لام الملك، واخْتيرَ ضَميرُ الخِطابِ دون أن يقول: (ليُبلع ماؤها)؛ لِأجْلِ التَّرْشيحِ[1] لهذه الاستعارة، من حيث إنَّ الخطاب يَدُلُّ على صُلوح الأرض للمالكيَّة[2]، فجعله ماءها لاتِّصاله بها اتِّصالَ الملك بالمالك[3]، وفيه توجيه الأرض للاحتفاظِ بمائها، كما يحتفظ المالك بملكه.

نكتةُ إفراد الماء في ﴿مَآءَكِ﴾:

الأرض مأمورةٌ ببلعِ مائها دون بقيَّة المياه

قيل هُنا: ﴿مَآءَكِ﴾ بالإفراد دون الجمع لما كان في الجمع من صورة الاستكثار المتأبّي عنها مقام إظهار الكبرياء والجبروت والعزة والاقتدار[4]، كما أنَّه لو جمع الماءَ؛ فقال مياهك؛ لدخل فيها كلُّ ماءٍ، ولاختلَّ ما سبقتِ الإشارةُ إليه من أنَّ الأرض مأمورةٌ ببلعِ الماء الخارج منها بعد فوران التَّنور.

بلاغةُ الإيجاز في سياق حديث الطُّوفان:

كمالُ انقيادِ الأرض والسَّماء قطعيٌّ، وتحقيقُ المطلوبِ حتميٌّ

لمّا قال ﷻ للأرض: ﴿يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ﴾ وقال للسَّماءِ: ﴿وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي﴾؛ عُلِم أنَّ الأمر قد تحقَّق، فإنَّ أمر الله تعالى للأرض والسَّماء قطعيُّ الوقوعِ، فلم يقل: (قيلَ: يا أرْضُ ابْلَعي، فبلعت، ويا سَماءُ أقْلِعي، فأقلعَتْ)[5]؛ لأنَّ مقام الكبرياء وكمال الانقياد يُغني عن ذكره الذي ربَّما أوهم إمكان المُخالفة[6]، وقوله تعالى: ﴿وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ﴾ مغنٍ عن التعرُّض إلى كون السماء أقلعت، والأرض بلعت[7]، كما أنَّه إيجازٌ واختصارٌ واحترازٌ عن الحشو المُستغنى عنه، وهذا هو

(1) السَّكاكي، مفتاح العلوم، ص: 419، والنَّيسابوري، غرائب القرآن: 4/25.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 6/262.
(3) البقاعي، نظم الدُّرر: 9/291.
(4) السَّكاكي، مفتاح العلوم، ص: 419، والنَّيسابوري، غرائب القرآن: 4/25.
(5) السَّكاكي، مفتاح العلوم، ص: 419.
(6) الآلوسي، روح المعاني: 6/263.
(7) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/79.

السَّبب في ترك ذكر حصول المأمور به بعد الأمر، وفيه إشارةٌ إلى أنَّ المكلَّف العاقل أحرى به أن يستجيب لأمرِ اللّه تعالى؛ إذا ناداه فيما فيه حياته ونعيمه ورفعته وعزَّته.

غرضُ الاستعارة التَّصريحيَّة في ﴿أَقْلِعِي﴾:

التَّعبير بالإقلاع يصوِّر معنى الاحتباس والكفِّ عن إنزال الماءِ

استُعملت مادَّة الإقلاع في قوله تعالى: ﴿وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي﴾ للتَّعبير عنِ احْتِباسِ المَطَرِ؛ لأنَّ الإقلاعَ في أصل الوضع اللُّغويِّ هو تَرْكُ الفاعِلِ الفِعْلَ، وذلك لِلشَّبَهِ بين الاحتباس والإقلاع في عدم ما كان[1]، فهو تشبيه الاحتباسِ وكفِّ السَّماء عن إنزال المطر بالإقلاع[2] على سبيل الاستعارة التَّصريحيَّة التَّبعيَّة، ثُمَّ أمَرَ عَلى سَبيلِ الاسْتِعارَةِ، وخاطَبَ السَّماءَ آمرًا بقوله تعالى: ﴿أَقْلِعِي﴾ لِمثْلِ ما تَقَدَّمَ في ﴿ٱبۡلَعِي﴾.

ففي ﴿أَقْلِعِي﴾ استعارةٌ باعتبار جوهره، وكذا باعتبار صيغته أيضًا، وهي مبنيَّة على تشبيه تكوين المُراد بالأمر الجازم النّافذ، والخطاب فيه أيضًا ترشيحٌ لاستعارة النِّداء، والحاصل أنَّ الكلام فيه مثل ما مَرَّ في ﴿ٱبۡلَعِي﴾[3].

بديع الجِناس بين ﴿ٱبۡلَعِي﴾ و﴿أَقْلِعِي﴾:

تصوير مشهد بلع البحار وإقلاع الوابل المدْرار

في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي﴾ بين ﴿ٱبۡلَعِي﴾ و﴿أَقْلِعِي﴾ جناسٌ لاحقٌ، اختلف في حرفين: وهما القاف والباء، وهما غير متقاربين، كقول اللّه تعالى: ﴿وَيۡلٞ لِّكُلِّ هُمَزَةٖ لُّمَزَةٍ ١﴾ [الهمزة: 1] فهذا يُقال له: جناسٌ لاحقٌ[4]، ولا يخفى موقِعُهُ من قلب السّامع فيما يُحدِثه اللَّفظان من تناسقٍ لفظيٍّ وصوتيٍّ، وأثَرٍ معنويٍّ يُصوِّر ذلك المشهد العجيب والموقف الرَّهيب المهيب في بلع تلك البحار من المياه، وإقلاع ذلك الوابل الغزير المدْرار.

(1) السَّكاكي، مفتاح العلوم، ص: 419، والنَّيسابوري، غرائب القرآن: 4/25.
(2) القاسمي، محاسن التَّأويل: 6/97، والنَّيسابوري، غرائب القرآن: 4/25.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 6/263.
(4) الجناس اللّاحقُ اختلافٌ في حرفٍ واحدٍ مع تباعد المخرج، يُنظر: العلويّ، الطراز: 3/138.

دلالة الطِّباق بين (الأرض) و(السَّماء):

في قولهِ تعالى: ﴿يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي﴾ ورد الطِّباقُ اللَّفظيُّ بين لفظتَي (الأرض) و(السَّماء)، وقد توافقَ مع طباقٍ معنويٍّ، وهو قوله تعالى: ﴿ٱبۡلَعِي﴾ و﴿أَقۡلِعِي﴾؛ لأنَّ المعنى في بَلْعِ الأرض، إنَّما هو إدخاله في جوفها، وإقلاع السَّماء، وهو إخراجه عنها؛ وهذه مطابقة من جهة المعنى، ومن جهة أنَّ الإدخال والإخراج ضِدّان، وهذا كقوله تعالى: ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ﴾ [الفتح: 29]؛ لأنَّ الرَّحمة هي لين القلوب وتعطُّفُها، وهو ضِدُّ الشِّدَّة[1].

تصوير انتهاء الطّوفان على الأرض، وقطع إمداده من السَّماء، وزوال أثره

وقد تساوقَ الطِّباقان في إبراز تلك المُفارقة والمقابلة في نشف الماء من أسفل، وانقطاعه من علوٍّ؛ في صورةٍ تُظهر سرعةَ الاستجابة لأمر الواحد القهّار الذي يقول للشَّيء: كن فيكون، فقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي﴾ مُقابلةٌ[2] بديعةٌ بين ذِكر الأرض حالَ بلعِها للماء في جوفها وقد غار من سطحها، وذِكْرِ السَّماء عند إقلاع مائها وحبسه؛ فهي تصوِّر تلك الصّورة العجيبة، وذلك المشهد العظيم في انتهاء الطّوفان على الأرض، وانقطاع سببه من السَّماء، وتصوير تلك السُّرعة في امتثال أمر ربِّهما في الحال في إزالة آثاره؛ كلُّ هذا في جملةٍ مختصرةٍ حاسمةٍ معبِّرةٍ عن جوِّها أعمقَ تعبير.

بلاغة الاكتفاءِ في ﴿وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي﴾:

لمّا تقدَّم ذكر الماء في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ﴾، اكتفى بذلك عن إعادة ذكرِه في قوله تعالى: ﴿وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي﴾، فلم يقل: (ويا سماء أقلعي عن إنزال الماء)، وذلك لما عُلِمَ أنَّ المعنى: أقلعي عن إنزال الماء[3]، كما أنَّ أمرَ الأرضِ ببلعِ الماءِ يختلف عن أمرِ

بلْعُ الأرضِ يكون للماءِ وغيرِه، بخلاف إقلاع السَّماء فلن يكون إلّا للماءِ

(1) العلويّ، الطراز: 3/138.
(2) أبو حيّان، النَّهر المادّ: 2/70.
(3) ابن الجوزي، زاد المسير: 2/376.

السَّماءِ بالإقلاعِ عن إنزال الماءِ، وذلك أنَّ السَّماء لن تُقلع إلّا عن شيءٍ واحدٍ، وهو إنزال السَّماء المنهمر، أمّا الأرض، فإنَّها مأمورةٌ أن تبلعَ ماءَها فحسب، دون أمورٍ أخرى قد تبلعها مع الماء ممّا هو على ظاهرِ الأرضِ، فذكر المفعولِ في جانب الأرض، ليس كالتَّقييدِ في جانب السَّماء.

بلاغة التَّسهيم:

تجاوبُ الكلام أوّله مع آخره

وقع في الآية تسهيم[1] بديع؛ لأنَّ أوَّل الآية يدلُّ على آخرها[2]، فأوَّل الآية: ﴿يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي﴾، فاقتضى آخرها: ﴿وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي﴾[3]، فبين الجملتين تكاملٌ في بيانِ إيقاف الطّوفان، والقولُ بالتَّسهيم مقبولٌ في بيانِ دلالةِ الجملةِ الأولى على الثّانية، لا في توقُّع نظمها، أو ذكر الجملةِ أصلًا، فقد يُدلُّ عليها بالتَّضمين والإيجاز، فشرطُ القولِ بالتَّسهيم هو أن يكون لا عن توقُّعِ المخاطَبِ كما هو في النَّثر، بل في كونِه تكاملًا بين جملتين تقتضي الأولى وجودَ الأخرى، وهذه خصيصةٌ من خصائص نظم القرآنِ.

الغرض من التعبير بالمجاز:

المجازُ في كلمةِ (سماءُ) إمّا على الحذفِ أو المجاز المرسل

قوله تعالى: ﴿وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي﴾ أي: أمسكي عن إرسال المطر، يُقال: أقلع الرَّجل عن عمله؛ إذا كفَّ، وأقلعت السَّماء؛ إذا انقطع مطرها[4]، والمجاز هنا في قوله تعالى: ﴿وَيَٰسَمَآءُ﴾ فإنَّ الحقيقة: (ويا مطر السَّماء أقلع)، على المجاز بحذفِ المضافِ، وإقامة المضاف إليه مكانه، أو مجاز مرسل والعلاقة محليَّة؛ لأنَّ السَّماءَ مَحَلُّ المطر، وذلك بما يسوقُه اللّه من غيمٍ حاملٍ للماءِ.

---

(1) التَّسهيم: أن يكون ما تقدَّم من الكلام دليلًا على ما يتلوه. يُنظر: ابن أبي الإصبع، تحرير التَّحبير، ص: 263.

(2) الآلوسي، روح المعاني: 6/265.

(3) أبو حيّان، النَّهر المادّ: 2/70، والسُّيوطي، الإتقان: 3/330.

(4) البروسوي، روح البيان: 4/134.

دلالة العَطْفِ في: ﴿وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ﴾:

خبران متغايران في المعنى قام الآخر على بيان الأوَّل وتوكيده

قوله تعالى: ﴿وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ﴾ عُطِفَ على ﴿وَقِيلَ﴾، والجامع عقليٌّ، ففي الآيةِ خبران: الأوَّل: أنَّه قيل: كيت وكيت، والآخر: أنَّه غيضَ الماء، فالأوَّل خبرٌ عمّا قيل، والآخر خبرٌ عمّا غيض، فهو عطفُ خبرٍ على خبرٍ، فهو توسُّطٌ بين الكمالين، وهو تابعٌ لأمر الأرض والسَّماء لاتِّصاله بقصَّة الماء وأخذه بحجزتها، ألا ترى أصل الكلام: (قيلَ: يا أرْضُ ابْلَعي ماءَكِ، فبلعت ماءها، ويا سَماءُ أقْلِعي عن إرسال الماء، فأقلعت عن إرساله، وغيضَ الماءُ النازل من السماء، فغاض)[1]، وهو مُغْنٍ عن التَّعرض إلى كون السَّماء أقلعت والأرض بلعت[2]، إذ هو بمنزلةِ نتيجة البلع والإقلاع[3]، وعلى هذا فذِكْرُ الغيض بيانٌ لكونِ الأمر قد تحقَّق، فأشبه ذكر الخبر الثّاني التَّوكيد والبيان، وجاء الفصل بين الجملتين؛ لأنَّهما خبران مستقلّان، أفاد كلٌّ منهما معنًى لم يُفدْه الآخر.

وقيل: إنَّ في الآية لفًّا ونشرًا، فيكون قوله تعالى: ﴿وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ﴾ راجعٌ لقوله تعالى: ﴿وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي﴾[4]، وذلك لما فيه من معنى التَّوكيدِ.

سِرُّ العطف بالواو في: ﴿وَغِيضَ﴾:

بيانُ امتثالِ الأرضِ والسَّماءِ بأحسن الإيجاز وأبلغه

مجيء (الواو) في قوله تعالى: ﴿وَغِيضَ﴾ دون (الفاء) مع كونِها أظهرَ في هذا الموضع، فلفائدة جليلة، وهي: أنَّه لو جاء بالفاء لم يكن فيه دليل على امتثال الأمر من كلٍّ من الأرض والسَّماء، وكان التَّقدير: فبلعت الأرض ماءها، وأقلعت السَّماء عن المطر، وغيض، فهذا من أحسن الإيجاز وأبلغه، وهو من إيجاز الحذف، وهو كقوله

(1) الآلوسي، روح المعاني: 6/264.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 12/79.
(3) النَّيسابوري، غرائب القرآن: 4/25.
(4) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/358.

تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًاۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ [النَّمل: 15]، أي: (آتينا داود وسليمان علمًا، فعملا به، وعلَّماه، وعرفا حقَّ النِّعمة، وقالا: الحمد لله)[1].

نكتةُ اختيارِ ﴿وَغِيضَ﴾ مخفَّفًا:

دلَّ (غيـــضَ) على البلعِ مرَّةً واحدةً، وهو ما يُناسبُ (ابلعي)

اختير الفعل ﴿وَغِيضَ﴾ دون (نقص) لدلالةِ (نقص) على التَّدرُّج، والأرض قد أُمرت بالبلع دون الابتلاع، فدلَّت على أنَّ المطلوب هو بلعُ الماءِ مرَّةً واحدةً دون تدرُّجٍ، و"الغَيْضَةُ: المكان الذي يقف فيه الماء، فيبتلعه"[2]، فالغيض هو بَلْعُ الماءِ مرَّةً واحدةً، وبه حصل التَّناسب بين لفظي البلع والغيض، ولو قال: (نقص)؛ لاضطرب الكلامُ، فكيف تؤمر الأرض بالبلع مرَّةً واحدةً، لا الابتلاع تدريجيًّا، ثم يُخبر أنَّها نقصت تدريجيًّا لا غاضت مرَّةً واحدة؟ كما اختير (غيضَ) المخفَّفة على (غُيِّضَ) المشدَّدة للاختصار[3]، ولموافقة ﴿وَقِيلَ﴾، ولحصولِ الأمر مرَّةً واحدةً لا تدريجيًّا.

دلالةُ بناء الفعل ﴿وَغِيضَ﴾ للمفعول:

اعتبار سَبَبِ الغَيْضِ، والإعلام بكون الماء مُسَخَّرًا بأمر الله تعالى

بُني الفعل ﴿وَغِيضَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَغِيضَ ٱلْمَآءُ﴾؛ لوجهين؛ أحدهما لفظيٌّ والآخر معنويٌّ:

أمّا اللَّفظيُّ؛ فلمناسبته الفعلَ قَبْلَهُ وزنًا ولفظًا؛ ليجريا على نسقٍ واحدٍ.

وأمّا المعنويُّ؛ فلأجل الإعلام بأنَّ الماء مُسَخَّرٌ بأمر الله تعالى، وتحت طاعته كسائر المخلوقات؛ ليس لواحدٍ منها تصريفٌ بنفسه في الحقيقة، فبُني للمفعول؛ ليُعلم أنَّ له من يغيضه، وهو الله ﷻ، فلو بُني للفاعل لم يكن ذلك منه حقيقةً ولا تصريحًا، بل بالإيماء والتَّأويل؛ والتَّصريح بالحقيقة أولى لاسيما في هذا المقام[4].

(1) الراغب، المفردات: (غيض).
(2) الزَّمخشري، الكشّاف: 3/352، وابن الجزري، كفاية الألمعي، ص: 167.
(3) النَّيسابوري، غرائب القرآن: 4/25، وابن الجزري، كفاية الألمعي، ص: 168، 169.
(4) ابن الجزري، كفاية الألمعي، ص: 168.

بلاغةُ الترتيبِ في الآية:

الترتيب بحسب الوقوعِ بذكر المقصود وإنجاز الموعود والتَّطلُّع للمنشود

اتبع النَّظم الكريم ذِكْرَ مقصودِ القصة بعد بيان مآل الطّوفان وزوال آثاره، فقال تعالى: ﴿وَقُضِيَ ٱلْأَمْرُ﴾، أي: أُنجز الموعود من إهلاك الكفرة وإنجاء المؤمنين[1]، وهو ترتيبٌ بديعٌ، فمشهدُ السَّفينة وقد رست على الجوديِّ لا يكون إلّا بعد أن يُقضى الأمر، فلمّا قال: ﴿وَقُضِيَ ٱلْأَمْرُ﴾؛ تطلَّع الذِّهن إلى معرفةِ مصير السَّفينةِ وأهلها بعد الطُّوفان وانقضائه، فهذا ترتيبٌ بحسبِ الوقوع.

نكتةُ بناءِ الفعل للمفعولِ في ﴿وَقُضِيَ﴾:

المقصودُ هو الاستواءُ على الجوديِّ؛ وما قبلَهُ فوسائل موصلةٌ لذلك

جملة ﴿وَقُضِيَ ٱلْأَمْرُ﴾ تعدُّ تمهيدًا لذكر السَّفينة وأهلِها وما يتعلَّق بهم، وهو مجيء ﴿وَقُضِيَ﴾ على البناء للمفعول، فلم يقل: (انقضى الأمر)، أو (قضى اللّه الأمر) أو نحو ذلك؛ بحيث يوافق هو فعلَ ﴿وَٱسْتَوَتْ﴾ بعده، وإنَّما أتى بالفعل ﴿وَقُضِيَ﴾ مبنيًّا للمفعولِ للاختصار، ولمجيء أفعالٍ قبله على وتيرةٍ واحدةٍ مبنيَّةٍ للمفعول[2]، ولتعلُّقِها بما قبلها من حيث القولُ، فالغيضُ، فالقضاء.

بديع الإرداف والتَّمثيل في ﴿وَقُضِيَ ٱلْأَمْرُ﴾:

التَّنبيهُ على المعنى المرادِ إيماءً وإشارةً قد يكونُ أبلغَ من ذكرِه

عبارة ﴿وَقُضِيَ ٱلْأَمْرُ﴾ اختيرت بإحكامٍ بدل أن يُقالَ: (وهلَكَ من قضى اللّه إهلاكَهُمْ، ونجا من قضى اللّه نجاتهم)، وهو إرداف[3]، وإنَّما عدل عن التَّعبير، واخْتيرَ رَديفٌ له يؤدّي المقصودَ منه مع الإيجاز في العبارة، وهو التنبيهُ على أنَّ هلاك الهالك ونجاة الناجي كان بأمر آمرٍ أمْرُهُ تكْوين، إذا أراد شيئًا فَإنَّما يقول له: كن فيكون، وكان بقضاء مَنْ لا رادَّ لقضائه، والأمرُ يستلزم آمرًا وقضاءه، وهذا

(1) النَّيسابوري، غرائب القرآن: 4/25.

(2) ابن الجزري، كفاية الألمعي، ص: 168.

(3) الإرداف: أن يُريد المتكلِّم معنًى فلا يُعَبِّر عنه بلفظه الموضوع له، ولا بلفظ الإشارة الدّال على المعاني الكثيرة، بل بلفظٍ هو ردف المعنى الخاصِّ، وتابعه قريبٌ من لفظ المعنى قربَ الرَّديفِ من الرِّدف. ينظر: قُدامة بن جعفر، نقد الشِّعر، ص: 57، والعسكريّ، الصِّناعتين، ص: 350.

يدلُّ على قدرة الآمر به؛ وطاعةُ المأمور تدلُّ على قدرة الآمر وقهره، وأنَّ الخوف من عقابه ورجاء ثوابه يحضّان على طاعة الآمر، ولا يحصل ذلك كلُّه من اللَّفظ الخاصِّ[1]، وجعلَهُ بعضُهم من قبيل التَّمثيل[2]؛ وهو التَّلويح عند الجمهور من علماء المعاني والبيان[3].

دلالة التَّعريف في لفظَي ﴿ٱلۡمَآءُ﴾ و﴿ٱلۡأَمۡرُ﴾:

الاختصارُ بالعهد الذِّكري أفخمُ من الإطنابِ بذكرِ التَّفاصيل

قال في الجملة السّابقة: ﴿وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ﴾ دون أن يقول: (ماء طوفان السَّماء)، وكذا الأمر في قوله تعالى: ﴿وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ﴾ دون أن يقول: (أمر نوح مع قومه)، وهو إنجاز ما كان اللّه وعدَ نوحًا عليه السلام من إهلاك قومه، وذلك لقصد الاختصار بالاستغناء ذُكِرَ المضافُ إليه بحرف التَّعريف العهدي[4]، لِما دلَّت عليه القصَّة في بيان هلكتهم، في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ﴾ فأغنى عن نعت الأمر هُنا[5]. وكذلك لو قيل: (أمرهم) لم يفِ بالمقصود؛ فأتى بلفظ المعرَّف بالأداة الدّالة على العهد الذِّكري الذي ذُكِرَ في هذه القصَّة[6].

كما أنَّ في قوله تعالى: ﴿وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ﴾ إشارةً إلى جميع القِصَّة؛ من بَعْثٍ للماء وذهابه، وإهلاكٍ للقوم الظّالمين، وإنجاءِ أهل السَّفينة المؤمنين[7]، وهي إشارةٌ جامعةٌ للمعاني السّابقةِ كلِّها، فيها من بديع الإيجازِ اللَّفظيِّ والجمعِ المعنويِّ، والتَّرهيب للمجرمين، والترغيب للمؤمنين، ما لا يُحيط به لفظٌ.

(1) محيي الدّين درويش، إعراب القرآن وبيانه: 4/362.
(2) وهو أن يُريد المتكلِّم معنى فلا يَدُلُّ عليه بلفظه الموضوع له ولا بلفظ قريب من لفظه، وإنَّما يأتي بلفظ هو أبْعَدُ من لفظ الإرداف قليلًا، يصلح أن يكون مثالًا للفظ المعنى المراد، يُنظر: قدامة بن جعفر، نقد الشعر، ص: 58.
(3) ابن الجزري، كفاية الألمعي، ص: 58.
(4) السَّكاكي، مفتاح العلوم، ص: 419، والنَّيسابوري، غرائب القرآن: 4/25.
(5) ابن الجوزي، زاد المسير: 2/376.
(6) ابن الجزري، كفاية الألمعي، ص: 170.
(7) الثَّعالبي، الجواهر الحسان: 3/285، وابن عطيَّة الأندلسي، المحرَّر الوجيز: 3/175.

غرض الكنايةِ في الأفعال المبنيَّة للمفعولِ:

ترك ذكرِ الفاعل لحتميَّة العلم به كنايةٌ بذكر اللّازم وإرادة الملزوم

لمّا أراد الحقُّ ﷻ أن يبيِّن معنى إرادةِ ردِّ ما انفجر من الأرض إلى بطنها، وقطع طوفان السَّماء، وغيض الماء النّازل من السَّماء، فغاض، وقضاء أمر نوح، وهو إنجاز ما وعده اللّه من إغراق قومه فَقُضي[1]، فاختصرها النَّظم الكريم المعجز في بناء الأفعال (قيل، وغيض، وقُضيَ) للمفعولِ، فلم يصرِّح بِمَن غاضَ الماءَ، ولا بِمَن قَضى الأمْرَ، ومن سَوّى السَّفينَةَ على الحقيقةِ، كَما لَمْ يُصَرِّحْ بِقائِلِ: ﴿يَٰٓأَرۡضُ﴾ ﴿وَيَٰسَمَآءُ﴾ في صدر الآية، سُلوكًا في كلِّ واحد من ذلك سبيل الكناية؛ لأنَّ تلك الأمور العظام لا تتأتَّى إلّا من ذي قدرةٍ لا يُكتنه، قهّارٍ لا يُغالَب، فلا مجال لذهاب الوهم إلى أن يكون غيره جلَّت عظمته قائلًا: ﴿يَٰٓأَرۡضُ﴾ ﴿وَيَٰسَمَآءُ﴾، ولا غائضًا ما غاض، ولا قاضيًا مثل ذلك الأمر الهائل، أو أن تكون تسوية السَّفينة وإقرارها بتسوية غيره وإقراره[2].

والحاصل المتقرِّر عند أهل العلم أنَّ الفعل إذا تعيَّن لفاعل بعينه؛ استتبع ذلك أن يُترك ذكره، ويُبنى الفعلُ لمفعوله، أو يذكر ما هو أثرٌ لذلك الفعل على صيغة المبني للفاعل، ويُسند إلى ذلك المفعول، فيكون كنايةً عن تخصيص الصِّفة التي هي الفعل بموصوفها، وهذا أولى ممّا قيل في تقرير الكناية هُنا: إنَّ ترك ذكر الفاعل، وبناءَ الفعل للمفعول من لوازم العلم بالفاعل وتعيُّنه لفاعليَّة ذلك الفعل، فذُكِرَ اللّازمُ، وأريد الملزوم[3].

بلاغةُ العطفِ في: ﴿وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ﴾:

مرحلةُ استواءِ السَّفينةِ هي مرحلةٌ مقصودةٌ في استقرارِ الأمرِ بعد الطّوفان

بَيَّن ربُّنا ﷻ حال استقرار السَّفينة بقوله تعالى: ﴿وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ﴾، وكان جبلًا مُنخفضًا، فكان استواء السَّفينة عليه دليلًا

(1) النَّسفي، مدارك التَّنزيل: 2/272، والنَّيسابوري، غرائب القرآن: 4/25.
(2) السَّكاكي، مفتاح العلوم، ص: 419.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 6/262.

على انقطاع مادَّة الماء[1]، ودلَّ العطفُ بذكرِ استواءِ السَّفينةِ بعد نداء الأرض والسماء وأمرهما، وغيض الماء، وقضاء الأمر، على تحقُّقِ المقصودِ، والغاية ممّا كان؛ فالاستواء مرحلةٌ مقصودةٌ، فما قبلها وسائل موصلة إلى الغايةِ، وهي الاستواء على الجوديِّ.

دلالة استعمال ﴿عَلَى﴾:

بيان تمكُّن السَّفينة واستقرارها لتسهيل نزول الرّاكبين

﴿عَلَى﴾ في قوله تعالى: ﴿وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ﴾ بيانٌ لحكمة إرسائها على الجبل، وذلك أنَّ جانب الجبل أمْكَنُ لاستقرار السَّفينة عند نزول الرّاكبين؛ لأنَّها تَخِفُّ عندما ينزل معظمهم، فإذا مالت؛ استندت إلى جانب الجبل[2]، فلا يخفى ما يفيده حرفُ الاستعلاء ﴿عَلَى﴾ من التَّمكُّن والاستقرار على الجبل.

سرُّ عُدول فعل ﴿وَٱسۡتَوَتۡ﴾ عن سابقيه:

رعاية المُقابلة للجريان المتأتّي منها في قوله: ﴿وَهِيَ تَجۡرِي بِهِمۡ﴾

قال تعالى: ﴿وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ﴾ ولم يقل: (سُوِّيتْ) على الجودي؛ بمعنى أُقِرَّت على نحو: ﴿وَقِيلَ﴾ و﴿وَغِيضَ﴾ و﴿وَقُضِيَ﴾ مع كونه أنسبَ بأخواته المبنيَّة للمفعول، على اعتبار أنَّ بناء الفعل للفاعل مع السَّفينة المقابل للجريانِ في قوله تعالى: ﴿وَهِيَ تَجۡرِي بِهِمۡ فِي مَوۡجٖ﴾، فناسب بناءُ الفعل للفاعل في ﴿وَٱسۡتَوَتۡ﴾ بناءَه للفاعل في ﴿تَجۡرِي﴾، مع قصد الاختصار في اللَّفظ[3].

سرُّ إضمار فاعل ﴿وَٱسۡتَوَتۡ﴾:

قَصْدُ الاختصار لتقدُّم الضَّمائر الدّالَّة على المقصود

أُضمر الفاعل في قوله تعالى: ﴿وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ﴾ دون أن يقول: (واستوت السفينة على الجودي)؛ لأنَّه لو صُرِّحَ بذلك لكان تطويلًا، فإنَّ الضَّمائر تقدَّمت عائدةً عليها جملةً بعد جملة، فقال تعالى: ﴿وَٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ﴾ [هود: 37]، وقال: ﴿ٱرۡكَبُواْ فِيهَا بِسۡمِ ٱللَّهِ مَجۡرٖىٰهَا

(1) النَّيسابوري، غرائب القرآن: 4/26.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 12/79.
(3) السَّكاكي، مفتاح العلوم، ص: 419، والنَّيسابوري، غرائب القرآن: 4/26، والآلوسي، روح المعاني: 6/263.

﴿وَمُرۡسَىٰهَآۚ﴾ وقال: ﴿وَهِيَ تَجۡرِي﴾ حتَّى قال: ﴿وَٱسۡتَوَتۡ﴾، أي: هي - يعني الفلك - والمقام مَقام اختصار، وليس هنا ما يوجب، أو يُحَسِّن إقامة الظّاهر مقامَ المضمر من لبسٍ وغيره[1].

نكتةُ اختيار لفظة ﴿وَٱسۡتَوَتۡ﴾:

استُعمل لفظ ﴿وَٱسۡتَوَتۡ﴾ دون ما في معناها من مثل: (استقرَّت) أو (رست) المخصوص بالسُّفن في الاستعمال اللُّغويِّ، وذلك للخفَّة والاختصار؛ فالخِفَّةُ في اللَّفظ ظاهرةٌ، وكذلك الاختصار، فإنَّ (استوت) خمسة أحرفٍ، و(استقرَّت) سبعة، وكذلك فإنَّ (استقرت) تَدُلُّ على الاستقرار، و(استوت) تدلُّ على ذلك وزيادة، فإنَّها تدلُّ على الاستقرار والسَّلامة والاعتدال؛ قال اللّٰه تعالى: ﴿لِتَسۡتَوُۥاْ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ﴾ [الزُّخرف: 13]، وأمّا عُدوله عن (رَسَتۡ) مع الاختصار، وأنَّها مخصوصة بالسُّفن في لسان العرب؛ إذ يقولون: إذا وقفت السَّفن: (رست السَّفينة؛ إذا ثبتت - ترسو رسوًّا؛ إذا وقفت على المراسي)، والمراسي جمع (مرساة): وهي حَديدةٌ كبيرة ثقيلة تُرسى بها السُّفن، فتُدلَّى بالحبال الثِّخان حتَّى تَبْلُغَ قعر البحر، فتثبت، قال تعالى: ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ مَجۡرٖىٰهَا وَمُرۡسَىٰهَآۚ﴾، أي: بسم اللّٰه جَريُها أو إجراؤها على وجه الماء، وثبوتُها أو إيقافُها عليه، فإذا عُلِمَ ذلك، فليُعلم أنَّه لو قال: (ورَست على الجودي)، لم يكن موافقًا للمعنى المُراد بالاستواء؛ لأنَّ الاستواء على الجَبَل، والرُّسوَّ على الماء[2].

الاستواء حدثٌ خاصٌّ لا يُقاس عليه استقرار عموم السُّفن في البحار

بديعُ الإردافِ في: ﴿وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ﴾:

وقع الإرداف في قوله تعالى: ﴿وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ﴾، فإنَّ حقيقة ذلك (وجَلَسَتۡ على هذا المكان)، فَعَدَل عن لفظ المعنى الخاصِّ به إلى لفظٍ هو رِدْفُهُ، وإنَّما عَدَلَ عن لفظ الحقيقة لما في الاستواء

لفظُ الاستواءِ دالٌّ على التَّمكُّن الذي لا حركةَ بعده

(1) ابن الجزريِّ، كفاية الألمعي، ص: 171.
(2) ابن الجوزي، كفاية الألمعي، ص: 170.

الذي هو لفظُ الإرداف من الإشعار بجلوس متمكِّنٍ لا زيغ فيه ولا ميل، وهذا لا يحصل من قولك: جلستُ أو قعدتُ أو غير ذلك من ألفاظ الحقيقة، إذ كان المُراد الإخبارَ ينفي الأسباب الموجبة خوف أهل السَّفينة من السَّفينة في حالتَي حركتها وسكونها، وذلك لا يحصل حتَّى يفهم السّامع أنَّها جلست جلوسًا مُتمكِّنًا لا ميلَ فيه يوجبُ الخوف، ولا يحصل إلّا بلفظ الاستواء دون غيره[1].

دلالةُ الاعتراض بأكثرَ من جملة:

ازدحـامُ المعاني بـبـيـان نـزولِ النِّعم بعد دفعِ النِّقم

من أحسن ما يمثَّل به اعتراضُ أكثر من جملةٍ في القرآن الكريم قولُه تعالى: ﴿وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ﴾ فإنَّها ثلاث جُمَلٍ معترضة، بين: ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ﴾، وقوله ﷻ: ﴿وَقِيلَ بُعۡدٗا﴾، وفيه اعتراضٌ في اعتراض، فإنَّ قوله: ﴿وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ﴾ مُعترِضٌ بَيْنَ: ﴿وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ﴾ وبين ﴿وَٱسۡتَوَتۡ﴾؛ ولا مانع من وقوع الاعتراض في الاعتراض عند البيانيّين، بل على قواعد النُّحاة أيضًا، قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٞ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ ٧٦﴾ [الواقعة: 76]، فهذا اعتراضٌ في اعتراضٍ نحويٍّ، والذي قَبْلَهُ اعتراضٌ في اعتراضٍ بيانيٍّ[2]، ونكتتُه: ازدحامُ المعاني، وبيانُ جلالِ النِّعم في دفع النِّقم مرَّةً واحدةً.

توجيه ذكرِ ﴿ٱلۡجُودِيِّۖ﴾ بالعلَميَّة المطلقةِ:

الجـوديُّ لنوحٍ، والـطّـور لموسى عليهما السلام بدايةُ عملٍ ومرتكزُ أملٍ

لم يُعيِّن النَّظم أنَّ الجوديَّ جبلٌ، فلم يقل: (واستوت على جبل الجوديِّ) ليُعلم أنَّه جبل؛ لأنَّ الجوديَّ علَمٌ لهذا الجبل المعروف، والألف واللّام ليست للتَّعريف، بل زائدةٌ تقع في الأعلام لغلبتها على من هي له كالبيت للكعبة، والمدينة لطَيبة، والنَّجم للثُّريا، والجودي لجبل الجزيرة، فلم يحتج إلى ذكر الجبل؛ لأنَّ هذه الأسماء في نفسها

(1) ابن أبي الإصبع، تحرير التَّحبير، ص: 207.
(2) السبكي، عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح: 1/618.

أعلام، فلو قيل: على جبل الجوديِّ؛ لكان من إضافة الشَّيء إلى نفسه، وهو تطويلٌ بلا فائدة، والمقام مقام اختصارٍ وإيجاز؛ فعُلم أنَّه جبل من حيث العلميَّة، ولذلك قال تعالى: ﴿وَنَدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ﴾ [مريم: 52]، وقال: ﴿وَوَٰعَدْنَٰكُمْ جَانِبَ ٱلطُّورِ﴾ [طه: 80]، يعني بذلك جبل الطّور المعروف، وهو الجبل الذي كلَّم الله عليه موسى عليه السلام، ولم يقل في شيءٍ من ذلك: (جبل الطور) إيجازًا واختصارًا للعِلم به[1]، وإجراءً له مُجرى ما كان للطُّور، فإنَّ الطّور جبلُ موسى عليه السلام الذي انطلق منه في تلقّي الرِّسالة والدعوةِ، وكذلك الجوديّ هو الجبل الذي انطلق منه نوحٌ عليه السلام ومن معه من المؤمنين للدَّعوة، فهما جبلان يجب أن يُعرفا باسمهم العَلَم؛ ليكونا منارًا للمؤمنين، أمّا الطّور؛ فهو بداية العمل، ومرتكز الأمل، وأمّا الجوديُّ؛ فهو بداية عملٍ جديدٍ، وانطلاقة للبشريَّة فريدة.

نكتةُ بناء فعل ﴿وَقِيلَ﴾ للمفعولِ:

في قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، يحتمل قائل: ﴿بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أن يكون الله عز وجل، فيكون جريًا على طريقة قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ﴾، والظاهر أنَّه من كلام الله تعالى؛ لأنَّ الله تعالى يقول بُعيد ذلك في قصة هود: ﴿أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ۝٦٠﴾ [هود: 60]، وفي قصة ثمود: ﴿أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ۝٦٨﴾ [هود: 68]، وفي قصة شعيب: ﴿أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ﴾ [هود: 95]، والقائل في ذلك كلِّه هو الله تعالى، والقرآن يفسِّر بعضُه بعضًا، فيجري القول على نسقٍ واحدٍ[2]، ويحتمل أن يكون القائلُ نوحًا عليه السلام ومن معه من المؤمنين؛ لأنَّ الغالب ممَّن يسلَم من الأمر الهائل بسبب اجتماع القوم الظَّلمة أنَّه يقول مثل هذا الكلام[3]؛ تحقيرًا للكفّار، وتشفّيًا منهم، واستراحةً من بلائهم، فالاحتمالان قائمان، والاحتمالان مقبولان.

تعميمُ أفرادِ الفاعلين، وشمولُ كُلِّ قائلٍ يصلح أن يقول: (بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ)

(1) ابن الجزري، كفاية الألمعي، ص: 172.
(2) ابن الجزريِّ، كفاية الألمعي، ص: 148.
(3) النَّيسابوري، غرائب القرآن: 4/26.

ومن هنا فإنَّ فعلَ ﴿وَقِيلَ﴾ بُني للمفعول؛ لعدم الحاجة إلى معرفة قائله[1]، وللإشارة إلى أنَّ كلَّ من عَلم بشأنهم قال: ﴿بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، فيدخل في ذلك الملائكةُ، والإنس، والجنُّ، وكلُّ من له عقلٌ، أو ملأ قلبَه إيمانٌ، وفي هذا إعلامٌ بهوان المُهلَكين والرّاحة منهم[2]، وفيه أيضًا تعليمٌ من الله تعالى لعباده أن يدعوا على الظّالمين به[3]؛ فيكون جاريًا مجرى الدُّعاء عليهم[4].

فائدة استعمال المصدر ﴿بُعۡدٗا﴾:

بُعدُ الظّالمين بُعدٌ لا يُرجى منه عود؛ فهو دالٌّ على الاستمرار والثّبات

المصدرُ ﴿بُعۡدٗا﴾ هو من (بَعِدَ) بالكَسْرِ مُرادًا بِهِ البُعْدُ من حيثُ الهلاكُ، هلاكًا وخَسارًا لهم وبُعدًا من رحمة الله، فإنَّهم قد هلكوا عن آخرهم، فلم يبقَ لهم بقيَّة[5]، فإنَّ حقيقتَهُ: بُعْدٌ بعيدٌ لا يرجى منه عوْدٌ ولا قربٌ، ثُمَّ اسْتُعيرَ للهلاك، وخُصَّ بدعاء السّوءِ، وعَبَّرَ بالمصدر لتعليقهِ باللّام الدّالَّةِ عَلى الاسْتِحقاقِ والاختصاص[6]، وقال: ﴿بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ﴾، ولم يأتِ بالفعل، فلم يقل: (ليبعُد القوم) طلبًا للتَّأكيد مع الاختصار، وهو تنزيل ﴿بُعۡدٗا﴾ منزلةَ ليبعدوا بُعدًا[7]، وللدَّلالة على الحدث المُطلق غير المقيَّد بزمن أو بفاعل، وللدَّلالة على الثُّبوت والاستمرار.

بديع التَّورية التّامَّة والكناية في ﴿بُعۡدٗا﴾:

إرادةُ معنى الإبعاد والإهلاك في لفظٍ واحدٍ إيجازٌ بديعٌ

وقع المصدر ﴿بُعۡدٗا﴾ - في قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ - موقعًا بديعًا من التَّورية التّامة؛ إذ يَصِحُّ في ﴿بُعۡدٗا﴾ كلٌّ من المعنيين: الإبعاد، والهلاك، ويشهد للأوَّل قولُه تعالى: ﴿إِنَّ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 12/79.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 9/292.
(3) البروسوي، روح البيان: 4/134.
(4) النَّيسابوري، غرائب القرآن: 4/26.
(5) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/280.
(6) البقاعي، نظم الدرر: 9/292.
(7) السَّكاكي، مفتاح العلوم، ص: 419، والنَّيسابوري، غرائب القرآن: 4/26.

ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٌ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ لَعۡنَةُ ٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ ﴿١٦١﴾ [البقرة: 161]، أي: البُعداء يلعنهم الله تعالى، وتلعنهم الملائكة والمؤمنون[1]، ويَشْهَدُ للثّاني قولُه تعالى: ﴿أَلَا بُعۡدٗا لِّمَدۡيَنَ كَمَا بَعِدَتۡ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾﴾ [هود: 95]، والدَّليل على جواز إرادة المَعْنَيَيْن وكونه من التَّورية التّامة: أنَّه لم يورِد ﴿بُعۡدٗا﴾ بالفتح، فإنَّه لو أراد الهلاك فقط؛ لكان بالفتح[2].

ويصح أن يكون استعمال ﴿بُعۡدٗا﴾ كنايةً عن التَّحقير بلازم كراهية الشَّيء، فلذلك يُقال: بَعُدَ أو نحوه لمن فُقِدَ؛ إذا كان مكروهًا كما هُنا[3].

معنى اللّام الدّاخلة على ﴿لِّلۡقَوۡمِ﴾:

استعمال اللّام - في قوله تعالى: ﴿لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ بَعْدَ قوله تعالى: ﴿بُعۡدٗا﴾ - دالٌّ على معنى أنَّ البُعْدَ حُقَّ لهم[4]، فهي دالَّة على استحقاق الهلاك[5] والإبعاد، لما اقترفوه من الكفر، وقرنه بالسُّخرية والاستخفاف بصنيع رسول الله فيهم.

إبعادُ الله للظالمين لا يكون إلّا عن استحقاقِهم لذلك

معنى التَّعريف في: ﴿لِّلۡقَوۡمِ﴾:

التَّعريفُ في لفظِ ﴿لِّلۡقَوۡمِ﴾ - في قوله تعالى: ﴿لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ - للعهد الذِّكري[6]، أو للعِوض عن المضاف إليه، كأنَّه قال: (لقوم نوحٍ الظّالمين)، فذلك كقوله تعالى في آخر قصَّة عاد: ﴿أَلَا بُعۡدٗا لِّعَادٖ قَوۡمِ هُودٖ ﴿٦٠﴾﴾ [هود: 60].

إفادة العهد الذِّكري للفظ القوم المتكرِّر في القِصَّة فيما سبق من الآيات

(1) أبو بكر الجزائري، أيسر التفاسير: 1/138.
(2) ابن الجزريّ، كفاية الألمعي، ص: 195.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 12/79.
(4) السَّكاكي، مفتاح العلوم، ص: 419.
(5) الآلوسي، روح المعاني: 6/263.
(6) أبو حيّان، النَّهر المادّ: 2/70.

فائدةُ ذكر: ﴿لِّلْقَوْمِ﴾:

تعيينُ المقصود ودفْعُ تخصيصِ العموم

المراد بالقوم في قوله تعالى: ﴿لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، أي: المعهودين في هذه القِصَّة التي كان فيها من شِدَّة القيام فيما يحاولونه ما لا يعلمه أحد إلّا الله[1]، ولم يقل: (بُعْدًا للظالمين) مع أنَّه أخصر والمقام مقام إيجازٍ - كما تقرَّر - وفائدة ذلك الإيضاحُ، ورفعُ اللَّبس، والإعلامُ بأنَّهم قومُ نوحٍ الذي أُرسل إليهم، فكفروا به، لا عموم الظّالمين؛ فإنَّه لما تقدَّم أوَّلَ القصَّة وبعدَهُ قولُه تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ﴾ [هود: 25]، وقولُه تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ﴾ [المؤمنون: 33]، وغيرها حيث كرَّر ذِكْرَ القوم في سبعة مواضع، فناسب أن يختم القصَّة عند ذكر ما آل إليه أمرهم بقوله تعالى: ﴿بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾؛ كي لا يُظنَّ بهذه المخالفةِ في إسقاطِ لفظِ (القوم) إرادة العموم، فيتوهَّم متوهِّمٌ أنَّ آلة التَّعريف في ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ للجنس، وهو خلاف المقصود، فلا يحصل رفعُ التَّوهُّم إلّا بذكر القوم؛ فقد صار الإتيان بها يفيد معنًى لم يفده الكلام بدونها[2].

سرُّ التعبير بالظّالمين دون الكافرين:

المناسباتُ اللَّفظيَّة وردُّ آخرِها على أوَّلِها تمتينٌ للسّياقِ وتقويةٌ للنَّظم

خصَّ النَّظمُ وصفَ الظُّلم دون أوصافٍ أخرى في قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ للآتي:

أولًا: وضوحُ اتِّصافِهم بهذه الصفة أكثر من غيرِها، وقد تقدَّم قوله تعالى في هذه القِصَّة من هذه السّورة: ﴿وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [هود: 37].

ثانيًا: الإشْعارُ بعلّيَّتِهِ للهلاك، فالظُّلم مجلبةُ كلِّ قبيح.

ثالثًا: تَذْكيرُ نوحٍ عليه السلام ما سبق من قوله تعالى: ﴿وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 9/292.

(2) ابن أبي الأصبع، تحرير التحبير، ص: 198.

﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغۡرَقُونَ ٣٧﴾ [هود: 37]، فإنَّ المراد بالظّالمين هاهنا قومُ نوحٍ الذين قدَّم ذكرهم ووصَفهم بالظُّلم، ونهاه عن المُخاطبة فيهم ليرتَدَّ عجُز الكلام على صدره، ويُعلم أنَّ المدعوَّ عليهم هم الذين تقدَّم ذِكرهم[1]، فكان ذِكْرُ الظّالمين هُنا أنسبَ لذلك[2].

رابعًا: تعريضٌ بجميع الظالمين، وتحذيرٌ لهم لكيلا يسلكوا مَهْيَعَ قوم نوحٍ الظالمين، فيحيق بهم العذاب، كما حاق بقوم نوح.

خامسًا أُطلِقَ الظُّلم ليتناول كلَّ نوعٍ حتَّى يدخل فيه ظُلمُهم أنفسَهم في فسقِهم، لزيادة التَّنبيه على فظاعة سوء اختيارهم في تكذيب الرُّسل؛ ليوافق قوله تعالى: ﴿وَقَوۡمَ نُوحٖ مِّن قَبۡلُۖ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ ٤٦﴾ [الذّاريات: 46]، ويتناول الظُّلم بمعنى الشِّرك والكفر[3]؛ ليوافق قوله تعالى: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرۡ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ٢٦﴾ [نوح: 26]، فأطلق الظُّلم ليتناولَ ظُلمَ أنفسهم وظلمَهم غيرهم[4]، لزيادة التَّنبيه على فظاعة سوء اختيارهم في التَّكذيب من حيث إنَّ تكذيبهم للرُّسل ظلمٌ على أنفسهم؛ لأنَّ ضرَرَهُ يعود إليهم[5].

بلاغةُ التَّعريض بالظّالمين:

في قوله تعالى: ﴿بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ خُتِمَ الكلام بذكر الظالمين من قوم نوحٍ عليه السلام، على طريقِ التَّعريض تنبيهًا لسالكي مسلكهم أنَّ في تكذيب الرُّسل ظُلْمًا لأنفسهم لا غير، وإظهارًا لمكان السُّخط ولجهة استحقاقهم إيّاه؛ لأنَّه يُنبئُ عن الظُّلم المُطلق وعن علَّة قيامة الطّوفان[6]، وأنَّ قيامة الطّوفان وتلك الصّورة الهائلة ما

تنبيهُ الأمم اللّاحقة على ما وقع للأمم الغابرة رحمةٌ بهم ورأفةٌ بحالهم

(1) ابن أبي الأصبع، تحرير التَّحبير، ص: 198.
(2) ابن الجزري، كفاية الألمعي، ص: 176.
(3) السَّكاكي، مفتاح العلوم، ص: 419.
(4) النَّيسابوري، غرائب القرآن: 4/26.
(5) الآلوسي، روح المعاني: 6/263.
(6) النَّيسابوري، غرائب القرآن: 4/26.

كانت إلّا لظلمهم[1]، كما يُؤذِن بذلك الدُّعاء بالهلاك بعد هلاكهم، والوصف بالظُّلم مع تعليق الحُكم به[2].

بلاغةُ الاحتراس:

بيان أنَّ المُهلَكين هُـم الـظّـالمون فقط

في قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ احتراسٌ بديعٌ[3] حتى لا يتوهَّم واهِمٌ أنَّ الطّوفان أغرقَ كلَّ من في الأرض يومها، فجاء الدُّعاء على الظّالمين مُبيِّنًا أنَّ الذين أُغرقوا هم الظّالمون فقط، احتراسًا من ضعيف العقل أن يتوهَّم أنَّ العذاب شمل من يستحقُّ، ومن لا يستحقُّ، فتأكَّد بالدُّعاء كونُهم مُستحقّين[4] هلاكَهم بسببِ ظلمهم.

بلاغةُ الإيجاز:

اقـتـصـاص القصة بألفاظٍ قليلة مستوعبةً للمعاني الكثيرة

قصَّتِ الآيةُ القِصَّةَ مُستوعبَةً بأخصر عبارة[5]، بحيث لم يُخلَّ منها بشيء وبألفاظ غير مطوَّلة؛ والإيجاز لذكر القصة باللَّفظ القصير مستوعبًا للمعاني الجمَّة[6]، فإنَّ أعظم ما فيها شرح قصَّةِ نوحٍ في الطُّوفان من أوَّله إلى آخره في هذه الألفاظ القلائل[7]. و في هذه الآية من الإيجاز ما يعجز البيان عن استيفاء تحليله وشرحه، فقد أمر فيها ربُّنا، ونَهى، وأخبرَ، ونادى، ونعَتَ، وسمّى، وأهْلَكَ وأبْقى، وأسْعَدَ، وأشْقَى، وقصَّ من الأنباء ما حقَّق به الغاية القصْوى من البيان[8].

وهذه الآية الكريمة قد بلغت من مراتب الإعجاز أقاصيها، واستذلت مصاقع العرب، فسفعت بنواصيها، وجمعت من المحاسن

(1) السَّكاكي، مفتاح العلوم، ص: 419.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 6/263.
(3) أبو حيّان، النَّهر المادّ: 2/70.
(4) ابن أبي الإصبع، تحرير التَّحبير، ص: 198، وابن الجزريِّ، كفاية الألمعي، ص: 212.
(5) الآلوسي، روح المعاني: 6/265.
(6) أبو حيّان، النَّهر المادّ: 2/70، والنّويري، نهاية الأرب: 7/176.
(7) الدَّميري شرح لامية العجم، ص: 44.
(8) ابن معصوم، أنوار الربيع، ص: 430.

ما يضيق عنه نطاق البيان، وكانت من سمهريِّ البلاغة مكان السِّنان[1]، قال بعضهم: هذه الآية أبلغ آية في القرآن، لاحتوائها على أحد وعشرين نوعًا من أنواع البديع، والحال أنَّ كلماتها تسعة عَشَرَ[2].

وفيما يلي ذِكْرُ بعض وجوه البديع على وجه العُموم بعد ذكر شيءٍ صالحٍ منها ممّا يتعلَّق بجُمَلها على وجه التَّفصيل فيما سبق.

وقد جاءت جُمل الآية معطوفًا بعضُها على بعضٍ بواو النَّسق على التَّرتيب الذي تقتضيه البلاغة؛ لأنَّه سبحانه بدأ بالأهمِّ؛ إذ كان المُراد إطلاقَ أهل السَّفينة من سجنها، ولا يتهيَّأ ذلك إلّا بانحسار الماء عن الأرض، فلذلك بدأ بالأرض، فأمرَها بالبلع، ولمّا عُلِمَ أنَّ الأرض إذا ابتلعت ما عليها من الماء، ولم تقطع مادَّة الماء تأذّى بذلك أهل السَّفينة عند خروجهم منها، وربَّما كان ما ينزل من السَّماء مُخلِفًا لما تبتلعه الأرض، فلا يحصل الانحسار، فأمر سبحانه السَّماء بالإقلاع بعد أمره الأرض بالبلع، ثم أخبر بغيض الماء عندما ذهب ما على الأرض، وانقطعت مادَّة السَّماء، وذلك يقتضي أن يكون ثالث الجملتين المتقدِّمَتين، ثُمَّ قال تعالى: ﴿وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ﴾، أي: هلك مَن قُدِّر هلاكه، ونجا مَن قُضيت نجاته، وهذا كُنْهُ الآية، وحقيقة المعجزة، ولا بُدَّ وأن تكون معلومةً لأهل السَّفينة، ولا يمكن علمهم بها إلّا بعد خُروجهم منها، وخروجُهم منها موقوفٌ على ما تَقَدَّم، فلذلك اقتضت البلاغة أن تكون هذه الجملة رابعة الجمل، وكذلك استواء السَّفينة على الجوديِّ، أي: استقرارها على المكان الذي استقرَّت فيه استقرارًا لا حركة معه، لتبقى آثارها آيةً لمن يأتي بعد أهلها، وذلك يقتضي أن يكون بعدما ذكرنا، وقوله سبحانه: ﴿وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، هذا دُعاءٌ أوجبه الاحتراس ممَّن يَظُنُّ أنَّ الهلاك ربَّما شَمَلَ من لا يستحقُّ، فدعا سبحانه على الهالكين، ووصفَهم بالظُّلم احتراسًا من هذا الاحتمال، وذلك يقتضي أن تكون بعد كلِّ ما تقدَّم، فانظُر إلى حُسْن هذا النَّسق، وكيف وقع القولُ فيه وفقَ الفعل سواء[3].

فرتَّب النَّظم الكريم الأحداث بواو النَّسق، حسب الأهميَّة، وبمنطقيَّة وتكامل وتناسق

(1) الآلوسي، روح المعاني: 6/261.
(2) الصّاوي، حاشية الصّاوي على الجلالين: 2/137.
(3) ابن أبي الاصبع، تحرير التَّحبير، ص: 425.

عجيب، حيث عطف القضايا بعضَها على بعضٍ بحسن ترتيب[1]، فالجمل المتتالية التي جاء بعضُها معطوفًا على بعضٍ متلاحمةٌ تلاحمًا سليمًا مُستحسنًا، وكلٌّ واحدةٍ منها قابلةٌ لأنْ تستقلَّ بنفسها لو أُفْرِدَتْ.

بلاغة فنِّ التَّنظير بين هذه الآية وغيرها:

الآيـة ساميـةٌ ومـتـفـرِّدةٌ في ألـفـاظـهـا وأسلوبها مقارنةً بغيرها

فنُّ التَّنظير[2] في الآية يظهر في توصيف قصَّة الطوفان التي انطوت على الكثير من العقد والحلول والعبر، وهو نظرٌ إلى مكوِّنات القصَّة وخصائصها ومرتكزاتها، باعتبار مقارنتها بغيرها من القصص، حيث جاءت ساميةً عليها جميعًا باستقصاء جميع ما اتَّفق فيها وما سَنَحَ[3].

بديعُ الائتلافِ بين الألفاظِ والمعاني في الآيةِ الكريمة:

ائتلافُ الألفاظِ في الآيـة مباينٌ لائـتـلافِـهـا في نظم النّاس

من مظاهر الإعجاز وما اشتملت عليه هذه الآية من الحسن والطَّلاوة والرَّونق والمائيَّة التي لا يَقْدِر البشر على الإتيان بمثلها، ولا يستطيع أفصح النّاس وأبلغ العلماء مضاهاتها؛ ائتلافُ[4] ألفاظها ومعانيها، فأمّا ائتلافُ اللَّفظ مع اللَّفظ؛ فلأنَّ كُلَّ لفظةٍ لا يصلحُ موضعَها غيرُها[5]، على أنَّ ألفاظها المُفردة كثيرة الاستعمال دائرة على الألسنة، فقوَّة التَّركيب وحُسْنُ السَّبك هو الذي ظهر فيه الإعجاز؛ وأفحمت فيه البلاغة من حيث لاقت اللَّفظة الأولى بالثّانية والثّالثة بالرّابعة، وكذلك سائرُ الألفاظ إلى آخر الآية، ويشهد لذلك

(1) النّويري، نهاية الأرب في فنون الأدب: 7/176.

(2) التَّنظير ويُسمَّى المفاضلة: أنْ يَنظُر الإنسان بين كلامين: إمّا متفقَي المعاني أو مختلفَي المعاني، ليظهر الأفضل منهما، فالمفاضلة بين الألفاظ والمعاني على اتِّفاقهما واختلافهما فمتى وجدا في أحد الكلامين دون الآخر، أو كانا أخصَّ به من الآخر، حُكم له بالفضل. يُنظر: ابن الأثير، المثل السّائر: 3/270.

(3) مُحيي الدّين درويش، إعراب القرآن وبيانه: 4/365.

(4) الائتلاف نوعان: ائتلاف اللَّفظ مع اللَّفظ، وهو أن تكون الألفاظ يلائم بعضها بعضًا، بأن يُقرن الغريب بمثله والمتداول بمثله رعايةً لحسن الجوار والمُناسبة، والنّوع الثّاني من هذه الملاءمة ائتلاف اللَّفظ مع المعنى، أن يحكي صوتُ الكلمة صوتًا يوجد فيما دلَّت عليه.

(5) النّويري، نهاية الأرب: 7/176، والسُّيوطي، الإتقان: 3/330.

أنَّك لو أخذت لفظةً منها من مكانها وأفردتها عن أخواتها لم تكن لابسةً من الحُسْنِ والرَّونق ما لبسته في موضعها من الآية، ولكلٍّ كلمةٍ مع صاحبتها مقام[1].

وأمّا ائتلاف اللَّفظ مع المعنى؛ فإنَّ ألفاظ هذه الآية الشَّريفة تُسابق معانيَها، ومعانيها تُسابق ألفاظَها، حيث يوجد انسجام قويٌّ، وائتلافٌ محكَمٌ بين الألفاظ ودلالتها، وهذا يدلُّ على حُسن اختيار الألفاظ المعبِّرة عن المعنى المطلوب[2].

بديع التَّهذيب في الآية:

شروطِ الفصاحةِ ورونق العذوبةِ وحسنِ البيان

من مظاهر الإعجاز في هذه الآية الكريمة التَّهذيب؛ لأنَّ مُفرداتها موصوفة بصفات الحُسْنِ، فكلُّ لفظةٍ سهلةُ مخارجِ الحروف، عليها رونق الفصاحة، مع الخلوِّ من البشاعة وعقادة التَّركيب[3]، والسَّلامة من التَّنافر والغَرابة ومُخالفة القياس، وفي الانسجام تُحدَّد الكلمات بسهولة وعذوبة وجزالة، يقتضيها المقام ويتطلَّبُها مقتضى الحال[4].

بديع حسن البيان والوصف:

تجلّي وصفِها في استعمال نعوت ألفاظها وصفات معانيها

حُسْنُ البيان من جهة أنَّ السّامع لا يتوقَّف في فهم معنى الكلام، ولا يُشكِل عليه شيء من هذا النِّظام[5]، حيث قصَّ النظم الكريم القِصَّةَ، ووصفها بأحسن وصف، حيث استعمل نعوتَ ألفاظها وصفاتِ معانيها[6].

بديع الانسجام:

انسجامُ الألفاظ، وتعانق الجمل، وتآخي النَّظم تجمِّلُ في اللِّسان، وتعظمُ في الجنان

يتجلَّى الانسجام[7] في جُمل هذه الآية الكريمة مُنسجمةً، كالماء

(1) القلقشندي، صبح الأعشى: 2/281، وابن الأثير، المثل السّائر: 1/152.
(2) محيي الدّين درويش، إعراب القرآن وبيانه: 4/360.
(3) السُّيوطي، معترك الأقران: 1/319.
(4) محيي الدّين درويش، إعراب القرآن وبيانه: 4/360.
(5) ابن أبي الإصبع، تحرير التَّحبير، ص: 613، والآلوسي، روح المعاني: 6/265.
(6) أبو حيّان، النَّهر المادّ: 2/70.
(7) الانسجام: هو سلامة الألفاظ، وسُهولة المعاني مع جزالتهما وتناسبهما. يُنظر: الهاشمي، جواهر البلاغة، ص: 335.

الجاري في السَّلاسة[1]، من سهولة سَبْكٍ وعذوبة ألفاظٍ، حتّى يكون للجملة الواحدة منها وقعٌ في النُّفوس عجيبٌ، وتأثيرٌ في القلوب يطيب، فالنّاظر فيها من جانب الفصاحة المعنوية، هي نظمٌ للمعاني لطيف، وتأديةٌ لها مُلخَّصةً مبيَّنةً، لا تعقيد يُعْثِرُ الفِكْرَ في طلب المُراد، ولا التواء يشيك الطَّريق إلى المُرتاد، فما من لفظةٍ فيها تسبق إلى أُذنك إلّا ومعناها أسبقُ إلى قلبك، وأمّا النّاظرُ فيها من جانب الفصاحة اللَّفظية؛ فألفاظُها عربيَّة مُستعملة جارية على قوانين اللُّغة، سليمة عن التَّنافر، بعيدة عن البشاعة، عذبة على العَذَبات، سلسلة على الأسلات، كُلٌّ منها كالماء في السلاسة، وكالعسل في الحلاوة، وكالنَّسيم في الرِّقة[2]، ولله تعالى درُّ التَّنزيل ماذا جَمعت آياته:

وعلى تفنُّنِ واصفيه بحُسنهِ *** يفنَى الزَّمانُ وفيه ما لم يوصَفِ

ومع ما ذُكر في شرح مزايا هذه الآية بالنِّسبة إلى ما فيها؛ قطرةٌ من حياض، وزهرةٌ من رياض[3].

(1) ابن معصوم، أنوار الرَّبيع، ص: 430.

(2) القزويني، الإيضاح، ص: 253.

(3) الآلوسي، روح المعاني: 6/265، ومحمَّد رشيد رضا، تفسير القرآن الحكيم: 12/83.

﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبۡنِي مِنۡ أَهۡلِي وَإِنَّ وَعۡدَكَ ٱلۡحَقُّ وَأَنتَ أَحۡكَمُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ٤٥﴾ [هود: 45]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

النِّداء بحثٌ عن إنجاءٍ بَعْدَ بُعْدٍ وإبعادٍ

لمّا هدأ الطّوفان، وسكن الهول، بِبَلْعِ الأرض ماءها وإقلاعِ السَّماء عن هتّانها، واستوت السَّفينة على الجوديِّ، وهَلَكَ من هلك من أهل الكُفر والعصيان، ونجا من نجا من أهل الطّاعة والإيمان؛ تستيقظ في نفس نوحٍ عليه السلام لهفةُ الوالد المفجوع، فبعد أن خرج من السَّفينة هو وأهله ومَن معه تذَّكر ابنه وفِلْذَةَ كبده[1]، فنادى ربَّه عسى أن يكونَ من وراءِ ذلك النِّداءِ إنجاءٌ.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَعۡدَكَ﴾: تدلُّ على ترجيةٍ بقولٍ، يقال: وعدتُه أعِدُه وعدًا، ووعدَهُ بالأمر؛ قال له: إنَّه يُجْريه له، أو ينيله إيّاه[2]، ويكون ذلك بخيرٍ وشرٍّ[3]، والمشهور أنَّ (وعدَ) تكون في الخَيْرِ، و(أوعَدَ) في (الشَّرِّ)[4]، ومما يتضمَّن الأمرين معًا قوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ٥٥﴾ [يونس: 55]، فهذا وعدٌ بالقيامة وجزاء للعباد إن خيرًا؛ فخيرٌ، وإن شرًّا؛ فشرٌّ[5]، والعِدَة: الوعد، والموعدة مصدر واسم للعِدَة؛ ومعنى ﴿وَعۡدَكَ﴾ هنا: في تنجية أهل نوح عليه السلام[6].

(1) ملا حويش، تفسير القرآن العظيم: 3/123.
(2) جبل، المعجم الاشتقاقي: 3/1421.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (وعد).
(4) الزبيدي، تاج العروس: (وعد).
(5) الرّاغب، المفردات: (وعد).
(6) النَّسفي، مدارك التنزيل: 2/63.

2) ﴿أَحۡكَمُ ٱلۡحَٰكِمِينَ﴾: الحَكَمُ: اللّه ﷻ، وهو أحكم الحاكمين، وهو الحكيم له الحكم[1]، وأصل المادَّة على منْعٍ لا بعلاجٍ، وأوَّل ذلك الحكم، وهو المنع من الظُّلم[2]، ومعنى ﴿أَحۡكَمُ ٱلۡحَٰكِمِينَ﴾ هُنا: أعدل العادلين الذي لا يحكم إلّا عدلًا، ولا يخلق إلّا ما فيه حكمة[3].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

تُبيِّنُ الآيةُ الكريمةُ إشفاقَ نوحٍ عليه السلام على ابنِه بعدما عاين هلاكَه، فنادى ربَّه بدعاءٍ يرجو به النَّفعَ لابنِه في الآخرةِ والنَّجاةَ منَ العقابِ، مُسْتَجْدِيًا رحمةَ اللّه، ومُتَشَفِّعًا بوعدِه بَأنْ يُنَجِّيَ أهْلَه، مُؤمنًا بأنَّ وعدَ اللّه لا خُلْفَ له وأنَّه هو الحَكَمُ العَدْلُ[4].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالةُ العطف في ﴿وَنَادَىٰ﴾:

بيانُ وقتِ نداءِ نوحٍ عليه السلام

اختُلف في تعيين وقت نداءِ نوحٍ عليه السلام في قوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ﴾؛ فقيل: إنَّ هذه الجملة معطوفةٌ على قوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبۡنَهُۥ﴾، وذلك وقت إمكان النَّجاة قبل السَّير، وعُطِفَ عليه عطفَ تفصيلٍ أو تفسير[5]، ولكن موقع الآية يقتضي أنَّ نداء نوح عليه السلام هذا كان بعد استواء السَّفينة على الجودي؛ دعاه إليه داعي الشَّفقة، فأراد به نفْعَ ابنه في الآخرة بعد اليأس من نجاته في الدُّنيا؛ لأنَّ اللّه أعلَمَهُ أنَّه لا نجاة إلّا للذين يركبون السَّفينة، ولأنَّ نوحًا عليه السلام لمّا دعا ابنه إلى ركوب السَّفينة، فأبى، وجرت السَّفينة قد علم أنَّه لا وسيلة إلى نجاته، فكيف يسألها من اللّه؟ فتعيَّن أنَّه

(1) الأزهري، تهذيب اللُّغة: 4/69.
(2) السَّمين الحلبي، عُمدة الحُفّاظ، والزَّمخشري، أساس البلاغة، وابن فارس، مقاييس اللُّغة: (حكم).
(3) السَّمرقندي، بحر العلوم: 2/153، والماتريدي، تأويلات أهل السُّنَّة: 10/17.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 12/83، وابن جرير، جامع البيان: 15/339.
(5) اطفيش، تيسير التَّفسير: 4/214.

سأل له المغفرةَ، ويدلُّ لذلك قوله تعالى: ﴿فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌۖ﴾ بعد ذلك.

ويجوز أن يكون دعاء نوح عليه السلام هذا وقع قبل غرق الناس، أي: نادى ربَّه أن يُنجي ابنه من الغرق[1]، وهو وجهٌ بعيدٌ لمنافاته ترتيبَ الكلام.

نكتةُ اختيارِ فعل ﴿وَنَادَىٰ﴾:

في قوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ﴾، النِّداء هُنا نداءُ تعظيم دعاءٍ؛ فكأنَّه قيل: ودعا نوحٌ ربَّه: يا مالكي وخالقي ورازقي وعدْتَني بتنجية أهلي، وإنَّ ابني من أهلي، وإنَّ وعدَك الحقُّ لا خُلف فيه؛ فنجِّه إن كان ممّن وعدتني بنجاته؛ لأنَّ الدُّعاء يصدَّر بالنِّداء غالبًا[2]، والجمعُ بين لفظ النِّداءِ ومعنى الدُّعاءِ بديعٌ في هذا السّياقِ، وذلك أنَّه ليس كأيِّ دُعاءٍ، فهو دعاءٌ يتضمَّن الإصرار والشَّفقة والرَّحمة، وفيه مبالغةٌ في بيان شديد الاحتياجِ والالتجاءِ إلى الإنجاءِ، وطلب العفو والاستغفار والتَّجاوز.

التّأثُّر والإشفاق، والطَّمع في رحمة الخلّاق

معنى العطف بالفاء في ﴿فَقَالَ﴾:

جملة ﴿فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِي مِنْ أَهْلِي﴾ بيانٌ للنِّداء، ومُقتضى الظّاهر ألّا تُعطف، كما لم يُعطف البيان في قوله تعالى: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ۝٣ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي﴾ [مريم: 3 - 4]، وخولف ذلك هُنا[3]، ووجَّه بعض المفسرين اقترانه بالفاء: بأنَّ فعل ﴿وَنَادَىٰ﴾ مُستعمَلٌ في إرادة النِّداء، أي: مثل فعل ﴿قُمْتُمْ﴾ في قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ﴾ [المائدة: 6]، أي: أردتم القيام، ويكون في ذلك إخراجٌ للكلام على خلاف مقتضى الظّاهر؛

الفاء فصيحةٌ أو تفصيليَّةٌ لبيانِ مضمونِ النِّداءِ بعد إجمالِه

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 12/83.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 12/84.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/161، والأنصاري، فتح الرَّحمن، ص: 265.

فإنَّ وجود الفاء في الجملة التي هي بيانٌ للنِّداء قرينةٌ على أنَّ فعل ﴿وَنَادَىٰ﴾ مُستعار لمعنى إرادة النِّداء، أي: أراد نداء ربِّه، فأعقب إرادته بإصدار النِّداء، وهذه إشارة إلى أنَّه أراد النِّداء، فتردَّد في الإقدام عليه لما عَلِمَ من قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ﴾، فلم يَطُلْ تَرَدُّده لَمَّا غلبته الشَّفقة على ابنه، فأقدمَ على نداء ربِّه، ولذلك قدَّم الاعتذار بقوله: ﴿إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى﴾[1].

والأنسبُ والأقربُ لروح البلاغةِ أن تكون الفاء فصيحةً لتفصيل ما في النِّداء من الإجمال[2]، جاءت جوابًا عن سؤال مُقَدَّر، كأنَّ قائلًا قال: ماذا قال في ندائه؟ فقال: إنَّ ابني من أهلي، وقد وعدتني أن تنجيني وأهلي[3].

فدلَّ سبحانه بالعطف بالفاء دون أن يأتي بالاستئناف المُفَسِّر للنِّداء؛ على أنَّ ما ذُكر هنا من نداء نوح عليه السلام بعضَ ندائه، وأنَّ هذا المذكور مُرَتَّبٌ مُعَقَّبٌ على شيءٍ منه سابقٍ عليه؛ أقربهُ أن يكون ما أرشده إليه سبحانه.

أو أن تكون الفاء تفصيلًا لمجمل ﴿وَنَادَىٰ﴾ مثل ما في: (توضَّأ، فغسل)[4]، والتفصيل بعد الإجمال يفيد المبالغة والاهتمام[5].

نكتةُ الذِّكر والحذف لـ ﴿فَقَالَ﴾:

اختلافُ النِّداءين من حيث المنادى والزَّمان في سياقٍ قصصيٍّ واحد

قال الله تعالى في آية سابقة: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا﴾، فاستعمل فعل النِّداء وحده ﴿وَنَادَىٰ﴾، ولم يستعمل معه فعلَ القول، فلم يقل: (ونادى نوح ابنه فقال يا بني)، كما هنا حيث قال تعالى: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 12/84.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/212، والبروسوي، روح البيان: 4/138.
(3) ابن عجيبة، البحر المديد: 3/218.
(4) البقاعي، نظم الدُّرر: 9/293.
(5) السّامرائي، معاني النحو: 3/378.

أَهْلِي﴾، فاستعملَ فعلَ القول ﴿فَقَالَ﴾ إضافةً إلى الفعل ﴿وَنَادَىٰ﴾، وذلك لما يختصُّ بالمنادى والزَّمان:

أمّا المنادى؛ فأوجزَ النَّظم باعتبارِ أنَّ المنادى هو ابن نوحٍ عليه السلام، وأطنب حيث كان المنادى هو الله تعالى، لاسيَّما أنَّهما في سياقٍ قصصيٍّ واحد.

وأمّا الزَّمان؛ فإنَّ نوحًا عليه السلام عندما نادى ابنه كان في عجلة من أمره؛ لأنَّ الموج يكاد يُغرق كلَّ شيءٍ حتَّى الجبال، وهو يخشى على ابنه؛ إذا لم يبادر باللُّجوء إلى السَّفينة أنْ يُغرقه الموج، ولذلك حذف النَّظمُ كلمة (قال)؛ تناسبًا مع السُّرعة التي كانت تمثِّل حالة نوح عليه السلام في هذه اللَّحظات، أمّا هُنا؛ فقد غاض الماء، وانتهى الطّوفان، فلم يعد نوح عليه السلام في عجلةٍ من أمره، فصحَّ أنْ ترد ﴿فَقَالَ﴾.

فائدة الإضافة في ﴿رَّبَّهُۥ﴾:

في قوله تعالى: ﴿رَّبَّهُۥ﴾ أضيف الضَّمير العائد على نوحٍ عليه السلام تشريفًا لنوح، ودليل قُربِ قَلبه من ربِّهِ، مع التماسِ جلال الله بربوبيَّته الغامرة بالإنعام على كلِّ البشر، وخصوصًا أنبياءه وأصفياءه، والإشعار بأنَّه يُنادي ربَّه في هذه اللَّحظات العظيمة، وأنَّه عند تعارض مصلحة الشرع مع المصلحة الشَّخصيَّة، فالمقدَّم هو مصلحة الشَّرع؛ وحَسُنت الإضافة مع إضافة الابن إلى الضمير المتكلِّم في قوله تعالى: ﴿ٱبْنِي مِنْ أَهْلِي﴾.

الشَّرع مقدَّمٌ على كلِّ اعتبارٍ، ولو كان فيه خسارةُ المال والولد

دلالة حذف أداةِ النِّداء في ﴿رَبِّ﴾:

نداء الرَّب ﷻ قد كثر فيه حذف أداة النِّداء (يا) النداء في القرآن الكريم، وعلَّة ذلك: أنَّ في حذفها من نداء الرَّب معنى التَّعظيم له والتَّنزيه، وذلك أنَّ النِّداء فيه ضَرْبٌ من معنى الأمر؛ لأنَّك إذا قُلت: يا زيد، فمعناه: تعالَ يا زيد، أدعوك يا زيد، فحذفت

الإشعارُ بقربِ المنادي من المنادى والأنس به

(يا) من نداء الرَّب؛ ليزول معنى الأمر، وينقص؛ لأنَّ أداة (يا) تُؤَكِّدُه، وتُظهر معناه، فكان في حذف أداة (يا) إشارةٌ إلى معنى التَّعظيم والإجلال والتَّنزيه للرَّب تعالى[1]، ولما في حذف هذه الأداة من الإشعارِ بالقربِ، وأُنس المنادي بالمنادى.

غرضُ التَّوكيد بحرفِ ﴿إِنَّ﴾:

إظهارُ ما يجول في النَّفس من طلبِ الرَّحمة

أكَّد النَّظم الكريم الخبرَ ﴿ٱبۡنِي مِنۡ أَهۡلِي﴾ بحرف ﴿إِنَّ﴾ للاهتمام به[2]، ولبيانِ ما يجولُ في نفسِه من شديد الحرص على إنجائه، فالتَّأكيد هو بيانٌ لمعنًى نفسيٍّ، يطلبُ به الرَّحمة والمغفرة لابنه.

دلالةُ الجملةِ الخبريَّة ﴿إِنَّ ٱبۡنِي مِنۡ أَهۡلِي﴾:

نوح عليه السلام طلب المغفرةَ أخذًا بأقصى دواعي الشَّفقة والرَّحمة

طمع نوح عليه السلام أن يدخل ولده في عموم قوله تعالى: ﴿قُلۡنَا ٱحۡمِلۡ فِيهَا مِن كُلّٖ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَأَهۡلَكَ﴾، فقال: ﴿رَبِّ إِنَّ ٱبۡنِي مِنۡ أَهۡلِي﴾، فنوحٌ عليه السلام لا يجهل أنَّ ابنه كافر، ولذلك سأل المغفرة له، وهو يعلم أنَّه كافر، ولكنَّه يَطمع لعلَّ اللّٰه أن يعفو عنه لأجل قرابته، فسؤاله له المغفرة بمنزلة الشَّفاعة له عند اللّٰه تعالى، وذلك أخذٌ بأقصى دواعي الشَّفقة والرَّحمة بابنه.

وقرينة ذلك كلِّه قوله تعالى: ﴿وَأَنتَ أَحۡكَمُ ٱلۡحَٰكِمِينَ﴾ المفيد أنَّه لا رادَّ لما حكم به وقضاه، وأنَّه لا دالَّة عليه لأحد من خلقه، ولكنَّه مقام تَضَرُّعٍ وسؤال ما ليس بمحال، وقد كان نوح عليه السلام غير منهيٍّ عن ذلك، ولم يكن تقرَّر في شرعه العلم بعدم المغفرة للكافرين، فكان حال نوح عليه السلام كحال النَّبيِّ ﷺ حين قال لأبي طالب: «لأستغفرنَّ لكَ ما لم أُنْهَ عنك»[3] قبل أن ينزل قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ

(1) الدُّرة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 4/445.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 12/84.

(3) أخرجه البخاري ومسلم من حديث المسيِّب بن حزن المخزومي: يُنظر: البخاري، صحيح البخاري، كتاب الجنائز، بابُ إذا قالَ المُشْرِكُ عِنْدَ المَوْتِ: لا إلَهَ إلّا الله، برقم: (1360)، ومسلم، صحيح مسلم، كتاب الايمان، بابُ (أوَّلُ الإيمانِ قَوْلُ لا إلَهَ إلّا الله)، برقم: (39)، (24).

ءَامَنُوٓاْ أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ لِلۡمُشۡرِكِينَ﴾ [التوبة: 113]، فهو خبر مستعمل في الاعتذار، وهو يسأل سؤالًا لا يدري قبوله، ولكنَّه اقتحمه، باعتباره أبًا مُشفقًا[1].

دلالة ﴿مِنۡ﴾:

حرف ﴿مِنۡ﴾ أفاد معنى التبعيض في قوله تعالى: ﴿مِنۡ أَهۡلِي﴾؛ لأنَّه كان ابنه من صلبه[2]، فنوح عليه السلام لا ينسى ابنه الغارق، مع أنَّه كان من المخالفين له، الخارجين على طاعته، المكذِّبين له، الكافرين بالله، ولكنَّها عاطفة الأبوَّة المتأجِّجة، التي لا يُطفِئ وقدتها ما يكون من الأبناء من عقوق، وما يكون فيهم من انحراف واعوجاج، وإنَّ الابن ليكون على حالٍ من السّوء والسَّفه، حتَّى ليلفظه المجتمع كلُّه، ولكنَّ عاطفةً واحدةً تظلُّ ملتحمةً به، متَّسعةً لقبوله على ما هو عليه، أيًّا كان هذا الذي هو عليه من سوءٍ وسَفَهٍ، تلك هي عاطفة الأبوَّة الممثَّلة في الأبوين معًا[3].

العاطفة الفطريَّة المركوزة في قلب الوالد لا ينزعها الطّوفان

دلالة النِّداء بالرُّبوبيَّة في: ﴿رَبِّ إِنَّ ٱبۡنِي﴾:

عند نداء العبد لله تعالى، يسند الفعل إلى اسم الرَّب دون سائر الأسماء الحسنى الأخرى، وكذلك في مناداة الرَّبِّ للعبد، يُقدَّم اسم الرَّبِّ على ما سواه، لما يحمله هذا الاسم الجليل من مظاهر الإنعام والإكرام والرِّعاية والعناية؛ فإنَّ الإنسان إذا احتاج شيئًا؛ طلبه من ربِّه، وهو مربّيه، والقائم على أمره.

النِّداء بالرُّبوبيَّة لتجلّي مظاهر الإنعام والعناية والإكرام

دلالة الجملة الخبريَّة في ﴿وَإِنَّ وَعۡدَكَ ٱلۡحَقُّ﴾:

جملة ﴿وَإِنَّ وَعۡدَكَ ٱلۡحَقُّ﴾ خبر مستعمل في لازم الفائدة، وهو أنَّه يعلم أنَّ وعد الله حقٌّ[4]، ولعلَّه عليه السلام، لَمَّا حملته الشَّفقة، وأنَّ الله وعدَهُ

بيان ترجيح نوح لعموم الوعد السّابق بنجاة أهله

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 12/85.
(2) البروسوي، روح البيان: 4/138.
(3) عبد الكريم الخطيب، التَّفسير القرآني: 6/1145.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 12/84.

بنجاة أهله، ظنَّ أنَّ الوعد لعمومهم؛ مَنْ آمن، ومَنْ لم يؤمن، فلذلك دعا ربَّه بذلك الدُّعاء، ومع هذا، ففوَّضَ الأمر لحكمة الله البالغة[1]، وإنَّما قال نوحٌ هذا؛ لأنَّ الله تعالى وعده بنجاة أهله[2].

مراعاة التأدُّب مع الله في الدُّعاء والبراءة من حظوظ النَّفس

دلالة كاف الخطاب في ﴿وَعْدَكَ﴾:

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ﴾ فيه ملمح التَّأدُّب مع الله، فقد قال نوح عليه السلام: ﴿وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ﴾، ولم يقل: (ما وعدتني به الحقَّ)، حتَّى يخرج من حظوظ النَّفس، وأخرج وعده مخرج العموم، فكلُّ ما يعد به ربُّه هو الحقُّ، فدخل فيه ما وعده، والإضافة في الوعد للاستغراق أو للجنس.

حَصْرُ الحقِّ في وعد الله الحقِّ الذي لا يتبدَّل

دلالة تعريف ﴿ٱلْحَقُّ﴾:

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ﴾: أي: وإنَّ كُلَّ وعدٍ تعِدُهُ؛ فهو الحقُّ الثّابت الذي لا شكَّ في إنجازه والوفاء به[3]، فجعل الحقَّ منحصرًا فيه، ولم يقل: (إنّ وعدك حقّ)، وذلك أنَّه متحقِّق لا ريب فيه، بل جعلَ وعدَه هو الحقَّ حَصرًا، وهو سيقع حتمًا لا يمكن أن يتخلَّف، أو يتغيَّر.

حكم الله في الأحوالِ كلِّها أحسنُ الحكم وأفضلُه

بلاغةُ التَّذييل في آخر الآية:

معنى قوله تعالى: ﴿وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾، أي: أعلم الحكّام وأعدلهم، وخاطبه بذلك؛ ليؤكِّد أنَّ حُكمه على ولده في الحالين حُكْمٌ عادلٌ من أحكم الحاكمين وأعدل العادلين، ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ۝٥٠﴾ [المائدة: 50].

حكمُ الله لا يعرِضُ له الخطأ ولا الحيفُ والظُّلم

فائدة استعمالِ (أفعل) في ﴿أَحْكَمُ﴾:

معنى ﴿أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ أشدُّهم حُكمًا، واسم التَّفضيل يتعلق بماهيَّة الفعل، فيفيد أنَّ حكمه لا يجور، ولا يُبطله أحد[4]؛ لأنَّ

(1) السَّعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 437.
(2) ابن الجوزي، زاد المسير: 2/377.
(3) الزَّمخشري، الكشّاف: 2/100.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/85.

حكمه يصدر عن كمال العلم والحكمة؛ فلا يعرِضُ له الخطأ ولا الحيف والظُّلم[1].

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الأهل والآل:

الآل خاصَّة الرَّجل وقرابته، والأهلُ أعمُّ

الآل: خاصَّة الرَّجل من جِهَةِ القرابة أو الصُّحْبة، فيقال: آل الرَّجل لأهله وأصحابه، أمّا الأهل؛ فيكون من جهة النَّسب، كأهل الرَّجل لقرابته الأدنين، ويكون للاختصاص، كأهل البصرة، وأهل العلم، ولا يقال: آل البصرة، وآل العلم[2]. ثمَّ إنَّ لفظ الآل مختصٌّ بأولي الخطر، كالأنبياء والملوك ونحوهم، فيُقال: آلُ الرَّجُلِ له نفسه، ومنه قوله تعالى: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلۡ يَاسِينَ ١٣٠﴾ [الصّافات: 130]، وآله لأهله وأقاربه، كقول القائل: (اللهمَّ صلِّ على محمد وعلى آل محمد)، وآله لمن تبعه كقوله تعالى: ﴿أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ ٤٦﴾ [غافر: 46]، وأمّا إن ذُكِرَ الرجل، ثم ذُكِرَ آلُه لم يدخل فيهم[3]. ولا يضاف (آل) إلى الأرذال، ولا المكان والزَّمان، ولا إلى الحَقِّ ﷻ، فلا يُقال: آل الحائِكِ، وآل مصْرَ، وآل زَمانِ، وآل اللّه تعالى؛ بخلاف الأهل في جميع ما ذُكِرَ[4].

الابن والولد:

إفادة الابن للاختصاص ومداومة الصُّحبة والولد للتَّوالد

الفرق بين الابن والولد؛ أنَّ الابن يُفيد الاختصاص ومداومة الصُّحْبَة؛ ولِهَذا يُقال: ابن الفلاة لمن يداوم سلوكها، وابن السُّرى لمن يكثر منه، وتقول: تبنَّيت ابْنًا؛ إذا جعلته خاصًّا بك، ويجوز أن يُقال: إنَّ قَوْلنا هو ابْن فلان يَقْتَضي أنه مَنْسوب إلَيْهِ؛ ولِهذا يُقال: النّاس بَنو آدم؛ لأنَّهم منسوبون إليه، وكذلك بنو إسرائيل، وقد يكنَّى

(1) المراغي، تفسير المراغي: 12/40.
(2) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 281.
(3) ابن قَيِّم الجوزية، جلاء الأفهام، ص: 226.
(4) التَّهانوي، كشاف اصطلاحات الفنون: 1/72.

بالابن، كما يكنَّى بالأبِ كقولهم ابن عرس وابن تَمْرَة وابن آوى وبنات طبق وبنات نعش وبنات وردان، وقيل: أصل الابن التَّأليف والاتصال، فكان بين الأب والابن تأليف، والولد يَقْتَضي الولادَة، ولا يقتضيها الابْن، والابْن يَقْتَضي أبًا يقْتضي والدًا، ولا يمسي الإنْسان والدًا إلّا إذا صار لَهُ ولد، ولَيْسَ هو مثل الأب؛ لأنَّهم يقولونَ في التكنية: أبو فلان، وإن لم يلد فلانًا، ولا يقولون في هذا والد فلان، فبينهما عُمومٌ وخصوصٌ وجهيٌّ؛ فلا يلزم من تناول لفظ الابْن لَهُ تناول لفظ الولَد له أيضًا، ولا يُطلق الابن إلّا على الذَّكر، بخلاف الولد؛ فإنَّه يطلق على الذَّكر والأُنْثَى[1].

(1) العسكري، الفروق اللُّغوية، ص: 282، والكفوي، الكليّات، ص: 27.

﴿قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖۖ فَلَا تَسۡـَٔلۡنِ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۖ إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ٤٦﴾ [هود: 46]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

لمّا قضى اللّه تعالى بإغراقِ قوم نوحٍ، ونادى نوحٌ ربَّه في شأن ابنه، بما في قلبه من ألم وحرقة، شاكيًا إلى ربِّه ما يجدُ؛ ليسمع من ربِّه كلمةً يبرِّد بها صدره، ذكر اللّه تعالى في هذه الآية أنَّه عاد على نوح عليه السلام بفضله، فناجاه وواساه، ووقف به على الحدِّ الّذي يجب أن يلتزمه مع أمر ربّه، وعلمه، وحكمتِه[1]، فقال له: إنَّ ابنك هذا ليس من أهلك؛ لأنَّه ليس بعمل صالح، فكفر بفعله ذاك، وعليه فقد انقطعت الموالاة بينك وبينه، فلا تسألني عن شيء لا علم ثابتًا لك به، وإنّي أنهاك أن تكون من الجاهلين[2].

اللّوذُ باللّه تعالى يقتضي الجواب الحكيم، بتصحيح الرُّؤى وتصويبِ المفاهيم

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَهۡلِكَۖ﴾: الأَهْلُ: هُمُ القَرابةُ والعَشِيرَةُ، يُقالُ: وصَلَ أَهْلَهُ، أي: أقارِبَهُ. وأَهْلُ الرَّجُلِ: زَوْجَتُهُ وأَخَصُّ النّاسِ به[3]، وأَهْلُ الشَّيْءِ: أَصْحابُهُ وما يَخْتَصُّ بِهِ، ويَخْتَلِفُ معناهُ بحَسَبِ ما يُضافُ إلَيْهِ، فأَهْلُ البَيْتِ: سُكّانُهُ. وأَهْلُ الإسْلامِ: مَنْ يَدِينُ بِهِ[4]. وجَمعُ الأَهْلِ: أَهْلُونَ وأَهالٍ[5]. والمقصود بنفي أن يكون ابنُ نوحٍ عليه السلام من أهله، أي: ليس من أهل دينك؛ وذلك أنّ الشّريعة

(1) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 6/1147.
(2) أسعد حومد، أيسر التّفاسير، ص: 1520.
(3) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (أهل).
(4) الأزهري، تهذيب اللغة، والسّمين الحلبي، عمدة الحفّاظ، وابن منظور، لسان العرب: (أهل).
(5) ابن عباد، المحيط في اللّغة: (أهل).

رفعت حكم النّسب في كثير من الأحكام بين المسلم والكافر، قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ﴾[1].

2) ﴿غَيۡرُ صَٰلِحٖۖ﴾: أصلُ (صلح): يَدُلُّ على خِلافِ الفَسادِ[2]، والصَّلاحُ: الاسْتِقامَةُ والاعْتِدالُ، يُقالُ: صَلَحَ، يَصْلَحُ، ويَصْلُحُ، صَلاحًا، وصُلُوحًا، أي: اسْتَقامَ واعْتَدَلَ[3]. والصّالحُ: الَّذِي يُؤَدِّي إلَى اللّه ﷻ ما افْترض عليه، ويُؤَدِّي إلَى النّاس حُقوقَهم. ورجلٌ صالحٌ في نَفْسِه من قوم صُلَحاءَ وصالِحينَ[4]. والمُصْلحُ، المُقيم على الإيمان المُؤَدِّي فَرائِضه اعتقادًا وعَملًا، وقد أصْلَحه اللّه، وأصْلَحَ الشَّيءَ بَعْدَ فَسادِهِ: أقامَهُ وعَدَّلَهُ[5]، والمقصود بنفي الصَّلاح في الآية: إمّا أن يكونَ وصفًا لسؤالِ نوحٍ ﷺ، أي: سؤالك إنجاء ابنك عملٌ غير صالح، وإمّا أن يكون وصفًا لعمل ابن نوحٍ ﷺ في البقاء على الكفر، وذلك بحسب اختلاف القراءات في الآيةِ[6].

3) ﴿أَعِظُكَ﴾: أصلُ (وعظ): التَّخْويفُ. والعِظَةُ الاسمُ منْهُ؛ وهو تذكيرُك إيّاه الخيرَ ونحوه ممّا يرقُّ له قلبُهُ[7]، والواعِظُ: النّاصِحُ[8]. ويأْتي الوعْظُ بِمعنى الأمْرِ بِالطّاعَةِ والتَّوْصِيَةِ بِها، فيُقال: وعَظَهُ: إذا أمَرَهُ ووصّاهُ بِالطّاعَةِ، واتَّعَظَ فُلانٌ، أي: قَبِلَ المَوعظَة وكَفَّ نَفْسَهُ عن الخَطَأِ[9]. ومن أمثالهم المعروفة: لا تعظيني وتعظعظي، أي: اتّعظي أنت ودعي موعظتي[10]، وقال الجوهريّ: هو النّصح والتّذكير بالعواقب[11]، والمقصودُ بالوعظ في الآية: النّهي والتّحذير منَ الاستمرارِ بالمطالبةِ بإنجاءِ ابنه.

4) ﴿ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾: أصلُ (جهل) خِلافُ العِلْم، وهو: التَّقدُّمُ فِي الأُمور المُنْبَهِمَةِ بِغَير

(1) السّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (أهل).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (صلح).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (صلح).
(4) ابن سيده، المحكم، وابن منظور، لسان العرب: (صلح).
(5) ابن سيده، المحكم: (صلح).
(6) ابن جرير، جامع البيان: 15/348.
(7) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (وعظ).
(8) الزّبيديّ، تاج العروس: (وعظ).
(9) الأزهري، تهذيب اللّغة، وابن سيده، المحكم، وابن منظور، لسان العرب: (وعظ).
(10) الخليل بن أحمد، كتاب العين: (وعظ).
(11) شمس الدّين البعليّ، المطلع على ألفاظ المقنع، ص: 140.

عِلْم[1]. ويكون علَى ثلاثَةِ أضْرُبٍ؛ الأوَّل: هُو خُلُوُّ النَّفْسِ من العِلْم، والثَّاني: اعتقادُ الشَّيْء بخِلافِ ما هو عليه، والثّالث: فِعْلُ الشَّيء بِخِلاف ما حَقّه أن يُفْعَلَ، سواءٌ اعتُقِد فِيهِ اعتِقادًا صَحِيحًا أم فاسِدًا، كتارِكِ الصَّلاةِ عَمدًا[2]. والتَّجاهل: أن يُرَى منْ نَفْسِهِ الجَهْلُ ولَيْسَ بِهِ، واسْتَجْهَلَه: عَدَّه جاهِلًا واسْتَخَفَّه أيضًا. والتَّجْهِيل: أن تَنْسُبَهُ إلى الجَهْل[3]. والمرادُ بالجهل في الآية: ضدُّ العِلْم، وهو المُناسب لمقابلته بقوله: ﴿مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌۖ﴾[4].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

روابط الأنبياء، روابط دينٍ واقتداء

قال اللّه تعالى لنوحٍ عليه السلام في إجابته عن سؤاله: يا نوح إنَّ ابنكَ هذا ليس من أهلك الَّذين وعدتك بإنجائهم منَ الطُّوفان؛ لأنَّه صاحبُ عملٍ غيرِ صالحٍ، وهو الكفرُ باللّهِ تعالى، فخرج بذلك عن كونه من أهلك؛ لانقطاع الولاية بين المؤْمن والكافر؛ ولأنَّ أساسَ نجاة أهلك الإيمان دونَ النَّسب، فلا تطلبْ منِّي شيئًا ليس لك به عِلْم صحيح، ولا تلتمسْ منّي التماسًا لا تعلَم أصوابٌ هو أم غير صواب؟! حتَّى تقف على كُنْهِهِ، إنِّي أنهاك أن تكون من فئةِ الجاهلين الَّذين يطلبون إبطال حكمته وحكمه، وتقديره في خلقه، رعايةً لأهوائهم[5].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

علَّةُ الفصلِ في: ﴿قَالَ يَٰنُوحُ﴾:

شأنُ المحاوراتِ تركُ الوصلِ بإسقاطِ الواوات

في قولِهِ تبارك اسمه: ﴿قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَۖ﴾، افتتح النَّظمُ الجليل الجملة بالفعل ﴿قَالَ﴾؛ للرّد بالجواب عن قول نوح عليه السلام في الآية السّابقة: ﴿رَبِّ إِنَّ ٱبْنِي مِنْ أَهْلِي﴾ [هود: 45]، فجاء الفعل

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والزّبيدي، تاج العروس: (جهل).
(2) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحفّاظ، والزبيدي، تاج العروس: (جهل).
(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن سيده، المحكم: (جهل).
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/87.
(5) مجموعة من العلماء، التّفسير الوسيط للقرآن الكريم: 4/202، والزّحيليّ، التّفسير المنير: 12/77.

﴿قَالَ﴾ لربط الجواب بسؤاله في الآية الكريمة؛ فلذا لم يحتج إلى العطف، فإنّ للارتباط بين السّؤال وجوابه من القوّة ما لا يُحْوِج أن يَرْبِطَه بواو العطف، والجواب مفصَلٌ أساسيٌّ من مَفاصل الحوار بين نوح وربّه، في بناء هذه القصّة المَشوق، وإيراد السّؤال والجواب يتجلّى في إيراد القول ومَقوله، من كلّ طرف، لتتّضح معالم الحوار القصصيّ البليغ.

نكتةُ التَّنبيه بالنِّداءِ:

تنبيهُ المخاطب بحسبِ واقعِه وباعتبارِ حالته

افتُتح الخطاب بحرف النِّداء في قوله تعالى: ﴿يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَۖ﴾، تنبيهًا للمُخاطَب إلى الاهتمام بمضمون الخطابِ. ولا يقدح في استعمال التَّنبيه مع القول الّذي يأتي منَ اللّه؛ لأنَّه بمنزلةِ تنبيهٍ بأن يُتلقّى بالقبول واليقظة، لا سيَّما أنَّ نوحًا عليه السلام قد بلَغَ مبلغًا عاليًا في إرادةِ إنقاذ ابنه، فناسب معنى التَّنبيه بأسلوبِ النِّداء واقِعَه عليه السلام؛ وهذا شأنُ النظّم في الكلام المُعجِز أن يجري على سَنن أهل اللّغة؛ فإنَّهم إن أرادوا الإيقاظ إلى الاهتمام بالمنطوق ابتدؤوا الخطاب بالنِّداء أو ما شاكَلَه من أحرف التّنبيه.

فائدةُ جملة النّداء الاعتراضيّة:

النّداءُ بالاسم الصّريح، إظهارٌ لطفٍ، وتصويبُ عطفٍ

جاء النّظم بالجملة الاعتراضيّة ﴿يَٰنُوحُ﴾ في قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍۖ﴾، بين فعل القول ومقوله؛ لإظهار اللُّطف بنوح عليه السلام، وأنّ الكلام ليس مسوقًا للتّعليم، كمن يُقبِلُ على مَن يهمّه أمره معلّمًا إيّاه بحنوٍّ ولطفٍ، ولو لم يأتِ أتى هذا الاعتراض بالنّداء لاحتمل أن يُفهم منَ الكلام التّقريع والغلظة، فبادر بالنّداء بالاسم الصّريح (نوح)، لإظهار أنّ الخطاب ليس للعقاب أو الغلظة، إنَّما للتَّعليم والعتاب، وعتابُ اللّه لأنبيائه يكون في غاية اللّطف؛ لأنّه تعالى هو العليم بما تُكنُّ صدورهم، وما تنطوي عليه قلوبهم، وهي أطهر القلوب وأزكاها، ناهيك عن غلبة عاطفة

الأبوّة الّتي هي غريزةٌ إيجابيّة لا مناصَ من مراعاتها، واعتبارها دافعًا للشّفقة، ودليلًا على العطف والحنوِّ.

غرضُ حذفِ المسندِ إليه:

عظمةُ الفاعل وحضورُه في الأذهان، تُغنيان عن ذكره في ألفاظِ البيانِ

في قوله تبارك اسمه: ﴿قَالَ يَٰنُوحُ﴾ جاء فعلُ القولِ بحذفِ المسند إليه وهو الفاعل؛ وذلك لأنّه معلومٌ منَ السّياق، فأخفي ذكرُ الفاعلِ لظهوره والعلم به، وغرضُ ذلك الإيجازُ في التّعبير، وتحقيقُ الأليق بالمقام، فإنَّ ذكرَ المعلوم بدون نكتةٍ بيانيَّة يَجِلُّ عنه النظم المعجز، وقد سبق ذكر المولى بلفظ الرّب مرّتين في قوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ﴾ [هود: 45]، وحيث إنَّ الجملة مرتبطةٌ بسابقتها ارتباط الجواب بالسّؤال، وهما طرفان متلازمان في حالتي الذّكر والحذف لا تنفكّ إحداهما عن الأخرى ذكرًا أو تقديرًا، وحينئذٍ يكون ذكر الفاعل المفهوم من السّياق من باب تحصيل الحاصل، فإضماره أبلغ.

غرضُ التّوكيد:

تنزيلُ المُقرِّ منزلةَ المُنكِرِ دفعًا للمطالبةِ وتقويةً للتَّعليل

جاءت جملةُ: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ منفيّةً نفيًا مؤكّدًا وذلك بكونها اسميّة وتصديرها بـ (إنّ)، والتّأكيد هنا جاء ردًّا وتعقيبًا على ما سبق من قول نوح عليه السلام: ﴿إِنَّ ٱبْنِي مِنْ أَهْلِي﴾، فأكّد نفيَ ما تقدّم منه إثباتُه بقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾، وذلك بتنزيله مَنزلة المُنكِر؛ إذ إنَّ مطالبته عليه السلام بإنجاءِ ابنه بعد إخباره بأنَّه لن يؤمنَ من قومه إلّا مَن قد آمنَ، يلزمُ عنه توكيدُ الخطابِ، بتنبيهه على أنَّ ما يُطالبُ به غير مقبولٍ، وهذا أدعى في دفعِ المطالبةِ، وأقوى في بيانِ التَّعليلِ.

دلالةُ الإشارةِ بالإضمارِ:

إخفاء المَعيب تنزيهٌ للمخاطب، وتحقيرٌ للمتكلّم عنه

عبّر النّظم الكريم عن الابن في قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ﴾ بالإضمار، وهو مقتضى الظّاهر

والحال، كما أنَّ فيه إشارةً إلى أنّه ليس ممَّن يُتشرّفُ بذكره، بل هو أهل أن يُطمس ذكره ويُغفل؛ لعداوته لأبيه وعقوقه إيّاه، مع رفض دعوته، والنّأي عن اتّباع هدايته، فأضمر النَّظمُ اسمه، وطوى ذكره، واكتفى بالإضمار تقليلًا لشأنه، فهو غيرُ مستحقٍّ لذلك الشّرف المنيف. وهو من حكمة السّياق، في دقّة الخطاب.

فائدةُ استعمالِ: ﴿لَيْسَ﴾:

نـفـيُ الأمـــرِ في الـحـالِ بدليلِ المـــاضي يـقـطـعُ الـرَّجـاءَ ويُـبـدِّدُ الأماني

في قوله عزّ ذكره: ﴿قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَۖ﴾، جاء النّفي بكونه ليس من أهله بأداة ليس، وهي لنفي الحال وتنفي غيره بالقرينة[1]، وفي استعمالِ ليس في سياق توكيد ذلك دلالةٌ على أنَّ النَّفي شاملٌ لحالِ الولد منذ زمنٍ طويل، فهو لم يكن من أهلِه أصلًا؛ لأنَّه لم يكن مؤمنًا، أي لم يكن سابقًا في جميعِ أحوالِه مؤمنًا، وليس هو كذلك الآن، فكأنَّه قال: إذا ظننته سابقًا مَن أهلك فليس منهم، لا في حاله السّابقة، ولا الآن، وفائدةُ ذلك قطع الرَّجاء، ونسيان الأمل.

معنى نفي الأهليَّةِ:

الأهليَّة المنفيَّةُ هي أهليَّةُ الدِّين لا أهليَّة النّسب

دلّ نفي أن يكون ابنُ نوحٍ من أهلِه في قوله تبارك اسمه: ﴿قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَۖ﴾، على أنّ أهليَّة الأنبياء ليست أهليّة الدّم واللّحم، ولكنّها أهليّة المنهج والاقتداء، وأنّ البُنُوّة بالنّسبة لهم، هي بنوّة اتِّباع، لا بنوّة نَسَب، وتفيد معنى أنّه ليس من الّذين وعدتك بإنجائهم، بل منَ المُسْتَثْنَينَ لكفرهم. وهذا يدلُّ على أنَّ الأهليَّة تُطلق على أهليَّة النَّسبِ باعتبارٍ، وعلى أهليَّة الدِّين باعتبارٍ آخر، كاستعمال لفظِ الأخ في قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًاۚ﴾ [الأعراف: 65] جاء بمعنى النسب، وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: 10] جاء بمعنى الدِّين، فالأهليَّة المنفيَّة في الآيةِ هي أهليَّة الدِّين لا أهليَّة

(1) ابن هشام، مغني اللبيب، ص: 386.

النسبِ، وهي الّتي تُؤهِّل صاحبَها لدخولِ الجنة، والنَّجاة منَ النّار، بخلافِ أهليَّة النَّسب والدَّم، فهي أهليَّة الارتباط بالقبيلةِ والعائلة.

فالمعنى أنّه نفى "أن يكون من أهل دينه واعتقاده، فليس ذلك إبطالًا لقولِ نوحٍ عليه السلام: ﴿إِنَّ ٱبۡنِي مِنۡ أَهۡلِي﴾ [هود: 45]، ولكنّه إعلام بأنّ قرابة الدّين بالنّسبة لأهل الإيمان هي القرابة، وهذا المعنى شائعٌ في الاستعمال"[1]. والمراد من نفي الأهليّة هنا نفيُ لازمها وهو النّجاة، وذلك يدلّ على أنّ مَن أُنجي من أهلِكَ إنّما أُنجوا "لصلاحهم، لا أنّهم من أهلِك، يعني: نفى أنّ ابنَه من أهلِه، ثمّ نفى عنه صفتَهم؛ ليدلّ على أنّ ذلك النّفي لأجل انتفاء هذه الصّفة فيه، فلو لم تكن هذه الصّورة معتَبَرَةً في اعتبار معنى الأهليّة، لم يصحّ: ﴿إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖۖ﴾"[2]، وقد أقام الإسلام الرّوابط على تقوى الله، وصلاحِ الأعمال، لا على علوّ النّسب، ومفاخرات الجاهليّة، وفي ذلك يقول الشّاعر:

لَعَمْرُكَ ما الإنْسانُ إلّا بِدِينِهِ *** فَلا تَتْرُكِ التَّقْوى اتِّكالًا عَلَى النَّسَبْ
فَقَدْ رَفَعَ الإسْلامُ سَلْمانَ فارِسٍ *** وقَدْ وضَعَ الشِّرْكُ الشَّرِيفَ أبا لَهَبْ[3].

فائدةُ الاستئنافِ التَّحقيقي:

قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ﴾ مستأنفٌ استئنافًا تحقيقيًّا للتّعليل، علّل به عدمَ كونِ ابنه منهم[4]، فبيّن علّةَ الحكم عليه في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖۖ﴾ دالًّا على التّلويح، بأنّ سبب النّجاة ليس إلّا الصّلاح، لا أواصر القرابة منك، فمَن لا صلاح له، لا نجاة له. وفيه "إيماءٌ إلى أنّ مَن نجا من أهلِه، إنّما

استحقاقُ النَّجاةِ منوطٌ بالقُرُباتِ لا بالقرابات

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/85.
(2) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 8/93.
(3) البيتان للإمام عليّ بن أبي طالب، ينظر: ديوان الإمام عليّ، جمع وترتيب: عبد العزيز كرم، ص: 12.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/212.

نجا بالصّلاح لا بقرابتِه"[1]، فالجملة جاءت تعليلًا لمضمون الجملة السّابقة لما احتوته من الإخبار الغريب المؤكّد في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ فهي تعليلٌ لانتفاء كونه ليس من أهله مع أنّه ابنُه[2]، فكونه عَمَلًا غير صالح اقتضى أن يخرج من اعتباره من الأهل.

نُكتةُ إيثار النَّفي على الإثبات:

نفيُ الصَّلاح تلويحٌ بعلَّة مَن نجا به، وتعليلٌ لمن خسر بضدِّه

آثر النّظم الكريم في قوله عزّ ذكره: ﴿إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ﴾ أن يصفه بكونه غيرَ صالحٍ، لا بوصفه فاسدًا، مع أنَّ الإثباتَ أوجزُ لفظًا؛ فأبدلَ وصفَ فاسد بقوله: ﴿غَيْرُ صَٰلِحٍ﴾ "تصريحًا بالمنافاةِ بين وصفيهما، الموجبةِ لانتفاء القرابةِ بينهما، ونفيًا لما أوجب النّجاة لمن نجا من أهله"[3]، و"تلويحًا بأنّ سبب النّجاة ليس إلّا الصّلاح، لا قرابته منك بحسب الصّورة، فمن لا صلاح له لا نجاة له، وهذا سرّ إيثار ﴿غَيْرُ صَٰلِحٍ﴾ على (عمل فاسد)"[4]، وذلك ميزانٌ إلهيٌّ مُحكمٌ وعادلٌ؛ لأنّ الاحتكام إلى الأنساب والقرابات يضيِّع الحقوق، ويستهين النّاس فيه بالواجبات، وتكثر فيه المداهنة والمداراة، فلمّا انتفتْ صفة الصّلاح عن ابنه، لم تنفعه الأبوّة، كقوله تعالى: ﴿كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾[5] [التحريم: 10].

توجيه القراءات القرآنيّة:

جمعتِ القراءتانِ بين التَّعليلِ والوصفِ

اختلف القرّاء في قوله جلّ شأنه: ﴿إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ﴾؛ فقرأ ابن كثير ونافِع وأبُو عَمْرو وابن عامر وعاصِم وحَمْزَة: ﴿إِنَّهُۥ عَمَلٌ﴾ مَرْفُوعٌ منوّن، و﴿غَيْرُ صَٰلِحٍ﴾ بِرَفْع الرّاء. وقَرَأ الكسائيّ وحده: (إِنَّهُ عَملَ﴾ بِكَسْر الميم وفتح اللّام، و(غَيْرَ صالح)، بِنصب الرّاء[6].

(1) ابن كمال باشا، تفسير ابن كمال باشا: 5/164.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/161.
(3) ابن كمال باشا، تفسير ابن كمال باشا: 5/164.
(4) القاسميّ، محاسن التّأويل: 6/102.
(5) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/399.
(6) ابن مجاهد، السّبعة في القراءات، ص: 334، والدّاني، التّيسير، ص: 125.

فقراءة الجمهور بلفظ المصدر ﴿عَمَلٌ﴾، معناها أنَّ ابنَ نوح هو عَمَلٌ غيرُ صالح، كما يُجعل الشّيءُ الشّيءَ لكثرة ذلك منه، كقولهم: الشّعر زهير[1]، فجعله نفسَ العمل في قراءة الجماعة مبالغةً في ذمّه، فهذه القراءةُ محمولةٌ على التَّعليل، وأمّا قراءة الكسائيّ بالفعل الماضي (عَمِلَ) فتدلّ على أنّه قد عملَ عملًا غيرَ صالح، وباشر بالسّوء مباشرة وجبت البراءة منه[2]، وهي تدلُّ على الوصفِ.

نكتةُ الإخبارِ عن الذاتِ بالمصدرِ:

معاملةُ الذّات معاملةَ المصدرِ، مبالغةٌ في اتّصافها بذلك المعنى

عبّر النّظم البليغ، في قوله عزّ ذكره: ﴿إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖۖ﴾، بجعل المصدر خبرًا عن اسم الذّات، فجعله نفسَ العمل مبالغةً في ذمّه[3]؛ لأنّ الذّوات لا فرق بينها في رتبة الوجود، وإنّما التّفاضل بينها كائنٌ بالأعمال والآثار، فبيّن أنّه ليس فيه من ذلك شيء صالح أصلًا[4]، و"أصله إنّه ذو عَمَلٍ غيرِ صالح، فجُعِل نفس العملِ مبالغةً"[5] في الفساد، وفي العربيّة يقولون للمبالغ في الصّيام: (رجلٌ صَوْمٌ)، وفي الزّور: (رجلٌ زُورٌ)، وقوله: ﴿إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖۖ﴾: بيّن انتفاء كونه من أهله، بأنّه غير صالح، تنبيهًا على أنّ أهله هم الصّلحاء، أهل دينه وشريعته، وإنّه لتماديه في الفساد والغيّ، كأنّ نفسه عمل غير صالح"[6].

غرضُ النّهي ودلالته:

تعليمُ الله تعالى عبادَه مع الملامة، دليلُ محبّةٍ وعلوُّ مقامٍ

جاء النّهي في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَسۡـَٔلۡنِ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۖ﴾ تعليمًا وعتابًا لنوح عليه السلام، وهو عتاب مترتّب على كون ابنه ﴿عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖۖ﴾، وعَدَّ نوح عليه السلام إيّاه من أهله؛ فلذا صدّر بالفاء المفيدة لترتيب

(1) أبو عليّ الفارسيّ، الحجّة: 3/241.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/294.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/162.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/294.
(5) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/212.
(6) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/212.

ما قبلها على ما بعدها[1]، فالنّهي للعتاب بلطفٍ وترفّق، كما أنَّ في النّهي إيماءً لمحبَّة اللّه تعالى لنوح عليه السلام؛ تنزيهًا له أن يكون سؤاله ممّا يُردُّ.

فقوله تعالى: ﴿فَلَا تَسْـَٔلْنِ﴾ "أي: بنوع من أنواع السّؤال ﴿مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌۖ﴾، فلا تعلم أصوابٌ السّؤال فيه أم لا؟ لأنّ اللّائق بأمثالك من أولي القرب بناء أمورهم على التّحقيق وانتظار الإعلام منّا"[2]، فهو نهيٌ عتابيٌّ إرشاديٌّ يُشَمُّ منه تنبيهٌ على فعلِ خلافِ الأولى.

سرُّ استعمالِ مفردةِ السُّؤال:

سؤالُ الدّاعين تشوبُه المسكنةُ والإلحاحُ وإظهارُ الضَّعفِ

عبّر النّظم عنِ الدّعاء في قوله جلّ شأنه: ﴿فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌۖ﴾ بالسّؤالِ. والسُّؤالُ: استدعاءُ معرفة، أو ما يؤدّي إلى المعرفة، واستدعاء مال، أو ما يؤدّي إلى المال، ويعبّر عن الفقير إذا كان مستدعيًا لشيء بالسّائل، نحو: ﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ۝١٠﴾ [الضحى: 10][3]، "فإن قلت: لم سُمّيَ نداؤه سؤالًا ولا سؤال فيه؟ قلت: قد تضمّن دعاؤه معنى السّؤال وإن لم يُصرِّح به؛ لأنَّه إذا ذكر الموعد بنجاة أهله في وقت مشارفة ولده الغرق فقد استنجز"[4]. فكان نداء نوح ربَّه محض دعاء، وليس استفسارًا ولا استنكارًا، لكنَّه دعا بذلك لأنّ ابنَه لم يكن مجاهرًا بالكفر، والطّمعُ في رحمة اللّه مبرِّر لبسط الدّعاء إليه، دون ضمان النّتيجة. فأطلق السّؤال على الدّعاء؛ "لأنّه تضمّن ذكر الوعد بنجاة أهله، وما رتّبه عليه من طلب نجاة ولده"[5]، ولِما في السُّؤال من معنى المسكنةِ وشديد التَّضرُّعِ والإقبالِ على المسؤولِ وكبيرِ الإلحاحِ.

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3712.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/295.
(3) الرّاغب، المفردات: (سأل).
(4) الزمخشريّ، الكشّاف: 2/400.
(5) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 12/41.

توجيه القراءات القرآنيَّة:

النَّهي منَ الله مؤكَّد لذاته، والتَّصريح بالتَّأكيد تقوية للمضمون

اخْتلف القرّاء في قوله تبارك اسمه: ﴿فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌۖ﴾ على ثلاثِ قراءاتٍ: الأولى: قَرَأ ابْن كثير: ﴿فَلَا تَسْـَٔلَنَّ﴾، مَفْتُوحَة اللّام مُشَدّدَة النُّون مَفْتُوحَةً من غيرِ ياء، والثّانية: قَرَأ نافِع وأبو جعفر وابن عامر: ﴿فَلَا تَسْـَٔلَنِّ﴾ مَفْتُوحَة اللّام مُشَدَّدَة النُّون مكسورةً من غير ياء، والثّالثة: قَرَأ أَبُو عَمْرو ويعقوب وعاصِم وحَمْزَة والكسائيُّ: ﴿فَلَا تَسْـَٔلْنِ﴾ ساكِنة اللّام خَفِيفَة النُّون مكسورة[1].

فَمَنْ خَفَّف النونَ فهي نونُ الوقاية وحَدَها، ومَنْ شدَّدها فهي نون التوكيد[2]. ومَن قرأ "بفتح اللّام وكسر النّون وتشديدها، على أنّ أصله: تسألنني، فحذفت نون الوقاية لاجتماع النُّونات، وكسرت المشّددة للياء، ثمَّ حذفت اكتفاء بالكسرة"[3]. والنَّهي الوارد منَ اللّه تعالى مُؤكَّدٌ لذاته، سواء دخلت عليه أدوات التَّوكيد أم لا، وقد تدخل أداة التَّوكيد تصريحًا بتأكيد المضمون.

نكتةُ استعمال أداةِ ﴿مَا﴾:

الإيماءُ إلى متاركةِ سُؤالِ ما يُجهلُ ودعاءِ ما يُبهمُ

يُحتملُ في أداةِ ﴿مَا﴾ في قوله جلَّ شأنه: ﴿فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌۖ﴾، أن تكون اسمًا موصولًا، فتكون عبارةً عن المسؤول عنه، الّذي هو مفعولٌ للسّؤال، أو أن تكون دالّة على المصدر مفعولًا مطلقًا، بتقدير: (فَلا تَسْأَلْنِ سُؤالًا ليس لك به علم)، ونكتةُ استعمال ﴿مَا﴾ المشوبةِ بدلالةِ العموم والإبهام هو الإيماءُ إلى أنّ المسؤولَ عنه هو قضايا مشتبهة أو غيبيّة، وفي ذلك إرشاد إلى تسليم الأمر للّه تعالى، والاحتكام إلى أمره ونهيه. فجاء النّهي على وجه عامٍّ، يندرجُ فيه قول نوح عليه السلام اندراجًا أوّليًّا، في قوله تعالى:

(1) ابن مجاهد، السّبعة، ص: 335، وابن الجزري، النشر: 2/289.
(2) السمين الحلبي، الدر المصون: 6/338.
(3) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 8/94.

﴿فَلَا تَسۡـَٔلۡنِ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۖ﴾[1]. كما يحتمل أن ذلك النّهي عن السّؤال مرادٌ به الكناية عن السّؤال عمّا لا يكون ولا يصحّ، أي: فلا تسألنّي ما علمت أنّه لا يقع[2].

غرضُ تنكير: ﴿عِلۡمٌۖ﴾:

التّحقّق منهجُ العارفين، والتّثبّت مسلكُ المدقّقين

آثر النّظم الكريم التّعبير بصيغة التّنكير في لفظ العلم، في قوله عزّ ذكره: ﴿فَلَا تَسۡـَٔلۡنِ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۖ﴾؛ لما في التّنكير من الدّلالة على التّقليل والعموم، فيكون نهي السّؤالِ عمّا يجهلُه السّائل ولو كان أدنى درجات العلم فما علا، والمعنى: "فلا تلتمس منّي ملتمَسًا أو التماسًا لا تعلم أصوابٌ هو أم غيرُ صوابٍ، حتّى تقفَ على كُنْهِهِ"[3]؛ "لأنَّ اللّائق بأمثالك من أولي القُرْبِ بناءُ أمورِهم على التّحقيق، وانتظار الإعلام منّا"[4]، والمقصود الغيبُ ومآلات الأمور. فإذا غاب أدنى العلم عن شيء ما، ولا يُدرى أيحقّ السّؤال عنه؟ فإنَّ التزامَ الصَّمتِ هو الأولى بالمقام.

غرضُ التَّوكيد:

تأكيدُ الخبرِ للعالم تنبيهٌ على خطرٍ محظور

آثر النَّظم الكريم تأكيد الجملة في قوله تبارك اسمه: ﴿إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾، تأكيدًا لمضمونها، وتقويةً للخبر، ليقع هذا الوعظ موقعه المكين، في نفس النّبيّ عليه السلام. وقد نصّ على الوعظ له، حتّى لا يكون من الجاهلين، "منبّهًا له إلى أنّ هناك علمًا لا يعلمه نوح، ولا يحتمل وقْعَه على مدركاته.. فليعلم أنّ له علمًا، وأنّ لله سبحانه وتعالى علمًا فوق هذا العلم، لا تناله الأفهام، ولا تدركه العقول"[5].

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/212.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/87.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/399.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/295.
(5) عبد الكريم الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 6/1148.

سرُّ التعبير بـ ﴿أَعِظُكَ﴾:

تنبيهُ العقلِ وتحريكُ القلب قد قُرنا برباطِ الوعظ

اختارتِ الآيةُ مفردةَ (وعظ)، في تنبيه نوحٍ عليه السلام في قوله جلّ شأنه: ﴿إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾، بألّا يكون منَ الجاهلين، بطريقة السّؤال، أي: "إنيّ أعظك أن تكون من الجاهلين، موعظة على ترك التّثبّت قبل الإقدام"[1]، فلا ينبغي لذوي الدّعوة والتّعليم وهداية النّاس التّعجّل وتقديم مشاعر القرابة، وميل النّفس، على تعاليم الحقّ وشرعه، فسرُّ التعبير بالموعظةِ هو أنَّها خطابُ العقل والقلبِ، لا سيَّما أنَّ القلبَ قد مال إلى الولدِ الكافرِ، فاستُعمل ما يُنبِّه العقل ويحرِّك القلب، فهي مفردةٌ جامعةٌ بين معنيين، وبين وعاءين، بخلافِ ما لو قال: (أعلمك)، أو (أنذرك).

دلالة التّعبير بصيغة المضارع:

وعظُ المؤمنين يتجدَّدُ في كلِّ وقتٍ وحين

آثر النّظم الكريم في قوله تبارك اسمه: ﴿إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾، أن يعبّر بالفعل المضارع ﴿أَعِظُكَ﴾، دلالةً على أنَّ الموعظةَ يجب أن تكون حاضرةً متجدِّدةً في نفسِ نوحٍ عليه السلام بحيث يكون التّحذير من ذلك الفعل متجدّدًا، إيماء إلى خطره.

مفتاحُ بابِ الجاهلين الإصرارُ على رغباتِ النَّفسِ

في قوله تبارك اسمه: ﴿إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾، عبّر عن فعل الكون بصيغة المضارع ﴿تَكُونَ﴾؛ للدّلالة على أنّ وعظَ اللّه تعالى ألّا يكون نوحٌ عليه السلام من الجاهلين، جاء للنّهي عن الدّوام والرّسوخ فيه، كأنَّه قال: إنّي أعظك أن تكون فيما بعدُ من الجاهلين إن أصررت على سؤالِك بتجديد السُّؤالِ إلى أن تكون منهم. وهذا يدلُّ على التَّسامحِ فيما وقع رحمةً منَ اللّه تعالى وعفوًا منه، والتَّحذير منَ الإصرار في السُّؤالِ أو التَّكرار فيه.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/87.

نكتةُ استعمالِ لفظِ الجهل:

التَّحذيرُ منَ الوقوعِ في الجهلِ لا الإخبارُ عنِ الوقوعِ فيه

قوله تعالى: ﴿أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾، جاء فيه ذكر صفة الجهل في سياق موعظة الله تعالى لنوح عليه السلام، وقد يدلّ ظاهر النّصّ على أنَّ الجهل ممتدٌّ للنّبيِّ الكريم، وليس الأمر كذلك، وإنّما قد وعظ الله تعالى نبيَّه بذلك حتّى لا يكون "في عداد الذين يعملون بالظّنّ؛ لأنّهم لا سبيل لهم إلى الوقوف على حقائق الأمور من قِبَلنا، فتسأل مثل ما يسألون"[1]، وبهذا فإنّ السّياق لم يصف نوحًا عليه السلام بالجهل، بل هو وعظ كراهيةَ الوقوع في الجهل. كما أنّه لمّا سبق أنْ ذكر العلم، بقوله: ﴿مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾، ناسب أن يقابله بنقيضه وهو الجهل[2].

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الأهل والآل:

(الأهل) أعمّ من (الآل)، إذ (الآل) خاصّة الرّجل من القرابة أو الصّحبة

أَهْلُ الرَّجُلِ زَوْجُهُ. وأَهْلُ الرَّجُلِ أَخَصُّ النّاسِ بِهِ، وأَهْلُ البَيْتِ: سُكّانُهُ. وأَهْلُ الإِسْلام: مَنْ يَدِينُ بِهِ[3]، وأهل الرّجل في الأصل: من يجمعه وإيّاهم مسكن واحد، ثمّ تجوّز به فقيل: أهل الرّجل لمن يجمعه وإيّاهم نسب[4]، أمّا الآل فهو مقلوب منَ الأهل، إلّا أنّه خُصّ بالإضافة إلى الأعلام النّاطقين دون النّكرات، والأزمنة والأمكنة، يقال: آل فلان، ولا يقال: آل رجل، ولا آل زمان كذا، أو موضع كذا، ولا يقال: آل الخيّاط، بل يضاف إلى الأشرف الأفضل، يقال: آل الله، وآل السّلطان. والأهل يضاف إلى الكلّ، يقال: أهل الله وأهل الخيّاط، كما يقال: أهل زمن كذا وبلد كذا. فيستعمل (الآل) فيمن يختصّ بالإنسان اختصاصًا ذاتيًّا، إمّا بقرابة قريبة، وإمّا بموالاة، قال الله ﷻ: ﴿وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ﴾ [آل عمران: 33]، وقال: ﴿أَدْخِلُوٓاْ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/295.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/87.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (أهل).
(4) الرّاغب، المفردات: (أهل).

ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ ﴿٤٦﴾ [غافر: 46][1]. فالفرق بينهما أنّ "الأهْل يكون من جِهَة النّسَب والاختصاص، فَمن جِهَة النّسَب قَوْلك: أهل الرّجل لِقَرابَتِهِ الأدنين، ومن جِهَة الاِخْتِصاص قَوْلك أهل البَصرَة وأهل العلم. والآل خاصَّة الرجل من جِهَة القَرابَة أو الصُّحْبَة، تَقول: آل الرّجل لأهله وأصْحابه، ولا تَقول آل البَصرَة، وآل العلم، وقالُوا آل فِرْعَوْن أتباعه، وكَذَلِكَ آل لوط... وقالَ بَعضهم الآل عيدان الخَيْمَة وأعمدتها، وآل الرّجل مشبّهون بذلك؛ لأنّهم مُعْتَمدَه"[2]، وفي الآية الكريمة عبّر بـ (الأهل) فقال: ﴿قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ﴾؛ لأنّ المقصود بهم أهل الدِّين والاعتقاد[3]، فنفى كون ابنه من ملّته ودينه، ولم يرد أن ينفي كونه ليس منه نسبًا.

الموعظة والنّصيحة:

(نَصَحَ) أصْله يَدُلُّ عَلَى مُلاءَمَةٍ بَيْنَ شَيْئَيْنِ وإصْلاحٍ لَهُما. أصْلُ ذَلِكَ النّاصِحُ: الخَيّاطُ. ومِنْهُ النُّصْحُ والنَّصِيحَةُ: خِلافُ الغِشِّ[4]. والنُّصْحُ: تَحَرِّي فِعْلٍ أو قَوْلٍ، فيه صلاحُ صاحبِهِ. قال تعالى: ﴿لَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُمۡ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحۡتُ لَكُمۡ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٧٩﴾﴾ [الأعراف: 79]، وهو من قولهم: نَصَحْتُ له الوُدَّ: أي: أخْلَصْتُهُ، وناصِحُ العَسَل: خالِصُهُ[5]. أمّا الوعظُ فأصله التَّخْويفُ. وهُو التَّذْكِيرُ بِالخَيْرِ وما يَرِقُّ لَهُ قَلْبُهُ[6]. وهو: النُّصْحُ والتّذكيرُ بالعواقب. يقال: (السّعيدُ من وُعِظَ بغيره، والشّقيُّ من اتّعظ به غيرُه)[7]. وقد عبّر في الآية الكريمة بلفظ الوعظ؛ لأنّه تحذير من اللّه تعالى إلى نوح عليه السلام من عواقب الجهل.

النّصح عامّ، والوعظ أخصّ منه، لأنّه نصح وتخويف بالعواقب

(1) الرّاغب، المفردات: (آل).
(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 281.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/85.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نصح).
(5) الرّاغب، المفردات: (نصح).
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (وعظ).
(7) الجوهريّ، الصّحاح: (وعظ).

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنۡ أَسۡـَٔلَكَ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞۖ وَإِلَّا تَغۡفِرۡ لِي وَتَرۡحَمۡنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٤٧﴾ [هود: 47]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

بعد الإرشادِ والعتابِ يتحقَّقُ الاستغفارُ والمتاب

لَمّا واسى اللّه تعالى نوحًا عليه السلام معلمًا إيّاه ألّا يسأل عمّا ليس من مقدور البشر، أتبع ذلك ببيان جواب نوح عليه السلام، واستجابته لتعليم ربّه، فلمّا "انجلى للسّامع ما هو فيه ﷺ من علوِّ المقام، وعظيم الشّأن الموجب للعتاب، على كثير من الصّواب، فتشوّف للجواب، استأنف بيانه بقوله: ﴿قَالَ﴾"[1]، وفي هذا المضمار، قال نوح: ربّ إنّي ألتجئُ إليك، وأحتمي بك، وأعوذ بك من أن أسألك شيئًا بعد الآن، لا أعلم الحقّ فيه، وإن لم تغفر لي - بفضلك ومنّك - ذنبَ هذا السّؤال، وتشملني برحمتك، أكن في عداد الخاسرين"[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَعُوذُ بِكَ﴾: أصلُ (عوذ): يَدُلُّ على الالتِجاءِ إلى غَيْرِه والاعتِصام بِهِ، ثُمَّ يُحْمَلُ عليه كُلُّ شَيْءٍ لَصِقَ بِشَيءٍ أوْ لازَمَهُ. تَقُولُ أعُوذُ بِاللّهِ - جَلَّ ثَناؤُهُ - أيْ: ألْجَأُ إلَيْهِ - ﷻ -، عَوْذًا أوْ عِياذًا. وفُلانٌ عِياذٌ لَكَ، أيْ مَلْجَأٌ[3]، والعُوذَةُ والمَعاذَةُ: الَّتِي يُعَوَّذُ بِها الإنسانُ مِنْ فَزَعٍ أوْ جُنُونٍ[4]. وضِدُّ العَوْذِ: اللَّوْذُ، وهو طَلَبُ الخَيْرِ، والمَعاذُ: المَلْجَأُ والحِصْنُ[5]، وفي الحديث أنّه تزوّج امرأة، فلما دخلت عليه، قالت: أعوذ باللّه منك، فقال: لقد عذت بمعاذ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/295 - 296.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/295 - 296.
(3) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (عوذ).
(4) ابن سيده، المحكم، وابن منظور، لسان العرب: (عوذ).
(5) ابن منظور، لسان العرب: (عوذ).

فالحقي بأهلك"[1]، والمقصود بالاستعاذةِ في الآية الالتجاء إلى تعالى والاحتماء به أن يقع فيما يحرُمُ عليه.

2) ﴿أَنْ أَسْـَٔلَكَ﴾: أصْلُ (سأل): الاسْتِدْعاءُ والطَّلَبُ، يُقالُ سَأَلَ يَسْأَلُ سُؤالًا ومَسْأَلَةً. ورَجُلٌ سُؤَلَةٌ: كَثِيرُ السُّؤالِ[2]. ويُقالُ: سَأَلْتُهُ عَنْ عِلْمٍ سُؤالًا ومَسْأَلَةً، أي: طَلَبْتُ مَعْرِفَتَهُ. وسَأَلْتُهُ الصَّدَقَةَ، أي: طَلَبْتُ منهُ أنْ يَتَصَدَّقَ عَلَيَّ. والسُّؤالُ: طَلَبَ أحَدٍ منْ آخَرَ بَذْلَ شَيْءٍ أوْ إخْبارًا بِخَبَرٍ، فإذا كانَ طَلَبَ بَذْلٍ عُدِّيَ فِعْلُ السُّؤالِ بِنَفْسِهِ، وإذا كانَ طَلَبَ إخْبارٍ، عُدِّيَ الفِعْلُ بِحَرْفِ (عَنْ) أو ما يَنُوبُ مَنابَهُ[3]، قال الأخفش: يُقال: خرجنا نسأل عن فلان وبفلان. وقد تخفّف همزته، فيقال: سال يسال.. ورجل سُؤَلة: كثير السّؤال. وتساءلوا، أي سأل بعضهم بعضًا. وأسألته سُؤْلته ومسألته، أي قضيت حاجته[4]، والسُّؤالُ في الآية هو الطَّلَب.

3) ﴿وَتَرْحَمْنِيٓ﴾: أصلُ (رحم): يَدُلُّ عَلَى الرِّقَّةِ والعَطْفِ والرَّأْفَةِ، يُقالُ منْ ذلك: رَحِمَهُ يَرْحَمُهُ، إذا رَقَّ له وتَعطَّفَ عليه. والرَّحِمُ: عَلاقَةُ القَرابَةِ، ثُمَّ سُمِّيَتْ رَحِمُ الأُنْثَى رَحِمًا منْ هذا؛ لأنَّ منها ما يَكُونُ ما يُرْحَمُ ويُرَقُّ له منْ ولَدٍ[5]، "وتراحم القوم: رحم بعضهم بعضًا. والرَّحَمُوتُ من الرّحمة، يقال: (رَهَبُوتٌ خيرٌ منْ رحمُوت)، أي: لأن ترهب خير من أن ترحم، ورجل مرحوم ومرحم، شدّد للمبالغة"[6]، وإذا وُصِف به الباري فليس يراد به إلّا الإحسان المجرَّد دون الرّقَّة، وعلى هذا رُوي أنَّ الرَّحْمَةَ منَ اللّه إنعامٌ وإفضالٌ، ومن الآدميِّين رِقَّةٌ وتَعطُّفٌ[7]. والمقصود بالرَّحمَة في الآية: ما بهِ رِفْقٌ وإحسانٌ إليهِ.

4) ﴿ٱلْخَٰسِرِينَ﴾: أصلُ (خسر): يَدُلُّ عَلَى النَّقْصِ. فَمِنْ ذلكَ الخُسْرُ والخُسْرانُ، والفِعل: خَسِرَ يَخْسَرُ. والخاسِرُ: الَّذي وُضِعَ في تجارته. وكِلْتُهُ ووزَنْتُهُ فأخْسَرْتُهُ، أي:

(1) ابن منظور، لسان العرب: (عوذ).
(2) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (سأل).
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/194.
(4) الجوهريّ، الصّحاح: (سأل).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (رحم).
(6) الجوهريّ، الصّحاح: (رحم).
(7) الرّاغب، المفردات: (رحم).

نقصتُه، وصَفَقَ صَفْقَةً خاسِرَةً، أي: غير مُرْبحةٍ[1]. والتَّخْسِيرُ: الإهلاك[2]، وقيل: الإبْعادُ من الخَير[3]. والمُرادُ بالخَسارَةِ في الآية: ما يَبْدُو على الجاني منَ الاضطِرابِ وسُوءِ الحالَةِ وخَيبَةِ الرَّجاءِ، فَتُفِيدُ أنَّه من الهالِكِينَ في الدُّنْيا، أو فيها وفي الآخِرَةِ[4].

❁ المَعْنى الإجْمالِيُّ:

سيّئاتُ الأبرارِ حسناتُ المقرّبين، وعلى قدر المقام حسابُ المذنبين

بعد التَّنبيه الإلهيّ الرَّقيق العتاب، أدرك نوح خطأ موقفه، فقال مناجيًا ربَّه: ربِّ إنِّي ألتجئ إليك وأستعيذ بك وبجلالك، أن أسألَك بعد الآن ما لا عِلمَ لي بصحَّتِه، وأستعين بك يا ربَّ العالمين أن يقع منِّي في المستقبل سؤالك فيما ليس لي به عِلم، فإنْ لم تغفِرْ لي ما وقع منِّي منَ السُّؤالِ عمّا لا أعلمُ، وترحمْني بقبولِ توبتي؛ أكنْ منَ الخاسرينَ ذاتًا وعملًا. وليس معنى ذلك أنَّ نوحًا عليه السلام وقع في ذنب يحتاج إلى الغُفران، وإنَّما هو لإحساسه بجلال الله تعالى، وقدِره وعظم سموِّ أوامره ونواهيه، فقد ظنَّ أنَّه ارتكب في جنب اللَّه ما حسبه خطيئةً، وما هو من ذلك في شيء[5].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

علَّةُ الفصلِ: ﴿قَالَ﴾:

بيانٌ كاشفٌ عن تبرؤِ نوحٍ عليه السلام ممّا قال

افتتح النّظمُ الجليل الجملة بالفعل ﴿قَالَ﴾ مفصولًا في قوله تبارك اسمه: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنۡ أَسۡـَٔلَكَ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞۖ﴾ لحكاية جواب نوح عليه السلام بعد أن عاتبه الله جل جلاله في قوله: ﴿فَلَا تَسۡـَٔلۡنِ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۖ﴾، فأجاب "بما يدلّ على التّنصّل ممّا سأل،

(1) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (خسر).
(2) الجوهريّ، الصّحاح، وابن منظور، لسان العرب: (خسر).
(3) الزّبيديّ، تاج العروس: (خسر).
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 6/173.
(5) ابن جرير، جامع البيان: 12/437، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 9/48، والشّوكانيّ، فتح القدير: 2/571، وأبو زهرة، زهرة التفّاسير: 7/3713.

فاستعاذ أن يسأل ما ليس له به علم"[1]، استجابةً لذلك النّهي، كما أنّ تصدير الجملة بفعل القول بيانٌ لقولِه الذي يُسألُ عنه، فكأنَّ سائلًا قد سأل: فماذا قال عليه السلام؟ فكان الجواب ما ورد في الآية.

نكتةُ حذفِ حرفِ النّداء:

شدَّةُ القربِ تختصرُ الألفاظَ وتُخرجُ أنفاس القلوب

في قوله عزّ ذكره: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنۡ أَسۡـَٔلَكَ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞۖ﴾ جاء النّداء محذوف الأداة فلم يقل: (يا ربّ)، كما في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوۡمِي ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ مَهۡجُورٗا ٣٠﴾ [الفرقان: 30]، وقولِه تعالى: ﴿وَقِيلِهِۦ يَٰرَبِّ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوۡمٞ لَّا يُؤۡمِنُونَ ٨٨﴾ [الزخرف: 88]، وذلك أنَّ النِّداء في الآيةِ جاء في معرض الحوار، بينما جاء في الآيتين في سياق الدُّعاءِ، وإنَّ العبد يستشعر بقربه من ربّه أثناء الطّلب والثّناء، وإنّ مقام الشّهود ينفي البُعد ويقتضي القرب، فيسقط التّكلّف. فالنّداء جاء بأسلوب الأدب الرّفيع، فليس فيه تنبيهٌ، بل التماس القبول والإقبال.

سرُّ الدّعاء بالرُّبوبيَّة:

مقامُ الخطابِ بذكرِ الإحسان، تكونُ الرُّبوبيَّةُ فيه هي العنوان

آثر عليه السلام أن يدعو اللّه تعالى، مخاطبًا إيّاه بلفظ الرّبوبيّة، دون لفظ الجلالة (اللّه)، في قوله عزّ ذكره: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنۡ أَسۡـَٔلَكَ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞۖ﴾، ابتداءً منه بالتّصريح بسبق الإنعام، وإعلانًا منه بأنّك قد سبقت لنا منك الحسنى، فقال "مبادراً على ما يقتضيه له من كمال الصّفات: ﴿رَبِّ﴾ أي: أيّها المحسن إليّ"[2]. وهذا من الأدب الرّفيع، والافتتاح البليغ في الدّعاء، بين يديّ الجليل، ونلمح في هذا السّياق الرّقيق البديع، سموّ المشاعر، وعمق التّعلّق باللّه، فقد نسي نوح عليه السلام حديثَ ابنه في حديث نفسه، فاستعاذ بفضله، واستجار بلطفه، فوجد السّلامة من ربّه، فأمره أن

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/88.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/296.

يهبط بسلام منه وبركات، ومن تواضع لله رفعه[1]، والمقامُ هو مقامُ التجاءٍ إلى المنعم الخالقِ ﷻ، بأسلوب الخطابِ المباشر، فلا يحسُن معه لفظ الجلالةِ الذي يغلب استعماله في الغيبةِ.

دلالةُ ذكرِ الاستعاذة:

التَّجرُّد من الحول والقوّة من سمات التّوحيد الخالص

جاءَ في قوله تعالى: ﴿أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِۦ عِلْمٌۖ﴾ ذكرُ تجرّدِ نوحٍ عليه السلام من حوله وقوّته، إعلانًا منه بأنّ النّجاة غيرُ مقتدَرٍ عليها، وأنّ قوّته لا تقدر على النّجاة، بلا عون من الله المنجي ﷻ، فبعد "التّنبيه الرّقيق العاتِب، أدرك نوحٌ خطأ موقفه فقال مناجيًا ربّه: ﴿رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِۦ عِلْمٌۖ﴾ أي: إنّي ألجأ إليك سبحانك أن تُعينني ألّا أسألك ما ليس لي به علم، وأستعينك يا ربّ العالمين، أن يقع منّي في المستقبل سؤالٌ لك، فيما ليس لي به علم، وما هو من تقديرك وتدبيرك، في أنّ الحقّ أولى من الآباء والأبناء"[2].

سرُّ ذكرِ المصدرِ تَكرارًا لا الاكتفاء بالإشارة:

عهدُ نوحٍ بترك ما بدر منه يعمّ كلَّ مخالفة صدرَت عنه

جاء المستعاذُ منه في قول نوح عليه السلام في قوله جلّ شأنه: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ﴾ بالمصدر دون الإشارة، فلم يقل: (إنّي أعوذ بك من ذلك)؛ "مبالغةً في التّوبة وإظهارًا للرّغبة والنّشاطِ فيها، وتبركًا بذكر ما لقّنه الله تعالى"[3]. كما أنّ في ذلك تعميمًا لكلّ سؤال لا يصحّ البِدارُ به، فلم يحصر الاستعاذة بما عُوتب عليه، بل جعلها شاملةً لكلِّ سؤالٍ في المستقبل ليس له به علم، ولم يقل: (سأفعل ما أمرتني به)؛ لأنّ التّوفيق للعمل، والتّوفيق للتّرك، كلاهما مهمّ.

بلاغةُ الكنايةِ:

الإنابةُ إلى الله تعالى طريقُ الإجابةِ ومسلكُ الإجادة

عبّر نوح عليه السلام في قوله ﷻ: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا

(1) القشيريّ، لطائف الإشارات: 2/139.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3713.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السليم: 4/213.

﴿لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞۖ﴾ عن تركه الفعل بالاستعاذة والتّضرّع، دليلًا على تهويله ما وقع منه، وهذه كنايةٌ عن بليغِ إنابتِه إلى مولاه، واعترافٌ بأنَّ سؤال ما لا ينبغي، مخالفٌ لمقتضى الحكمة، والتّبرّؤ منه عودةٌ للوعي، وكلّما علا العبد في مدارج القرب للّه كان هلعه من فعل ما يوجب العتاب أزيدَ، فينخلع قلبه، فلا يجد غير الضّراعة والإنابة لمولاه، ويعلم مَن كان بذلك المقام، أنّ العصمة عن ذلكم، لن تكون إلّا بالاعتصام بالجناب المتين الرّفيع.

سرُّ التّعبيرِ بالاستعاذة:

لوذُ نوح بجناب الله دليلٌ على خشيته من مولاه

آثر النَّظم الكريم في قوله تبارك اسمه: ﴿إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنۡ أَسۡـَٔلَكَ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞۖ﴾ التّعبير بالاستعاذة دون التّوبة فلم يقل: (إنِّي أتوب إليك أن أسألك)؛ لأنّ الاستعاذة أبلغ من التّوبة؛ لأنّه يرى أنَّ عِظَم ما بدر منه يقتضي الاستعاذة بالعظيم، لا مجرّد إعلان التّوبة؛ "لما فيهِ منَ الدلالةِ على كون ذلك أمرًا هائلًا محذورًا لا محيصَ منه إلّا بالعوذ باللّه تعالى، وأن قدرتَه قاصرةٌ عن النّجاة من المكاره إلّا بذلك"[1]. والاستعاذةُ في هذا المقام أبلغُ من التَّوبة؛ لأنَّها عبارةٌ عن طلبِ الحمايةِ من الوقوع في المعصيةِ، فإذا تحقَّق ذلك كانتِ التَّوبة تحصيلَ حاصلٍ إن وقع ما يطلبُها.

بلاغةُ استعمالِ أسلوب الشّرط في الدُّعاء:

إذا حُجبت رحمةُ الله ومغفرتُه، فالخسرانُ محقّقٌ لمن بدت زلّته

علّق النّظم الكريم في قوله جلّ شأنه: ﴿وَإِلَّا تَغۡفِرۡ لِي وَتَرۡحَمۡنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ الخسرانَ بعدم المغفرةِ والرّحمةِ، بأسلوب الشّرط، تأكيدًا على تحقّق الشّرط، فإذا وُجد الشّرط كان الجواب محقّقًا، وفي ذلك تأكيد من نوح عليه السلام على لوذه باللّه تعالى واستسلامه لأوامره ونواهيه، وأنّه لا حول له، "أي: إن كنت سبحانك لا تغفر لي

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/213.

هذا الخطأ برحمة منك، أكنْ من الّذين خسروا، وليس معنى ذلك أنّ نوحًا وقع في ذنب يحتاج إلى الغفران، إنّما هو لإحساسه بجلال اللّه وقدره، وعظم سموّ أوامره ونواهيه، فقد ظنّ أنّه ارتكب ذنبًا، وما هو بذلك، أو أنّه ارتكب في جنب اللّه ما حسبه خطيئةً، وما هو من ذلك في شيء، وهذا ما عبّر عنه أهل العرفان من علماء التّصوّف بقولهم: (حسنات الأبرار سيئات المقرّبين)[1].

التّضرّع بالشّرط أبلغ في الإخبار، بقطع الرّجاء عن سوى الله الغفّار

لم يقل نوح عليه السلام: (اغفر لي وارحمني) بأسلوبِ الدُّعاءِ المباشرِ؛ إذ إنَّ "طلب المغفرة والرّحمة بهذه الطّريقة الكنائيّة أبلغُ وآكدُ من قوله: (اللّهمّ اغفر لي وارحمني)؛ لما فيه من: قَطعِ الرّجاء من غيره تعالى، وإخبارِ أنّه لا يملك أحدٌ ذلك غيرُه، بخلاف ما صرّح فيه بالطّلب"[2]، وهو يقول: "وإلّا تغفر لي ذنب ما دعوت به على غير علم منّي، وترحمني برحمتك الّتي وسعت كلّ شيء، فتقْبَلَ توبتي، أكنْ منَ الخاسرين في أعمالي، فلا أربح فيها"[3].

نكتةُ تقديم المغفرة على الرّحمة:

التّخلية قبل التّحلية أصلٌ في الرّحمة بعد المغفرة

قدَّمتِ الآيةُ طلبَ المغفرة على طلبِ الرّحمة في قوله تعالى: ﴿وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِيٓ﴾؛ لأنّ الغفران تخلية، والرّحمة تحلية، والتّخلية مقدّمة على التّحلية، وذلك تأهيلًا لنفسه لاستحقاق الرّحمة، فتكون صفحته بيضاء بلا تلك الشّائبة الّتي ظنّها شائبة، بحنوّه على ابنه، فتكون الرّحمة مستحقّة لنقائه بعد مغفرة اللّه له، فـ "طلب المغفرة ابتداءً؛ لأنّ التّخلية مقدّمة على التّحلية، ثمّ أعقبها بطلب الرّحمة؛ لأنّه إذا كان بمحلّ الرّضى من اللّه، كان أهلًا للرّحمة"[4].

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3713.
(2) ابن كمال باشا، تفسير ابن كمال باشا: 5/166.
(3) الشّوكاني، فتح القدير: 2/571.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/88.

بلاغةُ الكنايةِ في جواب الشّرط:

الخوفُ من الله تعالى عنوانُ فلاحٍ ورأسُ نجاحٍ

جاء الشّرط في فاصلةِ الآية: ﴿أَكُن مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾، كنايةً عن شدّةِ خوف نوح عليه السلام؛ إذ نسب "النّقص والذّنب إلى نفسه، تأدّبًا مع ربّه فقال: ﴿وَإِلَّا تَغۡفِرۡ لِي﴾، أي: ما فَرَط من سؤالي ﴿وَتَرۡحَمۡنِيٓ﴾ بفضلك"[1]، فإحساس نوح بجلال الله تعالى، وسموّ أوامره ونواهيه، جعله يظنّ أنّه ارتكب ذنبًا، وما هو بذلك، وهذا الاجتهاد المنبعث من الشّفقة والرّحمة، لم يعصم منه الأنبياء؛ لأنّه ليس منقصة، بل هو في غيرهم منقبة.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

أعوذ وألوذ:

العوذُ أصْلُه الالتِجاءُ إلَى الشَّيْءِ[2]، فهو التجاء إلى الغير وتعلّق به، يقال: عاذَ فلان بفلان، ومنه قوله تعالى: ﴿أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ٦٧﴾ [البقرة: 67]، وقوله: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾ [يوسف: 79]، أي: نلتجئ إليه ونستنصر به أن نفعل ذلك، فإنّ ذلك سوء نتحاشى من تعاطيه[3]. أمّا اللّوذُ فأصلهُ يَدُلُّ عَلَى إطاقَةِ الإنْسانِ بالشَّيْءِ مُسْتَعِيذًا بِهِ ومُتَسَتِّرًا. وذَلِكَ إذا عاذَ بِهِ منْ خَوْفٍ أوْ طَمَعٍ، قالَ اللّهُ تَعالَى: ﴿قَدۡ يَعۡلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمۡ لِوَاذٗاۚ﴾ [النّور: 63]، وكانَ المُنافِقُونَ إذا أرادَ الواحِدُ منْهُمْ مُفارَقَةَ مَجْلِسِ رَسُولِ اللّهِ ﷺ، لاذَ بِغَيْرِهِ مُتَسَتِّرًا ثُمَّ نَهَضَ[4]، أي: يستترون فيلتجئون بغيرهم فيمضون واحدًا بعد واحدٍ[5]. فيلاحظ أنّ العوذ لا يشترط فيه الخوف، بل التّجرّد من الحول والقوّة، والالتجاء

العوذ التجاءٌ للتّجرّد من الأغيار، واللّوذ تستّر للاحتماء بالعزيز الجبّار

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/163.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عوذ).
(3) الرّاغب، المفردات: (عوذ).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (لوذ).
(5) الرّاغب، المفردات: (لوذ).

إلى ركن شديد، كالتجاء العباد إلى الله تعالى، أمّا اللّوذ فهو تستّر من شيء يُخافُ منه. وفي الآية الكريمة عبّر بالعوذ؛ لأنّه لا يتستّر، بل يلجأ إلى الله تعالى متجرّدًا من حوله وقوّته.

﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهۡبِطۡ بِسَلَٰمٖ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٖ مِّمَّن مَّعَكَۚ وَأُمَمٞ سَنُمَتِّعُهُمۡ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ ٤٨﴾ [هود: 48]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

بعد الاستطراد بذكر سؤالِ نوحٍ عليه السلام ربَّه تعالى عن ابنه، وما جرى فيه من عتاب واستغفار وتوبة، رجع النّظم الكريم إلى استكمال قصّة الطّوفان، فقال المولى: "الّذي بيده ملكوت كلّ شيء، ومدبّر أمر العالم كلّه لنوح، بعد أن انتهى الطّوفان، وأقلعتِ السّماء عن المطر، وابتلعت الأرض ماءَها وصارت السّكنى على الأرض والعمل عليها سهلًا ممكنًا: ﴿يَٰنُوحُ ٱهۡبِطۡ بِسَلَٰمٖ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيۡكَ﴾"[1]، فالمناسبةُ هي ابتداءُ أمرٍ جديدٍ بتكليفٍ جديدٍ في الحياةِ على الأرضِ، بعد انتهاءِ عهدِ الظُّلم والمعصيةِ والفسق.

بعد الاستطراد بالمعاتبة، عودٌ إلى استكمال الصّراع والمغالبة

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱهۡبِطۡ﴾: أصلُ (هبط): يدلُّ على الانحدار على سَبيلِ القَهْرِ[2]. والهُبُوطُ: نقيضُ الصُّعُود، يُقال: هَبَطَ يهْبِطُ ويَهْبُطُ هُبُوطًا إذا انْهَبطَ في هَبُوط منْ صَعُود. وهَبَطَ هُبُوطًا: نَزَلَ[3]. ويدلّ الهُبُوطُ على الانتقالِ مُطلقًا، والخُروجِ منَ البَلَدِ. والدُّخولِ فيها، فهو منَ الأضداد[4]، "وقد هبطنا أرض كذا وكذا: أي نزلناها، ويقال للقوم إذا كانوا في سفال: قد هبطوا يهبطون، وهو نقيض ارتفعوا"[5]. والمقصود بالهُبُوطِ في الآية: النُّزُولُ، والمُرادُ: النُّزُولُ منَ السَّفينَةِ؛ لِأنَّها كانَتْ أعلى منَ الأرضِ[6].

(1) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 12/42.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (هبط).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (هبط).
(4) السّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (هبط).
(5) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (هبط).
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/89.

2) ﴿وَبَرَكَٰتٍ عَلَيۡكَ﴾: أصل البَرْك صدرُ البَعِير، ويقال له: بركة، وبَرَكَ البعير: ألقى بركه، واعتُبر منه معنى اللُّزوم والثَّبات، فقيل: ابْتَرَكُوا في الحرب، أي: ثبتوا ولازموا مَوضِع الحرب، وابْتَرَكَتِ الدّابة: وقفت وقوفًا كالبروك، وسُمِّي محبس الماء بِرْكَة. والبَرَكَةُ: ثبوتُ الخَيْرِ الإلهيِّ في الشَّيءِ. قال تعالى: ﴿لَفَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَرَكَٰتٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [الأعراف: 96]؛ وسُمِّي بذلك لثبُوتِ الخَير فيه ثبوت الماء في البركة. والمُبارَك: ما فيه ذلكَ الخير؛ ولمّا كان الخَير الإلهيّ يَصدرُ منْ حيثُ لا يُحسّ، وعلى وجْهٍ لا يُحصَى ولا يُحصر، قيل لكلِّ ما يشاهد منه زيادة غير محسوسة: هو مُبارَكٌ، وفيه بركة[1]. والمقصود بالبَرَكاتِ في الآية: الخَيراتُ النّاميَةُ، وهي منْ كلماتِ التَّحِيَّةِ مُستَعمَلَةٌ في الدُّعاءِ[2].

3) ﴿أُمَمٖ﴾: أصلُ الأُمَّةِ: كلُّ جماعةٍ يجمعُهم أمرٌ ما، سواء كان ذلكَ الأمر الجامع تسخيرًا أو اختيارًا[3]، وهي جَماعَةٌ من النّاسِ أُرْسِلَ إلَيْهِم رَسُولٌ، سواءٌ آمَنُوا أو كَفَرُوا[4]. ومن مَعانِيها: الشِّرْعَةُ والدِّينُ، يُقالُ: فُلانٌ لا أُمَّةَ له، أيْ: لا دِينَ لَهُ[5]، وكذلك كُلُّ مَن كان على دِينٍ حقٍّ مُخالِفٍ لِسائِرِ الأديانِ فهو أمَّة، ويُقال لِكُلِّ جِيلٍ منَ النّاسِ والحَيوانِ: أُمَّةٌ[6]، والأمّة: الجماعة، قال الأخفش: هو في اللّفظ واحد، وفي المعنى جمع. وكلّ جنس من الحيوان أمّة. وفي الحديث: «لوْلا أنَّ الكِلابَ أُمَّةٌ منَ الأُمَم لَأَمَرْتُ بِقَتْلِها»"[7]، والجَمعُ: أُمَمٌ. والمرادُ في قوله تعالى: ﴿وَعَلَىٰٓ أُمَمٖ﴾: الأممُ المؤمنةُ المتناسلةُ ممّن معه إلى يوم القيامة، وفي قوله تعالى: ﴿وَأُمَمٞ سَنُمَتِّعُهُمۡ﴾: هؤلاء الصنف الآخر[8].

4) ﴿سَنُمَتِّعُهُمۡ﴾: أصْلُ المَتْع: بُلُوغُ الغايَةِ منَ الشَّيْءِ، يُقالُ: مَتَع النَّهارُ يَمْتَعُ مَتْعًا، أي: بَلَغَ غايَةَ ارْتِفاعِهِ، والماتِعُ: الجَيِّدُ البالِغُ الجَوْدَةِ[9]. والمَتاع في الأصْل: كلّ شَيْء ينتفَع بِهِ

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (برك).
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/90.
(3) الراغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحفّاظ: (أمّ).
(4) الواحديّ، التّفسير البسيط: 3/319.
(5) الجوهريّ، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (أمم).
(6) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن سيده، المحكم، وابن منظور، لسان العرب: (أمم).
(7) الجوهريّ، الصّحاح تاج اللّغة وصحاح العربيّة: (أمّ)، والحديث أخرجه ابن حبّان، الحديث رقم: (5656)، والدّارميّ، الحديث رقم: (2008)، الحديث رقم: (503)، وأحمد، المسند، الحديث رقم: (20548)، والتّرمذي، الحديث رقم: (1489)، والنّسائيّ في السّنن الكبرى، الحديث رقم: (4773).
(8) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/215.
(9) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (متع).

ويُتبلَّغ بِهِ ويتزوَّد والفَناءُ يَأْتِي عليهِ في الدُّنيا[1]. والتَّمْتِيعُ: الإمْهالُ، وأيضًا: التَّعْميرُ، ومنْهُ قوْلُه تَعالَى: ﴿أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ۝٢٠٥﴾ [الشّعراء: 205]، أي: أطَلْنا أعْمارَهُم[2]. والمقصود بـ التَّمتُّع في الآية: الانتفاع بالملائم، وبالنِّعمة مُدَّة تنقضي.

5) ﴿يَمَسُّهُم﴾: أصلُ (مسّ): يَدُلُّ على جَسِّ الشَّيءِ بِاليَدِ[3]، يُقالُ: مَسِسْتُ الشَّيءَ أمَسُّه مَسًّا لَمَسْتَه بِيَدِكَ، وهُو مجازٌ في إصابةِ الشَّيءِ وحُلُولِه، فَمنهُ مَسُّ الشَّيْطانِ، أي: حُلُولُ ضُرِّ الجِنَّةِ بالعَقْلِ، ومَسُّ سَقَرَ: ما يُصِيبُ منْ نارِها، ومَسَّهُ الفَقْرُ والضُّرُّ: إذا حَلَّ به، وأكثَرُ ما يُطلَقُ في إصابَةِ الشَّرِّ، قالَ تعالى: ﴿۞وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ﴾ [الزّمر: 8]، ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا﴾ [يُونُس: 12][4]، "ومن المجاز: مسّه الكبر والمرض، ومسّه العذاب، ومسّه بالسّوط، ومسّ المرأة: جامعها، وماسّها: أتاها. وبينهما رحم ماسّة[5]، والمسُّ في الآية: مجازٌ في الإصابةِ بجامعِ الاتِّصالِ.

المَعْنى الإجْماليُّ:

قِيل لنوح عليه السلام: يا نوح اهبط من الجوديّ الَّذي استوت عليه السَّفينة، ممتَّعًا بسلامٍ وتحيّة منّا وبركات في المعايش والأرزاق، تفيضُ عليكَ، وعلى من معك، وعلى ذُرِّياتٍ يتناسلونَ منهم، ويتفرَّقون في الأرض، فيكونون أُممًا مُستقلًا بعضها من بعض، وأُمم من ذرّيتهم ليسوا على سنَّتهم من الإيمان والعَمل الصّالح، سنمتّعهم في الدُّنيا، فيستنفدون فيها طيّباتهم، ثمَّ يصيبهم في

سفينةُ النَّجاةِ هي مرحلةٌ بين زمانين قُصدَ منها نجاةُ المؤمنين ووعيد الكافرين

(1) ابن منظور، لسان العرب: (متع).
(2) الزّبيديّ، تاج العروس: (متع).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (مسس).
(4) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن عبّاد، المحيط في اللّغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (مسس)، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/316.
(5) الزّمخشريّ، أساس البلاغة: 2/213.

الآخرة أو فيهما معًا، عذابٌ شديدُ الإيلام. والسَّلام الَّذي هبط به نوح ومن آمن معه، دخل فيه كلُّ مؤمنٍ ومؤمنةٍ من ذرِّياتهم، إلى يوم القيامة، وأنّ المتاع العاجل، والعذاب الآجل، دخل فيهما كلُّ كافرٍ وكافرةٍ، من ذُرِّياتهم إلى يوم القيامة[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ الاستئنافِ البيانيِّ:

مكافأةُ الأوّابين سلامٌ من ربِّ العالمين

الجملة في قوله تبارك اسمه: ﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهۡبِطۡ بِسَلَٰمٖ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيۡكَ﴾، مستأنفةٌ استئنافًا بيانيًّا؛ ولذلك فصلت عن سابقتها، فكأنَّ سائلًا قد سأل: ماذا أجيب عن ذلك؟ فقيل: ﴿قِيلَ﴾[2]، فهي جواب منتظرٌ عمّا يقتضيه سَوق القصّة والمحاورة بينهم، فجاء الوصل مراعاةً لسياقِ المحاورة "بين نوح عليه السلام وربّه، فإنّ نوحًا عليه السلام، لمّا أجاب بقوله: ﴿رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنۡ أَسۡـَٔلَكَ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞۖ﴾، خاطبه ربّه إتمامًا للمحاورة بما يُسكّن جأشَه"[3]؛ فكانت هذه الجملةُ كالمكافأةِ له عليه السلام.

علّة بناء الفعل للمفعول:

الأحكامُ الخاصَّةُ تختلفُ في بنائِها عن الأحكام العامَّة في سياقٍ واحد

آثر النّظم الكريم في قوله تعالى: ﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهۡبِطۡ بِسَلَٰمٖ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيۡكَ﴾ التّعبيرَ بالفعل المبنيّ للمفعول؛ للدّلالة على "العظمة والجلال الّذي تكون الأمور العظيمة لأجله بأدنى إشارة"[4]، فمنشأُ التّعظيم أنّ الأمر الجليل بالهبوط، وإقلاع السّماء، وبلع الأرض، لمّا يعبّر عنه بفعلٍ خالٍ من الفاعلِ، والفاعلُ معلومٌ، دلّ ذلك على أنّ هذه الأفعال العظيمة، يسيرةٌ عند الملك الجليل، وهذا يدلّ على التّعظيم والجلال، كما أنّ علّة البناء للمفعول هنا، مقابل بنائه

(1) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 12/42 - 43، والزّحيليّ، التّفسير الوسيط: 2/1046.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/296.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 12/88.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/296.

للفاعل في قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ﴾؛ لأنّه حكم شرعيّ إرشاديٌّ خاصٌ بنوحٍ عليه السلام، وأمّا الأمر بالهبوط من السّفينة، وغيره من تلك الأوامر، فسيقت للتّعظيم، لا سيَّما أنَّ الارتباطَ بأمورٍ تخصُّ النّاسَ، كما أنّ في ذلك البناء نسجًا على المنظوم السّابق، "ليجيء على وتيرة حكاية أجزاء القصّة المتقدّمة من قوله: ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ﴾، ﴿وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، فحصل بذلك البناء قضاء حقّ الإشارة إلى جزء القصّة، كما حصل بالفصل قضاء حقّ الإشارة، إلى أنّ ذلك القول جزء المحاورة"[1].

بلاغةُ الكنايةِ:

البشارةُ نتيجةُ المصابرةِ، والدّعاء بالرّحمة والمغفرة

قوله جلَّ شأنه: ﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهۡبِطۡ بِسَلَٰمٖ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيۡكَ﴾ كنايةٌ عن البشارة بالنّزول في أرض وفيرة الخير بأمنٍ وسلام تطمينًا لنوح عليه السلام ومن معه، وإشعارٌ بالرَّحمةِ والمغفرةِ، وهذا ما يدفعُ الخوفَ والقلق الّذي كان يتغشّى نوحًا عليه السلام، إثر دعائه وسؤاله، وما تبعه من عتاب اللّه تعالى له، فجاء قوله تعالى: ﴿يَٰنُوحُ ٱهۡبِطۡ بِسَلَٰمٖ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيۡكَ﴾، إجابة لطلبه الرّحمةَ والمغفرة، وإعلامًا له بالقبول والرّضى.

فائدةُ أسلوبِ النّداء:

تخصيصُ النّداء، مكرمةٌ أثيرةٌ، ومكانةٌ رفيعةٌ

دلّ نداء نوح عليه السلام في قوله عزّ ذكره: ﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهۡبِطۡ بِسَلَٰمٖ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيۡكَ﴾ على مكانته الرّفيعة عند ربّه، فناداه باسمه تنويهًا به بين الملأ[2]، فافتتاح الخطاب بندائه وباستعمالِ أداة النِّداءِ (يا) وباسمه يفيد تخصيصه بمضمون الخطاب، وهو: ﴿ٱهۡبِطۡ بِسَلَٰمٖ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيۡكَ﴾، ومن المعلوم أنّ معه جمعًا من المؤمنين، وأنّهم سيشتركون معه بهذا السّلام والبركات، لكنَّ تخصيصَه وحدَه

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/88.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/89.

بالنِّداءِ إشعارٌ بمكانتِه، وأنَّ له الحظوة العظيمة عند مولاه، وهو ما يدفع أيَّ شعورٍ أن يكون قد أتى شيئًا غيرَ مقبولٍ في سؤالِ اللّٰه تعالى.

نكتةُ إفرادِ المُخاطَبِ:

تعليمُ الأمَّةِ الاقتداءَ منهجٌ يقودُ إلى الارتقاء

جاء الأمرُ بالهبوطِ في قوله تعالى: ﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهۡبِطۡ بِسَلَٰمٖ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيۡكَ﴾ بخطابِ المفرد، موجّهًا الأمر إلى نوح عليه السلام دون الّذين معه، فلم يقل: (وقال اهبطوا منها جميعًا)، وهم مأمورون بذلك كما دلَّ عليه قوله تعالى: ﴿۞وَقَالَ ٱرۡكَبُواْ فِيهَا بِسۡمِ ٱللَّهِ مَجۡرٖىٰهَا وَمُرۡسَىٰهَآۚ إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ٤١﴾ [هود: 41]؛ وذلك أنّ الآمرَ بالرّكوب هو نوح عليه السلام، فخاطب به الّذين معه، وفي الثّانية خطابٌ منَ اللّٰه تعالى لنوح عليه السلام، على وجه الخصوص؛ فخصّه به تكريمًا له، وإظهارًا لفضله ومكانته، وأنّ ذلك الإكرام بالنّزول بسلام وبركات، إنّما كان بفضل دعوته وصبره على قومه، والأمر بعد ذلك يعمّ الجميع، فإنَّ النَّبيَّ إمامٌ لأمَّته، فلا يشترك معها في الخطابِ، بل يُؤمر وهو يبلِّغ؛ لإيجاد القدوة المُطاعةِ، وهذا من بديع فوائد النِّكات البيانيَّة في تفصيل الاقتداءِ بخير البريَّة.

معنى الباءِ ودلالتُها:

الهبوط مصحوبٌ بالسّلام، مقترنٌ بالأمان

دلَّ حرفُ الباء في قوله جلّ شأنه: ﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهۡبِطۡ بِسَلَٰمٖ﴾، على المصاحبة والملابسة، أي: اهبط مصحوبًا بسلام منّا، والسّلام بمعنى التّحيّة، فمصاحبته مجازيّة[1]، ويحتمل فيها الدّلالة على الحال، ويكون التّقدير: بمعنى مصاحبة السّلام، فالجارّ والمجرور ﴿بِسَلَٰمٖ﴾ متعلّق بمحذوف يعربُ حالًا من فاعل (اهبط)، أي: متلبّسًا بسلام، أو مصحوبًا بسلامة وأمن وبركات[2]، والمعنى واحدٌ، وإن اختلف توجيههُ صناعيًّا.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/89.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/163 - 164.

بلاغةُ التَّعريضِ بالتَّقييد:

الهبوط ابتداءُ عصرٍ جديد، وتوليةُ زمانٍ عنيد

قيّد النّظمُ الجليل الهبوطَ بأنّه ﴿بِسَلَٰمٖ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيۡكَ﴾، للدّلالة على عهد جديد، وفصل من الحياة خالٍ من منغصّات المستهزئين، فجعل هبوطه مصاحبًا للسّلام من اللّه تعالى، والبركات النّازلةِ عليه، إيماءً إلى أنّه كان في ضيافة اللّه تعالى، وقد قال تعالى عن السّفينة: ﴿وَحَمَلۡنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلۡوَٰحٖ وَدُسُرٖ ١٣ تَجۡرِي بِأَعۡيُنِنَا﴾ [القمر: 13 - 14]، كما أنّ البشارة بالسّلام من اللّه تعالى، بشارة بالغفران، والسّلامة من الآفات الدّنيويّة، والمقصود به "الأمن والاطمئنان، فلم يَعُدْ هناك من الكافرين، ما ينغِّص على نوح عليه السلام أمرَه، ولن يجد من يكدِّر عليه بالقول: ﴿جَٰدَلۡتَنَا فَأَكۡثَرۡتَ جِدَٰلَنَا﴾ [هود: 32]، ولن يجد مَنْ يتّهمه بالافتراء"[1]، فهو تعريضٌ بالزّمانِ السّابقِ بأنَّه كان خاليًا من السَّلام، وتصريحٌ بالكرامةِ لما بقِيَ في الأيّام القادمةِ.

نكتةُ تعيينِ جهةِ التَّقييدِ:

السَّلام في الدُّنيا نادرٌ عزيزٌ، فإنْ وُجِدَ فهو منحةٌ يأتي من بعد محنة

أدخل النّظم الجليل (منْ)، في قوله تبارك اسمه: ﴿بِسَلَٰمٖ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيۡكَ﴾، الدّالّة على الابتداء للدّلالة على مصدر السّلام، فقوله: ﴿مِّنَّا﴾ "تأكيد لتوجيه السّلام إليه؛ لأنّ (من) ابتدائيّة، فالمعنى: بسلام ناشئ من عندنا، كقوله: ﴿سَلَٰمٞ قَوۡلٗا مِّن رَّبّٖ رَّحِيمٖ ٥٨﴾ [يس: 58]، وذلك كثير في كلامهم. وهذا التّأكيد يراد به زيادة الصّلة والإكرام، فهو أشدّ مبالغة من الّذي لا تذكر معه (من)"[2]؛ ولذا لم يذكر جهة السّلام، في مثل قوله جلّ شأنه: ﴿ٱدۡخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ٤٦﴾ [الحجر: 48]، وقوله تعالى: ﴿ٱدۡخُلُوهَا بِسَلَٰمٖۖ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡخُلُودِ ٣٤﴾ [ق: 34]، للحاجة لذكر جهة السّلام، في آية هود للمبالغة في الإكرام، حيث كان يحمل معه نواة البشريّة، وعدم الحاجة إلى ذكر

(1) الشّعراوي، تفسير الشّعراويّ: 11/6487.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/89.

الجهة في (الحجر) و(ق) لوضوحِ الأمرِ وصراحته فيما يكون في الجنَّة من سلام خاصٍّ، بخلافِ الدُّنيا فالسَّلام لم يكن موجودًا، فتقييدُه بالجهة أفاد توكيدًا وبيانًا مشابهًا للتَّوكيدِ. كما أنّ في هذا السّلام من الله تعالى، طمأنةً إلى دوام النّعمة، وانتفاء الهلاك، لتعلّق السّلام بالله تعالى "ومَن سلّمنا عليه فلا هلاك يلحقُه"[1].

دلالةُ الجمع بين السّلام والبركات:

من مقتضيات الحياة السّعيدة، وفرة الخيرات، وسلامة الذّات

جَمَع النّظم الكريم بين السّلام والبركات، في قوله تعالى: ﴿بِسَلَٰمٖ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيۡكَ﴾؛ لأنّ السّلامة من الأذى والنّصَب والخوف والعَنَت الّذي لاقوْهُ في السّفينة وقبلها من قومهم، لا يكفي في إقامة الحياة والمجتمع الفتيّ الجديد، والشّروع في تكوين بيئة جديدة، فلا بدّ من رزقٍ وفير، للنّهوض بتكاليف التّجديد، فكان إتباع السّلامة بالبركة من الضّرورات اللّازمة. كما أنّ في ذلك إشارةً إلى قبول توبة نوح، وتقبّله في الصّالحين، "ولما كان الدّاعون بلفظ التّحّية إنّما يَسألون الله بدعاء بعضهم لبعض، فصدور هذا الدّعاء من لدنه، قائم مقام إجابة الدّعاء، فهو إفاضة بركات على نوح السّلام ومن معه، فحصل بذلك تكريمهم وتأمينهم والإنعام عليهم"[2].

سرّ تقديم السّلام على البركات:

إزالة العاهات والمنغصّات، مقدّمٌ على سعة الرّزق والبركات

قدّم النّظم الجليل في قوله جلّ شأنه: ﴿بِسَلَٰمٖ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيۡكَ﴾ السّلامة على البركة؛ وذلك أنّ نوحًا عليه السلام عندما خرج من "السّفينة عَلِم أنّه ليس في الأرض ما يُنتفع به من النّبات والحيوان، فكان كالخائف في أنّه كيفَ يعيشُ؟ وكيفَ يدفع جميع الحاجات عن نفسه من المأكول والمشروب؟ فأزال الله تعالى ذلك الخوف عنه بالبشارة، وبحصول السّلامة من العاهات، وسعةِ الرّزق والمهمّات"[3].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/296.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/90.
(3) ابن كمال باشا، تفسير ابن كمال باشا: 5/167.

نكتةُ اختلافِ قيودِ الألفاظ:

إذا تحقَّق السّلام من الله تعالى نزلتِ البركات في الحياة

قيّد النّظم الكريم السّلامَ بأنّه من اللّه تعالى، وجعل البركة بقيد ﴿عَلَيْكَ﴾ في قوله تعالى: ﴿بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ﴾؛ وذلك لأنّ السّلام واحدٌ شاملٌ لكلّ شيء، فوحّده ونسبه للّه تعالى تنويهًا بعظمة إحسانه؛ إذ بلا سلام لا معنى للبركات، أمّا البركات فمعلوم أنّها من اللّه تعالى، وهي بركات مهما كانت، فإنّها زائلة بزوال العمر والدّنيا، وهي نازلةٌ على نوحٍ ومن معه في الدُّنيا.

غرضُ تنكيرِ ﴿أُمَمٍ﴾:

طمأنةُ المخاطَبين بما يُحبُّون تبشيرٌ يدفع التّنفير

جاء لفظُ ﴿أُمَمٍ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ﴾ نكرةً؛ للدّلالة على التّكثير والشُّيوعِ، حيث "جعل سبحانه منهم أممًا مع أنّهم عشرات أو على الأكثر مئات، ذلك لأنّهم آباءٌ لجماعاتٍ مؤمنة طاهرة، أي: ستكون منهم ذرّية طاهرة، ﴿وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، أي: سيكون ممّن معك أممٌ صالحةٌ وأخرى ظالمةٌ"[1]. والغرض من ذلك تبشير نوح عليه السلام ومن معه بأنّ ذرّيتهم باقية محفوظة، كما دلَّ عليه قوله تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾﴾ [يس: 41]، كما أنّ في ذلك تخفيفًا عليهم؛ إذ رأوا هلاك النّاس، فشعروا بخلوِّ الأرض من البشريّة؛ فطمأنهم بأنّه سيكون بعدهم أممٌ كثيرة.

معنى حرفِ (من) ودلالتُه:

منشأُ أمم الأرضِ من بعد نوحٍ عليه السلام

دلّ حرف الجرّ (منْ) في قوله جلّ شأنه: ﴿وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ﴾ على "ابتداء الغاية أي: ناشئة من الّذين معك، وهم الأمم المؤمنون إلى آخر الدّهر"[2]، فالأمم لم تكن حاصلةً يوم النّجاة والهبوط، بل إنّ ابتداء نشأتها كائنٌ من الّذين نجوا. وأجاز بعض أئمّة التّفسير أن تكون (من) بيانيّة، والمعنى: أي وعلى أُمَمٍ هم الّذين معك[3].

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 7/3713.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/164.
(3) القنّوجيّ، فتح البيان: 6/196.

نوعُ الواو وبلاغتُها:

التَّعريضُ بمن خالفَ منهجَ أصحابِ السَّفينةِ فأتى بالمعاصي الدَّفينة

افتتح النّظم الكريم قوله جلّ شأنه: ﴿وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ﴾ بالواو الدّالّة على الاستئناف البيانيّ؛ لأنّها تبيينٌ لما أفاده التّنكير، في قوله: ﴿وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ﴾ من الاحتراز عن أمم آخرين، وأصْلُها الواوُ العاطِفَةُ، وبَعْضُهُمْ يُرْجِعُها إلَى الواوِ الزّائِدَةِ، ويَجُوزُ أنْ تَكُونَ الواوُ لِلتَّقْسِيمِ، والمَقْصُودُ: تَحْذِيرُ قَوْمِ نُوحٍ مِن اتِّباعِ سَبِيلِ الَّذِينَ أُغْرِقُوا، والمَقْصُودُ مِن حِكايَةِ ذَلِكَ في القُرْآنِ التَّعْرِيضُ بِالمُشْرِكِينَ مِنَ العَرَبِ، فَإنَّهُمْ مِن ذُرِّيَّةِ نُوحٍ ولَمْ يَتَّبِعُوا سَبِيلَ جَدِّهِمْ، فَأُشْعِرُوا بِأنَّهُمْ مِنَ الأُمَمِ الَّتِي أنْبَأ اللَّهُ نُوحًا بِأنَّهُ سَيُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ عَذابٌ ألِيمٌ[1]، فالاستئناف لبيان حصر البركة والسّلام بالّذين كانوا مع نوح ﷺ مؤمنين صالحين، ففي "قطع الجملة الثّانية بالابتداء عن سَنَنِ الجملة الأولى الدّلالة على أنّ التّمتّع الجسمانيّ والاشتغال به يخرج الإنسان عن حكم الصّالحين من عباده، وأنّ التّبتل إلى الله يدخله في زمرة الأنبياء والصّالحين"[2]، فسيق ذلك لذمّ ذلك السَّنَن وبيان أنّهم خرجوا عمّا ذُكر من السّلام والبركات.

غرضُ حذفِ المسندِ:

ذريَّةُ المحمولين في السَّفينةِ مؤمنٌ وكافرٌ

الخبر في قوله عزّ ذكره: ﴿وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ إمّا أن يكون ﴿سَنُمَتِّعُهُمْ﴾، وإمّا أن يكون محذوفًا للإيجاز، تقديره: (ومنهم أُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ)، ويكون ﴿سَنُمَتِّعُهُمْ﴾ صفةً، ووجهُ الحذفِ دلالةُ ما سبق عليه ﴿مِّمَّن مَّعَكَ﴾، وهو بيان لاختلاف الأمم النّابتة بعد نوح في الإيمان والكفر، أي: أممٌ معك وأممٌ ليسوا معك. وهذا التّقدير يدلّ على التّبعيض، أي "أنّ بعضَ مَنْ يتشعّب منهم ليسوا على صفتهم، يعني ليس جميعُ من تشعّب منهم مسلمًا ومباركًا عليه، بل منهم أممٌ ممتّعون في الدّنيا معذّبون في الآخرة"[3].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/91.
(2) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 8/99 - 100.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/215.

بلاغةُ الاحتراسِ في التَّكرار اللَّفظيّ:

مدحُ الاجتماعِ في أمَّةٍ باعتبارِ المعيَّة والذَّمُّ باعتبارِ المتع الدُّنيويَّة

تكرّر في قوله جلّ شأنه: ﴿وَعَلَىٰٓ أُمَمٖ مِّمَّن مَّعَكَۚ وَأُمَمٞ سَنُمَتِّعُهُمۡ﴾ لفظُ ﴿أُمَمٖ﴾ والتّكرار للتّنويع، وبيان الاختلاف، فهو للتّقسيم والتّعديد، "فالمراد من هذه الآية تقسيم ذريّة أولاد نوح إلى فريقٍ مؤمن، وفريق كافر، لا تقسيم من كان معه في السّفينة، إذ كانوا كلّهم مؤمنين"[1]، فهم أممٌ متحزِّبةٌ، وجماعاتٌ متفرِّقةٌ، فيشمل الأممَ الصّالحة والأقوام الطّالحة، أمثال قوم هود، وصالح، ولوط، وشعيب[2]، فلفظُ الأمم لا يُراد منه المدحُ المحض أو الذَّمُّ المحض، بل بيان أنَّ النّاس ستختلف على جماعاتٍ كبيرةٍ، يشملها ناسٌ كثيرون، منها أممٌ يغلب عليها الفلاحُ، ومنها أممٌ يلفُّها الشَّقاء، وعليه جاء اختيارُ لفظٍ لا يختصُّ بنوعِ مدحٍ أو ذمٍّ، بل بوصف النّاس في عموم الالتقاءِ، والمدحُ كان بقيدٍ زائدٍ على أصل اللفظ، وهو المعيَّة، والتَّمتيع، فمن التزم معيَّةَ الصّالحين كان معهم، ومن آثر متعَ الحياةِ الدُّنيا فهو منغمسٌ فيها، فاختيارُ لفظِ ﴿أُمَمٖ﴾ يُفهم منه الاحتراس عن فهم المدحِ أو الذَّمِّ لمجرَّد كونهم أممًا، وهذا من بديعِ البيان القرآني في اختيارِ مفرداته.

بلاغةُ المجازِ بحذف المضافِ:

الهدى والضّلال في ذريّات الأمم يتنقَّل بينها بمحضِ اختيارِها

حُذِفَ المضافُ في قوله جلّ شأنه: ﴿وَعَلَىٰٓ أُمَمٖ مِّمَّن مَّعَكَۚ وَأُمَمٞ سَنُمَتِّعُهُمۡ﴾، فيدخل في السّلام المذكور كلُّ مؤمن ومؤمنة إلى يوم القيامة، ويدخل في التَّمتيعِ والعذاب كلُّ كافرٍ كنودٍ إلى يوم القيامة، والتّقدير: وعلى ذريّة أمم ممّن معك، وذريّة أمم سنمتّعهم. فأراد اللّه سبحانه بالأمم الّذين كانوا معه مَن صار مؤمنًا من ذرّيتهم، وأراد بقوله بالأمم الّذين يمتّعهم مَن صار كافرًا من ذرّيتهم إلى

(1) القنّوجيّ، فتح البيان: 6/196.
(2) محمّد الهلال، تفسير القرآن الثّريّ الجامع: 12/43

يوم القيامة[1]، فجعل سبحانه منهم أممًا؛ لأنّهم آباء لجماعات مؤمنة، ستكون منهم ذرّية طاهرة، أي سيكون ممّن معك أمم صالحة، وأخرى ظالمة[2].

خفّةُ تَكرارِ حرفِ الميم:

تكرار الصّوت الواحد بلا ثِقَل أو نشازٍ إشارةً إعجازٍ

تكرّر في قوله تعالى: ﴿وَعَلَىٰٓ أُمَمٖ مِّمَّن مَّعَكَۚ وَأُمَمٞ سَنُمَتِّعُهُمۡ﴾، حرف الميم عشر مرّاتٍ، وفي الآيةِ ثماني عشرةَ مرَّة بالتَّجاورِ والتَّتابع والفكِّ والإدغام، وهذا يصعب إتيانُه مع خلوٍّ من نشازٍ أو ثِقَلٍ في عموم الكلام العربيِّ، لكنَّه هنا جاء على أبدعِ ما يقع فيه الصَّوت من الأذن، واللفظ من اللِّسان، فجاء خفيفًا سائغًا للسّامعين مع إعجاز وتفرّد.

بلاغةُ بديعِ فنِّ الاحتباك:

اكتفاء الجملتين بدلالة المذكور في إحداهما على المقدَّر في الأخرى

في قوله جلّ شأنه: ﴿بِسَلَٰمٖ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٖ مِّمَّن مَّعَكَۚ وَأُمَمٞ سَنُمَتِّعُهُمۡ﴾ احتباكٌ[3]، فقد "ذَكَرَ البركاتِ والسّلامَ أوّلًا دليلًا على نفيهما ثانيًا، والمتاع ثانيًا، دليلًا على حذفه أوّلًا"[4]، وتقدير الكلام: بسلام وبركات على أمم ممّن معك سنمتّعهم في الدُّنيا متاعًا قليلًا، وأمم لا سلام ولا بركات عليهم وإنَّما هو التَّمتيع.

دلالة العطف بـ حرف التَّراخي:

تجليّات طول الزَّمان في الوعد والوعيد سنَّةٌ لا تتبدَّل

آثر النّظم الكريم أن يستعمل حرف العطف ﴿ثُمَّ﴾ في قوله جلّ شأنه: ﴿ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ اقتضاءً للواقع، فإنّ مجيء الأمم المذكورة الّتي سيصيبها العذاب في الدُّنيا أو الآخرة، أو في كليهما إنّما يكون بعد تراخي الزّمن وطوله، فـ ﴿ثُمَّ﴾ مستعملة للتّرتيب والتّراخي.

---

(1) القنّوجيّ، فتح البيان: 6/197.

(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 7/3713.

(3) الاحتباك: هو "القول المركَّب من أجزاء فيه متناسبة، نسبة الأوّل منها إلى الثّالث كنسبة الثّاني إلى الرّابع، أوْ ما كانت النّسبة فيه كنحو ذلك، فاجتزئ من كلّ متناسبين بأحدهما، لقطع الدّلالة ممّا ذكر على ما ترك". يُنظر: السّجلماسيّ، المنزع البديع، ص: 195.

(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/297.

سرُّ التّعبير بصيغةِ المضارع:

مسُّ العذابِ متجدِّدٌ على الدَّوام لا يتحوَّل ولا يتبدَّل

عبّر النّظم الكريم في قوله جلّ شأنه: ﴿ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ عن مسِّ العذاب للأمم الممتَّعة بالفعل المضارع؛ للدّلالة على أنّ العذاب عند وقوعِه لن يكون عذابًا منقطعًا بل هو مستمرّ ودائم فيهم، وهو ما يُرشِّح أن يكون المقصودُ بالعذابِ عذابَ الآخرةِ، أو أن يُحمل على عذابِ الدُّنيا ويكون وجودُه باستمرارِ وجودِهم، كما أنّ فيه دلالةً على استجلاب الصّورة لتصوير المشهد.

دلالة تقييد العذاب:

ورودُ العذابِ من الله ترهيبٌ، وكفرُ العبيد عجيبٌ

قيّد النّظم الجليل العذاب في قوله جلّ شأنه: ﴿ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ بكونه حاصلًا من اللّه تعالى، للدّلالة على تعظيم العذاب؛ فكون العذاب صادرًا من اللّه تعالى، فإنّه عذابٌ مكتسبٌ أشدّ الصّفات، وعبر عن العذاب بضمير التّعظيم (نا)، إيغالًا في تعظيم العذاب وتشديدًا على مستحقيه.

علّة تقديم شبه الجملة:

تقديم كون العذاب من الله تعالى أبلغ في بيان شدّته

قدّم النّظم شبه الجملة ﴿مِّنَّا﴾ في قوله جلّ شأنه: ﴿ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ على الفاعل، وأصل الكلام: (يمسّهم عذاب أليم منّا)؛ وذلك أنّ تعظيم العذاب، بكونه صادرًا من اللّه تعالى أشدّ في بيان عظمته من تنكيره ووصفه بكونه أليمًا، فالتّقديم لتهويل المذكور قبل ذكره، كما أنّ فيه مراعاةً للفاصلة القرآنيّة حفاظًا على النّسق الصّوتي.

دلالةُ تنكيرِ: ﴿عَذَابٌ﴾:

تنكيرُ العذابِ تهويلٌ له، وتأكيدٌ على فظاعته

آثر النّظمُ الكريمُ التَّعبيرَ عن العذاب بصيغة التّنكير، في قوله جلّ شأنه: ﴿ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، تعظيمًا لشأنه، وتهويلًا لشدّته، فهو عذابٌ غيرُ معروفٍ ولا معهود للسّامع، فجاء التّنكير إخبارًا عن حقيقة كونه ليس معلومًا؛ ليذهب السّمعُ في تخيّل العذاب

الكائن من اللّه تعالى مذاهبَ شتّى، في تصوّر شدّته وفظاعته وهوله، فالتَّنكيرُ للنَّوع، إذ هو نوعٌ غيبيٌّ لم يعهد النّاس مثله في الدنيا، وهذا إذا قصرناه على عذابِ الآخرةِ.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الهبوطُ والنُّزول:

الهبوط وإن كان على سبيل القهر، فإنّه يمتاز عن النّزول بأنّه: "نزُول يعقبه إقامَة؛ ومن ثَمَّ قيل: هبطنا مَكان كَذا، أي نزلنا، ومنْه قَوله تعالى: ﴿ٱهْبِطُواْ مِصْرًا﴾ [البقرة: 61]، وقوله تعالى: ﴿قُلْنَا ٱهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعًاۖ﴾، ومَعْناهُ: انزلوا الأرْض للإقامة فيها، ولا يُقال: هَبَط الأرْض إلّا إذا اسْتَقرَّ فِيها، ويُقال: نزُول وإن لم يسْتَقرّ"[1]، فجاء التّعبير في الآية الكريمة بالهبوط؛ لأنّهم بعد نزولهم أقاموا ولبثوا في المكان.

الهبوط نزول إثْره إقامة، ويكون بلا إرادةٍ عادةً، خلافًا للنّزول

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 296.

﴿تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾﴾ [هود: 49]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الانتقالُ من سردِ القصَّةِ إلى طلبِ الاعتبارِ ممّا جاء فيها

لمّا أخبرتِ الآياتُ السّابقة عن قصّة نوح عليه السلام على الوجه الأكمل، وبيّنَت اجتهادَه "في إبلاغ الإنذار من غير مراعاة إقبال ولا إدبار، وكانت مع ذلك دالّة على علم تامّ، واطّلاع على دقائق لا سبيل إليها إلّا من جهة الملك العلّام، فهي على إزالة اللّبس عن أمره سبحانه وتعالى أوضحُ من الشّمس، قال تعالى منبّهًا على ذلك: ﴿تِلْكَ﴾، أي هذه الأنباء البديعة الشّأن، الغريبة الأمر، البعيدة عن طوق المعارض"[1]، إنّما هي من وحي اللّه تعالى، فهو انتقالٌ من قصَّة نوح عليه السلام إلى الإشارةِ إلى حكمةِ إنزالِها وذكرِها، وهو الصَّبر على كفّار مكَّة كما صبر نوحٌ على قومه، فإنَّ العاقبة للتَّقوى.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَنۢبَآءِ﴾: أصلُ (نبأ): الإتّيانُ منْ مكانٍ إلى مَكانٍ، يُقالُ لِلَّذي يَنْبأُ منْ أرضٍ إلى أرْضٍ: نابِئٌ. وسَيْلٌ نابِئٌ: أتَى منْ بَلَدٍ إلى بَلَدٍ، ورَجُلٌ نابِئٌ مثْلُهُ. ومنْهُ النَّبأُ: الخَبَرُ؛ لأنَّهُ يأتي منْ مَكانٍ إلى مَكانٍ[2]، والأنْباءُ: جَمْعُ نَبَأٍ، وأنباءُ الغَيْبِ: الأخبارُ المُغَيَّبَةُ عَنِ النّاسِ أو عَنْ فَرِيقٍ منْهُمْ[3]. والنَّبْأَةُ: الصَّوْتُ؛ لِأنَّ الصَّوْتَ يَجِيءُ منْ مَكانٍ إلى مَكانٍ، ومَنْ هَمَزَ لفظَ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم فَلأنَّهُ أنْبأ عَنِ اللّهِ تعالى[4]، قال سيبويه: ليس أحد من العرب إلّا ويقول: (تنبّأ مسيلمة)، بالهمز،

(1) البقاعي، نظم الدرر: 9/305.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والزبيدي، تاج العروس: (نبأ).
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/92.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة، والزبيدي، تاج العروس: (نبأ).

غير أنّهم تركوا الهمز في لفظِ النّبيّ، كما تركوه في الذّريّة والبريّة والخابية، إلّا أهل مكّة، فإنّهم يهمزون هذه الأحرف[1]، والمقصود بالأنباء في الآية: جَمْعُ نَبَأٍ، وهو الخَبَرُ الَّذي له أهميَّةٌ.

2) ﴿ٱلْغَيْبِ﴾: أصلُ (غيب): يَدُلُّ على تَسَتُّرِ الشَّيءِ عَنِ العُيُونِ، ثُمَّ يُقاسُ. منْ ذلك الغَيْبُ: ما غابَ، ممّا لا يَعْلَمُهُ إلّا اللّهُ[2]، وكلُّ مكانٍ لا يُدْرَى ما فِيهِ فَهُو غيْبٌ، وكذلكَ الموْضِعُ الَّذي لا يُدْرَى ما وراءَه، وجمعُهُ غيوبٌ[3]، ويُقالُ للشَّيءِ: غَيْبٌ وغائِبٌ باعتباره بالنّاس لا باللّه تعالى، فإنَّه لا يغيب عنه شيءٌ، كما يَعزُبُ عنه مثقال ذرَّة في السَّماوات ولا في الأرض[4]. والغَيْبُ ضِدُّ الحُضُورِ وضِدُّ المُشاهَدَةِ، والمقصودُ بالغَيبِ في الآية: ما خَفِيَ وغابَ عن عِلْم النّاسِ واسْتأثَرَ اللّهُ بِعِلْمِهِ.

3) ﴿نُوحِيهَآ﴾: أصلُ (وحى): يَدُلُّ على إلقاءِ عِلْمٍ في إخْفاءٍ أو غَيْرِهِ إلى غَيرِكَ. والوحْيُ: الإشارةُ السَّريعة، ولتضمُّن السُّرعة، قيل: أمْرٌ وحْيٌ؛ وذلك يكون بالكلام على سبيل الرَّمز والتَّعريض، وقد يكون بصوتٍ مُجرَّدٍ عن التَّركيب، وبإشارة ببعض الجوارح، وبالكتابة[5]، وكُلُّ ما أَلْقَيْتَهُ إلى غَيْرِكَ حَتَّى عَلِمَهُ، فهو وحْيٌ كيفَ كانَ، "والوحي أيضًا: الإشارة، والكتابة، والرّسالة، والإلهام، والكلام الخفيّ، وكلّ ما ألقيته إلى غيرك. يقال: وحيت إليه الكلام وأوحيت، وهو أن تكلّمه بكلام تخفيه"[6]، والوحْيُ: الإعلامُ منَ اللّهِ بِواسِطَةِ المَلَكِ. وأوْحى إليه: بَعَثه، وأوْحى إليه: أَلْهَمَه[7] والمقصود بالوحْيِ في الآية: إفادَةُ المَقصُودِ بِطَرِيقٍ غَيْرِ الكلام[8].

4) ﴿ٱلْعَقِبَةَ﴾: أصلُ (عقب): يَدُلُّ على تَأْخِيرِ شَيءٍ وإتيانهِ بعدَ غيرهِ، وكُلُّ شَيْءٍ يَعْقُبُ شَيئًا فهو عَقِيبُهُ[9]، قال الرّاغِبُ: والعَقِبُ: مُؤخَّر الرِّجْل، والعاقِبَةُ والعُقْبَى يَخْتَصّانِ

(1) الزَّبيديّ، تاج العروس: (نبأ). الزَّبيديّ، تاج العروس: (نبأ).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (غيب).
(3) الأزهري، تهذيب اللّغة: (غيب).
(4) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحفّاظ: (غيب).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (وحي).
(6) الجوهريّ، الصّحاح: (وحي).
(7) ابن منظور، لسان العرب: (وحي).
(8) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 6/31.
(9) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (عقب).

بالثَّواب، نَحْوُ: ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ١٢٨﴾ [الأعراف: 128]، وبالإضافةِ قَدْ يُستَعمَلُ في العُقُوبَةِ، نحو: ﴿ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ ٱلسُّوٓأَىٰٓ﴾ [الرّوم: 10][1]. وسُمِّيَت بذلك؛ لأنَّها تَتْلُو الذَّنْبَ، من تَعَقَّبَهُ: إذا تَبِعَهُ، وتَعَقَّبْتُ الرَّجلَ، أي: أخَذْتَه بذَنْبٍ كان منْهُ. والجمع: عُقوباتٌ[2]. والمقصودُ بالعاقِبَةِ في الآية: الحالَةُ الَّتي تَعْقُبُ حالَةً أُخْرَى، وحقيقَتُها نهايةُ أمْرٍ منَ الأُمُورِ وآخِرُهُ.

5) ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾: أصْلُ الوِقايَةِ: هو دَفْعُ شَيْءٍ عن شَيْءٍ بِغَيْرِهِ، يُقال: وقَى نَفْسَهُ من العَدُوِّ بِسِلاحِهِ، أيْ: دَفَعَهُ بِهِ، وفُلانٌ ما له من واقٍ، أيْ: من دافِعٍ. والوِقايَةُ: ما يَقِي الشَّيْءَ، واتَّقِ اللّٰهَ: تَوقَّهُ، أي: اجْعَلْ بَيْنَكَ وبَيْنَهُ كالوِقايَةِ. قالَ النّبيّ ﷺ: «اتَّقُوا النّارَ ولَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ»[3]، وكَأنَّهُ أرادَ: اجْعَلُوها وِقايَةً بَيْنَكُمْ وبَيْنَها[4]، والتَّقْوَى: اتِّخاذُ الوِقايَةُ والحِمايَةِ من الشَّيْءِ، والتَّوقِّي: الحَذَرُ. وتأْتي الوِقايَةُ بمعنى الحِفْظِ من الأذَى والضَّرَرِ[5]. والمقصود بالمتَّقين في الآية: الَّذين يتحرّزون من المهالك في الدُّنيا[6].

المَعْنى الإجْمالِيُّ:

قصصُ الرُّسُلِ السّابقين نبراسُ هدايةٍ لا مُجرَّد حكايةٍ

قال اللّٰه تعالى بعد قِصَّة نوح، وبيان العبرة فيها: تلك القِصَّةُ الّتي قصَصْناها عليك - يا مُحمَّدُ ﷺ - عن نوحٍ وقَومه، هي من أخبارِ الغَيبِ السّابقةِ، نوحيها إليك لتَعلَمَها، ما كنتَ تعلمُها، ولا

(1) الرّاغب، المفردات: (عقب).
(2) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (عقب).
(3) رواه أحمد في مسنده، عن عدي بن حاتم ﷺ، رقم الحديث: (18253).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والسّمين الحلبي، عمدة الحفّاظ: (وقي).
(5) السّمين الحلبي، عمدة الحفّاظ، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (وقي)، والمناويّ، التّوقيف على مهمّات التّعاريف، ص: 340.
(6) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن سيده، المحكم، وابن منظور، لسان العرب، والزَّبيديّ، تاج العروس: (وقي)، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/432، والمناويّ، التّوقيف على مهمّات التّعاريف، ص: 106.

يعلَمُها أيُّ أحدٍ من قومك، من قبلِ هذا القرآنِ، فاصبر على تكذيب قومكَ وأذاهم لكَ، واجتهد في تبليغ رسالتك، وجدّ في إيضاح الرِّسالة القرآنيَّة، واصبر على الشَّدائد، كما صبر نوح عليه السلام على أذى الكفّار، واعلم أنَّ العاقبة والنَّصر والنَّجاة لكَ، كما كانت لنوح في هذه القِصَّة، وأنَّ النّصر يكون من بعدكَ لأهل التَّقوى الَّذين يطيعون اللّه، ويتجنَّبون المعاصي. ونحن نوحيها إليك لتكون لك هداية وأسوة، فيما لقيه غيرك من الأنبياء، وتكون لقومك مثالًا وتحذيرًا، لئلا يصيبهم إذا كذّبوك مثل ما أصاب هؤلاء وغيرهم من الأمم المعذّبة[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالةُ استعمالِ إشارةِ البعيدِ:

الإشارة بالبُعد للنّبأ العظيم تناسبُ شأنه وأهميّته

آثر النّظم الكريم التّعبير باسم الإشارة الدّالّ على البعد، في قوله تبارك اسمه: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ﴾، تفخيمًا لشأنها "أي هذه الأنباء البديعة الشّأن، الغريبة الأمر، البعيدة عن طوق المعارض، العليّة الرّتب عن يد المتناول"[2]، فالإشارة إلى الأنباء الواردة في قصّة نوح عليه السلام الّتي يوحِيها اللّه إلى رسوله الأكرم؛ فلكونها أنباءً عظيمة خطيرة الشّأن، أشار إليها باسم الإشارة الدّالّ على البعد[3]، أو أنّ المراد بالبعدِ البعدُ الزّمني؛ فأشار بالبعيد؛ لأنّ بين قصّة نوح عليه السلام، وبينَ النّبيّ ﷺ مُددًا لا تُحصى[4].

توجيه المتشابه اللَّفظيّ:

تأنيث اسم الإشارةِ باعتبارِ القصَّة والتَّذكير باعتبارِ النَّبأ

آثر النّظم الكريم في قوله عزّ ذكره: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ

(1) ابن جرير، جامع البيان: 12/441، 442، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 9/49، والسّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 383، والزّحيلي، التّفسير المنير: 2/1047.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/305.

(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3714.

(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/165.

نُوحِيهَآ إِلَيۡكَۖ﴾، التّعبير باسم الإشارة ﴿تِلۡكَ﴾، بينما في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهِ إِلَيۡكَۚ﴾ [آل عمران: 44]، وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهِ إِلَيۡكَۖ﴾ [يوسف: 102] فآثر استعمال ﴿ذَٰلِكَ﴾، ووجهه: أنَّه استعمل ﴿تِلۡكَ﴾ إشارةً إلى القصّة، فكان التّأنيث باعتبار التّأنيث في لفظ القصّة[1]، ولذلك قال: ﴿نُوحِيهَآ﴾، بينما أشار في قصّة يوسف عليه السلام إلى النّبأ الواحد، وهو نبأ يوسف وإخوته.

نوعُ حرفِ ﴿مِنۡ﴾ ودلالتُه:

أنباءُ الغيبِ في القرآن إشاراتُ الوحي إلى الأذهان

أدخل النّظم الجليل حرف الجرّ ﴿مِنۡ﴾، في قوله تعالى: ﴿تِلۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهَآ إِلَيۡكَۖ﴾، وهي تحتمل أن تكون بيانيّةً، أي أنّ هذه الأنباء من جنس أنباء الغيب، أي ليست من قبيل سائرِ الأنباءِ، بل هي نسيجُ وحدِها، منفردةٌ عمّا عداها، فهي لبيان جنس الأنباء[2]، وعليه فتكون الإشارةُ إلى قصَّة نوحٍ المذكورةِ، وتحتمل الدّلالة على التّبعيض، أي أنّ هذه بعضُ أنباء الغيب، وليست كلّها؛ فإنَّ الله تعالى قد قصَّ على محمَّدٍ ﷺ بعضَ تلك الأنباء.

نكتةُ التَّعبيرِ بلفظ النَّبأ:

أنباءُ السّابقين جاءت للاعتبارِ لا لمجرَّدِ الإخبارِ

آثر النّظم الكريم في قوله جلّ شأنه: ﴿تِلۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهَآ إِلَيۡكَۖ﴾، استعمالَ لفظِ النّبأ دون الخبر؛ لأنّ النّبأ هو العظيم من الأخبار الّذي يحقّق فائدة العلم[3]، وهو الخبر ذو الشَّأنِ، وقصّة نوح عليه السلام فيها من الغرائب والعجائب العظيمة، فوصفُها بالأنباء أدقُّ في البيان، وللإيماءِ إلى ضرورة الاعتبارِ بهذه الأنباءِ، فهي ليست مجرَّد خبرٍ يُروى، أو حدثٍ يُطوى.

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/215.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/215.
(3) الرّاغب، المفردات: (نبأ).

سرُّ التَّعريفِ بالإضافة:

أنباءُ القرآنِ وحيٌ مخصوصٌ ودرسٌ مقصود

آثر النّظم الكريم في قوله جلّ شأنه: ﴿تِلۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهَآ إِلَيۡكَۖ﴾، إضافة الأنباء إلى الغيب، فآثر التّعبير بقوله: ﴿أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ﴾، دون أن يقول: (تلك من الأنباء نوحيها إليك) بتعريفِها بأل؛ وذلك للدّلالة على أنّها أنباء مخصوصة بالغيب الّذي لم يُعْلَم من قبل. فالأنباءُ كانت غيبًا ثمّ انكشفت بالوحي الموحى به، والغيب ما لا تدركه الحواسّ، ولا يُعْلَم ببداهة العقل، فأنباءُ الغيبِ هي "الأخبار المغيّبة عن النّاس أو عن فريق منهم، فهذه الأنباء مغيّبة بالنّسبة إلى العرب كلِّهم، لعدم علمهم بأكثر من مجملاتها، وهي أنّه قد كان في الزّمن الغابر نبيّ يقال له: نوح عليه السلام أصاب قومه طوفان، وما عدا ذلك فهو غيب"[1].

سرُّ استعمال: ﴿نُوحِيهَآ﴾:

إيماءُ الإيحاءِ إلى ضرورةِ الاعتبارِ في الدَّعوةِ والاتِّعاظ باليقينيّات

في قوله تعالى: ﴿تِلۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهَآ إِلَيۡكَۖ﴾، آثر النّظم الكريم استعمال لفظ ﴿نُوحِيهَآ﴾، دون غيره من الألفاظِ نحو (ننزلها)؛ وذلك للتّذكير بأنّها إيحاءٌ من اللّه، يجب الإيمان به، والاعتقاد بصدقه، وأنّ العلم به ليس موضع اجتهاد أو انتقاض، وأنَّ المرادَ بالإيحاء هنا هو تخصيصُ خطابِ النَّبيِّ ﷺ بها، فهو إيحاءٌ منه تعالى للنَّبيِّ بقصدِ العملِ بها على وجْه الخُصوصِ، كما أنَّ في استعمال لفظ الإيحاء دون الإنزال زيادة عنايةٍ واهتمام، إذ الإيحاء هو إيماءٌ خفيٌّ، فالآيةُ تُشير إلى ضرورةِ استنباط المعاني للاعتبارِ الخاص بها في الدَّعوةِ إلى اللّه تعالى، ومعنى أنباء الغيب المذكورة هنا، أي: "من جنسها، بمعنى أنّها ليست من قبيل سائرِ الأنباءِ، بل هي نسيجُ وحدِها، منفردةٌ عمّا عداها أو بعضِها"[2].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/92.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/215.

نكتة التّعبير بالمضارع:

إيحاءُ الأنباءِ متجدِّدٌ في نفوسِ المؤمنين بالصَّبرِ واليقين

آثر النّظم الكريم في قوله عزّ ذكره: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ﴾، التّعبيرَ بالفعل المضارع، إشارةً إلى أنّ الإيحاءَ مستمرٌ في تأثيرِه وأثره في نفوس المؤمنين، وأنّه "لا يزال يُجدّد له أمثالها"[1]، فهو إخبار عن تجدّد الحكاية للأحوال الماضية، الّتي انصرمت أحداثها في الزّمان الغابر، كما أنّ التّعبير بالفعل المضارع هنا يفيد التّصوير، باستحضار الصّورة لبيان حالة الأنباء، بأنّها جاءت بصورة الوحي[2].

غرضُ تقييدِ الفعل:

ذكرُ الغايةِ تنبيهٌ على البدايةِ وإشارةٌ إلى قيمةِ الهدايةِ

في قوله تبارك اسمه: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ﴾، دلّ تقييدُ إيحاءِ هذه الأنباء الغيبيّة بأنّه كائنٌ إلى النّبيِّ ﷺ على اختصاصه بهذا الوحي، وهذا يدلُّ على أنّ هذه التّفاصيل المذكورة لم تُذكر سابقًا، كما أنَّ حرفَ (إلى) دالٌّ على انتهاءِ الغايةِ؛ إذِ المقصودُ بها هو رسولُ الله ﷺ، وهي إشارةٌ إلى مبدأ الإيحاءِ وأنَّه من الله تعالى، فهو تنبيهٌ على البدايةِ، وتصريحٌ بالغايةِ، مع ذكرِ الوسيلة التي بينهما، وفيه مدحُ جبريل عليه الصَّلاةُ؛ إذ أدَّى أمانةَ الوحي بأن أوصلها إيصالًا خالصًا من الزِّيادةِ والنُّقصان.

دلالة نفي العلم:

نفيُ علمِ الغيبِ للنَّبيِّ حُجَّةٌ على أنّ علمَه بالوحي

جاء الخبر في قوله جلّ شأنه: ﴿مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا﴾، دليلًا على صحّة الوحي، فنفيُ علْمها من قبل، ثمّ الإخبار بها الآن أسلوبٌ من الحِجاج، إثباتًا لكون النّبيّ ﷺ إنّما أخبر بها وهي ليست من عنده، بل من عند علّام الغيوب، كما يتضمّن ذلك إبطالًا للأساطير الّتي زيّفت الحقائق، وروّجت للأباطيلِ في

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/305.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/215.

قوله تعالى: ﴿مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ﴾، كما أنّ فيه جانبًا من التّحدّي، بالإتيان بمثل القرآن أو بعضه، بإيراد أنباء الغيب الّتي لم تكن معلومة من قبل.

نكتةُ إيثارِ نفي الفعل الماضي:

توكيدُ المعاني عند ذكرِها مقدَّمٌ على مجرَّدِ ذكرِها

آثر النّظم الكريم في قوله جلّ شأنه: ﴿مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ﴾ النّفيَ بإدخال ﴿مَا﴾ النّافية على الفعل الماضي، دون أن يقول: (لم تكُنْ)؛ وذلك أنَّ نفيَ الماضي بلفظ ﴿مَا﴾، آكدُ من نفي الزّمن الماضي بإدخال (لم) على المضارع، ولو قال: (لم تكن) بالمضارعِ؛ فإنَّ دلالة نفي الكون المستمرّ، ليس لها فائدة في هذا السّياق، فليس الغرض بيانَ تجدّد وجوده في انتفاء المعرفة، بل المراد هو مطلق نفي عدم العلم بتلك الأنباء الغائبة في غياهب التّاريخ، فالنّفي بالماضي، هو نفي من الأصل؛ فلذا كان آكد.

نكتةُ التَّوكيدِ بضميرِ الفصل:

الإيماءُ إلى دحضِ تُهم العابثين تعريضًا بمن أرادَ رميَ سيِّد المرسلين

صرّح بليغ المنظوم بالضّمير المستتر في قوله تعالى: ﴿تَعْلَمُهَآ﴾، فقال عزّ ذكره: ﴿مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا﴾، ولم يقل: (ما كنت تعلمها ولا قومك)، مع جواز العطف على الضّمير المتّصل، لوجود الضّمير الفاصل (ها) في ﴿تَعْلَمُهَآ﴾، ووجود فاصل آخر وهو ﴿وَلَا﴾؛ وإنّما أظهره وصرّح به للتّأكيد، فجاء بالضّمير المنفصل العائدِ على النّبيّ ﷺ، تأكيدًا لكون النّبيّ ﷺ من الّذين لا يعلمون هذا الغيب قبل البعثة، للقَطْع بكونه إنّما عَلِمه الآن عن طريق الوحي، والمعنى "أنّ قومك الّذين أنت منهم على كثرتهم، ووفور عددهم، إذا لم يكن ذلك شأنَهم، ولا سمعوه ولا عرفوه، فكيف برجلٍ منهم، كما تقول: لم يعرفْ هذا عبدُ الله ولا أهل بلده"[1]،

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/166.

وفيه إيماءٌ إلى تكذيبِ من يتَّهم النَّبيَّ ﷺ بأنَّه تعلَّم القرآنَ من بشرٍ أعانوه عليه، فكان ذكرُ الضَّميرِ إيماءً تعريضيًّا بليغًا، أي: أنت على وجه الخصوصِ لم تكن تعلم ذلك.

بلاغةُ العطفِ انتقالًا:

الـتَّرقـي من الـقـلـيـلِ إلى الكثير، أو التَّدلي من الأعلى إلى الأدنى

في قوله عزّ ذكره: ﴿أَنتَ وَلَا قَوۡمُكَ﴾، ترقٍّ من القليل إلى الكثير باعتبار القلّة والكثرة، كقوله تعالى: ﴿وَلَن تَرۡضَىٰ عَنكَ ٱلۡيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ﴾ [البقرة: 120]، أو تدلٍّ من الأعلى إلى الأدنى باعتبارِ الرُّتبةِ، والمعنى: إنّ قومك على كثرتهم لم يعرفوه، فكيف برجل منهم[1]، والفائدة في قوله تعالى: ﴿وَلَا قَوۡمُكَ﴾، أنّ قومك مع كثرتهم ليسوا على علمٍ بالقصص والأخبار، وأنت أحدُهم، فلم يمكن تعلّمُك منهم، ولم يثبتْ أنّك خالطت غيرَهم، فثبت أنّ ما علمتَه لم يكن إلّا بالوحي[2].

احتمالُ الجمل الخبرَ أو الغيب:

الإخـبـار يـؤكّـد صـدق المـخـبِر، والـحـال يـصـوّر الكيفيّة

يتضمّن قوله جلّ شأنه: ﴿مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهَآ إِلَيۡكَۖ مَا كُنتَ تَعۡلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوۡمُكَ﴾ ثلاث جمل تحتمل كونها جملًا خبريّة أو حاليّة، وهي قوله تعالى: ﴿مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ﴾، وقوله: ﴿نُوحِيهَآ﴾، وقوله: ﴿مَا كُنتَ تَعۡلَمُهَآ﴾، فقوله: ﴿نُوحِيهَآ﴾ خبرٌ ثانٍ أي: مُوحاةٌ إليك، أو حال منْ أنباء الغيب، أي: مُوحاةً إليك، ﴿مَا كُنتَ تَعۡلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوۡمُكَ﴾، خبرٌ آخرُ أي مجهولةٌ عندك وعند قومك، أو حالٌ من الهاء، في ﴿نُوحِيهَآ﴾، أو الكافِ في ﴿إِلَيۡكَۖ﴾، أي: جاهلًا أنت وقومُك بها[3]. فعلى تقدير الخبر: (تلك من أنباء الغيب موحاةٌ إليك، مجهولةٌ عندك وعند قومك)، فيكون الإخبار بكونها وحيًا، وأنّها مجهولة لديهم، أخبارًا تساق للعلم بذلك، تأكيدًا لصحّة

(1) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 8/101.
(2) ابن كمال باشا، تفسير ابن كمال باشا: 5/168.
(3) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 8/100، وينظر: أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/215.

الوحي، وعلى تقدير الحال: (تلك من أنباء الغيب أشير إليها في حالة كونها متّصفةً بحالة الوحي وحالة جهل المتلقّي بها)، والغرض من الحال: تصوير الهيئة الّتي جاءت بها تلك الأنباء.

معنى حرفِ ﴿مِن﴾ ودلالته:

نفيُ العلم بأنباءِ القصصِ ممتدٌّ من لحظة الإيحاءِ امتدادًا مطلقًا

أدخل النّظم البليغ حرفَ ﴿مِن﴾ على الظّرف الدّالّ على الزّمن (قبل) في قوله تعالى: ﴿مَا كُنتَ تَعۡلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوۡمُكَ مِن قَبۡلِ هَٰذَاۖ﴾، فلمّا "كان زمانُ خفاء ذلك عنهم - وإن كان عامًّا لهم - بعضَ الزّمان الماضي، أدخل الجارّ فقال: ﴿مِن قَبۡلِ هَٰذَاۖ﴾، أي من إيحائي إليك، حتّى يطرق الوهم حينئذٍ أنّك تعلمتها من أحد منهم"[1]، فأشار بذلك إلى أنّ العلم بتفاصيل قصّة نوح، جاء بعد الوحي بها، تصريحًا بانتفاء علمه، وقطعًا لسبيل الطّعن عن مبتغِي الطّعنِ، بسماعه إيّاها من أهل الكتاب، والمعنى: نفيُ العلم ابتداءً من قبل نزول القرآنِ رجوعًا إلى سابقِ الزَّمانِ، فهو نفيٌ ممتدٌّ منذ لحظة نزول القرآن بأنباء هذه القصَّة إلى ما قبل النزول امتدادًا مطلقًا.

دلالةُ اسم الإشارةِ:

انتفاء العلم بالغيب عن كلِّ أحدٍ شاملٌ للزَّمان كلِّه

يدلّ اسم الإشارة في قوله تعالى: ﴿مَا كُنتَ تَعۡلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوۡمُكَ مِن قَبۡلِ هَٰذَاۖ﴾ على الإشارة إلى القرآن، ويصحّ أن يكون إشارة إلى الوقت، باعتبار ما في هذه القصّة من الزّيادة على ما ذكر في أمثالها ممّا تقدّم نزوله عليها، أو أنّها إشارة إلى النّبأ في قوله: ﴿تِلۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ﴾، فيكون تذكير اسم الإشارة ﴿هَٰذَاۖ﴾، بعد تأنيثه ﴿تِلۡكَ﴾ شبيهًا بالالتفات[2]. وسواء أكانت الإشارة إلى الوحي بالقرآن، أو إلى زمان الوحي، فالمؤدّى واحد، وهو انتفاء علم النّبيّ ﷺ ومن معه عن العلم بمضمون الخبر.

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/305.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/93.

معنى الفاءِ ودلالتُها:

الصّبر على المعاندين، للعلم بما حلّ بأمثالهم من السّابقين

أدخل النّظم الجليل حرفَ الفاء، في قوله عزّ ذكره: ﴿فَٱصۡبِرۡۖ إِنَّ ٱلۡعَٰقِبَةَ لِلۡمُتَّقِينَ﴾، لما فيها من دلالةٍ على التَّفريعِ والتّرتيب، ووجهُ تفريعِ أمرِ الرّسُولِ بِالصّبرِ على هذِهِ القِصّةِ أنّ فِيها قِياس حالِهِ مع قومِهِ على حالِ نُوح عليه السلام مع قومِهِ، فكما صبر نُوح عليه السلام فكانتِ العاقِبةُ لهُ كذلِك تكُونُ العاقِبةُ لك على قومك[1]، وهي "لترتيب ما بعدها على ما قبلها؛ إذ ترتّب على القصص الحقّ وما فيه من معاندة الكافرين، ونزول آية اللّه فيهم بالإغراق؛ الأمرُ بالصّبر حتّى يرى آية اللّه في المشركين من قريش، وإنّها آتيةٌ لا محالة، وإن كانت المجاهدة حتّى صارت كلمة اللّه هي العليا"[2].

غرضُ الأمرِ ونكتتُه:

الصّبر سبيلُ الأنقياء، ومنهجُ الأنبياء، ومآلُ الأتقياء

جاء الأمر في قوله تبارك اسمه: ﴿فَٱصۡبِرۡۖ إِنَّ ٱلۡعَٰقِبَةَ لِلۡمُتَّقِينَ﴾؛ للنّبيّ ﷺ بالصّبر إرشادًا وتسليةً وإشارة إلى المشابهة بين الرّسول الأوّل نوح عليه السلام، والرّسول الخاتم ﷺ؛ إذ كما صبر الأوّل، يجب أن يصبر الآخِرُ، وإشارة إلى أنّ كلّ شيء بالصّبر يهون، وأنّ به يسلس الحرون، أي "﴿فَٱصۡبِرۡۖ﴾ على ذلك ولا تفتر عن الإنذار، فستكون لك العاقبة كما كانت لنوح لأجل تقواه"[3]، وقد قال الشّعر الحكيم في هذا المضمار:

الصَّبْرُ مفْتاحُ ما يُرَجَّى *** وكُلُّ أمْرٍ بِهِ يَهُونُ

فاصْبِرْ وإنْ طالَتِ البَلايا *** فَرُبَّما أسْلَسَ الحَرُونُ

ورُبَّما نِيلَ بِاصْطِبارٍ *** ما قِيلَ هَيْهاتَ لا يَكُونُ[4].

توجيهُ تخصيصِ المتقين بالذِّكر:

الاكتفاء بالمعاني الجامعةِ منهجُ القرآنِ في التّنبيهِ على غيرِها

اقتصر النّظم الكريم في قوله تعالى: ﴿فَٱصۡبِرۡۖ إِنَّ ٱلۡعَٰقِبَةَ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/93.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3714.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/306.
(4) الخادمي، بريقة محموديّة: 3/79.

﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ بذكر التّقوى، وجعل العاقبة لهم دون الصّبر، فلم يقل: (إنَّ العاقِبَةَ لِلّصابِرِين) أو (المحسنين) أو (المؤمنين)؛ لدخول الصّبر في عموم مفهوم التّقوى، ولأنَّ التقوى سبيل المحسنين، ولأنَّ الإيمانَ شرطُ التقوى؛ فهذا من الإيجاز البليغ، فاكتفى بذكرِ المعاني الجامعة للدّلالةِ على غيرِها، فمن كان تقيًّا كان صبورًا نقيًّا.

غرضُ التَّوكيدِ:

ما يراه البشرُ ظاهرًا قاصرٌ عن باطنِ الحقيقةِ فحسُن معه التَّوكيدُ

جاء الخبر في قوله جلّ شأنه: ﴿إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾، مؤكّدًا بكونه جملة اسميّة وبالحرف ﴿إِنَّ﴾ تأكيدًا على تحقّق مضمونها، وهي بشارة لا يتوقّعها من قصُر نظره، وغاب عنه المشهد الشّامل، وقد كان النّبيّ ﷺ يمثّل هو وأصحابه الصّبر والتّقوى في أقصى تجلّياتهما، ممّا يسلّيه ويُطمئنُ أصحابه إلى الفرج القادم مهما ادلهمّت الخطوب. وفي ذلك إشارة إلى "أنّ التّقوى هي السّبب في حسن العاقبة، والنّصر المبين لمن خاف واتّقى"[1]، وكأنّه يقول له: ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾؛ لأنّك قد عرفت الآن نتيجة صبر نوح عليه السلام الّذي استمرّ ألف سنة إلّا خمسين عامًا، ويأتي بعدها قوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾"[2]؛ للتّأكيد على أنّ المصابرة كانت نتاج التّقوى والخشية من اللّه، وقد صبر نوح على الأذى الشّديد، والزّمن المديد، خشية للّه، ورجاء نصره وحماه.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الوحي والتّنزيل:

الوحي إعلام بخفاء متعدّد الكيفيّات، والتّنزيل علَمٌ على ما نزل به جبريل عليه السلام

الوحي أصْلُه يَدُلُّ عَلَى إلْقاءِ عِلْمٍ في خَفاءٍ[3]، ويقال للكلمة الإلهيّة الّتي تُلقى إلى أنبيائه وأوليائه: وحي، وذلك أضرب حسبما دلّ عليه

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3714.
(2) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 16492.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (وحي).

قوله تعالى: ﴿۞وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحۡيًا أَوۡ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوۡ يُرۡسِلَ رَسُولٗا فَيُوحِيَ بِإِذۡنِهِۦ مَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٞ ٥١﴾ [الشّورى: 51]، وذلك إمّا برسول مشاهد تُرى ذاتُه ويُسمع كلامُه، كتبليغ جبريل عليه السلام للنّبيّ ﷺ، في صورة معيّنة، وإمّا بسماع كلام من غير معاينة، كسماع موسى عليه السلام كلام اللّه، وإمّا بإلقاء في الرّوع وبالإلهام، نحو: ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَرۡضِعِيهِۖ﴾ [القصص: 7]، وإمّا بتسخير، نحو قوله: ﴿وَأَوۡحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحۡلِ﴾ [النّحل: 68]، وقوله: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ﴾ [الأنبيّاء: 25]. فهذا الوحي هو عامّ في جميع أنواعه[1]، أمّا التّنزيل فهو وصف عن كونه نزل من اللّه تعالى بواسطة، كقوله تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ١٩٣﴾ [الشّعراء: 193] النّزول: الهبوط من علوّ إلى سُفل[2].

(1) الرّاغب، المفردات: (وحي).
(2) السّمين الحلبي، عمدة الحفّاظ: (نزل).

﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ۝٥٠ يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۝٥١﴾ [هود: 50 - 51]

مُناسَبَةُ الآيَتَينِ لِما قَبلَهُما:

سردُ الدَّليلِ بعد الدَّليل، طريقةُ القرآنِ في تثبيتِ الحقِّ المبين

لمّا ذُكر في النّظم الكريم من قصّة نوح عليه السلام، "ما هو كفيل بغرض السّورة، وختم بأنّ العاقبة دائمًا للمتّقين، أُتبع بالدّليل على ذلك من قصص الأنبياء، مع الوفاء بما سيقت له قصّة نوح على جميعهم السّلام، من الحثّ على المجاهرة بالإنذار"[1]، وقد رتّب السّياق الحكيم القصّتين، بحسب السّبق الزّمني، فجاء بقصّة نوح الّتي استنبتت بها البشريّة بعد الطّوفان، ثمّ أورد قصّة هود سمّيت هذه السّورة بها، وهي هنا قصّةٌ مركزيّة في الصّراع بين الرّسل وأقوامهم، والّذي جسّدته قصص الأنبياء بوضوح وجلاء، "ولم يردْ ذِكرٌ لقوم عاد في الكتب القديمة سوى القرآن الكريم"[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَخَاهُمْ﴾: أصلُ (أخ): أخو، وهو: المشاركُ آخر في الوِلادَةِ من الطَّرفين، أو منْ أحدِهما أو منَ الرَّضاعِ. ويُستَعارُ في كلِّ مُشارِكٍ لغيره في القَبيلة، أو في الدِّين، أو في صَنعةٍ، أو في مُعاملةٍ أو في مَودَّةٍ، وفي غَير ذَلك منَ المناسبات. والأخوّةُ إذا كانت غير الولادةِ كانت للمشاكلة والاجتماع في الفعل، نحو: هذا الثَّوبُ أخو هذا، ونحوه قولُه تعالى: ﴿كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ [الإسراء: 27]، أيْ: مُشاكلوهم[3]. وقد يكونُ الأخُ: الصَّديقَ والصّاحبَ؛ ومنه قَوْلُهم:

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/306.
(2) إبراهيم القطّان، تيسير التّفسير: 2/223.
(3) الراغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (أخو).

(ورُبَّ أخٍ لم تَلِدْهُ أُمُّك)[1]، "والنّسبة إلى الأخ: أخَوِيّ، بفتح الهمزة، وإلى الأُخت: أُخْوِي، بضمّها، ومع الأخ: إخْوة، في القليل وفي الكثير: إخْوان"[2]. والمراد بالأخ في الآية: المشارِكُ في نَسَبِ القَبيلَةِ.

2) ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾: أصلُ (عبد): يَدُلُّ على لِينٍ وذُلٍّ[3]، ومنه قولهم: طريقٌ مُعبَّدٌ، أي: سَهْلٌ مُذلَّلٌ؛ لكثرة وطء الأقدام له[4]. والعُبُودِيَّةُ: إظهار التّذلّل، والعِبادَةُ أبلغُ منها؛ لأنَّها غاية التّذلّل، ولا يستحقّها إلّا من له غاية الإفضال، وهو الله تعالى، "والعِبادَة والخضوع والتّذلل والاستكانة، قرائب في المعاني.. والعِبادَة لا تُستحقّ إلّا بالنّعمة، لأنّ العِبادَة تنفرد بأعْلَى أجناس النّعم؛ لأنّ أقلَّ القَلِيل من العِبادَة، يكبُر عَن أن يسْتَحقّهُ إلّا من كانَ لَهُ أعلَى جنس من النّعمة، إلّا الله سُبْحانَهُ، فَلذَلِك لا يسْتَحق العِبادَة إلّا الله"[5]. والمراد بالعبادة في الآية: الخضوع المطلق لله ﷻ وحده.

3) ﴿مُفۡتَرُونَ﴾: أصلُ الفَرْي: القَطْعُ والشَّقُّ، والإفْراءُ للإفساد، والإفْتِراءُ فيهما، وفي الإفساد أكثر[6]. والفِرْيَةُ: الكَذِبُ، فَرَى كَذِبًا فَرْيًا، وافْتَراهُ: اخْتَلَقَه، وفي التَّنْزِيلِ العَزِيزِ: ﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ﴾ [هود: 35]؛ أي اخْتَلَقَهُ[7]، والافتراء: "العَظِيم من الكَذِب. يُقال لمن عمل عملًا، فَبالغ فِيهِ إنَّه لَيَفْري الفَرْيَ، يَعْنِي لَيقطعُ الأمرَ العجيبَ"[8]، "ومعنى افترى: افتعل واختلق ما لا يَصحّ أن يكون؛ وما لا يَصحّ أن يكون أعمّ ممّا لا يجوز أن يُقال، وما لا يجوز أن يُفعل"[9]. وأمّا المراد بالافتراء في الآية: فهو نوعٌ من الكذبِ، وهو ابتكارُ الأخبارِ الكاذبةِ، ويُرادفُ الاختلاقَ.

4) ﴿أَجۡرًاۖ﴾: أصلُ (أجر): الجَزاءُ على العَمَلِ[10]. ومنه سُمِّيَ الثَّوابُ أجْرًا؛ لأنَّ اللهَ

(1) الزّبيديّ، تاج العروس: (أخو).
(2) نشوان الحميري، شمس العلوم: (أخّ).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عبد).
(4) الجوهريّ، الصّحاح، وابن سيده، المحكم، وابن منظور، لسان العرب: (عبد).
(5) ابن سيده، المخصّص: (العبادة).
(6) الرّاغب، المفردات: (فري).
(7) ابن سيده، المحكم، وابن منظور، لسان العرب: (فري).
(8) السّجستانيّ، غريب القرآن، ص: 103.
(9) الكفويّ، الكليات، ص: 154.
(10) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أجر).

يَجْزِي العَبْدَ عليه. والأَجْرُ: العِوضُ، مَصْدَرُ أَجَرَهُ وآجَرَهُ يَأْجُرُهُ ويَأْجِرُهُ، والأجير: فعيل بمعنى فاعل أو مفاعل، والاستئجارُ: طلب الشَّيء بالأجرة[1]، وكان الخليل يقول: الأجر جزاء العمل، والفعل أجر، يأجر أجرًا، والمفعول مأجور. والأجير: المستأجر. والإجارة ما أعطيت من أجر في عمل[2]، والمقصودُ بالأجر في الآية: العِوضُ والجَزاءُ على العَمَلِ.

5) ﴿فَطَرَنِيٓ﴾: أصلُ (فطر): يَدُلُّ على فَتْحِ شَيءٍ وإبرازِهِ[3]، يقال: فَطَرَ البِئرَ، يَفطُرها، فَطْرًا، أي: شَقَّها وحَفَرَها. قال ابن عبّاس رضي اللّه تعالى عنهما: كنت لا أدري ما فاطر السّماوات حتّى أتاني أعرابيان يختصمان في بئر، فقال أحدهما: أنا (فطرتها) أي ابتدأتها[4]، والفَطْرُ: الخَلْقُ والإنشاء، يُقالُ: فطَرَ اللّه الخَلْقَ، أي: خَلَقَهُم وأنشأهُم، وهو إيجاده الشَّيء وإبداعه على هيئة مترشّحة لفعل من الأفعال، فقوله: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الرّوم: 30]، إشارةٌ منه تعالى إلى ما فَطَرَ؛ أي: أبدع وركَّز (ركَز) في النّاس من معرفته تعالى[5]، وتأتي الفِطْرَةُ بمعنى الغَريزَة، والطَّبيعة. والمقصود بقوله: ﴿فَطَرَنِيٓ﴾ في الآية: خلقني وابتدأ وجودي.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

يُخبِرُ تعالى أنَّه أرسَلَ إلى عادٍ أخاهم هودًا عليه السلام، فقال لهم: يا قَوْمي، اعبُدوا اللّه وحدَه، ليس لكم من إلهٍ يستحِقُّ العبادةَ غيرُه جلّ جلاله، فأخلِصوا له العبادةَ، فما أنتم إلّا كاذِبونَ في إشراكِكم باللّهِ، ويا قوم لا أسألُكم على ما أدعوكم إليه - من إخلاصِ العِبادةِ للّه، وتَركِ

عبادةُ اللهِ وحدَه هي أوّلُ الواجباتِ، وهي خالصُ دعوةِ المُرسَلينَ في كلِّ الدَّعوات

(1) الرّاغب، المفردات: (أجر).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (أجر).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (فطر).
(4) الرّازيّ، مختار الصّحاح: (فطر).
(5) الراغب، المفردات، والسّمين الحلبي، الحفّاظ: (فطر).

عبادةِ الأوثانِ - أجرًا، ما أجري على دَعوتي لكم إلّا على اللّهِ الّذي خلَقَني، أفلا تعقِلونَ أنِّي أدعوكم لمصلَحتِكم في الدُّنيا والآخرةِ، من غيرِ أُجرةٍ؟! فلو كنتُ أبتغي بدعوتِكم إلى اللّهِ، غيرَ النَّصيحةِ لكم، لطلبتُ منكم أجرًا على ذلك[1].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

نوعُ العطفِ ونكتتُه:

صراعُ الحقِّ مع أهلِ المكرِ، باقٍ على مدى الدَّهر

قوله عزّ ذكره: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾، معطوفٌ على قوله جلّ شأنه: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ﴾ [هود: 25] أي: (ولقد أرسلنا إلى عاد هودًا)[2]، وهو من عطفِ القصَّة على القصَّة، ونكتته بيان الصّراع بين الحقّ والباطل؛ لإيضاح معالم الكفران، ونتائج الجحود والطّغيان، وما اكتنفها من صُدود ونكران، وأنّ الكفرَ دائم، وأنّ إرسال الرّسالات من اللّه تعالى إلى عباده دائمٌ غير منقطع، وهذه أمثلةٌ ناطقةٌ بحقيقةِ الأمرِ، وبقاءِ المكرِ، على مدى الدَّهر.

فائدةُ حَذفِ عاملِ النَّصْبِ:

وظيفةُ الرُّسلِ يجبُ أن تكونَ حاضرةً في الأذهانِ منطوقًا بها في اللِّسان

قوله تبارك اسمه: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾، جاء قوله: ﴿أَخَاهُمْ﴾ منصوبًا بعامل محذوف دلّ عليه المعطوف عليه في قوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ﴾ [هود: 25]، أي: ولقد أرسلنا إلى عادٍ أخاهم[3]، فعطَفَ حرفُ الواو المجرورَ على المجرورِ، والمنصوبَ على المنصوبِ، كما يعطف المرفوع والمنصوب على المرفوع والمنصوب، نحو: (ضرب زيد عمرًا، وبكر خالدًا)[4]، وفائدةُ الحذفِ: تنبيهُ المخاطَب على ضرورةِ استحضارِ معنى الإرسالِ، وأنَّه ممّا يجبُ أن يكون حاضرًا في الأذهان، معمولًا بمقتضاه في الأبدان.

(1) ابن جرير، جامع البيان: 12/443، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/329.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/306.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/216.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/166.

دلالةُ التَّعبيرِ بـ ﴿أَخَاهُمْ﴾:

حكمةُ الدَّعوةِ تقتضي إرسالَ المعروفِ المألوف

عبَّرتِ الآيةُ بلفظِ ﴿أَخَاهُمْ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾؛ للدّلالة على أنّ له علاقة أخوّة في النّسب، فهو كان منهم ومن نسبهم، وهذا كقولنا: (يا أخا العرب)، بمعنى: يا عربيّ، وإنّما جعل الرّسول منهم لأنّهم أفهمُ لكلامه، وأوثق به ممّن يجهلون حاله، وأرغبُ في اقتفائه[1]، ويفيد ذلك التّلميح إلى أنّ الوصف بالأخوّة، مانعٌ من إرادة الأذى لهم، أو ابتغاء الضّرر بهم، وأنّه أدْعى لقبول الدّعوة، فإنّ الدّاعي إذا لم يكن معروفَ النّسب، فإنّه داعٍ للإعراض عن دعوته.

بلاغةُ الاستئنافِ البياني:

قول الأنبياء بلاغ مقطوع بصدقه، ودعوةٌ راسخةٌ بثباتِها

جاءَ قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ مفصولًا عمّا قبله؛ وذلك أنّه لمّا ذكر أنّه أرسله إلى قومه، كان ذلك "مظنةً للسّؤال عمّا قال لهم ودعاهم إليه، أُجيب عنه بطريق الاستئنافِ، فقيل: ﴿قَالَ﴾"[2] وهذا على طريقةِ المحاورات في استعمالِ الاستئنافِ البيانيِّ، وجاء التّعبير بذلك الفعل في صيغة الماضي، لتأكيد أنّ منهج الأنبياء بلاغٌ بلسان الصّدق المعبّر لقومه عن مراد اللّه تعالى.

دلالة أسلوب النّداء:

النّداءُ تنبيهٌ على أهميّة الكلام وتحفيزٌ لقلوبِ الأقوام

حكى النّظم الجليل افتتاح هودٍ عليه السلام دعوته بالنّداء، في قوله جلّ شأنه: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾؛ فخاطبهم بالنّداءِ؛ "لاسترعاء أسماعهم إشارةً إلى أهميّة ما سيلقى إليهم"[3]، فإنّ أسلوب النّداء بعبارة ﴿يَٰقَوۡمِ﴾، يدلّ على التّنبيه للفت العقول والقلوب، إلى المحتوى المراد من النّداء.

---

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/216، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/94.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/216.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/94.

دلالة الإضافة:

خطابُ الانتماءِ يورِّث التّأثير، ويُنادي على الظَّهير

أُضيف لفظُ (قوم) إلى ضمير المتكلِّم المحذوفِ تخفيفًا في قوله عزّ ذكره: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ طلبًا للتّأثير في نفوسهم، بأن يلينوا له، وينصاعوا لقوله؛ لأنّ معنى الإضافة هنا الانتسابُ إليه، فهم منه وهو منهم، كأنّه يقول: يا قومي "الذين هم أعزّ النّاس لديّ"[1]، ولا يغشّ المرءُ من كان عزيزًا عليه، بل المعتاد أن يبذل له غاية النّصح، ويترفّق بهم غاية التّرفُّق، وتلك جبلّة غريزيّة في البشر، لا ينفكُّون عنها، مهما كانت الظّروف، أو اكتنفتهم الصّروف.

غرضُ الأمر ودلالتُه:

الغاية الكبرى من الدّعوات، عبادةُ الله في كلِّ الحالات

جاء الأمر بالعبادة في قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾، دلالةً على أنّ شأن العبادة هو مرتكز التّوحيد في كلّ الدّعوات، فلمّا كانوا يشركون بالله تعالى غيره في العبادة، أمرهم بتخصيص العبادة لله وحده، "وفائدة هذا الأمر الإيذان بأنّ العبادة المقرونة بالإشراك، ليست عبادةً في الحقيقة، فخصّوه بالعبادة إن كنتم تعبدونه"[2]، وإنّما صرّح باسمه تعالى؛ لأنّه ساق ذلك الكلام تعريفًا للنّاس بإلههم الحقّ ﷻ، أي: اعبدوا الله الذي له الجلال والإكرام وحدَه[3].

بلاغةُ الاستئنافِ:

دعوى الأمرِ في القرآنِ مشفوعةٌ بتعليلِ البيان

جاءت الجملة في قوله جلّ شأنه: ﴿مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓۖ﴾ مستأنفةً؛ لتعليل الأمر بعبادة الله تعالى وحده[4] الوارد في قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾، ولنفي معبوديّة غير الله تعالى، استقصادًا للتّشنيع بعبادة شريك سواه، فهو "استئناف يجري

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/306.
(2) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 8/103.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/306.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/306.

مَجرى البيان، للعبادة المأمورِ بها، والتّعليلُ للأمر بها، كأنّه قيل: (خُصّوه بالعبادة ولا تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئًا؛ إذ ليس لكم من إله سواه)"[1].

دلالةُ حرفِ ﴿مِّنْ﴾ وغرضُه:

أيُّ صفاتٍ مستحقَّة للعزيز الجبّار فهي منفيَّةٌ عنِ الأغيار

أدخل النّظم المعجزُ حرفَ ﴿مِّنْ﴾ في قوله جلّ شأنه: ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾؛ للدّلالة على الاستغراق في النّفي، "أي: ما لكم أيّ إله غيره، فكلمة ﴿مِّنْ﴾ لاستغراق النّفي وشموله؛ لأنّ الألوهيّة تقتضي الانفراد بالخلق والتّدبير، وأن يكون المعبود واحدًا في ذاته وصفاته، ليس كمثله شيء، وقد كانوا يعرفون ذلك، فكيف يكون غيره"[2]، وغرضُ الاستغراقِ استغراقُ جميعِ ما يتصوّره الإنسانُ من الآلهةِ، ذاتًا أو اتِّصافًا، مَهما كانت هذه الصِّفات في نظر الإنسان فهي منفيَّةٌ عن أيِّ إلهٍ سوى الله تعالى.

فائدةُ القصرِ بالنَّفي والاستثناءِ:

النّفيُ يُقوِّي الحصرَ والاستثناء يُؤكِّد المضمونَ

جاء النّظم الكريم بأسلوب الحصر، في قوله تبارك اسمه: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ﴾، لتأكيد مضمون الجملة، والدّلالة على التّوبيخ والإنكار، بوصفهم الشّنيع ذلك؛ لتعلّقه بافتراء العبادة لغير الله تعالى، "وكلمة ﴿إِنْ﴾ نافية، ثمّ جاء بعدها الإثبات بكلمة ﴿إِلَّا﴾، أي أنتم مقْصورون على الافتراء والكذب المقصود بعبادتكم أوثانًا لا تضرُّ، ولا تنفع ولا تتكلّم ولا تتحرّك"[3]، وإيثارُ أسلوب النَّفي والاستثناء؛ لأنّ النّفي بـ ﴿إِنْ﴾ أقوى في النّفي من (ما)، وجاء النّفي كذلك تأكيدًا لقوّة الحصر؛ لأنّهم افتروا في أخطر شأن، وهو شأن الألوهيّة، فالإله المعبود واحدٌ "في ذاته وصفاته، ليس كمثله شيء، وقد كانوا يعرفون ذلك، فكيف يكون غيره؟ ولكنّهم

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/216.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3716.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3716.

فعلوا غيرَ المعقول، وغيرَ ما يوجبه العقل السّليم، ولذا قال: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ﴾"[1].

بلاغةُ استعمال مفردةِ الافتراء:

الافـــتراءُ أشـدُّ من الـكـذب؛ لما فيه من الاتِّهام المـبـيَّـت والمـكـر الخفيّ

جاء وصفُ عادٍ بالافتراء في قوله جلّ شأنه: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ﴾، ليخبرهم هودٌ عليه السلام أنّهم يعلمون أنّهم يكذبون، أي: أنتم "متعمّدون الكذب على اللّه في إشراككم به سبحانه؛ لأنّ ما على التّوحيد من أدلّة العقلِ غيرُ خافٍ على عاقلٍ، فكيف مع تنبيه النّقل؟! وذلك مكذِّب لِمن أشرك، أي: فاحذروا عقوبة المفتري"[2]، فوصفهم بالافتراء، كان نتيجة احتدام الصّراع بينهم وبين نبيّهم، حيث تفاقم شرّهم، وأعلنوا كفرهم الصّراح، وفسقهم البواح، وإيثارُ الوصفِ بالافتراءِ هو لبيانِ أنَّهم ليسوا مجرَّدَ كَذَبَة، بل مفترون مصرُّون معاندون على ما هم عليه من الإثم المبين، فالافتراء أشدُّ من الكذب، إذ يلزم منه الاتِّهام المبيَّت، والمكر الخفيّ.

دلالةُ تَكرار النِّداءِ:

تـكـرار الـنّـداء بالاستعطاف، تـأكـيـدٌ على تمحيض النّصح

كرّر النّظم الجليل في قوله تعالى: ﴿يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًاۖ﴾ النّداء تأكيدًا للاستعطاف[3]، والجملة لا تخلو من حالين:

الأولى: إذا قيلت في وقت غير وقت سابقتها، فهي جملة ابتدائيّة.

الأخرى: إذا قيلت متّصلة مع سابقتها في وقت واحد، فهي تهويلٌ للأمر، وتنبيهٌ للسّامع، واستجلاب للاهتمام[4].

دلالة نفي السُّؤالِ:

تجريد الفكرة والدّعوة من الأغراض المادّية، أصلٌ في قبولها

دلّ النّفي في قوله عزّ ذكره: ﴿يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًاۖ﴾،

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3716.
(2) البقاعي، نظم الدّرر: 9/306 - 307.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/307.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/95.

على براءته من غائلة الطّمع في دعوته، سدًّا لذريعة الظّنّ السَّيِّئ، وهو شعار كلّ الأنبياء، في مختلف العصور، إشارةً إلى أنّ الأنبياء، تعلّقهم بالخالق لا بالمخلوقين، وأنّهم دعاة لا جُباة، فنفى "أن يكون له في ذلك غرض غير نصحهم"[1].

دلالةُ الإضافةِ:

ديـدن الأنـبـياء حُـبُّ الـهـدى للنّاس والحرص على أقوامهم

في قوله جلّ شأنه: ﴿يَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًاۖ﴾، كرّر البيان القرآنيّ حكاية خطاب هود عليه السلام لقومه، بإضافتهم لنفسه؛ طمعًا منه لتليين نفوسهم ليقبلوا عليه ويشعروا بأنّه منهم، وأنّه يبتغي نصحهم محبّة بهم.

نكتةُ استعمال لفظ (الأجر):

إذا حضر أجرُ الله تعالى انطفأ أجـرُ الـنّـاس وتوارى

آثر النّظم الكريم استعمال لفظ الأجر دون المال في قوله جلّ شأنه: ﴿يَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًاۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِي فَطَرَنِيٓۚ﴾؛ لأنّ الأجر موضوعٌ لما يعطى بمقابل شيء من جهدٍ، وهو ما يعود من ثواب العمل[2]، والمال لا يُشترط فيه ذلك، كما أنَّ هودًا عليه السلام موعودٌ بالأجرِ العظيم من مولاه العظيم، فكيف ينظرُ إلى ما في أيديهم من متاعٍ فانٍ؟! فلمّا بلّغهم دعوته، نفى أنّه يطلب على ذلك ما يبتغيه سائر النّاس، تجريدًا لدعوته من عوارض الدّنيا. أمّا إيثار لفظ (المال)، في قصّة نوح عليه السلام، فإنّه قد وقع بعْدها ﴿خَزَآئِنُ﴾ [هود: 31] ولَفظ المال بالخزائن أليق[3].

نكتةُ تنكيرِ: ﴿أَجۡرًاۖ﴾:

مـا عـنـد الـلـه لـلأبـرار خـيرٌ من أجورِ هذه الدّار

نكَّر النّظم الكريم في قوله جلّ شأنه: ﴿يَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًاۖ﴾ لفظَ الأجر، لما في التّنكير في هذا السِّياقِ من معنى العموم؛ فالنّبيّ ﷺ لم يطلب منهم أجرًا مهما قلَّ أو كثُر؛ لأنَّ أجره عظيمٌ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/307.
(2) الرّاغب، المفردات، ص: 64.
(3) الكرماني، أسرار التّكرار في القرآن، ص: 144.

عند الله تعالى، فمهما قدَّم قومُه من مغرياتٍ فهو يرفضُها، وهذا ديدن الأنبياء والصّالحين، في تجرّد دعوتهم لنفع النّاس وهدايتهم، فجاء بالتّنكير ليعمّ كلّ أجرٍ، صغيرًا كان أو كبيرًا.

سرُّ استعمال: ﴿فَطَرَنِيٓ﴾:

آثر النّظم الكريم في قوله جلّ شأنه: ﴿إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِي فَطَرَنِيٓۚ﴾ بيان الخلق بالفعل (فطر) دون (خلق)؛ للدّلالة على أنّ الّذي خلق الموجودات بلا مثال سابق، إنّما هو الّذي بعثني، وهو الّذي أبتغي الأجر منه، وفي ذلك تعريضٌ بآلهتهم، الّتي لم تخلقهم ولم تنفعهم فنبّه بذلك على "الرّدّ عليهم في عبادتهم الأصنام، واعتقادهم أنّها تفعل، وكونه تعالى هو الفاطر للموجودات، يستحقّ إفراده بالعبادة"[1]، وفي ذلك تأكيد على أنّه فاطر الموجودات، على غير مثال سابق، فهو يستحقّ أن يُعبد دون سواه. فقوله: ﴿ٱلَّذِي فَطَرَنِيٓۚ﴾" أي: ابتدأ خلقي، ولم يشاركه فيَّ أحدٌ، فهو الغنيُّ المطلق لا أوجِّه رغبتي إلى غيره، كما يجب على كلّ أحدٍ لكونه فطرة"[2]، كما أنّه يُشير إلى الفطرة التي فطر الله النّاس عليها، "أي: خلقني على الفطرة السّليمة المستقيمة غير الملتوية"[3].

فاطرُ السَّماوات بلا مثال، جديرٌ أن يُطلب منه العطاء والنّوال

توجيه المتشابه اللفظيّ:

جاء التَّعبير حكايةً عن قول هودٍ عليه السلام: ﴿يَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًاۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِي فَطَرَنِيٓۚ﴾، وحكايةً عن قولِ نوحٍ عليه السلام: ﴿إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۖ﴾ [يونس: 72]، فيُسأل عن الفرق بينهما؟

والجواب عن ذلك: أنّ لفظ ﴿أَجۡرِيَ﴾، يوحي بأنّه مقابل منفعة، وما يقدّمه هود عليه السلام لهم غالٍ جدّا، ولا يُقدَّر بثمن؛ لأنّ فيه سعادة

هودٌ عليه السلام أعرضَ عن مطالبِ الدُّنيا، ونوحٌ عليه السلام تفانى في نُصحِ العبادِ

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/166.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/307.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3717.

الدّنيا، وفوز الآخرة، وإذا كانت الأجور تقدّم للمنافع المؤقّتة، فالتّعبير في قصّة هود، جاء بإيراد الاسم الموصولِ للتّفخيم، وعبّر في الصّلة بفعل الفطرة، لكونه أقدم النّعم من اللّه تعالى، المستوجبةِ للشّكر، الّذي يتحقّق بالجرَيان على موجب أمرِه، والإعراض عن المطالب الدّنيويّةِ الّتي من جُمْلتِها الأجرُ[1]. أمّا في قصّة نوح عليه السلام، فعبّر بلفظ؛ لأنّه ذكر بعده ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۚ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۚ﴾ [هود: 29]، فذكر لفظ الجلالة، إيماءً إلى سبب امتناعه عن طرد المؤمنين، وهو خوفه من اللّه تعالى.

بلاغة الإيجاز بالحذف:

حذفُ الموصوفِ تعريضٌ بغير اللّه تعالى من الأوثان

في قوله عزّ ذكره: ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِيٓۚ﴾ إيجاز بالحذف، والمحذوف هو الموصوف الّذي وقع الموصول وصلته صفةً له، والتّقدير: (إنْ أجْرِيَ إلّا عَلَى اللّه الَّذِي فَطَرَني)، وفي هذا الحذف دلالةٌ على التّعظيم؛ لأنّه لا يلتبس بأنّ المراد هو اللّه تعالى، ففي الحذف مع الفهم اعتمادٌ على شدّة الحضور في الأذهان، بحيث لا يختلف أحدٌ أو يكابر في أنّ اللّه تعالى هو الفاطر، وفي هذا الحذفِ تعريضٌ بالآلهةِ الّتي لم تخلق شيئًا.

نكتةُ التَّعبيرِ بالاسم الموصول:

لا مكابرةَ في أنَّ فاطرَ الكونِ هو اللّه تعالى وحدَه دون سِواه

آثر النّظم الكريم في قوله عزّ ذكره: ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِيٓۚ﴾ التّعبير بالاسم الموصول إبرازًا لعظمته تعالى وجلاله، والموصول هنا مع جملة الصّلة ﴿فَطَرَنِيٓۚ﴾ في محلّ صفة، فوصف اللّه تعالى بالصّفة الّتي لا يدافع أحدٌ في اختصاصها باللّه تعالى، فهو المتفرّد بكونه فاطر السّماوات والأرض وسائر المخلوقات، وعلى رأسها الإنسان، بحيث لا يتوهّم أحد نسبة ذلك إلى الشّركاء، كما أنّ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/216.

التّعبير بالموصول دون الاسم العلم يؤكّد أنّه "لا يسألهم على الإرشاد أجرًا بأنّه يعلم أنّ الّذي خلقَه يسوقُ إليه رزقَه؛ لأنّ إظهارَ المتكلّم علمَه بالأسبابِ، يُكسِب كلامَه على المسبّبات قوّة وتحقيقًا"[1].

معنى الاستفهام وغرضه:

دعـــوةُ العـقـلِ طردُ الجهل

اتَّجه الاستفهام في قوله تعالى: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ إلى معنى الإنكارِ على القوم الذين يعبدون من دون اللّه تعالى أصنامًا، فهو يُنكر عليهم "عدم تعقّلهم، أي: تأمّلهم في دلالةِ حالِه على صدقِهِ فيما يبلّغ، ونصحِه لهم فيما يأمرُهم"[2]، أي: أتغفُلون عن هذه القضيّةِ الّتي لا يُغفل عنها لوضوحها؟ وتكونون ممّن يجهل كلّ شيء؛ فإنّ هذا ممّا لا ينبغي أن يجهله أحدٌ من العقلاء[3]. وغرضُ الاستفهام تحريكُ العقولِ، وزحزحة الأفئدة، وإثارة القلوب، فإنَّ العقل إذا غابَ غاب معه العلم، وحضر الجهل، "كأنّه قيل: أفلا تعقلون نصيحةَ مَن لا يطلب عليها أجرًا إلّا من اللّه تعالى، وهو ثواب الآخرة؟ ولا شيء أنفى للتّهمة من ذلك"[4]، فالاستفهام بقوله تعالى: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾، ينسجم مع ما ذكره من انتفاء ابتغائه الأجر، فإنّ من هذا ديدنه، لا يكون إلّا ناصحًا أمينًا.

معنى الفاءِ ودلالتُها:

إذا حضَرَ العقلُ تبدَّدتِ الأوهامُ

عبّر النّظم الجليل في قوله جلّ شأنه: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾، عن دعوته عليه السلام إلى التّعقّل والتّدبّر، وجاء بالفاء التّفريعيّة الدّالّة على ترتيب ما بعدها على ما قبلها، والمعنى: أنّ حالهم أوجبت تنبيههم إلى أنّ ما هم فيه، يجب أن يتدبّروه؛ لأنّه غير معقول في ذاته؛ إذ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/95.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/95.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/216.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/166.

كيف يعبدون ما لا ينفع ولا يضرّ، وهو حجر لا ينطق ولا يعقِلُ[1]، فدلّت الفاء التّفريعيّة على ربط جملة آخر الآية، بما سبقها، ربطَ المقدّمة بالنّتيجة.

توجيه المتشابه اللّفظيّ:

اختلفت الآيتان فاصلةً واتّحدتا في صدرِها مراعاة للسّياق

اختلفت الفاصلة القرآنيَّة بين قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ﴾ [هود: 50]، وقوله تعالى: ﴿۞وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [الأعراف: 65]؛ فيُسأل: لِمَ خُصّتْ كلُّ آيةٍ بما فيها بعد قوله تعالى: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ﴾؟

والجواب: أنَّ آيةَ الأعراف يسبقها قوله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ ﴿٦٤﴾﴾ [الأعراف: 64]؛ فلمّا كانت هذه نهاية قوم نوح وكانت عادٌ خلفاء من بعدِهم، وكانت التّقوى وسيلةَ النّجاة من الهلاك، ناسبه قوله تعالى: ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [الأعراف: 65]. أمّا آية هود فسبقها قوله تعالى: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾؛ فلمّا كانت تلك إشارةً إلى ما كان من إغراق الله من أشركوا به وإنجاء مَن آمنوا ولم يشركوا، وكان إشراك عادٍ بعد هذا وتكذيبُهم لما جاءهم به هود عليه السلام افتراءً، ناسبه قوله: ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ﴾.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الكذبُ مخالفةُ الحقيقةِ، والافتراءُ مخالفتُها عن قصدٍ وتبييتٍ

الافتراء والكذب:

الكذب: هو عدم مطابقة الخبر للواقع، أو لاعتقادِ المخبر لهما،

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3717.

على خلافٍ في ذلك، والافتراء: أخصّ منه؛ لأنّه كذب المرء في حقّ غيره، بما لا يرتضيه، بخلاف الكذب فإنّه قد يكون في حقّ المتكلّم نفسه، ولذا يُقال لمن قال: (فعلت كذا ولم أفعل كذا) غير صادقٍ: هو كاذب، ولا يُقال: هو مفترٍ، وكذا من مدح أحدًا بما ليس فيه، يُقال: إنّه كاذب في وصفه، ولا يُقال: هو مفترٍ؛ لأنّ في ذلك ممّا يرتضيه المقول فيه غالبًا، وقال سبحانه حكاية عن الكفار: ﴿ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًاۚ﴾ [هود: 18]، لزعمهم أنّه أتاهم بما لا يرتضيه الله سبحانه مع نسبته إليه. وأيضًا قد يحسن الكذب على بعض الوجوه، كالكذب في الحرب، وإصلاح ذات البين، ووعد الزّوجة، كما وردت به الرّواية، بخلاف الافتراء[1]، فعبّر عنهم بكونهم مفترين؛ لأنّهم كذبوا على الله تعالى بما لا يرتضيه، بأن جعلوا له شركاء في العبادة.

الفَطْر والخلق:

الفَطْر من (فطر) وهو أَصْلٌ يَدُلُّ عَلَى فَتْحِ شَيْءٍ وإبْرازِهِ[2]. والفَطْر: الشّقُّ طولًا، قال تعالى: ﴿هَلۡ تَرَىٰ مِن فُطُورٖ ٣﴾ [الملك: 3]، أي: اختلال ووهي فيه، وفَطَرَ الله الخلق، وهو إيجاده الشّيء وإبداعه على هيئة مترشّحة لفعل من الأفعال، فقوله تعالى: ﴿فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَاۚ﴾ [الرّوم: 30]، إشارة منه تعالى إلى ما أبدع وركز في النّاس من معرفته تعالى، وفِطْرَةُ الله: هي ما ركز فيه من قوّته على معرفة الإيمان[3]، وفطر الله الخلق: خلقهم وبدأهم، والفطرة في قوله تعالى: ﴿فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَاۚ﴾ [الرّوم: 30]، هي الحالة والهيئة الّتي فُطِروا عليها من الإيمان به وحده[4]. فيدلّ الفَطر على الخلق، بمعنى أوّليّة الإيجاد، والخلق على هيئة مقرّرة سابقة عن

الفطر إيجاد على هيئة مقرّرة، والخلق هو الإيجاد على غير مثال سابق

(1) العسكريّ، الفروق، ص: 449 - 450.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (فطر).
(3) الرّاغب، المفردات: (فطر).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (فطر).

وجوده. أمّا الخَلْقُ فأصله: التّقدير المستقيم، ويُستعمل في إبداع الشّيء من غير أصل ولا احتذاء[1]، فالفطر يدلّ على أوّليّة الخلق، والخلق هو الإيجاد على غير مثال سابق. وفي الآية الكريمة، عبّر بـ الفَطْر، فقال: ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾، إشارةً إلى أنّه مستقيم على وفق ما خلقه اللّه تعالى له.

(1) الرّاغب، المفردات: (خلق).

﴿وَيَٰقَوۡمِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا وَيَزِدۡكُمۡ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمۡ وَلَا تَتَوَلَّوۡاْ مُجۡرِمِينَ ٥٢﴾ [هود: 52]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

بعد التّرهيب يحسُن التّرغيب، عدلًا من الله تعالى وفضلًا

مناسبة الآية لما قبلها أنّ هودًا عليه السلام، لمّا دعا قومه مشيرًا إلى ترهيبهم مستدلًّا على الصّدق بنفي الغرض، رغّبهم في إدامة الخوف ممّا مضى بقوله تعالى: ﴿وَيَٰقَوۡمِ﴾، ومَن هم أعزّ النّاس عليّ"[1]، "اطلبوا من خالقكم أن يغفر لكم ما سلف من ذنوبكم، ثمّ ارجعوا إليه. إنّكم إن فعلتم ذلك، يُرْسِلِ المطر عليكم متتابعًا، فتكثر خيراتكم، ويزدكم قوّة إلى قوّتكم الّتي تغترُّون بها، ولا تعرضوا عمّا أدعوكم إليه، مصمّمين على الإجرام الّذي يرديكم في الهلاك"[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱسۡتَغۡفِرُواْ﴾: الغَفْرُ في الأصْلِ: التَّغْطِيَةُ والسَّتْرُ، ويُرادُ بِها التَّجاوُزُ عَنِ الذَّنْبِ وعَدَمُ المُؤاخَذَةِ بِهِ، يُقالُ: غَفَرَ اللّٰهُ ذَنْبَهُ غَفْرًا ومَغْفِرَةً وغُفْرانًا، أي: سَتَرَها وتَجاوزَ عنْها[3]. والاسْتِغْفارُ: طَلَبُ ذلك بالمقال، والغُفْرانُ والمَغْفِرَةُ منَ اللّٰه هو أن يَصُون العَبد من أن يمسَّه العذاب[4]. والمراد من الاستِغْفار في الآية: طَلَبُ المَغْفِرَةِ لِلذَّنْبِ، أي: طَلَبُ عَدَمِ المُؤاخَذَةِ بِما مَضَى منهم منَ الشِّرْكِ[5]، فهو توبةٌ وإيمانٌ واستغفارٌ عمّا كان.

2) ﴿مِّدۡرَارٗا﴾: أصلُ (درّ): يَدُلُّ على تَولُّدِ شَيْءٍ عَنْ شَيْءٍ، فالدَّرُّ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/307.
(2) لجنة من علماء الأزهر، المنتخب في تفسير القرآن الكريم، ص: 316.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (غفر).
(4) الرّاغب، المفردات: (غفر).
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/95.

دَرُّ اللَّبَنِ، والدَّرَّةُ دَرَّةُ السَّحابِ: صَبُّهُ، ويُقالُ: سَحابٌ مدْرارٌ. والمدرارُ: الكثيرُ الدَّرِّ، وهو من أبنية المبالغة. ومنْ ذلكَ قَولُهُم: لِلّهِ دَرُّهُ، أي: عَمَلُهُ، وكَأَنَّهُ شُبِّهَ بِالدَّرِّ الَّذي يَكُونُ من ذَواتِ الدَّرِّ. ومن البابِ: دَرَّتْ حَلُوبَةُ المُسلِمينَ، أي: فَيْئُهُم وخَراجُهُم، ولِهذِهِ السُّوقِ درَّةٌ، أي نَفاقٌ، كَأَنَّها قَدْ دَرَّتْ. وهُو خِلافُ الغِرارِ، "قَوْله: يدرّ لَبنها، أي: تمتلئ ثدياها منْهُ، بِفَتْح الياء وكسر الدّال، ويكون أيْضًا بِمَعْنى سالَتْ يُقال درّت السَّماء، إذا أمْطرت، وسماء مدرار: غزيرة المَطَر"[1]. والمقصود بقوله: ﴿مِّدۡرَارٗا﴾ في الآية: صِيغَةُ مُبالَغَةٍ من الدُّرُورِ، وهو الصَّبُّ، أي: غَزِيرًا.

3) ﴿وَلَا تَتَوَلَّوۡاْ﴾: أصْلُ (ولي): يَدُلُّ على قُرْبٍ، منْ ذلك الولْيُ: القُرْبُ، يُقالُ: تَباعَدَ بَعْدَ ولْيٍ، أي: قُرْبٍ. وجَلَسَ ممّا يَلِينِي، أي: يُقارِبُنِي[2]. والولايَةُ: تَولِّي الأمرِ، فإذا عُدِّي (تَولَّى) بنفسِه اقتَضَى معنَى الولايَةِ، وحُصُولِهِ في أقْرَبِ المواضِعِ، وإذا عُدِّي بـ (عَنْ) لفظًا أو تقديرًا اقتَضَى معنَى الإعراضِ وتَرْكِ قُربِهِ. فمنَ الأوَّل قوله: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡۗ﴾ [المائدة: 51]، ومنَ الثّاني قوله: ﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِٱلۡمُفۡسِدِينَ ٦٣﴾ [آل عمران: 63][3]. والمرادُ بالتَّولي في الآيةِ: الإعْراضُ والإدبارُ: وهو مُستعارٌ هنا للمُكابرةِ والعِنادِ[4].

4) ﴿مُجۡرِمِينَ﴾: أصْلُ الكَلِمَةِ من الجَرْم، وهو: القَطْعُ[5]، وقِيل أصْلُه: الكَسْبُ، وفُلانٌ جَرِيمَةُ أهْلِهِ، أي: كاسِبُهُم، ومنه سُمِّيَ الذَّنْبُ جُرْمًا؛ لأنَّهُ كَسْبٌ لِصاحِبِهِ[6]. والإجْرامُ: ارْتِكابُ الجُرْم وهُو الإثْمُ العَظِيمُ، وأعْظِمْ بالإجرام الكفْر[7]، يُقال: أجْرَمَ الرَّجُلُ: إذا ارْتَكَبَ ذَنْبًا أو جَنَى جنايةً[8]. والمُجْرِمُ في اصطلاحِ القُرآنِ هو الكافِرُ، كقولِهِ تَعالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضۡحَكُونَ ٢٩﴾ [المطفّفين: 29]، وهو المراد هنا.

(1) القاضي عِياض، مشارق الأنوار: 1/255.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ولي).
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/102.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ولي).
(5) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (جرم).
(6) ابن عبّاد، المحيط في اللّغة، والجوهريّ، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (جرم).
(7) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/210.
(8) ابن عبّاد، المحيط في اللّغة: (جرم).

المَعْنى الإجْماليُّ:

من أطاعَ المعبودَ نالَ المطلوبَ وحقَّق المرغوب

قال الحقُّ ﷻ حكايةً عن هود عليه السلام أنَّه خاطبَ قومَه: ويا قَوْمي، اطلُبوا من رَبِّكم سَترَ ذُنوبِكم الماضيةِ، والتَّجاوُزَ عن المؤاخَذةِ بها، ثمَّ توبوا إليه فيما تستقبِلونَه، وذلك بالتَّوبةِ النَّصوحِ، والرُّجوعِ إلى عبادتِه وحدَه وطاعتِه؛ فإنَّكم إن فعلتُم ذلك يُرسِلِ المطرَ عليكم، فتُخصِب الأرضُ، ويكثُر خَيرُها، ويَزِدْكم اللهُ - إن استغفَرتُم وتُبتُم - شِدَّةً مُضافةً إلى شِدَّتِكم، وأموالًا وأولادًا، ولا تُعرِضوا عمّا أدعوكم إليه من توحيدِ اللهِ وعبادتِه، وتُصِرُّوا على الكُفرِ والعِصيان[1]، ومن التزم بالمطلوب، نال من الله المرغوب، فقد بيَّنت هذه الآية الكريمة أمرين مهمَّين: الأوَّل: أنّ غايةَ ما يُرادُ من السَّعاداتِ الدُّنيويّة: كثرةُ النِّعم، وكمالُ القُوَّةِ للاستمتاعِ بها. والثّاني: نلحظ كثيرًا ما يُقرن الاستغفارُ بذكر التَّوبةِ؛ ليكون الاستغفارُ حينئذٍ عبارةً عن طلبِ المغفرةِ باللِّسانِ، والتَّوبةُ عبارةً عن الإقلاع عن الذُّنوبِ بالقُلوبِ والجوارح[2].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالة العطفِ بالواو:

رُسُلُ الله تعالى يتحرَّكون بعنايةٍ بالغةٍ ورعايةٍ عاليةٍ

عُطف قوله جلّ شأنه: ﴿وَيَٰقَوۡمِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ﴾ على قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾، فأعيد الخطاب بـ (يا قوم) تأكيدًا لما في الخطاب به أوّل مرّة من الاستعطاف وبيان أنّه منهم إظهارًا لحرصه عليهم، وكونه يبتغي لهم الخير؛ لأنّهم قومه، فالعطف بالواو بين الجمل المفتتحة بالنّداء ينبّه على اتّصال بعضها ببعض، وأنّ أحدها لا يغني عن الآخر[3].

(1) ابن جرير، جامع البيان: 12/445، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 9/51، والسّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 383.

(2) ابن رجب، جامع العلوم والحكم: 2/407.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/54.

دلالةُ تَكرارِ النّداء:

النّداء أدعى لإيقاظ السّامع، والانتباه إلى الخطاب النّافع

بدأ هود عليه السلام خطاب قومه كما حكاه عنه قوله تعالى: ﴿وَيَٰقَوۡمِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ﴾، بالنّداء تنبيهًا لهم، وتهيئةً لمسامعهم، وإيقاظًا لهم على أهميّة ما سيقوله لهم، فالنّداء يدلّ على أهميّة مضمون الخطاب الّذي سيأتي بعده، حتّى يأخذ السّامع أُهبته عند سماعه مضمون الخطاب. والمعنى: "ويا قوم استغفروا ربّكم من ذنوبكم، ثمّ توبوا إليه توبةً نصوحًا، إنّكم إن فعلتم ذلك، يرسل المطر عليكم كثيرًا، فأنتم في حاجة إليه، ويزدكم قوّةً إلى قوّتكم، وعزًّا زيادة على عزّكم"[1]، وهو ما يُبرهن على شديدِ عنايته بقومه بتَكرارِ هذا النِّداء، فإنَّ النِّداءَ إذا تكرَّر نبَّه وأيقظ، ودلَّ على عنايةِ هؤلاءِ الرُّسلِ الكرام بأقوامهم، وأنَّهم ما بلغوا رفعًا للتَّكليفِ، ودفعًا للاعتذار.

نكتة الإضافة:

نسبة القوم إلى النّفس، تأكيدٌ لتمحيض النّصح

كرّر النّظم الجليل حكاية عن هود عليه السلام، خطابه لقومه بإضافتهم إلى نفسه في قوله عزّ ذكره: ﴿وَيَٰقَوۡمِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ﴾، بيانًا لكونهم أعزّ النّاس عليه[2]، وذلك لبيان إصراره وطمعه بتليين قلوبهم، وتأكيد صدقه وحرصه على هدايتهم، فإنّ النّاس أكثر ثقة بمن يعلمون من ثقتهم بمن لا يعلمون، فتكرار قوله (يا قوم)، هو التعطّف وتليين القلوب، رغبةً في صلاحهم، وشفقةً عليهم من سوء العقبى، والأيلولة إلى الهلاك، إذا استمرّوا على هذا العناد والفساد.

بلاغةُ المجازِ المرسل في لفظ الاستغفار:

الاستغفارُ مآلُ الإيمان وتركُ الأوثان

عبّر النّظم الكريم على طريقة الإيجاز البليغ بالاستغفار كنايةً عن الإيمان في قوله جلّ شأنه: ﴿يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا

(1) حجازي، التّفسير الواضح: 2/129.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/308.

﴿وَيَزِدۡكُمۡ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمۡ﴾، فقوله: ﴿ٱسۡتَغۡفِرُواْ﴾ أمرٌ بالاستغفار والمرادُ الإيمانُ وتركُ عقيدة الشّرك على سبيل المجاز وعلاقته المسبَّبيَّة، وهو في طلب الغفران، بقول: (أستغفر اللّه) حقيقة؛ "لأنّ الاستغفار من اللّه يستلزم الاعتراف بوجوده، ويستلزم اعتراف المستغفِر بذنبٍ في جانبه، ولم يكن لهم ذنب قبل مجيء هود عليه السلام إليهم، غيرَ ذنب الإشراك؛ إذ لم يكن له شرع من قبل، وأمّا ذنب الإشراك فهو متقرّر من الشّرائع السّابقة جميعها، فكان معلومًا بالضّرورة؛ فكان الأمر بالاستغفار جامعًا لجميع هذه المعاني تصريحًا وتكنيةً"[1].

فذكرُ الأمر بالاستغفار بيانُ المطلوب بالمآل، فكأنَّه قال: آمنوا وانبذوا الشِّرك، واستغفروا اللّه تعالى بعد ذلك على ماضيكم، وتوبوا إليه توبةً نصوحًا، فطوى ذكر شرط الاستغفار المقبول وهو الإيمان، تنبيهًا على أنَّ القومَ يعلمون باطلَهم ويُصرُّون عليه، فكان هذا داعية ذكر الاستغفار.

فائدةُ الإضافة:

الدّعوة إلى الله بالتّذكير بإنعامه أدعى للإقناع بفضله وإكرامه

أضاف هود عليه السلام لفظ الرّبوبيّة إلى ضمير قومه، حال مخاطبتهم، كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَيَٰقَوۡمِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ﴾؛ وذلك "للإشارةِ إلى ما يبعثهم على عبادته، وهو أنّه الذي خلقهم وربّاهُم، ودبّر أمورهم بحكمته وإرادته"[2]، ففي الإضافةِ تثوير العقلِ للفهم، وتحريك القلب للاستجابةِ، وهمز الفؤاد لليقظة، فالخالق المربِّي الرّازق هو صاحبُ الإنعام، وذو الإكرام سبحانه، فهي دعوةٌ لاستغفار الحقيقِ بالحقِّ، لا الوهم الحقيق بالنَّبذ.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/95 - 96.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3717.

معنى حرفِ التراخي ودلالتُه:

لا يُتصوَّرُ تحقيقُ التّوبةِ النَّصوح قبل الاستغفار اللَّحوح

آثر النّظم الكريم عطفَ الأمر بالتّوبة على الأمر بالاستغفار في قوله تعالى: ﴿ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ﴾ بحرف العطف (ثمّ)، إشارةً إلى أنَّ رتبةَ التّوبة أعلى من رتبةِ الاستغفار، أي: تسنّموا "عالي هذه الرّتبة بأن تطلبوا ستر اللّه لذنوبكم، ثمّ ترجعوا إلى طاعته بالنّدم والإقلاع والاستمرار"[1]، فهي للتّرتيب الرّتبي؛ لأنّ الدّوام على الإقلاع عن الذّنوب، أعلى منزلة من طلب العفو عمّا سلف[2]. وهذا التَّراخي الرُّتْبي يُلاحظُ فيه التَّراخي الزَّماني؛ إذ لا يُتصوَّر تحقيق التَّوبة النَّصوح قبل الاستغفار اللَّحوح.

نكتةُ تقديم الاستغفارِ:

التَّدرّج بطريقِ التَّرقّي من الأخفِّ إلى الأثقل

في قوله جلّ شأنه: ﴿وَيَٰقَوۡمِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ﴾، قدّم الاستغفار على التّوبة؛ لأنّ الاستغفار نوعٌ من الدّعاء؛ فهو طلب المغفرة، أمّا التّوبة فهي الإقلاع والدّوام على التّرك، وعدم العودة، فالتّوبة أعلى شأنًا، فبدأ بالأقلّ رتبة، ثمّ ترقّى إلى الأعلى؛ ليأتي ترتيب التّكليف من الأخفّ على النّفوس إلى الأثقل عليها؛ لأنّ التّوبة تقتضي التّغيير في السّلوك والفعل، وليس مجرّد صيغة من الألفاظ لطلب العفو، والاستغفارُ مقدِّمة التَّوبة، فلا يُتصوَّر بدونِها.

فائدةُ توالي الأوامر:

تعقيب الاستغفار بالتّوبة دليلٌ على بشاعةِ الأفعال وشناعة الأعمال

في قوله تعالى: ﴿ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ﴾، جمع النّظم الكريم الأمرَ بالاستغفارِ والتّوبة في هذه الآية؛ لأنّهما مرتكزان مهمّان في منهج الإقبال على اللّه، ويلخّصان دعوة هود عليه السلام لقومه، كما أنّ الجمع بينهما يدلّ على تأكيد الطّلب بذلك، إشارة إلى الأعمال بعد الإيمان، أي "اطلبوا مغفرة اللّه بالإيمان، ثمّ توسّلوا إليها بالتّوبة،

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/308.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/96.

وأيضاً التّبرّي عن الغير، إنّما يكون بعد الإيمان منهم بالله، والرّغبة فيما عنده"[1]، كما أنّ الجمع بين طلب المغفرة وبين الإقلاع عنها، والنّدم بيان لأوّل الأعمال الّتي عليهم القيام بها إثر إيمانهم، تهويلًا لفحش ما كانوا يقومون به، وأنَّهم بحاجةٍ إلى توبةٍ بعد طول استغفار، وهو إشعارٌ لهم بجَسامةِ أفعالِهم، وشناعةِ أعمالهم.

دلالةُ جوابِ الأمرِ وفائدتُه:

دفعُ أوهامِ الافتقارِ عند تحقيقِ الاستغفار

جعل النّظم الجليل جوابَ الأمر: ﴿ٱسۡتَغۡفِرُواْ﴾ قولَه تعالى: ﴿يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا وَيَزِدۡكُمۡ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمۡ﴾ وهو الجزاءُ الذي ينتظرهم، إذا تحقَّق منهم الاستغفار، فجعل نتيجة الاستغفار ما يسرّهم من زيادة الخير والقوّة، وقد قصد هود عليه السلام من ذلك "استمالتَهم إلى الإيمان، وترغيبَهم فيه بكثرة المطر، وزيادة القوّة؛ لأنّهم كانوا أصحاب زروع وبساتين وعمارات، حُرّاصًا عليها أشدّ الحرص، فكانوا أحوج شيء إلى الماء"[2]، كما أنَّ القومَ كان عندهم هاجس الخوفِ من الفقر إن آمنوا، ولا سيَّما أنهم اتَّهموا نوحًا عليه السلام بأنَّه قد اتَّبعه الأرذلون، فكان هذا عدةً كريمةً بأن يُغنيهم الله تعالى من واسع فضلِه، وأن يُديم عليهم ما كان لهم.

بلاغةُ اجتماعِ الاستعارةِ والمجازِ المرسل:

المبالغةُ في الرِّزقِ الوفيرِ والتَّعريضُ بمصدرِ العذابِ الكبير

في لفظِ ﴿ٱلسَّمَآءَ﴾ في قوله جلّ شأنه: ﴿يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا﴾ استعارةٌ فقد شبَّه السَّماءَ بالضِّرع التي تدرُّ اللّبن، فحذف المشبَّه به وذَكَرَ لازمًا من لوازمه وهو ﴿مِّدۡرَارٗا﴾ على سبيل الاستعارةِ المكنيَّة الأصلية.

كما أنَّ فيه مجازًا مرسلًا، وعلاقته المحليّة؛ إذ أطلق السَّماءَ والمراد السَّحاب، وعبّر عنه بالمكان الّذي نزل منه، من قبيل إطلاق

(1) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 8/102.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/166.

المحلّ، وإرادة الحالّ فيه، فمعنى السّماء: السّحاب أو المطر، تسميّةً للشّيء باسم مصدره[1]، ونكتةُ ذلك المبالغة في بيانِ كثرةِ الرِّزقِ النّازلِ من السَّماء في تصوير إرسال السَّماء لا المطر الذي في السَّماء فحسب، وأمارته ﴿مِّدۡرَارٗا﴾.

كما أنَّ فيه تعريضًا بأنَّ هذه السَّماء سيأتيكم منها العذاب بدل الرِّزق إن عاندتم في كفرِكم، وبقيتم على حالكم.

نكتةُ تقديم الجارّ والمجرور:

جزيل الإنعام على الاستغفار، بتخصيص إرسال الماء المدرار

قيّد النّظم البليغ إرسال السّماء بأنّ ماءها نازلٌ عليهم فقال عزّ ذكره: ﴿يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا﴾، وهذا يصف حقيقةً واقعةً لأنّ الماء ينزل من علوّ السّماء، فالتّصريح بدلالة العلوّ لا يُراد منه الإخبار بالمعلوم، يُراد به بيان الإنعام بأنّ هذا الإرسال عليهم ليس عذابًا، بل هو نعيمٌ لأجلهم، فهو مختصّ بهم؛ ولذا قدّمه على الحال، فلم يقل: (يرسل السماء مدرارًا عليكم).

بلاغةُ الاستعارةِ المكنيَّة:

سعة الإنعام بنزول المطر، منحة الجليل للتّائبين من البشر

عبّر النّظم المعجز بصيغة المبالغة ﴿مِّدۡرَارٗا﴾ من الدّرّ، في قوله تعالى: ﴿يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا﴾ وهي على وزن (مفْعال)، للمبالغة في الإنعام وكثرة الماء الّتي من لوازمها وفرة الخير، وجودة الحياة ونماؤها، وهو من الألفاظ القرآنيّة الفريدةِ؛ فإرسالُ السّماء بماء الغيث المنهمر، فيه معنى السّموّ والاتّساع والغزارة، أي: هاطلة بمطر غزير متتابع[2]، وفي لفظِ ﴿مِّدۡرَارٗا﴾ تشبيه نزول الماء الكثير بدرِّ اللَّبن، على سبيل الاستعارة التَّصريحيَّة التَّبعيَّة.

وجهُ الوعدِ بإنزالِ الماءِ:

خصّ النّظم الجليل الإنعام على عادٍ بالغيث في قوله تعالى:

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/96.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/308.

الوعدُ بالإنعام على قَدْر ما تستوعبه الأفهام

﴿يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا﴾؛ لأنّ الوعد بجعل السّماء عليهم مدرارًا، منسجم مع طبيعة البيئة في حضرموت، والأحقاف، وفي اليمن الخصيب، فهي بحاجة إلى الماء الغزير، لتخضرّ وتُنبِت الزّرع والثّمر، وهي قوّة اقتصاديّة، "ولقائل أن يقول: وما صلة الاستغفار بهذه المسألة الكونيّة؟ ونقول: إنّ للكون مالكًا لكلِّ ما فيه؛ جماده ونباته وحيوانه؛ وهو سبحانه قادر، ولا يقدر كائن أن يعصي له أمرًا؛ وهو القادر أن يُخرج الأشياء عن طبيعتها؛ فإذا جاءت غيمة، وتحسب أنّها ممطرة؛ قد يأمرها الحقّ سبحانه فلا تُمطِر"[1].

نكتةُ تقديم إرسال الغيث:

الأسبابُ مقدِّماتُ النَّتائج وجوامع الحوائج

جاء تقديمُ قوله تعالى: ﴿يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا﴾ على قوله تعالى: ﴿وَيَزِدۡكُمۡ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمۡ﴾، وهو من بابِ تقديم السّببِ على النّتيجة، باعتبار أنّ الخصبَ سببٌ في المال، والمال سببٌ للقوّة، ولهذا قدّم هذا على ذاك، وهذا على حدِّ قوله تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ كُلَّ شَيۡءٍ﴾ [الأنبياء: 30].

غرضُ النّهي:

شكر النّعمة سبيلُ الإلهام، والتولّي طريقُ الإجرام

في قوله عزّ ذكره: ﴿وَلَا تَتَوَلَّوۡاْ مُجۡرِمِينَ﴾ عطف النّهي عن التّولّي على قوله تعالى: ﴿ٱسۡتَغۡفِرُواْ﴾ والنّهي عن التّولّي عن الإيمان مع الإجرام يفصح عن ضرورة اتِّباع الإنعام بالخصب العميم، والتّمكين العظيم، بشكر المُنعم الكريم، والإيمان به ﷻ، فنهى عن استعمال تلك النّعم في الفساد والطّغيان، لتفادي سوء المنقلب، فنهاهم عن الفساد والإجرام بالقوّة التي أنعم عليهم بها، وهي إن لم تُشكَر كانت سببًا للإجرام، أي: لا تتولّوا حال كونكم بهذه القوّة فتكونوا قومًا مجرمين[2].

(1) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 11/6498.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3717 - 3718.

دقّةُ الاستعمالِ الصَّرفي:

التّولّي عن الحقّ كلفةٌ تخالف الفطرة

في قوله عزّ ذكره: ﴿وَلَا تَتَوَلَّوْاْ مُجْرِمِينَ﴾ عبّر عن التّولّي بصيغة الافتعال، للدّلالة على أنّ التّولّي ليس من طبيعة النّفس البشريّة، إلّا بتكلّف وتعنّت، أي: لا "تكلّفوا أنفسكم غيرَ ما جُبلت عليه، من سلامة الانقياد، فتبالغُوا في الإعراض"[1].

توجيه المتشابه اللّفظيّ:

الجملةُ المتناسبةُ مع سياقِها استعمالٌ أنيقٌ وانتقاءٌ دقيق

اختلف التَّعبير بالمعطوفِ في قوله تعالى: ﴿يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ﴾، وفي قوله تعالى: ﴿يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ﴾ [نوح: 11 - 12]، فيُسأل عن سرِّ ما خُصّ به كلُّ موضع بما فيه بعد قوله: ﴿يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا﴾؟

والجواب: أنَّ آية هود بدأت بقوله تعالى: ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا﴾؛ فلما كان اللّه تعالى قد قال لنوح عليه السلام: ﴿ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ﴾، وكان من البركة زيادة القوّة قوّةً، ناسبَه في قصَّة هودٍ قوله: ﴿وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ﴾، أمّا آية نوح فسبقها قوله في أوّل السّورة: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١﴾﴾ [نوح: 1]؛ فلمّا كان العذاب الأليم سببًا لإهلاك المال والحرث والنّسل، ناسبه أن يكون الاستغفار سببًا لما يجلبها، بقوله: ﴿وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴿١٢﴾﴾ [نوح: 12]، كما أنَّ الجملتين تُعدّان من البيان القرآني، فكلُّ جملةٍ منهما تُفسِّر الأخرى، فذكر في كلِّ موضعٍ ما يُناسبه.

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/308.

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الاستغفار والتّوبة:

اسْتَغْفَرَ اللّهَ ذنبَه: طَلَبَ منْهُ غَفْرَه[1]، فالاستغفار طلب المغفرة. أمّا التَّوْبةُ: فهي الرُّجُوعُ منَ الذَّنْبِ[2]. وهي في الشّرع: ترك الذّنب لقبحه، والنّدم على ما فرط منه، والعزيمة على ترك المعاودة، وتدارك ما أمكنه أن يتدارك من الأعمال بالأعمال بالإعادة، فمتى اجتمعت هذه الأربع، فقد كملت شرائط التّوبة[3]. فالاستغفار نوع من الدّعاء؛ فهو طلب المغفرة، أمّا التّوبة فهي الإقلاع والدّوام على التّرك، وعدم العودة، فالتّوبة أعلى شأنًا، فلذا قدّم ذكر الاستغفار في قوله جلّ شأنه: ﴿وَيَٰقَوۡمِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ﴾، فبدأ بالأقلّ كُلفة وجهدًا؛ لأنّ التّوبة تقتضي الإقلاع عن الفعل والتّغيير في السّلوك، فهي ليست كالاستغفار الواقع بصيغة لفظيّة لطلب العفو.

التّوبة إقلاع عن الذّنوب وندم عليها، والاستغفار طلب محوها

(1) ابن منظور، اللّسان: (غفر).
(2) الجوهري، الصّحاح: (توب).
(3) الرّاغب، المفردات: (توب).

﴿قَالُواْ يَٰهُودُ مَا جِئۡتَنَا بِبَيِّنَةٖ وَمَا نَحۡنُ بِتَارِكِيٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوۡلِكَ وَمَا نَحۡنُ لَكَ بِمُؤۡمِنِينَ ٥٣﴾ [هود: 53]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

بيانُ موقفِ الجاحدين بعد ذكر أسباب الهداية وسبل الرعاية

بعد ما أفصح هود عليه السلام وأبان عن دعوته، ومحّض لهم النّصح على غاية البيان، ما كان جوابهم إلّا أن ردّوا عليه بعد أن أظهر لهم من المعجزات ما مثله آمن عليه البشر: ﴿قَالُواْ يَٰهُودُ مَا جِئۡتَنَا بِبَيِّنَةٖ﴾[1]، فأجابوا هذه الدّعوة الرّشيدة بالرّفض القاطع؛ فطالبُوا بعد الرّفض أن يأتيهم بالبيّنة، وهذا شديدُ الغرابة؛ كالقاضي الذي يرفض الدّعوى ثمّ يطالب بالدّليل[2]، فالمناسبة بين الآية وما سبقها هو بيان موقف الجاحدين، بعد إرخاء عنان الهداية، وتوفير سبل الرعاية، وتقديم النُّصح تلو النُّصح، لكن مَن ألجم عقلَه عن الحقِّ، لُجِم بلجام الرقِّ.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿بِبَيِّنَةٖ﴾: أصلُ الكلمةِ من البَيْنِ، وهو انْكِشافُ الشَّيءِ[3]. والبَيِّنةُ: الأمرُ الواضح، ومنه قوله: ﴿إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي﴾ [الأنعام: 57]، أي: أنا على أمرٍ واضحٍ ظاهرٍ. والبَيِّنة: الحُجَّة، ومنه: (البَيِّنةُ على المدَّعي)؛ لأنَّ بها ينكشف الحقّ ويتَّضح. والبَيِّنةُ: الدَّلالة الواضحة عقليَّة كانت أو حسيَّة[4]. والبيان: التَّوضيحُ والكَشْفُ، يُقالُ: بانَ الشَّيْءُ وأبانَ إذا اتَّضَحَ وانْكَشَفَ. وفُلانٌ أَبْيَنُ منْ فُلانٍ؛ أيْ أوْضَحُ كَلامًا منْهُ[5]، وّ"اسْتَبانَ الشّيءُ: أي تبيَّن. واستبانَه: أي: بيَّنه، يتعدّى

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/308.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3718.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بين).
(4) السّمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (بين).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بين).

ولا يتعدّى، وعلى الوجهين يقرأ قول الله تعالى: ﴿وَلِتَسۡتَبِينَ سَبِيلُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ۝٥٥﴾ [الأنعام: 55]، بنصب السّبيل ورفعه"[1]، والمقصود بالبيِّنة في الآية: الحُجَّة الواضحة[2].

2) ﴿بِتَارِكِيٓ﴾: أصْلُ التَّركِ: الكفُّ والإعراضُ، يُقالُ: ترَكْتُ الشَّيْءَ: إذا كَفَفْتُ وأعرَضْتُ عنه، ويَأْتي بمعنَى التَّخلِّي عن الشيء[3]. ويُطلَقُ على الإسقاطِ، يُقالُ: تَرَكَ حَقَّهُ، أي: أسقَطَهُ، وهو أيضًا: الجَعْلُ، يُقالُ: تَرَكَهُ يَفعَلُ كذا، أي: جَعَلَهُ يَفْعَلُهُ[4]. ومن معانيه: المفارَقةُ، والهَجْرُ، والإهمالُ، والرَّفْضُ، قال ساعدة بن جُؤَيّة:

شابَ الغُرابُ ولا فُؤادُك تارِكٌ *** ذِكْرَ الغَضُوبِ ولا عِتابُكَ يَعْتِبُ[5]

أراد طال عليك الأمر حتّى كان ما لا يكون أبدًا، وهو شيب الغراب[6]، والمقصود بالتَّرك في الآية: التَّخلِيَةُ عَنِ الشَّيْءِ.

المَعْنى الإجْماليُّ:

عنوانُ الخسارةِ الإصرارُ على عبادةِ الأوثان، ورفضُ كلِّ حجَّةٍ وبيان

بعد أن ذكر الله تعالى تبليغ هود عليه السلام قومَه دعوةَ ربِّه، ذكر في هذه الآية ردَّ قومه لتلك الدَّعوة في جحودهم للبيّنة، ثمّ إنذاره لهم؛ إذ قالوا: يا هود، ما جئتنا بحُجّة واضحة تدلُّ على صحَّة دعواك، أنَّك مُرسل من عند الله، وقد قالوا ذلك عنادًا منهم، وجحودًا للحقِّ، وما نحن بتاركي عبادة آلهتنا، بسبب قولك الَّذي لا بيِّنة عليه، وما نحن بمصدقين ما جئت به[7].

(1) نشوان الحميري، شمس العلوم: (اشتَبانَ).
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/51.
(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (ترك).
(4) ابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس: (ترك).
(5) الخليل، العين: (ترك).
(6) ابن سيده، المحكم: (ترك).
(7) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 12/49.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

علَّةُ فصلِ مطلع الآية:

الأقوالُ المتبادلةُ في الحوارِ، هي الرّابطُ بين أجزاء الكلام

جاءت الجملة في قوله جلّ شأنه: ﴿قَالُواْ يَٰهُودُ مَا جِئۡتَنَا بِبَيِّنَةٖ﴾، مجرّدةً من العاطف؛ لأنّها ردّ على جواب القوم لقول هود؛ إذ قال لهم: ﴿وَيَٰقَوۡمِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ﴾، فكان الجواب: ﴿قَالُواْ يَٰهُودُ مَا جِئۡتَنَا بِبَيِّنَةٖ وَمَا نَحۡنُ بِتَارِكِيٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوۡلِكَ﴾، وهو وارد في سياق الحوار بين الطّرفين، فلا يحتاج للرّبط بالواو العاطفة؛ لأنّ الرّابط واقع بالمحاورة، وردّ الكلام فيما بينهم.

غرضُ النّداء:

الجاحدون عنوانهم الرَّفضُ والإنكار

افتتاح خطابٍ عادٍ لنبيِّهم بالنّداء كما في قوله تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰهُودُ مَا جِئۡتَنَا بِبَيِّنَةٖ﴾، يختلف عن غرضِ نداءِ هود ﷺ لهم، ذلك أنَّهم أرادوا بالنِّداءِ الزَّجر والرَّدع، فغرضُ ندائهم الاعتراض والإنكار عليه بسببِ ما دعاهم إليه، ويفترق غرضُ النّداء بحسب سياقِه ومقصدِ قائله.

دلالةُ استعمالِ أداةِ النّداء:

نداءُ القريبِ بأداة البعيد كنايةٌ عن انزعاجِ المتكلِّم

آثر في الخطاب استعمال حرف النّداء (يا)، في قوله تبارك اسمه: ﴿قَالُواْ يَٰهُودُ مَا جِئۡتَنَا بِبَيِّنَةٖ﴾، وهو أسُّ باب النّداء، لصلاح استعماله للقريب والبعيد، ولمّا كان هود ﷺ قريبًا منهم، بقرينة المخاطبة والمحاورة، فإنّ حرف النّداء يحتمل أنّه أُريد به معناه الحقيقيّ، بنداء القريب للتّنبيه والاهتمام بمضمون المُقال، كما يحتمل أنّه أريد به نداء البعيد، فيكون المعنى مجازيًّا؛ حيث أنزلوا القريب منزلة البعيد، تنبيهًا على أنّه غافل غفلة من لا يسمع النّداء إلّا بارتفاعِ الصَّوت، وهو كنايةٌ عن انزعاجِهم.

دلالةُ النِّداءِ بالاسم العلم:

النّداءُ بالاسم المجرَّدِ غلظة واستخفاف

حكى النّظم الجليل طريقتهم بخطاب هود ﷺ، في قوله جلّ شأنه: ﴿قَالُواْ يَٰهُودُ مَا جِئۡتَنَا بِبَيِّنَةٖ﴾ مكتفين باسمه وحسب، دون

صفته كنبيّ أو رسول، إشارةً إلى الاستخفاف به ودعوته، فأظهروا له الغلظة والجفاء[1].

دلالة النّفي:

نفيُ الاقتناع بالبيّنة، يُنزَّل منزلةَ عدم المجيء بها

دلّ النّفي في قوله تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰهُودُ مَا جِئۡتَنَا بِبَيِّنَةٖ﴾، على انتفاء الوصف لا انتفاء المجيء، وذلك للإشارة إلى أنّ حجّته غير مقنعة، وكأنّ مشكلتهم في البيّنة لا في حاملها، ولكنّ تلاحق صدودهم يشي بغير ذلك، وحكاية القرآن لقولهم جاء على سبيل الاستغراب من كذبهم الوقح، وبيان "فَرْط عنادِهم وعدم اعتدادِهم بما جاءهم من البيّنات الفائتةِ للحصر"[2]. وقد نصّ القرآن على ورود الآيات لهم، في قوله: ﴿وَتِلۡكَ عَادٞ جَحَدُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ﴾ [هود: 59]. "فأوضحوا لكلّ ذي لبّ أنّهم مكابرون لقويم العقل، وصريح النّقل، فهم مفترون، وإنّما نفوا أنّ ما جاءهم به آيات؛ لأنّهم مضوا في طغيانهم بأنّهم رفضوا الاعتراف بأيّ آية، إذا لم تأتِ على وفق أهوائهم ومقترحاتهم، وهذا "دليل على أنّهم تركوا اتّباعه عنادًا، لا أنّهم يعتقدون أنّه لم يأتِ ببيّنة"[3]، وهذا دَيْدَنُ المعاندين، كما كان العرب يقولون للنّبي ﷺ بعد أن أتاهم من الآيات على يده، ما يفوت الحصر: ﴿لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦۖ﴾ [يونس: 20]"[4].

نكتةُ استعمال ﴿مَا﴾ النّافية:

نفي الآية المُقنِعة، دليلُ البصائر المقنَّعة

آثر النّظم الكريم: ﴿قَالُواْ يَٰهُودُ مَا جِئۡتَنَا بِبَيِّنَةٖ﴾، النّفي بإدخال ﴿مَا﴾ النّافية، على الفعل الماضي، دون أن يقول: (لم تأتنا)؛ لأنّ نفي الماضي بلفظ ﴿مَا﴾، آكد من نفي الزّمن الماضي بإدخال (لم) على المضارع. ولو قال: (لم تأتِنا) بالمضارع، فإنّ دلالة نفي الكون

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/308.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السليم: 4/217.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/309.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/308.

المستمرّ، ليس لها فائدة في هذا السّياق، فليس الغرض بيان تجدّد وجوده في انتفاء المعرفة، بل المراد هو انتفاء المجيء بها من الأصل، فالنّفي بالماضي، هو نفي من الأصل؛ فلذا كان آكد.

معنى الباءِ ودلالتُها:

نفيُ المجيء ببيّنة تسويغُ العقلِ ومراودةُ القلب

تعلَّق شبهُ الجملة من الجار والمجرور ﴿بِبَيِّنَةٍ﴾ في قوله جلّ شأنه: ﴿قَالُواْ يَٰهُودُ مَا جِئۡتَنَا بِبَيِّنَةٖ﴾ بالفعل: ﴿جِئۡتَنَا﴾، وهي للإلصاق والتّعليل[1]، أي: ما جئت متلبّسًا ببرهان يدلّنا على صدقك ويعيننا على الإيمان بك، فحكى ادّعاءهم أنّه لم يأتِهم ببيّنة، تعبيرًا عن المضيّ في عنادهم غير معترفين بما جاءهم من معجزات قاطعة[2]، وهذا محض افتراء منهم، لتسويغ كفرهم به.

دلالة التّعبير بالجملة الاسميّة:

كفر عاد محضُ عناد

آثر النّظم الكريم في قوله تعالى: ﴿وَمَا نَحۡنُ بِتَارِكِيٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوۡلِكَ﴾ التّعبير بالجملة الاسميّة دون الفعليّة، فلم يقل: (لا نترك آلِهَتِنا عَنْ قَوْلِكَ)؛ لأنّ الجملة الاسميّة آكدُ من الجملة الفعليّة، ويدلّ ذلك على أنّهم معاندون على ما هم عليه، غير زائلين عنه. والمعنى: ما يصح منّا - وصفتنا أنّا ثابتون على ما نحن عليه - أن نصدّقك، وصفتك أنّك لم تأتِ بحجّة بيّنة[3].

دلالةُ النَّفي بحرفِ ﴿مَا﴾:

إصرارٌ لا يزول، واستكبارٌ لا يحول

حكى النّظم الكريم أسلوبهم في النّفي القاطع، في قوله جلّ شأنه: ﴿وَمَا نَحۡنُ بِتَارِكِيٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوۡلِكَ﴾، فأدخل حرف النّفي ﴿وَمَا﴾ الّتي هي بمعنى ليس، وأكّدوا النّفي بإدخال (الباء) في الخبر للإغراق في النّفي[4]، فدلّ هذا الأسلوب على القطع بعدم

(1) محمّد الهلال، تفسير القرآن الثري الجامع: 12/48.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3718.
(3) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 8/106.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/309.

الإيمان، مهما كان، في قول هود ﷺ من برهان، فهم "ينفون إجابته نفيًا لازمًا قاطعًا لا يتردّدون فيه"[1]. والمعنى ما يصحّ من أمثالنا أن يصدّقوا مثلك مبالغة في نفي تصديقهم[2].

معنى الباءِ ودلالتُها:

تأكيدُ انتفاء التّرك إعلانُ بقاءِ الشِّرك

حكى النّظم الكريم تأكيد بقائهم على دينهم، في قوله تبارك اسمه: ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾، فأكّدوا نفي تركهم آلهتهم بالباء؛ للإعلام بأنّهم مُصرُّون على ما هم عليه غيرُ زائلين عنه، أي: ما يصح منّا أن نصدّقك ونحن متّصفون، بأنّنا ثابتون على ما نحن عليه[3].

فائدةُ الإضافةِ:

التّمسُّكُ بموروثِ الآباءِ، هو البرهانُ الظّاهر للأبناءِ

في قوله عزّ ذكره: ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي ءَالِهَتِنَا﴾ أضاف الآلهة إلى ضمير المتكلِّم، دون أن يقول: (وما نحن بتاركي الآلهة)، للدّلالة على قوّة الاعتزاز بهذه الآلهة، كأنّهم منها[4] وهي منهم، وفيه إشارة إلى أنّهم لم يتركوها لكونها آلهتهم وورثوها عن آبائهم، وأنّهم يمتازون بها عن سائر الأقوام، كما حكى التّاريخ عن اتّخاذ كلّ قوم آلهة تخصّهم، وهذا شأنُ الأمم الضّالةِ أنَّها تتَّبع ما وجدت عليه آباءها، وفي حقيقةِ الأمر هم يتَّبعون ما تُمليه شهواتُهم، وتفرضُه عصبيّاتُهم، ويكون في مصالحِهم الدُّنيويَّة.

معنى حرف ﴿عَن﴾ ودلالتُه:

الإخبارُ بالانصرافِ عن الدَّعوةِ قطعٌ للأملِ في الإيمانِ

استعمل النّظمُ الجليل حرفَ ﴿عَن﴾ في قوله جلّ شأنه حكايةً عن قوم هودٍ ﷺ: ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ﴾، للدّلالة على علّة

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3718.
(2) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 8/105.
(3) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 8/106.
(4) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3718.

انتفاء تركهم آلهتهم، فجاء بالحرف ﴿عَن﴾ للدّلالة على المجاوزة، أي: لا نترك آلهتنا مجاوزين لها، ولا صادرين عن قولك لنتركها[1]. والمعنى: نفيهم أن يكون كلامُه علّةً لتركهم آلهتهم، فالتّركيب: ﴿عَن قَوْلِكَ﴾، فيه معنيان: الأوّل بمعنى: (وما نحن بصادرين عن قولك)، والآخر: التّعليل، بمعنى: (وما نحن بِتارِكِي آلِهَتِنا لقولك)[2]، وهذا إعلان منهم على ثبوتهم على إيمانهم وعبادتهم.

دلالةُ التّعبير بشبه الجملة:

من أفحش الضّلال العمى عن البيّنة، بسببِ الاستكبارِ على الدّعوة

حكى النّظم الجليل تقييدَ إيمانهم المنفيّ، بشبه الجملة ﴿لَكَ﴾، في قوله تعالى: ﴿وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾، فلم ينفوا إيمانهم على وجه الإطلاق، بأن يقولوا: (وما نحن بمؤمنين)، فيكون المعنى انتفاء إيمانهم كلّيّة، بل جعلوا عدمَ إيقاعهم الإيمان متعلّقًا به، أي: ما نحن بمؤمنين إيمانًا كائنًا لك، فأثبتوا لأنفسهم إيمانًا، وهو ما وجدوا عليه آباءهم، فدلّ على أنّهم نفوا الإيمان به وأثبتوا لأنفسهم إيمانًا غير ما دعاهم إليه، أي: وما نحن لك خاصّة[3] بمؤمنين. وهذا يشير إلى أنّهم ساقوا كفرهم مساق القضيّة الشّخصيّة، ولم ينظروا إلى الأدلّة أو يستمعوا بآذان قلوبهم إلى حججه وبيّناته.

نكتة تقديم الجارّ والمجرور:

تمامُ الحسدِ يظهرُ في تشخيص القضايا وتعيين البلايا

قدّم النّظم الكريم: ﴿وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ شبه الجملة ﴿لَكَ﴾ على المسند ﴿بِمُؤْمِنِينَ﴾ وأصل الكلام أن يقال: (وما نحن بمؤمنين لك)، فقدّم الجارّ والمجرور؛ "للإشارة إلى اختصاص الكفر به وعدم التّسليم"[4]، فجعلوا كفرهم مختصًّا به، إيغالًا منهم في إظهار رفضهم لدعوته. كما أنّ جعل المسند مؤخّرًا في رأس الفاصلة،

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/309.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/98.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/309.
(4) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3718.

يحافظ على النّسق الصّوتي الذي يُضفي تنبيهًا وتهييجًا للسّمع، لمواصلة الاستماع إلى المنظوم البليغ.

بلاغة التّرقّي:

عناد الجاحدين لا يَنفع معه دليل، ولا يُجدي معه تعليل

ذكر النّظم الكريم أنّ هؤلاء المعاندين، قد ترقّوا في بيان رفضهم، فالتّرقّي جاء بالانتقال في الإعراض من السّيّئ إلى الأسوأ، على نحو ما ذكرته الجمل الثّلاث: ﴿مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ﴾ ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِيٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ﴾، ﴿وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾، فهي أقوال ثلاثة رافضة: أوّلها: ادّعاؤهم أنّه لم يأتِهم بدليل يدلّ على صحّة رسالته، وذلك عناد منهم لعدم اعترافهم بما جاءهم من معجزات، وثانيها: أنّهم ينفون إجابته نفيًا قاطعًا لا رجعة فيه، قائلين: ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِيٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ﴾، وثالثها: أنّهم لا يؤمنون بالحقّ إذ جاء، ولذا حكى اللّه تعالى عنهم: ﴿وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾[1].

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

البيّنة والآية:

الآيــة عــلامــةٌ ثابتة، والبيِّنةُ دليل واضحٌ

الآية: العلامة الظّاهرة[2]، أمّا البيّنة فمن بانَ الشَّيْءُ وأبانَ إذا اتَّضَحَ وانْكَشَفَ[3]. وهي: الدّلالة الواضحة، عقليّة كانت أو محسوسة، والبَيان: الكشف عن الشّيء[4]. وفي الآية الكريمة نفوا المجيء ببيّنة؛ للدّلالة على نفي البرهان والحجّة، فالبيّنة "الحجّة الواضحة في الفصل بين الحقّ والباطل، والبيان: فصل المعنى من غيره، حتّى يظهر للنّفس محرّرًا ممّا سواه"[5].

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3718.
(2) الفيروزابادي، بصائر ذوي التمييز: (الآيات).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (بين).
(4) الرّاغب، المفردات: (بين).
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/309.

﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعۡتَرَىٰكَ بَعۡضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٖۗ قَالَ إِنِّيٓ أُشۡهِدُ ٱللَّهَ وَٱشۡهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ٥٤ مِن دُونِهِۦۖ فَكِيدُونِي جَمِيعٗا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ٥٥﴾ [هود: 54 - 55]

مُناسَبَةُ الآيَتَينِ لِما قَبْلَهُما:

العلاقة بين التَّنكُّر لهود ورميه بالجنون، وبين تبرُّئه من شركهم ومكرهم

لمّا ذكر النَّظم الكريم تبليغَ هود عليه السلام قومَه دعوةَ ربِّه، وبيَّن ما ردّوا عليه بجحودهم مجيئه ببيِّنة، ورفضهم اتِّباعه والإيمان به؛ أتبعه هنا باتِّهامهم له بأنَّه قد اعتراه بعض آلهتهم بسوء، فاتَّهموا عقله[1]، فترقّوا في حجاجهم من سيّئ إلى أسوأ[2]، ونكران البيِّنة ورسولها، من قلَّة التَّمييز، وسوء التَّقدير[3].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱعۡتَرَىٰكَ﴾: أصلُ (عرو) يَدُلُّ على ثَباتٍ ومُلازمَةٍ وغِشْيانٍ، يُقال: عَراهُ أمْرٌ؛ إذا غَشيَهُ وأصابَهُ؛ وعَراهُ الأمْرُ يَعْروه: غَشيَهُ وأصابَهُ[4]، وعَراهُ الهَمُّ واعْتَراهُ. والعُرَواءُ: قِرَّةٌ تأخُذُ المحْمومَ (الرَّعْدَة)[5]، ومنَ البابِ العُرْوَةُ: ما يَتعلَّق بهِ من عُراهُ. أي: ناحيته، والجَمْعُ عُرًى، وعَرَّيْتُ الشَّيءَ: اتَّخَذْتُ لَهُ عُرْوَةً[6]؛ وقد أوردت المعاجم الفعلين (عرا) و (اعترى) متعدّيَين بمعنى: أصاب وألمَّ، أمّا (اعْتور)؛ فقد ذكرته المعاجم بمعنى (تداول)، وهو يدلُّ على الإصابة المتكرِّرة، فكأنَّ المريض يقوم من مرض،

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3718.
(2) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 12/50 - 49.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/309.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والزَّبيديُّ، تاج العروس: (عروى، عرو).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن الأثير، النِّهاية: (عروى، عرا).
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن فارس، والرّاغب، المفردات: (عروى، عرى).

ليقع في مرض آخر[1]، والمقصود من الاعتراء في الآية: النُّزولُ والإصابَةُ، أي: أصابَكَ بِسوءٍ[2].

2) ﴿بِسُوٓءٍ﴾: أصْلُ السّوءِ: القُبْحُ، وضِدُّه: الحُسْنُ[3]. والسّوءُ: الشَّرُّ والفَسادُ، يُقالُ: عَملَ سوءًا، أي: شَرًّا وفَسادًا[4]. والسّوءُ أيضًا: الحُزْنُ والغَمُّ، ويأْتي بِمعنى الضَّرَرِ والأذَى، كقولِهم: بَلَغَهُ السّوءُ، أي: الضُّرُّ، وكُلُّ ما يُكْرَهُ فهو سوءٌ[5]، والإساءَةُ: فِعْلُ الشَّرِّ وما يُكْرَهُ، ومن مَعانيه أيضًا: المُنْكَرُ والفُجورُ والبَلاءُ والعَذابُ، والشَّتْمُ والشِّدَّةُ والقَتْلُ[6]. والمرادُ بالسّوءِ في الآية: الضُّرُّ، منْ ساءَهُ سَوْءًا.

3) ﴿وَٱشْهَدُوٓاْ﴾: أصْلُ شَهِدَ: يدلُّ على حُضورٍ وعِلْمٍ وإعْلامٍ[7]، يُقالُ: شَهِدَ الشَيءَ: إذا حَضَرَهُ وعايَنَهُ، وتُطْلَقُ بـ معنى الإخْبارِ والإعْلامِ، يُقالُ: شَهِدَ بِالأمْرِ: إذا أخْبَرَ بِهِ، وأعْلَمَ غَيْرَهُ بِهِ[8]، والشُّهودُ والشَّهادَةُ: الحضور مع المشاهدة، إمّا بالبَصَر، وإمّا بالبَصيرة، وقد يُقال للحُضور مُفردًا، قال الله تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ [السّجدة: 6]، لكن الشُّهود بالحضور المجرَّد أولَى، والشَّهادة مع المشاهدة أولى، والشَّهيدُ: الشّاهِدُ، وهو المُؤَيِّدُ والمُصَدِّقُ لِدَعْوى مُدَّعٍ[9]، وشهد الرجل يشهد شهادة، فهو شاهد وشهيد، والأشهاد: جمع شَهْد، مثل صَحْب وأصحاب، والرَّجل شاهد وشهيد، وقد جمعوا شهيدًا على شهداء، ويقال: فلانة شاهدي، مثل الذَّكر سَواء"[10]، والشَّهادة المقصودُ بها في الآية: الإخبار والإعلام.

4) ﴿بَرِيٓءٞ﴾: أصْلُ (برأ): يَدُلُّ على التَّباعُد منَ الشَّيْءِ ومُزايَلَتِه، ومنْ ذلكَ البُرْءُ: وهو السَّلامَةُ منَ السُّقْم، يُقالُ: بَرِئْتُ، وبَرَأْتُ[11]، وتُطْلَقُ البَراءَةُ على السَّلامَةِ من العَيْبِ،

(1) أحمد مختار عمر، معجم الصّواب اللّغويّ: (عور).
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/98.
(3) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة: (سوأ).
(4) الزّبيديّ، تاج العروس: (سوأ).
(5) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن عبّاد، المحيط في اللّغة: (سوأ).
(6) ابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (سوأ).
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (شهد).
(8) نشوان الحميري، شمس العلوم: (شهد).
(9) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/152.
(10) ابن دريد، جمهرة اللّغة: (شهد).
(11) ابن فارس، مقاييس اللغة: (برأ).

ومنه البُرْءُ، وهو: الشِّفاءُ والسَّلامَةُ من المَرَضِ[1]. البَراءَةُ: التَّخَلُّصُ من الشَّيْءِ، والخُروجُ منه والمفارَقَةُ له، يُقال: بَرِئَ من الدَّيْنِ، يَبْرَأ بَراءَةً: إذا تَخَلَّصَ منْهُ[2]. والبَراءَةُ أيضًا: التَّخَلّي والتَّرْكُ، كقولك: بَرِئتُ من الشَّيْءِ، أي: تَخَلَّيْتُ عنه، وتَرَكْتُهُ[3]، والمقصود من البراءة في الآية: التَّخَلّي والتَّرْكُ.

5) ﴿فَكِيدُونِي﴾: أصلُ (كَيَدَ): يَدُلُّ عَلَى مُعالَجَةِ لِشَيْءٍ بِشِدَّةٍ، وكُلُّ شَيْءٍ تُعالِجُهُ؛ فأنْتَ تَكيدُهُ[4]. هذا هو الأصْلُ في البابِ، ثُمَّ يُسَمّونَ المكْرَ كَيْدًا، قال اللّه تعالَى: ﴿أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًاۖ﴾ [الطور: 42]. ويَقولونَ: هو يَكيدُ بِنَفْسِهِ، أي: يَجودُ بِها، كأنَّهُ يُعالِجُها لتَخْرُجَ، والكَيْدُ: صياحُ الغُرابِ بِجَهْدٍ[5]، والكَيْدُ: أنْ يُخْرِجَ الزَّنْدُ النّارَ بِبُطْءٍ وشِدَّةٍ، والمقصودُ بالكَيْدِ في الآية: إخفاءُ عَمَلٍ يَضُرُّ المَكيدَ.

6) ﴿لَا تُنظِرُونِ﴾: أصلُ الإنْظارِ: تَأمُّل الشَّيْءِ ومُعايَنَتُهُ، ثُمَّ يُسْتعارُ، ويُتَّسَعُ فيهِ، فَيُقالُ: نَظَرْتُ إلى الشَّيءِ أنْظُرُ إليه؛ إذا عايَنْتُهُ، ويَقولونَ: نَظَرْتُهُ، أي: انْتَظَرْتُهُ، وسُمّيَ الإمْهالُ إنْظارًا؛ لأنَّهُ يَنْظُرُ إلى الوقْتِ الَّذي يَأْتي فيهِ[6]، وضِدُّهُ: التَّعْجيلُ، ويأتي الإنْظارُ بِمَعْنَى: التَّأْخيرِ والتَّأْجيلِ[7]، والاسْتِنْظارُ: طَلَبُ الإنْظارِ، واسْتَنْظَرَ المُشْتَري فُلانًا: سَأَلَهُ الإنْظارَ، والتَّنَظُّرُ: تَوَقُّعُ الشَّيْءِ[8]. والمقصود بالإنظار في الآية: الإمهال والتَّأجيل، أي: لا تؤجِّلون[9].

المَعْنى الإجْماليُّ:

لقد بالَغ القومُ في الردِّ على هودٍ عليه السلام فقالوا: ما نجدُ من قول نقوله فيك، إلّا أنَّ بعض آلهتنا أصابك بجنون أو خَبَل - وهو العَتَهُ والبَلَهُ - لإنكارك لها وصدِّك إيّانا عنها، قال لهم: إنّي أُشهِدُ اللّه على ما أقولُ، واشهَدوا أنَّني بريءٌ ممّا تُشرِكونَ من دونِ اللّه من الأندادِ والأصنام، وها أنذا في مواجهتكم، فانضمّوا إلى آلهتكم، وحاربوني بما شِئتم

(1) ابن عباد، المحيط في اللغة: (برأ).
(2) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (برأ).
(3) ابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (برأ).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (كيد).
(5) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (كيد).
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نظر).
(7) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/19.
(8) ابن عبّاد، المحيط في اللّغة: (نظر).
(9) السّمين الحلبي، عمدة الحفّاظ: (نظر)، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/298.

من ألوان المحاربة والأذى، بدون تريُّث أو إمهال، فإنّي لن أكفَّ عن الجهر بدعوتي، ولن أتراجَع عن احتقار الباطل الذي أنتم عليه، وهذا من أعظم الآيات، أن يواجه بهذا الكلام رَجُلٌ واحدٌ أمَّةً عِطاشًا إلى إراقة دمه، يرمونه عن قوسٍ واحدة، وذلك لثقته بربِّه، وأنَّه يعصمه منهم، فلا تنشب فيه مخالبهم[1].

الثَّباتُ على الموقف مع كَثْرَةِ العداوات، من كمال الثِّقة بالله في المُلمّات

وترشد الآية الكريمةُ إلى أنَّ مَن طبع اللّه على قلبه يجعلُ أصدقَ الخلقِ الذي جاء بأحق الحق وهو نبيُّ اللّه هود عليه السلام بهذه المرتبة، التي يستحيي العاقلُ من حكايتها عنهم، لولا أنَّ اللّه حكاها عنهم، وإلى أنَّ خطابَ النبيِّ هود عليه السلام لقومه بهذا الأُسلوب الذي بلغ الغاية في التَّحدّي والتحقير لهم ولآلهتهم، والإساءةِ لكبريائهم وجبروتهم وحميَّتهم وعصبيتهم فيه برهانٌ واضحٌ على ثقته عليه السلام بتأييد ربِّه وعنايته به ونصره له، وعصمته من المكاره، وهو دليلٌ قاطعٌ على أنَّه مرسل من اللّه، حيث أعجزهم عن الإضرار به والقضاء على دينه[2].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالة الاستئناف البيانيّ في: ﴿إِن نَّقُولُ﴾:

تعليق عدم الاتِّباع بنسبة ما جاء به هود إلى العَتَهِ والجنون

الجملة في قوله جلَّ شأنه: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعۡتَرَىٰكَ بَعۡضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٖۗ﴾، استئنافيَّة استئنافًا بيانيًّا، وفائدتها أنَّها مقرِّرة لقولهم السّابق: ﴿وَمَا نَحۡنُ بِتَارِكِيٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوۡلِكَ وَمَا نَحۡنُ لَكَ بِمُؤۡمِنِينَ ٥٣﴾ [هود: 53]، "فإنَّ اعتقادهم بكونه عليه السلام، كما قالوا - وحاشاه عن ذلك - يوجب عدمَ الاعتدادِ بقوله، وعدَّه من قبيل الخُرافاتِ، فضلًا عن التَّصديق والعملِ بمقتضاه، يعنون إنّا لا نعُدُّ كلامك إلّا من قبيلِ ما

(1) ابن جرير، جامع البيان: 12/446، والزّمخشريّ، الكشّاف: 2/403، ورشيد رضا، تفسير المنار: 12/97، وطنطاويّ، التّفسير الوسيط: 7/226.

(2) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 228، ومجمع البحوث الإسلامية، التفسير الوسيط: 4/208.

لا يحتمل الصِّدقَ والكذِبَ من الهذَيانات الصّادرةِ عن المجانين، فكيف نصدِّقه، ونؤمن به، ونعمل بموجبه؟"[1].

دلالةُ النَّفي في ﴿إِن نَّقُولُ﴾:

تمسُّكهم بعقيدتهم الفاسدة قادهم إلى النَّفي المؤكَّد

استعمل النَّظم الجليل في قوله جلَّ شأنه: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعۡتَرَىٰكَ بَعۡضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٖۗ﴾، أداة النَّفي ﴿إِن﴾ دون (ما)؛ لأنَّ الموقف محتاج إلى أقوى المؤكِّدات، و ﴿إِن﴾ أقوى من (ما)، وقد كثر استعمالها في الحصر مع ﴿إِلَّا﴾ لما فيها من قوَّة في النَّفي، وقد احتاجوا إلى النَّفي القوي؛ لأنَّ ما جاءهم به من الحُجج ووضوح الدَّعوة وسلامتها اضطرَّهم إلى سوق كلامهم مؤكَّدًا.

معنى الفعل المضارع ﴿نَّقُولُ﴾:

إجماع القول وإشاعة التُّهمة، منهج المكذِّبين في الإفك والاختلاق

في قوله جلَّ شأنه: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعۡتَرَىٰكَ بَعۡضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٖۗ﴾، ذكر النَّظم الكريم أنَّهم عبَّروا بالفعل المضارع بصيغة الجمع، فالجمع للدِّلالة على أنَّ قولهم ذلك صادر عن رأيهم جميعًا، وأنَّهم بجملتهم ناصبوه العداء، والفعل المضارع للدَّلالة على أنَّ قولهم ذلك قد قيل مرارًا، ودأبوا على إسماعه له، بحيث أشاعوه بينهم، فصار يتجدَّد كلَّ زمان، وهذا يدلُّ على فحشهم في الحوار وجسارتهم على الافتراء.

وجهُ الاستثناء المفرَّغ في الآية:

الإجماع على قول واحد، بيانٌ مشترك لموقفهم الزّائغ المعاند

دخل حرف النَّفي ﴿إِن﴾ على فعل القول، فنفت جميع القول إلّا قولًا واحدًا، وهو قولهم: ﴿ٱعۡتَرَىٰكَ بَعۡضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٖۗ﴾، والتَّقدير ما نقول قولًا إلّا هذه المقالة، "أي: ما نقول إلّا أنَّه أصابك ﴿بَعۡضُ ءَالِهَتِنَا﴾ الَّتي تعيبها، وتسفِّه رأينا في عبادتها، ﴿بِسُوٓءٖۗ﴾ بجنون حتّى نشأ عنه ما تقوله لنا، وتكرِّره علينا من التَّنفير عنها، والاستثناء مفرَّغ"[2]، وفي هذه الحالة تعرب ﴿إِلَّا﴾ أداة حصر، ويُعرب الواقع

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/217.
(2) القنوجيّ، فتح البيان: 6/201.

بعدها بحسب موقعه من الجملة، وكأنَّ ﴿إِلَّا﴾ غير موجودة، فجملة اعتراك معمول لـ ﴿نَّقُولُ﴾، فأظهر قوم هودٍ مقالتهم كتصريح ختاميٍّ يبيّنون به موقفهم الَّذي تبنُّوه فيه، وهو نسبته للجنون.

سرُّ التقديم في ﴿ٱعۡتَرَىٰكَ بَعۡضُ ءَالِهَتِنَا﴾:

إلصاق الفعل بضمير المفعول أدلُّ على إيقاع الفعل به

قدَّم النَّظم في قوله جلَّ شأنه: ﴿ٱعۡتَرَىٰكَ بَعۡضُ ءَالِهَتِنَا﴾ المفعول به على الفاعل للاهتمام، لكونه هو الغاية من الإخبار، كما أنَّ تأخير الفاعل فيه تفخيم اعتبارًا بمراد المتكلِّم لا بواقع الأمر، فهم أخَّروا ذكر آلهتهم تشويقًا لبيان من قام بالفعل، كما أنَّ في ذلك اتِّباعًا لبنية التَّركيب العربيِّ، بترجيح إيصال الضَّمير بالفعل ما أمكن طلبًا للاختصار، فإنَّما وضع الضَّمير استعاضةً به عن الاسم الظّاهر للإيجاز، كما أنَّ اتِّصال الفعل بالمفعول، يشير إلى قوَّة التَّحقُّق وتأكيد بلوغه له.

دلالةُ التَّعبير بلفظ ﴿بَعۡضُ﴾:

الاغتناء بذكر البعض، للتَّدليل على قوَّة آلهتهم المزعومة

حكى النَّظم الجليل طريقتهم بتفخيم شأن آلهتهم في قوله جلَّ شأنه: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعۡتَرَىٰكَ بَعۡضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٖۗ﴾ فجعلوا مناطَ الحكم قائمًا ببعض الآلهة، تهديدًا لهود، وتنبيهًا على أنَّه جُنَّ بفعل بعض الآلهة، وفي ذلك إيماء له ولغيره بأنَّه لو تصدّى له جميعُ الآلهة؛ لمحقوه محقًا، ولدكّوه دكًّا كما زعموا[1].

معنى الجارِّ والمجرور ﴿بِسُوٓءٖۗ﴾:

بزعمهم السّوء ملابِسٌ لهود، بحيث لا ينفكُّ عنه، ولا يَعْدُوه

دلَّت باء الجرِّ، في قوله جلَّ شأنه: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعۡتَرَىٰكَ بَعۡضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٖۗ﴾ على الملابسة، أي: "أصابك السُّوء، ولا شكَّ أنَّهم يعنون أنَّ آلهتهم أصابته بمسٍّ من قبل أن يقوم بدعوة رفض عبادتها لسبب آخر"[2]، والمعنى: أنَّك شَتَمْتَ آلهتنا، فجعلتكَ مجنونًا،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/98.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/98.

وأفسدت عقلك[1]، والغريب أن جعلوا من لا عقل له يتصرَّف في صاحب العقل، وذلك أمر يجانب المنطق، وينأى عن الصّواب.

غرض التَّنكير في لفظ ﴿بِسُوٓءٍ﴾:

تنكير السّوء يدلُّ على أنَّه من بعض الآلهة، وسوء من لا يقدر لا يضرُّ

عبَّر النَّظم الجليل في قوله جلَّ شأنه: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعۡتَرَىٰكَ بَعۡضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍۗ﴾، بصيغة التَّنكير في لفظ ﴿بِسُوٓءٍۗ﴾، لِما في التَّنكير من التَّعميم، فهم لم يبالغوا في ذلك، لكونهم نسبوا إصابته بالجنون إلى بعض آلِهَتِهم وحسب[2]، بل خاطبوا نبيَّهم مؤكدين: "إنَّ هذا القول قد أصابك، ورماك بَعْضُ آلِهَتِنا بِسوءٍ من جنون وخفَّة عقل وخبط واختلال، وقد كنتَ تسيءُ الأدب معهم، وتذْكُرهم وتهجوهم بما لا يليق بشأنهم، لذلك أصابوك، واستخفّوا عقلك"[3].

الغرض من الخبر في الاتِّهام بالجنون:

النِّسبة إلى الجنون، تقوِّض مصداقيَّة الرِّسالة من الأساس

قوله جلَّ شأنه: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعۡتَرَىٰكَ بَعۡضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍۗ﴾، دلَّ الخبرُ على إرادتهم نفي مقام الرِّسالة عن الرَّسول، بالتُّهمة المنسوبة إليه، ومنه يكون الطَّعن في رسالته؛ إذ لا يُقبَلُ وعظٌ، ولا يرتضى نصحٌ من مجنون، فنسبوا "ما صدر منه من دعائهم إلى اللّه، وإفراده بالألوهيَّة إلى الخَبَل والجنون، وأنَّ ذلك ممّا اعتراه به بعض آلهتِهم، لكونِه سبَّها، وحرَّض على تركها، ودعا إلى ترك عبادتها، فجعلتْه يتكلَّم بما يتكلَّم به المجانين، كما قالت قريش: ﴿مُعَلَّمٞ مَّجۡنُونٌ ١٤﴾ [الدخان: 14]"[4].

دلالة الفعل ﴿قَالَ﴾ ومقوله في الآية:

مقابلة تهويلهم شأن آلهتهم بإعلان هود براءته منها تحطيمًا لقداستها

ذكر النَّظم الجليل - في قوله جلَّ شأنه: ﴿قَالَ إِنِّيٓ أُشۡهِدُ ٱللَّهَ وَٱشۡهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ﴾ - ردَّ هودٍ عليه السلام على قومه؛ لمّا رمَوْه

(1) ابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 10/507.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/217.
(3) النخجواني، الفواتح الإلهيّة والمفاتح الغيبيّة: 1/356.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/167.

بالجنون، بأنَّ آلهتهم قد مسَّته، بجوابه لهم على طريق الحكاية[1]، فلمّا "كان الطَّبع البشريُّ قاضيًا بأنَّ الإنسان يخشى ممَّن مسَّه بسوء، وهو يتوهَّم أنَّه قادر على ضرره، فلا يواجِهُه بما يكره، وكان قولهم مُحرِّكًا للسّامع إلى الاستعلام عن جوابه لهم؛ استأنف سبحانه الإخبار عنه، بقوله: ﴿قَالَ﴾، نافيًا لما قالوا، مبيِّنًا أنَّ آلهتهم لا شيء"[2].

علَّة التعبير بعدم التّسوية في فِعلَي الشّهادة:

إشهاد الله تعالى يعلو على كلِّ إشهاد، وإن تساوى صيغةً مع غيره

قوله جلَّ شأنه: ﴿قَالَ إِنِّيٓ أُشۡهِدُ ٱللَّهَ وَٱشۡهَدُوٓاْ﴾، عدل النَّظم الكريم عن التَّسوية بين صيغة الشَّهادتين، فلم يقل: (إنّي أشهد الله، وأشهدكم)؛ لأنَّ شهادة الله تعظيم، وشهادتهم تهوين وتحقير؛ لأنَّهم ليسوا أهلًا للشَّهادة، وإنَّما قال: اشهدوا؛ أي: اعلموا: أنّي بريء ممّا تشركون[3]. وشتّان ما بين الشَّهادتين، فلا يستويان في القصد ولا في الصيغة، فـ "إشهاد الله على البراءة من الشِّرك، إشهادٌ صحيح ثابت، في معنى تثبيت التَّوحيد، وشدِّ معاقده، وأمّا إشهادهم، فما هو إلّا تهاون بدينهم ودلالة على قلَّة المبالاة بهم فحسب، فعدل به عن لفظ الأوَّل لاختلاف ما بينهما، وجيء به على لفظ الأمر بالشَّهادة"[4].

دلالة العطف بين الخبر والإنشاء في الآية:

عطف الإنشاء على الخبر، غايته الإيضاح والبيان

وصل النَّظم الجليل في قوله جلَّ شأنه: ﴿قَالَ إِنِّيٓ أُشۡهِدُ ٱللَّهَ وَٱشۡهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ﴾، بين الجملتين؛ لأنَّهما من متكلِّم واحد، في سياق واحد، لغرض واحد، ولو فصل بينهما؛ لاختلَّ المعنى، لكون الأولى جملة خبريَّةً، وهي قوله: ﴿إِنِّيٓ أُشۡهِدُ ٱللَّهَ﴾،

(1) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 12/49.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/310.
(3) محمّد الهلال، تفسير القرآن الثري الجامع: 12/49.
(4) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/403 - 404.

والثّانية إنشائيَّة، وهي: ﴿وَٱشۡهَدُوٓاْ﴾، فعطف الإشهادين بالبراءة؛ للدَّلالة على أنَّه أشهد الجميع بالبراءة من آلهتهم، ولو فصل بينهما، بأن قال: (أُشهِدُ اللّه، اشهدوا)؛ لكان إشهاد اللّه تعالى بلا مشهود عليه، فيختلُّ الكلام، ويتضاحل المعنى؛ فكان الوصل واجبًا، فعطف الإشهادين، لإعلان البراءة منهم، ومن شركائهم، وهو إعلان فيه من الجرأة، ما يدلُّ على صدق ما أتى به، حيث لا يطيقه إلّا من اعتمد على ربِّه بالكلّيَّة؛ ليقينه بأنَّ اللّه يقيه، على قاعدة: ﴿إِن يَنصُرۡكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمۡۖ﴾ [آل عمران: 160].

معنى فعل الأمر في: ﴿وَٱشۡهَدُوٓاْ﴾:

الخطاب بالأمر دون الخبر، يهوِّن من دينهم، ويسفِّه تهديدهم

عبَّر عن طلبه الشَّهادة منهم بفعل الأمر، في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَٱشۡهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ﴾، للتَّهوين من تهديداتهم، ومن غضب الآلهة المزعومة عليه، هذا الإشهاد لهم بالمجاهرة بالبراءة من الشِّرك والشُّركاء، من أكبر المعجزات لهم، حيث بقوا عاجزين عن المَساس به، وهم يريدون، ولا يقدرون، فعبَّر بصيغة الأمر، استهانةً بدينهم، وهو مراده في هذا المقام، كما أنَّه عدل إلى صيغة الأمر عن صيغة الخبر، للتَّمييز بين خطاب اللّه تعالى، وخطابه لهم، فعبَّر عن خطاب اللّه تعالى بصيغة الخبر؛ لأنَّها أجلُّ وأشرف وأوفر للمخاطَب من صيغة الأمر[1].

دلالة الحرف (ما) بين المصدريَّة والموصوليَّة:

البراءة من الشرك كائنة من الشِّرك فعلًا، ومن الآلهة ذاتًا

يحتمل في ﴿مِّمَّا﴾ في قوله جل شأنه: ﴿بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ﴾، أن تكون مصدريَّة، أو موصولة، فيكون التَّقدير على اعتبار أنَّها مصدريَّة: "إنّي بريء من شرككم، فكلمة ﴿مِّمَّا﴾ وما بعدها من الفعل مصدر"[2]، والموصولة بمعنى الذي، على تقدير: (بريءٌ من

(1) صافي، الجدول: 6/294.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3719.

إشراككم آلهة من دونه)، أو: (بريءٌ من الذين تشركون)[1]، والنَّصُّ يحتملهما، أي: إنَّه تبرَّأ من الشِّرك أن يفعله فعلًا، ومن الآلهة ذاتًا.

بلاغة الحذف في: ﴿مِّمَّا تُشۡرِكُونَ﴾:

الحذف إيجاز باللفوظ، وإطلاق للمضمون، يتجلّى به المعنى

حذف النَّظم الكريم متعلِّقَ فعلِ الإشراك، فأطلق الشِّرك في قوله جل شأنه: ﴿وَٱشۡهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ﴾، ولم يقل: (ممّا تُشْرِكونَ بِهِ)، فجمع نصُّ الآية بين معنى الشِّرك والمُشْرَك به، فعمَّم، ولم يخصِّص، وهو توسُّع في المعنى بليغ ومفيد، فكان الحذف للإطلاقِ والإيجاز، وحذْفُ المتعلِّق يعطي مجالًا لاتِّساع الدِّلالة على براءة هود ممّا أشركه قومه لله في الاعتقاد والعبادة؛ لأنَّ في ذلك مخالفةً لأوامر الله، ومجانفة للمنهج الَّذي جاء به الرَّسول بأمر من الله، بتوجيه من جلاله الأعلى.

دلالة الجارِّ والمجرور ﴿مِن دُونِهِۦۖ﴾:

كلُّ مَن أُشرِكَ بالله تعالى، فهو دونٌ، لا يصلح إلهًا

جاء الجارُّ والمجرور في صدر الآية في قوله جل شأنه: ﴿مِن دُونِهِۦۖ﴾، نعتًا متعلِّقًا بمفعول محذوف للفعل ﴿تُشۡرِكُونَ﴾، والتَّقدير: (تشركون آلهة من دونه)، وساغ وقوع شبه الجملة في صدر الآية، لقوَّة الارتباط برأس الآية قبله، فهو ارتباط تركيبيٌّ نحويٌّ، متحقِّق بتعلُّق شبه الجملة بالفعل قبلها، والمعنى: "من إشراككم من دون الله، من غير أن ينزِّل به سلطانًا"[2]، وهذا السّياق يشبه قوله تعالى: ﴿أَتُجَٰدِلُونَنِي فِيٓ أَسۡمَآءٖ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٖۚ﴾ [الأعراف: 71]، وقوله تعالى: ﴿مَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسۡمَآءٗ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ﴾ [يوسف: 40]، وقوله تعالى: ﴿إِنۡ هِيَ إِلَّآ أَسۡمَآءٞ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ﴾ [النّجم: 23] وهو جواب "أجاب به عن مقالتهم الحمقاءِ

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/168.
(2) القنّوجيّ، فتح البيان: 6/201.

المبنيَّةِ على اعتقاد كونِ آلهتِهم ممّا يضُرُّ أو ينفع، وأنَّها بمعزل من ذلك"[1]، وأمّا كلُّ ما يُنسب إلى الألوهيَّة من غير اللّه، فقد عبَّر عنه بلفظ (دون) لدونيَّته حقيقة ومجازًا، وجاء لفظ (دون) للدِّلالة على انحطاط رتبة أولئك الشُّركاء.

معنى (الفاء) في قوله: ﴿فَكِيدُونِي﴾:

طلبُ كيد الآلهة بعد البراءة منها، يظهر عجزها وتهافتها

افتتح النَّظم الكريم قوله جلَّ شأنه: ﴿فَكِيدُونِي جَمِيعًا﴾، بـ (الفاء) الدّالَّة على التَّفريع، لتفريع الأمر، على زعمهم في قدرة الآلهة على إلحاق الضَّرر، ببذل الوسع مع آلهتهم، لمزاولة الكيد والإسراع به، أي: فكيدوني زمانًا أعجل أوقات ما تفعلون[2]، "وهذا من أعظم المعجزاتِ، فإنَّه ﷺ كان رجلًا مفْرَدًا بين الجمِّ الغفير، والجمعِ الكثير، من عُتاة عادٍ الغلاظِ الشِّدادِ، وقد خاطبهم بما خاطبهم، وحقَّرهم، وحقَّرَ آلهتَهم، وهيَّجهم على مباشرة مبادئ المضادَّة والمضارَّة، وحثَّهم على التَّصدّي لأسباب المُعازَّة والمعارَّة، فلم يقدروا على مباشرة شيءٍ ممّا كلفوه، وظهر عجزُهم عن ذلك ظهورًا بيّنًا"[3]، فلمّا أعلن براءته ممّا يعبدون؛ أتبعه بأمرهم بالاحتشاد والتَّعاون، في إيصال الكيد إليه دون إمهال[4]، فرتَّب حثَّهم على الكيد به على براءته من آلهتهم، إيغالًا منه في إظهار عجز هذه الآلهة الَّتي زعموا أنَّها أصابته بسوء.

سرُّ إيثار التَّعبير بلفظ (الكيد):

الكيد أشدُّ من المكر؛ لأنَّه مكرٌ وخبثٌ وإضرارٌ بالمكيد به

آثر النَّظم الكريم في قوله جلَّ شأنه: ﴿فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ﴾ التَّعبير بلفظ الكيد؛ لما في الكيد من دلالة على الإضرار، فهو مكر مع خُبث، فالكَيْدُ: المَضَرَّة، والمَكْرُ: إخفاءُ الكَيْدِ وإيصالُ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/218.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/218، وينظر: الطّيبيّ، فتوح الغيب: 8/112.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/218.
(4) القاسميّ، محاسن التّأويل: 6/108.

المَضَرَّة، وكادَه: أرادَه بِسوءٍ، وبه فُسِّرَ قولُه تَعالَى: ﴿لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم﴾ [الأنبياء: 57][1]، فيلاحظ أن لا خفاء في الكيد، بل هو مكر خبيث، الغرضُ منه إيصال الضَّرر إلى المكيد به، والمعنى "فكيدوني مجتمعين غير متفرِّقين، ودبِّروا لي ما هو إيذاء وكيد وتدبير خبيث لي"[2]، "وهو لم يَقُلْ: ﴿فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ﴾، إلّا إذا كان قد آوى إلى ركن شديد، وإنَّه ينطق بالكلمة عن إيمان، بأنَّ الحقَّ سبحانه سيهبه قدرةً على نفاذ الكلمة"[3].

نكتةُ إثبات ياء المتكلِّم في: ﴿فَكِيدُونِي﴾:

أثبت النَّظم الكريم ياء المتكلِّم في قوله جلَّ شأنه: ﴿مِن دُونِهِۦ فَكِيدُونِي﴾، حيث يتحدَّث السّياق عن أمر كلّيٍّ وجامع، وقد ذكر السّياق لفظة ﴿جَمِيعًا﴾ في قوله: ﴿فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ﴾، وهذا يعني: أن يأتي الكيد من أطراف كثيرة مجتمعة معًا، أي: كيد من هذا، وكيد من ذاك، ولذلك أُثبتت الياء؛ لأنَّ سياق الكيد سياقٌ كلّيٌّ جمعيٌّ، ولا خلاف في إثبات الياء فيها وصلًا ووقفًا، أمّا في قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ١٩٥﴾ [الأعراف: 195]، وقوله: ﴿فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ ٣٩﴾ [المرسلات: 39]، فلم تثبت الياء في رسم المصاحف؛ لأنَّه لم يذكر قيد ﴿جَمِيعًا﴾ كما هو في سورة هود، أمّا في القراءة؛ ففي موضع الأعراف وجهان: إثبات الياء وصلًا لكلٍّ من أبي عمرو وأبي جعفر والدّاجوني عن هشام، وإثباتها في الحالين لكلٍّ من يعقوب والحُلْواني عن هشام[4]، وفي موضع المرسلات، أثبتها يعقوبُ وحده وصلًا ووقفًا[5].

أثبت الياء لمناسبة كثرة الجمع، والتَّعبير عن التَّكتُّل والتَّكاتف السَّلبيّ

(1) الزّبيديّ، تاج العروس: 9/124.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3719.
(3) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 11/6508.
(4) ابن الجزري، النشر في القراءات العشر: 2/275.
(5) ابن الجزري، النشر في القراءات العشر: 2/397.

دلالة فعل الأمر ﴿فَكِيدُونِي﴾:

إعلان تحدّي هودٍ لقومه مع استناده إلى حماية الله وعونه

فعل الأمر في قوله جلَّ شأنه: ﴿مِن دُونِهِۦ فَكِيدُونِي جَمِيعًا﴾، مستعمل في الإباحة، بالنِّسبة للأصنام، وبالنِّسبة لقومه، فهو ليس أمرًا على الوجوب، بل كان يعرض لهم عرضًا، أباح لهم أن يفعلوا ما يريدون لإضراره، فطلبه إليهم يدلُّ على الاستنكار والتحدّي لفعلهم، ورفضِه لتهديدهم، وتأكيده أنه لا يخافهم، ولا يخشى مكرهم، وأنَّهم لن يستطيعوا إيذاءَه إلّا بإذن اللّه، كقوله تعالى: ﴿فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ ﴿٣٩﴾﴾ [المرسلات: 39].

بلاغة الكناية في الآية الكريمة:

تحدّي هود قوّةَ الآلهة، دليلٌ على عجزها وتهافتها

عبَّر النَّظم الكريم عن تحدّيه قومَه بقوله جلَّ شأنه: ﴿مِن دُونِهِۦ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ﴾، فهو كناية عن التَّعجيز والتَّحدّي، لنفي قدرة آلهتهم عن إلحاق الضَّرر به، "فإنَّهم لمّا سمّوها آلهة، وأثبتوا لها الضَّرر؛ نفى هو بقوله: ﴿أَنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾، كونَهم آلهةً رأسًا، ثمَّ نفى الضَّرر، بقوله: ﴿فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ﴾، على أبلغ وجه، كما قال: لا أخاف فسادكم ومضرَّتكم، فكيف بالجماد الذي هو أوهن من بيت العنكبوت؟"[1]، فكان هذا أظهر في الإعجاز؛ لأنَّه أباح لهم أن يكيدوه، فلم يقدروا، مع أنَّ الجماعة إذا اجتمعوا على الواحد؛ يغلبونه من غير كيد، فكان أحرى أن يغلبوه مع الكيد[2]، ولكنَّه عبَّر عن "عدم الخوف منهم ومن آلهتهم؛ إذ وكَّل أمر حفظه وخذلانهم، إلى ربِّه وربِّهم، ومالك أمره وأمرهم، المتصرِّف في كلِّ ما دبَّ على وجه الأرض، والمسخَّر له، وهو سبحانه مطَّلع على أمور العباد، مجازٍ لهم بالثَّواب والعقاب، كافٍ لمن اعتصم به، وهو لا يسلِّط أهل الباطل من أعدائه، على أهل الحقِّ من رسله، ولا يفوته ظالم"[3].

(1) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 8/112.
(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/360.
(3) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 12/50.

نكتة استعمال لفظ ﴿جَمِيعًا﴾:

قوّة التّحدّي تنبع من قوّة الثّقة بالاعتماد على مكوّن الأسباب

استعمل النَّظم الجليل في قوله جلَّ شأنه: ﴿مِن دُونِهِۦ فَكِيدُونِي جَمِيعًا﴾ لفظ ﴿جَمِيعًا﴾، فدعاهم إلى الاحتشاد، وبذل الجهد منهم جميعًا، لإيصال الكيد إليه دون إمهال، وهو غاية التَّحدّي والمواجهة؛ تأكيدًا لثقته وقوَّة اعتماده على ربِّ العباد، فدعاهم "أن يجتمعوا على الكيد في إهلاكه من غير إنظار حتّى إذا اجتهدوا فيه، ورأوا أنَّهم عجزوا عن آخرهم، وهم الأقوياء الأشدّاء أن يضرّوه، لم تبقَ لهم شبهةٌ، بأنَّ آلهتَهم التي هي جماد لا تضرُّ ولا تنفع، لا تتمكَّن من إضراره انتقامًا منه، وهذا من جملة معجزاته؛ فإنَّ مواجهة الواحد، الجمَّ الغفيرَ من الجبابرة الفُتّاك العِطاش إلى إراقة دمهِ بهذا الكلام ليس إلّا لثقتِه بالله، وتثبُّطَهم عن إضراره ليس إلّا بعصمته إيّاه؛ ولذلك عقَّبه بقوله: ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ﴾ تقريرًا له"[1].

معنى ﴿ثُمَّ﴾ في قوله: ﴿ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ﴾:

طول مدَّة الإعداد والكيد، إيغالٌ منه في التَّحدّي بلا قيد

آثر النَّظمُ الكريم استعمال حرف العطف ﴿ثُمَّ﴾، في قوله جل شأنه: ﴿فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ﴾، الدالّ على التَّراخي الرُّتبي؛ لإفادته حثَّهم بأن يكيدوا غايةَ الكيد وأبعدَهُ، وأن يدبِّروا أبعد التَّدبير[2]؛ استغراقًا لجهودهم، فإنَّ طول زمان الكيد مظنَّةُ إتقانه واستفراغ الجهود فيه، "أي: لا تمهلوني، بل عاجلوني، واصنعوا ما بدا لكم، واحتالوا في هلاكي، وفي هذا من إظهار عدم المبالاة بهم وبأصنامهم الَّتي يعبدونها ما يصكُّ مسامعهم، ويوضِّح عجزهم، وعدم قدرتهم على شيء، وهذا من معجزاته الباهرة"[3].

(1) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/138.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3719.
(3) القنّوجيّ، فتح البيان: 6/201.

نكتة حذف ياء المتكلِّم في: ﴿لَا تُنظِرُونِ﴾:

حذف الضَّمير لاختصار زمان الإنظار، ممّا يظهر عدم مبالاته بالأخطار

أورد النَّظم البليغ اللَّفظ ﴿لَا تُنظِرُونِ﴾، في قوله جل شأنه: ﴿مِن دُونِهِۦ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ﴾، بغير ياء المتكلِّم في رسم المصاحف[1]؛ لأنَّ الإنظار المنهيَّ بـ (لا) مطلوب في وقت جزئيٍّ، أو أقلَّ من جزئيٍّ، أو معدوم، فحُذفت الياء؛ لبيان قلَّة وقت الإنظار أو عدمه، بينما رسمت الياء، في قوله: ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ٣٦﴾ [الحجر: 36]، مثبتة في الرَّسم؛ لأنَّ الإنظار المطلوب، هو إنظار ممتدٌّ إلى يوم يبعثون، وسياقه هو سياقٌ كلّيٌّ.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

(بريء) و(براء):

(بريء) تدلُّ على البراءة من كلِّ لونٍ من الشِّرك بالله، و(براء) تفيد المبالغة

أهلُ الحجاز يقولون: (أنا بَراءٌ منْكَ)، وغيرُهم يقول: (أنا بَريءٌ منْكَ)، وجاء قوله تعالى: ﴿إِنَّنِي بَرَآءٌ مِّمَّا تَعۡبُدُونَ ٢٦﴾ [الزّخرف: 26] على لغة أهل الحجاز، وجاء في مواضع أخرى: ﴿إِنِّي بَرِيٓءٌ﴾ [الأنعام: 78] على لغة غيرهم، فمَنْ قال: أنا بَراءٌ لم يُثَنِّ، ولم يُؤَنِّثْ، ويقولون: نَحْنُ البراءُ والخلاءُ منْ هَذا، ومَنْ قال: بَريءٌ، قالَ: بريئانِ وبريئونَ، وبُرَآءُ على وزن بُرَعاءَ، وبُراءٌ بِلا أجْرٍ نَحْو بُراعٍ، وبِراءٌ مثْلُ بِراعٍ[2]، ولفظ ﴿بَرَآءٌ﴾ مصدر، ومن ثم فهو لا يصرف على التَّثنيَة والجمع، بل يلزم حالة الإفراد، على أحوال التَّصريف كلِّها بنفس الصّيغة ﴿بَرَآءٌ﴾، دون تغيير، تثنيَةً وجمعًا وتأنيثًا وتذكيرًا، وأمّا ﴿بَرِيٓءٌ﴾؛ فهي صفة مشبَّهة باسم الفاعل، مثل سميع وشهيد، بمعنى: سامع وشاهد، وقوله تعالى: ﴿أَنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ﴾، يدلُّ على الإخبار عن نقاوة ذمَّته، وبراءة ساحته، من كلِّ لون من ألوان الشِّرك بالله، بعبادة وتقديس ما لم ينزِّل به سلطانًا، وأمّا لفظ ﴿بَرَآءٌ﴾؛ فدلالته

(1) وإن كان يثبتها وقفًا ووصلًا يعقوب. يُنظر: ابن الجزري، النشر في القراءات العشر: 2/293.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (برأ).

المبالغة في التبرُّؤ من الشِّرك، وكلِّ ما يفضي إليه، من اعتقاد أو قول أو فعل، "و رجلٌ بَريءٌ، ورجال براءٌ، على فعالٍ وفعيلٍ، كظرافٍ وظريفٍ، وقوله: ﴿إِنَّنِي بَرَآءٌ﴾ [الزّخرف: 26]، أي: بريءٌ"[1]، ومنه قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّـهُ ٱلْخَـٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ﴾ [الحشر: 24]، وقوله تعالى: ﴿فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ﴾ [البقرة: 54][2].

(1) السّمين الحلبيّ، عمدة الحفاظ: (برأ).

(2) المصدر السّابق نفسه: (برأ).

﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾﴾ [هود: 56]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

مواجهة الكفران بالتَّوكُّل على ربِّ الأربـــاب الآخـذ بالنواصي

لمّا ذكروا من شأن آلهتهم ما ذكروا، وما تبعه من هود عليه السلام بإظهار براءته وعدم اكتراثه بآلهتهم، أتبعه ببيان سبب ذلك، فكأنَّه قيل: هَب أنَّك لا تأبه لآلهتنا، فما حملك على الاجتراء على مخالفتنا، ونحن على ما تعرف من كثرتنا وقوَّتنا؟ فقال: جسرتُ على ذلك؛ إذ ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ ۚ﴾[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تَوَكَّلْتُ﴾: أصْلُ (وكل): يَدُلُّ على اعتماد غَيرك في أمْرِكَ، منْ ذلك الوُكَلَةُ، والوكَلُ: الرَّجُلُ الضَّعيفُ[2]. والتَّوكُّلُ: إظهار العجز والاعتماد على غيرك، والاسم التُّكْلانُ[3]، ويُقال على وجهين، يُقالُ: تَوكَّلْتُ لفلان، بمعنى: تولَّيتُ لَه، ويُقالُ: وكَّلْتُهُ، فَتَوكَّلَ لي، وتَوكَّلْتُ عليه، بمعنى: اعتمدته، قال ﷻ: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾﴾ [التَّوبة: 51][4]، وواكَلَ فُلانٌ؛ إذا ضَيَّعَ أمْرَهُ مُتَّكِلًا على غَيْرِهِ، وسُمّيَ الوكيلَ؛ لأنَّهُ يوكَلُ إليه الأمْرُ، والمواكَلَةُ: إذا اتَّكَلْتَ عليه، واتَّكَلَ عليكَ[5]. والمقصودُ بالتَّوكُّل في الآية: التَّفْويضُ، وهو مُبالَغةٌ في وكَلَ.

2) ﴿دَآبَّةٍ﴾: أصْلُ (دبّ): حَرَكَةٌ على الأرْضِ أخَفُّ منَ المَشْيِ، تَقولُ: دَبَّ دَبيبًا، وكلُّ شيءٍ ممّا خَلَقَ اللّه يُسَمَّى دابَّة، والاسمُ العامُّ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/311.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (وكل).
(3) الجوهري، الصّحاح: (وكل).
(4) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحفّاظ: (وكل).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (وكل).

الدّابَّةُ لِما يُرْكَبُ، وتصغيرها دويبَّة[1]، ويُقالُ: ناقَةٌ دَبوبٌ؛ إذا كانَتْ لا تَمْشي منْ كَثْرَةِ اللَّحْم إلّا دَبيبًا[2]، ودَبَّ النَّمْل يَدِبُّ دَبيبًا، أي: مَشَى على هينتيه، ودبَّ القَوْم إلَى العَدوِّ دبيبًا، أي: مَشَوا على هينتهم لم يسرعوا[3]، والدَّبيبُ: الزَّحف على الوجْه[4]، والمقصود بـ﴿دَآبَّةٍ﴾ في الآية: ما دَبَّ على وجْهِ الأرْضِ، أي: مَشَى.

3) ﴿ءَاخِذُۢ﴾: أصلُ الأخذ: حَوْزُ الشَّيْءِ وجَبْيُهُ وجَمْعُهُ، تَقول: أخَذَ المالَ، أي: جَمَعَهُ، وحازَهُ لِنَفْسِهِ، فهو آخِذٌ، والمالُ مَأْخوذٌ، وضِدُّه: العَطاءُ والتَّسْليمُ، ومن معانيه: القَبولُ، كَقَولِهم: أخَذَ بِالشَّيْءِ: إذا قَبِلَهُ[5]، ومنْهُ: المَنْعُ، كَقَوْلِهم: أخَذَ على يَدِهِ: إذا مَنَعَهُ، ومن مَعانيه أيضًا: الشُّروعُ والقَبْضُ والإمْساكُ والمُجازاةُ، و"(أخذه) يأخذه أخذًا: تناوله، والإخذ، بالكسر، الاسم، وإذا أمرت قلت: خُذْ، وأصله أُؤْخذ، إلّا أنَّهم استثقلوا الهمزتين، فحذفوهما تخفيفًا، وقال ابن سيده: فلما اجتمعت همزتان، وكثر استعمال الكلمة؛ حذفت الهمزة الأصليَّة، فزال السّاكن، فاستغني عن الهمزة الزّائدة، وقد جاء على الأصل: فقيل: أُؤْخذ"[6]، والمراد بالأخذ في الآية: الإمْساكُ، والأخْذُ بالنّاصيَةِ هنا تَمثيلٌ للتَّمكُّنِ.

4) ﴿بِنَاصِيَتِهَآۚ﴾: أصلُ (نصا): يَدُلُّ على عُلوٍّ، ومنه النّاصيَةُ: سُمّيَتْ لِارْتِفاعِ مَنْبَتِها[7]. قالَ الأزهريُّ: النّاصيَةُ: مَنْبتُ الشَّعَرِ في مقدَّم الرَّأْسِ، لا الشَّعَرُ الَّذي تُسَمّيه العامَّة النّاصيَة، وسُمّي الشَّعَر ناصيَةً؛ لنَباتِه من ذَلِك المَوْضِع[8]، وقيل: النّاصيَةُ: قُصاصُ الشَّعَرِ، نَصَوْتُ فلانًا: قَبَضْت على ناصيَتِه، والمُناصاةُ: الأخْذُ بالنَّواصي[9]. والمقصودُ بالنّاصيةِ في الآيةِ: ما انسدَلَ على الجَبهَةِ منْ شَعَرِ الرَّأْسِ.

5) ﴿صِرَٰطٍ﴾: أصلُ (صرط): الطَّريقُ الواضِحُ المُسْتَقيمُ، وسُمّي صِراطًا؛ لأنَّ النّاسَ يَسلُكونَهُ بِسُرعَةٍ لِكونِهِ واسِعًا مُستقيمًا، والجَمْعُ: صُرُطٌ، أو منْ سَرِطتُ الشَّيْءَ:

(1) الخليل، العين، وابن عباد، المحيط في اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (دبَّ).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (دبَّ).
(3) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة: (دب).
(4) الأزهري، تهذيب اللّغة: (دب).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (أخذ).
(6) الزَّبيديّ تاج العروس: (أخذ).
(7) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نصا).
(8) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس: (نصو).
(9) ابن عبّاد، المحيط في اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (نصا - نصو).

إذا ابْتَلَعْتَهُ؛ لِأَنَّهُ - أي: الطَّريق - يَبْتَلِعُ المارَّةَ لِكَثْرَةِ سُلوكِهِم[1].

والمقصود بالصِّراط في الآية: الطَّريقُ البَيِّنُ، مُستَعارٌ للفِعْلِ الجاري على مُقْتَضَى العَدْلِ والحِكْمَةِ[2].

المَعْنى الإجْمالِيُّ:

قالَ هود عليه السلام للطُّغاة، منْ قَومه بعِزَّة وثِقَةٍ: إنّي وكَّلْتُ أمرَ حِفْظي وخِذْلانِكُم إلى اللّه مُعتَمدًا عليه وحْدَهُ؛ إذ هو مالكُ أمْري وأُموركُم، والمُتَصرِّفُ فيها وفي غيرها، فلا يصيبُني شيءٌ إلّا بأمرِه تعالى، وهو القادِرُ على كلِّ شَيءٍ، ما منْ شيءٍ يدِبُّ على الأرضِ إلّا وهو في قبضةِ اللّه، وتحت قَهرِه وسُلطانِه، يُصرِّفُه كيف يشاءُ، ويمنَعُه ممّا يشاءُ، فلا تَصِلونَ إلى إلحاقِ الضَّررِ بي، إنَّ ربّي على طَريقِ الحَقِّ والعَدلِ، لا يَظلِمُ أحدًا، ولا تخرجُ أقوالُه وأفعالُه عن الصَّوابِ والحِكمةِ في شَرعِه وقضائِه[3].

مهما بلغ الطُّغاة من عُتوٍّ وبأْسٍ، فإنَّهم كالدّوابِّ الَّتي يأخذ ربّي بناصيتها

وترشدُ الآيةُ الكريمة إلى أنَّ من توكَّل على اللّه لا يبالي بهولِ ما نالَه، وإلى تقرير مبدأ أنَّ كلَّ شيء في الكون خاضعٌ لتدبير اللّه تعالى، لا يخرجُ أيُّ مخلوق عمّا أراده له أو به، وأنَّ أفعالَ اللّه جميلةٌ لا تخرج عن الصراط المستقيم التي يُحمَد، ويُثنى عليه بها، وأنَّ قولَه - جلَّ في علاه - صدقٌ وعدل، وحكمةٌ، وحَمْد في قضائه وقدره، وفي شرعه وأمره، وفي جزائه وثوابه وعقابه، وأنَّ وعده تعالى حقٌّ[4].

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن سيده، المحكم، وابن منظور، لسان العرب: (سرط - صرط).

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/101.

(3) ابن جرير، جامع البيان: 12/450، وابن القيّم، إعلام الموّقعين: 1/125، و126، ورشيد رضا، تفسير المنار: 12/98، والسّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 384.

(4) ابن جزي، التسهيل لعلوم التنزيل، 1/373، والسعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 384، والجزائري، أيسر التفاسير: 2/554.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالة الاستئناف التَّعليليّ في ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ﴾:

علّة التّحدّي قائمة على المبادرة إلى التّوكّل على الله تعالى

الجملة في قوله جلَّ شأنه: ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ﴾ مستأنفة استئنافًا تعليليًّا، فهي تعليل لمضمون الجملة: ﴿فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ﴾، بغرض التَّعجيز لهم والاحتقار لشأنهم، أي: إنّي جسرتُ على ذلك؛ لأنّي متوكِّل على الله تعالى معتمدٌ عليه، وهو الملك الّذي يُرهَب عقابه[1]، ومن يلجأ إليه؛ لا يُغْبَنُ، ومن يسأله؛ لا يخيب، وهو ربُّ الكائنات، وربُّ جميع الموجودات، والقائم على كلِّ شيء، بحكمته وإرادته ولطفه، لا رادَّ لحكمه، ولا مبدِّل لكلماته، ومن توكَّل عليه؛ فقد هدي إلى صراط مستقيم.

غرضُ التَّوكيد بـ (إنَّ) في ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ﴾:

تعجُّبهم من تحدّيه وجرأته، مجابهة منه لتأكيد توكُّله على الله

جاءتِ الجملة المستأنفة في قوله جلَّ شأنه: ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ﴾، مؤكِّدة بأداة التَّأكيد (إنَّ)؛ للدِّلالة على أنَّ توكُّله على الله تعالى، كان على وجه الكمال، وأنَّه بحيث لا يُشَكُّ فيه، وأنَّه مسلِّم أمره لله تعالى، فأكَّد لهم هذه المقولة؛ لأنَّهم أعظموا جرأته وقوَّة تحدّيه، فواجه إنكارهم بتأكيد توكُّله على الله تعالى.

بلاغةُ الفعل الماضي ﴿تَوَكَّلْتُ﴾:

إظهار الإيمان والقطع به، أبلغ في سياق التَّحدّي

عبَّر النَّظمُ الجليل في قوله جلَّ شأنه: ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ﴾ عن توكُّله عليه السلام بالفعل الماضي؛ لأنَّه أدلُّ على الإنشاء المناسب للمقام[2]، والدَّلالة على تحقُّق توكُّله، وأنَّه مقطوع به قد وقع وتحقَّق، فهو غير قابل للنَّقض، وقد "وصفه بما يوجب التَّوكُّل عليه، من اشتمال ربوبيَّته عليه وعليهم، ومن كون كلِّ دابَّة في قبضته وملكه، وتحت قهره وسلطانه، والأخذ بالنّاصية تمثيل لذلك"[3].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/311.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/218.
(3) النّسفيّ، مدارك التّنزيل وحقائق التّأويل: 2/8.

معنى ﴿عَلَى﴾ في قوله: ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾:

اعتماد الأنبياء على الله، متَّصفٌ بالرسوخِ لا يتزعزع

عبَّر النَّظم الجليل بحرف الاستعلاء، في قوله جلَّ شأنه: ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ﴾، وهو استعلاء مجازيٌّ، مستعارٌ للتَّمكُّن المعنويِّ؛ للدَّلالة على أنَّ توكُّله متَّصف بالرُّسوخ، وأنَّه بلغ فيه بحيث لا يتغيَّر، "يعني: أنَّكم وإن بذلتم في مُضارَّتي مجهودَكم، لا تقدرون على شيء ممّا تريدون بي، فإنّي متوكِّلٌ على الله تعالى"[1]، والله مهيمنٌ على كلِّ شيء، ولا يعجزه شيء في الأرض ولا في السَّماء، ومن توكَّل عليه؛ فهو في حماه، ولو اجتمعت الموجودات كلُّها، ما قدرت على أذاه.

دلالة التَّعبير بـ ﴿ٱللَّهِ رَبِّي﴾:

صفات القهر واللُّطف الإلهيَّة، هي موئل الدُّعاة مع أقوامهم في المشاكسات

في قوله جلَّ شأنه: ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ﴾، أورد النَّظم الكريم لفظَي الرُّبوبيَّة والألوهيَّة، فذكر الرُّبوبيَّة للدِّلالة على عموم ربوبيَّته للمؤمن والكافر، وبسطها على المؤالف والمخالف، ثمَّ أجرى صفة الرُّبوبيَّة على اسم الجلالة، فقال عزَّ ذكره: ﴿عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ﴾؛ "استدلالًا على صحَّة التَّوكُّل عليه، في دفع ضرِّهم عنه؛ لأنَّه مالكُهم جميعًا يدفع ظلم بعضِهم بعضًا"[2]، ولحاجة هود عليه السلام إلى صفات القهر في الألوهيَّة، وحاجته مع أعدائه لصفات اللُّطف والعطاء في الرُّبوبيَّة.

المناسبة بين صدر الآية وعجزها:

ختام الخطاب، تثبيتٌ وتأكيد على مضمونه المبلور للرُّبوبيَّة

جاءت الجملة في ختام الآية، في قوله جلَّ شأنه: ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ﴾، مناسبة لمضمون الخطاب في سياقها، ففيها تذكيرٌ وزجرٌ لهم؛ لأنَّهم كانوا قادحين في ربوبيَّة الحقِّ سبحانه، فأراد أن يرجعهم إلى الحقيقة، كما أنَّها منطبقة على قولهم: ﴿مَا

(1) النّسفيّ، مدارك التَّنزيل وحقائق التَّأويل: 4/218.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/100.

﴿جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ﴾ [هود: 53]، لما فيها من ردٍّ لهذا القول؛ "لأنَّ من كان على صراط مستقيم؛ لم يكن شيء أبينَ من أمره، وعلى جوابه في توكُّله وما في حيِّزه أتم انطباق"[1].

دلالة الاستئناف:

الجملة في قوله جلَّ شأنه: ﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآ﴾ استئنافيَّة، للتَّدليل على الجملة السّابقة، في قوله تعالى: ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ﴾، والبرهنة عليها، فمضمون الجملة يدلُّ على البرهان على هيمنة قدرته، وتصرُّفه في مخلوقاته وفق إرادته[2]، فلمّا "ذكر توكُّله على الله وثقته بحفظه وكِلاءته من كيدهم، وصفه بما يوجب التَّوكُّل عليه من اشتمال ربوبيَّته عليه وعليهم، من كون كلِّ دابَّة في قبضته وملكته، وتحت قهره وسلطانه، والأخذ بنواصيها، تمثيل لذلك"[3].

التَّوكُّل على الله المتصرِّف في المخلوقات منهج العقلاء الأثبات

وجهُ النَّفي و﴿مِن﴾ الاستغراقيَّة:

في قوله تعالى: ﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ﴾، تشير ﴿مِن﴾ إلى الشُّمول والتَّعميم، مبالغة في إظهار هيمنته ﷻ فالنَّفي بهذا الأسلوب يفيد عموم ما يدِبُّ في الكون، ويؤوَّل المعنى إلى أنَّ الله تعالى الَّذي لم يعجزه الكون بكلِّ دوابِّه، هو من توكَّلتُ عليه لمواجهة كيدكم الواهن الضَّعيف، والمعنى: "فإنّي متوكِّلٌ على الله القادر القويِّ، وهو مالكي ومالك كلِّ شيء؛ إذ ﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ﴾ نسمة تدبُّ على الأرض، إلّا هو، أي: ربِّي تعالى ﴿ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآ﴾"[4].

لا شيء يخرج عن ملك الله تعالى وسلطانه، ومن احتمى به؛ فهو في أمانه

بلاغة الاستعارة التَّمثيليَّة في الأخذ بالنّاصية:

استعار النَّظم البليغ في قوله جلَّ شأنه: ﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآ﴾، الآخذ بالنّاصية تعبيرًا عن سلطة الله تعالى على

تحكُّم الله في خلقِه، كتحكُّم صاحب الدّابَّة الماسك بناصيتها فيها

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/312.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/218.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/404.
(4) حقّي، روح البيان: 4/149.

مخلوقاته، وهي استعارة تمثيليَّة، والنّاصية هي "شَعَر مقدِّم الرّأس، ومَن أُخِذَ بناصيته، فقد انقاد لآخذه لا يستطيع ميلًا"[1]. فشبَّه الخلقَ وهم في قبضةِ اللّه وملكِه، بمَن يقود دابَّة ماسكًا بناصيتها، فهي منقادة لتصريفه وإرادته، فاللّه تعالى "مالكٌ لها، قادرٌ عليها، يُصرِّفها كيف يشاء غيرَ مستعْصيةٍ عليه؛ فإنَّ الأخذَ بالناصية تمثيلٌ لذلك"[2]، هذا وقد كانت العرب في موروثها تجزُّ ناصية الأسير، الممنون عليه بفكِّ الأسر علامة على أنَّه قد قُدر عليه، وقبض على ناصيته[3].

غرضُ تخصيص (النّاصية) بالذِّكر:

الأخذ بالنّاصية يشير إلى التّحكُّم والتَّسلُّط ونفاذ الأمر

خصَّ النَّظم الجليل - في قوله جلَّ شأنه: ﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآ﴾ - ذِكْرَ الناصيَةِ وهي مقدَّم الرَّأس؛ لأنَّ العرب تكنّي بها عن الذِّلَّة والخضوع، وعن الغلبة والتَّسلُّط، وإذا وصفوا إنسانًا بالذِّلَّة والخضوع، قالوا: ما ناصية فلان إلّا بيد فلان، أي: إنَّهُ مطيع له، يصرِّفه كيف يشاء[4]، وبالنِّسبة للّه، فإنَّ أخْذه بناصيتها، بمعنى أنَّه: "مالكٌ لها، قادرٌ عليها، يُصرِّفها كيف يشاء غير مستعصية عليه"[5]. واستحضار من هود عليه السلام، في سياق التَّوكُّل على اللّه بعد تحدّيهم يهوِّن عليه عواصف الصِّراع مع الباطل، ويشدُّ من أزره إزاءهم؛ فالتَّعبير تمثيل لقوَّته تعالى وسلطانه وسيطرته على خلقِه، لا يتمكَّن أحد من البعد عن قبضته[6].

سرُّ التَّعليلِ بعد ذكر التَّوكُّل:

علَّة توكُّل العباد على الله تعالى، ثقتهم بحمايته الشّاملة

الجملة في قوله جلَّ شأنه: ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾، استئنافيَّة للتَّعليل، فهي تبيينٌ لعلَّة قوله تعالى: ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/311.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/218.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/168.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/168 - 169.
(5) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/218.
(6) أبو زهرة، زهرة التّفاسير التَّفاسير: 7/3719.

﴿رَبِّي وَرَبِّكُمۡۚ﴾، فالاستئناف تعليليٌّ؛ "لما يدلُّ عليه التَّوكُّل، من عدم قدرتهم على إضراره، أي: هو على طريق الحقِّ والعدل في ملكه، فلا يسلِّطكم عليَّ؛ إذ لا يضيع عنده معتصم به، ولا يفوته ظلم"[1].

دلالة الاقتصار في ﴿رَبِّي﴾:

حكى النَّظم الجليل اقتصار هود عليه السلام إضافة لفظ الرَّبِّ إلى ضميره، في قوله جلَّ شأنه: ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾، إمّا بطريق الاكتفاءِ لظهور المرادِ؛ إذ من المعلوم أنَّ ربَّه وربَّهم واحدٌ، أو أنَّ فائدةَ كونِه تعالى مالكًا لهم، أيضًا راجعةٌ إليه عليه السلام حين يكفيه المولى بأسهم[2]. كما أنَّه يتضمَّن الإشارة، إلى أنَّ "اللُّطف والإعانة مخصوصة به، دونهم"[3].

الاكتفاء بالمذكور مرَّة عن تكراره من الإيجاز البليغ

بلاغة الاستعارة التَّصريحيَّة في ﴿صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾:

استعار النَّظم الجليل الطَّريق المستقيم، في قوله جلَّ شأنه: ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾؛ للدَّلالة على كمال العدل، للدِّين الموصل إلى الله تعالى بالطَّريق المستقيم الَّذي يوصل النّاس إلى غاياتهم، فقوله: ﴿صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ "مستعار للفعل الجاري على مقتضى العدل والحكمة؛ لأنَّ العدل يشبَّه بالاستقامة[4]، وحذف المشبَّه، وصرَّح بالمشبَّه به، فالاستعارة تصريحيَّة، والجامع بين المشبَّه والمشبَّه به العدل والإيصال والاستقامة.

الدِّين القويم يوصل إلى الهدف إيصالَ الطَّريق إلى الغاية

دلالة التَّعبير بـ ﴿عَلَىٰ صِرَٰطٖ﴾:

عبَّر النَّظم الجليل في قوله جلَّ شأنه: ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾، بجعل شبه الجملة مسندًا، وقد تضمَّن حرفَ الاستعلاء ﴿عَلَىٰ﴾، وهو استعلاءٌ مجازيٌّ، كقوله جلَّ شأنه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى

المنهج الموصِلُ إلى الله تعالى، هو الرُّسوُّ على الاستقامة

(1) القاسميّ، محاسن التّأويل: 6/109.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/218.
(3) القاسميّ، محاسن التّأويل: 6/109.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 12/101.

مِّن رَّبِّهِمۡۖ﴾ [البقرة: 5]، والغرضُ من ذلك الدَّلالة على التَّمكُّن المعنويِّ، للمبدأ الرّاسخ الَّذي لا يتغيَّر[1]، وهو أنَّ الذي يوصل العباد إلى الله تعالى هو سلوكُهم الطَّريقَ المستقيم، ولا خيار غير ذلك.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

(توكّلت) و(استعنت):

التَّوكُّلُ: إظهار العجز والاعتماد على غيرك، والاسم التُّكْلانُ[2]، وتَوكَّلْتُ عليه بمعنى: اعتمدت عليه قال ﷻ: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝٥١﴾ [التّوبة: 51][3]، والفعل في قوله تعالى: ﴿تَوَكَّلۡتُ﴾ إخبار عن كونه متوكِّلًا على الله تعالى، أي: معتمدًا عليه، أمّا الاستعانة؛ فهي من العون: وهو الظَّهير عَلَى الأمر[4]، وتعني: طلب العَوْنِ، قال: ﴿ٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ﴾ [البقرة: 45][5]، فالاستعانةُ تدلُّ على الطَّلب، أمّا التَّوكُّل؛ فهو اعتماد قلبيٌّ وتجرُّدٌ من الحول، فقوله تعالى: ﴿إِنِّي تَوَكَّلۡتُ عَلَى ٱللَّهِ﴾، أظهر عجزه، وأعلن اعتماده على الله تعالى، ولم يذكر الاستعانة؛ لأنَّه لم يطلب العون، بل أعلن العجز، فأوكل الأمر كلَّه لله تعالى.

التَّوكُّل: عمل قلبيٌّ بإظهار العجز والتَّفويض، والاستعانة: طلب العون

(توكّلت) و(فوّضت):

التَّوكُّل والتفويض كلمتان متقاربتان في المعنى، لكنَّهما ليستا مترادفتين، والفرق الدقيق بينهما: أنَّ التوكُّلَ هو اعتمادُ القلب على الله وإسنادُ الأمور إليه، والثقةُ بحكمته ورحمته وقدرته، وهو اعتمادُ القلبِ على الله في حصولِ ما ينفعُ العبدَ في دينه ودنياه، ودفعِ ما يضرُّه في دينه ودنياه، مع الأخذ بالأسباب المشروعة، وهو عبادةٌ

المتوكِّلُ يعمل بالأسباب، ويتوجَّه إلى الله، والمفوِّض يخرجُ من مراد نفسه إلى ما يختاره الله ويرضاه

(1) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 12/101
(2) الجوهريّ، الصّحاح: (وكل).
(3) الرّاغب، المفردات: (وكل).
(4) ابن منظور، اللّسان: (عون).
(5) الرّاغب، المفردات: (عون).

قلبية ومن صميم الإيمان، ومن أسباب الفلاح والسعادة في الدنيا والآخرة[1]. أمّا التفويضُ؛ فهو تركُ الأمر لله تعالى والرضا بما قسمه، وقدَّره، وعدم الحزن على ما فات، أو القلق على ما سيأتي، فهو خروجُ العبد من مراد نفسه إلى ما يختاره الله، ويرضاه، وحقيقته التسليم، والانقياد لله تعالى[2].

وخلاصةُ التفرقة: أنَّ المتوكِّلَ يعمل بالأسباب، ويتوجَّه إلى الله بالدُّعاء والاستعانة، وصاحبَ التفويضِ يكتفي بعلم الله وحُكمه، ولا يطلب منه تغيير القضاءِ أو تعجيل الفرج.

(أخذ) و(اتّخذ):

الأخـــذ: تـنـاول وقهر، والاتِّخاذ: جَعْل، وكلاهما مفيد للدِّلالة في بابه

الأَخْذُ: حوز الشَّيء وتحصيله، وذلك تارةً بالتَّناول نحو: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأۡخُذَ إِلَّا مَن وَجَدۡنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ﴾ [يوسف: 79]، وتارةً بالقهر نحو قوله تعالى: ﴿لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ﴾ [البقرة: 255]. أمّا الاتِّخاذ؛ فهو على وزن (افتِعال) من الفعل (اتخذ)، ويُعدّى إلى مفعولين ويجري مجرى الجعل، نحو قوله تعالى: ﴿لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَۘ﴾ [المائدة: 51][3]، فصيغة الافتعال دالَّة على المبالغة في الأخذ، وهذه المبالغة والقوَّة موجودة في الفعل، بحيث إنَّه صار متعدّيًا إلى مفعولين، وفي الآية الكريمة عبَّر بـ (الآخذ) من (أخذ)؛ للدَّلالة على التَّناول الَّذي يدلُّ على القهر، وملك الأمر والتَّحكم به، وفيما يلي تلخيص وحصر لمعاني (الأخذ) في التركيب في القرآني: أنَّ الأخذ يعبِّر عن حوز في الأثناء بغلظ، أي: قبض بقوة، وقد جاء أكثر (أخذ) بمعنى: القبض الحقيقي أو المجازي (55 مرة)، وجاء نحو (78 مرة) الأخذ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (وكل). وينظر: ابن تيمية، مجموع الفتاوى: 8/177، وابن قيم الجوزية، مدارج السالكين: 3/523.

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (فوض)، وابن قيم الجوزية، مدارج السالكين: 2/127.

(3) الرّاغب، المفردات: (أخذ).

فيها بمعنى إنزال عقوبة إهلاك، وهذا قبض؛ لأنَّه جَوْح واجتلاف، ومنها (18 مرة) في أخذ الميثاق، وهو تقييد من باب القبض، وجاءت صيغة المؤاخذة للمحاسبة والمعاقبة تسع مرات، وهي نيلٌ بالعقوبة من باب القبض، وأخيرًا جاء على صيغة افتعل (اتخذ) وما تصرَّف منها نيِّفًا ومئة مرة، وأصل معناها أخذ لنفسه، فهي قبض أيضًا[1].

(1) جبل، المعجم الاشتقاقي: (أخذ).

﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْۚ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔاۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ۝٥٧﴾ [هود: 57]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

بيان العلاقة بين استيفاء تبليغ الدَّعوة، وتحميل القوم مسؤوليَّة اختيارهم

لمّا استوفى هود عليه السلام تشييدَ أمر دعوته، ووجَّه سهام الهدم إلى ظنونهم وافترائهم؛ أخذ يحذِّرهم[1]، بتحميلهم تبعةَ كفرهم وإعراضهم عن دعوته، قائلًا: لقد أبلغتكم رسالة ربّي إليكم، وليس عليّ غير البلاغ، وقد لزمتكم الحجَّة[2]، فإن آمنتم بالإله الذي آمنت به، والَّذي أدعوكم إليه، فقد اهتديتم، ورشدتم، وإن تتولّوا؛ فلا متعلِّق لكم بي[3].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تَوَلَّوْاْ﴾: أصْلُ (ولي): يَدُلُّ على قُرْبٍ، منْ ذلك الوَلْيُ: القُرْبُ، يقال: تَباعَدَ بعد ولْيٍ، أي: قُرْبٍ، وجَلَسَ ممّا يَليني، أي: يُقارِبُني[4]، والولايَةُ: تَولّي الأمرِ، فإذا عُدّي (تَولَّى) بنفسِه؛ اقتَضَى معَنى الولايَةِ، وحُصولِها في أقْرَبِ المواضِع، وإذا عُدّي بـ (عَنْ) لفظًا أو تقديرًا؛ اقتَضَى معنَى الإعراضِ وتَرْكِ قُرب الشيء؛ فمنَ الأوَّل قوله: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْۗ﴾ [المائدة: 51]، ومنَ الثّاني قوله: ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ ۝٦٣﴾ [آل عمران: 63][5]. والفعل في الآية الثانية: ﴿تَوَلَّوْاْ﴾ فعلٌ مضارعٌ، أصله: تتولوا، بتاءين، فحُذفَ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/312.
(2) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 12/50.
(3) عبد الكريم الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 6/157.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ولي).
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/102.

حرفُ المضارعة وهو التاء الأولى؛ تخفيفًا لثقل تَكرار التّاء، والمرادُ بالتَّولي في الآيةِ: الإعْراضُ والإدبارُ[1].

2) ﴿أَبْلَغْتُكُم﴾: أصْلُ البُلوغِ لُحوقُ الشَّيْءِ، والوُصولُ إليه أو المُشارَفَةُ عليه[2]، يُقالُ: بَلَغْتُ المَكانَ بُلوغًا، أي: وصَلْتُ إليه، وكذلك إذا شارَفْت عليه، فالإبلاغُ: الإيصالُ، وكذلكَ التَّبليغُ، والاسْمُ منه البلاغُ[3]. ويُقالُ: بَلَّغْتُ القومَ بَلاغًا، اسْمٌ يَقومُ مَقامَ التَّبْليغِ[4]. وتقولُ: له في هذا الأمر بلاغٌ وبُلغةٌ وتَبَلُّغ، أي: كِفايَة، وشيءٌ بالغ، أي: جَيِّدٌ، والمبالغةُ: أن تبلغ من العَمَل جهدَك[5]. والمقصود من الإبلاغ في الآية: جَعْلُ الشَّيءِ بالغًا، وهو هنا استِعارةٌ لإعلام هود عليه السلام شرع الله لقومه.

3) ﴿وَيَسْتَخْلِفُ﴾: أصلُ (خلف) منَ الإخْلافِ، وهو: مجيءُ شيءٍ بعد شيءٍ يَقومُ مَقامَهُ[6]، فالخَلَفُ: المُتأخِّرُ، سواء كان تَأخُّرُه في الزَّمَنِ، أم في الرُّتبَةِ، يُقال: فُلانٌ خَلَفُ لأبيهِ، أيْ: جاءَ بَعْدَهُ[7]. واسْتَخْلَفَ فُلانًا منْ فُلانٍ: جَعَلَهُ مَكانَهُ، وخَلَفَ فُلانٌ فُلانًا؛ إذا كانَ خَليفَتَه، والخَليفةُ: الَّذي يُسْتَخْلَفُ ممَّنْ قَبْلَهُ، والجمع خَلائِف، جاؤوا بِهِ على الأصل مثْلَ كريمةٍ وكرائِمَ، وهو الخَليفُ والجَمْعُ خُلَفاء[8]. والمقصود بالخَلَفِ في الآية: العِوضُ عَنْ شَيءٍ فائِتٍ، والسّينُ والتّاءُ فيهِ لِلتَّأْكيدِ، أي: بقوم يَخْلُفونكم.

4) ﴿وَلَا تَضُرُّونَهُۥ﴾: أصلُ الضَّرَرِ: النُّقْصانُ يَدْخُلُ في الشَّيءِ، يُقالُ: دَخَلَ عليه ضَرَرٌ في ماله[9]، وضِدُّهُ: النَّفْعُ والسَّعَةُ، والضَّرَرُ: المَكروهُ والأذَى، وضَرَّ فُلانًا ضُرًّا وضَرَرًا؛ إذا ألحَقَ به مَكروهًا أو أذًى[10]، وكلُّ ما كانَ من سوء حالٍ وفَقْرٍ، في بدنٍ، فهو ضُرٌّ، وما كانَ ضِدًّا للنَّفع؛ فهو ضَرٌّ[11]، والضُّرُّ المقصود في الآية النُّقصان، أي: ولا يدخل مُلْكَهُ بإهلاككم

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ولي).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والأزهريّ، تهذيب اللّغة: (بلغ).
(3) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة: (بلغ).
(4) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (بلغ).
(5) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن عبّاد، المحيط في اللّغة: (بلغ).
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (خلف).
(7) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (خلف).
(8) الخليل، العين، وابن منظور، لسان العرب: (خلف).
(9) الخليل، العين، وابن منظور، لسان العرب، والزَّبيدي، تاج العروس: (ضرَّ - ضرر).
(10) ابن منظور، لسان العرب، والزّبيدي، تاج العروس: (ضر).
(11) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (ضر).

نَقْصٌ[1]، واللّه غنيٌّ عن عباده، لا تنفعه طاعة من أطاعه، ولا تضرُّهُ معصية من عصاه.

5) ﴿حَفِيظٌ﴾: أصلُ (حفظ): يَدُلُّ على مُراعاةِ الشَّيْءِ، يقال: حَفِظْتُ الشَّيْءَ حِفْظًا[2]، ويأتي الحِفْظُ بمعنى: الرِّعايَةِ والعِنايَةِ، وضِدُّهُ التَّضْييعُ والتَّفْريطُ، والحِفْظُ أيْضًا: التَّعاهُدُ وقِلَّةُ الغَفْلَةِ، وضِدُّهُ النِّسْيانُ، يقال: حَفِظَ الكلامَ، أي: تَعاهَدَهُ، ولَمْ يَنْسَهُ[3]. والحَفيظُ: الموكَّلُ بالشَّيْءِ يَحْفَظُهُ، وكذلك الحافِظُ، والحَفيظُ أيضًا: الرَّقيبُ، قالَ تعالى: ﴿ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ﴾ [الشّورى: 6] والحَفَظَةُ: الجَماعَةُ؛ منه[4]، والمقصود بالحفيظ في الآية: الذي يضع المَحْفوظ، بِحَيْثُ لا يَنالُهُ أحَدٌ غيرُ حافِظِهِ، وهو هنا كنايةٌ عَنِ القُدْرَةِ والقَهْرِ[5].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

بلاغُ هودٍ رسالةَ ربِّه، وإصرارُ قومه على الكفر والعصيان واستعجالِ العذاب

أبلغَ هود رسالتَه في بيانٍ ورِفْقٍ، ولم يكن رِفقه ضعفًا في جنب اللّه، ولكنَّهم أصرّوا على الكُفر والعِصيان، واستعجلوا العذاب الَّذي كان يُذكِّرهم به أثناء تبليغ رسالة ربِّه، عندئذٍ ذكَّرهم بعاقبة أمرهم، فقال تعالى مُخبرًا عنه: فإن تُعرِضوا عمّا أدعوكم إليه من عِبادةِ اللّه وحدَه، فقد قامت عليكم الحُجَّةُ، بإبلاغي إيّاكم رسالةَ اللّه، ولم تبقَ عليَّ تَبِعَةٌ من شأنِكم، ويَستبدِلُ ربّي قومًا غيرَكم يُطيعونَه، ويعبُدونَه وحدَه، بعد أن يُهلِكَكم، ولا تضُرّونَ اللّه شيئًا بكُفرِكم، إنَّ ربّي ذو حِفظٍ لكُلِّ شَيءٍ، حافِظٌ لأقوالِ عبادِه وأفعالِهم، ويجزيهم عليها، ويحفَظُني من أن تنالوني بسوءٍ[6].

(1) النّسفيّ، التّيسير في التّفسير: 8/221.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حفظ).
(3) السّمين الحلبي، عمدة الحفّاظ: (حفظ).
(4) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن عبّاد، المحيط في اللّغة، والزَّبيديُّ، تاج العروس: (حفظ).
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/103.
(6) ابن جرير، جامع البيان: 12/451، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 9/53، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/330، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3720.

وترشدُ الآيةُ الكريمةُ إلى أمانةِ الرسول الكريم هودٍ عليه السلام وتبليغه رسالةَ ربِّه لقومه غايةَ البيان، وبراءةِ ذمَّتِه في هذه المهمة النَّبيلة، وأنَّ المقصودَ من بَعث الرُّسلِ هو عبادةُ الله وحده، فإن لم يؤمن المُرسَلُ إليهم وحصلَ منهم العنادُ والكفر، فيَخْلفهم الله بقومٍ آخرين يعبدونه، ولا يشركون به شيئًا.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

معنى (الفاء) في قوله: ﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ﴾:

تفريع التَّولّي على التَّحدّي والإشهاد، يبرز المعنى المستفاد

الفاء في قوله جلَّ شأنه: ﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُم مَّآ أُرۡسِلۡتُ بِهِۦٓ إِلَيۡكُمۡۚ﴾، تدلُّ على التَّفريع والتَّفصيل الوارد على لسان هود، ففرَّعت الجملة الشَّرطيَّة على الجملة، في قوله تعالى: ﴿إِنِّيٓ أُشۡهِدُ ٱللَّهَ﴾، وما بين الجملتين من قوله: ﴿إِنِّي تَوَكَّلۡتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾، اعتراضٌ أوجبه قصدُ المبادرة بإبطال باطلهم؛ لأنَّ مضمون هذه الجملة تفصيلٌ لمضمون الجملة الَّتي ذكر فيها الإشهاد[1].

دلالة الجملة الشَّرطيَّة في الآية الكريمة:

التَّولّي عن الحقِّ نتائجه أليمة، وعواقبه وخيمة

جُعِل التَّولّي شرطًا في قوله جلَّ شأنه: ﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُم مَّآ أُرۡسِلۡتُ بِهِۦٓ إِلَيۡكُمۡۚ﴾، وذلك يجعل ما علَّق به من الجواب المسبَّب عنه واقعًا على وجه التَّأكيد؛ فإنَّ الجملة الشَّرطيَّة يتعلَّق فيها الجواب بالشَّرط، تعلُّقًا قطعيًّا، فإذا وقع الشَّرط، فإنَّ الجواب متحقِّق على وجه القطع، فأخبرهم أنَّهم إن تولَّوا عن دعوته؛ فإنَّ جزاءهم محقَّق لا محالة.

غرضُ حذف التّاء في ﴿تَوَلَّوۡاْ﴾:

تقليل المبنى في الألفاظ، يدلُّ على تقليل المعنى المسوق

حذف النَّظم الكريم التّاء من الفعل في قوله جلَّ شأنه: ﴿فَإِن

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/101.

﴿تَوَلَّوۡاْ﴾ وأصله: (تتولّوا) اختصارًا، والحذف في المبنى يدلُّ على التَّقليل في المعنى، وكأنَّه أشار إلى أنَّهم إن تولّوا، ولو أدنى تولية[1]، فإنَّ جواب الشَّرط سيتحقَّق بتلك التَّولية.

معنى (الفاء) في قوله: ﴿فَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُم﴾:

الفاء في قوله جلَّ شأنه: ﴿فَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُم مَّآ أُرۡسِلۡتُ بِهِۦٓ إِلَيۡكُمۡۚ﴾، تدلُّ على التَّعليل، وهي ليست رابطة لجواب الشَّرط؛ لأنَّ الإبلاغ ليس جوابًا للتَّولّي، ولا مسبِّبًا له، فتكون الجملة المصدَّرة بالفاء مسوقة للتَّعليل، والتَّقدير: فإنَّ اللَّوم عليكم وحسب؛ وعلَّة ذلك أنّي فعلتُ ما عليَّ، فقد أبلغتكم ما أرسلت به[2].

تحقُّق التَّبليغ، علَّة لوقوع اللَّوم، بالجزاء المبهم المهول

دلالة حذف جواب الشَّرط في الآية الكريمة:

حذف النَّظم الجليل جواب الشَّرط في هذه الآية من قوله تعالى: ﴿فَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُم مَّآ أُرۡسِلۡتُ بِهِۦٓ إِلَيۡكُمۡۚ﴾، فلم يبيِّن ما جزاء التولّي؛ وذلك ليذهب بهم الظَّنُّ في توقُّعه مذهبه، وإبقاء الجزاء مجهولًا؛ فيه من التَّهويل البليغ ما يناسب مقام التَّهديد، ولا يصحُّ أن يكون قوله تعالى: ﴿فَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُم مَّآ أُرۡسِلۡتُ بِهِۦٓ إِلَيۡكُمۡۚ﴾ جوابًا؛ لأنَّ التَّبليغ ليس متعلِّقًا بتولّيهم، ولا معقودًا به، بل هو دليل جواب الشَّرط، والتَّقدير: فإن تتولَّوا؛ فعليكم تبعة أعمالكم، فجملة: ﴿فَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُم﴾، تعليلٌ لجواب الشَّرط المقدَّر، أي: (إن تتولّوا لا أبالي؛ لأنَّني قد أبلغتكم)، وذلك كقوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأٓتٖۚ﴾ [العنكبوت: 5]، فالجواب محذوف؛ لأنَّ الجوابَ يجب أن يكون مسبَّبًا عن الشَّرط، وأجل الله آتٍ، سواء وجد الرَّجاء أم لم يوجد، وعليه فإنَّ جواب الشَّرط محذوفٌ، وتقديره: (فليبادر بالعمل، فإنَّ أجلَ الله لآتٍ)[3].

الجزاء المجهول، أبلغ في التَّهديد، وأوضح في البيان عن الحال

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/312.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/312.
(3) صافي، الجدول في إعراب القرآن: 6/296.

بلاغة التَّعبير باللَّفظ المذكور على المحذوف:

الإيفاء بالتَّبليغ يحصر اللَّوم عليهم بتولّيهم عن الهدى

جعل النَّظم الجليل جواب الشَّرط محذوفًا، وجعل الجملة في قوله جلَّ شأنه: ﴿فَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُم مَّآ أُرۡسِلۡتُ بِهِۦٓ إِلَيۡكُمۡۚ﴾، دليلًا على الجواب المحذوف الذي تقديره: (فعليكم تبعة ذلك)، ومضمون الجملة ﴿فَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُم مَّآ أُرۡسِلۡتُ بِهِۦٓ إِلَيۡكُمۡۚ﴾، من الإبلاغ هو دليل الجواب؛ لأنَّ الإبلاغ سابق للتَّولّي، فلا يكون جوابه، والجواب هو لازم ذلك الإبلاغ، وهو كون تبعة اللَّوم واقعةً عليهم، "فكأنَّه قيل: فإنْ تتولَّوا؛ استؤصلتم بالعذاب، ويدلُّ على ذلك الجملة الخبريَّة، وهي قوله: ﴿وَيَسۡتَخۡلِفُ رَبِّي قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ﴾"[1]، فالمراد من دليل جواب الشَّرط، نزع التَّبعة عنه عليه السلام، فالرَّسولُ مبلِّغٌ يهدي بالدِّلالة، وليس مسؤولًا عمَّن اختار الضَّلالة، أي: "فعليكم اللَّوم دوني؛ لأنّي فعلت ما عليَّ"[2].

دلالة ﴿مَّآ﴾ في ﴿مَّآ أُرۡسِلۡتُ﴾:

ألفاظ العموم في ذكر التَّبليغ، دليل الإيفاء بكلِّ المُبَلَّغ به

عبَّر النَّظم الكريم بـ ﴿مَّآ﴾ في قوله جلَّ شأنه: ﴿فَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُم مَّآ أُرۡسِلۡتُ بِهِۦٓ إِلَيۡكُمۡۚ﴾؛ للدَّلالة على أنَّه قد أوفى الرِّسالة، بتبليغ كلِّ ما أرسل به، أي: أبلغتكم كلَّ شيء[3]، وذلك لما في ﴿مَّآ﴾ من دلالة على العموم، فهي تشمل كلَّ ما أُمر بأن يبلِّغه لهم، وقال لهم: "فإن تتولَّوا بأن تعرضوا، فقد أبلغتكم رسالة ربّي الذي ربّاني، وخلقني، ولم يبقَ بعد الرِّسالة إلّا أن ينزل بكم ما أنذركم به، وهو عذاب محيط مدمِّر"[4].

علَّة التَّعبير بالمبني للمجهول في ﴿أُرۡسِلۡتُ﴾:

يُكْتَفى بحضور المراد في الأذهان، عن ذكره بالألفاظ

قوله جلَّ شأنه: ﴿أَبۡلَغۡتُكُم مَّآ أُرۡسِلۡتُ بِهِۦٓ إِلَيۡكُمۡۚ﴾، عبَّر فيه النَّظم البليغ بالفعل الماضي المبنيِّ للمجهول، إيجازًا في التَّعبير؛ إذ

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/169.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/312.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/312.
(4) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3720.

لا مرسل غيرُ اللّه تعالى، وأنَّ الإرسال قد سبق، وهو حاصل ومقطوع به[1]، وأنَّ التَّبليغ بتلك الرِّسالة قد مضى، فوقع عليكم الاحتجاج، كما أنَّ في عدم ذكر المعروف؛ فيه تهويلٌ لشأنه، بتأكيد كونه حاضرًا، وإن لم نذكره بلفظه.

سرُّ التقديم في قوله: ﴿بِهِۦٓ إِلَيۡكُمۡۖ﴾:

سياق الاحتجاج، وإيقاع التَّبعة على الكافرين، يجعل الرِّسالة أولى بالتَّقديم

قدَّم النَّظم الجليل، في قوله جلَّ شأنه: ﴿فَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُم مَّآ أُرۡسِلۡتُ بِهِۦٓ إِلَيۡكُمۡۖ﴾، شبه الجملة الأولى: ﴿بِهِۦٓ﴾ على شبه الجملة الثانية: ﴿إِلَيۡكُمۡۖ﴾، فبدأ بما تضمَّن ضمير الرِّسالة، وأخر ضمير المرسَل إليهم؛ لأنَّه سبق ذكر الفعل ﴿أُرۡسِلۡتُ﴾، وهو أنسب لإتباعه بالمرسَل به دون المرسَل إليه، كما أنَّ الرِّسالة هي الَّتي تحقِّق الاحتجاج والتَّبرُّؤ منهم، فكان تقديمه أولى.

دلالة الجمع في خطاب هود لقومه:

الخطاب بصيغة الجمع، يشمل تعميم خطاب القوم جميعًا

في قوله جلَّ شأنه: ﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُم مَّآ أُرۡسِلۡتُ بِهِۦٓ إِلَيۡكُمۡۖ﴾، جاءت الضَّمائر بصيغة الجمع؛ لأنَّه خطاب هود عليه السلام لقومه، وهو ظاهر؛ لأنَّ الضَّمائر أُجريت على وتيرة واحدة[2]، كما أنَّ فيه دلالةً على تعميم الخطاب للمخاطَبين، وأنَّه لم يخصَّ به فئة منهم.

بلاغة أسلوب الالتفات في الآية الكريمة:

الخطابُ بالإخبار عن التَّبليغ أوقع في إقامة الحجَّة

قوله جلَّ شأنه: ﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُم مَّآ أُرۡسِلۡتُ بِهِۦٓ إِلَيۡكُمۡۖ﴾، إذا جُعِلَ الفعل ﴿تَوَلَّوۡاْ﴾ ماضيًا؛ فإنَّه سيكون خطابًا للغائبين، ثمَّ يكون الفعل ﴿أَبۡلَغۡتُكُم﴾ رجوعًا من الغَيبة إلى الخطاب على سبيل الالتفات، أي: فقد أبلغتكم[3]، فعدل من الغَيبة إلى الخطاب، لمواجهتهم بالحجَّة وجهًا لوجه، تأكيدًا لتبليغه لهم، وهناك التفات

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/313.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/101.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/169.

من الخطاب إلى المتكلِّم الحاضر في قوله: ﴿مَّآ أُرۡسِلۡتُ بِهِۦٓ﴾، وكلُّها من الالتفات البديع من حالة الغَيبة إلى الخطاب، إلى الحضور إلى الخطاب كرَّة أخرى، وهو تلوين في استعمال الصّيغ الصَّرفيَّة المختلفة من أجل التَّعبير عن الحوار المكرَّس بين أطراف هذه القصَّة الماتعة؛ لاستيعاب مناطاتها، والإحاطة بدوافعها، وآليات الخطاب فيها، والمآلات المنتظرة في نهايتها.

دلالةُ جملة الاستئناف في ﴿وَيَسۡتَخۡلِفُ رَبِّي﴾:

الجملة في قوله جل شأنه: ﴿وَيَسۡتَخۡلِفُ رَبِّي قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ﴾ استئنافيَّة، استُؤنِفت لبيان الوعيد لهم، أي: ويهلككم اللّه، ويجيء بقوم آخرين يخلفونكم في دياركم وأموالكم[1]، وذلك على قانون الاستعمال أو الاستبدال؛ إذ هلاك الكافرين، واستخلاف غير المذكورين، لا ينقص من ملك اللّه فتيلًا ولا قطميرًا، فالاستئناف وعيد لهم بالإهلاك.

ليس بعد الإعراض عن الهداية إلّا الإهلاك والعذاب في النِّهاية

وجهُ الإضافة في لفظ ﴿رَبِّي﴾:

في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَيَسۡتَخۡلِفُ رَبِّي قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ﴾ اقتصر على ذكر كونه ربَّه، ولم يقل: (ربي وربُّكم)؛ لأنَّه في سياق الوعيد بالإهلاك، فلا يناسب أن يذكر كونه ربَّهم، واقتصر بذكر ﴿رَبِّي﴾، إشارةً إلى اللُّطف به، وإهلاك شانئيه، أي: فيهلككم، ويستخلف ربّي المحسنُ إليَّ، بإقامتي فيما يرضيه قومًا غيركم[2].

إهلاك المعاندين إحسان للرَّسول المبلِّغ، لا للكفّار المهلَكين

دلالةُ لفظ (القوم) في ﴿قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ﴾:

آثر النَّظم الكريم التَّعبيرَ بأن المستخلَفين قوم في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَيَسۡتَخۡلِفُ رَبِّي قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ﴾؛ للدَّلالة على أنَّهم قوم لهم شأن وقوَّة؛ فإنَّ لفظ القوم يدلُّ على الجماعة الَّذين يقومون قومة واحدة؛

الاستبدال بقوم لهم شأن من أشدِّ النِّكاية بالمستبدَلين

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/404.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/313.

إذا ناداهم المنادي، واستنجد بهم بعضهم، فلم يقل: (يستبدل غيركم)، بلا ذكر القوم؛ لأنَّ التَّصريحَ بكون من يأتي بعدهم لهم شوكة وقوَّة، أشدُّ إيلامًا لهم.

سرُّ تنكير لفظ القوم في ﴿قَوْمًا﴾:

الاستخلاف منَّةٌ من الله تعالى يضعها حيث يشاء

جاء التَّعبير بصيغة التَّنكير، في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾، والتَّعبير بصيغة التَّنكير، تفخيم لشأن هؤلاء القوم الَّذين سيخلفونهم؛ دلالة على أنَّ المخاطَبين مذمومون، وأنَّهم خالون من صفات التَّفضيل، ففيه إشارة إلى ذمِّهم والتَّهوين منهم، أي: "ويستبدلُ قومًا غيركم أطوع منكم، يوحِّدونه، ويعبدونهُ"[1].

غرضُ الوصفِ بالغيريَّة بلفظِ ﴿غَيْرَكُمْ﴾:

ضياع الأوطان بالاستبدال، من ألوان التَّنكيل والاستئصال

وصف النَّظم الكريم القوم المستخلَفين، بأنَّهم غيرُ المخاطَبين في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾؛ للدَّلالة على أنَّهم قوم آخرون لا علاقة نسبيَّة بينهم، كما أنَّهم سيكونون من أهل الطاعة للّه مخالفين لهم في الدِّين، وهذا أشدُّ وقعًا عليهم من مجرَّد الاستئصال، بأن يجعل ذكرهم ممحيًّا، ومكانهم بغيرهم ممتلئًا، والذين يأتون بديلًا عنهم، سوف يستخلفهم اللّه لعمارة الأرض، وخلافة اللّه فيها، والاستبدال عقوبة، تقابل نعمة الاستعمال، والكافرون يُستبدَلون، ولا يُستعمَلون، بعكس المؤمنين الصّالحين.

دلالة نفي المضارع في: ﴿وَلَا تَضُرُّونَهُۥ﴾:

انتفاء الإضرار المستحيل بالله، مستغرق الزّمان من أوّله إلى منتهاه

آثر النَّظم الكريم التَّعبيرَ بالفعل المضارع المنفي بـ ﴿وَلَا﴾ في الآية المباركة، من قوله: ﴿وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔا﴾؛ للدَّلالة على تجدُّد النَّفي واستمراره، فانتفاء ضررِهم متجدِّد في كلِّ زمانٍ، فلا يأتي زمان يكون لهم فيه ضررٌ على اللّه تعالى؛ إذ هو الغنيُّ عن عباده، وهو يقول لهم: "ولن تضرّوا اللّه شيئًا من الضَّرر بسبب إصراركم

(1) ابن عادل، اللّباب: 10/509.

على كفركم، وإنَّما أنتم الَّذين تضرُّون أنفسكم، بتعريضها للدَّمار في الدُّنيا، وللعذاب الدّائم في الآخرة"[1]، ويبقى اللّه منزَّهًا عن الضَّرر، مهما تطاول البشر؛ لأنَّه تعالى من ورائهم محيط، ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ١٨﴾ [الأنعام: 18].

نكتة تنكير لفظ ﴿شَيْـًٔاۚ﴾:

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔاۚ﴾، جاء التَّعبير فيه عن الشَّيء، في الآية الكريمة بصيغة التَّنكير؛ ليدلَّ على التَّقليل والتَّهوين، وليكون شاملًا كلَّ شيء قليلًا، أو كثيرًا، ومهما كان نوعه[2]، فليس في وسعهم أن يفعلوا أقلَّ شيء، يقال له: إنَّه إضرار، إذا أراد اللّه تعالى أن يُذهب بهم، ويأتي بغيرهم، أي: "ولا تَضُرّونَهُ بتولّيكم وإعراضكم شَيْئًا من ضرر قطُّ؛ لأنَّه لا يجوز عليه المضارُّ والمنافع، وإنَّما تضرُّون أنفسكم"[3].

لا يلحق اللّه تعالى ضررٌ، ولا يطاوله بشر

دلالة الجملة في فاصلة الآية الكريمة:

قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾، جاء ذلك في رأس الآية، تعليلًا للحكم السّابق، في قوله: ﴿وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔاۚ﴾، وجاء التَّعليل مؤكَّدًا؛ "لأنَّ العاصي فاعل بعصيانه فعلَ من يظنُّ أنَّ اللّه غافل عنه"[4]، وذلك للدَّلالة على هيمنة اللّه ورقابته، وأنَّ حفظه محيط بكلِّ شيء، ولا يخفى عليه معصية العاصين، ومعناه: "إنَّ ربّي قائم على كلِّ شيء بالحفظ والرَّقابة والهيمنة، وقد اقتضت سنَّته سبحانه أن يحفظ رسله وأولياءه، وأن يخذل أعداءه"[5].

لا يأمننَّ العاصي، فالرَّبُّ قد جعل كلَّ شيء محفوظًا

علَّة تقديم ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ﴾ على ﴿حَفِيظٌ﴾:

قدَّم النَّظم الكريم شبه الجملة ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ﴾، على المسند، في

الاهتمام بالشُّمول والإحاطة، أبلغ دلالة بصيغة التَّقديم

(1) طنطاويّ، التّفسير الوسيط للقرآن الكريم: 7/227.
(2) محمّد الهلال، تفسير القرآن الثّري الجامع: 12/52 بترقيم الشّاملة آليًّا.
(3) إسماعيل، حقّي، روح البيان: 4/149.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/313.
(5) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 7/227.

قوله جلَّ شأنه: ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾، ولم يقل على الأصل: (إنّ ربّي حفيظٌ على كلّ شيء)؛ لأنَّ الأهمَّ في السّياق هنا بيان استعلائه وقدرته[1]، فالإحاطة والشُّمول هما المرادان من الإخبار، ثمَّ جاء بيان على أيِّ صفة اشتملت وأحاطت هذه الإحاطة والشُّمول، وهي الحفظ والقدرة والعلم.

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

(يستخلف) و(يستبدل):

الاستخلاف: يقتضي الإهلاك، والاستبدال: لا يقتضيه

الاستبدال هو قيامُ الشَّيْءِ مَقامَ الشَّيْءِ الذّاهِبِ، يقال: هَذا بَدَلُ الشَّيْءِ وبَديلُهُ[2]، وهو جعل شيء مكان آخر[3]. أمّا الاستخلافُ؛ فهو أن يَجيءَ شَيْءٌ بعد شَيْءٍ يَقومُ مَقامَهُ[4]. "والخِلافةُ النّيابة عن الآخر، إمّا لغيبة المنوب عنه، وإمّا لموته، وإمّا لعجزه، وإمّا لتشريف المستخلف، وعلى هذا الوجه الأخير، استخلف اللّه أولياءه في الأرض، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [فاطر: 39]"[5]. فالفرق بينهما: أنَّ الاستبدال لا يقتضي الإهلاك، فيكون الإبدال بالآخر وهو على قيد الحياة، كقوله: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم ﴿٣٨﴾﴾ [محمّد: 38]، أمّا الاستخلاف؛ فيقتضي الإهلاك للقوم العاصين، فلمّا كان هود عليه السلام، قد هدَّدهم؛ كان التَّهديد بإذهابهم واستئصالهم، والمجيءِ بقوم غيرهم، أوقعَ.

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/313.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (بدل).
(3) الرّاغب، المفردات: (بدل).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (خلف).
(5) الرّاغب، المفردات: (خلف).

﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾﴾ [هود: 58]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الرَّبط بين الاستبدال والاستخلاف، ورحمة الله بالنَّجاة من الهلاك

بعد التَّهديد والوعيد بيَّن تعالى أنَّهم لم يرجعوا، ولم يرعووا، فأنزل بهم العذاب[1]، فبعد أن "ذكر - عزَّ اسمُه - إصرارَ قوم هود على العناد والعتوِّ، وتكذيب هود فيما جاء به من الآيات؛ ذكر هنا عاقبة أمره وأمرهم، وأنَّه تعالى أصابه برحمة من لدنه، وأنزل بهم العذاب الغليظ، كفاء كفرهم بآياته وعصيان رسله"[2].

شرح المفردات:

1) ﴿أَمْرُنَا﴾: أصْلُ: (أمر): ضِدُّ النَّهي، ومنه قولُكَ: افْعَلْ كذا، يقال: لي عليكَ أمْرَةٌ مُطاعةٌ، أي: لي عليكَ أنْ آمُرَكَ مَرَّةً واحِدَةً، فَتُطيعَني، قالَ الكِسائيُّ: إنَّهُ لأمورٌ بالمعروفِ، ونَهِيٌّ عَنِ المُنكَرِ، منْ قَوْمٍ أُمُرٍ، والأمر: المجازاةُ والعِقابُ، ومنه قولُه تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ [النَّحل: 1]، قالَ الزَّجّاج: أمْرُ اللّه ما وعَدَهم بِهِ من المُجازاةِ على كُفْرِهم من أصناف العذاب[3]، وأمرتُ فلانًا أمرَهُ، أي: أمرته بما ينبغي له من الخير، قال بشر بن سلوة[4]:

ولَقَدْ أمَرْتُ أخاكِ عَمْرًا أمْرَهُ *** فَعَصى وضَيَّعَهُ بِذاتِ العُجْرُمِ

والمقصود بالأمر في الآية: اسمٌ مُبهمٌ بمعْنَى الشَّيءِ والشَّأنِ، والمرادُ منه العَذاب[5].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/314.
(2) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 12/51.
(3) الزّجاج، معاني القرآن: 3/189، والزّبيديّ، تاج العروس: (أمر).
(4) البيت لبشر بن سلوة، ذكره ياقوت الحمويّ، معجم البلدان في (عجرم)، والزّمخشريّ، أساس البلاغة: 1/33.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/103.

2) ﴿نَجَّيْنَا﴾: أصْلُ الإنجاءِ: الخلاصُ منَ الشَّيْءِ، نَجا يَنْجو نَجْوًا ونَجاءً، مَمْدودٌ، ونَجاةً، مقصور، وأنْجَيْتُ غَيْري، ونجَّيْته، واستَنْجى منْهُ حاجَتَهُ: تخلَّصها، وانْتَجى مَتاعَه: تَخلَّصه وسَلبَه، ومعنى نجَوْت الشَّيءَ: خَلَّصته، وألْقَيْته، والنَّجاةُ: الخَلاصُ منْ ضُرٍّ واقِعٍ[1]، والنَّجْوةُ والنَّجاةُ: ما ارتفَع منَ الأرض، فَلَمْ يَعْلُه السَّيلُ فَظَنَنْتُهُ نَجاءَك، والجَمْعُ نِجاءٌ[2]. والمقصود بالإنْجاء في الآية: هو جَعْلُ هودٍ عليه السلام ومن آمن به ناجين.

3) ﴿بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾: أصلُ (رحم): يدلُّ على الرِّقَّةِ والعَطْفِ والرَّأْفَةِ، يقال منْ ذلك: رَحِمَهُ يَرْحَمُهُ؛ إذا رَقَّ له، وتَعطَّفَ عليه، والرَّحِمُ: عَلاقَةُ القرابة، ثُمَّ سُمِّيَتْ رَحِمُ الأُنْثَى رَحِمًا من هذا؛ لأنَّ منها ما يَكونُ ما يُرْحَمُ، ويُرَقُّ له منْ ولَدٍ[3]. والرَّحْمَةُ: اسْمُ مَصْدَرٍ لِصِفَةِ الرّاحِم، وهيَ من صفات الإنسان، فهي رِقَّةٌ في النَّفْسِ تَبْعَثُ على سَوْقِ الخَيْرِ لِمَنْ تَتَعَدَّى إليه[4]. وإذا وُصِف بها الباري؛ فليس يراد بها إلّا الإحسان المجرَّد دون الرِّقَّة، وعلى هذا روي أنَّ الرَّحمة من اللّه إنعامٌ وإفضالٌ، ومن الآدميِّين رِقَّةٌ، وتَعطُّفٌ[5]. والمراد بالرَّحمة في الآية: فَضْلُ اللّه عليهم[6].

4) ﴿عَذَابٍ﴾: أصْلُ الكَلِمَةِ من العَذْبِ، وهو: المَنْعُ، يُقالُ: عذَّبْتُ عَنْهُ الماءَ، أيْ: مَنَعْتُهُ عَنْهُ، وسُمِّيَ العَذابُ عَذابًا؛ لأنَّه يَمْنَعُ الشَّخْصَ من الرُّجوعِ للجريمة[7]، والعَذابُ: الضَّرْبُ بِعَذْبَةِ السَّوْطِ، أي: طَرَفِها[8]، والعَذابُ أيضًا: الإيلامُ والإيجاعُ الشَّديدُ، وقد قيل: إنَّ أصْلَهُ الإعْذابُ، مَصْدَرُ أعْذَبَ؛ إذا أزالَ العُذوبَةَ؛ لأنَّ العَذابَ يُزيلُ حلاوةَ العَيْشِ، فَصيغَ منْهُ اسمُ مَصْدَرٍ بِحَذْفِ الهَمْزَةِ[9]، والعذاب: ما يصيب النَّفس من ألمٍ، ومنه عذاب النّار ونحوها، قال اللّه تعالى: ﴿صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ﴾ [فصّلت: 17][10]، والمُرادُ بالعذاب في الآية: الإيلامُ والإيجاعُ الشَّديد.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/130.
(2) ابن منظور، لسان العرب: (نجو).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (رحم).
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 26/24.
(5) الرّاغب، المفردات: (رحم).
(6) رشيد رضا، تفسير المنار: 12/102.
(7) النّووي، تهذيب الأسماء واللّغات: 4/10.
(8) الرّاغب، المفردات: (عذب).
(9) الخليل، العين: (عذب)، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/258.
(10) نشوان الحميريُّ، شمس العلوم: (العذاب).

5) ﴿غَلِيظٍ﴾: غَلُظَ، يَغْلُظُ، غِلَظًا: إذا صارَ غَليظًا[1]، وأصلُ الغِلْظَةِ: الشِّدَّةُ والقَسْوةُ، وضدُّها: الرِّقَّة في الخُلُقِ والطَّبْعِ، والفعل والمَنْطِقِ والعَيْشِ ونحوِ ذلك، وعَذابٌ غَليظٌ، أي: شَديدُ الألَم، وغَلُظَ الرَّجُلُ: إذا اشْتَدَّ، فهو غَليظٌ، وفيهِ غِلْظَةٌ، أيْ: شِدَّةٌ واستِطالَةٌ، فهو غَيْرُ لَيِّنٍ ولا سَلِسٍ[2]. وبَيْنَهُما غِلْظَةٌ ومُغالَظَةٌ، أي: عَداوةٌ، والتَّغْليظُ: التَّكْبيرُ والتَّعْظيمُ، يُقال: غَلُظَ الشَّيْءُ، أيْ: عَظُمَ وكَبُرَ، ويأتي بمعنى التَّشديدِ والتَّوكيدِ، ومنه: عَهْدٌ غليظٌ، أي: مُؤَكَّدٌ مُشَدَّدٌ[3]. والمقصودُ بالغِلْظَةِ في الآية: العذابُ الخَشِنُ ضِدُّ الرَّقيقِ، وهو مُستعارٌ للشَّديدِ.

المَعْنى الإجْماليُّ:

رحمة الله إكرام لهود والمؤمنين، ونجاة من العذاب المهين

بَيَّنَ الحقُّ تعالى نُزولَ العِقاب بالكافرين، ونَجاة المؤمنين برحمةٍ كريمةٍ منه، وحسبُها شرفًا أنَّها من ربِّ العالمين، ولما جاء أمرنا بإهلاك عادٍ، نجّينا هودًا، والَّذين آمنوا معه، من عذاب الرّيح العاتية الَّتي أهلكتهم، وذلك بسبب رحمتنا لهم بتوفيقهم للإيمان[4]، و قد كانت النَّجاة عظيمة؛ لأنَّها نجاة من عذابٍ شديدٍ، لا رِفق فيه؛ لأنَّه لا رفق مع ظالم؛ لأنَّ الرِّفق بالظّالم جورٌ على المظلوم[5].

وترشدُ الآيةُ الكريمةُ إلى إنعام الله بنجاة هودٍ عليه السلام والمؤمنين معه بنجاتين: نجاةٍ في الدنيا من عذاب الريحِ العقيم التي لا تأتي بخير، شديدة البَرْد التي تجفِّفُ ما هو غضٌّ طريٌّ، والتي دمَّرت كلَّ شيءٍ بأمر ربِّها، ونجاةٍ من عذاب النار يوم القيامة، وهي أعظم؛ وترشدُ إلى سُنَّة الله في الأوَّلين، وهي أنَّه يبعث الرسل مبشِّرين ومنذرين،

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، والرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحفّاظ: (غلظ).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (غلظ).
(3) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (غلظ).
(4) لجنة من علماء الأزهر، المنتخب في تفسير القرآن الكريم، ص: 317.
(5) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3720.

فَإنِ استجابَ المرسَلُ إليهم؛ سَعِدوا، وإن لم يستجيبوا؛ يُمْهلهم حتى تقوم الحُجَّة عليهم، ثم يهلكهم، وينجّي المؤمنين[1].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالة (الواو) على الاستئناف في ﴿وَلَمَّا﴾:

بعد الجدال المقيت، والصِّراع المميت، نجّى الله هودًا والمؤمنين

قوله جلَّ شأنه: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾، افتتح النَّظم الكريم في هذه الآية الجملة بالواو الاستئنافيَّة[2]، فبعد ذكر التَّهديد باستخلاف غيرهم، استأنف لبيان أنَّ هودًا عليه السلام، قد نجا من كيدهم، وأنَّهم لم ينفُذوا إليه بسبب العذاب الذي حاق بهم.

سرُّ التَّعبير في ﴿وَلَمَّا﴾ بالواو:

سَبْقُ ذكر الوعيد، يناسبه ذكر الفاء الدّالَّة على السَّبب

ابتدأ قوله جلَّ شأنه: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا﴾ بالواو، وكذلك في قصَّة شعيب عليه السلام: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾ [هود: 94]، أمّا في قصة صالح ولوط عليهما السلام، فافتتح بالفاء: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا﴾ [هود: 66]، و﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾﴾ [هود: 82]؛ وذلك لأنَّ الأمر في قصَّة صالح ولوط، وقع بعد الوعيد، فجيء بالفاء الَّتي تقتضي التَّسبيب، كما تقول: وعدتُه فلمّا جاء الميعاد، بخلاف قصَّة هود وشعيب عليهما السلام فإنَّه لم يتقدَّم ذلك فيهما، فعطف بالواو[3].

فائدة الشَّرط المفتتح بـ الأداة (لمّا):

نجاة الصّالحين، معجزة تتيح لهم التَّمكين

قوله جل شأنه: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾، علَّق النَّظم الكريم نجاة هود عليه السلام ومن معه، بزمان مجيء الأمر بنزول العذاب في هذه الآية البليغة، وذلك باستعمال

(1) ابن جرير، جامع البيان: 15/366، وابن الجوزي، زاد المسير: 2/381، والجزائري، أيسر التفاسير: 2/555.

(2) صافي، الجدول في إعراب القرآن: 6/297.

(3) ابن جزي، التّسهيل لعلوم التنزيل: 1/373.

الظَّرف ﴿وَلَمَّا﴾، وهو ظرف بمعنى حين متضمِّنٌ معنى الشَّرط[1]، وذلك يدلُّ على أنَّ هودًا عليه السلام والذين معه، قد لبثوا في قومهم، وأنَّ العذاب لمّا نزل بساحة القوم، كانوا في ديارهم مع قومهم، فتكون النَّجاة معجزة؛ ولذا أتمَّ الكلام بقوله: ﴿بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾.

بلاغة التَّشبيه التَّمثيليّ في الآية:

تصوير العذاب وتشخيصه من فصيح الإبانة عن المشهد

عبَّر النَّظم البليغ في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا﴾ عن نزول العذاب بالمجيء تفخيمًا له وتهويلًا[2]، والمعنى: "وحين جاء أمرنا بتحقيق وعيدنا في قوم هود، وبتنفيذ ما أردناه من إهلاكهم وتدميرهم نَجَّيْنا هودًا والَّذينَ آمَنوا مَعَهُ"[3] حيث جعله ذاتًا يأتي بنفسه، وكأنَّه مشخِّص له قدرة الحضور بنفسه، مستقلٌّ بحركته، قد جاء ليفتك بهؤلاء القوم الذين طغوا، وعتوا، فهي صورة مكتملة من التشبيه التمثيليِّ.

لطيفةُ الكناية في الآية الكريمة:

يتجلّى مجيء أمر الله في نزول العذاب الَّذي لا مناص منه

جاء التَّعبير في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾ كناية عن العذاب، أو عن القضاء بهلاكهم[4]. فقوله: ﴿أَمْرُنَا﴾ يدلُّ على وجود الآمر والأمر والمنفِّذ، وهم ملائكةُ العذاب، قال تعالى: ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۝٦﴾ [التحريم: 6]، وهذا الوصفُ لهم في الدُّنيا والآخرة، ومجيء الأمر بهلاك قوم هود، من أوامر الدُّنيا، فعبَّر عن نزول العذاب بالأمر، للدَّلالة على أنَّه أمر مقضيٌّ به، قد قصده الله تعالى قصدًا، وليس هو مجرَّد عوارض طبيعيَّة، كما ظنّوا أوَّل الأمر، فجاءَ الأمر العلويُّ بإهلاكهم، وصبِّ العذاب عليهم صبًّا، حين حلَّ أوانه المقدَّر، في أزل

(1) صافي، الجدول في إعراب القرآن: 6/297.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/219.
(3) طنطاويّ، التّفسير الوسيط للقرآن الكريم: 7/228.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/170.

الله العليم بكلِّ شيء، والمدبِّر بحكمته لكلِّ شيء؛ وقد أنجى المؤمنين من عذاب الدُّنيا الذي أوقعه بقومهم، كرمًا منه تعالى وفضلًا، وتلك عقوبة الدُّنيا المقدَّمة، ولعذاب الآخرة أشدُّ وأدوم[1].

دلالة نون التَّعظيم في ﴿أَمْرُنَا﴾ و﴿نَجَّيْنَا﴾:

الأمر الَّذي نزل بقوم هودٍ، كان بالغَ العظمةِ

قوله جلَّ شأنه: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا﴾، أسند النَّظمُ الجليل الأمر والمجيء إلى نون التَّعظيم؛ للدَّلالة على أنَّ الأمر الَّذي نزل، كان بالغ العظمة، وأنَّ التَّنجية منه بالغة العِظَم، أي: "تنجيةً عظيمة بما لنا من العظمة"[2]، وذلك تهويل لشأنه وردع لسامعي تلك القصص، وقد بيَّن سبحانه أنَّ النَّجاة كانت عظيمة؛ لأنَّها نجاة من عذاب شديد، كما بيَّن سبحانه أنَّ العذاب غليظ، أي: شديد لا رفق فيه؛ لتجلية عظمة الله في تدبير الأمور جليلها ودقيقها[3].

علَّة وضع الاسم الظَّاهر في ﴿نَجَّيْنَا هُودًا﴾:

التَّصريح بالاسم في معرض النَّجاة، أبلغ في التَّكريم

عبَّر النَّظم الكريم بالاسم الظَّاهر لنبيِّ الله هود عليه السلام من قوله جلَّ شأنه: ﴿نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ﴾، فوضع الاسم الظَّاهر موضع الضَّمير؛ إذ لم يقل: (ونجيناه والَّذين آمنوا منه)، بل جاء بالاسم الظَّاهر له؛ لأنَّه أكثر بلاغة في سياق التَّنجية لما فيه من المدح بإظهار الاسم في موطن التَّشريف، فنصَّ على أنَّ النَّجاة كانت تكريمًا له بالأصالة ولمن معه بالتَّبع.

دلالة الموصول ﴿وَٱلَّذِينَ﴾ وصلته:

الإيمان سبيل العباد، للنَّجاة في الدُّنيا، ويوم يقوم الأشهاد

آثر النَّظم الكريم في قوله جل شأنه: ﴿نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ﴾ الإتيانَ بالاسم الموصول: ﴿وَٱلَّذِينَ﴾، الدالِّ على العموم والشمول، فالموصولُ ﴿وَٱلَّذِينَ﴾ يشمل كلَّ من آمن برسالة هود عليه السلام من قومه، فالله تعالى نجّاهم من العذابِ الشديد الذي حلَّ

(1) ملا حويش، بيان المعاني: 3/131. (بتصرّف).
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/314.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3720.

بقومهم؛ لما في صلة الموصول، وهي: ﴿ءَامَنُواْ مَعَهُۥ﴾ من دلالة على تحقُّق إيمان النّاجين مع هود، وأنَّ سبب النَّجاة إنَّما هو الإيمان، فنجَّى الله تعالى هودًا وجميعَ المؤمنين معه من عذاب الله.

غرضُ المعيَّة مع هود في ﴿ءَامَنُواْ مَعَهُۥ﴾:

قوله جلَّ شأنه: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾، فيه إفادة أنَّ نجاة الذين آمنوا كانت مواكبة لنجاة هود، بعطف هذه على تلك، أي: هم معه في الإيمان والنَّجاة من قومهم ومن العذاب[1]، وذلك يفيد أنَّ معيَّة الصّالحين نجاة، كما دلَّت على أنَّ إيمانهم كان معلنًا، وأنَّهم صحبوه، ولقوا معه ما لقي في سبيل الدَّعوة.

معيَّة الصّالحين نجاة، ومصاحبتهم حصانة في الحياة

معنى الباء في عبارة ﴿بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾:

قوله جلَّ شأنه: ﴿نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾، أدخل فيه النَّظم البليغ الباء الدّالَّة على السَّببيَّة على الرَّحمة الواردة في سياق النَّجاة؛ للدَّلالة على أنَّ سبب النَّجاة هو الرَّحمة، فكانت رحمة الله تعالى بهم سببًا في نجاتهم[2]، ورحمة الله عليهم، فضله الغامر، ولولاه لطالهم العذاب، فاقتُلعوا من جذورهم، واستؤصلت شأفتهم، ولم تبقَ لهم باقية، كما وقع للكفرة، "فيما نزل بهم من ذلك العذاب الغليظ، وهو الرّيح العقيم التي لا تذر من شيء أتت عليه، إلّا جعلته كالرَّميم، كما فصَّل ذلك في سورة القمر بقوله: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِى يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴿٢٠﴾﴾ [القمر: 19 - 20][3].

لا سبب يؤهِّل المؤمنين للنَّجاة، سوى ما يرد من الله من رحمات

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/314.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/104.
(3) المراغي، تفسير المراغيّ: 12/51.

دلالةُ تعليق النَّجاة بالرَّحمة في الآية:

النَّجاة محض إنعام ورحمة من الله تعالى لعباده المخلصين

قيَّد النَّظم الجليلُ النَّجاةَ في قوله جلَّ شأنه: ﴿نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾ بكونها كائنةً برحمة الله تعالى، للدَّلالة على أنَّه لا نجاة في الدُّنيا ولا في الآخرة إلّا برحمة الله، ولا نجاة بالأعمال، ولو للرَّسول المفضال، إلّا أن يتغمَّده الله برحمته، "والظاهر تعلُّق ﴿بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾ بقوله: ﴿نَجَّيْنَا﴾، أي: نجيناهم بمجرَّد رحمة من الله لحقتهم، لا بأعمالهم الصالحة، أو كنَّى بالرحمة عن أعمالهم الصالحة؛ إذ توفيقُهم لها إنَّما هو بسبب رحمته تعالى إيّاهم"[1]، فلمّا "كان سبحانه بحيث لا يجب عليه لأحدٍ شيءٌ؛ لأنَّه لا يَقْدِر أحدٌ أنْ يَقْدِرَه حقَّ قدره، وإن اجتهد في طاعته، فإنَّ طاعته نعمةٌ منه عليه، أشار إلى ذلك بقوله: ﴿بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾"[2].

فائدة التَّعبير بشبه الجملة: ﴿مِّنَّا﴾:

كون الرَّحمة من الله تعالى تعظيمٌ لها، وتفخيم لشأنها

في قوله جل شأنه: ﴿نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾ قيَّد النَّظم الكريم نجاتَهم بأنَّها كائنة برحمة من الله تعالى، وليس برحمة مطلقة، تفخيمًا لشأنها وتعظيمًا لها، أي: "نجَّيناهم بمجرَّد رحمة وفضل، لا بأعمالهم؛ لأنَّه لا ينجو أحدٌ وإن اجتهدَ في الأعمالِ والعملِ الصّالح، إلّا برحمة الله تعالى"[3]، وفائدة ذلك التَّنبيه على أنَّ النَّجاة، إنَّما كانت برحمة من الله تعالى، وأنَّ هذه الرَّحمة عظيمة، لكونها صادرة منه تعالى دون سواه، كما أنَّ التَّعبير بنون التَّعظيم، يخلع عليها مزيدًا من التَّعظيم والتَّفخيم لشأن هذه الرَّحمة، فيبيِّن سبحانه "نزول العقاب بالكافرين، ونجاة المؤمنين برحمة كريمة منه، وحسبها شرفًا أنَّها من ربِّ العالمين، وبيَّن سبحانه أنَّ النَّجاة كانت عظيمةً؛ لأنَّها نجاة من عذاب شديد"[4].

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/170.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/314.
(3) إسماعيل، حقّي، روح البيان: 4/150.
(4) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3720.

بلاغةُ الإطناب في تكرار الإنجاء في الآية:

عِظَمُ العذاب أو تنوُّعه مسوِّغٌ لتكراره، لفتًا لشدَّته وإبهاره

كرَّر النَّظم الجليل لفظ التَّنجية في قوله جل شأنه: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾، للإطناب للدَّلالة على أنَّ العذاب كان شديدًا، عظيم الأهوال، "ولَمّا بيَّن إنجاءهم من قومهم؛ بيَّن إنجاءهم ممّا أهلكهم به، فقال مكرِّرًا ذكرَ التَّنجية، دلالة على أنَّ عذابهم كان في غاية الفظاعة"[1]. ويحتمل أن يريدَ بالتنجية الثانية عذابَ الآخرة، وأنَّ النجاة الأولى المتقدِّمةَ المظهرَ فيها اسمُ نبيِّ الله هودٍ عليه السلام هي الريحُ التي لا بركةَ فيها، ولا تأتي بخير، التي ما تَدَعُ شيئًا مرَّت عليه إلا صيَّرته كالشيء البالي، والتي كانت تحملُهم، وتهدمُ مساكنَهم، وتنسفُها، فيكون المقصودُ على هذا التنوُّعِ في العذاب تعديدَ النِّعمة في الإنجاء مرَّتين[2].

دلالة وصف العذاب بـ ﴿غَلِيظٍ﴾:

وصف الأمر بالغلظة يشعر بالثِّقل في النَّفس، ويصوِّر فظاعته

وصف النَّظم الجليل العذاب في قوله جل شأنه: ﴿وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ بكونه غليظًا؛ وذلك لبيان فظاعة ما أُهلك به من لم يؤمن بنبيِّ الله هودٍ، وهو إرسالُ الله عليهم ريحًا شديدةَ البرودة عاليةَ الصوتِ في أيام مشؤومات عليهم؛ ليذيقهم عذاب الذلِّ والهوان في الحياة الدُّنيا، كما حكى الله عنهم: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [فصلت: 16]، وحُكيَ أنَّ الرّيح كانت تدخلُ في مناخرهم وأفواههم، وتخرج من أدبارهم فتقطِّعهم تقطيعًا، أي: قِطْعَة قِطْعَة[3]، وذلك يدلُّ على هول هذا الهلاك النازل بهم وسوء المصير.

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/314.

(2) ابن جرير، جامع البيان: 15/366، وابن الجوزي، زاد المسير: 2/381، وابن عطية، المحرر الوجيز: 3/182.

(3) السمعاني، تفسير السمعاني: 2/437.

بلاغة الاستعارة في: ﴿عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾:

تصوير العذاب المعنويِّ بشيء حسِّيٍّ، تهويل لشأنه وتنبيه على أهمّيّته

في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾، وصَفَ العذاب بالغلظة، وحقيقة الغِلظة أنَّها وصف مادّي، يدلُّ على عظم الجثَّة، فاستعير للعذاب، لما فيه من ثقلٍ على النَّفس وطول مكث[1].

إيثار التَّعبير بالتَّنكير في ﴿عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾:

تنكير العذاب الموصوف، تهويل لشأنه وفظاعته

آثر النَّظم الكريمُ في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾، التَّعبير بالتَّنكير دون التَّعريف، فلم يقل: (ونجَّيناهم من العذاب الغليظ)؛ تهويلًا لشأنه وتعظيمًا له، لما في التَّنكير من دلالة على التَّكثير والتَّفخيم، ومفاد النَّجاة من ذلك العذاب الغليظ، تجلية قدرة اللّٰه الأجلِّ؛ "لأنَّ اللّٰه نجّى (هودًا) ومن معه، من هذا البلاء في الدُّنيا، ومن العذاب في الآخرة، وذلك بما ساق إليهم من رحمته، فهداهم إلى الإيمان، وصرفهم عن الكفر، وعزلهم عن القوم الكافرين، في الدُّنيا، والآخرة، على حين هلك الظالمون مَهْلَكَيْن.. مهلكًا في الدُّنيا، ومهلكًا في الآخرة"[2].

التَّشابه اللَّفظيُّ بين آيتي هود والأعراف:

كُرِّرت التَّنجية في هودٍ فجاءت بالتَّفعيل وأُفردت في الأعراف فجاءت بالهمزة

التَّشابه اللَّفظي بين قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾، وقوله تعالى: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ وَمَا كَانُواْ مُؤْمِنِينَ ﴿٧٢﴾﴾ [الأعراف: 72]، جاء لفظ التَّنجية بصيغة التَّفعيل في سورة هود، فتعدَّى بالتَّضعيف، أمّا في سورة الأعراف؛ فجاء متعدّيًا بالهمزة، وذلك لأنَّه ذكر التَّنجية في سورة هود مرَّتين فكرَّرها، دلَّ ذلك على التَّكثير، فكان التَّعبير عنها بصيغة التَّفعيل أبلغَ وأدلَّ، وفي سورة الأعراف ذُكِرَتِ التَّنْجِيةُ مرَّةً واحدةً، فجاءت متعدِّية بالهمزة دون التَّضعيف.

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/315.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/315.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

(غليظ) و(شديد):

الغليظ من الغِلظَةِ ضدِّ الرِّقَّة، وأصله أن يُستعملَ في الأجسام، لكن قد يستعار للمعاني كالكبير والكثير، قال تعالى: ﴿وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ [التّوبة: 123]، أي: خشونة[1]. وأمر غَليظٌ: شَديد صَعْب[2]، ورجلٌ فيه غِلظة، أي: فيه فظاظةٌ، وأغْلَظَ له في القول[3]. أمّا الشَّديد؛ فمن (شَدَّ)، وأصْله يَدُلُّ عَلَى قوَّةٍ في الشَّيْءِ[4]، والشَّدُّ: العَقْد القويُّ، يقال: شَدَدْتُ الشَّيء: قوَّيت عقدَه[5]، الشِّدَّةُ: الصَّلابةُ، وهيَ نَقيضُ اللّينِ تَكونُ في الجَواهِرِ والأعراض، وشَدَّدَه: قَوّاه، والتَّشْديدُ: خِلافُ التَّخْفيفِ[6]، فالشَّديدُ نقيضُ اللّين والخفيف، والغليظُ نقيضُ الرَّقيق، ووصف العذاب بأنَّه غليظ في قوله: ﴿وَنَجَّيْنَاهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾؛ لأنَّ لفظ الغليظ، يعني: الخشن والصَّعب، وللمفسِّرين في تفسيرها قولان: الأوَّل أنَّه الموصوف بأنَّه الدّائم غير المنقطع، والثّاني أنَّه الموصوف بأنَّ المعذَّب به، يتلقّى عذابًا أشدَّ ممّا قبلَه، فيتجدَّد له الألم باطِّراد، قال الزُّحيليُّ: "﴿عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾، قويٌّ متِّصل، وشديد غير منقطع"[7]، قال ابن كثير: "﴿وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴿١٧﴾﴾ [إبراهيم: 17]، أي: وله من بعد هذه الحال عذاب آخر غليظ، أي: مؤلم صعبٌ شديد، أغلظ من الذي قبله وأدهى وأمرُّ"[8]، وقيل: ﴿عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾، أي: قويٌّ شديدٌ لا يعلم وصفه وشدَّته إلّا اللّه

الغليظ: الخشن خلاف الرَّقيق، والشَّديد: القويُّ الصُّلب خلاف اللّين

(1) الرّاغب، المفردات: (غلظ).
(2) ابن منظور، اللّسان: (غلظ).
(3) الجوهري، الصحاح: (غلظ).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (شدّ).
(5) الرّاغب، المفردات: (شدّ).
(6) ابن منظور، اللّسان: (شدد).
(7) الزّحيليّ، التّفسير المنير: 13/225.
(8) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/417.

تعالى[1]، والفرق بين الغليظ والشَّديد: أنَّ الشَّديد يراد به القويُّ والصُّلب، وأنَّ الغليظ يراد به الخشن[2]، والمقصودُ بالغِلْظَةِ في الآية: بيان أنَّ العذاب خشنٌ لا رقَّة فيه، وهو وصف آخر، يكشف قسوة العذاب وعظمته إضافة لوصفه بالشَّديد في مواضع أخرى.

(1) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن في تفسير كلام المنّان، ص: 423.

(2) نعيم محمّد عبد الغني، مقال: العذاب الغليظ، جريدة الشّرق، الدّوحة، قطر، 24 يونيو 2016م.

﴿وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْاْ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ٥٩﴾ [هود: 59]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

بيان العلاقة بين الوعيد بالعذاب وأثر الجحود والعصيان والعناد

لمّا ذكر ما حلَّ بهم من غلظة العذاب، وتمَّت قصَّتهم على الوجه البديع والأسلوب البليغ؛ أتبعه عاطفًا على ذلك[1]، تنويهًا بسبب ما نزل بهم من البلاء، فقال: ﴿وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْاْ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾، أي: قد أحللنا بهم نقمتنا؛ لأنَّهم جحدوا بآيات ربِّهم وحججه، وعصوا رسله[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿جَحَدُواْ﴾: أصلُ (جحد): يَدُلُّ على قِلَّةِ الخَيْرِ، يقال: عامٌ جَحِدٌ، أي: قَليلُ المَطَرِ، ورجل جَحِد: فقيرٌ قَليلُ الخَيْرِ[3]، ويُقال: جَحِد عَيْشُهم جَحَدًا؛ إذا ضاقَ واشتدَّ، فالجَحْدُ منْ كُلِّ شَيءٍ القِلَّةُ، ومنْ هذا البابِ الجُحودُ، وهو ضِدُّ الإقْرارِ كالإنكار والمعرفة[4]، ولا يَكونُ إلّا مع عِلْمِ الجاحِدِ به أنَّهُ صَحيحٌ، قالَ اللّه تعالى: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ﴾ [النّمل: 14][5]، والمرادُ بالجَحْدِ في الآية: الإنكارُ الشَّديدُ، مثل إنكارِ الواقِعاتِ والمُشاهَداتِ[6].

2) ﴿وَعَصَوْاْ﴾: أصلُ (عصو): يَدُلُّ على الفُرقَةِ، ومنه العِصيانُ: الخُروجُ عن الطّاعَةِ، يُقال: عَصاهُ، يَعصيهِ، مَعْصيَة وعِصْيانًا؛

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/315.
(2) المراغيّ، تفسير المراغي: 12/51.
(3) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (جحد).
(4) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن عباد، المحيط في اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (حجد).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (جحد).
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/105.

إذا خَرَجَ من طاعَتِهِ، فهو عاصٍ وعَصيٌّ، والجَمْعُ عصاةٌ وعاصونَ، والعاصي: الفَصيلُ؛ إذا عَصَى أُمَّهُ في اتِّباعِها[1]، ويأْتي بِمعنى المُخالَفَةِ، فيُقال: عَصَى أميرَهُ: إذا خالَفَ أمْرَهُ، وضِدُّه: الطّاعَةُ والإجابَةُ، ومن معانيه: الشَّدُّ والجَمْعُ، يُقال: عَصَوْتُ الجُرْحَ: إذا شددته، وهو على خلاف الباب، وِمن معاني العِصيانِ أيضًا: الإثْمُ، والتَّمَرُّدُ[2]. والمقصود بالعصيان في الآية: الخُروجُ عن الطّاعَةِ بِتَرْكِ أمْرٍ، أو فِعْلِ نَهْيٍ، من الأقْوالِ والأعْمالِ الظّاهِرَةِ أو الباطِنَةِ.

3) ﴿جَبَّارٍ﴾: أصلُ (جبر): يدلُّ على جِنْسٍ منَ العَظَمَةِ والعُلوِّ والاستِقامَةِ، فالجَبّارُ: الَّذي طالَ، وفاتَ اليَدَ، يقال: فَرَسٌ جَبّارٌ، ونَخْلَةٌ جَبّارَةٌ[3]، والجَبْرُ: هو أن تُجبر إنسانًا على ما لا يُريد، وتُكرهه جَبَريَّةً على كذا[4]، والجَبّارُ: اللّه ﷻ، القاهرُ خلْقَهُ على ما أرادَ[5]، والجَبّارُ: العاتي على رَبِّه، القتّالُ لرَعيَّته، والجَبّارُ من النّاس: العظيم في نفسه الَّذي لا يقبلُ موعِظة أحدٍ[6]، ورجلٌ جبّار؛ إذا كانَ طَويلًا عَظيمًا قويًّا، تشبيهًا بالجبّار من النَّخيل، وذو كِبْرٍ لا يَقْبَلُ مَوْعِظَة[7]، والمراد بالجَبّار في الآية: المُتَعاظِمُ الشَّديدُ التَّكَبُّرِ.

4) ﴿عَنِيدٍ﴾: أصلُ (عند): يَدُلُّ على مُجاوزَةٍ وتَرْكِ طَريقِ الاستِقامَةِ، قالَ الخليلُ: عَنَدَ الرَّجُلُ، وهو عانِدٌ، يَعْنُدُ عُنودًا؛ إذا عَتا، وطَغَى، وجاوزَ قَدْرَهُ[8]. يُقالُ: عَنَدَ فُلانٌ عَنِ الأمْرِ؛ إذا حادَ عنه، ورَجُلٌ عَنودٌ؛ إذا كانَ وحْدَهُ لا يُخالِطُ النّاسَ[9]، ومنهُ العَنيدُ، الجائِرُ عَنِ القَصْدِ الباغي الَّذي يَرُدُّ الحَقَّ مَعَ العِلْمِ بِهِ، وتَعانَدَ الخَصْمانِ: تَجادَلا[10]. والمرادُ بالعنيد في الآية: القَويُّ الجائر، أي: المُكابر والمُدافع للحَقِّ، وهو يَعْلَمُ أنَّهُ مُبْطِلٌ.

(1) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (عصو - عصوى).
(2) ابن سيده، المحكم، والجوهريّ، الصّحاح، وابن منظور، لسان العرب: (عصو).
(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (جبر).
(4) الخليل، العين: (جبر).
(5) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (جبر).
(6) الخليل، العين، الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن عبّاد، المحيط في اللّغة: (جبر).
(7) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (جبر).
(8) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (عند).
(9) الخليل، العين: (عند).
(10) ابن الأثير، النّهاية، وابن منظور، لسان العرب: (عند).

❁ المَعْنى الإجْمالِيُّ:

الاعتبار بقوم عاد، وآفاتهم من الجحود والعِصيان والانسياق لكلِّ جبّار عنيد

أشارَ اللّه تعالى إلى العِبرة من قبيلة عاد التي كانت أقوى قبائل العرب في زمانها، فقال: وتلك عادٌ - الذين أوقعَ اللّه بهم ما أوقعَ - كذَّبوا بالمُعجزاتِ التي أيَّد اللّه بها الرُّسُلَ، وأنكَروا ما أنزل اللّه عليهم منَ الحُجَجِ والبراهينِ، وعَصَوا رُسُلَ اللّه بعصيانِهم لرَسولِهم هودٍ عليه وعليهم السَّلامُ، واتَّبَعوا كلَّ مُتكَبِّرٍ من كُبَرائِهم ورؤسائِهم، متسَلِّطٍ على الخلقِ، طاغيةٍ معاندٍ، لا يقبَلُ الحَقَّ[1].

وترشدُ الآيةُ الكريمةُ إلى أنَّ مَن عصى رسولًا واحدًا لزمَه عصيانُ جميعهم؛ فإنَّهم متَّفقون على الإيمان باللّه، وعلى توحيده، وترشدُ إلى التنديد بالكِبْر والعناد؛ إذ هما من شر الصِّفات الخُلقية في الإنسان، وأنَّ اتِّباعَ الطُّغاةِ والظلم والكفر والفساد لا يقودُ إلّا إلى الدَّمار والخَسار[2].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالة الاستئناف بـ (الواو) في ﴿وَتِلْكَ﴾:

استئناف الخطاب للإشارة إلى العظة من قصَّة قوم عاد

الجملة في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾، استئنافيَّةٌ مفتتحة بالواو الاستئنافيَّة[3]، فلمّا ذكر قصَّة عاد؛ استأنف بخطاب النَّبيِّ ﷺ بالإشارة إلى قبورهم وآثارهم الباقية للنَّظر والاعتبار[4]، وليس إيراد القصص في القرآن إلّا للعظة والاعتبار.

سرُّ الإشارة بـ اللَّفظ ﴿وَتِلْكَ﴾:

الإشارة إلى عادٍ المُهلَكةِ؛ للاعتبار بمآلها وسوء عقباها

في قوله: ﴿وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾ استعمل النَّظم الجليل في هذه الآية الكريمة اسمَ الإشارة الدّالَّ على المفرد المؤنَّث

(1) ابن جرير، جامع البيان: 12/451، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 9/54، والسّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 384.

(2) ابن جُزَيّ، التسهيل لعلوم التنزيل: 1/400، والجزائري، أيسر التفاسير: 2/556.

(3) صافي، الجدول في إعراب القرآن: 6/298.

(4) النّيسابوريُّ، غرائب القرآن: 4/33.

﴿وَتِلْكَ﴾؛ للدَّلالة على القبيلة أو القصَّة[1]. وفائدة الإشارة هنا لبيان أنَّ قصَّتهم ما زالت حاضرةً في الذِّهن، بسبب ما أجري عليه من الحديث، وشيّق التَّصوير، وماتع العبارة، حتّى صار كأنَّه حاضر في الحسِّ والمشاهدة، وهو من التَّصوير الفنِّي في القرآن الكريم، وقد أجاد الطَّيبيُّ؛ إذ قال: "وقلت: كأنَّه آذنَ بتصوير تلك القبيلة في الذِّهن، ثمَّ أشار إليها، وجعلها خبرًا للمبتدأ لمزيد الإبهام، فيحسن التَّفسير بقوله: ﴿جَحَدُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ﴾ كلَّ الحسنِ لمزيد الإجمال والتَّفصيل"[2]. وقد جاءت الإشارة إلى عاد، لقوَّتها وطاغوتها، وما لاقت بسبب تمرُّدها، لِما في ذلك من عبرة[3].

وجهُ إيثار اسم الإشارة (تِلْكَ):

إبعادُ الله تعالى لقوم ما، تصريحٌ بتحقيرهم وسوء مصيرهم

قوله جل شأنه: ﴿وَتِلۡكَ عَادٞ جَحَدُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ﴾، آثر النَّظم الجليل فيها التَّعبير باسم الإشارة الدّالِّ على البُعد، تحقيرًا لهم، وتنزيلًا لهم منزلة البعيد، لعدمهم، وإذا أريد باسم الإشارة قبورهم؛ فهي للبعيد المحسوس[4]، وبالإشارة "فصل بين عاد (المكان)، وعاد (المكين)، وهم قوم عاد؛ لذلك قال سبحانه: ﴿جَحَدُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ﴾، فهم قد ذهبوا، وبقيت آثارهم"[5].

موقع جملة ﴿جَحَدُواْ﴾ في الآية:

بعد الإجمال بالإشارة، بيان تفصيل ملمح الذَّمِّ

الجملة في قوله جلَّ شأنه: ﴿جَحَدُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ﴾، مستأنفة سيقت للإخبار عنهم بذلك، وليسَتْ حالًا ممّا قبلها[6]، وهي بيانٌ وتفسيرٌ للجملة الاسميَّة ﴿وَتِلۡكَ عَادٞ﴾، "كأنَّه آذنَ بتصوير تلك

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/219.
(2) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 8/115.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3721.
(4) القاسميّ، محاسن التّأويل: 6/110.
(5) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 11/6519.
(6) السّمين الحلبي، الدّرُّ المصون: 6/345.

القبيلة في الذِّهن، ثمَّ أشار إليها، وجعلها خبرًا للمبتدأ، لمزيد الإبهام، فيحسن التَّفسير بقوله: ﴿جَحَدُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ﴾، كلَّ الحُسنِ لمزيد الإجمال والتَّفصيل"[1].

سرُّ إيثار التَّعبير بلفظ الجحود:

جحود الآيات كفرٌ بها، بعد العلم بيقينها وصدقها

دلَّ التَّعبير بالفعل ﴿جَحَدُواْ﴾ في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَتِلۡكَ عَادٞ جَحَدُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ﴾ على أنَّهم كفروا بالآيات مع المعرفة بإيقان؛ لأنَّ الجُحود يدلُّ على نفي ما في القلب إثباته[2]، أي: "كفروا بها بعدما استيقنوها"[3]، وهذا أبلغُ من مجرَّد الكفر، فهو كفر عن دراية وعلم بالحقِّ، ثمَّ عدول عنه إلى الباطل، فيتضمَّن ذلك الإصرار والكفر عن علم، فلا إعذارَ لهم ولا إمهال.

بلاغة التَّعبير بالماضي ﴿جَحَدُواْ﴾:

جحود قوم عاد تحقَّق واقعًا، ولا يكون جحود إلّا مع يقين وجود

عبَّر بالفعل الماضي في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَتِلۡكَ عَادٞ جَحَدُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ﴾ للدَّلالة على أنَّ جحودهم تلك الآيات أمرٌ مقطوع به، وأنَّه قد تأكَّد حدوثه، فهو حدثٌ انقضى، فاستحقُّوا ما وقع جزاءً عليه، والجحود كفر ونكران، بعد معرفة واستيقان، ولذلك كان الإخبار عن واقع معيش، مرَّت به هاته الأقوام، في تلك الأحداث الحوالك التي بدأت دعوة للهداية والانسلاك، وانتهت بالكفر والمنابذة والهلاك، وذلك حكم الله على كلِّ من كفر، وقانونه على كلِّ منْ طغى وبطر.

دلالة التَّعبير بالجمع ﴿جَحَدُواْ﴾:

الإجماع على الكفر دليل على انطماس البصيرة

قوله جلَّ شأنه: ﴿وَتِلۡكَ عَادٞ جَحَدُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ﴾، عبَّر النَّظم الكريم بالفعل الماضي المسند إلى واو الجماعة؛ للدَّلالة على أنَّ كفرَهم كان جماعيًّا، ولذلك كانت العقوبة جماعيَّة، وعصيانهم الجماعيُّ للرَّسول المبعوث إليهم، يصعِّب من مهمَّة الرَّسول، ويحجب

(1) الطِّيبيّ، فتوح الغيب: 8/115.
(2) الرّاغب، المفردات: (جحد).
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/219.

عنهم رؤية الحقِّ، واستبانة الهدى، وهو أمر شهدته المجتمعات الكافرة في جميع العصور، وكان الكفر الجماعيُّ سببًا في دمار كيانها، وهلاك أهلها.

علَّةُ تعدِّي الفعل ﴿جَحَدُواْ﴾ بالباء:

الكفر بالآيات مع اليقين بها، مُفْصِحٌ عن استحواذ الكفر عليهم

قوله جلَّ شأنه: ﴿وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْاْ رُسُلَهُۥ﴾، تعدَّى فيه الفعلُ ﴿جَحَدُواْ﴾ بحرف الجرِّ الباء، مع أنَّه متعدٍّ بنفسه، لتأكيد التَّعدية، فأُنزل (جحد) منزلة الفعل (كفروا)[1]، وقد دأب النَّظم الكريم على استعماله متعدّيًا بالباء كقوله تعالى: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ﴾ [النّمل: 14]، وقوله: ﴿وَمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ۝٥١﴾ [الأعراف: 51]. ولمّا كان الجحود أبلغَ من النَّفي والكفر؛ لأنَّه الكفر مع اليقين دلَّ ذلك على شدَّة ملابسة الكفر لهم إزاء هذه الآيات، فكان التَّعبير بالباء لذلك.

نكتةُ إضافة الآيات في ﴿بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾:

إضافة الآيات للخالق المنعم، إشارة إلى جدارتها بالدّلالة

أضاف النَّظم الجليل لفظ الآياتِ إلى الرَّبِّ، في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾؛ للدَّلالة على أنَّ مصدر تلك الآيات، هو اللَّطيف بهم، والمحسن إليهم، وأنَّها منزلة منه، وفيها إشارة إلى أنَّها مراعية لعقولهم ومداركهم، لما في لفظ الرَّبِّ من إلطاف وإحسان، وأنَّها جديرة بأن تكون دالَّة على ما يراد منها، ويدلُّ على تفخيم شأنها وكونها آيات نزلت بعناية اللَّطيف الخبير.

سرُّ الإضافة في ﴿رَبِّهِمْ﴾:

ربوبيَّة الله تعالى، لا يندُّ عنها مؤمن ولا كافر

قوله جلَّ شأنه: ﴿وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾، أضاف فيه النَّظم الكريم، لفظ الرُّبوبيَّة إلى الضَّمير الدّال على قوم هود عليه السلام؛ إذ ربوبيَّته لا تنفكُّ حتّى عن العصاة والكفرة والمناوئين، فإنَّ الله تعالى هو ربُّ النّاس جميعًا ورازقهم والمقيم على شأنهم، من غير

(1) القاسميّ، محاسن التّأويل: 6/110.

نظر إلى معتقدهم رحمة منه وتفضُّلًا، وهو المعنى الوارد في قول إبراهيم عليه السلام لربِّه ﷻ: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ﴾ [البقرة: 126]، فكان جواب الله غير مميَّز بين كافر ومؤمن، في عطاء الرُّبوبيَّة، حيث قال تعالى له: ﴿وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾﴾ [البقرة: 126]، "فردَّ الله سبحانه عليه قائلًا: إنَّه سيرزق المؤمنين وغير المؤمنين من النّاس؛ لأنَّه سبحانه لا يخلق خلقًا لا يرزقه؛ ولكنَّه تعالى جعل ذلك الرِّزق لمن كفر، متاعًا قليلًا، مدَّة وجودهم في الدُّنيا"[1].

دلالة التَّعبير بالماضي ﴿وَعَصَوْا۟﴾:

الرّاسخون في المعاصي يكون العذاب لهم جزاء وفاقًا

عبَّر النَّظم الجليل عن عصيانهم بالفعل الماضي، في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَتِلْكَ عَادٌ ۖ جَحَدُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا۟ رُسُلَهُۥ﴾؛ للدَّلالة على رسوخِهم في المعاصي، وأنَّهم قد دأبوا على فعل ذلك، وتأكَّد تحقيقهم له، بحيث إنَّه صار حدثًا ماضيًا مقطوعًا به، وأسند العصيان إليهم، معبِّرًا عنهم بـ واسطة (واو الجماعة)، لتسويغ استحقاقهم للعذاب الهون في الدُّنيا والآخرة.

فائدةُ جمعِ لفظ الرُّسل في قوله: ﴿رُسُلَهُۥ﴾:

مَنْ عصى رسولًا واحدًا، فقد عصى الجميع؛ لأنَّ دعوتهم واحدة

أورد النَّظم الكريم لفظ الرُّسل جمعًا، في قوله جل شأنه: ﴿وَتِلْكَ عَادٌ ۖ جَحَدُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا۟ رُسُلَهُۥ﴾، مع أنَّه لم يرسِلْ إليهم غيرَ هودٍ عليه السلام، تفظيعًا لكفرِهم وعنادِهم، وبيانًا أنَّ عصيانهم لرسولهم، هو عصيانٌ لجميع الرُّسلِ السّابقين واللّاحقين[2]، وقد قال تعالى: ﴿وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾﴾ [البقرة: 136]، فهم "وإن كانوا قد عصوا رسولًا واحدًا،

(1) أسعد حومد، أيسر التّفاسير، ص: 133.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/219.

فإنَّ عصيان واحد منهم عصيان للجميع؛ لأنَّه ما كان إلّا لنفي الرِّسالة نفسها، بدعوى أنَّ الرَّسول لا يكون بشرًا"[1]، والمعنى: أنَّهم ﴿وَعَصَوۡاْ رُسُلَهُۥ﴾، أي: عصوا جنسهم، بعصيان رسوله إليهم وإنكار رسالته، فإنَّ عصيان الواحد عصيان للجنس كلِّه؛ إذ هو مبنيٌّ على رفض الرِّسالة نفسها، بادِّعاء أنَّ الرَّسول لا يكون بشرًا "[2].

نكتةُ الإضافةِ في: ﴿رُسُلَهُۥ﴾:

تكريم الرُّسلِ وتشريفهم لنسبتهم لله تعالى، والتَّشنيع بمكذِّبيهم

جاء لفظ الرُّسل مضافًا إلى الضَّمير العائد للّه تعالى، في قوله جل شأنه: ﴿جَحَدُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ وَعَصَوۡاْ رُسُلَهُۥ﴾، إشارةً إلى أنَّ الرُّسل مرسلين من اللّه ﷻ، وفي ذلك تكريمٌ لهم وتشريف، وأنَّ الرَّسول مبعوثٌ من اللّه تعالى ليطاع، لا ليعصى، وطاعة الرَّسول من طاعة اللّه، قال تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ﴾ [النّساء: 80]، وفي ذلك بيان لشناعة تكذيب هؤلاء الكرام ﷺ، فإنَّ صفتهم بالرِّسالة صادرة من اللّه تعالى، فيكون إنكارُها إنكارًا للّه تعالى، لا للرُّسل خاصَّة.

معنى العطفِ في قوله: ﴿وَٱتَّبَعُوٓاْ﴾:

اتِّباع الطُّغاة والعزوف عن الصّالحين، منهج الضّالّين المعاندين

قوله جلَّ شأنه: ﴿وَٱتَّبَعُوٓاْ أَمۡرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾، معطوف على قوله تعالى: ﴿وَعَصَوۡاْ رُسُلَهُۥ﴾؛ لبيان أنَّ قوم عادٍ لم يكتفوا بمعصية اللّه تعالى، وعدم اتِّباع دينه، بل زادوا ذلك بأن اتَّبعوا المعاندين الطُّغاة، والمعنى: عصَوا مَنْ دعاهم إلى الهدى، وأطاعوا من حداهم إلى الرَّدى.

دلالة الماضي ﴿وَٱتَّبَعُوٓاْ﴾:

تحقُّق اتِّباعهم أهلَ التَّجبُّر والعناد، وضلالهم جميعًا

في قوله تعالى: ﴿وَٱتَّبَعُوٓاْ أَمۡرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾، عبَّر النَّظم الكريم عن ضلالهم في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَٱتَّبَعُوٓاْ أَمۡرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ بالاتِّباع، وجاء ذلك بصيغة الفعل الماضي للدَّلالة على أنَّ اتِّباعهم

(1) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 12/52.
(2) محمّد رشيد رضا، تفسير المنار: 12/99.

قد تحقَّق ومضى الزَّمان عليه، تعبيرًا عن اعوجاج مسلكهم، وضلال سبيلهم، وقد أسند إلى واو الجماعة؛ للدَّلالة على أنَّ ذلك الاتِّباع كان منهجًا لجميعهم، وأنَّهم ضلّوا جماعة، كما ضلّوا فرادى.

بلاغةُ الصُّورة التَّمثيليَّة في الآية:

اتِّباع المضلِّين صورة مماثلة لاتِّباع جاهل بمسالك الطَّريق

دلَّ التَّعبير بالاتِّباع، في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَٱتَّبَعُوٓاْ أَمۡرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾، على صورة تمثيليَّة، فالاتِّباع هو العمل على وفق ما يملي المتَّبع، وهذا يشابه ما يفعل الهادي لسالك الطَّريق، فالامتثال للأوامر يشبه الاتِّباع للسّائر، فهي صورة تشبيهٍ تمثيليٍّ مكتملة[1].

دلالة التَّعبير بلفظ ﴿كُلِّ﴾:

دَأْبُ الضّالّين الكفرة، اتِّباع المفسدين الفجرة

عبَّر النَّظم الكريم بلفظ ﴿كُلِّ﴾، في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَٱتَّبَعُوٓاْ أَمۡرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾، عن شدَّة ضلالهم، فإنَّ ﴿كُلِّ﴾ يدلُّ على العموم على الحقيقة، فيكون دالًّا على الاستغراق، فإنَّهم اتَّبعوا كلَّ جبّار عرفوه، أو يدلُّ على العموم على الأغلب والأكثر، "فإن أريد كلُّ جبّار عنيد من قومهم فالعموم حقيقيٌّ، وإن أريد جنس الجبابرة؛ فـ ﴿كُلِّ﴾ مستعملة في الكثرة"[2]. وأضاف ﴿كُلِّ﴾ إلى ﴿جَبَّارٍ﴾ وليس إلى ﴿أَمۡرَ﴾، فلم يقل: (اتَّبعوا كلَّ أمرِ جبّار عنيد)؛ لأنَّ المراد أنَّهم اتَّبعوا الأوامر التي تصدر من الجبابرة، وتخالف الشَّرع، وليس كلَّ أمر من أوامرهم، فلم يتابعوه في كلِّ أمره[3]، وفي ذلك دلالةٌ على أنَّهم انتقَوا الضَّلال، واختاروه اختيارًا، وفيه كذلك تأكيدٌ لدأبهم على اتِّباع الضَّلال والنُّفور من الإيمان بإله واحد، تعبيرًا عن فساد طويَّتهم وسوء مقصدهم.

سرُّ الجمع بين الوصفين ﴿جَبَّارٍ﴾ و ﴿عَنِيدٍ﴾:

ظهور طغيان المتَّبعين، إفصاحٌ عن ضلال التّابعين

جمع النَّظم البليغ في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَٱتَّبَعُوٓاْ أَمۡرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/105.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/106.
(3) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/361.

بين صفتي الجبّار والعنيد، والجبّار: قاهرٌ بليغ القهر، يجبر غيره على ما يريد، والعنيد: طاغٍ وباغٍ لا يقبل الحقَّ بوجهٍ، وفائدة الجمع بين الصِّفتين، تأكيدُ كونهم في الغاية من التَّجبُّر والظُّلم والطُّغيان، والغرض من ذلك هو شدَّة الذَّمِّ للَّذين اتَّبعوهم، فهو مبالغة في بيان فساد قلوبهم، فإنَّ المتَّبَعين ظاهرو الطُّغيان والعدوان، مع ذلك اتَّبعوهم، وكان في وسعهم إضمار خلاف ما يأمرونهم به، ولكنَّهم خافوا، فاتّبعوهم لفسادهم، وهذا مستفاد من قول البقاعيِّ رحمه اللّه: "وهذا يدلُّ على أنَّه لا عذر في أصل الدِّين بوجه، فإنَّ الضَّمائر لا يعلمها إلّا اللّه، فيمكن لكلّ أحد مخالفة الجبّار فيه"[1].

نكتةُ ترتيب الجمل المبدوءة بالأفعال:

ترتيب الجمل حسب الوجود الخارجيِّ من بديع الاستعمال

رتَّب النَّظمُ الكريم الجمل الفعليَّة الثَّلاث الواردة، في قوله جلَّ شأنه: ﴿جَحَدُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ وَعَصَوۡاْ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَمۡرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٖ﴾، ففيه ثلاث جمل، كلٌّ واحدة مبدوءة بفعل مختلف، وهي على التَّوالي: ﴿جَحَدُواْ﴾.. ﴿وَعَصَوۡاْ﴾... ﴿وَٱتَّبَعُوٓاْ﴾، وترتيبها جاء حسب المراحل فبعضها يفضي إلى بعض، ويكمِّل دلالته، ويُفصح عن مرماه، فقوله: ﴿جَحَدُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ﴾، هو المرحلة الأولى، وهي مرحلة الجحود؛ فلا يقع عصيان، ولا اتِّباع الطُّغاة إلّا بعد تحقيق الجحود والكفر، والثّانية: ﴿وَعَصَوۡاْ رُسُلَهُۥ﴾: وهي مرحلة عصيان الرَّسول، والثّالثة: ﴿وَٱتَّبَعُوٓاْ أَمۡرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٖ﴾: وهي مرحلة تحدّي الدَّعوة واتِّباع غير الرَّسول[2].

دلالة التَّعبير بالمبالغة ﴿عَنِيدٖ﴾:

العناد صفة للتَّعبير عن العتوِّ والتَّجبُّر ومجانفة الحقِّ

عبَّر النَّظم الجليل في قوله جل شأنه: ﴿وَٱتَّبَعُوٓاْ أَمۡرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٖ﴾، بصيغة المبالغة ﴿عَنِيدٖ﴾، التي على وزن (فعيل)، دون

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/315.
(2) محمّد الهلال، تفسير القرآن الثري الجامع: 12/54 بترقيم الشاملة آليًّا.

اسم الفاعل (معاند)؛ للمبالغة في صفة العناد والعتوِّ، الَّتي يتَّصف بها أولئك الضّالّون من الجبابرة، وهم رؤساؤهم ودعاتهم إلى تكذيب الرُّسل؛ لأنَّهم الذين يجبرون النّاس على الأمور، ويعاندون ربَّهم، ومعنى اتِّباع أمرهم: طاعتهم "[1]، فهو أبلغ من اسم الفاعل (معاند).

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

(جحد) و(أنكر):

الفرق بين الجحود والنُّكر: أنَّ الجحود ضِدُّ الإقْرارِ، ولا يَكونُ إلّا مَعَ عِلْمِ الجاحِدِ بِهِ، أنَّهُ صَحيحٌ، قالَ اللّه تَعالَى: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ﴾ [النّمل: 14][2]، فهو نفي ما في القلب إثباته[3]، أمّا الإنكار؛ فهو من: نَكِرَ الشَّيْءَ، وأنْكَرَهُ: لَمْ يَقْبَلْهُ قَلْبُهُ، ولَمْ يَعْتَرِفْ بِهِ لِسانُهُ[4]. وهو ضِدُّ العِرْفانِ، وأصلُه أن يَرِدَ على القَلْبِ ما لا يتصوَّره، وذلك ضَرْبٌ من الجَهْلِ، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ﴾ [هود: 70]، وقد يُستعمَلُ ذلك فيما يُنْكَرُ باللِّسانِ، وسَبَبُ الإنْكارِ باللِّسانِ هو الإنْكارُ بالقلبِ[5]، لذلك جاء في التَّعبير في الآية بالجحود، تعبيرًا عن أنَّهم قد عرفوا أنَّها حقٌّ، فمعنى أنَّهم جحدوا بها: أنَّهم "كفروا بها بعد ما استيقنوها"[6]، والجحد أخصُّ من الإنكار؛ لأنَّ الجحد إنكار الشَّيءِ الظّاهر، ويدلُّ عليه قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ۝٥١﴾ [الأعراف: 51]، وقد يكون الإنكار مرتبطًا دلاليًّا بالنِّعمة؛ لأنَّها قد تكون خافية، ومنه قوله تعالى: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ۝٨٣﴾ [النّحل: 83]، ويجوز أن

الجحود: ضدُّ الإقرارِ، والإنكار: ما لَمْ يقبله القلب، ولم يعترف به اللِّسان

(1) محمّد الهلال، تفسير القرآن الثري الجامع: 12/54 بترقيم الشاملة آليًّا.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (جحد).
(3) الرّاغب، المفردات: (جحد).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نكر).
(5) الرّاغب، المفردات: (نكر).
(6) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/219.

يكون الجحد هو إنكار الشَّيء مع العلم به، ويدلُّ عليه قوله تعالى: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّاۚ﴾ [النّمل: 14]، والجحد يكون مع اليقين، بينما الإنكار يكون مع العلم وغير العلم... وقال المبرِّد: لا يكون الجحود إلّا بما يعلمه الجاحد، كما قال تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ۝٣٣﴾ [الأنعام: 33][1].

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 46.

﴿وَأُتۡبِعُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا لَعۡنَةٗ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ أَلَآ إِنَّ عَادٗا كَفَرُواْ رَبَّهُمۡۗ أَلَا بُعۡدٗا لِّعَادٖ قَوۡمِ هُودٖ ٦٠﴾ [هود: 60]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

علاقة عذاب قوم عادٍ واستئصالهم بإتباعِهِمُ اللَّعنة في الدُّنيا والآخرة

لمّا ذكر النَّظم الكريم عقابهم، وبيَّن أنَّهم اتَّبعوا الكفرة الجبّارين، والطُّغاة الآثمين؛ أتْبع ذلك ببيان أنَّ العذاب عنهم لم ينقطع، بل اتَّبعتهم اللَّعنة في الدُّنيا غيرَ منفكَّة عنهم، وكذلك في الآخرة سوف يلاقون تلك اللَّعنة، فيجازَوْن بالطَّرد الثّابت لهم من رحمة اللّه تعالى؛ لأنَّهم "جحدوا نعمة خالقهم عليهم، ولم يشكروها بالإيمان به وحده، فأصبحوا جديرين بطردهم من رحمة اللّه، وإنزال الهلاك الشَّديد بهم"[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَأُتۡبِعُواْ﴾: أصْلُ (تبع): التُّلُوُّ والقَفْوُ، يقال: تَبِعتُ فُلانًا؛ إذا تَلوتُهُ واتَّبَعْتُهُ، وأتْبَعْتُهُ؛ إذا لَحِقْتُهُ[2]، كأنَّما لَحِق أو التصق به وتَطَلَّبه مُتَّبعًا له[3]، وتَبِعتُ الرَّجُلَ؛ إذا مشيتَ مَعَه، واتَّبعته؛ إذا مشيتَ خَلفَه لتلحقه[4]. قال أبو عُبيد: ويُقال: أتْبَعْت القَوم؛ إذا كانوا قد سبقوك، فلحِقتهم، قالَ: واتَّبعتُهم؛ إذا مرّوا بكَ، فمضيت مَعَهم، وتبِعتهم تَبَعًا مثله[5]، وأتبع فلانٌ فلانًا؛ إذا تبعه يُريد بِهِ شرًّا، كما أتبع فِرْعَوْنُ موسَى، وأمّا التَّتبُّع؛ فأنْ يتتبَّع في مُهْلة شَيئًا بعد شَيْءٍ[6]، والمراد بالإتْباع في الآية: لَحِقَتْ بهم، وتوالَتْ عليهم.

(1) لجنة من علماء الأزهر، المنتخب في تفسير القرآن الكريم، ص: 318.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (تبع).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (تبع).
(4) ابن دريد، جمهرة اللغة: (تبع).
(5) الأزهري، تهذيب اللغة: (تبع).
(6) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة: (تبع).

2) ﴿لَعْنَةً﴾: أصلُ (لعن): يَدُلُّ على الطَّرْدِ والإبْعادِ، يُقال: لَعَنَهُ اللّه، أيْ: أبْعَدَهُ، وطَرَدَهُ عن الخَيْرِ[1]، واللَّعينُ: المُبْعَدُ المَنْبوذُ، واللِّعانُ: الدُّعاءُ بِاللَّعْنِ، وأمّا الذي يَصدُرُ من الخَلْقِ؛ فهو بِمعنى السَّبِّ والشَّتْم، فيُقال: لَعَنَهُ لَعْنًا، أيْ: سَبَّهُ[2]، ويأْتي اللَّعْنُ بِمعنى التَّعْذيبِ والإهْلاكِ، واللَّعْنَةُ: العَذابُ[3]. ومن مَعانيه أيضًا: المَسْخُ[4]، قال الشَّمّاخ:

ذَعَرْتُ بِهِ القَطا ونَفَيْتُ عَنْهُ *** مَقامَ الذِّئْبِ كالرَّجُلِ اللَّعينِ[5]

والملاعنة واللِّعان: المباهلة، والملعنة: قارعة الطَّريق، ومنزل النّاس، وفي الحديث: «اتَّقوا المَلاعِنَ»[6]، يعني عند الحدث، ورجل لُعَنَة: يلعن النّاس كثيرًا، ولُعْنة، بالتَّسكين: يلعنه النّاس[7]، والمقصود باللَّعنَةِ في الآية: الطَّردُ بإهانةٍ وتَحقيرٍ.

3) ﴿بُعْدًا﴾: أصلُ البُعْدِ: خِلافُ القُرْبِ، يُقال: بَعُد يَبْعُدُ بُعْدًا، ضِدَّ قَرُبَ يَقرُب قُربًا، وليس لهما حدٌّ محدود[8]، وتقول العرب: بُعدًا وسُحْقًا، مصروفًا عن وجهه، ووجهه: أبعده اللّه وأسحقه[9]، وبعُد يبعُد بُعْدًا، من قولهم: (أبعده اللّه)، فإذا أمرت؛ قلت: ابعد. قال الشّاعر[10]:

صبا ما صبا حَتَّى عَلا الشَّيْبُ رَأْسَهُ *** فَلَمّا عَلاهُ قالَ لِلْباطِلِ ابْعدِ

والَّذي عَبَّرَ بِهِ الأقدمون أنَّ البُعْد بمعنَى الهلاكِ، ويُقال: إنَّ الذي بمعنَى الهلاكِ إنَّما هو البَعَد، ومَنْ جَوَّزَ الاشتراكَ فيهما أشار إلى أفصحيَّة الضَّمِّ في خِلافِ القُرْب، وأفصحيَّة الكسرِ في معنَى الهلاكِ[11]. والمقصود بالبُعْدِ في الآية: الإبعادُ والطرد عن رحمة اللّه بطريق العقوبة.

---

(1) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (لعن).

(2) ابن عبّاد، المحيط في اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (لعن).

(3) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة: (لعن).

(4) ابن منظور، لسان العرب: (لعن).

(5) البيت للشّمّاخ بن ضرار، من قصيدة يمدح بها عرابة بن أوس، ينظر: ديوان الشّمّاخ، ص: 320، و346، وابن منظور، لسان العرب: (لعن)، وابن دريد، جمهرة اللّغة: (علن)، وابن الأنباري، الزاهر في غريب ألفاظ الشافعي، ص: 220، والبغدادي، الخزانة: 4/347، وابن يعيش، شرح المفصّل: 3/13.

(6) الحديث من لفظ التّرمذيّ عن معاذ بن جبل، قال: قالَ رَسولُ الله ﷺ: «اتَّقوا المَلاعِنَ الثَّلاثَةَ: البَرازَ في المَوارِدِ، وقارِعَةِ الطَّريقِ، والظِّلِّ»، حسن لغيره، وله شاهد من حديث معاذ بن جبل عند أبي داود، السنن، الحديث رقم: (26)، وابن ماجه، السنن، الحديث رقم: (328)، والحاكم، المستدرك: 1/167، والبيهقي، السنن: 1/97، وغيرهم.

(7) ابن منظور، لسان العرب: (لعن).

(8) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والسّمين الحلبي، عمدة الحفّاظ، والزَّبيديّ، تاج العروس: (بعد).

(9) الخليل بن أحمد، كتاب العين: (بعد).

(10) البيت منسوب لدريد بن الصّمّة، ذكره الخرائطيّ في اعتلال القلوب: 2/321، وابن دريد في جمهرة اللّغة: (بعد).

(11) الجوهريّ، الصّحاح، والزّبيديّ، تاج العروس: (بعد).

❁ المَعْنى الإجْمالِيُّ:

إظهار تتابعِ غضب الله على قوم عادٍ، ولعنتِه لهم وطردِهم من رحمته

يخبر الله تعالى في هذه الآيةِ أنَّ قومَ عادٍ لم يتركوا وراءهم في هذه الدُّنيا خيرًا يُذكرون به، ولم يخلِّفوا أثرًا طيِّبًا ينتفعُ به النّاس بعدَهم، وإنَّما الَّذي تركوه هو ما يشهد عليهم بالبغي والضَّلال والفساد في الأرض، حيث سوءُ سمعتهم في الدُّنيا وفي الآخرة؛ إذ لحِقت بهم لعنةٌ في هذه الدنيا، فكان كلُّ من عَلِم بحالهم ومن أدركَ آثارَهم، وكلُّ من بلَّغه الرسلُ من بعدهم خبرَهم يلعنونهم، وتلحقُهم هذه اللعنةُ أيضًا يوم القيامة حينما يلعنُ الأشهادُ الظالمين أمثالَهم، وما رَكِبوا في دنياهم من ضلالٍ، إذ فوَّتوا على أنفسهم مقامَ أهل الإيمان، هذا المقامُ الكريمُ وما ساقه إليهم إيمانُهم من نَعيمٍ ورِضوانٍ، فيجدون لذَّة إلى لذَّتهم، بينما هؤلاء البؤساء تتابعت عليهم لعنتان من الله، لعنةٌ لازمة لهم في الدنيا ولعنةٌ دائمة في الآخرة[1].

وترشدُ الآية الكريمةُ إلى أنَّ مَن أرادَ سلامةَ الدّارين والظَّفَر بقرّة العين، فليتمسَّكْ بالإيمان بالله، وبكلِّ ما أتى به الرسول الأمين عن رب العالمين، وليتَّبِعْ منهجَ الرَّشاد والسداد، وليتجنَّبْ كلَّ ما يحول بينه وبين الله، ويُغْفِلُه عن ذكر الله، وترشدُ إلى التخويف من الإبعاد عن الله وما يقرِّب إليه[2].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالةُ بناء فعل ﴿وَأُتۡبِعُواْ﴾ للمفعول:

حلولُ الإبعاد والطردِ لهم عن رحمة الله بأيسر وجه تعظيم لحال اللعنةِ

آثر النَّظم الكريم في هذه الآية: ﴿وَأُتۡبِعُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا لَعۡنَةٗ﴾ التَّعبيرَ بالفعل المبنيِّ للمجهول إيجازًا بالاستغناء عن الإخبار بما هو معلوم؛ إذ إنَّ من المعلوم أنَّ وقوع اللَّعنة على قوم عادٍ وتتابعها هو من الله تعالى، فالبناءُ للمجهول يدلُّ على أنَّ إهلاكهم وقع بأيسر

(1) المراغي، تفسير المراغي: 12/52، والخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 6/1160.
(2) ابن عجيبة، البحر المديد في تفسير القرآن المجيد: 2/539.

وجه؛ تعظيمًا لشأن لعنة الله تعالى[1]، فإنَّ عدم تعظيمها بذكر لفظ الجلالة يدلُّ على كفاية التَّعظيم، ولأنَّ المقصود من السّياق هو بيانُ حلول الإبعاد والطردِ عن رحمة الله بطريق العقوبة لهؤلاء القوم وملازمتها لهم في الدنيا والآخرة.

نكتة جعل اللَّعنة نائبَ فاعلٍ:

جاء التَّركيب في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَأُتۡبِعُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا لَعۡنَةٗ﴾، بجعل اللَّعنة نائب فاعل دون أن يجعلها فاعلًا مع جواز ذلك، فلم يقل: (واتَّبعتهم لعنةٌ)؛ ليؤكِّد أنَّ اللَّعنة بفعل الله العليِّ القدير، وهذا أبلغ في تفخيم شأن اللَّعنة، بأنَّها كائنة من فعل الله تعالى، واللَّعنة أسوأ ما يسلَّط على الإنسان في الدُّنيا والآخرة؛ لأنَّ مناط الحفظ والإنعام، متَّصل مددًا وانتفاعًا بما يغمر الإنسان من رحمة وماينالـه من خير، وما يحيط به من ألطاف، فإذا طالته اللَّعنة؛ خرج من رحمة الله، ففقد ذلك كلَّه، فأصبح من الخاسرين في الدُّنيا والآخرة، وذلك هو الخسران المبين.

التَّصريح بمصدريَّة اللَّعن تعظيم له، باعتبار مآلاته الوخيمة

سرُّ إيثار التَّعبير بـ ﴿وَأُتۡبِعُواْ﴾ و ﴿لَعۡنَةٗ﴾:

آثر النَّظم الجليل التَّعبيرَ بقوله جلَّ شأنه: ﴿وَأُتۡبِعُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا لَعۡنَةٗ﴾، دون أن يقول: (ولُعنوا)، بل عبَّر بأنَّها متابعة لهم، أي: "جُعلت اللَّعنةُ لازمةً لهم، وعبَّر عن ذلك بالتَّبعيَّة للمبالغة، فكأنَّها لا تفارقهم، وإن ذهبوا كلَّ مذهبٍ، بل تدور معهم حيثما داروا، ولوقوعه في صحبة اتِّباعهم رؤساءهم، يعني: أنَّهم لمّا اتَّبعوهم؛ أُتبعوا ذلك جزاءً لصنيعهم جزاءً وفاقًا"[2]، ومفاد قوله: "وأتبعوا، أي: اتَّبع سُقّاطُهُمْ أمر رؤسائِهم وكبرائهم، والمعنى: أنَّهم أطاعوهم فيما أمروهم به"[3].

لزوم اللَّعنة لهم وتتابعها عليهم أبلغُ من نزولها مرَّة وانتهائها

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/316.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/220.
(3) أبو حيان، البحر المحيط: 6/171.

فائدةُ التقديم ﴿فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا﴾:

التأكيد على تعجيل العقاب في الدُّنيا، وعدم السلامة من اللَّعنةِ في أيِّ مكان مع رحابة الحياة

قدَّم النَّظمُ الكريم شبهَ الجملة ﴿فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا﴾، على المفعول به، في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَأُتۡبِعُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا لَعۡنَةٗ﴾، فلم يقل: (وأتبعوا لعنةً في هذه الدُّنيا)؛ اهتمامًا بذكر زمان العقاب على العقاب، للدَّلالة على تعجيل العقاب في الدُّنيا، وفيه دلالةٌ بلاغية مهمَّة، وهي إبرازُ المكان الذي يُتْبَع فيه المخاطَبون باللعنة، وهو الدُّنيا، بحيثُ إنَّ اللعنةَ تلازمهم في حياتهم الدُّنيا، فلا يسلمون منها في أيِّ مكان منها، حتى مع رحابة الدُّنيا التي يظنّون أنَّها ملاذُهم ومكانُ راحتهم.

والعقاب العاجل في الدُّنيا، هو الذي يؤثِّر في الجيل الذي رآه رأي العين، وأبصر فداحته وبشاعته، وأيضًا تفهمه عقول المخاطَبين بالقصَّة، في زمان نزول الوحي على النَّبيِّ الخاتم ﷺ، ممَّن يؤثرون الحياة الدُّنيا، والذين يقولون سفهًا وجهلًا وسوء تقدير: ﴿إِنۡ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا نَمُوتُ وَنَحۡيَا وَمَا نَحۡنُ بِمَبۡعُوثِينَ ٣٧﴾ [المؤمنون: 37].

دلالة اسم الإشارة في ﴿هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا﴾:

الإشارة إلى القريب تهوين لشأن الدُّنيا، واستصغار لها

آثر النَّظم الكريمُ، في قوله جل شأنه: ﴿وَأُتۡبِعُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا لَعۡنَةٗ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ﴾، الإشارة إلى الدُّنيا دون ذكرها مجرَّدة عن الإشارة؛ وذلك للتَّهوين والحطِّ من شأنها، فحقَّر الدُّنيا في هذه العبارة باسم الإشارة، بدلالة لفظ الدُّنيا الدّالِّ على الدُّنوِّ[1].

بلاغةُ الحذف في: ﴿وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ﴾:

لكلِّ دار لعنتها، وعدم التَّصريح بالثّانية، إيجازٌ للاكتفاءِ بذكر الأولى

حذف النَّظم الجليل في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَأُتۡبِعُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا لَعۡنَةٗ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ﴾، فعل الإتّباع ومفعوله، والتَّقدير: (وأُتبعوا يومَ القيامة لعنةً)، فحُذف الفعل والمفعول في جانب حلول اللعنة على قوم هودٍ في الآخرة؛ لدلالة السّياق عليهما، "وللإيذان بكون كلٍّ من اللَّعنتين نوعًا

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/316.

برأسه لم تُجمعا في قَرْنٍ واحد، بأن يقال: (وأتبعوا في هذه الدُّنيا، ويومَ القيامة لعنةً)، كما في قوله تعالى: ﴿۞وَٱكۡتُبۡ لَنَا فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ [الأعراف: 156]، إيذانًا باختلاف نوعَي الحسنتين"[1].

دلالةُ افتتاح جملة كفرهم بـ﴿أَلَآ﴾:

الافتتاح بالتَّنبيه، يشير إلى خطورة المضمون وحساسيَّته

في قوله جلَّ شأنه: ﴿أَلَآ إِنَّ عَادٗا كَفَرُواْ رَبَّهُمۡۗ﴾ افتتح النَّظم الكريم جملةَ بيانِ كفرهم بحرف التَّنبيه (ألا)؛ تنبيهًا وتأكيدًا لمضمون الجملة، وكأنَّ الله تعالى - بهذا الأسلوب - يؤكِّد كفرَهم، أي: اعلموا، وتيقَّنوا أنَّ عادًا كفروا بربِّهم، ويريدُ أن يلْفت انتباه المخاطَب إلى خطورة ما فعلوا، وهذه الأداةُ لا تُذكَر إلّا بين يدَي كلامٍ يعظُم موقعُه، ويجلُّ خطبُه، فافتتح الخبر بها لتأكيد كفرهم[2].

علَّة التعدية في: ﴿كَفَرُواْ رَبَّهُمۡۗ﴾:

تغليظ الكفر بإيقاعه على المحسن لهم، مخالفٌ لما يجب أن يكون

عدل النَّظم الكريم في قوله جلَّ شأنه: ﴿أَلَآ إِنَّ عَادٗا كَفَرُواْ رَبَّهُمۡۗ﴾، عن تعدية فعل الكفر بحرف الجرِّ إلى تعديته بنفسه، فلم يقل: (كفروا بربِّهم)؛ فلم يجعل الفعلَ لازمًا، بل عدّاه إلى المفعول به بنفسه؛ تعظيمًا لطغيانهم، فجعل الفعلَ متسلِّطًا مباشرة على المفعول به ﴿رَبَّهُمۡۗ﴾؛ إيماء إلى أنَّهم "غطّوا جميع أنوار الظّاهر الَّذي لا يصحُّ أصلًا خفاؤُهُ؛ لأنَّه لا نعمة على مخلوق إلّا منه، فكان كفرهم أغلظَ الكفر[3].

نكتةُ تكرار ﴿أَلَآ﴾:

تكرار التَّنبيه، دليلٌ على خطورة المضمون وأهميَّته

في قوله جلَّ شأنه: ﴿أَلَآ إِنَّ عَادٗا كَفَرُواْ رَبَّهُمۡۗ أَلَا بُعۡدٗا لِّعَادٖ قَوۡمِ هُودٖ﴾، كرَّر النَّظم الكريم أداة التَّنبيه؛ تنبيهًا على عظم الأمر، وفداحة الخطب، وهذه الأداة تقال عند الأمور الجليلة[4]، فلمّا كان

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/220.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/316.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/316.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/317.

تواطؤ القوم على الكفر من عظائم الأمور، وما لحقه من الطَّرد واللَّعن لقوم بعامَّتهم؛ نبَّه على خطورة ذلك، بتكرار أداة التَّنبيه، تأكيدًا للتَّنبيه وتنويهًا بخطورة المضمون، و"تهويلًا لأمرهم، وتفظيعًا له، وبعثًا على الاعتبار بهم والحذر من مثل حالهم"[1].

دلالة الدُّعاء عليهم في ﴿بُعْدًا لِّعَادٍ﴾:

دعاءُ الله على الهالك بالهلاك؛ لمخالفته أمره، والتأكيد على استحقاقه ذلك

قوله جلَّ شأنه: ﴿بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ﴾، دعاءٌ عليهم من الله تعالى بالهلاك، ومجيء الدُّعاء على القوم بعد هلاكهم إشارة إلى أنَّهم كانوا مستحقِّين للهلاك[2]، وذلك للدَّلالة على أنَّهم كانوا على منهج بيِّنِ الضَّلال، يستوجب أن يدعى عليهم، حتَّى بعد أن أُهلِكوا، وفي ذلك يقول الزَّمخشريُّ: "فإن قلت: بُعْدًا دعاء بالهلاك، فما معنى الدُّعاء به عليهم بعد هلاكهم؟ قلت: معناه الدَّلالة على أنَّهم كانوا مستأهلين له"[3]. وفيه سؤالان: كيف يدعو الله تعالى؟ ومن سيستجيب إذا كان الله هو الدّاعي؟ وذلك لبيان أنَّهم يُدعى عليهم لمخالفتهم الله تعالى، والآخر كيف يدعو عليهم مع كونهم هالكين؟ وذلك لبيان أنَّهم هلكوا استحقاقًا، وليس ظلمًا.

معنى اللّام في ﴿بُعْدًا لِّعَادٍ﴾:

الدعاء بالبعد استحقاق متعين للظالم الهالك

أدخل النَّظم الكريم اللّام على (عادٍ)، في قوله جلَّ شأنه: ﴿بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ﴾، للدَّلالة على أنَّهم كانوا مستوجبين لما نزل بهم من الإبعادِ عن رحمة الله تعالى وثوابه، إلى ناره وعقابه، وأنَّه وقع عليهم على وجه الاستحقاق والتخصيص، وفيه مزيد بيان؛ فكأنَّه قيل: لِمن هذا البُعد؟ فقيل: لعادٍ[4].

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/171.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/317.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/405.
(4) إسماعيل حقّي، روح البيان: 4/152.

علَّة تكرار (عاد) في الآية:

كرَّر النَّظم الجليل لفظ (عاد) في قوله جلَّ شأنه: ﴿أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُواْ رَبَّهُمۡۗ أَلَا بُعۡدًا لِّعَادٖ قَوۡمِ هُودٖ﴾؛ للمبالغة في تشنيع ما آلوا إليه، من صَغار ودَمار، فأعاد اللَّفظَ ذاته للمبالغة في تفظيع حالِهم، كما أنَّ فيه حثًّا على الاعتبار بقصَّتهم[1].

العاقل من اعتبر بغيره، والأحمق من كان هو ذاته عبرة لغيره

دلالة عطف البيان في ختام الآية:

قوله جلَّ شأنه: ﴿أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُواْ رَبَّهُمۡۗ أَلَا بُعۡدًا لِّعَادٖ قَوۡمِ هُودٖ﴾، كرَّر النَّظم الجليل خلاله ذكر (عادٍ)، لسببين: أوَّلهما لبيان أنَّها الأولى القديمة التي هي قوم هود، لا عاد إرم، والآخر: لبيان أنَّ الدُّعاءَ عليهم إنَّما كان بسبب صراعهم مع هود، ولهذا خصَّه بالذِّكر، فقوله تعالى: ﴿قَوۡمِ هُودٖ﴾ بيان لعاد، وفائدة ذكره الإيماءُ إلى أنَّ له أثرًا في الذَّمِّ بإعراضهم عن طاعة رسولهم، فيكونُ تعريضًا بالمشركين من العرب، وليس ذكره للاحتراز عن عادٍ أخرى، وهم إرمُ - كما جوَّزه صاحبُ الكشاف[2] - لأنَّه لا يُعرف في العرب عادٌ غير قوم هود، وهم إرم، قال تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ٦ إِرَمَ ذَاتِ ٱلۡعِمَادِ ٧﴾ [الفجر: 6 - 7].

تكرارُ الاسم، يزيد البيان إيضاحًا، ويفصح عن المقصود بالإخبار

ويحتملُ أنَّ (قوم هود) وصف لـ (عاد) باعتبار ما في لفظ قوم من معنى الوصفيَّة[3]؛ لأنَّهما عادان: الأولى والآخرة، وفيه إيماء إلى أنَّ استحقاقهم للإبعاد، كان بسبب ما جرى له عليه السلام معهم من الإنكار[4]، كما أنَّ فيه زيادة في التَّأكيد، للمبالغة في التَّنصيص، أو فيتحقَّق أنَّ الدُّعاء على عاد الذين هم قوم هود هذه، فلا تلتبس بغيرها[5].

---

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/220.

(2) الزمخشري، الكشاف: 2/406. وهو قول حكاه الزمخشري، تبع فيه الثعلبيَّ في كتابه عرائس المجالس، وضعَّفه الطيبي في حاشيته على الكشاف. ينظر: الطيبي، فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب: 8/117.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/107.

(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/317، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/107.

(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/171.

التَّشابه اللَّفظيُّ بين آيتي هود (60)، و(99):

الإتيانُ بالصِّفة والموصوف على الأصل، والاكتفاء في الثّانيَةِ بالصِّفة عن الموصوف

ورد التَّشابهُ بين قوله تعالى: ﴿وَأُتۡبِعُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا لَعۡنَةٗ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ أَلَآ إِنَّ عَادٗا كَفَرُواْ رَبَّهُمۡۗ أَلَا بُعۡدٗا لِّعَادٖ قَوۡمِ هُودٖ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَأُتۡبِعُواْ فِي هَٰذِهِۦ لَعۡنَةٗ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ بِئۡسَ ٱلرِّفۡدُ ٱلۡمَرۡفُودُ ٩٩﴾ [هود: 99]، فقال في الأولى: ﴿فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا﴾، وفي الثّانية: ﴿فِي هَٰذِهِ﴾ من غير ذكر الدُّنيا، فللسّائل "أن يسأل عن حذف (الدُّنيا) من الآية الثّانية وإثباتها في الأولى؟ وهل كان يجوز في الاختيار عكس ذلك؟ والجواب: أنَّ الأولى أتى فيها بالموصوف والصِّفة جميعًا، وهو الأصل الأوَّل، ثمَّ الاكتفاء بالصِّفة عن الموصوف بعده لقيام الدّلالة على الموصوف، فيجوز لذلك حذفه، وإقامة الصِّفة مقامه، ولمّا جاءت الآيتان في سورة واحدة وُفّيت الأولى ما هو بها أولى من الإجراء على الأصل، والإتيان بالموصوف والوصف، فقال تعالى: ﴿فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا﴾، واكتفى في الثّانية لمّا قامت الدِّلالة على الموصوف بالصِّفة وحدها، فقال: ﴿وَأُتۡبِعُواْ فِي هَٰذِهِۦ لَعۡنَةٗ﴾"[1]. فحذف الدُّنيا من الموضع الثّاني لكونهما في سورة واحدة؛ اكتفاءً بما في الموضع الأوَّل[2]، ولذا فإنَّ قوله تعالى في موضع آخر: ﴿وَأَتۡبَعۡنَٰهُمۡ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا لَعۡنَةٗۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلۡمَقۡبُوحِينَ ٤٢﴾ [القصص: 42]، جاء على الأصل، لكونه واردًا في سورة أخرى، ولم يسبق ما يمكن أن يعتمد بالإحالة عليه.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

(اللَّعن) و(السَّب):

اللَّعنة طرد من الخير بغضب، والسَّبُّ هو الشَّتمُ المسيءُ باللَّفظ لغيرك

اللَّعنة من (لَعَنَ)، وأصلها يَدُلُّ عَلَى إبْعادٍ وإطْرادٍ، ولَعَنَ اللّه الشَّيْطانَ: أبْعَدَهُ عَنِ الخَيْرِ والجَنَّةِ[3]. ويكون الطَّرد والإبعاد فيها على سبيل السُّخط، وذلك من اللّه تعالى في الآخرة عقوبة، وفي

(1) الإسكافيّ، درّة التّنزيل: 2/759.
(2) زكريا الأنصاريّ، فتح الرّحمن بكشف ما يلتبس في القرآن: 1/268.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (لعن).

الدُّنيا انقطاع من قبول رحمته وتوفيقه، ومن الإنسان دعاء على غيره، قال تعالى: ﴿أَلَا لَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ١٨﴾ [هود: 18][1]. فلعنة النّاس بينهم هي دعاء أمّا السَّبُّ؛ فأصْلُه القَطْعُ، ثُمَّ اشْتُقَّ منْهُ الشَّتْمُ، ومنْه السَّبُّ: الخِمارُ؛ لِأنَّهُ مَقْطوعٌ منْ منْسَجِهِ، والسَّبُّ: الشَّتْمُ، ولا قَطيعَةَ أقْطَعُ منَ الشَّتْم[2]. وهو: الشَّتم الوجيع، قال: ﴿وَلَا تَسُبُّواْ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّواْ ٱللَّهَ عَدۡوَۢا بِغَيۡرِ عِلۡمٖۗ﴾ [الأنعام: 108][3]، والشَّتم: ذكر مساوئ الإنسان على وجه الازدراء مواجهة[4])، وقال المناويُّ: الشَّتمُ: وصفُ الآخرِ بما فيه نقصٌ وإزراء[5]، والسَّبُّ هو الإطناب في الشَّتم والإطالة فيهِ، واشتقاقه من السَّبِّ، وهي الشُّقة الطَّويلة، ويقال لَها: سبيبٌ أيْضًا[6]، والفرق بين السَّبِّ واللَّعن: أنَّ اللَّعن هو الدُّعاء على الرَّجل بالبُعدِ، وأمّا الشَّتمُ والسَّبُّ؛ فهو تقبيحُ الإنسان وتعييبُه وإزراؤُه، غير أنَّ اللَّعن أبلغُ في القُبح من السَّبِّ المطلق[7]، والمراد في الآية طردهم عن ساحة الخير، وإبعادهم سخطًا عليهم، فكان التَّعبير باللَّعن لا بالسَّبِّ.

(1) الرّاغب، المفردات: (لعن).
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (سبّ).
(3) الرّاغب، المفردات: (سبب).
(4) الجرجانيّ، التعريفات، ص: 163.
(5) المناويّ، التّوقيف على مهمّات التّعاريف، ص: 202.
(6) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 52.
(7) العسكريّ، الفروق اللغويّة،: 1/52، والعزّ بن عبد السّلام، قواعد الأحكام: 1/23، وعلويّ بن عبدالقادر السّقّاف، موقع موسوعة الدّرر السّنيّة على الشّابكة.

﴿۞وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًاۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ٦١﴾ [هود: 61]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

التوارد التاريخي والمكاني بين قصَّة هود وقصَّة صالحٍ عليهما السلام

بعد أن وفّى النَّظمُ الجليل قصَّة عاد قوم هود عليه السلام، وتكاملت فصولٌ من روايتها في هذه السورة، "أتبعها قصَّة مَن كانوا عقبَهم في الزَّمن، ومثلهم في سكنى أرض العرب، وعبادة الأوثان، والمناسبة في الأمر المعذَّب به؛ لأنَّ الموصِل للصَّيحة إلى الأسماع هو الرّيح"[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَنشَأَكُم﴾: أصل (نشأ) يَدُلُّ على ارْتِفاعٍ في شَيْءٍ وسُموٍّ، ونَشَأ السَّحابُ: ارْتَفَعَ، وأَنْشأَهُ اللّه: رَفَعَهُ، ومنْهُ: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ﴾ [المزّمل: 6]، أي: العبادة التي تنشأ في جوف الليل، ومن هذا الأصل عُبِّر بها عن بدْءِ الشَّيء لأوَّل أمره من عَدَمٍ، كما قالوا: أنشأ دارًا: بناها، أو من أثناء كانت موجودة، ولكن لم يكن له وجود مُتعَيّن فيها ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ [هود: 61]، ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ [الأنعام: 98][2]. والمقصود بالإنشاء في الآية: الخَلْقُ، والإيجاد منْ عَدَمٍ.

2) ﴿وَٱسْتَعْمَرَكُمْ﴾: أصلُ (عمر): يَدُلُّ عَلَى بَقاءٍ وامْتِدادِ زَمانٍ، ومنه: العُمْرُ وهو الحَياةُ، وهو العَمْرُ أيضًا، ويُقالُ: عَمرَ النّاسُ: طالَتْ أعْمارُهُم، وعَمَّرَهُمُ اللّه - جَلَّ ثَناؤُهُ - تَعْميرًا، ومنَ البابِ عِمارَةُ الأرْضِ[3]، يُقالُ: وعَمَرَ النّاس الأرض يَعْمُرونَها عِمارةً، وهي

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/317 - 318.
(2) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (نشأ).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عمر).

عامرةٌ مَعمورةٌ، ومنها العُمْران، واستَعمرَ اللّه النّاسَ ليَعْمُروها[1]، والمقصودُ بالاستِعمار في الآيةِ: الإعْمارُ، أي: جعلكُمْ عامريها، فالسّينُ والتّاءُ للمُبالَغَةِ.

3) ﴿فَٱسْتَغْفِرُوهُ﴾: الغَفْرُ في الأصْلِ: التَّغْطيَةُ والسَّتْرُ، ويُرادُ بِه التَّجاوُزُ عَنِ الذَّنْبِ وعَدَمُ المُؤاخَذَةِ بِهِ، يُقالُ: غَفَرَ اللّه ذَنْبَهُ غَفْرًا ومَغْفِرَةً وغُفْرانًا، أي: سَتَرَها وتَجاوزَ عنْها[2]. والغُفْرةُ: ما يُغطَّى بِهِ الشَّيءُ[3]، والاسْتِغْفارُ: طَلَبُ ذلك بالمقال والفِعال، والغُفْرانُ والمَغْفِرَةُ منَ اللّه هو أن يَصون العَبدَ من أن يمسَّه العذاب[4]. والمراد من الاستِغْفار في الآية: طَلَب الغَفْرِ، أيِ: السِّتْر لِلذُّنوبِ والتَّجاوز عنها.

4) ﴿قَرِيبٌ﴾: أصلُ (قرب): يَدُلُّ عَلَى خِلافِ البُعْدِ، يقال: قَرُبْتُ منه أقْرُبُ، وقَرَّبْتُهُ أُقَرِّبُهُ قُرْبًا وقُرْبانًا، ويُستعمل ذلك في المكان، نحو: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾ [البقرة: 35]. وفي الزَّمان، نحو: ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾ [الأنبياء: 1]. وفي النِّسبة، نحو: ﴿وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُوْلُواْ ٱلْقُرْبَىٰ﴾ [النّساء: 8]. وفي الحظوة، نحو: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ ۝٢٨﴾ [المطّففين: 28]. وفي الرِّعاية، نحو: ﴿فَإِنِّي قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ﴾ [البقرة: 186]، وفي القُدرَة، نحو: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ۝١٦﴾ [ق: 16][5]. والمقصودُ بالقُرْبِ في الآيةِ: قربُ اللّه العامُّ من كلِّ أحد بعلمه، ومراقبته، ومشاهدته له، وقربُ اللّه الخاصُّ من عابديه وسائليه ومجيبيه، وهو قربٌ يقتضي المحبَّةَ، والنُّصرةَ، والتأييدَ، والإجابةَ، والقبولَ، والإثابةَ والإحاطةَ والرِّعايةَ والرَّأفَةَ والإكْرامَ[6].

5) ﴿مُّجِيبٌ﴾: أصْلُ (جوب): قَطْعُ وسَطِ الشَّيْءِ منْ جَوْفِهِ، يُقالُ: جابَ يَجوبُ جَوْبًا، أيْ: قَطَعَ، كَأنَّ المُجيبَ تَجَوَّبَ لِلشَّيءِ، أي: قَطَعَهُ منْ جَوْفِهِ[7]. وأصْلٌ آخَرُ، وهو مُراجَعَةُ الكَلام وردُّهُ، تَقولُ: أجابَهُ إذا أرْجَعَ لَهُ القَوْلَ[8]، والمُجاوبَةُ والتَّجاوُبُ: التَّحاوُرُ، وتأتي

(1) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (عمر).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (غفر).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (غفر).
(4) الرّاغب، المفردات: (غفر).
(5) الرّاغب، المفردات: (غفر).
(6) البيهقي، الأسماء والصفات: 1/111، والشوكاني، فتح القدير: 5/75.
(7) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والزَّبيديُّ، تاج العروس: (جوب).
(8) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن عبّاد، المحيط في اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (جوب).

الإجابَةُ والاسْتِجابَةُ بمعْنَى: القَبولِ وإعطاءِ المَسْؤولِ عنه، والمُجيبُ: مُعْطي السُّؤالِ، وأجابَ اللّه، واسْتَجابَ دُعاءَهُ، أي: قَبِلَهُ[1]، والمقصود بالمُجيب في الآية: الذي يقابل الدعاء والسؤال بالعطاء والقبولِ ﷻ[2].

❁ المَعْنى الإجْمالِيُّ:

دعـوةُ نبي الله صـالـح قـومَـه إلى تـوحـيـد الـلـه وإخـلاص العبادة له

يُخبِرُ اللّه تعالى أنَّه أرسلَ إلى قبيلة ثمودَ أخاهم - في النَّسب - صالحًا، فقال لهم: يا قوم اعبُدوا اللّه وحدَه، ليس لكم من إله يستحِقُّ العبادة غيره ﷻ، فأخلِصوا له العبادة، هو الذي ابتدأ خَلْقَكم من الأرض بخَلق أبيكم آدَمَ منها، وجعلكم تسكنونها وتَعمُرونَها، وتستغِلّون خيراتِها، فاطلُبوا من اللّه سَترَ ذُنوبِكم الماضيةِ، والتَّجاوُزَ عن مؤاخَذتِكم بها، ثمَّ توبوا إلى اللّه توبةً نَصوحًا، فيما تستَقبِلونَه، بالرُّجوعِ إلى عبادتِه وحدَه وطاعتِه؛ إنَّ ربي قريبٌ لِمَن أخلصَ، ورَغِبَ إليه في التَّوبةِ، مُجيبٌ له إذا دعاه[3].

وترشدُ الآية الكريمةُ إلى وحدة الوسيلة والغاية عند كافَّة الرسل عليهم السلام فالوسيلةُ عبادةُ اللّه وحده، والغايةُ رضا اللّه والجنة، وإلى تقديم الاستغفار على التوبة؛ لأنَّ المرءَ لا يقلعُ عن ذنبه حتى يعترفَ به، وإلى أنَّ قربَ اللّه الخاصَّ من عابديه وسائليه ومجيبيه، هو قربٌ يقتضي من اللّه المحبةَ، والنصرةَ، والتأييدَ، والإجابةَ، والقبولَ، والإثابةَ والإحاطةَ والرِّعايةَ والرَّأفَةَ والإكْرامَ لعباده[4].

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (جوب).
(2) البيهقي، الأسماء والصفات: 1/173.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 12/453، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 9/58، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/331، والسعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 384.
(4) البيهقي، الأسماء والصفات: 1/111، والسعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 384، والجزائري، أيسر التفاسير: 2/558.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالة (الواو) على العطف في ﴿وَإِلَىٰ﴾:

الجملة في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا﴾، معطوفة على إرسال نوح وهود عليهما السلام المذكورَيْن سابقًا، والمعنى: أنَّ اللّه تعالى قد أرسل نوحًا، ومن بعدِه أرسل هودًا، وإن لم يتعاقبا، ومن بعدهما أرسل صالحًا عليه السلام إلى قومه ثمود[1].

تتابع إرسال الرسل تصديق من الله لعهده ببيان هَذيه للنّاس

نكتة تعليق ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ﴾:

شِبه الجملة من الجارِّ والمجرور ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ﴾، في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا﴾، متعلِّق بالفعل المعطوف عليه (أرسلنا)، في قوله تعالى في القصَّة الأولى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ﴾ [هود: 25]، والتَّعليق بين شبه الجملة، وبين الفعل المتقدِّم ذِكرُه، مع طول الفاصل بينهما، له أثر بالغ في ربط النَّصِّ كلِّه، فكلُّ قصصه منضويةٌ لغاية واحدة، فهي مترابطة فيما بينها ترابطَ الموضوع الواحد، وهذا يدلُّ على قوَّة السَّبك اللَّفظيِّ في سياق السّورة، وجودة التَّماسك المعنويِّ.

التَّعليق على الفعل مع طول الفاصل، مفيد في ترابط أجزاء النَّص

غرض ذكرِ كلِّ نبيٍّ باسمه:

دأب النَّظم الجليل على ذكر أسماء الأنبياء عليهم السلام في قصصهم، كما في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا﴾، بذكر اسم النبيِّ صالح عليه السلام، الذي ينتهي نسبه إلى نوح عليه السلام، فهو موصول به بنسب ممدود، وبالاشتراك في وصف النُّبوَّة، وهو مرسل إلى ثمود، وقد سُمّيت باسم جدِّها ثمود، وقيل: سمّيت بذلك لقلَّة مائها؛ لأنَّ الثَّمد هو الماء القليل[2]. والغرضُ من ذكر كلِّ نبيٍّ باسمه بيانُ أنَّ تجربة كلِّ نبيٍّ تختلف عن سابقتها، وأنَّ حيثيّات الأحداث تلتقي في

مضمون الرِّسالة واحد، بالرغم من اختلاف حيثيّات كلِّ قصَّة عن الأخرى

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3723.
(2) طنطاويّ، التّفسير الوسيط للقرآن الكريم: 7/232.

الكلّيّات، وتختلف في الجزئيّات، كما قال رَسولُ الله ﷺ: «الأَنْبياءُ أَبْناءُ عَلّات»[1]، أي: إنَّ الأنبياءَ مثلُ أولادِ عَلّاتٍ، وهمُ الإخوةُ لِأبٍ واحدٍ من أُمَّهاتٍ مُختلفةٍ، لأنَّهم مُتَّفِقون فيما يَتعلَّقُ بالاعتقاديّاتِ المُسمّاةِ بأُصولِ الدّياناتِ، كالتَّوحيدِ، والإيمانِ، مُختلِفون فيما يَتعلَّقُ بالعمَليّاتِ، وهي الفِقهيّاتُ، كما أنَّ أولادَ العَلّاتِ أبوهمْ واحدٌ وإنْ كانت أُمَّهاتُهم شَتَّى.

علَّة استعمال لفظ ﴿أَخَاهُمْ﴾:

اللُّطف بالمدعوّين بإرسال رجلٍ من أصلهم وفرعهم

قوله جلَّ شأنه: ﴿۞وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا﴾، آثر النَّظم الكريم التَّعبيرَ بلفظ الأخوَّة؛ لما في ذلك من تحريك العاطفة، وتحفيز المشاعر لقبول الحقِّ، والتَّفاعل معه، فكونه أخاهم في القبيلة والنَّسب أدعى لقبول الدَّعوة، فإنَّ الإنسان مجبول لنصح قومه، وابتغاء الخير لهم، فجعل المرسَل منهم، وأخًا لهم، إنَّما هو دليل على الرَّحمة بهم، وعلى أخذ أسباب التَّأثير، ومظانِّ الاستجابة.

دلالة فصل جملة القول عمّا قبلها:

الإخبار بالإرسال، يقتضي الاستئناف والابتداء بما قاله المرسَل

الجملة في قوله جل شأنه: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ استئنافيَّة، فبعد أن أخبر بإرسال صالح عليه السلام إليهم، كان ذلك مظِنَّةً لأن يسأل سائل، ويقول: ماذا قال لهم؟ فأجيب بأنَّه: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ﴾[2]. فالجملة جاءت مفصولة بلا عاطف؛ لأنَّ العاطف ينتظم الجمل، حتّى يصيِّرها كالجملة الواحدة، فاجتنب العاطف لإرادة استقلال كلٍّ واحدة منها في معناها ودلالتها.

نكتة النِّداء في قوله: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ﴾:

الخطاب بالنِّداء استجلاب للانتباه إلى مضمون الخطاب

ذكر النَّظم الكريم أنَّ صالحًا عليه السلام، شرع بخطاب قومه، في قوله جلَّ شأنه: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ﴾، بأسلوب النِّداء؛ تنبيهًا

(1) مسلم، صحيح مسلم، الحديث رقم: (2365).
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/220.

لهم وحثًّا لهم على الاستماع الواعي لما يقول؛ فإنَّ تصدير الخطاب بالنِّداء يدلُّ على الاهتمام بمضمون الخطاب، وأنَّه يجدر أن يستمع له بانتباه ويقظة لأهميَّته وخطورته، فافتتاح "دعوته بنداء قومه لاسترعاء أسماعهم، إشارة إلى أهميَّة ما سيلقي إليهم"[1].

سرُّ الإضافة في ﴿يَٰقَوۡمِ﴾:

تلطُّف الدّاعي ومودَّته، دليل على الإخلاص في النُّصح

أضاف النَّظم الجليل حكايةً عن صالح عليه السلام، لفظ القوم إلى نفسه، في قوله جلَّ شأنه: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾؛ لما في ذلك من تلطُّف بهم، أي: "يا مَن يعزُّ عليَّ أن يحصل لهم سوء"[2]، إظهارًا للودِّ والتَّعاطف، والخطاب بعنوان القوميَّة للذين يجمعهم عِرْقٌ وثقافةٌ ومكانٌ واحدٌ أدعى لاجتماع قلوبهم على ما يقال لهم.

دلالة الشُّمول في لفظ ﴿يَٰقَوۡمِ﴾:

التَّوحيد والعبادة واجبتان على كلِّ أفراد المجتمع

دأب النَّظم الجليل في حكاية دعوة الأنبياء لقومهم بكونهم يخاطبونهم بلفظ (القوم)، كما في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمۡ صَٰلِحٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾، وهو نداء وإن كان للرِّجال، فإنَّه يتضمَّن الدَّعوة للنِّساء بالتَّبع والغلَبة، كما قال الله عن بِلْقيس بأنَّها كانت كافرةً، ونشأت بين قوم كافرين، واستمرَّت على دينهم في قوله تعالى: ﴿إِنَّهَا كَانَتۡ مِن قَوۡمٖ كَٰفِرِينَ ٤٣﴾ [النمل: 43]، ولأنَّ دعوة المبلِّغ عن الله، إنَّما هي للمجتمع برُمَّته.

معنى الأمر في ﴿ٱعۡبُدُواْ﴾:

دعوة الأنبياء قومَهم للعبادة، أمانةٌ منوطة بهم لتحقيق البلاغ

جاء فعل الأمر في قوله جلَّ شأنه: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾؛ للدَّلالة على إيجاب العبادة لله تعالى على وجه الانفراد، وهم وإن لم يؤمنوا به، فإنَّهم قد بلغهم التَّبليغ، فلمّا لم يقبلوه، وأعرضوا عنه، ونزل بهم العذاب، دلَّ ذلك على أنَّ دعوته كانت واجبة، وإن لم

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/94.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/318.

يعترفوا بكونه نبيًّا مرسلًا إليهم، فإنَّ اعترافهم لا يشكِّل فارقًا، في كونه مرسلًا من الله تعالى، تجب طاعته وتنفيذ أوامره.

غرضُ إيراد لفظ الجلالة في الآية:

العبادة وسيلة الوصل بالله، وهي علَّة الخلق، ومأمور الرَّبِّ

حكى النَّظم الكريم عن صالح ﷺ التَّعبيرَ بلفظ الألوهيَّة، في قوله جلَّ شأنه: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾، دون أن يقول: (اعْبُدوا رَبَّكُمْ)؛ لأنَّ إيراد لفظ الجلالة (الله) لتحديد أنَّ العبادة منحصرة في الله دون سواه، وكذلك إشارة إلى أنَّ شأن العبادة عظيم، لا يليق إلّا بالجليل، أي: اعبدوا الملك الأعظم وحده؛ لأنَّ عبادتكم له مع غيره ليست بشيء[1].

دلالة فصل قوله: ﴿مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ﴾:

علَّة الأمر بالعبادة انحصار الإلهيَّة في الله تعالى

الجملة في قوله جلَّ شأنه: ﴿مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ﴾، جملة استئنافيَّة، للاستئناف التَّعليليِّ، جاءت لنفي وجود إله آخر يستحقُّ العبادة غير الله، فلمّا أمرهم بقوله: ﴿يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾؛ بيَّن أن لا إله غير الله، فهي تقرير واقع، لا مناص منه، فلا معبود إلّا هو، وكلُّ ما يدَّعيه أهلُ الأباطيل، هو من الفساد والتَّضليل.

براعةُ التَّعبير بـ ﴿مِّنۡ﴾ في ﴿مِّنۡ إِلَٰهٍ﴾:

لا ألوهيَّةَ لإله غير الله الحقِّ، وألوهيَّتُه على جهة الاستغراق

أدخل النَّظم المعجِزُ حرفَ الجرِّ الزّائد ﴿مِّنۡ﴾ في قوله جلَّ شأنه: ﴿مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ﴾؛ للدَّلالة على الاستغراق في النَّفي، "أيْ: ما لكم أيُّ إلهٍ غيره، فكلمة ﴿مِّنۡ﴾ لاستغراق النَّفي وشموله؛ لأنَّ الألوهيَّة تقتضي الانفراد بالخلق والتَّدبير، وأن يكون المعبود واحدًا في ذاته وصفاته، ليس كمثله شيء، وقد كانوا يعرفون ذلك، فكيف يكون غيره؟"[2].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/318.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3716.

فائدة جملة ﴿هُوَ أَنشَأَكُم﴾:

الجملة في قوله جلَّ شأنه: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾، جملة واقعة موقع التَّعليل للأمر بعبادة الله، في دعوة صالح عليه السلام قومَه أن يعبدوا الله وحده، "ونفى إلهيَّة غيره، وكأنَّهم كانوا مثل مشركي قريش، لا يدعون لأصنامهم خلقًا ولا رزقًا؛ فلذلك كانت الحجَّة عليهم ناهضة واضحة"[1]، فكفرهم لم يكن بكونه ربَّهم، بل باستحقاق العبادة وحده، فكانوا مشركين لا نافين وجود الخالق بالإجمال.

بدء الخلق علَّة استحقاق العبادة على وجه الانفراد

دلالة الضَّمير المنفصل ﴿هُوَ﴾:

قوله: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾، عبَّر النَّظم الجليل عن الله تعالى بالضَّمير ﴿هُوَ﴾، في قوله جلَّ شأنه: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾، وأسند إليه فعل الإنشاء والاستعمار، على سبيل الإخبار الابتدائيِّ، فلم يقل: (إنَّه هو الَّذي أنشأكم)؛ لأنَّه لا أحد ينكر ولا ينازع، في كون الله تعالى هو الموجِدُ، فالإيجاد من عدم، هو خصوصيَّة للإله الخالق، لا يدَّعيه أحد من الخلائق.

تعريف المعرَّف بصفات فاصلة، لا يشترك معه فيها أحد

علَّة التَّذكير بـ ﴿أَنشَأَكُم﴾:

يشير النَّظم في قوله جلَّ شأنه: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾، إلى تعلُّق قوم ثمود بالأرض عمارةً وزراعة وإنشاء للقصور والمزارع، وقد ذكر عنهم المولى أنَّهم قَطعوا الصَّخرَ بالوادي واتخذوا منه بيوتًا، بقوله: ﴿وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُواْ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ۝٩﴾ [الفجر: 9]، فكانت لهم منافع من الأرض تناسب ذكر نعمة إنشائهم منها[2].

التَّذكير بالنِّعمة التي هي مظهر الإنعام، من أبلغ البيان للأنام

سرُّ إيثار التَّعبير بلفظ ﴿أَنشَأَكُم﴾:

آثر النَّظم الجليل في قوله جلَّ شأنه: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ التَّعبيرَ بلفظ الإنشاء دون غيره من مرادفاته، كالخلق والجعل

البادئ بالخلق أوَّل مرَّة، هو المستحقُّ للعبادة والمبرَّة

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/107.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/108.

وغيرها؛ للدَّلالة على الإنشاء ابتداء من غير واسطة شيء، استدلالًا على استحقاق العبادة، فمن كان له التَّفضل بالوجود، فهو المعبود؛ لأنَّ معنى الإنشاء هو: الابتداء بالإيجاد من غير استعانة بشيء من الأسباب، "﴿أَنشَأَكُم﴾ أي: ابتدأ خلقكم ﴿مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ بخلق آدم عليه السلام منها بغير واسطة، وبخلقكم من المنيِّ من الدَّم، وهو من الغذاء، وهو من النَّبات، وهو من الأرض"[1]، "والوجود من العدم قسمان: قسم أوجدته باستعانة بموجود، وقسم أوجدته من عدم محض، وهذا الأخير هو الإنشاء، ولا يقدر عليه إلّا اللّه سبحانه وتعالى"، لذلك فلا أحد ينازع اللّه في الإنشاء، مهما كانت قوَّته وجبروته، وقد قال تعالى: ﴿۞مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ۝٥١﴾ [الكهف: 51][2].

دلالةُ عطف الجمل في الآية:

الإنعام بالاستعمار في الأرض، مناسب للإخبار بالإنشاء منها

الجملة في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾، معطوفة على الجملة في قوله تعالى: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾، استكمالًا للاستدلال على مطلق الإفضال، وبيان المزيد من العلل الموجبة للأمر بعبادته وحده، "فكانت لهم منافع من الأرض تناسب نعمةَ إنشائهم من الأرض؛ فلأجل منافعهم في الأرض قُيِّدت نعمةُ الخلقِ، بأنَّها من الأرض الَّتي أُنشئوا منها، ولذلك عطف عليه ﴿وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾"[3].

بلاغة قصرِ الإنشاء والاستعمار:

تأكيد مضمون الجملة بنسبة الخلق لله وحده دون سواه

عبَّر النَّظم في قوله جلَّ شأنه: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾، بأسلوب القصر في جعل الخبر عن الضَّمير ﴿هُوَ﴾، جملة فعليَّة، في كلٍّ من الجملتين المعطوفتين، في قوله

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/318.
(2) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 11/6528. بتصرّف.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/108.

تعالى: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾، ولم يجعله جملة اسميَّة، للتَّعبير بقصر الإنشاء من الأرض، واستعمارها بالعمار على اللّه تعالى، دون أحد سواه، أي: لم ينشئكم من الأرض إلّا هو، ولم يستعمرْكم فيها غيره[1]، والقصر هنا قصر صفة على موصوف، فقَصَرَ الإنشاء والاستعمار على اللّه تعالى قصرًا حقيقيًّا؛ لاختصاص اللّه تعالى بذلك، وهو قصر إفراد لظنِّهم أنَّ لآلهتهم شراكة في الإنشاء والاستعمار، والمعنى: هو كوَّنكم منها لا غيره، ولم يستعمركم فيها غيره[2].

دلالة التَّعبير بصيغة ﴿وَٱسْتَعْمَرَكُمْ﴾:

عبَّر النَّظم بصيغة الاستفعال، في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾؛ للدَّلالة على التَّكليف، فاللّه تعالى كلَّف عباده أن يَعمُروا الأرض، فهو ﷻ جعلهم يسخِّرون ما في الأرض بما أقدرهم على ذلك[3]، والمعنى: "عمَّركم فيها، واستبقاكم من العُمر، أو أقدركم على عمارتها، وأمركم بها"[4]، كما يحتمل أنَّه يدلُّ على الطَّلب، أي: طلب منكم العُمران، فالسّين والتّاء تدلّان على المبالغة في الفعل المطلوب القيام به.

تكليف اللّه الإنسان بتعمير الأرض، وإقامة المدنيَّة، من أدواره الحيويَّة

علَّة تقديم الإنشاء على الإعمار:

قدَّم النَّظم الجليل في قوله جلَّ شأنه: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾، ذكر الإنشاء من الأرض على ذكر الإعمار فيها؛ لأنَّ الإنشاء أسبق، فكان التَّقديم باعتبار الموجود في الواقع، فلا يكون إعمار بلا إنشاء، وعمليَّة الإنشاء عمليَّة وجود، بينما العُمران هو عمليَّة تكميليَّةٌ وتحسينيَّة لما هو موجود،

الإنشاء أسبق في الوجود من الإعمار، ولا إعمار بلا إنشاء

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/108.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/407، والبيضاويُّ، أنوار التّنزيل: 3/139.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3723.
(4) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/139.

وكلاهما ضروريٌّ لانتظام الكون، واكتمال تأهيله لتأديَة المهامِّ الَّتي من أجلها وجد.

معنى الفاء في قوله: ﴿فَٱسۡتَغۡفِرُوهُ﴾:

سابِقُ الإنعام، يحفِّز للاستغفار والتَّوبة على الدَّوام

افتتح النَّظم قوله جلَّ شأنه: ﴿فَٱسۡتَغۡفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِۚ﴾، بالفاء الاستئنافيَّة الدّالَّة على التَّسبيب، فجعل أصول النِّعم، علَّة للاستغفار والتَّوبة إلى الغفّار، (فإنَّ ما فُصِّل من فنون الإحسانِ داعٍ إلى الاستغفار عمّا وقعَ منهُم من التَّفريطِ، والتَّوبةِ عمّا كانوا يباشرونه من القبائح)[1].

علَّة تقديم الاستغفار على التَّوبة:

البدء بالاستغفار تمهيد للتَّوبة، كتمهيد القول للعمل

قوله جلَّ شأنه: ﴿فَٱسۡتَغۡفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِۚ﴾ قدَّم فيه الاستغفار على التَّوبة؛ لأنَّ الاستغفار يقع بالقول، وهو نوع من الدُّعاء؛ فهو طلبٌ أن تُستَر الذُّنوب وتُمحى، ولا علاقة للاستغفار بالالتزام بعدم العود إلى الذُّنوب، أمّا التَّوبة؛ فهي النَّدمُ، والإقلاع عن الذَّنب، والدَّوام على التَّرك، وعدم العودة، فهي التزام بالإقلاع عن الذُّنوب، وندم وعهد على عدم العود إليها، فالتَّوبة أعلى شأنًا، فبدأ بالأقلِّ رتبة، ثمَّ ترقّى إلى الأعلى؛ ليأتي ترتيب التَّكليف من الأخفِّ على النُّفوس، إلى الأثقل عليها؛ لأنَّ التَّوبة تقتضي الالتزام بترك ما اعتاد عليه، وهي ليست مجرَّد صيغة من الألفاظ لطلب العفو؛ والاستغفار فيه تخليةٌ للنفس من أدران ذنوبها، والتوبة أوبةٌ صادقة مع اللّه في طرق الاستقامة، فهي تحلية بعد سابق تخلية.

معنى العطف بـ ﴿ثُمَّ﴾:

مرتبة التَّوبة أعلى من مرتبة الاستغفار؛ إذ لا معنى لاستغفار بلا توبة

عبَّر في قوله جلَّ شأنه: ﴿فَٱسۡتَغۡفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِۚ﴾ بحرف العطف ﴿ثُمَّ﴾ المفيد للتَّرتيب والتَّراخي، "للدَّلالة على بُعد حالهم في الانتقال من الاستغفار إلى الرُّجوع إلى اللّه تعالى؛ لأنَّ الاستغفار طلب محو

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/221.

الذُّنوب أو سترها، وتلك أوَّل خطوة في ترك الكفر والشِّرك، وتعلوها مرتبة الاتِّصال بالله لقبول التَّوبة"[1]. فعطف التَّوبة بـ ﴿ثُمَّ﴾؛ لأنَّ الاستغفار طلب ودعاء لا يحوجان الإنسان إلى تأمُّل، وأمّا التَّوبة؛ فهي فعل لا يُقدِم عليه الإنسان إلّا بعد تأمُّل وتدبُّر؛ فكان العطف بالحرف ﴿ثُمَّ﴾ أبلغ هنا[2].

دلالة الاستئناف البيانيّ بـ ﴿إِنَّ﴾:

الله تعالى قريبٌ من عباده، يقبل من أتاه، ويجيب من دعاه

الجملة في قوله جلَّ شأنه: ﴿إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾، استئناف بيانيٌّ، سيق كجواب لسؤال نشأ عن الجملة السّابقة: ﴿فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِۚ﴾، كأنَّه قيل: وهل يقبل الله توبتَنا؟ فقال: ﴿إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾ يسمع نداءكم، ويقبل طلبكم؛ لأنَّ الجملة جواب عن استعظامهم غفرانَ ذنوبهم، لبشاعتها وعظمها، فكان الجواب، بفتح نافذة الأمل لهم.

قصدُ التَّعبير بـ ﴿قَرِيبٌ﴾:

قرب المولى مبطِلٌ لزعم المشركين، وحجَّتهم بالشِّرك المهين

آثر النَّظم الكريم في قوله جلَّ شأنه: ﴿إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾، التَّعبير بصفة القرب، للإشارة إلى أنَّه لا حاجة إلى الشُّفعاء من الآلهة المعبودة، لتقرِّبهم إلى الله زلفى، فهو أقرب إليهم منها، فهو "إدناء إلى التَّوبة، وتقريب لها، أي: إنَّ الله تعالى في عليائه، قريب إلى النُّفوس التّائبة، محبٌّ للدُّعاء والرُّجوع إليه، وذلك ردٌّ على أوهامهم الَّتي يقولون فيها: إنَّهم شفعاؤنا عند الله، وقولهم: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزّمر: 3]، فصالح يقول لهم: ﴿إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾، فلا حاجة إلى شفاعة الشّافعين، إن كان يتصوَّر أن يكون في هذه الحجارة شفاعة"[3].

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3723.
(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/361.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3723 - 3724.

نكتة تقديم ﴿قَرِيبٌ﴾ على ﴿مُّجِيبٌ﴾:

قُدِّم القربُ الباعثُ على الإجابة النّاتجة عن القرب

قدَّم النَّظم الجليل في قوله جل شأنه: ﴿فَٱسۡتَغۡفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِۚ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٞ مُّجِيبٞ﴾، القربَ على الإجابة، على نحو قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعۡوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ﴾ [البقرة: 186]، ونكتة ذلك التَّقديم: أنَّه بدأ بذكر العلَّة الباعثة على الاستغفار والتَّوبة، وهي القرب من اللّه تعالى، وهي صفة القرب في قوله: ﴿قَرِيبٌ﴾، وأُخِّرت العلَّة الغائبة، وهي الإجابة في قوله: ﴿مُّجِيبٌ﴾، وهذا من البيان الدَّقيق[1].

نكتة الجمع بين (القَريب)، و(المُجيب):

صفة قربه تعالى متضمِّنةٌ سماعَ الدعاء، وصفة إجابته متضمِّنةٌ حسن العطاء

جمع النَّظم الجليل في قوله جل شأنه: ﴿إِنَّ رَبِّي قَرِيبٞ مُّجِيبٞ﴾، بين القرب والإجابة، وذلك أنَّ مفهوم لفظ ﴿قَرِيبٌ﴾: يدلُّ على أنَّ اللّه يسمعُ استغفاركم، فهو أقرب إلى الإنسان من حبل الوريد: ﴿إِنَّهُۥ سَمِيعٞ قَرِيبٞ ٥٠﴾ [سبأ: 50]، ومفهوم لفظ ﴿مُّجِيبٌ﴾: أنَّه يلبّي لكم طلباتكم، ويقابل الدعاء والسؤال، بالعطاء والقبول، ولا فائدة من القرب ولا الاستغفار، ما لم تكن إجابة من الغفّار، قال تعالى: ﴿وَٱدۡعُوهُ خَوۡفٗا وَطَمَعًاۚ إِنَّ رَحۡمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ مِّنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٥٦﴾ [الأعراف: 56].

مراعاة الفواصل في آخر الآية الكريمة:

التزام مراعاة وحدة الفواصل ينبِّه على مضمون الخطاب وتناسقه وانسجامه

راعى النَّظم الجليل في آخر الآية، في قوله جلَّ شأنه: ﴿إِنَّ رَبِّي قَرِيبٞ مُّجِيبٞ﴾، أن تأتي الفاصلة متوافقة متلائمة، مع فاصلة الآية الموالية لها، والَّتي تنتهي بقوله جلَّ شأنه: ﴿وَإِنَّنَا لَفِي شَكّٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ مُرِيبٖ﴾، فتتلاءم البنية الصَّوتيَّة بينهما: ﴿مُّجِيبٌ﴾... ﴿مُرِيبٍ﴾، وهكذا دواليك في كلِّ الفواصل المتماثلة، وهذا يلقي على السَّمع الوتيرة الصَّوتية المنسجمة الَّتي تحدث الانتباه، وتستجلب السَّمع لمضمون الكلام، فالصَّوت المتناغم ليس عنصرًا شكليًّا، ولا ترفيًّا.

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/221.

التَّشابه اللَّفظيُّ بين آيتي هود (61) و(90):

تشابهت الآيتان في المطلع، واختلفتا في الختام، وفق مضمون القصَّتين

ورد التَّشابهُ بين قوله تعالى: ﴿فَٱسۡتَغۡفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِۚ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٞ مُّجِيبٞ﴾، وقولِه تعالى: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِۚ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٞ وَدُودٞ ٩٠﴾ [هود: 90]. فما وجه الاختلاف في ذكر الوصف في رأس الفاصلة بكلٍّ من: ﴿قَرِيبٞ مُّجِيبٞ﴾، و﴿رَحِيمٞ وَدُودٞ ٩٠﴾؟ ذُكرَ في تعليل ذلك أنَّه لموافقة الفواصل والحرف الأخير في الآية في السّياقين[1]، ويضاف إلى ذلك أنَّ في سياق الآية في قصَّة صالح عليه السلام، جاء ذكر القرب والإجابة بعد ذكر الاستغفار، في صدر الدَّعوة: ﴿۞وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمۡ صَٰلِحٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ وَٱسۡتَعۡمَرَكُمۡ فِيهَا فَٱسۡتَغۡفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِۚ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٞ مُّجِيبٞ﴾، فكان تعليلًا للاستغفار والتَّوبة وحسب، أمّا السّياق في قصَّة شعيب عليه السلام؛ فهو مختلف، فإنَّ عبارة ﴿وَٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِۚ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٞ وَدُودٞ ٩٠﴾ [هود: 90]، قد جاء بعد عرض طويل للدَّعوة والتَّرغيب والمجادلة: ﴿۞وَإِلَىٰ مَدۡيَنَ أَخَاهُمۡ شُعَيۡبٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ وَلَا تَنقُصُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَۖ إِنِّيٓ أَرَىٰكُم بِخَيۡرٖ وَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ مُّحِيطٖ ٨٤﴾ ... ﴿وَٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِۚ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٞ وَدُودٞ ٩٠﴾ [هود: 84 - 90]، فكان ذكر صفةِ الرحمة الواسعة، وصفةِ الودِّ بعد ذكر العديد من الحجج والبراهين؛ لأنَّ تلك الحجج والإطناب في الدَّعوة، مسبَّب عن رحمة الله تعالى ومحبَّته لعباده.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

التَّوبة: إقلاع عن الذُّنوب وندم عليها، والاستغفار: طلب محوها

(الاستغفار) و(التَّوبة):

اسْتَغْفَر اللّه ذنبَه: طَلَبَ منْهُ غَفْرَه[2]، فالاستغفار طلب المغفرة.

(1) الكرمانيّ، البرهان في توجيه متشابه القرآن، ص: 146.
(2) ابن منظور، اللّسان: (غفر).

أمّا التَّوْبةُ: فهي الرُّجوعُ منَ الذَّنْبِ[1]. وهي في الشَّرع: ترك الذَّنْب لقبحه، والنَّدم على ما فَرَطَ منه، والعزيمة على ترك المعاودة، وتدارك ما أمكنه أن يتدارك من الأعمال بالإعادة، فمتى اجتمعت هذه الأربع؛ فقد كملت شرائط التَّوبة[2]. فالاستغفار نوع من الدُّعاء؛ فهو طلب المغفرة، ويقال: استغفر اللّه لذنبه ومن ذنبه، بمعنى، غفر له ذنبه مغفرة وغفرًا وغفرانًا؛ واغتفر ذنبه مثله، فهو غفور[3]، واستغفره من ذنبه، ولذنبه، واستغفره إيّاه، على حذف الحرف: طلب منه غفره قولًا وفعلًا[4]، أمّا التَّوبة؛ فهي الإقلاع والدَّوام على التَّرك، وعدم العودة، وقال أبو منصور: أصل (تاب): عاد إلى اللّه، ورجع، وأناب (وتاب اللّه عليه)، أي: عاد بالمغفرة، أو وفَّقه للتَّوبة، أو رجع به من التَّشديد إلى التَّخفيف، أو رجع عليه بفضله وقبوله، وكلُّها معانٍ صحيحةٌ واردة، وهو - أي: اللّه تعالى - (توّاب)، يتوب على عباده بفضله؛ إذا تاب إليه من ذنبه[5]. والفعل (تاب) بمعنى: وفَّق إلى التَّوبة، يتعدّى بـ (على)، كما في قوله تعالى: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْۚ﴾ [التّوبة/102]، أمّا بمعنى (أقلع عن الذَّنب)؛ فيتعدّى بـ (عن)، و (من)، فنقول: (تاب عن الذَّنب)، و(تاب من الذَّنب)، ولكن أجاز اللُّغويون نيابة حروف الجرِّ بعضها عن بعض[6]، والتَّوبة شرعًا: النَّدم على ما مضى من الذَّنب، والإقلاع في الحال، والعزم على ألّا يعود في المستقبل، تعظيمًا للّه تعالى، وحذرًا من أليم عقابه وسخطه[7]، وعليه فالتَّوبة أعلى شأنًا، فلذا قدَّم ذكر الاستغفار في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَيَٰقَوۡمِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ﴾، فبدأ بالأقلِّ كُلفةً وجهدًا؛ لأنَّ التَّوبة تقتضي الإقلاع عن الفعل والتَّغيير في السُّلوك، فهي ليست كالاستغفار الواقع بصيغة لفظيَّة لطلب العفو.

(1) الجوهريّ، الصّحاح: (توب).
(2) الرّاغب، المفردات: (توب).
(3) الجوهريّ، الصّحاح: (غفر).
(4) الزَّبيديّ، تاج العروس: (توب).
(5) الزَّبيديّ، تاج العروس: (توب).
(6) أحمد مختار عمر، معجم الصّواب اللّغويّ: (توب).
(7) سعدي أبو حبيب، القاموس الفقهيّ لغة واصطلاحًا: (تاب - توبًا).

﴿قَالُواْ يَٰصَٰلِحُ قَدۡ كُنتَ فِينَا مَرۡجُوّٗا قَبۡلَ هَٰذَآۖ أَتَنۡهَىٰنَآ أَن نَّعۡبُدَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكّٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ مُرِيبٖ ٦٢﴾

[هود: 62]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

بعد عرض سياق دعوة صالح لقومه، يسرد ما ردَّ به القوم على نبيِّهم

بعد أن حكى النَّظم دعوة صالح عليه السلام لهم، ذكر ما ردّوا به عليه[1]، فلمّا "دعاهم إلى الحقِّ، ونصب لهم عليه من الأدلَّة ما هم به معترفون، وذكَّرهم نِعَمَه مومئًا إلى التَّحذير من نِقَمه، وسهَّل لهم طريق الوصول إليه، ما كان جوابهم إلّا أن سلخوه من طور البشريَّة لمحض التَّقليد، فلذلك استأنف الإخبار عن جوابهم بقوله: ﴿قَالُواْ﴾"[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مَرۡجُوّٗا﴾: أصْلُ (رجا): يَدُلُّ على الأمل، يقال: رجا حُصولَ الشَّيْءِ، يرجو رجاءً ورَجاوةً، أيْ: أمَّلَ وُقوعَهُ، وضِدُّه: اليَأْسُ والقُنوطُ[3]. ويأْتي الرَّجاءُ بِمعنى الطَّمَعِ في الشَّيءِ، فيقال: رجا الخَيْرَ، أي: طَمعَ فيهِ[4]، والمقصود بالرَّجاء في الآية: تَرَقُّبُ الانْتِفاعِ بِما تقدَّمَ له سبب ما، أي: إنَّه ترقُّبٌ للخير[5].

2) ﴿أَتَنۡهَىٰنَآ﴾: أصْلُ (نهي): يَدُلُّ على غاية وبلوغ، ومنه أنهَيتُ إليه الخَبَرَ: بَلَّغْتُهُ إيّاهُ، ونهايةُ كُلِّ شَيءٍ: غايَتُهُ، ومنه نَهَيْتُهُ عنه، وذلك لأمرٍ يفعلُهُ، فإذا نَهَيْتَهُ، فانتهى عنكَ، فتلك غايَةُ ما كانَ وآخِرُهُ[6]. والإنْهاءُ: الإيصالُ والإبلاغُ[7]، والنِّهايَة: غايَةُ كُلِّ شَيءٍ

(1) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 12/54.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/319.
(3) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (رجا - رجو).
(4) ابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس: (رجو).
(5) الزّبيديّ، تاج العروس: (رجو)، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/110.
(6) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (نهي).
(7) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة: (نهي).

وآخِرُهُ[1]، والنَّهي: الكَفُّ عَنِ الشَّيءِ والمَنْعُ منه، تَقولُ: نَهاهُ؛ إذا كَفَّهُ، ومَنَعَهُ عَنْ شَيءٍ ما، ومنه النُّهْيَةُ: وهي العَقْلُ؛ لِأنَّهُ يَمْنَعُ صاحِبَهُ منَ القَبيحِ[2]. والمقصود بالنَّهي في الآية: طَلَبُ تَرْكِ الفِعْلِ بالقَوْلِ ممَّن هو دونه.

3) ﴿مُرِيبٍ﴾: أصْلُ (ريب): يَدُلُّ على شَكٍّ، أو شَكٍّ وخَوْفٍ، فالرَّيْبُ: الشَّكُّ، قالَ اللّه جَلَّ ثَناؤُهُ: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ﴾ [البقرة: 1 - 2]، أي: لا شَكَّ، والرَّيْبُ: ما رابَك من أمْرٍ تخوَّفتَ عاقبتَهُ[3]، تَقولُ: رابَني هَذا الأمْرُ؛ إذا أدْخَلَ عليكَ شَكًّا وخَوْفًا، وأرابَ الأمرُ، أي: صارَ ذا رَيْبٍ، وأرابَ الرَّجُلُ: صارَ مُريبًا ذا ريبَةٍ، وارتَبتُ بهِ، أي: ظَنَنْتُ بهِ، ورَيْبُ الدَّهْرِ: صُروفُهُ وحَوادِثُهُ[4]. والمقصود بالمُريبِ في الآية: موقع في الرّيبَة، مُبالغَة في الشَّك، وهو اسم فاعِلٍ منْ أرابَ؛ إذا أوقَعَ في الرَّيْبِ.

المَعْنى الإجْمالِيُّ:

فلمّا أمرَهم نبيُّهم صالحٌ عليه السلام، ورغَّبهم في الإخلاص للّه وحده؛ ردّوا عليه دعوتَه، وقابلوه أشنعَ المقابلة، قال قومُ صالح عليه السلام له: يا صالِحُ قد كنّا نرجو فيك الخَيْرَ؛ لِعلْمكَ وعَقْلِكَ وصِدْقِكَ، ونُؤمِّلُ أن تكونَ فينا سيِّدًا مطاعًا، قبل هذا القَوْلِ الَّذي تدَّعي فيه النبوَّةَ، وتَدعونا إلى تَركِ عِبادةِ غيرِ اللّه، أتنهانا أن نَعْبُدَ الأصنامَ الَّتي كان يعبُدُها أسلافُنا، وإنَّنا لفي شكٍّ كبيرٍ من صِحَّةِ ما تدعونا إليه من توحيدِ اللّه وعبادته وحده، شَكًّا يوجِبُ تُهمَتَك[5].

شهادةُ قوم صالح له بأنَّه محمودُ الخصال، حتَّى إذا أُرسِلَ إليهم؛ فناصبوه العداء

(1) ابن عبّاد، المحيط في اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (نهي).
(2) ابن عبّاد، المحيط في اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (نهي).
(3) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (ريب).
(4) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (نهي).
(5) ابن جرير، جامع البيان: 12/454، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/332، والسّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 385.

وترشدُ الآيةُ الكريمة إلى أنَّ المصلحَ في قومه يكون مشهودًا له بالخير ومكارم الأخلاقِ وحميد الصفاتِ؛ ما دام موافقًا لهم في أهوائهم وموروثاتهم السّابقة، فإذا خالفَهم بدعوتِه لهم إلى الهَدْي السَّديد والرأيِ الرَّشيد؛ نعتوه بأعظم القبائح، وأقذعِ الأقوال.

وترشدُ إلى الفرقِ الواضحِ في الأسلوب بين القوم ونبيِّهم، فالقومُ ثمودُ قابلوا صالحًا عليه السلام بما يفيدُ التوبيخَ والاتِّهامَ، ويدلُّ على التصميم على الكفر، والنَّبيُّ صالحٌ يتلطَّفُ بهم، ويحاولُ إقناعَهم بصحَّةِ دعوتِه إلى توحيد اللّٰه[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالة الفصل والتَّجريد في مطلع الآية:

فصل الجمل في القصَّة، اكتفاء برابط المحاورة، من فنون القصص القرآنيِّ

الجملة في قوله جلَّ شأنه: ﴿قَالُواْ يَٰصَٰلِحُ قَدۡ كُنتَ فِينَا مَرۡجُوّٗا قَبۡلَ هَٰذَآۖ﴾، خبريَّة مجرَّدة من العاطف؛ لأنَّها جواب القوم لنصيحة صالح النَّفيسة، وفصلت الجملة؛ لأنَّها وردت على أسلوب حكاية المحاورة في القصص، فلا تحتاج إلى رابط؛ لكون الحوار الحاضر كافيًا في ربط أبعاض الكلام ببعضه، فهذه الجملة تحكي جواب قومه وردَّهم عليه، وهو جزء من البناء القصصيِّ المتوخّى، لعرض القصص القرآنيِّ في جماليَّة وتألُّق، تؤهِّله لعرض الأحداث في روعة وشائقيَّة.

نكتةُ الإسناد في ﴿قَالُواْ﴾:

الجماعة تدلُّ على القوَّة، حتّى عند أهل الباطل والضَّلال

قوله جل شأنه: ﴿قَالُواْ يَٰصَٰلِحُ قَدۡ كُنتَ فِينَا مَرۡجُوّٗا قَبۡلَ هَٰذَآۖ﴾، أسند النَّظم الجليلُ فيه فعل القول إلى واو الجماعة في: ﴿قَالُواْ﴾؛ للدَّلالة على اجتماع قوم ثمودَ على الباطل، وتصدّيهم للحقِّ بالاستهزاء والإنكار وسوء القرار، وأنَّهم كانوا في ذلك جماعة متآلفين متوافقين على الكفر.

(1) الزحيلي، التفسير الوسيط: 2/1048.

غرضُ نداء القوم صالحًا باسمه المجرَّد:

لا يتركُ الكافر فرصة للجحود والجفاء إلّا وأوقع نفسه فيها

أورد النَّظم الجليل خطابَ صالح عليه السلام، بلا أوصافِ التَّقدير والتَّوقير، في قوله جلَّ شأنه: ﴿قَالُواْ يَٰصَٰلِحُ﴾، دون صفته كنبيٍّ أو رسول، فنادَوه باسمه المجرَّد، وهو جفاء منهم[1]، مع إغفالهم صفةَ النُّبوَّة أو الرِّسالة؛ إشارة إلى الاستخفاف به وبدعوته، وبغرض التَّوبيخ والملامة، ممّا يؤكِّده قولهم: ﴿يَٰصَٰلِحُ قَدۡ كُنتَ فِينَا مَرۡجُوّٗا قَبۡلَ هَٰذَآۖ﴾، كما فعلت عاد مع هود من قبلُ، بأسلوب مغاير، سبق بسطه في قصَّة هود عليه السلام، وممّا يدلُّ على أنَّ نداء قوم صالحٍ إيّاه، كان بغرض التَّوبيخ، قولُهم: ﴿قَدۡ كُنتَ فِينَا مَرۡجُوّٗا قَبۡلَ هَٰذَآۖ﴾، فهذا تعريض بخيبة أملهم ورجائهم فيه، فهو توبيخ وتعنيف[2].

معنى حرف التَّحقيق ﴿قَدۡ﴾:

إظهار تأكيد رضاهم عنه قبل بعثته، لا تنويهٌ بخصاله، بلْ مبالغةٌ في التَّوبيخ

أدخل النَّظم الجليل في قوله جلَّ شأنه: ﴿قَالُواْ يَٰصَٰلِحُ قَدۡ كُنتَ فِينَا مَرۡجُوّٗا قَبۡلَ هَٰذَآۖ﴾، حرف التَّحقيق ﴿قَدۡ﴾ على فعل الكَون؛ لتأكيد الخبر، ليكون إخبارُهم بكونهم راضين عنه قبل البعثة، وأنَّهم كانوا يرونه حسن السّيرة، مرجوًّا على وجه التَّأكيد، أبلغ في إيقاع التَّوبيخ واللَّوم.

دلالة تقديم ﴿فِينَا﴾ على ﴿مَرۡجُوّٗا﴾:

أعرف النّاس بالرَّسول قومه، ولا يعرف فضل المرء مَنْ يجهلُه

قدَّم النَّظمُ الكريم شِبهَ الجملة ﴿فِينَا﴾، على المسند ﴿مَرۡجُوّٗا﴾ من قوله جلَّ شأنه: ﴿قَدۡ كُنتَ فِينَا مَرۡجُوّٗا﴾؛ للدَّلالة على أنَّ كونه مرجوًّا إنَّما هو بين بني قومه وحسب، ولو قالوا: (كنت مرجوًّا) بالإطلاق؛ لدلَّ على أنَّ الرَّجاء به شامل لقومه وغيرهم، وهذا يعني: شهرته خارج قومه، وهم أرادوا أن ينصّوا على أنَّ الرَّجاء فيه كائن منهم حصْرًا، إظهارًا للمنَّة عليه والرِّضا عنه؛ ليتحقَّق التَّوبيخ الذي سيكيلونه له.

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/319.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/109.

سرُّ الوصف بكونه ﴿مَرۡجُوّٗا﴾:

في قوله جلَّ شأنه: ﴿قَالُواْ يَٰصَٰلِحُ قَدۡ كُنتَ فِينَا مَرۡجُوّٗا قَبۡلَ هَٰذَآۖ﴾ بيَّن النَّظم الكريم أنَّ صالحًا كان معروفًا - قبل الرِّسالة - بالكمال الإنسانيِّ، كما كان محمَّد ﷺ معروفًا بأنَّه الصّادق الأمين.. وحيث إنَّه قد كان مرجوًّا خيرُه، غير مذموم، فما ينبغي أن يَفعل ما يُخْرِج عن دائرة هواهم، ومقتضيات مرادهم، وذلك منتهى الرَّجاء فيه؛ كي يردِّد مقالاتهم، ويعبد ما يعبدون[1]، أي: إنَّهم قالوا له بلسان المعترف المقرِّ بما له من تميُّز فيهم، كانوا يدَّخرونه لخدمة مآربهم، ما مفاده: "كانت تلوح فيك مخايلُ الخير، وأماراتُ الرُّشد، فكنّا نرجوك لننتفعَ بِك، وتكون مشاورًا في الأمور، ومسترشَدًا في التَّدابير، فلمّا نطقت بهذا القول؛ انقطع رجاؤنا عنك، وعلمنا أن لا خيرَ فيك"[2].

حُسْنُ سيرة المرء، ورضيُّ سمعته، مظنَّة الانتفاع من خيره ومشورته

فائدةُ التَّعبير بقوله: ﴿قَبۡلَ هَٰذَآۖ﴾:

في قوله جلَّ شأنه: ﴿قَالُواْ يَٰصَٰلِحُ قَدۡ كُنتَ فِينَا مَرۡجُوّٗا قَبۡلَ هَٰذَآۖ﴾، عبَّر النَّظم بالظَّرف الزَّماني (قبل)، وأضافه إلى اسم الإشارة الدّالِّ على الدَّعوة، أي: "﴿قَبۡلَ هَٰذَآۖ﴾ الَّذي باشرتَه من الدَّعوة إلى التَّوحيد، وترْكِ عبادة الآلِهَةِ، أو قبل هذا الوقتِ، فكأنَّهم لم يكونوا إلى الآن على يأس من ذلك، ولو بعد الدعوةِ إلى الحقِّ، فالآن قد انصرَم عنك رجاؤُنا"[3]. ففصلوا بين زمانين؛ أحدهما: ما قبل الجهر بالدَّعوة عندما كان مرجوًّا فيهم، والآخر بعدها عندما ناصبوه العداء، وخاطبوه بهذا الأسلوب الفجِّ، ولم يقولوا: (من قبل هذا)، فحذفوا حرف الجرِّ لاستغراق الزَّمان، أي: كنت مرجوًّا طولَ الزَّمان قبل أن تدعونا إلى ما دعوتنا إليه، فأمّا بعد هذا؛ فانسلخت من هذا العِداد[4].

صلاح السّيرة، ليس شفيعًا معتبرًا عند المعاندين

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3724.
(2) الزّمخشري، الكشاف: 2/407.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/221.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 9/319.

دلالة الموقع البياني لجملة التَّساؤل:

عـلَّـة تـوبـيـخ الرَّسول دعوته قـومـه إلى التَّوحيد ونبذ الضَّلالة

قوله جلَّ شأنه: ﴿أَتَنۡهَىٰنَآ أَن نَّعۡبُدَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾، الجملة في بيان لقولهم: ﴿قَدۡ كُنتَ فِينَا مَرۡجُوّٗا﴾، باعتبار دلالتها على التَّعنيف والتَّوبيخ[1]، فإنَّ تذكيره بكونه كان حسن السّيرة فيهم، وأنَّهم كانوا يرجون منه الخير في سياق العتاب والتَّوبيخ، يظهر أنَّهم قد غيَّروا مكانته عندهم، فلم يبقَ مرجوًّا، والسَّبب أنَّه دعاهم لترك عبادة الأصنام الَّتي ورثوها من آبائهم، فجاءت الجملة ﴿أَتَنۡهَىٰنَآ أَن نَّعۡبُدَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾، لبيان علَّة توبيخهم، وإيضاح السَّبب الدّافع له.

غرضُ الاستفهام في قوله: ﴿أَتَنۡهَىٰنَآ﴾:

ضلال القوم في مشاكسة النّاصح لهم بما ينفعهم

عبَّر النَّظم الكريم بالاستفهام في قوله جلَّ شأنه: ﴿أَتَنۡهَىٰنَآ أَن نَّعۡبُدَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾؛ للدَّلالة على الإنكار والتَّوبيخ، فدلَّت الجملة على استنكار القوم هذا النَّهي منه[2]، ودعوته لهم لعبادة غير آلهتهم، بحجَّة أنَّها إرث عن الآباء، فهم يستنكرون دعوته، ويثيرون العجب بالاستفهام لإنكار الواقع، وهو أنَّه ينهاهم أن يعبدوا ما يعبد آباؤهم[3]، وهذا داخل في مفهوم انقلاب الموازين، ذلك أنَّ من يدعو إلى الإصلاح، وينصح القوم بالتَّغيير الإيجابيِّ، وتصحيح المفاهيم المغلوطة، ونبذ العادات السَّلبيَّة الموروثة عن الآباء والأجداد، دون فهم واعٍ، ولا نفعٍ يستفاد، من شأنه أن تزداد قيمته، وترتفع مكانته، لا أن يوبَّخ ويلام.

وجهُ التَّعبير بلفظ ﴿مَا﴾ الموصولة:

إصرار المشركين على عبادة آلهتهم الموروثة مع علمهم ببطلانها وعجزها

في قوله جلَّ شأنه: ﴿أَتَنۡهَىٰنَآ أَن نَّعۡبُدَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾، استعمل اسم الموصول ﴿مَا﴾ الدّالَّ على غير العاقل؛ ليشير إلى ما عبد آباؤهم

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/110.
(2) القنّوجيّ، فتح البيان: 6/205.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3724.

من الأصنام، فهو تأكيد لكون الأصنام معبودة آبائهم، وأنَّهم بحيث يقرُّون بذلك، ويتمسَّكون به، فعبَّروا عن أصنامهم بالموصول ﴿مَا﴾، "لما في الصِّلة من الدَّلالة على استحقاق تلك الأصنام أن يعبدوها في زعمهم، اقتداء بآبائهم؛ لأنَّهم أُسوة لهم، وذلك ممّا يزيد الإنكار اتِّجاهًا في اعتقادهم"[1]، فهُم يحكون تمسُّكهم بموروثاتهم في العبادة مهما كانت صفتها أو قيمتها، ويشير إلى عمى التقليد والاعتداد بما كان عليه الأسلاف، حتى لوكان أيَّ شيء، سواء كان صنمًا أم حجرًا أم غير ذلك.

براعةُ التَّعبير بالمضارع ﴿يَعۡبُدُ﴾:

قوله جلَّ شأنه: ﴿أَتَنۡهَىٰنَآ أَن نَّعۡبُدَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾، عبَّر فيه النَّظم الجليلُ عن عبادتهم بالفعل المضارع، مع أنَّ عبادتهم منقطعة ماضية، فعدل إلى الفعل المضارع حكايةً للحال الماضية[2]، ممّا كان عليه الاعتقاد الوثنيُّ الباطل، في الحاضرة والبادية، ولم يقولوا: (ما عبدَ آباؤنا)، بل عبَّروا "بصيغة المضارع تصويرًا للحال، كأنَّ آباءهم موجودون فلا يمكنهم مخالفتهم؛ إجلالًا لهم، فأجلّوا من يرونه سببًا قريبًا في وجودهم، ولم يهابوا من أوجدهم وآباءهم أوَّلًا من الأرض"[3].

تصويرُ الحال واستحضار صورة مكانة آبائهم؛ مما يزيد تمسكهم بما يعبدون

دلالة الإسناد في: ﴿أَتَنۡهَىٰنَآ﴾:

قوله جلَّ شأنه: ﴿أَتَنۡهَىٰنَآ أَن نَّعۡبُدَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾، حكاية عن قوم صالح عليه السلام؛ إذ أوقعوا فيه التَّوبيخ عليه، بإسناد النَّهي إليه، فوجَّهوا النَّهي إليه، والنّاهي هو اللّه تعالى، فقولهم: ﴿أَتَنۡهَىٰنَآ﴾، خروجٌ بالسُّؤال عن وجهته، ذلك أنَّ استنكار النَّهي موجَّهٌ إلى صالح عليه السلام، والرَّسول مبلِّغ عن اللّه تعالى، فالذي نهى على الحقيقة هو اللّه

نسبة ما يكون من الله إلى العباد سوء أدب مع ربِّ العباد

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/110.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/221.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/320.

لذلك كان قولُهم سوءَ أدب مع اللّه، قبل أن يكون سوء أدب مع نبيِّه صالحٍ عليه السلام.

معنى (الواو) في قوله: ﴿وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ﴾:

الانتقالُ من رجائهم مواطأة صالحٍ لهم إلى الطَّعن في رسالته

عطف الجملة في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾، على الجملة في قوله تعالى: ﴿يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا﴾؛ لكونهما من مقولهم الَّذي قالوه، "فبعد أن ذكروا يأسهم من صلاحِ حالِه، ذكروا أنَّهم يشكّون في صدق أنَّه مرسل إليهم، وزادوا ذلك تأكيدًا بحرف التَّأكيد[1].

دلالة تأكيد الخبر في شكِّهم في دعوته:

تأكيد الشَّك في صدق الرِّسالة تأييسٌ للرَّسول من إيمانهم

في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾، جاء الخبر في غاية التَّأكيد، حيث ورد ﴿وَإِنَّنَا﴾ على الأصل بتشديد نون (إنَّ)، وضمير (نا) المسند إلى جماعتهم من الرؤساء والرِّعاع، وهو تأكيد متعنَّتٌ منهم، لبيان ريبهم اللَّئيم، وشكِّهم الأثيم في صدق دعوته، لذلك كان التَّشديد وتوالي النّونات مناسبًا لذلك، وأُلحِقَ ذلك باللّام المزحلَقة الدّالة على التَّوكيد، فقالوا مقولتهم على وجه التَّأكيد[2]، بل زادوا التَّأكيد بأن جعلوا أنفسهم محاطين بالشَّكِّ، وغرضهم من ذلك تأكيد تأييس صالح عليه السلام من انتظار استجابتهم له.

نكتةُ الظَّرفية المجازيَّة في: ﴿لَفِي شَكٍّ﴾:

تحوُّل الشَّك إلى ظرف وبيئةٍ محيطة بهم، يؤكِّد قوَّة شكِّهم

أدخل حرفَ الجرِّ (في) الدّالَّ على الظَّرفيَّة المجازيَّة، في قوله جل شأنه: ﴿وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ﴾؛ لأنَّ الشَّك لا يكون ظرفًا، وإنَّما عبَّروا بذلك لتأكيد شكِّهم، فهو قد أحاط بهم إحاطة الظَّرف بمظروفه[3]، وقد رتَّبوا شكَّهم في دعوته، على نبذه آلهتهم

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/110.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/320.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/320.

المزعومة وطعنه في عبادتهم الموهومة، و"قالوا: يا صالح، لقد كنّا نرجو الخير فيك قبل هذه الدَّعوة، كنّا نرى فيك حكمةً وأصالة رأي، فما بالك الآن؟ أتنهانا عن عبادة ما كان يعبُد آباؤنا؟ نحن في شكٍّ من دعوتك هذه إلى عبادة اللّه وحده، شكٍّ يجعلُنا نرتابُ فيك، وفيما تقول"[1].

بلاغةُ التَّعبير بالشَّكِّ في ﴿لَفِي شَكٍّ﴾:

في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾، عبَّر النَّظم الكريم عن تردُّدهم في أمره، فالشَّكُّ هو التَّوقُّف بين النَّفي والإثبات حين لم يترجَّح في اعتقادهم صحَّة قوله، "فهم يشكّون فيما يدعو إليه من التَّوحيد، وهجر عبادة الأوثان؛ لأنَّها أحجار لا تضرُّ ولا تنفع، وإنَّ هذا الشَّكَّ يوقعهم في الرّيب، أي: إنَّ شكَّهم في صدق ما يدعوهم إليه، يوقعهم في حال الرَّيب، فلا يؤمنون بقوله، ويكونون في حال من الاضطراب"[2]. وثمَّت ملمحٌ بلاغي دقيقٌ في قولهم ذلك، فهم لم يعبِّروا عن القطع بكونهم كافرين به، بل أظهروا أنَّهم يشكُّون فيما جاءهم به، وهذا لإظهار أنَّهم قد تفكَّروا في شأنه ودعوته، ولكن لم يظهر لهم صدقه، وبهذا يكون عدم تصديقهم له ليس كفرًا لدعوة ظاهرة الصِّدق، بل هو رفض لدعوة ناقصة الأدلَّة لا يقوم على البرهنة عليها دليل يُعتدُّ به، فالغرضُ الأساس من ذكر الشَّكِّ إظهار أنفسهم بمظهر النّاقد الَّذي لم يؤمن عن دراية، لا عن محض الرَّفض.

إظهارُ أنفسهم بمظهر النّاقد الَّذي لم يؤمن عن دراية، لا عن محض الرَّفض

دلالة الموصول (ما) وصلته ﴿تَدْعُونَآ﴾:

في قوله جلَّ شأنه: ﴿مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾، عُبِّر عن المدعوِّ إليه بالاسم الموصول (ما)؛ للدَّلالة على عموم ما دعاهم إليه، "من

شكُّهم الأثيم في كلِّ ما جاءَهم به رسولهم الكريم فسادٌ في فطرتهم

(1) إبراهيم القطّان، تيسير التّفسير: 2/226.
(2) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 7/3724.

التَّوحيد، وتركِ عبادةِ الأوثانِ وغيرِ ذلك من الاستغفار والتَّوبة"[1]، وهذا يفصح عن خراب طويَّتهم، وفساد فطرتهم؛ إذ لم يستحسنوا شيئًا ممّا دعاهم إليه، بل جعلوا كلَّ شيء دعاهم إليه مشكوكًا فيه، وهم في ريبهم يتردَّدون.

غرضُ وصف الشَّكِّ بأنَّه ﴿مُرِيبٍ﴾:

الشَّكُّ المريب يفصح عن ارتيابٍ وقلقٍ يترجَّح معه الإنكار

في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾، وصف (الشَّكِّ) بأنَّه ﴿مُرِيبٍ﴾، يدلُّ على معنيين: أحدهما متعدٍّ من (أرابه)، أي: أوقعه في الرّيبة، أي: قلقِ النَّفسِ وانتفاءِ الطُّمأنينة، والثّاني: لازمٌ من (أرابَ الرّجلُ)، أي: صار ذا ريبة[2]، ولكلٍّ وجهة في المعنى هو مولّيها، فقولهم: ﴿مُرِيبٍ﴾، يعني: أنَّه ترجَّح في اعتقادهم بطلان قوله وفساده، وذلك مبالغة في تزييف كلامه، وتسفيه دعوته، فلم يكن شكُّهم كأيِّ شكٍّ، بل هو شكٌّ مؤكَّد، كقولهم: جدَّ جدُّه[3].

نكتةُ التَّنكير في لفظي ﴿شَكٍّ﴾ و ﴿مُرِيبٍ﴾:

عدم تعيين الشَّكِّ والارتياب فيه مبالغةٌ في بيان شدَّة الوصف

آثر النَّظم الكريم التَّعبير بصيغة التَّنكير، في لفظي ﴿شَكٍّ﴾ و ﴿مُرِيبٍ﴾ من قوله جلَّ شأنه: ﴿لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾؛ تفخيمًا لشأن الشَّك والرِّيبة[4]، فإنَّ التَّنكير يدلُّ على عدم التَّعيين، فهو مريب ريبة غير معروفة، وهذا يدلُّ على الغموض والجهالة، وذلك أدعى للمبالغة في شدَّة هذا الوصف.

التَّشابه اللَّفظيُّ بين آيتي هود (62) وإبراهيم (9):

ورود الخطاب بقوله: (تدعونا إليه) للمفرد، وبقوله: (تدعوننا إليه) للجمع

وردَ التَّشابهُ اللَّفظيُّ بين قوله تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾، وقولِه تعالى: ﴿جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓاْ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/221.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/176.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/111.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/221.

أَيْدِيَهُمْ فِيٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓاْ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ۝٩﴾ [إبراهيم: 9]، فاختلف التَّعبير بين الآيتين ففي سورة هود: ﴿وَإِنَّنَا﴾... ﴿مِّمَّا تَدْعُونَآ﴾، وفي سورة إبراهيم: ﴿وَإِنَّا﴾.. ﴿مِّمَّا تَدْعُونَنَآ﴾؛ وذلك أنَّ التَّعبير بالفعل في كلتا الآيتين جاء على الأصل، فالخطاب في سورة هود للمفرد؛ لأنَّه خطاب لهود عليه السلام فقالوا: ﴿تَدْعُونَآ﴾، أمّا الخطاب في سورة إبراهيم؛ فهو لجماعة الرُّسل عليهم السلام، فقالوا: ﴿تَدْعُونَنَآ﴾، أمّا التَّعبير بـ ﴿وَإِنَّا﴾ و ﴿وَإِنَّنَا﴾؛ فإنَّ الأصل فيه هو ﴿وَإِنَّنَا﴾، وقد جاء تعبيرهم على الأصل في سورة هود؛ دلالة على قوَّة تأكيد إنكارهم، فأبقَوا النّوناتِ الثّلاثَ تثقيلًا للتأكيد؛ أمّا في سورة إبراهيم؛ فجاء محذوفَ النّون ﴿وَإِنَّا﴾؛ لأنَّه قد وقع بعده: ﴿تَدْعُونَنَآ﴾ بنونين؛ لِأنَّهُ خطاب جمع للرُّسل، فحذف في السياق منْ (إنّنا) النّون استثقالًا للْجمع بَين النّونات في الموضعين من السورة نفسها في صدر الجملة ونهايتها[1].

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

(الرّيبة) و(الشّكّ):

الرَّيب: شكٌّ مع تهمة[2]. وأصل الرَّيب القلق واضطراب النَّفس، ولمّا كان الشَّكُّ يلزمه اضطراب النَّفس وقلقها؛ غلب عليه الرَّيب، فصار حقيقة عرفيَّة، يقال: رابَه الشَّيء؛ إذا شكَّكَه، أي: أوجب الشَّكَّ في حاله[3]. وفي الآية الكريمة ﴿وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾، عبَّر قوم صالحٍ عن قلقهم واضطرابهم بشأنه، بأن جمعوا بين الشَّك والوصف، بكونه شكًّا مريبًا، ولو اقتصروا على الشَّكِّ؛ لكان المدلول الشَّكَّ وحسبُ، ولكنّهم قرنوه بكونه شكًّا مريبًا، مبالغةً

الرَّيب قلق النَّفس، وانتفاء الطُّمأنينة، وهو أخصُّ من الشَّكِّ

(1) الكرمانيّ، البرهان في توجيه متشابه القرآن، ص: 146.
(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 99.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/222.

منهم في إظهار كونهم شاكّين فيه، فـ"الرَّيب: حالة فكريَّة تميل نحو الاتِّهام وظنِّ السّوء، والشَّكُّ: حالة من الحيرة والاضطراب، يجعل اليقين يتذبذب، ويتأرجح بين الأمرين، من غير مرجِّح لأحدهما، والشَّكُّ: حالة فطريَّة، تنشأ عند غياب الأمارة المرجِّحة، وعند الجهل بالحقيقة، والرَّيب: حالة مرضيَّة تؤدِّي إلى توهُّم الحقيقة، وترجُّح التُّهمة بغير دليل، وفي إطار هذه الدِّلالات جاء كلٌّ من اللَّفظين يعبِّر عن معناه الَّذي يؤكِّد أنَّ هذا اللَّفظ في موضعه، له معنى، لا يؤدّيه مرادفُه"[1].

(1) سامي عبد الفتاح هلال، التّرادف في القرآن الكريم بين المثبتين والنّافين، (رسالة ماجستير غير منشورة)، جامعة الأزهر، ص: 54.

﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي مِنۡهُ رَحۡمَةٗ فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِنۡ عَصَيۡتُهُۥۖ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيۡرَ تَخۡسِيرٖ ٦٣﴾ [هود: 63]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الانتقالُ من تفكير العاطفة للآباءِ، إلى التَّفكير القائم على الحقِّ والعقلِ السَّديد

لَمّا نهاهُم صالحٌ عليه السلام عنْ عبادةِ ما كانَ يعبدُ آباؤهُمْ، وأمرهم بأنْ يكونَ التّوحيدُ شعارَهُمْ، لاموه على ذلكَ وأظهروا لهُ منْ قبيحِ تعريضِهمْ بدعواهُ تلكَ، "ولَمّا أبرزوا لهُ أمرَهمْ في قالبِ الشّكّ على سبيلِ الجزم، قابلهُمْ بمثلهِ على سبيلِ الفرضِ إنصافًا لهمْ لئلّا يلائمَ الخطابُ حالَ المخاطبينَ"[1]، فإنّ دعوتهُ إنّما تنطلقُ من أنّها مؤيَّدةٌ بالبيّنةِ والحجّةِ والبرهانِ المقترنِ بالرّحمةِ، وأنّه إن لم يفعلْ ذلكَ باتّباعكُم أو الكفّ عمّا يدعوكُم إليهِ فقدْ عصَى الحقّ سبحانهُ ولنْ يزدادَ آنئذٍ إلّا خسارًا، فالمناسبة بين الآيتين مُفادها الانتقال من منهج التَّفكير القائم على التَّعصب لعبادةِ الآباءِ، إلى منهج التَّفكير القائم على الحقِّ والعقلِ السَّديدِ للوصولِ إلى الهداية الرَّبانيَّة، وفي هذه المناسبة تلطُّفٌ في الخطابِ، واستنزالٌ للمخاطَبين، وهو ما يدلُّ على الحكمة والبصيرةِ في الدَّعوة.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿بَيِّنَةٖ﴾: أصلُ الكلمةِ من البَيْنِ، وهو بُعْدُ الشَّيءِ وانْكِشافُهُ. فالبَيْنُ الفِراقُ؛ يُقالُ بانَ يَبِينُ بَيْنًا وبَيْنُونَةً. والبَيُونُ البِئْرُ البَعِيدَةُ القَعْرِ[2]. والبَيِّنَةُ: الأمرُ الواضح، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي﴾ [الأنعام: 57]، أي: أنا على أمرٍ واضحٍ ظاهرٍ. والبَيِّنة: الحُجَّة،

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 9/321.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بين).

ومنه: (البَيِّنةُ على المدَّعي)؛ لأنَّ بها ينكشف الحقّ ويتَّضح. والبَيِّنةُ: الدّلالة الواضحة عقليَّة كانت أو حسيَّة[1]. والبيان: التَّوضيحُ والكَشْفُ، يُقالُ: بانَ الشَّيْءُ وأبانَ إذا اتَّضَحَ وانْكَشَفَ. وفُلانٌ أبْيَنُ منْ فُلانٍ؛ أيْ أوْضَحُ كَلامًا منْهُ[2]. والمقصود بالبيِّنة في الآية: الحُجَّة الواضحة[3].

2) ﴿رَحْمَةً﴾: أصلُ (رحم): يدُلُّ على الرِّقّةِ والعطفِ والرّأفةِ، يُقالُ من ذلك: رحِمهُ يرحمُهُ، إذا رقّ له وتعطّف عليهِ. والرّحِمُ: علاقةُ القرابةِ، ثُمّ سُمِّيت رحِمُ الأُنثى رحِمًا من هذا؛ لأنّ منها ما يكونُ يُرحمُ ويُرقُّ له من ولد[4]. والرّحمةُ: اسمُ مصدر لِصِفةِ الرّاحِم وهي من صِفاتِ الإنسانِ فهِي رِقّة فِي النّفسِ تبعثُ على سوقِ الخيرِ لِمن تتعدّى إليهِ[5]. وإذا وُصِف به الباري ﷻ فليس يُراد به إلّا الإحسانُ المُجرّدُ دون الرِّقّة، وعلى هذا رُوي أنّ الرّحمة من اللّه إنعام وإفضال، ومن الآدميِّين رِقّة وتعطُّف[6]. والرّحمةُ أيضًا: القرآن[7]، والمغفِرةُ[8]، والنُّبوة[9]، والمراد بالرّحمة في الآية: النُّبوّة والحِكمة[10].

3) ﴿يَنصُرُنِي﴾: أصلُ (نصر): يدُلُّ على إتيانِ خير وإيتائِهِ. يُقالُ: نصر اللّهُ المُسلِمين: آتاهُمُ الظّفر على عدُوِّهِم، ينصُرُهُم نصرًا. وانتصر: انتقم، وهُو منهُ. والنّصرُ: عونُ المظلوم[11]. والنّصِيرُ فعِيل بِمعنى فاعِل أو مفعُول؛ لأنّ كُلّ واحِد من المتناصِرين ناصِر ومنصُور. والاستِنصارُ: استِمدادُ النّصر. والتّناصُر: التّعاونُ على النّصر[12]. وأمّا الإتيانُ فالعربُ تقُولُ: نصرتُ بلد كذا، إذا أتيتهُ؛ ولِذلِك يُسمّى المطرُ نصرًا. والنّصرُ: العطاءُ[13].

(1) السّمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (بين).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بين).
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/51.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (رحم).
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 26/24.
(6) الرّاغب، المفردات: (رحم).
(7) ابن عطية، المحرّر الوجيز: 1/358، وأبو حيّان، البحر المحيط: 6/75.
(8) ابن منظور، لسان العرب: (رحم).
(9) الشهاب، عناية القاضي: 5/90، والمراغي، تفسير المراغي: 15/173.
(10) رشيد رضا، تفسير المنار: 12/102.
(11) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة: (نصر).
(12) الرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (نصر).
(13) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نصر).

والمقصود بالنّصر في الآية: إعانةُ المُقاوِم لِضدّ أو عدُوّ[1]. والمراد في الآية: من يُعينني أو يمنعُني من عذابِه إن عصيتُهُ.

4) ﴿تَخْسِيرٍ﴾: أصل (خسر): يَدُلُّ عَلَى النَّقْصِ. فَمِنْ ذَلِكَ الخُسْرُ والخُسْرانُ، والفِعل: خَسِرَ يَخْسَرُ خُسْرانًا. والخاسِرُ: الَّذي غُبِنَ في تجارته، ومصدرُه: الخَسارَةُ والخُسْرُ. كِلْتُهُ ووزَنْتُهُ فأخْسَرْتُهُ، أي: نقصته، وصَفَقَ صَفْقَةً خاسِرَةً، أي: غيرَ مُرْبِحَةٍ[2]. والتَّخْسِيرُ: الإهلاك[3]، وقيل: الإبْعادُ من الخَير[4]. والمقصود بالتَّخسير في الآية: مَصْدَرُ خَسِرَ، إذا جعله خاسرًا[5].

المَعْنى الإجْماليُّ:

جوابُ الحكمةِ في الرَّدِّ على الطّاعنين هو هديُ الصّالحين ونجاةُ المؤمنين

تبيِّن الآيةُ موقفَ صالحٍ عليه السلام في الرَّدِّ على قومه فيما قالوه: يا قوم أخبِروني عن حالي معكم إنْ كنتُ على برهانٍ وبصيرةٍ من ربي مالِك أمري، وآتاني من قِبَلِه رحمةً خاصَّة من عنده جعلني بها نبيًّا مُرسَلًا إليكم؛ فمَنِ الَّذي يدفَعُ عنِّي عذابَ اللّهِ تعالى لوِ استجبتُ لكم وعصيتُه، أي لا أحدَ يدفع ذلك عنِّي في هذه الحال، فلا أبالي إذًا بقطع رجائكم فيَّ، ولا بما أنتم فيه من شكٍّ وريبٍ في أمري، فلن تَزيدوني غيرَ الخَسارةِ والضَّرَرِ والتَّضليلِ، والإبعادِ من الخَيرِ.

فالآيةُ الكريمةُ تُصوِّر تصويرًا بليغًا ما كان عليهِ صالح عليه السلام من إيمانٍ عميقٍ باللّه تعالى، ومن ثباتٍ على دعوته، ومن حرصٍ على طاعته سبحانه[6].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/56.
(2) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة: (خسر).
(3) الجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب: (خسر).
(4) الزَّبيدي، تاج العروس: (خسر).
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/212.
(6) ابن جرير، جامع البيان: 12/455، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/332، والمراغي، تفسير المراغي: 12/54 - 55، وطنطاوي، التفسير الوسيط: 7/234.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ الاستئنافِ البيانيِّ:

المحاوراتُ تقومُ على الأجوبةِ المتقابلةِ، لا على عطفِ الجوابِ على الجواب

لَمّا رفضَ قومُ صالحٍ دعوتَهُ، وارتابوا منهُ في الآية السّابقةِ بقولِهِمْ: ﴿وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ۝٦٢﴾ [هود: 62] كانتْ هذهِ الآية جوابًا لمقالتِهِمْ تلكَ على طريقةِ المحاوراتِ[1] والمقاولاتِ؛ لذلكَ فصلَ ولمْ يَعْطِفْ، وهي طريقةٌ عربيةٌ وأسلوبٌ ذائعٌ في القرآنِ الكريم، وهي استئنافٌ بيانيٌّ مؤسَّسٌ على سؤالٍ مُقَدَّرٍ في ردِّهِ على تكذيبِهِم وتعريضِهِم بهِ، فبعدَ أنْ أظهَروا ما في نفوسِهِمْ منْ مقالتِهِمُ الحمقاءِ وريبتِهِمُ الشّنعاءِ[2]؛ جاءَ الرَّدُّ بفعلِ القولِ عاريًا عنْ حرفِ العطفِ مجرَّدًا منهُ.

بلاغةُ البدءِ بالنِّداءِ بأداة البعيدِ:

تنبيهُ المخاطَبين وتحريكُ مشاعرِهم لِفَهْمِ مضمونِ الخطابِ

ابتدأ صالحٌ عليه السلام قولَهُ بالنّداءِ في قولِهِ تعالى: ﴿يَٰقَوْمِ﴾ قصدًا إلى طلبِ إقبالِ أذهانِهِم ليعوا كلامَهُ، وتنبيهًا إلى أنّ الآتي من القولِ من الأمورِ المهمّةِ ذاتِ الشّأنِ والحُظوةِ والاعتبارِ[3]، واخْتِيرت أداةُ نداء البعيد لتنبيه القوم على خطورةِ مضمون الخطابِ، فإنَّ نداءَ المخاطَب من شأنه تحريكُ همَّتِه، وإثارةُ مشاعره للانتباه، واستعمالُ أداة البعيد يدلُّ على أنَّهم كانوا في بُعدٍ شعوريٍّ وعقليٍّ عن فهم المراد.

نكتةُ اختيارِ لفظِ (قَوْم):

استنزالٌ لطائرِ النُّفورِ وجلبٌ لمشاعرِ القرابة

اختارَ صالحٌ عليه السلام لفظَ (قَوْم) في ندائهِم قَصْدًا إلى التّخفيفِ من غُلَواءِ نُفورِهِم وشِدَّةِ إعراضِهِم مذكِّرًا بأنّهُ منهُم؛ فقدْ كانَ مَرجُوًّا عندهُم، وأنّهُ لا يبتغي من دعوتِهِ إلّا الخيرَ والصّلاحَ لهُم[4].وفيه

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/111.
(2) القونوي وابن التمجيد، حاشيتان على البيضاوي: 10/127.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/111.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/50.

تحريكٌ للعلاقةِ النَّسَبيَّة وصلةِ القرابة، ودلالةٌ على التَّحبُّبِ والتَّودُّدِ والحَدَبِ والحنانِ[1]، وهذا شأنُ منْ يدعو بدعوةِ اللّهِ وطريقِ عبادتهِ؛ فقدْ خاطبَ الحقُّ سبحانهُ خيرَ الخلقِ بقولهِ: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: 159].

نكتةُ الإضافة لياء المتكلِّم المحذوف:

الانتماءُ برهانُ النَّصيحةِ

في إضافة لفظ (قَوْم) إلى ضمير المتكلِّم المحذوف، مزيدُ تأكيدٍ لهذه المعاني المذكورة، مع بيانِ أنَّه حريصٌ عليهم حرصَ الإنسانِ المنتمي إلى قومه، كأنَّه يقول لهم: أنتم قومي فكيف أخْذُلُكم وأغْدِرُ بكم وأُضْلِلكُم عنِ الصَّواب؟!

بلاغةُ الاستفهام في الآيةِ:

التّنبيهُ توطئةً وتدرّجًا لإغراءِ الفكرِ والنّظرِ وصولًا إلى الحقيقةِ

ابتدأ صالحٌ عليه السلام كلامَهُ بعدَ النّداءِ بالاستفهام ﴿أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي﴾ تنبيهًا وتحذيرًا لهمْ، وتقريرًا لما جاءَ بهِ، ولسانُ حالهِ أنْ قدْ رأيتُمْ وعَلِمتُمُ الحالَ الّتي أنا عليها[2]، ووطّأ كلامَهُ بطريقِ الاستفهام قصدًا منهُ إلى أنْ يثيرَ أفكارَهُمْ وأنظارَهُمْ وأنْ يتفكّروا وصولًا إلى الحقيقةِ بطريقِ التّدرّجِ والتّسلسلِ؛ فإنَّ التّدرّجَ حليفُ النّجاحِ والطّفرةَ حَليفة الفشلِ.

دلالةُ الاستفهام:

التَّعريض بمن لم ينفعه تأمُّلُه ولم يوصِلْه إلى صدقِ دعوتهِ

دلَّ الاستفهامُ في قوله تعالى: ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾ على معنى طلبِ الإخبارِ، أيْ: أخبروني[3]، وهو تقريرٌ مستعملٌ لمنْ يكونُ على حالٍ يجحدُ معهُ الخبرَ[4] الأكيدَ المؤيَّدَ بالدّلائلِ والبراهينِ كما هو حالُ صالحٍ عليه السلام في كونهِ على بَيّنةٍ وبرهانٍ منْ ربّهِ، أي: إنْ كنتُ على برهانٍ واضحٍ وكنتُ مرسَلًا منهُ تعالى برحمةِ الهدى والنّبوّةِ، ولمْ يظهرْ لكمْ ذلكَ،

(1) محمد الهلال، تفسير القرآن الثّريّ: 12/58.
(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 7/3725.
(3) السّمرقندي، بحر العلوم: 2/158، والسخاوي، تفسير القرآن العظيم: 1/386.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/51.

فلستُ أُلزِمكُمْ بأنْ تُذعِنوا وتصدّقوا بما تكرهونَ منْ أمرِ دعوتي إيّاكم، وفي ذلكَ تعريضٌ بهمْ؛ فإنّهم لو تأمّلوا تأمُّلًا خاليًا منَ الكراهيةِ والعنادِ، لَظَهرَ لهمْ صدقُ دعوتهِ جليًّا واضحًا[1].

الإشـــارةُ إلى المعاني الكثيرة بالألفاظِ القليلة

بلاغةُ حذفِ المفعولِ الثّاني:

حُذِفَ المفعولُ الثّاني للفعلِ ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾، وهو على معنى: هل أعصيه معَ ما أنا عليهِ من البيِّنةِ والبرهانِ؟! وهو مُسْتَدَلٌّ عليهِ منْ قولهِ تعالى: ﴿فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥٓ﴾، ثمَّ في الكلام محذوفٌ بعدَ تقديرِ المفعولِ الثّاني واكتمالِ الجملةِ على تقديرِ: أرأيتُمْ كذا وكذا! أيَضرُّني ما أنتمْ عليهِ من الشّكّ؟ أو أيُمكِنُني طاعتُكُمْ وأنْ أوافقكُمْ لما تريدونَ[2]، وفي الحذفِ دلالةٌ على المعنى من النَّظم، وهو أمارةُ الإيجاز، وبلاغةُ المجازِ.

العلمُ بالشّيءِ سببٌ للإخبارِ عنهُ

بلاغةُ استعمالِ المجازِ:

التّعبيرُ بالفعلِ ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾ منْ بابِ المجازِ، ومعناهُ: طلبُ الإخبارِ عنْ حالتِهمُ العجيبةِ؛ فيكونُ وجهُ المجازِ أنَّ العلمَ بالشّيءِ سببٌ للإخبارِ عنهُ، والإبصارِ بهِ وصحتهُما؛ لذا عبّرَ عنْ ذلكَ بالصّيغةِ الدّالةِ على الطّلبِ[3]، أي: أخبروني بالحالِ إن كنت على بيِّنةٍ من ربِّكم!

مقتضى الحكمةِ خطابُ المخالِفِ بلُطفِ العبارةِ استنزالًا له واستدراجًا لفكرِه

بلاغةُ اختيارِ ﴿إن﴾ دونَ (إذا):

اختارَ النَّظمُ أسلوبَ الشّرطِ بأداةِ ﴿إن﴾ في قولهِ تعالى: ﴿إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي﴾ مُؤْثِرًا إيّاها على (إذا)، والفرقُ بينهُما أنَّ ما اختارهُ مُؤذِنٌ بعدم تحقُّقِ الوقوعِ والتيقُّنِ منه، فيما تستعملُ (إذا) لِما قُطعَ بحصولهِ وكثُرَ وقوعُهُ[4]، وهو اختيارٌ دقيقٌ؛ فإنَّ منْ أرادَ الإقناعَ تنزّلَ معَ خصمهِ فيما يدّعيهِ، فإنّهمْ لَمّا ادَّعَوا صوابَ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/50 - 51.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/176.
(3) الدرّة، تفسير القرآن الكريم: 4/421.
(4) فاضل السامرائي، معاني النحو: 4/75.

منهجهمْ خاطبهُمْ خطابَ الظّنِّ لا القطعِ موافقةً لِهَواهُمْ، وتَلطُّفًا بهمْ رجاءَ اقتناعهمْ، وتَرْكِ ما همْ عليهِ من الضّلالِ، واستنزالًا لطائرِ عنادهِمْ.

وتعبيرُه ﷺ بالأداةِ ﴿إِن﴾ معَ يقينهِ بأنّهُ على المحجّةِ البيضاءِ، وأنَّ أمرهُ محقَّقُ الوقوعِ؛ وأنّهُ جازمٌ فيه؛ فَلِأنّهُ ساقَ خطابَهُ على زعم الجاحدينَ[1]؛ فذهبَ معهُمْ في اعتقادهِمُ الزّائفِ افتراضًا، ورعايةً لحسنِ المحاورةِ، وإبعادًا لهمْ عنِ المكابرةِ؛ لإقامةِ الحُجّةِ عليهِمْ، ولسانُ حالهِ يقولُ: ها أنا تابعتكُمْ وعصيتُ ربّي، فمنْ يمنعُ عنّي عذابَ اللّهِ[2]؟

كما أنَّ التَّعبيرَ بالأداةِ ﴿إِن﴾ مقابلةٌ لهمْ بخطابِهمُ الدّالِّ على الشّكِّ منْ ثلاثةِ أوجهٍ: الأوّلُ: ﴿قَدْ﴾ الدّالةِ على التّوقّعِ دونَ التّحقيقِ، والثّاني: التّعبيرُ بالرّجاءِ في قولهِ تعالى: ﴿قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا﴾، والثّالثُ: التّعبيرُ بالرّيبِ وهو أخصّ من الشّكِّ[3]، فمنْ كانَ هذا خطابهُ فَحَرِيٌّ أنْ يقابَلَ بمثلِ ما جاءَ بهِ.

سرُّ التَّعبيرِ بحرفِ الاستعلاءِ ﴿عَلَىٰ﴾:

تمكُّنُ أهلِ الحقِّ إيماءٌ إلى زعزعةِ أهلِ الباطلِ في الحُجَّةِ والبرهان

عبّرَ النَّظمُ الكريمُ عن حالةِ صالحٍ ﷺ المستبصِرَةِ بحرفِ الاستعلاءِ ﴿عَلَىٰ بَيِّنَةٍ﴾، وفي هذا التّعبيرِ ﴿عَلَىٰ بَيِّنَةٍ﴾ كنايةٌ عن شدّةِ التّمكُّنِ من الهدى والبيانِ والاستقرارِ فيهِ؛ فالمهتدونَ متمكِّنونَ تمكّنَ المستعلي على الشّيءِ المستشرفِ على منْ دونه[4]، كما أنَّ فيه إشعارًا برسوخِ إيمانِه القائمِ على الحُجَّةِ والبيِّنةِ لا الاتِّباعِ والتَّقليدِ، فهو إيماءٌ إلى أنَّ قومَه ليسوا متمكِّنين من حُجَجِهم، ولا قائمين على أدلَّةٍ مقنِعةٍ لهم أو لغيرِهم.

(1) القونوي وابن التمجيد، حاشيتان على البيضاوي: 10/128.
(2) الزمخشري، الكشّاف: 2/408، وأبو السعود، إرشاد العقل السّليم: 4/221.
(3) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/361 - 362.
(4) الشربيني، السراج المنير: 3/180، وفاضل السامرائي، معاني النحو: 3/48.

غرضُ تنكيرِ ﴿بَيِّنَةٍ﴾:

الاحتراسُ عن إرادةِ بيِّنةٍ بعينِها وتوجيهُ القصدِ إلى الحِجاجِ الخَطابيِّ

جاء لفظُ ﴿بَيِّنَةٍ﴾ نكرةً ومعناها البيانُ والبصيرةُ والبرهانُ[1]؛ تعريضًا بقوم صالح عليه السلام، فإنّ المرءَ إذا كانَ على أدنى بينةٍ وأقلِّ برهانٍ، فلا يَحسنُ أن يتّخذَ طريقَ الضّلالِ طريقًا، بلْ مآلهُ هدايةُ ربّ العالمينَ إلى طريقهِ القويم، ولو جاء بها معرفةً فقال: (إن كنت على البيِّنة) لالتفتَ الكلامُ إلى بيِّنةٍ بعينِها، ممّا يُوحي بأنَّهم طلبوا بيِّنةً وهو أجابهم عنها، وهذا غير مراد، بل المراد بينةٌ تُثْبِتُ صدقَه عليه السلام بقَطْعِ النَّظر عن أيِّ اعتبارٍ آخر.

معنى الحرف ﴿مِّن﴾:

مجيءُ البيِّنة من عند الله تعالى دليلُ صدقِ الرَّسول

أفاد الحرف ﴿مِّن﴾ في قولِه تعالى: ﴿إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي﴾ معنى ابتداءِ الغايةِ، أي: بيِّنة نازلةٌ أو كائنةٌ من عند اللّه تعالى، منتهيةٌ إليَّ، ففي ذكر معنى الابتداء حجَّة على أنَّه عليه السلام مرسَلٌ من ربِّه تعالى، وأنَّه قوّاه بالبينة لتكون شاهدَ صدقٍ على كونه رسولًا حقًّا.

فائدةُ اختيارِ لفظِ الرُّبوبيّةِ:

إبانةُ الحقِّ وإقامةُ الحجَّة من مقتضيات الرُّبوبيَّة امتنانًا وإرشادًا

في اختيارِ لفظةِ الرّبوبيّةِ وإيثارِها على الألوهيّةِ في قولِه تعالى: ﴿إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي﴾ فائدةٌ وهي إظهارُ الامتنانِ منهُ تعالى على عبادِه، فهو المحسِنُ إليهم الرّفيقُ بهم، وهو مالكُهُم ومتولّي أُمورِهم[2]، كما أنَّ فيه إشارةً إلى أنَّ رعايةَ العبادِ في إبانةِ الحقِّ لهم، وإقامة الحجَّة عليهم من مقتضيات ربوبيّته سبحانه وتعالى، فهو الذي خلقهم، وهو الذي يُرشدهم إلى الحقِّ.

نكتةُ الإضافةِ إلى ضميرِ المتكلِّم:

شرفُ الإرسالِ منَّةُ الرَّبِّ على الخلقِ

أُضيفَ لفظُ الرّبِّ إلى ضميرِ المتكلّم في قولِه تعالى: ﴿رَّبِّي﴾ لتشريفِ نبيِّ اللّه صالح عليه السلام وتكريمه، فهو الخالق المدبر الرازق

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 3/140.

(2) البقاعي، نظم الدّرر: 9/321، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/221.

المرشد والهادي إلى سواء السَّبيلِ، وهو الذي أنعم على عبادِه بالبيّناتِ والهدى، فأرسل رسولَه لإقامةِ الحجَّة على قومه، فهي البيِّنة من الرَّبِّ ﷻ لا منه ﷺ، فنكتةُ الإضافة تكمُنُ في إقامة الحجة على أنَّ الإرسال من لوازم ومقتضيات الرّعاية والعناية الربّانيَّة.

بلاغةُ ترتيبِ الجملِ في الآيةِ:

في قولهِ تعالى: ﴿إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي مِنْهُ رَحْمَةً﴾ جملتانِ استهلّهُما بكونهِ على بينةٍ، وثنّاهما بإتيانِ الرّحمةِ منهُ تعالى ولم يعكسْ؛ وذلك للآتي:

البَدْءُ بالعدلِ وهو إقناعٌ ثمّ أردفهُ بالفضل وهو إكرامٌ

الأول: هذا التّرتيبُ مؤسَّسٌ على الإقناعِ العقليّ للمخاطَبينَ؛ فبدأهُ بالعدلِ وهو إقناعٌ، ثمَّ أردفهُ بذكرِ فضلِ الحقِّ سبحانهُ على عبادهِ بمحضِ إرادتهِ وسبقِ علمه واقتضاءِ حكمتهِ.

الثّاني: الجملةُ الأولى أسبقُ زمنًا وطبيعةً من الثّانية؛ فإنَّ كونهُ على بينةٍ أسبقُ منْ إيتائِه الرّحمةَ الّتي فسّرها الكثيرُ من المفسّرينَ[1] بالنّبوّةِ والرّسالةِ وما انضافَ إليها منْ لوازمها كالوحيِ؛ لأنَّ النّبوةَ لا تكونُ عنْ جهلٍ بلْ تكونُ عنْ بينةٍ وبرهانٍ سابقَيْنِ لها.

الثّالث: تقديمُ البيّنةِ على الرّحمةِ منْ بابِ التّرتيبِ بينَ الخصوصِ والعموم؛ فالبيّنةُ أخصّ من الرّحمةِ؛ فإنَّ البينّةَ على صدقِ دعوتهِ داخلةٌ في جملةِ الرّحمةِ بهِ؛ فمنْ أوتيَ البيّنةَ فهو في رحمةِ اللّهِ[2]، ومنْ لم يؤتَ أصابهُ العنتُ واللأواءُ.

معنى الحرفِ (منْ):

حرف (منْ) في قولهِ تعالى: ﴿وَءَاتَىٰنِي مِنْهُ رَحْمَةً﴾ ابتدائيٌّ؛ فمعنى ﴿وَءَاتَىٰنِي مِنْهُ﴾، أي: آتاني من جهتهِ رحمةً[3]، وهي المفسَّرةُ

إيتاءُ الرّحمةِ ابتداءً منه تعالى دليلٌ على تشريفِ المقصودِ بها

(1) ابن عطية، المحرّر الوجيز: 3/184، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 9/25، والسعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 385.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/51.

(3) الشوكاني، فتح القدير: 2/576.

بالنّبوةِ والرّسالةِ والتّفضيلِ، وفي ذكر ابتداءِ إنزالِ الرَّحمة إضمارٌ لغايتِها وهي كونها نازلةً على نبيِّ اللّه صالح عليه السلام، فهو المقصود دون غيرِه، فهي تلوِّح بمعنى الاختصاص والاعتناءِ به دون سِواه، وقد دلَّ على ذلك قولُه تعالى: ﴿وَءَاتَىٰنِي﴾.

بلاغةُ تقديم الجارِّ والمجرورِ:

إيتاءُ النّبوةِ شرفٌ خاصٌّ بالنَّبيِّ ورحمةٌ عامَّةٌ للخلقِ

في تقديم الجارّ والمجرورِ على الاسم في قولِه تعالى: ﴿وَءَاتَىٰنِي مِنْهُ رَحْمَةً﴾ دلالةٌ بلاغيَّةٌ؛ فإنّهُ لمّا كانت الرّحمةُ هيَ النّبوةُ والرّسالةُ الّتي اصطفيتُ بها - والكلامُ لصالح عليه السلام - رحمةً للجميع[1]؛ فإنَّ إيتاءها خلقَهُ أوّ واحدًا منهمْ مقصورٌ عليهِ سبحانهُ لا غيرهُ؛ فالتّقديمُ يفيدُ الاختصاصَ والقصرَ، وفي ذلك بالغ التَّشريف والتَّكريم، وعظيم التَّبجيلِ والتعظيم، كما أنَّ في هذا التَّقديم سببًا سياقيًّا، فإنَّ الكلامَ في الآية في سياقِ قدرتهِ تعالى وعظمتهِ لا في سياقِ رحمتهِ؛ فتقدّمَ المتعلِّقُ وتأخّرتِ الرّحمةُ[2].

كما أنَّه كان الأحسن أن يقع ضمير الجلالةِ عقب فعل ﴿وَءَاتَىٰنِي﴾؛ ليكون تقييدُ الإيتاء بأنه من اللّه مُشيرًا إلى إيتاء خاص ذي عناية بالمؤتى؛ إذ لولا ذلك لكان كونه من اللّه تحصيلا لما أفيد من إسناد الإيتاء إليه، فتعين أن يكون المراد إيتاء خاصا، ولو أوقع منه عقب رحمة لتوهم السامع أن ذلك عوض عن الإضافة، أي عن أن يقال: وآتاني رحمته، كقوله: ﴿وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا﴾ [مريم: 21]، أي: ورحمتنا لهم، أي: لنعظهم ونرحمهم[3].

سرُّ التَّعبير بلفظِ ﴿رَحْمَةً﴾ وغرضُ تنكيرِها:

اشتمالُ الرَّحمةِ النّبوةَ والرّسالةَ والهدايةَ والإسلامَ؛ فهي لفظٌ واحدٌ شاملٌ لمعانٍ كثيرةٍ

جاءَ لفظُ الرّحمةِ منكّرًا في قولِه تعالى: ﴿وَءَاتَىٰنِي مِنْهُ رَحْمَةً﴾، ومعنى الرّحمةِ: النّبوةُ، ويَحْتَملُ الرّسالةَ، ويَحتملُ الهدايةَ، ويَحتملُ

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 7/3725.
(2) محمد الهلال، تفسير القرآن الثّريّ: 12/58.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/111 - 112.

الإيمانَ والإسلامَ، ويَحتملُ تلكَ المعاني جميعًا، وكلّها داخلٌ في معنى الرّحمةِ؛ فلمّا كانَ ذلكَ كذلكَ أوردها بصيغةِ التّنكيرِ لتشملَ المعاني المذكورة جميعًا[1] لما تعطيهِ النّكرةُ من معنى العموم، ومعنى الإفضالِ، فهذه رحمةٌ فكيف بالرَّحمةِ الاستغراقيَّة، وهذا كشفٌ عن عظيم الشُّكر والحمد الذي ملأ قلب صالحٍ عليه السلام.

توجيهُ المتشابهِ اللّفظيّ:

سياقُ آيةِ نوحٍ في الرّحمةِ فقدَّمَها، وسياقُ آيةِ صالحٍ في اللهِ تعالى فقدّمَ المتعلّقَ

في قوله تعالى في قصّةِ نوحٍ عليه السلام: ﴿وَءَاتَىٰنِي رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِهِۦ﴾ [هود: 28] تأخَّر ذكرُ الجارِّ والمجرور، بينما تقدَّم في قوله تعالى في قصّةِ صالحٍ عليه السلام: ﴿وَءَاتَىٰنِي مِنۡهُ رَحۡمَةٗ﴾، فيُسألُ عن الفرقِ بينَ الآيتين؟

والجوابُ عنْ ذلكَ: أنّهُ - وإنْ كانت الآيتانِ قولينِ متساويينِ لنوحٍ وصالحٍ عليهما السلام لأُمَّتيهما - قدَّم وأخَّر جريًا على سياقِ كلِّ آيةٍ؛ فإنَّ آيةَ نوحٍ: ﴿وَءَاتَىٰنِي رَحۡمَةٗ﴾ [هود: 28] جوابُ كلامٍ مشتملٍ على أفعالٍ متعدّيةٍ لمفعولينِ لمْ يفصلْ بينهُما بالجارِّ والمجرورِ وهيَ قولهُ: ﴿مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرٗا مِّثۡلَنَا﴾ [هود: 27] و﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ﴾ [هود: 27] و﴿بَلۡ نَظُنُّكُمۡ كَٰذِبِينَ ٢٧﴾ [هود: 27]، فكذلكَ لم يفصلْ بينَ فعلِ الإيتاء والرّحمةِ بالجارّ والمجرورِ[2].

أمّا موضعُ آيةِ صالحٍ عليه السلام فقد تقدّمهُ قولهُ تعالى: ﴿قَدۡ كُنتَ فِينَا مَرۡجُوّٗا﴾ فقد حيلَ بينَ كانَ وخبرِها - الّذي هو بمنزلةِ المفعولِ[3] - بالجارِّ والمجرورِ[4] فكذلكَ فعلَ في قولهِ: ﴿وَءَاتَىٰنِي مِنۡهُ رَحۡمَةٗ﴾ فتناسبا من هذهِ الجهةِ.

ولمّا كانَ سياقُ قصّةِ نوحٍ عليه السلام جاريًا في الرّحمةِ ومتعلّقاتِها بقولهِ: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِهِۦ

(1) محمد الهلال، تفسير القرآن الثّريّ: 12/58.
(2) الإسكافي، درّة التنزيل: 2/756، والأنصاريّ، فتح الرحمن: 1/263.
(3) الخليل، الجمل في النحو، ص: 73.
(4) الكرماني، أسرار التكرار في القرآن، ص: 144.

﴿فَعُمِّيَتۡ عَلَيۡكُمۡ أَنُلۡزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمۡ لَهَا كَٰرِهُونَ ٢٨﴾ [هود: 28] منْ نحوِ ﴿فَعُمِّيَتۡ﴾ [هود: 28]، ﴿أَنُلۡزِمُكُمُوهَا﴾ [هود: 28]، ﴿وَأَنتُمۡ لَهَا كَٰرِهُونَ ٢٨﴾ [هود: 28]، وكلّها تعودُ على الرّحمةِ؛ قدّمَ الرّحمةَ على الجارِّ والمجرورِ، أمّا آيةُ صالحٍ عليه السلام فسياقُها في اللّهِ تعالى ﴿رَّبِّي﴾، ﴿ٱللَّهِ﴾، ﴿مِنۡهُ﴾، (الضّميرُ في عصيتهُ) فاقتضى السّياقُ تقديمَ ﴿مِنۡهُ﴾ على الرّحمةِ، والهاءُ يعودُ عليهِ سبحانهُ[1].

معنى الفاءِ في الآيةِ:

الفاءُ في قولهِ تعالى: ﴿فَمَن يَنصُرُنِي﴾ للعطفِ والتَّرتيبِ وهو أشهرُ معانيها[2]؛ فهي "لترتيبِ إنكارِ النُّصرةِ على ما سبقَ منْ إيتاءِ النبوةِ وكَوْنِه على بينةٍ منْ ربهِ على تقديرِ العصيانِ حسبما يعربُ عنهُ قولهُ تعالى: ﴿إِنۡ عَصَيۡتُهُۥۖ﴾"[3]، على افتراض أن يوافقهم لما يريدون من صدهم عن دعوة التوحيد، أو أن يتوانى ويتنازل عن أمر اللّه تعالى بالتَّبليغ، فيترك أمرَ اللّه تعالى رغبةً في إرضائهم.

من تركَ اللهَ تركه جميعُ النّاس ومن لاذَ به استغنى عن جميعِ النّاس

بلاغةُ الإيجازِ في ربطِ الشَّرطِ بجوابهِ:

قولهُ تعالى: ﴿فَمَن يَنصُرُنِي﴾ جوابٌ، وشرطهُ قولهُ تعالى: ﴿إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي﴾، ومعانيه - وإنْ كانَ ذا لفظٍ قليلٍ - وفيرةٌ، وهذا شأنُ الإيجازِ؛ اللّفظُ القليلُ ذو المعاني الكثيرةِ، ففيهِ معنى الإلزام والجدلِ على وجهِ التّفصيلِ فإنْ كانَ إنكاركُمْ دعوتي ونبوّتي فلا ضيرَ؛ فإنّي على يقينٍ وبيّنةٍ بما جئتُ بهِ؛ فلا أعدلُ عنْ يقيني إلى شكّكُم وريبكُمْ، وإنْ كنتمْ ترونَ ذلكَ فلا تتوقّعوا منّي ذلكَ معَ علمكمْ أنَّ يقيني يخوّفني منْ عذابِ اللّهِ إنْ عصيتهُ؛ فلا أحدَ ينصرُني ويتولاني عندَ ذلكَ[4]، فانظرْ إلى هذهِ المعاني الجمّةِ

براعةُ الحِجاجِ اجتماعُ قوّةِ الإقناعِ وإعطاءِ البدائلِ وإلزامِ الخصمِ بالتَّسليمِ

(1) فاضل السامرائي، لمسات بيانية، ص: 515.
(2) ابن هشام، مغني اللبيب، ص: 213.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/221.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/112.

الواردةِ كيفَ جمعَها في لفظٍ موجزٍ هو قولهُ: ﴿فَمَن يَنصُرُنِي﴾ وهو جوابُ الشّرطِ.

غرضُ الاستفهام البلاغيُّ:

الاستفهام المشمولُ بمعنى النّفي أبينُ في العموم وأرسخُ في الإنكار

(فمَنْ) في قولهِ تعالى: ﴿فَمَن يَنصُرُنِي﴾ استفهامٌ دالّ على الإنكارِ[1] والجحدِ في أنَّ النّصرَ محجوبٌ عنهُ إنْ تخلّى عنْ دعوتهِ، وفي ذلكَ ذَمٌّ ولومٌ وقدحٌ للمخاطبينَ لفداحةِ ما يريدونَ منهُ عليه السلام، والمعنى: أنّي لا أجدُ نصيرًا وظهيرًا منْ أحدٍ إنْ عصيتهُ سبحانهُ في تبليغِ الرّسالةِ، وقعدتْ همّتي عن ذلكَ؛ فيكونُ استفهامًا على معنى النّفي[2]، وهو أبلغ في نفي عموم النّاصرين له من دون اللّه تعالى، وفيه إقامة الحجَّة بعد إبانةِ المحجَّة.

بلاغةُ التّضمينِ:

ضُمِّن الفعلُ (ينصرني) معنى الإنجاء والمنع على تقدير مجازٍ بالحذفِ

جاء التَّعبيرُ بالفعلِ ﴿يَنصُرُنِي﴾ معدًّى بحرف ﴿فَمَن﴾ لتضمينه معنى الإنجاءِ؛ أي: مَن يخلصني وينجيني من عذابِ اللّهِ وعقابهِ[3]؛ لأنّ عصيانهُ موجبٌ لعذابهِ، أو معنى المنع؛ أي: مَن يمنعُني منَ اللّهِ، أي: من عذابهِ وعقابهِ إنْ عصيتهُ في تبليغِ رسالتهِ، وفترتُ عن بلاغِ أوامرهِ وأحكامهِ[4]، وكلا التَّضمينين فيه مجازٌ بالحذفِ وتقديره: (فمن ينصرني من عذاب اللّه إن عصيته).

سرُّ اختيارِ لفظِ الجلالةِ ﴿ٱللَّهِ﴾:

الرّبوبيّةُ في موضعِ الإنعام والإحسانِ، والألوهيّةُ في موضعِ تربية المهابة

اختار النَّظم الكريمُ لفظَ الرّبوبيّةِ في قولِه تعالى: ﴿إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي﴾، ثمّ أتبعهُ في السّياقِ نفسهِ بلفظِ الألوهيّةِ: ﴿فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ﴾، فَهُما وإن كانا في سياقٍ واحدٍ إلّا أنّ موضعَ الرّبوبيّةِ جاءَ في الإنعام على عبدهِ بالبيناتِ، وهو شأنُ المحسنِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/112.
(2) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 9/59، والشوكاني، فتح القدير: 2/576.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/112.
(4) الفراء، معاني القرآن: 2/204، والقِنَّوجي، فتح البيان: 6/206.

المربّي، أمّا لفظُ الألوهيّةِ فجاءَ بالاسم الأعظم[1]؛ لأنَّه في مقام التّخويفِ والتّرهيبِ، ومقتضى الألوهيَّة زرع المهابة في قلوب العبادِ، فجاء النَّظم باللَّفظِ الأنسبِ لكلِّ معنًى.

بلاغةُ الإيجازِ بالحذفِ:

في قوله تعالى: ﴿فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ﴾ إيجازٌ بالحذفِ؛ فإنّ المعنى: فمَن يمنعُني من عذابهِ أو عقابهِ إن عصيتهُ فلا يكونُ لفظُ الجلالةِ مدخولًا لحرفِ الجرّ؛ لأنّهُ سبحانهُ ليسَ محلًّا للحوادثِ؛ فهو على حذفِ مضافٍ مقدّرٍ[2] وإقامةِ المضافِ إليهِ مقامهُ، وهو جائزٌ شائعٌ كثيرٌ في العربيةِ[3].

إن فُرِّط في جانب الأمانةِ العُظمى فإنَّ عذابَ الله لا يُمنع وعقابه لا يُدفع

بلاغةُ إظهارِ لفظِ الجلالةِ دونَ إضمارِه:

لَمّا تقدّمَ لفظُ الرّبّ مظهَرًا في قولهِ تعالى: ﴿مِّن رَّبِّي﴾ فكان مقتضى الظّاهرِ أن يُضمرهُ عندَ ذكرهِ كرةً أخرى بقولهِ: (منه)، لكنّ النَّظم أظهر لفظ الجلالةِ في قولهِ تعالى: ﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾؛ لأنّ المقامَ يقتضِي التّهويلَ والتّخويفَ، وإظهارَ المهابةِ فعبّرَ بالاسم الأعظم[4]، فوجب التَّفريق بين أمرين، أحدهما: إرسال اللّه نبيَّه ﷺ وهذا مقتضى الرُّبوبيَّة، والآخر: ما تقتضيه مخالفة الأمر الإلهيّ من المعصيةِ، فذلك ما تقتضيه الألوهيَّة، فكأنَّه يُخاطب قومَه بقولِه: إن الذي خلقني وربّاني ورزقني فأرسلني إليكم، لا مطمع ولا منجى من عقابِه إن عصيته فأخللتُ بالأمانة؛ فهي على غرارِ قوله تعالى: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ﴾ [غافر: 3].

دفـــعُ تـوهـم الطَّمع فيما لا طمعَ فيه

نكتةُ استعمالِ ﴿إِنۡ﴾ دونَ (إذا):

آثر النَّظم في قولِه تعالى: ﴿إِنۡ عَصَيۡتُهُۥۖ﴾ استعمالَ ﴿إِنۡ﴾ الدّالةِ

ما يحسُن في مواضعِ الإقناعِ لا يحسُنُ في مواضع الإمتاع

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 9/321.

(2) القونوي وابن التمجيد، حاشيتان على البيضاوي: 10/128.

(3) حذف المضاف كثير شائع في العربية، وذكر ابن جني شيوعه في القرآن الكريم فأوصل مواضعه إلى ثلاثمائةِ موضع، يُنظر: الخصائص: 2/454.

(4) البقاعي، نظم الدّرر: 9/321.

على عدم تحقُّقِ الوقوعِ، دونَ (إذا) الدّالةِ على تحقُّقِ الوقوعِ، وذلك أنَّ وقوعَ المعصيةِ من قبل صالح عليه السلام هو عبارةٌ عن افتراضٍ يفترضه بين القوم؛ للتَّنزُّل معهم إلى فهم العلاقةِ مع اللّه تعالى، في أداء الأمانة وتبليغ الرِّسالة، فكان الأنسب في ذلك استعمال ﴿إِنْ﴾، فإنَّ ما يحسُنُ في مواضعِ إقناعِ الخصم، لا يحسُن في سياقِ إمتاع المؤمنِ.

بلاغةُ الحذفِ:

يعمدُ المؤمنُ الحصيفُ إلى اختيارِ ألفاظِه وانتقاءِ كلماته

ما يقتضيه ظاهرُ قولِه تعالى: ﴿إِنْ عَصَيْتُهُۥ﴾ ترتُّب المعصية على طاعةٍ مقابلةٍ لها، والتقدير: إن أطعتكم فيما تريدون فعصيته فيما كلَّفني به، فهو مجازٌ بالحذفِ؛ لكنّهُ حذفَ الطّاعةَ المفترضةَ تنزيهًا لنفسهِ وتبعيدًا لها منْ ذلكَ الفعلِ الشّائنِ، ذَيَّل ذلكَ مؤكّدًا أنّه إنْ فعلَ ذلكَ فلنْ يزدادَ إلّا خسارًا.

بلاغةُ حذفِ الجوابِ:

مضامينُ النَّفسِ تُظهرها إشاراتُ الكلام

يقتضي قولُه تعالى: ﴿إِنْ عَصَيْتُهُۥ﴾ جوابًا، وهو هنا محذوفٌ لدلالةِ الكلام السّابقِ عليهِ، وهو قولهُ تعالى: ﴿فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ﴾؛ فهو محذوفٌ بعد ذكر الشّرطِ، مقدّمٌ في اللّفظِ؛ فكأنّ صالحًا عليه السلام أرادَ إلهابَ نفسهِ وتهييجَها بأنْ قدّمَ منعَ النّصرةِ عنهُ على عصيانهِ، ومَنْ كانَ هذا حالهُ فلا يحصلُ منهُ عصيانٌ أبدًا.

معنى الفاءِ:

نتيجةُ طاعةِ أهلِ الأهواءِ خسارةٌ حتميَّةٌ ورداءةٌ معميَّة

دلَّتِ الفاءُ في قولهِ تعالى: ﴿فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ﴾ على مجموعةٍ من المعاني الاصطلاحيَّة، التي قد تلتقي في المعنى العام، وهذا إيرادها:

الأوّل: السّببيةُ، وهو منْ معانيها المشتهرةِ في لسانِ العربِ لا سيّما في عطفِ الجملِ والصّفاتِ[1]، والمعنى أنَّ نهيكُمْ عنْ دعوتي لعبادتهِ

(1) أبو حيّان، ارتشاف الضرب: 4/1986.

سبحانهُ وتوحيدهِ تسبّبَ عنهُ أنّكمْ ما زدتموني غيرَ تخسيرٍ[1]، وذلك في حالِ تحقُّق المعصية.

الثاني: التّرتيبُ منْ غيرِ مهلةٍ، وهو معنًى شائعٌ فيها[2]؛ فقدْ رتّبَ زيادةَ الخسارةِ على المعصيةِ على تقديرِ حصولِها افتراضًا، معَ كونهِ ﷻ على بيّنةٍ منْ ربّهِ، وأنّهَ قدْ أوتيَ النّبوةَ على وجهِ القطعِ والتّحقيقِ[3].

الثّالث: التّفريعُ أو (الفاء الفصيحة)؛ فقد فرّعَ هذهِ الجملةَ على ما سبقَها منْ جملةِ الاستفهام الإنكاريّ على تقديرِ: إن كانَ ذلكَ هو مطلبكُمْ فما دعوتكُمْ لي إلّا تطلعٌ منكم في خيبتي وخسراني[4]، وهذا هو معنى الفاء الفصيحة، فيكون التَّفريع فيه تقدير محذوف شرطي، وهو شرط الفاء الفصيحة عند جمهور البيانيِّين.

بلاغةُ القصرِ:

دلَّ النّفيُ في قولهِ تعالى: ﴿فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ﴾ على قطعِ طمعهِم في تركهِ ﷻ لما هو عليه من البيّناتِ والهدى، وموافقتهم لما هم عليهِ من الإعراضِ والكفرِ والضّلالِ[5]؛ فهو بمنزلةِ الإخبارِ القاطعِ بعدم متابعتِهم لما يريدون، جاء على طريقِ النَّفي المتبوعِ بالاستثناءِ لاشتمالِه على الدَّعوى والدَّليل، فقام النّفي بدفع أي زيادةٍ تكون له إلّا شيئًا واحدًا وهو التَّخسير، وهذا أبلغ من الإخبار بعدم طاعته لهم.

طمعُ الكفّار إنَّما يكون في المتخاذلين الضُّعفاء لا المناصرين الأقوياء

سرُّ استعمالِ مفردةِ ﴿تَزِيدُونَنِي﴾:

لعلّ سائلًا يسألُ عن معنى الزّيادةِ في قولهِ تعالى: ﴿فَمَا تَزِيدُونَنِي﴾: أهيَ زيادةُ شيءٍ على شيءٍ موجودٍ أصلًا أو هيَ إحداثُ

التَّهكُّمُ بالمخاطَبِ الجاهلِ إشارةً بعدَ الإقناعِ عبارةً مطلبُ حكيمٍ وكلامُ عليمٍ

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 9/321.
(2) ابن يعيش، شرح المفصل: 5/12.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/222.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/112.
(5) البقاعي، نظم الدّرر: 9/321.

أمرٍ ليسَ موجودًا في الأساسِ؟ والجوابُ عنْ ذلكَ أنَّ الزّيادةَ هنا هي حصولُ حالٍ لمْ يكنْ موجودًا، ووجودهُ زيادةٌ على حالِ الإنسانِ؛ كأنَّه قال: فإنْ اتّبعتكُمْ وعصيتُ اللّه لمْ أزددْ إلّا خسرانًا[1]؛ خسرانَ الأعمالِ الصّالحةِ الّتي حصّلتها فيما مضى من عهدٍ؛ فتكونُ طاعتهُمْ خسارةً على خسارةٍ كقولهِ تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أُوحِيَ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ لَئِنۡ أَشۡرَكۡتَ لَيَحۡبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٦٥﴾ [الزمر: 65].

وفي استعمال هذه المفردة ﴿تَزِيدُونَنِي﴾ تهكُّمٌ بهم، إذ مقتضى الزِّيادةِ في الظّاهر خيرٌ يعمُّ صاحبَه، فلمّا أتى بهذه المفردة منفيَّةً؛ ظنَّ السّامعون أنَّه سيقول لهم: فما تزيدونني خيرًا، لكن أتى بذكر الخسارةِ ليعلم السّامعون أنَّ كلامَهم يُحيط به التَّباب والخسار من كلِّ جانبٍ.

نكتةُ التّعبيرِ بالفعلِ المضارعِ ﴿تَزِيدُونَنِي﴾:

أفصحُ الصِّيغ ما كانت معاضدةً لمعاني المفردات

عُبِّرَ بصيغة الفعل المضارعِ: ﴿تَزِيدُونَنِي﴾ الدّالِ على التّجددِ والاستقبالِ؛ لتقويةِ معنى التَّهكُّم في القوم، أي: إن كان هناك تجدُّدٌ في الزيادة فهو خسارةٌ تتلوها خسارة، وفيه إشارةٌ إلى إمكانِ جريانِ الحكم في كلّ زمانٍ، فإنَّ أمثالَ قوم صالحٍ لا تعدمُ أنْ تجدهُمْ في كلّ زمانٍ في صدّهمْ عن الدّعوةِ إلى اللّهِ تعالى؛ ولأنَّ زيادتهُمْ المفترضةَ أمرٌ مستقبليّ.

نكتةُ استعمالِ ﴿غَيۡرَ﴾ وموقعها الإعرابيّ:

استُعملَتْ (غَيْرَ) لما فيها من الاستثناءِ المشوبِ بالنَّفي

لفظةُ ﴿غَيۡرَ﴾ في قولهِ تعالى: ﴿فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيۡرَ تَخۡسِيرٖ﴾ دالةٌ على الاستثناءِ في المعنى، وهيَ مفعولٌ ثانٍ لفعلِ الزّيادةِ، أيْ: فما تزيدونني إلّا تخسيرًا[2]، واستعمالُ ﴿غَيۡرَ﴾ أقوى في الدّلالةِ منْ (إلّا) لأنهّا استثناءٌ مشوبٌ بالنّفي.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/112.
(2) العكبري، التبيان: 2/704.

بلاغةُ اختيارِ مفردةِ ﴿تَخْسِيرٍ﴾ مادةً وصيغةً:

المؤمن حصيفٌ نبيهٌ أن يقع في دركات الباطلِ الموصل

تحتملُ لفظةُ ﴿تَخْسِيرٍ﴾ أنْ تكونَ بمعنى التّكذيبِ، والمعنى فما يزيدني عملكُمْ وصدّكمْ عنْ دعوتي إلّا التّكذيب؛ فإنَّ التّكذيبَ موصلٌ لخسارتهِمْ وسببٌ لها[1]، وهذا المعنى من مضاعفات الخسارةِ، فإنَّ معصيةَ اللّه تعالى في بعضِ ما يطلبون، لن تحقِّق رضاهم، ولن تُؤتي ثمار الهداية، بل ستزيدهم طمعًا لينتقل من كونه عاصيًا إلى المعصية العظمى وهي ترك الأمانة، فهم يريدون أن يُجْعَلَ خاسرًا بأن يبطلَ اللّهُ عمله، ويتعرض لسخطهِ وغضبهِ تعالى[2]، وهو ما يُنبئ عن فهم صالحٍ عليه السلام لمطالبِ قومه، وأنَّهم إنَّما يطلبون منه ما يقودُه إلى مرادِهم بطريق التَّدرُّج في خطوات الباطلِ.

وتحتملُ لفظةُ ﴿تَخْسِيرٍ﴾ أنْ تكونَ دالةً على النّسبةِ؛ فالعربُ تقولُ: فسّقتهُ إذا نسبتَهَ إلى الفسقِ، وهو أن تنسبَ المفعولَ إلى أصلِ الفعلِ وتُسمّيَه بهِ[3]، وفجّرتُهُ إذا نسبتَهُ إلى الفجورِ، وكذلكَ خسّرتهُ إذا نسبتهُ إلى الخسرانِ[4]، وتحتملُ النّسبةُ أن تكونَ منهُ عليه السلام لهم، أو منهُم لهُ[5] عليه السلام، أي: فما تزيدونني غير أن أتّهمكم بالخسارةِ، أو فما تزيدونني إلّا باتِّهامي بأني خاسر.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

البيّنةُ والبرهانُ والحجّةُ:

البيّنةُ دليلٌ واضحٌ، والبرهانُ شهادةٌ بصحّةِ البيِّنة، والحجّةُ استقامةُ المقصد

البيّنةُ من البيانِ بمعنى الظّهورِ والانكشافِ والوضوحِ[6]، وهو الحالُ الّتي يكونُ عليها الأنبياءُ ومنهمْ نبيّ اللّهِ صالحٌ عليه السلام لتكليفهِ

(1) السّمرقندي، بحر العلوم: 2/158.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/221.
(3) الأستراباذيّ، شرح شافية ابن الحاجب: 1/94.
(4) الثعلبي، الكشف والبيان: 14/393، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 18/368.
(5) النسفي، مدارك التنزيل: 2/70.
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بين).

بالنّبوّةِ المعبّرِ عنها بالرّحمةِ؛ فإنّهُ قائدُ قومهِ إلى طريقِ اللّهِ وطريقِ الحقّ، فالوضوحُ منْ شرائطِ النّبوّةِ؛ لذلكَ عابَ الحقُّ سبحانهُ في آياتهِ رؤوسَ الكفرِ المضلّينَ كقولهِ في فرعونَ: ﴿يَقۡدُمُ قَوۡمَهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَأَوۡرَدَهُمُ ٱلنَّارَۖ وَبِئۡسَ ٱلۡوِرۡدُ ٱلۡمَوۡرُودُ ٩٨﴾ [هود: 98].

أمّا البرهانُ فهو القولُ الّذي يشهدُ بصحّةِ الأمرِ المَدْعُوِّ إليهِ وهو حجّةٌ قاطعةٌ للعلم بالشّيءِ[1]، وهذا لا يكونُ إلّا تاليًا للنّبوّةِ.

أمّا الحجّةُ فهيَ "الاستقامةُ في النّظرِ والمضي فيهِ على سَنَنٍ مستقيم... مشتقةٌ منْ معنى الاستقامةِ في القصدِ؛ حجّ يحجُّ إذا استقامَ في قصدهِ"[2] فالحجّةُ والبرهانُ إنْ كانا متقاربينِ معَ البيّنةِ فإنّ البيّنةَ أسبقُ وضعًا لمنْ يُصطفى بالنّبوّةِ، وهو أنْ يكونَ على بيّنةٍ ثمَّ يأتي بالبراهينِ والحججِ إنْ احتيجَ إلى ذلكَ.

(1) العسكري، الفروق اللغوية: 97.

(2) العسكري، الفروق اللغوية: 233 - 234.

﴿وَيَٰقَوۡمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمۡ ءَايَةٗۖ فَذَرُوهَا تَأۡكُلۡ فِيٓ أَرۡضِ ٱللَّهِۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابٞ قَرِيبٞ ٦٤﴾ [هود: 64]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

بعد تقرير الحقائق يأتي تقريرُ الأدلة والبراهين

لَمّا ذكرتِ الآية السّابقة البيِّنة، وأنَّ صالِحًا عليه السلام ادَّعى أنَّه مرسَلٌ من اللّه تعالى، وأنَّه لن يحيد عن طريق الحقِّ والفوز، أراد أن يذكر لقومه ما يكون علامةً على صدقِه فيما زعم، فجاءَ بالنّاقةِ شاهدًا على كونهِمْ والأوْثانِ سَواءً في عدم اهتدائهِمْ، وقدْ أوردَ في الآيةِ السّابقةِ قولهُ: ﴿أَرَءَيۡتُمۡ﴾ وهو أسلوبٌ إنشائيّ مثيرٌ للذّهنِ باعثٌ على التّفكّرِ للإجابةِ عن ذاك الاستفهام أوْ تقريرِه، ثمَّ جاءَ بخبرِ النّاقةِ وما كانَ منْ معجزتِه فجعلَ الاستفهامَ توطئةً لخبرِ النّاقةِ ظنًّا منهُ أنَّ ذلكَ أقومُ في قَبولِهِمُ الحَقَّ ودعوةَ الهدى، فالمناسبةُ بين الآيات تكمُن في الانتقال من تقرير النبوّة إلى تقرير دليل النُّبوّة.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ءَايَةٗۖ﴾: أصلُ الآية: العلامَة الثّابتة الدّالَّةُ على أمْرٍ منْ شَأْنِه أنْ يَخْفَى، وهي في القرآن على وجهين: الأوَّل: العِبرة، قال تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةٗ﴾ [المؤمنون: 50]، أي: عِبرة يُعتبر بها، والثّاني: العلامة، قال تعالى: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ خَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [الروم: 22]، أي: ومن العلامات على ربوبيته. والوجهان مُتقاربان يَصلح استعمالُ أحدِهما في موضع الآخر[1].

والآيَة مفرد آيات، وآياتُ اللّهِ: دلائله وعَجائِبُه[2]، والمقصود بـ (آيةً) في الآية: المعجزة الدّالة على صِدْق النُّبوَّة[3].

(1) العسكري، الوجوه والنظائر، ص: 92.
(2) الزبيدي، تاج العروس: (أيي).
(3) المراغي، تفسير المراغي: 12/55.

2) ﴿فَذَرُوهَا﴾: أصلُ (وذر): القَذْفُ والتّرْكُ[1]، يُقالُ: فُلانٌ يَذَرُ الشَّيءَ، أي: يَقذفه لِقلَّةِ اعتِدادِهِ به. وأصله الحسيّ مأخوذٌ من الوذرة، وهي قِطعةُ لحم صغيرةٍ سُمِّيت بذلك لِقلَّة الاعتداد بها، والجمع وُذَر[2]. والعَرَبُ قد أماتتِ المَصْدرَ من (يَذر) والفِعْلَ الماضِي، واسْتَعْمَلَتْه في الحاضِر والأمْر، فإذا أرادُوا المَصْدر قالُوا: ذَرْه تركًا[3]. ومعنى ﴿فَذَرُوهَا﴾: اتركوها.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

تُبيِّن الآيةُ قولَ صالح ﷺ لقومه بعد ظهور آية النّاقة: يا قوم هذه ناقةُ اللّهِ جعلَها لكم حُجَّةً وعلامةً تدُلُّ على صِدقي فيما أدعوكم إليه، فاترُكوها تأكُلْ في أرضِ اللّه؛ فليس عليكم رِزقُها، ولا تَنالوا النّاقةَ بشَيءٍ من الأذى؛ فإنَّكم لو فعلتُم ذلك عرَّضْتُم أنفسَكم لعذاب اللّه العاجِل القَريب[4].

لكلِّ نبيٍّ مُعجزةٌ دالَّة على صِدْقه فيما يبلِّغه عن ربِّه

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ عطفِ ﴿وَيَقَوْمِ﴾ على ما سبقَ:

عطفُ قولِه تعالى: ﴿وَيَقَوْمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ﴾ على ما سبقَ مُؤْذِنٌ بأنَّ العطفَ منْ مقولِ صالحٍ ﷺ لا منْ حكايةِ اللّهِ تعالى؛ فإنَّ اتّحادَ المنادى يوجبُ عدمَ العطفِ[5]، فضلًا عن أنّ العطفَ يقتضي المغايرةَ.

وفي العطفِ إشارةٌ إلى أنَّ كلَّ نداءٍ متّصلٌ بالآخرِ، وأنّ بعضَها آخذٌ برقابِ بعضٍ لا يستغني أحدُها عن الآخرِ لكنّهُ ليسَ منْ قبيلِ الوصلِ[6]، فهما نداءان استقلَّ كلُّ واحدٍ منهما بمعنًى، وارتبطَ كلٌّ منهما بالآخر ارتباطَ الدَّليل بالدَّعوى.

استقلالُ الجملِ بمعنًى لا يُلغي وصلَ إحداها بالأخرى

(1) الأزهري، تهذيب اللغة، والسّمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (وذر).
(2) السّمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (وذر).
(3) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (وذر).
(4) ابن جرير، جامع البيان: 12/455، ورشيد رضا، تفسير المنار: 12/103.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/53.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/54.

بلاغةُ تَكْرارِ النِّداء:

شدَّةُ العَماية وغلبةُ الغَواية تُحوِجان إلى الإيقاظِ والمراجعةِ

استهلّ صالحٌ عليه السلام خطابهُ بقولهِ: ﴿وَيَٰقَوۡمِ﴾، وغايةُ خطابِ النّداءِ طلبُ إقبالِ ذهنِ المنادى[1] كيْ يعيَ الكلامَ الملقى إليهِ لأهميتهِ، ولمّا كانَ النّداءُ متكرِّرًا هنا كانَ الغرضُ منهُ توكيدَهُ لما لهُ منْ أهميةٍ بالغةٍ، ووجه هذه الأهميَّة أنَّ القومَ احتاجوا إلى نداءٍ آخر يُحرِّك أذهانَهم، ويوقظ قلوبَهم، ويُسمع آذانهم البعيدة، فوجودُ النِّداء وتَكراره دليلٌ على بعد القوم عن الحقِّ، وشدَّةِ التصاقِهم بالباطلِ.

بلاغةُ التَّعبيرِ باسم الإشارةِ:

المشاهدةُ أبلغُ من الأخبارِ المجرَّدةِ وأرسخ في تحقيق المقصود

جاءَ التّعبيرُ باسم الإشارةِ في قولهِ تعالى: ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ﴾ لما تعطيهِ من معنى التّنبيهِ والإشارةِ، أيْ: انتبهوا إلى الآيةِ المعجزةِ، وها أنا أشيرُ إليها[2]، والإشارةُ دالّةٌ على الحضورِ والمعاينةِ، وهيَ أبلغُ في إيصالِ المعنى المقصودِ، من مجرَّدِ ذكرِه غيابًا، مع ما فيه تصوير المشهدِ، فهذا يقتضي أنْ تكونَ النّاقةُ حاضرةً معاينةً، والإشارةُ إليها إظهارٌ لمعجزتهِ ليروها بأعينِهمْ عسى أنْ تلينَ قناةُ عنادِهمْ، كما أنَّ فيه إقامةَ الحجَّة في فهم المقصودِ دون وجودِ احتمال بخلاف المطلوبِ.

دلالةُ التّعريفِ بالإضافةِ:

في النّاقةِ خصوصيةٌ مباينةٌ لغيرِها من النّوقِ بما جعلَها آيةً من الله تعالى

أُضيف لفظُ النّاقة إلى لفظِ الجلالةِ في قولهِ تعالى: ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ﴾ دون أن يقول: (هذه النّاقةُ لكم آية)، وذلك لوُجوه:

الأول: الإشارةُ إلى خصوصيةٍ في تلكَ النّاقةِ لا توجَدُ في سواها من النّوقِ، فقد جعلها معجزةً لنبوّتهِ[3] عليه السلام، فهي لا تشبهُ ما شاهدوهُ من النّوقِ في عظمها وصفاتِها، وهي مباينةٌ لغيرِها في تلكَ الصّفاتِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/50.
(2) المنتجب الهمذاني، الكتاب الفريد: 3/487.
(3) الماتريدي، تأويلات أهل السّنّة: 6/150، والقاسمي، محاسن التأويل: 6/113.

خلقًا وخلقةً، فالإضافة فيها معنى (من)، أي: ناقةٌ من الله لكم، فالله جعلها لكم آيةً منه، ففيه إقامةُ الحجَّة عليهم، مع تكريم المخاطَبين بأن جعل الله لهم آيةً منه.

الثّاني: في تعريفِها بإضافتِها إلى اسمِهِ تعالى وتركُ تعريفِها بأل تشريفٌ لها[1]؛ فإنَّ الحقَّ سبحانهُ أمرَ بالإحسانِ إليها، وتعظيم حرمتِها كما يقالُ: في الكعبةِ بيتُ اللهِ[2].

الثالث: الإشارةُ إلى خرقِها للعادةِ، ففي إضافتِها إلى اسم الحقِّ سبحانهُ دلالةٌ على أنه خالقُها بقدرتِهِ تعالى الخارقةِ إذ ليستْ على مثالٍ لانتفاءِ ما يكونُ الشّأنُ أنْ تضافَ إليهِ منْ دواعي وجودِ أمثالِها[3]؛ فهيَ كقولِهِ في عيسى عليه السلام: كلمةُ اللهِ في أنّهُ مباينٌ لسواهُ من الخلقِ لكونِهِ من غيرِ أبٍ.

نكتةُ تقديم ﴿لَكُمْ﴾ على ﴿ءَايَةً﴾:

المقدّمُ حالٌ للاختصاصِ والمؤخّرُ حالٌ للإعجازِ وهو من بديعِ اجتماعِ الأحوالِ

قُدِّم الجار والمجرور ﴿لَكُمْ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً﴾ على ﴿ءَايَةً﴾، وهو في الأصلِ صفةٌ لـ ﴿ءَايَةً﴾؛ فهي في الأصل: هذه ناقة الله آيةً كائنةً لكم، فلمّا تقدمتِ الصفة على الموصوفِ أُعربت حالًا، و﴿ءَايَةً﴾ نفسُها حالٌ[4]، فاجتمعَ للنّاقةِ حالانِ، حالٌ في كونِها خاصةً لكم لأنّكم تشاهدونَها عِيانًا[5]، وهو ما أفادَ الاختصاصَ، وحالٌ أنّها معجزةٌ بما أفادهُ معنى ﴿ءَايَةً﴾ أي: مُعجزةً؛ فأفادَ وظيفةَ النّاقةِ وغايةَ إيجادِها، وهذا منْ بديعِ اجتماعِ الأحوالِ في الشّيءِ الواحدِ.

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/222.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8ب/218.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8ب/218.
(4) السّمين الحلبي، الدّرّ المصون: 6/348.
(5) البقاعي، نظم الدّرر: 9/322.

سرُّ التّعبيرِ بآيةٍ:

تقابل الألفاظِ الدّالةِ على المعاني المتضادَّة تناسقٌ لفظيٌّ وتناسبٌ دلاليٌّ

لَمّا جعل قومُ صالح عليه السلام الشّكَّ والرّيبَ شعارًا لهم في قولهِم: ﴿وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾﴾ [هود: 62] ناسب أن يُجيبهم عليه السلام بما يدفع شكَّهم بقولهِ: ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً﴾، والآيةُ هنا المعجزةُ؛ فعبَّر بالآيةِ لإزالةِ شكّهم[1] قطعًا لأعذارهِم، وإقامةً للحجّةِ عليهِم؛ فَحَسُنتِ المقابلةُ بين الشَّكِّ والآية؛ لما يحمله لفظُ الشَّكِّ من الاضطراب والقلق، وما يحمله لفظُ الآية من البرهان والحجَّة القاطعة، وبالتَّقابل الدلالي حسُن الانتقاءُ وجَمُل.

معنى الفاءِ:

الفاءُ فصيحةٌ دالّةٌ على شرطٍ محذوفٍ

صدّرَ قولهُ تعالى: ﴿فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِيٓ أَرْضِ ٱللَّهِ﴾ بالفاءِ الفصيحةِ[2] الدّالةِ على شرطٍ مقدّرٍ ممّا قبلَها، والتَّقدير: إذا كانت آيةً بيّنةً ومعجزةً ظاهرةً لنبيّهِ؛ فاتْرُكوها تأكلْ في أرضِ اللّهِ[3].

غرضُ الأمرِ ﴿فَذَرُوهَا﴾:

تحذيرُ الأعداءِ من وقوعِ العذابِ عدالةٌ ورحمة

غرضُ الأمرِ في قولهِ تعالى: ﴿فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِيٓ أَرْضِ ٱللَّهِ﴾ طلبُ تركِ النّاقةِ تأكل في أرضِ اللّه تعالى، وهو أمرٌ تحذيريٌّ ملزِمٌ لهم؛ لما تعلَّق به من النَّهي وما فُرِّع عنهما من التَّحذير من مسِّ السُّوءِ لهم، إن منعوها من الرّعي، أو آذوها فيصيبهم العذابُ.

توجيهُ تخصيصِ الأكلِ بالذِّكر:

ذكرُ الأكلِ منفردًا من بابِ الاكتفاءِ لتضمُّنهِ الشّربَ وهو مجازٌ عن التّغذّي مطلَقًا

لَمّا أرشد نبيُّ اللّهِ صالحٌ عليه السلام قومَهُ في التّلطُّفِ معَ النّاقةِ؛ خاطبهُمْ بقولهِ: ﴿فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِيٓ أَرْضِ ٱللَّهِ﴾ مقتصرًا على ذكرِ الأكلِ دون الشُّربِ، معَ أنّها تأكل وتشرب، أيْ: ذروها تأكل وتشرب، أوْ أنْ يكونَ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/113.

(2) هيَ الفاء التِي تُفصحُ عن محذوفٍ يقدِّرُه المخاطَبُ من السِّياقِ، وجمهورُ البيانيينَ يشترطونَ تضمينَ المقدَّرِ شرطًا. يُنظر: الدرّة، فتح الكبير المتعال: 1/58.

(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 7/3726.

الأكلُ مجازًا عن التّناولِ والتّغذّي مطلَقًا[1]، أيْ: ذروها ترعَ النّباتَ وتَشربِ الماءَ؛ فالأكلُ متضمّنٌ الشّربَ؛ كما أُشير في قولهِ تعالى: ﴿قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرۡبٞ وَلَكُمۡ شِرۡبُ يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ ١٥٥﴾ [الشعراء: 155]، وقولِه تعالى: ﴿وَنَبِّئۡهُمۡ أَنَّ ٱلۡمَآءَ قِسۡمَةُۢ بَيۡنَهُمۡۖ كُلُّ شِرۡبٖ مُّحۡتَضَرٞ ٢٨﴾ [القمر: 28]، فوجه تخصيصِ الأكلِ بالذّكر في هذا السِّياق يظهر في أنَّ السِّياق بُنِيَ على الإجمالِ دون التَّفصيل، فاكتفى بذكرِ الأكل لدلالته على الشُّرب، ولأنَّ الغرضَ هو بيانُ أنَّ المطلوب عدمُ مسِّ النّاقة بسوءٍ. كما أنَّ هذه الآية عيَّنت أدنى المطلوب وهو عدم مسِّها بسوءٍ، بخلاف آية الشعراء والقمر فقد حدَّدتا أنَّ المطلوبَ هو أن يكون للنّاقة شِرْبٌ لا يقربوه، فحسُن في كلِّ سورةٍ ما يُناسبها. كما أنَّ هذه السُّورة وسورة الأعراف ذُكِر فيها إضافة الناقة إلى لفظ الجلالة، وفي كلا السُّورتين ورد ذكر الأكل دون الشرب، بخلاف آيتي الشعراء والقمر فجاء ذكر الناقة نكرةً غير مضافة، فهناك تَنَوُّعٌ يدور بين الإجمال والتَّفصيل في السور، فآثَرَ هنا ذِكْرَ الأكلِ بيانًا للإجمال، ولما بُنيت سورتا الشعراء والقمر على ذكر التفاصيل ناسب ذلك تعيين أنَّ القسمة في المشرب.

نكتةُ استعمالِ حرفِ الظَّرفيّةِ:

آيةُ الله تنطلق دون تحديدٍ أو تقييد وهي بذلك أولى من السّائبة

في قولهِ تعالى: ﴿تَأۡكُلۡ فِيٓ أَرۡضِ ٱللَّهِۖ﴾ استعملَ حرفَ الظّرفيةِ ﴿فِيٓ﴾ لبيان أنَّ عليهم أن يتركوها تأكل في اتِّساعٍ من الأرض فلا تُقيَّد بقيدٍ، أو مكانٍ، أو مرعًى دون آخر، بينما لو استعمل حرف (من) لدلَّ على التَّبعيض، الدّال على التَّعيينِ والتَّحديد. وفيها إشارةٌ لاذعةٌ للمشركين الذين يُسيِّبون السّائبةَ بقصدِ تقديس الأوهام والخرافات وحماقات الآباء والأجداد، وإشارة إلى أنَّ تسييبَ السّائبة ليس لأحدٍ أن يفعله إلّا الله ﷻ.

(1) الآلوسي، روح المعاني: 6/288.

بديعُ التَّعريفِ بإضافة ﴿أَرۡضِ﴾ للفظِ الجلالةِ:

يرعى الطُّغاة في أرض الله، من حيث يمنعون من يريده الله فيها

في إضافةِ ﴿أَرۡضِ﴾ إلى الاسم الجليلِ في قولهِ تعالى: ﴿تَأۡكُلۡ فِيٓ أَرۡضِ ٱللَّهِ﴾ فوائد منها:

الأولى: تربيةٌ لاستحقاقِها لذلكَ الأمرِ، وأنّهُ سببٌ للأمرِ بتركِها وشأنها[1] وعدم التّعرضِ لها، أو مسّها بسوءٍ.

الثّانية: في الإضافةِ إلى اسمهِ تعالى أنَّ المرادَ بها الأرضُ الّتي أباحَها الحقُّ سبحانهُ للأنعام، والّتي ينبتُ فيها الشّجرُ والكلأُ دونَ ما يقومُ النّاسُ بزراعتهِ والاعتناءِ بهِ وحمايتهِ[2].

الثالثة: إظهارُ منّةِ اللّهِ عليهمْ، فللنّاقةِ حقّ في أن ترعى نباتَ الأرضِ؛ فالأرضُ أرضُ اللّهِ، والنّاقةُ منْ مخلوقاتهِ، ولها الحقُّ في الانتفاعِ بأرضهِ[3]، ثمّ إنّ الإضافةَ تقتضي الملكَ؛ فاللّهُ تعالى صاحبُ الحقِّ المطلقِ في الأمرِ والنّهي، وقتما يشاءُ فكلّ شيءٍ بإرادتهِ، لكنَّ هؤلاء الطغاة يُريدون التَّصرف في أرض اللّه تعالى كما يشاؤون، ويمنعون منها من يشاؤون!

بلاغةُ عطفِ النَّهي على الأمرِ:

مباغتةُ الخَصْم في مَنْعِ ما يجولُ في صـــدرِه من القبائحِ

لمّا كان الخصمُ لا يتمنى ظهورَ خصمهِ عليهِ بالحجّةِ البالغةِ، ويسعى إلى إفشالِ حجّةِ خصمهِ وإبطالها ما استطاعَ إلى ذلكَ سبيلًا، كان هذا سببًا وجيهًا لأنْ يعطفَ قولهُ تعالى: ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ﴾ على قولهِ تعالى: ﴿فَذَرُوهَا﴾ من باب الاحتياطِ درءًا لإقدامهم على قتْلِ النّاقة[4].

نكتةُ استعمالِ مفردةِ ﴿تَمَسُّوهَا﴾:

التَّنبيهُ على الأعلى بالأدنى مبالغةً في النّهيّ

نُهي عن (المسّ) في قولهِ تعالى: ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ﴾ دونَ

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/222.
(2) رشيد رضا، تفسير المنار: 8/447.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8ب/218.
(4) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 18/369.

(اللّمسِ) لأنَّ المسَّ هو مقدمةُ الإصابةِ بالشرّ الشامل لأنواع الأذى، أي: لا تتعرضوا لها بشيء مما يسوؤها أصلاً ولا تطرُدوها ولا تريبوها إكرامًا لآية الله تعالى[1]؛ فإنَّ المسَّ موطِئٌ للإصابةِ بما هو أكبرُ منهُ وأعظمُ من اللّمسِ، فإذا نهاهُمْ عن الأدنى فهو نهيٌ عن الأعلى منْ بابِ أوْلى.

معنى الباءِ:

الباءُ للملابسةِ بقصدِ السّوءِ

دخولُ الباءِ على مفردةِ السّوءِ في قولهِ تعالى: ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ﴾ دالٌّ على الملابسةِ، والجارّ والمجرورُ في موضع الحالِ من فاعلِ المسّ، أي: لا تمسّوها بقصدِ السّوءِ[2]، أي: حالَ كونكُم ملابسينَ هذا الفعلَ مصرِّينَ عليهِ.

غرضُ تنكيرِ ﴿بِسُوٓءٍ﴾:

اشتمالُ لفظِ السُّوءِ أنواعَ الأذى والضَّرر

لمّا نهاهُم عن أن يمسّوها بسوءٍ أوردَ هذا السّوءَ منكّرًا، ولم يبينْ ما هو، ولذلك فوائد:

الأولى: احتمالُ أن يكونَ سوءًا معروفًا لديهم فنهاهُم عنهُ[3].

الثّانية: ليكونَ شاملًا لأنواعِ الأذى والضّررِ المتوقّعِ منهمْ منْ ضربٍ وطردٍ ومكروهٍ ونحو ذلكَ، فضلًا عنْ أنْ يرتكبوا أكبرَ منهُ منْ عقرٍ وقتلٍ[4].

الثّالثة: في تنكيرِ لفظِ السّوءِ في سياقِ النّهي يتبادرُ إلى الأذهانِ أنَّ الوعيدَ بالعذابِ يترتّبُ على أيِّ نوعٍ منْ أنواعِ الإيذاءِ مهما كانَ صغيرًا؛ في نفسِها أوْ أكلِها أوْ شربِها، فكيفَ وقدْ جاؤوا بأفظعَ منْ ذلكَ بعَقْرِها[5].

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/242.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8ب/219.
(3) الماتريدي، تأويلات أهل السّنّة: 6/151.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/222، والحداد، تفسير الحداد: 3/162.
(5) رضا، تفسير المنار: 8/448.

معنى الفاءِ:

مسُّ النّاقةِ بسوءٍ يتسبَّبُ بعذابٍ قريبٍ

الفاءُ في قولِه تعالى: ﴿فَيَأْخُذَكُمْ﴾ عقِبَ قولِه تعالى: ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ﴾ دالَّةٌ على السّببيةِ؛ كأنَّه قال: فإنّكم إنْ مسستموها بسوءٍ في ذاتِه أو فيما يؤولُ إليهِ وقعَ بسببِه عليكُم عذابٌ لا تفلتونَ منهُ فيهلككُم[1].

بلاغةُ المجازِ في إسنادِ الأخذِ للعذابِ:

كنايةٌ عن القهرِ والغلبةِ والإحاطةِ والشّمولِ

أُسندَ الأخذُ للعذابِ في قولِه تعالى: ﴿فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ﴾، والأصلُ في الأخذِ أنْ تتناولَ شيئًا باليدِ، ويستعملُ مجازًا في ملكِ الأشياءِ لزومًا، ويستعملُ في القهرِ والغلبةِ، وبما يوحيهُ الأخذُ من الإحاطةِ والشّمولِ[2] فهو عذابٌ محيطٌ بهم من جميعِ جهاتِهم، فالاستعمالُ المجازيُّ كنايةٌ عن شدَّةِ العذابِ المحيطِ بهم بما لا مفلتَ منه ولا مهربَ.

بلاغةُ الاستعارةِ التَّصريحيَّةِ في لفظِ الأخذِ:

الإيذانُ بسرعةِ الإصابةِ وشدّتها وخفائِها

قولُه تعالى: ﴿فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ﴾ من بابِ الاستعارةِ[3] في فعلِ الأخذِ؛ فقدْ شُبّهتِ الإصابةُ بالأخذِ، وصرّحَ بالأخذِ منْ بابِ الاستعارةِ التّصريحيةِ التّبعيةِ، والغرضُ منها بيانُ سرعةِ الإصابةِ وخفائِها وشدّتها فإنَّ أخذهُ سبحانهُ أليمٌ شديدٌ[4].

بلاغةُ الاستعارةِ المكنيَّةِ في لفظِ العذابِ:

تشخيصُ العذابِ على هيئةِ رجلٍ يأخذُ المعذَّبينَ

ونُزِّلَ لفظُ المسندِ إليهِ ﴿عَذَابٌ﴾ في قولِه تعالى: ﴿فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ﴾ منزلةَ العاقلِ؛ فقد شبّهتِ الآيةُ العذابَ بشخصٍ

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 7/3726.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/227.

(3) أن يكون للّفظ أصلٌ في الوضع اللُّغويّ معروفٌ، تدلّ الشّواهد على أنّه اختصّ به حين وضع، ثمّ يستعمله الشّاعر أو غير الشّاعر في غير ذلك الأصل" كقولنا: (رأيتُ أسدًا في المدرسةِ) فالأصل (رأيتُ رجلاً شجاعاً كالأسدِ في المدرسةِ) ثمّ صارت الجملة إلى ما ترى، يُنظر: الجرجانيّ، أسرار البلاغة، ص: 30.

(4) طنطاوي، التفسير الوسيط: 7/235.

عاقلٍ أُسندَ إليهِ أخذُ المعذبينَ، ثمَّ حذفَ المشبّهَ بهِ، وذكرَ لازمًا منْ لوازمهِ وهو الأخذُ على سبيلِ الاستعارةِ المَكنيَّةِ الأصليةِ[1]، والغرضُ منها تشخيصُ العذابِ في هيئةِ رجلٍ زيادةً في التّهديدِ والوعيدِ.

نكتةُ تنكيرِ لفظ ﴿عَذَابٌ﴾:

تعظيمُ العذابِ وتهويلُ شأنه

وأُورِدَت مفردةُ ﴿عَذَابٌ﴾ نكرةً للدّلالةِ على التّعظيم والتّهويلِ[2] جزاءً وفاقًا لما ارتكبوهُ منْ عظيم فعلتهمْ بعَقْرِ النّاقةِ وقَتْلِها، ولكي تذهبَ فيهِ النّفسُ كلَّ مذهبٍ؛ فإنَّ النَّكرةَ أوسع معنًى من المعرفةِ وأكثر انطلاقًا واتِّساعًا.

فائدةُ وصفِ العذابِ بالقُربِ:

قربُ العذابِ إيذانٌ بالزَّوالِ العاجلِ

ووُصِفَ العذابُ في قولهِ تعالى: ﴿فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ﴾ بالقريبِ دونَ مقارِباته من الأوصافِ كالشّدّةِ والألم ونحوِها، وذلك للتّناسبِ معَ زمنِ وقوعِ المعصيةِ وهي إهلاكُ النّاقةِ[3]؛ فإنَّ العذابَ لم يطُل، ولما فيهِ من الوعيدِ والتَّخويف لقوم صالحٍ عليه السلام؛ للدّلالةِ على أنّهُ واقعٌ بهمْ لا محالةَ يأتيهمْ في أقربِ وقتٍ وأقصرِ زمانٍ[4].

توجيهُ المتشابهِ اللفظيّ:

القريبُ والأليمُ والعظيمُ أوصافٌ للعذابِ مرادةٌ اختيرَ لكلِّ سياقٍ الأنسبُ له

وُصف العذابُ في قصة صالح عليه السلام والناقة بثلاثة أوصافٍ وهي القريبُ، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابٞ قَرِيبٞ﴾، والأليم، كما في قولِه تعالى: ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ٧٣﴾ [الأعراف: 73]، والعظيم، كما في قولِه تعالى: ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابُ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ١٥٦﴾ [الشعراء: 156]، فختمَ كلَّ آيةٍ من الآياتِ الثّلاثِ بغيرِ ما ختمَ به الأخرى، فيُسألُ عن الفرقِ بينَ تلك الأوصاف؟

---

(1) الاستعارة المكنية "أن يذكر لفظ المشبّه مرادًا به حقيقته، ويدلّ على أنّ القصد تشبيهه بغيره بذكر شيء من لوازم ذلك الغير"، يُنظر: السبكي، عروس الأفراح: 2/197. وذلك كقول الشاعر: وإذا المنيّة أنشبت أظفارها.

(2) وهو شائع عند البيانيين، يُنظر: القزويني، الإيضاح: 2/36.

(3) السمعاني، تفسير القرآن: 2/440، وابن عطية، المحرّر الوجيز: 3/185.

(4) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 7/3726.

والجوابُ: أنّ العذابَ القريبَ مناسبٌ لما بعدهُ من قولهِ تعالى: ﴿تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍۖ﴾ فقدّرَ المدّةَ الّتي بينهُم وبينَ إهلاكِهم، وهيَ مدّةٌ قريبةٌ[1]، أمّا العذابُ الأليمُ فهو تحذيرٌ على طريقِ العموم؛ فهو عذابٌ يؤلمكُمْ وينالُ منكُمْ، وهو لا ينافي القَريبَ، وأمّا الوصفُ بالعظيم فقدَ توعّدهمْ بعذابِ الاستئصالِ، وهو يومٌ عظيمٌ عليهمْ؛ فجاءَ بهذهِ الألفاظِ المختلفةِ المعاني لاختلافِ مواضعِها المقتضيةِ لهذا التّباينِ والاختلافِ[2]، مع استحضارِ أنَّ العذاب كان أليمًا عظيمًا قريبًا، ولا تعارُضَ بينها، وإنَّما اختار الوصف الأليقَ بالسِّياق الوارد فيه، وهنا مَكْمَنُ براعةِ اختيارِ النَّظم القرآنيِّ.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الوذر والترك:

الوذْرُ هو التّقطّعُ ومفارقةُ الشّيءِ وانفصالُهُ، والتّركُ الانصرافُ عن الشّيءِ

أمرَ صالحٌ عليه السلام قومَه في قولهِ تعالى: ﴿فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِيٓ أَرْضِ ٱللَّهِۖ﴾ بعدم التّعرضِ للنّاقةِ؛ فجاءَ بالفعلِ ﴿فَذَرُوهَا﴾ وهو من الوذْرِ ومعناهُ: التّقطّعُ ومفارقةُ الشّيءِ وانفصالهُ والتّخلّي عنهُ[3]، ففي هذا الفعلِ تركٌ بالكلّيةِ، وهو مناسبٌ لشدّةِ التّحذيرِ من التّعرضِ لها، ولمْ يُستعملْ الفعلُ (اتركوها)؛ لأنَّ "التّركَ عندَ العربِ تخليفُ الشّيء في المكانِ الذي هو فيهِ والانصرافُ عنه، ولهذا يسمّونَ بيضةَ النّعامةِ إذا خرجَ فرخُها تريكةً؛ لأنَّ النّعامةَ تنصرفُ عنها"[4]، وهذا المعنى لا يناسبُ ما كانتْ عليهِ النّاقةُ منْ حركةٍ وانتقالٍ أكلًا وشربًا وحلبًا.

المسّ واللّمس:

المسّ مطلقُ الإصابةِ، واللّمسُ أخصُّ لما فيهِ من الإدراكِ والمعاني النّفسيةِ

عبّرَ النظم القرآنيّ عن إصابةِ قوم صالحٍ عليه السلام النّاقةَ بالأذى بقولهِ تعالى: ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ﴾ فجاءَ بفعلِ المسِّ، وهو "مطلقُ

(1) ابن الزبير، ملاك التأويل: 1/200.
(2) الإسكافي، درّة التنزيل: 2/615 - 616.
(3) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: 2/709.
(4) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 124.

الإصابةِ ويكونُ بينَ الحيوانِ وغيرِهِ، واللّمسُ أخصُّ منهُ لما فيهِ من الإدراكِ"[1]، ولَمّا أرادَ الحقُّ سبحانهُ أنْ يحذّرهمْ أشدّ التّحذيرِ ذكرَ لهمْ المسَّ، وهو مبتدأُ الأذى؛ فاللّمسُ داخلٌ فيهِ من بابِ أولى؛ لأنّهُ بمعنى الإصابةِ على وجهِ الإطلاقِ؛ فهو أليقُ بسياقِ ما نهاهمْ عنهُ، ثمَّ إنَّ اللّمسَ أخصّ من المسِّ لما فيهِ من الإدراكِ وتحقّقِ المعاني النّفسانيةِ، وهو ما لا يتوافرُ في الحيوانِ؛ فهذا سببٌ ثانٍ لجودةِ التّعبيرِ بالمسِّ وبلاغتهِ في هذا الموضعِ.

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 9/322.

﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍۖ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ٦٥﴾ [هود: 65]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

بيانُ الزَّمانِ بين التَّحذيرِ من إيذاءِ النّاقةِ وعقرِها

لمّا أنذرهم صالح عليه السلام من إيذاء الناقة المعجزة، وخوَّفهم مَغَبّةَ ذلك أنَّه سيَحِلُّ بهم عذابٌ قريب، فما اكْتَرَثوا لذلك وعقروها؛ فجاءتهم الآية التالية بفاء التعقيب بالعقوبة القارعة النازلة بهم بعد ثلاثة أيام، وهو زمن جِدُّ قريب، ففحوى كلام صالح عليه السلام في الآيةِ السّابقةِ تحذيرُ قومه منْ أنْ يتعرّضوا للنّاقةِ ولو مسًّا فكأنّه كانَ عالمًا متوقِّعًا بما سيقترفونهُ؛ فقد حذّرهمْ تحذيرًا شديدًا من أنْ يُقدِموا على قتلِها ومعَ ذلكَ فقدْ حصلَ منهمْ الجرمُ المشهودُ؛ فعقروها وذبحوها سعيًا منهمْ لإبطالِ حجّتهِ[1]، فعندَها لنْ يحولَ بينهمْ وبينَ عذابِ اللهِ إلّا أيامٌ معدودةٌ يتمتّعون بها، ثمَّ يعاجلُهم عذابُ الصّيحةِ والاستئصالِ، فالمناسبةُ بين الآيتينِ بيانُ المسافةِ الزَّمانيَّة بين الأمرِ بتركِ النّاقةِ ومخالفةِ أمرِ اللّه بعقرِها.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَعَقَرُوهَا﴾: أصلُ العَقْرِ: الجَرْحُ أو ما يُشْبِهُ الجَرْحَ منَ الهَزْمِ في الشَّيْءِ[2]. والعَقْر عند العرَب كَسْف عرقوب البَعِير، ثم جُعِل النَّحر عقرًا؛ لأنَّ العَقر سبب لنحره، وناحِر البعير يَعْقِره ثم ينحره[3]. والعَقِيرة: السّاقُ المَقْطُوعَةُ، يُقال: عَقَرتُ الفَرَسَ بالسَّيف: إذا ضَربتَ قوائمَهُ[4]. والعَقّارُ: الَّذِي يَعْنُفُ بِالإبِلِ لا يَرْفُقُ بها في

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 18/369.
(2) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة: (عقر).
(3) الأزهري، تهذيب اللغة: (عقر).
(4) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (عقر).

أقتابِها. ومنَ البابِ: العاقِرُ منَ النِّساءِ، وهي الَّتي لا تَحْمل؛ وذلك أنَّها كالمَعْقُورَةِ[1]. والمقصود بالعَقْرِ في الآية: ضَرْبُ النّاقةِ بالسَّيْفِ على عَراقِيبِها لِتسْقُطَ إلى الأرضِ جاثِيةً فَيتمكَّنُ النّاحرُ منْ نَحْرِها.

2) ﴿تَمَتَّعُواْ﴾: أصْلُ المَتْعِ: بُلُوغُ الغايَةِ منَ الشَّيْءِ، يُقالُ: مَتَع النَّهارُ يَمْتَعُ مَتْعًا أيْ بَلَغَ غايَةَ ارْتِفاعِهِ[2]، والماتِعُ: الجَيِّدُ البالِغُ الجَوْدَةِ[3]. والمتعةُ: المَنْفَعَةُ، والاسْتِمْتاعُ: الانْتِفاعُ[4]، تَقُولُ: تَمتَّعْتُ بِكَذا واسْتَمْتَعْتُ بِهِ إذا انْتَفَعْتَ بِهِ، والإمْتاعُ: النَّفْعُ، والمَتاعُ: كلّ شَيْء ينتفَع بِهِ ويُتبلَّغ بِهِ ويتزوَّد؛ والفَناء يَأْتِي عليه في الدُّنيا، والجَمْعُ أمْتِعَةٌ[5]. والمقصود بالتَّمتُّع في الآية: الانْتِفاعُ القَصِيرُ زَمَنُهُ.

❁ المَعْنى الإجْمالِيُّ:

مَنْ خالفَ وعيدَ اللهِ تعالى استحقَّ مضمونَه

يبيِّن اللّه تعالى في الآية أنَّ قومَ صالحٍ قد قتَلوا النّاقة عقِب ذلك الإنذارِ غير مُصدِّقين له ولا مُبالينَ بالوعيدِ، فقال لهم صالحٌ: استمتِعوا بحياتِكم في بلَدِكم ثلاثةَ أيّام؛ فإنَّ العَذابَ نازِلٌ بكم بعدَها، وهذا الأجلُ الذي أُجِّلتم وعْدٌ من اللّه وعَدَكُم حين انقضائه بالهلاك ونزول العذاب، لم يَكذبكم فيه مَن أعلمكم ذلك[6].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

نكتةُ العطفِ بالفاءِ:

العقرُ صادرٌ عن التّكذيبِ المفهوم من السِّياقِ

معنى العطفِ في قولِه تعالى: ﴿فَعَقَرُوهَا﴾ أيْ: فعقرتْ ثمودُ النّاقةَ، وهيَ جملةٌ معطوفةٌ على محذوفٍ مقدّرٍ لدلالةِ الظّاهرِ عليه، أي: فكذّبوهُ فعقروها[7]؛ فإنّ العقرَ مرتَّبٌ على التّكذيبِ مسبَّبٌ عنهُ.

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عقر).
(2) الرّاغب، المفردات: (متع).
(3) ابن عباد، المحيط في اللغة: (متع).
(4) محمد الأصبهاني، المجموع المغيث في غريبي القرآن والحديث: 3/148.
(5) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (متع).
(6) رشيد رضا، تفسير المنار: 12/103، والمراغي، تفسير المراغي: 12/56، والقطان، تيسير التفسير: 2/227.
(7) ابن جرير، جامع البيان: 15/372.

نكتةُ اختيارِ العقرِ دون النَّحر:

العقرُ دالٌّ على مطلقِ الإيذاءِ بخلافِ النَّحرِ فله سياقُه الشرعيُّ

جاءَ التَّعبيرُ بالعَقْرِ وهو إحداثُ الجرحِ أوْ قطعُ عضوٍ مؤثّرٍ في النّفسِ، دون النّحر الذي استُعمل في الذَّبحِ الشَّرعيِّ، في مثلِ قولهِ تعالى: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٢﴾ [الكوثر: 2]؛ فناسبَ أن يُعبِّر بما يدلُّ على الإيذاءِ الذي أُريدَ به القتلُ؛ فلمْ يعبّرْ عنْ فعلِ قوم ثمودَ معَ النّاقةِ بالنّحرِ؛ لأنّهمْ كفروا بما جاءَ بهِ صالحٌ عليه السلام؛ فكان التَّعبير بالعقرِ دالًّا على القتلِ النّاشئ عن الكفرِ، لا القتل النّاشئ عن العمل الشَّرعيِّ.

دلالةُ إسنادِ فعلِ العقرِ إلى الجمعِ:

اجتماعُ المجرمين رضًا بصنيعِ أحدِهم هو إجرامٌ مسندٌ لهم

أُسنِدَ فعلُ العقرِ للجمعِ ﴿فَعَقَرُوهَا﴾ معَ أنّ فاعلهُ واحدٌ؛ لأنّهُ لمّا كانَ الفعلُ عن تَمالُؤ منهم ورضًا من كبرائِهم[1] ورد جمعًا، يدلّ عليهِ قولهُ تعالى: ﴿فَنَادَوْاْ صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ۝٢٩﴾ [القمر: 29]، فاجتماعُ الجميعِ على مناداةِ واحدٍ منهم لينوبَ عنهم في الفعلةِ الشَّنعاءِ، دليلُ صدورِ الفعلِ عنهم جميعًا، وهكذا العبرةُ في الأعمالِ الإجراميَّة التي يتولّاها كبيرُ المجرمين، هي مسندةٌ للجميعِ دونَ استثناءٍ، ولذلك يستحقُّون عليها العذاب.

معنى الفاءِ:

عقرُ النّاقةِ سببُ الوعيدِ

الفاءُ في قولهِ تعالى: ﴿فَقَالَ تَمَتَّعُواْ﴾ دالةٌ على التّعقيبِ والتسبيبِ؛ فإنّهم لمّا عقروا النّاقةَ، وبلغ الخبرُ صالحًا[2]، توعّدهُم عليه السلام بالعذابِ إثرَ فعلِهم ذاكَ، فكان قوله: ﴿تَمَتَّعُواْ﴾ مسبَّبًا عنهُ.

دلالةُ اختيارِ الفعل ﴿تَمَتَّعُواْ﴾:

التَّعريضُ بالمجرمين تنزيلًا لهم منزلةَ البهائم

اختيرَ الفعلُ ﴿تَمَتَّعُواْ﴾ دونَ مرادفاتهِ من نحوِ (اقعدوا) أو (عيشوا) أو (احيَوْا) أو (امكثوا)، ومعنى التّمتّعِ "التّلذّذِ بالمدركاتِ الحسانِ من المناظرِ والأصواتِ وغيرها ممّا يدركُ بالحواسِّ"[3]،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8ب/225.
(2) البقاعي، نظم الدّرر: 9/323.
(3) البقاعي، نظم الدّرر: 9/323.

وفيهِ تعريضٌ بهمْ فكأنّهُ قالَ لهمْ: تمتّعوا فستجدونَ بعدَ هذا النّعيم عذابًا كبيرًا حتّى ينسيكم ما كنتم فيهِ، ففيه تنزيلٌ لهم منزلةَ البهائم؛ فإنَّ البهائم هي التي تأكلُ وتتمتَّع ولا تُدرِكُ مصيرَها الذي ستصيرُ إليه.

غرضُ الأمرِ:

تهديدُ المتمتِّعين بقربِ زوالِ متعِهم

غرضُ الأمرِ بالتّمتّعِ في قولهِ تعالى: ﴿فَقَالَ تَمَتَّعُواْ﴾ التّهديدُ والوعيدُ جزاءَ عصيانِهمْ، ومخالفةِ أوامرهِ بقتلِهمْ ناقةَ اللّهِ؛ فإنَّ التّمتّعَ ليسَ مطلوبًا لذاتهِ إنّما هو مقدمةٌ للعذابِ.

توجيهُ المتشابهِ اللّفظيّ:

العذابُ القريبُ مناسبٌ لتعيينِ زمانِه والنّدمُ مناسبٌ لذكرِ عظيمِ العذابِ

عقّبَ ﷻ فعلَ العقرِ في سورة هودٍ بأن قالَ: ﴿تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ﴾، بينما عقّبَ فعلَ العقرِ في سورة الشّعراءِ بقولهِ: ﴿فَأَصْبَحُواْ نَٰدِمِينَ ١٥٧﴾ [الشعراء: 157]، فيُسألُ عن الفرقِ بينَ ما عقّبَ في كلٍّ من الموضعينِ؟

والجوابُ عنْ ذلكَ: أنَّ آيةَ سورة هودٍ ذُكرَ فيها توعدهُمْ بالعذابِ القريبِ، وكانَ العقرُ سببًا لوجودهِ؛ فناسبهُ بيانُ زمنهِ، أمّا آيةُ الشّعراءِ فتقدّمها قولهُ تعالى: ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابُ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ١٥٦﴾ [الشعراء: 156] فعقْرُهُمُ النّاقةَ موجبٌ لوقوعِ العذابِ العظيمِ؛ فكانَ ذلكَ سببًا لندمهِمْ؛ فناسبَ ما عقّبَ بهِ فعلَ العقرِ في الموضعينِ.

توجيهُ تخصيصِ ﴿فِي دَارِكُمْ﴾ بالذِّكرِ:

الإيماءُ إلى تمتّعِ ثمودَ مكانًا وزمانًا

خصّصَ فعلَ التّمتّعِ بقولهِ تعالى: ﴿فِي دَارِكُمْ﴾ بالذِّكرِ، وهي الكائنةُ في الأرضِ والبلدِ، ولمْ يقلْ: في أرضكُمْ، باستعمالِ كلمة (الأرض) الدّالةِ على السّعةِ؛ لأنّهُ أرادَ أنْ يكونَ تمتّعُهُمْ مقيّدًا مكانًا وزمانًا؛ فهو تمتّعٌ مشروطٌ يؤولُ إلى عاقبةٍ شديدةٍ وعذابٍ أليمٍ، وفيه إيماءٌ إلى أنَّ غالبَ تمتُّعِهم كان في ديارِهم.

ويَحتملُ أن يكونَ معنى ﴿دَارِكُمْ﴾ داركُم هذهِ، وهي بلدةُ الحِجْرِ، وهي المدينةُ الّتي يسكنونَ فيها سمّيت كذلكَ؛ لأنّها تجمعُ أهلَها كالدّارِ الّتي يجتمعُ فيها الأهلُ[1]، وفي هذا التّقييدِ ملمحٌ بليغٌ وهو أنّهُ أرادَ أنْ تكونَ بلادهُمْ هذهِ آيةً لغيرِهمْ بعدَ أنْ ينزلَ عليهمُ العذابُ الذي يستحقونهُ، ولا يحصلُ ذلكَ إنْ تفرّقوا في أرضهِ الواسعةِ.

دلالةُ استعمال حرف الظَّرفيَّة:

الإشـــارةُ إلى عـدم هروبِهـم وبقائهم في الدّارِ

استعملَ النَّظمُ حرفَ الظَّرفيَّةِ في قولهِ تعالى: ﴿فِي دَارِكُمْ﴾ دون الباءِ؛ للإشارةِ إلى المكثِ في الدّارِ، وأنَّه تمتُّعٌ لا يعدو أن يكون في تلك الدّار، فلم يُسافروا أو يغادروا دارَهم، فدلَّ ذلك على أنَّهم بقوا في دارِهم، ولم يستطيعوا المهربَ أو المغادرةَ، أو أنَّهم بقوا كذلك عنادًا وتحدِّيًا.

سرُّ اختيارِ مفردةِ ﴿دَارِكُمْ﴾:

مـزيـدُ حسـرةٍ على تركِ متعهم في دارِهـم التي تصرَّفوا فيها

اختارَ مفردةَ ﴿دَارِكُمْ﴾ دونَ مسكنكُمْ أوْ بيتكُمْ، إشارةً إلى أنَّ الدّارَ هي ما يُتصرَّفُ به وقد سُمّيت البلاد ديارًا لأنه يُدار بها، أيْ: يُتصرّفُ فيها[2]، فهم قد داروا في بلدِهم وتصرّفوا وتمكَّنوا وعصوا وتمنّعوا عن الطّاعةِ، ففي هذا الاختيارِ مزيد حسرةٍ عليهم، وهي تُناسب الأمرَ بالتَّمتّعِ، فلمّا أمرهم بالتَّمتع، قيَّده بالدّار؛ ليكون تمتُّعًا أخيرًا لا يعودون إلى مثلِه.

نكتةُ إفرادِ ﴿دَارِكُمْ﴾ دونَ جمعِها:

دلَّـتِ الـدّارُ على البلدِ والمسكنِ باعتبارِهما مكانَ المتعةِ

اختارَ ﷻ لفظةَ الدّارِ في قولهِ تعالى: ﴿فِي دَارِكُمْ﴾ مفردةً دونَ جمعِها على (دياركم)؛ لأنّهُ أرادها على معنى بلدكُمْ، أو لتنزيلِ بلدهم منزلةَ الدّارِ الواحدة، أو للإشارةِ إلى أنَّ الدّار بمعنى المسكن، والدّار بمعنى البلد كلاهما مرادٌ في هذا اللَّفظِ، ونكتةُ ذلك الإيماءُ

(1) الطباطبائي، الميزان: 10/313.
(2) الزمخشري، الكشّاف: 2/408.

إلى حالِ ثمود وأنَّهم في أعلى درجات الانتماء إلى متعهم في بلدِهم ودورِهم، فلمّا كان الأمرُ كذلك كان الأمرُ بالتَّمتُّع الأخير في الدّارِ، وهذا من بديعِ بيانِ الغفلةِ عن الآخرةِ.

دلالةُ اختيارِ أيّامٍ دون ليالٍ:

التَّنبيهُ على مبدأِ العذابِ ونهايته

اختارَ النَّظمُ لفظةَ اليوم دونَ اللّيلة في قولهِ تعالى: ﴿ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍۖ﴾؛ لأنَّ الوعيدَ جاءَ في بدايةِ النّهارِ، فابتدأ اليومُ من الصّباحِ، واللّيلُ تابعٌ للنّهارِ في هذهِ الحالةِ، وعليهِ فيبدأُ الوعدُ من نهارِ اليوم الأولِ إلى نهايةِ الليلةِ الأولى، وهكذا في اليوم الثّاني فالثّالثِ، فما أنْ تنتهيَ اللّيلةُ الثّالثةُ حتى قال تعالى: ﴿فَأَصۡبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمۡ جَٰثِمِينَ﴾، فعبّرَ بالإصّباحِ؛ لأنَّ العذابَ نزلَ بهمْ آخرًا من اللّيلةِ الثّالثةِ، ومعَ بدايةِ الإصباحِ كما قالَ تعالى: ﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّيۡحَةُ مُصۡبِحِينَ ٨٣﴾ [الحجر: 83]، وفيه إشارةٌ إلى وقتِ عقرِ النّاقة، فجاءهم العذابُ جزاءً وفاقًا.

بلاغةُ تقديم المكان على الزمان:

التَّنبيه على مكانِ المُتَعِ السّابقةِ قبل ذكر الوقت المتبقي

في قوله تعالى: ﴿فِي دَارِكُمۡ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍۖ﴾ ذُكر المكانُ وهو الدّار قبل الزَّمان، فلم يقل: (فتمتَّعوا ثلاثة أيّامٍ في دارِكم)، ونكتةُ ذلك أنَّ ذكرَ الدّار تنبيهٌ على مكانِ المعصية السّابق، وذكر الزَّمان تنبيهٌ على وقتِ المعصية المتبقِّي، فجاء على الأصلِ، من ذكر الماضي، قبل الزمن القادم.

دلالةُ توقيتِ العذابِ:

وطأةُ العذابِ النّفسيِّ في انتظارِ العذابِ الحسيِّ

في توقيتِ مهلةِ وقوعِ العذابِ عليهمْ بمدةِ ﴿ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍۖ﴾ دلالةٌ لطيفة؛ إذ أرادَ أنْ يجعلَهمْ في تلكَ المدّةِ واقعينِ تحتَ وطأةِ العذابِ النّفسيِّ، وهو أشدُّ عليهِمْ من الألم الحسّيِّ؛ فكلّ لحظةٍ تمرُّ عليهمْ يشعرونَ بالألم من اقترابِ الوعيدِ وهو العذابُ[1]، ولم يجعلها أقلَّ

(1) الشّعراوي، تفسير الشّعراوي: 11/6539.

من ذلك؛ لأنَّ الأيّام الثلاثة مناسبةٌ لإيقاعِ الفكرِ في زوايا الخوفِ والهلع، ولم يجعلها أكثر؛ كي لا ينهض الفكرُ في الهروبِ ممّا سيلحقُهم، فأتى بثلاثةِ أيّامٍ لتحبسَ أنفاسَهم، وتقطع أبهرَ قلوبِهم.

دلالةُ استعمالِ اسم الإشارةِ للبعيدِ:

المشارُ إليهِ ذو منزلةٍ عظيمةٍ ورتبةٍ عليّة

في قولهِ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَعۡدٌ غَيۡرُ مَكۡذُوبٖ﴾ استعملَ ﷻ اسمَ الإشارةِ ﴿ذَٰلِكَ﴾ للبعيدِ للدّلالةِ على علوّ الوعدِ، وبعدِ منزلتهِ ورتبتهِ صدقًا وغضبًا[1] بما يشعرهُم بالخوفِ منهُ.

دلالةُ اختيارِ مفردةِ ﴿وَعۡدٌ﴾ دونَ مرادفاتِها:

المبالغةُ في التّهكّم بالموعودين

لاستعمال لفظةِ ﴿وَعۡدٌ﴾ سرٌّ؛ فإنَّ منْ شأنِ الوعدِ أنْ يقعَ على البشاراتِ، فيما يقعُ الوعيدُ على التّهديدِ والإنذارات كقولهِ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ١٤﴾ [إبراهيم: 14]، لكنّهُ لمّا أرادَ أن يبالغَ في التّهكّم[2] بهمْ والسّخريةِ منهمْ وبما سينالهُمْ عدلَ عن الوعيدِ إلى الوعدِ.

سرُّ الوصفِ بقولِه: ﴿غَيۡرُ مَكۡذُوبٖ﴾:

تحقُّقُ وقوعِ العذابِ وتأكيده

جاء قولُه تعالى: ﴿وَعۡدٌ غَيۡرُ مَكۡذُوبٖ﴾ دون أن يقول: (وعدٌ مصدوق) مع إيجازِه اللَّفظيِّ؛ لبيانِ أنَّ القومَ كانوا يُسابقون إلى التَّكذيبِ، فأخبرَهم أنَّ هذا الوعدَ غيرُ مكذوبٍ، أي: لن يُكذِّب به أحدٌ عند وقوعه، وذلك لإيقانِ الوقوعِ، ولتأكيدِ النُّزولِ، وهو يستلزم التَّصديق، بخلافِ العكس؛ ولما فيه من معانٍ بلاغيَّةٍ ستُذكر في الفائدة التّالية.

توجيهُ ﴿مَكۡذُوبٖ﴾ بينَ اسم المفعولِ والمصدرِ:

محمولٌ على الاتِّساعِ أو الاستعارة المكنيَّة أو المصدرِ

وقوله تعالى: ﴿وَعۡدٌ غَيۡرُ مَكۡذُوبٖ﴾ نفيٌ للكذبِ عن الوعدِ، وصيغتهُ اسمُ مفعولٍ، وهو على تقديرِ: غيرُ مكذوبٍ فيهِ؛ فاتّسعَ في

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 9/323.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 6/289.

الظّرفِ وحذفَ الحرفَ، وأجري مجرى المفعولِ بهِ على التّوسعِ؛ كما يقالُ: يومٌ مشهودٌ، أيْ: فيهِ منْ قولهِ: ويومٌ شهدناهُ، أيْ: شهدنا فيهِ[1].

ويحتمل أن يكون استعارةً مكنيَّةً؛ بتشبيهِ الوعدِ بمخاطبٍ، ثمَّ وُصِفَ بغيرِ المكذوبِ على سبيلِ التّخييلِ[2].

ويحتملُ أنْ يكونَ على تقديرِ: غيرِ كذبٍ؛ فيكونُ مصدرًا كالمجلودِ والمعقولِ[3]، والتّعبيرُ بالمصدرِ فيهِ دلالةٌ على المبالغةِ في نفي الكذبِ، وذلكَ أبلغُ لتخويفِهمْ.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

العقر والنّحر:

العقرُ هو إحداثُ الجرحِ أوْ قطعُ عضوٍ مؤثّرٍ في النّفسِ، وعقرَ الفرسَ: ضربَ قوائمهُ بالسّيفِ[4]، أمّا النّحرُ فهو الذّبحُ على ما جاءَ في هدي الأنبياءِ والرّسلِ من التّسميةِ والتّوجيهِ نحو القبلةِ وقطعِ الأوداجِ وغيرِ ذلكَ ممّا هو في شرعِ اللّهِ، فثمّةَ فرقٌ بينَ العقرِ والنّحرِ؛ فلمْ يعبّرْ عنْ فعلِ قومِ ثمودَ معَ النّاقةِ بالنّحرِ؛ لأنّهمْ كفروا بما جاءَ بهِ صالحٌ عليه السلام؛ فأرادوا قتلَ النّاقةِ فلا يحسنُ التّعبيرُ عنْ فعلِهمْ ذاكَ بالنّحرِ، وهو ما شَرَعَهُ اللّهُ تعالى لعبادهِ من النّسكِ والأضحيةِ في مثلِ قولهِ تعالى: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٢﴾ [الكوثر: 2].

العقرُ إحداثُ الجرحِ المؤثّرِ والنّحرُ علمٌ على الذّبحِ لأجلِ النُّسُكِ

الدار والمسكن والبيت:

الدّارُ الموضعُ الذي يعيش فيه النّاسُ، وهو لما اشتملَ على البناءِ ولما خلا منهُ، والأصلُ فيها إحاطتهُ منْ حواليهِ؛ لدورانِها على أهلِها وإحاطتِهمْ بها[5]، ويجوزُ أنْ تكونَ المدينةُ دارًا بجامعِ الإحاطةِ. أمّا

البيتُ مأوى الإنسانِ في ليلهِ والمسكنُ مقترنٌ بالرّاحةِ والدّارُ يشملُ المعانيَ جميعًا

(1) الزمخشري، الكشّاف: 2/408.
(2) زادة، حاشية الشيخ زادة: 4/463.
(3) الزمخشري، الكشّاف: 2/408.
(4) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 7/240.
(5) الخليل، العين: (دور)، وابن فارس، مقاييس اللغة: (دور).

السّكنُ فمن السّكونِ وذهابِ الحركةِ والاضطراب، فالدّارُ سكنٌ لهمْ؛ فيستعملُ في موضعِ الاستيطانِ[1]، ولمّا كانَ مفارقًا للحركةِ اقترنَ بالرّاحةِ من التّعبِ والجهدِ؛ فهو قرينُ اللّيلِ غالبًا[2]. أمّا البيتُ فهو من الفعلِ (باتَ يبيتُ)، وأصلهُ: مأوى الإنسانِ في ليلهِ؛ لأنّهُ يقالُ: باتَ أقامَ باللّيلِ، كما يقالُ: ظلّ بالنّهارِ، ثمَّ قدْ يقالُ للمسكنِ: بيتٌ منْ غيرِ اعتبارِ الليلِ فيهِ"[3].

فالمسكنُ والبيتُ مقترنانِ عامةً بالليلِ، أمّا الدّارُ فهو أوسعُ وأشملُ؛ فيكون مأوى الإنسانِ ليلًا ونهارًا وفي جميعِ الأوقاتِ؛ لذلكَ اختارهُ في الآيةِ بقولهِ تعالى: ﴿فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾؛ لأنّهُ أرادَ أنْ يكونَ الوصفُ شاملًا الليلَ والنّهارَ؛ فقدْ أنزلَ عليهمُ العذابَ ليلًا فأصبحوا في ديارِهِمْ جاثمينَ هلكى[4].

(1) الرّاغب، المفردات: (سكن).
(2) السّمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (سكن).
(3) الرّاغب، المفردات: (بيت).
(4) الماوردي، النكت والعيون: 2/480.

﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْعَزِيزُ ٦٦﴾ [هود: 66]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

ما بعدَ الوعدِ المصدوقِ إلّا نزولُ العذابِ المحتوم

ارتباطُ مضمونِ هذهِ الآيةِ بما قبلَها ارتباطٌ وثيقٌ حيث أخبرتِ الآية السابقة عن مدَّة الزمان المتبقي، وذكرت هذه وقت وقوع العذاب النازل، فالمناسبة بين الآيتين هو الانتقال من ذكرِ زمن بدء الإمهال، إلى ذكر زمن وقوع العذاب.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿نَجَّيْنَا﴾: أصلُ النَّجاء: الانفصالُ منَ الشَّيء، ومنه: نَجا فلانٌ من فلانٍ وأنْجَيْتُهُ ونَجَّيْتُهُ، قال تعالى: ﴿وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [النَّمل: 53][1]، والنَّجاةُ الخَلاصُ ممّا فِيهِ المَخافَة، ونَظِيرُها السَّلامَة، والتَّنْجِيَةُ: الإنْجاءُ وهُو جَعْلُ الغَيْرِ ناجِيًا[2]. والنَّجْوةُ: المكان المُرتفِع المنفصِل بارتفاعه عمّا حوله، وقيل: سُمِّي نجوةً لكونه ناجِيًا من السَّيْل، ونَجَّيْتُهُ: تركتُه بنَجْوةٍ، وعلى هذا: ﴿فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ﴾ [يونس: 92][3]. والمقصود في الآية: الخلاصُ منْ ضُرٍّ واقِعٍ.

2) ﴿خِزْيِ﴾: أصْلُ الخِزْي: ذُلٌّ يُستَحْيا منْهُ؛ ولذلكَ يُسْتَعْمل في كلٍّ منهما، أي: الذُّلّ والاسْتِحْياء[4]، وقيل أصلُه: الإبعاد، فقولُهُم: أخْزاهُ اللّهُ، أي أبْعَدَهُ ومَقَتَهُ[5]. والخِزْيُ: الفَضِيحةُ، وقَدْ خَزِيَ

(1) الرّاغب، المفردات: (نجو).
(2) الزبيدي، تاج العروس: (نجو)، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/130.
(3) الرّاغب، المفردات: (نجو).
(4) الزبيدي، تاج العروس: (خزي).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (خزي).

يَخْزَى خِزْيًا إذا افْتَضَح وتَحيَّر فَضِيحَةً[1]، والخِزْيُ أيضًا: السُّوء[2]، والهَوانُ[3]. والمقصود بالخِزْيِ في الآية: الذُّلُّ، وهُو ذُلُّ العَذابِ[4].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

عـــذابُ الـلـه يُصيبُ الظّالمين ويتجاوزُ المؤمنين

يقول الحقُّ ﷻ: فلمّا جاء عذابُنا بهلاكِ ثمودَ نجَّينا صالحًا والمؤمنينَ معه برَحمةٍ وفَضلٍ منّا عليهم، ونجَّيناهم من هوانِ ذلك اليوم وذُلِّ عذابِه الَّذي أصاب الكافرينَ. إنَّ رَبَّك - يا مُحمَّدُ ﷺ - الَّذي فَعَل هذا قادرٌ على فِعل مثله بِقَومكَ إذا أصرُّوا على الجُحود، فإنَّه هو القويُّ المقتدر الَّذي لا يُعجزه إنجازُ وعده، ومن أمارات قوَّته وعزَّته أن أهلك الأُمم الطّاغية، ونجَّى الرُّسل وأتباعهم[5].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ العطفِ بالفاءِ:

الـفـاءُ فصيحةٌ دالَّـــةٌ عـلى الـتّـعـقـيـبِ والـتّـعـجـيـلِ ومـنـاسـبـةِ اتّـصـالِـهـا بما قبلَها

نسقَ بالفاءِ في قولِه تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا﴾؛ لأنَّ الموضعَ غيرُ متراخٍ عمّا قبلهُ؛ فاقتضى الفاءَ الدّالةَ على التّعقيبِ والتّعجيلِ واتّصالِها بما قبلها منْ غيرِ مهلةٍ[6]، فلمّا انتهتِ الأيامُ الثّلاثةُ عاجَلَهُمْ بالعذابِ فاستأصلَ شَأْفَتَهُمْ.

والتّعبيرُ بالفاءِ مناسبٌ لسياقِ الفاءاتِ المتعاقبةِ التي وقَعَتْ مَواقعَها منْ شأنِ الإنذارِ، فالوعيدِ على مخالفتِهم فحصولِ المخالفةِ فإمهالِهمْ موعدَ العذابِ فالإخبارِ بوقوعِه وحصولِه؛ فناسبَ ذلك كلَّه التّعقيبُ بالفاءِ على ما قبلهُ[7].

---

(1) ابن منظور، لسان العرب: (خزي).

(2) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، وابن عباد، المحيط في اللغة: (خزي).

(3) الزبيدي، تاج العروس: (خزي).

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/114.

(5) ابن جرير، جامع البيان: 12/457، والخازن، لباب التأويل: 2/492، ورشيد رضا، تفسير المنار: 12/104.

(6) الإسكافي، درّة التنزيل: 2/792.

(7) رشيد رضا، تفسير المنار: 12/104.

والفاءُ هنا هيَ الفاءُ الفصيحةُ الّتي تُفصِحُ عنْ جوابِ شرطٍ مقدَّرٍ: إذا علمتَ ما أخبرهُمْ صالحٌ ﷺ، وأردتَ أنْ تعرفَ حالَ المؤمنينَ وحالَ مكذبيهمْ عندَ نزولِ العذابِ فهو كذا وكذا[1].

معنى (لمّا) ودلالتُها:

دلَّتْ (لمّا) على الحينِ رابطةٌ بين حدثَيْن

(لمّا) في قولِه تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا﴾ ظرفيةٌ زمانيةٌ دالَّةٌ على معنى الحينِ؛ ولذا تسمّى (لمّا) الحينية[2]، وهيَ أداةُ وجودٍ لوجودٍ، مدخولُها جملةٌ فعليةٌ ماضويةٌ، وفي استعمالِها هنا مزيدُ ربطٍ بينَ هذهِ الجملةِ وما قبلَها، وهو ارتكابهُمْ الجُرْمَ المشهودَ، وانتهاءُ مُهلتهمْ ووقوعُ العذابِ.

بلاغةُ إسنادِ المجيءِ إلى الأمرِ:

تمثيلٌ لظهورِ الأمرِ وبيانُ آثارِ قهرِهِ تعالى

أُسند المجيءُ إلى الأمرِ في قولِه تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا﴾ إسنادًا مجازيًّا، الغرضُ منهُ تمثيلٌ لظهورِ اقتدارِه، وبيانُ آثارِ قهرِه تعالى وموجِبِ عذابِه، فكأنَّ العذابَ قد حضرَ بنفسِه، وفي ذلكَ حصولُ آثارِ الهيبةِ ما لا يحصلُ في التّعبيرِ بالأمرِ على وجهِ الحقيقةِ.

بلاغةُ الاستعارةِ المكنيَّة:

تشخيصُ الأمرِ وتصويرُهُ زيادةٌ في البيانِ للمخاطَبينَ

وأوردَ ﴿جَآءَ أَمْرُنَا﴾ على طريقِ الاستعارةِ المكْنِيَّةِ؛ فقدْ شبّهَ الأمرَ بشخصٍ، وحذفَ المشبّهَ بهِ، وأبقى لازمًا منْ لوازمِه وهو المجيءُ، وفائدتُهُ إظهارُ الأمرِ في صورةِ شخصٍ يجيءُ ويذهبُ زيادةً في البيانِ للمخاطبينَ على وجهِ العموم، وزيادةً في وعيدِ المنكرينَ على وجهِ الخصوصِ.

دلالةُ إضافةِ الأمرِ إلى ضميرِ العظمةِ:

ترهيبُ المجرمين وطمأنةُ المؤمنين

أُضيف الأمرُ إلى الضّميرِ (نا) الدّالِّ على العظمةِ والجبروتِ ﴿أَمْرُنَا﴾، أي: أمرنا بنزولِه، وفيه ما لا يخفَى من التّهويلِ[3] تخويفًا

(1) الهرري، حدائق الروح والريحان: 13/152.
(2) بدر الدين بن مالك، شرح ابن الناظم، ص: 494.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 6/289.

لأعدائِنا وطمأنةً لأوليائِنا، أي: هو الأمر الذي لا يَحيد، ولا يَخيب، ولا يَتراخى زمانه، ولا يتقدَّم أوانه.

براعةُ ذكرِ البَدْءِ بإنجاءِ المؤمنين:

ذكـــرُ الـبـاقـي الشّاكر مقدَّمٌ على ذكرِ الفاني الكافرِ

وفي قولهِ تعالى: ﴿نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ﴾ ذكرَ نجاةَ قوم صالحٍ عليه السلام، وكانَ مقتضى الظّاهرِ أنْ يذكرَ وقوعَ العذابِ على الّذينَ كفروا بدعوتهِ وقتلوا ناقته، لكنّهُ عدلَ عنْ ذكرِ العذابِ إلى النّجاةِ رحمةً بعبادةِ المؤمنينَ؛ ولأنَّ "الإخبارَ بتنجيةِ الأولياءِ، لا سيّما عندَ الإنباءِ بحلولِ العذابِ أهمُّ؛ ذَكرَها أولًا، ثمَّ أخبرَ بهلاكِ الأعداءِ"[1]، كما أنَّ ذكرَ الباقي الشّاكرِ مقدَّمٌ على ذكر الفاني الكافر.

فائدةُ الإطنابِ في العطفِ:

تكريمُ المؤمنين وتشريفُهم رعايةٌ إلهيَّةٌ وعنايةٌ قرآنيَّة

لم يكتفِ النَّظمُ الكريم بذِكْرِ صالحٍ عليه السلام، بل عطف عليه المؤمنين ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ﴾ واتَّبعوه بعد كفرِ قومه وعنادِهم وإصرارهم على المعصية، وفيه إطنابٌ وفائدتُه تشريف ذكرِ المؤمنين بإنجائهم من عذابِ ثمود؛ فإنَّ ذكرَ المؤمنين فيه تسليةٌ لكلِّ مؤمنٍ يتَّبع أولياءَ اللّه تعالى في هذه الحياة الدُّنيا، ويلتمس رعايته وفضلَه وعنايته وتشريفَه وتكريمه.

غرضُ التّعبيرِ بالاسم الموصولِ:

التَّنبيهُ على علَّةِ القبولِ إيماءٌ للتَّرغيبِ به

وفي قولهِ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ﴾ عطفَ الاسمَ الموصولَ ﴿وَٱلَّذِينَ﴾ على ﴿صَٰلِحًا﴾ ولمْ يعبِّرْ بالاسم الظّاهرِ (المؤمنينَ) وهو أوجزُ لفظًا من الموصولِ؛ وذلك للإيماءِ إلى علّةِ بناءِ الخبرِ على الصّلةِ، وعلّةِ ترتّبِ الحكم، والمعنى أنَّ إيمانَهُمْ علّةٌ وسببٌ لنجاتهِمْ من العذابِ، وفيه إيماءٌ للتَّرغيبِ به عند المخاطبين.

نكتةُ ذكرِ المعيَّة:

التّابع والمتبوعُ في طريقِ الإيمانِ واحدٌ فهو ليس إيمانًا طبقيًّا

أردفَ فعلَ الإيمانِ بظرفِ المعيّةِ في قولهِ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/223.

﴿مَعَهُۥ﴾، ونكتةُ ذلكَ دفعُ إيهام أنْ يكونَ الإيمانُ بصالحٍ ﷺ فإنّهُ مُحتملٌ[1]، فلمّا قالَ ﴿مَعَهُۥ﴾ تعيّنَ أنْ يكونَ الإيمانُ باللّهِ منْ صالحٍ ومن الذين آمنوا باللّه معه، ففيه تنبيهٌ على أنَّ إيمانَ المؤمنين ليس إيمانًا طبقيًّا، أو إيمانًا خرافيًّا، بل هو إيمانٌ يكون فيه المتبوعُ والتّابع في طريقٍ واحدٍ.

معنى الباءِ ودلالتها:

في قولهِ تعالى: ﴿بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا﴾ ذكرَ الباءَ في هذا الموضعِ لدلالتِها على السَّببيةِ، أي: أنّ نَجاتَهم من القوم الظّالمينَ كانت بسببِ رحمةٍ منّا[2].

غرضُ تنكيرِ ﴿بِرَحۡمَةٖ﴾:

رحمةُ اللّه عظيمةٌ ومنَّةٌ جليلة

أوردَ النَّظمُ مفردةَ ﴿بِرَحۡمَةٖ﴾ على صيغةِ التّنكيرِ؛ لإفادةِ التّفخيم والتّعظيم[3]، أي: نجّيناهُم برحمةٍ عظيمةٍ منّا لا يَسعُها خاطِرٌ، ولا يحيطُ بها عالمٌ، ولبيان أنَّ هذه الرَّحمة عزيزةٌ، فهي خاصَّة بمن اصطفاهم اللّه تعالى لخدمةِ دينِه.

معنى ﴿مِّنَّا﴾ ودلالتُها في الآيةِ:

رحمةُ اللّه لا تكونُ إلّا بتوفيقِه ومنِّه

ومعنى (من) في قولهِ تعالى: ﴿بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا﴾ وقدْ باشرتْ ضميرَ الجمعِ يظهر في أنها بالنسبةِ إلى صالحٍ النّبوة، وبالنسبة إلى المؤمنينَ الإيمان كما مرَّ، أوِ المعنى: متلبّسون برحمةٍ ورأفةٍ منّا"[4]، أي: وهبناهُم الإيمانَ والنّبوّةَ وتلبّسوا بها مصاحبين لها، وكونها من اللّه تعالى فيه تشريفٌ لجنابِ المؤمنين، فهي رحمةٌ لا تكون إلا بتوفيقِ اللّه تعالى وعظيم كرمه.

(1) ابن عثيمين، تفسير القرآن الكريم، ص: 311.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/223.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 6/289.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/223.

بلاغةُ حذفِ فعلِ الإنجاءِ:

المقصودُ عطفُ المنَّة على المنَّة لا عطفُ الإنجاءِ على الإنجاءِ

وقولهُ تعالى: ﴿وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ﴾ متعلّقٌ معطوفٌ على متعلقِ فعلِ الإنجاءِ المحذوفِ على تقديرِ: "نجّينا صالحًا عليه السلام ومنْ معهُ منْ عذابِ الاستئصالِ ومن الخزيِ على هذهِ الكيفيةِ؛ فإنَّ العذابَ على كيفياتٍ بَعْضُها أخْزَى منْ بَعْضٍ، فالمَقْصُودُ منَ العَطْفِ عَطْفُ منّةٍ على منّةٍ لا عطف إنجاءٍ على إنجاءٍ، ولِذَلِكَ عَطَفَ المُتَعَلِّقَ ولَمْ يَعْطِفِ الفِعْلَ، كَما عَطَفَ في قِصَّةِ عادٍ: ﴿نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُم مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ۝٥٨﴾ [هود: 58] لِأنَّ ذَلِكَ إنْجاءٌ منْ عَذابٍ مُغايِرٍ لِلْمَعْطُوفِ عَلَيْهِ"[1].

معنى ﴿وَمِنْ﴾ ودلالتها:

المؤمنون ناجون من العذابِ كلِّه في الدُّنيا والآخرة

دلَّ حرفُ ﴿وَمِنْ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ﴾ على ابتداءِ الغاية، أي: نجيناهم ابتداءً من خزي ذلك اليوم، بعد إنجائهم من عذاب الدُّنيا النّازل في ثمود، فهما إنجاءان؛ إنجاءٌ من عذابِ الدُّنيا الذي أصابَ ثمود، ويلزم عنه إنجاءٌ من عذابِ الآخرةِ، فاللّه تعالى يكرم المؤمنين بالإنجاءين من ابتدائهما إلى انتهائهما، فالبدايةُ دالَّةٌ على النِّهاية، فإذا كان اللّه تعالى قد أنجاهم من ابتداءِ العذابِ، فإنَّه منجيهم إنجاءً كاملًا، وفيه طمأنةٌ عظيمةٌ للمؤمنين.

دلالةُ التَّعبيرِ بمفردةِ ﴿خِزْيِ﴾:

ذُلُّ الكافرين وهوانُهم على رؤوسِ الأشهادِ

أصابَ العذابُ قومَ صالحٍ عليه السلام في ذلكِ اليوم المعبَّرِ عنهُ بقولهِ تعالى: ﴿وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ﴾، والخزي هو المذلَّةُ والهوان، ويكون مشهودًا لدى النّاس، فإمّا أن يُراد العذاب النّازل في ثمود، وإما أن يراد عذاب القيامةِ، إذ لا مشاهد أعظم منها[2]؛ ففيه تنبيهٌ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/114.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/223.

على أنَّ الخزيَ سيكون لمن كفر بصالح عليه السلام، وعاند وفجر، فهؤلاء سيفضحهُم اللّهُ تعالى على رؤوسِ الأشهادِ.

بلاغةُ التوكيدِ في الفاصلةِ:

قـوَّةُ الله تعالى وعـزَّتُـه سببُ العذابِ والإنجاءِ

جاء في قولهِ تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ﴾ مجموعةٌ من المؤكّداتِ اهتمامًا[1] بما خُتِمَت به الآيةُ من صفتي القوّةِ والعزّةِ؛ فأكَّدَ الجملةَ بـ ﴿إِنَّ﴾ الدّاخلةِ على الجملةِ الاسميّةِ، ثمّ أوردَ خبرَ ﴿إِنَّ﴾ اسمًا؛ لأنّهُ أدلُّ على الثُّبوتِ، وزادهُ توسيطَ ضميرِ الفصلِ[2] ﴿هُوَ﴾ الذي يفيدُ توكيدَ القصرِ؛ فقوَّة اللّه وعزَّته سببُ عذابِ الكافرين وسرُّ إنجاءِ المؤمنين.

سرُّ إيثارِ لفظِ الرُّبوبيّةِ:

رعـايـةُ الـلـه للمؤمنين تكون بـعـد الإنـجـاءِ والنَّصر

آثرَ النَّظمُ عنوانَ الرُّبوبيّةِ ﴿رَبَّكَ﴾ على الألوهيَّةِ (اللّه) "والوجهُ فيهِ أنّهُ ذكرَ صفةَ الرّبوبيّةِ ليدلَّ بهِ على خروجهِمْ منْ زيِّ العبوديّةِ وكفرهِمْ بالرّبوبيّةِ وكفرانهِمْ نعمَ ربّهمْ"[3] فهو منْ بابِ التّبكيتِ عليهمْ والتّقريعِ لحالهِمْ، ولبيانِ أنَّ من شأنِ الرَّبِّ ﷻ أن يُنجِّي المؤمنين ويرعاهم، بعد تعذيب الكافرين وإنهائهم.

فائدةُ إضافةِ لفظِ الرَّبِّ إلى ضميرِ المخاطبِ:

تشريفُ النَّبيِّ ﷺ ووعـدٌ برعايتِه ووعيدٌ بتعذيب أعدائه

أضافَ النَّظمُ الرّبَّ إلى الضّميرِ الدّالّ على الخطابِ التفاتًا من الغيبةِ إلى الخطابِ في قولهِ: ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾؛ لأنّهُ أرادَ بالمخاطبِ الرّسولَ ﷺ، وذلك لِثلاث فوائِدَ:

الأولى: فيهِ تشريفٌ للمضافِ إليهِ وهو الرّسولُ ﷺ وترضيةٌ وتسليةٌ لهُ، ونحن نخبركُ يا أكرمَ الرّسلِ عندنا بما جرى منْ حوادثَ قبلكَ[4].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/114.

(2) ضمير رفع منفصل يقع بين معرفتين أو ما قاربهما يرفع توهم كون الخبر معرفة ويفصل بينهما ويسميه الكوفيون العماد أي يعتمد عليه فإذا قيل: (محمدٌ الصادقُ) توهم السامع أن يكون (الصادقُ) نعتاً فلما قيل: (محمدٌ هو الصادقُ) تبين أنّه الخبر.

(3) الطباطبائي، الميزان: 10/314.

(4) ملا حويش، بيان المعاني: 3/134.

الثّانية: كما كان للذين قبلك من العنايةِ والرِّعايةِ يكون لك ولمن تبعك من المؤمنين؛ فهي وعدٌ للمؤمنين بالنُّصرةِ والإنجاءِ من خزي الدُّنيا والآخرةِ.

الثّالثة: التّحذيرِ والتّنبيه على عظيم قدرتهِ على التّنكيلِ بأمثالهِم من المشركينَ؛ فإنَّ ربّكَ الذي يرعاكَ أيّها الرّسولُ قادرٌ على أنْ يرسلَ العذابَ على قومكَ - كما فعلَ بقوم صالحٍ - إنْ هم أصَرّوا على كُفرانهِمْ وجحودهِمْ لأنّهُ لا يعجزهُ شيءٌ[1].

دلالةُ اقترانِ صفةِ ﴿ٱلْقَوِىُّ﴾ بصفةِ ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾:

اقترنت صفةُ القوّةِ بصفةِ العزّةِ في قولهِ تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ﴾ لتناسبهِما؛ فإنّهما من الصّفاتِ الدّالةِ على الغلبةِ والقهرِ والانتقام[2].

جعلُ الشَّيءِ الواحدِ بلاءً لإنسانٍ وراحةً لآخرَ

وحسُنَ اقترانُ لفظةِ القويّ بالعزيزِ؛ لأنّهُ تعالى أوصلَ العذابَ إلى الكافرِ، وحفظِ أهلَ الإيمانِ، وهو تمييزٌ لا يصحُ إلّا من القويّ القادرِ الّذي يقهرُ طبائعَ الأشياءِ؛ فيجعلُ الشّيءَ الواحدَ بلاءً وعذابًا لإنسانٍ، وراحةً وريحانًا لإنسانٍ آخرَ[3].

غرضُ تقديم ﴿ٱلْقَوِىُّ﴾ على ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾:

قوّةُ الله تعالى مقترنةٌ بالعزّةِ العليَّة والكرامةِ الجليَّة

خُتمَت الآيةُ بصفتينِ من صفاتهِ تعالى وهما ﴿ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ﴾، وجاء تقديمُ صفةِ القوي على العزيز، باعتبارِ أنَّ صفةَ العزيز كالعلَّة والسَّببِ لصفةِ القوي، فهو قويٌّ لأنَّه عزيزٌ، فإنَّ قوَّة الله تعالى ليست قوَّة بطشٍ وجبروتٍ خاليةً من العزَّة، فكم من قويٍّ لا عزَّةَ عنده إلّا بقهر النّاس وإجبارهم على الباطل، أمّا قوَّة الله تعالى فهي قوَّة العزيزِ الذي لا يُغالب، والقاهر الذي لا يُتحدَّى سبحانه في علاه.

(1) رشيد رضا، تفسير المنار: 12/104.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/178.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 18/370.

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الإنجاء والإنقاذ:

الإنقاذُ يدلّ على استخلاصِ الشّيءِ[1]، وهو التّخليصُ من الورطةِ[2]، أمّا الإنجاءُ فهو التّخليصُ لكنّهُ مختصٌّ بالتّخليصِ من المهلكةِ، وزادَ بعضُهمْ كونَه التخليصَ قبلَ وقوعِ المهلكةِ[3]، فاستعمالهُ الإنجاءَ في قصّةِ ثمودَ قوم صالحٍ عليه السلام أدقُّ وأشملُ؛ لأنّهُ تعالى خلّصهُمْ ممّا سيحيقُ بعدوّهمْ منْ عذابِ الصّيحةِ الّذي استأصلَهمْ جزاءَ كفرهِمْ.

الإنقاذُ إنجاءٌ عامٌّ والإنجاءُ استخلاصٌ من المهلكةِ

الخزي والذل:

الذّلّ ضدَّ العزِّ وهو من المهانةِ والاستخفافِ[4]، أمّا الخِزْيُ فأكبرُ منهُ وأعظمُ؛ لأنّهُ الذّلُّ معَ الافتضاحِ على الملأِ ممّا يُستحيا منهُ[5]، فالفرقُ بينَ الذُّلِّ والخِزْيِ أنَّ الخِزْيَ يَقترنُ بسوءِ الذّكرِ[6] بعدَ حصولِ الذّلِّ والمهانةِ، وهو أشَدُّ؛ لذلكَ لَمّا كانَ جُرْمُ قومِ صالحٍ عليه السلام على الغايةِ منَ السّوءِ بأن عَقَروا النّاقةَ الّتي كانتْ مصدرَ رزقٍ لهمْ، وهيَ آيةٌ منْ آياتهِ تعالى كانَ عِقابُهمْ أقسى وأعظمَ، فهو ذلّ مقترنٌ بالفضيحةِ على رؤوسِ الأشهادِ.

الذُّلُّ مهانةٌ والخِزْيُ ذلٌّ مقترنٌ بالافتضاحِ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نقذ).
(2) الرّاغب، المفردات: (نقذ).
(3) العسكري، الفروق اللغوية: 77.
(4) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 243.
(5) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 215.
(6) رشيد رضا، تفسير المنار: 12/104.

﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمۡ جَٰثِمِينَ ٦٧ كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَآۗ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَاْ كَفَرُواْ رَبَّهُمۡۗ أَلَا بُعۡدٗا لِّثَمُودَ ٦٨﴾ [هود: 67 - 68]

مُناسَبَةُ الآيَتينِ لِما قَبْلَهما:

بيانُ عاقبةِ الكافرين بعد إنجاءِ المؤمنين

بعدَ أنْ جاءَ أمرُ اللهِ بإنجاءِ أوليائهِ المؤمنينَ منْ قوم صالحٍ عليه السلام، بيّنَ بعدهُ هنا إيقاعَهُ العذابَ بأعدائهِ الظّالمينَ[1]، حتّى إنّهمْ لشدّةِ ما وقعَ عليهِمْ من العذابِ؛ ألْفَيْتَ حالَهُم كأنّهمْ لمْ يَحْيَوا ويتنعّموا في سالفِ عهدهِمْ قطّ؛ فَبُعدًا لهمْ وطردًا فهذا هو استحقاقهُمْ، فالمناسبةُ بين الآيتين بيان عاقبة الكافرين بعد ذكر إنجاءِ المؤمنين، في تحقيقِ الوعدِ والوعيدِ.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلصَّيۡحَةُ﴾: أصلُ (صيح): تَشقِيقُ الصَّوتِ، منْ قَولِهِمْ: انْصاحَ الخشبُ، أو الثَّوب، إذا انشقَّ، فسُمعَ منه صَوتٌ، وصَيَّحَ الثَّوبُ إذا انشقَّ[2]، والصِّياحُ صوتُ كُلِّ شَيْءٍ إذا اشْتَدَّ[3]. والصَّيْحَةُ: العذابُ، يُقالُ: صِيحَ في آلِ فُلانٍ إذا هَلَكُوا. والصَّيحةُ: الغارةُ إذا فُوجِئَ الحيُّ بِها[4]. ولمّا كانت الصَّيْحَةُ قد تُفزع عبَّر بها عَنِ الفَزَعِ في قوله: ﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّيۡحَةُ مُشۡرِقِينَ ٧٣﴾ [الحِجر: 73]، والصّائِحَةُ: صَيْحَةُ المناحة[5]. والمراد بالصَّيْحَةِ في الآية: صاعِقَةُ العَذابِ.

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 9/325.
(2) الرّاغب، المفردات: (صيح).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (صيح).
(4) ابن منظور، لسان العرب: (صيح).
(5) الرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (صيح).

2) ﴿جَٰثِمِينَ﴾: أصلُ (جثم): يَدُلُّ على تَجَمُّعِ الشَّيْءِ[1]. يُقال: جثَم الإنسانُ والطائرُ والنَّعامةُ والخِشْف والأرْنبُ واليَرْبوعُ يَجْثِم ويَجْثُم جَثْماً وجثُوماً، فَهُو جاثِم: لَزِم مَكانَهُ فَلَمْ يبرحْه، أي تَلَبَّد بالأرض، وقِيلَ: هُو أن يَقَعَ على صَدْرِهِ[2]. ومنه قوله تعالى: ﴿فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ۝٧٨﴾ [الأعراف: 78]، أي: أصابَهُم العَذاب فماتوا جاثمين، أي: بارِكين[3]، والجُثْمان: شخص الإنسان قاعدًا، ورجل جُثَمَة وجَثّامَة كناية عن النّؤوم والكسلان[4]. والمقصود بالجاثم في الآية: المُكِبُّ على صَدْرِهِ في الأرْضِ مع قَبْضِ ساقَيْهِ كما يَجْثُو الأرْنَبُ.

3) ﴿يَغْنَوْاْ﴾: أصلُ (غني): يَدُلُّ على الكِفايَةِ. الغِنَى في المالِ، يُقالُ: غَنِيَ يَغْنَى غِنًى. والغَناءُ بِفَتْحِ الغَيْنِ مَعَ المَدِّ: الاستِغناءُ والكِفايةُ، يُقالُ: لا يُغْنِي فُلانٌ غَناءَ فُلانٍ، أي: لا يَكْفِي كِفايَتَهُ[5]. وغَنِيَ القَوْمُ في دارِهِم: أقامُوا، كَأَنَّهُمُ اسْتَغْنَوا بِها[6]. والغُنْيَةُ: اسمٌ من الاِسْتِغْناء عَن الشَّيْءِ[7]. والمغاني: المنازِلُ الَّتي يَقْطُنُها أهلُها، واحِدُها مغنًى[8]. والغانِيَةُ: المُسْتَغْنِيَةُ بزوجها عن الزِّينة، وقيل: المُسْتَغْنِيَةُ بِحُسْنِها عن التَّزيُّن[9]. والمراد بقوله (يَغْنَوا) في الآية: الإقامة، أي: كأن لم يقيموا فيها ولم ينزلوا فيها. وفيه إبانةٌ عن سوءِ حالِ المكذِّب نبيًّا من أنبياء الله في أنَّه بمنزلة من لم يستمتع بالدُّنيا[10].

4) ﴿بُعْدًا﴾: أصلُ البُعْدِ: خِلافُ القُرْبِ، يُقال: بَعُد يَبْعُدُ بُعْدًا، ضِدّ قَرُبَ يَقرُب قُربًا، وليس لهما حدٌّ محدود[11]. والَّذي عَبَّرَ بِهِ الأقدمون أنَّ البُعْد بمعنَى الهلاكِ كَما في (الصّحاح) وغَيره، ويُقال: إنَّ الَّذي بمعنَى الهلاكِ إنَّما هو بَعِدَ يبْعَدُ بَعَدًا. ومَنْ جَوَّزَ الاشتراكَ فيهما أشار إلى أفصحِيَّة الضَّمِّ في خِلافِ القُرْب، وأفصحيَّة الكسرِ في معنَى

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (جثم).
(2) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (جثم).
(3) الأزهري، تهذيب اللغة: (جثم).
(4) الرّاغب، المفردات: (جثم).
(5) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة: (غني).
(6) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات: (غني).
(7) الأزهري، تهذيب اللغة: (غني).
(8) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة: (غني).
(9) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات: (غني).
(10) الواحدي، التفسير البسيط: 9/240.
(11) ابن فارس، مقاييس اللغة، والسّمين الحلبي، عمدة الحفاظ، والزَّبيدي، تاج العروس: (بعد).

الهلاكِ[1]. أمّا المقصود بالبُعْد في الآية: فهو كِناية عَنِ التَّحقيرِ بلازِم كراهيةِ الشَّيءِ؛ فلذلكَ يُقالُ: بَعُدَ أو نحوُهُ لِمَنْ فُقِدَ، إذا كانَ مَكرُوهًا، كما هُنا[2].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

نـزولُ العـذابِ بكفر العبادِ وعنادِهم

بعد أن تمادوا في ظلمهم وغيِّهم أخذَتِ الصَّيحةُ القويَّةُ ثَمودَ الظّالمينَ، فأصبحوا في ديارِهم موتى ساقطينَ على وُجوهِهم، كأنَّهم في سرعةِ زَوالِهم وفنائِهم لم يَعيشوا فيها، ألا إنَّ ثَمودَ كفروا بربِّهم وجَحَدوا بآياتِه وحُجَجِه، ألا بُعْدًا لثمودَ وطردًا لهم من رَحمةِ اللّهِ[3].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ العطفِ بالواو:

بين الإنذارِ وأخذِ العـذابِ مهلةٌ متوسِّطةٌ يسيرة

في قولِه تعالى: ﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ﴾ عطفَ الجملةَ على ما سبقَ بالواوِ لما بينَ أخذِهمْ بالعذابِ وإنذارِهمْ منْ وقتٍ وقّته لهمْ، وهيَ الأيامُ الثّلاثةُ، فحسُنَ عطفهُ بالواوِ لا بالفاءِ ولا ثُمَّ لما بينهما من المهلةِ والوقتِ المتوسِّط القليل، فهو ليس بالوقت الطويل فيُعبَّر عنه بأداة التَّراخي، ولا بالسَّريع فيُؤتى بالفاءِ، وحسنَ الوصلُ لما بينَ إنجاءِ المؤمنينَ وأخذِ الظّالمينَ من تعالُقٍ وتتابعٍ وتكاملٍ.

بلاغةُ التَّعبيرِ بالأخذِ:

التَّنبيهُ على شدَّةِ الصَّيحةِ وقوَّةِ التَّعذيب

في لفظِ الأخذِ في قولِه تعالى: ﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ﴾ إسنادٌ مجازيّ؛ وذلك أنَّ الآخذَ الحقيقيّ هو اللّهُ تعالى، ونكتة التَّعبيرِ بالأخذِ أنَّ معنى الأخذِ الاستيلاءُ على الشّيءِ بقوةٍ وعنفٍ؛ فلا يستطيعُ المأخوذُ الإفلاتَ منهُ وإنْ حاولَ؛ لأنَّ في الأخذِ من الشّدّةِ ما لا يستطيعُ منه فكاكًا[4].

---

(1) الجوهري، الصحاح، والزبيدي، تاج العروس: (بعد).

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/79.

(3) جماعة من علماء التفسير، المختصر في تفسير القرآن الكريم، ص: 229.

(4) الشّعراوي، تفسير الشّعراوي: 16/10077.

إجراءُ الاستعارةِ في لفظِ ﴿وَأَخَذَ﴾:

الفعل (وأخذَ) استعارةٌ تصريحيَّة تبعيَّةٌ

في التَّعبيرِ بالأخذِ في قولِه تعالى: ﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ﴾ استعارةٌ، حيث شبَّه الإصابةَ ووقوعَ الصَّيحة بالأخذِ، ثم حذف المشبَّه وصرَّح بالمشبه به واشتقَّ منه فعلَ أخذ الماضي على سبيلِ الاستعارةِ التَّصريحيَّة التَّبعيَّة.

نكتةُ تذكيرِ ﴿وَأَخَذَ﴾:

لمّا كانت الصّيحةُ بتأويلِ الصّياحِ الكثير والخزي العظيم ناسبَ ذلك تذكير الفعل

أوردَ النَّظمُ الفعلَ مذكّرًا في قولِه تعالى: ﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ﴾ معَ أنّ الفاعل ﴿ٱلصَّيۡحَةُ﴾ مؤنثٌ، وتوجيه ذلك: أنّهُ لمّا كانَ الفاعلُ بمعنى المصدرِ (الصّياح) أو الصّوتِ أوردهُ مجرّدًا منْ علامةِ التّأنيثِ[1]، للجمعِ بين المعنى الأصلي للمصدرِ، ولفظ الصيحة، وهو أوعبُ دلالةً، فلمّا كانَ الجرمُ الّذي ارتكبهُ قومُ ثمودَ عظيمًا بعقرهِمُ النّاقةَ بعدَ تحذيرهِمْ فلا يصِحُّ أنْ يفهمَ أنَّ الصّيحةَ جاءتْ لتعبّرَ عنْ صيحةٍ واحدةٍ، بل لتكرّرها فتكونُ صياحًا كثيرًا مناسبةً لجرمهِمْ فَحَسُنَ التّذكيرُ[2]، أو أن نجعل ﴿ٱلصَّيۡحَةُ﴾ بمعنى العذابِ والخِزي، فقويَ تذكير الفعلِ على اللَّفظ.

نكتةُ العدولِ من المضمَرِ إلى المظهَرِ:

تسجيلُ علَّةِ العذابِ

وعَدَلَ عن المضمَرِ إلى المظهَرِ في قولِه تعالى: ﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾؛ "تسجيلًا عليهم بالظّلم، وإشعارًا بعلّيَّتِه لنزولِ العذابِ بهِم"[3]؛ لما في الإظهارِ من استحضارِ المعاني ما لا يكونُ مع المضمَرِ.

نكتةُ تقديم المفعولِ به:

إذا نَزَلَ العذابُ تسلَّط على الظّالمين

قُدِّم المفعولُ به في قولِه تعالى: ﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ﴾، وذلك لأمورٍ: الأوَّل: دلالي، وهو العناية بالمفعولِ به، لبيانِ أنَّ الأخذَ

(1) الفرّاء، معاني القرآن: 1/125، وابن الأنباريّ، المذكر والمؤنث: 2/212.
(2) الشّعراوي، تفسير الشّعراوي: 11/6544.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/223.

تسلَّط على الظّالمين. والثّاني: لفظي، وهو الفصلُ بين الفعل المذكر والفاعل المؤنث. والثّالث: سياقي، وهو أنَّ سياقَ الكلام هنا على الظّالمينَ وعاقبتهِمْ؛ فكانَ من المناسبِ تقديمُ ذكر الظّالمين، على ذكرِ العذابِ.

توجيهُ المتشابهِ اللّفظيّ:

تذكيرُ الأخذِ في ثمود نظرًا لمعنًى مذكَّر وتأنيثه في قوم شعيب لتوالي اللّفظ المؤنث

استعملَ فعلَ الأخذِ في قصّةِ ثمودَ ﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ﴾ مجرّدًا منْ علامةِ التّأنيثِ، فيما أوردهُ مؤنثًا في الآيةِ الأخرى منْ قصّةِ شعيبٍ ﷺ ﴿وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ﴾ [هود: 94]، فما الوجهُ في تذكيرِ ما ذكّرَ وتأنيثِ ما أنّثَ؟

الجوابُ عنْ ذلكَ: أنَّ الصّيحةَ في قصّةِ ثمودَ دالَّةٌ على الصّوتِ فَحَسُنَ التّذكيرُ، أمّا تأنيثُ الصّيحةِ في قصّةِ شعيبٍ؛ فلأنّ الحقّ سبحانهُ أخبرَ عنْ عذابِ قوم شعيبٍ بثلاثةِ ألفاظٍ تصوّرِ أطوارَ عذابهِمْ، وهيَ الرّجفةُ؛ رجفتْ بهمْ فانزعجوا منها، وخرجوا إلى البَراحِ فلمّا نالتهُمْ حرارةُ الشّمسِ مالوا إلى سحابةٍ سكنوا عندَها فعبّرَ عنها بالظّلّةِ، فأخذتهُمْ الصّيحةُ، وأنتَ ترى أنَّ (الرّجفة) و(الظّلّة) و(الصّيحة) ألفاظٌ مؤنثةٌ فناسبَ التّأنيثُ التّأنيثَ وازدادَ حُسنًا[1].

كما أن الصيحة في قصة صالح في معنى العذاب والخِزي، إذ كانت منتظمة بقوله ﷻ: ﴿وَمِنۡ خِزۡيِ يَوۡمِئِذٍۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡعَزِيزُ﴾، فصارتِ الصَّيحةُ عبارةً عن ذلك الخزيِ، وعن العذاب المذكور في الآية، فقَوِيَ التذكير، بخلاف الآية الأخرى[2].

سرُّ التَّعبيرِ بالاسم الموصولِ:

عذابُهم بالصّيحةِ مترتّبٌ على ظُلمِهم وإشراكِهم

عبّرَ النَّظمُ عن قوم ثمودَ بالاسم الموصولِ في قولِه تعالى: ﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ﴾، دون الاسم الظّاهرِ؛ فإنّ الاسمَ الموصولَ

(1) الإسكافي، درّة التنزيل: 2/764، والكرماني، أسرار التكرار في القرآن، ص: 146.
(2) السّهيلي، نتائج الفكر في النحو، ص: 131.

يومئُ إلى علّةِ ترتّبِ الحكم؛ فالأخذُ بالصّيحةِ مترتّبٌ على ظلمهِم وهو الإشراكُ باللّهِ ومحاربةُ أنبيائه[1].

سرُّ التَّعبيرِ بالظّلم دونَ الكفرِ أو التّكذيبِ:

التَّعريضُ بمشركي مكَّةَ بقصدِ التّحذيرِ

عبَّر النَّظم بالظّلم دونَ الكفرِ أو التّكذيبِ في قولِه تعالى: ﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ﴾، وذلك باعتبارِ أنَّ الظُّلمَ حاوٍ لمعنى الكفر والتَّكذيب، فهُما داخلان في مفهومه سياقًا، كما أنّهُ أرادَ أنْ يكونَ كلامهُ هذا تعريضًا بمشركي مكّةَ، بأنْ يحذروا منْ أنْ يُصيبَهُمْ ما أصابَ قومَ ثمودَ لأنَّهم ظالمونَ مثْلُهمْ[2].

فائدةُ التّعبيرِ بالصّيحةِ:

من لم يستمع لصيحاتِ الحقِّ أُسمِعَ صيحةَ العذابِ

اختيرت لفظةُ ﴿ٱلصَّيۡحَةُ﴾ في قولِه تعالى: ﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ﴾؛ باعتبارِها العذاب الذي جاءَ به المَلَكُ الموكّلُ؛ لأنّهمْ لمْ يرِقّوا لصياحِ نبيِّهمْ ودعوتِه، ولا لصياحِ فصيلِ النّاقةِ، ولا لانتْ قلوبُهمْ لصياحِ النّاقةِ حينَما عقروها؛ فكانَ عذابُهمْ بالصّيحةِ منْ جنسِ عملِهمْ ومرتكبِهمْ[3].

نكتةُ المجازِ بالحذفِ:

التَّنبيه على سرعةِ إيقاعِ العذابِ

وفي قولِه تعالى: ﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ﴾ مجازٌ بالحذفِ، والتَّقديرُ: عذابُ الصيحةِ، فإنَّ للصَّيحةِ عذابًا، وبه يتَّجه تذكيرُ فعل الأخذ، وعبَّر بالمضافِ إليه دون المضافِ لبيانِ سرعةِ إيقاعِ العذابِ بهم[4]، وذلك أنَّ الصيحة تتميَّز بسرعة وقوعِها.

معنى الفاءِ ودلالتُها:

الكفرُ هو سببُ حالِ المُعذَّبين على التَّحقيقِ

عقّبَ النَّظمُ أخذَهُم بالصّيحةِ في قولِه تعالى: ﴿فَأَصۡبَحُواْ فِي

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/114.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/114.
(3) ملا حويش، بيان المعاني: 3/134.
(4) الماتريدي، تأويلات أهل السّنّة: 6/152.

دِيَٰرِهِمۡ جَٰثِمِينَ﴾ فصدَّرَها بالفاءِ "والغالبُ في الجملةِ المعطوفةِ بالفاءِ أن يكونَ معناها متسبّبًا عن معنى الأولِ"[1]؛ فإنّ إصباحَهُم على هذهِ الحالةِ مسبَّبٌ عن أخذِهم بالصّيحةِ عذابًا لهم؛ فالفاءُ دالةٌ على السّببيَّةِ، أي: فأصبحوا على هذه الحالِ بسبب الصَّيحة، وما كانت الصَّيحة إلّا بسبب كفرِهم وتكذيبِهم على التَّحقيق، فيكون إصباحُهم على هذه الحالِ بسبب كفرهم وتكذيبِهم على التحقيق.

دلالةُ اختيارِ لفظِ الإصباحِ:

نزولُ العذابِ في الصَّباحِ خلافُ المُنتظَرِ من العملِ والحركةِ

اختيرَ لفظُ الإصباحِ في قولِه تعالى: ﴿فَأَصۡبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمۡ جَٰثِمِينَ﴾ دونَ غيرِه من الألفاظِ المرادفةِ تخويفًا وتأسيفًا؛ فإنَّ الصّباحَ يمثلُ استهلالَ يومٍ جديدٍ بما يحملهُ منْ معنى الهمّةِ والنّشاطِ والفرحِ بعدَ الرّاحةِ والهدوءِ؛ ليكونَ المرءُ قادرًا على ما يبتغيهِ من الحركاتِ وما يشتهيهِ من التّصرفاتِ[2]، فَيَفْجَؤُهُمُ العذابُ على خلافِ ما يظنّونَ؛ فيكونُ أكثرَ وقعًا عليهمْ، وأشدَّ أثرًا، فتُحيطُهُمُ الحسرةُ والنّدامةُ، فتوقيتُ الصباحِ فيه مزيدُ عذابٍ.

بلاغةُ استعمالِ حرفِ الظّرفيّة:

البقاءُ في الدِّيارِ الموعودةِ بالعذابِ أمارةُ العنادِ وشديدِ الكفرِ

استعملَ النَّظمُ حرفَ الظّرفيةِ (في) في قولِه تعالى: ﴿فَأَصۡبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمۡ جَٰثِمِينَ﴾، فإنّهُ أمرهُمْ بأن يتمتّعوا في ديارِهمْ، ثمَّ نزلَ العذابُ عليهمْ؛ ففي ذلكَ إشارةٌ إلى شدّةِ عنادِهمْ وعظيم كفرِهمْ بتمتّعهمْ وشعورِهمْ بالأمنِ حتّى أنّهمْ كانوا ﴿يَنۡحِتُونَ مِنَ ٱلۡجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ٨٢ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّيۡحَةُ مُصۡبِحِينَ ٨٣﴾ [الحجر: 82 - 83]، أيْ: آمنينَ من العذابِ في ديارِهمْ؛ فدلَّ حرفُ الظّرفيةِ على بقائهمْ على ما همْ عليهِ عنادًا ومكابرةً وتحدّيًا للوعدِ، وفي ذلكَ كشفٌ عنْ أمرٍ غَيبيٍّ.

(1) ابن مالك، شرح التسهيل: 3/352.
(2) البقاعي، نظم الدّرر: 9/326 - 327.

نكتةُ جمعِ ﴿دِيَٰرِهِمۡ﴾ دونَ إفرادِها:

عذابُ اللهِ النّازلُ لاينجو منه مَنْ تُوعِّد به

ورد لفظُ الدّارِ مجموعًا في قولِه تعالى: ﴿فِي دِيَٰرِهِمۡ﴾ ولم يُفرِده، وذلك ليشملَ الدّارَ الخاصَّة بالإنسانِ، والدّارَ العامَّةَ التي هي بمعنى القُرى والبلاد، فيدخل فيه كلُّ من أصبح كذلك في دارِه خاصَّةً، أو في قريته وبلدِه عامَّةً، فلم ينجُ أحدٌ منهم من عذابِ الصَّيحة، ويبيِّنه قوله تعالى: ﴿فَهَلۡ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٖ ٨﴾ [الحاقة: 8].

توجيهُ المتشابهِ اللّفظيّ:

شأنُ الزّلزلةِ الاختصاصُ بجزءٍ من الأرضِ وشأنُ الصّيحةِ الانتشارُ

جُمعَ لفظُ الدّيارِ في قصّةِ صالحٍ عليه السلام في قولِه تعالى: ﴿فَأَصۡبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمۡ جَٰثِمِينَ﴾، وأُفردَت في قصّةِ شعيبٍ عليه السلام في قولِه تعالى: ﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دَارِهِمۡ جَٰثِمِينَ ٩١﴾ [الأعراف: 91]، فما توجيه ذلكَ؟

والجوابُ: أنَّ الرّجفةَ هيَ الزّلزلةُ، وتكونُ مختصَّةً بجزءٍ من الأرضِ فأفردَ بقولِه تعالى: ﴿دَارِهِمۡ﴾ [الأعراف: 91]، أمّا الصّيحةُ فتكونُ من السّماءِ، ويكونُ منْ شأنِها الانتشارُ لتعُمَّ الأماكنَ المتنائيةَ، والدّيارَ البعيدةَ؛ فعبّرَ بقولِه: ﴿دِيَٰرِهِمۡ﴾ جمعًا[1].

نكتةُ تقديم ﴿فِي دِيَٰرِهِمۡ﴾ على ﴿جَٰثِمِينَ﴾:

تصويرُ شدّةِ العذابِ وسرعتِه

قُدِّمَ قولُه تعالى: ﴿فِي دِيَٰرِهِمۡ﴾ على ﴿جَٰثِمِينَ﴾ للتَّشويقِ بذكرِ الدِّيارِ، ثم بذكرِ حالِهم فيها، وللاهتمامِ بذكرِ أنَّهم في الدِّيارِ لم يتحرَّكوا منها ولم يُغادِروها، وغرضهُ تصويرُ شدّةِ العذابِ وسرعتِه حتّى إنّه عاجلهُمْ بهِ فلمْ يستطيعوا حراكًا؛ فأصبحوا في ديارِهِمْ لاصقينَ على الأرضِ غيرَ قادرينَ على الحركةِ والهربِ[2].

سرُّ التّعبيرِ بالجثوم:

سُكون المهلَكينَ عندَ الهلاكِ حتّى كأنّهمْ ما كانُوا أحياءً

وعبّرَ بالجثوم في قولِه تعالى: ﴿جَٰثِمِينَ﴾ دونَ مرادفاتِه، ومعناهُ

(1) الكرماني، أسرار التكرار في القرآن، ص: 146.
(2) إسماعيل حقي، روح البيان: 9/169.

السّكونُ؛ ومنه: مبيتُ الطّيرِ في أوكارِها جثومٌ؛ فأطلقتِ العربُ هذا اللفظَ على ما لا حركةَ لهُ من الموتِ؛ فكانَ هذا وصفًا لهؤلاءِ المهلكينَ بسكونِهِمْ عندَ الهلاكِ؛ فكانَ حالهُمْ كأنّهمْ لمْ تكنْ بهمْ حياةٌ قطّ[1].

بلاغةُ التّشبيهِ:

تشبيهُ حالِ الاستئصالِ بحالِ منْ لَمْ تسبقْ لهُ حياةٌ

في قوله تعالى: ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَآ﴾ شبّهَتِ الآيةُ حالةَ إيقاعِ العذابِ بهِمْ واستئصالهَمْ وعفاءَ آثارِهِمْ بحالِ من لم تكنْ لهُ حياةٌ أصلًا، والغَناءُ بمعنى الإقامةِ المقترنةِ بالعيشِ الرّغيدِ والنِّعمِ الوفيرةِ، فمحا العذابُ هذهِ كلَّها؛ فلمْ يبقَ شيءٌ أوْ بقيَ منهُ النّزْرُ اليسيرُ[2].

بلاغةُ التَّعبيرِ بقولِهِ تعالى: ﴿لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَآ﴾:

ذهابُ الذِّكرَى مرتهنٌ بذهابِ الطُّهرِ

وعبّرَ بقولِهِ تعالى: ﴿لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَآ﴾ دونَ سواه من التّراكيبِ منْ مثلِ: لمْ يسكنوا أوْ لم يُقيموا؛ لأنَّ آثارهُمْ مُحيتْ بالكلّيةِ، والسّاكنُ والمقيمُ أثرُه باقٍ، فكأنَّ هؤلاءِ لمْ يكونوا فيها لانْمحاءِ ذِكرهمْ بعدَ هلاكِهِمْ، كما في قوله تعالى: ﴿فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ۝٨﴾ [الحاقة: 8]، أمّا الأبرارُ فإنّ ذِكْراهُمْ - وإنْ ماتتْ أبدانهُمْ - باقيةٌ خالدة، كأنّهمْ أحياءٌ يذكرهُمُ الذّاكرونَ بعدَ موتِهِمْ[3].

فائدةُ اجتماعِ أداةِ التّنبيهِ وحرفِ التّوكيدِ:

التنبيهُ على استحقاقِ ثمود العذابَ وتنبيه المخاطَبِ لذلك

صُدِّرَتِ الجملةُ في قولِه تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ ثَمُودَاْ كَفَرُواْ رَبَّهُمْ﴾ بألا الاستفتاحيةِ، ثمَّ تلتْها (إنّ) المؤكّدةِ، لأمرين:

الأول: التَّنبيهُ على ما استحقّوه من العذابِ لمنْ يغفلُ فيسألُ عنْ ذلكَ؛ فإنّ ﴿أَلَآ﴾ تُقالُ عندَ الأمورِ المهمّةِ الهائلةِ، وهيَ لنفيِ الغفلةِ، وفيها إثباتُ المعنى بعدَ نفيهِ، وهو آكدُ منْ إثباتهِ مجردًا من النّفيِ[4].

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 18/371.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/14.
(3) الماتريدي، تأويلات أهل السّنّة: 6/152.
(4) البقاعي، نظم الدّرر: 9/326 - 327.

الآخر: تنبيه السّامعِ؛ فلا تأخذهُ الغفلةُ عن الأمرِ المهمِّ الصّادرِ عن المتكّلم؛ وليكونَ استقبالهُ للكلام استقبالَ المستفيدِ[1].

بلاغةُ التَّعريضِ:

انتماءُ النَّبيِّ للقبيلةِ لا يُغني عنها شيئًا

آثرَ النَّظمُ ذكرَ اسم ﴿ثَمُودَاْ﴾ الدّالّ على القبيلةِ، وفي ذلكَ إيماءٌ إلى أنَّ القبيلةَ لا تنفعُ أهلَها إنْ أعرضوا عنْ ذكرِ اللّهِ والإيمانِ بهِ؛ فكذّبوا وكفروا، ففيهِ تعريضٌ بقريشٍ وأضرابِها منْ أنّ الانتماءَ للقبيلةِ أو العشيرةِ لا يغني عنْ أفرادِها شيئًا، وإنّما الفيصلُ الإيمانُ باللّهِ، فإنّهُ ﷺ حينَ أنزلَ اللّهُ ﷻ عليه قولَه: ﴿وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ ٢١٤﴾ [الشعراء: 214]، قالَ: «يا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ - أوْ كَلِمَةً نَحْوها - اشْتَرُوا أنْفُسَكُمْ، لا أُغْنِي عَنْكُمْ منَ اللّهِ شَيْئًا، يا بَنِي عَبْدِ مَنافٍ لا أُغْنِي عَنْكُمْ منَ اللّهِ شَيْئًا، يا عَبّاسُ بْنَ عَبْدِ المُطَّلِبِ لا أُغْنِي عَنْكَ منَ اللّهِ شَيْئًا، ويا صَفِيَّةُ عَمَّةَ رَسُولِ اللّهِ لا أُغْنِي عَنْكِ منَ اللّهِ شَيْئًا، ويا فاطِمَةُ بِنْتَ مُحَمَّدٍ، سَلِينِي ما شِئْتِ منْ مالِي، لا أُغْنِي عَنْكِ منَ اللّهِ شَيْئًا»[2].

توجيهُ القراءاتِ القرآنيَّة:

وردتْ كلمةُ ﴿ثَمُودَاْ﴾ في الآيةِ على قراءتينِ، فقرأ يعقوبُ وحمزةُ وحفصٌ بغيرِ تنوينٍ، وقرأ الباقونَ بالتّنوينِ[3]، فمنْ لمْ يُنوِّنْ ذهبَ إلى امتناعِه من الصّرفِ، فجعلهُ اسمًا للقبيلةِ لِعلَّتَي التّأنيثِ والعَلَميةِ، ومَنْ نَوَّنَ جعلهُ اسمًا عَربيًّا بمعنى الحيِّ[4] أو القوم لانتفاءِ المانعِ من الصّرفِ.

نكتةُ التّعبيرِ بالكفرِ:

الغالبُ في صنيعِ ثمودَ الكفرُ باللهِ تعالى

عُبِّرَ بالكفرِ دونَ الظّلم في قولِه تعالى: ﴿كَفَرُواْ رَبَّهُمۡۗ﴾؛ لأنَّ الكفرَ هو التّغطيةُ والسّترُ فكأنهّمْ أوقعوا التّغطيةَ والسّترَ على ربّهمْ

(1) الشّعراوي، تفسير الشّعراوي: 11/6646.

(2) رواه البخاري، الصحيح الجامع، الحديث رقم: (2753)، واللفظ له، ومسلم، الصحيح، الحديث رقم: (206)، (351).

(3) ابن الجزري، النّشر: 2/289 - 290.

(4) الزمخشري، الكشّاف: 2/409.

وخالقهمْ ورازقهمْ، وهو المحسنُ إليهمْ بالخلقِ والرّزقِ، وهو الظاهرُ بأفعالهِ الأخرى، وفي ذلكَ بيانٌ لعظيم كفرهمْ وغلظتهِ[1]، ففيه بيانُ أنَّ الغالبَ عليهم هو الكفرُ، وأنَّ الظُّلم مرتبطٌ به.

نكتةُ حذفِ الباءِ:

من كفَرَ الله تعالى فقد بالغَ في كفرِه وتمادى في غيِّه

وفي قولهِ تعالى: ﴿كَفَرُواْ رَبَّهُمۡۗ﴾ حُذفتِ الباء فلم يَقلْ: (كفروا بربّهمْ)؛ وثمةَ فرقٌ جوهريّ بينَ أنْ يكفرَ الإنسانُ بربّهِ، وأنْ يكفرَ ربَّهُ، فما تعدّى بحرفِ الباءِ اعترافٌ بوجودِ اللّهِ معَ عدم الإيمانِ بهِ، وهيَ مرتبةٌ في الذّنبِ قبيحةٌ، أمّا ما اتّصلَ فيهِ الفعلُ بمفعولهِ منْ غيرِ الحرفِ فمرتبةٌ شنيعةٌ وخَصلةٌ ذميمةٌ؛ فإنَّ ﴿كَفَرُواْ رَبَّهُمۡۗ﴾ بمعنى ستروا وجودَهُ ونَفَوْه؛ فلا وجودَ لهُ عندهمْ أصلًا فلا ذنبَ يعدلُ هذا الوصفَ[2].

فائدةُ التّصريحِ بلفظِ الكفر:

التَّعريضُ بالأمم الكافرةِ المبلَّغة إقامةً للحجَّةِ

لعلَّ سائلًا يسألُ ما فائدةُ التّصريحِ بكُفرهمْ وقدْ تبيّنَ ممّا مضى من أفعالهمْ ومرتكباتهمُ السَّيّئةِ ما يغني عن الوصفِ؟ والجوابُ عنْ ذلكَ أنّهُ صرّحَ بكفرهمْ معَ كونهِ معلومًا منْ أحوالهمْ تقبيحًا لهمْ، وتعليلًا لاستحقاقِهمُ العذابَ والدعاءَ عليهمْ هلاكًا وتبعيدًا[3]، وتعريضًا بمن بعدَهم من الأمم، فإنَّ الأممَ الكافرةَ اللّاحقةَ إذا عَرفت مصيرَ السّابقة أُقيمت عليها الحُجَّة، وبَلَغها الإنذارُ.

فائدةُ تَكرارِ أداةِ التّنبيهِ:

الإعلامُ بتأبيدِ هلاكِهم واستحقاقِهمْ عذابَ الاستئصالِ

كرّرَ النَّظمُ أداةَ التّنبيهِ في قولهِ تعالى: ﴿أَلَا بُعۡدٗا لِّثَمُودَ﴾ تأكيدًا لما نالهُم من عذاب، وفيه إعلامٌ بأنّ هلاكَهُم قائمٌ على وجهِ التّأبيدِ[4]، وقد جاءت أداةُ التَّنبيه قبل الدُّعاءِ على ثمود بالطّردِ والإبعادِ منْ رحمةِ اللّهِ؛ لجحودهمْ باللّهِ، وفي الدّعاءِ عليهمْ بعدَ هلاكهمْ دلالةٌ

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 9/326.
(2) الشّعراوي، تفسير الشّعراوي: 11/6546.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/223.
(4) البقاعي، نظم الدّرر: 9/326.

على أنّهمْ مستحقّونَ لعذابِ الاستئصالِ بموجبِ كفرِهِمْ وتكذيبِهِمْ نبيَّ اللّهِ، وعقرِهِمْ ناقةَ اللّهِ[1].

نكتةُ إظهارِ ما حقُّه الإضمار:

بيانُ شديدِ غضبِ اللهِ تعالى على الأقوامِ الذين يجتمعون على الكفرِ

جاءَ لفظُ ﴿ثَمُودَاْ﴾ في فاصلةِ الآيةِ مُظهَرًا لا مُضمَرًا، وحقّه الإضمارُ، زيادةً في بيانِ غضبِ اللّه تعالى على ثمود باعتبارِها قد تمالأت على معصيتِه، واجتمعت على الكفر، وسارعت في عقر النّاقة، فكان ذكر اسم هذه القبيلة المجتمعة على الباطلِ ابتداءً وانتهاءً دليلَ غضبِ اللّه تعالى عليهم، وشديد لعنِهم وطردِهم من رحمته، فضلًا عن بيانِ استحقاقِهم ما نزل بهم منَ العقوبةِ واللَّعنِ.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الصيحة والصاعقة:

الصّاعقةُ مشتملةٌ على قطعةٍ من النّارِ والصّيحةُ أشدّ وقعًا وأعظم انتشارًا

الصّيحةُ من الصّياحِ وهو تَشقِيقُ الصَّوتِ، منْ قَولِهِمْ: انْصاحَ الخشبُ، أو الثَّوب، إذا انشقَّ، فسُمعَ منه صَوتٌ، وصَيَّحَ الثَّوبُ إذا انشقَّ – كما مَرَّ –، والصّيحةُ في الآيةِ "صيحةٌ عظيمةٌ دونها كلّ صوتِ صاعقةٍ، وكُلُّ شيءٍ في الأرضِ"[2]؛ وقد قُيّدت بأنّ دونَها صوتَ كلِّ صاعقةٍ، ومعنى ذلكَ أنَّ الصّاعقةَ أقلّ وقعًا منْ جهةِ كونِها للعذابِ من الصّيحةِ، الّتي هي "الصّوتُ الشّديدُ منْ صوتِ الرّعدِ، يسقطُ منهُ قطعةٌ منْ نارٍ"[3]، وجعَلَ الفخرُ الرّازيّ أنّ الصّاعقةَ تصاحبُ الصّيحةَ العظيمةَ ومعها البرقُ الشّديدُ المحرقُ[4] فهي تبعٌ للصّيحةِ؛ فثبتَ أنَّ الصّيحةَ أعظمُ وأبلغُ من الصّاعقةِ، وأنّها تباينها منْ جهةِ الثانيةِ مشتملةً على النّارِ، ثمَّ إنَّ الصّاعقةَ قدْ تكونُ محددةً بموضعٍ معينٍ، بينما تشملُ الصّيحةُ الدّيارَ جميعًا بمنْ فيها.

(1) الهرري، حدائق الروح والريحان: 13/143.
(2) ملا حويش، بيان المعاني: 3/134.
(3) الخليل، العين: (صعق).
(4) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 18/371.

﴿وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُواْ سَلَٰمًاۖ قَالَ سَلَٰمٌۖ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ٦٩﴾ [هود: 69]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

البقاءُ في هذه الحياةِ للأتقى لا للأقوى

لَمّا انتهتْ قصّةُ ثمودَ وما كانَ منْ أمرِ كفرِهِمْ، وإنزالِ الصّيحةِ عليهِمْ أتبعَها ﷺ بقصّةٍ أخرى من القصصِ الأربعِ المذكورةِ في هذهِ السّورةِ، وهيَ قصّةُ قومِ لوطٍ عليه السلام، وهيَ أفظعُ منها وأروعُ، وقدِ ابتدأها بما كانَ منْ شأنِ إبراهيمَ عليه السلام والبشرى الّتي بشّرهُ اللّهُ بها[1]، فمناسبةُ هذه القصَّة للسّابقةِ، تظهَرُ في أنَّ السّابقة فيها عذابُ ثمود واستئصالُهم، وهذه فيها تبشير إبراهيم عليه السلام بالولدِ وتنمية ذريَّته، ليعلم النّاس أنَّ البقاءَ ليس للأقوى بل للأتقى.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿بِٱلْبُشْرَىٰ﴾: أصلُ البِشْرِ - بالكسر -: الطَّلاقةُ والبشاشة وبَسْط الوجه، قال تعالى: ﴿فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ١٠١﴾ [الصافات: 101][2]. واستبشر الرَّجُل: إذا وجد ما يُبشِّره من الفَرَحِ. ويُقال للخَبَر السّارِّ: البِشارة والبُشْرَى، والجمع: بُشَر[3]. والبَشير: المُبَشِّر. وأصلُ البَشَرة بالفتح: انتشارٌ واسعٌ على ظاهر الشَّيء: كانتشار جِلد البَدن على ظاهره، وانتشار الشَّعر على الجلد[4]. وعليه فالمقصود بالبُشْرى في الآية: الخبر السّارُّ الّذي تنبسط به بشرة الوجه فيتهلّل وتَبرق أساريرُه[5].

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 9/328.
(2) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (بشر).
(3) الرّاغب، المفردات: (بشر).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (بشر).
(5) المراغي، تفسير المراغي: 11/129.

2) ﴿لَبِثَ﴾: أصلُ (لبث): يَدُلُّ على تَمَكُّثٍ، وانتظارٍ، واستبطاءٍ. قِيلَ: اللَّبْثُ الاسْمُ، واللُّبْثُ - بالضَّمِّ - المَصْدَرُ[1]. يُقالُ: لَبِثَ بالمَكانِ: أقام به مُلازمًا له. وألْبِثْ عن فلانٍ: أي انْتَظِرْهُ حَتّى يُبْدِيَ انْتِظارُكَ إيّاه خَطَأَ رَأْيِه[2]. واسْتَلْبَثَهُ، إذا اسْتَبْطَأَهُ، وهُو استَفْعَلَ من اللَّبْثِ، وهُو الإبطاءُ والتَّأَخُّر[3]. والمقصود باللَّبْثِ في الآية: الإبطاء، أي: فما أبطأ في إكرام الضُّيوف.

3) ﴿حَنِيذٍ﴾: أصل (حنذ): هو إنْضاجُ الشَّيْءِ. يُقالُ شِواءٌ حَنِيذٌ، أيْ مُنْضَجٌ؛ وذلك أنْ تُحْمَى الحِجارَةُ وتُوضَعَ عليه حَتَّى يَنْضَجَ. ويُقالُ حَنَذْتُ الفَرَسَ، إذا اسْتَحْضَرْتَهُ شَوْطًا أو شَوْطَيْنِ، ثُمَّ ظاهَرْتَ عليه الجِلالَ حتَّى يَعْرَقَ. وهذا فَرَسٌ مَحْنُوذٌ وحَنِيذٌ[4]. والحَنِيذُ المقصود في الآية: اشتواء اللَّحم بالحِجارة المسخَّنَة.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

يُخبرُ اللهُ تعالى أنّ الملائكة قد جاءَتْ إبراهيمَ يُبَشِّرونَه هو وزوجَه سارَة بإسحاقَ، ويعقوبَ من بَعدِه، قالوا: سلامًا، فقال ردًّا على تحيَّتِهم: سلامٌ، فذهبَ سريعًا، وجاءَهم بعِجلٍ مَشويٍّ ليأكلوا منه؛ ظَنًّا منه أنَّهم رجال[5].

الضِّيافةُ من مكارم الأخلاق، وهي خُلُق النَّبيين والصّالحين

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

معنى الواو التي صُدِّرَتْ بها الآية:

قولُه تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ﴾ من باب عطفِ

عطفُ القصَّة على القصَّة لاستكمال المعنى الكليِّ في السُّورة

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (لبث).
(2) ابن عباد، المحيط في اللغة: (لبث).
(3) ابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (لبث).
(4) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، وابن عباد، المحيط في اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (حنذ).
(5) ابن جرير، جامع البيان: 12/467، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 3/141، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/332، 333.

القصَّةِ على القصةِ[1]، والمقصودُ عطفُ هذه القصَّة بأكملِها على القصَّة السّابقة، وليس المقصود بالقصَّةِ القصَّةَ بمعنى الأحداث المتسلسلة، بل الجمل والمعاني التي يحتويها مقطع قرآنيٌّ متكاملٌ، وقد جعل بعضُهم الواو استئنافيَّةً[2]، ومن حيث المعنى فهي قريبةٌ من عطفِ القصَّة على القصَّة، إذِ الاستئنافُ هو البَدْء بحدثٍ جديدٍ بينه وبين السّابق نوع ارتباطٍ، وهذا هو المقصودُ بعطفِ القصةِ على القصَّة.

نكتةُ التَّوكيدِ:

تأكيدُ مضمونِ الجملةِ من مجيءِ الرُّسُلِ

في قولِه تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ﴾ أكّد الجملةَ بالقسم المحذوفِ على تقديرِ واللهِ أو باللهِ[3]، ثمّ جاءَ بحرفِ التّحقيقِ (قدْ) للاهتمام[4]، ونكتةُ التّوكيدِ جاءتْ درءًا لما قد يكونُ من المخاطَبِ منْ غفلةٍ أو استبعادٍ في إنكارِ نزولِ الملائكةِ على هيئةِ بشرٍ على الأنبياءِ بالتّبشيرِ؛ فنزّلهُمْ منزلةَ المُنكِرِ لوقوعِ مثلِ ذلكَ.

وقد يكون الحرف (قد) للتوقع؛ فإنَّ السّامعَ لقصص الأنبياءِ يتوقّعُ سماعَ القصّةِ بعد القصّةِ فجاءَ بـ (قد) الّتي تفيدُ التّوقّعَ، واللّام دخلت لتأكيد الخبر[5].

سرُّ اختيارِ لفظِ المجيءِ دون الإتيانِ:

تأكيدُ زيارةِ الملائكةِ لإبراهيم عليه السلام

عبَّر النَّظمُ بالمجيءِ دون الإتيان في قولِه تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ﴾، لتأكيد مجيءِ الرُّسُل مجيئًا محسوسًا حقيقيًّا، فإنَّ المجيءَ أعمُّ وأشملُ من الإتيانِ، ويكون في المعاني والمحسوساتِ، وهو أقوى من الإتيان في الحصول، فإنَّ المجيءَ يكون في الذّاتِ[6]، ولذلك كان آكَدَ في الدلالة من الإتيان في هذا السِّياقِ.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/116.
(2) صافي، الجدول في إعرابِ القرآن: 12/310.
(3) إسماعيل حقّي، روح البيان: 4/161.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/115.
(5) زادة، حاشية على البيضاوي: 4/664.
(6) الراغب، المفردات: (جاء).

سرُّ اختيارِ لفظِ المجيءِ دونَ الإرسالِ:

الإرسالُ كان إلى قوم لوطٍ لا إبراهيم عليه السلام

أُسنِدَ المجيءُ في قولِه تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ﴾ إلى الرُّسُلِ، ولمْ يُستعملْ لفظُ الإرسالِ، فلم يقل: (ولقد أُرسِلت رسلنا بالبشرى إلى إبراهيم)؛ لأنهم لم يكونوا مرسَلين إليه عليه السلام بل إلى قوم لوطٍ؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ﴾، وإنما جاؤوه لداعية البُشرى[1].

نكتةُ تأنيثِ الفعلِ:

الإيماءُ إلى لفظِ الملائكةِ

جاءَ الفعلُ ﴿جَآءَتْ﴾ متصلا بتاء المؤنّثِ في قولِه تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْ﴾؛ لأنّهُ أرادَ بالرّسلِ الملائكةَ[2] عليهم السلام، ولفظُ الملائكة مؤنَّث، والرُّسُل مذكَّر، فآثر في صياغةِ الفعل المؤنَّث المفهوم معنًى على المذّكر المذكور لفظًا، جمعًا بين اللَّفظين، وبيانًا للمقصودِ بالرُّسُلِ.

فائدةُ التَّعبيرِ بالرُّسُلِ دونَ الملائكةِ:

لفتُ الأنظارِ إلى المعنى الوظيفيِّ للملائكةِ

في التّعبيرِ بـ ﴿رُسُلُنَآ﴾ بدلًا من الملائكةِ معَ أنّهمْ ملائكةٌ لفْتٌ وتنبيهٌ إلى المعنى اللّغويّ؛ فَهُم وسائطُ بينَ الحقِّ سبحانهُ والخلقِ يوصلونَ إليهمْ آثارَ صنعهِ ودلائلَ عظمتهِ[3]، فالتَّسميةُ هنا باعتبارِ الوظيفةِ التي جاء بها الرُّسُل الكرامُ.

دلالةُ إضافةِ لفظِ الرُّسلِ إلى ضميرِ الجمعِ:

عظمةُ الملائكةِ من عظمةِ الله تعالى

أضافَ لفظَ الرّسلِ إلى الضّميرِ الدّالّ على الجمعِ (نا) في قولِه: ﴿رُسُلُنَآ﴾ للدّلالةِ على التّعظيم والتّفخيم المكتسبِ من (نا) العظمةِ؛ فإنّ عظمةَ الرّسلِ من عظمةِ اللّه تعالى، وهم جبرائيلُ وميكائيلُ وإسرافيلُ[4] عليهم السلام.

---

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/224.
(2) البغوي، معالم التنزيل: 2/456.
(3) القونوي وابن التمجيد، حاشيتان على البيضاوي: 10/133.
(4) البقاعي، نظم الدّرر: 9/329.

معنى الباءِ:

مصاحبةُ الملائكةِ للبشرى

حرف الباءُ في قولِه تعالى: ﴿بِٱلۡبُشۡرَىٰ﴾ محمولٌ على معنى المصاحبةِ[1]؛ فإنّ مجيئَهم كانَ لأجلِ البشرى مصاحبينَ لها مصاحبةَ الرّسالةِ للمرسلِ بها[2].

بلاغة استعمال حرف الباءِ:

استعارةٌ مكنيَّةٌ أصليَّةٌ بغرضِ تشخيصِ المعاني

في التّعبيرِ بمجيءِ الرّسلِ بالبشرى في قولِه تعالى: ﴿وَلَقَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُنَآ إِبۡرَٰهِيمَ بِٱلۡبُشۡرَىٰ﴾ استعارةٌ حسنةٌ جميلةٌ تتوفّرُ على ملمحٍ بلاغيّ؛ إذْ شبّهت البشرى وهيَ من الأحوالِ المعنويةِ بأمرٍ ماديّ كأنّهُ يُحمَلُ ويُجاءُ بهِ، فهي استعارةٌ مكنيَّةٌ أصليَّةٌ، وفيها تصويرُ الملائكةِ قادمينَ صوبَ إبراهيمَ عليه السلام حاملينَ البشرى.

بلاغةُ الاستئنافِ البيانيّ:

بيانُ البشرى وتبيينُ النّوايا

وتقعُ جملةُ: ﴿قَالُواْ سَلَٰمٗاۖ قَالَ سَلَٰمٞۖ﴾ من السّابقِ موقعَ البيانِ لقولِه (البشرى) فهنا مَظِنَّةُ سؤالِ سائلٍ: فماذا قالوا؛ فإنَّ قولهَمْ ذاكَ هو مبدأُ البشرى، أمّا الجملُ المعترضةُ بينها فهيَ حكايةُ ما كانَ منْ أحوالهِمْ، وانتهى إليها في تبشيرِهِ بإسحاقَ إلى نهايةِ الآيةِ[3].

براعةُ الاختلافِ بين نصبِ اللّفظِ ورفعه:

جوابُ إبراهيمَ عليه السلام أبلغُ لفظًا وأحسنُ ردًّا

انتصبَ ﴿سَلَٰمٗاۖ﴾ في قولِه تعالى: ﴿قَالُواْ سَلَٰمٗاۖ قَالَ سَلَٰمٞۖ﴾؛ لوقوعِ القولِ عليهِ، أمّا ارتفاعُ ﴿سَلَٰمٞۖ﴾ فهو حكايةٌ لقولهِمْ، وهو مبتدأ حُذف خبرُه، أوْ خبرٌ لمبتدأٍ محذوفٍ تقديرهُ: سلامٌ عليكم، أو، أمري سلامٌ[4]، وفي رفعِ السّلامِ بلاغةٌ لا تتحقّقُ في نصبهِ لتناسي معنى الفعلِ فيهِ؛ فيكونُ دالًّا على الثّباتِ والدّيمومةِ، فيما يدلُّ النّصبُ

(1) وهو من معانيها المشتهرة كقولهم دخل علينا بثياب السفر، يُنظر: ابن الخباز، توجيه اللمع، ص: 232.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/116.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/116.

(4) السّمين الحلبي، الدّرّ المصون: 6/352.

على الحدوثِ وتجديدِ ما لم يكنْ لوجودِ الفعلِ، وفي مخالفةِ النظْمِ القرآني بينَ السّلامينِ غرضٌ مهمٌ، وهو أنّهُ ردّ السّلامَ بعبارةٍ أفضلَ منْ عبارتهِمْ[1] أخذًا بأدبِ اللّهِ تعالى في التّحيةِ، كما في قولهِ تعالى: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّواْ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ﴾ [النساء: 86].

وفيه إشارةٌ إلى أنَّ ردَّ السّلام واجبٌ، وبدأهُ سنّةٌ؛ فإنَّ التّعبيرَ بالمرفوعِ هو سبيلُ الواجباتِ، والتّعبيرُ بالمنصوبِ سبيلُ المندوباتِ؛ لثباتِ الجملةِ الاسميةِ قبالةَ الجملةِ الفعليةِ[2].

نكتةُ تنكيرِ لفظِ ﴿سَلَٰمٌۖ﴾:

في قولهِ تعالى: ﴿قَالُواْ سَلَٰمٗاۖ قَالَ سَلَٰمٞۖ﴾ أوردَ لفظةَ ﴿سَلَٰمٞۖ﴾ نكرةً؛ لأنّها على معنى الدّعاءِ[3]؛ فجازَ تنكيرُ المبتدأ على تقديرِ: سلامٌ عليكُم، والتّنكيرُ هنا يدلّ على التّمام والكمالِ، أي: سلامٌ كاملٌ تامّ عليكم بينما يفيدُ التّعريفُ (السلامُ عليكم) الماهيةَ[4].

الدّلالةُ على تمام السّلام وكمالِه

توجيهُ القراءاتِ القرآنيَّة:

قوله تعالى: ﴿سَلَٰمٞۖ﴾ على قراءتينِ؛ الأولى: بسينٍ ثمَّ لامٍ فألفٍ فميمٍ، وهيَ قراءةُ الجمهورِ، والثّانيةُ بسينٍ مكسورةٍ معَ حذفِ الألفِ (سِلمٌ)، وهيَ قراءةُ حمزةَ والكسائيّ[5]، فحجّةُ القراءةِ الأولى أنّها ردٌّ على سلامهِمْ؛ فالسّلامُ يُرَدُّ بمثلهِ، والحجّةُ لمنْ حذفَ الألفَ (سِلْم) أنّهُ جعلهُ من المسالمةِ والصّلحِ، أيْ: قالوا نحنُ سِلمٌ[6]؛ لأنّه نَكِرَهُم فأرادوا طمأنتهُ وأنّهم مسالمونَ لا محاربونَ، والمعنيان متكاملان، فكونهم مسلّمينَ لا يتعارض مع كونهم جاؤوا مسالمين، بل هو جمالٌ يعلوه بهاء، فإنَّ من يُسلِّم يحملُ سلمًا، ومن يُخبر بكونه سلمًا، فيلزم عنه أنَّه يُلقي السَّلام.

السلامُ والسِّلم متلازمان لا ينفكُّ أحدُهما عن الآخرِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/116.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/151.
(3) ابن الصائغ، اللمحة في شرح الملحة: 1/298.
(4) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 18/372، وابن عادل، اللباب: 10/521.
(5) ابن الجزري، النّشر: 2/290.
(6) ابن خالويه، الحجة في القراءات السبع، ص: 189.

معنى الفاءِ ودلالتها:

مسارعةُ الخليلِ في إكرام الضّيفِ وتعجيلِ القِرَى

الفاءُ في قولهِ: ﴿فَمَا لَبِثَ﴾ دالَّةٌ على التّعقيبِ المفيدِ الإسراعَ في إكرام الضّيفِ وتقديم ما يليقُ بهِ؛ لظنِّ إبراهيمَ عليه السلام أنّهمْ منَ البشرِ فأسرعَ في قِراهمْ[1] وفي هذا ما فيه من الدلالة على سجايا الكرم وأفعالِ الكرام، وقد أخذ العربُ هذه الخَصْلةَ الحميدةَ عن الخليل إبراهيم عليه السلام؛ فكانوا أكرمَ النّاس، وأفجعهم من البخل مع الضّيوف.

غرضُ النّفي:

انتفاءُ اللُّبثِ مبالغةٌ في تعجيلِ الضِّيافة

في نفيِ اللُّبثِ ﴿فَمَا لَبِثَ﴾ معَ الأضيافِ فائدةٌ، وهو الإخبارُ عن صنيعِ إبراهيم عليه السلام في كونه لم يتأخرْ معَ أضيافهِ مؤانسةً وحديثًا وسؤالًا عنْ أحوالهِمْ، بلْ بادر بالاشتغالِ بقِراهم وإكرامهم وإزاحةِ حاجتهِمْ، ألا ترى أنّ إبراهيم عليه السلام لو لم يفعلْ ذلكَ وسألهم عنْ أحوالهِمْ وعلمَ أنّهمْ من الملائكةِ لما اشتغلَ بما ذُكرَ[2].

وفي قولهِ تعالى: ﴿فَمَا لَبِثَ﴾ أدخلَ أداةَ النفيِ ﴿فَمَا﴾ على الفعلِ ﴿لَبِثَ﴾، وغرضُ هذا النّفيّ المبالغةُ في الاستعجالِ لإكرام ضيفهِ، والمعنى: فما أبطأ ولا تأخرَ بلْ عجّلَ بأنَ جاءَ بعجلٍ حَنيذٍ[3].

سرُّ التّعبيرِ بمفردةِ: ﴿لَبِثَ﴾:

مسارعةُ إبراهيم بالمبادرةِ دليلُ تأصُّلِ خُلُقِ الكرم

عبّرَ النَّظمُ بالفعلِ ﴿لَبِثَ﴾ مؤثرًا إياهُ على أفعالٍ مرادفةٍ له، فإنّ معنى (ما لبثَ) أي: ما أقامَ[4] حتّى ذهبَ وجاءَ بعجلٍ حنيذٍ؛ لأنّ اللُّبثَ في المكانِ أصلًا يعقبهُ انتقالٌ وتحوّلٌ عنهُ؛ فيصيرُ المعنى ما أبطأ[5] حتّى بادرَ بقِراهُم.

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/117.
(2) الماتريدي، تأويلات أهل السّنّة: 6/154.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/117.
(4) الزجاج، معاني القرآن وإعرابه: 3/61.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/117.

بلاغةُ استعمالِ ﴿أَن﴾:

الدّلالة على المسارعةِ دون إبطاءٍ

في قوله تعالى: ﴿فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ﴾ استُعملَت ﴿أَن﴾ معَ الفعلِ لأثرِها في المغزى؛ فإنَّ قولهُ: ﴿أَن جَآءَ﴾ على معنى الفاعليةِ بأن تَنْسَبِكَ ﴿أَن﴾ معَ الفعلِ، فالتّقديرُ حينئذٍ: ما تأخَّرَ مجيئهُ بعجلٍ حنيذٍ[1]، فدلَّت ﴿أَن﴾ على المسارعةِ، وهو ما يُوحي به النَّصُّ جملةً.

فائدةُ التّعبيرِ بوصفِ ﴿حَنِيذٍ﴾:

شَيُّ اللَّحم مقدَّمٌ في إكرام الضِّيفانِ

اختارَ إبراهيمُ عليه السلام أنْ يكونَ طعامُ ضيوفهِ عِجْلًا مشويًّا؛ لأنَّ الحَنيذَ معناهُ المشويُّ الّذي يَقطرُ دَسَمًا، وهو على هذهِ الطّريقةِ أسرعُ طبخًا وأعونُ على التّعجيلِ في إحضارِ الطّعام للضّيفِ وإكرامِهِمْ[2]. كما أنَّ في الآيةِ كشفًا عن طرائقِ الطَّهي في زمانِهم، وهي دالَّةٌ على أنَّ شَيَّ اللَّحم هو المقدَّمُ في إكرام الضِّيفان.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

اللُّبث والمُكْث:

اللُّبثُ يدلّ على المكثِ والتّأخّرِ والاستبطاءِ

اللّبثُ في لسانِ العربِ يدلّ على المكثِ والتّأخّرِ والاستبطاءِ[3]، ولَمّا كانَ منْ سجايا إبراهيمَ عليه السلام إكرامُ الضّيفِ فإنَّ الحقَّ سبحانه وتعالى نفى عنهُ هذا الاستبطاءَ والتّأخّرَ في إكرام أضيافهِ "فما لبثَ أنْ جاءَ بعجلٍ حنيذٍ، أيْ: ذهبَ سريعًا فأتاهُمْ بالضّيافةِ"[4]. أمّا المكثُ فهو التّوقّفُ والانتظارُ والثّباتُ عليهِ، ويسمّى الّذي لا يتعجّلُ الأمورَ مَكيثًا[5]؛ فاللُّبث أنسبُ لسياقِ قصّةِ أضيافِ إبراهيمَ فإنّهُ نفى عنهُ ما هو أطولُ وقتًا وهو المكثُ الدّالّ على التّأخّرِ والاستبطاءِ.

(1) السّمين الحلبي، الدّرّ المصون: 6/353.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/117.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (لبث).
(4) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/287.
(5) الرّاغب، المفردات: (مكث)، والأزهري، تهذيب اللغة: (مكث).

الحنيذ والمشوي:

المشويُّ الذي ينضجُ على النّارِ والحنيذُ الذي ينضج على الحجار

الَحنيذُ هو المشويُّ على الحجارةِ المسخّنةِ من "حَنَذْتُ اللَّحْمَ أَحْنِذُهُ حَنْذًا، وهو أن تشويهُ على الحجارةِ حتَّى يَنْضَجَ، واللَّحمُ حنيذٌ ومحنوذٌ"[1]، وذكروا أنَّ طريقةَ الحَنْذِ أنْ يُحفرَ لهُ في الأرضِ، ثمَّ يغطّى حتّى ينضَجَ، وهيَ طريقةُ أهلِ الباديةِ[2]. وهذهِ الطّريقةُ تتوفّرُ على السّرعةِ والمبالغةِ في إنضاجِ اللّحم لا سيّما أنّه قدّمَ لهمْ عِجلًا، ولحمهُ أقسى منْ لحم الضّأنِ؛ فالحنيذُ هو المشويّ بسرعةٍ ومبالغةٍ في الإنضاجِ وهو أنظفُ وألذّ طعمًا من المشويّ بالنّارِ[3] وفيه مزيدُ إكرامٍ للضّيفِ، أمّا المشويُّ فهو الّذي ينضَجُ على النّارِ والحطبِ مطلَقًا.

(1) ابن دريد، جمهرة اللغة: (حنذ).
(2) الأزهري، تهذيب اللغة: (حنذ).
(3) محمد رشد رضا، تفسير المنار: 12/106.

﴿فَلَمَّا رَءَآ أَيۡدِيَهُمۡ لَا تَصِلُ إِلَيۡهِ نَكِرَهُمۡ وَأَوۡجَسَ مِنۡهُمۡ خِيفَةٗۚ قَالُواْ لَا تَخَفۡ إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ إِلَىٰ قَوۡمِ لُوطٖ ٧٠ وَٱمۡرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٞ فَضَحِكَتۡ فَبَشَّرۡنَٰهَا بِإِسۡحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسۡحَٰقَ يَعۡقُوبَ ٧١﴾

[هود: 70 - 71]

مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِما قَبْلَهما:

الإحجامُ بعد تقديم الطَّعام يحسُنُ تفسيرُه عند الكرام

السابقةُ ما كانَ منْ سجايا إبراهيمَ عليه السلام؛ من إكرام الضّيفِ؛ إذ قدّمَ إليهمُ العِجلَ الحنيذَ احتفاءً بهمْ، فناسب ذلك ذكْرُ موقفِ إبراهيم عليه السلام من مقابلةِ صنيعه، فلمّا وضعَ الطّعامَ أمامهُمْ لمْ يفعلوا فعلَ الأضيافِ، ويلمّوا بهِ، فها هيَ أيديهمْ لا تمتدُّ إليهِ، وهذا ما رابَ إبراهيمَ فأنكرَ فعلهُمْ، وأضمرَ الخوفَ في قلبهِ إيجاسًا؛ لما رأى منْ أحوالهِمْ[1]؛ فإنّ من شأنهم أنّهم إذا نزلَ بهم ضيفٌ ولم يأكلْ خافوا منهُ وظنّوا أنّه يضمرُ شرًّا، فلمّا كانَ منهم ذلكَ سرّوا عنه وبادروهُ بنفي الخوفِ عنه طمأنةً لهُ، فالمناسبة هي بيان موقف الضيفان بعد موقف إكرام إبراهيم لهم.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَأَوۡجَسَ﴾: أصل (وجس): كَلِمَةٌ تَدُلُّ على إحْساسٍ بِشَيءٍ وتَسَمُّعٍ لَهُ. توجَّسْتَ الشيءَ والصوتَ إذا سَمِعْتَهُ وأنت خائِفٌ[2]. فالوجْسُ: فَزْعَةٌ في القَلْبِ، أوْجَسَ القَلْبُ فَزَعاً، وفي السَّمْعِ أيضاً؛ وهو الصَّوْتُ الخَفِيُّ[3].

وممّا شَذَّ عَنْ هذا؛ وهو منَ الكلام المُشكِلِ، قَولُهم: لا أفْعَلُهُ

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 9/330.

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (وجس).

(3) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، وابن عباد، المحيط في اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (وجس).

سَجِيسَ الأَوْجَسِ: أي: لا أفعله الدهْرَ. وما ذُقْتُ عِنْدَهُ أَوْجَسَ: أيّ شَيْئًا منَ الطَّعام[1]. والمقصودُ بالوجْس في الآية: فزعة في القَلْب، أي: أَضْمَرَ واسْتَشْعَرَ الخَوفَ منهم[2].

2) ﴿فَضَحِكَتْ﴾: أصْلُ الضَّحِك: انبِساطُ الوجْهِ وتكشُّر الأسنان منْ سُرورِ النَّفسِ. واستُعير الضَّحِكُ للسُّخرية، فقيل: ضَحِكْتُ منه، ورجلٌ ضُحَكَةٌ: يَضْحَكُ على النّاس، وضُحْكَةٌ: لمن يُضْحَكُ منه[3]. والضَّحْكَة: المرَّة الواحِدَةُ[4]. والضَّحِكُ المقصود منه في الآية: كَيْفِيَّةٌ في الفَم تَتَمَدَّد منها الشَّفَتانِ ورُبَّما أَسْفَرَتا عنِ الأسنانِ، وهي كَيْفِيَّةٌ تَعْرِضُ عند السُّرُورِ والتَّعَجُّبِ منَ الحُسْنِ[5].

❁ المَعْنى الإجْمالِيُّ:

استحبابُ مُبادرةِ الضَّيفِ بالأكلِ، وبِشارةُ مَن وُلِدَ له ولَدٌ، وتهنِئته

لمّا رأى إبراهيمُ أيديَهم لا تمتدُّ إلى الطَّعام الَّذي قُدِّم إليهم؛ نَكِر ذلك منهم ووجده على غير ما يعهد من الضّيوف، فالعادة قد جَرَتْ أنَّ الضَّيف إذا لم يَطعم مما قُدِّم إليه؛ ظُنَّ أنَّه لم يَجِئْ بخيرٍ وأنَّه يحدِّث نفسَه بشرٍّ، فأحسَّ في نفْسِه خوفًا وفزعًا، حين شعر أنَّهم ليسوا بشرًا ورُبَّما كانوا من ملائكة العذاب، فقالت الملائكةُ لمّا رأت ما بإبراهيمَ من الخَوفِ: لا تَخَفْ؛ إنّا ملائكةُ رَبِّك أُرسِلْنا إلى قوم لُوطٍ لإهلاكِهم، وامرأةُ إبراهيمَ سارَّةُ كانت قائمةً من وراءِ السِّترِ تَسمعُ الكلامَ، فضَحِكَت تعجُّبًا ممّا سَمِعَت، فبَشَّرْناها على ألسِنةِ الملائكةِ بأنَّها ستلِدُ من زوجِها إبراهيمَ ولدًا يُسمَّى إسحاقَ، وسيعيشُ ولَدُها، وسيكونُ لها بعد إسحاقَ حفيدٌ منه، وهو يعقوبُ، عليه السلام[6].

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (وجس).
(2) الواحدي، التفسير البسيط: 11/472.
(3) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (ضحك).
(4) ابن منظور، لسان العرب: (ضحك).
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/282.
(6) ابن جرير، جامع البيان: 12/472، والسعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 386، والمراغي، تفسير المراغي: 12/59.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ العطفِ بالفاء:

في قولِه تعالى: ﴿فَلَمَّا رَءَآ أَيۡدِيَهُمۡ لَا تَصِلُ إِلَيۡهِ﴾ الفاءُ للعطفِ، وقدْ عطفتْ هذهِ الجملةَ على جملةٍ محذوفةٍ مقدَّرة، على معنى: فَقرَّبَ العجلَ الحنيذَ إليهمْ فلم يمدّوا أيديهُمْ؛ فخاطبهُمْ بأنْ يأكلوا منه[1]، فلمّا رأى أنّ أيديهُمْ لمْ تتحرّكْ منْ مكانِها كنايةً عنْ رفضِهمْ ضيافتهُ؛ نَكِرَهمْ.

العطفُ على محذوفٍ والتّقديرُ: فقرَّبه إليهمْ

معنى ﴿فَلَمَّا﴾ وأثرُها في بيانِ المعنى:

﴿فَلَمَّا﴾ اسم شرطٍ دالٌّ على الزَّمن، معَ إفادتِه تعليقَ الجوابِ على الشّرطِ؛ فإنّه حينَما "رأى إبراهيمُ أنّ أيديَهُم لا تصلُ إلى الطّعام توجّسَ من ذلكَ شرًّا ونَكِرهُم"[2]؛ فقدْ ترتّبَ الجواب ترتّبَ المعلولِ على العلّةِ؛ فإنّ انتفاءَ امتدادِ أيديهم علَّةٌ لنُكرانهم، ومعنى هذا التَّرتُّب أنَّ إبراهيم عليه السلام لم يُنكر امتناعَهم عن تناول الطَّعام لمجرَّد شعورٍ وإحساس، بل لدليلٍ معتادٍ بين النّاس، ففيه أنَّ إنكارَ أمرٍ صادرٍ عن غريبٍ لا يكون إلا بدليل.

سرعةُ البديهةِ في اتِّخاذِ الموقفِ المطلوبِ نهجُ العقلاء ومسلكُ الحكماء

نوعُ الرُّؤيةِ:

نوعُ ﴿رَءَآ﴾ في قولِه تعالى: ﴿فَلَمَّا رَءَآ أَيۡدِيَهُمۡ﴾ بصريَّةٌ، وفيها دلالةٌ على تخلّقِه عليه السلام بأخلاقِ الضّيافةِ؛ فإنّها توجبُ النّظرَ إلى الضّيفِ ليُعلمَ هلْ يأكلُ أو لا؟ ولكنّ الرّؤيةَ يجبُ أنْ تكونَ مقيّدةً لا مطلقةً؛ مقيّدةً بالتلفّتِ والمسارقةِ منْ غيرِ تعيينِ النّظرِ إلى الضّيفِ درءًا لإحراجِه فيمتنعُ عنْ الأكلِ أوْ يقصّرُ فيه[3] حياءً، فكانَ فعلُ إبراهيمَ عليه السلام على الغايةِ منْ سجايا الضّيافةِ لمّا وجّهَ نظرهُ نحو أيديهِمْ.

النَّظرُ إلى الضّيفانِ بعد تقديمِ الطَّعامِ من كمالِ المروءةِ وحسنِ الإكرامِ

(1) الدرويش، إعراب القرآن وبيانه: 4/398.
(2) الشّعراوي، تفسير الشّعراوي: 11/6557.
(3) الآلوسي، المعاني: 6/292.

توجيهُ تخصيصِ الأيدي بالذِّكرِ:

رقَّـــةُ الأدبِ وعظيمُ الحياءِ في التَّعاملِ مع الأضيافِ

في قولِه تعالى: ﴿فَلَمَّا رَءَآ أَيۡدِيَهُمۡ لَا تَصِلُ إِلَيۡهِ﴾ خُصِّصَتۡ رؤيتُهُ ﷺ أيديَ أضيافِه بالذّكرِ، والمتوقّعُ أنۡ يكونَ نظرهُ نحو وجوههِمۡ كعادةِ منۡ يقابلُ ضيفَهُ ويحتفي به؛ وإنّما فعلَ ذلكَ تأدّبًا معهُمۡ، وإظهارًا لحسنِ ضيافتِه كيۡ لا يضعهُمۡ موضعَ الحرجِ والاستحياءِ.

بلاغةُ التَّعبيرِ بنفي وصولِ الأيدي إلى العجلِ:

اجتماعُ الكنايةِ، وتصويرِ المشهدِ، وتعليمِ الأدبِ في عبارةٍ واحدةٍ

جاءَ التَّعبيرُ عن عدمِ الأكلِ، بنفي وُصولِ الأيدي إلى العجلِ في قولِه تعالى: ﴿فَلَمَّا رَءَآ أَيۡدِيَهُمۡ لَا تَصِلُ إِلَيۡهِ﴾ بدلَ نفي الأكلِ، والمعنى أنّهمۡ لمۡ يمدُّوا أيديَهُمۡ إلى أكلِه؛ فلمۡ ينفِ وصولَهُمۡ الذي ينشأُ عنۡ مدِّ الأيادي؛ فكانَ انتفاءُ وصولِ الأيدي إلى العجلِ الحنيذِ كنايةً عنۡ امتناعِهم عن الأكلِ، والكنايةُ - وإن طالت لفظًا - أبلغُ معنًى، فكنَّى عن معنى عدمِ الأكلِ، وعن أدبِ التَّعامل مع الضِّيفان، مع تصويرِ المشهدِ كاملًا، وهذه المعاني الثَّلاثة وغيرها لمن أراد طلبَ المزيد مستوحاةٌ من هذا التَّعبير بخلافِ قولنا: (فلما رآهم لا يأكلون).

موقعُ ﴿نَكِرَهُمۡ﴾ في الجملةِ:

الإنكارُ النَّفسيُّ سلوكٌ مطلوبٌ في موقعِه الأليقِ

جملةُ ﴿نَكِرَهُمۡ﴾ لا محلَّ لها، تقعُ جوابًا للشرط غير الجازم في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَءَآ أَيۡدِيَهُمۡ لَا تَصِلُ إِلَيۡهِ﴾[1]، وهو إنكارٌ منه ﷺ ناشئٌ بموجبِ فعلِهم المذكورِ في امتناعِ الأكلِ، وأمّا إنكارهُ المتعلّقُ بأنفسِهم فلا تعلّقَ لهُ بالأكلِ، وإنّما لأنّهم يخالفونَ ما هو معهودٌ من أجناسِ الأناسي[2].

(نَكِرَ) و(أنْكَر):

نَـكِـرَ دالٌّ على شدّةِ الإنكارِ مع خوفٍ وتوجُّسٍ

قولهُ تعالى: ﴿نَكِرَهُمۡ﴾ فعلٌ ماضٍ، والنّونُ والكافُ والرّاءِ تدلُّ

(1) الدرويش، إعراب القرآن وبيانه: 4/398.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/224.

على خلافِ المعرفةِ الّتي إنْ حصلتْ سكنَ إليها القلبُ[1]، وهناك فرقٌ بين صيغةِ (نَكِرَ) و(أَنْكَرَ) من ثلاثةِ وجوهٍ:

الأول: صيغةُ الفعلِ هذا دالَّةٌ على الإنكارِ الشّديدِ والانفعالِ ممّا رأى منهمْ؛ فإنَّ نَكِرَ أبلغُ منْ أنكرَ[2].

الثّاني: مدلولُ الفعلِ الثّلاثيِّ المجرَّدِ ﴿نَكِرَهُمْ﴾ انتفاءُ معرفتِهِ بأضيافِهِ وما كان منهم فحسبْ، أمّا (أنكرهُمْ) فمعناهُ دالٌّ على أنّهُ وجدهُمْ على صفةِ المنكَرِ[3]، وهو معنًى واردٌ في معاني صيغِ العربيَّةِ كإيجادِ الفعلِ على صفةِ الفاعلِ نحو: أبخلتُهُ أي: وجدتهُ بخيلًا، أوْ على صفةِ المفعولِ نحو: أحمدتُهُ أيْ: ألفيتهُ محمودًا[4]، وهذا المعنى غيرُ مرادٍ في الآيةِ؛ فإنَّ أضيافَ إبراهيمَ بصفتِهِمُ الملائكيَّةِ أنأى عن صفةِ المنكرِ فاعلًا أوْ مفعولًا.

الثّالث: في استعمالِ هذا الفعلِ ﴿نَكِرَهُمْ﴾ ملمحٌ سياقيٌّ فبينَ هذا الفعلِ والفعلِ (أنكرَ) علاقةٌ تصريفيَّةٌ اشتقاقيَّةٌ، إلّا أنَّ الفرقَ في الاستعمالِ أنَّ (أنكرَ) يقربُ من الإنكارِ المَحْضِ، أمّا الفعلُ المجردُ (نَكِرَ) فمستعملٌ فيما إذا شابَ الإنكارَ خوفٌ وتوجُّسٌ[5] وهو الكائنُ في سياقِ الآيةِ.

بلاغةُ عطفِ الإيجاسِ على النَّكارةِ:

حبسُ الإيجاسِ في النفسِ بعد النَّكارةِ أدبٌ جمٌّ وذوقٌ رفيع

لَمّا كانَ منْ معنى الإنكارِ كرهُهُم وارتيابُهُ منْ أنَّ أيديَهُمْ لا تمتدّ إلى طعامه؛ عطفَ عليهِ ما يؤكّدهُ ويقوّيهُ وهو قولهُ تعالى: ﴿وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾، أيْ: شعرَ أنَّ في نفسهِ شيئًا من الخوفِ، وخشيَ منْ أنَ يُضمروا لهُ شرًّا بأن حسبهُمْ قُطّاعًا[6].

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نكر).
(2) البقاعي، نظم الدّرر: 9/330، والمنتجب الهمذاني، الكتاب الفريد: 3/492.
(3) الماوردي، النكت والعيون: 2/483.
(4) أبو حيّان، ارتشاف الضرب: 1/173.
(5) الشهري، الشاهد الشعري في تفسير القرآن الكريم، ص: 120.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/118.

وفي عطفِ جملةِ الإيجاسِ وهو الخطورُ القلبيُّ على جملةِ الإنكارِ فائدةٌ جليلةٌ وحكمةٌ بليغةٌ؛ فإنّه لا يُستَحبُّ ممّنْ كَرِهَ منْ ضيفهِ شيئًا أنْ يُظهرهُ لهُ، بلْ يوجِسهُ في نفسهِ، ويُخفيهِ في صدرهِ؛ حتى لا يُشعرهم بشيء؛ إكرامًا للضّيفِ، وإنّما عرفوا دخائلهُ عليهم السلام؛ لأنّهمْ ليسوا من البشرِ[1].

معنى الحرف (من):

معنى (من) في قولِه تعالى: ﴿وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ ابتداء الغايةِ[2]، ومدخولِها (هم) كنايةٌ عن أضيافهِ؛ فإنّ الخيفةَ صدرت عنه عليه السلام بسبب الملائكةِ، وعليه فالإيجاس بدأ سببُه من جهتهم بوصْفهم سببَ الإيجاس.

الملائكةُ مبتدأُ خوفِ إبراهيمَ عليه السلام

نكتةُ تقديم الجارِّ والمجرورِ على المفعولِ:

قُدِّمَ الجارُّ والمجرورُ ﴿مِنْهُمْ﴾ على المفعولِ به (خِيفة)، وهو في الأصلِ صفةٌ لـ﴿خِيفَةً﴾[3]، لتخصيصِ الخوفِ في كونه من جهتِهم على وجهِ الخصوصِ للمبالغةِ، ولأنّه أرادَ أن يخبرَ أنّه عليه السلام قد أوجسَ منهم شيئًا وهو الخيفةُ، فتقديمُ الجارِّ فيه ترقّبُ النّفسِ ليتمكّنَ عندَ ذكرِه أفضلَ تمكّنٍ، ولو قيل: أوجسَ خيفةً منهم[4]؛ لاحتملَ المعنى أن تكونَ الخيفةُ من جهتِهم، ومن جهةِ غيرِهم، والمراد أن يكونَ المعنى مختصًّا بخوفِ إبراهيمَ منهم.

قصرُ الخوفِ على أن يكونَ من جهةِ الملائكةِ لبيانِ شدّته

نكتةُ التّعبيرِ بقولِه: ﴿خِيفَةً﴾ مادةً وصيغةً:

لفظُ ﴿خِيفَةً﴾ مشتقّ من الخوفِ، وهو بمعناهُ، وإنّما جاءَ بها على وزنِ (فِعْلَة) الدّالةِ على الهيئةِ والحالةِ الّتي يكونُ عليها الإنسانُ من الخوفِ، وهي تمييزٌ محوَّلٌ من المفعولِ[5]، واختيارُها بالذّكرِ منْ بابِ

صيغةُ (خيفة) أشدُّ مبالغةً من الخوفِ

(1) الطريفي، التفسير والبيان لأحكام القرآن: 3/1609.
(2) وهو الأصل في معانيها، المبرد، المقتضب: 1/44.
(3) الدرويش، إعراب القرآن وبيانه: 4/398.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/225.
(5) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 7/3730.

المبالغةِ؛ فإنّهُ تفرَّسَ بهمْ معَ جهالتهِ لهمْ، وانتفاءِ معرفتهِ بهم[1]؛ فصيّرهُ على حالةٍ معيَّنةٍ من الخوفِ، رسمها التّعبيرُ الحكيمُ بصيغةِ ﴿خِيفَةٗ﴾ وليسَ خوفًا كما عُهِدَ في غيرِها من الآياتِ.

فائدةُ تنكيرِ: ﴿خِيفَةٗ﴾:

لتنكيرِ ﴿خِيفَةٗ﴾ فائدةٌ في التّعبيرِ الحكيم، وهي دلالتُها على التّعظيم بموجبِ ما رأى من أحوالهم وما شاهدَ من جَلالهِم[2]، في انتفاءِ امتدادِ أيديهم؛ فإنّها من أماراتِ العداوةِ وعلاماتِ الشّرّ.

عِظَمُ الخيفةِ دليلٌ على توقُّعِ الشَّرِّ

توجيهُ المتشابهِ اللّفظيّ:

جاءَ تقييدُ الخيفةِ بالنفسِ في قصةِ موسى عليه السلام فقال تعالى: ﴿فَأَوۡجَسَ فِي نَفۡسِهِۦ خِيفَةٗ﴾ [طه: 67]، وليس الأمر كذلك في قصّةِ إبراهيمَ عليه السلام حيث قال: ﴿وَأَوۡجَسَ مِنۡهُمۡ خِيفَةٗ﴾؛ فيُسالُ عنْ سرّ ذلكَ؟

والجوابُ: أنَّ موسى عليه السلام عندَما أوجسَ خيفةً أخفاها في نفسِهِ؛ فإنّهُ في ميدانِ المواجهةِ معَ أعدائهِ منْ فرعونَ وسَحَرَتِه؛ فليسَ حَريًّا بهِ إظهارُ خوفهِ فيضعفُ وهو في موقفِ تَحَدٍّ وإعجازٍ، فلمّا أضمرَ خيفتَهُ، ولمْ تبدُ على وجههِ كانَ ذلكَ مُعينًا على انتصارهِ على عدوّهِ.

أمّا إبراهيمُ عليه السلام فإنّهُ حاولَ إضمارَ خوفهِ لكنّهُ ظهرَ عليهِ؛ فهو ليسَ في ميدانِ التّحدّي لتقومَ الملائكةُ بتطمينهِ، وفي تقديم منهمْ تخصيصُ الخوفِ من الملائكةِ فجاءَ الأمانُ منهم[3].

يحسُن في ميدانِ التَّحدِّي من الإخفاءِ ما لا يحسُن في سواه

علَّةُ الفصلِ:

جاءَ فصلُ جملةِ ﴿قَالُواْ لَا تَخَفۡ﴾ عمّا قبلَها؛ لأنّهُ جعلَها كالجوابِ فإنّه لمّا أوجسَ منهم خيفةً رأوا ذلكَ على وجههِ[4]؛ ليكونَ هذا الظّهورُ

الاستئنافُ البيانيُّ غذاءُ العقلِ لتقديرِ المحذوفِ

(1) الآلوسي، روح المعاني: 6/292.
(2) البقاعي، نظم الدّرر: 9/330.
(3) محمد الهلال، تفسير القرآن الثّريّ: 12/65.
(4) الفراء، معاني القرآن: 2/22.

بمنزلةِ أن قالَ لهم: إنّي خفتُ منكُم، فكانتْ إجابتهُم تطمينَهُ؛ ففصلَ على الطّريقةِ الّتي تُحكى بها المحاوراتُ[1]، فهي استئنافٌ بيانيٌّ؛ لأنّها جوابٌ لكلامٍ مقدَّرٍ محذوفٍ تدلُّ عليهِ جملةُ الإيجاسِ وهي قولهُ: ﴿وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ على تقديرِ أنّهُ أخبرهُمْ بما يشعرُ بهِ منْ خوفٍ ووجلٍ[2].

بلاغةُ الاستئنافِ البيانيّ:

الإعلامُ بالخفيِّ إكرامٌ للتَّقيِّ وإجلالٌ للنَّقيِّ

الجملةُ في قولهِ تعالى: ﴿إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ﴾ استئنافٌ بيانيّ ناشئٌ عنْ سؤالٍ تقديرهُ: فماذا منْ شأنِكمْ، أوْ ما الّذي جاءَ بكُم؟ فكاشَفوهُ بأنّهمْ من الملائكةِ، وأنّهمْ مرسلونَ لخَطْبٍ جليلٍ؛ فهذه هي علّةُ مجيئِهمْ، وإعلامُهمْ إبراهيمَ منْ بابِ إكرامهِ[3] عليه السلام.

نكتةُ التّعبيرِ بالفعلِ المبنيّ للمفعولِ:

الإرسالُ في شأنِ العذابِ يحسُن معه عدم التَّصريح بلفظِ الجلالةِ

أوردَ النَّظمُ فعلَ الإرسالِ ﴿أُرْسِلْنَآ﴾ مَبنيًّا للمفعولِ للعلم بهِ من المخاطَبِ وهو إبراهيمُ عليه السلام؛ ولأنّه "ممّن لا يُردّ أمرهُ"[4] وهو الحقُّ سبحانهُ، ولأنَّ الإرسالَ كان بشأنِ العذابِ، فَحَسُنَ بناءُ الفعل للمفعول.

فائدةُ حذفِ مُتعلَّقِ فعلِ الإرسالِ:

تهويلُ العذابِ وتفخيمُ شأنه

يقتضي قولُهُ تعالى: ﴿أُرْسِلْنَآ﴾ وجودَ متعلِّقٍ تقديرُهُ: أُرسِلنا بالعذابِ إلى قومِ لوطٍ، لكنّهُ حُذِفَ باعتبارِ العلم به لدى المخاطَبِ - وهو إبراهيم عليه السلام -، ولتهويلِ شأنِه، وتفخيم أمرِه؛ فإنَّ للحذفِ شأنًا في بيانِ المعاني لا يكون للذِّكرِ.

معنى إضافةِ قومٍ إلى لوطٍ عليه السلام:

الأقوامُ المفرَّقون والأنسابُ المشتتة يجمعُهم اسمُ نبيٍّ

الإضافةُ في قولهِ تعالى: ﴿قَوْمِ لُوطٍ﴾ دالَّةٌ على التّعريفِ؛ فقدْ عبّرَ عنْ هؤلاءِ الأقوامِ الموعَدينَ بالعذابِ بقومِ لوطٍ؛ فأضافَ القومَ إلى

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/118
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/118.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/118.
(4) البقاعي، نظم الدّرر: 9/330.

الاسم العلم وهو نبيُّ اللهِ لوطٌ ﷺ؛ لأنّهُ لمّا لمْ يكنْ لأولئكَ الأقوام اسمٌ يجمعهُمْ أوْ نسبٌ ينتسبونَ إليهِ إذ كانوا أخلاطًا وفصائلَ بحسبِ قراهُمْ[1] - أضافهَم إلى لفظةِ لوطٍ تعريفًا وتمييزًا، وهذا شأنُ من يمارس هذه الفاحشة، فمحالٌ أن يرضى بها قومٌ أصيلون، ينتسبون إلى نسبٍ شريفٍ، أو عِرْقٍ نبيلٍ، بل هم شتاتٌ ممزَّعون من قبائلَ متعددةٍ، رَمَتْ بهم أصلابُ آبائهم في ضِياعِ الضَّياع.

معنى الواوِ ونوعها:

الواوُ في قولهِ تعالى: ﴿وَٱمۡرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٞ﴾ للحالِ والجملةُ حاليَّةٌ[2]، أي: في تلكَ الحالِ الّتي عليها امرأتهُ؛ فإنّ (سارّة) زوجهُ كانتْ حاضرةً تقريهم وتقدّمُ الطّعامَ إليهم؛ فعادتهُم كعادةِ العربِ إذ ذاكَ أن تقومَ ربّةُ المنزلِ على خدمةِ أضيافِ البيتِ[3]؛ فهو عندهُم من مكارم الأخلاقِ وسجايا الكرم.

خدمةُ الضُّيوفِ بالحِشْمةِ ممّا لا تُنكره محاسنُ الأخلاق

نكتةُ التَّعبيرِ بامرأةٍ دونَ زوجةٍ:

في قولهِ تعالى: ﴿وَٱمۡرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٞ﴾ استُعملَت مفردةُ (امرأة) دونَ (زوجة) أوْ نحوِها من المترادفاتِ؛ لما يعطيه هذا اللفظُ منْ معنى الكمالِ؛ فإذا مُدِحَتْ إحداهُنَّ بصفاتِ الكمالِ؛ قيلَ لها: امرأةٌ[4]، وهيَ هنا سارّة زوجُ إبراهيمَ الّتي وُصفتْ بأنّها كاملةُ المروءةِ[5] كِنايةً عن مدحِها، ولم يقل: زوجه باعتبارِ أنَّها لم تُنجب منه بعد.

وامرأتهُ سارّة كاملةُ المروءةِ قائمةٌ

سرّ التَّعبيرِ بالقيام:

التّعبيرُ بقولهِ تعالى: ﴿وَٱمۡرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٞ﴾ فيهِ دلالةٌ على الحضورِ لأجلِ خدمتهِمْ، وهذا دأبُ النّساءِ في ذلكَ العصرِ، فلا يحتجبنَ

الاستعدادُ والمبادرةُ لخدمةِ الضِّيفانِ مكرُمةٌ ونُبْلٌ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/118.
(2) العكبري، التبيان: 2/706، وفي تعيين صاحب الحال خلاف لكنه ليس ذا أهمية فيما نحن بصدده.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/118.
(4) الكبيسي، الكلمة وأخواتها في القرآن الكريم: 1/434.
(5) البقاعي، نظم الدّرر: 9/330.

لا سيّما العجائزُ؛ فقدْ كانتْ قائمةً مستعدَّةً لتقديم الخدمةِ، فهي مستعدّة في أيِّ وقتٍ للمسارعةِ بإحضارِ المطلوبِ، لا تلوي على شيءٍ.

دلالةُ ذكرِ الضَّحكِ:

التَّعجُّبُ من خوفِ إبراهيمَ في مقابلِ عدم ذلك من النمروذ

لَمّا كانَ منْ شأنِ إبراهيمَ الخوفُ بإظهارِ الإنكارِ وإضمارِ الإيجاسِ، وكانَ منْ شأنِ الملائكةِ تطمينهُ بقولهمْ: ﴿قَالُواْ لَا تَخَفۡ﴾ كانَ ذلكَ أدعى إلى أن تضحكَ امرأتهُ تعجّبًا منْ حالهِ؛ فإنّهُ لمْ يخَفْ ولمْ يرتعدْ من النمروذِ الجبّارِ حينَ قذفهُ في النّارِ، فكيفَ يخافُ من أضيافهِ في حشمهِ وخدمهِ[1]؟! أو أنَّها ضحكتْ من زوال الخيفةِ، وهو الأظهرُ[2].

معنى الفاءِ:

البُشرى مكافأةُ الطَّمأنينة وزوال الخيفة

الفاء في قولهِ تعالى: ﴿فَبَشَّرۡنَٰهَا﴾ دالةٌ على السّببيةِ؛ فلمّا ضحكت بسببِ زوالِ الخيفة، بُشرت بالولدِ، فهي كالمكافأةِ لها، أو أن تكون تعقيبيَّة، أي: بمجرَّد ما أن ضحكت بُشِّرت.

وجهُ تخصيصِ زوجِ إبراهيمَ عليه السلام بالبُشرى:

المرأةَ أعجلُ فرحًا بالولدِ وخُصّت بالبشارةِ لعدمه مطلقًا

في قولهِ تعالى: ﴿فَبَشَّرۡنَٰهَا﴾ جعلَ الحقُّ سبحانهُ البشارةَ مخصَّصةً بـ (سارة) زوجِ إبراهيمَ عليه السلام؛ لأنَّ المرأةَ أعجلُ بالفرحِ بالمولودِ، وكانَ إبراهيمُ قدْ تلقّى أولى البُشريَيْن، وأُتبعَ بالأمنِ والتّطمينِ. وخصّتْ - من جهةٍ ثانيةٍ - بالبشارةِ؛ إذْ لمْ يكنْ لها ولدٌ، وكانَ لإبراهيمَ ولدٌ وهو إسماعيلُ[3].

معنى الباءِ:

بشارةٌ عن قربِ المبشَّرِ بهِ من زوجِ إبراهيمَ

والباءُ في قولهِ تعالى: ﴿فَبَشَّرۡنَٰهَا بِإِسۡحَٰقَ﴾ دالَّةٌ على الإلصاقِ والقربِ[4]، وفيها معنى القربِ بأنَّها ستَلِدهُ؛ فالمرأةُ ألصقُ الناسِ بوليدِها وأقربُ منه.

---

(1) السمرقندي، بحر العلوم: 2/161.
(2) القاسمي، محاسن التأويل: 6/115.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/182، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/225.
(4) محمد الهلال، تفسير القرآن الثّريّ: 12/66.

براعةُ التَّعبيرِ بقولِه: ﴿وَمِن وَرَآءِ﴾:

الإخبارُ بغيبِ المستقبَلِ حتّى يريا ولدَ الولدِ

وقولهُ تعالى: ﴿وَمِن وَرَآءِ إِسۡحَٰقَ يَعۡقُوبَ﴾ عبَّرَ عن هِبَتِهِ تعالى لهم بيعقوبَ بعدَ إسحاقَ بلفظِ ﴿وَرَآءِ﴾، ولمْ يقلْ: ويعقوبَ، أوْ ولدِهِ يعقوبَ، وفائدةُ ذلكَ التّطاولُ في الزّمنِ والتمادي فيهِ؛ فإنَّ المعنى أنّه سيعيشُ إسحاقُ ثمَّ يأتي بعدهُ يعقوبُ بزمنٍ ليسَ قصيرًا فيكونُ "حفيدًا لها من ابنِها إسحاقَ، وفي هذهِ الآيةِ بشارةٌ أخرى بطولِ عمرِهما حتّى يريا ولدهُما يكبرُ ويتزوّجُ ويأتيهُ ولدٌ"[1].

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الوصول والبلوغ:

الوصولُ الانتهاءُ إلى المطلوبِ والبلوغُ الوصولُ لأعلى المطلوبِ

الوصولُ من (وصلَ) والواوُ والصّادُ واللام "يدلُّ على ضمِّ شيءٍ إلى شيءٍ حتَّى يعلقهُ، ووصلتهُ بهِ وصلًا"[2]، ومعناهُ أيضًا أن يتّحدَ شيءٌ بشيءٍ آخرَ[3]، وفعلُ الوصولِ يستعملُ في الأعيانِ وفي المعاني، وقولهُ تعالى: ﴿فَلَمَّا رَءَآ أَيۡدِيَهُمۡ لَا تَصِلُ إِلَيۡهِ﴾ كِنايةٌ عن انتفاءِ الأكلِ منهم[4]، وأنّهمْ لمْ يبادروا أصلًا إلى ما قَدَّمَ لهمْ عليه السلام منْ طعامٍ.

أمّا البلوغُ فهو الوصولُ وأنْ تشارفَ عليهِ[5]؛ فالفرقُ بينَ الوصولِ والبلوغِ أنَّ الأوّلَ فيهِ معنى الاتّحادِ والتّلبُّسِ، أمّا الثّاني فإنَّ المشارفةَ مُؤْذِنةٌ بالوصولِ فحسب، والوقوفُ عندَ الحدِّ لا يتجاوزهُ، فالوصولُ أكثرُ عمقًا منْ هذا الجانبِ، ومَقْصِدُ النَّظْمِ العزيزِ أنْ يصفَ امتناعَهمْ عن الأكلِ بأبلغِ صورةٍ، فعبّرَ بالفعلِ الأكثرِ تلبُّسًا وهو الوصولُ.

القيام والوقوف:

الوقوفُ مُكْثٌ حسّيٌّ والقيامُ يتجاوزه إلى المعنويِّ

الوقوفُ من الواوِ والقافِ والفاءِ، والأصلُ فيهِ الدلالةُ على المكثِ

(1) ملا حويش، بيان المعاني: 3/137.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (وصل).
(3) الراغب، المفردات: (وصل).
(4) الهروي، كتاب الغريبين في القرآن والحديث: 1/2006.
(5) الجوهري، الصحاح: (بلغ).

في شيءٍ والإمساكِ عنهُ، وموقفُ الإنسانِ ما يقفُ فيه[1]، وغالبُ معاني الوقفِ حسّيَّةٌ عينيَّةٌ، أمّا القيامُ فهو منْ (قامَ يقومُ)، ويكونُ بمعنى الوقوفِ، ويجاوزهُ إلى الدّلالاتِ المعنويةِ كقولهِمْ قامَ بأمرِ كذا[2]، أي اعتنى بهِ؛ ولذلكَ جعلهُ ابنُ فارسٍ على هذينِ المعنيين الكليينِ: الانتصابِ والعزيمةِ[3]، فيدلّ الانتصابُ على الحالةِ الحسّيةِ، وتدلُّ العزيمةُ على الحالةِ المعنويةِ، وهذا المعنى ألصقُ بحالةِ امرأةِ إبراهيمَ عليهِ السلام في قولهِ تعالى: ﴿وَٱمۡرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٞ﴾؛ فإنَّ قيامَها لمْ يكنْ قيامًا حسّيًّا؛ لأنّهُ بمعنى سماعِها محاورةَ إبراهيمَ معَ أضيافهِ الملائكةِ، أوْ بمعنى الصّلاةِ، أوْ قيامها بخدمةِ القومِ[4]، وهذهِ المعاني جميعًا ليستْ بمعنى القيامِ المرادفِ للوقوفِ بمعناهُ المحْضِ، وفي ذلكَ تتبينُ دقّةُ استعمالِ القيامِ دونَ غيرهِ من المفرداتِ القريبةِ من معناهُ.

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (وقف).
(2) الجوهري، الصحاح: (قوم).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قوم).
(4) ابن عطية، المحرّر الوجيز: 3/188.

﴿قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ۝٧٢ قَالُوٓاْ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ۝٧٣﴾ [هود: 72 - 73]

مُناسَبَةُ الآيَتَينِ لِما قَبْلَهُما:

بيانُ الموقفِ العَجيبِ مِنَ البِشارةِ العَجيبَةِ

لمّا بشَّرتِ الملائكةُ سارَّةَ امرأةَ إبراهيمَ عليه السلام بإنجابِ إسحاقَ، ومن ورائهِ يعقوبَ عليه السلام ناسبَ ذلك بيانُ موقفِها من هذه البِشارةِ الخارقةِ للسُّنَّةِ الإلهيَّةِ؛ فالمناسبةُ بين الآيتين: بيانُ الموقفِ العَجيبِ من البِشارةِ العَجيبةِ، تَسْجيلًا للمنَّةِ الإلهيَّةِ على العائلةِ الإبراهيميَّةِ، وأنَّ ميلادَ العائلَةِ بأكمَلِها كان معجزةً خارقةً للسُّنَّةِ الإلهيَّةِ، فحَريٌّ بالمنتسِبين لها الشُّكرُ لا الكُفْرُ، والاتِّباعُ لا الابتِداعُ، والمتابَعةُ لا المعانَدَةُ.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَٰوَيْلَتَىٰٓ﴾: الويلُ: حُلولُ الشَّرِّ، والويلةُ: الفَضيحةُ والبَلِيَّةُ، وإذا قال: وا ويلتاه، فإنَّما معناهُ: وا فَضيحَتاه، وتقول: ويَّلْتُ فلانًا؛ إذا أكثرْتَ له من ذِكْرِ الويلِ، وهما يَتَوايَلانِ، وتقول: ويلًا له وائلًا، كقولك: شُغْلٌ شاغلٌ، وشِعْرٌ شاعرٌ من غير اشتِقاقِ فِعلٍ، وتقول: ولْوَلَتِ المرأةُ؛ إذا قالت: وا ويلَها؛ لأنَّ ذلك يَتَحوَّلُ إلى حكايةِ الصَّوْتِ[1]، وأصلُ (الويل) في اللُّغَةِ: الهَلاكُ والعَذابُ، و"في النُّدْبَةِ: ويْلاهُ، وويَّلَهُ، وويَّلَ لهُ: أكْثَرَ لهُ من ذِكْرِ الويْلِ"[2].

وعَن أبي طالبٍ النَّحويِّ: أنَّ (ويْلَهُ) كانَ أصْلُها (ويْ) وُصِلَتْ بـ (لَهُ)، ومعنى: ويْ: حُزْنٌ، أُخْرِجَ مُخْرَجَ النُّدْبَةِ[3].

(1) الخليل، العين: (ويل).
(2) الفِيروزاباديّ، القاموس المحيط: (ويل).
(3) الأزهري، تهذيب اللغة: (ويل).

و"يا ويْلَتا معْناهُ: يا ويْلَتي، فقَلَبَ الياءَ ألفًا، فوكذلكَ يا أبَتا، معناهُ: يا أبَتِي"[1].

2) ﴿بَعۡلِي﴾: البَعْلُ: الزَّوجُ، يقال: بَعَلَ يَبْعَلُ بَعْلًا وبُعُولةً، فهو بَعْلٌ مستبعلٌ، وامرأةٌ مُسْتَبْعَلٌ؛ إذا كانت تحظَى عند زوجِها، والرَّجلُ يتعرَّسُ لامرأتِهِ يطلبُ الحُظْوةَ عندَها: والمرأةُ تتبعَّلُ لزوجِها؛ إذا كانت مطيعةً لَهُ، والبَعْلُ: أرضٌ مرتفعَةٌ لا يُصيبُها مطرٌ إلّا مرَّةً في السَّنةِ[2]، و"أصلهُ من القيام بالأمرِ، ومن ثمَّ قيلَ للنَّخلةِ الَّتي تَسْتغني بماءِ الماءِ عن سَقي العيونِ: بعلٌ، وقدِ استَبْعَلَ النَّخلُ: صار بَعْلًا، وهو في القرآنِ على وجهَينِ:

أحدُهما: الزَّوجُ، قال: ﴿وَهَٰذَا بَعۡلِي شَيۡخًا﴾، والزَّوجةُ: بَعْلةٌ، ولا يُقال: هو بعلُها حتَّى يَدْخُلَ بها، وهو زوجُها على كلِّ حالٍ، وكذلك القولُ فيها، والشّاهدُ قولهُم: باعَلَها؛ أي: جامعَها، وفي الحديثِ: (أيّامُ أكْلٍ وشرْبٍ وبِعالٍ)؛ أي: جِماعٍ. والآخرُ: بمعنى الرَّبِّ، قال: ﴿أَتَدۡعُونَ بَعۡلٗا﴾؛ أي: رَبًّا غيرَ اللّه"[3]. "سُمِّي باسمهِ أي: البعل كلُّ مستعلٍ على غيرهِ، فسمَّى العَرَبُ معبودَهم الَّذين يتقرَّبونَ بهِ إلى اللّه بَعْلًا لاعتقادهِم ذلك فيهِ"[4].

3) ﴿شَيۡخًا﴾: "يقالُ لمن طعنَ في السِّنِّ: الشَّيْخُ، وقد يُعبَّرُ بهِ فيما بيننا عمَّن يَكثرُ علمُهُ، لما كان من شَأْنِ الشَّيْخِ أن تَكْثُرَ تجارِبُهُ ومعارِفُه، ويقال: شَيْخٌ بَيِّنُ الشَّيْخُوخَةِ، والشَّيَخِ، والتَّشْيِيخِ، قال اللّه تعالى: ﴿وَهَٰذَا بَعۡلِي شَيۡخًا﴾ [هود: 72]، ﴿وَأَبُونَا شَيۡخٞ كَبِيرٞ﴾ [القصص: 23]"[5].

4) ﴿عَجِيبٞ﴾: "العَجَبُ والتَّعَجُّبُ: حالةٌ تعرضُ للإنسانِ عند الجَهْلِ بسبَبِ الشَّيء؛ ولهذا قيلَ: لا يصِحُّ على اللّه التَّعَجُّبُ؛ إذ هو ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغُيُوبِ﴾ لا تخفى عليه خافيةٌ، يقال: عَجِبْتُ عَجَبًا، ويقال للشَّيء الذي يُتَعَجَّبُ منه: عَجَبٌ، ولِما لم يُعْهَدْ مثلُهُ: عَجِيبٌ"[6]، و"العُجْبُ والعَجَبُ: إنكارُ ما يَرِدُ عَلَيْكَ لقِلَّةِ اعْتِيادِهِ"[7]، "والعَجَبُ من اللّه: الرِّضا"[8].

5) ﴿وَبَرَكَٰتُهُۥ﴾: البِرْكَةُ: ما ولِيَ الأرضَ من جلدِ البطنِ وما يليهِ من الصَّدرِ من كلِّ

(1) ابن منظور، لسان العرب: (ويل).
(2) الخليل، العين: (بعل).
(3) العسكريّ، الوجوه والنظائر: (البعل).
(4) الراغب، المفردات: (بعل).
(5) الراغب، المفردات: (شيخ).
(6) الراغب، المفردات: (عجب).
(7) ابن منظور، لسان العرب: (عجب).
(8) الفِيروزابادي، القاموس المحيط: (عجب).

دابَّةٍ، اشتُقَّ من مَبْرَكِ البعيرِ؛ لأنَّه يُبرَكُ عليه، والبِرْكةُ والبِرْكُ: شِبهُ حَوْضٍ يُحفَرُ في الأرضِ، ولا يُجعَلُ له أعضادٌ فوقَ صعيدِ الأرضِ، والبَرَكةُ: الزِّيادةُ والنَّماءُ، والتَّبْريكُ: الدُّعاءُ بالبَرَكةِ، والمبارَكةُ: مصدرُ بُورِكَ فيهِ، وتباركَ اللّه: تمجيدٌ وتجليلٌ[1].

فأصلُ البَرْكِ صدْرُ البَعيرِ، وإن استُعْمِلَ في غَيرِه، ويقالُ لهُ: بِرْكةٌ، وبَرَكَ البعيرُ: ألقى بَرْكَهُ، واعتُبِرَ منهُ معنى اللُّزوم، فقيل: ابْتَرَكُوا في الحَرْبِ، أي: ثَبُتوا، ولازموا مَوضِعَ الحَرْبِ، وبَراكاءُ الحرْبِ، وبَرُوكاؤُها للمكان الَّذي يلزمُهُ الأبطالُ، وابْتَرَكَتِ الدّابَّةُ: وقفَتْ وقوفًا كالبُروكِ، وسُمِّي مَحْبِسُ الماءِ: بِرْكَةً، والبَرَكَةُ: ثُبوتُ الخَيرِ الإلهيِّ في الشَّيءِ[2].

فمعنى البركةِ: ثبوتُ الخيرِ الإلهيِّ في الشَّيءِ، وقولهُ ﷻ: ﴿وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ﴾ [الأنبياء: 50] تنبيهٌ على ما يَفيضُ من الحياةِ الإلهيَّةِ، ولمّا كان الخيرُ الإلهيُّ يَصْدُرُ من حيثُ لا يُحَسُّ، وعلى وجهٍ لا يُحْصى، ولا يُحْصَرُ، قيل لكلِّ ما يُشاهَدُ منهُ زيادةٌ غيرُ محسوسةٍ: هو مُباركٌ، وفيه بَركةٌ[3].

المَعْنى الإجْماليُّ:

عنايةُ اللهِ بأصفيائِهِ تامَّةٌ ورحمتُه بأوليائه كاملةٌ

ذكرتِ الآيةُ موقفَ سارَّةَ امرأةِ إبراهيمَ عليهما السلام عند سماعِ بُشرى أن تُرزقَ الولدَ في هذه السِّنِّ، بإبداءِ تعجُّبِها بقولِها: يا ويلتا، وقد أفصحَتِ الآيةُ عن سببِ العَجَبِ، وهو وجودُ مانعَينِ من الحَمْلِ؛ أحدُهما: كونُها عجوزًا، والآخرُ: كونُ زوجِها شيخًا. ومثلُ هذه الحالةِ لا يكونُ معها إنجابٌ.

فكان ردُّ الملائكةِ: ﴿أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾، فإنَّ أمرَهُ لا عجبَ

(1) الخليل، العين: (برك).
(2) الراغب، المفردات: (برك).
(3) الفيروزاباديّ، بصائر ذوي التمييز: 2/208.

فيهِ، لنفوذِ مشيئتهِ التّامَّةِ في كلِّ شيءٍ، فلا يُستغرَبُ على قدرتهِ شيءٌ، وخصوصًا فيما يُدَبِّرُهُ، ويمضيهِ لأهلِ هذا البيت المباركِ، ثم ذكرَتِ الملائكةُ دليلَ عنايةِ اللّه لهذا البيت ﴿رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِۚ﴾، أي: لا تزالُ رحمتُهُ وإحسانُهُ وبركاتُهُ، وهي: الزِّيادةُ من خيرهِ وإحسانهِ، وحلولُ الخير الإلهيِّ على العبدِ ﴿عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ﴾ أي: حميدُ الصِّفات، مجيدٌ، والمجدُ: هو عظمةُ الصِّفات وسعتُها، فله صفاتُ الكمالِ[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

علَّةُ الفَصْلِ:

الاستئنافُ البيانيُّ من شأنهِ إشراكُ المتلقِّي في الحوارِ القرآنيِّ لفهم المعنى

وقعتْ جملةُ ﴿قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ﴾ منَ الكلام السّابقِ موقعَ الاستئنافِ البيانيِّ؛ إذ الكلامُ السّابقُ من شأنِهِ أنْ يُثيرَ في النَّفسِ المخاطَبةِ سؤالًا، مضمونُهُ: وماذا كان ردُّ فعلِها إزاءَ هذه البِشارةِ العظيمةِ والعَجيبةِ؟

فتأتي جملةُ ﴿قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ﴾ جوابًا لهذا السُّؤالِ المقدَّرِ في الذِّهن، وهكذا هي بلاغةُ الذِّكرِ الحكيم: تَمنح الذِّهْنَ المتلقِّي فرصةَ المشاركة الفاعلةِ في التَّواصلِ مع النَّصِّ، بحيث يكون السِّياقُ كالحوارِ الَّذي يَنهضُ فيهِ الذِّكرُ الحكيمُ بدورِ طَرفٍ، وينهض الذِّهنُ المتلقِّي فيهِ بدورِ الطَّرفِ الآخرِ، فتَظَلُّ لُغةُ القرآنِ الكريم حيَّةً متفاعِلةً متناغيةً مع المتلقِّي والمستمع في كلِّ زمانٍ ومكانٍ.

غرضُ النِّداءِ:

بيانُ شدَّةِ الأخبارِ غيرِ المتوقَّعةِ على النُّفوس، يُذهبُ الإنكارَ عليها من النُّفوس

لم تقصدِ امرأةُ الخليلِ عليه السلام بقَولها: ﴿يَٰوَيْلَتَىٰٓ﴾ "الدُّعاءَ على نفسِها بالويلِ؛ ولكنَّها كلمةٌ تَخِفُّ على أفواهِ النِّساء؛ إذا طرأ عليهنَّ ما يَعجَبْن منهُ، وهي قد عجِبَتْ من ولادَتِها، وهي عجوزٌ وكونُ بعْلِها شيخًا، لخروجهِ عن العادَةِ"[2].

(1) السعديّ، تيسير الكريم الرحمن، ص: 386.
(2) الماورديّ، النكت والعيون: 2/486.

و"معنى ﴿يَٰوَيۡلَتَىٰٓ﴾ في هذا الموضع العبارةُ عمّا دَهَم النَّفسَ من العَجَب في وِلادة عجوزٍ، وأصلُ هذا الدُّعاءِ بالويل ونحوِهِ في التَّفجُّع لِشدَّةٍ أو مكروهٍ يَهُمُّ النَّفسَ، ثمَّ استُعملَ بعدُ في عجبٍ يَدْهَمُ النَّفسَ، وقال قومٌ: إنَّما قالت: يا ويْلَتا؛ لما مرَّ بفكرِها من ألم الولادةِ وشدَّتِها، ثمَّ رَجَعَتْ بفكرِها إلى التَّعجُّبِ، ونَطَقَتْ بقولِها: أألِدُ وأنا عَجُوزٌ؟ الآية"[1].

فهذه الجملةُ - بما فيها من نداءٍ ومنادى - من صيغِ التَّعجُّبِ الَّتي تفرضُ نفسَها على المتعجِّب عند تلقِّيه الأمرَ العجيبَ، وكأنَّ المتعجِّبَ ينادي الويلَ نفسَهُ أن أدركني، فقد لاقَيْتُ ما لا قِبَلَ لي بِهِ، ولا قوَّةَ لِي عليهِ.

بلاغةُ الاستعارةِ التَّبعيَّةِ:

بيانُ الحالةِ النَّفسيَّةِ الَّتي مرَّت بها امرأةُ الخليلِ عليه السلام

قولهُ تعالى: ﴿يَٰوَيۡلَتَىٰٓ﴾ "اسْتِعارَةٌ تَبَعِيَّةٌ بِتَنْزِيلِ الويْلَةِ مَنْزِلَةَ مَنْ يَعْقِلُ حَتَّى تُنادَى، كَأَنَّها تَقُولُ: يا ويْلَتِي احْضُرْ هُنا، فَهَذا مَوْضِعُكَ"[2]، وتكمُنُ بلاغةُ الاستعارةِ في نداءِ الويلِ، وهو لا يكون إلّا في شرٍّ أو أمرٍ عجيبٍ، فلمّا نادتِ الويلَ بتنزيلِهِ منزلةَ مَن يَعْقِلُ؛ عُلِمَ أنَّ الأمرَ عظيمُ العجبِ، وهو ما يعكسُ الحالةَ النَّفسيَّة الَّتي مرَّت بها امرأةُ الخليلِ عليه السلام من استحضارِ الولادةِ، وهي أمرٌ خارقٌ في مثل حالِها، وكيف سيكون مصيرُ مَنْ يُولَدُ، وكيف سينمو، ويترعرعُ، وما إلى ذلك من خواطرِ النِّساءِ، وهذا سرُّ نداءِ الويلِ المضافِ إلى ياءِ المتكلِّم الَّتي انقلبت ألفًا.

سرُّ اختيارِ مفردةِ ﴿يَٰوَيۡلَتَىٰٓ﴾ مادَّةً وصيغةً:

تعجُّبُ المؤمنين من أمرِ الله عند غيرِهم جَزَعٌ وفَزَعٌ

لفظُ الويلِ "أصلهُ للدُّعاء بالويلِ ونحوِهِ في جزعِ التَّفَجُّع لشدَّةِ مكروهٍ يَدْهَمُ النَّفسَ، ثمَّ استُعملَ في التَّعجُّبِ"[3]، وأصلُ نداءِ

(1) ابن عطية، المحرّر الوجيز: 3/190.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/120.
(3) القاسمي، محاسن التأويل: 6/115.

﴿يَٰوَيۡلَتَىٰٓ﴾ هو يا ويلَتِي، "فَأُبْدِلَ من الياء والكسرةِ الألفُ؛ لأنَّ الفتحَ والألفَ أخفُّ من الياءِ والكسرةِ"[1]، وقد آثرَ النَّظمُ الكريمُ استعمالَ الويلِ دونَ العجبِ، فلم تَقُلْ: يا عجبي، ذلك أنَّ الويلَ يتردَّدُ بين الجزَعِ والتَّعجُّبِ، فأتى بالمفردةِ الَّتي تدلُّ على تعجُّبِها صراحةً، وأنَّه لو كان ذلك الخبرُ لغيرِها؛ لوقعَ الجزعُ، فسِرُّ اختيارِ هذه المفردةِ بيانُ أنَّ من شأنِ مثل هذه الأخبارِ أن تجزَعَ لها النِّساءُ، لكنَّ امرأةَ الخليلِ عليه السلام كان منها العجَبُ، وهذا دليلُ بركةِ هذا البيتِ وإيمانِ أهلِهِ.

علَّةُ فصلِ جملةِ ﴿ءَأَلِدُ﴾ عن السّابقةِ:

توكيدُ المعاني بين الجملِ وتقويةُ الدّلالات

جملةُ ﴿ءَأَلِدُ﴾ استفهاميَّةٌ تعجُّبيَّةٌ، وقَعَتْ بعد جملةِ ﴿يَٰوَيۡلَتَىٰٓ﴾، وهي إنشائيَّةٌ ندائيَّةٌ، فتَحقَّقَ بينهما كمالُ الاتِّصال لاتِّحادِهما في الإنشائيَّةِ، وكأنَّهما قد تَوالَدَتا، وتناسلَتا من نَفْسٍ واحدة، فلا مكانَ بينهما لواصلٍ، ولا حاجةَ بهما إلى رابطٍ أجنبيٍّ دخيلٍ، إذ قامتِ الجملةُ الثّانيةُ مقامَ التَّأكيدِ لمعنى التَّعجُّبِ الواردِ في الأولى.

غرضُ الاستفهام:

الولادةُ في حالِ امرأةِ الخليلِ أمرٌ خارقٌ للعادةِ، فهو مدعاةٌ للتَّعجُّبِ

الاستفهامُ في جملةِ ﴿ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٞ﴾ يفوحُ بالتَّعجُّبِ المعلَّلِ بجملةِ الحال ﴿وَأَنَا۠ عَجُوزٞ﴾ والمدعوم تعليلُهُ بجملة الحالِ المعطوفةِ عليها ﴿وَهَٰذَا بَعۡلِي شَيۡخًاۖ﴾، و"لم يكُنْ ذلك منها تكذيبًا، ولكن استغرابًا له"[2].

سرُّ دخولِ الاستفهام على الفعلِ:

تمحُّضُ العَجَبِ من الولادَةِ مع اقترانِها بأحوالٍ تستَحيلُ معها الولادَةُ

دخلتْ همْزَةُ الاستِفْهام على الفعل (أَلِدُ) في جملةِ ﴿ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٞ﴾، ولم يأتِ النَّظْمُ بذكرِ الفاعِلِ مبتدأً بتقدير: أأنا ألدُ؟ فكانت الجملةُ فعليَّةً لا اسميَّةً، وهو ما يقتضيه الظّاهرُ بدليل ما بعدَهُ ﴿وَأَنَا۠

(1) الزجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 3/63.
(2) الماورديّ، النكت والعيون: 2/486.

عَجُوزٌ﴾؛ أي: أأنا ألدُ في هذه الحالِ؟ لكنَّ النَّظمَ آثرَ ما جاءَ عليهِ؛ ليتمَكَّنَ التَّعجُّبُ من فعلِ الولادةِ؛ أي: كيفَ تكونُ ولادةٌ في هذه السِّنِّ، ثمَّ إنَّها لم تلدْ، وهي شابَّة قابِلَةٌ للولادَةِ؛ لأنَّها عاقِرٌ، وهذا مانعٌ، ثم إنَّها تقدَّمَتْ في السِّنِّ حتَّى بَلَغَت سِنَّ اليَأْسِ، وهذا بذاتِهِ عائقٌ آخرُ، ثم إنَّ زوجَها شيخٌ، وهذا عائِقٌ ثالِثٌ، فهي قد تعجَّبت من أن تلِدَ في هذهِ الحالِ! فما تمالَكت نفسَها إزاء هذا الوضع حتى قاربتْ على إنكارِ الولادَةِ، لكنَّها تداركتْ ببيان أنَّ غرضَها إنكارُ الولادةِ منها هي، وأنَّ حالها وحالَ زوجِها لا يلائمُهما، ولا تسمحُ لمثلها بولادةٍ، وهذا "نَظَرًا إلَى أحْوالِ العادَةِ، لا لِأجْلِ أنَّها اسْتَنْكَرَت قُدْرَةَ اللّٰه تعالى عَلَى ذَلِكَ"[1].

براعةُ اجتماعِ الحالِ:

بيوتُ الأنبياءِ مَنْبَعُ الآدابِ ومحاسنِ الأخلاقِ

اجتمعَ حالانِ مانعانِ من الإنجابِ في قولِهِ تعالى: ﴿وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعۡلِي شَيۡخًاۖ﴾، وهما: سنُّ المرأةِ المانعُ من الإنجابِ، وسنُّ الزَّوجِ كذلك، فلمّا اجتمعَ هذانِ الحالانِ؛ كان ذلك بيانًا لأمرين، هما: سببُ التَّعجُّبِ، وعِلَّةُ السُّؤالِ. ولُطْفُ ذكْرِ هذينِ الحالين يكمُنُ في أدبِ هذه المرأةِ العظيمةِ في خِصالِها وأخلاقِها وخِطابِها، فهي لم تَكتَفِ بقولِها: ﴿ءَأَلِدُ﴾؛ لأنَّ الاكتفاءَ بالسُّؤالِ قد يُفهَمُ منهُ الإنكارُ، بل رفْضُ الخَبرِ جملةً، فذكرَتْ ما يجولُ في خاطرِها من بيانِ سَببِ سؤالِها، وانتظرتِ الجوابَ بعدَ ذلك.

نكتةُ ذكرِ اسم الإشارةِ:

تصويرُ المجلسِ وبيانُ رضا الزَّوجِ عن حِوارِ زوجِهِ

لسائلٍ أن يسألَ عن سِرِّ عدم اكتفاءِ امرأةِ الخليلِ بأن تقولَ: (وبعلي شيخٌ)؛ لتكونَ على وِفاقِ الجملةِ السّابقة ﴿وَأَنَا۠ عَجُوزٌ﴾ فذُكر اسمُ الإشارةِ في قولِهِ تعالى: ﴿وَهَٰذَا بَعۡلِي شَيۡخًاۖ﴾، و"جُمْلَةُ

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 18/375.

﴿وَهَٰذَا بَعۡلِي﴾ مُرَكَّبَةٌ منْ مُبْتَدَأٍ وخَبَرٍ؛ لِأَنَّ المَعْنَى: هَذا المُشارُ إلَيْهِ هُو بَعْلِي؛ أيْ: كَيْفَ يَكُونُ لَهُ ولَدٌ، وهُو كَما تَرَى؟"[1]، ونكتةُ ذلك تصويرُ مشهدِ الحوارِ، فالخليلُ عليه السلام حاضرٌ في المجلسِ، وهو يسمعُ ويرى، فلم يَمْنَعْ زوجَهُ من توجيه السُّؤالِ والتَّعجُّبِ ممّا بُشِّرا به، بل تركها على سجيَّتِها تتكلَّمُ، وتسألُ، وهذا من بديع التَّعاملِ الرّاقي في بيوتِ الأنبياءِ، فإنَّ الإشارةَ إليه بهذا للقريبِ دليلٌ على قُربِه مكانًا منها، وعلى سماعهِ لكلامها، ولو أتَتْ على ذكرِه بالإخبارِ، فقالت: (وبعلي شيخٌ)؛ لما تُصوِّرَ وجودُهُ عليه السلام في المجلسِ.

الكشفُ عن التَّقارُبِ في العمرِ بين الزَّوجينِ المباركَينِ

نكتةُ التَّقابُلِ بين لفظَي عجوزٍ وشيخٍ:

قابلتِ الآيةُ بين ذكْرِ وصْفِ امرأةِ الخليلِ بالعَجوزِ، ووصفِ الخليلِ بالشَّيخ في قولهِ تعالى: ﴿وَأَنَا۠ عَجُوزٞ وَهَٰذَا بَعۡلِي شَيۡخًاۖ﴾، فالعجوزُ هي المرأةُ الطّاعنةُ في السِّنِّ، وهي من أوصافِ النِّساء، فلا يُقال: رجلٌ عجوزٌ بل شيخٌ، ولذلك ضُعِّف أن يُقال: عجوزةٌ بتاءِ التَّأنيثِ؛ لأنَّ هذهِ اللَّفظةَ خاصَّةٌ بالنِّساء، كما يُقال: امرأةٌ حاملٌ، لا حاملةٌ، كما أنَّه اختُصَّ الرِّجالُ بوصفِ شيخٍ، وإن وُصِفَتِ المرأةُ بذلك، فلا يُرادُ منها معنى الطَّعنِ في السِّنِّ، بل معنًى آخر، ولهذا التَّقابلِ نكتةٌ: وهي بيانُ التَّقاربِ في السِّنِّ بينهما، فهي كبيرةٌ طاعنةٌ والخليلُ كذلك، وهي إلماحةٌ تاريخيَّةٌ لبيانِ تقارُبِهما في العمرِ، وفيها ردٌّ على من يظُنُّ أنَّ وجودَ الفارقِ في العمرِ هو الأفضلُ في الزَّواجِ، فهذا الخليل الذي لم يُنجِب من امرأتِهِ، قد كَبِر معها، وطعنا في السِّنِّ، وهما يُمثِّلان حالةً أنموذجيَّةً من الزَّواجِ النّاجحِ، بل إنَّ الآيةَ لتدلُّ بطَرفٍ خفيٍّ بأنَّ التَّقارُبَ في السِّنِّ من بواعثِ الاتِّفاقِ والتَّقارُبِ في الحياةِ الزَّوجيَّة، لاسيَّما؛ إذا كان هناك قصورٌ في عدم إنجابِ الأبناءِ.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/121.

سرُّ إيثارِ لفظ ﴿بَعۡلِي﴾ على (زوجي):

المرأةُ الصّالحةُ تنتقي من أوصافِ زوجِها ما يَنْشُر فضائلَهُ

البَعْلُ: الزَّوجُ[1]، والسَّيِّدُ، "سُمِّي الزَّوجُ بعلًا لِتطاولِه على الزَّوجةِ، كتطاول السَّيِّدِ على المَسُوْدِ"[2]، وقد عبَّر عن الزَّوجِ في قولِه تعالى: ﴿وَأَنَا۠ عَجُوزٞ وَهَٰذَا بَعۡلِي شَيۡخًاۖ﴾ بالبعلِ؛ للإشارةِ إلى أنَّه زوجٌ قائمٌ على شؤونِ الحياةِ الزَّوجيَّة، وأنَّه قيِّمٌ عليها لا يُحوِجُها إلى أحدٍ في أيِّ شأنٍ من شؤون الحياةِ، فـ "تسميَةُ الزَّوجِ بعلًا فيها دقَّةٌ شديدةٌ؛ لأنَّ البَعْلَ هو الَّذي يقومُ بأمرِ المبعولِ، ولا يُحوِجُهُ لأحدٍ، كذلك الزَّوجُ يقوم بأمر زوجتِه، فيما لا يستطيعُ أبوها ولا أخوها أن يقوما بهِ، وهو الإحساسُ بالأنوثَةِ والإخصابِ، وهو أهمُّ ما تطلبهُ المرأةُ... فالبعلُ هو الزَّوجُ الَّذي يقومُ على أمرِ زوجتِهِ، فلا يحوجُها إلى غيره في أيِّ شيءٍ منَ الأشياءِ"[3].

لَطيفَةٌ في عَمَلِ اسم الإشارةِ:

التَّنبيهُ على المعروف من دواعي التَّعجُّبِ المعروف

الحالُ في قوله تعالى: ﴿شَيۡخًاۖ﴾ "نَصْبُها منْ غامضِ النَّحْوِ، وذَلِكَ إذا قُلْتَ: هَذا زَيْدٌ قائِمًا، فإن كُنْتَ تَقْصِدُ أن تُخْبِرَ مَنْ لَمْ يَعْرِفْ زَيْدًا أنَّهُ زَيْدٌ؛ لَمْ يَجُزْ أن تَقُولَ: هذا زيدٌ قائمًا؛ لأنَّهُ يَكُونُ زَيْدًا ما دامَ قائمًا، فإذا زالَ عَنِ القِيامِ؛ فَلَيْسَ بِزَيْدٍ.

وإنما تَقُولُ لِلَّذِي يَعْرِفُ زَيْدًا: هَذا زَيْدٌ قائمًا، فَيَعْمَلُ في الحالِ التَّنْبِيهُ، والمَعْنَى: انْتَبِهْ لِزَيْدٍ في حالِ قِيامِهِ، أو: أُشيرُ إلى زَيْدٍ في حالِ قِيامِهِ؛ لأنَّ هَذا إشارةٌ إلى مَنْ حَضَرَ، والنَّصْبُ الوجْهُ"[4].

وهي حالٌ من مُشارٍ إليهِ لا يُستغنى عنها؛ لأنَّها مقصودُ الإخبارِ، فهي حالٌ لازِمةٌ[5]، و"المَقْصُودُ تَعْرِيفُ هَذِهِ الحالَةِ المَخْصُوصَةِ،

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/191.
(2) الماورديّ، النكت والعيون: 2/486.
(3) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 11/6562.
(4) الزجّاج، معاني القرآن: 3/63 - 64.
(5) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/191.

وهِيَ الشَّيْخُوخَةُ"[1]، فكأنَّ السَّيِّدةَ سارَّةَ عليها السلام تقول للملائكةِ الكرام: انتبِهوا لحالِ زوجي فهذهِ حالُهُ، تريدُ أن تُقوِّيَ بذلك تعجُّبَها لحصول الولادةِ مع افتقادِ أسبابِها من جميعِ الجوانبِ.

بلاغةُ الكِنايةِ في لفظِ: ﴿شَيْخًا﴾:

المرأةُ الصّالحةُ تُغَلِّفُ مَعانيها الجارِحَةَ، ولا تجرحُ زوجَها بِعَجْزِهِ

إنَّ إمكانَ الولادَةِ مع الطَّعنِ في السِّنِّ بالنِّسبةِ للزَّوجِ هو الآخرُ من دواعي عَجَبِ السَّيِّدةِ سارَّةَ امرأةِ إبراهيمَ عليه السلام وكان بإمكانِها التَّعبيرُ عن تلك السِّنِّ بوصفٍ آخرَ؛ لكنَّها اصطفتْ هذا الوصفَ ﴿شَيْخًا﴾؛ لتغليف أحدِ أهمِّ موانعِ الولادةِ في كنايةٍ مهذَّبةٍ راقيةٍ عن عدَم إطاقَةِ زوجِها الإنجابَ، وقد قيل: بأنَّها قد "عرَّضتْ بقولها: ﴿وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا﴾ عن ترْكِ غشيانِه لها"[2].

فالسيِّدةُ سارَّةُ أوصلت رسالتَها بأدبٍ جمٍّ، وكرَّمتْ زوجَها، باصطفائِها وصْفَ ﴿شَيْخًا﴾، على حين هضمتْ نفسَها هي؛ إذ تواضعتْ بوصفِ نفسِها بقولِها: ﴿عَجُوزٌ﴾ الَّذي تتحاشاهُ النِّساء عمومًا، ومن إشاراتِ وصف ﴿شَيْخًا﴾: الوقارُ، والهَيْبَةُ، والعلمُ، والحلمُ، والسِّيادةُ، والحكمةُ، وغيرها من شمائِلَ تُمدَحُ.

بلاغةُ التَّقديم بين الجملِ:

في مواضعِ الاشتراكِ في العجزِ يُبتدَأُ بذكرِ عجزِ الذّاتِ قبلَ ذِكرِ عَجزِ الزَّوجِ

لسائلٍ أن يسألَ عن نكتةِ تقديم جملةِ ﴿وَأَنَا۠ عَجُوزٌ﴾ على جملة ﴿وَهَٰذَا بَعْلِي﴾ دونَ العكسِ، والجوابُ أنَّ هذا ما يقتضيه الظّاهرُ والحالُ، أمّا الظّاهرُ؛ فإنَّ المرأةَ تعجَّبت من أن تلِدَ، وهذا تعجُّبٌ صادرٌ عنها بسببِ عجزِها وعجْزِ زوجِها عن الإنجابِ، فكان المناسبُ أن تتكلَّمَ عن نفسِها ابتداءً، وأمّا الحالُ؛ فقد "قَدَّمَتِ السيِّدةُ سارةُ بيانَ حالِها ﴿وَأَنَا۠ عَجُوزٌ﴾ على بيانِ حالِه عليه السلام ﴿وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا﴾؛ لأنَّ مُبايَنةَ حالِها لِما ذُكِرَ من الولادةِ أكثرُ؛ إذ رُبَّما يُولَدُ للشُّيُوخِ من

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 18/375.
(2) الماورديّ، النكت والعيون: 2/486.

الشَّوابِّ، أمّا العَجائِزُ؛ فداؤُهنَّ عَقامٌ، ولأنَّ البِشارةَ مُتوجِّهةٌ إليها صَريحًا، ولأنَّ العكْسَ في البيانِ ربَّما يُوهِمُ من أوَّلِ الأمرِ نِسبةَ المانعِ من الولادةِ إلى جانبِ إبراهيمَ عليه السلام وفيه ما لا يَخفَى من المحذورِ، واقتِصارُها الاستبعادَ على ولادتِها من غيرِ تَعرُّضٍ لحالِ النّافلةِ[1]؛ لأنَّها المستبعَدُ، وأمّا وِلادةُ ولَدِها؛ فلا يتَعلَّقُ بها استِبعادٌ"[2].

وفيه فائدةٌ أنَّ المرأةَ إذا كانت تشترِكُ مع زوجِها في قصورٍ ما؛ فتبدأ بنفسِها قبل ذِكْرِ قصورِ زوجِها، فهذا ما يقتضيه الأدبُ، وتفرضُهُ محاسنُ الأخلاقِ.

بلاغةُ التَّعبيرِ بالجملِ الاسميَّةِ:

تكافؤُ الزَّوجينِ في الإمكاناتِ يديمُ الودَّ

جاءتِ الجملتانِ في قولِه تعالى: ﴿وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعۡلِي شَيۡخًاۖ﴾ بصيغةِ الاسميَّةِ؛ تقويةً لاستحالةِ الولادَةِ بحسبِ العادةِ لدى البَشَرِ، فأفادتِ استقرارَ وضعِهما على العجزِ عن الإنجابِ بسببِ الطَّعنِ في السِّنِّ وافتقادِ أسبابِ الإنجابِ، فإنَّ الاسميَّةَ تُوحي بثباتِ مضمونِ الخبرِ، وذلك أيضًا فاعلٌ في تأكيدِ موانعِ الإنجابِ، ومع كونِ هذه الاسميَّةِ حالًا؛ فإنَّ هذا يزيدُ من ثباتِها، فهي حالٌ ثابتةٌ مستقرَّةٌ، ولمّا كانت الجملتانِ اسميَّتين؛ فقد دلَّتا على تقاربِ الحالين ثباتًا واستقرارًا للزَّوجين، وهذا دليلٌ على ثباتِهما على معاني الودِّ والائتلافِ مع عدمِ إنجابِهما، ومعرفتِهما لذلك.

علَّةُ الفصلِ بين الجملِ:

قد يجتمعُ توجيهُ كمالِ الاتِّصالِ وكمالِ الانقطاعِ في الموضعِ الواحدِ

فُصِلَ قولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عَجِيبٌ﴾ وهو جملةٌ خبريَّةٌ عن الجملةِ السّابقةِ الإنشائيَّةِ، إمّا بحمْلِها على الاستئنافِ النَّحوي، فلمّا اختلفت طبيعةُ الجملتين؛ وجبَ الفصلُ لكمالِ الانقطاعِ بين الأسلوبينِ بهذا الاعتبارِ.

(1) المقصود بالنافلة هنا يعقوب عليه السلام لأنَّه المذكور في قوله تعالى: ﴿وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ نَافِلَةٗۖ وَكُلّٗا جَعَلۡنَا صَٰلِحِينَ ٧٢﴾ [الأنبياء: 72].

(2) الدّرر السَّنية، موسوعة التفسير على الرابط: https://dorar.net/tafseer/11/14.

وإمّا في جعلها تأكيدًا للجملةِ السّابقةِ، فهي "مُؤَكِّدَةٌ لِصيغَةِ التَّعَجُّبِ في الجملة الأولى ﴿ءَأَلِدُ﴾، فَلِذَلِكَ فُصِلَتْ عنها لِكَمالِ الاتِّصالِ، وكَأَنَّها كانَتْ مُتَرَدِّدَةً في أنَّهُمْ مَلائِكَةٌ، فَلَمْ تَطْمَئِنَّ لِتَحْقِيقِ بُشْراهُمْ"[1].

فهي محمولةٌ على كمالِ الاتِّصالِ؛ إذا نظرنا في المعاني المترابطةِ، حيث كانتِ الثّانيةُ تأكيدًا لما جاءَ في الأولى، وإمّا أن تُحْمَلَ على كمالِ الانقطاعِ؛ لاختلافِ الجملتين خبرًا وإنشاءً، والأولى أن تكون الثّانيةُ تأكيدًا للأولى، بل بيانًا للأولى، فإنَّ غرضَ الاستفهام في: ﴿ءَأَلِدُ﴾ محمولٌ على التَّعجُّبِ بدليل هذه الجملةِ، وهذا التَّوجيهُ أقربُ لقانونِ المعنى والدَّلالةِ منه إلى مسلكِ اللَّفظِ والصِّناعةِ.

غرَضُ التَّوكيدِ:

طرْقُ بابِ العقلِ لقبولِ خبرِ البُشرى

أكَّدَتِ السَّيِّدةُ سارَّةُ زوجُ إبراهيمَ عليه السلام عَجَبَ خبرِ وِلادتها: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ﴾، وهذا الخبرُ لا يحتاجُ إلى توكيد؛ لأنَّه غيرُ موجَّهٍ إلى شاكٍّ ولا منكِرٍ، فالمخاطَبُ ملائكةُ الرَّحمنِ عز وجل الذين نزلوا بهذه البشارةِ أصلًا، فلا داعيَ للتَّأكيدِ.

غيرَ أنَّ الذُّهولَ الَّذي لفَّ السَّيِّدةَ اقتضاها أنْ تُؤَكِّدَ الخبرَ؛ وفاءً بِحِسِّها هي، ومراعاةً لانفعالها هي، وكأنَّها تخاطِبُ نفسَها، وتقولُ: أنتِ عجوزٌ، وزوجُكِ شيخٌ، فأنَّى لكِ مثلُ هذا؟ وكيف تَلْقَيْنَ به النّاسَ؟ فغرضُ التَّوكيدِ هو فتحُ بابِ العقلِ لقبولِ خبرِ البُشْرى، فهو أقربُ أن يكونَ إلى الكلام النَّفسيِّ منه إلى خطابِ الآخر.

بلاغةُ استعمالِ اسم الإشارةِ للقريبِ المذكَّرِ:

المُشارُ إليه تبشيرٌ قريبُ السَّماعِ مؤكَّدٌ محقَّقٌ

استُعملَ اسمُ الإشارةِ في: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ لبيانِ سرعةِ الحوارِ الحاصل بين تبشيرِ الملائكةِ عليهم السلام وتعجُّبِها عليها السلام فهي تشيرُ إلى مسموعٍ قريبٍ، وتشيرُ إلى أمْرٍ مؤكَّدٍ مُحقَّقٍ؛ أي: إنَّ هذا التَّبشيرَ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/121.

الَّذي بشَّرتموني به شيءٌ عجيبٌ، فدلَّ اسمُ الإشارةِ على قُربِ السَّماعِ، وتواصلِ الحوارِ، وأنَّ المشارَ إليهِ تبشيرٌ؛ أي: "إنَّ هذا الَّذي بشَّرتموني بهِ من حصولِ الولدِ لي في تلك السِّنِّ المتقدِّمةِ لَشَيْءٌ عَجِيبٌ في مجرى العادةِ عند النِّساءِ"[1].

نكتةُ الإطنابِ بذكرِ ﴿لَشَيْءٌ﴾:

مفاجأةُ التَّبشيرِ بالأمرِ المحبوبِ المستحيلِ وقوعُهُ عظيمُ الأثرِ ثقيلُ الحِمْلِ

لم يكتفِ النَّظمُ الكريمُ بالإخبارِ عن المتعجَّبِ منهُ بأن يُقالَ: (إنَّ هذا لعجيبٌ)، بل آثرَ الإطنابَ، فأخبرَ عنهُ بلفظِ (شيء)؛ ليقعَ العجَبُ صِفةً لذاتٍ؛ تجسيدًا لهذا المعنى، وتثبيتًا لمعناهُ، وتأكيدًا لحصولِه في النَّفسِ راسخًا متمكِّنًا، فهو شيءٌ، لا مجرَّدُ كلامٍ يُقال، أو ألفاظٍ تُسرَدُ.

وقد ترجمَ ذلك يقينُها بحصولِ التَّبشيرِ العجيبِ، فهي في أكملِ سعادةٍ، وذلك أنَّ "الإنسانَ إذا كان عظيمَ الرَّغبةِ في شيءٍ، وفاتَهُ الوقتُ الَّذي يغلُب على ظنِّهِ حصولُ ذلك المرادِ فيهِ، فإذا بُشِّر بعد ذلك بحصولِهِ ازدادَ فرحُهُ وسرُورُهُ، ويصير ذلك الفرحُ القويُّ كالمُدهش له، وربَّما يجعلهُ هذا الفرحُ يُعيدُ السُّؤالَ لِيَسْمَعَ تلك البشارةَ مرَّةً أخرى؛ طلبًا للالتذاذِ بسماعِها"[2].

سرُّ إيثارِ صفةِ ﴿عَجِيبٌ﴾ على مرادفاتِها:

عُمومُ اللَّفظِ في اشتمالِهِ على صفاتٍ أخرى ولترجمتِهِ ما يجولُ في النَّفسِ

العجيبُ هو ما لا يُعرفُ مثلُه، ولا يُتَوقَّعُ حصولُهُ، وصيغتهُ فعيلٌ بمعنى مُفعِلٍ؛ أي: مُعجِبٌ، صيغةُ مبالغةٍ من العَجَبِ الثَّائرِ في نفسِ المتكلِّم، ولمَّا كان هذا الشَّيءُ مجهولًا وغريبًا وغيرَ معهودٍ؛ وصفتْهُ السَّيِّدةُ بالعَجيبِ؛ ولأنَّها صارتْ بين أمرين: الأوَّل: ثِقَتُها في صِدْقِ خبرِ البِشارةِ بالإنجابِ، وإيمانُها بحتميَّةِ تحقُّقِهِ، والثَّاني: أثرُ هذا الخبرِ عليها.

(1) طنطاوي، التفسير الوسيط: 7/241.
(2) طنطاوي، التفسير الوسيط: 8/56.

وسرُّ إيثارِ هذا الوصفِ دونَ غيرِهِ كالغريبِ، والبعيدِ؛ لأنَّه أعمُّ من بقيَّةِ الصِّفات، فليس البعيدُ بالضَّرورةِ أن يكونَ مُتعجَّبًا منهُ، وكذلك الغريبُ، فجيءَ بعجيبٍ لاشتمالِهِ على هذه المعاني الَّتي ثَبتَتْ باللَّفظِ وبالسِّياقِ، ولأنَّ هذا اللَّفظَ هو الذي يُعبِّر عمّا يجولُ في نفسِ امرأةِ الخليلِ عليه السلام.

عِلَّةُ الفصلِ بين الجملِ:

الاستئنافُ البيانيُّ ارتباطٌ دلاليٌّ ورابطٌ ذهنيٌّ

وقعتْ جملةُ ﴿قَالُوٓاْ أَتَعۡجَبِينَ﴾ ممّا قبلَها موقعَ جوابٍ تُثيرهُ الجملةُ السّابقةُ في ذِهن المتلقِّي، فحْواه: ماذا كان جوابُ الملائكةِ الكرام على تعجُّبِها؟ فجاءَ الرَّدُّ: ﴿قَالُوٓاْ أَتَعۡجَبِينَ﴾، على طريقةِ الاستئنافِ البيانيِّ، فالنَّظمُ يُعطي حيويَّةً، ويستثيرُ ذهنَ المتلقِّي، ويُشركهُ في عمليَّة التَّواصل، ويمنحُ المتلقِّي فرصةَ الحوارِ الافتراضيِّ حين يجيبُ عن سؤالِهِ الَّذي نبتَ في ذهنِهِ.

غرضُ الاستفهام:

ألطافُ الله الَّتي تنالُ المقرَّبين لا تنالُ غيرَهم ممَّن لم يقتربْ من منازلِ رحمتِهِ

يَحْملُ الاستفهامُ في: ﴿قَالُوٓاْ أَتَعۡجَبِينَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۖ﴾ معنى التَّعجُّبِ من تعجُّبِ امرأة الخليلِ عليه السلام وفيه رائحةُ الإنكارِ، "وإنَّما أنكرت عليها الملائكةُ تعجُّبَها؛ لِأنَّها كانت في بيت الآياتِ ومهبطِ المعجزات والأمورِ الخارقة للعادات، فكان عليها أن تتوقَّرَ، ولا يزدهيها[1] ما يزدهي سائرَ النِّساءِ النّاشئاتِ في غير بيوتِ النُّبوَّةِ، وأنْ تُسَبِّحَ اللّه عزّ وجلّ وتُمجِّدَهُ مكان التَّعجُّبِ، وإلى ذلك أشارتِ الملائكةُ – صلواتُ اللّه عليهم – في قولهم: ﴿رَحۡمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِۚ﴾ إلى أنَّ هذه وأمثالَها ممّا يُكرمُكم بهِ ربُّ العزَّة، ويخُصُّكم بالإنعام بهِ – يا أهلَ بيتِ النُّبوَّةِ – فليست بمكانِ عَجَبٍ"[2].

(1) قوله: (ولا يزدهيها) في الصحاح: "زهاه وازدهاه: استخفَّه وتهاون به". يُنظر: حاشية الكشاف: 2/411.

(2) الزمخشريّ، الكشّاف: 2/411.

وفي الاستفهام غرضٌ فرعيٌّ آخرُ، وهو "تطمينٌ لها، وتوكيدٌ لهذه البشرى الَّتي بُشِّرَتْ بها، وأنَّها رحمةٌ من الله ﷻ وبركةٌ على أهلِ هذا البيتِ الَّذين اختصَّهم الله برحمتهِ وبركاته، وإذا كانوا كذلك؛ فإنَّ ما يتلقَّوْنه من الله ﷻ من فضلٍ لا يكون موضعَ عَجَبٍ، وإنْ جاء على غيرِ ما يَعهَدُ النّاسُ؛ فإنَّ لله ﷻ في أوليائهِ ألطافًا، لا ينالها غيرُهم ممَّن لم ينزلوا منازلَ رحمتهِ ورضوانهِ"[1].

نكتةُ إيثارِ المضارعِ على الماضي:

تصويرُ آثارِ الانفعالِ المستمرَّةِ في الحوارِ مع ملائكةِ الرَّحمنِ

آثرَ النَّظمُ استعمالَ صيغةِ المضارعِ ﴿أَتَعۡجَبِينَ﴾ على أن يُقالَ: (أعجِبْتِ؟) وقد تحقَّقَ العجبُ ووقع، وذلك لتصوير مشهدِ التَّعجُّبِ الواقعِ من امرأةِ الخليلِ عليه السلام فإنَّ تعجُّبَها وقعَ، وتحقَّق منها، لكنَّ آثارَه لم تنتهِ بعدُ، فهي متعجِّبةٌ ممّا بُشِّرتْ بهِ، وبقيت آثارُ الانفعالِ حاضرةً في موقفِها وحوارِها، وفيه دلالةٌ على سُرعةِ جوابِ الملائكة عليهم الصَّلاةُ والسَّلام على تعجُّبِها، فهي ما زالت في حالةِ التَّعجُّبِ والذُّهولِ إلى أنْ أتاها هذا الإنكارُ من ملائكةِ التَّبشير الحميدِ، فقطعوا بسؤالِهم تعجُّبَها، وأمروها بالطُّمأنينةِ والسَّكينةِ واستقبالِ أمرِ الله بالرِّضا والسُّرورِ.

معنى حرف ﴿مِنۡ﴾:

يدورُ معنى (من) بين السَّببيَّةِ والابتداءِ

يحتملُ حرفُ (من) في قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَتَعۡجَبِينَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۖ﴾ أن يكون سببيًّا؛ أي: أتعجبينَ بسببِ أمرِ الله وقضائهِ، وبهِ يظهرُ معنى الإنكارِ؛ أي: لا تعجبي فإنَّ الأمرَ صادرٌ عن الله تعالى وما يصدرُ عن الله؛ فلا يُتعجَّبُ منهُ.

ويحتمل أن يكونَ للابتداءِ المجازيِّ؛ أي: أتعجبينَ من مجيءِ أمرِ الله تعالى فإنَّ أمرَ الله إذا جاءَ؛ تحقَّقَ وثبتَ.

(1) الخطيب، التفسير القرآنيّ للقرآن: 6/1172.

دلالةُ الإضافةِ:

أمرُ اللهِ نازِلٌ منهُ سبحانه وسيكونُ له شأنٌ في قادم الأيّام

الأمرُ في قولهِ تعالى: ﴿أَمۡرِ ٱللَّهِۖ﴾ واحدُ الأمورِ لا الأوامرِ، فهي بمعنى القضاءِ بِوقوعِ الشَّيء، وعُبِّر بلفظِ الأمر للإيماءِ إلى أنَّ اللّه قد أمرَ سبحانه به، وأصبح أمرًا متحقِّقًا ثابتًا، والإضافةُ إلى لفظِ الجلالةِ بمعنى (من)؛ أي: أمرٌ منَ اللّه تعالى ففيه إشارةٌ إلى أنَّه نازِلٌ منهُ سبحانه وأنَّ لهذا الأمرِ شأنًا في قادِمِ الأيّام.

نكتةُ ذِكْرِ لفظِ الجلالةِ دونَ الرَّبِّ:

المقامُ مقامُ إيمانٍ وإذعانٍ وهو المناسبُ لِلَفْظِ الألوهيَّةِ

آثرتِ الآيةُ ذِكْرَ لفظِ الجلالةِ دونَ لَفْظِ الرَّبِّ في: ﴿أَمۡرِ ٱللَّهِۖ﴾، فلم يَقُلْ: (أتعجبين من أمرِ ربِّك) مع أنَّ أمرَ الخَلْقِ مرتبطٌ بالرُّبوبيَّةِ، فيُسألُ عن نكتةِ الاختيارِ؟ والَّذي يظهرُ أنَّ ذِكْرَ لفظِ الجلالةِ لما فيهِ من توريثِ المهابةِ المُزيلةِ للتَّعَجُّبِ، فإنَّ المقامَ هو مقامُ تسليمٍ وإذعانٍ لأمرِ اللّه تعالى وهو ما يتناسَبُ مع الألوهيَّةِ، فكان ذكرُ لفظِ الجلالةِ هو الأوفقُ بالسِّياقِ.

براعةُ موقعِ الجملِ من السّابقِ:

وقعتِ الجملةُ من السّابقةِ موقعَ الخبرِ المتضمِّنِ دعاءً بغرضِ التَّعليلِ

لقولِه تعالى: ﴿رَحۡمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ﴾ من السّابقِ احتمالات:

الأوَّل: الاستئنافُ المفيدُ للتَّعليلِ؛ إذ "علَّلَ به إنكارَ التَّعجُّبِ، كأنَّهُ قيلَ: إيّاكِ والتَّعجُّبَ، فإنَّ أمثالَ هذهِ الرَّحمةِ والبركةِ متكاثرةٌ من اللّه ﷻ عليكم"[1]، ففي هذهِ الجملةِ "ما يُزيلُ ذلك التّعجُّب، وتقديرُهُ: إنّ رحمة اللّه عليكُم مُتكاثِرة وبركاتِه لديكُم مُتوالية مُتعاقِبة، وهي النُّبُوّةُ والمُعجزاتُ القاهِرةُ والتّوفيقُ لِلخيراتِ العظيمةِ، فإذا رأيتِ أنّ اللّه خرق العاداتِ في تخصيصِكُم بهذهِ الكراماتِ العاليةِ الرّفيعة وفي إظهارِ خوارِقِ العاداتِ وإحْداثِ البَيِّناتِ والمُعْجزاتِ، فَكَيْفَ يَليقُ بِهِ التَّعَجُّبُ"[2].

(1) الزمخشريّ، الكشّاف: 2/411.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 18/375.

الثّاني: الدُّعاءُ، "وكونهُ دعاءً إنَّما يقتضي أنَّه أمْرٌ يُتَرَجَّى، ولم يَتحصَّلْ بعدُ"[1].

الثّالثُ: الإخبارُ، "وكونه إخبارًا أشرفَ؛ لأنَّ ذلك يقتضي حصولَ الرَّحمةِ والبركةِ لهم"[2].

ويحتملُ المقامُ أن تكونَ الجملةُ للتَّعليلِ، والدُّعاءِ، والإخبارِ، أمّا الإخبارُ؛ فهو أصلُ الأمرِ، وأمّا الدُّعاءُ؛ فهو مضمَّنٌ في الخَبَرِ، وأمّا التَّعليلُ؛ فهو بيانُ عِلَّةِ حصولِ هذا الأمرِ لهذه العائلةِ العدليَّةِ العليَّةِ.

بلاغةُ الحذفِ:

رحمةُ الله أصلُ كلِّ خيرٍ ومَنْبَعُ كلِّ بركةٍ

أصلُ قولِهِ تعالى: ﴿رَحۡمَتُ ٱللَّهِ﴾: (هذه رحمةُ اللّه)، أو: (رحمةُ اللّه تتنزَّلُ عليكم أهلَ البَيتِ)، فحُذِفَ المسندُ إليهِ في التَّقدير الأوَّلِ، وحُذِفَ المسندُ في التَّقديرِ الثّاني؛ وذلك يُوفِّرُ عنايةَ التالي والمستمع للذِّكر الحكيم، ويلفتُهما إلى عظمةِ رحمةِ اللّه ﷻ الَّتي هي غايةُ غاياتِ المخلوقِ بعد رضوانِ اللّه ﷻ عنه وعليه.

فائدةُ تقديم الرَّحمةِ على البَركةِ:

قُدِّمَتِ الرَّحمةُ لبيانِ أنَّها أعمُّ من البَركةِ

الرَّحمةُ أشملُ من البركةِ، فكلُّ بركةٍ رحمةٌ، وليست كلُّ رحمةٍ بركةً، فاللّه ﷻ يرحمُ الكافرَ في الدُّنيا، ولكن لا يباركُ لهُ، أمّا رحمتُهُ بالمؤمنِ؛ ففيها ومنها تنبثقُ البركةُ، فقُدِّمتِ الرَّحمةُ في قولِهِ تعالى: ﴿رَحۡمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِۚ﴾؛ لبيانِ شمولِها هذا البيتَ المباركَ، والرَّحمةُ سابقةٌ، فهي أصلُ كلِّ خيرٍ، ثمَّ عُطِفَ عليها الأخصُّ لبيانِ أنَّها رحمةٌ متكاثرةٌ في الزَّمنِ القادمِ، وأنَّها ليست مجرَّدَ رحمةٍ نزلتْ، بل هي باقيةٌ في هذا البيتِ التَّليدِ بأشكالٍ وأنواعٍ متعدِّدةٍ.

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/191.
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/191.

نكتةُ إظهارِ ما حقُّه الإضمارُ:

عندما تأخذُ الجملَةُ حظَّها من المعنى فلها حكمُ الانفرادِ عن السّابق

تقدَّم قولُه تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَتَعۡجَبِينَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۖ﴾، فكانَ مقتضى الظّاهرِ أن يقولَ: (رحمتُهُ وبركاتُه) في قولِه تعالى: ﴿رَحۡمَتُ ٱللَّهِ﴾ إضمارًا لتقدُّم ذكرِ لفظِ الجلالةِ؛ لكنَّ النَّظمَ تركَ الظّاهرَ، وأخذَ بمقتضى الحالِ، ونكتةُ ذلك: أنَّ النَّظْمَ ذكَرَ كلَّ جملةٍ منفردةً عن الأخرى، فالأُولى جاءتْ للإنكارِ على التَّعجُّبِ من أمرِ الله، والأخرى جاءت للتَّعليلِ والدُّعاءِ والإخبارِ - كما سبق - فهو شروعٌ في معنًى جديد مستأنفٍ من جهةٍ، ومرتبطٍ بالأولى من جهةٍ ثانية، فأخذَتْ كلُّ جملةٍ حظَّها من المعاني، بانفرادٍ عن الأخرى، مع شديدِ ارتباطِها بها؛ ولذلك حسُنَ إظهارُ لفظِ الجلالةِ، وأمرٌ آخرُ: وهو أنَّ الجملةَ جرَت مجرى الأمثالِ السّائرةِ، فكان إظهارُ لفظِ الجلالةِ هو الأنسبُ.

دلالةُ إفرادِ الرَّحمةِ وجمْعِ البَرَكَةِ:

رحمةٌ واسعةٌ وشاملةٌ، والبركاتُ متنوِّعةٌ ومتعدِّدة

أُفرِدَتِ الرَّحمةُ، وجُمعت البركةُ في قولِه تعالى: ﴿رَحۡمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِۚ﴾؛ لبيانِ أنَّ رحمةَ الله عامَّةٌ وشاملةٌ لكلِّ شيءٍ، فيدخُل فيها كلُّ رحمةٍ، ويتَّسقُ مع سبْقِها واستيعابها واتِّساعها لكلِّ رحمةٍ، فهي رحمةٌ واسعةٌ سابقةٌ، وأمّا ﴿وَبَرَكَٰتُهُۥ﴾ ﷻ فإنَّها تتنوَّعُ، وتَحُلُّ في كلِّ شيءٍ، فالصِّحَّةُ نوعٌ من البرَكةِ، والعُمُرُ نوعٌ من البركةِ، والسَّمعُ نوعٌ من البركةِ، والبصرُ نوعٌ من البركةِ، والبدَنُ نوعٌ من البركةِ، وفي العقلِ، وفي الرُّوحِ، وفي الأهلِ، وفي المالِ... إلى آخرِ أنواعِ البركاتِ الَّتي تحُلُّ في نعمِ الله ﷻ وهي لا تُحصى كما وردَ بذلك قولُ الله: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ﴾ [إبراهيم: 34].

بلاغةُ استعمالِ حرفِ الاستعلاءِ:

رحمةُ الله تنزلُ على الصّالحين نورًا وهدًى إلى يوم الدِّين

فِعْلُ الرَّحمةِ يتعدَّى بنفسِه، فنقولُ: رحِمَ الله فلانًا، ويتعدَّى بالباءِ، فنقولُ: رحمةُ الله ﷻ أحاطتْ بنا، ويتعدَّى بعلى فنقولُ: رحمةُ الله ﷻ نزلَتْ عليه، وقد آثرَ النَّظمُ الحكيمُ في قولِه تعالى:

﴿رَحۡمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِۚ﴾ التَّعدية بحرف الاستعلاء ﴿عَلَيۡكُمۡ﴾؛ لأنَّ الرَّحمةَ وأسبابَها إنَّما تتنزَّلُ من أعلى، ففي ﴿عَلَيۡكُمۡ﴾ معنى التَّنزيل من عُلُوٍّ، والمعنى: رحمةُ الله ﷻ تتنزَّلُ عليكم أهلَ بيت النُّبوَّة، وهو ما يتَّسقُ مع المذكورِ سابقًا في توجيهِ نكتةِ إضافةِ لفظِ الأمرِ إلى لفظِ الجلالةِ.

توجيهُ الإعرابِ بين النِّداءِ والاختصاصِ:

نُصِب ﴿أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِۚ﴾ "على النِّداء، أو على الاختصاص؛ لأنَّ أهْلَ البَيْتِ مَدْحٌ لهم؛ إذ المرادُ: أهلُ بيتِ خليلِ الرَّحمن"[1]، وعلى النِّداءِ فأصلُ قولِهِ تعالى: ﴿أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِۚ﴾: (رحمةُ الله وبركاتُه عليكم يا أهلَ البيتِ)، فحُذِفَت أداةُ النِّداء لِقُربِ آلِ البيتِ من الملائكةِ في لحظاتِ هذا الحوارِ، و﴿أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِۚ﴾ وهم هنا في الدُّنيا يتلقَّوْنَ من السَّماءِ، ويستقبلونَ رسُلَ الله ﷻ الكرامَ، فكان حذْفُ أداةِ النِّداء مناسبًا ووافيًا بحقِّ المكانِ والمكانةِ بهذين القُرْبَينِ الكريمين.

التَّنويهُ بشأنِ أهلِ بيتِ النُّبُوَّةِ، والتَّلطُّفُ بخطابِهم

ولغرضِ "التَّنْويهِ بِهِمْ"[2]، والإشارةِ إلى أنَّ أهلَ بيتِ النُّبوَّة من ساحات الهدى والرَّحمة والبركات والطُّهر والكرامات بمكانٍ، فقد بيَّنتِ الجملةُ بهذا الحذفِ اليسير "خصوصيَّتهم بإسقاطِ أداة النِّداء مدْحَةً لهم، فقال: ﴿أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِۚ﴾؛ أي: قد تَمَرَّنْتُم على مشاهدةِ العَجائبِ لكثرةِ ما تَرَوْنَ من آثارِهِ بمثل ذلك"[3]، "وأنْتُمْ أهْلُ لِتِلْكَ الرَّحْمَةِ والبَرَكَةِ، فَلا عَجَبَ في وُقُوعِها عِنْدَكُمْ"[4].

دلالةُ تركيبِ ﴿أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِۚ﴾:

أُطْلِقَ ﴿أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِۚ﴾ على إبراهيمَ عليه السلام وزوجِهِ، وهذا الإطلاقُ أصبحَ علمًا على هذا البيتِ الكريم، ولم يرِد في الذِّكر الحكيم إلّا في أهلِ

تشريفٌ من التَّصقِ بهِ هذا الإطلاقُ إلى يوم الدِّين

(1) الزمخشريّ، الكشّاف: 2/411.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/122.
(3) البقاعي، نظم الدّرر: 9/332.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/122.

بيتِ الخليلِ إبراهيمَ عليه السلام وأهلِ بيت رسولِنا محمَّدٍ ﷺ وذلك يدلُّ على خصوصيَّةِ أهلِ هذينِ البيتينِ في عطاءاتِ الرَّحمةِ الإلهيَّةِ، والبركات الصمدانيَّةِ، وهي دلالةُ تشريفٍ وتكريمٍ، حيث إذا ذُكِر أهلُ البيتِ؛ لم ينصرفِ الذِّهنُ إلّا لهذين البيتينِ، فـ «اللهمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وأَزْواجِهِ وذُرِّيَّتِهِ، كَما صَلَّيْتَ عَلَى آلِ إبْراهِيمَ، وبارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ وأَزْواجِهِ وذُرِّيَّتِهِ، كَما بارَكْتَ عَلَى آلِ إبْراهِيمَ، إنَّكَ حَميدٌ مَجِيدٌ»[1].

معنى التَّعريفِ:

تعريفُ ﴿ٱلْبَيْتِ﴾ بـ (الـ)، وهو "تَعْرِيفُ حُضُورٍ، وهُو البَيْتُ الحاضِرُ بَينهم الَّذِي جرى فِيهِ هَذا التَّحاوُرُ؛ أيْ: بَيْتُ إبْراهِيمَ عليه السلام والمَعْنَى: أهْلُ هَذا البَيْتِ"[2]، أو على جعْلِ (الـ) عوضًا عن مضافٍ إليه محذوفٍ، على تقديرِ: أهل بيتِ إبراهيمَ عليه السلام.

بلاغةُ الالتفاتِ من خطابِ الواحدِ إلى خطابِ الجمعِ:

تعميمُ الرَّحمةِ والبركةِ بجميعِ أهلِ البيتِ

التفتَ خطابُ الملائكةِ عليهم السلام "من صيغةِ الواحدةِ: ﴿أَتَعْجَبِينَ﴾ إلى خطابِ الجماعَةِ في جمْعِ المذكَّر: ﴿عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾؛ لِتَعميم حُكمهِ لإبراهيمَ عليه السلام أيضًا؛ لِيَكونَ جَوابُهم لها جَوابًا له أيضا إنْ خَطَرَ بِبالِهِ مثلُ ما خطَر ببالِها"[3]، كما أنَّ فيه بشارةً بامتدادِ البرَكةِ في ذرِّيَّتِهما من أهلِ هذا البيت.

بلاغةُ التَّذييلِ:

المطلوبُ من العبادِ تحميدُ اللهِ وتمجيدُهُ

قولهُ تعالى: ﴿إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ﴾ تذييلٌ بديعٌ حيثُ أفادَ أمرين:

الأوَّلُ: "بيانُ أنَّ مقتضى حالها أن تَحمَدَ مستوجبَ الحمدِ المحسنَ إليها بما أحسنَ، وتمجِّدُهُ إذ شرَّفها بما شرَّفَ"[4].

---

(1) البخاري، الجامع الصحيح، الحديث رقم: (80)، كِتابُ الدَّعَواتِ، بابُ هَلْ يُصَلَّى عَلَى غَيْرِ النَّبِيِّ ﷺ: 8/77.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/122.

(3) الدّرر السَّنية، موسوعة التفسير على الرابط: https://dorar.net/tafseer/11/14.

(4) القاسمي، محاسن التأويل: 6/116.

الآخر: الإشارةُ "إلى أنَّهُ ﷻ يَحْمَدُ لعبادهِ الصّالحين ما يتقرَّبون به إليه من طاعاتٍ وقرباتٍ، فيجزيهم على ذلك الجزاءَ الأوفى، ويرفعُهم إلى منازلِ العزَّةِ والمجادة والشَّرف، وإبراهيمُ عليه السلام ممن أعطى اللّه كيانَهُ كلَّهُ، فأسلمَ له وجودَهُ ظاهرًا وباطنًا، فاستحقَّ أن يُحْمَدَ ويُمَجَّدَ، وهذا ما يشيرُ إليه قولهُ ﷻ بعد ذلك: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ﴾"[1].

بلاغةُ اجتماعِ وصْفَي ﴿حَمِيدٌ مَّجِيدٌ﴾:

كِنايةٌ عن رضا اللّه تعالى عن أهلِ بيتِ الخليلِ عليهم السلام

اجتمعَ وصفُ الحميدِ والمجيدِ في فاصلةِ هذه الآيةِ، ولهذا الاجتماعِ بلاغةٌ، فالحميدُ "هُو المَحْمُودُ، وهُو الَّذي تُحْمَدُ أفْعالُهُ، والمَجِيدُ: الماجِدُ، وهُو ذُو الشَّرَفِ والكَرَم، ومِنْ مَحامِدِ الأفْعالِ إيصالُ العَبْدِ المُطِيعِ إلَى مُرادِهِ ومَطْلُوبِهِ، ومِنْ أنْواعِ الفَضْلِ والكَرَم ألّا يُمْنَعَ الطّالِبُ عَنْ مَطْلُوبِهِ، فَإذا كانَ مِنَ المَعْلُومِ أنَّهُ ﷻ قادِرٌ عَلَى الكُلِّ، وأنَّهُ ﴿حَمِيدٌ مَّجِيدٌ﴾، فَكَيْفَ يَبْقَى هَذا التَّعَجُّبُ في نَفْسِ الأمْرِ؟ فَثَبَتَ أنَّ المَقْصُودَ مِنْ ذِكْرِ هذه الكلماتِ إزالةُ التَّعَجُّبِ"[2].

وأفعالُ الحميدِ "تقتضي أن يُحمَدَ، و﴿مَّجِيدٌ﴾ أي: متَّصفٌ بأوصافِ العُلُوِّ، ومَجَدَ الشَّيءُ؛ إذا حَسُنتْ أوصافُه"[3]، ومن كان بهذه الصِّفاتِ "ليس بعيدًا منه أن يُعطيَ الولدَ للآباءِ بعد الكِبَرِ"[4]، فهو ﷻ "كريمٌ كثيرُ الإحسانِ إليهم"[5]، "وكلمةُ ﴿حَمِيدٌ﴾ هنا بمعنى حامدٍ ومحمودٍ؛ لأنَّهُ ﷻ حامدٌ لمن يطيعهُ طاعةً نابعةً من الإيمان، واللّه ﷻ "محمودٌ ممَّن أنعمَ عليهم نعمَهُ السّابغةَ، واللّه ﷻ هو المجيدُ الَّذي يعطي قبل أن يُسألَ"[6].

(1) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 6/172.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 18/376.
(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/192.
(4) طنطاوي، التفسير الوسيط: 7/242.
(5) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 2/411.
(6) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 11/6567.

"وفي اخْتِيارِ وصْفِ الحَميدِ منْ بَيْنِ الأسْماءِ الحُسْنَى كِنايَةٌ عَنْ رِضا اللّه تعالى عَلَى إبْراهِيمَ عليه السلام وأهلِه"[1].

إبقاءُ وصفَي (حَميدٌ مَجيدٌ) في دعاءِ التَّشهُّدِ دليلُ عظمةِ الدُّعاء بهما

قد "وصَفَ اللّه عز وجل كِتابَهُ بالمجيدِ، كَما وصَفَ نَفْسَهُ بِهِ؛ لِسَعَةِ هِدايَةِ كِتابِهِ، وسَعَةِ كَرَمِهِ وفَضْلِهِ عَلَى عِبادِهِ، ومنْ هَذِهِ الآيَةِ أخَذَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم دُعاءَ الصَّلاةِ الَّذي أمَرَ بِهِ أُمَّتَهُ عَقِبَ التَّشَهُّدِ الأخِيرِ منَ الصَّلاةِ"[2]، "حيثُ يقولُ الدّاعي: كما صلَّيتَ، وباركتَ على إبراهيمَ وعلى آلِ إبراهيمَ، إنَّك حميدٌ مَجيدٌ"[3].

ويأتي ذلك منهُ صلى الله عليه وسلم وفاءً لأبيهِ إبراهيمَ الخليلِ وأهلِ بيتِهِ الكرام، كما أنَّ فيه دليلًا على عظَمةِ الدُّعاء بهذين الوصفين ﴿حَمِيدٌ مَّجِيدٌ﴾؛ وإلّا فما كان لهُما أن يكونا كالخَتْم على تمام الصَّلاةِ، وهي بصددِ ارتفاعٍ إلى اللّه عز وجل.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

البَعْلُ والزَّوجُ:

"الرَّجلُ لا يكونُ بعلًا للمرأةِ حتَّى يَدْخُلَ بها، وذلك أنَّ البِعالَ: النِّكاحُ والملاعَبةُ، ومنهُ قولُهُ صلى الله عليه وسلم: «أيّامُ أكْلٍ وشُرْبٍ وبِعالٍ»، وأصلُ الكلمةِ: القيامُ بالأمر، ومنه يقال للنَّخْلِ إذا شرِب بِعُرُوقِه، ولم يَحْتَجْ إلى سَقْيٍ: بَعْلٌ، كأنَّهُ يقومُ بِمصالحِ نفسِهِ"[4].

الشَّيخُ والكَهْلُ:

"الشَّيْخُ مَنِ اسْتَبانَتْ فيه السِّنُّ، أو من خَمْسِينَ أو إحْدَى وخَمْسِينَ إلى آخِرِ عُمُرِهِ أو إلى الثَّمانينَ"[5]، و"شأنُ الشَّيخِ أن تكثُرَ تجاربُهُ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/122.
(2) رشيد رضا، تفسير المنار: 12/108.
(3) القشيري، لطائف الإشارات: 2/147.
(4) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 104.
(5) الفيومي، القاموس المحيط: (شيخ).

ومعارفُه"[1]، "والكَهْلُ: من وخَطَهُ الشَّيْبُ، قال: ﴿وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [آل عمران: 46]، واكْتَهَلَ النَّباتُ؛ إذا شارفَ اليبوسةَ مشارفةَ الكَهْلِ الشَّيبَ"[2]، و"الكَهْلُ منَ الرِّجالِ: مَنْ زادَ عَلَى ثَلاثِينَ سَنَةً إلى الأربعين، وقِيلَ: هُو منْ ثَلاثٍ وثَلاثِينَ إلى تَمام الخَمْسِينَ"[3].

البرَكةُ والزِّيادةُ:

"البرَكةُ: هي الزِّيادةُ والنَّماءُ من حيثُ لا يوجدُ بالحِسِّ ظاهرًا، فإذا عُهِدَ من الشَّيءِ هذا المعنى خافيًا عن الحِسِّ؛ قيل: هذهِ بَركةٌ، وقيل: اشتقاقُها من البُروكِ، وهو اللُّزومُ والثُّبوت؛ لثبوتها في الشَّيء، ويُوصَفُ بها كلُّ شيءٍ لزمَهُ، وثبتَ فيه خيرٌ إلهيٌّ.

وليس لضدِّها اسمٌ معروفٌ؛ فلذلكَ يُقالُ فيه: قليلُ البرَكةِ، ولا يُسنَدُ فِعلُ البرَكةِ إلّا إلى اللّه ﷻ فلا يقالُ: بارَكَ زيدٌ في الشَّيءِ، وإنَّما يُقال: باركَ اللّه فيهِ، فإذًا كلُّ بَركةٍ زيادةٌ، وليس كلُّ زيادةٍ بَركةً"[4].

(1) الفيروزابادي، بصائر ذوي التمييز: 3/360.
(2) الراغب، المفردات: (كهل).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (كهل).
(4) العسكري، معجم الفروق اللغوية، ص: 96.

﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنۡ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلرَّوۡعُ وَجَآءَتۡهُ ٱلۡبُشۡرَىٰ يُجَٰدِلُنَا
فِي قَوۡمِ لُوطٍ ٧٤ إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٞ مُّنِيبٞ ٧٥ يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ
أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَآۖ إِنَّهُۥ قَدۡ جَآءَ أَمۡرُ رَبِّكَۖ وَإِنَّهُمۡ ءَاتِيهِمۡ عَذَابٌ
غَيۡرُ مَرۡدُودٖ ٧٦﴾ [هود: 74 - 76]

مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قَبْلَها:

"لَمّا كان أكثَرُ مُجادَلةِ إبراهيمَ عليه السلام لِما عِندَهُ من الشَّفَقةِ على عبادِ اللّه؛ لِما لهُ من هذه الصِّفاتِ الجليلةِ؛ أعلَمَهُ اللّه أنَّ الأمرَ قد حُسِم بقَولِه حكايةً على لسانِ الرُّسُلِ، أو وحيًا من اللّه تعالى إليه مباشرة: ﴿يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَآۖ إِنَّهُۥ قَدۡ جَآءَ أَمۡرُ رَبِّكَۖ وَإِنَّهُمۡ ءَاتِيهِمۡ عَذَابٌ غَيۡرُ مَرۡدُودٖ﴾[1]، فالمناسبةُ بين الآياتِ بيانُ شفقةِ إبراهيمَ الخليلِ عليه السلام بالنّاس، وأنَّها أصلُ المَكْرُماتِ، وفي هذه المناسبةِ فائدةٌ عظيمةٌ، وهي أنَّ اللّه يجازي عبادَهُ بما يرجونَهُ لخلقِ اللّه، بل هو أكرمُ وأعظمُ عطاءً ومنَّةً.

شَفَقةُ المؤمنِ على النّاسِ مُستَودَعُ الخيراتِ ومنبَعُ البركاتِ

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلرَّوۡعُ﴾: "الرَّوْعُ والرُّواعُ والتَّرَوُّعُ: الفَزَعُ، راعَني الأمرُ يَرُوعُني رَوْعًا ورُووعًا، وكُلُّ شَيْءٍ يَروعُك منْهُ جَمالٌ وكَثرةٌ، تَقُولُ: راعَني، فَهُو رائِعٌ، والرَّوْعةُ: الفَزْعةُ، وفي حَديثِ الدُّعاءِ: «اللهمَّ آمنْ رَوعاتي» هِيَ جَمْعُ رَوْعةٍ، وهِيَ المَرَّةُ الواحِدَةُ منَ الرَّوْعِ الفَزَع"[2]، و"الرُّوعُ بالضَّمِّ: القلبُ والعقلُ"[3]، "أو مَوْضِعُ الفَزَعِ منهُ"[4]، و"الرَّوعُ: ما أُلقِيَ في القلبِ من الفَزَعِ"[5].

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 9/233.
(2) ابن منظور، لسان العرب: 8/135.
(3) أبو البقاء، الكليات، ص: 480.
(4) الفيروزابادي، القاموس المحيط، ص: 724.
(5) الجمل، معجم وتفسير لغوي لكلمات القرآن: 2/231.

والمقصودُ في الآيةِ: ما كان للخليلِ عليه السلام من الخوفِ الَّذي أصابهُ بسببِ امتناعِ الأضيافِ من تَناولِ الطَّعام.

2) ﴿يُجَٰدِلُنَا﴾: "الجَدْلُ: شِدَّةُ الفَتْلِ، وجَدَلْتُ الحَبْلَ أجْدِلُهُ جَدْلًا؛ إذا شَدَدْتُ فَتْلَهُ، وفَتَلْتُهُ فَتْلًا مُحْكَمًا"[1]، و"الجِدالُ: المفاوضةُ على سبيل المنازعةِ والمغالبةِ، وجدلْتُ البِناءَ: أحكمتُهُ، ودِرْعٌ مَجْدُولَةٌ، والأجْدَلُ: الصَّقرُ المُحكَمُ البِنيَةِ، والمِجْدَلُ: القصْرُ المحكمُ البناءِ، ومنهُ: الجِدالُ، فكأنَّ المتجادلَيْنِ يَفْتِلُ كلٌّ واحدٍ الآخرَ عن رَأيِهِ، وقيل: الأصلُ في الجِدالِ: الصِّراعُ وإسقاطُ الإنسانِ صاحبَهُ على الجَدالَةِ، وهي الأرضُ الصُّلبةُ"[2].

والمقصودُ في الآيةِ: هو مجادلَةُ الخليلِ عليه السلام الرُّسلَ في شأنِ عذابِ قومِ لوطٍ، رجاءَ ترْكِ المعاجَلةِ؛ لعلَّ اللّه يهديهم، ويُصلِحُ حالَهم.

3) ﴿أَوَّٰهٌ﴾: آهِ: حكايةُ المُتأوِّهِ في صوتِهِ، وقد يفعلُهُ الإنسانُ منَ التَّوجُّعِ، وأهَّ فلانٌ أهَّةً وآهةً[3]؛ إذا توجَّعَ، فقال: آهِ، أو قال: هاهِ عند التَّوجُّعِ، فأخْرَجَ نفَسَهُ بهذا الصَّوتِ؛ ليتفرَّجَ عَنْهُ ما بِهِ، والأوّاهُ: الدَّعّاءُ للخيرِ[4]، و"رَجُلٌ أوّاهٌ: كَثيرُ الحُزنِ، وقِيلَ: هُو الدَّعّاءُ إلى الخَيْرِ، وقِيلَ: الفَقيهُ، وقِيلَ: المؤمِنُ، بِلُغَةِ الحَبَشَةِ، وقِيلَ: الرَّحيمُ الرَّقيقُ، وفي التَّنْزيلِ العَزيزِ: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ﴾، وقِيلَ: الأوّاهُ هُنا: المُتأوِّهُ شَفَقًا وفَرَقًا، وقِيلَ: المُتَضَرِّعُ يَقينًا؛ أي: إيقانًا بالإجابَةِ ولُزُومًا لِلطّاعَةِ... وفي الحَديثِ: (اللهمَّ اجْعَلني مُخْبِتًا أوّاهًا مُنيبًا)، الأوّاهُ: المُتأوِّهُ المُتَضَرِّعُ"[5]، والأوّاهُ هنا "هو المبتهلُ إلى اللّه، المتخشِّعُ في ابتهالِهِ، الرَّحيمُ الَّذي يُكثِرُ من التَّأوُّهِ خوفًا وإشفاقًا منَ الذُّنوبِ"[6].

4) ﴿مُّنِيبٌ﴾: "نابَ فلانٌ إلى اللّه تعالى وأنابَ إليه إنابةً، فَهُو مُنيبٌ؛ أي: أقْبَلَ، وتابَ، ورجَعَ إلى الطّاعَةِ، وقِيلَ: نابَ: لَزِمَ الطّاعَةَ، وأنابَ: تابَ ورجَعَ، وفي حَديثِ الدُّعاءِ: «وإليك أنَبْتُ». الإنابةُ: الرُّجوعُ إلى اللّه بالتَّوبةِ، وفي التَّنْزيلِ العَزيزِ: ﴿۞مُنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾

(1) ابن منظور، لسان العرب: (جدل).
(2) الراغب، المفردات، ص: 189.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أنَّ).
(4) الخليل، العين: (أوه).
(5) ابن منظور، لسان العرب: (أوه).
(6) الزجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 3/65.

[الروم: 31] أي: راجِعِينَ إلى ما أمَرَ بِهِ، غَيْرَ خارِجِينَ عَنْ شيءٍ مِنْ أمْرِه، وقَوْلُهُ ﷻ: ﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ وَأَسۡلِمُواْ لَهُۥ﴾ [الزمر: 54] أي: تُوبوا إليهِ، وارْجِعُوا"[1].

5) ﴿أَعۡرِضۡ﴾: "العَرْضُ: خلافُ الطُّولِ، وأصلهُ أن يقالَ في الأجسام، ثمَّ يستعملَ في غيرها كما قال ﷻ: ﴿فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٖ﴾ [فصلت: 51]. والعُرْضُ خُصَّ بالجانبِ، وأعْرَضَ الشَّيءُ: بدا عُرْضُهُ... أعْرَضَ عنِّي: ولَّى مُبديًا عُرْضَهُ، قال ﷻ: ﴿ثُمَّ أَعۡرَضَ عَنۡهَآۚ﴾ [السجدة: 22]"[2]، وكذا "أعْرَضَ عَنِ الشَّيْءِ؛ إذا ولّاه ظَهْرَهُ"[3]، و"أعْرَضَ عَنْهُ: صدَّ"[4]، والمرادُ في الآيةِ، هو تَرْكُ مجادلةِ الرُّسُلِ الكرام في شأنِ عذابِ قوم لوطٍ.

6) ﴿مَرۡدُودٖ﴾: "الرَّدُّ: صَرْفُ الشَّيءِ بذاتِه، أو بحالةٍ من أحوالِه، يقال: رَدَدْتُهُ، فارْتَدَّ، قال تعالى: ﴿وَلَا يُرَدُّ بَأۡسُهُۥ عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ [الأنعام: 147]، فمنَ الرَّدِّ بالذّاتِ قولُهُ تعالى: ﴿وَلَوۡ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنۡهُ﴾ [الأنعام: 28]... ومنَ الرَّدِّ إلى حالةٍ كان عليها قوله تعالى: ﴿يَرُدُّوكُمۡ عَلَىٰٓ أَعۡقَٰبِكُمۡ﴾ [آل عمران: 149]، وقولُهُ: ﴿وَإِن يُرِدۡكَ بِخَيۡرٖ فَلَا رَآدَّ لِفَضۡلِهِۦۚ﴾ [يونس: 107]؛ أي: لا دافِعَ ولا مانِعَ لهُ، وعلى ذلك: ﴿عَذَابٌ غَيۡرُ مَرۡدُودٖ﴾ [هود: 76]"[5].

المَعْنى الإجْمالِيُّ:

تُبيِّنُ الآيةُ حالَ إبراهيمَ عليه السلام بعد ذهابِ رَوعِهِ مِن امتناعِ الرُّسلِ عن تناولِ الطَّعام، "فلمّا اطمأنَّ قلبُهُ بعد الخوفِ، ومُلِئَ سرورًا بسببِ البُشْرى بدلَ الغَمِّ، فرَغ للمجادلةِ"[6]، شفقةً من نزولِ العذابِ بقوم لوطٍ عليه السلام وذلك أنَّ " إبراهيمَ لحليمٌ، فلا يُحبُّ أن يُعاجِلَ

الله تعالى يحبُّ المؤمنين ويكرِّمُهم، ومع ذلك لا يَقْبَلُ شفاعتَهم في الكافرين

(1) ابن منظور، لسان العرب: (ناب).
(2) الراغب، المفردات: (عرض).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (عرض).
(4) أبو البقاء، الكليات، ص: 624.
(5) الراغب، المفردات: (رد).
(6) الزمخشري، الكشّاف: 2/412.

بالعقوبةِ، كثيرُ التَّأوُّهِ والتألُّم من عذابِ النّاس، منيبٌ إلى اللّه ﷻ وراجعٌ إليهِ"[1]، فناداه اللّه تعالى أو نادته الملائكة أن يا إبراهيم انصرف عن الجدالِ لـ "إنّه قد نفذ فِيهِم القضاء، وحقّت عليهِم الكلِمة بِالهلاكِ، وحلولِ البأسِ الّذِي لا يردّ عنِ القوم المجرِمينَ"[2].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

معنى الفاءِ ودلالتُها:

بيانُ مسارعةِ الأحداثِ، وأنَّ الأمرَ جَلَلٌ لا يحتملُ الانتِظارَ

دخلتِ "الفاءُ في جملة ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ﴾؛ لربْطِ بعضِ أحوالِ إبراهيمَ ﵇ ببعضٍ غِبَّ[3] انفصالِها بما ليس بأجنبيٍّ من كلِّ وجهٍ، بل له مدخلٌ تامٌّ في السِّباقِ والسِّياقِ"[4].

وقد آثرَ النَّظمُ الكريمُ العطفَ بالفاءِ في جملةِ: ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ﴾؛ لأنَّها تُفْصِحُ عن أنَّ الوقتَ الَّذي قضاهُ الخليلُ إبراهيمُ ﵇ في معالجة الرَّوْعِ كان خاطِفًا سريعًا سرعةَ الفاءِ مع لمّا، فما هي إلّا لحظاتٌ حتَّى وقفَ ﵇ على حقيقةِ أضيافِهِ، ورجعَ إلى حالةِ طُمأنينتِهِ، وتجاوزَ لحظاتِ السَّعادةِ بِبُشْرى الإنجابِ، ثمَّ عاد سريعًا إلى القضيَّة الكبرى لتنزُّلِ الملائكةِ الكرام في عذابِ قوم لوطٍ.

فحَقُّ العطفِ إذًا أن يكونَ بالفاءِ في جُملةِ ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ﴾، ولا تلائمُ الواوُ هذا السِّياقَ؛ لأنَّها هادئةٌ تُؤذِن بشيءٍ من الفُتورِ، وربَّما حلَّت محلَّ (ثمَّ)، فتؤذِنُ بالتَّراخي، فهي إذًا البديلُ المسموحُ لـ (ثمّ) مع (لمّا)، فتُناسبُ المقاماتِ المتراخيةَ، أمّا (الفاءُ)؛ فتُؤْذِن بِطَيِّ الوقتِ، وتتآزرُ مع (لمّا) في وصلِ الجزاءِ بالشَّرطِ[5].

(1) حجازي، التفسير الواضح: 2/136.
(2) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/336.
(3) غبّ: إثر.
(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/226.
(5) أحمد محمّد سعيد، الأثر البلاغيّ للفاء والواو الداخلتين على لمّا الحينيّة، مجلّة جامعة الإمام، 1443هـ.

سرُّ إيثارِ ﴿فَلَمَّا﴾ دونَ (حين):

المسرّاتُ الشَّخصيَّةُ لا تمنعُ من العنايةِ بأحوالِ الآخرين

(لمّا) تُفيدُ تقليصَ الزَّمنِ بين جزائِها وشرطِها، ومعناها في الآيةِ: أنَّ جدالَ الخليلِ عليه السلام ملائكةَ الرَّحمنِ بشأنِ إيقافِ هلاكِ قومِ لوطٍ جاء سريعًا، فبمجرَّدِ ذهابِ الرَّوعِ ومجيءِ البُشرى، أقبلَ يُجادِلُ في دفعِ عذابِ قومِ لوطٍ عليه السلام فلم يمنعْهُ رَوْعُهُ بامتناعِ ضيوفِهِ عن تناولِ الطَّعامِ من العِجْلِ السَّمينِ الحنيذِ، ولا بُشراهُ بإنجابِ الولدِ - مع عظمتِها - عن محاولةِ الذَّودِ عن قومِ لوطٍ عليه السلام لعلَّهم يتوبون من الفاحشةِ، فكان مضمونُ جزاءِ الشَّرطِ المحذوفِ ﴿يُجَٰدِلُنَا﴾ فوريًّا بعد ذهابِ الرَّوعِ وتلقِّي البُشرى.

أمّا كلمةُ (حين)؛ فلا تفي بترجمَةِ هذهِ السُّرعةِ الخاطفةِ، وطيِّ الزَّمنِ بينَ الحَدَثَيْنِ، ولو قيل: (فحين ذهبَ عن إبراهيمَ الرَّوعُ يُجادِلُنا في قومِ لوطٍ)؛ تجدُ الفتورَ بَيِّنًا، لا يلائِمُ معالجةَ ظرْفِ إهلاكِ قريةٍ بأكملِها، وهي قريةُ نبيِّ اللّٰه تعالى لوطٍ عليه السلام فتوتُّرُ اللّحظةِ وشدَّةُ المصيبةِ لا يَحتملانِ فُتورَ (حين)، ولا يناسبُهما إلّا أداةُ الشَّرطِ (لمّا)، والفاءُ الَّتي آزرتْها، ووفَّتْ بِحقِّ هذا المقام.

بلاغةُ التَّعبيرِ المجازيِّ:

تجسيدُ الرَّوعِ لبيانِ شدَّتِهِ على إبراهيمَ عليه السلام

لفظُ الذَّهابِ في قولِهِ تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنۡ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلرَّوۡعُ﴾ إمّا أنْ يُحملَ على المجازِ العقليِّ، أو الاستعارةِ؛ إذِ الذَّهابُ من صفاتِ الأحياءِ، وقد جاءَ في قولِهِ تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنۡ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلرَّوۡعُ﴾ سُلوكًا مثبَتًا للرَّوْعِ، وكأنَّ له إرادةً، فيذهبُ برغبتِهِ، وفي هذا مجازٌ عقليٌّ بإسنادِ فعلِ الذَّهابِ إلى غيرِ فاعلِهِ، ونكتةُ هذا الإسنادِ المجازيِّ تجسيدُ الرَّوعِ لبيانِ شدَّةِ أثرِهِ على إبراهيمَ عليه السلام.

وتوجيهُ الاستعارةِ: أنَّ الرَّوْعَ لا يذهبُ وإنَّما يتلاشى، فلم يَقُلْ: (فلمّا زال الرَّوعُ)، فشبَّهَ زوالَ الرَّوعِ وتلاشيَهُ بالذَّهابِ، وصرَّحَ

بالذَّهابِ على سبيل الاستعارةِ التَّصريحيَّةِ التَّبعيَّةِ؛ لبيانِ زوالِه بالكلِّيَّةِ، دون أن يبقى له أثرٌ، وهذهِ الصُّورُ البيانيَّةُ المتكاثِفةُ الظِّلالِ تُضْفي على المعاني خيالًا طريفًا، وتعكِس شدَّةَ الرَّوعِ الذي مَلَكَ على إبراهيمَ الخليلِ عليه السلام كيانَهُ، والتَّوجُّسَ الَّذي لفَّهُ من هؤلاء الضِّيوفِ الَّذين أسرعَ في إكرامهم، وبالغَ في الإكرام، ثمَّ توقَّفوا عن الطَّعام في منظرٍ يثيرُ الفزعَ؛ إذ امتناعُ الأضيافِ عن تناولِ طعام مُضيفِهم كانت، ولا زالت أمارةَ شرٍّ ونذيرَ عداوةٍ، أو خصومةٍ على الأقلِّ، فكلُّ ذلك يُثبِت أنَّ إبراهيمَ عليه السلام سرعانَ ما استجمعَ نفسَهُ، وتجاوزَ اللَّحظةَ، حتَّى إنَّه لم يتوقَّفْ طويلًا عند البِشارةِ الكُبرى، وعند فرْحةِ زوجتِه السَّيِّدةِ سارةَ بهذهِ البُشرى الجديدةِ بإنجابِ إسحاقَ، ومن وراءِ إسحاقَ يعقوبُ، وأنَّ كلَّ ذلك سيكونُ في حياتِهم، وفي ذلك بِشارَةٌ بطولِ العُمُرِ حتَّى يَروا الابنَ ثمَّ زوجَهُ، ثمَّ حفيدَهُم منهُ.

نكتةُ تقديم الجارِّ والمجرور على الفاعِلِ:

العنايةُ بإبراهيمَ عليه السلام والتَّشويقُ لمعرفةِ ما ذهبَ عنهُ

قُدِّم الجارُّ والمجرور ﴿عَنْ إِبْرَٰهِيمَ﴾ على الفاعل ﴿ٱلرَّوْعُ﴾؛ لأنَّ الغرضَ كلَّهُ يتعلَّقُ بالمقدَّم ﴿إِبْرَٰهِيمَ﴾ عليه السلام لا بالمؤخَّرِ، فهو المعنيُّ ببيانِ الهدوءِ وذهابِ الرَّوعِ عنهُ، وهو المقصودُ بالمجادلة الآتيةِ في جوابِ ﴿فَلَمَّا﴾، كما يتَّفِق أنَّ مع تأخيرِ ﴿ٱلرَّوْعُ﴾ "تَبقى النَّفسُ منتظرةً إلى ورودِه، فيتمكَّنُ فيها عندَ ورودِهِ إليها فضلَ تمكُّنٍ"[1].

بالإضافةِ إلى أنَّ استعمالَ حرفِ ﴿عَنْ﴾ يُوحي بأنَّ الرَّوْعَ كان شديدًا على إبراهيمَ عليه السلام حتَّى لَكأنَّهُ شخصٌ مسلَّطٌ على إبراهيمَ عليه السلام يهزُّهُ ويُؤذيه، وأنَّ تلاشيَهُ وفتورَهُ وانتهاءَهُ كان بمنزلةِ ذهابٍ عنهُ، وترْكٍ لَهُ، وكأنَّ إبراهيمَ عليه السلام تخلَّصَ منهُ، فكأنَّه نشِطَ من عِقالٍ.

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السليم: 4/226.

سرُّ استعمالِ لفظِ ﴿ٱلرَّوۡعُ﴾:

بلوغُ الخوفِ مبلغًا كاملًا إلى حدِّ الامتلاءِ النَّفسيِّ

في اصطفاء مفردةِ ﴿ٱلرَّوۡعُ﴾ دلالةٌ على أنَّه كان مُريعًا مُرْعِبًا، فالرَّوعُ هو القلبُ، وسُمِّيَ بهِ الخوفُ لبلوغِهِ أعلى الدَّرجاتِ، وعليهِ فمعنى تعريفِهِ بـ (أل) يشيرُ إلى أنَّه كان رَوْعًا كاملَ التَّرْويعِ، فهو ﴿ٱلرَّوۡعُ﴾ الحقيقُ بهذه الصِّيغَةِ؛ لذلك كان تلاشيهِ وفُتُورُهُ عن إبراهيمَ عليه السلام ذهابًا كاملًا بلا أثرٍ، كما سبقَ بيانُ ذلك في بلاغةِ التَّعبيرِ المجازيِّ في مفردة ﴿ذَهَبَ﴾.

بلاغةُ الاستعارةِ المكنيَّةِ:

تصويرُ المعاني لتهويلِ مشهدِ الرَّوعِ

الرَّوعُ لا يذهبُ بذاتِهِ، فهو معنًى لا ذاتٌ حيَّةٌ تتحرَّكُ تحرُّكًا إراديًّا، ففي قولِهِ تعالى: ﴿ٱلرَّوۡعُ﴾ استعارةٌ بتشبيهِ الرَّوعِ برجلٍ ذاهبٍ، ثم حذفَ المشبَّهَ بهِ، وهو الرَّجلُ، وذكرَ المشبَّهَ مع ذكرِ لازمٍ من لوازمِ المشبَّهِ بهِ، وهو الذَّهابُ، على سبيلِ الاستعارةِ المكنيَّةِ الأصليَّةِ، والاستعارةُ أبلغُ من الحقيقةِ؛ إذ تشخيصُ المعنى فيه تهويلٌ تصويريٌّ فوق التَّهويلِ الدِّلاليِّ.

براعةُ عطفِ الجملِ:

التَّخليةُ قبلَ التَّحليةِ والمسرّاتُ عاقبةُ الملمّاتِ

ذكر النَّظمُ الكريمُ ذهابَ الرَّوعِ من إبراهيمَ عليه السلام ثمَّ عطفَ عليهِ مجيءَ البشرى، وهذا من بابِ التَّخليةِ قبل التَّحليةِ؛ إذ اقتضى لطفُ اللّٰه تعالى بعبدِهِ الخليلِ أن يُكافئَهُ بعدَ ذلكَ الرَّوعِ الَّذي أصابَهُ، ببُشْرى الولدِ، ومن هذا من لطيفِ الإشارةِ إلى عنايةِ اللّٰه بعبادِهِ المقرَّبين، أنَّه لا يتركُهم في المُلمّاتِ حتَّى يكافِئَهم بالمسرّاتِ.

بلاغةُ المجازِ:

اجتماعُ مجازٍ عقليٍّ واستعارتين دليلُ الكمالِ البيانيِّ تصويرًا وتجسيدًا

في قولِه تعالى: ﴿وَجَآءَتۡهُ ٱلۡبُشۡرَىٰ﴾ تعبيران مجازيّان، أمّا الأوَّلُ؛ ففي لفظِ ﴿وَجَآءَتۡهُ﴾، فالبشرى لم تجئْ إبراهيمَ عليه السلام من تِلقاءِ نفسِها، وبإرادةٍ منها، وبقدرةٍ على تنفيذ الإرادة، فالَّذي بشَّرهم الملائكةُ الكرامُ، فكان الظّاهرُ أن يقالَ: وجاءتْهُ الملائكةُ بالبشْرى،

غير أنَّ ﴿ٱلۡبُشۡرَىٰ﴾ لِعظمتِها وضخامتها وعُلُوِّ قيمتِها عُبِّرَ عنها بإسنادِ المجيءِ إليها، على سبيلِ المجازِ العقليِّ، أو الاستعارة؛ حيث شبَّهَ الإخبارَ عن الشَّيءِ بمجيئِهِ، وصرَّحَ بالمشبَّهِ بهِ على سبيل الاستعارةِ التَّصريحيَّةِ التَّبعيَّةِ.

وأمّا الآخرُ؛ ففي لفظِ ﴿ٱلۡبُشۡرَىٰ﴾، إذ شبَّهَ البُشرى بامرأةٍ جاءتْ بعد ذهابِ الرَّوعِ، وحذفَ المشبَّهَ بهِ، وذكرَ لازمًا من لوازم المشبَّهِ، وهو المجيءُ، على سبيلِ الاستعارةِ المكنيَّةِ الأصليَّةِ.

بلاغةُ اختيارِ المفردةِ:

تهلُّلُ البَشَرةِ دليلُ سعادةِ القلبِ والعقلِ والرُّوحِ

آثرَ النَّظمُ التَّعبيرَ بالبُشرى دونَ الخبرِ؛ وذلك لأنَّ "البِشارةَ هي الخبرُ السّارُّ، فهي أخصُّ من الخبرِ، وسُمِّيت بذلك؛ لأنَّ آثارَها تظهرُ على بشَرَةِ الوجْهِ؛ أي: جِلْدِهِ"[1]، وهو الَّذي تنْضَحُ عليه آثارُ الأخبارِ السَّعيدةِ، فتكونُ أظهرَ ما تكونُ في البشَرَةِ انفراجًا وتهلُّلًا، ففيها كنايةٌ عمّا يستقرُّ في القلبِ والعقلِ والكيانِ من أسبابِ السَّعادةِ.

معنى التَّعريفِ:

بُشرى إبراهيمَ عليه السلام استثنائيَّةٌ في تاريخِ البشريَّةِ

التَّعريفُ في قولهِ تعالى: ﴿ٱلۡبُشۡرَىٰ﴾ عَهديٌّ ذِكْريٌّ، حيثُ أُشيرَ إليها في قولِهِ تعالى: ﴿فَبَشَّرۡنَٰهَا بِإِسۡحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسۡحَٰقَ يَعۡقُوبَ﴾، وفي هذا التَّعريفِ بيانٌ لكمالِ هذهِ البُشرى، فإنَّ مجيءَ خبرِ الإنجابِ إلى إبراهيمَ عليه السلام في هذهِ السِّنِّ، وجبْرَ خاطرِ السيِّدةِ سارَّةَ ليس بـ ﴿ٱلۡبُشۡرَىٰ﴾ الاعتياديَّةِ الَّتي يعتادانها في حياتِهما، بل إنَّها البُشرى الجديرةُ بهذهِ التَّسميةِ، وبهذا التَّعريفِ الَّتي لا يُوصَفُ سواها؛ إذا قيسَ بها بأنَّه بُشرى.

علَّةُ فصلِ الجملةِ عنِ السّابقِ:

حِلمُ إبراهيمَ ورأفتُهُ هي الباعثُ على المجادَلةِ

اختُلِفَ في قولهِ تعالى: ﴿يُجَٰدِلُنَا فِي قَوۡمِ لُوطٍ﴾ في كونهِ استئنافًا

(1) طنطاوي، التفسير الوسيط: 7/239.

أو حالًا، وهذهِ الأوجهُ الصناعيَّةُ تلتقي في دلالةٍ متقارِبَةٍ، وهي أنَّ حالَ إبراهيمَ ﷺ هي الرَّأفةُ والرَّحمةُ بقوم لوطٍ ﷺ فإذا جعلناهُ استئنافًا بيانيًّا، فكأنَّ سائلًا قد سألَ: وماذا قالَ الخليلُ حينئذٍ، فهذا من شبهِ كمالِ الاتِّصالِ، وإذا جعلناهُ حالًا؛ فهو بيانٌ لحالِهِ، فتكونُ جملةُ الحالِ مبيِّنةً لشأنِهِ في الخبرِ السّابقِ، فغرضُ مجادلَتِهِ ﷺ رحمةُ قوم لوطٍ ﷺ لدفْعِ العذابِ عنهم.

دلالةُ استعمالِ مفردةِ المجادلةِ دونَ المحاورَةِ:

كِنايةٌ عن رحمةِ الخليلِ بالعاصينَ وحِلمِهِ بالنّاس جميعًا

مادَّةُ الجدالِ مأخوذةٌ من جَدْلِ الحبْلِ، وجدْلُهُ يحتاجُ إلى إحكامٍ وقوَّةِ فتْلٍ؛ ليتحمَّلَ الشَّدَّ بهِ، ففي استعمالِها في قولِهِ تعالى: ﴿يُجَٰدِلُنَا فِي قَوۡمِ لُوطٍ﴾ دلالةٌ على قوَّةِ إحكامِ إبراهيم ﷺ الكلامَ، وقوَّةِ منطقِهِ، والحرصِ على بلوغِ الغايةِ من هذا الجدالِ بدفْعِ العذابِ، فـ "المُجادَلَةُ هُنا: دُعاءٌ ومُناجاةٌ سَألَ بها إبْراهِيمُ ﷺ رَبَّهُ العَفْوَ عَنْ قَوْمِ لُوطٍ خَشْيَةَ إهْلاكِ المُؤْمِنِينَ مِنْهُمْ"[1]، و"تَأْخِيرِ العَذابِ عَنْهُمْ؛ إذ كانَ يَميلُ إلَى أنْ تَلْحَقَهُمْ رَحْمَةُ اللّه بِتَأْخِيرِ العَذابِ عَنْهُمْ رجاءَ أنَّهم أقْدَمُوا عَلَى الإيمانِ والتَّوْبَةِ عَنِ المَعاصِي، وأنَّ أمْرَ اللّه ورَدَ بِإيصالِ العَذابِ، ومُطْلَقُ الأمْرِ لا يُوجِبُ الفَوْرَ، بَلْ يَقْبَلُ التَّراخِيَ، فَقالَ للملائكةِ: اصْبِرُوا مُدَّةً أُخْرَى، ولَعَلَّ إبْراهِيمَ ﷺ سَألَ عَنْ لَفْظِ ذَلِكَ الأمْرِ، وكانَ ذَلِكَ الأمْرُ مَشْرُوطًا بِشَرْطٍ، فاخْتَلَفُوا في أنَّ ذَلِكَ الشَّرْطَ هَلْ حَصَلَ في ذَلِكَ القَوْمِ أمْ لا، فَحَصَلَتِ المُجادَلَةُ بِسَبَبِهِ، وبِالجُمْلَةِ نَرَى العُلَماءَ في زَمانِنا يُجادِلُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا عِنْدَ التَّمَسُّكِ بِالنُّصُوصِ، وذَلِكَ لا يُوجِبُ القَدْحَ في واحِدٍ منها، فكذا هاهنا"[2].

وعليهِ فالتَّعبيرُ عن الدُّعاء بتأخيرِ العذابِ عن قوم لوطٍ رجاءَ الإيمانِ بالجدال، هو كنايةٌ عن رحمةِ إبراهيمَ ﷺ وحِلمُهُ الَّذي

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/123.

(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 18/376، 377.

أشادَ اللّه تعالى بهِ في الآيةِ التّاليةِ، وأنَّه يتَّخِذُ أقوى الوسائِلِ دفاعًا عن النّاسِ لعلَّهم يتوبون لينجوا منَ الهلاكِ.

بلاغةُ استعمالِ صيغةِ المضارعِ ﴿يُجَٰدِلُنَا﴾:

عظيمُ النَّفسِ يتَّخِذُ من التَّدابيرِ في مصلحةِ النّاسِ أقواها

اختُلِفَ في جوابِ ﴿فَلَمَّا﴾، فقيلَ: أخذَ وأقبلَ يجادلُنا، وعليهِ فمقتضى الظّاهرِ ما جاءَ عليهِ النَّظْمُ؛ لأنَّ التَّعبيرَ بالماضي قد تحقَّق في جوابِ ﴿فَلَمَّا﴾ المقدَّرِ، "والمعنى: فلمّا ذهبَ عن إبراهيمَ الرَّوعُ، وجاءَتْهُ البُشْرى أخَذَ يُجادِلُنا في قوم لوطٍ، وأقبلَ يجادِلُنا، ولم يُذْكَرْ في الكلام أخَذَ وأقبلَ؛ لأنَّ في كلِّ كلامٍ يُخاطَبُ بهِ المخاطَبُ معنى أخَذَ وأقْبَلَ؛ إذا أرَدْتَ حكايةَ الحالِ"[1].

وعلى هذا حُذِفَ الجوابُ، وبُنِيَ النَّظمُ الكريمُ على ذِكْرِ الفِعْلِ المُضارعِ مباشرةً، ونكتَةُ ذلكَ استحضارُ الحوارِ حيًّا كأنَّهُ يحدُثُ الآنَ، وتظلُّ هذه الحيويَّةُ، وذلك الاستحضارُ باقيَيْن ببقاءِ القرآنِ الكريم يُخاطِبُ كلَّ جيلٍ وكلَّ قبيلٍ، فيعيشونَ هذا التّاريخَ، كأنَّهُ واقعٌ مشهودٌ، ويبقى "تصويرُ هذه الحالةِ في الذِّهن تصويرًا حاضرًا، حتَّى تزدادَ منهُ العِبرةُ والعِظةُ"[2].

إنَّه يجادِلُ، ويَجِدُّ في الجدالِ، ويُساعدُ بالدِّفاعِ دونَ توانٍ، وينوِّعُ في أسبابِ الدِّفاعِ[3]، ويستنفِذُ الطّاقةَ، ويعتذِرُ عنهم لعلَّ اللّه تعالى يخفِّفُ عنهم، أو يمنحُهم فرصةً، ويؤجِّل نزولَ العقابِ، وعندَ نزولهِ يكونُ لكلِّ حادثةٍ حديثٌ، وإلى ذلكَ تتَّسقُ المؤازرةُ، وتُناسِبُ صعوبةَ اللَّحظةِ وعمقَ الشُّعورِ لديهِ عليه السلام بما يقعُ على كاهلهِ بموجِبِ طبيعةِ

(1) الزجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 3/64.

(2) طنطاوي، التفسير الوسيط: 7/243.

(3) فيتدرَّج في سؤال الملائكة عن العدد الذي يمنع العذاب العامّ، ويوقف الاستئصال نزولًا حتى عدد خمسة من المؤمنين، "قال حُذيفةُ: كانت مُجادلتُهُ إيّاهُم أنّهُ قال لهُم: إن كان فِيهِم خمسُون يعنِي نفسًا أتُهلِكُونهُم؟ قالُوا: لا، قال: أرأيتُم فأربعُون؟ قالُوا: لا، قال: فثلاثُون؟ قالُوا: لا. حتّى انتهى إلى عشرة أو خمسة، شكّ سُليمانُ"، يُنظر: ابن أبي الدنيا، العقوبات، ص: 103.

تكوينهِ من الجدالِ عن قريةٍ ستُهْلَكُ عن بَكرةِ أبيها؛ لعلَّهم ينتهونَ، فينجوا من الهلاكِ الأبديِّ والعذابِ الخالدِ.

وعلى افتراضِ أنْ جاء النَّظم: (جادلنا)؛ "لَمّا كان لهذا الأمر ﴿يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَآۖ﴾ هذا الوقعُ الصّادعُ على نفسِ إبراهيمَ، لأفلتَ من يدهِ ما كان مُمسكًا بهِ من المجادلةِ؛ لأنَّهُ كانَ قد جادَل فِعلًا، وانتهى الأمرُ، أمّا في هذه الحالةِ؛ فهو لا يزالُ يَسألُ ربَّهُ العفو والرَّحمةَ لهؤلاءِ القوم، ولا تزالُ الكلماتُ على شَفَتَيهِ، فإذا سَمعَ أمْرَ اللّه تعالى بالإعراضِ عن هذا، أمْسك لسانَهُ"[1].

نكتةُ حذْفِ المضافِ في الفعلِ:

تكريمُ اللهِ للملائكةِ الكرام، ومكانةُ الخليلِ عندَ اللهِ ﷻ

لم يجادِلْ إبراهيمُ عليه السلام ربَّهُ ﷻ، وما ينبغي له أن يفْعلَ، وإنَّما كان يجادلُ ملائكةَ اللّه ﷻ ومَن يجادلُ الملائكةَ الكرامَ في أمرٍ كلَّفَهُمُ اللّه تعالى بهِ يكونُ كأنَّه جادلَ اللّه ﷻ لأنَّ ملائكتَهُ ﷻ نزلوا بأمرهِ لينفِّذوهُ، فـ "﴿يُجَٰدِلُنَا فِي قَوۡمِ لُوطٖ﴾ أي: يجادلُ رسلَنا في حالهم وشأنِهم، ففيهِ مجازٌ في الإسنادِ"[2]، فلم يَقُلْ: (يُجادلُ رسلَنا) ونكتةُ ذلك في أمرين:

الأوَّلُ: تكريمُ رسلِ اللّه تعالى في إضافتهم إلى اللّه ربِّ العالمين[3]، فأضافَ "سبحانَهُ المجادلةَ إلى نفسِهِ مع أنَّها كانت مع الملائكةِ؛ لأنَّ نزولَهم لإهلاكِ قوم لوطٍ إنَّما كانَ بأمرهِ تعالى فمجادلةُ إبراهيمَ عليه السلام لهم هي مجادلةٌ في تنفيذِ أمرهِ تعالى وهذهِ المجادلةُ الَّتي كانت بين إبراهيمَ وبين الملائكةِ الَّذين أُرسلوا لإهلاكِ قوم لوطٍ، قد حكاها سبحانه في سورةِ العنكبوتِ في قولهِ: ﴿وَلَمَّا جَآءَتۡ رُسُلُنَآ إِبۡرَٰهِيمَ بِٱلۡبُشۡرَىٰ قَالُوٓاْ إِنَّا مُهۡلِكُوٓاْ أَهۡلِ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِۖ﴾ أي: القريةِ الَّتي يسْكنُها

(1) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 6/1174.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 6/299.
(3) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 6/1175.

قومُ لوطٍ ﴿إِنَّ أَهْلَهَا كَانُواْ ظَٰلِمِينَ ۝٣١ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًاۚ قَالُواْ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَاۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ [الآيتان: 31 - 32].

وهذا التَّفسيرُ للمجادلةِ الَّتي دارت بين إبراهيمَ والملائكةِ في عقابِ قوم لوطٍ هو الصَّحيحُ؛ لأنَّ خيرَ تفسيرٍ للقرآنِ هو ما كان بالقرآنِ"[1]، وما قيل: بأنَّ "المرادَ منهُ السُّؤالُ عن حالِ العذابِ هل هو واقعٌ بهم لا محالةَ، أم هو على سبيلِ الإخافةِ ليرجعوا إلى الإيمانِ؟"[2]، فلا دليلَ عليهِ.

الآخرُ: في إقامةِ ضميرِ العظمةِ مقامَ المفعولِ كنايةٌ عن مكانةِ الخليلِ عليه السلام في أن يجادلَ اللّه في أمرِ العبادِ، وفي ذلكَ من تكريم اللّه عز وجل لخليلِه عليه السلام ومن رِفعةِ شأنِه ما فيهِ، كما يوحي بصدقِ إبراهيمَ عليه السلام في الدَّفعِ عن القوم؛ لعلَّهم يتوبونَ، ولِهذا الصِّدقِ والقوَّةِ في المجادلة وصفَهُ اللّه تعالى - كما سبق - بأوصافٍ ثلاثةٍ قلَّما تجتمع بهذا الكمالِ في النّاس ﴿لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ﴾، تلكَ أوصافُ الرِّجالِ الَّذين هم في طبقةِ إبراهيمَ عليه السلام من أولي العزم من الرُّسلِ.

بلاغةُ حذفِ المضافِ في الاسم:

"وقَوْلُهُ: ﴿فِي قَوْمِ لُوطٍ﴾ عَلَى تَقْدِيرِ مُضافٍ؛ أيْ: في عِقابِ قَوْمِ لُوطٍ، وهَذا منْ تَعْلِيقِ الحُكْمِ بِاسْمِ الذّاتِ، والمُرادُ حالٌ منْ أحْوالِها يُعَيِّنُهُ المَقامُ، كقوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ﴾ [المائدة: 3] أيْ: أكْلُها"[3]، وتظهر بلاغةُ الحذفِ في كونِ المخاطَب يعلمُ حالَ قوم لوطٍ، ويعلمُ أنَّ مجيءَ الرُّسلِ كان لغايةِ تأديبِهم وإنزالِ العقوبةِ فيهم، والنَّظمُ القرآنيُّ مبنيٌّ على الإيجازِ، فإذا تحقَّقَ المقصودُ من الكلام بأقلِّ حروفٍ؛ صيرَ إليهِ، هذا ما يقتضيهِ توجيهُ الحذفِ.

إذا تحقَّقَ مقصودُ الكلام لدى المخاطَبِ؛ فالحذفُ مسلكٌ بيانيٌّ قويمٌ

(1) طنطاوي، التفسير الوسيط: 7/243.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 6/301.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/123.

دلالةُ استعمالِ حرفِ الظَّرفيَّةِ:

المجادلةُ كانت في عموم أحوالِ قوم لوطٍ ويدخلُ العقابُ دخولًا أوَّليًّا

استعمل النَّظمُ حرفَ الظَّرفيَّةِ في قولِه تعالى: ﴿يُجَٰدِلُنَا فِي قَوۡمِ لُوطٍ﴾، وذلك للإشارةِ إلى أنَّ الخليلَ عليه السلام يجادلُ في عموم قوم لوطٍ لا في خصوصِ العقابِ؛ أي: إنَّهُ يُجادل في حالهم السّابقةِ قبل الفاحشةِ، وفي أحوالِ بعضهم ممَّن لم يُبالِغْ فيها، وفي حالِهم إن آمنوا، واهتدَوا، وفي حال ممتلكاتِهم وصغارِهم وولْدانِهم، وما إلى ذلك من متعلِّقاتِ القوم، فهي مجادلةٌ عامَّةٌ لا خاصَّةٌ في شأنِ العقابِ، فكانَ حذْفُ المضافِ بغرضِ التَّعميم، ويَدْخُلُ المحذوفُ دخولًا أوَّليًّا في شأنِهم.

دلالةُ استعمالِ مفردةِ ﴿قَوۡمِ﴾:

من أعظم البلاءِ اجتماعُ الجميعِ على الفحشِ البذيء

عبَّرَ القرآنُ الكريمُ هنا بكلمةِ ﴿قَوۡمِ﴾ للتَّعبيرِ عن السَّوادِ الأعظم من أهلِ قريةِ نبيِّ اللّٰه تعالى لوطٍ عليه السلام الَّذين أجمعوا على استحلالِ الفاحشةِ، ومارسوها، لا فرقَ في ذلك بين خواصِّهم وعوامِّهم، وقدِ استعمَلتِ الآيةُ لفظَ ﴿قَوۡمِ﴾ لأمورٍ: الأوّل: الدَّلالةُ على انتسابِ لوطٍ عليه السلام إليهم من حيثُ الدَّعوةُ، فهو المكلَّفُ بهم، والثّاني: بيانُ رأفةِ إبراهيمَ عليه السلام ورحمتِه بغيرِ قومِه، فقد تعدَّتْ رحمتُهُ قومَهُ إلى غيرِهم، والثّالث: الإشارةُ إلى أنَّهم كانوا قومًا متكاملين من جميع نواحي الحياةِ الاجتماعيَّةِ والاقتصاديَّةِ والسِّياسيَّة والقَبَليَّةِ؛ أي: إنَّهم لم يكونوا مجرَّدَ مجموعةٍ من الأوباشِ الَّتي تمارسُ الفاحشةَ، بل كانوا قومًا قائمين عليها، وهذا من أعظم البَلاءِ الَّذي تُبتلى بهِ الأممُ، اجتماعُ الجميعِ على الفُحْشِ البذيءِ.

علَّةُ الفصلِ:

الاستئنافُ البيانيُّ لبيانِ سببِ الجدالِ

جاء قولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٞ﴾ مفصولًا عمّا قبلَهُ، استئنافًا بيانيًّا، فكأنَّ سائلًا قد سألَ: لماذا هذا الجدالُ في قوم لوطٍ؟ فكان ذِكْرُ الصِّفاتِ الحَميدةِ مغنيًا عن الجوابِ، فهي

"بيانٌ للدَّواعي الَّتي حملتْ إبراهيمَ عليه السلام على مجادَلةِ الملائكةِ في شأنِ إهلاكِ قومِ لوطٍ"[1]، "فالمقصودُ بتَعدادِ صفاتِه الجميلةِ المذكورةِ بيانُ ما حَملَهُ عليه السلام عَلَى ما صَدَرَ عنْهُ من المجادلةِ"[2]، فهذهِ "الصِّفاتُ دالَّةٌ على رقَّةِ القلبِ والرَّأفةِ والرَّحمةِ، فبيَّن أنَّ ذلك ممّا حملَهُ على المجادلةِ فيهم رجاءَ أن يُرْفَعَ عنْهم العذابُ، ويُمْهَلُوا لعلَّهم يحدثون التَّوبةَ والإنابةَ، كما حملَهُ على الاستغفارِ لأبيهِ"[3]. فالجملةُ تعليلٌ؛ أي: لأنَّه حليمٌ أوّاهٌ منيبٌ يُجادلُ عنِ قومِ لوطٍ، وذلكَ في غايةِ الثَّناءِ على أخلاقِ الخليلِ إبراهيمَ عليه السلام.

غرضُ التَّوكيدِ:

صاحبُ صِفاتِ الحِلمِ والتَّأوُّهِ والإنابةِ محبوبٌ عندَ اللهِ تعالى ممدوحٌ عند الخَلقِ

ساقَ اللهُ تعالى تلك الصِّفاتِ مؤكَّدةً بجملةٍ من المؤكِّداتِ في قولِه تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ﴾، منها: ﴿إِنَّ﴾، وصِيَغُ المبالغةِ الَّتي صِيغتْ فيها هذه الصِّفاتُ، فصِفةُ ﴿لَحَلِيمٌ﴾ على وزنِ (فعيل)، وصفةُ ﴿أَوَّٰهٌ﴾ على وزنِ (فعّال)، وصفةُ ﴿مُّنِيبٌ﴾ على وزنِ (مُفْعِل)، ولامُ التَّوكيدِ الدّاخلةُ على الخبرِ الأوَّلِ ﴿لَحَلِيمٌ﴾. وقد جاءَ كلُّ ذلك مناسبًا لكمالِ تلك الصِّفاتِ كمالًا بشَريًّا في الخليلِ عليه السلام بقطعِ النَّظرِ عن وجودِ شَكٍّ شاكٍّ أو إنكارِ منكرٍ، فإنَّ غرضَ التَّوكيدِ هو بيانُ حالِ إبراهيمَ عليه السلام من قومِ لوطٍ، فقد يعترِضُ بعضُ الجهلَةِ، فيقولون: وهل لهذهِ المجادَلةِ داعٍ مع قومٍ هذا حالُهم؟ فيأتي التَّوكيدُ دافعًا لهذا الاعتراضِ ببيانِ تلكَ الصِّفاتِ الحميدةِ الَّتي تنطقُ بكلِّ رحمةٍ ورأفةٍ بعبادِ اللهِ.

بلاغةُ اجتماعِ الأوصافِ وترتيبِها:

سببُ الجِدالِ اتِّصافُ الخليلِ بالأخلاقِ الكريمةِ والخِلالِ الحميدةِ

في ذكْرِ هذهِ الأوصافِ مجتمعةً في قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ﴾ "إشارَةٌ بالثَّناءِ عَلَى إبْراهِيمَ إلَى أنَّ جِدالَهُ مَحْمُودٌ"[4]،

(1) طنطاوي، التفسير الوسيط: 7/243.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/227.
(3) الزمخشريّ، الكشّاف: 2/412.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 15/347.

وهي "مَدْحٌ عَظِيمٌ منَ اللّه تعالى لِإبْراهِيمَ عليه السلام"[1]، فقد عَدَّدَ اللّه تعالى فيها ثلاثَ صفاتٍ تَجْمَعُ أبرزَ محامدِ إبراهيمَ الخليلِ عليه السلام فهي تجمعُ بين حِلمهِ بغيرهِ، والحليمُ هو "الصَّبورُ على الأذى، الصَّفوحُ عن الجنايةِ، المقابلُ لها بالإحسانِ"[2]، وهُو الَّذي لا يَتَعَجَّلُ بِمُكافَأةِ غَيْرِهِ، بَلْ يَتَأَنَّى فِيهِ، فَيُؤَخِّرُ، ويَعْفُو، ومَنْ هَذا حالُهُ؛ فَإنَّهُ يُحِبُّ منْ غَيْرِهِ هَذِهِ الطَّرِيقَةَ، وهَذا كالدَّلالَةِ عَلَى أنَّ جِدالَهُ كانَ في أمْرٍ مُتَعَلِّقٍ بِالحِلْمِ وتَأْخِيرِ العِقابِ، ثُمَّ ضُمَّ إلَى ذَلِكَ ما لَهُ تَعَلُّقٌ بِالحِلْمِ، وهُو قَوْلُهُ: ﴿أَوَّاهٌ مُّنِيبٌ﴾؛ لِأنَّ مَنْ يَسْتَعْمِلُ الحِلْمَ في غَيْرِهِ يَتَأَوَّهُ إذا شاهَدَ وُصُولَ الشَّدائِدِ إلَى الغَيْرِ؛ فَلَمّا رَأى مَجِيءَ المَلائِكَةِ لِأجْلِ إهْلاكِ قَوْمِ لُوطٍ؛ عَظُمَ حُزْنُهُ بِسَبَبِ ذَلِكَ، وأخَذَ يَتَأَوَّهُ عَلَيْهِ؛ فَلِذَلِكَ وصَفَهُ اللّه تعالى بِهَذِهِ الصِّفَةِ، ووصَفَهُ أيْضًا بِأنَّهُ ﴿مُّنِيبٌ﴾؛ لِأنَّ مَنْ ظَهَرَتْ فِيهِ هَذِهِ الشَّفَقَةُ العَظِيمَةُ عَلَى الغَيْرِ، فَإنَّهُ يُنِيبُ ويَتُوبُ، ويَرْجِعُ إلَى اللّه تعالى في إزالَةِ ذَلِكَ العَذابِ عَنْهُمْ"[3].

بلاغةُ النِّداءِ:

رِفْعةُ الخليلِ في ندائِهِ باسمِهِ وفي التَّمهيدِ في إخبارِهِ

في جملةِ النِّداء في قولِهِ تعالى: ﴿يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ﴾ بلاغةٌ عاليةٌ نوجزها في الآتي:

أوَّلًا: بلاغةُ الحذفِ، حيث حُذِفَ مَقُولُ القولِ، وقد "دَلَّ عَلَيْهِ المَقامُ، وهُو مِنْ بَدِيعِ الإيجازِ، وهُو وحْيٌ منَ اللّه تعالى إلَى إبْراهِيمَ عليه السلام أوْ جَوابُ المَلائِكَةِ إبْراهِيمَ عليه السلام فَإذا كانَ مِنْ كَلامِ اللّه تعالى فَقَوْلُهُ: ﴿أَمْرُ رَبِّكَ﴾ إظْهارٌ في مَقامِ الإضْمارِ؛ لِإدْخالِ الرَّوْعِ في ضَمِيرِ السّامِعِ"[4]، ونكتةُ الإيجازِ احتمالُ الكلامِ للتَّقديرين؛ أي: تقديرُ أن يكونَ الكلامُ صادرًا عن اللّه تعالى أو عن ملائكتِهِ، وقد

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 18/377.
(2) طنطاوي، التفسير الوسيط: 7/243.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 18/377.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/124.

جاء النِّداء ﴿يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ﴾ "على تقدير القولِ ليرتبِطَ بما قبلَه؛ أي: قالتِ الملائكةُ، أو قلنا: يا إبْراهِيمُ"[1].

ثانيًا: استعمالُ أداةِ نداءِ البعيدِ ﴿يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ﴾، ونكتةُ ذلكَ رفْعُ شأنِ إبراهيمَ الخليلِ عليه السلام ولم يَكْتَفِ النَّظمُ الكريمُ في ترضيةِ الخليلِ عليه السلام بهذا، بل أُلحِقَ النِّداءُ والأمرُ ببيانِ العلَّةِ، وأنَّه قد جاءَ رُسُلُ ربِّكَ، وما دامَ الرُّسلُ الكرامُ قد نزلوا بالعذابِ، فلا مناصَ من تنفيذِهِ في العُصاةِ، ولا رادَّ لَهُ عَنْهم.

ثالثًا: النِّداءُ بالاسم الصَّريحِ ﴿يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ﴾ تكريمٌ لهُ عليه السلام وتقريبٌ لهُ[2]، وبخاصَّةٍ إذا كان المنادِي هو اللّه تعالى فيا لَهَذا الشَّرفِ حينَ ينادي اللّه تعالى عبدًا من عبادِهِ باسمِهِ! ليُخفِّفَ عنه ما وراءَ الأمرِ ﴿أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَآۖ﴾، قبل أن يوردَ عليهِ خبرَ القوم الأكيدَ، فيقطعَ عليه بهذا الخصوصِ آمالَهُ.

رابعًا: التَّمهيدُ للنِّداءِ، حيثُ مهَّدَ النِّداءُ للأمرِ القاهرِ بالنِّداءِ المشرِّفِ للخليلِ عليه السلام ويُلحَقُ بالتَّعليلِ المقنعِ المريحِ لقلبِهِ، فيُحيطُ الأمرُ القاطعُ عليهِ رجاءَهُ إيقافَ العقوبةِ من حوله بما يُطَيِّبُ خاطرَه.

خامسًا: تعليمُ النّاسِ حُسْنَ الكلام، فبهذا يُعلِّمُنا الذِّكرُ الحكيمُ مَنْهجَ إلقاءِ التَّكاليفِ على النّاسِ، بأن يكونَ الأسلوبُ راقيًا؛ بحيثُ ينزلُ على القلوبِ بردًا وسلامًا مهما كان ثقيلًا.

غرضُ الأمرِ:

نزلَ الأمرُ بالإعراضِ عن الجدالِ في قولِهِ تعالى: ﴿أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَآۖ﴾ في شأنِ قومِ لوطٍ على سبيلِ الحقيقةِ؛ أي: توقَّفْ - يا إبراهيمُ - وطِب نفسًا، ولا تنشغلْ بهم، ولا تكترِثْ لأمرِ هؤلاءِ الفُسّاقِ، فبِسُوءِ

تـركُ الـجـدال وحُسْنُ الامتثال من شِيَم الرِّجال

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 6/301.
(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 7/3733.

أدَبهم وجُرْأتِهم على ارتكابِ الفاحشةِ يُعاقبونَ، وغرضُ الأمرِ: إلزامُ إبراهيمَ عليه السلام بترْكِ الجدالِ، وحسنِ الامتثالِ، فكأنَّهُ قال: "أعْرِضْ عَنْ هذا الجدالِ، وإن كانتِ الرَّحمةُ دَيْدَنَكَ، فلا فائدةَ فيهِ، إنَّهُ قَدْ جاءَ أمْرُ رَبِّكَ، وهو قضاؤهُ وحُكمُهُ الَّذي لا يصدرُ إلّا عن صوابٍ وحِكمةٍ، والعذابُ نازلٌ بالقوم لا محالةَ، لا مَردَّ لهُ بِجِدالٍ ولا دُعاءٍ ولا غيرِ ذلك"[1]، ولمّا علِمَ الخليلُ غرضَ الأمرِ، وعلِمَ أنَّ للّه مرادًا قاطعًا فيهم، "قدَّمَهُ على مرادِهِ، ولم يَنْطِقْ بعدَهُ ببنْتِ شَفَةٍ"[2].

سرُّ الأمرِ بالإعراضِ دونَ النَّهي عن الجدالِ:

مَن هانَ حُكْمُ اللهِ تعالى عندَهُ؛ هانَ عندَ اللهِ وعندَ أصفيائِهِ

آثرَ النَّظمُ الكريمُ استعمالَ مادَّةِ الإعراضِ في قوله تعالى: ﴿أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ﴾ دون أن يكون النَّهي عن المجادلةِ مباشرًا؛ وذلك لما فيها من كنايةٍ عن تولِّي الشَّخصِ وإعطائهِ الشَّيءَ عُرْضَهُ، وفي ذلك دليلٌ على عدم انشغالهِ بهِ، وترْكِ الاكتراثِ لهُ، وعدم الاهتمام بشأنِهِ، فهي مادَّةٌ لغويَّةٌ مصوِّرةٌ، ومعبِّرةٌ عن المقصودِ أتمَّ تعبيرٍ.

لذلك كان في استقبال الشَّيءِ، وجعْلِهِ قُبالةَ الشَّخصِ دليلٌ كنائيٌّ على الاهتمام بهِ، والاحترام لهُ؛ ولذلك كان الرَّسولُ ﷺ «إذا اسْتَقْبَلَهُ الرَّجُلُ، فَصافَحَهُ، لا يَنْزِعُ يَدَهُ عَنْ يَدِهِ حَتَّى يَكُونَ الرَّجُلُ هُو الَّذِي يَنْزِعُ، ولا يَصْرِفُ وجْهَهُ، حَتَّى يَكُونَ الرَّجُلُ هُو الَّذِي يَصْرِفُهُ، ولَمْ يُرَ مُقَدِّمًا رُكْبَتَيْهِ بَيْنَ يَدَيْ جَلِيسٍ لَهُ»[3].

وقد آثرَ النَّظمُ نهيَ الخليلِ عليه السلام عن الجدالِ بقولِهِ: ﴿أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ﴾ دون النَّهي عن الجدالِ مباشرةً، فلم يقل: (لا تجادِلْ عنهم)، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تُجَٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ﴾ [النساء: 107]، وذلك لسِرٍّ بديعٍ، وهو أنَّ المجادلَةَ عنهم لن تُؤثِّرَ فيما نزلَ

(1) الزمخشريّ، الكشّاف: 2/412.
(2) البقاعي، نظم الدّرر: 9/334.
(3) ابن المبارك، الزهد والرقائق: 1/132.

فيهم من حكم اللّه القاطعِ القاضي بتعذيبهم، بخلافِ نهي النَّبيِّ ﷺ عن المجادلةِ في المنافقين، فلم يُجادلْ ﷺ في عقوبةٍ ماحقةٍ، فكلمةُ (أعرِضْ)، تعني: انصرِفْ بالكلِّيَّةِ، ولا تُعِرْهم أدنى اهتمامٍ، وقِفْ عندَ حُكم اللّه ﷻ فيهم، وفي ذلك كنايةٌ عن هوان القوم على اللّه تعالى وكذلكَ أصحابُ الفواحشِ يَهونونَ عليهِ ﷻ فيلقي بهم في النّارِ، ولا يبالي، ولهذا يقولُ النَّبيُّ ﷺ «إنَّهُ لَيَأْتِي الرَّجُلُ العَظِيمُ السَّمينُ يَوْمَ القِيامَةِ، لا يَزِنُ عِنْدَ اللّه جَناحَ بَعُوضَةٍ، اقرَؤُوا: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾﴾ [الكهف: 105]»[1].

بلاغةُ استعمالِ اسم الإشارةِ:

بيانُ قربِ زمانِ الأمرِ بالإعراضِ من زمانِ الجدالِ وأنَّهما في وقتٍ واحدٍ

اسمُ الإشارةِ في جملةِ ﴿أَعْرِضْ عَنْ هَـٰذَآ﴾ يطوي تفاصيلَ ما سبقَ من "الجِدالِ في أمْرِ قَوْمِ لُوطٍ والاسْتِرْحام لَهُمْ"[2]، ويصُبُّ عليها أمرَ الإعراضِ، وفي ذلك الطَّيِّ - بالإضافة إلى الإيجاز - صرفُ أسبابِ الهَمِّ والغمِّ عن خليلِ الرَّحمنِ عليه السلام لِتأسُّفِهِ وحزنِهِ من هلاك قوم لوطٍ، بطبيعةِ حلمهِ ورقَّةِ قلبهِ الَّتي امتدحَهُ بها القرآنُ الكريمُ حيثُ يقولُ: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ﴾، وقد عادَ اسمُ الإشارةِ إلى معنًى معقولٍ لا محسوسٍ؛ وذلك لبيانِ قربِ الجدالِ من الأمرِ بالإعراضِ عنهُ، ولتشخيصِ المشهدِ الَّذي حصلَ في ذلك الجدالِ، فالجدالُ والأمرُ بالإعراضِ كانا في وقتٍ واحدٍ، وهذا من بديعِ الكشفِ عن الوقائعِ التّاريخيَّةِ.

بلاغةُ ذكرِ ضميرِ الشَّأنِ:

ضميرُ الشَّأنِ دعوةٌ لاستجماعِ المعاني والتَّهيئةِ قبل إلقاءِ الخَبَرِ

لضميرِ الشَّأنِ شأنٌ في النَّظم القرآنيِّ، فذِكْرُه يُفصحُ عن دلالةٍ مقصودةٍ، فلو قيلَ في النَّظم: (أعرِضْ عن هذا قد جاءَ أمرُ ربِّكَ) في جملةِ: ﴿إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ بدونِ ذكرِ: ﴿إِنَّهُۥ﴾؛ لصحَّ المعنى،

(1) البخاري، الجامع الصّحيح: 6/93، 65 - كِتابُ تَفْسِيرِ القُرْآنِ، بابُ ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ﴾ [الكهف: 105] الآيَةَ، الحديث رقم: (4729).

(2) رشيد رضا، تفسير المنار: 12/109.

غير أنَّ لضميرِ الشَّأنِ غرضًا، وهو التَّهيئةُ لاستقبال ﴿وَإِنَّهُمْ﴾ المؤكِّدةِ؛ فالكلامُ لا يتهيَّأُ لها بدونهِ، كما أنَّه يثيرُ نفسَ إبراهيمَ عليه السلام نحو ما يُفَسَّرُ بهِ هذا الضَّميرُ الَّذي لم يسبِقْ لهُ مرجعٌ في الكلام، فهو استِجماعٌ للمعنى كلِّهِ في ضميرٍ واحدٍ، بحيثُ يكونُ لهُ أهمِّيَّةُ الانتباهِ لما سيُلقى من الخطابِ، والمعنى: "أنَّ الحالَ والشَّأنَ فيهِمْ قَدْ قُضِيَ بِمَجِيءِ ﴿أَمْرُ رَبِّكَ﴾ الَّذي قَدَّرَهُ لَهُمْ ﴿وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ﴾ بِجِدالٍ ولا شَفاعَةٍ، فَهُو واقِعٌ ما لَهُ مِنْ دافِعٍ"[1].

علَّةُ فصلِ الكلام عن السّابق:

تعليلُ عدم استجابةِ الدُّعاءِ فإنَّ العذابَ إذا حلَّ؛ لم يُدفَع

جاء قولهُ تعالى: ﴿إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ مفصولًا؛ لأنَّه جاء استئنافًا بيانيًّا، بغرض التَّعليلِ، فكأنَّ إبراهيمَ عليه السلام قد بدرَ منهُ سؤالٌ، لماذا أُعْرِضُ عن الجدالِ، فكان الجوابُ على ذلك: لأنَّه قد جاءَ أمرُ ربِّك، والمقصودُ بقولِهِ تعالى: "﴿أَمْرُ رَبِّكَ﴾ هو قضاؤهُ وحُكمُهُ الَّذي لا يَصْدُرُ إلّا عن صوابٍ وحِكمةٍ"[2]، وفي ترتُّبِ هذهِ الجملةِ على دعاءِ إبراهيمَ عليه السلام بدفعِ العقابِ فائدةٌ، وهي: "أنَّ الدُّعاءَ إنَّما هو أن يُوفِّقَ اللّه الدّاعيَ إلى طلبِ المقدورِ، فأمّا الدُّعاءُ في طلبِ غيرِ المقدورِ؛ فغيرُ مُجْدٍ ولا نافعٍ"[3]، فإنَّ اللّه يُمهِلُ، فإذا جاءَ أمرُهُ، لم ينفعِ الدُّعاءُ حينئذٍ.

نكتةُ التَّوكيدِ:

إزالةُ أيِّ محاولةٍ للجدالِ في مطالبةِ رفعِ العقوبةِ

جاءَ قولُهُ تعالى: ﴿إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ مؤكَّدًا بأكثرَ من أداةِ توكيدٍ، ونكتةُ ذلك: إزالةُ أيِّ محاولةٍ مَهما قلَّت، أو صغُرَت في نفسِ إبراهيمَ عليه السلام فإنَّ الأمرَ حتميٌّ قطعيٌّ لا مجادلةَ فيهِ ولا محاورةَ، فنكتةُ التَّوكيدِ إزالةُ أيِّ عوائقَ نفسيَّةٍ ليكتملَ التَّسليمُ، وتهدأ النَّفسُ.

(1) رشيد رضا، تفسير المنار: 12/109.
(2) الزمخشريّ، الكشّاف: 2/412.
(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/193.

بلاغةُ الاستعارةِ:

إسنادُ المجيءِ للأمرِ في قولهِ تعالى: ﴿جَآءَ أَمۡرُ رَبِّكَۖ﴾ إسنادٌ مجازيٌّ؛ حيث إنَّ الأمرَ لا يجيءُ، وفي استعمال لفظ الأمرِ استعارةٌ، حيث شُبِّهَ الأمرَ بشخصٍ يجيءُ، وحذفَ المشبَّهَ بهِ، وذكرَ المشبَّهَ على سبيل الاستعارةِ المكنيَّةِ الأصليَّةِ؛ إذ إنَّ الفعلَ "﴿جَآءَ﴾ يُسنَد إليه الجواهرُ والأعيانُ، وما يُرادُ تجسيدُهُ من المعاني"[1]، و(الأمر) معنًى ليس جوهرًا ولا عينًا، فإسنادُ المجيءِ إليه إذًا يُضفي عليه صفةَ التَّجسيدِ، فكأنَّهُ قد صارَ جسمًا محسوسًا يَجِيءُ بنفسِهِ، وفي ذلك تقريرٌ للأمرِ، وتَثْبيتٌ لِمَجيئِه، بحيثُ لا يُناقَشُ، ولا يُجادَل فيه، وذلك يناسبُ نهيَ إبراهيمَ عليه السلام بالإعراضِ عن الجدالِ، حيثُ صوَّرَ حتميَّةَ الأمرِ الرَّبّانيِّ.

إسنادُ المجيءِ إلى المعاني لا الأعيانِ لتقريرِ المجيءِ وحتميَّتِهِ

معنى التَّعريفِ بالإضافةِ:

عُرِّفَ الأمرُ في قولهِ تعالى: ﴿أَمۡرُ رَبِّكَۖ﴾ بالإضافةِ، وهي بمعنى (من)؛ أي: جاء أمرٌ من ربِّك، فأفادتِ الإضافةُ أنَّ المجيءَ فيه معنى النُّزولِ؛ أي: إنَّ حُكْمَ اللهِ قد نزلَ بمعاقبةِ أولئكَ الشّاذِّين عن الفطرةِ، المنتكسين خَلْقًا وخُلُقًا.

حكمُ الأمرِ نازلٌ من ربِّ العالمين بشأنِ الشّاذِّين

بلاغةُ اختيارِ الرُّبوبيَّةِ والألوهيَّةِ في سياقٍ واحدٍ:

جاءتْ إضافةُ لفظِ الأمرِ إلى لفظِ الجلالةِ في شأنِ البشرى في قولهِ تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَتَعۡجَبِينَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۖ﴾، بينما في شأنِ العذابِ، فقد أُضيفَ الأمرُ إلى لفظِ الرُّبوبيَّةِ، والتَّبشيرُ بالولدِ والإخبارُ عن العذابِ كلاهما من مقتضيات توحيدِ الرُّبوبيَّةِ، فيُسألُ عن سرِّ ذلكَ؟

وقد سبقَ بيانُ أنَّ ذكْرَ لفظ الجلالةِ في قولِه تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَتَعۡجَبِينَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۖ﴾ لما فيه من توريثِ المهابةِ المُزيلةِ للتَّعجُّبِ، فإنَّ

أُوثِرَتِ الرُّبوبيَّةُ؛ لأنَّ استئصالَ المفسدين رعايةٌ لبقيَّةِ الخلقِ وأُوثِرَتِ الألوهيَّةُ للإشارةِ إلى دعوةِ المبشَّرِ بهم للتَّوحيدِ

(1) القيعي، الأصلان في علوم القرآن، ص: 387.

المقامَ هو مقامُ تسليم وإذعانٍ لأمرِ اللّه تعالى وهو ما يتناسبُ مع الألوهيَّةِ، ولمّا كانَ غايةُ التَّبشيرِ بالولدِ؛ فيهِ إقامةٌ لأحكام الشَّرع والدَّعوةُ للتَّوحيدِ، فهو تبشيرٌ لا بالولدِ فحسبُ، بل بالأنبياءِ الدّاعين إلى دينِ التَّوحيدِ، فكانَ ذلك أنسبَ من ذكرِ الرُّبوبيَّةِ.

أمّا آيةُ مجيءِ العذابِ؛ فأُوثِرَ ذِكرُ الرُّبوبيَّةِ لما في نزولِ العذابِ من رعايةٍ لبقيَّةِ الخلقِ، فإنَّ الفِطْرةَ إذا فسدَتْ، وبطلَ صلاحُها؛ كان استئصالُها الأصلحَ لبقيَّة النّاسِ، وهذا ما يتَّفق مع الرُّبوبيَّةِ.

دلالةُ إضافةِ لفظِ الرَّبِّ إلى ضميرِ المخاطَبِ:

تشريفُ المخاطَبِ وتكريمُهُ

دلَّت إضافةُ لفظِ الرَّبِّ إلى ضمير المخاطَبِ في قولهِ تعالى: ﴿رَبِّكَ﴾ على تشريفِ المخاطَبِ وتكريمهِ، فخطابُ العبدِ تكريمٌ، وإضافةُ لفظِ الرُّبوبيَّةِ بالغيبةِ تشريفٌ، وفيه تمامُ الرِّعايةِ وكمالُ العنايةِ بالمخاطَبِ.

دلالةُ العطفِ على السّابق:

عطفُ الخبرِ على الخبرِ؛ لتأكيدِ تحقُّقِهِ وبيانِ تفاصيلِهِ

عُطِفَت جملةُ ﴿وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ﴾ على قولِه: ﴿إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾؛ لبيانِ أنَّ مجيءَ أمرِ اللّه تعالى هو حكمُهُ وقضاؤهُ، فلا يُرادُ بهِ نزولُ العذابِ الفعليِّ، وإنَّما "يرادُ بالمجيءِ المُشارَفةُ، فلا يتكرَّرُ مع قولهِ سبحانه: ﴿وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ﴾"[1]، فيكونُ المرادُ بالجملةِ العاطفةِ هو الإخبارُ بإتيانِ العذابِ دون ردٍّ له، فالجملةُ الأولى إخبارٌ بحكم اللّه وقضائهِ، والثّانيةُ إخبارٌ بإتيانِ العذاب فعلًا غيرَ مردودٍ، فهو إخبارٌ بالوعيدِ، فهما خبرانِ اثنانِ، لا تكرارَ فيهما.

غرضُ التَّوكيدِ:

أُكِّد الخبرُ في قولهِ تعالى: ﴿وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ﴾ زيادةً في تهدئةِ نفسِ إبراهيمَ عليه السلام بعد تهدئتهِ في الخبرِ السّابقِ.

(1) الآلوسي، روح المعاني: 6/301.

دلالةُ إسنادِ المجيءِ إلى أمرِ الله، والإتيانِ إلى العذابِ:

يُلاحَظُ الاختلافُ في التَّعبيرِ عند الاختلافِ في المعاني

أُسنِدَ المجيءُ إلى أمرِ اللّه، والإتيانُ إلى العذابِ؛ وذلك لبيانِ المغايرةِ بين مجيءِ أمرِ اللّه تعالى وبين إتيانِ العذابِ، وبذلك التَّبايُنِ تَمايَزَ ﴿أَمۡرِ ٱللَّهِۖ﴾ بنزول العذابِ عن العذاب نفسِه، وإذا كان "الإتيانُ مجيئًا بسهولةٍ"[1]؛ فإنَّ إثباتَهُ للعذابِ يُوحي بهوانِهم على اللّه ﷻ وتَعلُّقِ العذابِ بهم، ويتَّسِقُ مع قولِ اللّه تعالى: ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٗا﴾ [النساء: 30].

دلالةُ التَّعبيرِ بصيغةِ اسم الفاعلِ:

زيادةٌ في تقريرِ ثبوتِ إتيانِ العذابِ

عبَّرَ النَّظمُ الكريمُ باسم الفاعلِ الدّالِّ على الثُّبوتِ في قولِه تعالى: ﴿ءَاتِيهِمۡ﴾؛ لتقريرِ إتيانِ العذابِ، "أي: إتيانًا ثابتًا"[2]، وأنَّ إتيانَهُ أمرٌ مقضيٌّ به، وقضاءٌ نافذٌ لا محيصَ عنهُ، مع الدِّلالةِ على المستقبلِ، فإنَّ هذه الصِّيغةَ دالَّةٌ على وقوعِ الإتيانِ في المستقبلِ.

غرضُ التَّنكيرِ:

تهويلُ العذابِ وتفخيمُهُ

تنكيرُ لفظِ ﴿عَذَابٌ﴾ في قولِه تعالى: ﴿عَذَابٌ غَيۡرُ مَرۡدُودٖ﴾ للتَّعظيم والتَّفخيم، فهو يوحي بخطورتِه، وأنَّه من الهولِ والفظاعةِ بحيثُ لا يُقادَرُ قدرُهُ، وهذا الـ ﴿عَذَابٌ﴾ هو أمرُ اللّه تعالى وقضاؤهُ الَّذي قضاهُ على قوم لوطٍ عليه السلام ويَتَمَثَّلُ هذا العذابُ في "الخسْفِ والحصْبِ بالحجارةِ"[3].

نكتةُ وصفِ العذابِ في سياقِ المجادلةِ:

اختيارُ الأوصافِ المناسبةِ للسِّياقِ أقربُ للإفهامِ وآكدُ للأفهامِ

جاءَ القَيْدُ بالوصفِ ﴿غَيۡرُ مَرۡدُودٖ﴾ تأكيدًا لوقوعِ العذابِ بقوم لوطٍ عليه السلام فهو قيدٌ يقطعُ على الخليلِ عليه السلام رجاءَهُ منْحَهُم الفرصةَ

(1) الراغب، المفردات: (أتى).
(2) البقاعي، نظم الدّرر: 9/334.
(3) مقاتل، تفسير مقاتل بن سليمان: 2/292.

ليتوبوا، فلمّا جادلَ الخليلُ ﷺ حَسُنَ بيانُ الأمرِ. وتأكيدُ وقوعِ العذابِ بعدم ردِّهِ، وهو الأنسبُ في سياقِ المجادلَةِ؛ أي: لا تعُد لمجادلتِكَ فيهم مرَّةً أخرى.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الجِدالُ والحِجاجُ:

الفَرْقُ بينَ الحِجاجِ والجِدالِ: "أنَّ المطلوبَ بالحجاجِ هو ظهورُ الحُجَّةِ، والمطلوبُ بالجدالِ: الرُّجوعُ عن المذهَبِ، فإنَّ أصلَهُ منَ الجَدْلِ، وهو شدَّةُ الفَتْلِ... ويؤيِّدهُ قولُهُ تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدۡ جَٰدَلۡتَنَا فَأَكۡثَرۡتَ جِدَٰلَنَا﴾ [هود: 32]. وذلك أنَّ دأْبَ الأنبياءِ ﷺ كان ردْعَ القومِ عن المذاهبِ الباطلةِ، وإدخالَهُم في دينِ اللّه ببذلِ القوَّةِ والاجتهادِ في إيرادِ الأدلَّةِ والحُججِ"[1].

الجِدالُ والمراءُ:

"قيل: هما بمعنًى، غير أنَّ المراءَ مذمومٌ؛ لأنَّهُ مخاصمةٌ في الحقِّ بعد ظهورِهِ، وليس كذلك الجدالُ"[2] قال تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنۡ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلرَّوۡعُ وَجَآءَتۡهُ ٱلۡبُشۡرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِي قَوۡمِ لُوطٍ﴾.

الإنابةُ والرُّجوعُ:

"أنَّ الإنابةَ: الرُّجوعُ إلى الطّاعةِ، فلا يقالُ لمن رجَعَ إلى معصيةٍ: إنَّه أنابَ، والمُنِيبُ اسمُ مدحٍ كالمؤمنِ والمتَّقي"[3].

(1) العسكريّ، معجم الفروق اللغوية، ص: 158.
(2) العسكريّ، معجم الفروق اللغوية، ص: 159.
(3) العسكريّ، معجم الفروق اللغوية، ص: 75.

﴿وَلَمَّا جَآءَتۡ رُسُلُنَا لُوطٗا سِيٓءَ بِهِمۡ وَضَاقَ بِهِمۡ ذَرۡعٗا وَقَالَ هَٰذَا يَوۡمٌ عَصِيبٞ ٧٧﴾ [هود: 77]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

تهيئةُ القصَّةِ للقصَّةِ مسلكٌ بديعٌ للانتقالِ بين قَصَصِ القرآنِ

لمّا ذكرَ في الآياتِ السّابقةِ قصَّةَ إبراهيمَ عليه السلام مع الملائكةِ الكرام، وكان فيها التَّصريحُ بأمرين: أنَّهم أُرسلوا إلى قوم لوطٍ، والتَّبشيرِ بالولدِ، فكان الرّابطَ بين القصَّتين أنَّهما في زمانٍ متقاربٍ، وعلاقةُ لوطٍ بإبراهيمَ عليهما الصَّلاة والسَّلام والتَّوطئةُ لهذه القصَّةِ في الآيات السّابقةِ، وتشابهُ مطْلعِ القصَّتين، حيثُ لم يَعرفْ إبراهيمُ ولوطٌ عليهما السلام أنَّ الأضيافَ ملائكةٌ ابتداءً، بل بعدَ الخوفِ والضِّيقِ، فكان ذِكْرُ هذهِ القصَّةِ مناسبًا أشدَّ المناسبةِ بعد القصَّةِ السّابقةِ.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿سِيٓءَ﴾: "السُّوءُ نعتٌ لكلِّ شيءٍ رديءٍ، ساء يَسُوءُ، لازمٌ ومجاوزٌ، وساء الشَّيءُ: قَبُحَ، فهو سَيِّئٌ، والسُّوء: اسمٌ جامعٌ للآفاتِ والدّاء.. السَّيِّئُ والسَّيِّئَةُ: عملانِ قبيحانِ، يصيرُ السَّيِّئُ نعتًا للذَّكَر من الأعمال، والسَّيِّئَةُ للأنثَى"[1]، وهو "كلُّ ما يَغُمُّ الإنسانَ من الأمورِ الدُّنيويَّةِ، والأخرويَّةِ، ومن الأحوال النَّفسيَّةِ، والبدنيَّةِ، والخارجةِ، من فوات مالٍ، وجاهٍ، وفقْدِ حميمٍ، وقولُه: ﴿بَيۡضَآءَ مِنۡ غَيۡرِ سُوٓءٍ﴾ [طه: 22]؛ أي: من غيرِ آفةٍ بهِ... ﴿سِيٓءَ بِهِمۡ وَضَاقَ بِهِمۡ ذَرۡعٗا﴾ [هود: 77]: حلَّ بهم ما يسوؤهم"[2].

2) ﴿وَضَاقَ﴾: "الضّادُ والياءُ والقافُ كَلِمَةٌ واحِدَةٌ تَدُلُّ عَلَى

(1) الخليل، العين: (سوأ).
(2) الراغب، المفردات: (سوأ).

خِلافِ السَّعَةِ، وذَلِكَ هُو الضِّيقُ"[1]، "ويُقالُ: الضَّيْقُ أيضًا، والضَّيْقَةُ تُسْتعملُ في الفَقْرِ والبُخلِ والغَمِّ ونحو ذلك، قال تعالى: ﴿وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا﴾ [هود: 77]؛ أي: عجَزَ عنهم، وقال: ﴿وَضَآئِقٌ بِهِۦ صَدْرُكَ﴾ [هود: 12]، ﴿وَيَضِيقُ صَدْرِى﴾ [الشعراء: 13]، ﴿ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ [الأنعام: 125]، ﴿وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾ [التوبة: 25]، ﴿وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ﴾"[2].

3) ﴿ذَرْعًا﴾: "الذَّرْعُ مَصْدَرُ ذَرَعَ البَعِيرُ بِيَدَيْهِ في سَيْرِهِ؛ إذا سارَ عَلَى قَدْرِ خَطْوِهِ، مَأْخُوذٌ منَ الذِّراعِ، ثُمَّ وُضِعَ مَوْضِعَ الطّاقَةِ، فَقِيلَ: ضاقَ بِهِ ذَرْعًا"[3]، "والذَّرْعُ: الطّاقةُ، وضاقَ بالأمْرِ ذَرْعُهُ وذِراعُهُ؛ أي: ضعُفَت طاقتُهُ، ولَمْ يَجِدْ منَ المَكْرُوهِ فِيهِ مَخْلَصًا، ولَمْ يُطِقْهُ، ولَمْ يَقْوَ عَلَيْهِ، وأصلُ الذَّرْعِ إنَّما هُو بَسْطُ اليَدِ، فكأنَّكَ تُرِيدُ مَدَدْتُ يَدِيَ إليهِ، فَلَمْ تَنَلْهُ... وضاقَ بِهِ ذَرْعًا: مثْلُ ضاقَ بِهِ ذِراعًا، ونصْبَ ذرْعًا؛ لأنَّه خَرَجَ مفسِّرًا مُحَوَّلًا؛ لأنَّه كانَ في الأصل ضاقَ ذَرْعي بِهِ، فَلَمّا حُوِّلَ الفِعْلُ؛ خَرَجَ قَوْلُهُ ذَرْعًا مُفَسِّرًا، ومثْلُهُ طِبْتَ بِهِ نَفْسًا، وقَرَرْتَ بِهِ عَينًا، والذَّرْعُ يُوضَعُ مَوْضِعَ الطّاقَةِ... ويُقالُ: ما لِي بِهِ ذَرْعٌ ولا ذِراعٌ، أي: ما لِي بِهِ طاقَةٌ"[4].

4) ﴿عَصِيبٌ﴾: "العَصَبُ: أطنابُ المفاصلِ التي تُلائِمُ بينَها وتَشُدُّها، وليس بالعَقَبِ، ولحمٌ عَصِبٌ: صُلْبٌ كثيرُ العَصَبِ، والعَصَبُ: الطَّيُّ الشَّديدُ، ورجلٌ مُعْصَوْصِبُ الخَلْقِ كأنَّما لُوِيَ لَيًّا"[5]، و"عَنِ الفرّاءِ قالَ: يَوْمٌ عَصِيبٌ، ويَوْم عَصَبْصَبٌ؛ أي: شَدِيدٌ"، "وقِيلَ: هُو الشَّدِيدُ الحرِّ، ولَيْلَةٌ عَصِيبٌ، كَذَلِكَ، ولَمْ يَقُولُوا: عَصَبْصَبةٌ... وقيل هُو مُشْتَقٌّ منْ قَوْلِكَ: عَصَبْتُ الشَّيءَ؛ إذا شَدَدْتَهُ، ولَيْسَ ذَلِكَ بِمَعْرُوفٍ... وقيل هُو مأْخوذٌ منْ قَوْلِكَ: عَصَبَ القومَ أمْرٌ يَعْصِبُهم عَصْبًا؛ إذا ضَمَّهُم، واشْتَدَّ عَلَيْهِمْ... يومٌ عَصَبْصَبٌ باردٌ ذُو سَحابٍ كَثِيرٍ، لا يَظْهَر فِيهِ منَ السَّماءِ شيءٌ، وعَصَبَ (عَصِبَ) الفَمُ يَعْصِبُ عَصْبًا وعُصُوبًا: اتَّسَخَت أسنانُه منْ غُبارٍ، أو شِدَّةِ عَطَشٍ، أو خَوْفٍ، وقِيلَ: يَبِسَ ريقُهُ، وفُوهُ عاصبٌ، وعَصَبَ الريقُ بِفيهِ، بِالفَتْحِ، يعْصِبُ عَصْبًا، وعَصِبَ: جَفَّ، ويَبِسَ عَلَيْهِ"[6].

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ضيق).
(2) الراغب، المفردات: (ضيق).
(3) أبو حيان، البحر المحيط: 6/174.
(4) ابن منظور، لسان العرب: (ذرع).
(5) الأزهري، تهذيب اللغة: (عصب).
(6) ابن منظور، لسان العرب: (عصب).

المَعْنى الإجْماليُّ:

الشُّعورُ بآثارِ المنكرِ الصّادرِ عن المجتمعِ يأتي من عظيمِ الإيمانِ وكبيرِ الإحسانِ

أخبرتِ الآيةُ عن مجيءِ الملائكةِ الكرام لوطًا عليه السلام دونَ إخبارِه بحقيقةِ أمرِهم، فظنَّهم أضيافًا، وهنا وقعَ الضِّيقُ، واشتدَّ الكَرْبُ؛ لما سيُلاقيهِ من قومهِ من مراودتهِ عن ضيفِهِ، فالآيةُ تُبيِّنُ حالةً فريدةً من أحوالِ الأنبياءِ مع أقوامهم، وفيها أنَّ قومَهُ استحلُّوا الفاحشةَ، بل جعلوها منهجَ حياةٍ في التَّعامُلِ مع الرِّجال رضًا وجَبرًا، وقد وصفَ اليومَ بأنَّه عصيبٌ؛ أي: شديدٌ لما فيه من هولِ الأمرِ، وشدَّةِ الوقْعِ، ومرارةِ الموقفِ.

"وفي اسم ﴿لُوطًا﴾ وجهانِ: أحدُهما: أنَّه اسمٌ أعجميٌّ، وهو قولُ الأكثرين. الثّاني: أنَّه اسمٌ عربيٌّ مأخوذٌ من قولهم: لُطْتُ الحَوْضَ؛ إذا ملسْتَهُ بالطِّينِ"[1].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ العطفِ:

عطفُ القصَّةِ على القصَّةِ إبانةٌ للتَّرابطِ الكليِّ والاشتراكِ بينَ المعطوفَين

الواوُ في قولِه تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا﴾، من عطفِ القصَّةِ على القصَّةِ، وهو ما تقضي بهِ البلاغةُ، وفي هذه العبارةِ إيجازٌ بالحذْفِ تقديرهُ: "فَفارَقُوا إبْراهِيمَ، وذَهَبُوا إلَى لُوطٍ عليه السلام فَلَمّا جاؤوا لُوطًا، فَحَذَفَ ما دَلَّ عَلَيْهِ المَقامُ إيجازًا قُرْآنِيًّا بَدِيعًا"[2]، فعطفتِ الآيةُ قصَّةَ لوطٍ عليه السلام على القصَّةِ السّابقةِ، لما بينَهما من ترابطٍ، والعطفُ يقتضي الاشتراكَ بين المعطوفَيْن، وتحتملُ الواوُ أن تكونَ استئنافيَّةً، على ابتداءِ معنًى كليٍّ مرتبط بالسّابقِ.

معنى ﴿وَلَمَّا﴾:

(ولما) رابطةٌ بين مجيءِ الملائكةِ ووقوعِ المساءةِ

﴿وَلَمَّا﴾ أداةُ ربْطٍ بين شرطٍ وجزاءٍ، تُفيدُ اتِّصالَ جوابِها بشرْطِها زمنًا، فهي حينيَّةٌ رابطةٌ، وكلُّ اتِّصالٍ يكون بحسْبِهِ، كالزَّمنِ بين

(1) الماوردي، النكت والعيون: 2/490.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/124.

مجيءِ الرُّسل ووقوع المساءةِ في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ﴾، فيُقدَّرُ بحسبِ العُرفِ والعادةِ وما يُتصوَّرُ، لكنَّ استعمالَها في هذا السِّياقِ دليلٌ على سرعةِ وقوعِ الجوابِ.

دلالةُ تأنيثِ فعلِ المجيءِ:

أُنِّثَ الفِعْلُ ﴿جَآءَتْ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا﴾ نظرًا إلى معنى (الجماعة) وهي مؤنَّثٌ، والمعنى: ولما جاءتْ جماعةُ رسلِنا، وفي تأنيثِ الفعلِ إشارةٌ إلى معنى التَّأنيثِ في لفظ (الملائكة) الَّذين هم رسلُ اللّه تعالى إلى الأنبياءِ، فالنَّظمُ يُوحي بتفسيرِ معنى الرُّسُلِ، كأنَّه قيلَ: (ولمّا جاءت ملائكتُنا)، ولو ذُكِّرَ الفعلُ ﴿جَآءَتْ﴾؛ لذهبَ الوهمُ إلى رُسلٍ آخرين من البشرِ، ولا مانعَ من ذلكَ؛ لأنَّ رُسلَ اللّه تعالى في ذلك الزَّمانِ كانوا يتعاصرونَ وكلٌّ في بلدِهِ.

التَّأنيثُ فيه إشارةٌ إلى لفظِ الملائكةِ لتعيينِ المقصودِ بالرُّسُلِ

نكتةُ تعريفِ الرُّسلِ بالإضافةِ لضميرِ العظمةِ:

المقصودُ بالرُّسُلِ في قولِهِ تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا﴾ "الرُّسُلُ الَّذينَ بَشَّرُوا إبْراهيمَ بِالولَدِ عليه السلام"[1]، فكأنَّه قال: جاءتْ رسلُنا لوطًا الَّذين أرسلناهم إلى إبراهيمَ عليه السلام فتحقَّقَ بذلك التَّعريفُ العهديّ، ولم يقل: (جاءتِ الرُّسلُ)؛ لإكسابِ الرُّسلِ تعظيمًا وإجلالًا ومهابةً، لاسيَّما أنَّهم أتَوا بعذابِ قومِ لوطٍ عليه السلام فتحقَّقَ بهذه الإضافةِ التَّعريفُ والتَّشريفُ، بالإضافةِ لبيانِ أنَّ ما جاؤوا به هو أمرُ اللّه تعالى الصّادرُ عن عظمتِهِ، فهم مجرَّدُ رسلٍ للّه تعالى ولضميرِ العظمةِ في نفوسِ الخلقِ من الإجلالِ ما يجعلُ الرُّسلَ في الحصانةِ والأمانِ، ويجعلُهم من الثِّقَةِ في نظرِ النّاس بمكانٍ.

إضافةُ الرُّسُلِ إلى ضميرِ العظمةِ يُكسِبُهمُ التَّعريفَ والتَّشريفَ

علَّةُ الفَصْلِ:

جملةُ ﴿سِيٓءَ بِهِمْ﴾ جوابُ شرطٍ غيرِ جازمٍ، فهي لا محلَّ لها من الإعرابِ، ولذلك فُصِلت، ومن فوائدِ فَصْلِها تعيينُ أنَّها جوابُ

مَساءةُ لوطٍ عليه السلام من مجيءِ الرُّسلِ دليلُ نُبلٍ وإشفاقٍ

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 18/377.

﴿وَلَمَّا﴾، ولو قالَ: (وسيءَ بهِم)؛ لكانت معطوفةً على جوابٍ مقدَّرٍ، وهذا غيرُ مرادٍ، وكذلك بيانُ أنَّ وقوعَ المساءةِ هو أوَّلُ حدثٍ بعد مجيءِ الرُّسُلِ، فإنَّ لوطًا ﷺ لمّا رآهم سِيءَ هو بسببِ قومه، أي: أصابَهُ سوءٌ عند رؤيةِ الملائكةِ بسببِ أخلاقِ قومهِ الرَّذيلةِ، وهذا على خلافِ أخلاقِهِ الحميدةِ، من حُبِّ استقبالِ الضِّيفانِ وإكرامهم، ففيهِ بيانُ أنَّ المؤمنَ يحرصُ على أضيافِهِ كحرصِهِ على أهلِهِ.

نكتةُ بناءِ فعلِ ﴿سِيٓءَ﴾ للمفعولِ:

بُنِيَ الفعلُ ﴿سِيٓءَ﴾ للمفعولِ، ونائبُ الفاعلِ محذوفٌ، تقديرهُ: هو عائدٌ على لوطٍ ﷺ وأصلُه: (سُوِئَ)، نُقلت حركةُ الواوِ إلى السِّين بعد ذهابِ حركتِها، ثم قُلِبَتِ الواوُ ياءً[1]، ليتَّسقَ مع المعنى من حيثُ إنَّه يُفيد عمومَ جهاتِ المساءةِ، فإنَّه لمّا رأى الملائكةَ على هيئةِ بشرٍ؛ ساءتْ ظنونُهُ بقومهِ ممّا سيقعُ منهم تجاه الملائكةِ، والمقصودُ هو بيانُ أنَّ المساءةَ قد تحقَّقتْ بقطعِ النَّظرِ عن الفاعلِ، إذِ الفاعلُ الَّذي أوقعَ المساءةَ هو الظَّنُّ النّاشئُ عن معرفتِهِ بقومهِ، وهو ما يُرشِّحه السِّياقُ بلحاقِهِ؛ أي: ساءَتِ الظُّنونُ لِلُوطٍ عند رؤيةِ الملائكةِ بسببِ قومه، أو مجيءِ الملائكةِ على هيئةِ بشرٍ؛ أي: ساء مجيءُ الملائكةِ لوطًا بسببِ قومه.

ظنونُ المؤمنِ الصّادِرَةُ عن علمٍ وتجربَةٍ واقعٌ مُحقَّقٌ وأمرٌ ثَبتٌ

معنى حرفِ الباءِ:

الباءُ في قولهِ تعالى: ﴿سِيٓءَ بِهِمۡ﴾ للسَّببيَّةِ، والجارُّ والمجرورُ متعلِّقٌ بفعل ﴿سِيٓءَ﴾؛ أي: سيءَ لوطٌ بهم؛ أي: بسببِ أخلاقِ قومهِ القبيحةِ أصابَ لوطًا ﷺ سوءٌ وخوفٌ، وذلك عند رؤيةِ الملائكةِ، فلمّا جاءتِ الملائكةُ الكرامُ لوطًا ﷺ "ساء ظنُّهُ بقومهِ، وضاقَ ذرعًا بأضيافهِ"[2]، "بسببِ خوفهِ عليهم أن يَجْرِيَ عليهم من قومهِ ما لا

الأفعالُ القبيحة سببُ مساءةِ النُّفوسِ المليحة

(1) ابن عجيبة، البحر المديد: 2/546.
(2) الماورديّ، النكت والعيون: 2/487.

يجوزُ في دين اللّه سبحانه فذلك الحزنُ كان لِحَقِّ اللّه تعالى لا لنصيبٍ له، أو حظٍّ لِنفسِهِ، ولذلك حُمدَ عليهِ؛ لأنَّ مُقاساةَ الحزنِ لِحَقِّ اللّه ﷻ محمودةٌ"[1].

فائدةُ العطْفِ:

المؤمنُ يُفكِّرُ بالحلولِ بعد نزولِ البلايا، ولا ينعزلُ في الزَّوايا

عُطِفَ قولُه تعالى: ﴿وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا﴾ على قولِهِ تعالى: ﴿سِيٓءَ بِهِمْ﴾ لبيانِ حالتين مرَّ بهما لوطٌ عليه السلام وكلتا الحالتين داخليَّةٌ نفسيَّةٌ، فالأولى هي ما أصاب لوطًا عليه السلام من المساءةِ بسببِ معرفتِهِ بقومِهِ، وأنَّهم سيرتكبونَ حماقةً جسيمةً في حقِّ ضيفِهِ، والأخرى هي الضِّيقُ الشَّديدُ بسبب ما يجولُ في فكرِهِ من كيفيَّةِ التَّخلُّصِ من هذه المصيبةِ، ففائدةُ العَطْفِ بيانُ ترتُّبِ الضِّيقِ على المساءةِ، فهو لم يتركِ الأمرَ بدون تفكيرٍ لإنقاذِ ضيفِه من شرٍّ قادمٍ، بل سارعَ في ذلك لكنَّهُ بلغَ إلى درجةِ الضِّيق لعدم امتلاكِه الطّاقةَ والقدرةَ على صُنعِ شيءٍ.

بلاغةُ الاستعارةِ التَّمثيليَّةِ:

بيانُ ضعفِ لوطٍ عليه السلام على دفْعِ مكروهٍ هو أعتى من قُدْرتِهِ وقوَّتِهِ

في استعمالِ التَّركيبِ ﴿وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا﴾ استعارةٌ تمثيليَّة بديعةٌ، وهو كنايةٌ كذلك، فالذَّرْعُ: "مصدر مأخوذ من الذِّراعِ، ولمّا كان الذِّراعُ موضع قوّةِ الإنسانِ، قيل في الأمرِ الّذي لا طاقة له به: ضاق بهذا الأمرِ ذراعُ فلان، وذرعُ فلان؛ أي: حيلتُهُ بذراعِهِ، وتوسّعوا في هذا حتّى قلبوهُ فقالوا: فلان رحبُ الذِّراعِ؛ إذا وصفوهُ باتِّساعِ القدرةِ"[2]، "فإذا أُسنِد إلى الآدميِّ؛ فهُو تقديرُ المسافةِ، وإذا أُسنِد إلى البعيرِ؛ فهُو مدُّ ذِراعيهِ في السّيرِ على قدرِ سعةِ خُطوتِهِ، فيجُوزُ أن يكُون (ضاق ذرعًا) تمثيلًا بحالِ الإنسانِ الّذي يُريدُ مدّ ذِراعِهِ، فلا يستطِيعُ مدّها، كما يُرِيدُ، فيكُونُ ذرعُهُ أضيق من مُعتادِهِ.

(1) القشيريّ، لطائف الإشارات: 2/148.
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/193.

ويجُوزُ أن يكُون تمثيلًا بحالِ البعيرِ المُثقلِ بالحِملِ أكثر من طاقتِهِ، فلا يستطِيعُ مدّ ذِراعيهِ، كما اعتادهُ، وأيًّا ما كان؛ فهُو استِعارة تمثِيليّة لِحالِ من لم يجِد حِيلةً في أمر يُرِيدُ عملهُ؟ بِحالِ الّذِي لم يستطِع مدّ ذِراعِهِ كما يشاءُ"[1]، فـ "وجهُ التّمثيلِ أنّ القصير الذِّراعِ لا ينالُ ما ينالُهُ الطّويلُ الذِّراعِ، ولا يُطيقُ طاقتهُ، فضُرب مثلًا للّذي سقطت قوّتُهُ، دون بلوغِ الأمرِ والاقتدارِ عليهِ"[2]، وهذا التّركيبُ كذلك "كناية عن شِدّةِ الانقباضِ للعجزِ عن مدافعةِ المكروهِ والاحتيالِ فيهِ"[3].

دلالةُ حذفِ الفاعلِ:

اجتماعُ المساءةِ والضِّيقِ في شخصٍ واحدٍ وفي زمنٍ مُتّحِدٍ

لَقَد تنوَّعَ بناءُ الفعلين المتعاطفين: ﴿سِيٓءَ﴾ و﴿وَضَاقَ﴾، فالأوَّلُ مَبنيٌّ للمفعولِ، والآخَر مبنيٌّ للفاعلِ المحذوفِ، والفاعلُ في الفعلين واحدٌ: وهو لوطٌ عليه السلام ولم يُذْكَرِ الفاعلُ لمعرفتِه، ولبيانِ ما أصابَهُ من مساءةٍ وضيقٍ، ولتصويرِ مَشْهَدِهِ في تلكَ الحالِ العسيرةِ والموقفِ الحَرِجِ.

سرُّ التَّعبيرِ بالتَّمييزِ المحوَّلِ عَنِ الفاعلِ:

إظهارُ تمامِ عنايةِ لوطٍ عليه السلام بالملائكةِ

أصلُ التَّعبيرِ في قولِهِ تعالى: ﴿وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا﴾: "(ضاق ذرعُهُ بسببِهِم)؛ أي: بسببِ مجيئِهِم، فحوّل الإسناد إلى المُضافِ إليهِ، وجعل المُسند إليهِ تمييزًا؛ لأنّ إسناد الضِّيقِ إلى صاحِبِ الذّرعِ أنسبُ بالمعنى المجازيِّ، وهُو أشبهُ بتجريدِ الاستِعارةِ التّمثِيليّة"[4]، فالتّمييزُ محوّل عن الفاعلِ، وسرُّ ذلك هو العنايةُ بالملائكةِ، إذ تقديمُ الجارِّ والمجرورِ العائدِ على الملائكةِ دليل على الحالةِ الّتي ضاق بها لوط عليه السلام بسبب الملائكةِ، ولو قال: (وضاق ذرعُه بهم)؛ لانصرفتِ العنايةُ إلى نفسِه، والتّأفُّفِ من الضِّيفانِ، فإنّ المؤمن إن جاءهُ ضيوف اتّسع

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/124.
(2) القاسمي، محاسن التأويل: 6/119.
(3) البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل: 3/142.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/124.

لهم، ووسّع، لكنّ المشهد انعكس في هذه الحالةِ، بسببِ قومهِ، فضاق بالملائكةِ؛ لأنّهُ يبغي كامل العنايةِ بِهم ذرعًا.

بلاغةُ ترتيبِ الجُملِ:

جاءتِ الجُملُ على مُقتضى الظّاهرِ والحالِ ترتيبًا وجوديًّا

الجُملُ في قولِهِ تعالى: ﴿سِيٓءَ بِهِمۡ وَضَاقَ بِهِمۡ ذَرۡعٗا وَقَالَ هَٰذَا يَوۡمٌ عَصِيبٞ﴾ جاءت مرتّبةً ترتيبًا بليغًا، و"من بديعِ ترتيبِ هذهِ الجُملِ أنّها جاءت على ترتيبِ حُصُولِها في الوُجُودِ، فإنّ أوّل ما يسبقُ إلى نفسِ الكارِهِ للأمرِ أن يُساء بِهِ، ويتطلّب المُخلِّص منهُ، فإذا علِم أنّهُ لا مُخلِّص منهُ؛ ضاق بِهِ ذرعًا، ثُمّ يُصدِرُ تعبيرًا عنِ المعاني وترتيبًا عنهُ كلامًا يُريحُ بِهِ نفسهُ.

وتصلُحُ هذهِ الآيةُ لأن تكُون مثالًا لإنشاءِ المُنشِئِ إنشاءهُ على حسبِ ترتيبِ الحُصُولِ في نفسِ الأمرِ، هذا أصلُ الإنشاءِ ما لم تكُن في الكلامِ دواعِي التّقديمِ والتّأخيرِ ودواعِي الحذفِ والزِّيادة"[1].

بلاغةُ تعريفِ المسندِ إليهِ باسم الإشارةِ:

اسمُ الإشارةِ فيه تنفيسٌ عن الكربِ والهمِّ الذي أحاطَ بلوطٍ عليه السلام

أفادَ اسمُ الإشارةِ في قولِهِ تعالى: ﴿وَقَالَ هَٰذَا يَوۡمٌ عَصِيبٞ﴾ ضَمَّ الأحداثِ الَّتي حصَلَتْ عند مجيءِ الملائكةِ واستِجْماعِها في الزَّمنِ، ثمَّ الإشارةُ إليهِ بهذا لتشخيصِهِ وتجسيدِهِ، بغرضِ إظهارِ ما فيهِ من الشُّعورِ بالبلاءِ، إذ إنَّه سيُدافِعُ قومَهُ عن ضيفِهِ[2]، وفي اسم الإشارةِ تنفيسٌ عنِ الكربِ والهمِّ والغمِّ الَّذي أحاطَ بلوطٍ عليه السلام فهذا القولُ "قالَهُ عليه السلام في نَفْسِهِ، كَما يُناجِي المَرْءُ نَفْسَهُ؛ إذا اشْتَدَّ عَلَيْهِ أمْرٌ"[3]؛ بسببِ الفضيحةِ الَّتي سيجلبُها قومُهُ لَهُ[4]، وبسببِ المعصيةِ الَّتي ستُرتَكَبُ.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/125.
(2) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/336.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/125.
(4) الماوردي، النكت والعيون: 2/487.

دلالةُ ذِكْرِ لفظِ اليوم:

دلَّ ذِكْرُ اليوم في قولِهِ تعالى: ﴿وَقَالَ هَٰذَا يَوۡمٌ عَصِيبٞ﴾ على أنَّ مجيءَ الرُّسلِ كانَ في النَّهارِ[1]، وهو المناسِبُ لشدَّةِ المساءةِ والضِّيقِ، فلو كانَ ليلًا؛ لقلَّت مشقَّةُ التَّصرُّفِ في السَّترِ والخفاءِ.

سرُّ إيثارِ الألفاظِ على مرادفاتِها:

جَمَعَ لفظُ عصيبٍ بين الشِّدَّةِ والضِّيق بصيغةِ مبالغةٍ متَّفِقةٍ مع السِّياقِ

"أصْلُ هَذِهِ المادَّةِ ﴿عَصِيبٞ﴾ يُفِيدُ الشِّدّة والضّغط، وأراد: أنّهُ سيكُونُ عصِيبًا لِما يعلمُ من عادةِ قومِهِ السّيِّئةِ"[2]، وقدِ اقتضى النّظمُ الكريمُ وصف اليوم بالعصيبِ؛ لأنّ هذه الصِّفة تجمعُ معنى الشِّدّة والضِّيقِ والضّغطِ، فعصابةُ الشّيءِ تدورُ حولهُ، وتلفُّهُ، وتُحِيطُ بهِ، فهو "يعصِبُ النّاس بالشّرِّ"[3]، فهي تؤازِرُ بمادّتِها اللُّغويّةِ المصوِّرةِ السِّياق، وقد جاء الوصفُ على صيغةِ المبالغةِ؛ لبيانِ شِدّةِ هولِهِ، فيتّفِقُ مع سياقِ الآيةِ.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

العصيبُ والشَّديدُ:

الشَّديدُ المترابطُ بصلابةٍ، والعصيبُ الشَّديدُ الضّاغط

الشِّدَّةُ في الأصْلِ هِيَ مُبالغَةٌ في وصْفِ الشَّيْءِ في صلابةٍ، ولَيْسَ هُو من قبيلِ القُدْرَةِ، ولِهَذا لا يُقالُ للّه: شَديدٌ، والقُوَّةُ من قبيل القُدْرَةِ[4]، أمّا العصيبُ؛ فهو وصفٌ للشَّيْءِ بالشِّدَّةِ والضَّغطِ، من العصَبِ الَّذي هو "أطنابُ المفاصلِ التي تُلائمُ بينها"[5]، فهما متقاربانِ من حيثُ الدِّلالةُ، ويَظهرُ الفرْقُ بينهما بأنَّ الشَّديدَ المترابطُ بصلابةٍ، ولهذا قالَ سبحانه: ﴿نَّحۡنُ خَلَقۡنَٰهُمۡ وَشَدَدۡنَآ أَسۡرَهُمۡۖ﴾ [الإنسان: 28]، أمّا العَصيبُ؛ فهو الشَّديدُ الضّاغطُ.

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/125.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/125.
(3) الماوردي، النكت والعيون: 2/488.
(4) العسكري، الفروق اللغوية: 1/107.
(5) الأزهري، تهذيب اللغة: (عصب).

﴿وَجَآءَهُۥ قَوۡمُهُۥ يُهۡرَعُونَ إِلَيۡهِ وَمِن قَبۡلُ كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطۡهَرُ لَكُمۡۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخۡزُونِ فِي ضَيۡفِيٓۖ أَلَيۡسَ مِنكُمۡ رَجُلٞ رَّشِيدٞ ٧٨ قَالُواْ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنۡ حَقّٖ وَإِنَّكَ لَتَعۡلَمُ مَا نُرِيدُ ٧٩ قَالَ لَوۡ أَنَّ لِي بِكُمۡ قُوَّةً أَوۡ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكۡنٖ شَدِيدٖ ٨٠﴾ [هود: 78 - 80]

مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قَبلَها:

تَكميلُ ما ابتدَأَتْهُ القِصَّةُ وتتميمُ بيانِ ما حدَثَ

لمّا قصَّتِ الآيةُ السّابقةُ خبرَ وصولِ الملائكةِ إلى بيتِ لوطٍ عليه السلام وما اعتراهُ من غمٍّ وهمٍّ خوفًا على هؤلاءِ الضِّيوفِ من فجورِ أهلِ قريتِه، ولم يكنْ عليه السلام يعلمُ بعدُ أنَّهم رسلُ اللّه ﷻ انتقل السِّياقُ إلى بيانِ وقوعِ المحذورِ الَّذي كان يَحْذرُهُ لوطٌ عليه السلام فقد هَرْولَ قومُهُ إلى بيتِه مستبشرينَ بالظَّفرِ بهؤلاءِ الشَّبابِ الضُّيوفِ، إلى أن أفصحَ الملائكةُ عن أنفسِهم، وبشَّروهُ بنجاتِه وأهلِه، وهلاكِ قومِه وامرأتِه، فالمناسبةُ بين الآياتِ مناسبةُ تتميمٍ وتكميلٍ للحدثِ، وبيانِ صِدْقِ ما توقَّعَهُ عليه السلام.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يُهۡرَعُونَ﴾: "وهي الرِّعدَةُ؛ إذا ذهبَتْ عقولُهم منَ الخوفِ والفَزَعِ إهراعًا"[1]، و"هَرِعَ وأهْرَعَ: ساقَهُ سوقًا بِعُنْفٍ وتخويفٍ، قالَ اللّه تعالى: ﴿وَجَآءَهُۥ قَوۡمُهُۥ يُهۡرَعُونَ إِلَيۡهِ﴾ [هود: 78]، وهَرَعَ بِرُمْحِهِ فَتَهَرَّعَ؛ إذا أشْرَعَهُ سَريعًا، والهَرِعُ: السَّريعُ المشي والبكاءِ"[2].

"وأُهْرِعَ الرَّجُلُ، عَلَى ما لَمْ يُسَمَّ فاعِلُهُ: خَفَّ، وأُرْعِدَ منْ سُرْعةٍ أو خوْفٍ أو حِرْصٍ أو غَضَبٍ أو حُمَّى، وفِي التَّنْزِيلِ: ﴿وَجَآءَهُۥ قَوۡمُهُۥ

(1) ابن السكيت، كتاب الألفاظ: (هرع).
(2) الراغب، المفردات: (هرع).

﴿يُهۡرَعُونَ إِلَيۡهِ﴾ [هود: 78]، قالَ أبو عُبَيْدَةَ: يُسْتَحَثُّون إليه، كأنَّهُ يَحُثُّ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، وتَهَرَّعَ إليهِ: عَجِلَ"(1)، و"المَهْروعُ: المَجْنونُ يُصْرَعُ، والمَصْروعُ من الجَهْدِ... وأهْرَعَ: أسْرَعَ"(2).

2) ﴿تُخۡزُونِ﴾: "خَزِيَ الرَّجُلُ: لَحِقَهُ انكِسارٌ، إمّا من نَفْسِهِ، وإمّا من غيرِهِ، فالَّذي يَلْحَقُهُ من نفسهِ هو الحياءُ المُفْرِطُ، ومصدره الخَزايَةُ، ورجلٌ خَزْيانُ، وامرأةٌ خَزْيَى، وجمعُهُ: خَزايا، وفي الحديث: «اللهمَّ احشُرْنا غيرَ خزايا ولا نادمينَ». والَّذي يلحقهُ من غيرِهِ يقال: هو ضرْبٌ من الاستخفافِ، ومصدرهُ الخِزْيُ... وقال: ﴿وَلَا تُخۡزُونِ فِي ضَيۡفِيٓۖ﴾ [هود: 78]. ومتى كانَ من الإنسان نفسِهِ يقالُ لهُ: الهونُ والذُّلُّ، ويكونُ محمودًا، ومتى كان من غيرِهِ؛ يقالُ له: الهُونُ، والهوانُ، والذُّلُّ، ويكونُ مذمومًا"(3).

و"أخْزَيْتُهُ؛ أي: فَضَحْتُهُ، ومنْهُ قَوْلُهُ تعالى حِكايَةً عَنْ لُوطٍ لِقَوْمِهِ: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخۡزُونِ فِي ضَيۡفِيٓۖ﴾؛ أي: لا تَفْضَحُونِ، وقالَ في قَوْلِهِ: ﴿ذَٰلِكَ لَهُمۡ خِزۡيٞ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ﴾: الخِزْيُ الفَضِيحةُ، وقَدْ خَزِيَ يَخْزَى خِزْيًا؛ إذا افْتَضَحَ، وتَحيَّر فَضِيحَةً"(4).

3) ﴿قُوَّةً﴾: "القوَّةُ أصلُها التَّعاونُ، ومنه قُوى الحَبْلِ؛ لأنَّ كلَّ واحدةٍ منها تُعِينُ الأخرى، وكلُّ طاقةٍ من الحبْلِ قوَّةٌ، واستعمالُها في صفاتِ اللّه تعالى بمعنى أنَّ أحدًا لا يغلبُهُ، وليس معناهُ التَّعاونَ، كما أنَّ أصْلَ التَّوبةِ في اللُّغةِ الرُّجوعُ، تابَ يتوبُ؛ إذا رجعَ، وكذلكَ تائِبونَ، وقولنا: إنَّ اللّه تَوّابٌ ليس يُعْنَى بهِ الرُّجوعَ... والقوَّةُ في القرآنِ على خمسةِ أوجهٍ: الأوَّلُ: العُدَّةُ، قال: ﴿وَيَزِدۡكُمۡ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمۡ﴾ [هود: 52]... الثاني: الجِدُّ، قال اللّه: ﴿خُذُواْ مَآ ءَاتَيۡنَٰكُم بِقُوَّةٖ﴾ [البقرة: 63]... الثالثُ: البَطْشُ، قال اللّه: ﴿وَقَالُواْ مَنۡ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةًۖ﴾ [فصلت: 15]... الرّابعُ: السِّلاحُ، وهو راجعٌ إلى معنى، العُدَّةِ قال اللّه: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ﴾ [الأنفال: 60]... الخامس: الشِّدَّةُ، قال اللّه: ﴿لَتَنُوٓأُ بِٱلۡعُصۡبَةِ أُوْلِي ٱلۡقُوَّةِ﴾ [القصص: 76]"(5).

4) ﴿ءَاوِيٓ﴾: "المَأْوى مصدرُ أوى يَأْوِي أوِيًّا ومَأْوًى، تقول: أوى إلى كذا: انضمَّ إليهِ، يأوي أوِيًّا ومأوى، وآواهُ غيرُهُ يُؤْوِيهِ إيواءً، قال ﷻ: ﴿إِذۡ أَوَى ٱلۡفِتۡيَةُ إِلَى ٱلۡكَهۡفِ﴾ [الكهف: 10]،

(1) ابن منظور، لسان العرب: (هرع).
(2) الفيروزابادي، القاموس المحيط: (هرع).
(3) الراغب، المفردات: (خزي).
(4) ابن منظور، لسان العرب: (خزي).
(5) العسكري، الوجوه والنظائر: (القوة).

وقال: ﴿سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٖ﴾ [هود: 43]، وقال تعالى: ﴿ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَخَاهُۖ﴾ [يوسف: 69]، وقال: ﴿وَتُـٔۡوِيٓ إِلَيۡكَ مَن تَشَآءُۖ﴾ [الأحزاب: 51]"[1].

5) ﴿رُكۡنٖ﴾: "رَكِنَ إلَى الشَّيءِ ورَكَنَ يَرْكَنُ ويَرْكُنُ رَكْنًا ورُكونًا فِيهِما ورَكانَةً ورَكانِيَةً؛ أي: مالَ إلَيْهِ، وسَكَنَ... وفِي التَّنْزِيلِ العَزِيزِ: ﴿وَلَا تَرۡكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ [هود: 113]... ورُكْنُ الشَّيْءِ: جانِبُهُ الأقوى، والرُّكْنُ: النّاحِيَةُ القَوِيَّةُ وما تَقَوَّى بِهِ مِنْ مَلِكٍ وجُنْدٍ وغَيْرِهِ، وبِذَلِكَ فُسِّرَ قَوْلُهُ ﷻ: ﴿فَتَوَلَّىٰ بِرُكۡنِهِۦ﴾ [الذاريات: 39]، ودَلِيلُ ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعالَى: ﴿فَأَخَذۡنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ﴾ [الذاريات: 40]؛ أي: أخذْناهُ ورُكْنَه الَّذِي تَولَّى بِهِ، والجَمْعُ: أرْكانٌ وأرْكُنٌ... ورُكْنُ الإنسانِ: قُوَّتُهُ وشِدَّتُهُ... ورُكْنُ الرَّجُلِ: قَوْمُهُ وعَدَدُهُ ومادَّتُهُ، وفِي التَّنْزِيلِ العَزِيزِ: ﴿لَوۡ أَنَّ لِي بِكُمۡ قُوَّةً أَوۡ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكۡنٖ شَدِيدٖ﴾... ويُقالُ لِلرَّجُلِ الكَثِيرِ العَدَدِ: إنَّهُ لَيأْوِي إلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ، وفُلانٌ رُكْنٌ مِنْ أرْكانِ قَوْمِهِ؛ أي: شَرِيفٌ مِنْ أشْرافِهِم، وهُو يأْوِي إلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ؛ أي: عِزٍّ ومَنَعَةٍ، وفِي الحَدِيثِ أنَّه قالَ: «رَحِمَ اللّه لُوطًا إن كان لَيأْوِي إلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ» أي: إلَى اللّه ﷻ الَّذِي هُو أشَدُّ الأرْكانِ وأقْواها، وإنَّما تَرَحَّمَ عَلَيْهِ لِسَهْوِهِ حِينَ ضاقَ صَدْرُهُ مِنْ قَوْمِهِ حَتَّى قالَ: ﴿أَوۡ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكۡنٖ شَدِيدٖ﴾، أراد عِزَّ العَشِيرَةِ الَّذِينَ يَسْتَنِدُ إلَيْهِمْ، كَما يَسْتَنِدُ إلَى الرُّكْنِ مِنَ الحائِطِ"[2].

❁ المَعْنى الإجْمالِيُّ:

"بعد أن علِمَ قومُ لوطٍ عليه السلام بوجودِ هؤلاءِ الضِّيوفِ عند نبيِّهم، جاؤوا إليهِ مسرعين يسوقُ بعضُهم بعضًا إلى بيتِهِ من شدَّةِ الفرحِ، ومن قبلِ هذا المجيءِ كان هؤلاءِ القومُ الفَجَرَةُ، يرْتَكِبونَ السَّيِّئاتِ الكثيرةَ الَّتي من أقبحِها إتيانُهم الرِّجالَ شهوةً من دونِ النِّساءِ.

يجني الفُسّاقُ على أنفسِهم بأيديهم، ويمكرونَ بأنفسِهم من حيثُ لا يشعرون

(1) الراغب، المفردات: (أوى).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (ركن).

وعندما رأى تدافُعَهم نحو بيتِه لارتكاب الفاحشةِ الَّتي ما سبقَهم بها من أحدٍ من العالمين، قال لهم: يا قَوْم هؤلاءِ نساؤكم اللّائي بمنزلةِ بناتي، ارجعوا إليهنَّ، فاقضوا شهوتَكم معهنَّ، فهنَّ أطهرُ لكم نفسيًّا وحِسِّيًّا من التَّلوُّثِ بِرِجْسِ الفاحشةِ، واتَّقوا اللّه، ولا تجعلوني مَخْزيًّا مفضوحًا أمامَ ضيوفي بسَبَبِ اعتدائِكُم عليهم، فَرَدَّ قومُ لوطٍ بسفاهَةٍ ووقاحةٍ: لقد عَلِمْتَ علمًا لا شكَّ معَهُ، أنَّنا لا رغبةَ لنا في النِّساءِ، فقالَ لوطٌ ﷺ بعدَ أن رأى من قومِه الاستمرارَ في غَيِّهم، ولم يَقْدِرْ على دَفْعِهم على سبيلِ التَّفَجُّعِ والتَّحَسُّرِ: لو أنَّ معي قوَّةً أدْفَعُكم بها لبطَشْتُ بكم"[1]. فطمأنَهُ الملائكةُ بأنَّهم رسلُ اللّه تعالى وأنَّ القومَ الفاسقين لن يضرُّوهُ شيئًا، وأنَّ قومَهُ هالكونَ صُبْحًا، وأمروهُ أن يَخْرُجَ بأهْلِهِ ليلًا لينجوا، وألّا يلتفتَ منهم أحدٌ إلّا امرأتَهُ، فإنَّها هالِكَةٌ مع الهالكين.

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

معنى الواوِ ودلالتُها:

الواوُ تَحْتَملُ العطفَ وهو الظّاهِرُ، وتحتملُ الاستئنافَ

الواوُ في قولِه تعالى: ﴿وَجَآءَهُۥ قَوۡمُهُۥ يُهۡرَعُونَ إِلَيۡهِ﴾ تحتَملُ أن تكونَ عاطفةً أو استئنافيَّةً، فحَمْلُها على العَطْفِ هو الظّاهرُ؛ لأنَّه من عطْفِ الأحداث المتواليةِ بعضِها على بعضٍ في القصَّةِ الواحدةِ، وتحتملُ الاستئنافَ، فيكونُ النَّظمُ الكريمُ آخِذًا في نَقْلِ مشهدٍ جديدٍ بعد مشهدِ مجيءِ الملائكةِ لوطًا ﷺ فينتقلُ السِّياقُ إلى ذكْرِ مشهَدِ إقبالِ الفُسّاقِ إلى بيتِ لُوطٍ ﷺ وقد علموا أنَّ ضيوفًا من الرِّجالِ قد نزلوا بهِ، طلبًا للشَّهوةِ ورغبةً في المتعةِ.

بلاغةُ الإسنادِ المجازيِّ:

من غابَ عن الخطيئةِ وهو راضٍ عنها؛ فهو شريكٌ في الإثْم

في قولِه تعالى: ﴿وَجَآءَهُۥ قَوۡمُهُۥ يُهۡرَعُونَ إِلَيۡهِ﴾ أُسندَ المجيءُ إلى القوم، ولم يأتِ القومُ جميعًا لوطًا ﷺ بل "جاءَهُ بَعْضُ قَوْمِه، وإنَّما

(1) طنطاوي، التفسير الوسيط: 7/247، وما بعدها.

أُسْنِدَ المَجِيءُ إلَى القَوْمِ؛ لِأنَّ مِثْلَ ذَلِكَ المَجِيءِ دأْبُهم، وقد تَمالؤوا عَلَى مِثْلِهِ، فَإذا جاءَ بَعْضُهُمْ، فَسَيَعْقُبُهُ مَجِيءُ بَعْضٍ آخَرَ في وقْتٍ آخَرَ، وهَذا مِنْ إسْنادِ الفِعْلِ إلَى القَبِيلَةِ؛ إذا فعلَهُ بَعْضُها"[1].

ثمَّ إنَّ تَعْميمَ الفعلِ في ﴿وَجَآءَهُۥ قَوۡمُهُۥ﴾ يدلُّ على أنَّهم جميعًا متورِّطون في الفاحشةِ، وأنَّ من جاءَ، ومَن لم يَجِئْ في الرِّضا سواءٌ، وفي الإثم والجُرم سيّانِ، وبهذا الرِّضا عَمَّتِ العقوبةُ، ونالوا جميعًا الجزاءَ الوِفاقَ، وفي الحديث الصَّحيح: «إذا عُمِلَتِ الخَطِيئَةُ في الأرْضِ، فَمَنْ شَهِدَها، وأنْكَرَها؛ فَهُو كَمَنْ غابَ عَنْها، ومَنْ غابَ عَنْها، ورَضِيَها كَمَنْ شَهِدَها»[2].

طَوتِ الآيةُ ذِكْرَ غَرَضِهم لاشتهارِهم بِهِ

وقَدْ "طَوى القُرْآنُ ذِكْرَ الغَرَضِ الَّذي جاؤوا لِأجْلِهِ مَعَ الإشارَةِ إلَيْهِ بِقَوْلِهِ: ﴿وَمِن قَبۡلُ كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ﴾، فَقَدْ صارَتْ لَهُمْ دَأْبًا لا يَسْعَوْنَ إلّا لِأجْلِهِ"[3].

نكتةُ تَكرارِ الضَّمائرِ:

الخَونَةُ هُم من يتولَّى زمامَ المبادرةِ في الإبلاغِ عنِ الطّاهرينَ

الضَّمائرُ عواملُ رَبْطٍ للجملِ والتَّراكيبِ بربْطِها بمراجِعِها، ففي قولِه تعالى: ﴿وَجَآءَهُۥ﴾، وقوله: ﴿قَوۡمُهُۥ﴾، وقوله: ﴿إِلَيۡهِ﴾ تعودُ الضَّمائرُ إلى نَبِيِّ اللّه تعالى لوطٍ عليه السلام وكذا الضَّميرُ في ﴿يُهۡرَعُونَ﴾ يربِطُ الفعلَ بالقوم، وبهذا تتواثقُ روابطُ الكَلِم، ويشتدُّ وثاقُ التَّراكيبِ.

وسرُّ ذكرِ الضَّميرِ في قولِه تعالى: ﴿وَجَآءَهُۥ﴾ مع إمكانِ الاستغناءِ عنْهُ من حيثُ المعنى الإجماليُّ، فلو قيلَ: (فجاء قومُهُ يُهرعونَ إليهِ)؛ لصحَّ الكلامُ، لكنَّ ذِكْرَ الضَّميرِ له سِرٌّ، وهو الكشْفُ عن أنَّ مجيئَهُم كان مقصودًا به بيتُهُ عليه السلام فهم قد أتَوا عالمين بوجودِ الضِّيفان، وهذا يُنْبِئُ عن وجودِ خَونَةٍ تناقلوا الأخبارَ، حتَّى وصلَتْ إلى مجموعةٍ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/126.
(2) المعجم الكبير للطبراني: 17/139 الحديث رقم: (345).
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/126.

بعينها، فجاؤوه مسرعين، ولو لم يُذْكَرِ الضَّميرُ في ﴿وَجَآءَهُۥ﴾ لما تبيَّنَ هذا الملحظُ، ويُقوِّي هذا المعنى قولُه تعالى: ﴿يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ﴾.

بلاغةُ استعمالِ لفظِ ﴿يُهْرَعُونَ﴾ مادَّةً وصيغةً:

السُّلوكُ الشّاذُّ دليلُ الاضطرابِ النَّفسيِّ وأمارةُ الانفعالِ الحسِّيِّ

جاء لفظُ ﴿يُهْرَعُونَ﴾ بِضَمِّ الياءِ وفَتْحِ الرّاءِ عَلَى صِيغَةِ المَبْنِيِّ لِلْمَفْعُولِ، وهو مَشْيٌ شبيهٌ بِمَشْيِ المَدْفُوعِ، وهُو بَيْنَ الخَبَبِ والجَمْزِ، فَهُو لا يَكُونُ إلّا مَبْنِيًّا لِلْمَفْعُولِ؛ لِأَنَّ أَصْلَهُ مَشْيُ الأسِيرِ الَّذِي يُسْرَعُ بِهِ، وهَذا البِناءُ يَقْتَضِي أنَّ الهَرْعَ هُو دَفْعُ الماشِي حِينَ مَشْيِهِ إلّا أنَّ ذَلِكَ تُنُوسِيَ، وبَقِيَ أهْرَعَ بِمَعْنَى سارَ سَيْرًا كَسَيْرِ المَدْفُوعِ، ولِذَلِكَ قالَ جَمْعٌ مِنْ أهْلِ اللُّغَةِ: إنَّهُ مِنَ الأفْعالِ الَّتِي التَزَمُوا فِيها صِيغَةَ المَفْعُولِ؛ لِأنَّها فِي الأصْلِ مُسْنَدَةٌ إلَى فاعِلٍ غَيْرِ مَعْلُومٍ، وفَسَّرَهُ فِي الصِّحاحِ والقامُوسِ بِأنَّهُ الِارْتِعادُ مِنْ غَضَبٍ أوْ خَوْفٍ، وعَلَى الوجْهَيْنِ، فَجُمْلَةُ ﴿يُهْرَعُونَ﴾ حالٌ[1].

وتظهرُ بلاغةُ هذا الاستعمالِ في كونِ الفاعلِ في حكم المحذوفِ لفظًا، المعلوم دلالةً، والمادَّةُ تدلُّ على سَيْرٍ غيرِ قويمٍ، وفي الغالب أنَّ المؤثِّرَ في هذا السَّيرِ هو الاضطرابُ الدّاخليُّ الَّذي يعيشُه القومُ، فهم بمجرَّدِ وصولِ الخبر اتَّجهوا صَوْبَ لوطٍ عليه السلام يطلبونَ الغنيمةَ الباردةَ.

نكتةُ ذِكْرِ الضَّميرِ المفردِ لا الجمْعِ:

الصّالحونَ غايةُ كلِّ باطشٍ فاحشٍ

قُيِّدَ الفعلُ ﴿يُهْرَعُونَ﴾ بالجارِّ والمجرورِ ﴿إِلَيْهِ﴾ لا إلى الضَّيفِ وهم جمعٌ، حيثُ يُقوِّي ذلك أنَّ لوطًا عليه السلام هو مقصودُ قومِه بالمجيءِ، وإلّا لكانَ القيدُ بجمْعِ الضَّميرِ (إليهم) لا ﴿إِلَيْهِ﴾، وذلك يتَّسِقُ تمامَ الاتِّساقِ مع ذكْرِ ضميرِه عليه السلام في ﴿وَجَآءَهُۥ﴾، وكان يصحُّ ذِكرُ المجيءِ بدونِ الضَّميرِ، فيُقالُ: وجاءَ قومُهُ - كما سبقَ التَّنبيهُ - وبهذا يتناغمُ أوَّلُ الجملةِ مع آخرِها في أداءِ المعنى المقصودِ، ثَمَّ تأتي القرائنُ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/12.

التّاليةُ صارفةً نِيَّتَهم السُّوءَ عنه إلى أضيافهِ، فهم يقصدونَ الأذى له على وجهِ الخصوصِ، والَّذي يوحي بهِ السِّياقُ أنَّ قومَه أرادوا به سوءًا خاصًّا؛ إذ يشقُّ عليهم نهيَهم عن المُنكرِ الَّذي يُمارسونَهُ، فأرادوا الانتقامَ منهُ، كي لا يُعاوِدَ الكرَّةَ بعدَ الأخرى، ما علموا أنَّهم انتقموا من أنفسِهم.

معنى الواوِ وموقعُ الجملةِ:

الواوُ في قولِه تعالى: ﴿وَمِن قَبۡلُ﴾ حاليَّةٌ، وجملة ﴿كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ﴾ اعتراضيَّةٌ أو حاليَّةٌ، الغرضُ منها التَّذكيرُ بحالِ ماضيهم المخجِلِ؛ إذ السِّياقُ يطَّرِدُ بدونها، فلو قيل: (وجاءه قومُه، قال: يا قومي هؤلاءِ بَناتي). بإسقاطِ جملةِ: ﴿وَمِن قَبۡلُ كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ﴾؛ لكنَّها جملةُ اعتراضٍ تُذَكِّرُ بتاريخِهم المنْحَطِّ في تلك الفاحشةِ، وتُهيِّئُ لجملة: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطۡهَرُ لَكُمۡۖ﴾.

الرِّجالُ معادنُ فمن شبَّ على شيءٍ؛ شابَ عليهِ

معنى حرفِ (من):

حرفُ ﴿وَمِن﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿وَمِن قَبۡلُ﴾ للابتداءِ، وهو يستدعي البدايةَ المشؤومةَ، التي مارسَ فيها القومُ فَحْشاءَهُم، ففيها إشارةٌ إلى النِّهايةِ الأليمةِ التي عاينوها، وكابدوها، هي نهايةُ الطَّمْسِ، والخَسْفِ، والقَذْفِ بالحِجارَةِ، فهذا الحرفُ يمهِّدُ لذكرِ النِّهايةِ، إذ التَّذكيرُ بالبداياتِ تلويحٌ بالنِّهاياتِ.

التَّذكيرُ بالبداياتِ تلويحٌ بالنِّهاياتِ

دلالةُ تقديم الجارِّ والمجرور:

دلَّ تقديمُ القيدِ ﴿وَمِن قَبۡلُ﴾ على الفعلِ ومتعلَّقاتِه: ﴿كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ﴾، على أنَّ زمنَ عملِ السَّيِّئاتِ غيرُ مقيَّدٍ بزمنٍ محدَّدٍ، وليس من عنايةِ القرآنِ في مثل هذه الأحداثِ تعيينُ الأزمانِ؛ إذِ العبرةُ كامنةٌ في عَمَلِهِمُ السَّيِّئاتِ، لا في تعيين زمانِ بداياتِها، وتعيينُ البداياتِ التّاريخيَّةِ هو شأنُ أهلِ التَّنظيرِ، كما أنَّ هذا القيدَ يَلفِتُ إلى تأصُّلِ رذيلةِ المقدَّم - وهو الفِسقُ - فيهم، وتَمَكُّنِهِ منهم

من رحمةِ اللهِ سبحانه بعبادِهِ أنَّه يأخذُ المجْرِمَ إذا أصرَّ على فُحْشِهِ

منذُ قديم، "أيْ: لَمْ يَزَلْ هَذا منْ سَجِيَّتِهِمْ حَتَّى أُخِذُوا، وهُمْ عَلَى ذَلِكَ الحالِ"[1].

وقد قيل: إنَّ المقصودَ بالقيدِ ﴿وَمِن قَبْلُ﴾ هو قبلَ مجيءِ الرُّسلِ، وقيل: ﴿وَمِن قَبْلُ﴾ أي: قبلَ "بَعْثِ لوطٍ رسولًا إليهم كانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئاتِ، والمرادُ من ذِكْرِ عملِهِم السَّيِّئاتِ من قبلُ بيانُ أنَّهم اعتادوا المنكرَ، فلم يستحيوا، فلذلك أسرعوا لطلبِ الفاحشةِ من ضيوفهِ مظهرين غيرَ مكترثين، فالجملةُ معترضةٌ لتأكيدِ ما قبلَها"[2]. والقولانِ صحيحانِ؛ إذ الفاحشةُ كانت فيهم قَبْلَ بعثةِ لوطٍ عليه السلام ويدخلُ القولُ الآخرُ فيهِ.

سرُّ استعمالِ ﴿كَانُواْ﴾ مع استمرارِهم على ذلك الفعلِ:

التَّأصُّلُ في عملِ (السَّيِّئات) من دواعي نزولِ العقوبةِ

ذُكِر الفعلُ ﴿كَانُواْ﴾ ليُقرِّرَ أنَّهم متأصِّلونَ في الرَّذيلةِ، وأن حُبَّ الفاحشةِ قد تَمكَّن منهم، وأنَّ عملَ السَّيِّئات تجذَّرَ في أخلاقهم، و﴿كَانُواْ﴾ ولا يزالُ بدليل أنَّهم أتَوا يطلبونَ الأضيافَ بسوءٍ في فَرَحٍ ومَرَحٍ وسُرعةٍ وخِفَّةٍ، فـ "من قبلِ ذلك الوقتِ كانوا يعملون الفواحشَ ويكثِرُونها، فضرُّوا بها، ومَرَنُوا عليها، وقلَّ عندهم استقباحُها، فلذلكَ جاؤوا ﴿يُهْرَعُونَ﴾ مجاهرين، لا يكُفُّهُم حياءٌ"[3].

نكتةُ استعمالِ مفردةِ ﴿يَعْمَلُونَ﴾:

العملُ لا تُعرَفُ نتائِجُه مقدَّمًا، ونتائج الفعلِ والصُّنعِ يمكنُ أن تُعرَفَ مقدَّمًا

آثرَ النَّظمُ الكريمُ استعمالَ مفردةِ (عمل) في قولهِ تعالى: ﴿كَانُواْ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ﴾ دون مفردة (فعل) و(صنع)، وذلك لما في (العمل) من تأثيرٍ واضحٍ في المعمولِ، ولِما فيهِ من إبهام النَّتيجةِ بالنِّسبةِ للعامل، أمّا (الفعل)؛ فيكونُ قبلها مقدورًا[4]، سواءٌ كان عن سببٍ أم لا، و(الصُّنع) فيه ترتيبٌ وإحكامٌ، فيقتضي العلمَ بما

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/337.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 6/302.
(3) الزمخشريّ، الكشّاف: 2/413.
(4) العسكريّ، معجم الفروق اللغويّة، ص: 321، 377.

يكونُ أمّا العملُ؛ فليسَ فيهِ هذا ولا ذاك، بل يتميَّزُ بالتَّأثيرِ المفقودِ فيهما، وقومُ لوطٍ عليه السلام كانوا يَفسُقونَ، ويؤثِّرون بهمجيَّةٍ لا نظام لها ولا شرعيَّةَ توصِلُ إلى نتيجةٍ طيِّبةٍ.

سرُّ اختيارِ مفردةِ ﴿ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ﴾:

جاءت مفردةُ ﴿ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ﴾ جمعًا دونَ لفظِ (الفواحش)، وقد أفادت أنَّ هؤلاءِ القومَ مَوبوؤون بكلِّ سَيِّئَةٍ، ومن السَّيِّئاتِ الفواحشُ، وليست كلُّ سيئةٍ فاحشةً، فالسَّيِّئاتُ أعمُّ وأشملُ وأكثرُ تنوُّعًا؛ لذلك وصمَهُم الذِّكر الحكيمُ بعملِ السَّيِّئات عمومًا، وأنَّ فيهم أنواعَ السَّيِّئات الَّتي تخطرُ على البالِ، منها الفاحشةُ المعهودةُ، فليس الأمرُ مخصوصًا بها؛ إذ شأْنُ الفاحشةِ أن تُناديَ على أخواتِها.

من شأنِ الفاحشةِ أن تُناديَ على أخواتِها

وقد "عبَّرَ القرآنُ عن هذا المنكرِ الَّذي يَتعاطَونَهُ بالوصفِ المناسبِ لهُ، دون أن يُذْكَرَ اسمُهُ، تقزُّزًا لَهُ، وصيانةً للأفواهِ أن تتلفَّظَ بهِ، وللأسماعِ أن يقعَ عليها، ومن جهةٍ أخرى، فقد جاء القرآنُ بوصفهِ جمعًا، هكذا: "السَّيِّئات" للدَّلالةِ على أنَّه منكرٌ غليظٌ مركَّبٌ، وأنَّه ليس سَيِّئَةً، بل هو سَيِّئاتٌ، وليس مُنكرًا، بل هو منكراتٌ"[1].

معنى التَّعريفِ في لفظِ: ﴿ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ﴾:

(أل) في كلمةِ ﴿ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ﴾ إمّا أن تكونَ للعهد؛ أي: السَّيِّئاتُ الَّتي علمها المخاطَبُ، وهي الفاحشةُ القذرةُ الَّتي عُرِفَت بهم، وعُرفوا بها، وقد يُرادُ بتعريفِ ﴿ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ﴾ جِنْسُها؛ أي: كلُّ أنواعِ السُّوءِ، وحمْلُها على العموم الجنسيِّ أولى لدخولِ الفواحشِ فيها، ففي تعريفِها مع اختيارِ مادَّتِها إزْراءٌ عليهم، وتحقيرٌ لهم، وتعليلٌ وافٍ موجزٌ لأسبابِ هلاكِهم هذا الهلاكَ الفظيعَ الذي حلَّ بِهم.

(السَّيِّئات) عامَّةٌ، ويدخلُ فيها الفواحشُ

بلاغةُ الاستئنافِ البيانيِّ:

قولُه تعالى: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطۡهَرُ لَكُمۡۖ﴾ جملةٌ

(1) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 6/1178.

"مُسْتَأْنَفَةٌ بَيانِيًّا ناشِئًا عَنْ جُمْلَةِ ﴿وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ﴾، إذْ قَدْ عَلِمَ السّامِعُ غَرَضَهُمْ مِنْ مَجِيئِهِمْ، فَهُو بِحَيْثُ يَسْأَلُ عَمّا تَلَقّاهُمْ بِهِ"[1]؛ إذ يُثير ذِهْنَ المخاطَبِ سؤالٌ إزاءَ هذا الموقفِ المحرجِ العصيبِ: وما موقفُ لوطٍ عليه السلام من مجيئهم؟

من الكياسةِ وأسبابِ النَّجاةِ التَّعاملُ مع المعتدين بلباقةٍ

فيأتي الجوابُ: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطۡهَرُ لَكُمۡۖ﴾، فهو لا يَمْلِكُ لهم إلّا القولَ، وأنَّه لا حيلةَ لهُ في دفْعِهم وردِّهم عن الإيقاعِ بالأضيافِ سوى التَّلطُّفِ في إقناعِهم، يَفتحُ بذلك انفراجَةً لهذه الأزمة العظيمة الَّتي يواجهها، لكن هيهاتَ، وقد حُقَّ عليهم الهلاكُ أن يثوبوا إلى رشْدِهم.

غرَضُ استعمالِ أسلوبِ النِّداءِ:

من لا يُخجِلُهُ الكلامُ الطَّيِّبُ، يَلزَمُهُ العذابُ المُهلِكُ

في قولِه تعالى: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ﴾ "افْتِتاحُ الكَلامِ بِالنِّداءِ وبِأنَّهُمْ قَوْمُهُ تَرْقِيقٌ لِنُفُوسِهِمْ عَلَيْهِ؛ لِأنَّهُ يَعْلَمُ تَصَلُّبَهُمْ في عادَتِهِمُ الفَظِيعَةِ، كَما دَلَّ عَلَيْهِ قَوْلُهُمْ: ﴿لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنۡ حَقّٖ﴾ [هود: 79]"[2]، فمن شأنِ هذا النِّداء أن يخجِّلَ المنادَى إن لم يرقِّقْ قلبَهُ، ويُحَنِّنْهُ، لكن تبلُّدُ المشاعرِ لدى القوم الفاسقين بلغَ بهم في الانحطاطِ إلى أن يجيبوهُ بقولهم: ﴿لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنۡ حَقّٖ﴾.

إنَّ لوطًا عليه السلام يَتلطَّفُ بقومه، ويلينُ لهم المقالَ؛ إذ الوقتُ ليس للعنفِ، ولا يستطيعهُ، فالضُّيوفُ داخلَ بيتِه، وربَّما يسمعونَ الجلبةَ والضَّجيجَ، ولوطٌ عليه السلام إزاء هذا الحَرَجِ لا يملكُ سوى الملاطفَةِ، وتقديم الحلولِ، فلجأ إلى النِّداء بأداةِ البُعْدِ (يا) تطييبًا لخاطر هؤلاءِ الرُّعاعِ الغَوغائيِّينَ، لعلَّهم يرجعونَ، لكن دونَ جدوى.

فائدةُ نسبةِ القوم إلى ضميرِ المتكلِّم:

في إضافةِ لفظِ (قوم) إلى ضميرِ المتكلِّم في قولِه تعالى: ﴿قَالَ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/126.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/126.

قد يسمِّي الرَّجلُ القومَ أهلَهُ، وليس منهم؛ لحقِّ الجوارِ والمعايشةِ

﴿يَٰقَوۡمِ﴾ نوعُ تَحْنِينٍ لقلوبهم، وتقريبٍ لهم، فكأنَّه يقولُ: أنتم قومي، وقومُ الرَّجلِ لا يَخذُلونَهُ، ولا يُخْزونَهُ في ضيوفِهِ، وإلى مَن ألجأُ احتماءً منكم، والمفترَضُ أنَّكم حُماتي وقومي وعُزوتي؟ "سَمّاهُمْ قَوْمَهُ بِمَعْنَى: أهْلِ جِوارِهِ ووطَنِهِ الجَدِيدِ، وإنَّما هُو غَرِيبٌ جاءَ مَعَ عَمِّهِ مِنْ أوْرِ الكَلْدانِيِّينَ في العِراقِ"[1].

دلالةُ استعمالِ اسم الإشارةِ:

تقديمُ بدائلِ الإصلاحِ خيرٌ من مناورةِ الفُجّارِ

قولهُ تعالى: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِي﴾ يُوجِّهُ القومَ نحو البديلِ المسموحِ المشروعِ، البديلِ الطّاهرِ الذي تقتضيه النُّفوسُ القويمةُ والفِطرةُ المستقيمةُ، وهذا يُعلِّمُنا أن نَفْتَحَ أبوابَ الحلالِ لمن ندعوهم إلى إغلاقِ أبوابِ الحرام؛ لأنَّه أدعى للاستجابةِ، وهكذا فعلَ لوطٌ عليه السلام.

ويشيرُ عليه السلام إلى هذا البديلِ المشروعِ بالإشارةِ ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾؛ ليميِّزهنَّ أمامَ الأعينِ، و"لتنزيلهنَّ منزلةَ الحاضر"[2]، علَّهم يَرَوْنَ فيهنَّ البديلَ الأنسبَ والبيئةَ الأطهرَ، لكنَّ الطَّبعَ الخبيثَ غلبَهم، وعذابُ اللّه سبحانه حُقَّ عليهم، فأنَّى لهم النَّجاةُ؟

فائدةُ ذِكْرِ النِّساءِ باسم البَناتِ:

المُصلحونَ يُعاملون نِساءَ أقوامهم كبناتِهم

يُوحي استعمالُ مفردةِ البناتِ في جملة ﴿هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِي﴾ بالحنانِ بالنِّسبة للآباءِ، وبهذا يشيرُ لوطٌ عليه السلام للقوم الهارِعين أنَّه يُقدِّمُ لهم أغلى ما يمتلكُ ليأتوهُنَّ حلالًا، وينصرفوا عن الحرام، سواءٌ أرادَ بناتِهِ الصُّلبيّاتِ، فيزوِّجُهم بهنَّ، أو أرادَ نساءَ القوم وزوجاتِهم.

كما أنَّ لِلَفظِ (بَنَاتٍ) إغراءً جاذبًا بخلاف مفردةِ النِّساء؛ إذ البَناتُ ما زِلنَ يتمتَّعْنَ بالحيويَّةِ والجمالِ، ويمتلِكْنَ الرِّقَّةَ والبراءةَ والحياءَ، وهذا يُغْري الرِّجالَ، ويَجْذِبُهم إليهنَّ، أمّا النِّساءُ؛ فربَّما أثقلَتْهُنَّ أعباءُ الحياةِ، فيؤثِّرُ ذلك في حيويَّتِهنَّ وجمالِهنَّ، وربَّما

(1) رشيد رضا، تفسير المنار: 12/112.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 6/303.

ذهبَ ببعضِ رِقَّتِهِنَّ وحيائِهنَّ؛ لذلك آثرَ لوطٌ ﷺ في مقام الإغراءِ بالبديلِ الأطيبِ الـ (بَنَاتٍ) ولعلَّ هؤلاءِ الفسّاقَ ينشغلونَ عن إرادةِ الفاحشةِ بالأضيافِ بهنَّ.

مُشْكِلُ استعمالِ لفظِ البناتِ:

التَّزويجُ إنَّما يكونُ بعدَ تحقُّقِ شروطِهِ الشَّرعيَّةِ فهي دعوةٌ ضمنيَّةٌ للانكفافِ عنِ الحرام

استُشْكِل عَرْضُ لوطٍ ﷺ بناتِه على أولئكَ المُهْرِعين ليتزوجُوهُنَّ معَ القولِ بأنَّهم أكثرُ منهنَّ؛ إذ لا يُسوَّغُ القَولُ بِحِلِّ تزوُّجِ الجماعةِ بأقلَّ منْهُم في زمانٍ واحدٍ.

وقد أُجيبَ عن ذلك بثلاثةِ أجوبةٍ: "أحدُها: أنَّه كان في شريعةِ لوطٍ يجوزُ تزويجُ الكافرِ بالمؤمنَةِ، وكان هذا في صدر الإسلام جائزًا حتَّى نُسِخَ، قالَهُ الحَسَنُ.

الثّاني: أنَّه يزوِّجُهم على شَرْطِ الإيمانِ، كَما هو مشروطٌ بعقْدِ النِّكاحِ.

الثّالث: أنَّه قالَ ذلكَ ترغيبًا في الحلالِ، وتنبيهًا على المباحِ ودفعًا للبادِرَةِ من غيرِ بذْلِ نكاحِهنَّ ولا بخطبتِهنَّ"[1].

قالَ الزَّمخشريُّ: "ويجوزُ أن يكونَ عرْضُ البناتِ عليهم مبالغةً في تواضعِهِ لهم، وإظهارًا لشِدَّةِ امتعاضِهِ ممّا أوردُوا عليه، طمعًا في أن يستحيوا منْهُ، ويَرِقُّوا لَهُ - إذا سَمِعُوا ذلك - فيتركوا لهُ ضيوفَهُ مع ظهورِ الأمرِ واستقرارِ العلم عندَهُ، وعندهُم أن لا مناكحةَ بينَهُ وبينَهم، ومن ثمَّ قالُوا: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ﴾ مستشهدينَ بعلْمِهِ ﴿مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ﴾ لأنَّك لا ترى مناكَحَتَنا"[2].

والـ"ظاهرُ أنَّه ﷺ كان واثقًا بأنَّ قومَهُ لا يُؤْثِرُونَهُنَّ بوجهٍ ما، مهما أطرى وأطنبَ، وشوَّقَ، ورغَّب، فكان إظهارُهُ وقايةَ ضيفانِهِ وفداءَهُم بِهِنَّ، مع وُثُوقِهِ المذكورِ وجَزْمِهِ مبالغةً في الاعتناءِ بحمايتِهِم، وقيامًا

(1) الماوردي، النكت والعيون: 2/488.
(2) الزمخشري، الكشّاف: 2/414.

بالواجب في مثلِ هذا الخَطْبِ الفادِحِ الفاضِحِ الَّذي يدومُ عارُه وشنارُهُ، من الدِّفاع عنهم بأقصى ما يمكنُ لكيلا يُنسبَ إلى قصورٍ، ولِيعلمَ أن لا غايةَ وراء هذا لمن لا رُكْنَ لَهُ من عشيرةٍ أو قبيلةٍ، فذلكَ غايةُ الغاياتِ في حيطَتِهم ووقايَتِهم"[1].

بلاغةُ الحَذْفِ:

شأنُ التَّلويحِ بالمطلوبِ ليسَ كالتَّصريحِ بِهِ

عَرَضَ لوطٌ عليه السلام بناتِهِ على القوم قائلًا: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطۡهَرُ لَكُمۡۖ﴾؛ أي: فتزَوَّجُوهم، ولا يُتصوَّرُ خلافُ ذلك؛ لأنَّهُ يختمُ كلامَهُ بذِكْرِ الطُّهْرِ، والطُّهْرُ لا يكونُ إلّا مع الزَّواجِ، وسرُّ حذْفِ قوله: (فانكحوهن)؛ إذ تقديرُ الكلام: (هَؤُلاءِ بَناتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فانكحوهنَّ)؛ فلأنَّه معلومٌ لدى الجميعِ من سياقِ الآيةِ، ثمَّ لأنَّ المقامَ أضيقُ من ذكْرِ شيءٍ مفهومٍ، فالمجرمونَ يتَهجَّمونَ، ويتسوَّرونَ أسوارَ البيتِ، والتَّصريحُ بـ (انكحوهنَّ) فيه قهرٌ للوطٍ عليه السلام إذ شأنُ التَّلويح ليس كالتَّصريحِ، فهو لوَّحَ لهم بالنِّكاحِ، لكن لم يُطاوعْهُ لسانُهُ بذلكَ.

بلاغةُ التَّشبيهِ:

تَشبيهُ نساءِ القَوْمِ بالبناتِ من بابِ التَّحبيبِ والتَّرغيبِ

قد أضافَ لوطٌ عليه السلام البناتِ إليه على تقديرِ: (هنَّ مثلُ بناتي)؛ أي: هؤلاءِ نساؤهُنَّ كبناتي، وذلك أنَّ السِّياقَ يدلُّ على كثرةِ الهارعين إليهِ، فلا يُتصوَّرُ أن يكونَ عندَهُ بناتٌ على الحقيقةِ يكفينَ الهارِعينَ، فعليهِ تكونُ الإشارةُ إلى نساءِ قوم لوطٍ، وتنزيلُهن منزلةَ بناتِهِ تحبيبًا وترغيبًا، أو باعتبارِ عمرِهِ فهو كأبيهنَّ، "وكلُّ نَبيٍّ أبو أمَّتِهِ وهم أولادُهُ"[2]، وعن "سعيدِ بن جُبيرٍ: كانَ في بعضِ القرآن: النَّبيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وأزواجُهُ أمَّهاتُهم، وهو أبٌ لهم"[3].

(1) القاسمي، محاسن التأويل: 6/119.
(2) الماوردي، النكت والعيون: 2/488.
(3) الماوردي، النكت والعيون: 2/488.

والإضافةُ للإغراءِ بالبناتِ، وهو قد بلغَ من السِّنِّ أن ينزِّلهنَّ منزلةَ بناتِهِ، ثمَّ إنَّهُ عندَهم رجلُ دينٍ مستقيمٌ إن لم يكن نبيًّا، ومن لوازم ذلك أنَّ ما يضافُ إليه يتَّسِمُ بالطُّهْرِ، ولذلك قال ﴿هُنَّ أَطۡهَرُ لَكُمۡۖ﴾ ترغيبًا لهم وتحبيبًا.

"قال مُجاهِد: لم يكُنّ بناتِهِ، ولكِن كُنّ من أمّتِهِ، وكُلُّ نبِيّ أبُو أمّتِه... قال ابنُ جُريج: أمرهُم أن يتزوّجُوا النِّساء، ولم يعرِض عليهِم سِفاحًا"[1]. فـ "المُرادُ نِساءُ أُمّتِهِ؛ لِأنّهُنّ في أنفُسِهِنّ بنات، ولهُنّ إضافة إليهِ بِالمُتابعةِ وقبُولِ الدّعوةِ، قال أهلُ النّحوِ: يكفِي في حُسنِ الإضافةِ أدنى سبب؛ لِأنّهُ كان نبِيًّا لهُم، فكان كالأبِ لهُم، قال تعالى: ﴿وَأَزۡوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمۡۗ﴾ [الأحزاب: 6]، وهُو أب لهُم، يقولُ الرّازيُّ: وهذا القولُ عِندِي هُو المُختارُ، ويدُلُّ عليهِ وُجُوه: الأوّلُ: أنّ إقدام الإنسانِ على عرضِ بناتِهِ على الأوباشِ والفجّارِ أمر مُستبعد لا يلِيقُ بِأهلِ المُرُوءةِ، فكيف بِأكابِرِ الأنبِياءِ؟"[2].

بلاغةُ التَّغليبِ:

ذِكْرُ البَناتِ تغليبٌ لهنَّ على النِّساءِ بقصْدِ التَّحبيبِ والتَّقريبِ

لا شَكَّ أنَّ نساءَ القوم أغلبُ وأكثرُ من بنتَيْهِ ﷺ لكنَّهُ أطلقَ على نساءِ القريةِ ﴿بَنَاتِي﴾ من باب التَّغليبِ إغراءً للقوم، والقومُ تُطلَقُ غالبًا على الرِّجالِ دونَ النِّساءِ بدليلِ قولِهِ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّۖ﴾ [الحجرات: 11]، فغَلَّبَ صفةَ بناتِهِ الصُّلْبِيّاتِ على نساءِ القريةِ جمعاواتٍ ترغيبًا للقوم الفاسقين في العودةِ إلى أزواجِهنَّ، وجازَ لهُ إطلاقُ ﴿بَنَاتِي﴾ عليهنَّ لبلوغِهِ في السِّنِّ مستوى آبائِهنَّ.

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/337.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 18/379.

نكتةُ مجيءِ اسم التفضيل مع انتفاءِ المفاضلَةِ:

صيغةُ التَّفضيلِ مسلوبةُ المفاضلةِ استُعملَتْ لِلْمُبالغةِ بالطُّهرِ

في وصف لوطٍ لبناتِه ﷺ بأنَّهنَّ ﴿أَطْهَرُ﴾ إقرارٌ بطُهْرِ فاحشةِ القوم الفاسقين، وذلكَ غيرُ مُرادٍ قطعًا، لكنَّه ﷺ عبَّرَ بأفعلِ التَّفضيلِ ﴿أَطْهَرُ﴾ جريًا على رغبَتِهم الآثمةِ وفاحشتِهم الذَّميمةِ الَّتي يعشقونها، ويتعلَّقون بها، ففي أفعلِ التَّفضيلِ ﴿أَطْهَرُ﴾ تدرُّجٌ بهم منَ النَّجاسةِ إلى الطَّهارة، ومن القُبْحِ إلى الحُسْنِ، وكأنَّهُ يقول لهم: إن كان ما تفعلونَهُ حبيبًا لكم طاهرًا عندكم، فبناتي أطْهَرُ.

قال القُرطُبيُّ: "لَيْسَ ألِفُ ﴿أَطْهَرُ﴾ لِلتَّفْضِيلِ حَتَّى يُتَوهَّمَ أنَّ في نِكاحِ الرِّجالِ طَهارَةً، بَلْ هُو كقولك: اللّه أكْبَرُ، وأعْلَى، وأجَلُّ، وإنْ لم يكن تفضيلٌ، ولَمْ يُكابِرِ اللّه تعالى أحَدٌ حَتَّى يَكُونَ اللّه تعالى أكْبَرَ منْهُ، وقَدْ قالَ أبُو سُفْيانَ بْنُ حَرْبٍ يَوْمَ أُحُد: اعْلُ هُبَلُ اعْلُ هُبَلُ، فَقالَ النَّبِيُّ ﷺ لِعُمَرَ: «قُلِ: اللّه أعْلَى وأجَلُّ». وهُبَلُ لَمْ يَكُنْ قَطُّ عالِيًا، ولا جَلِيلًا"[1].

و"في قوله ﷻ: ﴿هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾ منَ التَّشويقِ على مرأًى من ضيفانِه ومسمَعٍ ما فيهِ من زيادةِ الكرم والإكرام ورعايةِ الذِّمام، وبالجملةِ فهو ترغيبٌ بِمُحالِ الوقوعِ باطنًا، وإعذارٌ لنُزَلائِهِ ظاهرًا"[2]، "كقولكَ: الميتةُ أطيبُ من المغصوبِ وأحلُّ منهُ، ويرادُ منَ الطَّهارةِ على الأوَّلِ الطَّهارةُ الحسِّيَّةُ: وهي الطَّهارةُ عمّا في اللِّواطةِ من الأذى والخُبثِ، وعلى الثاني الطَّهارةُ المعنويَّةُ: وهو التَّنَزُّهُ عنِ الفُحْشِ والإثْمِ، وصيغةُ أفعلَ في ذلك مجازٌ"[3]، فـ "اسْمُ التَّفْضِيلِ مَسْلُوبُ المُفاضَلَةِ قُصِدَ بِهِ قُوَّةُ الطَّهارَةِ"[4]، و"المبالغةُ في الطُّهْرِ"[5].

(1) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 9/76.
(2) القاسمي، محاسن التأويل: 6/119.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 6/303.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/127.
(5) طنطاوي، التفسير الوسيط: 7/249.

بلاغةُ ذكرِ قيدِ ﴿لَكُمۡۖ﴾:

لا شَكَّ أنَّ نكاحَ النِّساءِ أطهرُ للقوم ولغيرِهم، لكنَّهُ ﷺ وهو بمعرضِ إغرائِهم على تَرْكِ الرَّذيلةِ يُكثِّفُ عناصِرَ الجذْبِ نحو الحَلالِ المشْروعِ، فبعدَ أن أغراهم بالأطْهَرِ تمَّمَ لهم الإغراءَ بذِكْرِ قَيْدِ ﴿لَكُمۡۖ﴾ في جملةِ ﴿هُنَّ أَطۡهَرُ لَكُمۡۖ﴾ ظاهرُهُ التَّخصيصُ، وكأنَّ طُهْرَ الزَّوجاتِ أطْهَرُ لهؤلاءِ بِخاصَّةٍ، فساقَ النَّظمُ كلَّ ذلك الحشْدِ من الخصائِصِ التَّركيبيَّةِ المؤثِّرةِ لبيانِ حرصِ لوطٍ ﷺ على ثَنْيِهم عن الفاحِشَةِ، ويجذبُ قلوبَهُم نحو الزَّوجاتِ، ولكن دونَ جَدوى.

من تمكَّنَ الفجورُ من قلبِهِ لم يُغرِهِ خطابُ الأكرمينَ

موقعُ جملةِ ﴿هُنَّ أَطۡهَرُ لَكُمۡۖ﴾ من السّابقِ:

فُصِلَتْ جملةُ ﴿هُنَّ أَطۡهَرُ لَكُمۡۖ﴾ عن جملةِ ﴿هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِي﴾، إمّا على جعلِها استئنافًا بيانيًّا، على افتراضِ وجودِ سؤالٍ: لماذا نَنْكِحُهنَّ؟ فيأتي الجوابُ؛ لأنَّهنَّ أطهرُ لكم، فانكحوهُنَّ، "فجُمْلَةُ ﴿هُنَّ أَطۡهَرُ لَكُمۡۖ﴾ تَعْليلٌ لِلْعَرْضِ"[1]، ويصحُّ أن تكونَ حاليَّةً، والعاملُ فيها معنى الإشارةِ؛ أي: انكحوهُنَّ فحالهُنَّ الطُّهرُ.

تعليلُ النِّكاحِ بالطُّهرِ لا الفُحشِ

معنى حرفِ الفاءِ:

أفادتِ الفاءُ في قولِهِ تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ التَّفريعَ؛ أي: تفريعَ الأمرِ بالتَّقوى على الأمرِ بنكاحِ البَناتِ، وتحتملُ أن تكونَ فصيحةً؛ أي: إن كنتُم تريدونَ النَّجاةَ؛ فاتَّقوا اللّه.

تقوى الله أصلُ النَّجاةِ والفوزِ عندَه تعالى

غرَضُ الأمرِ:

غرضُ الأمرِ في خطابِ لوطٍ ﷺ قومَهُ: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ التَّوجيهُ والنُّصح والإرشادُ؛ لأنَّه وإن كان أمرًا مطلوبًا به الامتثالُ والتَّنفيذُ غير أنَّه غيرُ صادرٍ من الأقوى الأقهرِ، وليس أمرًا على سبيلِ الإلزامِ والقهرِ للمأمورِ، ولو كان لوطٌ ﷺ يَمْلِكُ القوَّةَ الظّاهرةَ الَّتي تُرغِمُهم

يَجْتَمعُ النُّصْحُ والإرشادُ مع التَّهديدِ والوعيدِ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/127.

على تنفيذ فعلِ التَّقوى؛ لكان أمرًا حقيقيًّا؛ لأنَّه صادرٌ حينئذٍ من الأعلى إلى الأدنى.

وبالإضافةِ إلى التَّوجيهِ والنُّصحِ والإرشادِ، ففيهِ معنى التَّهديدِ والوعيدِ، "فذِكْرُ اللّه ﷻ تخويفٌ لهم، وتهديدٌ بقوَّةِ اللّه ﷻ إن لم يَتَّقُوهُ، ويستقيموا على طريقِ المؤمنين"[1].

نكتةُ إيثارِ ذِكْرِ لَفْظِ الجلالةِ:

مقامُ التَّرهيبِ والتَّشريعِ يتناسَبُ مع لَفْظِ الجَلالةِ

المقامُ في قولِهِ تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ مقامُ تخويفٍ وتحذيرٍ وحَمْلٍ على الفِعْلِ رهبةً؛ لذلكَ ذكَّرهُم لوطٌ عليه السلام باسم الجلالةِ ﴿ٱللَّهَ﴾ دونَ لفظِ الرَّحمةِ (الرحمن) أو (الرحيم)، وفرقٌ بين مقام الإغراءِ باسم (الرحمن) وبين مقام التَّخويفِ باسم الجلالةِ ﴿ٱللَّهَ﴾، وكذلك فالمقامُ مقامُ أمرٍ ونهيٍ وبيانِ التَّشريعِ، وهذا يلائمُهُ عنوانُ الألوهيَّةِ، والمقامُ هنا جللٌ لا يَحْتَملُ التَّرغيبَ؛ لأنَّهم فاسقون يتهجَّمونَ على ضيفِهِ عليه السلام ويقصدونهم بسوءٍ.

فائدةُ عَطْفِ النَّهي على الأمْرِ:

النَّهيُ بعدَ الأمْرِ بيانٌ وتعيينٌ للمطلوبِ

نهى لوطٌ عليه السلام قومَه بقولِه: ﴿وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِيٓۖ﴾ بعد أن أمرَهم بقوله: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ لتقويةِ دفاعِهِ عن ضيفِهِ، وتأكيدِ ردِّهِ إيّاهم بجملةٍ فيها استعطافٌ لهم، وجاءت جملةُ النَّهي ﴿وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِيٓۖ﴾ معطوفةً على جملة ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ للتوسُّطِ بين الكمالين، فقد اتَّحدتا في الإنشائيَّةِ: الأولى أمرٌ والثانيةُ نهيٌ، وغرضهما واحدٌ، وهو محاولةُ ثني القوم الفاسقين عن جريمتِهم، والأولى: تتعلَّق بحقِّ اللّه تعالى عليهم، والأخرى: تتعلَّق بحقِّ لوطٍ عليه السلام عليهم، فهُم قومُهُ، والضَّيفُ ضيفُهُ، فلا هم امتثلوا لحقِّ اللّه ﷻ ولا هم احترموا حقَّ الضَّيفِ، فبئسَ القومُ الفاسِقونَ!

(1) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 6/1179.

نكتةُ استعمالِ مُفردةِ ﴿تُخْزُونِ﴾:

آثرَ النَّظمُ استعمالَ مفردةِ ﴿تُخْزُونِ﴾ دون (تهينونِ)؛ لِما فيها من استخفافٍ يُلحِقُ بالنَّفسِ الانكسارَ والهوانَ، فلا يليقُ أن يُلْحَقَ بِرَجُلٍ وقورٍ مثلِ لوطٍ عليه السلام ذلك، فهو يُحاولُ أن يُخْفِيَ عن الأضيافِ نِيَّةَ القومِ، ولكنَّ ضجيجَ القومِ وضَوضائِيَّتَهُم وضعَهُ عليه السلام موضِعَ المتحيِّرِ، ولا يدري ما يفعلُ، ولِلْفعلِ ﴿تُخْزُونِ﴾ معانٍ "أحدُها: لا تُذِلُّوني بعارِ الفَضيحَةِ، ويكونُ الخِزْيُ بمعنى الذُّلِّ، الثّاني: لا تُهْلِكُوني بعواقبِ فَسادِكم، ويكونُ الخِزْيُ بمعنى الهَلاكِ. الثّالث: أنَّ معنى الخِزْيِ ها هنا الاستحياءُ، يقالُ: خَزِيَ الرَّجُلُ؛ إذا استحى"[1].

الخِزْيُ أخصُّ من الإهانةِ فهو استخفافٌ وعارٌ يلحَقُ بأهلِ الصَّلاحِ

فالخِزْيُ أخصُّ من الإهانَةِ؛ لأنَّهُ استخفافٌ يُلحِقُ بالإنسانِ الذُّلَّ والانكسارَ أمامَ مَن يقدِّرونَهُ ويحترمونَهُ، أمّا الإهانةُ فَتَشْمَلُ ذلك، وتَزيدُ ما يُلحِقُهُ في نفسِه مستورًا عن النّاس.

معنى حرفِ الظَّرفيَّةِ ودلالتُه:

استُعْمِلَ حَرْفُ الظَّرفيَّةِ في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِيٓۖ﴾ لِلظَّرْفِيَّةِ المَجازِيَّةِ؛ حَيْثُ جَعَلَ الضَّيْفَ كالظَّرْفِ؛ أيْ: لا تَجْعَلُوني مَخْزِيًّا عِنْدَ ضَيْفِي؛ إذْ يَلْحَقُهُمْ أذًى في ضِيافَتِي؛ لِأنَّ الضِّيافَةَ جِوارٌ عِنْدَ رَبِّ المَنْزِلِ، فَإذا لَحِقَتِ الضَّيْفَ إهانَةٌ؛ كانَتْ عارًا عَلَى رَبِّ المَنْزِلِ"[2].

توقيرُ المُضيفِ أمامَ ضَيفِهِ خصيصةُ المتَّقين

إطلاقُ الضَّيفِ وإرادةُ الأضيافِ:

و"الضَّيفُ هاهنا قائِمٌ مَقامَ الأضْيافِ، كَما قامَ الطِّفْلُ مَقامَ الأطْفالِ"[3]، وذِكْرُ الضَّيفِ لإفادةِ العمومِ والاستغراقِ والإشعارِ بالمعنى الَّذي يستصحبهُ الضَّيفُ من الإكرام، ولو قال: أضيافي، لَتَمَحَّضَ في أشخاصِهم.

(1) الماوردي، النكت والعيون: 2/489.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/128.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 18/379.

غرضُ الاستفهام:

الاستفهامُ إمّا أن يُحمَلَ على التَّمنِّي أو الإنكارِ أو التَّعجُّبِ

الاستفهامُ في قولِه تعالى: ﴿أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ﴾ محمولٌ على التَّمنِّي أو الإنكارِ والتَّوبيخِ أو التَّعجُّبِ، أمّا التَّمني؛ فحيثُ تمنَّى لوطٌ عليه السلام أن لو كان في قومِه "رَجُلٌ رَشيدٌ ليدفَعَ عن أضيافِه، وقال ذلك تعجُّبًا من اجتماعِهم على المنْكَرِ"[1]، والرَّجُل الرَّشيدُ "يهتدي إلى الحقِّ الصَّريحِ، ويَرْعَوِي عن الباطلِ القبيحِ"[2]، "فِيهِ خَيْرٌ، يَقْبَلُ ما آمُرُهُ بِهِ، ويَتركُ ما أنهاهُ"[3].

أو أن يُحمَلَ الاستفهامُ على الإنكارِ والتَّوبيخ؛ "لِأنَّ إهانَةَ الضَّيْفِ مَسَبَّةٌ لا يَفْعَلُها إلّا أهْلُ السَّفاهَةِ"[4].

أو أن يكونَ "الاستفهامُ للتَّعجُّبِ، وحَمْلُهُ على الحقيقةِ لا يُناسِبُ المقامَ"[5].

نكتةُ استعمالِ حرفِ (من) دون (في):

الرَّشيدُ المطلوبُ لإيجادِ المفارقةِ واحدٌ

"قَوْلُهُ: ﴿مِنكُمْ﴾ بِمَعْنَى: (بَعْضُكُمْ)، أنْكَرَ عَلَيْهِمْ تَمالُؤَهُمْ عَلَى الباطِلِ وانعدامَ رَجُلٍ رَشِيدٍ مِنْ بَيْنِهِمْ، وهَذا إغْراءٌ لَهُمْ عَلَى التَّعَقُّلِ؛ لِيَظْهَرَ فِيهِمْ مَنْ يَتَفَطَّنُ إلَى فَسادِ ما هُمْ فِيهِ فَيَنْهاهُمْ، فَإنَّ ظُهُورَ الرَّشِيدِ في الفِئَةِ الضّالَّةِ يَفْتَحُ بابَ الرَّشادِ لَهُمْ، وبِالعَكْسِ تَمالُؤُهُمْ عَلَى الباطِلِ يَزِيدُهُمْ ضراوةً بِهِ"[6]. وجاء بحرفِ التَّبعيضِ دون الظَّرفيَّةِ في قولِه تعالى: ﴿أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ﴾؛ لبيانِ أنَّ المطلوبَ واحدٌ لا أكثرُ، ففيهِ همْزٌ لمشاعرِهم لو كانوا من أهلِ الشُّعورِ!

(1) الماوردي، النكت والعيون: 2/489.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/228.
(3) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/337.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/129.
(5) الآلوسي، روح المعاني: 6/304.
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/129.

غرضُ التَّنكيرِ وسرُّ الوصفِ:

الرَّشيدُ يحقِّقُ توازنَ المجتمعِ وإن كانَ واحدًا

قوله: ﴿رَجُلٌ رَّشِيدٌ﴾ "يعني: أنصارًا، وقال ابن عباس: أرادَ الولدَ"[1]، "رَشِيدٌ بِمَعْنَى: مُرْشِدٍ؛ أيْ: يَقُولُ الحَقَّ، ويَرُدُّ هَؤُلاءِ الأوْباشَ عَنْ أضْيافِي. أو بِمَعْنَى: مُرْشَدٍ، والمَعْنَى: ألَيْسَ فِيكُمْ رَجُلٌ أرْشَدَهُ اللّه تعالى إلَى الصَّلاحِ، وأسْعَدَهُ بِالسَّدادِ والرَّشادِ حَتَّى يَمْنَعَ عَنْ هَذا العَمَلِ القَبِيحِ، والأوَّلُ أوْلَى"[2]، أو المعنى: "رجلٌ واحدٌ يهتدي إلى سبيلِ الحقِّ وفِعْلِ الجَميلِ، والكفِّ عن السُّوءِ"[3].

فغَرَضُ التَّنكيرِ هو تعظيمُ هذا الرَّجلِ وإبهامُهُ، بقطْعِ النَّظرِ عن أصْلِه أو انتمائِه، وخصَّهَ بصفَةِ رشيدٍ؛ لأنَّ المطلوبَ في هذا الموقفِ الرُّشْدُ، فقد يكون تقيًّا لكنَّه ضعيفٌ، بخلافِ الرَّشيدِ، فهو صاحِبُ حكمةٍ وقوَّةٍ.

عِلَّةُ الفَصْلِ:

"فُصِلَتْ جُمْلَةُ ﴿قَالُواْ لَقَدْ عَلِمْتَ﴾ عَنِ الَّتِي قَبْلَها لِوُقُوعِها مَوْقِعَ المُحاوَرَةِ مَعَ لُوطٍ عليه السلام"[4]؛ أي: فُصِلَت للاستئناف البيانيِّ؛ لأنَّها بمنْزِلَةِ جوابِ سؤالٍ عن ردِّهِم على عرْضِ لوطٍ عليه السلام عليهم؟ فيأتي الجوابُ: ﴿قَالُواْ لَقَدْ عَلِمْتَ﴾.

غرضُ التَّوكيدِ:

استعمالُ الخبرِ في لازمِ الفائدةِ لبيانِ إصرارِ الفُجّارِ

لا يوجدُ كلامٌ - فيه من المسكنَةِ والملاطفَةِ والانكسارِ لِيُقالَ لفاسقٍ مُتسلِّطٍ - أشقُّ على نفوسِ الرِّجالِ من قولِه عليه السلام لقومه: ﴿وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِيٓۖ﴾، ولا أخسُّ من ردِّهِم عليه بصفاقةٍ حين قالوا: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ﴾.

و"في تصديرِ كلامهم باللّام المؤذِنةِ بأنَّ ما بعدَها جوابُ القَسم؛

(1) الماوردي، النكت والعيون: 2/490.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 18/380.
(3) الزمخشري، الكشّاف: 2/414.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/129.

أي: واللّه لقد علمْتَ إشارةٌ إلى أنَّه كان واثقًا وجازمًا بعدم رغبتِهم فيهنَّ"[1]. والقسمُ توكيدٌ، فالقومُ مُصِرُّونَ على تنفيذِ جريمتِهم النَّكراءِ، "فَأُكِّدَ بِتَنْزِيلِهِ مَنْزِلَةَ مَنْ يُنْكِرُ أَنَّهُ يَعْلَمُ؛ لِأَنَّ حالَهُ في عَرْضِهِ بَناتِهِ عَلَيْهِمْ كَحالِ مَنْ لا يَعْلَمُ خُلُقَهُمْ، وكَذَلِكَ التَّوْكِيدُ في ﴿وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾، وكِلا الخَبَرَيْنِ مُسْتَعْمَلٌ في لازِمِ فائِدَةِ الخَبَرِ؛ أيْ: نَحْنُ نَعْلَمُ أنَّكَ قَدْ عَلِمْتَ ما لَنا رَغْبَةٌ في بَناتِكَ، وإنَّكَ تَعْلَمُ مُرادَنا"[2].

دلالةُ استعمالِ لفظِ العلم مادَّةً وصيغةً:

التَّذكيرُ بعلْمِهم لبيانِ إصرارِهم على طَلبِهم

دلَّ استعمالُ (عَلِم) في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ﴾ بالفعلِ الماضي على وجودِ العِلم سابقًا، وهم يذكِّرونَهُ بإصرارِهم المتكرِّرِ، كأنَّهم قالوا: لا تَعُدْ لِنَهْينا عن أمرٍ لا مناصَ منهُ عندنا، وهذا في غايةِ الوقاحَةِ والكِبْرِ والغَطْرَسَةِ في مخالفةِ الفطرةِ والدِّين والأخلاقِ والعنادِ عليها.

معنى ﴿مَا﴾ في الآيةِ:

"﴿مَا﴾ الأُولَى ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا﴾ نافِيَةٌ مُعَلِّقَةٌ لِفِعْلِ العِلْمِ عَنِ العَمَلِ، فجاءت ﴿مَا﴾ لنفي رغبةِ قوم لوطٍ عليه السلام في طريق الطُّهرِ والسُّلوكِ القويم في الحياةِ، فيما يتعلَّقُ بجانبِ الوطْءِ.

دلالةُ الإضافةِ:

تمامُ الاستغناءِ عن أمرِ اللهِ كمالٌ في استنزالِ عقوبتِهِ

أضافَ الفُسّاقُ البناتِ إلى لوطٍ عليه السلام في مقابلةِ إضافتِهِ هو إيّاهنَّ إليهِ حينَ قال: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِي﴾، فقالوا: ﴿مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ﴾، وفي ذلكَ من التَّهكُّم والصَّفاقةِ ما فيهِ، وهو كنايةٌ عن سوءِ أدبِهم مع نبيٍّ يدعوهم إلى الطُّهْرِ والفضيلةِ، فلسانُ حالِهم يقول: بناتُك لكَ، ولا حاجةَ لنا بهنَّ.

(1) القاسمي، محاسن التأويل: 6/120.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/129.

بلاغةُ الكنايةِ:

طبائعُ الصّالحين تُنافِرُ طبائعَ الفاسقين

يريدُ القومُ في قولهم: ﴿مِنْ حَقٍّ﴾ "أنَّكَ دَعَوْتَنا إلَى نِكاحِهِنَّ بِشَرْطِ الإيمانِ، ونَحْنُ لا نُجيبُكَ إلَى ذَلِكَ، فَلا يَكُونُ لَنا فِيهِنَّ حَقٌّ"[1]، أو "المرادُ بالحقِّ هنا الرَّغبةُ والشَّهوةُ"[2]، وذلك الرَّدُّ "يدلُّ دلالةً واضحةً على أنَّهم قد بلغوا النِّهايةَ في الخُبْثِ والوقاحةِ وتَبَلُّدِ الشُّعورِ"[3]، ففيهِ كِنايةٌ بليغةٌ عن زُهدِهم التامِّ وعدم تعلُّقِهم البتَّةَ بجنسِ النِّساء، و"الحَقُّ... أُطْلِقَ هُنا كِنايَةً عَنْ عَدَمِ التَّعَلُّقِ بِالشَّيْءِ وعَنِ التَّجافي عَنْهُ، وهُو إطْلاقٌ لَمْ أرَ مثلَهُ، وقد تحيَّرَ المُفَسِّرُونَ في تَقْرِيرِهِ، والمَعْنَى: ما لَنا في بَناتِكَ رَغْبَةٌ"[4].

"وقيل: لما اتَّخذوا إتْيانَ الذُّكْرانِ مَذْهبًا ودينًا لتواطُئِهم عليهِ؛ كان عندَهُم أنَّه هو الحقُّ، وأنَّ نكاحَ الإناثِ منَ الباطِلِ، فلذلك قالوا: ما لَنا في بناتِكَ من حقٍّ قَطُّ؛ لأنَّ نِكاحَ الإناثِ أمرٌ خارِجٌ من مذهَبِنا الَّذي نحنُ عليهِ، ويجوزُ أن يقولوهُ على وجهِ الخَلاعَةِ"[5].

بلاغةُ عَطْفِ الجملِ:

المسلمُ نافِذُ الرُّؤيَةِ، يَعلمُ أخْلاقَ النّاسِ عَلى طَبيعَتِها

عَطَفَ القومُ جملةَ ﴿وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ﴾، وهي مُقَرِّرَةٌ لمضمونِ الجملةِ الأولى ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ﴾؛ لأنَّ كلتيهما تُقرِّرانِ عِلْمَهُ بشيءٍ، فالأولى تقرِّرُ علمَهُ بتمام زُهْدِهم في النِّساء، والثّانيةُ تقرِّرُ عِلْمَهُ بتمام رغبَتِهم في الفَحْشاءِ، والأُولى تَقرِّرُ علمَهُ السّابقَ، والثّانيةُ تقرِّرُ علمَهُ الحاليَّ، وبذلك يقطَعونَ عَليهِ طريقَ المحاولَةِ، ويؤكِّدونَ لَهُ إصرارَهُم عَلى المُضِيِّ في وجهتِهِم المقيتةِ.

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 18/380.
(2) طنطاوي، التفسير الوسيط: 7/249.
(3) طنطاوي، التفسير الوسيط: 7/250.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/130.
(5) الزمخشري، الكشّاف: 2/411.

غرَضُ التَّوكيدِ:

الفاجِرُ لا يَرْعَوي عن أن يجاهِرَ بفُجورِهِ

التَّوكيدُ في قولِهِ تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾ يهدفُ إلى تَثبيطِ عزيمتِهِ ﷺ وثنْيِهِ عن نُصْحِهِم، إذِ النُّصْحُ ثقيلٌ عليهم، ولا يودُّون أن يَسمَعوهُ أصْلًا، فَأكَّدوا بإنَّ، واسميَّةِ الجملةِ، ولام التَّوكيدِ، وصيغةِ المضارعةِ الَّتي تُفيدُ حضورَ عِلمِهِ ﷺ بفضائِحهم الماضيةِ، وكمالَ علمِهِ بما يريدونَ الآنَ.

معنى ﴿مَا﴾ ودلالتُها:

(مـــا) بمعنى الموصوليَّةِ كنايةٌ عن طلبِ الفعلِ الشَّنيعِ

﴿مَا﴾ في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾ "مفعولٌ لـ﴿لَتَعْلَمُ﴾، وهو بمعنى تعرِفُ، وهي موصولةٌ، والعائدُ محذوفٌ؛ أي: الَّذي نريدُه، وقيل: إنَّها مصدريَّةٌ، فلا حذْفَ؛ أي: إرادتُنا، وجُوِّزَ أن تكونَ استفهاميَّةً وقعتْ مفعولًا لـ ﴿نُرِيدُ﴾ وهي حينئذٍ معلَّقةٌ ﴿لَتَعْلَمُ﴾"[1].

وفي حَمْلِها على الاسم الموصولِ، فهي كِنايةٌ عن فِعلتِهم الشَّنيعةِ؛ أي: إنَّك تعلمُ جيِّدًا رغبتَنا في "نكاحِ الذُّكورِ"[2]، وأنَّنا "لَيْسَ لَنا غَرَضٌ إلّا في الذُّكُورِ، وأنْتَ تَعْلَمُ ذَلِكَ، فَأيُّ حاجَةٍ في تَكْرارِ القَوْلِ عَلَيْنا في ذَلِكَ؟"[3].

نكتَةُ استعمالِ المضارعِ:

الـفُـسّـاقُ لا يَـفـتُرونَ عن فِـسْـقِـهِـم، فـالـصّـالـحـونَ أوْلَى بالدِّفاعِ عن حَقِّهِم

في قولِهِ تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾ مضارعانِ هما فعلُ: ﴿لَتَعْلَمُ﴾، وفعلُ: ﴿نُرِيدُ﴾، فهو يعلم علمًا مستمرًّا متجدِّدًا برغبتِهم فيما يريدونَهُ، وهم يريدونَ الفاحِشَةَ بعِنادٍ وإصرارٍ متجدِّدٍ، فهم يَسْعَونَ إليه الآنَ، ويجدِّدونَ الهِمَّةَ والطَّلبَ والرَّغبةَ فيهِ، فالفعلُ المضارعُ يُصَوِّرُ حالةَ العِنادِ على أخْذِ ما يُريدونَهُ.

(1) الآلوسي، روح المعاني: 6/304.
(2) ابن جزي، التسهيل لعلوم التنزيل: 1/375.
(3) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/338.

غرَضُ استعمالِ ﴿لَوْ﴾:

استُعْمِلَت (لو) في تمنِّي وجودِ قوَّةٍ مانِعَةٍ من إقدامِهِم على الفُحْشِ

﴿لَوْ﴾ حرفُ امتناعٍ لامتناعٍ؛ أي: إنَّ كفَّهُ عليه السلام إيّاهم ممتنِعٌ لامتناعِ العُزوةِ والرُّكنِ الشَّديدِ منَ البَشَرِ، وإلّا ففي ظَهْرِه القُوَّةُ القاهرةُ والجبروتُ المُهلِكُ الَّذي أهلكَهم فعلًا.

فـ ﴿لَوْ﴾ في قولِه تعالى: ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً﴾ تُقَرِّرُ غيابَ النَّصيرِ من الأهلِ وعدمِ العُزوةِ الَّتي تَنصرهُ، وتردُّ فُحشَ هؤلاءِ بكفِّهم عن الفاحِشَةِ، وما أقساها تلك اللَّحظاتُ من لحظاتٍ يشعرُ فيها الرِّجالُ بالعَجْزِ أمامَ الأوباشِ الفاسقين، فـ "لَوْ مُسْتَعْمَلَةٌ في التَّمَنِّي، وهَذا أقْصَى ما أمْكَنَهُ في تَغْيِيرِ هَذا المُنْكَرِ"[1]، وقد قالَ ما قال: "على جِهةِ التَّفَجُّعِ والاستكانةِ"[2]، فلمّا "شاهَدَ سَفاهَةَ القَوْمِ وإقْدامَهُمْ عَلَى سُوءِ الأدَبِ؛ تَمَنَّى حُصُولَ قُوَّةٍ قَوِيَّةٍ عَلَى الدَّفْعِ"[3].

بلاغةُ حذْفِ جوابِ ﴿لَوْ﴾:

ما كتَمَهُ عليه السلام من الحَسْرَةِ أكْبَرُ من الكلامِ الظّاهِرِ

جَوابُ ﴿لَوْ﴾ في قولِه تعالى: ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً﴾ مَحْذُوفٌ، وقد دلَّ عليه الكلامُ، والتَّقْديرُ: لَمَنَعْتُكُمْ ولَبالَغْتُ في دَفْعِكُمْ، و"لَكُنْتُ نَكَّلْتُ بِكُمْ، وفَعَلْتُ بِكُمُ الأفاعِيلَ منَ العَذابِ، والنِّقْمَةِ، وإحْلالِ البَأْسِ بِكُمْ بِنَفْسِي وعَشِيرَتِي"[4]، ونظيرُ ذلكَ "قولُهُ تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ﴾ [الرّعد: 31] يعني: لو أنَّ لي بكم قوَّةً؛ لفعلْتُ بِكُم وصنعْتُ"[5]. و"حذْفُ مثلِ هذا أبلغُ؛ لأنَّه يدعُ السّامعين ينتهي إلى أبعدِ تخيُّلاتِه، والمعنى: لفعلْتُ كذا وكذا"[6]، فالحذْفُ يدلُّ على ما كتَمَهُ عليه السلام وأنَّ في نفسِه من الحسْرَةِ على واقعِ قومِه ما يتمنَّى معهُ اتِّخاذَ التَّدابيرِ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/130.
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/195.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 18/381.
(4) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/338.
(5) الزمخشري، الكشّاف: 2/415.
(6) ابن عطية، المحرّر الوجيز: 3/195.

المانعَةِ بالقوَّةِ، وهذا دليلٌ على أنَّ قومَهُ بلغوا مبلغًا من الجَسارةِ على الباطِلِ، ما لا قِبَل لأحدٍ بهِ.

فائدةُ التَّقديم والتَّأخيرِ:

جاء ترتيبُ الجملةِ في قولهِ تعالى: ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً﴾ على تقديم قيْدَيْنِ هما: ﴿لِي﴾ و﴿بِكُمْ﴾، على المسندِ إليهِ ﴿قُوَّةً﴾.

القوَّةُ أداةٌ موصِلةٌ للغاياتِ الحميدةِ

وتقديمُ هذين القيدَين يكشِفُ عن العنايةِ بدلالتِهما، فقدَّمَ أوَّلًا القيدَ ﴿لِي﴾ لِتعلُّقِ نفسِه بما يعنيهِ، وما ينصرهُ، ويكونُ (له) عليهم، ثُمَّ أُلحقَ بالقيدِ ﴿بِكُمْ﴾ أي: بِرَدِّكم وكفِّكُم عن جريمتِكم؛ لأنَّه المطلبُ المهمُّ.

ثم يجيءُ المسندُ إليهِ ﴿قُوَّةً﴾، وتأتي القوَّةُ بمنزلةِ الخاتم الَّذي يَقهرُهم، فلم يُقدِّم القوَّةَ، باعتبارِها أداةً موصِلَةً لِثَني قومهِ عَنِ الباطِلِ، لا غايةً مطلوبةً لذاتِها، وقد أتى كلُّ ذلك منه عليه السلام على سبيل التَّمنِّي العاجِز، ولا حولَ ولا قوَّةَ إلّا باللّه العليِّ العظيم.

معنى حرفِ الباءِ:

حَمْلُ الحروفِ على معانيها الظّاهرةِ أليقُ بالبلاغةِ من القولِ بالتَّناوبِ

ذهبَ ابنُ عاشورٍ - رحمه اللّه - إلى القولِ بالتَّناوبِ، وجعلَ الباءَ في قولهِ تعالى: ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً﴾ في معنى الاستعلاءِ، فقال: "الباءُ في ﴿بِكُمْ﴾ لِلاسْتِعْلاءِ؛ أيْ: عَلَيْكُمْ، يُقالُ: ما لي بِهِ قُوَّةٌ، وما لي بِهِ طاقَةٌ، ومِنْهُ قَوْلُهُ تَعالَى: ﴿قَالُواْ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ﴾ [البَقَرَة: 249]. ويَقُولُونَ: ما لي بِهَذا الأمْرِ يَدانِ؛ أيْ: قُدْرَةٌ أوْ حِيلَةٌ عَلَيْهِ، والمَعْنَى: لَيْتَ لي قُوَّةً أدْفَعُكُمْ بِها، ويُرِيدُ بِذَلِكَ قُوَّةَ أنْصارٍ؛ لِأنَّهُ كانَ غَرِيبًا بَيْنَهُمْ"[1].

والقولُ بالتَّناوبِ خلافُ مذهبِ المحقِّقين، و﴿بِكُمْ﴾ متعلِّقةٌ بمحذوفِ حالٍ من ﴿قُوَّةً﴾؛ لأنَّه صِفةٌ متقدِّمةٌ، فتُعرَبُ حالًا، ولو

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/130.

حَمَلْناها على معنى السَّببيَّةِ؛ لاستقامَ المعنى؛ أي: إنَّ لوطًا عليه السلام يتمنَّى أن يمتَلِكَ قوَّةً بسببِ أفعالِهم الشَّنيعةِ، وهو يُخاطبُهم بذلك، وفيه معنى اللَّوم؛ أي: ما تمنَّيتُ ذلك إلّا بسببِ ما بَلَغْتُمُوهُ من الفُحْشِ، وهذا أليقُ بالسِّياقِ؛ إذ إنَّ تَمنِّيه لامتلاكِ القوَّةِ لم يكن إلّا بسببِ ما أرادوا اقترافَهُ من الفاحشَةِ في حقِّ ضيفِهِ.

وقولُ لوطٍ عليه السلام ذلك "يَدُلُّ عَلَى أنَّهُ كانَ في غايَةِ القَلَقِ والحُزْنِ بِسَبَبِ إقْدام أُولَئِكَ الأوْباشِ عَلَى ما يُوجِبُ الفَضِيحَةَ في حَقِّ أضْيافِهِ، فَلَمّا رَأتِ المَلائِكَةُ تِلْكَ الحالَةَ؛ بَشَّرُوهُ بِأنْواعٍ منَ البِشاراتِ: أحَدُها: أنَّهُمْ رُسُلُ اللّه. وثانِيها: أنَّ الكُفّارَ لا يَصِلُونَ إلَى ما هَمُّوا بِهِ. وثالِثُها: أنَّهُ تعالى يُهْلِكُهُمْ. ورابِعُها: أنَّهُ تعالى يُنَجِّيهِ مَعَ أهْلِهِ منْ ذَلِكَ العَذابِ. وخامسُها: أنَّ رُكْنَكَ شَدِيدٌ، وإنَّ ناصِرَكَ هُو اللّه تعالى فَحَصَلَ لَهُ هَذِهِ البِشاراتُ"[1].

دلالةُ العطفِ بحرف ﴿أَوْ﴾:

قولهُ تعالى: ﴿أَوْ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكْنٖ شَدِيدٖ﴾ هو الأمنيةُ الثانيةُ لنبيِّ اللّه لوطٍ عليه السلام إذ لم تتحقَّقِ الأولى، وهي القدرةُ على كَبْحِ جِماحِ قومه، فيتَمَنَّى أن لو كانَ لَهُ مكانٌ قويٌّ حصينٌ يتحصَّنُ فيه منهم، ويأوي إليه، يقول: "أعْتَصِمُ بِما فِيهِ مَنَعَةٌ؛ أيْ: بِمَكانٍ أوْ ذِي سُلْطانٍ يَمْنَعُنِي منْكُمْ"[2].

وفي تعيينِ المعطوفِ عليهِ بحرف ﴿أَوْ﴾ أقوالٌ، وهي الآتية:

الأوَّل: يجوزُ أن يكونَ معطوفًا على المعنى، تقديره: أو أنِّي آوي.

الثّاني: يجوز أن يكونَ معطوفًا على ﴿قُوَّةً﴾؛ لأنَّهُ منصوبٌ في الأصلِ بإضمار (أن)، فلمّا حُذِفَتْ (أن)؛ رُفِعَ الفعلُ، كقوله: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ﴾ [الروم: 24].

حِرْصُ الدّاعي على تحقيقِ الغاياتِ بقَطْعِ النَّظرِ عن نوعِ الوسيلةِ الشَّرعيَّة

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 18/381.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/130.

الثّالث: يجوز أن يكونَ عَطْفُ هذه الجملةِ الفعليَّةِ على مثْلِها إن قدَّرْتَ أنَّ "أنَّ" مرفوعةٌ بفعل مُقَدَّرٍ بعد (لو) عند المبرِّدِ، والتقديرُ: لو يستقرُّ أو يَثْبُتُ استقرارُ القوَّةِ أو آوي، ويكون هذان الفعلانِ ماضيَي المعنى؛ لأنَّها تَقلِبُ المضارعَ إلى المضيِّ، وأمّا على رأي سيبويهِ في كونِ "أنَّ" في محلِّ الابتداءِ، فيكون هذا مستأنفًا.

الرّابع: قيل: ﴿أَوْ﴾ بمعنى: بل، وهذا عندَ الكوفيِّين[1].

ودلالةُ استعمالِ ﴿أَوْ﴾ هو بيانُ شديدِ تمسُّك لوطٍ عليه السلام بمطلبٍ يُعينهُ على بلوغِ المرام في تخليصِ ضيفهِ من الوقوعِ في البلاءِ، فـ(أو) معناها التَّنويعُ، فهو متعلِّقٌ بأيِّ سبيلٍ يوصلُهُ إلى المقصودِ.

دلالةُ تعديةِ فعلِ الإيواءِ بحرفِ (إلى):

جاء استعمالُ حرفِ انتهاءِ الغايةِ ﴿إِلَىٰ﴾ في قولهِ تعالى: ﴿أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾؛ لبيانِ أنَّ مطلبَ الإيواءِ الذي تمنّاه لوطٌ عليه السلام فيه معنى الالتجاءِ من الحالِ الَّتي وصلَ إليها، في معاناةِ قَومه ومكابدَتِهم لتركِ ما هم فيهِ من الغيِّ والانهماكِ وراءَ الشَّهواتِ، فهو يبحثُ عن منقذٍ جديرٍ بإنقاذِهِ، وفي ذلك تلويحٌ وإيماءٌ بدعائهِ ضمنًا أن ينقذَهُ اللّه منهم، لكنَّ رحمتَهُ غلبَت على لسانهِ، فقبضتْهُ عن أن ينطقَ بإنزالِ العذابِ، وهو يعلمُ أنَّ الرُّكنَ الشَّديدَ حاضرٌ، لكنَّهُ يخشى أن يُصيبَهُم بمكروهٍ، ففيه من عظيم الرَّحمَةِ ما يحتاجُهُ دعاةُ الإسلام في كلِّ زمانٍ أن يمتثلوهُ مع العُصاةِ المخالفين، وألّا يُبادِروا إلى استعداءِ النّاسِ، ولو كانوا عتاةَ الكفرِ، فاللّه أمرَ نبيَّنا ﷺ أن يهتديَ بأولئك النَّبيِّين.

رحمةُ نبيِّ الله لوطٍ عليه السلام غلبَت لسانَهُ أن يدعو على قومِهِ

بلاغةُ الاستعارةِ التَّصريحيَّة:

في قوله تعالى: ﴿أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ استعارةٌ، والمعنى: "لو أويتُ إلى قَويٍّ أستندُ إليهِ، وأتمَنَّعُ بهِ، فَيحميني منكم، فَشَبَّهَ القويَّ

تشبيهُ العزيزِ بالرُّكنِ دليلُ عزَّتهِ ونُدْرةِ وجودِهِ بين النّاسِ

(1) السمين الحلبي، الدر المصون: 6/364.

العزيزَ بالرُّكنِ من الجَبَلِ في شدَّتِهِ ومَنَعتِهِ"[1]، وحذفَ المشبَّهَ، وعبَّر في موضعهِ بالمشبَّهِ بهِ، فهي استعارةٌ تصريحيَّةٌ أصليَّةٌ، غرضُها المبالغَةُ في القوَّةِ الرّادعَةِ المُتَمَنّاة.

غرَضُ التَّنكيرِ في استعمالِ مفردةِ ﴿رُكْنٍ﴾:

وظيفةُ الرُّكنِ في النُّصرةِ أهمُّ من أيِّ اعتبارٍ آخرَ

الرُّكنُ في أصْلِ معناهُ اللُّغويِّ: "النّاحيةُ منَ البيتِ أو الجبلِ، ويُقال: رُكُنٌ بضمِّ الكاف، وقد قُرِئَ بهِ، ويُجْمَعُ على أركانٍ، وأرادَ عليه السلام به القويَّ، شبَّهَهُ بـ ﴿رُكْنٍ﴾ الجبَلِ في شِدَّتِهِ ومَنَعتِهِ؛ أي: أو أنضمُّ إلى قويٍّ أتمنَّعُ بهِ عنكم، وأنتصرُ بهِ عَليكم".

وتنكيرُ ﴿رُكْنٍ﴾ للتَّفخيم والتَّعظيم، وهو يوحي بفقدانِ لوطٍ عليه السلام كلَّ حمايةٍ من البشرِ، ويكشِفُ عن أمنيتِهِ في أن يجِدَ ركنًا ركينًا يَرْكَنُ إليه، ويستَنِدُ عليه، ويتقوَّى بهِ في الملمّاتِ بِقَطعِ النَّظرِ عن أيِّ اعتبارٍ، وعبَّرَ بالـ ﴿رُكْنٍ﴾؛ لأنَّهُ أقوى موضعٍ في البِناءِ؛ لما فيهِ من زاويةٍ يلتقي عندها الجدارانِ، يسندُ كلٌّ منهما الآخرَ، ويشدُّ بعضُهما بعضًا من خلالِهِ.

سرُّ اختيارِ صِفَةِ ﴿شَدِيدٍ﴾ دونَ مرادِفاتِها:

اتِّخاذُ المسلمِ عُزوتَهُ رُكنًا يتحصَّنُ بهِ لا يُنافي كَمالَ الإيمانِ

وُصِفَ الرُّكنُ بالشَّديدِ، وهو ما يزيدُ قوَّتَهُ قوَّةً، وذلك يعكسُ شدَّةَ المرارةِ الَّتي يتجرَّعُها لوطٌ عليه السلام في هذه اللَّحظاتِ، إنَّها عباراتٌ مُليِّنةٌ لأصلدِ القلوبِ، وهو يريدُ من تمنِّيهِ في وجودِ الرُّكنِ الشَّديدِ "منعةً عاجلةً يمنعُ بها قومَهُ ممّا هم عليه منَ الفواحِشِ، من قرابةٍ أو عشيرةٍ أو أتباعِ مؤمنين، وما جَهِلَ قطُّ لوطٌ عليه السلام أنَّه يأوي من ربِّهِ تعالى إلى أمنعِ قوَّةٍ، وأشدِّ ﴿رُكْنٍ﴾. ولا جناحَ على لُوطٍ عليه السلام في طلب قوَّةٍ منَ النّاسِ، فقد قالَ تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ﴾ [البقرة: 251]، فهذا الَّذي طلبَ لوطٌ عليه السلام.

(1) الزمخشري، الكشّاف: 2/415.

وقد طلبَ رسولُ اللّه ﷺ من الأنصارِ والمهاجرين مَنْعَهُ حتَّى يُبَلِّغَ كلامَ ربِّهِ تعالى فكيف يُنْكِرُ على لوطٍ عليه السلام أمرًا هو فعلَهُ عليه السلام؟ تاللّه! ما أنكر ذلك رسولُ اللّه ﷺ وإنَّما أخبرَ أنَّ لوطًا «كان يأوي إلى ركنٍ شديدٍ».

يعني: مَن نصرَ اللّه له بالملائكةِ، ولم يكن لِلوطٍ عِلْمٌ بذلِكَ، ومَن اعتقدَ أنَّ لوطًا كان يعتقدُ أنَّه ليس له منَ اللّه ركنٌ شَديدٌ، فقدْ كفرَ، إذ نَسبَ إلى نبيٍّ منَ الأنبياءِ هذا الكفرَ، وهذا أيضا ظنٌّ سخيفٌ؛ إذ من المُمتنِع أن يظنَّ بربٍّ أراهُ المعجزاتِ، وهو - دائبًا - يدعو إليه؛ هذا الظَّنَّ"[1].

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الهَرعُ والهَرولةُ:

الـهَـرَعُ مرتبِطٌ باضطرابٍ داخليٍّ بخلافِ الهرولةِ فهي سيرٌ حثيثٌ

"الهَرْولَةُ: بَيْنَ العَدْوِ والمَشْيِ، وقِيلَ: الهَرْولَةُ بَعْدَ العَنَقِ، وقِيلَ: الهَرْولَةُ الإسراعُ... وفي الحَدِيثِ: «مَن أتاني يَمْشِي أتَيْتُهُ هَرْولَةً»، وهُو كِنايَةٌ عَنْ سُرْعَةِ إجابةِ اللّه ﷻ وقَبُولِ تَوْبَةِ العَبْدِ ولُطْفِه ورَحْمَتِهِ... وقِيلَ: الهَرْولَةُ فَوْقَ المَشْيِ ودُونَ الخَبَبِ، والخَبَبُ دُونَ العَدْوِ"[2].

وأُهْرِعَ الرَّجُلُ: خَفَّ وأُزْعِدَ منْ سُرْعةٍ أو خَوْفٍ أو حِرْصٍ أو غَضَبٍ أو حُمَّى، وفي التَّنْزِيلِ: ﴿وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ﴾ [هود: 78]، قالَ أبو عُبَيْدَةَ: يُسْتَحَثُّون إليه، كأنه يَحُثُّ بَعْضُهُمْ بَعْضًا. وتَهَرَّعَ إليه: عَجِلَ"[3]، و"المَهْرُوعُ: المَجْنونُ يُصْرَعُ، والمَصْروعُ من الجَهْدِ... وأهْرَعَ: أسْرَعَ"[4].

(1) القاسمي، محاسن التأويل: 6/120.
(2) ابن منظور، لسان العرب: (هرول).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (هرع).
(4) الفيروزابادي، القاموس المحيط: (هرع).

العَملُ والفِعلُ:

الفِعلُ أعمُّ من العَملِ ففِعلُ الحيِّ سُلوكُهُ المعتادُ

"العَملُ: إيجادُ الأثرِ في الشَّيءِ، يقال: فلانٌ يعملُ الطِّينَ خَزفًا، ويعملُ الخوصَ زَنبيلًا، والأديمَ سِقاءً، ولا يقالُ: يفعَلُ ذلك، فالفعلُ: عبارةٌ عمّا وُجِدَ في حالٍ كان قبلَها مقدورًا سواءٌ كان عن سببٍ أو لا[1]، وقال الله تعالى ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: 96]؛ أي: خلقَكم، وخلقَ ما تؤثِرونَ فيهِ بِنَحْتِكُم إيّاه أو صَوْغِكُم لَهُ، وأصلُ العملِ في اللُّغةِ الدَّؤوبُ، ومنه سُمِّيَتِ الراحِلةُ يَعْمَلَةً "[2].

العملُ والصُّنعُ:

الصُّنعُ أخصُّ من العملِ؛ إذ يختصُّ بالإتقانِ والإحكام

"الصُّنعُ: ترتيبُ العملِ وإحكامُهُ على ما تقدَّم عِلمٌ بهِ، وبِما يوصِّلُ إلى المرادِ منهُ، ولِذلكَ قيلَ لِلنَّجّارِ: صانِعٌ، ولا يقالُ للتّاجِرِ: صانِعٌ؛ لأنَّ النَّجّارَ قد سَبَقَ عِلْمُهُ بما يُريدُ عملَهُ من سريرٍ أو بابٍ وبالأسبابِ الَّتي تُوصِّلُ إلى المرادِ من ذَلِكَ، والتّاجِرُ لا يعلم إذا اتَّجَر أنَّه يَصلُ إلى ما يريدُه من الرِّبْحِ أو لا، فالعملُ لا يقتضي العِلمَ بما يعملُ لهُ"[3].

السَّيِّئاتُ والفواحِشُ:

السَّيِّئاتُ أعمُّ من الفواحِشِ فَهي تُطلَقُ على الصَّغائِرِ والكبائِرِ

"السَّيِّئَةُ: الفِعْلَةُ القَبيحَةُ، وهيَ ضِدُّ الحَسَنَةِ، قالَ: ﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً﴾ [البقرة: 81]... وقال ﷺ: «يا أنسُ أتبِعِ السَّيِّئَةَ الحَسَنَةَ تَمْحُها»"[4]، و"الفاحِشَةُ: ما عظُمَ قُبحُهُ من الأفعالِ والأقوالِ... وفَحُشَ فلانٌ: صارَ فاحشًا... والمُتَفَحِّشُ: الَّذي يأتي بالفُحْشِ"[5].

فالسَّيِّئاتُ أعمُّ من الفواحِشِ لاسيَّما في الاستعمالِ العُرفيِّ، وتُطْلَقُ على الصَّغائِرِ والكبائِرِ، بخلافِ الفواحِشِ، فهي تُطْلَقُ على الكبائِرِ المرتبطةِ بالأخلاقِ الخَسيسةِ.

---

(1) العسكريّ، معجم الفروق اللغويّة، ص: 408.
(2) العسكريّ، معجم الفروق اللغويّة، ص: 377.
(3) العسكريّ، معجم الفروق اللغويّة، ص: 321.
(4) الراغب، المفردات: (ساء).
(5) الراغب، المفردات: (فحش).

القدرةُ والقوَّةُ:

"القدرةُ: كَوْنُ الحيِّ بحيثُ إن شاءَ فعلَ، وإن شاءَ تركَ، والقوَّةُ: هي المعنى الَّذي يتمكَّنُ بِها الحيُّ من مُزاولَةِ الأفعال الشّاقَّةِ"[1]. فالقوَّةُ هي الطّاقةُ والإرادةُ الَّتي يمتلكُها الحيُّ، والقدرةُ الجانبُ التَّنفيذيُّ على إيجادِ القوَّةِ واقعًا.

القوَّةُ قدرةٌ كامنةٌ، والقُدرةُ قوَّةٌ تنفيذيَّةٌ

الخِزْيُ والإهانةُ:

الإهانَةُ أعمُّ من الخِزي، فإنَّ "الإنسانَ قد تهونُ عليهِ نفسُه، ويُقبِلُ على العملِ السَّيِّئ ما لم يرَهُ أحدٌ، أمّا أن يراه النّاسُ؛ ففي هذا فضْحٌ لهُ، فـ الخِزْيُ والفضيحةُ تكونُ بين جمهرةِ النّاسِ، والهوانُ والإهانةُ أن يكونَ العملُ السَّيِّئُ بينَهُ وبينَ نفسِه"[2].

الإهانةُ إذا انتشرَتْ بين النّاسِ أصبحَتْ خِزيًا

(1) العسكريّ، معجم الفروق اللغوية، ص: 421.
(2) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 11/6579.

﴿قَالُواْ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيۡكَۖ فَأَسۡرِ بِأَهۡلِكَ بِقِطۡعٖ مِّنَ ٱلَّيۡلِ وَلَا يَلۡتَفِتۡ مِنكُمۡ أَحَدٌ إِلَّا ٱمۡرَأَتَكَۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمۡۚ إِنَّ مَوۡعِدَهُمُ ٱلصُّبۡحُۚ أَلَيۡسَ ٱلصُّبۡحُ بِقَرِيبٖ ٨١﴾ [هود: 81]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

بيانُ عاقبةِ الأضدادِ نجاةُ الأتقياءِ وهلاكُ الأشقياءِ

"لمّا ضاق بـ لوط عليه السلام الأمرُ؛ كشَفَ اللّه ﷻ عنه الضُّرَّ، فعرَّفَ إليه الملائكةَ، وقالوا: لا عليكَ، فإنَّهم لا يصِلونَ إليكَ بسوءٍ، وإنّا رُسُلُ رَبِّكَ جِئْنا لإهلاكِهم، فاخرُجْ أنت وقومُكَ من بينِهم، واعلمْ أنَّ مَن شارَكَهم في عَمَلِهم بنوعٍ، فَلَهُ من العذابِ حِصَّةٌ، ومن جُملتِهم امرأتُكَ الَّتي كانت تَدلُّ القومَ على المَلِكِ لِفِعْلَةِ الفاحِشَةِ، وإنَّ العقوبةَ لاحِقةٌ بها، مُدرِكةٌ لها"(1)، فالمناسبةُ بينَ الآيةِ والكلام السّابقِ بيانُ عاقبةِ الأضدادِ: نجاةُ الأتقياءِ وهلاكُ الأشقياءِ.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَأَسۡرِ﴾: "السُّرَى: سَيرُ اللَّيلِ، يُقالُ: سَرَى وأَسْرَى، قال تعالى: ﴿فَأَسۡرِ بِأَهۡلِكَ﴾ [هود: 81]، وقالَ تعالى: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ لَيۡلٗا﴾ [الإسراء: 1]، وقيلَ: إنَّ (أسرى) ليست من لفظةِ سرى يسري، وإنَّما هي من السَّراةِ، وهي أرضٌ واسِعَةٌ، وأصلُهُ من الواو... وسَراةُ كلِّ شيءٍ: أعلاهُ، ومنهُ: سَراةُ النَّهارِ؛ أي: ارتفاعُهُ، وقوله تعالى: ﴿قَدۡ جَعَلَ رَبُّكِ تَحۡتَكِ سَرِيّٗا﴾ [مريم: 24] أي: نهرًا يَسري، وقيل: بل ذلك من السَّرو؛ أي: الرِّفعةِ"(2).

2) ﴿بِقِطۡعٖ﴾: "القَطْعُ: فَصْلُ الشَّيءِ مُدرَكًا بالبَصَرِ كالأجْسامِ، أو مُدرَكًا بالبَصيرةِ كالأشياءِ المعقولةِ، فَمن ذلك قَطْعُ الأعضاءِ،

(1) القشيري، لطائف الإشارات: 2/149.
(2) الراغب، المفردات: (سرو).

نحوُ قوله: ﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ﴾ [الأعراف: 124]، ... وقِطْعٌ منَ اللَّيْل: قطعةٌ منهُ، قال تعالى: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾ [هود: 81]"[1]، "والقِطْعُ: ظُلْمَةُ آخرِ اللَّيْلِ، ومنْهُ قَوْلُهُ تعالَى: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾؛ قالَ الأخفشُ: بِسَوادٍ منَ اللَّيْلِ"[2].

3) ﴿يَلْتَفِتْ﴾: "لَفَتَ وجهَهُ عَنِ القَوْم: صَرَفَهُ، والتَفَتَ التِفاتًا، والتَّلَفُّتُ أكثرُ منْهُ، وتَلَفَّتَ إلى الشَّيْءِ، والتَفَتَ إليهِ: صَرَفَ وجْهَهُ إليهِ، قالَ اللّه تَعالَى: ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ﴾، أمرَ بتَرْكِ الالتِفاتِ؛ لِئَلّا يَرَى عظيمَ ما يَنْزِلُ بِهِمْ منَ العَذابِ، وفي الحَديثِ في صِفَتِهِ ﷺ: «فإذا التَفَتَ، التَفَتَ جَميعًا»، أراد أنَّهُ لا يُسارِقُ النَّظَرَ، وقِيلَ: أراد لا يَلْوي عُنُقَهُ يَمْنَةً ويَسْرةً؛ إذا نَظَرَ إلى الشَّيءِ، وإنَّما يَفْعَلُ ذَلِكَ الطّائِشُ الخَفيفُ، ولَكِنْ كانَ يُقْبِلُ جَميعًا، ويُدْبِرُ جَميعًا"[3].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

"قالتِ الملائكةُ: يا لوطُ، إنّا رسلُ ربِّكَ، جِئْنا لِنَجاتِكَ من شَرِّهِم وإهلاكِهم، ومعنى هذا أنَّهم لم يَصِلوا إليكَ بسوءٍ في نفسِك ولا فينا... فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ، واخرُجْ من هذهِ القَريةِ الظّالِم أهلُها بطائفةٍ مع اللَّيل تكفي لتجاوزِ حدودِها والبُعْدِ عَنها... ولا يَلْتَفِت منكم أحدٌ إليها أبدًا؛ خوفًا من أن يرى العذابَ فَيصيبَهُ، وامضوا حيثُ تُؤمَرونَ.

فَأَسْرِ بِأهلِكَ جميعًا إلّا امرأتَك... وكانَتِ امرأةً كافِرَةً لها ضِلْعٌ مَعَ قَوم لوطٍ الكَفَرةِ، إنَّه مصيبُها ما أصابَهم، إنَّ مَوعِدَهم الصُّبحُ؛ إذ سَيَبتَدِئُ عذابُهم من طلوعِ الفَجْرِ، ويَنْتَهي عِندَ شروقِ

الجَسارةُ على الزَّلّةِ وخيمَةُ العاقِبَةِ، ولا يَنْفَعُ الأشقياءَ الاتِّصالُ بالأنبياءِ

(1) الراغب، المفردات: (قطع).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (قطع).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (لفت).

الشَّمسِ... أليسَ الصُّبحُ بِقَريبٍ؟ وقَد كانوا يتعجَّلونَ العذابَ كُفرًا واستِهزاءً بلوطٍ"[1].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

عِلَّةُ فَصْلِ مَطْلَعِ الآيةِ:

المؤمنُ دائمًا يأوي إلى رُكْنٍ شَديدٍ

فُصِلَ قولُهُ تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰلُوطُ﴾ عمّا قبلَه للاستئناف البيانيِّ؛ إذ إنَّ توتُّرَ الموقفِ مُثيرٌ، يستدعي إلى الأذهانِ المتلقِّيةِ أسئلةً متكاثرةً تدورُ حولَ ما جرى بعد ذلك؟ وكيف سَتُحَلُّ هذهِ الأزمةُ؟ وقد بلغَ المشهدُ ذروةَ الحَبْكَةِ الأليمةِ، فها هو لوطٌ عليه السلام قد استَنْفدَ أسبابَهُ، وبدا عجزُهُ، وها هم الغوغائيُّون يتسوَّرونَ جُدُرَ بيتِهِ، كما في بعض الرِّواياتِ، وها هم الضَّيفُ الكريم هادِئونَ يرقبون الموقفَ.

وحينئِذٍ يأتي فرجُ اللّه تعالى ويكشفُ الملائكةُ الكرامُ عن أنفسِهم، ويبشِّرونَهُ بأنَّهُ يأوي إلى ﴿رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ حاضرٍ عاجلٍ غيرِ آجلٍ، هو ركنُ رَبِّهِ عزّ وجلّ ويوجِّهونَهُ إلى الخروجِ ليلًا برفقةِ أهلِهِ إلّا امرأتَهُ الهالكةَ مع الهالكين، وألّا يلتفِتَ أحدٌ منهم حتَّى لا يُصرَعَ من هَولِ المنظَرِ الَّذي سيَحِلُّ بهؤلاءِ الفاسقين.

فـ "إذْ قَدْ كانُوا في صُورَةِ البَشَرِ، وكانُوا حاضِرِي المُجادَلَةِ حَكَى كَلامَهُمْ بِمِثْلِ ما تُحْكَى بِهِ المُحاوراتُ، فَجاءَ قَوْلُهُمْ بِدُونِ حَرْفِ العَطْفِ عَلَى نَحْوِ ما حُكِيَ قَوْلُ: لُوطٍ عليه السلام وقَوْلُ قَوْمِهِ"[2].

غرضُ النِّداءِ:

عندَ استِحكامِ الكَذِبِ على الصّالحين يأتي الفرجُ من ربِّ العالمين

النِّداءُ في قولِهِ تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰلُوطُ﴾ هو نداءُ الإغاثةِ، نداءُ الرُّكنِ الشَّديدِ الَّذي تمنّاهُ لُوطٌ لتوِّهِ، النِّداءُ هنا يمثِّلُ جوابَ المضطرِّ الَّذي لا يتأخَّرُ، ولا يتخلَّفُ بكرم اللّه عزّ وجلّ ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾ [النمل: 62].

(1) حجازي، التفسير الواضح: 2/138.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/131.

النِّداءُ هنا هو الملاذُ الآمنُ الذي أنقذ لوطًا ﷺ من ورطتِه، وأداةُ البعيدِ (يا) من دواعي الطُّمأنينَةِ الَّتي يقتَضيها حالُ لوطٍ ﷺ فبِرُغم قربِهم منهُ ووجودِهم معَهُ آثروا بثَّ الأمنِ في أرجاءِ نفسِهِ بهذهِ الأداةِ.

"لَمّا بَلَغَ بِلُوطٍ ﷺ تَوقُّعُ أذى ضَيْفِهِ مَبْلَغَ الجَزَعِ ونفادِ الحِيلَةِ؛ جاءَهُ نَصْرُ اللّه عَلَى سُنَّةِ اللّه تعالى مَعَ رُسُلِهِ ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا﴾ [يُوسُف: 110]"[1].

وقد "دلُّوا بحرفِ النِّداء الموضوعِ للبُعدِ على أنَّه كانَ قد خرجَ عَنِ الدّار، وأجافَ بابها، وأنَّ الصِّياح كان شديدًا"[2].

دلالةُ إخبارِ الملائكةِ بأنَّهم رُسُلُ الله تعالى:

عند مجيءِ البشاراتِ تنقلِبُ الموازين وتنعكسُ النِّذاراتُ

"ابْتَدَأ المَلائِكَةُ خِطابَهُمْ لُوطًا ﷺ بِالتَّعْرِيفِ بِأنْفُسِهِمْ لِتَعْجِيلِ الطُّمَأْنِينَةِ إلَى نَفْسِهِ؛ لِأنَّهُ إذا عَلِمَ أنَّهُمْ مَلائِكَةٌ؛ عَلِمَ أنَّهُمْ ما نَزَلُوا إلّا لِإظْهارِ الحَقِّ، قالَ تَعالَى: ﴿مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَا كَانُوٓاْ إِذًا مُّنظَرِينَ﴾ [الحجر: 8]"[3]، "فخفِّضْ عليك من هذا الضِّيق الذي نراهُ بك، فإنّا ما أُرسِلْنا إلّا لإهلاكِهم"[4]، "أرْسَلَنا لِتَنْجِيَتِكَ مِنْ شَرِّهِمْ وإهْلاكِهِمْ"[5].

فيفيدُ هذا الخبرُ ﴿إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ﴾ فائدةً جديدةً وعزيزةً عليه ﷺ فائدةً كان لا يعرفُها، فائدةً جاءتْهُ نجدَةً، وقلَبَتِ الموازينَ، فالخائفُ صار آمنًا، والآمنون طُمسَتْ أعينُهم، فَهاموا على وجوهِهم لا يهتدونَ إلى دورِهم طريقًا تمهيدًا للخَسْفِ بهم؛ ليتَتابَعَ عليهمُ العذابُ، ولا يأتيهمُ الموتُ مرَّةً واحدةً، فيا لهُ من خبرٍ جميلٍ! ويا لهُ من خبرٍ عظيمٍ! وقد دلَّ الخبرُ على عدم علمه ﷺ بأنَّهم ملائكةٌ،

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/131.
(2) البقاعي، نظم الدّرر: 9/343.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/131.
(4) البقاعي، نظم الدّرر: 9/333.
(5) رشيد رضا، تفسير المنار: 12/113.

فحسُنَ التَّعريفُ بأنفسِهم لدفْعِ خوفِهِ عليهم، وللتَّوطئَةِ لإخبارِهِ بنفي وصول قومِهِ إليهم.

دلالةُ إضافةِ لفظِ الرَّبِّ إلى ضمير الخطابِ:

عنوانُ الرُّبوبيَّةِ عنايةٌ حكيمةٌ وتربيةٌ فريدةٌ موصلةٌ للمقصودِ

لفظُ الرُّبوبيَّةِ حبيبٌ إلى المسلم، يبشِّرُه بخيرٍ ينزلُ إليه من الرَّحمنِ الرَّحيم ﷻ ويُذَكِّرُهُ بنعمائِهِ الَّتي توالتْ عليه منذُ أوجدَهُ اللّه تعالى.

ففي إضافةِ اسم الرَّبِّ ﷻ إلى ضمير المخاطَبِ لوطٍ عليه السلام في جملة ﴿إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ﴾ اتِّساقٌ مع السِّياق ووفاءٌ بحقِّ المقام، فالخبرُ ﴿إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ﴾ خبرُ نجاةٍ وإكرامٍ عظيمٍ يناسبهُ لفظُ الـ (رب)، والمقامُ العصيبُ على لوطٍ عليه السلام يقتضي البشاراتِ المتتابعةَ؛ لانتزاعِ الفَزَعِ المَتثاقِلِ على نفسِهِ ويكافئُهُ، فكان هذا الخبرُ المؤكَّدُ، المبشِّرُ، والمُطَمْئِنُ لنفسِه ورُوحِه وقلبِهِ عليه السلام متَّسِقًا مع العناية الرَّبّانيَّة التي يحتاجُ إليها لوطٌ عليه السلام.

علَّةُ الفصْلِ:

بيانُ الجملةِ للسّابقة سببٌ لتركِ العطفِ

هذه الجملةُ ﴿لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيۡكَۖ﴾ خبرٌ آخرُ سيقَ إليهِ عليه السلام بإثْرِ الخَبرِ السّابقِ ﴿إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ﴾، وفُصِل عنه؛ لأنَّهما في غِنًى عن واصلٍ يصلُهما؛ إذ إنَّ كونَهم رُسلَ ربِّه ﷻ يعني: أنَّ الكفّارَ لن يصلوا إليه، فمجيءُ الخبرِ التالي ﴿لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيۡكَۖ﴾ بيانٌ؛ ليترسَّخَ فيه عليه السلام ويزولَ عنه القلقُ بالكلِّيَّة.

وقصدَ الملائكةُ الكرامُ بقولهم: "﴿لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيۡكَۖ﴾ أي: إلى إضرارِكَ بإضرارِنا"[1]، فهي "جملةٌ موضِّحةٌ لِلَّتي قبلَها؛ لأنَّهم إذا كانوا رُسُلَ اللّه لم يصلوا إليهِ، ولم يقدِروا على ضررِهِ"[2]، و"مُبَيِّنَةٌ لإجْمالِ جُمْلَةِ ﴿إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ﴾، فَلِذَلِكَ فُصِلَتْ، فَلَمْ تُعْطَفْ؛ لِأَنَّها بِمَنْزِلَةِ عَطْفِ البَيانِ"[3].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/132.
(2) الزمخشري، الكشّاف: 2/415.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/132.

سِرُّ التَّعبيرِ بلفظِ (الوصول) دونَ (الإيذاءِ):

التَّنبيهُ بالأدنى على الأعلى فعدَمُ الوصولِ يَلْزَمُ عنه عدَمُ الإيذاءِ

عبَّر النَّظمُ الكريم بالوصولِ في قولِه تعالى: ﴿لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيۡكَۖ﴾ دونَ أن يقولَ: (لن يؤذوكَ، أو يَضُرُّوكَ)؛ لأنَّهُ مرحلةٌ سابقةٌ على الإيذاء، ولن يقعَ الإيذاءُ إلّا بعد الوصولِ، وإذا كان الوصولُ ممنوعًا أصلًا؛ كان الإيذاءُ ممنوعًا من بابٍ أولى، فهو تنبيهٌ بالأدنى على الأعلى، ففيهِ كِنايَةٌ عن تمام الحِفْظِ وتَمام النَّجاةِ من شَرِّ الفاسقين وفجورِهم.

سرُّ نفي وصولِ القَوم إلى لوطٍ عليه السلام دون ضيفه:

إذا جاءتِ الوعودُ الصّادِقَةُ؛ اضمحلَّتِ الظُّنونُ المتوهَّمَة

قَولهم: ﴿لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيۡكَۖ﴾؛ أي: "بِسُوءٍ في نَفْسِكَ ولا فِينا"[1]، وتقييدُ نفْي الوصولِ بقوله: ﴿إِلَيۡهِ﴾ دونَ أن يُقالَ: (إليهم) وهم المقصودونَ بالوصولِ يَلْفِتُ انتباهَ المخاطَبِ، وكأنَّ فيهِ مخالفةً لِما يقتضيه ظاهِرُ الحالِ؛ لأنَّه عليه السلام يَخشى وصولَ القوم الفاسقين إلى الضَّيفِ الكريم لا وصولَهُم إليهِ هو، ولكنَّ الملائكةَ يبشِّرونَهُ بنفي وصولِ القوم إليه هو.

والَّذي يَظهرُ أنَّ الملائكةَ لمّا نَفَوْا وصولَ قومِه عليه السلام إليه، كان غرضُهم التَّنبيهَ على أنَّ وصولَهم إليهم هو أبعدُ، كما أنَّ في نفي وصولِهم إليه إيماءً إلى نفي حزْنِهِ وغَمِّهِ، فبَيْنَ الفِعْلِ ﴿يَصِلُوٓاْ﴾ والقَيدِ ﴿إِلَيۡكَۖ﴾ تَناغُمٌ كَبيرٌ.

معنى حرف الفاءِ:

الفاءُ تفريعيَّةٌ على الوعدِ الإلهيِّ المحتوم

جاءتِ الفاءُ في قولِه تعالى: ﴿فَأَسۡرِ بِأَهۡلِكَ بِقِطۡعٖ مِّنَ ٱلَّيۡلِ﴾؛ "لترتيبِ الأمْرِ بالإسراءِ على الإخبارِ برسالتهم المؤذِنَةِ بورودِ الأمْرِ والنَّهي من جنابِهِ عزَّ وجلَّ إليه عليه السلام"[2]، فهي تفْريعيَّةٌ للإسراء بأهلِه على الوعْدِ بعدم وصولِ القوم إليهِ، "فَلَمّا رَأى ابْتِداءَ سَلامَتِهِ منْهُمْ

(1) رشيد رضا، تفسير المنار: 12/113.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 6/305.

بانْصرافِهِمْ؛ حَسُنَ أنْ يُبَيِّنَ لَهُ وجْهَ سَلامَتِهِ في المُسْتَقْبَلِ منْهُمْ باسْتِئْصالِهِمْ وبِنَجاتِهِ، فَذَلِكَ مَوْقِعُ فاءِ التَّفْرِيعِ"[1].

دلالةُ استعمالِ الفِعْلِ ﴿فَأَسْرِ﴾:

معنى ﴿فَأَسْرِ﴾: "فَسِرْ بأهلِكَ ليلًا، والسُّرَى: سَيرُ اللَّيلِ"[2]، وهذا الفعلُ يعطي دلالتين متوازِيَتَيْنِ: الأولى: أُخرُجْ من القريَةِ بعيدًا، الثانية: لِيَكُنِ الخروجُ ليلًا؛ وذلك لأنَّ الخروجَ ليلًا يَضْمَنُ لَهُ ولأهلِهِ السَّلامةَ وعدمَ الإعاقةِ في الخروجِ؛ إذ لا يتعرَّفُ مَن بَقِيَ من القوم مبصرًا بعد طَمْسِ أعينِ المتهجِّمينَ عِنْدَ بيتِ لوطٍ عليه السلام فـ "تَعْيينُ اللَّيْلِ لِلْخُرُوجِ كَيْلا يُلاقِيَ مُمانَعَةً منْ قَوْمِهِ أوْ منْ زَوْجِهِ، فَيَشُقُّ عَلَيْهِ دِفاعُهُمْ"[3].

الأخْذُ بالأسبابِ المتاحَةِ من تَمامِ الحكمَةِ

وليس لفعلٍ من مرادفاتِ ﴿فَأَسْرِ﴾ من خصائصِ التَّعبيرِ وإشاراتِهِ المعنويَّةِ كلُّ ذلك، فكان اصطفاؤُهُ لهذا المقام في نهايةِ الاتِّساقِ والتَّناسُبِ.

تَوجيهُ القراءاتِ القُرآنيَّةِ:

وقد "قرأ نافِع وابنُ كثِير ﴿فَٱسْرِ﴾ موصُولةً، والباقُون بِقطعِ الألفِ، وهُما لُغتانِ، يُقالُ: سريتُ بِاللّيلِ وأسريتُ... فمن قرأ بِقطعِ الألفِ؛ فحُجّتُهُ قولُهُ ﷻ: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾ [الإسراء: 1]، ومن وصل؛ فحُجّتُهُ قولُهُ سبحانه: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ۝٤﴾ [الفجر: 4]، والسُّرَى: السَّيْرُ في اللَّيْلِ"[4].

معاني حرفِ الباءِ ودلالاتُه:

المؤمنُ بأهلِ دينِهِ ألصَقُ، وبملابَسَتِهِم أمْتَعُ

لمعنى الباءِ في قولِهِ تعالى: ﴿بِأَهْلِكَ﴾ أربعةُ معانٍ عند المفسِّرين:

الأوَّلُ: الإلصاقُ، حيثُ أفادَ حرفُ الباءِ في قوله تعالى: ﴿بِأَهْلِكَ﴾

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/132.
(2) الماوردي، النكت والعيون: 2/490.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/132.
(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 18/381.

الإلصاقَ، فهو يُفيدُ شِدَّةَ الارتباطِ بين لوطٍ عليه السلام وبينَ أهلِه، و"المرادُ بالأهلِ: المؤمنونَ، وإن لم يكونوا من أهلِ بيتِه، لا أهلُ بيتِه، وإن لم يكونوا مؤمنينَ، كما في قولِه تعالى لنوحٍ عليه السلام: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ [هود: 46]"[1]، فهكذا قالَ اللّه تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: 10]. فتخرجُ زوجتُهُ الهالكةُ، وكأنَّهم لشدَّةِ ارتباطِهم ببعضِهم البعض ملتصقونَ بهِ، وفي ذلك كنايةٌ عن نجاةِ أهلِه عليه السلام فلا يبقى لديهِ أيُّ خوفٍ يَخصُّهُ أو يخصُّهم.

والثّاني: الباءُ نابت منابَ (مع)، فالمعنى: "فاخْرُجْ منْ هَذِهِ القَرْيَةِ أوِ القُرَى مَصْحُوبًا بِأهْلِكَ"[2]، ولن تنهضَ (مع) - لو عُبِّر بها في غيرِ القرآنِ الكريم - فقيلَ: فَأسرِ مع أهلِكَ، وهي تفيدُ معَ المصاحبةِ أيضًا، فصارتْ ثريَّةَ الدِّلالاتِ والإشاراتِ، وهكذا يصطفي الذِّكرُ الحكيمُ من مفرداتِ اللُّغةِ أدقَّها وأنسبَها للمقام والسِّياقِ والغَرضِ.

والثّالث: التَّعديةُ، والرّابعُ: الباءُ "للملابسَةِ؛ أي: سِرْ ملابَسًا بأهلِكَ بِقِطْعٍ منَ اللَّيْلِ"[3]، ومعنى الإلصاقِ والملابسةِ قويٌّ وظاهرٌ فيها.

معنى حرفِ الباءِ:

الباءُ في قولِه تعالى: ﴿بِقِطْعٍ﴾ تفيدُ الظَّرفيَّةَ؛ أي: في قطعةٍ منَ اللَّيل، أو: "بِطائِفَةٍ منَ اللَّيْلِ تَكْفِي لِتَجاوُزِ حُدُودِ هَؤُلاءِ القَوْمِ"[4]، والباءُ تؤازِرُ في ظرفيَّتِها وقتَ اللَّيل، وكأنَّهم يَحثُّونَهُ على اتِّخاذِ السِّرِّيَّةِ بجميعِ أسبابِها سِربالًا يَتَسربَلونَ بِه، فلا يَلحَقُهم أحدٌ، فينجون، ولا يعوقُهم أحدٌ، فيؤخِّرُهم إلى وقتِ حلولِ العذابِ.

اللَّيلُ لذوي الحاجاتِ أسْتَرُ

(1) الآلوسي، روح المعاني: 6/307.
(2) رشيد رضا، تفسير المنار: 12/113.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 6/305.
(4) رشيد رضا، تفسير المنار: 12/113.

فقد نصحوهُ بمعيَّةِ أهلِهِ والارتباطِ بهم، وتخيُّرِ قطعةٍ مظلمةٍ من عُمْقِ اللَّيل البهيم، وفي ذلك أخْذٌ بأسبابِ البشَرِ قَدْرَ الطّاقةِ.

بلاغةُ التَّعبيرِ ﴿بِقِطۡعٖ مِّنَ ٱلَّيۡلِ﴾ دونَ (في اللّيل):

سَبَقَتِ الإشارةُ إلى توجيهِ الملائكةِ لوطًا عليه السلام إلى تحرِّي السَّتْرِ؛ لعدم تمكين أحدٍ من إعاقتِهم عند خروجِهم من القريةِ، وقد ناسب ذلك أن يَدُلُّوهُ على جزءِ اللَّيل البهيم، فعبَّروا عن ذلكَ بكلمةِ ﴿بِقِطۡعٖ﴾، وكأنَّها القطعةُ المنحوتَةُ من ظُلمةِ اللَّيل، فكان تحديدُهم بـ ﴿بِقِطۡعٖ مِّنَ ٱلَّيۡلِ﴾ مناسبًا أتمَّ المناسبةِ لتحقيق الغرضِ، دون أن يقولوا: (من الليلِ)، فالعداوةُ الآنَ قدِ استفْحَلَتْ منَ القَوم الذين يتربَّصونَ بهِ وبأهلِهِ، وهذه القطعةُ منَ اللَّيلِ قطعةٌ مقصودةٌ عَلِمَها لوطٌ عليه السلام فأسرى بأهلِهِ، والَّذي يظهرُ أنَّ لوطًا عليه السلام "أسرى بأهلِهِ من أوَّلِ اللَّيل حتَّى جاوزَ البلَدَ المقتلِعَ، ووقعت نجاتُه بسحرٍ، فتجتَمعُ هذه الآيةُ مع قوله: ﴿إِلَّآ ءَالَ لُوطٖۖ نَّجَّيۡنَٰهُم بِسَحَرٖ﴾ [القمر: 34]"[1].

الوقتُ الَّذي خرجَ فيه لوطٌ عليه السلام مقصودٌ معلومٌ لديهِ

ولو جاءت: (فأسْرِ بأهْلِكَ في اللَّيلِ)؛ لكانَ الكلامُ عامًّا غيرَ مقصودٍ بهِ زمانٌ معيَّنٌ، فلمّا حدَّد القطْعَ من اللَّيلِ؛ عُلِم أنَّ المرادَ شيءٌ مقصودٌ، وهذا المقصودُ اختَلَفَ فيه المفسِّرون.

"قالَ نافِعُ بْنُ الأزْرَقِ لِعَبْدِ اللهِ بْنِ عَبّاسٍ رضي الله عنهما: أخْبِرْني عَنْ قَوْلِ اللهِ: ﴿بِقِطۡعٖ مِّنَ ٱلَّيۡلِ﴾، قال: هو آخِرُ اللَّيلِ سَحَرُ، وقالَ قَتادَةُ: بَعْدَ طائِفَةٍ منَ اللَّيْلِ، وقالَ آخَرُونَ: هُو نِصْفُ اللَّيْلِ، فَإنَّهُ في ذَلِكَ الوقْتِ قُطِعَ بِنِصْفَيْنِ"[2]. وقال الفخرُ الرّازيّ: "اخْرُجُوا لَيْلًا؛ لِتَسْبِقُوا نُزُولَ العَذابِ الَّذي مَوْعِدُهُ الصُّبْحُ"[3]. وقال ابن كثير: "وأمَرُوهُ أنْ يَسْرِيَ بِأهْلِهِ مِنْ آخِرِ اللَّيْلِ، وأنْ يتَّبِعَ أدْبارَهُمْ؛ أيْ: يَكُونُ ساقَةً لِأهْلِهِ"[4].

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/196.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 18/381.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 18/381.
(4) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/338.

غرَضُ النَّهي:

على المؤمنِ تَرْكُ تعلُّقِهِ بأماكِنِ السُّوءِ؛ خَشيةَ لُحُوقِهِ شيءٌ من عقابِ أهلِها

"الِالتِفاتُ: نظرُ الإنسانِ إلى ما وراءهُ، والظّاهِرُ أنّ المُراد أنّهُ كان لهُم في البلدةِ أموال وأقمشة وأصدِقاءُ، فالملائِكةُ أمرُوهُم بِأن يخرُجُوا، ويترُكُوا تِلك الأشياء، ولا يلتفِتُوا إليها ألبتّة، وكان المُرادُ منهُ قطع القلبِ عن تِلك الأشياءِ، ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ﴾: النَّهْيُ عَنِ التَّخَلُّفِ"[1]، كأنَّه قيل: "إذا سَمِعْتَ ما نَزلَ بِهِمْ، ولا تَهُولَنَّكم تِلْكَ الأصْواتُ المُزْعِجَةُ، ولَكِنِ اسْتَمرُّوا ذاهِبِينَ، كَما أنْتُمْ"[2].

وفي النَّهي عنِ التِفاتِ أحدٍ من أهْلِهِ تَنْبيهٌ إلى واحدٍ من أهَمِّ أسبابِ نَجاتِهِ وأهلِهِ، وذلك لئلّا تَتضرَّرَ الأبصارُ من هولِ ما يكون، و"لِئَلّا يَرَى العَذابَ، فَيُصِيبَهُ"[3]. فمُقتضى ذلك النَّهي ألّا "يَنْظُرَ وراءَهُ منكم أحَدٌ، ولا يَتَخَلَّفَ منكم أحَدٌ، ولا يَشْتَغِلَ منكم أحدٌ بما يُخَلِّفُهُ من مالٍ أو مَتاعٍ"[4]، ففي النَّهي عنِ الالتفاتِ "التّقصِّي في تحقيقِ معنى الهِجرةِ غضبًا لِحُرُماتِ اللّه بِحيثُ يقطعُ التّعلُّق بِالوطنِ ولو تعلُّق الرُّؤيةِ"[5].

فائِدَةُ ذِكْرِ الجارِّ والمَجْرورِ وتَقْدِيمِهما ﴿مِنكُمْ﴾:

تَوكيدُ مَضامين الخِطابِ أدعى لِلْفَهْمِ والاستِجابَةِ

لم يقلْ سبحانه: (ولا يلتَفِتْ أحدٌ) مع استقامةِ المعنى، فذَكَرَ ﴿مِنكُمْ﴾ وقدَّمَها على الفعلِ ﴿يَلْتَفِتْ﴾، فيُسألُ عن فائدَةِ ذلك؟ ومنَ المقطوعِ بهِ أنَّ الملائِكةَ الكرامَ حَريصونَ على اختصاصِ لوطٍ وأهْلِهِ بالنَّجاةِ دونَ بقيَّةِ أهلِ القريَةِ، كما أنَّهم مأمورونَ بإهلاكِ أهلِ القَريَةِ الَّذين تواطَؤوا على الفاحِشَةِ جميعًا، والَّذي يُحقِّقُ هذا المعنى وذاك تقييدُ عدمِ الالتفاتِ والنَّجاةُ بالقيد ﴿مِنكُمْ﴾ أي: منكم أنْتُم بخاصَّةٍ،

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 18/381.
(2) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/338.
(3) رشيد رضا، تفسير المنار: 12/113.
(4) الماوردي، النكت والعيون: 2/491.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/132.

أمّا بقيَّةُ القوم؛ فَهالِكون، وناظِرون الهلاكَ إمعانًا في معاناةِ العَذابِ؛ ولذلك أيضا قَدَّمَ النَّظمُ الكريمُ ﴿مِنكُمْ﴾ على الفاعلِ ﴿أَحَدٌ﴾.

سرُّ استعمالِ ﴿أَحَدٌ﴾:

تأكيدُ خصوصيَّةِ الخطابِ لكلِّ فردٍ بعدَ عمومِهِ

آثرَ النَّظمُ استعمالَ لفظِ ﴿أَحَدٌ﴾ دون (واحد)؛ وذلك لأنَّ "الواحِدَ يَدْخُلُ في الأحَدِ، والأحَدُ لا يَدْخُلُ فيه، وإذا قُلْتَ: فُلانٌ لا يُقاوِمُهُ واحِدٌ؛ جازَ أنْ يُقالَ: لَكِنَّهُ يُقاوِمُهُ اثْنانِ بِخِلافِ الأحَدِ، فَإنَّكَ لَوْ قُلْتَ: فُلانٌ لا يُقاوِمُهُ أحَدٌ؛ لا يَجُوزُ أنْ يُقالَ: لَكِنَّهُ يُقاوِمُهُ اثْنانِ، والواحِدُ يُسْتَعْمَلُ في الإثْباتِ، والأحَدُ في النَّفْيِ، تَقُولُ في الإثْباتِ: رَأيْتُ رَجُلًا واحِدًا، وتَقُولُ في النَّفْيِ: ما رَأيْتُ أحَدًا، فَيُفِيدُ العُمُومَ"[1]، و"الأحَدُ: يَستوعِبُ جِنسَهُ، والواحِدُ: لا يَستوعِبُهُ"[2].

وفائدةُ هذا التَّعبيرِ: أن يتَّجِهَ الخطابُ لكلِّ واحدٍ منهم على وجهِ الخصوصِ، فكأنَّ الخطابَ موجَّهٌ لكلِّ فردٍ منهم منفردًا، وهذا آكدُ في النَّهي عن الالتفاتِ، ممّا يُصوِّرُ حَجْمَ العقوبَةِ النّازِلَةِ.

توجيهُ القراءاتِ وأثرُهُ في بيانِ معنى الاستثناءِ:

من تعلَّقَ بقومٍ فهو منهم، ونالَ جزاءَهم

"قولهُ: ﴿إِلَّا ٱمۡرَأَتَكَۖ﴾ يجوزُ فيهِ النَّصبُ والرَّفعُ، فمن قرأ: ﴿إِلَّا ٱمۡرَأَتَكَۖ﴾ بالنَّصْبِ، فَعَلَى معنى: فأسرِ بأهلِكَ ﴿إِلَّا ٱمۡرَأَتَكَۖ﴾، ومن قرأ بالرَّفع، حَمَلَهُ عَلَى مَعْنَى: ولا يلتفِتْ منكم أحدٌ ﴿إِلَّا ٱمۡرَأَتُكَۖ﴾"[3].

وعن "قتادةَ أنَّها خرجَتْ مع لوطٍ من القريَةِ، فَسَمِعَتِ الصَّوتَ، فالتَفَتَتْ، فأرسلَ اللّه عليهم حَجَرًا، فَأهلَكَها"[4]. فالخُلاصَةُ أنَّها امرأةٌ منبوذَةٌ، إمّا بعدم خروجِها معهم وبقائِها في القوم، فَتَهْلَكُ، أو بِخروجِها ثُمَّ التِفاتِها إلى الوراءِ، فيدرِكُها الهلاكُ أيضًا، فهي هالِكَةٌ على كلِّ حالٍ.

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 32/360.
(2) تفسير العزّ بن عبد السلام: 3/507.
(3) الزجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 3/69.
(4) الماوردي، النكت والعيون: 2/491.

"وفي قولهِ تعالى: ﴿إِلَّا ٱمۡرَأَتَكَۖ﴾ إشارةٌ إلى أنَّ امرأةَ لوطٍ لا تملكُ من أمرِها ألّا تلتفتَ، بل هي مقهورةٌ على الالتفاتِ والخروجِ عن هذا النَّهي، وذلك لمّا أرادَ اللّه لها من هلاكٍ"[1].

نكتةُ اختيارِ لَفْظِ ﴿ٱمۡرَأَتَكَۖ﴾:

من المقرَّرِ أنَّ النَّظمَ الكريمَ يعبِّرُ عَن قرينةِ الرَّجلِ - في حال تَوافُقِ الحياةِ الزَّوجيَّةِ وانسجامها بينهما - بوصفِ (الزَّوجةِ)، أمّا في حالِ التَّخالُفِ بينهما في الدِّين، أو الودِّ، أو عدم الإنجابِ، أو غيرِها من المنغِّصاتِ، فَيُعَبِّرُ عنها بَوصْفِ (المرأة).

من محاسِنِ الأخلاقِ صَبرُ الأولياءِ على ابتلاءِ النِّساءِ

والعداوةُ هنا بين لُوطٍ عليه السلام وامرأتِهِ بيِّنةٌ وشديدَةٌ، فَليس بينهما مجرَّدُ اختلافٍ في الدِّين، أو الخُلُقِ، بل إنَّ امرأتَهُ هي الَّتي سرَّبَتْ خَبَرَ الأضيافِ إلى قومِهِ قائلةً: "استضافَ لوطٌ قومًا، لمْ أرَ أحْسَنَ وجوهًا منْهُمْ، ولا أطْيَبَ رائِحةً، ولا أنظفَ ثيابًا"[2]، كما جاءَ في بعض الآثارِ.

ولذلك عبَّرَ القرآنُ الكريمُ عنها بلفظِ ﴿ٱمۡرَأَتَ﴾ أيضًا في قولهِ تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱمۡرَأَتَ نُوحٖ وَٱمۡرَأَتَ لُوطٖۖ كَانَتَا تَحۡتَ عَبۡدَيۡنِ مِنۡ عِبَادِنَا صَٰلِحَيۡنِ فَخَانَتَاهُمَا﴾ [التحريم: 10].

بلاغةُ الاستِئنافِ البَيانيِّ:

معنى "﴿مَآ أَصَابَهُمۡۚ﴾ أي: من العَذابِ، وهو إمطارُ الأحجارِ، وإن لم يُصِبْها الخَسْفُ"[3]، ومن المتوقَّعِ أن يطرأ سؤالٌ على ذِهْنِ لوطٍ عليه السلام بعدَ قولِ الملائكةِ: ﴿إِلَّا ٱمۡرَأَتَكَۖ﴾ يقول: ولماذا؟ أو: ما مصيرُها؟ فيأتي الجوابُ: ﴿إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمۡۚ﴾، وذلك أنَّها "كانت مع القوم بمشاعرِها وعواطفِها"[4].

مَنْ أحَبَّ قَوْمًا؛ حُشِرَ مَعَهُمْ

(1) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 6/1182.
(2) الزجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 3/67.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/230.
(4) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 6/1182.

ولذلك قُطِعَت جملةُ ﴿إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمۡۚ﴾ عن جملةِ ﴿وَلَا يَلۡتَفِتۡ مِنكُمۡ أَحَدٌ إِلَّا ٱمۡرَأَتَكَۖ﴾ للاستئناف البَياني، أو ما يسمِّيه البلاغيُّونَ شِبْهَ كمالِ الاتِّصال؛ إذ بينَ الجُمْلَتَين تناسُبٌ معنويٌّ واتِّصالٌ بوجهٍ من الوجوهِ؛ إذ تكونُ الثّانيةُ جوابًا عن سؤالٍ تثيرُهُ الأُولى، كما هنا.

فائدة الإبهام في ﴿مَآ﴾:

للمَوقفِ المَهول أدواتُهُ المفصِحَةُ عَنْهُ

أفادتْ أداةُ ﴿مَآ﴾ في قولِه تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمۡۚ﴾ تهويلَ الهلاكِ الَّذي ينزلُ بالقوم وتفظيعَهُ؛ أي: إنَّهُ سيكونُ مَهولًا فظيعًا لا يُطاقُ، وهي اسمٌ موصولٌ معناها (الذي)، غيرَ أنَّه أُوثِرَ ﴿مَآ﴾ على (الذي) لإيحائِها المرعِبِ في مثلِ هذا السِّياقِ وذلك المقام.

دلالةُ استعمالِ فِعلِ ﴿أَصَابَهُمۡۚ﴾:

أمْرُ اللهِ إذا صَدَرَ؛ فلَهُ حُكْمُ الوقوعِ الوجوديِّ

"مُقْتَضَى الظّاهِرِ أنْ يُقالَ: ما يُصِيبُهُمْ، فاستعمالُ فِعلِ المُضيِّ لِتَقْرِيبِ زَمَنِ الماضِي منَ الحالِ، نَحْوُ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ﴾ [المائدة: 6] الآيَةَ، أوْ فِي مَعْنَى الاسْتِقْبالِ تَنْبِيهًا عَلَى تَحَقُّقِ وُقُوعِهِ، نَحْوُ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ﴾ [النَّحل: 1]"[1].

فعلى الرُّغم من أنَّ حدثَ الإصابةِ لم يقعْ بعدُ، وهم يُلقون إلى لوطٍ عليه السلام هذا النَّبأ المستقطعَ يُعبِّرُ النَّظمُ الكريمُ بالماضي ﴿أَصَابَهُمۡۚ﴾، وذلك لأنَّ كلَّ آتٍ بالنِّسبةِ للّه تعالى فهو آتٍ، إن خيرًا وإن شرًّا، فإصابةُ القوم بتِلكَ المصيبةِ واقعٌ بهم لا محالةَ، بل واقعٌ قريبًا جدًّا: ﴿إِنَّ مَوۡعِدَهُمُ ٱلصُّبۡحُۚ أَلَيۡسَ ٱلصُّبۡحُ بِقَرِيبٖ﴾، فكيفَ إذا كانَ الآتي مصيبةً عظيمةً؛ إذ في مادَّةِ الفِعْلِ ﴿أَصَابَهُمۡۚ﴾ دلالةُ المصيبةِ الشَّديدةِ، والدّاهيَةِ الَّتي تَحُلُّ بهم.

بلاغةُ الاستئنافِ:

تُستأنفُ الجملُ لبيانِ ما فيها من التَّهويلِ والتَّعليلِ

"جُمْلَةُ ﴿إِنَّ مَوۡعِدَهُمُ ٱلصُّبۡحُۚ﴾ مُسْتَأْنَفَةٌ ابْتِدائِيَّةٌ قُطِعَتْ عَنِ الَّتِي

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/133.

قَبْلَها اهْتِمامًا وتَهْوِيلًا"[1]، فهذا خَبَرٌ جديدٌ يُسْدِيهِ الملائكةُ الكِرامُ إلى لوطٍ عليه السلام في جملة أخبارٍ تتلاحَقُ وتتوالى عليه بالبِشارَةِ، فإهلاكُ امرأتِهِ بِشارَةٌ، ولا رَيبَ أنَّهُ قد عانى منها طويلًا، وصَبَرَ عليها كثيرًا، حتَّى جاءها من اللّه تعالى ما تَستَحِقُّ.

وجاء هذا الخبرُ مفصولًا عمّا قبلَهُ؛ لأنَّه "تعليلٌ للأمْرِ بالإسراءِ والنَّهيِ عنِ الالتفاتِ المُشعِرِ بالحثِّ على الإسراعِ"[2]، "وحِكْمَتُهُ أنَّهُمْ يَكُونُونَ مُجْتَمِعينَ فِيهِ فِي مَساكِنِهِمْ، فَلا يَلْتَفِتُ أحَدٌ مِنْهُمْ"[3].

دلالةُ التَّعريفِ بالإضافةِ:

إبهامُ طريقِ معرفةِ الموعدِ اقتضتْ تعريفَهُ بالإضافةِ

لسائلٍ أن يسألَ عن سببِ تعريفِ الموعدِ بالإضافةِ في قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ﴾؟ والجوابُ: أنَّ "المَوْعِدَ: وقْتُ الوعْدِ، والوعْدُ أعَمُّ منَ الوعيدِ، فَيُطْلَقُ عَلَى تَعْيينِ الشَّرِّ في المُسْتَقْبَلِ، والمُرادُ بالمَوْعِدِ هُنا مَوْعِدُ العَذابِ الَّذي علِمَه لُوطٌ عليه السلام إمّا بِوحْيٍ سابِقٍ، وإمّا بِقَرينَةِ الحالِ، وإمّا بِإخْبارٍ منَ المَلائِكَةِ في ذَلِكَ المَقامِ طَوتْهُ الآيَةُ هُنا إيجازًا، وبِهَذِهِ الاعْتِباراتِ صَحَّ تَعْرِيفُ الوعْدِ بِالإضافَةِ إلَى ضَميرِهِمْ"[4].

سرُّ إيثارِ الصُّبحِ على الفَجْرِ:

معاينةُ العذابِ لونٌ من ألوانِهِ ووقتٌ لحلولِ أوانِهِ

عُيِّنَ الصُّبحُ موعِدًا لهلاكِ القومِ؛ "لأنَّه وقتُ الدَّعةِ والرّاحةِ، فَيكونُ حلولُ العذابِ حينئذٍ أفظعَ، ولأنَّهُ أنْسبُ بكون ذلك عِبْرةً للنّاظرينَ"[5]، "ويجوزُ أن يكونَ قد جَعَلَ الصُّبْحَ ميقاتًا لهلاكِهم؛ لأنَّ النُّفوسَ فيه أودعُ والنّاسُ فيه أجمعُ"[6]، والصُّبحُ هو وقتُ بدايةِ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/132.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/230.
(3) رشيد رضا، تفسير المنار: 12/113.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/133.
(5) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/230.
(6) الماوردي، النكت والعيون: 2/492.

انطلاقِ النّاس لأعمالِهم، فأن يأتيَهم العذابُ في هذه السّاعةِ ممّا يزيدُ من عذابِهم، بخلافِ ما لو أتاهم، وهُم نائمونَ.

علَّةُ الفصلِ:

قُطِع هذا السُّؤالُ عمّا قَبْلَهُ لكمالِ الانقطاعِ؛ إذ هو إنشاءٌ، والسّابقُ ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُۚ﴾ خبرٌ، ولا يتعاطفان.

غرضُ الاستفهام:

قربُ ذهابِ الفاسدين اقترابُ راحةِ المؤمنين

الاستفهامُ في قولِه تعالى: ﴿أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ إمّا أن يُحمَلَ على تقريرِه عليه السلام بقُرْب الموعد، أو "ليتعجَّل في السَّيْر؛ فإنْ قُرْبَ الصُّبْحِ داعٍ إلى الإسراع في الإسراء، للتَّباعُدِ عن موقع العذابِ"[1]، وإمّا على الاستعجالِ، قال البقاعيُّ: "كأنَّ لوطًا عليه السلام أبطأ في جمْعِ أهلِه وما يصلحُهم، فكان فعلُهُ فِعلَ من يستبعدُ الصُّبْحَ، فأنكروا ذلك بقولِهم: ﴿أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ أي: فأسرِع الخروجَ بمن أُمرْتَ بهم"[2].

وفي الاستفهام إشارةٌ أخرى لِلُوْطٍ عليه السلام بقربِ هلاكِ قومه واستتبابِ الأمرِ لهُ، كما أنَّ في الاستفهام تطمينًا لنفسِهِ؛ أي: قد حانَ وقتُ الخلاصِ من أهلِ الفسادِ.

دلالةُ ذكْرِ الباءِ:

الباءُ في قولِه تعالى: ﴿أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ "لتأكيدِ الإثباتِ"[3]، و"ما هو كائِنٌ فقريبٌ، والبعيدُ ما لا يكونُ، وإنَّ مَن أقدمَ على محظورٍ، ثُم حُوسِب عليهِ - ولو بعدَ دهورٍ خاليةٍ وأعوامٍ غيرِ محصورةٍ ماضيةٍ - تصوَّرَ له الحالُ كأنَّه وقتُ مباشرتِهِ لتلكَ الزَّلَّةِ"[4].

(1) القاسمي، محاسن التأويل: 6/121.
(2) البقاعي، نظم الدّرر: 9/345.
(3) بهجت، الإعراب المفصل لكتاب الله المرتّل: 5/221.
(4) القشيري، لطائف الإشارات: 2/150.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

السُّرَى والمشي:

السُّرَى يختصُّ بمشي اللَّيلِ

السُّرَى: سَيْرُ اللَّيلِ بخاصَّةٍ، يقال: سَرَى وأَسْرَى، قال تعالى: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ﴾"[1]، والمشيُ: "المضيُّ، قال تعالى: ﴿كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْاْ فِيهِ﴾ [البقرة: 20] والمرور، قال اللّه: ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَٰكِنِهِمْۚ﴾ [طه: 128] والسَّير، قال اللّه: ﴿فَٱمْشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا﴾ [الملك: 15]؛ أي: سيروا".

المرأةُ والزَّوجةُ:

يُطلِقُ النَّظمُ القرآنيُّ الكريم اسمَ (المرأة) على كلِّ زوجةٍ لا يتوفَّر بينها وبين زوجِها الوئامُ الكاملُ، بأن تكونَ على غيرِ دينِه، أو تكونَ ناشِزًا، أو تكونَ عاقِرًا لا تلِدُ لَهُ، أو إلى آخِرِ تلك المنغِّصاتِ الَّتي سببُها الزَّوجةُ.

بينما يُطلِقُ النَّظمُ الكريمُ اسمَ (الزوجة) على كلِّ من توافرَت فيها أسبابُ السَّعادةِ لزوجِها، بأن تكونَ على دينِه، ويكونَ بينهما الوئامُ والانسجامُ، وأن تلِدَ له، وما إلى ذلك؛ بحيثُ يصحُّ أن يوصفَ على كلٍّ منهما بأنَّه زوجٌ للآخرِ، فـ "المرأةُ زَوجُ الرَّجلِ، والرَّجُلُ زَوْجُ المرأةِ، ولا يُقال للمرأةِ: زوجةٌ إلّا قليلًا... والزَّوجةُ: الحَليلَةُ، قالَ اللّه تعالى: ﴿لَّهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌۖ﴾" [النساء: 57][2].

(1) الراغب، المفردات: (سرو).
(2) العسكريّ، الوجوه والنظائر: (الزوج).

﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ۖ وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾﴾ [هود: 82 - 83]

مُناسَبَةُ الآيَتينِ لما قَبْلَهُما:

التَّناسُبُ بَيْنَ عِقابِ مُنْتَكِسي الفِطْرَةِ وجَزائِهِمْ بِنَكْسِ الأرْضِ وقَلْبِها عَلَيْهِم

بعدَ أنْ أخبَرَت الملائكةُ لوطًا عليه السلام بأنَّهم رُسلُ ربِّه إلَيه، وأنَّهم مكلَّفون بإعْلامه بما سَيَحيقُ بقَومِهِ من الهلاكِ والإبادة، وأنَّ هذا المَوعد هو الصُّبح وأنَّه قريب، قال اللّه تعالى بعدَ ذلك: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ۖ وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ مُبَيِّنًا مَجيءَ هذا العذاب ووُقوعَهُ سريعًا بعدَ إخبارِهِمْ بوُقوعِهِ، وكأنَّ إخبارَهُم إيّاه كان في اللَّيل قريبًا من وقْت الصُّبحِ، وكان العِقابُ مُلائمًا لِجُرْمهم، فَلمّا قَلَبوا فِطْرَتَهم بإتْيانِهِمُ الذُّكْران بَدَلَ زَوْجاتِهم من النِّساء، قَلَبَ اللّهُ الأرضَ عليهم، فكان قَلْبًا بِقَلْبٍ، ونَكْسًا بِنَكْسٍ.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿عَٰلِيَهَا﴾: أصْلُ (علو): يَدُلُّ على السُّمُوِّ والارْتِفاع، لا يَشِذُّ عَنْهُ شَيْءٌ[1]. فالعُلْوُ ضدُّ السُّفْل، والعُلْوِيُّ والسُّفْليُّ: المَنْسوبُ إلَيْهما[2]، والعلْوُ: أصلُ البناء، ومنه العَلاءُ والعُلُوُّ، فالعَلاءُ: الرِّفْعَةُ، والعُلُوُّ: العَظَمَةُ والتَّجبُّر[3]. والمَقْصود بـ العُلُوِّ في الآية: خِلافُ السُّفْلِ؛ والارْتِفاعُ.

2) ﴿سَافِلَهَا﴾: أصْلُ (سفل) ما كانَ خِلافَ العُلُوِّ، فالسُّفْلُ نَقيضُ

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (علو).
(2) الرّاغب، المفردات: (علو).
(3) الخليل، العين: (علو).

العِلْوِ في البِناء وغَيْرِه[1]. وسَفُلَ فهو سافِلٌ، قال تعالى: ﴿فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا﴾ [الحجر: 74] أي: قَلَبناها فصارَ عالي الأرضِ أو القُرى سافِلًا، وسافِلُها عالِيًا فذَهبَتْ كلُّ مَعالِمها، وقد قُوبِل بـ (فَوْق) في قوله: ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾ [الأحزاب: 10]. والسُّفُولُ: ضِدُّ العُلُوِّ[2]. والسَّفالُ: نَقيضُ العَلاءِ، وإنَّ أمْرَهُمْ لَفي سَفالٍ[3]، وسُفالَةُ الرّيحِ: حيثُ تمرُّ الرّيح، والعَلاوةُ ضِدُّه، والسَّفِلَةُ منَ النّاس: النَّذْلُ، نحو الدّونِ[4]. والمَقصودُ بالسُّفْلِ في الآية: نَقيضُ العُلْو.

3) ﴿وَأَمْطَرْنَا﴾: أصْلُ (مطر): يَدُلُّ على الغَيْثِ النّازِلِ منَ السَّماءِ، يُقالُ: مَطَرَتْهُمُ السَّماءُ - بِدُونِ هَمْزَةٍ - بِمَعْنَى نَزَلَ عليهم المَطَرُ، كما يُقالُ: غاثَتْهُم ووبَلَتْهُم، ويُقالُ: مكانٌ مَمْطُورٌ، أي: أصابهُ المَطَرُ، ولا يُقالُ: مُمْطِرٌ، ويُقالُ أُمْطِرُوا - بالهَمْزَةِ - بِمَعْنَى نَزَلَ عليهم منَ الجَوِّ ما يُشْبِهُ المطَرَ، وليس هو بِمَطَرٍ، فلا يُقالُ: هُم مُمْطِرُونَ، ولكِنْ يُقالُ: هُم مُمْطَرُونَ[5]. وتَمَطَّرَ الرَّجُلُ: تَعَرَّضَ للمَطَرِ، ومِنْهُ المُسْتَمْطِرُ: طالِبُ الخَيْرِ[6]. والمقصود بالإمطار في الآية: إنزالُ المَطَرِ، وسُمِّيَ ما أصابَهُم منَ الطِّينِ المُتَحَجِّرِ مَطَرًا؛ لأنَّه نَزَلَ عليهم منَ الجَوِّ.

4) ﴿سِجِّيلٍ﴾: أصْلُ (سجل): يَدُلُّ على انْصِبابِ شَيءٍ بعد امتِلائِه، مِنْ ذلك السَّجْلُ، وهو: الدَّلْوُ العَظيمَةُ، يُقالُ: سَجَلْتُ الماءَ فانْسَجَلَ، وذلكَ إذا صَبَبْتَهُ، ومنه: سَجَلَه بالشَّيءِ: رَماهُ بِهِ مِنْ فَوْقُ[7]. والسِّجّيلُ: الصُّلْبُ الشَّديدُ، وهو أيضًا: حَجَرٌ وطينٌ مُختلطٌ[8]. والسِّجّيلُ أيضًا: وادٍ في جَهَنَّمَ، يُقالُ: سِجّيلٌ بِاللّام، وسَجّينٌ بِالنّونِ[9]. وقد سَلَّم الأزهريُّ وغيره بتعريب الكلمة، وجَوَّز الزَّجّاج رجوع الكلمة إلى السَّجْل: الصَّبّ، كأنَّها مُرْسَلَةٌ عليهم[10]. والمقصودُ بالسِّجّيلِ في الآية: طينٌ مُتحَجِّرٌ مِنْ وادٍ في جَهَنَّم.

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (سفل).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (سفل).
(3) ابن عبّاد، المحيط في اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (سفل).
(4) الرّاغب، المفردات: (سفل).
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 237/8.
(6) ابن عبّاد، المحيط في اللُّغة، وابن فارس، مقاييس اللُّغة: (مطر).
(7) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة، وابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (سجل).
(8) الرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (سجل).
(9) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 134/12.
(10) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (سجل).

5) ﴿مَّنضُودٍ﴾: أصْلُ (نضد): يَدُلُّ على ضَمِّ شَيءٍ إلى شَيءٍ في اتِّساقٍ وجَمْعٍ، مُنْتَصِبًا أو عَريضًا، ونَضَدْتُ الشَّيءَ بعضَهُ إلى بعضٍ مُتَّسِقًا أو منْ فَوْقُ، الواحِدُ نَضَدٌ، والنَّضَدُ: المَنضُودُ منَ الثِّيابِ، وأنْضادُ الجِبالِ: ما تراصَفَ من حجارتِها بَعْضُها فَوق بعضٍ، الواحِدُ نَضَدٌ[1]. والنَّضَدُ منَ السَّحابِ كالصَّبيرِ، يكونُ بعضُه إلى بعضٍ، والجَمْعُ أنضادٌ، وأنضادُ القَوْمِ: جَماعاتُهُم وعَدَدُهُم، والنَّضَدُ: الشَّرَفُ[2]. والمقصود بالمَنضودِ في الآية: الموضُوع بعضُه على بعض، والمعنى هُنا أنَّها مُتتابعةٌ مُتتالِيةٌ في النُّزولِ ليس بينها فَتْرَةٌ[3].

6) ﴿مُّسَوَّمَةً﴾: أصْلُ (وسم): يَدُلُّ على أثَرٍ ومَعْلَمٍ، ووسَمْتُ الشَّيءَ وسْمًا: أثَّرْتُ فيه بِسِمَةٍ[4]، والسِّيمى ياؤُها في الأصل واوٌ، وهِيَ العَلامَةُ يُعرَفُ بها الخيرُ والشَّرُّ، قالَ اللّهُ تعالى: ﴿تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ﴾ [البقرة: 273][5]. والوسْميُّ: أوَّلُ المطَرِ؛ لأنَّهُ يَسِمُ الأرضَ بالنَّباتِ، وسُمِّيَ مَوسِمُ الحجِّ موْسِمًا؛ لأنَّهُ مَعْلَمٌ يَجتمعُ إليه النّاسُ، والسّومَةُ، بِالضَّمِّ، العَلامَةُ تُجعَلُ على الشّاةِ وفي الحَرْبِ أيضًا، تَقولُ منهُ: تَسَوَّمَ. والوسامَةُ: الجَمالُ[6]. والمقصود بـ ﴿مُّسَوَّمَةً﴾ في الآية: الَّتي لها سِيمى، وهي العَلامَةُ.

7) ﴿بِبَعِيدٍ﴾: أصْلُ البُعْدِ: خِلافُ القُرْبِ، يُقال: بَعُد يَبْعُدُ بُعْدًا، ضِدّ قَرُبَ يَقرُب قُربًا، وليس لهما حدٌّ محْدود[7]، ويكونُ ذلكَ في المحسُوسِ وهو الأكثر، والمعقول نحو: ﴿وَٱلضَّلَٰلِ ٱلْبَعِيدِ ۝٨﴾ [سبأ: 8]، وبَعِدَ بالكسر يبعَد بالفتح: هَلَك، قال تعالى: ﴿كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ۝٩٥﴾ [هود: 95][8]. والمقصودُ بالبُعْدِ المنفيِّ في الآية: البُعدُ المكانيُّ، لِقُرْب قُرى الهالكين من قرى المنْذَرين، أو البُعدُ المعنويُّ، فما حلَّ بقوم لوطٍ يُمكن أنْ يحلَّ بمَن تشبَّهوا بهم.

المعنى الإجماليّ:

يقولُ الحقُّ تعالى: لمّا جاء الصُّبحُ المَوْعود، وقَع أمرُنا الذي قَضَينا فيه بِهَلاك هذه

(1) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللُّغة، وابن عبّاد، المحيط في اللُّغة، وابن فارس، مقاييس اللُّغة: (نضد).
(2) ابن عبّاد، المحيط في اللُّغة، وابن فارس، مقاييس اللُّغة: (نضد).
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/135.
(4) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرّاغب، المفردات: (وسم).
(5) ابن منظور، لسان العرب: (وسم).
(6) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (وسم).
(7) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والسّمين الحلبي، عمدة الحفّاظ، والزَّبيديّ، تاج العروس: (بعد).
(8) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحفّاظ: (بعد).

القَرية، فجَعَلْنا عاليَها سافِلَها، فقَلَبْناها رأسًا على عَقِب، فذهَبَتْ كلُّ معالمها، وأمطَرْنا عليهم قَبْل القَلْب، أو في أثنائه حِجارةً من طينٍ، شديدِ القُوَّة، قد ضُمَّ بعضُه إلى بعضٍ، مُعلَّمةً عندَ اللّه بعلامةٍ مَعروفةٍ لا تُشاكِلُ حِجارةَ الأرض، وما هذه الحِجارةُ - التي أُمطِرَتْ على قوم لوطٍ - ببَعيدةٍ من الظّالمين الفاعلينَ مثلَ فِعلِهم؛ فلْيَحذروا أنْ يُصيبَهم ما أصابَهم[1].

في عِقابِ الله عِبْرَةٌ لِلظّالِمينَ في كُلِّ زَمانٍ وإنِ اخْتَلَفَ العَذابُ بِاخْتِلافِ الأحْوالِ

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالَةُ العَطْفِ:

لا يزالُ الكلامُ مَوصولًا بِما قَبْله، لَيس مَفصولًا عنهُ، فهو إخبارٌ عَن وقوعِ العذاب، بَعْد إخبارِ الملائكَةِ لوطًا ﷺ بوقوعه، أيْ: هو عَطْفُ إخْبارٍ على إخْبار[2].

عَطْفُ إخبارِهِ تَعالى عَلى إخْبارِ المَلائِكَةِ

سِرُّ اخْتيارِ الفاءِ في: ﴿فَلَمَّا﴾:

دلّ اخْتيارُ الفاءِ لِلعَطْفِ دونَ الواوِ؛ على سُرْعة وقوعِ الهَلاكِ بهِمْ، عَقِب إخْبارِهم لوطًا ﷺ بوقوعِهِ بزَمنٍ قريبٍ، بما يُفهَم منهُ أنَّ هذا الإخْبارَ قَد وقَع في آخرِ اللَّيل، ومن أسْرارِ التَّعبير بالفاء كذلك أنَّ وقوعَ الهلاكِ كانَ مُحدَّدَ الزَّمنِ، وهو وقوعهُ في الصُّبح، "فكان المَقامُ مُقْتَضيًا تَرَقُّب السّامع لِما حلّ بهِم عندَ ذلكَ المَوْعد، فكانَ المَوقعُ لِلفاءِ لِتَفْريعِ ما حلّ بِهِم على الوعيدِ بِهِ"[3].

سُرْعَةُ وُقوعِ الهَلاكِ عَقِبَ إخْبارِ المَلائِكَةِ بِهِ وتَرَقُّبُ وُقوعِهِ

سِرُّ التَّعْبيرِ بـ ﴿فَلَمَّا﴾:

عبّر بـ ﴿فَلَمَّا﴾ في قوله: ﴿فَلَمَّا جَآءَ﴾ لدلالَتِها على الظَّرْفيَّة الحينيَّةِ، أيْ: حينَ جاءَ بأْسُنا. كما أنَّها شَرطيَّةٌ أيضًا، لكنَّها لا تجْزم.

أفادَتْ (لمّا) الظَّرْفَ والشَّرْطَ

(1) ابن جرير، جامع البيان: 12/531، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/342، والخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 6/1182.

(2) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 10/159.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/154.

فائِدَةُ التَّعْبيرِ بِالجُمْلَةِ الشَّرْطيَّةِ:

سُنَنُ الله ماضيَةٌ في الظّالِمينَ

أفادَ التَّعبير بالجمْلةِ الشَّرطيَّة التي فِعْلُها: ﴿جَآءَ أَمْرُنَا﴾، وجوابُها: ﴿جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا﴾ أثَرَ تَحقُّقِ إرادَةِ اللّهِ تعالى فيهِمْ، وأنَّها سُنَنٌ كَوْنيَّة لا تَتَخلَّف؛ حيثُ رَبَطَت بين النَّتائجِ والأسباب.

دلالَةُ التَّعْبيرِ بـ ﴿جَآءَ﴾:

تَشْديدُ العَذابِ الَّذي وقَعَ بِقَوْمِ لـوطٍ عليه السلام؛ ليَكونَ رادِعًا لِغَيْرِهِمْ

أوثِرَ التَّعبيرُ بـ ﴿جَآءَ﴾ على (أتى) في قوله: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا﴾ للدّلالَة على شِدَّة الأمْرِ، وشدَّةِ ما تَرَتَّب عليهِ من عِقابٍ؛ لأنَّ لفْظَ المَجيءِ يَدلُّ على الشِّدَّة بخِلافِ الإتيانِ الذي هو مَجيءٌ ولكنْ بسهولةٍ[1]، فضْلًا عَن أنّ المَجيءَ يأْتي في أكْثَر أحوالِهِ مَع المحْسوساتِ، والإتيانَ في أغْلبِ أحوالِه مع غَيْرِها، وعلى هذا حينَ يأْتي التَّعبير بالمَجيءِ، فإنَّه يدلُّ على أنَّ المُعَبَّر عنهُ بِهِ هو أمْرٌ شديدٌ صعْبٌ، أو هو أصْعب ممّا يكونُ التَّعبير فيهِ بـ الإتْيان[2]؛ لذا عبّرَ عنهُ بالمَجيءِ لأنّه باتَ مَحْسوسًا مُشاهَدًا لا يُمارى فيهِ.

سِرُّ التَّعْبيرِ بالماضي ﴿جَآءَ﴾:

في الإخْبارِ رَدْعٌ لِمَنْ يَتَمَثَّلُ فِعْلَ الكافِرينَ

عبّر بصيغَةِ الماضي ﴿جَآءَ﴾ دونَ المُضارِعِ للدّلالَة على تَحقُّق وقوعِ هذا العَذابِ الذي أخْبَرَت بِهِ المَلائكَةُ لوطًا عليه السلام، ليَكونَ في هذا الإخْبارِ ردْعٌ لمَن يُشارِكُهم فِعلَهمْ ويَتَشبَّه بهِمْ.

سِرُّ التَّعْبيرِ عَنِ العَذابِ بِالأمْرِ:

صُدورُ الأمْرِ التَّكْليفيِّ الإلَهيِّ لِلمَلائِكَةِ لإيقاعِ عَذابِ الاسْتِئْصالِ بِقَوْمِ لوطٍ عليه السلام

عبَّر عَن العَذاب بالأمْرِ، فقال: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا﴾؛ لِكونِ العذابِ قد وقَع بأمْرِ اللّهِ وتكليفِهِ لِلملائكَةِ بأنْ يَقْلبوا القَرْية، أوْ مَجموعَ القُرى فيَجْعلوا عاليَها سافِلَها.

وهذا التَّفسير الَّذي يَرى أنّ الأمْرَ على أصْلِ مَعْناهُ، وهو التَّكْليفُ، أوْلى من القَول بِأنّ الأمْرَ هو العذابُ؛ لأنَّ تَفسيرَهُ بالعَذابِ يُخْرجهُ

(1) الرّاغب، المفردات: (جاء).
(2) السّامرّائيّ، لمسات بيانيّة في نصوص من التّنزيل، ص: 97.

عَن كَوْنِه مَصْدرًا، كما يُخرجهُ عَن أصْلِ معْناهُ الحقيقيِّ المشْهورِ الشّائِعِ[1]، وأيضًا فإنَّ تفْسيرَه بالعذابِ يَحْتاج إلى إضْمارٍ، والتَّقديرُ: ولمّا جاءَ وقْتُ عذابِنا جَعَلْنا عاليَها سافِلَها[2] وما لا يُحْتاج فيهِ إلى إضْمارٍ من أوْجُه التَّفْسيرِ، مُقَدَّم على ما يُحْتاج فيهِ إلى الإضْمارِ.

نُكْتَةُ إسْنادِ المَجيءِ إلى الأمْرِ:

إسْنادُ الفِعْلِ لِمَنْ لَمْ يَقَعْ منْهُ مَجازٌ

في إسنادِ المَجيءِ إلى الأمْرِ على كِلا مَعْنَيَيْه تَجَوّزٌ ظاهِر، إمّا على الإسْنادِ الحُكْميِّ أو العَقليِّ، بعَلاقَةِ السَّبَبيَّة أو على سَبيل الاسْتعارَةِ بأنْ شَبَّه الأمْرَ بشَيءٍ من شَأنِه أنْ يَجيءَ؛ فحَذَف المُشَبَّه بِهِ وأبْقى على شيءٍ من لوازِمه، وأسْنَدَه إلى المُشَبَّه على سبيلِ المَكْنيَّة.

دلالَةُ الإضافَةِ في: ﴿أَمْرُنَا﴾:

الإضافَةُ لِلتَّفْخيمِ والتَّهْويلِ

في إضافَة الأمْرِ إلى نونِ العَظَمَة في ﴿أَمْرُنَا﴾ دلالَةٌ على تفْخيم[3] الأمْرِ وتهْويلِه، وهو كذلك؛ إذْ بهِ قُلِبتِ الأرْضُ بالمُهْلَكين بِجَعلِ عاليها سافِلَها.

سِرُّ التَّعْبيرِ بـ ﴿أَمْرُنَا﴾:

أمْرُ العَظيمِ جَسيمٌ

السِّرُّ في التَّعْبير بالإضافَةِ هُنا هو ما تَحْملهُ الإضافَةُ من دلالَةٍ على التَّفْخيم، "فإنَّ أمْرَ العَظيم جَسيمٌ"[4] فهو سُبحانه "المسَبِّبُ لِتَفْخيم الأمْرِ وتهْويلِ الخَطْبِ"[5].

سِرُّ التَّعْبيرِ بِالجَعْلِ:

جَعْلُ عالي قُرى لوطٍ سافِلَها أمْرٌ غَيْرُ مُتَكَرِّرٍ

عبَّر بالجَعل دونَ (القَلْب) في قولِه: ﴿جَعَلْنَا﴾، فلَمْ يَقُل: (قَلَبنا) لما يَحملُه لَفظُ الجَعْل من مَعنى التَّصْيير، الَّذي يُفيدُ هُنا تَحويلَ الشَّيءِ من حالَةٍ مُعْتادَةٍ إلى حالَةٍ غَيْرِ مُعتادَةٍ، أو من طَبيعَتِها إلى

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 6/308، وشيخ زاده، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 4/679.
(2) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 18/382.
(3) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 10/159.
(4) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 10/159.
(5) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/230.

طَبيعَةٍ أُخرى، فكانَ التَّعْبيرُ بالجَعْل هُنا أدلَّ على مُطْلقِ القُدْرةِ التي غَيَّرَتْ من طَبيعَةِ الأرضِ، حينَ جَعَلَتْ عاليَها سافِلَها، ولربَّما كانَت هذه هي الحالَة الوحيدَة الَّتي حَصَل فيها هذا اللَّوْن من العِقابِ؛ إذْ لَم يَذْكر القُرآنُ سِواها، ولَو أنَّه عبَّر بالقَلْبِ لربَّما تُوُهِّمَ أنَّه أمْرٌ يَتكرَّر، فلا تَكونُ لهُ من الغرابَة ما أفادَهُ لفْظُ الجَعْل.

وجْهُ نونِ العَظَمَةِ في: ﴿جَعَلْنَا﴾:

جَعْلُ العَظيم عَظيمٌ

دلَّت نونُ العَظَمةِ في لفْظِ ﴿جَعَلْنَا﴾ على نَفْس ما دلَّت عَليه في لفْظِ ﴿أَمْرُنَا﴾ وهو التَّفْخيم[1] والتَّعْظيم؛ لأنَّ جَعْلَ العَظيم عَظيمٌ، كما كانَ أمْرُه كذلكَ.

دلالَةُ التَّعْبيرِ بالماضي ﴿جَعَلْنَا﴾:

سُرْعَةُ وُقوعِ الجَزاءِ عَقِبَ الأمْرِ بِهِ أوْ مُزامنته

عبّرَ بالماضي في قولِه: ﴿جَعَلْنَا﴾ دونَ المُضارِع؛ لكَونهِ جوابًا للشَّرْط المُضمَّن في: ﴿فَلَمَّا﴾، فهيَ دالَّةٌ على الظَّرف والشَّرْط في آنٍ، وفِعْلا الشَّرط والجَوابِ لها لا يَكونان من غَيْرِ الماضي، الَّذي من فوائدِه الدّلاليَّة هُنا الدّلالَةُ على سُرعة وقوعِ الجَزاء، وهو قَلْبُ الأرضِ وجَعْلُ عاليها سافلَها، فبمُجرَّد مَجيء الأمْرِ الإلَهيِّ وقَع الجزاءُ مباشَرةً أوْ مُزامَنةً؛ لأنَّ ﴿فَلَمَّا﴾ تدلُّ على "وقوعِ أمْرٍ لوقوع غَيرِه، بحيثُ يَكون وقوعُ الثّاني مَع الأوَّل مَعيَّةَ المُسَبّبِ مَع السَّبَب المُقْتَضي، فيَلْزم من ذلك اتِّحادُ زمانِهما"[2].

نُكْتَةُ التَّعْبيرِ بـ ﴿عَلِيَهَا﴾، و﴿سَافِلَهَا﴾:

العِقابُ قَلْبٌ لا خَسْفٌ

المُراد بالعلوِّ هُنا العلوُّ المادّيُّ، كما أنّ المرادَ بالسّفْل أيضًا هو السّفْل المادّيُّ، ولا أدَلَّ من هاتَيْن الكلمَتَيْن على تَصْوير مَشْهدِ العِقاب الإلَهيِّ لهُم؛ بأنْ جعلَ أعْلى الأرضِ التي يَعيشون فوقَها أسْفلَها، وأسْفلَها أعْلاها.

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/230.

(2) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 10/160.

وفي التَّعبير بهما دلالَةٌ على كَون المرادِ بهما حقيقةَ القَلْبِ؛ بأنْ صار ما هو أعْلى أسْفلَ والعَكس، ويَضعف معَهُ ما احتَمَلهُ صاحبُ المنار من كَون المرادِ بهِ الخسْفَ، لا القلْبَ[1] ولَو كان المرادُ به الخسْفَ لصرّحَ بهِ، كما صرّحَ به في عِقاب قارونَ فقال: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ﴾ [القصص: 81].

سِرُّ اخْتيارِ ﴿عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا﴾:

عَذابٌ حِسّيٌّ بِالقَلْبِ، وعَذابٌ مَعْنَويٌّ بِالتَّهْويلِ والإهانَةِ

سِرُّ التَّعبير بقولِه: ﴿عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا﴾ على هذا التَّرتيب في العَذابِ دونَ العَكْس بِأنْ يُجْعَلَ سافِلُها عاليَها، مَع كَونه مُستلزمًا لهُ، وذلك "لتَهويلِ الأمْرِ وتَفْظيعِ الخَطبِ؛ لأنَّ جعْلَ عاليها الَّذي هو مَقارُّهم ومساكنُهم سافلَها، أشدُّ علَيهم، وأشَقُّ من جعْلِ سافِلها عاليَها، وإنْ كان مُستلزِمًا لهُ"[2] وكذلك فإنَّ اقْتِصارَه على ذِكْر جعْلِ العالي سافلًا دونَ العَكْس؛ أدْخَلُ في الإهانَةِ[3].

دلالَةُ الإضافَةِ في: ﴿عَٰلِيَهَا﴾ و ﴿سَافِلَهَا﴾:

الإضافَةُ لِأدْنى مُلابَسَةٍ

الإضافَة في كلٍّ من: ﴿عَٰلِيَهَا﴾ و ﴿سَافِلَهَا﴾ لأدْنى ملابَسةٍ، كالإضافَةِ في قولِه: ﴿عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ۝٤٦﴾ [النازعات: 46]، والضَّميران يَعودان على القَرْية.

دلالَةُ العَطْفِ: ﴿وَأَمْطَرْنَا﴾:

الواوُ لِإفادَةِ الجَمْعِ بَيْنَ العِقابَيْنِ

دلَّ العَطفُ بالواوِ هُنا على الجَمْع بَيْن الهلاكَيْن: القَلْب، والإمْطارِ، وفي إرْداف العِقاب بآخرَ مُتنوّعٍ، دليلُ شدَّة غضَبِ اللّهِ عليهم؛ لشَناعةِ ما ارْتَكَبوه من جُرْم.

سِرُّ اخْتيارِ الواوِ في: ﴿وَأَمْطَرْنَا﴾:

العِقابانِ مُتَزامنانِ لا مُتَعاقِبانِ

عبّرَ بالواوِ دونَ الفاء في قولِه تعالى: ﴿وَأَمْطَرْنَا﴾ للدّلالةِ على

(1) رشيد رضا، تفسير المنار: 12/113.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/230.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/134.

التَّزامُن بَيْن العِقابَين، وأنَّهما لَم يَكونا بالتَّعاقُب، بما تؤدّيه الواوُ من دلالةِ الجَمْع بينهما.

سرّ التَّعْبير بـ: ﴿وَأَمْطَرْنَا﴾:

يُعَبِّرُ القُرْآنُ بِلَفْظِ (المَطَر) في حالِ العِقابِ والعَذابِ

التَّعبير بـ ﴿وَأَمْطَرْنَا﴾ أدلُّ على النِّقمة والعَذابِ، فهو يدلُّ على ذلك خُصوصًا[1] وليسَ كذلك التَّعبير بـ (أرسلنا) فإنَّه قد يَدلُّ على العذاب، وقد يدلُّ على غَيْره من مَواطِنِ التَّشريف بإرْسالِ الرُّسل.

دلالَةُ التَّعْبيرِ بِالفِعْلِ الماضي ﴿وَأَمْطَرْنَا﴾:

جَوابُ (لمّا) كَفِعْلِها لا يَكونُ إلّا فِعْلًا ماضيًا

عبّرَ بالفِعل الماضي ﴿وَأَمْطَرْنَا﴾ دونَ المُضارع؛ لكَونهِ مَعطوفًا على جواب ﴿فَلَمَّا﴾ وداخِلًا في مَعنى الجزاءِ، فهو جُزءٌ منهُ، وقد مَضى أنَّ جواب (لمّا) لا يَكون إلّا فِعلًا ماضيًا، فما عُطِفَ عليهِ لَفْظًا وكان داخلًا في مَعناهُ يُحتِّم أنْ يَكونَ مثلَه فِعلًا ماضيًا.

دلالَةُ نونِ العَظَمَةِ في: ﴿وَأَمْطَرْنَا﴾:

تَفْخيمُ شَأْنِ الإمْطارِ وتَهْويلُهُ

دلَّ التَّعبير بنونِ العَظَمة في قولِه تعالى: ﴿وَأَمْطَرْنَا﴾ على تَفْخيم ذلك الإمْطار وتَهْويلِه، تمامًا كما دلَّت على ذلك في قوله: ﴿أَمَرْنَا﴾ وقولِه: ﴿جَعَلْنَا﴾.

وجْهُ تَعْديَةِ الفِعْلِ ﴿وَأَمْطَرْنَا﴾ بـ (عَلى):

تَعْديَةُ الفِعْل ﴿وَأَمْطَرْنَا﴾ بـ (عَلى) في قوله: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا﴾ أيضًا كما تَعدّى بها في قولِه: ﴿فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأنفال: 32] دونَ أنْ يَقول: (أمطرناها)؛ لأنَّ (على) تُفيدُ الاسْتِعلاء، والإمْطارُ هو العذابُ النّازِلُ عَليهم من السّماء، فأصْلُ اشْتِقاقه "من المَطَر، والمطرُ اسمٌ للماءِ النّازِل من السَّحاب"[2] فساعَد حرْفُ الجرِّ (على) عَلى زيادَةِ تَصْويرِ ذلك الاسْتعلاءِ المَدلولِ عليه بشَيْئَين هما:

(1) صنَّفه ابنُ عاشور ضمن عادات القرآن. وقال: ما سمّى الله مطرًا في القرآن إلّا عذابًا. يُنظر: التّحرير والتّنوير: 1/124.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/237.

الفِعل (أمطر)، إذ الإمطار لا يَكونُ إلّا من السَّماء، وأيضًا بحَرفِ الجرِّ (على) الدالِّ عَلى الاسْتِعلاءِ.

دلالَةُ الإضْمارِ في: ﴿عَلَيْهَا﴾:

إضْمارُ ذِكْرِ القَرْيَةِ إهْمالًا وتَحْقيرًا

لوحِظَ في قولِه تعالى: ﴿جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا﴾ العُدولُ عَن إظْهارِ كلِمَة القَرْية أوِ القُرى - مع أنّ هناك من يرى بأنَّ قَوْمَ لوطٍ كانوا يَعيشونَ في عدَّة قُرى هي الَّتي أُطلِق عليها: (المؤْتَفكات)[1] - إلى التَّعبير عنها بالمُضْمر إخفاءً لها؛ لكَونها لا تَسْتحق أنْ يُصرَّح بها؛ لأنَّها إنْ صُرِّح بها فلا بُدَّ من إتْباعِ ذلك التَّصريحِ بالتَّعريفِ بخبثِها، كما قال تعالى: ﴿وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ ۗ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَٰسِقِينَ ﴿٧٤﴾﴾ [الأنبياء: 74] فإنَّه لمّا ذَكَرها أتْبَعها بالمَوصولِ الدّالِّ معَ صِلَته على الفِعْلة الخَبيثةِ الَّتي كان يَفعلُها أهلُها، فغَنيٌّ عَن البيانِ أنَّ "المُرادَ من القَرية أهلُها"[2].

سِرُّ اخْتيارِ الحِجارَةِ في العَذابِ:

دلالَةُ كَلِمَةِ الحِجارَةِ عَلى القَسْوةِ

الظّاهر أنَّ سِرَّ اختيارِ الحِجارةِ في العَذاب في قولِه: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً﴾ لِما تَحملُه من دلالةٍ على القَسْوة، وهي المُشارُ إليها في قولِه تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ﴾ [البقرة: 74]. فضلًا عَن ارْتِباطِها بمَواضِع العِقابِ بوصفِها أداةً من أدواتِه، قال تعالى: ﴿تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾﴾ [الفيل: 4].

سِرُّ التَّعْبيرِ بـ: ﴿حِجَارَةً﴾:

اسْتِخْدامُ جَمْعِ الكَثْرَةِ (حِجارَة) لِلدّلالَةِ عَلى كَثْرَةِ الحِجارَةِ

عبَّرَ في الجَمْع بـ ﴿حِجَارَةً﴾ دونَ (أحْجار)؛ لِلدّلالةِ على كَثْرة الحِجارةِ، ولا يُناسِبُ الكَثْرة (أحْجار)؛ لأنَّ أفْعال من جُموعِ القِلَّة، وكَثْرة الحِجارَةِ تُناسِبُ شِدَّةَ العِقابِ واسْتِمْرارَه لِوقت أطْولَ.

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/230.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/112.

دلالَةُ التَّنْكيرِ في: ﴿حِجَارَةً﴾:

تَنْكيرُ (حِجارَة) تَفْخيمًا وتَهْويلًا

التَّنكير في قولِه: ﴿حِجَارَةً﴾ للتَّفْخيم والتَّهويلِ من أمْرِها، فهي حِجارَة مُهْلِكةٌ قاتِلَةٌ، كما وقَع الإخْبارُ عنها في قصَّة هلاكِ أصْحاب الفيل في قولِه سبحانه: ﴿تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۝ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ۝﴾ [الفيل: 4 - 5]. فهي لَيْست حِجارَة عاديَّةً وإنّما هي من سِجّيلٍ.

إيثارُ لَفْظِ ﴿سِجِّيلٍ﴾ في وصْفِ الحِجارَة:

كَلِمَةُ (سجّيل) عَرَبيَّةُ الأصْلِ ودالَّةٌ عَلى شِدَّةِ قَسْوةِ الحِجارَةِ

في وصْف الحِجارة هُنا بكَونها ﴿مِّن سِجِّيلٍ﴾، ولَمْ يَقُل: (من طين) كما في قولِه تعالى: ﴿لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ۝﴾ [الذاريات: 33]؛ دلالَةٌ على شِدّة قَسْوتها، فكَلِمة الحَجَرِ لِذاتِها دالَّةٌ على القَسْوة، ثمَّ يأتي هذا الوصْفُ ﴿مِّن سِجِّيلٍ﴾ لِيَدلَّ على مُنتَهى القسْوة، فالسِّجِّيلُ هي الحِجارة الصُّلْبة الشَّديدةُ[1] وهو أنْسَب ما قيل في مَعناها.

ونستطيع التوفيق بيْن قولِه هُنا: ﴿حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾ وفي الذّاريات: ﴿حِجَارَةً مِّن طِينٍ ۝﴾ [الذاريات: 33] بأنّ هذا الطّين قد تحجّر فصار صُلبًا[2].

دلالَةُ تَقْديم الجارِّ والمَجْرورِ ﴿عَلَيْهَا﴾:

تَقْديمُ شِبْهِ الجُمْلَةِ لِلدّلالَةِ عَلى الاهْتِمام والاخْتِصاصِ

تَقديم الجارِّ والمَجرور ﴿عَلَيْهَا﴾ في قولِه: ﴿عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾ دالٌّ عَلى الاهتمام والاختصاصِ فالحِجارة مُرْسَلةٌ على قَريَة لوطٍ عليه السلام أو قُراهُ دونَ غَيْرِهم، "وفيه وعيدٌ لأهْلِ مكَّةَ"[3] ومَن على شاكِلَتِهم في الكُفْر والجُحودِ.

بَلاغَةُ التَّشْبيهِ البَليغِ:

يَأتي الحَمْلُ في في جُمْلَةِ: ﴿حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾ على التَّشبيهِ

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 18/383، والسّامرّائيّ، على طريق التّفسير البيانيّ: 3/311.
(2) ابن عطيّة، المحرَّر الوجيز: 3/198، والآلوسيّ، روح المعاني: 6/309.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/416.

تَشْبيهُ السِّجّيلِ بِوادٍ في جَهَنَّمَ يَزيدُها مُبالَغَةً في الأذى

البَليغِ حالَ تفسير (السِّجِّيل) بأنَّه وادٍ في جهنَّم، وهو أحَدُ الأقوال في تَفْسيرِه، فيَصيرُ المَعنى ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً﴾ كأنَّها ﴿مِّن سِجِّيلٍ﴾ جهنَّمَ[1]. لكنَّه لا يَتَأتّى على تفسير السِّجِّيل بِوجْه آخَرَ، كتَفسيرِه بأنَّه شَديدُ التَّصلُّبِ.

دلالَةُ التَّعْبيرِ بـ ﴿مِّن﴾:

(مِـــن) إمّـــا لِلتَّبْعيضِ أوْ لِلبَيانِ

على تفسير (السِّجّيل) بأنَّه وادٍ في جهنَّم، فإنَّ ﴿مِّن﴾ في قوله تعالى: ﴿مِّن سِجِّيلٍ﴾ تَكونُ لِلتَّبْعيضِ[2]، وعلى غيْرِه فإنَّها يُمكن أنْ تكونَ للتَّبْعيض أو للبَيانِ. والجارُّ والمَجْرور مُتعلّقانِ بِمَحْذوفٍ صِفَة لـ﴿حِجَارَةً﴾[3].

دلالَةُ وصْفِ ﴿سِجِّيلٍ﴾ بـ ﴿مَّنضُودٍ﴾:

وصْفُ السِّجّيل بـ (مَـنْـضُـودٍ) مُفْضٍ إلى وصْفِ الحِجارَةِ بِهِ

تقدّم أنّ شِبْهَ الجُملةِ ﴿مِّن سِجِّيلٍ﴾ هو صِفَةٌ لـ ﴿حِجَارَةً﴾ ثُمّ وُصِف ﴿سِجِّيلٍ﴾ بأنَّه ﴿مَّنضُودٍ﴾، أيْ: مُتتابِع بَعْضُه إثْرَ بَعْضٍ بَعد أنْ نُضِّدَ في السماء، والمَعنى: إنَّ هذهِ الحِجارة شَديدةُ التَّصلُّب الّتي أمْطرْناهُم بِها هي مَنْضودَةٌ في السّماء نَضْدًا مُعَدًّا للعذاب بحيْثُ يُرسَل بعضُها إثْرَ بعضٍ كقِطارِ الأمطار[4]. فدلَّ الوصْف بـ ﴿مَّنضُودٍ﴾ على الكَثْرة والتَّتابعِ[5] بلا إمْهال، وهذا الوصْف وإنْ كان قد أُجْرِيَ على ﴿سِجِّيلٍ﴾ لكنَّه يُفْضي إلى وصْف الحِجارة؛ لأنَّها منْهُ[6].

سِرُّ التَّعْبيرِ بـ: ﴿مُّسَوَّمَةً﴾:

السّيمَةُ أبْلَغُ منَ العَلامَةِ؛ لِأنَّها العَلامَةُ المُمَيِّزَةُ

عبَّر بقَوله: ﴿مُّسَوَّمَةً﴾ دونَ (مُعَلَّمة) مع أنّ السّيمَة تَعني

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/134.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/134.
(3) عبد اللّطيف الخطيب وآخران، التّفصيل في إعراب التّنزيل: 6/143.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/230، وابن عطيّة، المحرَّر الوجيز: 3/198، وطنطاويّ، التّفسير الوسيط: 7/252.
(5) السّامرّائيّ، على طريق التّفسير البيانيّ: 4/312.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/134.

العلامة، لكنَّها العلامَةُ المُمَيَّزة كأمْثالِ الخواتيم[1]. أو أنْ يَكون المُراد بـ ﴿مُّسَوَّمَةً﴾ أيْ: كُتِب عليها اسْم مَن رُميَ بها[2] وهذا المَعنى غيْر مَوجودٍ في كلمة (مُعَلَّمة) فيَكون مُرجِّحا كذلك لإيثار التَّعبير بـ ﴿مُّسَوَّمَةً﴾ دونَها.

دلالَةُ الكِنايَةِ في: ﴿مُّسَوَّمَةً﴾:

قَولُه: ﴿مُّسَوَّمَةً﴾ مَكْنيٌّ بهِ عن المُعَدَّةِ المُهَيَّئَةِ؛ لأنّ الإعداد من لَوازِم التَّسويم بِقَرينة قوله: ﴿عِندَ رَبِّكَ﴾؛ لأنَّ تَسْويمَها عند الله هو تَقديرُه إيّاها لَهُم[3].

الكِنايَةُ دالَّةٌ عَلى أنها مُعَدَّةٌ مُهَيَّأةٌ لِلتَّوْسيم وأنَّها بِتَقْديرِ الله

بَلاغَةُ الاسْتِعارَةِ في: ﴿مُّسَوَّمَةً﴾:

ذَكَر الشَّريف الرَّضيُّ أنّ "هذه استعارَةٌ؛ لأنّ حقيقةَ التَّسْويم هي العلاماتُ الَّتي يُعلَّم بها الفرْسان والأفْراسُ فى الحرب، للتَّمْييز بيْن الشّعارات، والتّفْريق بيْن الجَماعات... والمَعنى أنّه سبحانه لمّا جَعَل تلك الحِجارة حَرْبًا لهُم وأعْوانًا عليهم وصَفَها بوصْف رجال الحربِ وخُيولِهم، فكأنَّها مُرْسَلةٌ من عندِ الله، أيْ من عندِ ملائكة الله الّذين تَولَّوا الرَّمْيَ بها، إرْسالَ الخيولِ المُسوَّمةِ على أعْدائِها، وإنْ لَم يَكُن هناك تَسْويم على الحقيقة. وقد قال بعضُهم: إنّ تلك الحِجارة كانت على الحقيقة مُعلَّمةً بعلاماتٍ تَدلُّ على أنَّها أُعِدَّت للعذاب، وأُفْرِدت للعِقاب. وذلك أمْلأُ للقلوب، وأعظم فى الصُّدورِ"[4].

حَقيقَةُ التَّسْويم هيَ العَلاماتِ الَّتي يُعَلَّمُ بِها الفُرْسانُ والأفْراسُ في الحَرْبِ

دلالَةُ التَّعْبيرِ بِالظَّرْفيَّةِ ﴿عِندَ﴾:

دلّ التَّعبير بالظَّرفِ ﴿عِندَ﴾ في قولِه تعالى: ﴿عِندَ رَبِّكَ﴾ على قَصْديّة الظَّرف، وأنَّ هذه الحِجارة قد سوِّمَت "في خزائنه الّتي لا يَتَصرّف فيها غيرُه ﷻ"[5].

قَصْديَّةُ التَّعْبيرِ بِالظَّرْفِ وحَمْلِهِ عَلى الحَقيقَةِ

(1) الفِيروزابادِيّ، القاموس المحيط: (سوم)، والسّجستانيّ، غريب القرآن، ص: 434.
(2) شيخ زاده، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 4/679.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/134.
(4) الشّريف الرّضيّ، إيجاز البيان: 2/163.
(5) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/230.

سِرُّ التَّعْبيرِ بِالرُّبوبيَّة: ﴿رَبِّكَ﴾:

التَّعْبيرُ بِالرَّبِّ مُضافًا إلى ضَميرِ الخِطابِ يُشيرُ إلى كَثْرَةِ الإحْسانِ إلى المُخاطَبِ

قولُه: ﴿عِندَ رَبِّكَ﴾ تعبيرٌ بالربوبيّة دون الألوهيّة، فالخِطاب لهُ ﷺ، "وعبّرَ بالرَّبِّ إشارةً إلى كَثْرة إحسانه إليهِ، وأنَّه إنّما أمَرَهُ ﷺ بالإنْذارِ رحمةً لِأُمَّته الّتي جَعَلها خيْرَ الأُمَم، وسيجْعَلها أكثَرَ الأُمَم، ولا يُهْلِكُها كما أهْلَكهم"[1].

دلالَةُ كافِ الخِطابِ: ﴿رَبِّكَ﴾:

التَّشْريفُ وإعْلاءُ المَكانَةِ

كافُ الخِطاب هيَ للنَّبيِّ ﷺ؛ لأنَّه المَقْصودُ هُنا بإنْعام الرُّبوبيّة، ونِسْبةُ الرُّبوبيّة إلَيه ﷺ تَشْريفٌ لهُ، وإعْلاءٌ لِمَكانته.

مَعْنى الواوِ في: ﴿وَمَا هِيَ﴾:

قد تَكونُ الواو هُنا عاطِفةً، عَطَفَت وصْفًا على وصْفٍ، وقد تَكونُ حاليّةً على مَعنى: والحالُ أنّها لَيْست بِبَعيدةٍ عن الظّالمين. ويُمكن أنْ تَكونَ مُعْتَرِضَةً كذلك أفادَتْ مزيدًا من التّعْريف بِها.

دلالَةُ التَّعْبيرِ بـ ﴿وَمَا﴾ النافية:

(وما) آكَدُ في النَّفْي منْ غَيْرِها

في قوْلِهِ تَعالى: ﴿وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾: ﴿وَمَا﴾ نافيَةٌ غيْرُ عاملَة، أو هيَ العاملةُ عمَلَ لَيس[2] الّتي تُسمّى: (ما) الحِجازيَّة، وهيَ تَحْتاج إلى اسْم وخَبَرٍ، واسْمُها هو الضَّميرُ المُنْفصل ﴿هِيَ﴾، وقولُه: ﴿مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ مُتعَلّق بـ ﴿بِبَعِيدٍ﴾ خَبَر ﴿وَمَا﴾. وهيَ كَ (لَيس) في نَفْي الحالِ عندَ الإطْلاق، لكنَّها آكَدُ من ليس في الدّلالة على النَّفْي؛ إذْ تدلُّ على قوَّة النَّفْي من حيثُ: نَفْيُها لِلجُملة الاسْميّة الدّالَّةِ على الثُّبوتِ، ودُخولُ ﴿مِنَ﴾ الزّائدة الدّالَّةِ على الاسْتِغراق والتَّوْكيد عَليها، واقْترانُ خَبَرِها بالباء الزّائدة الدّالَّةِ على التَّوْكيد[3].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/346.
(2) عبد اللّطيف الخطيب وآخران، التّفصيل في إعراب التّنزيل: 6/144.
(3) السّامرّائيّ، معاني النّحو: 1/252 - 254.

نُكْتَةُ التَّعْبيرِ بِالإضْمارِ في: ﴿وَمَا هِيَ﴾:

الضَّميرُ إمّا لِلقُرى مَقْصودًا بِهِ اسْتِهْجانُ التَّصْريحِ، أوْ لِلحِجارَةِ مَقْصودًا بِهِ الزَّجْرُ والتَّخْويفُ

عَوْد الضَّميرِ هُنا هو الذي يُحدِّد دلالَتَهُ، وفيه احْتِمالانِ:

الأوَّل: أنْ يَعودَ إلى ما عادتْ إليه الضَّمائر المَجرورةُ قبْلَه، أيْ: إلى المَدينة أو القَرْية، فيَكونُ المَعنى وما تلك القَرية ببَعيدة من المُشركين، أي: العَرَب، فمَن شاء فلْيَذهب إليها ليَنْظر إلى مَصيرَها، فالمراد هُنا البُعْد المَكانيُّ[1] وعلَيْه ففي إضْمارِها وعدَم إظهارِها اسْتِهجانٌ وامْتِهانٌ لها، كما لَم يُصَرّحْ بها فيما مَضى مُؤْثِرًا الإضْمارَ على الإظهارِ في ﴿عَٰلِيَهَا﴾ - ﴿سَافِلَهَا﴾ - ﴿عَلَيْهَا﴾؛ لِكَوْنها لَيستْ أهْلًا لِلتَّصريح بها؛ لأنَّها كانتْ قَرْيةَ خَبائثَ ومَعاصٍ.

الثّاني: أنْ يَعودَ الضَّميرُ إلى الحِجارة، على مَعنى: وما تلك الحِجارة بِبَعيدةٍ عن أيِّ ظالمٍ يَفْعل مثْلَ ما فعلوا. فهو يَحْمل إذًا مَعاني التَّخويفِ والتَّهديد والزَّجْر.

وهناك احْتِمالٌ ثالِث: أنْ يَصْلحَ الضَّمير لِكِلَيْهما في آنٍ، على طريقةِ التَّوْجيهِ[2].

دلالَةُ تَقْديم الجارِّ والمَجْرورِ: ﴿مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾:

قَدَّمَ الظّالِمينَ إبْرازًا لَهُمْ لِكَوْنِهِمُ المَقْصودينَ بِالعُقوبَةِ

عبَّر بقَوله: ﴿وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ بتَقديم الجارِّ والمَجرور، دونَ القَوْل: (وماَ هِيَ بِبَعيدٍ منَ الظّالِمين)، مع كَوْن الجارِّ والمَجرور مُتَعَلّقَيْن به؛ أيْ: بـ ﴿بِبَعِيدٍ﴾ فكان أدْعى لِتَقديمه، وذلك "للاهْتِمام

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/135.

(2) ألْمَح إليه ابن عاشور في التّحرير والتّنوير: 12/135. واستبْعَدَه قائلًا: "وهذا من الكلام الموجَّه مع صحّة المَعْنَيَين وهو بَعيد". والتَّوْجيه: هو إيراد الكلام مُحتملًا لوجهَين مُختلفَين احتمالًا على السَّواء فيهما، ومن أمثلته كما في البرهان للزّركشيّ قوله تعالى حكايةً عن أخت موسى عليه السلام: ﴿هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰٓ أَهۡلِ بَيۡتٖ يَكۡفُلُونَهُۥ لَكُمۡ وَهُمۡ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ١٢﴾ [القصص: 12] فإنّ الضّمير في قوله: (له) يَصلح أنْ يكون لموسى عليه السلام، كما يَصلح أنْ يكون لفرعون، وبذلك تخلَّصت أخت موسى عليه السلام حين قيل لها: إنّك عرفته، بقولها: ناصحون للمَلِك. ومثله جواب ابن الجوزيّ لَمن سأله مَن الأفضل عندَ النَّبيِّ ﷺ أبو بكر أم عليّ؟ فقال: مَن كانت ابنته تحته أ.هـ. فيصحّ عَود الضّميرَين إلى كلّ منهما. يُنظر: الزّركشيّ، البرهان في علوم القرآن: 2/315.

به ولرِعايَة الفَواصِل"[1]؛ ولأنّ في إبْرازِ اسْم الظّالمينَ تَخْويفًا لهُم وتَهْديدًا، لِكَوْنهم هم المَقْصودين في الخِطاب، ثُمّ إنّ العُقوبة المَذكورة إنّما هيَ لهُم[2].

عِلَّةُ اخْتيارِ وصْفِ الظّالِمينَ:

وصْفُ الظُّلْم أعَمُّ منَ الكُفْرِ وغَيْرِهِ

الّذي يَظهَر في سِرِّ اخْتيار وصْف الظّالمين دونَ غيْرِه كـ (الكافرين) ونَحْوه هو العُمومُ في مَعنى الظُّلم، فهو أعَمُّ من غيْرِه، فالظُّلم يَشمل كلَّ ألْوان التَّقصيرِ والعِصْيان، وعلَيه فوصْف ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ يَشمل في عمومِه الكافرين والمُجرمين والعاصين ممَّن يَعملون عمَلَ قَوْم لوطٍ عليه السلام، ولهذا أُوثِرَ على غيْرِه ممّا تَكونُ له دلالَة خاصَّةٌ.

سِرُّ التَّعْبيرِ بالاسْميَّةِ ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾:

التَّعْبيرُ بِجَمْعِ السَّلامَةِ آكَدُ منَ التَّعْبيرِ بِالفِعْلِ

عبَّر بالاسْم فقال: ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ ولَم يُعبّرْ بالفِعل (الذين ظلموا)؛ لأنّ التَّعبير به آكَدُ، لِما في الاسْم من مَعنى الثَّبات في مُمارَسة الوصْف، وهو هُنا الظُّلم، ويُرَسِّخه صَوْغُه على هَيْئَةِ اسْم الفاعِل الدّالِّ على الدّوام. أمّا الفِعل فَمَرْهونٌ بِزَمنٍ لا يَخرُج عنه إلّا بِضَرْبٍ من التَّأويلِ والتَّعليل.

دلالَةُ (أل) في: ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾:

(أل) الاسْتِغراقيَّةُ الدّالَّةُ عَلى العُموم

تدُلُّ (أل) في قولِه تعالى: ﴿مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ على العُموم؛ لأنَّها (أل) الاسْتِغراقيَّةُ، الّتي تُفيد اسْتِغراقَ الجِنْس. والمَعنى عليها: "وما هيَ من كلِّ ظالِمٍ بِبَعيد"[3] ويُؤيِّد كَونَها لِلعُموم هذا التَّهديدُ المَفهوم من قولِه تعالى في مَوضع آخَر: ﴿وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ۝٨٩﴾ [هود: 89]

(1) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 10/163.
(2) السّامرّائيّ، على طريق التّفسير البيانيّ: 3/313.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/416.

إيثارُ النَّفْي دونَ الإثْباتِ:

تأكيدُ المَطْلوبِ بِالنَّفْي، وزيادَةُ الباءِ في الخَبَرِ

إيثارُ النَّفْي على الإثْباتِ في قوله تَعالى: ﴿وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ وتجنُّب قول: (وهيَ من الظّالمين قَريبٌ) يدلّ على تأكيد عدَم بُعدهم عنها، ولذا زادَ الباءَ في الخَبَر ﴿بِبَعِيدٍ﴾ تأكيدًا لهذا المَعْنى[1].

نُكْتَةُ تَجْريدِ ﴿بِبَعِيدٍ﴾ منْ تاءِ التَّأْنيثِ:

جُمْلَةُ أسْبابٍ تُعَلِّلُ عَدَمَ إلْحاقِ تاءِ التَّأْنيثِ بِلَفْظِ: (ببَعيد)

إنّما قال: ﴿بِبَعِيدٍ﴾ ولَم يَقُل: (بَعيدة) مع أنّها وصْفٌ للحِجارة أو للقَرْية في قَوله تعالى: ﴿وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾؛ لواحِد من الأسباب الآتيَة، فكلٌّ منها يَصلح علَيه التَّخريجُ:

أولًا: لأنّ (فَعيلًا) إذا كان بمَعنى (فاعِل) وجَرى على مؤنَّثٍ غيْرِ حَقيقيٍّ، فإنَّه يَجوز تَذْكيرُه للتَّخفيف، ومثلُه قَوله تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝٥٦﴾ [الأعراف: 56][2].

ثانيًا: ويُمكن حَمْل لفْظ ﴿بِبَعِيدٍ﴾ على أنَّه صِفَة لمَوْصوف مَحْذوفٍ والتَّقْدير: (بشَيْءٍ بَعيد).

كما يحْتَمل أنْ يُراد (بِمَكان بَعيدٍ)؛ لأنَّها وإنْ كانت في السّماء وهي مكان بَعيد، إلّا أنَّها إذا هَوتْ منها فهيَ أسْرَع شيْءٍ لُحوقًا بالمَرْميِّ، فكأنَّها بمكان قَريب منه[3].

ثالثًا: ويَجوز أنْ يَكونَ التَّذكيرُ فيه لكَوْنه على زِنَةِ المَصْدرِ، كالزَّفير والصَّهيلِ، والمَصادر يَستوي في الوصْف بها المُذكَّر والمؤنَّثُ[4].

رابعًا: ويَجوز تَأويلُ الحِجارة بالحَجَر المُرادِ به الجِنْسُ[5]، أو تأويلُ القَرية بالقُرى، بِناءً على التَّفسيرَين السّابِقِ ذِكْرُهما

(1) السّامرّائيّ، على طريق التّفسير البيانيّ: 4/313.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/135.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/416، وأبو حيّان، البحر المحيط: 6/192.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/231.
(5) الآلوسيّ، روح المعاني: 6/310.

للضَّمير المُنفَصل في قَوله: ﴿وَمَا هِيَ﴾ والدّاعي إلى هذا التَّأويل رِعايَة الفَواصلِ[1].

دلالَةُ خِتام قِصَّةِ لوطٍ:

تَـهـديـدُ ظـالِمي مَكَّةَ وكُلِّ ظالِمٍ بِمثْلِ عِقابِ قَوْمِ لوطٍ عليه السلام

في ختام القِصَّةِ بقَوله: ﴿وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ تهديدٌ لأهْلِ مكَّةَ ولكلِّ ظالم[2] على وجْه البَسيطةِ وفي أيِّ زَمَنٍ، بأنَّ العِقاب الَّذي حلَّ بِقَوم لوطٍ لَيس بِبَعيد عنهم، ويُمكنُ أنْ يَتكرَّر هذا العِقابُ ويَطالَهم.

المتَشابهُ اللفظي:

قال تعالى في سورَة هود: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ۝٨٢ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ۖ وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾.

وقال تعالى في سورَة الحِجْر: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ۝٧٣ فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ۝٧٤ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ۝٧٥﴾ [الحِجْر: 73 - 75].

وقال تعالى في سورَة الذّاريات: ﴿لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ۝٣٣ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ۝٣٤﴾ [الذّاريات: 33 - 34].

أسْرارُ اخْتِلافِ التَّعْبيرِ في مَشْهَدِ عَذابِ قَوْمِ لوطٍ:

الزَّجْرُ في سورَةِ الحِجْرِ أعْظَمُ مِنْهُ في سورَةِ هود

أوَّلًا: قَوله في هود: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا﴾، وفي الحِجْر: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ﴾ [الحجر: 74] والسَّبب في ذلك: أنَّ الزَّجر في سورَة الحِجْر كان أعْظَمَ من الزَّجر في سورَةِ هود عليه السلام، لِطَلَبِهم أنْ يأْتيَ بجَميعِ الملائكة، ولذا أعادَ الضَّميرَ على المُعَذَّبينَ لا على مُدُنِهم - كما هو التَّعبيرُ في سورَة هود عليه السلام - ولأنَّ هذا أشدّ مصارحة، فقال: ﴿عَلَيْهِمْ﴾ [الحجر: 74]، أيْ أهْل المَدائنِ الَّتي قُلِبَتِ المَدائنُ لِأجْلِهم[3].

---

(1) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 10/164.

(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/416.

(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/77.

ويحتمل أنْ يكونَ قوله: ﴿عَلَيْهِمْ﴾ [الحجر: 74] في آية الحِجْر مَرْدودًا إلى قوله: ﴿إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ۝٥٨﴾ [الحِجْر: 58][1].

وكذلك أيضًا في الذّاريات حيثُ قال: ﴿لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ﴾ [الذاريات: 33]، أيْ على المُعَذَّبينَ؛ لأنَّه قد سَبَقها قوله: ﴿إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ۝٣٢﴾ [الذّاريات: 32] فلَم يَرِد ذكْرٌ للقُرى، فعادَ الضَّميرُ على القَوم المُجرِمين[2].

مُناسَبَةُ السّياقِ لِلأوْصافِ المَذْكورَةِ في سُورِها

ثانيًا: قَوله في هود: ﴿مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ﴾، وعدَمُ ذِكر وصْف مَنْضود في الحِجْر فاكْتَفى بقَوله: ﴿مِّن سِجِّيلٍ ۝٧٤﴾ [الحجر: 74]، والّذي يَظهر أنَّ الزّيادة بوصْف ﴿مَّنضُودٍ﴾ في سورة هود دونَ سورَتَي الحِجْر والذّاريات، لِمُناسبتِها لِتَقَدُّم وصْف هذا العَذابِ بقَوله: ﴿وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ۝٧٦﴾ [هود: 76]، أيْ غيْر مَدْفوعٍ[3]، فناسَبَ بَعد ذلك بأنْ يوصَفَ بأنّه ﴿مَّنضُودٍ﴾، أيْ مُتَراكِم مُتَتابِع، بيانًا وتأكيدًا لكَوْنه غيْرَ مَرْدودٍ.

ثالثًا: قَوله في الذّاريات: ﴿حِجَارَةً مِّن طِينٍ ۝٣٣﴾ [الذاريات: 33] وفي سورَتَي هود والحِجْر: ﴿مِّن سِجِّيلٍ﴾، ولا تَعارُض فأصْل السِّجّيل هو الطّينُ الّذي تَحَجّر بَعد ذلك وصار صُلْبا.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

(مُسوَّمة) و(مُعَلَّمَة):

كُلُّ سِمَةٍ عَلامَةٌ، ولَيْسَتْ كُلُّ عَلامَةٍ سِمَةً

هُناك تقارُب دلاليٌّ بيْن كلٍّ من السِّمة والعلامةِ لاشْتِراكِهما في أصْل المَعنى، وهو أنَّ كُلًّا منهما يَعني تَمْييزَ الشَّيءِ بما يَدلُّ عليه، غيْرَ أنَّ "السِّمة ضَرْبٌ من العلاماتِ مَخْصُوص، وهو ما يَكون بالنّار في جسد حَيَوان... وأصْلُها التَّأْثير في الشَّيْء ومنهُ الوسْميُّ - وهو مطرُ الرَّبيعِ الأوَّل - لأنّه يَسِمُ الأرضَ بِالنَّباتِ، نُسب إلى الوسْم،

(1) الكرمانيّ، البرهان في متشابه القرآن، ص: 156.
(2) الغرناطيّ، ملاك التّأويل: 2/262.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 15/407.

والوسْمُ أثَرُ كَيَّةٍ، تَقول: مَوْسومٌ، أيْ قد وُسِمَ بِسِمةٍ يُعرفُ بِها، إمّا كيَّةٌ، وإمّا قَطعٌ في أُذنٍ، أو قَرْمةٌ تَكونُ عَلامَةً لَهُ. وفي التَّنْزيلِ العَزيز: ﴿سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ١٦﴾ [القلم: 16][1].

وعلى هذا تَكون السِّمةُ أخَصَّ من العلامة؛ لأنَّه لا بُدَّ لها من تأثير حِسّيٍّ على الجسد المُعَلَّم، أمّا العلامة فهيَ أعَمُّ، أيْ أنَّ بَيْنهما عُمومًا وخصوصًا مُطلَقًا، فكلُّ سِمةٍ علامةٌ، ولَيستْ كلُّ علامةٍ سِمةً. ومن هُنا ناسَبَ شدَّة العِقاب - جَرّاء شَنيعِ الفِعل الذي قاموا به - لفْظ ﴿مُّسَوَّمَةً﴾.

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 71، وابن منظور، لسان العرب: (وسم).

﴿۞وَإِلَىٰ مَدۡيَنَ أَخَاهُمۡ شُعَيۡبٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ وَلَا تَنقُصُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَۖ إِنِّيٓ أَرَىٰكُم بِخَيۡرٖ وَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ مُّحِيطٖ ٨٤﴾ [هود: 84]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

مُعاناةُ الأنْبياءِ مَعَ أقْوامِهِمْ، وعِقابُ الاسْتِئْصالِ جَزاءُ عِنادِهِمْ

لمّا ذَكر اللّه تعالى قصَّةَ لوطٍ عليه السلام مع قَومه، وكيف عانى معهم غيْرَ وانٍ لرَغبةٍ ولا رَهْبة، حتّى انتهت القِصَّة بذِكْر ما حلّ بهم من عذاب استئصال، أُتبِعت قصَّتُه بأقرَبِ القصص الشَّهيرة إليها في الزَّمَن[1]، المُشاكِلَة لها في الجهْد الَّذي قام به كِلا النَّبيَّين الكريمَين، وفي الإعراض للنُّصح من قَومهما، وفي عذاب الاستئصال الَّذي حلّ بكلٍّ منهما، فقال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدۡيَنَ أَخَاهُمۡ شُعَيۡبٗاۚ﴾

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مَدۡيَنَ﴾: اسمٌ أعْجَميٌّ، كجَعْفَر، وإنِ اشْتَقَقْتَه من العَربيَّة فالياءُ زائِدَةٌ، وقد يَكونُ مَفْعَلاً وهو أظهَرُ. ومَدْيَنُ - كما قيل - أُمَّةٌ سُمِّيَتْ باسْم جَدِّها مَدْيَن بن إبراهيمَ الخليلِ عليه السلام، من زَوجه الثّالثة الَّتي تزوَّجها في آخر عُمُرِه، والنِّسبةُ إليها مَدْيَنيٌّ. ومَواطنُهم بَيْنَ الحِجازِ وخَليجِ العَقَبَةِ بقُربِ ساحِلِ البَحرِ الأحْمرِ، وقاعدةُ بلادِهم (وجّ) على البحرِ الأحمرِ وتنتهي أرضُهُم منَ الشَّمالِ إلى حُدُودِ مَعانٍ من بلادِ الشّام، وإلى نَحْوِ تَبوكَ منَ الحِجازِ، وتُسمَّى بلادُهم: (الأيْكَة)[2]، وقيل: الأيْكة قَومٌ آخَرون غيْر أهْلِ مَدْيَن، أُرْسلَ إليهم شُعيْبٌ عليه السلام[3].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/350.

(2) الحمويّ، معجم البلدان: 5/77، والزَّبيديّ، تاج العروس: (مدن)، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8ب/239.

(3) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 24/528.

2) ﴿أَخَاهُمْ﴾: أصْلُ (أخ): أخَو، وهو: المُشارِكُ آخَرَ في الوِلادَةِ منَ الطَّرَفَيْن، أوْ منْ أحَدِهما أوْ منَ الرَّضاعِ. ويُستَعارُ في كلِّ مُشارِكٍ لِغَيْرِهِ في القَبيلَةِ، أوْ في الدِّينِ، أوْ في صَنْعَةٍ، أوْ في مُعامَلَةٍ أوْ في مَودَّةٍ، وفي غَيْرِ ذلك منَ المُناسَباتِ. والأُخُوَّةُ إذا كانَتْ في غَيْرِ الوِلادَةِ كانَتْ لِلمُشاكَلَةِ والاجْتِماعِ في الفِعْلِ، نَحْو: هذا الثَّوبُ أخو هذا، وقَوْلُه تعالى: ﴿كَانُوٓاْ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِۖ﴾ [الإسراء: 27]، أيْ: مُشاكِلوهُمْ[1]. والمُرادُ بِالأخِ في الآيةِ: المُشارِكُ في نَسَبِ القَبيلَةِ.

3) ﴿شُعَيْبًاۚ﴾: شُعَيْبٌ عليه السلام هو رَسُولٌ لأهلِ مَدْيَنَ، وهو منْ أنْفُسِهِم، اسمُهُ في العَرَبيَّة شُعَيْبٌ عليه السلام واسمُهُ – على ما قيلَ –: شُعَيْبُ يَثْرونُ بْنُ صَيْفُونَ بنِ عُنْقا بنِ ثابِتِ بنِ مَدْيَنَ بنِ إبراهِيمَ، وقيلَ: هو شُعَيْبُ بنُ ميكيلَ منْ ولَدِ مَدْيَنَ، وقيلَ: لَم يَكُنْ شُعَيْبٌ منْ ولَدِ إبراهيمَ، وإنَّما هو ولَدُ بعضِ مَنْ آمَنَ بإبراهيمَ وهاجَرَ معه إلى الشّام، ولكنَّهُ ابنُ بِنْتِ لُوطٍ عليه السلام، فَجَدَّةُ شُعَيبٍ ابْنَةُ لُوطٍ، وكانَ ضَريرَ البَصَرِ، وقيلَ: هو مَعْنى قَوله تعالى: ﴿وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًاۖ﴾ [هود: 91]، أيْ ضَريرَ البَصَرِ. قالَ الصّاغانيُّ: وهو اسْمٌ عَرَبيٌّ يُمكنُ أنْ يَكونَ تَصْغيرَ شَعْب أو أشْعَب، كَما قالوا في تَصْغيرِ أسْود سُوَيْد، وهو تَصْغيرُ التَّرْخيم[2].

4) ﴿وَلَا تَنقُصُواْ﴾: أصْلُ (نقص): كلِمَةٌ واحِدَةٌ، هي النَّقْصُ: خِلافُ الزِّيادَةِ، ونَقَصَ الشَّيْءُ، ونَقَصْتُهُ أنا، وهو مَنْقُوصٌ، والنَّقْصُ أيضًا: الخُسْرانُ في الحَظِّ، والنُّقْصانُ المَصْدَرُ، والنَّقيصَةُ: العَيْبُ؛ يُقالُ: ما بِهِ نَقيصَةٌ، أيْ: شَيْءٌ يَنْقُصُ. ومَرجِعُ البابِ كُلِّهِ إلى هذا[3]. والمَقْصودُ بِالنَّقْصِ في الآيَةِ: إزالَةُ بَعْضِ الشَّيْءِ.

5) ﴿ٱلْمِكْيَالَ﴾: أصْلُ الكَيْلِ: ضَبْطُ الشَّيْءِ وإمْساكُهُ[4]؛ وسُمِّيَ المكْيالُ بِذلِكَ؛ لأنَّهُ يَضْبِطُ الحَبَّ ونَحْوَهُ. والكَيْلُ: تَحْديدُ قَدْرِ الشَّيْءِ وقِياسُهُ، والجَمْعُ: أكْيالٌ، والمكْيالُ: آلَةُ الكَيْلِ تَكونُ منْ خَشَبٍ أوْ حَديدٍ أوْ غَيْرِهِ كالصّاعِ ونَحْوِهِ[5]، يُقالُ: كالَ الطَّعامَ يَكيلُ كَيْلاً إذا حَدَّدَ مقْدارَهُ. ويَأْتي الكَيْلُ بِمَعْنى: الإعْطاءِ، وكِلْتُ فُلانًا: أعْطَيْتُهُ، واكْتَلْتُ عَلَيْهِ: أخَذْتُ

(1) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحفّاظ: (أخ).
(2) ابن الأثير، الكامل في التّاريخ: 1/138، والزَّبيديّ، تاج العروس: (شعب)، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8ب/240.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (نقص).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (كيل).
(5) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن عبّاد، المحيط في اللّغة: (كيل).

منْهُ، والاسْمُ: الكِيلَةُ، والكَيّالُ: صاحِبُ حِرْفَةِ الكَيْلِ[1]. والمَقْصودُ بالمكْيالِ في الآيَةِ: ما يُكالُ بِهِ بِالكَيْلِ[2].

6) ﴿وَٱلۡمِيزَانَۖ﴾: أصْلُ الميزانِ موْزانٌ، فانْقَلَبَتِ الواوُ ياءً لِكسْرَةِ ما قَبْلَها، ويَأْتي في اللُّغَةِ بِمَعْنى العَدْلِ والكِتابِ والمقْدارِ، والجَمْعُ: مَوازينُ. والميزانُ: الآلَةُ الَّتي تُوزَنُ بها الأشْياءُ، يُقالُ: وزَنْتُ الشَّيْءَ، أزِنُهُ، وزْنًا، أيْ: قَدَّرْتُهُ بِواسِطَةِ الميزانِ. والوزْنُ: ثَقْلُ شَيْءٍ بِشَيْءٍ مثْلِهِ كَأوْزانِ الدَّراهِمِ[3]. والمَقْصودُ بالميزانِ في الآيَةِ: اسْمُ آلَةِ الوزْنِ.

7) ﴿مُّحِيطٖ﴾: أصْلُ (حيط): يَدُلُّ عَلى شَيْءٍ يُطيفُ بِالشَّيْءِ[4]. ومنْهُ الحائِطُ: الجِدارُ الَّذي يَحوطُ بِالمَكانِ، والإحاطَةُ تُقالُ عَلى وجْهَيْنِ: أحَدهما: في الأجْسامِ، نَحْو: أحَطْتُ بِمَكانِ كَذا، أوْ تُستَعْمَلُ في الحِفْظِ، نَحْو: ﴿إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءٖ مُّحِيطُۢ ٥٤﴾ [فُصّلت: 54]، وتُسْتَعْمَل في المَنْعِ، نَحْو: ﴿إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمۡۖ﴾ [يوسف: 66][5]. والإحاطَةُ بالشَّيْءِ: الكَوْنُ حَوْلَهُ كالحائِطِ، ويُكَنّى بِها عَنِ التَّمَكُّنِ مِنَ الشَّيْءِ بِحَيْثُ لا يَفوتُ منْهُ[6]. والثّاني: في العِلْمِ، نَحْو قوله: ﴿أَحَاطَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عِلۡمَۢا ١٢﴾ [الطّلاق: 12][7]. والمَقْصودُ بِالإحاطَةِ في الآيَةِ: الاشْتِمالُ عَلى الشَّيْءِ وجَعْلِه في حَوْزَةِ المُحيطِ.

المَعْنى الإجْماليُّ:

يُخبرُ اللّهُ تعالى أنَّه أرسلَ إلى مَدْينَ أخاهم في النَّسَبِ شُعَيبًا، فقال مُبتدِئًا بما لا يجوز الابتداءُ بغيْرِه وهو الدَّعوة إلى التَّوحيد: يا قَوم اعبُدوا اللّه وحدَه، ليس لكم من إلهٍ يستحِقُّ العبادةَ غيْرُه

التَّدَرُّجُ مِنْ أساليبِ الحِكْمَةِ في تَهْيِئَةِ النُّفوسِ بِقَبولِ الإرْشادِ والكَمالِ

(1) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحفّاظ: (كيل).
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/127.
(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس: (وزن).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حوط).
(5) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحفّاظ: (حيط).
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/171.
(7) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحفّاظ: (حيط).

ﷻ، فأخلِصوا له العِبادةَ، ثُمَّ ثَنّى بالنَّهْيِ عن أقْبَحِ الصِّفات وأذَمِّ الخِلالِ والأخلاقِ الَّتي تَخَلَّقوا بها وهي التَّطْفيف في الكَيْل والوزْن فقال: ولا تنقُصوا النّاسَ حُقوقَهم في مَكاييلِهم ومَوازينِهم، إنِّي أراكُم في سَعةٍ من الرِّزقِ، وكثرَةِ نِعَمٍ، وخَيرٍ في معيشتِكم، فاشكُروا اللّه على ذلك، وإنِّي أخافُ عليكم - بسبَبِ شِركِكم، وبَخسِكم حقوقَ النّاسِ - أنْ يَنزِلَ بكم عذابُ يومٍ يُحيطُ بِكُم، فلا يُفلِتُ منه أحَدٌ[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالَةُ الواوِ في: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ﴾:

الواو هُنا عاطِفَةٌ، عَطْف جُمْلةٍ على جُملة، أو قِصَّةٍ على قِصَّة، أيْ: على قولِه: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا﴾ [هود: 61] أيْ: وأرْسَلنا ﴿۞وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾.

دلالَةُ تَقْديمِ المَجْرورِ عَلى المَفْعولِ:

تَقْديمُ المَجْرورِ عَلى المَفْعولِ لِيَعودَ الضَّميرُ عَلَيْهِ

الجارُّ والمَجرور ﴿۞وَإِلَىٰ مَدْيَنَ﴾ مُتعلّقان بمَحْذوفٍ تقديرُه (أرْسَلنا)، وتَقديمُ المَجرور في قولِه: ﴿۞وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ مُتَّسِقٌ مع ما مضى في القِصَّتَين السّابِقَتَين في قوله: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾ [هود: 50] وقولِه: ﴿۞وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا﴾ [هود: 61]. وسَببُ تَقديمه في جميعها "لِيَعود الضَّمير عليه"[2].

لكنَّ ابن عاشور قد أخَذ من هذا التَّقديم دليلًا على ترجيح كَون العَطْفِ هُنا من باب عَطْف المُفردات لا من عطْف الجُمَل[3].

والقَول بأنَّه من باب عَطْف الجُمل وأنّ مُتعلّقَ الجارِّ والمَجرور

(1) ابن جرير، جامع البيان: 12/539، والواحديّ، التّفسير البسيط: 11/520، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 9/85، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/342، والسّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 387.

(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 6/278.

(3) ذكره ابن عاشور في التّحرير والتّنوير: 12/94، عند تفسيره لقولِه تعالى: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾ [هود: 50].

مَحْذوفٌ تَقديره (أرْسلنا) أرْجَحُ؛ حتّى لا يَطولَ الفَصْل بيْن المَعْطوفات بالجُمَل الكثيرةِ[1] لَو قُلنا إنَّه من عطْف المفردات، أيْ عطْف المَجرورِ على المَجرور، أيْ: عَطْف ﴿مَدْيَنَ﴾ على ﴿ثَمُودَ﴾ [هود: 61]، والمَنصوبِ على المَنصوب أيْ: عطْف ﴿شُعَيْبًا﴾ على ﴿صَٰلِحًا﴾ [هود: 61].

وفي تَقديم شِبْهِ الجُملة تشْويقٌ لِما يأتي بَعدَه من ذِكر شُعَيْب عليه السلام، أمّا تقديمُ ذِكر القَوم قبْلَ نبيّهم فلأنّ مدارَ السّورة قائمٌ على بيانِ أحوال الأقْوام السّابقةِ مع أنبيائهم لمّا تَعَجّلوا العذاب، كقوله: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾ [هود: 50] وقولِه: ﴿۞وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا﴾ [هود: 61].

سِرُّ تقدير الفعل النّاصب، وحذفه:

حـذفَ النـاصِب إيجازًا لِلعِلْم بِهِ

قُدّرَ الفِعْل (أرسلنا) الناصِب لقَوله: ﴿أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ للإيجاز، للعِلْم به ممّا سَبَق، أيْ في قوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ﴾ [هود: 25] ثُمَّ تَقْديره في قوله: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾ [هود: 50] وقولِه: ﴿۞وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا﴾ [هود: 61][2] ومَعروف أنَّ عَطْف النَّسَق يَكون على نيَّة تَكرارِ العامل[3].

سِرُّ التَّعبيرِ بِالأُخوَّةِ في: ﴿أَخَاهُمْ﴾:

النَّصُّ عَلى كَوْنِ شُعَيْبٍ عليه السلام مِنْ أهْلِ مَدْيَنَ خِلافًا لِمَنْ زَعَمَ غَيْرَ هذا

عبَّر بالأخوَّة في قوله: ﴿أَخَاهُمْ﴾ أيْ: أخاهُم في النَّسَب[4]؛ لكَوْنه منهم، أيْ: من قبيلة مَدْين. وهذا ما يَترجَّح لكَوْنه الظّاهر من لفْظِ ﴿أَخَاهُمْ﴾ ومن ندائه لهم بـ ﴿يَٰقَوْمِ﴾. وكان شُعَيْب عليه السلام قد أُرْسِل أيضًا إلى أصحابِ الأيْكَة، ولَم يَكُن بَيْنَه وبَيْنهم نَسَبٌ، ولهذا لمّا تَعرّض لِذِكْرهم في سورة الشُّعراء في قوله: ﴿كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝١٧٦ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ۝١٧٧﴾ [الشعراء: 176 - 177] لَم يَقُل:

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 6/278، والخطيب وآخران، التّفصيل في إعراب التّنزيل: 6/92.
(2) السّمين الحلبي، الدّرّ المصون: 5/358.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3738.
(4) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/313.

(أخوهُم)[1] كما قيلَتْ في أهْلِ مَدْين، وعلى كلِّ الأحوال فإنّ في ذِكر الأخوَّةِ ما يُشير إلى حِرْصه عليهم، وعلى إيمانهم لأنّه واحدٌ منهم، وهذا أدْعى إلى إجابَتِهم إيّاهُ.

الأُخوَّةُ مَدْعاةٌ إلى تَمْحيضِ النُّصْحِ وعَدَمِ الارْتيابِ

دلالَةُ الإضافَةِ في: ﴿أَخَاهُمْ﴾:

الإضافةُ هُنا للتَّعريف، وكأنَّه يُذَكِّرُهم بأنَّ شُعيْبًا أخوهم الَّذي يَعرفونه فلا يَنْفِروا منه، بل عليهم أنْ يُعينوهُ وأنْ يَكونوا له عَضُدًا في دَعْوته، إضافةً إلى أنّ في إضافتِه إليْهِم ما يُشعِر بحِرْصه عليهم.

دلالَةُ الحَذْفِ:

دلالَةُ حَذْفِ المُضافِ عَلى الإيجازِ والمَجازِ

في قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ﴾ هُناك مُضافٌ مَحْذوف، تقديره: أصحابُ مَدْين، أوْ أهْلُ مَدْين[2]، كما قال سبحانه في مَوْضع آخَر: ﴿وَأَصْحَٰبُ مَدْيَنَ﴾ [الحج: 44] وقوله: ﴿فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ﴾ [طه: 40]؛ لأنَّهم ذَكَروا أنَّ ﴿مَدْيَنَ﴾ هو اسْمٌ لِمَدينةٍ نُسِبتْ إلى عَلَمٍ اسْمُه مَدْيَن، وهم من نَسْلِه، ولذا قد يُقدَّر: أوْلاد مَدْين[3] والتَّقدير بأصحاب أو أهْل أوْلى لِوُرودِه كذلك مُصرَّحًا به في القُرآن. وعلى هذا ففيه إيجازٌ ومَجاز بالحَذْف، كما في قوله تعالى: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ [يوسف: 82] أي: اسألْ أهْلَها[4].

سِرُّ التَّصْريحِ بِاسْم النَّبيِّ ﴿شُعَيْبًا﴾:

التَّصْريحُ بِاسْم شُعَيْبٍ عليه السلام مَدْحٌ وتَشْريفٌ

السّرُّ في التَّصريحِ بِاسْم شُعَيْب عليه السلام؛ الاتِّساقُ مع ما مَضى في نُظَرائه في السورة في قوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ﴾ [هود: 25] وقوله: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾ [هود: 50] وقوله: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا﴾ [هود: 61]، وفي التَّصريح بالأسْماء في جميعِها فَضلًا عن

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 24/528.
(2) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 18/384.
(3) الشّهاب الخفاجيّ، حاشية على تفسير البيضاويّ: 5/123.
(4) شيخ زاده، حاشية على تفسير البيضاويّ: 4/679.

التَّعريف بها، بيانٌ لِشَرَف أصحابها وفَضْلهم في قيامهم بِواجِبِهم تُجاهَ الرِّسالة والدَّعوة، فالتَّصريحُ هُنا للتَّشريف.

وعليه فهو عَطْفُ بَيان لـ ﴿أَخَاهُمْ﴾ مَقصودٌ به المَدْحُ وليس الإيضاح؛ لكَوْنه مَعروفًا لا مُبْهَمًا، كما في قوله تعالى: ﴿جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ﴾ [المائدة: 97] فقَوله: ﴿ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ﴾ [المائدة: 97] "عَطْف بَيان على جِهَة المَدح، لا على جِهةِ التَّوضيحِ"[1]، ويَجوز إعرابُه بَدَلًا من ﴿أَخَاهُمْ﴾.

سِرُّ تَقْديم ﴿أَخَاهُمْ﴾ عَلى ﴿شُعَيْبًا﴾:

التَّقْديمُ لِغَرَضِ التَّأْنيسِ والتَّأْليفِ

قدّمَ ﴿أَخَاهُمْ﴾ على ﴿شُعَيْبًا﴾ تَأْنيسًا لهم وتأْليفًا، أيْ: هو أخوهم ومنهم، فَلَن يَدلَّهم إلّا على ما يَنْفعهم، لا ما يَضُرُّهم.

سِرُّ الفَصْلِ في: ﴿قَالَ يَقَوْمِ﴾:

بَلاغَةُ شِبْهِ كَمالِ الاتِّصالِ

يَعودُ سَبَب الفَصْل في قوله: ﴿قَالَ يَقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ إلى كَوْنه اسْتِئنافًا بَيانيًّا، قُصدَ به الجوابُ عن سؤالٍ مُقدَّر "نشَأ عن صَدْر الكلام، فكأنَّه قيل: فماذا قال لهُم؟ فقيل: قال كما قال مَنْ قبلَهُ من الرُّسلِ عليهم السلام: ﴿يَقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ﴾[2].

سِرُّ حَذْفِ الفاءِ في: ﴿قَالَ يَقَوْمِ﴾:

لَمّا فَصَلَ مُسْتَأْنفًا اسْتَغْنى عَنِ الفاءِ

مرَّ في الفِقرة السّابقة أنّ سرَّ الفَصْل وعدم العطف أو الاستئناف بالفاء هو كَوْنه اسْتئنافًا بيانيًّا، وأمّا في آية العَنكبوت: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ [العنكبوت: 36] فليس كذلك؛ لأنَّه في مَقام الإخبار، فعطفَ فيه جُمْلة القَولِ على جُمْلة مُقدَّرَةٍ، أيْ: أرْسلناه فعَقَّبَ إرْسالَهُ بأنْ ﴿يَقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ [العنكبوت: 36][3].

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/681.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/231.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/247.

دلالَةُ التَّعْبيرِ بِالقَوْلِ:

دَلَّ التَّعْبيرُ بِالقَوْلِ عَلى وُجودِ حِوارٍ بَيْنَهُ عليه السلام وبَيْنَ قَوْمِهِ

التَّعبير بالقَوْل في قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ﴾ يدلُّ على أنَّه أقام بَيْنَه وبَيْنهم حوارًا؛ لأجْلِ إقناعِهم بالتَّوحيد الَّذي أُرْسِل لأجْلِه، ثُمَّ لِدَعْوتهم إلى نَبْذ ما ألِفوه واعتادوه من التَّطْفيف في الكَيْل والميزانِ.

بَلاغَةُ النِّداءِ في: ﴿يَٰقَوۡمِ﴾:

لَمْ يَتَوانَ شُعَيْبٌ عليه السلام في حَثِّ قَوْمِهِ عَلى الإيمانِ

في التَّعبير بأداةِ النِّداء دلالةٌ على أنَّه كان يَطْلُبهم في كلِّ مَكان كانوا فيه مَهْما كان بَعيدًا، حِرْصًا منه على إيمانِهم ونَبْذِ ما قَبُحَ من عاداتهم.

سِرُّ اخْتيارِ التَّعْبيرِ بالقَوْم:

النِّداءُ بِالقَوْمِ إِشْفاقًا واسْتِعْطافًا

التَّعبير بالقَوم في قوله تعالى: ﴿يَٰقَوۡمِ﴾ دونَ غيْرِه كأنْ يَقول: (يا أيُّها النّاس) ونَحْوه، إنّما هو لإبْداء حِرْصه وشَفَقتِه عليهم، ولِتَأْليف قلوبِهم واسْتِمالَتِها نَحْو سَماعِ دَعْوته، الَّتي ما قصدَ منها إلّا إنْقاذهم من ويْلات الكُفْر وسوءِ الأخلاق والعاداتِ.

سِرُّ اخْتِلافِ أُسْلوبِ النِّداءِ:

النِّداءُ بِ (يا قوم) أخَصُّ

الفَرْق بَيْن النِّداء هُنا بـ ﴿يَٰقَوۡمِ﴾ عن النِّداء بـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ [مثلاً: البقرة: 21] أنّ النِّداء بها أخَصُّ؛ لأنَّ القومَ أخَصُّ من النّاس، وهو أوْفق لمَقام الدَّعوة هُنا؛ لكَوْنها دَعْوة خاصَّةً بهم دون غيرهم، ولأنَّ نداءَهم بـ ﴿يَٰقَوۡمِ﴾ أجْذَبُ لِما فيه من دلالةٍ على الإشْفاق والحِرْص المُؤَكّدِ على مَصْلحتهم.

دلالَةُ الأمْرِ في: ﴿ٱعۡبُدُواْ﴾:

الأمْرُ بِالعِبادَةِ لِلوُجوبِ

الأمْرُ هُنا يَدلّ على الوجوب، فهُم مَأْمورون وُجوبًا بِعبادَة ربِّهم الَّذي خلقهم ورزقهم، وما لهُم غيْرُه من إلَهٍ.

سِرُّ التَّعْبيرِ بِالعِبادَةِ عَنِ التَّوْحيدِ:

العِبادَةُ مِنْ لَوازِمِ التَّوْحيدِ وعِلَّةٌ لَهُ

عبّرَ بالعبادة عن التَّوْحيد فقال: ﴿ٱعۡبُدُواْ﴾؛ لأنَّ العبادة من لَوازِم التَّوْحيدِ، والأمْرُ بها كالأمْرِ به، من حيْثُ كَوْنُها مُتَوقِّفَةً عليه،

وأثَرًا من آثارِه، فلا عبادة للّه بمَعْزِل عن تَوْحيدِه. أو كما عبَّرَ الرّازيُّ بأنّ التّوْحيد علَّةٌ للأمْرِ بالعبادة، ومن ثَمَّ وجَبَت عبادةُ اللّه، لأجْلِ العِلْم بأنَّه لا إلَهَ إلّا اللّهُ[1] أيْ أنّ العبادة تَسْتلزِم التّوْحيدَ[2].

دلالَةُ التَّعْبيرِ بِالأُلوهيَّةِ ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾:

عبَّر بالأُلوهيَّةِ ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ دونَ الرُّبوبيَّة (اعْبدوا ربَّكم) لكَوْن العبادة وسائرِ التَّكاليفِ هيَ من خصائص الأُلوهيَّة، لا الرُّبوبيَّةِ الَّتي من خصائصها الخَلْقُ والرِّعايَة والإنعامُ، فضلًا عن أنّ التّعبير بلَفْظ الأُلوهيّة أدْعى لِلمَهابَة وهو الأَلْيَقُ بالمَقام هُنا.

العِبادَةُ والتَّكاليفُ هيَ مِنْ خَصائصِ الأُلوهيَّةِ

دلالَةُ تَرْكِ العَطْفِ في: ﴿مَا لَكُم﴾:

بَيْن جُملة ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ وجملَة ﴿مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓۖ﴾ كَمالُ اتِّصالٍ؛ لأنّ الثّانية عِلَّةٌ للأولى[3] كما أنَّها مُبَيِّنَةٌ ومُنَبِّهَة على اختصاص اللّه تعالى بالعبادة ورَفْضِ ما سِواهُ، فكانت بذلك في غايةِ الاتِّصال[4].

كَمالُ الاتِّصالِ بَيْنَ الجُمْلَتَيْنِ

ويُمْكِن أنْ يَكون الفَصْل لشِبْهِ كَمالِ الاتِّصال جوابًا عن سؤالٍ مُقدَّرٍ: لماذا نَعْبد اللّه؟

بَلاغَةُ التَّعْبيرِ عَنِ التَّوْحيدِ في الدّعْوة:

تَكرَّرت على لِسان عدد من الأنبياء في سورَتَي الأعْراف وهود هذه العِبارَة: ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓۖ﴾ فهُمْ جميعًا أُرْسِلوا بِدَعْوة التّوْحيد، وتَوْحيد العِبارَة مع تباعُد الأزْمان دليلٌ على صِدْقهم وأنَّهم جميعًا رُسلُ اللّهِ، وأنّ مَقْصِدهم واحدٌ. "فلَقَد اتَّفَقت - كما تَرى - كلمَتُهم واتَّحدتْ إلى اللّه وحْدَه دَعْوتُهم، وهذا وحْدَه قَطْعيُّ الدلالة على صِدْق كلٍّ منهم، لِما عُلِم قَطْعًا من تباعُد

تَوْحيدُ العِبارَةِ عَلى لِسانِ الأنْبياءِ مَعَ تَباعُدِ الأزْمانِ دَليلٌ عَلى صِدْقِهِمْ وأنَّهُمْ جَميعًا رُسُلُ الله

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/295.
(2) الشّهاب الخفاجيّ، حاشية على تفسير البيضاويّ: 5/123.
(3) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/295، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/231.
(4) السّمين الحلبي، الدّرّ المصون: 5/355، والآلوسيّ، روح المعاني: 6/278.

عُصورهم، وتَنائي ديارِهم وأنَّ بَعضَهم لَم يُلِمّ بِالعُلوم، ولا عَرَف أخبارَ النّاس إلّا من الحَيِّ القَيّوم"[1].

دلالَةُ حرف الجرّ في: ﴿مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾:

لا إلَـهَ مَـعَ الله أبَدًا

﴿مِّنْ﴾ دالَّة على الاسْتِغراق، أيْ تَنْفي أنْ يَكون مع اللّه أيُّ إلَهٍ، نَفْيًا عامًّا مُسْتغرقًا. فهذه دلالَةُ (من) عندما تَدْخل على النَّكِرة[2].

سِرُّ التَّعْبيرِ بـ ﴿إِلَٰهٍ﴾:

التَّعْبيرُ بـ (إلـه) دونَ (ربّ) أوْفَقُ لِلسّياقِ

سِرُّ التَّعبير بـ ﴿إِلَٰهٍ﴾ دون (ربّ) في قوله تعالى: ﴿مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾، لكَوْنه الأوْفَقَ لِسياق الأمْرِ بالعبادة قَبْلَه ﴿ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ أو لكَوْنهم قد أنْكروا الأُلوهيَّة، ولَم يُنْكِروا الرُّبوبيَّة. وقد جاءَتْ لَفْظة ﴿إِلَٰهٍ﴾ مُنَكّرة للتّعظيم والتّفْخيم.

بَلاغَةُ القَصْرِ:

في قوله تعالى: ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ نَفَت الآية وجودَ آلِهَةٍ سِوى اللّه تعالى بأُسْلوب القَصْر بالاسْتِثْناء بَعد النَّفْي، حيْث قَصَرَت الآيةُ الأُلوهيَّةَ على اللّه وحْده، وهو قَصْرُ صِفَة على مَوْصوفٍ وهو قَصْر حقيقيٌّ.

دلالَةُ تَعَدُّدِ القِراءاتِ في: ﴿غَيْرُهُۥٓ﴾:

تَوْجيهُ قِراءَتَي الرَّفْعِ والجَرِّ في كَلِمَةِ (غيْره)

يُقرَأ لَفْظ ﴿غَيْرُهُۥٓ﴾ بالرَّفع والخَفْض، والحُجَّة لِمَن قَرَأَهُ بالرَّفْع: أنّه جَعَله حرفَ استِثناء، فأعْربه بما يُعْرَب به الاسْمُ بَعد (إلّا) كقوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ ويَجوز الرَّفع في ﴿غَيْرُهُۥٓ﴾ على الوصْف من محلّ لفظ ﴿إِلَٰهٍ﴾ قَبْل دخول ﴿مِّنْ﴾ عليه وهو الرفع على الابتداء كقوله تعالى: ﴿هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ﴾. والحُجَّةُ لِمَن خَفَضَ: أنّه جَعَله وصْفًا للفظ ﴿إِلَٰهٍ﴾، ولَم يَجْعله استِثناءً[3].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/350.
(2) المراديّ، الجنى الداني، ص: 317.
(3) ابن خالويه، الحجّة في القراءات السّبع، ص: 157.

أُسلوب القُرْآنِ في عَرْضِ أُصولِ دَعْوةِ شُعَيْبٍ عليه السلام:

إصْلاحُ الاعْتِقادِ والنَّهْيُ عَنِ الظُّلْمِ والفسادِ أُسُسٌ قامَتْ عَلَيْها دَعْوةُ شُعَيْبٍ عليه السلام

قامتْ دعْوة شُعَيْب عليه السلام على الإصلاح، ورَكَّزت على جُملة أُمورٍ أجْمَلَتْها هذه الآيَةُ في ثلاثة، هي:

الأوَّل: إصلاح الاعتقاد، وهو من إصلاحِ العُقول والفِكْرِ، وفيه بَدْءٌ بالأمْرِ بالتَّوْحيد؛ لأنّه أصْلُ الإصلاح. ﴿يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓۖ﴾.

الثّاني: النَّهْي عن ظُلْم النّاس من خلال أمْر كان فيهم فاشيًا ولذا خصَّهُ بالنَّهْي، وهو تَطْفيف الكَيْل والميزانِ، وهو شَيْءٌ من صلاح العَمَل. ﴿وَلَا تَنقُصُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَۖ﴾ .

الثّالث: النَّهْي عن عُموم الإفساد في الأرض وقد أصلَحَها اللّه وهي دَعْوة عامَّةٌ إلى صلاح جميع الأعمال والتَّصرفات. ﴿وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ﴾[1].

سِرُّ بَدْءِ شعيب عليه السلام بِأمْرِ التَّوْحيدِ:

الأمْرُ بِالتَّوْحيدِ أساسٌ يُبْنى عَلَيْهِ فَلا يُقَدَّم عَلَيْهِ سِواهُ

قد بَدَأ عليه السلام دَعْوته لقَومه بالأمْرِ بالتّوحيد في قوله: ﴿ٱعۡبُدُواْ﴾؛ لأنَّه الأساسُ الّذي يُبْنى عليه ما بَعدَه من الأوامر والنّواهي. وهو أصْلُ انْتفاء الظُّلْم والفساد في المعامَلات.

دلالَةُ الواوِ في: ﴿وَلَا تَنقُصُواْ﴾:

الواو للعَطْف؛ إذ عَطَفَتْ جُملة: ﴿وَلَا تَنقُصُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَۖ﴾ على جمْلة: ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ وهما جملتان إنشائيَّتان، فَحَسُنَ الوصْلُ بينهما بالواو؛ جَمْعًا للواجبات مع المَنْهيّاتِ.

دلالَةُ النَّهْي في: ﴿وَلَا تَنقُصُواْ﴾:

التَّصْريحُ بالنَّهْي نَعْيٌ عَلى المنْهيِّ وتَعْييرٌ لَهُ

في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنقُصُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَۖ﴾ ركّزَت دَعْوة شُعيْب على النّهي عن تَطْفيف الكَيل والميزان، والأمْرِ بالعَدْل فيه

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/136.

في كلِّ مَوْضع ذَكَرَها القرآنُ، وهو دالٌّ على فُشُوِّ هذا الخُلُقِ السَّيِّئِ فيهم، الأمْرُ الّذي جَعَل القرآنَ يَخُصُّ ذِكْرَه في دعْوة شُعيب عليه السلام في جميع مواضِع ذِكْرِه. "وفي التّصريح بالنَّهي نَعْيٌ على المَنْهيِّ وتَعْيير له"[1].

سِرُّ البَدْءِ بِالنَّهْي قَبْلَ الأمْرِ بِالوفاءِ:

التَّخْليَةُ مُقَدَّمَةٌ عَلى التَّحْليَةِ، ودَرْءُ المَفاسِدِ مُقَدَّمٌ عَلى جَلْبِ المَصالِحِ

في سبيل دعْوة قوْم شُعيب إلى إصلاحِ قبيحِ ما ألِفوه من عادة التَّطْفيف في الكَيل والميزان، سَلَك شُعيب فيما أبانَهُ النَّصُّ الكريم سَبيلَيْن:

الأوَّل: النَّهي عن التّطفيف والنّقْص فقال: ﴿وَلَا تَنقُصُواْ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَۖ﴾.

والثّاني: الأمْرُ بالعَدل فيهما ﴿وَيَٰقَوْمِ أَوْفُواْ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِۖ﴾.

والتّرْتيب بَيْنهما مؤسَّسٌ على ما تَقرّر من كَوْن التَّخْلية مُقدَّمةً على التَّحْليَة، وأنَّ دَرْء المفاسدِ مُقدَّم على جَلْب المَصالح، وأنّه لا يَقوم بِناءٌ على أساسٍ مُتهالِك، فالإزالة ثُمّ البناء.

سِرُّ تَوسُّطِ النَّهْي: ﴿وَلَا تَنقُصُواْ﴾:

التَّطْفيفُ في الكَيْلِ والميزانِ أبْرَزُ صِفاتِ قَوْمِ شُعَيْبٍ عليه السلام الخَبيثَةِ

وُسِّطَ النّهْيُ عن نَقْص الكَيل والميزان، بَيْن الأمْر بإصلاح الاعتقاد: ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ﴾، والنّهْي عن الإفساد في الأرض نَهْيًا عامًّا بقوله: ﴿وَلَا تَعْثَوْاْ فِي ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾؛ لكَوْن التّطْفيف في الكَيل والميزان كان أبْرَز صفاتهم الخَبيثة، وأكثرَها فُشُوًّا، ولكَوْنها طريقًا إلى الإفساد العامِّ، ولذا قال بعدَ ذلك في خاتِمة الآية التّالية: ﴿وَلَا تَعْثَوْاْ فِي ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ ناهيًا نهْيًا عامًّا عن مُطلَق الإفساد في الأرض.

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/195.

سِرُّ اخْتيارِ التّعْبيرِ بِالفِعْلِ ﴿وَلَا تَنقُصُواْ﴾:

في اختيار التّعبير عن النّهْي بالفِعل ﴿وَلَا تَنقُصُواْ﴾ دون غيْره، دلالة على النّهي عما هو أعلى منْهُ؛ لأنّه إذا نَهى عن كلِّ ما يُسَمّى نَقْصًا وإنْ كان قليلًا، فقد نَهى عن البَخْس والغِشِّ والتّطْفيف بكامل صورِه.

النَّهْيُ عَنِ النَّقْصِ نَهْيٌ عَمّا فَوْقَهُ مِنْ بابِ أوْلى

سرّ التقديم والتأخير، ودلالته في سورتي: هود، والأعْراف:

بَدَأ البيانُ الإلهي بالنّهْي عن نَقْص الكَيل والميزانِ هُنا في سورة هود، فقال: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًاۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥۖ وَلَا تَنقُصُواْ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَۖ﴾، في حين كان البَدء بالأمْر بإيفاء الكَيل والميزانِ في سورة الأعْراف؛ إذ قال: ﴿قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْۖ فَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ﴾ [الأعراف: 85]؛ لأنّ الخِطاب في سورة الأعراف كان موجّهًا لِمَن آمَن من قَومه، بدليل قوله في آخر الآية: ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [الأعراف: 85] وإذا كان الأمر كذلك، فليس بعد حصول الإيمان إلّا العمَل الصّالح، ومن ثَمّ وجَّه إليهم الأوامر والتكليفاتِ بالعمل بما شَرَع اللّه، وأمّا في سورة هود، فقد كان الخِطاب لغير المؤمنين، ومن ثَمّ فلمّا دعاهم إلى التّوْحيد نهاهم مع هذه الدّعْوة عن سيِّئِ الطِّباع، وفاسد الخِلال الّتي كانوا مُتخلِّقين بها.

الخِطابُ في سورَةِ الأعْراف كانَ موجَّهًا لِلمؤْمنينَ وفي سورَةِ هود لِلكافِرينَ

سِرُّ التَّعْبيرِ بِالمكْيالِ:

المكيال هو آلةُ الكَيل، وفي النّهْي عن النّقْص فيه هنا: ﴿وَلَا تَنقُصُواْ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَۖ﴾، دليل على أنّهم كانوا يَعْمدون إلى الآلَةِ نفسها لتُساعدهم على ذلك النّقْص؛ كأنْ يَقْصدوا عند البَيْع إلى مكيال صغير أو بهِ خُروقٌ تُساعد على تَفَلُّت بعضِ المَكيل منه، ونحو ذلك من الحِيَل الّتي لا يَجْهلها أمثالُهم. أمّا في سورة الأعراف، فإنّ الخِطاب لمّا كان موجَّهًا إلى المؤمنين ﴿فَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ﴾ [الأعراف:

المكْيالُ (آلَةُ الكَيْلِ) أهَمُّ وسائِلِ المُطَفِّفينَ لِلوصولِ إلى غايَتِهِمْ

85]؛ كان العَبَث بآلَةِ الكَيل غيْرَ مُتصوَّر منهم، ولذا دعاهم إلى إيفاء الكَيل، لِيُبالِغوا في الحِرْص على ألّا يَحدثَ نَقصٌ فيه عن غيْرِ قَصْد.

نُكْتَةُ الاتِّفاقِ عَلى لَفْظِ الميزانِ في دَعْوةِ شُعَيْبٍ:

لَفْظُ (المِيزان) يُسْتَخْدَمُ في الدّلالَةِ عَلى مُطْلَقِ العَدْلِ

الغاية من الاتِّفاق على تَداولِ لَفْظ الميزان في دعْوة شُعيب تَبْدو أماراتُه في كونهم يَظلِمون النّاس ويَبخَسونهم أشياءَهم كَيلًا ووزْنًا، هذا ما نصَّ عليه في دعْوة شُعيبٍ عليه السلام، ومَن يَظلم النّاس في أمَسِّ ما يَحتاجون إليه وهو الطّعام؛ فإنّه لا يُبالي فيما هو أعظم من ذلك، فيكون من باب التَّنْبيه بالأدْنى على الأعْلى، كما في قَوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ﴾ [آل عمران: 75] فإن مَن لا يؤتَمَن على الدّينار لا يؤتَمَن على ما هو أكبر منه وهو القِنطارُ.

ولمّا كان لفْظ ﴿وَٱلْمِيزَانَ﴾ يُصْطفىٰ في الدّلالَةِ على مُطلَق العَدْل، من حيْث إنَّ الميزان آلَةُ العَدْل. كما في قَوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ﴾ [الحديد: 25] وقوله: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الأنبياء: 47]؛ إذ المرادُ بالموازين هُنا العَدْل، لكَوْنه آلَته الَّتي تُحَقِّقُهُ[1]. فلمّا كان الأمْرُ كذلك، اتَّفقت الآياتُ على لفْظ ﴿وَٱلْمِيزَانَ﴾ في دعْوة شُعيب عليه السلام، لمواجهة الظُّلْم المُسْتَشري في قومه.

سِرُّ اخْتِصاصِ النَّهْيِ بِأمْرِ الكَيْلِ والميزانِ:

فُشُوُّ المَعْصيَةِ مِنْ دَواعي تَخْصيصِها بِالنَّهْيِ في دَعْوةِ الأنْبياءِ

السِّرُّ في اختصاص النَّهْي بالكَيل والميزان دون غيْرهما من المفاسد؛ لِفُشُوِّهما في قوْم شُعيب، كما يدلّ على ذلك تَكرار ذِكْرهما في كل مَوْضع تُذْكَر فيه دَعْوتُه عليه السلام لقومه، ولأنّ التّنْبيه عليهما تَنْبيه على ما هو أعلى منهما بِطَريق الأوْلى، كما في قَوله تعالى: ﴿فَلَا

(1) الرّاغب، المفردات: (وزن)، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/187.

﴿تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ﴾ [الإسراء: 23]؛ لأنّ مَن يَغُشُّ النّاس في مُقَوِّمات حياتهم الضَّروريَّةِ، فإنّه لا يُبالي فيما هو أعلى قيمة مادّيَّة، وهو لا يَمَسُّ حياتَهم الضَّروريَّةَ.

دلالَةُ الواوِ في قوله تَعالى: ﴿وَٱلۡمِيزَانَۖ﴾:

الواو هُنا هي العاطِفَةُ، فقد عَطَفَت ﴿وَٱلۡمِيزَانَۖ﴾ على ﴿ٱلۡمِكۡيَالَ﴾ للنَّهْي عنهما جميعًا، ليَتَحقَّق بالنّهْي عنهما العَدْل كَمًّا وكَيْفًا "فالكَيل للعَدْل في الكَمّيَّة، والوزْن للعدْل في الكَيْفيّة"[1].

الكَيْلُ لِلعَدْلِ في الكَمّيَّةِ، والوزْنُ لِلعَدْلِ في الكَيْفيَّةِ

دلالَةُ الفَصْلِ في: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰكُم بِخَيۡرٖ﴾:

قَوله تعالى: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰكُم بِخَيۡرٖ﴾ تَعْليلٌ لِلنّهْي عن نَقْص المكْيال والميزان[2] وهو مُسوِّغُ الفَصْل.

الجُمْلَةُ تَعْليلٌ لِلنَّهْي عَنْ نَقْصِ المكْيالِ والميزانِ

دلالَةُ تَتابُعِ المؤَكِّداتِ في: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰكُم بِخَيۡرٖ﴾:

دلَّتْ (إنّ) التّوْكيديَّة الدّاخِلة على ضَمير التَّكلُّم على أنّ ما سَيَرِد بَعدها من حُكْم، قد تَحقَّقَه شُعيبٌ ﷺ بنَفْسه، لا أنّه سَمعه من غيْره، وذلِكم مَظِنَّة العدالة، ودقّةِ الحُكْم، وأُكِّدَت الجُملة كذلك بالاسميَّة وإعادة ذِكْر المُسْند إليه الفاعل في قَوله: ﴿أَرَىٰكُم﴾، وفي تَتابُع هذه المؤَكِّدات من النَّبيِّ لِقَومه ما يَستَدْعي جَلْبَهم والتَّلَطُّفَ بهم.

مِنْ شَرائِطِ العَدْلِ التَّحَقُّقُ مِنَ الحُكْم

عِلَّةُ إيثارِ لَفْظِ (أرى):

التَّعبير بالرّؤية هنا دون غيرها في قوله تعالى: ﴿أَرَىٰكُم﴾، تَنزيلًا لها مَنزِلَةَ الشّهادة، وهي لا تَتَحقَّق إلّا بالرّؤْية، أيْ "أنّها في مَعنى الشّهادة عليْهم بنِعْمة اللّه عليْهم فَحقّ عليهم شُكْرُها"[3].

تَنْزيلُ الرُّؤْيَةِ مَنْزِلَةَ الشَّهادَةِ

بَلاغَةُ الخِطابِ في: ﴿أَرَىٰكُم﴾:

دلّ التّعبير بالرّؤية في خِطابهم ﴿أَرَىٰكُم﴾، على أنّ كَوْنهم

كانَ غِنى قَوْمِ شُعَيْبٍ واضِحًا ظاهِرًا لِلجَميعِ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/351.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/137، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 9/351.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/137.

بخَير، أيّ: بغِنى ونِعمةٍ، أمْرٌ واضِح للجميع بحيْث لا يَخْفى على أيِّ أحَد، وليس أمْرًا مَسْتورًا كحال مَن يُخْفي ما عنده من الخَير[1].

دلالَةُ الباءِ في: ﴿بِخَيْرٍ﴾:

التَّلَبُّسُ بِالنَّعيم مَظِنَّةُ الوفاءِ

الباء في قوله: بخير لِلمُلابَسَة. أيّ: أراكم مُلْتَبِسينَ بخَير من اللّه ورِزْق تَنْعمون فيه؛ فأدُّوا شُكْرَه. اعْترافًا بالفَضْل، وتمثُّلًا لخَلَّةِ الوفاء.

سِرُّ التَّعْبيرِ بـ (خير):

شَأْنُ إسْباغِ النِّعَم أنْ تُقابَلَ بالشُّكْرانِ لا النُّكْرانِ

لفْظ ﴿بِخَيْرٍ﴾ هُنا مراد به المال، وخَصَّه بعضُهم بالمال الكثير طَيِّب المكان والمَصْدر[2]. وقد عبّرَ عن المال بالخَير في بعض آيات القرآن، منها التّعبير بالخَير في قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا﴾ [البقرة: 180]، وقوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ۝٨﴾ [العاديات: 8] فالمُراد بالخَير في الآيَتَين المالُ. وعبِّر عن المال بالخَير؛ لكَوْنه نِعمة من اللّه، ومن شأن النِّعَم أنْ تُقابَل بالشُّكْر، وهذا سِرُّ التّعبير عن المال هُنا بالخَير، لِيَسْتشعروا نعمة اللّه عليهم، فيُقابِلوها بالشُّكر، بَدَلَ النُّكران الّذي يؤَدّي إلى الخسران.

دلالَةُ الواوِ في: ﴿وَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ﴾:

ارْتِقاءٌ في تَعْليلِ النَّهْيِ عَنِ النَّقْصِ في المكْيالِ والميزانِ

الواو هُنا عاطِفَةٌ؛ إذ عَطَفَت هذه الجُمْلة على جمْلة: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ﴾ وهو ارْتقاء في تعليل[3] نَهْيهم عن النّقْص في المكيال والميزانِ، أيْ لا تفعلوا ذلك لأنّي ﴿أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ﴾ ولأنّي ﴿أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ﴾.

دلالَةُ تَتابُعِ المؤَكِّداتِ في: ﴿وَإِنِّيٓ أَخَافُ﴾:

تَأْكيدُ خَوْفِهِ عَلَيْهِمْ إثْرَ تَأْكيدِ حَثِّهِمْ عَلى شُكْرِ النِّعْمَةِ

التّأكيد هُنا مَعْطوفٌ على التّأكيد السّابق، وفي إعادته دلالةٌ على

(1) السّامرّائيّ، على طريق التّفسير البيانيّ: 4/318.
(2) الرّاغب، المفردات: (خير).
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/137.

اسْتقلاليَّته عن سابقه، ولذا لَم يَقُل: (وأخاف) وإنّما أكَّده بـ (إنّ) وبالجملة الاسميّة وبإعادة ذِكر المُسْند إليه؛ لِيظْهرَ لهم مدى خوْفِه عليهم وحِرْصه على نَجاتهم من الفقْر والنّقْص في الدّنيا ومن العذاب الشّديد في الآخرَة[1].

دلالّةُ ياءِ المُتَكلِّم في: ﴿وَإِنِّيٓ﴾:

تدُلّ ياء المُتكلِّم هُنا على كَوْنه ﷺ شديدَ الاهتمام بهم، كثيرَ الحِرْص عليهم والشّفقةِ بهم، بدافِعٍ من ذاته فضلًا عن كَوْنه مُرسلًا إليهم؛ لأنّهم قومُه وأنّه واحِدٌ منهم.

سِرُّ التَّعْبيرِ بِالفِعْلِ ﴿أَخَافُ﴾:

التَّعْبيرُ بِالخَوْفِ أنْسَبُ لِأنَّ الخَشْيَةَ إنَّما تَليقُ بِالله وحْدَهُ

وآثَر التّعبير بالخوْف دون الخشْيَة في قَوله: ﴿وَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ مُّحِيطٖ﴾؛ لأنّ التّعبير بالخشْية لا يَكون إلّا مَصْحوبًا بتعظيم المَخْشيِّ، وهذا لا يَليق إلّا بالله ﷻ، من ثَمَّ اعتادَ القرآن على إطلاقِه إذا كان الأمْرُ مُتعلِّقًا بربِّ العزَّة والجلال، كما في قوله تعالى: ﴿وَيَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلۡحِسَابِ ٢١﴾ [الرعد: 21] وقولِه: ﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْۗ﴾ [فاطر: 28].

دلالَةُ تَقْديم الجارِّ والمَجْرورِ ﴿عَلَيۡكُمۡ﴾:

تَقْديمُ الجارِّ والمَجْرورِ لِلاهْتِمام

دلّ تقديم الجارّ والمَجرورِ ﴿عَلَيۡكُمۡ﴾ على قَولِه: ﴿عَذَابَ يَوۡمٖ مُّحِيطٖ﴾ على إظهار الاهتمام بهم بالخَوْف عليهم من هَوْلِ ﴿عَذَابَ يَوۡمٖ مُّحِيطٖ﴾ بهم من كلِّ جِهَةٍ.

سِرُّ التَّعْبيرِ بِالعَذابِ دونَ العِقابِ:

العَذابُ يَدُلُّ عَلى إيصالِ الإيلامِ بِالمُعَذَّبِ

عبَّر بالعذاب دون العِقاب؛ لتأْكيد وُقوع الألَم بهم، إذ ليس كلُّ ما يَكون عِقابًا يَكون عَذابًا، فالعِقاب عبارَةٌ عمّا يَسْتَحقُّهُ عَقيْبَ فِعْلِه[2] فقد يُعاقَبُ المَرْءُ بعَدَم بُلوغ مراتب الكمال الّتي يطْمَحُ إليها، وليس

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/352.
(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 239.

في هذا عذاب، أمّا العذاب فإنّما يَكون بإيصال الألَم إلى المُعذَّب، فهو يَعني "الإيجاع الشَّديدَ"[1].

دلالَةُ التَّنْكيرِ في ﴿عَذَابَ﴾:

التَّنْكيرُ لِلتَّفْخيم والتَّهْويلِ

دلّ التّنكيرُ في قولِه: ﴿عَذَابَ﴾ على تَفخيمه وتهْويلِه، فهو عذابٌ أكْبر من أنْ يُعَرّف لِما يُصاحبُه من أهْوال.

بَلاغَةُ الإجْمالِ في: ﴿عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ﴾:

الإجْمالُ سَبَبُهُ الاخْتِلافُ في تَعْيينِ المَوْصوفِ

يَظْهر الإجْمال في التّعبير بوصْف ﴿مُّحِيطٍ﴾ من حيْث كَوْنُه وصْفًا لـ﴿يَوْمٍ﴾ وهو الأظْهر، أو وصْفًا لعذاب على رَأْي مَن يَرى أنَّ الجرَّ فيه للجِوارِ أو على مَعنى ﴿مُّحِيطٍ﴾ عذابُه[2] ومن هذا الإجمال تَتولَّد المعاني الكثيرة.

كما يَظْهر الإجْمال أيضًا في كَون هذا اليوم المُحيطِ يحْتَملُ أنْ يَكون في الدّنيا، أي: بعذاب الاستِئصال، ويحْتَملُ أنْ يَكون في الآخرَة، "فَلِصُلوحِيَّتِه لِلأمْرَيْن أجْمَلَه بقوله: ﴿عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ﴾"[3].

لكنّ الأرْجَح أنّه وصف لـ ﴿يَوْمٍ﴾ وفي الكشّاف: "فإن قلتَ: وصْفُ العذاب بالإحاطة أبْلغُ، أمْ وصْف اليوم بها؟ قلتُ: بَل وصْفُ اليوم بها؛ لأنّ اليومَ زمانٌ يَشْتمل على الحوادث، فإذا أحاط بعذابه فقد اجتمع للمُعذَّب ما اشْتملَ عليه منه، كما إذا أحاطَ بنَعيمه"[4].

سِرُّ التَّعْبيرِ بـ: ﴿يَوْمٍ مُّحِيطٍ﴾:

التَّخْويفُ والرَّدْعُ سَبَبُ إيثارِ هذا التَّعْبيرِ

عبَّر بقولِه تعالى: ﴿عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ﴾ دون يوم القيامة؛ لأنّ وصْف الإحاطة هُنا مَقْصودٌ، لزيادة التّخويف والرّدْع، وقد لا يَدلّ التّعبير بـ (يوم القيامة) على مَعنى الإحاطةِ.

(1) الرّاغب، المفردات: (عذب).
(2) السّمين الحلبي، الدّرّ المصون: 6/371.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/137.
(4) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/417.

بَلاغَةُ المَجازِ في: ﴿مُّحِيطٍ﴾:

إحاطَةُ العَذابِ تَجْمَعُ لِلمُعَذَّبِ ما اشْتَمَلَ عَلَيْهِ اليَوْمُ مِنَ الحَوادِثِ

في قولِه: ﴿عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ﴾ محيط مَجاز عَقْليٌّ، حيْث أسْنَدَ الوصْف ﴿مُّحِيطٍ﴾ إلى ﴿يَوْمٍ﴾ أيْ: محيط العذاب في هذا اليوم، والقَرينة هي إضافة العذاب إليه[1] وقد مَضى ما في وصْفِ اليَوْم بالمُحيط من بَلاغة في كلام صاحِبِ الكَشّاف.

مُتَشابِه النَّظْم في هذا المَشْهَدِ:

بَيْن قولِه تعالى في سورَة هود: ﴿۞وَإِلَىٰ مَدۡيَنَ أَخَاهُمۡ شُعَيۡبٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ﴾ الآية، وقولِه تعالى في سورَة العَنْكبوت: ﴿وَإِلَىٰ مَدۡيَنَ أَخَاهُمۡ شُعَيۡبٗا فَقَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱرۡجُواْ ٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ٣٦﴾ [العنكبوت: 36].

أوَّلًا: الاتِّفاقُ في التَّعْبيرِ بَيْنَ السّورَتَيْن:

اتَّفَقت السّورَتان في مُسْتَهلِّ الآية؛ فكِلاهما ابْتُدِئَتا بقوله سبحانه: ﴿۞وَإِلَىٰ مَدۡيَنَ أَخَاهُمۡ شُعَيۡبٗاۚ﴾ عَقِب قصَّة لوط عليه السلام في كِلْتيْهما لِتَقارُب الزَّمَن بَيْنهما[2].

ثانيًا: الاخْتِلافُ في التَّعْبيرِ بَيْنَ السّورَتَيْن:

سِرُّ إلْحاق الفاء بـ (قال) في آية العنكبوت دون آية هود؛ إذ قال في هود: ﴿۞وَإِلَىٰ مَدۡيَنَ أَخَاهُمۡ شُعَيۡبٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ﴾، وقال في العنكبوت: ﴿وَإِلَىٰ مَدۡيَنَ أَخَاهُمۡ شُعَيۡبٗا فَقَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ [العنكبوت: 36].

وسَبَب إدْخال الفاء في آية العنكبوت هو أنّه لمّا كان مَقْصودُ السورَة الأمْرَ بالمَعْروف والنَّهْي عن المُنْكر من غيْر فَتْرة، عبّر بالفاء هكذا: ﴿فَقَالَ﴾ [العنكبوت: 36] أيْ فَتَسَبب عن إرسالِه وتَعَقَّبَه أنْ قال:

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/137.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/350.

﴿يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ [العنكبوت: 36][1] وأمّا سورَة هود فلمّا كان مَقْصودُها الأعْظم "وصْفَ الكتابِ بالإحْكام والتّفْصيل، في حالَتَي البِشارَة والنَّذارة المُقْتَضي لِوضْع كلّ شَيْءٍ في أتَمّ مَحالِّه"[2] فقد اسْتَوْفت الآياتُ هذا المَقْصد دونَما زيادَةٍ.

وفائدة زيادة ﴿وَٱرۡجُواْ ٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ﴾ [العنكبوت: 36] في سورة العنكبوت أنّه لمّا كان السّياق لإقامَةِ الأدلَّةِ على البَعْث الّذي هو من مَقاصد السّورَة قال: ﴿وَٱرۡجُواْ ٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ﴾ [العنكبوت: 36] أيْ حُسْن الجَزاء فيهِ لِتَفْعلوا ما يَليقُ بذلك[3].

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الخَشْيَةُ والخَوْفُ:

لا شكَّ أنّ بَيْن الكلمتَيْن تَقارُبًا دلاليًّا فَهُما من باب واحِدٍ، ومن شدَّة التّقارُب بَيْنهما ظُنَّ أنَّ بَيْنهما تَرادُفًا، وقد فُرِّق بَيْنهما بما يَلي:

الخَشْيَةُ إنَّما تَكونُ منْ عِظَم المَخْشيِّ منه، والخَوْفُ يَكونُ منْ ضَعْفِ الخائِفِ

قيلَ: إنّ الخشْية أعلى من الخوْفِ وهيَ أشدُّ أحوال الخوف، فإنّها مَأخوذة من قولهم: شجرة خشَيَّةٌ، أيْ يابِسة، وهو فَوات بالكلّيَّة، والخوْف من قولهم: ناقة خَوْفاءُ، أيْ بها داءٌ، وهو نقْص وليس بِفَواتٍ، ولذلك خُصَّت الخشْيَةُ بالله في قوله تعالى: ﴿وَيَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلۡحِسَابِ ٢١﴾ [الرعد: 21].

وفُرِّق بيْنهما أيضًا بأنّ الخشْية تَكون من عِظَم المُخْتَشَى، وإنْ كان الخاشي قويًّا، والخوف يَكون من ضَعْف الخائف، وإنْ كان المَخوفُ أمْرًا يَسيرًا[4].

ويدلّ لذلك أنّ الخاء والشّين والياء في تَقاليبِها تدُلّ على العظَمَة،

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/436.
(2) البقاعيّ، مصاعد النّظر: 2/175.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/436.
(4) الكفويّ، الكلّيّات، ص: 428.

نَحْو: شَيْخ، للسّيّد الكبير، وخيش لِما غَلظ من اللّباس ولِذا ورَدَت الخشْية غالبًا في حقِّ اللّه تعالى نحْو قوله تعالى: ﴿مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: 74] وقولِه تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: 28].

قال السّيوطيّ: وأمّا قوله تعالى: ﴿وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ۝٢١﴾ [الرعد: 21] ففيه نُكْتة لَطيفةٌ، فإنّه في وصْف الملائكة، ولمّا ذَكَر قوّتهم وشدَّةَ خَلْقِهم عبّرَ عنهم بالخوْف، لِبَيان أنّهم وإنْ كانوا غِلاظًا شِدادًا، فهُم بَيْن يَديْه تعالى ضُعفاء، ثُمّ أرْدَفه بالفَوْقيَّة الدّالَّة على العظَمَة، فجَمَع بيْن الأمْرَيْن، ولمّا كان ضَعْف البَشَرِ مَعلومًا، لَم يحْتَجْ إلى التّنْبيهِ عليه[1].

العَذابُ والعِقابُ:

كُلُّ عِقابٍ عَذابٌ، ولَيْسَ كُلُّ عَذابٍ عِقابًا

يُفرَّق بيْن العِقاب والعذاب، بأنَّ العِقاب يُنبئُ عَن اسْتِحْقاقٍ، وسُمّيَ بذلك؛ لِأن الفاعِل يسْتَحقّهُ عَقيبَ فِعْله، أمّا العذاب فيَجوز أنْ يَكون مُسْتَحقًّا وغيْر مُستَحَقّ[2].

ومَعنى هذا أنّ بيْن العِقاب والعذاب - من حيْث اللُّغَةُ - عُمومًا وخصوصًا مُطْلَقا، فكُلّ عِقاب عذابٌ، وليس كلّ عذابٍ عِقابًا.

أمّا عن عذاب اللّه في الآخِرَة، فلا فَرْقَ بيْنه وبيْن العِقاب؛ لأنّ اللّه تعالى لا يُعذِّب إلّا عن اسْتِحقاقٍ.

(1) السّيوطيّ، الإتقان في علوم القرآن، 2/363.
(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 239.

﴿وَيَٰقَوۡمِ أَوۡفُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ٨٥﴾ [هود: 85]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

مِنْ ضُروبِ التَّأْكيدِ الأَمْرُ بِالشَّيْءِ بَعْدَ النَّهْيِ عَنْ ضِدِّهِ

إنّه لمّا قال سبحانه حكايةً عن كلام شُعيْب عليه السلام في دَعْوته لقوْمه: ﴿وَلَا تَنقُصُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَۖ﴾ وكان عدَمُ النّقْص قد يُفهَم منه التّقريب، أتْبَعَه بما يَنْفي هذا الاحْتِمال، وللتَّنْبيه على أنّه لا يَكْفي الكَفُّ عن تَعَمُّد التّطْفيف، بلْ يَلْزَم السّعْيُ في الإيفاء ولَو بزيادةٍ لا يتَأتّى بدونِها، وأيضًا لأنّ التّصريح بالأمْرِ بالشَّيْء بَعد النّهْي عن ضدِّه أوْكَدُ، قال مُسْتَعطفًا لهُم بالتَّذكير بأنّه منهم يَسوؤهُ ما يَسوؤهُم، وبأنّهم لِما أعطاهُم اللّه من القوَّة جَديرونَ بأنْ يُعرِضوا عن تَعاطي سَفْسافِ الأخْلاقِ ورَذائِلها: ﴿وَيَٰقَوۡمِ أَوۡفُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ﴾[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَوۡفُواْ﴾: أصْلُ (وفى): كلِمَةٌ تَدُلُّ على إكمالٍ وإتْمام، منه الوفاءُ: إتْمامُ العَهْدِ وإكمالُ الشَّرْطِ، ووفَى: أوْفَى، فهو وفيٌّ. ويقولونَ: أوْفَيْتُكَ الشَّيءَ، إذا قَضَيتَهُ إيّاهُ وافيًا. وتَوفَّيتُ الشَّيءَ واسْتَوفَيْتُهُ؛ إذا أخَذْتَهُ كُلَّهُ حتّى لَم تَتْرُكْ منه شيئًا. ومنه يُقالُ للمَيِّت: تَوفّاهُ اللّهُ[2]. والمرادُ منَ التَّوْفِيَةِ في الآية: جَعْلُ الشَّيءِ وافِيًا، أي: تامًّا لا نَقيصَةَ فيه ولا غَبْنَ.

2) ﴿بِٱلۡقِسۡطِۖ﴾: أصْلُ (قسط): يَدُلُّ على مَعْنَيَيْنِ مُتَضادَّيْنِ والبِناءُ واحِدٌ، فالقِسْطُ: العَدْلُ، يُقالُ: أقْسَطَ - بزيادة همزة الإزالة

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/353.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (وفى).

في أوَّلِه - الرَّجُلُ يُقْسِطُ فهو مُقسِطٌ، أي: عَدَلَ[1]. وأما القَسْطُ - بِفَتْحِ القافِ - فهو: الجَورُ والظُّلْمُ، وقَسَطَ إذا جارَ وظَلَمَ فهو قاسِطٌ، والقُسوطُ: العُدولُ عَنِ الحَقِّ. يُقالُ قَسَطَ، إذا جارَ، يَقْسِطُ قَسْطًا[2]. ويأْتِي القِسْطُ بمعْنَى: الحِصَّةِ والنَّصيبِ، وجَمْعُهُ: أَقْساطٌ، تَقولُ: تَقَسَّطُوا الشَّيْءَ بَيْنَهُم، أي: تَقاسَموهُ[3] والقِسْطاسُ: الميزانُ[4]، والقُسوطُ: المَيْلُ عن الحَقِّ[5]. والمقصودُ بالقِسْط في الآية: العَدْلُ، وهو التَّسْوِيَةُ بيْن شَيئَيْن في صِفَةٍ، والجَزاءُ بما يُساوي المُجْزَى عليه[6].

3) ﴿وَلَا تَبۡخَسُواْ﴾: البَخْسُ: مَصْدَرُ بَخَسَ، ومَعْناهُ: نَقْصُ الشَّيء على سَبيلِ الظُّلْم، يُقالُ: بَخَسَ الكَيْلَ والميزانَ، يَبْخَسُهُ، بَخْسًا، إذا: نَقَصَهُ. وثَمَنٌ بَخْسٌ، أي: ناقِصٌ.

قال أبو بكرِ ابن العَرَبيِّ: "البَخْسُ في لسانِ العَربِ هو النَّقْصُ بالتَّعييبِ والتَّزْهيدِ أو المخادَعةُ عَنِ القيمَةِ أو الاحتيالُ في التَّزَيُّدِ في الكَيْلِ والنُّقصانِ منه"[7]. والبَخْسُ والباخِسُ: الشَّيء الطَّفيف النَّاقصُ[8]. ومن معانيه: المَكْسُ، والأرضُ تَنبُتُ من غيرِ سَقْيٍ[9]. والجَمعُ: بُخوسٌ. والمقصودُ بالبَخْسِ بالبَخْسِ في الآية: إنْقاصُ شيءٍ من صفةٍ أو مقدارٍ هو حَقيقٌ بكمالٍ في نَوعِهِ[10].

4) ﴿وَلَا تَعۡثَوۡاْ﴾: العَيْثُ: مصدرُ عاثَ يَعيثُ عَيْثًا وعُيوثًا وعَيَثانًا: أفْسَدَ وأخَذ بغير رِفْقٍ، والعَيْثُ أيضًا: الإسراعُ في الفَسادِ[11]، قالَ اللّهُ تعالى: ﴿وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ٦٠﴾ [البقرة: 60]، والأعْثَى: لونٌ إلى السَّوادِ، وقيلَ للأحمَقِ الثَّقيل: أعْثَى[12]. والمراد بالعُثُوِّ في الآية: أشدُّ أنواعِ الفَسادِ[13].

(1) الخليل، العين، وابن الأنباريّ، الأضداد، ص: 58، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (قسط).
(2) ابن الأنباريّ، الأضداد، ص: 58، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (قسط).
(3) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (قسط).
(4) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (قسط).
(5) الخليل، العين، وابن عبّاد، المحيط في اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (قسط).
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/92.
(7) ابن العربيّ، أحكام القرآن: 2/318.
(8) الرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (بخس).
(9) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن عبّاد، المحيط في اللّغة: (بخس).
(10) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8ب/242.
(11) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (عيث).
(12) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحفّاظ: (عثى).
(13) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 10/276.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

عاقِبَةُ تَطْفيفِ الكَيْلِ والمِيزانِ وخيمَةٌ ومُنْذِرَةٌ بِعِقابٍ أليمٍ

يقولُ الحقُّ ﷻ حكايةً عن شُعيب عليه السلام: ويا قوم أتِمُّوا للنّاسِ حُقوقَهم في الكَيلِ والوزنِ لهم بالعَدلِ، من غيرِ نَقصٍ، ولا تنْقصوا النّاس من حقوقهم شيئًا بالتَّطفيف والغِشِّ والخِداعِ، ولا تَسيروا في الأرض بمَعْصيةِ اللّهِ، والإضرارِ بالخَلقِ وغيْره من المَعاصي[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

عِلَّةُ الأمْرِ بِالإيفاءِ بَعْدَ النَّهْيِ عَن النقص:

تَكْرارُ الكَلامِ عَنِ الشَّيْءِ الواحِدِ بِأُسْلوبَيْنِ مُخْتَلِفَيْنِ دَليلٌ عَلى الاهْتِمامِ بِالمَطْلوبِ وتَأْكيدِهِ

ممّا يلْفِتُ النّظر ويَسْترْعيه هُنا، هو قولُه تعالى: ﴿وَيَٰقَوۡمِ أَوۡفُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَ بِٱلۡقِسۡطِۖ﴾، وقد قال لهم سَلَفًا ناهيًا: ﴿وَلَا تَنقُصُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَۖ﴾، وعلّة هذا أنّ تَكرار الكلام عن الشّيء الواحد بأُسْلوبين مختلفَين كالنَّهي عنه ثُمّ الأمْرِ بضِدِّه، دليلٌ على الاهتمام بالمطلوب أمْرًا أو نهيًا؛ تَرْغيبًا في الوفاء بحقِّه وترْهيبًا من التّهاون بشَأْنه، ويَكون الثّاني منهما مؤكِّدًا للأوَّل، "والشّيءُ يؤكَّد بنَفْي ضدِّه، كقوله تعالى: ﴿وَأَضَلَّ فِرۡعَوۡنُ قَوۡمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ ٧٩﴾ [طه: 79][2] قال الزّمخشريّ سائلًا ومُجيبًا: فإن قلْت: النَّهْيُ عن النُّقصان أمْرٌ بالإيفاء، فما فائدة قوله: ﴿أَوۡفُواْ﴾؟

قلْت: نهوا أولًا عن عَيْن القبيح الّذي كانوا عليه من نقْص المكْيال والميزانِ؛ لأنّ في التّصريح بالقبيح نَعيًا على المَنْهيِّ وتَعْييرًا له، ثُمّ ورَد الأمْرُ بالإيفاء الّذي هو حَسَنٌ في العقول مُصرَّحًا بلَفْظه، لِزيادة ترغيبٍ فيه وبَعْثٍ عليه[3] ولِبيان أنّ المراد بالنَّهْي عن النّقْص ليس فقط التّقريب، بل السَّعْي في الإيفاء ولَو بزيادةٍ لا يتأتّى بِدونِها[4].

---

(1) ابن جرير، جامع البيان: 12/540، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 9/86، والسّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 387.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/137، وأبو حيّان، البحر المحيط: 6/196.

(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/417.

(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/352.

دلالَةُ الأمرِ في: ﴿أَوۡفُواْ﴾:

الأمْر هُنا دالٌّ على وجوب الإيفاء، فهو ليس أمْرًا مندوبًا إليه، بل واجب يتَحتَّم القيام به على وجْهٍ يُحقِّق - في قَدْرِه الواجب - القِسْط والعَدلَ.

سِرُّ التَّعْبيرِ بِالوفاءِ:

كَلِمَةُ (وفاء) جامعَةٌ لِمَعْنَيَي الإتْمام والإكْمالِ

كلمة وفاء وإنْ كانت تدلّ "عَلَى إكْمالٍ وإتْمام"[1] كما تَقول اللُّغة، غيْر أنَّها هُنا هي مَطْلَبُ ما لا يتَأتّى المَقامُ دونَهُ؛ لأنّه نَهَى سلفًا عن النَقْص في المكْيال والميزان، وذلك ضرْب من خيانة الأمانة، فالخيانة "نُقْصانُ الوفاءِ"[2] وإذا كان هذا مَعناها أو جُزءا منه، فلا يُناسِب هُنا إلّا الأمْر بالإيفاء وليس غيْرهُ.

ولذا نَرى القرآنَ الكريم يؤْثِره في مواضِعَ مُشابِهَةٍ، كما في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ﴾ [المائدة: 1] وقولِه: ﴿وَأَوۡفُواْ بِٱلۡعَهۡدِۖ﴾ [الإسراء: 34] لِما في عدم الوفاء فيهما من مَعنى الخيانة.

دلالَةُ لَفْظِ القِسْطِ:

إيفاءُ الكَيْلِ والوزْنِ يَتَحَقَّقُ بِالعَدْلِ، والزِّيادَةُ فَضْلٌ

جيءَ بالأمْرِ بإيفاء المكْيال والميزانِ، مُقيَّدًا بالقِسْط في قوله: ﴿أَوۡفُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَ بِٱلۡقِسۡطِۖ﴾، أيْ: لِيَكن الإيفاء على وجْه العدْل والتَّسْويَة، من غيْر زيادة ولا نُقصانٍ، أمْرًا بما هو الواجب؛ لأنّ ما جاوز العدْل فضْلٌ وأمْرٌ مَندوب إليه، وفيه تَوقيفٌ على أنّ الموفِّي عليه أنْ يَنْوِيَ الوفاء بالقِسْط، لأنّ الإيفاء وجْهُ حُسْنِه أنّه قِسْط وعَدلٌ، فهذه ثلاث فوائدَ[3].

سِرُّ التَّعْبيرِ بِالقِسْطِ:

القِسْطُ مِنْ أسْماءِ المِيزانِ وهو أخَصُّ في الدّلالَةِ عَلى العَدْلِ الظّاهِرِ

بيْن القِسط والعَدل تقارُب دلاليٌّ شديد، ومعاجم اللُّغة تُعرِّف

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (وفى).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (خون).
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/417.

كلًّا منهما بالآخَر، غيْر أنّ لفْظ القِسط هُنا أنْسَب؛ لأنّه يُطلق على الميزان من حيْث إنّه "يُصوِّر لَك العدْل في الوزْن حَتّى تَراهُ ظاهرًا"[1]، وقد قال تعالى: ﴿وَزِنُواْ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ١٨٢﴾ [الشعراء: 182] والقسْطاس هو الميزانُ؛ لأنّه آلَةٌ للعَدل[2] وقال: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُواْ ٱلْمِيزَانَ ٩﴾ [الرحمن: 9] وهكذا دائمًا في كلِّ الآيات المُعبَّر فيها بالوزن، فإنّه يظْهرُ التَّلازم بَيْنه وبيْن القِسط، ولَم يذْكرْ أبدًا العَدل بديلًا عن القِسط.

دلالَةُ الواوِ في: ﴿وَلَا تَبْخَسُواْ﴾:

الواو عاطِفَة لجُملة: ﴿وَلَا تَبْخَسُواْ﴾ على جُملة: ﴿أَوْفُواْ﴾ وكِلْتاهُما إنشائيَّتان طَلَبيَّتان، الأولى بالأمْرِ والثّانية بالنّهْي، والجَمع بيْن الإيفاء وعدَم البَخْس إحاطةٌ بصورِ العدل، وصِدْق المعاملة، وتَجنُّبِ الظُّلْم.

سِرُّ اخْتيارِ التَّعْبيرِ بِالبَخْسِ:

آثَرَ التّعبير بالبَخْس في قوله تَعالى: ﴿وَلَا تَبْخَسُواْ﴾ دون غيْره كالنّقْص مثلًا؛ لأنّه أدلّ على المَقصود وهو النّهْي عن النّقْص حالَ كَوْنه ظُلْمًا وهَضْمًا لِلحُقوق، وهو مَعنى البَخْسِ[3]، وليس المراد النّهْيَ عن مُطلَق النّقْص، فإنّه قد لا يَكون على سبيل الظّلْم.

البَخْسُ مَخْصوصٌ بِالنَّقْصِ لِأجْلِ الظُّلْم

دلالَةُ النَّهْي في: ﴿وَلَا تَبْخَسُواْ﴾:

قولُه تعالى: ﴿وَلَا تَبْخَسُواْ﴾ بَعد الأمْرِ بإيفاء الكَيل والميزانِ من باب التَّرقّي في الطّلَب، فبَعد أنْ نهاهُم نهيًا خاصًّا عن النّقْص في الكَيل والوزن لِمَن يَتَعاملون معهم بهما، نهاهُم هُنا نهيًا عامًّا عن جميع النّاس وعن ظُلْمهم وهَضْمهم حقَّهم في كلِّ الأشياء سَواء كانت ممّا تُكالُ وتوزَن أوْ غيْر ذلك[4].

التَّرَقّي في الطَّلَبِ والنَّهْي

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 234.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/187.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/417، والرّاغب، المفردات: (بخس).
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/196.

وسَواء كان البَخْس من جِهَة البائع بالبخْس عن طَريق الكَيل والوزن أو الغِشِّ والخِداع ونَحْوه، أو كان من جِهَة المُشْتري بأنْ يَهْضم البائعَ حقَّه ولا يَقدُر بضاعَتَه قَدْرَها، فبِما أنّ الكلام في سياق البَيع والشّراء، فإنّ دخولَه في هذا العُموم يَكون من باب أوْلى.

دلالَةُ تَعَدّي الفِعْلِ ﴿تَبْخَسُواْ﴾ إلى مفعولين:

الفِعل ﴿تَبْخَسُواْ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ﴾ مُتَعَدٍّ إلى مَفْعولَيْن حيْث عمل فيهما النَّصْب: الأوَّل هو لفْظ ﴿ٱلنَّاسَ﴾ والثّاني هو الأشْياء في ﴿أَشْيَآءَهُمْ﴾. وتَعْديَتُه إلى مَفْعولَيْن باعتباره ضِدَّ (أعطى) فهو من باب (كسا)[1]، أيْ: من حيْث إنّ (كسا) تَنْصِب مَفْعولَيْن، ليس أصْلهُما المُبتدَأ والخَبَر، على عكس (ظنّ) التي تنصب مفعولين أصلهما مبتدأ وخبر.

دلالَةُ التَّعْبيرِ بـ ﴿ٱلنَّاسَ﴾:

دلّ لفْظ ﴿ٱلنَّاسَ﴾ هُنا على العُموم، فإنّه بَعد أنْ نَهاهُم نهيًا خاصًّا عن نقْص المكْيال والميزان عَمَّن يَتَعاملون معهم بهما؛ فإنّه قد نهاهُم هُنا نهيًا عامًّا عن بخْس كلِّ النّاس ما بيْن أيديهم من جميع الأشياء، سَواء كانت ممّا تُكالُ وتوزَن أوْ غيْر ذلك[2].

سِرُّ التَّعْبيرِ بـ ﴿أَشْيَآءَهُمْ﴾:

أشْياء جَمْعُ شَيْءٍ، والشّيء هو ما صحَّ أنْ يُعْلَمَ ويُخْبَر عنه[3]، فصيغَة اللَّفظ نفسُها دالّة على العموم، من حيْث كَوْنُها تُطلَق على كلِّ ما هو خاضِع لِلعِلْم والإخْبارِ عنهُ.

التَّعْبيرُ بِلَفْظِ (أشياء) للدّلالَةِ عَلى العُموم

دلالَةُ الإضافَةِ في: ﴿أَشْيَآءَهُمْ﴾:

دلّت الإضافَةُ في قولِه تعالى: ﴿أَشْيَآءَهُمْ﴾ على الملكيَّة والحقِّ

دلالَةُ الإضافَةِ عَلى إبْرازِ المِلْكيَّةِ لِلمَظْلومينَ لِلتَّشْهيرِ بِظالِميهِمْ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/138.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/196.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/87.

لِلمَهْضومين المظلومين، فهي بمَعنى اللّام، أيْ: الأشياء الّتي تَكون لهم، أيْ: لِلنّاس ومن حقِّهم، فلا تَبْخسوهم فيها، والقَصْد التَّشهيرُ بالظّالِمين إذ لا حقَّ لهم فيما يَمْلكُه الآخَرون.

فَنُّ التَّكْرارِ:

قابَلَ الإصْرارَ عَلى الذَّنْبِ المُبالَغَةُ في التَّأكيدِ

وقَع التَّكرار في قولِه تعالى ﴿وَيَٰقَوۡمِ أَوۡفُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَ بِٱلۡقِسۡطِۖ﴾. "من ثلاثة أوْجُه؛ لأنَّه قال: ولا تنْقصوا المكْيال والميزان، وهذا عَيْنُ الأوَّلِ، وليس فيهِ إلّا التّعبير بتَبْخسوا النّاس أشياءَهم. والفائدة فيه، أنَّ القَوْم لمّا كانوا مُصِرّينَ على ذلك العَمل القبيحِ احْتيجَ في المَنْع منه إلى المُبالَغَة في التّأكيد، والتّكريرُ يُفيد شدَّة الاهتمام بالشّيء وقد نُهوا أوَّلًا عن القبيح الّذي كانوا عليه من نقْص المكْيال والميزان، ثُمّ ورَدَ الأمْر بالإيفاء مُصَرَّحًا بِلفْظه، لِيَكون أهْيَجَ عليه وأدْعى إلى التّرغيب فيه"[1].

دلالَةُ الواوِ في: ﴿وَلَا تَعۡثَوۡاْ﴾:

في العَطْفِ جَمْعٌ لِلنَّهْيِ الخاصِّ بِالعامِّ

الواو هُنا عاطِفَة، عَطَفَت جملة: ﴿وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ على جملة: ﴿وَلَا تَبۡخَسُواْ﴾. ليَجْمع النَّهْيَيْن: الخاصَّ بِعَدم إيفاء الكَيل، والعامَّ بالإفسادِ في الأرض.

سِرُّ التَّعْبيرِ بـ: ﴿وَلَا تَعۡثَوۡاْ﴾:

العُثُوُّ يَعْني كَثْرَةَ الفسادِ[2] وأشدَّه[3] وفي نَهْيهم عن الإفساد في الأرض بهذا التّعبير دلالةٌ على أنَّهم كانوا يُمارِسون أعْتى ألْوان الفساد وأشدَّه.

العُثُوُّ يَعْني الفَسادَ الكَبيرَ الشَّديدَ

دلالَةُ التَّعْبيرِ بِالظَّرْفيَّةِ ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾:

دلّت الظَّرْفيَّة المُسْتفادةُ من حرْفِ ﴿فِي﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلَا

(1) صافي، الجدول: 12/333.
(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 213.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/520.

﴿تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ على تَمَكُّنهم من الفساد في الأرض، تَمكُّنَ الظَّرْف من المَظْروفِ واحْتواءَه.

دلالَةُ (أل) في ﴿ٱلۡأَرۡضِ﴾:

(أل) في ﴿ٱلۡأَرۡضِ﴾ هيَ العَهْديَّة، أيْ: في الأرض الّتي يَعيشون فَوْقَها، فلا يُتَصوَّر أنْ تَكون الجِنْسيَّةَ الاسْتغراقيَّة، وهي مثْل (أل) في قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ﴾ [يوسف: 55] وقولِه: ﴿إِنَّ فِرۡعَوۡنَ عَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [القصص: 4] فالمراد بالأرض في الآيَتَيْن مصْرُ، لا غَيْرها.

(أل) في (الأرْض) لِلعَهْدِ لا لِاسْتِغْراقِ الجِنْسِ

فائدَةُ التَّعْبيرِ بـ: ﴿مُفۡسِدِينَ﴾:

فائدة النَّصِّ على قوله: ﴿مُفۡسِدِينَ﴾ مع سبْق الدّلالة عليه بالنَّهْي عن العُثُوِّ في قوله: ﴿وَلَا تَعۡثَوۡاْ﴾ إخراجُ ما يُقصَد به الإصلاحُ ممّا ظاهِرُه الفسادُ، كما فَعَلَ الخَضِر عليه السلام من: قَتْلِ الغُلام، وخَرْقِ السَّفينة.

ومثْلُه ما يُدفَع به أخَفُّ الضَّررَيْن[1]؛ أو ما يَكون ممّا ظاهِرُه الإفسادُ وهو في الواقِع لا بُدّ منه لِتحْقيق مَصلحة عامَّة، كتَوسيعِ طريق عامٍّ على حِساب بَعض الأراضي الخاصَّة لِبعض الأفْراد، حيْث لا سبيل إلى تحقيق ذلك إلّا بهذا العَمل، فإنّه في الظاهر فسادٌ لكنّه في الواقِع إصلاحٌ.

وقيل: فائدَتُه تَعليلُ النّهْي، كأنّه قيل: لا تُفسِدوا في الأرض فإنّه مُفسِد لِدينِكم وآخرَتِكم[2].

إخْراجُ ما ظاهِرُهُ الفَسادُ وجَوْهَرُهُ الإصْلاحُ مِنْ عُموم النَّهْي

سِرُّ التَّعْبيرِ بِالاسْميَّةِ ﴿مُفۡسِدِينَ﴾:

عبَّر بالاسْميَّة ﴿مُفۡسِدِينَ﴾ دون الفِعليَّة (ولا تفسدوا)؛ لأنّ التّعبير به آكَدُ، فهو يدلّ على الثُّبوت، لا على مُجرَّد وُقوع الحَدَث في زَمَن، ولأنّ العُثُوَّ هو الفسادُ الكَثير والشَّديد، فإنّه لا يَقوم به إلّا

التَّعْبيرُ بِالاسْم آكَدُ وأثْبَتُ مِنَ التَّعْبيرِ بِالفِعْلِ

(1) رشيد رضا، تفسير المنار: 12/117.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 6/312.

مُفْسِد دَأبَ على الفساد وليس مَن وقَع منه الفسادُ مَرّةً أو مَرّتيْن ثُمّ ولَّى.

بَلاغَةُ التَّرَقّي في النَّهْي:

التَّرَقّي بَلاغَةٌ في الخِطابِ وأُسلوبُ نَجاحٍ في الدَّعْوةِ

إنّ من سُنَن النَّجاح في الدّعْوة التَّرقّي فيها من القليل إلى الكثير، ومن الأدنى إلى الأعلى، ومن العامّ إلى الأعَمِّ... وهَلُمَّ جَرًّا. وهذا ما سَلَكَه نَبيُّ اللّه شُعيب عليه السلام كما تَدلُّنا عليه الآياتُ مَحلّ الدّراسة والتّفسير، وتفصيل ذلك أنَّه:

أوَّلًا: نهاهُم عن القبيح الّذي كانوا يَتَعاطونه، وهو نقْص المكيال والميزان، فقال: ﴿وَلَا تَنقُصُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَۖ﴾ وفي التّصْريح بالنّهْي نَعْيٌ على المَنْهيِّ وتَعْييرٌ له.

وثانيًا: ثُمّ ارْتَقى في الخِطاب فأمرهم بإيفائِهما مُصرّحًا بلَفْظِهما، ترْغيبًا في الإيفاء، وبَعْثًا عليه، فقال: ﴿وَيَٰقَوۡمِ أَوۡفُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَ بِٱلۡقِسۡطِۖ﴾، وجيءَ بالقسْط لِيَكون الإيفاءُ على جِهَة العدل والتَّسْويَة وهو الواجب؛ لأنّ ما جاوزَ العدل فَضْل وأمْرٌ مَنْدوب إليه، وليس من الواجب المأمورِ به، إلّا إذا كانت زيادةً طَفيفَة لا يَتحقَّق العدل إلّا بها.

ثالِثًا: ثُمّ ارْتَقى مَرَّةً أُخْرى من النَّهْي الخاصِّ عن النقْص في المكيال والميزان، إلى النّهْي العامِّ عن نقْص النّاس أشياءَهم، فقال: ﴿وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ﴾ وهو عامٌّ في النّاس، وفيما بأيْديهِم من الأشياء سَواء كانت ممّا تُكالُ وتوزَنُ، أو غيْر ذلك.

رابِعًا: ثُمّ ارْتَقى ثالِثًا من العامِّ وهو النّهْي عن بخْس النّاس أشياءهم إلى الأعَمِّ وهو النّهْي عن الفساد في الأرض، فقال: ﴿وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ﴾ وهو أعَمُّ من أنْ يَكونَ نَقصًا أو غيره، فَبَدَأهم أوَّلًا بالمَعصيَة الشّنيعة التي كانوا عليها بَعد الأمْرِ بعبادة

اللّه، ثُمّ ارْتقى إلى عامٍّ، ثُمّ إلى أعَمّ منه وذلك مُبالَغة في النُّصْح لهم ولُطْفٌ في اسْتِدراجِهم إلى طاعة اللّه[1] كما أنّه من أساليب الحِكْمة في تَهْيئة النّفوس بِقَبول الإرْشاد والكمالِ[2].

بَلاغَةُ التَّأْكيدِ في: ﴿وَلَا تَعْثَوْاْ فِي ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾:

شَناعَةُ الفِعْلِ تَسْتَحِقُّ التَّوْكيدَ

التّأكيد في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَعْثَوْاْ فِي ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ مَأخوذٌ من قوله: ﴿وَلَا تَعْثَوْاْ﴾ ومَعناه كثْرةُ الفساد، ثُمّ تأكيدُه بقولِه: ﴿مُفْسِدِينَ﴾ على اعتبار أنّ أصْل النّهْي عن الفساد، بل شديدِ الفساد قد حَصَل بقَولِه: ﴿وَلَا تَعْثَوْاْ﴾.

بَلاغَةُ الإطْنابِ في: ﴿وَلَا تَعْثَوْاْ فِي ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾:

بالَغَ في تَقْبيحِ الفَسادِ لِتَجَنُّبِ الغَفْلَةِ عَنْهُ أوِ النِّسْيانِ

في الجُملة إطْنابٌ بالحال المؤَكّدَة مُبالَغةً في تقبيح الفساد، وفي التّصْريح بِذِكْر الأرض ﴿وَلَا تَعْثَوْاْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ مبالَغةٌ في تقبيح الفساد، وقولُه ﴿مُفْسِدِينَ﴾ حالٌ مؤكّدة ووجْهُ فَصاحة هذا الأسلوب أنّ المُتكلِّمَ قد تشتَدُّ عنايتُه بأنْ يَجعل الأمْرَ أو النّهْي لا يَحوم حَوْله لَبسٌ أو شكّ، ومن مظاهر هذه العناية التّوْكيد، فقوله: ﴿مُفْسِدِينَ﴾ يَكْسو النّهْيَ عن الفساد قوّةً، ويَجعلُه بَعيدًا من أنْ يُغفَلَ عنه أو يُنسى.

وجْهُ الحاليَّةِ في إعْرابِ: ﴿مُفْسِدِينَ﴾:

اخْتِلافُ اللَّفْظَيْنِ حَسَّنَ الحالَ المؤَكّدَةَ

قوله تعالى: ﴿مُفْسِدِينَ﴾ حالٌ من فاعِلِ ﴿تَعْثَوْاْ﴾، وهي حالٌ مؤكِّدةٌ؛ لأنَّ معناها قد فُهِم من عاملها، وحَسَّنَ ذلك اختلافُ اللَّفظَين، كما في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ۝٢٥﴾ [التوبة: 25][3].

بَيانُ وجْهِ التَّشابُهِ والاخْتِلافِ:

قال تعالى في سورة الأعراف: ﴿فَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُواْ فِي ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا﴾ [الأعراف: 85]، وقال

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/195.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/138.
(3) السّمين الحلبي، الدّرّ المصون: 1/389، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/520.

في سورة هود: ﴿وَيَٰقَوۡمِ أَوۡفُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ﴾:

الآيتان نهيٌ عامٌّ عن بخس النّاس أشياءهم

التّشابُه يَكْمن في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ﴾، وهو في كِلْتَيْهما نَهْي عامٌّ عن بخْس أيِّ أحد من النّاس في أيِّ شَيْء من أشيائهم، جاء عقِبَ الأمْرِ الخاصِّ بالوفاء بالكَيل والميزان.

في آية الأعراف بَدَأ بالتّوْحيدِ، فالأمْرُ بالشّرائِعِ، ثُمّ ما يُصَدِّقُهُ من الأعْمالِ

التّعبير بالفاء في آية الأعراف ﴿فَأَوۡفُواْ﴾ [الأعراف: 85] دون آية هود ﴿أَوۡفُواْ﴾ والسِّرُّ في إلْحاق الفاء بالأمْرِ بالوفاء هُنا، هو أنّه قد سَبَقَتْها جملة ﴿قَدۡ جَآءَتۡكُم بَيِّنَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡۖ﴾ [الأعراف: 85] والبَيّنَة هي دليل الصِّدق أي المُعجزةُ الدّالَّة على صِدْق شُعيب عليه السلام، فلمّا كان ذلك كذلك، رتّبَ عليها الأمْر بالوفاء بواسطة الفاء، وكان قد أمَرَهم بالتّوْحيد بادئَ ذي بَدْءٍ، لِما فيه من صلاحِ القلْب، فشَرَع يأمُرُهم بالشّرائع من الأعمال بَعد الإيمان[1] لأنّ ترْتيبَ الأمْرِ بالشّرائع، يأتي عقِب الأمْر بالتّوْحيد لِتَرْسيخه أوّلًا، ثُمّ يأتي ما يُصَدِّقه وهو الأعمال، وأمّا في مَوضِع هود، فإنّه لَم يَسْبقْه ذِكْر لِلبَيّنة، وإنّما سَبَقه أيضًا أمْرٌ بالتّوْحيد ثُمّ نَهْي عن نقْص المكيال والميزان.

الكَيْلُ: آلَتُهُ، وهو المكْيالُ، وزيادَةُ لَفْظِ القِسْطِ لِدَفْعِ التَّوهُّم

اختلاف التّعبير بالكَيل والوزن في آية الأعراف، ثُمّ التّعبير بالمكيال والميزان في آية هود؛ وذلك أنّه قال في الأعراف: ﴿فَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ وَٱلۡمِيزَانَ﴾ [الأعراف: 85] وفي هود قال: ﴿أَوۡفُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَ بِٱلۡقِسۡطِۖ﴾ وبزيادة قَيْد القسْط. والجواب أنّه يُمكن حَمْل ما في سورة الأعراف على ما في سورة هود فيَكون المَقصود بالكَيل المكيالَ. قال الزّمخشريّ: "فإن قُلْت: كيف قيل ﴿ٱلۡكَيۡلَ وَٱلۡمِيزَانَ﴾ [الأعراف: 85] – أي في الأعراف – وهَلّا قيل: المكيال والميزان، كما في سورة هود عليه السلام؟

قُلْت: أُريدَ بالكَيل: آلةُ الكَيل وهو المكْيالِ، أو سُمّيَ ما يُكال به

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/241.

بالكَيل، كما قيل: العَيْش، لِما يُعاش به. أو أنّه أُريدَ: فأوْفوا الكَيل ووزْنَ الميزان"[1].

وأمّا عن زيادة قَيْد القسْط في سورة هود، فقد جيءَ به لِتَقييد إيفاء المكيال والميزانِ، بالقسْط، أيْ: لِيَكن الإيفاء على وجْه العدل والتّسْويَة، من غيْر زيادة ولا نُقصان؛ لأنّه قد سبَقَه قولُه: ﴿وَلَا تَنقُصُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَۖ﴾ فلَرُبّما ظُنَّ من النّهْي أنَّ القصْد به التّقريبُ وليس القسْط فيه، بمَعنى أنّه يُمكن التّجاوز عن قليل النّقْص، فجاء قيْد القِسْط، لِيُزيلَ هذا الظَّنَّ وذلك التّوهُّم، ولِيَكون نَصًّا في الإيفاء بالقسْط؛ لأنّه لا يُجْزئُ فيه إلّا أنْ يَكونَ كذلك.

عِنايَةُ سورَةِ الأعْراف مُتَّجِهَةٌ إلى إصْلاحِ الأرْضِ، وعِنايَةُ سورَةِ هود مُتَّجِهَةٌ إلى إصْلاحِ الإنْسانِ

قال في الأعْراف: ﴿وَلَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَاۚ﴾ [الأعراف: 85]، وقال في هود: ﴿وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ﴾؛ فأمّا ما في آيَة الأعْراف فإنّه مُتَّسِق مع ما سَبَق في نَفْس السّورة ﴿وَلَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَا﴾ [الأعراف: 56] لِلتَّأْكيد على أنّ ما يَجري من إفساد في الأرض هو عُدوان على إصلاحها، وقد خلقها اللّه صالحَةً، لكنّ النّاس هُم مَن أفْسدوها، ثُمّ بَعد إفسادها يَبْعث اللّهُ الرُّسل لإصلاحها ليُجدِّدوا حياتَها، كما قال شُعيب عليه السلام مُصرِّحا بهذا: ﴿إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُۚ﴾ فيتَنزَّلُ قوله: ﴿وَلَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَا﴾ [الأعراف: 56] مَنْزلةَ الدّعْوة إلى اتِّباع الرُّسل، ومنهم شُعيب عليه السلام، لكَوْنهم ما بُعِثوا إلّا لِلإصلاح، ومن جُملةِ ذلك الإصلاحِ إصلاحُ ما أفْسده النّاس في الأرض بسوء الاعتقاد، وقُبح الفِعال، وسَيِّئِ الأخلاق، فيَبدو من ذلك أنَّ سورة الأعراف كانت مَعْنيَّةً بمسألة إصلاح الأرض بَعد أنْ عَمَّها الفسادُ، والتّفْصيلِ فيه، ولِذا خُصَّت بالنَّصِّ عليه.

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/127.

وأمّا سورة هود فَقَد طَوتْه وجَعَلتْه ضِمْن النّهْي العامِّ عن الإفساد في الأرض في قوله: ﴿وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ﴾ دون النَّصِّ على بَعديَّة إصلاحِها، لِكَونه مُقرَّرًا مَعروفًا، ولأنّ سورة هود جَعَلَت هَمَّها إصلاحَ الإنسان، فرَكَّزتْ على خُلُقِ الإفساد فيه كما يَدلّ عليه قوله: ﴿مُفۡسِدِينَ﴾ لأنّه إذا صَلحَ الإنسانُ؛ فإنّ بصلاحِه تَصْلُح الأرض، فتَكْتمل بذلك الصورَةُ، لِيَكون اهتمام سورة الأعراف مُتَّجِهًا إلى إصلاح الأرض، واهتمام سورة هود مُتَّجِهًا إلى إصلاح الإنسان.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الوفاءُ والتَّمامُ:

الوفاء كَلِمَةٌ جامعَةٌ لِمَعْنَيَي التَّمام والكَمال

التّمام من وصْف الأجزاء، فهو اسْمٌ للجُزء والبَعْض الذي يتمُّ بِهِ المَوْصوف بِأنَّهُ تامٌّ؛ فيُقال: هذا تَمامُ حَقِّك للبَعْض الذي يتمُّ بِهِ الحَقّ[1] أمّا الوفاءُ فيُناسِبُه الكمالُ لا التّمام؛ والكَمال تَمامٌ وزيادةٌ أيْ هو جامعٌ لِكِلَيْهما؛ إذِ الكَمال اسْمٌ لاجْتِماع أبْعاضِ المَوْصوفِ بِهِ ولِهذا قالَ أصْحابُ: النَّظْم القافيَةُ تَمامُ البَيْت، ولا يُقال: كَمال البَيْت، ويَقولونَ: البَيْت بِكَمالِه، أيْ بِاجْتِماعِه، والبَيْت بِتَمامِه، أيْ بقافيَتِه[2].

وفي مَعْنى الوفاء قال ابنُ فارِس: (وفى) كلمة تدُلّ على إكْمالٍ وإتْمام، منه الوفاء: إتْمامُ العَهْدِ وإكْمالُ الشَّرْط. ويَقولونَ: أوْفَيْتُكَ الشَّيْءَ، إذا قَضَيْتَهُ إيّاهُ وافيًا[3].

والمَعْنى المحْوريُّ لِلوفاء: نُمُوٌّ أو زيادَةٌ يَبْلُغُ بها الشَّيْءُ - أوْ يَتَأكَّدُ - تَمام قِوامِه... ووفاءُ الكَيْلِ امْتِلاءٌ لِلتَّمام[4] أيْ بُلوغه حَدَّ الكَمالِ. ولِهذا كان اصْطِفاء الوفاء أنْسَبَ لِسياقِ الخِطابِ الموجِبِ إيفاءَ الكَيْل، والميزانِ.

(1) العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 263.
(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 263، والكفويّ، الكلّيّات، ص: 269.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (وفى).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (وفى).

القِسْطُ والعَدْلُ:

الـقِـسْـطُ هو العَدْلُ الظّاهِرُ، ومِنَ العَدْلِ ما يَخْفى

لا شكّ أنّ بيْن كلٍّ من القسْط والعدل تَقارُبًا دلاليًّا واشْتِراكًا في أصْل المَعنى. وذلك أنّ القسْط هو العدْلُ الظّاهِر، ومنْه سُمّيَ كلٌّ من المكْيال والميزانِ: (قِسْطًا)؛ لأنَّهُ يُصَوِّرُ لَك من خِلالهما العدْلُ في الوزْن والكَيْلِ حَتّى تَراهُ ظاهِرًا. فالقسْط هو النَّصيبُ الَّذي بُيِّنَت وُجوهُه. ويُقال: تَقَسَّطَ القَوْمُ الشَّيْءَ، أيْ: تَقاسَموا بِالقِسْطِ. وأمّا العدْلُ، فقد لا يَكون ظاهرًا، فمنَ العدْل ما يَخْفى[1]، ولأنّ المكيال والميزانَ مَظِنَّة الإظهارِ لِيُعلَم صِدقُ كَمّيَّتِه، وتَمامُ إيفائه، اخْتيرَ لَفْظُ القِسْط دونَ العَدْلِ.

العُثُوُّ والفَسادُ:

الـعُـثُـوُّ أكْـثَرُ الفَسادِ وأشَدُّهُ

العُثُوّ والفساد من باب واحِد، بَيْدَ أنَّ العُثوّ يَعْني الفساد التّامَّ وأكْثَرَ الفَسادِ وأشَدِّهِ[2]. وأصلُه من قَوْلك: ضَبُعٌ عَثْواءُ؛ إذا كَثُرَ الشَّعْرُ على وجْهِها، وكذلِكَ الرَّجُل. ويُقال: عاثَ يَعيثُ. وهي لُغَة، ويُقال أيْضًا: عَثا يَعْثو وهو أفْصَحُ اللُّغَتَيْن ومنْه قَوْله ﷻ: ﴿وَلَا تَعْثَوْاْ فِي ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾[3] ولِتَنَوُّعِ الفَسادِ الَّذي كانوا يُمارِسونَهُ، وشِدَّتِهِ، وامْتِدادِهِ اخْتيرَ لَفْظُ ﴿تَعْثَوْاْ﴾ لِيُناسِبَ ذلِك.

(1) العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 234.
(2) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 18/385، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/520.
(3) العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 213.

﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِحَفِيظٖ ٨٦﴾ [هود: 86]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبلَها:

الكَثيرُ مَعَ الحَرام قَليلٌ، والقَليلُ مَعَ الحَلالِ كَثيرٌ

لمّا ذَكَر الله تعالى في الآية السّابقة حكايةً لأمْرِ شُعيب عليه السلام قومَه بإيفاء الكَيل والميزان، ثُمّ أعقَبَه نَهْيَه إيّاهم عن بخْس النّاس أشياءهم وعن العُثوِّ في الأرض فسادًا، كان مُنتظَرًا من قَومه أنْ يَقِفوا أمامَ أنْفُسِهم لِيُراجعوا مَواقفهم فيما دعاهُم إليه شُعيب عليه السلام، لكنَّهم لَم يَفعلوا، وظلَّ نَظرُهم بَعد الشِّرك مَقْصورًا على الأموال، وكان نَهْيُه عمّا نَهى عنه موجِبًا لِمَحْقِها في زَعْمهم، فكأنَّهم قالوا، أو ربّما قالوا بالفِعل: إنّا إذا اتَّبَعناك فيما قلّتَ فَنِيَتْ أموالُنا، أو قَلَّت فتَضَعْضَعَت أحوالُنا، فلا يَبقى لنا شَيْء؟ فقال: ﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَۚ﴾ أيْ فَضْل المَلِك الأعلى المُسْتَجمع لِصِفات الكمال، وبَرَكتُه في أموالكم وجَميع أحوالِكم وإبْقاؤهُ عَليكم خيْرٌ لَكُم[1] ممّا تَظنّون.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿بَقِيَّتُ﴾: أصْلُ (بقي): ثَباتُ الشَّيْءِ على حالِه الأولى. بَقِيَ الشَّيءُ يَبْقى بقاءً، وهو ضِدُّ الفَناءِ[2]، والباقي ضَرْبان: باقٍ بنَفسِه لا إلى مُدَّةٍ وهو الباري تعالى، ولا يَصحُّ عليه الفَناء، وباقٍ بِغَيْره وهو ما عَداه ويَصحُّ عليه الفَناء[3]. والبَقيَّةُ: ما يَفْضَلُ منْ شَيءٍ بَعْدَ انْقِضاءِ مُعظَمِه، واستُعملَ كثيرًا في الأنفَعِ والأصْلَحِ؛ لأنَّ العادَةَ قد

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/354.
(2) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (بقي).
(3) الرّاغب، المفردات: (بقي).

جَرَتْ بأنَّ النّاس يُنفقون أرْدَأ ما عندهم ويَسْتَبْقُون الأجْودَ. وبَقِيَّةُ النّاسِ: سادَتُهُم وأهْلُ الفَضْلِ منْهُم[1]. و﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ﴾: ما يُبْقيه اللّهُ لعبادِهِ من أجْرٍ. والمَقْصودُ بـ البَقيَّةِ في الآيةِ: ما يدلُّ على دَوامٍ، وهو الحَلالُ في مُقابِلِ الحَرام.

2) ﴿بِحَفِيظٍ﴾: أصْلُ (حفظ): يَدُلُّ على مُراعاةِ الشَّيْءِ. يُقالُ: حَفِظْتُ الشَّيْءَ حِفْظًا[2]، ويَأْتي الحِفْظُ بـ مَعْنى: الرِّعايَةِ والعِنايَةِ، وضِدُّهُ التَّضْييعُ والتَّفْريطُ، تَقولُ: حَفِظَ المالَ حِفظًا: إذا رَعاهُ ومَنعَهُ منَ الضَّياعِ، والحِفْظُ أيْضًا: التَّعاهُدُ وقِلَّةُ الغَفْلَةِ، وضِدُّهُ النِّسْيانُ، يُقالُ: حَفِظَ الكلامَ، أي: تَعاهَدَهُ ولَمْ يَنْسَهُ[3]. والحَفيْظُ: المُوكَّلُ بالشَّيْءِ يَحْفَظُهُ، وكذلِك الحافِظُ. والحَفيظُ أيضًا: الرَّقيبُ، قالَ تعالى: ﴿ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ﴾ [الشورى: 6] والحَفَظَةُ: الجَماعَةُ؛ منه[4]. والمَقصودُ بالحِفْظِ في الآيةِ: الرِّعايَةُ والعِنايَةُ، ومَنْعُ الغَيْرِ من الوقوعِ في الخَطَأ.

المَعْنى الإجْماليُّ:

قال شُعَيبٌ عليه السلام لِقَومه: ما يُبقيه اللّهُ لكم بَعد أنْ تُوفّوا النّاسَ حُقوقَهم خيْرٌ لكم من الحرام الّذي تَجمَعونَه بظُلْم النّاسِ، شَريطةَ أنْ تكونوا مؤمنينَ بما جِئْتُكم به، وما أنا بِرَقيبٍ عليكم عندَ كَيْلِكم ووزْنِكم، ولَيس عليَّ حِفْظُ أعْمالِكم، ولا مَنْعُكم بالقوَّةِ إذا لَم تَسْتجيبوا لِنُصْحي، وإنَّما عليَّ إبلاغُكم رِسالةَ اللّهِ تعالى[5].

الإيمانُ يُطَهِّرُ النَّفْسَ منْ رَذيلَةِ الطَّمَعِ ويُحَلّيها بِفَضيلَةِ السَّخاءِ والكَرَم

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/183.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حفظ).
(3) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن عبّاد، المحيط في اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (حفظ).
(4) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن عبّاد، المحيط في اللّغة، والزّبيديّ، تاج العروس: (حفظ).
(5) ابن جرير، جامع البيان: 12/541 - 544، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 9/86، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/144.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالَةُ الفَصْلِ:

شِبْهُ كَمالِ الاتِّصالِ في الآيَةِ

هذه الآية فُصِلَت عمّا قَبْلَها، على طريقة الاسْتِئناف البَيانيِّ؛ لأنّها بمثابَةِ جوابٍ عن سؤال عمّا إذا أطاعوهُ فانتهوا عن التَّطْفيف وعن ظُلْم النّاس، وسُدَّ - في زعمهم - باب رزقهم الّذي كان يُدِرُّ عليهم الأموالَ وإنْ كانت حرامًا، فكأنّهم قالوا بِناءً على ذلك: "إنّا إذا اتَّبَعناك فيما قُلْت، فَنِيَتْ أموالُنا أو قلَّتْ، فتَضَعْضَعَت أحوالُنا، فلا يَبْقى لنا شَيْء؟ فقال: ﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾، أيْ: ما يُبقيه الله تعالى لكم من الحَلال هو خَيْرٌ لَكُمْ ممّا تَجْمعون بالبخْس والظُّلم والتَّطْفيف، وخَيْرِيَّتُه بأنّه بَرَكة في الدّنيا، "ولأنّ النّاس إذا عَرفوا إنسانًا بالصِّدق والأمانةِ والبُعد عن الخيانَةِ اعْتمدوا عليه، ورَجَعوا في كلِّ المعاملات إليه، فيُفْتَح عليه باب الرِّزق، وإذا عَرَفوه بالخيانَة والمَكْر انْصرفوا عنه، ولَم يُخالِطوه البتَّة فتَضيقُ أبواب الرِّزق عليه"[1] كما أنّها نجاة في الآخِرَة من عذاب يوْم مُحيطٍ.

سِرُّ التَّعْبيرِ بِلَفْظِ ﴿بَقِيَّتُ﴾:

لَفْظُ البَقِيَّةِ كَلِمَةٌ جامِعَةٌ لِكُلِّ شَيْءٍ نَفيسٍ مُبارَكٍ باقٍ وُجودًا وأثَرًا

عبَّر بِلَفْظ البقيَّة دون غيْره؛ لدلالته على الدَّوام[2]، أيْ: دوام الوجود الحِسّيِّ واسْتِمرار الأثَرِ المَعنويِّ فـ "كلُّ ما في القرآن من التَّركيب - أيْ ممّا فيه لَفْظ بقيّة - فهو بمَعْنى دوام وجودِ الشَّيْء أيْ عَدَم فَنائِه: إمّا في ذاته، وإمّا لأنّه كان ضِمْن جَمْع من شَيْء، فذَهَبَ بَعضُ الشَّيء أو أكْثرُه، وبَقِيَ هو"[3] وإذا كانت الكلِمةُ دالَّة على مَعْنى الدّوام، فإنّها "مُؤْذِنة بِضدِّه وهو الزّوال، فأفادَت أنّ ما

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 18/386.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (بقي).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (بقو - بقي).

يَقْترفونه مَتاع زائلٌ، وما يَدعوهم إليه حظٌّ باقٍ غيرُ زائل، وبقاؤه دُنيَويٌّ وأُخْرويٌّ... على أنّ لفْظ (البقيّة) يحْتَمل مَعنى آخَر من الفضل في كلام العَرَب، وهو مَعنى الخيْر والبَرَكة؛ لأنّه لا يَبقى إلّا ما يَحتَفِظ به أصحابُه، وهو النّفائس، ولذلك أُطلِقَت (البقيّة) على الشّيْء النّفيس المبارَك كما في قوله تعالى: ﴿فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ﴾ [البقرة: 248] وفيه أيضًا مَعنى الإبْقاء عليهم... ولعلّ كلامَ شُعيب عليه السلام قد اشتَمَلَ على جميعِها فحَكاهُ القرآن بهذه الكَلِمة الجامعة"[1].

سِرُّ كِتابَةِ التّاءِ مبسوطةً لا مربوطةً في ﴿بَقِيَّتُ﴾:

يُشيرُ بَسْطُ التّاءِ إلى الأثَرِ الظّاهِرِ الباقي في أمْوالِهِمْ منَ الرِّبْحِ المَحْسوسِ

اجْتَهَد بعضُ عُلماء الرَّسْم في تعليل بَسْطِ التّاء في مَواضِعَ وقَبْضِها في مَواضِعَ أُخْرى بأنّ مَرْجعه إلى أنّ هذه الكلمة: ﴿وَبَقِيَّةٌ﴾ [البقرة: 248] – ﴿بَقِيَّتُ﴾ ومثيلاتِها كـ ﴿نِعْمَةَ﴾ [البقرة: 211]، و﴿نِعْمَتَ﴾ [البقرة: 231] – ﴿رَحْمَةِ﴾ [آل عمران: 107]، و﴿رَحْمَتَ﴾ [البقرة: 218] – و﴿فِطْرَتَ﴾ [الروم: 30] وغيرِها، هي أسماء من جِهَة، وقد يُلازِمها الفِعل من جِهَة أُخْرى، ومن ثَمّ "صارت تُعْتَبر اعتبارين، أحَدُهما: من حيْث هي أسماءٌ وصِفات، فهذا تُقبَض فيه التّاءُ. والثّاني: من حيْث يَكون مُقتضاها فِعْلًا وأثَرًا ظاهرًا في الوجود، فهذا تُمَدُّ فيه التّاء"[2]، وعليه، فقد بُسِطتِ التّاء هُنا في ﴿بَقِيَّتُ﴾ لأنّه بمَعنى ما يَبقى في أموالهم من الرِّبح المَحْسوس[3] لكنْ يَبْقى مثْلُ هذا التّعليل مَحْضَ اجْتهادٍ من قائِله.

بَلاغَةُ الاسْتِعارَةِ في ﴿بَقِيَّتُ﴾:

المُرادُ بِلَفْظِ (بَقيَّت) غَيْرُ وجْهِ الحَقيقَةِ

قوله سبحانه: ﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ "استعارةٌ؛ لأنّ حقيقة البقيَّةِ تَرِكَةُ شَيءٍ من شَيْء قد مَضى، ولا

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/139، 140.
(2) المرّاكشيّ، عنوان الدّليل، ص: 109.
(3) المرّاكشيّ، عنوان الدّليل، ص: 112.

يجوز إطلاقُه على الله سبحانه. فإذًا يَجب أنْ يَكون المرادُ غيْرَ هذه الحقيقة. وقد قيل في مَعنى ذلك وُجوهٌ: أحَدُها بقيّة اللّهِ من نِعمته خيْر لكم. وقد قيل: بَقيّةُ اللّهِ طاعةُ اللّهِ، وذلك لأنّها تُبْقي رِضاهُ وثوابَه أبدًا ما بَقيَتْ، وقيل: بقيّةُ اللّهِ أيْ عَفْو اللّهِ عنكُم ورحمته بِكُم بَعد استحْقاقِكم العذاب، كما يَقول العَرَب المُتحاربون بَعضُهم لبَعضٍ، إذا اسْتحرَّ فيهم القتْلُ، وأعْضَلَهم الخَطْبُ: البَقيّة! البَقيّة! أيْ نَسألكم البَقيّة علينا والمُكافأةَ لنا"[1].

دلالَةُ الإضافَةِ ﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ﴾:

إضافَةُ تَشْريفٍ وتَيَمُّنٍ

دلَّت إضافة ﴿بَقِيَّتُ﴾ إلى لَفْظ الجلالة ﴿ٱللَّهِ﴾ على تَشْريف شأْنها والتَّيَمُّنِ بها، لِكَون ما أبقاه اللّه لهم هو الحَلال الجَديرَ بهذه الإضافة، وهي إضافَةٌ على مَعنى اللّام؛ لأنّ البَقيَّة من فَضْلِه أو ممّا أمَرَ به[2].

دلالَةُ التَّعْبيرِ بِقوله: ﴿خَيْرٌ﴾:

الحَلالُ خَيْرٌ كُلُّهُ

دلَّت كلمة ﴿خَيْرٌ﴾ هُنا على مَعْنى التّفضيل، أيْ ما أبْقاهُ اللّه لكم من الحَلال، هو أفْضَل لكم ممّا كنتم تغْرقونَ فيه من الحَرام، ممّا تكون الزّيادة فيه بالنَّقْص والظُّلْم[3] فالخيْر بِمَعْنى أصْل الفعْل أو من قَبيل قَوْلهم: الصَّيْف أحَرّ من الشّتاء[4].

دلالَةُ تَأْخيرِ الجارِّ والمَجْرورِ ﴿لَّكُمْ﴾:

الخَيْريَّةُ لَيْسَتْ مقتصرَةً عَلَى قومه

أخَّر الجارّ والمجرورَ فقال: ﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ ولَم يَقُل: (بقيّت اللّه لكم خيْر)؛ لأنّ الاهتمام هو بِبَيان أنّ ما يُبقيه اللّه هو الخيْر سَواء لَهُم أو لِغيْرِهم، ولو قال: (بقيّت اللّه لكم خير) لرُبّما فُهِمَ أنّه خيْرٌ لهُم دون غيْرِهم، وهو خِلاف المقصودِ.

(1) الشّريف الرّضيّ، تلخيص البيان في مجازات القرآن: 2/164.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/140، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 10/171.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/355.
(4) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 10/171.

دلالَةُ التَّعْبيرِ بـ ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾:

قَليلٌ مِنْ حَلالٍ خَيْرٌ مِنْ جَبَلِ ذَهَبٍ حَرامٍ

ممّا أثارَ تَساؤلًا، وجودُ شَرْط الإيمان في تَحقُّق خيْريَّة ما أبقاهُ اللّهُ، مع كَوْنه خيْرًا مُطلَقًا؛ لأنّ المَقصودَ به الحَلالُ، والحَلال خيْرٌ لِلمؤمن ولِلكافر أيضًا. وتَوْجيه ذلك فيما يأْتي:

الأوّل: أنْ تَكون جملة الشَّرْط ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ دالّةً على أنّ قيْدَ الإيمان به سبحانه لازِمٌ في تَحْقيق الخيريَّة، من حيْث إنّهم إنْ كانوا مؤمنين مُقِرّين بالثّواب والعِقاب، عَرفوا أنّ السَّعْيَ في تَحْصيل الثّواب، وفي الحَذَر من العِقاب خيْرٌ لهم من السَّعْي في تَحْصيل المال الحرام[1].

الثّاني: أوْ أنّ المراد بالخيريَّة في الشَّرْط أنّ خَيريَّتَها وفائدتها مع الإيمان أظْهَرُ، وهو حُصول الثّواب مع النّجاةِ من العِقاب، لكنّها مع فَقْدِ الإيمانِ أخْفى؛ لانْغِماسِ صاحِبِها في عذاب الكُفْر الّذي هو أشدُّ العذاب.

الثّالث: أو أنْ يَكون المراد بالإيمان مَعْناه اللُّغَويَّ وهو التَّصديق. والمَعْنى: (إنْ كنتم مُصدِّقين) لي فيما أقول لكُم وأنْصحُ[2] فيكون مثْلَ الإيمانِ في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ ١٧﴾ [يوسف: 17].

دلالَةُ حَذْفِ جَوابِ الشَّرْطِ:

حَذْفُ جَوابِ الشَّرْطِ لِتَقَدُّمِ ما يَدُلُّ عَلَيْهِ

حذفَ جَواب الشَّرْط، لِتَقدُّم ما يَدلّ عليه[3]، وهو قوله: ﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾، أي: إنْ كنتم مؤمنين فَبَقيَّة اللّهِ خيْرٌ لكم. أو أنّه حَذَفَه لِتَذْهَب النَّفْسُ في تقديرِهِ كلَّ مَذْهَب.

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 18/386.
(2) الرّازيّ، أنموذج جليل، ص: 205.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/196.

سِرُّ التَّعْبيرِ بِالإيمانِ في: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾:

الإيمانُ قَيْدٌ في التَّمَتُّعِ بِخَيْرِيَّةِ الحَلالِ لِكَوْنِهِ مُفيدًا في الحالِ والمآلِ

عبَّر بالإيمان دون التّصديق في قوله تعالى: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ لِلنَّصِّ على أنّ الإيمان شَرْط في حُصول خيريَّة ما يُبْقيه اللّهُ.

وأيضًا كَي لا يُفهَم من لفْظ التّصديق معناهُ المُقابِلُ لِلتّكذيب، فيَظنّوا أنّ المَقْصود "إنْ كنتم مُصدِّقين لي في مَقالَتي لكُم"[1] وهو أحدُ المعاني المَذكورة في تَوْجيه المَعنى.

وجْهُ التَّعْبيرِ بِاسْمِ الفاعِلِ ﴿مُّؤْمِنِينَ﴾:

التَّعْبيرُ بِاسْمِ الفاعِلِ مُعَبِّرٌ عَنْ تَحْقيقِ الوصْفِ بِالإيمانِ

أوثِرَ التّعبير بِاسْم الفاعل ﴿مُّؤْمِنِينَ﴾ دون التّعبير بالفِعل كأنْ يُقال: (إن آمنتم) لِكَون المقصود تَحقيقَ الوصْفِ بالإيمان بصِفَة ثابتة راسخةٍ، حتّى يَستحِقّ المُتَحقّق به اسْمَ (مؤمن)، ومن فوائد التّعبير به هُنا الاهتمامُ والحِرْص على إيمانهم في زَمَن الخِطاب؛ "اسْتِعجالًا بإيمانهم لِئَلّا يَفْجَأهُم العذاب فيَفوتُ التَّدارُكُ"[2].

بَلاغَةُ الخَتْمِ: ﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾:

فاصِلَةُ الآيَةِ اسْتِقْصاءٌ في التَّرْغيبِ وحُسْنِ الجِدالِ

خَتَمَ الآية بهذه الجملة الّتي قصدَ منها "اسْتِنْزال طائرِهم لِئَلّا يَشْمَئِزّوا من الأمْرِ. وهذا استِقْصاءٌ في التّرْغيبِ وحُسْنِ الجدال"[3].

دلالَةُ النَّفْيِ في: ﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾:

الإغْراقُ في النَّفْيِ والمُبالَغَةُ فيهِ

دلّ قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾ على الإغْراقِ في النّفْي والمبالَغة فيه؛ إذ المَعنى: لسْتُ عليكم ﴿بِحَفِيظٍ﴾ أعلَمُ جميع أعمالِكم وأحوالِكُم، وأقْدِر على كَفِّكُم عمّا يَكون منها فسادًا[4] وفيه تَحذيرٌ لهُم من مخالَفتِه بَعد أنْ أدّى ما عليه من بلاغ، على مَعنى: وما أنا عليكم بحفيظ أحْفَظُ لكم أعمالَكم وأُحاسبكم عليها، وأُجازيكم

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/232.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/141.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/141.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/355.

بها الجزاءَ الّذي تَسْتحقّونه، وإنّما أنا ناصح ومُبَلِّغٌ ما أمَرَنى رَبّي بِتَبْليغه، وهو وحْده سبحانه الّذي سَيَتَولّى مُجازاتكُم[1].

دلالَةُ تَقديم الجارِّ والمَجْرورِ ﴿عَلَيْكُم﴾:

قَدَّم جُملةَ النَّفْي الجارّ والمَجرورِ ﴿عَلَيْكُم﴾ لِدَفعِ ما قد يَتَوهَّمونه من قَصْدِه لِلاسْتِعلاء عليهم، فقال نافيًا له: ﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم﴾[2] وأيضًا فإنّ في تَقديمهِ دلالةٌ على الاهْتِمام[3].

دلالَةُ الباءِ في: ﴿بِحَفِيظٍ﴾:

الباء زائدَةٌ لِلتّأكيد، كالّتي في قوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ [الزمر: 36]. وتُفيد المبالَغة في نَفْي كَونه ﷺ حفيظًا عليهم.

نُكْتَةُ اخْتيارِ التَّعْبيرِ بـ: ﴿بِحَفِيظٍ﴾:

اخْتارَ التّعبير بـ ﴿حَفِيظٍ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾ دون غيْرِه كَكَلِمة (مُراقِب)؛ لِكَونه هو التّعبير الأنْسَبَ هُنا، فهُم لِكَثرة أعمالهم السّيّئة، لا يَكفي في إحصائها علَيهم مُراقِب، بلْ حفيظٌ يَظلُّ طوالَ الوقت يُراقِبها ويَحْرُسها ويُحْصيها عليهم، وهذه قُدْرَة تَفوقُ طاقةَ البَشَر.

على أنّ في مَعنى كلمة ﴿بِحَفِيظٍ﴾ مُرجِّحًا آخَر لاخْتيارِها، وهو ما فيها من سَعَة المَعنى بما يَمنع غيْرَها أنْ تَقومَ مَقامَها، إذ هي تَحْتمل أيضًا مَعنى المنع من القبائح، أي: لا أستطيع أنْ أحفظَكم وأمْنَعَكم عن القبائح[4] فصارَت الكلمة بذلك جامعةً بيْن مَعنى الإحصاءِ والمَنْع.

عِلَّةُ اخْتيارِ صيغَةِ ﴿بِحَفِيظٍ﴾:

وجْهُ اختيار التّعبير بصيغة ﴿بِحَفِيظٍ﴾ دون التّعبير بصيغة (حافظ) إلى كَوْن ﴿بِحَفِيظٍ﴾ أبْلَغَ، فهو على وزْنِ (فَعيل) وفعيل من

التَّقديمُ لِلاهْتِمام ولِدَفْعِ تَوهُّم قَصْدِ الاسْتِعْلاءِ عَلَيْهِمْ

بالَغَ في نَفْي كَوْنِهِ ﷺ حَفيظًا عَلَيْهِمْ

كَلِمَةُ (حفيظ) جامِعَةٌ بَيْنَ مَعْنى الإحْصاءِ والمَنْعِ

صيغَةُ (حفيظ) أبْلَغُ منْ صيغَةِ (حافظ)

(1) طنطاوي، التّفسير الوسيط: 7/259.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/355.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/421.
(4) الجمل، حاشية على تفسير الجلالين: 3/465.

صيَغِ المُبالَغة، فهو وإنْ كان بمَعنى (حافظ) إلّا أنّه دالٌّ على المُبالَغة في الحِفْظ. وكأنّه ﷻ بهذا التّعبير يَرُدّهم إلى اللّه تعالى؛ لأنّه وحْدَه الحفيظ الّذي يَسْتطيع مُراقبةَ أعمالِهم وحَصْرَها وإحصاءَها، ويُبَرِّئ نَفْسَه من عمَلٍ لا يُمكِن لِبَشر كائنًا مَن كان أنْ يَقومَ به.

﴿قَالُواْ يَٰشُعَيۡبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأۡمُرُكَ أَن نَّتۡرُكَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوۡ أَن نَّفۡعَلَ فِيٓ أَمۡوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلۡحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ٨٧﴾ [هود: 87]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

من السُّنَنِ صَبْرُ الأنبياءِ عَلى الأذى والجَهْلِ

لمّا أيْقَن قوْم شُعيب عليه السلام من صَلابَتِه في الدّعْوة إلى التّوْحيد ونَبْذِ الشّرك، والدّعْوة إلى تَرْك الظّلْم والبَخْس والتّطْفيف والإفساد، ثمّ الأمْر بِضِدِّ ما يَفعلون، عَمَدوا معه إلى الإغْلاظِ في القوْل، والاسْتهزاء بما يَقول ويَفْعلُ، والسُّخْريَة من صَلاتِه ومن دينه، ومن محاولته تَقْييد حُرّيَّتِهم في المعاملات الماليّة وضَبْطَها بالحلال وعَدَم أكْلِ حُقوق النّاس، واعْتَمدوا في الاحْتجاج عليه بأصْلَين:

الأوَّل: كَوْنهم في عبادتهم قائمين على ما عَهِدوا عليه آباءَهم، وهذه قاعدةٌ صُلْبة عندَ العشائر والقبائلِ.

والثّاني: أنّ هذه الأموال هُمْ يَمْلِكونها، ولأنَّهم يَمْلكونها، فطبيعيٌّ أنْ يَمْلكوا حُرّيَّة التَّصرُّف فيها، وليس لِشُعيب ولا غيْرِه أنْ يُقيّد حَرَكة تعامُلِهم فيها بقَيْد، مَهْما كان هذا القيْد شَريفًا في مَظْهرِه وجَوْهرِه. وفي هذا جاء قولهم مَحْكيًّا مُصَدَّرًا بِفِعل القَول: ﴿قَالُواْ يَٰشُعَيۡبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأۡمُرُكَ﴾.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَصَلَوٰتُكَ﴾: أصْلُ الصَّلاة: الثَّناءُ والدُّعاءُ بالخَيْر، يُقال: صَلَّيتُ عليه، أيْ: أثْنَيتُ أو دَعَوتُ لَهُ[1]. وتَوسَّع بعضُهم - وهو بَعيد - فقال: مَأْخوذَةٌ من الصَّلا، وهو: العَظْمُ الَّذي علَيه الألْيَتانِ؛ لأنَّ المُصَلّي يُحرِّكُ صَلويْهِ في الرُّكوعِ والسُّجود[2]. وقالَ الزَّجّاج: الأصْلُ

(1) الجوهريّ، الصّحاح، والرّاغب، المفردات: (صلا).
(2) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (صلا).

في الصَّلاةِ اللُّزومُ[1]. والصَّلاةُ الَّتي هي العِبادَة المَخْصوصَة، أصْلُها: الدُّعاءُ، وسُمِّيَتْ هذه العِبادَة بها كَتَسْمِيَة الشَّيْء بِاسْم بَعضِ ما يَتَضَمَّنه. والصَّلاةُ منَ العِبادات الَّتي لَمْ تَنْفكّ شريعَةٌ منْها، وإنِ اخْتَلفَتْ صورُها بَحَسبِ شَرْعٍ فَشَرْع؛ ولذلك قالَ: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا ﴿١٠٣﴾﴾ [النِّساء: 103]. وأمّا الصَّلاةُ المَقصُودَةُ في الآيةِ: فهيَ التَّوجُّهُ إلى اللّهِ بالخُضوعِ والتَّسْبيحِ والدُّعاءِ في أوْقاتٍ مُعَيَّنةٍ في الشَّريعَةِ الَّتي يَدينُ بها شُعَيْبٌ عليه السلام، أي المُرادُ حَقيقَتُها الشّرْعيَّة، لا اللُّغَويَّةُ.

2) ﴿تَأْمُرُكَ﴾: أصْلُ: (الأمْر): ضِدُّ النَّهْي. ومنه قولُكَ: افْعَلْ كَذا. يُقالُ: لي عَلَيْكَ أمْرَةٌ مُطاعَةٌ، أيْ: لي عَلَيْكَ أنْ آمُرَكَ مَرَّةً واحِدَةً فَتُطيعني. قالَ الكِسائيُّ: إنَّهُ لأمورٌ بالمَعْروفِ ونَهي عَنِ المُنكَرِ، منْ قَوْمٍ أُمُرٍ. ومنْ هذا البابِ الإمرَةُ والإمارَةُ، وصاحِبُها أميرٌ ومُؤَمَّرٌ[2]. والمَقْصودُ بِالأمْر في الآيَةِ: أمْرٌ يُقال باعْتِبارِ طَلَبِ الفِعْل.

3) ﴿تَتْرُكَ﴾: أصْلُ التَّرْكِ: الكَفُّ والإعْراضُ، يُقالُ: تَرَكْتُ الشَّيْءَ: إذا كَفَفْتَ وأعرَضْتَ عنْه، ويَأْتي بمَعْنى التَّخَلّي عَنِ الشّيْءِ[3]. ويُطلَقُ على الإسْقاطِ، يُقالُ: تَرَكَ حَقَّهُ، أيْ: أسْقَطَهُ، وهو أيضًا: الجَعْلُ، يُقالُ: تَرَكَهُ يَفْعَلُ كَذا، أيْ: جَعَلَهُ يَفْعَلُهُ[4]. ومنْ مَعانيهِ: المُفارَقةُ، والهَجْرُ، والإهْمالُ، والرَّفْضُ. والمَقْصودُ بِالتَّرْكِ في الآيَةِ: التَّخْليَةُ عَنِ الشَّيْءِ.

4) ﴿ٱلْحَلِيمُ﴾: أصْلُ الحِلْم - بِكَسْرِ الحاء -: التَّأنّي والصَّبْرُ، يُقال: حَلُمَ، يَحْلُمُ، حِلْمًا، فهو حَليمٌ، أيْ: تَأنّى وصَبَرَ ولَمْ يَتَعَجَّلْ. ويَأْتي الحِلْمُ بِمَعنى السُّكونِ وضَبْطِ النَّفْسِ[5]، فيُقال: تَحَلَّمَ فُلانٌ، أيْ: تَكَلَّفَ ضَبْطَ النَّفْسِ. والحَليمُ: الَّذي لا يَسْتَخِفُّهُ عِصْيانُ العُصاةِ ولا يَستفِزُّه الغَضَبُ عَلَيْهم، ولكنَّهُ جَعَلَ لكلِّ شَيْءٍ مقْدارًا[6]. والحَليمُ أيضًا: في صِفَةِ اللّهِ تعالى مَعْناهُ الصَّبورُ[7]. ومن مَعانيهِ أيضًا: العَقْلُ، والعِلْمُ[8]. وضِدُّهُ: العَجَلَةُ، والجَهْلُ،

(1) الزّجّاج، معاني القرآن: 1/232.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (أمر).
(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (ترك).
(4) ابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس: (ترك).
(5) الرّاغب، المفردات: (حلم).
(6) ابن منظور، لسان العرب: (حلم).
(7) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة: (حلم).
(8) ابن سيده، المخصّص: 1/251، والزّبيدي، تاج العروس: (حلم).

والسَّفَهُ. وجَمْعُ حِلْمٍ: أحْلامٌ وحُلومٌ[1]. والمُرادُ بالحِلْمِ في الآيَةِ: ضَبْطُ النَّفْسِ والطَّبْعِ عَنْ هَيَجانِ الغَضَبِ.

5) ﴿ٱلرَّشِيدُ﴾: أصْلُ (رشد): يَدُلُّ عَلى اسْتِقامَةِ الطَّريقِ[2]. والرُّشْدُ: الصَّلاحُ[3]، يُقال: رَشَدَ فُلانٌ، يَرْشُدُ، فهو راشِدٌ، أيْ: صَلُحَ. ويَأْتي بِمَعنى إصابَةِ الحَقِّ، يُقال: رَشَدَ فُلانٌ في قوله، أيْ: أصابَ الحَقَّ[4]. والرُّشْدُ: الهُدى والاسْتِقامَةُ، وأرْشَدَهُ اللّٰهُ إلى الطَّريقِ ورَشَّدَهُ، أيْ: هَداهُ[5]. وكُلُّ ما يُحْمَدُ ويُمْدَحُ مِنَ الأفْعالِ فهو رُشْدٌ، وهو خِلافُ الضَّلالِ والسَّفَهِ وقِلَّةِ العَقْلِ. والرَّشيدُ: هو الَّذي حَسُنَ تَقْديرُهُ فيما قَدَّرَ، أوِ الَّذي تَنْساقُ تَدْبيراتُه إلى غاياتِها على سَبيلِ السَّدادِ مِنْ غَيْرِ إشارَةِ مُشيرٍ ولا تَسْديدِ مُسَدِّدٍ[6]. والمَقْصودُ بالرَّشيدِ في الآيَةِ: الحَسَنُ التَّدْبيرِ في المالِ[7].

المَعْنى الإجْماليُّ:

قال قومُ شُعَيبٍ مُستهزئينَ بنبيِّهم مُغلظينَ له في القوْلِ، على تلك الدَّعْوة الكَريمةِ الَّتي يَدعوهم إليها نبيٌّ كَريم، بلِسانِ عفٍّ، وبأُسْلوبٍ يَفيضُ رِقَّة وحنانًا ومَودَّةً. قالوا: يا شُعَيْبُ، لا مُوجِب لِنَهْيك لنا، إلّا أنَّك تُصلّي للّٰه، وتتَعبَّد له، أفإنْ كنتَ كذلك، أفَيوجِب لنا أنْ نَتركَ ما يَعبدُ آباؤنا، لِقَولٍ ليس عليه دليلٌ إلّا أنّهُ مُوافق لك، فكيف نَتَّبعك، ونَترُك عبادة آبائنا الأقدمينَ أولي العُقول والألْباب؟! أوتأمُرُك صلاتُك أنْ نترُكَ فِعلَ ما نُريدُ في أموالِنا من التَّطْفيفِ في الكَيلِ والميزانِ؟، إنَّك - يا شُعَيبُ - لَأنْتَ الحليمُ الرَّشيدُ في أمْرِك لنا

التَّمَسُّكُ بِالتَّقاليدِ والطَّمَعُ المادِّيُّ مِنْ طَبائِعِ أهْلِ الكُفْرِ والجَهْلِ

(1) ابن عبّاد، المحيط في اللّغة، والفِيروزابادي، القاموس المحيط، والزّبيدي، تاج العروس: (حلم).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (رشد).
(3) العسكريّ، معجم الفروق اللّغويّة، ص: 256.
(4) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 8/476.
(5) الهرويّ، الغريبين في القرآن والحديث: 3/744، والسّمين الحلبي، عمدة الحفّاظ: (رشد).
(6) الزّبيديّ، تاج العروس: (رشد).
(7) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/142.

بتَركِ عبادةِ الأصنام، وتَركِ بَخسِ النّاسِ، يَعْنونَ بذلك وصْفَه ﷺ بالسَّفَهِ والجَهلِ[1]!

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالَةُ الاستئناف البياني:

الاستئناف البياني في مفتتح الآية فَصْلٌ يُعبّر عنه بِشِبْهِ كَمالِ الاتِّصالِ ناشئٌ عن سؤالٍ مُقدَّرٍ، فكأنَّه قيلَ: ما قالوا بَعْد أنْ أمَرَهُم شُعيْب بِما أمَر ونَهاهُم عمّا نَهى؟ فقيل: ﴿قَالُواْ يَٰشُعَيۡبُ﴾[2].

دلالَةُ نِدائِهِمْ لَهُ بـ ﴿يَٰشُعَيۡبُ﴾:

طَريقَةُ نِدائِهِمْ لِنَبيِّهِمْ دَليلُ جَفْوتِهِمْ لَهُ

في نِدائِهِم له ﷺ بقَولهم: ﴿يَٰشُعَيۡبُ﴾ دونَ مُناداتِه بوصْف النُّبوَّة أو الرِّسالة دلالةٌ على جَفْوتهم وغِلْظَتهم معه[3].

دلالَةُ الاسْتِفْهام في: ﴿أَصَلَوٰتُكَ﴾:

اسْتَفْهَموا ساخِرينَ

الاسْتفهامُ هُنا مُخرَّج على السُّخريَة والاسْتهزاءِ[4] بِحَسب ما أمْلى عليهم الشّيطان.

سِرُّ اخْتيارِهِمْ لِلصَّلاةِ:

كانَ ﷺ كَثيرَ الصَّلاةِ ولِذا بالَغوا في السُّخْريَةِ منْهُ منْ خِلالِها

في اختيارهم الصَّلاةَ دون غيْرِها في قولهم: ﴿أَصَلَوٰتُكَ﴾، دلالةٌ على أنّه ﷺ كان كثيرَ الصَّلاة[5] وعلى أنّه كان يأْمرُهم بها كتَرْجمةٍ لِلدَّعْوة إلى التّوْحيد، ومن ثَمّ سخِروا منه لأجْلِ هذا. ومثالُه: أنْ يُرى مَعْتوه "يُطالِع كُتبًا ثُمّ يَذْكر كلامًا فاسدًا، فيُقال له: هذا من مُطالَعة تلك الكُتُب على سبيل الهُزءِ والسُّخريَة"[6].

---

(1) ابن جرير، جامع البيان: 12/544، 548، والواحديّ، التّفسير الوسيط: 2/586، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/344، والسّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 387.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/356.

(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/356.

(4) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/419، وأبو حيّان، البحر المحيط: 6/197.

(5) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/419، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 18/387.

(6) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 18/387.

بَلاغَةُ المَجازِ العَقْليِّ في: ﴿أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ﴾:

الإيغالُ في التَّهَكُّم

في إسْنادِهم الأمْرَ إلى الصّلاة مَجاز عَقليٌّ، علاقتُه السّببيَّة والمُسبّبيَّة، كما أُسْنِدَ إليها النّهْي أيضًا في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ [العنكبوت: 45] فصارت الصّلاةُ - بوصْفها رَمزًا للإيمان والتّقوى - هي الآمرَة النّاهيَة، والآمرُ الحَقيقيُّ هو اللّهُ تعالى[1]. وغرضهم من إسْناد الأمْرِ إلى الصّلاة الإيغالُ في التّهكُّم به[2] عليه السلام والتّهكُّم في أمثال هذا إنّما جاء من تسميَة الضِّدِّ بالضِّدِّ فيقال للجبان: ما أشجَعَه، ولِلقَبيحِ: ما أحسَنَه[3].

دلالَةُ تَعَدُّدِ القِراءاتِ في: ﴿أَصَلَوٰتُكَ﴾:

القِراءَةُ بِالإفْرادِ مُرادٌ بِها الجَمْعُ؛ إذْ هيَ في مَعْناهُ

قَرَأ حمزة والكسائي وحَفْص: ﴿أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ﴾ بالإفْراد، وقَرَأ الباقون بالجَمْع: ﴿أَصَلَوَٰتُكَ﴾[4]. والقراءة بالإفْراد مرادٌ بها الجَمْع فهي في مَعناه؛ لكَوْنه مَصْدرًا، والمَصْدر يَقع على الجَمْع والمُفْرد[5] على حدٍّ سَواء.

دلالَةُ كافِ الخِطابِ في: ﴿تَأْمُرُكَ﴾:

إصْرارُهُمْ عَلى التَّهَكُّم بِشُعَيْبٍ عليه السلام

في تَوْجيه الكلام إليه بِكاف الخِطاب في قوله: ﴿تَأْمُرُكَ﴾ إصْرارٌ منهم على التّهكُّم به عليه السلام والإغْلاظِ له بالقَول، ومواجَهَته بذلك دون أدْنى محاولَةٍ منهم لِلتَّلطُّف معه في التّعبير.

دلالَةُ التَّعْبيرِ بِالفِعْلِ المُضارِعِ ﴿تَأْمُرُكَ﴾:

كرّرَ الأمْر عَلَيْهِمْ مرارًا

دلّ التّعبير بالمُضارِع على تَكرار أمْرِه لهم بِتَرك عبادة الأصنام، وتَرْك أكل أموال النّاس بالباطل[6]، وذلِكُم دَيْدَن النَّبيّينَ: تَكْرار المحاولَةِ، وعدَمُ المَلالِ.

---

(1) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 2/119.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/419.
(3) ابن التّمجيد، حاشية على تفسير البيضاويّ: 4/39.
(4) السّمين الحلبي، الدّرّ المصون: 6/117.
(5) الفارسيّ، الحجّة للقرّاء السّبعة: 4/214.
(6) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 2/119.

سِرُّ التَّعْبيرِ بِالمَصْدَرِ المؤَوَّلِ ﴿أَن نَّتْرُكَ﴾:

الدّاعي إلى الله لا يَمَلُّ ولا يَيْأسُ

في التَّعبير بالمَصْدر المؤوَّل ﴿أَن نَّتْرُكَ﴾ دون المَصْدر الصّريح، دلالةٌ على إبراز ما كان يَقومُ به ﷺ من مُحاولاتٍ مُتَكرِّرة لإثْنائِهم عن الشِّرْك وعن الظُّلْم.

أوْمَـــؤُوا إلى حَمْلِ الأمْرِ عَلى غَـيْرِ الـوجـوبِ، ورَكَّـــزوا عَـلى فِعْلِ التَّركِ دونَ كَيْفيّاتِهِ

والتّعبير بالمَصْدر المُؤوَّل إيماءٌ منهم إلى نَفْي الوجوب في أمْرِ شُعيبٍ إيّاهم بتَرك عبادة ما يَعْبدون؛ لأنّ "(أنْ) والفِعل قد تُفيد الإباحة، ولا تُفيد القَطْع بحُصول الفِعل، بخِلاف المَصْدر الصّريح، فإنّه قد يُفيد القَطْع بحُصوله"[1]. فضلًا عمّا في المَصْدر المُؤوَّل - ولا سيَّما مع (أنْ) - من دلالة على مُجرَّد مَعنى الحَدَث دون احْتمال زائدٍ عليه، ففيها [يَعني (أنْ)] تَحْصينٌ من الإشْكال، وتَخْليصٌ له من شوائبِ الإجْمال بتَحْديد هَيْئات التَّرك وكَيْفيّاته؛ فالسّؤال مُخَصّص عن التَّرك فَحَسب[2].

سِرُّ اخْتيارِ التَّعْبيرِ بِالتَّرْكِ:

التَّعْبيرُ بِالتَّرْكِ أدَلُّ عَلى المَطْلوبِ منَ التَّخَلّي عَنِ الشِّرْكِ

عبَّر بالتَّرك دون غيْرِه في قوله تعالى: ﴿أَن نَّتْرُكَ﴾؛ لكَونه أدلَّ على المَطلوب؛ إذ المَطلوبُ التّخَلّي مُطلَقًا عن عبادة غيْر الله، وأيضًا عن ظُلْم النّاس وهَضْمهم حُقوقَهُم، وهو ما قام بِتَأديَته كاملًا الفِعل ﴿نَّتْرُكَ﴾، فالتَّرْكُ التَّخْليَةُ عَنِ الشَّيْءِ[3]، وحقيقتُه مُفارَقة أحَدٍ شَيْئًا كان مُقارِنًا له[4] ويُطلَق مَجازًا على إهمال أحَدٍ شيْئًا وعدَم عنايته بأحوالِه وبِتَعَهُّدِهِ[5] وهكذا فإنّ لفْظ التَّرك في معْنَيَيه الحَقيقيِّ والمَجازيّ يُطلَق على مُطلَق التَّخلّي، ومُطلَق الاعْتناء والتَّعَهُّدِ، ومن ثَمّ فلا أنْسَبَ منه تعبيرًا عن المقصود هُنا.

(1) السّامرّائيّ، معاني النّحو: 3/149.
(2) السّامرّائيّ، معاني النّحو: 3/149.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ترك).
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/311.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/364.

وجْهُ إيثارِ ﴿مَا﴾:

قَصَدوا عُمومَ المَعبوداتِ

آثَرَ التّعبير بـ ﴿مَا﴾ في قوله تعالى: ﴿مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ﴾ دون (الّذي)؛ لأنّ التّعبير بها عادةً أجْمَعُ وأخْصَرُ، فحيْث لَم يُقصَد هُنا معبودٌ بعَيْنه لَم يُعبَّر بـ (الّذي) وإنّما عبّر بـ ﴿مَا﴾ فكانت "صادقةً على المعبودات، ومَعنى تَرْكها: تَرْك عبادتها كما يُؤْذِن به فِعل يَعْبُد"[1].

سِرُّ تَعْبيرِهِمْ عَنْ شِرْكِهِمْ بِالعِبادَةِ:

التَّلازُمُ بَيْنَ التَّوْحيدِ والعِبادَةِ قَويٌّ وشَديدٌ

أوثِر في التّعبير عن شِرْكهم أنْ يقولوا: ﴿مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ﴾؛ لأنّه كالرَّدّ على قوله لَهُم: ﴿يَقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ مُعبّرًا عن التّوْحيد بالعبادة؛ لأنَّ العبادة تَسْتلْزم التّوْحيد[2] فإنّه إذا كان عليه السلام قد رأى الإيمان مُمَثَّلًا في التّوْحيد؛ فإنّهم قد رَأَوْها في الشّرْك.

دلالَةُ التَّعْبيرِ بِالفِعْلِ المُضارِعِ ﴿يَعْبُدُ﴾:

اسْتِحضارُ ما هو قُدْوة في مَقام الاحْتِجاجِ أبْلَغُ

عبَّر بالفعل المُضارع ﴿يَعْبُدُ﴾ دون الماضي (عبد) استحضارًا لِصورَة الفعل الماضية في مَقام الاحْتجاجِ، وكأنّ تلك العبادة كانت تُمارَسُ ساعةَ قالوا هذا الكلام، واستحضار ما هو قُدْوة لهُم في مَقام الاحتجاج أبْلَغُ[3]، وللدّلالة على أنّ آباءهم كانوا حَريصينَ على عبادتها "على سبيل المواظَبَة"[4].

دلالَةُ اخْتيارِ لَفْظِ ﴿ءَابَآؤُنَآ﴾:

الاحْتِكامُ إلى عاداتِ الآباءِ شَأْنٌ مَعْروفٌ في النّاسِ

دَأبَ المشركون على الاحْتكام إلى ما كان يَفْعلُه آباؤهم كأنّه القاعدة الّتي يجب أنْ يُدافِعوا عنها وأنْ يَنْطلِقوا منها في كلِّ شَيْء بما في ذلك الإيمان والعبادة، قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الزخرف: 23] وحتّى في فِعْل الفاحِشة يَعْتَذرونَ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/142.
(2) الشّهاب الخفاجيّ، حاشية على تفسير البيضاويّ: 5/123.
(3) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 2/119.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/356.

بنَفْسِ الاعْتِذار، كما حَكى القرآن عنهم ذلك في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا﴾ [الأعراف: 28]

دلالَةُ الإضافَةِ في: ﴿ءَابَآؤُنَآ﴾:

المَقْصودُ آباؤهُمْ نَسَبًا

الإضافة هُنا لِلعَهْد، والمقصود آباؤهم المُباشِرونَ الّذين يُنسَبون إليهم، وفيه تَبْريرٌ لاقْتِدائهم بهم، فإنهم آباؤهم الّذين لن يُورِّثوهم إلّا ما يُفيدهم، هكَذا يَظُنّون.

سِرُّ التَّعْبيرِ بـ ﴿أَوْ﴾:

التَّعْبيرُ بـ (أو) دالٌّ عَلى التَّنَوُّعِ

عبّرَ بـ ﴿أَوْ﴾ دون الواو في قوله تعالى: ﴿أَوْ أَن نَّفْعَلَ﴾ للدّلالة على التّنوُّع على مَعنى: أوْ تأمرك صلاتُك مَرّةً بأنْ نترُك هذا، ومرّةً بأنْ نترُك هذا[1] وعلَّلهُ الشّهاب بقوله: واخْتيرَت ﴿أَوْ﴾ على (الواو) لِتَقابُلِ الفِعْلِ[2] أيْ: لِلتّقابُل بيْن ﴿نَّتْرُكَ﴾، و﴿نَّفْعَلَ﴾.

ومن دَواعي التّنويع بـ ﴿أَوْ﴾ كذلك، الإشارة إلى أنّ "منهم مَن لا يَتَّجِرُ فلا يُطَفِّف في الكَيل والميزان، فهو قِسْم آخَر مُتميِّزٌ عن بقيَّة الأُمّة بأنّه مأمور بتَرْك التَّطْفيف... وبهذا تَعْلَم أنْ لا داعيَ إلى جَعْل أو بمَعنى واو الجَمْع، كما دَرَجَ عليه كثير من المُفسِّرين"[3].

وجْهُ اخْتيارِ ﴿نَّفْعَلَ﴾، بصيغة المضارع:

الغالِبُ في القُرْآنِ التَّعْبيرُ عَنْ قَبيحِ الأعْمالِ بِالفِعْلِ

يُلحَظ أنّ القرآن الكريم يُعبِّر عن ممارَسة دَنيءِ الأخلاق بلَفْظ الفعل، كما هو هُنا ﴿أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِيٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْۖ﴾ وكما في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً﴾ [الأعراف: 28] والسَّبب أنّ الفِعل يُطلق على ما يَمُرّ سريعًا ويَنْقضي ولا يَكون له أثَرٌ، أمّا العمل فيُقال لِما يَكون له أثَر[4] والعَمَل: الفِعلُ باليَدِ من زراعةٍ وتَلْقيح وسَقْي[5]؛ لأنّ ما يَعْمَلُه

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/197.
(2) الخفاجيّ، حاشية على تفسير البيضاويّ: 5/125.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/142.
(4) أبو حيّان التّوحيديّ، المقايسات، ص: 280، والرّاغب، المفردات: (عمل).
(5) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (عمل).

الإنسان بِكَدِّ يَدِه يعودُ عليه بالنفع ويَبْقى أثَرُه بَعد ذلك. فإذا نَظرْنا إلى التَّطْفيف في الكَيل والميزان وما يُشابهه من التّعامل بالرّبا فإنّه لا كدَّ فيه ولا تَعَب بل يَنْقضي بلا أثَر من تَعَبٍ ونَحْوه، وكذلك النّظر إلى مَن يَفعلون الفاحِشة فإنّها تَنْقضي سريعًا دون أنْ يُكدَّ لها بِتَحمّل مسؤوليّة ولا غيْرِها، وليس كما يَكون في حال الزَّواج مثلًا، فإنّ المسؤوليّة تكون قائمة مع ممارَسة نَفْس الشَّيْء.

دلالَةُ التَّعْبيرِ بِالمُضارِعِ الاسْتِمرارُ عَلى فِعْلِهِمْ

وأمّا في إيثار المُضارع في قوله: ﴿نَّفْعَلَ﴾ فهو دلالة على كَونهم مُستمرّين على ما كانوا عليه قبْلَ وقت الخِطاب، ومُداوِمينَ[1] عليه وأنّ السّؤال لَم يَكن منهم إلّا سُخريَة منه عليه السلام وتهكُّمًا به.

دلالَةُ التَّعْبيرِ بِ نون الجماعة:

لَيْسَ فيهِمْ رَجُلٌ رَشيدٌ فَكُلُّهُمْ مُطْبِقونَ عَلى فِعْلِهِمُ القَبيح

يدلُّ التّعبير بِنون الجماعة في الأفعال الثّلاثة: ﴿نَّتْرُكَ﴾ - ﴿نَّفْعَلَ﴾ - ﴿نَشَٰٓؤُاْ﴾ على أنّهم جميعًا كانوا مُطْبقينَ على هذا الفعل القبيحِ، أيْ أنّه كان على مُستوى الجماعة، ولَم يَكُن على مُستوى الأفْراد. وأنّ هذه المواجَهَة مع شُعيب عليه السلام، لَم تَقَعْ من بعضهم، بل من جَميعهم. ولا يمْنَع أنْ يُصاحِبَ جَمْعَهم تَعْظيمٌ لأنْفُسِهم، فتَكون النّون لِلتّعظيم كذلك، ويُناسِبُه خِطابُ التّهكُّم والاستهزاءِ الّذي اسْتَطالوا به على نَبيِّ الله شُعيب عليه السلام.

سِرُّ التَّعْبيرِ بالظَّرْفيَّة:

مِلْكيَّةُ الأشْياءِ لَيْسَتْ مُبَرِّرًا لِلحُرّيَّةِ المُطْلَقَةِ في التَّصَرُّفِ

التّعبير بالظَّرْفيَّة في قوله تعالى: ﴿فِيٓ أَمْوَٰلِنَا﴾ دون (بأموالنا) لدلالة الظَّرْفيَّة على تمكُّنِهم من هذه الأموال؛ لِكَونها ملْكَهم وفي حَوْزَتهم، ولِيَكون ذلك أدْعى إلى تَوْجيه اللَّوْم على شُعيب عليه السلام؛ لِكَونه يَتَدخّل فيما يَمْلِكونَه ويَحوزونَهُ.

سِرُّ التَّعْبيرِ بِالأمْوالِ:

كُلُّ ما يُمْلَكُ هو مالٌ

عبّر بلَفْظ الأموال؛ لِكَونه أعَمَّ من التّعبير بِغَيْره. فالمالُ في

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/356.

الأصْل: ما يُمْلَك من الذَّهب والفضَّة، ثُمّ أُطلِق على كلِّ ما يُقْتَنى ويُمْلَك من الأعْيان[1].

دلالَةُ الإضافَةِ في ﴿أَمْوَٰلِنَا﴾:

دلّت الإضافة في قوله تعالى: ﴿أَمْوَٰلِنَا﴾ على أنّ مَقصودَهم الأموالُ الّتي يَمْلكونها، لِيَكون ذلك أدْعى إلى إخْراجِهِ.

القَصْدُ ما يَمْلِكونَ مِنْ أمْوالٍ

دلالَةُ التَّعْبيرِ بـ ﴿مَا﴾:

دلّ التّعبير بـ ﴿مَا﴾ المَوصولَة في قوله تَعالى: ﴿مَا نَشَٰٓؤُاْ﴾ على اعتقادهم بأنّ ملْكيَّتهم لِلمال تُسَوِّغ لهُم مُطلَق الحُرّيَّة في التَّصرُّف فيها على أيِّ وجْهٍ من الوجوه، ولذلك لَم يسْتَعْمل المُوصول (الّذي) الدّالّ على التّعْيين.

سَوَّغ القوم لِأنْفُسِهِمْ مُطْلَقَ الحُرّيَّةِ في التَّصَرُّفِ بالمال

نُكْتَةُ اخْتيارِ المَشيئَةِ في: ﴿مَا نَشَٰٓؤُاْ﴾:

نُكتة اختيار المشيئة دون الإرادة، التّعبير عن اسْتحقاقهم التَّصرُّفَ في أموالِهم وقْتَما يَشاؤون بلا تَراخٍ ولا مُهْلة من استئذان، أو سؤالٍ عن حُكْم الشَّرْع فيما يَفْعَلون، أو غيْر ذلك؛ لأنّ المشيئة تَكون لِما لا يَتَراخى وقْته، بخِلاف الإرادة فإنّها أعَمُّ، حيْث تَكون لِما يَتَراخى وما لا يَتَراخى[2].

المَشيئةُ يُعَبَّرُ بِها عَمّا لا يَتَراخى وقْتُهُ، والإرادَةُ أعَمُّ، وتَكونُ لِما يَتَراخى وما لا يَتَراخى

دلالَةُ حَذْفِ مُتَعَلّقِ ﴿نَشَٰٓؤُاْ﴾:

المَقصود من حذْف المُتَعلّق الدّلالة على العُموم، بحيْث لا يَتَقيّدون بِوجوهٍ دون غيْرِها في التَّصرُّف في أموالهم.

حَذْفُ المُتَعَلّقِ لِلدّلالَةِ عَلى العُموم

سِرُّ الجمعِ بَيْنَ عدم الترك، وحرية التصرّف:

في قوله تعالى: ﴿أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِيٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْ﴾ يَعود سِرُّ جَمْعهم بيْن عدَم تَرْك عبادة ما يَعْبده آباؤهم، وحرّيَّة التّصرُّف في أموالهم كما يشاؤون دون غيرهما، في ردِّهم

دَعْوةُ شُعَيْبٍ رَكَّزَتْ عَلى الإصْلاحِ الدّينيِّ والإصْلاحِ الماليِّ والاجْتِماعيِّ

(1) ابن الأثير، النّهاية: (مول).
(2) العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 124.

على شُعيب عليه السلام، إلى كَون شُعيب عليه السلام قد ركَّز في دعوته إيّاهم على هذَيْن الأمْرَين: إصلاح الاعتقاد، وإخلاص العبادة لله، وكذلك على الإصلاح الماليّ والاجْتماعيِّ بِدَعْوتهم إلى عدَم بخْس النّاس حُقوقَهم بالنّقْص في الكَيل والوزن وما سِواهما، فكان ردّهم عليه بما ذُكِر في الآية مُناسِبًا، لِجَمْعه بيْن ما كان عليه مَدارُ دَعْوته عليه السلام.

دلالَةُ فَصْلِ التذييل في الآية:

كَمالُ الاتِّصالِ في الجُمْلَةِ المَفْصولَةِ عَمّا قَبْلَها

وذلك أنّ جملة ﴿إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾ إنْ حُملت على التّهكُّم والاستهزاء، فهيَ استئنافُ تَهَكُّم آخَر[1] مؤَكِّدٍ على مواصَلَة ما ابْتَدَؤوهُ معه من السّفاهة والتّهكُّم بشَخْصه عليه السلام.

وإنْ حُملَت على الحَقيقة، أيْ على مَعْنى أنَّهم كانوا يَرَوْنه كذلك، فتكون الجملة بمَثابَة الدّليل عليه والحُجّة القائمة على موقفه الّذي لَم يُمَيِّز - في ظنِّهم - بيْن ما قامَ به من دعوتِهم إلى تَرْك عبادة الآباء، وعدَم حُرّيَّة التّصرُّفِ في أموالِهم كما يشاؤون، على مَعنى أين ذهب عقلُك حينَ دَعَوْتَنا إلى هذا مع ﴿إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾.

بَلاغَةُ الخَتْم بـ: ﴿إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾:

(التّمكين) أو (ائتِلاف الفاصلة)

وذلك أنّه لمّا تَقدّم ذِكْر العبادةِ والتّصرُّف في الأموال كان ذلك تمهيدًا تامًّا لِذِكْر الحلْم والرُّشد؛ لأنّ الحلْم الّذي يَصحّ به التّكليف، والرُّشد يَصحّ به حُسْن التّصرُّف في الأموال، فكان آخِر الآية مُناسبًا لأوَّلها مناسَبَة مَعنويَّةً[2]، وهو ما يُعْرَفُ بـ (التّمكين) أو (ائتِلاف الفاصلة)[3].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/142.

(2) الزّركشيّ، البرهان في علوم القرآن: 1/80.

(3) ائتلاف الفاصلة هو الذي سمّاه بعضهم بالتّمكين وهو: أن يُمَهَّد قبل الفاصلة تمهيد تأتي به الفاصلة مُمَكَّنة في مكانها، مستقرّة في قرارها، مطمئنّة في موضعها، غير نافرة ولا قلقة، متعلّقًا معناها بمعنى الكلام كلّه تعلّقًا تامًّا، بحيث لو طرحت لاختلّ المعنى، واضطرب الفهم. ينظر: أحمد سعد الخطيب، مفاتيح التّفسير: 1/18.

دلالَةُ تَعَدُّدِ المؤَكِّداتِ:

قَصْرُ الصِّفَتَيْنِ عَلى سَبيلِ الإلْزام بِمُقْتَضاهُما

في قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾ جُملةٌ من المؤكِّدات، هي: البَدْء بـ (إنَّ) التّوكيديَّةِ، واللّام الدّاخلة على ضمير الفَصْل (أنت) وهي اللّام الابْتدائيَّة، أو لام القَسَم كما يَرى ابن عاشور[1]، والإتْيانُ بضَميرِ الفَصْل (أنت)، وتعريف الوصْفَيْن ﴿ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾، والجُمْلة الاسْميَّةُ.

وفائدة ذلك قَصْر الصِّفَتَين عليه إمّا على سبيل الاسْتهزاءِ والتّهكُّم[2]؛ لأنّه لَم يَقُلْ أحَد منْ قَوْمه بمثْل مَقالَته[3]. أو أنّه على سبيل الحقيقة؛ لإلْزامه بِمُقْتضاهُما، ولكنْ على طريقتهم. وهو الأرْجح بِحَسب ما سَيأتي بَيانُه.

عِلَّةُ الوصْفِ بـ ﴿ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾:

مِنْ سوءِ أخْلاقِ القَوْم إطْلاقُ الأوْصافِ الحَميدَةِ وإرادَةُ ضِدِّها بِقَصْدِ السُّخْريَةِ

لدَيْنا تَعليلان لِسِرِّ اختيارِهم لهذَيْن الوصْفَيْن لِشُعَيْبٍ عليه السلام:

الأوَّل: ما ورَد عن ابنِ عبّاس رضي الله عنهما من قولِه: يُريدون بهما السّفيهَ الجاهِلَ، أيْ أنّهم كَنّوا بالحَليم الرّشيد عن السّفيهِ الجاهِلِ. ويَبدو هذا التّفسير مُشاكِلًا للُّغة؛ لأنّ العَرَبيَّ يَقول لمُخاطِبِه إذا اسْتَحْمَقَه: يا عاقل مَن يَقول هذا غَيْرك؟ يُريد يا أحْمَق، ويقول لِمَن يَسْتَجْهله: يا حليم فَكِّر فيما تسْمع، يَعني يا جاهل[4].

الثّاني: أو أنّ العِلّة في اختيار الوصْفَيْن: أنّه عليه السلام كان مَشهورًا عندَهم بأنّه حليم رشيد، فلمّا أمَرَهم بمُفارَقة طريقتهم قالوا له: إنّك لَأنت الحليم الرّشيد المَعروفُ الطّريقة في هذا الباب، فكيف تَنْهانا عن دينٍ ألْفَيْناهُ من آبائنا وأسلافنا، والمقصود استِبْعادُ مثل

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/142.
(2) شيخ زاده، حاشية على تفسير البيضاويّ: 3/683.
(3) السّامرّائيّ، على طريق التّفسير البيانيّ: 4/322.
(4) الواحديّ، التّفسير البسيط: 11/526.

هذا العمل ممَّن كان مَوْصوفًا بالحلْم والرّشد[1] والوجْه الثّاني الدّالُّ على أنّهم قاصِدون المَعنى الحَقيقيّ من الوصْفَيْن أرْجَحُ؛ بِدليل أنّهم أكَّدوهُ بـ (إنَّ وباللّام، وضَمير الفَصْل: أنت)[2].

دلالَةُ التّقْديم:

تَرْتيبُ الصِّفَتَيْنِ مُلائِمٌ لِتَرْتيبِ مَسارِ الدَّعْوةِ

تَقْديم وصْف ﴿ٱلْحَلِيمُ﴾ على وصْف ﴿ٱلرَّشِيدُ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾؛ لأنّ وصْف الحلْم مَرْدودٌ على دَعْوته إياهم إلى التّوْحيد ونَبْذِ ما كانوا يَعبدونه من دونِ اللّه، وهذا ما بَدَأ به عليه السلام دَعْوته ﴿ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾. ووصْف الرّشد - والمقصود به هُنا نَوْع منه هو حُسْن التّصرُّفِ في الأموال - مَرْدودٌ إلى نَهْيه إيّاهم عن النّقْص في المكيال والميزانِ وكذا الأمْر بضِدِّه وما تَلاهُ من مَعطوفات هي أعمّ في النّهْي: ﴿وَلَا تَنقُصُواْ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَۖ إِنِّيٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾ وَيَٰقَوْمِ أَوْفُواْ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِۖ وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْاْ فِي ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ وهذا تالٍ في دَعْوته، فكان تَرْتيب الصِّفَتَيْن مُلائمًا لِتَرْتيب مَسارِ الدّعْوة.

فَنُّ التَّمْكينِ:

الحِلْمُ يُناسِبُ العِباداتِ والرُّشْدُ يُناسِبُ الأمْوالَ

في قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾ فَنّ التّمكين[3]؛ إذ لمّا تَقدّم ذِكْر العِبادة وتَلاهُ ذِكْر التّصرُّف في الأمْوال، اقتَضى ذلك ذِكْر الحلْم والرّشد على التّرْتيب؛ لأنّ الحلْم: العَقْل الّذي يَصحّ به تَكْليف العبادات، ويَحضُّ عليها، والرّشد حُسْن التّصرُّف في الأموال، أي أنّ الحلْم يُناسِب العِبادات والرّشد يُناسِب الأمْوال[4].

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 18/387.
(2) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 18/387، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3740.
(3) التّمكين: هو أن يمهّد المتكلّم لكلامه تمهيدًا تأتي به الفواصل متمكّنة في مكانها، مستقرّة في قرارها، مطمئنّة في موضوعها، غير نافرة ولا قلقة، متعلّقًا معناها بمعنى الكلام كلّه تعلّقًا تامًّا، بحيث لو طُرِحَتْ لاختلّ المعنى واضطرب الفهم، وبحيث لو سُكِتَ عنها كمّله السّامع بطبعه. يُنظر: السّيوطيّ، الإتقان في علوم القرآن: 2/271.
(4) السّيوطيّ، الإتقان في علوم القرآن: 2/271.

بَيانُ مُتَشابِهِ النَّظْم في هذا المَشْهَدِ:

سِرُّ اخْتِلافِ التَّعْبيرَيْنِ مُناسَبَةُ كُلِّ تَعْبيرٍ منْهُما لِمَوْضِعِهِ سياقًا ومَقامًا

بيْن قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [الأعراف: 85]، وقوله تعالى في سورة هود: ﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ مَلْمحُ اخْتلاف مع تَشابه التَّعْبيرَيْن في جلّ الألْفاظ. فأمّا مَوْضع الأعْراف، فقد سَبَقَه قوله تعالى حكايَةً عن شُعيب عليه السلام: ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا﴾ [الأعراف: 85] وهي جُملةٌ من الأوامر المُقْتَضى فِعْلها، والنّواهي المَطلوبِ تَرْكها، ثُمّ قال بَعدها مُشيرًا إليْها جميعًا: ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [الأعراف: 85].

وأمّا مَوْضع هود، فقد سَبَقَه ما يدلّ على امْتِعاضهم من اقْتِحام شُعيب عليه السلام حياتهم، وخصوصًا تَشْديده عليهم بتَرْك التّطْفيف والبَخْس لِحُقوق النّاس، والاعتماد على الحَلال، ولِشَرَهِهم الشّديد في مَحَبّة المال، وعدَم ثِقَتهم في الحَلال، وظنِّهم أنّ غِناهم فيما يُمارِسونه من الحرام، قال لهُم شُعيب عليه السلام ردًّا لِما تَوهَّموهُ في ذلك: ﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾. فكان كلامه عليه السلام في كلِّ مَوْضع مناسِبًا تمامَ التّناسُبِ لِلسّياق ولِلمَقام.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

(المَشيئَة) و(الإرادَة):

التَّداخُلُ بَيْنَ مَعْنَيَي المَشيئَةِ والإرادَةِ عِنْدَ عُلَماءِ اللُّغَةِ والمُتَكَلِّمينَ

من شدَّة التّقارب الدّلاليِّ بَيْنَهما، ألْفَيْنا المُعْجَميّينَ يُعَرِّفون كلًّا منهما بما يُعَرَّفُ به الآخَر، فمَثَلًا يَقول ابن منظور: المَشيئَةُ، مَهْموزَةً: الإرادةُ[1] لكنّ العَسْكريَّ فرَّق بَيْنهما، بأنّ الإرادَة تَكون لِما يَتَراخى وقْتُه ولِما لا يَتَراخى، والمَشيئَة لِما لَم يَتَراخ. قال:

(1) ابن منظور، لسان العرب: (شيأ)، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (ريد).

والشّاهِد أنَّك تَقول: فَعَلْتُ كَذا شاءَ زيدٌ أو أبى، فيُقابِل بها إباءَهُ، وذلِكَ يَكون عِنْد محاولة الفِعْل[1].

ونزيد: أنّ لَفْظ الإرادة يُطلَق على نُزوع النَّفْس إلى الشّيْء مع الحُكم فيه بأنه ينبغي أن يُفْعَل، أو لا يُفْعَل، ثُمّ إنّه يُستَعمل مرّةً في المَبدَأ، وهو: نُزوع النَّفْس إلى الشّيْء، وتارَةً في المُنتَهى، وهو الحُكْم فيه بأنّه يَنْبغي أنْ يُفْعَل أو لا يُفْعَل، فإذا اسْتُعمل في اللّه فإنّه يُراد به المُنْتهى دون المَبدأ، فإنّه سبحانه يتعالى عن مَعنى النُّزوع، فمَتى قيل: أرادَ اللّه كذا، فمعْناهُ: حَكَم فيه أنّه كذا وليس بكذا، نَحْو: ﴿إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً﴾ [الأحزاب: 17][2] وأمّا مع البَشَر، فإنّه يُسْتَعمل في أحَدِ المَعْنيَين المَبْدأ أو المُنْتَهى، أوْ في كِلَيْهما معًا.

والمَشيئَةُ عند أكثر المُتَكلّمين كالإرادَة سَواء، وعِند بعضِهِم: المَشيئَة في الأصْل: إيجادُ الشّيْء وإصابَتُه، وإنْ كان قد يُسْتَعمل في التّعارُف مَوْضع الإرادة، فالمَشيئَة من اللّه تعالى هي الإيجادُ، ومن النّاس هي الإصابَة[3].

(1) العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 124.
(2) الرّاغب، المفردات: (رود)، والكفويّ، الكلّيّات، ص: 74.
(3) الرّاغب، المفردات: (شيأ).

﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنۡهُ رِزۡقًا حَسَنٗاۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أُخَالِفَكُمۡ إِلَىٰ مَآ أَنۡهَىٰكُمۡ عَنۡهُۚ إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُۚ وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ ٨٨﴾ [هود: 88]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

دَرْءُ السَّيِّئَةِ بِالحَسَنَةِ والاسْتِعانَةُ بِاللهِ لِتَحْقيقِ الأهْدافِ الصّالِحَةِ المُصْلِحَةِ هو دَرْبُ الأنْبياءِ عليهم السلام

بعدَ أنْ حَكى اللّه تعالى في الآيَةِ السّابقَة إغلاظَهم في القوْل لنَبيِّ اللّه شُعيب عليه السلام، وما تَحملُه كلماتهم من سُخريَة به واستهزاءٍ، حَكى بَعد ذلك الرَّدَّ النَّبويَّ الحكيم على تصريحاتهم وتلْميحاتهم، وهو رَدٌّ مُسَجًّى بالتَّغاضي عن إساءاتِهم نَحْوه، وتَجاهل سفاهتهم في حقِّه، ورَدِّ السَّيِّئ من القوْل بالحَسَن منه، فناداهم مُسْتعطِفًا بـ ﴿يَٰقَوۡمِ﴾ ثُمّ حاكَمَهم بَعد هذا الاسْتعطاف إلى عُقولِهم وضمائرهم، إنْ كان فيها ما قد بَقيَ لِيَفْقهوا كلامَهُ، ولِيَعلموا غايَتَه من الخَوف عَليهم، ومرادَه من الدّعْوة إلى ما يَنْفعهم ويُصْلِحُهم، مؤَكِّدًا لهُم أنّ غايته الإصلاحُ، وأنّه مُسْتَمدٌّ تَوْفيقه من اللّه في سبيل تَحْقيقِها، فقال سبحانه حِكايَة عنه عليه السلام: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ﴾ الآية.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَرَءَيۡتُمۡ﴾: أصْلُ (رأى): يَدُلُّ عَلى نَظَرٍ وإبْصارٍ بِعَيْنٍ أوْ بَصيرَةٍ. فالرَّأْيُ: ما يَراهُ الإنسانُ في الأمْرِ، وجَمْعُهُ الآراءُ[1]. والرُّؤْيَةُ: إدْراكُ المَرْئِيِّ، وذلك أضْرُبٌ بِحَسبِ قِوى النَّفْسِ؛ فالأوَّلُ: بالحاسَّةِ وما يَجْري مَجْراها، نَحْو: ﴿لَتَرَوُنَّ ٱلۡجَحِيمَ ٦ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيۡنَ ٱلۡيَقِينِ ٧﴾ [التكاثر: 6 - 7]. والثّاني: بالوهْم والتَّخيُّل، نَحْو قوله: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (رأى).

يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ [الأنفال: 50]. والثّالث: بالتَّفكُّر، نَحْو: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ﴾ [الأنفال: 48]. والرّابع: بالعَقْلِ، وعلى ذلك قوله: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ۝١١﴾ [النجم: 11]. والرَّأْيُ: اعْتِقادُ النَّفْسِ أحَدَ النَّقيضَيْن عن غَلَبَةِ الظَّنِّ، وعلى هذا قوله: ﴿يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ ٱلْعَيْنِۚ﴾ [آل عمران: 13]، والرُّؤْيا: ما يُرى في المَنام[1]. والرُّؤيَة قِسْمان: بَصَريَّة وعِلْميَّة، والرُّؤْيَةُ البَصَريّة بِالعَيْنِ تَتَعَدّى إلى مَفْعولٍ واحِدٍ، وبِمَعنى العِلْم تَتَعَدّى إلى مَفْعولَيْن. والرُّؤْيَةُ في الآيَةِ بِمَعْنى الاعْتِقادِ، آيِلًا الاسْتِفهامُ بها ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾ إلى مَعْنى: أخْبِروني[2].

2) ﴿بَيِّنَةٍ﴾: أصْلُ الكَلِمةِ من البَيْنِ، وهو بُعْدُ الشَّيءِ وانْكِشافُهُ، فالبَيْنُ الفِراقُ؛ يُقالُ بانَ يَبينُ بَيْنًا وبَيْنونَةً. والبَيونُ البِئْرُ البَعيدَةُ القَعْرِ[3]. والبَيِّنَةُ: الأمْرُ الواضِحُ، ومنهُ قوله: ﴿إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي﴾ [الأنعام: 57]، أي: أنا على أمْرٍ واضحٍ ظاهرٍ. والبَيِّنة: الحُجَّة، ومنهُ: «البَيِّنةُ على المدَّعي»؛ لأنَّ بها يَنْكَشِف الحقُّ ويتَّضِحُ. والبَيِّنةُ: الدّلالة الواضِحةُ عَقْليَّةً كانت أو حِسّيَّةً[4]. والبَيان: التَّوْضيحُ والكَشْفُ، يُقالُ: بانَ الشَّيْءُ وأبانَ إذا اتَّضَحَ وانْكَشَفَ، وفُلانٌ أبْيَنُ منْ فُلانٍ؛ أيْ أوْضَحُ كَلامًا منْهُ[5]. والمَقْصودُ بالبَيِّنة في الآيَة: الحُجَّة الواضِحَةُ[6].

3) ﴿وَرَزَقَنِي﴾: أصْلُ (رزق): يَدُلُّ على عَطاءٍ لِوقْتٍ، ثُمَّ يُحْمَلُ عَليْهِ غَيْرُ المَوْقوتِ. فالرِّزْقُ: عَطاءُ اللّهِ جَلَّ ثَناؤُهُ. ويُقالُ رَزَقَهُ اللّهُ رِزْقًا، والاسْمُ الرِّزْقُ[7]. والرّازِقُ يُقال لِخالِقِ الرِّزق، ومُعطيه، والمسبِّبِ لَه، وهو اللّه تعالى، ويُقالُ ذلك للإنْسانِ الَّذي يَصيرُ سَببًا في وصول الرِّزْقِ[8]. أيْ بِطَريق المَجاز. والرِّزْقُ أيضًا: كُلُّ ما يُنْتَفَعُ بِهِ منْ مالٍ ونَحْوِهِ، والجَمْعُ: أرْزاقٌ[9]، والرَّزْقُ بِفَتْحِ الرّاءِ: ما رَزَقَه إيّاه، والجَمْعُ أرْزاق[10]، يُقالُ: رَزَقَ يَرْزُقُ

(1) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحفّاظ، والزّبيديّ، تاج العروس: (رأى).
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/51.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (بين).
(4) السّمين الحلبي، عمدة الحفّاظ: (بين).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (بين).
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/51.
(7) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (رزق).
(8) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحفّاظ: (رزق).
(9) الجوهريّ، الصّحاح: (رزق).
(10) ابن منظور، لسان العرب: (رزق).

رِزْقًا، أيْ: أعْطَى ووهَبَ، وكُلُّ ما يَصِلُ إلى الجَوْفِ ويُتَغَذّى بِهِ فَهُو رِزْقٌ[1]. والمُرادُ بـ (الرِّزْقِ الحَسَنِ) في الآيَة: نِعْمَة النُّبوَّةِ[2] وفي قوْل أكثَرِ المُفسّرين: الرِّزْق الحَلال[3].

4) ﴿أُخَالِفَكُمْ﴾: أصْلُ (خلف) منَ الإخْلافِ، هو: مَجِيءُ شَيْءٍ بَعْدَ شَيْءٍ يَقومُ مَقامَهُ[4]، فالخَلَفُ: المُتأخِّرُ، سَواء كان تَأخُّرُه في الزَّمَنِ، أو في الرُّتبَةِ[5]. وضِدُّ الخَلَفِ: السَّلَفُ، وهو: كُلُّ مَن سَبَقَكَ. والخَلَفُ أيضًا: ما اسْتَخْلَفْتَهُ من شَيْءٍ، وجمعُه: أخْلافٌ[6]. وأمّا قَوْلُهُمْ: اخْتَلَفَ النّاسُ في كَذا، والنّاسُ خِلْفَةٌ أيْ مُخْتَلِفُونَ، فَمنَ هذا البابِ؛ لأنَّ كُلَّ واحِدٍ منْهُمْ يُنَحّي قَوْلَ صاحِبِهِ، ويُقيمُ نَفْسَهُ مقامَ الَّذي نَحّاهُ[7]. والمقْصودُ بالمُخالفَة في الآيَة: مُخالَفَةٌ تَدُلُّ على الاتِّصافِ بِضِدِّ حالِهِ، يُقالُ: خالَفَني فُلانٌ إلى كذا إذا قَصَدَهُ وأنتَ مُولٍّ عنه. والمَعنى: أنْ أفْعَلَ خِلافَ الأفْعالِ الَّتي نَهَيْتُكُم عنها بِأنْ أصْرِفَكُم عنها وأنا أصيرُ إليها[8].

5) ﴿أَنْهَاكُمْ﴾: أصْلُ (نهي): يَدُلُّ على غايةٍ وبُلوغٍ. ومنه أنهَيتُ إليه الخَبَرَ: بَلَّغْتُهُ إيّاهُ. ونِهايَةُ كُلِّ شَيءٍ: غايَتُهُ. ومنه نَهَيْتُهُ عنه، وذلكَ لِأمْرٍ يَفعَلُهُ. فإذا نَهَيْتُهُ فانتَهى عنكَ فَتِلكَ غايَةُ ما كانَ وآخِرُهُ[9]. والإنْهاءُ: الإيصالُ والإبلاغُ[10]، والنِّهايَة: غايَةُ كُلِّ شَيءٍ وآخِرُهُ[11]، والانْتِهاءُ: الاكْتِفاءُ والامْتِناعُ، يُقالُ: نَهِيَ فُلانٌ منَ اللَّحْم إذا اكْتَفى منه[12]. والنَّهْي: الكَفُّ عَنِ الشَّيءِ والمَنْعُ منه، تَقولُ: نَهاهُ إذا كَفَّهُ ومَنَعَهُ عَنْ شَيءٍ ما، ومنه النُّهْيَةُ وهي العَقْلُ؛ لأنَّهُ يَمْنَعُ صاحِبَهُ منَ القَبيحِ[13]. والمَقْصود بالنَّهي في الآيَة: طَلَبُ تَرْكِ الفِعْلِ بالقَوْلِ على وجْهِ الاسْتِعْلاءِ، أيْ ممّن هو أعْلى وأحَقّ بتَوْجيه الطَّلَب.

---

(1) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 1/81.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/143.
(3) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/145، وأبو حيّان، البحر المحيط: 6/198، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 18/388، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 9/358، والآلوسيّ، روح المعاني: 6/314.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (خلف).
(5) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (خلف).
(6) الرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (خلف).
(7) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (خلف).
(8) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/143 - 144.
(9) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نهي).
(10) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة: (نهي).
(11) ابن عبّاد، المحيط في اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (نهي).
(12) ابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس: (نهي).
(13) ابن عبّاد، المحيط في اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (نهي).

6) ﴿ٱلْإِصْلَٰحَ﴾: أصْلُ (صلح): يَدُلُّ على خِلافِ الفَسادِ. يُقالُ: صَلُحَ الشَّيْءُ يَصْلُحُ صَلاحًا[1]، ورجل صالِحٌ في نَفْسِهِ ومُصلِحٌ في أعمالِهِ وأمورِهِ[2]. والصُّلْحُ: تَصالُحُ القَوْمِ بَينَهُم. وأصلَحْتُ إلى الدّابَّة: أحْسَنْتُ إليها[3]. والإصْلاحُ جَعْلُ الشَّيْءِ صالِحًا، أي ذا صَلاحٍ، والصَّلاحُ ضِدُّ الفَسادِ يُقالُ: أصْلَحَهُ، أيْ: جَعَلَهُ صالِحًا، وأصْلَحَ الشّيءَ بَعْدَ فَسادِهِ: أقامه[4]. والصَّلاحُ أيضًا: اسْتِقامَةُ الأعْمالِ وطَهارَةُ النَّفْسِ، قالَ إبراهيمُ: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ١٠٠﴾ [الصّافات: 100]. والمَقْصود بالإصْلاحِ في الآيَة: تَغْيير حالِ الشَّيءِ إلى الاسْتِقامَةِ.

7) ﴿ٱسْتَطَعْتُ﴾: أصْلُ (طوع): يَدُلُّ على الإصْحابِ والانْقِيادِ. يُقالُ: طاعَهُ يَطوعُهُ، إذا انْقادَ معهُ ومَضى لأمْرِهِ. وأطاعَهُ بمعْنَى طاعَ له. ويُقالُ لِمَنْ وافَقَ غَيْرَهُ: قَدْ طاوعَهُ[5]. والاستِطاعَةُ: القُدْرَةُ على الشَّيءِ[6]، وضِدُّها العَجْزُ، تَقُولُ: اسْتَطاعَ القِيامَ إذا قَدِرَ عليه، فهو مُسْتَطيعٌ، وتَأْتي الاسْتِطاعَةُ بمعْنَى: الإمكانِ، كقَولِكَ: في اسْتِطاعَتِهِ كَذا، أي: في إمكانِهِ[7]. والمرادُ منَ الاسْتِطاعَةِ في الآيَةِ: القُدْرَةُ، والألفُ والسِّينُ والتّاءُ فيها للمُبالَغَةِ في طاعَ.

8) ﴿تَوْفِيقِيٓ﴾: أصْلُ (وفق): كَلِمَةٌ تَدُلُّ على مُلاءَمَةِ الشَّيْئَيْنِ. منه الوفْقُ: المُوافَقَةُ. واتَّفَقَ الشَّيْئانِ: تَقارَبا وتَلاءَما، ووافَقْتُ فُلانًا: صادَقْتُهُ، كأنَّهُما اجْتَمَعا مُتَوافِقَيْنِ[8]. والاتِّفاقُ: مُطابَقَةُ فِعْلِ الإنسان القَدَرَ، ويُقالُ ذلكَ في الخَيْرِ والشَّرِّ، يُقالُ: اتَّفَقَ لفلان خَيرٌ، واتَّفَقَ له شَرٌّ. والتَّوْفيقُ نَحْوه؛ لكنَّه يَختصُّ في التَّعارف بالخَير دُون الشَّرِّ[9]. والمَقْصود بالتَّوفيقِ في الآيَة: جَعْلُ الشَّيءِ وفْقًا لِآخَرَ، أي: طِبْقًا لَهُ[10].

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (صلح).
(2) الخليل، العين، وابن منظور، لسان العرب: (صلح).
(3) الخليل، العين: (صلح).
(4) ابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس: (صلح).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (طوع).
(6) ابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس: (طوع).
(7) السّمين الحلبي، عمدة الحفّاظ: (طوع).
(8) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (وفق).
(9) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحفّاظ: (وفق).
(10) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/146.

9) ﴿أُنِيبُ﴾: أصلُ (نوب): تَدُلُّ على اعْتِيادِ مَكانٍ ورُجوعٍ إلَيْه[1]. نابَ نَوْبًا ونَوْبَة، وسمّيَ النّحل نَوْبًا لِرُجوعِها إلى مَقارِّها، ونابَتْهُ نائِبَة. أيْ: حادِثَة من شَأْنِها أنْ تَنوب دائبًا، والإنابَةُ إلى اللّه تعالى: الرُّجوع إلَيْه بالتَّوْبة وإخْلاصُ العَمل. قال تعالى: ﴿وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩ ﴿٢٤﴾﴾ [ص: 24][2]، وفلانٌ يَنْتاب فلانًا. أي: يَقْصده مرّةً بَعد أُخْرى. والمُنيبُ مَنْ أنابَ إذا رَجَعَ[3]، والمَقْصود بالإنابَةِ في الآيَة: الرُّجوعُ إلى اللّهِ والتَّوْبةُ إلَيْه.

❁ المَعْنى الإجْمالِيُّ:

قال شُعَيبٌ عليه السلام: يا قوْم أخبِروني إن كنتُ على يقينٍ وعِلْمٍ من اللّه فيما أمَرَني أنْ أدعوكم إليه من تَوْحيدِه، وفيما أنْهاكُم عنه من ظُلم النّاس، وأعطاني اللّهُ من فَضلِه مالًا حلالًا طيِّبًا، أفَأتَّبِعُ الضَّلالَ، وأضِلُّ كما ضَلَلْتُم؟ وما أريدُ أنْ أخالِفَكم فأرتكِبَ أمرًا نهيتُكم عنه، وما أريدُ فيما آمُرُكم به وأنهاكم عنه إلّا إصلاحَكم قَدْرَ طاقَتي واستطاعَتي، وما توفيقي - في إصابةِ الحَقِّ، ومحاولةِ إصلاحِكم - إلّا باللّهِ، على اللّهِ اعتمَدتُ، وفوَّضتُ إليه جميعَ أُموري، وإليه وحْدَه أرجِعُ بالتَّوبةِ والطّاعةِ والدُّعاءِ[4].

ثَباتُ الأنْبياءِ عَلى المَبْدَأ وثِقَتُهُمْ بِالله وتَفْويضُ أُمورِهِمْ إلَيْهِ ظاهِرةٌ سَتَبْقى ماثِلَةً أمامَ الأعْيُنِ في كُلِّ جيلٍ

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالَةُ الفَصْلِ:

لمّا بالَغوا في السّفاهة والحُمْق معه عليه السلام، كأنّ سائلًا سأل: وماذا قال لهم شُعيب بعدَ ذلك، فجاء الجَوابُ: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن

شِبْهُ كَمالِ الاتِّصالِ في الجُمْلَةِ المَفْصولَةِ عَمّا قَبْلَها

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نوب).
(2) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحفّاظ: (نوب).
(3) ابن عبّاد، المحيط في اللّغة: (نوب).
(4) ابن جرير، جامع البيان: 12/549، والواحديّ، التّفسير الوجيز، ص: 530، وابن عطيّة، المحرَّر الوجيز: 3/201، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/344، والسّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 387.

﴿كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي﴾ وهذا الأسلوب يَكْثُر في القرآن الكريم في المحاورات، فلا تأتي معطوفةً على بعضها بأحد حُروفِ العَطْف في الغالب، وإنّما يكون سَبَب فَصلِها أنّها إجابةٌ عن سؤالٍ مُقدَّر: فماذا ردَّ عليه بَعد ذلك؟

دلالَةُ تَكْرارِ النِّداءِ بـ: ﴿يَٰقَوْمِ﴾:

مِـنْ رَحْـمَـةِ الأنْبياءِ الإشْفاقُ حتّى عَلى مَنْ يُؤْذونَهُمْ

في تَكرار النِّداء من قِبَلِه ﷺ بـ ﴿يَٰقَوْمِ﴾ - حال مخاطبتهم - دلالةٌ على حِرْصه وإشْفاقِه عليهم حَدَّ الاسْتعطاف، عَلَّهُم أنْ يَسْتجيبوا لِنِدائه.

دلالَةُ الاسْتِفْهام في: ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾:

تقرير المعارضين بالحقّ

الاستفهام في قوله: ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾ لِلتّقرير وإثارَةِ الانْتِباه الشّديد[1]، فهو يُخاطب عُقولهم - إنْ كان لديهم أثارَة منها - لِيُقرِّرَهم بنتيجة ما يسْتَفْهم عنه ظاهرًا، وهو مَعلوم الجوابِ.

سِرُّ التَّعْبيرِ بِالرُّؤْيَةِ في: ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾:

اسْتِحْضارُ صورَةِ المُسْتَفْهَمِ عَنْهُ في الـذِّهْـنِ لِتَأْكيدِ المَعْنى المُقَرَّرِ وتَمْكينِهِ

الرّؤية هُنا هي العِلْمية، أيْ بمَعنى أعْلِموني أوْ أخْبروني. وهو لا يُسْتَعمل إلا في طلب مَن حالُه حالُ مَن يَجْحَد الخبَرَ[2] وغرض هذا التّركيب الاستفهاميِّ، استحضار صورة المُسْتفهَم عنه في الذّهن، لِيَجريَ الحديث عنها وهي حاضرة، كَي يَتَمكّن المَعنى المراد في النّفْس[3].

بَلاغَةُ المَجازِ المُرْسَلِ في: ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾:

الـرُّؤْيَـةُ بِمَعْنى الإخْبارِ

استعمال الرّؤية بمَعنى الإخبار مَجاز، فيَكون المَعنى أخْبروني، والعلاقة ما بَيْن العِلْم، والإخبار من السّببيَّة والمسبّبيَّة واللّازميَّة والمَلْزوميَّة، واستعمال الهمزة الّتي هي لطلب الإخبار مَجازٌ[4].

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3741.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/51.
(3) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 2/118.
(4) محمد عفيف، الشّامل في بلاغة القرآن: 2/60.

ففي هذا التّعبير مَجازٌ مُركَّب؛ حيْث عبّرَ عن العِلْم بِسَببه وهي الرّؤية؛ لأنّ الرُّؤيَة هي أقوى وسيلة في تحصيل العِلْم، ثمّ طلب الإخبار والإعلام عن هذه الرّؤية المُتيقَّنة من خِلال لازِمها، على مَعنى: أحَصَلَ لديْكم العِلْم اليَقينيُّ بما رَأيْتم؟ فأخْبروني عِلْمًا يَقينيًّا بما تَحَصَّل لديكم.

دلالَةُ التَّعْبيرِ بـ ﴿إن﴾:

يدلّ التّعبير بـ ﴿إن﴾ الّتي تُفيد الشَّكّ في قوله تعالى: ﴿إن كُنتُ﴾ مع أنّه على يَقين من ذلك، على قَصْدِه ﷺ من إرخاء العِنان لَهُم، وتَلْيين الخِطاب معهم لاسْتِمالَتِهم[1]. فالأصْل استعمال (إذا) الدّالّة على التّحقُّق، ولكنّه خَرَج عن الظّاهر دون مُقْتضى الحالِ فعبّرَ بـ (إنْ) المفيدة لِلتّشْكيك من باب مُجاراة الخَصْم وإرخاء العِنان له.

مِنَ المَنْهَجِ الدَّعَويِّ إرْخاءُ العِنانِ لِلْمَدْعوِّ المُعانِدِ، وتَلْيينُ الخِطابِ مَعَهُ رَجاءَ اسْتِمالَتِهِ

بَلاغَةُ عَرْضِ مُراجَعَةِ شُعَيْبٍ لِقَوْمِهِ في أمْرِ الدَّعْوةِ:

إنّ ما سَلَكه ﷺ من التّعبير بـ ﴿إن﴾ الّتي تُفيد الشّكّ قائلًا، كما حَكى سبحانه: ﴿إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي﴾ لَهو من الأساليب الدّعَويَّة والحِجاجيَّة أيضًا، فهو يُرخي لهم العِنان، ويُلين لهم الخِطاب، ويَمدُّ لهم الحَبْل لِيَجرَّهم جرًّا إلى التّأمّل في حاله، اعتمادًا على ثِقته في عِلْمهم بكَريم خِصاله. ويُعرف هذا الأسلوبُ بـ (المُنْصِف من الكلام) أو (الاسْتِدْراج)[2].

مِنَ الأساليبِ الدَّعَويَّةِ والحِجاجيَّةِ ما يُعْرَفُ بـ (المُنْصِف من الكلام) أو (الاسْتِدْراج)

دلالَةُ تاءِ الإخْبارِ في: ﴿كُنتُ﴾ في أمْرِ الدَّعْوةِ:

الدّاعي هُنا يُنَزِّل نَفْسَه مَنْزِلَةَ المُحاكَم ﴿يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ﴾ ويدعو المُخاطَب إلى النّظر في حاله، وكأنّه مُتَّهم ومَطلوبٌ منْه أنْ يُحاكِمَه، وذلك لِيَستدرجَه إلى النّظر، فقد يَصِل المخاطَبُ من حيْث لا يَقْصِد إلى حقيقة الأمْر.

في سَيْرورَةِ الدَّعْوةِ قَدْ يَحْتاجُ الدّاعي إلى إنْزالِ نَفْسِهِ مَنْزِلَةَ المُحاكَم

(1) الطّيبيّ، حاشية على الكشّاف: 8/169، والمطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 2/118.
(2) الخطيب، مفاتيح التّفسير: 1/111.

وقد تَكرَّر هذا في السّورَة نفسِها مع نَبيَّي اللّه: (نوح، وصالح) عليهما السلام، في قوله تعالى حكايةً عن نوح عليه السلام: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتۡ عَلَيۡكُمۡ أَنُلۡزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمۡ لَهَا كَٰرِهُونَ ٢٨﴾ [هود: 28] وقوله حكاية عن صالح عليه السلام: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي مِنۡهُ رَحۡمَةٗ فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِنۡ عَصَيۡتُهُۥۖ﴾ [هود: 63].

ويُشبه هذا التّعبير في الهدف والمَقْصد قوله تعالى: ﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ إِنِ ٱفۡتَرَيۡتُهُۥ فَعَلَيَّ إِجۡرَامِي وَأَنَا۠ بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُجۡرِمُونَ ٣٥﴾ [هود: 35] وقولهُ: ﴿۞قُلۡ مَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ قُلِ ٱللَّهُۖ وَإِنَّآ أَوۡ إِيَّاكُمۡ لَعَلَىٰ هُدًى أَوۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ٢٤ قُل لَّا تُسۡـَٔلُونَ عَمَّآ أَجۡرَمۡنَا وَلَا نُسۡـَٔلُ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ٢٥﴾ [سبأ: 24 - 25].

بَلاغَةُ الاسْتِعارَةِ في: ﴿عَلَىٰ بَيِّنَةٖ﴾:

إيثارُ (على) الاسْتِعْلائيَّةِ لِلدّلالَةِ عَلى قوَّةِ حُجَّتِهِ وظُهورِ حالِهِ

في اختيار ﴿عَلَىٰ﴾ دون غيْرِها في قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ بَيِّنَةٖ﴾: دلالةٌ على أنّه في قوَّة بُرهانه وظهور حالِه من الصِّدق في الإخبار عن اللّه، لَهو أعلى في ذلك من البَيِّنة نفْسِها. وعليه تَكون هُنا (اسْتعارَة تَبَعيَّة) في الحَرْف ﴿عَلَىٰ﴾ كما هي كذلك في قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ﴾ [البقرة: 5]؛ إذ الأصْل: في هُدى.

وجْهُ اخْتيارِ ﴿بَيِّنَةٖ﴾:

أكْثَرُ مَوارِدِ (البيّنة) مُرادٌ فيهِ الحُجَّةُ الواضِحَةُ

البيّنة هي الدّلالة الواضِحة الظّاهرة، الّتي لا تَحتاج لِشدَّة وُضوحها إلى إجالَةِ نَظَر، بخِلاف الحجَّة فإنّها لا تُعْتبر كذلك إلّا بَعد النَّظر[1] أمّا قبل ذلك، فلا. وأمّا الآيَةُ، فهي تُطلَق في القرآن على المُعجزة، والمُعْجزة قاطِعَةٌ في دلالة الصِّدق، فهي أعلى مُستوى في الدّلالة منَ البيّنة. والّذي يَظهرُ أنّه عليه السلام لَم يُحاكِمْهم هُنا إلى

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 69.

المُعْجزة، وإنّما حاكَمَهم إلى مَعْرفتهم به وبأخلاقِه وبسيرَتِه الحَسَنة، وأنّه ليس من أصْحاب الهَوى، ولا بالّذي يَبيع قوْمَهُ لِغَرض رَخيص، تَأْسيسًا على وصْفهم إيّاه بأنّه ﴿ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾ ومن ثَمّ يَكون التّعبير بالبيّنة أدَقَّ وأنْسَب، ولَو حاكَمَهم إلى المُعجزة لكان التّعبير بالآيَة أنْسَبَ[1].

دلالَةُ التَّنْكيرِ في: ﴿بَيِّنَةٍ﴾:

التَّنْكيرُ لِلتَّفْخيم

التّنكير في ﴿بَيِّنَةٍ﴾ لِتَفخيم أمْرِها في الوضوح والظّهور، على مَعنى أنّها فيهما بحيْث لا يُمْكِن وصْفها ولا تَعْريفُها.

نُكْتَةُ التَّعْبيرِ بِالمُفْرَدِ ﴿بَيِّنَةٍ﴾:

بَيِّنَةٌ واحِدَةٌ صادِقَةٌ تَكْفي في إقامَةِ الحُجَّةِ

التّعبير بالمُفرَد ﴿بَيِّنَةٍ﴾ للدّلالة على أنّ بيّنة واحدة من ربِّه كافية في إظهار صِدْقه والتّدْليل عليه، أو أنّ المرادَ به جِنْسُ البيّنات، كما في قولِه تعالى: ﴿ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾ [الحج: 5].

دلالَةُ تَقْييدِ البَيِّنَةِ: ﴿مِّن رَّبِّي﴾:

القَصْدُ مِنَ الرِّسالَةِ البَيِّنَةُ

تقييد البيّنة بكَوْنها: ﴿مِّن رَّبِّي﴾؛ لأنه يُريد الرِّسالة في الأصْل، ولَو أنّه قد حاكَمَهم أوَّلًا من باب التَّنَزُّل إلى ما يَعْرفونه من أخْلاقِه عليه السلام، الّتي عبَّروا عنها بأنّه ﴿ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾ لِيَسْتدرجَهم إلى ما بعدَه.

سِرُّ التَّعْبيرِ بِالرُّبوبيَّةِ:

في مَقام الإنْعام والامْتِنانِ يُؤْثَرُ التَّعْبيرُ بِالرُّبوبيَّةِ

عُبّرَ بالرّبوبيَّة في قوله تعالى: ﴿مِّن رَّبِّي﴾ دون الأُلوهيَّة (من اللّه) لأنَّ المَقام مَقامُ إنعام وامْتنان؛ فإرسال الرُّسل من البَشر، هو نِعمة من اللّه على خَلْقه تَسْتحقُّ الشُّكر، وقد عبِّرَ عنها بذلك في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [آل عمران: 164].

(1) قال ابن عاشور في التّحرير والتّنوير: 9/40: "إنّ أكثر موارد (الآية) في القرآن مراد فيه المعجزة، وأكثر موارد (البيّنة) مراد فيه الحجّة"، أي الواضحة الظّاهرة.

دلالَةُ الإضافَةِ في: ﴿مِّن رَّبِّي﴾:

الإضافة في قوله تعالى: ﴿مِّن رَّبِّي﴾ هي إضافة تَشْريفٍ واعْتِزاز وإبْرازٍ لِنِعمة اللّه عليه، وهي النّعمة الّتي لَم يُدْرِكْها قوْمه، ولَم يَعتَرفوا بها، ولِذا لَم يَقُل: (من ربّكم).

الإضافَةُ اعْتِزازٌ واعْتِرافٌ بِفَضْلِ الله عَلَيْهِ

دلالَةُ الواوِ في: ﴿وَرَزَقَنِي﴾:

﴿وَرَزَقَنِي﴾ في قوله تعالى: ﴿وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾ الواو هُنا عاطِفَة، لِلجَمْع بيْن نِعْمتَين قد أنْعَم اللّه بهما عليه، وهما الرِّسالة المَدْلولُ عليها بقَوْله: ﴿بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي﴾، والرِّزْق الحَلال المُبارَك المَدْلولُ عليه بقوْله: ﴿وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾. وفي ذلك مَزيدُ فَضْلٍ وإحْسان.

دلالَةُ الرِّزْقِ في: ﴿رِزْقًا حَسَنًا﴾:

فُسِّرَ الرِّزْق الحَسَنُ بالنُّبوَّة، في قوله سبحانه ﴿وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾، ووجْه كَوْنها رِزقًا حسَنًا، أنّ النّجاة في الآخِرَة مُتوقِّفة على مُتابعتها، فهي مَناطُ الحياة الأبَديَّة[1] وعندئذٍ يَكون التّعبير عن النُّبوَّة بالرِّزْق من قَبيل المُشاكَلَة لِقوْلهم: ﴿أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ﴾[2].

تَحْقيقُ القَوْلِ في المُرادِ بِالرِّزْقِ الحَسَنِ

والأظْهر أنَ المُرادَ بالرّزْق الحَسَن: الرّزْق الحَلال الطّيّبُ، وهو قَول أكثَرِ المُفسّرين[3] وما يُرجِّحُه فَضلًا عن ذلك أُمورٌ:

منها: أنّ تفسيره بالنّبوَّة لا يُضيف جديدًا؛ لأنّ النّبوَّة مدلولٌ عليها بكلمة ﴿بَيِّنَةٍ﴾، أمّا تفسيره بالرِّزق الحسَن فهو تأسيس، فلَه على هذا حقّ التّقديم.

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/233.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/143.
(3) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/145، وأبو حيّان، البحر المحيط: 6/198، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 18/388، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 9/358، والآلوسيّ، روح المعاني: 6/314.

ومنها: أنّه القوْل الأنْسَب لِلمَقام والأوْفَق لِلسّياق، لِيَكون حجّة في مواجهة كَسْبِهم الخبيثِ الّذي جَمَعوه من ظُلْم النّاس والتّطْفيف في الكَيل والوزن، وفيه دَعْوة لهم لِيوازِنوا بيْن بَرَكة الحَلال ومَحْقِ الحَرام.

ومنها: أنّ الكلام عندَئذٍ يَكون مَحمولًا على حقيقته، لا على مَجازه، والحمْل على الحقيقة أوْلى ما لَم يَتعذّر الحمْل عليها، وهو هُنا غيْرُ مُتَعذّر، بل أنْسب لِلمَقام وأوْفق للسّياق.

دلالَةُ تعبير شعيب بقوله: ﴿وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾:

لَوْ كانوا راشِدينَ لَعَلِموا صِدْق دَعْوةِ نَبيِّهِمْ إيّاهم إلى الخَيْرِ

في قوله: ﴿وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾ دلالةٌ على أنّه عليه السلام كان غنيًّا كثيرَ المال[1] وأنّه كان مُبارَكا له فيه، الأمْرُ الّذي جعَلَه يَسْتدرِجهم لِلنّظر في حال الغِنى مع البَرَكة، لِيَتَحقَّقوا من أنّ وصْفهم إيّاه بـ ﴿ٱلرَّشِيدُ﴾ هو في مَحلّه، ولِيَعلَموا أنّه ما دعاهم إلّا إلى خيْر مَدلول عليه بحالِه الّتي يَعيشها من الغِنى بالحَلالِ الطَّيّب المُبارَك.

سِرُّ التَّعْبيرِ بِالفِعْلِ الماضي ﴿وَرَزَقَنِي﴾:

الرِّزْقُ فَضْلٌ مُتَحَقِّقٌ عايَنوهُ

عبّر بالفِعل الماضي لِتَحقُّق وُقوعِ الرّزق الحسَن الحلالِ الطّيّب، ولا شكّ أنّهم قد عايَنوه، وشاهدوا أثرَهُ على شُعيب عليه السلام.

دلالَةُ ياءِ المُتَكَلِّم في ﴿وَرَزَقَنِي﴾:

إسْنادُ النِّعْمَةِ إلى المُنْعِم اعْتِرافٌ وشُكْرٌ

تدُلّ ياء التَّكلُّم الّتي هي مفعول (رزق) على إسنادِه أمْرَ الرّزق إلى ربّه، لا إلى ذكائه ولا مهارَته، ولا غَزْو فهو نَبيٌّ مُرْسَلٌ يَعرف كَيف يَؤولُ بِالنِّعم إلى المُنعِم، وليس كما قال قارونُ اغْترارًا بما مَنَّ اللّه به عليه من الكنوز الكَثيرِ والكَثير، قال: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِيٓ﴾ [القصص: 78].

بَيانُ المُتَشابِهِ اللَّفْظيّ:

بَيْن قوْله تعالى على لسان شُعيب عليه السلام: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 18/388، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 9/358.

عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾ وبَيْن قوْله تعالى على لسان صالح عليه السلام ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿٦٣﴾﴾ [هود: 63] الآية، وبَيْن قوْله تعالى على لسان نوح عليه السلام ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [هود: 28].

دلالَةُ التَّقْديم والتَّأْخيرِ والاخْتِلافِ والاتِّفاقِ في هذا المَشْهَدِ:

أوَّلًا: الاتِّفاقُ في المَواضِعِ الثَّلاثَةِ ودلالَتُهُ.

اتَّفَقَت المواضع الثّلاثة في اسْتِهْلالها بنَفْس جُملة الشّرْط بَعد فِعل القوْل ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي﴾؛ وهذا دليل على صِدق هؤلاء الأنبياء جميعًا، وأنّهم على تباعُدِ أزمانهم وأوْطانهم، هم جميعًا مُتَّفِقون في منهج الدّعْوة، القائم على الحجّة والبَيّنة.

ثانيًا: الاخْتِلافُ في المَواضِعِ الثَّلاثَةِ ودلالَتُهُ.

أ – الاختلاف في التّعبير بِكَلمة ﴿وَرَزَقَنِي﴾ في كلام شُعيب عليه السلام، و﴿وَءَاتَىٰنِي﴾ في كلام نوح وصالح عليهما السلام. وتَوْجيه ذلك: أنّ قوْل شُعيب عليه السلام ﴿وَرَزَقَنِي﴾ قد وقع مَحْصورًا بَيْن سابِق ولاحِق جَعَلا من المُناسِب التّعبيرَ به دون التّعبير بـ ﴿وَءَاتَىٰنِي﴾ [هود: 28، 63] وذلك أنّه قد تقدَّمه ذِكرُ الأموال، وتأخَّر عنه قوْلُه ﴿رِزْقًا حَسَنًا﴾ فناسَبَ أنْ يقول: ﴿وَرَزَقَنِي﴾.

وأمّا في كلام نوح وصالح عليهما السلام؛ فقد تَقَدَّمهما أمورٌ عامَّة، فناسَبَها قوْل: ﴿وَءَاتَىٰنِي﴾[1].

ب – الاختلاف في جواب الشَّرْط حَذفًا وذِكرًا:

وذلك أنّه في المَوضع الخاصِّ بشُعيب عليه السلام: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾ حُذِفَ جوابُ الشّرْط، ولَم يُحْذف في المَوضعَين الآخَرين. أمّا فيما جاء على لِسان نوح عليه السلام من قوله: ﴿يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [هود: 28] فالجواب هو قوْله: ﴿أَنُلْزِمُكُمُوهَا﴾، أيْ: أنُكْرِهُكُم على قَبولها وأنتم لا تَختارونها.

(1) الأنصاريّ، فتح الرّحمن، ص: 263.

وكذلك فيما جاء على لِسان صالِح عليه السلام من قوله: ﴿يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي مِنۡهُ رَحۡمَةٗ فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِنۡ عَصَيۡتُهُۥۖ﴾ [هود: 63]، فالجواب مَذْكور وهو قوله: ﴿فَمَن يَنصُرُنِي﴾، أيْ: أخْبِروني إنْ تَرَكت البَيّنة وتابَعْتُكم، فمَن يَمْنعني من عذاب اللّه؟

بَلاغَةُ حَذْفِ جَوابِ الشَّرْطِ: ﴿إِن كُنتُ﴾:

في تَوْجيهِ حَذْفِ جَوابِ الشَّرْطِ أكْثَرُ مِن احْتِمالٍ

منْهُ أنّه حذَفه لتَقدُّم ما يدلّ عليه في سياق الكلام، وهو ما تقدَّم في قِصَّتَي نوح وصالِح عليهما السلام. أمّا في قصّة نوح: فهو قوله: ﴿أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتۡ عَلَيۡكُمۡ أَنُلۡزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمۡ لَهَا كَٰرِهُونَ ٢٨﴾ [هود: 28]، الجواب: ﴿أَنُلۡزِمُكُمُوهَا﴾ [هود: 28]، أي: أنُكْرِهكم على قَبولها وأنتم لا تختارونها.

وأمّا في قصّة صالِح: فهو ﴿أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي مِنۡهُ رَحۡمَةٗ فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِنۡ عَصَيۡتُهُۥۖ﴾ [هود: 63]، الجواب: ﴿فَمَن يَنصُرُنِي﴾ [هود: 63]، أي: أخبروني إنْ تَرَكتُ البَيّنة وتابَعْتُكم، فمَن يَمْنَعني من عذاب اللّه؟

ولمّا كانت الآيتان قَريبَتَي العَهد؛ لكونهما في هذه السورة، صَلَحتا أنْ تكونا قَرينتَين للحَذْف، والمُقدَّر ها هُنا هو قوله: "أيَصحُّ لي أنْ لا آمُرَكم"، وهو اعتذار عمّا أنْكروا عليه من تَغيير المَألوفات[1] ومنه أنّ المَحْذوف يدلّ عليه قوله: ﴿إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي﴾ والتّقدير: ماذا يَسَعُكم في تكذيبي، أو ماذا يُنجيكم من عاقبة تَكذيبي[2] ومنه أنّه حذَفه لتَذهب النّفْس فيه كلَّ مذْهَب[3].

دلالَةُ تَقْديم الجارِّ والمَجْرورِ ﴿مِنْهُ﴾:

التَّقْديمُ لإفادَةِ الاهْتِمام والاخْتِصاصِ

يُفيد تقديم الجارّ والمَجرورِ ﴿مِنْهُ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَرَزَقَنِي

(1) الطّيبيّ، حاشية على الكشّاف: 8/170.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/143، وأبو حيّان، البحر المحيط: 6/198.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/358.

مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾ الاهتمام والاختصاصَ. أمّا الاهتمام فهو بالرّازِق سبحانه اعترافًا بفضله، كما في قوله: ﴿رَبِّ ٱبْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي ٱلْجَنَّةِ﴾ [التحريم: 11] فقدّمَتِ الجارَ على الدّارِ أُنْسًا به واهْتمامًا في الجِوارِ ورَغبة به، وأمّا الاختصاص، فإنّه لا رازِق سِواه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ۝٥٨﴾ [الذّاريات: 58]، و(من) هُنا ابتدائيّة على مَعنى: رِزقٌ يَبدأ من عند ربّي.

دلالَةُ الإضْمارِ في: ﴿مِنْهُ﴾ دونَ الإظْهارِ:

أوثِر الإضمارُ هُنا على الإظهار في قوله: ﴿مِنْهُ﴾ لِوُضوحه فالرّزْق لا يَكون إلّا من اللّه، وأيضًا لقُرب العَهد بذِكْره في قوله: ﴿إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي﴾.

لا رازِقَ إلّا الله تَعالى

سِرُّ التَّعْبيرِ بِالمَصْدَرِ ﴿رِزْقًا﴾:

التّعبير بالمَصْدَر دالٌّ على الحَدَث وهو الرِّزْق مُجرَّدًا عن الزّمان، فالتّعبير به آكَدُ، ويَزيدُه تأكيدًا هُنا أنّه مؤكَّد بفِعْله ﴿وَرَزَقَنِي﴾... ﴿رِزْقًا﴾.

التَّعْبيرُ بِالمَصْدَرِ لِلتَّأْكيدِ

دلالَةُ وصْفِ الرِّزْقِ بِالحَسَنِ:

أوثِر الوصفُ بالحَسَن على الوصْف بالطّيّب في قوله تعالى: ﴿رِزْقًا حَسَنًا﴾؛ لأنّ الحسن عبارة عن كلّ مُبهج مرغوب فيه[1] فهو أعمُّ من الطّيّب، الّذي يُطلَق اصطلاحًا شرعيًّا على الحلال، كما في قوله تعالى: ﴿فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ [النساء: 3] أي ما حلّ لكم من النّساء. وقوله: ﴿وَلَا تَتَبَدَّلُواْ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ﴾ [النساء: 2] أي: لا تتبدَّلوا الحرام بالحلال.

كُلُّ طَيِّبٍ حَسَنٌ، ولَيْسَ كُلُّ حَسَنٍ طَيِّبًا

وعلى هذا فالمناسب هُنا الوصْف بالحسن لا الوصف بالطّيّب؛ لأنّ قوم شُعيب عليه السلام لَم يكونوا مشغولين بالحلال والحرام، ولكنَّهم

(1) الرّاغب، المفردات: (حسن).

مشغولون بكثرة الرّبح، فإذا كان الرّبح كثيرًا لا يهمّهُم أنْ يكون من حلال أو حرام، ولأنّه ﷻ قد تمتّع بالرّزق الكثير الحلال كما أشرنا إلى ذلك سلفًا، فقد صدَّر لهم الوصْف الّذي يعجبهم مشمولًا فيه وصف الحلال، أيْ أنّ التّعبير بالحسَن أعمّ من التّعبير بالطّيّب، فكلّ طيّب حسن، وليس كلّ حسن طيّبًا.

تَوْجيهُ التَّنْكيرِ في: ﴿رِزْقًا﴾:

التَّنْكيرُ لِلتَّفْخيم والتَّعْظيم

دلّ التّنكير في قوله: ﴿رِزْقًا﴾ على تفخيم شأنه وتعظيم حالِه؛ أنْ كان من ربّه واهب النِّعم، وزاد تفخيمه وصْفُه بالحسن.

دلالَةُ الواوِ في: ﴿وَمَآ أُرِيدُ﴾:

سَبيلُ البَيّنَةِ منَ الله تَعالى يُنافي الإتْيانَ بِالمَنْهيِّ عَنْهُ

الواو عاطفَة لجملة ﴿وَمَآ أُرِيدُ﴾ وهي جملة لا محلَّ لها من الإعراب، على جملة ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾ الاستئنافيَّة[1] ليُقرِّر أنّ سبيل البيّنة من ربّه ينافي الإتيان بالمنهيّ عنه.

بَلاغَةُ أُسلوبِ النَّفْي:

أداةُ النَّفْي (ما) آكَدُ وأوْسَعُ منْ (ليس)

استَعملت جملةُ النّفْي في قوله: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ﴾ أداةَ النّفي ﴿وَمَآ﴾ وهي آكَد وأوسعُ من (ليس) فيما لو كان التّعبير (ولست أريد) والمراد بالنّفي هنا نفْيُ الحال والاستقبال؛ لأنّه ليس من شأنه ﷻ أنْ يخالِف فيأتي ما ينهى عنه، أو يقصد مخالفتهم ليَنْفرد بما يتولَّون عنه دونهم[2]، لا في الحال ولا في الاستقبال، فهو نبيٌّ لا يتأتّى منه ذلك.

سِرُّ التّعْبيرِ بِالإرادَةِ:

نَفْيُ الإرادَةِ أبْلَغُ منْ نَفْي الفِعْلِ

عبّر بنفْي الإرادة دون نفي الفعل مَثلًا فقال: ﴿وَمَآ أُرِيدُ﴾ بدل (وما أفعل) أو (وما أقصد)؛ لأنّ نفْيَ الإرادة أبلَغ من نفْي الفعل،

(1) الخطيب وآخران، التّفصيل في إعراب التّنزيل: 6/153.
(2) الخفاجيّ، حاشية الشّهاب: 6/315، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/144.

فالإرادة تسبِق الفعل، فإذا نفاها كان نفيه للفعل من باب أوْلى. وعلى هذا المعنى من المبالَغة في النّفي ورَد قوله تعالى: ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٨﴾ [آل عمران: 108].

بَلاغَةُ التَّضْمينِ في فِعْلِ الإرادَةِ:

ضمّن الفعل (أراد) في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أُخَالِفَكُمۡ إِلَىٰ مَآ أَنۡهَىٰكُمۡ عَنۡهُۚ﴾ معنى (قصد)، أو (ابتغى) والمُتعدّي بـ ﴿إِلَىٰ﴾. والمعنى: وما أقصِد ولا أبتغي إلى ما نهيتكم عنه مخالفتَكم إلى البخْس في المكيال، والتَّطفيف في الميزان لأحقِّق لنفْسي نفعًا. والجمع بيْن دلالَتَي فِعلَين (أريد - أقصد، أبْتغي) أقوى من التّعبير بدلالة الفعل الواحد (أريد)[1].

ضمّنَ (أُريد) مَعْنى القَصْدِ والابْتِغاءِ

دلالة التّعبير بالمصْدَر المؤوَّل:

اختيار المصْدر المؤوّل بدل الصّريح في قوله: ﴿أَنۡ أُخَالِفَكُمۡ﴾؛ لأنّ الزّمن هنا مقصود، فهو نفْي لإرادة مخالفتهم إلى ما نَهاهم عنه حالًا واستقبالًا، أيْ بعد صدور نهْيه إيّاهم عمّا نَهاهم عنه. فضلًا عمّا في المصْدر المؤوّل ولا سيّما مع (أنْ) من دلالة على مجرَّد معنى الحدَث دون احتمال زائد عليه، ففي (أنْ) تخليص له من شوائب الإجمال بتحديد هيئات المخالَفة وكيفيّاتها؛ فالنّفي مخصِّص للمخالَفة فحسْب[2].

نَفْي إرادة مخالفتهم إلى ما نَهاهم عنه حالًا واستقبالًا

سرّ اختيار فعل ﴿أُخَالِفَكُمۡ﴾:

يُقال: خالفني فلان إلى كذا، إذا قصَده وأنت مولٍّ عنه، وخالفني عنه، إذا ولّى عنه وأنت قاصده. ويلقاك الرَّجل صادرًا عن الماء فتسأله عن صاحبه، فيقول: خالَفني إلى الماء، يُريد أنّه قد ذهب إليه واردًا، وأنا ذاهب عنه صادرًا[3].

إيثار الفعل (أخالفكم) على غيره لكَونه أدلَّ على قصْده

(1) محمد عفيف، الشّامل في بلاغة القرآن: 2/61.
(2) السّامرّائيّ، معاني النّحو: 3/149.
(3) المنتجب الهمذانيّ، الكتاب الفريد: 3/512.

وعلى هذا فالسّرّ في اختيار الفعل ﴿أُخَالِفَكُمْ﴾ دون غيره؛ لأنّ التّعبير به يدلّ على نفْي القصْد إلى فعل ما يُنْهى عنه، مع تولّي الطّرف الآخر عن الفعل، كمَن يخادع النّاس فيَنْهاهم عن فعل شيء لكَونه يُريد الاستئثار بفعله والاستبداد به، فإذا أطاعوه وانْخَدَعوا له قصَد هو إلى الفعل فاستأثَرَ به دونهم. فيَقَع هذا في دائرة قوله تعالى: ﴿۞أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾ [البقرة: 44].

ومثال ذلك أنْ يحاول تاجِرٌ أنْ يصرِف غيرَه من التّجّار عن سِلعة معيّنة؛ لأنّه يريد احتكارَها لنفْسه، فيَعيبها ويذمّها أمامهم وكأنّه الحريص على مصلحتهم، فإذا انصاعوا لكلامه، خلصَتْ له دونهم، فيكون ذلك أبلغ في الذمّ. فإذا نَفَى عليه السلام عن نفسه ذلك ظهَر أنّه ما نهاهم عمّا نهاهم عنه إلّا خوفًا عليهم، وهو أوّل المُعْرضين عنه.

بلاغة التّضمين في: ﴿إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ﴾:

تعدّى الفعل ﴿أُخَالِفَكُمْ﴾ إلى مفعوله وهو المَوصول ﴿مَآ﴾ بحرْف الجرّ ﴿إِلَىٰ﴾ وليس حرْف الجرّ اللّام؛ لأنّه متضمّن معنى القصْد والذّهاب، وكلٌّ من (قصَد) و(ذَهَب) حال التّعدّي يتعدّيان بالحرْف (إلى) الدّالّة على انتهاء الغاية. فقولك: خالفت إلى كذا إذا ذهبت إليه بينما غيرك منصَرِف عنه، وفي التّضمين تجتمع قوّة الفعلَيْن، على معنى: لا أريد أنْ أخالفكم مخالفة أذهب معها إلى أنْ أنهاكم.

الدلالة على انتهاء الغاية مقصود في الكلام

دلالة التّعبير بـ ﴿مَآ﴾:

التّعبير بـ ﴿مَآ﴾ الموصولة في قوله تعالى: ﴿إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ﴾ مقصود به الجمع والاختصار، فما من شكٍّ في أنّها أجمَع وأخصَر بخلاف (الّذي) الّتي تُناسِب التّعيين والتّحديدَ.

التّعبير بـ (ما) أجمعُ وأخصرُ

سرّ اختيار الفعل ﴿أَنْهَىٰكُمْ﴾:

اختيرَ الفعل ﴿أَنْهَىٰكُمْ﴾ دون غيره؛ لتقدُّم عدد من جُمَل النّهْي، الّتي خاطب بها شعيب عليه السلام قومه على جِهة الطّلب فقال ناهيًا: ﴿وَلَا

تَنقُصُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَۖ﴾ وقال: ﴿وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ﴾.

وجه التّعبير بالمضارِع ﴿أَنۡهَىٰكُمۡ﴾:

طريق الدّعوة غير ممهَّد ويحتاج إلى صبر وتَكرار وتحمُّل

عبّر بالمضارع ﴿أَنۡهَىٰكُمۡ﴾ دون الماضي (نهيتكم)؛ لأنّه عليه السلام كان يواصل نُصْحهم بنشاط متجدِّد دونما فتور أو توقُّف؛ لكَونه رسولًا مُكلَّفًا بدعوتهم والدّعوة لا تعرف اليأس ولا الملل، ولكونه حريصًا على إيمانهم وبُعدهم عمّا نهاهم عنه. والّذي دَعاهُ عليه السلام إلى هذا القوْل: "إمّا لأنّه عرف من مَلامح تكذيبهم أنّهم تَوهَّموه ساعيًا إلى التّملُّك عليهم والتّجبُّر، وإمّا لأنّه أراد أنْ يَقلَع من نُفوسهم خواطر الشَّرّ قبْل أنْ تَهجِس فيها"[1].

دلالة الفصْلِ في: ﴿إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ﴾:

شِبْه كمال الاتّصال في الجملة المفصولة

أوثِر الفَصْل في الجملة، للاستئناف البيانيِّ؛ إذ إنّها وقَعت مَوقع الجواب عن سؤال مقدَّر، فكأنّه لمّا قال: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أُخَالِفَكُمۡ إِلَىٰ مَآ أَنۡهَىٰكُمۡ عَنۡهُۚ﴾ قيل: وماذا تريد؟ فقال: ﴿إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُۚ﴾[2].

دلالة أسلوب القصْر:

قصر الصِّفة على الموصوف لتأكيد إخلاصه لهم في النُّصح

قصَر في قوله: ﴿إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ﴾ صِفةً على موصوف؛ أمّا الصِّفة المقصورة، فهي إرادة شعيب عليه السلام، وأمّا الموصوف المقصور عليه، فهو الإصلاح[3]، ووقَع القصْر هنا بالاستثناء بعد النّفي الّذي يؤتى به مع المنكِر، وقد أراد بأسلوب القصْر هذا أنْ يبيِّن لهم مؤكِّدًا، أنّه ليس له من مَصلحة خاصّة فيما يقوم به من دعوتهم إلى عبادة اللّه وتوحيده، وإلى عدَم ظُلم النّاس وبخْس حقوقهم، وإنّما الغاية

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/144.
(2) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 10/177.
(3) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 2/120.

هي مصلحتهم هُم، فهو لا يريد لهم إلّا الإصلاح. وقد أفادت صيغة القصْر تأكيد ذلك المعنى؛ لأنّ القصْر كان يُمكِن حصوله بمجرَّد الاقتصار على النَّفي والإثبات نَحو أنْ يقول: ما أريد أنْ أخالفكم أريد الإصلاح[1] وعندئذٍ لا تكون إرادته محصورة في الإصلاح بل قد تتجاوزه إلى غيره فتضمّه إليه.

سرّ إيثار النّفي بـ ﴿إِنْ﴾:

النَّفي بـ (إنْ) آكَد من النَّفي بـ (ما)

أوثرَت ﴿إِنْ﴾ في النَّفي على (ما) في قوله: ﴿إِنْ أُرِيدُ﴾؛ لأنّ النَّفي بها آكَد من النَّفي بـ (ما)[2] فضلًا عمّا في التّعبير بها من التّفنُّن؛ لأنّه سبَقها النَّفي بـ (ما) في قوله: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ﴾.

سرّ التّعبير بالإرادة في: ﴿إِنْ أُرِيدُ﴾:

استئناف بيانيٌّ وبيان للمجمَل

قوله تعالى حكاية عن شعيب عليه السلام: ﴿إِنْ أُرِيدُ﴾، مَردود إلى قوله السّابق: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ﴾ جوابًا عن سؤال مقدَّر أو بيانًا لمجمَلها:

فعَلى الأوَّل – وقد مرَّ بنا – كأنّهم قالوا: إذا لَم تُرِد المخالفة إلى ما تنهانا عنه، فماذا تريد؟ قال: ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ﴾. وعلى هذا ففي الجملة (شِبْه كمال اتِّصال).

وعلى الثّاني، فإنّ قوله: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ﴾ مجمَل، وبيانه في قوله: ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ﴾ "لأنّ انتِفاء إرادة المخالفة إلى ما نهاهم عنه مجمَل فيما يريد إثباته من أضْداد المَنفيّ فبيَّنه بأنَّ الضِّدَّ المراد إثباته هو الإصلاح في جميع أوقات استطاعته، بتحصيل الإصلاح"[3] وعليه ففي الجملة (كمال اتّصال) لكونها وقعت بيانًا للجملة الأولى[4].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/145.
(2) السّامرّائيّ، على طريق التّفسير البيانيّ: 4/323.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/145.
(4) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 2/120.

علّة اختيار ﴿ٱلْإِصْلَٰحَ﴾:

الإصلاح يكون عقب الإفساد

اختيرَ ﴿ٱلْإِصْلَٰحَ﴾ دون غيره في قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ﴾؛ لكَونه مقابِلًا للإفساد الّذي أحدَثوه في معاملة الخالق؛ بعدم التّوحيد والعبادة، والإفساد في معاملة الخَلْق؛ بالبَخْس والظّلم. فهما سبيلان متقابِلان، الثّاني منهما يعقب الأوّل في سبيل الأنبياء، أي: الإصلاح يعقب الإفساد، ويُعكَس الأمر في سبيل المفسدين الّذين يُفسدون ما كان صالحًا، ولذا قوبِلا كذلك في قوله تعالى حكاية لقول موسى لهارون عليهما السلام: ﴿وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ١٤٢﴾ [الأعراف: 142].

دلالة عدم إضافة الإصلاح إلى ضمير المخاطَبينَ:

الإصلاح عند الأنبياء عامٌّ لجميع النّاس ولجميع ما يُفسد على النّاس دينهم وتماسكهم الاجتماعيَّ

لَم يُضِفِ الإصلاحَ إلى ضمير المخاطَبين بأنْ يقول: (إلا إصلاحكم)؛ لأنّه لو جاء كذلك لكان من باب إضافة المصْدر لمفعوله، فيُفيد أنّهم مخصوصون بهذا الإصلاح ومقصودون بالذّات دون غيرهم، وهذا وإنْ كان مُشعرًا لهم بالاهتمام، لكنَّ فيه تضييقًا وتقييدًا لطلاقة مفهوم الإصلاح عند الأنبياء. وعليه، فمَجيئه هكذا مُطلَقًا عن قيْد الإضافة أدلُّ وأوْفى، على أنْ يدْخلوا فيه دُخولًا أوَّليًّا.

وفضلًا عن هذا فإنّ إيراده مضافًا قد يُذْكي في نفوسهم ما قد وقَع فيها من ريبةٍ، بأنّه كان يتظاهر بالإصلاح، ليُخالفهم إلى ما ينهاهم عنه ويستبدَّ به دونهم، وهو ما نَفاهُ عليه السلام فيما مضى، ثمّ عاد ليؤكِّدهُ وليَقْتلع بذور الشّكِّ من نفوسهم، معلِنًا لهم بأنّ طريقه هو الإصلاح، وأنّ دعوته معتمدة عليه، سواء كان لهم أو لغيرهم.

سرّ التّعبير بالاستطاعة في: ﴿مَا ٱسْتَطَعْتُ﴾:

الاستطاعة قيْدٌ للإصلاح

عبَّر بالاستطاعة هنا بوصْفِه قيْدًا لِما أطلقه من إرادة الإصلاح، فقد قيّده بالاستطاعة. وما يستطيعه في هذا هو القَدْرُ الَّذي يوفّقه اللّه إليه؛ لقوله بعد ذلك: ﴿وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾. و﴿مَا﴾ في قوله:

﴿مَا ٱسۡتَطَعۡتُۚ﴾ مصدريَّة، نائبة عن ظَرْف الزّمان واقعة مَوْقعه، ويقال لها: ما الظَّرفيَّة[1] أيْ: زمنَ استطاعتي، أو مدّةَ استطاعتي. وهذا كما تقول: آتيك خفوقَ النَّجم، أو صياحَ الدّيك[2] وهذا أظهر ما قيل في ﴿مَا﴾[3]، وفي التّعبير بالاستطاعة إيماءٌ إلى تواضعه عليه السلام؛ إذ قيّد الاستطاعة على الإصلاح بتوفيق اللّه تعالى؛ فالاستطاعة المُطلَقة للّه تعالى وليس لمخلوق مهْما علَت منزلته.

بلاغة الاحتراس في: ﴿وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ﴾:

دفع توهّم نسبة الفضل إلى غير الله تعالى

جاء بقوله تعالى: ﴿وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ﴾ بعد الجملة السّابقة عليها ﴿إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُۚ﴾؛ وذلك أنّه لمّا بيّن لهم حقيقة عمله، وأنّه ما يريد إلّا الإصلاح، وكان في بيانه ما يَجرّ الثّناء على نفْسه، أو قد يتوهّم ذلك بعضُ مَن يسمعه يَقوله، أعقبه بما يزيل ذلك التّوهّم، بإرجاع الفضل في ذلك إلى اللّه فقال: ﴿وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ﴾[4].

سرّ التّعبير بالتّوفيق عن الإصلاح:

التّوفيق سبب لحصول الإصلاح ونشاط المصلِح

ظاهرٌ أنّ السّرّ في تسمية الإصلاح توفيقًا في قوله تعالى: ﴿وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ﴾، راجعٌ إلى كونه السّبب فيه، فلا إصلاح ولا طاعة أصلًا، إلّا بتوفيق من اللّه. أيْ بإرادته وهَدْيه[5] وكذلك المصلِح فإنّه لا ينشط له إلّا بتوفيق من اللّه.

نكتة التعبير بالتّوفيق:

التّعبير بالتّوفيق أدلّ وأقوى من التّعبير بالنّجاح

السّبب في اختيار التّوفيق تعبيرًا في قوله: ﴿وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ﴾ بدل النّجاح ونحوه؛ لأنّ التّعبير به أتمُّ؛ إذ التّوفيق يعني جعْل الشّيء

(1) المراديّ، الجنى الداني، ص: 230.
(2) شيخ زاده، حاشية على تفسير البيضاويّ: 4/685، والمنتجب، الكتاب الفريد: 3/512.
(3) الخطيب وآخران، التّفصيل في إعراب التّنزيل: 6/88.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/145.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/145.

وفقًا لآخَر، أيْ طِبقًا له وذلك بخَلْق قُدْرة وفْق الأمر من الطّاعة[1] وليس كذلك النّجاح؛ إذ لا يشترط فيه تمام المطابَقة، بل هو بلوغ المراد وقضاء الحاجة[2] وسيأتي في الفروق اللّغويّة مزيد بيان للفرْق بيْن التّوفيق والنّجاح.

دلالة أسلوب القصْر:

لا يُستمدّ التّوفيق إلّا من الله

القصْر في قوله: ﴿وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ﴾ من باب قصْر صِفة - وهي التّوفيق -، على موصوف هو ﴿بِٱللَّهِۚ﴾[3]، أيْ أنّ الحال أنّه لا يكون توفيق أبدًا إلّا إذا كان بمَدد اللّه وعَونه وحولِه وقوّته.

دلالة الباء في: ﴿إِلَّا بِٱللَّهِۚ﴾:

لا استعانة إلّا بالله تعالى

الباء هنا هي باء الاستعانة، الّتي تدخل على المستعان به، والمستعان به هنا هو اللّه تعالى، فلا مُعين على الطّاعة سِواه. وبهذا يظهر لماذا كان التّعبير بالباء دون غيرها.

سرّ إسناد التّوفيق إلى لفظ الجلالة (الله):

في مَقام التهيّب والإجلال يؤثر التّعبير بِاسم الجلالة

في إسناد التّوفيق إلى لفظ الجلالة دون إسناده إلى اسم الرّبّ، مع كونه نعمة من اللّه وكان يناسبه الإضافة إليه أيضًا؛ لِما أنّ المَقام مقام تهيّب وإجلال، فكان التّعبير بلفظ الجلالة أوْفى بالمقام وأدلَّ على المَرام، وأوْلى لتحقيق غرض تربية المَهابة في قلوب المخاطَبين، وهو ما يحقِّقه التّعبير بالاسم الجليل (اللّه).

دلالة الفصْل في: ﴿عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ﴾:

كمال الاتِّصال في الجملة المفصولة

فُصلت جملة ﴿عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ﴾ عمّا قبْلها، لِما بينهما من كمال اتِّصال؛ لأنّها مؤكِّدة لمعنى ما سبَقها[4].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/360، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/145.
(2) الكفويّ، الكلّيّات، ص: 201.
(3) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 2/120.
(4) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 2/120.

دلالة تقديم الجارّ والمجرور ﴿عَلَيۡهِ﴾:

إفادة القصر والاختصاص

دلَّ تقديم الجارّ والمجرور ﴿عَلَيۡهِ﴾ على قوله ﴿تَوَكَّلۡتُ﴾ لإفادة القصْر، والاختصاص، فالمؤمن لا يتوكَّل إلّا على الله، ولا يخصّ غير الله في توكّله. ولأجْل هذا شاع هذا التّقديم في مواضع وُروده في القرآن الكريم، كما في قوله تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُلۡ حَسۡبِيَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ﴾ [التوبة: 129] وقوله: ﴿إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۖ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ وَعَلَيۡهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ ٦٧﴾ [يوسف: 67] وقوله: ﴿قُلۡ هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيۡهِ تَوَكَّلۡنَاۖ﴾ [الملك: 29].

سرّ اختيار التّوكُّل، والتّعبير به ماضيًا:

التّوكُّل اعتماد كامل على الله مع تفويض مُطلَق له سبحانه

في قوله تعالى: ﴿عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ﴾ عبّر البيانُ القرآنيُّ بالتّوكّل دون غيره كالاعتماد مَثلًا مع كونه حقيقة فيه[1]؛ لكون التّوكّل اعتمادًا مع تفويض[2] كامل لله ﷻ، مع الأخذ بالأسباب.

وعبَّر عن التّوكّل بالماضي، للدّلالة على كونه ملازِمًا له من قبْل لَم يفارقه، وأنّه لَم يستَحْدثه الآن - أي وقت الخطاب - بل هو مُداوم عليه.

دلالة الوصْل في: ﴿وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ﴾:

وُصِلت الجملة بسابقتها عَطفًا بالواو؛ لاتِّفاقهما في الخبَريَّة لفظًا ومعنًى مع عدم المانع من العطْف، فبينهما على هذا (توسُّط بيْن الكمالَين)[3].

دلالة تقديم الجارّ والمجرور في: ﴿وَإِلَيۡهِ﴾:

لا تكون الإنابةُ إلّا لله

دلّ تقديم الجارّ والمجرور ﴿وَإِلَيۡهِ﴾ على قوله ﴿أُنِيبُ﴾ على ما دلّ عليه تقديمه في قوله: ﴿عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ﴾ وهو إفادة القصْر. فكَما أنّ التّوكُّل لا يكون إلّا على الله، فهكذا الإنابة، فإنّها لا تكون إلّا إليه.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 4/151.
(2) الكفويّ، الكلّيّات، ص: 303.
(3) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 2/120.

وجه إيثار لفظ (الإنابة):

الإنابة تعني الرّجوع بالنّدم والتّوبة وليس مُطلَق الرّجوع

واختيرَ التّعبير بلفظ الإنابة دون الرّجوع في قوله تعالى: ﴿وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾؛ لأنّ المقصود هو العودة إلى اللّه تعالى بالتّوبة والنّدم على المعاصي، وهو معنى الإنابة. قال ذلك ﷻ ترغيبًا لهم في التّوبة والنّدم على ما هم فيه، ولا يدلّ لفظ الرّجوع على نفْس المعنى؛ لأنّ معناه المصير إلى الموضع الَّذي قد كانَ فيهِ قبل[1]، ولا يعني الرّجوع بالتّوبة والنّدم، بل قد يعني الرّجوع إلى المعصية، وسيأتي في الفروق المعجميّة بيان الفرْق بيْن لفظَي الإنابة والرّجوع.

ثمّ إنّ في هذا التّركيب ﴿وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ بُعدًا آخَر، وهو أنّه ﷻ ينزِّل نفْسه منزلة المذنب الّذي يحتاج دوْمًا إلى التّوبة والإنابة، وفيه إغراء لهم على الرّجوع إلى اللّه مُنيبين إليه.

نكتة التّعبير بالمضارِع ﴿أُنِيبُ﴾:

استخدام المضارع لإفادة التّجدُّد والاستمرار

دلّ التّعبير بالمضارع دون الماضي في قوله تعالى: ﴿وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ على دوام إنابَته ﷻ لربّه، واستمراره عليها، وتجدّد إعلانها وإظهارها بالتّعبير في كلّ مَوقف يستدْعيها.

بلاغة عطْف المضارع على الماضي:

الإنابة مستمرّة متجدِّدة

عطف المضارع على الماضي في قوله تعالى: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ للدّلالة على استمراريّة الإنابة منه؛ لأنّ صيغة المضارع تفيد التّجدُّد والاستمرار، واستعمال الماضي ﴿تَوَكَّلْتُ﴾ للدّلالة على الوقوع والتّحقّق، ويساعد في الدّلالة على الاستقبال ما في مادّة الفعل من الثّبوت المستمرّ على الصِّفة الّتي يفيدها الحدَث[2].

أثر التّعبير بصيغ الإفراد:

من منهج الأنبياء في الدّعوة التّواضع مع الله

أوثر التّعبير بصيغة الإفراد فيما ورَد في دعوة شعيب ﷺ في كلٍّ

(1) العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 303.
(2) محمد عفيف، الشّامل في بلاغة القرآن: 2/61.

من: ﴿أُرِيدُ﴾ و﴿ٱسۡتَطَعۡتُ﴾ و﴿تَوَكَّلۡتُ﴾ و﴿أُنِيبُ﴾ إظهارًا لِلتّواضع للّه أوّلًا، ثمّ لهم حتّى يدّرأ به توهّم التّعاظم عليهم في خطابه لهم.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الرُّؤيةُ والعلمُ:

العلم أوسع مدًى من الرّؤية لأنّها لا تكون إلّا للموجود وهو يكون للموجود وغيره

تستعمل الرؤية في معنى العلم كثيرًا في القرآن الكريم وفي غيره، ويُطلَق عليها الرّؤية العِلْميّة في مقابِل الرّؤية البَصَريّة الّتي يكون معتمَدُها البَصَر؛ بأنْ يرى الشيء بالعين، ومن حيْث الأصلُ، فإنّه يفرَّق بينهما بأنّ الرُّؤْيَة لا تكون إلّا لِلْمَوْجود، فالعيْن لا ترى إلّا موجودًا أمامها، وأمّا العِلْم فهو أوسع مدًى؛ لأنّه يتَناول المَوْجود والمعدوم.

وفي اللُّغة والاستعمال القرآنيّ تأتي الرّؤية على ثلاثَة أوْجُه:

أحدها: العِلم: وهو حاصل بوفرة في خطابات القرآن الموجَّهة للرّسول ﷺ المستفْهَم عنها بالرّؤية في أمور لَم يشاهِدْها لِبُعدها الزّمنيّ عن عصْره، كقَوْله تَعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِي حَآجَّ إِبۡرَٰهِـۧمَ فِي رَبِّهِۦٓ﴾ [البقرة: 258] وقوله: ﴿أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦﴾ [الفجر: 6] وقوله: ﴿أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصۡحَٰبِ ٱلۡفِيلِ ۝١﴾ [الفيل: 1]. وهو المقصود في الآية.

وثانيها: أنْ تأتي بمعنى الظَّنِّ، كالّتي في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمۡ يَرَوۡنَهُۥ بَعِيدٗا ۝٦﴾ [المعارج: 6] أي يظنّونه. وقوله: ﴿يَرَوۡنَهُم مِّثۡلَيۡهِمۡ رَأۡيَ ٱلۡعَيۡنِۚ﴾ [آل عمران: 13] أي: يظنّونهم بحسب مقتضى مشاهدة العيْن مثلَيْهم.

وثالثها: الرّؤية بالبصَر، وهو المعنى الأصل في استعمال التّعبير بلفظ الرّؤية.

والوجهان الأوّل والثّاني من باب المَجاز، والثّالث من باب الحقيقة[1].

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 94، والرّاغب، المفردات: (رأى).

البيّنةُ والآيةُ:

أكثر موارد الآية في القرآن مراد فيه المعجزة، وأكثر موارد البيّنة مراد فيه الحُجّة

يستعمل القرآن الكريم كلًّا من (البيّنة) و(الآية) للدّلالة على المعجزة الّتي أيّد الله ﷻ بها أنبياءه، لتكون دليل صدقهم، وتطلَق (البيّنة) ويراد بها الحُجّة والبرهان العقليُّ، وأمّا عن المعنى الدّلاليّ والاستعماليّ لكلٍّ منهما، فالبيّنة هي الدّلالة الواضحة عقليَّة كانت أو محسوسَة. قال تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ [هود: 17] وقال: ﴿جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ [الأعراف: 101]. ومن هنا اصطُفيَت في سياق الآية لتُعبّر عن الدّلالة الواضحة الظّاهرة، الّتي لا تحتاج لشدَّة وضوحها إلى إجالة نظَرٍ.

و(الآية) لها في اللُّغة وفي استعمال القرآن معانٍ مفصَّلة في كُتب اللُّغة والمفردات[1] منها: العلامة والدّليل والعِبرة، وهذا كلُّه ملحوظ في لفظ الآية حالَ دلالتها على المعجزة الّتي يؤيّد الله تعالى بها رسُلَه، وتكون حُجّتهم أمام المدّعوّينَ. ومن استعمال القرآن الكريم لها في معنى المعجزة قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَٰتٞ مِّن رَّبِّهِۦۚ قُلۡ إِنَّمَا ٱلۡأٓيَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٞ مُّبِينٌ ٥٠﴾ [العنكبوت: 50].

وقد بيّن ابن عاشور مسلك القرآن الكريم في استعمال المفرَدَتَين (الآية والبيّنة) بقوله: "إنّ أكثر موارد الآية في القرآن مراد فيه المعجزة، وأكثر موارد البيّنة مراد فيه الحُجّة، فالمراد بالبيّنة في قول موسى عليه السلام: ﴿قَدۡ جِئۡتُكُم بِبَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ [الأعراف: 105] الحُجّة على إثبات الإلهيَّة وعلى حَقّيَّة ما جاء به من إرشاد لقومه، فكان فرعون غير مقتنع ببُرهان العقل أو قاصرًا عن النَّظر فيه فانتقل إلى طلبِ خارق العادة[2] أي آية أو معجزة.

(1) الرّاغب، المفردات: (أي).
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/40.

التّوفيقُ والنّجاحُ:

التّوفيق يكون بجعْل الشّيء وفْقًا لآخر، أيْ طِبقًا له وذلك بخلْق قُدرة وفْق الأمْر من الطّاعة[1] وليس كذلك النّجاح؛ إذ لا يشترط فيه تمام المُطابَقة، بل هو بلوغ المراد وقضاء الحاجة[2].

التّوفيق يكون في بلوغ ما هو حسن فهو أخصُّ والنّجاح أعمُّ

وبلوغ المراد وتحقيق المطلوب في النّجاح قد لا يكون حسنًا في ذاته. أمّا التّوفيق، فلا يكون إلّا لما حسُن من الأفعال. يُقال: وفِّق فلان للإنصاف. ولا يقال: وفِّق للظُّلم[3].

وعلى هذا فالنّجاح أعمُّ من التّوفيق، فكلُّ توفيق نجاح وليس كلُّ نجاح توفيقا، وفي هذا تعليل لاختيار لفظ ﴿تَوۡفِيقِيٓ﴾ على لسان شعيب عليه السلام دون غيره؛ إذ لا يناسِب النَّبيَّ إلّا ما حسُن من الأفعال.

الإنابةُ والرُّجوعُ:

يشترك كلٌّ من الإنابة والرّجوع في معنى العودة، لكن يُفرّق بينهما بأنّ الإنابة تعني الرّجوع إلى الله تعالى بالتّوبة بَعد معصية أو مقارفة ذنب، فاللَّفظ خاصٌّ بالرُّجوع إلى الطّاعة، حيْث لا يُقال لِمَن رَجَع إلى مَعْصية: إنَّه أناب[4] أمّا الرّجوع، فهو المصير إلى المَوضع الَّذي قد كان فيه قبْلُ[5] فلا يفيد خصوصيّة المعنى الذي أفاده لفظ الإنابة.

كلّ إنابة رجوع وليس كلّ رجوع إنابة

وعلى هذا يكون بينهما عموم وخصوص مُطلَق، فكلُّ إنابة رجوع وليس كلُّ رجوع إنابةً.

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/360، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/145.
(2) الكفويّ، الكلّيّات، ص: 201.
(3) العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 218.
(4) العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 303.
(5) العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 303.

﴿وَيَٰقَوۡمِ لَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثۡلُ مَآ أَصَابَ قَوۡمَ نُوحٍ أَوۡ قَوۡمَ هُودٍ أَوۡ قَوۡمَ صَٰلِحٖۚ وَمَا قَوۡمُ لُوطٖ مِّنكُم بِبَعِيدٖ ٨٩﴾

[هود: 89]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

لـيـسَ بـعـدَ الـنّـصحِ عـذرٌ، ولـيـسَ بـعـدَ الـشّـقـاقِ إلّا عذابٌ طباقٌ

لمّا بيّنَ شُعيبٌ عليه السلام لقومه أنَّ غايتَهُ الإصلاحُ بما أوتيَ من توفيقه سبحانهُ، وأنّهُ فوّضَ أمرَهُ إليهِ وحدَهُ، "أتبَعَهُ بما يدلُّهُم على أنَّ الحقَّ وضحَ لهم وضوحًا لمْ يبقَ معهُ إلّا المعاندةُ، فحذّرَهُم عواقبَها، وذكّرهُم أمرَ مَنِ ارتكبَها"[1]، تحذيرًا أنْ يصيبَهُم ما أصابَ الأقوام الّتي يعلمونَ من أمرِها ما يعلمونَ، والّتي أريناها من سوءِ عذابِنا، فاستأصلناها بالغرقِ، والرّيحِ، والرّجفةِ، والخسفِ بما هو عِبرةٌ للأمم والقرونِ.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿لَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ﴾: جذرُ الفعلِ مادّةُ: (جرم)، فالجيمُ والرّاءُ والميمُ أصلٌ واحِدٌ، يدلُّ على القطعِ، وإليه تَرجِعُ المعاني المأخوذة منه. ومعنى جَرَمَ؛ أي: كَسَبَ؛ لأنَّ الَّذي يَحوزُهُ كأنّهُ اقتَطَعَهُ، والكَسبُ اقتِطاعٌ. والمُجرِمُ: المُذنِبُ[2]، وهذه الاستعمالاتُ تعطي معنى الكسبِ والحملِ. فمعنى قوله تعالى: ﴿لَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ﴾: لا يَحملنَّكُم[3]، وكأنَّ كسبَهُ الشّقاقَ والعداءَ اقتطاعٌ من مَوجودٍ حملَهُ إلى استحقاقِ العذابِ.

2) ﴿شِقَاقِيٓ﴾: مادّتُهُ (شقق). و(الشِّقُّ) بالكسرِ: نصفُ الشّيءِ. وهذا شقيق هذا، إذا انشقّ الشّيءُ بنصفين، فكلُّ واحدٍ منهما شقيقٌ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/360.
(2) الخليل، العين: (جرم).
(3) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (جرم).

الآخرِ، ومنه قِيلَ: فلانٌ شقيقُ فلانٍ؛ أي: أخوه، تشبيهًا لهما بالقطعةِ الواحدةِ الّتي انقسمَت شقَّين، والشِّقاقُ: الخلافُ[1]، قال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ﴾ [البقرة: 137]؛ أي: مُخالَفَةٍ[2] والشّقاقُ: المعاداةُ والمغالظةُ[3] والشِّقاقُ بمعنى الخلافِ والعداوةِ، هو المعنى المرادُ في هذه الآيةِ الكريمةِ، فكأنَّ المُخالِفَ أخذَ شقًّا غيرَ الشَّقِّ الّذي أخذَهُ مخالفُهُ.

3) ﴿يُصِيبَكُم﴾: أصلُ مادّتِهِ (صوب)، فالصّادُ والواوُ والباءُ أصلٌ صحيحٌ، يدلُّ على نُزولِ شَيءٍ واستِقرارِ قَرارِهِ. من ذلك الصَّوابُ في القَولِ والفِعلِ، كأنَّهُ أمرٌ نازِلٌ مُستَقِرٌّ قَرارُهُ. وهو خِلافُ الخطأ. ومنهُ الصَّوبُ، وهو نُزولُ المَطرِ[4] والإصابةُ: النّزولُ بالشّيء واللّحاقُ به، خيرًا كان النّازلُ أو شرًّا، كقوله تعالى: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ [النّساء: 79]، ثمّ كَثُرَ في الشّرِّ. وجاءَتِ المصيبةُ بمعنى النّازلةِ في قولِهِ تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ﴾ [البقرة: 156]. ومن هنا يتبيَّنُ أنَّ معنى ﴿يُصِيبَكُم﴾: ينزل بكُم، والمقصودُ بالنّازلِ العذابُ لِما دلَّ عليه السِّياقُ.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

يخاطبُ شعيبٌ عليه السلام قومَه قائلًا: يا قوم لا يَحملَنَّكُم خلافي وعداوتي على التّكذيبِ بما جئتُ به منَ التّوحيدِ ودينِ الحقِّ؛ خوفًا من أن يقعَ عليكُم منَ العذابِ مثلُ ما نالَ قومَ نوحٍ، أو قومَ هودٍ، أو قومَ صالحٍ، وليسَ قومُ لوطٍ منكُم ببعيدٍ، لا زمانًا ولا مكانًا، وقد علمتُم ما أصابَهم منَ العذابِ والهلاكِ بسببِ تكذيبِهم ومُخالفتِهِمُ الحقَّ، فاعتبروا[5].

منهجُ الحقِّ يستنزلُ الرَّحماتِ، ولو مع مَن حشدَ العداواتِ

(1) الخليل، العين: (شقّ)، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (شقق).
(2) الرّاغب، المفردات: (شقّ).
(3) ابن دريد، جمهرة اللّغة: (شقق)، الجوهريّ، الصّحاح: (شقق).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (صوب).
(5) جماعة من العلماء، المختصر في تفسير القرآن الكريم، ص: 232.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

معنى الواوِ ودلالتُها:

مواصلةُ النَّصيحةِ دليلُ تمكُّنِ الأخلاقِ الصَّحيحةِ

الواوُ في قولِه تعالى: ﴿وَيَٰقَوۡمِ لَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شِقَاقِيٓ﴾ عاطفةٌ على الجملة السّابقةِ[1]، فبعدَ أن كانَت نصائحُ شعيبٍ عليه السلام لقومِه تترى في الآيةِ السّابقةِ، أتبعَها هنا بمثلِها، ثمَّ انتقلَ إلى تذكيرِهم بمصارعِ سابقيهِم منَ الأقوامِ الّتي كذّبَت رسلَ اللّهِ، وتحذيرِهم من أن يكونَ مصيرهُم كمصيرِ أولئكَ الظّالمينَ[2].

دلالةُ تكرارِ النّداءِ:

لطفُ الخطابِ واستنزالُ المُنادى بمقتضَى المحبّةِ والشّفقةِ

في تَكرار النّداءِ تنبيهٌ على أهمّيَّةِ الكلام المُلقى بعدَه، وتشويقٌ للعنايةِ بمضمونِه، فقد تكرّرَ النّداءُ: ﴿وَيَٰقَوۡمِ﴾ غيرَ مرّةٍ قبلَ الآيةِ وبعدَها؛ فإنّ شعيبًا لمّا رأى منهُم العصبيّةَ والمراءَ بفراستِه وثاقبِ نظرِه، خاطبَهُم بمُقتضَى محبّتِهم والشّفقةِ عليهِم وإرخاءِ العنانِ[3] لهُم؛ فجاءَ بهذا النّداءِ تلطُّفًا، وفي تكرارِه من رقيقِ الاستدعاءِ ولطفِ المراجعةِ وحسنِ الاستنزالِ ما فيهِ من خطيبِ الأنبياءِ شعيبٍ عليه السلام في أسلوبٍ منهُ لطيفٍ غريبِ المَغزَى، أرادَ أن يُتوصَّلَ بهِ إلى الغرضِ في استدراجِ المُخاطَبِ[4].

توجيهُ التّعبيرِ بقولِه: ﴿لَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ﴾:

الجرمُ قطعُ الثّمرةِ، واستُعيرَ لكلِّ اكتسابِ مكروهٍ

جاءَ التّعبيرُ بلفظِ ﴿لَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ﴾ دونَ غيرِه منَ الألفاظِ؛ لأنّ هذا اللَّفظ مأخوذٌ منَ الجرمِ، وهو قطعُ الثّمرةِ عنِ الشّجرِ، أو جذُّ عراجينِ النّخلةِ، ثمّ استُعيرَ هذا اللّفظُ لكلِّ اكتسابِ مكروهٍ[5] أو ما لا خيرَ فيهِ؛ فأصبحَ ﴿يَجۡرِمَنَّكُمۡ﴾؛ بمعنى: يكسبنَّكُم شائعًا عليهِ، وهو هنا

(1) الهرريّ، تفسير حدائق الرّوح والرّيحان: 13/234.
(2) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 7/261.
(3) الطّيبيّ، الفواتح الإلهيّة: 1/362.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/198.
(5) الطّباطبائيّ، الميزان: 10/373، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 6/86.

اكتسابهُم المصيبةَ؛ أي: لا تجعلوا عداوتَكُم لي سببًا لاكتسابِ العذابِ، وفيه بيانٌ عجيبٌ بتصويرِ اكتسابِ العذابِ النّازلِ منَ السّماء.

غرضُ النّهي وبلاغةُ مجازِه:

الانتهاء عن مشاقَّةِ شعيبٍ عليه السلام انتهاءٌ عن إتيانِ أسبابِ العذابِ، ممّا يؤولُ إلى تركِهِ

في قولِه تعالى: ﴿لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِيٓ﴾ نهيٌ عن كسبِ العذابِ بحسبِ الظّاهرِ، إلّا أنّ حقيقتَهُ نهيٌ للمُخاطَبينَ عن مُشاقَّتِه عليه السلام بأسلوبٍ لطيفٍ بديعٍ[1]؛ لأنَّ الانتهاءَ عن مُشاقَّتِهِ انتهاءٌ عن إتيانِ أسبابِ العذابِ، ومن ثمَّ تركه.

والنّهيُ عنِ الشّقاقِ في الآيةِ جاءَ على طريقِ المجازِ أو الكنايةِ عن نهيهِم هُم عن شقاقِهم إيّاهُ عليه السلام؛ وذلك على جعلِ إضافةِ (شقاق) إلى ياء المتكلّم من إضافة المصدرِ إلى مفعولِهِ؛ أي: لا يكسبنَّكُم شِقاقُكم إيّايَ أن يُصيبَكُم مثلُ ما أصابَ قومَ نوحٍ منَ الغرقِ أو قومَ هودٍ منَ الرِّيحِ أو قومَ صالحٍ منَ الرّجفةِ والصّيحةِ؛ لأنّهُ يكونُ آنئذٍ أبلغُ منْ أنْ يوجّهَ النّهيَ إليهم مباشرةً؛ فإنّهُ إذا نهى الشِّقاقَ، وهو فاقدُ العقلَ، عَلِمَ نَهيَ الّذينَ يُشاقّونَ بالطّريقِ الأوْلى[2].

فالمقصود أنْ ينهاهُم أنْ يجعلوا الشِّقاقَ مدعاةً لأنْ يُعرِضوا عنِ النّظرِ في دعوتِهِ والإيمانِ بها؛ فإنْ لم يفعلوا أحلّوا أنفسَهُم محلًّا ليسَ لهُم إلّا أنْ يصيبَهُمُ العذابُ الّذي أخذَ غيرَهُم، وهُمْ يظنّونَ أنّهُم يمكُرونَ، وما يمكُرونَ إلّا بأنفسِهِم[3].

سرُّ التّعبيرِ بالمضارعِ ﴿لَا يَجْرِمَنَّكُمْ﴾:

تجدُّدُ الشِّقاقِ ملحوظٌ في منهجِ الصّادِّين عنِ الإيمان

أُوثر التّعبيرُ بالفعلِ المضارعِ: ﴿لَا يَجْرِمَنَّكُمْ﴾ لدلالتِهِ على تصويرِ حرصِ المناوئينَ على اكتسابِ الشِّقاقِ، وللإيماءِ إلى أنَّ هذا الفعلَ مُتجدِّدٌ؛ فليسَ يخلو زمانٌ أو مكانٌ من أناسٍ أمثالِ قومِ شعيبٍ،

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/235.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 6/317.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/146 - 147.

يكذّبونَ دعوةَ اللّهِ تعالى، ويجعلونَ الشِّقاقَ سببًا للإعراضِ والصَّدِّ عن دينِ اللّهِ تعالى؛ فيمكُرونَ، وما يمكرونَ إلّا بأنفسِهم، وهو أمرٌ يجري حكمُهُ حتّى يرثَ اللّهُ الأرضَ، ومَن عليها.

دلالةُ التّأكيدِ:

إصرارُ المُشاقِّين يُقابلُهُ إصرارُ الدُّعاةِ على الحقِّ

أوردَ فعلَ الجرم مُؤكَّدًا بنونِ التّوكيدِ المثقّلةِ[1] في قولهِ تعالى: ﴿لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِيٓ﴾، والتّوكيدُ هنا دالٌّ على إصرارهِم على المشاقّةِ والعداوةِ[2]، وآيةُ ذلكَ أنَّ العذابَ قد أصابَهُم مثلَما أصابَ مكذِّبي الرّسلِ قبلَهُم بالخزي والاستئصالِ، كما أنَّه دالٌّ على إصرارِ شعيبٍ عليه السلام على نهيهِم عن غيِّهِم.

معنى الإضافةِ ودلالتُها:

معاداةُ المُجرِمين للمُؤمنينَ تجعلُهُم يُشاقُّون لأجلِ المُشاقَّةِ

أُضيفَ الشّقاقُ إلى ضميرهِ عليه السلام في قولهِ تعالى: ﴿لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِيٓ﴾، وهو من إضافةِ المصدرِ إلى مفعولِهِ[3]؛ فإنَّ الشّقاقَ واقعٌ منهُم على شعيبٍ عليه السلام؛ أي: لا تجعلوا شِقاقَكُمْ إيّايَ يَكسبَنَّكُم العذاب بأن يكونَ مصيرُكُم مصيرَ قومِ نوحٍ أو قومِ هودٍ أو قومِ صالحٍ الّذينَ جُوزوا سيِّئَ الجزاءِ لتكذيبِهِم الرُّسلَ، ودلالةُ الإضافةِ أنَّ الشِّقاقَ أصبحَ مُلتصِقًا بشعيبٍ عليه السلام، فكأنَّه له.

بلاغةُ التّعبيرِ بالإصابةِ:

الإصابةُ دالَّةٌ على القصدِ وبلوغِ الهدفِ

في استعمالِ لفظِ الإصابةِ في قولهِ تعالى: ﴿أَن يُصِيبَكُم﴾، والمرادُ: الإيصالُ والإلحاقُ قوَّةٌ وبلاغةٌ، فإنَّ الأصلَ في معنى الإصابةِ النُّزولُ والاستقرارُ والانتهاءُ إلى الموضِعِ[4]؛ أي: إيصالُ عذابِ الدّنيا وإلحاقُهُ إلى الأقوامِ المذكورينَ، بإصابةٍ بالغةٍ ومقصودةٍ، وهو مُتنوِّعٌ بينَ الغرقِ والزّلزلةِ ونحوِهما[5].

---

(1) الخرّاط، المجتبى من مشكل إعراب القرآن: 2/481.
(2) رشيد رضا، تفسير المنار: 12/120.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 6/317.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (صوب).
(5) القونويّ وابن التّمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاويّ: 10/180.

دلالةُ التّعبيرِ بالمصدرِ المؤوّلِ:

المُشاقَّةُ علّةُ الإصابةِ بالعذابِ الأكيدِ

المصدرُ المُنسبكُ من (أنْ) والفعل في قولِهِ تعالى: ﴿لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم﴾ مفعولٌ ثانٍ لفعلِ ﴿يَجْرِمَنَّكُمْ﴾، والفاعلُ ضميرُ الشِّقاقِ، فجاءَ بالمصدرِ المؤوّلِ دونَ المصدرِ الصّريحِ في قولِهِ تعالى: ﴿لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم﴾؛ لأنّهُ أرادَ أن يكونَ الحرفُ المصدريُّ ﴿أَن﴾ تعليلًا وتوكيدًا[1]؛ فإنَّ في مشاقَّتِهِ ﷺ علَّةً لأنْ يصيبَهُمُ العذابُ المؤكَّدُ الّذي لا مهربَ منهُ ولا مناصَ. وفي إيثارِ التَّعبيرِ بالمصدر المؤوّلِ دون الصّريحِ دلالةٌ على زمنِ الإصابةِ في الحالِ والاستقبالِ؛ لكون الفعلِ المنسبكِ مع (أنْ) مضارعًا، وهو ما لا يؤدّيهِ المصدرُ الصّريحُ؛ إذ ليس في صيغتِهِ ما يدلُّ على تحديد زمنٍ، فضلًا عن أنّ المصدرَ المؤوّلَ، ولا سيّما مع (أنْ) يدلُّ على مجرَّدِ معنى الحدثِ دونَ احتمالٍ زائدٍ عليه، ففي (أن) تحصينٌ منَ الإشكالِ، وتخليصٌ له من شوائبِ الإجمالِ[2]. فالتّشبيهُ بإصابةِ الأقوامِ السّابقةِ هي المرادة دون بيانِ هيآتِها، وكيفيّاتِها.

براعةُ استعمالِ المجازِ:

الله تعالى هو الّذي يُعذِّبُ المكذِّبينَ

أُسندَ فعلُ الإصابةِ إلى ﴿مِّثْلُ﴾ على طريقِ المجازِ؛ لأنّهُ سببٌ؛ أي: أنَّ اللّهَ تعالى يصيبُكُم لعلّةِ الشِّقاقِ؛ لذلكَ جعلَ الإصابةَ مُسندةً إليهِ مجازًا[3]، وفي الأصلِ هو صفةٌ لفاعلٍ محذوفٍ تقديره: عذابٌ مثل[4]، وعلى جعل الفاعلِ ﴿مِّثْلُ﴾، أو المُقدَّر فإنَّه إسنادٌ مجازيٌّ، والفاعلُ في الحقيقةِ اللّهُ تعالى، فإنَّه هو الّذي يُصيبُ المُكذِّبينَ بالعذابِ، فهو مجازٌ إسناديٌّ، ومجازٌ بالحذفِ.

(1) محمّد الهلال، تفسير القرآن الثّريّ: 12/84.
(2) السّامرائيّ، معاني النّحو: 3/147 - 148.
(3) القونويّ وابن التّمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاويّ: 10/180.
(4) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 4/418.

سِرُّ التَّعبيرِ بـ ﴿مِّثْلُ﴾ دونَ الكافِ:

المماثلةُ في مُطلَقِ الإهلاكِ لا في أنواعِهِ

في قولِهِ تعالى: ﴿مِّثْلُ مَآ أَصَابَ﴾، استُعملَ ﴿مِّثْلُ﴾ دونَ الكافِ ونحوِهِ تشبيهًا بما أصابَ أقوامًا مختلفةً، فالمقرَّرُ أنَّهُ قد أصابَ الغرقُ قومَ نوحٍ، وأصابَتِ الرّيحُ قومَ هودٍ، وأصابَ قومَ صالحٍ الصّيحةُ، فهذهِ أنواعٌ متفاوتةٌ منَ العذابِ، وقد يُسألُ عن تباينِ العقوباتِ النّازلةِ على الأقوامِ السّابقةِ، فكيفَ يكونُ التَّمثيلُ بها مُجتمعةً؟ والجوابُ: أنَّ المماثلةَ في القدرِ المشتركِ بينهُما، وهو مطلقُ الإهلاكِ[1]. ويؤدّي هذا المعنى ﴿مِّثْلُ﴾ بوصفها نكرةً مُوغِلةً في الإبهامِ الّذي لا تنحصرُ فيها أوجهُ المغايرةِ والمشابهةِ؛ لإفادتها العمومَ. ويُظهرُ استعمالُها ههنا الإيغالَ في الشّبه من حيث تعدّدُ العقوباتِ، وتنوُّعُها[2].

دلالةُ استعمالِ ﴿مَآ﴾:

أنواعُ العذابِ النّازلِ على المكذِّبينَ، لا يعلمُ بحقيقتِها إلّا الله تعالى

﴿مَآ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿مِّثْلُ مَآ أَصَابَ﴾ اسمٌ موصولٌ مضافٌ إليه ﴿مِّثْلُ﴾[3]، وهو منَ الموصولاتِ الدّالّةِ على الإبهامِ والعمومِ[4] والشّمولِ لا على النّصِّ والتّعيينِ كالّذي والّتي ونحوِهما، واستعمالُها في هذا الموضعِ للدّلالةِ على تعدُّدِ أنواعِ العذابِ الّذي يعتري الأممَ الّتي تكذِّبُ برسلِها وكثرتِها، وأنّ الحقَّ سبحانَهُ قادرٌ على أن يصبَّ أنواعًا منَ العذابِ بما يفوقُ توقُّعَ الإنسانِ بما تقتضيهِ ﴿مَآ﴾ من دلالتِها على العمومِ والإبهامِ. وبلحاظِ اقترانِها بـ ﴿مِّثْلُ﴾ الدّالّةِ على العمومِ أيضًا.

سرُّ التّعبيرِ بالماضي ﴿أَصَابَ﴾:

التّهديدُ بما وقعَ وثبتَ أبلغُ، وأرسخُ ممّا سيقعُ

عبّرَ عمّا أصابَ الأممَ السّابقةَ بالفعلِ الماضي ﴿مِّثْلُ مَآ أَصَابَ﴾؛ للدّلالةِ على تأكيدِ حصولِ العذابِ على تلك الأقوامِ والأممِ؛ ممّا

(1) البسيليّ، نكت وتنبيهات: 1/187.
(2) السّامرائيّ، معاني النّحو: 3/126.
(3) مجموعة مؤلفين، إعراب القرآن الكريم: 2/1035.
(4) الأزهريّ، شرح التّصريح: 1/317.

ارتكبوا منَ القبائحِ والموبقاتِ في الزّمنِ الماضي الدّالِّ على الثّبوتِ والتّحقُّقِ، وأنّه حاصلٌ لا مجالَ لإنكارِه؛ ففيهِ مزيدُ تحذيرٍ وتهديدٍ ووعيدٍ؛ لأنّهُ واقعٌ فعلًا، وهو أوْقَعُ أثرًا لهؤلاءِ من التّخويفِ بأمرٍ مُستقبلٍ، ولمّا كانوا مُقلِّدينَ آباءهَم في عبادةِ الأوثانِ؛ فحاجَّهم بأنّكم تتّبعونَ آباءَكُم في عبادةِ الأوثانِ، فاتّبعوهُم فيما بلّغوكُم بهِ من هلاكِ أولئكَ بتكذيبِهمُ الرّسلَ، فوقعَ عليهمُ العذابُ[1].

دلالةُ البدءِ بقومِ نوحٍ:

البدءُ بالمعلومِ أثبتُ في العلومِ

في ذكرِهِ مصابَ الأقوامِ السّابقةِ، استهلّ الكلامَ بذكرِ قومِ نوحٍ عليه السلام في قولِهِ تعالى: ﴿مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ﴾، ودلالةُ ذلكَ أنّ المخاطَبينَ من قومِ شعيبٍ لم يكنْ قد بلغَهُم منَ الأممِ الهالكةِ قبلَ قومِ نوحٍ فقدَّمَهُم[2]؛ ولأنّ نوحًا قد جاءَت رسلٌ على دينِهِ، منهم هود وصالح، وقد ذكرَهما القرآنُ غيرَ مرّةٍ عقبَ ذكرِ نوحٍ[3] عليهما السلام.

سرُّ التّعبيرِ بـ﴿أَوْ﴾:

التَّهكُّمُ بالمخاطَبينَ فالإنسانُ لا يختارُ عذابَه

استُعمل حرفُ التّخييرِ ﴿أَوْ﴾[4] في تحذيرِ القومِ ممّا أصابَ الأقوامَ البائدةَ قبلَهُم بقولِهِ: ﴿مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍ﴾ على إرادةِ تخييرِهِم المشوبِ بالتّحذيرِ والتّهديدِ، كأنّه قال: اتّعِظوا بأيِّ عذابٍ اخترتُموه؛ بالغرقِ، أو الرّجفةِ، أو الصّيحةِ، فأيُّ نوعٍ منها هو أليمٌ شديدٌ، وغرضُ التّخييرِ التَّهكُّمُ بالمخاطَبينَ، فإنَّ الإنسانَ لا يختارُ عذابَه.

ففي التّعبيرِ بالحرفِ ﴿أَوْ﴾ إشارةٌ إلى الاعتبارِ بما أصابَ الأقوامَ السّابقةَ، وهُم قومُ نوحٍ بالغرقِ، وقومُ هودٍ بالرّيحِ، وقومُ صالحٍ بالصّيحةِ، وقومُ لوطٍ بالقلبِ والرّجمِ؛ فلأنَّ مُخالفةَ

(1) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنّة: 6/173.
(2) السّمرقنديّ، بحر العلوم: 1/524.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/136.
(4) الزّجّاجيّ، حروف المعاني والصّفات: 13/48.

الرّسلِ وتكذيبَهُم مآلُهُ أحدُ هذهِ الأحوالِ والأمورِ المعطوفةِ بحرفِ التّخييرِ[1].

سرُّ الجمعِ بينَ قوم نوحٍ وقوم هودٍ وقوم صالحٍ:

الكفرُ ملّةٌ واحدةٌ مبدأً ومآلًا

جمعَ الحقُّ سبحانهُ بينَ الأقوام الهالكةِ؛ قوم نوحٍ وقوم هودٍ وقوم صالحٍ؛ لأنّهُم جمعوا بينَ أحوالِ الكفرِ والجحودِ على ما أوتوا من فضلٍ، لكنّهُ لمْ يغنِ عنهُم شيئًا، ولم يشكروا نعمَهُ تعالى، فقد أوتيَ قومُ نوحٍ طولَ العمرِ وتنائيَ الأقطارِ، وأوتيَ قومُ هودٍ شدّةَ الأبدانِ وتماديَ الأمانِ، وأوتيَ قومُ صالحٍ نحتَ البيوتِ وتشييدَ عوالِي القصورِ[2]، فكفروا أنعُمَ ربِّهم؛ فأخذَهُم أخذًا وبيلًا؛ فالكفرُ ملّةٌ واحدةٌ تفكيرًا وجحودًا ونكرانًا.

دلالةُ ترتيبِ ذكرِ الأقوام الهالكةِ:

البدءُ بالأبعدِ والأشملِ عقوبةً فالأقربِ لغةً فمكانًا

تناولتِ الآيةُ الحديثَ عنِ الأقوام الّتي أهلكَها اللّهُ بمدعاةِ تكذيبِها الرّسلَ، رتّبَ هذهِ الأقوامَ بحسبِ ترتيبِها الزّمنيِّ؛ وهم قومُ نوحٍ، ثمَّ قومُ هودٍ، ثمَّ قومُ صالحٍ، ثمَّ قومُ لوطٍ، وهو ترتيبٌ ملحوظٌ فيه البعدُ الزّمانيُّ، إلّا أنَّ الغايةَ من هذا التَّرتيبِ هو البدءُ بالأبعدِ زمانًا والأشملِ عقوبةً؛ وهم قومُ نوحٍ، ثمّ الأدنى قوميَّةً؛ وهم عادٌ وثمود، فهم يعرفونَ تفاصيلَ تلك الأقوام، ثمّ الأقربِ مكانًا؛ وهم قومُ لوطٍ.

معنى الواوِ ودلالتُها:

قومُ لوطٍ هُم أقربُ الهالكينَ زمانًا ومكانًا من قوم شعيبٍ

الواوُ في قولِهِ تعالى: ﴿وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ﴾ حاليّةٌ[3] من ضميرِ النّصبِ المُتّصلِ بالفعلِ ﴿يُصِيبَكُم﴾، فالجملةُ بعدَها في موقعِ الحالِ، وفيهِ مناسبةٌ مؤكِّدةٌ لمضمونِ الجملةِ على اعتبارِ قُربِ

(1) القاسميّ، محاسن التّأويل: 6/126.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/360.
(3) مجموعة مؤلفين، إعراب القرآن الكريم: 2/70.

زمانِهم منَ المخاطَبينَ أمرًا يشبهُ حالةً من أحوالِ المُخاطَبينَ[1]، كأنَّه قالَ: ما وقعَ لقوم لوطٍ ليس ببعيدٍ أن يقعَ عليكُم فيما تستحقّونَ به العذابَ منَ الكفرِ والمعاصي؛ فإنّهم أقربُ الهالكينَ منكُم زمانًا، أو المعنى: ما ديارُ قوم لوطٍ منكُم ببعيدٍ بالمكانِ، فإنّهُم كانوا جيرانَهُم[2].

دلالةُ اختلافِ التَّعبيرِ عن قوم لوطٍ:

التَّلويحُ بقربِ نزولِ العذابِ

لمّا ذكرَ الأقوامَ الّتي أهلكَها من قوم نوحٍ وقوم هودٍ وقوم صالحٍ عليهم السلام في مشاكلةٍ مناسبةٍ بينَ هؤلاءِ: ﴿مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍۚ﴾، عمدَ مع قوم لوطٍ، فأثبتَ قربَهم بنفي بعدِهم، وتغيير الأسلوبِ معهم تعظيمًا للتّهويلِ والتّضخيم، فقالَ تعالى: ﴿وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ﴾، أي: بسببِ قُبحِ أعمالِهم وسوءِ حالِهم ووبالِهم[3]، ففيه تلويحٌ بقربِ نزولِ العذابِ فيهم. وهو من بابِ ضربِ المثلِ بمصيرِهم؛ ولأنَّ قصّتَهُم أقربُ القصصِ عهدًا بقصّةِ قوم شعيبٍ[4]؛ فهلّا اتّعظتُم واعتبرتُم بما آلَ إليه أمرُهُم منَ العذابِ والاستئصالِ.

وفي الجملةِ تغييرٌ لأسلوبِ التّحذيرِ بتلكَ الأقوامِ الهالكةِ، واكتفى بذكرِ قوم لوطٍ، وهُم أقربُهُم؛ إيذانًا بأنَّ ذلكَ يُغني عن أن يذكرَ ما أصابَهُم لشهرتِهِ؛ ولأنّهُ منظومٌ في سِمطِ ما ذُكرَ ممّا أصابَ الأممَ السّابقةَ[5].

التَّعبيرُ عن قوم لوطٍ بينَ المجازِ بالحذفِ والكنايةِ:

التَّحذيرُ منَ العذابِ القريبِ بالعذابِ القريبِ

ظاهرُ قولِه تعالى: ﴿وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ﴾ أنّهُ نفى بعدَهُم عن قوم لوطٍ، ففيه مجازٌ بالحذفِ؛ لأنَّ نفيَ البعدِ ليسَ مرادًا لذاتِه، ولا يتعلَّقُ بهِ حكمٌ شرعيٌّ، وإنّما القصدُ تهديدُهُم ووعيدُهُم؛ فكأنَّه

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/147.
(2) المظهريّ، التّفسير المُظهريّ: 5/111.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/360 - 361.
(4) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/202.
(5) الآلوسيّ، روح المعاني: 6/317.

قال: وما إيقاعُ عذابِنا بقوم لوطٍ، وهلاكهم[1] بسببِ عصيانِهم وارتكابِهم الموبقاتِ ببعيدٍ، فلا تكونوا مثلَهُم، ونستطيعُ حملَهُ على الكنايةِ بقصدِ التَّهديدِ، فهو يُحذِّرُهم منَ العذابِ القريبِ الّذي سينزلُ عليهم بالعذابِ القريبِ الواقعِ على قوم لوطٍ.

معنى الباءِ ودلالتُها:

تـوكـيـدُ الـنّـفـي زيادةٌ في التّحذيرِ والتّخويفِ من سوءِ المصيرِ

الباءُ الدّاخلةُ على خبرِ ﴿وَمَا﴾ في قولهِ تعالى: ﴿وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ﴾ تفيدُ التّوكيدَ؛ توكيدَ النّفي، وهذا شأنُها ومعتادُها في لسانِ العربِ وكلامهم مع (ليسَ)[2]، ولمّا كانتْ (ما) مشبّهةً بـ (ليسَ) أُحكِمتْ بأحكامها، وفي توكيدِ نفي بعدِهم عن مآلِ قوم لوطٍ زيادةٌ في التّحذيرِ والتّخويفِ أنْ يصيبَكُم الهلاكُ مثل ما أصابَهُم، فإنْ نسيتُم أولئكَ فلا تنسَوا ما حلَّ بقوم لوطٍ، فهُم أقربُ إليكُم ممّن تقدَّمَهُم[3] زمانًا ومكانًا وعملًا.

نكتةُ التّعبيرِ ﴿بِبَعِيدٍ﴾:

قـربُ الـهـلاكِ زمـانًـا ومـكـانًـا طـريـقُ الاعـتـبـارِ لأهلِ الأنظارِ

عبَّرَ في قولهِ تعالى: ﴿وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ﴾ بلفظةِ ﴿بِبَعِيدٍ﴾ المنّفيةِ دونَ غيرِها منَ الألفاظِ؛ لأنّ هلاكَهُم كانَ بالأمسِ قريبًا منهُم؛ ولأنّ دورَهُم كانتْ قريبةً منهُم[4].

وفي نفيِ البعدِ بلفظةِ ﴿بِبَعِيدٍ﴾، وإنْ كانَت متعلِّقةً بقربِ العهدِ من عهدِهم، وقربِ الدّيارِ من ديارِهم إلّا أنَّ العِبرةَ أنّهم لا "يبعدونَ منكُم في الكفرِ والمساوئِ، وما يستحقُّ بهِ الهلاكُ"[5].

وفي القربِ في الزّمانِ والمكانِ فائدةٌ أخرى؛ وهيَ أن يتحصّلَ كمالُ الوقوفِ على تلك الأحوالِ، ومزيدُ المعرفةِ الموصلِ إلى الاعتبارِ

(1) السّمرقنديّ، بحر العلوم: 2/167.
(2) ابن السّرّاج، الأصول في النّحو: 1/90.
(3) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنّة: 6/173.
(4) الفرّاء، معاني القرآن: 2/26.
(5) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/422.

بأحوالهم، وما جرى لهُم، والحذرِ من مخالفةِ أوامرهِ تعالى؛ كي لا ينزلَ بكُم ما نزلَ بهم منَ العذابِ والعقابِ[1].

سرُّ العدولِ عن بعداء إلى بعيدٍ:

البعيدُ خبرُ العذابِ المحذوفِ لفظُه

أخبرَ عن قوم لوطٍ بلفظةِ ﴿بِبَعِيدٍ﴾ بالإفرادِ، والمخبرُ عنهُ جمعٌ، فكانَ القياسُ أنْ يخبرَ عنهُ بأن يُقالَ: (بعداء) أو (بعيدين) أو نحوهما، ومُوجبُ ذلكَ جعلهُ على تقديرِ: (ما هُم بشيءٍ بعيدٍ) أو جواز التّسويةِ في القريبِ والبعيدِ، وبينَ المذكّرِ والمؤنّثِ؛ لأنّها جاءَت على زِنَةِ المصدرِ كالصّهيلِ والنّهيقِ[2]، وهو ممّا يستوي فيهِ المذكّرُ والمؤنّثُ، أو أن تُجعلَ على المجازِ بحذفِ المضافِ، وهو العذاب، والتَّقدير: وما عذابُ قوم لوطٍ منكُم ببعيدٍ، وهذا أوضحُ مَسلكًا، وأرسخُ معنًى، وأليقُ سياقًا.

لم يكونوا بعيدينَ مكانًا، وطبيعة إهلاكٍ

وأفردَ لفظَ ﴿بِبَعِيدٍ﴾؛ لأنّ المرادَ: وما إهلاكُهُم، أو ما هُم بشيءٍ بعيدٍ، أو ما مكانُهُم ببعيدٍ[3].

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الشّقاقُ والعداوةُ والبغضاءُ:

المُشاقّةُ تباعدُ طرفينِ مع اشتمالِها للعداوةِ، والعداوةُ أعمُّ، والبغضاءُ خاصّةٌ بالباطنِ

ذكرَ الحقُّ سبحانهُ الشّقاقَ في قولهِ تعالى: ﴿وَيَٰقَوۡمِ لَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شِقَاقِيٓ﴾ تعبيرًا عن صدِّهم عن دعوتهِ، والأصلُ في الشّقاقِ من شقِّ الشّيء نِصفينِ فبعُدَ أحدُهُما عن الآخرِ، ومَنْ يشاقِق آخرَ فقد عاداهُ وباعدهُ، فكانَ الأصلُ فيهِ البعدَ، ويردُ في القرآنِ الكريم على أوجهٍ؛ منها: الضّلالُ والخلافُ والعداوةُ[4]؛ فعلى هذا الاعتبارِ يكونُ الشّقاقُ شاملًا الصّفاتِ الأخرى كالعداوةِ؛ لذلكَ عبّرَ في هذهِ الآيةِ

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 18/389.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/422، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/235.
(3) المظهريّ، التّفسير المُظهريّ: 5/111.
(4) العسكريّ، الوجوه والنّظائر، ص: 267.

بالشّقاقِ، ولمْ يُعبّرْ بالعداوةِ وقرينتِها البغضاءِ، فضلًا عن أنَّ المشاقّةَ معَ كونِها تتضمّنُ العداوةَ إلّا أنّها مُقترنةٌ بالعصيانِ والعنادِ[1].

المثْلُ والشَّبَهُ:

المثلُ أعمُّ وأشملُ منَ الشّبهِ، وهو هنا للقدرةِ، وسيقَ في الآيةِ للعِبرةِ

قولُهُ تعالى: ﴿أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ﴾ أوردَ مفردةَ المثلِ، ولمْ يستعملْ مرادفَهُ، وهو الشّبهُ؛ لأنّ الشّبهَ يُستعملُ فيما يشاهَدُ؛ فيُقالُ السّوادُ شبهُ السّوادِ، ولا يُقالُ: القدرةُ شبهُ القدرةِ؛ لأنَّها لا تُشاهَدُ، وإنّما يُقالُ مثلُها، وليسَ في الكلامِ شيءٌ يصلحُ في المماثلةِ إلّا الكافُ والمثلُ، فأمّا الشَّبهُ والنّظيرُ فهما من جنسِ المثلِ[2]، فهذهِ ثلاثةُ مرجّحاتٍ لاستعمالِ المثلِ وتركِ استعمالِ الشّبهِ، فأمّا الأوّلُ فإنَّ الشّبهَ يُرادُ لما كانَ حسّيًّا مُشاهَدًا، والموضِعُ هنا ليسَ موضِعَ تشبيهٍ حسّيٍّ، وإنْ كانَ في سياقِ العذابِ؛ لأنَّ العِبرةَ ليسَت بهيئةِ العذابِ وجنسِهِ، بل بما آلَ إليهِ أمرُ الأقوامِ الّتي تكذِّبُ رسلَها، وهو العذابُ، وتلكَ المهلكاتُ الّتي رمى الحقُّ سبحانَهُ بها أولئكَ المعاندينَ، وأمّا الثّاني فالمثلُ يُرادُ للقدرةِ، وهو مُتحقِّقٌ في الآيةِ في قدرتِهِ تعالى على إيقاعِ العذابِ بالأقوامِ الّتي تنكَّبَت عنِ الصّراطِ المستقيمِ كالواردِ مع قومِ نوحٍ، وأمّا الثّالثُ فإنّهُ أرادَ التّمثيلَ بتلكَ الأقوامِ، والمثلُ أمرٌ كليٌّ يدخلُ تحتَهُ الشّبهُ، فهو أعمُّ وأشملُ.

(بعيدٌ) و(سحيقٌ):

البعيدُ خلافُ القريبِ مُطلَقًا، والسّحيقُ أبعدُ وأغورُ

لَمّا أرادَ أنْ ينفيَ بعدَهُم عمّا أصابَ قومَ لوطٍ إنْ هُم أصرّوا على مَوقفِهِم من دعوتِهِ، قالَ: ﴿وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ﴾، والبعدُ ضدُّ القربِ، أمّا السّحيقُ ففيهِ معنى البعدِ مع زيادةٍ؛ فقد استعملَهُ الحقُّ سبحانَهُ فيما تجاوزَ معنى البعدِ، كوصفِهِ المُشركَ بقولِهِ: ﴿تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾﴾ [الحجّ: 31]، وهو في مقامِ الذّمِّ الّذي يقتضي

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/284.
(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 294.

المبالغةَ في الوصفِ، فالسّحيقُ البعيدُ العمقِ، مع أنَّ الأصلَ في السّحيقِ منَ السّحقِ بمعنى تفتيتِ الشّيءِ[1]؛ فإيرادُ صفةِ البعيدِ أليقُ في هذا المقام؛ فإنَّ القومَ المُعتَبَرَ بهِم، وهم قومُ لوطٍ "ليسَ مكانُهُم ببعيدٍ من مكانِكُم، أو ليسَ زمانُهُم ببعيدٍ من زمانِكُم، أو ليسُوا ببعيدٍ منكُم في السَّببِ المُوجِبِ لِعقوبتِهِم، وهو مُطلقُ الكُفرِ"[2].

(1) السّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (سحق).

(2) الشّوكانيّ، فتح القدير: 2/589.

﴿وَٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِۚ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٞ وَدُودٞ ٩٠﴾

[هود: 90]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

مـا أجـمـلَ التّرغيبَ بعدَ التّرهيبِ! فالاستغفارُ يدفعُ العقابَ

لمّا كان من شأنِ شعيبٍ أنْ خاطبَهُم في الآيةِ السّابقةِ بطريقِ التّرهيبِ والتّخويفِ من عذابِهِ، وما أصابَ الأممَ السّابقةَ، "عقّبَهُ طمعًا في ارعوائِهِم عمّا كانوا فيهِ يعمهونَ من طغيانِهِم بالحملِ على الاستغفارِ والتّوبةِ"[1] وإلّا بادرَهُم العذابُ مُعلِّلًا إيّاهُ؛ بأنَّ لهُم ربًّا رحيمًّا ودودًا، يقبلُ توبةَ عبادِهِ، ويقيلُ عثراتِهِم.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَٱسۡتَغۡفِرُواْ﴾: الغينُ والفاءُ والرّاءُ عُظمُ بابِهِ السَّترُ. فالغَفرُ: السَّترُ. يُقالُ: غَفَرَ اللّهُ ذَنبَهُ غَفرًا ومَغفِرَةً وغُفرانًا[2] وأصلُ الغَفرِ: التّغطيةُ[3]، وغفرَ اللّهُ ذنوبَه؛ أي: سَترَها، ولم يَفضَحهُ بها على رُؤوسِ المَلأ. وكلُّ شَيءٍ سترتَه فقد غفرتَه[4]، والاستغفارُ: طلبُ المغفرةِ، وكلُّ ما جاءَ في القرآنِ من (غفر) وتركيباتِهِ، فهو من مغفرةِ الذّنوبِ[5]، فـ﴿وَٱسۡتَغۡفِرُواْ﴾ هنا فعلُ أمرٍ؛ بمعنى: اطلبوا المغفرةَ، وهو يقتضي الإيمانَ باللّه تعالى، فشرطُ الاستغفارِ الإيمانُ.

2) ﴿تُوبُوٓاْ﴾: أصلُ مادّتِهِ (توب)، فالتّاءُ والواوُ والباءُ كلمةٌ واحدةٌ تدلُّ على الرُّجوعِ. يُقالُ تابَ من ذَنبِهِ؛ أي: رَجَعَ عنهُ، يَتوبُ إلى اللّهِ توبَةً ومَتابًا، فهو تائِبٌ. قالَ اللّهُ تعالى: ﴿وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ﴾

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/235.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (غفر).
(3) الخليل، العين: (غفر).
(4) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (غفر).
(5) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (غفر).

[غافر: 3][1]، والتّوبةُ: تركُ الذّنبِ على أجملِ الوجوهِ[2]، والرّجوعُ عنِ المعصيةِ[3]، فـ﴿تُوبُوٓاْ﴾ هنا فعلُ أمرٍ؛ بمعنى: اتركوا الذّنوبَ، وارجعوا عنِ المعصية.

3) ﴿وَدُودٌ﴾: أصلُ مادّتهِ (ودّ)، فالواوُ والدّالُ كلمةٌ تدلُّ على مَحبَّةٍ. ودِدْتُهُ: أحبَبْتُهُ. ووددتُ أنَّ ذاكَ كانَ، إذا تَمَنَّيتَهُ، المضارعُ: أودُّ فيهما جَميعًا[4] والودودُ: المحبُّ شديدُ المحبَّة[5]، والودودُ من أسماءِ اللّهِ تعالى: المحبُّ لعبادِهِ[6]، يصِلُهم ويُمدُّهُم برحمتِه ونعمتِه[7].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

لا يزالُ السّياقُ مُتّصلًا بمناقشةِ شعيبٍ عليه السلام قومَه، وإنذارِهم وتحذيرِهم، فأردفَ، عليه السلام، مخاطبًا قومَهُ، فقالَ: يا قومي، اطلبوا المغفرةَ من ربِّكُم، ثمّ توبوا إليه من ذنوبِكُم، إنَّ ربِّي رحيمٌ بالتّائبينَ، شديدُ المحبّةِ والتّودُّدِ لِمن تابَ منهم توبةً نصوحًا[8].

التّوبةُ مُنجيةٌ مِنَ العذابِ جالبةٌ لرحمةِ اللهِ تعالى وودِّهِ

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

معنى الواوِ ودلالتُها:

جملةُ ﴿وَٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ﴾ معطوفةٌ على جملةِ ﴿وَيَٰقَوۡمِ لَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ﴾ بالواوِ[9]، فقد عطفَ النّصحَ بالاستغفارِ والتّوبةِ على معنى الجملةِ السّابقةِ منَ التّلطُّفِ والتّودُّدِ والتّحذيرِ من جعلِ المشاقّةِ سببًا للعذابِ في الجملِ السّابقةِ.

عدمُ المبادرةِ بالمتابِ من شأنِها المناداة على العذابِ

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (توب).
(2) الرّاغب، المفردات: (توب).
(3) الفيوميّ، المصباح المنير: (توب).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ودَّ).
(5) ابن سيده، المخصّص: 5/226، (اشتقاق أسماء الله ﷻ).
(6) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (ودد).
(7) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (ودد).
(8) مجموعة منَ العلماء، المختصر في تفسير القرآن الكريم، ص: 232.
(9) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/147.

ولمّا كانت جملةُ ﴿وَيَٰقَوۡمِ لَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ﴾ نهيًا مُؤذِنًا بالتّرهيبِ والتّخويفِ بتذكيرِهم بما حلَّ بالأمم المشركةِ؛ لاستكبارِها عنِ التّوحيدِ، عطفَ عليهِ جملةَ الأمرِ ﴿وَٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ﴾ في "سياقٍ مُؤذنٍ بأنّهم إنْ لم يبادِروا إلى المتابِ بادرَهُمُ العذابُ"[1].

غرضُ الأمرِ وغايتُهُ:

تحقيقُ الغايةِ مُتوقِّفٌ على وجودِ الأصلِ

الأمرُ في قولِه تعالى: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ﴾ دالٌّ على طلبِ المغفرةِ في ظاهرِه، إلّا أنَّ الأصلَ أن يطلبوا السّببَ المُوصلَ إلى حصولِ المغفرةِ، وهو التّوحيدُ[2]، وعبادتُهُ تعالى، وطاعةُ أوامرِه، فظاهرُ الأمرِ طلبُ الاستغفارِ، وحقيقتُهُ طلبُ الإيمان.

دلالةُ حذفِ النِّداءِ:

المسارعةُ في الاستغفارِ مَطلَبُ الأبرارِ

تكرّرَ لفظُ (يا قَوْم) الدّالّ على الاستعطافِ في مواضِعَ كثيرةٍ ممّا سبقَ، غيرَ أنّهُ لم يذكرْهُ هنا في إشارةٍ إلى انقضاءِ وقتِ الاستعطافِ؛ كأنّه قال: لا آمنُ عليكُم من وقوعِ العذابِ، ولعلَّ الأمرَ أعجلُ من ذلكَ؛ فاطلبوا مغفرتَهُ، واجعلوها غرضَكم، ثمَّ تَوصَّلوا إليها بالتّوبةِ[3].

فضلًا عن أنَّه جعلَ الأمرَ بالاستغفارِ تابعًا للنّداءِ المذكِّرِ بمصيرِ الأقوامِ السّابقين، فبنى الاستغفارَ على التَّحذيرِ ممّا وقَعَ من عذابِ السّابقينَ، وهذا أرسخُ للإسراعِ في الاستغفارِ.

دلالةُ التّعبيرِ بالرّبوبيّةِ:

الرّبوبيّةُ تنادي على العطفِ والرّفقِ والإحسانِ

في اصطفاءِ الرّبوبيّةِ في جملةِ ﴿وَٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ﴾ دونَ الألوهيّةِ دلالةٌ، فإنّ مهمّةَ المُربّي الرّئيسةَ هي الهدايةُ، والاستغفار من مسالكِ العودةِ إليهِ سبحانهُ؛ لِما في الاسم من صفاتِ العطفِ واللُّطفِ والرّفقِ والإحسانِ.

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/361.

(2) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنّة: 6/173.

(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/361.

دلالةُ الإضافةِ:

الرُّبوبيَّةُ تنبيهٌ على أسبابِ الاستغفارِ

في إضافةِ الرّبِّ إلى ضميرِ الجمعِ ﴿رَبَّكُمْ﴾ الرّاجعِ إلى المخاطَبينَ العاصينَ دلالةٌ، وهي أنَّ الاستغفارَ إنَّما هو لِمَن خلقَ ورزقَ وأرخى أسبابَ الحياةِ الكريمةِ؛ والمعنى: استغفروا الرّبَّ المحسنَ إليكم[1]، اللّطيفَ بكُم، أن يسترَ عليكُم عيوبَكم وذنوبَكم فلا يؤاخذُكُم بها.

سرُّ استعمالِ ﴿ثُمَّ﴾:

إذا صحَّ الاستغفارُ منَ العبادِ جاءت رتبةُ التّوبةِ متراخيةً عنهُ

جاءَ عطفُ الأمرِ بالتّوبةِ إلى اللّهِ تعالى على الأمرِ بالاستغفارِ بـ ﴿ثُمَّ﴾ الدّالّةِ على التّرتيبِ والتّراخي[2] في قولِه تعالى: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِۚ﴾؛ فإنَّ التّوبةَ مُرتَّبةٌ على الاستغفارِ معَ المهلةِ، معَ اعتبارِ عِظمِ التّوبةِ وعلوِّ منزلتِها؛ ولأنَّ المغفرةَ ومحوَ الذّنبِ لا يحصلان بمحضِ الاستغفارِ إلّا باقترانِ التّوبةِ بهِ، لا سيّما الكبائرُ، فتكرارُ المعاصي يجبُ أن يقابلَهُ تكرارُ الطّاعاتِ الماحيةِ لتلكَ المعاصي[3].

وعطفَ التّوبةَ على الاستغفارِ بـ ﴿ثُمَّ﴾ الدّالّةِ على التّراخي؛ لأنَّ مرتبةَ التّوبةِ والإنابةِ مُتأخِّرةٌ عن مَرتبةِ الاستغفارِ، تأخُّرَ رتبةِ العملِ عن رتبةِ القولِ؛ فكم من مُستغفرٍ ليسَ لهُ من استغفارِهِ شيءٌ؛ لإصرارِهِ على الذّنبِ[4].

نكتةُ مجيءِ التّوبةِ بعدَ الاستغفارِ:

التّوبةُ يُتَوصّلُ إليها بالاستغفارِ لعِظمِ التّلازمِ بينهُما

في قولِه تعالى: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِۚ﴾؛ أمرَهُم بالاستغفارِ، ثمَّ عقَّبَهُ بالتّوبةِ؛ ذلكَ أنَّ التّوبةَ لا يتوصَّلُ إليها إلّا بالاستغفارِ، وهو ترتيبٌ حَسنٌ[5]، لِما بينَهُما من عِظمِ التّلازمِ وشدّةِ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/361.
(2) السّيوطيّ، همع الهوامع: 2/27.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/361 - 362.
(4) رشيد رضا، تفسير المنار: 12/7.
(5) الواحديّ، التّفسير البسيط: 11/532.

احتياجِ العبدِ إليهما؛ للوقايةِ من شرورِ الذّنوبِ وغوائلِها، فإنَّ الكافرَ ينيبُ أوّلًا، فيطلبُ المغفرةَ، فإذا تابَ وتجرَّدَ من كفرِهِ فقد دخلَ في تمامِ الإيمانِ[1].

لكونِ العبدِ إذا تحقَّقَ منه صدقُ الرّجوعِ، والنّدمُ على الذّنوبِ، مدَّ اللّهُ تعالى له بابَ التّوبةِ، وملازمةَ الخضوعِ[2].

هو من بابِ تأخيرِ المُتعلَّقِ على المُتحقَّقِ

بلاغةُ الإضمارِ:

عبّرَ بالاسمِ المضمرِ بعدَ الاسمِ الظّاهرِ في قولِهِ تعالى: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِۚ﴾، وهو مقتضى الظّاهرِ والحالِ، على تقديرِ: ثمّ توبوا إلى ربِّكُم؛ لأنّ الضّمائرَ تعوِّضُ من تكرارِ الأسماءِ الظّاهرةِ[3]، وهو أفخمُ لغةً وبلاغةً من أن يكرّرَهُ ظاهرًا إلّا في مواضعِ التّقريرِ والتّوكيدِ فيعيدُهُ.

الضّمائرُ تعوِّضُ من تكرارِ الأسماءِ الظّاهرةِ

سرُّ الفصلِ في جملةِ الفاصلةِ:

قولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّي رَحِيمٞ وَدُودٞ﴾ جملةٌ مفصولةٌ عمّا قبلَها؛ لأنّها جملةٌ تعليليّةٌ للأمرِ باستغفارِهِ سبحانَهُ والتّوبةِ إليهِ؛ لاقتضاءِ الأمرِ أن يعفو عنهُم إذا استغفروهُ، وأنابوا إليهِ[4]؛ فإنّ ذلكَ من واسعِ رحمتِهِ وغامرِ محبّتِهِ، كأنَّه قال: استغفروا ربَّكُم ثمّ توبوا إليه، فإنَّه يغفرُ لكُم، ويتوبُ عليكُم؛ لأنَّه رحيمٌ بكُم ودودٌ.

جملةٌ تعليليَّةٌ إقناعيَّةٌ للأمرِ بالاستغفارِ والتّوبةِ

دلالةُ التّأكيدِ بـ ﴿إِنَّ﴾:

أكّدَ الجملةَ بـ ﴿إِنَّ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّي﴾[5]؛ لأنّهم لمّا أسرفوا على أنفسِهِم في مقارفةِ الذّنوبِ؛ نهاهُمُ الحقُّ سبحانَهُ عنِ اليأسِ والقنوطِ من رحمتِهِ؛ فإنّه الرّحيمُ الودودُ، ولأنَّ المقامَ

تحقيقُ الرّحمةِ لِمَن أسرفَ، شأنُ الرَّحيمِ سبحانَه

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/149.
(2) محمّد عفيف، الشّامل في بلاغة القرآن: 2/61.
(3) إبراهيم أنيس، من أسرار اللّغة، ص: 274.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/147.
(5) محمّد الهلال، تفسير القرآن الثّريّ: 12/85.

دعوةٌ للاستغفارِ بعدَ الكفرِ، فكانَ تأكيدُ رفعِ الخطايا وقبولِ التّوبةِ مُناسبًا له.

سرُّ التّعبيرِ بالرُّبوبيّة:

الرُّبوبيَّةُ عنوانُ الرَّحمةِ، وملاذُ اللّاجئين

أضافَ لفظةَ الرَّبِّ إلى ضميرِهِ ﷺ بقولِهِ تعالى: ﴿رَبِّي﴾، من بابِ التّفنُّنِ بينَ هذا وذاكَ؛ تذكيرًا بربوبيَّتِهِ لهُم كيلا يَستمرُّوا في إعراضِهم عن دعوتِهِ، وتشرُّفًا بانتسابِهِ إلى أنّهُ مخلوقٌ للهِ تعالى وعبدٌ لهُ[1]، ولبيانِ أنَّ الرَّبَّ سبحانَه الّذي خلَقَهم يُريدُ لعبادِهِ الخيرَ والرَّحمةَ، فدعاهُم لِما فيهِ خيرُهُم، ولِما إليه مُنتهى برِّهِم.

دلالةُ إضافةِ الرُّبوبيَّةِ إلى ياءِ المتكلّم:

تحريضُ العبادِ للتَّوبةِ، ووعدُهُم في القبولِ

عدلَ عن إضافةِ لفظةِ الرّبِّ إلى ضميرِهِم بأن يقولَ: (ربّكم) كما سبقَ، وأضافَهُ إلى ضميرِهِ ﷺ بقولِهِ: ﴿رَبِّي﴾ تحريضًا لهم على أن يشاركوهُ في الانتسابِ إلى هذا الرّبِّ الجليلِ الرّحيم الودودِ الّذي أسبغَ عليهِم من فيضِ رحمتِهِ وودّهِ، أمّا إضافتُهُ إلى ضميرِهِم في مستهلِّ الآيةِ فهي إضافةٌ دالّةٌ على القهرِ والإلزامِ آمنوا أم لم يؤمنوا؛ لأنّهُ مطلوبٌ منهُم[2]، وفيه إيماءٌ إلى الوعدِ بالرَّحمة الّتي يتكفَّلُها العبادُ المقرَّبون، وهذا لونٌ منَ التَّأكيدِ والتَّحقيقِ.

الجمعُ بين وصْفَي ﴿رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾:

التعبيرُ عن أوسعِ المعاني وأبلغِها بصفتي الرّحمةِ والودِّ

خُتمَتِ الآيةُ بصيغتي المبالغةِ في قولِهِ تعالى: ﴿رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾؛ لأنّه أرادَ التّعبيرَ بأوسعِ المعاني وأبلغِها، وهما المغفرةُ والرّحمةُ مع صفةِ المودّةِ، وهيَ منَ الودِّ، وهو الحبُّ الّذي يقتضي العطفَ والحدبَ على قدرِ حاجةِ المعطوفِ عليه[3]؛ فإنَّ ذكرَ الودودِ، وهو البالغُ المودّة بعدَ ذكرِ الرّحيم المتّصفِ بالرّحمةِ البالغةِ يقعُ موقعَ التّعليلِ، فهما

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/147.
(2) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 6/1191.
(3) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 11/6626.

صنوانِ؛ " لكأنّهُ قيلَ: بليغُ الرّحمةِ لمَن تابَ؛ لأنّهُ بلغَ المودّةَ لمَن يودّهُ، ومقتضى المودّةِ البالغةِ اللُّطفُ والرّحمةُ"[1].

توجيهُ تقديم الرّحيم على الودودِ:

صفةُ الودِّ سببُ الرَّحمةِ

قُدِّمَت صفةُ الرّحيم على صفةِ الودودِ في قولهِ تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾ تقديمَ العلّةِ على المعلولِ؛ فإنَّ الودودَ بمعنى المودودِ، كحلوبٍ بمعنى المحلوبِ، ولمّا كانَ كذلكَ فإنّهُ تعالى يرحمُهُم فيَودّونَهُ[2]؛ فرحمتُهُ تعالى علّةٌ لودادِهِ منهم، أو أن تكونَ صفةُ الودِّ علَّةً للرَّحمةِ، فهو يرحمُ العبادَ؛ لأنَّه يودُّهم، وهذا مُقتضى ظاهرِ النَّظم، وحملُهُ على الظّاهر مُقدَّمٌ، فيكون من تقديم المعلولِ على العلَّةِ.

توجيهُ ذكرِ وصفِ الودودِ دونَ المُحبِّ:

الودُّ حبٌّ خاصٌّ لهُ تبعاتُ الإحسانِ والإنعام

(الودودُ) صفةُ مبالغةٍ، زنةُ (فَعُول) من (ودّ) إذا أحبَّ الشّيءَ وآثرَهُ؛ فإنّهُ سبحانهُ بأفعالهِ القديرةِ وألطافهِ الجليلةِ بعبادِهِ لمّا كانَت على الغايةِ من الإحسانِ الجميلِ إليهم، كانَت كمَن يتودَّدُ للمصنوعِ له[3]، والودُّ هو المحبّةُ؛ فيؤولُ المعنى أنّهُ تعالى شديدُ المحبّةِ لِمن يؤوبُ إليهِ تائبًا[4]. فهو المتودِّدُ إلى عبادِهِ بالمغفرةِ، وهو الّذي يفعلُ بمَن أرادَ فعلَ المُحبِّ الكثيرِ المحبّةِ؛ فيجيبُهُ إلى ما شاءَ، ويلقي على صاحبِ الذّنبِ الّذي محاهُ عنه محبّةً كبيرةً واسعةً، ويجعلُ له في قلوبِ الخلقِ رحمةً، فمادّةُ (ودّ) تدور على الاتّساعِ[5].

وفي معناه أيضًا وجهان: أحدُهما: أن يكونَ فَعولًا في محلِّ مفعولٍ، كما قيلَ: رَجلٌ هَيوبٌ، بمعنى مَهيبٍ، وفرسٌ رَكوبٌ، بمعنى مَركوبٍ، فاللهُ سبحانَه مَودودٌ في قلوبِ أوليائِهِ لِما يتعرَّفونَهُ من إحسانِه

(1) القونويّ وابن التّمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاويّ: 10/181.
(2) القشيريّ، لطائف الإشارات: 2/153.
(3) الثّعالبيّ، الجواهر الحسان: 3/298.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/148.
(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/446، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 8/381.

إليهِم، وإنعامه إليهِم. والآخرُ: أن يكونَ بمعنى الوادِّ؛ أي: أنّهُ يَودُّ عبادَهُ الصّالحينَ؛ بمعنى: أنّه يَرضى عنهم بِتَقَبُّلِ أعمالِهم، ويكونُ معناهُ: أن يُودِّدَهم إلى خلقِهِ، كقولِه ﷻ: ﴿سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا ٩٦﴾ [مريم: 96][1].

دلالةُ تنكيرِ ﴿رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾:

التّنكيرُ في صفتي الرّحيم الودودِ لهُ دلالةُ التّعظيم والكمالِ والتّمام فضلًا عن المبالغةِ؛ أي: إنَّ ربّي المتّصفُ بالرّحمةِ البالغةِ حتّى تسعَ العالَمين، وإنَّ مودّتَهُ تصلُ إلى الثّقلينِ، وفي ذلكَ بشارةٌ لَمن غرقَ في ذنوبِهِ ومعاصيهِ.

تعظيمُ الرَّحمةِ والودِّ الواسعتين كلَّ شيءٍ

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

التّوبةُ والإنابةُ:

قولهُ تعالى: ﴿ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِۚ﴾ ذكرَ فعلَ التّوبةِ هنا الّتي فسّرها الجمعُ الغفيرُ بأنّها الانتهاءُ عن أعمالِ المعاصي الّتي أنتُم عليها[2]؛ لأنّها مسبوقةٌ بالاستغفارِ، وفرّقَ أبو هلال العسكريّ بينَ التّوبةِ الدّالّةِ على النّدم عمّا مضى، والإنابةِ بتركِ المعاصي في المُستقبلِ[3]، وكلاهما دالٌّ على الرّجوعِ. ولما كانتِ التّوبةُ انتهاءً عنِ المعصية مقرونةً بالنّدم كانَت أنسبَ لسياقِ الآيةِ؛ بوصفها طلبًا بالاستغفارِ والتّوبةِ من ذنبٍ عظيمٍ؛ فالكفرُ لا ينفعُ معه إلّا التّوبة.

التّوبةُ النّدمُ عمّا مضَى، والإنابةُ تركُ المعاصي في المستقبلِ

(1) ابن الجوزيّ، زاد المسير: 2/397.
(2) إسماعيل حقّي، روح البيان: 4/177.
(3) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 146.

﴿قَالُواْ يَٰشُعَيۡبُ مَا نَفۡقَهُ كَثِيرٗا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفٗاۖ وَلَوۡلَا رَهۡطُكَ لَرَجَمۡنَٰكَۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡنَا بِعَزِيزٖ ٩١﴾ [هود: 91]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

رحمةُ الظّالمين ظلمٌ وخِيمٌ لا يأتيه إلّا ذو قلبٍ لئيمٍ

بعدَ أن دعا شعيبٌ قومَه إلى الاستغفارِ، والتّوصُّلِ إليهِ بالتّوبةِ بما أغلقَ عليهِم أعذارَهُم، ولمّا أفحمَهُم، ولم يقدِروا على جوابِهِ، أقنطوهُ من رجوعِهِم إليهِ بأن ساووا أنفسَهم بالبهائم في الفهم مع وضوحِ كلامِهِ[1]، وهدّدوهُ بالقتلِ بما لهُ من ضعفٍ، وما لهُم من قوّةٍ، ولكنَّ رهطَهُ يقفُ حائلًا بينَه وبينَ ما يريدونَ، فالمناسبةُ بينَ الآياتِ بيانُ موقفِ المُعانِدين ممَّن أشفقَ عليهم، وأرادَ بهم رحمةً ونجاةً؛ كي لا يقعَ أحدٌ في غياهبِ رحمةِ الظّالمين.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿نَفۡقَهُ﴾: أصلُ مادّتِهِ (فقه)، فالفاءُ والقافُ والهاءُ أصلٌ واحدٌ صحيحٌ، يدلُّ على إدراكِ الشَّيءِ والعِلمِ بهِ. تقولُ: فَقِهتُ الحَديثَ أفقَهُهُ. وكلُّ عِلمٍ بشيءٍ فهو فِقهٌ. ثمَّ اختُصَّ بذلكَ عِلمُ الشَّريعةِ، فقيلَ لكلِّ عالمٍ بالحلالِ والحرامِ: فَقيهٌ[2]. وفَقِهَ عنّي؛ أي: فَهِمَ عنّي[3]، والفقهُ هو: الفَهمُ[4]، فمعنى ﴿نَفۡقَهُ﴾ هنا: نفهمُ.

2) ﴿ضَعِيفٗاۖ﴾: أصلُ مادّتِهِ (ضعف)، فالضّادُ والعينُ والفاءُ أصلانِ مُتَبايِنانِ، يدلُّ أحدُهُما على خلافِ القوَّةِ، ويدلُّ الآخرُ على أن يُزادَ الشَّيءُ مثلَهُ. فالضَّعفُ والضُّعفُ، وهو خِلافُ القُوَّةِ. يُقالُ: ضَعُفَ يَضعُفُ، ورَجُلٌ ضعيفٌ، وقومٌ ضُعفاءُ وضِعافٌ[5].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/363.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (فقه).
(3) ابن دريد، جمهرة اللّغة: (فقه).
(4) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (فقه).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ضعف).

وكلُّ ما في القرآنِ منَ الفعلِ: (ضعُف) و(استضعف)، ومضارعُه للفاعلِ والمفعولِ، وكلمةُ (ضَعْف) بالفتح، والصّفةُ (ضعيف) وجمعُها (ضِعاف) و(ضُعفاء)، وكذلك صفةُ التّفضيل (أضعف)، واسمُ المفعولِ (مُستضعف)، كلُّ ذلك منَ الضّعف: عدم القوّةِ[1] فالضّعيفُ هنا: الّذي لا يقوى على شيءٍ، ولا يقدرُ عليه.

3) ﴿رَهۡطُكَ﴾: أصلُ مادّتِهِ (رهط)، فالرّاءُ والهاءُ والطّاءُ أصلٌ يدلُّ على تَجَمُّعٍ في النّاسِ وغَيرِهِم. فالرَّهطُ: العِصابَةُ من ثلاثةٍ إلى عَشَرَةٍ[2] والرَّهطُ جمعٌ لا واحد له من لفظِهِ[3]، ورَهطُ الرّجلِ: بَنو أبيهِ[4]، والرَّهطُ هنا جاءَ بهذا المعنى، فـ﴿رَهۡطُكَ﴾: قومُك وذوو قرابتِكَ الأدنَونَ.

4) ﴿لَرَجَمۡنَٰكَۖ﴾: أصلُ مادّتِهِ (رجم)، فالرّاءُ والجيمُ والميمُ أصلٌ واحدٌ يَرجِعُ إلى وجهٍ واحدٍ، وهو الرَّميُ بالحجارةِ. فيُقالُ: رُجِمَ فلانٌ: إذا ضُرِبَ بالحجارةِ[5] والرَّجمُ: القَتلُ، وقد جاءَ في غيرِ مَوضِعٍ من كتابِ اللّهِ، وإنّما قِيلَ للقَتلِ رَجمٌ؛ لأنّهم كانوا إذا قتلوا رجلًا رَمَوه بالحجارةِ حتّى يَقتُلُوهُ[6]، ومنه رجمُ الثَّيِّبَينِ إذا زَنَيا، والرَّجمُ: السَّبُّ والشَّتمُ، ومنه: قولُه تعالى حكايَةً عن أبي إبراهيمَ لابنِهِ إبراهيمَ، عليهما السلام: ﴿لَأَرۡجُمَنَّكَۖ وَٱهۡجُرۡنِي مَلِيّٗا ٤٦﴾ [مريم: 46]؛ أي: لأسُبَّنَّكَ وأشتُمَنَّكَ، و﴿لَرَجَمۡنَٰكَۖ﴾ هنا بمعنى: قتلناك رميًا بالحجارةِ[7]، وهو المعنى المناسبُ للسّياق.

5) ﴿بِعَزِيزٖ﴾: أصلُ مادّتِهِ (عزز)، فالعينُ والزّاي أصلٌ صحيحٌ واحدٌ، يدلُّ على شدَّةٍ وقوَّةٍ. والعِزَّةُ لِلّهِ جلَّ ثناؤُهُ، وهو منَ العزيزِ. وعزَّ الرّجلُ: بلغَ حدَّ العزَّة، واعتزَّ بفلان: تشرَّفَ به[8]. وعَزَّ يعزُ عِزَّةً وعزًّا: إذا صار عَزيزًا. وعزَّ يعزُّ عزًّا إذا قهر[9] والعِزُّ خلافُ الذُّلِّ[10]، والمرادُ بالعزيزِ هنا: القويُّ ذو الكرامةِ والمهابةِ والمكانةِ.

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (ضعف).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (رهط).
(3) الخليل، العين: (رهط).
(4) ابن دريد، جمهرة اللّغة: (رطه).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (رجم).
(6) جبل، المعجم الاشتقاقي: (رجم).
(7) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (رجم).
(8) الخليل، العين: (عزَّ)، وابن فارس، مقاييس اللغة: (عزّ).
(9) ابن دريد، جمهرة اللّغة: (عزز).
(10) الجوهريّ، الصّحاح: (عزز).

المَعْنى الإجْماليُّ:

إكرامُ العشيرةِ على الحقِّ ملحقٌ بأهلِ العذابِ الحقِّ

لمّا تقدَّم نصحُ شعيبٍ عليه السلام لقومِه، وإخلاصُه في الحرصِ على هدايتِهم، أجابَه قومُه بنفي فقهِهم لما يقول، وأنَّهم يرونَه ضعيفًا لا حيلةَ له ولا قوَّة، عاجزًا عن فعل شيءٍ، ولولا نصرةُ العشيرةِ والقوم الأقربين لقتلوه رميًا بالحجارةِ، ثمّ أخبروهُ بأنّه ليسَ عليهِم بكريمٍ ولا قويٍّ ولا ذي مكانةٍ حتَّى يهابوا قتلَهُ، وإنَّما تركوا قتلَهُ احترامًا للقوم والعشيرةِ[1].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ الاستئنافِ البيانيِّ:

بعد إرخاءِ الكلام بالنّصيحة جاءَ التّهديدُ بالفظيعة

لمّا خاطبهُم بألطفِ الخطابِ وأحسنِه، ودعاهُم إلى الاستغفارِ مُرغِّبًا بأنَّ لهُم ربًّا رحيمًا ودودًا، فلعلَّ سائلًا يسألُ عن جوابِهم بعدَ حُسنِ دعائِه عليه السلام؟ فكان قولُه تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰشُعَيۡبُ مَا نَفۡقَهُ كَثِيرٗا مِّمَّا تَقُولُ﴾ استئنافًا بيانيًّا تبيَّنَ أنّهم تنكّبوا عن طريقِ الحقِّ، والتزموا العنادَ منهجًا لهم، وأنزَلوا أنفسَهم مَنْزِلَةَ البهائم على وضوحِ كلامِه[2]. وفصلَت هذه الآيةُ عمّا قبلَها لِما فيها منْ تحوّلِ قوم شعيبٍ عن محاججتِه ومجادلتِه بالحسنى إلى التّهديدِ والإهانةِ، وإنذارِهم إيّاهُ بالوعيدِ، ثمَّ نزولِ العذابِ الشّديدِ، ووقوعِه بالفعلِ العتيدِ[3].

دلالةُ النِّداءِ بالاسم المُجرَّد:

اقترانُ الغلظةِ بالكفرِ سمٌّ ناقعٌ

عندما أرادوا مخاطبتَهُ لإنكارِ فهمِهم تكبُّرًا وعنادًا، نادوهُ عليه السلام باسمِه المُجرّدِ ﴿يَٰشُعَيۡبُ﴾ دونَ نبيِّ اللّهِ أو نحوه؛ إظهارًا لجفائِهم إيّاهُ، وغلظتِهم عليهِ[4]، وتسجيلًا لكفرِهم بنبوّتِه. فهُم

(1) جماعة منَ العلماء، المختصر في تفسير القرآن الكريم، ص: 232.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/362.
(3) رشيد رضا، تفسير المنار: 12/121.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/362.

في كلّ مرّةٍ ينادونَه باسمه مُجرَّدًا في جفاءٍ وغلظةٍ، على حين أنّه يناديهم أبدًا بـ ﴿وَيَٰقَوۡمِ﴾ مُتودِّدًا مُتلطِّفًا. وشتّانَ بينَ أدبِ النّبوّةِ، ومنطقِ السّفهاءِ[1].

دلالةُ النّفي بـ ﴿مَا﴾:

نفيٌ عامٌّ يشمَلُ كلَّ فقهٍ من شأنِه دعوتُهُم إلى الإيمان

حكى الحقُّ سبحانهُ على لسانهم قولَهُم: ﴿مَا نَفۡقَهُ كَثِيرٗا مِّمَّا تَقُولُ﴾، فنفوا الفهمَ والعقلَ، والمقصودُ عدمُ التّصديقِ لا الفقهُ بمعنى عدم فهمهم كلامَهُ أصلًا؛ فإنّ شعيبًا كانَ مقوالًا فَصيحًا مَوصوفًا بأنّه خطيبُ الأنبياءِ[2]، و﴿مَا﴾ هنا دالّةٌ على الحالِ؛ فإنّ عدمَ فقههم مُتوجِّهٌ إلى اللّحظةِ الّتي هُم عليها؛ يعني الآنَ[3]، واختيارُ ﴿مَا﴾ يُرادُ منه نفي الفقهِ المؤدِّي إلى الإيمانِ، وكلُّ فقهٍ من شأنِه إعانةُ شعيبٍ عليه السلام عليهم، فمعنى العموم يعمُّ كلَّ فقهٍ من شأنِه دعوتُهُم للإيمانِ.

وجهُ النّفي الاستهزاءُ والحملُ على الجنون

ونفيهُم فقهَ كلامهِ عليه السلام يحتملُ أن يكونَ من بابِ الاستهزاءِ بهِ، ونسبته إلى الجنونِ، وهذهِ عادةُ القوم أنّهم إذا خابوا في جدالهم، وظهرتِ الحقيقةُ، نسبوا الرّسلَ إلى الجنونِ[4]، وهو ديدنُ المُفحَمينَ.

نكتةُ إسنادِ نفي الفقهِ للجميع:

تكاثرُ أهلِ الباطلِ على الكفرِ حربٌ نفسيَّةٌ قديمةٌ

عبّروا عن نفيِ فقهِهم كلامَهُ عليه السلام بقولهم: ﴿مَا نَفۡقَهُ﴾ بنونِ الجمعِ من بابِ إلزامهِ الحجّةَ بحسبِ زعمهم، وهو أنَّ كلامَهُ غيرُ مفهومٍ لجميعهِم قاطبةً، وهو حجّةٌ عليهِ، فليسَ عدمُ الفهم مُتعلِّقًا ببعضهِم دونَ بعضٍ، حتّى يُقالَ: إنَّ عدمَ الفهم مردُّهُ إلى اختلافهم في الفهم والعلم، وفي هذا تكالبُ الظّالمين على أصحابِ الحقِّ في ممارسة الحربِ النَّفسيَّةِ، وذلك بتعميم الباطلِ، وتكثيرِ أنصارِه، وهذا دَيْدَنُ أصحابِ الباطلِ في كلِّ زمانٍ.

(1) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 6/1192.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/148.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/362.
(4) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنّة: 6/174.

نكتةُ التّعبيرِ بلفظ: ﴿كَثِيرًا﴾:

التّعريضُ بشعيبٍ عليه السلام مع صيانةِ أنفسِهم من سوء الفهم

لمْ ينفِ قومُ شعيبٍ عليه السلام عن أنفسهم فقهَ كلامهِ، مع أنّهُ واضحٌ جليٌّ، وإنّما زادوا عليه صفةَ الكثرةِ ﴿كَثِيرًا﴾؛ لإرادةِ التّهاونِ بهِ؛ فإنّهُ إذا لم يُفهَمْ كثيرُ الكلام كان ذلك حائلًا عن فهم مقصودِهِ، وكانَ صاحبُهُ إلى الهذيانِ أقربَ، وأنَّ كلامَهُ فاقدٌ للنّظم، لا حاصلَ لهُ، مُمتنِعُ الوجودِ في الخارجِ[1]. وللفرارِ منَ المكابرةِ والعنادِ، والتّنكُّبِ عن طريقِ الحقِّ، ولا يرادُ بهِ الكلُّ والعمومُ؛ ولأنّ لفظَ ﴿كَثِيرًا﴾ يأبى أن يحملَ كلامَهُم على أنّهُ بمعنى عدم القَبولِ[2]، فهم يُريدون التَّعريضَ به، فإنَّ عدمَ فقهِ الكثيرِ يعني أنَّ هناك خللًا في القائلِ، إذ هُم يَفقهونَ الكلامَ، لكنَّهم لا يفقهونَ كثيرًا منه، وفيه منَ البذاءةِ والإصرارِ على الباطلِ ما يندُّ له جبينُ الكريم.

دلالةُ التّأكيدِ:

يُعلَمُ المكابرُ في لحنِ قولِه وفلتاتِ كلامِهِ

أكّدَ قومُ شعيبٍ عليه السلام رؤيتَهُم لهُ بحرفِ التّوكيدِ (إنَّ) ولام الابتداءِ[3] وبصيغة الجمع ﴿وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ﴾؛ مبالغةً في تنزيلِهِ منْزِلَةَ الجاهلِ علمهُم ذلكَ فيهِ، أو على سبيلِ مَنْ يُنكرُ ذلكَ، وإنّما فعلوا ذلكَ تعريضًا بغباوتِهِ[4] في ظنّهم، حاشاهُ عليه السلام.

سرُّ التّعبيرِ بفعل الرّؤيةِ:

تحقيقُ الرّؤيةِ دليلُ الاحتياطِ بسببِ خوفِ الإيمانِ به

عبّرَ بفعلِ الرّؤيةِ في قولِه تعالى: ﴿وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ﴾ دونَ غيرِها منَ التّعبيراتِ؛ لِما يحقِّقُهُ فعلُ الرّؤيةِ منَ التّحقيقِ والتّعيينِ، فنزّلوه مَنزلةَ مَنْ يظنّونَ أنّهُم لا يَرَونَ ذلكَ بأبصارِهم، فصرَّحُوا بفعلِ الرُّؤيَةِ[5]، وهذا الاحترازُ منهم يومئُ إلى خوفِهم من إيمانِ النّاسِ به، فإنَّ الواثقَ لا يُحكمُ كلامَه، ولا يكترثُ بكثرةِ الأدلَّةِ إلّا إذا كانَ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/362.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 6/318.
(3) محمّد الهلال، تفسير القرآن الثّريّ: 12/86.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/149.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/148.

مُنصِفًا باحثًا عنِ الحقِّ، وما سوى ذلك فخوفٌ منَ الحقِّ الأبلجِ، وهذا شأنُ الطُّغيانِ الباطشِ في مناصرة الفكرِ الفاحشِ لمواجهة الحقِّ والخيرِ.

سرُّ التّعبيرِ بالظّرفِ ﴿فِينَا﴾:

الاحتراسُ من إرادةِ معنًى غيرِ مرادٍ

التّعبيرُ بالظّرفِ ﴿فِينَا﴾ في قولهِ تعالى: ﴿وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا﴾ منْ بابِ الاحتراسِ؛ فإنّهُ يحتملُ أن يكونَ الضّعيفُ بمعنى الضّريرِ مثلَما وردَ عندَ بعضهم، وهو لا يستقيمُ، يؤيّدُ ذلكَ التّقييد بالظّرفِ هذا؛ لأنَّ "فينا يصيرُ لغوًا؛ لأنَّ مَن كانَ أعمى يكونُ أعمى فيهم وفي غيرهم، وإرادةُ لازمهِ وهو الضّعفُ بينَ مَن ينصرُهُ ويعاديهِ، ولا يخفى تكلُّفُهُ"[1]؛ فاحترسَ بالظّرفِ عن هذا المعنى غيرِ المرادِ.

نكتةُ التّعبيرِ بوصفِ الضّعفِ:

شمولُ الضَّعفِ للبدنِ والعقلِ والعشيرةِ

في معرضِ مجادلتهم معهُ عليه السلام وصفوهُ بكونهِ ﴿ضَعِيفًا﴾، ليشملَ البدنَ وغيرَه، وهذا أبلغُ في التَّهديدِ، كأنَّهم يقولون: "لا تتعرَّضْ لسُخطِنا؛ فإنّكَ لا تَقدرُ على الامتناعِ من مكروهٍ نَحُلُّهُ بكَ، بقوَّةِ عقلٍ ولا جسمٍ ولا عَشيرةٍ"[2]، وهذا تهديدٌ عامٌّ، يدلُّ على عكس ما أظهروهُ منَ الاعتقادِ فيه.

دلالةُ تقديم الجارّ والمجرورِ:

إشاراتُ التَّهديدِ في إنهاء الحوارِ وحرب الجوارِ

تقديمُ الجارِّ والمجرورِ على المفعولِ الثّاني في قولهِ تعالى: ﴿وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا﴾؛ لإفادةِ التَّهديدِ والوعيدِ؛ أي: أنت فينا ضعيفٌ لا في غيرِنا، فإذا كنتَ تعتقدُ قوَّتَك في غيرِنا، ففينا أنت ضعيفٌ، ففيه إثباتُ القوَّةِ الفائقةِ لأنفسِهم على غيرِنا، وفيه تمزيقُ القبائلِ، فهم جعلوا أنفسَهم قبيلةً واحدةً، وجعلوا رهطَه في جهةٍ أخرى، كأنَّهم قالوا: إذا كنتَ تعتقد قوّتَك في رهطكَ وجماعتكَ،

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 6/318.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/363.

ففينا أنت ضعيفٌ، فتنبَّهْ ولا تتمادَ، وهذه إشاراتُ إنهاء الحوارِ، وسدِّ منافذِ الجوارِ.

معنى الواوِ ودلالتُها:

وجود الرَّهطِ علّة الخلاص ومن دونِهم فالحكمُ للرَّجم

الواوُ في قولِه تعالى: ﴿وَلَوۡلَا رَهۡطُكَ﴾ دالّةٌ على العطفِ، فقد عطفَت هذهِ الجملةَ على سابقتِها قصدًا إلى ما مُهِّدَ إليه منَ المُقدِّماتِ، فالمعنى لا شيءَ يصدُّنا عن رجمكَ إلّا رهطُكَ فينا؛ فإنّكَ لَمّا طعنتَ في دينِنا فقد أوجبتَ علينا رَجمَكَ[1].

سرُّ التّعبيرِ بـ ﴿وَلَوۡلَا﴾:

المانع منَ الرّجم كرامة الرّهطِ المعدودينَ وقرابتهم

أداةُ ﴿وَلَوۡلَا﴾ في الجملةِ دالّةٌ على الامتناعِ لوجود؛ أي: امتنعَ رجمُهُم إيّاهُ بمدعاةِ قرابةِ رهطِه منهم؛ فقد كانوا "من أهلِ ملَّتِهم؛ فلذلكَ أظهروا الميلَ إليهم والإكرامَ لهم"[2] مع أنَّ قرابتَهُ نفرٌ قليلٌ ليسَ يُخشى بأسُهُم ولا قوّتُهُم، وإنّما كانَ الإبقاءُ كرامةً لتلكَ القرابةِ؛ ولأنّهم منَ المخلِصينَ في دينِهم[3].

بلاغةُ حذفِ خبرِ ﴿وَلَوۡلَا﴾:

عقلُ النَّبيِّ وقوَّةُ إجابتِه دليلُ البداهةِ والكرامةِ

الخبرُ بعدَ ﴿وَلَوۡلَا﴾ في قولِه تعالى: ﴿وَلَوۡلَا رَهۡطُكَ﴾ محذوفٌ، وهذا شأنُهُ أبداً[4] إلّا ما استُثنيَ، وتقديرُهُ مرتبط بمعنى الكرامةِ والقرابةِ الحاصلةِ لرهطِه، وآيةُ ذلكَ قولُهُ: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيۡنَا بِعَزِيزٖ﴾ وقولُهُ: ﴿أَرَهۡطِيٓ أَعَزُّ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾؛ أي: إنَّ وجودَ رهطِه ليس وجودًا مُطلقًا بل هو وجودُ تكريمٍ وتوقيرٍ، فلولا رهطُكَ مُكرَّمونَ[5] مُوقَّرونَ عندَنا لنالكَ منّا ما تعلمُ، وفي ذلك إيماءٌ إلى سرعةِ بديهتِه عليه السلام، وقوَّةِ إجابتِه لهم، وإنكارِه على قيلِهمُ البذيءِ المنطوي على خُبثٍ.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/149.
(2) الزّجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 3/74.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/149.
(4) ابن بابشاذ، شرح المقدّمة المُحسِبَة: 1/253.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/149.

سرُّ التّعبيرِ بالرّهطِ دونَ القوم:

رهطُ شعيبٍ عليه السلام على ملّة قومهم في الكفرِ، ولذلك حموهُ من البطشِ على قلّتِهم

استعملَ النَّظمُ مفردةَ الرّهطِ دونَ القوم في قولِه تعالى: ﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ﴾ للدّلالةِ على قلّتِهم؛ فإنَّ الرّهطَ إذا أُضيفَ إلى الرّجلِ أُريدَ بِه قرابتُهُ الأدنَونَ، فهم طائفةٌ قليلةٌ لهذا السّببِ؛ ولأنَّ قومَهُ قد نَبذوهُ، ولم يكونوا مُناصرينَ لهُ؛ ولأنَّ رهطَهُ من خاصّةِ قومِه؛ فكانَ مُسوّغًا لدفعِ الأذى عنهُ إكرامًا لقرابتِهم[1]، وفيه كشفٌ تاريخيٌّ لقرابةِ شعيبٍ عليه السلام، وهذا يدلُّ على أنَّ قومَه كانوا يُقيمون الكرامةَ لبعضِهم، ويظهرُ من هذا أنَّ رهطَه كانوا شديدي الكفرِ، وهم مُساندون لقومهم عامَّةً، ولو كانوا على خلافِ ذلك للقوا منَ الجماعةِ العظيمةِ اضطهادًا ومناكفةً، فاتَّفقَ الرَّهطُ مع القوم على الكفر، كما أنَّهم اتَّفقوا إكرامًا لهذا الاتِّفاقِ العامِّ الإبقاءَ على شعيبٍ عليه السلام دون قتلِه باتِّفاقٍ عامٍّ وظاهرٍ.

دلالةُ الإضافةِ:

التَّقليلُ من شأنِ الكبارِ همسُ الصِّغار

أشاروا إلى ضعفِ العشيرةِ والتّقليلِ من شأنِهم، والتّهوينِ من أمرِهم، وانحطاطِ اعتبارِهم بتعبيرِهم بـ (الرّهط) في قولِهم: ﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ﴾؛ أي: قتلناكَ شرَّ قِتلَةٍ؛ فإنّ الرّهطَ من ثلاثةٍ إلى عَشَرَةٍ، وأكثرُ ما قِيلَ: إنّهُم أربعونَ[2].

دلالةُ اللّام:

لَمّا أرادوا التّعبيرَ بالرّجم في قولِه تعالى: ﴿لَرَجَمْنَٰكَ﴾ جاؤوا باللّام الدّالّةِ على التّأكيدِ؛ أي: لو شئْنا لَرَجمناكَ، لولا رهطُكَ المُقرّبونَ القائمونَ على دينِنا؛ فيستفادُ منَ اللّام تأكيدُ التّهديدِ له عليه السلام.

سرُّ التّعبيرِ بلفظِ الرّجم:

أرادوا التَّحقيرَ اللَّديغَ لا مُجرَّدَ التَّهديد البليغِ

عُبِّرَ بالرّجم؛ وهو القتلُ رَميًا بالحجرِ في قولِه تعالى: ﴿لَرَجَمْنَٰكَ﴾،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/149.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 3/570.

فإنّهُ وإنْ كانَ فيه دلالةٌ على أنّهُ حكمُ مَنْ يخلعُ دينَهُم، إلّا أنّهم أرادوا أن يكونَ مصيرُهُ قِتلةَ خزيٍ وذلٍّ[1]، فاختيارُ الرَّجم لا لمجرَّدِ التَّهديدِ البليغِ، بل للتّحقيرِ الذَّليل، وهو اللّائقُ بهم حالًا ومآلًا.

نكتةُ إسنادِ الرَّجم للجميع:

الاجتماعُ على إيذاءِ الرِّجالِ يزيدُهم قوَّةً وثباتًا

في قولِهم: ﴿لَرَجَمْنَٰكَ﴾ بالنّونِ مجموعًا دلالةٌ على أنّهم مُتمالِئونَ عليهِ، مُجتمعونَ على إيذائهِ؛ لإدخالِ الرّهبةِ والخوفِ في نفسهِ؛ فجميعُ القومِ على منهجٍ واحدٍ، وهو أدعى للرّجوعِ عن دعوتهِ بحسبِ زعمِهم، وفي مُنتهى ظنِّهم، ومبلغِ فقهِهم.

دلالةُ التّعبيرِ بالماضي ﴿لَرَجَمْنَٰكَ﴾:

إظهارُ الجدِّيَّةِ في العداوةِ تُؤكِّدُ عدالةَ تعذيبهم

لقد كانَ المعارضون لشعيبٍ عليه السلام، الرّافضونَ لدعوتهِ على مستوًى منَ الجدِّيَّةِ واضحٍ في الشّروعِ بإيذائهِ ورجمهِ، وآيةُ ذلكَ تعبيرُهُم عن رغبتِهم برجمهِ بصيغةِ الماضي الدّالِّ على الثّباتِ والتّحقُّقِ، إلّا أنَّ ما منعَ ذلكَ رهطُهُ باتّصافِهم بصفةِ القرابةِ والدّينِ؛ أي: إنَّ الرّجمَ هو العقابُ الّذي تستحقُّه، ولولا وجودُ المانعِ لكنتَ منَ المرجومينَ.

دلالةُ إيلاءِ النّفي المسند إليه، ومجيءُ المُسندِ مُشتقًّا:

تخصيصُ العزَّةِ بالرَّهطِ دونَ شعيبٍ عليه السلام

إذا وليَ المسندُ إليهِ حرفَ النّفي كقولِهم: ما أنا قلتُ هذا؛ أي: إنّني لم أقلهُ معَ أنّ غيري قالهُ، ففائدتُهُ التّخصيصُ، ومنهُ خاتمةُ الآيةِ: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾، أي: إنّ العزيزَ علينا رهطُكَ فحَسبُ لا أنتَ؛ لذلكَ استفهمَ في الآيةِ اللّاحقةِ عن عزّةِ رهطهِ على اللّهِ[2]، وهذا شاهدٌ من شواهدِ البيانيِّين الّذين انتصروا للزّمخشريِّ في صحَّةِ التَّخصيصِ بالمشتقّاتِ، وأنَّه لا يُشترطُ أن يكونَ المسندُ فعلًا، كما هو رأيُ السَّكّاكيّ وجمهور البيانيِّين خلافًا للمنسوبِ لعبد القاهر[3].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/150، والأيجيّ، جامع البيان في تفسير القرآن: 2/195.
(2) السّيوطيّ، معترك الأقران: 1/141.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 6/319.

دلالةُ التّعبيرِ بضميرِ الخطابِ:

نفيُ العزَّةِ عن شعيبٍ وإثباتُها للجميعِ

عبّروا عن نفيهم العزّةَ عن شعيبٍ بمناداتهِ بضميرِ الخطابِ ﴿وَمَآ أَنتَ﴾؛ لإفادةِ الاهتمامِ والاختصاصِ؛ لأنَّ (ما) نافيةٌ للحالِ، وهيَ مُختصَّةٌ بالزّمانِ؛ فيكونُ مدخولُهُا فعلًا أو شِبهَهُ[1]، فلمّا باشرتِ الاسمَ أفادَ المعنى اهتمامًا وتخصيصًا؛ أي: ليسَ هناكَ أحدٌ ننفي عنهُ العزّةَ إلّا أنتَ.

غرضُ التّعبيرِ بحرفِ الاستعلاءِ:

تقويةُ معنى الشّدّةِ والغلبةِ والوقعِ على النّفسِ

جاءَ حرفُ الجرِّ (على) في قولهِ تعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيۡنَا بِعَزِيزٖ﴾ دونَ غيرهِ مع صفةِ العزيزِ الدّالّةِ على الغلبةِ والقهرِ والشّدّةِ، فعدّاهُ بحرفِ الاستعلاءِ لِما فيهِ من معنى الشّدّةِ ووقوعهِ على النّفسِ كقولهِ تعالى: ﴿عَزِيزٌ عَلَيۡهِ مَا عَنِتُّمۡ﴾ [التّوبة: 128]، أي: شديدٌ على نفسهِ[2].

نكتةُ تقديمِ الجارِّ والمجرورِ:

الحصرُ فعدمُ العزّةِ مقصورٌ عليكَ لا يتجاوزُكَ إلى رهطِكَ

قُدِّمَ الجارُّ والمجرورُ ﴿عَلَيۡنَا﴾ على مُتعلِّقِهِ الخبرِ في قولهِ تعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيۡنَا بِعَزِيزٖ﴾؛ لإفادةِ الحصرِ والاختصاصِ؛ اختصاصِ النّفيِّ؛ أي: إنَّ عدمَ العزّةِ مقصورٌ على شعيبٍ ﷺ لا يتجاوزُهُ إلى رهطهِ، وليسَ بمعنى نفيِ الاختصاصِ[3]؛ فإنَّ "العزيزَ علينا - يا شعيبُ - رهطُكَ لا أنتَ؛ لكونهم من أهلِ دينِنا"[4].

فائدةُ الباءِ:

تأكيدُ نفي عزّةِ شعيبٍ على قومهِ يفوحُ بعداوةٍ بليغةٍ

دخلتِ الباءُ على الخبرِ ﴿بِعَزِيزٖ﴾ لإفادةِ التّوكيدِ، وهذا شأنُها مع ليسَ وما شُبّه بها[5]؛ فإنّهم نفوا عنه العزّةَ المانعةَ من رجمهِ، وأكّدوا ذلكَ بالباءِ؛ كأنَّهم قالوا: فإنّك لستَ بـ "كريمٍ مُكرَّمٍ مُعظَّمٍ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/363.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/150.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 6/319.
(4) السّكّاكيّ، مفتاح العلوم، ص: 232.
(5) ابن السّرّاج، الأصول في النّحو: 1/90.

حتّى نكفَّ عنكَ لأجلِ عزّتِكَ ومَنَعَتِكَ عندَنا، بل تركنا رجمَكَ لعزّةِ رهطِكَ علينا؛ لموافقتِهم لنا في الدّينِ لا لقوّةِ شوكتِهم"[1].

سرُّ اختيارِ وصفِ العزَّة:

اعتقادُ النّصرةِ بالكثرةِ لا يكونُ بالكفرِ الأجردِ والحقدِ الأسودِ

في اختيارِ وصفِ ﴿بِعَزِيزٍ﴾ دونَ غيرِه منَ الأوصافِ كالكريم؛ فلأنّهُ لا يعجزُهُم قتلُهُ، ولا يشتدُّ على نفوسِهم؛ كأنَّهم يُخاطبونَه: ولأنّكَ هيّنٌ مُحتقَرٌ مُزدرًى عندَنا، ليسَ لكَ ناصرٌ منّا؛ ولأنَّ عزّةَ المرءِ على قبيلةٍ لا تكونُ في غلبةِ ذاتِه ونفسِه؛ فلا يغلبُ الواحدُ الجماعةَ؛ فالعزّةُ للكاثرِ؛ وإنّما عزّةُ المرءِ بقومِه وقبيلتِه[2]، وهذا ظنُّ الّذين كفروا أنَّ العزَّة بكثرتِهم واجتماعِهم، ولو على الكفرِ الأسودِ والفحشِ الأبغضِ.

دلالةُ تنكيرِ ﴿بِعَزِيزٍ﴾:

نفيُ الاتِّصافِ بأدنى أنواعِ العزّةِ

جاءَ التّعبيرُ بـ ﴿بِعَزِيزٍ﴾ بصيغةِ التّنكيرِ؛ لإفادةِ الإبهامِ والشُّيوعِ؛ أي: لستَ بعزيزٍ علينا، ولا بأدنى نوعٍ من أنواعِ العزَّةِ، وهو ما يتلاءمُ مع السِّياق.

علَّةُ الوصلِ في جملةِ الفاصلةِ:

إفادةُ حكمٍ جديدٍ مُقدَّمٍ على التَّوكيد

عُطفَت جملةُ: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيۡنَا بِعَزِيزٍ﴾ على ما سبقَ، فهيَ وإنْ كانت مُؤكِّدةً لمضمونِ ما قبلَها، وحقُّها الفصلُ لا العطفُ؛ فلأنّها قد أفادَت حكمًا يخصُّ المخاطَبَ؛ فكانَت جديرةً أن تُعطَفَ على الجملِ الّتي تفيدُ أحوالَهُ ﷺ، كاتّهامِه بأنّهم لا يفقهونَ أقوالَهُ، وما بعدَها من جملٍ[3]، وهذه تصلحُ أن تكونَ أصلًا في قاعدةِ التّأسيس، مقدَّمًا على التَّوكيد.

(1) القنّوجيّ، فتح البيان: 6/235.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/150.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/150.

بلاغةُ التَّذييلِ:

تـوكـيـدُ إثـبـاتِ الـعـزَّةِ للقوم دونَه ﷺ

ختمَ الآيةَ بقولِه تعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيۡنَا بِعَزِيزٖ﴾ توكيدًا لمضمونِ قولِه تعالى: ﴿وَلَوۡلَا رَهۡطُكَ لَرَجَمۡنَٰكَۖ﴾؛ لأنّهُ إنْ لم يكنْ قويًّا في نفوسِ قومِه، فإنّهم لم يكفّوا عن رجمِه، مع أنّهُ مُستحقٌّ لهذا الرّجم في اعتقادِهم إلّا كرامةً لرهطِه الباقينَ على دينِهم لا خوفًا منهم[1].

دلالةُ توالي المؤكِّداتِ في الفاصلةِ:

الاغـتـرارُ بالقوَّةِ وعظيم السَّطوةِ

ختمَ الآيةَ بقولِه تعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيۡنَا بِعَزِيزٖ﴾؛ مُضمّنًا إيّاها جملةً منَ المؤكِّداتِ لإرادةِ النّفي بأشدّه وأقواه؛ "فأكّدوهُ بالخطابِ وتكرارِه، وبالباءِ، وبتقديم ﴿عَلَيۡنَا﴾، وذلكَ اغترارٌ بقوّتِهم، وسطوتِهم، وتأكيدٌ بأنّه في قبضةِ أيديهِم"[2].

بلاغةُ الكناية:

مَغزى كلامهم التّحذيرُ من مخالفةِ رهطِه

عبّرَ قومُ شعيبٍ ﷺ عن ضعفِه وهوانِه عندَهُم بقولِهم: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيۡنَا بِعَزِيزٖ﴾؛ لأنَّ المَغزى من كلامِهم هذا أن يكونَ تحذيرًا لهُ منَ الاستمرارِ على مخالفةِ رهطِه؛ فإنّهم إذ ذاكَ على وشكِ أنْ يَخلعوهُ ويَرجموهُ ويَنبذوهُ[3]، فهي كنايةٌ بليغةٌ عن وصفِهم له بما أرادوا، والكنايةُ أبلغُ منَ الوصفِ؛ لأنَّها تحملُ الدَّليلَ معها.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الفقهُ والفهمُ:

الـفـقـهُ الـفـهـمُ الـعـمـيـقُ، والـفـهـمُ أعـمُّ، وفي اختيار الفقهِ تعريضٌ وتقبيحٌ

خاطبَ قومُ شعيبٍ شعيبًا بقولِهم: ﴿قَالُواْ يَٰشُعَيۡبُ مَا نَفۡقَهُ كَثِيرٗا﴾، فنفَوا عنْ أنفسِهم الفقهَ بما يأتي بهِ ﷺ، ويجوزُ أن يكونَ كلامُهُم على طريقةِ (لا نفهمُ) إلّا أنّهم آثروا استعمالَ هذهِ اللّفظةِ؛ لأنّها أدقُّ في وصفِهم؛ لأنَّ الفقهَ هو العلمُ والفهمُ بالشّيءِ على طولِ تأمُّلٍ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/150.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3744.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/150.

ونظرٍ[1]، فالفقهُ أعمقُ منَ الفهم، فهو الفهمُ الدّقيقُ العميقُ الّذي يؤثِّرُ في النّفسِ[2]، وكأنّهم في اختيارِهِمُ الفقهَ قد عرّضوا بشعيبٍ؛ أي: إنّنا تبحّرنا في محاولةِ معرفةِ غرضِ كلامكَ، لكنّنا لم نهتدِ؛ فالعلّةُ بكَ لا بنا، وفي ذلك افتراءٌ على شعيبٍ، وإنّما كانَ غرضُهُمُ الإعراضَ عن دعوتِهِ وكلامِهِ.

الرّهطُ والقومُ:

قولهُ تعالى: ﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ﴾ جاءَ بلفظِ الرّهطِ، وهُم عشيرتُهُ الّتي يتقوَّى بها، وهُم من ثلاثةٍ إلى عشرةٍ، ويكونونَ من أبٍ واحدٍ[3]، فعددُهُم يدلُّ على القلّةِ إلّا أنَّ كونَهم على دينهم كانَ ذلكَ مانعًا من رجمِهِ، أمّا القومُ فهُم مجموعةُ الرّجالِ القائمينَ بشؤونِ بعضِهم بعضًا، وهو في أصلِهِ يدلُّ على الجماعةِ منَ النّاسِ[4]، ولمّا كانَ الرّهطُ ما لهُ صلةُ قرابةٍ منَ الرّجلِ كانَ التّعبيرُ به أولى منَ القوم؛ لأنَّ المانعَ من رجمِهِ منَ الصّادّينَ عن دعوتِهِ هُمْ مَن تجمعُهُ وإيّاهم قرابةٌ، وهُم الرّهطُ، فلا يحسنُ التّعبيرُ بالقوم لانتفاءِ علّةِ القرابةِ والعشيرةِ.

الرّهطُ موصوفونَ بالقرابةِ، وهم علّةُ منعِ رجمِهِ، والقومُ جماعةٌ منَ النّاسِ

العزّةُ والمنعةُ:

كانَ من دلالاتِ ضعفِ شعيبٍ عندَهُم انتفاءُ العزّةِ عنهُ بقولِهِ تعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾، فقد وصفَهُ بصفةِ العزيزِ، و"هو المُمتنعُ الّذي لا يُنالُ بالأذى"[5] فضلًا عن كونِهِ قويًّا، فلا يكونُ عزيزًا مَن لم يكنْ قويًّا؛ ذلكَ أنَّ القوّةَ تسبقُ العزّةَ، أمّا المنيعُ فهو أن يُحالَ بينهُ وبينَ ما يُرادُ منهُ، وهو خلافُ الإعطاءِ[6]، وأكثرُ استعمالِهِ في

العزّةُ مُقترنةٌ بالقوّةِ السّابقةِ، والمنعةُ الحيلولةُ دونَ الإعطاءِ

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 412.
(2) رضا، تفسير المنار: 12/122.
(3) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 548.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (قوم).
(5) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 357.
(6) ابن منظور، لسان العرب: (منع).

منعِ الإعطاءِ والمنحِ؛ فهو دونَ العزيزِ في القوّةِ والتّمكُّنِ، وتعبيرُ قومهِ النّاكبينَ عن طريقِ الهدى بصفةِ العزيزِ قصدًا منهُم إلى أنّهم مُتفضّلونَ عليهِ في عدم إيذائهِ، وإنْ كانَ على الغايةِ منَ القوّةِ بأنْ يكونَ عزيزًا.

﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَهۡطِيٓ أَعَزُّ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِۖ وَٱتَّخَذۡتُمُوهُ وَرَآءَكُمۡ ظِهۡرِيًّاۖ إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ ٩٢﴾ [هود: 92]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

تقديمُ المخلوقِ على الخالقِ بريدُ العذابِ ونداءُ العقابِ

لمّا أعلنَ قومُ شعيبٍ عليه السلام موقفَهم من دعوتِه بوضوحٍ جليٍّ، وبيَّنوا نيَّتَهُم بقتلِه، وأنَّ المانعَ من رجمِه وقتلِه رهطُهُ، ثمَّ ما كانَ من تخصيصِهم نفيُ العزّةِ عنهُ، أنكرَ عليهِم بطريقِ الاستفهام بما يُفهَمُ أنَّ رهطَهُ أعزُّ عليهِم منَ اللهِ وطاعتِه، بأن أعرضتُم عنهُ إعراضَ مَن يتركُ أمرًا خلفهُ ظهريًّا، ثمَّ هدّدهُم بأنَّ كلَّ ذلكَ لا يَخفى عليهِ سبحانهُ، فهو القادرُ المحيطُ بجليلِ أعمالِكُم وحقيرِها[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَرَآءَكُمۡ﴾: أصل مادّتِه (ورى)، فالواوُ والرّاءُ والحرفُ المُعتَلُّ: بِناءٌ على غَيرِ قياسٍ. وقَولُهُم وراءَكَ، معناه: من خَلفٍ، وتركَهُ وراءَه؛ أي: خلَّفَه، ومنه قولُه تعالى: ﴿وَرَآءَ ظُهُورِكُمۡۖ﴾ [الأنعام: 94]؛ أي: خلَّفتُمُوهُ بعدَ موتِكُم[2]، ويأتي وراءَ بمعنى: غير[3]، و﴿وَرَآءَكُمۡ﴾ هنا بمعنى: خلفَكُم؛ أي: أهملتُمُوهُ، وأغفلتُمُوهُ، وكفرتُم به.

2) ﴿ظِهۡرِيًّاۖ﴾: أصلُ مادّتِه (ظهر)، فالظّاءُ والهاءُ والرّاءُ أصلٌ صحيحٌ واحدٌ يدلُّ على قوّةٍ وبُروزٍ. من ذلكَ: ظَهَرَ الشَّيءُ يَظهَرُ ظُهورًا فَهو ظاهِرٌ، إذا انكَشَفَ وبَرَزَ. والظِّهريُّ: كُلُّ شَيءٍ تَجعَلُهُ بِظَهرٍ؛ أي: تَنساهُ، كأنَّكَ قَد جَعَلتَهُ خلفَ ظَهرِكَ، إعراضًا عنهُ وتَركًا لَهُ. قالَ اللهُ سُبحانه: ﴿وَٱتَّخَذۡتُمُوهُ وَرَآءَكُمۡ ظِهۡرِيًّاۖ﴾[4]، واتَّخذَ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/364.
(2) الرّاغب، المفردات: (ورى).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (ورى).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ظهر).

حاجتَهُ ظِهريًّا: استهان بها، كأنَّهُ نَسَبها إلى الظّهر على غير قياسٍ، وأظهَرَ بحاجتِه، واظَّهَر: جعلَها وراء ظَهرِه[1] وظهيرًا؛ أي: من ناحيةِ الظّهر، كنايةً عن الإعراضِ[2]، ومعنى ﴿ظِهْرِيًّا﴾ هنا: أعرضتُم عنه، وتركتُمُوهُ، ونسيتُمُوهُ.

3) ﴿مُحِيطٌ﴾: أصلُ مادّتِه: (حوط)، فالحاءُ والواوُ والطّاءُ كلمةٌ واحدةٌ، وهو الشَّيءُ يُطيفُ بالشَّيءِ. فالحَوْطُ من حاطَهُ حَوطًا[3]، والإحاطةُ بالشّيءِ، استُعملت كنايةً عن العلم بالشّيء من جميعِ جوانبِه، وعن حفظِه، وعنِ التّمكُّنِ منه والقدرةِ عليه وإهلاكِه. فمن معانيه قولُهم: (حاطه): حفظَهُ وتعهّدَهُ. وأحاطَ بالأمر: أحدقَ به من كلِّ جوانبِه، حفظًا أو علمًا أو تمكُّنًا وقدرةً، أحرزَه كلَّه، وبلغَ علمُه أقصاه[4]، فـ﴿مُحِيطٌ﴾ هنا بمعنى: عالمٌ بأمورِهم، مُطلِّعٌ عليها، قادرٌ على إهلاكِهم.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

العـــزَّةُ لله وحدَهُ، وما دونَه فموضوعٌ باطلٌ

جاء جوابُ شعيبٍ عليه السلام قومَه، بعد اعتراضِهم عليه، وتهديدِهم له، مُضمّنًا الإنكارَ عليهم فيما قالوا، فكيف يكونُ الرَّهطُ أعزَّ من خالقِ الرَّهطِ؟! يا قوم، أرهطي أكرمُ عندَكم وأعزُّ منَ اللهِ ربِّكُم؟! وتركتُمُ اللهَ وراءَكم مُتغافلينَ مُتناسينَ مُهملِينَ أحكامَهُ، حين لم تؤمنوا بنبيّهِ الّذي بعثَه إليكم، إنَّ ربِّي بما تعملون محيطٌ وعالمٌ، لا يخفى عليه شيءٌ من أعمالِكُم، وسيجازيكُم عليها في الدّنيا بالإهلاكِ، وفي الآخرةِ بالعذابِ، وهو القادرُ على ذلك، المُتمكِّنُ منه[5]، وفي هذه الآيةِ بيانُ أنَّ قولَ الحقِّ لا يمنعُ منه قرابة أو تهديد.

(1) ابن سيده، المحكم: (ظهر).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (ظهر).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حوط).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (حوط).
(5) جماعة منَ العلماء، المختصر في تفسير القرآن الكريم، ص: 232.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

علَّةُ فصلِ الآيةِ عمّا قبلَها:

من شأنِ المحاوراتِ الكلاميَّةِ الإجابةُ عنِ السُّؤالاتِ الضِّمنيّةِ

فُصِلَ قولُه تعالى: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَهۡطِيٓ أَعَزُّ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ عمّا سبقَه؛ لأنّه إجابةٌ لكلامِهم الّذي حذّروا فيهِ شعيبًا من مخالفةِ دينِهم، على طريقةِ المحاوراتِ الّتي تأتي مفصولةً عمّا سبقَها، جريًا لها على نهجِ الاستئنافِ البيانيِّ، فأكّدَ لهُم أنَّ تعويلَهُ لا على عزّةِ رهطِه، بل هو مُتوكِّلٌ على اللّهِ مولاهُ ذي العزّةِ والجبروتِ، فالقصدُ منَ الخبرِ لازمُهُ؛ فليسَ رهطي أغلبُ لكم منَ اللّهِ، فليسَ بي حاجةٌ بمعاملتِكُم الدّالّةِ على أنّي غيرُ عزيزٍ عليكُم، ولا من قلّةِ قرابتي وضعفِهم غيرِ المانعةِ من رجمي إذا شئتُم[1]. أو أنّ الفصلَ لِما بينَ هذه الآيةِ وما قبلَها من شبهِ كمالِ الاتّصالِ؛ لأنّ السّامعَ لقولِ قومِ شعيبٍ يتطلَّعُ بنهمٍ إلى قولِه عليه السلام على هذا السّفهِ والحماقةِ؛ فكانتِ الجملةُ إجابةً إلى ما يتطلَّعُ إليهِ السّامعُ من إجابةٍ، ويتوقُ إليهِ من ردٍّ[2].

فائدةُ تَكرارِ النّداءِ:

تنبيهُ المخاطَبين بالإلحاحِ للإفهامِ بعدَ الإحجامِ

أعادَ النَّظمُ ذكرَ النّداءِ في هذهِ الآيةِ بقولِه تعالى: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَهۡطِيٓ﴾ بعدَ أن كانَ التّعبيرُ بالنّداءِ من حصّتِهم في الآيةِ السّابقةِ، وفي إعادةِ النّداءِ تنبيهٌ لكلامِه، وأنّهُ مُتبصِّرٌ فيهِ[3] مُدرِكٌ أهمّيّتَهُ المُقتضيةَ الوعيَ والانتباهَ، ففي إعادةِ النِّداءِ إلحاحٌ في إفهامِ المنادى لعلَّهُ يرعوي عن غيِّه.

فائدةُ إضافةِ القومِ إلى النَّفسِ:

تلطُّفٌ مَشوبٌ بالتَّهكُّمِ

في إضافةِ القومِ إلى نفسِهِ في قولِه تعالى: ﴿يَٰقَوۡمِ﴾ فائدةٌ دالّةٌ على التّهكُّمِ مُخالِفًا ما مرَّ من ندائِهِمُ الدّالِّ على التّلطُّفِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/151.
(2) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 2/121.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/151.

والاستعطافِ؛ ذلكَ أنّهُ قد قنطَ هنا من صلاحهم تمامًا[1]، والتَّهكُّمُ مأخوذٌ منَ السِّياق، إذ شأنُ إضافةِ القوم إلى النَّفسِ التَّلطُّفُ بالمخاطَبين، لكنَّه هنا أُشربَ ذلك التَّلطُّفَ المعهودَ تهكُّمًا؛ باعتبارِه العتابَ الأخيرَ قبلَ مجيءِ الخبرِ النَّذيرِ.

غرضُ الاستفهام:

مـن اعـتـزَّ بغيرِ الله ذلَّ وشأنهُ قلَّ ولسانهُ زلَّ

قولُه تعالى: ﴿أَرَهْطِيٓ﴾ استفهامٌ دالٌّ على الإنكارِ المشوبِ بالاستهجانِ من تصريحِهم الوقحِ؛ فاللّهُ سبحانهُ أعزُّ عليهِ من رهطِه؛ فهو مُعتزٌّ باللّهِ لا برَهطِه؛ فلا يُريبُهُ ألّا يكونَ رهطُهُ أعزّةً عليهم، وفي ذلكَ تهديدٌ لهُم بأنَّ مولاهُ تعالى ناصرُهُ ومعزُّهُ؛ فعزّتهُ بعزّةِ مُرسِلِه سبحانهُ[2].

سرُّ التّعبيرِ بالرَّهط:

متابعةُ الخصم في غايتِه شرطُها تحقيقُ الحقِّ

في استعمالِ الرّهطِ في قولِه تعالى: ﴿أَرَهْطِيٓ﴾ دونَ الأهلِ دلالةٌ وغايةٌ، وهو أنّهُم أرادوا ابتداءً تقليلَ قومِه[3] بقولِهم: ﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ﴾ وتوهينَهُم؛ فالرّهطُ غايتُهُ عشرةُ أنفارٍ، فقد تابعَهُم عليه السلام في قيلِهم إقرارًا بأنَّهم قلَّةٌ قليلةٌ، فقَلَبَ عليهمُ الكلامَ مُتسائلًا مُنكرًا صنيعَهُم: كيف تجعلونَهُم أعزَّ عليكُم منَ اللّهِ تعالى.

دلالةُ الإضافةِ:

الانـتـصـارُ لله وحـــدَهُ دونَ القوم والعشيرةِ

في إيرادِهِ الرّهطَ مُضافًا إلى ضميرِه عليه السلام بقولِه تعالى: ﴿أَرَهْطِيٓ﴾ دلالةٌ على أنّ رهطَهُ هم الأقربونَ المُقرَّبونَ منهُم[4]، وفيه عدمُ الانتصارِ للقوم أو العشيرةِ، بل الانتصارُ للّه وحدَهُ.

فائدةُ التّعبيرِ بصيغة المفاضلةِ:

المقارنةُ بغرضِ بيان قبحِ صنيعِ مَـــن يُـقـدِّمُ المـخـلـوقَ على الخالِقِ

أوردَ الكلامَ من باب التّفضيلِ[5] في قولِه تعالى: ﴿أَرَهْطِيٓ أَعَزُّ

(1) النّخجوانيّ، الفواتح الإلهيّة: 1/362.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/151.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/423.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/364.
(5) جعل الاسم على صيغة (أفعل من) تفضيلًا لشيءٍ على شيءٍ آخر، كقولهم: (زيدٌ أفضلُ من عمرو)، وله عدّة أحكام مُفصلّة في كتب النّحو، يُنظر: السّيرافيّ، شرح كتاب سيبويه: 4/390.

عَلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾؛ والمعنى: أنّكم نظرتُم إلى رهطي لأجلِ القرابةِ الّتي تجمعُنا، ولم تنظروا إلى ما هو أجدرُ من ذلكَ، وهو الحقُّ سبحانهُ، فهو أقربُ منهُم لي؛ بما امتنَّ عليَّ، وبما أظهرَهُ لي منَ الكراماتِ والمعجزاتِ[1]؛ فالحريُّ بتفضيلِ العزّةِ أن يكونَ اللّه تعالى لا رهطِي، فاستعمالُ صيغةِ التَّفضيلِ يُرادُ منها الموازنةُ بغرضِ تبشيعِ تقديم المخلوقِ على الخالقِ، والضّعيفِ على القويِّ، والمرزوقِ على الرّازقِ، وهذا في ميزان العقلِ فسادٌ، وفي منطق الفطرةِ فحشٌ عريضٌ.

غرضُ التّعبيرِ بصيغةِ المفاضلةِ ﴿أَعَزُّ﴾:

لمّا كانَ قولُهُم: ﴿وَلَوۡلَا رَهۡطُكَ لَرَجَمۡنَٰكَۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡنَا بِعَزِيزٖ﴾ مُتعلِّقًا به عليه السلام وبرهطِهِ، وأنّهُم الأعزّةُ عليهم دونَهُ؛ فيُسألُ عن كيفيّةِ مُخاطبتِهم بقولِهِ تعالى: ﴿أَرَهۡطِيٓ أَعَزُّ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾؟ والجوابُ عن ذلكَ: أنّ تهاونَهُم بهِ معَ أنّه النّبيُّ المُرسَلُ منَ اللّهِ تعالى، فلمّا عزَّ رهطُهُ عليهم دونَهُ كانَ رهطُهُ أعَزَّ عليهم منَ اللّهِ سبحانَهُ[2] بمدعاةِ جهلِهم وكفرِهم.

التّهاونُ بالرَّسولِ تهاونٌ بالمُرسِلِ

نكتةُ التّعبيرِ بلفظِ الجلالةِ ﴿ٱللَّهِ﴾:

عبّرَ بالاسم الجليلِ ﴿ٱللَّهِ﴾ مُؤثِرًا إيّاهُ على لفظِ الرّبوبيّةِ في قولِهِ تعالى: ﴿أَرَهۡطِيٓ أَعَزُّ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾؛ لِما يفيدهُ الاسمُ الجليلُ منَ الهيبةِ، وإدخالِ المهابةِ في نفوسِ السّامعينَ؛ فهو الاسمُ العَلَمُ الجامعُ للصّفاتِ الّذي يحيطُ بكلِّ شيءٍ علمًا واقتدارًا[3]؛ فالموضِعُ مَوضِعُ قوّةٍ وتمكُّنٍ، وتفخيمٍ وتهويلٍ وتعجيبٍ.

في مَواضِعِ التَّفخيمِ والتَّهويلِ يحسُنُ إدخالُ المهابةِ في النُّفوسِ

بلاغةُ الحذفِ:

في قولِهِ تعالى: ﴿أَرَهۡطِيٓ أَعَزُّ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ مجازٌ بالحذفِ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/364.
(2) الرّازيّ، أنموذج جليل، ص: 206، وأبو حيّان، البحر المحيط: 6/201.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/364.

على تقديرِ: أعزُّ عليكُم من نبيِّ اللّهِ؛ لأنَّ جوابَهُ ﷺ هذا لا يصحُّ ولا يطابقُ لو كانَ قولُهُم: ما عززتَ علينا[1]، فالكلامُ واقعٌ فيه ﷺ.

الجوابُ البليغُ هو الّذي يُظهرُ غاياتِ الكلام لا الاكتفاء بظاهرِه

فقد دلَّ إيلاءُ ضميرِهِ حرفَ النَّفي على أنّ الكلامَ واقعٌ في الفاعل لا في الفعل، كأنَّه قِيلَ: وما أنتَ علينا بعزيزٍ، بل رهطُكَ هم الأعزّةُ علينا، ولذلك قالَ في جوابِهم: ﴿أَرَهۡطِيٓ أَعَزُّ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ ولو قِيلَ: وما عززتَ علينا، لم يصحَّ هذا الجواب[2]، ففَهِمَ ﷺ مقصودَ الكلام، وهو أنَّهم يريدونَ بكلامِهِ الدَّعوةَ والإيمانَ باللّه تعالى، فكان جوابُه بليغًا في إظهارِ الغايةِ الّتي احتواها كلامُهُم، وتركِ ما أظهروه.

معنى الواوِ ودلالتُها:

الواوُ في قولِهِ تعالى: ﴿وَٱتَّخَذۡتُمُوهُ﴾ دالّةٌ على الحالِ، والمعنى: أيكونُ رهطي أعزَّ عليكُم منَ اللّهِ سبحانهُ، وأنتُم على تلكَ الصّفةِ؟ وهو حالٌ داخلٌ في حيّزِ الاستفهام[3]؛ أي: إنَّ الإنكارَ مُشتملٌ على تقديم الرَّهطِ على اللّه تعالى، في حال اتّخاذِهِ ظهريًّا، وهو تشنيعٌ بعدَ تشنيعٍ.

يزدادُ قبحُ الكفرِ إذا اقترنَ بالوقاحةِ

نكتةُ التّعبيرِ بالاتّخاذِ:

عبّرَ عن اعتناقِ غيرِ اللّهِ ربًّا بفعلِ الاتّخاذِ ﴿وَٱتَّخَذۡتُمُوهُ﴾ كنايةً عنِ الاستمرارِ والدّوام على مرتكبِهِم الشّنيعِ وإصرارِهِم عليهِ؛ لأنّ الاتّخاذَ "أخذُ الشّيءِ لأمرٍ يستمرُّ في المُستأنَفِ كاتّخاذِ البيتِ"[4]. وإيثارُ التّعبير عنه بصيغة الماضي دونَ المضارع تسجيلٌ عليهم بالبتّ والقطعِ في الرّضا بأمرٍ ما كان ينبغي أنْ يُفكِّرَ فيه العاقلُ[5].

كنايةٌ عن الدّوام على سوءِ الصّنيع

(1) السّكّاكيّ، مفتاح العلوم، ص: 232، والسّبكيّ، عروس الأفراح: 1/249.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/424.
(3) الباقوليّ، إعراب القرآن: 3/823.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/364.
(5) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 2/122.

دلالةُ التّعبيرِ بالإضمارِ دونَ الإظهارِ:

تعدُّدُ الاحتمالاتِ مَطلبٌ مقصودٌ في الكتابِ العزيز

جاءَ بالمفعولِ الأوّلِ لفعلِ الاتّخاذِ مُضمَرًا[1]، وهو الهاءُ في ﴿وَٱتَّخَذۡتُمُوهُ﴾ دونَ إظهارِهِ بلفظِ الجلالةِ مثلًا، وسرُّ ذلكَ أنَّ المفعولَ الأوّلَ، وهو الضّميرُ، يحتملُ أن يعودَ عليهِ سبحانهُ، ويحتملُ أن يكونَ على تقديرِ: أمرِ اللّهِ وشرعِه[2]، ويحتملُ أن يكونَ تقديرُهُ: ما جاءَ بهِ شعيبٌ؛ فأضمرَهُ ليقعَ على كلِّ مُحتمَلٍ، ولو عيّنَهُ لما كانَ مُحتَملًا.

بلاغةُ الكنايةِ:

تمثيلُ صورةِ المُعرِضِ عن ربِّهِ وخالقِهِ كمن يرمي شيئًا وراءَ ظهرِهِ

في قولِه تعالى: ﴿وَٱتَّخَذۡتُمُوهُ وَرَآءَكُمۡ ظِهۡرِيًّاۖ﴾ كنايةٌ عن نسيانِ دينِ اللّهِ، أو الإعراضِ عنه؛ لأنّ الوراءَ هنا صالحٌ للنّسيانِ، والإعراضِ[3]، أو النّبذِ وراءَ الظّهورِ؛ لتصويرِ هؤلاءِ المُعرِضينَ عن ربِّهم، كمنَ يرمي وراءَهُ شيئًا غيرَ آبهٍ بهِ، معَ أنّهم خلقٌ من خلقِهِ[4].

بلاغةُ الاستعارةِ التّمثيليّة:

إذا جهلَ الإنسانُ شيئًا عاداه

ويحتملُ لفظُ الوراء في قولِه تعالى: ﴿وَٱتَّخَذۡتُمُوهُ وَرَآءَكُمۡ ظِهۡرِيًّاۖ﴾ الاستعارةَ التّمثيليّةَ بتشبيهِ صورةِ تركِهم لدينِ اللّهِ تعالى، وعدمِ الالتفاتِ إليه مع إقبالِهم على عبادةِ الأصنامِ بالهيّنةِ الحاصلةِ من صورةِ مَن جعلَ شيئًا خلفَ ظهرِهِ، وتلهّى عنه بغيرِهِ[5]. فهي صورةٌ تمثيليّةٌ حسّيّةٌ تتوافرُ على رونقٍ وبهاءٍ وتحريكٍ للخيالِ في تبشيعِ حالِ مَن يرمي شيئًا عزيزًا خلفَ ظهرِه، نسيانًا له، أو جهلًا به، أو ازدراءً واستهزاءً، فإنَّ الإنسانَ إذا جَهِل شيئًا عاداه. وأيًّا كانَ التّصويرُ البلاغيُّ في الجملةِ، فإنّ المُرادَ منها تسفيهُ أحلامهم، وخيبةُ رجائِهم، والسّخريةُ منهُم، والتّشنيعُ عليهم[6].

(1) السّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 6/379.
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/203.
(3) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 2/121.
(4) عبد السلام الرّاغب، وظيفة الصّورة الفنيّة في القرآن، ص: 111.
(5) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 2/121 - 122.
(6) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 2/122.

فائدةُ الحالِ بعدَ الظَّرف:

الحالُ تُؤكِّدُ إغراقَ الكافرِ في النّسيانِ والغفلةِ

قولُهُ تعالى: ﴿وَرَآءَكُمْ﴾ يجوزُ أن يقعَ حالًا من ﴿ظِهْرِيًّا﴾[1]، ويكونُ من بابِ الحالِ المؤكِّدةِ، ويكونُ المعنى: إنّكُم اتّخذتمُوهُ وراءَ ظهورِكُم إغراقًا وتحقيقًا لمعنى النّسيانِ؛ لاشتغالِكُم بالأصنام عن معرفتِهِ سبحانهُ، والميلِ عن تعرّفِ صفاتِهِ[2].

والتّعبيرُ بقولِهِ: ﴿ظِهْرِيًّا﴾ غِبَّ قولِهِ: ﴿وَرَآءَكُمْ﴾ تحقيقٌ لهُ وتوكيدٌ؛ لتقاربِهما في المعنى فإنّكُم جعلتُمُوهُ كالشّيءِ الغائبِ المَنسيِّ، ولم تجعلوهُ نصبَ أعينكُم لنسبتي إليهِ عبدًا ورسولًا[3].

براعةُ التّعبيرِ المجازيّ في قولِهِ تعالى: ﴿ظِهْرِيًّا﴾:

تنوُّعُ التَّوجيهاتِ البيانيَّةِ دليلُ الثَّراءِ والغناءِ اللَّفظيِّ

التّعبيرُ في قولِهِ تعالى: ﴿ظِهْرِيًّا﴾ إمّا على حذفِ مضافٍ؛ أي: اتّخذتُم أمرَهُ ظهريًّا، ومعناهُ أن يكونَ مَتروكًا موهونًا منبوذًا، كمَن يلقي شيئًا خلفَ ظهرِهِ، ولا يعبأُ بهِ، وهو منسوبٌ إلى الظّهرِ[4] كنايةً عن النّسيانِ والتّركِ، وإمّا أن يكونَ استعارةً؛ فمَنْ وضعَ شيئًا وراءَ ظهرِهِ كانَ لنسيانِهِ أحرى لِقلَّةِ مُشاهدتِهِ ومعاينتِهِ[5]، فهو تشبيهُ النّاسي بمَن يضعُ شيئًا وراءَ ظهرِهِ، فهي استعارةٌ تمثيليَّةٌ، إذِ الرّؤيةُ طريقُ العلمِ والتّذكُّرِ، وإمّا أن يكونَ التّعبيرُ بالظّهريِّ من بابِ الكنايةِ عن صفةِ النّسيانِ، وهي توجيهاتٌ تلتقي في ذَمِّ أولئك الغافلينَ عن ذكرِ اللّهِ تعالى.

علَّةُ الفصلِ:

تعليلُ الكلامِ رونقُ الفكرِ وبهاءُ العقلِ

فُصِلَت جملةُ ﴿إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ عمّا قبلَها؛ لأنّها استئنافٌ، وهي تعليلٌ لمفهومِ الجملةِ السّابقةِ المستفهَم بها إنكارًا عن عزّةِ رهطِهِ عليهِم منَ اللّهِ الّذي يُتوكّلُ عليهِ ويُستنصَرُ بهِ[6].

---

(1) العكبريّ، التّبيان: 2/712.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/151.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/364.
(4) المنتجب الهمذانيّ، الكتاب الفريد: 3/514.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/151.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/151.

دلالةُ التّأكيدِ بـ ﴿إِنَّ﴾:

تهديدٌ مُؤكَّدٌ لهؤلاءِ الكفرةِ النّاكبينَ عن طريقِ الحقِّ

في قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّي﴾ توكيدُ المسندِ إليهِ بحرفِ التّوكيدِ ﴿إِنَّ﴾؛ لأنّ الجملةَ تتوافَرُ على تهديدٍ كبيرٍ لهؤلاءِ الكفرةِ النّاكبينَ عن طريقِ الحقِّ والهدى؛ وأنّه أحاطَ علمًا بأعمالِهم السّيّئةِ[1]، فلا يبقى شكٌّ في وقوعِ العذابِ عليهِم بعدَ هذا التّهديدِ المُؤكَّدِ، للمُبالغةِ فيهِ.

نكتةُ التّعبيرِ بالرّبوبيّةِ:

مَن نظرَ في المصالحِ هو القادرُ على تولّي الأولياءِ وقطعِ دابرِ الأعداءِ

التّعبيرُ بلفظِ الرّبوبيّةِ دونَ اسمِ الجلالةِ (اللّه) في قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّي﴾؛ لأنَّ الرّبَّ هو النّاظرُ في مصالحِ شعيبٍ عليه السلام، ومدبّرُ أحوالِهِ ومُربّيهِ الّذي يربّيهِ فيوصلهُ إلى الكمالِ المطلوبِ؛ فيكونُ ذلكَ أطمعَ لهُ، وهذا من عميمِ فضلِهِ وامتنانِهِ على شعيبٍ عليه السلام.

قيلَ لابنِ عرفةَ: هلّا استبدلَ لفظَ الرّبوبيّةِ بلفظٍ دالٍّ على العظمةِ والقهرِ من مثلِ (مولاي) أو (اللّه) أو نحوِهِ؟ فقالَ: الّذي نصرَكَ وأيّدَكَ على عدوّكَ فقدْ نالتكَ رحمتُهُ، كما رحمَ شعيبًا[2].

نكتةُ الإضافةِ في قولِهِ تعالى: ﴿رَبِّي﴾:

الاعترافُ بالإحسانِ طريقُ النّجاةِ وسبيلُ الحماية

في قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّي﴾ أضافَ لفظةَ الرّبِّ إلى ضميرِهِ عليه السلام، ولمْ يضفهُ إلى ضميرِهِم بأن يقولَ: (ربّكم)، وذلك من بابِ الاعترافِ بفضلِهِ، وأنّه المُحسِنُ إليهِ[3] بأنِ اختارَهُ وحباهُ بالرّسالةِ، وأنعمَ عليهِ من فضلِهِ، ونصرَهُ على أعدائِهِ الظّالمينَ.

كما أنَّ فيه إشارةً إلى أنّه يحميهِ ويحفظهُ منهم؛ فهو الّذي أنشأهُ وربّاهُ، وهو المُتكفِّلُ بحمايتِهِ وحراستِهِ[4].

---

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 6/321.
(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/367.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/364.
(4) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3744.

معنى الباءِ ودلالتُها:

إحاطتُهُ تعالى بالأعمال إحاطةُ ملازمةٍ وإرصادٍ

الباءُ الدّاخلةُ على (ما) في قولِه تعالى: ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ دالّةٌ على الإلصاقِ[1] والملازمةِ، في إشارةٍ إلى أنّه تعالى محيطٌ بأيّ عملٍ تعملونهُ على الغايةِ والتّمكُّنِ منَ الإحاطةِ به كالشّيءِ الّذي يلاصقُ شيئًا ويلازمُهُ.

دلالةُ التّعبيرِ بالمضارعِ ﴿تَعْمَلُونَ﴾:

تجدُّدُ أعمالِ الباطلِ مُحاطةٌ بقدرةِ اللهِ تعالى

عبّرَ عن فعلِ العملِ بصيغةِ المضارعِ في قولِه تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾، وقصَدَ من ذلكَ إفادةَ معنى دوام هذا الأمرِ وتجدُّدِه واستمرارِه، فهم مستمرُّون في أعمالِهم الباطلةِ، واللّهُ ﷻ محيطٌ بهم وبأعمالِهم المتجدِّدةِ، وفيها إشارةٌ إلى إمكانِ تجدُّدِ هذا المعنى وجريانِه في كلِّ زمانٍ لا يقتصرُ على زمنٍ مضى أو زمنٍ آتٍ؛ فالحقُّ سبحانهُ محيطٌ بما يعملُ الظّالمونَ إحاطةً مُتجدِّدةً بتجدُّدِ أعمالِهم ودوامها.

قوله تعالى: ﴿مُحِيطٌ﴾ بينَ المجازِ والاستعارةِ:

التّعريضُ بغرضِ التّهديدِ بالعقابِ الشّاملِ

عبّرَ بوصفِ المحيطِ، وهو الفاعلُ بما يعملونَ، والأصلُ في الإحاطةِ حصارُ شيءٍ شيئًا من جميعِ الجهاتِ، إلّا أنّهُ استُعملَ معَ العلم مجازًا، وهي من بابِ المجازِ المُرسَلِ؛ "لأنَّ الإحاطةَ حقيقةٌ في الأجسامِ كإحاطةِ الجدرانِ، فإحاطةُ اللّهِ بالأعمالِ مجازٌ عن علمها، وإدراكِها بكمالِها"[2]. أو من بابِ الاستعارةِ التّبعيّةِ شبّه فيها علمَ اللّهِ بكلِّ شيءٍ بإحاطةِ الظّرفِ بالمظروفِ[3]. فإحاطتُه تعالى هنا هي إحاطةُ علمه بأعمالِ الكافرينَ، بحيث يشملُ علمُه جميعَ ما يعلمُ في غرضٍ ما، فالإحاطةُ بمعنى الشّمولِ، ويكونُ الوصفُ

(1) محمّد الهلال، تفسير القرآن الثّريّ: 12/87.
(2) الهرريّ، تفسير حدائق الرّوح والرّيحان: 13/245.
(3) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 2/122.

﴿مُحِيطٌ﴾ تعريضًا بهم بغرضِ التّهديدِ؛ فإنَّ مَن يعلمُ جميعَ الأعمالِ يوشكُ أن يعمَّ المُذّنبين بالعقابِ[1] الشّاملِ، فإنَّ ذكرَ الإحاطة يُناسبه التَّلميحُ إلى العقوبةِ الشّاملةِ.

بلاغةُ تقديم الجارِّ والمجرورِ:

مبالغة في إحاطةِ علمهِ تعالى بأعمالِهم جليلِها وحقيرِها، إنفاذًا وإبطالًا

في قولهِ تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ قدّمَ الجارَّ والمجرورَ ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ على الخبرِ ﴿مُحِيطٌ﴾؛ والأصلُ أن يكونَ الكلامُ: إنَّ ربِّي محيطٌ بما تعملونَ، وإنّما قدَّمَهُ لإرادةِ المبالغةِ في إحاطةِ علمهِ تعالى بأعمالِهم جليلِها وحقيرِها؛ فهو مُحيطٌ مُقتدرٌ في أيِّ فعلٍ من أفعالِهم إنفاذًا وإبطالاً[2]، وفيه تنبيهٌ على أنَّ أعمالَهم مخصوصةٌ بالتَّهديدِ بالعقابِ.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الفعلُ والعملُ:

الفعلُ أعمُّ من العملِ، والعملُ هو الإحداثُ بقصدٍ وعلمٍ

الفِعلُ لفظٌ عامٌّ يدُلُّ على إحداثِ شَيءٍ من عَمَلٍ وغيرِه[3]، فهو مُطلَقُ التَّأثيرِ من جهةِ مُؤَثِّرٍ[4] سواء كان عن سببٍ أو لا، ويُقالُ لِما كانَ بإجادةٍ وبدونِها، ولِما كان بِعِلمٍ أو غيرِ عِلمٍ، وقَصدٍ أو غيرِ قَصدٍ[5].

وأمّا العملُ فهو عبارةٌ عن إيجاد الأثرِ في الشَّيءِ مع امتداد زمانٍ، ولا يُقالُ إلّا لِما كانَ بقصدٍ وعِلمٍ دون ما لم يكنْ عن قصدٍ وعلمٍ، قال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [البقرة: 25] فعبَّرَ عن ذلك بالعمل؛ لأنَّه لا يكون إلّا بقَصدٍ وامتدادِ زمانٍ. لذلكَ يُقالُ: إنّ فلانًا يعملُ الطّينَ خزفًا، ولا يُقالُ يفعلُ ذلكَ، فالعملُ يكونُ بمعنى الإحداثِ[6]، وأصلُ العملِ في اللّغةِ: الدّؤوبُ، وهو أخصُّ منَ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/152.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/364.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (فعل).
(4) الرّاغب، المفردات: (فعل).
(5) المناويّ، التَّوقيف على مُهمّات التَّعاريف، ص: 262.
(6) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 135.

الفعلِ؛ لأنَّ الفعلَ قد يُنسبُ إلى الحيواناتِ الّتي يقعُ منها فعلٌ بغيرِ قصدٍ. ومن هنا كان اختيارُ لفظ العملِ مقصودًا في الآية؛ لدلالتِهِ على ما كان بعلمٍ وقصدٍ.

(محيطٌ) و(عليمٌ):

الإحاطةُ إطافةٌ من جميعِ الجهاتِ علمًا وقدرةً، والعليمُ مُقيَّدٌ بالمعلوم

عبّرَ عن صفةٍ من صفاتهِ تعالى بقولهِ تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾، وهي صفةُ الإحاطةِ، ولمْ يقُلْ: إنّ ربّي بما تَعملونَ عليمٌ، فثمّةَ فرقٌ بينَ العالم بالشّيءِ والمحيطِ بهِ؛ فـ"أصلُ المحيطِ: المطيفُ بالشّيءِ من حولهِ بما هو كالسّورِ الدّائرِ عليهِ يمنعُ أن يخرجَ عنهُ ما هو منهُ، ويدخلَ فيهِ ما ليسَ فيهِ، ويكونُ من قبيلِ العلم، وقبيلِ القدرةِ مجازًا"[1]؛ فالإحاطةُ صفةٌ دالّةٌ على المبالغةِ؛ لأنّها من جميعِ الجهاتِ؛ ولأنّها دالَّةٌ على الإحكام، وفيها تخويفٌ عظيمٌ بالغلبةِ، أمّا العلمُ فتقييدُهُ بالمعلوم، فيُقالُ: عليمٌ فيكونُ من جهةٍ واحدةٍ، وهو فرقٌ واضحٌ، وأنّ المحيطَ دالٌّ على الشّمولِ في العلم؛ فلا يخفى عليهِ شيءٌ علمًا وقدرةً[2]. ولهذا اصطُفي في سياق الآية.

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 94.
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/203.

﴿وَيَٰقَوۡمِ ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ إِنِّي عَٰمِلٞۖ سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ مَن يَأۡتِيهِ عَذَابٞ يُخۡزِيهِ وَمَنۡ هُوَ كَٰذِبٞۖ وَٱرۡتَقِبُوٓاْ إِنِّي مَعَكُمۡ رَقِيبٞ ٩٣﴾ [هود: 93]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

التَّصريحُ بالعذابِ بعدَ التَّلويحِ به

لَمّا ختمَ الآيةَ السّابقةَ بالإشارةِ إلى تهديدِهم بذكرِ إحاطةِ اللّهِ تعالى بأعمالِهم، أتبعَهُ هنا بما يصدِّقُ ذلكَ، ويؤكِّدُهُ بأنّهُ ماضٍ في عملِهِ، وليسَ بتاركٍ منهُ شيئًا ممّا أُمرَ به، وزادَهُم تهديدًا بأن خاطبَهُم أنِ اثبتوا على ما أنتمُ عليهِ من عملٍ؛ فسوفَ يأتيكُم وعدٌ لا خُلفَ فيهِ، يتبيّنُ فيهِ الصّادقُ منَ الكاذبِ، وإنْ تأخّرَ زمانُهُ فارتقبوهُ، وأنا معكُم رقيبٌ[1]، فالمناسبةُ بينَ الآيتينِ هو التَّصريحُ بالعذابِ بعدَ التَّلويحِ به، وتعيينُهُ بعدَ الإشارةِ إليه.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مَكَانَتِكُمۡ﴾: أصلُ مادّتِه: (مكن)، فالميمُ والكافُ والنّونُ كلمةٌ واحدةٌ[2]، ويدورُ معناها حولَ رسوخِ الشّيءِ مُتجمّعًا في باطنٍ يلتئمُ عليه[3]، والمكانةُ: الحيالُ والنّاحيةُ، ومنه قولُه تعالى: ﴿ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ﴾؛ أي: على حيالِكم وناحيتِكم. والمكانةُ: المنزلةُ والموقعةُ والمَحلّةُ[4] والمكانةُ: التّمكُّنُ، ومنه قولُه تعالى: ﴿عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ﴾؛ أي: على تَمكُّنِكُم من أمرِكُم[5]، والمكانةُ هنا بمعنى: الطّريقةِ، وهو ما يؤيّدُهُ سياقُ الآيةِ الكريمةِ. واختُلف في ميم

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/365 - 366.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (مكن).
(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (مكن)، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (مكن).
(4) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (مكن).
(5) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (مكن).

(مكان ومكانة) فقيل: هي أصليةٌ وهما منْ مكن يمكن، وقيل: هما من الكون فالميم زائدة، فيكون المعنى على الأوّل: اعملوا على تَمكُّنكم من أمركم وأقصى استطاعتكم وإمكانكم، وعلى الثاني: اعملوا على جِهتكم وحالكم التي أنتم عليها[1].

2) ﴿يُخْزِيهِ﴾: أصلُ مادّته (خزو)، فالخاءُ والزّايُ والحرفُ المُعتَلُّ أصلانِ: أحدُهُما السّياسَةُ، والآخرُ الإبعادُ. فأمّا الأوَّلُ فقولُهُم خَزَوتُهُ، إذا سُستَهُ. وأمّا الآخرُ فقولُهُم: أخزاهُ اللّهُ؛ أي: أبعَدَهُ ومَقَتَهُ. والاسمُ الخِزيُ[2] والخزيُ: ذُلُّ الحيّ وطواعيتُه وانقيادُهُ لِما يُرادُ؛ لكسر حدّةِ استعصائِه أو رغبتِهِ. ومنه: خَزا نفسَه: مَلَكها وكفَّها عن هواها. ومنَ الأصل: خَزيَ منه، كَرَضيَ، وخَزِيَه: استحيا؛ أي: انقبضَ وانكسرَت حِدَّتُه وشموخُه لقاهر، بوُقوع عذابٍ عليه يقهرُهُ، أو قبيحٍ منه يُعَيَّرُ به، أو عجزٍ عنِ المواجهة. وكلُّ ما في القرآنِ من هذا التّركيبِ فهو منَ الخِزي بالمعنى المذكورِ[3]، ومنه هذا المَوضِع.

3) ﴿وَٱرۡتَقِبُوٓاْ﴾: أصلُ مادّتِه: (رقب)، فالرّاءُ والقافُ والباءُ أصلٌ واحدٌ مُطَّرِدٌ، يدلُّ على انتِصابٍ لِمراعاةِ شيءٍ. من ذلكَ الرَّقيبُ، وهو الحافِظُ. يُقالُ: منهُ رَقَبتُ أرقَبُ رِقبَةً ورِقبانًا[4]. ورقبتُ الشّيءَ أرقبُه رِقبةً ورِقبانًا؛ أي: انتظرتُ. وقولُه تعالى: ﴿وَلَمۡ تَرۡقُبۡ قَوۡلِي ٩٤﴾ [طه: 94]؛ أي: لم تنتظرْ. والعلاقةُ بين انتصاب الرّقبةِ وبين الانتظارِ تتّضحُ في أنَّ النّاظرَ لشيءٍ يرفعُ رقبتَهُ إليه[5]، والتّرقُّبُ هنا بمعنى الانتظار.

4) ﴿رَقِيبٞ﴾: الرَّقيبُ، هو الحافِظُ. يُقالُ: منهُ رَقَبْتُ أرقَبُ رِقبَةً ورِقبانًا[6]. والرَّقيبُ: الحارسُ يُشرِفُ على رِقبةٍ، يحرُسُ القومَ، والرَّقيبُ: الحافِظُ[7]، والرّقيبُ: النّاظرُ[8]. والرّقيبُ: المُنتظِرُ[9]، وهو المعنى المرادُ هنا.

(1) السّمين الحلبي، الدر المصون: 5/158.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (خزو).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (خزو - خزى).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (رقب).
(5) الرّاغب، المفردات: (رقب).
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (رقب).
(7) الخليل، العين: (رقب).
(8) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (رقب).
(9) الخليل، العين: (رقب).

المَعْنى الإجْماليُّ:

بيانُ الفرقِ بينَ المتضادِّين في المنالِ والمآلِ

تُبيِّن الآيةُ قوَّةَ شعيبٍ عليه السلام في إيمانِه باللّه تعالى، بإصراره على دعوتِه، وتهديد قومِه بشكلٍ مباشرٍ وواضحٍ، بعد التّلويحِ والتّلميحِ والنّصحِ والإرشادِ، ويُخبرُهم بأنَّه عاملٌ على طريقتِه الّتي يرتضيها، وينتظرُ منالَها ومآلَها، وهم سوف يعلمون مَنْ يأتيه عذابٌ يذلُّه عقابًا له، ومَنْ هو كاذبٌ فيما يدَّعيه، فلينتظروا ما يقضي به اللّهُ، إنّه معهم مُنتظِرٌ[1].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

معنى الواوِ، ودلالةُ تَكرارِ النّداءِ:

عطفُ النّداءِ على النّداءِ تأكيدٌ للتّنبيهِ والتّهديدِ

الواوُ في قولِه تعالى: ﴿وَيَٰقَوۡمِ ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ﴾ عاطفةٌ، وهو من بابِ عطفِ النّداءِ على مثيلِه؛ لأجلِ زيادةِ التّنبيهِ وتحقيقِه، والمقصودُ عطفُ الجملةِ الّتي تلي هذا النّداءَ على الجملةِ الّتي وليتِ النّداءَ الأوّلَ[2]، وكلتاهُما فيه إشارةٌ إلى التّهديدِ والوعيدِ، وفي ابتداءِ الخطابِ بالنّداءِ هنا مزيدُ اهتمامٍ بالمَقولِ؛ فإنَّ النّداءَ فيهِ استرعاءُ أسماعِ المنادينَ[3].

نكتةُ نداءِ القومِ دونَ الرّهطِ:

رقَّةُ الأنبياءِ ورحمتُهم أغلبُ من شدَّتِهم وعنفِهم

في تكرارِ النّداءِ بعنوانِ القومِ دونَ الرّهطِ ونحوِه، يومئُ إلى أنَّ شعيبًا عليه السلام قد رقَّ لحالِهم عندَما توعّدهُم؛ فإنَّ شأنَ النّبيِّ أن يحبَّ لقومِه ما يحبُّ لنفسِه[4]، وليسَ من حرصِ النّبيِّ والرّسولِ كحرصِه على هدايةِ قومِه بأيّةِ طريقةٍ وأيّ خطابٍ، وهو نداءٌ لكلِّ قومه لا لخصوصِ رهطِه، فإنَّ الرّحمةَ تعمُّ، وفيه إيماءٌ إلى أنَّ رحمةَ الأنبياءِ والأولياءِ لا تخصُّ المقرَّبين نسبًا منَ العشيرةِ والقبيلةِ، بل تعمُّهُم وغيرَهُم.

(1) مجموعة من العلماء، المختصر في تفسير القرآن الكريم، ص: 232.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/152.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/أ90.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/أ90.

غرضُ الأمر في قولِهِ تعالى: ﴿ٱعۡمَلُواْ﴾:

إظهارُ التَّيئيسِ مِنَ الامتثالِ للنّصحِ

غرضُ الأمرِ في قولِه تعالى: ﴿ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ﴾ أفادَ أمرين:

الأوّل: "التّسويةُ والتّخليةُ لإظهارِ اليأسِ مِن امتثالِهم للنّصحِ بحيثُ يُغيِّرُ ناصِحُهُم نُصحَهُم إلى الإطلاقِ لهم فيما يُحبّونَ أن يَفعلُوا"[1]، وذلكَ غايةُ الخيبةِ والخسرانِ.

الآخر: التّهديدُ والتّخويفُ؛ أي: اعملوا على وجهِ التَّمكُّنِ من مكانتِكُم وحالِكُم الّتي أنتُم عليها؛ أي: لكُم الخيارُ في أن تعملُوا بي ما تُحبُّونَ[2]، وفي ذلكَ مزيدُ استحقاقٍ للعقوبةِ واقتراب منها للمأمورِ.

بلاغةُ الاستعارةِ التَّهكّميّةِ:

تنزيلُ الميؤوسِ منه منزلةَ مَن تُرجى إجابتُه

التّعبيرُ بفعلِ الأمرِ ﴿ٱعۡمَلُواْ﴾ متأتٍّ على وجهِ الاستعارةِ؛ ففيهِ تشبيهُ المغضوبِ عليهِ الميؤوسِ مِن ارعوائِهم، بمنْ يُؤمرُ أن يفعلَ ما كانَ يُنهَى عنهُ، وأن يصيرَ ذلكَ المنهيُّ واجبًا، وذلكَ غايةُ التّهكُّم والسّخريةِ[3].

نكتةُ حذفِ مفعولِ ﴿ٱعۡمَلُواْ﴾:

تنزيلُ المُتعدّي منزِلةَ اللّازم؛ لبيانِ أنَّ أعمالَهم المألوفةَ راسخةٌ في الكفر

يقتضِي فعلُ الأمرِ في قولِه تعالى: ﴿ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ﴾ مفعولًا، غير أنّه حذفهُ تنزيلًا للفعلِ المتعدّي منزِلةَ اللّازم إثباتًا للفاعلِ مُطلَقًا[4]، وتقويةً لهُ، فالمعنى: أنْ يا هؤلاءِ اعملُوا عملَكُم الّذي ألفتُمُوهُ، وهو دأبُكُم، وهو الإعراضُ عن دعوتِه والتّكذيبُ بدينِه[5]؛ أي: اعملوا أعمالَكم المعهودةَ منَ الكفرِ والعنادِ والتَّكذيبِ، على الغايةِ منَ التّمكُّنِ، وبكلِّ ما بوسعِكُم عَمَلُهُ، وبكلّ طاقتِكُم من إيصالِ الشّرِّ إليّ[6]؛ فليسَ ذلكَ بضائري، وهو تخييرٌ يشِي بعاقبةِ السّوءِ بعدَهُ.

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/أ90.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/152.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/أ90.
(4) ناظر الجيش، تمهيد القواعد بشرح تسهيل الفوائد: 4/1764.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/أ90.
(6) ابن عادل، اللّباب: 10/554.

بلاغةُ الاستعارةِ في استعمالِ حرفِ الاستعلاءِ:

مَن لازمَ عملًا، وتمكَّنَ منه، فهو حسابُه وجزاؤه

استُعملَ حرفُ الاستعلاءِ ﴿عَلَىٰ﴾ في قولِه تعالى: ﴿ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ﴾ دونَ اللّام؛ لأنّه مُقترِنٌ بالمكانةِ، وهي الحالةُ الّتي يتمكَّنُ منها صاحبُها من عملِه؛ أي: اعملوا على ما أنتُم عليهِ[1]، فالّذي يلائمُ التّمكُّنَ حرفُ الاستعلاءِ ﴿عَلَىٰ﴾، ولا يناسبهُ حرفُ الغايةِ (إلى)؛ أي: اعملوا مُتمكِّنينَ مُلازمينَ على المكانةِ المعهودةِ الّتي ستوردُكُمُ النّارَ.

واستعملَ ﴿عَلَىٰ﴾ في قولِه تعالى: ﴿ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ﴾ للتَّمكُّنِ، وهو من بابِ الاستعارةِ التّبعيّةِ؛ لمناسبتِها لاستعارةِ المكانةِ؛ لأنَّ الاستعلاءَ مُناسِبٌ للمكانِ، فهي استعارةٌ مُرشّحةٌ لحصولِ التّلاؤمِ بينَ المشبّهِ والمشبّهِ بهِ، والمعنى: أنّه خاطبَهُم بأنْ يلزموا حالَهُم؛ لأنّه لا مَطمعَ لهُ في اتّباعِهم[2].

التّعبيرِ بـ ﴿مَكَانَتِكُمۡ﴾ بينَ الاستعارةِ والكنايةِ:

المكانةُ استعارةٌ أو كنايةٌ لحالةِ المرءِ المحيطةِ بهِ، وفيها تظهرُ أحوالُه

استعمالُ المكانةِ في قولِه تعالى: ﴿مَكَانَتِكُمۡ﴾ تعبيرٌ يدلُّ على المكانِ، وأنّثهُ كتأنيثِ المقامةِ للمقامِ، والمكانةُ إمّا أن تكونَ مستعارةً لتلبُّسِ المرءِ بالحالةِ الّتي تحيطهُ وتحويهِ، فهي من بابِ تشبيهِ المحسوسِ بالمعقولِ، فالحالُ الّتي هُم عليها مكانٌ ومَوضِعُ قرارِ عملِهم، ومعناهُ: اثبتوا على ما أنتُم عليهِ منَ الكفرِ والعداوةِ[3]، فالتّعبيرُ بالمكانةِ عنِ المكانِ توصيفٌ للحالةِ؛ أي: اعملوا على حالاتِكُم الّتي أنتُم عليها، وهو استعمالٌ مَجازيٌّ كما يُقالُ: "مكانةُ فلانٍ في العلم فوقَ مكانةِ فلانٍ، يُستعارُ منَ البِقاعِ إلى المعاني"[4]، وإمّا أن تكونَ كنايةً عن أحوالِه؛ فأحوالُ المرءِ تَظهرُ في مقامِه

(1) الواحديّ، التّفسير البسيط: 11/538.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/أ91.
(3) القونويّ وابن التّمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاويّ: 5/113.
(4) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/203.

ومكانِهِ ومستقرِّهِ؛ لذلكَ يقالُ للمرءِ: أنِ اثبُتْ على مكانتِكَ، ولا تتحوّلْ عنها[1].

القراءاتُ القرآنيَّةُ:

قراءةُ الإفرادِ دالَّةٌ على الكفرِ العامِّ، وقراءةُ الجمعِ على أنواعِ المفاسدِ

قرأ الجمهورُ: ﴿مَكَانَتِكُمْ﴾ بالإفرادِ، فيما قرأ أبو بكرٍ عن عاصمٍ: (مكاناتكم) جمع مكانةٍ[2]؛ فقد وجّهَ خطابَهُ لكلّ واحدٍ منهم؛ أي: ليعملَ كلُّ واحدٍ منكُم على مكانتهِ[3]، وفي ذلكَ مزيدُ تهديدٍ ووعيدٍ لكلِّ مُخاطَبٍ، فكأنّ العذابَ سيقعُ عليهِ وحدَهُ، أو على جَعلِ الإفرادِ لحالةِ الكفرِ العامَّةِ، وجهلِ المكاناتِ لأحوالِ الظّلمِ والكفرِ والفسقِ والفسادِ المُتعدِّدةِ.وقيل: مَنْ أفرد فلإرادة الجنس ومَن جمَع فليطابقَ ما بعدَها؛ فإنّ المخاطَبين جماعةٌ وقد أضيفت إليهم[4].

دلالةُ تأنيثِ ﴿مَكَانَتِكُمْ﴾:

المرادُ بالمكانةِ الحالةُ الّتي يُلازمونها لا المكانُ

جاءَ لفظُ ﴿مَكَانَتِكُمْ﴾ بالتّأنيثِ فلم يقُلْ: (مكانكُمْ)؛ لأنّهُ أرادَ بالمكانةِ القدرةَ والحالةَ لا البقعةَ منَ الأرضِ ونحوها؛ والمعنى: أنْ يعملوا على حالِ كونِهم على الغايةِ منَ المكنةِ والقدرةِ، وكلٍّ ما في وسعِهم وطاقتِهم في عملِ الشّرِّ، وهو أيضًا سيعملُ ما آتاهُ اللّهُ منَ القدرةِ، ثمَّ يتبيّنُ مَن هو الجاني على نفسِهِ[5].

علّةُ الفصلِ:

تعليلُ الأعمالِ قوّةٌ في سياقِ المضادَّةِ

فُصلَت جملةُ ﴿إِنِّي عَٰمِلٞۖ﴾ عمّا قبلَها؛ لأنّها جملةٌ تعليليّةٌ لمفادِ التّسويةِ في فعلِ الأمرِ ﴿ٱعۡمَلُواْ﴾؛ والمعنى: أنْ لا يضرّني تصميمُكُم وتمسّكُكُم على ما أنتُم ماضونَ فيهِ من ضلالِكُم[6]، وأنا مُوقِنٌ بحسنِ عاقبتي وسوءِ عاقبتِكُم.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/أ90 - 91.
(2) ابن الجزريّ، النّشر: 2/263.
(3) ابن خالويه، الحجّة في القراءات السّبع، ص: 150.
(4) السمين الحلبي، الدّر المصون، 5/158.
(5) زاده، حاشية على تفسير البيضاويّ: 4/689.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/أ91.

سرُّ التّعبيرِ باسم الفاعلِ:

المؤمنُ ثابتٌ على الحقِّ مستمرٌّ فيه

عُبِّر باسم الفاعلِ، وهو الفعلُ الدّائمُ عندَ بعضِ النّحويّينَ، لا سيّما الكوفيّون[1]؛ فاسمُ الفاعلِ هنا ﴿عَٰمِلٌۖ﴾ مُرادٌ به الاستمرارُ على العملِ، دائبٌ عليهِ، غيرُ تاركٍ لهُ منَ الإيمانِ باللّهِ، والدّعاءِ إلى دينهِ[2]، فقد جمعَ بين الثّباتِ والاستمراريَّةِ والتَّجدُّدِ.

بلاغةُ الحذفِ في المتقابلات:

الإيماءُ بأنَّ عملَ الخيرِ قائمٌ في كلِّ حينٍ

حُذِفَ مُتعلِّقُ ﴿إِنِّي عَٰمِلٌۖ﴾ اختصارًا، وليعمَّ المتعلِّقاتِ جميعًا؛ فإنّ هذهِ الجملة في مقابلةِ قولهِ تعالى: ﴿ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ﴾، وفيهِ دلالةٌ على ثباتهِ في نصحِهم، ودعوتِهِ لنجاتِهم، لكنّهُ حذفَهُ للإشعارِ بأنّهُ لا يقتصرُ على حالتهِ تلكَ، بل هو ماضٍ في ذلك في الأحوالِ كلِّها لا يعتريهِ نقصٌ، ولا يثبِّطُهُ إعراضٌ[3].

المتشابهُ اللّفظيُّ:

الإفرادُ باعتبارِ الانفرادِ، والجمعُ باعتبارِ الكثرةِ

أُفرِدَ اسمُ الفاعلِ في قولِه تعالى: ﴿ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ إِنِّي عَٰمِلٌۖ﴾، وجُمعَ في قولهِ تعالى: ﴿ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ إِنَّا عَٰمِلُونَ ١٢١﴾ [هود: 121]؛ لأنَّ الحوارَ في الآيةِ الأولى كانَ بينَ نوحٍ عليه السلام وحدَهُ وقومهِ فناسبَهُ الإفرادُ ﴿إِنِّي عَٰمِلٌۖ﴾، أمّا الآيةُ الثّانيةُ فقد سبقَها قولُهُ تعالى: ﴿وَجَآءَكَ فِي هَٰذِهِ ٱلۡحَقُّ وَمَوۡعِظَةٞ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ١٢٠﴾ [هود: 120]؛ للدّلالةِ على أنَّ للرّسولِ ﷺ منَ الأتباعِ الكثيرَ فناسبَهُ التّعبيرُ بالجمعِ ﴿إِنَّا عَٰمِلُونَ ١٢١﴾.

بلاغةُ الاستئنافِ البيانيّ:

ما وقعَ في النُّفوسِ منَ التّهديدِ نطقَ به اللّسانُ بالوعيدِ

قولهُ تعالى: ﴿سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ﴾ استئنافٌ بيانيٌّ ناشئٌ عن سؤالٍ مُقدَّرٍ بعدَ أن هدّدَهُم؛ فكأنّهم قالوا: فماذا سيكونُ الحالُ إذا عملنا

(1) ابن السّرّاج، الأصول في النّحو: 1/183.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/أ91.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/20.

نحنُ على مكانتِنا، وعملتَ أنتَ يا شعيبُ؟ فكان الجوابُ: ﴿سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ﴾[1]، وهو تهديدٌ ووعيدٌ صريحٌ لهم.

بلاغةُ الفصلِ والوصلِ في جملة ﴿سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ﴾:

الفصلُ في الجملةِ ههنا أكملُ في بابِ الفظاعةِ والتّهويلِ

جملةُ ﴿سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ﴾ مفصولةٌ عمّا سبقَها ظاهرًا، موصولةٌ وصلًا خفيًّا بدلالةِ الاستئنافِ، وآيةُ ذلكَ أنّه لم يصلْها بالفاءِ كما في ﴿فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِۚ﴾ [الأنعام: 135]؛ لأنّهُ أرادَ هنا أن يجعلَهُ جوابًا لسؤالٍ مُقدَّرٍ بعدَ صدرِ الآيةِ الدّالِّ على عملهم وعملِه، أنْ ماذا بعدَ ذلكَ؟ فجاءَ الجوابُ من غيرِ الفاءِ؛ لتكونَ الجملةُ على الغايةِ منَ الكمالِ في الفظاعةِ والتّهويلِ[2].

المتشابهُ اللّفظيُّ:

لَمّا قوِيَ معنى الشّرطِ في الآيةِ الأولى أدخلَ الفاءَ، ولَمّا تعيّنَ الخبرُ في الثّانيةِ حذفَها

دخلَ حرفُ الفاءِ على حرفِ التّنفيسِ في قولِه تعالى: ﴿فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِۚ﴾ [الأنعام: 135]، بينما جاءت آيةُ هودٍ عُريًّا منه في قولِه تعالى: ﴿سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ مَن يَأۡتِيهِ عَذَابٞ يُخۡزِيهِ﴾؛ فيُسألُ عن إثباتِه هناكَ، وحذفِه هنا معَ اتّفاقِ الآياتِ بالتّهديدِ والوعيدِ؟[3]. والجوابُ عن ذلكَ: أنّ آيةَ الأنعامِ فيها خطابٌ لكفّارِ العربِ من هذهِ الأمّةِ، وقد افتتحَ خطابَهُ بوعيدِهم فتقوّى في هذا الخطابِ تقديرُ الشّرطِ المنجرِّ تقديرُهُ في الأوامرِ كأمرِه بأنْ يقيموا الصّلاةَ، ثمّ أمرِه ﷺ ﴿ٱعۡمَلُواْ﴾ [الأنعام: 135]، والفاءُ إنّما أُدخلَتْ لِمناسبتِها الشّرطَ، وهي الفاءُ الجوابيّةُ، أمّا آيةُ هودٍ ففيها إخبارٌ للرّسولِ ﷺ فعُرّيتِ الجملةُ عنِ الفاءِ[4].

وثمّةَ فرقٌ بينَ التّعبيرينِ، فآيةُ هودٍ المستأنفةُ العاريةُ منَ الفاءِ

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/424.
(2) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 18/392.
(3) الغرناطيّ، ملاك التّأويل: 1/171.
(4) الغرناطيّ، ملاك التّأويل: 1/171 - 172.

أبلغُ في الدّلالةِ؛ لِما في خطابِ شعيبٍ عليه السلام قومهُ منَ الشّدّةِ بقولِه: ﴿سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ مَن يَأۡتِيهِ عَذَابٞ يُخۡزِيهِ وَمَنۡ هُوَ كَٰذِبٞۖ وَٱرۡتَقِبُوٓاْ إِنِّي مَعَكُمۡ رَقِيبٞ﴾ ما ليسَ في خطابِ آيةِ الأنعام بقولِه: ﴿فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِۚ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ١٣٥﴾ [الأنعام: 135] المأمورُ بهِ الرّسولُ[1] ﷺ؛ فهو خطابٌ ليّنٌ هيّنٌ؛ فلم يستأنفْ هذهِ الجملةَ بل ألحقَها بما قبلَها بالفاءِ الرّابطةِ.

وثمّةَ فرقٌ آخر بينَ الجملتينِ؛ فإنَّ سياقَ آيةِ هودٍ تبليغٌ من شعيبٍ عليه السلام، وجملةُ ﴿سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ﴾ من كلامِه، وفيها تهديدٌ لهم، أمّا آيةُ الأنعام فالكلامُ لهُ تعالى؛ فجاءَ بالفاءِ ﴿فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ﴾ [الأنعام: 135] المؤذنةِ بالمبالغةِ في التّهديدِ، فما كانَ تهديدُهُ أقلَّ عُرِّيَ منَ الفاءِ، وما كانَ تهديدُهُ أكبرَ اقترنَ بالفاءِ.

فائدةُ التّعبيرِ بحرفِ التّنفيسِ ﴿سَوۡفَ﴾:

تأكيدُ الوقوعِ في المستقبلِ، وهو صريحٌ في التّهديدِ

استُعملَ حرفُ التّنفيسِ في قولِه تعالى: ﴿سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ﴾؛ لإرادةِ توكيدِ الوقوعِ في المستقبلِ، وأنّ علمَهُم واقعٌ بعدَ حينٍ، وفيهِ تصريحٌ بتهديدِهم؛ لأنَّ في هذا الخبرِ علمًا بوقوعِهِ لا محالةَ[2].

سرُّ إيثارِ التّعبيرِ بالعلمِ:

العلمُ مُتعلِّقٌ بالصّفاتِ التّفصيليّةِ، والمعرفةُ مُتعلِّقةٌ بالذّواتِ

عبّرَ بالعلمِ في قولِه تعالى: ﴿تَعۡلَمُونَ﴾ دونَ المعرفةِ (تعرفونَ)؛ لأنَّ العلمَ مُتعلِّقٌ بصفاتِ الذّواتِ وأقسامِها، والمعرفةَ مُتعلِّقةٌ بالذّواتِ، وبيانُ ذلك أنّك إذا قلتَ: (علمتُ زيدًا قائمًا) لم يكنِ المقصودُ أنّ العلمَ تناولَ نفسَ زيدٍ حسبُ، وإنّما المعنى أنّ العلمَ تناولَ كونَ زيدًا موصوفًا بهذه الصّفةِ. فالعلمُ يتعلّقُ بصفةِ الشّيءِ وحكمِه وبالكلّيّاتِ، والتّفصيلاتِ، أمّا تعلُّقُ المعرفةِ فبالجزئياتِ[3].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/153.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/أ92.
(3) أبو البركات الأنباريّ، منثور الفوائد، ص: 44، والخضريّ، حاشية الخضريّ: 1/153.

وحصولُ العلم لديهم بمنِ اتّصفَ بإتيان العذابِ والكذبِ أبلغُ من معرفةِ شخصِهِ، فهُم قد يعرفونَ ذاتَه وشخصَه.

سرُّ التّعبيرِ بالمضارعِ ﴿تَعْلَمُونَ﴾:

تجدُّدُ العلم يُنبئُ عن تجدُّدِ الحسرةِ والنَّدامةِ

بعدَ أن هدَّدَهُم في أوّلِ الآيةِ بفعلِ الأمرِ أوردَ قولَه تعالى: ﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾، وهو تهديدٌ ووعيدٌ وتحذيرٌ دالّةٌ صيغتُهُ المضارعة على المستقبلِ[1]؛ لأنّ نزولَ العذابِ سيكونُ بعدَ حينٍ، فهو إخبارٌ بالغيبِ عمّا سيكونُ من تجدُّدِ العلم المنبئِ عن تجدُّدِ الحسرة والنَّدامةِ.

سرُّ التّعبيرِ بلفظ ﴿مَن﴾:

احتمالُ (مَنْ) بين الموصوليَّةِ والاستفهام

استعملَ ﴿مَن﴾ دونَ (الّذي) في قولِهِ تعالى: ﴿مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾؛ لأنّها منَ الألفاظِ المشتركةِ الدّلالةِ؛ فقد تحتملُ الموصوليّةَ، وقد تحتملُ الاستفهامَ، وليسَ كذلكَ معَ الّذي، فهو لفظٌ معيّنُ الدّلالةِ لا ينفكُّ عن الموصوليّةِ، ولمّا كانَ اللّفظُ في الجملةِ يحتملُ الاثنينَ حَسُنَ التّعبيرُ بـ ﴿مَن﴾، فالمعنى على الموصوليّةِ: سوفَ تعلمونَ الشّقيَّ الّذي يصيبُهُ العذابُ المُخزِي، والّذي هو كاذبٌ، والمعنى على الاستفهام: سوفَ تعلمونَ أيُّنا يأتيهِ عذابٌ يُخزيهِ، وأيُّنا يكونُ كاذبًا[2]، مع دلالتها في الوجهين على العموم.

سرُّ تنكيرِ ﴿عَذَابٌ﴾:

تهويلُ العذابِ وتعظيمُ شأنِه

وردَ العذابُ مُنكَّرًا في قولِهِ تعالى: ﴿مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ﴾ لما فيهِ من الإشارةِ إلى أنّهُ نوعٌ مجهولُ الكمِّ والكيفِ؛ فيذهب فيهِ الذّهنُ كلَّ مَذهبٍ، فهو لغرضِ التّهويلِ والتّعظيم، ثمَّ وصفهُ بالإخزاءِ لدفعِ الإيهام بقلَّتِه، وتأكيدًا على بلوغهِ مَبلغًا يستحقُّهُ المخاطَبونَ.

توجيهُ تخصيصِ وصفِ العذابِ بالخزي:

لمّا أوعدوهُ بالرَّجمِ لوَّحَ لهم بالخزي

لم يكتفِ بقولِهِ تعالى: ﴿مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ﴾ مع كونه تامّ المعنى

(1) الدّرّة، تفسير القرآن الكريم وبيانه: 4/500.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/202.

وزادَ عليهِ لفظ ﴿يُخْزِيهِ﴾ وصفًا للعذابِ؛ لأنّهُ وصفَ عذابَهم المستحقَّ بالإخزاءِ من بابِ التّعريضِ؛ فإنّهُم وعدوهُ ﷺ بالرّجم؛ فجاءَ بهذهِ الصّفةِ الدّالّةِ على زيادةِ الخزي الظّاهرِ معَ كونهِ عذابًا، وذلكَ لا يكونُ إلّا عن جنايةٍ عظيمةٍ أوجبَها عليهِمْ[1] بمدعاةِ كفرهِم وكذبِهم وانطماسِ بصيرتِهم.

دلالةُ التّعبيرِ بالفعليّةِ ﴿يُخْزِيهِ﴾:

إتيانُ العذابِ المُخزِي مُرتقَبٌ، وليس كذلك كذبُ الكاذبِ

جاء النَّظمُ بصيغة الفعل المضارع في قولهِ تعالى: ﴿يُخْزِيهِ﴾ دونَ الاسميّةِ، كما فعلَ معَ ﴿كَٰذِبٌ﴾؛ وذلك لأنّ إتيانَ العذابِ مُرتقَبٌ، وليسَ كذلكَ معَ الكذبِ، بل المُرتقَبُ ظهورُ الكذبِ السّابقِ المستمرِّ[2]، فكأنَّ الكذبَ صفةٌ ذاتيةٌ منهُم، وإتيان العذاب المُخزِي أمرٌ فعليٌّ يحدثُ جزاءَ أفعالهِم.

معنى الواوِ ودلالتُها:

الاكتفاءُ بذكرِ عاقبةِ الظّالمين رفعةٌ لشعيبٍ عليه السلام

الواوُ في قولهِ تعالى: ﴿وَمَنْ هُوَ كَٰذِبٌ﴾ دالّةٌ على العطفِ؛ فقد عطفَ صفةَ الكذبِ على صفةِ الخزي الملحقةِ بهم؛ فتكونُ كلتا الصّفتينِ في الجملتينِ للكافرينَ من بابِ عطفِ الصّفةِ على الصّفةِ، والموصوفُ واحدٌ مثلَما يُقالُ للمُذنبِ: ستعلمُ منْ يهانُ ومنْ يعاقبُ، والكلامُ لهُ جميعًا، وفي ذلكَ دلالةٌ على ذكرِ عاقبةِ المحقِّ الصّادقِ على وجهِ التّعريضِ، وهو أبلغُ وأوقعُ منَ التّصريحِ؛ فاستغنى عن ذكرِ عاقبةِ شعيبٍ بذكرِ عاقبتِهم[3]. وقد مرَّ مثلُ ذلكَ في قولِه سبحانه: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣٩ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ۝٤٠﴾ [الزّمر: 39 - 40]؛ إذ اكتفى بذلك عن أن يقولَ: ومَن هو على خلافِ ذلك، ونظيرُهُ ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ﴾ [الأنعام:

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/237.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/237.
(3) زاده، حاشية على تفسير البيضاويّ: 4/690.

135]؛ إذ ذكرَ فيه إحدى العاقبتَين؛ لأنّ المرادَ بهذه العاقبةِ عاقبةُ الخير؛ لأنّها متى أُطلِقَت لا يَعني إلّا ذلكَ، نحو: ﴿وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ ١٢٨﴾ [الأعراف: 128][1].

يوم القيامة يُفضحُ المُدّعي كذبًا

وفي العطف تعريضٌ أيضًا بكذبِهم في ادّعائِهمُ القوّةَ والقُدرةَ على رجمه عليه السلام، وفي نسبتِهِ إلى الضّعفِ والهَوانِ، وفي ادّعائِهمُ الإبقاءَ عليه لرعايةِ جانبِ الرّهطِ[2].

دلالةُ ذكرِ ضميرِ الفَصلِ:

الإيماءُ باختصاصِ أحدِ الفريقين بالكذبِ

دخلَ الضّميرُ المنفصلُ ﴿هُوَ﴾ في قولِه تعالى: ﴿وَمَنۡ هُوَ كَٰذِبٞۖ﴾؛ لأنَّ العربَ لا تقولُ: مَنْ قائمٌ، بل تقولُ: مَنْ قامَ؟ ومَنْ يقومُ؟ ومَنِ القائمُ؟، فلمّا فُقِدَ (فعلَ) و(يفعلُ) و(المعرفةُ) أتوا بالضّميرِ ليقومَ مقامَ ذلكَ[3]، مع ما فيه منَ القوَّةِ اللَّفظيَّةِ والإشعارِ بالاختصاصِ، كأنَّه قال: ومَن هو المستحقُّ بوصفِ الكذبِ فينا، فيختصُّ به دونَ الآخرِ، ويقتصرُ عليه؛ فضميرُ الفصلِ يُؤكِّدُ معنى الاختصاصِ، والقصرِ، وحصرِ المُسند على المُسندِ إليه، ويمنعُ المشاركةَ؛ فالمستحقّونَ هم الكاذبونَ وحدَهم، لا يشاركُهُم في ذلك أحدٌ، وفيه معنى بلوغِ الغايةِ، والكمالِ في الوصف.

توجيهُ تخصيص الكذبِ بالذِّكر:

الواثقُ بالله تعالى يأتي بتُهم الخصوم لتعكيسِ كلامهم وقلبِ غاياتِهم

لَمّا صُدِّرَت الآيةُ بذكرِ عملِهم على مكانتِهم، وعملِه على مكانتِه، ثمَّ أتبعهُ ذكرَ عاقبةِ العاملينَ منهُ ومنهُم، كانَ القياسُ أن يقولَ: مَن يأتيهِ عذابٌ يخزيهِ، وهذا جزاؤهمْ، ومَنْ هو صادقٌ؛ تعبيرًا عن نفسِه، لكنّهُ عدلَ عن ذلكَ إلى قولِه تعالى: ﴿وَمَنۡ هُوَ كَٰذِبٞۖ﴾، فجاءَ بوصفِ الكاذبِ؛ لأنّهم لمّا كانوا يَدعونهُ كاذبًا - وهو الجاري على ألسنتِهم -

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 6/322.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/237.
(3) الفرّاء، معاني القرآن: 2/26.

جاءَ بهذا الوصفِ المزعوم المُدَّعى منهم من بابِ التّجهيلِ لهُم[1]، ومن بابِ تحدِّيهم، فإنَّ ثقةَ الصّادقِ تجعلُه يلقي كلامَ الخصم دونَ تردُّدٍ، وهو صادقٌ مَصدوقٌ، لكنّهُ عبَّرَ بهذهِ الصّفةِ "حسب زعم المُخاطَبينَ، أعني: المُشركينَ؛ إذْ إخراجُ الكلام على وفقِ اعتقادِ المخاطَبينَ اللّئام ممّا شاعَ في كلام البلغاءِ ومحاوراتِ الفصحاءِ"[2].

معنى الواوِ ودلالتُها:

الواوُ في جملةِ ﴿وَٱرۡتَقِبُوٓاْ﴾ للعطفِ، غيرَ أنّها عطفتْ هذهِ الجملةَ على جملةِ ﴿ٱعۡمَلُواْ﴾[3] الدّالّةِ على التّهديدِ؛ فتكونُ جملةُ ﴿وَمَنۡ هُوَ كَٰذِبٞۖ﴾ مُعترِضةً بينهُما.

علّةُ الفَصلِ:

فُصِلتِ الجملةُ الاسميّةُ ﴿إِنِّي مَعَكُمۡ رَقِيبٞ﴾ عمّا قبلَها؛ لأنّها تعليلٌ للأمرِ الدّالِّ على فعلِ الارتقابِ، وهو من كلام شعيبٍ[4] عليه السلام، مع ما يشوبُ هذه الجملةَ منَ الثّقةِ التّامّةِ، والطّمأنينةِ الكاملةِ، والتَّحدِّي الصّارخِ، ما يجعلُ الأصدافَ تتفتَّحُ، والأحجارَ تتشقَّقُ.

تعليلُ المؤمنِ صادرٌ عن قلبٍ مُطمئنٍ وعقلٍ واعٍ

دلالةُ التّأكيدِ:

قولهُ تعالى: ﴿إِنِّي مَعَكُمۡ رَقِيبٞ﴾ تذييلٌ لرقابتهِ عليه السلام، وقد صدّرها بـ (إنّ) الدّالّةِ على التّوكيدِ؛ فإنّهم لمّا كانوا يكذّبونَهُ، وينكرونُ أقوالَهُ، وما يعدُهُم بهِ أكّدَ ذلكَ بقولهِ: ﴿إِنِّي﴾[5]؛ فإنّه لا يفقهُ المواعظَ والتّذكيرَ إلّا أهلُ الإيمانِ والتّنويرِ.

لا يفقهُ المواعظَ والتّذكيرَ إلّا أهلُ الإيمانِ والتّنويرِ

سرُّ التّعبيرِ بالمعيّةِ:

لمّا ذكرَ النَّظمُ رقابةَ شعيبٍ عليه السلام، وأكّدَها بإنَّ، أضاف لها قيدًا؛

لا يفارقُ المؤمنون مشاهدَ الدَّعوةِ بل ينتظرون الأمرَ من صاحبِ الأمر

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/424 - 425.
(2) القونويّ وابن التّمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاويّ: 10/188.
(3) الدّرّة، إعراب القرآن وبيانه: 4/501.
(4) الدّرّة، إعراب القرآن وبيانه: 4/501.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/366.

وهو صفةُ المعيّةِ بقولهِ تعالى: ﴿إِنِّي مَعَكُمْ﴾، ففي هذا القيدِ "إظهارٌ منهُ ﷻ لكمالِ الوثوقِ بأمرِه"[1]؛ فلا يدخلُ الشّكُّ في نفوسهم منْ أنّهُ سيتركُهُم، وما ذلكَ إلّا لثقتِهِ بسوءِ عاقبتِهم وحسنِ خاتمتِهِ، وهو شأنُ الثّابتين في صراط اللّهِ المهتدين، أنَّهم يبلِّغون رسالاتِ اللّه تعالى، ولا يفرُّون، بل ينتظرونَ مآلَ الأمرِ من صاحب الأمرِ.

سرُّ تقديم الظّرفِ ﴿مَعَكُمْ﴾ على المُسندِ ﴿رَقِيبٌ﴾:

إفادةُ الحصرِ للمبالغةِ، فكأنّه جعلَ نفسَهُ رقيبًا معهُم وحدَهم

قُدِّمَ الظّرفُ ﴿مَعَكُمْ﴾ على المسندِ ﴿رَقِيبٌ﴾ في قولهِ تعالى: ﴿إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ﴾ لتحصيلِ فائدةِ القصرِ؛ لأجلِ المبالغةِ؛ فكأنّهُ جعلَ نفسَهُ رقيبًا معهُم لا غيرهُم على سبيلِ المبالغةِ لا الحقيقةِ؛ فإنَّ المعيّةَ ليستْ مقصورةً عليهم حقيقةً، ولكنّهُ أرادَ الإيحاءَ بأنّهُ مسخِّرٌ نفسَهُ معهم، وفي هذا التّعبيرِ ما يوحِي بثقتِهِ بالمصيرِ، وأنَّ صدقَه يجعلُه واثقًا منَ المآل.

سرُّ التّعبيرِ بقولهِ تعالى: ﴿رَقِيبٌ﴾، مفردةً وصيغةً:

الرَّقيبُ ذو منزلةٍ عاليةٍ ومكانةٍ رفيعةٍ

التّعبيرُ عن رقابتِهِ ﷻ بصيغةِ فعيل ﴿رَقِيبٌ﴾ لا باسم الفاعلِ "فلم يقُلْ: مُرتقِبٌ، إشارةً إلى أنَّ همَّهُ الاجتهادُ في العملِ بما أمرَهُ اللّهُ؛ لأنّهُ مُبالِغٌ في ارتقابِ عاقبتِهِ معهُم استهانةً بهم"[2]، ولأنّهُ أرادَ أن يكونَ هذا الوزنُ محتملًا لمعانٍ عدّةٍ، فقد يكونُ بمعنى الرّاقبِ كالضّريبِ بمعنى الضّاربِ، وقد يكونُ بمعنى المُراقبِ، كالنّديم بمعنى المنادم، وقد يكونُ بمعنى المُرتَقِبِ كالفقيرِ بمعنى المُفتَقِرِ[3]، فهذهِ معانٍ مُتوقَّعةٌ مُحتمَلةٌ لما يعطيه هذا الوزنُ من تعدُّدٍ في المعنى.

واستعملَ مفردةَ ﴿رَقِيبٌ﴾ الدّالّةَ على العلوِّ؛ ليشيرَ إلى أنّهُ ﷻ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/237.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/366.
(3) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 18/392.

في مكانٍ عالٍ يشرفُ على هؤلاءِ القوم الكافرينَ، وهم دونَهُ يلقونَ العذابَ المهينَ؛ فهو في مَرقبٍ عالٍ كالقاضي يعلو منصّةَ القضاءِ[1].

فنُّ ردّ العجُزِ على الصّدر:

في قولهِ تعالى: ﴿وَٱرۡتَقِبُوٓاْ إِنِّي مَعَكُمۡ رَقِيبٞ﴾، ردَّ عجُزَ الجملةِ على صدرِها؛ إذ وافقَت كلمةُ ﴿رَقِيبٞ﴾، وهي آخر كلمةٍ في الكلام، أوّلَ كلمةٍ في صدرِه، ليُسهمَ في ترسيخِ معنى اشتراكه معهم في المراقبةِ يقينًا منه عليه السلام بتحقُّقِ وعدِ اللّهِ بعذابِهم.

من أماراتِ النّبوّة اليقينُ بوعد الله

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الارتقابُ والانتظارُ:

"الانتظارُ طلبُ ما يقدرُ النّظرُ إليهِ، ويكونُ في الخيرِ والشّرِّ، ويكونُ معَ شكٍّ ويقينٍ"[2]، أمّا الارتقابُ فهو من مادّةِ (رقب) بمعنى الحفظِ والانتظارِ، إلّا أنّهُ يتوفّرُ على معنًى آخر يميّزُهُ من لفظِ الانتظارِ، وهو أنّهُ يكونُ مُشرفًا من مَوضِعٍ عالٍ[3].

الانتظارُ طلبُ النّظرِ، والارتقابُ انتظارٌ من علٍ معَ الخوفِ

ولهُ مزيّةٌ أخرى ترجّحُ مواءمتَهُ لسياقِ الآيةِ وقصّتِها، وهو أنَّ الارتقابَ يدلُّ على الانتظارِ مع حصولِ الخوفِ، وأنّه أكثرُ ما يُستعملُ في المكروهِ[4]، وما كانَ ارتقابُهُم إلّا عن خوفٍ ووجلٍ، وما كانَ مآلُ الارتقابِ إلّا عاقبةَ العذابِ الّذي أوعِدوهُ من شعيبٍ عليه السلام.

(1) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 6/1193.
(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 75.
(3) الجوهريّ، الصّحاح: (رقب).
(4) العسكريّ، الوجوه والنّظائر، ص: 233.

﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا
وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩٤﴾
كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَآ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾﴾ [هود: 94 - 95]

مُناسَبَةُ الآيَتينِ لما قَبْلَهُما:

الانتقالُ منَ الإخبارِ إلى الخبرِ، ومنَ الغيبِ إلى الشُّهودِ، ومنَ الوعيدِ إلى العقابِ

توعّدَ شعيبٌ عليه السلام قومَه فيما سبقَ بالتَّرقُّبِ وانتظارِ ما يؤولُ إليهِ تكذيبُهُم، وها هو أمرُنا الصّادعُ بالعذابِ قد صبّحهُم بكرةً في وقتٍ لا يُتوقَّعُ فيهِ العذابُ، بعد أن أنجى اللّهُ نبيّهُ ومَنْ معهُ برحمتهِ ولطفهِ، فكانَ حالُ المُعذَّبينَ عدمًا كأنّهم لم يعيشوا أغنياءَ لاهينَ[1]، ولمْ يتنعّموا بحياةٍ قطُّ، مثلهُم في ذلكَ مثلُ ثمودَ في البعدِ والهلاكِ، فالمناسبةُ بين الآياتِ، هو ذكرُ العذابِ المُتوعَّدِ، بعد ذكرِ الوعيدِ الصّادقِ، والانتقالُ منَ الإخبارِ إلى الخبرِ، ومنَ الغيبِ إلى المشاهَدةِ.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلصَّيْحَةُ﴾: أصلُ مادّتِهِ (صيح)، فالصّادُ والياءُ والحاءُ أصلٌ صحيحٌ، وهو الصَّوتُ العالي. منهُ الصِّياحُ، والواحِدَةُ منهُ صَيحَةٌ[2]، والصّيحَة: العذابُ[3]. وقوله تعالى: ﴿وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ﴾؛ يعني به: العذاب[4].

2) ﴿فَأَصْبَحُواْ﴾: أصلُ مادّتِهِ (صبح)، فالصّادُ والباءُ والحاءُ أصلٌ واحدٌ مُطَّردٌ. وهو لَونٌ منَ الألوانِ، أصلُهُ الحُمرَةُ، وسُمّيَ الصُّبحُ صُبحًا لِحُمرَتِهِ، كما سُمِّيَ المصباحُ مصباحًا لِحُمرَتِهِ[5]

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/367.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (صيح).
(3) الخليل، العين: (صيح).
(4) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (صيح).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (صبح).

وتقول: صَبَحَني فلانٌ: إذا أتاك صباحًا، وتقول في الحرب: صَبَّحناهُم، أي: غادَيناهم بالخيل فنادَوا: يا صَباحاه، إذا استَغاثوا[1] فمعنى (أصبحوا) هنا: طلعَ عليهمُ الصّباحُ، وهُم مَوتى.

3) ﴿دِيَٰرِهِمۡ﴾: أصلُ مادّتِهِ: (دور)، فالدّالُ والواوُ والرّاءُ أصلٌ واحدٌ يدلُّ على إحداقِ الشَّيءِ بالشَّيءِ من حَوالَيهِ. يُقالُ دارَ يَدورُ دَورانًا، والدّارُ أصلُها الواوُ. والدّارُ: القَبيلَةُ[2] وكُلُّ قبيلةٍ اجتَمَعَت في مَحلَّةٍ سُمِّيَت تِلكَ المَحَلّةُ دارًا، فالدُّورُ جَمعُ دارٍ؛ وهي المنازلُ المسكونَةُ والمحالُّ، وتُجمَعُ أيضًا على دِيارٍ[3]. والدّنيا كما هي دارٌ، والدّارُ الدّنيا، والدّارُ الآخرةُ، إشارة إلى المقَرَّين في النّشأةِ الأُولَى، والنّشأةِ الأُخرى. وقيلَ: دارُ الدّنيا، ودارُ الآخرة[4]، وجاءتِ الدّيارُ هنا بمعنى: المَنازل.

4) ﴿جَٰثِمِينَ﴾: أصلُ مادّتِهِ (جثم)، فالجيمُ والثّاءُ والميمُ أصلٌ صحيحٌ يدلُّ على تَجَمُّعِ الشَّيءِ. فالجُثمانُ: شَخصُ الإنسانِ[5]. وجَثِمَ يَجثِمُ جُثومًا؛ أي: لَزِمَ مكانًا لا يَبرَحُ[6]. وفي قول الله جلَّ وعزَّ: ﴿فَأَصۡبَحُواْ فِي دَارِهِمۡ جَٰثِمِينَ ٧٨﴾ [الأعراف: 78] أصابَهُمُ البلاءُ فبركوا فيها، والجاثمُ: البارِكُ على رِجلَيه، كما يَجثِمُ الطَّير؛ أي: أصابَهُم العَذاب فماتوا جاثمين؛ أي: باركين[7]، وهو المعنى المرادُ هنا.

5) ﴿يَغۡنَوۡاْ﴾: أصلُ مادّتِهِ (غني)، فالغينُ والنّونُ والحرفُ المُعتَلُّ يدلُّ على الكِفايَةِ. فالغِنَى في المالِ. يُقالُ: غَنِيَ يَغْنَى غِنًى. والغَناءُ بفتحِ الغَينِ مَعَ المَدِّ: الكِفايَةُ. وغَنِيَ القَومُ في دارِهِم: أقاموا، كأنَّهُمُ استَغنوا بها. ومَغانِيهُم: مَنازِلُهُم. ويُقالُ: غني في مكانِ كذا: إذا طال مَقامُهُ مُستَغنيًا به عن غيرِهِ[8]، وقوله تعالى: ﴿كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَآۗ﴾؛ أي: كأنْ لم يقيموا في ديارِهِم.

(1) الخليل، العين: (صبح).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (دور).
(3) ابن الأثير، النّهاية: (دور).
(4) الرّاغب، المفردات: (دار).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (جثم).
(6) الخليل، العين: (جثم).
(7) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (جثم).
(8) الرّاغب، المفردات: (غني)، وابن فارس، مقاييس اللغة: (غني).

6) ﴿بُعۡدٗا﴾: أصلُ مادّتِهِ (بعد)، فالباءُ والعينُ والدّالُ أصلٌ يدلُّ على خِلاف القُربِ، والبَعَدُ: الهَلاكُ[1]، ومنه قَولُه تعالى: ﴿كَمَا بَعِدَتۡ ثَمُودُ﴾؛ أي: هَلَكَتْ. والبُعدُ والبِعادُ أيضًا منَ اللّعنِ، وهذا من قولك: بُعْدًا وسحقًا، ونصبه على المصدريّةِ، ولم يجعلْه اسمًا[2]، و﴿بُعۡدٗا﴾ في الآية بمعنى: الطّرد واللّعن والهلاك.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

نتيجةُ المعاندةِ الوقوعُ في المباعدة، واستحقاقُ اللّعنِ بعد الطّعن

يُخبرُ اللّهُ تعالى عن قوم شعيبٍ عليه السلام، بعدما أصابَهُمُ العذابُ بالصّيحةِ، فماتوا جميعًا، وزالوا عن وجه الأرضِ، كأن لم يقيموا في ديارهم من قبلُ، ولم يتّخذوها منازلَ، ثمّ نبَّه اللّهُ تعالى المخاطَبين بأداة التّنبيهِ ﴿أَلَا﴾، فقال: ألا طُرِدت مَدينُ من رحمة اللّهِ بحلول نقمتِهِ عليهم، كما طُرِدت منها ثمودُ من قبلُ، بإنزال اللّهِ تعالى سخطَه عليهم[3].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

علّةُ الوصلِ:

ليس بعدَ الوعيدِ إلّا نزولُ العذابِ الشّديدِ

قولُهُ تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا شُعَيۡبٗا﴾ موصولٌ بما سبقَه بالعطفِ؛ لأنّهُ لمّا أوعدهُم بأن سيأتيهِمُ العذابُ المُخزِيُ، فإنّ وعيدَهُ آتٍ لا محالةَ لمّا لم ينتفعوا بصادعِ وعيدِهِ؛ فجاءَ الأمرُ بالعذابِ والعقابِ بعدَ أن نجّى اللّهُ شعيبًا ومَن معهُ.

المتشابهِ اللّفظيِّ:

لم يتقدَّمْ تخويفٌ بقربِ العذابِ فعطفَ بالواوِ، وكانَ التّخويفُ بالعذابِ قريبًا فعطفَ بالفاءِ

جاء قولُهُ تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا هُودٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا﴾ [هود: 58]، وقولُهُ تعالى هنا: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا شُعَيۡبٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا﴾، منسوقًا بالواو، فيما جاء قولُهُ تعالى:

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (بعد).
(2) الخليل، العين: (بعد).
(3) جماعة منَ العلماء، المختصر في تفسير القرآن الكريم، ص: 232.

﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾ [هود: 66]، وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا﴾ [هود: 82] منسوقًا بالفاءِ، فيُسألُ عنِ الفرقِ بينَ اختلافِ حرفي العطفِ في كلِّ موضعٍ؟

وقبلَ الجوابِ عن ذلكَ لا بدّ من بيانِ الفرقِ بينَ الواوِ والفاءِ العاطفتينِ، وهو أنَّ عطفَ الجملةِ أو الصّفةِ بالفاءِ غالبًا ما يكونُ من بابِ السّببيّةِ[1]؛ فتكونُ الجملةُ الأولى سببًا للثّانيةِ أو كالسّببِ، وشدّةُ الاتّصالِ بينهُما أقوى منَ الواوِ، ثمَّ إنَّ الفاءَ دالّةٌ على التَّعقيب.

ففي سياقِ الآيتينِ الأُولَيَيْنِ ليسَ فيهِ ما يدلُّ على التّخويفِ بقربِ الوعيدِ الّذي أوعدوهُ ليدلَّ على اتّصالِ ما قبلَ (لَمّا) بما بعدَها اتّصالًا وثيقًا بما يشبهُ السّببَ والنّتيجةَ؛ فلمْ يَحسُنِ العطفُ بالفاءِ، بلْ عطفَ بالواوِ؛ لأنّه "لم يسبِقْهُ فيها ذِكرُ وعدٍ يجري مَجرى السّببِ المُقتضي لدخولِ الفاءِ في مَعلولِهِ"[2]، فمرادهُ الجمعُ بينَ الخبرينِ فحسب، أو من بابِ عطفِ القصّةِ على نظيرتِها[3]، وهذا القياسُ يشمَلُ قصّةَ هودٍ وقصّةَ شعيبٍ المنسوقتينِ بالواوِ، ومئنةُ ذلكَ أنَّ التّخويفَ في قصّةِ شعيبٍ قد قارنَهُ التّسويفُ بقولِهِ تعالى: ﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾[4].

وخلافُ ذلكَ تمامًا في الآيتينِ الأُخْرَيَيْنِ؛ فقد أوعدهُم صالحٌ أنْ يتمتّعوا ثلاثةَ أيّامٍ، وبعدَها يحلُّ العذابُ، أمّا في قصّةِ لوطٍ فقد أوعدَهُم بأن يكونَ موعدُهُمُ الصّبحَ، والصّبحُ أقربُ الأوقاتِ بعدَ اللّيلِ؛ "فكانَ ذلكَ بعقبِهِ غيرَ مُتراخٍ؛ فاقتضى الفاءَ الّتي تدلُّ على التّعقيبِ، واتّصالِ ما بعدَها بما قبلَها من غيرِ مهلةٍ بينهُما"[5].

سرُّ التّعبيرِ بالمجيءِ:

جاء التَّعبيرُ بمجيء الأمر في قولِه تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا﴾ دونَ إتيانِه؛ لأنّهُ أرادَ أن يُردِفَ الإصابةَ معَ المجيءِ؛ فإنَّ المجيءَ إتيانٌ معَ الإصابةِ، فيأتي أمرُنا وهو العذابُ، ويصيبُ منْ أُرسِلَ إليهم، وهمُ القومُ الّذينَ كذّبوا شعيبًا، وهو أفخمُ منَ التّعبيرِ بالإتيانِ.

(1) ابن مالك، شرح تسهيل الفوائد: 3/351.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/237.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/203.
(4) الإسكافيّ، درّة التّنزيل: 2/791.
(5) الإسكافيّ، درّة التّنزيل: 2/792.

المجيءُ إتيانٌ معَ إصابةٍ

لأنّ المجيءَ أعمُّ، فالإتيانُ مجيءٌ بسهولةٍ، والإتيانُ قد يُقال باعتبار القصدِ، وإنْ لم يكنْ منه الحصولُ، والمجيءُ يُقال اعتبارًا بالحصولِ[1]، ومجيءُ أمر الله بالعذاب حاصلٌ، مُحقَّقٌ ثقيلٌ وقعُهُ على المُعذَّبين، وصعبٌ تحمّلُهُ. ومن هنا اختارَ لفظَ المجيء دونَ الإتيان؛ لِما فيه من دلالتي: عدم السّهولة، واعتبار الحصولِ الفعليِّ لا قصده.

دلالةُ التَّعبيرِ بالماضِي:

التّعبيرُ بصيغةِ الماضي في قولهِ تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا﴾ له دلالةٌ دقيقةٌ ههنا، وهو أنّ المجيءَ بالأمرِ قد اقتربَ ودنا، وبدت بوادرُهُ؛ لأنّ إنجاءَ المؤمنينَ قد حصلَ قبلَ وقوعِ العذابِ[2].

براعةُ الاستعارة في لفظِ الأمرِ:

شبّه صدورَ الأمر وظهورَ بوادره بمجيئِهِ

لفظ (الأمرُ) في قولِه تعالى: ﴿جَآءَ أَمْرُنَا﴾، ليسَ على حقيقةِ لفظهِ، إنّما القصدُ منهُ أثرُ الأمرِ لا الأمرُ نفسُهُ، وهو ما أمرَ اللّهُ بهِ أمرَ تكوينٍ (كنْ)، والمعنى: لمّا اقتربَ مجيءُ أثرِ الأمرِ الإلهيِّ، وهو العذابُ[3]، أي: بوادرُ الأمرِ، وأُطلقَ الأمرُ بقصدِ التَّهويلِ والتَّفخيم والتَّعظيم، فإنَّ عذابَ اللّه ﷻ في المكذِّبين لا يكونُ إلّا عن أمرِه، كأنَّه قال: ولمّا صدرَ أمرُنا، فهو على تقديرٍ مجازيٍّ، بتشبيه صدورِ الأمر بمجيئه، فهو استعارةٌ تصريحيَّةٌ تبعيَّةٌ، أو على تقدير: ولمّا جاءت بوادرُ أمرِنا، فهو على المجازِ بالحذف.

إظهارُ العذاب في صورةِ شخصٍ يجيءُ ويذهبُ؛ زيادةٌ في التّخويفِ والتّهديدِ

أو نفسِّرُ الأمرَ بالعذابِ على طريقِ الاستعارةِ المكنيّةِ[4]؛ فقد شبَّهَ الأمرَ وهو العذابُ بشخصٍ، وحذفَ المشبّهَ بهِ، وأبقى لازمًا من

(1) الرّاغب، المفردات: (جاء).
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/103.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/103.
(4) الاستعارةُ المكنيّةُ "أن يُذكر لفظُ المشبّه مُرادًا به حقيقته، ويدلّ على أنّ القصدَ تشبيهُه بغيره بذكر شيءٍ من لوازم ذلك الغير". يُنظر: السّبكيّ، عروس الأفراح: 2/197، كقول الشّاعر: وإذا المنيّةُ أنشبَت أظفارَها.

لوازمِهِ وهو المجيءُ، وفائدتهُ إظهارُ العذاب في صورةِ شخصٍ يجيءُ ويذهبُ زيادةً في التّخويفِ والتّهديدِ للمخاطَبينَ المنكِرين نبوّتَهُ ودعوتَهُ عليه السلام.

بلاغةُ الإسنادِ المجازيِّ:

إسنادُ المجيءِ إلى الأمرِ في قولِه تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا﴾ مجازٌ، الغرضُ منهُ تمثيلٌ لظهورِ اقتدارِهِ سبحانه وتعالى، وبيان آثارِ قهرِهِ تعالى ومُوجبِ عذابِهِ، فكأنّ العذابَ قد حضرَ بنفسِهِ، وفي ذلكَ حصولُ آثارِ الهيبةِ ما لا يحصلُ في التّعبيرِ بالأمرِ على وجهِ الحقيقةِ.

إظهار اقتدار اللهِ تعالى وبيانُ آثارِ قهرِهِ ومُوجبِ عذابِهِ

دلالةُ الإضافةِ:

جاءَ الأمرُ في قولِه تعالى: ﴿جَآءَ أَمْرُنَا﴾ مضافًا إلى الضّميرِ الدّالِّ عليه سبحانهُ (نا) لتعلُّقِه بالإرادةِ الرّبّانيّةِ، ودلالتِه على الجبروتِ والعظمةِ الإلهيّةِ[1]؛ فيقع الأمرُ موقعَ الهيبةِ والتّعظيم في نفوسِ المخاطَبينَ، وفيه تخويفٌ للأعداءِ، وطمأنةٌ للأولياءِ.

تعظيمُ الأمرِ لتعلُّقِهِ بالإرادةِ الرّبّانيّةِ ودلالتِهِ على العظمةِ الإلهيّةِ

دلالةُ التّعبيرِ بالفعلِ ﴿نَجَّيْنَا﴾:

جاءَ استعمالُ فعلِ ﴿نَجَّيْنَا﴾ بصيغةِ (فَعّلَ) الثّلاثيّ المزيدِ بحرفٍ واحدٍ، وهو تضعيفُ عينِ الفعلِ، ومن معانيهِ المشهورةِ المبالغةُ والتّكثيرُ[2] كقولِه تعالى: ﴿وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ﴾ [يوسف: 23]؛ فإنّه لم يكنْ بابًا واحدًا، والمرادُ في قصّةِ شعيبٍ عليه السلام الإشارةُ إلى المبالغةِ في إنجاءِ شعيبٍ ومَن معهُ منَ القومِ الظّالمينَ.

المبالغةُ في التّنجيةِ، والإيماءُ إلى كثرةِ سُبُلِ النّجاةِ

وقد يُقالُ: إنَّ منْ مقتضياتِ الحدثِ الدّالِّ على التّكثيرِ والمبالغةِ أن يستغرقَ وقتًا أطولَ، وأنّه يفيدُ تلبُّثًا ومكثًا، ومن هُنا التّفريقُ في استعمالِ (نَجّى) و(أنْجَى) فإنّ القرآنَ الكريمَ كثيرًا ما يستعملُ الفعل (أنْجَى) للإسراعِ فيها، ويُؤثرُ استعمالَ الفعلِ (نجّى) للتّلبُّثِ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/367.

(2) سيبويه، الكتاب: 4/64، وابن عصفور، المتع في التّصريف، ص: 129.

والتّمهُّلِ في التّنجيةِ[1]، وهو مُتحقِّقٌ في قصّةِ شعيبٍ؛ فقد كانَ تهديدُهُم مُتدرِّجًا؛ لأنّهُ خاطبهُم أوّلًا بأن يعملوا على مكانتهِم، وهو تهديدٌ بوقوعِ العذابِ إلّا أنَّ لهُ وقتًا مُؤجَّلًا، ثمَّ جاءَ بـ (سوفَ) الدّالّةِ على الزّمنِ المتمادِّ، ثمَّ دعاهُم للارتقابِ، وهو يقتضي زمنًا؛ فثبتَ أنَّ حلولَ العذابِ اقتضى زمنًا؛ فناسبَهُ الفعلُ ﴿نَجَّيْنَا﴾ الدّالّ على التّلبُّثِ والتّمهُّلِ، كما أنَّ هذا الفعلَ يومئ إلى أنَّه لم يجعلْ لشعيبٍ وقومه سبيلًا واحدًا منَ النَّجاةِ، بل جعل لهم سبلًا كثيرةً، وفي ذلكَ طمأنةٌ لأوليائهِ، وأنّه معهُم، ولن يتركَهُم.

فائدةُ إسنادِ الفعل لنونِ العظمةِ:

تعظيمُ التَّنجيةِ وتوقيرُ المُنجَّى

جاءَ فعلُ ﴿نَجَّيْنَا﴾ مُسندًا للضّميرِ (نا) الدّالِّ على العظمةِ والإجلالِ؛ وأنّه نجّاهُ تنجيةً عظيمةً[2]، وفيه تشريفُ نبيِّ اللّهِ شعيبٍ ومن معهُ وتوقيرُهُم؛ فإنَّ التّعظيمَ والتّوقيرَ من أسبابِ نصرةِ الرّسلِ.

علّةُ البدءِ بذكرِ النَّجاةِ قبل العذابِ:

الاعتبارُ المعنويُّ في المسارعةِ في التَّبشيرِ، والزَّمانيُّ فهو الواقع

في قولهِ تعالى: ﴿نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ﴾ ذكرَ تنجيةَ شعيبٍ عليه السلام ومَن معه منَ المؤمنين، وكانَ مقتضى الظّاهرِ أن يذكرَ وقوعَ العذابِ على الّذينَ أنكروا نبوَّتَه ودعوتَه، لكنّهُ عدلَ عن ذكرِ العذابِ إلى النّجاةِ؛ لأنَّ "الإخبارَ بتنجيةِ الأولياءِ لا سيّما عندَ الإنباءِ بحلولِ العذابِ أهمُّ، ذكَرَها أوّلًا، ثمَّ أخبرَ بهلاكِ الأعداءِ"[3]، ولما فيه من تقديم الحدثِ الأوّلِ؛ فإنَّ التَّنجيةَ هي الّتي وقعت، ثمَّ جاء العذابُ، ولا يُتصوَّر سوى هذا التَّرتيبِ الزَّمانيِّ، فعلَّةُ ذكرِ التَّنجيةِ أوّلًا الاعتبارُ المعنويُّ، والاعتبارُ الزَّمانيُّ.

(1) السّامرائيّ، بلاغة الكلمة، ص: 62 - 70.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/367.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/223.

فائدةُ التّعبيرِ بالموصولِ:

الإشعارُ بعلّة الحكم، وبناؤه على التّشويق

في قولِه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ﴾ عبّرَ بالاسم الموصولِ ﴿وَٱلَّذِينَ﴾ معَ صلتهِ ﴿ءَامَنُواْ﴾، وعطفهُ على ﴿شُعَيۡبٗا﴾، وعدلَ عنِ التّعبيرِ بالاسم الظّاهرِ فلم يقُلْ: (والمؤمنينَ) معَ وجازته اللّفظيَّة؛ إيماءً إلى علّةِ بناءِ الخبرِ على الصّلةِ، وعلّةِ ترتُّبِ الحكم، والمعنى: أنَّ إيمانَهُم سببٌ لنجاتهِم منَ العذابِ.

كما أنَّ فيه تحقيقًا لعنصرِ التّشويقِ والتّرقُّبِ؛ لأنّهُ يجيءُ على مرحلتينِ؛ الأُولى: الذّكرُ والإبهامُ، والأخرى الفهمُ والبيانُ من خلالِ جملةِ الصّلةِ الّتي تبيّنُ الموصولَ وتوضّحهُ، فجملةُ ﴿ءَامَنُواْ﴾ بيانٌ وتوضيحٌ للاسم الموصولِ ﴿وَٱلَّذِينَ﴾.

سرُّ التّعبيرِ بالظّرفيّةِ ﴿مَعَهُۥ﴾:

بيانُ الإيمانِ الخالصِ بالله تعالى، وما رسلُه إلّا وسائطُ هدايةٍ

لمّا ذكرَ فعلَ (الإيمانِ) أردفَهُ بظرفِ المعيّةِ في قولِه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ﴾، وسرُّ ذلكَ الإيذانُ بأنّ إيمانَهم إنّما هو كائنٌ باللّهِ تعالى لا بشعيبٍ عليه السلام؛ لأنّ المعنى يحتملهُ، وهو يشبهُ قولَهُ تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا صَٰلِحٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ﴾ [هود: 66]؛ فإنّ الإيمانَ بصالحٍ عليه السلام مُحتملٌ[1]، فلمّا قالَ: ﴿مَعَهُۥ﴾ تعيّنَ أن يكونَ الإيمانُ باللّهِ من صالحٍ وشعيبٍ، ومنَ الّذين معهُما في الآيتين، ومثله قوله تعالى على لسانِ ملكةِ سبأ: ﴿وَأَسۡلَمۡتُ مَعَ سُلَيۡمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٤٤﴾ [النّمل: 44]، وفيه بيانُ الإخلاصِ في الإيمانِ للّه وحدَه، وأنَّ أنبياءَ اللّه ورسلَه ما هم إلّا وسائطُ هدايةٍ، وسبلُ نجاةٍ.

معنى الباءِ ودلالتُها:

(الباءُ) في قولِه تعالى: ﴿بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا﴾ دالّةٌ على السّببيّةِ؛ فكانت رحمةُ الحقِّ سبحانهُ سببًا في نجاةِ شعيبٍ عليه السلام ومَن معهُ منَ القومِ الظّالمينَ[2].

(1) ابن عثيمين، تفسير القرآن الكريم، ص: 311.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/104.

سرُّ تقديم النّاجين على سببِ التَّنجيةِ:

إظهارُ كمالِ العنايةِ، وتعجيلُ المسرّةِ للسّامعينَ

تقديمُ ذكرِ شعيبٍ عليه السلام والّذينَ آمنوا معهُ على ذكرِ الرّحمةِ في قولهِ تعالى: ﴿نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾ من بابِ تقديم ذكر النّاجينَ على ذكرِ سببِ تنجيتِهم؛ إظهارًا للعنايةِ الإلهيَّةِ الكاملةِ بشأنِ المُقدّم؛ ولأجلِ تعجيلِ مسرّةِ السّامعينَ وشوقِهم، وإيذانًا بأنَّ الرّحمةَ سابقةٌ منَ الرّبِّ سبحانهُ على العذابِ والغضبِ الّذي هو من مستتبعاتِ جرائم الظّالمينَ المجرمينَ[1].

بلاغةُ التّعبيرِ المجازيِّ بالرّحمةِ:

الرّحمةُ سببٌ والفضلُ مُسبَّبٌ عنها

جاء التّعبيرُ عن فضلِ اللّهِ بتنجيةِ المؤمنين بقولهِ تعالى: ﴿بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾؛ أي: بفضلِ اللّهِ عليهم؛ لأنّهُ لو لم يرحمْهُمُ الحقُّ سبحانهُ لكانوا من جملةِ المُستأصَلينَ؛ فكانَ نقمةً للكافرينَ وبلوًى للمؤمنينَ[2]، وأطلقَ الرَّحمةَ لبيانِ أنَّ فضلَ اللّهِ تعالى على عبادِه إنَّما هو بسببِ رحمتِه بهم، فأطلقَ السَّببَ وأرادَ المُسبَّبَ مجازًا مُرسَلًا. فالمُرادُ بالرَّحمة الفضلُ الخاصُّ بالتَّنجية منَ العذاب، والفضلُ العامُّ وهو النّبوّةُ والإيمانُ، فتفضَّلَ عليهم أوَّلًا بأن أرسلَ إليهم شعيبًا عليه السلام، ثم تفضَّلَ عليهم بتوفيقِهم للإيمان، ثمّ نجّاهُم من عذابِ القوم الظّالمين.

دلالةُ تنكيرِ ﴿بِرَحْمَةٍ﴾:

رحمةُ اللهِ تعالى لا يقدرُ على مثلها غيرُه

نكَّر النَّظمُ لفظةَ ﴿بِرَحْمَةٍ﴾؛ ليخلعَ عليها تفخيمًا وتعظيمًا، والمعنى: أنّ نجاتَهُم كانت برحمةٍ عظيمةٍ منّا[3] لا يقدرُ عليها غيرُنا، ولا يحيطُ بها سوانا.

سرُّ التّعبيرِ بقولهِ تعالى: ﴿مِّنَّا﴾:

الإشعارُ بالعنايةِ والرِّعايةِ باعتبارِ ابتداءِ إنزالِ الرّحمةِ منه تعالى

أوردَ النَّظمُ حرفَ (من) في قولهِ تعالى: ﴿بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾، وقد باشرَت ضميرَ الجلالة المجموعِ؛ لبيانِ مبدأ الرَّحمةِ، وأنَّها نازلةٌ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/165.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/104.
(3) القنّوجيّ، فتح البيان: 6/208.

منه تعالى، فهيَ النّبوّةُ المسندةُ إلى شعيبٍ عليه السلام، وهي الإيمانُ بالنِّسبة للمؤمنينَ، فذِكرُ أنَّ الرَّحمةَ بدأت نزولًا منَ اللّه تعالى، فيه إشعارٌ وإيماءٌ بالعنايةِ والرِّعايةِ والتّشريفِ، فهي رحمةٌ منَ اللّه تعالى.

معنى الواوِ ودلالتُها:

مجيءُ أمر الله تعالى عبارةٌ عن متضادّين؛ وهما تنجيةٌ وتعذيبٌ

لَمّا نجّى الحقُّ سبحانهُ نبيَّهُ شعيبًا ومن معهُ منَ المؤمنينَ لم يبقَ إلّا إيقاعُ العذابِ بمَن كفرَ وكذّبَ بدعوتهِ عليه السلام، فقالَ: ﴿وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ﴾؛ فحسُنَ العطفُ بالواوِ؛ لأنَّه مجرَّدُ عطفِ حدثٍ على آخر، فإنَّ مجيءَ أمرِ اللّه تعالى، ترتَّبَ عليه أمران: الأوَّلُ التَّنجيةُ، والآخرُ التَّعذيبُ.

نكتةُ إسنادِ فعلِ الأخذِ للصَّيحة:

لمّا أخذَ الظّالمون من نعم الله دون شكرٍ حسُنَ أخذُهم دون نُكرٍ

الأخذُ هو الاستيلاءُ على الشّيءِ بما للمُستولي منَ القوّةِ والتّمكُّنِ؛ ففي ذلكَ إشارةٌ إلى أنَّ المأخوذَ مكبَّلٌ لا يستطيعُ فكاكًا[1] ولا خلاصًا، مهما حاولَ، ومهما أُوتيَ منَ القوّةِ، وفي ذلكَ إظهارُ شدّةِ العذابِ.

والتّعبيرُ بفعلِ الأخذِ ﴿وَأَخَذَتِ﴾ في عذابِ الصّيحةِ من بابِ الإسنادِ المجازيّ؛ لأنَّ الصّيحةَ ليسَ من صفاتِها الأخذُ، بل هو صفةٌ للّهِ تعالى، وفي هذا التّعبيرِ معنى المجازاةِ؛ فإنّهم لَمّا أخذوا منَ النّعم، ولم يقابلوهُ بالشّكرِ قابلهُم بالأخذِ من جنسِ مرتكبهِم.

وهي أيضًا استعارةٌ؛ إذ إنّ الأخذَ إنّما تُوصفُ بها الأجسامُ في الحقيقةِ، والصّيحةُ عرضٌ منَ الأعراضِ؛ لأنّها بعضُ الأصوات، إلّا أنّها أقوى للأسماع قرعًا، وأبلغُ في القلوب روعًا[2].

المتشابهِ اللّفظيّ:

الصّيحةُ شديدةٌ، يبلغُ صوتُها الأرجاءَ، فيوقعُ من فيها منَ الأشدّاء

لَمّا كانَ الفاعلُ واحدًا في قوله تعالى في قصّةِ صالحٍ: ﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمۡ جَٰثِمِينَ ٦٧﴾ [هود: 67]، وفي

(1) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 16/10077.
(2) محمّد عفيف، الشّامل في بلاغة القرآن: 2/63.

قولِهِ تعالى في قصّةِ شعيبٍ: ﴿وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمۡ جَٰثِمِينَ﴾ وهو ﴿ٱلصَّيۡحَةُ﴾، فللسّائلِ أن يسألَ عن سرِّ حذفِ تاءِ التّأنيثِ من فعل (أخذَ) في الموضعِ الأوّل؟

والجوابُ عن ذلكَ: أنّهُ لَمّا كانَ الفاعلُ بمعنى المصدرِ (الصّياح) أو الصّوتِ، وهو مُذكَّرٌ، أوردَهُ مُجرَّدًا من علامةِ التّأنيثِ حملًا على المعنى[1]، أمّا الآيةُ الواردةُ في قصّةِ شعيبٍ فإنَّها وإنْ كانت طباقَ الأولى في المعنى إلّا أنّهُ تعالى أخبرَ عمّا أهلكَ بهِ قومَ شعيبٍ، فذكرَ ثلاثةَ ألفاظٍ؛ وهيَ الرّجفةُ والصّيحةُ والظّلّةُ، وكلّها ألفاظٌ مُؤنَّثةٌ فغلبَ التّأنيثُ[2] وتلاءمَ أن يكونَ الفعلُ مُسندًا للتّاءِ، فجاء التَّذكير في الموضعِ الأوَّل للإيماءِ للمعنى، وجاء التَّأنيثُ في الموضِع الآخر للإيماءِ للفظ، فهي صيحةٌ شديدةٌ، يبلغُ صوتُها الأرجاءَ، فيوقعُ من فيها منَ الأشدّاء.

سرُّ التّعبيرِ بالاسم الموصولِ:

وقوعُ الظّلم والعناد عليه علّةُ عذابِ الظّالمين

عبّرَ عن قوم شعيبٍ بالاسم الموصولِ مع صلته في قولِه تعالى: ﴿وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ﴾، ولم يأتِ بالاسم الظّاهرِ بأن يُقالَ: (الظّالمين) معَ أنّه مرادفٌ له في الدّلالةِ؛ وذلك لما في الاسم الموصولِ من علامةٍ تدلُّ على علّةِ ترتُّبِ الحكم؛ فإنّهم قد أخذوا بالصّيحةِ عذابًا مُستَحقًّا مُسَجّلًا عليهم بالظّلم، وفيهِ إشعارٌ بأنّه إنّما أخذُهُم بالعذابِ بسببِ ظلمهم[3]، وهو الإشراكُ باللّهِ والهزءُ بأنبيائهِ.

سرُّ اختيارِ وصفِ الظّلم:

الشّركُ آفةُ الاعتقادِ، والظّلمُ آفةُ الأخلاقِ، وباجتماعِهما تنزلُ العقوباتُ

اختارَ النَّظمُ الكريمُ وصفَ الظّلم دونَ غيرِهِ ممّا يرادفهُ في المعنى كالكفرِ، أو الكذبِ وغيرِهِ ممّا هو واقعٌ منهم؛ لأنّهُ أرادَهُ أن يكونَ تعريضًا بمن نزلَ عليهم القرآنُ الكريمُ، ثمّ كذّبوهُ، وهمّ

(1) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 9/92.
(2) الإسكافيّ، درّة التّنزيل: 2/764 - 767، والأنصاريّ، فتح الرّحمن: 1/268 - 269.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/237، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3745.

مشركو مكّةَ؛ فإنّهم إنْ لم ينتهوا ويحذروا ألبسَهُم الحقُّ سبحانهُ سربالَ الذّلِّ والمهانةِ، وأصابهُم العذابُ مثلَما أصابَ قومَ شعيبٍ لتساويهِم في الظّلم والكفرانِ، ولما في الظُّلم من إرادةِ أعلاهُ، وهو الشِّرك، فإنَّ الشِّركَ ظلمٌ عظيمٌ، وظلمُ الشِّرك من أبشع ما يقعُ منَ العبادِ، وأشنعِهِ، فالظُّلمُ وحدَه آفةُ الأخلاق، والشِّركُ آفةُ الاعتقاد، وباجتماعِهما تتعاظمُ المصائبُ لتحلَّ العقوباتُ.

دلالةُ التّعبيرِ بالفعلِ الماضي:

جاءَ التَّعبيرُ عن ظلم هؤلاءِ بصيغةِ الماضِي في قولِه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾؛ لإبانتِه عن استحكام الظّلم فيهم؛ لما يدلُّ عليهِ الماضي من تحقُّقِ ظلمهِمْ وثباتِه؛ وليكونَ مصيرُهُم واقعًا لا محالةَ جزاءَ ظلمهِم، وهو استئصالُهُم بعذابِ الصّيحةِ.

توجيهُ المتشابهِ اللّفظيّ:

الصّيحةُ عذابٌ عامٌّ تحتهُ الرّجفةُ والظُّلّةُ

أوردَ تعالى الرّجفةَ عذابًا لهم في قولِه تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ۝٩١﴾ [الأعراف: 91]، فيما أوردَ الصّيحةَ عذابًا لهم في قولِه تعالى: ﴿وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ﴾؛ فيُسألُ عنِ الفرقِ بينَ الموضعينِ، ولِمَ اختصَّ كلُّ موضعٍ بما اختصَّ بهِ؟

والجوابُ عنْ ذلكَ: أنَّ الصّيحةَ عذابٌ عامٌّ تحتهُ الرّجفةُ، أمّا الرّجفةُ فهيَ عذابٌ خاصٌّ، وهي من نتائج الصَّيحةِ، وقد خصّصَ سورةَ هودٍ بما وقعَ فيها من مرتكباتِ قوم شعيبٍ، وسوءِ ردّهم وإساءتِهم واستهزائِهم ما ليسَ منهُ في الأعرافِ، ومعَ هذا ردَّ عليهم بألطفِ ردٍّ وأجملِهُ؛ فلهذا عمّمَ العذابَ بذكرِ الصّيحةِ، ولَمّا لم يُردْ في غيرِها مثلَ هذا في الدّعاءِ جاءَ باللّفظِ الأخصِّ؛ وهو الرّجفةُ رعيًا للنّظم الجليلِ[1].

(1) الغرناطيّ، ملاك التّأويل: 1/200 - 201.

وثمّةَ جوابٌ ثانٍ، فإنَّ المرادَ من أخذهِم بضروبٍ منَ العذابِ لقبيحِ مرتكَبِهم وسوءِ ردِّهم وتكذيبِ نبيّهم؛ فذكرَ عذابَ الظّلّةِ، وهو غيمٌ تحتهُ سمومٌ فهو غيرُ الرّجفةِ؛ لأنّها زلزلةٌ، فعلى هذا يكونونَ قد أخذوا بعذابِ الزّلزلةِ، أمّا عذابُ الصّيحةِ فهو مصحوبٌ بصوتٍ، فوردَ العذابُ مُتدرِّجًا مُتناسِبًا، ثمَّ إنّهُ أرادَ تنوُّعَ عذابِهم بالرّجفةِ والصّيحةِ والظّلّةِ، كما فعلَ معَ آلِ فرعونَ بالطّوفانِ والجرادِ والقُمّلِ والضّفادعِ والدّم وغيرِها[1].

والأوفقُ هو الجمعُ، فإنَّ الصَّيحةَ نشأت عنها الرَّجفةُ في الأرض لشدَّتِها، وصاحبَتها الظُّلَّةُ، فينشأ عن هذا ثلاثةُ مظاهرَ للعذابِ الواحدِ، والأوضحُ فيه هو الصَّيحةُ الّتي كانتِ الاسمَ الأشهرَ لعذاب قوم شعيبٍ عليه السلام.

معنى الفاءِ ودلالتُها:

هلاكُ القومِ مسبَّبٌ عنِ الصَّيحةِ دون تراخٍ

بعدّ أن حلّ على قوم شعيبٍ عليه السلام عذابُهُ تعالى بالصّيحةِ كانَ نتيجةُ ذلكَ: ﴿فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾؛ فجاءتِ الجملةُ بالفاءِ الدّالّةِ على التّعقيبِ والتّسبيبِ، فالفاءُ دالّةٌ على السّببيّةِ[2]؛ فكانَ أخذُهم بالصّيحةِ سببًا في أن أصبحوا في ديارِهم هلكَى خامدينَ، دون إطالةِ مهلةٍ أو تراخٍ.

فائدةُ التّعبيرِ بالإصباحِ:

مزيدُ عذابٍ وتحسيرٍ، وللإشعارِ بأنَّ العذابَ أتاهم آخرَ اللّيلِ

اختارَ النَّظمُ الكريمُ لفظَ الإصباحِ في قولهِ تعالى: ﴿فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾ دونَ غيرهِ منَ الألفاظِ المرادفةِ تخويفًا وتأسيفًا؛ فإنَّ الصّباحَ يمثّلُ استهلالَ يومٍ جديدٍ بما يحملهُ من معنى الهمّةِ والنّشاطِ والفرحِ بعدَ الرّاحةِ والهدوءِ؛ ليكونَ المرءُ قادرًا على ما يبتغيهِ الإنسانُ منَ الحركاتِ، وما يشتهيهِ منَ التّصرّفاتِ[3]، فيفجأهُمُ العذابُ على

(1) الغرناطيّ، ملاك التّأويل: 1/202.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/425.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/326 - 327.

خلافِ ما يظنّونَ، فيكون أكثرَ وقعًا عليهم، وأشدَّ أثرًا، فتحيطهُمُ الحسرةُ والنّدامةُ، فتوقيتُ الإصباحُ فيه مزيدُ عذابٍ نفسيٍّ بعدَ العذابِ الحسّيِّ، وللإشعارِ بأنَّ العذابَ أتاهُم آخرَ اللَّيل.

دلالةُ التّعبيرِ بالماضي:

تحقّقَ مآلُهم بعذابِهم مع الإصباح

اختارَ النّظمُ لفظَ الإصباحِ بصيغةِ الماضي ﴿فَأَصۡبَحُواْ﴾؛ ليدلَّ على حتميَّةِ مآلِهم، وتحقُّقِ مصيرِهم وعذابِهم، وهو طلوعُ الشّمسِ عليهِم، وقد أصبحوا جثثًا هامدينَ.

دلالةُ التّعبيرِ بالظّرفيّةِ:

العذابُ في المكانِ المأمونِ جانبُه أشدُّ وقعًا ممّا سواه

استعملَ النَّظمُ حرفَ الظّرفيَّةِ في قولِه تعالى: ﴿فِي دِيَٰرِهِمۡ﴾؛ فجعلَ الدِّيارَ ظرفًا لعذابِهم بالصّيحةِ، فأصبحوا جاثمينَ، وفي ذلك إشارةٌ إلى تلكَ الأماكنِ الّتي كانوا "يعيشونَ فيها مُتنعّمينَ مُترفّهينَ إلى أن كثّرهُمُ اللّهُ، وأعمرَهُم أعمارًا طوالًا"[1]، وقد آمنوا من عذابِهِ تعالى؛ فيكونُ حرفُ الظّرفيّةِ مشيرًا إلى بقائِهم في ديارِهِمُ الّتي عصوا اللّه تعالى فيها، وكفروا نعمَهُ فيها، وعاندوا وكابروا.

توجيهُ المتشابهِ اللّفظيِّ في الجمعِ والإفرادِ:

الزّلزلةُ مُختصَّةٌ بجزءٍ من الأرضِ، والصّيحةُ شأنُها الانتشارُ لتعمَّ الأماكنَ المتنائيةَ

جمعَ لفظةَ الدّيارِ في قصّةِ صالحٍ عليه السلام في قولِه تعالى: ﴿فَأَصۡبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمۡ جَٰثِمِينَ ٦٧﴾ [هود: 67]، وأفردَها في قصّةِ شعيبٍ عليه السلام في قولِه تعالى: ﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دَارِهِمۡ جَٰثِمِينَ ٩١﴾ [الأعراف: 91]؛ لأنَّ الرّجفةَ هيَ الزّلزلةُ، وتكونُ مختصّةً بجزءٍ منَ الأرضِ، فأفردَ بقولِه: ﴿دَارِهِمۡ﴾ [الأعراف: 91]، أمّا الصّيحةُ فتكونُ منَ السّماءِ، ويكونُ من شأنِها الانتشارُ لتعمَّ الأماكنَ المتنائيةَ، والدّيارَ البعيدةَ؛ فعبّرَ بقولِه: ﴿دِيَٰرِهِمۡ﴾ جمعًا[2].

وفي التّعبيرِ بالدّيارِ جمعًا في قولِه تعالى: ﴿فِي دِيَٰرِهِمۡ﴾ مُوجبٌ،

(1) النّخجوانيّ، الفواتح الإلهيّة: 1/256.
(2) الكرمانيّ، البرهان، ص: 146.

وهو أنّ تفرُّقَ القوم الموعودينَ بالعذابِ في ديارٍ كثيرةٍ، قصدَ التّجارةِ أو الزّيارةِ أو غيرِها، ليسَ مانعًا من إيقاعِ العذابِ عليهِم[1].

سرُّ التّعبيرِ بلفظِ الجثوم:

الجثومُ سكونٌ خامدٌ وصمتٌ مُطبِقٌ بعدَ حركةٍ وحياة

التّعبيرُ بالجثوم في قولِه تعالى: ﴿جَٰثِمِينَ﴾ دونَ مرادفاتِه، جاء بمعنى السّكونِ، فالطّيرُ يبيتُ في وكرِه جثومًا؛ ويطلقُ على ما لا حركةَ لهُ، وهو الملازمُ لمكانِه لا يتحوَّلُ عنه؛ فكانَ هذا وصفًا لهؤلاءِ المُهلَكينَ بسكونِهم؛ فإنّه "لَمّا صاحَ بهِم تلكَ الصَّيحةَ زهَقَ روحُ كلِّ واحدٍ منهم، بحيثُ يقعُ في مكانِه مَيِّتًا"[2].

دلالةُ التّعبيرِ باسمِ الفاعلِ:

تصويرُ الصَّرعى بالجاثِمين لبيانِ موتِهم عن قوَّةٍ وحركةٍ

عبّرَ النَّظمُ عن حالةِ الجثوم بالصّيغةِ الاسميّةِ ﴿جَٰثِمِينَ﴾ المشوبةِ بروح الفعلِ؛ لدلالةِ هذهِ الصّيغةِ على الثّبوتِ والدّوام[3]؛ فمعنى الجثوم أن يكونوا "باركينَ على الرُّكَبِ.. وجثومُ الطّيرِ هو وقوعهُ لاطئًا بالأرضِ في حالِ نومهِ وسكونهِ باللّيلِ، والمعنى: أنّهم أصبحوا جاثمينَ على وجوههِم موتى لا يتحرّكونَ"[4]، وفي ذلكَ أكبرُ دليلٍ على أنّهم سكنوا سكونًا عظيمًا بعد حراكٍ وحياةٍ، لا بعد مرضٍ وهرمٍ، وثبتوا على أحوالِهم في ديارِهم "مَيِّتينَ لازمينَ لأماكنِهم لا بَراحَ لَهم منها"[5]، بعدَما نزلَ بهمُ العذابُ؛ فكانَ التّعبيرُ بالاسميّةِ ملائمًا أشدَّ الملائمةِ.

سرُّ استعمالِ ﴿كَأَن﴾:

تشبيه العذابِ بالاستئصالِ الماحقِ

استعملَ النَّظمُ الحرفَ ﴿كَأَن﴾ في قولِه تعالى: ﴿كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَآۗ﴾ تشبيهًا لحالتِهم، ونزولِ العذابِ، والاستئصالِ، ومحوِ آثارِهم، بحالِ

(1) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 11/6642 - 6643.
(2) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 18/393.
(3) الرّضيّ، شرح على الكافية: 1/316، والزّركشيّ، البرهان: 4/72.
(4) الخازن، لباب التّأويل: 2/221.
(5) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/252.

مَن لم تكنْ لهُ حياةٌ أصلًا في ديارِهم، مُتصرِّفينَ مُتردِّدينَ[1]؛ فمحى العذابُ كلَّ ذلكَ العيشِ الرّغيدِ فلم يبقَ منهُ شيئًا إلّا الجثوم والهمود.

وجهُ التّعبيرِ بنفي الغنى:

التَّنبيهُ على أعظمِ أسبابِ التَّمسُّكِ بالدُّنيا وتركِ الآخرة

عبّرَ النَّظمُ عن زوالِهم بقولِه تعالى: ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ﴾، فلمْ يستعملْ مصطلحاتِ السّكنِ أو الإقامةِ؛ لأنَّ العذابَ قد محا آثارَهم، وأعظمُ آثارِهم التَّرفُ والحياةُ الرّغيدةُ، فأراد النَّظمُ التَّنبيهَ على أنَّ أعظمَ ما قد يوقعُ الإنسانَ في الكفرِ هو حرصُه على الدُّنيا، وتمسُّكُه فيها، أمّا السّاكنُ والمقيمُ فآثارهُ باقيةٌ، وإنْ رحلَ عن مقامِه، لكنّهم هنا كأن لمْ يغنوا؛ أي: لم يقيموا بديارِهم مدّةً منَ الزّمنِ، وهو مأخوذٌ من غني بالمكانِ، إذا أقامَ بهِ، واستغنى به عن غيرِه[2].

دلالةُ التّعبيرِ بحرفِ الاستفتاح:

لفتُ الأذهانِ للمهمِّ منَ الأمورِ للتَّنبيهِ على استحقاقِ العذابِ

جاءتِ الجملةُ مصدّرةً بـ ﴿أَلَا﴾ الاستفتاحيّةِ في قولِه تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ ثَمُودَا۟ كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ﴾ تنبيهًا لهم على استحقاقِهمُ العذابَ؛ فإنّ ﴿أَلَا﴾ منَ الأدواتِ الاستفتاحيّةِ الّتي تُقالُ عندَ المهمِّ منَ الأمورِ، وهي لنفي الغفلةِ. وليلتفتَ السّامعُ وينتبهَ ويُنصتَ لما سيُلقَى إليهِ؛ فلا تنالُهُ الغفلةُ بنصيبٍ عن الأمرِ الصّادرِ منَ المتكلّمِ، وليستقبلَ الكلامَ على أفضلِ استقبالٍ وأفيدِه[3].

غرضُ الدّعاءِ بلفظِ الإبعاد:

بيانُ استحقاقِ العذابِ بعدَ الاستئصالِ

جاءَ الدُّعاءُ على مدينَ في قولِه تعالى: ﴿أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ﴾ للطَّردِ والإبعادِ من رحمتِه سبحانَهُ؛ ذلكَ أنهّم جحدوا باللّهِ وآياتِه، وغرضُ الدّعاءِ عليهم إثرَ هلاكِهم وزوالِهم بيانُ استحقاقِهم عذابَ الاستئصالِ جرّاءَ مرتكباتِهمُ الشّنيعةِ.

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/425.
(2) الخازن، لباب التّأويل: 2/501، والشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 11/6645.
(3) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 11/6646.

سرُّ العدولِ عن الإضمارِ إلى الإظهارِ:

المبالغةُ في تفظيعِ كفرِ مدينَ لبيانِ استحقاقِهم عذابَهم

في قولِه تعالى: ﴿أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ﴾ جاء ذكرُ قوم شعيبٍ إظهارًا، فلم يقُلْ: (ألا بعدًا لهم)، مع تقدُّم ذكرِهم في الآيةِ السّابقةِ، وغرضُ هذا العدولِ عن الإضمارِ إلى الإظهار الدّلالةُ على الطّغيانِ الّذي أوردَهُم هذهِ المرتبةَ، وللمبالغةِ في تفظيعِ حالِهم، وليناسبَ بمن شبّهَ هلاكَهم بهلاكِهم، وهُم ثمودُ، فكلاهما أُهلِكَ بالصّيحةِ[1].

بلاغةُ المجازِ بالحذف:

بيانُ الإحاطةِ الماحقةِ والعذابِ العامِّ

جاء التَّعبيرُ في قولِه تعالى: ﴿أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ﴾ بحذفِ المضافِ وإقامةِ المضافِ إليهِ مقامَهُ طلبًا للإيجازِ[2]، فإنّ المعنى: بعدًا لأهلِ مدينَ[3]؛ لأنّ الأماكنَ ليست محلًّا للعذابِ، بل أهلها؛ ولأنّ الحُكمَ واقعٌ على أهلِ مدينَ لا مَدينَ نفسها، لكن جاء ذكرُ مدينَ لبيانِ أنّ العذابَ قد أحاطَ بها كلّها، كأنَّ القريةَ كلَّها قد هلكت، وفيه تصويرٌ بليغٌ لأثر الإهلاكِ، وأنَّه عامٌّ طامٌّ.

بلاغةُ التّشبيهِ بين المآلاتِ:

تشبيهُ انقراضِ مدينَ بانقراضِ ثمودَ بجامعِ العقابِ بالصّيحةِ

في قولِه تعالى: ﴿كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ﴾ تشبيهٌ في البعدِ والهلاكِ، فقد شبّهَ مصيرَ أهلِ مدينَ بمصيرِ قوم ثمودَ، وهو تشبيهٌ يرادُ منهُ التّعريضُ بعيبِ إنسانٍ بأنْ يذكرَ عيبَ غيرِه[4]، ففي ذكرِ مآلِ قوم ثمودَ تعريضٌ بهم، وإنّكم لم تتعظوا بهم فإنّكُم وقتئذٍ شرٌّ منهُم. وفي جملة ﴿كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ﴾ "تشبيهُ البعدِ الَّذي هو انقراضُ مدينَ بانقراضِ ثمودَ، ووجهُ الشَّبهِ التّماثلُ في سببِ عقابهم بالاستئصالِ، وهو عذابُ الصّيحةِ"[5].

---

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/38، والآلوسيّ، روح المعاني: 6/323.
(2) ابن سنان، سرّ الفصاحة، ص: 210.
(3) أبو عبيدة، مجاز القرآن: 1/298.
(4) الزّركشيّ، البرهان: 3/300.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/154.

ويحتملُ القصدُ من تشبيهِ ذاكَ أن يكونَ قائمًا على الاستطرادِ[1] بذمِّ ثمودَ لجرأتِهم في مناوأةِ الرّسلِ، فلمّا كانَ المقامُ هنا مُهيّئًا لأن يختمَ الكلامَ بقصصِ الأممِ البائدةِ، ناسبَ أن يذكرَ أشدَّها كفرًا؛ فشبّهَ هلاكَ مدينَ بهلاكِهم[2].

سرُّ تخصيصِ ثمودَ بالذّكرِ:

الإيماءُ إلى شدَّةِ غضبِ اللهِ على ثمودَ

خُصِّص ذكرُ قومِ ثمودَ دونَ غيرِهم في قوله تعالى: ﴿كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ﴾؛ لأنّهُ قاسَ حالَ قومِ شعيبٍ على حالِ قومِ ثمودَ؛ لأنّهُ تعالى عذّبَهُم مثلَ عذابِ قومِ ثمودَ؛ فكانتِ الصّيحةُ عذابًا للاثنينِ، فقد رويَ أنّهُ تعالى لم يُعذِّبْ أمّتينِ بعذابٍ واحدٍ إلّا قومَ شعيبٍ وقومَ صالحٍ عذّبهُما بالصّيحةِ[3]، ولِما في ذكرِ ثمودَ من مزيدِ غضبٍ عليها، بأن يُذكرَ عذابُها مع عذابِ قومٍ آخرين، فهو دالٌّ على الغضبِ الإلهيِّ المكينِ، وأنَّ عذابَها يومَ القيامةِ أليمٌ شديدٌ، وفيها مزيدُ تحذيرٍ من الأسبابِ الّتي وقعت فيها ثمودُ في المعاصي والكفرِ لِتُجتَنَبَ، وهذا شأنُ العقلاءِ أن يحذروا عذابَ اللّهِ تعالى بالحذرِ من أسبابِه، وشأنُ غيرِهم الانغماسُ في الأسبابِ السّابقةِ، ليُحشروا يومَ القيامةِ مع مَن أحبّوا وتابعوا.

بلاغةُ الإشارةِ التَّعريضِيَّةِ:

الانتماءُ للقبيلةِ لا يُغني من اللهِ شيئًا، إن لم يكونوا على النَّهجِ السَّديدِ

قد ذكرَ ثمودَ وهو اسمُ القبيلةِ[4] بدلالةِ التّعريفِ والتّأنيثِ المُوجبَينِ للمنعِ منَ الصّرفِ، دون أن يقولَ: (قوم صالح)، أو (أصحاب الحجر)، وفي هذا التّعريفِ إشارةٌ تعريضيَّةٌ بقريشٍ في أنَّ القبيلةَ لا يمكنُ أن تكونَ نفعًا لأهلِها إن هُم صدّوا عن سبيلِ اللّهِ، ولم يتّبعوا

(1) "نوعٌ من علم البلاغة دقيقُ المجرى، غزيرُ الفوائد، يستعملُه الفصحاءُ، ويعوّلُ عليه أكثرُ البلغاء.. ومعناه في مصطلح علماء البيانِ أن يشرعَ المتكلِّمُ في شيء من فنون الكلام، ثمّ يستمرُّ عليه فيخرج إلى غيرِه، ثمّ يرجع إلى ما كان عليه من قبلُ"، يُنظر: العلويّ، الطّراز لأسرار البلاغة: 3/8.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/154.

(3) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 18/392 - 393.

(4) السّمرقنديّ، بحر العلوم: 2/160.

هداهُ؛ ومئنةُ ذلكَ أنّهُ ﷺ خاطبَ عشيرتَهُ الأقربينَ بقوله: «يا مَعشَرَ قُرَيشٍ - أو كَلِمَة نَحوها - اشتَرُوا أنفُسَكُم، لا أُغنِي عَنكُم منَ اللّهِ شَيئًا، يا بَنِي عَبدِ مَنافٍ لا أُغنِي عَنكُم منَ اللّهِ شَيئًا، يا عَبّاسُ بنَ عَبدِ المُطَّلِبِ لا أُغنِي عَنكَ منَ اللّهِ شَيئًا، ويا صَفِيَّةُ عَمَّةَ رَسُولِ اللّهِ لا أُغنِي عَنكِ منَ اللّهِ شَيئًا، ويا فاطِمَةُ بِنتَ مُحَمَّدٍ، سَلِينِي ما شِئتِ من مالِي، لا أُغنِي عَنكِ منَ اللّهِ شَيئًا»[1].

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الصّيحةُ والصّاعقةُ:

الصَّيحةُ مشتقّةٌ منَ الصّياحِ، وهو تشقيقُ الصّوتِ كما مرَّ، والصّيحةُ في الآيةِ هيَ صيحةُ جبريلَ عليه السلام بالعذابِ الّذي جاءهُم بصوتٍ هائلٍ عظيمٍ تنخلعُ له القلوبُ، وتنفطرُ له الأفئدةُ، و"هيَ صيحةٌ عظيمةٌ دونها كلُّ صوتِ صاعقةٍ وكلُّ شيءٍ في الأرضِ"[2]؛ فقد قيّدها بأنّ دونها صوت كلِّ صاعقةٍ، ومعنى ذلكَ أنَّ الصّاعقةَ أقلُّ وقعًا من جهةِ كونِها للعذابِ من الصّيحةِ، الّتي هي: "الصّوتُ الشّديدُ من صوتِ الرّعدِ، يسقطُ معه قطعةٌ من نارٍ"[3]، ورأى الفخرُ الرّازيّ أنّ الصّاعقةَ تصاحبُ الصّيحةَ العظيمةَ، ومعها البرقُ الشّديدُ المحرقُ[4]، فهي تبعٌ للصّيحةِ؛ فثبتَ أنَّ الصّيحةَ أعظمُ وأبلغُ منَ الصّاعقةِ، وأنّها تباينُها من جهةِ كونِ الثّانيةِ مشتملةً على النّارِ، ثمَّ إنَّ الصّاعقةَ قد تكونُ محدَّدةً بموضعٍ معيَّنٍ، فيما تشملُ الصّيحةُ الدّيارَ جميعًا بمَن فيها.

الصَّيحةُ الصّياحُ الشَّديدُ الّذي يأخذُ كلَّ سامعٍ له، والصّاعقةُ مُشتملةٌ على قطعةٍ منَ النّارِ

الدّيارُ والبلادُ:

الدّارُ هي الموضِعُ الّذي يعيشُ فيهِ النّاسُ، وهو ما اشتملَ على

(1) رواه البخاريّ، الصحيح الجامع، الحديث رقم: (2602).
(2) ملّا حويش، بيان المعاني: 3/134.
(3) الخليل، العين: (صعق).
(4) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 18/371.

البناءِ وما خلا منهُ، والأصلُ فيها إحاطتُهُ من حواليهِ؛ لدورانِها على أهلِها وإحاطتِهم بها[1]، والدّارُ تتّصفُ بالسَّعةِ والشُّمولِ؛ وهي مأوى الإنسانِ ليلًا ونهارًا، وفي جميعِ الأوقاتِ؛ فاختارهُ في الآيةِ؛ لأنّهُ أرادَ أن يكونَ الوصفُ شاملًا اللّيلَ والنّهارَ؛ فقد أُنزلَ عليهمُ العذابُ ليلاً فأصبحُوا في ديارِهِمْ جاثمينَ هلكَى[2]، أمّا البلادُ فإطلاقُها يكونُ على كلِّ موضِعٍ منَ الأرضِ عامرًا كانَ أوْ خلاءً[3]؛ فاختيارُ لفظِ الدّيارِ مناسبٌ أشدَّ المناسبةِ من لفظِ البلادِ الّذي يحتملُ الأرضَ الخلاءَ، والحقُّ سبحانهُ إنّما أوقعَ العذابَ على الدّيارِ المأهولةِ بالقوم الظّالمينَ.

الدّارُ المسكنُ الّذي يعيشُ فيهِ النّاسُ، والبلادُ الموضِعُ منَ الأرضِ عامرًا كانَ أو خلاءً

(1) الخليل، العين: (دور)، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (دور).
(2) الماورديّ، النّكت والعيون: 2/480.
(3) الفيوميّ، المصباح المنير: (بلد).

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱتَّبَعُوٓاْ أَمْرَ فِرْعَوْنَ ۖ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾﴾ [هود: 96 - 97]

مُناسَبَةُ الآيَتينِ لما قَبْلَهُما:

الانتقالُ من ذكرِ فتنةِ المالِ إلى فتنةِ السُّلطانِ والجاهِ والمالِ

لَمّا كانَ شعيبٌ عليه السلام داعيًا قومًا ملأَهُمُ التَّرفُ والمالُ، وكان المانعُ الأكبرُ من إيمانِهم استحواذَ المالِ على قلوبِهم، انتقلَ إلى ذكر العِبرةِ من قصّةِ موسى عليه السلام مع فرعونَ، فقومُ فرعونَ قد جمعوا المالَ والجاهَ والسّلطانَ، فأتوا على أسباب الكبرِ المحسوسةِ والمعنويّةِ، فكانَت ختامًا لذكرِ القَصصِ في هذه السّورةِ، وهي على قصرِها إلّا أنَّها تُمثِّلُ عمومَ البلاءِ الّذي وقعَ فيه الأقوامُ السّابقون، وما سيقعُ فيه مشركو قريش.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَسُلْطَٰنٍ﴾: أصلُ مادّتِه (سلط)، فالسّينُ واللّامُ والطّاءُ أصلٌ واحِدٌ، وهو القوَّةُ والقَهرُ. من ذَلِكَ السَّلاطَةِ، منَ التَّسَلُّطِ وهو القَهرُ، ولذلكَ سُمّيَ السُّلطانُ سُلطانًا. والسُّلطانُ: الحُجَّةُ[1] والسُّلطانُ: قُدرةُ المَلِكِ، وقُدرةُ من جُعِلَ ذلك له وإنْ لم يكن مَلِكاً، كقولك: قد جَعَلْتُ له سُلطانًا على أخذِ حقّي من فلانٍ، والنّونُ في السّلطان زائدةٌ[2]. فالسّلطانُ هنا: الحجّةُ والبرهانُ والدّليلُ.

2) ﴿وَمَلَإِيْهِۦ﴾: أصلُ مادّتِه (ملأ)؛ فالميمُ واللّامُ والحرفُ المُعتَلُّ كلمةٌ واحدةٌ هي الزَّمنُ الطَّويلُ. وأقامَ مَليًّا؛ أي: دَهرًا طويلًا. وتَمَلَّيتُ الشَّيءَ، إذا أقامَ مَعَكَ زمانًا طويلًا، ومَلَأتُ الشَّيءَ أملَؤُهُ مَلْئًا. والملءُ: الاسمُ لِلمقدارِ الَّذي يُملأُ، وسُمّيَ لأنَّهُ مُساوٍ لوِعائِهِ

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سلط).
(2) الخليل، العين: (سلط).

في قَدرِه. ويُقالُ: أعطِني ملأَهُ وملأيهِ وثَلاثةَ أملائِه. ومنهُ المَلَأُ: الأشرافُ منَ النّاسِ، لأنَّهُم مُلِئوا كَرَمًا[1]، وملأُ فرعونَ: قومُه وجماعتُهُ الّذين يشاورُهم.

3) ﴿بِرَشِيدٍ﴾: أصلُ مادّتِه (رشد)، فالرّاءُ والشّينُ والدّالُ أصلٌ واحدٌ يدلُّ على استِقامَةِ الطَّريقِ. والرُّشْدُ والرَّشَدُ: خِلافُ الغَيِّ. وأصابَ فُلانٌ من أمرِهِ رُشْدًا ورَشَدًا ورِشْدَةً[2]، ورجلٌ رشيدٌ وراشِدٌ. والإرشادُ الهِدايَةُ والدّلالَةُ[3]، والرّأيُ الرّشيدُ: المستقيمُ الصّائبُ، وهو المعنى المرادُ هنا.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

تقديمُ الباطلِ على الحقِّ سلوكُ المترفين وسبيلُ التّافهين

يؤكِّدُ اللّهُ تعالى لنبيّه محمّدٍ ﷺ أنّه قد أرسلَ نبيَّه وكليمَه موسى عليهما السلام، بالآياتِ الدّالّةِ على توحيدِ اللّهِ، وبالحججِ الواضحةِ الدّالَّةِ على صدقِ ما جاء به، إلى فرعونَ والأشرافِ من قومه، فاتّبعَ هؤلاء أمرَ فرعونَ لهم بالكفرِ باللّهِ ومخالفةِ موسى عليه السلام، مع أنَّ أمرَ فرعونَ ليس بأمرٍ ذي إصابةٍ للحقِّ حتّى يُتَّبَعَ، ولا مستقيمٍ كي يُسمَعَ[4].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

معنى الواوِ ودلالتُها:

إيرادُ المعطوفاتِ للاعتبارِ وتحقيقِ الاستبصارِ

الواوُ في قولِه تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ عطفتِ القصّةَ على نظيرتِها[5] الّتي سبقَت، والأحسنُ أن تكونَ معطوفةً على قولِه تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ﴾ [هود: 69]، إذ "لا يصحُّ أنْ يُعطفَ على إرسالِ شعيبٍ إلى مدينَ؛ لأنّهُ لا يشاركُهُ في

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ملي).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (رشد).
(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (رشد).
(4) جماعة منَ العلماء، المختصر في تفسير القرآن الكريم، ص: 232.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/155.

نوعهِ المشتركِ مع إرسالِ صالحٍ وهودٍ"[1]، والصَّحيحُ أنَّها قصصٌ مُتعاطِفةٌ، معطوفٌ بعضُها على بعضٍ للاعتبارِ، ومردُّ المعطوفاتِ على المعطوفِ عليه الأوّل.

معنى اللّام ودلالتُها:

ما وقعَ للسّابقين سيقعُ في اللّاحقين، فالاعتبارُ سيِّدُ النُّظّار

اللّامُ في قولهِ تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا﴾ لإفادةِ التّوكيدِ[2] والثّبوتِ والتَّحقيقِ، ويعدُّها بعضُهم بأنَّها واقعةٌ في جوابِ قسمٍ محذوفٍ؛ أي: واللّه لقد أرسلنا. وافتتاحُ القصّةِ بهذا التَّأكيدِ فيه بيانٌ أنَّ شأنَ المعاندين الكفرُ واتِّباعُ الباطل طلبًا للشَّهوةِ وتحقيقًا للمتعةِ، وأنَّ ما كان للسّابقين سيكون في المعاصرين، فلا يعجبنَّ أحدٌ ممّا سيقعُ منهم.

دلالةُ استعمالِ (قدْ):

دخلَت (قدْ) على الفعلِ في قولهِ تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا﴾؛ لإفادةِ التّأكيدِ[3] وتحقيقِ إرسالِ موسَى عليه السلام بالآياتِ الظّاهرةِ والبراهينِ السّاطعةِ، الّتي هي مُوجِبةٌ للهدى والرّشادِ.

دلالةُ التّعبيرِ بالفعلِ الماضي:

الإيذانُ بثبوتِ الإرسالِ واستحكامه

جاءَ فعلُ الإرسالِ ماضيًا في قولهِ تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا﴾ إيذانًا بثبوتِ تحقُّقِه واستحكامه، وأنّه قد قُضي فلا مردَّ لهُ، وهو زمنٌ دالٌّ على التَّحقُّقِ والثّبوتِ، وأنّهُ حصلَ وانصرمَ، ولا مجالَ للتّنصُّلِ منهُ.

دلالةُ نونِ العظمةِ:

الإيماءُ إلى باهرِ المعجزاتِ

أُسنِدَ فعلُ الإرسالِ إلى النُّونِ في قولهِ تعالى: ﴿أَرْسَلْنَا﴾ مُبرزًا إيّاهُ في مظهرِ العظمةِ في إشارةٍ إلى معجزاتهِ الباهرةِ[4]؛ ليدلَّ على عظمةِ ربِّ العالَمينَ سبحانهُ، وأنّ الرّسولَ مُؤَيَّدٌ منَ اللّهِ تعالى بقوّتِهِ وجبروتِهِ وملائكتِهِ وجندِهِ.

(1) رضا، تفسير المنار: 12/125.
(2) محمّد الهلال، تفسير القرآن الثّريّ: 12/91.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/155.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/368.

سرّ تخصيصِ موسَى عليه السلام بالذّكرِ:

موسى صاحبُ الرِّسالةِ، وهارونُ مأمورٌ باتّباعِهِ

كثيرًا ما يقترنُ اسمُ موسى بأخيهِ هارونَ عليهما السلام، فهما مُرسَلانِ منَ اللّهِ تعالى، ومشاركانِ في الدّعوةِ إلى التّوحيدِ غيرَ أنّهُ خصّصَهُ بالذّكرِ في قولهِ تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ﴾؛ لأنّهُ صاحبُ شريعةٍ، وهارونُ مأمورٌ بأنْ يتّبعَهُ[1]، فكان ذكرُ موسى عليه السلام ذكرًا لأخيه، ولمّا كان هو مبدأ الرِّسالةِ، وهو القائمَ بها أصالةً، كان ذكرُه وحدَه هو الأصلَ.

دلالةُ الباءِ في قولهِ تعالى: ﴿بِـَٔايَٰتِنَآ﴾:

ظهورُ الآياتِ كانَ مصاحبًا لزمنِ الإرسالِ

الباءُ في قولهِ تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ تُشيرُ إلى المصاحبةِ والملابسةِ[2]؛ فهي في موضعِ الحالِ من موسى عليه السلام؛ أي: أنّهُ تعالى أرسلَهُ مصحوبًا بآياتٍ منّا[3]، كانَ ظهورُها زمنَ إرسالهِ إلى فرعونَ وملئِهِ.

سرُّ التّعبيرِ بالآياتِ دونَ المعجزاتِ:

الآياتُ اسمٌ جامعٌ للعلاماتِ الظّنّيّةِ والمعجزاتِ اليقينيّةِ

عبّرَ بالآياتِ في قولهِ تعالى: ﴿بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ دونَ المعجزاتِ لما بينَهُما من تقاربٍ وتدانٍ في المعنى؛ ولأنَّ الآياتِ اسمٌ "للقدرِ المشتركِ بينَ العلاماتِ الّتي تفيدُ الظّنَّ، وبينَ الدّلائلِ الّتي تفيدُ اليقينَ"[4]؛ فتدخلُ المعجزاتُ كالعصا واليدِ والطّوفانِ وغيرِها في حيّزِ الآياتِ بمعناها الشّاملِ ولا عكس.

فائدةُ التّعبيرِ بالجمعِ:

معجزاتُ موسى كثيرةٌ يصدقُ عليها الجمعُ

جاءَ لفظُ ﴿بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ بصيغةِ الجمعِ لصدقِ هذا اللّفظِ على معناه الموضوعِ لهُ، فالآياتُ هي المعجزاتُ والبيّناتُ، وهي: "العصا واليدُ والطُّوفانُ والجرادُ والقُمَّلُ والضّفادعُ والدَّمُ ونقصٌ منَ الأموالِ

(1) القونويّ وابن التّمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاويّ: 10/190.
(2) ابن هشام، مغني اللّبيب، ص: 140.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/49، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/35.
(4) زاده، حاشية على تفسير البيضاويّ: 4/692.

والأنفُسِ والثَّمراتِ، ومنهُم منْ أبدلَ النَّقصَ بإظلالِ الجبلِ"[1] فهذهِ آياتٌ كثيرةٌ يصدقُ عليها إطلاقُ لفظِ الجمعِ.

دلالةُ إضافةِ الآياتِ إلى ضميرِ العظمةِ:

الآياتُ النّازلاتُ منَ اللهِ تعالى مؤيِّداتٌ ومقوِّياتٌ

لمّا كانتِ الآياتُ مُنزَلَةً منهُ تعالى أضافَها لنفسهِ في قوله تعالى: ﴿بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ على طريقِ (نا) المؤذنةِ بالعظمةِ والكبرياءِ والسّلطانِ؛ للدّلالةِ على عظمتِها[2]؛ أي: بآياتنا الّتي يحقُّ لها العظمةُ بإضافتها إلينا لتدلَّ على جلالِنا وقدرتنا[3]؛، فسموّ النّازلِ من سموّ المُنزِلِ سبحانهُ، وللإشعارِ بأثرِ هذه الآياتِ في الدَّعوةِ والتَّأييدِ.

أوجهُ عطفِ السُّلطانِ على الآيات:

يتعيَّنُ معنى عطفِ السّلطانِ المبينِ على الآياتِ بحسبِ الاعتباراتِ

في قولهِ تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٍ﴾ وسّطَ الواو بينَ الآياتِ والسُّلطانِ المبينِ، ولهذا العطفِ أوجهٌ:

الأوّل: إمّا أن يكونَ باعتبارِ التّغايرِ الوصفيِّ، فقد أرسلَهُ الحقُّ سبحانهُ بالآياتِ والسّلطانِ الواضحِ في نفسِهِ أو الموضِّحِ إيّاها[4].

الثّاني: وإمّا أن يكونَ من بابِ عطفِ الخاصِّ على العامِّ؛ فإنَّ السّلطانَ المبينَ يحتملُ أن يكونَ معناهُ العصا؛ لأنّها أكبرُ آياتهِ وأعظمُها وأبهرُها، فنصّ عليها كما نصّ على جبريلَ وميكائيلَ بعد ذكرِ الملائكةِ على سبيلِ التّشريفِ بالذّكرِ[5] ولقولهِ تعالى: ﴿وَمَا نُرِيهِم مِّنۡ ءَايَةٍ إِلَّا هِيَ أَكۡبَرُ مِنۡ أُخۡتِهَاۖ﴾ [الزّخرف: 48].

الثّالث: من بابِ عطفِ العامِّ (السّلطان) على الخاصِّ (الآيات)[6]، فلمّا كانَ معنى السّلطانِ المبينِ هو الحجّةَ الواضحةَ

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/204.
(2) محمّد الهلال، تفسير القرآن الثّريّ: 12/91.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/18 - 17/48.
(4) الآلوسيّ، روح المعاني: 6/327، والقاسميّ، محاسن التّأويل: 6/129.
(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/204، ورشيد رضا، تفسير المنار: 12/125.
(6) الطّباطبائيّ، الميزان: 10/380.

المُلزمةَ، والأمرَ القاهرَ العظيمَ جدًّا، الّتي لا حيلةَ لهُم في مُدافعةِ شيءٍ منهُ، والبرهانَ البالغَ المتسلّطَ على العقولِ والأفهام؛ فيعمُّ على هذا الاعتبارِ الآيةَ المعجزةَ والحجّةَ العقليّةَ[1]؛ أي: إنّه نفسُ الآياتِ، وعبَّر عنها بذلك على طريقةِ العطفِ تنبيهًا على جمعِها لعُنوانينِ جليلينِ، وتنزيلاً لتغايرِهما مَنزلةَ التَّغايرِ الذّاتيِّ[2].

سرُّ التّعبيرِ بالسّلطانِ عنِ الحجّةِ:

الحجّةُ سلطانٌ؛ لأنّ صاحبَها يقهرُ غيرَهُ قهرَ السُّلطانِ رعيّتَهُ

جاء التَّعبيرُ بالحجّةِ القاهرةِ والبرهانِ المفحم بالسّلطانِ المبينِ في قولِه تعالى: ﴿وَسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ﴾، وسرُّ ذلكَ أنَّ صاحبَ الحجّةِ يَقهرُ منْ ليسَ له حجّةٌ، مثلَما يَقهرُ السّلطانُ الحاكمُ غيرَهُ؛ فوُصِفتِ الحجّةُ بأنّها سلطانٌ[3].

وسُمِّيَ سلطانًا؛ لأنّهُ الحجّةُ الإلهيّةُ في أرضِه سبحانهُ، واشتقاقُ السّلطانِ منَ السّليطِ؛ وهو ما يضاءُ بهِ، فيقالُ للزّيتِ سليطًا[4]؛ لأنّهُ يستضاءُ بهِ، وفي ذلكَ استعارةٌ فكما يستضاءُ بالسّليطِ والزّيتِ في الظّلام، فكذا الحجّةُ تنيرُ للإنسانِ طريقَ هداهُ. ويجوزُ أن يكونَ السّلطانُ مُشتقًّا منَ التّسليطِ؛ فالعلماءُ سلاطينُ العلم، والملوكُ سلاطينُ القدرةِ والتّمكينِ، وإنْ كانَت سلطنةُ العلم أكملَ وأقوى؛ لأنّها لا تقبلُ النّسخَ والعزلَ، ولأنّ سلطنةَ الملوكِ مُعرَّضةٌ للتّغييرِ والتّحويلِ، وسلطنةَ العلماءِ من جنسِ سلطنةِ الأنبياءِ، والأخرى من جنسِ سلطنةِ الفَراعنةِ[5].

نكتةُ وصفِ السّلطانِ بالمبينِ دونَ البيِّنِ:

البيّنُ بنفسهِ مُبيّنٌ لغيرِه، وليس بهِ حاجةٌ للإثباتِ

في قولِه تعالى: ﴿وَسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ﴾ وصفَ السّلطانَ بالمبينِ، ولم يصفهُ

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/565 - 9/249، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 3/573 - 5/202 - 6/505.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/136.
(3) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 18/393.
(4) الزّجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 3/76.
(5) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 18/393.

بالبيّنِ، "أيْ: بيّنٌ بنفسهِ، وهو في قوّةِ بيانهِ كأنّهُ مُبينٌ لغيرهِ ما فيهِ منَ الأسرارِ"[1]، فهو الظّاهرُ الجليُّ المتأكِّدُ بالحسِّ، وليستْ بهِ حاجةٌ إلى الإثباتِ أو الدّليلِ، ولمّا كانتِ الآياتُ تعمُّ الأمارةَ والدّليلَ القاطعَ، والسّلطانُ يختصُّ بالقاطعِ، أمّا المبينُ فمختصٌّ بما فيهِ جلاءٌ ووضوحٌ بعدَ الخفاءِ، ولذلك كانَ التّعبيرُ بالسّلطانِ المبينِ هنا على بابهِ، وأنّهُ حينما بانَ الفرقُ بينَ الآيةِ والسّلطانِ أتبعَهُ بالوصفِ المبينِ[2].

توجيهُ إفرادِ السّلطانِ:

إظهارُ شرفِ السّلطانِ باعتبارِه أبهرَ المعجزاتِ

لمّا أوردَ الآياتِ الّتي أرسلَ بها موسَى عليه السلام على صيغةِ الجمعِ في قولهِ تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا﴾، وهي الآياتُ الباهرةُ، عطفَ عليها ﴿وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ على صيغةِ الإفرادِ؛ لأنّهُ أريدَ به العصا، وقد أفردَها بالذّكرِ إظهارًا لشرفِها كونها آيةً باهرةً عجيبةً[3] دالّةً على قدرتِهِ تعالى، وانتصارًا لرسولهِ موسى عليه السلام.

فائدةُ تقديم ذكرِ فرعونَ على الملأ:

الملأُ تَبَعٌ للمصالحِ والشّهواتِ، وعنوانُها فرعون

قُدِّمَ ذكرُ فرعونَ على ملئهِ في قولهِ تعالى: ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ﴾ عقبَ ذكرِ إرسالِ موسى إليهم؛ "لأنّ اتّباعَهُم أمرَ فرعونَ حصلَ بأثرِ الإرسالِ؛ ففُهِمَ منهُ أنّ فرعونَ أمرَهم بتكذيبِ تلكَ الرّسالةِ"[4]، وفرعونُ هو المقصودُ بالإرسالِ لعلمِ اللّهِ تعالى أنَّ الملأ أتباعُه على الحقيقةِ، فذكرَهم باعتبارِهم مُحيطين به من كلِّ جانبٍ، لا يرعوونَ عن أمرِه، ولا يغيبونَ عن حكمه، ولهذا التَّقديم فائدتان:

الأولى: كونُ الملأِ أهلَ الحلِّ والعقدِ والاستشارةِ والاتّباعِ إيرادًا وإصدارًا في مملكتهِ الّذينَ يستشيرهُم في أمرِ موسى، ويعهدُ إليهم بتنفيذِ ما يقرّرُهُ عليهم في تدبيرِ الأمورِ المهمّةِ[5].

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/368.

(2) القونويّ وابن التّمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاويّ: 10/192.

(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/238.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/155.

(5) رشيد رضا، تفسير المنار: 12/125، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/238.

الأخرى: التَّعريضُ بعامّةِ النّاسِ الّذينَ يتّبعونَ هؤلاءِ الأشراف حذو القذّةِ بالقذّةِ من غيرِ حكمةٍ ولا تأنٍّ ولا رويّةٍ، ولا يرونَ من رأيهم إلّا ما يراهُ لهم أولئكَ الملأ[1]، والملأُ تَبَعٌ لفرعونَ، فآلَ الأمرُ كلُّهُ له، فلا معنى للأمَّةِ الّتي ترى الأمورَ بعينِ شخصٍ واحدٍ.

دلالةُ إضافةِ الملأِ إلى الضَّمير:

لا معنى للملأِ إلّا باعتبارِهم ملأ فرعونَ

عُبِّرَ عن حاشيةِ فرعونَ بقولِه تعالى: ﴿وَمَلَإِيْهِۦ﴾ بإضافتِهم إلى الضّميرِ العائدِ عليه، وتخصيصِهم بالذّكرِ؛ لبيانِ أنَّ الملأ لا وجودَ لهم إلّا باعتبارِهم تابعين لفرعونَ، فجاءتِ الإضافةُ بيانًا لهذا المعنى الّذي يكشفُ تفاهتَهُم وسخافةَ كيانِهم، وضعفَ شخصيّاتِهم.

سرُّ التّعبيرِ بالفاءِ:

السُّرعةُ في تعكيسِ الغايةِ الحميدةِ إلى الضّلالةِ الخبيثةِ

في قولِه تعالى: ﴿فَٱتَّبَعُوٓاْ أَمۡرَ فِرۡعَوۡنَۖ﴾ رتّبَ فعلَ الاتّباعِ بالفاءِ دونَ (ثمَّ) أو (الواوِ) في إشارةٍ إلى النّعيِ عليهم وتقبيحِ فعلِهم؛ فقد أرسلَ سبحانَهُ موسى بالآياتِ الظّاهرةِ والبراهينِ السّاطعةِ، وهو ممّا يقتضي الهدى والرّشادَ؛ فآثروا عليهِ متابعةَ مَن يوصلُهُم إلى مراكسِ الغيِّ والتّيهِ والضّلالِ في الدّنيا، ثمَّ يوردُهُم مواردَ النّارِ في الآخرةِ[2] بسرعةٍ فائقةٍ، فكأنَّه لا مكثَ بين الإرسالِ لطاعةِ اللّه تعالى، وتعكيسِ ذلك باتِّباعِ فرعونَ.

ولمّا كانتِ الفاءُ دالّةً في لسانِ العربِ وكلامهم على التّرتيبِ بلا تراخٍ[3] جاءَ بها مُتعجِّبًا منَ الملأِ، مُشيرًا إلى سرعةِ تكذيبِهم بالدّلائلِ والبيّناتِ الباهراتِ، واتّباعِهم فيما ضلالهُ لا يخفى على مَن لديهِ عقلٌ ورجحانٌ[4]؛ فحصلَ ذلكَ كلّهُ من دونِ تراخٍ عنِ الإرسالِ والتّبليغِ.

(1) الطّباطبائيّ، الميزان: 10/380.
(2) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 8/187.
(3) المكوديّ، شرح المكوديّ على الألفيّة، ص: 225.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/368.

ويجوزُ في معنى قولهِ تعالى: ﴿فَٱتَّبَعُوٓاْ﴾: استمرّوا على الاتِّباعِ؛ فتكونُ الفاءُ كقولِ القائلِ: وعظتُهُ فلمْ يتّعِظْ ونحوه منَ الجملِ؛ فإنَّ المجيءَ بالأمرِ بعدَما يقتضِي الإقلاع عنهُ، وإنْ كانَ تتابُعًا فيه، فإنّهُ بحسبِ العنوانِ يعدُّ فعلًا جديدًا وصنعًا حادِثًا[1].

دلالةُ ذكرِ لفظِ الاتِّباعِ:

المتبوعُ في الدُّنيا مَتبوعٌ في الآخرة

في قولهِ تعالى: ﴿فَٱتَّبَعُوٓاْ أَمۡرَ فِرۡعَوۡنَۖ﴾ ذكرُ قوم فرعونَ منَ الأشرافِ في مقام الاتّباعِ لهُ في الكفرِ والظّلم، وفي كلِّ ما قرّرهُ من صدِّ دعوةِ موسى، وجمعِ السّحرةِ، ثمَّ قتلِهم بعدَ إيمانِهم، ومنَ الطّغيانِ على بني إسرائيلَ، وغيرِ ذلكَ دونَ عذابِ الاستئصالِ[2]، إنّما هو من بابِ تقبيحِ أفعالِهم، وتشنيعِ صنيعِهم، وأنّهم إنمّا كانوا تبعًا لفرعونَ حقًّا وباطلًا، فهم مُتَّبعون لا مُجبرون، وهو ما يُمهِّدُ لذكرِ اتِّباعِهم له في النّارِ في الآياتِ اللّاحقةِ.

سرُّ التّعبيرِ بلفظِ الأمرِ:

كلُّ ما يناوئُ الحقَّ فهو من أمرِ فرعونَ

المقصودُ بالأمرِ في قولهِ تعالى: ﴿فَٱتَّبَعُوٓاْ أَمۡرَ فِرۡعَوۡنَۖ﴾ أمرُهُ قومَهُ وملأَهُ بأن يكفروا بموسى ومعجزاتِه فهم تبعٌ لهُ، ويحتملُ أن يكونَ المرادُ من لفظِ الأمرِ الطّريقَ والشّأنَ[3]، أو كلَّ ما يَفهمونَ عنهُ أنّهُ يَهواهُ ويَأمرُهُ به وتَبعَهُمُ السَّفلةُ[4]؛ فهو لفظٌ يعمُّ ذلكَ؛ فيُلقى متابعةً منَ السّفلةِ الّذينَ اتّخذوهُ إلهًا وربًّا، واستُعملَ هذا اللَّفظُ للدّلالةِ على العموم، فهو شاملٌ لكلِّ ما يدخلُ تحتَه من معانٍ ودلالاتٍ.

نكتةُ استعمالِ مصطلحِ فرعونَ:

المجرمُ ينتهكُ كلَّ شريعةٍ؛ ليحافظَ على كلِّ مصلحةٍ قبيحةٍ

استُعملَ لفظُ ﴿فِرۡعَوۡنَ﴾ تعبيرًا عنِ الحاكم، وهو في حقيقتهِ لقبٌ لمَنْ يملكُ العمالقةَ في مصرَ في ذلكَ الزّمانِ كقيصرَ وكسرى عندَ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/238 - 239.
(2) رشيد رضا، تفسير المنار: 12/125.
(3) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 18/394.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 3/573.

غيرهم منَ الأمم، لكنّهُ لمّا رامَ الإشارةَ إلى أنَّ المحكومينَ كانوا تَبعًا خضَّعًا لمَن يحكمُهُم، سواء أكانَ عدلًا أم ظلمًا، رشدًا أم ضلالًا؛ فهمَ أتباعٌ لا رأيَ لهم ولا استقلالَ؛ فلذلكَ آثرَ ذكرَ لفظِ فرعونَ[1]، وفيه إشارةٌ إلى أنَّ هذا الاصطلاحَ يُستعملُ لغاياتٍ شخصيَّةٍ، فلم يحرصْ ذلك الفرعونُ على هدايةِ قومه؛ لمعرفتِهِ أنَّ هذه الهدايةَ ستُحدّدُ صلاحياتِه ومَن معه منَ الملأ، فلذلك ألغوا وجودَ النّاس، وواجهوا هم دعوةَ موسى ﷺ بالكيدِ الباطلِ والأمرِ غيرِ الرَّشيد.

دلالةُ النّفي بـ(ما):

الرّشدُ كلُّه مَنفيٌّ عـنِ المجرمين ثابتٌ للمُوقِنين

صُدِّرَتِ الجملةُ بما النّافيةِ في قولِه تعالى: ﴿وَمَآ أَمۡرُ فِرۡعَوۡنَ بِرَشِيدٖ﴾؛ فقد نفَى الرّشدَ، وهو الاتّصافُ بالصّوابِ عن أمرِ فرعونَ؛ لأنَّ الرّشدَ لا يتحقّقُ إلّا إنْ كانَ المرءُ صالحًا في دينِه، ولمّا كانَ فرعونُ لا يُراعِي مصالحَ الدّينِ نفى عنهُ الرّشدَ[2]، وللدّلالةِ على نفي الرُّشدِ عن أمرِ فرعونَ كلِّه عمومًا مُطلقًا.

سرُّ تكرارِ لفظِ ﴿فِرۡعَوۡنَ﴾:

تَكرارُ إظهارِ لفظِ فـرعـونَ تشهيرٌ بشناعتِه وتذكيرٌ ببشاعتِه

ذُكِرَ اسمُ فرعونَ في قولِه تعالى: ﴿إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيۡهِۦ﴾، فلمّا أرادَ ذكرَهُ ثانيةً أعادَهُ مُظهَرًا بقولِه: ﴿فَٱتَّبَعُوٓاْ أَمۡرَ فِرۡعَوۡنَۖ﴾، ثمّ أعادَهُ ثالثةً في قولِه: ﴿وَمَآ أَمۡرُ فِرۡعَوۡنَ﴾ - وحقُّهُ الإضمارُ في ذينكَ الموضِعينِ -؛ تشهيرًا بهِ، وإعلانًا بذمّهِ وقدحِه بانتفاءِ الرّشدِ عنهُ[3]، ولمزيدِ تقبيحِ الّذينَ اتّبعوا فرعونَ؛ إذ هو عَلَمٌ في الكفرِ والضّلالِ والطّغيانِ، واتّباعُهُ فرطُ جهلٍ وسوءُ استبصارٍ[4]، وفي إعادتِه بالاسمِ الظّاهرِ تذكيرٌ لهذا المرتكسِ الشّنيعِ. وفي الإظهارِ في مَواطنِ الذّمِّ مزيدُ تشنيعٍ على المُظهَرِ، ومديدُ تقبيحٍ لفعلِه.

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3747.
(2) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 9/498.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/155، وطنطاويّ، التّفسير الوسيط: 7/268.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/239.

بلاغةُ المجازِ العقليِّ:

الرُّشدُ منفيٌّ عن أمرِ فرعونَ نفسِه

إجراءُ وصفِ الرّشيدِ على الأمرِ من بابِ المجازِ العقليِّ[1]، فكونُ الرّشيدِ أمرًا فيه مبالغةٌ في اشتمالِ الأمرِ على موجبِ انتفاءِ الرّشدِ، فكأنّهُ وصفَ الأمرَ نفسهُ[2]، ولمّا كانَ "فرعونُ دَهريًّا نافيًا للصّانعِ والمَعادِ، وكانَ يقولُ: لا إلهَ للعالَمِ، وإنَّما يجبُ على أهلِ كلِّ بلدٍ أنْ يَشتغلُوا بطاعةِ سلطانِهم، فلذلكَ كانَ أمرُهُ خاليًا عنِ الرُّشدِ بالكُلِّيَّةِ"[3]؛ فلذلكَ وصفَهُ بعدمِ الرُّشدِ، ولم ينعتْهُ بالسّفهِ.

سرُّ نفي الرُّشدِ دونَ إثباتِ السَّفَهِ:

الإيماءُ إلى أنَّ أمرَ موسى هو الرَّشيدُ، وشأنَه هو الحميدُ، ومآلَه هو المجيدُ

وفي قولِه تعالى: ﴿وَمَآ أَمۡرُ فِرۡعَوۡنَ بِرَشِيدٖ﴾ عدولٌ عن وصفِ فرعونَ بالسّفهِ إلى وصفِه بانتفاءِ الرّشدِ معَ أنّهُ مترادفٌ معهُ في المعنى، إلّا أنّهُ عدلَ عن ذاكَ الوصفِ تجهيلًا لمَنِ اتّبعَ أمرَهُ؛ لأنَّ منْ شأنِ العقلاءِ أنْ يقتدوا بما فيهِ صلاحٌ، غيرَ أنّ هؤلاءِ قدِ اتّبعوا ما أوصلَهُم إلى التّيهِ والضّلالِ لا إلى السّدادِ والهدى[4].

ولِما في النَّفي من إثباتِ المنّفي في الجهةِ المقابلةِ، وهي جهةُ موسى عليه السلام، فإنَّ أمرَه هو الرَّشيدُ، وإنَّ شأنَه هو الحميدُ، وإنَّ مآلَه هو المجيدُ.

توجيهُ المتشابهِ اللّفظيِّ في الذّكرِ والحذفِ:

عندَ ذكرِ السُّلطانِ اقترنَ بذكرِ جملةِ أمرِهم وهلاكِهم، وعندَ حذفِهِ ذُكِرَ أمرُهم حالًا بعدَ حالٍ حتّى هلاكِهم

عبّرَ بلفظِ: ﴿وَسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٍ﴾ بعدَ الآياتِ في قولِه تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٍ ٩٦ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱتَّبَعُوٓاْ أَمۡرَ فِرۡعَوۡنَۖ وَمَآ أَمۡرُ فِرۡعَوۡنَ بِرَشِيدٖ﴾، وفي قولِه تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٍ ٢٣ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَ وَقَٰرُونَ فَقَالُواْ سَٰحِرٞ كَذَّابٞ

(1) "إسنادُ الفعل أو معناه إلى غير ما هو له عند المتكلّم في الظّاهر لعلاقة مع قرينةٍ صارفةٍ عن أن يكونَ الإسنادُ إلى ما هو له"، يُنظر: القزوينيّ، الإيضاح في علوم البلاغة: 1/83.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/155.

(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/205.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/156.

﴿٢٤﴾ [غافر: 23 - 24]، بينما خلا قولُه تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَقَالَ إِنِّى رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [الزّخرف: 46] منهُ؛ لأنّ الرّسولَ يُبعثُ بالآياتِ والعلاماتِ الدّالّةِ على صدقِ دعواهُ، أمّا السّلطانُ المبينُ فهو الحججُ القاهرةُ كأنواعِ العذابِ النّازلِ على فرعونَ وقومه، فلمّا كانَ القصدُ منَ الآيتينِ الأُولَيَيْنِ ذكرَ ما كانَ من جملةِ أمرهِم إلى منتهى حالهِم وهلاكهِمُ الأكيدِ انطوتِ الجملةُ على جميعِ ما احتجَّ عليهِم، ثمَّ نيلهم العذابَ الدّائمَ، ففي الآيتينِ كانَ مصيرُهُمُ النّارَ[1].

أمّا الآيةُ الثّالثةُ "فلمْ يكنِ القصدُ إلى ذكرِ جملةٍ ممّا عُوملوا بهِ في الدّنيا وانتهائهِ بهم إلى عذابِ الأخرى... فاقتصَّ ما عُوملوا بهِ حالًا بعدَ حالٍ إلى أن أُهلكُوا في الدّنيا"[2]، فلمْ يكنْ حالُهُم أن يقابَلوا بالسّلطانِ المبينِ والحجّةِ البالغةِ؛ لأنّهُ تعالى أمهلَهُم ومدّ لهم، لعلّهم يعودون عن غيّهِم.

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الإرسالُ والبعثُ:

الإرسالُ يدلُّ على السّهولةِ واليسرِ، ويدلُّ أيضًا على الانبعاثِ، إلّا أنَّ هذا الانبعاثَ يقترنُ بالامتدادِ[3]، فيمكن أن يبعثَ الرّجلُ إلى نظيرِهِ الحاجةَ بما يخصّهُ كأنْ تبعثَ الصّبيَّ إلى الكتّابِ، فيقالُ: بعثتهُ ولا يقالُ: أرسلتهُ؛ لأنَّ الرّسولَ لا يكونُ إلّا برسالةٍ[4]، وهو ما كانَ من رسالةِ موسى عليه السلام، وهو من أصحابِ الشّرائعِ والكتبِ السّماويّةِ، أمّا البعثُ فهو يحتملُ الإرسالَ معَ شيءٍ، وغالبًا ما يكونُ

الإرسالُ يقترنُ بوجودِ رسالةٍ، والبعثُ يكون لتحقيقِ غايةٍ

(1) الإسكافيّ، درّة التّنزيل: 2/779.
(2) الإسكافيّ، درّة التّنزيل: 2/780.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (رسل).
(4) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 103.

فيما هو أشدُّ كبعثِ الموتى، وكقولِهِ تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثۡنَا عَلَيۡكُمۡ عِبَادٗا لَّنَآ أُوْلِي بَأۡسٖ شَدِيدٖ فَجَاسُواْ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِۚ وَكَانَ وَعۡدٗا مَّفۡعُولٗا ۝٥﴾ [الإسراء: 5]، فالبعثُ هنا فيهِ قوّةٌ وقسوةٌ وعملٌ.

الآياتُ والمعجزاتُ:

كلُّ معجزةٍ آيةٌ، وليس كلُّ آيةٍ معجزةً

المعجزةُ مشتقّةٌ منَ العجزِ، وهو الضّعفُ؛ بأنْ تضعفَ عن طلبِ شيءٍ وإدراكِهِ[1]، ومعجزاتُ الأنبياءِ كذلكَ؛ فهي تُظهرُ عجزَ البشرِ عنِ الإتيانِ بمثلِها، وهيَ علامةٌ على رسالتِهم[2]، والفرقُ بينَ الآيةِ والمعجزةِ أنّ بينهما علاقةَ عمومٍ وخصوصٍ؛ فالآياتُ لفظٌ عامٌّ يشملُ الآياتِ القرآنيّةَ والعلاماتِ الربّانيّةَ والمعجزاتِ الإلهيّةَ، فيما تختصُّ المعجزةُ بما يأتي بهِ الرّسولُ، ولمّا كانَ ما أُرسِلَ بهِ موسى عليه السلام آياتٍ كثيرةً تصلُ إلى تسعِ آياتٍ[3] فصّلَ فيها المفسّرونَ، ويدخلُ تحتَها المعجزةُ كالعصا والطّوفانِ واليدِ ونحوها، عبّرَ عنِ الجميعِ بالآياتِ، ولو جاءَ بالمعجزاتِ لَما أعطى المعنى المرادَ، ولم يأتِ ذكرُ المعجزةِ في القرآنِ الكريمِ، وجاءَ لها مرادفاتٌ كالآيةِ والحجّةِ والبرهانِ والسّلطانِ، أمّا الآيةُ فهي عامّةٌ، يدخلُ فيه ما هو من قبيلِ المعجزةِ وما سواه.

السّلطانُ والحجّةُ:

الحجّةُ الاستقامةُ في النّظرِ، والسّلطانُ قوّةٌ قاهرةٌ في الاستدلالِ والاحتجاجِ

السّلطانُ: "قوّةُ اليدِ في القهرِ للجمهورِ الأعظمِ، وللجماعةِ اليسيرةِ أيضًا"[4]؛ فهو مُؤشرٌ على القوّةِ، فتأييدُ موسى بالآياتِ يصحبُهُ تأييدٌ بالسّلطانِ القاهرِ، وما ذلكَ إلّا لشدّةِ عنادِ المخاطبينَ الذين أُرسل إليهمْ، أمّا الحجّةُ فهيَ "الاستقامةُ في النّظرِ، والمضيُّ فيهِ على سَنَنٍ مستقيمٍ... مشتقةٌ من معنى الاستقامةِ في القصدِ؛

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عجز).
(2) النّحّاس، معاني القرآن: 6/213.
(3) مجاهد، تفسير مجاهد، ص: 410.
(4) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 282.

حجّ يحجُّ إذا استقامَ في قصدِه"[1]، فالتّعبيرُ بالسّلطانِ أليقُ لما كانَ من قوم فرعونَ المستكبرينَ العالينَ، وشدّتهُم معَ موسى ودعوتِه، فكيفَ يروّضهُم بالحجّةِ، وكانَ من قولهِم لهُ ولهارونَ عليهما السلام: ﴿فَقَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ لِبَشَرَيۡنِ مِثۡلِنَا وَقَوۡمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ ٤٧﴾ [المؤمنون: 47].

الاتّباعُ والطّاعةُ:

الاتّباعُ ملازمةُ المتبوعِ ملازمةً تامَّةً، والطّاعةُ تنفيذُ الأمرِ بسهولةٍ ويسرٍ

الاتّباعُ: السّيرُ خلفَ المتبوعِ[2] في إشارةٍ إلى الاتّباعِ التّامِّ، وهو ما كانَ منِ اتّباعِ قوم فرعونَ من غيرِ حجّةٍ ولا دليلٍ إلّا لفرطِ جهلِهم، وبالغِ غباوتِهم وتعاميهِم عن طريقِ الهدى والتّقى[3]، أمّا معنى الطّاعةِ فهيَ الّتي توجبُ امتثالَ الأوامرِ واجتنابَ النواهي، ولا تكونُ الطّاعةُ طاعةً خالصةً إلّا معَ اجتنابِ المعاصي[4]، فاستعمالهُ الاتّباعَ لدلالتهِ على عمى وضلالِ قوم فرعونَ وملئِه، أمّا الطّاعةُ فصفةُ العقلاءِ المُتسربلينَ سرابيلَ المهابةِ، الّذينَ تلفّعوا بأرديةِ التّذلُّلِ والانقيادِ، وضرعِ الاستسلام والاستكانةِ.

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 233 - 234.
(2) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (تبع).
(3) القونويّ وابن التّمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاويّ: 10/192.
(4) ابن منظور، لسان العرب: (طوع).

﴿يَقۡدُمُ قَوۡمَهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَأَوۡرَدَهُمُ ٱلنَّارَۖ وَبِئۡسَ ٱلۡوِرۡدُ ٱلۡمَوۡرُودُ ٩٨﴾ [هود: 98]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

أئمّةُ الضَّلالِ في الدُّنيا أئمّةُ الضّالّين في الآخرَةِ

لمّا كان فِرْعَوْنُ قُدْوةً لِقَوْمِه في الضَّلالِ في الدُّنْيا، فأدْخَلَهُم في البَحْرِ وأغْرَقَهُم فكذلك يَتَقَدَّمُهُم يَوْمَ القيامَةِ فيُدْخِلُهُمُ النّارَ ويُحْرِقُهُم، فيكونُ المرادُ بقولِه: ﴿وَمَآ أَمۡرُ فِرۡعَوۡنَ بِرَشِيدٖ ٩٧﴾، أيْ: وما أمْرُهُ بصالِحٍ حَميدِ العاقِبَةِ، فتكونُ هذه الآيةُ: ﴿يَقۡدُمُ قَوۡمَهُۥ﴾ تَفْسيرًا لِذلك[1].

فلمّا كان المقصود من هذه القصص - في هذه السورة الكريمة - التثبيت في المكافحة بإبلاغ الإنذار - وإن اشتدت كراهيّة المبلِّغين وقلَّ المتّبع منهم - ذكر هنا تَقَدُّم فرعونَ قومَه، "أي: الذين كان لهم قوَّة المدافعة ﴿يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ ويكونون له تبعًا كما كانوا في الدُّنيا"[2]، فالمناسبةُ بين الآيتين، أنَّ الأولى فيها بيانُ اتِّباعِ أمرِ فرعون في الدُّنيا، والأُخرى فيها ذكرُ أمرِه مع قومه في الآخرةِ، فهي بيانٌ للعاقبةِ بعد ذكرِ سببِها.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَقۡدُمُ﴾: من الجذر (قدم)، القافُ والدّالُ والميمُ أصْلٌ صَحيحٌ يَدُلُّ على سَبْقٍ ورَعْفٍ[3] ثُمَّ يُفَرَّعُ منْهُ ما يُقارِبُهُ: يَقولونَ: القِدَمُ: خِلافُ الحُدوثِ، ويُقالُ: شَيْءٌ قَديمٌ، إذا كانَ زَمانُهُ سالِفًا"[4]. ومعنى الفعل ﴿يَقۡدُمُ﴾ في الآيةِ: يتقدَّم قومَه إلى النّارِ كما كان يتقدَّمهم في الدُّنيا بإضلالهم عن الحقِّ والصَّواب.

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 18/394.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 9/370.
(3) الرعف يعني السبق والتقدم، يُنظر: ابن فارس، معجم مقاييس اللغة: (رعف).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قدم).

2) ﴿فَأَوۡرَدَهُمُ﴾ - ﴿ٱلۡوِرۡدُ ٱلۡمَوۡرُودُ﴾: من الجذر (ورد)، "الواوُ والرّاءُ والدّالُ: أصْلانِ، أحَدُهُما الموافاةُ إلى الشَّيْءِ، والثّاني لَوْنٌ منَ الألْوانِ، فالأوَّلُ الوِرْدُ: خِلافُ الصَّدرِ، ويُقالُ: ورَدَتِ الإبلُ الماءَ تَرِدُهُ وِرْدًا، والوِرْدُ: وِرْدُ الحُمَّى إذا أخَذَتْ صاحِبَها لِوقْتٍ، والمَوارِدُ: الطُّرُقُ، وكَذلك المياهُ المَوْرودَةُ والقُرَى، والأصْلُ الآخَرُ الوَرْدُ: يُقالُ فرَسٌ وَرْدٌ، وأسَدٌ وَرْدٌ، إذا كانَ لَوْنُهُ لَوْنَ الوَرْدِ"[1].

فأصلُ الوُرودِ: "قصدُ الماء، ثمّ يستعمل في غيره، يقال: وَرَدْتُ الماءَ أرِدُ وُروداً، فأنا وارِدٌ، والماءُ مَوْرودٌ، وقد أوْرَدْتُ الإبلَ الماءَ، والوِرْدُ: الماءُ المرشّحُ للوُرودِ، والوِرْدُ: خلافُ الصّدر"[2].

ومعنى ﴿فَأَوۡرَدَهُمُ﴾: أي فأدخلهم النّارَ، ومعنى ﴿ٱلۡوِرۡدُ ٱلۡمَوۡرُودُ﴾: أي بئس المكان الذي دخلوه، وهو النّارُ، فالورودُ الدخولُ وليس بورودِ الإشرافِ على الشَّيءِ[3].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

قادةُ الكفرِ في الدُّنيا سيُجزون وفاقَ أعمالِهم في الآخرةِ

أخبر سبحانه - فيما سبق - عن إرسال نبيِّه موسى عليه السلام إلى فرعون وقومه، وما كان منهم تُجاه دعوته، وأشارت الآيات إلى اتِّباع الملأ فرعونَ، مع ظهور فساد أمره، وأخبرت هذه الآية عن حال فرعون يوم القيامة، إذ يكون متبوعًا لقومه كما كان في الدُّنيا، ولكنَّه يتقدّمهم على النّار، وبئس المدخَل الذي يُدخَلونه.

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

علَّةُ فصلِ الجملةِ:

أسئلةُ العقلاءِ عن المآلِ بَيْنما اهتمام الحمقى بالحالِ

وقعت هذه الجملة ﴿يَقۡدُمُ قَوۡمَهُۥ﴾ موقع الاستئناف البيانيّ لكونها جوابًا لمن سأل عن حال المتبوع والتّابع مآلًا، بمعنى: لِمَ لم

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ورد).
(2) الراغب، المفردات: (ورد).
(3) ابن عطية، المحرر الوجيز: 3/205.

يسر أمرُ فرعون إلى الرُّشد؟ أو هل سار أمر فرعون إلى الرُّشد؟ فكان هذا الجواب، ففصلت هذه الجملة عن سابقتها لشبه كمال الاتِّصال، وإمّا أن تكون في موضع الحال فتصير تفسيرًا وإيضاحًا لعدم صلاح عاقبته، والمعنى: كيف يرشد أمرُ مَن هذه عاقبته؟[1].

نكتةُ إيثارِ لفظ ﴿يَقْدُمُ﴾:

قُدْوةٌ في الضَّلالِ سيِّئةٌ في المآل

يظهر الفرق بين استعمالِ لفظِ ﴿يَقْدُمُ﴾ في الآيةِ دون "يسبق" من خلال:

أوّلًا: قوله تعالى: ﴿يَقْدُمُ﴾ بمعنى: يسير قدّامه، أما مرادفه وهو "يسبق" يقتضي أنه يلحق قبله، فقوله تعالى: ﴿يَقْدُمُ﴾ مراد الفعل أن فرعون يمشي على قدمه يقودهم إلى النار،

ثانيًا: لو قيل: يسبقهم، فإنَّه لا يؤدّي المعنى المراد من الفعل ﴿يَقْدُمُ﴾، لأنّ يسبقهم يجوز أن يكون معناه: أنه يوجد قبلهم فيها[2]، والمرادُ أنَّه يقدمُهم وهم خلفَه تابعين له يُشاهدونه لا يغيبُ عن أنظارِهم كما كانوا في الدُّنيا، جزاءً وفاقًا، ولو قال: "يسبق"، لما تحقَّق هذا المعنى.

بلاغة التَّهكُّم في استعمال لفظِ ﴿يَقْدُمُ﴾:

الإقـــدامُ في خســـائسِ الأعمالِ مسلكُ الجبناءِ وطريقُ البلداء

استعمل النَّظمُ لفظَ ﴿يَقْدُمُ﴾ وهو من التَّهكُّم البديعِ، إذِ الإقدام يكون في معالي الأمورِ ومحاسنِ الأعمال، ولا يكون فيما هو خسيسٌ، فلا يوصفُ الرِّجالُ بالإقدام إلّا إن أقدموا على شيءٍ فيه نجاةٌ وشرفٌ ورفعة، فاستعمال هذا اللَّفظِ في الإقدام على النّار، غايةٌ في التَّهكُّم بفرعون وبأتباعه، لأنَّه سيكون مغوارًا في ورودِ النّار وإيراد مَن معه، لا حاميًا عنهم لهم أن يقعوا فيما فيه عطبهم، وفي هذا اللَّفظِ إشارةٌ لأتباعِ كلِّ ظالمٍ وكافرٍ، أن ينتبهوا لمآلِهم، فيُسارعوا إلى النَّجاةِ قبل وقوعِ المحذورِ.

(1) الآلوسي، روح المعاني: 12/134بتصرُّف.

(2) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 124، بتصرف.

نكتةُ إيثار صيغة المضارع:

آثر النَّظمُ التَّعبيرَ بالفعل المضارع ﴿يَقۡدُمُ﴾ وذلك لإفادةِ تصوير مشهدِ قيادةِ الضَّلال، واتِّباع الضّالّين له، فتقدُّمُه إلى النّار بقومه أمرٌ متحقِّق لن يتخلَّف أبدًا تعذيبًا ومهانةً، وهذا أوقعُ وأرسخ في التَّرهيب والوعيدِ من مجرَّد الإخبارِ.

تصويرُ مشاهد الغيبِ أوقعُ في التَّرهيب والوعيد

سرُّ استعمالِ لفظِ ﴿قَوۡمَهُۥ﴾:

جاءَ اختيارُ لفظِ ﴿قَوۡمَهُۥ﴾ دون مرادفات هذا اللَّفظ لبيانِ أنَّ هؤلاءِ بهم قام أمرُ فرعون، فهم سندُه في الدنيا، وأتباعه الذين رفعوه ومجَّدوه وأعانوه وأقاموا أركانَ باطله، فكان لهذا الاختيارِ حظٌّ من الإشارةِ إلى العدل الإلهيِّ، في بيانِ أنَّه ليس كلُّ من كان تحت حكم فرعون في زمانه داخلًا في الوعيدِ، وإنَّما هو خاصٌّ بمن اتَّبعه وأطاع أمرَه بما يكون له قيامٌ وتمكُّنٌ في استعبادِ النّاس وإضلالِهم.

الباطلُ لا يقومُ إلّا بالأتباعِ الحريصين على إقامتِه

نكتةُ إضافةِ (قوم) إلى الضَّميرِ:

أُضيف لفظُ قوم إلى الضَّميرِ العائدِ على فرعون، وذلك لبيانِ أنَّ هؤلاءِ قومه إرادةً واختيارًا، لا قهرًا وإجبارًا، وفيه إيماءٌ إلى أنَّ هؤلاءِ كما كان لهم خصوصيَّة عند فرعون في الدُّنيا، فإنَّه كذلك سيكون لهذه الخصوصيَّة شأنٌ عظيمٌ في الآخرة، بحيث توردهم العذابَ العظيمَ في النّارِ.

على قدرِ اتِّباعِ الظّالمين يكون الالتصاقُ بهم في الآخرةِ

دلالةُ ذكرِ يوم القيامةِ في الآية:

ورد التَّعبير بالظَّرفيَّة الزَّمانيّة في قولِه تعالى: ﴿يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ لأمورٍ، وهي:

أوَّلًا: دفعُ توهّم أنَّه خبرٌ في الدُّنيا، فقد يُحملُ على ذلك لضعفِ تصورّه في الآخرةِ.

ثانيًا: خصوصُ ذلك اليوم بوقوعِ التَّعذيبِ فيه،

القيامةُ موعد الفصلِ بين الحقِّ والباطلِ أتباعًا ومتبوعين

ثالثًا: الإيماءُ إلى المكذِّبين بيوم القيامةِ من المشركين، فإنَّ ذكرَ تفاصيل ما سيكون للأمم السّابقةِ في المستقبلِ ممّا لا يقوى على ذكرِه إلا منزل الكتاب.

رابعًا: الفصل فيه بين أهل الحقِّ وأهل الباطل، فأمّا الذين اتَّبعوه في الدُّنيا فسيتبعونه في الآخرةِ، وأمّا الذين ضعفوا وأُجبروا وأنكروا في قلوبِهم فهؤلاء بريئون منه ومن مصيرِه في ذلك اليوم الجلل.

سرُّ اصطفاء لفظ ﴿ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ بالذِّكر:

القيامةُ اسمٌ جامعٌ لمعاني يوم القيامةِ الأخرى

ورد التَّعبير بيوم القيامةِ عن بعث الخلائق للحساب، دون بقيَّة الأوصافِ وذلك باعتبارِ أنَّ القيامةَ هي الاسم العلمُ على ذلك الحدثِ الكونيِّ، فهو الأصل في الاستعمالِ، فالقيامةُ: "عبارةٌ عن قيام السّاعة، والقيامَةُ أصلها ما يكون من الإنسان من القيام دَفْعَةً واحدة، أدخل فيها الهاء تنبيهًا على وقوعِها دَفْعَةً"[1].

فأرادت الآيةُ الإخبارَ عمّا يكون لفرعون وأتباعِه، بقطعِ النَّظرِ عن تخصيصِ بقيَّةِ الأوصافِ بالذِّكر، وقد وردتْ أوصافٌ أخرى من مثل وصفِ اليوم بعسير كما في قولِه تعالى: ﴿فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ۝٩﴾ [المدثر: 9]، فالعسر صفةٌ للأهوالِ الواقعة في ذلك اليوم، والمراد هنا عمومُ ذلك اليوم بما فيه من أهوالٍ، ووصفه بعظيم وهو صفة للعذاب الواقع فيه، كما في قوله تعالى: ﴿فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ۝١٥٦﴾ [الشعراء: 156]، ووصفه بعصيب وهو صفة للشَّرِّ الذي يقع فيه، كما في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ۝٧٧﴾ [هود: 77][2]، فهذه الأوصاف قد لفَّها السّياق عند ذكر القيامةِ لأنَّها كالعَلَم الحاوي لها جميعِها، وهذا أقوى في الدّلالةِ، وأبلغ في التَّرغيب، وأرسخ في التَّحذيرِ.

(1) الراغب الأصفهاني، المفردات: (قوم).

(2) ابن النقيب، مقدمة تفسير ابن النّقيب، ص: 66.

معنى الفاء ودلالتها:

القائدُ الضّالُّ حريصٌ على إيرادِ أتباعِه النّارَ بإسراعٍ وإقدامٍ

الفاءُ في قوله تعالى: ﴿فَأَوۡرَدَهُمُ﴾ عاطفةٌ، وهي من عطفِ الجمل على الجمل، لاشتراك الجملتين في الخبريَّة لبيان ترتيب إيرادِهم النّار على تقدّمه إليها ومتابعة قومه إيّاه في الورود، وفيها إيماءٌ لمعنى المفاجأة، إذ إنَّ الإقدامَ لا يكون إلّا في الأمور المحمودةِ، فذكر إيرادِ النّار بعد الإقدام يخالف ما يتوقَّعه الغافل، وإن كان السّياق قد نبَّه على أنَّ أمرَ فرعون ليس برشيدٍ، فالمفاجأة أتتْ من عنصرِ السُّرعة، أي: إقدامٌ فإيرادٌ في النّار.

إيثارُ التَّعبير بفعل الإيرادِ:

ورودٌ ولا ريٌّ، وغضبٌ من الله العليّ

جاء التَّعبير بفعل ﴿فَأَوۡرَدَهُمُ﴾ وهو من الإيراد، والمراد به: جعل الشيء واردًا في المكان وداخلًا فيه، فالهمزةُ "في ﴿فَأَوۡرَدَهُمُ﴾ للتَّعْديَةِ، ورَدَ يَتَعَدَّى إلى واحِدٍ، فلَمّا أُدْخِلَتِ الهَمْزَةُ تَعَدَّى إلى اثْنَيْنِ، فتَضَمَّنَ واردًا ومَوْرودًا، ويُطْلَقُ الوِرْدُ على الوارِدِ، فالوِرْدُ لا يَكونُ المَوْرودَ، فاحْتيجَ إلى حَذْفٍ ليُطابِقَ فاعِلَ بِئْسَ المَخْصوصَ بالذَّمِّ، فالتَّقْديرُ: وبِئْسَ مَكانُ الوِرْدِ المَوْرود، ويَعْني بهِ النّار"[1].

دلالةُ استعمالِ صيغة الماضي:

خسارة مضمونة وعاقبة غير ميمونة

ورد التَّعبير بـ ﴿فَأَوۡرَدَهُمُ﴾ بلفظ الماضي، لإظهارِ عنصر المفاجأةِ، فإنَّ السّامع ينتظر بعد سماعِ ﴿يَقۡدُمُ﴾ حدثًا مرتبطًا بزمنٍ حاضرٍ أو قادمٍ، لكنَّ النَّظم أتى بالفعل الماضي ليفاجِئَ السّامع بسرعةِ النَّتيجة، فإنَّ الأمر يوم القيامةِ لن يكون كالدُّنيا، وفي التَّعبير بالماضي قطعٌ لأيِّ تعلُّقٍ بالنَّجاةِ، فهو تحقيقٌ للإيرادِ في النّارِ.

بلاغة الاستعارة التَّهكميَّة:

العَطَبُ من حيث تُظَنُّ الحياةُ

استعيرَ لفظُ الإيرادِ في قوله تعالى: ﴿فَأَوۡرَدَهُمُ ٱلنَّارَۖ﴾، فلم

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 5/259.

يقل: (فأدخلهم)، بقصدِ التَّهكُم، "لِأنَّ الإيرادَ يَكونُ لِأجْلِ الانْتِفاعِ بالسَّقْيِ، وأمّا التَّقَدُّمُ بقَوْمِهِ إلى النّارِ فهو ضِدُّ ذلك"[1].

فالاستعارة مكنيَّة تهكُّميَّة للضِّدِّ وهو الماء ثم حذف الماء ودلَّ عليه بلازمه، وهو الورود الذي يكون له وإثبات الورود للنّار تخييل وهو قرينة المكنيَّة[2].

والاستعارة هنا بيَّنت مدى الإهانة التي حاقت بهؤلاء، لأنَّ الورود في الأصل يكون للمرور للاستسقاء منه، فشُبِّهت النّار بماء مورود، وشبِّه فرعون في تقدُّمه أمام قومه بمنزلة مَن يتقدَّم على الواردين إلى الماء، لكسر حدَّة العطش وتبريد الأكباد، والنّار ضدُّ ذلك تمامًا.

معنى الواو ودلالتها:

الواو في قوله تعالى: ﴿وَبِئۡسَ ٱلۡوِرۡدُ ٱلۡمَوۡرُودُ﴾ حاليَّةٌ، والجملة كلُّها في موضع الحال، جاءت وصفًا ونعتًا للورود المذكور في الفعل" فأوۡرَدَهُمُ"، أي: حالة كون النّار وردهم الذي يردونه، ومورودهم الذي يستقون منه، فإنَّه مذمومٌ مرذولٌ، وهي حالةٌ عجيبةٌ، لا تكون في الدُّنيا، فإنَّ الورود محمودٌ ممدوحٌ، لكن لمّا كان أولئك صادّين عن دين الله تعالى، قلبوا بذلك موازين الحقِّ والباطل، فإنَّهم مستحقّون لأن يُعاملوا بالمعاملةِ نفسِها، من جعل مورد الماءِ مهلكَ النّفوس.

مَنْ قَلَبَ موازينَ الحقِّ في الدُّنيا قُلبت عليه موازينُ النَّجاةِ في الآخرةِ

بلاغةُ التَّذييلِ:

جاءت هذه الجملةُ ﴿وَبِئۡسَ ٱلۡوِرۡدُ ٱلۡمَوۡرُودُ﴾ تذييلًا مبيِّنًا ومؤكِّدًا لهذا الإيرادِ الذي ورده فرعون وقومه، فالآية كالدَّليل على قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَمۡرُ فِرۡعَوۡنَ بِرَشِيدٖ﴾ فإنَّ مَنۡ هذه عاقبته لم يكن في أمره رشيدًا[3]، ولم يكن في مآله حميدًا، فكان ذمُّ الوردِ كالبيانِ لنفي الرّشدِ.

ذمُّ الوردِ بيانٌ لنفي الرُّشدِ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/156.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 12/134، والجمل، الفتوحات الإلهية: 2/486 بتصرف.
(3) الزحيلي، التفسير المنير: 12/138، والبقاعي، نظم الدّرر9/369.

توجيه حذف المخصوص بالذَّم:

المخصوص بالذَّم محذوف وهو النّار، على حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه، أي: بئس مكان الورود المورود النّار، ومنهم من يجعل ﴿ٱلْمَوْرُودُ﴾ هو المخصوص بالذَّم، والمراد به النّار، ويقدّر المضاف أي: بئس مكان الورد النّار، ومن يجعل الوردَ فاعلَ ﴿بِئْسَ﴾ ويفسِّره بالجمع الوارد، و﴿ٱلْمَوْرُودُ﴾ صفة لهم، والمخصوص بالذَّم ضميرهم المحذوف، أي: بئس القوم المورود بهم هم، فيكون ذمًّا للواردين لا لموضع الورود[1].

النّارُ موردُ الظّالمين ومثوى المجرمين

بديعُ جناسِ الاشتقاق:

ورد جناس الاشتقاق في الآية بين لفظِ ﴿فَأَوْرَدَهُمُ﴾، و﴿ٱلْوِرْدُ﴾ و﴿ٱلْمَوْرُودُ﴾، ومعناه: توافق الكلمات في الحروف الأصول مع الاتفاق في أصل المعنى[2].

بليغُ الكلام هو الذي يوافق فيه اللَّفظُ المعنى دون كُلفةٍ أو تكرار

أمّا بلاغته هنا فتكمن في أنَّ استعمالَه غير متكلَّف، وطلبه المعنى واستدعاؤه، والمقام الذي ورد فيه يتطلّبه كما أنَّه أضفى على الأسلوب رونقًا أبان عن الورد الذي وردوه وما أشقاه من مورود وأبأسه، فاتَّفق فعلُ الإيرادِ الصّادرِ عن فرعون، مع وصف المكان الذي سيدخلوه، بأن اجتمع في هذه الألفاظِ التَّهكُّمُ بالقائدِ المغوار والأتباع المغاوير.

بلاغةُ الفاصلةِ:

وردت الفاصلة ﴿وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ﴾ من النَّوع المتقارب الذي يرد طوعًا سهلًا تابعًا لمعناه، وهو محمود بليغ معبِّرٌ عن المعنى المراد منه مؤكِّد لمضمونه لا يثْقُل على المتكلِّم والمتلَفِّظ به.

(1) الآلوسي، روح المعاني: 12/134.
(2) القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة: 6/98.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

يقدُم ويسبق:

يَدُلُّ لفظُ الإقدام على سَبْقٍ ورَعْفٍ، ومنه قادمة الرجل وقدمه أي: تقدّمه.

والسَّبْق: القُدْمةُ في الجَرْي وفي كُلِّ شَيْءٍ، واسْتَبَق القومُ وتَسابَقوا: تَخاطَروا[1].

"والفرق بين قولك: يقدمه، وقولك: يسبقه: أن معنى قولك: يقدمه: يسير قدّامه، ويسبقه يقتضي أنّه يلحق قبله، وقال تعالى: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾، قيل: إنّه أراد يمشي على قدمه يقودهم إلى النّار، وليس كذلك يسبقهم، لأنَّ يسبقهم يجوز أن يكون معناه أنَّه يوجد قبلهم فيها"[2].

فالفرق في كون يقدمُ يمشي أمامَهم دون أن يتخطَّوه، ويسبق في سبقِه لهم عن جدارةٍ واقتدارٍ وتسابق.

يقدمُ يمشي أمام التّابعين بطواعيةٍ، والسبق يكون عن جدارةٍ

الوِرْدُ والمدخل:

الوِرْدُ: خِلافُ الصَّدرِ، ويُقالُ: ورَدَتِ الإبلُ الماءَ تَرِدُهُ وِرْدًا، وكَذلك المياهُ المَوْرودَةُ والقُرَى[3]، فالواردُ الذي يتقدَّمُ القوم فيسقي لهم، ويكون لغايةِ الإرواءِ وتحصيل المنفعة،

أمّا الدُّخول: فهو نَقيضُ الخُروجِ[4]، ويستعمل في المكان والزَّمان والأعمال، وليس بالضّرورةِ تحصيل منفعةٍ أو كسب مصلحةٍ.

فاستعمال لفظ (الوِرْد) هو الأنسب، لما يحمله من دقَّة دلاليّة، ولمسات بلاغية، وتهكّمٍ بالمذكورين.

الوِرد يُقابله الصَّدر ويكون لتحصيل المنفعةِ، والدّخول ليس كذلك ويُقابله الخروج

(1) ابن منظور، لسان العرب: (سبق).
(2) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 124.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ورد).
(4) ابن منظور، لسان العرب: (دخل).

﴿وَأُتۡبِعُواْ فِي هَٰذِهِۦ لَعۡنَةٗ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ بِئۡسَ ٱلرِّفۡدُ ٱلۡمَرۡفُودُ ٩٩﴾

[هود: 99]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الفجّارُ مطرودون من النّار بمباركةِ الأبرارِ

لَمّا ذَكَرَ في الآيةِ السّابقةِ أحوالَ المجرمين في الآخرة، أتبعه بذكرِ أحوالِهم بعد مماتِهم في الدُّنيا فقالَ: ﴿وَأُتۡبِعُواْ فِي هَٰذِهِۦ لَعۡنَةٗ﴾، فالمناسبةُ بين الآيتين أنَّ السّابقة حديثٌ عن مآلهم الثّابت في النّار، واللّاحقة حديثٌ عن حالِهم الثّابت على ألسن الأبرار، ثم ذكرَ حالَهم في الآخرةِ ﴿وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ بِئۡسَ ٱلرِّفۡدُ ٱلۡمَرۡفُودُ﴾، فهم يُلعنون في الدُّنيا، وفي الآخرةِ.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَأُتۡبِعُواْ﴾: التّاءُ والباءُ والعَيْنُ أَصْلٌ واحِدٌ لا يَشِذُّ عَنْهُ من البابِ شَيْءٌ، وهو التُّلُوُّ والقَفْوُ، يُقالُ تَبِعْتُ فُلانًا إذا تَلَوْتُهُ واتَّبَعْتُهُ، وأَتْبَعْتُهُ إذا لحِقْتَهُ[1]، وتَبِعَ الشيءَ تَبَعًا وتِباعًا في الأفعال وتَبِعْتُ الشيءَ تُبوعًا: سِرْتَ في إثْرِه، واتَّبَعَه وأَتْبَعَه وتتَبَّعه قَفاه وتَطلَّبه مُتَّبِعًا لهُ وكَذلك تتَبَّعه وتتَبَّعْته تتَبُّعًا، وقالَ الفَرّاءُ: أَتْبَعَ أحسن من اتَّبَع، لأن الاتِّباع أن يَسير الرَّجُلُ وأنت تَسيرُ وراءَه، فإذا قُلْتَ أَتْبَعْتُه فكأنك قَفَوْته[2].

والمعنى المقصودُ في الآيةِ: أنَّ الأبرارَ كلَّما ذكروهم وذكروا أمثالَهم ألحقوهم لعنةً، ودعوًا عليهم بالطَّردِ من رحمةِ الله تعالى، لعظيم جرائمهم، وكبير آثامهم، وكثير أتباعِهم ممَّن يقتفون آثارهم.

2) ﴿ٱلرِّفۡدُ ٱلۡمَرۡفُودُ﴾: الرّاءُ والفاءُ والدّالُ أَصْلٌ واحِدٌ مُطَّرِدٌ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (تبع).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (تبع).

مُنْقاسٌ، وهو المُعاونَةُ والمُظاهَرَةُ بالعَطاءِ وغَيْرِه، فالرَّفْدُ مَصْدَرُ رَفَدَهُ يَرْفِدُهُ، إذا أعْطاهُ[1]، ورَفَدَه وأرْفَده: أعانه، والاسْمُ الرِّفْدُ بالكسرِ وهو العَطاءُ والصِّلَةُ، وتَرافَدوا: أعان بَعْضُهُم بَعْضًا. والمَرْفَدُ والمُرْفَدُ: المَعونَةُ. والرَّفْد: النَّصيبُ، وقالَ أبو عُبَيْدَةَ في قولِه تعالى: ﴿بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ﴾، قالَ: مجازُه مجازُ العَوْنِ المُجازِ، يُقالُ: رَفَدْتُه عِنْدَ الأمير أي: أعنته، قالَ: وهو مَكْسورُ الأوّل فإذا فتحتَ أوَّله فهو الرَّفد[2].

والمراد به هنا: التَّبعُ المتبوع والعون المعان والعطاء المعطى لهم، وهي اللَّعنة في الدّارين أعاذنا اللّه منها.

❁ المَعْنى الإجْمالِيُّ:

لعنةُ المجرمين يرفدُ بعضُها بعضًا في الدُّنيا والآخرة

صرَّح سبحانه بلعنِ فرعون وقومه في الدّارين فقال: ﴿وَأُتْبِعُواْ فِي هَٰذِهِۦ لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۚ﴾، أي: أنَّ اللَّعنةَ والفضيحةَ لحِقَت بهم واتَّبعتهم في الدُّنيا وفي الأخرى، والرِّفد: العطاء والعون، يُقال: رفد فلانٌ فلانًا يرفدُه رفدًا، أي: أعطاه وأعانه على قضاء مصالحه، أي: بئس العطاءُ المعطى لهم تلك اللَّعنة المضاعفة التي لابستهم في الدُّنيا والآخرة[3].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

معنى الواو:

لعنةُ فرعون وأتباعه مستمرَّةٌ إلى دخولِ النّارِ

الواو في قولِه تعالى: ﴿وَأُتْبِعُواْ فِي هَٰذِهِۦ لَعْنَةً﴾ استئنافيّة، فهي تُنشئ معنًى يُبيِّن حالَ هؤلاء المجرمين بعد موتِهم في الدُّنيا، ويصحُّ أن تكون عاطفة على جملة ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ﴾، وهي من باب عطف الجمل الخبريَّة على بعضِها، لاتِّفاقها في الإخبار عن مصير هذا الطّاغية ومتَّبعيه، مع وجودِ جامعٍ رابطٍ يدعو إلى الوصل بينهما.

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (رفد).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (رفد).
(3) طنطاوي، التفسير الوسيط للقرآن الكريم: 7/268.

سرُّ استعمالِ لفظِ الإتباعِ ودلالته:

ملاحقةُ اللَّعناتِ مصيدةُ المنكرات

الإتْباع هو الإلحاق، والمراد أن اللَّعنة والفضيحة لحقت بهم واتَّبعتهم في الدُّنيا والآخرة، وأنَّ اللّه تعالى ألحق بهم زيادة على عذاب النّار لعنة عظيمة في الدُّنيا فيمن يأتي بعدهم من الأمم، ثمَّ تنالهم اللَّعنة يوم القيامة بأنْ يلعنهم أهل الموقف جميعًا، وهم أيضًا من المقبوحين فاجتمع عليهم لعنتان في الدُّنيا والآخرة، مع مزيد العذاب والهوان والطَّرد من رحمته ﷻ.

دلالة صيغة الماضي المبنيّ للمفعول:

اللَّعنةُ صادرةٌ عن الله تعالى والملائكة والنَّبيّين

التَّعبير بالفعل الماضي دالٌّ على تحقُّق وقوع الفعل وحصوله لا محالة، وحُذِف الفاعل للعلم به بدلالة قوله تعالى: ﴿وَأَتۡبَعۡنَٰهُمۡ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا لَعۡنَةٗۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلۡمَقۡبُوحِينَ ٤٢﴾ [القصص: 42]، والتَّعبير عنهم بالفعل المبنيِّ للمفعول للعموم، فإنَّه يدخل فيهم الملائكةُ والنَّبيّون[1].

نكتةُ التَّعبير عن الدُّنيا بالجارِّ والمجرور:

الدُّنيا ملعونةٌ ملعونٌ ما فيها إلّا ما اتّصل بالله تعالى

ورد هذا التَّعبير ﴿فِي هَٰذِهِۦ﴾ لتقييد لعن فرعون وقومه في الحياة الدُّنيا، حيث تصيبهم لعنةٌ من المؤمنين، فهم يُلعنون فيها من كلِّ لاعنٍ من المسلمين وغيرهم من أهل الملل، والتَّعبير بالجارِّ والمجرور لتحقيرِ المشار إليها عندما تكون مصدرًا للّعنات، بدل أن تكون مصدرًا للرَّحمات، فالإشارةُ إلى الدُّنيا باسم الإشارةِ القريبِ يومئ إلى تفاهتِها، وأنَّها حريٌّ بها أن تكون ملعونةً إذا كانت موقعًا للظلم والكفر، وكما قال ﷺ: «ألا إنَّ الدُّنْيا مَلْعونَةٌ مَلْعونٌ ما فيها إلّا ذِكْرُ اللّه وما والاهُ وعالِمٌ أو مُتَعَلِّمٌ»[2].

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 18/394.
(2) الترمذي، سنن الترمذي: 4/561.

سرُّ التَّعبير باسم الإشارة القريب:

الدُّنيا لا تعدلُ عند الله جناحَ بعوضة

يرد التَّعبير بهذا الاسم إمّا للقرب، وإمّا للبعد حسب المقام الذي يرد فيه، وهو هنا مرادٌ به التَّحقير لأمر هذه الدُّنيا التي يعيش عليها هذا الطّاغية وتابعوه، ويفيد التَّعبير باسم الإشارة القريب هنا قرب أمر النّاس الذين يلعنونهم فيها لحقارة شأنهم وما ارتكبوه في دنياهم تلك.

توجيه المتشابه اللفظي:

الحذفُ والذِّكرُ قائمٌ على ملامحِ السّياقِ وإشاراتِ النَّظم

ذُكر لفظُ الدُّنيا في قصَّة نبيّ اللّه هود عليه السلام في قوله تعالى: ﴿وَأُتۡبِعُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا لَعۡنَةٗ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ أَلَآ إِنَّ عَادٗا كَفَرُواْ رَبَّهُمۡۗ أَلَا بُعۡدٗا لِّعَادٖ قَوۡمِ هُودٖ ٦٠﴾ [هود: 60]، وخلت هذه الآية من ذكرِ هذا اللفظ، فيُسأل عن ذلك؟ والجواب من وجوهٍ:

الأول: أنَّه لمّا كان في القصَّة تفصيلٌ كثير عرض لجميع ما حدث معه عليه السلام من قوم عاد جميعهم بلا استثناء، وورد ذكر ﴿ٱلدُّنۡيَا﴾ باعتبار الجزء الذي جوزي به هؤلاء القوم ولا يكتفي بالإشارة إليها فقط، بل جاء ذكرُها صريحًا مشارًا إليها باسم الإشارة القريب مع كونها أوّل بيانٍ لهذا الجزاء، والمعنى على ذلك: طلب الإبعادِ "عن الرحمة وعن كلِّ خير، أي: جعلت اللَّعنة لازمة لهم، وعُبِّر عن ذلك بالتَّبعيَّة للمبالغة، فكأنَّها لا تفارقهم وإن ذهبوا كلَّ مذهب، بل تدور معهم حسبما داروا، أو لوقوعه في صحبة اتِّباعهم"[1].

الثاني: وفي هذه الآيةِ ورد الحديثُ عن فرعون وقومه مقتضبًا دون تفصيل، فأغنت الإشارة بـ ﴿هَٰذِهِ﴾ عن ذكر الدُّنيا إيجازًا واختصارًا بحذف المضاف، وانصراف الذِّهن إلى العلم بها مباشرةً لوضوح المراد باسم الإشارة وضوحًا بيِّنًا.

(1) الآلوسي، روح المعاني: 12/87.

الثّالث: أنَّه لمّا تقدَّم ذكر الشَّبيه في هذه السورة، وهي آية هودٍ، فكانت الآيةُ الأولى كالتفسير للثّانية، وكالتعيين للمراد باسم الإشارةِ، فحسن الاكتفاء بالمتقدِّم عن المتأخِّر، مع ما تقدّم من الأسباب.

فائدةُ إيثار لفظ ﴿لَعۡنَةً﴾:

اللّعن شاملٌ لمعنى الطَّرد والإبعاد والخزي

آثر النَّظم ذكر لفظِ اللَّعْن لاشتمالِه على معنى الطّرد والإبعاد على سبيل السُّخط، وذلك من اللّه تعالى في الآخرة عقوبة، وفي الدّنيا انقطاع من قبول رحمته وتوفيقه، ومن الإنسان دعاء على غيره[1]، ولما يحويه هذا اللَّفظُ من الإيماءِ الشَّرعيِّ للطَّردِ من رحمةٍ مخصوصةٍ، لاسيَّما إذا اقترن الملعون بكفرٍ ذريعٍ، وجرمٍ فظيعٍ.

غرضُ تنكيرِ ﴿لَعۡنَةً﴾:

تهويلُ اللَّعنةِ وتفظيعُ شأنِها

تنكيرُ لفظِ اللَّعنِ، لتعظيم أمر هذه اللَّعنة وشدَّتها، والمراد: لعنةٌ عظيمةٌ تلحقهم في الدُّنيا والآخرة، فهم يُلعنون من كلِّ لاعنٍ من المسلمين وغيرهم من أهل الملل كما قال اللّه تعالى: ﴿فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلۡيَمِّ مَا غَشِيَهُمۡ ٧٨﴾ [طه: 78]، أي: هول عظيم" والدُّعاء عليهم تهويلٌ لأمرهم وتفظيع له وبعث على الاعتبار بهم والحذر من مثل حالهم"[2].

معنى الواوِ ودلالتها:

لعنةُ الدُّنيا من ورائها لعناتُ الآخرةِ وهي أطمُّ

الواو في قوله تعالى: ﴿وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ﴾ عاطفة لهذه الجملة على موضع في ﴿هَٰذِهِۦ﴾، والمعنى: أنَّهم ألحقوا لعنة في الدُّنيا وفي الآخرة[3]، "﴿وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ﴾ مُتَعَلّق بـ ﴿وَأُتۡبِعُواْ﴾، فعُلِمَ أنَّهُم أُتْبِعوا لعْنَةً يَوْمَ القيامَةِ، لِأنَّ اللَّعْنَةَ الأولَى قُيِّدَتْ بالمَجْرورِ بحَرْفِ في الظَّرْفيَّةِ، فتَعَيَّنَ أنَّ الإتْباعَ في يَوْم القيامَةِ بلَعْنَةٍ أُخْرَى"[4].

(1) الرّاغب، المفردات: (لعن).
(2) الزمخشري، الكشاف: 2/277.
(3) الجمل، الفتوحات الإلهية: 2/487، ودرويش، إعراب القرآن الكريم وبيانه: 4/427.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 12/157.

موقع جملة الاستئنافِ ودلالتها:

قطعُ التَّعلّقات مـزيـدُ عـذابٍ ورفدُ عقاب

وقعت هذه الجملةُ ﴿بِئۡسَ ٱلرِّفۡدُ ٱلۡمَرۡفُودُ﴾ مُسۡتَأۡنَفَةً لِإنۡشاءِ ذَمِّ اللَّعۡنَةِ، وهذا الذَّمُّ يُفصح عن معنىً فظيعٍ للعناتِ الآخرةِ، وهي وإن كانت معلومةً إلّا أنَّ التَّصريحَ بها في هذه الآيةِ يكشفُ عن أثر اللَّعنةِ رفدًا مستمرًّا في عذابِ الآخرةِ، عن حجم العذابِ المستمرِّ، والغضبِ المتواصل، والطَّرد الذي لا رجوع عنه، فهو فقدٌ لكلِّ أملٍ، وافتقادٌ لكلِّ مطمع.

توجيه المجاز بالحذفِ:

اللعنةُ عونُ الظّالمين وعطاءُ المجرمين

ورد الإيجاز في قولِه تعالى: ﴿بِئۡسَ ٱلرِّفۡدُ ٱلۡمَرۡفُودُ﴾ بحَذۡفِ المَخۡصوصِ بالمَدۡحِ، ليَكونَ الذَّمُّ مُتَوجِّهًا لِإحۡدَى اللَّعۡنَتَيۡنِ لا على التَّعۡيينِ لِأنَّ كِلۡتَيۡهِما بَئِيسٌ[1]، والمحذوف هو رفدهم وهو اللَّعنة في الدّارين، دَلَّ عَلَيۡهِ ذِكۡرُ اللَّعۡنَةِ، أيۡ: بِئۡسَ الرِّفۡدُ هيَ أي: اللعنة، لأنَّها سببُ العذابِ، فلولا اللَّعنة الدّالة على كفرِهم وإجرامهم العظيم لما دخلوا النّار، والرِّفۡدُ - بكَسۡرِ الرّاءِ - هو العطاء، أيۡ ما يُرۡفَدُ بهِ، أيۡ: يُعۡطَى. يُقالُ: رَفَدَهُ إذا أعۡطاهُ ما يُعينُهُ بهِ منۡ مالٍ ونَحۡوِهِ[2].

بديعُ جناسِ الاشتقاقِ:

اللَّعناتُ المتلاحقةُ تراصٌّ في العذابِ وتراكُمٌ في العقابِ

الأصل اللُّغويّ لـ﴿ٱلرِّفۡدُ ٱلۡمَرۡفُودُ﴾ واحد وهو الفعل "رفد"، وقد جانست الآية بين المصدر ﴿ٱلرِّفۡدُ﴾ وبين اسم المفعول ﴿ٱلۡمَرۡفُودُ﴾ فقد وقعتا موقعًا حميدًا مقبولًا، ولا تباعد بينهما ألبتَّة، وذلك أنَّ المعنى المراد من هذه الإهانة لفرعون ومتَّبعيه أن يكون هذا العطاء مناسبًا لهم، فبئس العون المعان، والعطاء المعطى لهم لعنة الدُّنيا ولعنة الآخرة والعياذ بالله، وقد "سَأَلَ نافِعُ بۡنُ الأَزۡرَقِ ابۡنَ عَبّاسٍ ﷺ عَنۡ قولِهِ: ﴿بِئۡسَ ٱلرِّفۡدُ ٱلۡمَرۡفُودُ﴾ قالَ: هو اللَّعۡنَةُ بَعۡدَ اللَّعۡنَةِ، قالَ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 12/157.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 12/157.

قَتادَةُ: تَرادَفَتْ عَلَيْهِم لعْنَتانِ منَ اللّه تعالى لعْنَةٌ في الدُّنْيا ولَعْنَةٌ في الآخِرَةِ، وكُلُّ شَيْءٍ جَعَلْتَهُ عونًا لشيء فقد رفدته به"[1].

بلاغة الاستعارة التَّصريحيَّة:

التَّصريح بالمشبَّه به إطماعٌ ظاهرٌ وعذابٌ باطن

استعير الرِّفد وهو بمعنى العطيّة والعونِ للَّعنة، فهو تشبيهُ اللَّعنةِ بالرّفد، وحذف المشبَّه وصرَّح بالمشبَّه به على سبيلِ الاستعارة التَّصريحيَّة الأصليَّة، والمراد بالرفد هنا اللَّعنة الأولى فأرفدت اللعنةُ الأولى باللَّعنة الثّانية وهي ﴿ٱلۡمَرۡفُودُ﴾.

بلاغة الاستعارة التَّهكّميَّة:

التَّعكيس في الاستعمالِ تهكُّمٌ بديعٌ

وفي التَّعبير بالرِّفد المرفودِ عن اللَّعنةِ هو من بابِ التَّهكُّم بهم، وإلّا فاللَّعنة إذلالٌ لهم وإنزال بهم إلى الحضيض الأسفل[2]، فقد سمّيت اللَّعنةُ رفدًا، لأنَّها إذا تبعتهم في الدُّنيا أبعدتهم عن رحمة اللّه ورفدتهم على ما هم فيه من الضَّلال، على التهكُّم[3].

فإطلاقُ الرِّفد على اللعنةِ تعكيسٌ في الاستعمالِ بديعٌ، إذِ المراد رفدُهم بالعذابِ الناشئ عن لعنتِهم من الرَّحمة والعفو، فإطْلاقُ "الرِّفْدِ على اللَّعْنَةِ اسْتِعارَةٌ تَهَكُّمِيَّةٌ، كَقَوْلِ عَمْرِو بْنِ مَعْدِ يكَرِبَ: تَحِيَّةُ بَيْنِهِم ضَرْبٌ وجيعُ"[4].

بلاغةُ الوصفِ والتَّذكير بلفظِ ﴿ٱلۡمَرۡفُودُ﴾:

إذا تعاضدتِ اللَّعنات تكاثرتِ العقوبات

وُصف ﴿ٱلرِّفۡدُ﴾ بقوله تعالى: ﴿ٱلۡمَرۡفُودُ﴾ وحقيقةُ ﴿ٱلۡمَرۡفُودُ﴾: المُعْطَى شَيْئًا، "لِأنَّ كِلْتا اللَّعْنَتَيْنِ مَعْضودَةٌ بالأُخْرَى، فشُبِّهَتْ كُلُّ واحِدَةٍ بمَنْ أُعْطِيَ عَطاءً فهيَ مَرْفودَةٌ، وإنَّما أُجْرِيَ المَرْفودُ على التَّذْكيرِ باعْتِبارِ أنَّهُ أُطْلِقَ عَلَيْهِ رفد"[5]، أي: لم يقل: المرفودة، باعتبارِ

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 9/56.
(2) الجمل، الفتوحات الإلهية: 2/487.
(3) الجمل، الفتوحات الإلهية: 2/487.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 12/157.
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 12/157.

عودتها على معنى لفظٍ مؤنَّثٍ وهو اللَّعنة، وهو الأنسبُ في الاستعمال اللَّفظيِّ الظّاهر، فإنَّ شأنَ الأوصافِ مطابقةُ الموصوفات.

براعةُ مراعاة النَّظير:

ورودٌ بلا ماءٍ، ورفدٌ بلا عطاءٍ، خصّيصى للكبارِ من الفجّار

بين قوله تعالى: ﴿وَبِئۡسَ ٱلۡوِرۡدُ ٱلۡمَوۡرُودُ﴾، وقوله تعالى: ﴿بِئۡسَ ٱلرِّفۡدُ ٱلۡمَرۡفُودُ﴾ ما يسمَّى عند البلاغيين مراعاةَ النَّظير[1]، فقد تمّت المناسبة بين كلِّ جزء في الآيتين من حيث المعنى والصيغة:

أمّا المعنى فقد ناسب الورودُ الرفدَ، والوِرْدُ هو ورود الماء فيعطَى فيه الوارد حظَّه من الرّيِّ، والرِّفد هو العطيَّة ينالها المعطَى فيبرد جوفه، ويستريح قلبه بما أعطي، وجاءت الجملتان على وزن واحد متناسب يؤدّي الغرض المقصود منه.

وأمّا الصيغة فقد جاء في الأولى ﴿ٱلۡمَوۡرُودُ﴾ اسمَ مفعولٍ، وهو مكان الورود، لينال منه الوارد حظَّه فيطفئ عطشه ويبرد كبده، وورد في الثّانية ﴿ٱلۡمَرۡفُودُ﴾، وهو المعان الذي يُعين ﴿ٱلرِّفۡدُ﴾، فصار عونًا معانًا، وعطيَّة معطاة على زنة اسم المفعول أيضًا، فتناسب الوزن مع الفاصلة في الآيتين، فما أعظم نظم الكلام مقصده ومغزاه الذي جاء تصويرًا دقيقًا لحالتي العذاب واللَّعن لفرعون ومن معه.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الرِّفد والإعطاء:

الرِّفد عطاء فيه صلة وتعاون فهو أخصّ من العطاء

الرِّفْد بالكَسْرِ: العَطاءُ والصِّلَةُ، ومعنى تَرافَدوا: أعان بَعْضُهُم بَعْضًا، والمَرْفَدُ والمُرْفَدُ: المَعونَةُ، والرَّفْد: النَّصيبُ[2].

والإعطاء: عطا يعطي عطاءً، والعطو: التناول، والمعاطاة: المناولة، والإعطاء: الإنالة، واختصَّ العطيَّة والعطاء بالصِّلة يعطي من يشاء[3].

(1) وهو أن يجمع في الكلام بين أمر وما يناسبه لا بالتَّضاد، أي يجمع بين أمرين متناسبين أو أمور متناسبة، يُنظر: القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة: 6/19.

(2) ابن منظور، لسان العرب: (رفد).

(3) الرّاغب، المفردات: (عطا).

فالإعطاء هو اتِّصال الشَّيء إلى الآخذ له، ألا ترى أنَّك تعطي زيدًا المالَ ليردَّه إلى عمرو، وتعطيه ليتَّجر لك به، والهبة تقتضي التمليك فإذا وهبته له فقد ملّكته إيّاه، ثم كثر استعمال الإعطاء حتَّى صار لا يطلق إلا على التَّمليك، فيُقال: أعطاه مالًا إذا ملَّكه إيّاه، والإعطاء لا يقتضي إخراج المعطى من الملك"[1].

ولذلك كان لفظ (الرّفد) أنسب في الاستعمال، حيث إنّه يدلّ على الصّلة ورفادة المُعطَى في الأصل.

(1) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 75، 176.

﴿ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيۡكَۖ مِنۡهَا قَآئِمٞ وَحَصِيدٞ ١٠٠﴾

[هود: 100]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

لمّا ذكر تعالى بعض قصص المرسلين، وما حلَّ بأممهم من النَّكال، ذكر هنا العبرة من سرد هذه القصص، لتكون شاهدًا على تعجيل العقوبة للمكذِّبين، وبرهانًا على تأييد الله ونصرته لأوليائه وأنبيائه.

القصص السّابقةُ دليلُ صدق وأمارة نبوّة

وهي دليل على صدق نبوّة محمَّد ﷺ لإخباره عن تلك القصص من غير مطالعة كتب، ولا مدارسة معلِّم ولا تلمذةٍ لأحد، فهي معجزة عظيمة تدلّ على النُّبوّة الصّادقة.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿نَقُصُّهُۥ﴾: القافُ والصّادُ أصْلٌ صَحيحٌ يَدُلُّ على تَتَبُّعِ الشَّيْءِ، منْ ذلك قَوْلُهُمْ: اقْتَصَصْتُ الأثَرَ، إذا تَتَبَّعْتَهُ، ومنْ ذلك اشْتِقاقُ القِصاصِ في الجِراحِ، وذلك أنَّهُ يُفْعَلُ بهِ مثْلُ فِعْلِهِ بالأوَّلِ، فكَأنَّهُ اقْتَصَّ أثَرَهُ[1]، والقَصَصُ: الأخبار المتتبّعة[2]، وقال أبو هلال: "القصص ما كان طويلًا من الأحاديث متحدَّثًا به عن سلف، وسمّي الخبر الطويل قصصًا، لأنَّ بعضه يتبع بعضًا حتَّى يطول، وأصل القصص في العربية: اتِّباع الشيء بالشيء"[3].

والمعنى المراد في الآيةِ: ننزله عليك تباعًا بطريق الوحي.

2) ﴿قَآئِمٞ﴾: القافُ والواوُ والميمُ أصْلانِ صَحيحانِ، يَدُلُّ أحَدُهُما على جَماعَةِ ناسٍ، ورُبَّما اسْتُعيرَ في غَيْرِهِم، والآخَرُ على انْتِصابٍ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قصَّ).
(2) الرّاغب، المفردات: (قصَّ).
(3) العسكريّ، الفروق اللُّغوية، ص: 38.

أو عَزْم[1]، وهو المراد هنا، فمعنى (أقامَ) بالمَكانِ لبث فيهِ واتّخذه وطنًا، والقائم من البناء: المرتفع الثابت، وأقام البناء: عدَّله وأزال عوجه[2]، والمراد من اسم الفاعل ﴿قَآئِمٌ﴾ في الآيةِ، أي: من القرى ما هو عامر باقٍ بنيانه، وقد هلك أهله، فيُرى للاعتبارِ به.

3) ﴿وَحَصِيدٌ﴾: دلَّ الأصل الثُّلاثيُّ (حصد) على معنى قطع الشَّيءِ[3]، والحَصْدُ: جَزُّكَ البُرَّ ونَحْوهُ منَ النَّباتِ، حَصَدَ الزَّرْعَ وغَيْرَهُ منَ النَّباتِ يَحْصِدُه ويَحْصُدُه حَصْدًا وحَصادًا وحِصادًا، والزَّرْعُ مَحْصودٌ وحَصيدٌ وحَصيدَةٌ وحَصَدٌ، بالتَّحْريكِ، والحَصيد: أسافل الزَّرْعِ التي تَبَقَّى لا يَتَمَكَّنُ منْها المنْجل، والحَصيد: المَزْرَعَة لأنها تُحْصَد، والحصيدُ: الذي حَصَدَتْه الأيدي"[4].

والمراد هنا اسمُ المفعول محصود، أي: خراب قد اندثر أهله فلم يبق له أثر كالزرع المحصود.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

قصصُ القرآنِ خبرٌ صادقٌ ومقصد فائقٌ

بعد الانتهاءِ من ذكرِ مجموعةٍ من قصص الأقوام السّابقة، وما كان لهم من جزاءٍ وعقاب، أخبرتِ الآيةُ النَّبيَّ ﷺ عن طريقِ خطابه بقصد الاعتبارِ وإنذارِ قومه، للنَّظر وتأمّل التّاريخ البشريِّ، وأنَّ ما كان للسّابقين سيكون للّاحقين، فإن لم يتداركِ النّاسُ أنفسَهم فسيكونون حدثًا يروى، أو خبرًا يُطوى، وقد جعلت الآية السّابقين على قسمين، منها القائم بالبناءِ من مثل مدائن صالح عليه السلام، فهي آية قائمة للاعتبارِ، لا للغفلة والاغترار، ومنها المحصود الذي لا يُعرف أثره ولا رسمه كعاد، فمن رأى آثارَ قومٍ فليعتبر بهم وليجعلهم

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قوم).
(2) مجمع اللغة العربية بالقاهرة، المعجم الوسيط: (قام) بتصرف.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حصد).
(4) ابن منظور، لسان العرب: (حصد).

قياسًا على الحصيد، والآية من أدلّةِ صدقِ رسول اللّه ﷺ، حيث إنَّ الأخبار الغيبية المتعلّقة بالأمم من آيات الإعجاز الغيبيِّ.

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغة الاستئناف:

العبرةُ مطلبُ النِّهايات والعظةُ تظهر في الغايات

جاء قولُه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيۡكَۖ مِنۡهَا قَآئِمٞ وَحَصِيدٞ﴾ استئنافًا بيانيًّا، "لِلتَّنْويهِ بشَأْنِ الأنْباءِ التي مَرَّ ذِكْرُها"[1]، فإنَّ الانتهاءَ من سردِ أحداثٍ فيها عبرة وعظة، أن يدعو ذلك للاعتبارِ والاتِّعاظ والقيام بالصَّوابِ.

غرضُ استعمالِ اسم الإشارة ﴿ذَٰلِكَ﴾:

العبرُ البليغةُ والمعاني العالية والعظات السامية يُشار إليها بالبعيد

آثر النَّظم استعمال اسم الإشارةِ البعيدِ، وهو يريد: القِصَص التي تَقَدَّمَتْ في السّورةِ، "إشارة إلى ما قُصَّ من أنباء الأمم وبعده باعتبار تقضّيه أو باعتبار ما قيل في غير موضع، والخطاب لرسول اللّه ﷺ"[2].

وغرض الإشارةِ بالبعيدِ أنَّه "لمّا كانت هذه الأخبار على غاية من التَّحذير، لا يعرفه إلا بالغ في العلم، كان من المعلوم قطعًا أنَّه ﷺ لم يأتِ بها إلا من عند اللّه للعلم المشاهد بأنَّه لم يعانِ علمًا ولا ألمَّ بعالم يومًا، هذا مع ما اشتملت عليه من أنواع البلاغة، وتضمّنته من أنحاء الفصاحة، وأومأت إليه بحسن سياقاتها من صروف الحكم وإفادة تفصيلها من فنون المعارف، فلذلك استحقّت أن يشار إليها بأداة البُعد إيماءً إلى بُعد المرتبة وعلو الأمر"[3].

سرُّ استعمالِ لفظ النَّبأ:

يختصُّ النَّبأ بالخبرِ الصادقِ ذي الشَّأنِ العظيم

النَّبأ هو الخبر إلّا أنَّه يوصف بعظمته وعلوِّه كما ورد عنه التَّعبير

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/157.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 12/135.
(3) البقاعي، نظم الدّرر: 9/370.

في القرآن كلِّه، بل هو أكثر استعمالًا، ولمّا كانت قصص الأمم السّابقة من الخطورة بمكان، والحديث عنها يتطلَّب أن يخبر بها صادق لا يجرَّب عليه كذبٌ أو افتراءٌ، استعمل لفظ الأنباء دون الأخبار، والمراد بالنَّبأ هنا الخبر العظيم والخطب الجسيم، وجاء التَّعبير بلفظ النَّبأ، لأنَّ الخبر فيه عظيم الشَّأن، ومن هنا جاء اشتقاق لفظ النَّبيِّ، والنَّبأ: هو الخبر المقطوع بصحَّته وقوَّته، أمّا الخبر فهو قول يحتمل الصِّدق والكذب لذاته، ومن هنا عبّر القرآن الكريم عن جميع الأمور والأخبار المقطوع بصحّتها بالنَّبأ.

معنى الإضافة:

أُضيفت الأنباءُ إلى القرى في قوله تعالى: ﴿أَنۢبَآءِ ٱلۡقُرَىٰ﴾، ومعنى الإضافة التبعيض، أي: أنباءٌ بالغةٌ إليك ولغيرك من القرى المقصوص عليك أنباؤها.

بعضُ الأنباءِ يُغني عن كثيرِها

بلاغةُ المجازِ في لفظِ القرى:

في لفظِ ﴿ٱلۡقُرَىٰ﴾ مجازٌ بحذفِ المضافِ وإقامةِ المضافِ إليه مقامَه، وإطلاقُ القرى دون أن يقولَ أهل القرى، لإفادةِ أنَّ المراد ما يخصُّ الاعتبار منها، وأما أهلها فهم أعمُّ من ذلك، إذ يدخل المؤمن والصالح،

المرادُ بالقرى الأحداث الحالَّةُ فيها لا جميع أهلها

أو أن يكون اللَّفظُ مجازًا مرسلًا علاقته المحلّيَّة، حيث أطلق القُرَى، وأراد أهلَها المهلَكون، لأنَّهم هم المخصوصون بالهلاك، وهم الذين تصل إلينا أخبارهم وأنباؤهم في كونهم مصبَّ الحديث، وأنباؤهم هي محطُّ الاعتبارِ ومدرج الاتّعاظ من هلاكهم وتعذيبهم، مع ما أفادته هذه الإضافة من الإيجاز والاختصار.

بلاغةُ الإعرابِ في توضيحِ الدّلالات:

وقعت هذه الجملة ﴿نَقُصُّهُۥ﴾ خبرًا ثانيًا لاسم الإشارةِ في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡقُرَىٰ﴾، والجارّ والمجرور ﴿عَلَيۡكَ﴾ متعلّقان

اختصاصُ النبي ﷺ بالخطابِ ليكون قدوةَ المؤمنين

بالفعل ﴿نَقُصُّهُۥ﴾، لتخصيص القصص به ﷺ، تطمينًا لقلبه وتسلية له في تكذيب قومه له، والمراد: ذلك القصص من أخبار القرى التي أهلكنا أهلها بكفرهم وتكذيبهم الرُّسل، نقصُّه عليك يا محمد ونخبرك عنها بطريق الوحي.

سرُّ التَّعبير بصيغة المضارع:

تجدُّدُ الاعتبارِ قائمٌ وإن اكتملَ نزولُ القرآنِ

جاء التَّعبير بالفعل المضارع ﴿نَقُصُّهُۥ﴾، وإن كان القصُّ قد تمَّ وانتهى، إلّا أنَّه عبَّر بالمضارع الدّالّ على التَّجدُّد والاستمرار لكون الاعتبارِ من القصص لديه ﷺ ولدى أمَّته متجددًا لا ينقطع، ولاستحضار صورة هذا القصِّ البليغ الذي يتضمَّن العبرة والعظة من أحوال الرسل عليهم السلام، وما وقع من تكذيب أممهم لهم ومعاقبته ﷻ على أفعالهم الشَّنيعة وطبائعهم الرذيلة.

نكتةُ تذكير الضَّمير:

العبرةُ كامنةٌ في مجموعِ القصصِ

آثر النَّظم تذكيرَ الضَّمير في قوله تعالى: ﴿نَقُصُّهُۥ﴾ دون أن يقول: (نقصُّها)، ليرجع إلى اسم الإشارة ﴿ذَٰلِكَ﴾، لا إلى ﴿أَنۢبَآءِ﴾، فجمع النَّظم جميعَ القصص السّابق ذكرها في اسم الإشارةِ، ثم قال: ﴿نَقُصُّهُۥ﴾، أي: نقصّ ذلك المذكور عليك، ونكتةُ ذلك، أنَّ القصص السّابق غايتها واحدةٌ، وهي عبادة اللّه تعالى وحدَه، فعوملت معاملة النَّبأ الواحد، ليحصل الاعتبار من مجموعِها جميعِها.

بلاغةُ الاستئنافِ البيانيِّ:

آثارُ الغابرين عبرةٌ لأولي الأبصار لا غفلةٌ لأهلِ الاغترار

وقعت هذه الجملة ﴿مِنۡهَا قَآئِمٞ وَحَصِيدٞ﴾ مفصولة عن سابقتها لشبه كمال الاتِّصال، فهي مستأنفة استئنافًا بيانيًّا، لأنَّه لمّا ذكر ﷻ أنباء القرى كأنَّ سائلًا سأل: ما حال هذه القرى الآن؟ أباقيةٌ آثارُها أم عفتْ واندثرت؟ فجاء هذا الجواب لبيان حالها، أي: بعضُها باقٍ وبعضها عفا أثره فصار كالزَّرع القائم على سوقه الذي حُصِدَ.

بلاغةُ الاستعارةِ التَّصريحيَّة:

الاعتبارُ بالآثار الدّارِسَة مسلكُ النُّظّار

في قوله تعالى: ﴿قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ﴾ شُبِّه ما بقي من آثار القرى وجدرانها بالزَّرع القائم على سوقه، وشُبِّه ما هلك مع أهله ولم يبقَ له أثر بالزَّرع المحصود بالمناجل، في دقّة تصوير وبراعة نسجٍ، فحذف في اللَّفظين المشبَّه وصرَّح بالمشبَّه به على سبيل الاستعارةِ التَّصريحيَّة التَّبعيَّة، وحسُنت الاستعارةُ بالمقابلةِ.

توجيه نكتةِ التَّقديم والتَّأخير:

الاعتبارُ بالموجودِ لا بالمفقودِ

قُدِّم ذكرُ ﴿قَآئِمٌ﴾ على ﴿وَحَصِيدٌ﴾ من باب تقديم الأصل على الفرع، فلا يقع حصاد إلّا بعد وجود الزَّرع القائم، ولا يقع خراب إلّا بوجود عامر يسقط عليه هذا الخراب، ولا يذكر المفقود إلّا بعد ذكر الموجود، وإلّا كيف تكون العبرة؟ ولا يقع العقاب إلّا على ما يتندَّمُ عليه، وهو من باب التَّرقّي من الأعلى إلى الأدنى، ومن الموجودِ إلى المفقود، ومن الظّاهر إلى الباطن، ومن الحاضر إلى الغائب.

سرُّ اختلافِ التَّعبير بين اسم الفاعل والفعيل:

الأثـر الباقي قائمٌ للاعتبارِ والمندرسُ فقدُه أعظم اعتبار

جاء التَّعبيرُ باسم الفاعل في قوله تعالى: ﴿قَآئِمٌ﴾، وذلك باعتبارِ أنَّ الآثارَ ما زالت قائمةً تُرى، فكأنَّها قائمةٌ ليراها النّاس للاعتبارِ، بينما جاء التَّعبيرُ بصيغةِ فعيل دون مفعول في قوله تعالى: ﴿وَحَصِيدٌ﴾، وهو مجاز عقلي لعلاقة المفعوليَّة، لأنَّ فعيل بمعنى مفعول، والمراد به الزَّرع المحصود، وهو أبلغ في التَّعبير من أن يقول: محصود، لما فيه من الدَّلالة على قطع الأثر وعدم بقائه أبدًا.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الخبر يحتمل الصّدق والكذب لذاته، والنبأ يُطلق على ما هو عَظيم الشَّأن

النَّبأ والخَبَر:

الخبر هو القول الذي يصحّ وصفه بالصدق والكذب، ويكون الإخبار به عن نفسك وعن غيرك[1]، أمّا النَّبأ فلا يكون إلا للإخبار

(1) العسكريّ، الفروق اللغويّة، ص: 210.

بما لا يعلمه المخبر، ويجوز أن يكون الخَبَر بما يعلمه وبِما لا يعلمه، ولِهذا يُقال: تُخبرني عن نفسي، ولا يُقال: تنبئني عَن نَفسي، وكَذلك تقول: تُخبرني عَمّا عِنْدي، ولا تَقول: تنبئني عَمّا عِنْدي، وفي القُرْآن ﴿فَسَيَأْتِيهِمْ أَنبَٰٓؤُاْ مَا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝٦﴾ [الشعراء: 6] وإنَّما استهزؤوا بهِ لأنَّهم لم يعلموا حَقيقَته، ولو علموا ذَلِك لتوقّوه، يَعْني: العَذاب، وقالوا في النَّبأ معناه: عَظيم الشَّأن، ولِهذا يُقال: سَيكون لفُلان نبأٌ، ولا يُقال: خبر بهذا المَعْنى"[1].

القرية والمدينة:

القَرْيَةُ، سُمّيَتْ قَرْيَةً لاجْتِماعِ النّاسِ فيها، والقرية هي المصر الجامع الذي اتَّصلت به الأبنية، وهي اسم للموضع الذي يجتمع فيه النّاس، وللنّاس جميعًا، ويستعمل في كلّ واحد منهما، مأخوذة من القَرْيِ وهو إطعام الطَّعام[2].

القرية تدلّ على التجمّع، والمدينة تدلّ المصر الجامع المحصَّن

والمدينة المصْر الجامع المحصَّن، وتعريف المدينة بالحصن يذكّرنا باتخاذ القدماء قِلاعًا ونحوها مبالغةً في الامتناع والتحصّن من الأعداء، وفيه الفرق بينها وبين القرية التي هي تجمُّع لبيوت لم يُلحظ فيه التحصّن[3]، والأخذ بأسباب الحضارة والمدنيَّة.

(1) العسكريّ، الفروق اللُّغويَّة، ص: 38، 37.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات: (قرى).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (مدن).

﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْۖ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِي يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَۖ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ١٠١﴾ [هود: 101]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

إهلاك القرى عدل لا ظلمَ فيه، والشِّرك ظلمٌ لا عدلَ فيه

"لمّا كان فيما تقدَّم في هذه السَّورة من القصص أشدّ تهديد وأعظم وعيد لمن له تبصرة، صرَّح لغليظي الأكباد بأنَّ الموجب للإيقاع بهم إنَّما هو الظُّلم، فقال تعالى عاطفًا على نحو أن يقال: فعلنا بهم وأنبأناك به: ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ﴾ في شيء منه ﴿وَلَٰكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْۖ﴾ واعتمدوا على أندادهم معرضين عنّا، آمنين من عذابنا، فأخذناهم بالعذاب"[1]، فالمناسبة بين الآية والسّابقة هو نفيُ أن يكون ما وقع للأمم الغابرة ظلمًا، بل هو محض العدل والإنصاف، وذلك أنَّ النّاس إنَّما يحكمون على ما يُشاهدون دون ما يسمعون، لضعفِ أفهامهم، وقلَّة تأمُّلِهم، وهشاشة تدبّرِهم، فقد يُسابق شيطانُ أحدهم لأن يوسوس بأنَّ ما وقع لأولئك ظلمٌ، فجاء النَّفي لدفعِ أيِّ توهّمٍ من قاصرِ العقل، ومعوَّج التَّفكير، ومشوّش الفهم، فباتت المناسبة دفع الأوهام عن آياتِ القرآن.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَغْنَتْ﴾: الغَيْنُ والنّونُ والحَرْفُ المُعْتَلُّ أصْلٌ صَحيحٌ، يَدُلُّ على الكِفايَةِ[2]، "والغنى يكون بالمالِ وغَيره من القوَّة والمعونة وكل ما يُنافي الحاجة، ثمَّ كثر حَتَّى اسْتعْمل بمَعْنى غَني"[3]، وقال الرّاغب:

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 9/370.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (غني).
(3) العسكريّ، الفروق اللُّغوية، ص: 185.

"يقال: غَنَيْتُ بكذا غِنْيانًا وغِناءً، واسْتَغْنَيْتُ وتَغَنَّيْتُ، وتَغانَيْتُ، ويقال: أغْناني كذا، وأغْنَى عنه كذا: إذا كفاه"، ومعنى ﴿فَمَآ أَغْنَتْ﴾ في الآية: فما دفعت عنهم آلهتهم التي يدعونها من دون اللّه، ويدعونها أربابًا من عقاب اللّه وعذابه إذا أحلَّه بهم ربُّهم من شيءٍ، ولا ردَّت عنهم شيئًا منه[1].

2) ﴿تَتْبِيبٍ﴾: تبب: التَّبُّ: الخَسارُ، والتَّبابُ: الخُسْرانُ والهَلاكُ، وتَبًّا لهُ، على الدُّعاءِ، نُصِبَ لأنَّه مَصْدَرٌ مَحْمولٌ على فِعْلِه وتَبًّا تَبيبًا، على المُبالَغَةِ والتَّتْبيبُ: النَّقْصُ، والخَسارُ[2]. ومعنى ﴿وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ﴾: غير تخسيرٍ وتدميرٍ وإهلاك[3].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

سببُ إهلاك الظالمين ظلمُهم لأنْفُسِهم وعنادُهم لأنْفَسِهم

بعد سرد مجموعةٍ من القصص الهادفة في هذه السّورة العظيمة، شرعت الآيات في بيانِ الموقف الحقِّ من تلك الأمم، فذكرتِ الآيات أنَّ اللّه ﷻ لم يعاقب أهل تلك القرى، التي قصَّ أنباءها على رسولِه ﷺ بغير استحقاق، بل جاءتِ العقوبةُ لأنَّهم ظلموا أنفسهم فأشركوا مع اللّه تعالى، ولم يتَّعظوا ولم يُقبلوا على طلب النَّجاةِ، بل أصرّوا وعاندوا، وحين نزول العقابِ لم تدفع عنهم آلهتهم التي يدعونها من دون اللّه شيئًا، عندما وقع المحذورُ، ونزل بساحتهم العذاب، بل زادوهم خسارةً وهلاكًا لا نجاةً ونصرةً.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

معنى الواوِ ودلالتها:

عطفُ الجملِ تتميمٌ للمعنى وتكميلٌ للمقصدِ

الواو في قوله تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ﴾ واوُ العطفِ، وهي عاطفةٌ لهذه الجملةِ على الجملة السّابقة من باب عطف الجمل، مرتِّبة

(1) ابن جرير، جامع البيان: 15/472.
(2) ابن منظور، لسان العرب: (تبب).
(3) ابن جرير، جامع البيان: 15/472.

حكم الله تعالى على هذه القرى، وجاءت بيانًا لمظاهر عدله ﷻ في قضائه وأحكامه، والتَّرتيب هنا تفسيرٌ وبيان لما ارتكبه هؤلاء في حقِّ أنفسهم، فكان سببًا رئيسًا في خسرانهم وبوار أعمالِهم.

بلاغةُ الاحتراس:

دفعُ منكرات الأفهام في إرادةِ المحظورِ من الأوهام

جاء قولُه تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ﴾ احتراسًا بنفي وقوع الظُّلم منه ﷻ على الأمم السّابقة، والمراد من الاحتراس المحافظة على المعنى من كلِّ ما يفسده ويغيِّره، فقد يقع في وهم السّامعين أن الله تعالى عاقب المتقدِّمين بلا ذنب ارتكبوه، فجاءت الجملة المنفيَّة هنا مبيِّنة أنَّه تعالى لا يظلم أحدًا، وأنَّ العقوبةَ تقع بسببِ ظلم النّاس أنفسَهم، والاحتراس تكميل للمعنى وأوفى في تأدية المراد منه.

نكتةُ بناءِ الفعلِ للفاعل:

الإيماءُ إلى عظيم الظُّلم بأن يتولَّى الله نفيَه عن نفسِه

جاء التَّعبير بضمير المتكلم مسندًا إلى فاعله في قولِه تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾، لنفي الظلم عنه سبحانه، دون أن يقول: (وما ظُلموا)، وذلك للمبالغةِ في النَّفي، ولبيان عظيم شأن المجترئ على الله تعالى بعد ذلك في إسنادِ الظُّلم له، فالله ﷻ هو الذي ينفي عن نفسِه العليَّة الظُّلمَ، ففيه تنويهٌ عظيم بشأنِ العدل، وأنَّ الظُّلم جريرةٌ لا يقبله الله من أحدٍ.

دلالة الاستدراك:

كلُّ ظالمٍ سيتجرَّع ظلمَه ولو بعد حين

ورد الاستدراك في قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ بحرف العطف ﴿وَلَٰكِن﴾، لقصر المعذَّبين على كونهم موصوفين بالظُّلم، وهو قصر موصوف على صفة قصرًا إضافيًّا، ونوعه قصرُ قلب، لأنَّه قلبَ ما قد يقع في أوهام بعض الأفهام أنَّ الله تعالى قد ظلمهم، فقلب ذلك الاعتقادَ وأثبت المعنى الصَّحيح، فلمّا نُفي الظُّلم عنه ﷻ، رجع به إلى إثباته لهم لكونه واقعًا منهم على أنفسهم.

بديع الطِّباق:

بين نفي الظُّلم أوّلًا ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ﴾، وإثباته ثانيًا ﴿وَلَٰكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْۖ﴾ طباقُ سلبٍ.

معنى الفاءِ ودلالتها:

العواقب مربوطة بالمقدّمات

الفاء في قولِه تعالى: ﴿فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ﴾ للتَّفريع، حيث" فرَّعَ على ظُلْمِهم أنْفُسَهُم انْتِفاءَ إغْناءِ آلِهَتِهم عَنْهُم شَيْئًا، ووجْهُ ذلك التَّرَتُّبُ والتَّفْريعُ أنَّ ظُلْمَهُم أنْفُسَهُم مَظْهَرُهُ في عِبادَتِهِمُ الأصْنامَ، وهُم لمّا عَبَدوها كانوا يَعْبُدونَها لِلْخَلاصِ منْ طَوارِقِ الحَدَثانِ، ولِتَكونَ لهُم شُفَعاءَ عِنْدَ اللّه، وكانوا في أمْنٍ منْ أنْ يَنالَهُم بَأْسٌ في الدُّنْيا اعْتِمادًا على دَفْعِ أصْنامِهم عَنْهُم، فلَمّا جاءَ أمْرُهُم بضِدِّ ذلك كانَ ذلك الضِّدُّ مُضادًّا لِتَأْميلِهِم وتَقْديرِهِمْ"[1].

فائدةُ استعمال مفردةِ الإغناء:

كثرةُ المعاني دليلُ كثرة المظانّ في إغناءِ الآلهة للأمم السّابقة

أوثر التَّعبير بالفعل ﴿أَغْنَتْ﴾ كنايةً عن الكفاية والمعونة والدَّفع، فهو أشمل الأفعال لجمعه أكثر من معنى، فما استطاعت الآلهة التي كانوا يعبدونها من دونِ اللّه تعالى أن تغنيَهم بالعطاء، أو بردِّ غوائل الزَّمان عنهم، أو أن تدفع عنهم عذاب اللّه تعالى وإهلاكه لهم، أو استئصال شأفتهم فلا سبيل لها إلى ذلك أبدًا، وهذا الثَّراءُ دليلُ بلاغةِ المفردةِ القرآنيّة وتميّز اختيارِها في الكشفِ عن كثرة أوهام الأمم السّابقة فيما يعتقدونه في آلهتهم المزعومةِ.

سرُّ تقديم الجارِّ والمجرور:

كلُّ مبطلٍ يجني جريرة يديه

ورد تقديم الجارِّ والمجرور ﴿عَنْهُمْ﴾ على المسند إليه ﴿ءَالِهَتُهُمُ﴾، لقصره عليهم وتخصيصه بهم دون سواهم، إذ هم من كان يعتقد ذلك، فكلُّ أمَّةٍ تعتقد في آلهتها مجموعةً من الاعتقادات الباطلةِ،

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/158.

فكان مقصودُ التَّخصيص لا إثبات قدرةِ الإغناءِ لغيرِهم، بل للمبالغةِ في التَّهكُّم في حال من كان يعتقد الخيرَ في شيءٍ فوجدَ ضدَّه.

فائدة الوصفِ بالاسم الموصول:

انتظار النَّفع من غير بابه ضلال مبين

جاء وصفُ المسند إليه ﴿ءَالِهَتُهُمُ﴾ بالاسم الموصول ﴿ٱلَّتِي يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ زيادة في تقرير الغرض المسوق له الكلام، وهو عدم غناء هذه الآلهة المزعومة المدعوَّة من دون الله تعالى، لكونها لا تملكُ من أمرها شيئًا، ولا تستطيع لنفسها ضرًّا ولا نفعًا، فكيف بمَن التجأ إليها واتَّخذها وسيلة يظن بها طرق النَّجاة ولاتَ حين مناص، وفيه أيضًا تنبيه على خطأ هؤلاء العابدين الذين ظنّوا النَّفع من غير بابه فضلّوا.

دلالة صيغة المضارعة:

الإقامة على الضلال لا تغني غناءً ولا تردّ غائلة

ورد التَّعبير بالفعل المضارع ﴿يَدۡعُونَ﴾ الدّالّ على التَّجدُّد والاستمرار لعبادتهم هذه الأصنام لأجلِ حكاية الحالة الماضية وتصويرها التي كانوا عليها في الدُّنيا، اعتقادًا منهم أنَّها تعين على تحصيل المنافع ودفع المضارِّ، فإذا هي هباءٌ منثور لا يغني غناءً ولا يردّ غائلة.

بلاغةُ العموم:

العجزُ التّامّ سمةُ كلِّ مزعومٍ

دخل حرف ﴿مِن﴾ على النكرة ﴿شَيۡءٍ﴾، لبيانِ "عموم انتفاء النَّفع والإغناء، أي: لم تغنِ عنهم شيئًا، ولو قليلًا من الإغناء، ولم تنفعهم لا في قليل ولا كثير"[1]، ويدخل ذلك الحسّيّات والمعنويّات، وإغناء الجلبِ وإغناء الدَّفع، فكلُّ ما يصدق دخولُه تحت لفظ ﴿شَيۡءٍ﴾ فلا تُغني عنه.

معنى ﴿لَمَّا﴾ وفائدتها:

معنى ﴿لَمَّا﴾ في قوله تعالى: ﴿لَمَّا جَآءَ أَمۡرُ رَبِّكَۖ﴾ الظَّرفيَّة

(1) طنطاوي، التفسير الوسيط: 7/271.

تمام الحسرة والنَّدامةِ عند تلاشي الآمال الزّائفة ووقوعِ الآلام الرّائجة

الحينيَّة، وهي متعلّقة بالفعل ﴿أَغْنَتْ﴾، أو هي رابطة هلاك هؤلاء بمجيء أمر ربك، والمراد: عذابه تعالى ونقمته بهؤلاء المكذِّبين، وهي "تخْتَصّ بالماضي، فتقتضي جملتين وُجدت ثانيتهما عِنْد وجود أولاهما، نَحْو: لما جاءَني أكرمته، ويُقال فيها: حرف وجود لوُجود"[1]، فأفاد استعمالُ ﴿لَّمَّا﴾ تصوير الحسرةِ عند مجيءِ العذابِ، لأنَّهم إنَّما ينتظرون ويتأمّلون نصرة الآلهة عند مجيءِ العذاب، فلما جاء أمر الله تعالى ولم تُغنِ شيئًا كان المشهدُ مشهدَ حسرةٍ وندامة، وهذا فائدة استعمالِها في هذا السّياق.

بلاغة الاستعارةِ:

عدل الله قادم يراه المعذَّبون ويتخيَّله السّامعون

أُسند المجيءُ للأمر في قوله تعالى: ﴿لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ والأمر لا يجيءُ، وإنَّما الذي يجيء هو الكائن الحيُّ، فشبَّه الأمر بكائنٍ حيٍّ وحذف المشبَّه به وذكر المشبَّه مع ذكرِ لازمٍ من لوازمه، على سبيل الاستعارةِ المكنيَّة الأصليّة، تشخيصًا للعذابِ القادم، وتهويلًا من مآله، وقد يكون من قبيل الاستعارة التَّصريحيّة التَّبعيّة، وذلك بأن يشبّه وقوع العذاب بالمجيءِ، وبلاغة هذا الإسناد كامنة في تصوير المعنوي المعقول بصورة المحسوس دلالة على مجيئه ووقوعه لا محالة إلى جانب ما أفاده التَّعبير بالاستعارة من المبالغة في وصف جرم ما ارتكبه هؤلاء الذين اتَّخذوا آلهة من دون الله تعالى، لدرجة أن العذاب هو من جاءهم تنكيلًا بهم وعقوبة لهم على كثرة جرمهم.

معنى الواو ودلالتها:

نتيجة حاسمة ومتوقَّعة ورادعةٌ لمن ظنَّ خلافَ الواقع والحقِّ

الواو في قوله تعالى: ﴿وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ﴾ عاطفة لهذه الجملة المنفيَّة على الجملة المنفيَّة السّابقة: ﴿فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ﴾، وهي من عطف الجمل على بعضها لتشريكها في حكم

(1) ابن هشام، مغني اللبيب: 1/219.

واحد، فلمّا نفى عنهم أوّلًا عدم نفع الآلهة لهم، عاد ليبيِّن لهم النَّتيجة الحاسمة في أنَّ هذه الآلهة ما زادت هؤلاء العابدين إلّا الخسران والبوار.

نكتةُ تنزيلِ غيرِ العقلاءِ منزلةَ العقلاء:

التَّهكُّمُ المليحُ مناسبٌ للتَّبابِ القبيح

جاء التَّعبير في قوله تعالى: ﴿وَمَا زَادُوهُمْ﴾ بواو الجمع الدّالّة على العقلاء، لكونهم نزَّلوا هذه الآلهة منزلة العقلاء وأعطوها حكمها، فعامل النَّظم الآلهةَ المزعومة معاملة العقلاءِ، زيادةً في التَّهكُّم بمن اعتقد قدرتها على النَّفعِ والدفع، فكان هذا من زيادةِ التَّهكُّم المليح المناسب لزيادةِ التبابِ القبيحِ.

فائدةُ استعمالِ ﴿غَيْرَ﴾:

عبادةُ غير الله خسارةٌ دائمةٌ لا ربحَ فيها

أفاد التَّعبيرُ بـ ﴿غَيْرَ﴾ الزيادةَ في التَّبكيت والخسران والبوار وعدم النَّفع، وكل هذا صار ملازمًا لهم لا ينفكّ عنهم أبدًا، وجُمْلَةُ ﴿وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ﴾ علاوةً وارْتِقاءً على عَدَم نَفْعِهم عِنْدَ الحاجَةِ بأنَّهُم لم يَكُنْ شَأْنُهُم عَدَمَ الإغْناءِ عَنْهُم فحَسْبُ، ولَكِنَّهُم زادَتْهُم تَتْبيبًا وخُسْرانًا، أيْ زادَتْهُم أسْبابَ الخُسْرانِ[1].

توجيه استعمالِ ﴿تَتْبِيبٍ﴾ في سياقِها:

الإصرار على طلب النفع من العجزة عجز وخيم

ظاهِرُ هذا أنَّ أصْنامَهُم زادَتْهُم تَتْبيبًا لمّا جاءَ أمْرُ اللّه، لِأنَّهُ عُطِفَ على الفِعْل المقيّد بـ "لمّا" التَّوْقيتيَّةِ المُفيدَةِ أنَّ ذلك كانَ في وقْتِ مَجيءِ أمْرِ اللّه، وهو حُلولُ العَذابِ بهِمْ، ووجْهُ زيادَتِهِم إيّاهُم تَتْبيبًا حينَئِذٍ أنَّ تَصْميمَهُم على الطَّمَعِ في إنْقاذِهِم إيّاهُم منَ المَصائِبِ حالَتْ دونَهُم ودونَ التَّوْبَةِ عِنْدَ سَماعِ الوعيدِ بالعَذابِ"[2].

توجيه المتشابه اللَّفظي:

التَّبابُ يغلبُ استعمالُه فيما يعلمه المخاطَب بخلاف الخسارة

ورد التَّعبير مع لفظ التَّتبيب بأداة الاستثناء "غير" الدّالة على

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/158.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/158.

الاسميّة والثَّبات والدَّوام، أمّا الآيات الثَّلاث التي ورد التَّعبير فيها بلفظ "الخسار" فناسبها مجيء الاستثناء بـ (ما) و(إلّا)، وهذا الاستثناء يستعمل في الشَّيء الذي يجهله المخاطب وينكره، وهاك بيانها حسب ورودها في القرآن الكريم:

أوّلًا: قوله تعالى في سورة الإسراء: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾﴾ [الإسراء: 82].

لمّا قال الله تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ﴾ فإنَّ المخاطب هنا علم فائدة نزول القرآن بكونه شفاءً ورحمةً للمؤمنين، وكان يقع في خلده ألّا يكون تذييل الآية على ما ورد فإذا به يرى حكمًا لم يكن يتصوَّره المخاطب فقال: ﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾﴾ فهذا الختام جعل المخاطب في حكم الجاهل به بل ينكره لظنِّه ألّا يكون كذلك الحكم، والمراد بـ " الظّالمين" هنا الكافرون المكذِّبون الواضعون للأشياء في غير موضعها مع كونه في نفسه شفاءً لما في الصُّدور من أدواء الرَّيب وأسقام الأوهام، وقوله: ﴿إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾﴾ أي: هلاكًا بكفرهم وتكذيبهم وزيادتهم من حيث إنَّهم كلَّما جدَّدوا الكفر والتَّكذيب بالآيات النّازلة تدريجًا ازدادوا بذلك هلاكًا، وفيه "إيماءٌ إلى أن ما بالمؤمنين من الشُّبه والشكوك المعترية لهم في أثناء الاهتداء والاسترشاد بمنزلة الأمراض، وما بالكفرة من الجهل والعناد بمنزلة الموت والهلاك، وإسناد الزّيادة المذكورة إلى القرآن مع أنَّهم المزدادون في ذلك لسوء صنيعهم باعتبار كونه سببا لذلك، وفيه تعجيب من أمره من حيث كونه مدارًا للشِّفاء والهلاك"[1]. ومن هنا ناسب مجيء الخسار مع أداة الاستثناء (إلّا) الحرفيَّة.

ثانيًا: قوله تعالى في سورة فاطر: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا ﴿٣٩﴾﴾ [فاطر: 39]

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا ﴿٣٩﴾﴾ في الآخرة، وجملة ﴿وَلَا يَزِيدُ﴾ بيان وتفسير لقوله سبحانه: ﴿فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ﴾ ولزيادة تفصيله نُزِّل منزلة المغاير

(1) الآلوسي، روح المعاني: 15/46.

له، ولولا ذلك لفصِلَ عنه، والتَّكرير لزيادة التَّقرير والتَّنبيه على أن اقتضاء الكفر لكلٍّ واحدٍ واحدٌ من الأمرين المقت والخسارة مستقِلٌّ باقتضاء قبحه، ووجوب التَّجنُّب عنه بمعنى أنَّه لو لم يكن الكفر مستوجبًا لشيء سوى مقت اللّه تعالى الكفر ذلك في قبحه وكذا لم يستوجب شيئًا سوى الخسار لكفى"[1].

وورود التَّعبير في الآية بأداة الاستثناء "إلّا" مقترنًا بالخسار الدّالَّة على الحرفيَّة هو الأنسب بسياق النَّظم خفَّة نطق وبراعة أداء.

ثالثًا: قوله تعالى: ﴿قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَٱتَّبَعُواْ مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾﴾ [نوح: 21].

ورد هنا التَّعبير أيضًا بأداة الاستثناء "إلّا" في أمر يجهله المخاطب وينكره ﴿قَالَ نُوحٌ﴾ حيث أعيدَ لفظُ الحكايةِ لطولِ العهدِ بحكايةِ مناجاتِهِ لربِّهِ، أي: قالَ مناجياً لهُ تعالَى: ﴿رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي﴾ أيْ: تمّوا على عصياني فيما أمرتُهُم بهِ مع ما بالغتُ في إرشادِهِم بالعظةِ والتَّذكيرِ ﴿وَٱتَّبَعُواْ مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾﴾ أيْ: واستمرّوا على اتِّباعِ رؤسائِهِم الذينَ أبطرَتْهُم أموالُهُم، وغرّتْهُم أولادُهُم وصارَ ذلكَ سببًا لزيادةِ خسارِهِم في الآخرةِ فصاروا أسوةً لهم في الخسارِ وفي وصفِهِم بذلكَ إشعارٌ بأنَّهُم إنَّما اتَّبعوهم لوجاهتهم الحاصلةِ لهم بسببِ الأموالِ والأولاد لا لما شاهدوا فيهم من شُبهةٍ مُصحّحةٍ للاتباعِ في الجملة"[2].

وهنا ورد التَّعبير بأداة الاستثناء "إلّا" الحرفيَّة في أمر يجهله المخاطب وينكره مع أنَّ المعتقد أنَّ العطاء من المال والولد هو محطَّ الزّيادة، إلّا أنَّ الزّيادة هنا خسران وبوار يتناسب مع "إلّا" وما تضفيه على الأسلوب من دقَّة الأداء.

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

التباب والخسار:

التَبُّ والتَّبابُ: الاستمرار في الخسران، يقال: تَبًّا له وتَبٌّ له، وتَبَبْتُهُ: إذا قلت له ذلك،

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/202 بتصرف.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 9/40.

التَّباب الخسارُ الكلّيُّ والخسار ما كان دونه

ولتضمّن الاستمرار قيل: اسْتَتَبَّ لفلان كذا، أي: استمرّ نحو: ﴿وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ﴾، أي: تخسير"[1]. وهو" مَصْدَرٌ مَحْمولٌ على فِعْلِه من التَّبِّ: أي الخَسارِ. والتَّبابُ: الخُسْرانُ والهَلاكُ، والتَتْبيبُ: النَّقْصُ والخَسارُ"[2].

الخَسار والخَسارة: الضَّلالُ والهَلاكُ، والخاسِرُ الذي ذَهَبَ مالُهُ وعَقْلُهُ أي: خَسِرَهُما، والخاسِرُ الذي وُضِعَ في تِجارَتِهِ، ومَصْدَرُهُ الخَسارَةُ والخَسْرُ، ويُقالُ: خَسِرَتْ تِجارَتُهُ، أي: خَسِرَ فيها[3].

قال الرّاغب: "الخُسْرُ والخُسْران: انتقاص رأس المال، وينسب ذلك إلى الإنسان، فيقال: خَسِرَ فلان، وإلى الفعل فيقال: خسرت تجارته، قال تعالى: ﴿تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ﴿١٢﴾﴾ [النازعات: 12]، ويستعمل ذلك في المقتنيات الخارجة كالمال والجاه في الدُّنيا، وهو الأكثر، وفي المقتنيات النّفسيّة كالصّحّة والسّلامة، والعقل والإيمان، والثّواب، وهو الذي جعله اللّه تعالى الخسران المبين، ويجوز أن يكون ذلك إشارة إلى تعاطي ما لا يكون به ميزانه في القيامة خاسرًا، وكلا المعنيين يتلازمان، وكلُّ خسران ذكره اللّه تعالى في القرآن فهو على هذا المعنى الأخير، دون الخسران المتعلِّق بالمقتنيات الدّنيويّة والتّجارات البشريَّة"[4].

(1) الراغب الأصفهاني، المفردات: (تبَّ).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (تبَّ).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (خسر).
(4) الرّاغب، المفردات: (خسر).

﴿وَكَذَٰلِكَ أَخۡذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلۡقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌۚ إِنَّ أَخۡذَهُۥٓ أَلِيمٞ شَدِيدٌ ١٠٢﴾ [هود: 102]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الانتقال من الإخبارِ عن الماضي إلى التَّحذير من المستقبل

"لَمّا أخْبَرَ الرَّسولَ ﷺ في كِتابِهِ بما فعَلَ بأُمَم مَنْ تَقَدَّمَ منَ الأنْبياءِ لمّا خالَفوا الرُّسُلَ ورَدّوا عَلَيْهِم منْ عَذابِ الاسْتِئْصالِ، وبَيَّنَ أنَّهُم ظَلَموا أنْفُسَهُم فحَلَّ بهِمُ العَذابُ في الدُّنْيا، قالَ بَعْدَهُ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخۡذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلۡقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌۚ﴾ فبَيَّنَ أنَّ عَذابَهُ ليْسَ بمُقْتَصِرٍ على مَنْ تَقَدَّمَ، بَلِ الحالُ في أخْذِ كُلِّ الظّالِمينَ يَكونُ كَذلك"[1]، فالمناسبة بين الآيةِ والسّابقة أنَّ السّابقة بيانٌ لما كان، وهذه الآية تنبيهٌ لما سيكون ممَّن يقتفي أثرَ السّابقين، فهي سنَّة مستمرَّة لا تتبدَّل ولا تتغيَّر ولا تتحوَّل، فمن ظنّ خلافَ ذلك فقد خالف العقل والاعتقاد والحقَّ.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَخۡذُ﴾: الهَمْزَةُ والخاءُ والذّالُ أصْلٌ واحِدٌ تَتَفَرَّعُ منْهُ فُروعٌ مُتَقارِبَةٌ في المَعْنَى[2]، والأخْذُ: حوز الشيء وتحصيله، وذلك تارةً بالتَّناول وتارةً بالقهر ويقال: أخذته الحُمّى، ويعبّر عن الأسير بالأخيذِ والمأخوذ، والاتّخاذ افتعال منه، ويتعدَّى إلى مفعولين، ويجري مجرى الجعل فتخصيص لفظ المؤاخذة تنبيه على معنى المجازاة والمقابلة لما أخذوه من النِّعم فلم يقابلوه بالشكر، ويقال: فلان مأخوذ، وبه أخْذَةٌ من الجن[3]، ومعنى الأخذ في الآية: إنزال العقوبة بالظّالمين.

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 9/59.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (أخذ).
(3) الرّاغب، المفردات: (أخذ).

❁ المَعْنى الإجْمالِيُّ:

سنَّةُ الله تعالى في الظّالمين لا تتبدَّل ولا تتحوَّل

تُبيِّن الآيةُ أنَّ ما كان للسّابقين هو سنَّةٌ إلهيَّة، أي: ومثل ذلك الأخذ بالعذاب، وكما أهلكنا أولئك القرون الظّالمة المكذِّبة لرسلنا، كذلك نفعل بأشباههم، فنأخذ القرى ونهلكها وهي في حالة الظُّلم الشَّديد، إنّ أخذه وجيعٌ شديد لا يرجى منه الخلاص، وهو إنذار وتحذير من سوء عاقبة الظُّلم ومعنى: إنَّ أخذه أليم شديد، أي: عقوبته لأهل الشِّرك موجعة غليظة.

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

معنى الواو ودلالتها:

عاقبةُ الظّالمين واحدةٌ

الواو في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ عاطفة لهذه الجملة الخبريّة على الجملة الخبريّة في قوله تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ﴾، لتشريكهما في حكم إعرابيٍّ واحد واتّفاقهما في أداء المعنى المراد وهو بيان عاقبة الظّالمين ومآلهم وسوء مصيرهم.

غرضُ التَّشبيه في الآية:

ردْعُ الظّالمين الكافرين عن الاستمرارِ في غيِّهم

معنى التشبيه في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾، أي: ومثل ذلك الأخذ والإهلاك للظّالمين السّابقين يكون أخذ ربِّك وعقابه لكل ظالم يأتي من بعدهم، وينهج نهجهم، "والتَّشْبيهُ في الكَيْفيَّةِ والعاقِبَةِ"[1]، أي: كيفية أخذ الظّالمين، وعاقبةُ ذلك في الدُّنيا والآخرةِ، والغرض من ذلك ارتداعُ المخاطَبين عن الظُّلم والكفر، واتِّقاء عقابِ الله وعذابِه.

دلالة اسم الإشارة:

شدَّة البطش سنَّةُ الله تعالى مع الأمم الظّالمة

جاء التَّعبيرُ باسم الإشارةِ للبعيدِ في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ "للإشارَة إلى المَذْكور مِن اسْتِئْصالِ تِلْكَ القُرَى، وهو ما يَدُلُّ عَلَيْهِ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/160.

قَوْلُه: ﴿أَخْذُ رَبِّكَ﴾، والتَّقْديرُ: وكَذلك الأَخْذُ الذي أَخَذْنا بِهِ تِلْكَ القُرَى أَخْذُ رَبِّكَ إذا أَخَذَ القُرَى"[1].

نكتةُ استعمال لفظ الأخذ:

مباغتةُ الظّالمين لونُ عذابٍ

التَّعبير بالأخذ في قوله تعالى: ﴿أَخْذُ رَبِّكَ﴾ يومئُ إلى العقاب المباغت السَّريع، ومن هنا يقال: أخذ فلانًا الموتُ إذا نزل به بسرعة وقوّة، فلهذا التَّعبيرِ إيحاءٌ بسرعةِ العقابِ، ومفاجأته للمعاقَبين، فبينما هم غارقون في ضلالهم ومتلبّسون في ظلمهم إذ بهذا العذاب يغشاهم ويستأصلهم إلى جانب ما لهم من العذاب يوم القيامة.

بلاغةُ الاستعارةِ في لفظ الأخذ:

الاستعارةُ أبلغ لما فيها من الإحاطةِ والتَّمكُّن

استعير لفظُ الأخذ في قوله تعالى: ﴿أَخْذُ رَبِّكَ﴾ للهلاك والعقاب، فصرَّح بالمشبَّه به وهو الأخذ، وحذف المشبّه على سبيل الاستعارة التصريحيّة الأصليّة، وهو أبلغ من الحقيقة، لما فيه من الإحاطة والتَّمكُّن والمباغتة.

معنى الإضافة:

عقابُ الرَّبِّ عنايةٌ بالعباد المظلومين

أُضيف لفظ الأخذ إلى لفظ الرُّبوبيَّة في قوله تعالى: ﴿أَخْذُ رَبِّكَ﴾، للإخبار عمّا جرت به سنَّةُ اللّه تعالى في إهلاك مَنْ تقدَّم من الأمم، ومعنى الإضافة هو حرف (من)، أي: أخذٌ من ربِّك كائنٌ.

وإضافة الرَّب إلى ضميره ﷺ تكريمٌ وتعظيمٌ وتذكير له "بوصف الإحسان ما له إليه من البرِّ، لئلا يخاف على قومه من مثل هذا الأخذ"[2].

نكتةُ اختيارِ لفظِ الرُّبوبيَّة:

الرُّبوبيَّة تقتضي عقاب الظّالم وتربية المحسن

اختير لفظ الرُّبوبيَّة في قوله تعالى: ﴿أَخْذُ رَبِّكَ﴾ دون استعمال الأسماء الدّالّةِ على القهر والجبروت وهي في الظّاهر أليق، للإشارةِ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/160.
(2) البقاعي، نظم الدّرر: 9/378.

"إلى أنَّه سبحانه يربّيك أحسن تربية في إظهارك على الدّين كلّه وانقياد العظماء لأمرك، وذلِّ الأعزّة لسطوتك، وخفض الرؤوس لعلوّ شأنك، فلا تتكلّف أنت شيئًا من قصد إجابتهم إلى إنزال آية أو ترك ما يغيظ من إنذار ونحو ذلك"[1]. والتعبير بالرَّب يعكس ما كانوا عليه من ظلم حتى أغضبوا الرحمن، وفيه تحذير من الغرور في سعة رحمة الله تعالى فالله تعالى قال: ﴿۞نَبِّئۡ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ٤٩ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلۡعَذَابُ ٱلۡأَلِيمُ ٥٠﴾ [الحجر: 49 - 50].

دلالة إذا الظَّرفيَّة:

الاعتبارُ بالأخذِ عند تحقُّقِه

(إذا) في قوله تعالى: ﴿إِذۡ أَخَذَ ٱلۡقُرَىٰ﴾ "ظَرْفٌ لِما مَضَى، وهو إخْبارٌ عَمّا جَرَتْ بِهِ عادَةُ اللّه في إهْلاكِ مَنْ تَقَدَّمَ منَ الأُمَم"[2]، فالظَّرفُ يُعيِّن وقت الاعتبارِ وهو وقت تحقُّقِ الأخذِ بالعقابِ الجازم، والعذابِ الهالكِ.

توجيهُ المجازِ في لفظِ القرى:

المجـاز إمّـا أن يكـونَ حـذفًا أو مرسلًا

المراد بالقرى في قوله تعالى: ﴿إِذۡ أَخَذَ ٱلۡقُرَىٰ﴾ أهلها، فهي على المجازِ بحذفِ المضاف وإقامةِ المضاف إليه، والتَّعبير بالقرى أبلغُ من ذكر الأهل، وذلك لدلالتِها على العموم والشُّمولِ، فيدخل فيها البنيان والأشجار وكل ما تعلَّق به أهلُها.

أو نجعلها على سبيل المجاز المرسل لعلاقة المحلّية، حيث أطلق المحلّ وأريد الحالُّ فيها.

فائدةُ الجملةِ الحاليَّة:

الظُّلمُ علَّةُ كلِّ عقوبةٍ وعذاب

جملة ﴿وَهِيَ ظَٰلِمَةٞ﴾ حاليَّةٌ من ﴿ٱلۡقُرَىٰ﴾، والواو فيها واو الحال، "وفائدة هذه الحال، الإشعار بأنَّ عقابهم كان بسبب ظلمهم، وفي ذلك ما فيه من التَّحذير لكل ظالم لا يبادر بالإقلاع عن ظلمه قبل

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 9/378.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/261.

فوات الأوان، والمراد بالظُّلم ما يشمل الكفر وغيره من الجرائم والمعاصي التي نهى الله عنها، كالكذب وشهادة الزّور، وأكل أموال النّاس بالباطل"[1].

بلاغة الفصل:

بيانُ الجملِ تحذير شديد اللهجة لكل مقيم على الظُّلم

فُصِلَت جملةُ ﴿إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ عن السّابقةِ لكمال الاتِّصال لكونها بيانًا وتفسيرًا لمضمون الجملة السّابقة، فالجملة بيَّنت أنَّ أخذ الله تعالى موجعٌ وشديد ولا خلاصَ منه، وهو إنذارٌ من سوء عاقبة الظُّلم، وفيها إشارة إلى وجه الشَّبه في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾، إذ فيها معنى التَّعليل، أي: مثل ذلك الأخذ العظيم أخذ ربك عند أخذه القرى، لأنَّه إذا أخذها فأخذه أليم شديد.

توجيه المجاز:

مجازٌ عقليٌّ لعلاقةِ المفعوليَّة

في قوله تعالى: ﴿أَلِيمٌ﴾ مجازٌ عقليٌّ لعلاقة المفعوليَّة، والمعنى: مؤلم قاطع للآمال مالئ البدن والرُّوح بالنَّكال والهوان، وعبَّر بأليم دون مُؤلِم لأنَّ المبالغة حاضرةٌ في السّياق، فهو مؤلمٌ للمعذَّبين لأنَّه أليم.

نكتة الجمع بين صفتي الألم والشِّدة:

اجتماعُ الألم والشِّدَّةِ إهلاكٌ بليغٌ وعذابٌ لديغٌ

الجمع بين هاتين الصِّفتين ﴿أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ فيه من المبالغة في التَّهديد والتَّحذير ما فيه، ودلَّ على أنَّ هذا العذاب بلغ الغاية في الألم والشِّدة، ومن تفكّر في هذا ولم يعمل له حسابًا تعكَّرت حياته وفارقته لذّاته، قال الإمام الفخر الرازي: "فوصَفَ ذلك العَذابَ بالإيلام وبالشِّدَّةِ، ولا مُنَغِّصَةَ في الدُّنْيا إلّا الألَمَ، ولا تَشْديدَ في الدُّنْيا وفي الآخِرَةِ، وفي الوهْم والعَقْلِ إلّا تَشْديدَ الألَم"[2]، فبين الصِّفتين تعاضدٌ وتناصرٌ في إظهار معنى هذا العذاب، فليس كلُّ أليم شديدًا، ولا كلُّ شديدٍ أليمًا، فإذا اجتمعتا في شيءٍ واحدٍ أهلكتْه إهلاكًا بالغًا.

(1) طنطاوي، التفسير الوسيط: 7/272.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 9/59.

بلاغةُ التَّذييل:

التَّعريضُ بالمخاطَبين إلى يوم القيامةِ

المَقصودُ من التَّذييلِ ﴿إِنَّ أَخۡذَهُۥٓ أَلِيمٞ شَدِيدٌ﴾ التَّعريضُ بتَهديدِ مُشرِكي العَرَبِ منْ أهْلِ مَكَّةَ وغَيْرِها، وفيه من إنذار الظّالم ما لا يخفى كما ورد في الصحيحين عنه ﷺ: «إنَّ اللّه ليُمْلي لِلظّالم حَتَّى إذا أخَذَهُ لم يُفْلِتْهُ» قالَ: ثُمَّ قَرَأ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخۡذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلۡقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌۚ إِنَّ أَخۡذَهُۥٓ أَلِيمٞ شَدِيدٌ﴾[1].

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الأخذ والانتقام:

الأخذ فعلٌ عامٌّ أمّا الانتقام فهو ردٌّ على ظلمٍ سابقٍ متوعَّدٍ

الأَخْذُ: حوز الشيء وتحصيله، وذلك تارةً بالتَّناول وتارةً بالقهر، ويقال: أخذته الحمَّى، ويعبّر عن الأسير بالأخيذِ والمأخوذ، والاتِّخاذ افتعال منه، ويعدَّى إلى مفعولين، ويجري مجرى الجعل فتخصيص لفظ المؤاخذة تنبيه على معنى المجازاة والمقابلة لما أخذوه من النِّعم فلم يقابلوه بالشُّكر[2].

والأخذ مصدر أخذت بيدي، ويستعار فيقال: أخذه بلسانه إذا تكلَّم فيه بمكروه[3].

الانتقام من نقم: نقمت الشَّيء ونقمته إذا نكرته إمّا باللِّسان وإمّا بالعقوبة، والنِّقمة: العقوبة[4]، والانتقام سلب النِّعمة بالعذاب، والانتقام نقيض الإنعام، والنِّقمة لا تكون إلّا جزاء وعقوبة، وأصلها شدَّة الإنكار تقول: نقمت عليه الأمر إذا أنكرته عليه وقد تسمّى النِّقمة بلاء[5].

الأليم والشديد:

الألَمُ: الوجَعُ، والأليمُ: المُؤلِمُ الموجِعُ، والعَذاب الأليمُ: الذي يَبْلغ

(1) البخاري، الجامع المسند الصحيح، كتاب التفسير، بابُ قولهِ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخۡذُ رَبِّكَ﴾ [هود: 102].
(2) الرّاغب، المفردات: (أخذ).
(3) العسكريّ، الفروق اللُّغويَّة، ص: 144.
(4) الرّاغب، المفردات: (نقم).
(5) العسكريّ، الفروق اللُّغويَّة، ص: 254 بتصرف.

إيجاعُهُ غايَةَ البُلوغِ، وإذا قُلْتَ عَذاب أليمٌ فهو بمَعْنَى مُؤلِم، والتَّألُّم: التَّوجُّع، والإيلامُ: الإيجاعُ"[1].

والشَّدُّ: العقد القوي، يقال: شَدَدْتُ الشّيء: قوّيت عقده، والشِّدَّةُ تستعمل في العقد، وفي البدن، وفي قوى النّفس، وفي العذاب، والشَّديدُ والمُتَشَدِّدُ: البخيل فالشَّديدُ يجوز أن يكون بمعنى مفعول، كأنَّه شدّ، كما يقال: غلّ عن الأفضال ويجوز أن يكون بمعنى فاعل، فالمُتَشَدِّدُ كأنه شدّ صرّته وشَدَّ فلان واشْتَدَّ: إذا أسرع"[2].

الأليم العذابُ البالغُ راحةَ الأبدانِ فمنغِّصها، والشديد المستحكم من المعذَّب

(1) العسكريّ، الفروق اللُّغويَّة، ص: 254 بتصرف.
(2) الرّاغب، المفردات: (شدَّ).

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْآخِرَةِۚ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾ وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾﴾

[هود: 103 - 104]

مُناسَبَةُ الآيَتينِ لما قَبْلَهُما:

عذابُ الدُّنيا لحفظِ المؤمنين لا لمجازاة الظّالمين

هاتان الآيتان متّصلتان بما قبلهما "من أجل بيان العبرة من قصص الأمم الظّالمة، فبعد أن ذكر اللّه تعالى العبرة من إهلاك الأمم الظّالمة في الدُّنيا، ذكر هنا العبرة بجزاء الآخرة لكل من الأشقياء والسُّعداء، وهي إقامة الدَّليل على صدق الأنبياء وصدق وعد اللّه في الآخرة، والتَّرهيب من عصيان اللّه والكفر به"[1]، فالمناسبة بين هاتين الآيتين والسّابق هو إردافُ الحديثِ عن عذابِ الآخرةِ بعد الحديثِ عن عذاب الدُّنيا، وفيه دفع توهّم أنَّ العذابَ النّازلَ بالنّاس في الدُّنيا هو جزاؤهم، بل هو بدايتهم، ولعذاب الآخرة أشدّ وأبقى.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مَّشْهُودٌ﴾: "الشّينُ والهاءُ والدّالُ أصْلٌ يَدُلُّ على حُضورٍ وعِلْمٍ وإعْلامٍ"[2]، والشهيد: هو الذي لا يَغيبُ عَنْ عِلْمه شيءٌ، والشَّهادَةُ خَبرٌ قاطعٌ وقَوْلُهُ تعالى: ﴿وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾، أي: مَحْضورٌ يَحضُره أهل السماءِ والأرض، ومثْلُهُ: ﴿إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾﴾ [الإسراء: 78]"[3].

2) ﴿لِأَجَلٍ﴾: الأجل الوقت المضروب لانقضاء الشَّيء، ولا يكون

(1) الزحيلي، التفسير المنير: 12/147.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (شهد).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (شهد).

أجلًا بجعل جاعل، وما علم أنه يكون في وقت فلا أجل له إلا أن يحكم بأنَّه يكون فيه، وأجلُ الإنسانِ هو الوقت لانقضاء عمره، وأجل الدَّين محله وذلك لانقضاء مدة الدَّين، وأجل الموت وقت حلوله، وذلك لانقضاء مدَّة الحياة قبله، فأجل الآخرة: الوقت لانقضاء ما تقدَّم قبلها قبل ابتدائها[1].

3) ﴿مَّعۡدُودٖ﴾: من عَدَّ "والعَدَدُ: آحاد مركّبة، وقيل: تركيب الآحاد، وهما واحد فذِكْرُهُ للعَدَدِ تنبيه على كثرتها، والعَدُّ ضمُّ الأعْدادِ بعضها إلى بعض، ويتجوّز بالعَدِّ على أوجه، يقال: شيءٌ مَعْدودٌ ومحصور، للقليل مقابلة لما لا يحصى كثرة، وعلى ذلك: ﴿إِلَّآ أَيَّامٗا مَّعۡدُودَةٗ﴾ [البقرة: 80]، أي: قليلة، لأنّهم قالوا: نعذّب الأيّام التي فيها عبدنا العجل، ويقال على الضِّدِّ من ذلك، نحو: جيشٌ عَديدٌ: كثيرٌ، وإنهم لذو عَدَدٍ، أي: هم بحيث يجب أن يُعَدّوا كثرةً، فيقال في القليل: هو شيء غير مَعْدودٍ، والعِدَّةُ: هي الشَّيء المَعْدودُ" والمعنى: أجل محدود منتهٍ[2].

المَعْنى الإجْماليُّ:

"إنَّ في ذلك القصص المتقدِّم المتضمِّن إهلاك الكافرين وإنجاء المؤمنين لدليلًا واضحًا وحجَّة قويَّة على صدق وعد الله في الآخرة، لمن يؤمن بها ويخاف عذابها، فيتَّقي الكفر والظُّلم والعصيان في الدُّنيا لأنَّه يعلم أنَّ ما أخبر به الأنبياء من البعث والجزاء صدق لا شكَّ فيه، وأنَّ من عذَّب الظّالمين في الدُّنيا قادر أن يعذّبهم في الآخرة، وأنَّ ما أصاب المجرمين في الدُّنيا ما هو إلا أنموذج لعذاب الآخرة"[3].

العبرةُ العظمى والآيــة الـكبرى خــوفُ الآخــرةِ ورجاءُ الجنَّة

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويَّة، ص: 289.
(2) الرّاغب، المفردات: (عدَّ).
(3) الزحيلي، التفسير المنير: 12/147.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بَلاغَةُ الاستئنافِ:

مقصودُ المتقدِّم الاعتبارُ للقادم

قولُه تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْآخِرَةِ﴾ استئنافٌ، فاللّٰه تعالى أخبر في هذه عن الحشر وما يكون فيه، إشارةً "إلى تحقّق أمر الآخرة، وأنّه مما ينبغي الاهتمام به ردًّا للمقطع على المطلع، وإعلامًا بأنه لا فرق بينه وبين ما تحقّق إيقاعه من عذاب هذه الأمم في القدرة عليه"[1].

غرضُ التأكيدِ:

تنبيهُ المخاطَبين على الحقيقِ بالاعتبارِ

لمّا كان النَّبأ العظيم والقصص والمواعظ التي مرَّت حكاية عن أحوال المتقدِّمين من الأمم وما وقع لهم من عذاب الدُّنيا علامة عظيمة ودلالة قاطعة، وكان وجود الشَّيء عدمًا بالنِّسبة إلى ما نفع له به، نُزِّل غير المنكر منزلة المنكر، فجاء توكيد الخبر لهم بحرفِ ﴿إِنَّ﴾ واللّام، لردِّ هذا الإنكار، فجعل اللّٰه تعالى عذاب الدُّنيا علامةً دالَّةً على عذاب الآخرة.

بلاغةُ استعمال اسم الإشارة:

الاعتبارُ في منزلةٍ عاليةٍ لا يبلغُها إلا المؤمنون

أوثر التَّعبير بـ (ذا) مقترنًا بلام البُعد وكاف الخطاب، إشارةً إلى الأخْذِ المُتَقَدِّم، من تعذيبِ الأمم السّابقةِ، وإيثارُ البعيد لبيانِ أنَّه في منزلةٍ بعيدةٍ وعظةٍ وعبرةٍ تحتاج إلى نظرٍ وإجلال.

نكتةُ اختيارِ ﴿لَآيَةً﴾:

شأنُ الآيةِ التَّنبيه على مواضع الاعتبار

اختار النَّظمُ لفظَ ﴿لَآيَةً﴾ إيماءً إلى أنَّ التَّعبير بالآية دومًا يُلقي في النَّفس العبرة المترتِّبة على أمرٍ قد سبق، وما سبق هنا إهلاك القرى الظّالمة.

غرضُ تنكير ﴿لَآيَةً﴾:

نُكِّرَ لفظُ ﴿لَآيَةً﴾ للدّلالةِ على التَّعظيم، أي: آية عظيمة، ودلالة

(1) البقاعي، نظم الدرر: 9/372.

بيِّنة، وإنَّما كان آية له لأنَّه إذا نظر إلى إهلاكه للظّالمين إهلاكًا عامًّا بسبب ظلمهم وإنجائه للمؤمنين، علم أنَّه قادر على ما يريد، وأنَّه لا بُدَّ أن يجازي كلًّا بما فعل[1].

آيــةٌ عظيمةٌ لعموم نفعِها

بلاغة التخلُّص في المطلعِ:

قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً﴾ تَخلُّصٌ إلى مَوْعِظَةِ المُسْلِمينَ والتَّعْريضِ بمَدْحِهِم بأنَّ مثْلَهُم مَنْ يَنْتَفِعُ بالآياتِ ويَعْتَبِرُ بالعِبَرِ، كَقولِهِ: ﴿وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [العنكبوت: 43][2]، وقد جاء التَّعريض في قوله تعالى: ﴿لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْـَٔاخِرَةِۚ﴾ قال الزمخشري – رحمه الله –: لعبرة له، لأنَّه ينظر إلى ما أحلّ الله بالمجرمين في الدُّنيا، وما هو إلا أنموذج ممّا أعدَّ لهم في الآخرة، فإذا رأى عظمه وشدّته اعتبر به عظم العذاب الموعود، فيكون له عبرة وعظة ولطفًا في زيادة التَّقوى والخشية من الله تعالى. ونحوه: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ ﴿٢٦﴾﴾ [النازعات: 26][3].

المـؤمـنـون هم المعتبِرون بنزولِ العذابِ

فكأنَّه في هذه الآية يُعرِّضُ بمدح الخائفين الوجلين حين يطرق آذانهم هلاك الأمم السّابقة فينزجرون وترعوي أنفسهم وقلوبهم وجلًا وخشية من لحوق هذا العذاب بهم.

سرُّ إيثار لفظِ الخوف:

آثر النَّظم ذكرَ الخوفِ في قولِه تعالى: ﴿لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْـَٔاخِرَةِۚ﴾، والمقصود التَّصديق بعذابِ الآخرة، "لما بينهما من اللُّزوم، ولأنَّ الاعتبار إنَّما ينشأ من الخوف، وذكر هذا القيد لأنَّ مَن أنكر الآخرة وأحال فناء هذا العالم أسند الحوادث إلى أسباب فلكيّة وأوضاع مخصوصة، فلم يعتبر بذلك أصلًا، ولم ينزجر عن

مَن خاف أدلج

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 9/372.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/160.
(3) الزمخشري، الكشاف: 2/292.

الضَّلالة قطعا، وقال: إنَّ ما وقع إنَّما وقع لهاتيك الأسباب والأوضاع لا للمعاصي التي اقترفتها الأمم المهلَكة"[1].

فائدة الاعتراض:

التَّنويه بيوم القيامةِ

جاءت هذه الجملة ﴿ذَٰلِكَ يَوۡمٞ مَّجۡمُوعٞ لَّهُ ٱلنَّاسُ﴾ معترضةً للتَّنويه بشأن هذا اليوم، حتَّى إن المتكلِّم يبتدئ كلامًا لأجل وصفه، وهذه الجملة خبر عن حشر الخلائق يوم القيامة.

بلاغةُ تذكير اسم الإشارةِ وتَكراره:

تعظيمُ زمانِ القيامةِ وتهويلُه

"الإشارَة بـ ﴿ذَٰلِكَ﴾ إلى الآخِرَة لأنَّ ماصدقها يَوْمُ القيامَةِ، فتَذْكيرُ اسْم الإشارَةِ مُراعاةٌ لِمَعْنَى الآخِرَةِ"[2]، قال البقاعي: "وزاد في الإشارة إلى تهويله بإعادة اسم الإشارة في قوله: ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي اليوم العظيم الذي يكون فيه عذاب الآخرة"[3].

بلاغةُ استعمالِ الاسميَّةِ:

ثبوتُ الجمعِ يومَ القيامةِ لا فرارَ منه

دلَّ اسمُ المجموعِ في قوله تعالى: ﴿مَّجۡمُوعٞ لَّهُ﴾ على الثّبوت والاستمرار، فدلّ ذلك على ثبات معنى الجمع لليوم، وأنَّه لا بُدَّ أنْ يكون ميعادًا مضروبًا لجمع الناس، قال الطّاهر بن عاشور: "ومَجيءُ الخَبَرِ جُمْلَةً اسْميَّةً في الإخْبارِ عَنِ اليَوْم يَدُلُّ على مَعْنَى الثَّباتِ، أيْ: ثابِتٌ جَمْعُ اللّه النّاسَ لِأجْلِ ذلك اليَوْم، فيَدُلُّ على تَمَكُّنِ تَعَلُّقِ الجَمْعِ بالنّاسِ، وتَمَكُّنِ كَوْنِ ذلك الجَمْعِ لِأجْلِ اليَوْم حَتَّى لُقِّبَ ذلك اليَوْمُ (يوم الجمع) في قولِهِ تعالى: ﴿يَوۡمَ يَجۡمَعُكُمۡ لِيَوۡمِ ٱلۡجَمۡعِۖ﴾ [التغابن: 9]"[4].

وقال الآلوسي: "عدل عن الفعل - وكان الظّاهر - ليدلّ الكلام على ثبوت معنى الجمع، وتحقُّق وقوعه لا محالة وأنَّ النّاس لا ينفكّون عنه فهو أبلغ من قوله تعالى: ﴿يَوۡمَ يَجۡمَعُكُمۡ لِيَوۡمِ ٱلۡجَمۡعِۖ﴾ [التغابن: 9]

(1) الآلوسي، روح المعاني: 12/138.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتنوير: 12/159.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 9/381.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/159، 160.

وإيضاحه أنَّ في هذا دلالة على لزوم الوصف ولزوم الإسناد، وفي ذلك على حدوث تعلُّق الجمع بالمخاطبين واختصاصه باليوم ولهذا استدركه بقوله: الجمع فأضاف اليوم إليه ليدلّ على لزومه له وإنَّما الحادث جمع الأوّلين والآخرين دفعة"[1].

فائدة تقديم الجارّ والمجرور:

علَّةُ جمعِ النّاس الحساب

اللّام في قوله تعالى: ﴿لَّهُ﴾ لامُ التَّعليل، والمعنى: مجموع النّاس لأجله، ويقدّم المسند على المسند إليه لتخصيصه به وقصره عليه، فالجمع لهذا اليوم لخصوصيّته، إذ هو مجمعُ الخلائق يُجمَعون فيه لأجل محاسبتهم ومجازاتهم على أعمالهم.

فائدة عطف جملة ﴿وَذَٰلِكَ يَوۡمٞ مَّشۡهُودٞ﴾:

وغدًا تنكشف الحقائق وتُشْهَدُ الخفايا

"عَطْفُ جملة ﴿وَذَٰلِكَ يَوۡمٞ مَّشۡهُودٞ﴾ على جملة ﴿ذَٰلِكَ يَوۡمٞ مَّجۡمُوعٞ لَّهُ ٱلنَّاسُ﴾، لِزيادَةِ التَّهْويلِ لِلْيَوْم بأنَّهُ يُشْهَدُ، وطويَ ذِكْرُ الفاعِلِ إذِ المُرادُ يَشْهَدُهُ الشّاهِدونَ، إذْ ليْسَ القَصْدُ إلى شاهِدينَ مُعَيَّنينَ، والإخْبارُ عَنْهُ بهذا يُؤْذِنُ بأنَّهُم يَشْهَدونَهُ شُهودًا خاصًّا وهو شُهودُ الشَّيْءِ المَهولِ، إذْ منَ المَعْلوم أنْ لا يَقْصِدَ الإخْبارَ عَنْهُ بمُجَرَّدِ كَوْنِهِ مَرْئيًّا لكِنَّ المُرادَ كَوْنُهُ مَرْئيًّا رُؤْيَةً خاصَّةً، ويَجوزُ أنْ يَكونَ المَشْهودُ بمَعْنَى المُحَقَّقِ أيْ مَشْهودٌ بوُقوعِهِ، كَما يُقالُ: حَقٌّ مَشْهودٌ، أيْ عَلَيْهِ شُهودٌ لا يُسْتَطاعُ إنْكارُهُ، واضِحٌ لِلْعِيانِ ويَجوزُ أنْ يَكونَ المَشْهودُ بمَعْنَى كَثيرِ الشّاهِدينَ إيّاهُ لِشُهْرَتِهِ، كَقولِهِمْ: لِفُلانٍ مَجْلِسٌ مَشْهودٌ"[2].

نكتةُ إيثار لفظ الشّهادة:

الشّهادة تقتضي العلم بالمشهود فتقتضي الحضور

من الإمكان أن يقال في غير القرآن: يوم معروف أو مشهور، أو معلوم أو محضور، أمّا المعروف فهو معروف وإنْ عرفه واحد، والمشهور هو المعروف عند الجماعة الكثيرة، ومن هنا يقال: هذا معروف عند

(1) الآلوسي، روح المعاني: 12/138.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/160.

زيد، ولا يقال: مشهور عنده، ولكن مشهور عند القوم، أمّا المعلوم فالمشهور أخصُّ منه، وذلك أنَّ الشّهادة علم بوجود الأشياء لا من قبل غيرها، والشّاهد نقيض الغائب في المعنى، فالشّهادة علم يتناول الموجود، والعلم يتناول الموجود المعدوم. وأمّا المحضور فإنَّ الحضور لا يقتضي العلم بالمحضور ألا ترى أنَّه يقال: حضره الموت ولا يقال شهده الموت إذ لا يصحّ وصف الموت بالعلم، وأمّا الإحضار فإنَّه يدلّ على سخط وغضب، والشّاهد للشَّيء يقتضي أنَّه عالم به، ولهذا قيل: الشّهادة على الحقوق لأنَّها لا تصحّ إلا مع العلم بها وذلك أنَّ أصل الشّهادة الرؤية وقد شاهدتّ الشَّيء رأيته، والشَّهد: العسل على ما شوهد في موضعه، وقال بعضهم: الشّهادة في الأصل إدراك الشَّيء من جهة سمع أو رؤية فالشّهادة تقتضي العلم بالمشهود[1].

دلالةُ استعمالِ صيغةِ المفعولِ:

استعمال صيغةِ المفعول في قوله تعالى: ﴿مَّشْهُودٌ﴾ لما فيه من الدّلالة على ثبوت معنى الشّهادة لليوم، والمراد بالمشهود: الذي كثُر شاهدوه، والغرض من ذلك، وصف هذا اليوم بالهول والعظم وتميّزه من بين الأيّام، بأنَّه اليوم الذي يشهد فيه الخلائق الموقف لا يغيب عنه أحد[2].

تهويلُ يوم القيامةِ بكثرةِ الشُّهود استقصاءً لا غلبةً

قال الزَّمخشري: "فإن قلت: لأيّ فائدة أوثر اسم المفعول على فعله؟ قلت: لما في اسم المفعول من دلالة على ثبات معنى الجمع لليوم، وأنَّه يوم لا بدّ من أن يكون ميعادًا مضروبًا لجمع النّاس له، وأنَّه الموصوف بذلك صفة لازمة، وهو أثبت أيضًا لإسناد الجمع إلى النّاس، وأنَّهم لا ينفكّون منه يَوْمٌ مَشْهودٌ أي: مشهود فيه، فاتَّسع في الظَّرف بإجرائه مجرى المفعول به.

(1) العسكريّ، الفروق اللُّغويَّة، ص: 97، 98 بتصرف.
(2) طنطاوي، التفسير الوسيط: 7/273.

فإن قلت: فما منعك أن تجعل اليوم مشهودًا في نفسه دون أن تجعله مشهودًا فيه، كما قال الله تعالى: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهۡرَ فَلۡيَصُمۡهُۖ﴾ [البقرة: 185]؟ قلت: الغرض وصف ذلك اليوم بالهول والعظم وتميّزه من بين الأيام، فإن جعلته مشهودًا في نفسه فسائر الأيّام كذلك مشهودات كلّها، ولكن يجعل مشهودًا فيه حتَّى يحصل التَّميّز كما تميّز يوم الجمعة عن أيّام الأسبوع بكونه مشهودًا فيه دونها، ولم يجز أن يكون مشهودًا في نفسه، لأنَّ سائر أيّام الأسبوع مثله يشهدها كلُّ مَن يشهده"[1].

موقع جملة الاعتراضِ في النَّظم:

بيانُ سببِ تأخيرِ البعثِ للحسابِ لا للنِّسيان

وقعت هذه الجملةُ ﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٖ مَّعۡدُودٖ﴾ "مُعْتَرِضَةً بين جملة ذلك ﴿يَوۡمٞ مَّجۡمُوعٞ لَّهُ ٱلنَّاسُ﴾ وبين جملَة ﴿يَوۡمَ يَأۡتِ لَا تَكَلَّمُ نَفۡسٌ﴾. والمَقْصودُ: الرَّدُّ على المُنْكِرينَ لِلْبَعْثِ مُسْتَدِلّينَ بتَأْخيرِ وُقوعِهِ في حينِ تَكْذيبِهِم بهِ يَحْسَبونَ أنَّ تَكْذيبَهُم بهِ يَغيظُ اللّه تعالَى، فيُعَجِّلُهُ لهُم جَهْلًا منْهُم بمَقام الإلَهيَّةِ، فبَيَّنَ اللّه لهُم أنَّ تَأْخيرَهُ إلى أجَلٍ حَدَّدَهُ اللّه لهُ منْ يَوْم خَلْقِ العالَم كَما حَدَّدَ آجالَ الأحْياءِ، فيَكونُ هذا كَقولِهِ تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٢٩ قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوۡمٖ لَّا تَسۡتَـٔۡخِرُونَ عَنۡهُ سَاعَةٗ وَلَا تَسۡتَقۡدِمُونَ ٣٠﴾ [سبأ: 29 - 30]"[2].

سرُّ استعمال صيغة المضارع:

تجديدُ مفهومِ التَّأخيرِ في أذهانِ المخاطَبين

يأتي التَّعبير بالفعل المضارع ﴿نُؤَخِّرُهُۥٓ﴾ في موضع الماضي للدّلالة على التَّجدُّد والاستمرار في أذهانِ المخاطَبين، مع استحضار الصّورة الماضية لهذا المؤخَّر، ومجيء الفعل بالنون للتعظيم والتَّشريف.

(1) الزَّمخشري، الكشاف: 2/293، 292.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/160.

معنى اللّام ودلالتها:

انتظارُ الأجلِ لأجلٍ عندَ الله معلوم

"الأَجَلُ غايَةُ الوقْتِ في مَحَلِّ الدَّيْنِ وغَيْرِهِ"[1]، وهو الوقت المضروب لانتهاء مدَّة معيَّنة، فأجل الإنسان: هو الوقت المحدَّد لانقضاء عمره[2]. واللّام في قوله تعالى: ﴿لِأَجَلٍ﴾، إمّا أن تكون للتَّوقيتِ، وقيل: تدل على الغرض وأنَّ الحكمة اقتضت التَّأخير ولذا عدل عن إلى إليها[3].

نكتةُ إيثارِ لفظِ ﴿مَّعْدُودٍ﴾:

المعدود المضروب لانتهاء مدّة لا زيادة فيها ولا نقصان

المراد بالمعدود، المعلوم عند الله تعالى، فهو على حذف مضاف ومعناه: إلّا لانتهاء مدَّة معدودة، والعَدَدُ: آحاد مركّبة، وقيل: تركيب الآحاد، وهما واحد، فذِكْرُهُ للعَدَدِ تنبيهٌ على كثرتها، والعَدُّ ضمُّ الأعْدادِ بعضها إلى بعض، ويتجوّز بالعَدِّ على أوجه، يقال: شيءٌ مَعْدودٌ ومحصور، للقليل مقابلة لما لا يحصى كثرة، ويقال على الضّدّ من ذلك، نحو: جيشٌ عَديدٌ: كثيرٌ، وإنَّهم لذو عَدَدٍ، أي: هم بحيث يجب أن يُعَدّوا كثرةً، فيقال في القليل: هو شيء غير مَعْدودٍ"[4]، فلمّا قال معدود، فُهِم أنَّ المراد هو عدُّ الأيّام بدقَّةٍ.

قال ابن منظور: "وإنَّما سُمّي الحِسابُ في المُعامَلاتِ حِسابًا، لأنَّهُ يُعلم بهِ ما فيهِ كِفايةٌ ليْسَ فيهِ زيادةٌ على المقْدار ولا نُقْصان والمَعْدود مَحْسوبٌ وحَسَبٌ أيضًا، وهو فعَلٌ بمَعْنَى مَفْعولٍ، مثْلُ نَفَضٍ بمَعْنَى مَنْفوضٍ، ومنْهُ قَوْلُهُم ليَكُنْ عَمَلُكَ بحَسَبِ ذلك، أي على قَدْرِه وعَدَدِه"[5]. فاستعمال المعدود هنا أبلغ لكونه مقيّدًا بمدَّة منتهية معيَّنة لا زيادة فيها ولا نقصان.

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (أجل).
(2) طنطاوي، التفسير الوسيط: 7/274.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 12/139، 138.
(4) الرّاغب، المفردات: (عدَّ).
(5) ابن منظور، لسان العرب: (حسب).

الكناية في قوله: ﴿مَّعۡدُودٖ﴾:

أُطْلِقَ التَّعبير هُنا بلفظ الأجل المعدود كِنايَةً عَن المُعَيَّن المَضْبوطِ بحَيْثُ لا يَتَأَخَّرُ ولا يَتَقَدَّمُ لِأَنَّ المَعْدودَ يَلْزَمُهُ التَّعَيُّنُ، أو كِنايَةً عَن القرب[1]، "فالعَدُّ كناية عن القلة، وقد يجعل كناية عن التَّناهي، والأجل عبارة عن جميع المدَّة المعيَّنة للشَّيء، وقد يطلق على نهايتها"[2].

كلُّ معدودٍ قريبٌ بشرى للمظلومين

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الشُّهود والحضور والتَّحقُّق:

الشُّهود: الشهيد هو الذي لا يَغيبُ عَنْ عِلْمه شيءٌ، والشَّهادَة خَبرٌ قاطعٌ[3]، والحُضورُ: نَقيضُ المَغيب والغَيْبةِ[4].

الشُّهودُ حضورٌ مرتبطٌ بالعلم، والحضورُ لا يُشترط فيه العلم، والتَّحقق إثباتُ المشهود به

فالمشهود يقتضي حضورًا قويًّا بعلْم، وذلك أن أصل الشَّهادة إدراك الشيء بالرؤية أو السّماع، فالشهادة تقتضي العلم بالمشهود، والحضور لا يقتضي العلم بالمحضور، ألا ترى أنَّه يقال: حضره الموت، ولا يقال: شهده الموت، إذ لا يصحّ وصف الموت بالعلم، وأمّا الإحضار فإنَّه يدلّ على سخط وغضب، والشاهد قوله تعالى: ﴿ثُمَّ هُوَ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلۡمُحۡضَرِينَ ٦١﴾ [القصص: 61].

أمّا التَّحقّق: فأصل الحَقّ: المطابقة والموافقة، والحقيقة تستعمل تارة في الشَّيء الذي له ثبات ووجود، وتارة تستعمل في الاعتقاد كما تقدّم، وتارة في العمل وفي القول[5].

وممّا سبق يتبين دقّة البلاغة القرآنية في اصطفاء لفظ ﴿مَّشۡهُودٞ﴾ للدّلالة على الحضور الجماعيّ، والإدراك الحقيقي، واليقظة التامّة.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/160.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 12/139، 138 بتصرف.
(3) ابن منظور، لسان العرب: (شهد).
(4) ابن منظور، لسان العرب: (حضر).
(5) الرّاغب، المفردات: (حقّ) بتصرف.

المعدود والمحسوب:

المعدود هو الأجل المعلوم المحدَّد بمدَّة معيَّنة فلا يزيد عليها ولا ينقص عنها ولا يتأخّر، ويقال: شيء معدود ومحصور للقليل مقابلة لما لا يُحصَى كثرة[1].

والمحسوب: من الحساب، وإنَّما سُمّي الحِسابُ في المُعامَلاتِ حِسابًا، لأنهُ يُعلم بهِ ما فيهِ كِفايةٌ ليْسَ فيهِ زيادةٌ على المقْدار ولا نُقْصان، والمَعْدود مَحْسوبٌ وحَسَبٌ أيضًا، وهو فعَلٌ بمَعْنَى مَفْعولٍ، مثْلُ نَفَضٍ بمَعْنَى مَنْفوضٍ، ومنْهُ قَوْلُهُمْ: ليَكُنْ عَمَلُكَ بحَسَبِ ذلك، أي على قَدْرِه وعَدَدِه"[2]. فالمعنى المحوريّ لحسب هو جمع ما هو منتشر في حيّز يضمّه حتى يمتلئ به[3].

المعدود: هو الأجل المعلوم المحدَّد جملةً وتفصيلًا والمحسوب: جمع لما تحصّل

كما أنَّ المعنى المحوريّ لعدَّ هو توالي جنس الشيء متّصلًا منضبطًا فيكثر، ومنه عَدّ الشيء يَعُدّه أحصاه؛ أي: بيَّنَ وضبط كثرة أفراده واتّصال طولها، إذ العدّ يتمّ بسَردها واحدًا واحدًا ﴿فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ﴿٨٤﴾﴾ [مريم: 84] يعني أنَّ الأنفاس تُحْصَى إحصاءً ولها عدد معلوم ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ۗ﴾ [إبراهيم: 34]، وفي الإحصاء حَصْرُ الشيء عَدًّا ببلوغ آخر ما هو منه، في حين أنَّ العدّ سَرْدُ بعض الأشياء تِلْو بعضها (الموجود منها) ولا يستلزم بلوغ آخر جنسها[4].

فالملاحظ أنّ المعدود والمحسوب لفظان متقاربان في المعنى، غير أنّ للسّياق القرآنيّ مرآته الصافية في استخلاص الفروق الدقيقة بين الألفاظ، فالمعدود فيه معنى المقدَّر جملةً وتفصيلًا، والمحسوب هو المجموع.

(1) الرّاغب، المفردات: (عدَّ) بتصرف.
(2) ابن منظور، لسان العرب: (حسب).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (حسب).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (عدَّ).

﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ١٠٥﴾

[هود: 105]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

بعد ذكرِ الموعدِ يتجلَّى ذكرُ ما فيه

اتَّصلت هذه الآية "بما قبلها من أجل بيان العبرة من قصص الأمم الظّالمة، فبعد أن ذكر اللّه تعالى العبرة من إهلاك الأمم الظّالمة في الدُّنيا، ذكر هنا العبرة بجزاء الآخرة لكل من الأشقياء والسُّعداء، وهي إقامة الدليل على صدق الأنبياء وصدق وعد اللّه في الآخرة، والتَّرهيب من عصيان اللّه والكفر به"[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تَكَلَّمُ﴾: "الكافُ واللّامُ والميمُ أصْلانِ: أحَدُهُما يَدُلُّ على نُطْقٍ مُفْهِمٍ، والآخَرُ على جِراحٍ"[2]، أي: تتكلَّم من الكلام، وهو النُّطق بما يجولُ في النَّفس وما تضمره القلوب، قال الرّاغب: الكلْمُ: التأثير المدرك بإحدى الحاسّتين، فالكَلامُ: مدرك بحاسّة السّمع، والكَلْمُ: بحاسّة البصر فالكَلامُ يقع على الألفاظ المنظومة، وعلى المعاني التي تحتها مجموعة[3]، والمقصود في الآيةِ هو الكلام المنطوق، أي: لا تتكلّمُ نفسٌ بشيءٍ إلا بإذن اللّه تعالى.

2) ﴿شَقِيٌّ﴾: "الشّينُ والقافُ والحَرْفُ المُعْتَلُّ أصْلٌ يَدُلُّ على المُعاناةِ وخِلافِ السُّهولَةِ والسَّعادَةِ"[4] شقا: الشَّقاءُ والشَّقاوةُ، بالفَتْحِ: ضدُّ السَّعادَةِ، "[5]، والشقيّ هو الذي دخل النّار خالدًا فيها.

(1) الزحيلي، التفسير المنير: 12/146.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (كلم).
(3) الرّاغب، المفردات: (كلم).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (شقو).
(5) ابن منظور، لسان العرب: (شقا).

3) ﴿وَسَعِيدٌ﴾: "السّينُ والعَيْنُ والدّالُ أصْلٌ يَدُلُّ على خَيْرٍ وسُرورٍ"[1]، والسَّعيد هو الشَّخص الذي لازمته السَّعادة فصار متلبِّسًا بها، ولازمته الأحوال الحسنة الكريمة وذلك بسبب إيمانه وما يفعله من الصّالحات، قال الرّاغب: "السَّعْدُ والسَّعادَةُ: معاونة الأمور الإلهيّة للإنسان على نيل الخير، ويضادّه الشّقاوة، يقال: سَعِدَ وأسْعَدَهُ اللّه، ورجل سَعيدٌ، وقوم سُعَداءُ، وأعظم السّعادات الجنّة"[2]، والسعيد هو الذي دخلت في قلبه السَّعادة الأبديَّة في جنّة اللّه الخالدة.

❁ المَعْنى الإجْمالِيُّ:

يوم يأتي يوم القيامة، لا يتكلّم أحدٌ إلا بإذن اللّه تعالى، فهو صاحب الأمر والنَّهي، ولا يملك أحدٌ فيه قولًا ولا فعلًا إلا بإذنه، فمن أهل الجمع من النّاس في ذلك اليوم شقيٌّ معذَّبٌ لكفره وعصيانه، ومنهم سعيدٌ منعَّمٌ في الجِنانِ لإيمانِه واستقامته، أخبر تعالى: ﴿فَرِيقٌ فِي ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي ٱلسَّعِيرِ ۝٧﴾ [الشورى: 7]، فمن أريد له الشَّرُّ فعملَ الشَّرَّ فهو من أهل الشَّقاوة، ومن أريد له الخيرُ فعملَ الخيرَ، فهو من أهل السَّعادة، وكلٌّ ميسّرٌ لما خُلق له[3].

يوم القيامة تخرسُ الألسنُ وينقسمُ النّاسُ أشقياءَ وسعداء

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

علَّةُ الفصل:

فُصِلَت هذه الآيةُ ﴿يَوْمَ يَأْتِ﴾ عن سابقتِها لكمالِ الاتِّصال، لكونها بيانًا وتفسيرًا لها، فجاءت "تَفْصيلًا لِمَدْلولِ جملة ﴿ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ﴾، وبَيَّنَتْ عَظَمَةَ ذلك اليَوْم في الشَّرِّ والخَيْرِ تَبَعًا لذَلِك التَّفْصيل، فالقصد الأوَّلُ منْ هذه الجملة هو قَوْلُهُ: ﴿فَمِنْهُمْ

بيانُ الآخرةِ بأنَّها سعدٌ للمؤمنين وشقاءٌ للكافرين

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سعد).
(2) الرّاغب، المفردات: (سعد).
(3) الزحيلي، التفسير المنير: 12/148.

شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾ وما بَعْدَهُ، وأمّا ما قَبْلَهُ فتَمْهيدٌ لهُ أفْصَحَ عَنْ عَظَمَةِ ذلك اليَوْم"[1].

معنى ﴿يَوْمَ﴾ ودلالةُ استعمالِها:

اليوم بمعنى الحين وهو حينٌ مهولٌ عظيم

معنى ﴿يَوْمَ﴾ منْ قَوْله تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِ﴾ مُسْتَعْمَلٌ في مَعْنَى (حينَ) أو (ساعَةَ)، وهو اسْتِعْمالٌ شائعٌ في الكَلام العَرَبيِّ في لفظ (يَوْم) و(لَيْلَة) تَوسُّعًا بإطْلاقِهما على جُزْءٍ منْ زَمانِهما، إذْ لا يَخْلو الزَّمانُ منْ أنْ يَقَعَ في نَهارٍ أو في ليْلٍ، فذلك يَوْمٌ أو ليْلَة فإذا أطلقها هذا الإطْلاقَ لم يُسْتَفَدْ منْهُما إلّا مَعْنَى (حينَ) دونَ تَقْديرٍ بمُدَّةٍ ولا بنَهارٍ ولا ليْلٍ، فقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِ﴾ مَعْناهُ: حينَ يَأْتي، وضَميرُ (يَأْتي) عائدٌ إلى ﴿يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾، وهو يَوْمُ القيامَةِ، والمُرادُ بإتْيانِهِ وُقوعُهُ وحُلولُهُ"[2].

غرض تقديم الظَّرف على عامله:

من وسائل النَّجاة أن تحسنَ قَدْرَ الشيء حقَّ قدره

قُدِّم الظَّرف: ﴿يَوْمَ﴾ على عامله للاهتمام به، ولفت النَّظر إليه، والمقام يستدعي تقديمه إذ هو مقام تفخيم شأن هذا اليوم وتعظيم أمره ليحذره النّاس ويقدروا له قدره.

توجيه قراءتي ﴿يَأْتِ﴾، (يأتي):

يومٌ جمع بين المختلفاتِ خفَّةً وثقلًا، كلٌّ بحسبه

قرأ أبو عمرو وعاصم وحمزة ﴿يَوْمَ يَأْتِ﴾ "بغير ياء، ونحوه قولهم: لا أدر، حكاه الخليل وسيبويه، وحذف الياء والاجتزاء عنها بالكسرة كثير في لغة هذيل"[3].

قال الآلوسي: "ووجه حذفها في الوقت التشبيه بالفواصل، ووصلًا ووقفًا التخفيف"[4]. وكأنّي أرى أنَّ حذفها جاء تخفيفًا

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/161.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/161.
(3) الزمخشري، الكشاف: 2/293.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 12/140.

وتسريعًا لعرض موقف القيامة وما فيه من أهوال فهو يمرُّ سريعًا على السُّعداء بطيئًا ثقيلًا على الأشقياء.

وأمّا مَن قرأها بإثبات الياء فإنَّما نظر إلى إشباع الفعل بإثبات يائه مع كسره تصويرًا لهول الموقف وطوله، وما يعتريه من الحساب والجزاء وإثبات الأعمال ونفيها والإشهاد على ذلك أمامه ﷻ فناسب ذكر الياء واختلف في مرجع ضمير الإتيان فقيل: للجزاء، وقيل يعود عليه ﷻ، وفيه من تفخيم هذا اليوم وتعظيمه ما فيه، فمَن قرأها مثبتة فلمجيئها على أصل الفعل فلا ناصب ولا جازم هنا.

فائدة الاستئناف في قوله: ﴿لَا تَكَلَّمُ﴾:

قطعُ الأنفاسِ واكتفاءٌ بالأهماس

وردت هذه الجملة ابتدائيَّة مستأنفة استئنافًا بيانيًّا جوابًا عن سؤال في الجملة السّابقة ماذا يحدث من إتيان هذا اليوم؟ فجاء الجواب: ﴿لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ﴾، ليُزيلَ هذا الإبهام ويجيب عن هذا السُّؤال، والمعنى: لا تتكلَّم نفس حين يأتي هذا اليوم المشهود الذي جمع اللّه فيه الخلائق للعرض والحساب، وهو اليوم الذي أخَّره اللّه وضربه فانقضى أجله كما اقتضته الحكمة الإلهيَّة لبدء الفصل والجزاء.

دلالة حذف التّاء:

الإشارةُ إلى حذفِ الكلام عند إتيانِ الحساب

حُذفت إحدى التاءين في الفعل (تتكلَّم) تخفيفًا، و"إشارة إلى أنَّ شدَّة هوله تمنع أهل الموقف الكلام أصلًا في مقدار ثلثيه، ثم يؤذن لهم في الكلام في الثُّلث الآخر بدلالة المحذوف وقرينة الاستثناء، فإنَّ العادة أن يكون المستثنى أقلّ من المستثنى منه ﴿لَا تَكَلَّمُ﴾ ولو أقلَّ كلام بدلالة حذف التّاء"[1]، وهذا من باب الإشارةِ التي تُستملح ولا يُطلبُ لها الدَّليل القاطع.

(1) البقاعي، نظم الدرر: 9/275، 274.

توجيه قراءة ﴿لَا تَكَلَّمُ﴾ بتشديد التاء في الوصل بالمد المشبع:

شَدَّةٌ تصوِّرُ شِدَّةَ

قرأ البزّيُّ بمدّ (لا) وإشباعها مع تشديد التّاء من الفعل ﴿تَكَلَّمُ﴾ تصويرًا لهول هذا اليوم وتفخيمًا لأمره، وكأنَّه يعرض للسّامع هذا العرض مع لفت ذهنه إلى ما يلي هذا المدَّ، ثم يوقع هذا الذِّهن على أمر مهمٍّ هو عدمُ التَّكلُّم والتعرُّض إلّا بإذنه تعالى، وهذا توجيهٌ مبنيٌّ على الإشارةِ المليحةِ.

سرُّ تنكير ﴿نَفْسٌ﴾:

صمتٌ يعمُّ الجميع

أفاد تنكيرُ لفظِ ﴿نَفْسٌ﴾ العمومَ، حيث "يَعُمُّ جَميعَ النُّفوسِ لِوُقوعِهِ في سياقِ النَّفْيِ، فشَمِلَ النُّفوسَ البَرَّةَ والفاجِرَةَ، وشَمِلَ كَلامَ الشّافِعِ وكَلامَ المُجادِلِ عَنْ نَفْسِهِ، وفُصِّلَ عُمومُ النُّفوسِ باخْتِلافِ أحْوالِها، ولَكِنَّهُ جاءَ على هذا النَّسَجِ لِأجْلِ ما تَخَلَّلَ ذلك مِنْ شِبْهِ الِاعْتِراضِ بقولِهِ: ﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ﴾ إلى قولِهِ: ﴿بِإِذْنِهِۦۚ﴾ وذلك نَسيجٌ بَديعٌ"[1].

توجيه الاستثناء:

الكلام ممنوعٌ كلُّه يوم القيامةِ بقطعِ النَّظر عن سببِه

قيل إنَّ الاستثناء في قوله تعالى: ﴿إِلَّا بِإِذْنِهِۦۚ﴾ "من أعمّ الأسباب، أي: لا تكلّم نفس بسبب من الأسباب إلا بسبب إذنه تعالى وهو متَّصل، وجُوّز أن يكون منقطعًا، ويقدّر ما لا يتناول المستثنى، أي: لا تكلّم نفس باقتدارٍ من عندها إلا بإذنه تعالى، ولا يخفى أنَّ هذا استثناء مفرغ[2].

توجيه استشكالٍ:

هنا وقفة: "فإن قيل: كيف نجمع بين هذه الآية التي تنفي الكلام عن كلِّ نفسٍ إلّا بإذن الله تعالى وبين قوله تعالى: ﴿۞يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا﴾ [النَّحل: 111]؟

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/161.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 12/140.

فالجواب: أنّ في يوم القيامة مواقف متعدِّدة، ففي بعضها يجادل النّاس عن أنفسهم، وفي بعضها يكفّون عن الكلام إلّا بإذن الله، وفي بعضها يُختم على أفواههم وتتكلَّم أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون، وفي هذه الآية الكريمة إبطال لما زعمه المشركون من أنَّ أصنامهم ستدافع عنهم، وستشفع لهم يوم القيامة"[1].

قال الزمخشري: "فإن قلت: كيف يوفّق بين هذا وبين قوله تعالى: ﴿*يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَن نَّفْسِهَا﴾ [النحل: 111]، وقوله تعالى: ﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ۝٣٥ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ۝٣٦﴾ [المرسلات: 35- 36]، قلت: ذلك يوم طويل له مواقف ومواطن، ففي بعضها يجادلون عن أنفسهم، وفي بعضها يكفّون عن الكلام فلا يُؤذن لهم، وفي بعضها يؤذن لهم فيتكلّمون، وفي بعضها: يختم على أفواههم وتتكلَّم أيديهم وتشهد أرجلهم"[2].

معنى الفاء:

تفريعُ المعاني على المعاني

الفاء في قوله: ﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾ للتَّفريع، أي: تفريع أهل الشَّقاوة وأهل السَّعادة على النَّفس التي لا تتكلّم، فلا أحد يتكلَّم إلا بإذن الله تعالى، فتُحاسب النُّفوس المحاسبة العادلة، بين شقيٍّ وسعيد.

فائدة تقديم المسند:

النّاسُ في الآخرةِ قسمانِ لا ثالثَ لهما

قُدِّم المسند ﴿فَمِنْهُمْ﴾ على المسند إليه في قوله تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾، لتخصيص أنواع النّاس يوم القيامة بأنَّ منهم الشَّقيَّ والسَّعيد، وفيه ردٌّ على المعتزلة بأصلهم في المنزلة بين المنزلتين، فمآل الناس إما لشقيٍّ خالدٍ في النّار، وإمّا سعيد خالدٌ في الجنَّة.

بديعُ الاكتفاء:

استُغني عن إعادة كلمة (منهم) في قوله تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ

(1) طنطاوي التفسير الوسيط: 7/274.
(2) الزَّمخشري، الكشاف: 2/293.

﴿وَسَعِيدٌ﴾ فلم يقل: (ومنهم سعيد)، لدلالة الأولى عليها، من باب الاكتفاء بلفظٍ عن آخر.

فائدةُ التَّفصيل:

تَفْصيلٌ مُفيدٌ لعقلٍ رشيدٍ

جاء قوله تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾ تفصيلًا مفيدًا، لتَفْصيلِ النّاس في قولِه: ﴿مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ﴾، ولَكِنَّهُ جاءَ على هذا النَّسْجِ لِأجْلِ ما تَخَلَّلَ ذلك منْ شِبْهِ الاعْتِراضِ بقولِه: ﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ﴾ إلى قولِه: ﴿بِإِذْنِهِۦۚ﴾ وذلك نَسيجٌ بَديعٌ"[1].

بديعُ الجامعِ مع التَّفريق:

خطابُ العقولِ فيه رسوخُ القبول

بين قوله تعالى: ﴿لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦۚ﴾ وقوله تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾ ما يسَّمى بالجمع مع التَّفريق، والجمع هو" أن يجمع بين شيئين أو أشياء في حكم واحد، والتَّفريق هو: إيقاع تباين بين أمرين من نوع في المدح أو غيره"[2]، فجمع أوَّلًا الفريقين في لفظ النفس، ثم فرَّق بينهما.

بديعُ الطِّباق:

التَّقابل بين المختلفين يُرسِّخ غورَ الخسارة في مقابلةِ علوِّ السَّعادة

ورد الطِّباق في قوله تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾ بين اسمين، كل واحد منهما يدلّ على الثُّبوت والدَّوام، "والشَّقيُّ: فعيلٌ صِفَةٌ مُشَبَّهَةٌ منْ شَقيَ، إذا تَلَبَّسَ بالشَّقاءِ والشَّقاوةِ، أيْ سوءِ الحالَةِ وشَرِّها وما يُنافِرُ طَبْعَ المُتَّصِفِ بها، والسَّعيدُ: ضِدُّ الشَّقيِّ، وهو المُتَلَبِّسُ بالسَّعادَةِ التي هيَ الأحْوالُ الحَسَنَةُ الخَيِّرَةُ المُلائِمَةُ لِلْمُتَّصِفِ بها، والمَعْنَى: فمنْهُم يَوْمَئِذٍ مَنْ هو في عَذابٍ وشِدَّةٍ ومنْهُم مَنْ هو في نِعْمَةٍ ورَخاءٍ"[3].

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/161.

(2) الخطيب القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة: 6/46، 45.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/161.

نكتةُ التَّقديم:

السَّعادةُ أمرٌ نفيسٌ تحصيلُه

وتقديم الشَّقيّ على السَّعيد في قوله تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾، لأنَّ المقام مقام إنذار وتحذير، ولأنَّ أكثر النّاس في فريقِ الشَّقاوةِ، ولأنَّ تأخير السَّعادة يبرهن على نفاسةِ تحصيلِها.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

نفسٌ وأحدٌ:

النّفس: الرّوح، وأحد بمعنى واحد

النَّفْس والجمع أَنْفُسٌ ونُفوس والمَنْفوس والمُتَنفِّس ذو النَّفْس[1]، ويطلق لفظ النَّفس في اللغة على روح الإنسان، وعلى ذاته وعلى الدم، قال في المصباح المنير: والنَّفس أنثى إن أُريد بها الروح، قال تعالى: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ [النساء: 1]، وإن أُريد الشخص فمذكّر[2]، والنَّفس هي لطيفة ربانيّة روحانيّة، لها بهذا القلب الجِسمانيّ تعلُّق، وتلك اللطيفة هي حقيقة الإنسان وهو المدرك العالم العارف من الإنسان، وهو المخاطب والمطالب والمعاتب[3].

وأما (أحد) فيطلق على الشخص الواحد، واختيار النَّفس هنا أبلغ لتعلّقها بنفي التكلّم إلا بإذن اللّه، كأنّه قال: لا تتنفّس إلا بإذنه.

(1) ابن جني، المخصص، ص: 179.
(2) الفيومي، المصباح المنير: (نفس).
(3) السياغي، تحفة المشتاق، ص: 14.

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُواْ فَفِي ٱلنَّارِ لَهُمۡ فِيهَا زَفِيرٞ وَشَهِيقٌ ١٠٦ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٞ لِّمَا يُرِيدُ ١٠٧﴾ [هود: 106 - 107]

مُناسَبَةُ الآيَتينِ لما قَبْلَهُما:

التَّفصيلُ بعد الإجمالِ برهانٌ يدلُّ على الاكتمال

بعد أن بيَّنتِ الآيةُ السّابقة انقسام النّاس ما بين شقيٍّ وسعيد، شرعت هذه الآيات ببيانِ تفصيل ذلك الإجمال، فذكر العبرة بجزاء الآخرة لكلٍّ من الأشقياء والسُّعداء بإقامة الدَّلائل والحُجج على صدق الأنبياء عليهم السلام وصِدْق وعده سبحانه وتعالى في الآخرة، والتَّحذير من عصيانه سبحانه وتعالى حتَّى لا يقع الإنسان في دائرة الشَّقاء فيَصْلَى سعيرًا، والحثّ على الإيمان بالله والتزام طاعته حتَّى يسعد وينعم بحسن مصيره وهو في الجنَّة.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿زَفِيرٌ﴾: الزّاءُ والفاءُ والرّاءُ يَدُلُّ على صَوْتٍ منَ الأصْواتِ[1]، وهو تردّد النَّفَسِ حتَّى تنتفخ الضّلوع منه، وازْدَفَرَ فلان كذا: إذا تحمّله بمشقّة، فتردّد فيه نفسه[2]، "الزَّفْرُ والزَّفيرُ: أن يملأ الرَّجُلُ صَدْرَهُ غَمًّا ثُمَّ هو يَزْفِرُ به، وزَفَرَ يَزْفِرُ زَفْرًا وزَفيرًا أخرج نَفَسَه بَعْدَ مَدِّه[3]، والمقصودُ في الآيةِ شدَّة النَّفس الذي يخرج من أهل النّار.

2) ﴿وَشَهِيقٌ﴾: الشّينُ والهاءُ والقافُ أصْلٌ واحِدٌ يَدُلُّ على عُلوٍّ[4]، والشَّهيقُ: طول الزّفير، وهو ردّ النّفس[5]، والزَّفيرُ إخْراجُهُ[6]، فكأنَّ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (زفر).
(2) الرّاغب، المفردات: (زفر).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (زفر).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (شهق).
(5) الرّاغب، المفردات: (شهق).
(6) ابن منظور، لسان العرب: (شهق).

الشَّهيق يرفع به الإنسانُ صدرَه، فيعلو، وهو حبس النَّفَس قبل إخراجِه بالزَّفير.

3) ﴿مَا دَامَتِ﴾: "الدّالُ والواوُ والميمُ أصْلٌ واحِدٌ يَدُلُّ على السُّكونِ واللُّزوم"[1]، "والدوام هو استمرار البقاء في جميع الأوقات، ولا يقتضي أن يكون في وقت دون وقت"[2]، وهي من كانَ وأخواتها، ومعناها فما وقتٌ، تَقولُ: قُم ما دامَ زيدٌ قائِمًا، تُريدُ قُم مُدَّةَ قيامهِ[3]، أي: أنَّ أهل النّار خالدين فيها مدَّة بقاءِ السَّماواتِ والأرض.

4) ﴿فَعَّالٌ﴾: فعَلَ يَفْعَلُ فعلًا وفِعالًا ومُفاعَلة، والفِعْلُ: التأثير من جهة مؤثّر[4]، وفَعّال هنا صيغة مبالغة في الفعل تعظيمًا وتفخيمًا لشأنه ﷻ، وأنَّ فعله ثابتٌ ومستمرٌّ لا ينقطع.

❁ المَعْنى الإجْمالِيُّ:

حالُ الأشقياءِ عذابٌ خالد، والسُّعداء نعيمٌ أبديٌّ

بيّنت الآيةُ حالَ الأشقياء والسُّعداء فقال عن الفريق الأول: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُواْ﴾ أي: فأمّا الأشقياء فهم في جهنّم مستقرّهم ومثواهم، بسبب اعتقادهم الفاسد وعملهم السَّيئ، لهم من الهَمِّ والكرب وضيق الصَّدر زفير وشهيق، لما هم فيه من العذاب خالِدينَ فيها، أي: ماكثين فيها على الدَّوام، مدَّة بقاء السَّموات والأرض، والمراد التأبيد ونفي الانقطاع، على سبيل التَّمثيل، ويجوز أن يكون المراد سماء الآخرة وأرضها، وهي دائمة مخلوقة للأبد، والمراد بذلك كلِّه تقييد الأحكام بمشيئة الله تعالى فقط، لا لإفادة عدم عمومها[5].

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (دوم).
(2) العسكريّ، الفروق اللُّغويّة، ص: 121.
(3) ابن منظور، لسان العرب: (دوم).
(4) الرّاغب، المفردات: (فعل).
(5) الزحيلي، التفسير المنير: 12/147.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

معنى الفاءِ ودلالتها:

الفاء في قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُواْ﴾ للتَّفريع و(أمّا) حرف شرط وتفصيل، فهي تفريعٌ وبيانٌ لما تقدَّم إجماله في تقسيم النّاس يوم القيامة إلى شقيٍّ وسعيد، وأمّا الفاء في قوله تعالى: ﴿فَفِي ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ﴾ فهي رابطة للجزاء الذي استحقَّه هؤلاء الأشقياء.

الفاءُ الأولى تفريعيَّة والثّانية رابطة

بديعُ التَقسيم:

قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُواْ﴾ وما بعده من ذكر أهل السَّعادة داخل في بديع التَّقسيم، فقد قسَّمتِ الآيةُ السّابقة النّاسَ إلى شقيٍّ وسعيد، وهنا شرع في تفصيلِ أحوالِهم، فهو تقسيم تفصيليٌّ بعد تقسيم إجماليٍّ،

تقسيمٌ تفصيليٌّ بعد تقسيمٍ إجماليٍّ

بديعُ اللَّف والنَّشر:

لمّا قال سبحانه: ﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾ أعاد التَّفصيلَ على سبيل اللَّف والنَّشر المرتَّب تفصيل أحوال النَّوعين من أهل الشَّقاء وبيان مصيرهم، وأهل السَّعادة وبيان منزلتهم، فجاءت الآية تفصيلًا لما أُجمل في قوله تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾ لبيان أُصولهم ومصيرهم.

نشرٌ مرتَّبٌ للفِّ مهذَّب

سرُّ تقديم أهل الشَّقاوة على أهل السَّعادة:

"لمّا كان أكثر الخلق هالكًا مع أن المقام مقام تهديد وتهويل، بدأ تعالى بالأشقياء ترتيبًا للنَّشر على ترتيب اللَّف فقال: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُواْ﴾ أي: أدركهم العسر والشِّدَّة"[1].

تهديدٌ رادع لمَن اعتبر

نكتةُ التَّعبير بالاسم الموصول:

الاسم الموصول من الأسماء المبهمة، وهو يحتاج إلى الصِّلة لإزالة إبهامه، وجاءَ التَّعبيرُ به ﴿ٱلَّذِينَ شَقُواْ﴾ دون التَّعبير بالاسم

أهل الشَّقاوة يُعرفون حقيقةً يومَ القيامة

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 9/375.

الظّاهر (الأشقياء)، لزيادة بيانِ الغرض المسوق له الكلام، وهو بيان مصيرِ هؤلاء الأشقياء وجزائهم، والإيماء إلى اختصاصهم بهذا الوصف، فهم الأشقياءُ حقًّا لا سِواهم ممَّن اتُّهموا بذلك، إلى جانب ما فيه من استهجانٍ بذكر صفتِهم صراحةً، لذا كان التَّعبير بالاسم الموصول الذي أدَّى دورَه على أتمِّ وجهٍ وأكمله هو الأنسب.

إيثار صيغة الماضي ﴿شَقُواْ﴾:

الإعـــراض عن طريق السُّعداء سبب في الهلاك

جاء التَّعبير بالفعل الماضي ﴿شَقُواْ﴾، لإفادة تحقُّق الشَّقاوة منهم ووقوعها لهم، فهم كانوا غارقين في الشَّقاوة عاكفين عليها حتَّى صارت صفةً لازمة لهم في الدُّنيا، وسببًا للهلاك في الآخرة، والمعنى: سبقت لهم الشَّقاوة في الدُّنيا، وعُلمت وتعيَّنت وحُكِم عليهم بها في الآخرة.

سرُّ التَّعبير بحرفِ الظَّرفيَّة:

للظالم قـرارٌ في قاع النّار

التَّعبيرُ بحرفِ الظَّرفيَّة في قوله تعالى: ﴿فَفِي ٱلنَّارِ﴾ دالٌّ على تمكُّن النّار من هؤلاء الأشقياء واستقرارهم فيها لا ينفكّون عنها، ولا يفارقهم زقّومها وسعيرها ولظاها، فالنّار ظرفٌ لهم تمكَّنوا فيها استقرارًا وثباتًا.

سرُّ تكرار حرفِ الظَّرفيَّة:

بلاغةُ الاستئنافِ الـبـيـانيِّ في الـجـوابِ عن كيفيَّة التَّنفّس في النّار

جاء تَكرار ذكرِ حرف (في) في قوله تعالى: ﴿لَهُمۡ فِيهَا﴾ بعد قوله تعالى: ﴿فَفِي ٱلنَّارِ﴾ تأكيدًا وتخصيصًا لاستقرارهم في النّار لا في غيرها، أي: للأشقياءِ في النّار زفيرٌ وشهيق، فصارت حياتُهم فيها متَّصلةً لا يغادرونها ولا تغادرهم، وقوله تعالى: ﴿لَهُمۡ فِيهَا﴾ استئنافٌ بيانيٌّ، كأن قائلًا قال: فما حالهم فيها؟ فقيل له: لهم فيها كذا وكذا، وهذا سؤالٌ ينشأ عن أهل الدُّنيا، فإنَّهم لا يتصوّرون الحياة في النّار، إذ كيف يتنفّس الأشقياءُ في النّار؟ فكان الجواب باستعمال حرفِ الظَّرفيَّة بديعًا في الإبانةِ عن هذا السُّؤال، أي: فيها النَّفَس لا في غيرِها.

توجيه تخصيص الزَّفير والشَّهيق بالذِّكر:

دفعُ توهّم انعدام الأنفاسِ في النّارِ

خصَّتِ الآيةُ الزَّفيرَ والشَّهيق بالذِّكرِ دون أحوالِ أهل النّار الأخرى، وذلك "لِما في ذِكْرِ هاتَيْنِ الحالَتَيْنِ منَ التَّشْويهِ بهِم وذلك أخْوفُ لهُم منَ الألَم"[1]، و"تنفيرًا من الأسباب التي توصل إلى النّار، وتبشيعًا لتلك الحالة التي فيها ما فيها من سوء المنظر، وتعاسة الحال"[2].

ولما في هاتين الحالتين من التَّوطئة للحياةِ الخالدةِ في النّار، فإنَّ مظنَّة الموت آتية من جهة النّار، ومن جهةِ حصولِ انعدام النَّفَس في النّار، فأخبرتِ الآيةُ أنَّ الحياةَ مستمرَّةٌ بالنُّفوسِ والأنفاسِ.

سِرُّ جمعِ الزَّفيرِ والشَّهيقِ وإفرادهما في الأنبياءِ والملك:

للظّالمين في النار شهيق وزفير رؤيةَ حالٍ وعِبرَةَ مَآلٍ

جُمع الزَّفير والشهيق في هذه الآيةِ، لِلدّلالَةِ على كَربِهِم وغَمِّهِم وتَشبيهِ حالِهِم بحالِ مَن استَولَتْ على قَلبِه الحَرارَةُ وانحَصَرَ فيهِ روحهُ، بينما اكتفى بذكرِ الزَّفير في سورةِ الأنبياء في قَولِهِ تعالى: ﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ١٠٠﴾ [الأنبياء: 100]، واكتفى بذكر الشَّهيقِ في سورة الملك فقال تعالى: ﴿سَمِعُواْ لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ ٧﴾ [الملك: 7].

والظّاهِرُ أنَّ ضَميرَ ﴿لَهُمْ﴾ في سورةِ الأنبياءِ راجعٌ للمشركين وأصنامهم، ففيهِ تَغليبُ العُقَلاءِ على غَيرِهِم من الأصنام حَيثُ جيء بضَميرِ العُقَلاء راجِعًا إلى الكُلِّ، وغُلِّبَ مَن يَتَأتَّى منهُ الزَّفيرُ ممَّن فيهِ حَياةٌ على غَيرِهِ من الأصنام أيضًا حَيثُ نُسِبَ الزَّفيرُ لِلجَميعِ[3]، فناسب إفراد الزَّفير بالذِّكر باعتبارِ أنَّ الزَّفيرَ إخراجُ الأنفاس بدفع وشدَّة بسبب ضغط في التَّنفُّس، فلا يكون إلّا بعد الشَّهيقِ.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/165.
(2) طنطاوي، التفسير الوسيط: 7/275.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 12/97، 96.

أمّا في سورة الملك فذُكر فيها الشَّهيق وهو للنّار، وهو حسيسها المنكر الفظيع، وجُوّز أن يكون الشَّهيق لأهلها ممن تقدَّم طرحهم فيها ومن أنفسهم كقوله تعالى: ﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ﴾ والكلام على حذف مضاف حينئذ[1]، وقد ناسب ذكرُ الشَّهيقِ باعتبارِه الجالبَ للهواءِ، والنّار تجلبُ أهلها من أهل الشَّقاوة، فكما أنَّ الشَّهيق يستجلبُ الهواء للداخل، وكذلك النّار تستجلب أهلها في داخلِها.

فائدةُ ذكرِ الخُلودِ وذكرِ ﴿فِيهَا﴾:

عذابٌ دائمٌ وألمٌ جاثمٌ

وردت ﴿خَٰلِدِينَ﴾ حاليَّة مبيِّنة حال هؤلاء الأشقياء ومآلهم الأبديّ ومكثهم وبقائهم في النّار ودوامهم بلا انقطاع، وهو خلودٌ ومكثٌ وبقاءٌ لا انفكاك منه ولا براح، والمراد به: التَّأبيد ونفي الانقطاع عنها، وإعادة الجارِّ والمجرور ﴿فِيهَا﴾ بعد التَّعبير بقوله تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ﴾، للتَّخصيصِ بكونِ الخُلدِ في النّار لا في غَيرِها فهيَ خاصَّةٌ بهم معَدَّة لهُم، وفي إعادتِها تأكيدٌ على استقرارِهِم في النّار وعَدَم انفكاكِهِم عَنها أبدًا.

بلاغةُ الكنايةِ:

مكثٌ مؤبَّد لا انقطاع فيه، ولا خروج منه

جاءَ التَّعبيرُ في قولِه تعالى: ﴿مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾ تأكيدًا على أنَّ الأشقياءَ لهم في النّار العذابُ الأليمُ، وهم ماكثونَ فيها مُكثَ بقاءٍ وخلودٍ لا يبرحونَها مدَّة دوام السَّموات التي تُظِلُّهم، والأرضِ التي تُقِلُّهم، فهو كنايةٌ عن "التَّأبيد ونفي الانقطاعِ على منهاجِ قولِ العرب: لا أفعلُ كذا ما لاح كوكبٌ وما أضاءَ الفجرُ وما اختلفَ اللَّيلُ والنَّهارُ وما بَلَّ بحرٌ صوفة، وما تَغَنَّت حمامة إلى غيرِ ذلك من كَلماتِ التَّأبيد عِندَهَم لا تَعليقَ قَرارِهم فيها بدَوام هذِهِ السَّماواتِ والأرضِ، فإنَّ النُّصوصَ القاطِعَةَ دالَّةٌ على تَأبيدِ قرارِهِم فيها وانقطاعِ دَوامِهما، وروي هذا عن ابن جرير، وجوّز أن يُحمل ذلك

(1) الآلوسي، روح المعاني: 29/10.

على التَّعليق، والمرادُ بالسَّموات والأرض سماوات الآخرة وأرضها، وهي دائمةٌ للأبد"[1].

معنى الاستثناء:

لا خلودَ في النّار لأهل المعاصي من الموحّدين

قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَۚ﴾ اسْتِثْناءٌ منَ الأزْمانِ التي عَمَّها الظَّرْفُ في قولِه تعالى: ﴿مَا دَامَتِ﴾ أيْ: إلّا الأزْمانُ التي شاءَ اللّه فيها عَدَمَ خُلودِهِم، ويَسْتَتْبِعُ ذلك اسْتِثْناءَ بَعْضِ الخالِدينَ تَبَعًا لِلْأزْمانِ، وهذا بناءً على غالِبِ إطْلاقِ ما المَوْصولَةِ أنَّها لِغَيْرِ العاقِلِ، ويَجوزُ أنْ يَكونَ اسْتِثْناءً منْ ضَميرِ ﴿خَٰلِدِينَ﴾ لِأنَّ (ما) تُطْلَقُ على العاقِلِ كَثيرًا، وقَدْ تَكَرَّرَ هذا الاسْتِثْناءُ في الآيَةِ مَرَّتَيْنِ، فأمّا الأوَّلُ منْهُما فالمَقْصودُ أنَّ أهْلَ النّارِ مَراتِبُ في طولِ المُدَّةِ فمنْهُم مَنْ يُعَذَّبُ ثُمَّ يُعْفَى عَنْهُ، مثْلَ أهْلِ المَعاصي منَ الموحِّدينَ"[2].

إيثار لفظ الرَّب وإضافته إلى ضمير المخاطب:

إيناس وتسلية للنبيّ الأكرم ﷺ

جاء التَّعبير بلفظِ الرُّبوبيَّة المضاف إلى كافِ الخطابِ في قوله تعالى: ﴿رَبُّكَۚ﴾ إشارةً إلى أنَّ اللّه تعالى يُحسن إلى نبيِّه بكلِّ ما يسرُّ قلبه ويشرح صدره، وإضافة الرَّب إلى ضمير المخاطب فيه طمأنةٌ للنَّبيِّ الكريم، ولفتٌ لنظره حين ينظر إلى مزيد نعم اللّه عليه، فربُّه الذي أولاه بصنوف النِّعم هو الذي يجازيهم على فعالهم، ولا يخذل رسله أبدًا.

بلاغةُ الاستئنافِ البيانيِّ:

إرادةُ الله تعالى عدلٌ وقسطٌ

جاءتْ هذه الجُملةُ ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ مفصولةً عَن سابقتِها لشبهِ كَمالِ الاتِّصالِ لوقوعها استئنافًا بيانيًّا، فكأنَّ سائلًا سأل عن سِرِّ بقائِهِم خالدينَ في النّار فقيلَ لهُ: ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾، وهذا مبنيٌّ على العدلِ الإلهيِّ، أي أنَّ اللّه أراد ذلك لما اقترفوه من الكفر والإجرام في الدُّنيا.

(1) الآلوسي، روح المعاني: 12/141.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/165، 166.

إظهارُ ما حقُّه الإضمار:

تَكرارُ الرُّبوبيَّة لفتٌ للأنظارِ وتنبيهٌ للأبصارِ

جاء لفظ ﴿رَبُّكَ﴾ مكرّرًا في قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾، وذلك بوضعِ المظهَر موضعَ المُضمَرِ، "لتربيةِ المهابَةِ وزيادةِ التقريرِ"، فالضمير وإن كان يعطي إشارة ذهنيَّة إلى العائد عليه، إلّا أنَّ أثر الاسم الظّاهر أعظم أثرًا، لأنَّها تتولَّد حين يقرع اللَّفظ السَّمع بجرسه وارتباطاته المختلفة جدّ الاختلاف والتي اكتسبها في قصَّته الطَّويلة مع الكلمات والأحداث والمواقف[1].

دلالة صيغة ﴿فَعَّالٌ﴾:

تمام قدرة الله تعالى وكمالُ إرادته

جاء التَّعبيرُ بصيغةِ المبالغة ﴿فَعَّالٌ﴾، للدّلالة على تمام قدرته تعالى، وللإشارةِ إلى أنَّه سبحانَه لا يَتَعاصَى عَلَيه فعلٌ من الأفعالِ بأيّ وجهٍ من الوجوه، والمعنى: يفعلُ ما يشاءُ على وفقِ علمهِ ومقتضَى حكمتِهِ، فهو يفعلُ بأهلِ النّار ما يُريدُ من العَذابِ كَما يُعطي أهلَ الجَنَّة عَطاءهُ الذي لا انقطاعَ لهُ.

معنى اللام ودلالتها:

كل شيء تحت قبضته سبحانه

وردت اللّامُ في قوله تعالى: ﴿لِّمَا يُرِيدُ﴾ للتَّقوية، أي: فعّال لما يريده سبحانه لا يتعاصى عليه شيءٌ بوجه من الوجوه، وورود التَّقويةِ هنا لتفخيم الأمر وتهويلِه في كونه سبحانه يفعلُ في ملكه ما أراده بحكمتِه وأمره.

بَلاغَةُ حذفِ المفعولِ:

إرادةُ الله تعالى مطلقةٌ لا قيدَ فيها ولا تضييق

يُحذَفُ المفعولُ إيجازًا، ولِسَبقِ ما يَدُلُّ عَلَيهِ، وحُذِفَ المفعول في قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ﴾ لما فيه من تصويرٍ لطلاقةِ قدرةِ اللّه الباهرة، والمَعنَى: "لا يَجوزُ عَلَيهِ البَدءُ بالرُّجوعِ عَمّا أرادَ، ولا المنعُ عَن مُرادِهِ ولا يَتَعَذَّرُ عَلَيهِ شَيءٌ منْهُ مَعَ كَثرَةِ المُرادات، فلا اعتراضَ عَلَيهِ ولا يَلْزَمَهُ لأحدٍ شيء، بَل لهُ أنْ يُخَلِّدَ العاصينَ في الجَنَّةِ ويُخَلِّدَ الطّائِعينَ في النّارِ"[2].

(1) محمد أبو موسى، خصائص التَّراكيب دراسية تحليليَّة لمسائل علم المعاني، ص: 284.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 9/376.

﴿۞وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِي ٱلۡجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَۖ عَطَآءً غَيۡرَ مَجۡذُوذٖ ١٠٨﴾ [هود: 108]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

تتمَّةٌ للتَّقسيم واكتمالٌ للتَّفصيل

هذه الآيةُ متَّصلَةٌ بسابِقَتِها التي ذَكَرَتْ أهلَ الشَّقاءِ وما آلَ إليه مَصيرُهُم وبَيَّنَتْ حالَهُم، والتَّرغيبَ بالإيمانِ وطاعَةِ اللّٰه ليَصيرَ المُؤمنُ الطّائعُ مَعَ السُّعَداءِ الذينَ يَتَمَتَّعونَ بالجَنَّةِ فتَكون مُستقرَّهم ومُقامَهُم، فهي تتمَّةٌ للتَّقسيم، واكتمالٌ للتفصيل.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مَجۡذُوذٖ﴾: "الجيمُ والذّالُ أصْلٌ واحِدٌ، إمّا كَسْرٌ وإمّا قَطْعٌ، يُقالُ جَذَذْتُ الشَّيْءَ كَسَرْتُهُ"[1] و﴿غَيۡرَ مَجۡذُوذٖ﴾: غير منقطع، وهو تصريح بأنَّ الثواب لا ينقطع، قال الرّاغب: "الجَذُّ: كسر الشيء وتفتيته، ويقال لحجارة الذهب المكسورة ولفتات الذهب: جذاذ"[2]، فالمجذوذُ: المقطوعُ، والجذمُ: جذمُ الشَّجرةِ حَيثُ تُقطَعُ من أصلِها، وأصلُه من الجَذم وهو القَطعُ فلا يُستعملُ الجَذم فيما لا يَصلُحُ قَطْعُه، فإنِ استُعملَ في بعضِ المَواضِعِ مَكانَ الأصلِ فعلى التَشبيهِ، والقَطعُ يكونُ ظاهِرًا وخافيًا كالقَطعِ في الشَّيءِ الملزق المموّهِ، ويُقالُ: قَطَعَهُ في المُناظَرَةِ لأنَّه قَد يَكونُ ذلِكَ من غَيرِ أنْ يَظهَرَ ومن غَيرِ أنْ يقطعَ شغبه وخُصومتَه[3]. ومراد المفردة في الآيةِ أن النَّعيم متصلٌ لا ينقطع.

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (جذَّ).
(2) الرّاغب، المفردات: (جذَّ).
(3) العسكريّ، الفروق اللُّغويَّة، ص: 158، 170.

❁ المَعْنى الإجْمالِيُّ:

حال السعداء وخلودهم في عطاءٍ متَّصل

بيَّنَ ﷻ في هَذِه الآيةِ حُسنَ عاقِبَةِ السُّعداء فقالَ ﷻ: ﴿۞وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ﴾ أي: في الآخرةِ بسببِ إيمانِهم وتَقواهُم في الدُّنيا، ﴿فَفِي ٱلۡجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَۖ عَطَآءً غَيۡرَ مَجۡذُوذٖ﴾ أي: عَطاءً لهؤلاءِ السُّعداء غيرَ مقطوعٍ عَنهُم، وعلى هذا يَستَبينُ لنا تَفصيلُه ﷻ لِأحوالِ هَذَين النَّوعينِ من النّاسِ السَّعيد منهُم والشَّقيّ تفصيلًا بيِّنًا يدعو كُلَّ ذي لُبٍّ إلى نَهْجِ مَناهِجِ السُّعداءِ، ومُجانَبَة المعوَّجِ من منهَجِ الأشقياءِ.

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

علَّة الفصلِ:

باكتمالِ التَّقسيم تنشرحُ الصُّدورُ

عُطِفَتْ هَذِه الجُملَةُ ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ﴾ من الآيَةِ الكَريمَةِ على قَولِهِ تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُواْ﴾ فجاءتْ بَيانًا لِحالِ الفَريقِ الثاني وهُم أهلُ السَّعادَةِ، وما أعَدَّه اللّه تعالى لهُم من النَّعيم الدّائِم، وعُطِفَت على سابِقَتِها لِمُشارَكَتِها لها في الخَبَريَّة والحُكْم الإعرابيّ ووجودِ الجِهَةِ الجامعَةِ بَينَهُما.

توجيه القراءات القرآنية:

السَّعيد مَن أسعده مولاه بتوفيقِه للخير

"قرأ حفصٌ وحمزة والكسائي وخَلَفٌ بضَمِّ السّينِ بالبِناءِ لِلمَفعولِ من سَعده اللّه بمَعنَى أسعَدَهُ، وافَقَهُم الأعمَشُ، والباقونَ مبنيًّا لِلفاعِلِ من اللازِم"[1].

قال الطّاهر بن عاشور: من قرأ "بِضَمِّ السّينِ على أنَّهُ مَبْنيٌّ لِلنّائِبِ، وإنْ كانَ أصْلُ فِعْلِهِ قاصِرًا لا مَفْعولَ لهُ لكِنَّهُ على مُعامَلَةِ القاصِرِ مُعامَلَةَ المُتَعَدّي في مَعْنَى فُعِلَ بِهِ ما صَيَّرَهُ صاحِبَ ذلك الفِعْلِ، كَقولِهِمْ: جُنَّ فُلانٌ، إذا فُعِلَ بِهِ ما صارَ بِهِ ذا جُنونٍ فـ

(1) البنّا، إتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربعة عشر، ص: 311.

﴿سُعِدُواْ﴾ بمَعْنَى أُسْعِدوا، وقيلَ: سَعِدَ مُتَعَدٍّ في لُغَةِ هُذَيْلٍ وتَميم، يَقولونَ: سَعِدَهُ اللّه بمَعْنَى أسْعَدَهُ، وخَرَجَ أيْضًا على أنَّ أصْلَهُ أُسْعِدوا، فحُذِفَ هَمْزُ الزّيادَةِ كَما قالوا مَجْنوبٌ (بِموحَّدَةٍ في آخِرِه)، ومنْهُ قَوْلُهُمْ: رجل مَسْعود"[1].

بلاغةُ الكنايةِ:

قـــرار في دار النَّعيم، أنْعِم به من قرار

التَّعبيرُ بحرف الظَّرفيَّة في قَولِه: ﴿فَفِي ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ مُقترِنًا بالفاءِ الدّاخِلَةِ عَلَيه أكَّدت استِقرارَ هَؤلاءِ السُّعَداءِ في الجَنَّة التي صارَت مَحَلًّا مَعْلومًا لهُم لا يُفارِقونَها ولا تُفارِقُهُم حَتَّى صارَت أمرًا مَقطوعًا بِهِ مَعلومًا من الدّينِ بالضَرورَةِ، والأسلوبُ كِنايَةٌ عَن صِفَةِ الاستقرارِ مَعَ عِظَم المُستقرّينَ فيها، والتَّعبيرُ باسم الفاعِلِ لِلدَّلالَةِ على الثُّبوتِ والاستمرارِ في الجَنَّةِ من بابِ المُلازَمَةِ الفِعليَّةِ، والتَّعبيرُ بالجارِّ والمَجرورِ مُكرَّرًا ﴿فِيهَا﴾ مُبالَغَة في الاستقرارِ والتَّمكُّنِ فيها تَمَكُّن الظَّرفِ من المظروفِ، فهُم مُستَقرّونَ في الجَنَّة مُنَعَّمونَ فيها لا في غَيرِها، فأنْعِم بها من مُستَقرٍّ ونُزُلٍ ومُقامٍ.

نكتةُ التَّكرارِ:

نعيمُ الجنَّةِ لا يحول وسعادةٌ لا تزولُ

أُعيدتْ هذِهِ العِبارَةُ ﴿مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾ مَعَ خُلودِ أهلِ الجَنَّة فيها، وجاءَ التَّعبيرُ بدَوام السَّماواتِ والأرضِ على ما جَرَت بِهِ عادَةُ العَرَبِ في إرادَةِ التَّأبيدِ بلا آخر بمثلِ هذا، وإذا كانَ أهلُ النّارِ خالِدينَ في عَذابِها دائمينَ في سَمومها وزَقّومها مَعَ دَوام السَّماواتِ والأرضِ ففي المُقابِلِ يُنَعَّمُ أهْلُ الجَنَّة دَوامًا سَرمَديًّا في نَعيم لا يَزولُ ولا يَحولُ بدَوام السَّماوات والأرضِ، وهي كِنايَةٌ عَنْ صِفَةِ الدَّوام والاستقرارِ الذي لا يَنقَطِعُ، وقيلَ: المُرادُ ما دامَتْ سَمَواتُ الجَنَّة وأرضُها حَسبَ مشيئَتِهِ تعالى وقَد شاءَ لهُم الخُلودَ والدَّوامَ.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/166.

بلاغةُ الاستثناء:

التَّحذير من الاغترار بالطّاعة

وأمّا الاِسْتِثْناءُ الثّاني ﴿إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَۖ﴾ الواقِعُ في جانِبِ الذينَ سُعِدوا فيَحْتَملُ مَعْنَيَيْنِ: أحَدُهُما أنْ يُرادَ: إلّا ما شاءَ رَبُّكَ في أوَّلِ أزْمنَةِ القيامَةِ، وهيَ المُدَّةُ التي يَدْخُلُ فيها عُصاةُ المُؤْمنينَ غَيْرُ التّائِبينَ في العَذابِ إلى أنْ يَعْفو اللّه عَنْهُم بفَضْلِهِ بدونِ شَفاعَةٍ، أو بشَفاعَةٍ، ويُحْتَمَلُ أنْ يُقْصَدَ منْهُ التَّحْذيرُ منْ تَوهُّم اسْتِحْقاقِ أحَدٍ ذلك النَّعيمَ حَقًّا على اللّه، بَلْ هو مَظْهَرٌ منْ مَظاهِرِ الفَضْلِ والرَّحْمَةِ، ولَيْسَ يَلْزَمُ منَ الاِسْتِثْناءِ المُعَلَّقِ على المَشيئَةِ وُقوعُ المَشيئَةِ بَلْ إنَّما يَقْتَضي أنَّها لوْ تَعَلَّقَتِ المَشيئَةُ لوقَعَ المُسْتَثْنَى، وقَدْ دَلَّتِ الوُعودُ الإلَهيَّةُ على أنَّ اللّه لا يَشاءُ إخْراجَ أهْلِ الجَنَّةِ منْها، وأيًّا ما كانَ فهُم إذا أُدْخِلوا الجَنَّةَ كانوا خالِدينَ فيها فلا يَنْقَطِعُ عَنْهُم نَعيمُها[1].

سرُّ تنكيرِ ﴿عَطَآءً﴾:

عطاءُ الله تعالى لا يُدرِكُ كُنهَهُ وقَدْرَهُ إلّا هو سبحانه

وردتْ كلمةُ ﴿عَطَآءً﴾ منصوبةً على المصدرِ المؤكِّدِ من مَعنَى الجُملةِ قَبلَه، لأنَّ قَولَه تعالى: ﴿فَفِي ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ يَقتَضي إعطاءً وإنعامًا و﴿غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ صفة لعطاء، أو ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ يعطون أو يُمنحون عطاءً غير مقطوع، ومجيء ﴿عَطَآءً﴾ نكرة لتعظيم أمرِ هذا العَطاءِ وتفخيم شَأنِه، والمرادُ: عطاء لا يُدرِكُ كُنهَهُ وقَدْرَهُ إلّا اللّه تعالى يتناسبُ معَ من يُعطَوه، وهم أهلُ الجنَّةِ الجديرونَ المستحقّونَ لهُ.

نكتةُ التَّعبير بالنَّفي دون الإثبات:

عطاءُ الله مُمتدٌّ إلى ما لا نِهايَة

التَّعبيرُ باسم المفعولِ المقترنِ بأداةِ الاستثناءِ الدّالّة على النَّفي ﴿غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ يَدُلُّ على الثُّبوتِ والدَّوام، والمرادُ: غير مقطوعٍ، فهو مُمتدٌّ إلى ما لا نِهايَة وهذا أبلَغُ في الدِّلالَةِ من أن يُقال: (عطاءً متّصلًا)، إذ إنّ اتصال العطاء لا يمنع انقطاعه وقتًا ما، ووصفه بنفي الانقطاع صريح في عدم انقطاعه ولو يسيرًا.

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتنوير: 12/165.

إيثار لفظ ﴿مَجۡذُوذٖ﴾ دون لفظ مقطوع:

طمأنةُ أهلِ الجنَّة زيادَةُ نعيمٍ فوق نعيمهم

التَّعبيرُ بقولِه تعالى: ﴿غَيۡرَ مَجۡذُوذٖ﴾ أبلغُ من قَولِنا: (مَقطوع) إذ المُرادُ منهُ: "لا مقطوعٌ ولا مكسورٌ ولا مفصولٌ لِعطاءٍ من الأعطيةِ ولا مفرق ولا مستهانٌ بهِ: لأنَّهُم لو انفكّوا من النَّعيم حقيقةً أو مَعنى ولَو لحظَة لكانَ مقطوعًا أو منقوصًا، وفي الخَتم بذَلِك من الجَزم بالدَّوام طمأنينةٌ لأهلِ الجنَّة زيادَة في نعيمهم عَكس ما كانَ لأهلِ النّار"[1].

براعةُ التَّقابلِ:

كثرةُ اللَّطائف البلاغيَّة ارتكازٌ في النَّفس البشريةِ

بَينَ قَولِهِ تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُواْ فَفِي ٱلنَّارِ﴾ وبين قوله: ﴿۞وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِي ٱلۡجَنَّةِ﴾ ألوانٌ من البديع، سبق تفصيلها، وهي موجزةٌ هنا، ففيها لفٌّ ونشرٌ مُرتَّب يُناسِبُ ﴿فَمِنۡهُمۡ شَقِيّٞ وَسَعِيدٞ﴾، وبين الآيتين جَمْعٌ وتَقسيمٌ، أمّا الجمعُ ففي قَولِه: ﴿فَمِنۡهُمۡ شَقِيّٞ وَسَعِيدٞ﴾ وأمّا التقسيمُ ففي قَولِهِ: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُواْ فَفِي ٱلنَّارِ﴾ وقوله: ﴿۞وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِي ٱلۡجَنَّةِ﴾، والمراد بالجمع: أنْ يجمعَ بين متعدِّدٍ في حكمٍ واحدٍ، والتقسيمُ: أن يُذكرَ متعدِّدٌ ثم يضاف إلى كلٍّ منها ما هو له، وبين الآيتين مقابلة لطيفة حيث قوبل بين ﴿شَقُواْ﴾ و﴿سُعِدُواْ﴾، وبين ﴿ٱلنَّارِ﴾ و﴿ٱلۡجَنَّةِ﴾، والمقابلةُ من الأمورِ الفطريَّة المركوزة في الطِّباع وهي قادرةٌ على جَعْلِ كِلا الأمرَينِ ماثلَينِ أمامَ السّامعِ فبيَّنت طريقَ الشَّقاءِ ومَآله وطَريقَ السَّعادَةِ ومآلهُ من النَّعيم؛ فيَعقِدُ المَرءُ مُقارَنَةً بينَ الطَّريقين ويختارُ أصوبَهُما، وهذا فِعْلُ المقابلةِ إلى جانبِ ما تُضفيهِ على النَّظم من قوَّةٍ ودِقَّةٍ في التَّصويرِ والإبانَةِ عَن المُرادِ منها.

(1) البقاعي، نظم الدرر: 9/385.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

المجذوذ والمقطوع:

المجذوذ أخصّ من المقطوع

المجذوذ من (جذّ) بمعنى كَسَر الصُلْب أو قَطع الشديد الغليظ[1]، والمقطوع من القَطْعِ: فصل الشيء مدركًا بالبصر كالأجسام، أو مدركًا بالبصيرة كالأشياء المعقولة، فمن ذلك قَطْعُ الأعضاء، وقَطْعُ الثّوب، ومنه قَطْعُ الطَّريقِ السّير والسّلوك وإمّا لغَصْب المارَّة والسّالكين فيه، وقطع الوصل هو هجرانه، ومنه قطع الرَّحم بهجرها ومنع برِّها ومقاطع الأودية مآخيرها"[2].

فاصطفاء عبارة ﴿غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ تشير إلى امتداد العطاء امتدادًا قويًّا، غير متناهٍ، لا يُعرف له نظير، ولم يُر له مثيل.

(1) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (جذذ).
(2) الرّاغب، المفردات: (قطع).

﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبْلُ ۚ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ ﴿١٠٩﴾﴾ [هود: 109]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

تسليةُ الرَّسولِ الأكرم ﷺ، بِبطلان ما عَلَيْهِ عَبَدَةُ الأصْنام، وبِخَيْبَةِ ما أمَّلوهُ

لمّا فرغ اللّه سُبحانهُ من قِصصِ الكفرةِ، وبيانِ حالِ السُّعداءِ والأشقياءِ، سلّى رسولهُ صلّى اللّه عليهِ وآلِهِ وسلّم بِشرحِ أحوالِ الكفرةِ من قومهِ، في ضِمنِ النّهيِ لهُ عنِ الامترِاءِ في أنّ ما يعبُدونهُ غيرُ نافِعٍ ولا ضارّ، ولا تأثير لهُ في شيء[1]. كما بيَّنتِ الآيةُ الكريمةُ للنّبيّ ﷺ أنَّ دأبَ قومه في هذا الكُفر والتَّكذيب دأبُ مَن سبقوهم منَ الكفّار، وأنَّ دأبَه دأبُ إخوانِه منَ الأنبياء الذين سبقوه، فقد كذَّبَتْهم أقوامُهم؛ كما كذَّبه قومُه؛ ليكون له في ذلك تثبيتٌ على ما هو عليه من إصرار على البلاغ، وسَلْوةٌ عمّا هم عليه من تكذيبٍ ونُكران.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مِرْيَةٍ﴾: المِرْيَةُ - بِكَسر الميم وضَمِّها -: الشَّكُّ، والجَدَلُ[2]؛ وقَدْ جاءَ فِعْلُها عَلى وزْنِ فاعَلَ أو تَفاعَلَ وافْتَعَلَ، هكذا: (مارَى، وتَمارَى، وامْتَرى)، ولَم يَجِئْ على وزْنٍ مُجَرَّدٍ؛ لِأنَّ أصْلَ المراءِ المُجادَلَةُ والمُدافَعَةُ، مُسْتَعارًا من مَرَيْتُ الشّاةَ إذا اسْتَخْرَجْتُ لَبَنَها. ومنهُ قَوْلُهم: لا يُجارى ولا يُمارى[3]. ومنه كذلك: مريَةُ الفَرسِ؛ وهي أن تَمْرِيَه بساقٍ أو زَجرٍ أو سَوط[4]. وقُرِئَ بكسر الميم وضَمِّها قَوْلُهُ تَعالَى: ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ﴾ [هود: 17] - هكذا: (مرْيَةٍ،

(1) الشّوكانيّ، فتح القدير: 2/599.
(2) ابن منظور، لسان العرب: (مرا).
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/167.
(4) أبو عبيدة، مجاز القرآن: 1/299.

مُرْيَةٍ) -، والامْتِراءُ في الشَّيءِ: الشَّكُّ فيه، وكَذا (التَّماري)[1]. قالَ ثَعْلَبٌ: "هُما - أي: قراءةُ الكسرِ والضَّمّ - لُغَتانِ، قال: وأمّا مرْيَةُ النّاقَةِ فَلَيْسَ فيه إلّا الكَسْرُ، والضَّمُّ غَلَطٌ. قال ابْنُ برِّيٍّ: يَعْني مَسْحَ الضَّرْعِ لِتَدُرَّ النّاقةُ، قالَ: وقالَ ابْنُ دُرَيْدٍ مُرْيَة الناقةِ، بِالضَّمِّ، وهيَ اللُّغَةُ العاليَةُ"؛ وأنشد[2]:

شامذًا تَتَّقي المُبِسَّ عَلَى المُرْيَةِ *** كَرْهًا، بالصِّرْفِ ذي الطُّلّاء

ومعنى: ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ﴾ أي: في شك.

2) ﴿لَمُوَفُّوهُمْ﴾: يُقالُ وفَى وأوْفَى، فَمَنْ قالَ: وفَى فَإنَّهُ يَقولُ تَمَّ؛ كقولك: وفَى لَنا فلانٌ، أي تَمَّ لَنا قَوْلُه ولَم يَغْدِر. ووفَى هَذا الطعامُ قَفيزًا؛ قالَ الحُطَيْئَةُ[3]:

..... *** وفَى كَيْلُ، لا نيبٍ ولا بَكَرات

أي: تَمَّ. ومَنْ قالَ أوْفَى؛ فَمَعْناهُ: أوْفاني حقَّه، أي: أتَمَّه ولَم يَنْقُصْ منْهُ شَيْئًا، وكَذَلِكَ أوْفَى الكيلَ، أي: أتمّه ولَم يَنْقُصْ منْهُ شَيْئًا. ويُقالُ: أوْفَيْتُ بِالعَهْدِ ووفَيْتُ بِالعَهْدِ. وكلُّ شَيْءٍ في كِتابِ اللّه تَعالى منْ هَذا فَهو بالألف، قالَ اللّه تعالى: ﴿أَوْفُواْ بِٱلْعُقُودِۚ﴾ [المائدة: 1]، ﴿وَأَوْفُواْ بِعَهْدِيٓ﴾ [البقرة: 40]. يقال: وفَى الكيلُ ووفَى الشَّيءُ، أي: تَمَّ، وأوْفَيْتُه أنا: أتمَمْته، قالَ اللّه تَعالَى: ﴿وَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ﴾ [الأنعام: 152][4]، فالتَّوْفيَةُ: إكْمالُ الشَّيْءِ غَيْرِ مَنقوصٍ[5]. وتَوفّاه واسْتَوْفاه: لَم يَدَعْ منْهُ شَيْئًا. ويُقالُ: أوْفَيْته حَقَّه ووفَّيته أجْره. ووفَّى الكيلَ وأوفاه: أتَمَّه[6]. والوافي: الذي بلغ التَّمام. يقال: درهمٌ وافٍ، وكيلٌ وافٍ، وأوفيتُ الكيلَ والوزنَ[7]. وتوفية الشّيء: بَذْلُه وافيًا، واستيفاؤه: تناولُه وافيًا[8].

3) ﴿نَصِيبَهُمْ﴾: (النُّونُ والصّادُ والباءُ) أصْلٌ صَحيحٌ يَدُلُّ على إقامَةِ شَيءٍ، وإهْدافٍ في

(1) الرّازيّ، مختار الصّحاح: (مرا).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (مرا).
(3) شطر البيت الأول في ديوان الحطيئة: إذا أنْفَدَ المَيّارُ ما في وعائِهِ ... ومراده: أنّها - أي: الإبل - أفتاء لا مُسنّات ذات أنياب، ولا بكرات صغار. يُنظر: ديوان الحطيئة بشرح ابن السكّيت والسّكريّ والسّجستانيّ، ص: 339.
(4) ابن منظور، لسان العرب: (وفى).
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/169.
(6) ابن منظور، لسان العرب: (وفى).
(7) الرّاغب، المفردات: (وفى).
(8) السّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (وفى).

اسْتِواءٍ[1]. ونَصَبَ الشَّيءَ: وضعَهُ وضعًا ناتئًا؛ كنصب الرُّمح والبناء والحجر، والنَّصيبُ: الحِجارة تُنْصَبُ على الشّيءِ، وجمْعُه: نَصائِبُ ونُصُبٌ. وكان للعرب حجارة تعبدها وتذبح عليها[2]. والنَّصيبُ: الحَظُّ منَ الشَّيْءِ، يُقالُ: هَذا نَصيبي، أي: حَظِّي[3]. والمعنى في الآية: لَموفّوهُم حظَّهم ممّا وعدتُهم أن أوفّيَهموه من خير أو شَرّ[4].

4) ﴿مَنقُوصٍ﴾: (النُّونُ والقافُ والصّادُ) كَلِمَةٌ واحِدَةٌ، هيَ النَّقْصُ: ونَقَصَ الشَّيْءُ، ونَقَصْتُهُ أنا، وهو مَنْقوصٌ، ومَرْجِعُ البابِ كُلِّه إلى: الخُسْرانِ في الحَظِّ، وخِلافِ الزِّيادَةِ[5]. والنَّقيصَةُ: العَيْبُ؛ يُقالُ: ما بِهِ نَقيصَة، أي: شَيْءٌ يَنْقُصُ[6]. والنُّقْصانُ أيضًا: اسْمٌ للقَدْرِ الذّاهِبِ منَ المَنْقوصِ[7]. والمَنقوصُ: المقْدارُ المَأْخوذُ جُزْءٌ منهُ؛ والنَّقْصُ: أخْذُ جُزْءٍ منَ المقْدارِ[8]. والنَّقيصَةُ: الوقيعةُ في النّاسِ، والخَصْلَةُ الدَّنيئَةُ، أو الضَّعيفَةُ. ونَقُصَ الماءُ، ككَرُمَ؛ فهو نَقيصٌ: عَذْبٌ، وكُلُّ طيب إذا طابَتْ رائِحَتُهُ، فنَقيصٌ. وأنْقَصَهُ وانْتَقَصَهُ ونَقَّصَهُ: نَقَصَهُ فانْتَقَص، وهو يتَنَقَّصُهُ: يَقَعُ فيه، ويَذُمُّهُ. واسْتَنْقَصَ الثَّمَنَ: اسْتَحَطَّهُ[9]. والمعنى في الآية: لموفوهم نصيبَهم كاملًا لم يَنْقُص منه شيء.

المَعْنى الإجْمالِيُّ:

بيان أحوال المشركين في اقتفاء شرك آبائهم، والوعدُ بتوفيَتِهم جزاءَهم

وإذا كان أمر الأمم المشركة الظّالمة في الدّنيا ثمّ في الآخرة، هو ما قصصنا عليك - أيّها النَّبِيُّ - فلا يكن عندك أدنى شَكٍّ في

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نصب).
(2) الرّاغب، المفردات: (نصب).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نصب).
(4) ابن جرير، جامع البيان: 15/492.
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نقص).
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نقص).
(7) الفِيروزاباديّ، القاموس المحيط: (النقص).
(8) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/387.
(9) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/387.

مصير عُبّاد الأوثان من قومك، إنِ استمرّوا على ضلالهم، لأنّهم كالسّابقين من آبائهم، الذين قصصنا عليك قصصَهم من قبلُ، فكُلُّهم مشركون، وقومُكَ هم لهم مقلّدون، إذ ليس لهم من مستند في عبادة الأصنام سوى هذا التّقليد الأعمى لهم، وإنّا لموفّونَ هؤلاء الكفرة جميعًا استحقاقَهم منَ العذاب كاملًا على قَدْر جرائِمهم، لا يُنقَصون منه شيئًا[1].

والحاصل: أنَّهُ لَمّا أخْبَرَ اللّه تَعالى رسولَه ﷺ بِقَصَصِ عَبَدَةِ الأوْثانِ، ثُمَّ أتْبَعَهُ بِأحْوالِ الأشْقياءِ وأحْوالِ السُّعَداءِ، فصَّلَ له أحْوالَ الكُفّارِ من قَوْمِهِ[2]، على مَنهَجِ تَفصيلِ المُجْمَلاتِ في بَيانِ المُرادِ الأصليّ والتَّثْنية بالمقاصد التّابعة.

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالة الفاء على التَّفريع:

ثُنائيةُ التَّثبيتِ والتَّفريعِ، بدَلالَةِ فاءِ التَّفريع

الفاء في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ﴾ للتَفْريع، وترتيبِ النَّهي على ما قُصّ منَ القصص، وبُيّن في تضاعيفها منَ العواقب الدّنيويّة والأُخرويَّة الماضيَة، ممّا يُكْسِبُ سامعَها يَقينًا بِباطِلِ ما عليه عَبَدَةُ الأصْنام، وبِخَيْبَةِ ما أمَّلوهُ فيهم منَ الشَّفاعَةِ في الدُّنْيا، وإنَّ سابِقَ شَقائِهِم في الدُّنْيا بِعَذابِ الاسْتِئْصالِ، يُؤْذِنُ بِسوءِ حالِهِم في الآخِرَةِ، فَفَرَّعَ على ذَلِكَ نَهْيَ السّامعِ أنْ يَشُكَّ في سوءِ الشِّرْكِ وفَسادِهِ[3].

وقيل: الفاء للإفصاح عن شرطٍ مُقَدّر، مُؤدّاه: إذا كان ما علمتَ من قصصٍ لعبدة الأوثان وأنبيائِهم، وما نزل بالمشركين[4]؛ على وجه يتفرّع عنه اليقينُ بسوء المنقلَب.

(1) المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية بمصر، تفسير المنتخب، ص: 326.
(2) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 18/404.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/243، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/167.
(4) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 7/3756.

توجيه الاستئناف التَّعليليّ:

قوله تعالى: ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰٓؤُلَآءِ﴾، أي: فلا تشكَّ بعدَ ما أُنزل عليكَ من هذه القصص في سوء عاقبة عبادتهم، لما أصاب أمثالَهم قبلَهم؛ تسليةً لرسول الله ﷺ، وعِدَةً بالانتقام منهم، ووعيدًا لهم. ثمّ قال: ﴿مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُهُم﴾، يريد أنَّ حالهم في الشّرك مثلُ حالِ آبائِهم، من غير تفاوت بينَ الحالين، وقد بلغكَ ما نزل بآبائهم، فسيَنْزِلَنّ بهم مثلُه، وهو استئنافٌ، معناه: تعليلُ النّهي عنِ المريَة[1].

التّماثلُ في الأداء، يؤذنُ بعليّةِ التّساوي في الجزاء

توجيه النَّهي بـ(لا):

لم يقع منَ النَّبيِّ ﷺ شكٌّ حتَّى يُنْهَى عنه، ولا من أحدٍ من أصحابه ﷺ، حيثُ الخطابُ بالنّهي له ﷺ مُرادًا به أُمَّتُه، ولكن من فصاحة القول في بيان ضلالة الكَفَرة إخراجُه في هذه العبارة، أي: حالُهم أوضحُ من أن يُمْتَرى فيها[2].

فالنَّهْيُ في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ﴾ تَسْلِيَةٌ لَهُ ﷺ، وإنْذارٌ لِقَوْمِهِ[3].

ويجوز أن يكون توجيهُ النَّهي لا إلى مخاطَبٍ بعينه، بل "يُقْصَد به أيُّ سامعٍ، لا سامعٍ معيّن، سواء كان ممّن يُظَنّ به أن يشكّ في ذلك أم لا، إذ ليس المقصودُ معينًا"[4].

ترقية النَّهي عنِ المريةِ إلى منصَّة البيان؛ إنذارًا وتسليةً

فائدة النَّهي عنِ الامتراء:

وللنَّهي في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ﴾ فائدتان أيضًا[5]:

الفائدة الأولى: أنّه نهيٌ لمَن يقرؤون القرآنَ، فهو نهيٌ في ظاهره

عاقبة الشِّركِ تجتثُّ الأُمَمَ، وتنتهي بها للنَّدم

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/431.
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/209.
(3) رشيد رضا، تفسير المنار: 12/134.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/167.
(5) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 7/3757.

للنّبي ﷺ، وفي حقيقته لكلّ أتباعِه، وكلّ مَن يُخاطَبون بالقرآن، وهو اقتلاعٌ لجذور الشّكِّ منَ النّفس. أو أنَّ النَّهي لكلِّ مَن يتأتَّى منه الخطابُ بلا تعيين - كما مضى بيانُه - فيكون نهيًا عامًّا.

الفائدة الثّانية: أنّ النّهيَ لإفادة البُطلان بدليله، فإنّ ما سبق ذِكْرُه منَ القصص الماضية، فيه أدلّةُ بُطلان الشّرك، وأنّه معاقبٌ عليه، وأنّ عاقبته العقاب الصّارم الّذي يجتثّ الأممَ، وهم ليسوا بعيدين عن أن ينالوا نفسَ العقاب.

نُكْتَةُ التّعريض في جملة النّهي:

تنبيهُ الوالِهِ إلى دفعِ الامتراء، بـ "إيّاك واسمعي" تعريضًا

هذا النّهيُ له ﷺ هو تَعْريضٌ لِغَيْرِهِ، ممَّنْ يُداخِلُهُ شَيْءٌ منَ الشَّكّ، فإنّه ﷺ لا يَشُكُّ في ذَلِكَ أبَدًا[1]، وإن كان للنّبيّ ﷺ فهو بيانٌ؛ لأنّه ليس مَحَلًّا للرَّيب، تعريضًا بِمَنِ ارتاب فيه، ولا يَلْزَم من نهيه عنه وقوعُه، ولا توقُّعُه منه[2].

إيثار فعل الكينونة في ﴿فَلَا تَكُ﴾:

إيثارُ البيان في نفي الكينونة بالمجزوم، والإسراعُ لملامسة المراد المرقوم

ولَمّا كانَ ما تَضَمَّنَهُ هَذا التَّقْسيمُ أمْرًا عَظيمًا، وخَطْبًا جَسيمًا، اقْتَضى عَظيمَ تَشَوُّفِ النَّفْسِ، وشَديدَ شَوْقِها؛ لِعِلْم ما سُبِّبَ عنهُ، فاقْتَضى ذَلِكَ حَذْفَ النّونِ من (كانَ)؛ إيجازًا في الكَلام، لِلْإسْراعِ بالإيقافِ عَلى المُرادِ، والإبْلاغِ في نَفْيِ الكَوْنِ عَلى أعْلى الوُجوهِ؛ فَقالَ: ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ﴾، والمَعْنَى: (فلا تَكُنْ)، إلّا أنَّهُ حَذَفَ النُّونَ لِكَثْرَةِ الاسْتِعْمالِ، ولِأنَّ النُّونَ إذا وقَعَ على طَرَفِ الكَلام، لَم يَبْقَ عِنْدَ التَّلَفُّظِ بِهِ إلّا مُجَرَّدُ الغُنَّةِ، فَلا جَرَمَ أسْقَطوه[3].

وفي تَسَلُّط النَّهي على فعل الكينونة المجزوم ﴿تَكُ﴾، دونَ تسلُّطِه على فِعْل الامتراء مباشرةً، فلم يقل: (فلا تمترِ)، مبالغةٌ في النَّهي عنه.

(1) الشّوكاني، فتح القدير: 2/599.
(2) الشّهاب، عِنايةُ القاضي: 5/85.
(3) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 18/404.

بيان المتشابه اللّفظيّ:

للمُتشابِه توجيه بحَسَبِ ما تقتضيه دواعيه

قال تعالى: ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرۡيَةٖ مِّنۡهُۚ﴾ [هود: 17]، وقال: ﴿فَلَا تَكُن فِي مِرۡيَةٖ مِّن لِّقَآئِهِۦۖ﴾ [السّجدة: 23]. ففي الأولى: ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرۡيَةٖ﴾ [هود: 17]، وفي الثّانية: ﴿فَلَا تَكُن﴾ [السّجدة: 23] بحذف النّون في الأولى وإثباتها في الثّانية، ومَرجعُ هذا إلى السّياق في كلٍّ منهما؛ فأنتَ ترى أنّ السّياق مختلفٌ في الآيتين، فالأولى تثبيتٌ للرّسول بقوّة، ونهيٌ عنِ الرَّيب والمرْية، فقد بدأ الكلام بقوله: إنّه كان على بيّنة من ربّه، ثمّ يتلوه شاهد منه، ثمّ قبلَه كتابُ موسى، وخَتَمَه بقوله: ﴿إِنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ [هود: 17]؛ فناسبَ ذلك أن يقال: ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرۡيَةٖ مِّنۡهُۚ﴾ [هود: 17]، بخلاف الآية الأُخرى فإنّها ليس فيها مثلُ هذه الدّواعي، كما هو ظاهر[1].

حاصل الحكمة من حذف النون في ﴿تَكُ﴾:

الحذف والتّثبيت يتناسب معَ النّهي له عنِ الرّيبة فيه، أو عدمها

ناسب الحذفُ منَ الآية الأولى، وهي آية هود ﴿فَلَا تَكُ﴾، دون الثّانية وهي آية السّجدة ﴿فَلَا تَكُن﴾ [السجدة: 23]، أمّا إيثارُه الحذفَ في الأولى: فتثبيتًا للرّسول، ونهيًا له عنِ الرّيبة فيه، وذلك أنّه طُلِب منه ألّا يكون في شيء منَ المرية أصلًا، فلمّا كان الكلام في القرآن وفي قومه، ناسب الحذفُ ها هنا دونَ الثّانية[2].

دلالة الحرف ﴿فِي﴾:

ملابسةُ المعاني تَجَوُّزًا، قصدَ تأكيدها

﴿فِي﴾ في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرۡيَةٖ﴾، مفيدةٌ لِلظَّرْفيَّةِ المَجازيَّةِ[3]، وهي المُلابَسَةُ الشَّديدَةُ كَمُلابَسَةِ الظَّرْفِ لِلْمَظْروفِ[4]، أيْ: لا تَفْعَلْ فِعْلَ مَن هو في مرْيَةٍ؛ بِأنْ تَضْطَرِبَ من أجْلِ ما يَعْبُدونَ، مواظِبينَ عَلى عِبادَتِهِم، مُجَدِّدينَ ذَلِكَ في كُلِّ حَيٍّ،

(1) فاضل السّامرائيّ، معاني النّحو: 1/233.
(2) فاضل السّامرائيّ، أسرار البيان في التّعبير القرآنيّ، مبحث الذِّكْر والحَذف. (الشاملة، الكتروني).
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/167.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/42.

فَتُنْجِعَ نَفْسَكَ في إرادَةِ مُبادَرَتِهِم إلى امْتِثالِ الأوامرِ في النُّزوعِ عن ذَلِكَ، بِالكَفِّ عن مُكاشَفَتِهِم بِغائِظِ الإنْذارِ، والطَّلَبِ لِإجابَةِ مُقْتَرَحاتِهِم رَجاءَ الِازْدِجارِ[1].

يُتَخَيَّرُ بينَ المترادفات جلبًا للخصوصيّة

إيثار لفظ (المرية) دون غيرها:

المريةُ: التَّرَدُّدُ في الأمرِ، فيكون معناه أخصَّ منَ الشّكِّ؛ لذلك كان إيثارُ هذا اللّفظِ أوْلى من غيرِه، لأنّه يُستَدَلُّ بنفي الأدنى على تمام نفي الأعلى بالدَّلالةِ الأحرويَّة، أي: دلالة الأوْلى.

سوقُ التّنكير، قصدًا للتّعميم

سِرُّ تنكير لفظ ﴿مِرْيَةٍ﴾:

السِّرُّ في تنكير كلمة ﴿مِرْيَةٍ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ﴾ سببُه قَصْدُ التَّعميم؛ ليشملَ كلَّ ما يُسَمّى ﴿مِرْيَةٍ﴾، قليلًا كان أو كثيرًا.

دلالة المفاعلة، في المرية أو الامتراء، بعد استعارته لمعنى الشّكّ

بلاغة الاستعارة، في لفظ الامتراء:

في قوله: ﴿مِرْيَةٍ﴾ استعارةٌ تصريحيَّةٌ، حيثُ استُعيرَ لفظُ (المرية) للشّكّ، وقد جاءَ فِعْلُ المريَةِ عَلى وزْنِ فاعَلَ أوْ تَفاعَلَ وافْتَعَلَ، ولَم يَجِئْ عَلى وزْنٍ مُجَرَّدٍ؛ لأنّ أصل المراء المُجادَلَةُ والمُدافَعَةُ، مُسْتَعارًا من مَرَيْتُ الشّاةَ، إذا اسْتَخْرَجْتُ لَبَنَها، ومنْهُ قَوْلُهُمْ: (لا يُجارَى ولا يُمارَى)[2].

دفع الامتراء منها وفيها، ودلالة ذلك في المعنى

دلالة (من)، من شبه الجملة (مِّمّا):

(من) في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ ابْتِدائيَّةٌ، أي: فلا تكُ في مرية من عِبادَةِ هَؤُلاءِ المُشْرِكينَ، في أنَّها ضَلالٌ مُؤَدٍّ إلى مثْلِ ما حَلَّ بِمَن قَبْلَهم، ممَّنْ قَصَصْتُ عَلَيْكَ سوءَ عاقِبَةِ عِبادَتِهِم. وجوِّزَ أنْ تَكونَ بِمَعْنى (في)[3].

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/385.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/67.

(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 6/341.

توجيه (ما) بين الموصولة، والمصدريّة:

دَفعُ الامتراء عن مثل عبادة الكفّار أو منها

(ما) في: ﴿مِّمَّا يَعۡبُدُ﴾ و﴿كَمَا يَعۡبُدُ﴾، يجوز أن تكون مصدريّة أو موصولة، أي: من عبادتهم، وكعبادتهم. أو ﴿مِّمَّا﴾ منَ الذي يعبدون من الأوثان، ومثل ما - الذي - يعبدون منها[1].

وقال الطِّيبِيُّ تعليقًا على قول الزّمخشريّ: "أي: من عبادتهم وكعبادتهم": فيه نشرٌ، يعني: على تقدير أن تكون (ما) في الصّورتين مصدريّة: معناه هذا، وعلى تقدير أن تكون موصولة: معناه: ممّا - أي - منَ الذي يعبدون منَ الأوثان، ومثلَ ما يعبدون منها[2].

علّة مجيء فعل العبادة مضارعًا:

سَوْقُ المُضارع للدَّلالةِ على الدَّوام

عَبَّرَ عن عِبادَةِ الآباءِ في قوله تعالى: ﴿مِّمَّا يَعۡبُدُ هَٰٓؤُلَآءِۚ مَا يَعۡبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبۡلُۚ﴾ بالمُضارِعِ؛ لِلدَّلالَةِ عَلَى اسْتِمْرارِهِم على تلك العِبادَةِ، أي: إلّا كَما اعْتادَ آباؤُهُم عِبادَتَهُمْ[3].

نكتة التَّعبير باسم الإشارة:

الإشارة بـ (هؤلاء) إلى مُشاهَد موجودٍ، أو مُنَزَّلٍ مَنزِلَته

قوله: ﴿هَٰٓؤُلَآءِۚ﴾ إشارَةٌ إلى الَّذينَ دَعاهُمُ النَّبيُّ ﷺ؛ لِحُضورِهِم في ذِهْنِ السّامعِ عِنْدَ سَماعِهِ اسْمَ الإشارَةِ، وأصلُ الإشارَةِ يكون إلى مُشاهَدٍ في الوُجودِ، أو مُنَزَّلٍ مَنْزِلَتَهُ، وقَدِ اصْطَلَحَ القُرْآنُ عَلَى إطْلاقِ إشارَةِ ﴿هَٰٓؤُلَآءِۚ﴾ مُرادًا بها المُشْرِكونَ، وهَذا مَعْنًى أُلْهِمْنا إلَيْهِ - والكلام لابن عاشور - استقريناه فَكانَ مُطابِقًا؛ لِأنَّ تَقَدُّمَ ذِكْرِهِم يَجْعَلُهُم كالحاضِرينَ فَيُشارُ إليهم؛ لِأنَّهُم لِكَثْرَةِ تَوْبيخِهِم ومُجادَلَتِهِم صاروا كالمُعَيَّنينَ عند المُسْلِمينَ[4].

بلاغة الفَذْلَكة:

الإرشاد إلى مقصد الاعتبار بالعواقب في السّياق

قوله تعالى: ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرۡيَةٖ مِّمَّا يَعۡبُدُ هَٰٓؤُلَآءِۚ﴾، فَذْلَكَةُ ما تَقَدَّمَ

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/431.
(2) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 8/209.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/168.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 5/57.

مِنَ الإرْشادِ إلَى الاعْتِبارِ بِما حَلَّ بِالأُمَمِ المُهْلَكَةِ، وإنْذارُ أعْداءِ النَّبِيِّ ﷺ بِهِ، يَقولُ: فإذا كانَ أمْرُ الأُمَمِ المُشْرِكَةِ الظّالِمَةِ في الدُّنْيا ثُمَّ في الآخِرَةِ، كَما قَصَصْناهُ عَلَيْكَ أيُّها الرَّسولُ، فَلا تَكُنْ في أدْنَى شَكٍّ وامْتِراءٍ ممّا يَعْبُدُ قَوْمُكَ هَؤُلاءِ، في عاقِبَتِهِ بِمُقْتَضَى تِلْكَ السُّنَّةِ الَّتي لا تَبْدِيلَ لَها[1].

بلاغة النَّفي بـ (ما):

إيثار (ما) للدّلالة على نفي الحال، ولكون النّفي بها أقوى وآكَد

في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰٓؤُلَآءِ﴾، مُضافٌ مَحْذوفٌ؛ أي: من حالِ ما يَعْبُدونَهُ من أنَّهُ لا يَضُرُّ ولا يَنْفَعُ؛ إذ لا معنى لِلْمِرْيَةِ في أنْفُسِهِم، أي: لا تَكُ في شَكٍّ من عِبادَةِ هَؤُلاءِ، والإشارَةُ بِهَؤُلاءِ إلى مُشْرِكي قُرَيْشٍ. والأنسب للنَّفي في قوله تعالى: ﴿مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبْلُ﴾ توقيتُ ﴿مَا﴾؛ لأنَّها إذا دخلت على المضارع كانت لنفي الحال، أي: لنفيه في الزّمن الحاضر، أمّا (لا) فتنفي الفعلَ المضارعَ في المستقبل[2]. فضلًا عن كون (ما) أقوى في النّفي وآكَد، وهو يناسب شِدَّة نفي العبادة عنهم، تشبيهًا بعبادة الآباء.

سِرُّ جمعِ فعلِ العبادةِ بعدَ إفراده:

تعميم الأحكام مَقْصِدُ العُدولِ مِنَ الإفراد إلى الجمع

العدولُ مِنَ الإفراد إلى الجمع لتعميم التّسوية بينَ معبودات الكفار، وبيانِ تمالُئِهم على عبادتهم، واجتماعِهم عليها مُصِرّين.

بلاغة الحصر بالنّفي والاستثناء:

تقريرُ المماثلة في الجزاء، للمماثلة في الأفعال، وتأكيدُه بأقوى أنواعِ الحصر

الحصر بالنّفي ثمّ الاستثناء في قوله تعالى: ﴿مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبْلُ﴾، هو من أقوى أنواع الحَصْر، وهو حَصْرٌ موصوفٌ على صفة، وبلاغةُ الاسْتِثْناءِ في كونه واردًا على عُموم المَصادِرِ، وكافُ التَّشْبيهِ نائِبَةٌ عَن مَصْدَرٍ مَحْذوفٍ. والتَّقْديرُ: إلّا

(1) رشيد رضا، تفسير المنار: 12/133 - 134.
(2) المبّرد، المقتضب: 1/47.

عِبادَةً كَما يَعْبُدُ آباؤُهم[1]. وتحرير ذلك: أنَّ الاِسْتِثْناءَ إمّا من مَصْدَرٍ مُقَدَّرٍ، أوْ مَفْعولٍ مَحْذوفٍ، أي: هم وآباؤُهم سَواءٌ في الشِّرْكِ، ما يَعْبُدونَ عِبادَةً إلّا كَعِبادَةِ آبائِهِم، أوْ ما يَعْبُدونَ شَيْئًا إلّا مِثْلَ الَّذي عَبَدوهُ مِنَ الأوْثانِ[2].

نكتةُ الاسْتِثْناءِ لِلنَّهْيِ عَنِ الشَّكِّ:

بيان كونهم سَواءً في الشِّرْكِ بالله، وعِبادَةِ غَيْرِهِ

في الاستثناء دفعُ الرَّيب باستصحاب ما كان عليه الآباء من زيغ؛ على معنى: أنَّ اللّه تعالى بَيَّنَ للنَّبي ﷺ أنَّ مَعْبوداتِ هَؤُلاءِ كَمَعْبوداتِ آبائِهِم، أو أنَّ عِبادَتَهُم كَعِبادَةِ آبائِهِم من قَبْلُ، وفيه اسْتِثْناءُ تَعْليلٍ لِلنَّهْيِ عَنِ الشَّكِّ، والمعنى: أنَّهُم سَواءٌ في الشِّرْكِ بِاللّه وعِبادَةِ غَيْرِه، فَلا يَكُنْ في صَدْرِكَ حَرَجٌ ممّا تَراهُ مِنْ قَوْمِكَ، فَهُم كَمَنْ قَبْلَهُم من طَوائِفِ الشِّرْكِ[3].

بلاغة أداة التَّشبيه:

التّماثل في الأسباب، يقتضي التّماثل في المسبَّبات

قولُه ﷻ: ﴿مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبْلُ﴾، بمعنى: هم وآباؤهم سواء في الشِّرك، أي: ما يعبدون عبادة إلّا كعبادة آبائهم، أو ما يعبدون شيئًا إلّا مثل ما عبدوه منَ الأوثان، فمَعْنى: ﴿كَمَا يَعْبُدُ﴾ كَما كانَ عَبَدَ، فَحُذِفَ لِدَلالَةِ ﴿قَبْلُ﴾ عليه، وكَأنَّ اخْتيارَ هَذا التّشبيه لِلْإشارَةِ إلى أنَّ ذَلِكَ كانَ عادَةً مُسْتَمِرَّةً لَهم، فحالُهم في الشّرك مثلُ حالِ آبائهم، من غير تفاوت بينَ الحالين، وقد بَلَّغَ النَّبيُّ ﷺ ما نَزلَ بآبائهم، فسينزِلَنّ بهم مثلُه؛ لأنَّ التّماثل في الأسباب يقتضي التّماثلَ في المسبَّبات، وهو استئناف معناه تعليل النّهي عنِ المرية[4].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/68.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 6/341.
(3) الشّوكاني، فتح القدير: 2/599.
(4) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/431، والبيضاويّ، أنوار التنّزيل: 3/150.

سرُّ تكرار (ما) الموصولة، أو المصدريَّة:

تكرّرت (ما)؛ لبيان أنَّ المشركين لا يُفكّرون، وهم مؤاخذون لكفرهم، ولإهمال الآيات الدّالّة على الوحدانيّة، وللمعجزة الدّالّة على رسالة محمّد ﷺ، وهي معجزة القرآن الكريم[1]، وفي ذلك تهكُّم بهم، وزجرٌ لسوء تقليدِهم لآبائهم في الشّرك.

تكرار (ما) مع ما يَعْبُدونَهُ؛ لزجرهم وبيانِ أنَّ معبودهم لا يَضُرُّ ولا يَنْفَعُ

سرُّ التَّعبير بالمضارع:

العدولُ إلى صيغة المضارعِ لحكايةِ الحالِ الماضيةِ من عبادة الآباء؛ لاستحضار صورتها أو مثلِ ما كانوا يعبدونه، والقَصْدِ إلى بيانِ استحقاقِ العقوبةِ كلّما تجدَّد الفعلُ؛ فالجزاءُ من جنس العمل على الدَّوام[2].

إفهام الأنام بأنَّ الجزاء من جنس العمل على الدّوام

إيثار لفظ (الآباء)، وأثره:

أُطْلِقَ الآباءُ على الأسْلافِ، وهم عادٌ وثَمودُ، وذَلِكَ أنَّ العَرَبَ العَدْنانيِّينَ كانت أُمُّهُم جُرْهُميَّةً، وهي امْرَأةُ إسْماعيلَ، وجُرْهُم من إخوة ثَمودَ، وثَمودُ إخْوةٌ لِعادٍ، ولأنَّ قُرَيْشًا كانت أُمُّهُم خُزاعيَّةً، وهي زَوْجُ قُصَيٍّ. وعِبادَةُ الأصْنام في العربِ أتاهُم بِها عَمْرو بنُ لُحيّ، وهو جَدُّ خُزاعَةَ[3]، فهذا وجه الانتساب على الحقيقة.

لا تُنزَّلُ الأقوالُ والأفعالُ مقامَ الحُجَج في الاستدلال

وإيثار لفظِ الآباء في إنكار عبادات المُشركين خَلَفًا عن سَلَف؛ لبيان أنَّهم لَم يَفْعَلوا ذلك لِشُبْهَةٍ إذا كُشِفَ عنها القِناعُ رَجَعوا، بل لِمَحْضِ تَقْليدِ الآباءِ، مَعَ اسْتِحْضارِهِم لِتَلَبُّسِهِم بِالعِبادَةِ، كأنَّهم حاضِرونَ لَدَيْهِم يُشاهِدونَهم، مع العَمى عَنِ النَّظَرِ في الدَّلائِلِ والحُجَجِ، كَما كانَ مَن قَصَصْنا عليك أخْبارَهم منَ الأُمَم، في تَقْليدِ الآباءِ سَواءً بِسَواءٍ، مع عَظيم شَكيمَتِهِم، وشِدَّةِ عَصَبَتِهِم لِلْأجانِبِ، فَكَيْفَ بِالأقارِبِ؟ فَكَيْفَ بِالآباءِ[4]؟

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3757.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/243.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/168.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/387.

وجه نسبة (الآباء) إلى ضميرهم:

الضَّلال شنشَنةٌ عُرِفت من أخزم

سيقتِ النّسبةُ في قوله ﷻ: ﴿مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُهُم﴾ للتَّنصيصِ على أنَّهُم سَلَفُهُم في هذا الضَّلالِ، وعَلَى أنَّهُمُ اقْتَدَوا بِهِم[1]، بوصفهم منسوبين إليهم، وأنّهم على آثارهم سائرون.

معنى ﴿مِّن﴾ في الآية:

الكفرُ حديثُ عهد بمن سبق

لمّا كانت عبادتُهم في قليل منَ الزّمن الماضي، أدْخَل الجارَّ فقال: ﴿مِّن قَبْلُ﴾، أي: أنّهم لم يفعلوا ذلك لشبهةٍ إذا كُشِفَ عنها القناعُ رجعوا، بل لمحض تقليدِ الآباء، معَ استحضارهم لتلبُّسِهم بالعبادة، كأنّهم حاضرون لديهم يشاهدونهم، معَ العمى عنِ النَّظر في الدّلائل والحُجَج، كما كان مَن قصصنا عليكَ أخبارَهم منَ الأمم، في تقليد الآباء سواءً بسواء[2].

بلاغة الإطناب:

الإسهابُ في سَوْقِ المعاني، يومئ إلى تثبيتها

أوثر الإسهابُ في تَوصيفِ ما عليه أبناءُ المشركين أُسوةً بأسلافهم؛ لتعليل النَّهي عنِ الشَّك في عبادتهم، ومن ذلك الإسهابِ قولُه: ﴿مِّن قَبْلُ﴾، مع أنّه قد يُظَن أنّه غيرُ محتاجٍ إليه؛ لإغناء قوله: ﴿ءَابَآؤُهُم﴾ عنه، فحتمًا أنّ آباءهم كانوا قبلهم، فلِمَ النّص عليه؟

والجواب: لعلَّ القصد منه الدّلالة على أن يتمَكَّنَ المعنى المقصودُ في النَّفس أفضلَ تمكُّنٍ، ويكونَ الشُّعورُ به أتَمّ، وإلى زيادةِ التَّنبيهِ على دَفْع الشّكّ بالقواطع؛ ليحْصُلَ قبولُ المتلقّي لما يقال له، أو يخاطَب به.

علّة حذفِ المضاف إليه في ﴿قَبْلُ﴾:

من مقاصد البيان، إضمار ما عُلِمَ تقديره

المُضافُ إلى ﴿قَبْلُ﴾ مَحْذوفٌ تَقْديرُهُ: (من قَبْلِهِم)، تَنْصيصًا على أنَّهُم سَلَفُهُم في هذا الضَّلالِ، وأنَّهُمُ على آثارهم مقتدون[3]، وقد حُذِف المضافُ إليه للعِلْم بتقديره.

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 12/169.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/387.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/169.

توجيه الاستئناف التَّعليليّ:

ربطُ العِلل بالمُحكمات لتقرير قطعيّة الإدانات

الاستئناف في قوله تعالى: ﴿مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبْلُ﴾؛ جيء به لتعليل النّهي عنِ المرية، أي: هم وآباؤهم سواءٌ في الشّرك، أي: ما يعبدون عبادةً إلّا كعبادة آبائهم، أو ما يعبدون شيئًا إلّا مثل ما عبدوه منَ الأوثان، وقد بلغك ما لَحِق آباءَهم من ذلك، فسيلحَقُهم مثلُه[1].

والحاصل: أنّه استئنافٌ قُصِدَ به التَّعليلُ[2]، الذي يتوكَّأ على حِكْمَةٍ تَقْتَضي المُساواةَ في الجَزاءِ عَلَى الأعْمالِ المُتَماثِلَةِ[3].

دلالة الواو في: ﴿وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ﴾:

القصد إلى التَّنبيه، على ملازمة العلل لمعلولاتها

الواو عاطفة للدّلالة على أنّ جُمْلَةَ: ﴿وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ﴾ معطوفةٌ عَلى جُمْلَةِ التَّعْليلِ، والمَعْطوفُ هو المَعْلولُ[4]؛ لبيان أنَّ الجزاء من جنس العمل.

بلاغة حشدِ المؤكِّدات في الآية:

تظاهُرُ المؤكِّدات على قدرٍ مشترك؛ رعيًا للمُهِمّات

حُشِد لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ﴾ المؤكِّداتُ: (إنّ)، و(نا)، و(اللّام)، و(الجملة الاسميّة)؛ لتمام التَّوْفِيَةِ لحَظِّهمُ المُعَيَّنِ لَهم، حَسَبَ جَرائِمِهم وجَرائِرِهم منَ العَذابِ عاجِلًا وآجِلًا، كَما وفَّيْنا آباءَهم أنْصِباءَهُمُ المُقَدَّرَةَ لَهُم، أو منَ الرِّزْقِ المَقْسوم لَهُم، فَيَكونُ بَيانًا لِوجْهِ تَأخُّرِ العَذابِ عنهم، مَعَ تَحَقُّقِ ما يوجِبُهُ[5].

سرُّ العدول في ﴿لَمُوَفُّوهُمْ﴾:

المراوحةُ بينَ الصّيغ والمباني؛ لتأكيد المعاني، من بلاغة النّسق والبيان

عَبَّر عنِ الإيفاء في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ﴾ باسم الفاعل، وهو من (وفّى) الرُّباعيّ، وصيغةُ اسم الفاعل عُدِلَ به عنِ

(1) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/150.
(2) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 8/208.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/168.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/169.
(5) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/243.

المضارع؛ لإثبات معنى الإيفاء وتأكيدِ حدوثه وفاعله[1]، بما لا يتطرّق إليه الشّكُّ والاحتمال.

دلالة لفظ (النَّصيب):

جَلْبُ ما يحقّق وفرةً في المعاني، بإيراد المباني

النّصيب: القِسْمُ المجعولُ لصاحبه، كالحَظّ[2]، وهو عند الرّازيّ على أربعة أوجه؛ يحتملُ أن يكون المُرادُ: إنّا موفُّوهُم نصيبهُم، أي: ما يخُصُّهُم من العذابِ. ويحتملُ أن يكون المُرادُ أنّهُم وإن كفروا وأعرضوا عنِ الحقِّ، فإنّا موفُّوهُم نصيبهُم من الرِّزقِ والخيراتِ الدُّنيويّةِ. ويحتملُ أيضًا أن يكون المُرادُ إنّا موفُّوهُم نصيبهُم من إزالةِ العُذرِ وإزاحةِ العِللِ وإظهارِ الدّلائِلِ وإرسالِ الرُّسُلِ وإنزالِ الكُتُبِ. ويحتملُ أيضًا أن يكون الكلُّ مرادًا[3].

سرُّ الإضافة في (التَّوفية) و(النَّصيب):

لا يمنع الإعراضُ، عن توفية ما قُدِّر للعباد

في إضافة التَّوفية والنّصيب إلى الضّمير (هم) ما لا يخفى، من أنَّ القِسْمَ المَجْعولَ لهم كالحَظِّ منَ الخَيْرِ والشَّرِّ، منَ الآجالِ وغَيْرِها، وما هو ثابتٌ ثَباتًا لا يُفارَقُ أصْلًا، فَإنّ اللّه موفّيهم نَصيبَهم منه؛ منَ الرِّزْقِ والخَيْراتِ الدُّنْيَويَّةِ، أو نَصيبَهم من إزالَةِ العُذْرِ، وإزاحَةِ العِلَلِ، وإظْهارِ الدَّلائِلِ، وإرْسالِ الرُّسُلِ، وإنْزالِ الكُتُبِ[4]. وفي هذا منَ الإشارَةِ إلى مَزيدِ فَضْلِ اللّه تَعالى وكَرَمِه ما لا يَخْفى، حَيْثُ لَم يَقْطَعْ رِزْقَهم مَعَ ما هم عَلَيْهِ من عِبادَةِ غَيْرِه[5].

أسلوب التَّهكُّم:

تأكيد العطيّات من تمام فقه المروءات

اسْتَعْمَلَ البيانُ القرآنيّ ﴿لَمُوَفُّوهُمْ﴾ و﴿نَصِيبَهُمْ﴾ هُنا اسْتِعْمالًا تَهَكُّميًّا، كأنَّ لهم عَطاءً يَسْألونَهُ فَوُفُّوهُ، فوقَعَ قَوْلُهُ تعالى: ﴿غَيْرَ

(1) الأزهريّ، شرح التصريح على التوضيح: 2/11.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/387.
(3) الفخر الرازيّ، مفاتيح الغيب: 18/404.
(4) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 18/404.
(5) الآلوسيّ، روح المعاني: 6/341.

مَنقُوصٍ﴾ حالًا مُؤَكِّدَةً لِتَحْقيقِ التَّوْفيَةِ زيادَةً في التَّهَكُّم؛ لِأَنَّ منْ إكْرام المَوْعودِ بِالعطاءِ أنْ يُؤَكَّدَ لَهُ الوعدُ، ويُسَمَّى ذلك بِالبشارة[1].

وجه التَّعبير بـ (غير):

التَّأكيد على تمام الحقِّ، بنفي الاحتمالات بلفظة (غير)

يحمل قولُه تعالى: ﴿لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ﴾ على توفية الأجر منَ الخير والشّرّ منَ الآجال وغيرها، وما هو ثابت ثباتًا لا يفارق أصلًا؛ ولما كانتِ التّوفية قد تطلق على مجرّد الإعطاء، وقد يكون ذلك على التّقريب، نفى هذا الاحتمالَ بقوله: ﴿غَيْرَ مَنقُوصٍ﴾[2]، وجيءَ بـ (غير) لشِدّة إبهامها أو عمومها في كلّ مُغايرٍ للمذكور، فلا يحصل بها تعيين، ولهذا تجري صفةً على النّكرة[3]؛ لتُعَبّر على شِدّة المبالغة في الدّلالة على نفي النّقص في توفية نصيبهم.

علَّة التَّعبير في ﴿مَنقُوصٍ﴾:

دَفْعُ توهُّم التَّجوُّز، بدلالة اسم المفعول

علَّةُ التَّعبير باسم المفعول ﴿مَنقُوصٍ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ﴾؛ لِدَفْعِ احْتِمالِ كَوْنِهِ مَنقوصًا؛ لإفادة أنَّ النّصيب أصبح ثابتَ المقدار على وجهٍ يدَفْعُ تَوهُّمَ التَّجَوُّزِ[4].

توجيهُ إعراب ﴿غَيْرَ مَنقُوصٍ﴾:

تأكيد المعاني بالأحوال، لدَفْعِ الأوهام

الأوْجَهُ أن يقال في توجيه ما قيل: استُعْملت التَّوفيةُ بمعنى الإعطاء، كما استُعمل التَّوفّي بمعنى الأخذ. ومَن قال: أعطيتُ فلانًا حَقّه، كان جديرًا أن يُؤَكِّدَه بقوله: ﴿غَيْرَ مَنقُوصٍ﴾[5]. فـ ﴿غَيْرَ مَنقُوصٍ﴾ حالٌ منَ النَّصيب لتقييد التَّوفيَة؛ فإنَّك تقول: وفَّيْتُه حَقَّه، وتريد به وفاءَ بعضِه ولو مجازًا[6]؛ لأنَّ التَّوفيَةَ تقتضي عدمَ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/169.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/387.
(3) ابن القيّم، التّفسير القيّم: 1/123.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/243.
(5) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/432.
(6) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/150.

نقصانِ الموفَّى، كُلًّا كان أو بعضًا، فوفاءُ النِّصفِ يَلزم منه عدمُ نقصان النِّصف[1]. والحكمةُ أن يقال: ﴿غَيْرَ مَنقُوصٍ﴾ حالٌ مُؤكّدة منَ النَّصيب؛ كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ۝٢٥﴾ [التوبة: 25]، وفائدتُه دفعُ توهّم التَّجوّزِ، وجعلُها مُقيِّدةً له؛ لِدَفْعِ احتمالِ كونِه منقوصًا في حَدّ نفسِه، مبنيٌّ على الذهول عن كون العاملِ هو التوفيةَ[2].

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الشّكُ، والرّيبةُ، والمِرْيَةُ:

الفرق بينَ المرية والشّكّ، كالفرق بينَ المتعادلين، وجاء الأخصّ لنفي التَّردُّد في أمر العبادة

الشَّك: هو وقوف النّفسِ بينَ الشّيئين المتقابلَين، أو المتناقِضَين، بحيث لا يترجّح أحدُهما على الآخَر بأمارة عند الشّاكّ.

والرّيبُ: شكّ فيه خوفٌ، وهو أخصّ منَ الشّكّ، فكلُّ ريبٍ شكّ، وليس كلُّ شكّ ريبًا[3].

والمريَةُ: هي التَّردُّد في الأمر، وهو أخصّ منَ الشَّكّ[4].

واستُعمل الأخصّ في الآية؛ لأنّه نفى التَّردُّد في أمر عبادتهم، ولم يكن نفيًا لشِكٍّ بينَ أمرين، ولا لشكٍّ فيه خوفٌ فيكون ريبًا.

التَّوفية، والتَّأدية:

النّسبة بينَ التَّوفيَة والتّأديَة، نسبةُ العموم والخصوص المطلَق

التّوفّي: أخْذُ الشّيء وافيًا؛ أي: تامًّا كاملًا، ويقابلُه التّوفيَة، وهو إعطاء الشّيء تامًّا كاملًا، ويقال: وفّاه حَقّه فتوفّاه منه[5]، فالمراد بالتَّوفية: مطلقُ التَّأدية[6].

والتّأديَة: أدَّى دَيْنَه تأْديَةً، أي: قضاه؛ وهي إتيانُ عينِ الواجبِ في الوقت المحدّد. والفرق فيما ظَهَرَ: أنّ كلّ تأديَة توفيَةٌ، وليس كلُّ توفية

(1) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 8/209.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/243.
(3) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 1/107.
(4) الرّاغب، المفردات: (مرى).
(5) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 8/404.
(6) ابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 10/575.

تأديَةً. وبذلك فالتّوفيَةُ أنسبُ للسّياق من حيث إنّ نصيبَهم سيوفّى على وجهه الأتمّ الأكمل.

(منقوص)، و(مجذوذ):

الجَذّ: الكَسْر، والقَطْع، والعطاء غيرُ المجذوذ: هو عطاءٌ للّذين سُعِدوا، عطاءٌ دائمٌ لا ينقطع، ولا يتوقّف، عطاءٌ فيه تملُّكٌ، فلا يُستَردُّ، فالعطاءُ: هو الجزاءُ إضافةً إلى الزّيادة الّتي هي منَ الفضل[1]. والزّيادةُ التّامّةُ تُناسبُ العطاءَ المقتضي عدمَ القطعِ تفضّلًا وتكرُّمًا، أمّا غيرُ المنقوص: فهو الجزاءُ التّامّ للمشركين لا زيادةَ فيه[2]. ولا نقصان ليناسب توفيَةَ النَّصيب على مقتضى عدلِه جلّ في علاه، وِفاقَ ما قدَّموا من عمل.

نصيب الّذين سُعِدوا، زيادةٌ مع التّمام، وجزاءُ المشركين تمامٌ دونَ زيادة

(1) محمد الهلال، تفسير القرآن النّريّ: 12/104.
(2) محمد الهلال، تفسير القرآن النّريّ: 12/104.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ١١٠﴾ [هود: 110]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

تسلية الأنام، بمنهج ضَرْب الأمثال، بربط معاناة الأنبياء، مع التّكذيب العلّ

ضُربتُ الأمثالُ بِسُنَّةِ الله تعالى في الأُمَم وأقْوام الأنْبياءِ عليهم السلام تسليةً وتخفيفًا، وبما عمّت به البلوى؛ والقصدُ: أنّه تعالى لمّا بيّن إصرارَ كُفّارِ مكّة على إنكار التّوحيد، وتقليدِهم آباءَهم في عبادة الشُّركاء من دون الله، بيّن هنا أيضا إصرارَهم على إنكار نبوّته عليه السلام، وتكذيبِهم بكتابه، وأنَّ هَؤُلاءِ الكُفّارَ كانوا على هذه السّيرَةِ الفاسِدَةِ مع كُلِّ الأنْبياءِ عليهم السلام، وأنَّهُ صلى الله عليه وسلم لَمّا أنْزَلَ التَّوْراةَ عَلى موسى عليه السلام اخْتَلَفوا فيه، فَقَبِلَهُ بَعْضُهم وأنْكَرَهُ آخَرونَ، وذَلِكَ يَدُلُّ عَلى أنَّ عادَةَ الخَلْقِ هَكَذا[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿كَلِمَةٌ﴾: (الكافُ واللّامُ والميمُ) أصل يَدُلُّ على نُطْقٍ مُفْهِمٍ، ومنه الكلام؛ تَقولُ: كَلَّمْتُهُ أُكَلِّمُهُ تَكْليمًا، وهو كَليمي؛ إذا كَلَّمَكَ أو كَلَّمْتَهُ. ثُمَّ يَتَّسِعونَ، فَيُسَمُّونَ اللَّفْظَةَ الواحِدَةَ المُفْهِمَةَ كَلِمَةً، والقِصَّةَ كَلِمَةً، والقَصيدَةَ بِطولِها كَلِمَةً. ويَجْمَعونَ الكَلِمَةَ على كَلِماتٍ وكَلِمٍ، قالَ اللّه تَعالَى: ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ [النساء: 46][2]. وكلِمَةُ اللّه: شريعتُه وحُكْمُه وإرادته، "قال تعالى: ﴿وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا﴾ [التّوبة: 40]، ﴿كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓا۟﴾ [يونس: 33]، ﴿يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ﴾ [الأعراف: 158] أي: شرائعه"[3].

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب، 18/405.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: 5/131.
(3) أحمد مختار، معجم اللّغة العربية المعاصرة: 3/1954.

2) ﴿سَبَقَتْ﴾: (السِّينُ والباءُ والقافُ) أَصْلٌ واحِدٌ صَحيحٌ، يَدُلُّ عَلَى التَّقْديم[1]. وسبَقَ الشَّيءُ: مضى وتقدَّم، كقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ﴾ [طه: 99][2].

3) ﴿مُرِيبٍ﴾: (الرّاءُ والياءُ والباءُ) أَصَلٌ يَدُلُّ عَلَى شَكٍّ، أو شَكٍّ وخَوْفٍ، فالرَّيْبُ: الشَّكُّ. قالَ اللّه جَلَّ ثَناؤُهُ: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [البقرة: 1]، أيْ: لا شَكَّ[3]. ورابَكَ الأَمْرُ: إذا أَدْخَلَ عَلَيْكَ شَكًّا وخَوْفًا[4]، والرَّيب: صَرْف الدّهر[5]، والشّكُّ المريب: هو الذي تصحبُه شبهةٌ تزيد الإلباس[6].

❁ المَعْنى الإجْمالِيُّ:

بيان أنّ الاختلاف فيما أنزل الله، هو سُنّة المدعوّين مع رسلهم، وهو واقع الأمم قديمًا

ذكّرَ اللّه في هذه الآية بقوم موسى الّذين آتاهم الكتابُ، أي: التّوراة. فاختُلِف في شأنه وتفاصيل أحكامه، فآمن به قومٌ، وكفر به آخَرون، وعَملَ بأحكامه قومٌ، وترك العمل ببعضها آخَرون، فلا يَضِقْ صدرُك - يا محمّد ﷺ - بما وقع من هؤلاء في القرآن، ولولا أنّ اللّه سبحانَه قد حَكَم بتأخير عذابِهم إلى يوم القيامة، لِما عَلِمَ في ذلك منَ الصَّلاح؛ لقضى عليهم عاجلًا، لكنّه سبحانه سيقضي بين قومك، أو بين قوم موسى فيما كانوا فيه مختلفين، فيُثابُ المحقُّ ويُعذّبُ المُبطل، فإنَّ قومَك لفي شَكّ منَ القرآن مُريب، إن حُملَ على قوم محمّد ﷺ، أو منَ التوراة إن حُملَ على قوم موسى[7] عليه السلام.

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: 3/129.
(2) أحمد مختار، معجم اللّغة العربية المعاصرة: 2/1028.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: 2/464.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: 2/464.
(5) ابن منظور، لسان العرب: 1/442.
(6) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: 2/742.
(7) الشّوكاني، فتح القدير: 2/599.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغة الوصل بالعطف:

اختلاف أهلِ الكتاب على أنبيائهم، أعظمُ مِن اختلاف أهل الشّرك

الجملة اعْتِراضٌ لتثبيت النَّبي ﷺ وتَسْليَتِه؛ بإعلامه أنَّ أهْلَ الكِتابِ - وهُم أحْسَنُ حالًا منْ أهْلِ الشِّرْكِ - قَدْ أوتوا الكِتابَ فاخْتَلَفوا فيه، وهم أهْلُ ملَّةٍ واحِدَةٍ، فلا تَأْسَ من اخْتِلافِ قَوْمِكَ عَلَيْكَ، فالجُمْلَةُ عَطْفٌ عَلَى جُمْلَةِ: ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ﴾[1]، وسِرّ العطف: التَّشريكُ بين الفريقين في التّمرّد على الرّسولَين الكريمين عليهما الصّلاة والسّلام.

وجه التَّوكيد باللّام و(قد):

المبالغةُ في التَّأكيد، للعبرة والتَّثبيت

أكَّد اللّه نزولَ الكتاب على موسى بـ (اللّام) و(قد)؛ ليُبيّن لهم سوءَ صنيعهم بالاختلاف فيه، ويُعَرِّضَ بذمّهم، لكون الاختلافِ في مواطن اليقين وقوّةِ الدّليل جحودًا، وفي ذلك مزيدُ اعتبارٍ للمُعتَبر، وتثبيتٌ للمُتَيقّن، فإنْ كانوا قدِ اختلفوا في شأن ما أوتيَ موسى عليه السلام، ما بين مُذْعِن ومُؤوّلٍ ومخالفٍ، فكيف تنتظر - يا محمّد ﷺ - من قوم أُمّيّين أنْ يُذعِنوا بمجرّد النّزول؛ فالقَصْدُ منَ الإحالة إلى تسليَة الرَّسول ﷺ[2].

إيثار لفظ الإتيان دون غيره:

الإتيان يُقال فيمَن كان منه قبول

الإتيان: مجيء بسهولة، ويُقال للمَجيء بالذّات وبالأمر وبالتّدبير، ويقال في الخير وفي الشَّرّ، وفي الأعيان والأعراض، وكلُّ موضعٍ ذُكِرَ في وصْف الكتاب ﴿ءَاتَيْنَا﴾ فهو أبلغ؛ لأنّه يُقال فيمن كان منه قبول[3]؛ لكون هذا الفعلِ قد استلزم صفاتٍ متكاملةً، علمًا، وحكمًا، وقُدْرةً، وعفوًا، وجبروتًا، وقهرًا، فهناك أشياءُ كثيرةٌ تتكاتف لتحقيق هذا الإتيان[4].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/169.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3758 - 3759.
(3) الرّاغب، المفردات: (أتى).
(4) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 11/6697.

إضافة الإتيان إليه تعالى بضمير التَّعظيم:

أُضيفُ الإتيانُ إلى اللّه تَعالى بضَميرِ العَظَمَة تشريفًا وتعزيرًا؛ لأنَّه أمرٌ يتعلّق بفعل الحقّ سبحانَه، وهو مُنزَّهٌ في ذاته عن أيّ تشبيه، فـ ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ﴾ [الشّورى: 11]؛ فإذا تكلّم الحَقّ سبحانَه على الفعل، فَخُذْ كلّ فعلٍ صدر عنه، بقوّته سبحانَه غيرِ النّهائية[1].

القصدُ إلى التّشريف والتّعزير بالإتيان يستصحب تنزيهَ الرّحمن

وجه إظهار اسم ﴿مُوسَى﴾ عليه السلام:

لمّا ذكر اللّه تعالى في الآية السّابقة إعراضَ المشركين عنِ اتّباع ما أتى به النّبيُّ ﷺ منَ المعجزات، وأنزل عليه منَ الكتاب، سلّاهُ بأخيه عليه السلام؛ لأنّ الحال إذا عمَّ خَفَّ، وابْتَدَأ ذِكْرَهُ بِحَرْفِ التَّوقُّعِ بِما دَعا إلى تَوقُّعِهِ من قُرْبِ ذِكْرِهِ مَعَ فِرْعَوْنَ، مَعَ ذِكْرِ كِتابِهِ أوَّلَ السّورَةِ، فقال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا﴾، أيْ: بِما لَنا منَ العَظَمَةِ، ﴿مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ﴾، أي: التَّوْراةَ الجامعَةَ للخيرِ[2].

التّسلية والتّشريف بذكر أسماء الأنبياء السّابقين، وأحوالِ أقوامهم معَهم؛ لأنّ المصائب إذا عمّت هانت

نُكْتَة تعريفِ لفظِ ﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾:

جاءت لفظة ﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾ معرّفة؛ لتدلَّ على شيء بعينه، وهو التّوراة[3]، فاللّام فيها عهديّة.

الدّلالة على ما يَدلّ على الأعيان والذّوات

دلالة الفاء في السّياق الحكيم:

(الفاء) في قوله: ﴿فَٱخۡتُلِفَ فِيهِۚ﴾ للعطف والتّرتيب من غير تَراخٍ، وكأنَّه ترتَّب على إيتاء اللّه تعالى موسى الكتابَ المسارعةُ إلى الاختلاف، وهذا يدلُّ على أنّ الاختلاف ليس ناشئًا من ذلك الكتاب، بل هو ناشئٌ من فساد النّفوس، وإذا فَسَدتِ النُّفوس لا يقنِعُها الدّليل، ولا يهديها البرهانُ، مهما يكن حاسمًا[4].

علّةُ التَّخَلُّفِ عن المنهج، فسادُ العقول والمُهَج

(1) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 11/6697.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/387.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/169.
(4) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3759.

نكتة التَّعبير بصيغة ﴿فَٱخۡتُلِفَ﴾:

لمّا كان الضّارَّ والمسلّيَ الاختلافُ نفسُهُ، جاء الفعل ﴿فَٱخۡتُلِفَ﴾ بصيغة المبنيِّ للمجهول؛ لأنَّ ذكرَ فاعِل الاختلاف لا يتعلَّق به غَرَضٌ، وإنَّما الذي يتعلَّق به الغَرضُ هو ما نَجَم عن هذا الاختلافِ من كُفْر وضلال[1].

التَّنبيهُ على أولويّة اللّوازم المقصودة أصالةً، لازمٌ في الإبانة عنِ المراد

دلالة (في) على الظّرفية:

(في) على بابها منَ الظّرفيَّة، وهو هنا مجازٌ، أي: في شأنه. وقيل: هي سببيّةٌ، أي: هو سببُ اختلافهم، كقوله تعالى: ﴿يَذۡرَؤُكُمۡ فِيهِۚ﴾ [الشّورى: 11]، أي: يُكَثِّركم بسببه. وقيل: هي بمعنى على، ويكون الضّمير لموسى عليه السلام، أي: فاخْتُلِف عليه[2].

صلاحيّةُ ترديدِ (في) بما يدلّ على مُلابسة الاختلاف، أو سَببيّتِه، أو تعليقِه

عودُ الضَّمير في شبه الجملة ﴿فِيهِۚ﴾:

الظّاهِرُ عَوْدُ ضميرِ ﴿فِيهِۚ﴾ على الكِتابِ لِقُرْبِهِ، ويَجوزُ أنْ يَعودَ عَلَى موسَى عليه السلام، ويَلْزَمُ منَ الاِخْتِلافِ في أحَدِهِما الاِخْتِلافُ في الآخَرِ[3]. والحاصل: أنّه إذا تقدَّم أمران على ضمير الغَيْبَةِ؛ فيَصِحُّ أن يعود الضّميرُ إلى كلّ أمرٍ منهما[4].

صلاحيّةُ عَوْدِ الضَّمير على القريب والبعيد

فائدة التَّعبير بـ ﴿وَلَوۡلَا﴾:

(لَوْلا) حرفُ امتناعٍ لوجود، أي: امتنعَ قضاءُ اللّه، أي: حُكْمُه فيما بينَهم ﴿وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ﴾، وكلمةُ اللّه السّابقة: هي التّأجيل ليوم الحساب، وتَركُهم في الدّنيا - دارِ البلاء والاختبار - ليَصِلَ كُلٌّ إلى أقصى ما تتأدّى به نزوعه، فيكون حُكْمُه بعدَ الأعمال كلّها[5]. فلولا حِكْمة التَّأخير، لوقعَ العذابُ بينَهم أو فيهم.

لَوْلا نَظِرَةٌ لَهم إلى يَوْم الدّين، لَقُضيَ بَيْنَهم في الدُّنْيا

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/170، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 9/387، وطنطاويّ، التّفسير الوسيط: 7/282.

(2) السّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 6/396.

(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/216.

(4) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 11/6696.

(5) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3540.

دلالة لفظ ﴿كَلِمَةُ﴾ في الآية:

دلالة الكلمة على لازم الحُكم والقضاء

الكلمة: هيَ إرادَةُ اللّه الأزَليَّةُ، وسُنَّتُهُ في خَلْقِهِ[1]، وهي عبارةٌ عنِ الحُكم والقضاء. والمعنى: لَقُضيَ بَيْنَهُم - أي: لفُصِل بينَ المؤمن والكافر - بنعيم هذا وعذاب هذا[2].

بلاغة الكناية في لفظة الكلمة:

إخراج المعنى من عموم الكلام إلى خصوص القضاء

الكلمة هنا كنايةٌ عنِ القضاء والقَدَر[3]، وفيه إخراجُ المعنى من عموم الكلام وحقيقتِه، إلى خصوص القضاء والقدر، وواسعِ فضاءِ معناهما.

نُكْتَةُ وصْفِ (الكلمة) بـ (سَبَقَتْ):

تعليق المُقدَّرِ بالمعلوم الأزليّ

وصفَ اللّه تعالى الكلمةَ بالسَّبْقِ لِأنَّها أزَليَّةٌ، باعْتِبارِ تَعَلُّقِ العِلْم بِوُقوعِها، وبِأنَّها تَرْجِعُ إلَى سُنَّةٍ كُلِّيَّةٍ، تَقَرَّرَتْ من قَبْلُ[4].

دلالة حرف الجرّ ﴿مِن﴾:

التّذكير برحمة اللّه وحِكمته، تأكيدٌ لعوارف الإيمان به

قوله تعالى: ﴿مِن رَّبِّكَ﴾ جارٌّ ومجرورٌ متعلّقان بـ ﴿سَبَقَتْ﴾، ولحَرْفِ الجَرِّ ﴿مِن﴾ دلالةٌ بلاغيّةٌ تُحيلُ على المُحْسِنِ إلَيْكَ وإليهم، بإرْسالِكَ رَحْمَةً لِلْعالَمينَ، وأنّ الذي أخَّرَ العذابَ لن يُخْلِفَ إيقاعَه. فالقَصْدُ التّذكيرُ برحمة اللّه وحِكْمتِه.

إيثار لفظ الرُّبوبيَّة:

سَوْقُ ما يَدُلُّ على لازم الرَّأفة والنُّصرة

التَّعْبيرُ عَنِ الجَلالَةِ بِلَفْظِ: ﴿رَّبِّكَ﴾ لِما في مَعْنَى الرَّبِّ منَ الرَّأْفَةِ بِهِ، والانْتِصارِ لَه، وتوفية حقّه. ولِما في الإضافَةِ إلى ضمير الرَّسول ﷺ منَ التَّشْريفِ، وكِلا الأمْرَيْنِ تَعْزيزٌ لِلتَّسْليَةِ[5].

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/171.
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/210.
(3) الزّحيلي، التّفسير المنير: 12/161.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/171.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/318.

بلاغة الالتفات في الآية الكريمة:

تدليل المتلقّي بالالتفات حالَ التّلقّي

في قوله تعالى: ﴿ءَاتَيْنَا﴾، وقوله: ﴿مِن رَّبِّكَ﴾ التفاتٌ، وقد سيق الالتفاتُ لحَثِّ السّامعِ وبَعْثِه على الاِسْتِماعِ حَيْثُ أقْبَلَ المُتَكَلِّمُ عَلَيْهِ، وأنَّهُ أعْطاهُ فضلَ عناية وتخصيصًا بالمواجَهَةِ[1]، كما أنَّه لا يخفى ما فيه من تشريف المخاطَب بكاف الخطاب.

دلالة اللّام في قوله: ﴿لَقُضِيَ﴾:

تُرِكَ العذابُ لكلمةٍ (سبقت)، لا بسبب قُدرة الخصوم على دَفْعِه

اللّام واقعةٌ في جواب ﴿وَلَوْلَا﴾؛ والمعنى: لَعُذِّبوا في الحالِ، وفُرِغَ من عَذابِهِم وإهْلاكِهِم من زمان؛ بدلالة الفعل الماضي المبني للمجهول، ومفهومُهُ: أنَّ تَرْكَ عَذابِ مَن يَستحِقُّه بسبب كلمةٍ ﴿سَبَقَتْ﴾، لا بسبب قُدرتهم على دَفْعِه[2].

سرُّ التَّعبير عنِ القضاء بالبناء للمفعول:

سَوْقُ المبنيّ للمفعول، للاهتمام بالوقوع

سيق القضاءُ بالبناء للمفعول في قوله تعالى: ﴿لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾؛ للدَّلالةِ على إمكانِ تعجيلِ وُقوعِ القَضاء ﴿بَيْنَهُمْ﴾ أيْ: بَيْنَ مَن اخْتَلَفَ في كِتابِ موسى عاجِلًا، ولَكِن سَبَقَتِ الكَلِمَةُ أنَّ القَضاءَ الكاملَ إنَّما يَكونُ يَوْمَ القيامَةِ، فَيَكونُ ﴿بَيْنَهُمْ﴾ نائِبُ فاعِلِ ﴿لَقُضِيَ﴾. والتَّقْديرُ: لَوقَعَ العَذابُ بَيْنَهم، أيْ: فيهِمْ[3].

بيانُ عود الضّمير في ﴿بَيْنَهُمْ﴾:

تكثيرُ متعلّقاتِ الضَّمائر، لاستيعاب المعاني، بتحقيق مقتضياته

إنَّ ضَميرَ ﴿بَيْنَهُمْ﴾ في قوله تعالى: ﴿لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ قد يكون عائِدًا على اسْم الإشارَةِ، من قوله: ﴿مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰٓؤُلَآءِ﴾؛ ليصبح المعنى: ولَوْلا ما سَبَقَ من حِكْمَةِ اللّه أنْ يُؤَخِّرَ عنهُمُ العَذابَ لَقُضِيَ بَيْنَهم، أي: لَقَضى اللّه بَيْنَهم، فَأهْلَكَ المُشْرِكينَ والمُخالِفينَ ونَصَرَ المُؤْمِنينَ[4]. وقد يكون الضَّميرُ في ﴿بَيْنَهُمْ﴾ عائِدًا إلى ما يُفْهَمُ من

(1) الزّركشيّ، البرهان: 3/315.
(2) البغويّ، معالم التنّزيل: 4/202.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر، وابن عاشور، التّحرير والتنّوير: 12/170.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتنّوير: 12/170.

قوله: ﴿فَٱخۡتُلِفَ فِيهِۚ﴾؛ لِأَنَّهُ يَقْتَضي جَماعَةً مُخْتَلِفينَ في أحْكام الكِتابِ، ويَكونُ ﴿بَيۡنَهُمۡۚ﴾ مُتَعَلِّقًا بـ ﴿لَقُضِيَ﴾، أي: لِحُكْم بَيْنَهم بِإظْهارِ المُصيبِ منَ المُخْطِئِ في أحْكام الكِتابِ، فَيَكونُ تَحْذيرًا منَ الاخْتِلافِ، أي: أنَّهُ إنْ وقَعَ أمْهَلَ اللهُ المُخْتَلِفينَ فَتَرَكَهم في شَكٍّ، والقَرينَةُ واضِحَةٌ[1]. وقوله: ﴿لَقُضِيَ بَيۡنَهُمۡۚ﴾ أي: بينَ قوم موسى أو قومك. وهذه من جملة التَّسليَة أيضًا[2]، وضَميرُ ﴿بَيۡنَهُمۡۚ﴾ يَعودُ إلَى المُخْتَلِفينَ المُفادُ من قَوْلِهِ: ﴿فَٱخۡتُلِفَ فِيهِۚ﴾ والقَرينَةُ واضِحَةٌ[3].

دلالة جملة ﴿وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ﴾:

توقيع تأخير العذاب، لتقدّم القضاء المذكور في الآية

جملةُ ﴿وَلَوۡلَا﴾ تعليليّة؛ لتوقّفِ التّالي على المُتقدم؛ فَسَبْقُ الكلمةِ منَ اللهِ تعالى، بتأجيل الجزاء هو العِلّة في عدم القضاء بينَهم في الدّنيا؛ ليكون المُرادُ: ولَوْلا ما تَقَدَّمَ من حُكْم اللهِ تَعالى بِتَأْخيرِ عَذابِ هَذِهِ الأُمَّةِ إلى يَوْم القيامَةِ، لَكانَ الَّذي يَسْتَحِقُّهُ هَؤُلاءِ الكُفّارُ عِنْدَ عَظيم كُفْرِهِم إنْزالَ عَذابِ الاسْتِئْصالِ عَلَيْهِم، لَكِنَّ المُتَقَدِّمَ من قَضائِهِ أخَّرَ ذَلِكَ عنهم في دُنْياهم[4].

بيان المتشابه اللَّفظيّ:

قضاء الله كلمة ملزمة للسّابق أو اللّاحق

ممّا تضمَّنَه الكتابُ من كلمات ربِّنا قولُه تعالى: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ فَٱخۡتُلِفَ فِيهِۚ وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيۡنَهُمۡۚ وَإِنَّهُمۡ لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُ مُرِيبٖ﴾. ومَن تأمّل حرفَ سورة هود، فَقِه أنَّ كلمةً قد سبقت من ربِّنا أن يُؤخّر القضاءَ بينَ المختلفين، بعدَ إيتاء موسى التّوراة إلى أجل مسمّى، ولم تتضمّن هذه الأحرفُ تفصيلَ الكلمةِ التي سبقت من ربِّنا.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/170.
(2) الطّيبّي، فتوح الغيب: 8/209.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/171.
(4) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 18/405.

وأمّا قولُه ﷻ: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴿١٢٩﴾﴾ [طه: 129] وإنِ اشتركت معَ سابقتها في المباني، فإنّ سياق الكلمةِ يُرجِّح أنَّ المراد بها: ما عَلِمَهُ اللّه من تَأْجيلِ حُلولِ العَذابِ بقريش، فاللّه تَعالى بِحِكْمَتِهِ أَنْظَرَ قُرَيْشًا، فَلَم يُعَجِّلْ لَهُمُ العَذابَ؛ لِأَنَّهُ أرادَ أنْ يُنْشَرَ الإسْلامُ بِمَن يُؤْمِنُ منهم وبِذُرِّيّاتِهِم، وفي ذَلِكَ كَرامَةٌ لِلنَّبي مُحَمَّدٍ ﷺ بِتَيْسيرِ أسْبابِ بَقاءِ شَرْعِهِ وانْتِشارِهِ؛ لِأَنَّهُ الشَّريعَةُ الخاتِمَةُ، وخَصَّ اللّه منهم بِعَذابِ السَّيْفِ والأَسْرِ مَن كانوا أشِدّاءَ في التَّكْذيبِ والإعْراضِ؛ حِكْمَةً منهُ تَعالى[1].

توجيه عطف جملة الفاصلة في السّياق:

قولُ الحقّ سبحانَه: ﴿وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾، يَجوزُ أن يَكونَ عَطْفًا عَلَى جُمْلَةِ: ﴿وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ﴾، فَيَكونَ ضَميرُ ﴿وَإِنَّهُمْ﴾ عائِدًا إلى ما عاد إليه ضَميرُ: ﴿مَا يَعْبُدُونَ﴾ الآيَةَ، أي: إنَّ المُشْرِكينَ لَفي شَكٍّ منْ تَوْفيَةِ نَصيبِهِمْ؛ لِأَنَّهُم لا يُؤْمِنونَ بِالبَعْثِ. ويَلْتَئِمُ مع قوله: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ على أوَّلِ الوجْهَيْنِ وأوْلاهُما، فَضَميرُ ﴿مِّنْهُ﴾ عائِدٌ إلى ﴿يَوْمَ﴾ منْ قَوْله: ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ﴾ [هود: 105]... الآية.

المُشْرِكونَ في شَكٍّ منْ تَوْفيَةِ نَصيبِهِم، لعدم إيمانهم بالبعث

ويَجوزُ أن تَكونَ عَطْفًا عَلَى جُمْلَةِ: ﴿فَٱخْتُلِفَ فِيهِ﴾، أي: فاخْتَلَفَ فيهِ أهْلُهُ، أي: أهْلُ الكِتابِ؛ فَضَميرُ ﴿وَإِنَّهُمْ﴾ عائِدٌ إلى ما عاد إليه ضَميرُ ﴿بَيْنَهُمْ﴾ على ثاني الوجْهَيْنِ، أي: اخْتَلَفَ أهْلُ الكِتابِ في كِتابِهِم، وإنَّهُم لَفي شَكٍّ[2].

بلاغة حَشْدِ المؤكِّدات في الآية الكريمة:

اجتمعت في الآية المؤكّدات: (إنّ، واللّام، المصدر المجّرد، والجملة الاسميّة)؛ لأنّ وصْفَ الشَّكِّ بكثرة الدّلالات تَأْكيدٌ، كقولهمْ:

تكثير المؤكِّدات، يدلّ على شِدّة الإنكار

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/171، 16/336.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/172.

لَيْلٌ أَلْيَلُ، وشِعْرٌ شاعِرٌ؛ لهذا جاء الحقّ مُؤَكّدًا؛ لِأَنَّ كُلَّ طائِفَةٍ مِنَ اليَهودِ تُنْكِرُ شَكَّها فيهِ، وفِعْلُها فِعْلُ الشّاكِّ[1].

عود ضمير ﴿وَإِنَّهُمْ﴾:

جاء سوق الضّمير هنا لِدَفْع تَوهُّم العموم

أُريدَ بِالضَّميرِ في ﴿وَإِنَّهُمْ﴾ بَعْضُ مَن رَجَعَ إليهم ضَميرُ ﴿بَيْنَهُمْ﴾؛ لِلْأَمْنِ مِنَ الإلْباسِ[2]؛ لأنَّ المختلِفين منهم مَن أصاب فلم يشملْهُ هذا الحُكْم.

دلالة (في) على الاستعارة التَّبعيَّة:

الدّلالة على ملابسة الاختلاف بالظّرف المجازيّ (في)

حرف (في) دالٌّ على الظّرفيّة المجازيّة، وذلك أنّه شَبّه تمكّنَ الشّكِّ في نفوسهم بإحاطة الظّرف بالمظروف، أي: فاخْتُلِفَ اخْتِلافًا يُلابِسُهُ، أي: يُلابِسُ الكِتابَ[3].

فائدة التَّعبير بالمصدر الصَّريح:

القصدُ إلى بيان تمكُّن الشَّكِّ إلى النُّفوس

إيثار التَّعبير بالمصدر الصّريح في قوله: ﴿لَفِي شَكٍّ﴾؛ لكونه يحتوي على دلالة مباشرة، من تمكُّن الشَّك من نفوسهم ووضوحِه، دونَ حاجةٍ إلى تأويل.

تسوية (الشّك) في الاعتقاد بالإنكار:

المراد بالشَّك ما هو عامٌّ؛ ليشمل الإنكار الجازم لأيِّ لون منه

قوله: ﴿لَفِي شَكٍّ﴾، المراد به ما هو العامّ للإنكار الجازم، والتَّعبير بالشّكّ للتَّنبيه، على أنَّ الشّكّ في باب الاعتقاد كالإنكار[4].

دلالة (من) وعود الضَّمير فيه:

إحالة ما وقع للكتب أو القضاء، تنبيهًا وتسليَةً

قوله: ﴿مِّنْهُ﴾، أي: منَ القرآن، وإن لم يجْرِ له ذِكْر، فإنَّ ذِكْرَ إيتاءِ كتابِ موسى ووقوعِ الاختلافِ فيه، لا سيّما بصدد التّسلية، يُنادي به نداءً غيرَ خفي[5]. ويجوز في: ﴿مِّنْهُ﴾ أي: منَ القَضاءِ أو الكِتابِ[6].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/389
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/244، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3759.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/59.
(4) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاوي: 10/220.
(5) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/244.
(6) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/389.

نُكْتَةُ التَّعبير بصيغة ﴿مُرِيبٍ﴾:

﴿مُرِيبٍ﴾ من أراب، إذا حَصَلَ الرَّيْب لغيره؛ ومعنى: ﴿وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ﴾ أي: عَظيمٍ مُحيطٍ بِهِم، ﴿مِّنْهُ﴾ أي: منَ القَضاءِ أوِ الكِتابِ، ﴿مُرِيبٍ﴾ موقِعٍ في الرَّيْبِ والتُّهْمَةِ والاِضْطِرابِ، أو صار هو في نفسه ذا رَيْب[1].

سَوْقُ اسم الفاعل للدّلالة على الزّيادة في الإيقاع

بيان وصْفِ الشَّكِّ بالمريب:

وصْفُ الشَّكِّ بالمريب للتّأكيد، كقولهم: لَيْلٌ أَلْيَلُ، وشعر شاعِر[2]. والإسناد في قوله: ﴿مُرِيبٍ﴾ مجازيّ؛ لما فيه منَ الإسناد إلى الشّيء ما لصاحبه؛ لأنّ الرَّيب صفةٌ للشّاكِّ، فأُسْنِد إلى الشّكّ إسنادًا مجازيًّا؛ لقصد المبالغة[3].

توصيف الشَّك بالمريب بما يحقِّق قصدَ المبالغة

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

القضاء والحُكم:

يقتضي القضاءُ فصلَ الأمر على التَّمام، من قولك: قضاه إذا أتمَّه وقطع عملَه، ومنه قولُه تعالى: ﴿ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا﴾ [الأنعام: 2]، أي: فصل الحُكم به، وقوله: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الإسراء: 4]، أي: فصلنا الإعلامَ به، وقوله: ﴿قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ﴾ [سبأ: 14]، أي: فصلنا أمرَ موته، وقوله: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ﴾ [فصلت: 12]، أي: فصل الأمرَ به.

التّفريق بين تمام الفصل في الأمور، وبينَ الحُكم بما يقتضي منعَ الخصوم

أمّا الحُكْمُ، فيقتضي المنعَ عنِ الخصومة، من قولك: أحْكَمْتُه، إذا منعْتُه، قال الشّاعر:

أبني حنيفةَ أحْكِموا سفهاءَكُم *** إنّي أخافُ عليكمُ أن أغْضَبا

ويجوز أن يقال: الحُكْمُ: فصل الأمرِ على الأحكام بما يقتضيه

(1) السّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 6/396.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/172.
(3) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 23/331.

العقلُ والشَّرعُ؛ فإذا قيل: حكم بالباطل، فمعناه: أنّه جعل الباطلَ موضعَ الحقِّ. ويُستعمَل الحُكمُ في مواضعَ لا يُستعمَل فيها القضاءُ؛ كقولك: حُكْمُ هذا كحُكْم هذا، أي: هما متماثلان في السَّبب أو العِلّة، أو نحوِ ذلك[1]. ومن هنا: فلفظ ﴿لَقُضِيَ﴾ أنسبُ لسياق الآية، من حيث إنّه تلويح بفصل أمر المختلفين في شأن ما أُنزِل على موسى عليه السلام، على وجهه الأتمّ.

(1) العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 432.

﴿وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَٰلَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١١﴾﴾

[هود: 111]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

سيقت الآيةُ تذييلًا للأخبار السّابقة، أي: إنَّ كُلَّ المَذْكورينَ آنِفًا من أهْلِ القُرى، ومنَ المُشْرِكينَ المُعَرَّضِ بِهِم، ومنَ المُخْتَلِفينَ في الكِتابِ من أتْباعِ موسى عليه السلام؛ لَلاقونَ جَزاءَ أعْمالِهِم، لا يُفْلِتُ منهم أحَدٌ، وإنَّ تَوْفِيَةَ اللّه إيّاهم أعْمالَهم حَقَّقَهُ اللّه ولَم يُسامحْ فيهِ[1].

رَبْطُ اختلافِ قومِ موسى وأمثالهم في كتابهم، بقانون أنَّه لا يفلت أحد من حساب الله تعالى

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿لَيُوَفِّيَنَّهُمْ﴾: وفَّى يوفِّي، وفٍّ، تَوْفِيةً، فهو موفٍّ، والمفعول موفًّا. ووفَّى الشَّخْصُ بالوعْد: حافظ عليه وعمل به، وأتمّه وأنجزه[2]. ووفَّى الشّخصَ حقَّه: أوفاه؛ أي: أعطاه إيّاه تامًّا، وأتمَّ ما وعدَه به، وهو ما جاء في قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ﴾ [النساء: 173][3].

2) ﴿خَبِيرٌ﴾: (الخاءُ والباءُ والرّاءُ) أصْلانِ؛ فالأوَّلُ: العِلْمُ، والثّاني: يَدُلُّ على لينٍ ورَخاوةٍ وغُزْرٍ، فالأوَّلُ: الخُبْرُ: العِلْمُ بالشَّيْءِ، تَقولُ: لي بِفُلانٍ خِبْرَةٌ وخُبْرٌ. واللّه تعالى الخَبيرُ، أي: العالِمُ بِكُلِّ شَيْءٍ. وقالَ اللّه تَعالَى: ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾﴾ [فاطر: 14]. والأصْلُ الثّاني: الخَبْراءُ، وهيَ الأرْضُ اللَّيِّنَةُ[4].

المَعْنى الإجْمالِيُّ:

المعنى: أنّ مَن عُجّلت عقوبتُه ومَن أخِّرت، ومَن صدّق الرُّسلَ

اللّه تعالى مُطّلعٌ على كلّ عمل، ويُجازي كلَّ أحدٍ وِفاقَه

(1) ابن عاشور، التّحرير والتنّوير: 12/173 - 174.
(2) أحمد مختار، معجم اللغة العربية المعاصرة: 3/2475.
(3) أحمد مختار، معجم اللغة العربية المعاصرة: 3/2476.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (خبر).

ومَن كذّب؛ فحالُهم سواءٌ في أنّه تعالى يوفّيهِم جزاءَ أعمالهم في الآخرة، فجَمَعتِ الآيةُ الوعدَ والوعيدَ، فإنَّ توفيَةَ جزاءِ الطّاعات وعْدٌ عظيم، وتوفيَةَ جزاءِ المعاصي وعيدٌ عظيم، و﴿إِنَّهُۥ بِمَا يَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ﴾ توكيدُ الوعدِ والوعيد، فإنّه لمّا كان عالمًا بجميع المعلومات، كان عالمًا بمقادير الطّاعات والمعاصي، فكان عالمًا بالقَدْر اللّائق بكلّ عملٍ منَ الجزاء، فحينَئِذٍ لا يَضيعُ شيءٌ منَ الحقوق والأجْزيَة، وذلك نهاية البيان[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغة العطف بالواو:

تقويَةُ الكلام وتحسينه، بالواو الاعتراضيّة

الآيةُ تَذْييلٌ لِلْأخْبارِ السّابِقَةِ، والواوُ اعْتِراضيَّةٌ[2]، والغرضُ منَ الجملة الاعتراضيّة، هو التَّوكيدُ وتقويّةُ الكلام وتحسينُه.

بلاغة اجتماع المؤكّدات:

تثبيت قلوب المؤمنين، ورفعُ احتمالِ الشَّكِّ في نزول العذاب بالمشركين

نقلَ الإمام الرّازيّ عن بَعْضِ الأفاضِلِ قال: "إنَّهُ تَعالى لَمّا أخْبَرَ عن تَوْفيَةِ الأجْزيَةِ عَلى المُسْتَحِقّينَ في هَذِهِ الآيَةِ، ذَكَرَ فيها سَبْعَةَ أنْواعٍ منَ التَّوْكيداتِ:

أوَّلُها: كَلِمَةُ (إنَّ). وثانيها: كَلِمَةُ (كُلٍّ). وثالِثُها: اللّامُ الدّاخِلَةُ عَلى خَبَرِ (إنَّ). ورابِعُها: حَرْفُ (ما) إذا جُعِلت مَوْصولًا. وخامسُها: القَسَمُ المُضْمَرُ، فَإنَّ تَقْديرَ الكَلام: وإنَّ جَميعَهم واللّه لَيوفّيَنَّهم. وسادِسُها: اللّامُ الثّانيَةُ الدّاخِلَةُ على جَوابِ القَسَم. وسابِعُها: النّونُ المُؤَكِّدَةُ في قوله: ﴿لَيُوَفِّيَنَّهُمۡ﴾، فَجَميعُ هَذِهِ الألْفاظِ السَّبْعَةِ، الدّالَّةِ عَلى التَّوْكيدِ في هَذِهِ الكَلِمَةِ الواحِدَةِ، تَدُلُّ عَلى أنَّ أمْرَ الرُّبوبيَّةِ والعُبوديَّةِ، لا يَتِمُّ إلّا بِالبَعْثِ والقيامَةِ، وأمْرِ الحَشْرِ والنَّشْرِ، ثُمَّ

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 18/405.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/173.

أرْدَفَهُ بِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّهُۥ بِمَا يَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ﴾ وهو من أعْظَم المُؤَكِّداتِ"[1].
و"حتّى لا يُشَكَّ في نزول العذاب بالظّالمين مهما تأجّل، وحتّى لا يَشُكَّ أحدٌ أيضا في أنّ ما عليه المشركون هو الباطل الّذي لا يعرفُه الحقّ، وأنّه الكفرُ الّذي تلقّاه الخَلَف عنِ السَّلَف. وكان مقتضى حال الدّعوة الإسلاميّة في تلك الفترة الّتي نزلت فيها هذه السّورةُ – وهي فترة ما بعدَ حادثِ الإسراء والمعراج وقبلَ الهجرة – تستلزم هذه التّأكيدات تثبيتًا لقلوب المؤمنين، وتوهينًا للشّرك والمشركين"[2].

سرُّ التَّنوين في ﴿كُلّٗا﴾:

يُستغنى بالتَّنوين عن الجُمَل، إيجازًا وإعجازًا

قد يُغْني التَّنوين عن جملةٍ كاملة، إذا ما كان عوضًا عنِ المضاف إليه، كالتَّنوين الذي لحق كلمةَ ﴿كُلّٗا﴾ في هذه الآية الكريمة، ومثل ما في قول الحقِّ سبحانَه: ﴿فَلَوۡلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلۡحُلۡقُومَ ٨٣ وَأَنتُمۡ حِينَئِذٖ تَنظُرُونَ ٨٤﴾ [الواقعة: 83-84]، و﴿كُلّٗا﴾ في الآية، توجز بأنَّ كُلًّا منَ الطّائع المؤمن، والعاصي الكافر، سوف يلقى جزاءَه؛ ثوابًا أو عقابًا[3].

توجيه القراءات:

إيراد (ما) الزّائدة للفصل بين لام التّأكيد، بما تقتضيه (إنَّ)، وبين لام القسم

في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ كُلّٗا لَّمَّا﴾، قَرَأ أبو عَمْرٍو والكِسائيُّ ﴿وَإِنَّ﴾ مُشَدَّدَةَ النُّونِ، (لَمّا) مخففة.

قالَ أبو عَلِيٍّ الفارسيّ: اللّامُ في (لَمّا) هيَ الَّتي تَقْتَضيهِ (إنَّ)؛ وذَلِكَ لِأَنَّ حَرْفَ (إنَّ) يَقْتَضي أن يَدْخُلَ على خَبَرِها أو اسْمها لامٌ، كقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ١٨﴾ [النّحل: 18]، وقَوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ﴾ [الحجر: 77]، واللّامُ الثّانيَةُ هيَ الَّتي تَجيءُ بعد القَسَم؛ كقولك: واللّه لَتَفْعَلَنَّ. ولَمّا اجْتَمَعَ لامانِ دَخَلَتْ (ما) لِتَفْصِلَ بَيْنَهُما، فَكَلِمَةُ (ما) على هَذا التَّقْديرِ زائِدَةٌ، لأجل الفصل بينَ اللّامين. وقالَ الفَرّاءُ:

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 18/405 - 406.
(2) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 7/284.
(3) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 11/6703 - 6704.

(ما) مَوْصولَةٌ بِمَعْنَى (مَنْ)، وبَقيَّةُ التَّقْريرِ كَما في: ﴿وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ﴾ [النِّساء: 72][1].

تخفيف (إنْ، ولَما)، فَكَما يَجوزُ إعْمالُ الفِعْلِ تامًّا ومَحْذوفًا، فكذلك: (إنَّ وإنْ)

والقِراءَةُ الثّانيَةُ: في هَذِهِ الآيَةِ، قَرَأ ابْنُ كَثيرٍ ونافِعٌ: ﴿وَإِن كُلًّا لَّمَّا﴾ مُخَفَّفَتانِ؛ والسَّبَبُ فيهِ أنَّهُم أعْمَلوا (إنْ) مُخَفَّفَةً كَما تَعْمَلُ مُشَدَّدَةً؛ لِأنَّ كَلِمَةَ (إنْ) تُشْبِهُ الفِعْلَ، فَكَما يَجوزُ إعْمالُ الفِعْلِ تامًّا ومَحْذوفًا في قَوْلِكَ: (لَم يَكُنْ زَيْدٌ قائِمًا، ولَم يَكُ زَيْدٌ قائِمًا)، فَكَذَلِكَ (إنَّ وإنْ)[2].

المبالغة في التّأكيد بقراءة التَّشديد في كلٍّ من: (إنَّ، ولَمّا)

والقِراءَةُ الثّالِثَةُ: قَرَأ حَمْزَةُ وابْنُ عامِرٍ وحَفْصٌ: ﴿وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا﴾ مُشَدَّدَتانِ، قالوا: وأحْسَنُ ما قيلَ فيهِ: إنَّ أصل (لَمّا) بِالتَّنْوينِ، كقوله: ﴿أَكْلًا لَّمًّا ﴿١٩﴾﴾ [الفجر: 19]؛ والمعنى: أنَّ كُلًّا مَلْمومينَ، أي: مَجْموعينَ، كَأنَّهُ قيلَ: (وإنَّ كُلًّا جَميعًا)[3]، هذا في المتواتر.

توجيه الشّاذِّ في ﴿وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا﴾:

وأمّا في الشّاذّ، فقد قرئ أربعُ قراءاتٍ أُخَر، إحداها: قراءةُ أُبَيّ والحسن وأبان بن تغلب (وإنْ كلٌّ لَمّا) بتخفيف (إنْ)، ورفع (كلٌّ)، وتشديد (لَمّا). الثانية: قراءة اليزيديّ وسليمان بن أرقم: (لمًّا) مُشدّدةً مُنوَّنَةً، ولم يتعرَّضوا لتخفيف (إنَّ) ولا لتشديدها. الثّالثة: قراءة الأعمش، وهي في حرف ابن مسعود كذلك: (وإنْ كلٌّ إلّا): بتخفيفِ (إنْ)، ورفع (كلٌّ). والرّابعة: قال أبو حاتم: الذي في مُصْحف أُبَيّ (وإنْ منْ كُلٍّ إلّا لَيوفِّيَنَّهم)[4].

سَوْقُ (لمّا) لتحقيق مقصد التّأجيل في (لولا)

فائدة التَّعبير بِ الأداة (لمّا):

تُستعمَل (لمّا) في اللّغة بمعنى (الحين) و(الزّمان)، مثل قول

(1) الفرّاء، معاني القرآن: 2/28، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 18/405، وأبو شامة، إبراز المعاني من حرز الأماني، ص: 585.

(2) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 18/405، وأبو شامة، إبراز المعاني من حرز الأماني، ص: 587.

(3) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 18/405.

(4) أبو شامة، إبراز المعاني من حرز الأماني، ص: 586، والسّمين الحلبيّ، الدرّ المصون: 6/398.

الحقّ سبحانَه: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ﴾ [الأعراف: 143]، وتأتي (لـمّا) أيضًا للنّفي، مثلِ قولِه سبحانَه: ﴿۞قَالَتِ ٱلۡأَعۡرَابُ ءَامَنَّاۖ قُل لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا وَلَمَّا يَدۡخُلِ ٱلۡإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمۡۖ﴾ [الحجرات: 14]، أي: أنَّ الإيمان لم يدخل قلوبَهم بعدُ، وتَحمل كلمةُ (لـمّا) الإذنَ بأنّ الإيمان سوف يدخل قلوبَهم بعدَ ذلك.

وعلى هذا التّقرير يوجَّه قولُ الحقّ سبحانَه: ﴿وَإِنَّ كُلّٗا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمۡ رَبُّكَ أَعۡمَٰلَهُمۡۚ إِنَّهُۥ بِمَا يَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ﴾، أي: إنّ كلًّا منَ الطّائع والعاصي سَيوفَّى حسابَه وجزاءَه، ثوابًا أو عقابًا، حين يأتي أجلُ التَّوفية، وهو يوم القيامة، وقد جاءت ﴿لَّمَّا﴾ لتخدمَ فكرةَ العقوبةِ التي كانت تأتي في الدّنيا، وشاء اللّه سبحانَه أن يؤجّل العقوبةَ للكافرين إلى الآخرة، وأنسب حرف للتّعبير عن ذلك هو ﴿لَّمَّا﴾[1].

معاني اللّامات ووجوهها:

صِدْقُ تحقُّقِ التّوفية مَناطُ القَسَم والتّوكيد

في قوله تعالى: ﴿لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمۡ﴾، قيل: اللّام الأولى موطِّئَةٌ للقَسَم، هذا منقول عنِ الفارسيّ، وتَبِعَهُ الزّمخشريُّ، وهو مخالفٌ لما اشتُهِر عنِ النُّحاة من أنّها الدّاخلة على شرط مُقَدّم على جواب قسمٍ تقدّم لفظًا أو تقديرًا؛ لِتُؤْذِنَ بأنّ الجواب له نحو: واللّه لئن أكرمتني لَأُكْرِمَنَّكَ، وليس ما دخلت عليه جوابَ القَسَم، بل ما يأتي بعدَها. وليس هذا بمتَّفقٍ عليه، فإنَّ أبا عليّ في (الحُجّة) جعلَها هنا موطِّئَةً، فاللّام الموطِّئَةُ لا يجب دخولُها على الشّرط، وهي إنّما دَلّت على أنّ ما بعدَها صالحٌ لأن يكون جوابًا للقَسَم مطلقًا، وقال الأزهريُّ: إنّه مذهبُ الأخفش، كما في الكَشْف. قالَهُ بعضُ المُحَشّين. وقيل: ولا يَلزم أن يكون مدخولُها حروفَ الشّرط، كما يُفهَم من ظاهر المُفصّل[2]. واللّام الثّانية للتّأكيد، أي: لامُ جوابِ القَسَم؛ والقرينة

(1) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 11/6704 - 6705.
(2) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاوي: 10/220.

كَوْنُ اللّام الأولى موطّئةً للقَسَم، فلا جَرَم أنَّه لا بدَّ من جواب القَسَم واللّام معه، ولا جوابَ سوى ذلك، وإنّما قيل للتَّأكيد؛ لدلالتها على التَّأكيد وإفادته. وأيًّا كان التّوجيه فإنّ لزوم توفيَةِ الأعمال هو مناطُ القَسَم، والتَّوكيد بوصْفِه جزاءً مستحقًّا.

سِرُّ التَّعبير بالمضارع المؤكَّد بالنّون:

تأكيد التَّوفِيَةِ، بتكثيرِ ما يدلُّ عليها

عبّر بالمضارع عن فعل الإيفاء في قوله تعالى: ﴿لَيُوَفِّيَنَّهُمْ﴾؛ للدلالة عن تحقُّقه مستقبلًا، وفيه توكيدٌ للوفاء، وهو القَسَم، فتأكَّدَ الكلامُ باللّامين، وبالقَسَم، وبنون التَّوكيد الثَّقيلة[1].

توجيه إيثارِ لفظِ الرُّبوبيَّة وإضافته:

التَّشَوُّفُ إلى مقصد التَّوفية، بما يدلُّ على الرُّبوبيَّة

في قوله تعالى: ﴿لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ﴾، أكَّد الوفاءَ بالتَّعبير بـ لفظ الرّبوبيّة مضافًا ﴿رَبُّكَ﴾، أي: الّذي خلقكَ وخلقهم، وتولّى شؤونهم، وقام على هذا الوجود، وإذا كان هذا الخالقُ الحيُّ القيّومُ هو الّذي يَعِدُ بالتّوفية، فإنَّها واقعةٌ لا محالةَ[2]. وفي الإضافة إلى ضمير الخطاب العائد إليه ﷺ تشريفٌ، يناسبُ مقامَه عند اللّه تعالى.

نُكْتَةُ تعريفِ الأعمال بالإضافة:

التَّشوُّف إلى مقصد التَّعميم، والتّأكيد بالإضافة

نُكْتَةُ تعريفِ الأعمال بالإضافة في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَٰلَهُمْۚ﴾؛ أنَّه ﷺ لا يَدَعُ منها شَيْئًا؛ لِأنَّهُ لا يَخْفى عليه منها شَيْءٌ[3]. ثمّ إنّه عملُهم الذي قدّموه، وفعلُهم الّذي مارسوه، ومقتضى العدلِ أنْ يُجازَوا وِفاقَ ما قدّمت أيديهم، ولن يظلمَ اللّه تعالى أحدًا.

بلاغة توكيد جملة الفاصلة:

سوقُ (إنَّ) لتوكيد مقامي الوعد والوعيد

التَّوكيد بـ (إنَّ) في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾، توكيدٌ

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3761.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3761.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/390.

للوعْدِ والوعيد، فإنَّه لمّا كان عالمًا بجميع المعلومات، كان عالمًا بمقادير الطّاعات والمعاصي، عالمًا بالقدر اللّائق بكلّ عملٍ منَ الجزاءِ، فحينَئِذٍ لا يضيع شيءٌ منَ الحقوق[1].

وجه الخطاب بالمضمَرات دونَ التَّصريح:

مطلق علم الله تعالى وعدلِه، يستلزمان الوفاءَ بالجزاء

مضمر الكافِ في قوله تعالى: ﴿لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَٰلَهُمْ﴾، أبلغُ في هذا السّياق وأليقُ، على اعتبار رَبطِ النّصيب الأوفى بالعِندِيَّة دونَ فَصْل.

بلاغة الإضمار وتقديم الظرف في الآية:

يقُدّمُ الظَّرْفُ، لِتَأْكيدِ الخَبَرِ، في سياق الآية المباركة

أمّا مُضمَر الهاء، فإنّه لمّا كان اللّه مُطَّلِعًا على كُلِّ عَمَلٍ يَعْمَلُهُ النّاس؛ كان التّعبير بالمضمَرات أبلغَ في تحقُّق مُسَمَّى العِلْم، وأشوفَ في تقرير المعاني المقصودة؛ إذ لا يلزم من عدم الظّهور نفيُ العِلْم. وقُدِّمَ الظَّرْفُ لِتَأْكيدِ الخَبَرِ.

معنى الباء في الآية الكريمة:

تعليل تَوْفِيَة الأجزيّة على مقتضى الحكمة

الباء في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾؛ للإلصاق والتّعليل[2]، للدّلالة على تعليل ما سبق من تَوْفِيَة أجزيةِ أعمالِهم، فإنّ الإحاطةَ بتفاصيل أعمالِ الفريقين، وما يستوجبه كلُّ عمل بمقتضى الحكمةِ منَ الجزاء المخصوصِ، توجِب توفيَةَ كلِّ ذي حقٍّ حقَّه، إن خيرًا فخيرٌ، وإن شرًّا فَشَرٌّ[3].

توجيه دلالة (ما) بين الموصوليّة والمصدرّية:

كمال وصف الخبرة الأزليّة وصلًا أو مصدرًا

تحتمل (ما) في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ المصدريَّة، بمعنى: إنّه بأعمالهم خبير، والتَّعبيرُ بالمصدر المؤوّل يوحي بدلالة اقتصار الحديث في الآية عن توفيَة الأعمال، بإطلاقها دونَ التَّطرّق في طبيعتها وماهيّتها. أمّا دلالة الموصوليّة بـ (ما)؛ فتعني: إنّه

(1) ابن عادل، اللّباب: 10/587.
(2) محمّد الهلال، تفسير القرآن الثّريّ: 12/106.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/244.

بعموم ما يعملونه خبير، ليشملَ كُلَّ صغيرةٍ وكبيرة مارسوها، أي: أعمالهم كاملة.

التَّعبير عن عملهم بالمضارع المجموع:

تأكيدُ تَوْفِيَةِ جَزاءِ الطّاعاتِ والمَعاصي، وعْدًا ووعيدًا، دوامًا وتَجَدُّدًا

سيق المضارعُ المجموعُ للدّلالة على الإحاطَةِ بِتَفاصيلِ أعْمالِ الفَريقَيْنِ؛ لكونه ﷻ عَليمًا بِأعْمالِهِم جَميعِها، جَليِّها وخَفيِّها، جَليلِها وحَقيرِها، صَغيرِها وكَبيرِها؛ ماضيها وحاضرِها؛ لتَتَأتّى تَوْفِيَةُ كُلِّ ذي حَقٍّ حَقَّهُ، إنْ خَيرًا فَخَيرٌ، وإنْ شَرًّا فَشَرٌّ، وذَلِكَ نِهايَةُ البَيانِ، باعتبار أنَّ الجَزاء طابقَ العملَ تَمامَ المُطابَقَةِ؛ وذَلِكَ مُحَقَّقُ التَّوْفِيَةِ[1].

إيثارُ وصْفِ ﴿خَبِيرٌ﴾:

إحالة الظّواهر والمُخَبَّآتِ، على الخبير العليم بما مضى، وما هو آت

وإيثارُ وصْفِ ﴿خَبِيرٌ﴾ دونَ عَليم؛ لِما تُؤْذِنُ بِهِ مادَّةُ خَبير منَ العِلْم بِالأُمورِ الخَفيَّةِ، ليُفيدَ أنَّهُ تعالى عَليمٌ بِما ظَهَرَ منَ الأعمالِ وما بَطَنَ، مثْلِ أعْمالِ القَلْبِ الَّتي هي العَزائِمُ والنِّيّاتُ[2].

دلالة صَوْغِ ﴿خَبِيرٌ﴾، على زنة (فَعيل):

العدول منَ الفاعل إلى فعيل، بقصد المبالغة

أصل الكلمة (فاعل) صُرِفت إلى (فعيل) بقصد المُبالغةِ، فَوصْفُ (فعيل) مبالغةٌ في ثُبوت الفعلِ في الفاعل؛ لكثرة ظهورِه منه سبحانَه. ويمكن أن يكون صفةً مُشَبَّهةً؛ كطويل، وجميل. فـ﴿خَبِيرٌ﴾ بمعنى: عالم بدقائق الأمور وخفاياها، وهذا وصْفٌ ثابت له سبحانه.

سرُّ تقديم شبه الجملة على الخبر:

تقديم يعملون على خبير؛ لأنّ سياق الآيات في العمل

قُدِّم الجارُّ والمجرور على الخبر في قوله: ﴿بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾؛ للاهتمام بالعمل بوصفه مادّةَ الحساب، ومعتمدَ العقابِ، وهو سبيل الهاوية أو النجاة، ولتأكيدِ الخبر ﴿خَبِيرٌ﴾، ولأنَّ التَّقديم والتَّأخير يأتي لسبب؛ والسّياق قد يكون الحاكِمَ والمُوَضِحَ للأمور؛ فإذا كان

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/244.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/256.

سياقُ الكلام أو الآية في العمل، يُقَدَّم العملُ، وإذا لم يكن كذلك، قَدّمَ الخِبْرة على العمل، كقوله ﷻ: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [النمل: 88][1].

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الإيفاء والإجزاء:

الإيفاء على مقتضى العدل، ومُقابلُه بخلافه

يكون الإيفاء على وجه العدل والتّسوية، من غير زيادةٍ ولا نقصان[2]. ووفّى بعهده: إذا تمَّمَه على وجهه ولم يُنقصه، أو ينقض حِفظَه، ووفّى الأمرَ: بذل المجهودَ في جميع ما طولِب به. أمّا الجَزاء: فهو الغَناء والكفاية، وقال تعالى: ﴿لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا ۚ﴾ [لقمان: 33]، فالجَزاء: ما فيه الكفايَةُ منَ المقابلة، إن خيرًا فخيرٌ، وإن شَرًّا فَشَرٌّ[3]. ومن هنا: فالوفاء أنسبُ لسياق العدالة في الحساب.

(1) فاضل السّامرّائيّ، لمسات بيانية، ص: 154.
(2) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 8/160.
(3) الرّاغب، المفردات: (وفى)، و(جزى).

﴿فَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطۡغَوۡاْۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ١١٢﴾ [هود: 112]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

القصد إلى الاستقامة والأمر بها؛ لإفادة الدَّوام على العمل، استصحابًا وترجمةً

لمّا أعلمَ اللّه سبحانَه رسولَه ﷺ، بأنَّ شَأْنَه في أُمَّته شَأْنُ الرُّسُلِ في أُمَمِهم، وأنَّهُ لا بُدَّ منَ الاخْتِلافِ في شَأْنِ الرَّسولِ والكِتابِ، كَما جَرَتْ بِذَلِكَ السُّنَّةُ الإلَهيَّةُ، وأنَّ الجَزاءَ بِالأعْمالِ كُلِّها لا بُدَّ منهُ[1]، رُتِّبَ "عَنِ التَّسْلِيَةِ الَّتي تَضَمَّنَها قَوْلُهُ: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ فَٱخۡتُلِفَ فِيهِۚ﴾ وعَنِ التَّثْبيتِ المُفادِ بقوله: ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرۡيَةٖ مِّمَّا يَعۡبُدُ هَٰٓؤُلَآءِۚ﴾، الحَضُّ على الدَّوام على التَّمَسُّكِ بِالإسْلام عَلى وجْهٍ قَويم، وعَبَّرَ عَن ذَلِكَ بِالاسْتِقامَةِ؛ لِإفادَةِ الدَّوام عَلى العَمَلِ بِتَعاليم الإسْلام، دَوامًا جِماعُهُ الاسْتِقامَةُ عليه، والحَذَرُ من تَغْييرِهِ"[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَٱسۡتَقِمۡ﴾: (قوم) أصلٌ يدلُّ على اعْتِدال الشَّيء واستوائه، يُقال: قامَ الشَّيءُ واسْتَقامَ: اعْتدَل واسْتَوى[3]، والاستقامةُ: ضِدُّ الاعوِجاجِ، وهي مُستعملةٌ كثيرًا في معنى الثَّبات على الحقِّ والرُّشدِ؛ لأنَّهُ شاعَ تَشبيهُ الضَّلالِ والفَسادِ بِالاعوِجاجِ والالتِواءِ[4]، واستقامَ العودُ: استوى، و"استقام على الطريق: اهتدى، قال تعالى: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ٦﴾ [الفاتحة: 6]. واستقام ميزانُ النَّهار: انتصف[5]، واستقام الإنسانُ: اعتدل في سلوكه، وكانت أخلاقُه فاضلةً، كقوله

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/390.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/175.
(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (قوم).
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/273، و30/166.
(5) أحمد مختار، معجم اللغة العربية المعاصرة: 3/1875.

تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ﴾ [فصلت: 30]، وقوله: ﴿قَالَ قَدۡ أُجِيبَت دَّعۡوَتُكُمَا فَٱسۡتَقِيمَا﴾ [يونس: 89]: امضيا واستمرّا[1].

2) ﴿تَطۡغَوۡاْ﴾: (الطّاءُ والغَيْنُ والحَرْفُ المُعْتَلُّ) أَصْلٌ صَحيحٌ مُنْقاسٌ، وهو مُجاوزَةُ الحَدِّ في العِصْيانِ. يُقالُ: هو طاغٍ. وطَغَى السَّيْلُ: إذا جاءَ بِماءٍ كَثيرٍ. قالَ اللّه تَعالَى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلۡمَآءُ﴾ [الحاقة: 11]، يُريدُ - واللّه أعْلَمُ - خُروجَهُ عَنِ المقْدارِ، وطَغَى البَحْرُ: هاجَتْ أمْواجُهُ، وطَغَى الدَّمُ: تَبَيَّغَ. قالَ الخَليلُ: الطُّغْيانُ، والطُّغْوانُ لُغَةٌ: والفِعْلُ منه: طَغَيْتُ وطَغَوْتُ"[2].

المَعْنى الإجْماليُّ:

بعد أن بيّن أمرَ المختلفين في التّوحيد والنّبوّة، وأطنب في وعْدِهم ووعيدِهم، أمرَ رسولَه ﷺ ومَن تاب معه بالاستقامة، وهي كلمةٌ جامعة لكُلّ ما يتعلّق بالعِلْم والعمل والأخلاق الفاضلة[3]. يقول تعالى ذِكْرُه لنَبيِّه محمَّد ﷺ: فاستقم على أمر ربِّكَ، والدّين الذي ابتَعَثكَ به، والدّعاء إليه كما أمركَ ربُّكَ، ومَن رجع معكَ إلى طاعة اللّه والعملِ بما أمرَه به ربُّه من بعد كُفْرِه، ولا تَعْدوا أمرَهُ إلى ما نهاكم عنه، فإنَّ ربَّكم - أيُّها النّاسُ - ﴿بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ منَ الأعمال كلِّها، طاعتِها ومعصيتِها، ﴿بَصِيرٞ﴾ ذو عِلْمٍ بها، لا يخفى عليه منها شيءٌ، وهو لجميعها مُبصِرٌ[4].

الأمر بالاستقامة، وتجنّب المنهيّ عنه، دون طغيان ولا عتوّ

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالة الفاء على التَّفريع:

الفاء للتّفريع على ما تقدّم منَ الأوامر والنَّواهي[5]، والمعنى: أنَّهُ

تفريع الأمر بالاستقامة على الطّريق على ما سبق منَ الأوامر والنَّواهي للالتزام بها

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/273، و30/166.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (طغى).
(3) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 12/90.
(4) ابن جرير، جامع البيان: 15/499.
(5) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 7/284.

ﷻ لمّا أطْنَبَ في شَرْحِ الوعْدِ والوعيدِ قالَ لِرَسولِهِ: ﴿فَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَ﴾[1]، ولمّا كان طَلبُ الاستقامةِ شأنًا محمودًا يُسعَى إليه، ويُحَثُّ عليه، أوثِرَ حرفُ الفاء الدّالِّ على انتفاء المُهْلَةِ والتَّراخي في الأمر.

طَلبُ الإقامةَ على الدّين، يستدعي الانقياد لله تعالى بتمام العمل، ودقّة أدائه

دلالة الأمر:

قولُه: ﴿فَٱسۡتَقِمۡ﴾ أمرٌ، السّين والتّاء فيه للطَّلب، وفي الأمر بالاستقامة إيجازٌ جامعٌ، وهو أمرٌ بدقَّةِ الأداء المطلوب لله أمرًا ونهيًا، وهي كَلِمَةٌ حاويةٌ لِكُلِّ ما يَتَعَلَّقُ بالعِلْم والعَمَلِ وسائِرِ الأخْلاقِ، فَتَشْمَلُ العَقائِدَ، والأعْمالَ المُشْتَرَكَةَ بَيْنَهُ ﷺ وبَيْنَ سائِرِ المُؤْمنينَ، والأُمورَ الخاصَّةَ بِهِ[2] ﷺ. والشّاهد: دلالةُ الأمرِ بالفعل، وتجنُّبِ النّهي، أي، فاسْتَقِم كَما أُمِرْتَ استقامةً مثْلَ الاستقامةِ التي أُمِرْتَ بها على جادّة الحَقّ[3]. وهذا إيذان بألّا ييأس رسولُ الله ﷺ من وقوف صناديد قريش أمامَ دعوته ﷺ؛ لأنّهم سيتساقطون يومًا بعدَ يوم[4]. فقولُه: ﴿فَٱسۡتَقِمۡ﴾ أيْ: أوْجِدِ القَوْمَ بِغايَةِ جُهْدِكَ، بِسَبَبِ أنَّكَ ﴿لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفۡسَكَۚ﴾ [النساء: 84]، وأنَّ الَّذي أرْسَلَكَ لا يَغْفُلُ عَن شَيْءٍ، ومَنِ اسْتَقامَ اسْتُقيمَ لَهُ[5].

دلالة السّين في ﴿فَٱسۡتَقِمۡ﴾:

دلالةُ الإقامةِ بالسّين له أو عليه

يحتمل أن تكون السّين في الاستقامة سينَ الطّلبِ، أي: سَلْ من الله الإقامةَ لكَ على الحقّ، ويَحتمل أن تكون الإقامةُ في الأمر بمعنى: أقم عليه[6].

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب، 18/406.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 6/345.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/432.
(4) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 11/6710.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/370.
(6) القشيريّ، لطائف الإشارات: 2/160.

سرُّ العدول من (استقيموا) إلى ﴿فَٱسۡتَقِمۡ﴾:

وُجِّهَ الأمرُ إلى النّبيّ ﷺ تنويهًا بِشَأنِه؛ ليُبْنَى عليه قولُه: ﴿كَمَآ أُمِرۡتَ﴾ فَيُشيرُ إلى أنَّهُ المُتَلَقِّي لِلأوامرِ الشَّرْعيَّةِ ابْتِداءً، وهَذا تَنْويهٌ لَهُ بِمَقامِ رِسالَتِهِ، ثُمَّ أعْلَمَ بِخِطابِ أُمَّتِهِ بِذَلِكَ، بِقَوْلِهِ: ﴿وَمَن تَابَ مَعَكَ﴾[1].

العدول من الجمع إلى الإفراد، تشريفًا للمعدول إليه

بلاغة التَّشبيه بالكاف:

كافُ التَّشْبيهِ في قَوْلِهِ: ﴿كَمَآ أُمِرۡتَ﴾، في مَوْضِعِ الحالِ، منَ الاسْتِقامَةِ المَأْخوذَةِ مِن (اسْتَقِمْ)، ومَعْنَى تَشْبيهِ الاسْتِقامَةِ المَأْمورِ بِها بِما أُمِرَ بِهِ النَّبيُّ ﷺ، لِكَوْنِ الاسْتِقامَةِ مُماثِلَةً لِسائِرِ ما أُمِرَ بِهِ، وهو تَشْبيهُ المُجْمَلِ بالمُفَصَّلِ في تَفْصيلِهِ، بِأن يكونَ طِبْقَهُ. ويَؤولُ هذا المعنى إلى أن تكونَ الكافُ في معنى (على)، كما يُقالُ: (كُن كما أنْتَ)[2].

الأمر بالثَّبات على الاستقامة، تَشْبيهًا للْمُجْمَلِ بِالمُفَصَّلِ في تَفْصيلِهِ

نُكْتَةُ التَّعبير بـ (ما):

التّعبير بـ (ما) في قوله: ﴿كَمَآ أُمِرۡتَ﴾ تعليلٌ للأمر والنّهي السّابِقَين، كأنّه قيل: استقيموا ولا تطغَوا؛ لأنّ اللّه تعالى ناظرٌ لأعمالكم فيجازيكم عليها. وقيل: إنّه تتميم للأمر بالاستقامة. والأوّل أحسنُ وأتمّ فائدة[3].

تعليل الأمر بالاستقامة، والنّهيُ عنِ الطّغيان

نُكْتَةُ التَّعبير بالمبني للمفعول:

لَمّا كانَ منَ المَقْطوعِ بِهِ أنَّ الآمرَ لَهُ ﷺ مَن لَهُ الأمْرُ كُلُّهُ، بَنى لِلْمَفْعولِ قَوْلَهُ: ﴿كَمَآ أُمِرۡتَ﴾، أي: كَما اسْتَقامَ إخْوانُكَ منَ الأنْبياءِ في جَميعِ الأُصولِ والفُروعِ، سَواءٌ كانَ في نَفْسِكَ أو في تَبْليغِ غَيْرِكَ، مُعْتَدِلًا بَيْنَ الإفْراطِ والتَّفْريطِ، ولا يَضِق صَدْرُكَ مِن اسْتِهْزائِهِم وتَعَنُّتِهِم واقْتِراحِهِم لِلْآياتِ، وإرادَتِهِم أنْ تَتْرُكَ

الإحالة على مَن لَهُ الأمْرُ كُلُّهُ، بصيغة المبنيّ للمفعول

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/176.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/176.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 6/347.

بَعْضَ ما يوحى إليك، منَ التَّشْنيعِ عَلَيْهِم والعَيْبِ لِدينِهِم، بَلْ صارِحْهم بِالأمْرِ واتْرُكْهم وأهْواءَهُم، نَحْنُ نُدَبِّرُ الأمْرَ كَما نُريدُ، على حَسَبِ ما نَعْلَمُ[1].

توجيه العطف بالواو:

قوله تعالى: ﴿وَمَن تَابَ مَعَكَ﴾ الواو للعطف، فـ ﴿وَمَن تَابَ﴾ عُطِفَ على الضَّميرِ المُتَّصِلِ في ﴿أُمِرْتَ﴾، ومُصَحِّحُ العَطْفِ مَوْجودٌ، وهو الفَصْلُ بِالجارِّ والمَجْرورِ[2]، والفَصْلُ بين المَعْطوفِ والضَّميرِ المَرْفوعِ المَعْطوفِ عَلَيْهِ يَقومُ مَقامَ التَّأْكيدِ[3]، أي: وليستقم أيضًا مَن ﴿تَابَ﴾ عنِ الكفر مؤمنًا معك؛ لأنَّ الإيمانَ تَوْبَةٌ منَ الشِّرْكِ[4]، ﴿وَمَن تَابَ﴾: مَعْطوفٌ على الضَّميرِ المُسْتَكِنِّ في ﴿فَٱسْتَقِمْ﴾، وأغْنى الفاصِلُ عَنِ التَّوْكيدِ[5].

الدّوام على الاستقامة، استصحابًا لمن فُطر على الإنابة، وتثبيتًا لمن تاب

توجيه الموصول ﴿وَمَن﴾:

في ﴿وَمَن﴾ وجهان؛ أحدهُما: أنَّه منصوبٌ على المفعول معه، كذا ذكره أبو البقاء، ويصير المعنى: استقم مصاحبًا لمَنْ تاب مصاحبًا لك، وفي هذا المعنى نُبُوٌّ عن ظاهرِ اللّفظ. الثّاني: أنّه مرفوعٌ، فإنّه عُطِفَ على الضّمير المستتر في ﴿فَٱسْتَقِمْ﴾، وأغنى الفصلُ بالجارِّ عن تأكيده بضميرٍ منفصل في صِحّةِ العطف. والصّحيح: أنّه من عطفِ الجُمَل لا من عطف المفردات، ولذلك قَدَّره الزَّمخشريُّ: بـ (فاستقم أنتَ وليستَقِم مَنْ تاب)؛ فقدَّر الرّافعَ له فِعلًا لائقًا برفعه الظّاهرَ[6].

الاشتراك في الاستقامة، مصاحبةً أو مماثلةً

ووجّه الواحِديُّ: رفع ﴿وَمَن﴾ من وُجوهٍ؛ الأوَّلُ: أن يَكونَ عَطْفًا على الضَّميرِ المُسْتَتِرِ في قولِهِ: ﴿فَٱسْتَقِمْ﴾، وأغْنى الوصْلُ بِالجارِّ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/390.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/176.
(3) الشّوكانيّ، فتح القدير: 2/600.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/391.
(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/220.
(6) السّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 6/417.

عن تَأْكيدِهِ بِضَميرِ المُتَّصِلِ في صِحَّةِ العَطْفِ، أي: (فاسْتَقِم أنْتَ وهم). الثّاني: أن يَكونَ عَطْفًا على الضَّميرِ في ﴿أُمِرْتَ﴾. والثّالِثُ: أنْ يَكونَ ابْتِداءً عَلى تَقْديرِ: (ومَن تابَ مَعَكَ فَلْيَسْتَقِمْ)[1].

ولما كانت ﴿وَمَن﴾ الموصولة ممحَّضة للدّلالة على العاقل، فكأنّها قَصَدت هذه الدّلالة في حقّ مَن تاب معه، فكأنّهم همُ العقلاء الجديرون بهذا النّعت.

علّة التّعبير عنِ التّوبة بالماضي:

وعبَّرَ بصيغة الماضي للدّلالة على تَحقُّق التّوبةِ، وللإشارة إلى أنّ إسلامهم لا يكون كاملًا إلّا إذا كانوا مع الله تعالى[2].

كلُّ ما ثبتَ أصلُه، يُستصحَبُ وُجودُه

فائدة شبه الجملة ﴿مَعَكَ﴾ والإضافة فيها:

والمعنى: استقم مصاحبًا لمَن تاب، و﴿مَعَكَ﴾ حالٌ من ﴿تَابَ﴾، وليس متعلقًا بـ ﴿تَابَ﴾؛ لأنَّ النَّبيّ ﷺ لم يكن منَ المشركين، ولمّا كان الفاصل بينَ المعطوف والمعطوف عليه يقوم مقامَ تأكيدِ الضَّمير المستَتِر، عَطفَ عليه قولَه: ﴿وَمَن﴾، أي: وليستقم أيضًا مَن ﴿تَابَ﴾ عن الكفر، مؤمنًا ﴿مَعَكَ﴾ على ما أُمروا، تاركينَ القَلَقَ منِ استبطائِهم للنُّصْرة[3].

المعية تقتضي الاشتراكَ، في الدّوام على الأصل، بعد تحقّقه فطرةً أو التزامًا

بلاغة إيجاز القصر:

في الآية تضمينُ العباراتِ القصيرة معانِيَ كثيرةً من غير حَذْفِ ذلك؛ وبيانه: أنَّ الاستقامة هي الاستمرارُ في جهة واحدة من غير العدول يمينًا أو شمالًا، ومعروف أنّ الخطّ المستقيم هو أقصرُ بُعْدٍ بينَ نُقطتين، فأقلّ انحرافٍ يخْرجُه عنِ استقامته؛ وإذًا فقدِ انتظم في كلمة الاستقامة جميعُ مكارم الأخلاق، ومحاسنُ الأحكام الأصليَّة والفرعيَّة[4].

تضمين الاستقامة محاسنَ العادات، ومكارمَ الأخلاق قاطبةً

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 18/406.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3762.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/391.
(4) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 4/473.

توجيه عطفِ النَّهي على الأمر:

تأكيد الاستقامة بالجمع بينَ تَركِ المحظور، وما يقتضي فعلَ ضِدّه

نُكْتَةُ عَطْفِ النَّهْيِ على الأمْرِ بالضِّدِّ في الآيَةِ؛ هي أنَّ الأمْرَ لا يَقْتَضي التَّكْرارَ، بِخِلافِ النَّهْيِ، وهَذِهِ التَّفْرِقَةُ بينَ الأمْرِ والنَّهْيِ غَيْرُ مُسَلَّمَةٍ، وفيها نِزاعٌ في عِلْمِ الأُصولِ، ولَكِنَّهُ بَناها على أنَّ الفَرْقَ بينَ الأمْرِ والنَّهْيِ هو مُقْتَضَى اللُّغَةِ[1]، والقَصْدُ إلى تأكيد الاستقامة على الوجه الأتمّ، من حيثُ الوجودُ بفعل ما به قيامُها، وتركِ ما يؤدّي إلى انعدامها.

بلاغة جملة النَّهي:

لا تُغني المأموراتُ المنطوقة، عنِ المفهومات المَنهيّ عنها

لـمّا أمر اللّه تعالى بالاستقامة على جادّة الحقّ، نهى عنِ الانحراف عنها، فقال: ﴿وَلَا تَطْغَوْاْ﴾، قال ابن عبّاس: "يريد: تواضعوا للحَقّ، ولا تتكبَّروا على الخَلْق"[2]، ومَعْناهُ: ولا تَتَجاوزوا حُدودَ اللّه تَعالى، فَكانَ النَّهْيُ عنِ الطّغيان جامعًا لِأحْوالِ مَصادِرِ الفَسادِ منْ نَفْسِ المُفْسِدِ، وبَقيَ ما يُخْشَى عليه من عَدْوى فَسادِ خَليطِهِ[3].

إيثار لفظ الطُّغيان دون غيره:

إيثارُ ما يجمع أصول الفساد وضعًا

شَمِلَ الطُّغْيانُ أُصولَ المَفاسِدِ، فَكانَتِ الآيَةُ جامعَةً لِإقامَةِ المَصالِحِ ودَرْءِ المَفاسِدِ، وإنما سُمّي ذلك طغيانًا، وهو تجاوزُ الحدِّ، تغليظًا أو تغليبًا لحال سائرِ المؤمنين على حاله[4] عليه السلام. فالطُّغْيانُ: تَجاوُزُ الحَدِّ، ومنهُ قَوْلُهُ: ﴿طَغَا ٱلْمَآءُ﴾ [الحاقة: 11]، وقَوْلُهُ في فِرْعَوْنَ: ﴿إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾ [طه: 24، 43؛ النازعات: 17]، وقيلَ في هَذِهِ: مَعْناهُ: ولا تُطْغِيَنَّكُمُ النِّعَمُ، ولا تَنْحَرِفوا عَمّا حُدَّ لَكم بِإفْراطٍ أوْ تَفْريطٍ، فَإنَّ كِلا طَرَفَيْ قَصْدِ الأُمورِ ذَميمٌ، وإنَّما سُمّي ذَلِكَ طُغْيانًا - وهو تَجاوُزُ الحَدِّ - تَغْليظًا، أوْ تَغْليبًا لِحالِ سائِرِ المُؤْمِنينَ على حالِهِ عليه السلام[5].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/423.
(2) النّيسابوريّ، غرائب القرآن: 4/55.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/245.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/245.
(5) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/245.

التّعبير عن فعل الطّغيان مضارعًا مجموعًا:

تنزيهُ مقام النّبوة، إفرادًا وتحييدًا

ومن إجلال النّبيّ ﷺ إفرادُه بالخطاب في الأمر بأفعال الخير، والإتيان بضمير الجمع في النّهي عن أفعال الشَّرِّ[1]. ومن هنا ففي جمع الطّغيان حَيْدَةٌ عن نسبته المباشرة إلى المصطفى ﷺ تنزيهًا.

فائدة توكيد جملة الفاصلة:

لا يخفى على الله تعالى، من أعمال المكلَّف شيءٌ

التَّعبير بجماع المؤكِّدات (إنّ، والجملة الاسميّة، وصيغة المبالغة)؛ للدَّلالة على أنّه لا يَخْفَى على اللّه من أعْمالِكُم شَيْءٌ ممّا يورّث تحذيرًا واحتياطًا منَ المكلف، واستقامةً كما أمر[2]. قالَ ابْنُ عَبّاسٍ رضي الله عنهما: ما نَزَلَتْ على رَسولِ اللّه ﷺ آيَةٌ هيَ أشَدُّ عليه من هذه الآية، ولِذَلِكَ قالَ: «شَيَّبَتْني هودٌ وأخَواتُها»[3].

إيثار الإضمار على الإظهار:

التَّشوُّفُ إلى التَّعظيم ببساط الإضمار

الضَّميرُ يعود على اللّه تعالى، أي: إنَّه تعالى عليم بما يعملون، عِلْمَ مَن يُبصِر ويَرى[4]. وآثرَ في الخطابُ الإضمارَ على الإظهارِ لإرادة التَّعظيم والتَّفخيم.

والكلام على (الباء، وما، والفعل تعملون، وتقديم شبه الجملة) هو نفسه الذي مضى ذكره في الآية السابقة مع اختلاف المعنى.

بلاغة جملة الفاصلة:

أبلغ الكلام التّعبير بالثّابت، مع نفي النّقيض

(ما) مُؤكّدة بنفي نقيضِ ما أثبتَه الكلامُ؛ ليكون ثبوتُه مع نفي نقيضه على أبلغ وجه، وقُدّم الظّرف لما تقدّم من تأكيد الإبصار ﴿بَصِيرٌ﴾، وقُدّم الجارُّ والمجرور ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ على ﴿بَصِيرٌ﴾

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/394.

(2) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 12/92.

(3) أخرجه التّرمذيّ في سننه، برقم: (3297) وقال: حديث حسن غريب، والحاكم في المستدرك، برقم: (3314) ولفظه: «شيبتني هود، والواقعة، وعمّ يتساءلون، وإذا الشّمس كورت» وقال: صحيح على شرط البخاريّ، ووافقه الذّهبيّ، وذكره الهيثميّ في مجمع الزّوائد، برقم: (11073) وقال: رواه الطّبرانيّ، ورجاله رجال الصّحيح.

(4) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3763.

للاهتمام بالعمل، وإنّه مناظر الجزاء، إن خيرًا فخيرٌ، وإن شَرًّا فَشَرٌّ، وإنّ الاستقامة هي أقصى درجات الإحسان[1].

وجه العدول من (خبير)، إلى ﴿بَصِيرٌ﴾:

حذّر مَنْ أخفى طُغيانَهُ، بأنّ الله مُطّلعٌ على دِقّ عملِه وجلِّهِ، ظاهره وخَفيّه

إنَّ الطّغيان - وهو مجاوزةُ الحَدّ - مُشاهَدٌ في الأصل، وغيرُ مشاهد؛ بل فيه جانبان في أمر الاعتقاد، ﴿وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾﴾ [الأنعام: 110]، ولمّا كان البصرُ بصرًا وبصيرةً؛ ﴿بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾﴾ [القيامة: 14]، ناسبَ اختيارُ بصير؛ فقال الله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾؛ لِتَحْذيرِ مَن أخْفَى الطُّغْيانَ، بِأنَّ الله مُطَّلِعٌ عَلَى كُلِّ عَمَلٍ يَعْمَلُهُ المُسْلِمونَ، ولِذَلِكَ اخْتيرَ وصْفُ بَصير من بين بَقيَّةِ الأسْماءِ الحُسْنَى؛ لدلالَةِ مادَّتِهِ عَلَى العِلْم البَيِّنِ، ودلالَةِ صيغَتِهِ على قوَّته[2].

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

طغى، وجار، وعتا، وقهر، واستبدَّ، وتعدّى، وتجاوز:

لفظ الطُّغْيانُ شاملٌ لأُصول المَفاسِدِ، ولذلك أوثر في هذه الآية الكريمة

إنّ الطّغيان يعني: مجاوزة الحدّ في المكروه، مع غلبة وقهر، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ﴾ [الحاقة: 11]، يقال: طغى الماء: إذا جاوز الحَدّ.

والعُتُوّ: المبالغة في المكروه، فهو دونَ الطّغيان، ومنه قولُه تعالى: ﴿وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا ﴿٨﴾﴾ [مريم: 8]. قالوا: كلّ مُبالِغٍ في كِبَر أو كُفْر أو فَسادٍ فقد عَتا فيه، ومنه قولُه تعالى: ﴿بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾﴾ [الحاقة: 6]، أي: مبالِغَة في الشِّدَّة، ويقال: جبّارٌ عاتٍ، أي: مبالغ في الجبريَّة، ومنه قوله تعالى: ﴿عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا﴾ [الطلاق: 8]، يعني: أنَّ أهلَها تكبَّروا على ربِّهم فلم يطيعوه[3].

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3763.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/177.
(3) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 337.

والجَوْر: العدول عن الحَقّ، من قولنا: جار عنِ الطّريق: إذا عدل عنه[1]، من غير قيد الغلبة كما في الطّغيان.

والقَهْر: غلبةٌ وتذليلٌ معًا، ويستَعمل في كلّ واحد منهما.

والتَّعدّي: تجاوز الحَدّ المأذون فيه شرعًا.

والتَّجاوز: خروجٌ عنِ اللّائق، وتخطِّي الحدِّ المباح.

والاستبداد: فرضُ الإرادة من دون مبرّرٍ، بحسب الرَّغبة والأهواء.

ولما كان المرادُ مجاوزة الحدّ في الظُّلم بالقَهْر، والإكراه، ناسبه لفظُ الطُّغْيانُ؛ بوصفه شاملًا أُصولَ المَفاسِدِ.

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 172.

﴿وَلَا تَرۡكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنۡ أَوۡلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ١١٣﴾ [هود: 113]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

توسُّط طرفي الإفراطِ في الدّينِ، والتّفريطِ في التّقصير فيه

لَمّا نَهى عَنِ الإفْراطِ في الدّينِ في قوله ﷺ: ﴿وَلَا تَطۡغَوۡاْ﴾، أتْبَعَهُ النَّهْيَ عَنِ التَّفْريطِ بِالتَّقْصيرِ فيهِ، بِسُفولِ الهِمَم على وجْهٍ عامٍّ، وكان الحُبُّ في اللّه والبُغْضُ فيه أوْثَقَ عُرى الإيمانِ، إشارَةً إلى ضِدِّهِ الَّذي هو أوْثَقُ عُرى الشَّيْطانِ. وحاصِلُ الآيَتَيْنِ: لا تَظْلِموا بِأنْفُسِكم، ولا تَسْتَحْسِنوا أفْعالَ الظّالِمينَ[1]. والسّياقُ في الآيتين جارٍ على المَنعِ من تجاوزِ الحدِّ، طغيانًا أو ظُلمًا أوِ ارتكانًا.

وتحريرُ المناسبة في كونهم أُمروا بألّا ينْحَرِفوا عَمّا حُدَّ لَهم بإفْراطٍ أوْ تَفْريطٍ؛ لأنَّ كِلا طَرَفَيْ قَصْدِ الأُمورِ ذَميمٌ، وانتُخِبَ لذَلِكَ مصطلحُ الطُّغْيان، وهو مُجاوزَةُ الحَدِّ، تَغْليظًا أوْ تَغْليبًا لِحالِ سائِرِ المُؤْمنينَ على حالِهِ صَلّى اللّه تَعالى عَلَيْهِ وسَلَّمَ، وفي كونه ﷺ أورد تَعْليل الأمْرِ والنَّهْيِ السّابِقَيْنِ بأنِ اسْتَقيموا ولا تَطْغَوْا[2]؛ لأنَّه تَعالى ناظِرٌ لِأعْمالِكم فَيُجازيكم عليها؛ فناسب أن ينهاهم عنِ الرُّكونِ أو الميلِ إلى مَن وُجِدَ منهُمُ الظُّلْمُ، وذلك بِالمَيْلِ إليهم بِأنْ تَثاقَلَ أنْفُسُكم نَحْوهم، لِلْمَيْلِ إلى أعْمالِهِم، ولَوْ بِالرِّضى بِهِ، والتَّشَبُّهِ بِهِم والتَّزَيّي بِزيِّهِمْ[3].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تَرۡكَنُوٓاْ﴾: (الرّاءُ والكافُ والنُّونُ) أصْلٌ واحِدٌ يَدُلُّ على

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/393.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 6/347.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/393.

قوَّةٍ، فَرُكْنُ الشَّيْءِ: جانِبُهُ الأقْوى. وهو يَأْوي إلى رُكْنٍ شَديدٍ، أي: عِزٍّ ومَنْعَةٍ[1]. ورَكِنَ إلى الشَّيءِ، أي: مالَ إلَيْهِ وسَكَنَ، ورَكِنَ إلى الدُّنْيا إذا مالَ إلَيْها[2]. وقوله تعالى: ﴿لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ﴾ [الإسراء: 74] أي: تطمئنّ وتسكن، وشخص لا يُرْكَن إليه: ضعيف، لا يُعْتَمَد عليه، لا يتحمّل المسؤوليَّة[3]. ومعنى الرُّكونُ في الآية: المَيْلُ والموافَقَةُ[4].

2) ﴿فَتَمَسَّكُمُ﴾: (الميمُ والسِّينُ) أصْلٌ صَحيحٌ واحِدٌ يَدُلُّ عَلَى جَسِّ الشَّيْءِ بِاليَدِ، ومَسِسْتُهُ أمَسُّهُ، ورُبَّما قالوا: مَسَسْتُ أمُسُّ. والمَمْسوسُ: الَّذي بِهِ مَسٌّ، كَأنَّ الجِنَّ مَسَّتْهُ. والمَسوسُ منَ الماءِ: ما نالَتْهُ الأيْدي[5]. والمَسُّ كاللَّمْسِ، ولَكِنّ المَسَّ يُقال لِطَلَبِ الشَّيْءِ وإن لم يوجَدْ، واللَّمْسُ يُقالُ فيما يكونُ مَعَه إدْراكٌ بحاسَّةِ اللَّمْسِ[6]. ومنَ المَجازِ: قولُه تعالى: ﴿ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ ۝٤٨﴾ [القمر: 48] أي: أوّلَ ما يَنالُكُم منْها، قالَ الأخْفَشُ: جَعلَ المَسَّ مَذاقًا، كَما يُقال: كيفَ وجَدْتَ طَعْمَ الضَّرْبِ، وكقَوْلِكَ: وجَدَ فُلانٌ مَسَّ الحُمَّى، أي: أوّلَ ما نالَهُ منْها[7].

3) ﴿أَوْلِيَآءَ﴾: (الواوُ واللّامُ والياءُ) أصْلٌ صَحيحٌ يَدُلُّ عَلَى قُرْبٍ، منْ ذَلِكَ الولْيُ: القُرْبُ. يُقالُ: تَباعَدَ بعد ولْيٍ، أيْ قُرْبٍ. وجَلَسَ ممّا يَليني، أيْ: يُقارِبُني. والوليُّ: المَطَرُ يَجيءُ بعد الوسْميِّ، سُمِّيَ بِذَلِكَ؛ لِأنَّهُ يَلي الوسْميَّ، ومنَ البابِ المَوْلَى: المُعْتِقُ والمُعْتَقُ، والصّاحِبُ، والحَليفُ، وابْنُ العَمِّ، والنّاصِرُ، والجارُ؛ كُلُّ هَؤُلاءِ منَ الولْيِ، وهو القُرْبُ. وكُلُّ مَن وليَ أمْرَ آخَرَ فَهو وليُّهُ. وفُلانٌ أوْلَى بِكَذا، أي: أحْرَى بِهِ وأجْدَرُ[8].

4) ﴿تُنصَرُونَ﴾: (النُّونُ والصّادُ والرّاءُ) أصْلٌ صَحيحٌ يَدُلُّ عَلَى إتْيانِ خَيْرٍ وإيتائِهِ، ونَصَرَ اللّه المُسْلِمينَ: آتاهُمُ الظَّفَرَ عَلَى عَدوِّهِم، يَنْصُرُهُم نَصْرًا. وانْتَصَرَ: انْتَقَمَ، وهو منْهُ[9]. والنَّصير: النّاصِر؛ قال اللّه تعالى: ﴿نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ۝٤٠﴾ [الأنفال: 40]، والجَمْعُ

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ركن).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (ركن).
(3) أحمد مختار، معجم اللّغة العربيّة المعاصرة: 2/939.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/178.
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (مسَّ).
(6) الزَّبيديّ، تاج العروس: (مسَّ).
(7) الزّبيديّ، تاج العروس: (مسَّ).
(8) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ولي).
(9) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نصر).

أنْصار، مثْلُ شَريف وأشرافٍ[1]. وتناصر القومُ: أيَّد بعضُهم بعضًا، وتعاونوا على النّصر[2].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

الـــرّكـــون إلى غير الله تعالى خسران مبين؛ إذ لا حامي، ولا مانع سواه

في الآية نهيٌ عن تَجاوزِ ما حدَّه الله؛ وأنَّه بما تعملونَ منَ الأعمالِ كلِّها بصيرٌ، لا يخفى عليه شيءٌ منها، وسيُجازيكم عليها، ولا تَميلوا إلى هؤلاء الظَّلَمةِ فتُصيبَكم النّارُ، وما لكم من دونِ الله من ناصرٍ ينصُرُكم، ويتولَّى أمورَكم[3].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغة الوصل بالعطف:

وصـلٌ بعَطْفِ الـخـاصِّ عَـلى العامِّ

لَمّا نَهى عَنِ الإفْراطِ في الدّينِ في قوله ﷻ: ﴿وَلَا تَطْغَوْاْۚ﴾، أتْبَعَهُ النَّهْيَ عَنِ التَّفْريطِ بِالتَّقْصيرِ فيهِ، بِسُفولِ الهِمَم على وجْهٍ عامٍّ، وكانَ الحُبُّ في الله والبُغْضُ فيه أوْثَقَ عُرى الإيمانِ، إشارَةً إلى ضِدِّهِ الَّذي هو أوْثَقُ عُرى الشَّيْطانِ، فَقالَ: ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ﴾ أي: شَيْئًا من رُكونٍ، وقالَ: ﴿إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ أي: وُجِدَ منهُمُ الظُّلْمُ، ولَم يَقُلْ: (الظّالِمينَ)، أي: بِالمَيْلِ إليهم؛ بِأنْ تَثاقَلَ أنْفُسُكم نَحْوهم، لِلْمَيْلِ إلى أعْمالِهم، ولَوْ بِالرِّضى بِهِ، والتَّشَبُّهِ بِهِم، والتَّزَيّي بِزيِّهِم، وحاصِلُ الآيَتَيْنِ: لا تَظْلِموا بِأنْفُسِكم ولا تَسْتَحْسِنوا أفْعالَ الظّالِمينَ، وفَسَّرَ الزَّمَخْشَريُّ الرُّكونَ بِالمَيْلِ اليَسيرِ، وهو حَسَنٌ من جِهَةِ المَعْنى، وقالَ الرُّمّانيُّ: الرُّكونُ: السُّكونُ إلى الشَّيْءِ بِالمَحَبَّةِ والانْصِبابُ إلَيْهِ، ونَقيضُهُ النُّفورُ عنهُ، وهو عَلى التَّفْسيرِ الثّاني في ﴿تَطْغَوْاْۚ﴾ من عَطْفِ الخاصِّ على العامِّ[4].

(1) ابن منظور، لسان العرب: (نصر).
(2) أحمد مختار، معجم اللّغة العربيّة المعاصرة: 3/2220.
(3) مجموعة من المؤلفين، التّفسير الميسر: 1/234.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/393.

جوامع أصول الدّين في الآية الكريمة:

الإيمان والعمل الصّالح، هما جوهر النّجاة في الحياة وبعد الممات

جَمَعَ قَوْلُه تعالى: ﴿وَلَا تَطۡغَوۡاْۚ﴾، وقَوْلُهُ: ﴿وَلَا تَرۡكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ أصْلَي الدِّينِ، وهُما: الإيمانُ والعَمَلُ الصّالِحُ، فعنِ الحَسَنِ (البصري) رحمه الله: "جَعَلَ اللّه الدِّين بَينَ لائين، ﴿وَلَا تَطۡغَوۡاْۚ﴾، ﴿وَلَا تَرۡكَنُوٓاْ﴾"[1].

بلاغة النَّهي بـ (لا):

تلخيص النّهي عن أجناس الظّلم وأنواعِه بالأداة (لا) مرّتين

سيقت (لا) على أبلغ ما يُتَصوّر في النّهي عنِ الظُّلم والتَّهديدِ عليه، وجاء النّهي عنِ الرّكون إلى الذين ظلموا في خواتيم سورة هود، بعد استعراض كافّة مشاهد الظُّلم والطُّغيان في السّورة، باختلاف أنواعه المندرجة تحتَ الاستبداد، المتعلِّقة بكلّ قوم، وهذا النّهي الوارد على النَّهي السّابق[2]، خطابٌ للنَّبيّ ﷺ ومَن معَه منَ المؤمنين، بهذَين النَّهيين بعدَ الأمر بالاستقامة؛ للتَّثبيت عليها، وقد تُجْعَل تأكيدًا لذلك، إذا كان المراد به الدَّوامَ والثَّبات[3].

إيثار لفظ (الرّكون):

إيثار النّهي عنِ الظّلم، بدلالة الأدنى على الأحرى

الرّكونُ - وهو في الغالب - أيسرُ رَدّةِ فعلٍ سلبيَّةٍ على الظُّلم؛ سواءٌ بالشُّعور أو بالفعل، من خلال عدم الإقدام على أيّ فعلٍ يُحَرّضُ على النّفور منَ الذين ظَلموا، إلّا أنّ مجرَّد السُّكون إلى الذين ظلموا منهيٌّ عنه. وقد تقدّم أنّ الرُّكونَ يكون بالمَيْلِ اليَسيرِ، أوالسُّكونِ إلى الشَّيْءِ بالمَحَبَّةِ والانْصِبابِ إليه؛ لأنَّ الرُّكون المَنْهيَّ عنه هو الرِّضا بما عَلَيْهِ الظَّلَمَةُ منَ الظُّلم، وتَحْسينُ تلك الطَّريقَةِ وتَزْيينُها عندَهم وعند غَيْرِهم، ومُشارَكَتُهُم في شَيءٍ من تلك الأبْوابِ، فَأمّا مُداخَلَتُهُم لِدَفْعِ ضَرَرٍ، أوِ اجْتِلابِ مَنْفَعَةٍ عاجِلَةٍ، فَغَيْرُ داخِلٍ في الرُّكونِ[4].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/178.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3763.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 6/348.
(4) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 18/407.

التّعبير عنِ الرّكون بالمضارع:

النّهي يقتضي التّكرار، بدلالة الصّيغة

عُبِّر عنِ الرّكون بصيغة المضارع للدّلالة على الدّوام والاستمراريَّة، فالنَّهي عن فعل الرّكون مستَتْبِعٌ الاستمراريَّةَ عليه، وهو سلوكٌ مذمومٌ، والدّوامُ عليه فعلٌ رديّ.

بلاغة الاستعارة في لفظ الرّكون:

تمثيل الغائب بالشّاهد، لِتَجْليَة مسمّى الأمر بالتّقوى، والنّهي عن الطّغوى

"الرُّكونُ: المَيْلُ والموافَقَةُ، وفِعْلُهُ كَعَلِمَ، ولَعَلَّهُ مُشْتَقٌّ منَ الرُّكْنِ - بِضَمٍّ فَسُكونٍ - وهو الجَنْبُ، لأنّ المائل يُدْني جَنْبَهُ إلى الشَّيءِ المُمالِ إليه، وهو هُنا مُسْتَعارٌ لِلْموافِقِ، فَبعد أن نَهاهُم عَنِ الطُّغْيانِ، نَهاهُم عَنِ التَّقارُبِ منَ المُشْرِكينَ؛ لِئَلّا يُضِلُّوهُم ويُزِلُّوهُم عنِ الإسلام"[1].

علّة توحيد الاستقامة وجمع الرّكون:

تنزيهُ مقام النبيّ عنِ المحظورات، في سياق الآية الكريمة

جاء الخطاب في الأمر ﴿فَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَ﴾ في الآية السّابقة، موحَّدًا في الظّاهر، وإن كان المأمور به من حيثُ المعنى عامًّا، وجاء الخطابُ في النّهي: ﴿وَلَا تَرۡكَنُوٓاْ﴾ مُوجَّهًا إلى غير الرَّسول ﷺ، مخاطَبًا به أُمّته، فحيثُ كان الأمر بأفعال الخير توجَّه الخطابُ إلى النَّبيِّ ﷺ إجلالًا، وحيثُ كان النَّهي عنِ المحظورات عَدلَ عنِ الخطاب عنه إلى غيره من أُمّته، وأتى بضمير الجمع في النَّهْيِ عن أفْعالِ الشَّرِّ، وهذا من جليل الفصاحة[2].

ولا يتصوَّر منَ النَّبيّ ﷺ وقوعُ منهيّ عنه، فمن المعلوم أنّه لا نهي إلّا حيث يُتَصَوّر وقوعُ النّهي عنه، ولا يمكن أن يُتصوّر منَ النّبيّ ﷺ طغيانٌ، أو ركونٌ إلى الظّالمين[3]، وأنّه لما كانَ مَدارُ النَّهْيِ هو الظُّلْمُ، والجَمْعُ باعْتِبارِ جَمْعيَّةِ المُخاطَبينَ، قيلَ: إنَّ ذَلِكَ لِلْمُبالَغَةِ في النَّهْيِ من حَيْثُ إنَّ كَوْنَهم جَماعَةً مَظِنَّةُ الرُّخْصَةِ في مُداهَنَتِهِمْ. وإن كان

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/178.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/222، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 9/393.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3769.

هذا القيل إنَّما يَتِمُّ أن لو كانَ المُرادُ النَّهْيَ عَنِ الرُّكونِ إليهم، من حَيْثُ إنَّهم جَماعَةٌ ولَيْسَ كَذَلِكَ[1].

دلالة ﴿إِلَى﴾ في سياق الآية:

الرُّكونُ حَقيقَتُهُ الاِسْتِنادُ والاِعْتِمادُ والسُّكونُ إلى الشَّيْءِ والرِّضا بِهِ. فالرُّكْن إذا تَعَدَّى بـ (إلى) كان بمعنى الميل، ومنه الرُّكن المستند إليه غيرُه؛ لكنّه ليس مطلقَ الميل، بل الميل اليسير، وأدنى الميلِ مُفسّر بما ذكره.

التّشوّف إلى دَفْع مفسدةِ الطّغيان، بماهيّة أقلّ ما قيل

نُكْتَةُ العدولِ في ﴿ٱلَّذِينَ﴾:

قال: ﴿إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾، أي: وُجِدَ منهم الظُّلْم، ولم يقل: (الظّالمين)، أي: بالميل إليهم بأن تثاقَلَ أنفسُكم نحوهم للميل إلى أعمالهم، ولو بالرِّضى به، والتَّشبُّه بهم، والتَّزيّي بزيِّهم[2]، وإذا كان النَّهيُ عن مساندة الذين وقع منهم ظُلْمٌ، فأولى بالنَّهي مَن يكون الظُّلْمُ عادةً وسياسةً مستمرَّةً لهم، ويلاحظ أنَّ التَّعبير بالموصول فيه بيانٌ لسبب النَّهي، وهو وقوع الظُّلْم منهم، أي: من وقوع الظُّلْم على سبيل النُّدور ليُلائمَ المعنى[3].

النَّهي عنِ المساندة، أو مَن كان له الظُّلم عادةً

إيثار التَّعبير عنِ الظُّلم بالماضي المجموع:

آثر البيانُ القرآنيُّ التّعبيرَ عنِ الظّلم بالماضي المجموع؛ للتّنبيه على أنّ العدول عنِ (الظّالمين) - مع أنه أخصر - إلى ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾؛ لدلالة الفعل على الحدوث دونَ الثُّبوت الدّالّ عليه الوصفُ باعتبار وضْعِه، فإن دَلّ الفعلُ على الحدوث دونَ التّقرّر والثُّبوت، فهذا القول لم يتناول مَن تَقَرّر فيه الظُّلْم، وكان موسومًا معلومًا بالظُّلْم، فكان هذا مَنْشَأ الأبلغيَّةِ، لكن هذا ليس كليًّا مُطّردًا، مثل:

القصد إلى دلالة الحدوث، دون الثّبوت

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/245.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/393.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3763.

﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ﴾ [الأنعام: 31]، ﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ﴾ [هود: 21]، ﴿ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ﴾ [هود: 11]؛ إذِ الظّاهر فيها الثُّبوتُ دونَ الحدوثِ[1].

دلالة (الفاء) في سياق الآية:

أفادتِ (الفاءُ) التَّسَبُّبَ عنِ المنهيِّ عنه

الفاءُ واقعةٌ في جواب النّهي؛ لأنَّها تُفيد تَسَبُّبَه عنِ المنهيِّ عنه[2]، والجمعُ بينَ السَّبب والجزاءِ لتأكيد النّهي عنِ الأعلى بدلالة الأدنى.

إيثار لفظِ (المسّ) وبلاغة المجاز فيه:

إيثار (المسّ) إخبارٌ أنّ العقاب على الميل، دونَ العقابِ على الظّلْم

قال ابن أبي الإصبع في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَرۡكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ﴾ "إنَّه سبحانَه لمّا نهى عنِ الرّكون للظّالمين، وهو الميلُ إليهم، والاعتمادُ عليهم، كان ذلك دونَ مشاركتِهم في الظّلْم، أخبر أنَّ العقاب على ذلك دونَ العقاب على الظُّلْم، وهو مَسُّ النّار، دونَ الإحراق والاصطلاء، وإن كان (المسُّ) قد يُطْلَق ويُراد به الاستئصالُ بالعذاب، وشمولُ الثّوابِ أكبرُ مجازًا، ولمّا كان المسُّ أوَّلَ ألمٍ أو لَذَّةٍ يباشِرُها الممسوسُ، جاز أن يُطْلَق على ما يَدلُّ عليه استصحابُ تلك الحال مجازًا، والحقيقةُ ما ذكرناه، وهو في هذه الآية الكريمة على حقيقته"[3]. وعلى هذا، فالمَسُّ مَجازٌ في الإصابَةِ، فَهو دالٌّ عَلَى مُطْلَقِ الإصابَةِ منْ غَيْرِ تَقْييدٍ بِشِدَّةٍ أو ضَعْفٍ، وإنَّما يُرْجَعُ في الشِّدَّةِ أوِ الضَّعْفِ إلَى القَرينَةِ[4].

إيثار لفظ ﴿ٱلنَّارُ﴾ في الآية الكريمة:

دلالة الأدنى على الأحرى، والقصد إلى تعميم العقوبة

ذُكِرَ لفظُ ﴿ٱلنَّارُ﴾ في القرآن الكريم مئةً وسبعًا وثلاثين مَرّةً، وهذا اللّفظ لا يُعبّر بمجموعه عن نار الآخرة المعدَّة لعذاب الآثمين، وإنّما ورد اسمُ النّار في سياق الانتفاع منها في دار الدّنيا للأغراض

(1) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاوي: 10/226.
(2) الشّهاب، عناية القاضي: 5/143.
(3) ابن أبي الإصبع، تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر، ص: 196.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 6/284.

المتنوّعة، في حين اختُصّ لفظُ (جهنم) للتّعبير عن عذاب الآخرة حصرًا، فلم تُستَخْدَم - ولو مجازًا - في التّعبير عن أيّ غرض من أغراض الدّنيا، كما هو الحال في لفظ ﴿ٱلنَّارُ﴾، وكما أنَّ الموضوعات التي ورد لفظُ ﴿ٱلنَّارُ﴾ في سياقها أكثرُ منَ الموضوعات التي ورد لفظُ (جهنّم) في سياقها؛ لكونها - النّار - عقابًا لأصغر الذّنوب، بخلاف (جهنّم) التي لا يُعذّب فيها ولا يَخْلُد إلّا المشركون[1]. ومن هنا كانت ﴿ٱلنَّارُ﴾ أولى بمصطلح (المسّ) من جهنّم؛ وذلك للدّلالة بالأدنى على الأحرى، وبتعميم العذاب في الدُّنيا والآخِرة.

فن ائتلاف اللّفظ مع المعنى، والإدماج، والتّعليق، والافتنان:

اجتمع في قوله: ﴿وَلَا تَرۡكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ﴾ جملةٌ منَ اللَّطائف البلاغيّة[2] يحدّها:

أوجب العدلُ أن يكون المسُّ عقابَ الرّاكنِ إلى الظّالم

ائتلاف اللّفظ مع المعنى في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَرۡكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ﴾؛ إذ لمّا كان الرّكونُ إلى الذين ظلموا دونَ فعلِ الظّالمين، وجبَ أن يكون العقابُ عليه دونَ عقابِ الظّالمين، ومَسُّ النّارِ في الحقيقة دونَ الإحراق، ولمّا كان الإحراقُ عقابًا للظّالم، أوجب العَدلُ أن يكون المسُّ عقابَ الرّاكنِ إلى الظّالم.

التّأديبُ والموعظةُ مقصدان للآية الكريمة

ظاهر الآية التَّأديبُ، ومن أجله جاءت في هذا الباب الموعظةُ، ووُصِفَ الحقُّ ﷻ بالعدل، وهذا ما يُسَمَّى بالإدماج، فقد أدمج اللّه سبحانَه وصْفه بالعدل، فتعلّق فنُّ الفخرِ بفَنِ الأدب.

العدول عنِ الوصف، يلائم وقوعَ الظّلم على سبيل النّدور

البَسْطُ: فلم يقل الحقُّ سبحانَه: (الظّالمين)، وعدلَ عن ذلك إلى قوله: ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾، لما يحتمل الأوّل منِ استمرار الظُّلم الذي لا يلائم المساسَ، ولا تحصل به المبالغةُ التي تحصُل منَ اللَّفظ الثّاني،

(1) الموسويّ، مفردات قرآنية، النّار وجهنّم في القرآن الكريم، دراسة أسلوبيّة، مجلة كلية التربية - جامعة واسط، العدد الثامن والعشرون، ص: 141.

(2) ابن أبي الإصبع، تحرير التحبير، ص: 418، ودرويش، إعراب القرآن وبيانه: 4/443.

من وقوع الظّلْم على سبيل النّدور؛ ليلائمَ المعنى لفظَ الرّكونِ ولفظَ المساسِ، وتحصُلَ المبالغةُ الحَقَّةُ، لأنَّه إذ نهى عنِ الرّكون إلى مَن وقع منه الظّلمُ في وقت دونَ وقت، كان النَّهيُ عنِ الرُّكون لمَنِ استمرّ منه الظّلم بطريق أولى.

بلاغة النَّفي بـ (ما):

نفي النّصيرِ سوى اللّه، ودلالتُه

لَمّا كانَ كُلُّ مَوْجودٍ سِوى اللّه في قَهْرِهِ وتَحْتَ أمْرِهِ، قال تعالى: ﴿وَمَا لَكُم﴾؛ والمُرادُ نَفْيُ أن يَكونَ لِكُلٍّ نَصيرٌ سوى اللّه، بالأداة (ما) الدّالَّة على المبالغة في النّفي، والمَقامُ قَرينَةٌ عَلى ذَلِكَ[1].

دلالة شبه الجملة (لكم):

تقرير الجزاء، بحال انتفاء النّصرة

جملةُ: ﴿وَمَا لَكُم﴾ يجوز أن تكونَ حاليَّةً، أي: فتَمَسَّكم النّار حالَ انتفاءِ ناصرِكم، ويجوز أن تكون مستأنفة[2]. وكون جملة النّفي حاليّةً أدلُّ على عجزهم وافتقارهم إليه تعالى، فلا وليّ غيرُه، ولا ناصرَ سِواه.

دلالة ﴿مِّن﴾ في قوله: ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾:

القصد إلى تقرير الجزاء بتأكيد النّفي

﴿مِّن﴾ هنا لاستغراق النّفي[3]؛ والقصدُ إلى المبالغة في تقرير الجزاء.

إيثار التَّعبير بـ المركَّب الإضافيّ:

نفي وجود النّاصر المخلّص من عذاب الله

آثر البيانُ القرآنيُّ التّعبيرَ بـ ﴿دُونِ ٱللَّهِ﴾، لما تقرّر أنّ ﴿دُونِ﴾ من الأدْون، وهو الأقرب إلى جهة السُّفْل؛ والمراد: لَيْسَ لَكم أوْلياءُ يُخَلِّصونَكم من عَذابِ اللّه[4].

عِلّة إظهارِ اسمه الأعظم:

إيثار إظهارِ الاسم الأعظم، تشوّفٌ إلى عظمته

لَمّا كانَ دونَ رُتْبَتِهِ ﷻ منَ الرُّتَبِ والذّواتِ ما لا يُحْصيهِ غَيْرُهُ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/394.
(2) السّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 6/419.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3765.
(4) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 18/407.

سبحانَه، أدْخَلَ الجارَّ تَبْعيضًا، فَقالَ: ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾، أي: المَلِكِ الأعْظَم؛ إظهارًا لتَفَرُّدِه وعظيم رُتبته، تعالى عن ذلك عُلوًّا كبيرًا[1].

دلالة حرف الجرِّ في ﴿مِنْ أَوْلِيَآءَ﴾:

نفيُ النُّصرة بما يفيد العموم

سيق حرف الجرّ للدّلالة على الإغراقِ في النَّفْيِ، فقال: ﴿مِنْ أَوْلِيَآءَ﴾[2]، ويناسبُ ذلك صَغارُ كُلّ وليٍّ دونَ اللّه تعالى، ودوْنيَّةُ كُلِّ ناصرٍ سوى اللّه جلَّ في عُلاه، بل انعدامُهما أمامَ سلطانِه سبحانه.

سرّ التنكير والجمع في ﴿أَوْلِيَآءَ﴾:

التّأكيدُ على نفي عموم النُّصرة والولاية في الآخرة

جاءت لفظةُ ﴿أَوْلِيَآءَ﴾ نَكِرةً في قوله تعالى: ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ لتشملَ كلّ الأولياء، فهي نكرةٌ في سياق النّفي، فدلّت على العموم. ولم يقل: (ما لكم من وليٍّ ولا نصير) بصيغة المفرد؛ لأنّ هذه تَرِد في سياق الآخرة، وإذا أراد السّياق في الدّنيا يقول سبحانه: (من دون اللّه من ولي ولا نصير)[3].

بيانُ العطف بـ ﴿ثُمَّ﴾:

ترديد نفي النّصرة بـ (ثمّ) الاستبعاديّة أو المتراخيَة، أو ما يُنَزَّلُ منزلةَ فاء السّببيّة

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ أي: من جِهَتِه تعالى؛ إذْ قَدْ سَبَقَ في حُكْمِه أن يُعَذِّبَكم بِرُكونِكم إليهم، ولا يُبْقيَ عَلَيْكُم، و﴿ثُمَّ﴾ لاسْتِبْعادِ نَصْرِه سُبْحانَهُ إيّاهم، وقَدْ أوْعَدَهُمُ العَذابَ على ذَلِكَ، وأوْجَبَهُ لَهُمْ.

وتُعُقِّبَ بِأنَّ أثَرَ الحَرْفِ إنَّما هو مَدْخولُهُ، ومَدْخولُ ﴿ثُمَّ﴾ عَدَمُ النُّصْرَةِ ولَيْسَ بِمُسْتَبْعَدٍ، وإنَّما المُسْتَبْعَدُ نَصْرُ اللّه تَعالى لَهُم، والظّاهِرُ أنَّها لِلتَّراخي في الرُّتْبَةِ؛ لِأنَّ عَدَمَ نَصْرِ اللّه تَعالى أشَدُّ وأفْظَعُ من عَدَمِ نُصْرَةِ غَيْرِه. وأُجيبَ بِما لا يَخْلو عن تَكَلُّفٍ، وأيًّا ما كانَ، فالمَقامُ مَقامُ الواوِ، إلّا أنَّهُ عَدَلَ عنها لِما ذُكِرَ[4].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/394.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/394.
(3) محمّد الهلال، تفسير القرآن الثّريّ: 12/108.
(4) الآلوسيّ، روح المعاني: 6/349.

وجَوَّزوا أنْ تَكونَ ﴿ثُمَّ﴾ مُنَزَّلَةً مَنزِلَةَ الفاءِ، بِمَعْنى الاِسْتِبْعادِ، فَإنَّهُ سُبْحانَهُ لَمّا بَيَّنَ أنَّهُ مُعَذِّبُهم، وأنَّ أحَدًا لا يَقْدِرُ عَلى نَصْرِهِم، أنْتَجَ ذَلِكَ أنَّهم لا يُنْصَرونَ أصْلًا. ووجْهُ ذَلِكَ: بِأنَّهُ كانَ الظّاهِرُ أن يُؤْتى بِالفاءِ التَّفْريعيَّةِ المُقارِنَةِ لِلنَّتائِجِ، إذِ المَعْنى: أنَّ اللّه تَعالى أوجب عليكم عِقابَهُ، ولا مانِعَ لَكم منهُ، فَإذَنْ أنتم لا تُنْصَرونَ، فَعَدَلَ عنهُ إلى العَطْفِ بـ ﴿ثُمَّ﴾ الاِسْتِبْعاديَّةِ إلى الوجْهِ الَّذي ذَكَرَهُ، واسْتِبْعادُ الوُقوعِ يَقْتَضي النَّفْيَ[1].

بلاغة النّفي بالحرف ﴿لَا﴾:

دلالـــة نـفـي النُّصرة بالحرف (لا) منه سبحانه أو من دونه

لـمّا نفى النّصرةَ عن غيره تعالى في قوله: ﴿لَا تُنصَرُونَ﴾، حمل النُّصرة المنفيّة على نُصرته تعالى، فعلى هذه الجملة تكون للتّكميل والاحتراس، إذ نفيُ النّصرةِ من دون اللّه تعالى ربما يوهم النُّصرة منه تعالى، فقوله: ﴿ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ لِدَفع هذا الوهم، والتّأخير لرعاية الفواصل[2].

نكتة التّعبير عن فعل النّصر، بصيغة المضارع:

بيان القصد إلى نفي النُّصرةِ، بما يفيد الدّوام

ورد فعل النّصر بصيغةِ المضارع لإفادة الاستمرار؛ أي: إنَّ نُصْرة اللّه مستبعدةٌ مع استيجابهم العذابَ، واقتضاءِ حِكمته له[3].

علّة بناء الفعل للمفعول:

استحالة نصرِ مَـن شـاء الله خِذْلانه

أشارَ البيان القرآنيُّ إلى أنَّ نَصْرَ مَن لم ينصره اللّه مُحالٌ، وذلك بأداةِ البُعْدِ والبناءِ لِلْمَفْعولِ، فقالَ: ﴿ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ أي: ثُمَّ إذا فاتَكم هَذا وذاكَ، فما أبْعَدَكم منَ النُّصْرَةِ من غير اللّه تعالى.

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 6/349.
(2) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ ومعه حاشية ابن التّمجيد: 10/227.
(3) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 8/221.

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

تركنوا، وتجنحوا، وتميلوا:

الرُّكونُ: السُّكونُ إلى الشَّيْءِ بِالمَحَبَّةِ، والانْصِبابُ إلَيْهِ، ونَقيضُهُ: النُّفورُ عنهُ.

والمَيْلُ: قد يكون كثيرًا وقليلًا.

أمّا الجُنوح: فمَيلُ القاصِدِ إلى السَّلْم أو غيرِه، كَما يَميلُ الطّائِرُ الجانِحُ.

والحاصل: أنّ القدر المشتركَ بينَ المذكورات وجودُ مسمّى الميل في كلٍّ، والخُلف على اعتبارات؛ أذكر منها:

الاعتبار الأوّل: قد يكون الجنوحُ ميلًا مشروعًا، إذا عُلِمَ حالُ الرّاغب، أو كان ميلًا غيرَ مقدور عليه.

الاعتبار الثّاني: يكون الجنوحُ فعلًا لا قلبًا، والميلُ قلبًا لا فعلًا، والرّكون فعلًا وقلبًا.

ومن هنا اختير في الآية: ﴿وَلَا تَرۡكَنُوٓاْ﴾ دلالة على نفي الميل إلى الظالمين، رغبةً ومحبّةً، قلبًا وفعلًا؛ لكون اجتماعهما أدلّ على الانقياد، والطّاعة، والتّسليم.

نفى الميلَ إلى الظّالمين رغبةً، ومحبّةً، قلبًا وفعلًا

﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ذَٰلِكَ ذِكۡرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ١١٤﴾ [هود: 114]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

تحقيق مناطاتِ الاستقامة، وأصولِ الدّيانة، بتقرير المكفِّرات، جبرًا للتّقصير

لَمّا أمَرَ ﷺ نبيّه ﷺ بِالاسْتِقامَةِ، أرْدَفَهُ بِالأمْرِ بِالصَّلاةِ، وذلك يَدُلُّ على أنَّ أعْظَمَ العِباداتِ بعد الإيمانِ بِاللّه هو الصَّلاةُ[1]، فانْتَقَلَ من خِطابِ المُؤْمنينَ إلى خِطابِ النَّبيِّ ﷺ ، وهذا الخِطابُ يتناولُ جميع الأُمَّةِ بقرينةِ أنَّ المَأْمورَ به منَ الواجباتِ على جَميعِ المُسْلِمينَ، لا سيَّما وقد ذُكِرَ معه ما يُناسِبُ الأوْقاتَ المُعَيَّنَةَ لِلصَّلَواتِ الخَمْسِ[2]. وأنَّه لَمّا كانَ العِلْمُ حاصِلًا بِما سَبَقَ منَ الحُكْمِ من أنَّ الآدَميَّ مَحَلُّ العَجْزِ والتَّقْصيرِ، أتبعَ ذلك بأعلى مُكَفِّرٍ لِما يوجِبُهُ العَجْزُ ويَقْضي بِهِ الفُتورُ والوهْنُ منَ الصَّغائِرِ، وأعَمِّهِ وأجْلَبِهِ لِلاسْتِقامَةِ، فقال تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾[3].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿طَرَفَيِ﴾: طَرَفُ الشَّيءِ: جانِبُهُ، ويُستَعمل في الأجسام والأوقات وغيرهما. والطَّرَفُ: النّاحيَةُ والطّائِفَةُ منَ الشَّيْءِ، وفُلانٌ كَريمُ الطَّرَفَيْنِ؛ يُرادُ بِهِ نَسَبُ أبيهِ وأُمِّهِ. قالَ الزَّجّاجُ: أطْرافُ النَّهارِ الظُّهْرُ والعَصْرُ، وقالَ ابْنُ الكَلْبيِّ: أطْراف النَّهارِ ساعاتُهُ. وقالَ أبو العَبّاسِ: أراد طَرَفَيْهِ فَجَمَعَ[4].

2) ﴿وَزُلَفًا﴾: (الزّاءُ واللّامُ والفاءُ) يَدُلُّ على انْدِفاعٍ وتَقَدُّمٍ في قُرْبٍ إلى شَيْءٍ. يُقالُ منْ ذَلِكَ: ازْدَلَفَ الرَّجُلُ: تَقَدَّمَ. وسُمِّيَتْ

(1) ابن عادل، اللّباب: 10/591.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/178 - 179.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/394.
(4) الرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (طرف).

مُزْدَلِفَةَ بِمَكَّةَ، لاقْتِرابِ النّاسِ إلى منًى بعد الإفاضَةِ من عَرَفاتٍ. ويُقالُ: لِفُلانٍ عِنْدَ فُلانٍ زُلْفَى، أي: قُرْبَى. قال الله جَلَّ وعَزَّ: ﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ﴾ [ص: 25]. والزَّلَفُ والزُّلْفَةُ: الدَّرَجَةُ والمَنْزِلَةُ. وأزْلَفْتُ الرَّجُلَ إلى كَذا: أدْنَيْتُهُ[1]. والزُّلْفَة: طائفةٌ من أوّل اللّيل، وهي السّاعات التي يلتقي بها اللّيلُ والنَّهار: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِۚ﴾[2].

3) ﴿ذِكْرَىٰ﴾: الذِّكْرَى والذُّكْرَةُ: ضِدُّ النِّسْيانِ، تَقولُ: ذَكَرْتُهُ ذِكْرَى غَيْرَ مُجْراةٍ، واجْعَلْهُ منْكَ على ذُكْرٍ وذِكْرٍ - بِضَمِّ الذّالِ وكَسْرِها - بِمَعْنًى. والذِّكْرُ: الصِّيتُ والثَّناءُ. قالَ الله تعالى: ﴿صٓۚ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ۝١﴾ [ص: 1] أي: ذي الشَّرَفِ. وذَكَرَهُ بعد النِّسْيانِ، وذَكَرَهُ بِلِسانِهِ وبِقَلْبِهِ، يَذْكُرُهُ ذِكْرًا وذُكْرَةً وذِكْرَى أيْضًا، وتَذَكَّرَ الشَّيْءَ وأذْكَرَهُ غَيْرُهُ وذَكَّرَهُ: بِمَعْنًى[3]. وذِكْرى مصدر ذكَرَ، وهي العبرة، والعِظة، والتَّوبة، كقوله تعالى: ﴿أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ۝١٣﴾ [الدخان: 13][4]، وجاءت بمعنى التّذكّر، كقوله تعالى: ﴿فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٦٨﴾ [الأنعام: 68][5]. وجاءت بمعنى التَّسبيح والطّاعة كقوله تعالى: ﴿لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ۝٢﴾ [الأعراف: 2][6]. وجاءت بمعنى الدّليل والحُجّة كقوله تعالى: ﴿وَمَا هِىَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ ۝٣١﴾ [المدثر 31][7]، ومعناها في الآية: العِظَة[8]، أو التَّوبة[9]، مع احتمالها كثيرًا منَ المعاني المذكورة.

المَعْنى الإجْمالِيُّ:

يأمر الله تعالى بإقامة الصّلاة كاملة في أوّل النّهار وآخِره، لكون هذه الصّلوات الخمس، وما أُلحقَ بها منَ التَّطوّعات من أكبر الحسنات، التي تُقَرّب إلى الله، وتوجِب الثّواب، وتُذْهِب السّيّئات وتمحوها، وفي لزوم الاستقامة على الصّراط المستقيم، وعدم

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (زلف).
(2) الرّازيّ، مختار الصّحاح: (زلف).
(3) الرّازيّ، مختار الصّحاح: (ذكر).
(4) أحمد مختار، معجم اللّغة العربيّة المعاصرة: 1/816.
(5) أحمد مختار، معجم اللّغة العربيّة المعاصرة: 1/816.
(6) أحمد مختار، معجم اللّغة العربيّة المعاصرة: 1/816.
(7) أحمد مختار، معجم اللغة العربية المعاصرة: 1/816.
(8) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/223.
(9) ابن الجوزيّ، زاد المسير: 2/407.

مجاوزته وتَعَدّيه، وعدم الرّكون إلى الذين ظلموا. والأمرُ بإقامة الصّلاة ﴿ذِكۡرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ﴾، الذين يفهمون بها ما أمَرَهم الله به، ونهاهم عنه، ويمتثلون لتلك الأوامر الحسنة المثمرة للخيرات، الدّافعة للشّرور والسّيّئات[1].

الصّلاة عمود الدّين، وسبيل القُربة، وتحصيلُ الحسنات

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغة الوصل بالعطف:

قول الله تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ معطوفٌ على الأوامر والمنهيّات قبلَه[2]، والقَصْدُ إلى تشريك المعطوف لما قبلَه في الحُكم.

الاشتراك في الأحكام، فرعٌ عنِ الاشتراك في العطف

دلالة الأمر:

في قوله: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾، الأمْرُ بالإقامَةِ يُؤْذِنُ بأنَّهُ عَمَلٌ واجِبٌ، لِأنَّ الإقامَةَ إيقاعُ العَمَلِ على ما يَسْتَحِقُّهُ[3]. ومَعْنى إقامَتِها: أداؤُها على تَمامها، وقيل: المُداومَةُ عليها، وقيل: فِعْلُها في أوَّلِ وقْتِها[4].

إقامة الصّلاة عَمَلٌ واجِبٌ، على ما أمر الله به وارتضاه

وجه تعريف الصّلاة:

وجه تعريف الصّلاة في قوله تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ إرادة الجِنس؛ لأنَّه لا يُراد به واحدٌ بعينه، بل هو لعموم الجِنس[5]؛ للدّلالة على كونها شاملةً لأوقات الصّلاة المفروضة، دونَ تحديدِ عددها[6].

سوق الجِنس؛ للدّلالة على عدم التّحديد

سِرّ تخصيص الصّلاة في الآية الكريمة:

خَصّ الله تعالى الصّلاةَ بالأمر، بعد أمره بالاستقامة؛ لأنَّها أُمّ العبادات، وجامعةٌ لجميع المَبرّات، فَلِلتَّنبيه على إنافتها، خُصّت

إعلاء شأن الصّلاة، بتخصيص ذِكْرِها

(1) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 391.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3766.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/179.
(4) الآلوسيّ، روح المعاني: 6/349.
(5) السّامرائيّ، معاني النّحو: 3/124.
(6) القطان، تيسير التفسير: 2/241.

بالذِّكر من بينَ الطّاعات[1]. فهي عَمود الدّين، ورُكنه المتين، وأوّل ما يُسأل عنه العبد يومَ الدّين.

سرّ تخصيص الرسول بالصّلاة:

إعلاء مقام النُّبوّة، وتشريفُه بأُمِّ العبادات

خُصَّ النَّبيُّ ﷺ بالأمرِ بالصَّلاة؛ لأنَّه إمامُ أُمَّتِه، ولا يسعُ العمومَ إلّا أن يتّبعوه[2]، فكان الأمرُ في ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ موحَّدًا في الظّاهِرِ، وإنْ كانَ المَأْمورُ بِهِ من حَيْثُ المَعْنى عامًّا[3].

فائدة التّعبير بالطّرف، وتثنيته:

القصدُ إلى توقيت أُمّ العبادات، وحصرِها أزمنةً بمشترك مُعجز

طَرَفُ الشَّيءِ في قوله تعالى: ﴿طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ﴾ مُنْتَهاهُ، من أوَّلِه أو من آخِرِه، فالتَّثْنِيَةُ صَريحَةٌ في أنَّ المُرادَ أوَّلُ النَّهارِ وآخِرُهُ، نهايتُه من ناحية، ونهايتُه منَ النّاحية الأُخرى؛ لأنّ طرف الشّيء هو نهايتُه[4]، وانْتَصَبَ طَرَفَي النَّهارِ للدّلالة على الظَّرْفيّة واسْتِغْراقِ الأوْقاتِ بِالعِبادَةِ[5]؛ والطّرَف وإن لم يكن ظرفًا، لكنّه لمّا أُضيف إلى الظّرف أُعْرب إعرابَه، وهو كقولك: (أتيتُه أوّلَ النّهار وآخِرَه ونصفَ اللّيل)، بنصْبِ هذه كلِّها على الظّرفِ لمّا أُضيفَتْ إليه، وإن كانت ليسَتْ موضوعةً للظّرفيّة[6].

إيثار لفظِ النّهار دونَ غيره:

ترجيح حرفِ النّهار، لمعنى البُروز والظُّهور الّذي يُثيره باكرًا

أوثِرَ لفظُ ﴿ٱلنَّهَارِ﴾ في قوله تعالى: ﴿طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ﴾ دون غيره كـ (الصباح) و(الغَداة)؛ لأنّه يتناول ما بين مطلع الفجر إلى غروب الشّمس، وسُمّي بذلك لأنّ الضّياء يَنْهَر فيه، أي: يبرز كما يبرز النّهر[7].

---

(1) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاوي: 10/114.
(2) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاوي: 10/114.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/222.
(4) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 11/6717.
(5) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 9/109.
(6) السّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 6/420.
(7) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 7/287.

دلالة العطف بالواو:

القصد إلى الجمع بين الوقتين، بدلالة العطف

حَقُّ الواو في قوله تعالى: ﴿وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ﴾ أن تَعْطِفَ على الصّلاة، أي: أقِم الصّلاة طرفي النّهار، وأقِمْها زُلفًا منَ اللّيل[1]. أي: جاءت الواو للجمع بينَ الوقتين.

إيثارُ لفظِ (الزّلَف) في السّياق:

القصدُ إلى مدارك ما أوجب، بطريق الإجمال، تشوُّفًا إلى مدارج التّفصيل

الزُّلَف في قوله تعالى: ﴿وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ﴾، مُطْلَق ساعاتِ اللّيل، وأصل معناه: القُرْب. يقال: ازدلف، أي: اقترب[2]، وهي جَمْعُ زُلْفَةٍ، مثْلُ: غُرْفَةٍ وغُرَفٍ، وهيَ السّاعَةُ القَريبَةُ من أُخْتِها، فَعُلِمَ أنَّ المأمورَ إيقاعُ الصَّلاةِ في زُلَفٍ منَ اللَّيْلِ، ولَمّا لَم تُعَيَّنِ الصَّلَواتُ المأمورُ بإقامَتِها في هذه المدَّةِ منَ الزَّمانِ، كان ذلك مُجْمَلًا، فَبَيَّنَتْهُ السُّنَّةُ والعَمَلُ المُتَواتِرُ بِخَمْسِ صَلَواتٍ؛ هي الصُّبْحُ والظُّهْرُ والعَصْرُ والمغْرِبُ والعِشاءُ[3].

سرّ تنكيرِ (الزّلَف)، وجمعِه:

تعيين الصَّلَوات المَأْمور بها، والتّلويح بأقلّ الجمع، إقامةً للصّلاة

ورد التّنكيرُ لمّا لَم تُعيَّن الصَّلَواتُ المَأْمورُ بإقامَتِها في هَذِهِ المُدَّةِ منَ الزَّمانِ؛ فكانَ ذَلِكَ مُجْمَلًا[4]؛ ليناسبَ امتدادَه، وسكونَه، وصفاءَه. ومناسبتُه للخَلْوة مع الباري سبحانه؛ ليتخيّر العبدُ منها بعدَ أوقات الفروض السُّنَنَ تهجّدًا.

معنى ﴿مِّنَ﴾ التّبعيضيّة:

سيقت (من) للدّلالة على الإيقاع في بعض الأزمنة

﴿مِّنَ﴾ في قوله: ﴿مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ﴾ تبعيضيّة[5]، سيقت بهذه الصّيغة للدّلالة على طائفة منَ اللّيل، وذلكم من رحمة الله تعالى، فلو لم يبعّض لاسْتَغْرَقَ اللّيلَ كلَّه، وفي ذلك مشقّةٌ لا يُطيقها بشرٌ.

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/435.
(2) القاسميّ، محاسن التّأويل: 6/136.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/179.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/179.
(5) الشّهاب، عناية القاضي: 5/144.

نُكْتَة التعريف:

التّعريف للدّلالة على المعهود

إيثارُ تعريف ﴿ٱلَّيۡلِ﴾ للدّلالة على معهود؛ ويمكن أن يَكونَ المُرادُ بِهِ التَّهَجُّدَ، فَقَدْ كانَ مَفْروضًا في أوَّلِ الإسْلام، ويُمْكِنُ أن يُرادَ المَغْرِبُ والعِشاءُ مَعَ الوتْرِ أو التَّهَجُّدِ[1].

بلاغة التَّوكيد بـ ﴿إِنَّ﴾:

التّشوُّفُ إلى الاهتمام وتحقيق الخبر

تَأْكيدُ الجُمْلَةِ بِحَرْفِ ﴿إِنَّ﴾ لِلاهْتِمام وتَحْقيقِ الخَبَرِ. و﴿إِنَّ﴾ فيه مُفيدَةٌ معنى التَّعْليلِ والتَّفْريعِ، وهذا التَّعْليلُ مُؤْذِنٌ بِأنَّ اللّه جَعَلَ الحَسَناتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئاتِ، والتَّعْليلُ مُشْعِرٌ بِعُمومِ أصْحابِ الحَسَناتِ؛ لِأنَّ الشَّأْنَ أنْ تَكونَ العِلَّةُ أعَمَّ منَ المَعْلولِ، مع ما يَقْتَضيهِ تَعْريفُ الجَمْعِ بِاللّام منَ العُمومِ[2].

وجه تعريف ﴿ٱلۡحَسَنَٰتِ﴾ و﴿ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ﴾ وجمعِهما:

دلالة التَّعْليلِ، مُؤْذِنةٌ بمقابلة العموم بالتّعميم

وجهُ مقابلةِ الجمع بالجمع، أنَّ الظّاهرَ عمومُ الحسنات، وتدخل الصّلواتُ المأمورُ بها دخولًا أوّليًّا[3]، وهذا التَّعْليلُ مُؤْذِنٌ بِأنَّ اللّه جَعَلَ الحَسَناتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئاتِ، ومُشْعِرٌ بِعُمومِ أصْحابِ الحَسَناتِ؛ لِأنَّ الشَّأْنَ أن تَكونَ العِلَّةُ أعَمَّ منَ المَعْلولِ، مع ما يَقْتَضيهِ تَعْريفُ الجَمْعِ بِاللّام منَ العُمومِ، وقد جيء بها مجموعةً جَمعَ المُؤَنَّث السّالم؛ للإشارة إلى أنَّ كلَّ صلاة منَ الصّلوات التي تُؤَدَّى في وقتها تمثل حسنةً تمحو السّيّئات[4].

نُكْتَةُ ورودِ اللّام في: ﴿ٱلۡحَسَنَٰتِ﴾:

الإحالة على المعهود، دركًا ووعيدًا وتأنيسًا

اللّام في الحسنات للعهد؛ للدّلالة على معلوم، وعيدًا وتأنيسًا.

بلاغة الطباق:

يجمع الانسجامُ والتّآلفُ الدّلاليُّ بينَ الطّباق القرآنيّ الزّمنيّ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/395.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/395.
(3) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاوي: 10/114.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/180.

توافق المتضادات في دلالتها على القدر المشترك

والطّباقِ الخَلقيّ، في قوله: ﴿إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ﴾، ذلك أنّ صلاة الفجر هي أوّل أعمالِ المسلم إذا أصبح، وأنّ صلاة العشاء آخِرُ أعمالِه إذا أمسى، لذلك كان هذا الفرضُ الدّيني يمحو السّيّئات التي اقترفها المرءُ أثناء اليوم، بتأديته للْحَسَناتِ التي تمحو السَّيِّئاتِ، ومن هنا تتوافق المتضادّات في دلالاتها الدّينيّة.

سِرُّ التَّعبير بقوله: ﴿يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ﴾:

دلالةُ التّعبير بالإذهاب على انسياق النّفسِ إلى ترك السّيئات

إذْهابُ السَّيِّئاتِ يَشْمَلُ إذْهابَ وُقوعِها، بِأنْ يَصيرَ انْسياقُ النَّفْسِ إلى تَرْكِ السَّيِّئاتِ سَهْلًا وهَيِّنًا، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۗ﴾ [العنكبوت: 45]، ويكونُ هذا من خَصائِصِ الحَسَناتِ كُلِّها. ويَشْمَلُ أيضا مَحْوِ إثْمِها إذا وقَعَتْ، ويَكونُ هذا مِنْ خَصائِصِ الحَسَناتِ كُلِّها، فَضْلًا منَ اللّه على عِبادِهِ الصّالِحينَ[1].

بلاغة المجاز في لفظ (الإذهاب):

التّجوُّزُ إلى تنزيل المُسَبَّب منزلةَ السّبب

يَحُدُّ إذهابَ السَّيِّئاتِ تركُ المؤاخذة عليها، والإسنادُ على ذلك مجازيٌّ؛ لأنّها سبب لتكفيرها[2].

سرُّ التَّعبير باسم الإشارة ﴿ذَٰلِكَ﴾:

دلالة الإشارة على علوّ منزلة الكتاب، بفرائضه ونواهيه

في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ذِكۡرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ﴾ إشارةٌ إلى القيام بالفرائض الخمس، وقال المفسّرون: إنّه إشارة إلى القرآن، وكانت الإشارةُ إلى البعيد لعلوّ منزلته، ورِفْعةِ مكانته، وبُعْدِ شأْوِه[3]، فـ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: الأمرُ العالي الرُّتبة الذي تقدّم منَ التَّرغيب والتَّرهيب، والتَّسليَة، وتعليم الدّاء والدّواء للخلاص منَ الشّقاء[4]. ويَحْتَملُ أنْ يَكونَ اسمُ الإشارة ﴿ذَٰلِكَ﴾ "إشارَةً إلى الإخْبارِ بِأنَّ

(1) القونويّ، حاشية القونويّ: 10/114.
(2) االقونويّ، حاشية القونويّ: 10/114.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3768.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/396.

الحَسَناتِ يُذْهِبْنَ السَيِّئاتِ، فَتَكونُ هَذِهِ الذِكْرى تَحُضُّ على الحَسَناتِ، ويَحْتَمِلُ أنْ تَكونَ الإشارَةُ إلى جَميعِ ما تَقَدَّمَ منَ الأوامرِ والنَواهي في هَذِهِ السورَةِ[1].

نُكْتَةُ التَّعبيرِ عنِ الذِّكرى مصدرًا مُنَكَّرًا:

المعاودة للأنام تذكيرًا، تحملها المصادرُ تنكيرًا

الوصف بـ﴿ذِكْرَىٰ﴾ أي: هي سَبَبُ ذِكْرٍ، ومَوْضِعُ ذِكْرى[2]؛ فتحملُ الذِّكْرى التَّذكّرَ الدّائمَ الباقي المستمرَّ، ولا شكَّ أنَّ أداء الصّلواتِ الخمس في مواقيتها على الوجه الكامل، يجعل نفسَ المؤمنِ في ذِكْرٍ دائمٍ للّه[3].

دلالة اللّام في الآية:

المقصود من هو أهل للذّكر، قلبًا وقالبًا

اللّام في قوله: ﴿لِلذَّاكِرِينَ﴾ للاختصاص والاستحقاق، أي: لمن فيه أهليّةُ الذِّكْر والانتباه به، بحضور القَلْب، وصفاءِ الفكر، ونفوذِ الفَهْم[4].

سرُّ التَّعبير باسم الفاعل المجموع:

شأن الذّاكرين الرّاسخين على الذّكر، الدّوامُ عليه

آثر البيان القرآنيُّ اسمَ الفاعل: ﴿لِلذَّاكِرِينَ﴾، للدّلالة على ثبوت المصدر في الفاعل ورسوخِه فيه، والذّاكرون همُ المُتَّعِظون، وخَصّهم لأنّهم المنتفعون بخيرَي الدّارَيْن، وجمع ﴿لِلذَّاكِرِينَ﴾ تلميحًا على كَثْرتهم، وحثًّا على الانضمام إلى زمرتهم، والانتظام في سِلْكِهم، وفيه دعوةٌ إلى الإكثار منَ الذّكر، والازدياد منه[5].

بلاغة الجناس الاشتقاقيّ:

نهاية الإيجاز المعجز، اختصارًا وجناسًا اشتقاقيًّا

قوله: ﴿ذِكْرَىٰ لِلذَّاكِرِينَ﴾، فيه غايةُ الاختصار، ونهايةُ الإيجاز والبلاغة، وجمعُ المعاني مع ما فيه منَ الجناس الاشتقاقيّ، بحيث

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/213.
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/213.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3768.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/396.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/181.

يرجع اللّفظان في الاشتقاق إلى أصلٍ واحد[1]، يترسّخ بتنوّع التّعبير عنه، تعدّدُ معانيه، وتنوّعُ محتملاته.

بلاغة الفَذْلَكةِ:

تعليل التَّذييل والمذيَّل، ترغيبًا وتحريضًا وتعميمًا للأعمّ

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ذِكۡرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ﴾ جاء تذييلًا لمجموع قوله: ﴿فَٱسۡتَقِمۡ﴾ إلى قوله: ﴿يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ﴾، وهو فَذْلَكَة له ونتيجة، على منوال قوله: ﴿إِنَّ ٱلۡمُلُوكَ إِذَا دَخَلُواْ قَرۡيَةً أَفۡسَدُوهَا وَجَعَلُوٓاْ أَعِزَّةَ أَهۡلِهَآ أَذِلَّةٗۖ وَكَذَٰلِكَ يَفۡعَلُونَ ٣٤﴾ [النّمل: 34]، ثمَّ علّل كُلًّا منَ التّذييل والمُذَيَّل بقوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ ترغيبًا وتحريضًا، وجاء بما هو أعمُّ العامّ؛ لأنّ المُحْسِنَ مَن لم يُخِلَّ بما يدخلُ تحتَ مسمّى الإحسان، فيدخلُ فيه دخولًا أوّليًّا[2].

(1) عبد الكريم الخضير، شرح التّجريد الصّريح لأحاديث الجامع الصحيح: 5/20.
(2) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 8/225.

المحتويات

الجزء الثاني عشر	**7**
سورة هود	**9**
- [هود: 41]	10
- [هود: 42 - 43]	23
- [هود: 44]	43
- [هود: 45]	79
- [هود: 46]	89
- [هود: 47]	104
- [هود: 48]	113
- [هود: 49]	127
- [هود: 50 - 51]	140
- [هود: 52]	155
- [هود: 53]	166
- [هود: 54 - 55]	174
- [هود: 56]	190
- [هود: 57]	201
- [هود: 58]	212
- [هود: 59]	224
- [هود: 60]	236
- [هود: 61]	246
- [هود: 62]	261
- [هود: 63]	273
- [هود: 64]	292
- [هود: 65]	304
- [هود: 66]	313
- [هود: 67 - 68]	322
- [هود: 69]	334
- [هود: 70 - 71]	343
- [هود: 72 - 73]	355
- [هود: 74 - 76]	378
- [هود: 77]	401
- [هود: 78 - 80]	410
- [هود: 81]	441
- [هود: 82 - 83]	457
- [هود: 84]	477
- [هود: 85]	498
- [هود: 86]	512
- [هود: 87]	521
- [هود: 88]	536
- [هود: 89]	563
- [هود: 90]	577
- [هود: 91]	585
- [هود: 92]	599
- [هود: 93]	611
- [هود: 94 - 95]	626
- [هود: 96 - 97]	646
- [هود: 98]	660
- [هود: 99]	669
- [هود: 100]	678
- [هود: 101]	685
- [هود: 102]	695
- [هود: 103 - 104]	702
- [هود: 105]	713
- [هود: 106 - 107]	721
- [هود: 108]	729
- [هود: 109]	735
- [هود: 110]	753
- [هود: 111]	765
- [هود: 112]	774
- [هود: 113]	784
- [هود: 114]	796

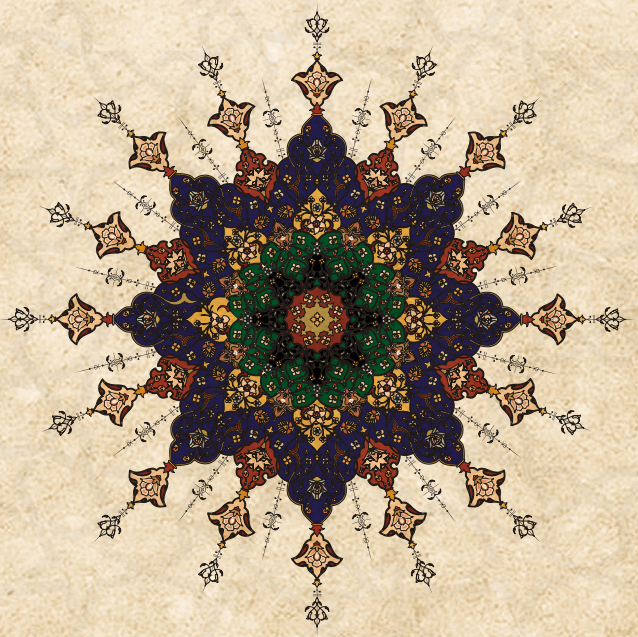

مجمع القرآن الكريم بالشارقة

موسوعة التفسير البلاغي

المُجَلَّدُ الثَاني والعِشرونَ

سورة هود من الآية 115 إلى سورة يوسف الآية 55

موسوعة التفسير البلاغي

حكومة الشارقة
Government of Sharjah
مجمع القرآن الكريم بالشارقة
HOLY QURAN ACADEMY IN SHARJAH

موسوعة التفسير البلاغي

المُجَلَّدُ الثَّاني والعِشرونَ

سورة هود من الآية 115 إلى سورة يوسف الآية 55

نُخْبَةٌ مِنْ عُلَماء مَجْمَعِ القُرْآنِ الكَريمِ بِالشّارِقَةِ

منشورات القاسمي
AL QASIMI PUBLICATIONS
2024

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثاني والعشرون، سورة هود من الآية 115 إلى سورة يوسف الآية 55
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الثاني والعشرون، سورة هود من الآية 115 إلى سورة يوسف الآية 55
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 22 ، 812 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-19-7
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 22 : المجلد الثاني والعشرون، سورة هود من الآية 115 إلى سورة يوسف الآية 55.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-768-19-7
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-3382819 بتاريخ 2024/02/13م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الجُزْءُ الثَّانِي عَشَرَ

سُورَةُ هُودٍ

﴿وَٱصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١١٥﴾ [هود: 115]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الرّبط بين إقامة الصّلوات والصّبر؛ لأنّ المأمورات لا تَخْلو مِنَ المَشَقّات

"مُناسَبَةُ وُقوعِ الأمْرِ بِالصَّبْرِ عَقِبَ الأمْرِ بِالِاسْتِقامَةِ والنَّهْيِ عَنِ الرُّكونِ إلى الَّذينَ ظَلَموا، أنَّ المَأْموراتِ لا تَخْلو عن مَشَقَّةٍ عَظيمَةٍ، ومُخالِفَةٍ لِهَوى كَثيرٍ مِنَ النُّفوسِ، فَناسَبَ أن يَكونَ الأمْرُ بِالصَّبْرِ بعد ذَلِكَ، ليَكونَ الصَّبْرُ على الجَميعِ، كُلٌّ بِما يُناسِبُهُ"[1]. ولَمّا كانَتِ النَّفْسُ - لِما لَها مِنَ الجَزَعِ في كَثيرٍ مِنَ الأحْوالِ - كالمُنْكَرَةِ، أكَّدَ قَوْلَهُ: ﴿فَإِنَّ﴾ الصَّبْرَ هو الإحْسانُ كلُّ الإحْسانِ[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يُضِيعُ﴾: (الضّادُ والياءُ والعَيْنُ) أصْلٌ صَحيحٌ يَدُلُّ على فَوْتِ الشَّيْءِ وذَهابِهِ وهَلاكِهِ[3]. يُقالُ: ضاعَ الشَّيْءُ، يَضيعُ ضَياعًا وضِياعًا - بِكَسْرِ الضّادِ وفَتْحِها - أي: هَلَكَ[4].

المَعْنى الإجْمالِيُّ:

الصّبر من وجوه الإحسان، وهو مفتاح الشّدائد

الآية توطينٌ للنّفس على احتمال المشقّة في سبيل ما أمر بهِ اللّه تعالى، وما نهى عنه في هذه الوصايا وفي غيرها، فإنّ اللّه لا يضيع أجرَ مَن أحسن عملًا، بل يوفّيه ثوابَ عملِه من غير بخسٍ له. وفي الآية إيماءٌ إلى أنّ الصّبر من باب الإحسان[5].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

توجيه العطف بالواو:

العطف في البيان عمّا يُثَبِّتُ العزائمَ على الحقّ، ويُبرزُ رَمزيّةَ الصّبرِ وخُصوصيّتَه

الواو في قوله تعالى: ﴿وَٱصۡبِرۡ﴾ عَطْفٌ عَلَى جُمْلَةِ: ﴿فَلَا تَكُ فِي

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/182.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر، 9/396.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: 3/380.
(4) الرّازيّ، مختار الصّحاح، ص: 186.
(5) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 12/95.

مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ الآياتِ، لِأنَّها سيقَتْ مَساقَ التَّثْبيتِ من جَرّاءِ تَأْخيرِ عِقابِ الَّذينَ كَذَّبوا[1]، ثمّ كَرّ إلى التّذكير بالصّبر، بعدما جاء بما هو خاتمة للتّذكير، وهذا الكُرور لفضل خصوصيّةٍ ومَزيَّةٍ وتنبيهٍ على مكان الصّبر ومَحَلّه، كأنّه قال: وعليكَ بما هو أهمُّ ممّا ذُكّرتَ به، وأحَقّ بالتَّوصية، وهو الصّبرُ على امتثال ما أُمرتَ به، والانتهاءُ عمّا نُهيتَ عنه، فلا يَتِمّ شيءٌ منه إلّا به[2].

مناسبة وقوع الأمر بالصَّبر عقبَ الاستقامة:

تحرير التّلازم غيرِ المنفكّ قصدًا بينَ الاستقامة والصّبر

لـمّا كانتِ الـمَأْموراتُ لا تَخْلو عَن مَشَقَّةٍ عَظيمَةٍ، كان الصّبرُ للّه على المكاره أعلى الطّاعةِ؛ فأتبعَ ذلك قولَه: ﴿وَٱصْبِرْ﴾ عَلى ما أُمِرْتَ بِهِ منَ الاسْتِقامَةِ وعَدَمِ الطُّغْيانِ والرُّكونِ إلى الَّذينَ ظَلَموا، أي: ليكُنْ منكَ صبرٌ على الطّاعات وعنِ المعاصي، ولا تترك إنذارَهم بما أُمرتَ به مهما كان، ولا تَخَفْهُم، فإنَّ العاقبة لك إذا فعلتَ[3].

دلالة الأمر الموجّه إلى الرسول:

خاصيّة التّنويه بالمقام المحمّديّ، ومَن سلك مسالِكَه ﷺ من أُمّتِه

"تَوْجيهُ الخطاب إلى النّبيّ ﷺ تَنْويهٌ بِهِ، والمَقْصودُ هو وأُمَّتُهُ، بِقَرينَةِ التَّعْليلِ بِقَوْلِهِ: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾، لِما فيهِ منَ العُموم والتَّفْريعِ المُقْتَضي جَمْعَهُما، وأنَّ الصَّبْرَ منْ حَسَناتِ المُحْسِنينَ"[4].

دلالة فاء التَّفريع:

تشريك أُمّةِ محمّد ﷺ، في فضل التّنويه

أوردَ الخطابُ فاءَ التّفريع في قوله ﷻ: ﴿وَٱصْبِرْ﴾؛ للدّلالة عليه ﷺ، وعلى أُمّته بجملة التّعليل: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾؛ وإلّا لَما كانَ لِلتَّفْريعِ مَوْقِعٌ[5].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/182.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/436.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/396.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/170.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/170.

بلاغة التَّوكيد بـ (إنَّ):

تأكيد تشريك الأمَّة في جملة الفضائل

وحَرْفُ التَّأْكيدِ (إنّ) في قوله ﷻ: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ مَجْلوبٌ لِلاهْتِمام بِالخَبَرِ[1]، والعنايةِ به لعلوِّ مقام المحسنين.

توجيه إظهار اسمه الأعظم:

تجلية الوفاء بالوعود، وتأكيدُها بإظهار الاسم الأعظم

إظهارُ الاسم الجليلِ في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾؛ لكونِه خاتمةَ الغاياتِ، ولإظهارِ كمالِ العنايةِ بشأنِ المحسنين، توفيَةً لأجورهم.

بلاغة جملة النّفي بـ ﴿لَا﴾:

نفي إضاعة الأجور، لوجود ما يقتضي

في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ﴾، نفى الإضاعة؛ بيانًا لكمال نزاهته تعالى عن حرمانهم شيئًا من ثوابهم[2]. مع أنَّ عَدَمَ إعطاء الأجر ليس بإضاعةٍ حقيقةً، كيف لا، والأعمالُ غيرُ موجبة للثّواب، حتّى يلزمَ من تَخَلّفِه عنها ضياعُها؛ لبيان كمال نزاهته تعالى عن ذلك، بتصويره بصورة ما يمتنع صدورُه منه سبحانه منَ القبائح، وإبرازًا للإثابة في معرض الأمور الواجبة، وهو تعليل للأمر بالصّبر[3].

علّة التَّعبير عن فعل الإضاعة مضارعًا:

ترديدُ توفية الأجور، ما تردّد فعل المحسنين

عَبّر اللّه تعالى بالفعل: ﴿يُضِيعُ﴾ بصيغة المضارع؛ لإفادة التَّجدّد والتّكرار والاستمراريّة، فما دام المحسنُ محسنًا، مواظبًا على الإحسان، دائبًا عليه؛ فإنّ اللّه لا يُضيع أجرَه.

نُكْتَةُ التَّعبير عنِ الثّواب بالأجر:

تعليق الثّواب بما هو معهود للأُمّيّين، رعيًا لحظوظهم

سُمِّيَ الثَّوابُ أجْرًا لِوُقوعِهِ جَزاءً على الأعْمالِ، ومَوْعودًا بِهِ، فَأشبه الأجرَ[4]، من حيث الاستحقاقُ له.

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/170.

(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 6/353.

(3) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 13/268.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/170.

فائدة العدول من المضمَر إلى المظهَر:

قَصْدُ العدولِ مِنَ المضمرات إلى الظَّواهر، لمقتضى إقامة الحجج

عدل من المضمَر (أجرهم)، إلى المظهَر ﴿ٱلْمُحْسِنِينَ﴾؛ ليكون كالبرهان على المقصود، ودليلًا على أنّ الصّلاة والصّبر إحسانٌ، وإيماءً بأنّه لا يُعتَدّ بهما دونَ الإخلاص، ولمَّح به إلى قوله ﷺ: «الإحسانُ: أن تعبد الله كأنَّكَ تراه، فإنْ لم تكن تراه فإنّه يراك»[1]، والعدول عن المضمَر ليكون كالبرهان على المقصود، أي: الأصلُ المضمَرُ، وهو (أجرهم)، لكن عدلَ عنه ليكون برهانًا، أي: دليلًا جليًّا، أي: سببُ عدم إضاعةِ أجرهم كونُهم محسنين؛ إذِ الحكمُ على المُشْتَق يُفيد عِلّيّةَ مأخذِ الاشْتقاق[2].

وجه تعريف ﴿ٱلْمُحْسِنِينَ﴾:

الدّلالة على علوّ الكعب، في مراتب الإحسان

تحرير وجه البلاغة في تعريف ﴿ٱلْمُحْسِنِينَ﴾؛ لبيان عُلوِّ كعبِهم في وصْف الإحسان، بحيث إنّهم يعبدون الله كأنّهم يرونه، فلذلك يَهون عليهم الصّبرُ[3].

سرُّ التَّعبير باسم الفاعل المجموع:

الاعتبار بأهل الإحسان، في تحقيق مناطات الصّبر والسّلوان

بيان ذلك: أنّ قوله تعالى: ﴿لَا يُضِيعُ﴾ أيْ: بِوجْهٍ منَ الوُجوهِ، ﴿أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ بصيغة اسم الفاعل المجموع، أي: العَريقينَ في وصْفِ الإحْسانِ، بِحَيْثُ إنَّهم يَعْبُدونَ اللّه كَأنَّهم يَرَوْنَهُ، بما في الاجتماع ما ليس في الانفراد، فلذلك يَهونُ عَلَيْهِمُ الصَّبْرُ؛ لِأنَّ الطّاعَةَ كُلْفَةٌ فَلا تَكونُ إلّا بِالصَّبْرِ، وكُلُّ ما عَداها فهو هوى نفسٍ لا صَبْرَ فيهِ، فالدّينُ كُلُّهُ صَبْرٌ، «حُفَّتِ الجَنَّةُ بِالمَكارِهِ، وحُفّتِ النّارُ بِالشَّهَواتِ»[4]، ولِذا فُضِّلَ ثَوابُ الصّابِرِ: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ۝١٠﴾ [الزّمر 10][5].

---

(1) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 8/225. والحديث أخرجه مسلم في صحيحه برقم: (9)، عن أبي هريرة.
(2) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاوي: 10/232.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/396.
(4) أخرجه مسلم في صحيحه، برقم: (2822)، والترمذي في سننه، برقم: (2559)، عن أنس بن مالك ﷺ.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/396.

﴿فَلَوۡلَا كَانَ مِنَ ٱلۡقُرُونِ مِن قَبۡلِكُمۡ أُوْلُواْ بَقِيَّةٖ يَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡفَسَادِ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا قَلِيلٗا مِّمَّنۡ أَنجَيۡنَا مِنۡهُمۡۗ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَآ أُتۡرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجۡرِمِينَ ١١٦﴾ [هود: 116]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

المناسبة بين الحثّ على الصّبر، وكونِ موجباتِ الهلاك فطريّةً وعقليّةً مفحمة

بيَّن الله تعالى أنَّ الأُممَ المتقدِّمينَ حَلَّ بهم عذابُ الاستئصالِ؛ وبيَّنَ أنَّ السَّببَ فيه أمرانِ؛ السَّببُ الأوَّل: أنَّه ما كان فيهم قومٌ ينهَونَ عنِ الفَسادِ في الأرضِ. والسَّببُ الثّاني: قولُه: ﴿وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَآ أُتۡرِفُواْ فِيهِ﴾[1]، وعليه: فقد تكون المناسبة على وجهين:

- لَمّا ذَكَرَ إهْلاكَ القُرونِ الماضيَةِ والأُمَمِ السّالِفَةِ بما مَضى، إلى أنْ خَتَمَ بالأمْرِ بالصَّبْرِ على الإحْسانِ، منَ الأمْرِ بالمَعْروفِ والنَّهْيِ عَنِ المُنْكَرِ، كانَ منَ الجائِزِ أنْ يَقَعَ في فِكْرِ الاعْتِراضِ بأنْ يُقالَ: ما الموجِبُ لِذلِكَ؟ فَبَيَّنَ أنَّ سَبَبَ الهَلاكِ الإعْراضُ عن نَهْيِ مُنْتَهِكِ الحُرُماتِ، والمُجْتَرِئِ عَلى هَتْكِ الأسْتارِ الجَليلَةِ، والرَّتْعِ في الحِمى، مَعَ تَمَكُّنِهِم بِما خَلَقَ فيهِم سُبْحانَهُ منَ القوى والقُدْرَةِ على اخْتيارِ جانِبِ الخَيْرِ، والإعْراضِ عن جانِبِ الشَّرِّ[2].

- لَمّا كانَ ما تَقَدَّمَ كُلُّهُ مُشيرًا إلى اسْتِبْعادِ إيمانِ المُعانِدينَ، بِشَيْءٍ من تَدْبيرٍ آدَميٍّ كَما تَكادُ القِصَصُ تَنْطِقُ بِهِ، وكَذا الإعْلامُ بِأنَّ عِبادَتَهم إنَّما هي لِلتَّقْليدِ، وبِاخْتِلافِ قَوْمِ موسى في كِتابِهِ الَّذي هو هُدًى ورَحْمَةٌ، وكُلُّ ذَلِكَ فَطْمًا عن طَلَبِ ما قد يَهْجِسُ في الخاطِرِ، من تَمَنّي إجابَتِهِم إلى ما يَقْتَرِحونَ، أوِ الكَفِّ عن بَعْضِ ما يَغيظُ منَ الإنْذارِ، وكانَ من طَبْعِ البَشَرِ البُعْدُ عَنِ الانْتِهاءِ عَنِ الخَواطِرِ إلّا بعد

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 18/409.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/397 - 398.

التَّجْرِبَةِ، كانَ ذَلِكَ رُبَّما أَوْجَب أَنْ يُقالَ: لَوْ أُجيبوا إلى سُؤالِهم لَرُبَّما رَجَعوا عن كَثيرٍ ممّا هم فيهِ، فَدَعاهم ذَلِكَ إلى الرَّشادِ، فَتَسَبَّبَ عنهُ أَنْ يُقالَ دَفْعًا لَهُ: ﴿فَلَوْلَا كَانَ﴾[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلْقُرُونِ﴾: منَ القَرْن، وهو زَمَنٌ مُعَيَّنٌ، أو أَهْلُ زَمَنٍ مَخْصوصٍ، واخْتارَ بعضهم أنَّه حَقيقَةٌ فيهما، واخْتُلِفَ هل هو منَ الاقْتِرانِ، أي: الأُمَّة المُقْتَرنَة في مُدَّةٍ منَ الزَّمانِ، من قَرْنِ الجَبَلِ، لارْتِفاع سنِّهم، أو غَيْر ذلِكَ. واخْتَلَفوا في مدَّةِ القَرْنِ وتَحْديدِها، فقيل: أرْبعونَ سَنَةً، وفي فتح الباري: اخْتلفوا في تَحْديد مُدَّةِ القَرْنِ من عشرةٍ إلَى مائةٍ وعشرين، لكن لم يُرَ مَنْ صرَّحَ بالتِّسْعين ولا بمائَةٍ وعَشَرَة؛ وقالَ ثَعْلَب: هو الاخْتيارُ لقَوْله ﷺ لغُلامٍ بعد أن مَسَحَ رأْسَه: «عِشْ قَرْنًا»[2]، فعاشَ مائَةَ سَنَةٍ[3]. فالقَرْنُ مقْدارُ المُتوسّط من أعْمارِ أهل الزَّمان، مائةٌ أو مائةٌ وعِشْرونَ[4]. وهو كُلُّ أُمَّةٍ هَلَكَتْ فَلم يَبْقَ منْها أَحَدٌ[5]، وأهل القرون: أهل عصر واحد أو زمان واحد، أُمّةٌ أو جماعةٌ تعيش في عصرٍ أو زمانٍ واحد: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ﴾ [الإسراء: 17]"[6].

2) ﴿بَقِيَّةٍ﴾: (الباءُ والقافُ والياءُ) أَصْلٌ واحِدٌ، وهو الدَّوامُ[7]، قال الخَليلُ: اسْتَبْقَيْتُ فُلانًا، وذَلِكَ أَنْ تَعْفو عن زَلَّه فَتَسْتَبْقيَ مَودَّتَهُ[8]. والبقيّة: ما بقي من الشّيء أو من أصوله، وقيل: البقيّة الباقيَة، أي: آخِر ما تبقّى. وفي قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ﴾ أي: أولو إبْقاءٍ على أنْفُسِهم لتَمَسّكِهم بالدِّيْن المَرْضي[9].

3) ﴿أُتْرِفُواْ﴾: (التّاءُ والرّاءُ والفاءُ) كَلِمَةٌ واحِدَةٌ، وهيَ التُّرْفَةُ[10]، والتُّرْفَةُ: النِّعْمَةُ،

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/397 - 398.
(2) أخرجه الحاكم في المستدرك، برقم: (8524)، بلفظ: «يعيش هذا الغلام قرنًا»، وذكره الهيثميّ في مجمع الزوائد، برقم: (16119).
(3) الزّبيديّ، تاج العروس: (قرن).
(4) الزّبيديّ، تاج العروس: (قرن).
(5) الزّبيديّ، تاج العروس: (قرن).
(6) أحمد مختار، معجم اللغة العربية المعاصرة: 3/305.
(7) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (بقي).
(8) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (بقي).
(9) الزّبيديّ، تاج العروس: (بقي).
(10) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ترف).

والتَّتْريفُ: حُسْنُ الغِذاء، وصبيٌّ مُتْرَفٌ: إذا كانَ مُنَعَّمَ البدنِ مُدَلَّلًا، والمُتْرَفُ: الَّذي قَدْ أبْطَرَتْه النّعمةُ وسَعةُ العيْشِ. وأتْرَفَتْه النَّعْمةُ، أي: أطْغَتْه، والمُتْرَفُ: المُتَنَعِّمُ المُتَوسِّعُ في مَلاذِّ الدُّنيا وشَهواتِها[1]، والتّرف: إشباع حاجة غير ضروريَّة، وهي صفة مشبَّهة تدلّ على الثّبوت، من ترِفَ[2].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

النّاجون في كلّ زمان، هم أتباع الأنبياء ومتّبعوهم بإحسان

بعد أن ذكر عاقبةَ الأمم المكذّبة لرسلها في الدّنيا والآخرة، وإنذارَ قومه ﷺ بهم، وبيّن ما يجب عليه وعلى مَن آمن به وتاب معه، منَ الاستقامة والصّلاح واجتنابِ أهلِ الظُّلم والفساد[3]، ساق السُّنَنَ العامّة في إهلاك الأُمم الذين قَصَّ اللّه قصصهم، وأمثالِهم ممّن عَصَوا رُسلَ ربِّهم، بعدَ أن أنذروهم عقابَه، ووعدوهم إذا أطاعوهم ثوابَه[4]. ومعنى الآية: فَهلّا كان منَ القرون التي أهلكناهم من قبلكم أولوا تمييزٍ وطاعةٍ وخير ﴿يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ ممّن آمن في الأُمم الماضية، وهم أتباعُ الأنبياء، كانوا ينهَون عنِ الفساد في الأرض، واتَّبعَ الذين ظلموا أنفسَهم بالكفر والمعاصي ما تَنعَّموا فيه، وكانوا كافرين[5].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالة فاء التَّفريع:

الدّلالة بتفصيل المجمل، وتعليل أحكامه، وإيراد أبدَعِ أساليبِ الإعجازِ

الإتيانُ بفاءِ التَّفريعِ؛ لأنَّه في موقعِ التَّفصيلِ والتَّعليلِ لجُملةِ: ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ﴾ وما عُطِف عليها، كأنَّه قيل: (وإنَّ كُلًّا لَمّا ليوفّينَّهم ربُّك أعمالَهم؛ فلَولا كان منهم بَقيَّةٌ ينهَوْن عنِ الفسادِ في الأرضِ) إلى آخرِه، أي: فاحْذَروا أن تَكونوا كما كانوا، فيُصيبَكم

(1) ابن منظور، لسان العرب: (ترف).
(2) أحمد مختار، معجم اللّغة العربيّة المعاصرة: 1/290.
(3) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 12/96.
(4) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 12/96.
(5) الخازن، لباب التأويل: 3/258.

ما أصابَهم، وكونوا مُستَقيمين ولا تَطْغَوا، ولا تَرْكَنوا إلى الظّالِمين، وأقيموا الصَّلاةَ، فغيَّر نَظْمَ الكلام إلى هذا الأسلوبِ الَّذي في الآيةِ؛ لِتَفنُّنِ فَوائدِه ودَقائقِه، واستقلالِ أغراضِه، مع كونِها آيلَةً إلى غرَضٍ يَعُمُّها، وهذا من أبدَعِ أساليبِ الإعجازِ، الَّذي هو كَرَدِّ العَجُزِ على الصَّدرِ من غَيرِ تَكلُّفٍ، ولا ظُهورِ قَصدٍ عليها[1].

دلالة (لولا) على التّحضيض:

تحضيض الفائت لمقصد التّحذير والاتّعاظ

(لَوْلا) حَرْفُ تَحْضيضٍ بِمَعْنَى (هَلّا)، وتَحْضيضُ الفائِتِ لا يُقْصَدُ منْهُ إلّا تَحْذيرُ غَيْرِهِ من أنْ يَقَعَ فيما وقَعوا فيهِ، والعِبْرَةُ بِما أصابَهُمْ[2]، وقد حَكَوا عنِ الخليل: "كلُّ (لولا) في القرآن فمعناها (هَلّا) إلّا التي في الصّافات"[3]. وقيل: ما صَحَّتْ هذه الحكايةُ؛ ففي غير الصّافات: ﴿لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ﴾ [القلم: 49]، ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ﴾ [الفتح: 25]، ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ﴾ [الإسراء: 74][4]. فلولا تَحْضيضٌ، صَحِبَها مَعْنَى التَّفَجُّعِ والتَّأسُّفِ، الَّذي يَنْبَغي أنْ يَقَعَ منَ البَشَرِ عَلَى هَذِهِ الأُمَمِ الَّتي لَم تَهْتَدِ[5].

والحاصل: أنّه قد يقال: (لولا) شرطيّةٌ، حرف امتناع لوجود، وجوابُها محذوف، تقديره مثلًا: لاستقامت أمورُهم، ولاستجابوا لدعوة الحقّ إذا دُعوا إليها، أو هي بمعنى (هَلّا) للتّحريض على أن يكون منهم فضلاءُ لنجاتهم، ولكن كيف يقال: إنّ ثمّة تحريضًا، وقد مَضَوا بما كان منهم، والتّحريضُ للحاضرين لا للغابرين؟ والجواب عن ذلك: أنّ القصّة الصّادقة تُصَوِّرهم حاضرين، ويكونُ التّحريضُ لهم على التّصوير، وللقائمين ليتّعظوا، ويعتبروا[6].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/183.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/183.
(3) الطيبيّ، فتوح الغيب: 8/226. وآية الصافات: ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ۝١٤٣﴾ [الصّافات: 143].
(4) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/436.
(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/224.
(6) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3770.

فائدة إيثار فعل الكينونة ماضيًا:

سوق ما يدلّ على التّحقّق والانقضاء من الصّيغ

في قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ﴾، آثر البيان القرآنيُّ فعلَ الكينونة الماضية على غيره؛ للدَّلالَّةِ عَلَى المُضيِّ والانْقِضاءِ[1].

معنى ﴿مِنَ﴾، ودلالة تكرارها:

تفاؤل الشَّرع بالخير، وإن قلَّ

تكرّرت ﴿مِنَ﴾ مرتين في قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ﴾، ومعنى ﴿مِن﴾ في ﴿مِن قَبْلِكُمْ﴾ زائدة أو ابتدائيّة، و﴿مِنَ﴾ في ﴿مِنَ ٱلْقُرُونِ﴾ تبعيضيّة، والمعنى: هلّا وُجِدَ بقيَّةٌ ناهون عنِ الفساد حالَ كونهم ممّن قبلَكم[2].

دلالة القبليَّة وتعريفها:

إضافة التَّقصير إلى مَن سبق، يومئ إلى تبشير مَن لَحِق

سيقت القَبْليّة إلى القِلّة الخَيّرة إن وُجِدت[3]، وقد تُلَوِّح إلى البِشارَةِ مفهومًا إلى مَن يأتي بعدَهم، فلا يَكونونَ كَما كان مَنْ قبلَهم.

بلاغة الإطناب:

تفصيل المباني بعد إجمالها، للتّخبير عن المعنى المراد

قولُه: ﴿مِن قَبْلِكُمْ﴾، وردتِ الجملةُ تفصيلًا بعدَ الإجمال؛ فالمعنى إذا أُلقيَ على سبيل الإجمال والإبهام تَشَوَّفَ السّامعُ إلى معرفته على سبيل التَّفصيل والإيضاح، ولأجْلِ هذا المَعْنَى أُتيَ بِفاءِ التَّفْريعِ؛ لِأنَّهُ في مَوْقِعِ التَّفْصيلِ والتَّعْليلِ لِجُمْلَةِ: ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ﴾.

ولـمّا كان المرادُ القرونَ التي تقدَّم ذِكْر إهلاكِها، وكانت أزمنتُهم بعضَ الزَّمان الماضي، أتى بالجارّ، فقال: ﴿مِن قَبْلِكُمْ﴾[4].

سرُّ تقديم شِبهي الجُملَتين:

تقديمُ ما أصْلُه التَّأخير لمقصد

تقدَّم شبها الجملتين في قوله تعالى: ﴿مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ﴾؛ للدّلالة على تأكيد النَّفي وتثبيتِه، أي: ما كان فيهم ذلك[5].

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/298.
(2) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاوي: 10/234.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/84.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/398.
(5) المحلّيّ والسّيوطيّ، تفسير الجلالين، ص: 301.

إيثار استعمال ﴿أُوْلُواْ﴾:

آثر البيان القرآنيُّ استعمالَ ﴿أُوْلُواْ﴾، دونَ أصحاب، أو ذوي؛ لكونها تدلّ على شِدّة المصاحبة، ولا تُستَعمَل إلّا فيما كان متعلّقها مُتَّصِلًا؛ جزءًا، أو عُضوًا، أو صِفةً، أو حالةً، أو عملًا لازمًا، أو شأنًا من شؤون الشّخص، أو مثلها، بخلاف كلمة: ذوو، فانّها أعمّ استعمالًا[1].

دلالة الارتباطِ تُحرّض على منطق أولي الألباب

وعليه: فإنّ الأنسب في الدّلالة على البقيّة المتبقية من أهل الفضل، استعمالُ ﴿أُوْلُواْ﴾؛ لأنّ بَقيَّة الشَّرائِعِ والدُّول ونَحْوِها، قوَّتُها في أوَّلِها، ثُمَّ لا تَزالُ تَضْعُفُ، فَمَنْ ثَبَتَ في وقْتِ الضَّعْفِ فَهو بَقيَّةُ الصَّدْرِ الأوَّلِ[2]، تشدُّ عليه وتصاحبُه.

إيثار لفظ (البقيّة) ودلالته:

البَقيَّةُ كِنايَةٌ غَلَبَتْ، فَسارَتْ مَسْرى الأمْثالِ؛ لِأنَّ شَأْنَ الشَّيْءِ النَّفيسِ أنَّ صاحِبَهُ لا يُفَرِّطُ فيهِ[3]؛ لأنَّ مادّة (بقي) تدور على الجمع الذي من لوازمه: القوّةُ، والثَّباتُ، والحِفْظُ، والخيرُ، والجَوْدَةُ[4]. والبقيَّة فعيلة، بمعنى: الباقية، على التّأنيث بتقدير الموصوف المؤنّث، وهو الخَصْلَة إن كان المرادُ الرَّأيَ، أو القوّةُ إن كان المرادُ العقلَ، وإن كان المرادُ بهما واحدًا - كما هو الظّاهر بناءً على أنّ العقل يُرادُ به الإدراكُ دونَ القوّة - فالموصوف هو الخَصْلَة. والتَّعبير بها دونَ الباقيَة ليَدُلَّ على الثُّبوت[5].

سعةُ لفظِ البقيَّة، من حيث معانيه في الجملة

بيان أنَّ البَقيَّةَ كِنايَةٌ:

سُمّي الفضلُ والجودُ بقيَّةً؛ لأنَّ الرَّجل يستبقي ممّا يُخْرِجه أجودَهُ وأفضلَهُ، فصار مثلًا في الجَوْدة والفضل[6]، وأُطْلِقَ على الفضل

بلاغة الكناية والاستعارة في تسمية الفضل والجود بقيَّة، تُحْرَزُ لنفاستها

(1) المصطفويّ، التّحقيق في كلمات القرآن الكريم: 1/197.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/224.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/224.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/399.
(5) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاوي: 10/233.
(6) الشّربينيّ، السّراج المنير: 2/84.

(بقيّة) استعارةً منَ البقيَّة التي يَصطفيها المرءُ لنفسه، ويدَّخِرُها ممّا ينفقُه، فإنَّه يفعل ذلك بأنفَسِها[1]، والبَقيَّةُ كِنايَةٌ غَلَبَتْ، فَسارَتْ مَسْرَى الأمْثالِ؛ لِأنَّ شَأْنَ الشَّيْءِ النَّفيسِ أنَّ صاحِبَهُ لا يُفَرِّطُ فيهِ[2].

تجدُّدُ النّهي لِتَجَدُّد الفسادِ في الأرض

التَّعبير عن فعل النَّهي مضارعًا:

إيرادُ النّهي بصيغة المضارع للدّلالة على أنّهم يُجَدِّدونَ النَّهْيَ في كُلِّ حينٍ، إشارَةً إلى كَثْرَةِ المُفْسِدينَ[3]، الذين يحتاجون إلى تَكرار النَّهي وتَجدُّدِه كلّما اقتضت ذلك دواعيه، فالمصلحُ مَن يصلِحُ ما فَسَد على تَعَدُّد الأزمنةِ والأمكنةِ والأشخاصِ.

نفيُ حقيقةِ النّهي عنِ الفساد، عمّن ادّعاه

دلالة ﴿عَنِ﴾ في السّياق:

في تَحْضيضِهِم على النَّهْيِ عنِ الفَسادِ، دلالةٌ على مَعْنى نَفْيِهِ عنهم.

تعليق الفساد بـ (أل)، للدّلالة على جزئيّاته

إيثار لفظ ﴿ٱلْفَسَادِ﴾ معرَّفًا:

آثر البيانُ القرآنيُّ لفظَ ﴿ٱلْفَسَادِ﴾ لإفادة العموم؛ لأنّ الفسادَ يشمَل الكفرَ، والشِّركَ، وإثارةَ الفتنِ، والقتلَ، والصّدَّ عن سبيل اللّه، وغيرَه[4].

وجه تخصيص الفساد ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾:

تعليق الفساد في الأرض، للدّلالة على تعميم الأمكنة

وجه تخصيص الفساد في الأرْضِ، المَقْصودُ منْهُ تَعْميمُ أماكِنِ الفَسادِ نهيًا عنه[5].

توجيه الاستثناء:

استثناءُ البقيَّة بينَ الانقطاع والاتِّصال

قوله ﷻ: ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ﴾ اسْتِثْناءٌ، وفيه قال المفسّرون البلاغيّون: إنّ الاستثناء منقطع منْ ﴿أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ﴾، وهو يَسْتَتْبِعُ الِاسْتِثْناءَ منَ القُرونِ؛ إذِ القُرونُ الَّذينَ فيهِم أولو بَقيَّةٍ لَيْسوا

(1) القاسميّ، محاسن التّأويل: 6/139.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/183.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/399.
(4) محمد الهلال، تفسير القرآن الثّريّ: 12/111.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/138.

داخِلينَ في حُكْم القُرونِ المَذْكورَةِ من قَبْلُ، وهو في معنى الاسْتِدْراك، بمعنى (لكن)؛ لأنَّ معنى التَّحْضيضِ مُتَوجِّهٌ إلى القُرونِ الذين لَم يكن فيهم أولو بَقيَّةٍ، فهم الذين يُنْعى عليهم فُقْدانُ ذلك الصِّنْفِ منهم، وهَؤُلاءِ القُرونُ ليس منهم مَن يُسْتَثْنَى، إذْ كُلُّهُم غير ناجينَ منْ عَواقِبِ الفَسادِ، ولَكِنْ لَمّا كانَ معنى التَّحْضيضِ قَدْ يوهِمُ أنَّ جَميعَ القُرونِ الَّتي كانَتْ قَبْلَ المُسْلِمينَ قَدْ عَدِموا أولي بَقيَّةٍ، مَعَ أنَّ بَعْضَ القُرونِ فيهِم أولو بَقيَّةٍ، كانَ الموقَّعُ لِلاسْتِدْراكِ؛ لِرَفْعِ هَذا الإيهام، فَصارَ المُسْتَثْنَى غير داخِلٍ في المَذْكورِ منْ قَبْلُ، فَلِذَلِكَ كانَ مُنْقَطِعًا، وعَلامَةُ انْقِطاعِهِ انْتِصابُهُ، لِأنَّ نَصْبَ المُسْتَثْنَى بعد النَّفْيِ إذا كانَ المُسْتَثْنَى منْهُ غَيْرَ مَنْصوبٍ أمارَة على اعْتِبارِ الانْقِطاعِ، إذْ هو الأفْصَحُ. وهَلْ يَجيءُ أفْصَحُ كَلامٍ إلّا عَلَى أفْصَحِ إعْرابٍ، ولو كان مُعْتبرًا اتِّصالُهُ لَجاءَ مرفوعًا على البدليَّةِ منَ المذْكورِ قَبْلَهُ[1].

والقول الثّاني: أن يكونَ متّصلًا، وذلك بأن يُؤَوَّل التَّحضيضُ بمعنى النّفي، فيصحَّ ذلك، إلّا أنّه يؤدّي إلى النّصب في غير الموجَب، وإن كان غيرُ النّصب أولى[2]. لكنّ العلماء على ترجيح الانقطاع، كما مضى ذكرُه وتعليلُه في القول الأوّل.

دلالة (من) في ﴿مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ﴾:

(من) الأولى بيانيّةٌ، و (من) في ﴿مِنْهُمْ﴾ تبعيضيَّةٌ[3]، فـ (من) في ﴿مِّمَّنْ أَنجَيْنَا﴾ حَقُّها أن تكون للبيان لا للتّبعيض؛ وذلك أنَّ البيان والمبيّن شيءٌ واحد، كقوله تعالى: ﴿فَٱجْتَنِبُواْ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ﴾ [الحجّ: 30]، فالقليلُ إذن هم النّاجون، ولهذا عُلِّلَ بأنّ النّجاة إنّما هي للنّاهين وحْدَهم، أي: دونَ غيرِهم، وأمّا إذا حُمل (من) على

دلالـــة (مـــن) التّبعضيّة أو البيانيّة، على النّاجين في الآية

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/225، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3771، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/184.

(2) السّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 6/424.

(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3771.

التّبعيض، كان ﴿مِّمَّنْ أَنجَيْنَا﴾ بدلًا من ﴿قَلِيلًا﴾، فيلزَمُ أن يكون النّاهون بعضَ النّاجين، وهو فاسدٌ[1].

نُكْتَةُ تعديَة فعلِ النَّجاة بالهمزة:

التَّعجيل بإنجاء الصّفوة، جري على سُنَن الله في ذلك

(نجى) تُستعمَل للتمهُّل والتَّلبُّث في التَّنجيَة، أمّا (أنجى) فَلِلإسراع، من أجل ذلك آثر البيان القرآنيُّ ﴿أَنجَيْنَا﴾ دون (نجّينا)؛ لأنَّه الدّالُّ على الخير، الحاملُ للنَّهي عنِ الفساد، دون التَّنجيَةِ الدّالَّةِ على التَّدريج والإبلاغ في الإنجاء؛ فلو عَبّر بها فَسَدَ المعنى[2].

وجه إسناد الفعل إلى ضمير التَّعظيم:

تعليق تحقّق الإنجاء، بنون العَظَمَة التّامّة

أُسنِدَ فعلُ الإنجاء إلى الضّمير (نا)، المُشْعِرة بالتّعظيم التّامّ؛ تفخيمًا لمقام الرُّبوبيَّة، المُؤذِنِ بتحَقُّقِ الفعل، وممّا زاد في معنى الشُّموخ استعمالُ الألفِ في مفردة ﴿أَنجَيْنَا﴾.

فائدة توسيط شبه الجملة ﴿مِنْهُمْ﴾:

النّهي عنِ الفساد، دَيْدَن قِلّةِ القِلّة

في قوله تعالى: ﴿مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ﴾، توسّطت ﴿مِنْهُمْ﴾ للدّلالة على أنَّ قَليلًا ممَّنْ أنْجَيْنا منهم، نَهَوْا عَنِ الفَسادِ، وهم قَليلٌ بِالإضافَةِ إلى جَماعاتِهِمْ[3].

توجيه العطف بالواو:

بلاغة العطف في التّصريح بِمَفْهوم الاسْتِثْناءِ، وتَبْيينٍ لإجْمالِهِ

الواو في قوله تعالى: ﴿وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَآ أُتْرِفُواْ فِيهِ﴾، للعَطْف. وبيان ذلك: أنَّ جُمْلَةَ ﴿وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ مَعْطوفَةٌ على ما أفادهُ الاسْتِثْناءُ من وُجودِ قَليلٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الفَسادِ، فَهو تَصْريحٌ بِمَفْهوم الاسْتِثْناءِ وتَبْيينٌ لإجْمالِهِ. والمَعْنَى: وأكْثَرُهُم لَم يَنْهَوْا عَنِ الفَسادِ، ولَم يَنْتَهوا هُم ولا قَوْمُهُم، واتَّبَعوا ما أُتْرِفوا فيهِ، كقوله تعالى: ﴿فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٣٤﴾ [البَقَرَة: 34]، تَفْصيلًا

(1) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 8/228.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/399.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/225.

لِمَفْهوم الاسْتِثْناءِ[1]. وإن كان معناهُ: واتَّبَعوا جَزاءَ الإتْرافِ. فالواو للحال، كَأَنَّهُ قيلَ: أنْجَيْنا القَليلَ، وقدِ اتَّبَعَ الَّذينَ ظَلَموا جَزاءَهُمْ[2].

دلالة الاستئناف في الآية الكريمة:

إعادة التّذكير بجرائم الظّالمين، بقصد البيان والاعتبار

قوله تعالى: ﴿وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾، "اسْتِئْنافُ إخْبارٍ عن حالِ هَؤُلاءِ الَّذينَ ظَلَموا، وإخْبارٌ عنهُم أنَّهُم مَعَ كَوْنِهِم تارِكي النَّهْيِ عَنِ الفَسادِ، كانوا مُجْرِمينَ، أي: ذَوي جَرائِمَ غَيْرِ ذَلِكَ"[3].

سرُّ مجيء فعلِ الاتِّباعِ ماضيًا:

التّعبير بالماضي للدّلالة على تَحقُّق وقوعِ الفعل

استعمال الفعل ماضيًا على معهود القرآن الكريم في أخباره؛ للدّلالة على تَحَقّق وقوعِ الفعل، فهُم بالفعل قدِ اتَّبعوا ما أُتْرِفوا فيه.

نُكْتَةُ العدولِ في ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾:

القصدُ إلى تحريم الظُّلم، بَلْهُ التَّلبُّس به

قوله ﷻ: ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ أي: الذين وقع منهم الظُّلْم؛ وإن لم يتّصِفوا بالظّالمين، وإذا كان النَّهيُ عن مساندة الّذين وقع منهم الظُّلم، فأولى بالنَّهي أن يكون الظُّلم ممّن هو عادته وسياستُه المستمرّة[4]. وفُشوُّ الظُّلْم مستفادٌ منَ التَّعبير بـ ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾[5].

دلالة ﴿مَآ﴾ في سياق الآية:

دلالة (ما) على اتّباع الإتراف

"﴿مَآ﴾ في قوله: ﴿مَآ أُتْرِفُواْ فِيهِ﴾، مَصْدَرِيَّةٌ، ولهذا قَدَّرَهُ: اتَّبَعوا الإتْرافَ، والظّاهِرُ أنَّها بِمَعْنَى (الَّذي) لِعَوْدِ الضَّميرِ في فيهِ عليها"[6].

إيثار لفظ (الإتراف) دون غيره:

إيثار ما يدلّ على مجاوزة الحدّ في التَّنَعُّم

آثر البيانُ القرآنيّ لفظَ الإتراف دون غيره: كـ(نُعِّموا) مثلًا؛

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/185.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/225.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/225.
(4) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3763.
(5) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاوي: 10/235.
(6) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/225.

لدلالته على المبالغة في التَّنعُّم ومُجاوزةِ حدِّ الاعتدال في التعامُل مع النِّعَم، على وجهٍ يورِث طغيانًا وبَطَرًا[1].

سرّ التّعبير عنِ الإتراف مبنيًّا للمفعول:

لـمّا كان الـمُبْطِرُ لهم نفسَ التَّرفِ، بُنِيَ للمفعول قولُه: ﴿أُتْرِفُواْ فِيهِ﴾، فأبطرتهمُ النِّعْمَةُ حتّى طَغَوا وتجبّروا[2].

دلالة شبه الجملة ﴿فِيهِ﴾:

في قوله: ﴿مَآ أُتْرِفُواْ فِيهِ﴾ يرجع الضّمير إلى الذين اتَّبَعوا الإتْرافَ، أي: عاقِبَة ما نُعِّموا بِهِ، على بِناءِ الفِعْلِ لِلْمَفْعولِ.

بلاغة عطف جملة الفاصلة بالواو:

قال تعالى: ﴿وَكَانُواْ مُجْرِمِينَ﴾، فعُطِفَ عَلى: ﴿أُتْرِفُواْ﴾، أي: اتَّبَعوا الإتْرافَ، وكانوا مُجْرِمينَ، لِأنَّ تابِعَ الشَّهَواتِ مَغْمورٌ بِالآثام. وأجازَ بعضهم أيْضًا أنْ يَكونَ مَعْطوفًا عَلى ﴿وَٱتَّبَعَ﴾، أي: اتَّبَعوا شَهَواتِهِم وكانوا مُجْرِمينَ بِذَلِكَ. وقيل: يَجوزُ أنْ يَكونَ اعْتِراضًا وحُكْمًا عليهم بِأنَّهم قَوْمٌ مُجْرِمونَ[3].

سرُّ التَّعبير بفعل الكينونة ماضيًا مجموعًا:

سيق التَّعبير بفعل الكينونة ماضيًا لاستمرارهم في ماضيهم، مُتَجَمِّعين على الإجرام، حتّى صار الإجرامُ وصفًا ملازمًا لهم[4]، فجاء البيانُ بالاسم ليَدُلَّ على ثبات هذا الوصفِ فيهم.

بلاغة الإيجاز بالحذف:

في قوله تعالى: ﴿وَكَانُواْ مُجْرِمِينَ﴾، إيجازُ حَذْفٍ، تَّقْديرُه: فَحَقَّ عليهم هَلاكُ المُجْرِمينَ، وبِذَلِكَ تَهَيَّأ المَقامُ لقوله بعده: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ﴾[5].

التَّعبيرُ عنِ الإتراف بالماضي الجمعيّ، للدّلالة على عموم التّحقُّق

العواقب بحسب الانغماس في الإجرام

المجرم مغمور بشهواته وآثامه

القصدُ إلى تأكيد وصْفِ الإجرام، بما يَدُلّ على الملازمة، وعدم الانفكاك

الدّلالة على استحقاق الهلاك إيجازًا

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/772.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/400.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/225.
(4) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3772.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/186.

علّة مجيء لفظة ﴿مُجۡرِمِينَ﴾ مجموعًا:

الانتقال إلى اسم الفاعل الجمعيّ، للدّلالة على الاشتراك في التّوصيف

سيق الإجرامُ بصيغة اسم الفاعل المجموع؛ لاتّصافهم بما لازمَهم منَ الإجرام مُتَجَمِّعين عليه[1]؛ فكَوْنُهم مُجْرِمينَ؛ لِأنَّ تابِعَ الشَّهَواتِ مَغْمورٌ بِالآثام، أو أُريدَ بِالإجْرام إغْفالُهم لِلشُّكْرِ، أو على ﴿وَٱتَّبَعَ﴾ أي: اتَّبَعوا شَهَواتِهِم، وكانوا بِذَلِكَ الاتِّباعِ مُجْرِمينَ، ويَجوزُ أنْ يَكونَ اعْتِراضًا وتَسْجيلًا عَلَيْهِم بِأنَّهم قَوْمٌ مُجْرِمونَ[2].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/400.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/247.

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ بِظُلۡمٖ وَأَهۡلُهَا مُصۡلِحُونَ ١١٧﴾

[يونس: 117]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الجزاء على مقتضى ما غلب، تأكيد لما سبق وفرط

لَمّا لاحَ بِما مَضى أنَّ العِبْرَةَ في الإهْلاكِ والإنْجاءِ لِلْأكْثَرِ، قَرَّرَهُ وأكَّدَهُ وبَيَّنَهُ بِقَوْلِهِ: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهۡلِكَ...﴾[1]. كما أنه سبحانه دفع بهذه الآية، ما قد يوهمه إهلاك المجرمين بأنهم قد ظلموا به؛ فبيَّن سبحانه أنه لا يهلك الناس أبدا ظالما لهم، ولو أنهم أصلحوا ما أهلكهم.

المَعْنى الإجْمالِيُّ:

لا يهلك الله إلّا من يستحقّ ذلك، فلا تعاقب أمّة مصلحة على الإطلاق

وما كان ربّك، يا محمّد، ليهلك القرى، التّي أهلكها - التي قَصَّ عليك نبأها - ظُلمًا، وأهلُها مصلحون في أعمالهم، غير مسيئين، فيكون إهلاكه إياهم مع إصلاحهم في أعمالهم وطاعتهم ربَّهم، ظلمًا، ولكنه أهلكها بظلم أهلها وإجرامهم وتماديهم في غيِّهم، وتكذيبهم رُسُلَهم، وركوبهم السيئات[2]. وبهذا تشوّف البيان القرآني إلى ترجمة نظرية ربط الأحكام بالعلل، والتكليف بالوضع، والجزاء بالمقتضى تفضّلًا؛ فوعد بعدم إهلاك النّاس أوْزاعًا أو جماعات إلا إذا وجدت مقتضياته؛ لتكون النّظرية السببية أسّ الشريعة لمن ألقى السمع وعقل.

الإيضاحُ اللُّغَوِيُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغة الوصل بالواو:

تعليل عقوبة الظالمين، بدلالة عطف السّبب على المسبّب

قوله ﷻ: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ بِظُلۡمٖ وَأَهۡلُهَا مُصۡلِحُونَ﴾ عَطْفٌ عَلَى جُمْلَةِ ﴿وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَآ أُتۡرِفُواْ فِيهِ﴾ لما يُؤذن بِهِ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/400.

(2) ابن جرير، جامع البيان: 15/530.

مَضْمونُ الجُمْلَةِ المَعْطوفِ عَلَيْها منْ تَعَرُّضِ المُجْرِمينَ لِحُلولِ العِقابِ بِهِم بِناءً عَلَى وصْفِهِم بِالظُّلْمِ والإجْرامِ، فَعَقَّبَ ذَلِكَ بِأَنَّ نُزولَ العَذابِ ممَّنْ نَزَلَ بِهِ منْهُم لَم يَكُنْ ظُلْمًا منَ اللّه تَعالَى ولَكِنَّهُم جَرُّوا لِأَنْفُسِهِمُ الهَلاكَ بِما أَفْسَدوا في الأَرْضِ واللّه لا يُحِبُّ الفَسادَ[1].

نُكْتَةُ النّفي بـ ﴿وَمَا كَانَ﴾:

صيغَةُ: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ﴾، تَدُلُّ عَلى قوَّةِ انْتِفاءِ الفِعْلِ؛ إذ لمّا لاح بما مضى أنّ العبرة في الإهلاك والإنجاء للأكثر، قرَّره وأكّده وبيّنه بقوله: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ﴾، على وجهٍ ذُكِرَ سبحانَه بِالوصْفِ المُفْهِمِ لِلْإحْسانِ تَثْبيتًا لَهُ وتَأْمينًا[2]. و(كانَ) بمعنى صَحّ واستقام[3]. بَلِ اسْتَحالَ في الحِكْمَةِ أنْ يُهْلِكَ القُرى الَّتي أَهْلَكَها - حَسْبَ ما بَلَغَكَ أَنْباؤُها - ويُعْلَمُ من ذَلِكَ حالُ باقيها منَ القُرى الظّالِمَةِ[4].

التأكيد على تعليق الإهلاك، أو الإنجاء بمقتضى قانون الأسباب

سرُّ التَّعبير في ﴿رَبُّكَ﴾:

ذُكِرَ سبحانَه بالوصف المُفْهِمِ لِلْإحْسانِ؛ تَثْبيتًا لَمقتضاه وتَأْمينًا لمبتغاه[5]، ونسبته إلى ضمير الخطاب العائد للنّبي ﷺ تشريفٌ له وتبجيل.

تثبيت وصف الإحسان، من حيثُ مقتضاه، وتأمينُ مَنِ ابتغاه

دلالة اللّام في سياق الآية:

اللّام لتأكيد النَّفي[6]؛ لأنّها زِيدت على مذهب الكوفيين في خبر كان، على سبيل التّوكيد[7]؛ وتُسَمّى عند النّحويين لامَ الجحود، والمعنى: ما صَحّ وما استقام لربّكَ، الذي خلقَكَ وقام على تدبير أمرك، أن يُهْلِكَ القُرى بِظُلْمٍ يقع فيها، وأهلُها مصلحونَ مُتَعاونونَ في الإصلاح[8].

التَّأكيد على لوازم نفي الظُّلْم

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/186.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/400.
(3) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 8/231.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/247.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/400.
(6) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 8/231.
(7) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/226.
(8) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3773.

وجه التَّعبير عن الإهلاك مضارعًا مبنيًّا للمفعول:

التَّأكيد على استحالة تخلُّفِ قانونِ معاقبة الأفراد والأمم

نَفْيُ الهلاك بصيغة الفعل المضارع المبنيّ للمفعول للتّأبيد، فلا يكون الإهلاك أبدًا حالَ كونِ أهلِ القُرى مصلحين، لذا ناسبَ مع الآية مجيءُ لام الجُحود؛ لأنَّها أبلغُ في النّفي[1].

سرُّ تعريف ﴿ٱلْقُرَىٰ﴾:

تحديد مواقع الهلاك المعهودة

التَّعْريفُ في القُرى تَعْريفُ العَهْدِ[2]، أي: القرى التي أهلكها، هي التي قَصَّ عليك نبأها، ويُعلم من ذلك حالُ باقيها منَ القرى الظّالمةِ[3].

بلاغة المجاز المرسل:

إطلاق القرى والقصد منصرف إلى أهلها

المُرادُ بـ ﴿ٱلْقُرَىٰ﴾ أهْلُها، على طَريقَةِ المَجازِ المُرْسل، كقوله: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ [يوسف: 82][4]، وصِيرَ إليه للمبالغة في بيان صورة الإهلاك.

دلالة حرف (الباء):

الباء في قوله: ﴿بِظُلْمٍ﴾ للملابسة، وهي في مَحَلِّ الحالِ منْ ﴿رَبُّكَ﴾، أي: لَمّا يُهْلِكِ النّاسَ إهْلاكًا مُتَلَبِّسًا بِظُلْمٍ[5]. أي: استحال في الحِكْمة أن يُهْلِك القُرى ظالمًا لها، وذلك لِفَرْطِ رحمتِه ومُسامحته في حقوقه تعالى[6].

وجه تنكير لفظ (الظّلم):

دلالة تنكير الظّلم على التَّفخيم والتَّنزيه

قوله تعالى: ﴿بِظُلْمٍ﴾، يعني: أيَّ ظُلْمٍ كان، صغيرٍ أو كبيرٍ[7]، والتَّنْكيرُ: لِلتَّفْخيم والإيذانِ بِأنَّ إهْلاكَ المُصْلِحينَ ظُلْمٌ عَظيمٌ، والمُرادُ: تَنْزيهُ اللّه تَعالى عن ذَلِكَ بِالكُلِّيَّةِ، بِتَصْويرِهِ بِصورَةِ ما

---

(1) مجموعة من المؤلفين، فتاوى الشبكة الإسلامية: 2/2189. (تنبيه): لام الجحود: هي اللّام المسبوقة بفعل كَوْن مسبوق بنفي. وإلى هذا أشار من قال:

وكلُّ لامٍ قبلَه "ما كانا" *** أو "لم يكن" فللجحود بانا.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/21.

(3) ابن جرير، جامع البيان: 15/530، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/247.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/21.

(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/21.

(6) القاسميّ، محاسن التّأويل: 6/140.

(7) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/400.

يَسْتَحيلُ صُدورُهُ عنهُ تَعالى، وإلّا فَلا ظُلْمَ فيما فَعَلَهُ اللّه تَعالى بِعِبادِهِ كائِنًا ما كانَ، لِما تَقَرَّرَ من قاعِدَةِ أَهْلِ السُّنَّةِ[1].

دلالة الواو في ﴿وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾:

الواو حاليَّة، وجملة: ﴿وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ حاليَّةٌ؛ للدّلالة على أنّه لا يُجاوِر الظّلمُ الهلاكَ حالَ صلاحِ الأُمم وإصلاحهم لغيرهم. أي: لَمّا يُهْلِكِ النّاسَ إهْلاكًا مُتَلَبِّسًا بِظُلْم[2].

دلالة الواو على حال فكّ الارتباط، بينَ الصّلاح والإهلاك بظُلْم

وجه التَّعبير بالأهل والإضافة فيه:

إضافَةُ (أهْل) إلَيْهِ تُفيدُ عُمومَهُ بِقَدْرِ ما أُضيفَ هو إليه، وصَرَّحَ هُنا بـ ﴿وَأَهْلُهَا﴾ تَنْبيهًا على أنَّ هَلاكَ القُرَى منْ جَرّاءِ أفْعالِ سُكّانِها[3].

تعميم الهلاك بما كسبت أيدي أهلها

توجيه الحاليَّة في جملة الفاصلة:

بيان ذلك: أنّه ما كان اللّه لِيُهْلِكَ أهلَ قرية إهلاكًا عامًّا، ﴿وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ أي: في حالِ ظُلْم، بِأنْ يوقِعَ إهْلاكَهم في حالِ إصْلاحِهمُ الَّذي هم عَريقونَ فيهِ، فَيَكونُ الإهْلاكُ في غَيْرِ مَوْقِعِهِ عَلى ما يَتَعارَفُ العِبادُ؛ مَعَ العِلْم بِأنَّ لَهُ أنْ يَفْعَلَ ذَلِكَ في نَفْسِ الأمْرِ؛ لِأنَّهُ لا يُسْأَلُ عَمّا يَفْعَلُ[4].

القَصدُ إلى حال فَكِّ الارتباط، بينَ الصّلاح والإهلاك بظُلْم

بيان المتشابه اللّفظيّ:

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾، وقوله: ﴿ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ ﴿١٣١﴾﴾ [الأنعام: 131]، وقوله: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [القصص: 59]، الوارد في سورة هود ﴿لِيُهْلِكَ﴾

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/247.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/168.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/82.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/400.

آكَدُ في النَّفْيِ؛ لِأنَّهُ على مَذْهَبِ الكوفيِّينَ زيدَتِ اللّامُ في خَبَرِ كانَ على سَبيلِ التَّوْكيدِ، وعلى مذهب البصريين تَوجَّه النَّفْيُ إلَى الخَبَرِ المَحْذوفِ المُتَعَلِّقِ بِهِ اللّامُ، وهُنا ﴿وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾[1]، ونفى اللّه تعالى الظُّلم عن نفسه بأبلغ لفظ يستعمل في النّفي، لأنّ اللّام في ﴿لِيُهْلِكَ﴾ لامُ الجَحْد، ولا يظهر بعدَها (إن)، ولا يقع بعدَها المصدر، ولا تستعمل إلّا مع (كان) و(لم يكن)، ومعناه: (ما فعلت فيما مضى ولا أفعل في الحال ولا في الاستقبال)، فكان الغاية في النّفي، وليس كذلك ما في القصص: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ﴾، إذ ليس فيها صريح ظُلْم، فاكتفى بذكر اسم الفاعل، وهو لأحد الأزمنة غير مبين، ثمّ نفاه[2]. والتّرديد بين ما ورد في قوله تعالى من وصف: ﴿غَٰفِلُونَ ١٣١﴾ [الأنعام: 131]، ووصف: ﴿مُصْلِحُونَ﴾؛ إذ وُجِد أنَّ نفيَ الإهلاك في الآية الأولى لا يكون مع الغفلة بل لا بدَّ أن يسبقه إرسالُ الرُّسل[3]، فسيقت إشارةُ ﴿ذَٰلِكَ﴾ في قول اللّه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ ١٣١﴾ [الأنعام: 131] إلى الغفلة عن دعوة المرسلين. وفي الكَلام إيجازٌ؛ إذْ عُلِمَ منهُ: أنَّ اللّه يُهْلِكُ القُرى المُسْتَرْسِلَ أهْلُها عَلى الشِّرْكِ، إذا أعْرَضوا عن دَعْوةِ الرُّسُلِ، وأنَّهُ لا يُهْلِكُهم إلّا بعد أنْ يُرْسِلَ إليهم رُسُلًا مُنْذِرينَ، وأنَّهُ أرادَ حَمْلَ تَبِعَةِ هَلاكِهِم عَلَيْهِم، حَتّى لا يَبْقى في نُفوسِهِم أنْ يَقولوا: (لَوْلا رَحِمَنا رَبُّنا فَأنْبَأنا وأعْذَرَ إلَيْنا)[4]، على معنى أنَّ عِلَّةَ الإرْسالِ هي عَدَمُ إهْلاكِ القُرى على غَفْلَةٍ. فآية الأنعام يَتَوجَّهُ فيهِ مَعْنَيانِ؛ أحَدُهُما: أنَّ اللّه ﷻ لَم يَكُنْ ليُهْلِكَ المُدُنَ دونَ نِذارَةٍ؛ فَيَكونَ ظُلْمًا لَهم إذا لَم يُنْذِرْهُمْ؛ واللّه تَعالى لَيْسَ بِظَلّامٍ لِلْعَبيدِ. والآخَرُ: أنَّ اللّه ﷻ لَم يُهْلِكْ أهْلَ القُرى بِظُلْمٍ؛ إذْ ظَلَموا؛ دونَ أنْ يُنْذِرَهُمْ[5].

وأمّا الموضوع الثّاني الذي ذكر فيه: ﴿وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾؛ فللبناء على ما تقدّم، وهو قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ ۗ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَآ أُتْرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجْرِمِينَ﴾، فدلَّ على أنَّ

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/226.
(2) الكرمانيّ، غرائب التّفسير: 1/522 - 523.
(3) كتاب فتاوى الشبكة الإسلامية، ص: 189.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/81.
(5) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/347.

القوم كانوا مفسدين، حتّى نهاهم أُولو بقيّة عنِ الفساد في الأرض، فإنّ نقيض الفساد الصلاح[1]. والمعنى: وما كان ربُّكَ يا محمّد أن يهلك القُرى التي قَصّ عليك نبأها ﴿بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾، ولكن أهلَكها بكفرها. وقيل: المعنى: ما كان اللّه ليهلكهم بظُلْمهم، أي: بِشِرْكِهم، وهم مصلحون، لا يتظالمون بينَهم، إنَّما يهلِكُهم إذا جمعوا معَ الشِّرك غيرَه منَ الفساد[2].

وحاصل الفرق على مقتضى ما تقدّم في كلّ آية، ما اتّبعت منَ الغافلين والمصلحين[3].

(1) الخطيب الإسكافيّ، درّة التّنزيل وغُرّة التّأويل: 2/550.
(2) مكي بن أبي طالب، الهداية إلى بلوغ النّهاية: 5/3487.
(3) الخطيب الإسكافيّ، دُرّة التّنزيل وغُرّة التّأويل: 2/550.

﴿وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخۡتَلِفِينَ ١١٨ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمۡۗ وَتَمَّتۡ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ ١١٩﴾ [هود: 118- 119]

مُناسَبَةُ الآيَتينِ لما قَبلَهُما:

تعاصي الأمم ليس خروجًا عن قبضةِ القدرة الإلهيّة وإنّما حكمةُ الله اقتضتِ الاختلاف

لَمّا كان النَّعيُ على الأمم الّذين لم يقع فيهم مَنْ ينهونَ عن الفساد فاتّبعوا الإجرام، وكان الإخبارُ عن إهلاكهم بأنّه ليس ظلمًا من الله، وأنّهم لو كانوا مُصلحين لَما أُهلكوا، لَمّا كان ذلك كلُّه قدْ يُثيرُ توهُّمَ أنَّ تعاصيَ الأمم عمّا أراد الله منهم خروجٌ عن قبضةِ القدرةِ الإلهيّة؛ أعقبَ ذلك بما يَرفع هذا التّوهّم بأنَّ الله قادرٌ أنْ يجعلهم أمّةً واحدةً متّفقةً على الحقّ مستمرّةً عليه، لكنّه لم يشأ ذلك، بل اقتضتْ حكمةُ الله أنْ تكون عقولهم قابلةً للتّطوّح بهم في مسلكِ الضّلالة، أو في مسلكِ الهداية[1].

ومناسبةُ قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَۚ﴾ لِما قبلها أنّه لَمّا أشعرَ الاختلافُ بأنّه اختلافٌ في الدّين، وأنّ معناهُ العدول عن الحقّ إلى الباطل؛ لأنّ الحقّ لا يقبلُ التّعدّدَ والاختلاف عقّبَ عمومَ قوله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخۡتَلِفِينَ﴾ باستثناءِ مَن ثبتوا على الدّينِ الحقّ ولم يُخالفوه فقال: ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَۚ﴾؛ أيْ: إلّا مَن رحمهم الله فهداهم إلى الإيمان به، واتّباع رسله؛ فإنّهم لا يختلفون فيما جاءهم من عند ربهم[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أُمَّةٗ﴾: الهمزةُ والميمُ أصلٌ واحدٌ يتفرّعُ منه أربعة أبواب،

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 12/187.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 12/189.

وهي: الأصلُ، والمرجعُ، والجماعةُ، والدّينُ، وهذه الأربعة متقاربة[1]، وكلُّ شيء يُضَمُّ إليه سائرُ ما يليه فإنّ العرب تُسمّي ذلك الشَّيء أُمًّا، فمن ذلك: أُمّ الرّأس وهو: الدّماغ[2]. والأُمّ لكلّ شيء هو المَجمَعُ والمَضَمُّ، ومنه الأُمّ: الوالدة؛ لأنّ أولادها يرتبطون بها، وهي أصلهم ومَجْمَعُهم، والأمّة بالضّمّ: الرّجل الجامع للخير، والأمُّ بالفتح: القَصْد، أمَّ الشّيءَ يؤمَّه أمًّا: قَصَده وتوجّه إليه[3]، وكلّ جماعة يجمعهم أمرٌ ما إمّا دِينٌ واحدٌ، أو زمانٌ واحدٌ، أو مكانٌ واحدٌ - سواء كان ذلك الأمرُ الجامعُ تسخيرًا أو اختيارًا - فهي أمّة، وجمعها: أُمم[4].

والمُراد هنا: جماعةٌ واحدةٌ على ملّةٍ واحدةٍ، ودينٍ واحدٍ؛ أيْ: أمّةٌ واحدةٌ مؤمنةٌ[5].

2) ﴿مُخْتَلِفِينَ﴾: الخاءُ واللّامُ والفاءُ أصولٌ ثلاثة: أحدها أنْ يجيءَ شيءٌ بعدَ شيءٍ يقومُ مقامه، ومنه قولهم: اخْتَلَفَ النّاسُ في كذا، والنّاسُ خِلْفَةٌ؛ أيْ: مختلفون؛ لأنّ كلَّ واحدٍ منهم يُنَحِّي قولَ صاحبه، ويُقِيمُ نفسه مقامَ الّذي نَحّاهُ[6]، واختلفَ الشّيئان: لم يتّفقا ولم يتساويا، والاختلافُ: عدمُ الاجتماع على رأيٍ أو موقفٍ أو حكمٍ إلخ، كأنَّ كُلًّا يذهب إلى ما جعله الآخر خَلْفه[7]، والاختلافُ والمخالفة: أنْ يأخذَ كلّ واحدٍ طريقًا غيرَ طريق الآخر في حاله أو قوله، والخِلاف أعمُّ من الضّدّ؛ لأنَّ كلَّ ضدَّيْن مختلفان، وليس كلُّ مختلفيْن ضدّين، ولَمّا كان الاختلاف بين النّاس في القول قد يقتضي التّنازع؛ استُعير ذلك للمنازعة والمجادلة[8].

والمُراد بـ ﴿مُخْتَلِفِينَ﴾ في الآية: الاختلافُ في الأديان والآراء والملل[9].

3) ﴿كَلِمَةُ رَبِّكَ﴾: الكافُ واللّامُ والميمُ أصلان: أحدهما يدلُّ على نطقٍ مُفهم، والآخر على جِراح، فالأوّل: الكلامُ، تقول: كَلَّمْتُهُ أُكَلِّمُهُ تَكْلِيمًا، ثم يَتَّسِعون فيُسمّون اللَّفظةَ

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (أمّ).
(2) الخليل، العين: (أمم).
(3) ابن منظور، لسان العرب، والزَّبيديّ، تاج العروس، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (أمم).
(4) الرّاغب، المفردات، ص: 86.
(5) ابن جرير، جامع البيان: 15/531، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/215.
(6) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (خلف).
(7) مجمع اللُّغة العربيّة، المعجم الوسيط، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (خلف).
(8) الرّاغب، المفردات، ص: 295.
(9) ابن جرير، جامع البيان: 15/531، وابن عطيّة، المُحرّر الوجيز: 3/215، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 18/411.

الواحدة المُفهِمة كَلِمَة، والقصّةَ كلمةٌ، والقصيدةَ بطولها كلمة[1]. والكلمةُ الباقية: كلمةُ التّوحيد، والقرآنُ: كَلامُ اللّه، وكَلِمُ اللّه وكَلِماتُه وكَلِمَتُه، وكلامُ اللّه لا يُحدّ ولا يُعدّ[2].

ومعنى ﴿كَلِمَةُ رَبِّكَ﴾: قضاؤُه وأمرُه[3]، أو وعيده، أو قوله للملائكة: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ﴾[4]، أو الكلمةُ هنا بمعنى الكلام، فكلمةُ اللّه: تقديرُه وإرادتُه، أُطلقَ عليها كلمةً مجازًا؛ لأنّها سببٌ في صدور كلمة (كُنْ)؛ وهي أمرُ التّكوين[5].

4) ﴿ٱلْجِنَّةِ﴾: (جَنّ)، الجيمُ والنُّونُ أصلٌ واحدٌ، وهو السَّتر والتّستّر، ومنه الجِنُّ؛ لأنّهم متستِّرون عن أعيُن الخَلْق[6]، والجنُّ: جماعة ولَدِ الجانِّ، وجمعهم: الجِنَّةُ والجِنّانُ، سُمُّوا به لاستجنانهم من النّاس فلا يُرَونَ[7]، والجِنُّ ضدُّ الإنسِ، الواحد جنيٌّ، وقيل: سُمّيت بذلك؛ لأنّها تُتَّقى ولا تُرَى، لذلك سُمّي ما يقابلهم بالإنس؛ لأنّهم يؤنَسون؛ أيْ: يُبصَرون[8].

ومعنى ﴿ٱلْجِنَّةِ﴾ في الآية موافقٌ للمعنى اللُّغوي، فهي بحسب ما يُستخلص من ظواهر القرآن والسُّنّة النّبويّة خَلْقٌ غيرُ مرئيّ لنا، ليست أجسامًا، بل هي موجوداتٌ روحانيّةٌ مخلوقةٌ من عنصرٍ ناريٍّ، ولها حياةٌ وإرادةٌ، يتناسلون، ويتكاثرون، ويموتون. وهم مأمورون بما أُمر به بنو آدم في القرآن، والسُّنّة. وهم أحياءُ عقلاء موجودون لا يُرَوْن، ولهم إدراكٌ خاصٌّ بهم لا يُدرى مداه، وهم مأمورون، ومنهيّون، ولهم آجالٌ كآجال بني آدم[9].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

يخبر اللّه تعالى بأنَّه لو شاء ربُّك - أيها الرّسول - لجعل النّاسَ كلَّهم على ملّةٍ واحدةٍ

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (كلم).
(2) ابن منظور، لسان العرب، والفِيروزباديّ، القاموس المحيط: (كلم).
(3) ابن عطيّة، المُحرّر الوجيز: 3/216.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/248.
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 12/190.
(6) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (جن).
(7) الخليل، العين: (جن).
(8) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة، والرّازيّ، مختار الصّحاح: (جنن).
(9) السَّفّارينيّ، لوامع الأنوار: 2/220، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/218، والمراغيّ، تفسير المراغيّ: 9/111.

متّفقين على الإيمان، فلا يُهلكهم، لكنّه لم يشأ سبحانه، فهم لا يزالون مختلفين في أديانهم عادلين عن الحقّ إلى الباطل؛ لأنَّ الحقّ لا يقبلُ التّعدّدَ والاختلاف، باستثناء مَن ثبتوا على الدّين الحقّ، ولم يخالفوه فعصمهم الله من الاختلاف، ولثمرةِ الاختلاف خلَقَهم، وطَبَعهم على خلائقَ من الخيرِ والشّرّ تقتضي الاختلافَ لتفاوتهم فيها، فبادروا إلى ما خلقهم له مُعرِضين عن أوامره، ولم تُغنِ عنهم عقولهم، وبهذا يتحقَّق وعدُ ربك في قضائه وقدَرِه، وهو: لأملأنَّ جهنَّم من عصاةِ الجنِّ والنّاسِ أجمعين، الّذين اتّبعوا إبليس وجُنده ولم يهتدوا للإيمان.

حجّةٌ عليهم واضحةٌ إذ مكّنهم من الاختيارِ فلم تُغنِ عنهم عقولُهم فاستحقّوا العذاب

وتُرشدُ الآيتان الكريمتانِ إلى أنَّ الله اقتضت حكمتُه أنّه خلقَ الخلقَ؛ ليكونَ منهم السّعداءُ والأشقياء، والمُتّفقون والمختلفون، والفريقُ الّذين هدى الله، والفريقُ الّذين حَقَّت عليهم الضّلالة؛ ليتبيّنَ للعباد عدْله وحكمته، وليُظهرَ ما كَمَن في الطّباع البشريّة من الخير والشّرّ، ولتقومَ سوقُ الجهاد والعباداتِ الّتي لا تتمُّ ولا تستقيم إلّا بالامتحان والابتلاء. وإلى أنَّ أهلَ الرّحمةِ لا يختلفون، وأهلُ الرّحمة هم أتباعُ الأنبياء قولًا وفعلًا، وهم أهلُ القرآن والحديث من هذه الأمَّة؛ فمَنْ خالفَهم في شيء فاتَه من الرّحمة بقدر ذلك[1].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغة العطف في الآية:

في العطفِ بيانٌ وإتمامٌ لمعنى مشيئةِ الله في استخلافِ الخَلْقِ

جاءَ العطفُ في الآية بيانًا للكلام السّابق الّذي قد يُوهِم أنّ إيمانَ هؤلاء الكفّار ممّا لا يدخلُ تحتَ المشيئةِ الإلهيّة، فنفى ذلك الوهمَ مبيّنًا أنّه لو شاءَ لجعلَ النّاس كلّهم أمّةً واحدةً على الإصلاح، فهو قادرٌ على أنْ يجعلهم كلّهم مُصلحين متّفقين على الإيمان فلا

(1) ابن تيمية، مجموع الفتاوى: 3/562، والسّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 235.

يُهلكهم، ولكنّه لم يشأ ذلك، بلْ شاءَ اختلافَهم[1]؛ لِما علمَ منهم اختيار ذلك[2].

معنى ﴿وَلَوْ﴾ في قوله: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ﴾:

(لو) شرطيّة غير جازمة، وهي حرف امتناعٍ لامتناعٍ، وقد فُهم من شرط ﴿وَلَوْ﴾ أنَّ جَعْلَهم أمّةً واحدةً في الدّين منتفيةٌ لعدم مشيئةِ اللّه لذلك[3]، والمقصود: انتفاءُ دوامها على الوحدة في الدّين، وإنْ كانوا قد وُجدوا في أوّل النّشأة متّفقين، فلم يلبثوا حتّى طرأ الاختلافُ بين ابنَيْ آدم عليه السلام لقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُواْ﴾ [يونس: 19]، ولقوله ﷺ - فيما يرويه عن ربِّه: «وإنِّي خلقتُ عبادي حُنَفاء كُلّهمْ، وإنَّهم أتَتْهُم الشَّياطينُ فاجتالتْهم عن دينِهم، وحرَّمتْ عليهم ما أحللْتُ لهمْ، وأمرَتْهم أنْ يُشْرِكُوا بي ما لَمْ أُنزِّلْ به سُلطانًا»[4]؛ فعُلم أنَّ النّاس قد اختلفوا فيما مضى، فلم يكونوا أمّةً واحدةً، ثم لا يُدرى هل يؤولُ أمرُهم إلى الاتّفاق في الدّين، فأعقبَ ذلك بأنّ الاختلافَ دائمٌ بينهم؛ لأنّه من مُقتضى ما جُبلتْ عليه العقول[5].

الاختلافُ في الدّينِ دائمٌ بين النّاسِ بمقتضى ما جُبلتْ عليه العقولُ من حريّةِ الاختيار

نكتة التَّعبير بالجملة الشَّرطيَّة في الآية:

عبَّر القرآنُ في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ بجملةٍ شرطيَّةٍ امتناعيَّةٍ، إذ إنَّ (لَوْ) أداةُ شرطٍ تُفيدُ التَّعليق في الماضي وتختصُّ به، وتُفيدُ امتناعَ الشّرطِ وامتناعَ الجواب[6]، والجملة الشّرطيّة أقوى من الجملة الخبريّة في إثبات الحكم؛ لأنَّها تربط نتيجةً ما بسببٍ معيّنٍ؛ أي: امتنعَ جَعْلُ النّاسِ أمّةً واحدة

في الشَّرطِ كشْفٌ لحقيقةِ الحكمةِ من جعلِ النّاسِ مختلفين بمشيئته سبحانه

(1) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 9/401.
(2) النَّسفيّ، مدارك التّنزيل: 2/90.
(3) الصّاوي، حاشية الصّاوي، ص: 866.
(4) مسلم، صحيح مسلم، الحديث رقم: (2865).
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 12/189.
(6) الموزعيّ، مصابيح المغاني في حروف المعاني، ص: 404.

لعدم مشيئة اللّه له، والمعنى: ولو شاء ربّك - أيّها الرّسول الكريم الحريصُ على إيمان قومه - أنْ يجعلَ النّاس جميعًا أمّةً واحدةً مجتمعةً على الدّين الحقّ لجَعَلَهُم، ولكنّه سبحانه لم يشأ ذلك[1]، فكلٌّ راجعٌ إلى مشيئته سبحانه، وفي هذا إشارةٌ إلى أنّ اللّه لم يشأ ذلك لحكمةٍ بالغةٍ، وأنّ الاختلافَ ابتلاءٌ واختبار.

فائدة مجيء لفظ ﴿رَبُّكَ﴾:

تشريفٌ وتسليةٌ وتخفيفٌ وتثبيتٌ لمَن جعله الله في عين عنايتِه وأتمِّ رعايته

عبَّر البيان القرآنيّ بلفظ الرّبوبيّة ﴿رَبُّكَ﴾ الّذي يدلّ على الملْك والتّربية والرّعاية والعناية، وأضافه إلى ضميره ﷺ تسليةً له، وتخفيفًا عنه؛ فقد كان ﷺ حريصًا على إيمانِ النّاس جميعًا، وتكادُ نفسه تذهبُ عليهم حسراتٍ، ويكاد يُهلكها حزنًا عليهم وأسفًا، وكذلك تثبيتًا له في ظلّ ما يواجه من عنادِ الكافرين، وتشريفًا له ورَفعًا لمنزلته بإضافته إليه، كما أنّ في هذه الإضافة توكيدًا للمعاني السّابقة، إذ إنَّ الإضافة إلى الرّبّ ﴿رَبُّكَ﴾ من الأساليب النّحويّة الّتي تُلحَق بالتّوكيد المعنويّ، والمعنى: هذه مشيئةُ ربّك الملِكِ المالكِ المُطاع سبحانه العالم بك "المحسنِ إليك بكلِّ إحسانٍ يزيدك رِفعةً"[2]، فاثبتْ في دعوتك؛ فأنتَ في حرزِ المحسن إليك، وفي عين عنايته، وأتمّ رعايته ممّا يزيدك شرفًا ورفعةً، وارْأفْ بنفسك، ولا تُهلكها حزنًا عليهم.

نكتةُ حذف المفعول في: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ﴾:

حذفُ المفعول في المشيئة لأمرين

حذفَ البيانُ القرآنيُّ مفعولَ فعل المشيئة؛ لأمرَيْن:

الأوّل: لقصدِ الإيجاز؛ لأنّ المُرادَ من مفعول المشيئة ما يساوي مضمون جواب الشّرط، والتّقدير: (ولو شاء ربُّك أنْ يجعلَ النّاس

(1) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 7/294.
(2) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 9/401.

أمّةً واحدةً لجَعلَهُم كذلك)[1]، وقد ذكر أهلُ البيان أنَّ مفعول المشيئة والإرادة لا يُذكر إلّا إذا كان غريبًا أو عظيمًا نحو: قوله تعالى: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ ٢٨﴾ [التّكوير: 28]، ونحو: ﴿لَوۡ أَرَدۡنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهۡوٗا لَّٱتَّخَذۡنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ١٧﴾ [الأنبياء: 17]، وإنّما كَثُر حذف مفعول المشيئة دون سائر الأفعال؛ لأنّه يلزمُ من وجودِ المشيئة وجودُ المُشاء، فالمشيئةُ المُستلزمةُ لمضمونِ الجوابِ لا يمكنُ أنْ تكونَ إلّا بمشيئة الجواب، ولذا قالوا: وإذا حُذف بعد (لو) فهو المذكور في جوابها أبدًا[2].

الثّاني: قصدُ البيانِ بعد الإبهام؛ فإنّه إذا سمعَ السّامعُ قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ﴾ تعلّقتْ نفسه بِما شاء، وانْبَهَمَ عليه فلا يدري ما هو؟ فلمّا ذكر الجواب استبانَ بعد ذلك. والتّقدير: (لو شاءَ ربُّك لجعلَ النّاسَ أمّةً واحدةً).

معنى اللّام في ﴿لَجَعَلَ﴾:

اللّامُ في قوله تعالى: ﴿لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗۖ﴾ لتوكيد الجملة الشّرطيّة الامتناعيّة؛ لأنَّ اللّام الدّاخلةَ على جواب ﴿وَلَوۡ﴾ من الحروف الّتي تُؤكَّدُ بها الأفعال في الجملة الفعليّة.

عَـــدَمُ جعلِ النّاسِ على دينٍ واحدٍ هو حُكمٌ إلهيّ مؤكَّدٌ

والمُرادُ أنَّ الله سبحانه أكّدَ عدمَ مشيئته في جَعْلِ النّاس على دينٍ واحدٍ هو دينُ الحقّ.

معنى أل في ﴿ٱلنَّاسَ﴾:

(أل) التّعريف في قوله تعالى: ﴿لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗۖ﴾ جنسيّةٌ استغراقيّةٌ؛ تُفيدُ العمومَ؛ أيْ تشملُ كلَّ النّاس، والمعنى: لو شاءَ ربّك لجعلَ كلّ النّاس بجميع أصنافهم وأعراقهم وأعمارهم من الذّكور والإناث، والصّغار والكبار، والبِيْض والسُّود أمّةً واحدةً متّحدةً في هدايتها وتقواها، ولكنّه لم يشأ ذلك سبحانه.

قضاءُ الله في عدم الجبرِ على الإيمانِ وابتلائهم بالاختبارِ واحدٌ في كلّ النّاسِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/188.
(2) السّيوطيّ، الإتقان في علوم القرآن: 3/193.

سرُّ اختيار ﴿أُمَّةَ﴾:

في قوله: ﴿وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗۖ﴾، اختارَ القرآنُ الكريم مفردة ﴿أُمَّةَ﴾ دون غيرها من الألفاظ المُرادفة، مثل: جماعة أو طائفة؛ لِما تحملهُ مفردة ﴿أُمَّةَ﴾ من صفاتِ الكمالِ المنهجيَّة الّتي تجعلها أسوةً في مجموع الصّفات الحسنة الّتي لا توجد في مرادفاتها، فالأمّة: "الطّائفةُ من النّاس الّذين اتّحدوا في أمرٍ من عظائم أمورِ الحياة كالموطن واللّغة والنَّسب والدِّين"[1]، ولأنّ قيام الحقّ واستمراره لا يتحقّق تحقّقًا صحيحًا إلّا بالجماعة الّتي تَدينُ بعقيدةٍ واحدةٍ، وتتجمّع على آصرتها، يقول البقاعيّ: "﴿أُمَّةَ﴾؛ أيْ: جماعةٌ عَرفتْ مَن هو أهلٌ لأنْ يُؤمَّ ويُهتدى بهِ؛ فقصدتْهُ فاقتبستْ من أنوارهِ؛ فصارتْ هي أهلًا لأنْ تُقصدَ ويؤتمَّ بها"[2].

قيامُ الحقّ والدّعوةُ إليه والحكمُ به لا يتحقّق إلّا بالأمّة الكاملة في نفسها المكمّلة لغيرها

كما أنّ استعمالَ كلمة ﴿أُمَّةَ﴾ دونَ الطّائفة أو الجماعة أنسبُ للسّياق الّذي يدلّ على الكثرة، إذ يتحدّثُ عن جميع النّاس؛ فالأمّةُ في جميع معانيها اللُّغويّة تدلُّ على الكثرةِ والاجتماع، فهي الرّجُل الجامع للخير، والإمام، وجماعةٌ أُرسل إليهم رَسُولٌ، والجيلُ من كلّ حيّ، والّذين اتّحدوا في أمرٍ من عظائم أمور الحياة، بخلافِ (الطّائفة)، إذ هي القطعةُ من الشّيء، وقد تُطلق على الرّجل والرَّجُلَين، و"الجماعة القليلة"[3]؛ أيْ لا تدلُّ على الكثرة، وكذلك بخلاف (الجماعة) الّتي تعني اجتماعَ فئةٍ من النّاس يجمعهم أمرٌ ما، وقد تكونُ قليلةً وقد تكونُ كثيرةً.

نكتة تنكير ﴿أُمَّةَ﴾:

نكّر البيانُ الإلهيّ لفظَ ﴿أُمَّةَ﴾ في قوله تعالى: ﴿لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةَ وَٰحِدَةٗۖ﴾؛ لإفادةِ معنى التّفخيم لشأنِ الأمّة بما تحملهُ من معاني

الأمّةُ المتّحدةُ على الدّين الحقّ شأنُها عظيم

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 12/188.
(2) البقاعيّ، نَظْم الدّرر: 8/177.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/221.

الأصل، والمرجع، والجماعة الكبيرة المتّحدة في الجنس، أو الدّين، أو زمنِ الوجود، والّتي يرنو إليها كلُّ عاقلٍ، وخاصّةً إذا كانت أمّةً متّحدةً على الدّين الحقّ.

مفعولا ﴿لَجَعَلَ﴾ نحويًّا وبلاغيًّا:

امتناعُ حكمةِ الله البالغةِ أن يصير النّاس كلُّهم جماعةً واحدةً على دينٍ واحدٍ

الفعلُ ﴿لَجَعَلَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗۖ﴾، فعلٌ تامٌّ من أفعال الإنشاء، ومعناه الأساس هو إيجاد الشّيء أو إحداثه، بمعنى: (صيّر)، وهو يحتاج إلى مفعولَيْن أصلهما مبتدأ وخبر، والمفعول به الأوّل هو ﴿ٱلنَّاسَ﴾، والمفعول به الثّاني هو ﴿أُمَّةٗ﴾[1]. أمّا معناه المجازيّ، وهو المعنى الّذي يكون مفهومًا عادةً في السِّياق؛ فهو "التّصيير" أو "التّحويل"؛ لذا فإنَّ الفعلَ ﴿لَجَعَلَ﴾ يفيد في هذا السِّياق الكريم بلاغةً فنِّيَّةً من خلال التّعبير عن المعنى المجازيّ في معنى الآية بطريقة بليغةٍ هادفةٍ، وهو أنَّ اللّه تعالى لم يشأ بحكمته البالغةِ أن يُصيِّر النّاسَ كلَّهم جماعةً واحدةً على دينٍ واحدٍ.

معنى الواو في قوله: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخۡتَلِفِينَ﴾:

اختلافُ النّاسِ دائمٌ لأنّه من مقتضى ما جُبلتْ عليهِ عقولُهم

الواوُ في جملة ﴿وَلَا يَزَالُونَ﴾ عاطفةٌ، والمعطوفُ عليه جملةٌ مُقدّرةٌ وهي: (لكنّه لم يشأ)[2]، وهذه الواو أكّدتِ المعنى المشترك بين الجملتَيْن؛ وهو عدمُ مشيئةِ اللّه لِجَعْلِ النّاسِ على ملّةٍ واحدةٍ، وأنّهم اختلفوا فيما مضى فلم يكونوا أمّةً واحدةً، ولكنْ هل يؤولُ أمرهم إلى الاتّفاق في الدّين؟ فأعقبَ ذلك بأنّ الاختلافَ دائمٌ بينهم؛ لأنّه من مُقتضى ما جُبلتْ عليه العقول[3]، وهذا هو التّغايرُ بين الجملتَيْن الّذي أضافه العطف.

فائدةُ الخبر: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخۡتَلِفِينَ﴾:

أفادَ الخبر في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخۡتَلِفِينَ﴾ تعريفَ

(1) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 13/292، ودرويش، إعراب القرآن وبيانه: 4/445.
(2) الخرّاط، المجتبى من مُشكِل إعراب القرآن: 2/489، والجملة المقدّرة معطوفة على جملة الشَّرط.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 12/189.

المخاطَب - وهو رسول الله ﷺ - بالحكم الّذي تضمّنته الجملةُ الخبريّة، وهو أنَّ الاختلافَ في الدّين دائمٌ مستمرٌّ، ولن يستطيع أنْ يجمعَ النّاسَ كلّهم على دينِ الحقّ مهما بذل من جهد، وهذا فيه تخفيفٌ عن النّبيّ ﷺ، وإرشادٌ له في كيفيّة التّعامل مع النّاس على اختلافِ عقولهم واختياراتهم، لِما في هذا الخبر من التّذكير بأحوال النّاسِ مع الإيمان، وما جُبلتْ عليهِ عقولهم من حريّة الاختيارِ من لدنْ آدم إلى أنْ تقومَ السّاعة.

إخبارُ تعريفٍ وتذكيرٍ بأحوال النّاس واختلافهم في الدّين إرشادًا للنّبيّ وتخفيفًا عنه

نكتة المضارع في ﴿وَلَا يَزَالُونَ﴾:

أفادَ التَّعبيرُ بصيغةِ المضارع ﴿يَزَالُونَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ "بأنَّ الاختلافَ دائمٌ بينهم؛ لأنّه من مقتضى ما جُبلتْ عليه العقول"[1]، وأنّه كما كانَ حاصلًا في الأمم الماضيةِ لا يزالُ مستمرًّا في هذه الأمّة، فمنهم الكافرُ والمؤمنُ، والطّائعُ والعاصي، ولذلك ورد في الحديث: «افترقتِ اليهود على إحدى وسبعين فرقةً، وافترقتِ النّصارى على اثنتيْن وسبعين فرقةً، وتفترق أُمَّتي على ثلاثٍ وسبعين فرقةً»[2].

الاختلافُ في الدّينِ دائمٌ مستمرٌّ؛ فمنهم الكافرُ والمؤمنُ والطّائعُ والعاصي

بيانُ عودِ الضَّمير في ﴿يَزَالُونَ﴾:

في مرجعِ ضمير الواو في الفعل ﴿يَزَالُونَ﴾، في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ قولان:

الأوَّل: عائدٌ على النّاسِ في قوله: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾، والمعنى: "لا يزالُ النّاسُ مختلفين"[3]؛ أيْ: بينَ حقٍّ وباطلٍ،

عدولُ أهلِ الباطلِ عن الحقّ، واختلافهم مع أهلِه باقٍ إلى يوم القيامة

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/189.

(2) أبو داود، السّنن، الحديث رقم: (4596)، والتّرمذي، السّنن، الحديث رقم: (2640)، وأحمد، المسند، الحديث رقم: (8377)، وابن حبّان، صحيح ابن حبّان، الحديث رقم: (6247). وصحح إسناده الألبانيّ في صحيح أبي داود، الحديث رقم: (4596).

(3) ابن جرير، جامع البيان: 15/531.

والمعنى: لا يزالُ أهلُ الحقّ وأهلُ الباطل مختلفين[1]؛ أيِّ: فيما بينهم، فالاختلاف بين أهلِ الحقّ وأهلِ الباطلِ سيبقى إلى قيام السّاعة.

الثّاني: عائدٌ إلى أهلِ الباطل، عن مجاهد: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ قال: أهلُ الباطل، و﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾ قال: أهلُ الحقّ[2]؛ أيِّ: الاختلافُ المقصود هو في الدّين، وأنَّ معناه العدولُ عن الحقّ إلى الباطل؛ لأنّ الحقَّ لا يقبلُ التّعدّد والاختلاف[3].

دلالة التَّعبير بـ ﴿مُخْتَلِفِينَ﴾:

اختلافُ المختلِفين وكثرتُهم وعدمُ اتِّفاقهم ثابتٌ ومُلازمٌ لهم في الحياةِ الدُّنيا

عبّر البيانُ القرآنيّ بمفردة ﴿مُخْتَلِفِينَ﴾؛ لاتّساع دلالةِ مادّةِ الاختلافِ الّتي تدلُّ في أصلها على عدم الاتّفاق وعدم التّساوي، وعدم الاجتماع على رأيٍ أو موقفٍ أو حكمٍ إلخ، وكأنَّ كلَّ واحدٍ يأخذُ طريقًا غيرَ طريق الآخرِ في حالهِ أو قولهِ، كما أنّ الخِلاف أعمُّ من الضّدّ، لأنّ كلّ ضدّيْن مختلفان، وليس كلّ مختلفيْن ضدّيْن.

وأمّا من حيث الصّيغة: فقد عبّر القرآن بصيغة اسم الفاعل ﴿مُخْتَلِفِينَ﴾ المفيد للثّبوت والدّوام؛ للإيذانِ بأنّ اختلافهم ثابتٌ دائمٌ وملازمٌ لهم في الحياة الدّنيا، وأتى باسم الفاعل مجموعًا؛ للإشارة إلى كثرةِ المختلفين على مرِّ الأزمنة.

نكتة حذف متعلَّق ﴿مُخْتَلِفِينَ﴾:

إذا تساوى الذِّكرُ والحذفُ في إفادةِ المعنى فالحذفُ أولى للإيجاز والتَّعميم

اختلفَ العلماءُ في متعلَّق ﴿مُخْتَلِفِينَ﴾ في قوله: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾، على عدّة أقوال؛ منها: مختلفين في الأديان، والملل، والآراء، والأهواء[4]، وهذا تأويلُ الجمهور، أو مختلفين في السّعادة والشّقاوة، وهذا قريبٌ من المعنى الأوّل، إذْ هي ثمرةُ الاختلافِ في الأديان، أو مختلفين في المغفرةِ والرَّحمة[5]، أو مختلفين في الرّزق،

(1) ابن جرير، جامع البيان: 15/533.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 15/534.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 12/189.
(4) ابن جرير، جامع البيان: 15/534.
(5) ابن جرير، جامع البيان: 15/534.

فهذا فقيرٌ وهذا غنيٌّ[1]، قال ابن عطيّة: "وهذا قولٌ بعيدٌ معناه من معنى الآية"[2].

وأوْلى الأقوالِ بالصّواب القول الأوّل؛ "لأنّ الله جلّ ثناؤه أتْبعَ ذلك قولَه: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾، ففي ذلك دليلٌ واضح على أنّ الّذي قبْلَه مَن ذُكر خبره عن اختلاف النّاس، إنّما هو خبرٌ عن اختلافٍ مذموم يُوجبُ لهم النّار، ولو كان خبرًا عن اختلافهم في الرّزق، لم يعقّب ذلك بالخبر عن عقابهم وعَذابهم"[3].

ونكتةُ حذفِ متعلّق الاختلافِ: الإيجاز والتّعميم، إذ إنّ السِّياقَ يدلّ عليه من خلال قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾ .... ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ﴾، ولكونِ الجملةِ جاءتْ مؤكّدةً لعدم مشيئةِ الله في جعلِ النّاسِ ملّةً واحدة.

بلاغة المتشابه اللّفظيّ:

قد يظهرُ للوهلة الأولى أنّ بينَ قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ مع قوله تعالى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ [البقرة: 213]، وقوله: ﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ [يونس: 19] تناقضًا، إلّا أنَّ الآيات مجتمعةً تدلُّ على معنى التّنوّع في خلق النّاس في الحقيقة، فلا يوجد أيُّ تناقض، إذ وفّق العلماءُ بين هذه الآيات، وبيّنوا أنّ المُراد بـ (أمّة واحدة) في آية هود غيرُ المُراد بـ (أمّة واحدة) في آية البقرة وآية يونس؛ واتّفقوا على أنّ المُراد بها في آية هود هو الاتفاق في العقيدة والدّين؛ أيْ: أمّة واحدة على دينٍ واحد، بينما المُرادُ بـ (أمّة واحدة) في آية البقرة وآية يونس إمّا: وحدةُ الفطرةِ الّتي فطرَ الله النّاسَ عليها[4]، أو أنّ الله خلقَ النّاس أمّةً واحدةً؛ أيْ: مجتمعًا واحدًا

جَعْلُ النّاسِ أمّةً واحدةً في فطرتها وحاجتها للاجتماعِ لا يتعارضُ مع اختلافها في الدّين

(1) ابن جرير، جامع البيان: 15/534.
(2) ابن عطيّة، المُحرّر الوجيز: 3/215.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 15/534.
(4) دَرْوزة، التّفسير الحديث: 3/555.

مرتبطًا بعضه ببعض في المعاشِ، لا يسهلُ على أفراده أنْ يعيشوا في هذه الحياة الدّنيا إلّا مجتمعين يعاونُ بعضهم بعضًا، ولا يمكن أنْ يستغنيَ بعضهم عن بعض[1]، أو أنْ يكون المعنى أنّ النّاسَ كافّةً كانوا متّفقين على الحقّ والتّوحيد من غيرِ اختلاف، وذلك من عهدِ آدم عليه السلام إلى أنْ قُتل ابنُه وحدثَ الاختلاف فيما بعد[2].

بلاغة القصر في الآية الكريمة:

عـدمُ الاختـلافِ المذموم مقصورٌ على مَـنْ نالهم الـلـه تـعـالى برحمته

أتى البيانُ القرآنيّ بأسلوب الاستثناء بعد النّفي الّذي أفادَ القصرَ في قوله: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾، فقوله: ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾ استثناءٌ من ﴿مُخْتَلِفِينَ﴾، والمعنى: مَنْ رحمَ ربّك فإنّه لا يختلف[3]؛ أيْ: لا يعدِلُ عن الحقّ إلى الباطل، "فإنّه ناجٍ من الاختلاف بالباطل"[4].

والغرضُ البلاغيّ من هذا القصرِ هو تأكيدُ أنَّ عدمَ الاختلافِ المذموم - وهو العدول عن الحقِّ إلى الباطل - مقصورٌ على مَن رحمه اللّه تعالى، فهو من قصر الصّفة على الموصوف، وهو قصرٌ إضافيّ، والمقصور عليه هم أناسٌ رحمهم اللّه فعصمهم عن الاختلافِ فاتّفقوا على دينِ الحقّ غير مختلفين فيه، وأنّ مَنْ لم يرحمه اللّه فإنّه واقعٌ في الاختلافِ المذموم غير ناجٍ منه.

معنى ﴿مَن﴾ وغرضُها في ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ﴾:

مَـن ثـبـتَ على الـدّيـن الـحـقّ ولـم يـخـالـفْـهُ عَـصَـمَـهُ الـلـه مـن الاخـتـلافِ المذموم

﴿مَن﴾ في قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾ اسمٌ موصولٌ بمعنى الّذي، يفيدُ تعيينَ المُرادِ بمَنْ استثناهم البيانُ القرآنيّ، وأنّهم أناسٌ عَصَمَهُمُ اللّه عن الاختلاف، فاتَّفَقُوا عَلى دِينِ الحَقِّ غَيْرَ مُخْتَلِفِينَ

(1) رشيد رضا، تفسير المنار: 2/224.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/132، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/189.
(3) الزّجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 3/83.
(4) الجصّاص، أحكام القرآن: 4/380.

فيه[1]، وأفادَ العمومُ فيمَن استثناهم اللّه؛ أيْ: كلُّ مَن ثبتَ على الدّين الحقّ استحقَّ العصمةَ الإلهيّة من الاختلافِ المذموم.

موقع جملة: ﴿رَّحِمَ رَبُّكَۚ﴾:

وقعتْ جملةُ ﴿رَّحِمَ رَبُّكَۚ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَۚ﴾ صلةَ موصولٍ للاسم الموصول ﴿مَن﴾ لا محلَّ لها من الإعراب، وفيها إيماءٌ إلى وجهِ استحقاقهم للرّحمةِ لعدم عدولهم عن الحقّ الّذي يُفيده الاستثناءُ وسياقُ الآية.

المرحومون استحقّوا الرّحمة لعدم عدولهم عن الحقّ

نكتةُ التَّعبير بالماضي في ﴿رَّحِمَ﴾:

في قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَۚ﴾ جاءت صلة الموصول ﴿رَّحِمَ﴾ فعلًا ماضيًا مع أنّ رحمةَ اللّه للثّابتين على الدّين الحقّ تمتدّ إلى الحاضر والمستقبل (يوم القيامة)، دالٌّ على تحقّقِ الرّحمةِ لهم، إذ الرّحمةُ بهم لا تنحصرُ في الزّمنِ الماضي فقط.

رحمةُ اللّه بالثّابتين على الدّين الحقّ متحقّقةٌ لهم

علّةُ حذفِ مفعولِ ﴿رَّحِمَ﴾:

حُذفَ مفعولُ ﴿رَّحِمَ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَۚ﴾ إذ التّقديرُ: إلّا مَنْ رحمه ربّك، وذلك لأحد أمور: الإيذانُ بالعموم؛ أيْ: عموم مَنْ رحمهم ربُّك، فكلُّ مَنْ رحمَ ربُّك استثناهُ وعصَمَهُ من الاختلافِ المذموم، أو الإبهامُ؛ لقصدِ التّفخيم، فلم يُعيّن مَن هم الّذين رحمهم اللّه تفخيمًا لحالهم، أو الاختصارُ؛ لأنّ ﴿مَن﴾ في قوله: ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَۚ﴾ دلّتْ عليه، فلم يذكر المفعولَ به استغناءً بذِكْر ﴿مَن﴾ واختصارًا.

كلُّ مَنْ رحمهُ اللّه معصومٌ من الاختلافِ المذموم لعِظم شأنِه عندَ الرّبّ سبحانه

غرضُ تقديم مفعول ﴿رَّحِمَ﴾ المقدَّر:

قدّم البيانُ الإلهيّ المفعولَ به المُقدَّر في قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَۚ﴾، والتّقدير: (إلّا مَن رَحِمه ربُّك)؛ اهتمامًا بالمُقدّم وتكريمًا له

الرّحمةُ بالثّابتين على الحقّ محلُّ عنايةِ الرّبّ الرّحيم واهتمامه

(1) النّسفيّ، مدارك التّنزيل: 2/91.

وعنايةً به، وهو المستحقُّ للرّحمة، وتشويقًا للمؤخّر وهو الرّبُّ الرّحيمُ سبحانه، إذ إنّ النّفسَ عندما تسمعُ بمَن استحقّ هذه الرَّحمة تتشوّقُ لمعرفةِ إلى معرفةِ الرّاحم.

فائدتا الذِّكْرِ والإضافة في: ﴿رَبُّكَ﴾:

إحسانُ الله ورحمتُه لا ينفكّانِ عن النّبيّ ﷺ وعمّن اتّبعه

ذكَرَ البيانُ القرآنيّ لفظَ الرّبوبيّة ﴿رَبُّكَ﴾ الّذي جاء فاعلًا لفعلِ الرّحمة، وأضافهُ إلى ضمير النّبيّ ﷺ في قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾؛ للإشارةِ إلى مدى عنايتهِ وإحسانهِ ورحمتهِ ولطفهِ بالنّبيّ ﷺ، وبالمؤمنين، والمعنى: "إلّا مَن رحمَ ربّك المُحسنُ إليكَ بالتّأليفِ بينهم في جعْلِهم من أهل طاعتك، فإنّهم لا يختلفون في أصول الحقّ"[1]، وفي هذا تثبيتٌ له وطمأنةٌ لقلبه الشّريفِ وتشريفٌ له، ورفعةٌ لمنزلتهِ بإضافته إليه، وفيه إيماءٌ إلى أنَّ ربّك يا مُحمّد هو ربٌّ رحيمٌ يستحقّ العبادةَ من مَرْبُوبِه، وأنّ مَن رَحِمَهُ ربُّك هو مَنْ آمنَ بكَ، واتّبعَ سبيلك، كما أنّ في هذه الإضافةِ توكيدًا للمعاني السّابقة.

معنى الواو في ﴿وَلِذَٰلِكَ﴾:

في الواو تأكيدُ استمرارِ الاختلافِ، وزيادةُ بيانٍ لثمرته من الشّقاوةِ والسّعادةِ، أو بيان لعِلّتهِ

الواو في قوله تعالى: ﴿وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ عاطفةٌ؛ عطفتْ هذه الآية على قوله سبحانه: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾ بجامع أنَّ الآيتيْن تتحدّثان عن الاختلافِ في الدّين، إذ جاءتِ الآية المعطوفة ﴿وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ تأكيدًا لمضمون الآية المعطوف عليها ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾، وهو أنَّ الاختلافَ في الدّين دائمٌ بين النّاس؛ لأنّه من مقتضى ما جُبلتْ عليه العقولُ إلّا مَن رحمهم الله باختيارهم التّوحيد، وبتوفيقهم للكمال، إذ إنّ الإشارةَ في الآية المعطوفة إلى الاختلافِ المأخوذِ من الآيةِ المعطوف عليها[2]، مع زيادةِ بيانِ مآلِ هذا الخَلْق؛ أيْ: خَلَقَهم ليصيرَ أمرُهم إلى ثمرةِ الاختلافِ من

(1) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 9/401.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 12/189.

الشّقاوةِ والسّعادةِ أو بيانِ علّته؛ أيْ: وللاختلافِ خلقهم ليستعدَّ كلٌّ منهم لشأنٍ وعملٍ، ويختارَ بطبعه أمرًا وصنعةً.

معنى اللّام في قوله: ﴿وَلِذَٰلِكَ﴾:

اللّام في قوله: ﴿وَلِذَٰلِكَ﴾ تحتمل عدّة وجوهٍ:

الأوّل: لامُ العاقبة والصّيرورة[1] عند جمهورِ المفسّرين؛ على القولِ بأنّ اسمَ الإشارة يرجع إلى الاختلافِ، أو إلى مجموعِ الاختلاف والرّحمة؛ لأنّ حكمةَ خلقهم ليس هذا، لقوله سبحانه: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾ [الذّاريات: 56]، ولأنّهم لو خلقهم له؛ أيْ: للاختلاف؛ لم يعذّبهم على ارتكاب الباطل[2]، والمعنى: خلقَ النّاس وعاقبةُ خَلْقِهم الاخْتلافُ[3]، وإنْ لم يقصدْ بهم الاختلاف[4]، هذا إنْ كانتْ لام الصّيرورة بغير ذلك المحذوف المُقدّر (ثمرة)، ويمكن أنْ تكونَ اللّامُ في هذا المحذوف، والتّقدير: خلقهم ليصيرَ أمرُهم إلى ثمرةِ الاختلافِ من الشّقاوة والسّعادة[5].

وأمّا إنْ كان اسمُ الإشارةِ يرجعُ إلى الرّحمة فاللّامُ للتّعليل[6].

الثّاني: لامُ التّعليل؛ لأنّه لَمّا خلقهم على جِبلّةٍ قاضيةٍ باختلافِ الآراء والنّزعات، وكانَ مُريدًا لمقتَضى تلك الجبلّة، وعالمًا به؛ كان الاختلافُ علّةً غائيّةً لخَلْقهم[7]، والتّقديرُ: وللاختلاف خلَقَهُم ليستعدّ كلٌّ منهم لشأنٍ وعملٍ، ويختار بطبعه أمرًا وصَنعةً، فهم مَحاملُ لأمرِ اللّه رتّب بهم قوام الحياة الدّنيا، كما أنّ الفئةَ المرحومةَ مظاهرُ لكماله، أظهرَ اللّه بهم صفاته وأفعاله، وجعلهم مستودعَ حِكَمِهِ ومعارفه وأسراره[8].

خلقهم على جبلّةٍ قاضيةٍ بالاختلافِ ليختاروا ما تكون ثمرتُه سعادتهم أو شقاءهم

(1) نظير هذه اللّام قوله تعالى: ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ [القصص: 8].
(2) طنطاويّ، الوسيط: 7/294.
(3) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاوي: 10/239.
(4) ابن عطيّة، المُحرّر الوجيز: 3/216.
(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/227.
(6) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاوي: 10/239.
(7) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/190.
(8) القاسميّ، محاسن التّأويل: 6/141.

الثّالث: لامُ التّمكّين والاقتدار، أيْ أنّه ﷻ أقدَرَهم على قبولِ حكم الاختلاف ومكّنهم منه، كما في قوله تعالى: ﴿جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ﴾ [يونس: 67] والتّمكّن والاقتدار حاصل وإنْ لم يسكنْ بعضُ النّاس في اللّيل[1].

مرجع اسم الإشارة ﴿وَلِذَٰلِكَ﴾:

اختلفَ المفسّرون في عودِ اسم الإشارة في قوله تعالى: ﴿وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمۡۗ﴾ على ثلاثة أقوال:

خلقهم ليُظهرَ فضلهُ على مَنْ ثبّتهم، ويُظهرَ عـدْلـهُ فيـمَـنْ خذَلَهم

الأوّل: الإشارةُ إلى الاختلافِ؛ أيِ: المصدر المفهوم من اسم الفاعل ﴿مُخۡتَلِفِينَ﴾، إنْ كان الضّميرُ (هم) للنّاس، فكأنّه قيل: وللاختلافِ خُلق النّاس، ويكون على حذفِ مضاف؛ أيْ: لثمرةِ الاختلافِ من الشّقاوةِ والسّعادة[2]، أو من كونِ فريقٍ في الجنّة وفريقٍ في السّعير[3]، ويُرجّحه تمامُ الآية: ﴿وَتَمَّتۡ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ﴾[4].

الثّاني: الإشارةُ إلى الرّحمة؛ لأنّها أقربُ مذكور، إنْ كان الضّميرُ (هم) لـ(منْ)؛ فيكونُ التّقدير: إلّا مَن رحمَ ربّك، ولرحمتهِ سبحانه خلقَ النّاس. وصحَّ تذكيرُ اسم الإشارةِ مع عودته إلى الرّحمة؛ لكون تأنيثها غيرَ حقيقيّ.

الثّالث: الإشارةُ إلى مجموعِ الاختلافِ والرّحمة، والضّميرُ (هُمْ) للصّنفيْن؛ أيْ: (للنّاس) و(من)، لأنّه لا مانعَ من الإشارةِ بالمفرد إلى اثنيْن، كما في قوله تعالى: ﴿عَوَانُۢ بَيۡنَ ذَٰلِكَۖ﴾ [البقرة: 68] أيْ: بينَ الفارض والبكر، فيكون المعنى: وللاختلافِ والرّحمة خلَقَهُم، أيْ

(1) الرّازيّ، أنموذج جليل، ص: 213.
(2) رجح هذا القول ابن جرير، جامع البيان: 15/537.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط في التّفسير: 6/227.
(4) نجم الدّين الطّوفيّ، الإشارات الإلهيّة إلى المباحث الأصوليّة، ص: 346.

أنّه سبحانه خلقَ أهلَ الرّحمةِ للرّحمة، وأهلَ الاختلافِ للاختلاف، وقد رجّح هذا القولَ عددٌ من المفسّرين؛ لأنّه يَعمّ[1].

وهناك أوجهٌ أخرى ذكرها أبو حيّان، ثمّ قال: "ولولا أنَّ هذه الأقوالَ سُطّرتْ في كتبِ التّفسير لضربتُ عن ذِكْرها صفحًا"[2].

دلالة التَّعبير باسم الإشارة (ذلك):

حكمةُ تمكينهم من الاختيارِ حكمةٌ عظيمةٌ ورحمتُه سبحانهُ أعظمُ

عبّر البيانُ القرآنيّ باسم الإشارة (ذلك) في قوله تعالى: ﴿وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمۡۗ﴾ الّذي يُستعمل للبعيد؛ للإشارة إلى عظمةِ شأنِ المُشار إليه، فأنزلَ البُعدَ المعنويّ منزلة البُعدِ الحِسّيّ، وهو إمّا ثمرةُ الاختلاف من الشّقاوة والسّعادة، الّتي هي عاقبةُ تمكينِ النّاس من الاختيارِ لحكمةٍ عظيمة، أو الرّحمةُ الّتي خصّها اللّه بمَنْ ثبتَ على الدّين الحقّ.

نكتةُ التقديم في قوله ﴿وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمۡۗ﴾:

من مظاهرِ تكريم الله للإنسانِ أنّه أقْدَرَهُ على الاختيارِ ومكّنه منه

قدّم البيانُ الإلهيّ المعمول ﴿وَلِذَٰلِكَ﴾ على عامله ﴿خَلَقَهُمۡۗ﴾؛ للاهتمام بالعلّة الغائيّة في الآية، وهي كون الاختلافِ علّةً لخَلْقهم، لا لإفادة القصْرِ، والعلّةُ الغائيّةُ لا يلزمها القصر عليها، بل يكفي أنّها غايةُ الفعل، وقد تكون معها غاياتٌ كثيرة أخرى فلا ينافي ما هنا قوله: ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ٥٦﴾ [الذّاريات: 56][3].

فائدة حذف فاعل ﴿خَلَقَهُمۡۗ﴾:

الخَلقُ لا يَصلحُ ولا يكونُ إلّا لله سبحانه

لم يصرّحِ البيانُ الإلهيّ بفاعل ﴿خَلَقَهُمۡۗ﴾ وهو اللّه سبحانه في قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمۡۗ﴾ اختصارًا؛ إمّا لأنّ الخَلقَ لا يكونُ إلّا منه، أيْ أنّ هذا الفعلَ لا يصلحُ إلّا للّه سبحانه، ولا يكونُ إلّا منه، فلا ينصرفُ الذّهن فيه إلّا إليه سبحانه، ولذلك لم يُذكر الفاعل.

(1) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 9/115، وطنطاويّ، الوسيط: 7/294.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/228.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/190.

أو لأنَّ الفاعلَ ﴿رَبُّكَۚ﴾ قد ذُكر في سياق الآية؛ سواء في قوله: ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَۚ﴾؛ أو في قوله: ﴿وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ﴾.

فائدة الخبر ﴿وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمۡۗ﴾:

تعريفُ النّبيّ ﷺ بطبيعةِ خلقِ الإنسانِ إرشادٌ له في الدّعوةِ، وتسليةٌ لقلبه

أفادَ الخبرُ في قوله تعالى: ﴿وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمۡۗ﴾ تعريفَ المخاطَب وهو رسول الله ﷺ بالحُكم الّذي تضمّنته الجملة الخبريّة؛ وهو أنّ الله خلقَ النّاسَ على جبلّةٍ تُمكّنهم من اختيارِ ما يشاؤون من الإيمان أو الكفر، وفي هذا الإخبارِ إرشادٌ لرسولِ الله ﷺ في كيفيّة التّعامل مع النّاس، وتسليةٌ له إنْ لم يستطع أنْ يهديَ النّاس كلّهم إلى الصّراط المستقيم، وأنْ يُنقذهم من نارِ الجحيم.

بلاغة العطف قوله: ﴿وَتَمَّتۡ كَلِمَةُ رَبِّكَ﴾:

لم تُغنِ عنهم عقولُهم إذِ اختلفوا اختلافًا لا رحمةَ لهم فيه؛ فاستحقّوا النّقمةَ بعد النِّعمة

عطفَ البيانُ الإلهيّ قوله: ﴿وَتَمَّتۡ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ﴾ على جملتيْ: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخۡتَلِفِينَ﴾ و﴿وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمۡۗ﴾ بجامع أنّها تتحدّث عن موضوعٍ واحدٍ؛ وهو الاختلاف في الدّين، ولكن لمّا دلّتْ الآيتان ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخۡتَلِفِينَ ١١٨ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَۚ﴾ و﴿وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمۡۗ﴾ على أنَّ هذا الاختلافَ هو سببُ الكفرِ الّذي أرسل الله رسله بالقتال عليه ربّما ظنَّ ظانٌّ أنّه بغير مشيئته سبحانه، فبيّن أنّه إنّما هو بمُراده، فقال: ﴿وَتَمَّتۡ كَلِمَةُ رَبِّكَ﴾[1]، كما أنّ قوله: ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَۚ﴾ يُؤذن بأنّ المُستثنَى منه قومٌ مختلفون اختلافًا لا رحمة لهم فيه، فهو اختلافٌ مضادٌّ للرّحمة، وضدُّ النّعمةِ النّقمةُ، فهو اختلافٌ أوجبَ الانتقامَ، فعطفَ عليها ﴿وَتَمَّتۡ كَلِمَةُ رَبِّكَ﴾[2].

والمعنى؛ أيْ: فبادَروا إلى ما خلَقَهُم لهُ مُعرضين عن أوامره، ولم

(1) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 9/402.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 12/190.

تُغنِ عنهم عقولُهم، وتمّتْ حينئذٍ كلمةُ ربك وهي: وعزّتي ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ﴾؛ أيْ: الانتقام منهم[1].

بلاغة المجاز في قوله: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ﴾:

إسنادُ التّمام ﴿وَتَمَّتْ﴾ لكلمة الرّبّ ﴿رَبِّكَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ﴾ مجازٌ في الصّدقِ والتّحقّقِ؛ وهو مجازٌ لغويّ، إذ إنَّ حقيقةَ التّمام كونُ الشّيء وافرًا أجزاؤه، والنّقصان كونه فاقدًا بعض أجزائه، فاستُعير لحصولِ الشّيء، وتحقّقه كاملًا، يُقال: تمّ ما أخبرَ به فلانٌ، ويُقال: أتمّ وعدَه؛ أيْ: حقّقه[2]، والكلمةُ هنا تحتمل معنيَيْن؛ الأوّل: الكلامَ، فكلمةُ اللّه: تقديره وإرادته، وقد أطلقَ عليها (كلمةً) مجازًا؛ لأنّها سببٌ في صدورِ كلمة ﴿كُن﴾ [البقرة: 117] وهي أمرُ التّكوين، والتّقدير: صدقتْ وتحقّقتْ إرادةُ اللّه بأنّ جهنّمَ نصيبُ المختلفين في الدّين.

صدقتْ وتحقّقتْ إرادةُ الله وقولُه لملائكتِه بأنّ المختلفينَ في الدّين هم نصيبُ جهنّم

الثّاني: أنّه كلامٌ خاطبَ به الملائكةَ قبل خلقِ النّاس، وهو قوله: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾، والتّقدير: صدقَ وتحقّق كلامُ اللّه لملائكته ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾[3].

وبالتّالي: فالمُرادُ بتمام كلمةِ الرّبّ هو المعنى المجازيّ؛ وهو الصّدقُ والتّحقّق سواء لإرادة اللّه في أنْ تكون جهنّمُ نصيبَ الكافرين، أو لكلام اللّه لملائكته، وغرضُ هذا المجاز المبالغةُ في صدقِ قضائه وتحقّقه، وثباتِ حُكمه وإرادته الّتي لا تتخلّف.

نكتةُ الإضافة في قوله: ﴿كَلِمَةُ رَبِّكَ﴾:

أتى البيانُ القرآنيّ بمفردة ﴿كَلِمَةُ﴾ الّتي معناها: قضاؤُه النّافذ، وإرادُته الّتي لا تتخلّف، وحكمُه الأزليّ[4]، أو قوله للملائكة: ﴿لَأَمْلَأَنَّ

حُكمهُ أزليّ، وقضاؤُه نافذٌ، وإرادتُه لا تتخلّف باستحقاقِ العاصينَ جهنّم

(1) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 9/402.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/17.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/190 - 191.
(4) طنطاويّ، الوسيط: 7/295.

جَهَنَّمَ﴾[1]، وأضافَها إلى لفظِ الرّبوبيّة دون لفظ الألوهيّة في قوله تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ﴾؛ الّذي يدلُّ على الملك والتَّربية والرِّعاية والعناية والعطاء، وأنّه المستحِقُّ للعبادة، لمناسبتهِ للسّياق، إذ سياقُ الآياتِ في الاختلافِ في تقريرِ ربوبيّة اللّه وحده بلا شريك، والخضوع له دون منازع، فقضيّة الألوهيّة لم تكن محلَّ خلاف؛ إنّما الخلافُ في قضيّة الرّبوبيّة الّتي كانت تواجهها الرّسالات، وكذلك الرّسالة الأخيرة.

نكتةُ تكرار لفظ الرُّبوبيَّة مع الإضافة:

من مظاهرِ عنايةِ اللـه بالنّبيّ ﷺ تأكيدُ قهرِ أعدائه

كرّر البيانُ القرآنيّ لفظ الرّبوبيّة ﴿رَبُّكَ﴾ ثلاث مرات؛ في قوله: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ﴾، وقوله: ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾، وقوله: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ﴾؛ لكون هذا اللّفظ أنسبَ للسّياق من لفظ الألوهيّة كما سبق، وفي تكريره تأكيدُ ملْكه وتربيته ورعايته وعنايته وعطائه، وأنّه المستحقّ للعبادةِ وحده دون غيره.

وأمّا تَكرارُ إضافته في المرّة الثّالثة إلى ضمير النّبيّ ﷺ في: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ﴾؛ فهو لتأكيدِ عنايةِ اللّه بالنّبيّ ﷺ وتسليته، والإحسانِ إليه بحمايته من كيدِ الكافرين ومكرِهم، فقد تمّتْ فيهم كلمته، ونفذَ قضاؤُه، وثبتَ حكمُه الّذي أكّده وأقسمَ عليه[2]، والمعنى: وتمّتْ كلمةُ ربّك "المحسن إليك بقهرِ أعدائك الّتي سبقتْ في الأزل، وهي: وعزّتي ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾"[3]، وفيه إيماءٌ إلى أنّ سببَ استحقاقِ العاصين أنْ يكونوا ملءَ جهنَّم هو عدمُ إيمانهم بربّك وعبادته، وعدمُ اتّباع نهجك وشريعتك.

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/248.
(2) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 7/295.
(3) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 9/402.

نكتة فَصْلِ قولِه: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ﴾:

كَشْفٌ وتقريرٌ لكلمةِ الله الّتي لا تتغيّرُ ولا تتبدّل

فَصَل البيانُ الإلهيّ بين هذه الآية ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ والّتي قبلها ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ﴾، ولم يأتِ بالعاطف؛ لِما بينَ الجملتيْن من كمالِ الاتّصال؛ أي: الاتّحاد التّامّ في المعنى؛ بسبب كون قوله تعالى: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾ بيانًا للجملة قبلها ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ﴾، قال ابن عاشور: "وجملة ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ﴾ تفسيرٌ للكلمة بمعنى الكلام...، ويجوز أنْ تكون الكلمةُ كلامًا خاطبَ به الملائكةَ قبل خلقِ النّاس؛ فيكون ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ﴾ تفسيرًا لـ﴿كَلِمَةُ رَبِّكَ﴾"[1]؛ أيْ: تنزّل قولُه تعالى: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ﴾ منزلةَ عطفِ البيانِ من متبوعه ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ﴾؛ لإفادةِ الإيضاح، ومقتضى التّبيين أنَّ جملة ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ﴾ فيها نوعُ خفاءٍ، والمقامُ يقتضي إزالة هذا الخفاء وكشف كلمة اللّه الّتي تمّت، ولو أتى بالواو لم يُعطِ هذا المعنى؛ لِما في الواو العاطفة من إيهام التّغايرِ المُؤذِنِ بعدم كشفِ المعنى، والإعراضِ عن تقريره.

معنى اللّام في قوله: ﴿لَأَمْلَأَنَّ﴾:

قَسَمُ العظيم ﷻ قسَمٌ جليلٌ لا خُلْفَ فيه

اللّامُ في قوله ﴿لَأَمْلَأَنَّ﴾ لامٌ واقعةٌ في جوابِ قَسَمٍ مُقدَّر تفيدُ التّوكيد؛ توكيد ملءِ اللّه لجهنّم من عُصاةِ الإنس والجنّ، وخاصّةً الّذين يؤذون رسولَ اللّه ﷺ، وفي هذا تهديدٌ لكفّار قريش في زمن الرّسالة، ولكلِّ عاصٍ من الإنس والجنّ، وتسليةٌ لرسول اللّه ﷺ، وتثبيتٌ لقلبه، إذْ إنّ القَسَمَ من أهمّ أبوابِ التّوكيد، وأوسعِ درجاته.

فائدة توالي المؤكّدات في قوله: ﴿لَأَمْلَأَنَّ﴾:

في قضاءِ الله المؤكّد المحقّقِ النّافذِ تهديدٌ للكافرين وتسليةٌ لقلبه ﷺ

اشتملت لفظة ﴿لَأَمْلَأَنَّ﴾ على عدّة مؤكّدات، إذ فيها قَسَمٌ مطْويٌّ دلَّت عليه اللّام في ﴿لَأَمْلَأَنَّ﴾؛ فهي لامُ القَسَم، والتّقدير: واللّه

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/191.

لأملأنَّ، ونون التّوكيد الثّقيلة الملازمة للقَسَم، فهي أيضًا دالّةٌ على تأكيدِ وعيده[1]، إذ إنّها بمنزلةِ القَسَم، وبمنزلةِ تكرار الفعل، وهي تُفيد كذلك مع التّوكيدِ الشّمولَ والعمومَ عندما يكونُ الكلامُ لغير الواحد؛ أيْ: لأملأنّ جهنّم من عصاةِ الجِنَّة والنّاس كلّهم، وإضافةُ الفعل إلى ذاته الشّريفة بصيغة العَظَمَة هو ممّا يُلحَق بالمؤكّدات المعنويّة.

وفي توالي هذه المؤكّدات في كلمةٍ واحدة تأكيدٌ وتحقيقٌ لوعيده بإدخال عصاة الجِنَّة والإنس جهنّم؛ وغرضُ هذا التّأكيد هو تهديدهم، وحملهم على المسارعة إلى التّوبة، وتسليةٌ لقلبِ النّبيّ ﷺ، وتثبيتٌ له على الحقّ في ظلّ ما يواجه من شدائد، إذ بهذه المؤكّدات يزولُ أيّ شكّ عند المخاطَب في ملء اللّه النّارَ من هؤلاء المجرمين.

نكتة اختيار الامتلاء في: ﴿لَأَمۡلَأَنَّ﴾:

كثرةُ الدّاخلين في نارِ جهنَّم حتّى تمتلئ تهديدٌ وتخويفٌ

اختارَ البيانُ الإلهيّ مفردة الامتلاء دون غيرها مثل (لأُدخلنّ)؛ للدّلالة على كثرةِ مَن يختار الباطلَ من العصاة والكافرين؛ أيْ: كثرةُ الدّاخلين في نارِ جنّهم حتّى تمتلئ، فمادَّة (الامتلاء) تدلُّ على الكثرة، أمّا لفظ (أُدخلنّ) فلا يدلُّ على الكثرة، وبالتّالي لم تعطِ من المعاني ما أعطته لفظة ﴿لَأَمۡلَأَنَّ﴾، وفي هذا التَّعبير من التّهديدِ والتّخويفِ ما فيه.

فائدةُ التَّعبير بالمضارع في ﴿لَأَمۡلَأَنَّ﴾:

تصويرُ حالِ تتابعِ دخولِ العُصاةِ جهنّم حتَّى تمتلئ بهم مشهدٌ يُنفّرُ النّفس

عبّر البيانُ القرآنيّ بصيغة المضارع ﴿لَأَمۡلَأَنَّ﴾ الّتي تُفيد المستقبل في قوله تعالى: ﴿لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ﴾، ولم يأتِ بصيغة الماضي (مُلئت)؛ لأمورٍ:

الأوّل: لإمكانيّةِ التّوكيد بلام القَسَم الّتي لا تدخلُ على الفعل

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3776.

الماضي، وبنونِ التّوكيد الثّقيلة الّتي لا يُؤكّد بها الفعل الماضي مطلقًا، ولا تدخلُ إلّا على المستقبل[1].

الثّاني: الدّلالةُ على تتابع دخول عصاةِ الجنّ والإنس (النّاس)، قال تعالى: ﴿كُلَّمَآ أُلۡقِيَ فِيهَا فَوۡجٞ سَأَلَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَذِيرٞ ٨﴾ [الملك: 8]، وقال سبحانه: ﴿قَالَ ٱدۡخُلُواْ فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِكُم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ فِي ٱلنَّارِۖ كُلَّمَا دَخَلَتۡ أُمَّةٞ لَّعَنَتۡ أُخۡتَهَاۖ﴾ [الأعراف: 38]، وقد ورد في الحديث: «لا تَزالُ جَهَنَّمُ تَقُولُ: هلْ من مَزِيدٍ»[2].

الثّالث: تصويرُ هذا المشهد العظيم، واستحضارُ صورة امتلاءِ جهنّم - بعصاةِ الجنّ والإنس - الّتي لا يَعلمُ عمقها وسعتها إلّا اللّه، بما تحمله هذه الكلمة من التّهديدِ والتّخويف، وبما يُؤلمُ النّفس ويُنفّرها من أسبابِ دخول النّار.

معنى ﴿مِنَ﴾ في ﴿مِنَ ٱلۡجِنَّةِ﴾:

تحتمل ﴿مِنَ﴾ في قوله تعالى: ﴿مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾ وجهيْن:

الأوّل: تبعيضيّة؛ أيْ: لأملأنّ جهنّم من كِلا الفريقيْن[3]، لا لشمولِ جميعِ أفرادهما، والمقصودُ بالبعض عصاةُ الجنَّةِ والنّاس[4].

العُصاةُ من جنسِ الجِنَّة والنّاسِ هم حصَبُ جهنّم

الثّاني: "لبيانِ الجنسِ؛ أيْ: من جنسِ الجنَّةِ وجنسِ النّاس"[5]؛ أيْ: المقصود بيانُ جنسِ الدّاخلين في النّار أنّهم من جنسِ الجنّ والإنس.

دلالة (أل) في قوله: ﴿ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾:

(أل) التّعريف في قوله تعالى: ﴿ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾ تحتمل وجهيْن:

العذابُ مخصوصٌ بهم والوعيدُ ليس إلّا لهم

(1) ابن الأثير، البديع في العربيّة: 1/659.
(2) صحيح البخاريّ، كتاب: التّوحيد، باب: ما جاء في قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَحۡمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ مِّنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٥٦﴾ [الأعراف: 56] الحديث رقم: (7449)، ومسلم، صحيح مسلم، الحديث رقم: (2846).
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/191.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/248.
(5) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 9/115.

الأوّل: عهديّةٌ، والمُراد من الجِنَّةِ والنّاسِ عصاتهما، والقرينةُ على ذلك "عقليّة لِما عُلم من الشّرعِ أنّ العذابَ مخصوصٌ بهم، وأنّ الوعيدَ ليس إلّا لهم، ولا حاجةَ إلى تقدير مضاف (عُصاة) كما قيل، والتّأكيد بـ ﴿أَجْمَعِينَ﴾ حينئذٍ ظاهرٌ"[1]، وفي معنى ذلك ما قيل من أنّ المُراد بالجِنّة والنّاس: أتباع إبليس؛ لقوله تعالى: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾﴾، فاللّازمُ دخولُ جميع تابعيه في جهنّم، والقرآنُ يُفسّر بعضُه بعضًا[2].

الثّاني: جنسيّةٌ، تُفيدُ عمومَ الأصنافِ بأنَّ ملءَ جهنّم من الصّنْفيْن لا من أحدهما فقط، وهذا ما أفاده التّأكيد بـ ﴿أَجْمَعِينَ﴾؛ أيْ: تأكيدٌ لشمولِ تثنية كِلا النّوعيْن لا لشمول جميع الأفراد، وبذلك اندفعَ ما أُورِدَ على ظاهرها من اقتضائه دخول جميع الفريقيْن جهنّم، فبُطلانه معلومٌ بالضّرورة؛ لأنّ المُراد تعميم الأصناف، وذلك لا يقتضي دخول جميع الأفراد، كما إذا قلتَ: ملأتُ الجرابَ من جميع أصناف الطّعام، فإنّه لا يقتضي ذلك إلّا أنْ يكون فيه شيءٌ من كلّ صنفٍ من الأصناف، لا أنْ يكون فيه جميعُ أفراد الطّعام[3]، ولأنّ عمومَ الأفراد يُنافي معنى التّبعيض الّذي أفادته ﴿مِنَ﴾[4].

نكتة تقديم الجِنّة على النّاس في الآية:

قدّم البيانُ الإلهيّ ذِكْرَ الجنّ على الإنس، لأمور:

الأوّل: لكون الجنّ أسبقَ خَلْقًا[5].

الثّاني: مراعاةً للسّياق؛ فإنّ الحديثَ عن ملءِ اللّه لجهنّم،

من عدله سبحانه أنْ يُقدِّمَ لجهنمَ الأكثرَ والأسبقَ غوايةً ومَن هو سببٌ في دخولها

(1) القاسميّ، محاسن التّأويل: 6/141.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 6/358.
(3) القاسميّ، محاسن التّأويل: 6/143.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/191.
(5) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 9/403.

والجنُّ أكثرُ عددًا من الإنسِ، وأسبقُ غِوايةً منهم؛ بل إنّهم "أصلٌ في الشّرّ"[1]، وهم سببُ غوايةِ الإنسان.

الثّالث: مناسبةً لحالِ الجاهليّةِ من تعظيمهم الجنّ، واستعاذتهم بهم، وعبادتهم؛ فناسبَ البدء بعقابهم توبيخًا لعابديهم[2].

الرّابع: لكونِ تقديم الجنّ على الإنس هي عادة القرآن؛ حيثُ قُدّمت الجنُّ على الإنس في كلّ القرآن باستثناء كلٍّ من سورة الأنعام في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام: 112]، إذ قدَّم الإنسَ على الجنّ في هذه الآية؛ لأنَّ الآيةَ تُشير إلى أعداء الأنبياء، ومن المعروف أنَّ شياطينَ الإنسِ أكثرُ تعرُّضًا للأنبياء من شياطين الجنّ، وفي تتبُّع قصص الأنبياء وما حدث لهم من إيذاءٍ من أقوامهم شاهدٌ على ذلك، ولذا كان من المناسب تقديمُ الإنس على الجنِّ، وسورة الإسراء في قوله تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾ [الإسراء: 88]؛ لأنّ الحديث فيها عن إعجاز القرآن البلاغيّ؛ فالإنسُ أفصحُ.

فائدةُ التّوكيد بـ ﴿أَجْمَعِينَ﴾:

أكّدَ البيانُ القرآنيّ ما أخبر به اللّه سبحانه من أنّه يملأ نارَه من عصاةِ وكفّارِ الجِنّة والنّاس بذِكْر المؤكِّد المعنويّ ﴿أَجْمَعِينَ﴾؛ لأمرَيْن:

الأوّل: المبالغةُ في تأكيدِ تمام كلمةِ اللّه، وامتناعِها عن قبولِ التّغييرِ والتّبديل.

الثّاني: المبالغةُ في تحقيقِ العموم والشّمول في ملءِ جهنّم بعُصاةِ الجِنّة والنّاس أجْمَعِينَ من دون استثناء، إذ ربما يَظنُّ ظانٌّ أنّه من

العصاة كلُّهم من الجنِّ والإنسِ سيدخلون جهنّمَ وتمتلئُ بهم، لا يفرُّ منها أحدٌ

(1) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 9/403.
(2) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 8/173.

أحدهما، فأتى لفظ ﴿أَجْمَعِينَ﴾ ليؤكّد أنّه منهما أجْمَعِينَ لا من أحَدِهما فقط[1]، فالعصاةُ كلّهم من الجنّ والإنس سيدخلون جهنّم، وتمتلئُ بهم لا يفرُّ منها جبّارٌ، ولا نافخُ نار[2].

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الأُمّة والجَماعَة والطّائِفَة والفِرْقَة والحِزْب والفَوْج والفِئَة والزُّمْرَة:

(الأمّـــةُ) أوسعُ الألـفـاظِ دلالـةً فهي كلُّ جماعةٍ يجمعهم أمرٌ ما

تتقاربُ هذه الألفاظ في دلالاتها، فجميعها تشتركُ في معناها العام، وهو أنّها تعني جماعةً من النّاسِ كثيرةً أو قليلةً، ولا تدلُّ على عددٍ معيّن، ونجد ذلك التّقارب في المعاجم اللُّغويّة، إلّا أنّنا إذا أمعنّا النّظر في معانيها، وفي الاستعمال القرآنيِّ لها نجد أنّها تفترق عن بعضها بمعانيها الخاصّة، وذلك على النّحو الآتي:

الأُمَّةُ: تدلُّ على: الأصل، والمرجع، والجماعة، والدِّين، وهذه الأربعة متقاربة[3]، والأمّة: الصّنف من النّاس والجماعة[4]، وهي كلّ جماعة يجمعهم أمرٌ ما؛ إمّا دينٌ واحدٌ، أو زمانٌ واحدٌ، أو مكانٌ واحدٌ؛ سواء كان ذلك الأمر الجامع تسخيرًا، أو اختيارًا، وجمعها: أُمَم[5].

والجَماعَة: (جمع): يَدُلُّ عَلَى تَضامٍّ الشَّيْءِ[6]، والجمعُ: ضمُّ الشّيء بتقريبِ بعضه من بعض، والجَماعَةُ: عَدَدُ كُلِّ شيءٍ وكثرتُه[7]، والجماعةُ من كلّ شيءٍ يُطلَق على القليل والكثير[8]، والجماعةُ من النّاس: طائفةٌ من النّاس يجمعها غرضٌ واحد[9].

(1) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 9/115.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3776.
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (أمّ).
(4) ابن الجوزيّ، نزهة الأعين النّواظر، ص: 143.
(5) الرّاغب، المفردات: (أمم).
(6) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (جمع).
(7) الزّبيديّ، تاج العروس: (جمع).
(8) الفيوميّ، المصباح المنير: (جمع).
(9) مجمع اللُّغة العربيّة، المعجم الوسيط: (جمع).

والطّائِفَة: (طوف): يدلُّ على دورانِ الشّيءِ على الشّيء، وأنْ يحُفّ به، والطّائفةُ من النّاس كالفرقة والقطعة منهم، وطائفة: جماعةٌ تُطيفُ بالواحد أو بالشّيء، ولا تكادُ العرب تحدّها بعددٍ معلوم، قيل: إنّ الواحد طائفة، وقيل: أربعةٌ فما فوقها، وقيل: هي الثّلاثة، وقيل غير ذلك[1].

والفِرْقَة: أصل (فرق) يدلُّ على تمييزٍ وتزييلٍ بين شيئَيْن[2]، والفريق: الجماعةُ المنفردة عن آخرين، وهي بمعنى جزء أو طائفة[3]، والفِرقة: الطّائِفَة من الشَّيْء المتفرّق[4]، والفِرْقة من النّاس: الطّائِفة من النّاس المنفصلة عن غيرها[5].

والحِزْبُ: أصل (حزب) يدلُّ على تجمّع الشّيء، ومنه الحِزْبُ: الجماعة من النّاس[6]، وكلُّ طائفةٍ تكون أهواؤهم واحدةً فهم حزبٌ[7]، وحِزْبُ الرّجل: أصحابهُ وجُنْدُه الّذين على رأيه[8]، والحِزْبُ: جماعةٌ فيها غِلَظ[9]، والحِزْبُ: الجَماعَة المنفردون برأيهم عَن غَيرهم[10].

والفَوْج: أصل (فوج) يدلُّ على تجمّع، ومن ذلك الفَوْجُ: الجماعة من النّاس، وأفاجَ الرّجل: إذا أسرع، وأفواجًا: جماعات كثيرة[11]، والفَوْجُ: الجماعة المارّة المسرعة[12].

والفِئَة: أصلُ (فأو) يدلُّ على انفراجٍ في شيء[13]، والفَأْوُ: الشَّق، والصّدع في الجبل[14]، ومنه اشتقاقُ الفِئة، وهي: طائفةٌ من النّاس، والجمعُ: فئات وفِئونَ[15]، والفئة: الفرقةُ والجماعةُ من ناسٍ، أو من جيشٍ[16].

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (طوف).
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (فرق).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (فرق).
(4) ابن سِيده، المحكم والمحيط الأعظم: (فرق).
(5) السّمين الحلبيّ، عمدة الحُفّاظ: (فرق).
(6) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (حزب).
(7) الخليل، العين: (حزب).
(8) ابن منظور، لسان العرب: (حزب).
(9) الرّاغب، المفردات: (حزب).
(10) ابن الجوزيّ، نزهة الأعين النّواظر، ص: 116.
(11) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، وابن منظور، لسان العرب: (فوج).
(12) الرّاغب، المفردات: (فوج).
(13) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (فأو).
(14) ابن منظور، لسان العرب: (فأي).
(15) الخليل، العين: (فأو).
(16) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (فأو).

والزُّمْرَة: الزاي والميم والراء أصلان: أحدهما يدلُّ على قلّة الشّيء، والآخر جنسٌ من الأصوات، والزُّمْرَة: الجماعة، وهي مشتقّة من هذا؛ لأنّها إذا اجتمعت كانت لها جَلَبَةٌ وزِمار[1]، فـ(الزُّمْرَة) مَأْخُوذ من (الزَّمْر) الّذي هُو الصَّوْت، إذ الجَماعَة لا تَخْلُو عَنهُ، وهِيَ الجَماعَةُ القَلِيلَةُ[2]، والزُّمْرَة: الفوج من النّاس، والجماعة من النّاس[3].

ونخلُص ممّا سبق إلى أنّ أعمّ هذه الألفاظ وأوسعها دلالةً هي الأُمَّةُ، إذ تُطلق على كلّ جماعةٍ يجمعهم أمرٌ ما مشتركٌ بينهم.

وتأتي بعدها الجَماعَةُ فهي تدلُّ على اجتماع عددٍ من النّاس على غرضٍ واحدٍ، سواء أكان عددهم قليلًا أم كثيرًا.

بينما تتميّز الطّائِفَة بأنّها: الجماعةُ الّتي من شأنها الطّواف في البلاد للسّفر، أو الّتي تطوف حول مذهبٍ عامٍّ، وقد تكون قليلة[4].

وتتميّز الفِرْقَةُ بأنّها: الجماعة الكثيرة المنفردة عن آخرين، والطّائفة المنفصلة عن غيرها.

ويتميّز الحِزْبُ بأنّه: جماعةٌ تتحزّب على الأمر؛ أيْ: تتعاون[5]، وتكون أهواؤهم واحدة.

ويتميّز الفَوْجُ بأنّه: الجماعة الكثيرة[6] المارّة المسرعة.

وتتميّز الفِئَة بأنّها: الجماعة المتفرّقة من غيرها[7].

وتتميّز الزُّمْرَة بأنّها: الجماعة القليلة الّتي لها جَلَبَة وصوت لا يُفهم[8].

الاختلاف وما يقاربه في الدلالة:

هناك بعض التّقارب بين هذه الألفاظ (الاختلاف والتَّفاوت والتَّنازع والتَّجاذب والتَّفرُّق والفشل) في دلالاتها، كما أنّها تفترقُ عن بعضها في معانيها الخاصّة، وبيانُ ذلك:

الاختلاف: عدمُ الاجتماع على رأيٍ أو موقفٍ أو حكمٍ إلخ، كأنَّ كلًّا يذهب إلى

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (زمر).
(2) الزّبيديّ، تاج العروس: (زمر).
(3) مَجمع اللُّغة العربيّة، المعجم الوسيط، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (زمر).
(4) العسكريّ، الفروق اللُّغويّة، ص: 278.
(5) العسكريّ، الفروق اللُّغويّة، ص: 277.
(6) العسكريّ، الفروق اللُّغويّة، ص: 279.
(7) العسكريّ، الفروق اللُّغويّة، ص: 279.
(8) العسكريّ، الفروق اللُّغويّة، ص: 279.

ما جعله الآخر خَلْفه[1]، وكأنَّ كلّ واحدٍ يأخذ طريقًا غيرَ طريق الآخر في حاله أو قوله، والخِلاف أعمّ من الضّدّ، فكلّ ضدّيْن مختلفان، وليس كلّ مختلفيْن ضدّيْن كما أنَّ الاختلاف يُستعار للمنازعة والمجادلة[2].

الاختلافُ المذمومُ هو الّذي يؤدّي إلى التّنازعِ والتّفرّقِ والفشلِ

والتّفاوت: أصل (فوت) يدلُّ على ضدّ إدراك الشّيء، والوصول إليه، وتَفاوتَ الشّيئان: تباعد ما بينهما؛ أيْ: لم يُدرك هذا ذاك[3]، وفاته الأمرُ فوتًا: ذهبَ عنه، ويُفسّر التّفاوت أيضًا بـ الاختلاف[4].

والتَّنازُعُ: من النّزع، وهو يدلُّ على قلع شيء[5]، والتّنازع: التّناول والتّعاطي، والأصل فيه التّجاذب كالمنازعة، ويُعبّر بهما عن التّخاصم والمجادلة[6]، فالتّنازع: التّداول والجذب عمومًا[7].

والتَّجاذُبُ: أصلُ (جذب) يدلُّ على بَتْرِ الشّيء[8]، وجاذَبْتُه الشّيءَ: نازَعْتُهُ إيّاهُ، والتَّجاذُبُ: التَّنازُعُ، واجْتَذَبَه: سَلَبَه[9]، وجاذَبْتُه فَجَذبْتُه؛ أي: غَلَبْتُه، والانْجِذابُ: سُرْعةُ السَّيْرِ[10].

والتّفرّق: أصلُ (فرق) يدلُّ على تمييزٍ وتزييلٍ بين شيئَيْن، والتّفرّق: انفصال الشّيء عن الشّيء وتميّزه منه، والتّفريق ضدُّ التّجمّع[11]، والفريق: الجماعة المنفردة عن آخرين؛ وسائرُ ما في القرآن من التّركيب هو بمعنى التّفرّق والاختلاف والتّغاير[12].

(1) مجمع اللُّغة العربيّة، المعجم الوسيط، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (خلف).
(2) الرّاغب، المفردات: (خلف).
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (فوت).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (فوت).
(5) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (نزع).
(6) الزّبيديّ، تاج العروس: (نزع).
(7) الفراهيّ، مفردات القرآن، ص: 160.
(8) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (جذب).
(9) الزّبيديّ، تاج العروس: (جذب).
(10) ابن منظور، لسان العرب: (جذب).
(11) الزّبيديّ، تاج العروس، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (فرق).
(12) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (فرق).

والفَشَل: فَشِلَ الرّجلُ فَشَلًا: كَسِلَ وضعُف وتراخَى وجَبُن، والفَشَل: الفزعُ والجُبْن والضَّعْف[1]، فالفَشَلُ: ضعفٌ مع جُبن[2].

تبيّن من خلالِ الرجوعِ إلى معاني هذه الألفاظ أنّ لكلٍّ منها ما يُميّزه عن غيره:

وقد فرّق العسكريّ بين الاختلافِ والتّفاوتِ، فقال: "التّفاوتُ كلّه مذمومٌ، ولهذا نفاه اللّه تعالى عن فعله، فقال: ﴿مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍۖ﴾ [الملك: 3]، ومن الاختلافِ ما ليس بمذموم، ألا ترى قوله تعالى: ﴿وَلَهُ ٱخْتِلَٰفُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِۚ﴾ [المؤمنون: 80]، فهذا الضّربُ من الاختلافِ يكونُ على سَننٍ واحد، وهو دالٌّ على علم فاعله، والتّفاوتُ هو الاختلافُ الواقعُ على غيرِ سَنن، وهو دالٌّ على جهلِ فاعله"[3].

والفرق بين التّنازع والتّجاذب: التّنازع كالتّجاذب، إلّا أنَّ التّنازعَ فيه معنى التّخاصم والمجادلة والاختلافِ بين متخاصمَيْن، وهذا مذمومٌ أيضًا، بينما التّجاذب: يتميّز بأنّه تنازعٌ مع سرعة سلبِ الشّيء وكأنّه البتْر.

ويتميّز التّفرّق: بالانفصال والتّباعد، وزوال الاجتماعِ والأُلفة، وهو مذمومٌ، إذ يؤدّي إلى التّمزّق والعداوة.

ويتميّز الفشل: بأنّه ضعفٌ مع جُبنٍ، ويمكن أنْ يكونَ نتيجةَ الاختلافِ والتّنازعِ والتّفرّق، وهذا مذمومٌ أيضًا.

إذن: الاختلافُ المذموم يكون سببًا للتّنازعِ والتّفرّقِ والفشلِ.

(1) ابن منظور، لسان العرب، الزّبيديّ، تاج العروس: (فشل).
(2) الرّاغب، المفردات: (فشل).
(3) العسكريّ، الفروق اللُّغويّة، ص: 156.

﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِي هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾﴾ [هود: 120]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

في مناسبةِ هذه الآيةِ لما قبلها وجهان:

الأوّل: لَمّا أخبر سبحانه بما فعل بالقُرى الظّالمة، وحذّر كلَّ مَنْ فعلَ أفعالهم بسطوته في الدّنيا والآخرة، وأمرَ باتّباع أمره، والإعراضِ عن اختلافهم الّذي حكم به وأراده، لَمّا فعل ذلك عطف قولَه: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ﴾ على قوله: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ ۖ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾﴾ [هود: 100][1].

بيانٌ للحكمةِ من الإخبارِ بقصصِ الرّسلِ السّابقةِ واختلافِ النّاسِ في الدّين

الثّاني: لَمّا ذكرَ اللّه تعالى في هذه السّورة من أخبار الأنبياء؛ ذَكرَ الحكمة في ذِكرِ ذلك، فقال: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿نَّقُصُّ﴾: القافُ والصّادُ أصلٌ صحيحٌ يدلّ على تتبّع الشّيء، من ذلك قولهم: اقْتَصَصتُ الأثر، إذا تتبّعته[3]، والقَصُّ: تَتَبُّعُ الأثَرِ، والقصُّ فعلُ القاصّ إذا قصَّ القصص، وذلك لإتباعه خبرًا بعد خبر، وسَوْقِهِ الكلامَ سَوقًا[4]، ويُقال: قصّ عليه القصّةَ: رَواها، وقصَّ عليه الرُّؤْيا: أخبرهُ بها، وقصّ عليه الخبر قصًّا وقصصًا: أعلمهُ به وأوردهُ على وجهِه، والقاصُّ: مَن يأتي بالقصّةِ على وجهها، كأنّه يتتبّعُ معانيها وألفاظها، والقِصّةُ: الخبرُ ذو الأمورِ المتتالية[5].

(1) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 9/403.
(2) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 392.
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (قص).
(4) ابن منظور، لسان العرب: (قصص).
(5) الزّبيديّ، تاج العروس، ومجمع اللُّغة العربيّة، المعجم الوسيط، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (قصص).

والمعنى في الآية: نُخبرك من أنباء الرّسل[1].

2) ﴿نُثَبِّتُ﴾: الثّاءُ والباءُ والتّاءُ أصلٌ يُفيد دوامَ الشّيء[2]، يُقال: ثَبَتَ الشَّيْءُ يَثْبُتُ ثَباتًا وثُبُوتًا: دامَ واسْتَقَرَّ، وثَبَتَ بالمكان: أقامَ، وثَبَتَ الأمر: صحّ وتحقّق، وتَثْبِيت الفُؤادِ: تَسْكِينُ القَلْب[3]، والثَّبَتُ: الحُجَّةُ والبَيِّنَة، أثْبَتَ حُجَّتَهُ: أقامَها وأوْضَحَها، وثَبَّتَه عَن الأمرِ: كَثَبَّطَه[4]، والثَّباتُ: ضدّ الزّوال، والتّثبيتُ: التّقويةُ، يُقال: ثبَّتُّهُ؛ أيْ: قوّيتُه[5].

والمعنى في الآية؛ أيْ: نُقوّي ونُسكّن به قلبَكَ، ونزيده يقينًا وطمأنينة[6].

3) ﴿فُؤَادَكَ﴾: الفاءُ والألفُ والدّالُ أصلٌ صحيحٌ يدلُّ على حُمَّى وشِدَّةِ حرارةٍ، ومنه: الفُؤادُ، سُمِّيَ بذلك لحرارته، والفَأْدُ: مصدرُ فَأَدْتُهُ، إذا أصَبْتَ فُؤادَهُ[7]، والفُؤادُ: القلب؛ لكنْ يُقال له: فُؤادٌ إذا اعتبر فيه معنى التَّفَؤُّدِ؛ أيْ: التّوقّد[8]، وقيل: أصلُ الفأْدِ الحركة والتّحريك، ومنه اشتُقَّ الفُؤادُ، لأنّه ينبضُ ويتحرّك كثيرًا[9].

والمُراد بـ ﴿فُؤَادَكَ﴾: قلبك، وهو موافقٌ للمعنى اللّغويّ، ويُطلق على الإدراك كما هو الشّائع في كلام العرب، وتثبيتُ فؤاد الرّسول ﷺ زيادةُ يقينهِ ومعلوماتهِ بما وعده اللّه[10].

4) ﴿ٱلْحَقُّ﴾: الحاءُ والقافُ أصلٌ واحد يدلّ على إحكام الشّيءِ وصحّته، فالحقّ: نقيضُ الباطل[11]، وأصلُ الحقّ: المطابقةُ والموافقةُ، وجمعُهُ: حُقوق وحِقاق، وحَقَّ الأمر: وجَبَ، ومن معاني الحقّ: الصّدقُ، والعدلُ، والإسلامُ، وأمرُ النّبيّ ﷺ، وما أتى به من القرآن[12]؛ أيْ: كلّ ما طابقَ ووافقَ تعاليم الإسلام.

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/248.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (ثبت).
(3) ابن منظور، لسان العرب، ومجمع اللُّغة العربيّة، المعجم الوسيط: (ثبت).
(4) الزّبيديّ، تاج العروس: (ثبت).
(5) الرّاغب، المفردات: (ثبت).
(6) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/226، والقاسميّ، محاسن التّأويل: 6/143.
(7) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (فأد).
(8) الرّاغب، المفردات: (فأد).
(9) الزّبيديّ، تاج العروس: (فأد).
(10) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/192.
(11) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (حق).
(12) الزّبيديّ، تاج العروس، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (حق).

والمُراد بالحقّ في الآية: الشّيءُ الثّابتُ المطابقُ للواقع بما جرى، الّذي ليس فيه تغييرٌ ولا تحريفٌ[1]، والصّدقُ الّذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه[2].

5) ﴿وَمَوْعِظَةٌ﴾: الواو والعين والظّاء من الوعْظِ، وهو التّخويفُ، والعِظَةُ الاسم منه، والموعظةُ: النُّصحُ والتّذكيرُ بالعواقب[3]، وقيل: الوعْظُ: التّذكيرُ بالخير فيما يرقّ له القلب[4]، وقيل: الوعظُ: زجرٌ مقترنٌ بتخويفٍ، وعَظَهُ يَعِظَهُ: ذكّرَهُ بما يُلين قلبه من الثّواب والعقاب، والاتّعاظ: قبول الموعظة[5]، وكأنَّ الواعظَ يُذكّر ويُنبّه غيرَه إلى عواقبِ ما يفعله، أو ما هو مُقدِمٌ عليه ليتوقّف عنه، ويظهرُ وكأنّ الوعظَ خاصٌّ بالزّجر عمّا له عواقبُ سيِّئة، ثمّ عُمّمَ في الحضِّ على ما له ثواب[6].

والمُراد بـ ﴿وَمَوْعِظَةٌ﴾ في الآية: ذكرى تذكّركم عقابَ اللّه وتخوّفكم وعيده[7]، أو وصيّة بالحقّ والخير، واجتناب الباطل والشّرّ، بأساليب التّرغيب والتّرهيب الّتي يرقُّ لها القلب، فتبعث على الفعل أو التّرك[8].

6) ﴿وَذِكْرَىٰ﴾: ذَكَرْتُ الشّيءَ: خِلافُ نَسِيتُهُ، ثم حُملَ عليه الذِّكْرُ باللّسان، ويقولون: اجْعَلْهُ منكَ على ذُكْرٍ – بضمّ الذّال –؛ أيْ: لا تَنْسَهُ[9]، والذِّكْرُ: الحِفْظُ للشّيءِ تَذْكُرُه، والذِّكْرُ أيضًا: جَرْيُ الشّيءِ على لسانكَ، وأذْكَرَهُ إيّاه: ذَكَّرَهُ، والاسمُ: الذِّكْرَى؛ أيْ: اسمٌ للتّذكير، ويكون الذِّكْرَى بمعنى: الذِّكْرِ، ويكون بمعنى: التَّذَكُّرِ، والذِّكْرُ والذِّكْرى: نقيضُ النّسيان[10].

والمُراد في الآية: تذكيرٌ لِما يجب أنْ يتديّنوا به، ويجعلوه طريقهم وسِيرتَهم[11]، والإرشادُ إلى الأعمال الباقية الصّالحة النّافعة في الآخرة المحصّلة لِما هنالك من السّعادة[12].

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/229، والشّعراويّ، تفسير الشعراوي: 11/6776، وطنطاويّ، الوسيط: 7/295.
(2) الخطيب، التّفسير القرآني: 6/1225.
(3) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللُّغة: (وعظ).
(4) الرّاغب، المفردات: (وعظ).
(5) ابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس: (وعظ).
(6) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (وعظ).
(7) ابن جرير، جامع البيان: 15/104.
(8) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 11/122.
(9) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (ذكر).
(10) ابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس: (ذكر).
(11) القاسميّ، محاسن التّأويل: 6/142.
(12) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 18/413، والنّيسابوريّ، غرائب القرآن: 4/60.

❁ المَعْنى الإجْمالِيُّ:

سماعُ أخبارِ الأخيارِ تقويةٌ للعزائم وإعانةٌ على الاقتداءِ وتأييدٌ للحقِّ بذِكْرِ شواهِدِه

يُخبر اللّه تعالى ذِكْرُه بأنَّ كلَّ خبرٍ نقصُّه عليك - أيّها الرّسول - من أخبار الرّسل الّذين كانوا قبلك ممّا تحتاج إليه ممّا يُقوّي قلبَك، ويزيدُ يقينَك للقيام بأعباء الرّسالة، فلا تجزعْ من تكذيب مَن كذَّب بك من قومك، ومن ردِّهم عليك ما جئتَهم به، ولا يضِقْ صدرُك إذا علمتَ ما لقي مَن قبلك من رُسلي من أُممهم، وقد جاءك في هذه السّورةِ وما اشتملت عليه من أخبارٍ بيانُ الحقّ الّذي أنت عليه، وموعظةٌ من اللّه تعظُ بها الجاهلين به، وتُبيّن لهم عِبَرَهُ ممّن كفر به وكذّب رسله، ويتّعظ بها المؤمنون إذا سمعوا فيها ما نزل بالأمم من العذاب، وتذكرة تُذكّر المؤمنين باللّه ورُسُله، كي لا يغفُلوا عن الواجب للّه عليهم[1].

وتُرشدُ الآيةُ الكريمة إلى أنَّ الإخبار بقصص الأنبياء وأخذَ العبرة منها يُثبِّت القلوبَ ويُصبِّر النُّفوس كما صبر أولو العزم من الرّسل؛ لأنّ النّفوس تأنس بالاقتداء، وتنشط على الأعمال، وتريد المنافسة لغيرها، ويتأيد الحقّ بذِكْر شواهده، وكثرة مَن قام به، وتُرشد إلى أنَّ الاتعاظَ طريقُ الإيمان، ومَن لم يتّعظ بغيره فالبلاءُ في نفسه شديد، وهذا الاتّعاظُ للمؤمنين الّذين في قلوبهم رغبةٌ وتوجُّهٌ إلى الإيمان[2].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

المبالغةُ في توكيدِ أغراضِ أنباءِ الرّسل بعطفِ النّسق أو بالاستئناف أو بالجملة الاعتراضيّة

معنى الواو ودلالة ما بعدها في: ﴿وَكُلًّا﴾:

الواو في قوله تعالى: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ﴾ تحتمل ثلاثة أوجه:

الأوّل: أنْ تكون عاطفةً، عطفَ الإخبارِ على الإخبار، والقصّةِ على

(1) ابن جرير، جامع البيان: 15/539.

(2) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 392، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3778.

القصَّةِ، وفائدةُ العطف: توكيدٌ للمعنى الجامع، وهو الاعتبارُ بأخبار الأمم السّابقةِ مع أنبيائهم، وزيادةُ بيانٍ لأغراضِ هذه الأخبار بالتّهيئة لاختتام السّورة، وفذْلَكةٌ لِما سيق فيها من القصص والمواعظ[1].

الثّاني: أنْ تكون الواو استئنافيّةً؛ تأكيدًا لِما سبقها، والمعنى أنّ كلّ أنواعِ القصص الّتي قصّها الله عليه ممّا سبق في هذه السّورة من أحوالِ الأنبياءِ مع أقوامهم، وما حلّ بأقوامهم من العذاب، وكيف نصرَ الله أنبياءه؛ جاءتْ هذه القصصُ لتُثبّت قلبَه ﷺ، ولتُهدّد أعداءه.

الثّالث: أنْ تكونَ اعتراضيّةً؛ تقويةً للكلام الّذي اعترضتْ بين أجزائه وتوكيدًا لمعناه، إذ الاعتراضُ جارٍ عند العرب مجرى التّأكيد[2]، ومن سماتِ الجُملةِ الاعتراضيّة تقويةُ الكلام الّذي اعترضتْ بين أجزائه[3]، والمعنى أنّه بعد تهديدِ الكافرين بما حلّ بالأمم السّابقة لَمّا كذّبوا رسلهم، ولم يُوجد بينهم مَن له عقلٌ ينهى عن الفسادِ؛ أطنبَ البيانُ الإلهيّ بالجملة الاعتراضيّة؛ لتُبيّن أهميّة هذه الأخبار في تثبيت قلبِ النّبيّ ﷺ، وأمّته بما تحمله من مواعظ وعِبَرٍ، وليعلنَ رسولُ الله بعد ذلك لكفّار قريشٍ مهدّدًا ﴿ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ إِنَّا عَٰمِلُونَ ١٢١ وَٱنتَظِرُوٓاْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾.

نكتةُ تقديم المفعول ﴿وَكُلًّا﴾:

﴿وَكُلًّا﴾ منصوب على المفعوليّة للفعل ﴿نَّقُصُّ﴾، والتّقدير: نقصُّ عليك كلًّا من أنباءِ الرّسل، وقد قدّمه البيانُ الإلهيّ على فعله؛ للمبالغةِ في الاهتمام، والتأثيرِ في نفسِ السّامع؛ "إذ الأهمّ قصّتُه لا القصّة نفسها"[4]، ولِما فيه من الإبهام؛ ليأتي بيانه بعدهُ فيكونَ أرسخَ في ذهنِ السّامع[5].

كلُّ نبأٍ من أنباءِ الرّسل مهمٌّ في طريقِ دعوته ﷺ ومواجهته الكافرين

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 12/191.
(2) ابن جِنِّيّ، الخصائص: 1/336.
(3) ابن هشام، مُغنِي اللّبيب، ص: 306، ومُوصل الطّلّاب، ص: 55.
(4) القُونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 10/240.
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 12/191.

وذلك كلّه تأكيدٌ لمضمون كلِّ نوعٍ من أنواع هذه الأنباء العظيمة، وما تحمله من أغراضٍ إيمانيّة وتربويّة تُثبّتُ قلبَ النّبيّ ﷺ.

دلالة تنوين ﴿وَكُلًّا﴾:

جاء تنوين ﴿وَكُلًّا﴾ عوضًا عن المضاف إليه المحذوف المبيّن بقوله: ﴿مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ﴾، والتّقدير: (وكلُّ نبأٍ عن الرّسلِ نقصّهُ عليك)، فقوله: ﴿مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ﴾ بيانٌ للتّنوين الّذي لحقَ ﴿وَكُلًّا﴾.

فالتّنوينُ في هذا المقام تنوينُ العِوض، إذ عُوِّضَ هذا التّنوين عن كلمة (نبأ)، والتّقدير: نقصُّ عليك كلَّ نبأ من أنباء الرّسل مع أُمَمهم صالحيهم وفاسديهم، وهذا يدلّ على العموم الّذي قُصد به هنا: التّفخيم[1].

كلُّ نبأٍ من أنباءِ الرّسلِ عظيمٌ في شأنهِ وأثرِهِ في طرقِ دعوتهِ ﷺ

نكتة التّعبير بالمضارع ﴿نَّقُصُّ﴾:

عبّر البيانُ الإلهيُّ عن القصّ في قوله تعالى: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ﴾ بصيغة المضارع ﴿نَّقُصُّ﴾؛ لأمريْن:

الأوّل: الدّلالةُ على استمرارِ نزول القصصِ القرآنيّ على النّبيّ ﷺ، واستمرارِ تلاوته إلى قيام السّاعة؛ لحاجتهِ ﷺ، وحاجةِ أمّته إلى التّثبيت.

الثّاني: تصويرُ مشهد نزولِ القصص القرآنيّ، واستحضارُ صورته بما يحمله هذا الاستحضار من زيادة تثبيتٍ لقلبِ النّبيّ ﷺ، وبما يُظهره من رعاية اللّه للنّبيّ ﷺ.

استمرارُ أثرِ القصص النّبويّ القرآنيّ في حياته ﷺ وحياةِ أمّته من بعده

لطيفةُ نون العظمة في ﴿نَّقُصُّ﴾:

جاء فعل (القصّ) في قوله تعالى: ﴿نَّقُصُّ﴾ بصيغة الجمع، وفاعله هو اللّه ﷻ؛ للتّعظيم؛ أيْ: تعظيمُ هذه الأنباء، وما تحمله من عِبَرٍ لها أثرٌ عظيمٌ في تثبيتِ قلبِ النّبيّ ﷺ، وقلبِ أمّته

ما يخبرُ به العظيمُ سبحانهُ عظيمُ المكانةِ والأهميّة والأثرِ، وهو حقٌّ لا مِرْيةَ فيه

(1) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 9/403.

إلى أنْ تقومَ السّاعة في الدّعوة إلى اللّه، وبالتّالي تأكيدُ إثبات صدقها وحقّيّتها.

وكذلك تعظيمُ مَن تتنزّل عليه ﷺ، وتعظيمُ أمّته المتمسّكةِ بكتابِ ربّها المتّخذةِ منه مصدر العِبَر والعِظات.

فائدةُ التعدّي في ﴿نَّقُصُّ عَلَيۡكَ﴾:

أنباءٌ عظيمةٌ لها شأنٌ خاصّ في تنزّلها على قلبِ النّبيّ ﷺ

عدَّى البيانُ القرآنيّ فعْلَ القصّ في قوله تعالى: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ﴾ بحرف الجرّ (على) الّذي يفيدُ معنى الاستعلاء، مع أنّه كان يمكن أنْ يقول: (وكلًّا نقصّ من أنباء الرّسل)، إلّا أنّه عدّاه بـ (على) وأضافه إلى ضمير النّبيّ ﷺ؛ وفي ذلك تخصيصٌ وتشريفٌ للنّبيّ ﷺ بأنّ قصَّ أنباءِ الرّسل كان على النّبيّ خاصّةً عن طريق أمين الوحي جبريل عليه السلام الّذي يتنزّل على النّبيّ ﷺ؛ أيْ: لم يكن وحيًا مناميًّا، وهذا فيه إشارةٌ إلى عظيم شأنِ هذه القصص المُنزّلة من اللّه سبحانه، وعظيم غرضها وثمراتها، وعلوّ مكانتها عند اللّه سبحانه.

معنى ﴿مِنۡ﴾ في ﴿مِنۡ أَنۢبَآءِ﴾:

(مِن) بين الابتدائيّة والتّبعيضيّة والبيانيّة

يحتمل حرفُ الجرِّ ﴿مِنۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ﴾ ثلاثةَ معانٍ:

الأوّل: ابتداءُ الغاية؛ أيْ: نقصُّ عليك مبتدئين بأنباء الرّسل.

الثّاني: التّبعيضيّة[1]؛ والمعنى: كلَّ نبأٍ نقصّه عليك من بعض أنباء الرّسل.

الثّالث: البيانيّة؛ أيْ: بيانٌ لـ (كلّ)، والمعنى: نقصّ عليك كلّ أنباء الرّسل[2] الّذين قصّهم القرآن، لقوله تعالى في آية أخرى:

(1) القُونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 10/240.
(2) النَّسفيّ، مدارك التّنزيل: 2/91.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ [غافر: 78].

سرُّ اختيار النبأ في ﴿مِنْ أَنۢبَآءِ﴾:

أنباءُ الرّسل أنباءٌ عظيمةٌ صادقةٌ لم يكنْ النّبيُّ يعلمُ بها قبل إعلام الله له

عبّر البيانُ القرآنيّ بمادّة النّبأ في مفردة ﴿أَنۢبَآءِ﴾ في قوله تعالى: ﴿مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ﴾، دون مادّة الخبر، فلم يَقُل: (من أخبارِ الرّسل)؛ إشارةً إلى عِظم شأنِ ما احتوى عليه القرآن عمومًا وسورة هود خصوصًا من أخبار الرّسل العظيمةِ جدًّا[1] الصّادقةِ، الحقِّ، المطابقةِ لِما جرى دون تغيير أو تحريف[2]، "ذات الشّأن كدعوتهم إلى التّوحيد، وردّ أقوامهم، ومعاندتهم، ثم نزول الهلاكِ بهم، بعد أنْ استيئسَ الرّسل"[3]، إذ النّبأُ هو الخبرُ الّذي له شأنٌ عظيم، ومنه اشتقاقُ النّبوّة؛ لأنّ النّبيّ ﷺ مُخبِرٌ عن اللّه تعالى، ويدلُّ عليه قوله تعالى: ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ۝١ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ ۝٢﴾ [النّبأ: 1 - 2]، فوصْفُه بالعَظَمَةِ وصفٌ كاشفٌ عن حقيقته، قال الرّاغب: "النّبأ خبرٌ ذو فائدةٍ عظيمةٍ يحصل به علمٌ أو غلبةُ ظنّ، ولا يُقال للخبرِ: نبأٌ حتّى يتضمّن هذه الأشياء، وحقُّ الخبرِ الّذي يُقالُ فيه نبأٌ أنْ يتعرّى عن الكذبِ كالتّواتر"[4]، وهذا بخلافِ الخبرِ الّذي قد يكونُ عظيمًا وله فائدةٌ، وقد لا يكون، وقد يكونُ صادقًا، وقد لا يكون، كما أنّ النّبأ لا يكون إلّا للإخبارِ بما لا يعلمهُ المُخبَر، ويجوز أنْ يكون الخَبَرُ بما يعلمهُ وبما لا يعلمهُ[5]، وقصصُ الرّسل الّتي قصّها اللّه على النّبيّ ﷺ هنا في هذه السّورة لم يكنْ يعلمها النّبيُّ ﷺ؛ فناسبَ التّعبير بـ (النّبأ) دون (الخبر).

(1) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 9/403.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/229.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3778.
(4) الرّاغب، المفردات: (نبأ).
(5) العسكريّ، الفروق اللُّغويّة، ص: 41.

معنى (أل) في ﴿ٱلرُّسُلِ﴾:

قصَّ الله على رسوله بعض أنباء الرّسل، إذْ لم يقصَّ عليه جميعَ أنبائهم

أل التّعريف في قوله تعالى: ﴿مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ﴾ عهديّةٌ؛ ومعهودها ذهنيّ، دلَّ عليه قوله تعالى: ﴿وَرُسُلٗا قَدۡ قَصَصۡنَٰهُمۡ عَلَيۡكَ مِن قَبۡلُ وَرُسُلٗا لَّمۡ نَقۡصُصۡهُمۡ عَلَيۡكَۚ﴾ [النّساء: 164] أيْ: ليست جنسيّةً تعمُّ جميعَ الرّسل؛ لأنّ اللّه لم يقصّ على رسوله أنباءَ جميعِ الرّسل، وبذلك لا يقتضي اللّفظ قصّ أنباءِ جميعِ الرّسل.

معنى ﴿مَا﴾ في ﴿مَا نُثَبِّتُ﴾ وإعرابها:

تحوم حول الموصوليّة والمصدريّة والتّأكيد

تحتمل ﴿مَا﴾ في قوله ﴿مَا نُثَبِّتُ﴾ ثلاثة أوجه:

الأوّل: اسمٌ موصولٌ بمعنى الّذي في محلِّ نصبِ بدلٍ من ﴿وَكُلًّا﴾[1]، والمعنى: نقصّ عليك كلَّ نبأٍ من أنباءِ الرّسل الّذي نثبّت به فؤادك.

أو مفعول به[2]، وكُلًّا منصوب على المصدر، بمعنى كلّ نوعٍ من أنواعِ الاقتصاصِ نقصُّ عليك الّذي نُثبّتُ به فؤادك من أنباءِ الرّسل[3].

أو خبر لمبتدأ محذوف، والمعنى: هو ما نثبتُ به فؤادك[4].

وفائدةُ الاسم الموصول على إعرابها (بدل، مفعول به، خبر) هي التّنبيهُ على المقصود من الاقتصاص، وهو زيادةُ يقينه، وطمأنينة قلبه، وثباتُ نفسه على أداء الرّسالة، واحتمال أذى الكفّار[5].

الثّاني: مصدريّة، والمعنى: نقصّ عليك من أنباءٍ تثبيتًا لفؤادك.

الثّالث: للتّأكيد، والمعنى: نقصّ عليك كلّ نبأٍ نُثبّتُ به فؤادك.

(1) درويش، إعراب القرآن: 4/446.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/228.
(3) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/152.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/228.
(5) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/152.

دلالةُ التَّعبير بالمضارع ونون العَظَمة في ﴿نُثَبِّتُ﴾:

عظمةُ المثبِّتِ سبحانه تأكيدٌ لإثباتِ الموعودِ وتحقُّقِه؛ وهو استمرارُ تثبيتِ قلبه الشّريف ﷺ

عبَّرَ القرآنُ بصيغةِ المضارعِ ﴿نُثَبِّتُ﴾ في قوله تعالى: ﴿نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾؛ للدّلالة على استمرارِ وتَجدُّدِ أثر هذه الأخبار العظيمة بما تحمله من زيادةِ يقينه ﷺ، وطمأنينةِ قلبه، وثباتِ نفسه على أداءِ الرّسالة وتحمُّلِ أعبائها، فكلّما أعادَ ذِكْر قصصِ الأنبياء وأحوالِ أممهم معهم؛ زادَهُ ذلك تذكُّرًا وعلمًا بأنَّ حالَه جارٍ على سنَنِ الأنبياء[1]، وذلك لأنَّ الفعلَ المضارع له دلالته الخاصّة؛ فهو يدلُّ على حدوثِ الشّيء بعد أنْ لم يكن، ويُعبّر عنه بالتجدُّد الحدوثيّ، بخلاف ما لو عبّر بالاسم فقال: (مثبّتين به فؤاده) فإنّه لا يدلّ إلّا على الثّبوت، بمعنى إثباتِ الشّيءِ للشّيء، وفي هذا إشارةٌ إلى كثرةِ ما تحتويه هذه الأنباءُ من دلائلَ وفوائدَ لها الأثرُ الكبير في تثبيت قلبه ﷺ؛ "لأنّ تكاثر الأدلّة أثبتُ للقلب"[2].

كما أنّ التَّعبيرَ بصيغةِ المضارعِ يفيدُ تصويرَ مشهدِ التّثبيت لفؤاده الشّريف والتّسكين، بما يُظْهِرُ للنّبيّ ﷺ فضلَ اللّه عليه وعلى أمّته.

وجاءَ بصيغةِ الجمعِ مُسنَدًا إلى نون العظمة ﴿نُثَبِّتُ﴾ مع أنَّ اللّه واحدٌ أحدٌ؛ لأمرَيْن:

الأوّل: ليُشعرَ بعظمة الرّبوبيّة بما يُفيد التّأكيد لإثبات الموعودِ وتحقُّقِه، وهو تثبيتُ قلبه الشّريف، والمبالغة في التّنبيه والاهتمام بهذه الأنباء.

الثّاني: المبالغةُ في تعظيم هذا التّثبيت، إذ هو من المَلِكِ المالكِ القادرِ الحيّ القيّوم سبحانه، وتعظيم أثره، وتعظيم مَن تنزّل عليه ﷺ، وتعظيم أمّته المعتبرة والمتّعظة به؛ أيْ: نقصُّ عليك ما نثبّتُ بعظمتنا به فؤادك.

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 12/191.
(2) النَّسفيّ، مدارك التّنزيل: 2/91.

معنى الباء في ﴿بِهِۦ﴾:

الباء في قوله تعالى: ﴿مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَۚ﴾ سببيّةٌ، والمعنى: نُطمئنُ فؤادك، ونزيدُ يقينك بسبب ما نقصُّه عليك من أخبار الأنبياء العظيمة قبلك؛ لأنّ "المشاركةَ في الأمور الصّعبةِ تُهوّنُ على الإنسانِ ما يَلْقى من الأذى، والإعلامَ بعقوباتِ المُكذّبين فيها تأنيسٌ للمكروب"[1].

دلالةُ حرفِ الباء على السّببيّة بيانٌ لأثرِ قصص الأنبياء في زيادةِ ثباتِ قلبه الشّريف

نكتة التقديم في قوله: ﴿مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَۚ﴾:

قدّمَ البيانُ القرآنيّ المُسندَ وهو شبه الجملة ﴿بِهِۦ﴾ على المُسندِ إليه ﴿فُؤَادَكَۚ﴾ في قوله تعالى: ﴿مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَۚ﴾؛ اهتمامًا بقصصِ القرآنِ، وتأكيدَ أنَّ اللّه هو الّذي يُثبِّت قلبَ النّبيِّ ﷺ بما يقصُّه عليه من أخبار الرّسل، وأنَّ هذه الأخبار هي مصدرُ الحقِّ والموعظة والذّكرى للمؤمنين، وأخّرَ ﴿فُؤَادَكَۚ﴾ تشويقًا.

التقديمُ اهتمامٌ بالمُقدَّم وتشويقٌ للمؤخَّر

بلاغة الاستعارة في قوله: ﴿نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَۚ﴾:

شبَّه البيانُ الإلهيّ الفؤادَ في قوله تعالى: ﴿نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَۚ﴾ بشخصٍ يسكنُ ويثبتُ بعد اضطرابٍ وتزلزُلٍ، فحذفَ المُشبَّه به، وأبقى شيئًا من لوازمه؛ وهو السّكونُ في المكان، إذ إنّ حقيقةَ التّثبيتِ هي التّسكين في المكان بحيث ينتفي الاضطرابُ والتّزلزلُ، فالاستعارةُ مكنيّة.

في الاستعارةِ تقريرٌ لثباتِ قلبِ النّبيّ ﷺ وزيادةُ يقينه

وغرضُ الاستعارةِ تقريرُ ثباتِ قلبهِ ﷺ، "وهو ها هنا ليسَ للشَّكّ، ولكن كلّما كانت الدّلالةُ والبرهانُ أكثرَ؛ كان القلبُ أثبتَ، كما قال إبراهيم عليه السلام في قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن لِّيَطۡمَئِنَّ قَلۡبِيۖ﴾ [البقرة: 260]"[2]؛ أيْ: زيادةُ يقينه ومعلوماته بما وعدَه اللّه؛ لأنّ كلَّ ما يُعاد ذِكْرهُ من قصصِ الأنبياءِ، وأحوالِ أُممهم معهم يزيدهُ تذكّرًا وعلمًا بأنَّ حالَه جارٍ على سنَنِ الأنبياءِ قبله[3].

(1) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 9/404.
(2) الزّجّاج، معاني القرآن: 3/84.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/191.

غرضُ العطف في قوله: ﴿وَجَآءَكَ﴾:

ثمرةُ القصصِ الحقِّ هو نتاجُ حقّيّتها وصدقها

عطفَ البيانُ الإلهيّ قوله: ﴿وَجَآءَكَ فِي هَٰذِهِ ٱلۡحَقُّ﴾ على قوله: ﴿وَكُلّٗا نَّقُصُّ عَلَيۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَۚ﴾ إتمامًا للمعنى؛ بأنّه لَمّا بيَّن أنّ كلّ ما قُصَّ عليه من أخبارهم يستلزمُ هذا المقصود وهو تثبيتُ قلبه ﷺ؛ بيّن أنّ هذه الثّمرة - وهي تثبيتُ قلبهِ الشّريف - إنّما هي نتاجُ صدقِ القصصِ القرآنيّ وحقّيّته ومطابقته للواقع؛ أيْ: أنّه ليس كما يُعلّل به غالبًا من الأخبارِ الفارغةِ، والأحاديثِ المزخرفةِ الباطلةِ، ولا ممّا ينقلهُ المؤرّخون مشوبًا بالتّحريف، فقال: ﴿وَجَآءَكَ فِي هَٰذِهِ﴾ أي: الأخبار ﴿ٱلۡحَقُّ﴾؛ أي: الكاملُ في الثّباتِ الّذي لا مريةَ فيه[1].

سرُّ اختيارِ المجيء في قولِه: ﴿وَجَآءَكَ﴾:

مجيءُ الحقّ إلى رسولِ ﷺ إتيانٌ عظيمٌ محقّقٌ بعيدٌ عن عواملِ النّقص

آثرَ البيانُ الإلهيّ استعمالَ مفردةِ المجيء دون الإتيانِ في قوله تعالى: ﴿وَجَآءَكَ فِي هَٰذِهِ ٱلۡحَقُّ﴾؛ فلم يَقُل: (وأتاك ...)؛ لأمور منها:

- أنّ المجيءَ أوسعُ دلالةً من الإتيانِ، فهو تمامُ الإتيانِ؛ فإنّ الإتيانَ إذا اكتملَ، وبلغَ مقصده من مكانٍ أو زمانٍ أو شخصٍ؛ أصبحَ مجيئًا، وكلُّ مجيءٍ إتيانٌ، وليس كلُّ إتيانٍ مجيئًا.

- ولأنّ المجيءَ يُستعمل فيما عَظُم شأنه، أمّا الإتيانُ فهو مجيءٌ بسهولة[2]، فناسبَ هنا التَّعبير بفعل (جاءك) مع عظم الحقّ وشموله.

- ولأنّ المجيءَ أنسبُ للسّياق، إذ المجيءُ يُقال اعتبارًا بالحصول، فهو إتيانٌ مُحقّقٌ بعيدٌ عن عواملِ النّقص؛ من نفيٍ أو شرطٍ أو عموم بلا تفاصيل، أو استفهام، أو رجاءٍ، أو احتمالٍ.. أو غير ذلك، أمّا الإتيانُ فقد يُقال باعتبارِ القصد وإنْ لم يكن منه الحصول[3]،

(1) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 9/404.
(2) الرّاغب، المفردات، ص: 60.
(3) الرّاغب، المفردات، ص: 212.

والسّياقُ هنا سياقُ تحقُّقٍ؛ فالقرآنُ قد نزل على رسوله ﷺ، والتّثبيتُ به قد تحقّق لرسول الله ﷺ، وكونه حقًّا وموعظةً وذكرى أمرٌ واقعٌ بعيدٌ عن عواملِ النّقص.

نكتة التّعبير بـ ﴿فِي﴾:

التَّعبيرُ بالظّرفيّة تأكيدٌ لتغلغلِ الحقّ وتمكُّنه في أخبارِ الرّسلِ

عبّر البيانُ القرآنيّ بـ ﴿فِي﴾ الظّرفيّة في قوله تعالى: ﴿وَجَآءَكَ فِي هَٰذِهِ ٱلۡحَقُّ﴾؛ تأكيدًا لتغلغلِ وتمكّن واستقرارِ الحقّ في هذه السّورة القرآنيّة (سورة هود)؛ فقد كانت أوفى بأنباءِ الرّسل من السُّور النّازلةِ قبلها، أو بتغلغلِ الحقّ في الآية الّتي قبلها، وهي قوله: ﴿فَلَوۡلَا كَانَ مِنَ ٱلۡقُرُونِ مِن قَبۡلِكُمۡ أُوْلُواْ بَقِيَّةٖ يَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡفَسَادِ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [هود: 116] إلى قوله: ﴿مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ﴾، إذ إنَّ هذه الآياتِ الثّلاث أوّل ما نزل في شأن النّهي عن المنْكر[1]، أو لتغلغله وتمكّنه فيما قصَّ عليه من أخبار الرُّسل، وأنّها ليستْ من الأخبارِ الفارغة، والأحاديثِ المزخرفةِ الباطلة، ولا ممّا ينقلهُ المؤرّخون مشوبًا بالتّحريف، بل هي الحقُّ الكاملُ في الثّبات[2]، وقد جاء الظّرف هنا تأكيدًا لتثبيت قلبِ النّبيّ ﷺ، وذلك لعظم المقصود من قوله تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعۡضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدۡرُكَ﴾ [هود: 12][3].

سببُ التقديم في قوله: ﴿وَجَآءَكَ فِي هَٰذِهِ ٱلۡحَقُّ﴾:

المقصودُ بيانُ منافعِ السّورة وتأخيرُ ما حقّه التّقديم لتبقى النّفس مترقّبة إليه

قدّم القرآنُ الكريم شبه الجملة (الظّرف) ﴿فِي هَٰذِهِ﴾ على الفاعل ﴿ٱلۡحَقُّ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَجَآءَكَ فِي هَٰذِهِ ٱلۡحَقُّ﴾؛ "لأنّ المقصودَ بيانُ منافعِ السّورة، أو الأنباءِ المقصوصة فيها، واشتمالها على ما ذُكر من المنافعِ المفصّلة، لا بيان كون ذلك فيها لا في غيرها، ولأنَّ عند تأخير ما حقّه التّقديم تبقى النّفس مترقّبة إليه؛ فيتمكّن

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/192.
(2) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 9/404.
(3) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 9/404.

فيها عند الورود فضلَ تمكُّنٍ، ولأنَّ في المؤخَّر نوعَ طولٍ يُخلُّ تقديمُه بتجاوبِ أطرافِ النّظم الكريم"[1].

نكتة اسم الإشارة القريب ﴿هَٰذِهِ﴾:

سورةٌ عظيمةٌ قريبةٌ من قلبِ النّبيّ ﷺ وقلبِ أمّته

الهاء: للتّنبيه؛ وذا: اسم إشارة للقريب، وفي استعمال القرآن اسم الإشارة ﴿هَٰذِهِ﴾ الدّال على القريب تشريفٌ وتعظيمٌ لهذه السّورة، وقرب منزلتها ومكانتها من النّبيّ ﷺ، وهذا القربُ معنويٌّ؛ فهي قريبةٌ منه ﷺ في منزلتها ومكانتها؛ لِما أتى فيها من أنباءٍ عظيمة من أنباء الرّسل الّتي ثَبّتَتْ قلبَ النّبيّ ﷺ، ولو لم تكن قريبةً لَما ثبّتتْ قلبهُ الشّريف، وخاصّةً أنها أوفى السّور بأنباء الرّسل من السّور النّازلة قبلها.

وكذلك القربُ مادِّيٌّ؛ فقد كانتْ تتنزّل على قلبهِ الشّريف، ويتلوها على أصحابهِ ﷺ، وفي هذا القربِ المعنويّ والمادِّيّ ترغيبٌ في التّمسكِ بها، والعكوفِ على تلاوتها، وما جاء به من الحقّ، والاتّعاظ والذّكرى، ولذا سأل أبو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ رضي الله عنه النّبيَّ ﷺ: «يا رسولَ اللّه قد شِبتَ! قالَ: شيَّبتني هودٌ، والواقعةُ، والمُرسَلاتُ، وعمَّ يتَساءَلُونَ، وإذا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ»[2].

كما أنّ القرآنَ الكريم كثيرًا ما يُشيرُ باسم الإشارةِ إلى القريب عندما يقصّ قصصًا أو يخبرُ عن حدثٍ، كقوله تعالى في سورة آل عمران بعد أنْ ذكر قصّة مريم وعيسى وزكريا عليهم السلام: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ﴾ [آل عمران: 62]، وقوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: 9]، وقوله: ﴿إِنَّ فِى هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ ﴿١٠٦﴾﴾ [الأنبياء: 106].

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/248.

(2) أخرجه التّرمذيّ، السّنن، الحديث رقم: (3297) واللّفظ له، وابن سعد، الطّبقات الكبرى، الحديث رقم: (1180)، والحاكم، المُستَدرَك على الصّحيحيْن، الحديث رقم: (3314)، وصحّح إسناده الألبانيُّ في صحيح التّرمذيّ، الحديث رقم: (3297).

سرُّ التخصيصِ بالحقّ في الآية:

التّخصيصُ تأكيدٌ وزيادةُ تشريفٍ وتفضيلٍ

خصّصَ البيانُ القرآنيّ سورة هود بوصفها بالحقّ - والقرآن كلُّه حقٌّ - في قوله تعالى: ﴿وَجَآءَكَ فِي هَٰذِهِ ٱلۡحَقُّ﴾ على قول مَن فسّر اسم الإشارة بالسّورة؛ لعدّة أوجه:

الوجه الأوّل: أنَّ ذلك يتضمّن معنى الوعيد للكَفَرة، والتّنبيه للنّاظر فيها؛ أيْ: جاءك في هذه السّورة الحقّ الّذي أصابَ الأمم الظّالمة، وهذا كما يُقال عند الشّدائد: جاءَ الحقّ، وإنْ كانَ الحقّ يأتي في غيرِ شديدةٍ[1].

الوجه الثّاني: تأكيدٌ، ومعنى الكلام: "وجاءك في هذه السّورة الحقّ مع ما جاءك في سائرِ سورِ القرآن"[2]، إذ "بعضُ الحقّ أوكدُ من بعضٍ في ظهوره عندنا، وخفائهِ علينا، لا في عينه"[3].

الوجهُ الثّالث: زيادةُ تشريفٍ للسّورة بالتّخصيص، ورفعًا لمنزلتها، وزيادةَ تفضيلٍ لها مع مشاركة غيرها إيّاها في ذلك، كما في قوله تعالى: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلۡوُسۡطَىٰ﴾ [البقرة: 238][4]؛ لكونها جمعتْ من قصص الأمم الماضية ما لم يكن في غيرها[5].

معنى (أل) في ﴿ٱلۡحَقُّ﴾:

(أل) التّعريف في قوله تعالى: ﴿ٱلۡحَقُّ﴾ تحتمل وجهيْن:

تعريفُ الحقِّ تشريفٌ لماهيّته وتسليةٌ للنّبيّ ﷺ بالحقّ الّذي يعرفه

الأوّل: جنسيّةٌ استغراقيّةٌ؛ تفيدُ العمومَ، أيْ هو حقٌّ بالنّسبة إلى كلّ أحد[6]، فالحقّ هو الأمر الثّابت، وهو الحقّ الكاملِ التّامّ الّذي لا حقَّ فوقه؛ لأنّه ثابتٌ صادقٌ، مُنزّلٌ من اللّه سبحانه لا يتغيَّر، وفيه التّثبيتُ والموعظة، والتّذكّر الدّائم[7].

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/229.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 15/543.
(3) الزّجّاج، معاني القرآن: 3/85.
(4) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 9/116، والإيجيّ، جامع البيان: 2/208، والرّازيّ، أنموذج جليل، ص: 215، والهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 13/276.
(5) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 13/276.
(6) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 9/404.
(7) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3779.

ولكنّ حَملَ الحقّ على الجنسِ فيه إشكالٌ، إذ إنّ حقيقته تستلزم انحصار كلّ حقٍّ في هذه السُّورة؛ وهو مُنتفٍ، فيكون مجازًا عن التّفضيل والتّشريف، إلّا إذا قلنا إنَّ الإشارة بـ ﴿هَٰذِهِ﴾ إلى الدّنيا لا إلى السّورة، وهذا بخلاف قول جمهور المفسّرين[1]، قال عنه الرّازيّ: "هذا بعيدٌ غيرُ لائقٍ بهذا الموضع"[2]؛ لأنّه لم يجرِ للدّنيا ذكرٌ حتّى يعودَ الضّمير لها[3].

الثّاني: عهديّة والمعهود ذهنيّ؛ إشارةً إلى حقٍّ معهودٍ للنّبيّ ﷺ، إمّا بأن كان يَتَطَلَّبُهُ، أو يسألُ ربَّه[4]، وفي هذا إرشادٌ وتسليةٌ للنّبيّ ﷺ ممّا هُو معروفٌ معهودٌ عنده، ولذا عُرّف الحقّ دون أخويّهِ (موعظةٌ وذكرى)[5].

والتّعريف للحقّ سواء كانت اللّام جنسيّةً أو عهديّةً دون تالِيَيْهِ (موعظةٌ وذكرى) فيه تفخيمٌ له؛ لكونه يُطلَقُ على الله تعالى بخلاف تالِيَيْهِ[6].

بلاغةُ الاستعارةِ في قولِه: ﴿وَجَآءَكَ فِي هَٰذِهِ ٱلۡحَقُّ﴾:

شبَّه البيانُ الإلهيُّ الحقَّ في قوله تعالى: ﴿وَجَآءَكَ فِي هَٰذِهِ ٱلۡحَقُّ﴾ بشخصٍ يجيء، فحذف المُشبَّه به، وأبقى شيئًا من لوازمه وهو المجيء، فالاستعارةُ مكنيّة.

الحقُّ كائنٌ يجيءُ إليكم ليعظكم ويحُضّكم على الإيمان

إذ من الممكن أنْ يقول: (قد جاءك جبريلُ بالحقّ)، ولكنّه عدلَ عن ذلك؛ لأنّ في تعبيره بالاستعارة تصويرٌ للحقّ، وكأنّه قد تجسّد وصارَ له مجيء، رغم أنّ الحقّ هو آيات، وأرادَ الله تعالى بذلك أنْ يُعطيَ الحقَّ صورةَ الحركةِ الّتي تُؤثّر وتحضّ على الإيمان.

(1) الرّازيّ، أُنموذج جليل، ص: 216.
(2) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 18/412.
(3) الشّربينيّ، السّراج المنير: 2/86.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/193.
(5) القُونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 10/241.
(6) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 13/276.

دلالة التّعبير بـ ﴿وَمَوْعِظَةٌ﴾:

بينَ كمالِ وعظٍ فيه تخويفٌ وترقيقٌ وقوّةُ دلالةٍ وتأكيدٍ يكمنُ الأثرُ العظيم

عبّر البيان القرآنيّ بمادة الوعظ في قوله تعالى: ﴿وَمَوْعِظَةٌ﴾؛ إشارةً إلى كمالِ بلاغةِ الخطابِ القرآنيّ، بأنْ جمعَ بين "تخويفٍ وترقيقٍ يحملان على الامتثال"[1]؛ بالإضافة إلى مناسبةِ هذه المادّة للقصص القرآنيّ الّتي جاءتِ الموعظةُ ثمرةً من ثمراته، إذ إنّ مادّة الوعظ تتضمّن معنى النّصحِ وإرادةِ الخير بالطّرف الآخر مع الزَّجْر المُقترِن بالتّخويف، والتّذكير من سوءِ عاقبةِ مَن لم يعملْ بها، فهي وصيّةٌ بالخير والبُعد عن الشّرِّ بلفظٍ مؤثّر، وبذلك كانتْ أوسعَ دلالةً على المطلوب من مفرداتها مثل: (الهداية أو الوصيّة)، إذ الهداية تكون بلطفٍ، والوصيّةُ قد تكون بلفظٍ مؤثّرٍ، وقد تكون بلفظٍ غير مؤثّر.

وأمّا بلاغةُ التَّعبير بصيغتها فتتمثّل في قوة الدّلالة، وزيادة تأكيد أثر هذه الموعظة في نفوس المؤمنين، إذ إنّه عبّر عن الوعظِ بالمصدر الميميّ (مَوْعِظَةٌ) دونَ المصدر القياسيّ الأصليّ (وعْظ)؛ والمصدر الميميّ فيه قوّةُ دلالةٍ على الحَدَث، وهو هنا مجيءُ الموعظةِ، وفي هذا تشريفٌ لمنزلةِ الوعظ.

غرضُ تنكيرِ ﴿وَمَوْعِظَةٌ﴾ و﴿وَذِكْرَىٰ﴾:

الموعظةُ والذِّكرى عطاءٌ من العظيم سبحانه؛ والعطاءُ من العظيم لا يكون إلّا عظيمًا

التّنكيرُ في ﴿وَمَوْعِظَةٌ﴾ و﴿وَذِكْرَىٰ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ يفيدُ التّفخيمَ والتّعظيم[2]؛ فالموعظةُ والذّكرى اللّتان جاءتا في القرآن، أو سورة هود من ربٍّ مالكٍ أمْرَ النّاس هي عظيمةٌ لا يُكْتَنَهُ كُنهها، ولا يُحدُّ حَدُّهُا، ولا يُقدّرُ قَدْرُها، ففضلُها كبيرٌ، وأثرُها عظيمٌ، وخيرُها لا ينقطعُ.

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 5/108.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 12/193.

فائدةُ تقديم الموعظة على الذّكرى:

الموعظةُ تسبقُ التّذكّرَ فهي سببٌ له

قدّم البيانُ القرآنيّ الموعظةَ على الذّكرى في قوله تعالى: ﴿وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾؛ لأنَّ التّذكير لا يكونُ إلّا بعدَ الموعظة الّتي من شأنها أنْ تُرقّق القلوبَ بما تسمعه من التّرغيب والتّرهيب، كقصصِ إهلاكِ الأمم الماضية، والقرونِ الخالية المُكذِّبة، وهذا من باب تقديم السّببِ على المُسبَّب، أيْ إنّ الموعظة قُدّمت على الذّكرى؛ لكونها سببًا في التّذكّر، وبالتّالي كانت هي الأسبق.

معنى اللّام في ﴿لِلْمُؤْمِنِينَ﴾:

الذّكرى تَنفَعُ المؤمنين دونَ غيرهم لأنّهم أرادوا الانتفاعَ

اللّامُ في قوله: ﴿وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ لامُ الاختصاص؛ خَصَّ المؤمنين بالذّكرى؛ لأنّهم وحدَهم الّذين ينتفعون بالذّكرى[1]، فهم المُتّعظون إذا سمعوا قصصَ الأنبياء، أو تنفعهم الذّكرى؛ لكونهم المُتأهّلين للاتّعاظ والتّذكّر[2]؛ لقوله تعالى: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٥٥﴾ [الذّاريات: 55]، ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ۝٤٤﴾ [الزّخرف: 44]، ومن خواصِّ القرآن: أنّه يستعملُ (ذكرى) في سياقِ الدّعوة والتّبليغ، ويستعملُ (ذكرى) في سياقِ الهدايةِ الفرديّة[3].

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

القلب والفؤاد:

القلبُ مُضغةٌ في الصّدرِ مُتقلّبةٌ بالأفكارِ، والفؤادُ وعاءُ القلبِ متحرّقٌ متحرّك

القلب: أصلُ (قلب) يدلُّ على رَدِّ شيءٍ من جِهةٍ إلى جِهةٍ، أو على خالصِ الشّيءِ وشريفه (باطنُ الشّيءِ ولُبُّه)[4]، ومنه قلبُ الإنسان؛ وهو الجارحةُ والمُضغةُ المعروفةُ الّتي في الصّدر، فهي أشرفُ ما في الإنسان وأخلصه[5]، وسُمّي بذلك لكثرةِ تقلّبه، ويُعبَّر بالقلبِ عن

(1) السّربينيّ، السّراج المنير: 2/86.
(2) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 9/116، والشّوكانيّ، فتح القدير: 2/606.
(3) الهلال، تفسير القرآن الثّريّ: 12/115.
(4) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (قلب).
(5) الزّبيديّ، تاج العروس، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (قلب).

العقلِ، وعن المعاني الّتي تختصّ به من الرّوح والعلم، والشّجاعة وغير ذلك[1].

والفؤادُ: أصله يدلّ على حُمَّى وشِدَّةِ حرارةٍ، وسُمِّيَ بذلك لحرارته[2]، والفُؤادُ: القلبُ، لكنْ يُقال له: فُؤادٌ إذا اعتُبر فيه معنى التَّفَؤُّدِ؛ أيْ: التّوقّد[3]، وقيل: أصله من الحركةِ والتّحريك، ومنه اشتُقَّ الفُؤادُ، لأنّه ينبضُ ويتحرّك كثيرًا[4].

نلاحظ أنَّ العلماءَ قد عرّفوا القلبَ بالفؤاد، والفؤادَ بالقلب، ولا يكادون يُفرّقون بينهما، قال الرّاغب: "الفُؤادُ كالقلب، لكن يُقال له: فُؤادٌ إذا اعتُبر فيه معنى التَّفَؤُّدِ؛ أيْ: التّوقّد"[5]، وقال الأزهريّ: "وقيل: القلوبُ والأفئدةُ قريبان من السّواء... وقال بعضهم: سُمِّيَ القلبُ قلبًا لتقلّبه، وسُمِّيَ الفؤادُ فؤادًا لتحرّقه على مَن يُشفق عليه"[6].

ومن العلماء مَن ذكر فروقًا بينهما، ومن هذه الفروق: أنّ القلب مضغةٌ من الفؤاد مُعلّقةٌ بالنِّياط، وأنّ القلب أخصُّ من الفؤادِ لحديث: «أتاكُمْ أهلُ اليمنِ هم أرقُّ قلوبًا وألينُ أفئدةً»[7]، فوصفَ القلوبَ بالرِّقّة، والأفئدةَ باللّين[8].

وأمّا الفؤادُ: فقيل: هو وعاءُ القلب، وقيل: داخله، وقيل: غشاؤه، والقلبُ: حبّتُه[9].

الموعظة والنُّصح:

الموعظةُ والنّصحُ متقاربان في المعنى، وكلاهما يشتركان في

الموعظةُ زجرٌ وتخويفٌ من سوءِ العاقبة، والنّصحُ صدقٌ وإخلاصٌ للمنصوح له

(1) الرّاغب، المفردات: (قلب)، والفِيروزابادي، بصائر ذوي التّمييز: 4/289.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (فأد).
(3) الرّاغب، المفردات: (فأد).
(4) الزّبيديّ، تاج العروس: (فأد).
(5) الرّاغب، المفردات: (فأد).
(6) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة: (قلب).
(7) صحيح البخاريّ، كتاب المغازي، باب قدوم الأشعريّين وأهل اليمن، رقم: 4388، ومسلم، صحيح مسلم، برقم: (52).
(8) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة: (قلب)، والفِيروزابادي، بصائر ذوي التّمييز: 4/289.
(9) الزّبيديّ، تاج العروس: (فأد).

معنى إرادة الخير بالطّرف الآخر وإرشادِه إلى ما فيه صلاحه، إلّا أنَّ هناكَ ما يتميّز به كلٌّ منهما، ويظهرُ ذلك من خلالِ الرّجوعِ إلى المعنى اللّغويّ، وإلى الاستعمال القرآنيّ لكلٍّ منهما:

فالموعظةُ في اللُّغة: التّخويفُ والتّذكيرُ بالخير وما يرقّ له قلبه[1]، والنُّصح والتَّذكير بالعواقب[2]، وقيل: زجرٌ مقترنٌ بتخويف[3]، وكأنّ الواعظ يُذكّر ويُنبّه غيرَه إلى عواقب ما يفعله، أو ما هو مُقدِمٌ عليه ليتوقّف عنه، ويظهر وكأنّ الوعظ خاصٌّ بالزّجر عمّا له عواقب سيّئة، ثمّ عُمّم في الحضّ على ما له ثوابٌ[4].

والنُّصْحُ: أصله يدلُّ على مُلاءَمَةٍ بين شيئَيْن وإصلاحٍ لهما، والنُّصْح: خِلافُ الغِشّ[5]، نَصَحَ الشّيءُ: خَلَصَ، وكلّ شيءٍ خَلَصَ فقد نَصَحَ؛ ونَصَحْتُ لَهُ نَصيحتي؛ أيْ: أَخْلَصْتُ وصَدَقْتُ، والنُّصْحُ: مَصْدَرُ نَصَحْتُه[6]، والنّصيحة: إرادةُ الخيرِ والصّلاح للمنصوح له وإرشاده له، فهو قولٌ فيه دعاءٌ إلى صلاحٍ، ونَهيٌ عن فسادٍ[7].

إذن: تتميّز الموعظة بالزّجرِ المُقترنِ بالتّخويفِ، والتّذكيرِ من سوءِ عاقبةِ ما هو مُقدِمٌ عليه ليتوقّف عنه.

بينما يتميّز النُّصْحُ: بالصّدقِ والإخلاصِ للمنصوحِ له.

(1) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللُّغة: (وعظ).
(2) ابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس: (وعظ).
(3) الرّاغب، المفردات: (وعظ).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (وعظ).
(5) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (نصح).
(6) ابن منظور، لسان العرب: (نصح).
(7) الزّبيديّ، تاج العروس، ومجمع اللُّغة العربيّة، المعجم الوسيط: (نصح).

﴿وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ إِنَّا عَٰمِلُونَ ١٢١ وَٱنتَظِرُوٓاْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ١٢٢﴾ [هود: 121- 122]

مُناسَبَةُ الآيَتينِ لما قَبْلَهُما:

بعدَ التّرغيبِ والتّرهيبِ جاء بالتّهديدِ والوعيد

لَمّا بلغَ الغايةَ في الإعذارِ والإنذار، والتّرغيبِ والتّرهيبِ، أتبعَ ذلك بالتّهديد والوعيد؛ بأنْ قال للرّسول: ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ﴾[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مَكَانَتِكُمۡ﴾: المعنى المحوريّ لـ (مكن) رسوخُ الشّيء متجمّعًا في باطنٍ يلتئم عليه، ومنه المكانة بمعنى الرّسوخ في أثناءِ الشّيء، وهذا يُعطي المعرفةَ به، والثّباتُ يُعطي القُدْرةَ أيضًا[2]، والمَكان عند أهل اللّغة: الموضعُ الحاوي للشّيء[3]، والمكانة: المنزلَة، ورفعة الشَّأْن، والتُّؤَدَةُ[4]، يُقال: مَرَّ على مَكانَتِه؛ أيْ: تُؤَدَتِه، وفلانٌ يعملُ على مَكِينَتِه؛ أيْ: اتِّئادِه، والمَكِنَةُ إنّما هي بمعنى التَّمَكُّنُ، وفي التّنزيل العزيز: ﴿ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ﴾؛ أيْ: على حِيالِكُم وناحِيَتِكُم، وقيل: معناه: على ما أنتم عليه مُسْتَمْكِنُونَ[5].

والمُراد في الآية: أيْ: على طريقتكم الّتي تتمكّنون من العمل عليها[6]، وحالكم وجهتكم الّتي أنتم عليها من الغيّ والضّلال[7].

2) ﴿وَٱنتَظِرُوٓاْ﴾: النّون والظّاء والرّاء أصلٌ صحيح يرجع

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 18/43، وابن عادل، اللُّباب في علوم الكتاب: 10/604.
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (مكن).
(3) الرّاغب، المفردات: (مكن).
(4) مجمع اللُّغة العربيّة، المعجم الوسيط: (مكن).
(5) الزّبيديّ، تاج العروس: (مكن).
(6) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 3/592.
(7) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/249، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3779.

فروعه إلى معنى واحد، وهو تأمّل الشّيء ومعاينته، ثم يُستعار ويتّسع فيه، يقولون: نَظَرْتُهُ؛ أيْ: انْتَظَرْتُهُ، كأنّه ينظرُ إلى الوقت الّذي يأتي فيه[1]، والنَّظَر: الانْتِظار، يُقال: نظرتُ فلانًا وانْتَظَرتُه، بمعنًى واحدٍ، إذا ارتقبتَ حضوره[2]، وأنْظَر الشَّيْء: أخّرهُ وأمْهله، وانْتظره: ترقّبه وتوقّعه وتأنّى عليه[3]، والنّظر: الإمهالُ، والانتظارُ المأخوذُ اشتقاقيًّا من التّرقُّب والتّفحّص في المواجهة[4]، والمُرادُ في الآية موافقٌ للمعنى اللُّغويّ.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

يقول تعالى آمرًا رسوله أنْ يقولَ للّذين لا يؤمنون بما جاءَ به من ربّه، ولم تؤثّر فيهم هذه المواعظُ البالغة على وجهِ التّهديدِ: اعملوا على طريقتكم ومنهجكم، وكلّ ما تقدرون عليه في حقّي من الشَّرّ، ومن الإعراض عن الحقِّ والصّدِّ عنه، فنحنُ أيضًا عاملون على طريقتنا ومنهجنا من الثّبات عليه، والدّعوة له، والصّبر عليه[5]، وانْتَظِرُوا بنا الدّوائر إنّا مُنْتَظِرُونَ أنْ ينزل بكم نحو ما اقتصّ اللّه من النّقم النّازلة بأشباهكم[6]، وستعلمون مَنْ تكونُ له عاقبةُ الدّار، إنّه لا يُفلح الظّالمون[7].

كـــلٌّ يـعـمـلُ عـلى شاكـلـتـه وستعلمونَ مَن تكونُ له عاقبةُ الدّار

وتُرشدُ الآيتان الكريمتانِ إلى العمل على تبليغِ دعوةِ الحقِّ والدّأبِ عليها، لا يُثني عن ذلك كفرُ كافرٍ، ولا يردُّ عن الدَّعوة إلى الخير طغيانُ طاغٍ، ولا يصرفُ عنها صارفٌ، وإلى بيان سُنَّةٍ من سُنن اللّه الّتي لا تتخلَّف، وهي أنَّه سبحانه لا يظلمُ النّاسَ شيئًا ولكنَّ

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (نظر).
(2) الزّبيديّ، تاج العروس: (نظر).
(3) مجمع اللُّغة العربيّة، المعجم الوسيط: (نظر).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (نظر).
(5) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 18/43، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/312.
(6) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/439.
(7) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/312.

النّاسَ هم الّذين يظلمون أنفسَهم بإعراضهم عن الحقِّ، واتِّباعِهم للهوى، واستحقاقِهم للعقوبة الّتي هي جزاءٌ عادلٌ لكلِّ ظالم[1].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغة العطف في ﴿وَقُل﴾:

الواو في قوله تعالى: ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ عاطفةٌ، وأمّا المعطوف عليه فيحتمل وجهيْن:

خطابُ حقٍّ جاءَ ذِكرى للمؤمنين وتهديدًا ووعيدًا للكافرين

الأوّل: جملة ﴿وَجَآءَكَ فِي هَٰذِهِ ٱلۡحَقُّ وَمَوۡعِظَةٞ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾؛ لأنّها لَمّا اشتملت على أنّ في هذه القصّة تثبيتًا للنّبيّ ﷺ، وموعظةً وذكرى للمؤمنين؛ أُمرَ بأنْ يُخاطِبَ الّذين لا يؤمنون بما فيها خطابَ الآيِسِ من انتفاعهم بالذِّكرى، الّذي لا يعبأُ بإعراضهم، ولا يصُدُّه عن دعوته إلى الحقِّ تألُّبُهم على باطلهم، ومقاومتهم الحَقَّ[2].

الثّاني: على قوله: ﴿وَٱصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١١٥﴾ [هود: 115]، "أيْ: اصبر على ما أمرناكَ به من تبليغِ وحينا وامتثاله، ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾"[3].

دلالة الأمر بـ ﴿وَقُل﴾:

(قُلْ) بين مدحٍ وإكرامٍ للرّسول وبين بيانِ أهميّةِ المقول

افتتحَ البيانُ الإلهيّ الآيةَ بفعل الأمر ﴿وَقُل﴾، في قوله تعالى: ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾، وهو أمرٌ حقيقيّ؛ أيْ: طُلبَ فيه الفعلُ على وجهِ الاستعلاءِ، وخطابه إلى النّبيّ ﷺ؛ لعدّة أغراضٍ منها:

الأوّل: المدحُ والإكرامُ للنّبيّ ﷺ، إذ هو الوحيدُ المُفوَّضُ بالتّبليغِ عن اللّه، بل بالتّهديد والوعيد لَمن لا يؤمن باللّه سبحانه، وفي هذا إعلاءٌ لمقام الرّسالة، ومقام النّبيّ ﷺ.

(1) مجمع البحوث الإسلاميّة، التّفسير الوسيط: 4/270، وطنطاويّ، التّفسير الوسيط: 7/153.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/193.
(3) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 9/405.

الثّاني: الاهتمامُ بالمَقول، فإنّ أصلَ الأمرِ بالقول في مقام التّصدّي للتّبليغِ دالٌّ على الاهتمام[1].

ويحتمل أنْ يكون الأمر ﴿وَقُل﴾ خطابًا للجميع، فأُمرَ كلُّ واحدٍ بأنْ يقول ذلك[2]، بما يدلّ على أسلوبٍ حِواريٍّ استدلاليٍّ في إقامةِ الحُجّة.

معنى اللّام في ﴿لِّلَّذِينَ﴾:

التَّهديدُ والوعيدُ يستحقّه مَن لا يؤمنُ بالله

اللّامُ في قوله تعالى: ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ هي لامُ الاختصاص؛ أي: خُصَّ بالتّهديد والوعيد الّذين لا يؤمنون؛ أيْ: الكافرين الّذين لا يُصدِّقون بما أُنزلَ إليكَ من ربّك على وجهِ الوعيد.

فائدةُ التّعبير بالاسم الموصول في الآية:

أدنى كافرٍ بالله يشملهُ هذا التّهديدُ من رسولِ الله ﷺ

عبّر المولى ﷻ بالاسم الموصول في قوله: ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ دون الاسم الظّاهر، فلم يَقُل: (وقل للكافرين)؛ للإيماء إلى وجهِ استحقاقهم هذا التّهديد والوعيد بما يلقونهُ من العذاب، بسبب عدم الإيمان باللّه سبحانه، وعدم تأثّرهم بالموعظة، ولقصدِ الإبهام الّذي من أسراره التّنبيه على التّعميم؛ لأنَّ (الّذين) من ألفاظ العموم، أيْ إنّها تشمل كلَّ مَن لا يؤمن باللّه، ولو بأدنى إيمانٍ، وليس بالضّرورة أنْ يكون راسخًا في عدم الإيمان - الّذي يُفيده التَّعبير بـ (الكافرين) - حتّى يُوجَّهَ إليه هذا التَّهديد.

نكتةُ جمع الاسم الموصول ﴿لِّلَّذِينَ﴾:

الكافرونَ بالله فريقٌ اجتمعَ على الباطلِ ومحاربةِ أهلِ الحقّ وتمنّي الشّرّ للمؤمنين

جاء الاسم الموصول بصيغة الجمع ﴿لِّلَّذِينَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ إشارةً إلى أنّهم قومٌ اجتمعوا على الجحود، وعدم الإيمان، واتّفقوا عليه، وزيّن بعضهم لبعضٍ ذلك، وإنّما

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 22/192.
(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/339.

أُمرَ النّبيّ ﷺ أنْ يتوجّه بالتّهديد إليهم جميعًا، وهو في الحقيقةِ سيخاطبُ رؤساءهم وزعماءَهم فقط؛ لأنّ البقيّة هم أتباعٌ للزُّعماء يأتمرون بأمرهم؛ فخطابُ زعمائهم خطابٌ لهم.

غرضُ التَّعبير بالمضارع في: ﴿لَا يُؤۡمِنُونَ﴾:

عبّر البيانُ القرآنيّ عمّن انتفى عنهم الإيمان في قوله تعالى: ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ بصيغة المضارع؛ إشارةً إلى أنّ هؤلاء "لا يتجدّدُ لهم إيمانٌ منذرًا لهم"[1]، فالكفرُ منهم مُتجدّدُ الحدوث، فالكافرُ الجاحد تنحلُّ عقدةُ الإيمان في قلبه، فلا ينعقدُ قلبه على إيمان؛ بل هو جاحدٌ مضّطرب الفكر والنَّفس والقلب تأسرُه الأهواءُ المتنازعة، ويسيرُ مع أشدّها انحرافًا، وأقواها استهواءً[2].

الكفرُ فيهم مُتجدِّدٌ، تأسرهم الأهواءُ المتنازعةُ، ويسيرون مع أشَدِّها انحرافًا

دلالةُ الأمر في قوله: ﴿ٱعۡمَلُواْ﴾:

عبّر البيانُ الإلهيّ في قوله تعالى: ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ﴾ بفعل الأمر ﴿ٱعۡمَلُواْ﴾، وهو لفظ أمرٍ، والمُراد منه هنا التّهديد والوعيد[3]؛ وخطابه إلى الّذين لا يؤمنون؛ لكون الأمرِ في عدم الرِّضا بالمأمور به، كما تقول لمَن يفعل الشَّرَّ: افعل ما يبدو لك، كما قال الله تعالى: ﴿أَفَمَن يُلۡقَىٰ فِي ٱلنَّارِ خَيۡرٌ أَم مَّن يَأۡتِيٓ ءَامِنٗا يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ ٱعۡمَلُواْ مَا شِئۡتُمۡ إِنَّهُۥ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ ۝٤٠﴾ [فُصِّلت: 40]، وكما قال ﷺ: «إنّ ممّا أدركَهُ النّاسُ من أقوالِ النّبوّة الأولى، إذا لم تَسْتح فاصْنَعْ ما شِئْتَ»[4]، والمعنى: اعملوا قدْر إمكانكم، واستطاعتكم، أو استمرُّوا على طريقتكم ومنهجكم، أو ما أنتم عليه من الكُفر، ونحن سنعملُ قدرَ استطاعتنا، وعلى طريقتنا، وما أنزلَ الله إلينا.

تهديدٌ ووعيدٌ للكافرين بما يلقونهُ من العذابِ جزاءً بما كسبتْ أيديهم

(1) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 9/405.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3779.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/229.
(4) صحيح البخاريّ، كتاب: الأدب، باب: إذا لم تستح فاصنع ما شئتَ، الحديث رقم: (5769). والحديث من أفراد البخاريّ على مسلم.

سرُّ اختيار مادَّة العمل في ﴿ٱعۡمَلُواْ﴾:

مهما بلغَ عملُ الباطلِ قوّةً وتكرارًا، واتّسع نيّةً وقولًا وفعلًا؛ فإنّ الحقّ له بالمرصاد

اختارَ البيانُ القرآنيُّ التّعبير بالعمل دون الفعل في قول تعالى: ﴿ٱعۡمَلُواْ﴾ و﴿عَٰمِلُونَ﴾؛ لكونِ دلالةِ العملِ أوسعَ من دلالةِ الفعل؛ فالعملُ هو مجموع الأحداث الّتي تصدرُ عن الإنسان من قولٍ أو فعلٍ أو نيَّةٍ، فكلُّ حدثٍ يصدر من الإنسان يُسمَّى عملًا، فإذا صدر الحدث من اللّسان كان قولًا، وإذا صدر من بقية الجوارح كان فعلًا، وعملُ القلوب هو النّيّة[1]، ولو عبّر بالفعل لم يشمل عملهم في محاربة الإسلام إلّا ما قامتْ به جوارحهم فقط، وهذا خلافُ الواقع؛ فإنّهم حاربوا رسولَ الله وما زالوا يُحاربون دينه بأقوالهم وأفعالهم ونواياهم الخبيثة الّتي تدفعهم إلى هذه الأفعال والأقوال، وبالمقابل فقد واجههم رسولُ الله والمؤمنون معه بالثّباتِ على الحقّ، والدّعوة إليه نيّةً وقولًا وفعلًا.

إضافةً إلى مناسبةِ استخدام مفردة العمل للسّياق؛ فقد خُتمتِ الآيات بقوله تعالى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾، ومناسبتها لمقام الحالِ، فالخطابُ من رسولِ الله ﷺ للكافرين، واستخدامُ مفردة العمل أنسبُ لحالهِ ﷺ وحالهم؛ لأنّ العملَ هو كلّ فعلٍ يكون بقصدٍ، بخلاف الفعلِ الّذي قد يكون بقصدٍ أو بدون قصد[2]، ولأنّ العمل لا يُقال إلّا في ما كان عن فكرٍ ورَويّةٍ بخلاف الفعل الّذي قد يكون برَويّةٍ أو بغير رَويّةٍ[3]، أيْ أنَّ العمَل لا يكونُ إلّا من عاقل، بخلاف الفعل الّذي قد يُنسب إلى الحيوان والجمادات، والعملُ قلّما يُنسبُ إلى ذلك[4]، والفعلُ يكون لِما كان في زمَنٍ يَسيرٍ بلا تَكْريرٍ بخلاف

(1) الشّعراويّ، تفسير الشعراوي: 10/6014.
(2) الرّاغب، المفردات: (عمل).
(3) الكفويّ، الكليّات، ص: 666.
(4) الرّاغب، المفردات: (عمل).

العملِ الّذي يكون لِما تكَرَّرَ وطالَ زمَنُه واستَمَرَّ[1]، وهذا حالهُ ﷺ في تهديدهم، وحالُهم في الإنكار والإعراض.

نكتةُ التَّعدِية في قوله: ﴿ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ﴾:

عدّى البيانُ القرآنيُّ فعل ﴿ٱعۡمَلُواْ﴾ بحرف الجرّ ﴿عَلَىٰ﴾ في قوله تعالى: ﴿ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ﴾، إمّا على تضمين ﴿ٱعۡمَلُواْ﴾ معنى (استمرُّوا)، والتّقدير: (استمرُّوا على طريقتكم ومنهجكم، أو ما أنتم عليه من الكفر)، والغرضُ من هذا التّضمين إعطاءُ مجموعِ مَعْنَيَيْن؛ وهما: العمل والاستمرار في العمل، وذلك أقوى من إعطاء معنًى واحدٍ.

استعلاءٌ وكِبْر في حالِهِمُ الثّابتةِ على الباطلِ أو في استمرارهم عليه

أو أنْ يكونَ ﴿عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ﴾ جارًّا ومجرورًا مُتعلّقًا بمحذوف حالٍ من فاعل: ﴿ٱعۡمَلُواْ﴾، والمعنى: اعملوا حالَ كونكم ثابتين، أو متمكّنين على مكانتكم[2].

وعلى كلا الوجهيْن فإنّ التّعدية بـ ﴿عَلَىٰ﴾ تشيرُ إلى الاستعلاءِ الّذي كان عليه الكافرون، والعنادِ الكبير لديهم.

بلاغة القراءات القرآنيَّة في ﴿مَكَانَتِكُمۡ﴾:

في قوله تعالى: ﴿ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ﴾ قراءتان متواترتان:

في القراءتيْن تنوّعٌ بين الجمعِ والإفراد مراعاةً لجمعِ المخاطَبين أو إفرادًا لجنسهم

الأولى: (مَكاناتِكُم) بالألف على الجمع، وهي رواية أبي بكر شُعْبة عن عاصم.

والثّانية: وهي قراءة الباقين، ﴿مَكَانَتِكُمۡ﴾: بغير ألفٍ على التّوحيد[3].

وعلى القراءة الأولى (مكاناتكم) جمع (مكانة) فيها دلالةٌ على الحالة الّتي هم عليها، ولمّا كانوا على أحوالٍ مختلفةٍ من أمرِ دنياهم جمعَ لاختلافِ الأنواع.

(1) الزّبيديّ، تاج العروس: (فعل).
(2) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 9/405، ودرويش، إعراب القرآن: 4/446.
(3) ابن الجزريّ، النّشر: 2/263.

وأمّا على قراءة ﴿مَكَانَتِكُمْ﴾ على الإفراد، فهو مصدرٌ يدلُّ على القليل والكثير من صنفهِ من غير جمع ولا تثنيةٍ، مثل الفعل، والفعلُ مأخوذٌ من المصدر، فكما أنَّ الفعلَ لا يُثنَّى ولا يُجمع؛ فكذلك المصدر، إلّا إذا اختلفتْ أنواعه فحينئذٍ يشابهُ المفعول، فيجوز جمعه[1].

فمَنْ جمعَ قابلَ جمعَ المخاطَبين بالجمع، ومَن أفردَ فعلى الجنس، وعلى كلتا القراءتيْن: المكانة، مصدر (مكن)، وبمعنى المكان، ويحتمل أنْ يكون المعنى على تمكّنكم من أمركم، وأقصى استطاعتكم وإمكانكم، أو على جهتكم وحالكم الّتي أنتم عليها؛ أيْ: فاثبتوا على كفركم ومعاداتكم، أو على ناحيتكم؛ أيْ: ما تَنْحون؛ أيْ: ما تقصدون من صالحٍ وطالحٍ[2].

نكتةُ فضلِ قوله تعالى: ﴿إِنَّا عَٰمِلُونَ﴾:

استئنافٌ بيانيٌّ يدلُّ على توكيدِ ثباتِ المؤمنين على دينِ الله مهما تعرّضوا للمكرِ والإيذاء

لم يذكر البيانُ الإلهيّ العاطف بين قوله تعالى: ﴿إِنَّا عَٰمِلُونَ﴾ وما سبقها ﴿ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ﴾؛ لوقوعها استئنافًا بيانيًّا، لِما بين الجملتيْن من شبهِ كمالِ الاتّصال؛ وذلك أنّه بعد أنْ قال لهم: استمرّوا في طريقكم، وما أنتم عليه من الكفر، كأنّهم قالوا: فما يكونُ إذا عملنا نحن على مكانتنا؟ فجاء الجواب في قوله تعالى: ﴿إِنَّا عَٰمِلُونَ﴾ تأكيدًا لثباتِ النّبيّ والمؤمنين على دينِ اللّه مهما تعرّضوا للمكرِ والإيذاء، إي: إنّ فعلكم لنْ يُثنيَنا؛ فإنّا عاملون ما نحن عاملوه من الأعمال الّتي أمرنا اللّه بها، ثابتون عليها، وهذا التّأكيدُ لأجلِ إنكارِ الكفّار أنْ يُداومَ المؤمنون على العمل المخالف للكفّار مع ما يصل إليهم لأجله من الضُّرِّ، وسواء عملتم أيّها الكفّار أم لم تعملوا فإنّا عاملون لا محالة، فعملنا ثابتٌ لا نَحولُ عنه؛ لأنّ ما كان للّه فهو دائمٌ بدوامه سبحانه[3].

(1) محيسن، المُغْني: 3/103.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/652، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/188.
(3) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 9/405.

فائدةُ الجمع في ﴿إِنَّا عَٰمِلُونَ﴾ و﴿إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾:

حالُ المؤمنين أنْ يكونوا صادقين في إيمانهم وطاعتهم لرسولهم واتّحاد كلمتهم

آثرَ القرآنُ التَّعبيرَ بضميرِ الجمع دون الإفراد في قوله تعالى: ﴿إِنَّا عَٰمِلُونَ﴾ و﴿إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾، فلم يَقُل: (إنّي عامل، وإني منتظر)؛ أيْ: أمرَ اللّه رسولَه بأنْ يقول ذلك على لسانِ المؤمنين لا على لسانه، ليُفيد بذلك:

- شهادةً من اللّه بصدقِ إيمان المؤمنين ممّن كان معه ﷺ، وإشارةً لمَن يأتي بعدهم بأنْ يكون هذا حالهم.

- ومدحًا لهم إذْ فيه التّفويضُ إلى رأس الأمّة بأنْ يقطعَ أمرًا عن أُمّته ثقةً بأنّهم لا يردّون فِعْله[1].

- وإشارةً إلى أهميّة الجماعة المؤمنة، وتَوحُّد كلمتها، واعتصام أهلها، وعدم تفرُّقهم في مواجهة الباطل وأهله.

لطيفةُ توالي المؤكِّدات في ﴿إِنَّا عَٰمِلُونَ﴾:

أكَّد ﷻ قوله: ﴿إِنَّا عَٰمِلُونَ﴾ بعدّة مؤكّدات:

كمالُ ثباتِ النَّبيِّ والمؤمنين على الحقِّ الَّذي يدعون إليه مهما تعرَّضوا للمكائد والشُّرور

الأوّل: التّوكيدُ بـ (إنّ)، إذ إنّ هذا الحرفَ يُفيدُ توكيد النّسبة بين المُسنَدِ والمُسنَدِ إليه في الجملة[2]؛ لأنّ المخاطَبين وهم كفّار قريش كانوا عالِمينَ بأنَّ النّبيّ ﷺ ثابتٌ في دعوته وتنفيذ أوامر ربّه.

الثّاني: التّوكيدُ بمجيء ﴿إِنَّا﴾ بصيغةِ الجمع؛ أيْ: أنا وكلُّ مَن تَبعني؛ لأنّ الجماعة إذا قامتْ بعملٍ جاء على أكمل وجهٍ وأقواه.

الثّالث: التّوكيدُ بالجملةِ الاسميّة، الّتي تَدلُّ على الثّباتِ وقوّةِ الحُكْم وبَقائِهِ؛ أيْ: بيَّن أنّ المؤمنين والنّبيَّ عاملون؛ أيْ: ثابتون مستمرّون في حالهم؛ من إيمانٍ، وإذعانٍ للحقّ، وصبرٍ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 12/194.

(2) إن كان المخاطَب عالِمًا بالنّسبة فإنّ (إنّ) تفيد توكيد النّسبة، وإن كان مُتردِّدًا فيها، فتكون لنفي الشّكّ عنها، وإن كان مُنكرًا فتكون لنفي الإنكار لها. ينظر: ابن هشام، أوضح المسالك: 1/314، والأزهريّ، شرح التّصريح: 1/294.

على أذى الكُفّار، والعاقبة ليست واحدةً[1]، "وما كان للّه فهو دائمٌ بدوامه سبحانه"[2].

الرّابع: التّوكيدُ باسم الفاعل، وهو من أهمّ الأسماء الصَّرفيَّة في اللُّغة العربيّة الّذي يدلّ على حدثٍ ثابتٍ غير محدّدٍ بزمن، بما يُعطي للمعنى مزيدًا من المبالغة والثّبوت والدّوام والاستمرار، لا مجرّد الحدوث والتّجدُّد كونه أتى في سياق الجملة الاسميَّة.

كلّ هذه المؤكّداتِ مجتمعةً مع ما تتضمّنه مادّة (العمل) في ﴿عَٰمِلُونَ﴾ من شمولٍ لعملِ اللّسان والجوارح والقلب، أفادتِ المبالغةَ في تأكيدِ إظهارِ كمالِ ثباتِ النّبيّ ﷺ وكلِّ مَن تبعه من المؤمنين على الحقّ الّذي يدعون إليه، مهما تعرّضوا للمكائدِ والشّرور، فهم عاملون لا محالةَ، سواء عمل الكفّار أم لا، قال مؤكّدًا لأجل إنكارِ الكفّار أنْ يُداوموا على العملِ المخالِف لهم مع ما يصلُ إليهم لأجله من الضّرّ[3].

نكتة حذف النّون الثّانية في ﴿إِنَّا﴾:

حذفَ البيانُ الإلهيّ النّونَ الثّانيةَ في قوله تعالى: ﴿إِنَّا عَٰمِلُونَ﴾؛ فلم يقُلْ: (إنّنا عاملون)؛ اكتفاءً بمُطلَقِ التّأكيد؛ لأنّه كافٍ في الإعلام بالجزم في النيّة، وفيه تأدُّبٌ بالإشارة إلى أنّ المستقبل أمرٌ لا اطّلاعَ عليه لغيرِ اللّه، فينبغي أنْ لا يبلغ في التّأكيد فيه غيره، وهذا بخلاف ما في سورة فُصِّلتْ ممّا هو جارٍ على ألسنةِ الكَفَرَة في قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٞ وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٞ فَٱعۡمَلۡ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ۝٥﴾ [فُصّلت: 5][4].

في تأكيدِهِ ﷺ لثباتِهِ على الحقّ تأدُّبٌ مع الله سبحانه

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3779.
(2) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 9/405.
(3) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 9/405.
(4) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 9/406.

غرضُ التَّقديم في ﴿إِنَّا عَٰمِلُونَ﴾:

تكمنُ نكتةُ تقديم المُسنَد إليه، وهو الاسم في قوله ﴿إِنَّا﴾ على المُسند الفعليّ - وهو الخبر الّذي جاء بصيغة اسم الفاعل ﴿عَٰمِلُونَ﴾ - في تقوية الحُكم وتوكيده، وهو ثباتُ النّبيّ صلى الله عليه ومَن تبعهُ على الدّين الحقّ، وسببُ تقويةِ الحُكم وتوكيده تكرارُ الإسناد؛ فقد وقع اسم الفاعل - الّذي يُعامَل معاملةَ الفعل كونه وصفًا مؤولًا بالفعل - وقع خبرًا عن المُسند إليه ﴿إِنَّا﴾؛ أيْ: اسمُ الفاعل في الوقت نفسه مسندٌ إلى الضّمير (الواو) العائد على المبتدأ، وذلك لأنّ الخبر إذا كان اسمًا مُشتقًّا ففيه ضميرٌ يعود على المبتدأ، فكأنَّ الحُكمَ هنا ذُكر مرّتيْن؛ مرّةً حين أُسند اسم الفاعل إلى المبتدأ، ومرّةً حين أُسند إلى ضميره العائد إلى المبتدأ، بخلاف إنْ تأخّر المُسنَد إليه، كأن يُقال: (عاملون نحن)، فلا يحدثُ هذا التّكرار، بل يحدثُ الإسناد مرّةً واحدةً فقط.

ثباتُ النّبيّ والمؤمنين معه على الحقّ أمرٌ قويٌّ مؤكَّدٌ لا يستطيعُ أحدٌ إنكاره

بلاغة العطف في ﴿وَٱنتَظِرُوٓاْ﴾:

عَطَفَ البيانُ القرآنيُّ قوله تعالى: ﴿وَٱنتَظِرُوٓاْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾ على قوله جلّ شأنه: ﴿ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ إِنَّا عَٰمِلُونَ﴾، ويُشيرُ هذا العطفُ إلى أنَّ الجُملتيْن وإنْ اجتمعتا في المعنى العامِّ، وهو تهديد المشركين الّذين يضعون العقبات في طريق النّبيِّ ﷺ، ودعوته والبُشْرى للمؤمنين، إلّا أنَّهما افترقتا؛ فالجملةُ الأولى مقابلة بين الثّبات على الحقّ والاستمرار في الباطل، والثّانية مقابلةٌ بين سُوأى الباطل، وحُسنى العاقبة في الحقّ؛ أي: جاءت الجملةُ المعطوفة لتُكملَ المعنى فتهدّدَ بسوء العاقبة لأهلِ الباطل، وتُبشّرَ بحسنِ العاقبة لأهل الحقّ.

في العطفِ بيانٌ لعاقبة التّمادي في الباطلِ والثّباتِ على الحقِّ

دلالة الأمر في قوله: ﴿وَٱنتَظِرُوٓاْ﴾:

عبّر البيانُ الإلهيّ بفعل الأمر ﴿وَٱنتَظِرُوٓاْ﴾ في قوله تعالى:

في الأمرِ تهديدٌ ووعيدٌ بسوءِ العاقبةِ للكافرين

﴿وَٱنتَظِرُوٓاْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾؛ وهو لفظ أمرٍ يُراد به التّهديد والوعيد للّذين لا يؤمنون، كما يُقال في الوعيد: سوف ترى[1]؛ أيْ: انتظروا ما يحلُّ بنا إنّا منتظرون ما يحلُّ بكم من عذاب الله، مع ما في تأكيد هذا التّهديد والوعيد بـ (إنّ) وبالجملة الاسميّة.

نكتةُ فصل قوله تعالى: ﴿إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾:

استئنافٌ بيانيٌّ يدلُّ على ثقةِ المؤمنين بحُسنِ عاقبتهم وسوءِ عاقبةِ أعدائهم

لم يذكر البيانُ الإلهيّ العاطفَ بين قوله تعالى: ﴿إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾ وما سبقها ﴿وَٱنتَظِرُوٓاْ﴾؛ لوقوعها استئنافًا بيانيًّا، لِما بين الجُملتيْن من شبهِ كمالِ الاتّصال؛ وذلك أنّه بعد أنْ قال لهم: انتظروا ما وعدكم الشّيطان، كأنّهم قالوا: فما يكون إذا انتظرنا؟ فجاء الجوابُ في قوله تعالى: ﴿إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾؛ أيْ: "إنّا منتظرون ما وعدنا الله من حربكم ونُصرتنا عليكم"[2].

فائدة توالي المؤكّدات في: ﴿إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾:

توكيدٌ لكمالِ ثقةِ النّبيّ ﷺ والمؤمنينَ بحُسن عاقبةِ الحقِّ وسُوأى الباطل

توالت المؤكّدات في قوله تعالى: ﴿إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾ لتشمل التّوكيد بـ (إنَّ)، والتّوكيد بالجملةِ الاسميّة، الّتي تدُلُّ على الثّباتِ والدّوام؛ أيْ: أنّ النّبيّ ﷺ والمؤمنين منتظرون أنْ ينزِلَ بالكافرين مثلُ ما نزل بأمثالهم من عقابه تعالى بعذابٍ من عنده، أو بأيدي المؤمنين، وأنْ يكفُلَ لهم النَّصر والغَلَبة[3]، والتّوكيد بمجيء ﴿إِنَّا﴾ بصيغة الجمع؛ أيْ: أنا وكلُّ مَن تبعني، والتّوكيد باسم الفاعل الّذي يُعطي للمعنى مزيدًا من المبالغة في الثّبوت والدّوام والاستمرار؛ كونه أتى في سياق الجملة الاسميَّة.

كلُّ هذه المؤكّداتِ مجتمعةً أفادتِ المبالغة في تأكيد إظهار كمالِ ثقةِ النّبيّ والمؤمنين بنصر الله، وسُوأى الباطل، وحُسنى العاقبةِ في الحقّ.

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/229، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/194.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 15/544.
(3) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 12/101.

نكتةُ التقديم في قوله: ﴿إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾:

ثقةُ النّبيّ والمؤمنين معه بوعدِ الله في حقّ الكافرين أمرٌ مؤكّدٌ لا مريةَ فيه

قدّم البيانُ الإلهيُّ المُسنَد إليه وهو الاسم في قوله ﴿إِنَّا﴾ على المُسند الفِعْليّ، وهو الخبر الّذي جاء بصيغة اسم الفاعل ﴿مُنتَظِرُونَ﴾؛ تقويةً وتوكيدًا لثقةِ النّبيّ صلى الله عليه والمؤمنين معه بوعد الله في حقّ الكافرين بأنَّ الله مُهلكهم، ومُنجي النّبيّ ﷺ ومَن تبعه، وسببُ تقويةِ هذا الحُكم وتوكيده تكرارُ الإسناد؛ فقد وقعَ اسم الفاعل ﴿مُنتَظِرُونَ﴾ - الّذي يُعامل معاملة الفعل - خبرًا عن المُسنَد إليه ﴿إِنَّا﴾، واسم الفاعل في الوقت نفسه مُسنَدٌ إلى الضّمير (الواو) العائد على المبتدأ[1]، فكأنَّ الحُكمَ هنا ذُكر مرّتيْن؛ مرّةً حين أُسند اسم الفاعل إلى المبتدأ، ومرّةً حين أُسند إلى ضميره العائد إلى المبتدأ، بخلاف إنْ تأخّر المُسند إليه، كأن يُقال: (منتظرون نحن)، فلا يحدث هذا التّكرار، بل يحدث الإسناد مرّةً واحدةً فقط.

أغراضُ الخبريْن ﴿إِنَّا عَٰمِلُونَ﴾ و﴿إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾:

إخبارُ تعريفٍ وتهديدٍ بعذاب الله للكافرين

يفيدُ الخبرُ في قوله تعالى: ﴿إِنَّا عَٰمِلُونَ﴾ وقوله: ﴿إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾ تعريفَ المخاطَبين بالحُكم الّذي تضمّنته الجملتان الخبريّتان، وهو ثباتُ النّبيّ ﷺ والمؤمنين على الحقّ، وثقتهم بنصر ربّهم لهم، وإهلاكِ عدوّهم؛ وفي هذا تهديدٌ ووعيدٌ للكافرين.

بلاغةُ المقابلة في الآية:

لا يستوي مَنْ يستمرُّ في كُفره وغيّه ومَنْ يثبتُ على الحقّ في الحسابِ والجزاء

في قوله تعالى: ﴿ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ إِنَّا عَٰمِلُونَ﴾ مقابلةٌ بين الحقّ والباطل، وفي قوله تعالى: ﴿وَٱنتَظِرُوٓاْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾ مقابلةٌ بين سُوْءَى الباطل، وحُسنى العاقبة في الحقّ، والمعنى: اعْمَلُوا عَلَى حالكم الّتي أنتم عليها من الغيّ والضّلال، إنّا عاملون مستمرّون في

(1) وذلك لأنَّ الخبر إذا كان اسمًا مُشتقًّا، ففيه ضمير يعود على المبتدأ.

حالنا من إيمانٍ، وإذعانٍ للحقّ، وانتظروا عواقبَ فسادكم وجحودكم، وما استهواكم من مفاسد، إنّا مُنتَظِرُونَ ما نرجو من رحمته ورضوانه جزاءً وفاقًا لأعمالنا[1].

وفي هذه المقابلة زيادةُ إيضاحِ فرقٍ بين أهلِ الحقّ، وأهل الباطل، وبين جزاءِ الحقّ، وجزاءِ الباطل، وفيها: إضفاءُ رونقٍ على الكلام، وتقويةُ علاقةٍ بين الألفاظ والمعاني، إذ بضدّها تتميّز الأشياء.

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3780.

﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾﴾ [هود: 123]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

بَعدَ أنْ قصَّ اللّه عَلى نبيّهِ ﷺ أخبارَ الأنبياءِ عليهم السلام معَ أقوامهمْ، وبعدَ أنْ طلبَ النَّبيّ ﷺ إلى الَّذينَ لا يُؤْمنونَ أنْ يَعملوا ما يريدونَ، وأنْ ينتظروا، وتَهدَّدهم وتوعَّدهم جاءتْ هذهِ الآيةُ لتُخبرَ النَّبيَّ صلَّى اللّه عليهمْ وسلَّم بأنَّ اللّه يَعْلمُ أمورَهَم وأحوالهَم[1]، وأنَّهُ قادرٌ عليهم وعلى مَنْ كان كَذلكَ من الأُمَم السّابقةِ، وأنّه إليه العبادة وعليه التّوكّل وله الأمر[2].

كلُّ ما تعملونه اللّه محيطٌ به وسيُحاسبُكم عليه

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلْأَمْرُ﴾: الهمزة والميم والرّاء أصولٌ خمسةٌ: الأمْرُ من الأُمُورِ، والأمْرُ: ضدّ النّهي، والأمَرُ (بفتح الميم): النَّماءُ والبَرَكَةُ، والمَعْلَمُ، والعَجَبُ[3]، والأمْرُ: يأتي بمعنى المصدر من (أمَرَ)، ويأتي بمعنى الحادثة، والشّأن، والحال، وإذا أُسند إلى المولى ﷻ فإنّه يُفسّر بالقضاء، وبالتّصريف والتّدبير كما في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٤٧﴾﴾ [النّساء: 47][4]، والأمْرُ: الشّأن وجمعه: أمور، وأمَرْتُه: إذا كلّفتَه أنْ يفعل شيئًا، والأمْرُ: لفظٌ عامٌّ للأفعال والأقوال والأحوال كلّها، وعلى ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ﴾[5].

2) ﴿بِغَٰفِلٍ﴾: الغين والفاء واللّام أصلٌ صحيحٌ يدلُّ على تركِ

(1) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 9/406.
(2) الزّحيليّ، التّفسير المنير: 12/184.
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (أمر).
(4) الزّبيديّ، تاج العروس، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (أمر).
(5) الرّاغب، المفردات: (أمر)، والفِيروزباديّ، بصائر ذوي التّمييز: 2/39.

الشّيءِ سهوًا، وربَّما كان عن عَمْدٍ، ومنه: غَفَلْتُ عن الشّيء: إذا تركتَه ساهيًا، وأغْفَلْتُه: إذا تركتَه على ذُكْرٍ منك له[1]، والغَفْلة: فَقْدُ الشُّعورِ بما حَقُّه أنْ يُشعَرَ به، وهو أيضًا الذُّهولُ عن الشّيء، وقيل: متابَعةُ النَّفْسِ على ما تشتهيه، وغَفَلَ الشّيءَ: سَتَرَه[2]، والغفلةُ: سهوٌ يعتري الإنسان من قلّة التّحفُّظ والتّيقُّظ[3]، والغفلة: غيبةُ الشّيء عن بالِ الإنسان، وعدمُ تذكُّره له، وقد استُعمل فيمَنْ تركه إهمالًا وإعراضًا[4]، والمُراد في الآية موافقٌ للمَعْنى اللّغويّ؛ أيْ: وما ربُّك بساهٍ عمّا تعملون، بل هو محيطٌ به، لا يعزُبُ عنه شيء[5].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

الأمرُ بمواصلة عبادةِ الله في جميع الأوقات، والاعتمادِ عليه في جميعِ الأحوال

يقول الله تعالى ذِكرُه مخاطبًا نبيَّه محمّدًا ﷺ، ومن خلالِه مُخاطبًا النّاس أجمعين: اعلَم أنَّ لله مُلكَ كلِّ ما غابَ عنكَ في السَّمواتِ والأرضِ، ولهُ وحدَهُ علمُ ما غابَ مطلقًا في سماءٍ أو في أرضٍ أو في غيرِهما؛ في الماضي والحاضرِ والمستقبلِ، وهو عَظيمُ القُدرةِ نافذُ المشيئة، وكلُّ ذلك بيدِه، لا يَخفى عليهِ شيءٌ، وإليه وحدَهُ يرجعُ الأمرُ كلُّه، فما شاءَ كانَ، وما لم يشأْ لم يكنْ، وإليهِ معادُ كلِّ عاملٍ وعملِه، وسيُجازيهم بأعمالِهمْ، وإذا كانَ الأمرُ كذلكَ فاعبدْهُ كما أُمرتَ أنتَ والمؤمنونَ، وتوكَّلْ عليهِ في كلِّ أمورِكَ حقَّ التَّوكلِ، وثقْ به وبكفايتِه، وما الله بغافلٍ عمّا تعملونَ جميعًا - أيّها المؤمنون والكافرون - بل هو محيطٌ بكم، وسيُجازي كلًّا بما يَسْتَحقُّه في الدُّنيا والآخرةِ، وسيُحاسِبُ على كلِّ صغيرٍ وكبيرٍ.

وتُرشدُ الآيةُ الكريمةُ إلى أنَّ علم الغيب لله وحده لا يعلمه غيرُه،

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (غفل).
(2) الزّبيديّ، تاج العروس: (غفل).
(3) الرّاغب، المفردات: (غفل).
(4) الفيوميّ، المصباح المنير: (غفل).
(5) ابن جرير، جامع البيان: 15/545.

وأنَّ مردَّ الأمور كلِّها إلى اللّه بدْءًا وعودًا ونهايةً، وإلى وجوب عبادةِ اللّه تعالى والتَّوكُّل عليه. وتُرشد إلى أنَّ الأخذَ بالأسباب المشروعة لا يُنافي التّوكُّل على اللّه، ولذا أوجبه اللّه بقوله: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: 60]، وقوله: ﴿فَٱمْشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ﴾ [الملك: 15]، وأمر به الرّسولُ ﷺ بقوله لصاحبِ النّاقة: «اعقِلها وتَوكّل»[1]، أي: اعقل ناقَتَكَ أوّلًا، ثم قُلْ: توكّلتُ على اللّه، وأنَّ التوكُّلَ لا يصحُّ بغير العبادة، والأخذِ بالأسباب المستطاعة، وإنّما يكون بدونهما من التّمنِّي الكاذبِ، والآمالِ الخادعة، كما أنَّ العبادة - وهي ما يُراد به وجهُ اللّه من كلِّ عمل - لا تكمُل إلّا بالتّوكُّل الّذي يكمُل به التّوحيدُ[2].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

معنى الواو ودلالةُ ما بعدَها في الآية:

الواو في قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ لأحد المعاني الآتية:

الأوَّلُ: استئنافيّة[3]، فالآياتُ السّابقةُ لمّا تحدثتْ عن أنباءِ الرُّسلِ وخطابِ اللّه تعالى للّذينَ لا يُؤْمنونَ[4] جاء الاستئنافُ لتكونَ هذهِ الآيةُ سُلْوانًا وطُمأنينةً للنَّبيِّ ﷺ.

الثّاني: عاطِفَةٌ؛ عطفتْ كلامًا على كلام[5]؛ لتكونَ الآيةُ كلامًا جامعًا، وتذييلًا للسُّورةِ، يُؤْذِنُ بختامها بعدَ مجموعةٍ من الجُملِ المتعاطفةِ.

عملُ الكافرين وفسادُهم لا يخفى على الّذي له غيبُ السَّمواتِ والأرضِ

(1) أخرجه التّرمذيّ، السُّنن، الحديث رقم: (2517)، وابن حبّان، صحيح ابن حبّان، الحديث رقم: (731)، وحسّن إسنادَه الألبانيّ، صحيح التّرمذيّ، الحديث رقم: (2517).

(2) رشيد رضا، تفسير المنار: 12/163، ومجمع البحوث الإسلاميّة، التّفسير الوسيط: 4/270، والجزائريّ، أيسر التّفاسير: 2/591.

(3) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 13/294، والدّعّاس، إعراب القرآن: 2/77.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/194.

(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/194.

الثّالث: اعتراضيّة في آخر الكلام[1]، جاءت معترضةً بين قوله تعالى: ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَٰمِلُونَ ﴿١٢١﴾ وَٱنتَظِرُوٓاْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾ وقوله: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

معنى اللّام في ﴿وَلِلَّهِ﴾:

اللّه المالكُ العالمُ هو وحدهُ الّذي يُحاسبُ ويعاقبُ

في قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ اللّامُ في ﴿وَلِلَّهِ﴾ للمُلْكِ والاختصاص، وهذا المِلْكُ هو ملْكُ إحاطةِ العِلْم، يعني: أنَّ للّه ما غاب عن علم النّاسِ في السَّموات والأرض، وهذا كلامٌ يجمع بشارةَ المؤمنين بما وُعِدوا من النَّعيم المُغيّب عنهم، ونِذارةَ المشركين بما توعَّدوهم به من العذابِ المُغيَّبِ عنهم في الدُّنيا والآخرة[2].

نكتةُ التقديم في ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ﴾:

الغيبُ يُختصُّ بـه سبحانه، ومقصورٌ عليه وحدَه دون غيرِهِ

قُدّم المُسنَد ﴿وَلِلَّهِ﴾ على المُسنَد إليه ﴿غَيْبُ﴾ في قولِه: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾؛ لأمورٍ؛ منها: الاهتمام بذكر اسمه سبحانه، وإفادة الاختصاص؛ أيْ: اللّه لا غيره يملكُ غيبَ السّموات والأرض؛ لأنّ ذلك ممّا لا يُشاركه فيه أحدٌ[3]، وإفادة القَصْر[4]، والمعنى: غيبُ السّموات والأرض مقصورٌ على الاتّصافِ بكونِه للّه تعالى لا يَتخطَّى إلى غيرِه، فهو من قصر الموصوف على الصّفة[5].

فائدةُ الإضافةِ في الآية الكريمة:

كلُّ غيبٍ إنَّما هو لله ومختصٌّ به سبحانه

أضافَ الحقُّ سبحانَهُ الغيبَ إلى السَّمواتِ والأرض في قوله: ﴿غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾؛ ليُعطي معنى الاستغراق، وهذه الإضافة من ألفاظِ العموم، فالغيبُ في الأصلِ مصدرٌ، وأُضيفَ إلى السَّمواتِ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 12/194.
(2) القُونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 10/241، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 12/194.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 12/194.
(4) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 13/299.
(5) القُونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 10/241.

والأرضِ، فأفادَ أنَّ كلَّ غيبٍ ممّا فيهما مُختَصٌّ بهِ تعالى، فلا يعلمُ الغيبَ المُطلقَ الَّذي ليس له مُقدِّماتٌ تنبئُ عمّا سيحدثُ إلّا اللّه وحدَه ﷻ[1]، وأمّا الغيبُ النِّسبيُّ الَّذي يعرفهُ البعضُ ويغيبُ عن البعضِ، فهذا لا يدخلُ في مدلولِ هذهِ الآيةِ[2]، وتخصيصُ الغيبِ بالسَّموات والأرض، وذِكرهما دون سواهما مع أنَّ المُراد غيبُ جميع ما يتعلّق بهما، كما يُؤذِن به قوله تعالى: ﴿لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ﴾ [البقرة: 255]؛ لأصالتهما واستتباع ما سواهما لهما، ولأنَّهما المُشاهدان للمخاطَبينَ.

معنى (أل) في: ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾:

غيبُ السَّمواتِ والأرضِ بكلِّ ما فيهما في علم اللّه ﷻ

أل التّعريف في قوله تعالى: ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ جنسيّةٌ استغراقيّةٌ، تُفيدُ العمومَ؛ لتشملَ جنسَ السَّمواتِ السّبع وبما فيها، وما فوقها وما تحتها[3]، وتشمل الأرضَ كلَّها، وكلّ ما فيها[4]، فعِلمُ اللّه تعالى محيطٌ بكلّ ما في السّموات وما في الأرض وما بينهما وما وراءهما.

ولأنّ المُراد بالسّموات والأرض جنسهما صحَّ عطفُ الأرض على السّموات، مع أنَّ السَّموات جمعٌ، والأرضَ مفردٌ، والأوْلى في لغة العرب أنّه لا يصحُّ عطفُ مفردٍ على جمعٍ، ولا جمعٍ على مفردٍ، فكان عَطْفُ الأرض على السّموات هو عطفُ جنسٍ على جنسٍ لا عطفُ الجمعِ على المفرد، حتّى يلزمَ تركُ الأوْلى من رعايةِ التَّطابق بين المعطوفِ والمعطوفِ عليهِ[5].

نُكتة التقديم في قوله: ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾:

قُدِّمت السَّمواتُ على الأرضِ لأنَّها أعظمُ شأنًا وأكبر سلطانًا وأظهرُ نظرًا وأكثرُ عبرًا

من عادة القرآن أن تُقدَّم السَّمواتُ على الأرضِ، ولا تتقدّم الأرضُ على السَّموات إلّا استثناءً، ومن حِكَم تَقديم السَّموات على الأرضِ:

(1) القُونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 10/241.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 8/468، والشّعراويّ، تفسير الشعراوي: 11/6794.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 2/77.
(4) ابن جرير، جامع البيان: 15/103، والبقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 9/140، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3592.
(5) حقّي، روح البيان: 5/363، والهرريّ، حدائق الرَّوح والرَّيحان: 17/256.

الأولى: شرفُ السَّموات بالفضيلة؛ لأنَّ مُلكَها أعظمُ شأنًا وخَلقًا، وأكبرُ سُلطانًا، فهي أكثرُ عِبرًا وأظهرُ نظرًا، فيما يرى العباد، ولأنَّها مُتعبَّدُ الملائكة المُقدّسين على تفاوت مراتبهم، ولا يحصل فيها المعاصي والمُنكرات، وهي قِبلةُ الدُّعاء، ومعراجُ الأرواح الطّاهرة، وغير ذلك، وأمّا الأرض وإنْ كان فيها الأنبياء، فقد وقعت فيها المعاصي، واحتوتْ على الأشرارِ والمفسدين[1]، فالسَّموات أشرفُ من الأرض ذاتًا وصِفَةً[2].

الثّانية: سبقُ خلقِها على خلقِ الأرضِ[3]؛ فقُدّمت السَّموات على الأرض مراعاةً لترتيب الوجود.

الثّالثة: مراعاةُ السّياق، إذِ الكلامُ عن علم اللّه تعالى للغيب، فإحاطةُ علمه بغيبِ السّموات أعظمُ من علمهِ بغيب الأرض.

وجهُ جمعِ ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ وإفرادِ ﴿وَٱلۡأَرۡضِ﴾:

جمعُ السّمواتِ أتى تفخيمًا وتشريفًا وتخفيفًا

الأصلُ عند العرب أنَّه في النّصوص المتعدِّدة أنْ تكونَ المؤاخاةُ بين الألفاظ، وهذا من محسِّنات الكلام، فإذا جُمع أحدُ المتقابلَيْن أو نحوهما؛ ينبغي أنْ يُجمَع الآخرُ؛ إلّا لحكمةٍ تقتضي هذا العدولَ، والنّاظر في جمع السَّموات، وإفراد الأرض في قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ غَيۡبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ يرى حِكمًا كثيرة، منها:

الأُولى: أنَّ السَّمواتِ أشرفُ من الأرض، والجمعُ أبلغُ في التَّفخيم من الوحيدِ[4].

الثّانية: لأنَّ طبقاتِها مختلفةٌ بالذّات، متفاوتةٌ بالصّفات والآثارِ والحركاتِ، وأمّا الأرض فهي من جنسٍ واحدٍ، وهو الصَّعيدُ، فإذا أراد طبقاتِها أو أقسامَ سطحِها فإنَّه يذكُرها بما يدلُّ على الجمع[5].

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 4/77.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 8/468.
(3) الماورديّ، النُّكَت والعيون: 2/92، وأبو حيّان، البحر المحيط: 2/83، والزّركشيّ، البرهان في علوم القرآن: 3/255.
(4) الماورديّ، النُّكَت والعيون: 2/92.
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 2/77.

الثّالثة: أوامرُ اللّه إلى الأرض تخترق جميع السَّماوات السّبع، فكان التّعدّد والإفراد متناسقًا مع الوحي، واتّصال السَّماء بالأرضِ[1].

الرّابعة: تعدّد السّموات كان مقرَّرًا عندَ المخاطَبين بناءً على مشاهدتهم تعدُّد حركاتِ الكواكبِ بخلاف الأرضِ، فإنَّ تعدُّدَها لم يثبُت إلّا بالشَّرع، والاسْتدلالُ إنَّما يكون بما هو معلومٌ عندهم[2].

الخامسة: تخفيفًا، إذْ جمعُ الأرضِ (أرضون، أرضين) ثقيلٌ ومخالفٌ للقياس، وهو ملحقٌ بجمع المُذكَّر السّالم، ولهذا لم تُجمَع الأرْضُ في القرآن، ولمّا أُريد ذِكْر جميع الأرضين قال: ﴿وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ [الطّلاق: 12][3].

السّادسة: لأنّ السَّماءَ جاريةٌ مجرى الفاعلِ، والأرضَ جاريةٌ مجرى القابِلِ[4]، فلو كانت السَّماء واحدةً لتشابَه الأثرُ، وهو يُخلُّ بمصالح هذا العالم، وأمّا الأرضُ فهي قابلةٌ، والقابلُ الواحد كافٍ في القبول.

فائدة الجملةِ الخبريَّةِ: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ﴾:

الأصلُ في توجيه الكلام الَّذي يَتَضمَّن خبرًا أنْ يكون الغرضُ منه الإعلامَ بالخبرِ الَّذي دلَّ عليه الكلامُ، وإفادةَ المخاطَبِ بمضمونه[5]، وقد أخبر اللّه ﷻ في هذه الجملة عن كمال علمه، وأنّه عالمٌ بجميع الغيوب، فلا تخفى عليه خافية، فله غيبُ السّموات والأرض دون غيره، كما أنّها أفادتِ التَّوبيخَ للَّذين لا يؤمنون، وإظهارَ الفخر والاعْتزاز والثِّقة للنَّبي ﷺ وأُمّته.

التَّوبيخُ للكافرينَ والفَخرُ والاعتزازُ للمؤمنينَ

(1) الماورديّ، النُّكت والعيون: 2/92.
(2) المَظْهَريّ، التّفسير المَظْهَريّ: 1/160.
(3) السّيوطيّ، نواهد الأبكار: 2/355.
(4) الآلوسيّ، روح المعاني: 6/62.
(5) حسن، بلاغة اللّغة: 1/173.

غرضُ العطف في قوله: ﴿وَإِلَيۡهِ يُرۡجَعُ﴾:

إذا كانَ الغيبُ لله فإنَّ الأمرَ كلَّه إليهِ سبحانَهُ

جاء عطفُ قوله تعالى: ﴿وَإِلَيۡهِ يُرۡجَعُ ٱلۡأَمۡرُ كُلُّهُۥ﴾ على قوله سبحانه: ﴿وَلِلَّهِ غَيۡبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾؛ ليُفيد المشاركة بين اختصاصِ الله ﷻ بعلم غيب السّموات والأرض، وبين رجوعِ الأمر إليه، فلهُ سبحانه غيبُ السّموات والأرض، وإليه يرجعُ الأمرُ كلّه، وليكون قوله: ﴿وَإِلَيۡهِ يُرۡجَعُ ٱلۡأَمۡرُ كُلُّهُۥ﴾ نتيجةً لقوله: ﴿وَلِلَّهِ غَيۡبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾، فإنّ مَنْ كان غيبُ السَّموات والأرضِ له؛ فإنَّ مرجعَ الأمور كلِّها يكون إليه، وقد أعطى هذا العطفُ طمأنينةً وتسليةً للنَّبي ﷺ[1].

نكتةُ تقديم شِبه الجملة ﴿وَإِلَيۡهِ﴾:

حصرٌ واختصاصٌ في رجوعِ الأمورِ إلى الله وحده سبحانه

البلاغة في تقديم المُسند (شبه الجملة) ﴿وَإِلَيۡهِ﴾ - في قوله تعالى: ﴿وَإِلَيۡهِ يُرۡجَعُ ٱلۡأَمۡرُ كُلُّهُۥ﴾ - على المُسنَد إليه الفعل ﴿يُرۡجَعُ﴾ تظهر في الاختصاصِ والحصْرِ برجوعِ الأمرِ كلِّه إلى الله، وليس لأحدٍ سواهُ، فيرجعُ لا محالةَ أمرُهم وأمرُك إليهِ، وإذا كانَ الأمرُ كذلك فإنَّه كافيكَ[2]، ولو لم يكن تقديمُ ﴿وَإِلَيۡهِ﴾ لصار المعنى: أنَّ الأمرَ يرجع إلى الله وإلى غيرِ الله، فاشتركَ غيرُه معه في رجوعِ الأمر إليه، تعالى الله عن هذا علوًّا كبيرًا.

بلاغة توجيهِ القراءاتِ القرآنيَّة في ﴿يُرۡجَعُ﴾:

الأمورُ كلُّها تصيرُ إلى الله وتُردُّ إليه سبحانه

قرأ نافع وعاصم في رواية حفص ﴿وَإِلَيۡهِ يُرۡجَعُ ٱلۡأَمۡرُ﴾ بضمِّ الياء وفتح الجيم؛ أيْ: لم يُسمَّ فاعلُه، وقرأ الباقون وشُعْبة عن عاصم (وإلَيْهِ يَرْجِعُ الأَمْرُ) بفتح الياء وكسر الجيم؛ أيْ: المَبْنيّ للمعلوم[3]، وفي توجيه القراءات يظهرُ أنّ المعنى في قراءة ضمِّ الياء: أيْ: يُرَدُّ

(1) الشّعراويّ، تفسير الشعراوي: 11/6799.
(2) القُونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 1/242.
(3) ابن مجاهد، السّبعة في القراءات، ص: 340، وابن الجزريّ، النّشر: 2/209.

الأمرُ كلُّه إليهِ، والمعنى على قراءة فتح الياء: أيّ: يَصيرُ الأمرُ إليه، وحُجّتهم قوله تعالى: ﴿أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلۡأُمُورُ ۝٥٣﴾ [الشّورى: 53]، ولم يَقُل: (تُصار)[1]، يقول ابن خالويْه: "والأمر بينهما قريبٌ؛ لأنَّ الأمرَ إذا رُدَّ إلى الله رَجع هو، كما تقول: أجلستُ زيدًا فجلس هو، وأدخلَه الله الجنَّةَ فدخلَ هو"[2].

وفي اجتماعِ القراءتيْن إثراءٌ للمعنى، وتحقيقُ بلاغة الوفاء بالمعنى مع الإيجاز في اللّفظ.

ويكون إعرابُ لفظ ﴿ٱلۡأَمۡرُ﴾ على القراءة الأُولى - ضمّ الياء في (يُرجع) - : نائب فاعل، وعلى القراءة الثّانية - فتح الياء في (يُرجع) - : فاعل.

معنى (أل) في ﴿ٱلۡأَمۡرُ﴾:

إليه سبحانه ترجعُ كلُّ الأمور

في قوله تعالى: ﴿وَإِلَيۡهِ يُرۡجَعُ ٱلۡأَمۡرُ كُلُّهُۥ﴾ دخلت (أل) التَّعريف على كلمة الأمر؛ لتشملَ كلَّ أمر؛ لأنَّها (أل) الجنسيَّة، فإذا دخلتْ على الاسم أفادتْ العمومَ، وشملتْ كلَّ أفرادِ الأمر وأنواعه[3].

بلاغة الاستعارةِ في إسنادِ الرُّجوعِ إلى الأمرِ:

لا يرجعُ الأمرُ إلّا إلى المؤثِّر الحقيقيِّ فيه

أسند النَّصُ القرآنيُّ الرُّجوعَ إلى الأمر في قوله تعالى: ﴿وَإِلَيۡهِ يُرۡجَعُ ٱلۡأَمۡرُ كُلُّهُۥ﴾، وهذا لا يكون على سبيل الحقيقة؛ فالأمر لا يرجع، وليس له إرادة، إنَّما استعملَ القرآنُ ذلك على سبيلِ الاستعارة، وهي استعارةٌ تمثيليّةٌ مكنيّةٌ، ويمكن أنْ تُحمل هذه الاستعارة على واحدٍ من الأمريْن:

الأوَّل: أنّه شبّه هيئةَ عجزِ النّاس عن التَّصرُّف في الأمورِ حسب رغباتهم بهيئةِ متناوِلِ شيءٍ للتَّصرُّف به لا يستطيع التَّصرُّف فيه، فيُرجعه إلى الحَريِّ بالتَّصرُّف به.

(1) الأزهريّ، معاني القراءات: 2/46.
(2) ابن خالويْه، إعراب القراءات، ص: 174.
(3) أبو حفص النَّسفيّ، التّيسير في التّفسير: 12/195.

الثّاني: أنَّه شبّه هيئةَ خضوعِ الأمورِ إلى تصرُّف اللّه دون تصرُّف المحاولين التَّصرُّفَ فيها بهيئة الباحث عن مكانٍ ليستقرَّ به، ثمَّ يأوي إلى المقرِّ اللّائق به، ويرجع إليه[1].

وعلى كلا التّفسيرَيْن فالمُشبّه هو الأمر، والمُشبَّه به هو شخصٌ له رجوع، وقد حَذفَ النَّصُّ القرآنيُّ المُشبَّه به وأبقى شيئًا من لوازمه وهو الرّجوع؛ فالاستعارة مكنيّة.

فائدةُ توكيدِ الأمرِ بـ ﴿كُلُّهُۥ﴾:

كلُّ أمرٍ مرجعُه إلى اللّه تعالى وحده دون سواه

جاءتْ كلمةُ ﴿ٱلْأَمْرُ﴾ معرَّفةً بأل الجنسيَّة لتُفيد العمومَ، ثمَّ أكَّدَ النَّصُّ القرآنيُّ هذا العمومَ بتوكيدٍ معنويٍّ، وهو لفظ: ﴿كُلُّهُۥ﴾ الذي هو من أقوى صيغ العموم في اللُّغة العربيَّة، وأوضحها وأوسعها، فأكّدت أنَّ كلَّ الأمر يرجع إلى اللّه سبحانه، وكذلك أكّدت معنى الحَصرِ في رجوع الأمر إلى اللّه وحده دون سواه[2].

غرضُ جملةِ: ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ﴾:

مَنْ ترجعُ جميعُ الأمورِ إليه هو مَنْ يعلمُ غيبَ السَّمواتِ والأرضِ

أفادتِ الجملةُ الخبريّة ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ﴾ إخبارَ المخاطَبين بأنّ كلّ أمرٍ يرجعُ إلى اللّه وحده دون سواه، كما أنّها أتتْ نتيجةً لقوله: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، فإنّ مَن يعلم غيبَ السَّموات والأرضِ يكون مرجعُ الأمورِ كلّها إليه، بالإضافة إلى ما تحمله من معاني التَّعريض والتَّهكّم بأولئك الَّذين عبدوا غيرَ اللّه، وجعلوا معه شركاء؛ والتّسلية والطّمأنينة للنّبيّ ﷺ وللمؤمنين[3].

معنى الفاء في قوله: ﴿فَٱعْبُدْهُ﴾:

كونُ الغيبِ والأمرِ لله وحده يستلزمُ أنْ تكونَ العبادةُ له دون غيره

الفاءُ في قوله تعالى: ﴿فَٱعْبُدْهُ﴾ تحتمل معنيَيْن:

الأوّل: العطف، وفيها معنى التَّرتيب والتَّفريع والسَّببيّة، جاءتْ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 12/195.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 12/195.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 12/195.

لترتّب الأمر بالعبادةِ على كونِ مرجع الأمور كلِّها إلى الله تعالى؛ لأنَّه صاحبُ الأمرِ فيما مضى؛ وله الأمرُ الآن؛ وله الأمر فيما يأتي[1]، "وتفريعُ أمرِ النّبيّ ﷺ بعبادة الله، والتّوكّل عليه على رجوع الأمر كلّه إليه ظاهرٌ؛ لأنّ الله هو الحقيق بأنْ يُعبد وأنْ يُتوكَّل عليه في كلِّ مهمٍّ، وهو تعريضٌ بالتَّخطئةِ للَّذين عبدوا غيره، وتوكَّلوا على شفاعة الآلهة ونفعها[2]، ومعنى السّببيّة في الفاء[3]، أنّ مَن له غيبُ السّموات والأرض، وإليه يرجع الأمر كلّه لا لغيره يستلزم أنْ تكونَ العبادة له دون غيره، فالإنسانُ يدورُ في فلكِ الزَّمان الَّذي هو بيدِ الله سبحانه، يخضعُ لقدرةِ الله وعلمه ومراقبته، فكان لزامًا أنْ يمتثلَ ويعبدَ وفقَ ما يأمر الله سبحانه ويريد.

الثّاني: فصيحة، وهي رابطةٌ لجوابِ شرطٍ مُقدّرٍ[4]، والتّقدير: إذا كان لله غيب السّموات والأرض وإليه يرجع الأمر كلُّه؛ فاعبده وتوكّل عليه.

دلالةُ الأمر في قوله: ﴿فَٱعۡبُدۡهُ﴾ ﴿وَتَوَكَّلۡ﴾:

الله الحقيقُ بأنْ يُعبدَ وأنْ يُتوكَّل عليه

عبَّر البيانُ الإلهيّ في قوله تعالى: ﴿فَٱعۡبُدۡهُ وَتَوَكَّلۡ عَلَيۡهِۚ﴾ بفِعْلي الأمر ﴿فَٱعۡبُدۡهُ﴾ و﴿وَتَوَكَّلۡ﴾، وهو أمرٌ حقيقيّ، وخطابه إلى النّبيّ ﷺ، ويشمل أمّته لأنّهم داخلون مع النّبيّ ﷺ فيما خُوطب به[5]، ويُفيد هذا الأمر وجوبَ فعلِ المأمور، وهو توحيدُ الله بالعبادة والتّوكّل عليه، والمعنى: وحِّد الله عبادةً لا شوبَ فيها، وتوكّلْ معتمدًا في أمورك كلّها عليه[6]، فهو الحقيق بأنْ يُعبد وأنْ يُتوكّل عليه في كلّ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/249، والهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 13/294، والشّعراويّ، تفسير الشعراوي: 11/6798.
(2) الخازن، لباب التّأويل: 2/509، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/195.
(3) صالح، الإعراب المُفصَّل: 5/261.
(4) صافي، الجدول: 12/373.
(5) الزّركشيّ، البحر المحيط في أصول الفقه: 4/257.
(6) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 9/407.

مُهمٍّ؛ لأنّ أمرَ النّبيّ ﷺ بعبادة الله، والتّوكل عليه هو تفريعٌ على رجوع الأمر كلّه إليه ﴿وَإِلَيۡهِ يُرۡجَعُ ٱلۡأَمۡرُ كُلُّهُۥ﴾، ومَن يرجع إليه كلُّ أمر لا يُعقل أنْ يُصرَفَ شيءٌ من العبادة ولا من التّوكّل إلى غيره[1]، فالتّوكُّلُ لا يصحُّ بغير العبادة، والأخذِ بالأسباب المستطاعة، وإنَّما يكون بدونهما من التّمنِّي الكاذبِ، والآمالِ الخادعة، كما أنَّ العبادة – وهي ما يُراد به وجهُ الله من كلِّ عمل – لا تكمُل إلّا بالتّوكُّل الّذي يكمُل به التّوحيدُ[2].

ويمكن أن يُفيد الأمر معنى الزّيادة أو الثّبات على العبادة والتّوكّل، كما يتضمّن هذا الأمر الدّوامَ على العبادة والتّوكّل، والتّعريضَ بالتّخطئة للّذين عبدوا غيره وتوكّلوا على شفاعة الآلهة ونفعها[3].

نكتةُ عطفِ التّوكّلِ في الآية:

عطفَ البيانُ الإلهيُّ التَّوكلَ على العبادةِ في قوله: ﴿فَٱعۡبُدۡهُ وَتَوَكَّلۡ عَلَيۡهِۚ﴾؛ لجامع أنَّ كلًّا منهما يوصلان العبدَ بالله، وليُعطيَ معنًى مُهمًّا، وهو أنَّ العبادةَ مقترنةٌ بالتَّوكُّل على الله، لا ينفصمان ولا ينفكّان، فعبادةٌ بلا توكُّلٍ لا تنفع، وتوكُّلٌ من غير عبادةٍ تواكلٌ ولا أثرَ له، فالأسبابُ وحدها لا تنفعُ من غير الاعتمادِ على الله ﷻ، والعكسُ كذلك، وهذا هو وجه التّغايرِ بينهما.

التَّوكّل الحقُّ لا يكون إلّا من العابدِ الحقِّ

نكتة تقديم الأمر بالعبادة في الآية:

في تقديم الأمر بالعبادة على الأمر بالتَّوكُّل في قوله تعالى: ﴿فَٱعۡبُدۡهُ وَتَوَكَّلۡ عَلَيۡهِۚ﴾ لفتةٌ مهمّةٌ، وهي أنّ الإنسانَ إنّما ينفعهُ التَّوكُّل إذا كان عابدًا لله، فالتَّوكُّل من غير عبادةٍ قَبْله لا ينجع[4]،

أُولى دَرجاتِ السَّيرِ إلى الله تعالى العبوديَّةُ لله، وآخرُها التَّوكُّلُ عليه

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 12/1965.
(2) رشيد رضا، تفسير المنار: 12/163.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 12/195.
(4) القُونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 10/242.

قال الآلوسيُّ: "وفي تأخير الأمر بالتَّوكُّل عن الأمر بالعبادة تنبيهٌ على أنّ التَّوكُّلَ لا ينفع دونها؛ ذلك لأنَّ تقدُّمه في الذِّكر يُشعِر بتقدُّمه في الرُّتبةِ أو الوقوع... لأنَّ المُرادَ من العبادةِ: امتثالُ سائرِ الأوامرِ من الإرشادِ والتَّبليغِ وغيرِ ذلك، ومن التَّوكُّل: التَّوكُّل فيه؛ كأنّه قيل: امتَثِلْ ما أُمرتَ به وداوِمْ على الدَّعوة والتَّبليغ، وتوكَّلْ عليه في ذلك، ولا تُبالِ بالّذين لا يؤمنون، ولا يَضِقْ صدرُك منهم"[1].

وحاصلُ الكلام أنَّ أوّل درجات السَّيرِ إلى الله تعالى هو عبوديَّة الله، وآخرها التَّوكّل على الله، فلهذا السَّبب قال: ﴿فَٱعۡبُدۡهُ وَتَوَكَّلۡ عَلَيۡهِۚ﴾[2]، يعني أنَّ مَنْ كان كذلك كان مُستحِقًّا للعبادةِ لا غيرَه؛ فاعبدْهُ ولا تشتغلْ بعبادةِ غيرِه، وتَوكَّلْ عليهِ يعني: وثِقْ به في جميع أمورك؛ فإنَّه يكفيكَ[3].

معنى الواو في قوله: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ﴾:

الواوُ بينَ العطفِ والاستئنافِ والحالِ

في معنى الواو في قوله تعالى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ﴾ ثلاثةُ أقوالٍ:

الأوَّل: أنَّها عاطفةٌ، فقد عطفتْ كلامًا على كلام، والجُمَل كلُّها من بداية الآية متعاطفةٌ على بعضِها[4]، فاشتركت في توجيه الخطاب إلى النّبيّ ﷺ، وتغايَرَتْ في معانيها.

الثّاني: استئنافيَّة[5]، وتكون الجملة بعدها مستَأْنَفةً، لا محلَّ لها من الإعراب.

الثّالثُ: حاليَّة؛ جاءتْ تذييلًا في محلِّ الحال[6]، والمعنى: إنْ كان هؤلاء المشركون يفعلون ما يفعلون، ويضيقُ صدرك منهم؛ فاعبدْ

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 6/360.
(2) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 18/414.
(3) الخازن، لباب التّأويل: 2/509.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 12/196.
(5) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 9/74، والدّعّاس، إعراب القرآن: 2/77.
(6) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/566.

ربَّك، وتوكَّل عليه، وحالهُ أنَّه لا يغفلُ عنْ شيءٍ ممّا تعملون؛ سواء أعمال المشركين وصنيعهم، أو عبادة المؤمنين وتوكُّلهم، ومجيءُ الجملةِ حاليّةً أفادت توكيد المعاني السّابقة بأنّ مَن له غيبُ السّموات والأرض، وإليه يُرجع الأمر كلّه ليس بغافلٍ عمّا تعملون.

الغرض البيانيُّ من تقديم النَّفي:

لا تهديدَ ولا ترغيبَ أبلغُ من كونه لا يَعزُب عن علمه شيءٌ في الأرضِ ولا في السّماء

أفاد تقديم النّفي ﴿وَمَا﴾ على المُسند إليه ﴿رَبُّكَ﴾ والمُسند الفعليّ؛ وهو الخبر الّذي جاء بصيغة اسم الفاعل ﴿بِغَٰفِلٍ﴾؛ تخصيصَ هذا النّفي، فاللّه وحده لا يغفل وغيره يغفل، وفي هذا التّخصيص: تهديدٌ وترغيبٌ؛ أيْ: وما ربك بغافلٍ عمّا تعمل أنت أيّها النّبيّ ومَن اتّبعك من المؤمنين من عبادته، والتّوكل عليه والصّبر على أذى المشركين، فيوفّيكم جزاءكم في الدّنيا والآخرة، وعمّا يعمل المشركون من الكيد لكم ما استطاعوا إلى ذلك سبيلًا، وسيجزيهم على أعمالهم يوم تُجزى كلُّ نفس بما كسبت[1].

نكتةُ المجيء بلفظِ ﴿رَبُّكَ﴾:

ربُّك المحسنُ إليك لا يغفلُ عن شيء؛ فاطمئنّ أيّها النّبيّ العابدُ المتوكّل

أتى البيانُ القرآنيّ بلفظ الرّبوبيّة ﴿رَبُّكَ﴾ - الّذي يدلُّ على الملْك والتّربية والرّعاية والعناية - دون لفظ الألوهيّة، فلم يَقُل: (وما اللّه بغافل) مناسبةً للمعاني المتقدّمة من ملكِ اللّه للغيب، ورجوعِ الأمر الّذي يجعله سبحانه حقيقًا بالعبادة من المَربوبين، وكذلك مناسبةً لتكرار لفظ الرّبوبيّة ثلاث مرّات في آيتيْ: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ﴾، و﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾.

وفي إضافة الرّبوبيّة إلى ضميرِ النَّبي ﷺ في قولِه: ﴿وَمَا رَبُّكَ﴾ تعظيمٌ وتشريفٌ وطمأنينةٌ للنّبيّ ﷺ؛ لأنَّ مَنْ عَلِمَ غيبَ السَّمواتِ والأرضِ، وملكَ أمرَ النّاسِ، ومَنْ أمَركَ بعبادته والتَّوكُّل عليه هو

(1) المراغيّ، تفسير المراغيّ، 12/102.

مربِّيَكَ بفضله ورحمته وعلمه وحكمته[1]، وهو كفيلٌ لك، ومدبِّر أمرِك، وناصرُك على أعدائِك، ومُجازيك بحُسنِ عملِكَ الَّذي لا يغفلُ عنه، ولا تخفى عليه خافية، فبقدر ما فيها من سلوانٍ للنَّبيّ ﷺ، وحسنِ اتّصالٍ بالرّبِّ ﷻ بقدرِ ما فيها من تهديدٍ ووعيدٍ وتربُّصٍ بأعمالِ المُشركين والمُكذّبين للنَّبي ﷺ[2].

معنى الباء في ﴿بِغَٰفِلٍ﴾:

في قوله تعالى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ﴾ الباء للتّوكيد، والاسم بعدها مجرورٌ لفظًا منصوبٌ محلًّا على أنَّه خبر ﴿وَمَا﴾ الَّتي تعملُ عمل (ليس)، وقد أفادت تقرير النَّفيِّ بالجحدِ والإنكارِ[3].

نكتة التَّعبير بالغفلة في الآية:

نفيُ الغفلةِ عن الله ثابتٌ ودائمٌ، فلا يغيبُ عنه شيءٌ لا سهوًا ولا عمدًا

اختارَ البيانُ القرآنيُّ مادّة الغفلة في قوله تعالى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾ للتّعبير عن إحاطة علم اللّه تعالى، وعدم غفلته سبحانه؛ وذلك لأمرَيْن:

الأوّل: لأنّ مادّة الغفلة أوسعُ دلالةً؛ فأصلُ مادة (غَفَلَ) تدلُّ على تركِ الشّيء سهوًا، وربما كان عن عمد[4]، ومن معاني الغفلة: الذّهولُ عن الشّيء، ومتابعةُ النّفسِ على ما تشتهيه، وغَفَلَ عن الشّيء: ستَره[5]، والغفلةُ: غيبةُ الشّيءِ عن بالِ الإنسان، وعدمُ تذكّره له، وقد استُعمل فيمَن تركه إهمالًا وإعراضًا[6]، فالغفلة: سهوٌ يعتري الإنسانَ من قلّة التّحفّظ والتّيقّظ[7]، كما أنّ الغفلةَ تكونُ عن فعلِ الغير، تقول: كنتُ غافلًا عمّا كان من فلان، ولا تقول: كنتُ ساهيًا عن فعلِ فلان[8].

(1) رشيد رضا، تفسير المنار: 11/328.
(2) الشّعراويّ، تفسير الشعراوي: 11/6804.
(3) بنت الشّاطئ، الإعجاز البيانيّ، ص: 190.
(4) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (غفل).
(5) الزّبيديّ، تاج العروس: (غفل).
(6) الفيوميّ، المصباح المنير: (غفل).
(7) الرّاغب، المفردات: (غفل)، والفيرزابادي، بصائر ذوي التّمييز: 4/140.
(8) العسكريّ، الفروق اللُّغويّة، ص: 388.

فالغفلةُ أعمُّ من النّسيانِ ومن السّهو، ولهذا اختارَ القرآنُ الغفلةَ دون غيرها من الألفاظ المقاربة.

الثّاني: لأنّها أنسبُ للسّياق، فالسّياق في نفيِ الغفلةِ بكلّ معانيها عن اللّه سبحانه الّذي يُحيط علمه بكلّ شيء؛ فهو سبحانه لا يغيبُ عنه شيءٌ لا سهوًا وإهمالًا، ولا عمدًا وإعراضًا، ولا يذهلُ عن شيء فينساه ولا يتذكّره، ولا يسترُ شيئًا من الأعمالِ بأنْ يُغفلهُ ولا يجازي صاحبَه عليه، كما أنّ الغفلةَ هنا عمّا يعملونه من أعمال؛ أيْ: عن فعلِ الغير؛ فناسب اختيار الغفلة.

وأمّا من حيث صيغتُها، فقد جاءتْ بصيغة اسم الفاعل (غافل) الّذي يدلُّ على الثّبوت والدّوام؛ أيْ: إنّ نفيَ الغفلة عن اللّه سبحانه ثابتٌ ودائمٌ، فعِلمهُ محيطٌ بكلّ شيء لا يعزُب عنه مثقال ذرّة في الأرض ولا في السّموات، ولا تأخذه سِنَةٌ ولا نوم.

نكتة تنكير ﴿بِغَٰفِلٍ﴾:

نكّر البيانُ القرآنيّ لفظ ﴿بِغَٰفِلٍ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ﴾؛ لإفادة العموم، إذ النَّكرة في سياق النَّفي من صيغ العموم، وبالتّالي فلا يعتريه ﷻ أيُّ غفلةٍ مهما كانت يسيرة، وجاءتِ الباء قبلها لتزيد العموم عمومًا، وتُضيف على المعنى بيانًا وإيضاحًا.

أحاط بكلِّ شيءٍ عِلْمًا ولا يغيبُ عنه شيء

معنى (ما) في قوله: ﴿عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾:

معنى (ما) في قوله تعالى: ﴿عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾ اسمٌ موصولٌ بمعنى (الّذي) وقد أفادت العموم؛ لأنّ اسم الموصول من ألفاظ العموم، والمعنى: أنَّ اللّه ﷻ ليس بغافل عن أيِّ عملٍ من الأعمالِ الَّتي يقوم بها الإنسانُ، مهما كان نوعُ هذا العمل، قولًا أو فعلًا أو نيّةً، أو ظاهرًا أو باطنًا، أو صالحًا أو فاسدًا، وهذا من إحاطة علمه بكلّ شيء سبحانه، كما أنَّ (ما) فيها إبهامٌ فسّره صلةُ الموصول بعدها، وفي مجيئها مبهمةً تشويقٌ لمعرفة المُبهَم.

علمُ الله محيطٌ بكلّ شيء لا يغيبُ عنه أيَّ عملٍ مهما كان

الموقع النَّحويّ لجملة ﴿تَعۡمَلُونَ﴾:

جملة ﴿تَعۡمَلُونَ﴾ صلةُ الموصول لا محلَّ لها من الإعراب، حيث أتتْ لتُعرّف الاسم الموصول (ما) وتُتمّ معناه، وتُبيّن المقصود منه، إذ الاسمُ الموصول مبهمٌ يحتاجُ إلى توضيحِ المُرادِ منه، كما أنّ مجيءَ الموصول مع صلته في قوله: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾ أنّ عدمَ غفلته عن أيِّ عمل أنّه يُعطي كلّ عامل جزاء عمله؛ إنْ خيرًا فخير وإنْ شرًّا فشرّ، ولذلك علّق وصف الغافل بالعمل، ولم يُعلّق بالذّوات، فلم يَقُل: وما اللّه بغافلٍ عنكم؛ إيماء إلى أنَّ على العمل جزاء، وهذا الجزاء يكون على ما يصْدر عن المُكلّف من عمل[1].

الجزاءُ يكونُ على ما يصدرُ عن المكلَّفِ من عملٍ

نكتة التَّعبير بـ ﴿تَعۡمَلُونَ﴾:

عبَّر البيانُ القرآنيّ بـ ﴿تَعۡمَلُونَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾؛ لأمريْن:

الأوّل: من حيث المادةُ، إذ (عمل) يعمُّ أفعال القلوب والجوارح[2]، والعملُ: هو كلّ فعلٍ يكون بقصدٍ، ولا يُقال عنه عملٌ إلّا في ما كان عن فكرٍ ورويّةٍ، ولهذا قُرن بالعلم[3]، فهو أخصّ من الفعل[4].

الثّاني: لمناسبة السّياق، إذ إنَّ السّياقَ في إحاطةِ عِلم اللّه بكلّ ما تعملون؛ والجزاء على هذه الأعمال، وعلمُ اللّه تعالى محيطٌ بكلّ ما يكون من الإنسان من أحداثٍ، سواء كانت نيّةً أو قولًا أو فعلًا، فالنيّاتُ عملُ القلوب، والأقوالُ عملُ اللّسانِ، والأفعالُ عملُ سائر الجوارحِ، والعملُ يشملها كلّها[5]، كما أنّ الجزاءَ يكون على ما صدر عن المكلّف بقصدٍ وعن فكرٍ ورَويّة، وهذا يناسبه التَّعبير بالعمل دون الفعل.

علمُ الله يشملُ عملَ القلوبِ والجوارحِ، وجزاؤهُ على ما كان عن قصدٍ ومن مكلّفٍ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 12/196.
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (عمل).
(3) الكفويّ، الكليّات، ص: 666.
(4) الرّاغب، المفردات: (عمل).
(5) الشّعراويّ، تفسير الشعراوي: 7/4332.

إضافةً إلى مناسبةِ ورود لفظ العمل في الآية الَّتي قبلها: ﴿ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ إِنَّا عَٰمِلُونَ﴾.

وأمّا من حيث الصّيغةُ: فقد آثر التّنسيقُ القرآنيُّ صيغةَ المضارع؛ لإفادةِ تجدُّدِ مضمونِه وتكرُّره[1]؛ أيْ: إنّ عِلمَ اللّه سبحانهُ محيطٌ بكلّ عملٍ متجدّدٍ منكم لا يغفلُ عن أيِّ عمل.

بلاغة القراءاتِ القرآنيَّة في: ﴿تَعۡمَلُونَ﴾:

في القراءتين جمالٌ في تنوّع الخطاب وإثراءٌ في المعنى من ترغيبٍ وترهيبٍ

قرأ نافع وابن عامر وحفص عن عاصم وأبو جعفر ويعقوب: ﴿بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾ بالتّاء، وقرأ الباقون من القراء العشرة: (بِغافِلٍ عَمّا يَعْمَلُوْنَ) بالياء[2].

وجهُ القراءة بالتّاء ﴿تَعۡمَلُونَ﴾: أن الخطاب يكون للنّبيّ ﷺ، ولجميعِ النّاس معه في الخطاب، مؤمنِهم وكافرِهم[3]، والمعنى: أنَّ اللّه لا يفوته شيءٌ من أعمال العباد، وأنّه يجزي المحسنَ بإحسانِهِ والمسيءَ بإساءتِهِ، فتكون قراءةُ التّاء أعمَّ من الياءِ[4].

ووجه القراءة بالياء (يَعْمَلُونَ): "يعود الضّمير إلى الكُفّار، فهو تسليةٌ للنّبيّ ﷺ، وتهديدٌ للمشركين"[5].

وفي القراءتيْن تنوّعٌ في الخطابِ من عموم وخصوص، أدّى إلى ثراءِ المعنى واتّساعه، فعلى قراءة التّاء الخطابُ عامٌّ للجميع، وعلى قراءة الياء الخطابُ للكفّار، وفي كِلتا القراءتيْن ترغيبٌ وترهيب.

بلاغةُ التَّذييلِ في آخر الآية:

خاتمةٌ جامعةٌ وافيةٌ فيها تهديدٌ ووعيدٌ، وفيها طمأنينةٌ وتأييدٌ

في قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ غَيۡبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ ختمَ البيانُ الإلهيّ السّورةَ بهذه الآية بخاتمةٍ جامعةٍ ساميةٍ؛ فهي كلامٌ جامعٌ جمعتْ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 25/89.
(2) ابن مجاهد، السّبعة، ص: 340، والفارسيّ، الحُجّة: 4/389، وابن الجزريّ، النّشر: 2/162.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 6/360.
(4) الفارسيّ، الحُجّة: 4/389، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 12/196.
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 12/196.

كلَّ مطالب الخير، فهو تذييلٌ للسّورة مؤذنٌ بختامها[1]، حيث خُتمتْ بما بُدئتْ به بالتّوحيد والرّجعة إلى اللّه في نهاية المطاف؛ ليلتقي جمالُ التّنسيق في البدء مع الختام[2]، حيث جاءتْ لتقرير الحقائق الاعتقاديّة الأساسيّة والثّابتة في كلّ رسالةٍ من الرّسالات السّماويّة، والّتي جاءتْ في هذه السّورة على لسانِ الأنبياء من خلال قصصهم، والّتي كان الهدفُ منها تثبيتَ قلبِ النّبيّ ﷺ، فكانتْ هذه الآية كالخلاصة والنّتيجة لِما تقدَّم في السّورة، ولتأكيد أنَّ للّه دون غيره غيبَ السّموات والأرض؛ ومرجعُ الأمور كلّها إليه، وعِلمُهُ محيطٌ بكلّ ما عملوه وما سيعملونه؛ ممّا أعطتْ زيادة تطمينٍ لقلبه الشّريف ﷺ.

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الفِعْل والعَمَل والصُّنْع والجَعْل والخَلْق:

يوجد تقاربٌ دلاليٌّ بين هذه الألفاظ، وقد يُعرّف أحدها بالآخر، كما في لفظ (عمل) و(فعل) إذ عرّف ابن فارس الفعل: بأنّه إحداث شيء من عملٍ وغيرِه، والعمل: بأنّه عامٌّ في كلّ فعلٍ يُفعل[3]، كما يُستعمل أحدها مكان الآخر في بعض المواضع، إلّا أنّه عند الرّجوع إلى المعنى اللّغويّ، والاستعمال القرآنيّ وإمعان النّظر في معانيها يتبيّن أنّ لكلّ منها ما يميّزه عن الآخر، وبيان ذلك:

العملُ أخصُّ من الفعل، والصّنعُ أخصُّ منهما، والجَعلُ تصييرٌ، والخلقُ تقديرٌ وإبداع

الفعل: الفاء والعين واللّام أصلٌ صحيح يدلُّ على إحداث شيءٍ من عملٍ وغيره[4]، والفعل: التّأثير من جهة مؤثِّرٍ، وهو عامٌّ لِما كان بإجادةٍ أو غير إجادة، بعِلمٍ أو غير عِلم، وبقصْدٍ أو غير قصْد، ولِما كان من الإنسان والحيوان والجمادات[5]، ويُستعمل الفعل في كلِّ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/194، والزّحيليّ، التّفسير المنير: 12/186.
(2) السّامرائيّ، لمسات بيانيّة: 5/454.
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (عمل)، (فعل).
(4) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (فعل).
(5) الرّاغب، المفردات: (فعل).

ممارسةٍ عمليّةٍ تتطلّب قوّةً زائدةً تتمثّل في تحمُّل المشقّة أو التّأثير أو الجدّ؛ أيْ: كلُّ عملٍ فيه زيادة جدّ، ويُستعمل في الأحداث العنيفة، كقوله تعالى: ﴿وَفَعَلۡتَ فَعۡلَتَكَ ٱلَّتِي فَعَلۡتَ﴾ [الشّعراء: 19]، وفي التّنفيذ الجادّ الّذي لا فتور ولا تساهل فيه: ﴿فَعَّالٞ لِّمَا يُرِيدُ ١٦﴾ [البروج: 16][1].

العَمَل: العين والميم واللّام أصلٌ واحدٌ صحيحٌ، وهو عامٌّ في كلّ فعلٍ يُفعل[2]، والعمل: جهدٌ مادّيٌّ يؤدّي إلى إحداث شيء، ويعمّ أفعال القلوب والجوارح[3]، وهو: كلّ فعلٍ يكون بقصدٍ، فهو أخصّ من الفعل[4]، فالعمل لا يُقال إلّا في ما كان عن فكرٍ ورويّةٍ، ولهذا قُرِنَ بالعلم[5].

الصُّنْع: عمل الشّيء صنعًا؛ أيْ: بحِذْقٍ[6]، والصُّنّاع: الّذين يعملون بأيديهم[7]، والصُّنع: إجادة الفعل، فكلّ صُنْعٍ فِعْلٌ، وليس كلّ فِعلٍ صُنْعًا، ولا يُنسب إلى الحيوانات والجمادات كما يُنسب إليها الفعل، ولا يُقال: (صنعٌ) إلّا للحاذق المُجيد[8].

الجعل: التّهيئة والصُّنع، وتصيير الشّيء من حالةٍ إلى حالة[9]، ويتصرّف الفعل (جعل) على خمسة أوجه، الأوّل: يجري مجرى صار وطفق فلا يتعدّى، والثّاني: يجري مجرى (أوجد) فيتعدّى إلى مفعول واحدٍ، والثّالث: في إيجاد شيءٍ من شيءٍ وتكوينه، والرّابع: في تصيير الشّيء على حالة دون حالة، والخامس: الحكم بالشّيء على الشّيء حقًّا كان أو باطلًا، والرّابع والخامس من أوجه (جعل) يدخلان في معنى التّحويل والتّصيير[10].

الخلق: تقديرُ الأشياء، وإيجادها على مثالٍ لم يُسبق إليه[11]؛ أيْ: إبداع الشّيء من غير أصلٍ ولا احتذاءٍ، كقوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾ [الأنعام: 1]، ويُستعمل في إيجاد الشّيء من الشّيء[12].

---

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (فعل).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عمل).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (عمل).
(4) الرّاغب، المفردات: (عمل).
(5) الكفويّ، الكليّات، ص: 666.
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (صنع).
(7) الخليل، العين: (صنع).
(8) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحُفّاظ: (صنع).
(9) ابن منظور، لسان العرب: (جعل).
(10) الرّاغب، المفردات: (جعل).
(11) ابن منظور، لسان العرب: (خلق).
(12) الرّاغب، المفردات: (خلق).

وقد فرّق العسكريّ بين هذه الألفاظ؛ فذكر أنّ العمل إيجاد الأثر في الشّيء، يقال: فلانٌ يعمل الطِّين خزفًا، ولا يُقال يفعل ذلك؛ لأنّ فعل ذلك الشّيء هو إيجاده، قال الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ وَمَا تَعۡمَلُونَ ٩٦﴾ [الصّافات: 96] أيْ: خلقكم وخلق ما تُؤثِّرون فيه بنحتكم إيّاه أو صوغكم له، وما يقع في علاجٍ وتعبٍ واحتيال، والعمل يُطلق على عمل الرَّجل بنفسه.

والصُّنع: ترتيب العمل وإحكامه على ما تقدَّم علمٌ به، وبما يُوصل إلى المُراد منه، ولذلك قيل للنّجار: صانع، ولا يُقال للتّاجر صانع؛ لأنّ النَّجار قد سبق علمه بما يريد عمله من سريرٍ أو بابٍ وبالأسباب الّتي تُوصل إلى المُراد من ذلك، والتّاجر لا يعلم إذا اتَّجر أنّه يصل إلى ما يريده من الرّبح؛ وفي الصّناعة معنى الحرفة.

والجَعْل: تغييرٌ بإيجاد الأثر في الشّيء، والعمل إيجاد الأثر في الشّيء، والجَعْل أيضًا يكون بمعنى الإحداث، وأمّا الخلق فهو: التَّقْدِير[1].

ويمكن تلخيص ما يمُيّز كلَّ لفظ من هذه الألفاظ بالآتي:

العمل: أخصّ من الفعل، فالعمل لا يكون إلّا بعلمٍ وعن قصدٍ وفِكْرٍ ورَوِيَّةٍ، أيْ: لا يكون إلّا من عاقل.

وأمّا الفعل: فعامٌّ، إذْ قد يكون بقصدٍ أو بغير قصدٍ؛ من عاقلٍ وغير عاقلٍ، بعلمٍ أو بغير علم، كما أنّ الفِعْل: ما كان في زمَنٍ يَسيرٍ بلا تَكْرِيرٍ، والعمَل: ما تكَرَّرَ وطالَ زمَنُه واستَمَرَّ[2].

والصّنع: أخصُّ من الفعل ومن العمل، فهو ترتيب العمل وإحكامه بحذقٍ وإجادةٍ على ما تقدَّم علمٌ به، وبما يُوصل إلى المُراد منه.

ويتميّز الجَعْل بمعنى التّصيير؛ أيْ: تصيير شيءٍ من شيءٍ، ومعنى التّهيئة، وكونه محصّلًا من آخر.

ويتميّز الخَلْق بمعنى: التّقدير والإبداع والأوّليّة؛ أيْ: إيجادها على مثالٍ لم يُسبق إليه.

(1) العسكريّ، الفروق اللُّغويّة، ص: 134 - 136.
(2) الزّبيديّ، تاج العروس: (فعل).

سُورَةُ يُوسُفَ

سُورَةُ يُوسُفَ

التّعريف العامّ بسّورة يوسف:

نزلت سورة يوسف بمكَّة، فهي مكيَّة باتفاق، وقد قيل: إنَّ الآيات الثَّلاث الأُولى مدنيَّة، ورفض السُّيوطيّ هذا القول وعدَّه واهيًا ولا يُلتفت إليه[1].

عدد آياتها: مِائةٌ وإحدى عشرة آية، بلا خلاف، وهي السُّورة الثّانية عشرة في ترتيب المصحف الشّريف، وتقع في الجزء الثّاني عشر أيضًا[2].

وفيما يتعلَّق بنزول السُّورة، فقد ورد فيها بعض الرّوايات الّتي لم تثبت صحّتها، منها قول سعد ابن أبي وقّاص رضي الله عنه: (أُنزِلَ القرآن، فتلاه الرّسول عليهم زمانًا، فقالوا: يا رسول اللّه لو قصصتَ علينا؛ فنزلَتْ)[3].

ورُوي عن ابن عبّاس رضي الله عنهما أنَّ حَبْرًا من اليهود دخل على النَّبي ﷺ وهو يقرأ سورة يوسف، فوافقه على ذلك، وقال: يا مُحمّد ﷺ، مَن علَّمكَها؟ قال: اللّه علَّمَنيها، فعجِب الحَبْر لمّا سمع منه، فرجع إلى اليهود، فقال لهم: واللّه إنَّ مُحمّدًا ليقرأ القرآن كما أُنزل في التّوراة، فانطلق بنفرٍ منهم حتّى دخلوا عليه، فعرفوه بالصِّفَة، ونظروا إلى خاتم النّبوّة بين كتفيه، فجعلوا يستمعون إلى قراءته ﷺ من سورة يوسف، فتعجّبوا وأسلموا عند ذلك[4].

دلالة التّوقيتِ الزّمانيّ للسّورة:

نزلت السُّورة الكريمة بعد سُورة هود في فترةٍ حرجةٍ عصيبةٍ من حياة الرّسول ﷺ، حيث توالت الشَّدائد والنَّكبات عليه وعلى المؤمنين، وبالأخصّ بعد أن فَقَدَ زوجه خديجة رضي الله عنها وعمّه. نزلت بَيْنَ عام الحُزن وبيعة العَقَبة الأُولى. فكانت هذه السُّورة تَسليَةً وتَسرِيةً وتخفيفًا لآلام المسلمين، وتحمل البِشْرَ والأُنْسَ والرّاحةَ والفَرَج، مهما اشتدَّت المصاعب،

(1) السّيوطيّ، الإتقان: 1/59، ورشيد رضا، تفسير المنار: 12/206.
(2) رشيد رضا، تفسير المنار: 12/206، والخطيب، التّفسير القرآني: 6/1228.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 15/552.
(4) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 10/7، والسّيوطيّ، الدُّرّ المنثور: 4/495.

وتكالب أهلُ الباطل، وذلك من خلال استعراض ما مرَّ به يوسف عليه السلام من شدائد وفتنٍ ومصائب.

من مقاصد القرآن تسلية سيّد المرسلين صلى الله عليه وسلم

موضوعات السّورة:

وقصَّة يوسفَ الَّتي هي موضوع السُّورة وقوامها قد استغرقت السورة كلّها، وهي تزيد على مِائة آية، عدا نَحو عشر آيات من آخرها تضمَّنت عِبرتها ومَرْماها[1].

موضوعاتها الفرعية إنّما هي مشاهد وشواهد لقصة نبيّ كريم

وتُعدُّ قصَّة يوسف من القصص الطويلة في كتاب الله تعالى، تضمَّنت مشاهد كثيرةً متواليةً:

أوّلًا: أوَّلها يُمثّل طفولة يوسف، إذ يقصُّ رؤياه على أبيه يعقوب: (الآيات: 4 – 7).

ثانيًا: تآمر أخوة يوسف عليه لقتله أو إبعاده، وما اتّفقوا عليه بعد المذاكرة وإقناع أبيهم بإرسال يوسف معهم: (الآيات: 8 – 14).

ثالثًا: تنفيذ المؤامرة بيوسف وتغطيتها وتلبيس الأمر على يعقوب: (الآيات: 15 – 18).

رابعًا: التقاط يوسف وخروجه من البئر: (الآيات: 19 – 20).

خامسًا: يوسف في مصر في بيت العزيز، وتبدأ في حياة يوسف مأساةٌ جديدةٌ دوافعها الإغراء والإغواء وسبَبُها العفّة والإباء: (الآيات: 21 – 34).

سادسًا: يوسف في السّجن، ويبدو لنا هنا وجهٌ جديدٌ ليوسف، ذلك هو الدّاعية إلى الله تعالى والموهوب الَّذي كشف الله عن بصيرته، فاستشفَّ المستقبلَ المُغيّبَ من خلال الرُّؤيا والأحلام: (الآيات: 35 – 53).

(1) المبارك، دراسة أدبيّة، ص: 79 - 82.

سابعًا: يوسف في بلاط المَلك بعد خروجه من السّجن وتوليته خزائن مصر: (الآيات: 54 – 57).

ثامنًا: مشاهد متعدِّدة فيها كثيرٌ من الحوادث والأزمات تنتهي بلقائه إخوتَهُ وتعارفهم، وانتقالهم جميعًا مع أبيهم إلى مصر، حيث تصل الحوادث إلى نهايتها، وتفتح أبواب الفرَج على مصراعيها، وينتهي ذلك بتعبير يوسف عن شكره للّه على نعمه كلِّها: (الآيات: 58 – 101).

لقد احتوت القصَّة أزماتٍ وعُقَدًا كثيرةً، وكان اللّه دومًا هو الَّذي يُفرِّج الكُرَب، ويحلّ العُقد، ويُخرج يوسف بعنايته من الأزمة.

أمّا فلسفة القصّة العميقة فتتجلّى في الإيمان العميق باللّه الَّذي ينصر الحقّ على الباطل ولو طال الأمد، والثِّقةِ بهذا الانتصار، ومواجهةِ أزمات الحياة المختلفة بصبرٍ وثباتٍ وإيمان، والتَّفاؤلِ حتَّى في الشِّدة وترقُّب الفَرَجِ من اللّه تعالى في الأزمات، والإيمان أنَّ نيَّة الخير والعزم عليه لا يُولِّد في النِّهاية إلّا خيرًا.

وتتمثَّل هذه الفلسفة المؤمنة المتفائلة في أكثر من موقفٍ، وكثيرٍ من الآيات ومناسبات القصَّة، ومنها على لسان يعقوب: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ [يوسف: 18، و83]، ﴿وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ﴾ [يوسف: 87]. وقول يوسف عليه السلام: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝٩٠﴾ [يوسف: 90][1].

أهمُّ مقاصد السّورة وأغراضها:

أوّلاً: بيانُ قصّة يوسفَ مع إخوته، وما تضمَّنته من أسلوبٍ قصصيٍّ بديع، وما حَكَتْهُ عن كَيدِهم به، ومحنَة رَميهم له في الجُبِّ، وفراقِ والدَيْه، وما واجهه من شدائدَ أخرى في حياته؛ كالرِّقِّ، وكَيد امرأة العزيز بالمُراودة والإغراء، والسّجنِ بعد رَغَد العيش، كلُّ ذلك تسليةً للنّبيّ ﷺ عمّا لقيه من أذى القريب والبعيد، وفيها العزاءُ لما يُلاقيه المؤمن من قريبه لتمسُّكه بشرع اللّه.

ثانيًا: بيان العِبرة بصبر الأنبياء على البَلْوى؛ كيعقوبَ ويوسفَ عليهما السلام، وكيف كانت العاقبةُ

(1) المبارك، دراسة أدبيّة، ص: 83 - 86.

لهما بعد الابتلاء والصّبر، وتأكيد لطف اللّه العظيم الّذي يمنحه عباده، وأن ما يظهر لنا مما نَظُنَّه من المحَن؛ إنَّما هو عَينُ المنَح.

ثالثًا: الدّعوة إلى التّوحيد في أحلك الظّروف وأصعب المواقف، الّذي تمثَّل في قيام نبيِّ اللّه يوسف بذلك في السّجن.

رابعًا: بيان أنَّ تعبير الرّؤى من العلوم الّتي يهبها اللّه لمَن يشاء من عباده، وهو من أصول النُّبوءات، ونوعٌ من الفُتْيا، والإشارةُ إلى أنَّ من الرّؤى ما فيه تبشيرٌ أو تحذيرٌ من أمرٍ معيَّن.

خامسًا: استعراضُ جملةٍ من تاريخ الحضارة القديمة وقوانينها وتجارتها؛ كاسترقاق السّارِقِ، وأحوال المسجونين، ومراقبة المكاييل، وغير ذلك.

سادسًا: الاعتبار بهجرة قوم النّبيِّ إلى البلد الّذي حلَّ فيه؛ كما فعل يعقوبُ وآلُه، وفي ذلك إيماءٌ للمؤمنين بأن ينتقلوا إلى المدينة النّبويّة مهاجرين؛ تَبَعًا لهجرة النّبيّ ﷺ.

المحور الّذي قامت عليه مشاهد السّورة:

التفريج بعد الرّؤيا ديدنٌ معلوم

المحور الّذي قامت عليه قصّة يوسف عليه السلام بكلِّ تفاصيلها هو تحقّق الرّؤيا، وحصول الفَرَج بعد البلاء والشِّدّة؛ فوجه التّشابه كبيرٌ بين الواقع المُؤلم الَّذي عاشه يوسف عليه السلام مع محيطه، والواقع الّذي كان عليه رسول اللّه ﷺ مع قومه.

فمن أوجه المناسبة البديعة، والبعيدة في دلالاتها، أن تتناسب القصَّة القرآنيَّة مع واقع المسلمين الَّذي نزلت فيه القصَّة.

ولو نظرنا في كتب تاريخ القرآن وعلومه لوجدنا أنَّ سورة يوسف من السُّور الَّتي تنزّلت في أواخر العهد المكِّيّ، وفيها الإلماح إلى المشابهة بين واقع النَّبِيَّيْن الكريميْن، وفيها الإرهاص بفَرَجٍ بعد الهجرة.

وهذا الشَّبَهُ بين ملامح قصَّة يوسفَ وأخيه النَّبيّ محمَّد ﷺ قد لفَتَ نَظَرَ كثيرٍ من المُفسّرين[1]، وعقدوا في مُؤلَّفاتهم أوجهًا للشَّبه بين القصَّتيْن، فالإمام الطَّبريّ في تفسيره يقول: "وهذا، وإن كان خبرًا من الله تعالى ذكَره عن يوسف نبيّه ﷺ، فإنَّه تذكيرٌ من الله لنبيِّه محمَّدٍ ﷺ، وتسليةٌ منه له عمّا كان يَلقى من أقربائه وأنسبائه المشركين من الأذى فيه، يقول: فاصبر، يا محمَّد، على ما نالك في الله، فإنّي قادرٌ على تغيير ما ينالك به هؤلاء المشركون، كما كنتُ قادرًا على تغيير ما لقي يوسف من إخوته في حال ما كانوا يفعلون به ما فعلوا، ولم يكن تَركي ذلك لهوان يوسف عليَّ، ولكن لماضي علمي فيه وفي إخوته، فكذلك تَرْكي تغييرَ ما ينالك به هؤلاء المشركون لغير هوانٍ بك عليَّ، ولكن لسابق علمي فيك وفيهم، ثمَّ يصير أمرُك وأمرُهم إلى عُلوِّك عليهم، وإذعانهم لك، كما صار أمر إخوة يوسف إلى الإذعان ليوسف بالسّؤدد عليهم، وعلوِّ يوسف عليهم"[2].

فسِيرَة نبيِّنا مُحمَّد ﷺ من أشبَه السِّير بسيرة نبيِّ الله يوسف عليه السلام، وقصَّته مع قريش كقصَّة يوسف مع إخوته، حسَدٌ ومحاربةٌ في البداية واعترافٌ وإجلالٌ وندمٌ في النِّهاية. وإبعادٌ وإقصاءٌ ونُكران وجفاء في الأوَّل، وخضوعٌ والتجاءٌ واستعطاف واستجداء في الآخر، وغيابةُ الجُبّ في محنة يوسف، وغارُ ثَوْر في رحلة محمَّد ﷺ، وسِجنٌ في قصَّة يوسف، وشِعْبُ أبي طالب في قصّة ابن عبد المطلب، وتقريرٌ وإعلانٌ من أعداء كلّ منهما: ﴿تَٱللَّهِ لَقَدۡ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ٩١﴾ [يوسف: 91]. والجواب الرَّقيق الكريم من كِلا السَّيدَيْن الكريمَيْن: ﴿لَا تَثۡرِيبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَۖ يَغۡفِرُ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ٩٢﴾ [يوسف: 92].

وهكذا نزلت هذه السّورة في جو مكَّة الثَّقيل المُظلم لتُبشِّر رسولَ الله ﷺ بمستقبله العظيم المُشرق الزّاهر، فكأنَّ قصَّة يوسف قصتُهُ عليه السلام[3].

(1) ابن جرير، جامع البيان: 15/562، والزّمخشريّ، الكشّاف: 2/445، والسّيوطيّ، الدّرّ المنثور، 4/500، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/255، والشّوكانيّ، فتح القدير: 3/11.

(2) ابن جرير، جامع البيان: 15/7.

(3) النّدويّ، النّبوّة والأنبياء، ص: 122 - 124.

اسم السُّورة وعلاقته بمحورها:

الاسم الوحيد لهذه السُّورة (سورة يوسف)؛ ووجه التَّسمية ظاهر؛ لأنَّها قصَّت قصَّة يوسف عليه السلام كلّها، ولم تذكر قصَّته في غيرها، كما أنَّه لم يذكر اسم يوسف عليه السلام في غيرها، إلّا في سورتي الأنعام وغافر[1]. ولم تُذكر قصَّة نبيٍّ في القرآن الكريم بمثل هذا الإطناب الّذي ذُكرت به قصّة يوسف عليه السلام في هذه السّورة.

الخصائص الأسلوبيّة للسّورة:

تضمَّنت سورة يوسف أسلوبًا فذًّا فريدًا في ألفاظها، وتعبيرها وأدائها، وفي قَصصها الممتع اللَّطيف، تسري مع النَّفس سريان الدّم في العروق، وتجري برقّتها وسلاستها في القلب جريان الرُّوح في الجسد، فهي وإن كانت من السُّور المكِّيَّة الّتي تحمل في الغالب طابعَ الإنذار والتَّهديد، إلّا أنّها اختلفت عنها في هذا الميدان، فجاءت طريّةً نديّةً، في أسلوبٍ ممتعٍ لطيفٍ، سَلِس رقيق، يحمل جوَّ الأنس والرَّحمة والرَّأفة والحنان، ولهذا قال خالد بن معدان: "سُورة يوسف ومريم ممّا يَتفكّه بهما أهل الجنَّة في الجنَّة"، وقال عطاء: "لا يَسمعُ سُورَة يُوسُف محزونٌ إلّا استروح إليها"[2].

وقد وُصفت هذه السُّورة بأحسن القصص في قوله تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾؛ لما فيها من العِبر، والحِكم، والنُّكتِ، والفوائد الَّتي تصلُح للدِّين والدُّنيا، من سِيَر الملوكِ، والمماليكِ، والعُلماء، ومَكْرِ النِّساء، والصَّبْر على أذى الأعداء، وحُسن التَّجاوزِ عنهم بعد الالتقاء، وغير ذلك من الفوائد[3].

وقال الآلوسيّ: "ووجه أحسنيّتها اشتمالُها على حاسدٍ ومَحسود، ومالكٍ ومملوكٍ، وشاهدٍ ومشهودٍ، وعاشقٍ ومعشوقٍ، وحبْسٍ وإطلاقٍ، وخَصْبٍ وجَدْبٍ، وذَنْبٍ وعَفْوٍ، وفِراقٍ ووِصالٍ، وسقمٍ وصحَّةٍ، ورَحلٍ وارتحالٍ، وذُلٍّ وعزٍّ. قيل: ولكونها بتلك المثابة من الحُسن تتوفّر الدَّواعي إلى نقلها؛ ولذا لم تتكرّر كغيرها من القصص"[4].

إن الدّارس للقصص القرآنيّ يلحظ ظاهرةً واضحةً هي أنَّ القصص الطّويل يتوزّع

(1) الآيتان: (84 و34) على التّرتيب.
(2) السّمعانيّ، تفسير القرآن: 3/6، والخازن، لباب التّأويل: 2/511.
(3) البغويّ، معالم التّنزيل: 4/212، وابن عادل، اللُّباب في علوم الكتاب: 11/7.
(4) الآلوسيّ، روح المعاني: 6/368.

على مشاهد عديدة، وتتوزّع المشاهد على سُوَرٍ عديدة في القرآن؛ فقصّة موسى عليه السلام وُزّعت في حوالي ثلاثين سورة، وهذه القاعدةُ تُشكِّل سورةُ يوسفَ استثناءً منها.

كما أنَّ قصّة يوسف تعدُّ أنموذج الرّواية التّامّة الحلقات المتسلسلة السَّرد، المصوِّرة للحوادث والأشخاص. وكأنَّ الله تعالى قد صاغ قصَّة هذا النَّبيّ الكريم في سورةٍ مستقلةٍ ليعلم هؤلاء الّذين يشترطون في الإبداع القصصيّ أنَّ القرآن لو شاء أن يُفرد كلّ نبيٍّ بقصَّةٍ خاصَّةٍ في سورةٍ خاصَّةٍ لفَعَل، لكنَّه يُكرِّر قصص الأنبياء في مختلف السُّور لحكمة عليا تقتضيها الدَّعوة الإلهيَّة الَّتي نهض برسالتها القرآن.

وتُقدِّم لنا سورة يوسفَ شخصياتٍ وأحداثًا مختلفةً، وكلُّ مَن حول شخصية يوسف من الأشخاص وما حوله من الأحداث يتَّجه إليه مؤثّرًا أو مُتأثرًا، وقد أُحكمت حبكتُها الفنيَّةُ على نحوٍ واقعيٍّ لا يرقى إليه خيالُ مُتفنِّنٍ، بحيث يُتبع العقدة حلّها الطّبيعيّ، وإذا كان لنا أن نجعل من رؤيا العزيز مِلاطًا يُمسك اللّبِنات في دور القصَّة الأوَّل، فإنّ صُواع المَلك واتِّهامَ الأخ بسرقته هو الملاط الآخر في الدَّور الثّاني، إذ دارت حولهما الأحداث في تتابع منطقيٍّ منتظم متتابع[1].

وأهمُّ ما يُميّز سورة يوسف عن غيرها من السّور أنّك لا تكاد تجد فيها آيةً من آياتها إلّا أصبحت مَثَلًا بين النّاس، من مثل: ﴿وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍۚ﴾ [يوسف: 18] و﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ﴾ [يوسف: 20] و﴿أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ﴾ [يوسف: 21] و﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ﴾ [يوسف: 26] و﴿قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴿٤١﴾﴾ [يوسف: 41] و﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَۖ﴾ [يوسف: 92] و﴿إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [يوسف: 86] و﴿إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾ [يوسف: 28] و﴿ٱلْـَٔـٰنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ﴾ [يوسف: 51] وغيرها.

فضلًا عن أنّها انفردت بمجموعة من الألفاظ الّتي لم تَرد في سورة أخرى سواء أكانت أسماءً أو أفعالًا؛ من نحو: ﴿ٱطْرَحُوهُ﴾ [يوسف: 9]، ﴿يَرْتَعْ﴾ [يوسف: 12]، ﴿دَرَاهِمَ﴾ [يوسف: 20]، ﴿ٱلزَّٰهِدِينَ ﴿٢٠﴾﴾ [يوسف: 20]، ﴿وَغَلَّقَتِ﴾ [يوسف: 23]، ﴿هَيْتَ﴾ [يوسف: 23]، ﴿شَغَفَهَا﴾ [يوسف: 30]، ﴿خُبْزًا﴾ [يوسف: 36]، ﴿حَصْحَصَ﴾ [يوسف: 51]، ﴿وَنَمِيرُ﴾ [يوسف: 65]، ﴿صُوَاعَ﴾ [يوسف: 72]، ﴿تَفْتَؤُاْ﴾ [يوسف: 85]، ﴿تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾﴾ [يوسف: 94].

(1) البيوميّ، البيان القرآنيّ، ص: 222.

يُضاف إلى ذلك أنّ السّورة امتازت بأسلوبٍ عجيبٍ من الإيجاز والحذف، بين تتابُع المَشاهِد واختلاف البلاد، ومع ذلك لا يكاد يُحسّ المرء بهذا التّنقّل بين مشاهدها.

المناسبة بين سورة يوسف وسورة هود:

القصص في سورة هود لبيان عاقبة الأمم، وفي قصة يوسف لبيان عاقبة الرسول

المناسبة بين سورة هود وبين سورة يوسف أنّ سورة يوسف مُتمِّمةٌ لما فيها من قصص الرُّسل عليهم السلام والاستدلالُ في كلٍّ منهما على كونها وحيًا من اللّه تعالى دالًّا على رسالة محمَّد خاتم النَّبيين ﷺ بآيتيْن متشابهتيْن؛ ففي آخر قصّة نوحٍ من الأولى: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ﴾ [هود: 49]، وفي آخر سورة يوسف: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ [يوسف: 102]، وإشارة التَّأنيث في الأُولى للقِصَّة المنزّلة بهذا التَّفصيل والبلاغة العجيبة، وقيل: للسُّورة، وإشارة التَّذكير في الثّانية لقوله تعالى في أوَّل السُّورة: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾.

والفَرْقُ بين قصّتها وقصص الرُّسل في الَّتي قبلها وفي سورة الأعراف وغيرها، أنَّ تلك قصصٌ للرُّسل مع أقوامهم في تبليغ دعوة الرّسالة والمحاجّة فيها، وعاقبة مَن آمن بهم ومَن كذّبهم؛ لإنذار مشركي مكّة ومُتّبعيهم من العرب، وقد كرِّرت بالأساليب والنُّظُم المختلفة لما فيها من أنواع التّأثير ووجوه الإعجاز.

وأمّا سورة يوسف فهي قصَّة نبيٍّ واحدٍ وُجد في غير قومه قبل النُّبوّة صغير السّن، وبلغ أشُدّه واكتهل فنُبِّئَ وأُرسل؛ ودعا إلى دينه، وكان مملوكًا ثمَّ تولَّى إدارة الملك لقُطر عظيم، فأحسن الإدارة والتَّنظيم، وكان خير قُدوةٍ للنّاس في رسالته وجميع ما دخل فيه من أطوار الحياة وطوارئها وطوارقها؛ وأعظَمُها شأنه مع أبيه وإخوته آل بيت النُّبوّة، فكان من الحكمة أن تُجمع قصّتُه في سورة واحدة.

وهي أطول قصَّة في القرآن، افتتحت بثلاث آياتٍ تمهيديّة في ذِكْر القرآن وحُسن قَصَصه، ثم كانت إلى تمام المئة في تاريخ يوسف، وخُتمت بإحدى عشرة آيةً في الاستدلال بها على ما أنزلها الله لأجله من إثبات رسالة خاتم النَّبيّين، وإعجاز كتابه، والعِبرة العامّة بقصص الرُّسل عليهم السلام[1].

المناسبة بين فاتحة السّورة وخاتمتها:

ابتداءُ السّورة واختتامها بالحديث عن القرآن، مُؤكِّدةً صِدْقه ووحيه من عند الله

تُعيد سورةُ يوسفَ في ختامها ما ابتدأتْ به في أوَّلها، فقد بدأت بالقرآن، مُؤكِّدةً أنَّه تنزيلٌ من الله تعالى وأنَّه جلي واضح فيما يذكره: ﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ١ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾. وخُتمت بالقرآن نفسه، مُؤكِّدة صدقه ووحيه من عند الله، وتوافقَهُ مع الرِّسالة الإلهيَّة القائمة عند نزوله، وتفصيلَهُ لكلِّ شيء جاء به، وبالأخصّ ما جاء في وحدة الألوهيَّة وعبادة الله وحده: ﴿مَا كَانَ حَدِيثٗا يُفۡتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصۡدِيقَ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَتَفۡصِيلَ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ [يوسف: 111]، ثم زادت في الختام تكَفُّلَهُ بالهداية والرَّحمة لمَن آمن: ﴿وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ١١١﴾ [يوسف: 111][2].

(1) رشيد رضا، تفسير المنار: 12/207.

(2) البهيّ، تفسير سورة يوسف، ص: 59 - 60.

﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ١﴾ [يوسف: 1]

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿الٓرۚ﴾: هي من الحروف المقطّعة الّتي افتُتحت بها عدّة سُورٍ من القرآن، وقد رُوي في تفسيرها أقوالٌ كثيرة منها: أنّ اللّه تعالى أقسم بهذه الحروف، وأنّ هذا الكتاب الّذي أُنزل على مُحمّد ﷺ هو الكتاب الّذي عند اللّه لا شكّ فيه، أو ﴿الٓرۚ﴾: اسمٌ من أسماء اللّه، وهو الاسم الأعظم، أو هي اسمٌ من أسماء اللّه مقطّعة بالهجاء، إذا وصلتها كانت اسْمًا من أسماء اللّه، أو اسمٌ من أسماء القرآن، أو ﴿الٓرۚ﴾: أنا اللّه أرى، وغير ذلك من الأقوال- وللّه في كلّ كتابٍ سرّ، وسرّه في القرآن حروف الهجاء المذكورة في أوائل السّور[1].

2) ﴿ٱلۡمُبِينِ﴾: الباءُ والياءُ والنّونُ أصل واحد، وهو بُعْدُ الشَّيْءِ وانْكِشافُهُ، وبانَ الشّيءُ وأبانَ، إذا اتّضح وانْكَشَفَ، وفلانٌ أبْيَنُ من فلانٍ: أيْ: أوضَحُ كلامًا منه[2]، وقالوا: بان الشّيءُ واسْتَبانَ وتَبيَّن وأبان وبَيَّنَ بمعنًى واحد، يُقال: بان الحقّ يَبيْنُ بَيانًا؛ فهو بائِن، وأبانَ يُبين إبانة؛ فَهُو مُبين، واستبان: ظَهَر، والتَّبْيينُ: الإيضاح، والوضوح، والبَيانُ: ما بُيِّنَ به الشّيءُ من الدَّلالَةِ وغيرِها، وهو إظْهارُ المَقْصُودِ بأبلغ لفظٍ، وأصلُه الكَشْفُ والظُّهورُ[3]، ومعنى الكتاب المبين: الّذي أبانَ طرقَ الهُدى من طرقِ الضّلال، وأبانَ كلّ ما تحتاج إليه الأمّة[4].

المَعْنى الإجْمالِيُّ:

افتُتِحت هذه السّورةُ بهذه الحروف المقطَّعة الّتي فيها إشارةٌ إلى إعجاز القرآن؛ فآياتُ هذه السّورة العظيمةِ الشّأْنِ العاليةِ القدْرِ هي آياتُ الكتابِ المبينِ الظّاهرِ الّذي أوضحَ المعنى وبيَّنَ المقْصودَ من القصَّة بأجْلَى بيان[5] لِمَنْ تلاهُ وتدبَّر ما فيه؛ من أحكامه وحِكَمِهِ

(1) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة: باب ما جاء في تفسير الحروف المقطّعة، وابن منظور، لسان العرب: باب تفسير الحروف المقطّعة.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (بين).
(3) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة، وابن منظور، لسان العرب: (بين).
(4) الزّبيديّ، تاج العروس: (بين).
(5) حجازيّ، التّفسير الواضح: 2/159.

الإيقاظُ والتّنبيه على إعجاز القرآن، ومنه هذه القصّة المتكاملة

وسائرِ ما حواهُ من صنوف معانيه[1]، فهو مُبِيّنٌ في ألفاظه بكونه معُجِزًا ظاهرَ الإعجاز ومُبِيّنٌ في معانيه الّتي لا تشتبه على العرب.

وترشدُ الآية الكريمةُ إلى وقوع تحدِّي المشركين بهذا الكتاب الكريم، فعجَزوا عن معارضته، وهو مُركَّب من هذه الحروف الّتي تتكوّن منها لغة العرب، فهاكُم ترونه مؤلَّفًا من كلامٍ هو من جنس ما تؤلِّفون منه كلامكم، ومنظومًا من حروف هي من جنس الحروف الهجائيّة الّتي تنظِمون منها حروفَكم، فإن كنتم في شكٍّ من كونه مُنزلًا من عند اللّه فهاتوا مثلَه، وادعوا مَن شئتم من الخَلق لكي يعاونَكم في ذلك؛ فدَلَّ عجز العرب عن الإتيان بمثله - مع أنَّهم أفصحُ النّاس - على أنَّ القرآن وحيٌ من اللّه[2].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالةُ التَّعبير في قوله: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ﴾:

آياتُ القرآنِ أو سورةُ يوسف أو الحروفُ المُقطّعة رفيعةُ الشّأنِ عظيمةُ المنزلة

﴿تِلْكَ﴾: التّاءُ اسم إشارةٍ إلى شيءٍ سبقَ ذِكرُه، ويُستخدم للإشارة إلى المؤنّث، واللّامُ للبُعد، وفي تعيين المُشار إليه أربعة أوجه:

أحدها: جميعُ آي القرآن الّتي نزلتْ قبلَ هذه السّورةِ باعتبارِ حضورِ تلكَ الآيات في أذهانِ النّاس من المؤمنين وغيرهم، فكأنّها منظورةٌ مُشاهَدةٌ، فصحّتِ الإشارةُ إليها، إذ هي متلوَّةٌ محفوظةٌ، فمَن شاء أنْ يسمعها ويتدبّرها أمْكَنَهُ ذلك، ولأنّ الخوضَ في شأنها هو حديثُ النّاس في نواديهم وأسمارهم وشُغلهم وجدالهم، فكانتْ بحيث تتبادرُ إلى الأذهان عند ورودِ الإشارةِ إليها[3].

الثّاني: أنّها الآياتُ المُتقدّم ذِكْرها في السّورةِ الّتي قبلها.

الثّالث: الآياتُ الّتي في هذه السّورة، وتكون ﴿تِلْكَ﴾ بمعنى:

(1) ابن جرير، جامع البيان: 15/550.
(2) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 7/314، ونخبة من العلماء، التّفسير المُيسّر، ص: 2.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/80.

هذه آياتُ الكتابِ المبين[1]؛ أيْ: المُشار إليه هي هذهِ الآياتِ؛ أيْ: الجملُ القرآنيّةُ الّتي ستأتي في سورة يوسف، و﴿ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ﴾: السّورة؛ أيْ: تلكَ الآياتُ الّتي أُنزلت إليك في هذه السّورة[2]، ولا يُشترط أنْ يكون المُشار إليهِ موجودًا حاضرًا؛ بل يكفي أنْ يكون موجودًا ذهنًا[3].

الرّابع: أنّ تلك الآيات إشارةٌ إلى ما افتُتحتْ به السّورة من الحروف ﴿الٓرۚ﴾، وأنّها علاماتُ الكتابِ العربيّ[4]؛ لأنّ المُختارَ في الحروف المُقطّعة في فواتح السّور أنّ المقصود من تَعدادها التّحدّي بالإعجاز، فهي بمنزلة التّهجّي للمُتعلّم، فيصحّ أنْ يجعل ﴿الٓرۚ﴾ في محلّ ابتداء، ويكونَ اسمُ الإشارة خبرًا عنه، والمعنى: تلك الحروفُ آياتُ الكتابِ الحكيم؛ أيْ: من جنسها حروفُ الكتابِ الحكيم، أيْ جميعُ تراكيبهِ من جنسِ تلكَ الحروف[5].

وفي حكمةِ استخدام لام البُعدِ في اسم الإشارة ﴿تِلۡكَ﴾ مع أنّ المُشارَ إليه – وفقَ الأقوالِ السّابقة كلّها – قريبٌ، فلم يَقُلْ: (هذه آيات الكتاب الحكيم)[6]؛ لثلاثةِ أمور مُحتملة:

الأوّل: إظهارٌ لرفعةِ شأْنِ هذه الآيات، لجعلها بعيدةَ المنزلة، إذْ "شاعَ في الكلام البليغ تمثيلُ الأمرِ الشّريف بالشّيء المرفوع في عِزَّة المنال؛ لأنّ الشّيءَ النّفيسَ عزيزٌ على أهله، فمن العادة أنْ يجعلوه في المرتفعات صونًا له من الدَّوْس وتناولِ كثرةِ الأيدي والابتذال"[7]، فالآيات هنا كالشّيء العزيزِ المنال بالنّسبة إلى تناولهم إيّاه بالمعارضة والتّكذيب.

الثّاني: أو لأنّها لصدقِ معانيها، ونفعِ إرشادها بعيدةٌ عمّن تناولها بهُجْر القول، كقولهم: ﴿ٱفۡتَرَىٰهُۖ﴾ [هود: 13]، أو: ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٱكۡتَتَبَهَا﴾ [الفرقان: 5].

الثّالث: تعظيمُ هذه الآيات، كما تقول في مقام التّعظيم: ذلك الفاضلُ، وأولئك الرّجالُ، وهذا مثل قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ﴾ [البقرة: 2].

(1) المُاتريديّ، تأويلات أهل السُّنّة: 6/204.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/440، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 18/416.
(3) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 8/238.
(4) الماورديّ، النُّكَت والعيون: 3/5.
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/82.
(6) "الفرق بين هذه وتلك: أنّ هذه لِما تَدانَى، وتلك لِما تراخى"، ينظر: الحوفيّ، البرهان، وعنانيّ، سورة يوسف دراسة وتحقيقًا، ص: 107.
(7) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/221.

نكتةُ إضافة الآيات إلى الكتاب:

الآياتُ المُضافةُ للكتابِ الكاملِ العظيم آياتٌ عظيمةٌ

إضافةُ ﴿ءَايَٰتُ﴾ إلى ﴿ٱلۡكِتَٰبِ﴾ في قوله تعالى: ﴿ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ﴾ إضافةٌ شبيهةٌ بالبيانيّة، وإنْ كان الكتابُ بمنزلةِ الظّرفِ للآياتِ باختلافِ الاعتبار، وهو معنى الإضافة البيانيّة عند التّحقيق[1]، وهذه الإضافةُ تفيدُ التّفخيم للآيات، والتّعظيم لها.

معنى (أل) في ﴿ٱلۡكِتَٰبِ﴾:

القرآنُ هو الكتابُ الكاملُ التّامُّ الجامعُ لصفاتِ جميعِ الكتب

أل التّعريف في قوله تعالى: ﴿ٱلۡكِتَٰبِ﴾ من قوله: ﴿ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ﴾ تحتمل وجهيْن:

الأوّل: عهديّةٌ، معهودها ذهنيٌّ، فالكتابُ هو القرآن[2]، أو السّورة؛ أيْ: تلكَ الآياتُ الّتي أُنزلتْ إليك في هذه السّورة[3] الموجودةِ ذهنًا[4].

الثّاني: جنسيّة، تفيدُ استغراقَ خصائص أفراد ما تدخل عليه، وهي الّتي تخلفها (كلّ) مجازًا؛ أيْ: تدلُّ على معنى الكمال في الجنس، كما تقول: أنتَ الرّجلُ[5]، والمعنى: "أي الكتابُ الكاملُ في الهداية الجامعُ لصفاتِ جميع الكتب المُنزّلة وخصائصها"[6].

نكتة التَّعبير بالكتاب:

آياتُ سورةِ يوسفَ قصصٌ حقٌّ محفوظٌ لم تصلْ إليه أيدي التَّحريف

عبّر البيان الإلهيّ بلفظ ﴿ٱلۡكِتَٰبِ﴾ في قوله تعالى: ﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ﴾ دون غيره من أسماء القرآن؛ إشارةً إلى: صدقِ قصّةِ يوسفَ وحَقِّيّتها؛ وبُعدِها عن أيدي التّحريفِ الّتي طالت الكتبَ السّابقة، ودخلتها الخرافاتُ والأساطيرُ؛ فقصّةُ يوسف محفوظةٌ في اللّوحِ المحفوظ، وستُحفظُ في السّطور برعايةٍ ربّانيّة؛ لأنّ القرآنَ سُمِّيَ كتابًا؛ لكونه مكتوبًا في السّطور، وفي اللّوح المحفوظ.

---

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/81.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/82.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/440، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 18/416.
(4) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 8/238.
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/82.
(6) السّيوطيّ، الإتقان: 2/186.

وعُنِيَ النّبيّ ﷺ بكتابةِ القرآنِ عنايةً بالغةً جدًّا، فكانَ يَأمرُ بكتابةِ كلّ ما ينزل عليه من الوحي فورَ نزوله، واتَّخذ عددًا من كُتّاب الوحي، ومنعَ من كتابةِ غير القرآن إلّا في ظروفٍ خاصّة، فقد ورد في الحديث: «لا تكتبوا عنِّي شيئًا إلّا القرآن، فمَن كتبَ عنّي شيئًا غيرَ القرآن فلْيَمْحُه»[1]، وعن أنس رضي الله عنه قال: «كنّا عند رسولِ الله ﷺ نؤلِّف القرآن من الرِّقاع..»[2]، وقد قال العلماءُ بوجوبِ حفظِ القرآنِ كتابةً، وأنّه فرضُ كفايةٍ على المسلمين.

وسيُذكر في الآيتيْن التّاليتيْن لفظ (القرآن) الّذي يشير إلى وجوبِ حفظِه في الصّدور، وبذلك تتكاملُ طرقُ حفظهِ في السّطور وفي الصّدور.

دلالة التَّعبير بـ ﴿ٱلۡمُبِينِ﴾ في الآية:

إبانةُ القرآنِ تامّةٌ باللّفظ، والمعنى يَكشفُ عن الحكمةِ المشتمل عليها بخيرِ أسلوبٍ

أكّد البيانُ القرآنيّ عظمةَ ومكانة ووضوح هذا الكتابِ بوصفهِ ﴿ٱلۡمُبِينِ﴾؛ حيث تدلُّ مادة (بون) في أصلها اللّغويّ على بُعْد الشَّيْءِ وانكشافهِ، ووضوحه[3]، أبانَ يُبين إبانةً: ظهر، واتّضح، والبَيانُ: هو إظْهارُ المَقْصُودِ بأبلغ لفظٍ[4].

إذن ﴿ٱلۡمُبِينِ﴾ يدلُّ على الظّهور والانكشاف والوضوح، ولهذه المعاني أتى القرآن بوصف ﴿ٱلۡمُبِينِ﴾ في قوله تعالى: ﴿ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ﴾؛ لِما فيها من توكيدٍ لحكمةِ هذا الكتاب وعظمته، إذ إنَّ الحكمةَ لا تكونُ حكمةً، والحكيمُ لا تتمّ حكمتهُ حتّى تخرج تلك الحكمة على

(1) مسلم، صحيح مسلم، كتاب الزّهد والرّقائق، باب التثبُّت في الحديث وحكم كتابة العِلْم، الحديث رقم: (3004).

(2) أخرجه التّرمذيّ، السّنن، الحديث رقم: (3954)، وأحمد، المُسند، الحديث رقم: (21607)، باختلافٍ يسيرٍ، والحاكم، المستدرك على الصَّحيحيْن: 2/229. وصحَّح إسناده الألبانيُّ في صحيح التّرمذيّ، الحديث رقم: (3954). وقوله: نُؤَلِّفُ القرآنَ، أيْ: نَجمَعُه، وقوله: من الرِّقاعِ، أيْ: الرُّقعِ الَّتي كانت يُكتَبُ فيها القرآن الكريم.

(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (بين).

(4) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة، وابن منظور، لسان العرب: (بين).

صورةٍ واضحةٍ مشرقةٍ يرى النّاس على وجهها أضواء المعرفة، وإلا كانت حكمةً مُضمَرةً لا يُنتفع بها، فهي أشبه باللّآلئ في أصدافها، فالمبين: مبينٌ وحكيم معًا[1]، وفي التَّعبير بالمبين إشارةٌ إلى تميّزه عن سائر الكتب السّماويّة بالبيان والظّهور، وسهولة فهمه، وشدّة إبانته لمعانيه، ومقاصده ومراميه، فكانتِ العربُ لا تتوقّف في فهم مفرداته وجمله، ولا تشتبه عليهم حقائقه، ولا تلْتبس عليهم دقائقه.

أمّا دلالة ﴿ٱلْمُبِينِ﴾ من حيث الصّيغة فإنّه يحتمل أنْ يكون لازمًا، وأنْ يكون مُتعدّيًا[2]، وإذا حُمل على الأوّل؛ أيْ: من (بانَ) بمعنى ظَهَرَ فإنّه يحتمل وجهيْن؛ لأنّ ظهورها:

إمّا بحسب الألفاظ من كونه معجزًا ظاهرَ الإعجاز لا يخفى على أرباب البلاغة أنّ البشر لا تطيق الإتيان بمثلها، كقوله: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ﴾ [البقرة: 24].

أو بحسب المعاني؛ أيْ: لا تشتبه على العرب معانيها؛ لنزولها بلسانهم، قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ والمعنى: "البَيِّنُ حلالُه وحرامُه وحدودُه وأحكامُه، قال قتادة: مُبِينٌ واللّه بَرَكَتُهُ وهُداه ورشدُه"[3].

وإذا حُمل على الثّاني؛ أيْ: من (أبانَ) بمعنى: أظْهَرَ؛ فإنّه يحتمل وجهيْن أيضًا:

أحدهما: أنّها من الظّهور والبيان بمنزلة المُبيِّن والمُفسِّر، الّتي تُبيّن لمَن تدَبَّرها أنّها من عند اللّه، لا من عند البشر، "قال الزّجّاج: مُبَيِّنٌ الحَقَّ من الباطل، والحلالَ من الحرام"[4].

وثانيهما: مبينٌ من جهة أنَّ اللّه تعالى أبانَ فيه، وأوضحَ مطلوب اليهود؛ أيْ: أبان فيها ما سألتْ عنه اليهود من قصّة يوسف، فقد رُوي أنّ علماء اليهود قالوا لكبراء المشركين: سلوا محمدًا: لمَ انتقلَ آل يعقوب من الشّام إلى مصر؟ وعن قصّة يوسف، وهذا على الإسناد المجازيّ[5].

إضافةً إلى أنّ ﴿ٱلْمُبِينِ﴾ اسم فاعل يدلّ على الثّبوت والدّوام، وبالتّالي: فإنّ وصف الكتاب بالمبين يدلّ على ثبوت ودوام وملازمة هذا الوصف للكتاب لا يتخلّف عنه.

(1) الخطيب، التّفسير القرآنيّ: 6/1231.
(2) المنتجَب الهمذاني، الكتاب الفريد: 3/539.
(3) البغويّ، معالم التّنزيل: 4/209.
(4) البغويّ، معالم التّنزيل: 4/209.
(5) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 8/238.

بلاغةُ المُتشابه اللّفظيّ في الآية الكريمة:

بَيْنَ إبانةٍ لقصّةِ نبيٍّ تقلّبتْ عليه صُروفُ الزّمان، وبَيْنَ حكمةٍ تستلزمها أدلّةُ الإيمان

قال سبحانه في هذه السّورة: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾، وقال في سورة يونس وسورة لقمان: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ﴾ [يونس: 1][لقمان: 2]؛ فوصف الكتاب في سورة يوسف بـ ﴿ٱلْمُبِينِ﴾، وفي السّورتيْن بـ ﴿ٱلْحَكِيمِ﴾ [يونس: 1] [لقمان: 2]، وهذا من الحكمة والإحكام، إذ اختير في كلّ من السّورتيْن ما يناسبها؛ ووجهُ ذلك: أنَّ ذِكْر وصف إبانته هنا أنسب، إذ كانت القصّة الّتي تضمّنتها هذه السّورة مفصّلةً مبيّنةً لأهمِّ ما جرى في مدّة يوسف عليه السلام بمصر، الّذي لم تكن قصّته معروفةً للعرب قبل نزول القرآن إجمالًا ولا تفصيلًا، بخلاف قصص الأنبياء الّتي كانت معروفةً إجمالًا[1]؛ فسورة يوسف عليه السلام لم تنطوِ على غير قصّته وبسط التّعريف بقضيّته، وبيان ما جرى له مع أبيه وإخوته، وامتحانه وتخلُّصه بسابق اصطفائه ممّا كِيدَ به، وجَمْعِهِ بأخيه، ثمّ بأبيه وإخوته؛ فلهذا أتبع الكتاب بالوصف بـ ﴿ٱلْمُبِينِ﴾، وأمّا سورتا يونس ولقمان، فقد تردّد فيهما من الآيات المعتبر بها، المُطْلِعة على عظيم حكمته تعالى وإتقانه للأشياء ما لم يَرِد في سورة يوسف، كخلق السّموات والأرض، وجعلِ الشّمس ضياءً والقمرِ نورًا، واختلاف اللّيل والنّهار وما خلق الله في السّموات والأرض، وما في ذلك من عِبرٍ وآياتٍ، وما تضمّنتهما من التّركيز على أصول الدّين من التّوحيد وإثبات الوحي والرّسالة والبعث والجزاء، وهي من الحكمة، وما ذَكَره أيضًا في سورة لقمان عن لقمان وما آتاه من الحكمة، وما انطوت عليه قصّته من حكمةٍ، وما صدر عنه في وصيّته؛ فهذا وجه وصف الكتاب في هاتيْن السّورتيْن بـ ﴿ٱلْحَكِيمِ﴾ [يونس: 1][لقمان: 2][2].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/200.

(2) أبو جعفر الغرناطيّ، ملاك التّأويل: 1/237 - 238، ورشيد رضا، تفسير المنار: 12/207.

كما أنّ كلمة ﴿ٱلۡمُبِينِ﴾ في سورة يوسف متعلّقةٌ بالآية الّتي بعدها مباشرةً في قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾، فكان وصفُ الإبانة دون غيرها في هذه السّورة هو الأنسب.

﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ٢﴾ [يوسف: 2]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

دعوةُ العقول السّليمة لتدبُّر حقيقة أنَّ القرآن مُعجِزٌ

لمّا وُصف الكتابُ بما يدلُّ على الشّرف الذّاتيّ عُقِّب ذلك بما يدلّ على الشَّرف الإضافيّ فقيل: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾[1]، فلمّا نزَّله الله كتابًا عربيًّا مؤلَّفًا من هذه الأحرف العربيّة المعروفة ليُدرك كلّ ناظر أنَّ الّذي يؤلِّفُ من الحروف العربيّة هذا الكتابَ المعجزَ لا يمكنُ أن يكون بشرًا، بل هو وحيٌ، والعقلُ هنا مدعوٌّ لتدبُّر هذه الظّاهرةِ ودلالتَها القاهرة.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿عَرَبِيّٗا﴾: من عَرُبَ يَعْرُبُ، وأصل (عَرُبَ) يدلُّ على الإبانةِ والإفصاح، يُقال: أعْرَبَ الرّجل عن نفسه إذا بَيَّنَ وأوْضَحَ، والأمّة الّتي تُسمّى العَرَب، لأنّ لسانها أعْرَبُ الألْسِنَةِ، وبَيانَها أجْودُ البَيانِ[2]، والعَرَبُ: وُلْدُ إسماعيلَ، والعَرَبِيُّ: المُفصح، والإعْرابُ: البيانُ، وإعْرابُ الكلام: إيضاح فصاحته، وإعرابُ الكلام أيضًا من هذا القياس؛ لأنَّ بالإعراب يُفرَق بين المعاني في الفاعل والمفعول والنَّفي والتّعجُّب والاستفهام، وسائر أبواب هذا النَّحو من العلم. والعَرَبيُّ: الفصيح البيّن من الكلام[3]. ومعنى قرآنًا عربيًا: أيْ: بلسان العرب وبلُغتهم الّتي هي أفصحُ اللّغات وأبينُها وأوسعها[4].

2) ﴿تَعۡقِلُونَ﴾: العَقْلُ: نَقِيضُ الجَهْلِ، يُقال: عَقَلَ يَعْقِلُ عَقْلًا، إذا عَرَفَ ما كان يجهله قبل، أو انْزَجَرَ عمّا كان يفعله، ورجلٌ عَقُولٌ،

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/250.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (عرب).
(3) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحُفّاظ: (عرب).
(4) ابن جرير، جامع البيان: 21/562، وطنطاويّ، التّفسير الوسيط: 7/315.

إذا كان حَسَنَ الفَهْم وافِرَ العَقْلِ[1]، والعَقْلُ: الحِجْر والنُّهى، ضِدُّ الحُمْق، والعاقِلُ الَّذي يَحْبِس نَفْسَهُ ويَرُدُّها عَنْ هَواها، والمَعْقُول: ما تَعْقِله بِقَلْبِكَ، والعَقْلُ: القَلْبُ، وسُمِّي العَقْلُ عَقْلًا؛ لأنه يَعْقِل صاحبَه عَنِ التَّورُّط في المَهالِك؛ أيْ: يَحْبِسه[2]، والعَقْل: القوّة المتهيّئة لقبول العلم، ويُقال للّذي يَسْتَنبِطُه الإنسانُ بتلكَ القوّةِ: عَقْلٌ[3]، أو هُو: العِلمُ بصفاتِ الأشياءِ من حُسنِها وقُبحِها، وكمالِها ونُقصانِها[4].

والمُراد بـ ﴿تَعْقِلُونَ﴾ في الآية: تعلمون معانيَهُ، وتُحيطون بها وتفهمون ما فيه، أو تستعملون فيه عقولكم، فتعلمون أنَّ اقتصاصه كذلك ممّن لم يتعلّم القصص معجز لا يمكن إلّا بالإيحاء[5].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

القرآنُ الكريم مُبيِّنٌ لكلِّ ما يحتاج إليه النّاسُ من الحقائق النّافعة

يخبر اللّه تعالى بأنَّه أنزل هذا الكتاب المبينَ باللّسان العربيّ، أشرفِ الألسنة وأبينِها؛ قرآنًا عربيًّا يقرأ بلغتكم يا معشرَ العرب ويُبيّنُ لكم كلَّ شيءٍ، ويجمعُ لكم كلَّ خيرٍ بلسانٍ عربيٍّ مبينٍ ظاهرٍ، رجاءَ أن تعقلوه وتفقهوا معانيَه وأغراضه[6].

وترشدُ الآيةُ الكريمة إلى أنَّ اللّه ﷻ كان من تقديره في الأزلِ أن ينزل القرآنَ على البشريّة بلغةِ العرب؛ لبساطةِ تركيبها، وجمال أسلوبها، وسطوع كلماتها ذات الإيقاع البليغِ الشّجيِّ المُستعذَبِ الغامرِ الّذي ينفُذ إلى صميم الفطرة وعميقِ الوجدان؛ فليس في سائر الكلام كلِّه ما يخاطِب في الإنسان إلّا جزءًا أو اثنين من تركيبه المتلاحم المعقَّد فما يكون تأثيره فيه إلّا محدودًا يسيرًا، لكنِ

(1) العين، الخليل، وابن فارس، مقاييس اللُّغة: (عقل).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (عقل).
(3) الرّاغب، المفردات: (عقل).
(4) الزّبيديّ، تاج العروس: (عقل).
(5) البغويّ، معالم التّنزيل: 2/473، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/154.
(6) ابن جرير، جامع البيان: 15/551، وحجازيّ، التّفسير الواضح: 2/159.

القرآنُ يقرَعُ الجهازَ النّفسيَّ والرّوحيَّ والعقليَّ للإنسان مجتمعًا، وهذه ظاهرةٌ جليّة عجيبة تشهد على كون القرآن معجزًا لا يعارضه في العالمين أحدٌ، وهو إنّما تتجلّى فيه هذه الحقيقة لكونه من جنس هذه اللُّغةِ الكريمة المباركة، اللُّغةِ البالغةِ في جمالها وحُسنِها، وروعةِ جَرْسها وإيقاعِها، وحلاوة أنغامها النّديّة الشّجيّة[1].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

براعةُ فصل الآية عن سابقتها:

فَصَلَ القرآنُ جملة ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا﴾ عن الجملة الّتي قبلها ﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ﴾ ولم يربطهما بعاطف؛ لِما بين الجملتيْن من كمالِ اتّصالٍ أو شبه كمال اتّصال، إذ إنّ الجملة الثّانية ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا﴾ جاءت مستأنَفةً تُفيد تعليل الإبانة من جهتيْ لفظه ومعناه؛ فإنّ كونه قرآنًا يدلُّ على إبانة المعاني؛ لأنّه ما جُعل مقروءًا إلّا لما في تراكيبه من المعاني المفيدة للقارئ، وكونه عربيًّا يفيد إبانة ألفاظه المعانيَ المقصودةَ للّذين خوطبوا به ابتداءً، وهم العرب[2]، وقد جاء هذا التّعليل ردًّا على تكذيبهم بإنزال القرآن[3].

إبانةُ القرآن تامّةٌ في معانيه لكونه مقروءًا، وفي ألفاظه لكونه عربيًّا

نكتةُ المؤكّدات في مطلع الآية قوله: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا﴾:

أكّد ﷻ قوله: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا﴾ بعدّة مؤكّدات:

الأوّل: التّوكيد بـ ﴿إِنَّآ﴾؛ وهو توكيد متوجّهٌ إلى خبرها، وهو فعلُ ﴿أَنزَلۡنَٰهُ﴾؛ ردًّا على الّذين أنكروا أنْ يكون القرآنُ مُنزّلًا من عنْد الله[4]، أيْ أنَّ التّوكيد جاء مناسبًا لحال المخاطبين، وهم كفّار قريش؛ فإنّهم لمّا جحدوا إنزال القرآن من الله على النّبيّ ﷺ، وأنّه

كيف لا يكونُ القرآنُ في أعلى درجاتِ العظمةِ والبيانِ ومُنزِّله هو الله سبحانه؟

(1) أمير عبد العزيز، التّفسير الشّامل: 3/23.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/201.
(3) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 10/6.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/201.

ﷺ شاعرٌ أو ساحرٌ اقتضى ذلك أنْ يكون الرّدُّ مفتتحًا لإزالة هذا الإنكار ونفيه.

الثّاني: التّوكيد بمجيء ﴿إِنَّآ﴾ بصيغة الجمع وكذا ﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾، أيْ أُسند الفعل والحرف قبله إلى (نا) الجماعة، وهو ضمير العظمة، رغم أنَّ المُنْزِل واحدٌ أحدٌ فردٌ صمدٌ، ليشعر بعظمةِ الرّبوبيّة وعظمة المُنزَّل، وهو القرآن الكريم، ويفيد التّأكيد لإثبات المضمون، كأنّه يقول: إنّا بعظمتنا أنزلناه بعظمتنا قرآنًا عربيًّا[1].

الثّالث: التّوكيد بتقديم المُسنَد إليه وهو المبتدأ ﴿إِنَّآ﴾ على المُسند الفعليّ وهو الخبر الّذي جاء بصيغة الفعل ﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾ الّذي يُفيد التّحقيق والتّخصيص؛ لأنَّ أصل الكلام ﴿أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾ فقدّم الضّمير (نا)، وكرّره ضميرًا للفعل ﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾ عائدًا على اسم إنّ؛ فصار المعنى حَصْرَ هذا الإنزال من اللّه لا من غيره، وأنّه محقّقٌ مؤكّد.

الرّابع: التّوكيد بالجملةِ الاسميّة الّتي تَدُلُّ على ثباتِ وقوّةِ إنزال القرآن.

الخامس: توكيد بيان ووضوح القرآن الكريم بالبدل، أو الحال في قوله: ﴿قُرْءَٰنًا﴾، وبالوصف في قوله: ﴿عَرَبِيًّا﴾.

سرُّ التَّعبير بالنّزول بالماضي:

عبّر البيانُ القرآنيّ عن إنزالِ القرآن بصيغة الماضي ﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾، وهذا يَصدُق على ما أنزله اللّه على رسوله ﷺ فعلًا، ولكنّ المقصود ما أنزله وما سيُنزله؛ لأنَّ القرآن نزل على قلبه ﷺ مُفرّقًا، ولكنَّ التَّعبير بالماضي عمّا سيُنزله يُفيد تحقّق الوقوع، وكأنّه وقع حتّى

نـزولُ القرآن مُبِينًا في ألفاظِه ومعانيه أمرٌ محقّقٌ لا شكَّ فيه

(1) هذه الإشارات وردت صريحةً في آياتٍ كثيرةٍ، منها قوله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ۝٨٧﴾ [الحجر: 87]، وكلُّ الآيات الّتي ورد فيها ذِكْر الكتاب جاءت بضمير العَظَمة، مثل: [النّساء: 105]، [الأنعام: 92]، [النّحل: 44]، [الحجّ: 9]، وغير ذلك.

صحَّ أن يُخبر عنه أنّه قد حصل، أو أنْ يكون الكلامُ من باب الاكتفاء، والمعنى: إنّا أنزلناه وسنُنزله قرآنًا عربيًّا؛ لأنّ مَن أنزله وامتنّ بالإنزال سيُتابع هذا الإنزال.

عودُ الضّمير (الهاء) في: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ﴾:

عظمةُ القرآنِ وسورةِ يوسفَ وقصّتِه من عظمةِ المُنزِلِ سبحانه

يعود الضّمير (الهاء) في قوله تعالى: ﴿أَنزَلۡنَٰهُ﴾ إلى ﴿ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ﴾[1]؛ أيْ: إنّا أنزلنا الكتابَ المنعوت بما ذُكِرَ من النّعوتِ الجليلةِ، والكتابُ هنا: إمّا عبارةٌ عن الكلِّ، وهو الأظهر الأنسب لقوله تعالى: ﴿قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا﴾، ولكونه المشهور بهذا الاسم المعروف بهذا النّعت المتسارع إلى الفهم عند إطلاقه، وإمّا السّورة، وتسميتها قرآنًا؛ لأنّه اسمُ جنسٍ في الأصل، وهو يقعُ على الكلِّ والبعضِ كالكتاب، أو لأنّه مصدرٌ بمعنى المفعول؛ أيْ: أنزلناه حالَ كونه مقروءًا بلُغتكم[2].

ويجوز أنْ يعود الضّمير إلى خبر يوسف عليه السلام؛ أيْ: أنزلنا خبَرَ يوسفَ وقِصتَهُ؛ لأنَّ اليهود سألوا عن خبره، إذ قال علماؤهم لِكُبَراءِ المُشْرِكين: سَلُوا مُحمّدًا لِمَ انتقل آلُ يعقوبَ من الشّام إلى مصر، وعن قصّة يُوسُفَ؛ فقال اللّه ﷻ: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا﴾، ودليل هذا قولُه ﷻ: ﴿۞لَّقَدۡ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخۡوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٞ لِّلسَّآئِلِينَ ٧﴾[3].

بلاغةُ المتشابهِ اللّفظيّ في الآية:

التَّعبيرُ بالإنزالِ في سياقِ تكذيبِ المشركين للنّبيّ ﷺ أنسبُ في الردّ عليهم

قال سبحانه في هذه السّورة: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾ وقال في سورة الزّخرف: ﴿إِنَّا جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ٣﴾ [الزّخرف: 3]؛ فعبّر هنا بـ ﴿أَنزَلۡنَٰهُ﴾ وفي الزّخرف بـ ﴿جَعَلۡنَٰهُ﴾ [الزّخرف: 3]، ووجْهُ ذلك: أنّ آية يوسف لَمّا كانت توطئةً لذِكْر قصصه عليه السلام ممّا يُعرف بعجيب ما تضمّنته ما كان غيبًا عند

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/201.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/250.
(3) الزّجّاج، معاني القرآن: 3/87.

قريش والعرب، مستوفيةً ما كان أهلُ الكتاب يظنّون أنّهم انفردوا بعلمه، فأنزل اللّه هذه السّورة مُوفّيةً من ذلك أتمَّه، ومُعرِّفةً من قَصصه العجيب، ومؤدّيةً أكملَه وأعمَّه، لَمّا كانت كذلك لم تكن عبارةٌ أنسبَ هنا من ﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾؛ ليعلم العرب والجميع أنّ نبيِّنا مُحمّدًا ﷺ لم يتلقَّ ذلك القصص من أحدٍ من العرب، إذ لم يكن عندهم منه نبأ، ولا رَحَل في تعرُّفه إلى أحَدٍ؛ فالتَّعبير بالإنزال هنا بيّنٌ، "لأنّه في سياق تكذيبهم به بخلاف ما عبّر فيه بالجَعْل، كما يأتي في الزّخرف"[1]، الّتي لم تُبْنَ على أخبار، ولذلك عبّر فيها بـ ﴿جَعَلْنَٰهُ﴾ [الزّخرف: 3][2].

الموضع الإعرابيُّ لقوله: ﴿قُرْءَٰنًا﴾ و﴿عَرَبِيًّا﴾:

إعـرابُ (قـرآنًـا) و(عربيًّا) يُعربُ عن تأكيدِ كمالِ إبـانـةِ ووضـوحِ القرآنِ الكريم

قوله: ﴿قُرْءَٰنًا﴾: إمّا بدلٌ من الضّمير (الهاء) في ﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾، والمعنى: إنّا أنزلنا الكتابَ القرآن عربيًّا، وفائدة البدل هنا توكيد المعنى، وهو إنزال الكتاب من عند اللّه لا كما يدّعي المشركون.

أو حالٌ من الهاء في ﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾؛ أيْ: كِتابًا يُقرأ؛ أيْ: مُنَظَّمًا على أسْلوبٍ مُعَدٍّ لأنْ يُقْرَأ لا كَأُسْلُوبِ الرَّسائِلِ والخُطبِ أو الأشعارِ، بلْ هو أُسْلوبُ كِتابٍ نافِعٍ نَفْعًا مُستَمرًّا يَقرَأُهُ النّاسُ.

وجاءت الحال في الآية تؤكّد إبانة الكتاب المبين؛ لأنّه ما جُعل مقروءًا إلّا لِما في تراكيبه من المعاني المفيدة للقارئ.

و﴿عَرَبِيًّا﴾ صِفَةٌ لـ﴿قُرْءَٰنًا﴾، فهو كِتابٌ بالعربيّةِ ليس كالكتبِ السّالفةِ، فإنَّه لمْ يسبقهُ كِتابٌ بلُغةِ العرب[3]، وفي هذا الوصف تخصيصُ إبانة ألفاظه المعانيَ المقصودةَ للّذين خوطبوا به ابتداءً، وهم العرب، وتوكيدٌ لإبانَتِه إذْ أصل (عرب) يدلُّ على الإبانة

(1) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 10/6.
(2) الغرناطيّ، ملاك التّأويل: 2/266 - 267.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 12/201.

والإفصاح، وإعْرابُ الكلام: إيضاح فصاحته، والعَرَبيُّ: الفصيح البيّن من الكلام[1].

فائدةُ العدولِ في ﴿قُرْءَانًا﴾:

عَدَلَ البيانُ القرآنيُّ عن التَّعبير بالكتاب إلى القرآن في قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾ أيْ: لم يَقُل: (إنا أنزلناه كتابًا عربيًّا)؛ لأنّه سَبَقَ ذكر الوصف بالكتاب في قوله تعالى: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾، والتأسيسُ مُقدّمٌ على التّأكيد، إذ في وصفهِ الكتابَ بالقرآن إضافةُ معنًى جديد، وهو أنّه كتابٌ مقروء؛ أيْ: جاء بأسلوبٍ مُعَدٍّ لأنْ يُقْرَأ، إضافةً إلى أنَّ في التَّعبير بالقرآن إشارةً إلى وجوب وأهميّة حفظ القرآن في الصّدور، وقد كان النّبيّ ﷺ يحضّ الصّحابة على ذلك، قال ﷺ: «مَن قرأ حرفًا من كتاب اللّه فلَهُ به حسنةٌ، والحسنةُ بعشْرِ أمثالها، لا أقولُ (الم) حرفٌ؛ ولكن (ألف) حرفٌ، و(لام) حرفٌ، و(ميم) حرفٌ»[2]، وهناك إشارةٌ إلى أنّ حفظ القرآن في الصّدور من خصائص هذا الكتاب ومن خصائص هذه الأمّة، قال الإمام ابن الجزريّ: "إنّ الاعتمادَ في نقل القرآن على حفظ القلوب والصّدور لا على حفظ المصاحف والكتب، وهذه أشرفُ خصيصة من اللّه تعالى لهذه الأمة"[3]، وذلك تحقيقٌ للحديث القدسيّ: «إنّي مبتليكَ ومُبتلٍ بك، ومُنزّلٌ عليك كتابًا لا يغسله الماء، تقرؤه نائمًا ويقظانَ...»[4].

التأسيسُ مقدَّمٌ على التَّأكيدِ، فالكتابُ والقرآنُ من أعظم أسماءِ كتابِ الله

فائدةُ جملة في قوله: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ﴾:

أفادت الجملة الخبريّة في قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا

الإخبارُ بنزولِ القرآنِ بلغةِ العربِ هو نصحٌ وإرشادٌ لهم وإقامةٌ للحجّة عليهم

(1) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحُفّاظ: (عرب).
(2) الترمذي، سنن التّرمذيّ، باب: ما جاء فيمَن قرأ حرفًا من القرآن ما له من الأجر، الحديث رقم: (2910)، 5/175.
(3) ابن الجزريّ، النشر: 1/6.
(4) صحيح مسلم، كتاب الجنّة وصفة نعيمها وأهلها، الحديث رقم: (2865).

﴿لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾ تعريفَ المخاطَبين - وهم العرب - بالحُكم الّذي تضمّنته، وهو أنّ اللّه أنزل عليهم قرآنًا عربيًّا؛ أيْ: بلسانهم ليعقلوه وليطّلعوا على أنّه خارجٌ عن طوْق البَشَر مُنزَّلٌ من عند خلّاق القُوى والقَدَر، وفي هذا نصحٌ وإرشادٌ لهم، وإقامةٌ للحُجّة عليهم.

كما أنّ هذا الجملة الخبريّة تدلُّ على أنَّ اللّسان العربيّ أفصح الألسنة وأبينها، وأوسعها وأقومها وأعدلها؛ لأنّ من المقرر أنّ القول - وإن خُصَّ بخطابه قومٌ - يكون عامًّا لِمَن سواهم[1]، فهو وحي اللّه إليهم مباشرةً وإلى العالمين بواسطتهم.

كما أنّها تردُّ على مَن زعم أنّ في القرآن ما لا يُفقه، ولا يَفهم معناه لا الرّسول ولا المؤمنون؛ فإنّ هذا من المُنكر الّذي أنكره العلماء[2].

ومن الإشارات في هذه الجملة الخبريّة أنّ فهم القرآن وتفسيره لا يصحُّ دون الوقوف على مدلولات الألفاظ العربيّة ومعانيها عند العرب الّذين نزل عليهم القرآن، وأنّه يجب الاحتراز عن صرف الآيات إلى ما لا يدلُّ عليه كلام العرب[3].

الموقع البيانيّ لقوله: ﴿لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾:

جاءتْ الفاصلةُ ﴿لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾ بتمام اتّصالها بما قبلها من السّياق اتّصالًا مُحكَمًا؛ لتُظهرَ المعنى بكلِّ وضوح، فهي تعليليّةٌ لما سبَقها؛ أيْ: لتُفصحَ عن التّعليلِ المقصودِ، وهو تعليلُ الإبانةِ من جهتَي لفظِ القرآن ومعناه في قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾؛ أي: رجاءَ حصول العلم لكم من لفظه ومعناه؛ لأنّكم عرب، فنزوله بلغتكم مشتملًا على ما فيه نفعكم هو سببٌ لتفهُّمكم ما يحتوي عليه من

نزولُ القرآنِ بلغةِ العرب يستلزمُ منهم أنْ يعقلوا ما يُراد منهم

(1) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 10/6.
(2) ابن تيمية، مجموع الفتاوى: 16/411.
(3) الزّركشيّ، البرهان: 1/295، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/18.

الخير بكم[1]، فعليكم أن تتدبَّروا آياته وأحكامه، وتتوصَّلوا بذلك إلى تمام الإيمان به وتوحيده على الوجه الّذي طلَبه، ففصلَ الجملةَ عن سابقتها للاستئناف البيانيّ.

دلالةُ الإتيانِ بحرف الرَّجاء (لعلّ):

أتى البيانُ القرآنيُّ بحرف الرّجاء (لعَلَّ)، وعدل عن لام التَّعليل في قوله: ﴿لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾، فلم يَقُل: (لتعقلوا أو لكي تعقلوا)؛ لكون (لعَلَّ) تَرَجٍّ فيها معنى التّعليل، وتومئُ إلى أنّ تعقّلهم وتفهّمهم لمعانيه مع ذلك أمرٌ يتطرّقه احتمالُ التّخلّفِ، فذِكْرُ حرفِ الرّجاء دون حرف التّعليل من بديع البلاغة، إذ إنّ تفسير لعلّ بمعنى لكي يفوّت هذه الخصوصيّة[2]، والمعنى: "أيْ: لتكونوا على رجاءٍ من أنْ تكونوا من ذوي العقل، أو من أنْ تعقلوا ما يُراد منكم"[3]، "والرّجاء من النّاس لا من اللّه؛ أيْ: لعلكم تكونون في وضع مَن يرجو الإدراك السّليم، واللّه عليم بما تُخفي الصّدور"[4].

حالهُمْ يُومئ إلى أنَّ تَعَقُّلَهُم لمعاني القُرآنِ رغمَ إبانتِه التّامّة أمرٌ يتطرّقُه احتمالُ التَّخلّفِ

ويُشير الإتيان بحرف الرّجاء (لعلّ) في قوله تعالى: ﴿لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ إلى ضرورةِ العلم بمعاني الكتاب العزيز، واستنهاضِ همّة العقل ليُفكّر في الأمر، والمُنْصفُ بالحقّ يُهِمّه أنْ يستقبل النّاس ما يعرضُه عليهم بالعقل، عكْس المُدلّس الّذي يهمّه أنْ يسترَ العقل جانبًا؛ لينفُذَ من وراء العقل[5].

غرض التَّعبير بـ ﴿تَعْقِلُونَ﴾:

عبّر البيان القرآنيُّ عن العلم بالعقلِ في قوله تعالى: ﴿لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾؛ للإشارةِ إلى أنَّ دلالةَ القرآن على هذا العلم قد بلغتْ في

الإعراضُ عن القرآنِ رغمَ إبانته التامَّةِ الكاملةِ لا يكونُ إلّا ممّنْ لا عقْلَ لَه

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 12/202.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/501.
(3) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 10/6.
(4) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3796.
(5) الشّعراويّ، تفسير الشعراوي: 11/6828.

الوضوح حَدَّ أنْ يُنزل مَن لم يحصل له العلمُ منها منزلةَ مَن لا عقْلَ له، وأنَّهُم ما داموا مُعرضينَ عنه فهُم في عِدادِ غيرِ العُقَلاءِ[1]؛ أيْ: الجاهلين الحمقى؛ لأنّ العقلَ نقيضُ الجهل والحُمْق.

وفي التَّعبير بمفردة العقل كذلك إشارةٌ إلى ضرورة أنْ يزجروا أنفسهم عن أقبح القبائح، وهي إنكارُهم لإعجاز القرآن المبين الّذي نزل بلغتهم، وإهلاكُ أنفسهم بذلك؛ لأنّ العقل في اللُّغة هو الّذي يزجر ويمنع صاحبه عن القبائح، والتّورط في المهالك[2]، وعَقَلَ إذا عَرَفَ ما كان يجهله قبل، أو انْزَجَرَ عمّا كان يفعله.

وأمّا بناؤها الصّرفيّ: فهو من عَقَلَ يَعْقِلُ عَقْلًا، وقد جرى القرآن على مغايرة الصّيغ لتغاير المعاني؛ ذلك بأنّ الأبنية الصّرفيّة في اللُّغة العربيّة تتمتّع بمعانٍ خاصّة، فاستعمال القرآن صيغة الفعل المضارع ﴿تَعْقِلُونَ﴾ في قوله تعالى: ﴿لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ في سياق الخبر يفيد الحدوث التجدّديّ، أيْ إنّ رجاء حصول التّعقّل منهم لِما في كتاب اللّه أمرٌ متجدّد.

بلاغةُ حذف مفعول ﴿تَعْقِلُونَ﴾:

حذَفَ البيانُ الإلهيُّ مفعولَ ﴿تَعْقِلُونَ﴾ في قوله: ﴿لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾؛ لقصد العموم، أيْ للإشارة إلى أنّ إنزاله كذلك هو سببٌ لحصول تعقّلٍ لأشياء كثيرةٍ من العلوم؛ من إعجازٍ وغيره[3].

إنزالُ القرآنِ سببٌ للوقوفِ على علومٍ لا تَنْقضي

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

(تَعْقِلُونَ) و(تَعْلَمُونَ) و(تَفْقَهُونَ):

تتقارب هذه الألفاظ في دلالاتها فجميعها تدلُّ على المعرفة وأنّها نقيض الجهل، ويظهر ذلك من خلال الرّجوع إلى معانيها اللُّغويّة:

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 12/202.
(2) ابن منظور، لسان العرب: (عقل).
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 12/202.

العقلُ هو القوّةُ المتهيّئةُ لقَبول العلم، والعلمُ اعتقادٌ مطابقٌ للواقع، والفِقهُ أخصُّ من العلم

(تَعْقِلُونَ): العَقْلُ: نَقِيضُ الجَهْلِ، يُقال: عَقَلَ يَعْقِلُ عَقْلًا، إذا عَرَفَ ما كان يجهله قبل، أو انْزَجَرَ عمّا كان يفعله، ورجلٌ عَقُولٌ، إذا كان حَسَنَ الفَهْم وافِرَ العَقْلِ[1]، والعَقْلُ: الحِجْر والنُّهى؛ ضِدُّ الحُمْق، والعاقِلُ الَّذِي يَحْبِس نَفْسَهُ ويَرُدُّها عَنْ هَواها، والمَعْقُول: ما تَعْقِله بِقَلْبِكَ، والعَقْلُ: القَلْبُ، وسُمِّي العَقْلُ عَقْلًا؛ لأنه يَعْقِل صاحبَه عَنِ التَّورُّط فِي المَهالِك؛ أي: يَحْبِسه[2]، والعَقْل: القوّة المُتهيّئة لقبول العلم، ويُقال للّذي يَسْتَنبِطُه الإنسانُ بتلكَ القوّةِ: عَقْلٌ[3]، أو هُو العِلمُ بصفاتِ الأشياءِ من حُسنِها وقُبحِها، وكمالِها ونُقصانِها[4].

(تَعْلَمُونَ): العِلْمُ: نقيض الجهل، والعِلْمُ: اليقين، يُقال: عَلِمَ يعلم إذا تيقّن، وجاء بمعنى المعرفة أيضًا[5]، عَلِمَه: عَرفَه حقّ المعرفة، والعِلْمُ: الاعتقاد الجازم الثّابت المُطابق للواقع[6]، والعِلْمُ: إدراك الشّيء بحقيقته، وذلك ضربان: أحدهما: إدراك ذات الشّيء، والثّاني: الحُكم على الشّيء بوجود شيءٍ هو موجود له، أو نفيُ شيءٍ هو منفيٌّ عنه[7].

(تَفْقَهُونَ) أصل (فَقِهَ) يدلُّ على إدراك الشّيء والعلم به، ثمّ اختُصَّ بذلك علمُ الشّريعةِ؛ فقيلَ لكلِّ عالِمٍ بالحلالِ والحرام: فقيهٌ[8]، والفقهُ: العلمُ بالشّيءِ والفهمُ له، والفطنةُ، ورجلٌ فقيه: عالِم، وكلُّ عالِمٍ بشيءٍ فهو فقيه[9]، وفسَّره الرّاغب: بالتَّوصُّلِ إلى

(1) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللُّغة: (عقل).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (عقل).
(3) الرّاغب، المفردات: (عقل).
(4) الزّبيديّ، تاج العروس: (عقل).
(5) الفيوميّ، المصباح المنير: (علم).
(6) الزّبيديّ، تاج العروس: (علم).
(7) الرّاغب، المفردات: (علم).
(8) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (فقه).
(9) الزّبيديّ، تاج العروس، وابن منظور، لسان العرب: (فقه).

علمٍ غائبٍ بعلمٍ شاهدٍ، فهو أخصُّ من العلم[1]، فالفقهُ بالشّيء: معرفةُ الوصولِ إلى أعماقهِ وفهمه فهمًا عميقًا مُستوعِبًا؛ كأنّما غاص في داخله فأدرك دقائقه وخفاياه[2].

ورغم تقارب هذه الألفاظ في معانيها إلّا أنّه يوجد ما يُميّز كلّ لفظٍ عن الآخر، وذلك على النّحو الآتي:

العقل: هو الّذي يزجر صاحبه عن القبائح، وكلُّ مَن كان زاجرُه أقوى كان أعقل، وقال بَعضهم: العقل يمْنَع صاحبه عن الوقوع في القَبِيح، والعقل: الحِفظ، إذ يُفيد معنى الحَصْر والحَبْس، وخلافُ العقل: الحُمق[3]، والعَقْل: القوّة المُتهيِّئة لقبول العلم، فلا بدّ للعلم من وجود العقل.

العلم: هو إدراك الشّيء بحقيقته، فهو اعتقادٌ جازم مطابق للواقع[4].

والفقه: أخصُّ من العلم، إذ فيه معنى الفطنة إضافةً إلى العِلْم، فالفقيه يصل إلى أعماق الأشياء ويفهمها ويعلم دقائقها وخفاياها، فمَن لا يعرفُ من الأمورِ إلّا ظواهرَها لا يُسمّى فقيهًا، وقد استعمل القرآنُ الفقه في مواضعَ كثيرةٍ بمعنى دقّة الفهم والتعمُّقِ في العلم ليترتّب عليه أثرهُ، وهو الانتفاعُ به.

(1) الرّاغب، المفردات: (فقه).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (فقه).
(3) العسكريّ، الفروق اللُّغويّة، ص: 83.
(4) الفِيروزابادِيّ، بصائر ذوي التّمييز: 2/125.

﴿نَحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ بِمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبۡلِهِۦ لَمِنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ ٣﴾ [يوسف: 3]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

فـي القصصِ الموحَى دليلٌ على أنَّ القرآنَ مُنزّلٌ من الله

لَمّا وصَفَ البيانُ الإلهيُّ القرآنَ بأنَّه مُبِينٌ وأكَّدَ إنزالَه قرآنًا عربيًّا، قال مُثْبِتًا ومُعَلِّلًا بِأنَّهُ الكِتابُ المُنزل من الله بِعِلَّةٍ مُشاهَدَةٍ هي أخَصُّ منَ الأُولى[1]: ﴿نَحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ بِمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ﴾.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿نَقُصُّ﴾: القاف والصّاد أصلٌ صحيح يدلُّ على تتبُّع الشّيء، من ذلك قولهم: اقتصصتُ الأثرَ إذا تتبّعته[2]، والقَصُّ: تَتَبُّعُ الأثَرِ، والقصُّ فعلُ القاصّ إذا قصَّ القصص، وذلك لاتّباعه خبرًا بعد خبر وسَوقِهِ الكلام سَوقًا[3]، ويُقال: قصَّ عليه القصّةَ: رَواها، وقصّ عليه الرُّؤْيا: أخبرهُ بها، وقصّ عليه الخبرَ قصًّا وقصصًا: أعلمه به وأوردهُ على وجهه، والقاصُّ: مَن يأتي بالقصّة على وجهها، كأنّه يتتبّع معانيها وألفاظها، والقِصّة: الخبر ذو الأمور المتتالية[4].

ومعنى ﴿نَقُصُّ﴾ في الآية: نُخبرك فيه عن الأخبار الماضية، وأنباء الأمم السّالفة والكتب الّتي أنزلناها في العصور الخالية[5].

2) ﴿أَحۡسَنَ﴾: الحُسْنُ ضدُّ القُبْحِ[6]، والحُسْنُ: نَعْتٌ لما حَسُن،

(1) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 10/6.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (قص).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (قصص).
(4) الزّبيديّ، تاج العروس، ومجمع اللُّغة العربيّة، المعجم الوسيط، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (قصص).
(5) ابن جرير، جامع البيان: 15/551.
(6) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (حسن).

والحُسْنُ: الجَمالُ[1]، والحَسَنَةُ: ضدّ السَّيِّئَةِ، والإحْسانُ: ضدّ الإساءَةِ، والحَسَنُ: ما حَسُنَ من كلِّ شيءٍ، ويُقال: الأحْسَنُ على إرادَةِ أفْعَلِ التَّفْضيلِ[2]، فالأحْسَن: الأفْضَل[3]، والحُسْنُ: عبارةٌ عن كلّ مُبهجٍ مرغوب فيه، وذلك ثلاثة أضرُب: مُستحسَنٌ من جهة العقل، ومُستحسَنٌ من جهة الهوى، ومُستحسَنٌ من جهة الحِسّ، والحُسْنُ أكْثَر ما يُقالُ في تَعارفِ العامَّةِ في المُسْتَحْسَن بالبَصَرِ، وأكْثَر ما جاءَ في القُرْآن في المُسْتَحْسَن من جهَةِ البَصِيرَةِ[4].

ومعنى ﴿أَحْسَنَ﴾ في الآية: أبدعُه طريقةً، وأعجبُه أسلوبًا، وأصدقُه أخبارًا، وأكرمُه مقصدًا، وأشرفُه غايةً، وأقومُه طريقًا، وأجمعُه حِكمًا وعِبرًا[5].

3) ﴿ٱلْغَٰفِلِينَ﴾: الغين والفاء واللّام أصلٌ صحيح يدلُّ على ترك الشّيء سهوًا، وربَّما كان عن عمدٍ، ومنه: غفَلتُ عن الشّيء: إذا تركتَه ساهيًا، وأغفلتُه: إذا تركتَه على ذُكْر منك له[6]، والغَفْلة: فَقْدُ الشُّعورِ بما حَقُّه أنْ يُشعَرَ به، وهو أيضًا الذّهولُ عن الشّيء، وقيل: متابَعةُ النَّفْسِ على ما تشتهيه، وغَفَلَ الشّيءَ: سَتَره[7]، والغفلة: سهوٌ يعتري الإنسان من قلّة التّحفُّظ والتّيقُّظ[8]، والغفلة: غيبةُ الشّيء عن بالِ الإنسان، وعدم تذكّره له، وقد استُعمل فيمَن تركه إهمالًا وإعراضًا[9]. والمُراد بـ ﴿ٱلْغَٰفِلِينَ﴾ في الآية: أيْ: لا تعلمه، ولا شيئًا منه[10]، أو عدم الالتفات والاهتمام له، إذْ لم يكن من النّبيّ ﷺ قبل نزول القرآن عليه الْتِفاتٌ إلى هذا القصص أو اشتغال به[11].

المَعْنى الإجْماليُّ:

يقول جلّ ثناؤه لنبيّه مُحمّدٍ ﷺ: نحن نقصُّ عليك - أيها الرّسول - أحسنَ القصص

(1) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة، والزّبيديّ، تاج العروس: (حسن).
(2) الفِيروزابادِيّ، القاموس المحيط: (حسن).
(3) مجمع اللُّغة العربيّة في القاهرة، المعجم الوسيط: (حسن).
(4) الرّاغب، المفردات: (حسن).
(5) النَّسفيّ، مدارك التّنزيل: 2/94، والقاسميّ، محاسن التّأويل: 6/146، والخطيب، التّفسير القرآنيّ: 6/1233.
(6) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (غفل).
(7) الزّبيديّ، تاج العروس: (غفل).
(8) الرّاغب، المفردات: (غفل).
(9) الفيومي، المصباح المنير: (غفل).
(10) ابن جرير، جامع البيان: 15/551، والبغويّ، معالم التّنزيل: 2/474، والنَّسفيّ، مدارك التّنزيل: 2/94.
(11) الخطيب، التّفسير القرآني للقرآن: 6/1234.

مضمونًا وأسلوبًا بوحينا إليك هذا القرآن، فنخبرك فيه عن الأخبار الماضية، وأنباء الأمم السّالفة والكتبِ الّتي أنزلناها في العصور الخالية، ومنها قصّة يوسف عليه السلام، وإن كنتَ من قبل أن نوحيَهُ إليك لمنَ السّاهِين عن ذلك، لا تعلمه ولا شيئًا منه، ولا تَدْرِي عَنْ قصَصِ السّابِقِينَ شَيْئًا[1]، وهذا دليلُ نُبوّتك وصدق دعوتك.

القصصُ القرآنيُّ المُوحَى إليك دليلٌ على نبوّتكَ وصدقِ دعوتك

وترشدُ الآية الكريمةُ إلى أنَّ القصَص التّربويَّ بصفةٍ عامّةٍ يعطينا صورًا واضحةً للفضائل والرّذائل، حتّى تتركَ آثارَها العميقةَ في أغوار النّفوسِ البشريّة فتُقبِل على الفضائل لحُسن عاقبتها، وتُدْبِرَ عن الرّذائل لقُبح مصيرها. وقد ساقَ اللّه القصصَ القرآنيّة؛ لنستفيدَ من روايتها مكارمَ الأخلاق ونتّعظَ بعظاتها وعِبَرِها، حتّى نكونَ بمأمنٍ من عثراتِ الحياة ومنجاةٍ من أخطار الدّنيا والآخرة، وسورةُ يوسفَ مليئةٌ بالعِظات والعِبَر، وقصّةُ يوسفَ من أحسن القصص وأوضحِها وأبينِها؛ لما فيها من أنواع التّنقُّلات من حالٍ إلى حال، ومن محنة إلى محنة، ومن محنة إلى منْحة ومنَّة، ومن ذُلٍّ إلى عِزٍّ، ومن رِقٍّ إلى مُلكٍ، ومن فُرقةٍ وشَتاتٍ إلى اجتماعٍ وائتلافٍ، ومن حُزن إلى سُرور، ومن رَخاء إلى جَدْب، ومن جَدْب إلى رَخاء، ومن ضِيقٍ إلى سَعةٍ، ومن إنكارٍ إلى إقرارٍ؛ فلهذا تعتبرُ بحقٍّ أحسنَ القصص كما وصفها اللّه تعالى[2].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

براعةُ فصل الآية عن سابقتها:

تَتَنَزَّلُ جملةُ ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾ من الجملة الّتي قبلها ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾ منزلةَ بَدَلِ الاشتمالِ؛ لأنَّ أحسنَ القصص ممّا يشتمل عليه إنزال القرآن، وكون القصص من عند اللّه يَتَنَزَّلُ منزلة الاشتمال من جملةِ تأكيدِ إنزالِه من عند اللّه.

في البدليّة تأكيدٌ لعظمةِ ما ينزّله القرآن من أحسن القصص

(1) ابن جرير، جامع البيان: 15/551.

(2) السّعديّ، تيسير الكريم المّنان، ص: 407، ومجمع البحوث الإسلاميّة، الوسيط: 4/269.

وقوله: ﴿بِمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ﴾ يتضمّن رابطًا بين جملةِ البَدَلِ والجملةِ المُبْدَلِ منها[1]، ولذا فَصَلَ البيانُ القرآنيُّ بين هاتيْن الجملتيْن ولم يربطهما بعاطفٍ؛ لِما بينها من كمالِ اتّصال.

نكتةُ بدءِ الآية بضميرِ العَظَمة:

العظيمُ سبحانَه لا يُخبرُ إلّا بما هو عظيمٌ

افتتحَ البيانُ الإلهيُّ الجملةَ بضمير العظمة: ﴿نَحۡنُ﴾؛ للتّنويهِ بشأن المُخْبَرِ بهِ وتعظيمه، وهو ما يُخبرُ به سبحانه من أحسن القصص[2]، وما تحملُه من عِبرٍ لها الأثرُ العظيمُ في تثبيتِ قلب النّبيّ ﷺ والتّسليةِ عنه، وتوجيهِ دعوتِه، وإرشادِ أُمّته الخاتِمَة، لأنّ سورة يوسف تحكي الحياةَ بجميع ألوانها بما فيها من حُلوٍ ومُرٍّ، ومحنةٍ ومنحةٍ، وبما فيها من حُبٍّ وحسدٍ، ومن عدلٍ وظلمٍ، ومن فتنةٍ وإغراءٍ، وعفّةٍ وإباء، وفيها لطفُ اللّه لِمَنْ اصطفاه والعاقبة لِمَنْ يتّقي ويصبر.

وكذلك فيها تنويهٌ بتعظيم مَن تتنزّلُ عليه ﷺ وتعظيم أمَّتِه المتّخِذةِ من قَصَصِ القرآن وأخبارِه منهجَ حياة.

فائدةُ التَّعبير بـ ﴿نَقُصُّ﴾:

القصصُ القرآنيُّ يتتبعُ ما حدث فعلًا وله عظيمُ الأثر لأنّه مُنزّلٌ من ربِّ البَشَر

يشير إيثار القرآن التَّعبير بمفردة ﴿نَقُصُّ﴾ في قوله تعالى: ﴿نَحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ﴾ إلى صدق القصص القرآنيّة وواقعيّتها؛ لأنَّ مادةَ القصّ تعني تتبُّعَ الأثر، والإتيانَ بالقصّة على وجهها، "وذلك أنّ حكاية أخبار الماضين تُشْبه اتّباع خُطاهم"[3].

وقد أكّد القرآن هذا المعنى بقوله: ﴿أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ﴾ وقوله: في سورة أخرى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡقَصَصُ ٱلۡحَقُّۚ﴾ [آل عمران: 62].

وأمّا استعمالُ مفردة القصّ بصيغة الفعل المضارع ﴿نَقُصُّ﴾

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 12/202.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 12/203.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 12/203.

المنسوب إلى ضمير الجمع المتكلّم ﴿نَحۡنُ﴾؛ فللإشارة إلى أمرَيْن: الأوّل: استمرارُ نزول القصص القرآنيّ على النّبيّ ﷺ، واستمرار تلاوتها إلى قيام السّاعة، واستحضارُ صورة تنزُّل هذه القصص عليه ﷺ في الذّهن، بما يحمله هذا الاستحضار من زيادة التّثبيتِ لقلبِ النّبيّ ﷺ وأُمّته، وبما يُظهره من رعاية الله له.

والثّاني: تعظيمُ هذه القصص القرآنيّة؛ للتّعبير بصيغة الجمع ونون العظمة.

غرضُ تقديم ﴿نَحۡنُ﴾ على ﴿نَقُصُّ﴾:

قدَّم البيانُ الإلهيُّ المُسْنَدَ إليه، وهو المبتدأ ﴿نَحۡنُ﴾ على المُسْنَدِ الفعليّ، وهو الخبر الّذي جاء بصيغة الفعل ﴿نَقُصُّ﴾؛ للآتي:

القصصُ القرآنيُّ من عندِ الله وحده حُكمٌ مؤكَّدٌ لا مرية فيه

أولًا: لإفادةِ الاختصاص؛ أيْ: نحن نقصُّ لا غيرنا؛ ردًّا على مَن يطعن من المشركين في القرآن بقولهم: كما حكاه القرآن: ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٞۗ﴾ [النّحل: 103] وقولهم: ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٱكۡتَتَبَهَا﴾ [الفرقان: 5][1].

ثانيًا: لتقوية الحُكم وتوكيده، وهو أنَّ الله يقصُّ على رسوله ﷺ أحسن الاقتصاص، وأحسن المقصوص؛ أيْ: أحسن المعاني بأحسن أسلوب.

وسبب تقوية الحُكم وتوكيده تكرار الإسناد؛ فقد وقع الفعل ﴿نَقُصُّ﴾ خبرًا عن المُسنَد إليه ﴿نَحۡنُ﴾، وهو في الوقت نفسه مُسنَد إلى الضَّمير ﴿نَحۡنُ﴾ العائد على المبتدأ، فكأنَّ الحُكم هنا ذُكر مرّتيْن؛ مرّةً حين أُسند الفعلُ إلى المبتدأ، ومرّةً حين أُسند إلى ضميره العائد إلى المبتدأ، بخلاف ما لو تأخّر المُسنَدُ إليه، فقال: (نقصُّ نحن)، فلا يحدث هذا التّكرار، بل يحدث الإسناد مرّةً واحدةً فقط.

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 12/203.

بلاغةُ التّناسقِ بين البدل والمبدل منه:

تتناسقُ آياتِ القرآن في تقريرِ حقيقةٍ مفادُها أنْ لا مصدرَ للقرآن إلّا هُو سبحانَه

يَظهر جمالُ التّناسقِ بين جملةِ البَدَل ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ﴾ وجملةِ المُبدَل منه ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾ في توافُق الجُملَتيْن في تَقديم المُسنَد إليه، وهو المبتدأ ﴿إِنَّآ﴾ و﴿نَحْنُ﴾ على المُسنَد الفعليّ، وهو الخبر الّذي جاء بصيغة الفعل ﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾ و﴿نَقُصُّ﴾ أيْ: في إفادة الاختصاص وتوكيده، وبالتّالي توافقهما في تأكيدِ كَوْنِ القرآنِ من عند اللّه لا من عنْد غيرِه سبحانه.

غرضُ التَّعبيرِ بحرف الاستعلاء ﴿عَلَيْكَ﴾:

مقامُ تنزُّلِ القرآنِ العظيم مقامٌ عظيمٌ إذْ هو من الله العظيم على النّبيِّ العظيم

عبّرَ البيان القرآنيُّ بحرف الجرّ (على) في قوله تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾، ولم يَقُل: (نحن نقصّ أحسن القصص) كما في الآية الّتي قبلها ﴿أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾؛ تنويهًا بمقام النّبيّ ﷺ وهو مقام عُلوٍّ ورِفعةٍ، ولذلك لكون (على) يُفيد الاستعلاء، ومناسبةً للسّياق الّذي هو سياقُ عُلوٍّ ورِفعةٍ وعظمةٍ لمُنزِل القصص سبحانه، وللمقصوص، إذ ابتدأت الآية بضمير العظمة ﴿نَحْنُ﴾ وقدّمته على الفعل؛ أي: نحن نقصّ عليك لا غيرُنا، ثمّ وصفتِ المُنزَل بأحسن القصص، فناسب الإشارة إلى عُلوِّ مَن تتنزّل عليه آيات العظيم سبحانه.

عودُ ضمير المخاطَب في ﴿عَلَيْكَ﴾:

الخطابُ من الله للمصطفى المُختار تشريفٌ ورِفعةٌ

يعودُ ضميرُ المخاطَب في شبه الجملة ﴿عَلَيْكَ﴾ في قوله تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾ إلى النّبيّ ﷺ؛ تشريفًا له بالخطاب من اللّه سبحانه، وتسليةً لنفسه بما سيقصُّه عليه من قَصص إخوانه، وهذا لا يكون لو كان التَّعبير: (نحن نقص عليه).

وأمّا فائدةُ إضمارِه ﷺ وعدم التّصريح باسمه فهي الاختصارُ؛ لأنَّ نزولَ الوحي الشّرعيّ لا يكون إلّا لَه؛ فهو النّبيُّ المختار الّذي نزل عليه الرُّوحُ الأمينُ، ولكونِ الضّمائرِ أعرفَ المعارف، وفي هذا تشريفٌ ورِفعةٌ لمقامه ﷺ.

غرضُ تقديم شبْهِ الجملة ﴿عَلَيْكَ﴾:

في التّقديم اهتمامٌ بشأنه ﷺ، وفي التّأخيرِ تشويقٌ لأحسنِ القَصص

قدَّم القرآنُ شبه الجملة ﴿عَلَيْكَ﴾ على المفعول به ﴿أَحْسَنَ﴾ في قوله تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾، ولم يَقُل: (نحن نقصُّ أحسنَ القصص عليك)؛ اهتمامًا وتنويهًا بشأن المقَدَّم ﷺ الّذي اختاره اللّه ليُنزِّل عليه القرآن العظيم، وتشويقًا للمؤخّر وهو أحسنُ القصص، إذ النّفس لَمّا تسمع أنّ الّذي يقصّ هو العظيم سبحانه، وأنّ مَن يتنزّل عليه المقصوص هو صاحب المقام المحمود، فإنّها تتشوق لمعرفةِ هذا المقصوص الّذي لا بدّ وأنْ يكون عظيمًا في نَظْمه ومضمونِه، فهو أحسنُ الاقتصاص، وأحسنُ المقصوص.

نكتةُ التّعبيرِ بـ﴿أَحْسَنَ﴾:

قصصُ القرآن جمعتِ الحُسْن كلّه؛ بلْ كانت أحسنَ القصص

آثر القرآنُ مُفردة ﴿أَحْسَنَ﴾ من حيث مادّتُها اللّغويّة؛ لأنهّا الأنسبُ مع عظمةِ هذه القصص من حيث سَعةُ دلالة هذه المفردة على المعنى، إذ الحُسْنُ ضدّ القُبْحِ[1]، والحُسْنُ: الجَمالُ[2]، والإحْسانُ: ضدّ الإساءَةِ، والحَسَنُ: كلّ مُبهجٍ مرغوبٍ فيه من جهة العقل والهوى، والحِسّ، والحُسْنُ: هو المُسْتَحْسَن بالبَصَرِ، وأكثره في القرآن من جهَةِ البَصِيرَةِ[3]، والمعنى: نحن نقصُّ عليك قصصًا جمعت الحُسْن كله؛ إبداعًا وجمالًا في نَظمها وأثرها الصّوتي، وإعجازًا في أسلوبها، وصدقًا وواقعيّة في أخبارها، وكرامةً وشرفًا ورُقيًّا في ألفاظها ومقاصدها وغاياتها وحِكَمها وعِبَرها النّفسيّة والعقليّة والتّربويّة والاجتماعيّة والاقتصاديّة والسّيّاسيّة وغير ذلك.

وأمّا التَّعبيرُ باسم التّفضيل في قوله تعالى: ﴿أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾؛ فإشارةً إلى أنَّ هذه القصص قد بلغت الغاية في هذا الحُسْن، إذ

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (حسن).
(2) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة، والزّبيديّ، تاج العروس: (حسن).
(3) الرّاغب، المفردات: (حسن).

بعضُ القصص لا يخلو عن حُسْنٍ ترتاحُ له النُّفوس، ولكنّ قَصصَ القرآنِ هو أحسنُ القَصص في بابه، وكلُّ قصّةٍ في القرآن هي أحسنُ من كلِّ ما يقصّه القاصُّ في غير القرآن[1]، فأحسنُ القَصص أبدعُه طريقةً، وأعجبُه أسلوبًا، وأصدقُه أخبارًا، وأكرمُه مقصدًا، وأشرفُه غاية، وأقومُه طريقًا، وأجمعُه حِكمًا وعِبرًا[2].

وفي التَّعبير باسم التّفضيل ﴿أَحْسَنَ﴾ ردٌّ على مَن أراد أنْ يُكمل القصّة التّامّة الكاملة الحَسَنَة، أو يُحسّنها بما يُذكر في الإسرائيليّات الّتي لا يُعرف لها سَنَدٌ ولا ناقلٌ، وأغلبُها كذِبٌ، وأنَّه بفعله هذا وكأنّه يستدرك على اللّه، ويُكملُ شيئًا يزعم أنّه ناقص، وحسْبُك بأمرٍ ينتهي إلى هذا الحدِّ قبحًا[3].

دلالةُ اسم التّفضيل ﴿أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾:

لفظُ (القصّ) في معناه الحقيقيّ هو تتبّع الشّيء، ومن ذلك قولهم: اقتصصتُ الأثرَ إذا تتبّعته[4]، والقَصُّ: تَتَبُّعُ الأثَرِ، وفي معناه المجازيّ القصّ هو الخبر ذو الأمور المتتالية[5].

القصصُ القرآنيُّ أحسنُ الاقتصاصِ وأحسنُ المقصوصِ

والعلاقةُ بين المعنيَيْن؛ الحقيقيّ والمجازيّ أنّ في كليْهما تتبّع الشّيء، فالقاصُّ: مَن يُتبع خبرًا بعد خبر، ويسُوق الكلام سَوقًا[6]؛ أيْ: مَن يأتي بالقصّة على وجهها، كأنّه يتتبّع أحداثها ومعانيَها وألفاظها.

وإذا حُمل القصص على المعنى الحقيقيِّ، وهو تتبّع الأثر وهو الأصل، فالمُرادُ بأحسن القصص: أحسنُ الاقتصاص؛ أيْ: أبدع

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 12/203.

(2) النَّسفيّ، مدارك التّنزيل: 2/94، والقاسميّ، محاسن التّأويل: 6/146، والخطيب، التّفسير القرآنيّ: 6/1233.

(3) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 393.

(4) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (قص).

(5) الزّبيديّ، تاج العروس، ومجمع اللُّغة العربيّة، المعجم الوسيط، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (قصص).

(6) ابن منظور، لسان العرب: (قصص).

الأساليب وأعجب الطُّرق والمسالك في تتبُّع الأخبار والتَّعبير عنها؛ لكونه بالنَّظم الوجيز، والمَغْنَى الجزيل مع المراعاة لمُقتضى الحال في كلِّ كلامٍ ومقال.

وإذا حُمل القصص على المعنى المجازيّ، فالمُراد أحسن الأخبار؛ أيْ: أحسن المقصوص؛ لاشتماله على العجائب والحِكَم والآيات.

معنى (أل) في ﴿ٱلْقَصَصِ﴾:

أل التّعريفِ في القصص في قوله تعالى: ﴿أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾ جنسيّةٌ، تُفيد العموم؛ لتشملَ كلَّ القصص الّذي لم ينزل به القرآن؛ أيْ: قصصُ القرآنِ أحسنُ من كلِّ قصصٍ غيرِه في نظمه ومضمونِه.

كلُّ قصصٍ لا يضاهي قصصَ القرآن في العظمةِ والإعجازِ

الموقعُ الإعرابيّ لقوله: ﴿أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾:

﴿أَحْسَنَ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾ يحتمل وجهيْن في الإعراب:

الحُسْنُ معجزٌ في القصص القرآنيّ؛ حُسْنُ بيانٍ وحُسْنُ مضمونٍ

الأوّل: أن يكون مفعولًا مطلقًا مبيِّنًا لنوعِ فعله؛ أيْ: منصوبَ نصْب المصدر[1]، والمعنى: نقصُّ عليك أحسنَ الاقتصاص، وعلى هذا التّقدير فالحُسْنُ يعود إلى حُسْنِ البيان، والمُرادُ من هذا الحُسن كون هذه الألفاظ فَصِيحَةً بالغةً في الفصاحة إلى حَدِّ الإعجاز، فرغم أنَّ القصّة مذكورةٌ في كتب التّاريخ إلّا أنّ شيئًا منها لا يُشابه هذه السّورة في الفصاحة والبلاغة.

وفي هذا التّقدير على المصدريّة مع بيان الواقع بأنّه أحسن نَظْمٍ وبيان تعريضٌ بما في اقتصاص أهلِ الكتاب من القُبح والخلل[2].

الثّاني: أن يكون بمعنى المفعول من إطلاقِ المصدرِ وإرادةِ المفعول، كالخَلْقِ بمعنى المخلوق، وكقولك: هذا قدرة اللّه تعالى؛ أيْ:

(1) لأنّه مضافٌ إلى المصدر، و(أفعل) إنّما يُضاف إلى ما هو بعض له، فينزل منزلة المصدر، فصار بمنزلة قولهم: سرتُ أشدّ السّير، ينظر: الزّحيليّ، التّفسير المنير: 12/199.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/251.

مقدورُه، والمعنى: نقصّ عليك أحسَنَ المقصوص، وعلى هذا التّقدير فالحُسْن يعود إلى ما فيه من العِبَر والنُّكَتِ والحِكَم والعجائب الّتي ليست في غيرها[1].

غرضُ الخبر ﴿نَحْنُ نَقُصُّ﴾:

في قصّةِ يوسُفَ وإخوتِه آياتٌ لتسليةِ وتثبيتِ قلبه الحزين ﷺ

أفادتِ الجملةُ الخبريّة في قوله تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾ إعلامَ النّبيّ ﷺ بأنَّ ما يقصّه الله عليه من أخبار يوسف وإخوته هو أحسنُ القصص نظمًا ومضمونًا، وأنّه دليلُ نبوّته، والمُثبِّتُ لقلبه والمُخفّف لأحزانه وآلامه بما تتضمّنه أخبار هذه القصّة، وذلك في مرحلةٍ كانت شديدةً على النّبيّ ﷺ بعد فقدِ النّصير بوفاة عمّه أبي طالب وزوجِه خديجةَ رضي الله عنها[2]، وقد أوجد العلماء كثيرًا من أوْجُه الشّبه بين سيرة النّبيّ ﷺ وسيرة يوسف عليه السلام بلغتْ نحوًا من أربعة وعشرين وجهًا.

وقد ورد عن عطاء بن أبي رباح أنّه قال: "لا يسمع سورة يوسُفَ محزونٌ إلا استراح إليها"[3].

معنى الباء في قوله: ﴿بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾:

لا تنفكُّ قصصُ القرآن عن قرآنيّتها فهي سببُ أفضليّتها

الإلصاقُ؛ إشارةً إلى أنّ هذا نصٌّ في القرآن نزل به جبريل، وليس من باب الإلهام، أو الوحي غير المتلوِّ، فهو قرآنٌ يُتلى إلى يوم القيامة، والمعنى: نقصُّ عليك أحسنَ القصص الملتصق المتلبّس بوحينا.

وتفيد أيضًا معنى: السّببيّة، والباء متعلّقة بـ ﴿نَقُصُّ﴾؛ أي: بسبب إيحائنا إليك هذا القرآن؛ أيْ: كانت هذه القصصُ عن طريق هذا الوحي؛ وفي هذا المعنى إشارةٌ إلى: نفي أن يكون المُرادُ أحسنَ قصص القرآن حتّى تكون قصّة يوسف عليه السلام أحسن من بقيّة

(1) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 18/417.
(2) الزّحيليّ، التّفسير المنير: 12/188.
(3) البغويّ، معالم التّنزيل: 4/212.

قصص القرآن[1]؛ لأنّ الأفضليّة بسبب كونها وحيًا، وكلُّ قصص القرآن وحيٌ.

ويتفرّع عن السّببيّة أنّ سبب أفضليّة الحسن في القصص الوارد في القرآن أنّه وارد من العليم الحكيم، فهو يوحي ما يعلم أنّه أحسن نفعًا للسّامعين في أبدع الألفاظ والتّراكيب، فيحصل منه غذاء العقل والرّوح، وابتهاج النّفس والذّوق ممّا لا تأتي بمثله عقول البشر[2].

ويمكن أن تكون الباء أيضًا تبعيضيّة، والمُراد من ذلك الإشارة إلى ما اشتمل عليه القرآن الكريم من قصص، وأنّه مع نزول القرآن الكريم على النّبيّ الكريم، نزل هذا القصص، الّذي كان بعضًا من وحي اللّه، ومعجزةً من إعجازه، ودرسًا من دروسه[3].

معنى (ما) في قوله: ﴿بِمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ﴾:

(ما) في قوله تعالى: ﴿بِمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ﴾ تحتمل وجهيْن:

الأوّل: مصدريّةٌ، والمعنى: بإيحائنا إليك هذا القرآن[4]، والمصدر المؤوّل ﴿بِمَآ أَوۡحَيۡنَآ﴾ في محلّ جرٍّ بالباء متعلّق بـ ﴿نَقُصُّ﴾[5].

الثّاني: اسمٌ موصولٌ بمعنى الّذي[6]، وجملةُ ﴿أَوۡحَيۡنَآ﴾ لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (ما)[7]. والمعنى: نحن نقصّ عليك أحسنَ القصص بسبب الّذي أوحيناه إليك من هذا القرآن.

(ما) بين المصدريّة والموصوليّة بيانٌ لأفضليّةِ قَصصِ القرآنِ

سرُّ التَّعبير بالإيحاء بالماضي:

عبّر البيانُ القرآنيُّ عن إنزالِ الوحي بصيغة الماضي ﴿أَوۡحَيۡنَآ﴾ وهذا يصْدُقُ على ما أوحاه اللّه على رسوله ﷺ فعلًا، ولكنّ المقصود

نزولُ الوحي القرآنيّ الشّاهِدِ على صدْقِ نُبوّتِه ودعوتِه أمْرٌ مُحقّقٌ لا شكَّ فيه

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 12/204.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 12/204.
(3) الخطيب، التّفسير القرآنيّ: 6/1234.
(4) السّمين الحلبيّ، الدُّرُّ المصون: 6/430.
(5) دعاس، إعراب القرآن: 2/78.
(6) القاسميّ، محاسن التّأويل: 6/146.
(7) صافي، الجدول في إعراب القرآن: 6/378.

كذلك ما يُوحيه سبحانه وقتَ نزول السّورة، وما سيُوحيه سبحانه بعد ذلك حتّى يكتمل نزول القرآن؛ لأنَّ كلَّ هذا الوحي القرآنيّ يدلُّ على صدق ما أخبر به ﷺ، وإذا كان المقصود بالقرآن هنا سورة يوسفَ فالتَّعبير بالمضارع هو الّذي يخطر على الذّهن؛ أيْ: بما نوحي إليك هذه السّورة، ولكنَّ البيان القرآنيّ آثر التَّعبير بصيغة الماضي عما سيُوحيه؛ لإفادة تحقّقِ الوقوع، وكأنّه وقعَ حتّى صَحَّ أن يُخبر عنه أنّه قد حصَل.

نكتةُ تقديم شبْه الجملة ﴿إِلَيْكَ﴾:

مَنْ اصطفاهُ الله وشرَّفَه بالوحي القرآنيّ أحرى أنْ يُصَدَّقَ

قدّم القرآنُ الجارَّ والمجرور ﴿إِلَيْكَ﴾ على المفعول به ﴿هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ﴾؛ اهتمامًا بشأن المُقدَّم، وهو من اصطفاه الله، لأنَّه ﷺ تتنزّل عليه آيات القرآن، وقد عُرف عند العرب بالصّادق الأمين، ولم يُجرَّب عليه كذبٌ، وفيه كذلك التّشويق للمؤخّر، وهو القرآن الكريم.

كما أنّ في هذا التّقديم مناسبةً للسّياق الّذي يهتمّ برسول الله ﷺ، فقد قال في الآية ذاتها: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ﴾.

فائدةُ اسم الإشارة للقريب ﴿هَٰذَا﴾:

القرآنُ قريبٌ من النّبيّ ﷺ وأمّتِه، وذو شأنٍ عظيمٍ عندهم

عبّر البيان القرآنيُّ في قوله تعالى: ﴿بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ﴾ باسم الإشارة للقريب، رغم أنّه عبّر في السِّياق ذاته في الآية الأولى باسم الإشارة للبعيد: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾؛ للإشارة إلى أمرَيْن:

الأوّل: أنَّ هذا القرآن العظيم في شأنه ورفعة منزلته البعيد عن تشكيك المشكّكين هو قريبٌ من النّبيّ ﷺ، فقد نزل على قلبه، قال تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾﴾ [الشّعراء: 193 - 194]، وهو قريبٌ من المسلمين بين أيديهم؛ ترغيبًا لهم في العكوف عليه، والاتّعاظ بأوامره ونواهيه، ومناسبةً للتّسمية،

فالقرآنُ سُمي بذلك؛ لكونه مقروءًا، ولكي يُقرأ، يجب أنْ يكون قريبًا، ولذلك نجد أنّه يستعملُ مع كلمة القرآن اسمَ الإشارة هذا؛ الّذي يدلُّ على القُرب، في خمس عشرةَ آية في القرآن، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: 9].

الثّاني: الإشارةُ للتّفنّن، إذ ورد في الآيات صريحًا ومُضمَرًا، والإيماءُ إلى تعظيم القرآن المشار إليه[1]، وزيادةُ التّمييز له اهتمامًا بشأنه[2].

نكتةُ التعبير في قوله: ﴿هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ﴾:

عيّن البيانُ القرآنيُّ المُرادَ بالإشارةِ مُصرّحًا باسمه العَلَم ﴿ٱلْقُرْءَانَ﴾ في قوله تعالى: ﴿بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ﴾؛ لأمورٍ:

قرآنيّةُ القصصِ الإلهيّ تؤكّدُ عِصمتَها وصدقيّتَها

الأوّل: الإشارة إلى أنّ إنزال القرآن هو مجمع الخيرات، والمعنى: نحن نُتابع في هذا القرآن القصص قصّةً بعد قصّةٍ، والحِكَم حِكمةً في إثْر حكمةٍ حتّى لا يشكّ شاكٌّ، ولا يمتريَ مُمترٍ في أنّه من عندنا وبإذننا[3]، وهذا ممّا يؤكّد عصمتها وواقعيتها، لا كما افترى المفترون بأنّها أساطيرُ وخرافات.

الثّاني: تعرُّضًا لعنوانِ قرآنيّة هذه القصص، تحقيقًا بأنّ الاقتصاص ليس بطريق الإلهام، أو الوحي غير المتلوّ[4].

الثّالث: الإشارةُ إلى أحسنيّةِ القصص القرآنيّ؛ لأنّه قد قُصّ على أبدعِ الطّرائق الرّائعة الرّائقة، وأعجب الأساليب الفائقة اللّائقة، كما لا يكاد يخفى على مَنْ طالع القصّة من كتب الأوّلين، وإن كان لا يميّز الغثّ من السَّمين، ولا يُفرّق بين الشِّمال واليَمين[5].

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 6/367.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 12/204.
(3) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 10/8.
(4) الآلوسيّ، روح المعاني: 6/367.
(5) الآلوسيّ، روح المعاني: 6/367.

معنى(أل) في ﴿ٱلْقُرْءَانَ﴾ من الآية:

القرآنُ مشهورٌ بهذا الاسم معروفٌ بهذا النَّعْتِ

أل التّعريفِ في قوله تعالى: ﴿هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ﴾ عهديّةٌ، معهودُها ذهنيٌّ مشهورٌ بهذا الاسم وذِكْريٌّ سبق في الآيات، ومعلومٌ أنّ من علامات اللّام العهديّة أن تكون واقعةً بعد اسم الإشارة[1]، والمُراد هنا القرآن كلّه المشهورُ بهذا الاسم المعروفُ بهذا النّعت[2]، أو بعضه؛ أي: سورة يوسف؛ أيْ: بما أوحينا إليك هذه السّورة[3]، فالقرآن يُطلَق على الكلّ والبعض.

غرضُ تَكرار ذكرِ القرآن في الآيات السّابقة:

في كثرةِ ذِكْرِ القرآن بالتّصريح والإضمار تأكيدُ عظمتِه وصدقِ ما تضمّنهُ

تكرّر ذِكْر القرآن في الآيات السّابقة بالتّصريح والإضمار، واسم الإشارة ستّ مراتٍ، وجمع له طرق التّعريف كلّها، وهي اللّام والإضمار والعَلَميّة والإشارة والإضافة[4]، وذلك تفخيمًا وتعظيمًا لشأنه، وتأكيدًا بهذا التّكرار على صدق أخباره، وواقعيَّتها وأنّها لا كبقيّة الأخبار.

معنى الواو في قوله: ﴿وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ﴾:

في حالِه وشأنِه ﷺ بعدم علمه بقصّةِ يوسُفَ تأكيدٌ لقرآنيّتها

الواو في قوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ﴾ حاليّةٌ، وجملة ﴿وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾ في موضع الحال من كاف الخطاب في ﴿إِلَيْكَ﴾[5]، والمعنى: بما أوحينا إليك هذا القرآن والحالُ أنّك كنتَ قبل إيحائنا إليك بهذا القرآنِ من الغافلين عن هذه القصّة لم تخطُر ببالك، ولم تقرَعْ سمعَك قطُّ[6]، وحالُه ﷺ وشأنه بعدم علمه لقصّة يوسف عليه السلام تأكيدٌ لقرآنيّتها، وأنّها وحيٌ متلوٌّ من عند الله سبحانه.

---

(1) السّيوطيّ، الإتقان: 2/186.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 12/204.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/251.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 12/204.
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 12/204.
(6) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/251، وطنطاويّ، الوسيط: 7/317.

بلاغةُ اجتماعِ المؤكِّدات في الآية الكريمة:

مؤكِّداتٌ أكّدتْ نفيَ علم النّبيِّ ﷺ بأحسنِ القصص من قبْل الوحي

﴿وَإِن﴾ في الآية مخفّفةٌ من الثّقيلة، وفق مذهب البصريّين، وضميرُ الشّأنِ الواقعُ اسمًا لها محذوفٌ، وجملة ﴿كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾ خبر عن ضمير الشّأن المحذوف، وقد أُدخلت اللّام المزحلَقة في خبر كان؛ لأنّه جزء من الجملة الواقعة خبرًا عن ﴿وَإِن﴾، والمعنى: وإنَّ الشّأنَ كنتَ من الغافلين[1].

وفي التَّعبير بـ ﴿وَإِن﴾ المُخفَّفة وما تضمّنه خبرها من اللّام المُزَحلَقة، وهذه الجملة الاسميّة و﴿كُنتَ﴾ الدّالّة على استمرار غفلته ﷺ عن القصص من قبْلِ القرآن المبين الّذي أُوحي به[2]، وفي ذلك كلّه أنواعٌ من التّوكيد تؤكّد نفيَ علم النّبيّ ﷺ بأحسن القصص من قبل الوحي؛ وذلك لأنّ المشركين كانوا مع معرفتهم به ﷺ عارفين بأنّه كان مباعدًا للعلم والعلماء، ومع ذلك كان فعلهم في تكذيب ما جاء به من هذه القصص المعجزة فعْلَ مَن يُنكرُ ذلك، ولذلك قال سبحانه مؤكّدًا بأنواع التّأكيد: ﴿وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾، وهو ناظر إلى قوله آخر السّورة: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ [يوسف: 102] بعد التفاته عن كثبٍ إلى آخر السّورة الّتي قبلها: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾[3].

وإذا اعتبرنا (إنْ) نافيةً بمعنى ما، واللّام بمعنى (إلّا) وفقَ مذهب الفرّاء كان في الجملة قَصْرٌ بالنّفي والاستثناء؛ أيْ: كانت الجملةُ مثبتَةً إثباتًا محصورًا[4]، وهذا كذلك فيه من التّأكيد ما فيه، إذ المعنى: ما كنتَ من قبل نزول السّورة إلّا من الغافلين عن قصّة يوسف وإخوته.

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/251.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3797.
(3) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 10/9.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/299.

معنى ﴿مِن﴾ في قوله: ﴿مِن قَبۡلِهِۦ﴾:

تأكيدُ عدم علمه بقصّةِ يوسُف قَبلَ نزولِ الوحي هو تأكيدُ صِدق نُبوّته

تحتمل ﴿مِن﴾ في قوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتَ مِن قَبۡلِهِۦ لَمِنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ﴾ معنيين:

الأوّل: أن تكون لابتداء الغاية، وهذا عليه جمهور اللّغويّين، ورُدّ بأنَّ (منْ) لا تدخل على (قَبْل، وبَعْد)، وأُجيب عن ذلك بأنّهما غير متأصّلين في الظّرفيّة، وإنَّما هما في الأصل صفتان للزّمان، قال البقاعيّ: يؤكّد كونها لابتداء الغاية: "ولمّا كان كونه لم يستغرق الزّمان الماضي، أثبتَ الجارّ فقال: ﴿مِن قَبۡلِهِۦ﴾؛ أيْ: هذا الكتاب أو إيحائنا إليك به"[1].

الثّاني: أن تكون للتّوكيد، بدليل جواز حذفها دون تغيّر المعنى، والمقصود توكيد كون النّبيّ ﷺ غيرَ عارفٍ بقصّة يوسف وإخوته قبل نزول السّورة.

نكتةُ تقديم شبه الجملة ﴿مِن قَبۡلِهِۦ﴾:

في التّقديم اهتمامٌ بشأنِ موضوعِ المُقَدَّم وهو نزولُ القرآن

قدّمَ البيانُ القرآنيُّ شبْهَ الجملة ﴿مِن قَبۡلِهِۦ﴾ على ما تتعلّق به وهو ﴿ٱلۡغَٰفِلِينَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتَ مِن قَبۡلِهِۦ لَمِنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ﴾، ولم يَقُل: (وإنْ كنتَ غافلًا من قبله)؛ اهتمامًا بشأن موضوع المُقدَّم وهو نزول القرآن الّذي كان الدّليل على صدق رسالته، إذ التّقدير: من قبل نزول القرآن.

عودُ الضّميرِ في قوله: ﴿مِن قَبۡلِهِۦ﴾: في قوله:

نزولُ القرآنِ وقصصِه أمرٌ عظيمٌ في حياةِ النّبيّ وأمّته، وحجّةٌ على المعرضين عن هَدْيِهِ وملّتِهِ

الضّمير (الهاء) في قوله تعالى: ﴿مِن قَبۡلِهِۦ﴾ إمّا عائدٌ على القرآن في قوله: ﴿بِمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ﴾، والمُراد: وإنْ كنتَ من قبل نزول القرآن لَمن الغافلين؛ بدلالة قرينة السّياق[2]، وإمّا

(1) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 10/9.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 12/204.

على المصدر المؤوَّل من ﴿بِمَآ أَوۡحَيۡنَآ﴾؛ أيْ: على الإيحاء، والمعنى: وإن كنتَ من قبل إيحائنا إليك هذا القرآن لَمِنَ الغافلين، وإمّا على الاسم الموصول في ﴿بِمَآ أَوۡحَيۡنَآ﴾، والمعنى: من قبل ما أوحينا إليك.

والنّتيجةُ واحدةٌ على كلِّ هذه الآراء الثّلاثة، وتُشير إلى: أنّ نزول القرآن كان أمرًا عظيمًا مهمًّا في حياة النّبيّ ﷺ وأمّته، فبه ثبتتْ نُبوّته وصدقه، وبه ارتقتْ وترتقي أمّته.

وتشير إلى أنّ التّعريض بالمشركين المعْرِضين عن هَدْيِ القرآنِ بعد نزوله؛ ليُخرجهم من ظلمات الغفلة إلى نور العلم[1].

عدمُ سماعِه ﷺ بقصّةِ يوسفَ أمرٌ مؤكَّدٌ يقررُ صِدْقَ ما جاء بِهِ منها

معنى اللّام في ﴿لَمِنَ﴾:

لامُ ﴿لَمِنَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتَ مِن قَبۡلِهِۦ لَمِنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ﴾ هي لامُ الفرق بين (إنْ) المخفّفة و(إنْ) النّافية، وقد أُدخلت اللّام في خبر كان؛ لأنّه جزء من الجملة الواقعة خبرًا عن (إنْ)، وغرضُ دخولها على خبر الجملة الاسميّة هو توكيد هذا الخبر، وهو هنا أنَّ النّبيّ ﷺ قبل نزول القرآن بقصّة يوسف عليه السلام لم يكن له شعور بهذه القصّة، ولا سبقَ له علمٌ فيها، ولا طرقَ سمعه طرفٌ منها، أيْ: تأكيد غيابِ هذا الأمر عن رسولِ الله ﷺ كلّيًّا.

دلالةُ (منْ) بيانٌ وتوكيدٌ لعدم علْم النّبيّ بقصّةِ يوسُفَ قبْلَ نزولِ القرآنِ

معنى (من) في قوله: ﴿لَمِنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ﴾:

حرفُ الجرّ (منْ) في قوله تعالى: ﴿لَمِنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ﴾ تحتمل ثلاثة معانٍ: الأوّل: بيانيّةٌ؛ أيْ: (من) لبيان ما أُبهم قبلها؛ أيْ: بيانُ حال النّبيّ ﷺ مع هذه الأخبار قبل نزول القرآن، بأنّه كان غافلًا عنها، والثّاني: توكيديّة؛ لإمكانيّة حذفها دون أنْ يُؤثّر ذلك في التّركيبة البنائيّة؛ أيْ: وإن كنتَ من قبل نزول القرآن غافلًا عن هذه القصّة، وهي تُفيد توكيد عدم علمه ﷺ بهذه القصّة

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/204.

قبل نزول القرآن، والثّالث: أن تكون تبعيضيّةً على معنى: من زُمْرة الغافلين.

معنى (أل) في ﴿ٱلْغَٰفِلِينَ﴾:

أل التّعريف في قوله تعالى: ﴿ٱلْغَٰفِلِينَ﴾ عهديّةٌ، معهودها ذهنيٌّ، والمقصود بالغافلين هم قومه ﷺ؛ لأنّهم كانوا أُمِّيّين لا يقرؤون ولا يكتبون، ولا عِلْمَ لهُم بقصّة يوسف وإخوته، قال تعالى: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا﴾ [هود: 49]، والمعنى: وإن كنتَ من قبل نزول السّورة أو القرآن في زمرة الغافلين عنه من قومك الأُمِّيّين الّذين لا يخطر في بالهم التّحديث بأخبار الأنبياء وأقوامهم[1].

عدمُ العلم بأخبارِ الأنبياء وأقوامهم كان حالَ العربِ الأُمّيّين

سببُ التَّعبيرِ بالجمعِ في لفظة ﴿ٱلْغَٰفِلِينَ﴾:

عبّر البيانُ القرآنيُّ بالجمع في لفظةِ ﴿ٱلْغَٰفِلِينَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾ دون أن يُوصف وحده بالغفلة؛ أيْ: لم يَقُل: (وإنْ كنتَ من قبله غافلًا)؛ للإشارة إلى تفضيله بالقرآن على كلِّ مَن لم ينتفع بالقرآن؛ فدخل في هذا الفضل أصحابه والمسلمون على تفاوت مراتبهم في العلم[2].

لنْ يُوصَف بالغفلة مَن آمن بالقرآنِ والتزمَ هُداه؛ وأوّلُهم رسولُ الله ﷺ

نُكتةُ التّعبير بـ ﴿ٱلْغَٰفِلِينَ﴾:

عبَّر البيانُ القرآنيُّ عن عدم العلم بالغفلة ﴿ٱلْغَٰفِلِينَ﴾، ولم يَقُل: (وإنْ كنتَ من قبله لَمن الجاهلين أو السّاهين أو النّاسين)؛ لأنّ الإنسان قد يجهلُ الأمر ويكون قد سمع به، أو قد يسمع بالأمر وينساه أو يسهو عنه، أو عن بعضه، أمّا أن يكون غافلًا عنه، فمعنى ذلك أنّه لم يخطر في باله مطلقًا؛ فالغفلة عن الأمر أشدّ تغييبًا له من الجهل به ونسيانه والسّهو عنه، وبذلك يكون التَّعبير بالغفلة أبلغَ

عدمُ معرفةِ النّبيِّ بدقائقِ قصّة يوسف وإخوته من دلائل نبوّته؛ إذ لا تُعلم إلّا بالوحي

(1) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 12/112.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 12/204.

في إجلال شأن النَّبيِّ ﷺ[1]، وأدلَّ على إثبات نُبوّته بتلقّي القصّة وحيًا من الله سبحانه؛ لأنّ المقصود من هذا الوصف انتفاءُ العلم لعدم توجّه الذّهن إلى المعلوم[2]، وهو تفاصيل هذا القصص ودقائق أخباره وأحداثه، شأنه في ذلك شأنَ قومه الأُمّيّين؛ أيْ: كنتَ من غير العارفين بقصّة يوسف وإخوته؛ لم تكن قرأتَها في كتاب، وأنت لا تقرأ ولا تكتب، ولا جلستَ إلى معلّمٍ قصَّها عليك، ثم تأتي السّورة بقصّة يوسف على ما جاءتْ عليه من التّفصيل والدّقة؛ لتدلَّ على أنّ هذا الكلام ليس من النّبيّ، وإنّما هو وحيٌ من الله ﴿بِمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ﴾.

وبالتّالي فعدمُ علمه ليس ذمًّا له، وإنّما هو عين المدح، إذ في ذلك دليلُ نُبوّته.

وفي التَّعبير بالغفلة كذلك إشارةٌ إلى أنّ هذا من دقائق العِلم وعميقه الّذي يغفُل عنه العلماء، إلّا مَن آتاه الله تعالى وحيًا من علّام الغيوب؛ لأنّه عِلمٌ بالنّفوس وخواطرها، وما تختلج به الأفئدة، وذلك لا يكون إلّا من عليم، وفيه عِلمٌ كاملٌ بالاقتصاد من غير تعليم أحدٍ من البَشر، فعِلْمُ يوسف بالاقتصاد الصّالح مع النّزاهة النّبويّة عِلمٌ من الله[3].

مناسبة الفاصلة ﴿لَمِنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ﴾:

جاءت الفاصلة ﴿لَمِنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ﴾ في قوله تعالى: ﴿نَحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ بِمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبۡلِهِۦ لَمِنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ﴾ بتمام مناسبتها لِما قبلها من السّياق؛ لتُظهر المعنى بكلّ وضوح؛ ذلك أنّ الله ﷻ امتنَّ على نبيّه أنْ أعْلَمَه قصصَ

عدمُ علم رسول الله وغفلتُه عن أخبارِ الأنبياء دليلٌ وتعليلٌ لكونها وحيًا من الله

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/251.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/205.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3797.

الأمم والأنبياء السّابقين، وما حدث بينهم وبين أقوامهم، وأنَّ هذه القصص تُعدُّ أحسنَ القصص؛ ففيها تسليةٌ وتثبيتٌ للنّبيّ ﷺ، ومن المعلوم أنَّ النّبيّ قبل أنْ يُعلِمه الله أخبارَ هؤلاء الأنبياء مع أقوامهم وقصصهم - عن طريق الوحي - كان غافلًا عن هذه القصص ولا يَعلمها؛ أيْ: لم تُخْطُر بباله، ولم تَقْرَع سمعه قطُّ، فبذلك ناسَبت فاصلةُ الآية ﴿ٱلْغَٰفِلِينَ﴾ سياقَ الآية[1] الّتي جاءت تعليلًا؛ لكون القصص مُوحًى بها من الله[2].

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الغفلة والنّسيان والسّهو:

الغفلة أعمُّ من النّسيان، فالغفلة تركُ الشّيء إهمالًا وإعراضًا، والسّهوُ نسيانٌ مع غفلة

تتقارب معاني هذه الألفاظ، وقد تختلط بعضها ببعض، ولكن عند إمعان النّظر في معانيها اللُّغويّة واستعمالاتها القرآنيّة تُلاحَظُ بعض الفروق الدّقيقة بينها من عدّة جهات، وهي كالآتي:

الغفلة: أصل (غَفَل) يدلُّ على ترك الشّيء سهوًا، وربَّما كان عن عمدٍ، ومنه غفلتُ عن الشّيء: إذا تركتَه ساهيًا، وأغفلْتُه: إذا تركتَه على ذُكْرٍ منك له[3]، والغَفْلة: فَقْدُ الشُّعورِ بما حَقُّه أنْ يُشعَرَ به، وهو أيضًا الذّهولُ عن الشّيء، وقيل: متابَعةُ النَّفْسِ على ما تشتهيه، وغَفَلَ الشّيءَ: سَتَره[4]، والغفلة: سهوٌ يعتري الإنسان من قلّة التّحفّظ والتّيقُّظ[5]، والغفلة: غيبةُ الشّيء عن بالِ الإنسان، وعدم تذكّره له، وقد استُعمل فيمَنْ تركه إهمالًا وإعراضًا[6].

والنّسيان: يدلُّ على إغفال الشّيء، والثّاني على ترك شيء[7]؛

(1) جودة، المناسبة في القرآن الكريم، ص: 31.
(2) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 13/311.
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (غفل).
(4) الزّبيديّ، تاج العروس: (غفل).
(5) الرّاغب، المفردات: (غفل).
(6) الفيوميّ، المصباح المنير: (غفل).
(7) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (نسي).

أيْ: مشتركٌ بين معنيَيْن أحدهما: ترك الشّيء عن ذهولٍ وغفلةٍ، وهذا خلاف الذِّكر له، والثّاني: التّرك على تعمّدٍ[1]، فالنّسيان: تَرْكُ الإنسانِ ضبطَ ما استُودِعَ؛ إمّا لضَعْفِ قلبِهِ، وإمّا عن غفْلةٍ، وإمّا عن قصْدٍ حتّى يَنْحَذِفَ عن القلبِ ذِكْرُهُ، وكلّ نسيانٍ من الإنسان ذمّهُ اللّه تعالى هو ما كان أصله عن تعمّدٍ[2].

والسّهو: أصل السّهو يدلُّ على الغفلة والسّكون، فالسّهو: الغفلةُ، سَها عن الشّيء: غفَل عنه[3]، والسّهو: خطأ عن غفلة[4]، والسّهو والسّهوة: نسيانُ الشّيء والغفلة عنه (يذهب من خلال الذّهن ولا يضبطه الذّهن أو يُمسكه؛ فتخلو منه أثناؤه)، وإنَّ في السّهو إهمالًا وتراخيًا في ضبط المسهوّ عنه، وإمساكه في القلب، ولهذا فالسّاهي مسؤولٌ، وذمُّ السّاهين في الآيتَيْن: ﴿ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي غَمۡرَةٖ سَاهُونَ ١١﴾ [الذّاريات: 11]، و﴿ٱلَّذِينَ هُمۡ عَن صَلَاتِهِمۡ سَاهُونَ ٥﴾ [الماعون: 5] يُحقّق هذه الملاحظة، فمعناه: لاهون غافلون، وسها في الشّيء: تركه عن غير عِلم، وسها عنه: تركه مع العِلم[5].

ومن أهمِّ الفروق بين هذه الألفاظ:

أولًا: الغفلةُ غير النّسيان؛ فالغفلة غَيْبةُ الشّيء عن بال الإنسان وعدمُ تذكّره، فهو تركُ الشّيء إهمالًا من غير نسيان[6]، فالغفلة أنْ تهمل مسألةً كان يجب ألّا تُهمل، وألّا تغيب عن بالك، فهو فقدُ الشّعور بما حقّه أن يُشعر به، أو تركُ الشّيء فيما حقّه أن لا يُترك، أمّا النّسيانُ فبعضُه خارجٌ عن إرادتك[7].

ثانيًا: الغفلة أعمُّ من النّسيان: فالغفلة عبارةٌ عن عدم التّفطّن للشّيء، وعدم حضور الشّيء في البال بالفعل، سواء بقيتْ صورتهُ أو معناه في الخيال أو الذِّكر، أو انمحت عن أحدهما، أمّا النّسيان فهو عبارةٌ عن عزوب الشّيء عن النّفس بعد حضوره لها مع انمحاء صورة الشّيء أو معناه عن الخيال، أو الذِّكر بالكليّة، ولذلك يحتاج النّاسي إلى تجشّم كسبٍ جديدٍ وكُلفةٍ في تحصيله ثانيًا[8].

(1) الفيومي، المصباح المنير: (نسو).
(2) الرّاغب، المفردات: (نسي).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سهو).
(4) الرّاغب، المفردات: (سهو).
(5) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (سهو).
(6) الفيومي، المصباح المنير: (غفل).
(7) الشّعراويّ، تفسير الشعراوي: 15/9476.
(8) العسكريّ، الفروق اللُّغويّة، ص: 388.

ثالثًا: الغفلة غير السّهو؛ فالغفلة تكون عمّا يكون، والسّهو يكون عمّا لا يكون، تقول: غفَلتُ عن هذا الشّيء حتّى كان، ولا تقول: سهوتُ عنه حتّى كان؛ لأنّك إذا سهوتَ عنه لم يكن، ويجوز أنْ تغفُل عنه ويكون، وفرقٌ آخر أنّ الغفلة تكون عن فعل الغير، تقول: كنتُ غافلًا عمّا كان من فلان، ولا يجوز أن يُسهى عن فعل الغير[1].

رابعًا: السّهو غير النّسيان: فالنّاسي إذا ذكرته تذكّر، والسّاهي بخلافه[2]، والسّهو غفلةٌ يسيرةٌ عمّا هو في القوّة الحافظة يتنبّه بأدنى تنبيه، والنّسيان زواله عنها بالكُليّة بحيث يحتاج إلى تحصيلٍ جديد، فالسّهو نسيانٌ مع غفلة[3].

(1) العسكريّ، الفروق اللُّغويّة، ص: 388.

(2) الفيومي، المصباح المنير: (سهو).

(3) الزّبيديّ، تاج العروس: (سهو).

﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَـٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَـٰجِدِينَ ۝٤﴾ [يوسف: 4]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

قصّةُ يوسفَ نموذجٌ بديعٌ لأحسنِ القصص

لَمّا خاطب اللّه تعالى نبيَّه محمَّدًا ﷺ بأنَّه سبحانه يقصُّ عليه أحسن القَصص الَّتي لم يكن يعلمها هو ولا قومه، ومدحَ ما اشتمل عليه هذا القرآن من القصص، وأنَّها أحسن القصص على الإطلاق، فلا يوجد من القصص في شيء من الكتب مثلُ هذا القرآن، ذكرَ قصّةَ يوسف وأبيه وإخوته، القصّةَ العجيبة الحسنة، فجاءت هذه الآية شروعًا في قصَّةٍ هي من أحسنِ القصص، فقال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَـٰٓأَبَتِ﴾[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَـٰٓأَبَتِ﴾: (أبو) الهمزة والباء والواو يدلُّ على التَّرْبِيَةِ والغَذْوِ، أبَوْتُ الشَّيءَ آبُوهُ أبْوًا: إذا غَذَوْتَهُ، وبذلك سُمِّيَ الأبُ أبًا[2]، والأب: الوالد، ويُسمّى كلُّ مَن كان سببًا في إيجاد شيءٍ أو صلاحه أو ظهوره أبًا، وزادوا في النّداء فيه تاءً، فقالوا: يا أبتِ، والتّاءُ ليستْ بأصلٍ، وإنَّما هي عِوضٌ عن ياءِ المُتكلِّم، والأصلُ: يا أبي[3]، والمُراد في الآية موافقٌ للمعنى اللّغويّ.

2) ﴿رَأَيْتُ﴾: الرّاء والهمزة والياء أصلٌ يدلُّ على نظرٍ وإبصارٍ بعينٍ أو بصيرة، والرَّأْيُ: ما يراه الإنسان في الأمر[4]، والرُّؤية

(1) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 10/15، والسّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 407، والزّحيليّ، التّفسير المنير: 12/205.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (أبو).
(3) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحُفّاظ: (أبو).
(4) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (رأى).

بالضّمِّ: إدراكُ المَرئيّ، وذلك أضرب؛ الأوّل: النّظر بالعين الّتي هي الحاسّة وما يجري مجراها، والثّاني: بالوهْم والتّخيّل، والثّالث: بالتّفكُّر، والرّابع: بالقلب؛ أيْ: بالعقل[1]، والرُّؤْية بالعين يتعدّى إلى مفعولٍ واحد، وبمعنى العِلم يتعدّى إلى مفعولَيْن، وإذا عُدِّي رأيت بـ (إلى) اقتضى معنى النّظر المُؤدّي إلى الاعتبار[2]، والرُّؤيا: ما رأيتَه في منامك، تقولُ: رأيتُ رؤيا حسنةً، ولا تجمع الرّؤيا[3]، وهذا المعنى الأخير هو المُراد في الآية؛ أيْ: رأيتُ في منامي[4].

3) ﴿كَوْكَبًا﴾: (كبّ) الكاف والباء أصلٌ صحيحٌ يدلُّ على جَمْعٍ وتَجَمُّعٍ[5]، والكَوْكَبُ: البياضُ في سوادِ العين، والكَوْكَبُ: شِدّة الحرّ ومعظمهُ، والكَوْكَبُ معروفٌ من كَواكِبِ السّماءِ، ويُشَبَّه به النَّور فيُسَمّى كَوْكَبًا، والكَوْكَبُ: النَّجم[6]، والكَوْكَبُ من الشَّيْءِ: مُعْظَمُه، ويُقالُ يَوْمٌ ذُو كَواكِبَ بالفتح: أي ذُو شَدائِدَ، كأنَّهُ أظْلَمَ بما فيه من الشَّدائِد، حَتَّى رُئِيَ كَواكِبُ السَّماءِ[7]، والكَواكِبُ: النّجوم البادية، ولا يُقال لها كواكب إلّا إذا بدتْ[8].

والمُراد بالكواكب في الآية: النّجوم وكواكب السّماء.

4) ﴿سَٰجِدِينَ﴾: السّين والجيم والدّال أصلٌ واحد يدلُّ على تَطامُنٍ وذُلٍّ، يُقال سجد: إذا تَطامَنَ، وكلّ ما ذَلَّ فقد سجد[9]، وسَجَدَ: خَضَعَ، ومنه سجود الصّلاة وهو وضْعُ الجَبْهةِ على الأرض، وسَجَدَ إذا انْحَنَى وتَطامَنَ إلى الأرض، والسُّجود، مواضِعُه من الجَسَدِ والأرْضِ[10]، وجُعل السُّجودُ عبارةً عن التّذلّل للّه وعبادته، وهو عامّ في الإنسان، والحيوانات، والجمادات؛ وذلك ضربان: سجود باختيار، وليس ذلك إلّا للإنسان، وبه يستحقّ الثّواب. وسجودُ تسخيرٍ، وهو للإنسان، وغيره[11].

---

(1) الرّاغب، المفردات: (رأى).
(2) ابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس: (رأي).
(3) الخليل، العين، وابن منظور، لسان العرب: (رأي).
(4) ابن جرير، جامع البيان: 15/554.
(5) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (كب).
(6) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة، وابن منظور، لسان العرب: (كوكب).
(7) الزّبيديّ، تاج العروس: (ككب).
(8) الرّاغب، المفردات: (ككب).
(9) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (سجد).
(10) ابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس: (سجد).
(11) الرّاغب، المفردات: (سجد).

والمُراد بسجود الكواكب في الآية: سجود انحناء وخضوع[1]، وهو بمعنى وضع الجبهة على الأرض؛ إذ لا مانع من حملها على الحقيقة، لكنّها كانت على وجه التّواضع والدّخول تحت أمره[2]، وهو سجود كرامةٍ، كما سجدت الملائكة لآدم[3].

المَعْنى الإجْماليُّ:

رُؤْيا صادِقَةٌ ومثيرةٌ توحي بشأنٍ عظيمٍ وسيادةٍ ليوسف عليه السلام

نحن نقصّ عليك - أيُّها الرّسول - أحسنَ القصص قصَّةَ يوسف حين قال لأبيه يعقوبَ بأنَّه رأى في منامه أحدَ عشَر كوكبًا ومعهم الشّمسَ والقمر يسجدون سجود انحناءٍ وخضوع وتواضع، كما يسجد العقلاء، بما يوحي بالشّأنِ العظيم والسّيادة ليوسف[4]. وهذا شروعٌ في بيانِ أحسنِ القصص، وبدايةٌ مثيرةٌ مُجملَة في فصولِ قصّة يوسف، تجتذبُ ذِهْن القارئ والسّامع؛ ليعرف ما هو المصير، وكيف يتمّ حلّ اللّغزِ المُبهم المبدوءِ بقصّ يوسفَ رؤياهُ الغريبةَ على أبيه، وهو طفلٌ صغير[5].

وتُرشدُ الآيةُ الكريمة إلى أنَّ اللّه إذا أراد أمرًا من الأمور العِظام قدَّم بين يديه مقدِّمةً، توطئةً له، وتسهيلًا لأمره، واستعدادًا لما يَرِد على العبد من المشاقِّ؛ لطفًا بعبده، وإحسانًا إليه، فأوَّلَ يعقوبُ عليه السلام هذه الرّؤيا بأنّ الشّمس: أمَّه، والقمر: أبوه، والكواكبَ: إخوته، وأنه ستنتقلُ به الأحوالُ إلى أن يصير إلى حالٍ يخضعون له، ويسجدون له إكرامًا وإعظامًا، وأنَّ ذلك لا يكون إلّا بأسباب تتقدّمه من اجتباء اللّه له، واصطفائه له، وإتمام نعمته عليه بالعلم والعمل، والتّمكين في الأرض، وأنَّ هذه النِّعمة ستشملُ آلَ يعقوبَ، الّذين سجدوا

(1) حجازيّ، التّفسير الواضح: 2/160.
(2) الخازن، لباب التّأويل: 2/511، والنّيسابوريّ، غرائب القرآن: 4/66.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/238.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/202، وحجازيّ، التّفسير الواضح: 2/160.
(5) الزّحيليّ، التّفسير المنير: 2/160.

له وصاروا تبعًا له فيها، وأنَّ الرؤيا قد يتأخَّر تأويلها فلا يظهر مصداقُها إلّا بعد السّنين العديدة، إذ وقع تفسيرُ هذه الرّؤيا بعد أربعين سنة، وذلك حين رفعَ يوسفُ أبويه على سرير مُلكه - الّذي كان يجلسُ عليه لمباشرة شؤون الدّولة - وإخوتَه بين يديه: ﴿وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدٗاۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَٰيَ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّٗاۖ﴾ [يوسف: 100][1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

نكتةُ فصل الآية عن سابقتها:

قصّةُ يوسُفَ هي أحسَنُ القَصَصِ والأخبارِ

فصَل البيانُ القرآنيُّ هذه الآيةَ ﴿إِذۡ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ﴾ عن الَّتي قبلها، ولم يأتِ بالعاطف؛ لِما بين الجملتيْن من كمالِ اتّصال؛ أي: اتِّحاد تامّ في المعنى؛ لأنَّ هذه الآية بدلُ اشتمالٍ، أو بعض من كلٍّ من ﴿أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ﴾ على أنْ يكون ﴿أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ﴾ بمعنى المفعول، فإنَّ أحسنَ القصص يشتملُ على قصصٍ كثيرة، منه قصص قول يوسف عليه السلام لأبيه: ﴿إِنِّي رَأَيۡتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوۡكَبٗا﴾ وما عقب قوله ذلك من الحوادث[2]، والتّقدير: أيْ: نقصُّ عليك خبر إذ؛ أيْ: خبرَ يوسفَ إذْ ﴿قَالَ يُوسُفُ﴾[3].

فائدةُ ابتداء قصَّة يوسفَ بذكرِ الرؤيا:

رُؤيا يُوسُفَ كانَتْ المُبتَدَأ والمُخْتَتَمَ

تظهرُ براعة الاستهلال بأجمل صورها في ابتداء القصَّة بذِكْر الرّؤيا الصّادقة الصّالحة الّتي رآها سيِّدنا يوسف عليه السلام، وهي بداية مُشوِّقةٌ ليشير الحقُّ سبحانه إلى أنَّه قد هيَّأ نفس يوسف للنُّبوّة والرِّسالة، فابتدأه بالرُّؤيا الصّالحة الَّتي هي من مبشِّرات النُّبوة، كما جاء في حديث السَّيدة عائشة رضي الله عنها: «كان أوَّلُ ما بُدِئَ بِهِ رَسُولُ

(1) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 407، والنّاصريّ، التّيسير: 167/3.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 12/205.
(3) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 10/15.

اللّه ﷺ الرُّؤْيا الصّادِقَةُ في النَّوْم، فَكانَ لا يَرَى رُؤْيا إلّا جاءَتْ مثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ»[1]، فذَكر هذه الرّؤيا في صدر القصَّة كالمقدِّمة والتَّمهيد للقصَّة المقصودة، وكذلك فيها تنبيهٌ ليوسف عليه السلام بعلوِّ شأنه ورفعة مكانته، ولتكون الرُّؤيا الذّكرى الطّيِّبة الَّتي يتذكّرها كلَّما حلَّت به شدَّةٌ أو همٌّ أو غمٌّ فتطمئنّ بها نفسه، وتقرُّ عينه، ويُوقن أنَّ عاقبته سعيدة ونهايته مُبشِّرة[2]. وممّا يلفت الانتباه في افتتاح القصَّة بالرُّؤيا أنَّ تعبيرَ الرُّؤى شيءٌ ورِثُوه من صفاءِ نفوس أسلافهم؛ سيِّدِنا إبراهيم، وسيِّدِنا إسحاق عليهما السلام، فقد كانوا آل بيت نبوَّةٍ وصفاءِ سريرة[3].

معنى ﴿إِذْ﴾ وإعرابها في الآية:

تَعَدُّدُ أوجُهِ إعرابِ (إذْ) يَزِيدُ المَعْنَى ثَراءً

للمفسِّرين في معنى ﴿إِذْ﴾ في قوله: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ﴾ والعامل فيها أقوال:

الأوَّل: العامل فعل محذوف تقديره: اذْكُرْ، والمعنى: اذْكُرْ يا مُحمَّد إذ قال يوسف لأبيه[4].

الثّاني: ﴿إِذْ﴾ جاءت بدلًا من أحسن القصص، وهو بدل اشتمال؛ لأنَّ الوقتَ يشتمل على القصص، وهو المقصوص، فإذا قصَّ وقته فقد قصَّ[5]، وجعلها القُونويّ بدلَ اشتمالٍ من قصص المحذوفة، والتَّقدير: نحن نقصُّ قصصًا أحسنَ القصصِ إذ قال..[6].

الثّالث: العامل في ﴿إِذْ﴾ فعلُ ﴿نَقُصُّ﴾، ويكون المعنى: نقصُّ عليك الحال[7]، "وفي هذا إخراج لـ ﴿إِذْ﴾ عن المُضيِّ"[8].

---

(1) صحيح البخاريّ: كتاب: التّفسير، باب تفسير سورة: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١﴾، رقم الحديث: (4670)، ومُسلم، صحيح مُسلم برقم: (160).

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 12/208.

(3) الشّوابكة، غُرَر البيان، ص: 24.

(4) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/441، والشّوكانيّ، فتح القدير: 3/7.

(5) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/441.

(6) القُونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 10/247.

(7) ابن عطيّة، المُحرّر الوجيز: 3/219.

(8) درويش، إعراب القرآن: 4/450.

الرّابع: العامل فيه كلمة ﴿ٱلۡغَٰفِلِينَ﴾، حكاه ابن عطيّة عن مكّيّ، وقال: وهذا ضعيف[1]، وهو ليس بضعيف، إذْ فسّر به الطّبريّ حيث قال: "وإن كنتَ يا مُحمّد، لَمن الغافلين عن نبأ يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم إذْ قال - أيْ: حين قال - لأبيه يعقوب يا أبت"[2].

الخامس: العامل فيه ﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ﴾، كما تقول: إذْ قام زيدٌ قام عمرو، وتبقى ﴿إِذۡ﴾ على وضعها الأصليِّ من كونها ظرفًا لما مضى[3]، والتَّقدير: قال يا بنيَّ لا تقصص.. حين قال يوسف لأبيه يا أبتِ إنِّي رأيت... وهذا الّذي رجّحه أبو حيّان.

السّادس: ويرى ابنُ عاشور أنَّ العامل يختلف على حسب التَّقدير؛ فقال: بدل اشتمال أو بَعْض من ﴿أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ﴾ على أن يكون ﴿أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ﴾ بمعنى المفعول؛ أيْ: أحسن المقصوص، فإذا حُمل ﴿أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ﴾ على المصدر؛ أيْ: أحسن الاقتصاص، فالأحسن أنْ يكون ﴿إِذۡ﴾ منصوبًا بفعلٍ محذوف يدلّ عليه المقام، والتّقدير: اذْكر[4].

معنى اللّام في ﴿لِأَبِيهِ﴾:

تعني اللّام في قوله تعالى: ﴿إِذۡ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ﴾ الاختصاص، وهذا هو أصل الوضع لها[5]، والمعنى: أنَّ الرُّؤيا لم يقصّها إلّا على أبيه؛ أيْ: خصّه بها؛ لِما عنده من الرَّحمة والعطف عليه، ولِما يكون من الأب النَّبيِّ من معرفة الرُّؤيا وتفسيرها، ونصحه في كتمانها، إذْ كان في كتمانها خير للولد.

اختصاصُ يُوسُفَ والِدَهُ بِالرُّؤيا دلالَةٌ على أنّ لَها شَأنًا عَظِيمًا

(1) ابن عطيّة، المُحرّر الوجيز: 3/219.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 15/554.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/236.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 12/205.
(5) سيبويْه، الكتاب: 4/217، وابن يعيش، شرح المُفصّل: 4/479.

نكتةُ النّداء في ﴿يَٰٓأَبَتِ﴾:

يُوسُفُ مع أبيهِ، أدَبٌ وبِرٌّ مع فِطنَةٍ وذَكاءٍ

الأصل أنَّ أداة النَّداء (يا) تكون مع المنادَى البعيد مكانًا، لكن تُستَخْدمُ للقريب إذا كان المقصود الدَّلالةَ على علوِّ مكانة المُنادَى ورفعة منزلته، وهذا ما فعله سيِّدنا يوسف مع أبيه، إذ كان من أدبه أن أشار بهذا النّداءِ إلى علوّ مكانةِ أبيه ورفعة منزلته، وإلى أنّ الكلام الآتي ممّا له وقعٌ عظيمٌ، فينبغي أنْ يهتمّ بسماعه والجواب عنه[1]، فخاطبَ الحاضرَ كما يخاطِب الغائبَ المطلوبَ حضورُه لمزيدٍ من الاهتمام بالخبر الَّذي سيُلقى إلى المخاطَب؛ فاستعار خطاب الغائب والبعيد للحاضر[2].

علّة ذِكْر اسم الابن دون الأب في الآية:

يُوسُفُ محورُ القصَّةِ وحوله تَدورُ الأحداثُ كُلُّها

في قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ﴾ ذُكِر اسمُ يوسف دون اسم الأب في هذه الآية الَّتي هي افتتاحٌ للقصِّة كاملةً؛ لأنَّ يوسف هو موضوع القصِّة من أوَّلها إلى آخرها، ومحورُها الأساسُ الَّذي يتمحور حوله كلُّ القصِّة، وباقي الأسماء المذكورة يدور الحديث عنها بمقدار ارتباطهم وقُرْبهم من يوسف عليه السلام.

وكذلك ممكن أنْ نأخذ من سبب نزول السُّورة ما يُبيِّن الحكمة من ذكر اسم سيِّدنا يوسف صريحًا؛ فقد رُوي أنَّ اليهود طلبوا إلى المشركين أنْ يسألوا رسول الله ﷺ عن قصَّة يوسف؛ فنزلت السُّورة[3]، إذن "فالموضوع الأكبر هو قصّة يوسف، وقد تمَّ سردُها بدقّة وإحكام"[4].

فائدةُ التّوكيد في قوله تعالى: ﴿إِنِّي رَأَيْتُ﴾:

رُؤيا الأنبياءِ حَقٌّ، وحالةٌ شريفةٌ ومنزلةٌ رفيعةٌ

استعمل النَّصُّ القرآنيُّ هنا عدّةً من المؤكِّدات، وهي الحرف المشبَّه

(1) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 10/15.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 12/207.
(3) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 9/118، وابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 11/7.
(4) المأتريديّ، تأويلات أهل السُّنّة: 1/234.

بالفعل (إنَّ)، والجملة الاسميَّة، وتقديم المُسنَد إليه ﴿إِنِّي﴾ على المُسند الفعل ﴿رَأَيْتُ﴾، وهذا يستدعي تَكرار الإسناد، فيُعطي مزيدًا من التَّأكيد.

والغرضُ من ذلك أنْ يشير إلى أنَّ الَّذي سيقوله أمرٌ مؤكَّد، وأنَّها ليست كرؤى الصِّبيان والغِلمان يتخيّلون أمورًا وقصصًا لم تقع، وكان المنام عظيمًا خطيرًا، فاقتضى المقامُ التَّأكيد فقال: ﴿إِنِّي رَأَيْتُ﴾؛ أيْ: في منامي، فهو من الرُّؤيا الَّتي هي رؤيةٌ في المنام[1]، فرأى يوسفُ الكواكبَ والشَّمس والقمر ساجدةً له، متمثِّلةً في صورة العقلاء الَّذين ينحنون بالسُّجود تعظيمًا.

معنى الواو في قوله: ﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾:

اتَّجه علماءُ التَّفسير في معنى الواو في قوله تعالى: ﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾ اتِّجاهيْن اثنيْن:

في العطفِ بَيانٌ لسُجودِ الإخوةِ والأبويْنِ، وفي المعيَّةِ رَفعٌ للأبويْن عَن ذلك

الاتّجاه الأوَّل: أنَّها حرفُ عطفٍ، وعليه فالشَّمسُ والقمرُ سَجَدا مع الكواكب، وهذا يعني أنَّ أباه وأمَّه كانا مع إخوته من جملة السّاجدين له عليه السلام، على احتماليْن اثنيْن:

أوَّلًا: من باب ذِكْر الخاصِّ بعد العامِّ تفصيلًا؛ تكريمًا لهم، فالشَّمسُ والقمر يدخلان في قوله ﴿أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا﴾؛ لأنَّهما من الكواكب، ونظيرُه ما جاء في ذِكْر: ﴿وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ﴾ [البقرة: 98] وهما من الملائكة بعد قوله: ﴿وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ﴾ [البقرة: 98] في قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ﴾ [البقرة: 98]، وبالتّالي يكون عددُ السّاجدين أحدَ عشرَ كوكبًا.

ثانيًا: أنَّ الأصل في الواو أن تعطف المتغايريْن؛ فيكون ما بعدها غير ما قبلها، ويصبح المعنى أنَّه رأى الشَّمس والقمر زيادةً على الأحدَ عشرَ، فيكون عددُ إخوته أحدَ عشرَ أخًا[2].

(1) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 10/15.

(2) السّمين الحلبيّ، الدُّرُّ المصون: 6/436، وابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 11/12.

الاتّجاه الثّاني: أنَّها واو المعيَّة، وعليه فإنَّ أباه وأمَّه لم يكونا من السّاجدين، بل كانا مصاحبيْن وحاضريْن وقت سجود الأحد عشر كوكبًا[1]، ويمكن أن يُستدلَّ لهذا أنَّ مقام الأبوَّة والأمومة أرفعُ من أن يُناط به السُّجود للابن؛ لأنَّ الشّرائع السماويّة جميعها ترفع من شأن الأب، إلّا أنَّ ابن عطيّة عدّه مرجوحًا؛ لأنه متى أمكن العطفُ من غير ضعفٍ ولا إخلالِ معنًى رَجَح على المعيَّة[2].

معنى (أل) في: ﴿وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ﴾:

في التّعريفِ تأكيدُ أنَّ المُشاهَدَ هو الشَّمسُ والقمرُ لا أشعّتَهما

(أل) التَّعريف في قوله تعالى: ﴿وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ﴾ للجنس، وفي الأصل أنَّ الشَّمس معروفةٌ والقمرَ معروفٌ، ولا يوجد من جنسهما غيرهما، وبالتّالي سواء جاءا معرّفَيْن أو غيرَ معرّفَيْن فلا ينصرف المُرادُ إلّا لهما، لكنْ لمّا أراد سيِّدنا يوسف عليه السلام أنْ يؤكِّد لأبيه يعقوب عليه السلام أنّ الَّذي رآه هو حقيقةُ جِرم الشَّمس لا غيرها، وحقيقةُ جِرم القمر لا غيره، وحتّى لا يظنَّ أنَّه رأى أشعَّة الشَّمس وأشعة القمر؛ لأنَّ العرب يمكن أنْ تُطلِق مجازًا على الأشعة اسمَ الشَّمس أو اسم القمر، فجاء النَّص القرآنيُّ بالتَّعريف تأكيدًا وقطعًا لأيِّ احتمالِ تأويلٍ أو مجاز، فالمقام يحتاج إلى هذا التَّعريف[3].

الموقع البيانيّ لـ﴿رَأَيۡتُهُمۡ﴾:

تكرار (رَأَيْتُهُمْ) بَيْنَ التَّوكِيدِ اللَّفظيّ والاِستِئْنافِ البَيانِيّ

تكرَّر الكلام عن الرُّؤية في الآية مرَّتين، فقال عليه السلام: ﴿إِنِّي رَأَيۡتُ﴾ ثم قال بعد ذلك: ﴿رَأَيۡتُهُمۡ﴾، وهذا فيه ملحظٌ بيانيٌّ مهمٌّ، والجواب يكون من خلال ما يأتي:

الأوَّل: أنَّ قوله: ﴿رَأَيۡتُهُمۡ﴾ فعلٌ وفاعلٌ ومفعولٌ، والجملة مؤكِّدة للجملة الأولى توكيدًا لفظيًّا، وأنَّه أُعيد التّوكيد لمّا طال فصلُ

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/443.
(2) السّمين الحلبيّ، الدُّرُّ المصون: 6/436.
(3) الهمذانيّ، الكتاب الفريد: 2/624، وابن تيمية، دقائق التّفسير: 2/116.

الكلام بالمفاعيل بين الفعل والحال[1]، وعادةُ العرب أنَّها تُعيد الكلامَ إذا طال وخشي تناسي الأوَّل، فتعيد ثانيًا تطريةً له واعتناءً به، وتجديدًا لعهده وتأكيدًا له[2]، وليتّصل أوّل الكلام بآخره اتّصالًا حسنًا، ولتقرير المعنى في النّفس؛ لأنَّ الَّذي رآه سيِّدنا يوسف عليه السلام أمرٌ مُستغرَب، ويريد أنْ يوضّح لأبيه المقصد من الكلام، وهو الرُّؤيا الحقيقيَّة في نومه، وليست توهُّماتٍ أو أضغاثَ أحلامٍ[3]، وأنَّه رآهم، ورأى سجودهم له.

الثّاني: أنَّه ليس بتوكيدٍ لفظيٍّ، بل هو كلامٌ مستأنَف على تقدير سؤالٍ وقَعَ جوابًا له، كأنَّ يعقوب عليه السلام قال له عند قوله: ﴿إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾ كيف رأيتَها؟ سائلًا عن حال رؤيتها؛ فقال: ﴿رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ﴾[4]، قال السَّمين الحلبيّ: "وهذا أظهرُ؛ لأنَّه متى دار الكلامُ بين الحَمْل على التّأكيد أو التَّأسيس فَحَمْلُه على الثّاني أوْلَى"[5]، والقاعدة المُتّبعة عند أهل البلاغة والأصول والفقه أنَّ التَّأسيس مُقدَّم على التَّأكيد.

وجهُ عود ضمير الجمع في ﴿رَأَيْتُهُمْ﴾:

عود ضمير الجمع (هم) في ﴿رَأَيْتُهُمْ﴾ في قوله تعالى: ﴿رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ﴾ يتوقّف على تفسير الواو في قوله سبحانه: ﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾؛ فإنْ فسَّرنا الواو بأنَّها حرفُ عطفٍ؛ فإنَّ الضَّمير يعود على الكواكب والشَّمس والقمر، ويكون المعنى: ورأيتُهم؛ أيْ: الكواكبَ والشّمسَ والقمرَ لي

السّاجدون هم الكواكبُ والشّمس والقمر، أو الكواكب فقط

(1) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 13/7، ومثله ما جاء في قوله تعالى: ﴿أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [المؤمنون: 35]، وفي قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٩﴾﴾ [النّحل: 119].

(2) المجاشعي، النكت في القرآن الكريم، ص: 264، والزّركشيّ، البرهان: 3/14.

(3) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 13/7.

(4) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/444.

(5) السّمين الحلبيّ، الدُّرُّ المصون: 6/437.

ساجدين، وهذا على القول بأنّ جملة ﴿رَأَيْتُهُمْ﴾ توكيدٌ لفظيٌّ لجملة ﴿رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾.

وإنْ فسَّرنا الواو بأنَّها للمعيَّة، فيكون الضَّمير (هم) عائدًا على الكواكب فقط لا على الشّمسِ والقمرِ، والمعنى: ورأيتُ أحد عشر كوكبًا لي ساجدين، وهذا على القول بأنّ جملة ﴿رَأَيْتُهُمْ﴾ استئنافٌ بيانيّ على تقدير سؤالٍ وقع جوابًا له، كأنّ يعقوب عليه السلام قال ليوسف عند قوله: ﴿إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا﴾: كيف رأيتها؟ سائلًا عن حال رؤيتها، فقال: ﴿رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ﴾[1].

نكتةُ ضمير الجمع في الآية الكريمة:

استعمل النَّصُّ القرآنيُّ ضميرَ (هم) وكلمة ﴿سَٰجِدِينَ﴾ وهما للجمع المُذكّر السّالم، والأصل أنّه لا يُجمع جمع المذكر السّالم إلّا إذا كان المفردُ عاقلًا، فلم يَقُل: (رأيتُها لي ساجدةً أو ساجداتٍ)، كما في قوله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً﴾ [النّمل: 88]؛ لأمور؛ هي:

الأوّل: أنَّه لمّا كانت الحالة المرئيَّة من الكواكب والشَّمس والقمر وهي حالة السُّجود، وهذه لا تكون إلّا من العقلاء؛ فأنزلها منزلةَ العقلاء، فأطلق عليها ضمير (هُم) وصيغة جمعهم[2].

الثّاني: لأنّ هذه الكواكب لمّا استجابت لأمر اللّه، فهي إذن تعقل أمر الحقِّ، كما حكى اللّه عن السّماء في سورة الانشقاق عندما قال اللّه تعالى: ﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ۝٢﴾ [الانشقاق: 2][3].

الثّالث: للإشارة إلى أنَّ السّجود كان حقيقيًّا بمعنى: وضع الجبهة على الأرض؛ أيْ: سجود انحناءٍ وخضوعٍ[4]، لا مجازًا على الخضوع فقط.

سُجودُ الكَواكِبِ والشَّمسِ والقَمَرِ كان سُجودًا حقيقيًّا بانحناءٍ وخضوعٍ

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/444.
(2) السّيرافيّ، شرح كتاب سيبويْه: 1/154، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/208.
(3) الشّعراويّ، تفسير الشعراوي: 11/6846.
(4) حجازيّ، التّفسير الواضح: 2/160.

الرّابع: لأنّ كون ذلك للعقلاء غالبًا لا مُطَّرِدًا، كما قال تعالى عن الأصنام: ﴿وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٩٨﴾﴾ [الأعراف: 198][1].

الخامس: لكون الرُّؤيا رمزًا لسجودٍ سيكون من إخوته العقلاء.

عِلَّةُ ذِكْرِ الشَّمسِ والقمرِ:

الأُمُّ والأبُ للولَدِ كالشَّمسِ والقَمرِ للكوْن

ذَكَرَ النّصُ القرآنيُّ الشّمس والقمرِ وميّزهما عن بقيّة الكواكب، وأشار بهما إلى الأمِّ والأب؛ للدّلالةِ على مكانةِ الأمّ والأب، ووجوب الاهتمام بهما، وتقديمهما بالبرِّ والفضل والإحسان.

وإذا كان المُرادُ بالشّمسِ الأمّ، وبالقمرِ الأب؛ فلأنَّ الشَّمس مؤنّث، والقمر مُذكَّر، ولأنَّ الشَّمس تمدُّ الأرض بالدّفء والحرارة، كما أنَّ الأمَّ تمدُّ ولدها بالدِّفء والحنان، وأمّا إذا كان المُراد بالشَّمس الأب، وبالقمر الأم؛ فلأنّ الشَّمس مركز النِّظام الشَّمسيّ، وتمدُّ القمر بالنُّور، كذلك يعقوب هو مركز الأسرة الّذي يمدّها، وتعتمد عليه.

معنى اللّام في قولِه ﴿لِي﴾:

سجودُ المخلوقات الشَّريفة ليوسُفَ كنايةً عن عظمةِ شأنه

للعلماءِ في معنى اللّام في قوله تعالى: ﴿رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ﴾ رأيان:

الأوَّل: أنَّها للاختصاص[2]؛ فالسُّجودُ وقع خاصًّا بسيِّدنا يوسفَ، وإكرامًا ورفعَةً له عليه السلام.

الثّاني: أنَّها بمعنى: من أجل، مثل: ﴿وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدًاۖ﴾ [يوسف: 100]؛ أيْ: خرُّوا من أجله سجَّدًا؛ شكرًا للّه الّذي أنعم عليهم بيوسف عليه السلام، وجمع شملهم وغفر ذنبهم، وهذا كقولك: فعلْتُ ذلك لِعُيون النّاس، أيْ: من أجْلِ عُيونهم، وأكْرمتُ فلانًا لَك، أيْ: من أجلِك[3].

نكتةُ تقديم ﴿لِي﴾ في قوله: ﴿لِي سَٰجِدِينَ﴾:

اهْتِمامٌ وعِنايَةٌ بيوسفَ عليه السلام وتَشْويقٌ بما أمر الله لأجله

أفاد تقديم البيان القرآنيّ لشبه الجملة ﴿لِي﴾ الاهتمام والعناية

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 12/208.
(2) سيبويْه، الكتاب: 4/217، وابن الخبّاز، توجيه اللُّمع، ص: 233.
(3) الواحديّ، البسيط: 12/251، والأزهريّ، تهذيب اللُّغة: 10/302، وابن منظور، لسان العرب: 3/204.

بالمُقدَّم ورفعة شأنه، وبما هو أهمُّ؛ لأنّه رأى الكواكب على حالةٍ من التَّعظيم له، فاقتضى أن يُقدِّم نفسه أولًا[1]، والتَّشويق للمُؤخَّر، وكأنّ النَّفس لمّا تسمع ﴿رَأَيْتُهُمْ لِي﴾ تتشوَّق لمعرفةِ حال هذا المرئيِّ.

وأيضًا أفاد مراعاة الفاصلة القرآنيَّة[2]، بما يُحقّق إحكام اللَّفظ؛ أيْ: التّطريب، وراحة النّفس بنغمها الموافق لفواصل السّورة مثل: ﴿ٱلْغَٰفِلِينَ ۝٣﴾ [يوسف: 3]، ﴿مُّبِينٌ ۝٥﴾ [يوسف: 5]، ﴿حَكِيمٌ ۝٦﴾ [يوسف: 6]، ﴿لِّلسَّآئِلِينَ ۝٧﴾ [يوسف: 7].

الموقع الإعرابيّ لـ ﴿سَٰجِدِينَ﴾ في الآية:

اتَّجه المفسِّرون في إعراب كلمةِ ﴿سَٰجِدِينَ﴾ اتّجاهيْن:

الأوَّل: أنَّها حالٌ من الهاء والميم في ﴿رَأَيْتُهُمْ﴾، بمعنى: رأى الكواكب والشَّمس والقمر حالة كونهم ساجدين له[3]، والرُّؤيا هنا رؤيةٌ بصريّةٌ، وليست قلبيّة[4].

رؤيةُ يوسُفَ سجودَ الْكَواكِبِ والشَّمسِ والْقَمَرِ رؤيةٌ حقٌّ

الثّاني: أنَّها مفعول به ثانٍ لفعل (رأيتُ)، باعتبار أنَّها تأخذ مفعوليْن، وأنَّ هذه الرّؤيةَ قلبيَّةٌ؛ لأنَّها في المنام[5]، ويكون مفعول الأوَّل محذوفًا[6].

وقد ردَّ المُنتجَب الهمذانيّ هذا الإعراب، وقال: لا يصحُّ أنْ يُعرب مفعولًا به ثانيًا؛ لأنَّ ﴿رَأَيْتُ﴾ وإن كان من الرّؤيا، فهي من رؤية العين من جهة المعنى دون رؤية القلب[7].

نكتة تأخير الشَّمس والقمر:

جاء في النَّصِّ القرآنيِّ ذِكْرُ الشَّمس والقمر بعد الكواكب، مع أنَّ

تَأخيرُ الشَّمْسِ والقَمَرِ عَن الكَواكِبِ ارْتِقاءٌ من الأدنَى إلَى الأعلَى

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 12/208.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/252.
(3) مكّيّ، مُشكِل إعراب القرآن: 1/378.
(4) صافي، الجدول في إعراب القرآن: 6/379.
(5) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 13/347، والدّعّاس، إعراب القرآن: 2/78.
(6) الدّرّة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 4/542.
(7) الهمذانيّ، الكتاب الفريد: 3/546.

الشَّمس والقمر أكبرُ الكواكب؛ عطفًا للخاصّ على العامِّ[1]، وتَرقِّيًا من الأدنى إلى الأعلى لفضلهما، واستبدادهما بالمزيّة على غيرهما من الطّوالع، وأمّا بالنِّسبة للشَّمس والقمر فلم يقع التّرقّي؛ لأنَّ عادة القرآن إذا اجتمعا قُدِّمت الشَّمس على القمر[2]، فهي أعظم جِرمًا، وأغرب سيرًا، وأعلى مكانًا، وأكثر نفعًا من القمر، والقمر يستمدّ نوره منها[3].

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الكوكب والنّجم:

لم يفرّق اللّغويّون بين الكوكب والنّجم، فقد عرّفوا الكوكب بالنّجم، وعرّفوا النّجم بأنّه كوكب[4]، "أي: كلٌّ منهما يُطْلَقُ على الآخَرِ"[5]، ويَظهر هذا من خلال المعنى اللّغويّ لكلٍّ منهما:

النّجم أعمُّ من الكوكب، فالنّجم هو الكوكب الطّالع الظّاهر

الكَوْكَبُ: أصلُ (كب) يدلُّ على جَمْعٍ وتَجَمُّعٍ[6]، والكَوْكَبُ: شِدّة الحرّ ومعظمهُ، والكَوْكَبُ معروفٌ من كَواكِبِ السّماءِ، ويُشَبَّه به النَّور فيُسَمَّى كَوْكَبًا، والكَوْكَبُ: النَّجم[7]، والكَوْكَبُ من الشَّيْءِ: مُعْظَمُه، ويُقالُ يَوْمٌ ذُو كَواكِبَ بالفتح: أي ذُو شَدائِدَ، كأنَّهُ أظْلَمَ بما فيه من الشَّدائِد، حَتَّى رُئِيَ كَواكِبُ السَّماءِ[8]، والكَواكِبُ: النّجوم البادية، ولا يُقال لها كواكب إلّا إذا بدتْ[9].

النَّجْمُ: النّون والجيم والميم أصلٌ صحيحٌ يدلُّ على طُلُوعٍ وظُهُورٍ[10]، نَجَمَ الشّيء يَنْجُمُ: طلع وظهر، والنَّجْمُ: اسمٌ لِكُلِّ واحِدٍ

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 18/419، وأبو حيّان، البحر المحيط: 6/237.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/238.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 6/371.
(4) الخليل، العين، وابن منظور، لسان العرب: (كوكب)، (نجم).
(5) الزّبيديّ، تاج العروس: (ككب).
(6) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (كب).
(7) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة، وابن منظور، لسان العرب: (كوكب).
(8) الزّبيديّ، تاج العروس: (ككب).
(9) الرّاغب، المفردات: (ككب).
(10) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (نجم).

من كَواكِبِ السَّماءِ، وهو بالثّريّا أخصُّ[1]، وكلُّ منزلٍ من منازلِ القمر سُمِّي نجمًا، وكلُّ كوكبٍ من أعلام الكواكب يُسمَّى نجمًا، والنُّجومُ تجمعُ الكواكب كلَّها[2]، والنَّجْمُ: الكَوْكَب الطّالع، والنَّجم أيضًا ما لا ساقَ له من النّبات (ما نَجَمَ على غير ساقٍ)، والنَّجْمُ أيضًا: الثُّرَيّا، والنَّجْمُ: الوقتُ المَضْرُوب، والأَصْلُ، وكلّ وظِيفَةٍ من شيء[3].

وعلى الرّغم من هذا التّرادف بين الكوكب والنّجم وجواز إطلاق أحدهما على الآخر عند علماء اللُّغة، إلّا أنّه عند إمعان النّظر في معانيهما واستعمال القرآن لهما؛ فإننا نلاحظ بعض الفروق الدّقيقة بينهما، وذلك على النّحو الآتي:

أولًا: النّجم أعمُّ من الكوكب؛ فالنُّجومُ تجمعُ الكواكبَ كلَّها، والنَّجْمُ: اسمٌ لِكُلِّ واحِدٍ من كَواكِبِ السَّماءِ.

ثانيًا: أصل مادة (نجم) تدلّ على طُلُوعٍ وظُهُورٍ، فالنّجم: هو الكوكب الطّالع، وبالتّالي: يُقال للكوكب إذا ظهر: نجمٌ؛ أيْ: (كان مُضيئًا ومُنيرًا)، ولذا ذَكَر القرآن الكريم النّجوم دون الكواكب في اعتماد العرب عليها في تحديد الوقت والجهة في قوله: ﴿وَعَلَٰمَٰتٖۚ وَبِٱلنَّجۡمِ هُمۡ يَهۡتَدُونَ ١٦﴾ [النّحل: 16].

(1) ابن منظور، لسان العرب: (نجم).
(2) الخليل، العين: (نجم).
(3) الفِيروزاباديّ، بصائر ذوي التّمييز: 5/19 - 20.

﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقۡصُصۡ رُءۡيَاكَ عَلَىٰٓ إِخۡوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيۡدًاۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ٥﴾ [يوسف: 5]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

المناسبةُ بين قصِّ الرُّؤيا، ووصيَّةِ يعقوبَ لابنِه يوسفَ آنئذٍ

لَمّا قصّ يوسُفُ رُؤياه على أبيه، وعَلِمَ أبوه أنّ هذه رُؤيا إلهام لا أضغاثَ أحلامٍ تثيرُها في النّوم الهواجسُ والأفكارُ، وأنّ يوسُفَ سيكونُ له شأنٌ عظيمٌ وسلطانٌ يسودُ به أهلَه حتّى أباه وأمَّه وإخوتَه، وخافَ أنْ يسمع إخوتُه ما سمِعَه، ويَفهموا ما فهمَه، فيَحسدوه ويَكيدوا لإهلاكِه، نهاه أنْ يقصَّ عليهم رُؤياه، قال تعالى: ﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقۡصُصۡ رُءۡيَاكَ عَلَىٰٓ إِخۡوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيۡدًاۖ﴾[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَٰبُنَيَّ﴾: أصلُ مادّته من (بنو) وهو الشّيءُ يَتولّدُ عنِ الشّيءِ، كابن الإنسانِ وغيرِه[2]، أو منَ (البَنْي) الذي هو نقيضُ الهَدْم، ومنه (الابنُ) أي الولدُ، فالابنُ أصلُه (بَنَيٌ) أو (بَنَوٌ)، والمصدر (البُنُوَّةُ)[3]، وفي التَّصغير (بُنَيّ)، وسمّاه بذلك؛ لكونِه بناءً للأب، فإنّ الأبَ هو الذي بناهُ وجعلَه اللّه بناءً في إيجاده[4].

2) ﴿رُءۡيَاكَ﴾: الرّاءُ والهمزةُ والياءُ أصلٌ يدلُّ على نظرٍ وإبصارٍ بعينٍ أو بصيرةٍ[5]، والرُّؤيةُ بالضمّ: إدراكُ المَرئيّ، وذلك أضربٌ؛ الأولُ: النّظرُ بالعين التي هي الحاسّة وما يَجري مجْراها، والثّاني: بالوهمِ والتّخيّل، والثّالث: بالتّفكّر، والرّابع: بالقلب، أي بالعقل[6]،

(1) المراغي، تفسير المراغي: 12/114.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بنو).
(3) الزّبيديّ، تاج العروس: (بنى).
(4) الرّاغب، المفردات: (بنى).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (رأى).
(6) الرّاغب، المفردات: (رأى).

والرُّؤْيَةُ بالعين يتعدّى إلى مفعولٍ واحدٍ، وبمعنى العلم يتعدّى إلى مفعولَين[1]، والرّؤيا: ما رأيتَهُ في منامك، تقول: رأيتُ رؤيا حسنةً، ولا تُجمعُ الرّؤيا[2]، وهذا المعنى الأخيرُ هو المرادُ في الآية، ﴿رُءۡيَاكَ﴾ أي: ما رأيتَه في منامك[3].

3) ﴿فَيَكِيدُواْ﴾: أصلُ (كيد) يدلُّ على معالجةٍ لِشَيءٍ بِشِدَّةٍ، ثم يُسمّون المكرَ كيدًا[4]، والكيدُ منَ المكيدة: وهو الاحتيالُ والاجتهادُ فيما يقصدهُ الإنسانُ، وغلبَ في المكر[5]، وهو أيضًا: الخبثُ، والمَضرّةُ، والتّدبيرُ المُحكمُ الشّديدُ وتنفيذُه[6]، وقد يكونُ مَذمومًا وممدوحًا، وإنْ كان يُستعمَلُ في المذمومِ أكثَرَ[7].

والمرادُ هنا: فيَبْغوك الغوائلَ، ويُناصِبوك العداوةَ[8]، ويُدبّروا لكَ مكيدةً[9]، ويَحْتالوا في إهلاكِك[10].

المَعْنى الإجْماليُّ:

إرشادُ يعقوبَ يوسفَ بكتمانِ رُؤياهُ؛ حمايةً له من إخوتِه

قال يعقوبُ لابنه يوسُف: يا بُنَيَّ لا تَقصُصْ هذه الرُّؤيا على إخوتِك، فيَحسُدوك، ويبغُوكَ الغوائلَ، ويُناصبوك العداوةَ، ويُطيعوا فيك الشَّيطانَ، إنَّ الشَّيطانَ لآدمَ وذريّتِه عدوٌّ ظاهِرُ العَداوةِ، يَحمِلُهم على الحسَدِ والكَيد، فاحذرِ الشَّيطانَ أنْ يُغريَ إخوتَك بك بالحسدِ منهم لك، إنْ أنتَ قصصتَ عليهم رؤياك[11].

(1) ابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس: (رأي).
(2) الخليل، العين، وابن منظور، لسان العرب: (رأي).
(3) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 9/125، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3799.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (كيد).
(5) السّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (كيد).
(6) الزّبيديّ، تاج العروس، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (كيد).
(7) الرّاغب، المفردات: (كيد).
(8) ابن جرير، جامع البيان: 15/558.
(9) دروزة، التّفسير الحديث: 4/10.
(10) البغويّ، معالم التّنزيل: 2/475.
(11) ابن جرير، جامع البيان: 15/558.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بَلاغةُ الفصْلِ في: ﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ﴾:

حوارٌ قرآنيٌّ جاءَ فيهِ قولُ يعقوبَ جوابًا على قولِ يوسُفَ

فَصلَ البيانُ القرآنيُّ جملةَ ﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقۡصُصۡ رُءۡيَاكَ﴾ عنِ التي قبْلَها ﴿إِذۡ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ﴾ [يوسف: 4]؛ لأحد أمرَين:

الأوّلُ: لكونِها على طريقةِ المُحاوَراتِ، أي إنَّ قولَ يعقوبَ يا بُنَيَّ جوابٌ على قولِ يوسُفَ ﴿يَٰٓأَبَتِ﴾ [يوسف: 4]، أيْ فَصلَ الجوابَ، ولم يعطفْ بالفاءِ أوِ الواو جرْيًا به على طريقةٍ متّبعةٍ في القرآنِ في حكايةِ المُحاورات، وهي طريقةٌ عربيّةٌ، وإنّما حذَفوا العاطفَ في أمثالِهِ كراهيةَ تكريرِ العاطفِ بتكريرِ أفعالِ القولِ، فإنّ المحاورةَ تقتضي الإعادةَ في الغالبِ فَطَرَدوا البابَ فحذَفوا العاطِفَ في الجميعِ، وهو كثيرٌ في التّنزيل[1].

الثّاني: لوقوعِها استئنافًا بيانيًّا، لِما بين الجُملتَين من شِبهِ كمالِ الاتّصال؛ وذلك بعد أنْ قال يوسفُ لأبيه: ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيۡتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوۡكَبٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ رَأَيۡتُهُمۡ لِي سَٰجِدِينَ ۝٤﴾ [يوسف: 4] كأنّ سائلا سأل: فماذا قال يعقوبُ بعد سماع هذه الرّؤيا العجيبةِ؟ فجاء الجوابُ في قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقۡصُصۡ رُءۡيَاكَ﴾[2].

بَلاغةُ النّداء مع حضورِ المُخاطَبِ في: ﴿يَٰبُنَيَّ﴾:

في النّداء بـ(يا) استحضارٌ للاهتمامِ، وتنبيهٌ على خطورةِ الغرَضِ المُخاطَبِ به

قولُه تعالى: ﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ﴾، نجدُ أنّ البيانَ القرآنيَّ استعملَ صيغةَ النّداء (يا) التي تُستعملُ لمناداة البعيدِ مع كوْنِ المخاطَب يوسفَ عليه السلام حاضرًا؛ طلبًا لإحضارِ الذِّهن، واهتمامًا بالغَرَضِ المُخاطَبِ فيه[3].

فائدةُ تصغيرِ (بُنَيَّ)، وإضافتِه في السّياقِ:

(بُنَيَّ) تَصغيرُ (ابنٍ)، والتّصغيرُ في قولِ يعقوبَ ليوسفَ عليهما السلام:

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/401.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/252، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 10/17.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/212.

﴿يَٰبُنَيَّ﴾ كنايةٌ عن تَحبيبٍ وشفَقَةٍ وتحنينٍ وقُربٍ منَ القلب؛ إذ نَزَّلَ الكَبيرَ منزلةَ الصَّغيرِ؛ لأنَّ شَأن الصَّغيرِ أنْ يُحَبَّ وَيُشفَقَ عَليهِ، وفِي ذلك كِنايةٌ عن إمحاضِ نُصْحِ يعقوبَ ليوسفَ عليهما السلام[1]، ويرى بعضُ المفّسرين أنّ ذلك لصغرِ سنّ يوسفَ عند ذلك، ولِعذوبَةِ المصَغَّرِ في النُّطق[2].

فـي خـطـابِ التَّحبُّبِ والتّحنُّنِ رِقّـةٌ وعُـذوبـةٌ، وتـأكـيـدٌ على إمـحـاضِ نُـصْحِ يعقوبَ ليوسفَ

كما أنّ في هذا التّعبير بالتّصغير الّذي يفيدُ التّحبّبَ والقُربَ مناسبةً لقولِ الفرعِ لأصلِه في الآية التي قبلها ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ﴾ [يوسف: 4]؛ إذ عبّر بـ ﴿يَٰٓأَبَتِ﴾ [يوسف: 4] التي عُوِّضَ فيها عنِ الياء (أبي) بالتّاء (أبتِ) وهو "خطابُ التّحبّب"[3]، قال أبو حيّانَ: "ولَمَّا خاطب يوسفُ أباه بقوله: يا أبتِ، وفيه إظهارُ الطَّواعيةِ والبِرِّ والتَّنبيهِ على محلّ الشَّفقة بِطَبْعِ الأبوَّةِ خاطبَه أبوهُ بقولِه: يا بنيّ، تَصغيرُ التَّحْبيبِ والتَّقريبِ وَالشَّفَقَة"[4]. وفي هذا التّعبير إيماءٌ أنّ على الإنسان ألّا يَستنصحَ إلَّا مَنْ يصدُقُه ويحبُّ له الخير. وأمّا فائدةُ إضافتِه إلى نفسهِ فللغرضِ نفسِه منَ التّحبّب والشّفقة[5].

دَلالةُ النّهي في: ﴿لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ﴾:

دلالةُ النّهي في قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ﴾ أمران؛ **الأوّلُ**: النُّصحُ والإرشادُ؛ لأنّ النّهيَ فيها يتضمّنُ النّصحَ والإرشادَ من غيرِ إجبارٍ ولا إلزامٍ، **والثّاني**: التّحذيرُ ببيانِ العاقبةِ؛ لأنّ مقصودَ النّهي تحذيرٌ بتوضيح المصيرِ، وبيانِ العاقبة، وهو الكيدُ ليوسفَ من قِبَلِ إخوتِه.

نـصـحٌ وإرشـادٌ بِكِتمانِ نعمةِ الـرّؤيـا، وألّا تُـقـصَّ إلّا على شَفيقٍ ناصِحٍ

والمرادُ أنّ يعقوبَ أراد بنهْيِه يوسفَ عن أنْ يحدّث إخوتَه، بما رآه

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/212.
(2) القاسميّ، محاسن التّأويل: 6/147.
(3) السّيوطيّ، معترك الأقران: 1/178.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/238.
(5) الشّوابكة، غرر البيان من سورة يوسف في القرآن، ص: 28.

النّصحَ والإرشادَ معلِّلًا هذا النّصحَ ببيانِ العاقبة، وذلك لأنّ يعقوبَ علِمَ أنّ إخوةَ يوسفَ العشرةَ كانوا يَغارونَ منه، وعلِمَ أنّهم يُعَبِّرُونَ الرّؤيا إجمالًا وتفصيلًا، وعلِمَ أنَّ تلك الرُّؤيا تُؤْذِنُ بِرِفعَةٍ يَنالُها يوسفُ على إخوته، فخَشِيَ إنْ قَصَّها عليهم أنْ تشتدَّ بهم الغيرةُ إلى حدّ الحسدِ والكيدِ له لِيَسْلموا مِن تفَوُّقِه عليهم وفضلِهِ فِيهِم[1]. ويدلُّ هذا النّهيُّ على الأمرِ بكتمانِ النِّعمةِ حتى تُوجدَ وتظهرَ[2]، وجوازِ تَركِ إظهارِها لِمَن يُخشَى منه حَسَدٌ ومَكرٌ[3]، وأنَّ الرُّؤيا لا تُقَصُّ على غيرِ شَفيقٍ ولا ناصِحٍ، ولا على امرئٍ لا يُحسِنُ التَّأويلَ فيها[4]، قال ﷺ: «لا تقصّ الرّؤيا إلّا على عالمٍ أو ناصحٍ»[5].

ذِكرُ قصِّ الرّؤيا، وعلاقتُه بمطلعِ السّورةِ:

من بلاغةِ القرآنِ، التّعبيرُ بالأنسبِ لفظًا ومعنًى

عبَّرَ البيانُ الإلهيُّ بقصِّ الرّؤيا ﴿لَا تَقْصُصْ﴾، ولم يقلْ: (لا تحكِ)؛ للإشارةِ إلى تأكيدِ يعقوبَ عدمَ إخبارِ يوسفَ إخوتَه بأيّ شيءٍ ممّا رآه جملةً وتفصيلًا؛ لأنّ القافَ والصّادَ أصلٌ صحيحٌ يدلّ على تتبّعِ الشّيء، من ذلك قولُهم: اقْتَصَصتُ الأثر، إذا تتبّعْتُه[6]، والقَاصُّ: من يأتي بالقصّةِ على وجهِها، كأنّه يتتبّعُ معانِيَها وألفاظَها[7].

ولكونِ مُفردةِ (القصّ) أنسبَ مع الرّؤيا من مُفردة (الحكي)؛ لأنّ الرّؤيا في حقيقتِها عبارةٌ عن رموزٍ واضحةٍ رُؤيتْ حقيقةً، وتحتاجُ أنْ تُذكرَ متتاليةً متتابِعةً كما حدثت، أي تحتاجُ إلى دقّةٍ في الإخبارِ بها، والقصُّ يتميّزُ بمعنى التّتبّعِ، فالذي يقصُّ القصّةَ يتتبّعُ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/214.
(2) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/371.
(3) السّيوطي، الإكليل في استنباط، ص: 153.
(4) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 9/126، وابن عادل، اللباب في علوم الكتاب: 11/17.
(5) سنن التّرمذيّ، باب في تأويل الرّؤيا ما يستحبُّ منها وما يكره، حديث رقم: (2280)، وقال: حديث حسن صحيح.
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (قص).
(7) الزّبيديّ، تاج العروس، ومجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (قصص).

أحداثَها المتتاليةَ وألفاظَها ومعانيَها؛ ليروِيَها متتاليةً متتابعةً كما حدثتْ، وهو تتبّعُ الخبرِ والإتيانُ به على وجهه، بخلاف (الحكي) بمعنى المُحاكاة أي المُشابهة، فالذي يحكي الخبرَ يحرصُ أنْ يأتيَ به على وجهٍ يُشابهُه في صورتِه الأولى، يُقال: حَكَيْتُ فِعْلَهُ وحاكَيْتُهُ إذا فعلتَ مثلَ فعلِه وهيئتِه، والحِكايةُ: ما يُحكى ويُقصّ وقعَ أو تُخيِّل[1].

ومن ثَمَّ: يكونُ في التّعبير بمفردةِ القصِّ دونَ الحكي إشارةٌ إلى عِظَمِ هذه القِصّة، وأنّه لا يوجد خبرٌ وكلامٌ يُشبهُها؛ فهي رؤيا عظيمةٌ مِنَ اللّه سُبحانه تحملُ بشاراتٍ عظيمةً.

وللمعنى ذاتِه "لا يُقال كلامُ اللّه محكي، ولا يُقال أيضًا: حكى اللّه كذا، إذ ليس لكلامه مثلٌ"[2]، ولهذا أسندَ سُبحانه القصّ إلى ذاتِه فقال: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ﴾ [يوسف: 3]، ولم يقل: (نحكي).

وبهذا يظهرُ التّرابطُ بين قولِه تعالى: ﴿لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ﴾ وقولِه: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾ [يوسف: 3]، إضافةً إلى ما بين الآيتين من تَكرارٍ صوتيٍّ يثيرُ جوًّا نغميّا يُعمِّقُ المعنى، ويساعدُ في إبرازه؛ إذ إنّ تَكرارِ هذه الأصوات؛ القاف والصّاد في ﴿نَقُصُّ﴾ و ﴿ٱلْقَصَصِ﴾ و﴿لَا تَقْصُصْ﴾ أبرزت حقِّيّةَ هذه القصّةِ العجيبةِ، وأنَّها ليستْ أضغاثَ أحلامٍ.

الدّلالةُ الصّوتيّةُ في فكّ الإدغامِ في: ﴿لَا تَقْصُصْ﴾:

فُكَّ الصّادان في قوله تعالى: ﴿لَا تَقْصُصْ﴾، ولم يُدغما، أي لم يقلْ: (لا تقصّ)؛ لأنَّه وقعَ مجزومًا، فجازَ فيه الفكُّ والإدغامُ، والفكُّ أشهرُ وأكثرُ في القرآنِ، وهو لغةُ أهلِ الحجاز.

وكلٌّ منَ الفكّ والإدغامُ له دلالةٌ خاصَّةٌ؛ أمّا الإدغامُ فهو يعني الخفاءَ والمُساترةَ والإضمارَ، وأمّا الفكُّ فهو يعني الجلاءَ والمجاهرةَ

إرشادُ يعقوبَ ليوسفَ، بشأنِ رُؤياه، إرشادٌ جليٌّ هادئٌ، من أبٍ شَفوقٍ

(1) الجوهريّ، الصّحاح، ومجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط: (حكى).
(2) الكفويّ، الكليّات، ص: 409.

والإظهارَ، وهو أنسبُ هنا مع السّياق الذي يقومُ على إجلاءِ وإظهارِ النُّصح بنهيٍ صريحٍ واضحٍ ﴿لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ﴾ مع تعليلٍ لهذا النّهي، وتأكيدٍ لخطورتِه فهو كيدٌ يحرّكُه الشّيطانُ ﴿فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيْدًاۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾.

كما أنَّ الفكّ أنسبُ مع المقام الذي هو نصحٌ هادئٌ من أبٍ محبٍّ عطوفٍ شفوقٍ على ابنٍ صغيرٍ بارٍّ عظَّم اللّه شأنَه بهذه الرّؤيا، وسيكون له شأنٌ عظيمٌ ونبوّةٌ وسلطانٌ يسودُ بهما النّاسَ، بخلاف دلالة الإدغامِ الذي فيه شدّةٌ في النُّطق.

إضافةً إلى أنّ تَكرارَ نُطْق الصّادِ بإظهارِ الإدْغام وهو حرفُ صفيرٍ واستعلاءٍ مطبَقٍ، فيه زيادةُ تفخيمٍ يفيدُ بأنّ ما ينصحُ به يعقوبُ، وينهى عنه أمرٌ له خطورتُه.

وبهذا كلِّه يكونُ في إظهار الإدغام تأكيدٌ للنّهي عن قصّ الرّؤيا على إخوتِه، يقول البقاعيّ: "وأكّدَ النّهيَ بإظهار الإدغام"[1].

دَلالةُ التّعبيرِ بالرّؤيا:

التّعبيرُ بقوله: ﴿رُءْيَاكَ﴾ تصريحٌ بأنّها رُؤيا مناميّةٌ، وأمّا في الآية الّتي قبلها فلم يكنْ تصريحًا، وإنّما فُهم من كونِ الشّمسِ والقمر والنّجوم، لا يكونُ لها في الحياةِ سجودُ انحناءٍ، وهنا صرّح بلفظ الرّؤيا دونَ الرّؤية؛ لأنّ الأخيرةَ هي رؤيةُ اليقَظة؛ إذ فعلُ المُفردتَين واحدٌ وهو (رأى)، ولكنّ المصدرَ فيهما يختلفُ باختلافِ حالِ الرّائي؛ فرؤيتكَ وأنتَ يقظانٌ، يُقالُ عنها (رؤية)؛ ورؤيتُك وأنتَ نائمٌ، يُقال عنها (رؤيا) ويتّفق هذان المصدران بأنّ كليهما مؤنّثٌ؛ أَخذتِ الرّؤيةُ الّتي في اليقظة تاءَ التّأنيث، وأخذتِ الرّؤيا التي في النّوم ألفَ التّأنيث[2].

رؤيا يوسفَ، رؤيا حقٍّ وصِدْقٍ منَ اللّه، لا أضغاثُ أحلامٍ منَ الشَّيطان

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/17.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/252، والشّعراوي، تفسير الشّعراوي: 11/6849.

وأمّا سرُّ التّعبير بالرّؤيا المناميّة دون الحُلُم: لأنّ الرّؤيا حالةٌ شريفةٌ، ومنزلةٌ رفيعةٌ، قال ﷺ: «لم يَبْقَ بعدي منَ المبشّراتِ إلّا الرّؤيا الصّالحةُ الصّادقةُ يراها الرّجلُ الصّالحُ أو تُرى له»[1]، وقال: «أصدَقُكُم رؤيا، أصدَقُكم حديثاً»[2]، وحكمَ ﷺ بأنّها جزءٌ من ستّةٍ وأربعين جُزءًا منَ النّبوّة[3]، وقد ورد كذلك أنّ الرّؤيا الصّادقةَ منَ اللّه، وأنّها منَ النّبوّة، قال ﷺ: «الرّؤيا منَ اللّه والحُلُمُ منَ الشّيطان»[4]، أي تُضاف الرّؤيا إلى اللّه إضافةَ تشريفٍ[5].

فائدةُ إضافةِ الرّؤيا إلى ضميرِ المخاطَبِ ﴿رُءْيَاكَ﴾:

تشريفُ يوسفَ تَنبّؤٌ بعُلُوِّ شأنِه، وفيه طَمْأَنَةٌ لقلْبِهِ

أضافَ البيانُ الإلهيّ، مُفردةَ الرّؤيا إلى ضمير المخاطَب (الكاف)، في قوله تعالى: ﴿لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ﴾؛ لتكون تنبيهًا ليوسفَ عليه السلام بعُلُوِّ شأنِه، وليتذَكَّرَها كلَّما حلَّتْ به ضائقةٌ، فتَطمئِنَّ بها نَفسُه أنَّ عاقِبتَه طَيِّبةٌ، وهكذا إذا أراد اللّه أمرًا مِنَ الأمورِ العِظام قدَّمَ بين يديه مُقَدِّمةً؛ تَوطئةً له، وتسهيلًا لأمرِه، واستعدادًا لِما يَرِدُ على العبدِ مِنَ المشاقِّ؛ لُطفًا بعبده، وإحسانًا إليه، وقد كانت هذه الرُّؤيا مُقَدِّمةً لِما وصَلَ إليه يوسفُ عليه السلام مِنَ الارتفاعِ في الدُّنيا والآخرةِ[6].

نُكتةُ التّصريحِ بـ ﴿إِخْوَتِكَ﴾ وإضافتِهم إليه:

أهميّةُ الأخوّةِ ومتانتُه راجعٌ إلى ما يترتّبُ عليها من حقوقٍ وواجباتٍ

صرّح يعقوبُ عليه السلام لابنه بلفْظِ الأخوّة، وأضافَهم إليه ﴿إِخْوَتِكَ﴾؛ لأمور:

الأوّلُ: تحذيرًا له لِما يعلمُ من صفاءِ سريرةِ يوسفَ وحُسنِ ظنِّه وحبِّهِ لإخوتِه؛ إذ إنّ ذلك قد يدفعُه إلى أنْ يأمنَ جانبَ إخوتِه،

(1) رواه مالك في الموطأ، كتاب الرؤيا، باب: ما جاء في الرؤيا، وهو في مسند أحمد، الحديث رقم: (22688).

(2) أخرجه مسلم في صحيحه في أوائل كتاب الرؤيا، الحديث رقم: (2263).

(3) أخرجه البخاري، الصحيح الجامع، باب رؤيا الصالحين، الحديث رقم: (2562، 6582)، ومسلم، صحيح مسلم، كتاب الرؤيا، الحديث رقم: (2263).

(4) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 9/124، والحديث رواه البخاري في الجامع الصحيح، الحديث رقم: (5747، 7005)، ومسلم في الجامع الصحيح، الحديث رقم: (2261).

(5) الآلوسيّ، روح المعاني: 6/373.

(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/208، والسّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 393.

ويحدّثهم بهذه الرّؤية؛ ويعقوبُ يعلمُ أنّهم لم يكونوا مأمونين على يوسُفَ، وأنّ لهم القُدرةَ على تأويلِ تلك الرّؤيا، ولا بُدَّ حينئذٍ أنْ يَكيدوا له كيدًا يُصيبُه بمكروه، فهم قد أصابهمُ الضّيقُ من يوسفَ وهو ما زال طفلًا، فكيف سيكونُ حالُهم إنْ عَلِموا مثلَ هذه الرّؤيا التّي سيسجدُ له فيها الأبُ والأمّ مع الإخوة؟[1]، أي سيكونُ الرّئيسَ الشّريفَ عليهم.

الثّاني: ثقةً من يعقوبَ عليه السلام بيوسفَ بأنّ هذا التّحذيرَ لا يثيرُ في نفسهِ كَرَاهَةً لإخوَتِه؛ لأَنَّهُ وَثِقَ مِنهُ بكمالِ العقل، وصفاءِ السَّريرةِ، ومكارمِ الخُلق، ومن كان حالُه هكذا كانَ سَمْحًا، عاذرًا، مُعرِضًا عنِ الزلّات، عالمًا بِأَثَرِ الصَّبرِ في رفعَةِ الشَّأنِ، ولذلك قال لإخوته فيما بعد ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٩٠﴾ [يوسف: 90] وقال: ﴿لَا تَثۡرِيبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَۖ يَغۡفِرُ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ٩٢﴾ [يوسف: 92][2].

الثّالث: الإشارةُ من خلالِ التّعريف بالإضافة إلى ضرورةِ بقاءِ العلاقةِ بينه وبين إخوته متينةً قويّةً، فهم أبناءُ يعقوبَ، وما يصيبُهم من ضيقٍ بسببِ عُلُوّ عاطفة الأب تجاه يوسُفَ هو منَ الأغيار التي تصيبُ البشرَ الذين يقَعون تحت وسوسةِ الشّيطان، فهم ليسوا أشرارًا بالسَّليقة؛ لأنَّ الشّرِّيرَ بالسَّليقة تتصاعدُ لديه حوادثُ السّوءِ، أما الخيِّرُ فتتنزَّلُ عنده حوادثُ السّوءِ كما كان حالُهم إذ بدأوا في التّفكير بانتقام كبيرٍ من يوسفَ ﴿ٱقۡتُلُواْ﴾ ثمّ هَبطوا عن هذه الدّرجة فقالوا ﴿أَوِ ٱطۡرَحُوهُ أَرۡضٗا﴾ ثمّ تردّدوا؛ واستَبْدلوا ذلك بإلقائه في الجُبِّ، فقالوا: ﴿وَأَلۡقُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلۡجُبِّ يَلۡتَقِطۡهُ بَعۡضُ ٱلسَّيَّارَةِ﴾[3]، ولذلك عقّب يعقوبُ كلامَه، بِقَولِه: ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٞ مُّبِينٞ﴾[4].

دَلالةُ الفاءِ، وموقعُ جملةِ ﴿فَيَكِيدُواْ﴾:

(الفاء) في ﴿فَيَكِيدُواْ﴾ فاءُ السّببيّة، تدلُّ على أنَّ ما قبلَها (وهو القصص) سببٌ لِما بعدَها، وهو الكيدُ[5]، وقولُه: ﴿فَيَكِيدُواْ﴾ منصوبٌ في جوابِ النّهي، وهو في تقديرِ شرطٍ وجزاءٍ، ولذلك قدَّره الزّمخشريُّ بقوله: (إنْ قصصتها عليهم كادوك)، وهذا فيه توكيدُ

(1) الشّعراوي، تفسير الشّعراوي: 11/6849.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/214.
(3) الشّعراوي، تفسير الشّعراوي: 11/6851 - 6852.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/214.
(5) رشيد رضا، تفسير المنار: 7/3799.

إخفاءِ النّعمةِ منعًا للحسدِ[1]، وبذلك كان هذا الجوابُ بيانًا لسببِ نهْيِه عن قصّ الرّؤيا على إخوته.

في توكيدِ إخْفاءِ النّعمةِ، حمايةٌ ليوسُفَ من كيدٍ يَنزغُه الشّيطانُ في إخوتِه

نُكتةُ إيثارِ: ﴿فَيَكِيدُواْ﴾:

الكيدُ: احتيالٌ مستورٌ لِمَنْ لا تقوَى على مُجابهتِه، ولا يكيدُ إلَّا الضّعيفُ؛ لأنَّ القويَّ يقدِرُ على المواجهةِ[2]، وفي التّعبيرِ به ﴿فَيَكِيدُواْ﴾ دونَ التّعبيرِ بالإساءة، فلَمْ يقُلْ: (فيُسيئوا) حِكَمٌ: **أوّلُها**: أنّ يعقوبَ عليه السلام لجأَ إلى التّعريض دونَ التّصريحِ، وإلى طرفٍ منَ المُلامحةِ، لئلّا يَفجأَ حسَّ يوسفَ بما عليه إخوتُه من إضمارِ السّوءِ له مع الحسد والبغضاءِ[3].

التّعبيرُ بالكيدِ، فيه مراعاةٌ لحسِّ يوسُفَ، وزيادةُ تحذيرٍ له

ثانيها: الإشارةُ إلى أنّ إخوةَ يوسفَ كانوا منَ الذّكاء ما يمنعُهم من إظهار الإساءةِ لأخيهم، فكيف يقول: فيسيئوا؟![4].

ثالثها: الإشارةُ إلى أنّ يعقوبَ عليه السلام أرادَ أن يُطَمْئِنَ يوسُفَ بالإشارةِ إلى ضعفِهم؛ لأنَّ الكيدَ لا يكون إلّا منَ الضّعيف، وأراد مع ذلك أنْ يُحذّرَه في الوقت ذاتِه؛ إذ في الكيدِ تخطيطٌ بخفاءٍ لإيقاع الضّررِ، كما أنّه أكّدَه بالمفعول المطلق بقوله: ﴿كَيْدًاۖ﴾؛ زيادةً في تحذيرِه.

نُكتةُ إسنادِ الكيدِ إلى ضميرِ الجماعةِ ﴿فَيَكِيدُواْ﴾:

الكيدُ ليوسفَ، دفعَ الإخوةَ للاجتماعِ على فعْلِ المَحظورِ

والمرادُ - بإخوته - هاهنا على ما قيل: الإخوةُ الّذين يَخشى غوائلَهم ومكائدَهم من بني علّاته الأحد عشرَ[5]، وبنيامين - وإن لم يكن ممّن تُخشى غوائلُه - من باب الاحتياطِ وسدِّ باب الاحتمالِ، وممّا ذاع: كلُّ سرٍّ جاوزَ الاثنين شاعَ، ويلتزمُ القولُ بوقوع السّجودِ منه كسائر أهلِه، وإسنادُ الكيد الى الإخوة باعتبارِ الغالبِ[6].

(1) السّمين الحلبيّ، الدّر المصون: 6/439.
(2) الشّعراوي، تفسير الشّعراوي: 11/6853.
(3) نديم فاضل، التّضمين النّحويّ في القرآن الكريم: 2/193.
(4) نديم فاضل، التّضمين النّحويّ في القرآن الكريم: 2/193.
(5) الآلوسيّ، روح المعاني: 6/375.
(6) الآلوسيّ، روح المعاني: 6/375.

الكيدُ خطيرٌ ومُدمّرٌ، ولكنّ لُطفَ الله جعلَه ليوسفَ لا عليْه

فائدةُ تعدية فعل الكيد باللام:

عبّرَ البيانُ القرآنيُّ باللّام في ﴿لَكَ﴾، فقال: ﴿فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيۡدًاۖ﴾، ولم يقل: (فيَكيدوك كيدًا)، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمۡ يَكِيدُونَ كَيۡدٗا ١٥﴾ [الطارق: 15][1]؛ لأنَّ هذا الأسلوبَ وهو التّعديةُ باللام آكَدُ مِن أنْ يُقالَ: (فيَكيدوك كيدًا)؛ إذ ليس فيه دَلالةٌ على كَونِ نَفسِ الفِعلِ مقصودَ الإيقاعِ ليوسف[2]، أي قدْ جاءتِ اللّامُ لِتَأكيدِ صِلةِ الفِعلِ بِمَفعُولِه، كقَولِه: شَكَرتُ لَكَ النُّعمى[3]، وعلى هذا تكونُ اللّام في ﴿لَكَ﴾ للاختصاص، والمعنى: فيوقعوا لكَ كيدًا يخصُّك[4].

وقد يكونُ جِيءَ باللَّام لِتَضمينِه معنى الاحتيالِ المُتعدِّي باللَّام؛ لِيُفيدَ معنى المُضمَّنِ والمضمَّنِ فيه للتَّأكيدِ، أي: فيَحتالوا لك ولإهلاكِك حيلةً وكيدًا[5]، ويرى أبو حيّانَ أنّ التّضمينَ أبلغُ لدلالتِه على معنى الفعلَيْن الاحتيالِ والكيدِ[6].

وفي التّعدية باللّام، إشارةٌ إلى أنّ هذا من نَضْحِ نبوّةِ يعقوبَ عليه السلام على لسانه؛ لأنّ هناك فارقًا بين العبارتَين، فقول: (يكيدوك)، يعني أنّ الشّرَّ المستورَ الّذي يدبّرونه ضدّكَ، سوف يصيبُك بأذًى، أمّا ﴿فَيَكِيدُواْ لَكَ﴾ فتعني أنّ كيدَهم الّذي أرادوا به إلحاق الشّرّ بكَ سيكونُ لحسابك، ويأتي بالخيرِ لك، ولذلك نجدُ قولَ الحقّ في موقعٍ آخرَ بالسّورة نفسِها: ﴿كَذَٰلِكَ كِدۡنَا لِيُوسُفَۖ﴾ [يوسف: 76]، أي: كدنا لصالحِه[7].

(1) يحتمل هذا الفعلُ أنْ يكون من باب شكرتُ زيدًا، وشكرتُ لزيد، يُنظر: أبو حيّان، البحر المحيط: 6/239.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/253.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/213.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/17.
(5) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/253.
(6) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/239.
(7) الشّعراوي، تفسير الشّعراوي: 11/6854.

ويرى بعضُ المفسّرين أنّ اللّام للتّوكيد، كزيادتها، في قوله تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ۝٤٣﴾ [يوسف: 43]، وكقوله: ﴿لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ۝١٥٤﴾ [الأعراف: 154][1]، وكقوله تعالى: ﴿رَدِفَ لَكُم﴾ [النمل: 72] وقد ضعّفه السّمينُ الحلبيُّ[2].

فائدةُ التّعبيرِ بالمفعولِ المطلَقِ ﴿كَيْدًا﴾:

أكّد البيانُ القرآنيُّ فعلَ الكيدِ من إخوةِ يوسفَ في قوله تعالى: ﴿فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيْدًا﴾ بالمفعول المُطلق، أي جاء المفعولُ المطلقُ ﴿كَيْدًا﴾ هنا مؤكِّدًا لعاملِه ﴿فَيَكِيدُواْ﴾، والتَّوكيدُ في المفعول المطلَقِ بمنزلة تكريرِ الفعل، ولذا لا يجوزُ حذفُه؛ لأنّ الحذفَ منافٍ للتأكيدِ[3]، والمقامُ مقامُ تأكيدٍ، وقرّره بالتّعليل بعدَه بقوله: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾[4]، وفائدةُ هذا التَّوكيد هنا المبالَغةُ[5] في بيان خطورةِ هذا الكيدِ المتينِ القويِّ الذي لا تقدرُ على التّوقّي منه، الخَفيِّ عن فهمك الذي لا تستطيعُ التَّصدّيَ له[6]، وقصْدًا من يعقوبَ لنجاةِ ابنِه مِن أَضرارٍ تَلحَقُهُ[7].

في التّوكيد مبالغةٌ في بيانِ خطورةِ كيْدٍ يَنزغُه الشَّيطانُ، ويَرعاهُ بعداوتِه للإنسانِ

نُكتةُ تنكيرِ: ﴿كَيْدًا﴾:

قولُه تعالى: ﴿فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيْدًا﴾، وفيه نكّرَ البيانُ الإلهيُّ لفظَ ﴿كَيْدًا﴾؛ للتَّعظيمِ والتَّهويلِ، زيادةً في تحذيرِه مِن قَصِّ الرُّؤيا عليهم[8]، والمعنى: فيكيدوا لك كيدًا " متينًا راسخًا لا تقدرُ على التّفصّي عنه، أو خفيًّا عن فهمك لا تتصدّى لمدافعتِه، وهذا أوفقُ بمقام التّحذيرِ"[9].

كيدُ إخوةِ يوسفَ، كيدٌ قويٌّ خفيٌّ، لا يَقدرُ على التّوقّي منه ولا التّصدّي له

(1) الثّعلبيّ، الكشف والبيان: 5/198، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 9/122.
(2) السّمين الحلبيّ، الدّرُّ المصون: 6/439.
(3) ابن السّراج، الأصول في النّحو: 1/160، وابن مالك، شرح الكافية: 2/657.
(4) الآلوسيّ، روح المعاني: 6/375.
(5) أبو حيان، البحر المحيط: 6/239.
(6) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/253.
(7) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/213.
(8) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/213.
(9) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/253.

نُكتةُ الفصْلِ في: ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ﴾:

في الاستئنافِ البيانيّ، بيانٌ لِلسَّببِ النَّفسيِّ، لهذا الكيدِ، وهو وَسوَسَةُ الشّيطَانِ

فَصَلَ البيانُ القرآنيُّ جملةَ ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٞ مُّبِينٞ﴾ عن التي قبْلَها ﴿لَا تَقۡصُصۡ رُءۡيَاكَ عَلَىٰٓ إِخۡوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيۡدًاۖ﴾، ولم يأتِ بينهما بعاطفٍ؛ لوقوعِ قولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٞ مُّبِينٞ﴾ استئنافًا بيانيًّا، لِما بين الجُملتَين من شبْهِ كمالِ الاتّصال؛ كأنَّ يوسُفَ عليه السلام - بعد أنّ أمَره يعقوبُ بألّا يقصصَ الرّؤيا على إخوته خوفًا عليه من كيدهم - قال: كيف يصدرُ ذلك عن إخوتي النّاشئين في بيت النُّبوّة؟ فقال له يعقوبُ: إنّ الشّيطان يحمِلُهم على ذلك[1].

وغرَضُ هذا الاستئناف هو تعليلُ النَّهي عن قَصِّ الرُّؤيا على إخوتِه، وبيانُ السّببِ النَّفسيِّ لهذا الكيد[2]؛ لأنّ عداوَةَ الشَّيطانِ لجنسِ الإنسانِ تحمِلُه على أَنْ يَدْفَعَهم إلى إضرارِ بعضِهم ببعضٍ[3]. وقد أرشدَ يعقوبُ يوسفَ إلى هذا فقال في نهايةِ القصّة: ﴿مِنۢ بَعۡدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بَيۡنِي وَبَيۡنَ إِخۡوَتِيٓۚ﴾ [يوسف: 100][4].

الحضور المكثّف لصِيغ التّوكيدِ:

عداوةُ الشَّيطانِ للإنسانِ، عداوةٌ ماكرةٌ، وهي ثابتةٌ راسخةٌ ظاهرةٌ

اشتملَ قولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٞ مُّبِينٞ﴾ على عدّة مؤكِّدات؛ إذ فيها ﴿إِنَّ﴾ التي تفيدُ توكيدَ الخبرِ، وهو عداوةُ الشّيطان، والتَّوكيدُ بالجُملةِ الاسميّةِ، التي تَدلُّ على الثّباتِ، فهي عداوةٌ ثابتةٌ لا تزول، والتَّوكيدُ بالاستئنافِ البيانيِّ في الجملة الذي يقتضي تأكيدَ الحُكم[5]، وهو تعليلُ النَّهي عن قَصِّ الرُّؤيا على إخوتِه، وبيانُ السّببِ النَّفسيِّ لهذا الكيد، والتَّوكيدُ بالصّفة ﴿مُّبِينٞ﴾؛ إذ إنّها وَصفتِ المنعوتَ ﴿عَدُوّٞ﴾ بما يقوّي معناه ويؤكّدُه؛ فهي عداوةٌ ظاهرةٌ لا شكّ فيها،

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/253.
(2) رشيد رضا، تفسير المنار: 12/210.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/213.
(4) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 12/115.
(5) الخطيب القزوينيّ، الإيضاح في علوم البلاغة: 3/122.

والتوَّكيدُ بتقديم ﴿لِلْإِنسَٰنِ﴾ على الخبر ﴿عَدُوٌّ﴾. ومن ثَمَّ يكونُ يعقوبُ عليه السلام، قدْ أكّد نهيَه ليوسُفَ عن أنْ يقصَّ رؤياه على إخوتِه بأصنافِ التَّأكيدِ المذكورةِ، مبالغةً في إثباتِ عداوةِ الشَّيطانِ للإنسان، وأنَّها عداوةٌ كاملةٌ تامّةٌ ثابتةٌ، تشملُ كلَّ النّواحي، ولا تحتاجُ إلى برهانٍ، أو دليلٍ.

معنى (الْ) في لفظِ ﴿لِلْإِنسَٰنِ﴾:

(ألْ) التّعريف في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٞ مُّبِينٞ﴾ جنسيّةٌ؛ تفيدُ العمومَ، أي تشملُ كلَّ إنسان، والمعنى: إنّ الشَّيطان عدوٌّ مبينٌ لجنس الإنسانِ أي لكلِّ إنسانٍ؛ لآدم وذرِّيّتِه من بعده، ولقد أقسمَ الشّيطانُ أنْ يُغويَ جنسَ الإنسان، قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ٣٩﴾ [الحجر: 39]، وقد حذّر اللّه النّاسَ جميعًا (آدم وذرِّيّتَه) من عداوة الشّيطانِ، فقال سُبحانه: ﴿فَقُلۡنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوّٞ لَّكَ وَلِزَوۡجِكَ فَلَا يُخۡرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلۡجَنَّةِ فَتَشۡقَىٰٓ ١١٧﴾ [طه: 117]، وقال: ﴿۞أَلَمۡ أَعۡهَدۡ إِلَيۡكُمۡ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعۡبُدُواْ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ٦٠﴾ [يس: 60].

عداوةُ الشّيطانِ لجنسِ الإنسان، بدأت مع عداوتِهِ لآدمَ عليه السلام

فائدةُ الوصْفِ بـ ﴿مُّبِينٞ﴾ في السّياق:

قولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٞ مُّبِينٞ﴾، وفيه يصفُ الحقُّ سُبحانه عداوةَ الشّيطان للإنسان مؤكِّدًا عداوتَه بأنّها عداوةٌ مُبينةٌ ظاهرةٌ لا تخفَى على أحدٍ منَ النّاس؛ أيْ: بيّنةٌ ومعروفةٌ لكلّ فردٍ؛ لِمَا فعل بآدم عليه السلام وحوَّاءَ، ولأنّه خرجَ منَ الجنّة ملعونًا مطرودًا؛ وقد أقسمَ بعزّة اللّه لَيُغْوِينَّ ذرِّيّةَ آدم، فلا يألُو جهدًا في التّسويل لهم، وإثارةِ الحسد فيهم حتى يحملَهم على الكيد[1]، محيطًا بالإنسان من كلّ جانب، وهذا يدلُّ عليه قولُه تعالى: ﴿ثُمَّ لَأٓتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ وَعَن شَمَآئِلِهِمۡۖ﴾ [الأعراف: 17][2].

وصْفٌ يؤكّدُ ظهورَ عداوةِ الشّيطانِ للإنسان ووُضوحَها

(1) البيضاويّ، أنوار التنّزيل وأسرار التّأويل: 3/155.
(2) الشّعراوي، تفسير الشّعراوي: 12/7705.

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الابنُ والولدُ:

بينَ الابنِ والأبِ تأليفٌ واتّصالٌ واختصاصٌ، وبينَ الولدِ والوالدِ نسبٌ حقيقيٌّ موصولٌ

يتقاربُ لفظَا (الابن) و(الولد) إلى درجةِ التّرادُفِ، ولا يكادُ يُفرَّقُ بينَهما في الاستعمال، إلَّا أنّ هناك مَن جعلَ بينهما فروقًا في اللّغة كما فعل العسكريُّ، فقد ذكر عدّةَ فروق، وهي:

أنّ الابنَ يفيدُ الاختصاصَ، ومداومةَ الصّحبة، ولهذا يُقال: ابْنُ الفلاة لمن يداومُ سلوكَها، وتقولُ تبنّيت ابنًا: إذا جعلتَه خاصًّا بك، كما أنّه يجوزُ أنْ يُقال: إنّ قولَنا هو ابنُ فلانٍ يقتضي أنّه منسوبٌ إلى أبيه، ولهذا يُقال: النّاسُ بنو آدمَ؛ لأنّهم منسوبون إليه.

أصلُ الابنِ التّأليفُ والاتّصالُ من قَوْلك بنيةٌ، وهو مَبْنِيّ وأَصلُه بني، وقيل: بَنو، ولهذا جُمع على أَبنَاء، فكأنّ بين الأَب والابْن تأليفًا.

والولدُ يقتضي الولادةَ، ولا يقتضيها الابنُ، ولا يُسمّى الإنسانُ والدًا إلَّا إذا صار له ولدٌ، وليس هو مثلَ الأب؛ لأنّهم يقولون في التّكنيةِ أبو فلان وإنْ لم يَلدْ فلانًا، ولا يقولون في هذا: والدُ فلان[1].

بالإضافة إلى أنّ هناك فروقًا أخرى بين الابن والولد، ومنها: أنّ الابن يُطلقُ على الذّكَر، في حينِ أنَّ الولدَ يُطلقُ على الذّكَر والأنثى[2].

وأصلُ مادّته من (بنى)؛ وسُمّي بذلك؛ لكونه بناءً للأب، فإنّ الأب هو الذي بناهُ وجعله اللّه بناءً في إيجاده[3]، أي: لا يُشترطُ في الابن أنْ يكون من نسلِ الأبِ، فقد يكونُ ابنًا بالتّبنّي ويسمّى ابنًا.

في حين أنَّ الولد منَ الولادة، ومن أمثال العرب: (وُلْدُكِ مَنْ دَمَّى عَقِبَيْكِ) أي من نُفِسْتِ به، فهو ابنُكِ حقيقةً لا مَن اتَّخَذْتِه وتَبَنَّيْتِه وهو مِن غيركِ[4].

(1) العسكريّ، الفروق اللغّويّة، ص: 281 - 282.
(2) الزّبيديّ، تاج العروس: (ولد).
(3) الرّاغب، المفردات: (بنى).
(4) الزّبيديّ، تاج العروس: (ولد).

القصُّ والحَكْي:

القصُّ روايةُ أحداثِ القصّةِ مُتتابعةً، والحَكْيُ روايتُها مُشابهةً لصورتِها الأُولى

يتقاربُ لفظا (القصّ، والحَكْي) فكلاهما فيه معنى الإخبار ونقلِ الكلام، وروايةُ الحدَث على وجهه، إلَّا أنّ بينهما فرقًا يميّزُ كلّ لفظٍ عنِ الآخر، وتظهرُ هذه الفروقُ عند التّدقيقِ في معاني اللّفظَين في المعاجم اللّغويّة: القصّ: أصلُ (قصّ) يدلّ على تتبّعِ الشّيء[1]، فالقَصُّ: تَتَبُّعُ الأَثَرِ، وفعلُ القاصّ إذا قصَّ القصصَ يُسمّى قصًّا؛ وذلك لاتّباعه خبرًا بعد خبر[2]، ويُقال: قصّ عليه القصّةَ: رواها، وقصّ عليه الخبر قصًّا وقصصًا: أعلمهُ به، وأوردهُ على وجهِه، والقاصُّ: مَنْ يأتي بالقصّةِ على وجهها، كأنّه يتتبّعُ معانيَها وألفاظَها، والقِصّةُ: الخبرُ ذو الأمورِ المتتالية[3].

وأصلُ (حكى) يدلُّ على إحكام الشّيء بعقدٍ أو تقريرٍ، يُقال: حَكَيْتُ الشَّيءَ أَحْكيه، وذلك أنْ تفعلَ مثل فعلِ الأوَّلِ[4]، وحَكَيْتُ عنه الكلام حِكايةً، وحَكَيْتُ فِعْلَهُ وحاكَيْتُهُ إذا فعلتَ مثلَ فعلِه وهيئته، أي أتى بمثلِه وشابهه، والمحاكاة: المُشابهة، والحِكاية: ما يُحكى ويُقصّ وقع أو تُخيِّل[5]، وحَكَيْتُ عنه الكلام حِكايةً: نقلتُه[6]، والحِكاية: هي إيرادُ اللّفظِ على استيفاءِ صورتِه الأولى، وتساهلَ قومٌ في إطلاقِ لفظِ الحكاية بمعنى الإخبار[7].

إذن: يتميّز القصُّ بمعنى التّتبّعِ، فالذي يقصُّ القصّةَ يتتبّعُ أحداثَها المُتتاليةَ وألفاظَها ومعانيَها؛ ليرويَها متتاليةً متتابعةً كما حدثت.

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (قص).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (قصص).
(3) الزّبيديّ، تاج العروس، ومجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (قصص).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حكى).
(5) الجوهريّ، الصّحاح: (حكى).
(6) الزّبيديّ، تاج العروس: (حكى).
(7) الكفويّ، الكليّات، ص: 406.

في حينِ يتميّزُ الحكيُ بمعنى المحاكاة أي المُشابهة، فالذي يحكي القصّةَ يحرصُ أنْ يأتيَ بها على وجهٍ يشابهُها في صورتها الأُولى.

"وحكاياتُ القرآن عنِ الغيرِ إنّما هو مُعرِبٌ عن معانيهم، وليس بحقيقةِ ألفاظِهم، فلا يُقال كلامُ اللّه محكيٌّ، ولا يُقال أيضًا: حكى اللّه كذا، إذ ليس لكلامه مثلٌ"[1]، ولهذا أسندَ سبحانه القصّ إلى ذاتِه فقال: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ﴾ [يوسف: 3]، ولم يقل: (نحكي).

الرّؤيةُ والرّؤيا:

الـرّؤيـةُ النّـظـرُ بالعينِ والقلبِ، والـرّؤيـا ما يـراهُ النّائمُ في منامِه

يتقاربُ لفظا (الرّؤية، الرّؤيا)، فكلاهما مصدرٌ لفعلِ (رأى)، إلّا أنّ الفرقَ بينَهما هو أنّ الرّؤية: هي النّظرُ بالعينِ والقلبِ، والرّؤيةُ بالعين تتعدّى إلى مفعولٍ واحدٍ، والرّؤيةُ العلميّةُ (أي بالقلب) تتعدّى إلى مفعولين[2].

في حين أنّ الرّؤيا: ما رأيتَه في منامك، تقولُ: رأيتُ رؤيا حسنةً[3]، والرّؤيا تتعدّى إلى مفعولٍ واحدٍ.

(1) الكفويّ، الكلّيات، ص: 409.
(2) ابن منظور، لسان العرب: (رأى).
(3) الخليل، العين، وابن منظور، لسان العرب: (رأي).

﴿وَكَذَٰلِكَ يَجۡتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعۡقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيۡكَ مِن قَبۡلُ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ٦﴾ [يوسف: 6]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمّا علمَ يعقوبُ عليه السلام من هذه الرُّؤيا ما سيصيرُ إليه ولدُه منَ النّبوّةِ والملكِ قال: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجۡتَبِيكَ﴾ أي قد اجتباكَ ربُّك للاطّلاع على هذه الرّؤيا العظيمةِ الدّالّةِ على شرفٍ وعزٍّ، ومثلُ ما اجتباك لها ﴿يَجۡتَبِيكَ﴾ أي يختارك ويجمعُ لكَ معاليَ الأمور[1].

كما أكرَمكَ ربُّك بهذه الرّؤيا، يَستخلِصُكَ بالنُّبوَّةِ ويُحسنُ إليكَ بتحقيقِ الرّؤيا

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَجۡتَبِيكَ﴾: أصلُ (جبي) يدلُّ على جَمْعِ الشَّيْءِ والتَّجَمُّعِ[2]، فالاجْتِباءُ: الجَمْعُ على طَريقِ الاصْطِفاءِ، واجْتَباهُ لنفسِه: اخْتارَهُ واصْطَفاهُ، وهو مشتقٌّ مِنْ جَبَيْتُ الشّيءَ إذا خَلَّصْتَهُ لِنَفْسِكَ[3]، أو حَصّلْتَه لنفسِك[4]، "واجتباءُ اللّه العبدَ: تخصيصُه إيّاه بفيضٍ إلهيٍّ يتحصّلُ له منه أنواعٌ منَ النّعم بلا سَعْيٍ منَ العبد، وذلك للأنبياءِ وبعضِ من يقاربُهم منَ الصّديقين والشُّهداء"[5]. والمرادُ بـ ﴿يَجۡتَبِيكَ﴾: يختاركَ ويصطفيكَ لنبوّتِه[6].

2) ﴿تَأۡوِيلِ﴾: من آلَ يَؤولُ، أيْ: رجعَ، ومنه تأْويلُ الكَلام، وهو عاقبتُهُ وما يَؤولُ إليه[7]، والتَّأْويلُ: تفسيرُ ما يَؤولُ إليه الشّيءُ، وأَوَّلَهُ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/18.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (جبي).
(3) ابن منظور، لسان العرب، والزّبيدي، تاج العروس: (جبي).
(4) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (جبا).
(5) الرّاغب، المفردات: (جبي).
(6) ابن جرير، جامع البيان: 15/560، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/371.
(7) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (أول).

تَأْويلًا وتَأَوَّلَهُ بمعنًى واحدٍ[1]، وتأوّله: دبّره وقدّره وفسّره[2]؛ لتَبين حقيقتُه؛ أي المرادُ به، ومنه تأويلُ الرّؤيا أي: استخلاصُ ما يتحصّلُ منَ الرّموز والألفاظ، أي المرادُ إبلاغُ الرّائي إيّاه بها[3]، والتَّأويلُ: الرجوعُ إلى الأصل، وهو ردُّ الشّيءِ إلى الغايةِ المُرادةِ منه قولًا كان أو فعلًا[4]. ومعنى ﴿تَأْوِيلِ﴾ في الآية: تعبيرُ الرُّؤيا، والإخبارُ بما تؤول إليه في الوجود[5].

3) ﴿ٱلْأَحَادِيثِ﴾: جمع (حديث)، أصلُه من (حدث)، وهو كَوْنُ شيءٍ لم يَكُنْ، ومنه الحَدِيثُ؛ لأنّه كَلامٌ يَحْدُثُ منه الشَّيءُ بَعْدَ الشَّيءِ[6]، والحديثُ: نقيضُ القديم، والحديثُ: الخبرُ قليلُه وكثيرُه، وهو ما يُحدِّثُ به المُحَدِّثُ تَحْدِيثًا، واستحدثتُ خبرًا، أي وجدتُ خبرًا جديدًا[7]، "وكلُّ كلامٍ يبلغُ الإنسانَ من جهةِ السّمع، أوِ الوحيِ في يقظته، أو منامِه، يُقالُ له: حديثٌ"[8]، ومعنى ﴿ٱلْأَحَادِيثِ﴾ في الآية: الرّؤيا، أي: أحاديثُ النّاس عمّا يرونَه في منامهم، وقيل: أحاديثُ الأنبياء والأممِ[9].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

قال يعقوبُ لابنِه يوسفَ: وكما أراكَ ربُّك هذه الرُّؤيا فكذلك يَصطَفيك للنبُوَّةِ، ويعَلِّمُك من علم ما يؤول إليه أحاديثُ النّاس، عمّا يرونَه في منامهم، وذلك تعبيرُ الرُّؤى، ومِن معاني كتُبِ اللّه وسُننِ الأنبياءِ، ويُتِمُّ نِعمتَه عليك وعلى آلِ يَعقوبَ بالنُّبُوَّةِ والرِّسالة،

البُشرى بالاجتباءِ والتّعليمِ، وإتمامِ النّعمةِ على يوسفَ، وعلى آلِ يعقوبَ

(1) الرّازيّ، مختار الصّحاح: (أول).
(2) الزّبيديّ، تاج العروس: (أول).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (أول).
(4) الرّاغب، المفردات: (آل).
(5) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/155، والزّحيليّ، التّفسير الوسيط: 2/1092.
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حدث).
(7) الجوهريّ، الصّحاح، والزّبيديّ، تاج العروس: (حدث).
(8) الرّاغب، المفردات: (حدث).
(9) الواحديّ، التّفسير البسيط: 12/24، وأبو حيّان، البحر المحيط: 6/255.

كما أتمَّها مِن قبلُ على أبوَيك إبراهيمَ وإسحاقَ بالنُّبُوَّةِ والرِّسالةِ، إنَّ ربَّك عليمٌ بمن يَصطفيه مِن عبادِه، حَكيمٌ في تدبيرِ أمورِ خَلقِه[1].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

دَلالةُ الواوِ في قوله ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾:

الواو عاطفةٌ، عطَفَت قولَه تَعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجۡتَبِيكَ رَبُّكَ﴾ على تحذيره من قصِّ الرّؤيا على إخوته ﴿لَا تَقۡصُصۡ رُءۡيَاكَ عَلَىٰٓ إِخۡوَتِكَ﴾؛ إعلامًا له بعُلوِّ قدْرِه ومُستقبلِ كَمالِه، كي يزيد تَمَلِّيًا من سُمُوِّ الأخلاق فَيَتَّسِعَ صدرُه لاحتمالِ أذى إخوَتِه، وصَفْحًا عن غيرتهم منه وحسدِهم إيَّاه؛ لِيَتَمَحَّضَ تَحذيرهُ لِلصَّلاحِ، وتَنْتَفِيَ عنه مفسدةُ إثارةِ البغضاءِ ونحوها، حِكْمَةً نَبَوِيَّةً عَظيمةً وَطِبًّا رُوحانِيًّا نَاجِعًا[2].

عطفٌ فيه إعلامٌ بعُلوِّ قدْرِ يوسفَ، ومُستقبلِ كَمالِهِ

بلاغةُ التّشبيهِ في: ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾:

المُشارُ إليه في قولِه: ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ هو ما دلّتْ عليه الرُّؤيا منَ العنايةِ الرَّبَّانِيَّة به، أيْ ومِثْلُ ذلك الاجْتباءِ يجتبيكَ رَبُّكَ في المستقبل. والكافُ للتّشبيه "والتَّشبيهُ هنا تَشبيهُ تَعليلٍ؛ لأنَّه تشبيهُ أحدِ المعْلولَين بالآخرِ لاتّحادِ العلّة"[3]، والمعنى: وكما اجتباكَ لمثلِ هذه الرّؤيا العظيمةِ الدّالّةِ على شرفٍ وعزٍّ وكبرياءِ شأنٍ، كذلك يجتبيكَ ربّك لأمورٍ عظامٍ[4]، وهذا فيه بشرى ليوسفَ وتهيئةٌ وإعدادٌ له لِما سيكونُ من أمرِ نبوّتِه.

اجتباءُ يوسفَ يبدو في تعليلٍ وتبشيرٍ، وتهيئةٍ لشأنٍ عظيمٍ

سِرُّ إيثارِ لفظِ الاجتباء في ﴿يَجۡتَبِيكَ﴾:

آثرَ البيانُ القرآنيُّ استعمالَ مُفردة (الاجتباء) في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجۡتَبِيكَ﴾ دونَ غيرِها مثلِ الاصطفاء أوِ الاختيار، لأمورٍ منها:

اجتباءُ اللهِ ليوسفَ عليه السلام، تخصيصٌ له بفيضٍ إلهيٍّ جامعٍ، لكلّ أنواعِ النِّعمِ

(1) ابن جرير، جامع البيان: 15/560.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/215.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/215.
(4) الزمخشري، الكشاف: 2/444.

الاجتباءُ أبلغُ في إنعام اللّه منَ الاصطفاءِ والاختيار، إذ معنى الاجتباء في اللّغة يدلُّ على الجمع والتّجمّع[1]، وهو الجمعُ على طريقِ الاصطفاءِ والاختيارِ، وجَبَيْتَ الشيءَ إذا خَلَّصْتَهُ لِنَفْسِكَ[2]، أو حَصّلْتَه لنفسِك[3]، فاجتباءُ اللّه لعباده: تخصيصُ مَنِ اختارهم واصطفاهم بفيضٍ إلهيٍّ تتجمّعُ له أنواعٌ منَ النّعم بلا سعيٍ منهم، وتحصيلُهم والاعتناءُ بهم، وكأنّه خلّصَهم لنفسه.

والاجتباءُ: أوسعُ دلالةً منَ الاختيارِ والاصطفاء، فالاجتباءُ يتضمّنُ معنى الاختيار والاصطفاء، فاللّه تعالى اختارَ يوسفَ من بين إخوته، أو من بين كثيرٍ من خلْقِه، واصطفاه فخلّصه من كلّ شَوْبٍ، واستخلصهُ لنفسه.

والاجتِباءُ اختِيارُ مَعالي الأُمورِ لِلْمُجتَبَى، قال النَّحّاسُ: وهذا ثَناءٌ منَ اللّه تعالى على يوسفَ عليه السلام، وَتَعديدٌ فِيما عَدَّدَهُ عليه مِنَ النِّعَمِ التي آتاهُ اللّه تعالى مِنَ التَّمكينِ في الأرض، وتَعليمِ تَأْويلِ الأَحادِيثِ[4].

استعمالُ صيغةِ المضارعِ ﴿يَجْتَبِيكَ﴾:

استعملَ القرآنُ صيغةَ المضارعِ في قوله: ﴿يَجْتَبِيكَ﴾؛ للدّلالةِ على حدوثِ الاختيارِ والاصطفاءِ لمعالي الأمور، وأعظمُها النُّبوَّةُ، وأنّه اصطفاءٌ مُستمرٌّ مُتجدِّدٌ، أيْ أنّ النُّبوةَ ستستمرُّ في أبناءِ يعقوبَ من نسْلِ إبراهيم، لتحِلَّ على يوسفَ البركةُ، وتتمثّلَ فيه السّلسلةُ المباركةُ في بيتِ إبراهيمَ عليه السلام.

اصطفاءُ يوسُفَ للنُّبوّةِ مُتجدّدٌ، وبركتُه مُتجدّدةٌ خالدةٌ في القرآنِ الخاتَمِ

وعلى تَصويرِ مشهدِ الاصطفاءِ في المُخيّلة، والّذي يُبرِزُ ويُظهرُ أكثرَ بما عَطَفَهُ عليه من بشائرَ متجدّدةٍ جاءت كذلك بصيغةِ المضارع ﴿وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (جبي).
(2) ابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس: (جبي).
(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (جبا).
(4) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 9/129.

﴿يَعۡقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيۡكَ مِن قَبۡلُ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَۚ﴾، بما يحملُه هذا التّصويرُ ليوسُفَ من طُمأنينةٍ بعد أنْ حذّره والدُه من عداوةِ الشّيطان له ولإخوتِه.

إيثارُ التّعبير بلفظِ الرّبوبيّة ﴿رَبُّكَ﴾:

الرّبُّ المُربّي، هو من يَجتبي ويعلّمُ ويتمُّ النّعمةَ

ذكرَ البيانُ القرآنيُّ لفظَ الرّبوبيّة ﴿رَبُّكَ﴾ الذي جاء فاعلًا لفعلِ الاجتباء، دون لفظِ الألوهيّة فلم يقل: (وكذلك يجتبيك اللّه)؛ لأنّ لفظَ الرّبوبيّة يدلُّ على التّربيةِ والرّعاية والعنايةِ والعطاءِ، وهذا أنسبُ للسّياقِ الذي تضمّنَ مُفرداتِ ﴿يَجۡتَبِيكَ﴾ و﴿وَيُعَلِّمُكَ﴾ و﴿وَيُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعۡقُوبَ﴾.

سرُّ إضافةِ لفظِ الرّبوبيّة إلى ضميرِ المخاطَبِ:

اجتباءُ اللّه عنايةٌ وتَطمينٌ ليوسفَ عليه السلام

أضاف البيانُ القرآنيّ لفظَ الرّبوبيّة ﴿رَبُّكَ﴾ إلى ضميرِ نبيِّ اللّه يوسفَ عليه السلام في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجۡتَبِيكَ رَبُّكَ﴾؛ للإشارةِ إلى مدى عنايتِه وإحسانِه ورحمتِه ولُطفِه بيوسُفَ عليه السلام وتشريفِه ورفعِ مكانتِه، وهذا تَطمينٌ لقلبه وإزالةٌ للمخاوف التي قد تكونُ لحقتْهُ ممّا قد يُضمرُه له إخوتُه، والمعنى: "وكذلك يجتبيك ربّك المُربّي لك بالإحسان للملكِ والنّبوّة"[1].

دَلالةُ عطْفِ الجُمل بعضِها على بعضٍ:

عطاءُ اللّه ليوسفَ مُتكاملٌ مُتنوّعٌ فهو اجتباءٌ وتعليمٌ له وإتمامٌ لنعمتِه عليه

عُطفتِ الجُملُ: ﴿يَجۡتَبِيكَ رَبُّكَ﴾ ﴿وَيُعَلِّمُكَ﴾ ﴿وَيُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكَ﴾ عطْفَ بيانٍ، ونجدُ أنّ عطفَ البيانِ الإلهيِّ جملةَ ﴿وَيُعَلِّمُكَ﴾ على ما قبْلَها: ﴿يَجۡتَبِيكَ رَبُّكَ﴾ بالواو؛ لوجودِ مناسبةٍ بين الجُملِ المتعاطفةِ؛ إذ لا يصحُّ العطفُ إذا افتُقِدتِ المناسبةُ، والمناسبةُ هنا ضمنيّةٌ في الأفعال، فكلُّها من عطاءِ اللّه ونِعمِه على يوسُفَ، والفاعلُ فيها جميعًا واحدٌ وهو اللّه سبحانه وتعالى، والمفعولُ فيها جميعًا واحدٌ وهو

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/18.

يوسُفُ عليه السلام، وبينها ارتباطٌ وثيقٌ؛ فالاجتباءُ مرتبطٌ بتعليم الله، كما أنّ إتمامَ النّعمةِ مرتبطٌ بالاجتباءِ والتّعليم، وممّا حسَّنَ الوصْلَ هنا أنَّ الأفعالَ جميعًا مضارعةٌ تدلُّ على التّجدّد الحُدوثيِّ.

وأمّا ما يُضيفُه العطفُ - إذ يقتضي التّغايُرَ - فهو زيادةُ وتنوّعُ العطاء منَ الاجتباءِ والاصطفاءِ إلى تعليمِه من تأويل الأحاديث إلى ارتقاءِ العَطاءِ بإتمام النّعمةِ على يوسفَ وآلِ يعقوبَ بسببِه.

حرفُ ﴿مِن﴾ بين التّبعيضِ والتّوكيدِ والبيانِ:

قولُه تعالى: ﴿وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾، نجدُ ﴿مِن﴾ في قوله تعالى: ﴿مِن تَأْوِيلِ﴾: حرفَ جرٍّ، يحتمل ثلاثة معانٍ: **الأوّلُ**: توكيديّةٌ، قاله مقاتل[1]، والمعنى: ويعلّمُك تأويلَ الأحاديث، و**الثّاني**: تبعيضيّةٌ، والمعنى: ويعلّمك بعضَ تأويلِ الأحاديث منَ الرّؤيا، وغيرِها من كُتبِ الله وسُنن الأنبياء، وغوامضِ ما تدلّ عليه المخلوقاتُ[2]، و**الثّالثُ**: بيانيّةٌ، والمعنى: وَيُعَلّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الأحاديث أيِّ ذلك الجنسِ منَ العلوم[3].

تنوّعُ دلالاتِ حروفِ المعاني في السّياق، مفيدٌ في تنوّعِ الدّلالةِ

إيثارُ لفْظِ ﴿تَأْوِيلِ﴾ في السّياقِ:

قولُه تعالى: ﴿وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾، وفيه عبّر البيانُ القرآنيُّ بمُفردةِ ﴿تَأْوِيلِ﴾ دون غيرِها منَ المفردات؛ لكونها أوسعَ دلالةً من غيرها؛ إذ إنّ التّأويلَ يُراد به عدّةُ معانٍ، منها: معنى التّفسير والتّعبير والبيانِ، ومنها الرّجوعُ إلى الأصل، أو ما تؤول إليه عاقبةُ الشّيء؛ فالتّأويلُ مأخوذٌ من الأَوْلِ، وهو الرّجوع[4]، أي التّأويلُ حقيقةُ الشّيء، وما يؤولُ أمرُه إليه[5]، ومنها معنى التّدبير

التّأويلُ أنسبُ مع الرُّؤى وغوامضِ الكلامِ، في مثل هذا الموقفِ

(1) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التّفسير: 2/414.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/18، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/253.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/253.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (أول).
(5) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 2/11.

والتّقديرِ واستخلاصِ ما يتحصّل منَ الرّموز وغوامضِ الكلام؛ يقال في اللّغة: تأوّله أي دبّره وقدَّره وفسّره[1]، إذن فلفظُ التّأويلِ أنسبُ مع الرّؤى التي هي في حقيقتها رموزٌ وغوامضُ تحتاجُ إلى تدّبّرٍ وتقديرٍ لاستخلاصِ المعاني الحقيقيَّةِ المُرادة، وأنسبُ مع تفسيرِ غوامض الكتابِ وسُننِ الأنبياءِ التي تحتاج كذلك إلى تدبّرٍ وتقديرٍ واستخلاصٍ للمعاني الحقيقيّةِ، لا مجّردَ الوقوفِ على المعاني الظّاهرة.

ولو عبّر القرآنُ بغير هذه اللّفظةِ (التّأويل)، لفاتت هذه المعاني، وخاصّةً التّأويلُ بمعنى التفسير بما يؤول إليه الشّيءُ أي عاقبتُه، والمعنى المرادُ والواقعُ في الوجود على الحقيقة، قال أبو السّعود: " وتسميةُ التّعبير تأويلًا؛ لأنّه جُعل المرئيُّ آيلًا إلى ما يذكره المعبِّرُ، بصدد التّعبير ورجْعِه إليه، فكأنّه عليه السلام، أشار بذلك إلى ما سيقعُ من يوسفَ عليه السلام، من تعبيره لرؤيا صاحبَي السّجنِ ورؤيا الملِك، وكونِ ذلك ذريعةً، إلى ما يبلّغُه اللّه تعالى إليه منَ الرّياسة العُظمى الّتي عبّرَ عنها بإتمام النّعمةِ"[2].

معنى ﴿ٱلۡأَحَادِيثِ﴾، وسِرُّ استعمالِها في السّياق:

قولُه تعالى: ﴿وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِ﴾، وفيها ذكر المفسّرون مَعنيَين لمفردةِ ﴿ٱلۡأَحَادِيثِ﴾، هما:

الأوّلُ: الأحاديثُ هي الرّؤى، قاله مجاهد، وسُمّيت أحاديثَ؛ لأَنَّ الرُّؤَى بمعناها العامّ إمّا حَديثُ نَفسٍ أَو مَلَكٍ أو شَيْطانٍ، وتأويلُها عبارَتُهَا وتَفسيرُها، فكانَ يوسفُ عليه السلام أَعبَرَ النَّاسِ لِلرُّؤيَا وَأَصَحَّهُم عبارَةً[3]، وسُمّي تعبيرُها تأويلًا؛ لأنّه يؤولُ أمرُها إلى ما رأى في

العلومُ اليوسفيّة وهبيّةٌ لدُنّيّة، رفعتْه مكانًا عليًّا

(1) الزبيديّ، تاج العروس: (أول).
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/254.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/444.

منامه، والتّأويلُ ما يؤولُ إلى عاقبة الأمرِ[1]، والمعنى: ويُعلّمك ربُّك من علمِ ما يؤولُ إليه أحاديثُ النّاس عمّا يرونَه في منامهم، وذلك تعبيرُ الرّؤيا[2].

الثّاني: الأحاديثُ هي كتبُ اللّه وسننُ الأنبياء، وما غمُضَ واشتبه على النّاس من أغراضها ومقاصدِها[3]، والعلمُ والحكمةُ كما ورد عن ابن زيدٍ[4]، وتأويلُها بأنْ يفسّرَها لهم ويشرحَها، ويدلَّهم على مُودَعاتِ حِكَمها، وسُمّيت أحاديثَ، لأنّه يُحدّثُ بها عنِ اللّه ورسُلِه، فيقال: قال اللّه وقال الرّسول كذا وكذا، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ١٨٥﴾ [الأعراف: 185]، ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ﴾ [الزمر: 23] وهو اسمُ جمْعٍ للحديث وليس بجمْعِ أُحدوثةٍ[5]، وفي هذا إشارةٌ إلى أنّ أجلّ النّعمِ، وأشرفَ العلوم: علمُ تأويلِ كتابِ اللّه ﷻ[6].

ومن ثَمَّ يتبيّنُ لنا سرُّ التّعبير بالأحاديث دونَ الأخبار؛ إذ إنّه رغمَ التّقارُبِ الدّلاليِّ في المعنى بينهما، إلّا أنّ الحديثَ يشملُ كلَّ كلامٍ يبلغُ الإنسانَ من جهةِ السّمع، أو الوحيِ في يقظته، أو منامِه[7]، ويشملُ حديثَ النّفس، يُقال: فلانٌ يحدّثُ عن نفسه بكذا، وهو حديثُ النّفس، ولا يُقال يُخبرُ عن نفسهِ ولا هو خبرُ النّفس[8]، وفي معنى الحديث الجِدّةُ، من قولهم: "استحدثتُ خبرًا أي وجدتُ خبرًا جديدًا"[9]، بما يشيرُ إلى أنّ ما علّمه اللّه إيّاه منَ التّأويل هو علومٌ جديدةٌ.

إيثارُ لفظِ الإتمام:

عبّرَ البيانُ القرآنيّ بلفظِ إتمامِ النّعمة ﴿وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ﴾، ولم يقل: ويُنعمُ عليك؛ إشارةً إلى أنّهُ سُبحانه وصلَ ليوسفَ وآلِ يعقوبَ نعمةَ الدّنيا بنعمةِ الآخرة، بأنْ جعلهم أنبياءَ في الدّنيا وملوكًا، ونقلهم عنها إلى الدّرجاتِ العُلا في الجنّة[10].

(1) البغويّ، معالم التّنزيل: 4/214، والماورديّ، النّكت والعيون: 3/8.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 15/560.
(3) البيضاويّ، أنوار التّنزيل وأسرار التّأويل: 3/155.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/239.
(5) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/445.
(6) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 8/255.
(7) الرّاغب، المفردات: (حدث).
(8) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 41.
(9) الجوهريّ، الصّحاح: (حدث).
(10) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/445.

وإشارةً إلى أنّ هذا العطاءَ وهو إتمامُ النّعمة أعلى وأكملُ منَ العطاءاتِ السّابقة منَ الاجتباءِ والتّعليم؛ إذ إنّ في الاجتباءِ والتعليم نعمةً؛ فلو عبّر بقوله: وينعمُ عليكَ لكان في الكلامِ تَكرارٌ.

التّمامُ المُطلقُ في حقِّ البشرِ، ليس إلّا النّبوّة

ولِما في التّعبير بالإتمام منَ الدّلالةِ على أنّ إتمامَ النّعمةِ عبارةٌ عمّا به تصيرُ النّعمةُ تامّةً كاملةً خاليةً عن جهاتِ النُّقصان، قال الرّاغبُ: "تَمامُ الشّيء: انتهاؤُه إلى حدٍّ لا يحتاجُ إلى شيءٍ خارجٍ عنه"[1]، وهذا ما جعلَ الرّازيَّ يُرجّحُ أنّ معنى إتمامِ النّعمةِ هو النّبوّةُ؛ إذ قال: "وما ذاكَ في حقّ البشر إلّا بالنّبوّة، فإنّ جميعَ مناصبِ الخلْقِ دون منصبِ الرّسالةِ ناقصٌ بالنّسبةِ إلى كمالِ النّبوّة، فالكمالُ المطلقُ، والتّمامُ المطلقُ في حقِّ البشر ليس إلّا النّبوّةَ"[2].

ومن إتمامِ النّعمةِ على يوسُفَ عليه السلام، أنْ يُخلِّدَ اللّه ذكرَه في القرآن، وأنْ تكونَ له سورةٌ كاملةٌ سُميّت باسمِه، وأنْ يبقى قدوةً للأمّةِ الخاتمةِ في الصّبر والعفّة والدّعوة، والعفوِ والمسامحةِ والتّخطيطِ الاقتصاديّ وغيرِ ذلك، ممّا تحملُه قصّتُه من معانٍ إيمانيّةٍ وتربويّةٍ، وأنْ يصفهُ سيّدُ ولدِ آدمَ ﷺ بقوله: «الكريمُ بنُ الكريمِ بنِ الكريمِ بنِ الكريمِ يوسفُ بنُ يعقوب بنِ إسحاق بنِ إبراهيم» عليهم السلام[3].

فائدةُ التّعبيرِ بـ: ﴿عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾:

يفيدُ التّعبيرُ القرآنيُّ ﴿عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾، بأنَّ نِعمةَ اللّه على العبدِ نِعمةٌ على مَنْ يتعلَّقُ به من أهلِ بَيتِه وأقاربِه وأصحابِه، وأنَّه رُبَّما شَمِلَتْهم، وحصلَ لهم ما حصَلَ له بسَبَبِه؛ إذ لَمَّا تمَّتِ النِّعمةُ على يوسُفَ، حصلَ لآلِ يعقوبَ مِن العزِّ والتَّمكينِ في الأرضِ، والسُّرورِ والغِبطةِ ما حصلَ بسبَبِ يوسُفَ[4].

إتمامُ النّعمةِ بلمِّ الشّملِ، من أكبرِ ما ينالُه المُنعَمُ عليه

(1) الرّاغب، المفردات: (تمّ).
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 18/421.
(3) رواه البخاري في صحيحه، كتاب الأنبياء، الحديث رقم: (3210).
(4) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 407.

دَلالةُ معنى حرْفِ الجرِّ (على):

نعمةُ الله على يوسُفَ مُتمكّنةٌ عاليةُ الشّرفِ والإعظامِ والجَدارةِ

قولُه تعالى: ﴿وَيُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعۡقُوبَ﴾، نجدُ في استعمالِ حرفِ الجرّ (على) الّذي يفيدُ الاستعلاء، وفي تَكراره بعد العطفِ إشارةً إلى عُلوّ مكانةِ وشرفِ النِّعمة التي أكرمَ اللّه بها يوسُفَ، وأتمّها عليه وعلى آلِ يعقوبَ، وإحاطتِها به وبهم، وشمولِها وتمكّنِها.

وفي مجيئِها في سياقِ التّكريمِ بالاجتباءِ والتّعليمِ وإتمامِ النّعمةِ على يوسفَ وآلِ يعقوبَ بسببه إشارةٌ إلى عُلوٍّ ورفعةِ وعظمةِ شأنِ يوسفَ عليه السلام.

معنى الواوِ في: ﴿وَعَلَىٰٓ﴾:

إتمامُ النِّعمةِ على يوسفَ بالنّبوّةِ، وعلى آل يعقوبَ بالتّمكينِ

الواوُ في قوله تعالى: ﴿وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعۡقُوبَ﴾ عاطفةٌ، والمعطوفُ عليه هو قولُ اللّه سُبحانه: ﴿عَلَيۡكَ﴾، والمعنى العامُّ الذي يجمعُ المعطوفَ والمعطوفَ عليه هو إتمامُ النّعمةِ على يوسفَ وآلِ يعقوب، ولكنّ إتمامَ النّعمةِ على يوسُف يختلفُ عن إتمامها على آلِ يعقوبَ اختلافَ السّببِ عنِ المسبّبِ؛ إذ كان إتمامُ النّعمة عليه بالنّبوّةِ، أو بسعاداتِ الدّنيا وسعاداتِ الآخرة سببًا في إتمامِ النّعمة على إخوته وأهلِه وأقاربِه بما تحصّلَ لهم منَ العزّ والتّمكين، وبذلك اكتملتْ - بهذا العطفِ - صورةُ إتمامِ النّعمة على يوسفَ عليه السلام.

التّشبيهُ في ﴿كَمَآ أَتَمَّهَا﴾:

في التّشبيهِ تذكيرٌ ليوسفَ بنعمٍ سابقةٍ على أبويهِ إبراهيمَ وإسحاقَ

التّشبيهُ في قوله: ﴿كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيۡكَ مِن قَبۡلُ﴾، تذكيرٌ له بنِعَمٍ سابقةٍ، وليست ممّا دلَّت عليه الرّؤيا أنْ جعلَ إبراهيمَ وإسحاقَ عليهما السلام أبوين له، لأنّ لهما ولادةً عليه، فهما أبواه الأعْليان بقرينةِ المقام، كقولِ النّبيّ ﷺ: «أنا ابنُ عبدِ المطّلب»، وبذلك اجتمعَ ليوسُفَ عليه السلام من عراقةِ النّسب ما لم يجتمعْ لأحدٍ منَ العالمين إلّا لنبيّنا محمّدٍ ﷺ، حيث إنّ نسبَ يوسف عليه السلام، مُسلسلٌ بالأنبياء،

قال ﷺ: «الكريمُ بنُ الكريمِ بنِ الكريمِ بنِ الكريم يوسفُ بنُ يعقوب بنِ اسحاقَ بنِ إبراهيمَ» عليهم السلام[1].

ثمّ إنْ كانَ المرادُ من إتمامِ النّعمة النُّبُوءَةَ، فالتّشبيهُ تَامٌّ، وإنْ كانَ المرادُ من إتمامِ النّعمةِ الملكَ فالتّشبيهُ في إتمامِ النّعمةِ على الإطلاق[2].

معنى (ما)، وموقعُ الجملةِ بعدَه:

(ما) في قوله تعالى: ﴿كَمَآ أَتَمَّهَا﴾ مصدريةٌ، والمصدرُ المؤوّلُ (ما أتمّها) في محلّ جرٍّ بالكاف متعلّقٌ بمحذوف مفعولٍ مطلقٍ عاملُه يُتمّ، والمعنى ويُتمّ نعمتَه عليك إتمامًا كائنًا كإتمامِ نعمتِه على أبويك[3].

(ما) المصدريّةُ، بيانٌ لعِظمِ النّعمةِ على يوسفَ

بَلاغةُ الإطنابِ في السِّياق:

قولُه تعالى: ﴿كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ﴾، عبّر البيانُ الإلهيُّ عنِ المعنى بألفاظٍ زائدةٍ عليه، فلم يكتفِ بقوله: ﴿كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ﴾، وهو لفظٌ مجملٌ، بل أتبعَها بتفصيلِه بقوله: ﴿إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ﴾، وفي هذا الإطنابِ زيادةٌ ومبالغةٌ في إدخالِ الطّمأنينةِ على نفسِ يوسفَ عليه السلام بذكرِ إبراهيمَ وإسحاق عليهما السلام.

في الإطنابِ مبالغةٌ في إدخالِ الطُّمأنينة على نفسِ يوسفَ عليه السلام

دَلالةُ تصديرِ الجُملةِ بأداة التّأكيدِ:

قولُه تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾، وفيه صدّرَ البيانُ الإلهيُّ الجملةَ بـ ﴿إِنَّ﴾ للاهتمامِ لا للتّأكيدِ؛ إذْ لا يَشُكُّ يوسفُ عليه السلام في عِلمِ اللّه وحِكْمتِه، والاهتمامُ ذَريعةٌ إلى إفادةِ التّعليلِ، والتّفريعُ في ذلك تَعريضٌ بالثّناءِ على يوسُفَ عليه السلام، وتَأهُّلِه لمثلِ تلك الفضائلِ[4].

اهتمامٌ يومئُ إلى عنايةِ الله بيوسفَ بما يُطمئِنُ قلبَه ويحميه

(1) رواه البخاري في صحيحه، كتاب الأنبياء، الحديث رقم: (3210).
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/217.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/254.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/217.

وفي هذا الاهتمامِ بما يبشِّرُهُ به منَ الاجتباءِ والتّعليمِ وإتمامِ النّعمة تسهيلٌ لِما سينالهُ منَ المشقّات والكروبِ مع إخوتِه، وفي السِّجن، وغيرِ ذلك؛ لأنّه من عَلِمَ أنَّ المكارهَ والمشقّاتِ تُفضي إلى خيرٍ وراحةٍ تسلَّى بها، وهانتْ عليه مشقّتُها، وسَهُلَتْ عليه وطأتُها، وحصَلَ بذلك منَ اللُّطفِ شيءٌ عظيمٌ، وهذا من جملة اللّطفِ الذي أشارَ إليه سيّدُنا يوسفُ في قوله في آخرِ القصّة: ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ١٠٠﴾ [يوسف: 100].

نُكتةُ التّعبيرِ بلفظِ الرُّبوبيّةِ:

التّأكيدُ على عنايةِ اللهِ وحفْظِهِ ليوسفَ عليه السلام

كرّرَ البيانُ القرآنيُّ لفظَ الرّبوبيّة ﴿رَبُّكَ﴾ مرّتين؛ في قوله: ﴿يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ﴾، وقولِه: ﴿إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾؛ لكونِ هذا اللّفظِ أنسبَ للسّياق من لفظِ الألوهيّة، كما سبق، وفي تكريره تأكيدٌ على رعايةِ اللّه وعنايتِه بيوسفَ عليه السلام.

وأمّا تكرارُ إضافتِه في المرّة الثّانية إلى ضمير نبيِّ اللّه يوسفَ عليه السلام ﴿إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾؛ فهو للتّأكيدِ على عنايةِ اللّه بهِ وتشريفِه له، وأنّه المدبِّرُ لأموره، أي إنّ ربّك سيتولّى أمرَك، وسيرعاكَ ويحفظُكَ ويوصلُكَ إلى تلك الكراماتِ.

مُناسبةُ الفاصلةِ للسّياق:

لا يَقدِرُ على تمام النِّعمِ، إلّا بليغُ العلْمِ والحِكمةِ

جاءتِ الفاصلةُ ﴿عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ متمكّنةً في نظْمِ الآية ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾؛ لتحسينِ الكلامِ، وإحكامِ معناه؛ أمّا تحسينُ الكلامِ: فلِما في التّشابُهِ بينَها وبين ما قبلَها ﴿مُّبِينٌ﴾ وما بعدَها ﴿لِّلسَّآئِلِينَ﴾ منَ العُذوبةِ وراحةِ النّفس.

وأمّا إحكامُ المعنى: فقد جاءتْ مستقرَّةً في مكانها، مطمئنَّةً في موضعِها، غيرَ نافرةٍ ولا قلقةٍ، بل تشكّلُ جُزءًا من معنى الآية، ولو

طُرحت لاختلّ المعنى؛ لارتباطها بما قبلها ارتباطًا وثيقًا، فإنّ سياقَ الآيةِ يمهّدُ للفاصلةِ بما يُعرفُ بالتّصدير والتّوشيح؛ أمّا التّصديرُ: فقد تقدّمتْ لفظةُ الفاصلةِ ﴿عَلِيمٌ﴾ بمادّتِها في أثناءِ الآية ﴿وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾ فأشارتْ إلى فاصلتِها ﴿عَلِيمٌ﴾ إشارةً لفظيّةً جليّةً.

وأمّا التوشيحُ: فقد تضمّنتِ الآيةُ ما يُشعرُ بالفاصلةِ ﴿حَكِيمٌ﴾ إشعارًا معنويًّا لطيفًا؛ فإنّه لَمّا كان الاجتباءُ والتّعليمُ وإتمامُ النّعمةِ لا يَقدِرُ عليه إلّا بليغُ العلْمِ المحيطُ بجميعِ الأسبابِ؛ ليُقَامَ منها ما يَصْلُحُ، وبليغُ الحكمةُ في وضعِ الأشياء في أتقنِ مواضعها، وكان السّياقُ بالعلم، وما ذُكرَ من علمِ التأويل لَمّا كان كذلك ختمَها بقوله تعالى: ﴿عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾[1].

فائدةُ تقديمِ ﴿عَلِيمٌ﴾ على ﴿حَكِيمٌ﴾ في الآيةِ:

من بَلاغةِ البيانِ القرآنيِّ، تقديمُ الأنْسَبِ للغرَضِ

قولُه تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾، وفيه قدّمَ البيانُ القرآنيُّ ﴿عَلِيمٌ﴾ على ﴿حَكِيمٌ﴾؛ لأمرين: **الأوّل**: مناسبةُ السّياقِ الذي هو بالعلمِ أولى لِما ذُكرَ من علمِ التّأويل، مع ما تقدّمَ من قوله آخرَ سورة هود ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [هود: 123] الآية، وما شاكلَ ذلك أوّلَ هذه، قال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ﴾[2]. و**الثاني**: تقديمُ السّببِ على المسبّبِ؛ لأنّه أسبقُ؛ إذ الإحكامُ ناشئٌ عنِ العلمِ.

تَوجيهُ المتشابِهِ اللّفظيِّ في آيةِ يوسف (6):

من دقائقِ بلاغةِ القرآنِ الكريمِ تقديمُ ما يَتناسبُ مع السّياقِ

في سورة يوسفَ قدّمَ البيانُ القرآنيُّ ﴿عَلِيمٌ﴾ على ﴿حَكِيمٌ﴾ لمناسبةِ السّياقِ كما ذكرنا، وفي سورة الأنعام قدّمَ ﴿حَكِيمٌ﴾ [الأنعام: 83] على ﴿عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾﴾ [الأنعام: 83] في الآيتَين، وذلك لمناسبةِ السّياق أيضًا، ففي قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/19 - 20.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/20.

﴿نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٞ ٨٣﴾ [الأنعام: 83] لمّا كانتْ محاجّتُه لهم على قانونِ الحكمةِ بالعالم العُلويِّ الذي نَسبوا الخلْقَ والتّدبيرَ بالنّور والظُّلمة إليه، وكان في ختام محاجّتِه لهم أنّ الجاريَ على قانونِ الحكمةِ أنّ الملكَ الحقَّ لا يُهينُ جُنده فلا خوفٌ عليهم، وكان قبل ذلك في الاستدلالِ على البعثِ الذي هو محطُّ الحكمة؛ كان الأنسبُ أنّ يقدّمَ في ختمِ الآية وصْفَ الحكمة فقال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٞ ٨٣﴾[1] [الأنعام: 83]، إذن فالمحاجّةُ تقتضي الحِكمةَ فناسبَ تقديمُ حكيم على عليم.

وفي قوله تعالى: ﴿وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ قَدِ ٱسۡتَكۡثَرۡتُم مِّنَ ٱلۡإِنسِۖ وَقَالَ أَوۡلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلۡإِنسِ رَبَّنَا ٱسۡتَمۡتَعَ بَعۡضُنَا بِبَعۡضٖ وَبَلَغۡنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِيٓ أَجَّلۡتَ لَنَاۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثۡوَىٰكُمۡ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٞ ١٢٨﴾ [الأنعام: 128]، لمّا كان السّياقُ – في مثلِ هذه المقاولةِ في مجمعِ الحكم – للحكمةِ والعلم، وكان النّظرُ إلى الحكمةِ في تنزيلِ كلّ شيءٍ منزلةً أعظمَ قدّم وصْفَها فقال: ﴿حَكِيمٌ﴾ [الأنعام: 128] أي فلا يُعذَّبُ المخلِصُ ويُتركُ المشرك، ولا يُعذّبُ بعضُ من أشركَ ويُتركُ بعضٌ، ثمَّ أتى بوصف ﴿عَلِيمٞ ١٢٨﴾ [الأنعام: 128] أي العليمُ بدقائقِ الأمورِ وجلائلِها منَ الفريقَين، فلا يخفى عليه عملُ أحدٍ فيهملُه لذلك[2]، وفي الآية إشارةٌ إلى أنّ ما أوصلَهم إلى هذا المصيرِ إلّا افتقادُهم الحكمةَ فناسبَ تقديمُ حكيم، كما أنّ السّياقَ هنا سياقُ الحشرِ والفصلِ والحُكمِ عليهم، وهذا كلُّه يتناسبُ مع اسمِ اللّه الحكيم.

بَلاغةُ التّذْييلِ في التّعليل بالعلم والحكمة:

جملةُ ﴿إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾، تذييلٌ بتَمجيدِ هذه النِّعَم، وأنَّها

نِعمُ الله تعالى كائنةٌ، وَفْقَ علْمِهِ وحِكمتِهِ، بمَنْ يصلحُ لها

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/169.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/269 - 270.

كائنةٌ على وَفقِ علمِه وحِكمتِه، فعلمُه هو علْمُهُ بالنّفوس الصّالحةِ لهذهِ الفضائل، لأَنَّهُ خَلَقَهَا لقَبولِ ذلك فَعلمُهُ بِهَا سابِقٌ، وحكْمتُه وضْعُ النِّعَمِ في مواضعها المناسبةِ[1].

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الاختيارُ والاصطفاءُ والاجتباءُ:

الاختيارُ انتقاءُ الخيرِ، والاصطفاءُ تخليصُ مَنِ اختاره منْ كلّ شائبةٍ، والاجتباءُ تخصيصُه به

تتقاربُ هذه الألفاظُ في دلالاتِها اللُّغوية، إذ يُعرَّفُ كلٌّ منها بالآخر في اللّغة، وربّما يُستعمَل أحدُها مكانَ الآخر، إلا أنّنا إذا أمعنّا النَّظرَ في معناها اللّغويِّ نجدُ أنّ هناك فروقًا بينَها تميّزُها، ويظهرُ هذا من خلال الآتي:

الاختيارُ: منَ الخيرِ ويدلُّ في أصلهِ على العطْفِ والميْل، والخيرُ: خلافُ الشّرّ[2]، واختاره: انْتَقاهُ واصْطَفَاهُ، واختارَ الشَّيءَ على غيرِه فضّلهُ عليه[3]، والاختيارُ: طلبُ ما هو خيرٌ وفعْلُه[4]، والاختيارُ: الاصطفاءُ، وفي عُرْف الفقهاءِ والمتكلّمين هو ضدُّ الإكراه[5].

والاصطفاءُ: منَ الصّفوِ ويدلُّ في أصله على خُلُوصٍ من كلّ شَوْبٍ[6]، وصَفوةُ الشَّيء ما صفا منه وخلُصَ، ومحمّدٌ ﷺ صَفوةُ اللّه من خلقهِ ومُصطفاه، أي: خالصُهُ ومختارُه، واصطفاهُ: اختارهُ واستخلصَه[7]، وكأنّه أخذه لأنّه أصفَى جِنْسِه أو أجودُه[8].

والاجتباءُ: يدلُّ في أصلهِ على الجمع والتّجمّع[9]، فالاجْتِباءُ:

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/217.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (خير).
(3) الزّبيديّ، تاج العروس، ومجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط: (خير).
(4) الرّاغب، المفردات: (خير).
(5) السّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (خير).
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (صفو).
(7) الرّازيّ، مختار الصّحاح، والزّبيدي، تاج العروس: (صفا).
(8) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (صفو).
(9) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (جبي).

الجَمْع على طَريقِ الاصْطِفاءِ والاختيار، وجَبَيْتَ الشّيءَ إذا خَلَّصْتَهُ لِنَفْسِكَ[1]، أو حَصّلْتَه لنفسِك[2]، واجتباءُ اللّه للعبدِ تخصيصُه إيّاه بفيضٍ إلهيٍّ يتحصّلُ له منه أنواعٌ منَ النّعمِ بلا سَعْيٍ منَ العبد[3].

نخلصُ ممّا سبق إلى أنّ: اختيارَ اللّه عبادَه هو انتقاءُ خيرِهم، واصطفاؤهم تخليصُ مَنِ اختارَهم من كلّ شائبةٍ، واجتباؤهم: تخصيصُ مَنِ اختارهم واصطفاهم بفيضٍ إلهي تتجمّعُ له أنواعٌ منَ النّعمِ بلا سعيٍ منهم، وتحصيلُهم والاعتناءُ بهم، وكأنّه خلّصَهم لنفسه.

التّأويلُ والتّفسيرُ:

التّفسيرُ البيانُ الواضحُ بالدّليلِ، والتأويلُ بيانُ ما غمُضَ مع تعمُّقٍ وتبصُّرٍ

بين لفظَيِ (التّأويل، والتّفسير) تقاربٌ دَلاليٌّ كبيرٌ حيث يَشتركان في معنى البيان والتَّوضيحِ، ولهذا بعضُ العلماء لم يُفرّقوا بينهما، وعَدّوهما بمعنًى واحدٍ، وبالمقابل منَ العلماء من فرّقَ بينهما، وذكر لكلٍّ منهما ملامحَ دلاليّةً تميّزُه عنِ الآخر، وذلك على النَّحو الآتي:

أولاً: أصلُ التّفسير من (فسر)، وهو بيانُ شيءٍ وإيضاحُه[4]، وكشفُ المُغطّى[5]، وأصلُ التَّأويل منَ (الأَوْل) وهو الرُّجوعُ إلى الأصل، وتأويلُ الكلام هو عاقبتهُ وما يؤولُ إليه[6]، وردُّ الشّيء إلى الغايةِ المُرادةِ منه قولًا كان أو فعلًا[7].

ثانيًا: التّفسير: إفرادُ ما انتظمهُ ظاهرُ التّنزيل، وأمّا التَّأويلُ: فهو الإخبارُ بغرَضِ المُتكلّم، أي استخراجُ معنى الكلام لا على ظاهره، بل على وجهٍ يحتملُه مجازًا أو حقيقةً، ومنه يُقال تأويلُ

(1) ابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس: (جبي).
(2) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (جبا).
(3) الرّاغب، المفردات: (جبى).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (فسر).
(5) الزّبيدي، تاج العروس: (فسر).
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (أول).
(7) الرّاغب، المفردات: (آل).

المُتشابِه[1]، فالتأويلُ: الرجوعُ باللّفظِ عن ظاهرِهِ إلى معنًى يستقيمُ به ذلك اللّفظُ[2].

ثالثًا: التّفسيرُ أعمُّ منَ التّأويل، فالتّفسيرُ قد يُقال فيما يَختصُّ بمُفرداتِ الألفاظ وغريبِها، وفيما يختصُّ بالتّأويل، ولهذا يُقال: تفسيرُ الرّؤيا وتأويلُها[3].

رابعا: التّفسيرُ: البيانُ الواضحُ بالحجّة والدّليلِ، والتّأويلُ: بيانُ ما غمُضَ معناه، واشتبهتْ مقاصدُه، واحتاجَ إلى تعمّقٍ وتبصّرٍ، أي "التّفسيرُ ما كان راجعًا إلى الرّواية، والتّأويلُ ما كان راجعًا إلى الدّراية"[4].

الأحاديثُ والأخبارُ:

الحديثُ أعمُّ منَ الخبرِ، فالحديثُ يشملُ حديثَ النّفسِ، والرُّؤيا في المنامِ

بين لفظَي (الأحاديث، الأخبار) تقاربٌ دلاليٌّ في معناهما، ويُستعملُ كلٌّ واحدٍ منهما باسم الآخر، فيُقال للحديثِ خبرٌ وللخبرِ حديثٌ، إلا أنّه يوجدُ بينهما بعضُ الفروق الدّلالية، وهي:

أوّلًا: الحديثُ: أصلُه من (حدث)، وهو كوْنُ شيءٍ لم يَكُنْ، ومنه الحَدِيثُ: كَلامٌ يَحْدُثُ منه الشَّيءُ بَعْدَ الشَّيءِ[5]، أمّا الخبرُ: فأصلهُ من العلم بالشّيء، فاللّه تعالى الخبيرُ، أي العالمُ بكلّ شيء[6]، والخبرُ: ما أتاكَ من نبأٍ عمّن تستخبرُ، وسألَ عن الخبرِ: عَرَفه على حقيقتِه[7].

ثانيًا: الحديثُ: في الأصل هو ما تُخبرُ به عن نفسك من غيرِ أنْ تُسندَه إلى غيرك، وسُمّي حديثًا؛ لأنّه لا تقدّمَ له، وإنّما هو شيءٌ

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 58.
(2) السّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (فسر).
(3) الرّاغب، المفردات: (فسر).
(4) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 1/5.
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حدث).
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (خبر).
(7) ابن منظور، لسان العرب، ومجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط: (خبر).

حدثَ لك فحدّثتَ به، وأمّا الخبرُ: فهو القولُ الذي يصحُّ وصفُه بالصّدقِ والكذبِ، ويكونُ الإخبارُ به عن نفسك، وعن غيرك، وأصلُهُ أنْ يكونَ الإخبارُ به عن غيرك[1].

ثالثًا: الحديثُ يشملُ كلَّ كلامٍ يبلغُ الإنسانَ من جهةِ السّمع، أوِ الوحي في يقظته، أو منامِه[2]، ويشملُ حديثَ النّفس، يُقال فلانٌ يحدّثُ عن نفسه بكذا، وهو حديثُ النّفس، ولا يُقال يُخبرُ عن نفسه ولا هو خبرُ النّفس[3].

رابعًا: الحديثُ فيه معنى الجديدِ، فيُمكنُ أنْ يُقال للخبرِ الجديدِ حديثٌ، من قولِهم: "استحدثتُ خبرًا، أي وجدتُ خبرًا جديدًا"[4]، ومن ثَمَّ فإنّ الحديثَ منَ الكلام هو الذي يبدأُ به المتكلّمُ أوّلَ مرّة، كأنّه يُحْدثُه ويوجِدُه قبل غيره؛ لذلك يقتضي أنْ يكون جديدًا، والحديثُ منَ الكلام هو المُحدَثُ الجديدُ الذي يتضمّنُ أحدثَ الأفكارِ والحِكمِ والمواعظ[5]، ولهذا سمّى اللّه تعالى القرآنَ أحسنَ الحديث في قوله: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا﴾ [الزمر: 23].

خامسًا: الحديثُ أعمّ منَ الخبر من جهةِ أنّه يشملُ كلّ كلامٍ يبلغُ الإنسانَ من جهةِ السّمع، أوِ الوحي في يقظته، أو منامِه، ويشملُ حديثَ النّفس، في حين أنَّ الخبرَ لا يشملُ حديثَ النّفس والرّؤيا في المنام.

التّمامُ والكمالُ:

يتقاربُ لفظُ التّمام والكمال، ومنَ العلماء من عدَّهما مترادفَين، لذلك صحّ أنْ يقعَ أحدُهما موقعَ الآخر، وهما وإنِ اتّحدا في المعنى العامِّ فإنّهما يفترقان عن بعضهما بمعانيهما الخاصّةِ، وبيانُ ذلك:

التّمامُ يقابلُ نُقصانَ الأصلِ، والكمالُ يُطابقُ نُقصانَ الوصْفِ بعد تمامِ الأصلِ

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 41.
(2) الرّاغب، المفردات: (حدث).
(3) العسكريّ، الفروق اللُّغويّة، ص: 41.
(4) الجوهريّ، الصّحاح: (حدث).
(5) زيدان، الفروق اللُّغويّة في القرآن الكريم، ص: 469.

أوّلًا: التّمام: هو دليلُ الكمال، يُقال: تمّ الشّيءُ إذا كَمَلَ[1]، والتّمامُ: الإتيانُ بما نقصَ منَ النّاقص[2]، فهو ضدُّ النّقصان، وهو عبارةٌ عنِ انتهاءِ الشّيءِ إلى حدٍّ لا يحتاجُ إلى شيءٍ خارجٍ عنه[3]. والكمالُ: يدلُّ على تمامِ الشّيء، يُقال: كَمَلَ الشّيءُ فهو كاملٌ أي تامٌّ[4]، وكمالُ الشّيء حصولُ ما فيه الغرَضُ منه[5]، وقيل الكمالُ: الانتهاءُ إلى غايةٍ ليس وراءها مَزيدٌ من كلّ وجهٍ[6].

وقد ذكر العسكريُّ الفرقَ بين الكمال والتّمام: وهو أنّ الكمالَ: اسمٌ لاجتماعِ أبعاضِ الموصوفِ، والتّمامُ: اسمٌ للجُزءِ الذي يتمّ به الموصوفُ[7]. وقيل منَ الفروق أيضًا:

ثانيًا: الكمالُ: الزّيادةُ على التّمام، فالكمالُ تمامٌ وزيادةٌ، والتّمامُ يَستدعي سبْقَ نقصٍ بخلافِ الكمال[8].

ثالثًا: التّتميمُ يَردُ على النّاقصِ فيُتمّمُه، والتّكميلُ يَردُ على المعنى التّامّ فيُكملُه؛ إذِ الكمالُ أمرٌ زائدٌ على التّمام، فالتّمامُ يقابلُ نقصانَ الأصل، والكمالُ يُطابقُ نقصانَ الوصْفِ بعد تمامِ الأصلِ[9].

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (تم).
(2) الزّبيديّ، تاج العروس: (تمم).
(3) السّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (تمم).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (كمل).
(5) الراغب، المفردات: (كمل).
(6) الزّبيديّ، تاج العروس: (كمل).
(7) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 263.
(8) الزّبيديّ، تاج العروس: (تمم).
(9) الكفويّ، الكليّات، ص: 296.

﴿۞لَّقَدۡ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخۡوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٞ لِّلسَّآئِلِينَ ٧ إِذۡ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحۡنُ عُصۡبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ٨﴾ [يوسف: 7 - 8]

❁ مُناسَبَةُ الآيَتينِ لما قَبْلَهُما:

بعد أنْ ذكر النّصُّ القرآنيُّ قصَّ يوسُفَ رُؤياه على أبيه، وأرشدهُ يعقوبُ بألّا يقصَّها على إخوته، تساءلَ السّامعُ للآياتِ: ما يكونُ بينه وبين إخوته هل يَكتمُهمُ الرُّؤيا أو يُعلمُهم بها؟ وعلى كلا التّقديرين ما يكونُ؟ فقال جوابًا لمن سأل: ﴿لَّقَدۡ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخۡوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٞ لِّلسَّآئِلِينَ﴾[1].

بعدَ الرّؤيا العجيبةِ، بدأتْ بوادرُ الحسدِ كما توقّعَها يعقوبُ عليه السلام

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿لِّلسَّآئِلِينَ﴾: اسمُ فاعلٍ من سَأَل يسألُ سُؤالًا ومَسألةً[2]، أي: طلبَ، وسألتُه عنِ الشّيء: استخبرته[3]، وأَسْأَلْتَهُ سُؤْلَتَهُ ومسألتَه، أي قضيتَ حاجَتَه[4]، والسُّؤالُ: اسْتِدْعاءُ معرفةٍ، أَو ما يُؤَدّي إلى المعرفة، واستدعاءُ مالٍ، أو ما يُؤَدّي إلى المال، والسُّؤالُ للمعرفةِ قد يكونُ للاسْتِعلام، وقد يكونُ لِلتَّبْكيتِ، واستدعاءُ المعرفة جوابُها باللّسان، وتنوبُ عنه اليدُ، أي بالكتابةِ والإشارةِ، وغلبَ لفظُ السّائل على الفقير، لقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنۡهَرۡ ١٠﴾ [الضّحى: 10]، وقولِه: ﴿لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ ١٩﴾ [الذّاريات: 19][5]. والمرادُ هنا بالسّائلين السّؤالُ للمعرفة: وهم اليهودُ الذين سألوا عن قصّة يوسفَ وإخوتِه،

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/20.
(2) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (سأل).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (سأل).
(4) الجوهريّ، الصّحاح: (سأل)، والزّبيديّ، تاج العروس: (سأل).
(5) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحفّاظ: (سأل).

وطلبوا منَ النّبيّ ﷺ معرفتَها ومعرفةَ حقائقِها[1]، أو للسّائلين: أي الرّاغبين في معرفة الحقائقِ والاعتبارِ بها؛ لأنّهم همُ الّذين يَعقلون الآياتِ ويَستفيدون منها[2].

2) ﴿عُصْبَةٌ﴾: أصلُ (عصب) يدلُّ على رَبْطِ شيءٍ بشيءٍ، مستطيلًا كان أو مُستديرًا، ثمّ يُفرّعُ ذلك فروعًا، وكلُّه راجعٌ إلى قياسٍ واحدٍ[3]، ومنه الأَعْصابُ: أَطْنابُ المفاصلِ التي تُلائِمُ بينها وتَشُدُّها، وليس بالعَقَبِ، ومنه العُصْبَةُ: هم منَ الرِّجال عشرةٌ، ولا يُقال لِما دونَ ذلك عُصبةٌ، ويُقال هو ما بين العشرةِ إلى الأربعين، وفي أصلِ معناها الجماعةُ مطلقًا ثمّ خُصّت في العُرف[4]، وسُميّت بذلك؛ لأنّها قد عُصِبَتْ، أي كأنّها رُبطَ بعضُها ببعضٍ، إذ بينَهم آصرةٌ شديدةٌ تربطُهم، أو هم متّحِدون على أمرٍ ما[5]. ومعنى ﴿وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾: مجتمعةُ الكلامِ متعاضدةٌ[6]، فهم جماعةٌ ذوو عددٍ أحدَ عشرَ رجلًا[7].

3) ﴿ضَلَٰلٍ﴾: (ضلّ) أصلٌ واحدٌ يدلّ على معنًى واحدٍ، وهو ضَياعُ الشّيءِ وذهابُهُ في غيرِ حقّهِ، وكلُّ جائرٍ عنِ القَصْدِ ضالٌّ، والضّلالُ والضّلالةُ بمعنًى[8]، وضلَّ الشّيءُ: خفيَ وغاب[9]، والضَّلالُ: ضدُّ الهُدى والرّشاد، وفَقْدُ ما يُوَصِّل إلى المطلوبِ، والضَّلالُ يُقالُ لِكُلِّ عُدُولٍ عَنِ الحَقِّ، عَمْدًا كانَ أو سَهْوًا، يَسيرًا كانَ أو كثيرًا[10]، وهو العُدولُ عَنِ الطريقِ المُسْتَقيم، ويُستعملُ ممّن يكونُ منه خطأٌ ما، ولذلك نُسبَ الضَّلالُ إلى الأنبياء بمعنى الخطأ[11]. والمعنَى في الآية ﴿لَفِي ضَلَٰلٍ﴾: لفي خطأٍ، وذهابٍ عن وجهِ التّدبيرِ[12]، وتيهٍ في المُحاباة ليوسفَ وأخيه، إذ ضلّ فيه طريقَ العدلِ والمُساواةِ، إذ يفضّلُ غلامَين ضعيفَين من ولدِه على العُصبة أولي القوّةِ والكسبِ والنّجدةِ[13].

(1) البغويّ، معالم التنزيل: 2/477، والنّسفيّ، مدارك التّنزيل: 2/96.
(2) رشيد رضا، تفسير المنار: 12/214.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عصب).
(4) الخليل، العين، والزّبيديّ، تاج العروس: (عصب).
(5) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (عصب).
(6) الرّاغب، المفردات: (عصب).
(7) ابن جرير، جامع البيان: 15/562.
(8) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ضل).
(9) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (ضلل).
(10) الزّبيديّ، تاج العروس: (ضلل).
(11) الرّاغب، المفردات: (ضل).
(12) البغويّ، معالم التّنزيل: 2/477، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 9/131.
(13) رشيد رضا، تفسير المنار: 12/215.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

اجتماعُ إخوةِ يوسفَ عليه السلام، وبوادرُ الكيدِ له، مع سبْقِ الإصرارِ والتّرصُّدِ

يقولُ اللّه تعالى: لقد كان في قِصَّةِ يوسُفَ وإخوتِه عِبَرٌ، وأدلَّةٌ تدُلُّ على قُدرةِ اللّه وحِكمتِه، لِمن يسألُ عن أخبارِهم، ويرغَبُ في مَعرفتِها، إذ قال إخوةُ يوسُفَ مِن أبيه فيما بينهم جازمين مُقْسِمين: إنَّ يوسُفَ وأخاه الشَّقيقَ أحَبُّ إلى أبينا مِنَّا؛ يُفَضِّلُهما علينا ونحن جماعةٌ ذَوو عَددٍ قويَّةٌ تقومُ له بكلِّ ما يحتاجُ إليهِ من أسبابِ الرّزق والحمايةِ والرّعاية والكفايةِ، إنَّ أبانا لفي خطأٍ بيِّنٍ، ضلَّ طريقَ العدْلِ والصّواب في حبّه ليوسفَ[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بَراعةُ الابتداءِ بالجُملةِ الابتدائيّةِ، في الآيةِ الكريمةِ:

مُقدّمةٌ مُنبئةٌ بعظَمِ شأنِ يوسفَ وقصّتِه

﴿لَّقَدۡ كَانَ فِي يُوسُفَ﴾، جُملَةٌ ابتدائيَّةٌ، وهي مَبدَأُ القَصَصِ المَقصودِ؛ إذ كانَ ما قَبْلَهُ كالمُقَدِّمَةِ لَهُ المُنبِئَةِ بِنَباهَةِ شَأْنِ صاحِبِ القِصَّةِ، فَليس هو مِنَ الحَوادِثِ التي لَحِقَتْ يوسُفَ عليه السلام، ولهذا كانَ أسلوبُ هذه الجُملَةِ كأسلوبِ القَصَصِ، وهو قولُه: ﴿إِذۡ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا﴾ نَظيرُ قولِهِ تعالى: ﴿إِن يُوحَىٰٓ إِلَيَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٞ مُّبِينٌ ٧٠ إِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرٗا مِّن طِينٖ ٧١﴾ [ص: 70 - 71] إلى آخرِ القِصَّةِ[2].

دَلالةُ (اللّام) و(قد) في سياقِ أسلوبِ القسَمِ:

التّأكيدُ على أنّ قصّةَ يوسُفَ وإخوتِه، جاءتْ على أتقنِ وجْهٍ، وأعظَمِ مضمونٍ

قولُه تعالى: ﴿لَّقَدۡ كَانَ فِي يُوسُفَ﴾، وفيه افتتحَ البيانُ القرآنيُّ جوابَه للسّائلين عن قصّةِ يوسُفَ وإخوتِه بحرفِ التّوقّعِ والتّحقيقِ بعد لامِ القسَمِ ﴿لَّقَدۡ﴾؛ تأكيدًا للأمر وإعلامًا بأنّ قصّة يوسُفَ وإخوته في القرآن جاءتْ على أتقنِ وجْهٍ[3] مقارِنةً لدلائلَ عظيمةٍ منَ العِبر والمواعظِ.

---

(1) ابن جرير، جامع البيان: 13/17 - 18، والحجازيّ، التّفسير الواضح: 2/164.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/218.

(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/20.

تَقديمُ الجارِّ والمجرورِ على اسمِ كان في السّياقِ الكريمِ:

التّقديمُ اهتمامٌ بالمقدَّم، وتشويقٌ إلى المؤخَّرِ

قولُه تعالى: ﴿لَّقَدۡ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخۡوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٞ﴾، قدّمَ البيانُ القرآنيُّ شبْهَ الجملةِ ﴿فِي يُوسُفَ﴾ على اسْمِ كان ﴿ءَايَٰتٞ﴾، ولم يقل: (لقد كانت آياتٌ في يوسف وإخوته)؛ اهتمامًا بقصّةِ يوسُفَ وإخوتِه في القرآنِ الكريم، وأخّرَ اسمَ كان ﴿ءَايَٰتٞ﴾ تشويقًا له.

نُكتةُ تذكيرِ الفعْلِ ﴿كَانَ﴾، مع تأنيثِ ﴿ءَايَٰتٞ﴾:

في حملِ اللّفظِ على المعنى اتّساعٌ لَه وتشريفٌ، فالمقصودُ بالآيةِ الدّليلُ لا آيةُ القرآنِ

قولُه تعالى: ﴿لَّقَدۡ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخۡوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٞ﴾، وفيه ذَكّرَ البيانُ القرآنيُّ الفعلَ ﴿كَانَ﴾ مع اسمِه المؤنّثِ ﴿ءَايَٰتٞ﴾ وهو جمعُ آيةٍ، ويجوزُ من حيث الحُكمُ النّحويُّ تذكيرُ وتأنيثُ الفعلِ، ولكنَّ السِّرَّ البيانيَّ لهذا التّذكير هنا هو أنّ كلمةَ ﴿ءَايَٰتٞ﴾ ليست مُؤنّثًا حقيقيًّا، ولذا يجوزُ تذكيرُها وتأنيثُها؛ فإذا قصدْنا باللّفظ المؤنّثِ معنى المذكَّرِ جازَ تذكيرُه، وهو ما يُعرفُ بالحملِ على المعنَى، وهو أحدُ طريقَيْ فهمِ التّراكيب النّحويّةِ وأسلوبيَّتِها[1]، و﴿ءَايَٰتٞ﴾ في قوله تعالى: ﴿لَّقَدۡ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخۡوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٞ﴾ جاءتْ بمعنَى الدّليل والبُرهانِ، أي إنّها جاءتْ بمعنًى مُذكَّرٍ، ولذا ذُكّرَ الفعلُ، ولو كانت كلمةُ (الآية) بمعنَى الآيةِ القرآنيّةِ لأُنّث الفعلُ كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَآءَتۡهُمۡ ءَايَةٞ﴾ [الأنعام: 124].

إذنْ فنُكتةُ تذكيرِ الفعلِ ﴿كَانَ﴾ هو الإشارةُ إلى اتّساع المعنَى وشرَفِه، وإلى أنّ المقصودَ منَ الآيات هو البراهينُ والأدّلةُ، وهذا ما أشارَ إليه المُفسّرون في معنَى ﴿ءَايَٰتٞ﴾ من أنَّها تعني الدّلائلَ على أَنَّ القُرآنَ وَحيٌ مِنَ اللّه، وعلى صدقِ من أوحِيَت إليه ﷺ، وغيرَ ذلك منَ الدّلائل التي تضمّنَتْها سورةُ يوسفَ؛ كالدّلائلِ على عاقبةِ الصّبر وشرِّ الحسدِ[2].

(1) ابن جنيّ، الخصائص: 2/423.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/218 - 219.

معنى الظّرفيّة في قوله تعالى ﴿فِي يُوسُفَ﴾:

في قصّةِ يوسفَ وإخوتِه دلائلُ وعِبرٌ ومواعظُ لا تنفكُّ عنها

﴿فِي﴾ في قولِه تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ﴾ حرفُ جرٍّ أفادَ معنَى الظّرفيّةِ المجازيّةِ؛ بتشبيهِ مقارَنةِ الدَّليلِ للمدلولِ بمقارنةِ المظْروفِ للظَّرفِ، أي: لقدْ كان شَأْنُ يوسُفَ عليه السلام وإخوَتِه مُقارِنًا لدَلائِلَ عَظيمَةٍ مِن العِبَرِ وَالمَواعِظِ، التي تخلَّلت كلَّ تفاصيلِ القصّةِ في القرآنِ الكريمِ، وعرَّفتْ بعظيمِ صُنْعِ اللّه تعالى وتقديرِهِ[1].

إيجازُ الحذْفِ في قوله تعالى: ﴿فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ﴾:

إذا استوَى الذِّكْرُ والحذْفُ فالحذفُ أبلغُ

حذَفَ البيانُ القرآنيُّ المُضافَ في قوله تعالى: ﴿فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ﴾، إذِ التّقديرُ: لقد كان في خبرِ يوسفَ وخبرِ إخوته وقصّتِهم[2]، فالآياتُ في شأنِ يوسُفَ وقصّتِه وحكايتِه هو وإخوتُه، وليست في ذاتِ يوسُفَ وإخوتِه، ولكنّه حذفَ المضافَ إيجازًا، وهذا من بلاغةِ القرآنِ الكريمِ.

فائدةُ جمْعِ ﴿ءَايَٰتٌ﴾ وتنكيرِها في الآية الكريمةِ:

في قصّةِ يوسفَ دلائلُ وعِبرٌ عظيمةٌ

قولُه تعالى: ﴿ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ﴾، وفيه عبَّر البيانُ القرآنيُّ في لفظِ ﴿ءَايَٰتٌ﴾ بصيغةِ الجمعِ مع التّنكيرِ؛ إشارةً إلى كثرتِها وعظَمتِها، وذلك لتَعدُّدِها، وتعدُّدِ أنواعِها؛ ففي قصَّةِ يوسُفَ عليه السلام دَلائلُ على ما للصَّبرِ وحُسنِ الطَّويَّةِ مِن عواقبِ الخيرِ والنَّصرِ، أو على ما للحسَدِ والإضرارِ بالنَّاسِ مِنَ الخيبةِ والاندحارِ والهُبوطِ، وفيها مِنَ الدَّلائِلِ على صِدقِ النَّبيِّ ﷺ، وأنَّ القُرآنَ وَحيٌ مِنَ اللّه، إذ جاءَ في هذه السُّورَةِ ما لا يَعلَمُهُ إلَّا أَحبارُ أَهلِ الكِتابِ دُونَ قِراءَةٍ ولا كِتابٍ وذلك مِنَ المُعجِزَاتِ، وفي بلاغَةِ نَظْمِهَا وفَصاحَتِها مِنَ الإعجازِ ما هو دَليلٌ على أَنَّ هذا الكَلامَ مِن صُنعِ اللّه أَلقاهُ إلى رَسولِه ﷺ مُعجِزَةً له على قَومِهِ أَهلِ الفَصاحَةِ والبَلاغَةِ[3].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/218.
(2) الواحديّ، التّفسير البسيط: 12/26، والبغويّ، معالم التّنزيل: 2/277.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/218 - 219.

تَوْجيهُ القراءاتِ في لفظِ ﴿ءَايَٰتٌ﴾ في السّياقِ المُحكَمِ:

شأنُ يوسفَ وأمرُه كلُّه آيةٌ، وكلُّ أحداثِ قصّتِه آياتٌ عظيمةٌ

قولُه تعالى: ﴿ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ﴾، في لفظ ﴿ءَايَٰتٌ﴾ قراءتان متواترتان[1]، هما:

الأولى: قرأ الجمهورُ ﴿ءَايَٰتٌ﴾ على الجمعِ، وحجّتُه أنّه جعلَ كلَّ فعلٍ من أفعالِ يوسف آيةً فجمعَ لذلك[2]، وفي الجمع كما مرّ دلالةُ تَعدُّدِها وتعدُّدِ أنواعِها، أي كثرتِها وعظمتِها في الدّلالة على صدْقِ مَنْ نزلتْ عليه ﷺ، فكلُّ أمورِ يوسُفَ كانَت كثيرةً، وكلُّ واحدٍ مِنْهَا آيَةٌ بِنَفْسِهِ[3].

والثّانية: قرأ ابنُ كَثِيرٍ (آيةٌ) بغيرِ أَلِفٍ، وحجّتُه: أنّه جعلَ أمرَ يوسفَ عليه السلام كلَّه عبرةً وآيةً[4]، أي: حَمَلَهُ علَى شَأْنِ يوسُفَ، والمرادُ بها: الجِنْسُ، وفي ذلك إشارةٌ إلى عظَمِ هذا الشّأنِ الذي جعله اللّه آيةً للنّاس؛ إذ إنّ مدارَ الأحداثِ كلِّها كانَ عليه ﷺ.

سِرُّ تَقييدِ ﴿ءَايَٰتٌ﴾ بتعليقها بلفظ السّائلين:

الاهتمامُ والحثُّ على السّؤالِ في تعلّمِ أنباءِ يوسفَ، للانتفاعِ والاتّعاظِ

قولُه تعالى: ﴿ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ﴾، قيّدَ البيانُ القرآنيُّ لفظَ ﴿ءَايَٰتٌ﴾ بقوله ﴿لِّلسَّآئِلِينَ﴾، ولم يقلْ: (لقد كان في يوسُفَ وإخوته آياتٌ للنَّاسِ) مع أنَّ المرادَ النّاسُ؛ فهي آياتٌ لمنْ سألَ عنها، ولمنْ لم يسألْ عنها[5]، ولم يقل: (آيات للعالمين)، وفي آخر السورة: ﴿وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ١٠٤﴾ [يوسف: 104]؛ وذلك لأمور:

الأوّلُ: تَحْضيضٌ وحَثٌّ للنَّاسِ عَلَى تَطَلُّبِ الخَبَرِ والقِصَّةِ وتعَلُّمِ هذه الأنباءِ، فوصَفَهم بالسُّؤالِ؛ إذ كُلُّ واحدٍ ينبغي أنْ يَسألَ عن مِثلِ هذه القصَصِ، إذ هي مقَرُّ العِبَرِ والاتِّعاظِ[6]؛ وَمِثْلُ هَذا يُستعمَلُ

(1) ابن الجزريّ، النّشر في القراءات العشر: 2/130.
(2) ابن خالويه، الحجّة في القراءات السّبع، ص: 193.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 18/422.
(4) ابن خالويه، الحجّة في القراءات السّبع، ص: 192.
(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/282.
(6) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/221، وأبو حيّان، البحر المحيط: 6/241.

كذلك في كَلامِ العَرَبِ لِلتَّشْويقِ، قالَ طَرَفَةُ: سائِلُوا عَنَّا الَّذي يَعْرِفُنا ... بِقُوانَا يَوْمَ تَحْلاقِ اللِّمَمِ[1].

الثّاني: لمزيد الاهتمام بذلك؛ لأنَّ السَّائلين - سواءٌ مَن سأَلَ عنها بلِسانِ الحالِ أو بلِسانِ المَقالِ - همُ الَّذين ينتَفِعونَ بالآياتِ والعِبَرِ، وأمّا المُعْرِضونَ فلا ينتَفِعون بالآياتِ، ولا بما في القِصَصِ والبيِّناتِ[2].

الثّالثُ: يصحُّ مع ذلك أيضًا أنّه وَصَفَ النّاسَ بالسّؤال من حيث كان سببُ نزولِ السّورةِ سؤالَ سائلٍ كما رُوي[3].

الرّابعُ: من باب الاختصارِ؛ للسّائلين، أي ولغيرهم، فاكتفى بذكرِ السّائلين من غيرهم، كما اكتفى بذكر الحرِّ منَ البرد في قوله: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾ [النحل: 81].

دَلالةُ ﴿إِذْ﴾ وبيانُ مُتعلَّقِها، ونُكتةُ بدايةِ القصَّةِ بها:

الأدلّةُ والعِبرُ قائمةٌ في الحكايةِ عنِ الزّمنِ الماضي

﴿لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ۝٧ إِذْ قَالُواْ﴾: ﴿إِذْ﴾ ظرفٌ لِما مضى منَ الزّمن تتعلّق إمّا: بمحذوفٍ تقديرُه (اذكر) والمعنى: اذكر وقتَ قولِ إخوةِ يوسفَ: ﴿لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾.

أو تتعلّق بالفعل ﴿كَانَ﴾ من قوله: ﴿لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ﴾، وجملةُ ﴿قَالُواْ﴾ مضافٌ إليها الظّرفُ[4]، والمعنَى أنّ ذلك الزّمانَ الماضيَ مَوقِعٌ من مواقِعِ الآيات، فإنّ في قولهم ذلك حينئذٍ عِبرةً من عِبرِ الأخلاقِ التي تنشأُ من حسدِ الإخوةِ والأقرباءِ،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/219، والبيت من بحر الرّمَل، لطرفة بن العبد، وهو في ديوانه، ص: 75.

ويوم تحلاق اللِّمم: يوم من أيام حرب البسوس، أمر فيه الحارث بن عباد قومَه بحلق شعور رؤوسهم، كي يعرفَ بعضهم بعضًا، وسمِّي هذا اليوم عندها: يوم تحلاق اللِّمم. واللِّمم: مفردها اللِّمة وهي مجتمع شعر الرأس.

(2) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 394.

(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/221.

(4) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 4/457.

وعِبرةً منَ المُجازفة في تغليطِهم أباهُم، واستخفافِهم برأيه غُرورًا منهم، وغفلةً عن مراتبِ موجباتِ ميْلِ الأبِ إلى بعض أبنائِه، وتلك الآياتُ قائمةٌ في الحكاية عن ذلك الزّمن الماضي[1].

وبذلك تكونُ ﴿إِذْ﴾ قد أفادتْ عرْضَ محلِّ هذه العِبر والآياتِ التي تدلُّ في مجموعِها على صدْقِ القرآن وإعجازِه، وصدْقِ نبوّةِ النّبيّ ﷺ، وغيرِ ذلك منَ الدّلائلِ العظيمةِ.

وبهذا تظهرُ لدينا نُكتةُ بدايةِ القصّة بها، وهي عرضُ محلٍّ وموقع عبرٍ وأدلّةٍ تدلّ على صدْقِ مَن جاء بها من عند اللّه، وللأمرِ ذاتِه كَثُرَ الابتداءُ بها في كلّ قَصصِ القرآن الكريم.

فائدةُ إسناد القول إلى مجموع الإخوة:

وَهْمٌ اتّفقَ عليه الإخوةُ، وجالتْ به صدورُ بعضهم، ونطقتْ به ألسنةُ آخرين

عبّرَ القرآنُ بواو الجماعةِ ﴿قَالُواْ﴾ في قوله سبحانه: ﴿قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ﴾: أي إخوةُ يوسف، اختصارًا لكيْلَا يذكرَ أحدًا منهم باسْمِه؛ إذْ لو ذكرهم لطالَ الكلامُ، وليس من عادةِ القرآنِ أنْ يذكرَ الأسماءَ غيرَ أسماءِ الأنبياء والرّسل والحكماءِ من أمثال لُقمانَ، ولم يذكرْ من أسماء النّساءِ إلّا مريمَ ابنةَ عمرانَ إكرامًا لها؛ وفي التّعبيرِ بواو الجماعة دون ذكْرِ أسمائهم سَترٌ على المُسيء، وكلٌّ منهم لم يخلُ عنِ الإساءةِ، وإنْ تفاوتتْ مراتبُها[2]، ولأنّ القائلين إمّا أنّهم أطبقوا على ذلك إلّا من قال: ﴿لَا تَقْتُلُواْ يُوسُفَ﴾، أي "قالهُ كلُّ واحدٍ منهم مُخاطِبًا للبَقيَّةِ، وهو أدَلُّ على مُسارَعَتِهم إلى ذلك القَولِ"[3]، أو أنّ القائلين هُم بعضُ إخوةِ يوسُف لبعضٍ، والباقين كانوا راضين[4]، فجُعلوا آمرين، وفي هذا إشارةٌ إلى أنّ السّامعَ للقولِ والرّاضيَ به يأخذُ حكمَ قائلِه، وكذلك إشارةٌ إلى أنّ وهْمَهم بأنّ يوسفَ وأخاه

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/220.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 6/384.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/266.
(4) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/447.

أقربُ حبًّا إلى أبيهم أمرٌ لا يختلفون فيه، جالتْ به صدورُ بعضِهم، ونطقتْ به ألسنةُ آخرين.

دَلالةُ اللّام في: ﴿لَيُوسُفُ﴾:

تحتملُ لامُ ﴿لَيُوسُفُ﴾ في قوله تعالى: ﴿لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا﴾ أحدَ معْنيَين:

زيادةُ محبّةِ يعقوبَ ليوسفَ وأخيه، أمرٌ مُحقّقٌ ثابتٌ، لا شبهةَ فيه حسبَ زعْمِهم

الأوّلُ: اللّامُ لامُ ابتداءٍ، تفيدُ التَّأكيدَ والتَّحقيقَ لمضمونِ الجملةِ؛ أي: أرادوا أنَّ زِيادةَ مَحبَّتِه وكثرةَ حبِّه لهما ثابتٌ لا شُبهةَ فيه[1]، والمرادُ: توكيدُ لازِمِ الخبرِ؛ إذْ لم يكنْ فيهم مَن يَشُكُّ في أنَّ يوسُفَ عليه السلام وأخاهُ أحَبُّ إلى أبيهم من بقيَّتِهم، ولكِنَّهُم لم يكونوا سَواءً في الحَسَدِ لَهُما والغَيرَةِ من تفضيلِ أبيهم إيَّاهُما على بَقِيَّتِهم، فأرادَ بعضُهم إقناعَ بعضٍ بذلك ليتمالَؤوا على الكيدِ ليوسُفَ عليه السلام وأخيه، بدليل قولِه: ﴿ٱقْتُلُواْ يُوسُفَ﴾، فقائلُ الكلام بعضُ إخوته، أي جماعةٌ منهم بقرينة قولِه: ﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُواْ يُوسُفَ﴾[2].

الثّاني: اللَّامُ لامُ قسَمٍ، والتَّقديرُ: واللّه لَيُوسُفُ وأخوه أحبُّ إلى أبينا منّا[3]، ومن أهمِّ أغراضِ القسمِ تأكيدُ مضمونِ الجملةِ، أي زيادةُ محبّةِ يعقوبَ ليوسفَ لا شكَّ فيها.

عِلّةُ عطْفِ قولِه ﴿وَأَخُوهُ﴾، في السّياقِ:

مَدارُ محبّةِ يعقوبَ عليه السلام لِبنيامين، أُخوّتُه ليوسفَ من الطّرفَين

قولُه تعالى: ﴿لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ﴾، وفيه أنّهم إنّما قالوا ﴿وَأَخُوهُ﴾ وهم جميعًا إخوتُه، أي خصُّوهُ بالأُخُوَّةِ؛ لأنّ أمّهما كانتْ واحدةً، أي كانَ شَقِيقَهُ[4]، وبهذا العطْفِ أشركوهُما في الحُكم، وهو تفضيلُ يعقوبَ لهما في المحبّة عنهم، وأكّدوا به هذا الحُكمَ،

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/246، وأبو حيّان، البحر المحيط: 6/241، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/255.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/220.
(3) الشّربيني، السّراج المنير: 2/91.
(4) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/446.

فعبّروا بقولهم ﴿وَأَخُوهُ﴾، كأنّه ليس أخاهم، ولكنَّ الشَّرَّ استحكَمَ في نفوسِهم[1].

وهناك تغايرٌ بين المعطوف والمعطوفِ عليه جعلَهم لا يُصرّحون باسم أخيهم، وهو أنَّ محبّةَ يعقوبَ عليه السلام لِبنيامين لأجلِ شقيقِه يوسُفَ عليه السلام، أي أنّ مدارَ المحبةِ أُخوّتُه ليوسفَ منَ الطّرفين، ألا يُرى إلى أنّهم كيف اكتفَوا بالتّخلّص من يوسفَ، ولم يتعرَّضوا لشقيقه بِنيامين بشيءٍ، ممّا أوقعَ بيوسفَ عليه السلام حيث قالوا ﴿ٱقۡتُلُواْ يُوسُفَ﴾[2].

كما أنّ في ذلك تَوافُقًا مع طريقةِ القرآنِ في عدمِ ذكرِ التّفاصيل تركيزًا على العِبرةِ، ولذا لم يذكرْ كذلك أسماءَ إخوتِه الذين كادوا له.

دَلالةُ صيغةِ التّفضيل ﴿أَحَبُّ﴾:

قولُه تعالى: ﴿أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا﴾، وفيه ﴿أَحَبُّ﴾ اسمُ تفضيلٍ، وأفعلُ التّفضيل يتعدّى إلى المُفَضَّلِ بـ (مِنْ)، ويتعدّى إلى المُفَضَّلِ عندَه بـ ﴿إِلَىٰٓ﴾، ودعواهُم أنّ يوسُفَ عليه السلام وأخاه أحبُّ إلى يعقوبَ عليه السلام منهم يجوزُ أنْ تكون دعوًى باطلةً، أثارَ اعتقادَها في نفوسهم شدّةُ الغيرةِ من أفضليّةِ يوسُف عليه السلام وأخيه عليهم في الكمالاتِ، وربّما سمِعوا ثناءَ أبيهم على يوسفَ عليه السلام وأخيه في أعمالٍ تصدرُ منهما، أو شاهدوه يأخذُ بإشارتِهما، أو رأوا منه شفقةً عليهما؛ لصغرِهما ووفاةِ أمِّهما، فتوهّموا من ذلك أنّه أشدُّ حبًّا لهما منهم توهُّمًا باطلًا.

اعتقادُ الإخْوةِ بأفضليّةِ يوسفَ وأخيهِ، عندَ أبيهم اعتقادٌ سببُه الغَيْرةُ

أو لأنّ يعقوبَ كان يرى في يوسفَ من آثارِ الرُّشد والنّجابةِ ما لم يجدْ في سائر الأولاد، أو لعلّه عليه السلام وإنْ كان صغيرًا إلّا أنّه كان يَخدمُ أباه بأنواعٍ منَ الخدمِ أشرفَ وأعلَى بما كان يصدرُ عن سائر الأولادِ[3].

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3805.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/255، والآلوسيّ، روح المعاني: 6/381.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 18/423.

ويجوزُ أنْ تكون دعواهُم مطابقةً للواقعِ، وتكونَ زيادةُ محبّتِه إيَّاهما أمرًا لا يملكُ صرفَه عن نفسه؛ لأنّه وُجدانٌ، ولكنّ يعقوبَ عليه السلام لم يكن يُفضّلُهما عليهم في المعاملاتِ والأمور الظّاهريّةِ، ويكونُ أبناؤه قد علموا فرْطَ محبّة أبيهم إيّاهما منَ التّوسّم والقرائنِ لا من تفضيلِهما في المعاملةِ، فلا يكونُ يعقوبُ عليه السلام مؤاخَذًا بشيءٍ يُفضي إلى التّباغُضِ بين الإخْوةِ[1]، فالمحبّةُ ليستْ في وُسعِ البشر، فكان معذورًا فيه، ولا يَلحقهُ بسببِ ذلك لومٌ[2].

سِرُّ تقديمِ قولِه: ﴿إِلَىٰٓ أَبِينَا﴾ على قوله: ﴿مِنَّا﴾:

قدّمَ البيانُ القرآنيُّ قولَه: ﴿إِلَىٰٓ أَبِينَا﴾ على قوله: ﴿مِنَّا﴾، فلم يقل: (أحبُّ منَّا إلى أبينا)، مع أنّ الجارَّ والمجرورَ في ﴿إِلَىٰٓ أَبِينَا﴾ و﴿مِنَّا﴾ يتعلّقان بالفعل ﴿أَحَبُّ﴾ وذلك لأمور: **أوّلًا**: إشارةً إلى اهتمامِ الأبِ وشدّةِ محبّتِه ليوسفَ وأخيه، و**ثانيًا**: شدّةِ ارتباطِ الأبِ بيوسفَ وأخيه، فلم يَفصلْ بينهم فاصلٌ، و**ثالثًا**: إشارةً إلى توهّم الإخْوةِ في عدمِ اهتمامِ أبيهم بهم، وتأخيرِهم في المحبّةِ عن يوسفَ وأخيه.

في التّقديمِ إشارةٌ إلى توهُّمِ الإخوةِ تقديمَ محبّةِ أبيهم ليوسفَ وأخيه عليهم

نُكتةُ إضافةِ الأبِ إلى ضميرِ المُتكلّمين ﴿أَبِينَا﴾:

أضافَ البيانُ الإلهيُّ الأبَ يعقوبَ عليه السلام إلى ضمير المتكلّمين ﴿أَبِينَا﴾ في قولِه: ﴿أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا﴾، ولم يُضِفْه إلى ضميرِ الغائب (أبيه)؛ إشارةً منهم إلى وجوبِ التّسْويةِ بينهم، وبين أخوَيهم، كونُ يعقوبَ عليه السلام أبًا لهم جميعًا، ومن حقِّهم أنْ يعاملَهم كما يُعاملُ يوسفَ وأخاه، وذلك لزعْمِهم أنّه لم يُسوِّ بينهم، كما صوّرَه لهم وَهْمُهم[3]، وإشارةً كذلك إلى اغترارِهم بأنفسِهم، وسيطرةِ الوهْمِ عليهم، ولذلك أتْبَعوا قولَهم هذا بقولهم: ﴿وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ مُستخْدِمين كذلك ضميرَ الجماعة ﴿وَنَحْنُ﴾.

الإضافةُ إشارةٌ إلى وجوبِ التّسويةِ، مع اعتقادِهم أحقّيتَهم بزيادةِ المحبّةِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/221.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 18/423.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3805.

إعرابُ جملةِ ﴿وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾، وفائدتُها:

تفضيلُ الأخَوَين في الحبّ والعطْفِ، إغراءٌ على قتلِ يوسفَ

(الواو) في ﴿وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ واوُ الحال، والجملةُ في موضعِ الحال من ﴿أَحَبُّ﴾، والمعنَى: ليوسُفَ وأخوه أحبُّ إلى أبينا منّا ونحن أكثرُ عددًا، فالجملةُ الحاليّةُ أكّدتْ ما تضمّنَه العاملُ فيها ﴿أَحَبُّ﴾ من معنًى، والمقصودُ منَ الحالِ التَّعَجُّبُ من تفضيلِهما في الحبِّ في حالِ أَنَّ رجاءَ انتفاعِه من إخوَتِهما أشدُّ من رجائِه منهُمَا، يعنى: أنّه يفضّلُهما في المحبّة علينا، وهما اثنان صغيران لا كفايةَ فيهما ولا منفعةَ، وهم جماعةٌ عشرةُ رجالٍ كُفأةٌ أحقُّ بزيادة المحبّةِ منهما؛ لفضلهم بالكثرةِ والمنفعةِ عليهما[1]، بناءً على ما هو الشَّائعُ عند عامّةِ أهلِ البَدوِ منَ الاعتزازِ بالكثرة، فظنّوا مداركَ يعقوبَ ﷺ مساويةً لمداركِ الدَّهماء، والعقولُ قلَّما تُدركُ مراقيَ ما فوقَها، ولم يعلَموا أنّ ما ينظرُ إليه أهلُ الكمال من أسبابِ التَّفضيلِ غيرُ ما ينظرُه مَنْ دونَهم[2].

ويجوزُ أن تكون جملةُ ﴿وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ عطفًا على جملةِ ﴿لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا﴾، والمقصودُ إغراءُ وتجرئةُ بعضهم بعضًا على إتيانِ العملِ الذي سيُغريهم به في قولهم: ﴿ٱقْتُلُواْ يُوسُفَ﴾، أي إنَّا لا يُعجِزُنا الكَيدُ ليوسُفَ ﷺ وأخيه فإنَّا عُصبَةٌ، والعُصبَةُ يَهونُ عليهمُ العَمَلُ العظيمُ الَّذي لَا يَسْتَطيعُهُ العَدَدُ القَليلُ، كقوله: ﴿قَالُواْ لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ﴾[3].

سِرُّ التّعبيرِ بلفظِ ﴿عُصْبَةٌ﴾:

اغترارُهم بعناصرِ قوّتِهم، أرْداهُم في مستنقَعِ الكيدِ ليوسفَ ﷺ

قولُه تعالى: ﴿وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾، وفيه عبّرَ البيانُ القرآنيُّ بلفظِ ﴿عُصْبَةٌ﴾، وهي اسمُ جَمعٍ لَا واحِدَ لَهُ مِن لَفظِه، ويُقال: (الْعِصَابَةُ) وتُطلقُ العُصبَةُ على الجماعة من عَشْرَةٍ إلى أربَعينَ[4]، سُمّوا

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/446.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/221.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/222.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/222.

بذلك؛ لأنّهم جماعةٌ تُعْصَبُ بهمُ الأمورُ أي تُشدُّ فتقوى، ويُستكفَون النّوائبَ[1]، وسُميّت العصبةُ بذلك؛ لأنّها قد عُصِبَتْ، أي كأنّها رُبطَ بعضُها ببعضٍ، إذ بينَهم آصرةٌ شديدةٌ تربطُهم، أو هم مُتّحِدون على أمرٍ ما[2]، فكان في اختيارِ لفظِ ﴿عُصْبَةٌ﴾ إشارةٌ إلى قوّتِهم وترابطِهم واتّحادِهم، فهم جماعةٌ مجتمعةُ الكلامِ متعاضدةٌ[3].

سِرُّ فصْلِ جملةِ ﴿إِنَّ أَبَانَا﴾ عمّا قبلَها:

تعليلُ تعجُّبِهم من زيادةِ محبّةِ يعقوبَ ليوسفَ

فصَل البيانُ القرآنيُّ جملةَ ﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ عنِ الّتي قبلَها ﴿لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾، ولم يأتِ بالعاطف؛ لوقوعِ قولِه تعالى: ﴿إِنَّ أَبَانَا﴾ استئنافًا بيانيًّا، لما بين الجُملتَين من شِبْهِ كمالِ اتّصالٍ؛ فكأنّ سائلًا سألَ ما عِلّةُ ذلك؟ فجاء الجوابُ تفريعًا لما سبق وتَعليلًا لتَّعجُّبِهم من زيادةِ محبّة يعقوبَ رغم أنّهم أكثرُ منفعةً له بكثرةِ عددِهم، وذلك إذا كانتْ جملةُ ﴿وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ حاليّةً من ﴿أَحَبُّ﴾ بقصْدِ التّعجّبِ. وكذلك يُمكنُ أنْ تكونَ تَعليلًا لإغرَاءِ وتجرئةِ بعضِهم بعضًا بقتلِهم يوسفَ إذا كانتْ جملةُ ﴿وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ معطوفةً على ﴿لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا﴾[4].

دَلالةُ كثْرةِ المؤكِّداتِ في سياقِ الجملةِ:

تَوالي المُؤكِّدات إشارةٌ إلى ما في قلوبِهم من غيْظٍ وغضبٍ

أكّدَ البيانُ الإلهيُّ قولَه: ﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ بعدّةِ مُؤكِّداتٍ:

الأوّلُ: التّوكيدُ بـ ﴿إِنَّ﴾؛ إذ إنّ هذا الحرفَ يفيدُ توكيدَ النّسبةِ بين المُسنَدِ والمُسنَدِ إليه في الجملة؛ أي توكيدُ كينونةِ الضّلال في أبيهم، وسببُ التّوكيد أنّ حالَ أبيهم في الاستقامةِ والهدايةِ داعٍ إلى تكذيبِهم[5].

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/446.
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (عصب).
(3) الرّاغب، المفردات: (عصب).
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/221.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/22.

الثّاني: التّوكيدُ بالجملةِ الاسميّةِ، التي تَدلُّ على الثّباتِ وقوّةِ الحُكْمِ وبَقائِهِ، والمعنَى الذي أرادوه بالتَّعبيرِ بها، هو أنّ أباهم ثابتٌ وباقٍ في ذهابه عن طريقِ الصّواب.

الثّالثُ: (اللّام): الفارقةُ المُزحلقةُ التي دخلتْ على متعلَّق الخبرِ ﴿لَفِي﴾ والتي من أغراضها التّوكيدُ.

الرّابعُ: الاستئنافُ البيانيُّ في الجملةِ الذي يقتضي تأكيدَ الحُكم[1]، وهو الجوابُ الذي هو في الجملة الثّانية وهي ﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾، والذي هو تعليلٌ لتعجُّبِهم من زيادة محبّة يعقوبَ ليوسفَ، أو تعليلٌ لإغراءِ بعضِهم بعضًا بقتلِ يوسفَ؛ لأنَّ السَّائلَ متردِّدٌ في هذا السَّببِ الخاصّ، هلْ هو سببُ الحُكم أمْ لا؟.

الخامسُ: التّوكيدُ بالصّفةِ ﴿مُّبِينٍ﴾؛ إذ إنّها وَصفتِ المنعوتَ ﴿ضَلَٰلٍ﴾ بما يُقوّي معناه ويؤكّدُه؛ فهو ضلالٌ ظاهرٌ لا شكَّ فيه حسبَ زعمِهم. وتشيرُ هذه المؤكِّداتُ إلى ما تحملُه قلوبُهم من غيظٍ وغضبٍ تُجاهَ موقفِ أبيهم من حبِّه الشَّديد ليوسفَ عليه السلام.

عِلّةُ اسْتعمالِ حرفِ الظّرفيّة مع الضّلال:

قولُه تعالى: ﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾، وفيه عبّرَ البيانُ القرآنيُّ بحرفِ الجرّ (في) الذي يفيدُ الظّرفيّةَ، ولم يقل: إنّ أبانا ضالٌّ؛ إشارةً منهم إلى كون ضلالِ يعقوبَ مُتوغّلًا ومتمكّنًا ومُستقرًّا فيه[2]؛ إذ إنّ حرفَ الظّرفيّةِ (في) يدلُّ على الإيغالِ والاستقرارِ والتّمكّنِ في الشّيء.

بيانُ وهْمِ اعتقادِهم بأنّ أباهم غارقٌ في الضّلالِ، بحبِّ يوسفَ وأخيه

معنى ﴿ضَلَٰلٍ﴾ وسرُّ وصْفه بالإبانة:

قولُه تعالى: ﴿ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾": معنَى الضّلالِ في الآيةِ إخطاءُ مَسلَكِ الصَّوابِ في التَّدبيرِ للعيشِ لا الخَطَأُ في الدّينِ والاعْتِقادِ،

إخطاءُ يعقوبَ مَسلَكَ الصَّوابِ في التّسويةِ بينهم، ظاهرٌ بزعْمِهم

(1) الخطيب القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة: 3/122.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 6/382.

والتَّخطِئَةُ في أَحوالِ الدُّنيا لَا تُنافي الاعترافَ للمُخطئ بالنّبوّة[1]، والمعنَى: إنَّ أبانا في ذِهابٍ عن طريق التَّعديلِ اللّائقِ، وتنزيلِ كلٍّ منَّا منزلتَه[2].

وفي وصْفِهم للضّلال بالمبين تأكيدٌ لهذا الخطأ بأنّه ذهابٌ عن مسلكِ الصّوابِ ظاهرُ الحال، والغرَضُ منَ التَّوكيد بهذا الوصفِ المبالغةُ في إظهارِ خطأ أبيهم، "وإشارةٌ إلى أنَّ ذلك غيرُ مناسبٍ له بزعْمِهم"[3].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

العُصْبةُ والجَماعةُ:

يوجدُ تقاربٌ دلاليٌّ بين لفظَي (العصبةِ، الجماعةِ)؛ إذ يشتركان في المعنَى العامّ، وهو أنّها تعني مجموعةً منَ النّاسِ، وتفترقُ في أنّ لكلٍّ منهما ما يُميّزُه عنِ الآخر، وذلك على النّحو الآتي:

العُصْبة: تدلّ في أصلِ مادّتها على رَبْطِ شيءٍ بشيءٍ[4]، والعُصْبَةُ منَ الرّجال عشرةٌ فأكثرَ[5]، وسُمّيت بذلك؛ لأنّها قد عُصِبَتْ أي كأنّها رُبطَ بعضُها ببعضٍ، إذ بينَهم آصرةٌ شديدةٌ تربطُهم، أو هم متّحدون على أمرٍ ما[6].

والجَماعةُ: تدلُّ في أصلِ مادّتِها على الجمع، وهوضمُّ الشّيء بتقريبِ بعضِه من بعضٍ[7]، والجماعةُ من كلّ شيءٍ يُطلقُ على القليل والكثيرِ[8]، والجماعةُ منَ النّاس: طائفةٌ منَ النّاس يجمعُها غرَضٌ واحدٌ[9].

العُصْبةُ أخصُّ منَ الجماعةِ، فالعُصْبةُ مُحدّدةٌ بعددٍ، وبينَهم آصرةٌ شديدةٌ تَربطُهم

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/222.
(2) أبو السّعود إرشاد العقل السّليم: 4/255.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 6/382..
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عصب).
(5) الخليل، العين، والزّبيديّ، تاج العروس: (عصب).
(6) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (عصب).
(7) الزّبيديّ، تاج العروس: (جمع).
(8) الفيوميّ، المصباح المنير: (جمع).
(9) مجمع اللّغة العربيّة في القاهرة، المعجم الوسيط: (جمع).

إذن: العصبةُ أخصُّ منَ الجماعة، إذِ العصبةُ محدَّدةٌ بعددٍ في العُرْف أقلُّه عشرةٌ، في حين أنَّ الجماعةَ غيرُ محدَّدةٍ بعدد.

كما أنّ العصبةَ مرتبطةٌ ببعضها برابطةٍ قويّةٍ، في حينِ أنَّ الجماعةَ يكونُ اجتماعُهم على أمرٍ ما.

الضّلالُ والخطأُ:

يشتركُ (الضّلال) مع (الخطأ) في أنّ كليْهما فيه معنَى العُدولِ عنِ الجهة، ويفترقان في أنّ:

الضّلالُ أعمُّ منَ الخطأِ؛ إذِ الخطأُ أحدُ معاني الضّلالِ

الخَطأ: ضدُّ الصّواب، والخَطَأُ: ما لم يُتعمّدْ، وأخطأ الطّريقَ: عدلَ عنه، وأخطأَ: سلكَ سبيلَ الخطأ عمْدًا أو سهْوًا، ويُقال لمنْ أرادَ شيئًا ففعلَ غيرَهُ، أو فعلَ غيرَ الصّواب: أخطأ[1]، والخطأُ: وقوعُ الفعل على خلافِ مقصودِ الفاعل، وقد ورد في القرآن على ثلاثة أوجُهٍ: الشّركِ، والذّنْبِ، وما لم يُتعمّدْ[2].

والضّلالُ: يدلُّ على ضَياع الشّيءِ وذهابِه في غيرِ حقّهِ[3]، وهو: ضدُّ الهُدى والرّشاد، والضَّلالُ يُقال لِكُلِّ عُدُولٍ عَنِ الحَقِّ، عَمْدًا كانَ أو سَهْوًا، يَسيرًا كانَ أو كثيرًا[4]، ويُستعملُ بمعنى الخطأ[5].

إذن: يتميّزُ الخطأ بأنّه ضدُّ الصّوابِ، وأكثرُه يُستعملُ في ما لم يُتعمّدْ[6]، في حينِ يتميّزُ الضّلالُ بأنّه ضدُّ الهُدى والرّشاد، وهو أعمُّ منَ الخطأ؛ إذ أحدُ معاني الضّلال الخطأُ، كما أنّ استعمالَ الضّلال أكثرُه جاء في الذّمّ.

(1) ابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس: (خطأ).
(2) ابن الجوزيّ، نزهة الأعين النّواظر، ص: 271.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ضل).
(4) الزّبيديّ، تاج العروس: (ضلل).
(5) الرّاغب، المفردات: (ضل).
(6) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (خطأ).

﴿ٱقۡتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ ٱطۡرَحُوهُ أَرۡضٗا يَخۡلُ لَكُمۡ وَجۡهُ أَبِيكُمۡ وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعۡدِهِۦ قَوۡمٗا صَٰلِحِينَ ٩﴾ [يوسف: 9]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمّا قويَ الحسدُ وبلغَ ذُروتَه، أفضَى إلى اقتراحِ القتلِ أوِ التّغريبِ

في مناسبةِ هذه الآيةِ لِما قبلَها وجهان:

الأوّلُ: لَمّا كان عندَهم أنّ الشّاغلَ الأعظمَ لأبيهم عنهم إنّما هو حبُّ يوسُفَ عليه السلام، وحبُّ أخيه إنّما هو تابعٌ، كان كأنّهم تراجعوا فيما بينَهم فقالوا: قد تقرّرَ هذا، فما أنتم صانعون؟ فقالوا: ﴿ٱقۡتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ ٱطۡرَحُوهُ أَرۡضٗا﴾[1].

الثّاني: لَمّا قويَ الحسدُ وبلغ النّهايةَ في قولهم: ﴿لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحۡنُ عُصۡبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ﴾ قالوا لا بدّ من تبعيدِ يوسفَ عن أبيه، وذلك لا يحصل إلّا بأحد طريقَين: القتلِ أوِ التّغريبِ إلى أرضٍ يحصلُ اليأسُ منِ اجتماعه مع أبيه، فقالوا: ﴿ٱقۡتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ ٱطۡرَحُوهُ أَرۡضٗا يَخۡلُ لَكُمۡ وَجۡهُ أَبِيكُمۡ﴾[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱطۡرَحُوهُ أَرۡضٗا﴾: أصلُ (طرح) يدلُّ على نَبْذِ الشيءِ وإلقائه، ومن ذلك الطَّرَحُ: المكانُ البعيدُ[3]، وطَرَحَه: رمى به بعيدًا، والطِّرْحُ: الشَّيءُ المطروحُ لا حاجةَ لأَحدٍ فيه[4]، والطَّرْحُ: الإلقاءُ والإبعاد، ويكونُ الاطّراحُ غالبًا إلقاءَ الشّيء غيرَ مُعتدٍّ به[5]، ومعنَى: ﴿ٱطۡرَحُوهُ أَرۡضٗا﴾: غيِّبوه عن أبيه، وألْقوه في أرضٍ بعيدةٍ مجهولةٍ لا يتمكّنُ من رؤيته فيها[6].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/23.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 18/424.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (طرح).
(4) ابن منظور، لسان العرب: (طرح).
(5) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحفّاظ: (طرح).
(6) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 394.

2) ﴿يَخْلُ﴾: أصلُ (خلو) يدلُّ على تعرّي الشّيءِ منَ الشّيءِ، والمكانُ الخَلاءُ: الذي لا شيءَ به[1]، وخَلا لك الشّيءُ وأَخْلَى: فَرَغَ، وخلا المكان: إذا فَرَغَ، ولم يكنْ فيه أحدٌ ولا شيءَ فيه، وهو خالٍ[2]، وخَلا: انفردَ في مكانٍ خالٍ إلّا منه، خَلى الشّيءَ: تركه فلم يعدّ مَحوزًا لديه[3]، و﴿يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ﴾ أي يخلصُ لكم وجهُه فيُقبلُ بكلّيتِه عليكم، فلا يلتفتُ عنكم إلى غيركم، ولا ينازعُكم في محبّته أحدٌ[4].

3) ﴿وَجْهُ﴾: أصلُ (وجه) يدلُّ على مقابلةٍ لشيءٍ، والوجهُ مستقبلُ لكلّ شيءٍ، يُقال في وجهِ الرّجل وغيرِه، والوجهُ معروف، وربّما عبّر عن الذاتِ بالوجه[5]، والوجهُ: نفسُ الشّيء، وجمعُه: وجوه، وأوجهٌ، وأُجُوهٌ[6]، ووجهُ النّهار أوّلُه، ووجهُ الكلام: السّبيلُ الذي يقصدُه به، ووجوهُ القوم: ساداتُهم، وصرفُ الشّيء عن وجهه أي سَننِه[7]. ومعنَى ﴿وَجْهُ﴾ في الآية: أي كلُّ توجُّهِه إليكم، وكلُّ إقبالِه عليكم بالميْلِ والمحبّة[8]، فكأنّه أقبلَ عليهم بوجهِه، أو يُرادُ بالوجهِ الذّاتُ[9]، وهو كنايةٌ عن خُلوصِ محبّتِه لهم دون مشاركٍ[10].

المَعْنى الإجْماليُّ:

قال إخوة يوسُف بعضُهم لبعضٍ: اقتلوا يوسُفَ أوِ اطرحوه في أرضٍ مجهولةٍ بعيدةٍ مِنَ العُمرانِ، لا يعلمُها يعقوبُ عليه السلام، يَخلصْ لكم

اختلالُ ميزانِ تقديرِهم، جعلَهم يَقترحون القتلَ، على نيّةِ التّوبةَ من بعدِه

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (خلو).
(2) الزّبيديّ، تاج العروس: (خلو).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (خلو).
(4) ابن عجيبة، البحر المديد: 2/576، والخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 6/1239.
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (وجه)، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (وجه).
(6) الزّبيديّ، تاج العروس: (وجه).
(7) ابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم: (وجه).
(8) رشيد رضا، تفسير المنار: 12/216.
(9) النّسفيّ، مدارك التّنزيل: 2/97.
(10) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/224.

وجهُ أبيكم من شُغْلِه بيوسُفَ، فإنّه قدْ شغله عنّا، وصرفَ وجهَه عنَّا إليه، وتتوبون من بعدِ قتلكم يوسفَ، وتكونون بتوبتِكم من قتلهِ من بعدِ هلاكه قومًا صالحين[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

الاستئنافُ البيانيُّ في جملةِ: ﴿ٱقۡتُلُواْ يُوسُفَ﴾:

بيانُ غرَضِهم ممّا قالوه، ومقصدِهم جَرّاءَ ما فعَلوه

فصَل البيانُ القرآنيُّ قولَه تعالى: ﴿ٱقۡتُلُواْ يُوسُفَ﴾ عمّا قبله ﴿إِذۡ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحۡنُ عُصۡبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ﴾ لِما بينَهما من شبْهِ كمالِ اتّصالٍ؛ إذ جاءتْ جملةُ ﴿ٱقۡتُلُواْ يُوسُفَ﴾ مُستأنَفةً استئنافًا بيانيًّا؛ لأنَّ الكلامَ المتقدِّمَ يُثيرُ سُؤالًا في نُفوسِ السَّامِعين عن غرَضِ القائِلين ممَّا قالوه، وما هُم فاعلون[2]، فجاءتْ هذه الآيةُ تبيّنُ قصدَهم وما سيفعلون.

وغرَضُ هذا الأسلوبِ جعْلُ الكلامِ السَّابِقِ كالمقدِّمةِ؛ لِتَتأثَّرَ نفوسُ السَّامعينَ، فإذا أُلْقِي إليها المطلوبُ كانتْ سريعةَ الامتثالِ إليه[3].

دَلالةُ الأمرِ في: ﴿ٱقۡتُلُواْ﴾:

في الأمرِ التماسُ المُوافَقةِ منَ الجميعِ تصريحًا أو رِضًا

عبّر البيانُ الإلهيُّ بفعل الأمر ﴿ٱقۡتُلُواْ يُوسُفَ﴾، وهو خطابُ أحدِهم، وغرَضُ الأمر بالقتلِ هو التماسُ الموافقةِ على هذا الفعل منَ الجميع دونَ استثناءٍ، ممّا يدلُّ هذا الأمرُ على الحقدِ الّذي استولى على قلوبهم؛ إذْ بدأوا بأشدِّ أنواعِ التّخلُّصِ منه، وهو إعدامُه وإخفاءُ أثرِه مِنَ الوجود، ولَمّا كان أمرًا لا يتخلّفون فيه - جالتْ به صدورُ بعضهم، ونطقتْ به ألسنةُ آخرين - عبّرَ عنه بصيغةِ الجماعةِ.

بَلاغةُ الالتفاتِ إلى صيغةِ الخطاب:

في الالتفاتِ فضحٌ لنفوسِهم المتَكبّرةِ، وقُبحٌ لِما يُخطّطون له

التفتَ البيانُ الإلهيُّ منَ التّعبيرِ بصيغةِ المتكلّمِ بقوله: ﴿وَنَحۡنُ

(1) ابن جرير، جامع البيان: 15/564، ونخبة من أساتذة التّفسير، التَّفسير الميسّر، ص: 236.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/23.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/222.

عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾، إلى التّعبيرِ بصيغةِ المُخاطَب، بقولِه: ﴿ٱقْتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا﴾، ولم يقلْ: (إنْ نقْتلْ يوسُفَ أو نطرحْهُ أرضًا يخلُ لنا وجْهُ أبينا ونكون من بعده قومًا صالحين)؛ لِيصوّرَ لنا الحالةَ النّفسيةَ التي كانوا فيها؛ فلمّا كان الحديثُ عن توصيفِ نفوسهم المُتورّمةِ المتكبّرةِ وحالِهم وقوّتِهم وشعورِهم بالظّلم - حسبَ زعْمِهم - عبّروا بصيغة المتكلّم الواثقِ ممّا يقولُ ولا يخافُ منه، ولمّا انتقلَ الحديثُ عنِ الوسيلةِ التي يُفرغون من خلالها حقدَهم وحسدَهم الّذي تمكّن منهم، وكانتْ جريمةً عظيمةً في حقِّ أخيهم وأبيهم، يعلمون قُبحَها وآثارَها، ولذلك لم تستطعْ ألسنتُهم أنْ تنطقَ بهذه الجريمة، بصيغة المتكلّم فلجأتْ إلى صيغةِ المخاطَبِ تخفيفًا من ثِقلِها الّذي يَشعرون به، وهذا شهادةٌ عليهم بقُبحِ ما يُقْدمون عليه.

التّصريحُ بالاسمِ الظّاهرِ، في جملة ﴿ٱقْتُلُواْ يُوسُفَ﴾:

بيانُ داعي نفوسِهم، في قتل يوسفَ، وتقريرُ ذلك بالسّياقِ

صرّح البيانُ الإلهيُّ وهو ينقلُ قولَهم ﴿ٱقْتُلُواْ يُوسُفَ﴾ بالاسم الظّاهرِ ﴿يُوسُفَ﴾ ولم يُضمرْه رغم ورودِ اسمِه الظّاهر في الكلام السّابقِ، بل إنّ الحديثَ كلَّه عنه، فلم يقلْ: (اقتلوه)؛ إشارةً إلى وصولِ الحقدِ غايتَه في قلوبهم، وإلى قصْد تقويّةِ الدّاعي في نفوسهم، فلَطالما سمعوا هذا الاسْمَ من أبيهم يردّدُه أمامَهم؛ فيُوقدُ نارَ صدورِهم، إذِ التّصريحُ باسمه مُقترنًا بفعلةٍ شنيعةٍ متمثّلةٍ في إزهاقِ روحِ غلامٍ بريءٍ هو أخٌ لهم فيه دَلالةٌ على أثر وجودِ المُسمَّى فيما هم فيه.

دَلالةُ التّخيير في ﴿أَوِ﴾:

التّخييرُ بين فعلَين، هما قريبٌ من قريبٍ، بين قتلٍ مُباشرٍ أو غيرِ مباشرٍ

معنَى ﴿أَوِ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا﴾ التّخييرُ بين أحد الفعلَين؛ أي: افعلوا به أحدَ الأمرين؛ إمّا القتلُ أوِ الإلقاءُ في أرضٍ بعيدةٍ منكورةٍ وهو الظّاهرُ[1]، ويدلُّ هذا التّخييرُ على كون الأمرَين

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/243.

متقارِبَيْن، إذِ النّتيجةُ واحدةٌ؛ فطرْحُه في أرضٍ نائيةٍ مقطوعةٍ مُفْضٍ في الغالبِ إلى الموت، فالنّتيجةُ هي قتلٌ مباشرٌ، أو غيرُ مباشرٍ، وهذا يدلُّ على مدى غَليانِ الحقدِ في قلوبهم، وأثرِ الشَّيطان في التّسلّطِ عليهم، ويجوزُ أنْ تكون ﴿أَوِ﴾ للتَّنويعِ، أي: قال بعضٌ: اقتلوا يوسف، وبعضٌ: اطرحوه[1].

إيثارُ لفظِ ﴿ٱطْرَحُوهُ﴾ دون غيرِه:

إلقاءُ يوسفَ، يُصوّرُ حسدَ إخوته وكُرهَهم له

آثرَ البيانُ القرآنيُّ مُفردةَ (الطَّرح) فقال: ﴿ٱطْرَحُوهُ﴾ دون غيرِها، فلم يقلْ مثلًا (أودعوه)، وذلك لمناسبةِ مُفردةِ الطّرحِ للسّياق؛ إذ معنَى الطّرحِ في اللُّغة يدلُّ على نَبْذِ الشيءِ وإلقائه[2]، والطَّرْحُ: الإلقاءُ والإبعادُ، ويكونُ الاطّراحُ غالبًا إلقاءَ الشّيءِ غيرَ مُعتدٍّ به[3]، في حينِ أنَّ لفظَ (أودعوه) يدلُّ على التّرك والتّخليةِ[4]، ولا يدلُّ على الإبعاد والنّبذ، فهو لا يُعبّرُ عن كُرهِ وحقدِ إخوة يوسف وكيدِهم له، ولهذا آثر التّعبيرَ بلفظِ ﴿ٱطْرَحُوهُ﴾ لكونه أنسبَ؛ إذ يُشيرُ إلى تمكّنِ الحسدِ والحقدِ والبغضاءِ من قلوبهم بما جعلَهم يَستخدِمون مُصطلحًا في الرّمي والإلقاءِ والإبعاد، و"يُعبّرُ به عنِ الاقتحام في المخاوف"[5].

تنكيرُ ﴿أَرْضًا﴾:

التّنكيرُ والإبهامُ في (أرضًا) دَلالةٌ عنِ البُعدِ عنِ العُمرانِ

أوصلَ البيانُ القرآنيُّ الفعلَ ﴿ٱطْرَحُوهُ﴾ في قولِه تعالى: ﴿ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا﴾ بدون حرفٍ، أي لم يقل: اطرحوه في أرضٍ، مع تنكير ﴿أَرْضًا﴾[6]، وأخلاها مِنَ الوصفِ؛ لإفادة الإبهام؛ أي: أرضًا مَنكورةً مجهولةً بعيدةً مِنَ العُمرانِ[7] لا يعلمُها يعقوبُ عليه السلام، "بحيثُ

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/243.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (طرح).
(3) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحفّاظ: (طرح).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ودع).
(5) صدّيق خان، فتحُ البيان: 6/294.
(6) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/23.
(7) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/447، وقال أبو السّعود: "ولذلك نُصبتْ نصبَ الظّروفِ المُبهمة"، يُنظر: إرشاد العقل السّليم: 4/256.

يهلكُ يوسفُ فيها، وعَنى قائلُهم بذلك: إنْ تورّعتُم عن مباشرةِ قتلِه بأيديكم"[1].

إيثارُ لفظِ ﴿يَخۡلُ﴾:

جاء فعلُ ﴿يَخۡلُ﴾ مجزومًا؛ لكونِه جوابًا للأمر، أَيْ: إنْ فَعَلتُم ذلك يَخْلُ لَكُم وجهُ أَبيكُم، والتَّعبيرُ بالخُلُوِّ على سبيلِ المجازِ في عدمِ التَّوَجُّهِ لمَن لا يَرغَبونَ تَوَجُّهَهُ له (أي ليوسف)؛ لأنّ حقيقةَ الخُلوّ الفَراغُ، فَكأَنَّ الوَجهَ خَلا مِن أشياءَ كانَتْ حالَّةً فِيه[2]، وهو يوسف وحبُّه وتعلّقُه به وتقديمُه، فأرادوا بإبعادِ يوسفَ أنْ يخلُوَ لهم، أي أنْ ينفردوا فيه؛ لأنّ خَلا في اللغة: انفردَ في مكانٍ خالٍ إلَّا مِنه[3]، وبذلك يكونون هم منْ يَحظى باهتمام أبيهم ومحبّتِه، وفي هذا التّعبيرِ إشارةٌ إلى أنّ يوسف قد ملأَ كلَّ المكانةِ والمحبّةِ عند أبيه، ولم يكنْ لهم مكانٌ عند أبيهم حسبَ زعْمِهم.

غرَضُهم من فعلَتِهم أنْ يَنفردوا بحبِّ يعقوبَ الّذي ملَكهُ يوسفُ حسبَ زعْمِهم

نُكتةُ الإيجازِ في: ﴿يَخۡلُ﴾:

الفعلُ المضارعُ ﴿يَخۡلُ﴾ في جواب الطّلب ﴿ٱقۡتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ ٱطۡرَحُوهُ﴾ مجزومٌ بحرفِ شرطٍ مقدّرٍ هو وفعلُ الشّرط؛ لأنّ خُلوَّ وجهِ أبيهم لا يتحقَّقُ بمجرّدِ النّطق بفعلِ الأمر، وإنَّما يتحقّقُ بتنفيذِ الأمر، فالتّقديرُ: اقتلوا يوسفَ أوِ اطرحوه أرضًا، فـ "إنْ فعلتم ذلك يخلُ لكم وجه أبيكم"[4]؛ فالمحذوفُ هنا هو أداةُ الشّرطِ وفعلُ الشّرط.

إيجازٌ يُعطي قيمةً جماليّةً للقصّة، بالتّركيزِ على المَشاهدِ البارزةِ فيها

وفي هذا الحذفِ إيجازٌ يدلُّ بالألفاظِ القليلةِ على المعاني الكثيرةِ، وهو منْ أبرزِ الظّواهر البلاغيّةِ في سورة يوسفَ، كونُ موضوعِها هو ذكرَ أحداثِ قصّة يوسفَ وإخوتِه، ومن أسلوبِ القرآن الكريمِ في سردِ القَصصِ تَسليطُ الضّوء على المَشاهد البارزةِ،

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/23.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/223.
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (حلو).
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/223.

وتركُ مابينهما من فجواتٍ؛ يَطوي فيها ما بين المَشاهدِ منَ الرّوابط البدهيّةِ، ويفسحُ المجالَ للخيالِ حتى يملأَها بما يُعطي قيمةً جماليّةً للقصّة، بينما تقلُّ هذه القيمةُ وتضعفُ كلّما شُغل الذّهنُ بعرضِ تلك الرّوابطِ البدهيَّة[1].

سِرُّ إسنادِ الخُلوِّ إلى الوجهِ بين الاستعارةِ والمجاز:

الغيرةُ بين الإخوةِ، قد تُؤدّي إلى الأذى والجَفوةِ

قولُه تعالى: ﴿يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ﴾، وفيه أسندَ البيانُ القرآنيُّ الخُلوَّ إلى الوجه؛ وللوجه هنا معنَيان:

الأوّل: فإنْ كانَ المرادُ به الذّاتَ، أي يخلُ لكم أبوكم[2]، فهو مجازٌ مرسلٌ؛ إذ عبّر عن الذّاتِ بالوجه، عبّر بالجُزء (الوجه) وأراد الكلَّ (الذّات)، ولابدّ من أنْ يكونَ للجُزء المعبَّرِ به خِصّيصةٌ في بيانِ المعنَى المُرادِ؛ فخُصوصيّةُ الوجهِ هنا هو أنّه مرآةُ الإنسان الّتي تنعكسُ عليها حالتُه النّفسيّةُ، فيُعرفُ فيه الرّضا والغضبُ، والفرحُ والحزنُ، وعامَّةِ المشاعرِ الإنسانيّةِ.

الثّاني: وإنْ كان المرادُ الوجهَ فهو استِعارَةٌ عن شَغْلِه به، وصرْفِ مودَّتِه إليه، لأنَّ مَن أقبَل عليك صرَفَ وجْهَه إليك[3]، وفي هذه الاستعارةِ تَصويرُ معنَى إقبالِه عليهم[4]، "وهذا المعنَى كنايةٌ تَلويحٍ عن خُلوصِ محَبَّتِه لهم دونَ مُشارِكٍ"[5]، والمعنى: إنْ تفعلوا ذلك يُقبِلْ عليكم إقبالةً واحدةً لا يلتفتْ عنكم إلى غيرِكم، والمرادُ سلامةُ محبّتِه لهم ممّن يُشاركُهم فيها ويُنازعُهم إيّاها[6].

سِرُّ تقديمِ ﴿لَكُمْ﴾ على الفاعل ﴿وَجْهُ﴾:

أنانيّةُ انفرادِهم بحبِّ أبيهم، حملَتْهُم على الكيدِ ليوسفَ وأذيّتِه

قولُه تعالى: ﴿يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ﴾، وفيه قدَّمَ البيانُ القرآنيُّ

(1) البُغا، الواضح في علوم القرآن، ص: 195.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 6/243.
(3) أبو حيان، البحر المحيط: 6/243.
(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/256، وأبو حيان، البحر المحيط: 6/243.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/223.
(6) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/23، والآلوسيّ: روح المعاني: 6/383.

الجارَّ والمجرورَ ﴿لَكُمْ﴾ على الفاعل ﴿وَجْهُ﴾ إيثارًا لهم بالخطاب، أي لكم دونَ غيركم؛ وذلك للمُبالَغةِ في حَمْلِهم على القَبولِ؛ فإنَّ اعتناءَ المرءِ بشأنِ نفْسِه، واهتمامَه بتحصيلِ مَنافِعِه أتَمُّ وأكمَلُ[1]، وفي هذا إشارةٌ إلى أنانيّتِهم التي هي أثرٌ من آثارِ الحسدِ الذي تمكّنَ في قلوبِهم.

معنَى اللّام في ﴿لَكُمْ﴾:

قولُه تعالى: ﴿يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ﴾، اللَّامُ في قوله: ﴿لَكُمْ﴾ لامُ العِلَّةِ، أي يَخْلُ وَجهُ أَبيكُم لأجلِكم، بمعنَى أنَّهُ يَخلُو مِمَّنْ عَداكُم فَيَنفَرِدُ لَكم، وهذا المعنَى كِنَايَةٌ تَلويحٍ عن خُلوصِ مَحَبَّتِهِ لَهم دونَ مُشارِكٍ[2].

فـي لامِ العِلّةِ كـنـايـةٌ عَـن خُـلـوصِ محبّةِ أبيهم لهم

إضافةُ (أب) إلى ضميرِ المُخاطَبين ﴿أَبِيكُمْ﴾:

أضافَ البيانُ القرآنيُّ لفظَ الأب إلى ضميرِ المُخاطَبين ﴿أَبِيكُمْ﴾، وهم إخوةُ يوسف؛ لأمورٍ: **الأوّلُ**: أنَّهم يحمِلون في قلوبهم حبًّا واحترامًا تجاهَ أبيهم، فلا يذكرونَه باسمه، رغمَ ما استبدَّ بهم مِن حَسَدٍ شيطانيٍّ أرْدَاهُم، و**الثّاني**: إغراءٌ ومُبالَغةٌ في حَمْلِ جميعِهم على القَبولِ بهذه الجريمةِ، وذلك بتذكيرِ بعضِهم البعضَ بما سينالونَهُ من صلاحِ حالٍ عند أبيهم، من قُرْبٍ واهتمامٍ وحبٍّ بعد إبعاد يوسفَ عليه السلام، وبتبريرِ فعْلِهم المُنكرِ بأنّ يعقوبَ أبوهم ويَستحقّون أن يَنفردوا به كما كان يوسُفُ حَسْبَ زعمِهم، و**الثّالثُ**: فيه إشارةٌ منهم إلى أنّ يعقوبَ عليه السلام سيُسامحُهم بعد فعلَتِهم؛ كونُهم أبناءَ له، وهم يَعلمون حنانَ أبوّتِه.

إضـافـةُ الإخـوةِ أنـفـسَـهـم إلى أبيهم، طَمَعٌ في مُسامحتِهم، وتبريرٌ لهم عن فِعْلتِهم

فائدةُ عطْفِ جملةِ ﴿وَتَكُونُواْ﴾:

عطَفَ البيانُ الإلهيُّ قولَه تعالى: ﴿وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾، أي مِن بعد يوسُفَ عليه السلام على ﴿يَخْلُ لَكُمْ﴾، ليكونَ من جملةِ الجوابِ للأمر

تَرجيحُ أنْ يكونَ المُـرادُ الـصّـلاحَ الـدُّنـيـويَّ لا الدّينيَّ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/256.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/223.

﴿ٱقۡتُلُواْ﴾، والمعنَى: اقتلوا يوسفَ، أوِ اطْرحوه أرضًا، فإنْ فعلتم ذلك يخلُ لكم وجهُ أبيكم، وتكونوا قومًا صالحين.

أي المرادُ مِن هذا العطف كوْنٌ ناشئٌ عن فِعْلِ المَأمورِ بِهِ، هو صلاحُ دُنياهُم.

وبهذا يتعيَّنُ كما يرى ابنُ عاشور أنْ يكونَ المرادُ منَ الصَّلاحِ فيه، الصَّلاحَ الدُّنيوِيَّ، أَي صَلاحَ الأحوالِ في عَيشهم مع أَبيهِم، وليس المرادُ الصَّلاحَ الدّينِيّ[1].

سِرُّ التَّعبيرِ بفعْلِ الكوْنِ مضارعًا مجموعًا ﴿وَتَكُونُواْ﴾:

تحقّقُ وثباتُ صلاحِ إخوةِ يوسفَ الدّنيويِّ والدّينيِّ، وَهْمٌ جمّلَهُ حَسَدُهم لِيوسُفَ

عبّرَ البيانُ الإلهيُّ بفعلِ الكوْن ﴿وَتَكُونُواْ﴾ مضارعًا مجموعًا؛ للدّلالةِ على توهُّمِهم بتمكُّنِ وثباتِ صلاحِ حالِهم الدّينيّ والدّنيويّ بإبعاد يوسفَ، واستمرارِهم جميعِهم على هذا الصّلاح؛ وذلك لتعبيرِهم بالجملةِ الاسميّةِ الّتي تفيدُ الثّبوتَ، ولتعبيرِهم بفعل الكون بصيغةِ المضارع مجموعًا، قال البقاعيّ: "قالوا: ﴿وَتَكُونُواْ﴾، أي: كونًا هو في غايةِ التّمكّنِ"[2].

وكذلك التَّعبيرُ بخبر ﴿وَتَكُونُواْ﴾ بصيغة اسْم الفاعل ﴿صَٰلِحِينَ﴾ - الذي يدلُّ كذلك على الثُّبوت والدّوام - يؤكّدُ حرصَهم على وصْفِ الصّلاحِ بعد القيام بجريمتِهم، والمعنَى: وتكونوا من بعده قومًا "صالحين أي: عريقين في وصْفِ الصَّلاح مستقيمينَ على طريقةٍ تدعو إلى الحكمة بوقوعِ الأُلفةِ بينكم، واستجلابِ محبّةِ الوالدِ بالمبالغة في برّه، وبالتّوبةِ من ذنْبٍ واحدٍ يكون سببًا لزوالِ المُوجبِ لداءِ الحسدِ الملازمِ لذنوبٍ متّصلةٍ منَ البغضاء والمقاطعةِ والشّحناءِ، فعزموا على التّوبة قبلَ وقوعِ الذّنْب[3].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/224.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/24.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/24.

عوْدُ الضّميرِ في ﴿مِنۢ بَعۡدِهِۦ﴾، وسِرُّ التَّعْبيرِ بالبَعديّةِ:

سَعْيُهم إلى الصّلاحِ مَنوطٌ بمُراداتِهم في الحياةِ، بحسَبِ مفهومِهم للصّلاحِ والحياةِ

الضّميرُ (الهاء) في قوله تعالى: ﴿مِنۢ بَعۡدِهِۦ﴾ إمّا أنْ يرجعَ إلى ﴿يُوسُفَ﴾، والمعنَى: وتكونوا مِن بعد يوسُفَ قومًا صالحين، أي من بعدِ كفايتِه بالقتلِ أوِ التّغريبِ.

أو أنْ يرجعَ الضّميرُ إلى مصدرِ ﴿ٱقۡتُلُواْ﴾ أوِ ﴿ٱطۡرَحُوهُ﴾، والمعنَى: ثمّ تكونوا من بعد قتلِكم يوسفَ، أو تغريبِه قَوْمًا صالِحِينَ تائبين إلى اللّه ممّا جنيْتُم عليه[1].

ومن ثَمَّ يكونُ التَّعبيرُ بالبَعديّة دونَ قوله: (ثم تكونوا صالحين)؛ للتَّأكيدِ على كوْنِ يوسفَ عائقًا لهم إذا عادَ الضّميرُ (الهاء) عليه، أو للتَّأكيدِ على ثِقَل هذا الفعلِ الذي سيفعلونَه، وأنّه غيرُ مقبولٍ بموازينِ الصّلاح إذا عاد الضّميرُ إلى مصدرِ اقتلوه أوِ اطرحوه، أي: من بعد قتلِكم أو طرحِكُم له.

دَلالةُ ﴿مِنۢ﴾ في سياقِ الآيةِ الحكيمِ:

بيانُ أنّ في (من) دلالةً على سُرعةِ صلاحِ حالِهم وتوكيدِه

قولُه تعالى: ﴿وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعۡدِهِۦ قَوۡمٗا صَٰلِحِينَ﴾، وفيه تحتملُ ﴿مِنۢ﴾ معْنيَين:

الأوّل: أنْ تكونَ لابتداءِ الغاية، والمعنَى: تكونوا ابتداءً من بعد هذا الفعلِ بيوسفَ قومًا صالِحين، أي أنّ صلاحَ حالِكم مع أبيكم أو توبتَكم من فعلِكم تبدأُ من قتلِكم يوسُفَ أو تغريبِه، وقد عبّروا بمن الابتدائيةِ؛ لأنهم "لَمّا كانوا عالِمين بأنّ الموتَ لا بدّ منه، فهو مانعٌ من استغراقِهم للزّمانِ الآتي، أدخَلوا الجارَّ فقالوا: ﴿مِنۢ بَعۡدِهِۦ﴾"[2].

الثّاني: أنْ تكونَ للتَّوكيد، أي توكيدِ صلاحِ حالِهم مع أبيهم أو صلاحِ دُنياهم بزوالِ ما يَشغلُهم أو صلاحِ دينِهم بالتّوبةِ بعد قتلهم يوسُفَ أو تغريبِه.

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/447.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/24.

تَقديمُ الجارِّ والمجرورِ ﴿مِنۢ بَعۡدِهِۦ﴾ على الخبرِ ﴿قَوۡمٗا﴾:

الإشارةُ بالتّقديمِ، إلى وهْمِهم بكونِ يوسفَ عائقًا أمامَ صلاحِهم

قدَّم البيانُ القرآنيُّ الجارَّ والمجرورَ ﴿مِنۢ بَعۡدِهِۦ﴾ على خبرِ تكونوا ﴿قَوۡمٗا﴾؛ ولم يقل: (وتكونوا قومًا صالحين من بعده)؛ إشارةً إلى إصرارِهم على الفعلِ وعزمِهم عليه، وإلى وهْمِهم بأنّ صلاحَهم الدُّنيويَّ متعلِّقٌ به، أو أنّ صلاحَهم الدّينيَّ بتوبتِهم سيكونُ من بعده.

فائِدةُ ذكْرِ لفظِ ﴿قَوۡمٗا﴾، ومعها الصّفةُ ﴿صَٰلِحِينَ﴾:

التَّعبيرُ بـ (قومًا) إشارةٌ إلى توهُّمِهم في يوسفَ ما ليس بحقٍّ

أطنبَ البيانُ الإلهيُّ بذكرِ لفظةِ ﴿قَوۡمٗا﴾ ولم يكتفِ بالصّفةِ ﴿صَٰلِحِينَ﴾؛ للإشارةِ إلى أنَّ صَلاحَ الحالِ صِفةٌ متمكِّنةٌ فيهم؛ كأنَّه مِن مُقوِّماتِ قَوميَّتِهم[1]، أوِ الإشارةِ إلى نشاطِهم وقوّتِهم في إدارةِ شؤونِ دُنياهم بعد التّخلُّصِ ممّا يتسببُ بشَغْلِ بالِهم، ويأخذُ جُزءًا من تفكيرِهم، والمعنَى: أنْ يكونوا بعد هذا الفعل "من ذوي نشاطٍ وقوّةٍ على محاولةِ الأمورِ"[2]؛ لأنّ القومَ في أصله للرّجال، وسُمُّوا بذلك؛ لأنّهم قَوّامون على النِّساءِ بالأُمورِ التي ليس للنِّساءِ أَنْ يَقُمْنَ بها[3].

نُكتةُ حذْفِ مُتعلَّقِ ﴿صَٰلِحِينَ﴾:

عَمّموا أنواعَ الصّلاحِ الّذي يُصيبُهم، بعد جريمتِهم، إقناعًا لأنفسِهم

قولُه تعالى: ﴿وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعۡدِهِۦ قَوۡمٗا صَٰلِحِينَ﴾، وفيه حذفَ البيانُ القرآنيُّ متعلَّقَ ﴿صَٰلِحِينَ﴾، فلم يقلْ: صالحين في أمور دينِكم وطاعةِ أبيكم، أو صالحين في أمورِ دنياكم بذهابِ ما كان يَشغلُكم عن ذلك، وهو الحسدُ ليوسفَ، وتكدّرُ خواطرِكم بتأثيرِه عليكم هو وأخوه، أي بسبب ذلك صرتُم مُشوَّشين لا تتفرّغون لإصلاحٍ مهمٍّ، فإذا زالتْ هذه الوحشةُ تفرّغتُم لإصلاحِ مَهمّاتِكم[4]، أو صالحين مع أبيكم بعذرٍ تمهّدونَه، أو صالحين في دينكم بتوبتِكم من هذا الذّنْبِ في المستقبلِ؛ ليعمّ ذلك كلَّه[5].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/224.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/24.
(3) الزّبيديّ، تاج العروس: (قوم).
(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 18/424.
(5) صديق خان، فتح البيان: 6/294.

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الطَّرْحُ والإيدَاعُ:

الطّرحُ: أصلُ (طرح) يدلُّ على نَبْذِ الشّيءِ وإلقائِه، ومن ذلك الطَّرَحُ: المكانُ البعيدُ[1]، وطَرَحَه: رمى به بعيدًا، والطِّرْحُ: الشَّيءُ المطروحُ لا حاجةَ لأَحدٍ فيه[2]، والطَّرْحُ: الإلقاءُ والإبعادُ، ويكونُ الاطّراحُ غالبًا إلقاءَ الشّيء غيرَ مُعتدٍّ به[3].

الطرحُ نبذٌ وإبعادٌ وإلقاءٌ للشّيء غيرَ مُعتدٍّ به، والإيداعُ تركٌ وتخليةٌ

والإيداعُ: أصلُ (ودع) يدلُّ على التّركِ والتّخليةِ، وَدَعَهُ: تَرَكَهُ، ومنه الدَّعَةُ: الخَفْضُ[4].

إذن: يتميّزُ الطَّرحُ بالنّبذِ والإبعادِ وإلقاءِ الشّيء غيرَ مُعتدٍّ به، ويتميّزُ الإيداعُ بالتّركِ والتّخليةِ والخفضِ.

الخلوُّ والفَرَاغُ:

لا تكادُ تُسعفُنا المعاجمُ اللّغويّةُ بفروقٍ واضحةٍ بين لفظَي (الخلوِّ، والفراغِ)، إذ عرّفتْ كلًّا منهما بالآخر (الخُلوّ بالفراغ، والفارغ بالخالي)، إلا أنّنا إذا أمعنّا النَّظرَ في معناهما واستعمالِهما نجدُ بعضَ الفروقِ الدّقيقةِ بين اللّفظَين، ويتّضحُ ذلك من خلال الآتي:

الخُلوُّ فراغٌ مع تعرٍّ وتركٍ وانفرادٍ، والفَراغُ خُلوٌّ مع سَعَةٍ وقصْدٍ

الخُلُوُّ: أصلُ (خلو) يدلُّ على تعرّي الشّيءِ منَ الشّيءِ، والمكانُ الخَلَاءُ: الذي لا شيءَ به[5]، وخَلا لك الشّيءُ وأَخْلَى: فَرَغَ، وخلا المكان: إذا فَرَغَ، ولم يكنْ فيه أحدٌ ولا شيءَ فيه، وهو خالٍ[6]، وخَلا: انفردَ في مكانٍ خالٍ إلّا منه، وخَلى الشّيءَ: تركَه فلم يعدْ مَحوزًا لديه[7].

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (طرح).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (طرح).
(3) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحفّاظ: (طرح).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ودع).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (خلو).
(6) الزّبيديّ، تاج العروس: (خلو).
(7) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (حلو).

كما ارتبط (الخُلُوّ) بالزّمان والمكانِ، كقوله: "خلا الشّيءُ: مَضَى " (ذَهَبَ فخلا منه المكانُ والزّمانُ الذي كان يشغلُه) ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ﴾ [البقرة: 134] ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾ [آل عمران: 144][1].

والفَراغُ: أصلُ (فرغ) يدلّ على خُلُوٍّ وسَعَةِ ذَرْعٍ، من ذلك الفراغُ: خلافُ الشّغل[2]، والفَرْغُ: السَّعةُ والسَّيَلانُ، ورجُلٌ فِراغٌ: سَريعُ المشْيِ واسعُ الخِطاءِ، وفَرِغَ الماءُ: انْصَبَّ، والفارغُ: الخالي[3]، والفراغُ في اللُّغة على وجهين: الفراغُ من الشُّغْلِ، والآخرُ: القَصْدُ للشَّيءِ[4].

إذن: يتميّزُ (الخلو) بمعنَى تعرّي الشّيء منَ الشّيء، والتّركِ والانفرادِ، والدّلالةِ على فراغ الحيّزِ أوِ الظّرف ممّا كان يشغلُه مع بقائه مُتماسكًا؛ ولذلك كان استعمالُ قوله تعالى: ﴿يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ﴾ أنسبَ لحرْصِهم على بقاء أبيهم متماسكًا بعد إبعادِ يوسفَ عنه.

في حينِ يتميّزُ (الفراغ) بأنّه خلافُ الشّغل، وأنّ فيه معنَى السّعةِ، والقَصْدِ والانصبابِ، وقد لا يبقى الشّيءُ قويًّا بعد ما صار فارغًا، ولذا أوثرَ استعمالُه في قوله: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا﴾ [القصص: 10] أي فارغًا منَ العقل حينَ بلغها أنَّه وقع في يد فرعونَ، أو حين رؤيتِها تلاطُمَ الأمواج به، إذْ دهمَها أمرٌ مثلُه لا يثبتُ معه العقلُ، لا سيَّما عقلُ امرأةٍ خافت على ولدها حتَّى طرحَتْه في اليمّ رجاءَ نجاتِه منَ الذَّبح[5].

القومُ والنّاسُ:

يوجدُ تقاربٌ دلاليٌّ بين لفظَي (القومِ، والنّاسِ) إلَّا أنّ بينَهما فروقًا منها:

القومُ جماعةٌ منَ الرّجالِ؛ والنّساءُ تبعٌ لهم، والنّاسُ جنسُ الإنسِ يشملُ الرّجالَ والنّساءَ

(1) ابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (خلو).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (فرغ).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (فرغ).
(4) الزّبيديّ، تاج العروس: (فرغ).
(5) أبو حيان، البحر المحيط: 8/289.

القومُ: في أصله يدلُّ على جماعةِ ناسٍ، والقومُ: جمعُ امرئ، ولا يكونُ ذلك إلَّا للرّجال[1]، وربّما تدخلُه النّساءُ على سبيل التّبَع، وسُمُّوا بذلك؛ لأَنّهم قَوَّامُون على النِّساءِ بالأُمورِ التي ليس للنِّساءِ أَنْ يَقُمْنَ بها[2]. والنّاسُ: جنسُ الإنس خاصّةً، وقيل: النّاسُ جمعُ إنسان، منَ الأُنس: ضدِّ الوحشة، وقيل: أصلُ النّاسِ منَ النّسيان، وقيل اشتقاقُه منَ النَّوْس وهو الحركةُ[3]، والنّاس تشملُ الرّجالَ والنّساءَ على حدٍّ سواءَ. ولذلك كان استعمالُ القوم في قوله: ﴿وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعۡدِهِۦ قَوۡمٗا صَٰلِحِينَ﴾ أنسبَ للسّياق؛ لدلالتِه على قوميّتِهم واجتماعِهم.

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (قوم).
(2) الزّبيديّ، تاج العروس: (قوم).
(3) الزّبيديّ، تاج العروس: (أنس).

﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنۡهُمۡ لَا تَقۡتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلۡقُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلۡجُبِّ يَلۡتَقِطۡهُ بَعۡضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ ١٠﴾ [يوسف: 10]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

بعد أنْ وصلَ الحَسدُ الشّيطانيُّ إلى غايتِه في نفوسهم فقالوا بعد التّشاوُر: ﴿ٱقۡتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ ٱطۡرَحُوهُ أَرۡضٗا يَخۡلُ لَكُمۡ وَجۡهُ أَبِيكُمۡ﴾ ارتعشَ لهولِ ما هُم مُقْدِمونَ عليه ضميرُ واحدٍ فيهم، فاقترحَ حلًّا يُريحُهم من يوسُفَ، ويُخلي لهم وجهَ أبيهم، دون الإقدامِ على جريمةِ القتل الشّنعاءِ فقال: ﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنۡهُمۡ لَا تَقۡتُلُواْ يُوسُفَ﴾.

بعدَ بلوغِ الشّيطانِ منهم غايتَه، تحرّكتْ فيهم مَشاعرُ الأخوّة، لتمنَعَهم من جريمةٍ شنعاءَ

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَأَلۡقُوهُ﴾: أصلُ الإلقاء: يدلُّ على طرحِ شيءٍ، وأَلْقَيْتُهُ: نَبَذْتُهُ إِلْقاءً، والشَّيءُ الطَّريحُ لَقًى[1]، والمُلْقَى: هو ما طُرِحَ وتُرِكَ لهَوانِه[2]، وكلّ إلقاءٍ فهو طرحٌ للشّيء حيث يُلْقَى، أي يُرى ويؤخذُ، ثم تُعورِف في كلّ طرْح[3]، والإلقاءُ أيضًا الرّميُ[4]، ومعنَى ﴿وَأَلۡقُوهُ﴾ في الآية: اطرحوه.

2) ﴿غَيَٰبَتِ ٱلۡجُبِّ﴾: أصلُ (غيب) يدلُّ على تَسَتُّرِ الشَّيْءِ عنِ العُيونِ، ومن ذلك الغَيْبُ: ما غابَ مِمّا لَا يَعْلَمُهُ إلَّا اللّه، ووَقَعْنا في غَيْبَةٍ وغَيَابَةٍ، أَيْ هَبْطَةٍ من الأَرْضِ يُغابُ فيها[5]، وكلُّ شيء غَيَّب عنك شيئًا فهو غَيابةٌ[6].

3) ﴿ٱلۡجُبِّ﴾: من (جبّ) الجيمُ والباءُ في المضاعَف أصلان:

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (لقي).
(2) الزّبيديّ، تاج العروس: (لقي).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (لقي).
(4) ابن الجوزيّ، نزهة الأعين النّواظر، ص: 156.
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (غيب).
(6) الخليل، العين: (غيب).

أحدُهما القطعُ، والثّاني تجمّعُ الشّيء[1]، والجَبوبُ: وَجْهُ الأَرضِ، وقيل: هي الأَرضُ الغَليظةُ منَ الصَّخْرِ لا منَ الطِّينِ[2]، والجُبُّ: بئرٌ غيرُ بعيدةِ القَعرِ[3]، وقيل: هي الكثيرةُ الماءِ البعيدةُ القعْر، وبئرٌ مُجَبَّبَةُ الجَوفِ إذا كان في وسطها أوسعُ شيءٍ منها، مُقَبَّبَةً[4]، والدّقيقُ أنّ الجبَّ هو البئرُ العميقةُ القليلةُ الماء، بحمل كثرةِ الماء المذكورةِ على أنّها كثرةٌ نسبيةٌ لا تُغرقُ[5]. وغَيابَةُ الجُبِّ: قَعْرُهُ، وغَيابَةُ كُلِّ شَيْءٍ: مَا سَتَرَك؛ وهو قَعْرُه مِنْهُ[6]، والمعنَى في الآية: وألقوه في قَعْرِ الجبّ، حيث يَغيبُ خبرُه[7].

4) ﴿يَلْتَقِطْهُ﴾: أصلُ (لقط) يدلُّ على أَخْذِ شَيءٍ منَ الْأَرْضِ قد رَأَيْتَهُ بَغْتَةً ولَمْ تُرِدْهُ، وقد يكونُ عن إِرَادَةٍ وقَصْدٍ أيضًا، ومنه لَقطُ الحَصَى وما أَشْبَهَهُ، واللُّقَطَةُ: ما الْتَقَطَهُ الإنسانُ من مالٍ ضائعٍ، واللَّقِيطُ: المَنْبُوذُ يُلْقَطُ[8]، ومعنَى ﴿يَلْتَقِطْهُ﴾ في الآية: يأخذُه بعضُ مارّة الطَّريق منَ المسافرين[9].

5) ﴿ٱلسَّيَّارَةِ﴾: السّينُ والياءُ والرّاءُ أصلٌ يدلُّ على مُضيٍّ وجريانٍ[10]، والسَّيرُ: الذهابُ نهارًا وليلًا، يُقال: سارَ القومُ سَيْرًا ومَسيرًا: إذا امتدّ بهم السّيرُ في جهةٍ توجّهوا لها، والسّيّارُ: الكثيرُ السّير[11]، والسَّيّارَةُ: القافِلَةُ السّائرة، والقَوْمُ يَسيرُونَ، أُنِّثَ على مَعْنَى الرُّفْقَةِ، أوِ الجَماعة[12]، فالسيّارةُ: رفقةٌ يسيرون[13]. ومعنى ﴿ٱلسَّيَّارَةِ﴾ في الآية موافقٌ لمعناها اللُّغويِّ، أي: الجماعةُ الموصوفةُ بحالةِ السّيْر وكثرتِه[14]، وهمُ الجماعةُ المارّةُ الذين يسيرون في الطريقِ للسّفر[15].

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (جب).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (جبب).
(3) الخليل، العين: (جب).
(4) الزّبيديّ، تاج العروس: (جبب).
(5) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (جبب).
(6) الرّازيّ، مختار الصّحاح، والزّبيديّ، تاج العروس: (غيب).
(7) ابن جرير، جامع البيان: 15/565.
(8) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (لقط).
(9) ابن جرير، جامع البيان: 15/567.
(10) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سير).
(11) الزبيدي، تاج العروس، ومجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط: (سير).
(12) ابن منظور، لسان العرب: (سير).
(13) الكفويّ، الكليّات، ص: 519.
(14) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/226.
(15) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 18/452.

❁ المَعْنى الإجْمالِيُّ:

اقتراحٌ يُحقّقُ غايةَ إخوةِ يوسُف، ويُنجيهِ مِنَ الموتِ المُدبَّرِ له من قبلُ

اقترحَ أحدُهم قائلًا: لا تقْتلوا يوسفَ فهو أخوكم، ولكنْ إذا أردتُم التّخلّصَ منه حقًّا، فألقوه في غيابات البئرِ؛ وهي ما يغيبُ عنِ النّظرِ من قعره، أو حفرةٍ بجانبه يلتقطُه بعضُ السّيّارة، وهم المُسافرون الذين يسيرون في الأرض للتّجارة، فيتمُّ لكم غرَضُكم، وهو إبعادُه عن أبيه حتى يخلُوَ لكم وجهُه إن كنتم فاعلين الصّوابَ فهذا هو الصّوابُ[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

فصْلُ جملةِ ﴿قَالَ قَآئِلٌ﴾ عمَّا قبْلَها:

استئنافٌ يُبيّنُ اقتراحَ أحدِهم بما يَحمي يوسُفَ منَ القتلِ، ويُبعدُه عن أبيهم

لم يذكرِ البيانُ الإلهيُّ العاطفَ بين قوله تعالى: ﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ﴾ وما سبقَه ﴿ٱقْتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ﴾؛ لوقوعِ قوله تعالى: ﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ﴾ استئنافًا بيانيًّا؛ إذ بين الجُملتين شِبْهُ كمالِ الاتّصال؛ وكأنَّ سائلًا سأل: هلِ اتّفقوا على ما عرضَ عليهم من خصلتَي الصّنيع؟، أم خالفَهم في ذلك أحدٌ؟ فأتى الجوابُ: ﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُواْ﴾[2].

فائِدةُ جِناسِ الاشتقاقِ في: ﴿قَالَ قَآئِلٌ﴾:

جمالٌ ووضوحٌ في المعنى، وتأكيدٌ على أهميّةِ المَقُولِ

عبّر البيانُ القرآنيُّ عنِ الاقتراحِ الذي قدّمه أحدُ الإخوة بقوله: ﴿قَالَ قَآئِلٌ﴾ ولم يقلْ: (قال واحد)؛ ليستعملَ في ذلك جناسَ الاشتقاقِ؛ إذ يجمعُ ﴿قَالَ﴾ و﴿قَآئِلٌ﴾ جذرٌ لغويٌّ واحدٌ ومادّةٌ لغويّةٌ واحدةٌ ممّا يزيدُ المعنَى وضوحًا ويساعدُ على ترسُّخه في الذّهن، ويؤكِّدُ على أهميّة المَقول، وهو النّهيُ عن قَتْلِ يوسُف، والاكتفاءُ بإلقائِه في الجُبّ، وذلك بسبب تَكرّرِ الجَذْرِ، كما أنّه جعلَ العبارةَ

(1) الحجازيّ، التّفسير الواضح: 2/164.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 6/384.

على الأذن سهلةً مُستساغةً؛ لتجدَ في النّفسِ القَبولَ، وتقعَ في القلبِ أحسنَ موقعٍ.

سِرُّ العُدولِ عنِ الاسْمِ العلَمِ إلى النَّكرةِ ﴿قَآئِلٌ﴾:

إبهامُ الأسماءِ أسلوبٌ قرآنيٌّ، مِن أهدافِه التّركيزُ على المضمونِ

أبهمَ البيانُ الإلهيُّ اسمَ القائلِ فعدلَ عنِ التَّصريح به إلى التَّنكيرِ والوَصْفيَّةِ؛ لعدّة فوائدَ:

أوّلًا: عدمُ الجدوَى في معرفةِ شخصِه، وإنَّما المهمُّ أنّه من جماعتِهم.

ثانيًا: تَجَنُّبُ ما في اسمِهِ العَلَمِ (روبيل) مِنَ الثِّقَلِ اللَّفظِيِّ الذي لا داعيَ لوجوده.

ثالثًا: موافقةُ عادةِ القرآنِ في عدمِ ذِكْرِ التَّفصيلات إلَّا لفائدةٍ، وأنّهُ لا يذكرُ إلَّا اسمَ المَقصودِ مِن القِصَّةِ دونَ أسماءِ الَّذينَ شَمَلَتهُم، مِثْلَ قولِه: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ [سُورَة غَافِر: 28][1].

رابعًا: التّركيزُ على مضمونِ القول، وهو قصدُ بيانِ أنّ الذي كانتْ على يدِهِ النّجاةُ هو واحدٌ منهم[2].

خامسًا: الإشعارُ بأنَّه يجبُ قَبولُ النُّصح من أيّ قائلٍ كان، وأنَّ الإنسانَ لا يحْقِرُ نفسَه في بذلِ النُّصح على أيّ حالٍ كان[3].

سادسًا: الذّمُّ له؛ إذ إنّه رغمَ كونِ اقتراحه أقلَّ ضررًا إلَّا أنّه يبقَى شريكًا في الجريمة ﴿مِّنْهُمْ﴾.

سِرُّ التّقييدِ بالجارِّ والمجرورِ ﴿مِّنْهُمْ﴾:

في التّقييدِ إقناعٌ للإخوةِ، فالقائلُ منهُم، وهو ناصحٌ لهم يُهِمُّه ما يُهِمُّهُم

قيَّدَ البيانُ القرآنيُّ (القائل) بالجارِّ والمجرورِ ﴿مِّنْهُمْ﴾؛ تعيينًا له بعضَ التَّعيين بأنّه من إخوة يوسُفَ عليه السلام؛ إذ لو لم يقلْ: ﴿مِّنْهُمْ﴾ لما دلَّ على أنّ القائل أحدُ الإخوة، وفي هذ القيدِ كذلك إشارةٌ إلى محاولة إقناعِهم بأنّه ناصحٌ لهم؛ لأنّه منهم ويُهمُّه ما يُهمُّهم، ويتّفقُ معهم في وَهْمِهِم بتفضيلِ يعقوبَ يوسُفَ عليه السلام في المحبَّة.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/225.
(2) البقاعي، نظم الدّرر: 10/24.
(3) البقاعي، نظم الدّرر: 10/24.

وضْعُ المُظْهَرِ ﴿يُوسُفَ﴾، موضِعَ المُضْمَرِ في الآيةِ:

في التَّصريحِ باسْمِ يوسُفَ، استجلابٌ للشَّفقةِ عليه، واستعظامٌ لقتلِه

قولُه تعالى: ﴿لَا تَقْتُلُواْ يُوسُفَ﴾، وفيه أظهرَ البيانُ القرآنيُّ اسمَ يوسُفَ في مَقامِ إضمارِه، حيث لم يَقُلْ: (لا تَقْتُلوه)؛ استِجْلابًا لِشفَقتِهم عليه، إذ "في نُطقِه للاسم تحنينٌ لهم"[1]، أوِ استِعْظامًا لقَتلِه[2]، وهذا يدلُّ على بقاءِ نوعٍ منَ العاطفةِ الأخويَّة في نفسه، ولذا لم يُصرّحْ بنهْيِهم عنِ الخصلة الأخرى، وأحالَه على أولويّةِ ما عرَضه عليهم بقوله: ﴿وَأَلْقُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ﴾، أي في قعْرِه وغَورِه[3].

دَلالةُ الواو في: ﴿وَأَلْقُوهُ﴾، بعْدَ النّهيِ عن قتلِه:

إبعادُ يوسُفَ يُحقّقُ غَرضَ الجميعِ، دونَ الوقوعِ في الجُرمِ الشّنيعِ

الواو في قوله: ﴿وَأَلْقُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ﴾ عاطفةٌ، والمعطوفُ عليه هو قولُ اللّه سبحانه: ﴿لَا تَقْتُلُواْ يُوسُفَ﴾، وقد جاءَ العطفُ هنا لوجودِ مناسبةٍ بين الجُملتَين؛ إذ كلاهما أسلوبٌ إنشائيٌّ؛ الأوّلُ: إنشاءُ نهيٍ، والثّاني إنشاءُ أمرٍ، وغرَضُهما واحدٌ وهو النّصحُ والإرشادُ، أي نَصحَ القائلُ إخوتَه بهذا بعدمِ قتل يوسفَ، وأرشدَهم إلى إلقائهِ في غيابة الجبّ، وذلك يحقّقُ غرَضَهم جميعًا بما فيهم القائلُ، وهو إبعادُ يوسفَ عن أبيه دون أنْ يقَعوا في جريمة القتلِ، وفي هذا إشارةٌ إلى خوفِ أخيهم القائلِ من سوءِ العاقبة للقتلِ.

دَلالةُ الأمرِ في: ﴿وَأَلْقُوهُ﴾:

أمرُ النُّصحِ أدْعَى لقَبولِ الاقتراحِ بعدمِ القتلِ، والاكتفاءِ بالإبعادِ

عبّر البيانُ الإلهيُّ في الآية بفعل الأمر ﴿وَأَلْقُوهُ﴾، في قوله تعالى: ﴿وَأَلْقُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ﴾، وهو أمرٌ غرضُهُ النُّصحُ والإرشادُ، والمعنى: أنصحُكم بإلقاءِ يوسفَ في غياباتِ الجُبّ.

إيثارُ كلمتَيْ ﴿غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ﴾:

﴿غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ﴾: قعرهُ وغورهُ سُمّي به لغيبتِه عن عين النّاظرِ،

(1) الشّعراوي، تفسير الشّعراوي: 11/6873.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/256.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 6/384.

ومنه قيل للقبر: غيابةٌ، والغيابةُ في الجبّ شبهُ كهفٍ أو طاقٍ في البئرِ فوقَ الماء يغيبُ ما فيه عنِ العيون[1]، والجُبّ هو البئرُ، وسُميّت "جُبًّا لأنّها قُطِعَت قَطْعًا ولم يَحدُثْ فيها غيرُ القَطْع من طَيٍّ وما أشبَهَه"[2]، ومن معاني الجُبّ كذلك أنّها البئرُ القليلةُ الماء والبعيدةُ القعْرِ البالغةُ العُمقِ، التي تُخفي ما فيها، وبهذا الوصفِ تكون البئرُ غيابةً[3]؛ إذِ المعنَى المِحوريُّ لغيابة الجُبّ هو: الاختفاءُ استتارًا[4].

المبالغةُ في تحقيقِ إبعادِ يوسفَ عن أبيه، وفي إقناعِ بقيَّةِ الإخوةِ بعدمِ قتْلِه

ومن ثَمَّ كان التّعبيرُ بالغيَابة بدلَ (القَعْر)، وبالجبِّ بدَلَ (البئر)؛ للإشارةِ إلى الغايةِ من إلقائه في غيابة الجُبّ؛ وهي حتى ينقطعَ ويغيبَ خبرُه إلَّا عنِ السّيّارة، إذ هي عميقةٌ لا يستطيعُ أنْ يخرج منها، والطَّرحُ في موضعٍ مُظلمٍ منَ الجُبّ حتى لا يلحقَه نظرُ النّاظرين[5]؛ إذ كان يحتملُ أنْ يُلقى في موضعٍ منَ الجُبّ لا يحولُ بينه وبين النّاظرين، وهي - أي البئرُ - قليلةُ الماءِ لا يكثر حولَها الرّعاةُ إلا السّيّارةُ الذين يقصدون هذه البئرَ، ومن ثَمَّ: سيتحقّقُ لهمُ انقطاعُ، وغيابُ خبره عن أبيه يعقوبَ عليه السلام؛ لأنّ السّيّارةَ كثيرو السّفر، وليس لهم مكانٌ محدّدٌ، ومن ثَمَّ لن يصلَ يعقوبُ إليه[6].

معنى (أل) التّعريفِ في: ﴿ٱلْجُبِّ﴾:

(أل) التّعريف لمفردةِ ﴿ٱلْجُبِّ﴾ في قوله تعالى: ﴿غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ﴾ عهديّةٌ[7]، والعهدُ فيها ذِهنيٌّ؛ لأنَّ ذلك الجُبَّ كان معروفًا يَرِدُ عليهِ كثيرٌ مِنَ المسافرين، فإذا أخذوهُ ذهبوا به إلى ناحية أخرى فنستريحُ منه[8]، وفي هذا إغراءٌ لهم للموافقةِ على ذلك دونَ قتلِه.

ذِكْرُ جُبٍّ معروفٍ عندَ الإخوةِ زيادةُ إقناعٍ لهم في تحقيقِ مقْصدِهم

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 6/384.
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (جبب).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (جبب).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (غيب).
(5) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 18/425.
(6) ابن جرير، جامع البيان: 15/565.
(7) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 18/425.
(8) الشربيني، السراج المنير: 2/93.

واختُلفَ في موضع ذلك الجُبّ، فقال قتادةُ: غَيَابة الجبّ: بئرٌ ببيتِ المقدس، وقال وهب: هو بأرضِ الأردن، وقال مقاتل: هو على ثلاثةِ فراسخَ من منزلِ يعقوبَ[1].

تَوجيهُ قراءةِ (غيابات) بالجمع، وأثرُه في المعنَى:

تأكيدُ ضَمانِ غَيبتِه عن أعيُنِ النّاسِ، وإقناعُ الإخوةِ بذلك

في قوله تعالى: ﴿غَيَٰبَتِ ٱلۡجُبِّ﴾ قراءتان مُتواترتان[2]؛ **الأولى**: قرأ الجمهورُ ﴿غَيَٰبَتِ ٱلۡجُبِّ﴾ على الواحد في الحرفَين، أي في قوله تعالى: ﴿وَأَلۡقُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلۡجُبِّ﴾ وقوله: ﴿وَأَجۡمَعُوٓاْ أَن يَجۡعَلُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلۡجُبِّۚ﴾ [يوسف: 15]، و**الثّانية**: قرأ المَدنيّان بالألفِ: ﴿غَيَٰبَٰتِ ٱلۡجُبِّ﴾ على الجمعِ في الحرفَين، أي الموضعَين السّابقَين.

ووجهُ قراءة الجمعِ ﴿غَيَٰبَٰتِ﴾ "أنّه أرادَ ظُلَمَ البئرِ ونواحيَه، فجعلَ كلَّ مكانٍ في غيابة"[3]، أي: أنَّ للجُبِّ أقطارًا ونواحيَ، فيكونُ فيها غياباتٌ، وهذا فيه إشارةٌ إلى عُمقِ الجبّ، وكبرِ حجمِها بما يحقّقُ المقصودَ؛ وهو زيادةُ غِيابِه عن أعْيُنِ النّاسِ، بخلافِ ما لو كان في البئرِ غيابةٌ واحدةٌ، وهذا يُحقّقُ مقصودَ الأخِ في إقناعِ الإخوة بذلك، والعُدولِ عنِ القتل أوِ الطّرح المُفضي إلى الموت.

ووجهُ قراءةِ مَنْ وحّدَ: "أنّه أرادَ موضعَ وقوعِه فيه، وما غيّبَه منه؛ لأنّه جسمٌ واحدٌ، شغلَ مكانًا واحدًا"[4]، أي: أنّ المقصودَ موضعٌ واحدٌ مِنَ الجبِّ يغيبُ فيه يوسُفُ، فالتَّوحيدُ أخصُّ وأدلُّ على المعنَى المطلوبِ[5].

ومن ثَمَّ تتكاملُ القراءتان في بيانِ المعنَى، فقد وضعوه في غَيَابةٍ محدَّدةٍ في جُبٍّ فيه العديدُ منَ الغَياباتِ التي تساهمُ في زيادةِ

(1) ابن جرير، جامع البيان: 15/566، والشّربينيّ، السّراج المنير: 2/93.
(2) ابن الجزريّ، النّشر في القراءات العشر: 2/293.
(3) ابن خالويه، الحجّة في القراءات السّبع، ص: 193.
(4) ابن خالويه، الحجّة في القراءات السّبع، ص: 193.
(5) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 18/425.

ضمانِ غَيبتِه عن أعيُنِ النّاس، وتساهمُ من قِبَلِ الأخِ المقْتَرِحِ في إقناعِ إخوتِه بالعُدولِ عن قتلِ يوسفَ إلى هذا المقْتَرَحِ.

بَلاغةُ الاستعارةِ في الفعلِ: ﴿يَلْتَقِطْهُ﴾:

في الاستعارةِ إشارةٌ إلى زُهدِهم بيوسُفَ، وحرْصِ القائلِ على حياتِه

شُبّه يوسُفُ في قوله تعالى: ﴿يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ﴾ باللُّقَطَةِ، فحُذفَ (المشبّهُ) وهو يوسُفُ، وصُرِّح بـ (المشبَّه به) وهو اللُّقَطَةُ، بجامعِ أنَّ كلًّا منهما شيءٌ مطروحٌ يتمُّ تناولُه؛ فـ"الالتقاطُ: تناولُ شيءٍ منَ الأرض أوِ الطَّريق، واستُعير لأخذِ شيءٍ مُضَاعٍ"[1]، والاستعارةُ تصريحيّةٌ، وفي الاستعارةِ ثلاثُ فوائدَ:

الأولى: إشارةٌ إلى زُهدِهم به؛ إذ شبّهوه باللُّقطةِ التي تُتَنَاولُ من أرضٍ أو طريقٍ، وهي" تَنَاوُلُ الشّيءِ المطروحِ"[2].

الثّانيةُ: دلالةٌ على حِرصِ القائل على حياةِ يوسفَ عليه السلام، والمعنَى: يأخذُه على وجه الصّيانة عنِ الضّياع والتّلفِ، فإنّ الالتقاطَ أخذُ شيءٍ مُشرفٍ على الضّياعِ[3].

الثّالثةُ: إشارةٌ إلى صِغرِه؛ "إذ لا يُلتقطُ إلّا الصّغيرُ"[4]، وفي هذا تحنينٌ عليه بأنّه صغيرٌ؛ لإقناعهم بفكرتِه والعُدولِ عن قتله.

إيجازُ الحذْفِ في: ﴿يَلْتَقِطْهُ﴾:

إيجازٌ غرَضُه التّركيزُ على المَشاهدِ البارزةِ في القصّةِ

الفعلُ المضارعُ ﴿يَلْتَقِطْهُ﴾ في جواب الطّلبِ ﴿وَأَلْقُوهُ﴾ مجزومٌ بحرفِ شرطٍ مُقدّرٍ هو وفعلُ الشّرط؛ لأنّ التقاطَه من بعض السّيّارة لا يتحقّقُ بمجرّد النُّطقِ بفعلِ الأمر، وإنّما يتحقّقُ بتنفيذِ الأمر، فالتّقديرُ: ألقوا يوسفَ في غيابة الجبّ فـ "إنْ تُلْقُوه يلتقِطْه"[5] بعضُ السّيّارة؛ فالمحذوفُ هنا هو أداةُ الشّرطِ وفعلُ الشّرط، وفي هذا

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/226.
(2) السّمين الحلبيّ، الدّر المصون: 6/447.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/256.
(4) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 9/134.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 12/225.

الحذفِ إيجازٌ يدلُّ بالألفاظ القليلةِ على المعاني الكثيرةِ، وهو كثيرٌ في القَصص القرآنيِّ؛ لتسليطِ الضَّوءِ على المشاهدِ البارزةِ فيه، وتركِ ما بينهما من فجواتٍ تدلُّ عليها روابطُ بدَهيّةٌ؛ ليُفْسَحَ المجالُ للخيال حتى يملأَها بما يُعطي قيمةً جماليّةً للقصّة، بينما تقلُّ هذه القيمةُ وتضعفُ أكثرَ فأكثرَ كلّما شُغل الذّهنُ بعرضِ تلك الرّوابطِ البدهيّة[1].

فائدةُ التَّسَبُّبِ الّذي يدلُّ عليه جوابُ الأمرِ ﴿يَلْتَقِطْهُ﴾:

إبعادٌ لا يُرجى بعدَه التّلاقي، هو أمثلُ الآراءِ، بارتكاب أخفِّ الضّرَرَين

يفيدُ التَّسَبّبُ الذي يدلّ عليه جوابُ الأمر ﴿يَلْتَقِطْهُ﴾ إظهارَ أنَّ ما أشار به القائلُ من إلقاءِ يوسُفَ عليه السلام في غيابةِ الجبِّ هو أمثلُ ممَّا أشارَ بهِ الآخرون مِن قتله، أو تركِه بِفَيْفَاءَ مُهْلِكةٍ؛ لأنَّه يحصلُ به إبعادُ يوسُفَ عليه السلام عن أبيهِ إبعادًا لا يُرجى بعدَه تلاقيهما دون إلحاقِ ضُرِّ الإعدامِ بيوسفَ عليه السلام، فإنَّ التقاطَ السَّيّارة إيَّاه أبْقى له وأدخلُ في الغَرَض مِنَ المقصودِ لهم، وهو إبعادُه، لأنَّه إذا التقطهُ السَّيَّارةُ أخذوه عندَهم، أو باعوه فزادَ بُعْدًا على بُعْدٍ[2].

فائدةُ التّعبيرِ بلفظِ ﴿بَعْضُ﴾:

في إبهامِ السّيّارةِ، مُبالغةٌ في تَنائي يوسُفَ عنهم، وزيادةٌ في إقناعِهم

قولُه تعالى: ﴿يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ﴾، وفيه استعملَ البيانُ القرآنيُّ لفْظَ (بَعْضُ)؛ لِما فيها مِنَ الإبهامِ؛ وذلك لتحقيقِ ما يتَوخَّاه مِن ترويجِ كَلامِه بموافَقتِه لغرَضِهم الَّذي هو تَنائي يوسُفَ عنهم، بحيث لا يُدرَى أثرُه، ولا يُروَى خبَرُه[3].

دَلالةُ (ال) في كلمة ﴿ٱلسَّيَّارَةِ﴾:

سيّارةٌ معروفةٌ بكثْرةِ السَّفر، تنْأى بيوسُفَ أبعدَ مكانٍ

أل التّعريفِ في قوله تعالى: ﴿ٱلسَّيَّارَةِ﴾ عهديّةٌ، والعهدُ فيها ذِهنيٌّ؛ لأنَّهم علِموا أنَّ الطَّريقَ لا تخلو مِن قَوافِلَ بينَ الشَّامِ ومِصرَ للتِّجارةِ والميرَةِ.

والسَّيّارَةُ: الجماعةُ الموصوفَةُ بحالةِ السّير وكَثرتِه، فَتَأْنيثُهُ

(1) البغا، الواضح في علوم القرآن، ص: 195.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/226.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/256.

لتَأْويلِه بالجماعةِ الَّتي تَسيرُ؛ مِثْل الفلَّاحةِ والبَحَّارَةِ[1]، والسَّيّارةُ جمع السّيَّار مِن صيغِ المبالغة، وزنُه: فعّال، وهو المُبالِغُ في السَّير[2]، أي: المسافرُ كثيرُ السّفر، وفي هذا إشارةٌ إلى أمرين:

الأوّل: حرصُهم على تحقيقِ إبعادِ يوسُف ﷺ أكبرَ قدْرٍ مُمكنٍ، أيْ لن يكونَ لهُم مكانٌ محدّدٌ يُعرفون به لكثرةِ سفرِهم، ولن يحتفظوا به عندهم؛ لكي لا يكون عائقًا لهم.

الثّاني: عدمُ الحاجةِ بذلك إلى حملِه إلى مكانٍ بعيدٍ مع تحقّقِ المقصود، فإنَّ مَن التَقَطَه مِنَ السّيّارة يحمِلُه إلى موضعٍ بعيدٍ، وكان هذا وجهًا في التَّدبير حتى لا يحتاجوا إلى الحركة بأنفسِهم، فربَّما لا يأذنُ لهم أبوهم، وربّما يطّلعُ على قصْدِهم[3]. ولهذه المعاني آثرَ البيانُ القرآنيُّ التَّعبيرَ بـ ﴿ٱلسَّيَّارَةِ﴾ دون السّائرةِ.

دَلالةُ جملةِ ﴿إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ﴾، في السّياقِ المبين:

الإشارةُ إلى أنّ الأَولى الاقتصارُ على الأخفِّ، تفاديًا للأبشعِ

أفادتْ جملةُ ﴿إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ﴾، الإشارةَ إلى أنّ الأَولى أنْ لا تفعلوا شيئًا من ذلك، وأَمَّا إنْ كان ولا بُدَّ فاقتَصِروا على هذا القَدْر، ونظيرُه قولُه تعالى: ﴿وَإِنۡ عَاقَبۡتُمۡ فَعَاقِبُواْ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبۡتُم بِهِۦۖ﴾ [النحل: 126]، يعني الأَولى أنْ لا تفعلوا ذلك[4].

إيثارُ استعمالِ ﴿إِن﴾ بدلًا من (إذا):

لمْ يكنِ الأخُ مُتأكِّدًا من مُوافقةِ إخوتِه، فعَرَضَ عليهمُ الأمرَ غيرَ مقْطوعٍ به

قولُه تعالى: ﴿إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ﴾، وفيه عبّر القرآنُ بحرف الشّرطِ ﴿إِن﴾ دونَ (إذَا)؛ للدّلالةِ على عدمِ تأكّدِه من موافقتِهم على اقتراحه؛ لأنّ من شرطِ (إذا) أنْ يكونَ التّعليقُ بها على أمرٍ معلومٍ مقطوعٍ بوقوعِه، أو كثيرِ الوقوع، بخلاف (إنْ) فإنّها لا يكون التّعليقُ بها إلّا في مُبْهمٍ مشكوكٍ فيه[5].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/226.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/25.
(3) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 9/133.
(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 18/425، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 10/25.
(5) ابن نور الدّين، مصابيح المغاني في حروف المعاني، ص: 84.

أو للدّلالةِ على أنّه لم يَبِتَّ القولَ عليهم، بل إنّما عَرَضَ عليهم ذلك؛ تأليفًا لقلبِهم، وتوجيهًا لهم إلى رأيه، وحذرًا من نسبتِهم له إلى التّحكُّم بالرأي[1].

فائدةُ التّعبيرِ بفعْلِ ﴿كُنتُمْ﴾، ماضيًا مجموعًا:

إبعادُ يوسُفَ عن أبيه، أمرٌ ثابتٌ عند إخوتِه لا يقبلُ المُساومةَ

قولُه تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ﴾، عبّر البيانُ الإلهيُّ بفعلِ الكوْنِ ﴿كُنتُمْ﴾ ماضيًا مجموعًا؛ للدّلالة على تأكّدِ وتحقّقِ اتّفاقِهم على إيقاعِ الإضرارِ بيوسفَ عليه السلام؛ لأنّ الماضيَ يدلُّ على التّحقّق والوقوعِ.

كما أنّ الجمعَ بين الماضي في ﴿كُنتُمْ﴾ واسْمِ الفاعلِ ﴿فَٰعِلِينَ﴾ الذي يدلُّ على الثُّبوتِ والدّوام، والتَّعبيرَ بالجملةِ الاسميّةِ التي تفيدُ الثّبوتَ، يدلُّ على استمرارِهم وثباتِهم في الكيد ليوسفَ عليه السلام، والمعنى: ألقُوا يوسفَ في غَيَابَة الجبِّ يلتقطْه بعضُ السّيّارة إنْ كنتم مُصرِّين وثابتين على ما تُخطِّطون فعلَه بيوسفَ عليه السلام.

الإيجازُ بالحذْفِ في قولِه: ﴿إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ﴾:

إذا تساوَى الذِّكْرُ والحذْفُ، فالحذفُ أَولى

حَذَفَ البيانُ القرآنيُّ مفعولَ ﴿فَٰعِلِينَ﴾؛ إذِ التّقديرُ: إنْ كنتم فاعلين ما يحصلُ به غرَضُكم منَ التّفريق بينَه وبين أبيه[2]، والحذفُ هنا للاختصار؛ لدلالةِ ما سبقَ عليه.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الإلقاءُ والوضعُ:

الإلقاءُ النّبذُ والطّرحُ وتركُ الشّيءِ لهوانِه، والوضعُ الانخفاضُ والحَطُّ

يختلفُ معنَى الإلقاءِ عن معنَى الوضعِ، ولكلٍّ ما يُميّزه عنِ الآخر، وبيانُ ذلك:

أصلُ الإلقاء: يدلُّ على طرحِ شيءٍ، وأَلْقَيْتُهُ: نَبَذْتُهُ إِلْقاءً، والشَّيءُ الطَّريحُ لَقًى[3]، والمُلْقَى: هو ما طُرِحَ وتُرِكَ لهَوانِه[4]، وكلُّ إلقاءٍ فهو

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/257.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/244.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (لقي).
(4) الزّبيدي تاج العروس: (لقى).

طرحٌ للشّيء حيث يُلْقَى، أي يُرى ويؤخذُ، ثم تُعورِف في كلّ طرْح[1]، والإلقاءُ: الرّميُ[2].

والوضعُ: أصلُ (وضع) يدلُّ على الخفضِ للشّيءِ وحَطِّه، ووُضِعَ في تجارتِه: خَسِرَ[3]، ووضعتِ المرأةُ: ولدَتْ، والتّواضعُ: التّذلّلُ[4]، ووَضَعَ الدَّين عنه وضعًا: أسقطهُ عنه، والموضوعةُ منَ الإبل: التّي تركها رِعاؤها وانقلبوا باللّيل، والضَّعَةُ: الذُّلُّ والهَوانُ والدَّناءَةُ، وتَواضَعَتِ الأَرضُ: انْخَفَضَتْ عَمّا يَليها، والوضعُ ضدُّ الرّفع[5]. إذن: يتميّزُ الإلقاءُ بمعنى الطّرحِ والنّبذِ والرّمي، والشّيءُ المُلْقَى هو ما طُرِحَ وتُرِكَ لهَوانِه، في حين يتميّزُ الوضعُ بمعنَى الخفضِ والحطّ.

الغيابةُ والقعْرُ:

يتقاربُ معنَى الغيابةِ والقعْرِ، ويُستعملُ أحدُهما مكانَ الآخر، فيُقال: غيابةُ الجُبّ، وقعرُ الجُبّ، ومع ذلك فإنّ لكلِّ لفظٍ ما يُميّزُه:

فالغيابةُ أصلُ (غيب) يدلُّ على تَسَتُّرِ الشَّيءِ عنِ العُيونِ، ومن ذلك الغَيْبُ: ما غابَ مِمّا لا يَعْلَمُهُ إلّا اللّه، ويُقال: وَقَعْنا في غَيْبَةٍ وغَيَابَةٍ، أَيْ هَبْطَةٍ منَ الْأَرْضِ يُغَابُ فيها[6]، وكلُّ شيءٍ غَيَّب عنك شيئًا فهو غَيابةٌ[7].

والقعْرُ: أصلُه يدلُّ على هَزْمٍ في الشَّيءِ ذاهِبٍ سُفْلًا[8]، وقَعْرُ كلِّ شيءٍ أقصاهُ وأسفلُه، وقَعْرُ البئرِ: عمْقُها، والتّقعيرُ: التّعميقُ، والقعْرُ

الغَيابةُ سَترُ الشّيءِ وغِيابةُ عنِ العينِ، والقعرُ أسفلُ الشّيءِ، وأقصاهُ ومُنتهى عُمقِه

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (لقى).
(2) ابن الجوزيّ، نزهة الأعين النّواظر، ص: 156.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (وضع).
(4) الجوهريّ، الصّحاح: (وضع).
(5) الزّبيديّ، تاج العروس، وابن منظور، لسان العرب: (وضع).
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (غيب).
(7) الخليل، العين: (غيب).
(8) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (قعر).

من كلّ شيءٍ أجوفَ مُنتهى عُمقِه[1]، فالمعنى المِحوريُّ للقعْرِ هو القاعُ السّفليّ الذي ينتهي به عُمقُ شيءٍ مجوّفٍ[2].

إذن: يتميّزُ لفظُ الغيابةِ بالتّستّرِ عنِ العيون، والغيابِ عنِ الرُّؤية.

في حين يتميّزُ لفظُ القعْرِ بأنّه أسفلُ الشّيء وأقصاهُ ومُنتهى عُمقه.

ومن ثَمَّ: هناك فرقٌ بين الغيابةِ والقعْرِ، فالشّيءُ في غيابةِ الجُبّ مثلًا يغيبُ عنِ العين، ولا يُشترطُ أنْ يكونَ في أسفلهِ وأقصى عُمْقِه، ولكنّ الغالبَ أنّ الشّيءَ إذا بلغَ قعرَ الجبِّ، فإنّه يغيبُ عنِ العينِ إذا كان عميقًا.

الجبُّ والبِئْر:

البئرُ ما حُفرَ وطُويَ، والجُبُّ ممّا وُجِدَ ولم يُطوَ

يكادُ يكونُ لفظا (الجبّ والبئر) مترادفَين عند بعضِ العلماء إذ عَدّوهُما بمعنًى واحدٍ، فعرّفوا الجُبّ بالبئر، ومنهم من فرّق بينهما فجعل الجبَّ: هي البئرُ التي لم تُطْوَ، أو ممَّا وُجِدَ لا ممَّا حَفَرَهُ النَّاسُ، أوِ الكثيرةُ الماءِ البعيدةُ القعرِ، أوِ الجيّدةُ الموضعِ منَ الكلأ[3]، وقيل: الجُبُّ: بئرٌ غيرُ بعيدةِ القَعر[4]، وقيل هي البئرُ الواسعةُ، وبئرٌ مُجَبَّبَةُ الجوفِ إذا كان في وسطها أوسعُ شيءٍ منها، مُقَبَّبَةً[5]، وتسميتُه بالجُبّ؛ إمّا لكونهِ محفورًا في جَبوب، أي: في أرضٍ غليظةٍ، وإمّا لأنّه قد جُبّ، أي: قُطِعَ، لأنّ أصلَ الجبّ القطعُ[6].

والبِئْر: معروفٌ، وهو ما حُفرَ وطُوي، وهي في الأصلِ حفيرةٌ يُسترُ رأسُها ليقعَ فيها مَنْ مرّ عليها[7]، وأصلُها من بأَرَ بِئْرًا: حفرَها، "بأرَ الشّيءَ وابتأره: خَبَأه وادّخره، والبئرُ: حفرةٌ عميقةٌ يُستخرجُ منها الماءُ[8].

(1) ابن منظور، لسان العرب، ومجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط: (قعر).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (قعر).
(3) الفيروزابادي، القاموس المحيط: (الجب).
(4) الخليل، العين: (جب).
(5) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، والزّبيديّ، تاج العروس: (جبب).
(6) الرّاغب، المفردات: (جب).
(7) السّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (بأر).
(8) ابن منظور، لسان العرب، والزَّبيدي، تاج العروس، ومجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط: (بأر).

نخلصُ إلى أنّ الفرقَ بين الجُبّ والبئر هو أنّ الجُبّ ممّا وُجدَ، لا ممّا حفرهُ النّاسُ، والبئرُ ما حفرهُ أناسٌ، وأنّ الجبَّ ما لم يُطْوَ، والبئرُ ما طُوي.

وأنّ الجُبُّ ما جُبّ منَ الأرضِ، أي ما قُطعَ منها، أو لأنّها في أرض جَبوبٍ، أي صخريةٍ غليظةٍ، والبئرُ منَ البَأْر أي الحفرُ.

﴿قَالُواْ يَـٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأۡمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَـٰصِحُونَ ١١ أَرۡسِلۡهُ مَعَنَا غَدٗا يَرۡتَعۡ وَيَلۡعَبۡ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ١٢﴾ [يوسف: 11 - 12]

مُناسَبَةُ الآيَتَينِ لِمَا قَبْلَهما:

بعْدَ الاتّفاقِ على إبعادِ يوسُفَ عن أبيهم، أعمَلوا الحِيلةَ بإظهارِ التّلطّفِ وإرادةِ النُّصحِ

لَمّا تقرَّرَ في أذهانِ إخوةِ يوسُفَ التَّفريقُ بين يوسُفَ وأبيه، أعمَلوا الحيلةَ على يعقوبَ، وتلطَّفوا في إخراجِه معهم، وذَكَروا نُصحَهم له، وما في إرسالِه معهم مِن انشراحِ صَدرِه بالرّتع واللَّعِب، وذكَروا حِفظَهم له ممّا يَسوؤه، قَالُوا: ﴿يَـٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأۡمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ﴾[1].

أكَّدوا حِفظَهُم ليوسُفَ وصوّروا ما ينتظِرهُ منَ المسرَّةِ

ولمّا نَفَوا عن أنفُسِهم التُّهمةَ المانِعةَ مِن عدَمِ إرسالِه معهم، ذَكَروا له مِن مَصلحةِ يوسُفَ وأُنسِه - الذي يُحبُّه أبوه له - ما يَقتضي أنْ يَسمَحَ بإرسالِه معهم، فقالوا: ﴿أَرۡسِلۡهُ مَعَنَا غَدٗا يَرۡتَعۡ وَيَلۡعَبۡ﴾[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تَأۡمَنَّا﴾: الهمزةُ والميمُ والنّون أصلان متقاربان: أحدُهما الأمانةُ التي هي ضدُّ الخيانةِ، ومعناها سكونُ القلبِ، والآخرُ التّصديقُ، والمعنيان مُتَدانِيان، ورجُلٌ أُمَنَةٌ: إذا كان يَأْمَنُهُ النّاسُ ولا يَخافُونَ غائِلَتَهُ؛ وأَمَنَةٌ بالفتحِ يُصَدِّقُ ما سَمِعَ ولا يُكَذِّبُ بشيءٍ، يَثِقُ بِالنّاسِ[3]، والأمانة: الوديعةُ التي تودَعُ عند من يحفظُها كأنّ معنَى اسمِها: التي ينبغي أنْ تُحفظَ في حِرزٍ أوثقَ الحفظِ، ومؤتمنُ القوم: الذي يثقونَ به ويتّخذونهُ أمينًا حافظًا[4]، ومعنَى ﴿تَأۡمَنَّا﴾ في الآية موافقٌ للمعنى اللّغويِّ، والمرادُ: لمَ تخافُنا عليه[5].

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/244.
(2) السّعدي، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 394.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (أمن).
(4) الزّبيديّ، تاج العروس، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (أمن).
(5) الواحديّ، الوجيز، ص: 540، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 18/426.

2) ﴿لَنَاصِحُونَ﴾: النُّصْحُ: أصلُه يدلُّ على مُلَاءَمَةٍ بين شيئَين وإصلاحٍ لهما، والنُّصْحُ: خِلَافُ الغِشّ[1]، نَصَحَ الشّيءُ: خَلَصَ، وكلُّ شيءٍ خَلَصَ فقد نَصَحَ؛ ونَصَحْتُ لَهُ نَصيحتي أي أَخْلَصْتُ وصَدَقْتُ، والنُّصْحُ: مَصْدَرُ نَصَحْتُه[2]، والنّصيحة: إرادةُ الخيرِ والصّلاح للمنصوح له وإرشادُه له، فهو قولٌ فيه دعاءٌ إلى صلاحٍ، ونهيٌ عن فسادٍ[3]، و"النُّصْحُ: تَحَرّي فِعْلٍ أو قَوْلٍ فيه صلاحُ صاحبِهِ"[4]. ومعنى ﴿لَنَاصِحُونَ﴾: نحوطُه ونكلؤُه[5]، أي: نحن نحبُّه ونريدُ الخيرَ به، ونُشفقُ عليه، ومُخلصون له[6].

3) ﴿أَرْسِلْهُ﴾: أصلُ (رسل) يدلُّ على الانْبِعَاثِ والامْتِدَادِ، فالرَّسْلُ: السَّيْرُ السَّهْلُ[7]، وأصلُ الرِّسْلِ: الانبعاثُ على التّؤدة، ومنه: الرَّسُولُ المُنبعثُ[8]، والإِرْسالُ: الإِطْلاقُ، والإهمال، والتَّخْلِيَةُ، والتّوجيه[9]، والإِرْسَالُ في المَحْبُوس إِطْلَاقُه، وفي المُطلق بَعثُه[10]، ومعنَى ﴿أَرْسِلْهُ﴾: أطلِقْه معنا.

4) ﴿يَرْتَعْ﴾: أصلُ (رتع) يدلُّ على الاتّساعِ في المأكل، رَتَعَ يَرْتَعُ: إذا أكلَ ما شاء، ولا يكونُ ذلك إلّا بالخصب[11]، وأصلُه للبهائم، ويُستعارُ للإنسان إذا أُريدَ به الأكلُ الكثيرُ[12].

ومعنى ﴿يَرْتَعْ﴾ في الآية يتعدّد بحسب القراءات المتواترة فيها؛ فعلى القراءة بكسر العين تفيد معنى رعي الإبل والماشية[13]، وعلى قراءة سكون العين تفيد معنى الأكل مما لذّ من الفاكهةِ وغيرِها[14].

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نصح).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (نصح).
(3) الزّبيديّ، تاج العروس، ومجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط: (نصح).
(4) الرّاغب، المفردات: (نصح).
(5) ابن جرير، جامع البيان: 15/568.
(6) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 18/426، والقاسميّ، محاسن التّأويل: 6/156، ودروزة، التّفسير الحديث: 4/13.
(7) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (رسل).
(8) الرّاغب، المفردات: (رسل).
(9) ابن منظور، لسان العرب، والزَّبيدي، تاج العروس: (رسل).
(10) ابن الجوزيّ، نزعة الأعين، ص: 152.
(11) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (رتع).
(12) الرّاغب، المفردات: (رتع).
(13) ابن خالويه، الحجّة، ص: 194.
(14) ابن جرير، جامع البيان: 12/569.

5) ﴿وَيَلْعَبْ﴾: اللَّعِبُ واللَّعْبُ: ضدُّ الجِدِّ، ويُقال لِكلِّ مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لا يُجْدي عليه نَفْعًا[1]، أو كان فِعلُه غيرَ قاصدٍ به مقصدًا صحيحًا، وهو بمعنَى الهزْلِ[2].

والمرادُ باللّعب في الآية: اللّعبُ المباحُ منَ الانبساط والسّرورِ، كالسّباقِ والرّمي وغيرِه[3].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

يخبرُ اللّه تعالى عن طلبِ إخوةِ يوسُفَ من أبيهم أنْ يأذنَ في خروجِ يوسفَ معهم، وذلك بعدَ اتِّفاقِهم على إبعادِه، وأنّهم سألوا أباهم سؤالًا فيه عتبٌ واستنكارٌ خفيٌّ واستجاشةٌ؛ لنفيِ مدلولِه من أبيهم، والتّسليم لهم بعكسِه وهو تسليمُهُم يوسُفَ فقالوا: (يا أبانا ما لك لا تأمَنُنَا على يوسُفَ مع أنَّه أخونا، ونحن نُريدُ له الخيرَ، ونُشفِقُ عليه ونرعاه، ونخُصُّه بخالِصِ النُّصحِ؟ أرسِلْه معنا غدًا خارجَ المدينةِ إلى الصَّحراءِ يأكُلْ ويَنشَطْ ويَفرحْ، ويلعَبْ بالاستِباقِ ونحوِه، وإنَّا لحافِظونَ له من كلِّ ما تخافُ عليه نحوطُه ونكلؤُه)[4].

حيلةٌ ماكرةٌ جمعتْ بينَ العِتابِ الاستنكاريِّ، وتأكيدِ نُصحِهِم وحفْظِهِم ليوسُفَ

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بَلاغةُ الاستئنافِ البيانِّي، في قوله: ﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا﴾:

لم يذكرِ البيانُ الإلهيُّ العاطفَ بين قوله تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأۡمَنَّا﴾ وما سبقَه ﴿لَا تَقۡتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلۡقُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلۡجُبِّ﴾؛ لوقوعه استئنافًا بيانيًّا، لِما بين الجُملتين من شبْهِ كمالِ الاتّصال؛ لأنَّ سَوْقَ القِصَّةِ يَستَدعي تَساؤُلَ السَّامِعِ عمَّا جَرى بعدَ إشارةِ أخيهم عليهم، وهل رجَعوا عمَّا بَيَّتوا من قتلِه، وصمَّموا على

استئنافٌ بيانيٌّ يُبيّنُ ما اتّفقَ عليه إخوةُ يوسُفَ من إبعادِه عن أبيه

(1) ابن منظور، لسان العرب: (لعب).
(2) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحفّاظ: (لعب).
(3) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 9/139، والنّسفيّ، مدارك التّنزيل: 2/98.
(4) ابن جرير، جامع البيان: 15/568.

ما أشار به أخوهم من مجرّد إبعادِه عن أبيه، فأتى الجوابُ في هذه الآيةِ[1].

دَلالةُ النّداءِ في قوله: ﴿يَٰٓأَبَانَا﴾:

نداءُ استعطافٍ لنَيْلِ مُرادِهم، في أخذِ يوسُفَ من أبيه

قولُه تعالى: ﴿يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأۡمَنَّا﴾، وفيه عبّرَ البيانُ الإلهيُّ بأداة النّداءِ (يا) التي تُستعملُ لمناداةِ البعيدِ رغمَ أنّه قريبٌ منهم؛ إشارةً إلى أنّهم أرادوا إظهارَ التَّبجيلِ والاحترام، وبيانَ المكانةِ العاليةِ في قلوبهم تجاهَ أبيهم؛ ليكونَ نداءً فيه استعطافٌ ليعقوب؛ حرصًا منهم على نيْلِ مرادِهم من إقناعِ يعقوبَ بإرسالِ يوسُفَ معهم.

سِرُّ التّعبيرِ بلفظِ الأبوّة ﴿يَٰٓأَبَانَا﴾:

لفظُ الأبوّةِ موحٍ ومُذكِّرٌ، بما بينهُ وبينهم، مِن آصرةٍ تُقنِعُه بصدْقِهم

عبّر البيانُ القرآني بلفظِ الأبوّة؛ إشارةً إلى أنّ خطابَهم أباهُم بنَسَبِ الأُبوَّةِ؛ تَحريكًا منهم لِسلسلةِ النَّسَبِ بينَه وبينَهم، وتذكيرًا لِرابطةِ الأُخوَّةِ بينَهم وبينَ يوسُفَ عليه السلام؛ لِيتَسبَّبوا بذلك إلى استِنْزالِه عليه السلام عن رأيِه في حِفْظِه منهم، لَمّا أحَسَّ منهم بأماراتِ الحسَدِ والبغيِ[2]، والمعنَى: ما لك لا تأمنّا، أي لا تجعلُنا أمناءَ على يُوسُفَ مع أنّك أبونا ونحن بنوكَ وهو أخونا[3].

معنى التّركيبِ ﴿مَا لَكَ﴾، ودَلالةُ الاستفهامِ:

بيانُ الاستفهامِ التّعجّبيِّ، وأثرُه في استنزال يعقوبَ عن رأيِه

﴿مَا لَكَ﴾: ما: استفهاميةٌ مبتدأٌ، ولك خبرٌ، واللّامُ للاختصاص[4]؛ والتّركيبُ مستعملٌ في الإنكارِ على نفْيِ ائتمانِهم على يوسُفَ[5]، والتّعجّبِ من ذلك[6]، أي استفهامٌ إنكاريٌّ تعجّبيٌّ، والمعنى: أيُّ شيءٍ ثبتَ لك منَ الشُّبهةِ في أمانتِنا فجعلكَ لا تأمَنُّا على يوسُفَ؟[7].

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/257، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/227.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/257.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/257.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/163.
(5) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/257.
(6) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/245.
(7) رشيد رضا، تفسير المنار: 12/217.

والغرَضُ هو الحثُّ على إرسالِ يوسُفَ معهم، ويَبدو من قولهم هذا أنّ أباهم يعقوبَ عليه السلام كان يَحرصُ على يوسفَ، ولا يتركُه يخرجُ معهم، فبدأوا بالإنكارِ عليه في تركِ إرسالِه معهم كأنّهم قالوا: إنّك لا ترسلُه معنا أتخافُنا عليه؟[1]، والمعنَى: لمَ تخافُنا عليه ونحن نريدُ له الخيرَ ونحبُّه ونُشفقُ عليه؟ وما وُجد منّا في بابِه ما يدلُّ على خلافِ النّصيحةِ والمحبّةِ، وأرادوا بذلك لمّا عزموا على كيدِ يوسفَ استنزالَه عن رأيه[2].

موقعُ جملةِ ﴿لَا تَأۡمَنَّا﴾، والغرَضُ منها:

مُواجهةُ أبيهم ببيانِ حالِه معهُم، استِجاشَةٌ له لنفْيِ مدلولِه والتَّسليمِ لهم بعَكسِه

جملةُ ﴿لَا تَأۡمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ حاليّةٌ، والمعنَى: أيُّ شيءٍ لك في حالِ كونِك لا تأمنّا على يوسُفَ[3]، والجملةُ مثارُ التّعجّبِ، وقد جرى الاستعمالُ بملازمةِ الحالِ لنحو (ما لك)، فيقولون: ما لك لا تفعلُ وما لك فاعلًا؟[4]. والغرَضُ من قولهم هذا: مواجهةُ أبيهم ببيانِ حالِه معهُم استِجاشَةً له لنفْيِ مدلولِه والتَّسليم لهم بعَكسِه وهو تسليمُهم يوسُفَ، وذلك بأنْ أظهروا عند أبيهم أنَّهم في غايةِ المحبّةِ ليوسُفَ وفي غاية الشَّفقةِ عليه، وأنّ حالَ أبيهم أنّه منعَهم ذلك مرارًا، وفي هذا عَتَبٌ عليه بأنَّه يخافُ منهم على يوسُف، وهم بكلامِهم هذا وضعوا أباهم في موضعٍ لا خيارَ له فيه، وإلَّا فإنّ عدمَ إرسالِه يعني تخوينَهم واتّهامَهم وانطواءَ صدرِه على أمورٍ ليستْ صحيحةً، وهم يعلمون في الوقتِ ذاتِه أنّ أباهم يحبُّ تطييبَ قلبِ يوسُف فاغترَّ بقولهم وأرسلَه معهم[5]. والحديثُ بلسانِ الجماعة ﴿تَأۡمَنَّا﴾ و﴿قَالُواْ﴾ و﴿أَبَانَا﴾ و﴿لَنَصِحُونَ﴾ إقناعٌ له بذلك؛ إذ لن يتوقّعَ أنْ يتّفقوا كلُّهم على الكذبِ عليه والإضرارِ به.

(1) البغويّ، معالم التّنزيل: 4/219.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/448.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/25.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 15/338.
(5) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 18/425.

فائدةُ قراءةِ جمهورِ القُرّاء بالرَّومِ والإشمامِ في ﴿تَأۡمَنَّا﴾:

في نُطقِ الرَّومِ والإشمامِ، تصويرٌ لحالةِ اضطرابِهم، ودَلالَةٌ على نفيِ سكونِ قلبِ يعقوبَ

قراءةُ الجمهورِ في قولِه تعالى: ﴿لَا تَأۡمَنَّا﴾ بالإشمام، أوِ الرَّوم غيرَ أبي جعفر[1]، أمّا الرَّومُ فهو إضْعافُ الصَّوتِ بالحركةِ حتى يذهبَ معظمُ صوتِها (يقدّر بالثّلث) فيُسمعَ لها صوتٌ خفيٌ يسمعُه القريبُ المُصغي لقراءتك دونَ البعيد، وأمّا الإشمامُ فهو الإشمامُ الوحيدُ في وسطِ الكلمةِ في القرآن الكريم، ويكونُ بضمّ الشّفتَين إشارةً إلى الضمّة المُقدّرةِ، لكنْ من غيرِ أنْ يظهرَ لذلك أثرٌ في النُّطقِ.

وفي الرَّوم - وهو ضعفُ الصوتِ بالنّونِ والإشمامِ الذي يكونُ بضمّ الشّفتين -: تصويرٌ للحالةِ النّفسيّةِ وحالةِ الاضطرابِ والارتباكِ التي كانتْ في إخوة يوسُفَ عليه السلام، فقد تعثّروا في نُطقِ الكلمةِ بوجهِها الصّحيحِ سواءً في قوّتِه أو حركةِ الشّفتين أثناء نُطقه، وقد قيل: كاد المُريبُ أنْ يقول خذوني، ولذا استخدموا التَّوكيدَ في كلامِهم؛ لإخفاء هذا الاضطرابِ.

وفيه أيضًا دلالَةٌ على نفيِ سكونِ قلبِ يعقوبَ على يوسُفَ بِأمْنِه عليهِ مِنهم على أبلغِ وجْهٍ، مع أنَّهم وَفقَ ما أظهروه أهلٌ لأنْ يَسكُنَ إليهم بذلك غايةَ السُّكونِ، ولو ظهرتْ ضمَّةُ الرَّفعِ (تأمنُنَا) عندَ أحدٍ مِنَ القُرّاءِ فاتَ هذا الإيماءُ إلى هذهِ النُّكْتَةِ البديعةِ[2].

معنى ﴿عَلَىٰ﴾ في جملة: ﴿عَلَىٰ يُوسُفَ﴾:

استعلاءٌ مجازيٌّ يُصوّرُ حالَ يعقوبَ في عدمِ تمكينِهم من يوسُفَ

عدَّى البيانُ القرآنيُّ فِعْلَ الأمن المَنفيَّ ﴿لَا تَأۡمَنَّا﴾ بحرف الجرّ ﴿عَلَىٰ﴾؛ للاستعلاءِ المجازيِّ بمعنَى التّمكّنِ من تعلّق الائتمانِ بمدخول ﴿عَلَىٰ﴾ وهو يوسُفُ عليه السلام[3]، أي: ما لكَ لا تُمكّنُنا منه، ولكنّ التَّعبيرَ بـ ﴿عَلَىٰ﴾ أفادَ تصويرَ حالِ يعقوبَ في عدمِ تمكينِ إخوةِ يوسفَ منَ الانفراد به.

(1) ابن النّاظم، شرح طيبة النشر، ص: 66.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/26.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/228.

موقعُ جملةِ: ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ﴾ وفائدتُه:

بيانُ حالِهم الصّادقةِ المُخلصةِ ليوسُفَ، توكيدٌ لإغراءِ يعقوبَ بتسليمِهم إيّاه

جُمَلةُ ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ﴾ في مَوضِعِ الحالِ[1]، والمعنَى: لماذا لا تأمنّا على يوسفَ "والحالُ إنّا له لناصحون"[2]، أي والحالُ إنّا لَنَخُصُّهُ بالنُّصحِ الخالِصِ مِنْ شائبةِ التَّفريطِ أوِ التَّقصير[3]، فنحنُ عليه حذِرون عاطِفون، قائِمون بمصلحتِه، وأفادتِ الحالُ توكيدَ إظهارِ نُصحِهم ليوسُفَ؛ فالنُّصحُ دليلُ الأمانةِ وسببُها، ولِسَترِ ما كانوا يحاولون إخفاءَه منَ المكرِ المُريب، والارتباكِ والاضطرابِ، فَهُمْ يريدون خلافَ ذلك لِما له في قلوبهم منَ الحسدِ لحبِّ أبيه له.

بَلاغةُ اجتماعِ المُؤكِّداتِ في جملتَيِ النُّصحِ والحفظِ:

المبالغةُ في إظهارِ نُصحِهم وحفْظِهم ليوسُفَ، احتيالٌ في تحصيلِ مقصدِهم

الجملتان: ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ﴾ و﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾، اجتمعَ في الجُملتَين عدّةُ مؤكِّداتٍ، وهي: (إنّ)؛ التي تفيدُ توكيدَ الخبرِ وهو النُّصحُ والحفظُ ليوسفَ، ومجيءُ ﴿وَإِنَّا﴾ بصيغةِ الجمع، إذ نُصحُ الجمْعِ لا كنصحِ الواحدِ، والتّوكيدُ بالجملةِ الاسميّة، التّي تَدلُّ على الثّباتِ وقوّةِ الحُكْمِ وَبَقائِهِ، أي هو نُصحٌ وحفظٌ ثابتان مُستمرّان، والتّوكيدُ باللّام المُزحلقةِ، والتّوكيدُ باسْمِ الفاعلِ ﴿لَنَٰصِحُونَ﴾ و﴿لَحَٰفِظُونَ﴾، وهو من أهمّ الأسماءِ الصَّرفيَّةِ الذي يدلُّ على حدثٍ ثابتٍ غيرِ محدَّدٍ بزمنٍ، فيشملُ الماضي والحالَ والمستقبلَ، بما يُعطي للمعنَى مزيدًا منَ المبالغة لثبوتِ ودَوامِ نُصحِهم وعطْفِهم وحفْظِهم على يوسفَ، لا مجرّدَ الحدوثِ؛ كونُه أتى في سياقِ الجملةِ الاسميَّةِ، وتقديمُ ﴿لَهُۥ﴾ على الخبرِ ﴿لَنَٰصِحُونَ﴾ و﴿لَحَٰفِظُونَ﴾. كلُّ هذه المُؤكِّداتِ مجتمعةً أفادتِ المبالغةَ في تأكيدِ إظهارِ المحبّةِ ليوسفَ عليه السلام والإشفاقِ عليه[4]، وإظهارِ كمالِ ثباتِ نُصحِهم وحفْظِهم

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/229.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/25.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/244، ورشيد رضا، تفسير المنار: 12/218.
(4) ابن الأثير، المثل السّائر: 2/192.

له؛ ليَبلغوا الغرَضَ من أبيهم في السّماحة بإرسالِه معهم، قال أبو السّعود: "أكّدوا مقالتَهم بأصنافِ التّأكيدِ من إيرادِ الجُملةِ اسميّةً، وتحليتِها بإنّ واللّام، وإسنادِ الحفْظِ إلى كلِّهم وتقديمِ ﴿لَهُۥ﴾ على الخبرِ؛ احتيالًا في تحصيلِ مقصدِهم"[1]، وترويجًا لمقالِهم وإظهارًا أنّهم يقولون ذلك على صدْقِ رغبةٍ[2].

والتَّأكيدُ فيهما للتَّحقيقِ تنزيلًا لأبيهم منزلةَ الشَّاكِّ في أنَّهم يحفظون يوسُفَ وينصحونَه، كما نزَّلوه منزلةَ من لا يأمنُهم عليه، من حيث إنّه كان لا يأذنُ له بالخروج معهم للرّعي ونحوِه[3]، ولشعورِهم بارتيابِه فيهم، فأظهروا أنّهم ما حرِصوا إلا على فائدةِ أخيهم وأنّهم بليغونَ في النُّصحِ له وحفْظِه.

سِرُّ التّعبيرِ بلفْظِ ﴿لَنَٰصِحُونَ﴾، دونَ غيرِه:

قولُه تعالى: ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ﴾، وفيه آثرَ البيانُ الإلهيُّ استعمالَ مُفردةِ النّصح دونَ غيرها كالوعظِ والإرشادِ والهدايةِ، فلم يقل: (لَواعظون أو لَمرشدون أو لَهادون)؛ لمناسبتِه للمقامِ الذي هو مقامُ التّلطّفِ والتّودّدِ وإظهارِ المودّةِ والشّفقةِ والحبِّ والحرْصِ على إدخالِ السّرورِ على قلبِ يوسفَ بالتّوسُّع في الأكلِ والشُّربِ والتّنزُّه واللَّعبِ، ولذا لا يُناسبهُ استعمالُ الوعظِ الذي هو زجرٌ مقترنٌ بتخويفٍ، ولا يناسبهُ كذلك لفظُ الإرشادِ والهدايةِ اللّذين هما الدّلالةُ على استقامةِ الطّريق، فيوسفُ لا يحتاجُها؛ إذ هو أهدَى وأرشدُ وأقومُ وأصلحُ إخوته. وإنّما المناسبُ هنا هو النّصحُ الذي يدلُّ على الصّدقِ والإخلاصِ[4]، وعدمِ الغشّ[5]، ونقاءِ القلبِ، يُقال: ناصحُ الجيب أي

ذكْرُ النُّصحِ وهو الصّفاءُ والإخلاصُ، يَشي بما يُخْفونَه منَ الدَّغلِ المُريبِ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/257.
(2) القونويّ وابن التّمجيد، حاشية على تفسير البيضاوي: 10/266.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/229.
(4) ابن منظور، لسان العرب: (نصح).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نصح).

نقيُّ القلبِ لا غشَّ فيه[1]، وذلك حتى يُقنعوا أباهم بأنْ يأمنَهم على يوسُفَ، كما أنّ التَّعبيرَ بالنُّصحِ يناسبُ استنكارَهم على أبيهم بعدم ائتمانِهم على يوسُفَ؛ "والنّصحُ دليلُ الأمانة وسببُها، ولهذا قُرِنَا في قوله: ﴿نَاصِحٌ أَمِينٌ ۝٦٨﴾ [الأعراف: 68]"[2].

تقديمُ الجارِّ والمجرورِ ﴿لَهُۥ﴾، على الخبرِ:

في التّقديمِ تأكيدُ الاهتمامِ، بشأنِ يوسُفَ، وفي التّأخيرِ تشويقٌ لنُصحٍ وحفْظٍ قُصرَ عليه

تقديمُ الجارِّ والمجرورِ ﴿لَهُۥ﴾ في الجُملتَين على الخبر: ﴿لَنَٰصِحُونَ﴾ و﴿لَحَٰفِظُونَ﴾؛ لأمورٍ:

الأوّلُ: للاهتمامِ بالمُقَدَّم وهو شأنُ يوسُفَ عليه السلام، في ظاهر الأمرِ، والتّشويقِ للمؤخَّرِ وهو النّصحُ والحفظُ له.

الثّاني: لمراعاةِ الفاصلةِ التي تنتهي بالنّون؛ إذ لو أُخّر الجارُّ والمجرورُ لَما تحقّقَ إحكامٌ في الفاصلة؛ إحكامُ لفظٍ: أي جمالُه الصّوتي؛ إذِ النّونُ قد وردتْ في فاصلةِ ثلاثٍ وتسعين آيةً في سورة يوسفَ، وهي بلا شكّ أغنَى الحروف العربيّةِ في الإيقاع والصَّوت، ولها في علْمِ التّجويد نصيبٌ بارزٌ وحظٌّ ظاهرٌ وقِسطٌ وافرٌ، وإحكامُ المعنَى: وهو التّناسبُ بين الفاصلةِ وسياقِ الآية.

الثّالثُ: للقَصر الادِّعائيِّ؛ أي جعلوا أنفُسهم لفرطِ عِنايتهم به بمَنزِلةِ مَن لا يَحفَظُ غيرَه، ولا يَنصحُ غيرَه، أي ما حرِصوا إلَّا لفائدة أخيهم[3].

الرّابع: لتوكيد ادّعاءِ صدقِهم وإخلاصِهم بما ينفعهُ وحفظِهم له[4].

مُناسبةُ الفاصلةِ ﴿لَنَٰصِحُونَ﴾ لسياقِ الآيةِ:

التّأكيدُ على نُصْحِهم ليوسُفَ، نفيٌ لتُهمةِ عدمِ أمانتِهم عليه

قولُه تعالى: ﴿مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ﴾، وفيه جاءتِ الفاصلةُ ﴿لَنَٰصِحُونَ﴾ متمكّنةً في نظْمِ الآية، بل تشكّلُ

(1) الزّبيديّ، تاج العروس: (نصح).
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/25.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/229.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/257.

جُزءًا من معنَى الآية، ولو طُرحت لاختلّ المعنى؛ لارتباطها بما قبْلها ارتباطًا وثيقًا، فإنّ سياقَ الآية يمهِّدُ للفاصلة؛ فقد تضمّنتِ الآيةُ ما يُشعرُ بالفاصلةِ إشعارًا معنويًّا لطيفًا؛ وهو ما يُعرفُ بالتّوشيح؛ فإنّ إخوةَ يوسُفَ لمّا أرادوا الاحتيالَ على يعقوبَ عليه السلام بالإنكار عليه بأنّه لا يأمنُهم على يوسفَ ختموا كلامَهم بذكر سبَبِ الأمنِ وهو النُّصحُ، أي: لمَ لا تأمَنُنا عليه، وحالتُنا هي النُّصحُ له وهو دليلٌ على الأمانة، وكان قد أحَسَّ منهم قبلُ ما أوجبَ ألّا يأمَنَهم عليه[1].

الاستئنافُ البيانيُّ، في السّياقِ المُفصحِ عنِ المرادِ:

فَصَلَ البيانُ القرآنيُّ جملةَ ﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ﴾ عنِ التي قبلَها ﴿مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ﴾، ولم يأتِ بينهما بعاطفٍ؛ لوقوع جملةِ ﴿أَرْسِلْهُ﴾ استئنافًا بيانيًّا؛ لِما بين الجُملتَين من شبْهِ كمالِ الاتّصال؛ وذلك لأنّ الإنكارَ المتقدّمَ مِن إخوة يوسفَ على عدم ائتمانِهم عليه بقوله: ﴿مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ﴾، يثيرُ ترقُّبَ يعقوبَ عليه السلام لمعرفة ما يريدون منه ليوسُفَ عليه السلام[2].

بيانُ ما ترقَّبَه يعقوبُ من غايةِ العِتابِ الاستنكاريِّ، بشأن يوسُفَ عليه السلام

فائِدةُ التّقييدِ والتّقديمِ بالمعيّة ﴿مَعَنَا﴾، وبظرْفِ الزّمان ﴿غَدًا﴾:

قيّدَ البيانُ الإلهيُّ طلبَهم بإرسالِ يوسفَ عليه السلام، ﴿أَرْسِلْهُ﴾ بظرفِ مكانٍ ﴿مَعَنَا﴾ متعلّقٍ بالفعل، وبظرفِ زمانٍ للمستقبل ﴿غَدًا﴾ يُطلق على اليوم الذي بعد يومك متعلّقٍ بـ ﴿أَرْسِلْهُ﴾ أيضًا[3]؛ تطمينًا ليعقوبَ وإقناعًا له بأنّه لن يرسلَ يوسُفَ إلى الصّحراء وحدَه، أو مع أغرابٍ عنه، وإنّما معهم وهُم إخوتُه وعصبةٌ أقوياءُ، يَحمونَه ممّا يَحمونَ به أنفسَهم، بل يَصدُقون ويُخلصون في حمايتِه وحفظِه، وأنّ هذا الإرسالَ كذلك سيكونُ لمدّة يومٍ واحدٍ يبدأُ منَ الغداة إلى العشيّ،

مَعيّةُ الإخوةِ النَّصَحَةِ، وعدمُ طولِ البُعدِ، هو أمانٌ ليوسُفَ واطمئنانٌ ليعقوبَ

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/244.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/228.
(3) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 4/458.

أي لنْ يغيبَ يوسفُ عنه كثيرًا، ويدلُّ على ذلك قوله تعالى: ﴿وَجَآءُوٓ أَبَاهُمۡ عِشَآءٗ يَبۡكُونَ ١٦﴾ [يوسف: 16].

وأمّا تقديمُ ظرفِ المكان على ظرف الزمانِ ﴿غَدٗا﴾؛ فلأنّ ﴿مَعَنَا﴾ تدلُّ على الحال، وغدًا تدلُّ على الاستقبال، والحالُ مقدّمٌ على الاستقبالِ.

سِرُّ اختيارِ لفْظِ الإرسالِ:

مِن مكرِهم اختيارُ الألفاظِ الّتي تُناسبُ حالَ يوسُفَ ويعقوبَ

في اختيار مُفردةِ: ﴿أَرۡسِلۡهُ﴾: إشارةٌ إلى أنَّ يعقوبَ عليه السلام كان يُمسِكُه، ويَصحَبُه دائمًا معه[1]؛ إذ إنّ الإرسالَ في المحبوس إطلاقُه[2]، فالإرسالُ يأتي عكسَ الإمساكِ ويدلُّ عليه قولُه تعالى: ﴿مَّا يَفۡتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحۡمَةٖ فَلَا مُمۡسِكَ لَهَاۖ وَمَا يُمۡسِكۡ فَلَا مُرۡسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ﴾ [فاطر: 2]، وكذلك إشارةٌ إلى أنّ يعقوبَ لم يكنْ يحبُّ ذهابَ يوسُفَ معهم، وإنّما سيأخذونَه على مضضٍ منه، وهذا المعنَى لا يظهرُ فيما لو عبّرَ البيانُ الإلهيُّ بـ (ابعثه) الذي يدلُّ على الإثارة والاندفاعِ.

وفي اختيار لفظ الإرسال أيضًا إيماءٌ بإظهارِ الشّفقةِ على يوسفَ عليه السلام بأنّ في زيادةِ خوفِ يعقوبَ عليه تضييقًا عليه، يريدون: أنّ إلزامَك إيّاه أنْ يكون بمكانك، مُوجبٌ لملالِه القاطعِ لنشاطه على العبادة، واكتسابِ الكمالاتِ"[3].

ويتميّزُ لفظ الإرسال بمعنَى الرّفقِ والتُّؤَدة والسّهولةِ[4]، وهذا أنسبُ للمقام الذي هو التّودّدُ والتّلطّفُ من قِبَلِ إخوةِ يوسُفَ، بخلاف لفْظِ (ابعثه) الذي يدلُّ على الإثارة والاندفاع[5]، انبعث الشّيء: اندفعَ، وبعثَه من نومه: أيقظه وأهَبَّه، والبعثُ: النّشور[6].

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/245.
(2) ابن الجوزيّ، نزهة الأعين النواظر، ص: 152.
(3) القاسميّ، محاسن التّأويل: 6/156.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (رسل).
(5) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (بعث).
(6) ابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم، وابن منظور، لسان العرب: (بعث).

الغرَضُ من فعْلِ الأمرِ ﴿أَرْسِلْهُ﴾ وجوابِه:

توسّلٌ ورجاءٌ معلّلٌ بما فيه مصلحةٌ ليوسُفَ، إغراءً لأبيهم على تسليمِهم إيّاه

قولُه تعالى: ﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ﴾، عبّر البيانُ الإلهيُّ بفعْلِ الأمر ﴿أَرْسِلْهُ﴾، وغرضُه التّوسّلُ ورجاءُ الموافقةِ على إرسالِ يوسُفَ معهم، وقد جاءَ جوابُ هذا الطلب تعليلًا له ﴿يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ﴾ أي "عَلِّلوا طَلَبَه، والخروجَ به، بما يمكِنُ أنْ يستهويَ يوسُفَ لِصباه؛ من الرُّتوعِ، واللَّعِب، والنَّشاطِ"[1]، وفي ذلك إغراءٌ لأبيهم على هذا الأمرِ الذي أرادوه عليه، وجذبٌ له إلى تلك المَصْيدة الّتي نصبوها له! فهو بإجابتِهم إلى هذا الطّلب يُحقّقُ ردَّ اعتبارِهم عنده، ويُحقّق إتاحةَ الفرصةِ ليوسفَ، ليأخذَ حظّه ممّا يأخذُه الصّبيانُ[2].

إيثارُ استعمالِ الفعْلَين: ﴿يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ﴾:

تصويرُ ما ينتظرُ يوسُفَ من التّنعُّمِ والمَسرّةِ واللّعبِ، إقناعٌ ليعقوبَ لتسليمِه لهم

عبّر البيانُ الإلهيُّ بمفردةِ ﴿يَرْتَعْ﴾؛ لاتّساع دلالتِها؛ إذ تدلُّ على رعْيِ الإبل والماشيةِ[3]، وهذا فيه إدخالُ السّرورِ على قلبِ يوسُفَ بأنْ يشاركَ بأعمالِ الكبارِ ويكونَ تدريبًا له، وهو أمرٌ يحبُّه الصّغارُ، كما تدلُّ على أكلِ ما يشاءُ، أي الاتّساعُ في المأكلِ والمشرب[4]، وهذا يحبُّه الصّغارُ أيضًا، وتدلُّ كذلك على الإقامةِ في الخَصبِ والتّنعُّم[5]، وهذا ترويحٌ للنّفسِ وإدخالٌ للسّرور عليها، وتدلُّ على المراعاةِ وهي حفظُ الشّيء، أي يراعي بعضُنا بعضًا ويحرسُه[6].

والتّعبيرُ بصيغةِ المضارع يدلُّ على استمرارِ هذه المعاني المذكورةِ، وأنّها متجدّدةٌ، وعلى تصويرِ مشاهدِها في المُخيّلةِ، بما يحملُه هذا

(1) ابن عطيّة، المحرر الوجيز: 3/224.
(2) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 6/1241.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 12/569، والواحديّ، التّفسير البسيط: 12/36، ورشيد رضا، تفسير المنار: 12/218.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (رتع)، والبغويّ، معالم التّنزيل: 4/220، ورشيد رضا، تفسير المنار: 12/218.
(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/245.
(6) ابن عطيّة، المحرر الوجيز: 3/224 - 225.

التّصويرُ ليوسفَ وهو يرعى ويأكلُ ويتدرّبُ ويتنعّمُ من زيادةِ إقناعٍ ليعقوبَ عليه السلام بإرسالِه معهم.

كما عبّرَ البيانُ الإلهيُّ بمفردةِ ﴿وَيَلْعَبْ﴾ دون غيرِها كاللّهو، فلم يقلْ: (يرتع ويلهو)؛ لكونِه أنسبَ مع حالِ يوسفَ عليه السلام؛ إذ في اللّهو غفلةٌ وانشغالٌ بشيءٍ عن شيءٍ، يُقال: لهوتُ بالشّيء إذا لعبتُ به وتشاغلتُ وغفلتُ به عن غيرِه، واللّهوُ: ما يشغلُ الإنسانَ عمّا يَعنيه ويُهِمُّه[1]، وهذا لا يناسبُ حالَ يوسُفَ عليه السلام الذي لا يشغلُه اللّعبُ عن واجباتِه وما يَعنيه، كما أنّ اللّهوَ في القرآن مذمومٌ، بخلافِ اللّعب فمنه مذمومٌ ومنه ما كان فيه غفلةٌ ومنه مباحٌ، ومنَ اللّعب ما يكونُ للتّأديب[2].

والتّعبيرُ كذلك بصيغةِ المضارع في قوله تعالى: ﴿وَيَلْعَبْ﴾ يدلُّ على أنّ الاسترواحَ وتعجيلَ المسرّةِ التي ستكونُ للطِّفل يوسفَ باللّعب مستمرّةٌ، ويدلُّ على تصوير مشاهدِ يوسفَ وهو يلعبُ في مُخيّلة يعقوبَ عليه السلام بما يحملُه على الموافقةِ بإرسالِه مع إخوته.

وفي عطْفِ فعْلِ ﴿وَيَلْعَبْ﴾ على فعلِ ﴿يَرْتَعْ﴾ دلالةٌ على اكتمالِ التّنعُّم وتنوّعِه ليوسفَ عليه السلام في هذه الرّحلةِ.

نُكتةُ الاستعارةِ في الفعْلِ ﴿يَرْتَعْ﴾ في السّياقِ:

في الاستعارةِ ترغيبٌ بما يَستهْوي الطّفلَ يوسُفَ منَ التّنعُّم بالأكلِ الكثيرِ

الأصلُ في الرّتعِ أكلُ البهائم في الخَصْب زَمَنَ الرَّبيع، ويُستعارُ للإنسان إذا أُريدَ به الأكلُ الكثيرُ[3]، وهي استعارةٌ تصريحيّةٌ تبعيّةٌ، أي شبَّه البيانُ الإلهيُّ خوضَ الإنسان في الأكلِ الكثيرِ واستزادتَه منه برتْعِ الدّوابِّ في الأرض الخصبةِ، أي: بأكلِها الشّديدِ المُبالَغِ فيه، ثم حَذف المشبَّهَ.

(1) الرّاغب، المفردات: (لهى).
(2) العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 254.
(3) الراغب، المفردات: (رتع)، والخازن، لباب التّأويل: 2/515.

تَوجيهُ القراءات في قوله: ﴿يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ﴾:

تـفـنّنُ إخـوةِ يوسُفَ في إقناعِ أبـيـهـم بـمـا يَستهْوي يوسفَ لِصِباه منَ الرّتعِ واللّعبِ

في ﴿يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ﴾ قراءاتٌ متواترةٌ: **القراءةُ الأولى**: ﴿نَّرْتَعْ وَنَلْعَبْ﴾ بالنّونِ فيهما، وكسرِ العينِ في ﴿نَّرْتَعِ﴾[1]؛ بإخبارِ إخوةِ يوسُفَ عليه السلام عن أنفُسِهم ويوسفُ منهم، أي بصيغةٍ تدلُّ على اتّصاله بهم، وأنّهم جمعٌ واحدٌ، يرتعون معه، ويرتعُ معهم[2].

القراءة الثّانيةُ: ﴿يَرْتَعِ وَيَلْعَبْ﴾ بالياءِ فيهما، وكسرِ العينِ في ﴿يَرْتَعِ﴾[3]؛ بإسنادِ الفعلِ إلى يوسُفَ، والإخبارِ بذلك عنه عليه السلام.

وقراءةُ ﴿نَّرْتَعِ﴾ و﴿يَرْتَعِ﴾ بكسرِ العينِ فيهما على معنَى: (يفتعل)، منَ الرّعيِ: ارتعيتُ فأنا أرتعي[4]، والارتعاءُ للإبل والمواشي، وقد أضافوه إلى أنفسِهم أو إلى يوسُف؛ لأنَّ المعنى يرتعي، أو نرتعي إبلَنا، وقال مجاهد هي من المُراعاة: أي يراعي بعضُنا بعضًا ويحرسُه[5].

والمعنى على القراءة الأولى: ﴿نَّرْتَعِ وَنَلْعَبْ﴾ أنّهم نسبوا الرّعيَ إلى أنفسهم ويوسُفُ معهم؛ لأنّهم بالغون كاملون وعليهمُ القيامُ بحفظ المالِ، وليتدرّبَ يوسُفُ على الرّعيِ وحِفظِ المال، وكذا نسَبوا اللّعبَ المباحَ إلى أنفسِهم ويوسفَ ترويحًا عن نفسه معهم، وإدخالًا للسّرور على قلبه.

وعلى القراءة الثانية: ﴿يَرْتَعِ وَيَلْعَبْ﴾: يُباشرُ رعيَ الإبلِ ليتدرّبَ بذلك فمرّةً يرتعُ، ومرّةً يلعبُ كفعل الصّبيانِ[6].

القراءةُ الثّالثةُ: قراءةُ ﴿نَّرْتَعْ وَنَلْعَبْ﴾ بالنّونِ فيهما وجزمِ العَين من ﴿نَّرْتَعْ﴾[7]؛ بإخبارِ إخوةِ يوسُفَ عليه السلام عن أنفُسِهم ويوسفُ معهم.

---

(1) قرأ بها ابن كثير المكي، ينظر: ابن الجزري، النشر في القراءات العشر: 2/293.

(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3807.

(3) قرأ بها نافع المدني وأبو جعفر. يُنظر: ابن الجزري، النّشر في القراءات العشر: 2/293.

(4) ابن جرير، جامع البيان: 15/569.

(5) ابن عطيّة، المحرر الوجيز: 3/224 - 225.

(6) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 18/426.

(7) قرأ بها أبو عمرو البصري، وابن عامر الشامي، يُنظر: ابن الجزري، النشر في القراءات العشر: 2/293.

القراءةُ الرّابعةُ: قراءةُ ﴿يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ﴾ بالياء فيهما وسكونِ العين[1]؛ بإسنادِ الرَّتْعِ واللّعبِ إلى يوسُفَ عليه السلام[2].

وقراءةُ ﴿نَّرْتَعِ﴾ و﴿يَرْتَعْ﴾ بسكونِ العينِ فيهما على معنى اللّهوِ والاتّساعِ في أكلِ الفواكهِ وغيرِه، "منَ الرّتوع وهي الإقامةُ في الخصب والمَرعى في أكلٍ وشربٍ"[3]، والمرادُ مِنَ اللّعبِ الإقدامُ على المباحاتِ، لأجل انشراحِ الصّدر، وأيضًا كان لعبُهم الاستباقَ، والغرَضُ منه تعلّمُ المحاربةِ والمقاتلةِ مع الكفّار، والدّليلُ عليه قولُهم: ﴿إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ﴾ [يوسف: 17]، وإنّما سمَّوه لعبًا لأنَّه في صورته[4].

من خلال القراءاتِ السّابقةِ يتبيّنُ لنا تفنّنُ إخوةِ يوسُف في إقناعِ أبيهم بأخذِ يوسُفَ معهم؛ فهم يَعْرضون على يعقوبَ أنَّهم هم من سيتولَّى الرّعيَ؛ لأنّهم بالغون مكلَّفون بحفظ المالِ، وأمّا يوسفُ فلنْ يُكلّفَ بعمل، وإنّما سيقضي وقتَه في اللّعب والتّرويح عنِ النّفس، وأنّه سيرعى معهم بعضَ الشّيء تدريبًا له على الرّعي وحفظ المالِ، وسيلعبُ معهم ألعابًا مباحةً تُدخلُ السّرورَ على قلبه ويَتقوّى بها، وبأنَّهم سيُقيمون معًا في الخَصْبِ والمَرعى الذي يريحُ النّفسَ بمنظرِه الجميلِ مع التّوسّعِ في الأكل والشّربِ، وسيقضي يوسُف وقتَه كلَّه؛ يأكلُ ويتنَزَّهُ في البرّيَّة، وينشطُ ويلعَبُ، وأنّهم مع ذلك كلِّه سيحمونَه ويحرسونَه ويَحمون بعضَهم بعضًا، فهم عصبةٌ أقوياءُ، أي علّلوا طلَبَ الخروجِ به بما يمكنُ أنْ يستهوي يوسفَ لِصباه منَ الرُّتوع واللّعبِ والنّشاطِ[5].

موقعُ جملةِ ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ وارتباطُها بجملةِ ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ﴾:

جُملَةُ ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ في موضِعِ الحالِ[6]، والمعنَى: يرتعُ ويلعبُ حالَ كوننا حافظين له.

وأفادتِ الحالُ توكيدَ إظهارِ حفظِهم ليوسُفَ، فإنّهم سيتولَّون حفظَه وهو يأكلُ ويشربُ ويلعبُ، وسيحمونَه من أنْ ينالَه مَكروهٌ أو أذًى.

(1) قرأ بها أهل الكوفة (الكسائي وحمزة وعاصم) ويعقوب وخلف، يُنظر: ابن الجزري، النشر في القراءات العشر: 2/293.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 8/426.
(3) ابن عطية، المحرر الوجيز: 3/223.
(4) الزمخشري، الكشاف: 2/448.
(5) ابن عطية، المحرر الوجيز: 3/224.
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/229.

ومجيءُ هذه الجملة متمّمٌ للجملةِ التي خُتمت بها الآيةُ السّابقةُ: ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ﴾؛ إذ إنّ كلَّ واحدةٍ منَ الجُملتَين حالٌ لإخوةِ يوسُف، وتتضمّنُ نوعًا منَ التّطْييب لنَفْسِ أبيهم، كأنَّهم قالوا: ما لك لا تأمنّا على يوسُف؟، فإنْ كنتَ تخافُ عليه إيَّانا معشرَ الإخوة كأنْ نقصدَه بسوء فإنَّا له لناصحون، وإنْ كنتَ تخافُ عليه غيرَنا ممّا يصيبُه، أو يقصدُه بسوء، ونحن متساهلون في حفظه فإنَّا له لحافظون.

أظهروا أنّهم جمَعوا ليوسفَ تأمينَين؛ تأمينًا دائمًا من أنفسهم، ثمّ تأمينًا مؤقَّتًا من غيرِهم

والكلامُ بذلك مَسُوقٌ على ترتيبه الطبيعيِّ: ذكروا أوّلًا أنّه في أمنٍ دائم من ناحيتهم، ثم سألوا أنْ يرسلَه معهم غداةَ غدٍ، ثم ذكروا أنّهم حافظون له ما دام عندَهم، وبذلك أظهروا أنَّهم جمعوا ليوسفَ تأمينين: تأمينًا دائمًا من ناحية أنفسهم، ثم تأمينًا مؤقَّتًا من غيرهم.

نُكتةُ الجمْعِ في: ﴿لَنَٰصِحُونَ﴾ و﴿لَحَٰفِظُونَ﴾:

مجيءُ ﴿وَإِنَّا﴾ بصيغةِ الجمع، وكذا قولُه: ﴿لَنَٰصِحُونَ﴾ و﴿لَحَٰفِظُونَ﴾ يفيدُ توكيدَ مضمون الجُملتَين؛ لأنّ نصْحَ وحفظَ الجماعةِ ليس كنُصح وحفظِ الواحدِ، والمعنَى: أنا وكلُّ إخوتي ليوسُف ناصحون وحافظون، وذلك بهدفِ تطمين يعقوبَ عليه السلام، وإقناعِه بإرسال يوسُفَ معهم.

التَّعليلُ بنُصحِ الجماعةِ وحفظِهم أدْعى لطُمأنينةِ يعقوبَ وقَبولِه إرسالَ يوسُفَ

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

النّصح والوعظ والإرشاد:

تتقاربُ معاني هذه الألفاظِ وتتداخلُ، فجميعُها تشتركُ في معنَى إرادةِ الخيرِ بالطّرف الآخَرِ، وتوجيهِه إلى ما فيه صلاحُه، إلَّا أنّ هناكَ ما يميّزُ كلَّ لفظٍ عنِ الآخَر، وبيانُ ذلك:

الموعظةُ في اللّغة: التّخويفُ والتّذكيرُ بالخير وما يرقُّ له قلبُه[1]،

الموعظةُ زجرٌ وتخويفٌ من سوءِ العاقبةِ، والنُّصحُ صدقٌ وإخلاصٌ، والإرشادُ دَلالةٌ وهدايةٌ

(1) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة: (وعظ).

والنُّصحُ والتَّذكيرُ بالعواقب[1]، وقيل: زجرٌ مقترنٌ بتخويفٍ[2]، وكأنّ الواعظَ يذكِّرُ وينبّه غيرَه إلى عواقب ما يفعلُه، أو ما هو مُقدِمٌ عليه ليتوقّفَ عنه، ويظهرُ وكأنّ الوعظَ خاصٌّ بالزّجر عمّا له عواقبُ سيّئةٌ، ثمّ عُمّم في الحضّ على ما له ثوابٌ[3].

والنُّصْحُ: النُّصْحُ خِلَافُ الغِشّ[4]، ونَصَحْتُ لَهُ نَصيحتي أي أَخْلَصْتُ وصَدَقْتُ[5]، والنّصيحةُ: إرادةُ الخيرِ والصّلاح للمنصوح له وإرشادُه له، فهو قولٌ فيه دعاءٌ إلى صلاحٍ، ونهيٌ عن فسادٍ[6]، وتَحَرّي فِعْلٍ أو قَوْلٍ فيه صلاحُ صاحبِهِ[7].

والإرشاد: أصلُ (رشد) يدلّ على استقامةِ الطّريق، والرُّشْدُ والرَّشَدُ: خلافُ الغَيِّ[8]، ونقيضُ الضّلال، والإِرْشادُ: الدّلالةُ والهدايةُ[9]، أَرْشَدَه اللّه إلى الأمر: هداهُ، واسْتَرْشَدَه: طلبَ منه الرُّشْدَ، ومَنْ دلّ أحدَهم على الطريق المُؤدّي إلى الغرضِ المطلوبِ فقد أَرْشَدَه، وإذا قَبِل هو قولَ الدّالّ فسلكَ قَصْدَ السَّبيلِ فهو راشدٌ، والرُّشْدُ هو صلاحُ الأمرِ وكونُه على الوجهِ الصحيح[10].

إذن: تتميّزُ الموعظةُ بالزّجرِ المقترنِ بالتّخويفِ، والتّذكيرِ من سوءِ عاقبةِ ما هو مُقدِمٌ عليه ليتوقّف عنه. ويتميّزُ النُّصْحُ بالصّدقِ والإخلاصِ للمنصوحِ له، في حين يتميّزُ الإرشادُ بالدّلالة والهدايةِ إلى الصّلاح، وإلى الطَّريق المستقيمِ.

الإرسالُ والبعثُ:

يتقاربُ لفظا (الإرسال، البعث) إذ يشتركان في معنًى لُغويٍّ عامٍّ وهو التّوجيهُ، كما أنّه قد يُستعملُ كلٌّ منهما بمعنى الآخَر[11]؛ إذ أحدُ معاني الإرسال هو البعثُ[12]، وأحدُ معاني

(1) ابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (وعظ).
(2) الراغب، المفردات: (وعظ).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (وعظ).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نصح).
(5) ابن منظور، لسان العرب: (نصح).
(6) الزبيدي، تاج العروس، ومجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط: (نصح).
(7) الراغب، المفردات: (نصح).
(8) ابن فارس، مقاييس اللغة: (رشد).
(9) الخليل، العين: (رشد).
(10) ابن منظور، لسان العرب: (رشد).
(11) الكفوي، الكليات، ص: 244.
(12) ابن الجوزي، نزهة الأعين النواظر، ص: 151.

البعث هو الإرسالُ، إلّا أنّهما يفترقان ببعض الملامح المُميّزةِ لكلٍّ منهما، ومن هذه الفروق ما ذكرَه العسكريُّ، فقال: "الفرقُ بين البَعْث والإرسال: أنّه يجوزُ أَنْ يبْعَثَ الرّجلُ إلى الآخر لحاجةٍ تخصُّه دُونك ودونَ المبعُوث إليه، كالصَّبيِّ تبعثُه إلى المكتبِ فتقول: بعثتُه، ولا تقول أَرْسلتهُ؛ لأنَّ الإرْسَالَ لا يكون إلَّا برسالة، وما يجْري مجْراها"[1].

الإرسالُ توجيهٌ برفقٍ وتُؤدةٍ، والبعثُ إثارةٌ واندفاعٌ وإيقاظٌ

بالإضافةِ إلى أنّ الإرسالَ يتميّزُ بملمحِ الرّفق والتُّؤدة والسّهولة؛ إذ إنّ أصلَ (رسل) يدلّ على الانْبعاثِ والامْتِدادِ، والرَّسْلُ: السَّيْرُ السَّهْلُ[2]، والرِّسْل: الرِّفْقُ والتُّؤَدة، والإرْسالُ: الإطْلاقُ، والإهمالُ، والتَّخْلِيَةُ، والتّوجيه[3]، والإرْسَالُ في المَحْبوس إطْلاقه، وفي المُطلَق بَعثُه[4].

في حينِ يتميّزُ البعثُ بملمحِ الإثارة والاندفاعِ والإيقاظِ، إذ إنّ أصلَ (بعث) يدلّ على الإثارة[5]، والتّوجيه، ويختلفُ البعثُ بحسب اختلافِ ما عُلّق به، فبَعَثْتُ البعيرَ: أثرتهُ وسيّرتُه، وبعثَ اللّه الموتى: أخرجَهم وسيّرَهم إلى القيامة، وبعثَ رسولًا: أرسلَه ووجَّهه[6]، وانْبعثَ الشّيءُ: اندفعَ، وبعثَهُ من نومه: أيقظَهُ وأهَبَّه، والبعثُ: النّشورُ[7].

اللّعبُ واللّهوُ:

اللّعبُ واللّهوُ بينهما تقاربٌ دلاليٌّ؛ إذ يشتركان في معنى الخُلوِّ عنِ الحكمة والفائدةِ والنّفع والمقصدِ الصّحيح، إلَّا أنّ لكلٍ منهما ما يُميّزُه عنِ الآخر، ويظهرُ ذلك من خلال الآتي:

اللّعبُ فعلٌ قُصدَ به تعجيلُ المسرّةِ والاسترواحِ به، واللّهوُ ما شغلَ عن مُهمّات الأمورِ

اللَّعبُ: ضدُّ الجدّ، وَيُقَالُ لِكلِّ مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَا يُجْدي عليه نَفْعًا:

(1) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 289.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (رسل).
(3) ابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (رسل).
(4) ابن الجوزي، نزعة الأعين، ص: 152.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بعث).
(6) الراغب، المفردات: (بعث).
(7) ابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم، وابن منظور، لسان العرب: (بعث).

إنّما أَنتَ لاعِبٌ[1]، ولَعِبَ فلانٌ إذا كان فعلُه غيرَ قاصدٍ به مقصدًا صحيحًا[2]، واللّعبُ: فعلُ ما لا فائدةَ فيه، وهو بمعنى الهزْل، فهو ضدُّ الجدّ، وقيل: اللّعبُ: كلُّ عملٍ لا يُجري على فاعله نفعًا[3]، فاللّعبُ فيه معنى العَبَثيّةِ التي هي عدمُ القصد والجَدوى[4].

واللّهو: أصلُ (لهو) يدلّ على شُغلٍ عن شيءٍ بشيءٍ، واللّهوُ هو كلُّ شَيْءٍ شَغَلَكَ عَنْ شَيْءٍ فَقَدْ أَلْهَاكَ[5]، وقيل هو ما شغلك من هوًى أو طربٍ، والصُّدُوفُ عنِ الشيء[6]، ولهوتَ بالشّيء إذا لعبتَ به وتشاغلتَ وغفلتَ به عن غيره، وتركتَ ذكرَه وتشاغلتَ بغيره، وقيل: أصلُ اللّهو التّرويحُ عنِ النّفس بما لا تقتَضيه الحكمةُ[7]، واللّهوُ: ما يَشغلُ الإنسانَ عمّا يَعنيه ويُهمّه[8]، والشّغلُ عن مهمّات الأمور[9].

ومن معاني اللّهو في القرآن الكريم: الاستهزاءُ، وضربُ الطّبل والملاهي، والولدُ، والسُّرورُ الفاني، والغناءُ، والشّغلُ، والمنعُ[10].

وقد فرّق العسكريُّ بينَهما فقال: "الفرقُ بين اللّهو واللّعبِ أنّه لا لَهوَ إلّا لعبٌ، وقد يكونُ لعبٌ ليس بلهْوٍ؛ لأنّ اللّعبَ يكونُ للتّأديب كاللّعب بالشّطرنج وغيرِه، ولا يُقالُ لذلك لَهوٌ، وإنّما لعبٌ لا يعقب نفعًا، وسُمّي لهوًا لأنّه يشغلُ عمّا يَعني، من قولهم ألهاني الشّيءُ أي: شغلني ومنه قولُه تعالى: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١﴾ [التكاثر: 1]"[11].

و"قيل: اللّهوُ واللّعبُ يشتركان في أنّهما اشتغالٌ بما لا يَعني من هوًى أو طربٍ حرامًا أو لا، وقيل: اللّهوُ أعمُّ مطلقًا، فاستماعُ الملاهي لهوٌ لا لعبٌ، وقيل: اللّعبُ ما قُصد به تعجيلُ المسرّةِ والاسترواحِ به، واللّهوُ ما شغلَ من هوًى وطربٍ، وإنْ لم يُقصدْ به ذلك"[12].

(1) ابن منظور، لسان العرب: (لعب).
(2) الراغب، المفردات: (لعب).
(3) السمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (لعب).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (لعب).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (لهو).
(6) الخليل، العين: (لهو).
(7) ابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (لهو).
(8) الراغب، المفردات: (لهو).
(9) السمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (لهو).
(10) ابن الجوزي، نزهة الأعين النواظر، ص: 536.
(11) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 254.
(12) الزبيدي، تاج العروس: (لهو).

بالإضافة إلى فرقٍ آخرَ وهو أنّ اللَّعبَ فعلٌ، في حين أنَّ اللّهوَ انصرافٌ وانشغالٌ، وقد لا يكون فعلًا ، نحوَ الغفلةِ، فهي من أفعال القلوبِ[1].

(1) محمد داود، معجم الفروق الدلالية، ص: 367.

﴿قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِيٓ أَن تَذْهَبُواْ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ ١٣﴾ [يوسف: 13]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

أبناءٌ يَكيدون، وأبٌ يخافُ على ولده

جاءتِ الآيةُ جوابًا لطلبِ إخوةِ يوسُفَ من أبيهم أنْ يرسلَ معهم أخاهم ليرتعَ ويلعبَ، مُؤكِّدين حرصَهم وحفظَهم ونُصحَهم له، بعد أنْ دبَّروا مكيدةَ التَّخلّصِ منه؛ إذ أجابهم بما زاد صدورَهم توغّرًا؛ لأنَّ ما قالوه له بحيث يُسَرُّ بهِ لِسرورِ يوسفَ عليه السلام به، لكنّه قال: ﴿إِنِّي لَيَحْزُنُنِيٓ﴾[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿لَيَحْزُنُنِيٓ﴾: أصلُ (حزن) يدلُّ على خُشُونَةِ الشّيءِ وشِدَّةٍ فيه، ومنه ما غلُظَ منَ الأرض، والحُزْنُ معروفٌ[2]، وهو خلافُ السّرور، وحَزِنَ الرّجلُ بالكسر فهو حَزِنٌ وَحَزينٌ[3]، والحُزْنُ: الغَمُّ الحاصِلُ لوقوعِ مَكْرُوه أو فَواتِ مَحْبوبٍ في الماضِي[4]، وعرّفه الراغبُ بأنّهُ: خشونةٌ في النّفس لِما يحصلُ فيه منَ الغمِّ، ويُضادُّه الفرحُ، والنّهيُ عنِ الحُزن ليس عن تحصيلِه، وإنّما هو عن تعاطي ما يُورثُ الحزنَ واكتسابَه؛ لأنّ الحُزْن ليس يحصلُ بالاختيار[5].

ومعنى ﴿لَيَحْزُنُنِيٓ﴾ في الآية: أنّ ذهابَهم به ومفارقتَه إيَّاه ممَّا يُحزنُه؛ لأنَّه كان لا يصبرُ عنه ساعةً[6]، وهو ألمُ القلب لفراق المحبوبِ[7].

(1) البقاعي، نظم الدرر: 10/27.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حزن).
(3) الجوهري، الصحاح: (حزن).
(4) الزبيدي، تاج العروس: (حزن).
(5) الراغب، المفردات: (حزن).
(6) الزمخشري، الكشاف: 2/448.
(7) البغوي، معالم التنزيل: 2/479، ورشيد رضا، تفسير المنار: 12/218، والمراغي، تفسير المراغي: 12/119.

2) ﴿وَأَخَافُ﴾: أصلُ (خوف) يدلُّ على الذُّعرِ والفزعِ، يُقال: خِفْتُ الشَّيءَ خَوْفًا وخِيفَةً[1]، والخَوْف: توقّعُ مكروهٍ عن أمارةٍ مظنونةٍ أو معلومةٍ، ويُضادُّه الأمنُ[2]، والخوفُ فيه قلقٌ واضطراب، ويُعبّر عنه بالجَزع[3].

والمعنى في الآية موافقٌ للمعنى اللُّغويِّ، وهو ألمُ النّفسِ ممّا يُتوقعُ من مكروهٍ قبلَ أنْ يقعَ[4].

3) ﴿يَأْكُلَهُ﴾: أصلُ (أكل) يدلُّ على التّنقّص، والأكلُ معروفٌ، والمأْكَلُ ما يُؤْكَلُ كالمَطعَم، والمُؤكَلُ المُطعَم، وأَكيلُ الذِّئبِ: الشَّاةُ وغيرُها إذا أَرَدتَ مَعْنَى المَأْكولِ[5]، والأُكْلَةُ: الطُّعْمَةُ، والأَكْلُ: إيصالُ ما يُمضَغُ إلى الجَوْفِ، أو بَلْعُ الطَّعامِ بَعْدَ مَضغِه[6].

ومعنى ﴿يَأْكُلَهُ﴾ في الآية: يختطفُه الذّئب فيفترسُه[7].

4) ﴿ٱلذِّئْبُ﴾: أصلُ (ذأب) يدلّ على قلّةِ استقرارٍ، وألّا يكونَ للشّيءِ في حركته جهةٌ واحدةٌ، من ذلك الذِّئْبُ سُمِّيَ بذلك لِتَذَؤُّبِهِ من غيرِ جهةٍ واحدةٍ[8]، أي يأتي في هجومه مَرَّةً من هنا ومرّةً من هنا، إذا حَذِرَ مِنْ وجهٍ جاء من آخرَ، فأخذَ اسمَه من هجومه على الغنم ونحوِها[9]، والذِّئْبُ: كَلْبُ البَرِّ، والأُنْثَى ذِئبةٌ[10]، والجمعُ أَذْؤُب، وذِئَاب، وذُؤْبَان، وذَؤُبَ الرّجلُ: صار كالذِّئب خُبْثًا ودَهَاءً[11].

ومعنى ﴿ٱلذِّئْبُ﴾ في الآية موافقٌ لمعناه اللُّغويِّ، فهو الذّئب المعروفُ، وهو كلبُ البَرّ.

5) ﴿غَٰفِلُونَ﴾: الغين والفاء واللّام أصلٌ صحيحٌ يدلُّ على تركِ الشّيءِ سَهوًا، وربَّما كان عن عمْدٍ، ومنه غَفَلْتُ عنِ الشَّيء: إذا تركتَه ساهيًا، وأَغْفَلْتَه: إذا تركتَه على ذُكْرٍ منك

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (خوف).
(2) الراغب، المفردات: (خوف).
(3) السمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (خوف).
(4) رشيد رضا، تفسير المنار: 12/218، والمراغي، تفسير المراغي: 12/119.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أكل).
(6) الزبيدي، تاج العروس: (أكل).
(7) رشيد رضا، تفسير المنار: 12/219.
(8) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ذأب).
(9) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (ذأب).
(10) الخليل، العين: (ذأب).
(11) الزبيدي، تاج العروس: (ذأب).

له[1]، والغَفْلَةُ: فَقْدُ الشُّعورِ بما حَقُّه أَنْ يُشعَرَ به، وهو أيضًا الذّهولُ عنِ الشَّيء، وَقيل: متابَعةُ النَّفْسِ على ما تشتهيه، وغَفَلَ الشّيءَ: سَتَرَه[2]، والغفلةُ: سَهوٌ يعتري الإنسانَ من قلّةِ التّحفّظ والتّيقّظ[3]، والغفلةُ: غيبةُ الشّيء عن بالِ الإنسان، وعدمُ تذكُّره له، وقد استُعملَ فيمن تركه إهمالًا وإعراضًا[4].

ومعنى ﴿غَٰفِلُونَ﴾ في الآية موافقٌ لمعناه اللّغويِّ، أي ساهون عنه لاشتغالِكم بالرّتعِ واللّعبِ، أو لقلّةِ اهتمامِكم برعايتِه وحفظِه[5].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

حُزنٌ يَشوبُه خوفٌ من صحراءَ مَذْأبةٍ، وإخوةٍ حَسَدَةٍ

أجابَ يعقوبُ أبناءَه الَّذين أرادوا أخذَ أخيهم يوسفَ، واعتذرَ إليهم بأنَّه يُحزنُه أنْ يذهبوا به إلى الصّحراء؛ مخافةً عليه منَ الذئب أنْ يأكلَه، وهم عنه غافلون مُنشغلون[6]؛ إذ كان يوسفُ حينئذٍ غلامًا صغيرًا، والذِّئابُ تجترئُ على الَّذي تُحِسُّ منه ضعفًا في دفعِها ومقاومتِها[7].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

سِرُّ فصلِ جملةِ ﴿قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِيٓ﴾ عمّا قبلَها:

طلبٌ فيه مَكرٌ، وجوابٌ فيه حُزنٌ وخوفٌ مُكلّلٌ برحمةٍ وشفَقةٍ

فَصَل البيانُ القرآنيُّ بين الجُملتَين ﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ﴾ و﴿قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِيٓ﴾، ولم يأتِ بينَهما بعاطفٍ لِما بينهما من شبْهِ كمال اتّصالٍ؛ إذِ الجملةُ الثّانيةُ استئنافٌ بيانيٌّ للأولى، وكأنّ سائلًا بعد أنْ سمع مقالتَهم ﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ﴾: فماذا قال أبوهم لهم؟ فقيل: ﴿قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِيٓ﴾[8].

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (غفل).
(2) الزبيدي، تاج العروس: (غفل).
(3) الراغب، المفردات: (غفل).
(4) الفيومي، المصباح المنير: (غفل).
(5) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/257، وطنطاوي، التفسير الوسيط: 7/327.
(6) ابن جرير، جامع البيان: 15/573.
(7) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/230.
(8) الآلوسي، روح المعاني: 8/451.

ولكوْنِ الآيةِ جاريةً على طريقةِ المُحاوَراتِ[1]، أي إنَّ قولَ يعقوبَ ﴿إِنِّي لَيَحْزُنُنِيٓ﴾ جوابٌ على قولِ أبنائه ﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا﴾، أيْ فَصَلَ الجوابَ ولم يعطفْ بالفاءِ أوِ الواو؛ كراهيةَ تكريرِ العاطفِ بتكريرِ أفعالِ القولِ، فإنّ المحاورةَ تقتضي الإعادةَ في الغالبِ[2].

فائدةُ حرفِ (إنَّ):

جوابٌ فيه تأكيدٌ وقطعٌ لطلبٍ فيه إلحاحٌ وتَكرارٌ

جاءَ البيانُ القرآنيُّ بحرفِ (إنَّ) الَّتي تفيدُ التَّأكيدَ في قولِه: ﴿قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِيٓ﴾؛ لكي يقطعَ طلبَهم الملحَّ والمؤكَّدَ والمتكرِّرَ بأنْ يذهب معهم يوسفُ؛ فأكدَّ لهم أبوهم أنَّ حُزنَهُ ثابتٌ لا يستطيعُ أنْ يفارقَ ابنَه، تنزيلًا لهم منزلةَ من يُنكرُ ذلك؛ إذ رأى إلحاحَهم وتكرّرَه، وعبَّر معه بالحزن؛ ليصرفَهم عنِ الإلحاح في طلب الخروج به؛ لأنَّ شأنَ الابنِ البارِّ أنْ يتّقيَ ما يُحزنُ أباه، واستمرَّ هذا التَّأكيدُ إلى قوله: ﴿وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ﴾[3].

التَّعبيرُ بالفعْلِ المضارع ﴿لَيَحْزُنُنِيٓ﴾:

الحُزنُ يبقَى أثرُهُ في النَّفسِ، ويلازمُ يعقوبَ فلا يفارقُه

عبَّرتِ الآيةُ القرآنيَّةُ عنِ الحُزن بالفعل المضارع فقال: ﴿لَيَحْزُنُنِيٓ﴾، واختلفَ نظرُ المفسِّرين في ذلك على قولين:

الأوّلُ: الفعلُ المضارع ﴿لَيَحْزُنُنِيٓ﴾ للحالِ، وليس للاستقبالِ، على تقديرِ: إنّي ليحزنني الآن قصدُكم أنْ تذهبوا به، والقصدُ متحقِّقٌ حالًا وكذا الحُزنُ[4]، وذلك لأنّ لامَ الابتداء إذا دخلتْ على المضارع تُخلّصُه لزمنِ الحال، يقول الزّمخشريُّ: "ودخولها - أي لامُ الابتداء - أحدُ ما ذكره سيبَويْه من سببَي المُضارعة"[5].

الثَّاني: أنَّ المضارعَ هنا يُعطي معنى الاستقبال لا الحالِ؛ لأنَّ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/230.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/401.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/232.
(4) القونويّ وابن التّمجيد، حاشية على تفسير البيضاوي: 10/268.
(5) الزمخشري، الكشاف: 2/448.

المضارعَ إذا أُسندَ إلى متوقَّعٍ تخلَّصَ للاستقبال، فالذَّهابُ لم يقع بعدُ، ومن ثَمَّ الحزنُ لم يقعْ، فالحزنُ نتيجةٌ وأثرٌ لذهابِهم به، وهو المسبّبُ لأثرِه، فمحالٌ أنْ يتقدَّم الأثرُ عليه، كما قيل:

يَهُولُكَ أَن تموتَ وَأَنت مُلْغٍ *** لما فِيهِ النّجَاةُ منَ العَذَابِ[1].

ولو أُريدَ به الحالُ للَزم سبقُ الفعلِ للفاعلِ في الوجود وهو محالٌ[2].

وممّا يؤكّدُ إفادةَ الاستقبال أنَّه عبَّرَ بلفظ الحُزن ﴿لَيَحۡزُنُنِيٓ﴾ دونَ غيرِه؛ لأنَّ الحزنَ يبقَى أثرُه في النَّفس، ويلازمُ يعقوبَ فلا يفارقُه، فجاءَ الفعلُ من حيث الصّيغةُ ومن حيث الزّمانُ مناسبًا ودالًّا على مقصود يعقوبَ عليه السلام وحالِه.

سِرُّ إيثارِ المصدرِ المؤوَّل، والعُدولِ عنِ المصدرِ الصّريحِ:

المصدرُ المؤوَّلُ ﴿أَن تَذۡهَبُواْ﴾ في محلِّ رفعٍ فاعلٌ للفعل ﴿لَيَحۡزُنُنِيٓ﴾، والتّأويلُ: إنّي ليحزنني ذهابُكم، وقد آثرَه النَّصُّ القرآنيُّ؛ ليُعطيَ معنى التَّأكيدِ ومعنى ملازمةِ الحزن لذهابِهم به، ولو كان أدنَى ذهابٍ، ولو أخذَ وقتًا قصيرًا أو مسافةً قصيرةً، فالفعلُ يُعطي قوّةً في المعنى ويجعلُه أنسبَ وأقربَ، ليدلَّ على كلّ ذهابٍ؛ فهو يفيدُ التَّجدّدَ والحدوثَ والاستقبالَ، بخلاف الاسْمِ (ذهابكم) الَّذي لا يكونُ معه الحزنُ إلَّا بتحقُّقِ كاملِ الذّهاب[3].

أيُّ ذهابٍ بيُوسفَ عليه السلام هو حزنٌ وكربٌ لأبيه

اختيارُ لفظِ ﴿وَأَخَافُ﴾ في السياقِ:

عبَّر القرآنُ الكريمُ بالخوف؛ لأنَّه يدلُّ على ما يُخاف وقوعُه من كلِّ مكروه في وقتٍ يأتي في المستقبل، فالخوفُ يكونُ لِما يُستقبلُ، بخلافِ الحُزن الذي يكونُ على ما فات ومضى[4] من فقدِ محبوبٍ أو وقوعِ مكروهٍ[5]، ولهذا أُسْنِد الحزنُ إلى الذّهاب به المُفوِّتِ لاستمرارِ

خوفُ يعقوبَ يَحكي شُعورًا بالقلقِ وعدمِ الطُّمأنينة على يوسفَ لِما قدْ يُصيبهُ

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 6/246.
(2) السيوطي، همع الهوامع: 1/39.
(3) المطعني، خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية: 2/295.
(4) ابن الجوزي، نزهة الأعين النواظر، ص: 279.
(5) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 6/214.

مصاحبتِهِ ومُوَاصلتِه ليوسفَ، وأُسْنِد الخوفُ إلى ما يُتوقّع نزولُه ممّا لم يقع، وهو أنْ يأكلَه الذِّئبُ[1].

استعمالُ المصدرِ المؤوَّل ﴿أَن يَأْكُلَهُ﴾:

المصدرُ المؤوّلُ ﴿أَن يَأْكُلَهُ﴾ في محلِّ نصبٍ مفعولٌ به للفعل ﴿وَأَخَافُ﴾، وتأويلُه: (وأخافُ أكلَ الذئب له)، وقد استَعملَ البيانُ القرآنيُّ المصدرَ المؤوّلَ هنا؛ ليُتيحَ صلاحيةَ الكلام لإفادةِ اعتباراتٍ من شأنِها أنْ تقوّيَ المعنى، وهو شدّةُ الخوفِ، أو تجعلَهُ أنسبَ للمقام؛ وهو عدمُ الشّعورِ بالطّمأنينة تجاه إخوتِه الذين إنْ لم يُلحقوا به الأذَى المباشرَ فسيُلحقونَه بإهمالِهم ليوسفَ، ممّا قد يعرّضُه لهذا الخطرِ الكبيرِ، فالمصدرُ المؤولُ هنا جعلَ الكلامَ صالحًا لدخول الفعلِ المضارعِ (يأكله) على الجملة بما أعطاها منَ التّجدّدِ والحدوثِ والاستمرارِ المُستفادِ منَ الفعل، بما يدلُّ على زيادةِ خوفٍ عند يعقوبَ ممّا لو تعرّض يوسفُ لأكلِ الذّئب، وعلى شدّة إهمالِ إخوتِه له، وهذا فيه تأكيدٌ لشدّةِ خوفِ يعقوبَ على يوسفَ ﷺ، ولو وُضِع الاسْمُ (أَكْلَه) بدلَ الفعلِ لفاتتْ هذه الاعتباراتُ[2].

في المصدرِ المؤوّلِ تقويّةٌ للمعنى، وتأكيدٌ على شدّة خوفِ يعقوبَ على يوسفَ

استعمالُ الفعلِ المضارعِ ﴿أَن يَأْكُلَهُ﴾ في السّياقِ:

التّعبيرُ بصيغةِ المضارعِ في قوله تعالى: ﴿يَأْكُلَهُ﴾ يدلُّ على زيادةِ خوفِ يعقوبَ وقلقِهِ واضطرابِه ممّا قد يَحلُّ بيوسُفِ إذا تعرّضتْ له الذّئابُ؛ وذلك من خلال أمرين:

الأوّلُ: أنّ صيغةَ المضارعِ تثيرُ في المُخيّلة تصويرَ مشاهدِ يوسفَ وهو يُؤكلُ منَ الذئاب التي من طبْعها الاحتيالُ، فإنّها إذا جرحتْ ورأتْ عليه الدّمَ ضَرَتْ به فربما مزّقتْه[3]، وخاصّةً أنّ معنى الأكل

تصويرٌ يُبرِّرُ خوفَ يعقوبَ وربّما يُقنعُ الإخوةَ بالرّجوعِ عن إصرارِهم بأخذِ يوسُفَ

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/257، والهرري، تفسير حدائق الروح والريحان: 13/330،
(2) المطعني، خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية: 2/295.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/231.

هو "تقطيعُ الطعام بالمضغِ الذي بعدَه البلعُ"[1]، وهذا التّصويرُ ربّما يحملُ إخوةَ يوسفَ على الإعراضِ عن إلحاحِهم على أخذهِ معهُم إلى أرضٍ مَذْأبةٍ؛ لأنَّ شأنَ الابنِ البارِّ أن يتَّقيَ ما يَحزُنُ أباه، يقول البقاعيّ: "فكأنّه قيل: إنّ تلقّيَهم لمثل هذا لَعجبٌ، فماذا قالوا؟"[2].

الثاني: أنّ الفعلَ المضارع له دلالتُه الخاصّةُ؛ فهو يدلُّ على حدوثِ الشّيء بعد أنْ لم يكن، ويُعبّرُ عنه بالتّجدّدِ الحُدوثيِّ، وفي هذا إشارةٌ إلى كثرةِ ما سيتعرّضُ له يوسفُ منَ الضّررِ والأذَى منَ الذئاب التي من شأنِها، كما تقولُ العربُ أنّها إذا عضّتِ الإنسانَ وأسالتْ دمَه أنّها تَضرى حين ترى الدّمَ فتستأسدُ على الإنسان.

بَلاغةُ التّعبيرِ عنِ افتراس الذّئبِ بالأكل:

من بلاغةِ البيانِ القُرآنيِّ، اختيارُ الأنسبِ للغرَضِ الذي فيه الكلامُ

عبّرَ البيانُ القرآنيُّ بلفظِ الأكل بدلَ الافتراسِ، لكونِه أنسبَ مع سياقِ المَقام، فيوسفُ طفلٌ صغيرٌ لا يملكُ القدرةَ أن يُقاومَ أو يُدافعَ عن نفسه، فقد رُبّيَ في دَعةٍ، وسيستسلمُ للذّئبِ من غير حِراكٍ أو هروبٍ، ولذلك ناسبَ أنْ يَستخدم القرآنُ لفظةَ الأكل الذي هو "تقطيعُ للطَّعام بالمضغ الذي بعدَه البلعُ"[3]، ولم يناسبِ الافتراسَ الذي هو اصطيادُ حيوانٍ لحيوان آخرَ وقتلُهُ، ودَقُّ عنقِه، وفَرَسَ الأسدُ فريستَه: صادَها وقتلَها[4]، وأصلُ (فرس) وطءُ الشّيء ودقُّه[5].

وكذلك فإنَّ حالَ يعقوبَ هو حالُ خوفٍ على يوسُفَ وتخويفٍ لإخوتِه ممّا قد يصيبُه منَ الأذَى، وصدٍّ لهم عن قصدهم، والتّعبيرُ بالأكل أشدُّ تنفيرًا للنّفس مع ما علموا من ضعْفِ يوسُفَ وصِغَرِ سنِّه.

وأيضًا فالتعبير بالأكل أنسب لسياقِ المقالِ؛ فقد ختمَ كلامَه بذكر

(1) البقاعي، نظم الدرر: 10/21.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 10/21.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 10/27، والزبيدي، تاج العروس: (أكل).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (فرس).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (فرس).

سببِ امتناعِه عن إرساله، وهو أنّهم عن يوسفَ خاصّةً غافلون، أي عريقون في الغفلةِ؛ لإقبالِهم على ما يُهمّهم من مصالح الرّعي[1]، و"لِما يعلمُ من إمعانِهم في اللّعبِ والشّغلِ باللّهو والمسابقةِ"[2]، ولأنّ في التَّعبيرِ بالأكلِ دلالةً على شدَّةِ غَفْلتِهم عنه، وتمكُّنِ الذِّئب من يوسُفَ، وتقطيعِ لحمِه ومضْغِه وابتلاعِه، دونَ وجودِ مَن يدفعُه، أو يمنعُه منَ الإخوة.

سِرُّ تخصيصِ الذّئبِ دونَ سائرِ الحيواناتِ المُفترسةِ:

في تخصيصِ الذّئبِ تخويفٌ لإخوتِه، وتأكيدٌ لهم على شدّةِ خوفِه، لعلّهم أنْ يتراجعوا

ذكرَ المُفسّرون أنَّ يعقوبَ خصَّ الذِّئبَ دونَ غيرِه منَ الحيوانات لوجوهٍ:

الأوَّلُ: لِيُشعرَهم بأنَّ خوفَه عليه ممّا هو أعظمُ منَ الذِّئب توحُّشًا وافتراسًا أشدُّ وأولى[3].

الثَّاني: لأنَّ الأرضَ التي عُرفوا بالنُّزول فيها كانت كثيرةَ الذِّئاب، وهي أغلبُ ما يُخافُ منه في الصّحاري، وهذا ما نُقل عن مقاتلٍ[4]، وخاصّةً أنّ ذئابَ باديةِ الشَّام كانت أشدَّ خُبثًا من بقيّة الذِّئابِ[5].

الثّالثُ: إنّما ذكرَ الذِّئبَ لصِغرِ يوسُفَ، والذِّئابُ تجترئُ على الَّذي تحسُّ منه ضعفًا في دفعِها، والذِّئبُ إذا استطاعَ أنْ يعضَّ إنسانًا، وأنْ يُسيلَ دمَه فإنَّه يُضرَى ويستأسدُ، وإذا اجتمع معه سربٌ منَ الذِّئاب فإنَّه يصبحُ أشدَّ خطرًا على الواحد منَ النَّاس، وعلى الشّيخ الهرِم والصّبيِّ الصَّغير[6].

الرّابعُ: أنَّه خافَ عليه منهم، وكنّى بالذِّئبِ عنهم، فخوفُه إنّما كان من قتلِهم له، فكنَّى عنهم بالذِّئب مُساترةً لهم، قال ابنُ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 10/27.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/231.
(3) أبو حيان، البحر المحيط: 6/246، وطنطاوي، التفسير الوسيط: 7/327.
(4) ابن الجوزي، زاد المسير: 2/418.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/230.
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/230.

عباس رضي الله عنهما: (فسمَّاهم ذئابًا)، وقيل: ما خافَهم عليه، ولو خافَهم لَما أرسلَه معهم[1].

الخامسُ: أنَّه رأى في المنام أنَّ ذئبًا كان يعدو على يوسفَ فأنجاه بنفسِه، وهذا ما نقلَه أبو صالح عن ابن عباس رضي الله عنهما[2]، وهذا قولٌ يردُّه أنّ رؤيا الأنبياء وحيٌ، وخاصّةً أنَّ يعقوبَ كان معروفًا بتأويل الرُّؤى، وقصّةُ يوسفَ كلُّها قامتْ على الرُّؤى، فكيف يرى هذه الرّؤيا ويرسلُه.

بَلاغةُ الاحتراسِ في سياقِ الآيةِ القرآنيّةِ:

تعليلٌ لسببِ امتناعِ يعقوبَ عن إرسالِ يوسفَ احتَرسَ به عن أيّ لَوْمٍ أو عتَبٍ

أطْنبَ النّصُّ القرآنيُّ عندما ذكرَ جوابَ سيّدنا يعقوبَ لأولاده، وذكرَ سببَ امتناعِه عن إرسالِه يوسفَ معهم، فقال: ﴿وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ﴾ من باب الاحتراسِ، أي أنّ يعقوبَ عليه السلام احترسَ بهذه الجملة عن أنْ يكونَ أكْلُ الذّئبِ ليوسُفَ عليه السلام لضعْفِهم أو إهمالِهم أو تفريطِهم بيوسفَ، فإنّه لو اقتصرَ على قوله ﴿وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ﴾ لتُوُهِّم أنّ ذلك بسببِهم.

واحترس بذلك؛ حتى لا يدخلَ عليه لومٌ أو عتبٌ من أبنائِه بأنّهم مُقصّرون ومُعتدون، فكانت هذه الجملةُ لِتُخلِّصَه من ذلك كلِّه.

وأراد كذلك أنْ يحرّكَ فيهم مواجيدَ الأخوّةِ التي تَفترضُ ألّا يتصرّفوا مع أخيهم بشرٍّ؛ ولا أنْ يتصرّف غيرُهم معه بشرٍّ إلّا إذا غفلوا عن أخيهم[3].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الحزنُ والخوفُ:

الحزنُ غمٌّ على ما فاتَ، والخوفُ قلقٌ ممّا هو آتٍ

بين الحزنِ والخوفِ - وإنْ تشابها - فرقٌ واضحٌ لا يخفَى؛ فالحُزْنُ: الغمُّ الحاصلُ لوقوعِ مَكرُوهٍ أو فواتِ محبوبٍ في الماضِي[4]،

(1) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 9/140.
(2) ابن الجوزي، زاد المسير: 2/418.
(3) الشّعراوي، تفسير الشّعراوي: 11/6878.
(4) الزبيدي، تاج العروس: (حزن).

وعرّفه الرّاغبُ بأنّهُ: خشونةٌ في النّفس لِما يحصلُ فيه منَ الغمِّ، ويُضادُّه الفرحُ[1].

وأمّا الخَوْف: الذُّعر والفزعُ[2]، وتوقّعُ مكروهٍ عن أمارةٍ مظنونةٍ، أو معلومةٍ، ويُضادّه الأمنُ[3]؛ والخوفُ فيه قلقٌ واضطرابٌ، ويُعبّرُ عنه بالجزع[4].

إذن: الفرقُ بين الحزن والخوف يظهرُ من ثلاثِ جهات: **الأولى**: الحزنُ ضدُّ الفرح، والخوفُ ضدُّ الأمن والطّمأنينة، **والثّانية**: الحزنُ غمٌّ وخشونةٌ في النّفس لوقوعِ مكروهٍ أو فواتِ محبوبٍ، والخوفُ قلقٌ واضطرابٌ بسبب توقّع ضررٍ أو مكروه، **والثّالثة**: الحزنُ يكونُ على ما فات ومضى، والخوفُ يكونُ لِما يُستقبلُ[5].

الأكلُ والافتراسُ:

يختلفُ معنى الأكلِ عنِ الافتراسِ ويتّضحُ ذلك من خلال الرّجوعِ إلى المعنى اللّغويِّ والاستعمالِ لكلٍّ منهما:

الأكلُ إيصالُ ما يُمضَغُ إلى الجَوْفِ، والافتراسُ اصطيادُ حيوانٍ حيواناً آخرَ، ودَقُّهُ عُنُقَهُ

الأكل: الأكلُ معروف، والمأْكَلُ ما يُؤْكَلُ كالمَطعَم، وأكيلُ الذِّئْبِ: الشَّاةُ وغيرُها إذا أَرَدْتَ مَعْنَى المَأْكولِ[6]، والأُكْلَةُ: الطُّعمَةُ، والأَكْلُ: إيصالُ ما يُمْضغُ إلى الجَوفِ، أو بَلْعُ الطَّعامِ بَعْدَ مَضْغِه[7].

والافتراس: أصلُ (فرس) يدلُّ على وطْءِ الشّيءِ ودَقّه، يقولون: فَرَسَ عُنُقَهُ إذا دقّها، ويكونُ ذلك من دَقّ العُنُق منَ الذَّبيحة، ثمّ صُيِّرَ كُلُّ قَتْلٍ فَرْسًا[8]، وفرسَ الذّئبُ الشّاةَ وافترسَها إذا قتلَها،

(1) الراغب، المفردات: (حزن).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (خوف).
(3) الراغب، المفردات: (خوف).
(4) السمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (خوف).
(5) ابن الجوزي، نزهة الأعين النواظر، ص: 279.
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أكل).
(7) الزبيدي، تاج العروس: (أكل).
(8) ابن فارس، مقاييس اللغة: (فرس).

وقيل: يُقال أكلَ الذّئبُ الشّاةَ، ولا يُقال افترسَها، وفَرَس الأسدُ فريستَه: صادَها وقتلَها، والذّابحُ الذَّبيحةَكسرُ عُنُقهَا قبل مَوتها[1].

إذن: الفرقُ بين الأكل والافتراس: هو: أنّ الأكلَ إيصالُ ما يُمضغُ إلى الجوف، في حينِ أنَّ الافتراسَ هو اصطيادُ حيوانٍ حيواناً آخرَ وقتلُه، ودَقُّ عنقِه.

وأنّ فعلَ الأكل يمكنُ أنْ يُنسبَ للإنسان وللحيوان، في حين أنَّ فعلَ الافتراسِ لا يُنسبُ إلَّا للحيوانِ المُفترسِ.

الغفلةُ والسّهوُ:

الغفلةُ تركُ الشّيء إهمالًا وإعراضًا، والسّهوُ سكونٌ ونسيانٌ مع غفلةٍ

هناك تقاربٌ كبيرٌ بين الغفلةِ والسّهو، ولهذا نجدُ أنّ علماءَ اللُّغة قد عرّفوا الغفلةَ بالسّهوِ، والسّهوَ بالغفلة، ولكنْ عند إمعانِ النّظرِ في معناهما اللُّغويِّ، والاستعمالِ القرآنيِّ لهما نلْحظُ بعضَ الفروق الدّقيقةِ بينَهما، وهي كالآتي:

الغفلةُ: أصلُ (غفل) يدلّ على تركِ الشّيء سهوًا، وربّما كان عن عمْدٍ، ومنه غفلتُ عنِ الشّيء: إذا تركتَه ساهيًا، وأغفلتُه: إذا تركتَه على ذُكْرٍ منك له[2]، والغَفْلَةُ: فَقْدُ الشُّعورِ بما حَقُّه أَنْ يُشعَرَ به، وهو أيضًا الذّهولُ عنِ الشّيء، وقيل: متابَعةُ النَّفْسِ على ما تشتَهيه، وغَفَلَ الشّيءَ: سَتَره[3]، والغفلةُ: سَهوٌ يعتري الإنسانَ من قلّة التّحفّظِ والتّيقّظِ[4]، والغفلةُ: غيبةُ الشّيءِ عن بالِ الإنسانِ، وعدمُ تذكّره له، وقدِ استُعملَ فيمن تركَه إهمالًا وإعراضًا، والمغفّلُ: الذي ليس له فطنةٌ[5].

والسّهو: أصلُ السّهوِ يدلُّ على الغفلةِ والسّكون، فالسّهو: الغفلةُ،

(1) ابن منظور، لسان العرب، ومجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط: (فرس).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (غفل).
(3) الزبيدي، تاج العروس: (غفل).
(4) الراغب، المفردات: (غفل).
(5) الفيومي، المصباح المنير: (غفل).

سَهَا عنِ الشّيء: غفلَ عنه[1]، والسّهوُ: خطأٌ عن غفلةٍ[2]، والسّهو والسّهوةُ: نسيانُ الشّيءِ والغفلةُ عنه (يذهبُ من خلال الذّهن ولا يضبطُه الذّهنُ أو يُمسكُه؛ فتَخلو منه أثناؤه)، وإنّ في السّهو إهمالًا وتراخيًا في ضبط المَسهوِّ عنه، وإمساكِه في القلبِ، ولهذا فالسّاهي مسؤولٌ، وذمُّ السّاهين في الآيتين: ﴿ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي غَمۡرَةٖ سَاهُونَ ١١﴾ [الذاريات: 11]، ﴿ٱلَّذِينَ هُمۡ عَن صَلَاتِهِمۡ سَاهُونَ ٥﴾ [الماعون: 5] يحقّقُ هذه الملاحظةَ، فمعناه: لاهون غافلون، وسها في الشّيء: تركَه عن غيرِ علْمٍ، وسها عنه: تركَه مع العلْمِ[3].

وقد فرّق بينَهما العسكريُّ فقال: "الفرقُ بين السّهو والغفلةِ أنّ الغفلةَ تكونُ عمّا يكونُ، والسّهوَ يكونُ عمّا لا يكونُ، تقول: غفلتُ عن هذا الشّيء حتى كان، ولا تقول سهوتُ عنه حتى كان؛ لأنّك إذا سهوتَ عنه لم يكنْ، ويجوزُ أنْ تغفلَ عنه ويكون، وفرقٌ آخرُ أنّ الغفلةَ تكونُ عن فعلِ الغير، تقول: كنتُ غافلًا عمّا كان من فلانٍ، ولا يجوز أنْ يُسهى عن فعلِ الغير"[4].

بالإضافة إلى فرقٍ آخرَ وهو أنّ لفظ الغفلةِ: يغلبُ عليه معنى السَّترِ، وتركِ الشّيءِ إهمالًا وإعراضًا من غيرِ نسيانٍ، في حين أنَّ السّهوَ فيه معنى السّكونِ، ويغلبُ عليه النّسيانُ والغفلةُ بسببِ الإهمال والتّراخي في الضّبط.

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سهو).
(2) الراغب، المفردات: (سهو).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (سهو).
(4) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 98.

﴿قَالُواْ لَئِنۡ أَكَلَهُ ٱلذِّئۡبُ وَنَحۡنُ عُصۡبَةٌ إِنَّآ إِذٗا لَّخَٰسِرُونَ ١٤﴾

[يوسف: 14]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لم يَرحموا حُزنَ أبيهم وخوفَه، بلْ أصرُّوا على الاحتيالِ بالقَسَم

في مناسبةِ هذه الآيةِ لِما قبلَها وجهان:

الأول: بعد أنْ أكّد لهم يعقوبُ شدّةَ خوفِه على يوسفَ من أنْ يذهبَ معه أبَوْا إلّا المراجعةَ فقالوا: ﴿لَئِنۡ أَكَلَهُ ٱلذِّئۡبُ وَنَحۡنُ عُصۡبَةٌ إِنَّآ إِذٗا لَّخَٰسِرُونَ﴾[1].

الثّاني: بعد أنْ ذكرَ أبوهم حُزنَه على فراقِه، وخوفَه منَ الذِّئب أنْ يأكلَه، وأكَّدَ حِرصَه عليه، وخشيَ غفلتَهم عنه جاءَ جوابُ أبنائه في هذه الآية يُقْسمون أنَّهم يدٌ واحدةٌ، وأنَّهم خاسِرون وخائِبون إنْ أكلَه الذِّئبُ[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَكَلَهُ﴾: فعلٌ ماضٍ منَ الأكل: وأصلُ معناه: التَّنَقُّصُ[3]، والمعنى المِحوريُّ طَحْنُ الحيّ المادّةَ المطعومةَ مَضْغًا بفمه وبلعُها: كالأكل المعروف، ﴿وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ﴾ [المائدة: 3]، ومعناه هنا: الإخبارُ عن هلاكِه؛ حتّى لا يُسأل عن بقيّته، كما سيأتي في الإيضاحِ اللُّغويِّ والبلاغيِّ.

2) ﴿لَّخَٰسِرُونَ﴾: أصلُ (خسر) يدلُّ على النَّقْص، يُقال: خَسَرْتُ الميزانَ وأخْسَرْتُهُ، إذا نَقَصْتَهُ[4]، وخَسِرَ التّاجِرُ: وُضِعَ في تِجارَتِه أو غُبِنَ، والأول هو الأصل، وصفقةٌ خاسرةٌ: غير رابحةٍ، وكَرَّةٌ خاسِرةٌ: غيرُ نافِعةٍ، والخَسارُ والخَسارة: الضَّلالُ والهَلاكُ[5].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/232.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 10/27.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أكل).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (خسر).
(5) ابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (خسر).

ومعنى خاسرون في الآية: عجَزةٌ ضعفاءُ مغبونون جاهلون بحقِّه، أو لَعاجزون[1]، أو لَخائبون في اعتصابنا، أو لَهالكون لا يصحُّ أنْ نُعدَّ منَ الأحياءِ الذين يُعتدُّ بهم، ويُركنُ إليهم[2].

المَعْنى الإجْماليُّ:

أسلوبٌ ماكرٌ مؤثّرٌ لنفي خاطرِ خوفِ يعقوبَ على يوسُفَ عليهما السلام

قال إخوةُ يوسفَ لأبيهم يعقوبَ: مُقْسمين له لئن أكلَ يوسُفَ الذّئبُ في الصّحراء، ونحن جماعةٌ قويّةٌ كثيرةٌ جديرةٌ بأنْ تُعصبَ بنا الأمورُ العظامُ وتُكفى الخطوبُ بآرائِنا وتدبيراتِنا إنّا إذًا لهالكون[3]؛ لهالكون ضعفًا وخوَرًا وعجزًا، أو مستحقّون للهلاك؛ إذ لا غَناء عندَنا ولا جدوى في حياتنا، أو مستحِقّون لأنْ يُدعى علينا بالخَسار والدّمارِ[4].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

دَلالةُ الفصْل في قولِه: ﴿قَالُواْ لَئِنۡ﴾:

خوفُ الأبِ قابلَهُ جوابُ المُطَمْئِنِ الحريصِ

فَصَل البيانُ القرآنيُّ قولَه تعالى: ﴿قَالُواْ لَئِنۡ أَكَلَهُ ٱلذِّئۡبُ﴾ عمّا قبلَه: ﴿قَالَ إِنِّي لَيَحۡزُنُنِيٓ أَن تَذۡهَبُواْ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأۡكُلَهُ ٱلذِّئۡبُ وَأَنتُمۡ عَنۡهُ غَٰفِلُونَ﴾، ولم يأتِ بينَهما بعاطف؛ لِما بينهما من شبْهِ كمال اتّصالٍ؛ إذ وقع قولُه تعالى: ﴿قَالُواْ لَئِنۡ أَكَلَهُ ٱلذِّئۡبُ﴾ استئنافًا بيانيًّا، وكأنَّ سائلًا يسألُ: فماذا أجاب أبناءُ يعقوبَ، فأتى الجوابُ: ﴿قَالُواْ لَئِنۡ أَكَلَهُ ٱلذِّئۡبُ وَنَحۡنُ عُصۡبَةٌ﴾ أي قالوا: إنَّهم بقوَّتِهم وعصبتِهم وتكاتفِهم وأخوَّتِهم سيمنعون أخاهم منَ الذِّئب، فكانت الآيةُ كلامًا مستأنَفًا واردًا من إخوة يوسفَ لأبيهم عندما أخبرَهم أنَّه يحزنُه ذهابُ يوسفَ معهم ويخافُ عليه الذّئبَ[5].

(1) الثعلبي، الكشف والبيان: 5/201، والبغوي، معالم التنزيل: 2/479، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 9/141.

(2) رشيد رضا، تفسير المنار: 12/219.

(3) ابن جرير، جامع البيان: 15/573.

(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/258.

(5) البقاعي، نظم الدرر: 10/27.

السِّرُّ في اقتصارِهم في الجواب على الثَّاني دونَ الأوَّلِ:

في نفْيِ الخوفِ على يوسفَ منَ الذِّئب، نفيٌ للحُزنِ عليه من يعقوبَ

عبَّر يعقوبُ عن رفضِهِ إرسالَ يوسُفَ بأمرين اثنين: الحزنِ على فراقه، والخوفِ عليه منَ الذِّئب، فأجابَ أبناؤه عنِ الثّاني كي يلينَ قلبُ الأبِ لإرساله، مُؤكِّدين ذلك ليُطيِّبوا خاطرَه، ولأنَّ الخوفَ عليه منَ الذِّئب هو السَّببُ القويُّ في المنعِ دونَ الحزنِ؛ لقصرِ مدّته بناءً على أنَّهم يأتون به عن قريبٍ[1]. وجوابُ الأول - لو أجابوا - سيُبدي حقدَهم ومكرَهم؛ لأنَّهم سيعاتِبون أباهم ويلومونَه، كيف نذهبُ نحن ولا تحزنُ على فراقنا، وأنتَ لا تستطيعُ أنْ تصبرَ على بُعدِ أخينا يوسفَ عنك، وهذا سيدفعُ أباهم كي يمتنعَ أكثرَ ويزدادَ حرصًا على أخيهم الَّذي يريدون التّخلّصَ منه، أو لأنَّ حزنَه بالذَّهاب به إنَّما هو للخوفِ عليه، فنفيُ الثَّاني يدلُّ على نفي الأوَّل، أو لكراهتِهم لذلك لأنَّه سببُ حسدِهم له، فلذلك أعاروه أذنًا صمّاءَ[2]، أو لأنَّهم يعلمون أنَّهم سيُدْخِلون على أبيهم الحزنَ لا محالةَ؛ لأنَّهم خطّطوا ودبَّروا وبقي تنفيذُ المكيدةِ بيوسفَ والتَّخلّصُ منه.

دَلالة اللّامِ في ﴿لَئِنْ﴾، والتَّعبيرِ بالفعلِ الماضي ﴿أَكَلَهُ﴾:

تأكيدٌ وتطْمينٌ ليعقوبَ بأنَّ يوسفَ سيكونُ في أمانٍ وسلامٍ

اتَّجه العلماءُ في تفسير اللَّام اتِّجاهَين: **الأوَّلُ**: أنَّ ﴿لَئِنْ﴾ تفيدُ كونَ الشّرطِ مُستلزِمًا للجزاء، بمعنى: إنْ وقعتْ هذه الواقعةُ فنحن خاسرون، ومن ثَمَّ فإنَّ اللّامَ جاءت قبل (إنْ) لتفيدَ تأكيدَ هذا الاستلزام[3].

والثَّاني: اللَّامُ مُوَطّئةٌ للقسمِ المحذوفِ والمضمَرِ قبلَها، وتقديرُه: (واللّه لئن أكله الذِّئب لكنَّا خاسرين)[4]، وغرضُ لامِ القسم تأكيدُ الجواب، وهو ﴿إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ﴾[5].

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/258.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 8/454.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 18/426.
(4) الزمخشري، الكشاف: 2/449، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/258، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/232.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/232.

وعبَّر البيانُ الإلهيُّ عن فعلِ الشّرطِ بالماضي ﴿أَكَلَهُ﴾ بعد أداةِ الشّرط (إنْ) التي لا يكونُ التّعليقُ بها إلّا في مُبهم مشكوكٍ فيه[1]؛ للدّلالةِ على أنّ هذا الفعلَ لا يكونُ ماضيًا (لفظًا ومعنًى)، وإنّما يكونُ ماضيًا (لفظًا فقط) والمعنى هو المستقبلُ، ولكنَّ مجيءَ الفعل بصيغة الماضي واقعًا في جُملةٍ شرطيَّةٍ ابتدأتْ بـ ﴿لَئِنْ﴾ وتضمّنتْ لامَ القسم يُراد به كنايتهم عن عدمِ تفريطِهم فيه، وعن حفظِهم إيَّاه؛ لأنّ المرءَ لا يرضَى أنْ يوصفَ بالخسران[2]، والمعنى: أنَّ الخسارةَ واقعةٌ بهم لا محالةَ إذا أكل الذِّئبُ أخاهم.

وللمطابقة بين اللَّفظ والمعنى، فالخسارةُ لا تكونُ إلَّا إذا أكله الذِّئبُ، وهذا لا يكون إلَّا في المستقبل، فيصبحُ الأكلُ بالنِّسبة للخسارة منَ الماضي، يقول الدُّسوقيّ: "فلا يحتاجُ إلى التَّحويل لصيغة الماضي إلَّا لو كان الإخبارُ بذلك الفعلِ صادرًا ممَّنِ التَّخلفُ في إخباره؛ لأنَّه إذا كان كذلك يحتاجُ إلى التَّعبير بالماضي زيادةً في تأكيد تحقُّق الوقوع"[3].

فائدةُ قولِهم: ﴿وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ وإعرابُه:

يحتمل قولُه تعالى: ﴿وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ وجهَين منَ الإعراب:

الأوّل: حاليَّةٌ، لتعبِّر عن حالهم هذا؛ فبِهم تُعصَبُ الأمورُ وتُكفَى الخطوبُ[4]، وفائدةُ ذلك مزيدُ تأكيدٍ لأبيهم الحزين الخائفِ بأنَّهم سيمنعون أخاهم منَ الذّئب بقوَّتهم وكثرتهم، وكأنَّهم يذكِّرون أباهم بأنَّ ابنَك لن يكونَ وحدَه، بل سيكونُ معنا، وسنمنعُه ممَّا نمنعُ به أنفسَنا، وسنتكاتفُ في سبيل ذلك، فإنْ حصل غيرُ ذلك وأكلَه الذّئبُ فستكونُ خسارةٌ ما بعدَها خسارةٌ.

تأكيدُ حفظِهم لأخيهم يوسفَ وعدمِ التّفريطِ به بين الجُملةِ الحاليّةِ والاعتراضيّةِ

(1) ابن نور الدين، مصابيح المغاني في حروف المعاني، ص: 84.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/232.
(3) الدسوقي، حاشية الدسوقي على مختصر المعاني: 2/109.
(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 18/427.

الثاني: معترضةٌ بين القسَم وجوابِه[1]، فالأصلُ أنْ يقول: لئن أكله الذّئبُ إنّا إذًا لخاسرون، فجاءتْ ﴿وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ اعتراضيَّةً؛ لتعطيَ هذا المعنى المُهمَّ، الَّذي يحتاجُه الوالدُ لتسريَ الطُّمأنينةُ إلى قلبه، ويقبلَ بأنْ يرسلَ ولدَه معهم، ومن فوائدها أنّها يُؤتَى بها تأكيدًا وتسديدًا للكلام الذي اعترضتْ بين أجزائه، أي تأكيدُ حفظِهم وعدمِ تفريطِهم بيوسفَ.

بَلاغةُ قولِه في جواب الشّرطِ: ﴿إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ﴾:

تمثلّت البلاغةُ في قوله تعالى: ﴿إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ﴾ في عدّة أمورٍ:

أوّلاً: موقعُ الجملة الذي يحتملُ أن يكون جوابًا لـ (إن) الشّرطيّة وفعلِ الشّرط في قوله تعالى: ﴿لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ﴾، وقد تضمّنتِ الجملةُ الشّرطيّةُ لامَ الابتداء، وإذًا الجوابيّةَ: ﴿إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ﴾ بما يفيدُ تحقيقَ حصولِ خُسرانِهم على تحقيق حُصولِ الشّرط.

في تأكيدِ خُسرانِهم تطمينٌ لقلْبِ أبيهم وإقناعٌ له بإرسالِ يوسُفَ معهم

أو أنْ يكونَ جوابًا للقسَم الذي سدَّ مسدَّ جزاءِ الشّرط، وهذا ما اختاره الزّمخشريُّ[2]، وفي كلا الاحتمالَين تأكيدٌ لحمايتِهم يوسفَ عليه السلام، وتطمينٌ ليعقوبَ كي يرسلَ معهم يوسفَ.

ثانيًا: اشتمالُ الجملةِ على عدّة مؤكِّداتٍ، وهي: (إنّ) التي تفيدُ توكيدَ الخبر، وهو خسارتُهم إنْ أكلَ الذّئبُ يوسفَ، ومجيءُ ﴿إِنَّآ﴾ بصيغةِ الجمعِ؛ إذ خسارةُ الجمعِ أبعدُ من خسارة الواحدِ، وخاصّةً أنّهم عُصبةٌ، والتّوكيدُ بالجملةِ الاسميّةِ، التي تَدلُّ على الثّباتِ والقوّةِ، أي هي خسارةٌ ثابتةٌ ملازمةٌ لنا إنْ أكله الذّئبُ، وكذلك التّوكيدُ باللّام المُزحلقةِ، والتّوكيد باسْمِ الفاعلِ ﴿لَّخَٰسِرُونَ﴾ الذي يدلُّ على حدَثٍ ثابتٍ غيرِ محدَّدٍ بزمن، فيشملُ خسارةَ الماضي والحالِ والمستقبلِ، وخاصّةً أنّه أتى في سياقِ الجملةِ الاسميَّةِ.

(1) الهمذاني، الكتاب الفريد: 3/556.
(2) الزمخشري، الكشاف: 2/449.

فكلُّ هذه المؤكِّداتِ مجتمعةً تفيدُ مبالغتَهم في التّأكيدِ على عدمِ تفريطِهم بيوسفَ، حيث ربطوا استحقاقَهم للخسارة بأكل الذّئبِ ليوسفَ، والتّأكيدِ على حفظِهم له بما يُدخلُ الطّمأنينةَ في قلب أبيهم رجاءَ الموافقةِ على إرسالِه معهم.

ثالثًا: التَّعبيرُ بمُفردةِ ﴿لَّخَٰسِرُونَ﴾، التي تتّسمُ بتعدّدِ معانيها وسَعةِ دلالاتِها؛ فهي تدلُّ في أصلِ مادّتِها على النّقصِ[1]، وتدلُّ كذلك على عدمِ الرِّبح، وغيابِ النّفعِ، والوقوعِ في الضّلال والهلاك[2].

ولهذا أطنبَ المُفسّرون في تفسير معنى ﴿لَّخَٰسِرُونَ﴾ فذكروا من معانيها: هالكون ضعفًا وعجْزًا، أو أنْ يُدْعَى عليهم بالخسارة والدَّمارِ، أو أنْ يُحبطَ كلُّ ما قدّموه لأبيهم رجاءَ ثنائِه عليهم، أو مغبونون جاهلون بحقّه، أو عاجزون[3]، أو خائبون في اعتصابِنا، أو هالكون لا يصحُّ أنْ نُعدَّ منَ الأحياءِ الذين يُعتدُّ بهم، ويُركنُ إليهم[4]، أي: شملتْ خسارتُهم الخسارةَ المادِّيّةَ والمعنويّةَ.

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (خسر).
(2) ابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (خسر).
(3) الثعلبي، الكشف والبيان: 5/201، والبغوي، معالم التنزيل: 2/479، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 9/141.
(4) رشيد رضا، تفسير المنار: 12/219.

﴿فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِۦ وَأَجۡمَعُوٓاْ أَن يَجۡعَلُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلۡجُبِّۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمۡرِهِمۡ هَٰذَا وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ١٥﴾ [يوسف: 15]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لا يَدَعُ الله مظلومًا حتى ينصرَهُ، ولا مفجوعًا حتى يسلِّي قلبه ويطمئنه

لَمَّا قَصَّ اللّٰه سبحانه تحقيق الإخْوَة للشقِّ الأوَّل من مؤامرتهم - بتدليسهم على أبيهم وتحايلهم عليه ليصطحبوا يوسف عليه السلام معهم - ذكر هنا تحقيقهم للشقِّ الأصيل في المؤامرة؛ حيث اتفقوا جميعًا على التخلّص منه بإلقائه في قعر البئر؛ متجرّدين بذلك من معاني الإخوة كلِّها، ثمّ بيّن سبحانه لطفه ورحمته بعبده يوسف؛ حيث كشف له عن بعض الغيب؛ ليريح صدرَه، ويُثَبِّتَ فؤادَه[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَأَجۡمَعُوٓاْ﴾: الجمع: ضدُّ التَّفريق، وهو ضمُّ شيء بتقريب بعضه من بعض[2]. وأصله يدلُّ على تضامٍّ في الشَّيء[3]. وجَمَع أمرَه، وأَجْمَعه، وأَجْمَع عليه: أعدَّ للأمر وعزم عليه كأنَّه جَمَعَ نفسه له[4].

"و(أَجْمَعَ) أكثر ما يقال في المعاني، و(جَمَعَ) في المعاني والأعيان؛ فيقال: جمعتُ أمري، وجمعتُ قومي" ويُقال: أجمعتُ أمري، ولا يُقالُ أجمعتُ قومي[5]. "وأجمعتُ كذا أكثر ما يُقال فيما يكون جمعًا يُتَوَصَّل إليه بالفكرة"[6].

---

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 18/427، وأبو حيَّان، البحر المحيط: 6/247، والبقاعي، نظم الدّرر: 10/28، والآلوسي، روح المعاني: 6/388 التحرير والتنوير: 12/233، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 7/309.

(2) الأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح، والراغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحفاظ، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (جمع).

(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (جمع).

(4) الأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح، والسّمين الحلبي، عمدة الحفاظ، وابن منظور، لسان العرب، والزّبيدي، تاج العروس: (جمع).

(5) السمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (جمع).

(6) الراغب، المفردات: (جمع).

2) ﴿وَأَوْحَيْنَآ﴾: الوَحْي: الإشارة، والكتابة، والإلهام، والكلام الخفي، وكلُّ ما تُلقيه إلى غيرك[1]. وأصله من إلقاء العِلْم في خفاء وسرعة[2]. والفاشي في القرآن أن يأتي من الفعل الرُّباعي أوحَى يُوحِي، وفي غير القرآن وَحَيتُ أَحِي[3].

ويقال للكلمة الإلهيَّة التي تُلقى إلى أنبيائه وأوليائه - وَحْيٌ، ولذلك أَضْرُبٌ حسبما دلَّ عليه قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ﴾ [الشورى: 51] فإمَّا برسولٍ مشاهَدٍ يُرى ويُسمَع؛ كتبليغ جبريل عليه السلام للنَّبي ﷺ في صورة معينة، وإما بسماع كلام من مُعَايَنةٍ كسماع موسى عليه السلام كلامَ الله، وإما بإلقاءٍ في الرُّوع، كما ذَكر ﷺ: «إنَّ روح القدس نفث في رُوعي...»[4]. وإما بإلهام، نحو: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ [القصص: 7]. وإما بتسخيرٍ نحو قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ﴾ [النحل: 68]. أو بالمنام، كقوله ﷺ: «لم يبقَ من النُّبوة إلَّا المُبَشِّرات، الرؤيا الصَّالحة»[5]. وفي قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ بمعنى الإلهام[6].

3) ﴿يَشْعُرُونَ﴾: شَعَر به يَشعُر شِعْرًا وشَعَرًا وشُعُورًا: عَلِم به وفطِن له[7]. وأصله من العِلم والعَلَم[8]. ومنه الشِّعار أيضًا، وهو الذي يتنادى به القوم في الحرب ليعرف بعضهم بعضًا[9].

و"شعرت كذا، أي: علمت علمًا في الدِّقة كإصابة الشَّعَر، وسُمِّي الشَّاعر شاعرًا لفطنته ودقَّة معرفته، فالشِّعر في الأصل اسم للعِلْم الدَّقيق"[10].

---

(1) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (وحي).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (وحي).
(3) الأزهري، تهذيب اللغة: (وحي).
(4) البيهقي، شعب الإيمان، حديث رقم: (9891).
(5) الراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (وحي). والحديث: أخرجه البخاري، رقم: (6990).
(6) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 9/142، والآلوسي، روح المعاني: 6/389.
(7) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (شعر).
(8) ابن فارس، مقاييس اللغة: (شعر).
(9) الأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (شعر).
(10) الراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (شعر).

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

في خضمِّ الآلام تأتي نسائم السَّكينة والسَّلام

يكشف البيان القرآنيُّ ما دار بين إخوة يوسف، وما أخفته ضمائرهم نحوه، فإنّهم لمَّا مضوا به بعيدًا عن أبيه وأجمعوا رأيَهم وعزمهم على إلقائه في قعر البئر، فأنْفَذوا ما عزموا عليه، أوحى اللّه إلى يوسف؛ تطييبًا لقلبه وتثبيتًا له لتخبرنَّهم مستقبلًا بفعلهم هذا الَّذي فعلوه بك، من حيث لا يعلمون بوحي اللّه تعالى لك[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالة الفاء في: ﴿فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِۦ﴾:

أجاب الأب طلب أبنائه؛ فخرجوا في صحبة أخيهم

الفاء في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا﴾ للتَّفريع على كلام مقدَّر[2]، فهي عاطفة، والمعطوف عليه محذوف، يُفهم من سياق القصة، وتقديره: فأجابهم إلى ما سألوه، فأرسله معهم[3]، وفائدتها ترتيب ما بعدها على ما قبلها، أيْ: ترتيب أَخْذِهِ بعد إقناع الأب أن يأخذوه[4].

فقوله: ﴿فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِۦ﴾ تفريعٌ لحكاية الذَّهاب به والعزم على إلقائه في الجبِّ، على حكاية المحاورة بين يعقوب عليه السلام وبنيه، في محاولة الخروج بيوسف عليه السلام إلى البادية. ويُؤْذِنُ هذا بجُملٍ محذوفة فيها ذِكر أنَّهم ألَحُّوا على يعقوب عليه السلام حتى أقنعوه، فأَذِنَ ليوسف بالخروج معهم؛ ففيه إيجاز بالحذف. والمعنى: فلما أجابهم يعقوب عليه السلام إلى ما طلبوا وأرسل معهم يوسف؛ ذهبوا به[5].

توجيه (لَمَّا) التابعة للفاء، ودلالتها:

حين غادر الأبناء مكان أبيهم شرعوا في إيذاء أخيهم

(لَمَّا) شرطيَّة حينيَّة، وهي حرف وجود لوجود، يطلب الشَّرط

(1) ابن جرير، جامع البيان: 13/29، والهرري، الحدائق: 13/332.
(2) طنطاوي، الوسيط: 7/328.
(3) أبو حيان، البحر المحيط: 6/247، ودرويش، إعراب القرآن وبيانه: 4/461.
(4) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 7/3809.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/233.

والجواب[1]، وجوابها هنا مُخْتَلَفٌ فيه: فقيل: جوابها محذوف[2]؛ إيذانًا بظهوره وإشعارًا بأنَّ تفصيله ممَّا لا يحويه فَلَكُ العبارة[3]، وللدِّلالة على فجاعة الأمر وفظاعته وفداحته؛ فما حدث لا تشرحه العبارة، ولا تكفي فيه الإشارة[4]. وقد دلَّ عليه قوله: ﴿أَن يَجۡعَلُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلۡجُبِّۚ﴾[5].

وقيل: جواب ﴿فَلَمَّا﴾ هو قولهم: ﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبۡنَا نَسۡتَبِقُ﴾[6]؛ أي: لمَّا كان كيت وكيت؛ قالوا. وهو تخريج حسن[7].

وقيل: هو قوله تعالى ﴿وَأَجۡمَعُوٓاْ﴾ باعتبار زيادة الواو للتَّوكيد. والمعنى: فلمَّا ذهبوا به أجمعوا[8].

وقيل: هو قوله تعالى: ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِ﴾ باعتبار زيادة الواو أيضًا كما زيدت في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَسۡلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ ١٠٣ وَنَٰدَيۡنَٰهُ﴾ أي: ناديناه، وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتۡ﴾ [الزمر: 73] أي: فُتِحَتۡ. وهذا مذهب الكوفيِّين[9].

وفي هذا دلالة على أنَّ أمر الوحي إلى يوسف كان في صغره، أي: بعد أن ذهبوا به بعيدًا عن أبيه وبعد أن اجتمعوا على إيذائه.

إيثار لفظ الذّهاب، وفائدة تعدّيه بالباء:

الفرق بين المضيِّ والذَّهاب أنَّ المضيَّ خلاف الاستقبال، ولذا يقال ماضٍ ومستقبل، وليس كذلك الذَّهاب[10]؛ لأنَّ في الذَّهاب انتقالًا من مكانٍ إلى آخر.

ترك الأبناء مكان أبيهم عليه السلام مصاحبين ولده

(1) ابن عجيبة، البحر المديد: 2/579.
(2) ابن عجيبة، البحر المديد: 2/579.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/258.
(4) الشوابكة، غرر البيان، ص: 35.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/233.
(6) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 9/142.
(7) أبو حيان، البحر المحيط: 6/248.
(8) ابن جرير، جامع البيان: 13/30.
(9) أبو حيان، البحر المحيط: 6/248.
(10) أبو هلال العسكري، الفروق اللغوية، ص: 306.

و(الباء) في قوله ﴿فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِۦ﴾ بمعنى الإلصاق؛ فـ ﴿ذَهَبُواْ بِهِۦ﴾ ؛ أي: ملصقين ذهابهم به[1]؛ وفي الإلصاق إشارة إلى الإكرام والحفاوة التي أبدَوها في أوَّل أمرهم؛ إذ كانوا تحت عين أبيهم عليه السلام، حيث جعلوا يحملون يوسف عليه السلام على عواتقهم إكرامًا له، وسرورًا به، فلمَّا أبعدوا به عن العيون ألقَوه في الجبّ غير عابئين به[2].

فهناك فرقٌ بين تعدية الفعل بالهمزة وتعديته بالباء؛ فإنك إذا قلت: (ذهبت بزيد)؛ كنت مصاحبًا له في الذهاب[3].

ويقول الزمخشري رحمه الله: الفرق بين أذهبه وذهب به، أن معنى أذهبه: أزاله وجعله ذاهبًا، ويقال: ذهب به إذا استصحبه ومضى به معه. وذهب السلطان بماله: أخذه؛ فقوله: ﴿فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِۦ﴾ معناه: أمسَكوه وأخذوه ومضَوا به معهم؛ فهو أبلغ من الإذهاب[4].

عطف جملة ﴿وَأَجۡمَعُوٓاْ﴾ على ما قبلها:

الواو في قوله ﴿وَأَجۡمَعُوٓاْ﴾ عاطفة، فقوله ﴿وَأَجۡمَعُوٓاْ﴾ عطفٌ على ﴿ذَهَبُواْ﴾. وقد تكون الواو للحال، والجملة حاليَّة بتقدير: (قد)[5].

تدبير الله لعبده سابق لكيد الكائدين به

ويمكن حصر معاني الواو في قوله ﴿وَأَجۡمَعُوٓاْ﴾ حسب توجيه جواب (لمَّا) الحينية، لاستكناه معنى العطف في الآية الكريمة كما يلي:

أولًا: أن يكون جواب (لمَّا) محذوفًا يدلُّ عليه قوله ﴿أَن يَجۡعَلُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلۡجُبِّۚ﴾؛ فالواو هنا تعطف إجماعهم على ذهابهم بأخيهم[6].

ثانيًا: أن يكون جواب (لمَّا) مذكورًا، ويكون قوله تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبۡنَا نَسۡتَبِقُ﴾؛ أي: لمَّا كان كيت وكيت؛ قالوا[7]. فتكون

(1) البقاعي، نظم الدرر: 10/28.
(2) العليمي، فتح الرحمن: 3/401.
(3) السامرائي، معاني النحو: 3/20.
(4) الزمخشري، الكشاف: 1/74.
(5) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 4/461.
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/233.
(7) أبو حيان، البحر المحيط: 6/248.

الواوات في قوله: ﴿وَأَجۡمَعُوٓاْ﴾، ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ﴾، ﴿وَجَآءُوٓ﴾ للعطف: عطف إجماعهم على إيذائه على ذهابهم به، ثم عطف الوحي إليه على إجماعهم، ثم عطف مجيئهم إلى أبيهم على وحي الله إليه. وبهذا العطف المتتالي يتجلَّى اتِّصال هذه الأحداث بعضها ببعض، ويتبيَّن ترابطها كارتباط الأسباب بمسبَّباتها.

أو يكون قوله ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِ﴾ باعتبار زيادة الواو[1]. فتكون الواو عاطفة لاجتماع كلمتهم على إيذائه على ذهابهم به. ويعني هذا أيضًا أنَّ وحي الله إلى يوسف كان بعد أن ذهب به إخوته وأجمعوا على إيذائه.

سرّ تعدية الفعل ﴿وَأَجۡمَعُوٓاْ﴾ بنفسه:

حين انقطعت عن يوسف عليه السلام مراعاة أبيه

قال الكسائي: يقال أَجْمَعْتُ الأمرَ وعلى الأمرِ، إذا عزمتَ عليه[2]. وجمع أمره وأجمعه وأجمع عليه: عزم عليه كأنَّه جمع نفسه له[3].

و﴿وَأَجۡمَعُوٓاْ﴾ هنا؛ أي: عزموا واتَّفقوا على إلقائه في الجبِّ[4] فآثر تعدية الفعل بنفسه، فقد عزموا جميعًا على أمرٍ واحد وكأنَّهم رجلٌ واحد جمع نفسه له رغم تعدُّد آرائهم أوَّلَ الأمر؛ فقول الحقِّ: ﴿وَأَجۡمَعُوٓاْ أَن يَجۡعَلُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلۡجُبِّۚ﴾ يدلُّنا على أنَّ تلك المسألة أخذت منهم مناقشة، فيها أخذ وردٌّ، إلى أن استقرُّوا عليها[5].

ويدلُّ التعبير بـ ﴿وَأَجۡمَعُوٓاْ﴾ على أنَّهم كانوا لا يزالون مختلفين في أمره حتى تلك اللَّحظة التي ألقوه فيها في غيابة الجبِّ[6].

هذا.. وفي قوله: ﴿وَأَجۡمَعُوٓاْ أَن يَجۡعَلُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلۡجُبِّۚ﴾ تعظيمٌ لمَا

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 6/248.
(2) الجوهري، الصحاح: (جمع).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (جمع).
(4) أبو حيان، البحر المحيط: 6/247.
(5) الشّعراوي، تفسير الشعراوي: 11/6879.
(6) الهلال، الثري الجامع: 5/321.

فعلوه من جرم؛ فإنَّهم اتَّفقوا كلُّهم على إلقائه في أسفل ذلك الجبِّ، وقد أخذوه من عند أبيه فيما يظهرونه له إكرامًا له، وبسطًا وشرحًا لصدره، وإدخالًا للسُّرور عليه[1].

إيثار التَّعبير بالمصدر المؤول ﴿أَن يَجۡعَلُوهُ﴾:

دلالة على تعمُّد الحدث في المستقبل، واستحضارهم مشهد الظُّلم ورضاهم به

المصدر المؤوَّل ﴿أَن يَجۡعَلُوهُ﴾ في محلِّ جرٍّ بحرف محذوف؛ أي: على أن يجعلوه، هذا الحرف متعلِّق بالفعل ﴿وَأَجۡمَعُوٓاْ﴾ بتضمينه معنى (عزموا)[2].

والتَّعبير بالمصدر المؤول ﴿أَن يَجۡعَلُوهُ﴾ من ﴿أَن﴾ المصدرية والمضارع ﴿يَجۡعَلُوهُ﴾ فيه دلالة على تعمّدهم الحدث في زمن مستقبل لإجماعهم، وفيه استحضار لمشهد الظُّلم الذي وقع على يوسف ﷺ وكأنَّ إخوته كلَّما وجدوا سبيلًا لخروجه من البئر؛ قطعوه وأغلقوه عليه.

سرّ استعمال الفعل ﴿يَجۡعَلُوهُ﴾:

قطعوا عنه أسباب النجاة وأنَّى يضيع من كان في معية الله

الجعل: إيجاد ما به يصير الشَّيء على خلاف ما كان عليه، ونظيره التَّصيير والعمل[3]. ولا شكَّ أنَّ فعلهم في يوسف ﷺ صيَّره داخل الجبِّ؛ فقد قطعوا عنه أسباب الخروج كلَّها.

وكأنَّهم أرادوا أن يبقى معزولًا إلى الأبد. فعبِّر عن الجعل دون الإلقاء الذي قد يعقبه انتشال وإنقاذ، بخلاف الجعل الذي يتضمَّن التصيير على التَّأبيد.

والجعل يجوز أن يكون بمعنى: الإلقاء، وأن يكون بمعنى التَّصيير، فعلى الأوَّل يتعلَّق ﴿فِي غَيَٰبَتِ﴾ بنفس الفعل قبله، وعلى الثَّاني بمحذوف[4].

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/374.
(2) محمود صافي، الجدول: 6/393.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 10/28.
(4) السمين، الدر المصون: 6/454.

نكتة التعبير بالضمير الغائب:

عبِّر عن يوسف ﷺ بالضَّمير الغائب في ﴿بِهِۦ﴾، و﴿يَجۡعَلُوهُ﴾، و﴿إِلَيۡهِ﴾، دون الاسم الظاهر (يوسف)؛ فإهمال ذِكره إشارة إلى إهمال إخوته أمره، والتَّعبير بالضَّمير جاء مناسبًا تمام المناسبة لإهمالهم شأنه بعد أن ذهبوا من أمام عين أبيهم؛ فلمَّا اختفَوا عن أبيهم أهملوا يوسف وتركوه على الأرض.

إذا تملَّك الحقد من القلب طوى الفضيلة وأعمى البصيرة

دلالة الحرف ﴿فِي﴾:

التعبير بالحرف ﴿فِي﴾ الدالِّ على الظرفيَّة في قوله تعالى: ﴿أَن يَجۡعَلُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلۡجُبِّۚ﴾؛ فيه إشارة إلى أنَّ يوسف ﷺ أدخل البئر في عمقها، ولم يكن له مخرج ينجيه من وحشتها وظلمتها، بحيث أحاطت به من كلِّ جهة فكانت كالظَّرف الذي يحوي ما فيه.

دلالة حذف جواب (لَمَّا):

جواب (لمَّا) محذوف يدلُّ عليه قوله تعالى: ﴿أَن يَجۡعَلُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلۡجُبِّۚ﴾[1]. وفي الجملة إيجاز خاصٌّ بالقرآن. أي: تقليل في اللفظ لظهور المعنى؛ فالمعنى: أجابهم يعقوب ﷺ إلى ما طلبوا وأرسل معهم يوسف.

كم في الحذف من تعبير وتهويل

فحذف الجواب[2]. والتَّقدير: فلمَّا ذهبوا به من عند أبيهم وأجمعوا أن يجعلوه في غيابة الجبِّ جعلوه فيها[3].

دلالة الواو في: ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ﴾، وأثرها في المعنى:

الواو في قوله تعالى: ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ﴾ عاطفة، وهذا يعني أنَّ الإيحاء إلى يوسف ﷺ كان في الجبِّ وله سبع عشرة سنة أو دونها تطمينًا لقلبه، ولم يكن هذا الإيحاء إيحاءَ نبوَّةٍ[4].

لله هذه البشارة في هذا الوقت العصيب! ما أبردها على قلب يوسف! وما أحوجه إليها!

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/233.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/233.
(3) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 9/142.
(4) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 4/461.

فجملة ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِ﴾ إما معطوفة على جملة ﴿وَأَجۡمَعُوٓاْ أَن يَجۡعَلُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلۡجُبِّۚ﴾؛ لأنَّ هذا الموحى من مهم عِبَرِ القصة. وإمَّا هي جواب (لما) وقد قيل بمثل ذلك في قول امرئ القيس:

فَلَمَّا أَجَزْنَا سَاحَةَ الحَيِّ وانْتَحَى *** بِنا بَطْنُ خَبْتٍ ذِي قِفافٍ عَقَنْقَلِ[1]

وقوله: ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِ﴾ له معنيان: **أحدهما**: أنَّ المراد منه الوحي والنبوَّة والرِّسالة وهذا قول طائفة عظيمة من المحقِّقين، ثم القائلون بهذا القول اختلفوا في أنَّه عليه السلام هل كان في ذلك الوقت بالغًا أو كان صبيًّا؛ قال بعضهم: إنَّه كان في ذلك الوقت بالغًا وكان سنُّه سبع عشرة سنة، وقال آخرون: إنَّه كان صغيرًا إلا أنَّ اللّٰه تعالى أكمل عقله وجعله صالحًا لقبول الوحي والنبوة[2]، كما أوحى إلى يحيى وعيسى عليهما السلام؛ أوحي إليه ليؤنَس في الظُّلمة والوحشة، ويبشَّر بما يؤول إليه أمره. ومعناه: لتتخلَّصنَّ ممَّا أنت فيه، ولتحدِّثنَّ إخوتك بما فعلوا بك وهم لا يشعرون أنَّك يوسف لعلوِّ شأنك وكبرياء سلطانك، وبُعد حالك عن أوهامهم، ولطول العهد المبدِّل للهيئات والأشكال[3].

والآخر: أنَّ المراد من هذا الوحي الإلهام كما في قوله تعالى: ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ﴾ [القصص: 7] وقوله: ﴿وَأَوۡحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحۡلِ﴾ [النحل: 68]. وأمَّا إتيان جبريل عليه السلام فكان بعد هذا[4].

والأوَّل أظهر؛ لأنَّ الظَّاهر من الوحي ذلك. ولا يمتنع أن يشرِّفه اللّٰه تعالى بالوحي والتنزيل ويأمره بتبليغ الرِّسالة بعد أوقات، ويكون فائدة تقديم الوحي تأنيسه وتسكين نفسه وإزالة الغمِّ والوحشة عن قلبه[5].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/233.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 18/428.
(3) الزمخشري، الكشاف: 2/450.
(4) السمعاني، تفسير القرآن: 3/14.
(5) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 18/428.

عود الضمير في ﴿إِلَيۡهِ﴾، وأثره في المعنى:

حصل له الوحي من قبل مولاه

الضَّمير في قوله: ﴿إِلَيۡهِ﴾ عائد إلى يوسف عليه السلام في قول أكثر المفسرين مقتصرين عليه[1]. وفيه دليل على نبوَّة يوسف عليه السلام في ذلك الوقت، وبهذا يكون الوحي تقويةً لقلبه، وتبشيرًا له بالسَّلامة[2]. وكأنَّه قيل له: إنَّك لا تحزن ممَّا أنت فيه، فإنَّ لك من ذلك فرجًا ومخرجًا حسنًا، وسينصرك الله عليهم، ويُعليك ويرفع درجتك، وستخبرهم بما فعلوا معك من هذا الصَّنيع[3].

وقيل إنَّ الضَّمير عائد إلى يعقوب عليه السلام[4]. والمعنى: أوحى الله تعالى إلى يعقوب عليه السلام ما فعلوه بيوسف، وأنَّه سيعرِّفهم بأمره، وهم لا يشعرون بما أوحى الله إليه[5].

والأظهر أنَّه عائد على يوسف، ويدلُّ على ذلك قوله لهم: ﴿هَلۡ عَلِمۡتُم مَّا فَعَلۡتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذۡ أَنتُمۡ جَٰهِلُونَ ٨٩﴾[6] [يوسف: 89].

دلالة اللام في: ﴿لَتُنَبِّئَنَّهُم﴾، وإيثار التعبير بالإنباء:

اللام موطِّئة للقسم، والإنباء خبر عظيم صادق

قوله تعالى: ﴿لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمۡرِهِمۡ هَٰذَا﴾؛ أي: وعزَّتي وجلالي لتخبرنَّ يا يوسف إخوتَك بصنيعهم هذا الذي فعلوه بك، بعد خلوصك ممَّا أرادوه بك من الكيد، وأنزلوه عليك من الضَّرر[7]، ولتحدِّثنَّهم بما فعلوا بك[8].

وجملة ﴿لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمۡرِهِمۡ هَٰذَا﴾ بيانٌ لجملة أوحينا، وأكدت باللام (لام القسم) ونون التوكيد؛ لتحقيق مضمونها سواءٌ كان المراد منها الإخبار عن المستقبل أو الأمر في الحال.

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/234.
(2) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 9/142.
(3) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/374.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/234.
(5) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 9/142.
(6) أبو حيَّان، البحر المحيط: 6/248.
(7) الهرري، حدائق الروح والريحان: 13/333.
(8) النسفي، مدارك التنزيل: 2/99.

فعلى الأوَّل فهذا الوحي يحتمل أن يكون إلهامًا ألقاه اللّه في نفس يوسف عليه السلام حين كيدهم له.

ويَحْتَمِلُ أنَّه وحيٌ بواسطة المَلَك فيكون إرهاصًا ليوسف عليه السلام قبل النبوَّة رحمة من اللّه؛ ليزيل عنه كربه، فأعلمه بما يدلُّ على أنَّ اللّه سيُخلِّصه من هذه المصيبة وتكون له العاقبة على الذين كادوا له. وإيذانٌ بأنه سيؤانسه في وحشة الجبِّ بالوحي والبشارة، وبأنَّه سينبِّئ في المستقبل إخوته بما فعلوه معه، كما تُؤْذِنُ به نون التوكيد إذا اقترنت بالجملة الخبرية، وذلك يستلزم نجاته وتمكُّنه من إخوته؛ لأنَّ الإنباء بذلك لا يكون إلا في حال تمكُّنٍ منهم وأَمْنٍ من شرِّهم[1].

نكتة وصف الأمر باسم الإشارة في: ﴿بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا﴾:

المراد بـ ﴿بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا﴾: إيذاؤهم له وإلقاؤهم إيَّاه في قعر الجبِّ، وقد أشار إليه ولم يُصرَّح به لشدَّة شناعته[2].

اللّه قريب من يوسف عليه السلام ومطَّلع على ما يفعله إخوته

وفي الإشارة إلى (الأمر) باسم الإشارة للقريب ﴿هَٰذَا﴾؛ دلالة على أنَّ اللّه قريب مطَّلع يرى ما يقترفونه من إيذاء يوسف، وهذا طمأنة لقلب يوسف في هذه السنّ الصغيرة بأنّ اللّه معه يسمع ويرى ما يكيدون به، وأنه لن يترك هذه الجريمة بغير حساب.

إعراب جملة ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾، ودلالتها:

علوُّ شأنه عليه السلام حال دون شعور إخوته بأنَّه يوسف

جملة ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾: حال من قوله: ﴿لَتُنَبِّئَنَّهُم﴾؛ والمعنى: غير عالمين أنَّك يوسف وقت التَّنبئة[3]. أي: لتخبرنَّهم بما فعلوا بك وهم لا يشعرون أنَّك أخوهم، بل في حالة يحسبونه مُطّلِعًا على المغيَّبات متكهِّنًا بها، وذلك إخبارٌ بما وقع بعد سنين ممَّا حكي في

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/234.
(2) طنطاوي، التفسير الوسيط: 7/328.
(3) أبو حيَّان، البحر المحيط: 6/248.

هذه السورة بقوله تعالى: ﴿قَالَ هَلۡ عَلِمۡتُم مَّا فَعَلۡتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ [يوسف: 89- 90] الآيتين[1].

ويجوز أن يكون ﴿وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ حالًا من قوله: ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ﴾؛ أي: وهم لا يشعرون؛ أي: بإيحائنا إليك وما أخبرناك به من نجاتك وطول عمرك، إلى أن تنبِّئهم بما فعلوا بك[2]. والفائدة في استتار الوحي عنهم أنَّهم لو وقفوا على الوحي وعلموا أنَّ مدَّة يوسف تطول، وأنَّ أمره يقوى جاز أن يسبق إلى قلب بعضهم من الحسد ما لعلَّه أن يقدم على إيقاع بليَّة بيوسف في وقت إخباره إيَّاهم بصنيعهم، فإنَّ اللّه تعالى ألزم يوسف ألَّا يُطلع أباه ولا أحدًا من إخوته على نسبه وموضعه، ليوبِّخهم على ما سلف من عقوقهم، ويعد عليهم ما فرط من إساءتهم، فهم لا يعرفون عنه، ولا يعرفون أنَّه أخوهم[3].

وعلى احتمال عود ضمير إليه على يعقوب عليه السلام فالوحي هو إلقاء اللّه إليه ذلك بواسطة الملك، والواو أظهر في العطف حينئذ فهو معطوف على جملة ﴿فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِۦ﴾ إلى آخرها ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِ﴾ قبل ذلك. و﴿لَتُنَبِّئَنَّهُم﴾: أَمْرٌ، أي: أوحينا إليه نَبِّئْهُم بأمرهم هذا، أي: أَشْعِرْهم بما كادوا ليوسف عليه السلام، إشعارًا بالتَّعريض، وذلك في قوله: ﴿وَأَخَافُ أَن يَأۡكُلَهُ ٱلذِّئۡبُ وَأَنتُمۡ عَنۡهُ غَٰفِلُونَ ١٣﴾ [يوسف: 13]. وجملة ﴿وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ على هذا التقدير حال من ضمير جمع الغائبين، أي وهم لا يشعرون أنَّنا أوحينا إليه بذلك[4].

إيثار التعبير بالشعور في: ﴿وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾:

معنى الشعور هنا هو الإدراك بالحواسّ. وقوله تعالى: ﴿وَهُمۡ

باطل الغافلين يفضحهم، ويخزيهم

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/234 - 235.
(2) أبو حيَّان، البحر المحيط: 6/248.
(3) الواحدي، التفسير البسيط: 12/42.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/234 - 235.

﴿لَا يَشْعُرُونَ﴾ معناه: لا يدركونه بالحواسّ[1]. وآثر استخدام ﴿يَشْعُرُونَ﴾ وليس (يعلمون)؛ لأنَّ العلم إدراك الشيء بحقيقته[2]. وبالنسبة لإخوة يوسف لم ينتابهم شعور بقرابته ولم يستطيعوا معرفته ولو بالحواسّ؛ لذا نفى الله تعالى عنهم الشعور ولم يقل (لا يعلمون)؛ لأنَّ نفي العلم لا ينفي الشّعور. أما نفي الشّعور فينفي العلم أيضًا[3].

ولو قال في كثير ممّا جاءَ فيه ﴿لَا يَشْعُرُونَ﴾: لا يعقلون؛ لم يكن يجوز؛ إذ كان كثيرا ممّا لا يكون محسوسًا قد يكون معقولاً[4]. وهذا دليل على التباين العظيم بين حالَي يوسف عليه السلام؛ فالمتحكِّم في توزيع الميرة والطعام الذي يأتيه النّاس من كل فجٍّ عميق هو هو الفتى الذي ألقوه في البئر بعد ضربه وإهماله.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الإيحاء والإعلام:

الإيحاء فيه إخفاء، والإعلام أعمُّ منه

أصل الوحي في اللغة: الإعلام في خَفاء، ولذلك صار الإلهام وحيًا، ويتضمَّن الوحي معنى السرعة[5]. أمّا الإعلام فاختصّ بما كان بإخبار سريع، ولكن لا يُشترط فيه أن يكون في خفاء[6]. ولمّا كانت حال إخوة يوسف أنّهم لا يشعرون بما أَلهمه الله وأَعلمَه إياه[7]، أوثِر لفظ الإيحاء دون الإعلام؛ لأنَّ الإيحاء يتضمَّن معنى الإخفاء.

(1) الراغب، المفردات: (شعر).
(2) الراغب، المفردات: (شعر).
(3) السامرائي، لمسات بيانية: 6/62.
(4) الفيروزابادي، البصائر: (شعر).
(5) ابن فارس، المقاييس، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، والسّمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (وحي).
(6) الراغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (علم)، والكفوي، الكلّيّات، ص: 148.
(7) ابن جرير، جامع البيان: 15/585، 576، والبغوي، معالم التنزيل: 4/221.

الشعور والعِلم:

الشعور أخصُّ من العِلم

العلمُ: هو إدراك الشيء على حقيقته[1]، وقد يكون هذا الشيء واضحًا جليًّا، وقد يكون دقيقًا، وقد يُدرَك من وجه واضحٍ أو دقيق.

أمّا الشُّعور فهو أخصُّ من العِلم؛ لأنَّه ابتداء العلم بالشيء من جهة المشاعر وهي الحواسّ، أو هو إدراك ما دقَّ للطف الحسّ، أو هو عِلمٌ يوصَل إليه من وجه دقيق، وهو مأخوذ من الشعر لدقّته. ومنه الشاعر؛ لأنه يفطن من إقامة الوزن وحسن النظر ودقيق المعاني لما لا يفطن له غيره. وذمُّ إنسانٍ بأنَّه لا يشعر أشدُّ مبالغةً من ذمِّه بأنَّه لا يعلم؛ لأنَّ الإنسانَ إذا قال في آخر: لا يشعر، فكأنَّه نفَى عنه الحسّ والإدراك معًا لا الإدراك فقط، وهو كقوله: لا يحسّ[2].

(1) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (علم).

(2) العسكري، معجم الفروق اللغوية، ص: 372، 373.

﴿وَجَآءُوٓ أَبَاهُمۡ عِشَآءٗ يَبۡكُونَ ١٦ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبۡنَا نَسۡتَبِقُ وَتَرَكۡنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئۡبُۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤۡمِنٖ لَّنَا وَلَوۡ كُنَّا صَٰدِقِينَ ١٧﴾ [يوسف: 16 - 17]

مُناسَبَةُ الآيَتينِ لما قَبْلَهُما:

من أجاد المكر وصنع الحيل؛ أجاد المراوغة بشتَّى السُّبل

لمّا أخلفوا أباهم ما وعدوه توجّب عليهم الاعتذار؛ فعادوا إليه وقت امتزاج اللّيل بالنّهار؛ ليخفوا عنه ما تقوله القسمات وما تنطق به الأنظار، وليكون أمشى لما يظهرونه من اللّوعة والانكسار، ولكيّ يسلموا من إلقاء الملام وتوجيه الاتّهام؛ تذرّعوا بالانشغال بما درجوا عليه من التَّسابق ورمي السِّهام[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿عِشَآءٗ﴾: العَشِيُّ والعَشِيَّة: آخر النَّهار[2]. ومعناه المحوريُّ: غِشاء من ظلمة يغشى الأُفُق، ويحجب الرُّؤية[3]. والعِشَاء: أول ظلام اللَّيل، وكذلك من صلاة المغرب إلى العَتَمة[4].

ومن ذلك قول اللّه تعالى: ﴿وَجَآءُوٓ أَبَاهُمۡ عِشَآءٗ يَبۡكُونَ﴾؛ أي: جاؤوا آخر النَّهار، أول اللَّيل، وقت غيبوبة الشَّفق الباقي من بقايا شعاع الشَّمس وقت غروبها[5].

2) ﴿نَسۡتَبِقُ﴾: السَّبق: التَّقدُّم في الجري وفي كلِّ شيء، يقال: سَبَقَه يَسْبِقه سَبْقًا، أي: تقدَّمه[6]. ومعناه المحوريّ يدور حول تقدُّم

(1) الخازن، لباب التأويل: 2/517، والبقاعي، نظم الدرر: 10/29، والزحيلي، التفسير المنير: 12/224،
(2) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (عشا).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (عشا).
(4) الراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (عشا).
(5) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 9/144، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 3/158، والآلوسي، روح المعاني: 6/390، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/236.
(6) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح، وابن منظور، اللسان: (سبق).

الشَّيء على غيره من بين مَنْ حوله[1]. ويقال: لفلان سابقة في هذا الأمر: إذا سبق الناسَ إليه[2].

والاستباق: التَّسابق. ومنه قوله تعالى حاكيًا قول إخوة يوسف: ﴿إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ﴾. أي: نَنْتَضِل ونتسابق في الرَّمي[3].

3) ﴿مَتَٰعِنَا﴾: مَتَع النهار يَمتَع مُتُوعًا: ارتفع وطال، وذلك فيما يكون قبل الزوال. والماتع: الطَّويل من كلِّ شيء[4]. وأصله يدور حول معاني المنفعة وامتداد مدَّةٍ في الخير[5].

والمتاع: كلُّ شيء يُنتفع به انتفاعًا ممتدَّ الوقت، ويُتَبَلَّغ به ويُتَزَوَّد، والفناء يأتي عليه في الدنيا. والمتاع أيضًا: ما يستمتع به الإنسان في حوائجه من أمتعة البيت ونحوه من كلِّ شيء[6]. فمن ذلك قول الله تعالى حاكيًا ما قاله إخوة يوسف لأبيهم: ﴿وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ﴾؛ أي: عند ثيابنا حارسًا لها؛ لأنَّ الثياب ممَّا ينتفع به، فتكون متاعًا[7].

4) ﴿بِمُؤْمِنٍ لَّنَا﴾: الأمن والأمان: ضدُّ الخوف، والفعل منه، أمِن يأمَن أَمْنًا وأَمانًا[8]. وأصله من الأمانة ضدُّ الخيانة، ومعناها سكون النَّفس وطمأنينتها[9]. ويقرب منه جدًّا الإيمان بمعنى: التَّصديق؛ لأنَّ المصدِّق تسكن نفسه لما يصدِّق به[10].

"والأصل في الإيمان الدُّخول في صدق الأمانة التي ائتمنه الله عليها، فإذا اعتقد التَّصديق بقلبه كما صدَّق بلسانه فقد أدَّى الأمانة، وهو مؤمن. ومن لم يعتقد التَّصديق بقلبه، فهو غير مؤدٍّ للأمانة التي ائتمنه الله عليها، وهو منافق"[11].

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (سبق).

(2) الزبيدي، تاج العروس: (سبق).

(3) الأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح، والراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (سبق).

(4) الخليل، العين، وابن فارس، المجمل، والجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (متع).

(5) ابن فارس، مقاييس اللغة، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (متع).

(6) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح، والراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (متع).

(7) البغوي، معالم التنزيل: 2/480، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 9/148، والخازن، لباب التأويل في معاني التنزيل: 2/517، والآلوسي، روح المعاني: 6/391، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/236.

(8) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (أمن).

(9) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أمن).

(10) الخليل، العين الأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، والجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (أمن).

(11) الأزهري، تهذيب اللغة، والزبيدي، تاج العروس: (أمن).

وقوله تعالى حاكيًا قول إخوة يوسف: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤۡمِنٖ لَّنَا وَلَوۡ كُنَّا صَٰدِقِينَ﴾ يعني: ما أنت بمصدِّق لنا؛ لأنَّ الإيمان تصديقٌ معه أَمْن[1].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

يكشف السِّياق القرآنيُّ حال إخوة يوسف وهم يُظْهِرون الأسف والجزع، ويتصنَّعون البكاء على أخيهم بعد ارتكابهم هذه الجريمة فيقول: (وجاؤوا أباهم في ظلمة الليل؛ ليكونوا أجرأ على الاعتذار بالكذب وهم يبكون ليقنعوه بما يريدون، قائلين له: إنَّا مضينا نتسابق في الجريِّ والرَّميِّ بالسِّهام، وتركنا يوسف عند ثيابنا وأقمشتنا ليحرسها، فأكله الذِّئب عقب غيابنا، وما أنت بمصدِّق لَّنا في هذا العذر ولو كنَّا موصوفين بالصِّدق؛ لشدَّة حبِّك ليوسف عليه السلام)[2].

الدموع الكاذبة وانتحال الأعذار لا يخفيان دلائل الجريمة على الأبرار

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالة الواو في: ﴿وَجَآءُوٓ﴾:

الواو عاطفة، والجملة معطوفة على جملة ﴿فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِۦ﴾ عطف جزءِ القصة[3]؛ أي: فبعد أن فعلوا بيوسف ما فعلوا قد جاؤوا أباهم مُتَلَبِّسينَ محتالين عشاء في آخر اليوم[4].

عودتهم إلى أبيهم بهذا الخبر صعب عليهم

وقد حَسُنَ الوصل هنا دون الفصل لما بين الآيات من المناسبة في المعنى: ولمَّا طرحوا يوسف في الجبِّ ﴿وَجَآءُوٓ أَبَاهُمۡ عِشَآءٗ﴾[5]؛ إذ كلٌّ منهما لبنة في بناء القصَّة، ولمَا بين الفعلين اللَّذَيْن صُدِّرت بهما الجملتان السَّاميتان من المناسبة كذلك؛ فكلاهما ماضٍ، وكلاهما خبرٌ لا إنشاء؛ فلأجل هذا حسُن الوصل وهو المعروف في البلاغة

(1) الراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (أمن).
(2) البغوي، معالم التنزيل: 4/222، والهرري، الحدائق: 13/336.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/235.
(4) النخجواني، الفواتح الإلهية والمفاتح الغيبية: 1/370.
(5) الهرري، حدائق الروح والريحان: 13/336.

بالتوسُّط بين الكمالين.

إيثار المجيء دون الإتيان:

في قوله تعالى: ﴿وَجَآءُوٓ أَبَاهُمۡ﴾ عُبِّر عن رجوعهم أو حضورهم عند أبيهم بالمجيء، وأوثر التَّعبير بـ ﴿وَجَآءُوٓ﴾ بدلًا من رجعوا، أو أتوا؛ لأنَّ المجيء فيه معنى المشقَّة والصُّعوبة، فهم قد ألقَوا أخاهم في البئر، وتكلَّفوا تلفيق قصَّة يعتذرون بها لأبيهم، وتصنَّعوا البكاء عنده، وبالغوا فيه حتى كان كأنَّه بكاء حقيقيٌّ، ولا شكَّ أنَّ في هذا مشقَّة وعناء؛ لذلك عُبِّر به دون الإتيان الذي فيه معنى السُّهولة[1].

في مجيئهم صعوبة وشدَّة

سرّ تعدّي الفعل جاء إلى المفعول بنفسه:

الفعل ﴿وَجَآءُوٓ﴾ يكون متعدِّيًا إن كان بمعنى: وصل وبلغ، كما في هذه الآية، ويُستعمل لازمًا، إن كان بمعنى: حضر وأقبل، كما في قوله تعالى: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ١﴾ [النصر: 1][2].

وفي تعدِّي الفعل بنفسه دلالة على قرب يعقوب عليه السلام منهم عند عودتهم؛ وكأنَّه كان يترقَّب مجيء أبنائه خاصَّة يوسف الصَّغير، فهم عندما جاؤوا إلى أبيهم وجدوه قبالتهم منتظرًا. وفي هذا دليل على شدَّة قلقه على يوسف وشوقه إليه وترُّقب عودته منذ وقت غيابهم.

يعقوب عليه السلام متلهِّف إلى لقاء ولده وقلقٌ عليه من إخوته

إيثار كلمة ﴿عِشَآءٗ﴾ دون مساء مثلًا:

المساء: خلاف الصباح[3]. وهذا زمن عامٌّ وهو في هذا السِّياق غير معيَّن. أمَّا العشاء: فهو وقت غيبوبة الشَّفق الباقي من بقايا شعاع الشَّمس بعد غروبها إلى العَتَمة[4]. وكان تعيين هذا الوقت لما فيه من ظلمة اللَّيل؛ فإنهم جاؤوا عشاء ليكونوا أقدر على

الظُّلمَةُ أقدر على إخفاء الحقيقة

(1) الهلال، الثري الجامع: 5/322.
(2) الدرة، تفسير القرآن وبيانه: 4/556.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (مسي).
(4) الراغب، المفردات: (عشي)، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/235.

الاعتذار[1]؛ لمكان الظُّلمة التي يرتفع فيها الحياء[2]؛ ولئلَّا يتفرَّس أبوهم في وجوههم إذا رآها في ضياء النَّهار ضدَّ ما جاؤوا به من الاعتذار[3]، فقد تخدعهم حركاتهم، ويفضحهم تلجلُجهم، وتنكشف سيماهم الكاذبة أمام أبيهم؛ فقالوا: اللَّيل أخفى للوجه من النَّهار، وأسترُ للفضائح؛ ولذلك اختاروا الظَّرف الزَّمنيَّ الذي يتوارون فيه من أحداثهم[4].

وإذا كان العشاء هو أوَّل أوان الظُّلمة فإنَّه يشير إلى أنَّهم كانوا منتظرين أن يسدل الظلام ستاره حتى يأتوا أباهم بجريرتهم، وهذا يدلُّ على تبييتهم الأمر الذي سوَّلته لهم أنفسهم.

سر استعمال ﴿يَبْكُونَ﴾:

البكاء: خروج الدُّموع من العينين عند الحزن والأسف والقهر، وقد أطلق هنا على البكاء المصطنع وهو التَّباكي. وإنَّما اصطنعوا البكاء تمويهًا على أبيهم لئلَّا يظنَّ بهم أنَّهم اغتالوا يوسف عليه السلام، ولعلَّهم كانت لهم مقدرة على البكاء مع عدم وجدان موجبه، وفي النَّاس عجائب من التَّمويه والكيد[5]، ومِن الخلق في الأكثر مَن يقدر من التَّطبُّع على ما يشبه الطَّبع[6]. فهم ﴿يَبْكُونَ﴾ مكرًا لإيهام براءتهم ممَّا عرض ليوسف من البليَّة بأكل الذِّئب على زعمهم[7]، وأوهموا ببكائهم وتفجُّعهم عليه إفراطَ محبَّتهم له المانعة من الجرأة عليه[8]. فجاؤوا متباكين لستر ما دبَّروا، أو باكين حقًّا؛ لأنَّ الاندفاع إلى الشَّرِّ لا يمنع الإحساس بالألم عند وقوعه، ودم الإخوة

الكذَّاب متمكن من البكاء يصطنعه متى شاء

(1) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 9/144.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 6/390.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 10/30.
(4) الشّعراوي، تفسير الشعراوي: 11/6882.
(5) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 9/145.
(6) ابن العربي، أحكام القرآن: 3/39.
(7) الواحدي، التفسير البسيط: 12/44.
(8) القاسمي، محاسن التأويل: 6/158.

لا ينقطع، بل له عواقب أليمة بعد الفعل القاطع، وكان ثمَّة بكاء حقيقيٌّ من بعضهم على الأقلِّ، وهو بعض من النَّدم على ما ارتكبوا أو أثموا، وقد أحسُّوا بفظاعته، وخصوصًا عندما لقوا أباهم، فإنْ لم يكن لأجل يوسف، فلأجل أبيهم الثَّاكل[1].

دلالة استعمال صيغة المضارع ﴿يَبۡكُونَ﴾:

ستارُ الكَذوب بكاءٌ يسدله مع كلِّ كذبة

أخبر اللّه تعالى عن بكائهم بالفعل ﴿يَبۡكُونَ﴾ ولم يخبر بالاسم (باكين)؛ لإفادة تجديدهم للبكاء شيئًا بعد شيء، وهو ما يُسمَّى حكاية الحال الماضية لاستحضارها في النُّفوس، وهذا هو سرُّ الإعراض عن اسم الفاعل، فهناك فرق في الخطاب بين الاسم والفعل، إذ إنَّ الفعل يفيد التَّجدُّد، والاسم يفيد الثُّبوت[2]. فكأنَّه كلَّما انقطع بكاء أحدهم بدأ بكاء آخر؛ حرصًا منهم على استعطاف أبيهم وتأكيدًا لبراءتهم أمامه.

وفيه إشارة إلى أنَّهم استمرُّوا في بكائهم طوال الوقت عند أبيهم؛ ندمًا على جرمهم، وقد كانوا ينوون التَّوبة من هذه الجريمة بعد تمامها، كما بيَّن ذلك قول أحدهم: ﴿وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعۡدِهِۦ قَوۡمٗا صَٰلِحِينَ ۝٩﴾ [يوسف: 9].

علّة الفصل في: ﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَآ﴾:

نبي الله يسأل وأبناؤه يجيبون

فُصِلَتْ جملة ﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَآ﴾ عمَّا قبلها؛ لأنَّ في الكلام حذفًا تقديرُه: وجاؤوا أباهم دون يوسف عشاءً يبكون، فقال: أين يوسف؟ قالوا: إنَّا ذهبنا... إلخ[3]، أو أنَّ الجملة جواب سؤال تبادر إلى الذهن؛ فكأنَّه قيل: إنَّهم إذا بكوا حُقَّ لهم البكاء خوفًا من اللّه وشفقة على الأخ، ولكن ماذا يقولون إذا سألهم أبوهم عن سببه؟

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 7/3809 - 3810.
(2) الشوابكة، غرر البيان، ص: 37.
(3) أبو حيَّان، البحر المحيط: 6/249.

فقيل: ﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَآ﴾[1]. فهو استئناف بيانيٌّ.

دلالة النداء في: ﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَآ﴾:

النِّداء في قوله تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَآ﴾ ليس لغرض طلب إقباله؛ فقد كان معهم حين تكلَّموا إليه، ولكنْ فيه دلالة على طلبهم أن يغيثهم مما يعانون، فقد وقع بهم خطبٌ ومصاب عظيم، فلجؤوا إلى الاستغاثة بأبيهم قبل أن يسأل هو استعطافًا.

الحسد يدعو إلى المكر بالمحسود، وبمَن يراعيه

وقد نادوه باسم (الأب) المضاف إليهم ليرحمهم؛ فيترك غضبه عليهم، الدَّاعي إلى تكذيبهم[2].

علة استخدام أداة النداء (يا):

استخدمت (يا) دون غيرها لدلالتها - دون غيرها - على المنادى القريب والبعيد، ولما كانوا جمعًا (عشرة إخوة)، فيهم القريب من أبيهم والبعيد عنه - وقت النداء - عبَّر بما يتناسب مع هذا المقام؛ فالمنادِي ليس على مسافة واحدة من المنادَى.

أقصاهم وأدناهم كان ينادي ويبكي

فضلًا عمَّا تحمله الأداة (يا) من إيحاءات صوتيَّة تحاكي صوت عويلهم وبكائهم، فكأنَّها أقرب للنُّدبة.

دلالة تصدير مقول القول بحرف التأكيد:

في قولهم: ﴿إِنَّا ذَهَبۡنَا نَسۡتَبِقُ﴾ تأكيد للكلام بالحرف المشبَّه بالفعل (إنَّ) الذي يغني عن تكرار الكلام مع إفادته معنى التَّوكيد.

يعلمون الحقيقة ولأجل الكذب يؤكِّدون عكسها

فقالوا: ﴿إِنَّا﴾؛ لأنَّهم كانوا عالمين بأنَّ أباهم عليه السلام لا يصدِّقهم لِما له من نور القلب وصدق الفراسة، ولِما لهم من الرِّيبة[3]، فالكلام موجَّه إلى مخاطَب مرتاب، فحسُن توكيده بمؤكِّد.

(1) البقاعي، نظم الدرر: 10/30.
(2) القاسمي، محاسن التأويل: 6/158.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 10/30.

سرُّ استعمال ﴿ذَهَبْنَا﴾ دون (انطلقنا):

الذَّهاب هو المضيُّ، وهو سير واتِّجاه وانتقال إلى مكان آخر[1]. أمَّا المعنى المحوريُّ للانطلاق فهو تسيُّب ما كان محبوسًا في حوزة أو جوف مندفعًا منها بقوة ابتعادًا أو انبساطًا[2]، ولا شكَّ أنَّ المناسب للمقام التَّعبير بالذهاب لا الانطلاق، فالذهاب يصوِّر انتقال الإخوة العشرة من المكان الذي تركوا فيه يوسف عند المتاع إلى مكانٍ آخر استبقوا فيه؛ فانشغلوا عن أخيهم.

تَـــرَكَ الإخـــوةُ أخاهم وانتقلوا لمكان الاستباق

سرُّ استعمال الفعل ﴿نَسْتَبِقُ﴾، ودلالة الصيغة:

الاستباق: افتعال من السَّبق وهو هنا بمعنى: التَّسابق[3]. فقولهم: ﴿نَسْتَبِقُ﴾؛ أي: يتكلَّف كلٌّ منَّا أن يسبق غيره، فالاستباق: تكلُّف السَّبق وهو الغرض من المسابقة، والتَّسابق بصيغتي المشاركة (الافتعال، والتَّفاعل) التي يُقصد بها الغلب، وقد يُقصد لذاته أو لغرض آخر في السَّبق[4].

والمعنى؛ أي: نشتدُّ جريًا لنرى أَيُّنا أسبق[5]؛ أي: نوجد المسابقة بغاية الرَّغبة من كلٍّ منَّا في ذلك[6]، فنترامى بالسِّهام لنرى أَيُّنا أبعد غَلْوَةً، أو نتجارَى على الأقدام لنرى أَيُّنا أشدُّ عَدْوًا، أو نستبق في أعمال نتوزَّعها مِن سقيٍ ورعيٍ واحتطاب، أو نتصيَّد[7].

وقيل: النِّضال في السِّهام، والرِّهان في الخيل، والمسابقة تجمعهما[8].

في أوان اللّهو يضيع الإنسان واجبه

دلالة جملة ﴿وَتَرَكْنَا يُوسُفَ﴾:

تعيين المفعول بالعَلَم ﴿يُوسُفَ﴾ يدلُّ على تخصيصه بالانفراد

مَـــن ضـيَّـع الأمانة، وأهمل الـوديـعـة، فقد أعـظـم الـفـريـة الشَّنيعة

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ذهب)، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (ذهب).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (ذهب).
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/236.
(4) رشيد رضا، تفسير المنار: 12/220.
(5) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 9/145.
(6) البقاعي، نظم الدرر: 10/30.
(7) أبو حيَّان، البحر المحيط: 6/249.
(8) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 9/145.

عند المتاع، وذكر اسمه على ألسنتهم أمام أبيهم الآن بعد خفائه من قبل بعد ذهابهم به، فيه إشارة إلى أنَّ إخوة يوسف قد رجعوا إلى سابق عهدهم معه قبل الذَّهاب، حال الاهتمام لأمره أمام أبيهم.

فإنَّما عنوا بقولهم: ﴿وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا﴾ أنَّهم تركوه عند فضل ثيابهم وماعون طعامهم ونحوه ليحفظه؛ إذ لا يستطيع مجاراتهم في استباقهم الذي تُرهَق به قِواهم[1] فيَحْتَمِل أن يعنوا بتركه عند متاعهم إظهار الشَّفقة عليه، ويَحتمِل أن يعنوا حفظ رحالهم[2].

وفي قولهم: ﴿وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا﴾ إخلال بشروط التَّعاقد مع الأب الذي أذن بخروج يوسف عليه السلام بعد أن قالوا: ﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ﴾ [يوسف: 12] فلم يأخذوه معهم ليرتع ويلعب كما زعموا، ولا ليأكل من ثمار الأشجار والفاكهة وهم يحفظونه في كلِّ ذلك، بل ليحفظ لهم متاعهم وهم يستبقون كما ادَّعَوا، وهذا أوَّل الكذب الذي كذبوه؛ وهذه أوَّل مخالفة لشرط إذن والده له بالخروج معهم[3].

فائدة الظرف ﴿عِندَ﴾، وإضافته إلى ﴿مَتَٰعِنَا﴾:

زعم الإخوة أن ما حدث ليوسف مما قصوا كان بسبب انفراده عند متاعهم

﴿عِندَ﴾ في قولهم: ﴿عِندَ مَتَٰعِنَا﴾ فيه دليل على أنَّ إخوة يوسف عليهم السلام كانوا يدَّعون حرصًا عظيمًا على أخيهم يوسف أمام أبيهم؛ فكأنَّهم قالوا: إنَّما تركناه عند كلِّ ما قد يحتاج إليه من زاد إكرامًا له، وحرصًا على راحته في وقت استباقنا لأنَّه لا يستطيع الاستباق معنا لحداثة سنِّه.

ويجوز أن يكون الظَّرف ﴿عِندَ﴾ للزَّمان؛ أي وقت متاعنا وانشغالنا ليبيِّنوا أنَّ ما حدث ليوسف كان دون قصد منهم.

(1) رشيد رضا، تفسير المنار: 12/220.
(2) الماوردي، النكت والعيون: 3/14.
(3) الشّعراوي، تفسير الشعراوي: 11/6886.

كما أنَّ نظم الآية يشير إلى ما يكذِّبهم في دعواهم؛ إذ إنَّهم ثبَّتوا أوَّلًا مكان متاعهم، ثمَّ جعلوا يوسف عليه السلام عنده، وكأنَّه جزء منه! وكأنَّه خادم لهم يأمرونه بما شاؤوا، ويجعلونه حيث أرادوا. ولو قالوا: تركنا متاعنا عند يوسف لكان دليلًا على أنَّ اهتمامهم منصبٌّ على يوسف، وأنَّهم يرفعون مكانته ويعظِّمون شأنه.. ولكن هيهات!

معنى المتاع، وإيثار التعبير به هنا:

المتاع: ما يُتَمَتَّعُ أي يُنْتَفَعُ به. والمراد به هنا: ثَقَلُهُم من الثِّياب والآنية[1]، وما كان معهم ممَّا يحتاجون إليه في ذلك الوقت من زاد ونحوه[2]؛ أي: الأشياء التي يتمتَّعون بها وينتفعون بها في رحلتهم[3].

المتاع لِلّهوِ والصَّيد أنسب، والزَّاد والرَّحل للسَّفر أوجب

وآثَرَ لَفْظَ المتاع دون غيره كالأثقال أو الأحمال؛ لأنَّه الأنسب لقولهم: ﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ﴾ [يوسف: 12]، وقولهم: ﴿إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ﴾، فلمَّا كان مرادهم أن يستبقوا ويرتعوا دون أن يسافروا أو يرتحلوا؛ عبَّروا عمَّا كان معهم في رحلتهم التي قصدوا بها الاستمتاع واللّهو بالمتاع.

وأيضًا ليكون عذرًا لهم عند أبيهم، حتَّى لا يُفهم أنَّهم أثقلوا على أخيهم الصَّغير بالأحمال أو الأثقال أو غيرها. وإنَّما جلس مع المتاع إكرامًا له وصيانة له عن إرهاق الاستباق الذي لا يناسب سنَّه الصَّغيرة كما زعموا!

دلالة الفاء في: ﴿فَأَكَلَهُ﴾:

الفاء في قوله: ﴿فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ﴾ للتَّعقيب؛ أي: أكله عقب ذلك[4]، من غير مضيِّ زمان يُعتاد فيه التَّفقُّد والتَّعهُّد، وحيث لا يكاد يُطرح المتاع عادة إلَّا في مقام يؤمَن فيه الغوائل لم يُعهَد تركه

أرادوا تبرئة أنفسهم فأخبروا أباهم بأمر كان قد تخوَّف منه من قبل

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/236.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 10/30.
(3) طنطاوي، الوسيط: 7/329.
(4) الشوكاني، فتح القدير: 3/14.

عليه السلام عنده من باب الغفلة وترك الحفظ الملتزَم لا سيَّما إذا لم يبرحوه ولم يغيبوا عنه، فكأنَّهم قالوا: إنَّا لم نقصِّر في محافظته، ولم نغفل عن مراقبته، بل تركناه في مأمننا ومجمعنا بمرأى منا؛ لأنَّ ميدان السِّباق لا يكون عادةً إلَّا بحيث يتراءى غايتاه، وما فارقناه إلَّا ساعة يسيرة، بيننا وبينه مسافة قصيرة، فكان ما كان[1].

ويجوز أن تكون الفاء هي الفاء السببيَّة؛ فقوله: ﴿فَأَكَلَهُ﴾ معناه: فتسبَّب عن انفراد يوسف أن أكله الذِّئب[2]. وبهذا التَّعبير أرادوا تبرئة أنفسهم فأخبروا أباهم بأمر كان قد تخوَّف منه من قبل، وهو خشيته أن يأكل الذِّئب ولدَه الصغير.

إيثار التعبير بالأكل دون الافتراس:

الدَّلالة على أنَّ الذِّئب قد أتى عليه كلِّه فلم يُبْقِ منه شيئًا

المراد من قولهم: ﴿إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ﴾: قتله الذِّئب، ثمَّ أكله دون أن يُبقي منه شيئًا ندفنه[3]؛ أي: جاء الذِّئب فأكله، ولو قالوا: فافترسه الذِّئب، لبقيَ منه شيء يستطيع أبوهم أن يُقيم الدَّليل عليه، ولكنْ ﴿فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ﴾؛ يعني: لم يُبقِ منه شيئًا ولم يذر[4].

ولمَّا كان من المعلوم أنَّ الذِّئب لا يبتلع الفرائس كما يبتلعها الحوت، وأنَّه لا يأكل العظام مع اللَّحم، كان ذلك من القرائن التي اعتمد عليها يعقوب عليه السلام في ردِّه مقالتهم، وعدم تصديق دعواهم، فقال: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا﴾.

دلالة (ال) في: ﴿ٱلذِّئْبُ﴾، والعدول عن النكرة:

تلقَّن الأبناء العذر من كلام أبيهم، فتحرَّموا به

(ال) في ﴿ٱلذِّئْبُ﴾ للعهد الذِّهني؛ وتفيد معنى معهودًا، وهو المذكور آنفًا في قول يعقوب عليه السلام: ﴿وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ﴾، فكأنَّه هو الذِّئب ذاته الذي كان يخشاه يعقوب عليه السلام على ولده من قبل.

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/259.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 10/30.
(3) طنطاوي، الوسيط: 7/329.
(4) الشوابكة، غرر البيان، ص: 38.

فالحاصل أنَّ إخوة يوسف عليه السلام لمَّا سمعوا أباهم عليه السلام يذكر الذِّئب أخذوا ذلك من فيه فتحرَّموا به؛ لأنَّه كان أظهر المخاوف عليه[1]، فقالوا: ﴿فَأَكَلَهُ ٱلذِّئۡبُۖ﴾؛ أي: كما ذكرتَ وحذَّرت[2].

وأمَّا لفظ ﴿ٱلذِّئۡبُ﴾ [يوسف: 13] في حديث يعقوب عليه السلام فيُطلق على أيِّ ذئب؛ فمعناه كمعنى النَّكرة، فقد عرَّفت اللَّام الحقيقة الملاحظة في الذِّهن، ولم تُعَرِّفْ ذِئبًا معيّنًا بشخصه.

وقيل: المراد به هنا: جمع من الذِّئاب؛ حيث زعم إخوة يوسف أنَّ الذِّئاب لم تترك من أخيهم شيئًا، ولذلك لم يقولوا: فدفناه[3].

دلالة الواو في: ﴿وَمَآ﴾:

الواو في: ﴿وَمَآ﴾ من قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤۡمِنٖ لَّنَا﴾ واو الحال؛ أي: والحال أنَّك لستَ ﴿بِمُؤۡمِنٖ لَّنَا﴾؛ أي: بمصدِّق قولَنا؛ فنحن نعلم أنَّك لا تصدِّقنا في هذه الحالة، ولو كنَّا عندك صادقين، فكيف وأنتَ تتَّهمنا، وغير واثق بقولنا؟[4] فكأنَّه قيل هنا: وما أنت بمؤمن لنا في حال من الأحوال[5]. وفيه دلالة على تكذيبه عليه السلام قولهم[6].

البلاغة في دخول النَّفي على الجملة الاسميّة:

التَّعبير بالجملة الاسميَّة يفيد الثُّبوت والدَّوام، وإذا دخلت عليها أداة نفي أفادت تأكيد النَّفي وثبوته وديمومته بغضِّ النَّظر عن زمن الحدث لتجرُّدها منه، بخلاف الجملة الفعليَّة التي إذا صُدِّرت بـ (لن) أفادت نفي الحدث مستقبلًا، دون نفيه في الماضي مثلًا، ودون تعميمه على كلِّ قول.

يعلم إخوة يوسف أنَّ أباهم عليه السلام لا يصدِّق كذبهم

(1) الماوردي، النكت والعيون: 3/15.
(2) مأمون حموش، التفسير المأمون: 4/121.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/237.
(4) القاسمي، محاسن التأويل: 6/158 - 159.
(5) الآلوسي، روح المعاني: 6/391.
(6) البقاعي، نظم الدرر: 10/30.

فقولهم: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤۡمِنٖ لَّنَا﴾ أفاد أنَّ عدم تصديق أبيهم إيَّاهم في أمر يوسف ثابت لا يتغيَّر لما أظهروه من عداوته وحسده من قبل، ولما علموه من شدَّة حبِّ أبيهم إيَّاه.

فضلًا عن أنَّ قولهم: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤۡمِنٖ لَّنَا﴾ خبر مستعمل في لازم الفائدة. وهو أنَّ المتكلِّم علم بمضمون الخبر. وهو تعريض بأنَّهم صادقون فيما ادَّعوه لأنَّهم يعلمون أباهم لا يصدِّقهم فيه، فلم يكونوا طامعين بتصديقه إيَّاهم[1].

معنى الباء في: ﴿بِمُؤۡمِنٖ﴾:

الباء في: ﴿بِمُؤۡمِنٖ﴾ من قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤۡمِنٖ لَّنَا﴾: حرف جرٍّ زائد لتأكيد معنى النَّفي[2]، وهي لنفي الإلصاق؛ أي: ليس تصديقك بمُلابِسٍ قولنا[3]، أي أنَّ حرفًا ممَّا قلناه لن ينطلي عليك فتعتقد صدقه!

دلالة تعدّي فعل الإيمان باللام:

عدم تصديق يعقوب عليه السلام بنيه لعدم اطمئنانه إلى قصصهم المكذوبة

فُسِّر الإيمان بالتَّصديق في قولهم: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤۡمِنٖ لَّنَا﴾، وهو معناه اللُّغويُّ؛ لذا عُدِّي باللَّام، وأمَّا في معناه الشَّرعيِّ فيتعدَّى بالباء[4].

فتعدية ﴿بِمُؤۡمِنٖ﴾ باللَّام للتَّفرقة بين (آمَن) بمعنى: صدَّق، وبين (آمَن) بمعنى جعله في أَمْنٍ، أي: لا خوف عليه منه، وهذه اللَّام سمَّاها ابن مالك لام التَّبيين وتبعه ابن هشام، وهي تدخل على المفعول لتقوية معنى المفعوليَّة[5].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/237.
(2) بهجت عبد الواحد، الإعراب المفصل لكتاب الله المرتل: 5/28.
(3) الهلال، الثري الجامع: 5/322.
(4) الخفاجي، عناية القاضي: 5/161.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/259.

سر التعبير بالإيمان دون التصديق:

الصِّدق إعلام بالحقيقة يسكن عنده القلب، وتطمئنُّ لديه النَّفس

كان من الممكن أن يقول إخوة يوسف: وما أَنْتَ بمصدِّقٍ لنا ولو كنّا صادِقين، لكنَّ هذا يُغْفِلُ معنًى قَصَدوا التَّعبير عنه، وهو أنَّ أباهم غيرُ مطمئن لمشاعرهم تجاه أخيهم؛ إذْ هو يعلمُ حسَدَهم له، فلو كانوا صادقين حقًّا وصَدَّقهم لما وصلَ تصديقه إلى درجةِ إيمان يُحدِث في القلب الطَّمأْنينة.

لذا قالوا: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤۡمِنٖ﴾ دون أن يقولوا: (بمصدِّق)، أو كلمة سواها، فلا توجد كلمة تحلُّ محلَّها، فالحاصل أنَّه خُصَّ لفظ ﴿بِمُؤۡمِنٖ﴾ بالذِّكر دون بمصدِّق؛ لأجل نكتة في المذكور ترجِّح مجيئه على سواه، وذلك لِما في الإيمان من الزِّيادة في المعنى على التَّصديق، وهذا يُعرف في علم البديع بالتَّنكيت[1]، ولولا ذلك لكان الكلام عرضة للنَّقد.

ففي لفظة ﴿بِمُؤۡمِنٖ﴾ من المعنى ما ليس في (مصدِّق)، وذلك أنَّ (مصدِّق) من التَّصديق، وأما ﴿بِمُؤۡمِنٖ﴾ فتحمل معنى التَّصديق وإعطاء الأمن، فهم يطلبون تصديقهم وزيادة، وهو الأمن؛ فلهذا جنح إليه ولم يعاقبهم.

أيضًا القرآن لم يقل: وما أنت بمصدِّق لنا ولو كنَّا صادقين، لأنَّه لا يقيم وزنًا للتَّنسيق والتَّنميق والتَّجنيس في الألفاظ إذا كان على حساب المعنى[2].

فائدة جملة ﴿وَلَوۡ كُنَّا صَٰدِقِينَ﴾:

صدقهم المزعوم بعيدٌ عن تحقيق التَّصديق في نفس أبيهم

قولهم: ﴿وَلَوۡ كُنَّا صَٰدِقِينَ﴾ تلطُّف عظيم في تقرير ما يحاولونه، يقولون: ونحن نعلم أنَّك لا تصدِّقنا - والحالة هذه - لو كنَّا عندك

(1) التنكيت هو أن تقصد شيئاً دون أشياء، لمعنى من المعاني، ولولا ذلك لكان خطأً من الكلام وفساداً في النقد، ينظر: ابن مقلد، البديع في نقد الشعر، ص: 56.

(2) الشوابكة، غرر البيان، ص: 38.

صادقين، فكيف وأنت تتَّهمنا في ذلك، لأنَّك خشيت أن يأكله الذِّئب، فأكله الذِّئب، فأنت معذور في تكذيبك لنا؛ لغرابة ما وقع، وعجيب ما اتَّفق لنا في أمرنا هذا[1].

فهم لا يريدون أنَّ يعقوب عليه السلام لا يصدِّق مَن يعلم أنَّه صادق، فهذا محال؛ إذ لا يوصف الأنبياء عليهم السلام بذلك، ولكنَّ المعنى: (لو كنَّا عندك من أهل الثِّقة والصِّدق لاتَّهمتنا في يوسف لمحبَّتك إيَّاه، وظننتَ أنَّا قد كذَبناك[2]، فما أنت بمصدِّق لنا وقد وقع بك ما تحذر، ولو كنَّا عندك صادقين مِن قبل غير متَّهَمين لوجب أن تتَّهمنا السَّاعة عند مصيبتك. فكيف وقد كنتَ متَّهِمًا له فيه من قبل؟)[3].

وهذا إيماء بعدم قناعتهم بما يقولون، وإحساسهم بالكذب ضمنًا[4]، ولقد أحسُّوا بأنَّه لن يصدقهم[5].

وفي هذا الكلام منهم فتح باب اتِّهامهم كما لا يخفى على صاحب الذَّوق[6].

معنى (لو):

(لو) اتصاليَّة، تفيد أنَّ مضمون ما بعدها هو أبعد الأحوال عن تحقُّق مضمون ما قبلها في ذلك الحال؛ ولذلك لا يُذكر معه شيء من سائر الأحوال، ويُكتَفَى عنه بذكر الواو العاطفة للجملة على نظيرتها المقابلة لها الشَّاملة لجميع الأحوال المغايرة لها عند تعدُّدها. والتَّقدير: وما أنت بمؤمن لنا ولو كنَّا صادقين في نفس الأمر؛ أي: نحن نعلم انتفاء إيمانك لنا في الحالين فلا نطمع أن نموِّه عليك[7].

تيقَّن الأبناء من تكذيب أبيهم إيَّاهم لتيقُّنهم من كذب أنفسهم

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/375.
(2) الزجاج، معاني القرآن: 3/96.
(3) مكي بن أبي طالب، الهداية إلى بلوغ النهاية: 5/3519.
(4) الزحيلي، التفسير المنير: 12/223.
(5) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 7/3810.
(6) القنوجي، فتح البيان: 6/300.
(7) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/259، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/237 - 238.

وتُحمل ﴿وَلَوْ﴾ في الآية بمعنى (إنْ) الواقعة للجزاء، فإنَّك تقول: أنتَ لا تكرمني ولو أكرمتك، تريد (وإنْ)، وعلى ذلك فالمعنى: وما أنت بمؤمن لنا وإن كنَّا صادقين[1].

سرّ التعبير بفعل الكون:

قولهم: ﴿وَلَوْ كُنَّا﴾؛ أي: كونًا هو جبلَّة لنا، فبرغم هذا لن تصدِّقنا أيضًا. وقد عبَّروا باسم الفاعل ﴿صَٰدِقِينَ﴾ دون صدقنا؛ للتَّوكيد على صدقهم وأنَّه صفة راسخة فيهم؛ يريدون: وإن كنَّا من أهل الصِّدق والأمانة بعلمك لأنَّك لم تجرِّب علينا قَطُّ كذبًا، ولا حفظت عنا شيئًا منه جدًّا ولا لعبًا لَمَا صدَّقتنا[2].

لا يكاد الكاذب ينطق حرفًا إلَّا ويُعقِبه بوابل من القسم على صدقه لعلمه بكذب نفسه

وهذه مبالغة منهم في نفي تصديق أبيهم لهم؛ لأنَّهم يوقنون أنَّهم كاذبون فيما ادَّعوه.

وأوهموا بقولهم: ﴿وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ﴾ أنَّهم صادقون في أكل الذِّئب يوسفَ، فيكون صدقهم مقيَّدًا بهذه النَّازلة. أو من أهل الصِّدق والثِّقة عند يعقوب قبل هذه النَّازلة، لشدَّة محبَّته يوسف عليه السلام، فكيف وأنت سيِّئ الظَّنِّ بنا في هذه النَّازلة، غير واثق بقولنا فيها[3]؟

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

العِشاء والمساء:

المساء: بعد الظهر إلى صلاة المغرب أو إلى نصف الليل[4]. أمّا العِشاء فهو أوّل ظلام الليل[5]، وأصله يدلّ على ظلام وقلّة وضوح

المساء فيه ضوء وظلمة والعِشاء فيه ظلمة فقط

(1) الشوابكة، غرر البيان، ص: 38.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 10/30 - 31.
(3) أبو حيَّان، البحر المحيط: 6/250.
(4) الخليل، العين، والأزهري، التهذيب، وابن منظور، اللسان: (مسي).
(5) الخليل، العين، والأزهري، التهذيب: (عشو).

في الشيء، ومعناه المحوريّ: غشاء من الظلمة يغشى الأفق ويحجب الرؤية جزئيًّا[1]. والأعشى: الذي لا يبصر بالليل ويبصر بالنهار[2].

ودلَّ ما سبق على الفرق بين المساء والعشاء، وهو أنَّ المساء يكون فيه ضوء النّهار ثمّ ظلمة الليل، وأنَّ العِشاء يختصّ بالظلام ولا يكون فيه ضوء النهار، وتُحجَب فيه الرؤية جزئيًّا ويقلّ فيه الوضوح.

وقد جاء إخوة يوسف عليه السلام أباهم في ظلمة الليل؛ لئلّا يتفرَّسَ أبوهم في وجوههم، إذا رآها في ضياء النهار ضدَّ ما جاؤوا به من الاعتذار، وليكونوا أقدرَ وأجرأَ على الاعتذار بالكذب في الظُّلمة، وقد قيل: لا تطلب الحاجة بالليل فإنَّ الحياء في العينين، ولا تعتذر بالنهار من ذنب فتتلجلج في الاعتذار[3]؛ لذا أوثر هنا العِشاءُ دون المساء.

الاستباق والمسارعة:

الاستباق بين اثنين أو أكثر، والمسارعة مع المفرد أو بين اثنين أو أكثر

الاستباق: مأخوذ من السَّبق، وهو في الآية بمعنى التسابق، وأصل السَّبق: التقدُّم في السَّير، ثم يتجوّز به في غيره من التقدُّم[4]، ويدور معناه المحوريّ حول تقدُّم الشيء من بين ما حوله في قوَّةٍ وجِدّ.

ومن السَّبق جاء معنى إعجاز المُلاحِق؛ كالمتسابِقين يريد كلٌّ منهم أن يعجز الآخَر أن يلحقَ به أو يسبقَه أو يصل إلى الهدف قَبله في ما يتسابقون فيه[5].

والسرعة: ضدّ البطء، ويُستعمَل ذلك في الأجسام والأفعال[6].

(1) ابن فارس، المقاييس، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (عشو).
(2) الخليل، العين، والأزهري، التهذيب، والجوهري، الصحاح: (عشو).
(3) البقاعي، نظم الدرر: 10/30، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 9/144، والبغوي، معالم التنزيل: 4/222.
(4) الراغب الأصفهاني، المفردات: (سبق)، والزمخشري، الكشاف: 2/450، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/236.
(5) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (سبق).
(6) الجوهري، الصحاح، وابن فارس، المقاييس، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، والسّمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (سرع).

والمسارعة إلى الشيء: المبادرة إليه[1]، ويدور معناها المحوريّ حول قوَّة النفاذ والاختراق[2].

وممّا سبق يتبيَّن الفرق بين الاستباق والمسارعة، وهو أنَّ الاستباق يحمل معنى إعجاز الملاحِق وتحدِّيه من أجل الوصول إلى هدف معيَّن قَبله، وذلك يحدث بين اثنين أو أكثر؛ فإذا كان في الاستباق سرعةٌ أو مسارَعة، صاحبَها غرضُ الإعجاز وتحقيقُ الهدفِ وبلوغُه أوَّلًا. أمّا المسارعة فلا يُشترَط فيها أن تكون بين اثنين أو أكثر؛ فيُقال سارعَ إلى كذا، أو سارَعوا وتسارَعوا إلى كذا[3]، ولا يلزم أن يكون معها معنى التحدِّي والإعجاز؛ فقد يتسارع قومٌ إلى شيء ولا يُهِمُّ أحدًا مَن وصل إليه أوَّلًا، فإذا تسابقوا كان همُّ كلِّ واحدٍ منهم أن يصِل أوَّلًا.

المتاع والأثاث والرِّياش:

المتاع أعمُّ من الأثاث والرِّياش

الأثاث: متاع البيت الكثير، وهو اسم جمع للأشياء التي تُفرَش في البيوت من وسائد وبُسُط وزَرابيّ، وكلُّها تُنسَج أو تُحشَى بالأصواف والأشعار والأوبار، ويدور معناه المحوريّ حول الكثرة والتجمُّع والالتفاف[4].

والرِّياش: الخِصب والمعاش والمال والأكل والشرب والأثاث واللباس الحسن الفاخر، وأصله يدلُّ على حسنِ الحال، وما يكتسِب الإنسان من الخير[5].

والمتاع: أعمُّ من الأثاث والرِّياش؛ فهو ما يُتمتَّع به ويُنتفَع[6].

(1) الجوهري، الصحاح، وابن منظور، اللسان: (سرع).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (سرع).
(3) الأزهري، التهذيب، والجوهري، الصحاح، وابن منظور، اللسان: (سرع).
(4) الرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (أثث)، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/239.
(5) الخليل، العين، والجوهري، الصحاح، وابن فارس، المقاييس، وابن منظور، لسان العرب، والسّمين الحلبي، عمدة الحفاظ، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (ريش).
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/239.

الإيمان والتصديق:

الإيمان: الثِّقة، والتصديق الذي معه أمن[1]، فهو مأخوذ من الأمن الذي هو الطمأنينة[2].

ومن ذلك "آمن بالكلام": صدَّقه وقبِله ووثق به فتمكَّن من قلبه[3]. وكلمة ﴿بِمُؤْمِنٍ﴾ المذكورة في الآية فيها مع التصديق إعطاء الأمن، وهذا ليس في (مصدِّق)[4].

والتصديق يستعمل في كل خبر، فيقال لمن أخبر بالأمور المشهودة، مثل: الواحد نصف الاثنين، والسماء فوق الأرض: صدقت، وصدَّقنا بذلك، ولا يقال له: آمنا لك، ولا آمنّا بهذا؛ لأنَّ هذه الأخبار من الأمور المشهودة.

أمّا لفظ الإيمان فلا يُستعمَل إلا في الإخبار عن الأمور الغائبة، كما قال الله تعالى حكايةً عن قول إخوة يوسف لأبيهم: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا﴾؛ أي: بمقرٍّ لنا، ومصدّق لنا، لأنَّهم أخبروه عن أمر غائب[5].

التصديق يُستعمَل في كل خبر، والإيمان في الإخبار عن أمر غائب فقط

(1) الأزهري، التهذيب، والراغب، المفردات: (أمن)، والكفوي، الكلّيات، ص: 212.
(2) ابن تيمية، الإيمان الأوسط، ص: 120، والأزهري، التهذيب، والراغب، المفردات: (أمن).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (أمن).
(4) الكفويّ، الكليات، ص: 212.
(5) ابن تيمية، الإيمان الأوسط، ص: 120.

﴿وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍۚ قَالَ بَلۡ سَوَّلَتۡ لَكُمۡ أَنفُسُكُمۡ أَمۡرًاۖ فَصَبۡرٞ جَمِيلٞۖ وَٱللَّهُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ١٨﴾

[يوسف: 18]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لا يخلو كذب من دليلٍ على بُطْلانه

لمَّا كانوا عالِمين أنَّ حيَلَهم لن تنطليَ على الأبِ ذي الفراسة والبصيرة، وكانت قلوبهم ممتلئة بالشكّ والرّيبة؛ جاؤوا بقميص يوسف عليه السلام ملطَّخًا بدمٍ كَذِب؛ ظانّين أنّهم بذلك يدفعون كافّة الشكوك عن أنفسهم، وليكون دليلًا مرئيًّا يؤيّد زعمهم؛ فكان الدّليلَ الكاشفَ لكذبهم، الفاضحَ لمؤامرتهم[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿سَوَّلَتۡ﴾: سوَّلت له نفسُه أمرًا: زيَّنت له إيّاه، وسوَّل له الشيطان أمرًا: أغواه به وأراه إياه[2]. وأصله يدلُّ على استرخاء في الشَّيء[3].

وقوله تعالى حاكيًا قول يعقوب عليه السلام: ﴿بَلۡ سَوَّلَتۡ لَكُمۡ أَنفُسُكُمۡ أَمۡرًاۖ﴾. يعني: زيَّنت لكم، وحسَّنت لكم، وسهَّلت لكم أمرًا غير ما تصفون[4].

2) ﴿فَصَبۡرٞ جَمِيلٞۖ﴾: الصَّبر: نقيض الجزع، وأصله حبس النَّفس

(1) البقاعي، نظم الدرر: 10/31، والخطيب الشربيني، السراج المنير: 2/95، والمراغي، تفسير المراغي: 12/122، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 7/310، والزحيلي، التفسير المنير: 12/227، والهرري، حدائق الروح والريحان: 13/340.

(2) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (سول).

(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (سول).

(4) الأزهري، تهذيب اللغة، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (سول).

عن الجزع وغيره[1]. وكلُّ من حبس شيئًا فقد صبره[2]. والصَّبر الجميل: الذي لا جزع فيه ولا شكوى[3].

3) ﴿ٱلۡمُسۡتَعَانُ﴾: العون: الظَّهير على الأمر، والمعاونة: المظاهرة[4]. ومعناه المحوريُّ: "مدد زائد أو امتداد من قوَّة في باطن أو من خارج"[5]، وكلُّ شيء أعانك أو استعنت به فهو عون لك. كالصَّوم عون لك على العبادة. وتعاونوا، أي: أعان بعضهم بعضا[6].

والاستعانة: طلب العون، ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ۝٥﴾ [الفاتحة: 5][7].

4) ﴿تَصِفُونَ﴾: الوصف: ذكر الشَّيء بحليته ونعته، والصِّفة: الحالة التي عليها الشَّيء مِن حليته ونعته[8]. وأصله من تحلية الشَّيء واتِّخاذ الشَّيء هيئته التَّامَّة[9].

والوصف قد يكون حقًّا وقد يكون باطلًا، يقال: لسانه يصف الكذب، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلۡسِنَتُكُمُ ٱلۡكَذِبَ﴾ [النحل: 116]. ومن هذا المعنى أيضًا قول الله تعالى: ﴿سَيَجۡزِيهِمۡ وَصۡفَهُمۡۚ﴾ [الأنعام: 139]. أي: كذبهم، وكثر ذكر الوصف بمعنى الكذب، قال الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾. أي: تكذبون[10].

المَعْنى الإجْماليُّ:

لا يزال البيان القرآنيُّ يكشف كَذِب ما ذهبوا إليه من دلائل كاذبة وأمور مختلقة؛ تبرئةً لأنفسهم وصيانةً لكرامتهم فيخبر أنَّهم جاؤوا أباهم بقميص ابنه يوسف ملطَّخًا بدم مفترًى غير دمه؛ ليكون شاهدًا لهم على صدقهم فكان دليلًا على كذبهم؛ إذ لم يكن

(1) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، والجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (صبر).
(2) الأزهري، تهذيب اللغة: (صبر).
(3) البغوي، معالم التنزيل: 2/480، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 9/151، والخازن، لباب التأويل في معاني التنزيل: 2/518.
(4) الجوهري، الصحاح، وابن فارس، المجمل، والراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (عون).
(5) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (عون).
(6) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح: (عون).
(7) الراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (عون).
(8) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، والراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (وصف).
(9) ابن فارس، مقاييس اللغة، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (وصف).
(10) الراغب، المفردات، والسمين، عمدة الحفاظ، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (وصف).

به تمزيق أو تخريق، ولذا قال يعقوب عليه السلام مكذِّبًا خبرهم: (بل زيَّنت لكم أنفسكم أمرًا قبيحًا في شأن يوسف ففعلتموه، فصبري على ما فعلتم جميل لا جزع فيه ولا شكوى، والله أستعين على كفايتي شرَّ ما تكذبون)[1].

في كلِّ كذب ثغرة، ولكلِّ كاذب سقطة، وللمؤمن البصير فطنة

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالة الواو في: ﴿وَجَآءُو﴾:

الواو عاطفة وجملة ﴿وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ﴾ معطوفة على ما قبلها[2]، والمعنى: وبعد أن ألقَوا بيوسف عليه السلام في الجبِّ، واحتفظوا بقميصه معهم، وضعوا على هذا القميص دمًا مصطنعًا ليس من جسم يوسف عليه السلام، وإنَّما من جسم شيء آخر[3]. وقيل: الواو واو الحال، والجملة بعدها في موضع النَّصب على الحال[4].

سرُّ التعبير بحرف الاستعلاء ﴿عَلَىٰ﴾:

سرُّ التعبير بالحرف ﴿عَلَىٰ﴾ في قوله: ﴿عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ﴾: والعدول عن قوله: (بقميصه ملطَّخًا بدم كذب) هو بيان أنَّ الدَّم الذي وضع فوق القميص ليس دم يوسف؛ فإنَّه إن كان دمه فسيكون من جسده، أي جاء من داخل قميصه لا من خارجه (فوقه)؛ فإنَّما أتى الإخوة بدم مكذوب فوق قميص أخيهم[5].

وضع بنو يعقوب دم يوسف المكذوب فوق القميص ليؤكدوا براءتهم من قتله

وقيل: ﴿عَلَىٰ﴾ ظرف لـ﴿وَجَآءُو﴾ مشعِرٌ بتضمُّنه معنى (افتروا)[6]. ومعنى الاستعلاء فيه يفيد المشقَّة والصُّعوبة للحصول على الدَّم[7].

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/321 - 322، وطنطاوي، الوسيط: 7/330.
(2) درويش، إعراب القرآن: 4/462.
(3) طنطاوي، الوسيط: 7/330.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/238.
(5) الآلوسي، روح المعاني: 6/392.
(6) القاسمي، محاسن التأويل: 6/160.
(7) الهلال، الثري الجامع: 5/323.

كما أنَّه يصوِّر للقارئ والسَّامع أنَّه موضوع على ظاهره وضعًا متكلَّفًا، ولو كان من أثر افتراس الذِّئب له لكان القميص ممزَّقًا والدُّم متغلغِلًا في كلِّ قطعة منه، ولهذا كلِّه لم يصدِّقهم[1].

سرُّ تقديم شبه الجملة ﴿عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ﴾:

قوله: ﴿عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ﴾ حال من ﴿بِدَمٍ﴾ فقدِّم على صاحب الحال[2]؛ للاهتمام به، ذلك أنَّهم أرادوا أن يوجدوا عذرًا يعتذرون به لأبيهم؛ إذ رجعوا إليه بدون يوسف الذي أقسموا على رعايته؛ لذلك قدِّم شبه الجملة ﴿عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ﴾ للدِّلالة على هذا المعنى.

بلاغة الوصف بالمصدر في: ﴿بِدَمٍ كَذِبٍۚ﴾:

قوله تعالى: ﴿كَذِبٍۚ﴾ مصدرٌ وُصِف به الدَّم مبالغةً، أو مصدر بمعنى المفعول؛ أي: مكذوب فيه، أو بمعنى: ذي كذب؛ أي: مُلابس لكذب[3].

لا يقوم الدَّم شاهدًا أبدًا، فما أيسرَ أن يحصل الإنسان على الدَّم الذي يريد

ووصف الدَّم بالكذب مبالغة؛ كأنَّه نفس الكذب وعينه، كما يقال للكذَّاب: هو الكذب بعينه، والزور بذاته، فكأنَّ مجيئهم من الكذب نفسه[4]. وسمَّاه اللّٰه كذبًا؛ لأنَّ الذين جاؤوا بالقميص وهو فيه قد كذَبُوا، فقالوا ليعقوب عليه السلام: هو دم يوسف، ولم يكن دمَه[5]. وكأنَّ الدَّم نفسه هو الذي كذَب[6].

معنى (الباء) في: ﴿بِدَمٍ كَذِبٍۚ﴾:

قولهم: جاءَ بكذا؛ أي استحضره، ويختلف معناه بحسب اختلاف المجيء به[7]. ولمَّا كانت ﴿بِدَمٍ﴾ حالًا من ﴿قَمِيصِهِۦ﴾ والمعنى: ملتَبِسًا

يحشد الكاذب مخرَّقَ أدلَّته ليداري بها عورة كذبته

(1) رشيد رضا، تفسير المنار: 12/220.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/238.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/260.
(4) البروسوي، روح البيان: 4/226.
(5) ابن جرير، جامع البيان: 13/35.
(6) الشّعراوي، تفسير الشعراوي: 11/6889.
(7) الفيروزابادي، البصائر: 2/413

بدَمٍ كذب[1] كانت الباء للإلصاق والتَّوكيد[2]؛ فهم أحضروا الدَّم المكذوب وألصقوه بقميص يوسف لِيُخْفوا الحقيقة عن أبيهم.

ولمَّا كان الدَّم ملطخًا به القميص، وكانوا قد جاؤوا مصاحبين للقميص؛ فقد جاؤوا بالدم على القميص[3].

سرُّ الفصل في: ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ﴾:

جملة: ﴿سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ﴾ لا محلَّ لها؛ استئنافيَّة تعليل لكلام مقدَّر هو مقول القول. والتَّقدير: لم تَصدُقوا في كلامكم، بل سوَّلت لكم أنفسكم... إلخ[4].

قلوب الصِّدِّيقين تقرع عواقب الأمور، وتستبين ببصيرتها المستور

فآثر الفصل دون الوصل لأجل أسلوب المحاورات المتَّصلة الخيط؛ فلا حاجة للوصل هنا. فلمَّا قالوا قَوْلَتَهم من الكذب أجابهم يعقوب عليه السلام بهذا القول.

كما أنَّ في الكلام حذفًا. يمكن تقديره: لم يأكله الذئب بل سوَّلت[5]. فالاستئناف مبنيٌّ على سؤال فكأنَّه قيل: ما قال يعقوب؟

هل صدَّقهم فيما قالوا أم لا؟ فقيل: قال: لم يكن ذلك ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ﴾[6].

فائدة حرف الإضراب ﴿بَلْ﴾:

﴿بَلْ﴾ حرف يفيد الإعراض عمَّا قبلَه، وإثبات ما بعدَه على سبيل التَّدارك[7]؛ فاستخدامه هنا فيه إبطال لدعواهم أنَّ الذئب أكله؛ وإشارة إلى كذبهم فيما يدَّعون[8]. فقوله: ﴿بَلْ﴾ ردٌّ لقولهم: ﴿أَكَلَهُ

(1) الطيبي، حاشية على الكشاف: 8/276.
(2) الهلال، الثري الجامع: 5/323.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/238.
(4) محمود صافي، الجدول: 6/396.
(5) الآلوسي، روح المعاني: 6/391.
(6) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/260.
(7) البروسوي، روح البيان: 4/227.
(8) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/238.

ٱلذِّئۡبُ﴾، كأنَّه قال: ليس الأمر كما تزعمون، بل سوَّلت لكم أنفسكم الأمَّارة بالسُّوء أَمْرًا إِمْرًا، وكيدًا نُكْرًا؛ أي: هذا أمرُكم. وأمَّا أمري معكم ومع ربِّي ﴿فَصَبۡرٞ جَمِيلٞۖ﴾[1].

إيثار الفعل ﴿سَوَّلَتۡ﴾:

التَّسويل: التَّسهيل وتزيين النَّفس ما تحرص على حصوله[2]. وتصوير القبيح منه بصورة الحسن[3]. وهو دون غيره من الألفاظ مناسبٌ لفعل إخوة يوسف بيوسف عليه السلام.

فالتَّسويل: تقدير معنى في النَّفس على الطَّمع في تمامه[4]، وكأنَّ التَّسويل تفعيل من سؤال الإنسان، وهو أمنيَّته التي يطلبها فتزيِّن لطالبها الباطل وغيره. وأصله مهموز غير أنَّ العرب استثقلوا فيه الهمز[5].

ويجوز أن يكون ﴿سَوَّلَتۡ﴾ أي: سهَّلت من السَّول وهو الاسترخاء، أي: سهَّلت لكم أنفسكم أمرًا عظيمًا ارتكبتموه من يوسف، وهوَّنته في أعينكم[6]، وزيَّنته في قلوبكم فطوَّعته لكم حتى اقترفتموه[7].

فلأجل كلِّ هذه المعاني السَّابقة أوثر التَّعبير بالتَّسويل دون التَّطويع، وأيضًا لأجل أنَّ التَّطويع أشدُّ من التَّسويل؛ إذ يتطلَّب جهدًا أكبر[8].

دلالة التعبير بصيغة الماضي ﴿سَوَّلَتۡ﴾:

عبِّر بصيغة الماضي لما فيه من دلالة على تمام الحدوث؛ والمعنى أنَّه قد تحقَّق تسويل أنفسهم لهم بهذا الأمر، وتحقَّق تزيينه في قلوبهم. وفيه دلالة على التَّوكيد غير خافية.

مهما دبَّر المدبِّرون فلا بدَّ أن يتركوا خلفهم علامات وآثارًا تثبت أنَّهم هم الفاعلون

(1) الواحدي، التفسير البسيط: 12/49، ورشيد رضا، تفسير المنار: 12/220.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/238.
(3) الراغب، المفردات: (سول).
(4) الواحدي، التفسير البسيط: 12/48.
(5) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 18/430.
(6) الزمخشري، الكشاف: 2/451.
(7) رشيد رضا، تفسير المنار: 12/221.
(8) الهلال، الثري الجامع: 5/323.

تقديم الجار والمجرور في: ﴿لَكُمۡ﴾:

تقديم الجار والمجرور ﴿لَكُمۡ﴾ على المسند إليه فقال: ﴿سَوَّلَتۡ لَكُمۡ﴾؛ أي: لكم أنتم وليس لي، وكأنَّ كلَّ كذبهم لتبرئة أنفسهم أمام أبيهم ﷺ لم يخدعه، وهو إشارة منه إلى أنَّه ﷺ غير مصدِّق لما قالوه كُلِّه.

تقوم القرائن مقام الأدلَّة إن غابت الأدلَّة

فائدة تنكير ﴿أَمۡرًاۖ﴾:

تنكير ﴿أَمۡرًاۖ﴾ للتَّهويل، فالإبهام الذي في كلمة ﴿أَمۡرًاۖ﴾ يحتمل عدَّة أشياء ممَّا يمكن أن يؤذوا به يوسف ﷺ: مِن قتل، أو بيع، أو تغريب؛ لأنَّه لم يعلم تعيين ما فعلوه به[1]. فهو أمر منكر، لا يوصف ولا يُعْرَفُ[2].

وفي هذا التَّنكير والإبهام أيضًا ما فيه من التَّهويل والتَّشنيع لما اقترفوه في حقِّ أخيهم[3]. فالتَّنكير في ﴿أَمۡرًاۖ﴾ لبيان شدَّته، وبلوغ أقصى قوَّته[4].

التَّنكير لبيان عِظَم الأمر وشدَّته، وبلوغه أقصى قوَّته

دلالة الفاء، وإعراب ﴿فَصَبۡرٞ جَمِيلٞۖ﴾:

الفاء للسببيَّة فقوله ﴿فَصَبۡرٞ جَمِيلٞۖ﴾؛ أي: فتسبَّب عن ذلك الفادح العظيم أنَّه يكون صبر ﴿جَمِيلٞۖ﴾ منِّي، وهو الذي لا شكوى معه للخلق[5].

أو يكون المعنى على إضمار (أمَّا)؛ أي: أمَّا أنا فوظيفتي سأحرص على القيام بها، وهي أنِّي أصبر على هذه المحنة صبرًا جميلًا سالمًا من السُّخط والتَّشكِّي إلى الخلق، وأستعين الله على ذلك، لا على حولي وقوَّتي[6]. أو على التَّفريع على عِظم ما جاؤوا به في ﴿أَمۡرًاۖ﴾[7].

البلاء العظيم يقابله الصَّبر الجميل

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/238 - 239.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/260.
(3) طنطاوي، الوسيط: 7/330.
(4) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 7/3811.
(5) البقاعي، نظم الدرر: 10/32.
(6) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 395.
(7) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/239.

والرَّفع أبلغ وأحسن، وإنَّما يُختار النَّصب في الأمر خاصَّة[1]؛ لأنَّه على الثَّاني يكون مجرَّد دعوى[2]، والجملة اسميَّة تدلُّ على الثُّبوت والدَّوام؛ أي: صبري صبرٌ دائمٌ ومستمرٌّ[3].

نكتة وصف الصبر بالجمال ومعناه:

الصَّبر الجميل لا شكوى معه إلى خلق الله

وصف الصَّبر بالجميل في قوله: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ يحتمل أن يكون وصفًا كاشفًا؛ إذ الصَّبر كلُّه حسن دون الجزع. كما قال إبراهيم بن كنيف النبهاني:

تَصَبَّر فإنَّ الصَّبرَ بالحُرِّ أَجْمَلُ *** وَلَيْسَ عَلَى رَيْبِ الزَّمَانِ مُعَوَّلُ[4]

أي: أجمل من الجزع. ويحتمل أن يكون وصفًا مخصَّصًا. وقد فسِّر الصَّبر الجميل بالذي لا يخالطه جزع. والجمال: حُسن الشَّيء في صفات محاسن صنفه؛ فجمال الصَّبر أحسن أحواله، وهو ألَّا يقارنه شيء يقلِّل خصائص ماهيَّته[5].

دلالة الواو في: ﴿وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ﴾:

إنَّما يُطلَب العون من الله

الواو هنا عاطفة، وقوله: ﴿وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ عطفٌ على جملة ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾؛ فتكون محتملة للمعنيين المذكورين من إنشاء الاستعانة أو الإخبار بحصول استعانته بالله على تحمُّل الصَّبر على ذلك، أو أراد الاستعانة بالله ليوسف عليه السلام على الخلاص ممَّا أحاط به[6].

فقوله: ﴿وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ بيان عمَّا يوجبه التُّقى من الصَّبر الجميل عند المصيبة، والاستعانة بالله عز وجل عندما

(1) مكي بن أبي طالب، الهداية إلى بلوغ النهاية: 5/3521.
(2) ابن عرفة، تفسير القرآن: 2/379.
(3) الهلال، الثري الجامع: 5/324.
(4) بهاء الدين البغدادي، التذكرة الحمدونية: 4/301، والهاشمي، جواهر الأدب في أدبيات وإنشاء لغة العرب: 2/270.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/239 - 240.
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/240.

يعرض من الأمور الهائلة[1]، والتَّسليم لأمر الله تعالى والتوكُّل عليه، والتَّقدير: على احتمال ما تصفون[2]. وهو إنشاءٌ من يعقوب عليه السلام للاستعانة المستمرَّة[3]؛ فالجملة دُعاء، لا إخبارٌ من يعقوب عليه السلام[4].

بلاغة تصدير الجملة باسم الجلالة ﴿وَٱللَّهُ﴾:

التَّلبُّس بالصَّبر لا يكون إلا بمعونة الله تعالى

تصدير الجملة بلفظ الجلالة ﴿وَٱللَّهُ﴾ للاهتمام بذكر المعيَّن أوَّلًا؛ فهو المحيط علمًا وقدرة[5]. وفيه إشارة إلى أنَّ مقتضى العبوديَّة هو الخضوع والتَّسليم لله ربِّ العالمين فيما قضى وقدَّر، وأنَّه إذا قضى الله أمرًا من البلاء فالواجب على العبد أن يصبر ويحتسب، راضيًا عن ربِّه عز وجل، وأن يطلب العون من الله تعالى على هذا الصَّبر، لذلك قال يعقوب عليه السلام: ﴿وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ﴾ معبِّرًا بعنوان الألوهيَّة الذي يتضمَّن العلوَّ والقهر والحكمة والعلم، وليذكِّر نفسه بواجب العبوديَّة.

نكتة الإخبار عن اسم الجلالة بـ ﴿ٱلْمُسْتَعَانُ﴾:

لا حول ولا قوَّة للعبد إلَّا بالله، ولا قِبَل له بمقارعة النَّوازل إلَّا بإعانة مولاه

﴿وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ﴾؛ أي: المطلوب منه العون على احتمال ما تصفون من هلاك يوسف، والصَّبر على الرَّزيَّة[6]. وفي الإخبار بالمعرفة قَصْرٌ؛ أي لا يستعان إلَّا هو وحده في الصَّبر على ما يصفون من قول. ولم يقل: على ما وقع، بل قال: على ما وصفتم؛ للإشعار بأنَّ ما وصفوا غير ما وقع[7].

ومعنى استعانته عليه السلام بالله تعالى على كذبِهم: طلبُه منه سبحانه إظهارَ كونه كذبًا بسلامة يوسف عليه السلام والاجتماع معه، فيكون ذِكر

(1) الواحدي، التفسير البسيط: 12/51.
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 3/228.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/260.
(4) القنوجي، فتح البيان: 6/302.
(5) البقاعي، نظم الدرر: 10/32.
(6) أبو حيَّان، البحر المحيط: 6/251، والبقاعي، نظم الدرر: 10/32.
(7) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 7/3811.

الاستعانة هنا نظيرَ قوله: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَنِي بِهِمۡ جَمِيعًاۚ﴾ [يوسف: 83] بعد قوله فيما بعد: ﴿فَصَبۡرٞ جَمِيلٞۖ﴾[1].

والمعنى: أنَّ إقدامه على الصَّبر لا يمكن إلا بمعونة الله تعالى؛ لأنَّ الدَّواعي النَّفسانيَّة تدعوه إلى إظهار الجزع وهي قويَّة، والدَّواعي الرُّوحانيَّة تدعوه إلى الصَّبر والرِّضا، فكأنَّه وقعت المحاربة بين الصِّنفين، فما لم تحضر إعانة الله تعالى لم تحصل الغلبة، فقوله: ﴿فَصَبۡرٞ جَمِيلٞۖ﴾ يجري مجرى قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾ [الفاتحة: 5] وقوله: ﴿وَٱللَّهُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ يجري مجرى قوله: ﴿وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ۝٥﴾ [الفاتحة: 5][2].

البلاغة في التَّعْبِيْر بـ ﴿مَا تَصِفُونَ﴾:

عبّر البيان القراني عَمَّا أَصَابَ يُوسُفَ عليه السلام من إخوته بـ: ﴿عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾؛ أي: على ما تكذبون[3]. والوصف ذِكر الشَّيء بنعته. وهو قد يكون صدقًا وقد يكون كذبًا، والمراد به هنا الثَّاني كما في قوله سبحانه: ﴿سُبۡحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلۡعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ۝١٨٠﴾ [الصافات: 180] بل قيل: إنَّ الصِّيغة قد غلبت في ذلك[4]. ولم يقل: (على ما وقع)، بل قال: على ما وصفتم؛ للإحساس بأنَّ ما وصفوا غيرُ ما وقع[5].

لكلِّ نبأ مستقرٌّ، وكلُّ آتٍ قريب، وكلُّ همٍّ إلى فرج

فقوله: ﴿تَصِفُونَ﴾؛ يعني: أنَّكم لا تقولون الحقيقة، بل تصفون شيئًا لا يصادف الواقع[6]. فالتَّعبير عمَّا أصاب يوسف عليه السلام بـ ﴿مَا تَصِفُونَ﴾ في غاية البلاغة لأنَّه كان واثقًا بأنهم كاذبون في الصِّفة وواثقًا بأنَّهم ألحقوا بيوسف عليه السلام ضرًّا، فلمَّا لم يتعيَّن عنده المصاب

(1) الآلوسي، روح المعاني: 6/393.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 18/432.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 13/42.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 6/393.
(5) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 7/3811.
(6) الشّعراوي، تفسير الشعراوي: 11/6893.

أجمل التَّعبير عنه إجمالًا موجهًا؛ لأنَّهم يحسبون أنَّ ما يصفونه هو موته بأكل الذِّئب إيَّاه، ويعقوب عليه السلام يريد أنَّ ما يصفونه هو المصاب الواقع الذي وصفوه وصفًا كاذبًا. فهو قريب من قوله تعالى: ﴿سُبۡحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلۡعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ١٨٠﴾ [الصافات: 180][1].

دلالة استخدام ﴿عَلَىٰ﴾:

لا يفتأ الكاذب يذيع أراجيفه

استعمال ﴿عَلَىٰ﴾ في قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ بعد قوله: ﴿ٱلۡمُسۡتَعَانُ﴾ يدلُّ على تمام القدرة لما في ﴿عَلَىٰ﴾ من دلالة على الاستعلاء والاستيلاء والفوقيَّة، فعون الله يكون فوق كلِّ بلاء، وكلُّ مصيبة تصغر إذا قوبلت بعونه سبحانه.

دلالة استخدام صيغة المضارع ﴿تَصِفُونَ﴾:

تدلُّ صيغة المضارع على الحال والاستقبال، كما تدلُّ على التَّجدد والاستمرار، فكأنَّهم ما فتئوا يعتذرون ويبرِّرون ويكذبون ويدَّعون، ذلك أنَّهم يعلمون في قرارة أنفسهم أنَّهم كاذبون مخادعون!

وفي استعمال المضارع بعد قوله: ﴿ٱلۡمُسۡتَعَانُ﴾ دلالة على أنَّه ثابت على استمداد العون من الله بدعائه إيَّاه كلَّما ابتلي بأكاذيبهم الفظيعة حول مقتل أخيهم.

دلالة تعريف طرفي الإسناد ﴿وَٱللَّهُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ﴾:

في تعريف طرفي الإسناد قصر لطلب العون من الله وحده، فهو وحده القادر على عونه في هذا البلاء العظيم. وفيه توكيد للمعنى.

معنى ﴿مَا﴾ ودلالتها:

﴿مَا﴾ في قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ أوسع شمولًا من الذي[2]، وتَحْتَمِل الموصولة، والموصوفة، والمصدريَّة، فعلى الأَوَّلَيْنِ مبنيَّة

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/240.
(2) الهلال، الثري الجامع: 5/324.

على السُّكون في محلِّ جرٍّ بـ ﴿عَلَىٰ﴾، والجملة الفعليَّة صلة: ﴿مَا﴾ أو صفتها، والعائد أو الرَّابط محذوف، والجارُّ والمجرور متعلِّقان بـ ﴿ٱلْمُسْتَعَانُ﴾ وتقدير الكلام: المستعان على الذي، أو شيء تصفونه.

وعلى اعتبار ﴿مَا﴾ مصدريَّة تؤوَّل مع الفعل بعدها بمصدر في محلِّ جرٍّ بـ ﴿عَلَىٰ﴾، والتَّقدير: المستعان على وصفكم؛ أي: على ادِّعائكم[1].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

التسويل والتطويع:

التطويع أشدُّ من التسويل

التسويل: تزيين النفس لما تحرص عليه وتصوير القبيح منه بصورة الحسن[2]، والتطويع: التسهيل[3]، وهو أشدُّ من التسويل، ويوضِّح ذلك أنَّ الحديد يحتاج إلى تطويع أي: يحتاج إلى جهد حتى يُطوَّع، وتطويع الوحش وترويضه يحتاج إلى وقت حتى يُطيع مَن يريد أن يطوِّعَه، وكذلك تطويع الطيور؛ فكلُّ ذلك يحتاج إلى جهد وبذل لتحقيق التطويع، أمّا التَّسويل فلا يحتاج إلى مثل ذلك الجهد[4].

قال الله ﷻ: ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ﴾ [المائدة: 30]؛ ودلَّ (طوَّع) على حدوث تردُّدٍ في نفس قابيل ومغالبة بين دافع الحسد ودافع الخشية[5]، فالقتل في ذاته مستصعَب عظيم على النفوس فردَّته هذه النَّفس اللَّجوجة الأمّارة بالسّوء طائعًا منقادًا حتى واقعه صاحبُ هذه النَّفس؛ فهذا التطويع ليس كالتَّسويل والتَّزيين الذي يُفعَل فيه الشيء بسهولة وارتياح[6].

وأصل التَّسويل يدلُّ على الاسترخاء، ولمّا اتَّهم إخوةُ يوسف أباهم

(1) الدرة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 4/559.
(2) الراغب الأصفهاني، المفردات: (سول).
(3) الأزهري، التهذيب، والجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب: (طوع).
(4) السامرائي، لمسات بيانية، محاضرات، ص: 1046.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 6/172.
(6) ابن عطية، المحرّر الوجيز: 2/179، 180، والسامرائي، لمسات بيانية، محاضرات، ص: 1046.

حين قالوا: ﴿لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٨﴾ [يوسف: 8]؛ فعلوا ما ظنوه عدلًا لا ضلالًا، فكأنَّ فِعلَهم كان باسترخاء وارتياح لذلك، فقال لهم أبوهم: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا﴾. وكذلك في المرَّة الأخرى هم الذين حكموا مسبَّقًا بشأن صُواع الملك، قال الله ﷻ: ﴿قَالُواْ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِى رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ﴾ [يوسف: 75]، فهذا كان عدلًا عندهم؛ فقال أبوهم مرَّة ثانية: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا﴾ [يوسف: 83]؛ أي: صوَّرته لكم عدلًا[1].

الصَّبر والتَّصَبُّر، والاصطِبار والمُصابَرة:

التصبُّر تمرُّنٌ على الصَّبر، والاصطبار أبلغ من التصبُّر، والمصابرة الصبرُ في وجه الصابر

الفرق بين هذه الأسماء بحسب حال العبد في نفسه وحاله مع غيره، فإنَّ حَبَسَ نفسه ومَنَعَها عن إجابة داعي ما لا يَحسن؛ إن كان خُلُقًا ومَلَكَةً سمي صبرًا. وإن كان بتكلُّف وتمرُّن وتجرُّع لمرارته سُمِّي تصبُّرًا، كما يدلُّ عليه هذا البناء لغة، فإنَّه موضوع للتكلُّف؛ كالتحلُّم، والتشجُّع، والتكرُّم، والتحمُّل ونحوها. وإذا تكلَّفه العبد واستدعاه صار سجيَّة له؛ كما في الحديث عن النَّبيّ ﷺ أنه قال: «ومَنْ يَتَصَبَّرْ يُصَبِّرْهُ الله»[2].

وأمّا الاصطبار فهو أبلغ من التصبُّر؛ فإنه افتعال للصبر بمنزلة الاكتساب، فالتصبر مبدأ الاصطبار، كما أن التكسُّب مقدِّمة الاكتساب، فلا يزال التصبُّر يتكرر حتى يصير اصطبارًا[3].

وأمّا المصابرة فهي مقاومة الخصم في ميدان الصَّبر؛ فإنها مفاعلة تستدعي وقوعَها بين اثنين كالمشاتمة والمضارَبة، أو هي الصبر في وجه الصابر، وهذا أشدُّ الصبر ثباتًا في النفس وأقربه إلى

(1) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (سول).
(2) ابن القَيِّم، عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين: 1/31، والحديث أخرجه البخاري، الجامع الصحيح، الحديث رقم: (1469)، ومسلم، صحيح مسلم، الحديث رقم: (1053)، وغيرهما.
(3) ابن القَيِّم، عدة الصابرين: 1/33.

التَّزلزل، ذلك أنَّ الصبر في وجه صابر آخر شديد على نفس الصابر لما يلاقيه من مقاومة قِرنٍ له في الصبر قد يساويه أو يفوقه، ثم إنَّ هذا المصابِر إن لم يَثبت على صبره حتّى يَمَلَّ قِرنُه فإنَّه لا يَجتني من صبره شيئًا، لأنَّ نتيجة الصبر تكون لأطول الصابرين صبرًا[1].

قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصۡبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ﴾ [آل عمران: 200]؛ فأمرهم بالصَّبر وهو حال الصّابر في نفسه، والمصابرة وهي حاله في التصبُّر مع خصمه، والمرابطة وهي الثبات واللزوم والإقامة على التصبُّر والمصابرة، فقد يصبر العبد ولا يصابر، وقد يصابر ولا يرابط، وقد يصبر ويصابر ويرابط من غير تعبُّد بالتقوى، فأخبر سبحانه أنَّ مِلاكَ ذلك كلّه التقوى، وأنَّ الفلاح موقوف عليها فقال ﷻ: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ٢٠٠﴾ [آل عمران: 200][2].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/208.

(2) ابن القَيِّم، عدّة الصابرين: 1/33، 34.

﴿وَجَآءَتۡ سَيَّارَةٞ فَأَرۡسَلُواْ وَارِدَهُمۡ فَأَدۡلَىٰ دَلۡوَهُۥۖ قَالَ يَٰبُشۡرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٞۚ وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةٗۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ ١٩﴾ [يوسف: 19]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

تنقطع أسباب البشر؛ ولا تنقطع ألطاف المليك المقتدر

لمَّا بيَّن الله سبحانه مكر الإخوة بأخيهم، وتآمرهم عليه؛ وظلمهم الشديد له بإلقائهم إيَّاه في قعر بئر وحشيّة؛ بيّن سبحانه سُبُل خلاصه من تلك البليّة؛ حيث أحوج إلى بئره تلك الرّفقة المسافرة؛ ليخبر سبحانه أنّ مشئيته قاهرة، وأنَّ ألطافه باهرة[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿سَيَّارَةٞ﴾: السَّير: الذَّهاب والمضيّ في الأرض نهارًا وليلًا، أما السُّرَى فلا يكون إلا ليلًا. تقول: سار يسير سَيرًا ومَسِيرًا ومَسِيرَةً: ذهب[2]. وأصله يدلُّ على مضيٍّ وجريان[3]، والسِّيرة: الطَّريقة في الشَّيء وفي السُّنة[4]. والسَّيَّارة: الجماعة يسيرون، وأيضا: القافلة[5]. قال الله تعالى: ﴿وَجَآءَتۡ سَيَّارَةٞ﴾.

2) ﴿وَارِدَهُمۡ﴾: الوِرد: خلاف الصَّدر، وهو: الإشراف على الماء وغيره دَخَلَهُ أو لم يدخله. يقال: وَرَد الماءَ وغيرَه يَرِده وَردًا وورودًا:

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 18/432، وابن عادل، اللّباب: 11/47، والخطيب الشربيني، السّراج المنير: 2/97، والزحيلي، التفسير المنير: 12/229.

(2) الجوهري، الصحاح، والراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (سير).

(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سير).

(4) الجوهري، الصحاح، وابن فارس، المجمل، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (سير).

(5) الجوهري، الصحاح، والراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (سير).

حضره، وأشرف عليه سواء دخله أو لم يدخله[1]، وأصله من الموافاة إلى الشيء وقصده، سواء كان ماءً أو غيره[2].

والوارِد: الذي يتقدم القوم فيسقي لهم، ويقال لكلِّ من يَرِد الماء: وارد[3]. ومن ذلك قوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلُواْ وَارِدَهُمْ﴾. أي: ساقيهم من الماء المورود[4].

3) ﴿فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ﴾: الدَّلْو: واحد الدِّلاء التي يُستقى بها، وجمعه: أَدْلٍ ودِلاء[5]. وأصله من مقاربة الشَّيء ودنوِّه بسهولة ورفق[6]، ودَلَوْتُ الدَّلْو: إذا أخرجته ونزعته. وأَدْلَيْت الدَّلو: إذا أرسلتها وأنزلتها في البئر لتملأها للاستقاء[7]. وقوله تعالى: ﴿فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ﴾. أي: أرسل الدَّلو[8].

4) ﴿يَٰبُشْرَىٰ﴾: أَبْشَرت الرَّجل وبشَّرته وبَشَرْته: أخبرته بخبر سارٍّ، فيَسُرُّه ويُفْرِحُه[9]، وأصله من ظهور الشَّيء مع حسن وجمال[10]. ومنه البِشارة والبُشْرى: الخبر السَّارُّ[11]، وأصل ذلك أنَّ بَشَرة الإنسان تنبسط عند السرور[12]. ومنه قوله تعالى: ﴿يَٰبُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٌ﴾.

5) ﴿غُلَٰمٌ﴾: غَلِم يغلم غَلَما وغِلمة، واغتلم اغتلامًا، وهو المغلوب شهوةً[13]. وأصله "يدلُّ على حداثة وهيج شهوة"[14]، والغلام: الطَّارُّ الشَّارب، أي: الذي طلع شاربه وظهر، وجمعه: غِلْمَة وغِلمان[15]. والغُلْمَة: غلبة شهوة النِّكاح، وهيجانها[16].

---

(1) الجوهري، الصحاح، وابن فارس، المجمل، والراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (ورد).

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (ورد).

(3) الراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (ورد).

(4) الخليل، العين، والراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (ورد).

(5) الخليل، العين، والجوهري، الصحاح: (دلو).

(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (دلى).

(7) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، المجمل، والجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب: (دلو).

(8) الراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (دلو).

(9) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح، والراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (بشر).

(10) ابن فارس، مقاييس اللغة، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (بشر).

(11) الراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (بشر).

(12) الأزهري، تهذيب اللغة: (بشر).

(13) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (غلم).

(14) ابن فارس، مقاييس اللغة: (غلم).

(15) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح، والراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (غلم).

(16) الجوهري، الصحاح، والراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (غلم).

6) ﴿وَأَسَرُّوهُ﴾: السرُّ: هو ما تكتمه وتخفيه من غيرك، وهو ضدُّ الإعلان، وجمعه أسرار[1]. ومعناه المحوريُّ: إخفاء الشَّيء[2]. والإسرار: ضدُّ الإعلان، وهو الكتمان والإخفاء. وأسررت الشَّيء أخفيته، وأسررته كذلك: أعلنته وأظهرته، فهو من الأضداد[3].

7) ﴿بِضَٰعَةٗ﴾: بَضَعْتُ اللَّحم أَبْضَعُه بَضْعًا، وبَضَّعتُه تبضيعًا: جعلته قِطَعًا. والبَضْعَة: القطعة من اللَّحم[4]، وأصله الطَّائفة والجملة من الشَّيء عضوًا كان أو غيره[5]. ومنه البِضَاعة: طائفة تَقْتَطِعُها من المال تقتنيها لأجل التِّجَارة[6].

المَعْنى الإِجْماليُّ:

في أشدِّ لحظات الضِّيق واليأس تأتي أحلى بشارات الفرج والأمل

استأنف البيان القرآنيُّ تصوير مشهد يوسف عليه السلام، وإخراجه من البئر عن طريق جماعة المارَّة من المسافرين، ومن خلال السَّاقي الذي أرسلوه لطلب الماء، فبيّنَ أنّه قد جاءت جماعة من المسافرين من مدين إلى مصر جهة البئر فبعثوا ساقيهم لطلب الماء، فلمَّا تقدَّم إلى البئر وألقى دلوه فيه تعلَّق به يوسف عليه السلام فلمَّا رآه صاحب الدَّلو؛ قال مبتهجًا ومسرورًا: يا للخير ويا للبشر هذا غلام صبيح مليح، فأخفى السَّاقي وأصحابه أمره متاعًا للتَّكسُّب والتجارة، واللّٰه محيط علمه بما كانوا يعملون[7].

(1) الجوهري، الصحاح، وابن فارس، المجمل، والراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (سرر).
(2) ابن فارس، المقاييس: (سرر).
(3) الخليل، العين، والجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب: (سرر).
(4) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، المجمل، والجوهري، الصحاح، والراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (بضع).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (بضع).
(6) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح، والراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (بضع).
(7) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 395، والزحيلي، التفسير الوسيط: 2/1099، وطنطاوي، التفسير الوسيط: 7/332.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالة الواو في: ﴿وَجَآءَتۡ﴾:

كرامة الله ملازمةٌ لأوليائه، ومعيَّتهُ محيطةٌ بأنبيائه

الواو عاطفة، حيث عطفت قوله تعالى: ﴿وَجَآءَتۡ سَيَّارَةٞ﴾ على قوله تعالى: ﴿وَجَآءُوٓ أَبَاهُمۡ عِشَآءٗ يَبۡكُونَ﴾ وهو من باب عطف القصَّة على القصَّة. وهذا رجوع إلى ما جرى في شأن يوسف عليه السلام[1].

وقيل: الواو استئنافيَّة[2]، وعليها يكون هذا الاستئناف للشُّروع في ذكر فصل جديد من قصَّة يوسف عليه السلام؛ لإظهار ما أحاطه الله تعالى به من الكرامة.

سرُّ التَّعبير بفعل المجيء:

قد يحصل الفرج من حيث لا يحتسَب، ويُكشَف الكرب بأدنى سبب

المجيء: الإتيان. يقال: جاء يجيء جيئًا ومجيئًا؛ أي: أتى. وهو فعل يتعدَّى بنفسه، وبحرف الجرِّ، وبهمزة التَّعدية[3].

والمجيء كالإتيان، لكنَّ المجيء أعمُّ؛ لأنَّ الإتيان مجيء بسهولة، والإتيان قد يقال باعتبار القصد وإن لم يكن منه الحصول، وأمَّا المجيء فيقال اعتبارًا بالحصول، ويكون في الأعيان والمعاني، ولِما يكون مجيئه بذاته وبأمره، ولِمَن قصد مكانًا أو عملًا أو زمانًا[4].

واختيار المجيء بدلًا من الرُّجوع أو الإتيان؛ لأنَّ المجيء فيه معنى المشقَّة والصُّعوبة، فهُم قد ألقَوْا أخاهم في البئر ثمَّ جاؤوا يتباكون، وفي افتعال البكاء نوع مشقَّة، وقد جاؤوا بدم مكذوب على قميصه عليه السلام؛ فليس هو بدمه الزَّكيِّ، ولا شكَّ أنَّ اختلاق ذلك كان مصحوبًا كذلك بنوع مشقَّة. ومرور الرُّفقة المسافرين بالبئر الذي أُلقي فيه يوسف عليه السلام كذلك كان مصحوبًا بمشقَّةِ قطعهم للفيافي، ومكابدتهم

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/241.
(2) درويش، إعراب القرآن: 4/462، وصافي، الجدول: 6/398، وبهجت صالح، الإعراب المفصل: 5/281.
(3) حسن الجمل، معجم وتفسير لغوي لكلمات القرآن: 1/352.
(4) الراغب، المفردات: (جاء).

لِلَأواء السَّفر؛ فلأجل ذلك كلِّه عُبِّر بالمجيء في الآيات الثَّلاث دون الإتيان؛ إذ إنَّ الإتيان فيه معنى السُّهولة[1].

والتَّعبير بالمجيء في قوله تعالى: ﴿وَجَآءَتۡ سَيَّارَةٞ﴾ ليس بالنِّسبة إلى مكانهم؛ فإنَّ أرض (كنعان) ليس بالجانب المصريِّ من (مدين)، بل المقصود مجيئهم إلى مكان يوسف عليه السلام. وفي إيثاره على المرور أو الإتيان أو نحوهما إيماء إلى كونه عليه السلام في الكرامة والزُّلفى عند مليك مقتدر[2].

دلالة التَّعاقب في المجيء:

وفي تعاقب الأفعال: ﴿وَجَآءُوٓ أَبَاهُمۡ﴾، ﴿وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ﴾، ﴿وَجَآءَتۡ سَيَّارَةٞ﴾ إشارة إلى المقابلة والمعاقبة، فمجيء إخوة يوسف عليه السلام كان لأجل إبعاده عن أبيه عليه السلام، وتكالبهم عليه كان بقصد قهره وإذلاله عليه السلام، فمكروا مكرًا، ومكر الله تعالى مكرًا من حيث لا يشعرون، فقد جعل الله عز وجل صنيعَهم الذي قصدوا به ما قصدوا سببًا لرفعة شأن يوسف عليه السلام، وجعله ملكًا على مصر، ليترتَّب على ذلك ما ترتَّب من مجيئهم إليه يسألونه الميرة مؤتمرين بأمره، مسلِّمين لحكمه.

معنى ﴿سَيَّارَةٞ﴾، وسرّ التعبير به:

السَّيَّارة هم القوم المسافرون الذين يردِّدون السَّير في الطُّرق، سُمُّوا سيَّارة لأنَّهم يسيرون في الأرض[3]. وهي جمع (سيَّار)، كما قالوا: بغَّال وبغَّالة، وبناؤها بناء مبالغة[4]؛ أي: قومٌ بليغُو السَّير[5].

والتَّعبير بالسَّيَّارة يلفت إلى عجيب صنع الله تعالى وبديع ترتيبه

الله لطيف بعباده، نصير لأوليائه، رحيم في قدره، حكيم في قضائه

(1) الهلال، الثري الجامع: 5/322.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/261.
(3) البغوي، معالم التنزيل: 4/223.
(4) ابن عطية، المحرر الوجيز: 3/228، ورشيد رضا، تفسير المنار: 12/223.
(5) البقاعي، نظم الدرر: 10/35.

لأوليائه، ذلك أنَّ السَّيَّارة لا يكادون يَقَرُّون في مكان، بل هم يردِّدون السَّير في الأرض؛ ولذلك وُصِفوا بالمبالغة فيه لتكرُّر وقوع السَّفر منهم مرَّة بعد مرَّة، فهُم المتمرِّسون بالسَّفر، العارفون بدروبه، الخبراء بأماكن الماء، ومواطن الآبار، ومنابت الكلأ؛ لأجل ذلك نزلوا عند هذه البئر لمعرفتهم بوجود الماء فيها، وأرسلوا واردهم، فوجد يوسف عليه السلام، وأخذوه معهم في سفرهم، وهذا هو عين ما أراده إخوته بقولهم: ﴿يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ﴾ [يوسف: 10]. فإنَّ مُدِيمي السَّفر سيجدونه ويأخذونه معهم في سفرهم البعيد، فيُبعَد بذلك يوسفُ عن أبيه عليهما السلام.

وربَّما لو كانت هذه الرُّفقة مجرَّد قوم مسافرين لا سيَّارة لما اهتدوا إلى مكان الجُبِّ الذي أُلقي فيه يوسف عليه السلام.

"وفي عثور السَّيَّارة على الجُبِّ الذي فيه يوسف عليه السلام آية من لطف الله به"[1].

دلالة تنكير ﴿سَيَّارَةٌ﴾:

جاءت كلمة ﴿سَيَّارَةٌ﴾ نكرة في قوله تعالى: ﴿وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ﴾ للإفراد؛ أي أنَّ المقصود هو فرد غير معيَّن ممَّا يصدق عليه اسم الجنس[2]، أي أنَّهم جماعة مسافرون من بين جماعات كثيرة تزاول السَّفر، فتعيينها زائد على ما يُقصَد بيانه، فمن ثمَّ تُرِك التَّعيين لأنَّ المقصود هو بيان أنَّهم مسافرون مرُّوا بالبئر فأخذوا يوسف عليه السلام معهم.

دلالة الفاء، وإيثار التعبير بالإرسال في: ﴿فَأَرْسَلُواْ﴾:

الفاء في قوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلُواْ﴾ حرف عطف[3]، يفيد التَّرتيب، والتَّعقيب[4]، ويشير إلى سرعة إرسالهم الوارد ليستقي لهم من

بالصَّبر والرِّفق
ينال المحتاج أربَه

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/243.
(2) المراغي، علوم البلاغة، ص: 126.
(3) بهجت صالح، الإعراب المفصل: 5/282.
(4) الهلال، الثري الجامع: 5/325.

الماء، ويدلُّ على أنَّ حاجتهم للماء كانت شديدة بسبب ما عانوه من مشقَّة السَّفر، ولذا بادروا بإرسال الوارد فور مجيئهم.

أمَّا الإرسال فهو الانبعاث على التُّؤدة، وفيه معاني الرِّفق والامتداد[1]. وهذا كلُّه ملحوظ في إرسال السَّيَّارة واردَهم، إذ إنَّ البحث عن الماء في الصَّحراء يتطلَّب صبرًا ومعرفة وخبرة، إضافة إلى التَّريُّث والتَّحقُّق وعدم التَّعجُّل؛ لأنَّ هذا ربَّما يدفعه لأنْ يظنَّ السَّراب ماءً.

فضلًا عن أنَّه يصوِّر الوارد بصورة الرَّسول الذي يرسله السَّيَّارة لأجل الإشراف على الماء إلى الجبِّ ليستقي لهم[2]، فكأنَّ بينهم وبين الماء علاقة وثيقة جعلتهم يتراسلون فيما بينهم.

سرُّ تنوُّع الضَّمائر:

تنوُّع الضَّمائر بين المفرد المؤنَّث: ﴿وَجَآءَتْ﴾، وجمع الذكور: ﴿فَأَرْسَلُواْ﴾ فذكَّر المرسِلين بعدما أنَّث السَّيَّارة؛ لأنَّ السَّيَّارة في المعنى للرِّجال[3]، فذكَّر على المعنى، ولو قال: (فأرسلت واردها) لكان التَّأنيث على اللَّفظ، مثل قوله تعالى: ﴿وَجَآءَتْ﴾[4].

الرِّجال في الحادثات مقدَّمون، وعن نسائهم يذودون

والسِّرُّ في ذلك أنَّ جمع التَّكسير يصدق على المذكَّر والمؤنَّث، والعاقل وغير العاقل، أمَّا جمع الذكور فلا يطلق إلَّا على ما كان مذكَّرًا عاقلًا.

فقوله تعالى: ﴿وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ﴾ فإنَّ ﴿سَيَّارَةٌ﴾ جاءت في موضعها من حيث الدِّلالة على هؤلاء الرُّفقة المسافرين، لتشمل ذكورهم وإناثهم وربَّما بهائمهم، فكلُّ هؤلاء مسافرون.

(1) ابن فارس، المقاييس، والراغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (رسل).
(2) البقاعي، نظم الدرر: 10/35.
(3) الأخفش، معاني القرآن: 1/396.
(4) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 9/152.

أمَّا قوله تعالى: ﴿فَأَرۡسَلُواْ﴾ فإنَّ مَن يرسل غيره لطلب الماء لا يكون إلَّا عاقلًا، فلا يُتَصوَّر صدور ذلك من البهائم العجماوات، فضلًا عن أنَّه يشير إلى أنَّ مَن بعث في طلب الماء هم الذُّكور دون النِّساء، فإنَّ رجالهنَّ قد كفَوْهنَّ مؤونة السُّؤال، وربَّما يكون الذين أرسلوا الوارد هم قادة القافلة المسؤولون عنها.

الانسجام الصوتي بين ﴿سَيَّارَةٌ﴾ و﴿فَأَرۡسَلُواْ﴾:

بين قوله تعالى: ﴿سَيَّارَةٌ﴾، وقوله سبحانه: ﴿فَأَرۡسَلُواْ﴾ انسجام صوتيٌّ ناشئ عن تكرار بعض الحروف في الكلمتين، فنجد حرف (السِّين)، وحرف (الرَّاء) في الكلمتين، وقد جاء توزيعهما على نحو معجب، حيث جاءا هكذا: (سين، ثمَّ راء، ثمَّ راء، ثمَّ سين)، فضلًا عن تقارب مخارج الحروف الأخرى؛ كالتَّاء المضمومة التي تُضَمُّ معها الشَّفتان فتُسلِم إلى حرف الفاء الشَّفويِّ تقاربًا لا يُحدث تنافرًا بين الكلمتين.

وهذا الانسجام الصَّوتيُّ يُحدِثُ جَرْسًا تَطرب له الأذن، فتنجذب النَّفس للانفعال مع المعنى. ويضاف إلى ذلك أنَّ الكلمتين تعبِّران عن الحركة، فدلَّتا بانسجامهما على انسياب هذه الحركة وانتظامها.

في القرآن الكريم تتآزر الأصوات والحروف والألفاظ والمعاني لترسم صورة دلاليَّة بديعة

معنى: ﴿وَارِدَهُمۡ﴾، وفائدة إضافته:

الوارد: هو الذي يَرِدُ الماء ليستقي للقوم؛ أي: فَرَطُهم ومُقَدَّمُهم، الذي يعسُّ لهم المياه، ويسبرها، ويستعدُّ لهم بتهيئة الحياض، وإعداد الدِّلاء والأرشية ونحو ذلك[1].

لكلِّ خبير ميدان، ولكلِّ طريق عريف

وإضافة الوارد للضَّمير ليست إضافة إلى المفعول، بل المعنى: الذي يَرِدُ عليهم، والذي يكسب لهم. والظَّاهر أنَّ الوارد واحد[2]. وهو الذي أوكلت إليه القافلة مهمَّة طلب الماء، لخبرته وبُعد معرفته،

(1) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 395.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 6/251.

وممَّا يؤيِّد ذلك إضافة الدَّلو إليه في قوله تعالى: ﴿دَلۡوَهُۥۖ﴾، فله دلوه الخاصُّ الذي يمتاح به من البئر.

إضافة إلى ما حقَّقته هذه الإضافة من الاختصار الذي يقتضيه المقام، فقوله تعالى: ﴿وَارِدَهُمۡ﴾ أخصر من (الوارد الذي لهم)، وهذا الاختصار جاء متناسبًا مع التَّعقيب والسُّرعة الذي دلَّت عليه الفاء في ﴿فَأَرۡسَلُواْ﴾، فالقوم قد أسرعوا في إرسال الوارد لشدَّة حاجتهم للماء.

دلالة الفاء، وسرّ التعبير بالإدلاء:

مهما ألقت الشَّدائد بأصحابها في ظلمتها، فإنَّ الفرج سينتشلهم من غيابتها

الفاء في قوله تعالى: ﴿فَأَرۡسَلُواْ﴾ و ﴿فَأَدۡلَىٰ دَلۡوَهُۥۖ﴾ للتَّرتيب، والتَّعقيب[1]، وقد أفادت سرعة تلبية الوارد سؤال القبيلةِ إيَّاه الماءَ، فذهب من فوره لم يتوانَ. وفي الكلام حذف مفهوم من السِّياق، وتقديره: فذهب الوارد يبحث حتّى وصَلَ البئرَ، وفور وصوله أدلى دَلْوَه فيه.

وتدور معاني الإدْلاء حَوْلَ مُقاربة الشَّيء ومداناته بسهولة ورفق، وامتداده إلى سُفْلٍ بثقل محدود ليتَّصل بشيء نيلًا له أو اشتمالًا عليه[2]. والدَّلو: ما يُدلى لإخراج الماء، فإذا امتلأ ماءً، قيل: ذَنوب وسَجْل[3].

ومن هنا كان التَّعبير بالإدلاء مناسبًا لامتياح الماء من البئر، إضافة إلى ما تدلُّ عليه مادَّة الإدلاء من بُعد قعر البئر، وفيه إشارة لما عاناه نبيُّ الله يوسف عليه السلام في أغوار البئر وغياباته.

جناس الاشتقاق بين ﴿فَأَدۡلَىٰ﴾ و﴿دَلۡوَهُۥۖ﴾:

استمالة المستمع وتشويق المخاطب

بين قوله تعالى: ﴿فَأَدۡلَىٰ﴾، وقوله تعالى: ﴿دَلۡوَهُۥۖ﴾ جناس لفظيٌّ، أو ما يُسمَّى بجناس الاشتقاق، وذلك لاتِّفاق الكلمتين في الجذر اللغويِّ مع اختلاف صورتيهما ومعناهما.

(1) الهلال، الثري الجامع: 5/325.
(2) ابن فارس، المقاييس، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (دلو).
(3) الدرة، تفسير القرآن وإعرابه: 4/560.

وسرُّ جماله هو ما يحدثه من ميل إلى الإصغاء؛ لما فيه من مناسبة الألفاظ[1]، وهذا من الدَّوافع التي تهيِّئ النَّفس للتَّفكُّر في المعنى.

بلاغة الإيجاز في الآية:

في الكلام محذوف استغنى بدلالة ما ذكر عليه فتُرك، وتقديره: فذهب الوارد إلى البئر، فوقف عليه، فأدلى دلوه، فتعلَّق به يوسف عليه السلام، فخرج[2].

وإنَّما لم يذكر منتهى الإرسال - أي: إلى البئر - كما لم يذكر منتهى المجيء وهو الجُبُّ للإيذان بأنَّ ذلك معهود لا يضرب عنه الذكر صفحًا[3]. وهذا من باب الإيجاز بالحذف.

الوضوح، وإشعاع المعاني بالنور من ثنايا الألفاظ

علّة الفصل في: ﴿قَالَ يَٰبُشۡرَىٰ﴾:

قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰبُشۡرَىٰ﴾ استئناف بيانيٌّ مبنيٌّ على سؤال يقتضيه الحال[4]؛ لأنَّ ذِكر إدلاء الدَّلو يهيِّئ السَّامع للسُّؤال عمَّا جرى حينئذ[5]، فكأنَّه قيل: ماذا قال حين أدلى الوارد دلوه في الماء فتعلَّق يوسف عليه السلام بالحبل فأطلعه فإذا هو بإنسان أجمل ما يكون؟ فقيل: ﴿قَالَ﴾؛ أي: الوارد يُعْلِم أصحابه بالبشرى ﴿يَٰبُشۡرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٞۚ﴾[6]. ولأجل ذلك فُصل بين الجملتين.

ليس كلُّ مَن طلب شيئًا يعطَى مراده فقط بل ربَّما يعطَى فوق مأموله

بلاغة المجاز في: ﴿يَٰبُشۡرَىٰ﴾:

قول الوارد: ﴿يَٰبُشۡرَىٰ﴾ هو على سبيل السُّرور والفرح بيوسف عليه السلام، إذ رأى الوارد غلامًا كأحسن ما خَلَقَ الله تعالى[7].

ما أجمل الفأل الحسن! يُنادَى فيلبِّي، ويُدعَى فيجيب

(1) جامعة المدينة، البلاغة: 1/508.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 13/42.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/261.
(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/261.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/241.
(6) البقاعي، نظم الدرر: 10/36.
(7) أبو حيان، البحر المحيط: 6/252.

فنادَى البُشرى بشارةً لنفسه، أو لقومه ورفقته[1]. ونداء البشرى مجاز؛ لأنَّ البشرى لا تنادَى، ولكنَّها شُبِّهت بالعاقل الغائب الذي احتيج إليه فينادَى. فهي استعارة مكنيَّة، وحرف النِّداء تخييل، أو تبعيَّة. والمعنى: أنَّه فرح وابتهج بالعثور على غلام[2].

ومعنى النِّداء في هذه الأشياء التي لا تجيب ولا تعقل إنَّما هو على تنبيه المخاطَبين، وتوكيد القصَّة، فإنَّ قوله: ﴿يَٰبُشۡرَىٰ﴾ أوكد من قوله: تبشَّرتُ، فكأنَّه قال: أبشروا، وكأنَّه قال: يا أيَّتها البشرى هذا من إبَّانك وأوانك فاحضري[3]، ولو كنتِ ممَّن يُخاطَب لخوطِبتِ الآن[4].

وسبب البشارة هو أنَّهم وجدوا غلامًا في غاية الحُسن، وقالوا: نبيعه بثَمن عظيم، ويصير ذلك سببًا لحصول الغِنى[5].

توجيه القراءات في: ﴿يَٰبُشۡرَىٰ﴾:

قوله: ﴿يَٰبُشۡرَىٰ﴾ قرأ نافع، وأبو جعفر، وابن كثير، وابن عامر، وأبو عمرو، ويعقوب: ﴿يَٰبُشۡرَاىَ﴾ بياء مفتوحة بعد الألف؛ أي: بشَّر المستقي نفسَه وأصحابه، يقول: أبشروا بغلام. وقرأ الكوفيون: ﴿يَٰبُشۡرَىٰ﴾ بغير ياءِ إضافةٍ على وزن فُعلَى، وفي معناه قولان: أحدهما: نادى المستقي رجلًا من أصحابه اسمه بشرى[6].

والآخر: أنَّ المعنى: يا أيَّتها البشرى أقبلي فهذا أوانُك. وهذا الأخير أَولَى. وقرأ ابن أبي إسحاق - وهي قراءة شاذة -: (يا بُشرَيَّ)، فقُلبت الألف ياءً؛ لأنَّ هذا الياء يكسر ما قبلها، فلمَّا لم يجز كسر الألف كان قلبُها عوضًا[7]، والتَّوجيه على هذه القراءة

بين أيدي الأنبياء أصحاب الرِّسالات تُساق الفضائل والبشريات

(1) الآلوسي، روح المعاني: 6/394.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/241.
(3) الزجاج، معاني القرآن وإعرابه: 3/97، والنحاس، معاني القرآن: 3/406.
(4) الواحدي، البسيط: 12/52.
(5) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 18/433.
(6) العليمي، فتح الرحمن: 3/404.
(7) النحاس، إعراب القرآن: 2/196.

هو ما يفيده التَّشديد الواقع في آخر الكلمة من معاني التَّوكيد والتَّخصيص، فكأنَّه قال: هذه بشرى خاصَّة بي وحدي، فأنا مَن وجدها، فهي لي خالصة!

فصل جملة ﴿هَٰذَا غُلَٰمٞۚ﴾:

قوله: ﴿هَٰذَا غُلَٰمٞۚ﴾ استئناف بيانيٌّ ناشئ عن سؤال مقدَّر دعا إليه قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰبُشۡرَىٰ﴾، فكأنَّه قيل: لمَ تدعو البشرى؟ ففَصَل فقال: ﴿هَٰذَا غُلَٰمٞۚ﴾ فأتى به إلى جماعته فسُرُّوا به كما سُرَّ[1].

دلالة اسم الإشارة، والإخبار عنها في: ﴿هَٰذَا غُلَٰمٞۚ﴾:

اسم الإشارة في قوله: ﴿هَٰذَا غُلَٰمٞۚ﴾ عائد إلى ذات يوسف عليه السلام. خاطب الوارد بقيَّة السَّيَّارة، ولم يكونوا يرون ذات يوسف عليه السلام حين أصعده الوارد من الجُبِّ؛ إذ لو كانوا يرونه لما كانت فائدة لتعريفهم بأنَّه غلام؛ إذ المشاهَدَة كافية عن الإعلام، فتعيَّن أيضًا أنَّهم لم يكونوا مشاهِدين شبح يوسف عليه السلام حين ظهر من الجُبِّ، فالظَّاهر أنَّ اسم الإشارة في مثل هذا المقام لا يقصد به الدِّلالة على ذات معيَّنة مرئيَّة، بل يُقصد به إشعار السَّامع بأنَّه قد حصل شيء فرح به غير مترقَّب، كما يقول الصَّائد لرفاقه: هذا غزال! وكما يقول الغائص: هذه صدفة! أو لؤلؤة! ويقول الحافر للبئر: هذا الماء. والمعنى: وجدت في البئر غلامًا، فهو لُقَطَة، فيكون عبدًا لمن التقطه. وذلك سبب ابتهاجه[2].

فقوله: ﴿هَٰذَا﴾ مبتدأ. و﴿غُلَٰمٞۚ﴾ خبر. وقد قيل: عبَّر بالغلام للجمال الذي بهره لمَّا رآه عليه السلام[3].

دلالة تنكير ﴿غُلَٰمٞۚ﴾:

التَّنكير في قوله: ﴿هَٰذَا غُلَٰمٞۚ﴾ للتَّعظيم[4]، والتَّفخيم، وحُقَّ

نشر الله تعالى محبَّته على نبيِّه يوسف عليه السلام فما رآه أحد إلَّا أحبَّه واستبشر به

(1) البقاعي، نظم الدرر: 10/36.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/242.
(3) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 4/463.
(4) الصاوي، حاشية على الجلالين: 2/237.

له ذلك؛ فقد كان ﷺ من أحسن الغلمان، بل لقد أوتي شطر الحسن[1].

ولو كان المرئيُّ غير يوسف ﷺ لفزع الوارد من رؤيته في ذلك المكان الذي لم يؤلَف فيه وجود غلمان، لكن مَن رأى يوسف ﷺ فلن يستطيع الحزن أن يجد إلى قلبه سبيلًا؛ ولذلك انطلق لسانه بالبشرى[2].

دلالة الواو في: ﴿وَأَسَرُّوهُ﴾، وإيثار التعبير بالفعل:

الواو في قوله تعالى: ﴿وَأَسَرُّوهُ﴾ استئنافيَّة[3]. و(أسرَّ) من الإسرار الذي هو ضدُّ الإعلان[4]. وقد ضُمِّن ﴿وَأَسَرُّوهُ﴾ معنى (جعلوه)؛ أي: جعلوه بضاعة مسرِّين إيَّاه، فهو مفعول به[5]، أو مفعول له؛ أي: لأجل التِّجارة[6].

مُحيَّا صبوح يقطر حسنًا، ويشعُّ نورًا، يمنح السُّرور لمَن طالَعَه

وكان الشَّأن أن يَعرِفوا مَن كان قريبًا من ذلك الجُبِّ ويُعلنوا كما هو الشَّأن في التَّعريف باللُّقطة؛ ولذلك كان قوله تعالى: ﴿وَأَسَرُّوهُ﴾ مشعرًا بأنَّ يوسف ﷺ أخبرهم بقصَّته، فأعرضوا عن ذلك طمعًا في أن يبيعوه. وذلك من فقدان الدِّين بينهم، أو لعدم العمل بالدِّين[7].

ويبقى أنَّ الفعل (أسرَّ) يشترك مع الفعل (سُرَّ) في الجذر اللغويِّ، فكأنَّه يشير إلى المعنيين كليهما: الإسرار، والسُّرور؛ فالإسرار لخوفهم أن يشركهم فيه أحد. والسُّرور لكونه ﷺ باهر الجمال، مكتمل الخلال، فعدُّوه لقطة ثمينة ونفيسة.

(1) الآلوسي، روح المعاني: 6/395.
(2) المغراوي، التدبر والبيان: 16/79.
(3) محمود صافي، الجدول: 6/398.
(4) طنطاوي، الوسيط: 7/333.
(5) الآلوسي، روح المعاني: 6/395.
(6) القاسمي، محاسن التأويل: 6/162.
(7) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/243.

ولقد كان سرورهم به عليه السلام - مع ما هو عليه من الجمال والهيبة والجلال - مقتضيًا لأنْ يُنافسوا في أمره، ويغالوا بثمنه[1].

توجيه عود ضمير الجمع في: ﴿وَأَسَرُّوهُ﴾:

الضَّمير في قوله تعالى: ﴿وَأَسَرُّوهُ﴾ إمَّا أن يرجع إلى الملتقِطين، وإمَّا أن يرجع إلى الإخوة. فإنْ رجع إلى الإخوة كان معنى الكلام أنَّهم كتموا أُخُوَّته، وأظهروا مملوكيَّته، وقطعوه عن القرابة إلى الرِّقِّ. وإنْ عاد الضَّمير إلى الملتقِطين كان معنى الكلام أنَّهم أخفَوْه عن أصحابهم، وباعوه دون علمهم بضاعةً اقتطعوها عنهم، وجحدوها منهم، وساعد يوسف عليه السلام على ذلك كلِّه تحت التَّخويف والتَّهديد[2].

وهذا القول الثَّاني هو أولى القولين بالصَّواب[3]؛ بدليل قوله تعالى: ﴿بِضَٰعَةٗ﴾، وهي نصب على الحال؛ أي: أخفَوْه متاعًا للتِّجارة[4]، وذلك إنَّما يليق بالوارد لا بإخوة يوسف عليه السلام[5].

دلالة صفة العلم، وصيغة ﴿عَلِيمُۢ﴾:

يدلّ المعنى المحوري للعلم على الأثر في الشَّيء، وإدراكه بحقيقته، والدِّلالة والهداية إليه[6]. وهو في وصف اللّه تعالى معناه: أنَّه سبحانه محيط علمُه بكلِّ شيء، ولا تخفى عليه جل جلاله خافية في الأرض ولا في السَّماء. فهو سبحانه العالِم بما كان، وما يكون قبل كونه، وبما يكون ولمَّا يكن بعدُ قبل أن يكون[7].

ما كان في ظاهره شرًّا قد يحمل في طيّه الخير كلّه

وقوله تعالى: ﴿عَلِيمُۢ﴾؛ أي: بالغُ العلم[8]. فهو صيغة مبالغة؛ أي:

(1) البقاعي، نظم الدرر: 10/36.
(2) ابن العربي، أحكام القرآن: 3/42.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 13/49.
(4) النيسابوري، غرائب القرآن: 4/72.
(5) الخطيب الشربيني، السراج المنير: 2/98.
(6) ابن فارس، المقاييس، والراغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (علم).
(7) ابن منظور، لسان العرب: (علم).
(8) البقاعي، نظم الدرر: 10/36.

كثير العلم؛ عليم: يعلم سرَّهم، ونجواهم، وعليم بذات الصُّدور، وما يخفونه، وهو بكلِّ شيء عليم: لا تخفى عليه خافية في السماوات، ولا في الأرض[1].

ودلالته هنا بيان أنَّ الله تعالى قد قدَّر كلَّ ما حدث، وقضاه، ولم يخرج شيء عن قدرته، ولم يغب شيء عن علمه، بل هو ﷻ قد دبَّر ليوسف عليه السلام فأحسن التَّدبير، وما كان في ظاهره شرًّا قد حمل في طيِّه الخير كلَّه.

العموم في: ﴿بِمَا﴾، ومعنى الباء:

الله سبحانه عليم بكلِّ شيء، لا تغيب عنه غائبة، ولا تخفى عليه خافية

(الباء) في قوله تعالى: ﴿بِمَا﴾ للإلصاق، و(ما): اسم موصول؛ بمعنى: الذي، أو مصدريَّة[2].

فأمَّا توجيه معنى الموصوليَّة فهي تعني: الله عليم بالذي يعملونه. فيدلُّ على عموم ما يعملونه، ويدخل في هذا العموم دخولًا أوَّليًّا خصوصُ عملهم الذي عملوه من إخراج يوسف عليه السلام من الجُبِّ، وإخفائه، واتِّخاذه بضاعة! وخصوص عمل إخوة يوسف عليه السلام مِن طرحه في البئر.

وهو سبحانه عليم بمآربهم فيه على اختلافها، فلكلٍّ منهم أَرَبٌ في يوسف: السَّيَّارة يدَّعون بالباطل أنَّه عبد لهم فيتَّجرون به، وإخوة يوسف عليه السلام أمرُهم مع أبيهم في إخفائه وتغريبه ودعوى أكل الذِّئب إيَّاه معلوم وأنَّه كيد باطل، وحكمة الله تعالى فيه فوق كلِّ ذلك[3].

وأمَّا توجيه معنى المصدريَّة فمعناه: الله عليم بعملهم؛ أي: بكلِّ عملهم، ولم يخفَ عليه ﷻ شيء من أمرهم.

(1) الهلال، الثري الجامع: 5/325.
(2) الهلال، الثري الجامع: 5/325، وصافي، الجدول: 6/398.
(3) رشيد رضا، المنار: 12/223.

الإيجاز في حذف المفعول في ﴿يَعۡمَلُونَ﴾:

إفادة العموم ورعاية الفاصلة

في قوله تعالى: ﴿بِمَا يَعۡمَلُونَ﴾ حذف لعائد الصِّلة إذا اعتبرنا (ما) موصولةً، والتَّقدير: بما يعملونه؛ أي: يعلم ما يفعله إخوة يوسف عليه السلام ومشتروه، وهو قادر على تغيير ذلك ودفعه، ولكن له حكمة وقدَر سابق، فترك ذلك ليمضي ما قدَّره وقضاه، ألا له الخلق والأمر، تبارك الله رب العالمين[1].

وفي هذا الحذف إفادة لمعنى العموم والشُّمول، أو للعِلم بالمحذوف، إضافة إلى ما فيه من الرِّعاية على الفاصلة.

أثر الفاصلة: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ﴾:

الله سبحانه غالب على أمره، وإذا أراد شيئًا كان، فلا معقِّب لحكمه، ولا رادَّ لقضائه

هذه الآية بيان عمَّا يوجبه حسن تدبير الله تعالى من التَّسبيب لنجاة من يشاء نجاته[2]، وفي هذا تطمين لتلك النُّفوس المشفقة على هذا الغلام، والتي لم تشهد عن بعد ما يكون من صنع الله تعالى به[3].

وإن كانت الضَّمائر في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ﴾ لإخوة يوسف عليه السلام ففي ذلك توعُّد، وإن كانت الضَّمائر للواردين ففي ذلك تنبيه على إرادة الله تعالى ليوسف عليه السلام، وحسن التَّدبير له، وسوق الأقدار لتمكينه[4]، ذلك أنَّ يوسف عليه السلام لمَّا رأى الكواكب والشَّمس والقمر في النَّوم سجدت له وذَكَرَ ذلك؛ حسده إخوته عليه، واحتالوا في إبطال ذلك الأمر عليه، فأوقعوه في البلاء الشَّديد حتى لا يتيسَّر له ذلك المقصود، وأنَّه تعالى جعل وقوعه في ذلك البلاء سببًا إلى وصوله إلى مصر، ثمَّ تمادت وقائعه وتتابع الأمر إلى أن صار مَلِكَ مصر،

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/376.
(2) الواحدي، البسيط: 12/54.
(3) الخطيب، التفسير القرآني: 6/1248.
(4) ابن عطية، المحرر الوجيز: 3/229.

وحصل ذلك الذي رآه في النَّوم، فكان العمل الذي عمله الأعداء في دفعه عن ذلك المطلوب صيَّره الله تعالى سببًا لحصول ذلك المطلوب؛ فلهذا المعنى قال: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ﴾[1].

وفي هذا تذكير من الله تعالى لنبيِّه محمَّد ﷺ، وتسلية له على ما كان يلقى من أقربائه وأنسبائه المشركين من الأذى، فكأنَّه يقول له: اصبر على ما نالك في الله، فإنِّي قادر على تغيير ذلك، كما قدرت على تغيير ما لقي يوسف من إخوته، وسيصير أمرك إلى العلوِّ عليهم كما صار أمر يوسف مع إخوته إذ صار سيِّدَهم[2].

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

السَّير والمشي:

الفرق بينهما أنَّ المشي: هو الانتقال من مكان إلى مكان بإرادة واختيار[3]. أمّا السير: فهو ذهاب ومضيٌّ سواء كان باختيار أو باضطرار[4].

السير انتقال إلى جهة معيَّنة وهدف محدَّد، والمشي بهدف وبغير هدف

والمشي: هو مجرّد الحركة بهدف أو غير هدف، والمشي يكون ولو خطوة واحدة. أمّا السَّير: فيكون إلى جهة معيَّنة وهدف محدَّد بغرض الدراسة أو التجارة أو العبرة أو الهجرة، ويكون لمسافات أطول[5]؛ لذا وصِفت الجماعة التي تُكثر السَّيرَ للسَّفَر بلفظ السَّيَّارة[6].

الورود والتقدُّم:

أصل الورود قصدُ الماء، ثمَّ يُستعمَل في غيره اتساعًا[7].

الورود تقدُّمٌ إلى الماء، والتقدُّم قد يكون إلى الماء أو إلى غيره

ومعناه المحوريّ: بلوغ الماء تدلِّيًا أو تقدُّمًا إليه[8]. والوارد: هو

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 18/433.
(2) المراغي، تفسير القرآن: 12/124.
(3) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (مشي).
(4) حسن الجمل، معجم وتفسير لغوي لكلمات القرآن: 2/365.
(5) الهلال، تفسير القرآن الثري الجامع: 8/60، 61.
(6) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 9/133، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/226.
(7) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (ورد).
(8) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (ورد).

الذي يَرِد الماءَ ليستقيَ للقوم[1]، أو هو الذي يتقدَّم الرُّفقة إلى الماء ويهيِّئ حبالَ الدِّلاءِ والدِّلاءَ[2].

أمّا التقدُّم فيدور معناه حول السَّبق[3]؛ فهذا الأصل غيرُ مقيَّدٍ بأن يكون سَبقًا للوصول إلى الماء.

وممّا سبق يتبيَّن الفرق بين الوارد والمتقدِّم؛ فالواردُ لا يحتاج إلى ذِكر أنَّه ذاهبٌ إلى بئر، أمَّا المتقدِّم فيُذكَر معه إلى أين تقدَّم.

الإدلاء والإنزال والإرسال:

الإدلاء أخصُّ من الإنزال والإرسال

يدور معنى الإدلاء حول امتداد الشيء إلى أسفل بثَقل محدود ليتَّصل بشيء نيلًا له واشتمالًا عليه، ويدلُّ أصله على مقاربة الشيء ومداناته بسهولة ورِفق[4]. أمّا الإنزال فهو في الأصل: الإهباط من علوّ إلى سفل[5]، وأمّا الإرسال فأصله يدلُّ على الانبعاث على التُّؤَدَةِ، والامتداد[6].

وممَّا سبق يتبيَّن الفرق بين الإدلاء والإنزال والإرسال، وهو أنَّ إنزال الشيء لا يُشترط فيه أن يكون لنيل شيء آخر والاشتمال عليه كما في الإدلاء، وإرسال الشيء لا يُشترط فيه أن يكون من علوّ إلى سفل كما في الإدلاء والإنزال.

الغلام والفتى والولد:

الولد أعمُّ من الغلام والفتى

الغلام: مَن طرَّ شاربه أي: طلَع وظهر، وأساس تسميته غلامًا هو اغتلامه أي: بلوغه حالة الرغبة في الأنثى؛ فالغين واللام والميم أصلٌ يدلُّ على حداثة وهَيْجٍ وشهوة، ومن ذلك الغلام[7].

---

(1) الزمخشري، الكشاف: 2/452، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 9/144.
(2) البغوي، معالم التنزيل: 4/223.
(3) ابن فارس، المقاييس، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (قدم).
(4) ابن فارس المقاييس، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (دلو).
(5) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (نزل).
(6) ابن فارس، المقاييس، والرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (رسل).
(7) الخليل، العين، والأزهري، التهذيب، وابن فارس، المقاييس، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (غلم).

والفَتاء: الشَّباب، والفتَى: الذَّكرُ الشابُّ الذي في مبدأ الشباب أو الطريُّ من الشَّباب. والمعنى المحوريّ لأصله: مفارقة الحيِّ طور طفولتِه أو حداثتِه بالغًا طور شبابه[1].

أمّا الوَلَدُ فهو اسمٌ يَجمعُ الواحدَ والكثيرَ، والذَّكرَ والأنثى، ويقال للصغير والكبير[2].

الإسرار والإخفاء:

الإسرار أغْوَرُ من الإخفاء

الإسرار: هو أن يُسِرَّ المرءُ في نفسه من الأمور التي عزم عليها. أمّا الإخفاء: فهو الذي لم يبلغ حدّ العزيمة[3].

والإخفاء: السّتر والتغطية، ويدور معناه حول ستر الشيء سترًا ضعيفًا بحيث يظهر من وراء الساتر ظهورًا ضعيفًا أيضًا[4]. أمّا الإسرار فيدور المعنى المحوريّ لأصله حول غُؤُورٍ إلى العمق بامتداد ودقَّة، فالإسرار: كتمُ الشيء كأنه جُعِل في الجوف بعمق[5].

(1) الخليل، العين، والأزهري، التهذيب، والجوهري، الصحاح، وابن فارس، المقاييس، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (فتو، فتي)، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/14.

(2) الخليل، العين، والأزهري، التهذيب، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (ولد).

(3) الكفويّ، الكليات، ص: 514.

(4) الأزهري، التهذيب، وابن فارس، المقاييس، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، والسّمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (خفي).

(5) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (سرر).

﴿وَشَرَوۡهُ بِثَمَنِۭ بَخۡسٖ دَرَٰهِمَ مَعۡدُودَةٖ وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ٢٠﴾

[يوسف: 20]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

يختبر الله الأصفياء؛ باشتداد الكرب، وازدياد البلاء

لمَّا قصَّ سبحانه تَهَلُّلَ السيَّارة برؤية يوسف عليه السلام واستبشارهم به، وكان سرورهم به مع ما هو عليه من الجمال والجلال مقتضيًا لأن ينافسوا في أمره، ويغالوا في ثمنه؛ قصَّ سبحانه أنَّهم فعلوا ما هو خلاف ذلك؛ فرغبوا عنه؛ وباعوه بثمن بخس؛ ليخبر ربّ العزّة سبحانه أنَّ الأمور تجري على نسق واحد وفق تقديره سبحانه ومشيئته[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَشَرَوۡهُ﴾: شَرَى يَشْرِي شِرًى وشِرَاء: إذا باع وإذا اشترى، فهو من الأضداد. والفاعل منه: شارٍ[2]. و"الشِّراء والبيع يتلازمان، فالمشتري دافع الثَّمَن، وآخذ المُثَمَّن، والبائع دافع المُثَمَّن، وآخذ الثَّمن. هذا إذا كانت المبايعة والمشاراة تقاضيًا وسلعة، فأمَّا إذا كانت بيع سلعة بسلعة، صحَّ أن يُتصوَّر كلٌّ واحد منهما في موضع الآخر" إلَّا أنَّ الأكثر في كلام العرب أن يستعملوا شرى بمعنى باع، واشترى بمعنى ابتاع، وربما جعلوا اشترى بمعنى باع أيضًا[3]. وممَّا جاء على الأكثر من استعمال العرب شرى بمعنى باع قوله تعالى: ﴿وَشَرَوۡهُ بِثَمَنِۭ بَخۡسٖ﴾؛ أي: باعوه[4].

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 18/433، وابن عادل، اللّباب: 11/49، والبقاعي، نظم الدّرر: 10/36، والآلوسي، روح المعاني: 6/396.

(2) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (شرى).

(3) الأزهري، تهذيب اللغة، والراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (شرى).

(4) الأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح، والراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ، وابن منظور، لسان العرب: (شرى).

2) ﴿بَخۡسٍ﴾: البخس: النَّقص على سبيل الظُّلم. تبخس أخاك حقه، أي: تنقصه كما ينقص الكيَّال المكيال[1]، يقال شيء باخس وبخس: ناقص. ومنه قوله تعالى: ﴿وَشَرَوۡهُ بِثَمَنِۭ بَخۡسٍ دَرَاهِمَ مَعۡدُودَةٖ﴾. أي بثمن ناقص[2]. وأصله ومعناه المحوريُّ يدور حول نقص في أثناء الشَّيء[3].

3) ﴿ٱلزَّٰهِدِينَ﴾: الزُّهد: خلاف الرَّغبة في الشَّيء، والرِّضى منه بالقليل، والزَّهيد: الشَّيء القليل، والزَّاهد في الشَّيء: الرَّاغب عنه، الرَّاضي بالقليل منه. يقال زَهِد في الشَّيء وعن الشَّيء، يَزْهَد زُهْدًا وزَهَدًا وزَهَادة: رغب عنه[4]. وأصله يدلُّ على قِلَّة في الشَّيء[5].

ومنه قوله تعالى: ﴿وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ﴾. أي: الرَّاغبين عنه، فيبيعونه بالثَّمن الطَّفيف[6].

المَعْنى الإِجْماليُّ:

باعوه بأبخس الأثمان غير عابئين

استأنف البيان القرآن تصوير مشهد نجاة يوسف عليه السلام بعد أن استخرجه السيّارة من البئر، وذكر أنّهم باعوه بثمن قليلٍ لو كانوا يعلمون، بدراهمَ غير موزونةٍ ناقصة غيرِ وافية، وكانوا فيه من الرَّاغبين عنه المتهاونين بقَدْرِه؛ لجهلهم مكانتَه ومنزلتَه عند الله تعالى[7]، ويَحْمِل بعض المفسرين المعنى على أنّ الّذين باعوه هم إخوة يوسف عليه السلام، باعوه للسّيّارة، وهو قولٌ معتبر[8].

(1) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح، والراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ، وابن منظور، لسان العرب: (بخس).
(2) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح، والراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ، وابن منظور، لسان العرب: (بخس).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (بخس).
(4) الجوهري، الصحاح، والراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (زهد).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (زهد).
(6) البيضاوي، أنوار التنزيل: 3/159، والنسفي، مدارك التنزيل وحقائق التأويل: 2/101.
(7) البقاعي، نظم الدرر: 10/47، وطنطاوي، التفسير الوسيط: 7/334.
(8) ابن جرير، جامع البيان: 13/50، والبغوي، معالم التنزيل: 4/224، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/323.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالة الواو في: ﴿وَشَرَوْهُ﴾:

الفرج قد يحصل من حيث لا يحتسب

الواو عاطفة[1]، حيث عطفت جملة ﴿وَشَرَوْهُ﴾ على جملة ﴿وَأَسَرُّوهُ﴾، وقد حسن الوصل دون الفصل لما بين الجملتين من المناسبة، فكلٌّ منهما تعدُّ حلقة في تسلسل أحداث القصَّة، إذ إنَّها تحكي انتقال الكريم ابن الأكارم عليه السلام "من محنة الجُبِّ إلى محنة الرِّقِّ"[2]، فثَمَّ ترابط بينهما وثيق، ويضاف إلى ذلك اتِّفاقهما في الخبريَّة، وفي مجيء فعليهما ماضيين. وهذا ما يسمِّيه علماء البلاغة: التَّوسُّط بين الكمالين.

إيثار استعمال الفعل ﴿وَشَرَوْهُ﴾:

بيع الحُرِّ ظلم، واستعباده بغي

(شرى) في قوله تعالى: ﴿وَشَرَوْهُ﴾ بمعنى: باع، ويجوز أن يكون بمعنى: اشترى؛ لأنَّه من الأضداد، فيُقال: شريت الشَّيء بمعنى: بعته. وشريته بمعنى: اشتريته[3].

ويتحدَّد معناه في سياق الآية بحسب توجيه عود ضمير الفاعل في قوله تعالى: ﴿وَشَرَوْهُ﴾ وهو واو الجماعة، فإن كان عائدًا على إخوة يوسف عليه السلام كان (شرى) بمعنى: باع، وإن كان عائدًا على السَّيَّارة كان بمعنى: اشترى[4].

وقد جرى جمهور المفسِّرين على تفسير ﴿وَشَرَوْهُ﴾ هنا بمعنى: باعوه، وعندما يكون التَّعبير بلفظ الشِّراء مرادًا به معنى البيع تكون فيه دلالة على الزُّهد فيه، وتركه[5]؛ ذلك أنَّ النَّفس تميل إلى بيع ما لا تريد إمَّا للتَّخلُّص منه، وإمَّا لأنَّ رغبتها في تحصيل ثمنه أعظم

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 4/463.
(2) الشوابكة، غرر البيان، ص: 49.
(3) ابن الجوزي، زاد المسير: 2/422.
(4) السمين، الدر المصون: 6/461، والآلوسي، روح المعاني: 6/395.
(5) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 7/3813.

من رغبتها في اقتنائه؛ لذلك كان الشِّراء أحبَّ من هذا الوجه، فلمَّا عُبِّر بالشِّراء عن البيع كان المعنى كأنَّهم اشتروا التخلُّص منه عليه السلام؛ لأنَّ هذا أحبُّ لهم.

إضافة إلى أنَّ العدول عن صيغة الافتعال (اشترى) المنبئة عن الاتِّخاذ كان للدِّلالة على أنَّ أخذهم إيَّاه عليه السلام إنَّما كان بطريق البضاعة دون الاجتباء والاقتناء[1]، فتمادى السَّيَّارة ولجُّوا في إسرارهم إيَّاه عليه السلام بضاعةً حتى باعوه من العزيز، ولمعنى التمادي عبِّر بـ (شرى) دون (باع)[2].

ويَحْتَمِلُ أن يكون لفظ ﴿وَشَرَوْهُ﴾ قد استُعمل بمعنى اشتروه وهو مسموع، ويكون المراد أنَّهم اشتروه من إخوته بثمن بخسٍ، ثمَّ باعوه في مصرَ بثمنٍ بخس أيضًا، وهو إدماج من دقائق الإيجاز[3].

توجيه عود ضمائر الجمع في الآية:

تعود على جمع السَّيّارة، أو على إخوة يوسف

اختُلف في عود ضمائر الجمع في الآية الكريمة في قوله تعالى: ﴿وَشَرَوْهُ﴾؛ أي باعوه، وقوله: ﴿وَكَانُواْ﴾، ويوجَّه الضّمير ليعود للوارد وأصحابه[4]، وجعلُ ضمائر الجمع للسَّيَّارة[5]؛ ويقوّي هذا الرأيَ هو قوله: ﴿وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ﴾ والزُّهد انصراف الرَّغبة عن الشَّيء إلى ما هو خير منه عند الزَّاهد، وهذا يعيِّن أنَّ الضَّمير للسَّيَّارة؛ لأنَّ حال إخوته في أمره عليه السلام فوق الزُّهد بمراحل، فلو كان لهم لقيل: وكانوا له من المبعِدين أو المبغِضين، ونحو ذلك[6].

فالسَّيَّارة هم الّذين باعوا يوسف عليه السلام بثمن زهيدٍ، دراهمَ قليلةٍ

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/261.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 10/37.
(3) رشيد رضا، تفسير المنار: 12/223.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم، ص: 261.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/244.
(6) البقاعي، نظم الدرر: 10/47.

ليستفيدوا من ثَمَنه قبل أن يَشرَكَهم فيه غيرُهم، وبعيدٌ أن يكون الضَّمير يعود على إخوة يوسف عليه السلام؛ لأنَّهم اقترحوا إلقاءه في البئر وقالوا: ﴿يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ﴾، ولم يكونوا يبحثون عن تجارةٍ ببيع يوسف عليه السلام وإنَّما أرادوا التَّخلُّص منه[1].

ومعنى ﴿وَشَرَوْهُ﴾ أي: باعوه – وهم القافلة – وتنازلوا عنه وبذلوه؛ لئلّا يظهر مَن يطالبُهم به؛ لأنّه حرّ، والثّمن لم يكن مقصودًا لديهم، ولهذا قنعوا بالثّمن البخس[2].

وهذا يشير إلى أنّ الذي اشترى يوسف من مصر غيرُ الذي اشتراه من الملتقطين، وهو الذي يتوافق وينسجم مع الواقع؛ إذْ لا يُعقل أن يُعرض يوسف الرّائع الحُسنِ والجمال في سوق الرّقيق بعاصمة مصر العظيمة آنذاك، أمام الكثير من التّجار ذوي الخبرة، ويأتي عزيز مصر على ما هو عليه من جاهٍ وعزٍّ وثراء، ثم يشتري يوسف بدراهم معدودة[3].

وقيل: الضَّمير في قوله: ﴿وَشَرَوْهُ﴾ عائد على إخوة يوسف عليه السلام؛ لأنَّ قوله تعالى: ﴿وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ﴾ إنَّما أراد إخوته، لا أولئك السَّيَّارة؛ لأنَّ السَّيَّارة استبشروا به وأسرُّوه بضاعة[4].

مدلول الوصف بـ ﴿بَخْسٍ﴾:

الشَّيء الخطير قد يعرض فيه ما يهوِّنه

الثَّمن البخس هو الذي فيه غبنٌ على البائع، حيث باع الذي حقُّه أن يُبذَل فيه المال الكثير بمالٍ قليل، ولو أنَّهم عرفوا قدر هذا الجوهر الكريم الذي في أيديهم لضنُّوا به، ولَبَالغوا في الثَّمن الذي يطلبونه فيه إن كان لا بدَّ لهم من بيعه.. ولكنَّهم كانوا تجَّار أمتعة، لا تجَّار نفوس! ونقدة أموال، لا نقدة رجال[5]!

(1) مأمون حموش، التفسير المأمون: 4/125.
(2) رشيد رضا، تفسير المنار: 12/271.
(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 9/270 - 271، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 9/18، 111، والآلوسي، روح المعاني: 6/398.
(4) ابن جرير، جامع البيان: 13/50، والسمعاني، تفسير القرآن: 3/17.
(5) الخطيب، التفسير القرآني: 6/1248.

وكان هؤلاء الذين باعوه من الرَّاغبين عنه الذين يبغون الخلاص منه لئلَّا يظهر مَن يطالبهم به؛ لأنَّه حرٌّ، والثَّمن لم يكن مقصودًا لهم؛ ولهذا قنعوا بالبخس المنقوص منه[1].

و﴿بَخۡسٍ﴾ في قوله تعالى: ﴿بِثَمَنِۭ بَخۡسٍ﴾؛ أي: حرام؛ لأنَّ ثمن الحُرِّ حرام، وسُمِّي الحرام بخسًا لأنَّه مبخوس البركة[2]؛ أي: منقوصها؛ لأنَّهم أوقعوا البيع على نفْس لا يجوز بيعُها؛ فلذلك كان لا يحلُّ لهم ثمنه[3].

إعراب: ﴿دَرَاهِمَ﴾ ودلالة وصفها بـ ﴿مَعۡدُودَةٖ﴾:

﴿دَرَاهِمَ﴾ في قوله تعالى: ﴿دَرَاهِمَ مَعۡدُودَةٖ﴾ بدل من ﴿بِثَمَنِۭ﴾، وعُبِّر بها للدِّلالة على أنَّهم لم يبيعوه بدنانير[4]، فهذه مبالغة منهم في الزَّهادة فيه عليه السلام، فلم يطلبوا فيه الذَّهب، بل قنعوا بالفضَّة!

قنعوا في الكريم بالقليل، فلا عرفوا قدره، ولا قدَّروا خطره

وذِكر العدد في قوله تعالى: ﴿مَعۡدُودَةٖ﴾ عبارة عن قلَّة هذه الدَّراهم. ذلك أنَّهم كانوا في ذلك الزَّمان لا يَزِنون ما كان أقلَّ من أربعين درهمًا، إنَّما كانوا يعُدُّونها عَدًّا، فإذا بلغت أُوقيَّة وزنوها[5]، فقال الله ﷻ: ﴿دَرَاهِمَ مَعۡدُودَةٖ﴾، ليُعلَم أنَّها أقلُّ من أُوقيَّة[6]، فلم تبلغ أن توزن لقلَّتها؛ وذلك أنَّ الكثير قد يُمتنع من عدِّه لكثرته، والقليل يُعَدُّ لقلَّته[7].

دلالة الواو، وفائدة الفعل ﴿وَكَانُواْ﴾:

الواو في قوله تعالى: ﴿وَكَانُواْ﴾ حاليَّة، والجملة بعدها في محلِّ نصب حال[8]، وقد دلَّت على وصف حال البائعين حين باعوا يوسف عليه السلام، وهذا يساعد في تصوُّر المشهد واستحضاره كأنَّا نراه رأي عين.

الجِبلَّات جبالٌ راسخات

(1) رشيد رضا، تفسير المنار: 12/224.
(2) البغوي، معالم التنزيل: 4/224.
(3) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 9/155.
(4) أبو حيان، البحر المحيط: 6/253.
(5) البغوي، معالم التنزيل: 4/224.
(6) الواحدي، البسيط: 12/57.
(7) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 9/156.
(8) بهجت صالح، الإعراب المفصل: 5/283.

إضافة إلى أنَّها مندرجة تحت باب الوصل، حيث قد ألحقه البلاغيُّون بهذا المبحث[1]، وممَّا حسَّن الوصل ما بين الجملتين من التَّناسب في الخبريَّة، والفعليَّة، وفي مجيء فعليهما ماضيين، وفي كون كلٍّ منهما تحكي جانبًا من جوانب القصَّة المباركة في بناء متنام متماسك يشدُّ بعضه بعضًا.

أمَّا فائدة الفعل ﴿وَكَانُواْ﴾ فقد دلَّ التَّعبير به على كون حالهم التي تلبَّسوا بها حين باعوا يوسف عليه السلام كانت راسخة فيهم، فقوله تعالى: ﴿وَكَانُواْ﴾؛ أي: كونًا هو كالجِبِلَّة[2]. وكونه ماضيًا أفاد التَّوكيد، وجملته الاسميَّة أفادت الثُّبوت والدَّيمومة.

تقديم الجار والمجرور ﴿فِيهِ﴾:

قوله تعالى: ﴿فِيهِ﴾ متعلِّق بـ ﴿ٱلزَّٰهِدِينَ﴾، وتقديمه على عامله للتَّنويه بشأن المزهود فيه، وللتَّنبيه على ضعف توسُّمهم وبصارتهم، مع الرِّعاية على الفاصلة[3].

وقد أفاد أيضًا التَّخصيص؛ أي: فيه هو خاصَّة دون بقيَّة متاعهم؛ انتهازًا للفرصة فيه قبل أن يعرف عليهم فينزَع من أيديهم[4].

توجيه عود الضمير في: ﴿فِيهِ﴾:

الضَّمير في قوله تعالى: ﴿فِيهِ﴾ إمَّا أن يعود على إخوة يوسف عليه السلام، وقد زهدوا فيه لأنَّهم لم يعلموا منزلته عند الله تعالى، ومعنى الزُّهد: قِلَّة الرَّغبة.

وإمَّا أن يعود على الثَّمن، فقد كان إخوة يوسف عليه السلام في الثَّمَن من الزَّاهدين؛ لأنَّهم لم يكن قصدهم تحصيل الثَّمن، وإنَّما كان قصدهم تبعيد يوسف عن أبيه عليهما السلام[5].

فائدة التعبير في ﴿مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ﴾:

قوله تعالى: ﴿مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ﴾ إمَّا أن يكون صفة لـ﴿ٱلزَّٰهِدِينَ﴾ المحذوف مؤكِّدةً، كما يقال: عالِم من العلماء. وإمَّا أن يكون صفة مبيِّنة؛ أي: زاهدين بلغ بهم الزُّهد إلى أن يُعَدُّوا في الزَّاهدين؛ لأنَّ الزَّاهد قد لا يكون عريقًا في الزَّاهدين حتى يُعَدَّ فيهم إذا عُدُّوا[6].

(1) أحمد مطلوب، أساليب بلاغية، ص: 197.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 10/47.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/244.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 10/47.
(5) الخطيب الشربيني، السراج المنير: 2/98.
(6) الآلوسي، روح المعاني: 6/396.

وصوغ الإخبار عن زهادتهم فيه بصيغة ﴿مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ﴾ أشدُّ مبالغة ممَّا لو أخبر بـ (كانوا فيه زاهدين)؛ لأنَّ جعْلَهم من فريق زاهدين يُنبئ بأنَّهم جَرَوا في زهدهم في أمثاله على سَنَنِ أمثالهم البسطاء الذين لا يقدِّرون قدر نفائس الأمور.

جَهِل بائعو الكريم بأقدار الرِّجال، وعميت بصيرتهم عن الكشف عن معادن النُّفوس

و(أل) حرف لتعريف الجنس، وليست اسمَ موصولٍ خلافًا لأكثر النُّحاة الذين يجعلون (أل) الدَّاخلة على الأسماء المشتقَّة اسمَ موصولٍ ما لم يتحقَّق عهدٌ[1].

وفي قوله تعالى: ﴿وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ﴾ تشنيع على جهلهم بأقدار الرِّجال، وعمى بصيرتهم عن الكشف عن معادن النُّفوس[2].

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

شرى، واشترى:

شرى بـاع، واشترى ابتاع

الفرق بينهما أنَّ شرى بمعنى باع، واشترى بمعنى ابتاع[3]؛ فاشترَى مطاوع لفعله المجرَّد (شرى) كما أنَّ ابتاع مطاوع لفعله المجرَّد (باع)، وأشار أهل اللسان إلى أنَّ فاعل هذه المطاوعة هو الذي قَبِل الفعل والتزمه فدلُّوا بذلك على أنَّه آخذٌ شيئًا لرغبة فيه، ولمّا كان معنى البيع مقتضيًا آخِذَيْنِ وباذِلَيْنِ كان كلٌّ منهما بائعًا ومبتاعًا باختلاف الاعتبار، ففِعل باعَ منظورٌ فيه ابتداءً إلى معنى البذل، والفعل ابتاعَ منظورٌ فيه ابتداءً إلى معنى الأخذ، فإن اعتبره المتكلِّم آخذًا لما صار بيده عبَّر عنه بمُبتاعٍ ومُشتَرٍ، وإن اعتبره باذلًا لما خرج من يده من العِوض، عبَّر عنه ببائعٍ وشارٍ، وبهذا يكون الفعلان جاريَين على سَنَنٍ واحد[4]، ويتبيَّن الفرق بين (شرى) و(اشترى).

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/244.
(2) الخطيب، التفسير القرآني: 6/1249.
(3) الخليل، العين، والأزهري، التهذيب، وابن منظور، اللسان: (شري).
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/298.

"وكلُّ ما جاء في القرآن الكريم من الفعل (شرى يشري) فالمراد به البيع، والفعل (اشترى يشتري) يراد به الاشتراء بالمعنى المشهور أي: أخذ السِّلعة ودفع الثمن"[1].

البخس والقليل:

البخس أخصُّ من القليل

البخس: النَّقص على سبيل الظُّلم، أو هو النَّقص والظُّلم[2]، قال الله ﷻ: ﴿وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ﴾ [الأعراف: 85]؛ أي: لا تظلموا الناس حقوقهم ولا تنقصوهم إيّاها[3].

والبخس يكون في السِّلعة بالتعييب والتزهيد فيها، أو المخادعة عن القيمة، والاحتيال في التزَيُّد في الكيل والنقصان منه[4].

والقِلَّة: خلافُ الكثرة، ويدور معناها المحوريّ حول الدِّقة ولطفِ الحجم[5]؛ وعلى هذا فإنَّ القليل لا يَلزمه أن يكون ناقصًا أو منقوصًا، فقد يكون كذلك وقد لا يكون، وإذا كان ناقصًا أو منقوصًا فإنَّه لا يَلزمه أن يكون كذلك بظُلم؛ فهذا هو الفرق بين البخس والقليل.

(1) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (شري).
(2) الخليل، العين، والأزهري، التهذيب، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (بخس).
(3) البغوي، معالم التنزيل: 3/256، والخليل، العين، والأزهري، التهذيب، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (بخس).
(4) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 7/248.
(5) ابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (قول).

﴿وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا ۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾﴾ [يوسف: 21]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لمّا بيّن ربُّ العزّة سبحانه أنّه قدَّر ليوسف عليه السلام أن يباعَ ويشترى؛ فيصير بذلك رقيقًا، وكانت العادةُ جاريةً أنَّ الرقَّ امتهان؛ أخبر سبحانه أنَّ ذلك لم يجرِ على يوسف عليه السلام؛ فقد رقَّق سبحانه له قلب من اشتراه؛ فأحسن وفادته، وأنزله منزلًا مرضيًّا كريمًا، ثمَّ أخبر سبحانه أنَّه مُصَيِّرُهُ بعد ذلك إلى ما هو أعزّ وأكرم؛ فهو العزيز الذي لا يُمنع عطاؤه، ولا يُردّ قضاؤه[1].

قدر الله غالب، ومشيئته نافذة لا محالة

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مَثْوَىٰهُ﴾: الثَّواء: طول المُقَام مع الاستقرار، يقال: ثَوَى بالمكان يَثْوِي ثَواء: أقام به[2]. وأصله يدلُّ على الإقامة[3].

والمَثْوى، مكان الثَّواء، وهو الموضع الذي يقام به والمَنزِل[4]. وقوله تعالى حاكيًا قول عزيز مصر: ﴿أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ﴾. أي: أكرمي مُقامه عندنا[5].

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 18/485، وابن عادل، اللّباب: 11/52، والبقاعي، نظم الدرر: 10/48، والمراغي، تفسير المراغي: 12/125، رشيد رضا، تفسير المنار: 12/225، والهرري، حدائق الروح والريحان: 13/365،

(2) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح، والراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ، وابن منظور، لسان العرب: (ثوى).

(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ثوى).

(4) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، والراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ، وابن منظور، لسان العرب: (ثوى).

(5) الراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (ثوى).

2) ﴿مَكَّنَّا﴾: المكان: الموضع الحاوي للشَّيء[1]. وأصله من رسوخ الشَّيء مجتمعا[2]، ومَكَّنته من الشَّيء أُمَكِّنه تمكينًا، وأَمْكَنْتُه منه: إذا ظَفِر به، وقَدَر عليه وأطاقه[3]. وقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾. أي: "جعلنا له فيها مكانًا، يقال مكَّنه فيه، أي: أثبته فيه. ومكَّن له فيه، أي: جعل له فيه مكانًا"[4].

3) ﴿غَالِبٌ﴾: الغَلَبة: القَهْر، يقال: غَلَب يَغْلِب غَلَبا وغَلَبَة: قَهَر. وهو غالب، أي: قاهر[5]. وأصله يدلُّ على قوَّة وقَهْر وشِدَّة[6].

وقول الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ﴾. أي: قوي قادر على أمر يوسف، بحيث لا يمنعه عمَّا يشاء أحد، ولا ينازعه فيما يريد أحد، إنما أمره لشيء إذا أراد أن يقول له كن فيكون[7].

❁ المَعْنى الإجْمالِيُّ:

النصر والتمكين لا يتأتَّيان إلا بعد ضروب من الصَّبر والامتحان

يصوِّر السِّياق القرآنيُّ لطف الله تعالى بعبده ونبيِّه يوسف عليه السلام، بعد شديد محنته وعظيم بلائه؛ حيث قيَّض له سبحانه مَنْ يشتريه، ويحسن وفادته، وهو قطفير الذي اشتراه من مصر لزوجته زُليخَا وقال لها: (أحسني منزلته وموضع مقامه؛ رجاء أن ينفعنا في قضاء مصالحنا، وفي مختلف شؤوننا، أو نتبنَّاه ولدًا)؛ إذ لم يكن ينجب.

ولنعلِّم يوسف من عبارة الرؤيا جعلنا له في الأرض مكانة عالية رفيعة عند عزيز مصر؛ بأنْ صيَّرناه ملكًا على خزائنها، وذلك بعد

(1) الراغب، المفردات، والسمين الحلبي عمدة الحفاظ، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (مكن).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (مكن).
(3) الراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ، والزبيدي، تاج العروس: (مكن).
(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/262، والآلوسي، روح المعاني: 6/398.
(5) الجوهري، الصحاح، والراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (غلب).
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (غلب).
(7) السمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (غلب)، والبغوي، معالم التنزيل: 2/483، والنسفي، مدارك التنزيل: 2/102، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 3/159، والآلوسي، روح المعاني: 6/399.

إنقاذه من أيدي إخوته بعد أن همُّوا بقتله ومن البئر بعد إلقائهم فيه، والله سبحانه مُسْتَوْلٍ على أمر يوسف يَسُوسُه ويدبِّره ويحوطه فلا يردُّه رادٌّ ولا يمنعه مانع ولكنَّ أكثر النَّاس لا يعلمون خفايا حكمته ولطف تدبيره[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

حسن التخلُّص:

لمَّا قال الله تعالى في الآية السَّابقة: ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ﴾ أثيرت في النُّفوس أسئلة حول المصير الذي صار له الكريم ابن الأكارم عليه السلام بعد ما بيع بثمن بخس.

من بيع إلى بيع، ومن شراء إلى شراء، يدبِّر الله الأقدار، ويُسبغ الله الآلاء

فطوى القرآن ذِكر ما فُهِمَ من القصَّة ممَّا لا تترتَّب على ذكره فائدة أو موعظة، وانتقل من ﴿وَشَرَوْهُ﴾ إلى ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ﴾ "فهذا الشِّراء غير الشِّراء السَّابق الذي كان بثمن بخس"[2].

فانتقلت الآيات الكريمة من حدث إلى حدث آخر مع مراعاة الملاءمة بينهما، بحيث لا يشعر السَّامع بالانتقال من المعنى الأوَّل إلَّا وقد وقع في الثَّاني لشدَّة الممازجة والالتئام والانسجام بينهما، حتَّى كأنَّهما قد أفرغا في قالب واحد[3].

وهذا الانتقال البليغ يسمَّى بحسن التَّخلُّص، وهو من أساليب القرآن الرَّفيعة وفنونه البديعة[4].

دلالة الواو في: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ﴾:

يطوي القرآن ما يتَّضح من السِّياق فهمُه، وقد علا على كلِّ بيان نسجه ونظمُه

الواو في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ﴾ هي العاطفة، حيث عطفت جملتها على محذوف مقدَّر مفهوم من السِّياق؛ أي: دخلوا

(1) ابن جرير، جامع البيان: 13/61، والبغوي، معالم التنزيل: 4/225.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 6/397.
(3) حسن عبد الرازق، البلاغة الصافية، ص: 280.
(4) الشوابكة، غرر البيان، ص: 22.

مصر، وعرضوه للبيع، فاشتراه عزيز مصر الذي كان على خزائن مصر[1].

وقد حسن الوصل لما بين الجملتين من المناسبة، ولاتِّفاقهما في الخبريَّة والتَّعبير بالماضي، وهو المعروف في البلاغة بالتَّوسُّط بين الكمالين.

إضافة إلى ما في هذا العطف على المحذوف المقدَّر من براعة السَّرد، وبلاغة الإيجاز بالحذف الذي تضمَّن جملًا كثيرة، ودقَّة التَّعبير، وحسن التَّخيُّر.

نكتة إسناد القول لمن اشترى يوسف عليه السلام:

أكرم الله الكريمَ ابنَ الأكارم عن الامتهان، وأحاطه بالرِّعاية والإحسان

إسناد القول لَمن اشتراه من مصر، وهو عزيزها في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشۡتَرَىٰهُ﴾ يدلُّ على أنَّه أمر به زوجته أمرًا مباشرًا بلا واسطة، وفيه إشارة إلى أنَّ يوسف عليه السلام كان حاضرًا هذه المحاورة بين الزَّوجين، وفيه دليلٌ على شدَّة تعلُّق العزيز بيوسف عليه السلام.

ولمَّا كانت العادة جارية بأنَّ القِنَّ يُمتَهن، أخبر تعالى أنَّه أكرمه عن هذه العادة، فقال منبِّهًا على أنَّ شراءه كان بمصر: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشۡتَرَىٰهُ﴾؛ أي: أخذه برغبة عظيمة، ولو توقَّفوا عليه غالَى في ثمنه[2].

بلاغة مجيء المسند إليه اسمًا موصولًا:

يُعرِض القرآن عن ذكر ما لا يهمُّ في العبرة من القصَّة، ولا يزيد في العظة

من دواعي اختيار المسند إليه اسمًا موصولًا: تقرير الغرض المسوق له الكلام[3]، وتعظيم شأن المحكوم به[4].

وكلا الأمرين مراد هاهنا، فأمَّا الأوَّل فلمْ يبيِّن الكتاب الكريمُ اسم الذي اشتراه في مصر، ولا منصبه، ولا اسمَ امرأته؛ لأنَّ ذلك لا يهمُّ في العبرة من القصَّة، ولا يزيد في العظة. فالمراد بيان أنَّ

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 4/468.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 10/48.
(3) المراغي، علوم البلاغة، ص: 117.
(4) الهاشمي، جواهر البلاغة، ص: 114.

الذي اشترى يوسف عليه السلام قد أوصى به امرأته خيرًا لِما تفرَّس فيه من مخايل النَّجابة[1].

وأمَّا الآخر فلبيان أنَّ المحكوم به (وهو إيصاء المشتري زوجتَه بيوسف عليه السلام خيرًا) هو أمر عظيم الشَّأن؛ إذ لم يكن معهودًا أنْ يوصي السَّادةُ زوجاتهم بفتيانهم؛ إذ العادة في القِنِّ أن يُمتَهَن، فكان هذا الأمر أمرًا عظيمًا، وقد سِيق للدَّلالة على إكرام الله تعالى نبيَّه يوسف عليه السلام من المذلَّة والمهانة.

ويضاف إلى ما سبق أنَّ في التَّعبير بالموصول تشويقًا للنُّفوس، وإثارة لحبِّ الاستطلاع فيها؛ حتى تظلَّ شاخصة إلى هذا الرَّجل، باحثةً عنه، إلى أن يلقاها هذا اللِّقاء المثير الذي يطلُع عليها به في سُدَّةِ الحكم، وعلى كرسيِّ الوزارة.. إنَّه عزيز مصر[2].

فائدة الجار والمجرور ﴿مِن مِّصْرَ﴾:

قوله تعالى: ﴿مِن مِّصْرَ﴾؛ أي: في مصر[3]. و﴿مِّصْرَ﴾؛ أي: البلدة المعروفة، والتَّعبير بهذا دون ما هو أخصر منه للتَّنبيه على أنَّ بيعه ظلم، وأنَّه لم يدخل في ملك أحد أصلًا[4].

من قعر جُبٍّ مظلم إلى عزِّ قصر منيف، يسيِّر الله القدر، وفي ذلك عبرة للمعتبِر

وبيانُ كونِه من مصرَ لترتيب ما يتفرَّع عليه من الأمور مع الإشعار بكونه غيرَ مَن اشتراه مِن الملتقطين بما ذكر من الثَّمن البخس[5].

فهذا الشِّراء غير الشِّراء السَّابق الذي كان بثمن بخس، وزعمُ اتِّحادهما ضعيف جدًّا وإلَّا لا يبقى لقوله: ﴿مِن مِّصْرَ﴾ كثيرُ جدوَى[6].

(1) المراغي، تفسير القرآن: 12/125، والهرري، الحدائق: 13/365.
(2) الخطيب، التفسير القرآني: 6/1250.
(3) نووي الجاوي، مراح لبيد: 1/527، والهرري، الحدائق: 13/365.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 10/48.
(5) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/262.
(6) الآلوسي، روح المعاني: 6/397.

إيثار استعمال: ﴿لِٱمۡرَأَتِهِۦٓ﴾:

كان العزيز عقيمًا، وكان احتياجه للأبناء عظيمًا

قوله تعالى: ﴿لِٱمۡرَأَتِهِۦٓ﴾، فامرأته المراد بها: زوجته[1]. وقد أوثر في هذا السِّياق استعمال (امرأة) دون (زوجة)؛ لأنَّ البيان القرآنيَّ لم يستخدم لفظة (زوج) إلَّا عند تحقُّق الصُّورة المُثلَى للتَّزاوُج أو التَّكامُل بين الرَّجُل والمرأة، كأنْ تظلَّ العلاقة قائمة ببقاء الزَّوج على قيد الحياة، مع وجود التَّجانُس أو التَّكامُل الشُّعوري بين الطَّرفين، وتماثلهما في عقيدة التَّوحيد، وصلاحية الطَّرفين للإنجاب. أمَّا إذا اختلفت تلك الصُّورة في أي جانب من جوانبها فإنَّه يستخدم لفظة (امرأة) حتى مع بقاء عقد الزَّوجيَّة بينها وبين الرَّجل[2].

فإذا أُضيف إلى ما سبق أنَّ سبب اتِّخاذ العزيز يوسفَ عليه السلام ولدًا هو كونه لا يولد له كما ذكر المفسِّرون - تبيَّن أنَّ الطَّرفين (العزيز وامرأته) غير صالحين للإنجاب، فلذلك أوثر لفظ (امرأة) على لفظ (زوج). وممَّا يدعم هذا أمران: أحدهما: ما حكاه القرآن الكريم عنها من مشهد مراودتها يوسف عليه السلام عن نفسه.

والآخر: تعبير القرآن عن زوجها بلفظ (السَّيِّد) دون لفظ الزَّوج، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَأَلۡفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلۡبَابِۚ﴾ [يوسف: 25].

معنى اللَّام ودلالتها في: ﴿لِٱمۡرَأَتِهِۦٓ﴾:

اللام مع الشراء للتعليل، ومع القول للتبليغ

اللام في قوله تعالى: ﴿لِٱمۡرَأَتِهِۦٓ﴾ من صلة القول[3]، وهي متعلِّقة بـ ﴿وَقَالَ﴾، لا بـ ﴿ٱشۡتَرَىٰهُ﴾[4]، فهي للتَّبليغ؛ نحو: قلتُ لك[5].

وقيل: يتنازعها كلا الفعلين: ﴿وَقَالَ﴾، و﴿ٱشۡتَرَىٰهُ﴾، فيكون اشتراه

(1) طنطاوي، الوسيط: 7/335.
(2) حسن طبل، وعبد الرحمن فودة، في البلاغة القرآنية، ص: 23 - 28.
(3) الواحدي، البسيط: 12/59.
(4) الزمخشري، الكشاف: 2/454.
(5) أبو حيان، البحر المحيط: 6/255.

ليهبه لها لتتَّخذه ولدًا. وهذا يقتضي أنَّهما لم يكن لهما ولد[1]. وإنَّما وَكَلَه إليها لتربِّيه تربية الأُمِّ ولدَها[2].

دلالة الأمر في: ﴿أَكْرِمِي مَثْوَاهُ﴾:

صيغة الأمر في قول العزيز لامرأته: ﴿أَكْرِمِي﴾ تفيد الوجوب. وتدلُّ على شدَّة عناية العزيز بيوسف عليه السلام؛ إذ إنَّه أوكل مهمَّة رعايته والعناية به إلى امرأته دون جواريها أو وصيفاتها، وأمرها به أمرًا مباشرًا[3].

توجيه المراد بالمثوى، وأثره في المعنى:

الإكرام إعطاء المراد على جهة الإعظام، وشموله للمكان والزَّمان مبالغة في تحقيقه

قوله: ﴿أَكْرِمِي مَثْوَاهُ﴾؛ أي: أكرمي منزله ومقامه عندك، من: ثوى بالمكان، إذا أقام به، ومصدره الثَّواء، يقال: ثوى يثوي ثوًا. والمعنى: أكرميه ما كان عندك، وأحسني إليه في طول مقامه عندنا. فالمثوى على هذا بمنزلة الظَّرف، كأنَّه قال لها: أحسني إليه مدَّة مقامه عندنا. والمثوى على هذا مصدر.

وقيل: المثوى: الموضع الذي يقيم فيه، وعلى هذا أمر العزيز امرأته بإكرام مثواه، دون إكرام نفسه فقط، ومعنى الإكرام، إعطاء المراد على جهة الإعظام[4].

فـ﴿مَثْوَاهُ﴾؛ أي: موضع مقامه، وذلك أعظم من الأمر بإكرامه نفسه، فالمعنى: أكرميه إكرامًا عظيمًا بحيث يكون ممن يُكرَم كلُّ ما لابَسه لأجله، ليرغب في المقام عندنا[5].

الكناية في: ﴿أَكْرِمِي مَثْوَاهُ﴾:

إكرام المحلِّ مبالغة في إكرام الحالِّ، وهذا مِن شيم الأكارم ذوي الأفضال

في قول العزيز لامرأته عن يوسف عليه السلام: ﴿أَكْرِمِي مَثْوَاهُ﴾ أمر

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/245.
(2) الجرجاني، درج الدرر: 3/995.
(3) البسيلي، النكت والتنبيهات: 2/241.
(4) الواحدي، البسيط: 12/60.
(5) البقاعي، نظم الدرر: 10/48.

منه لها بإكرام يوسف ﷺ نفسه، وقد عُبِّر عن ذلك بإكرام المثوى دون إكرام النَّفس للدَّلالة على أنَّه كان ينظر إلى يوسف ﷺ على سبيل الإجلال والتَّعظيم، وهو كما يقال: سلام الله على المجلس العالي مرادًا به السُّلطان[1].

فهو إذًا كناية عن إكرام نفسه وإحسان تعهُّده[2]، على أبلغ وجه وأتمِّه؛ لأنَّ مَن أكرم المحلَّ بإحسان الأَسِرَّة واتِّخاذ الفراش ونحوه فقد أكرم ضيفه بسائر ما يُكرم[3]. فالمعنى: اجعلي إقامته عندك كريمة؛ أي: كاملة في نوعها[4].

ويضاف إلى ما سبق أنَّ في الكلام استعارة[5]، وذلك من حيث إنَّه جعل المثوى (المكان) بمنزلة إنسان عاقل شريف يُكرم، فشبَّهه به، ثمَّ حذف المشبَّه به، وهو الإنسان الشَّريف، وجاء بأحد لوازمه، وهو الإكرام على سبيل الاستعارة المكنيَّة.

بلاغة الفصل: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ﴾:

قوله: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ﴾ استئناف بيانيٌّ ناشئ عن قوله: ﴿أَكۡرِمِي مَثۡوَىٰهُ﴾ فكأنَّها قالت: ما سبب إيصائك لي بهذا دون غيره؟ فجاء الجواب مبيِّنًا العلَّة من هذا الأمر، فاستأنف قوله: ﴿عَسَىٰٓ أَن﴾؛ أي: إنَّ حاله خليقٌ وجدير بأنْ ﴿يَنفَعَنَآ﴾[6]. أي: يقوم بإصلاح مهمَّاتنا، أو نتَّخذه ولدًا[7].فمِن ثمَّ أُوثر الفصل على الوصل.

دلالة الرجاء الدّالّ عليه: ﴿عَسَىٰٓ﴾:

﴿عَسَىٰٓ﴾ فعل يفيد الرَّجاء، وتستعمل في الأمر الذي يتحقَّق

كان العزيز صادق الفراسة، ثاقب الفكر، بعيد النَّظر، صادق البصيرة

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/435، والنيسابوري، غرائب القرآن: 4/76.
(2) البروسوي، روح البيان: 4/231.
(3) القنوجي، فتح البيان: 6/306.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/246.
(5) ابن عطية، المحرر الوجيز: 3/231.
(6) البقاعي، نظم الدرر: 10/48.
(7) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/435.

حدوثه فيما بعد[1]. فقول العزيز: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗاۚ﴾؛ أي: لعلَّه أن ينفعنا في أمورنا الخاصَّة إذا تدرَّب فيها وعرف مواردها ومصادرها، أو شؤون الدَّولة العامَّة لِما يلوح عليه من مخايل الذَّكاء والنَّجابة، أو نتبنَّاه ونقيمه مقام الولد، فيكون قرَّة عين لنا ووارثًا لمالنا ومجدِنا إذا تمَّ رشدُه ونضج عقلُه. وفي الآية إيماء إلى شيئين: **أحدهما**: أنَّ العزيز كان عقيمًا، **والآخر**: أنَّه كان صادق الفراسة، ثاقب الفكر، فقد استدلَّ مِن كمال خُلُق يوسف عليه السلام وخَلْقه على أنَّ حسن عشرته وكرم وفادته وشرف تربيته ممَّا يكمِّل استعداده الفطريَّ، فالتَّجارب دلَّت على أنَّه لا يفسد الأخلاق شيء أكثر ممَّا تفسدها البيئة الفاسدة وسوء القدوة[2].

معنى ﴿أَوۡ﴾، ودلالتها:

﴿أَوۡ﴾ في قول العزيز: ﴿أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗاۚ﴾ للتَّخيير بين أمرين، فالمراد من نفعه أحد أمرين: إمَّا الرِّبح فيه إذا باعوه، أو معاونته لهم إذا أبقوه، وهذان غير اتِّخاذه ولدًا. ويصحُّ أن تكون ﴿أَوۡ﴾ مانعةَ خلُوٍّ، فتجوِّز الجمع، بمعنى أنَّه لا يخلو الحال من حصول أحد هذين الأمرين المتوقَّعين أو حصولهما جميعًا[3].

سرّ تقديم رجاء نفعه على اتخاذه ولدًا:

قول العزيز لامرأته عن يوسف عليه السلام: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ﴾؛ يعني: نبيعه بالرِّبح إن أردنا البيع، أو ينفعنا بالخدمة إن لم نبعه. ﴿أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗاۚ﴾؛ يعني: أو نعتقه ونتبنَّاه[4].

ففي هذا تدرُّج من الأقصى (وهو البيع بالرِّبح) إلى الأدنى

كان تعلُّق العزيز بيوسف عليه السلام شديدًا، ورجا أن يظلَّ في كنفه أمدًا بعيدًا

(1) الهلال، الثري الجامع: 5/326.
(2) المراغي، تفسير القرآن: 12/126.
(3) الجمل، حاشية على الجلالين: 4/20.
(4) السمعاني، تفسير القرآن: 3/19.

(وهو اتِّخاذهما إيَّاه عليه السلام ولدًا) فأراد العزيز أن يجعل الإحسان إلى يوسف عليه السلام سببًا في اجتلاب محبَّته إيَّاهما، ونصحه لهما فينفعهما، أو يتَّخذانه ولدًا فيبرَّ بهما وذلك أشدُّ تقريبًا[1].

فإن قيل: إنَّ اتِّخاذهم إيَّاه ولدًا محقَّق بالشِّراء، فكيف يكون فيه معنى التَّرجي؟ وكيف قال: ﴿أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗاۚ﴾ وهو ملكه، والولديَّة مع العبديَّة تتناقض؟ فالجواب: إنَّما يتَّخذونه ولدًا إذا ظهر لهم نجابته ومنفعته، وذلك بأن يعتقه العزيز ثم يتَّخذه ولدًا بالتَّبنِّي، وكان التَّبنِّي في الأمم معلومًا عندهم[2].

ففي ما سبق دليل على شدَّة تمسُّك العزيز بيوسف عليه السلام وتعلُّقه به، وأنَّه يؤمِّل فيه أن يبقى عنده أمدًا بعيدًا حتى يصير له بمنزلة الولد.

دلالة تنكير ﴿وَلَدٗاۚ﴾:

أفاد تنكير كلمة ﴿وَلَدٗاۚ﴾ في قول العزيز: ﴿أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗاۚ﴾ أمرين: **أحدهما**: التَّخصيص؛ أي: ولدًا على نحو خاصٍّ، وهو التَّبنِّي، ويكون خاصًّا بنا فلا يُباع، ولا يُمتَهَن، **والآخر**: التَّعظيم والتَّفخيم؛ إذ السِّياق سياق مدح وإكرام.

بيان التَّشبيه في: ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾:

كاف: ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ في محلِّ نصب على أنَّه نعت مصدر محذوف، والإشارة بـ (ذلك) إلى ما تقدَّم من إنجائه عليه السلام من إخوته، وإخراجه من الجبِّ، وعطف قلب العزيز عليه[3]؛ أي: ومثل ذلك الإنجاء والعطف مَكَّنَّا له؛ أي: كما أنجيناه وعطَّفنا عليه العزيز، كذلك مكَّنَّا له في أرض مصر، وجعلناه ملكًا يتصرَّف فيها بأمره ونهيه[4].

آلاء الله على أوليائه سابغة، لم تُرفع عنهم طرفة عين ولا أدنى

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/246.
(2) ابن عرفة، تفسير القرآن: 2/380، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 9/160.
(3) الشوكاني، فتح القدير: 3/17.
(4) الزمخشري، الكشاف: 2/454.

فشبَّه التَّمكين له ﷻ في الأرض بالتَّوفيق للأسباب التي صار بها إلى ما صار بالنَّجاة من الهلاك، والإخراج من البئر[1]. فهو تشبيه مجمل[2].

والمشبَّه به ما عُلِم ممَّا قبله. والمشبَّه: تمكينه في الأرض يتصرَّف فيها على ما أراده الله تعالى له[3]. أو يكون المشبَّه به هو التَّمكين المقصود نفسه، وفائدة هذا التَّشبيه أنَّه جيء به تنويهًا بأنَّ ذلك التَّمكين بلغ غاية ما يُطلب من نوعه بحيث لو أريد تشبيهه بتمكين أتمَّ منه لما كان إلَّا أن يُشبَّه بنفسه، فيكون الكاف في محلِّ نصب على المفعول المطلق. والتَّقدير: مكَّنَّا ليوسف تمكينًا كذلك التَّمكين[4].

دلالة التَّعبير باسم الإشارة للبعيد: ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾:

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ إشارةٌ إلى ما يُفهم من كلام العزيزِ، وما فيه من معنى البُعد لتفخيمه[5]. والكاف مقحم للدِّلالة على فخامة شأن المشار إليه إقحامًا لا يكاد يُترك في لغة العرب ولا في غيرها، ومن ذلك قولهم: مثلُك لا يبخل[6].

إيثار فعل التَّمكين، وصيغة الماضي:

قوله تعالى: ﴿مَكَّنَّا﴾؛ أي: جعلنا له فيها مكانًا. يقال مكَّنه فيه؛ أي: أثبته فيه. ومكَّن له فيه؛ أي: جعل له فيه مكانًا. ولتقاربهما وتلازُمهما يُستعمل كلٌّ منهما في محلِّ الآخر[7].

ثبوت مكانة يوسف ﷺ ومنزلته

والمراد بالمكان هنا: المكانة والمنزلة لا البُعد المجرَّد[8].

(1) الواحدي، البسيط: 12/61.
(2) الهرري، الحدائق: 13/412.
(3) الخفاجي، عناية القاضي: 5/165.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/246.
(5) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/262.
(6) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/263.
(7) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/262.
(8) الآلوسي، روح المعاني: 6/398.

فقد ألقى الله تعالى على يوسف عليه السلام محبَّة منه سبحانه، وقبولًا لدى الخَلْق، وبهاءً في الوجه، وحُسنًا في الخُلُق، ممَّا رسَّخ أقدامه عليه السلام في مكانه من الأرض، ومكانته من القلوب. ويفيد التَّعبير بالماضي توكيد وقوع الفعل، وثبوته على حال معيَّنة في الماضي.

معنى اللَّام ودلالتها في: ﴿مَكَّنَّا لِيُوسُفَ﴾:

الفعل (مكَّن) يتعدَّى بنفسه كما في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ﴾ [الأعراف: 10]، ويتعدَّى باللَّام كما هاهنا، والمراد: (نعطيه مكانة ورتبة عالية في الأرض)[1]، فاللَّام: لام الاختصاص[2]، وهي تفيد معنى التملُّك، وهذا ما دلَّت عليه الآيات اللَّاحقة، حيث صار يوسف عليه السلام عزيز مصر، والآمرَ النَّاهي فيها.

معنى حرف الجرِّ ﴿فِي﴾ ودلالته:

﴿فِي﴾ ظرفيَّة[3]، وتعني جعلَه وجيهًا بين أهلها ومُحَبَّبًا في قلوبهم كافَّة كما في قلب العزيز[4]. وفيها دلالة على رسوخ قدم يوسف عليه السلام في منزله من مصر، ومنزلته في قلوب أهلها، كما تُثبَّت دعائم البيت وأركانه في الأرض فترسخ ويصعب إزالتها.

دلالة (ال) في ﴿ٱلْأَرْضِ﴾، والمقصود بها:

﴿ٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: أرض مصر، يتصرَّف فيها بأمره ونهيه؛ أي: حكَّمناه فيها[5].فاللام فيها للعهد الذِّكري لقوله تعالى في أولَّ الآية: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ﴾.

وهي كالأرض كلِّها لكثرة منافعها بالملك فيها لتمكُّنه من الحكم بالعدل[6]. فهو من باب إطلاق العامِّ وإرادة الخاصِّ[7].

فائدة عطف جملة ﴿وَلِنُعَلِّمَهُۥ﴾:

في قوله تعالى: ﴿وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِۚ﴾ اختُلف في هذه الواو، فقيل: إنَّها

(1) الجمل، حاشية على الجلالين: 4/21.
(2) الهلال، الثري الجامع: 5/326.
(3) الهلال، الثري الجامع: 5/326.
(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/262.
(5) أبو حيان، البحر المحيط: 6/255.
(6) البقاعي، نظم الدرر: 10/49.
(7) الهرري، الحدائق: 13/412.

مستأنفة، وخبرها مضمَر على تقدير: ولنعلِّمه من تأويل الأحاديث فعلنا ذلك، أو مكَّنَّا له في الأرض. وقيل: هي عاطفة على معنى الكلام المتقدِّم بتقدير: دبَّرنا ذلك لنمكِّنه في الأرض ولنعلِّمه[1].

فكأنَّه قيل: ومثلَ ذلك التَّمكينِ مَكَّنَّا ليوسف في الأرض، وجعلنا قلوب أهلها كافَّة محالَّ محبَّتِه؛ ليترتَّب عليه ما ترتَّب ممَّا جرى بينه وبين امرأةِ العزيز، ولنعلِّمه تأويل الأحاديثِ. وترك المعطوفِ عليه للإشعار بعدم كونه مرادًا بالذَّات[2]؛ لأنَّ الله لمَّا قدَّر في سابق علمه أن يجعل يوسف عليه السلام عالمًا بتأويل الرُّؤيا، وأن يجعله نبيًّا أنجاه من الهلاك، ومكَّن له في الأرض تهيئة لأسباب مراد الله[3].

وأمَّا فائدة عطفه على سابقه فلأجل أنَّ تحقيق الكمال يكون بأمرين؛ هما: القدرة والعلم، أمَّا تكميله في صفة القدرة فبقوله تعالى: ﴿مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾، وأمَّا تكميله في صفة العلم، فبقوله تعالى: ﴿وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِۚ﴾[4].

فالحاصل أنَّ هذه الجملة معطوفة على قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾، ففُهم من الجملة الأولى تمكينه في الأرض، وهو نعمة الملك، ومن الثَّانية: تعليمه الأحاديث، وهو نعمة العلم، وهذا هو المقصود من الإنجاء والتَّمكين: التَّعليم؛ ليدبِّر أمور عباده، لا أن يتمتَّع باللَّذات. والمقصود من التَّعليم: العمل، لا ليجاري به العلماء، ويماري به السُّفهاء، أو يصرف وجوه النَّاس إليه[5].

تحقيق الكمال يكون بأمرين؛ هما القدرة والعلم، وكلاهما أُعطي يوسف عليه السلام

معنى حرف اللام في: ﴿وَلِنُعَلِّمَهُۥ﴾ ودلالته:

اللَّام في قوله: ﴿وَلِنُعَلِّمَهُۥ﴾ للتَّعليل[6]؛ أي: مكَّنَّا له في الأرض لكي

(1) الواحدي، البسيط: 12/61 - 62.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/263.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/247.
(4) الزحيلي، المنير: 12/235.
(5) الطيبي، حاشية على الكشاف: 8/285.
(6) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 4/469.

نعلِّمه من تأويل الأحاديث[1]، ولنوحي إليه بكلام منَّا، ونعلِّمه تأويله وتفسيره، وتأويل الرُّؤيا[2]؛ أي: كان القصد في إنجائه وتمكينه إلى أن يقيم العدل، ويدبِّر أمور النَّاس، ويعلَم معاني كتب الله تعالى وأحكامه فينفِّذها، أو تعبير المنامات المنبِّهة على الحوادث الكائنة ليستعدَّ لها ويشتغل بتدبيرها قبل أن تحلَّ كما فعل لسِنِيه[3]. وقيل: اللام لام العاقبة في الفعل المذكور، والفعل المقدَّر[4].

دلالة التَّعبير بالمضارع في: ﴿وَلِنُعَلِّمَهُۥ﴾:

التَّعبير بالمضارع في قوله تعالى: ﴿وَلِنُعَلِّمَهُۥ﴾ يفيد التَّجدُّد والاستمرار، وهذا هو المناسب لمقام التَّعليم؛ لأنَّه يكون متجدِّدًا بتجدُّد الحوادث، ومستمرًّا باستمرار الوحي، ومتكرِّرًا بتكرُّر دواعيه. وهذه نعمة من الله عظيمة من حيث إنَّه سبحانه لم يترك أنبياءه دون تعليم متجدِّد، وتوجيه دائم، وتربية مستمرَّة.

سرُّ التَّعبير بنون العظمة في ﴿مَكَّنَّا﴾، ﴿وَلِنُعَلِّمَهُۥ﴾:

عظمة الفعل دليل على عظمة الفاعل، ولا أعظم من العظيم ﷻ

التَّعبير بنون العظمة يدلُّ على أنَّ الفعل المسند إليها فعل عظيم، فإنجاء يوسف من الجُبِّ بهذه الصُّورة كان عظيمًا من حيث التَّقدير، فلو تأخَّر إلقاؤه فيه ربَّما فاتت السَّيَّارة، ولو تأخَّر وصول السَّيارة ربَّما ترتَّب على ذلك شدَّة يقاسيها عليه السلام قد تُفضي إلى الهلاك. علاوة على أنَّ ترتيب بيعه عليه السلام في مصر، وشراء العزيز إيَّاه، وإيصاءَه امرأتَه به خيرًا كان أمرًا عظيمًا كذلك حيث تربَّى في بيت رئيس وزراء الملك، فحصَّل علمًا بإدارة شؤون الملك والحكم عظيمًا، وقد نفعه هذا عندما تولَّى هو سدَّة الحكم. فضلًا عمَّا أُلقي في قلوب مَن رآه مِن محبَّته عليه السلام. فهذا التَّرتيب والتَّقدير كان أمرًا عظيمًا جليلًا،

(1) البغوي، معالم التنزيل: 4/226.
(2) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 9/160.
(3) البيضاوي، أنوار التنزيل: 3/159.
(4) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 7/3813.

إذ إنَّ وصول رجل لسدَّة حكم أرض قد وصل إليها مبيعًا من رفقة مسافرين؛ لهُوَ أمر جليل حقًّا، فلذلك قال الله تعالى: ﴿مَكَّنَّا﴾، وقال سبحانه: ﴿وَلِنُعَلِّمَهُۥ﴾؛ أي: "بما لنا من العظمة"[1].

معنى حرف الجرِّ ﴿مِن﴾ ودلالته:

﴿مِن﴾ في قوله تعالى: ﴿مِن تَأۡوِيلِ﴾ تبعيضيَّة، والمعنى: ولنعلِّمه بعضَ تعبير الرُّؤيا، ومعرفة حقائق الأمور، ممَّا ينتهي إلى غاية التَّمكين لدى المَلِك[2].

وفيه دليل على أنَّ هذا العلم هو بعض فضل الله تعالى، وهو قبس من أنواره ﷻ، ومصداق هذا قوله سبحانه: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا ٨٥﴾ [الإسراء: 85].

سرُّ إيثار التَّعبير بالأحاديث دون الرُّؤى أو الأحلام:

الأحاديث أعمُّ من الرُّؤى والأحلام

﴿ٱلۡأَحَادِيثِۚ﴾: يصحُّ أن يكون جمع حديث بمعنى الشَّيء الحادث، فتأويل الأحاديث: إرجاع الحوادث إلى عللها وأسبابها بإدراك حقائقها على التَّمام. وهو المعنيُّ بالحكمة، وذلك بالاستدلال بأصناف الموجودات على قدرة الله وحكمته، ويصحُّ أن يكون الأحاديث جمع حديث بمعنى الخبر المتحدَّث به، فالتَّأويل: تعبير الرُّؤيا. سمِّيت أحاديث؛ لأنَّ الرُّؤى يتحدَّث بها الرَّاؤون، وعلى هذا المعنى حملها بعض المفسِّرين. واستدلُّوا بقوله في آخر القصَّة: ﴿وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَٰيَ مِن قَبۡلُ﴾ [يوسف: 100]. ولعلَّ كلا المعنيين مرادٌ بناءً على صحَّة استعمال المشترك في معنييه، وهو الأصحُّ، أو يكون اختيار هذا اللفظ إيجازًا معجزًا؛ إذ يكون قد حُكي به كلام طويل صدر من يعقوب عليه السلام بلُغته يعبِّر عن تأويل الأشياء بجميع تلك المعاني[3].

(1) البقاعي، نظم الدرر: 10/49.
(2) المراغي، تفسير القرآن: 12/126.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/216.

وممَّا قيل في معنى ﴿ٱلۡأَحَادِيثِۚ﴾ أيضًا أنَّها الكتب المنزَّلة، أو مأثورات النَّبيِّين: إبراهيم وإسحاق ويعقوب ﷺ، وتأويلها: معرفتها، ومعرفة مآلها، أو العلم والحكمة[1].

فمن ثمَّ أوثر التَّعبير بالأحاديث؛ ليندرج تحت اللفظ كلُّ ما قيل فيه من معانٍ، فكلُّ ذلك قد علَّمه اللّٰه تعالى نبيَّه يوسف ﷺ. بخلاف لو قيل مكانها (الرُّؤى)، أو (الأحلام)، فإنَّ مدلولها واحد لا يتعدَّى إلى غيره.

معنى اللام في ﴿ٱلۡأَحَادِيثِۚ﴾:

يصحُّ أن تكون اللام جنسيَّة مرادًا بها جنس الأحاديث، لا كلُّها، فيتعيَّن منها: أحاديث الأنبياء ﷺ، وتأويل الرُّؤى والأحلام.

ويصحُّ أن تكون للعهد الذِّهنيِّ، مشارًا بها لِما تقدَّم في أوَّل السُّورة من قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجۡتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِ﴾ [يوسف: 6].

نكتة اختصاص يوسف ﷺ بتأويل الأحاديث:

معرفة مآلات الأمور والأقوال كانت طريق يوسف ﷺ للتَّمكين والحكم

ممَّا قيل في معنى ﴿تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِۚ﴾: أنَّ المقصود: تأويل الرُّؤيا، وقد اختُصَّ بها يوسف ﷺ لأنَّها كانت من الأسباب التي بلغ بها ما بلغ من التَّمكُّن[2]، وقد كانت الطَّريق لتمكينه في الأرض وإقامة العدل فيها[3].

فضلًا عمَّا في تأويل الأحاديث من معرفة حقائق الأمور، وكيفية الاستدلال بأصناف المخلوقات على قدرة اللّٰه تعالى وحكمته وجلاله[4]، وكلُّ هذا مما يتطلَّبه تقليب الفكر والنَّظر في إدارة الحكم، وشؤون الملك.

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 7/3813.
(2) الشوكاني، فتح القدير: 3/17.
(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 7/3813.
(4) الزحيلي، المنير: 12/235.

بلاغة الاحتباك:

في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِۚ﴾ احتباك تقديره: مكَّنَّا ليوسف في الأرض (فملَّكناه)، (وآتيناه النُّبوَّة) لنعلِّمه من تأويل الأحاديث.

فأثبت التَّمكين في الأرض ليدلَّ على لازمه من المُلك، والتَّمكين من العدل، وذكر التَّعليم ليدلَّ على ملزومه وهو النُّبوَّة، فدلَّ أوَّلًا بالملزوم على اللَّازم، وثانيًا باللَّازم على الملزوم[1].

دلالة الواو:

الواو في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ﴾ استئنافيَّة[2]؛ ذلك أنَّ الكلام قبلها قد تمَّ، ثمَّ قال الله ﷻ: ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ﴾؛ أي: يفعل ما يشاء في خلقه، لا يقدر أحد على منعه ولا غلبته، وليس هذا للمخلوقين، فهذا معنى: ﴿غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ﴾[3].

الله لا يغلبه غالب، ولا يبطل إرادته منازع، فهو قادر على أمره من غير مانع

وقد حسن الفصل هنا دون الوصل لاختلاف الجملتين في الاسميَّة والفعليَّة، فجملة: ﴿وَلِنُعَلِّمَهُۥ﴾ فعليَّة، وجملة: ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ﴾ اسميَّة. فضلًا عمَّا قد يؤدِّي إليه الوصل من إيهام الاشتراك في الحكم، لأنَّ المعنى حينئذ سيكون: مكَّنَّا ليوسف في الأرض لنعلِّمه من تأويل الأحاديث وليكون الله غالبًا على أمره. فالفصل أفاد أنَّ غلبة الله تعالى على أمره شأنٌ ثابت لا يتغيَّر، سواء في أمر يوسف عليه السلام أو قبله أو بعده!

سرُّ التَّعبير بلفظ الجلالة بعد نون العظمة:

التَّعبير بلفظ الجلالة ﴿وَٱللَّهُ﴾ بعد نون العظمة ﴿مَكَّنَّا﴾ جاء للمبالغة في التَّعظيم والتَّفخيم؛ لأنَّه من أعجب العجب أنَّ مَن وقع له

الله تعالى عظيم لا يكبره شيء، عزيز لا يغلبه شيء، ولا يعطِّل مشيئته شيء

(1) البقاعي، نظم الدرر: 10/49.
(2) بهجت صالح، الإعراب المفصل: 5/285.
(3) النحاس، إعراب القرآن: 2/197.

التَّمكين هو مَن فُعل به هذه الأفعال من كراهة إخوته له، وتفريقهم بينه وبين أبيه عليه السلام، وإلقائهم إيَّاه في غيابة الجُبِّ، والتقاط السَّيَّارة له، وبيعهم إيَّاه بثمن بخس... إلخ.

وهذا يشي ببُعد من أُجرِيت عليه مثل هذه الأقدار أن يكون ملكًا عزيزًا؛ فأنْ يتمكَّن مِن أرض هو فيها مع كونه غريبًا مستبعدًا فردًا لا عشيرة له فيها ولا أعوان لهُوَ أعجب العجب؛ لذلك قال تعالى نافيًا لهذا العجب: ﴿وَٱللَّهُ﴾؛ أي: الملك الأعظم الذي لا يعجزه شيء، فلا رادَّ لقضائه، ولا معقِّب لحكمه[1].

بلاغة التَّعبير باسم الفاعل: ﴿غَالِبٌ﴾:

التَّعبير باسم الفاعل ﴿غَالِبٌ﴾ يفيد الثُّبوت والدَّيمومة، وعدم تغيُّر ذلك مهما تقلَّبت الحوادث، أو تعاورت الأزمان، فاللّٰه تعالى غالب في كلِّ حين، وفي كلِّ أمر، وفي كلِّ حال، فتلك صفة عظيمة متعلِّقة بذاته سبحانه.

معنى حرف الجرِّ ﴿عَلَىٰٓ﴾ ودلالته:

يدخل الحرف ﴿عَلَىٰٓ﴾ بعد مادَّة الغَلَب ونحوها على الشَّيء الذي يتوقَّع فيه النِّزاع، كقولهم: غلبناهم على الماء. و(أمرُ اللّٰه) هو ما قدَّره وأراده، فمَن سعى إلى عمل يخالف ما أراده اللّٰه فحاله كحال المنازِع على أن يحقِّق الأمر الذي أراده، ويمنع حصول مراد اللّٰه تعالى ولا يكون إلَّا ما أراده اللّٰه تعالى، فشأن اللّٰه تعالى كحال الغالب لمنازِعه. والمعنى: واللّٰه متمِّمٌ ما قدَّره[2].

توجيه عود الضَّمير في: ﴿أَمۡرِهِۦ﴾:

الضَّمير في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ﴾ فيه وجهان:

الأوَّل: غالب على أمر نفسه سبحانه وتعالى؛ لأنَّه فعَّال لما يريد، لا دافع لقضائه، ولا مانع عن حكمه في أرضه وسمائه.

قدرةُ الله تعالى لا متناهية، وليست مقصورة أو محدودة

(1) البقاعي، نظم الدرر: 10/49.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/247.

والثَّاني: والله غالب على أمر يوسف عليه السلام؛ يعني: أنَّ انتظام أموره عليه السلام كان إلهيًّا، وما كان بسعيه، وإخوته أرادوا به كلَّ سوء ومكروه، والله أراد به الخير، فكان كما أراد الله تعالى ودبَّر، ولكنَّ أكثر النَّاس لا يعلمون أنَّ الأمر كلَّه بيد الله.

فعلى التَّوجيه الأوَّل يكون إخبارًا منبِّهًا على قدرة الله عز وجل ليس في شأن يوسف عليه السلام خاصَّةً بل عامًّا في كلِّ أمر[1].

دلالة إضافة الضَّمير إلى المصدر في: ﴿أَمْرِهِۦ﴾:

في إضافة الأمر إلى الله تبارك وتعالى إشارة إلى أنَّ الأمر كلَّه لله سبحانه، وليس له شريك ينازعه الأمر في أيِّ شيء، فهو سبحانه الغالب على كلِّ أمر، لا ينازعه منازع، ولا يعترض مشيئته معترض، إذ إنَّه ليس لأحد معه أمر، كما يقول سبحانه: ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ﴾ [هود: 123][2].

الله سبحانه لا ينازعه منازع، ولا يعترض مشيئته معترض، إذ إنَّه ليس لأحد معه أمر

ومَن تأمَّل في أحوال الدُّنيا وعجائب أحوالها عرف وتيقَّن أنَّ الأمر كلَّه لله تعالى، وأنَّ قضاء الله غالب[3]، وهذا العموم مأخوذ من إضافة المصدر؛ لأنَّ المصدر المضاف من طرق العموم[4]، ويدخل في عموم المصدر المضافِ شؤونُه سبحانه المتعلِّقة بيوسف عليه السلام دخولًا أوَّليًّا[5]؛ فكم مِن أمر كان في هذه القصَّة وفي غيرها يرشد إلى أنَّه لا أمر لغيره سبحانه[6]!

سرّ التذييل، وعلاقته بالمعنى:

جملة ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ﴾ معترضة في آخر الكلام، وتذييل؛ لأنَّ مفهومها عامٌّ يشمل غلَبَ الله سبحانه إخوةَ يوسف عليه السلام بإبطال كيدهم[7].

وُعود الله تعالى ناجزة، ومشيئته سبحانه نافذة

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 3/231.
(2) الخطيب، التفسير القرآني: 6/1250.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/436.
(4) الخفاجي، عناية القاضي: 5/165.
(5) الآلوسي، روح المعاني: 6/399.
(6) البقاعي، نظم الدرر: 10/50.
(7) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/247.

وقد قُصِد بهذا التَّذييل بيان قدرة الله تعالى، ونفاذ مشيئته سبحانه. فأمرُ الله هنا هو ما قدَّره وأراده؛ أي: والله تعالى متمِّم ما قدَّره وأراده، لا يمنعه من ذلك مانع، ولا ينازعه فيه منازِع، ولكنَّ أكثر الناس لا يعلمون ذلك حقَّ العلم، فيما يأتون ويذرون من أقوال وأفعال[1]. وهو تتميم إذا أُريد به يوسف عليه السلام؛ أي: تتميم لما دبَّره الله تعالى فيه، وأنَّ العاقبة له[2].

معنى ﴿وَلَٰكِنَّ﴾ ودلالتها:

﴿وَلَٰكِنَّ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ استدراك على ما يقتضيه حكم غلبة الله تعالى لكلِّ شيء من كونه حقيقة ثابتة شأنها أن لا تُجهَل، لأنَّ عليها شواهد من أحوال الحدثان، ولكنَّ أكثر الناس لا يعلمون ذلك مع ظهوره[3].

فائدة الاحتراس في خاتمة الآية:

التَّعبير بقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ احتراس لإنصاف القِلَّة من النَّاس الذين هم بخلاف الأكثر، ومدح الذين يعطيهم الله تعالى من فضله ما يجعلهم لا يندرجون في الكثرة التي لا تعلم، بل هو سبحانه يعطيهم من فضله ما يجعلهم يعلمون ما لا يعلمه غيرهم[4]، فقوله تعالى: ﴿أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ﴾ دليل على أنَّ الأقلَّ يعلمون الحقائق كيعقوب عليه السلام، الذي يعلم أنَّ الله سبحانه غالب على أمره[5].

كلَّت عن إدراك معلومات الله الأفهام، وتقاصرت عن إدراك حكمته الأوهام

فقوله تعالى: ﴿أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ﴾ إيماء إلى أنَّ الأقلَّ يعلمون ذلك؛ كيعقوب عليه السلام، فإنَّه يعلم أنَّ الله غالب على أمره، فها هي ذي أقواله

(1) طنطاوي، الوسيط: 7/336.
(2) الطيبي، حاشية على الكشاف: 8/286.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/248.
(4) طنطاوي، الوسيط: 7/336.
(5) الزحيلي، المنير: 12/236.

السَّابقة واللَّاحقة صريحة في ذلك، ولكنَّ علمَه ﷺ إجماليٌّ لا تفصيليٌّ؛ إذ لا يحيط بما تخبِّئه الأقدار[1].

دلالة التَّعبير بالمضارع المنفي:

يفيد التَّعبير بالمضارع معنى التَّجدُّد والاستمرار، وقد دلَّ في قوله: ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ على أنَّ عدم علم النَّاس بالغيب أمر متجدِّد بتجدُّد الحوادث، ومستمرٌّ باستمرار جريانها عليهم، فكلُّ حدث منها يخبِّئ في طيِّه من حُكم اللّه تعالى وحكمته، وعجيب تقديره وترتيبه وقدرته ما لا يعلمه أحد إلَّا هو ﷻ.

حذف المفعول في: ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾:

قوله تعالى: ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾؛ أي: لا يعلمون أنَّ الأمر كلَّه بيده سبحانه، فيأتون ويذرون زعمًا أنَّ لهم شيئًا من الأمر. أو: لا يعلمون لطائف صنعه، وخفايا لطفه ﷻ[2]. فغرض الحذف هاهنا قصد التَّعميم مع الاختصار في اللَّفظ[3]، مع ما فيه من جمال الرِّعاية على الفاصلة.

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

امرأة وزوج:

التّزويج علاقة شرعيَّة تدلُّ على قوَّة ارتباط الزَّوجين، وهو من أمر الدِّين؛ لذا ورد لفظ الزوج والأزواج في مواطن إثبات صحَّة العلاقة الزَّوجيَّة، وأنَّها لا تنقضي حتّى بعد الموت؛ لأنَّ الزَّوجيَّة تمتدُّ إلى الآخرة، فأشارت الآيات إلى تلك الزَّوجيَّة مقترنة بآدم عليه السلام وزوجه، والنبيّ ﷺ وأزواجه؛ فإذا لم يكن في العلاقة الزَّوجيَّة بين الشريكين مودَّة ورحمة وسكن وتوافق وانسجام أو كان بينهما

يُستعمَل لفظ امرأة إنْ لَم تُحقَّق الزَّوجيَّة أو عُطِّلَت، ولفظ الزَّوج في إثبات صحَّة الزَّوجيَّة

(1) المراغي، تفسير القرآن: 12/127.
(2) القاسمي، محاسن التأويل: 6/163.
(3) الإيجي، جامع البيان: 2/217.

اختلافٌ في الإيمان، استُعمِل في القرآن لفظُ امرأة؛ لذلك استُعمِل لفظُ امرأة من دون الزوج أو الزَّوجة في قول الله ﷻ: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا﴾ [التحريم: 10]، وقوله ﷻ: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١١﴾﴾ [التحريم: 11]؛ فقد كان نوح ولوط عليهما السلام نبيَّين، وكانت امرأةُ كلٍّ منهما خائنةً غيرَ مؤمنة، وكان فرعونُ كافرًا وكانت امرأته مؤمنةً[1].

وإذا كان مساق الكلام في ذِكر الولادة والحمل، استُعمِل لفظ امرأة دون الزَّوج، وإن كانت الزَّوجيَّة متحقِّقةً بينهما؛ وذلك لأنَّ صفة الأنوثة هي المقتضية للحمل والوضع، وهي متأتّية من حيث كونها امرأة لا من حيث إنها زوج، فضلًا عن أنَّ الزَّوج يقع فيه اللَّبس؛ لعمومه في الذَّكر والأنثى.

أمَّا المرأة فليس يشركها في لفظها الرجل، في سورة مريم: ﴿وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا﴾ [مريم: 5]، وقال ﷻ: ﴿فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾﴾ [الذاريات: 29].

ومن وجه آخر قد تكون الحكمةُ من ذِكر لفظ امرأة في هذه المواضع تعطُّلَ الزَّوجيَّة بالعقم، ويؤيِّد هذا مجيءُ لفظ الزَّوج بعدما استجاب الله دعاء زكريّا ووهب له يحيى عليهما السلام، وتحقَّقَت الزوجيَّةُ بهذه الاستجابة، قال الله ﷻ: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓۚ﴾ [الأنبياء: 90][2].

أمّا قول الله ﷻ: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِيٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ [الأحزاب: 37] فقد استُعمِل فيه لفظ الزَّوج للتقريب بينهما، وليُشعرَ النبيُّ ﷺ مولاه بأنَّه وزوجته كليهما معًا عنده بمنزلةٍ واحدة، وأنَّه أهلٌ لها، كما هي أهلٌ له، وإن اختلفا في النَّسب، بل رسول الله ﷺ هو الذي زوَّجَ ابنة عمته زينب من مولاه زيد بن حارثة؛ لتكون سكنًا له، ويكون سكنًا لها، ولو قيل: أمسِك عليك امرأتك، لجعل زيدًا تنتابه الظّنون في ما يتعلَّق بعدم أهليّته لها لعلوِّ نسبها على نسبه، هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإنَّ الخلاف

(1) خضر، دقائق الفروق اللغوية، ص: 100، 101، وزيدان، الفروق اللغوية، ص: 596.

(2) خضر، دقائق الفروق اللغوية، ص: 101، وزيدان، الفروق اللغوية، ص: 596.

بينهما كان من تدبير الله ﷻ؛ لينتهيَ هذا الخلافُ إلى تطليق زيد لها وزواج النبيّ ﷺ منها؛ ليبطل بذلك عادة التبنِّي عند العرب قبل الإسلام[1].

المثوى والمأوى:

الثَّواء: الإقامة مع الاستقرار[2]. والمأوى: كل مكان يُؤوَى إليه ليلًا أو نهارًا[3]. والفرق بين المثوى والمأوى هو أنَّ المثوى مكان الإقامة المنبئة عن المكث. أمَّا المأوى فهو المكان الذي يأوي إليه الإنسان ولو مؤقّتًا[4].

(1) زيدان، الفروق اللغوية، ص: 596، 597.
(2) الراغب، المفردات: (ثوي).
(3) الجوهري، الصحاح، وابن فارس، المقاييس: (أوي).
(4) الدرة، تفسير القرآن الكريم: 2/270.

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٢٢﴾ [يوسف: 22]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لمّا بيَّن الله سبحانه الشَّدائد والمحن التي تعرّض لها يوسف عليه السلام، وصبره عليها دون جزع، وتحمله إيّاها دون هلع؛ بيَّن سبحانه إكرامه ليوسف عليه السلام بأن آتاه الحكم والعلم عند استكمال سنِّ الشَّباب وبلوغه الأشُدَّ؛ جزاءً منه سبحانه على إحسانه في سيرته وسريرته[1].

مَنْ حَسُنَ عملُه؛ حَسُنَ جزاؤه، وتحقَّق رجاؤه

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَشُدَّهُۥٓ﴾: الشِّدَّة: الصَّلابة، وهي ضدُّ اللين[2]. والشَّدُّ: التَّقوية[3]. وأصله من القوَّة في الشَّيء[4]. يقال: شَدَّ الشَّيء يشدُّه شدًّا: أوثقه وقوَّاه[5]، ﴿بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ﴾: هو جمع شِدَّة، وهي القوَّة والجَلَد في البدن والعقل، وبلوغه الحِنْكة والمعرفة[6].

المَعْنى الإِجْمالِيُّ:

ولمَّا بلغ يوسف عليه السلام منتهى شبابه وشدَّته وقوَّته أعطيناه بفضلنا وإحساننا نبوَّة وفقهًا في الدِّين، وكذلك نعطي ونجازي المهتدين الصَّابرين على النَّوائب كما صبر يوسف عليه السلام[7].

جزاء الإحسان يكون دائمًا بالخير والفضل والإحسان

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 18/436، وابن عادل، اللّباب: 11/53، والخطيب الشربيني، السراج المنير: 2/99، والمراغي، تفسير المراغي: 12/127، والزحيلي، التفسير المنير: 12/236.

(2) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (شدد).

(3) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحفاظ، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (شدد).

(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (شدد).

(5) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح، والراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ، وابن منظور، لسان العرب: (شدد).

(6) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، والراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (شدد).

(7) ابن جرير، جامع البيان: 13/66، والبغوي، معالم التنزيل: 4/226، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/325.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالة الواو واقترانها بـ (لَمَّا) الحينيّة:

(الواو) في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ﴾ استئنافيَّة، و(لمَّا) ظرف بمعنى (حين) متضمِّن معنى الشَّرط في محلِّ نصب متعلِّق بـ ﴿ءَاتَيۡنَٰهُ﴾[1].

مَن استقام في التَّقوى والورع على سواء الطَّريق؛ أمدَّه الله بالعلم والتَّوفيق

وقد دلَّ الاستئناف على ذكر اصطفاء الله ﷻ عبدَه يوسف عليه السلام للنُّبوَّة في ذكر مبدأ حلوله بمصر لمناسبة ذكر منَّة الله عليه بتمكينه في الأرض، وتعليمه تأويل الأحاديث[2].

وقد تخلَّلت هذه الآيةُ تضاعيفَ نَظم القصَّة لمعنى بديع، وهو البدار إلى الإعلام بنتائج صبر يوسف عليه السلام، وثمرات مجاهداته، وعجائب صنع الله تعالى في مراداته؛ إذ طوى له المنح في تلك المحن، وذخر له السِّيادة في تلك العبوديَّة[3].

وأمَّا دلالة (لَمَّا) الحينيَّة فقد أفاد التَّعبير بها أنَّ الله سبحانه أعطى يوسف عليه السلام العلمَ والحكمة إبَّان غلبة الشَّهوة لتكون له سببًا للعِصمة[4].

فقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ﴾؛ أي: حين استوى شبابه واكتملت قوَّته، وكان وقتُ استيلاء الشَّهوة، وتوفُّر دواعي مطالبات البشريَّة - آتاه الله الحكم الذي حبسه على الحقِّ وصرفه عن الباطل، وعلم أنَّ ما يعقب اتِّباع اللَّذَّات من هواجم النَّدم أشدُّ مقاساة من كلفة الصَّبر في حال الامتناع عن دواعي الشَّهوة؛ فآثر مشقَّة الامتناع على لذَّة الاتِّباع[5].

---

(1) محمود صافي، الجدول: 6/403.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/248.
(3) القاسمي، محاسن التأويل: 6/164.
(4) ابن العربي، أحكام القرآن: 3/47.
(5) القشيري، لطائف الإشارات: 2/177.

وإذا كانت النَّفس في أصل جوهرها شريفة فعند كمال الآلات البدنيَّة تكمل معارفها، وتقوى أنوارها، ويعظم لمعان الأضواء فيها، فقوله: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ﴾ إشارة إلى اعتدال الآلات البدنيَّة، وقوله: ﴿ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ﴾ إشارة إلى استكمال النَّفس في قوَّتها العمليَّة والنَّظريَّة[1].

معنى بلوغ الأشدّ، والعدول عن تحديد سنّ:

الأشُدُّ: استكمال القوَّة وتناهي بنية الإنسان، وهما أشُدَّان: أوَّلهما، البلوغ، والثَّاني: الذي يستعمله العرب، فيعنون به أربعين أو خمسين أو ستِّين سنة[2]. والمادَّة تدور على الصُّعوبة، وهي ضدُّ الرَّخاوة، ويلزمها القوَّة[3].

أحاطت عناية الله تعالى يوسف عليه السلام في كلِّ أحواله، مِن مبدئه إلى مآله

وقوله تعالى: ﴿بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ﴾؛ أي: بلغ كمال قوَّته المعنويَّة والحسِّيَّة، وصلح لأنْ يتحمَّل الأحمال الثَّقيلة من النُّبوَّة والرِّسالة[4]، وفيه تنبيه على أنَّ الإنسان إذا بلغ هذا القدر يتقوَّى خُلقه الذي هو عليه فلا يكاد يزايله بعد ذلك[5].

أمَّا عن بحث سبب العدول عن تحديد السِّنِّ فإنَّ قوله سبحانه: ﴿ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا﴾ يحتمل أن يراد به: الحكمة والنُّبوَّة، وهذا على الأشُدِّ الأعلى؛ أي: منتهى الأشُدِّ. ويحتمل أن يراد به: السُّلطان في الدُّنيا، وحكمًا بين النَّاس، وتدخل النُّبوَّة وتأويل الأحاديث وغيرُ ذلك في قوله: ﴿وَعِلۡمٗاۚ﴾[6].

فالحكم الذي أوتيه يوسف عليه السلام عندما بلغ أشدَّه هو العمل بالعلمِ.

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 18/437.
(2) الثعالبي، الجواهر الحسان: 3/318.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 10/55.
(4) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 395.
(5) الراغب، المفردات: (شد).
(6) الثعالبي، الجواهر الحسان: 3/318.

والعملُ بمقتضى العلم إنَّما يكون بعد البلوغ، وما قبله في زمان عدم التَّكليف فإنَّه فيه معدوم إلَّا في النَّادر. وهذا إنَّما بيَّن الله به حال يوسف عليه السلام من حين بلوغه بأنَّه آتاه العلم، وآتاه العمل بما علم؛ وخبر الله تعالى صِدق، وكلامه سبحانه حقٌّ[1].

ولهذا عُدِل عن تحديد السِّنِّ ليشمل المُدَّة من حين البلوغ إلى اكتمال القوى البدنيَّة والنَّفسيَّة للدِّلالة على أنَّ رعاية الله تعالى لنبيِّه يوسف عليه السلام قد شملته في كلِّ سني عمره.

سرّ التعبير بالفعل ﴿ءَاتَيۡنَٰهُ﴾:

قوله تعالى: ﴿ءَاتَيۡنَٰهُ﴾؛ أي: وهبناه[2]. وتدور معاني الإيتاء والإتيان حول: المجيء بسهولة، ويعبَّر به عن الإعطاء. وأمَّا الإعطاء فتدور معانيه حول الأخذ والمناولة[3]، وأمَّا الهبة فتدور معانيها حول حيازة الشَّيء النَّافع بلا مقابل[4]، ونقل الملك إلى الآخر بغير عوض[5].

الإيتاء أعمُّ وأجلّ، ويعبَّر به عن كلِّ ما عظُمَ وجلّ

وقد أوثر التَّعبير بالإيتاء دون الإعطاء أو الهبة لما بين هذه المفردات من فروقات دلاليَّة دقيقة، ذلك أنَّ الإيتاء أقوى من الإعطاء في إثبات مفعوله؛ لأنَّ الإعطاء له مطاوع، يقال: أعطاني فعطوت. ولا يقال في الإيتاء: أتاني فأتيت، وإنَّما يقال: آتاني فأخذتُ. والفعل الذي له مطاوع أضعف في إثبات مفعوله من الذي لا مطاوع له[6].

إضافة إلى أنَّ الإيتاء أعمُّ من العطاء، فهو يشمل العطاء وغيره، ويكون في الأمور العامَّة: المعنويَّة، أو الحسِّيَّة المادِّيَّة، والمهمَّة، ويكون

(1) ابن العربي، أحكام القرآن: 3/46.
(2) الهرري، الحدائق: 13/368.
(3) ابن فارس، المقاييس، والراغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (أتى، عطو).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (وهب).
(5) الراغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (وهب).
(6) الزركشي، البرهان: 4/85.

في الرَّحمة، والنُّبوَّة، والكتاب، والحكمة، وغيرها. أمَّا العطاء فالغالب فيه أنَّه يكون في الأمور المادِّيَّة، والحسِّيَّة، والماليَّة[1].

وأمَّا الهبة فالشَّرط فيها أن تكون بلا عوض، وأن يحصل بها التَّملُّك، ومن هنا تختلف عن الإعطاء الذي قد يكون بمقابل، وقد لا يحصل به تملُّك. وتختلف عن الإيتاء فإنَّها تكون - غالبًا - في المادِّيَّات دون المعنويَّات، وهي نوع عطاء مخصوص.

فلمَّا كان ما منحه الله تعالى يوسفَ عليه السلام عظيمًا بالغ العظمة، ومعنويًّا، ومقصودًا به النُّبوَّة؛ عُبِّر عنه بالإيتاء دون الإعطاء والهبة.

فائدة الجمع بين الحكم والعلم، وعلّة التَّقديم:

قوله تعالى: ﴿ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا﴾؛ أي: حكمة، وهي في لسان الشَّرع: العلم النَّافع المؤيَّد بالعمل؛ لأنَّه بدونه لا يُعتدُّ به، والعمل بخلاف العلم سفَه[2].

من حفظ شبابه وجوارحه وقلبه عن معصية الله، حفظه الله وأكرمه وعلَّمه ورعاه

والفرق بين الحكيم والعالِم، أنَّ العالم: هو الذي يعلم الأشياء، والحكيم: الذي يعمل بما يوجبه العلم[3]، فليس كلُّ عالم حكيمًا، إنَّما الحكيم: العالِمُ المستعمِلُ علمَه، الممتنِعُ به مِن استعمال ما يجهل فيه[4]، ويُفهَم منه أنَّ الحكمة لا يعبَّر عنها بمجرَّد العلم، وأنْ لا بدَّ فيها من اجتناب ما يُجهل فيه؛ أي: ما يُعدُّ به جاهلًا، وإن كان عالمًا، فإنَّ مَن عَلِمَ علمًا ولم يعمل بمقتضاه لا يسمَّى حكيمًا، أو عمِل ما يضادُّه عُدَّ سفيهًا لا حكيمًا[5].

وحين يبلغ إنسان مثلُ يوسف عليه السلام أشدَّه، وهو قد عاش في بيت

(1) الهلال، الثري الجامع: 1/496.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 6/400.
(3) البغوي، معالم التنزيل: 4/227.
(4) الزجاج، معاني القرآن وإعرابه: 3/99.
(5) الطيبي، حاشية على الكشاف: 8/286.

ممتلئ بالخيرات؛ فهذا البلوغ إنْ لم يكن محروسًا بالحكمة والعلم؛ ستتولَّد فيه رعونة؛ ولهذا فقد حرسه الحقُّ ﷻ بالحكمة والعلم[1].

فالمراد من الحُكم: الحكمة العمليَّة، والمراد من العِلم: الحكمة النَّظريَّة. وإنَّما قدَّم الحكمة العمليّة هنا على النظريّة؛ لأنَّ أصحاب الرِّياضات يشتغلون بالحكمة العمليَّة، ثمَّ يترقُّون منها إلى الحكمة النَّظريَّة.

وأمَّا أصحاب الأفكار العقليَّة والأنظار الرُّوحانيَّة فإنَّهم يصلون إلى الحكمة النَّظريَّة أوَّلًا، ثمَّ ينزلون منها إلى الحكمة العمليَّة.

وطريقُ يوسف عليه السلام هو الأوَّل؛ لأنَّه صبر على البلاء والمحنة، ففتح الله سبحانه عليه أبواب المكاشفات؛ فلهذا السَّبب قال تعالى: ﴿ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ﴾ مقدِّمًا الحكم على العلم[2].

دلالة تنكير ﴿حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ﴾:

في قوله تعالى: ﴿ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ﴾ جاء ﴿حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ﴾ نكرتين، وتنكيرهما للتَّفخيم والتَّعظيم؛ أي: حكمًا وعلمًا لا يُكتَنَه كُنْهُهُما، ولا يُقادَر قَدْرُهما؛ فهُما ما آتاه الله تعالى عند تكامل قواه عليه السلام[3].

لقد أُوتي يوسف عليه السلام حكمًا عظيمًا، وكان بتأويل الأحاديث عليمًا

ويجوز أن يكون تنكير ﴿وَعِلۡمٗاۚ﴾ للنَّوعية؛ أي: نوعًا خاصًّا من العِلم. والمراد: علم تعبير الرُّؤيا، لدلالة قوله عنه: ﴿ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓۚ﴾ [يوسف: 37][4]. وحينئذ يكون عطف ﴿وَعِلۡمٗاۚ﴾ على ﴿حُكۡمٗا﴾ من قبيل عطف العامِّ على الخاصِّ[5].

(1) الشّعراوي، تفسير الشعراوي: 11/6901.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 18/437.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/263.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/248.
(5) الصاوي، حاشية على الجلالين: 2/239.

التشبيه في: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾:

المطيع تفتح له ينابيع الحكمة

قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾؛ أي: وكما جزيت يوسف فآتيته بطاعته إيَّاي الحكم والعلم، ومكَّنته في الأرض، واستنقذته من أيدي إخوته الذين أرادوا قتله، كذلك نجزي من أحسن في عمله، فأطاعني في أمري وانتهى عمَّا نهيته عنه من معاصٍ[1].

وفيه تنبيه على أنَّه عليه السلام كان محسنًا في عمله، متَّقيًا في عنفوان أمره، وأنَّ الله سبحانه آتاه الحُكم والعِلم جزاءً على إحسانه[2].

والمقصود بيان أنَّ جميع ما فاز به من النِّعم كان كالجزاء على صبره عليه السلام على تلك المحن[3].

سرّ مجيء ﴿ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ جمعًا:

من أدخل نفسه في زمرة أهل الإحسان جزاه الله تعالى بأحسن الجزاء، وأحبَّه

عُبِّر بالجمع في قوله تعالى: ﴿ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾؛ ليشمل كلَّ مَن يحسن في عمله، فيكون لكلِّ محسن حظُّه من الحكم الصَّحيح والعلم النَّافع بقدر إحسانه، وبما يكون له من حسن التَّأثير في صفاء عقله، وجودة فهمه وفقهه، غير ما يستفيده بالكسب من غيره[4].

فالمراد: عموم المحسنين الذين يحسنون الأدب مع الله تعالى في عموم حالاتهم اتِّقاءً له سبحانه وتوجُّهًا إليه جل جلاله[5]. وإذا كان الحقُّ سبحانه يورد هذا في مناسبة بعينها، فإنَّه يقرِّر بعدها أنَّ كلَّ محسن يعطيه الله الجزاء الحسن[6].

وفي تعليق الجزاء المذكور بالمحسنين إشعار بعليَّة الإحسان له، وتنبيه على أنَّه سبحانه إنَّما آتاه ما آتاه لكونه عليه السلام محسنًا من

(1) ابن جرير، جامع البيان: 13/69.
(2) الزمخشري، الكشاف: 2/454.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 18/436.
(4) رشيد رضا، تفسير المنار: 12/226.
(5) النخجواني، الفواتح الإلهية: 1/371.
(6) الشّعراوي، تفسير الشعراوي: 11/6902.

أعماله، متَّقيًا في عنفوان أمره، و﴿هَلۡ جَزَآءُ ٱلۡإِحۡسَٰنِ إِلَّا ٱلۡإِحۡسَٰنُ ٦٠﴾ [الرحمن: 60][1]؟ ففي ذكر ﴿ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ إيماء إلى أنَّ إحسان يوسف عليه السلام هو سبب جزائه بتلك النِّعمة[2].

معنى اللام ودلالتها في: ﴿ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾:

قوله تعالى: ﴿ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾؛ أي: العريقين في الإحسان كلَّهم، الذين رأسهم سيِّد الخلق محمَّد ﷺ[3]. الذين اتَّصفوا بالإحسان في أعمالهم وقلوبهم حتى صاروا خالصين لله تعالى[4].

من ظن انفكاك لطف الله عن قدره فذلك لقصور نظره

المتشابه اللفظي:

قال الله تعالى في قصَّة يوسف عليه السلام: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ﴾، وقال في قصَّة موسى عليه السلام: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسۡتَوَىٰٓ ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ﴾، فما علَّة ذكر الاستواء في قصَّة موسى دون قصَّة يوسف عليه السلام؟

الجواب عن ذلك: أنَّ الأشُدَّ مختلَفٌ فيه من البلوغ إلى استكمال أربعين سنة، وقد قيل بالزِّيادة على الأربعين.

أُوحي إلى موسى عند تمام الأشُدِّ بعد بلوغ الأربعين، وأُوحي إلى يوسف قبل ذلك

وظاهر القرآن أنَّ الأشُدَّ يقع على ما دون الأربعين؛ لقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرۡبَعِينَ سَنَةٗ﴾ [الأحقاف: 15]، فلو كان الأشُدُّ الأربعين لأدَّى إلى عطف الشَّيء على نفسه، وهذا مُجانِبٌ للفصاحة والبلاغة، وإنَّما يكون الكلام بليغًا لو قيل: حتى إذا بلغ أشُدَّه، واستكمل، وتمَّ بالزِّيادة[5].

فإذا عُلِم هذا، وعُلِم أنَّ موسى عليه السلام أُوحي إليه عند بلوغه منتهى الأشدِّ والاستواء، وهو: أربعون سنة، وأمَّا يوسف عليه السلام فقد أُوحي إليه

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/264.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/248.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 10/54.
(4) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 7/3814.
(5) الغرناطي، ملاك التأويل: 2/267.

عند أوَّل الأشُدِّ، وهو: ثماني عشرة سنة[1]، حيث أوحي إليه وهو في البئر، وقبل ذلك وهو ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِۦ وَأَجۡمَعُوٓاْ أَن يَجۡعَلُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلۡجُبِّۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمۡرِهِمۡ هَٰذَا وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾؛ إذا عُلم هذا فإنَّ ذِكر قوله تعالى: ﴿وَٱسۡتَوَىٰٓ﴾ [القصص: 14] في قصَّة موسى عليه السلام إشارةٌ إلى تلك الزِّيادة بعد بلوغ الأشُدِّ، ومثلُه: ﴿وَبَلَغَ أَرۡبَعِينَ سَنَةً﴾ [الأحقاف: 15] بعد قوله ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ﴾ [الأحقاف: 15][2]؛ لأنَّ موسى عليه السلام بلغ أربعين سنة حين أُوحي إليه وهو منتهى الأشُدِّ، فأمَّا يوسف عليه السلام فقد أُوحي إليه قبل الأربعين[3].

ثمَّ يضاف إلى ما سبق أنَّ الصَّادر من موسى عليه السلام بالوحي والنُّبوَّة، فناسب ذكر القوَّة والاستواء؛ والصَّادر من يوسف باعتبار رؤياه، فناسب ذكر القوَّة دون الاستواء[4].

❁ الفروق المعجميَّة:

الإيتاء والإعطاء:

الإيتاء أقوى من الإعطاء

يفترق الإيتاء عن الإعطاء بأنَّ الإعطاء له مطاوع يقال: أعطاني فعطوت، ولا يقال في الإيتاء آتاني فأتيت، وإنّما يقال: آتاني فأخذت، والفعل الذي له مطاوع أضعف في إثبات مفعوله من الذي لا مطاوع له؛ لأنّه يقال: قطعته فانقطع، فيدلّ على أنَّ فعل الفاعل كان موقوفًا على قَبول المحلّ ولولاه لما ثبت المفعول، ولهذا يصحّ: قطعتُه فما انقطع، ولا يصحّ فيما لا مطاوع له ذلك، فلا يجوز أن يقال: ضربته فانضرب أو ما انضرب، ولا قتلته فانقتل أو ما انقتل؛ لأنَّ هذه الأفعال إذا صدرت من الفاعل ثبت لها المفعول في المحلّ، والفاعل مستقلّ بالأفعال التي لا مطاوع لها؛ فالإيتاء إذن أقوى من الإعطاء في إثبات مفعوله[5].

(1) البروسوي، روح البيان: 4/233.
(2) الكرماني، أسرار التكرار، ص: 148.
(3) الواحدي، البسيط: 12/64.
(4) البسيلي، نكت وتنبيهات: 2/241.
(5) الزركشي، البرهان في علوم القرآن: 4/85، والكفويّ، الكليات، ص: 212.

ويدلُّ أيضًا على أنَّ الإيتاء أقوى من الإعطاء أنَّ الإيتاء في أكثر مواضع القرآن في ما له ثبات وقرار، كالحكمة والسبع المثاني، والملك الذي لا يُؤتَى إلّا لذي قوَّة. والإعطاء فيما ينتقل منه بعد قضاء الحاجة منه كإعطاء كلّ شيء خلقه لتكرّر حدوث ذلك باعتبار الموجودات، وإعطاء الكوثر للانتقال منه إلى ما هو أعظم منه، وكقول الله ﷻ: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ۝٥﴾ [الضحى: 5]؛ لأنَّ الله تعالى بعدما يُرضِي النبيَّ ﷺ يزيده وينتقل به من كلِّ الرِّضا إلى أعظم ما كان يرجو منه[1].

(1) الزركشي، البرهان في علوم القرآن: 4/86، والكفويّ، الكليات، ص: 212.

﴿وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا عَن نَّفۡسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٢٣﴾ [يوسف: 23]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الرُّجوع إلى شرح ما جرى من أحداث ليوسف عليه السلام في منزل بيت العزيز، وابتلائهِ بفتنة المراوَدة

في هذه الآية رجوع إلى شرح ما جرى على يوسف في منزل العزيز، بعد ما أمَر امرأته بإكرام مثواه، من مُراودتها له وإبائه[1]؛ كما أنَّه لمَّا أخبر تعالى أنَّ سبب النِّعمة عليه إحسانُه في قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٢٢﴾ [يوسف: 22]، أتْبعه دليلَ ذلك الإحسان[2]، وقد كان يوسف نزيه القلْب والخُلُق والوِجدان، فعزّ عليه أنْ يخون سيّده الّذي ربّاه وأحسن إليه، فيُلوّث عِرضه، ويَمدّ عيْنيه إلى ما متّعه الله به، برغْم الإغواء الشّديد، والإغراء المَديد، فاعتصمَ بهَدي الله، فعصمَهُ الله مِن الولوغ في الفاحشة المُزرية، واللّذة المُغْرية.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَرَٰوَدَتۡهُ﴾: طَلَبَتْهُ بِهَوًى ومَيلٍ، يُقال: أَرادَ الرَّجُلُ كَذا إرادَةً وهوَ الطَّلَبُ والاخْتِيارُ[3]، وراوَدْتُهُ على كذا مُراوَدَةً ورِوادًا؛ أيْ: أرَدْتُهُ وطَلَبْتُ مِنْهُ فِعْلَهُ[4]، وأَصْلُ (رود) يدلُّ على مَجيءٍ وذَهابٍ مِن انْطِلاقٍ في جِهَةٍ واحِدةٍ[5]، يُقال: رادَتِ الإبلُ: اختلَفَتْ في المَرعى مُقبِلَة ومُدْبرةً[6] فهي حَرَكةُ انْتِقالٍ، أو تَرَدُّد بِخِفَّةٍ وعَدَم ثَباتٍ واسْتِقرار، كحَرَكة الإبلِ والدَّوابّ، ومِن ذلك مُراوَدَة الرَّجُلِ امْرَأةً

(1) القاسميّ، محاسن التَّأويل: 6/164.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 10/56.
(3) الفيّوميّ، المصباح المنير: (رود).
(4) الجوهريُّ، الصّحاح: (رود)، والمصطفويُّ، التَّحقيق في كلمات القرآن: 4/270.
(5) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (رود).
(6) ابن سيده، المُخصّص: (المراعي والرّاعية)، وابن منظور: (رود).

عن نَفْسِها، أوِ المرأةِ الرَّجُلَ عن نَفْسِه، فهي مُجارّة ومُجاذَبَةٌ، فالمُراوِدُ يحاول جَذْبَ الآخَر مَرّةً بَعْد مَرّةٍ، وجاء مَعْنى المُحاولة مِن صيغَةِ المُفاعَلَة[1]، والمَعْنى هُنا: حاوَلَتْهُ على ما تُريدُ بالتَّحَيُّلِ لِمُواقَعتِه إيَّاها[2].

2) ﴿وَغَلَّقَتِ﴾: تدُلُّ تَصاريفُ الكَلِمة على نُشوبِ شَيْءٍ في شَيْء، يُقالُ: أَغْلَقْتُ البابَ فهوَ مُغْلَقٌ، والاسْم الغَلَقُ[3]؛ واحْتَدّ فلانٌ فَنَشَب في حِدَّتِه فَغَلِقَ؛ أيْ: غَضِبَ[4]؛ ومَكانٌ غَلِقٌ: ضَيِّقٌ كأنَّه يُمْنَع الدُّخولُ إلَيْه[5] قالَ سيبويْه: ﴿وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ﴾، لِلتّكثير[6]، وذلك إذا أَغْلَقت أبْوابًا كَثيرة، أو أَغْلَقْتَ بابًا واحدًا مِرارًا، أو أَحْكَمت إغْلاقَ بابٍ فيَكون لِلمُبالَغَة[7]. وغلّقَ الباب وانْغَلَق، واسْتغْلقَ، إذا عسُر فَتْحُه[8].

3) ﴿هَيْتَ لَكَ﴾: هَيْتَ: اسْمُ فِعْلٍ بمَعْنى: أَقْبِلْ، هَلُمَّ إلى ما أَدْعوكَ إلَيْه. يُقال: هَيَّتَ فلانٌ لِفلانٍ؛ إذا دَعاهُ وصاحَ بهِ، وأصْلُ (هيت): يَدُلُّ عَلى الصَّيْحةِ، ويَقولون في مَعْنى هَيْتَ لَك: هَلُمَّ[9]، وتَقولُ لِلرَّجُل: هيتَ لَك؛ أَيْ: أسْرِع[10]، قالَ الزّجّاج: وأكْثَرها (هَيتَ لَك)، بفَتْحِ الهاءِ والتّاءِ، ورَوى ابنُ عبّاس ﵄: (هِئتُ لك) بالهَمْزَة وكَسْر الهاءِ، مِن الهَيْئَة، كأنّها قالتْ: تَهَيَّأْتُ لك[11]، والمَعنى هُنا: هَلُمَّ لَك، وادْنُ وتَقَرَّب، وقُرِئَ (هيت) بِكَسْر الهاءِ وفَتْحها مع فَتْح التّاء لِلخِطاب، و(هِئْتُ) مَهْموزًا مع ضَمَّةِ التّاء لِلمُتَكلِّم؛ أيْ: تَهَيَّأْتُ لك[12].

4) ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾: أَلْتَجِئُ إليه، وأسْتَنْصِرُ بِه[13]، يُقال: عُذْتُ بِفُلانٍ واسْتَعَذْتُ به؛ أيْ:

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (رود).
(2) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 2/455، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 12/250.
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والجوهريّ، الصّحاح: (غلق).
(4) الخليل، العين: (باب الغين والقاف واللّام).
(5) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (غلق).
(6) سيبويه، الكتاب: 4/96.
(7) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عُمدة الحُفّاظ: (غلق)، والبيضاويّ، أنوار التَّنزيل: 3/160.
(8) ابن منظور، لسان العرب: (غلق).
(9) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (هيأ)، وابن قُتيبة، غريب القرآن، ص: 215، وابن الجوزيّ، تذكِرة الأريب، ص: 171.
(10) ابن دُريد، جمهرة اللُّغة: (هأوي).
(11) ابن سيده، المُحَكم: (هيت).
(12) ابن جرير، جامع البيان: 16/25.
(13) الرّاغب، المفردات: (عوذ).

لَجَأتُ إليه، وعاذَ يَعوذُ: لاذَ بِهِ ولَجَأَ إليه واعْتَصَم[1]، والعياذُ: اللِّياذُ بِشَيء، والاحْتِماءُ به، وهو عِياذي؛ أيْ: مَلْجَئي[2]، وعوَّذه إذا وَقاهُ، وأصْلُ (عوذ): الالْتِجاءُ إلى الشَّيْء[3]، ومَعْنى مَعاذَ اللّه؛ أيْ: أَعوذُ باللّه مَعاذًا بِجَعْلِهِ بَدَلًا مِنَ اللَّفْظِ بِالْفِعْلِ؛ لأَنَّه مَصْدَرٌ[4]، ورُوِيَ عن النَّبيِّ ﷺ: «أنّه تَزَوّجَ امْرَأةً مِنَ العَرَبِ، فلَمّا أُدْخِلَت عَلَيه قالَتْ: أَعوذُ باللّه مِنْك، فقالَ لَها: لَقَد عُذْتِ بِمَعاذٍ، فَالْحَقي بِأَهْلِك». والمَعاذُ في هذا الحَديث: الّذي يُعاذُ بِه. واللّه جلّ وعزّ (مَعاذُ) مَن عاذَ بِه، و(مَلْجأُ) مَن لَجَأَ إلَيه"[5].

5) ﴿مَثْوَايَ﴾: تَدُلُّ تَصاريفُ الكَلِمة على الإقامةِ، يُقالُ: ثَوى يَثْوي فَهوَ ثاوٍ إذا أَقامَ بِالْمَكانِ[6]، والثَّواء: الْمَقام في الْمَوْضع مَع الاسْتِقرار فيه[7]، والمَثْوى: الْمَنْزِلُ، مِنْ ثَوى بِالْمَكانِ يَثْوي إذا أَقامَ فيهِ[8] والمَعنى هُنا: تَولّاني في طولِ مقامي[9]. قالَ الزّجّاج: أَرادَ: إنّ العَزيزَ صاحِبي، أَحْسَن مَثواي، ويَجوزُ أنْ يَكونَ: اللّه رَبّي، أحْسَن مَثواي"[10].

❁ المَعْنى الإجْمالِيُّ:

مُراودةُ امرأة العَزيز يوسفَ عن نفسه، وتمنُّعه منها، مستعيذًا بالله مِن الفاحشة والخيانة

طلَبَت امرأة العزيز - برفْق ولِين وإعمال حيلة - مِن يوسف عليه السلام وقد كان يعيش في بيتها؛ فِعلَ الفاحشة، لِحُبّها الشَّديد له، فأوْصدت الأبواب وأحكمت إغلاقها، إمعانًا في الخَلْوة، وقالت له: هَلُمَّ وتعال إليّ، فقال يوسف: أعتصمُ باللّه وأستجير به ممَّا دعوْتِني إليه، مِن

(1) الجوهريّ، الصّحاح: (عوذ).
(2) الرّاغب، المُفردات: (عوذ).
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (عوذ).
(4) ابن منظور، لسان العرب، والزَّبيديّ، تاج العروس: (عوذ).
(5) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (عوذ).
(6) ابن دريد، جمهرة اللُّغة، وابن فارس، مقاييس اللُّغة: (ثوي).
(7) الأصفهانيُّ، المفردات، وابن دريد، جمهرة اللُّغة: (ثوي).
(8) ابن الأثير، النّهاية: (ثوا).
(9) ابن الجوزيّ، زاد المسير: 2/427.
(10) ابن سِيدَه، المُحكم: 2/427.

خيانة سيّدي الّذي أحسن منزلتي وأكرَمني، فلن أخونه، فإنْ خنتُه كُنت ظالمًا، إنَّه لا يفوز الظّالمون[1]، وفي ذلك تعبير عن الخشيَة مِن ربّه، والوفاء لمَن مدّ له عوارف الإحسان، وسَوانِح الفضل والامتنان، وهي قُدوة عُلْيا، لكلّ شابٍّ ترميه المقادير، إلى لُجّة الابتلاء، المتلاطِمة الأمواج، بالمفاسد والإغراءات، ذات البهارِج الفاتنة، والمفاتن الآفِنَة.

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغة العَطْف في قوله: ﴿وَرَٰوَدَتۡهُ﴾:

تقرير ثبات يوسف على مدارج العِفّة، وأصول الأخلاق المُفضيَة إلى التَّمكين

قوله تعالى: ﴿وَرَٰوَدَتۡهُ﴾، هذه الجملة عطْف قِصَّة على قِصَّة، وحدَثٍ على حَدَثٍ، فلا يلزم أنْ تكون هذه القصّة حاصلةً في الوجود بَعد الّتي قَبلها، وقد كان هذا الحادث قبل إيتائه النُّبوَّة؛ لأنَّ إيتاء النُّبوَّة غَلَب أنْ يكون في سنِّ الأربعين؛ والأظهر أنَّه أُوتيَ النُّبوَّة والرّسالة بَعد دخول أهله إلى مصر، وبعد وفاة أبيه، وقد تَعَرَّضت هذه الآية لتقرير ثبات يوسف عليه السلام على العفاف والوفاء وكرم الخُلق[2]، فهي رجوع إلى شرح ما جرى عليه في منزل العزيز، بعدما أمَر امرأتَه بإكرام مثواه[3].

فهذه الجملة معطوفة على جملة وصيَّة العزيز لامرأته بإكرام مثواه، وما عللها به من حُسْنِ الرَّجاء فيه، وما بيّنه اللّه تعالى من عنايته به وتمهيدِ سبيل الكمال له بتمكينه في الأرض[4].

سِرُّ انتخاب لفظة ﴿وَرَٰوَدَتۡهُ﴾:

الإشعار بأنَّه كان منها الإلْحاح بالتَّحايُل والإغراء، ومنه الامتناع والإباء

المُراودة: المُلاطفة في السَّوْق إلى غرض، وأكثر استعمال هذه

(1) لجنة من عُلماءِ الأزهر، المنتخَبُ في تفسير القرآنِ الكريم، ص: 334، ونُخْبة من أساتذة التَّفسير، التَّفسير المُيَسَّر، ص: 238، وجماعةٌ من علماء التَّفسير، المخْتَصَر، ص: 238.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 12/249، والخطيب، التَّفسير القرآنيُّ: 6/1252.

(3) الجمل، حاشية الجمل على الجلالَيْن: 4/21.

(4) رشيد رضا، تفسير المنار: 12/275.

اللَّفظة إنَّما هو في هذا المعنى الّذي هو بيْن الرِّجال والنِّساء؛ ويُشْبه أنْ يكون مِن رادَ يَرود إذا تقدَّم لاخْتِبار الأرض والمَراعي، فكَأَنّ المُراوِد يختبِر أبدًا بأقواله وتلطُّفه حال المراوَد مِن الإجابة أو الامتناع[1].

والتَّعبير عن حالها معه بالمُراودة المقتَضيَة لِتَكرار المحاوَلة، للإشعار بأنَّها كان منها الطَّلب المُستمرّ، المَصحوب بالإغراء والتَّرفّق والتَّحايل على ما تشتهيهِ منه بشتّى الوسائل والحِيَل، وكان منه عليه السلام الإباء والامتناع عمَّا تُريده خوفًا مِن الله تعالى[2].

سِرُّ اختيار صيغة ﴿وَرَٰوَدَتۡهُ﴾:

الإشـــارة إلى سبب المبالَغة، في رَوْدِهـــا وتمحُّلها

قوله: ﴿وَرَٰوَدَتۡهُ﴾، مِن المُراوَدة وهي: المُطالبة برِفق، مِن رادَ يَرود إذا ذهب وجاء، وهي مُفاعَلة مِن واحدٍ، نحْو مُطالبة الدّائن، ومُماطَلة المَدين، ومُداواة الطَّبيب وغير ذلك، ممَّا يكون مِن أحد الجانبَيْن الفعل، ومن الآخَر سبَبه، فإنَّ هذه الأفعال وإنْ كانت صادرةً عن أحد الجانبيْن لكنْ لمّا كانت أسبابها صادرة عن الجانب الآخَر، جُعلت كأنَّها صادرة عنهما، وهذا باب لطيف المَسلَك مَبنيٌّ على اعتبار دقيقٍ، تحقيقه أنَّ سبب الشَّيْء يقوم مقامه، ويُطلق عليه اسمه، كما في قولهم: (كما تَدين تُدان)؛ أيْ: كما تَجزي تُجزى، فإنّ فعل البادئ، وإنْ لَم يَكن جزاءً، لكنَّه لكونه سببًا للجزاء، أُطلِق عليه اسمُه، فإنَّ مُطالبة الدّائن للمُماطلة الّتي هي مِن جانب الغَارم، وهي منه للمُطالبة الّتي مِن جانب الدّائن، وكذا مُداواة الطَّبيب للمرض الّذي هو مِن جانب المريض، وكذلك مُراوَدتها فيما نحن فيه لِجَمال يوسف عليه السلام، نُزِّلَ صُدورها عن مَحالِّها بمنزلة صدور مُسبّباتها، فبنى الصّيغة على ذلك ورُوعيَ جانب الحقيقة، بأنْ أُسند الفعل إلى

(1) ابن عطيَّة، المُحرَّر الوجيز: 3/232.
(2) طنطاويّ، التَّفسير الوسيط 7/338.

الفاعل وأُوقع على صاحب السَّبب، ومعنى المُفاعلة هاهُنا إمّا المبالغة في رَوْدِها وتمحُّلِها[1]؛ فالمعنى: خادعت زُلَيخا يوسفَ عليه السلام عن نفْسه، لتَنال غرضها؛ أيْ: فَعَلَتْ ما يفعل المُخادع لصاحبه عن شيء لا يُريد إخراجه عن يَدِه، وهو يَحتال أنْ يأخذه منه، وهي عبارة عن التَّمحُّل في مواقعته إيّاها، والمَحْلُ طَلَبٌ بحيلة وتكلُّف[2].

معنى ﴿وَرَٰوَدَتۡهُ﴾:

ويصحّ أنْ تكون الصّيغة على بابها بمعنى أنّها طَلَبت منه الفعل وهو طَلَب منها التَّرك[3]، فاعتُبر العملُ مِن جانِب والمُمانَعةُ مِن الجانب الآخَر[4]، وكان لِكلٍّ منهما مقصدٌ مختلف، فصارت تطلب منه الفعل وهو يطلب التَّرك، كما تقول: جاذبته عن كذا؛ لأنَّ (عن) تَدُلُّ على البُعد، فكأنَّها تجذبه لنفْسها جذبًا بالغًا، وهو يتباعَدُ عنها تباعدًا مقصودًا[5].

الدّلالة على اختلافها في الفِعْلِ والمقصد

بلاغة الاستعارة في لفظ المُراوَدة:

سبَق بيان أنَّ المُراودة في قوله تعالى: ﴿وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا﴾ مُشتقَّة مِن راد يرود، إذا جاء وذهب، والمعنى هُنا: راجعَتْه الخِطابَ ودارت عليه بالحِيَل، فشَبَّه حالَ المُحاوِل إرضاخَ أحدٍ على فعل شَيء مُكَرِّرًا ذلك بحال مَن يذهب ويجيء في المُعاودَةِ إلى الشَّيء المذهوب عنه، فأطْلَق راودَ؛ بمعنى: حاوَلَ[6] بطريق الاستعارة التَّصريحيَّة التَّبعيَّة.

تَشبيه صورة مُراجعتها له، وتَكرار طَلَبِها بالمُراودَة، جيئةً وذهابًا

فالمُراودة هي تَكرار المحاوَلة، وهذا التّكرار لازم معنى رادَ يَرود

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/256، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/264، والآلوسيّ، روح المعاني: 6/401.
(2) حقّي، روح البيان: 4/234.
(3) الجَمل، حاشية الجمل على الجلالين: 4/21.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 12/250.
(5) ملّا حويش، تفسير القرآن العظيم: 3/189.
(6) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 12/250.

إذا جاء وذهب؛ لأنَّ مادّة (راد) واويّةٌ ويائيَّةٌ بجميع تقاليبها السَّبعة: (رود، ودور، وورد، ودير وردي، وريد، ودري) تتمحور جميعها حول معنى الدَّوران، وهو الرُّجوع إلى موضع الابتداء، ويلزم منه القصْد والإتيان، والإقبال والإدبار، والرِّفق والمُهلة، وإعمال الحيلة[1].

نكتة ذِكر المُراوَدة في الآية الكريمة:

بيان صِفة المُخادَعة والاحتيال

لفْظُ المُراوَدة يدلُّ على المُخادَعة، والمُخاتَلة، والتَّدسُّس إلى النَّفْس في أسلوبٍ مِن التَّلطُّف والاحتيال[2]؛ والمُراودة أنْ تُنازِع غيرَك في الإرادة، فتُريد غير ما يُريد، أو تَرُود غيرَ ما يرود، وامرأة العزيز خادعتْ يوسفَ عن نفْسه وراوغتْه، ليُريد منها ما تريد هي منه مخالفًا لإرادته وإرادة ربِّه، واللّه غالب على أمْره[3]؛ وقد وردتْ في السّورة مع هذا الموضع في قول يوسف: ﴿هِيَ رَٰوَدَتۡنِي عَن نَّفۡسِيۚ﴾، وقول النّسوة: ﴿تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفۡسِهِۦۖ﴾؛ أيْ: تَصْرِفُه عن رأيه، وعلى ذلك قولها: ﴿وَلَقَدۡ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ﴾ [يوسف: 32][4]، ومنها قَوْلُ إخوة يوسف له: ﴿سَنُرَٰوِدُ عَنۡهُ أَبَاهُ﴾ [يوسف: 61]؛ أيْ: نَحتال عليه، ونخدعه عن إرادته ليُرسِل أخاه معنا، وراوَدَه عن نفْسه: خادَعه عنها وراوَغه[5].

سِرُّ العدول في قوله: ﴿ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا﴾:

تقرير المراوَدة، والإيذان بعِصمة يوسف عليه السلام

قوله سبحانه: ﴿وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا﴾، وفيه التَّعبير عن امرأة العزيز بطَريق الموصوليَّة، في قوله: ﴿ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا﴾ دون امرأة العزيز، مع أنَّه أخْصَر لتقرير المراوَدة، ولقصْد ما تُؤذِن به الصِّلة مِن تقرير عِصمة يوسف عليه السلام[6]؛ فإنَّ كونه في بيتها ممَّا يدعو إلى ذلك، ولإظهار كمال نزاهته عليه السلام، فإنَّ عدم مَيْله إليها مع دوام

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 10/56.
(2) الخطيب، التّفسير القرآنيّ: 6/1252.
(3) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 12/129.
(4) الرّاغب، المفردات: (رود).
(5) رشيد رضا، تفسير المنار: 12/275.
(6) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 12/250، والقاسميّ، محاسن التَّأويل: 6/164.

مشاهدته لمَحاسنها واستعصائه عليها مع كونه تحت يَدِها، يُنادي بكونه عليه السلام في أعلى مَعارج العِفَّة[1].

القرآن مَؤئلٌ لأدب الخِطاب

كما أنَّ في التَّعبير بالمَوصول دون ذِكر لاسْمها سَترًا لها، وابتعادًا عن التَّشهير بها، وهذا مِن الأدب السَّامي الّذي التزَمه القرآن، في تعبيراته وأساليبه، حتَّى يتأسَّى أتباعه بهذا اللَّون مِن الأدب في التَّعبير[2].

دلالة الظَّرفيَّة في قوله: ﴿فِي بَيْتِهَا﴾:

الكناية عن التَّبعيَّة لمنزلها، وأنَّها ذاتُ سُلطان عليه

معنى ﴿فِي بَيْتِهَا﴾ أنَّه مِن جملة أتباع ذلك المنزل[3]، وفيه إشارة إلى أنَّها ذات سلطان عليه، وأنَّه رَبيبُ نِعمتها، ونزيل بيتها، والحال أنَّها هي سيّدة له حاكمة عليه، وأنَّ لها أنْ تأمُر وعليه أنْ يُطيع، ولكنَّها جاءته مترفِّقة، مُتلطِّفة إذ كان هذا الأمْر الّذي تدعوه إليه لا يُجاءُ له بأسلوب الأمْر والقهْر[4]. فقوله: ﴿فِي بَيْتِهَا﴾ يُغري بالاستجابة لها، ومع ذلك فقد أعرَض عنها، ولَم يُطاوعْها في مُرادها[5].

دلالة الإضافة في ﴿بَيْتِهَا﴾:

الكناية عن بيت امرأة العزيز، وقصْر العزيز بأكمله

وبيتها: محلّ سُكناها الّذي تَبيت فيه أو الجزء المُخصّص للنّساء كما جرت عليه العادة في بيوت الكبراء، فمعنى: ﴿هُوَ فِي بَيْتِهَا﴾ أنَّه كان حينئذٍ في البيت الّذي هي به، ويجوز أن يكون المُراد بالبيت: المنزلَ كُلَّه، وهو قصْر العزيز، ومنه قولهم: ربَّة البيت؛ أيْ: زوجة صاحِب الدَّار، والعرَب تضيف البيوت إلى النِّساء باعتبار أنَّهن القائمات بمصالحه أو المُلازمات له[6]، ويكون معنى ﴿هُوَ فِي بَيْتِهَا﴾ أنَّه مِن جملة أتباع ذلك المنزل[7].

---

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 6/401.
(2) طنطاويّ، الوسيط: 7/338، والهرريّ، حدائق الرّوح والرَّيحان: 13/370.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 12/250.
(4) الخطيب، التَّفسير القرآنيّ: 6/1252، وعلوان، الفواتح الإلهيَّة: 1/371.
(5) طنطاويّ، الوسيط: 7/338.
(6) الآلوسيّ، روح المعاني: 6/401.
(7) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 12/250.

فائدة جمع الظَّرفيَّة والإضافة في الآية:

الإشارة إلى عِفَّة يوسف عليه السلام برغم الظُّروف الضّاغِطة

في قوله تعالى: ﴿هُوَ فِي بَيْتِهَا﴾ إشارة إلى عِفَّة يوسف عليه السلام، وإظهار لِكمال نزاهته رغْم الظُّروف المواتيَة للانحراف، فإنَّ كونه في بيتها يُغري بالاستجابة لها؛ وعدم ميْله إليها مع دوام مشاهدته لَمحاسنها، وامتناعه منها مع كونه تحت مَمْلَكتها، يُنادي بكونه في أعلى مَعارج العِفَّة والنَّزاهة[1].

معنى ﴿عَن﴾ ودلالة التعدية به:

إفادة معنى المجاوَزة، بأن يُباعد نفْسه، ويجعلها لها، فكأنَّها تجذبه، وهو يَتباعد عنها

في قوله: ﴿عَن نَّفْسِهِۦ﴾ نَجِد أنّ ﴿عَن﴾ للمُجاوَزة؛ أيْ: راودتْه مُباعِدَةً له عن نفْسه؛ أيْ: بأنْ يَجعل نفْسه لها[2]، يُقال: جاذبتُه عن كذا دلالة على الإبعاد، وتحصيل الجذب البالِغ، وعُدِّي فعل المُراودة بـ ﴿عَن﴾، لتَضمُّنه معنى المُخادَعة؛ أيْ: فعلَتْ ما يَفعل المخادِع بصاحبه عن الشَّيْء الّذي لا يُريد أنْ يُخرجه مِن يَدِه، ولا شَكَّ أنَّ هذا إنّما يحصل مِن المُنازَعة في الرَّوْد[3]، فجيءَ بـ ﴿عَن﴾ بدَل (من)، دلالة على أنَّها نازعَتْه في ذلك؛ لأنَّ ﴿عَن﴾ تدلُّ على البُعد، فكأنَّها تجذبه لنفْسها جذبًا بالِغًا، وهو يتباعد عنها تباعدًا مقصودًا، وهذا إعلام بكمال نزاهته، وإظهار عِفَّتِه[4]، "وقد يُخصّ بمحاولة الوِقاع، فيُقال: راودَ فلان جاريته عن نفْسها، وراودَتْه هي عن نفْسه؛ إذا حاول كلٌّ منهما الوَطءَ والجماعَ، وهي مفاعلَة، وأصلُها أنْ تكون مِن الجانبَيْن، فجُعل السّبب هنا في أحَد الجانبيْن، قائمًا مقام المُسبِّب"[5].

بلاغة الكناية في قوله: ﴿عَن نَّفْسِهِۦ﴾:

النَّفْس أُريد بها الكناية عن غرض المواقَعة، وتمكينها منه لِما تُريد

شِبْه الجملة: ﴿عَن نَّفْسِهِۦ﴾ كناية عن غرض المواقَعة، والظَّاهر

(1) حقّي، روح البيان: 4/234.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 12/250.
(3) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/381.
(4) ملّا حويش، تفسير القرآن العظيم: 3/189.
(5) الشّوكانيّ، فتح القدير: 3/20.

أنَّ هذا التَّركيب مِن مُبتَكرات القرآن، فالنَّفْس هُنا كناية عن غرض المواقَعة[1]، والنَّفْس أُريد بها عفافُه وتمكينُها منه لِما تريد، فكأنَّها تراوِده عن أنْ يُسلم إليها إرادته وحُكمه في نفْسه[2]، فطلَبَت واحتالَتْ عليه لِتَنال غرضها منه[3].

فائدة صيغة الفعل ﴿وَغَلَّقَتِ﴾:

الدَّلالة على شِدَّة الفعل وقوَّته، مُبالَغة في الإيثاق

تضعيف ﴿وَغَلَّقَتِ﴾ لإفادة شِدَّةِ الفعل وقوَّته؛ أيْ: أغلقت إغلاقًا مُحكمًا[4]، بل حاولت أنْ تجعلها حيطانًا لا يسهل الوصول لأحدٍ منها؛ لذلك عبّر القرآن بقوله: ﴿وَغَلَّقَتِ﴾ بتشديد اللَّام، فهي الَّتي أغلقت الأبواب بنفْسها، وأحكمت إغلاقها[5]، فالتَّشديد لِلتَّكثير في المفعول إنْ قيل بتعدُّدها، وقد يكون لِتَكثير الفعل، فكأنّه غُلِّق مَرّةً بَعد مَرّة أو بِمِغْلاق بَعد مِغلاق، بأنْ أقفلَتْها بقُفلَيْن أو ثلاثة مثلًا، أو أسندَتْ إليها مِن داخلٍ ما لا يُطاق مِن خارجٍ، وحينها يكون التَّشديد للمُبالَغة في الإيثاق[6] زيادةً في حمْلِه على الاستجابة[7] لها، فالتَّشديد لِتَوضيح "المبالَغة في الحدَث؛ أو لتَكرار الحَدث، فهي قد أغلقَتْ أكثرَ مِن باب. ونحن حين نُحرِّك المِزلاج لنؤكِّد غَلْق الباب، ونُحرّك المِفتاح، ونديره لتأكيد غَلْق الباب.. فهذه عمليّة أكبر مِن غَلْق الباب؛ وإذا أضفْنا مِزْلاجًا جديدًا، نكون قد أكثرْنا الإغلاق لبابٍ واحد؛ وهكذا يمكن أن نَصِفَ ما فعلنا بأنّنا غلّقنا الباب"[8]، والسَّبب أنَّ ذلك العمل لا يُؤتى به إلَّا في المواضع المَسْتورة، لا سيّما

(1) ابن عطيَّة، المُحرَّر الوجيز: 3/232، والثَّعالبيّ، الجواهر الحسان: 3/318.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 12/250.
(3) السّيواسيّ، عيون التَّفاسير: 2/229.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 12/250.
(5) شحاتة، تفسير القرآن الكريم: 12/2311.
(6) البيضاويّ، أنوار التَّنزيل: 3/160.
(7) طنطاويّ، الوسيط: 7/338.
(8) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 11/6906.

إذا كان حرامًا، ومع قيام الخوْف الشَّديد[1]، ولكن لمَّا غَلَّقت عليه أبواب المَسْكن؛ فتَح اللّه عليه باب العِصمة، فلَم يَضُرَّه ما أُغْلِق بعدَ إكرامه بما فُتِح[2].

دلالة جمْع ﴿ٱلْأَبْوَٰبَ﴾ في الآية:

الدَّلالة على أنَّ معنى التَّكثير، واردٌ في الفعل والمفعول

في قوله تعالى: ﴿وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ﴾ ذكَر المفسّرون أنّ الأبواب كانت سَبْعة، وأغلقَتْها كلَّها، وذلك كثير ولو كانت ثلاثة أو أكثر ممَّا هُو دون جمْع القِلَّة[3]، فالمعنى أنَّها أحكَمت إغلاق باب المِخْدع الّذي كانا فيه، وباب البَهْو الّذي يكون أمام الحُجرات والغُرَفِ في بيوت الكُبراء، وباب الدَّار الخارجيِّ، وقد يكون في أمثال هذه القصور أبواب أُخرى مُتداخلة[4]، وإنْ كان التَّكثير للفعل دون المفعول، فجمْع الأبواب حينئذٍ إمَّا لجَعل كُلِّ جزء مِن الباب كأنَّه بابٌ، أو لِجَعل تَعَدُّد أَغْلاقِه بمنزلة تعدّده[5].

سبب استعمال ﴿هَيْتَ﴾:

الكشف عن رغبتها بأخْصَر طريق لائقة ببيان الذِّكر الحكيم

﴿هَيْتَ لَكَ﴾؛ أيْ: ها أنا ذا مُهيَّئة لك فأسرِع في الإقبال عليَّ، وهذه الدّعوة السّافرة منها له، تدلّ على أنّ تلك المرأة كانت قد بلغَت النّهاية في الكشْف عن رغبتها، وأنّها قد خرجت عن المألوف مِن بنات جِنسها، فقد جرَتِ العادة أنْ تكون المرأة مَطْلوبةً لا طالِبة؛ لأنّ كلمة ﴿هَيْتَ﴾ اسم فِعْل أمْر بمعنى أقبِل وأسرِع، فهي كلمة حَضٍّ وحَثٍّ على الفعل[6]، وكان سبب اختيارها أنَّها أخْصَر ما يؤدّي المراد، بأكمل النَّزاهة اللَّائقة بالذِّكر الحكيم[7].

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 18/437.
(2) القُشيريّ، لطائف الإشارات: 2/177.
(3) أطْفَيّش، تيسير التّفسير: 7/96.
(4) رشيد رضا، تفسير المنار: 12/275.
(5) الخفاجيّ، عناية القاضي: 5/286.
(6) طنطاويّ، الوسيط: 338/7.
(7) رشيد رضا، تفسير المنار: 275/12.

بيان توجيه القراءات في ﴿هَيْتَ لَكَ﴾:

التَّهيُّؤ منها إعدادٌ وأمرٌ، وتهيُّؤ الفُرصة بالخلْوة تَخَفٍّ وسَتْرٌ

قرَأ نافع وأبو جعفر وابن ذَكْوان عن ابن عامر بكسْر الهاء، وفتح التَّاء مِن غير همْز (هِيتَ)، وقرَأ ابن كَثير بفتح الهاء، وياء ساكنة، وتاء مضمومة (هَيْتُ)، وقرَأ هشام عن ابن عامر بكسر الهاء، وهمزة ساكنة، وتاء مفتوحة (هِئْتَ) وقرَأ الباقون بفتح الهاء وياء ساكنة وتاء مفتوحة ﴿هَيْتَ﴾[1]. وهذه القراءات كُلُّها لُغات، وهي فيها اسْم فعْل بمعنى: هَلُمَّ، وليست التَّاء ضميرًا، إلَّا على قراءة ضَمّ التَّاء مع الهمْز وترْكِه، فإنّ الكلمة عليها تحْتَمل أنْ تكون فعْلًا رافعًا لضمير المُتَكَلِّم، مِن: هاءَ الرَّجلُ يَهيءُ، كجاء يَجيءُ؛ إذا حَسُنَتْ هيئَتُهُ، أو بمعنى تَهَيَّأْتُ، يُقال: هِئْتُ وتهيّأت بمَعنًى، وإذا كانت فعلًا تعلَّقت اللَّام بها[2]، وعلى قراءة هشام (هِئْتَ) يكون المعنى: تَهَيَّأَ لي أَمْرُك؛ لأنَّها لَم يتيَسَّر لها الخلوةُ به قبلُ، أو يكون المعنى: حَسُنَتْ هَيْئَتُكَ، وتكون ﴿لَكَ﴾ على الوجهَيْنِ بَيانٌ[3].

و﴿هَيْتَ﴾ قرِئَت كـ (لَيْت) و(قَيْل) و(حَيْث)، وبكسْرِ الهاء وبهمْزة ساكنة بعدَها، وفتْحِ التّاء وضمِّها، وهي في هذه اللّغات اسم فعل بمعنى (تَعال). ونُقل عن الفرّاء أنّها لغة لأهل حوران، سقطَتْ إلى مكّة فتكلّموا بها[4].

معنى اللَّام وفائدتها في ﴿هَيْتَ لَكَ﴾:

زيادة بيان المقصود بالخِطاب (المفعول به)

(اللَّام) في ﴿لَكَ﴾ لزيادة بيان المقصود بالخِطاب، كما في قولهم: سُقيًا لك، وشكرًا لك، وأصلُه: هَيتك[5]؛ وهذا الأسلوب هو الغاية في الاحتشام في التّعبير، وقد يكون هناك ما زادَتْه مِن إغراء وتهييج، ممّا تقتضيه الحال[6].

---

(1) ابن الجزريّ، النَّشر: 2/294.
(2) السَّمين الحلبيُّ، الدُّرّ المَصُون: 4/167، والآلوسيّ، روح المعاني: 6/401.
(3) ابن الجزريّ، النَّشر: 2/294، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 10/289.
(4) القاسميّ، محاسن التّأويل: 6/164.
(5) البيضاويّ، أنوار التَّنزيل: 3/160.
(6) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 12/129.

سرّ تخصيص ﴿لَكَ﴾ بالطَّلب:

التّصريح بالرّغبة الآئِمة يعيّن الجهة المرادة؛ لإدراك الغاية مِن العبارة

يدلُّ قوله ﷻ: ﴿وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ﴾ أيضًا على أنَّ النِّداء ليوسف، ولعلَّه تغافل عنها، أو لَم يستجِب ابتداءً لكلامها، أو لَم يَفهم، فقالت: النِّداء لك، فلمَّا علِم ما تريد صراحةً مِن غير مداوَرة ولا موارَبة، صرّح هو الآخَر بردِّها، فردّ بأنّ ذلك لا يليق به، وصاحَ بقوله: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾[1].

نكتة معاني أصوات لفظ ﴿هَيْتَ لَكَ﴾:

الإيحاء بشدَّة الرَّغبة والإلْحاح في الطَّلب

و﴿هَيْتَ لَكَ﴾: هو صوت استدعاء لهذا الأمْر الّذي يكون بيْن الرّجل والمرأة، وقد جاء به القرآن الكريم على هذه الصّورة؛ لأنَّه يُحَدِّث عن حالٍ مِن شأنه أنْ يكون سِرًّا بيْن الرَّجل والمرأة، ولغةً مفهومةً لهما، لا يعرفها غيرهما[2]، فهي كلمة أقرب إلى مُناجاة خاصَّة، تطلُب بها الأنثى مَن يُريد مُخالطتها، وهي تُعَبِّر عن تضرُّع المرأة بِكُلِّ وسيلة تمْلِكها لإغراء الرَّجل الّذي تُريده[3]، هذه الصّورة لَم تعرِفْها اللّغة العربيّة في لسانها قبل نزول القرآن، وما ذهب إليه الذّاهبون مِن تأويلات لكلمة ﴿هَيْتَ﴾ لا تنفع كثيرًا في مقارَبة المعنى المُتوخَّى لهذا اللّفظ الفصيح، قال عبد الكريم الخطيب: "خُذْها على أنّها حكاية صوْت، لا على أنّها مِن لغة التَّخاطُب المتعامَل بها في كل مقام!... إنَّها في مقامها هذا كلمة استِدْعاء... وكفى!"[4].

سِرُّ الجمع بيْن المُراوَدة القوْليَّة والعمليَّة:

الدّلالة على المُبالَغة، ملْمحٌ للاجتهاد في تحقيق المُراد

في قوله: ﴿وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ﴾، دلالة على أنَّ المراوَدة القوليَّة، واللّين، والتَّلطّف معه، لتُحَوِّله عن إرادة نفْسه إلى إرادتها، تَبِعتها حركة عمليَّة، ﴿وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ﴾ ولَم يعُد مَنْفذٌ يمكّن

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3815.
(2) الخطيب، التَّفسير القرآنيّ: 6/1252.
(3) شحاتة، تفسير القرآن الكريم: 12/2311.
(4) الخطيب، التّفسير القرآنيّ: 12/2311.

غيرهما مِن الاطّلاع على ما تُريد[1]؛ لأنّ مَن يفعل الأمْر القبيح يَعلم قُبح ما يفعل، ويحاول أنْ يستر فعله، وهي قد حاولت ذلك بعيدًا عن مَن يعيشون في القصْر، وحدَثَت المراوَدة، وأخذَت وقتًا، ثمّ انتقلَت مِن مرحلة المراودة إلى مرحلة الوضوح، في طلب الفعل؛ بأنْ قالت: تهيّأتُ لك[2]؛ وهذا كلّه يدلّ على المبالَغة بالاجتهاد في تحقيق المُراد.

سِرُّ تأنيث ضمائر الأفعال في الآية:

بيان شِدَّة حرص الطَّالبة، وتعفُّف المطلوب

في تأنيث ضمائر الأفعال ﴿وَرَٰوَدَتۡهُ﴾ و﴿وَغَلَّقَتِ﴾ و ﴿وَقَالَتۡ﴾، إشارة إلى أنَّها هي الّتي تولَّت بنفْسها الإعداد لهذا الأمر الّذي دعتْه إليه، فهي الّتي راودتْه عن نفْسه، بما ألْقَت إليه مِن كلماتٍ وإشارات وتلميحات، وهي الّتي غلّقت الأبواب، فكانت تلك دعوةً صريحة منها إليه، ثُمَّ هي الّتي حين رأَتْ أنَّ ذلك كلّه لَم يَدْعُه إليها، ولَم يُقرّبْه منها؛ دعتْه إلى نفْسها، وقالت: ﴿هَيۡتَ لَكَۚ﴾؛ أيْ: ها أنا ذا لك، فأقبِل مُسرعًا! وهذا ما لا تفعله الحُرّة ذاتُ الجاه والسُّلطان، إلَّا إذا كانت قد استبدَّت بها الرَّغبة، ثُمَّ لَم تَجِد مِن الجانب الآخَر استجابة منه لها، عندئذٍ تَخلع عِذار حيائها، وتتخلَّى عن مكانتها كامرأة تُطلَب ولا تَطلُب، وفي كلّ هذا ما يحدّث عن تعفّف يوسف عليه السلام، وعدم الاستجابة لداعي الشَّهوة أمام هذه المُغريات، الّتي تنحلُّ لها عَزَمات الرِّجال، وتطيش معها أحلام ذوي الحُلوم[3].

النُّكتة في انعدام العطْف بيْن ﴿وَقَالَتۡ﴾، ﴿قَالَ﴾:

بيان سرعة الرَّدّ والجواب، حسْمًا لمادَّة المراوَدة وقطْعًا لها

قوله تعالى ﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ﴾، بيانٌ مُستأنَف لجواب يوسف، مبنيٌّ على سؤال تقديره: وماذا قال بعدَ تَسَفُّل المرأة - وهي سيّدة قومها - إلى هذه الدَّركة مِن التَّذلُّل له؟[4]؛ فجاء الجواب: ﴿قَالَ مَعَاذَ

(1) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 7/3815.
(2) الشَّعراويّ، تفسير الشَّعراويّ: 11/6904.
(3) الخطيب، التّفسير القرآنيّ: 6/1252.
(4) رشيد رضا، تفسير المنار: 12/275.

ٱللَّهِ﴾، بيانًا لِما رَدَّ به يوسف عليها، بعدَ أنْ تجاوزَتْ في إثارَتِه كُلَّ حَدٍّ، وجوابًا حاسِمًا لمادّة المراوَدة، صريحًا مُفصحًا عن خشية يوسف عليه السلام لربِّه، والتجائه إليه، واعتصامه بحَوْله وقوَّته.

نُكتة التَّعبير بالمصْدر الميميّ ﴿مَعَاذَ﴾:

لا مُعتصَم في الفتَن الهُوج، إلّا بالله الّذي يَقي ويمنع، مِن الانزلاق والأهواء

لفظ ﴿مَعَاذَ﴾ في قوله تعالى: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾ مصدرٌ منصوب بفعل محذوف؛ أيْ: قال أعوذ بالله مَعَاذًا ممَّا تطلبينه مِنِّي، وأعتصم به اعتصامًا ممَّا تحاولينه معي، فإنَّ ما تطلبينه وتُلحِّين في طلَبِه يتنافى مع الدِّين والمروءة والشَّرف[1]. فنُصب ﴿مَعَاذَ﴾ على المصْدر، يُقال: عُذْتُ عَوْذًا وعياذًا وعياذَةً ومَعاذًا، وهذا اجتنابٌ منه عليه السلام على أتَمِّ الوجوه، وإشارة إلى التَّعليل بأنَّه مُنكَر هائل، يجب أنْ يُعاذ بالله جل جلاله للخلاص منه، وما ذلك إلَّا لأنَّه قد علِم بما أراه الله تعالى، أنَّ ما طَلَبَتْهُ منه هذه المرأة مِن غاية القبْح، ونهاية السّوء[2].

نكتة الإضافة في ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾:

استحضار عظمته تعالى في أحلَك المواقف، لكونه مصْدر الالتجاء مِن كلِّ سوء

﴿مَعَاذَ﴾ مصْدر أُضيف إلى اسم الجلالة في قوله: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾ إضافة المصْدر إلى مَعموله، وأصْله: أعوذ عَوذًا بالله[3]، وفي هذه الإضافة استحضارٌ لعظمته جل جلاله في أحلَك المواقف؛ لكونه مصْدر الالتجاء والحماية مِن كلِّ سوء، والمعنى المُلْمح في عبارة: ﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾: "أيْ: أعوذ بالله جل جلاله، وألْتجئُ إليه ممّا تريدين مِنّي، فهو يُعيذني أنْ أكون مِن الجاهلين، كما سيأتي مِن قوله ﴿وَإِلَّا تَصۡرِفۡ عَنِّي كَيۡدَهُنَّ أَصۡبُ إِلَيۡهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ٣٣﴾ [يوسف: 33][4].

دلالة حرْف التَّوكيد (إنَّ):

تعليل مُفيد للنُّفور مِن الفاحشة، والاعتصام بالله تعالى منها

أفادت الأداة (إنَّ) في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ﴾ تعليل

(1) طنطاويّ، الوسيط: 7/338.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 6/401.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 12/251.
(4) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 12/129.

ما أفاده ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِۖ﴾ مِن الامتناع والاعتصام منه بالله، المُقتضي أنّ الله أمَر بذلك الاعتصام[1]، فهو تعليلٌ للامتناع ببعض الأسباب الخارجيَّة، مِمَّا عسى أنْ يكون مُؤثِّرًا عندها، وداعيًا لها إلى اعتباره بعدَ التَّنبيه على سببه الذَّاتيِّ الّذي تكاد تَقبله لِما سوَّلتْه لها نفْسها[2]، وهو تعليل أيضًا لنُفوره ممَّا دعتْه إليه، فاستعاذ بالله منْه[3].

سرُّ دخول الضَّمير على (إنَّ):

قوله: ﴿إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ﴾، الضَّمير في ﴿إِنَّهُۥ﴾ للشَّأن، وفائدة تصْدير الجملة به الإيذان بفخامة مضمونها، مع ما فيه مِن زيادة تقريره في الذِّهن، فإنَّ الضَّمير لا يُفهم منه مِن أوَّل الأمْر إلَّا شأنٌ مُبهَمٌ له خطر، فيبقى الذِّهن مُترقِّبًا لِما يعْقبه، فيتمكَّن عند وُروده له أفْضلَ تمكّن، فكأنَّه قيل: إنَّ الشَّأن الخطير هذا وهو رَبِّي[4]؛ أيْ: سيّدي العَزيز أحسَن تعهُّدي؛ إذ أمَركِ بإكرامي على أكمَل وجْه، فكيف يمكن أنْ أُسيء إليه بالخيانة في حَرمِه؟! وفيه إرشاد لها إلى رعاية حَقِّ العزيز بألطَف وجْهٍ[5].

الإيذان بفخامة مضمون الجملة، مع زيادة تقريره في الذِّهن

معنى (الرَّبّ) في قوله: ﴿إِنَّهُۥ رَبِّيٓ﴾:

ضمير ﴿إِنَّهُۥ﴾ يجوز أنْ يعود إلى اسم الجلالة، ويكون ربِّي بمعنى خالقي، ومُوجِدي ومُدبِّري والمُحسِن إليّ في كلِّ أمرٍ، فأنا أرْجو إحسانه في هذا ﴿أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ﴾ بأنْ جعَل لي في قلب سيّدك مكانةً عظيمةً حتَّى خوَّلني في جميع ما يملك وائتمَنَني على كلِّ ما لديه، فإنْ خالفتُ أمْرَ ربِّي فخُنتُ مَن جعلني موْضعًا للأمانة، كُنتُ ظالمًا واضعًا للشَّيءِ في غير موضعه، وهذا التَّقدير - مع كونه ألْيَق

احتمال المعنى وجوب الشُّكر لله على نعمة الإيجاد، ولِعَزيز مِصْر على نعمة التَّربية

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 12/251.
(2) القاسميّ، محاسن التَّأويل: 6/164.
(3) طنطاويّ، الوسيط: 7/338.
(4) القاسميّ، محاسن التَّأويل: 6/164.
(5) حقّي، روح البيان: 4/234، والآلوسيّ، روح المعاني: 6/401.

بالصَّالحين المراقِبين - أحسَنُ؛ لأنَّه يستلزم نُصْح العَزيز، ولو أعدنا الضَّمير على العزيز لَم يستلزم التَّقوى[1].

ويجوز أنْ يعود إلى معلوم مِن المقام، وهو زوجها الّذي لا يرضى بأن يمسّها غيرُه، وهذا قول أكثر المُفسّرين[2] فيكون ﴿رَبِّيٓ﴾ بمعنى: سيّدي ومالكي، فما جزاؤه أنْ أخونه في أهله؟[3] وهذا مِن الكلام المُوجَّه توجيهًا بليغًا حُكِيَ به كلام يوسف عليه السلام إمّا لأنَّ يوسف عليه السلام أَتى بمثل هذا التَّركيب في لغة القِبْطِ، وإمَّا لأنّه أَتى بتركيبَيْن فحكاهما القرآن بطريقة الإيجاز والتَّوجيه، فذكر وصْف الرَّبِّ على الاحتمالَيْن، لِما يُؤذِن به مِن وجوب طاعته وشُكره، على نعمة الإيجاد بالنِّسبة إلى الله، ونعمة التَّربية بالنّسبة لمَولاه العزيز[4].

بلاغة المَجازِ في قوله: ﴿أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ﴾:

قوله: ﴿أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ﴾؛ أيْ: أحسَن تعهُّدي، إذ قال لك فيَّ: أكرمي مثواه، فما جزاؤه أنْ أخونه في أهله، ففي الكلام إشارة إلى أنَّ ﴿أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ﴾ كناية عن إحسان تعهُّده، وإسنادُ الإحسان إليه مَجازٌ عقليٌّ[5]؛ لكونه أمرًا أشار إليه بقوله: ﴿أَكۡرِمِي مَثۡوَىٰهُ﴾ [يوسف: 21][6]، وفي هذا المَجاز إرشاد لها إلى رعاية حقّ العزيز بألطف وجه[7]، وهو ملْمح وَجيهٌ، يُعَدُّ "تعليلًا للامتناع ببعض الأسباب الخارجيّةِ - ممّا عسى يكون مُؤثّرًا عندها وداعيًا لها - إلى اعتباره بعدَ التّنبيهِ على سببه الذّاتيّ الّذي لا تكاد تَقبله لِما سوّلتْه لها نفسُها"[8].

إرشاد المرأة إلى رعاية حَقِّ العزيز، بألطف وجْه، وأرَقّ عبارة

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/62.
(2) البغويّ، معالم التَّنزيل: 2/483.
(3) البيضاويّ، أنوار التَّنزيل: 3/160.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 12/252.
(5) وهذا باعتبار أنَّ قوله: ﴿إِنَّهُۥ رَبِّيٓ﴾، يُريد به عزيز مصر.
(6) المظهريّ، التَّفسير المظهريّ: 5/152، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 10/289.
(7) القاسميّ، محاسن التَّأويل: 6/164.
(8) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/265.

دلالة التَّأكيد والاسمية في ﴿إِنَّهُۥ رَبِّيٓ﴾:

التَّعليل داعٍ للامتناع عن الخيانة، والبيان دالٌّ على استحالة فعل ذلك

جملةُ: ﴿إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ﴾ تعليلٌ مُؤَكّدٌ لامتناعه، وتعريضٌ بها في خيانة عهْدِها، وفي هذا الكلام عِبْرةٌ عظيمة مِن العَفاف والتَّقوى وعِصمة الأنبياء قبلَ النُّبوَّة مِن الكبائر[1]. وفيها أيضًا تذكيرٌ لها بألطف أسلوب بحقوق الله تعالى وبحقوق زوجها، وتنبيهٌ لها على وجوب الإقلاع عمّا تُريده منه مِن مُواقَعتِها؛ لأنَّه يُؤدّي إلى غضب الله وغضب زوجها عليها[2].

دلالة الجملة ﴿أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ﴾:

تأكيد شُكْرِ المُنْعِمينَ بِأَوْجَزِ عبارة وألطف إشارة

أكَّد النَّظم الكريم شُكْرَ يوسف عليه السلام ربَّه الخالق العظيم على نعمة الإيجاد، وشُكرَ عَزيز مِصر على نعمة التَّربية والتّنشئة والرّعاية، بالجملة الخبريّة: ﴿أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ﴾؛ أيْ: جعل آخِرَتي حُسْنى، إذ أنقَذني مِن الهلاك، أو أكرَم كفالتي[3] بأوْجز عبارةٍ وألطَف إشارةٍ، سائلًا الله بقوله: "أعوذ بالله معاذًا وألوذُ نحوَه سبحانه أنْ يَعصمني عن أمثال هذه الفَعلة الذّميمة، والدّيْدنة القبيحة، ولا سيّما مع مَن يُربّيني ويُحسِن إليَّ، فكيف إنَّهُ - أي الشّأن هذا - رَبِّي يُربّيني بأنواع اللّطف والكرم؛ بأنْ أَحْسَنَ مَثْوايَ، وأوْصَلني بإحسانه، فكيف أُسيءُ في مقابلة إحسان مُحسِني، ومُتولّي أمْري، ومُتولّي نِعمي"[4].

سِرُّ تَكَرُّر التَّعليل في الآية:

تعليلٌ ثانٍ للامتناع منه عن إجابتها لفَداحة مضمون طلَبِها

جملة: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ تعليل ثانٍ للامتناع منه عن إجابتها[5] دلالة على قبيح مضمون طلَبِها، وشدَّة إنكاره له، والتَّقدير:

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 12/252.
(2) طنطاويّ، التَّفسير الوسيط: 7/338.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 12/252.
(4) علوان، الفواتح الإلهيّة: 1/371.
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 12/252، والهرريّ، حدائق الرّوح والرَّيحان: 13/370.

إنَّ الظَّالم بِوَضْعِ الشّيء في غير مَوضعه، يَخيب في سعيه ويَخسر في دُنياه وأُخراه، ولا يُفلح أبدًا، فكيف أرضى لنفسي ولك بذلك[1].

دلالة ضمير الشَّأن في ﴿إِنَّهُۥ﴾:

بيان أهميَّة الجملة المَجعولة خَبرًا عنه، لكونها مَوعظةً جامعة

قوله: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾، وفيه الضَّمير المَجعول اسمًا لـ(إنَّ) ضمير الشَّأن، يُفيد أهميَّة الجملة المجعولة خَبرًا عنه؛ لأنَّها موعظة جامعة[2]؛ والتَّقدير: إنَّ الشَّأن في سنَّة اللّه في خَلْقه وعدالته، هو أنَّه لا يفوز الظَّالمون[3] ولا يَظفرون بمطالبهم؛ ومِن جملة الظَّالمين، أولئك الّذين وَقَعوا في مثل هذه المعصية الّتي تطلُبها امرأة العزيز[4].

دلالة النَّفي في ﴿لَا يُفۡلِحُ﴾:

نفي الفلاح الدُّنيويّ والأُخرويّ مِن جميع النَّواحي؛ تيئيسٌ مِن حالهم

الفلاح هو الظَّفر والفوز بالبُغية[5]، ونَفْيُ الفلاح عن الظَّالمين لأنفُسهم، والظَّالمين للنّاس بخيانة وتعدٍّ على الأعراض، هو نفْي فَوزهم في دُنياهم وأُخراهم، فلا يُفلح الظّالمون في الدُّنيا ببُلوغ الإمامة والرّئاسة، ولا في الآخِرة بالوصول إلى رضوان اللّه تعالى، ودخول جنّات النّعيم، فأمَّا في الدُّنيا فيُعاقَبون بالعِلل والأسقام، والذُّلِّ بعدَ العِزِّ، والفقْر بعدَ الغِنى، وغير ذلك مِن الآفات، وأمَّا في الآخرة فالجحيم والزَّمهَرير، ومَن فاتتْه عُقوبة الدُّنيا لَم يُفلت مِن عقوبة الآخِرة[6].

فائدة التَّعبير بلفظ ﴿ٱلظَّٰلِمُونَ﴾:

اتّساع العبارة للإيماء إلى شهامة يوسف، وكَرَم سيِّده، والتَّعريض بخيانة امرأته

لفظ ﴿ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾،

(1) الجزائريّ، أيسر التَّفاسير: 2/605.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 12/252.
(3) الخطيب، التَّفسير القرآنيّ: 6/1252، وشحاتة، تفسير القرآن الكريم: 12/2311.
(4) القنّوجيّ، فتح البيان: 3/400.
(5) أبو حيَّان، البحر المحيط: 6/256.
(6) الخطيب، التَّفسير القرآنيّ: 6/1252، وشحاتة، تفسير القرآن الكريم: 12/2311.

معناه: العَريقون في الظُّلم، وهو وضْع الشَّيء في غير مَوْضِعِهِ[1]، وأشار هُنا إلى أنَّ إجابتها لِما راوَدتْه ظلْمٌ؛ لأنَّ فيها ظُلْمًا لنَفْسه بارتكاب مَعصية، ممَّا اتّفقت الأديان على أنَّها كبيرة، وظُلْمًا لسيِّده الّذي آمنَه على بيته، وآمنَها على نفْسها؛ إذ اتّخذها زوجًا وأحصنَها[2]، وفي هذا إيماء إلى الاعتزاز بيوسف عليه السلام، والأمانة لسيّده، والتَّعريضُ بخيانة امرأته[3].

دلالة مقابلة الغواية بالعفاف:

إثبات أنَّ الاعتصام بالله والتّعفّف عن المُغريات، عِصمة وحماية ونجاة

المتأمِّلُ في هذه الآية الكريمة، يرى أنَّ القرآن الكريم قد قابل دواعي الغواية الثَّلاثة الّتي جاهرت بها امرأة العزيز، والمتمثّلة في المراوَدة، وتَغليق الأبواب، وقولها: ﴿هَيْتَ لَكَۚ﴾، بدواعي العفاف الثَّلاثة الّتي رَدَّ بها عليها يوسف، والمتمثِّلة في قوله، كما حَكى القرآن عنه: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِۖ﴾، ﴿إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ﴾، ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾، وذلك ليُثبت أنّ الاعتصام بالله مع التّحلّي بالعفاف والشَّرف، كان سلاح يوسف عليه السلام في تلك المعركة العنيفة، بيْن نداء الايمان والعقل مِن جِهة، ونداء الشَّهوة والهوى مِن جهة أُخرى[4].

وجاء هذا التَّرتيب في غاية الحُسن، وذلك لأنَّ الانقياد لأمْر الله تعالى وتكليفه، أهمُّ الأشياء، لكثرة إنعامه وألطافه في حقِّ العبد، فقوله: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِۖ﴾ إشارة إلى أنَّ حقّ الله تعالى يَمنع عن هذا العمل، وأيضًا حقوقُ الخَلْق واجبَةُ الرِّعاية، فلمَّا كان هذا الرَّجل قد أنعم في حقِّي، يقبح مُقابلَة إنعامه وإحسانه بالإساءة، وأيضًا صوْن النَّفْس عن الضَّرر واجب، وهذه اللَّذة لذّة قليلة يتْبعها خِزي في الدُّنيا، وعذاب شديد في الآخِرة، واللَّذة القليلة إذا لزمها ضررٌ

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 10/62.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 12/252.
(3) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 12/129.
(4) طنطاويّ، التَّفسير الوسيط: 7/338.

شديد، فالعقل يقتضي تَرْكها، والاحتزاز عنها، فقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾، إشارة إليه، فثبت أنَّ هذه الجوابات الثَّلاثة مُرتَّبة على أحسن وجوه التَّرتيب[1].

يُزاد على ذلك أنَّه قد علله مِن جهات، أوَّلًا: أنَّه مُنكَر فاحش، يجب أنْ يُعاذ منه بالله، ويُلجأ إليه بالخلاص مِن قُربانه، لِما عَلِمَ بتعليم الله إيَّاه مِن قُبحه وسوء عاقبته. ثانيًا: أنّ زوجها سيِّده، وقد أحسن إليه، وأوصاها بإكرامه، فكيف يُمكن أنْ يُسيء إليه بالخيانة، وهو سببٌ ظاهريٌّ ذَكَره لها عَلَّهُ يُؤثِّر فيها، فترْدَع وتزْجر نفْسها ممَّا سَوَّلت لها به. ثالثًا: أنَّ مَن يفعل هذا الفعل الخبيث، يكون ظالمًا مَحروم الظَّفر، بالبُغية الطَّيِّبة والسَّعادة ورَفاه العيْش في الدُّنيا والآخِرة، وأنَّ إجابة طلَبِها في غاية الخِسَّة ومنتهى الرَّذالة، تُجاه مَن يتعاهده بالخير ويعطف عليه، ومع كلِّ هذا، لَم يُؤَثِّر فيها، لِما داخل قلبَها مِن حُبِّه، فأدركتْه وأقبلَت عليه، وحرَّضتْه وحذَّرَته، فلَم يفعل، وأكَّدَ لها إعراضَه، ووعَظها بما أوتيه مِن فصاحة في اللَّفظ، وبلاغة في المعنى، وشِدَّة في الخِطاب، وهي عن ذلك بمَعْزل، فرمَتْ نفْسها إليه، وعكفتْ بِكُلِّها عليه[2].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

المُراوَدة والطَّلب:

المراودة استمرار الطَّلب ومُداومته، وفيها معنى المُخادعة

الطَّلَبُ: مُحاوَلَةُ وجْدانِ الشَّيءِ وأَخْذِه[3]، والمُراوَدة مُفاعلَة مِن الإرادة، ويدلُّ بِناؤُها على استمرار الطّلب ومُداومته[4]؛ يُقال: راودْتُه على الأمْر مُراوَدة ورِوادًا: طلبْتُ منه فِعلَهُ مرّةً بَعد مَرّةٍ، وفي

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 18/437.
(2) ملّا حويش، تفسير القرآن العظيم: 3/189.
(3) ابن منظور، لسان العرب، والزَّبيديّ، تاج العروس: (طلب).
(4) المصطفويّ، التَّحقيق: 4/270 - 272.

المراوَدة معنى المُخادَعة؛ لأنَّ الطّالِبَ يتلَطَّف في طلَبِه تَلَطُّفَ المُخادِع، ويحرص حِرْصَهُ[1]، وراودَه: خادعَه وراوغَه، والمرأة عَن نفْسها: طلَبَ أنْ يفْجُر بها، وقد تكون المراوَدة مِن المَرْأة، وفي التَّنْزيل الْعَزيز: ﴿تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ﴾[2]، والمُطالَبة تسْتَعْمل في العيْن، يُقال: طالبَ زيدٌ عمْرًا بِالدَّراهِم. والمراوَدة: لا تُسْتَعْمل إلّا في العمَل، يُقال: راودَه عن المساعدَة. ولِهذا يَتعدّى فِعْلُ المراوَدة إلى مفعول ثانٍ بِنفْسه، والمطالَبة بِالْباء، وذلِك لأَنّ الشّغل مَنوط بِاخْتيار الفاعِل، والعيْن قد توجَد مِن غيْر اختيار مِنْهُ[3]. ولأنّ صَنيع امرأة العزيز مع يوسف عليه السلام فعلٌ متضمّنٌ معنى المُخادَعة؛ إذ استدرجتْه إلى مخْدعها وغلّقَت الأبواب، وداومَت على طلَبِها، وأصرّت ولحقَتْه إلى أنْ قدّت قميصَه مِن دُبرٍ كان اصطفاء لفظ المراوَدة أنسَب للسّياق والحال مِن لفظ الطّلَب.

(1) الفيّوميّ، المصباح المنير: 1/245، والمصطفويّ، التَّحقيق: 4/270.
(2) مجمع اللّغة العربيّة بالقاهرة، المعجم الوسيط: 1/381.
(3) الكفويّ، الكلّيات، ص: 867.

﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾﴾

[يوسف: 24]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

العلاقة بين وقائع المراوَدة، وتأبّي يوسف عليها بصرْف السّوء والفحشاء عنه

بَعد ما باشرَت امرأة العزيز مَباديها، وفعلَت ما فعلت مِن المُراوَدة، وتغليق الأبواب ودعوَتِه إلى نفْسها، بقولها: ﴿هَيْتَ لَكَ﴾، لَم تُبال باستعاذَتِه، بل قصدَت إكراهَهُ للمُباشَرة به، ورأتْ أن لا علاج لهذا إلّا تذليله بالانتقام، وهذا ما شرعَت في تنفيذه أو كادَت، بأنْ همَّت بالتَّنكيل به[1]؛ فقال هُنا: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ﴾؛ أيْ: قصدَت المخالَطة وعزمَت عليها عزمًا جازمًا لا يَلويها عنه صارِف، بعد ما باشَرت مَباديها، وفعلَت ما فعلت ممّا قَصَّ الله تعالى[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿هَمَّتْ بِهِۦ﴾: عَزمَتْ، وقرَّرتْ، وأرادَتْ، والهَمُّ: هو المقارَبةُ مِن الفعلِ مِن غيْرِ دُخولٍ فيه، تقول: هَمَّ بالشَّيْء يَهُمُّ هَمًّا: نَواه وأرادَه وعزَم عَلَيْه[3]، والهِمَّةُ: ما هَمَمْتَ به مِن أَمْرٍ لتَفْعَلَهُ[4]، وأصْل (هَمّ): يدلُّ على ذَوْبٍ وجَريانٍ ودَبيبٍ وما أشبهَ ذلك[5]، ومنهُ حديثُ المرءِ نفسَه بمواقعتِه ما لَم يُواقِعْ، والمعنى هنا: دعتْه إلى نفْسها

(1) الدّرّة، تفسير القرآن الكريم: 4/567، والمراغيّ، تفسير المراغيّ: 130/12.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/265، وحقّي، روح البيان: 4/237، والمهائميّ، تبصير الرَّحمن: 1/361.
(3) الجوهريّ، الصّحاح، وابن سِيده، المُحكم: (همم).
(4) الخليل، العين: (باب الهاء مع الميم).
(5) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (همم).

وتهيّأت لِوقوعه وقَصَدَتْ مِنْهُ الْجِماع[1]، قال أبو عبيدة: هذا على التّقديم والتّأخير، كأنّه أراد: ولقد همّت به، ولَولا أنْ رأى برهان ربِّه لهَمّ بها[2].

2) ﴿بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ﴾: البُرهان: الحُجَّة الفاصلة البَيِّنَة وإيضَاحُها، يُقال: برهَن يُبرهِن برْهنةً، إذا جاء بحُجّة قاطعة للرَّدِّ على الخصْم، وجمع البُرهان: براهين؛ وقد برهن عليه: أقام الحُجَّة[3]، والبُرْهانُ: أَوْكَدُ الأَدِلَّة، وهُوَ الَّذي يَقْتَضي الصّدْقَ أَبدًا لا مَحالَة[4]، واختُلِف في نون البُرْهان؛ فقيل: هي أصليَّة، وتكون الكلمة عندئذٍ مِن بابِ الرُّباعيِّ (بَرْهَنَ)، إذا أَتى بِحُجَّتِهِ[5] وقيل: لَيْست أصليّة، وقولُهم: بَرْهَن فلانٌ، إذا جاءَ بالبُرْهان، مُوَلَّد، والصَّواب أنْ يُقال: أَبْرَه: إذا جاءَ بالبُرْهان[6]؛ والمعنى هُنا: حُجَّة ربِّه وأدلّته الدّالّة على كمال قُبْحِ الزِّنى[7].

3) ﴿ٱلسُّوٓءَ﴾: القَبيحُ، وهو نَعْتٌ لكلِّ شَيءٍ رَديء، يُقال: ساءَ الشَّيءُ يَسوءُ سوءًا: قَبُح، فهو سيِّئ. والسّوء: اسم جامعٌ للآفات والدّاء[8]، وأصْلُ (سوء): يدُلُّ على القُبحِ[9] والسَّوءةُ السَّوْءاءُ: الفَعْلَةُ القَبيحَةُ[10]، وساءَهُ يَسوؤه سوْءًا، بالفتح، ومَساءَةً ومَسائِيَةً: نَقيضُ سَرَّهُ، والاسمُ السّوء، بالضّمّ، وتَقول: هذا رَجُلُ سَوْءٍ بالإضافة، ثمّ تُدْخِلُ عليْه الألِفَ واللّامَ، فتَقول: هذا رَجُلُ السَّوْءِ[11]، ومعنى السُّوء هُنا ما كان هَمَّ به مِن أذاها[12].

4) ﴿وَٱلْفَحْشَآءَ﴾: الفحْشاء: الفاحِشةُ، وهي الزّنى، وكلُّ شَيْء جاوَز حدَّه، فهو فاحِشٌ، وقد فَحُشَ الأمْر بالضّمِّ فُحْشًا، وتفاحَشَ؛ ويُسمَّى الزِّنى فاحِشَةً[13] وأصْلُ (فحش): يدُلُّ

(1) ابن الجوزيّ، زاد المسير: 2/427، والعزّ، تفسير العزِّ ابن عبد السّلام: 2/115، والسّيوطيّ والمحليّ، تفسير الجلالين، ص: 306.
(2) ابن الجوزيّ، زاد المسير: 2/427، وابن عبد السَّلام، تفسير العزِّ ابن عبد السّلام: 2/115، والسّيوطيّ والمحليّ، تفسير الجلالين، ص: 306.
(3) الجوهريّ، الصّحاح، وابن منظور، لسان العرب: (برهن).
(4) الرَّاغب، المفردات، والزَّبيديّ، تاج العروس: (برهن).
(5) الفيّوميّ، المصباح المنير: (بره).
(6) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة: (أبره).
(7) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 215، والهرريّ، حدائق الرّوح والرَّيحان: 13/373.
(8) الخليل، العين (باب اللَّفيف من السِّين سيء)، والأزهريّ، تهذيب اللُّغة: (سوأ).
(9) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (سوء).
(10) ابن عبّاد، المحيط: (باب اللَّفيف ما أوَّلُهُ السِّيْنُ).
(11) الجوهريّ، الصّحاح: (سوأ).
(12) ابن جرير، جامع البيان: 16/38.
(13) الجوهريُّ، الصّحاح: (فحش).

على قُبْحٍ في شَيءٍ وشَناعةٍ[1]، وجاء الرَّجل بالفُحْش والفَحْشاء، إذا أفْحَش، ورُبما جعلُوا الْفَحْشاء الْفُجور، وقد جاءَ في التَّنْزيل: ﴿وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ﴾ [النّحل: 90]. ورُبما قالوا: جاءَ فلان بالفاحشة في معنى الْفَحْشاء[2]. ويسمّى الزِّنى: فاحِشَةً. وقَوْل طَرَفة ابن العَبد[3]:

أَرَى المَوْتَ يَعْتَامُ الكِرامَ ويَصْطَفِي *** عَقيلةَ مَالِ الفَاحِشِ المُتَشَدِّدِ

يَعني: الّذي جاوزَ الحدَّ في البُخل، وأفْحَشَ علَيه في المَنْطق؛ أيْ: قال الفُحْشَ، فهو فحّاشٌ[4].

5) ﴿ٱلْمُخْلَصِينَ﴾: تدلّ تصاريفُ الكلمة (خلص) على تَنْقيَة الشَّيءِ وتهذيبِه[5]، يقولون: خَلَصَ الشَّيْء يَخْلُص خُلوصًا وخَلاصًا، وخَلّصْته أَنا تخليصًا إذا صفَّيْتُه مِن كَدَرٍ أو دَرَنٍ[6]، وخَلصَ الماءُ مِن الكَدر: صَفا، وخُلاصة الشَّيء: ما صفا، مأخوذٌ مِن خلاصة السَّمن، وهو ما يُلقى فيه تَمر أو سويقٍ ليَخلُص به مِن بقايا اللَّبن[7]، والمُخْلَص: الَّذي جَعَلَه اللّه مُخْتارًا خالِصًا مِن الدَّنَس، والمُخْلِصُ أيضًا: الَّذي وَحَّدَ اللّه تَعالى خالِصًا[8]؛ وقَدْ كانَ يوسُفُ عليه السلام، موْصوفًا بهاتَيْنِ الصِّفَتَيْنِ؛ لأَنَّهُ كانَ مُخْلِصًا في طاعَةِ اللّه تَعالى، مُسْتَخْلَصًا لِرسالَةِ اللّه تعالى[9].

❁ المَعْنى الإِجْمالِيُّ:

بيان هَمِّ امرأة العزيز وهَمِّهِ بها، لولا رؤية برهان ربِّه، الصّارف عنه السُّوء والفحشاء

ولقد مالَت نفْسها لفعل الفاحشة، وخَطَرَ على نفْسه هو ذلك، لَولا أنَّه رأى مِن آيات اللّه ما يكُفُّه عن ذلك ويُبعده، فثبت على

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (فحش).
(2) ابن دُرَيْد، جمهرة اللّغة: (فحش).
(3) ديوان طرفة بن العبد، ص: 26.
(4) ابن دُرَيْد، جمهرة اللّغة: (فحش).
(5) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (خلص).
(6) ابن دريد، جمهرة اللُّغة: (خلص).
(7) الخليل، العين: (باب الخاء والصّاد واللّام معهما).
(8) الزَّبيديّ، تاج العروس: (خلص).
(9) القرطبيُّ، الجامع لأحكام القرآن: 9/170.

طُهره وعفّته، وقد أريناه ذلك لنكشف عنه السّوء، ونبعده عن الزِّنى والخيانة، إنَّ يوسف مِن عبادنا المُطهَّرين المصطَفيْن للرِّسالة الّذين أَخلصوا في عبادتهم لله وتوحيده[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالة الاستئناف بالقَسَم:

بيان جديَّة امرأة العزيز، في مُراوَدتها النَّزِقة

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ﴾، الواو: حرْف قَسَم وجَرٍّ، والمُقْسَم به محذوف، تقديره: واللّه لقد همَّت بأن تبطش به، إذ عصى أمرها وخالف مُرادها، بعد أن احتالت عليه بمراوَدته عن نفْسه، وكُلّما ألَحَّت عليه ازداد نفورًا منها، مُعتزًّا عليها بالدِّيانة والأمانة، والترَّفُّع عن الخيانة، وحِفْظِ شَرف سيِّده وهو سيّدها، ولا علاج لهذا إلّا تذليله بالانتقام، وهذا ما شرعَت في تنفيذه أو كادَت بأنْ همَّت بالتَّنكيل به[2]. فجملة ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ﴾ مستأنَفة استئنافًا ابتدائيًّا نحْويًّا، والمقصودُ منها: أنَّها كانت جادّة فيما راودَته لا مُختبِرة[3].

أثر توالي التَّوكيدات في الآية:

تأكيد عزْمها على الفحشاء، بدفع توهُّم ارتداعها عن عزمها الأثيم

في قوله: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ﴾ أكّد همَّها بالقَسَم و(قد)، و(لام القَسَم)؛ ليُفيد أنَّها عزَمت عزْمًا مُحقَّقًا[4]، والتَّأكيد أيضًا لِدَفع ما عسى يُتوهَّم مِن اختصاص إقلاعها، عمَّا كانت عليه بما في مقالته مِن الزَّواجر[5]، والمُراد: همّت بمخالَطته ومجامَعته؛ أيْ: قصدَتها، وعزمَت عليها عزمًا جازمًا، بعد ما باشرَت مباديها، وفعلَت ما فعلت[6]، ولعلّها تصدَّت هنالك لتَجسيد ما تصْبو إليه مِن فعلٍ

(1) لجنة من عُلماءِ الأزهر، المنتخَبُ في تفسير القرآنِ الكريم، ص: 334، ونُخْبة من أساتذة التَّفسير، التَّفسير المُيَسَّر، ص: 238، وجماعَةٌ من علماء التَّفسير، المُختَصَر في تفسير القرآن الكريم، ص: 238.

(2) الدُّرّة، تفسير القرآن الكريم: 4/567، والمراغيّ، تفسير المراغيّ: 12/130.

(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 12/252.

(4) ابن عاشور، التَّحرير والتّنوير: 12/252.

(5) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/265.

(6) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/265.

فاحِشٍ، استولى على كيانها ووجدانها، وأغلق عليها منافذ العقل والتّبصّر، فلَم تشعر إلّا وهي منغمسة في الفعل تريد أنْ تمارسه قهْرًا، ولا تعبأ للعواقب الوخيمة، ولكنّ اللّه عصم نبيّه يوسف عليه السلام مِن ذلك كلّه.

دلالة لفظ (الهمّ) في الآية:

المقصود مِن ذِكر هَمِّها به ابتداء، التَّمهيد إلى ذِكر انتفاء هَمِّه بها، والفرْق بيْن حالَيْهما

(الهمُّ) في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ﴾ يكون بمعنى القصْد والإرادة، ويكون فوق الإرادة ودون العَزم، إذا أُريد به اجتماع النَّفس على الأمر والإزماع عليه، والعَزمُ: القصْد إلى إمضائه، فهو أوَّل العزيمة، وهذا معنى قولهم: الهَمُّ همَّان: هَمٌّ ثابت، معه عَزْمٌ وعقد ورِضا، وهو مذموم مُؤاخَذٌ به؛ وهمٌّ بمعنى: خاطِر، وحديث نفْس، مِن غير تصميم، وهو غير مؤاخَذٍ به؛ لأنَّ خُطور المناهي في الصُّدور، وتصوُّرها في الأذهان، لا مُؤاخذة بها، ما لَم تُوجد في الأعيان[1]. وهمُّها كان عن قصْد وعزيمة بمُخالَطته؛ إذ قصَدَت منه الجِماع وعزمَت عليه عزمًا جازمًا، لا يَلْويها عنه صارِف، بعد ما باشرَت مبادئها مِن المراوَدة، وتغليق الأبواب، ودعوَته إلى الإسراع إليها بقولها: ﴿هَيْتَ لَكَۚ﴾ ولعلَّها تَصدَّت هُنالك لأفعال أُخَرَ مِن بَسْطِ يدها إليه وقَصْدِ المُعانَقة وغير ذلك، ممّا اضطرَّه عليه السلام إلى الهرَب نحْو الباب[2]؛ والمقصود مِن ذِكر هَمِّها به ابتداء التَّمهيد إلى ذِكر انتفاء هَمِّه بها لبيان الفرْق بيْن حالَيْهما في الدّين فإنَّه مَعصوم[3].

موقع العطف ودلالته في الآية:

بيان استقلال الجملة، لاختصاص شرْطها، بحال المُسند إليه فيها

جملة ﴿وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦۚ﴾ معطوفة على جُملة ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦۖ﴾ كُلِّها، وليست معطوفة على جملة: ﴿هَمَّتْ﴾ الّتي هي

(1) القاسميّ، محاسن التَّأويل: 6/166.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/265.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتّنوير: 12/252.

جواب القَسَم المدلول عليه باللَّام؛ لأنَّه لمّا أُردفت جملة ﴿وَهَمَّ بِهَا﴾، بجملة شرْط ﴿لَوْلَآ﴾ المتمحِّض؛ لكونه مِن أحوال يوسف عليه السلام وحدَه، لا مِن أحوال امرأة العزيز، تَعَيَّن أنَّه لا علاقة بيْن الجملتيْن، فَتعيَّن أنَّ الثّانية مُستقلَّةٌ لاختصاص شرْطها بحال المُسند إليه فيها[1].

بلاغة المُشاكلَة في الآية الكريمة:

تقرير الفرق بيْن الـهَـمَّـيْن، هـمّ طالِبة الشَّهوة الـحـرام، وهـمّ طـالِـب العِـفَّة والاحتشام

عبَّر بالهَمِّ عند يوسف عليه السلام في قوله تعالى: ﴿وَهَمَّ بِهَا﴾ لمجرَّد وقوعه في صُحبة هَمِّها في الذِّكْرِ، بطريق المُشاكلَة، لا لِشَبَهِهِ؛ لأنَّه كما أنَّه بريء مِن ارْتكاب نفْس الفاحشة، والعمَل الباطل، كذلك بَرِئَ مِن الهمِّ المُحَرَّم، فعبَّر عنه بالهمِّ، لمجرَّد وقوعه في صُحبة همّها، ولذا أُشير إلى تباينِهما بأنَّه لَم يَقُل: ولقد همَّا بالمُخالَطة، أو هَمَّ كُلٌّ منهما بالآخَر[2].

وممّا يُقوِّي هذه المُشاكلَة قول مَن قال مِن أهل التَّفسير: إنَّ المُراد مِن همِّه عليه السلام دَفْعُها عن نفْسه، ومنعها عن ذلك القبيح؛ لأنَّ الهمّ هو القصْد، فوجَبَ أنْ يُحمل في حَقِّ كُلِّ أحدٍ على القصْد الّذي يليق به، فاللّائق بالمرأة القصد إلى تحصيل اللَّذَّة والتَّنَعُّم والتَّمتُّع، واللّائق بالرَّسول المبعوث إلى الخَلْق، القصد إلى زجْر العاصي عن معصيته، وإلى الأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكَر، يُقال: همَمْتُ بفلان؛ أيْ: بضربه، ودفْعِه، فإن قيل: فعلى هذا التَّقدير لا يبقى لقوله: ﴿لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ﴾ فائدة، فالجواب: أنَّ فيه أعظم الفوائد، وبيانه مِن وجهيْن: **الأوَّل**: أنَّه تعالى أعلَمَ يوسف عليه السلام أنَّه لو هَمَّ بدفعها لقتَلَته، أو لكانت تأمر الحاضرين بقتله، فأعلمه اللّه تعالى أنَّ الامتناع مِن ضرْبها أوْلى صَونًا للنَّفس عن الهلاك، **والثَّاني**: أنَّه عليه السلام لو اشتغل بدفْعها عن نفْسه، فَرُبَّما تعلَّقت به، فكان

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتّنوير: 12/252.
(2) حقّي، روح البيان: 4/237.

يتمزّق ثوبه مِن قُدَّام، وكان في علم الله تعالى أنَّ الشَّاهد يشهد بأنّ ثوْبه لو تمزّق مِن قُدَّام، لاتَّهموه، ولو كان ثوبه مُمزَّقا من خَلْف، لكانت المرأة هي الخائنة، فالله تعالى أعلَمَه بهذا المعنى، فلا جَرَم لَم يشتغل بدفْعها عن نفْسه، بل ولّى هاربًا عنها، حتَّى صارت شهادة الشَّاهد حُجَّة له، على براءته عن المعصية[1].

فلم يُلِزَّا في قرْنٍ واحدٍ مِن التَّعبير، ودليله أيضًا أنَّه صَدَّر الأوَّل، بما يُقَرِّر وجوده مِن التَّوكيد القسَميِّ، وعقّب الثَّاني بما يعفو أثره، من قوله ﷻ: ﴿لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ﴾[2].

نكتة ذِكر الهَمِّ وتعليقه بـ ﴿لَوْلَآ﴾:

نفي وقوع الهَمِّ بها البَتَّةَ، لوجود رؤية البُرهان

قوله: ﴿وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ﴾، طوَّل المفسّرون في تفسير هذَيْن الهَمَّيْنِ، والمختار عند المُحقِّقين أنَّ يوسف عليه السلام لَم يَقَع منه هَمٌّ بها البَتَّةَ، بل هو منفيٌّ لوجود رؤية البرهان، كما تقول: لقد قارفْتَ لَولا أنْ عَصَمك الله، ولا يُقال: إنَّ جواب لَولا مُتقدِّم عليها، وإنْ كان لا يقوم دليل على امتناع ذلك، بل صريح أدوات الشَّرْط العامِلة، مختلَف في جواز تقديم أجوبَتِها عليها، وقد ذهب إلى ذلك الكوفيُّون، ومِن أعلام البصْريّين أبو زيْد الأنصاريّ، وأبو العبّاس المُبَرّد، بل يُقال هُنا: إنّ جواب لَولا محذوف، لدلالة ما قبلَه عليه، كما يقول جمهور البصريّين في قول العَرب: (أنت ظالم إن فعلتَ)، فيُقدّرونه (إن فعلتَ فأنت ظالم)، ولا يَدُلُّ قوله (أنت ظالمٌ)، على ثبوت الظُّلم، بل هو مُثْبتٌ على تقدير وجود الفعل، وكذلك هُنا التَّقدير (لَولا أن رأى بُرهان ربِّه لَهَمَّ بها)، فكان مُوجِدًا الهَمَّ على تقدير انتفاء رؤية البُرهان، لكنْ وُجِدَتْ رؤية البرهان، فانتفى الهمُّ، والآية حينئذٍ ناطِقة بأنّه لَم يهمّ أصلًا؛ ومثله قول الله تعالى: ﴿إِن

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 18/442.

(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم 4/265، والقاسميّ، محاسن التَّأويل: 6/166.

﴿كَادَتۡ لَتُبۡدِي بِهِۦ لَوۡلَآ أَن رَّبَطۡنَا عَلَىٰ قَلۡبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٠﴾ [القصص: 10] فقوله: ﴿إِن كَادَتۡ لَتُبۡدِي بِهِۦ﴾ [القصص: 10]، يتخرَّج على ما ذُكِرَ، مِن أنَّه دليل الجواب، والتَّقدير: (لَولا أنْ رَبَطْنَا على قلبها لكادَت تُبدي به)[1]، وبهذا يتبيَّن أنّ يوسف عليه وعلى نبيّنا الصَّلاة والسَّلام بريءٌ مِن الوقوع فيما لا ينبغي، وأنَّه إمّا أنْ يكون لَم يَقَع منه أصلًا، بناءً على أنَّ الهَمَّ مُعَلّقٌ بأداة الامتناع الّتي هي ﴿لَوۡلَآ﴾ على انتفاء رؤية البُرهان، و(لولا) حرْف امتناع لِوُجود، فامتنع الهمّ لوجود البرهان، فقد رأى البُرهان، وانتفى المُعَلَّق عليه، وبانتفائه ينتفي المُعَلَّق الّذي هو هَمُّه بها[2].

احتمال المَجاز بلفظ (الهَمِّ):

ذَكر جماعةٌ مِن المفسّرين أنَّ معنى (الهمِّ) في قوله ﷻ: ﴿وَلَقَدۡ هَمَّتۡ بِهِۦۖ وَهَمَّ بِهَا﴾: خُطور الشَّيْء بالبال، أو: مَيل الطَّبع؛ كالصَّائم في الصَّيْف يَرى الماء البارد، فتحمله نفْسه على الميل إليه، وطلب شُربه، ولكنْ يمنعه دينه عنه، وكالمرأة الفائقة حُسنًا وجمالًا، تتهيَّأ للشَّابِّ النَّامي القَويِّ، فتقع بيْن الشَّهوة والعفَّة، وبيْن النَّفْس والعقل، مُجاذبةٌ ومُنازعة، فالهمُّ هُنا عبارة عن جَواذب الطَّبيعة، ورؤية البرهان جواذبُ الحِكمة، وهذا لا يَدُلُّ على حصول الذَّنب، بل كلَّما كانت هذه الحالُ أشدَّ، كانت القوَّة على لوازم العبوديَّة أكمل[3]، فلا يُؤاخذ بما هَجَسَ في النَّفس والبُرهان صَرفهُ عن هذا الهَمِّ، حتَّى لَم يَصِر عزمًا مُصَمَّمًا وما كان مِن هذا القبيل لا يُؤخَذُ به العبد ولا يُعاتَبُ مَن وُجِدَ فيه هذا المَيل؛ لأنَّه ليس في وُسْعه دفْعه[4]، بل هو مأجور مُثاب على التَّرك بعد الهمِّ، كما قال ﷺ: «ومَن هَمَّ بسيّئة

يرادُ بالهَمِّ مَيل الطَّبْع مُطْلَقًا، وفي كلّ حال، ثُمَّ أريد به مَيل الطّبع بلا قصْد

(1) أبو حيَّان، البحر المحيط: 6/258.
(2) الشِّنقيطيُّ، أضواء البيان: 2/210.
(3) القاسميُّ، محاسن التَّأويل: 6/166.
(4) القُرطبيُّ، الجامع لأحكام القرآن: 9/166.

فلَم يعملْها، كُتِبت له حَسَنةً كامِلة»[1] لأنَّه ترَك ما تميل إليه نفْسه بالطَّبع، خوفًا مِن الله وامتثالًا لأمْره، كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ۝﴾ [النّازعات: 40 - 41][2]، وعلى هذا التَّأويل بمَيل الطَّبع ومُنازعة الشَّهوة، لا القصْد الاختياريَّ، مِمَّا لا يدخل تحت التَّكليف، يكون مَجازًا مُرسلًا، بعلاقة الإطلاق والتَّقييد؛ أيْ: قُصِدَ بالهَمِّ ميل الطَّبع مُطْلَقًا، ثُمَّ أريدَ به ميْله بلا قصْد، لكونه مِن أفراده[3].

نكتة تقديم الجواب على ﴿لَوْلَآ﴾:

الاهتمام بالجواب، والاعتناء بشأنه، مِن مقاصد البيان الفصيح

في قوله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ﴾ جُعِلَ المذكور قبل ﴿لَوْلَآ﴾ دليلًا للجواب، والجواب محذوفًا، لدلالة ما قبلَ ﴿لَوْلَآ﴾ عليه، ولا مَفَرَّ مِن ذلك على كُلِّ تقدير، فإنَّ لَولا وشرْطها تقييد، لقوله: ﴿وَهَمَّ بِهَا﴾ على جميع التَّأويلات، فما يُقَدَّر من الجواب، يُقدَّر على جميع التَّأويلات، وتقديم الجواب على شرْطه لِلاهتمام به[4].

دلالة الفعْل ﴿رَّءَا﴾ بيْن الحقيقة والمَجاز:

اشتراك اللَّفظ واحتماله لِمَعنيَي الإبصار والاعتبار

اختلف المفسّرون في البُرهان ورؤيته اختلافَهم في الهمِّ ومعناه، فمِن قائل (وهو قول أكثر المفسّرين): إنَّ يُوسف عليه السلام رأى صورة أبيه يعقوب عاضًّا على إصْبعهِ بفَمِه، وهو يقول له: يا يوسف أتعمل عمل السّفهاء، وأنت مكتوب مِن الأنبياء؟[5]، ومِن قائل: إنّه رأى صورة المَلَك، وهُناك مَن قال: إنَّ المقصود بـ ﴿بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ﴾ هو الوعيد في

(1) أخرجه البخاريُّ، صحيح البخاريِّ، كتاب الرّقاق، باب من همّ بِحسنة أو بِسيِّئة، الحديث رقم: (6491)، ومسلم، صحيح مسلم، الإيمان، بابُ: إذا همّ العبدُ بِحسنة كُتِبت، وإذا همّ بِسيِّئة لم تُكتب، الحديث رقم: (131).

(2) الشِّنقيطيُّ، أضواء البيان: 3/42.

(3) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 10/293.

(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 12/253.

(5) الخازن، لُباب التَّأويل: 2/522، والثَّعلبيّ، الكشف والبيان: 5/209.

الآيات الّتي ذكرها اللّه في القرآن عن الزِّنا، وما رآه مكتوبًا مِن الزَّجر عن ذلك[1]، وقيل إنها حُجَّة نَظَريَّة قبَّحت له هذا الفعل، وقيل: هو وحْيٌ إلهيٌّ، وقيل: حِفْظٌ إلهيٌّ، وقيل: مُشاهداتٌ تمثَّلت له[2]؛ وقيل غير ذلك.. وكلُّ ما ذُكِرَ جائز الوقوع ولا حُجَّة قاطعة على تَعْيين شيء منها[3].

وقوله: ﴿رَّءَا﴾ تحتمل رؤية البَصَر والبَصيرة، على حدٍّ سواء، فإنْ كانت على حقيقتها، فالمقصود أنْ يراها حقيقة، فيتوسَّل بها إلى معرفة جلال اللّه تعالى وقُدسه وعلوِّه وعظمته، فيَصْرفه ذلك عن الهمِّ، وإنْ كانت على المَجاز، فهذه الإراءَة، تكون مِن الرُّؤية مُستعارَة للمَعرفة ونظرِ البصيرة؛ أيْ: مِثْل ذلك التّبصير والتَّعريف عرَّفناه بُرهاننا[4] فالرُّؤية: هُنا عِلْميَّة؛ لأنَّ البُرهان مِن المعاني الّتي لا تُرى بالبَصَر[5]، فَتُخرَّج على الاستعارَةِ التَّصريحيّة التَّبعيَّة، أو على المَجاز المُرسَل بعلاقة السَّببيَّة، مِن باب إطلاق السَّبب على المُسَبّب[6].

بلاغة الإيجاز في وصْف مَشهد الهمِّ:

في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ۚ﴾ صوَّرَ القرآن الكريم تلك المِحنة في حياة يوسف وامرأة العزيز، تصويرًا واقعيًّا صادقًا، ولكن بأسلوب فيه فطنة وحكمة، بعيدًا عمّا يَخْدش الحياء أو يجرَح الشُّعور؛ فهو نهاية موْقف طويل مِن الإغراء، بَعد ما أبى يوسف في أوَّل الأمْر واستعصَم، وهو تصوير واقعيٌّ صادِق لحالة النَّفس البشريَّة الصَّالحة في المقاوَمة والضَّعف، ثُمَّ الاعتصام باللّه في النِّهاية والنَّجاة، ولكنّ السّياق القرآنيّ لَم

التَّصوير الواقعيُّ البارع جاء بعيدًا عمَّا يَخْدش الحياء، أو يجرَح الشُّعور

(1) ابن جرير، جامع البيان: 12/108، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/327.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 12/254.
(3) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/327.
(4) النَّيسابوريّ، غرائب القرآن: 4/78، وحقّي، روح البيان: 4/237.
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 12/254.
(6) الآلوسيّ، روح المعاني: 4/186.

يُفَصِّل في تلك المشاعر البشريَّة المُتداخِلة المتعارِضة المتغالِبة؛ لأنَّه لا يُريد أنْ يجعل مِن هذه اللَّحظة مَعْرِضًا يَستغرق أكثر مِن مساحته المُناسِبة في محيط القصَّة، وفي محيط الحياة البشريَّة المكتملَة كذلك، فذكر طرفَي الموْقف بيْن الاعتصام في أوَّله، والاعتصام في نهايته، مع الإلمام بلحْظَة الهمِّ بَيْنهما، لِيَكتمل الصِّدق والواقعيَّة والجوُّ النَّظيف جميعًا[1].

بلاغة التَّشبيه في: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ﴾:

بيان حِفْظِهِ مِن السُّوء، كما حُفِظَ مِن قَبلُ مِن الهَمِّ به

الكاف في قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ للتَّشبيه في موْضع نصْبٍ؛ أيْ: أَريناه البراهين كذلك، وقيل: في موْضع رفْعٍ؛ أيْ: أَمْرُ البراهين كذلك، والنَّصْب أجْوَد لمُطالبة حروف الجَرِّ للأفعال أو معانيها، والتَّقدير: مِثْل تلك الرّؤية، أو مثْل ذلك الرّأي نُري بَراهيننا لنَصرف عنه، فتُجعل الإشارة إلى الرَّأي أو الرُّؤية، والنّاصِب للكافِ ما دلّ عليه قوله: ﴿لَوۡلَآ أَن رَّءَا بُرۡهَٰنَ رَبِّهِۦۚ﴾؛ ففي هذا التَّشبيه إشارة إلى الإراءَة المَدلولِ عليها، بقوله: ﴿رَّءَا بُرۡهَٰنَ رَبِّهِۦۚ﴾، أو إلى التَّثبيت المَفهوم مِن ذلك[2].

بلاغة المَجاز في لفْظ ﴿لِنَصۡرِفَ﴾:

الإشارة إلى حِفظ الله تعالى ليوسف مِن السُّوءِ والفحشاء، مع تَوَفُّر أسبابهما

قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ﴾؛ أي: أَريْناه مِثل هذه الإراءَة، أو ثبَّتناه تثبيتًا مثْل هذا التَّثبيت، لنَعْصمه ونحفظه ونصونه عن الوقوع في السُّوء؛ أيْ: في المنكَر والفجور والمكروه والفحشاء؛ أيْ: كُلُّ ما فَحُشَ وقبُح مِن الأفعال كالزِّنا، ونحوه؛ والصَّرف: نقلُ الشَّيء مِن مكانٍ إلى مكانٍ، وهو هُنا مَجازٌ عن الحِفظ والصَّون مِن حُلول الشّيء بالمحلّ الّذي مِن شأنه أنْ يحلّ فيه، عبَّر به عن العِصمة مِن شيءٍ يُوشك أنْ يُلابِس شيئًا، والتَّعبير عن العِصمة بالصَّرف،

(1) طنطاويّ، الوسيط: 7/350.
(2) القِنّوجيّ، فتح البيان: 3/402.

يُشير إلى أنّ أسباب حصول السُّوء والفحشاء موجودة، ولكنَّ اللّه صرَفهما عنه[1].

علَّة التَّعبير بقوله: ﴿لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ﴾:

عبَّر النَّظم الكريم عن صرْف السُّوء والفحشاء عن النَّبيِّ الكريم دون صَرْفِهِ هو عنهما، فقال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ﴾، ولَم يَقُل: (لِنَصْرِفَه عن السُّوء والفحشاء)؛ لأنَّه عليه السلام لَم يَعْزِم عليهما، بل لَم يَتوجَّه إليهما فيُصْرَف عنهما[2] ولكنَّه صُرِفَ عنه كيْد المرأة، وهو مصْدر السُّوء؛ فدلَّ على أنَّ ذلك شَيء خارجٌ عن الإرادة، فَصَرَفَهُ اللّه تعالى عنه، بما فيه مِن موجبات العِفَّة والعِصمة[3]، والمعنى "كذلك فعَلْنا وتَصرّفْنا في أمْرِه، لِنَصْرف عنه دواعيَ ما أرادَتْه به أخيرًا مِن السّوء، وما راودَتْه عليه قبلَه مِن الفحشاء، بحصانة أو عِصمة منّا، تَحولُ دون تأثير دواعيهما الطّبيعيّة في نفْسه، فلا يُصيبه شيء يُخرجه مِن جماعة المُحسنين الّذين شهِدنا له بأنّه منهم، إلى جماعة الظّالمين الّذين ذمَّهم، وشهِد هوَ في ردِّه عليها بأنّهم لا يُفلحون"[4]. وفي هذه الجملة آية بيِّنة وحُجَّة قاطعةٌ على أنَّه عليه السلام لَم يَقَع منه هَمٌّ بالمعصية، ولا توجَّه إليها قَطُّ[5].

بيان الحُجَّة القاطعة في أنَّ يوسف عليه السلام، لَم يَقع منه هَمُّ المَعصية

دلالة التَّعليل في ﴿لِنَصۡرِفَ﴾:

قوله تعالى: ﴿لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ﴾، تكون اللّام للتَّأكيد والمُبالَغة في هذا الصَّرْفِ الخارق للعادَة والحِفْظِ العظيم[6]، أيْ: جرَت أفعالنا وأقدارنا كذلك؛ لِنَصرف عنه دواعي ما أرادَت به مِن السُّوء،

تأكيد حِفْظِ اللّه تعالى لنبيِّه الكريم، والمُبالَغة في صَرْفِ السُّوء عنه

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 12/254 - 255.
(2) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 12/131.
(3) الهرريّ، حدائق الرّوح والرَّيحان: 13/372، والقِنّوجيّ، فتح البيان: 3/402.
(4) رشيد رضا، تفسير المنار: 12/230.
(5) الهرريّ، حدائق الرَّوح والرَّيحان: 13/372.
(6) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 18/439، والشّنقيطيّ، أضواء البيان: 3/42.

وما راودَته عليه قبلَه مِن الفحشاء، بعِصمة مِنَّا تَحول دون تأثير دواعيهما الطَّبيعيَّة في نفْسه، حتَّى لا يخرج مِن جماعة المُحسنين إلى جماعة الظَّالمين الّذين ذمَّهم وشهِد هو في رَدِّه عليها بأنَّهم لا يُفلحون[1]، وفي هذا التَّأكيدِ بيانٌ لمَظهرٍ مِن مظاهر رحمة اللّه تعالى به، ورعايته له[2].

سرُّ التقديم في قوله: ﴿لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ﴾:

قدّم شِبْه الجملة مِن الجارّ والمجرور ﴿عَنۡهُ﴾ العائد ضَميره إلى يوسف عليه السلام على لفظَي: ﴿ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ﴾ لِلعناية بيوسف عليه السلام، فهو في كَنَف اللّه تعالى وحِفظه، وأنّه هو المخْصوص بصَرْفهما دونها.

النَّبيُّ محلُّ عناية اللّه ورعايته وحِفْظه

مَعنى ﴿ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ﴾، ودلالَةُ عطفهما:

﴿ٱلسُّوٓءَ﴾ في قوله: ﴿لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ﴾ يَعُمُّ القبائحَ، ﴿وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ﴾ ما تَجاوَز الحَدَّ في القبْح مِن الكبائر، وقيل: السُّوء: الخيانة لِلعَزيز في أهله، والفحشاء: الزِّنا، وقيل غيْر ذلك، والأَوْلى الحَمْل على العموم، فيدخل فيه ما يدلّ عليه السِّياق دُخولًا أوَّليًّا[3] فيكون السّوءُ والفحشاءُ: ما أنْكَرَهُ العَقلُ، واسْتَقْبَحَهُ الشّرعُ، والعَطْف إمَّا لاخْتلاف الصِّفات، والذّاتُ واحِدةٌ، فإنَّهُ سُوءٌ لاغتِمام العَقل بِهِ، وفحشاءُ بِاستِقباحِهِ إيّاه، فيكون مثْل العطْف في قوله:

يَا لَهْفَ زَيَّابَةَ لِلْحَارِثِ *** الصَّابِحِ فالغَانِمِ فَالْآيِبِ[4]

الخُلَّصُ مِن العِباد لا يَرْتَكِبُون سُوءًا ولا فحشاءَ تعظيمًا لِمَن خَلَّصهم وأخْلَصهم

أيْ: للحارث الّذي صَبَّحَ فَغَنِمَ فَآبَ، وعلى اعتبار أنَّ السُّوء يَعُمُّ القبائحَ، والفحشاء ما تَجاوَز الحدَّ، فعلى هذا يكون العطْف مِن باب عطْف الخاصِّ الّذي هو أعظم في بابِه، عَلى العامّ، كما

(1) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 12/130.
(2) طنطاويّ، الوسيط: 7/340.
(3) القنّوجيّ، فتح البيان: 3/402.
(4) البيت مِن السَّريع، وهو لابن زيَّابة. ينظر: المرزبانيّ، معجم الشّعراء، ص: 208.

في: ﴿تَنَزَّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ﴾ [القدر: 4]، على تقدير أنْ يُراد بالرُّوح: جبريل عليه السلام[1].

دلالة إطلاق السُّوء والفحشاء على المَعصية:

المؤمنُ يَغتمُّ مِن السُّوء، ويَستَقبحُ الفاحشَة

في قوله: ﴿لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ﴾، نَجِدُ إطلاقَ السُّوء والفحشاء على المعصية، مِن قبيل التَّوصيف بالمصْدر، للمُبالَغة، مثْل: رجُلٌ عَدْلٌ[2]، وعليه يكون المعنى: "لِنَصْرفَ عَنْه السُّوءَ في مقابلَة الإحسان، والفَحْشاءَ بدَلَ العِصمة والعَفاف، إنَّهُ - أيْ: يوسف الصّدّيق - مِنْ عِبادنا المُخْلَصينَ الخالصين، عن رَيْن البشريّة، وشيْن شهْويَّتها وغضَبيَّتها، المُنزَّهينَ عن مقتضيات القوى البَهيميّة مُطلَقًا"[3].

سرُّ تقديم ﴿ٱلسُّوٓءَ﴾ على ﴿وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ﴾:

السّوء مقدمةٌ لكلِّ الفواحش الّتي تهلك مُقترفيها

قدّم ﴿ٱلسُّوٓءَ﴾ على ﴿وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ﴾؛ لأنّ السّوء مُقدِّمة لكل أنواع الفحشاء الفعْليّة والقَوليّة والفكْريَّة، مِن نظرٍ بشهْوة، ولَمْس، وقُبْلةٍ.. وغير ذلك[4].

دلالة الفصْل في قوله: ﴿إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا﴾:

تعليلٌ لِما سَبَقَ مِن مضمون الجملة بطَريق التَّحقيق

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾ استئناف تعليل بطَريق التَّحقيق لحِكمة صرْفِه عن السُّوء والفحشاء، الصَّرْف الخارق للعادَة لئلّا يَنتقِص اصطفاءُ الله إيّاه في هذه الشِّدّة على النَّفْس[5]؛ ولأجْل هذا التَّعليل فُصل بين الجُملتيْن، فكأنَّه قيل: لِمَ فعلَ به هذا؟ فقيل: ﴿إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا﴾[6].

(1) القونويّ وابن التّمجيد، حاشية ابن التّمجيد على تفسير البيضاويّ: 10/295.
(2) حقّي، روح البيان: 1/272.
(3) عفيف، الشّامل في بلاغة القرآن: 2/78.
(4) علوان، الفواتح الإلهيّة: 1/371.
(5) الآلوسيّ، روح المعاني: 6/404، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/255.
(6) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 10/65.

دلالة حذف الجرّ في ﴿مِنْ عِبَادِنَا﴾:

بيان كَون يوسف عليه السلام، مِن زُمرة المُخلَصين

قوله تعالى: ﴿مِنْ عِبَادِنَا﴾ يحتَمل أنْ تكون ﴿مِنْ﴾ للابتداء؛ أيْ: هو ناشئ منهم؛ لأنَّه مِن ذرِّيَّة إبراهيم عليه السلام، والأنسب للمقام أنْ تكون ﴿مِنْ﴾ للتَّبعيض؛ لأنَّ قوله: ﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا﴾، تعليل لِما سبَق، وقد أُكِّدَ بتأكيدات، فالمُناسِب له أنْ يُجعل مِن زُمرة المُخلَصين وبَعضًا منهم، وفيه دليل على أنَّ الشَّيطان لَم يَجِد إلى إغوائه سبيلًا، مِصداقًا لِما جاء في قوله: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [ص: 82 - 83][1].

إضافة العِباد إلى نون العَظَمة:

الإضافة للتَّعظيم والتَّشريف لهؤلاء الخُلَّص مِن عِباد الله

قوله تعالى ﴿مِنْ عِبَادِنَا﴾؛ أي: الّذين عظَّمناهم بما لَنا مِن العَظَمة[2]، والإضافة إلى نون العظَمة والكبرياء للتَّشريف، كقوله: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ [الفرقان: 63][3].

دلالة لفظ ﴿ٱلْمُخْلَصِينَ﴾:

بيان كونه عليه السلام في عِداد الخيّرين الأصفياء

لفْظ: ﴿ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ في قوله: ﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ بمعنى أنَّه في عِداد الّذين هم خيرٌ صِرْف لا يُخالطهم غِشٌّ، ومِن ذرِّيَّتهم أيضًا، وهذا مع قول إبليس: ﴿لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [سورة ص: 83] شهادة مِن إبليس أنَّ يوسف عليه السلام بريءٌ مِن الهمّ في هذه الواقعة؛ فمَن نَسَبَ العصيان لهذا النَّبيِّ الكريم إنْ كان مِن أتْباع دين الله؛ فلْيَقبل شهادة الله، وإنْ كان مِن أتْباع إبليس وجُنوده؛ فلْيَقبل شهادة إبليس بطهارَته[4].

سرُّ اختلاف القراءة في لفظ ﴿ٱلْمُخْلَصِينَ﴾:

قرأ الكُوفيّون: ﴿ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ بفتْح اللّام، ووَافقَهم المَدَنيّان،

(1) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 10/292.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 10/65.
(3) النَّيسابوريّ، غرائب القرآن: 4/78.
(4) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 10/65.

وقرأ الباقون بكسْر اللّام فيها[1] ﴿ٱلْمُخْلِصِينَ﴾؛ ووُروده بِاسم الفاعل يدلُّ على كونه آتيًا بالطّاعات والقُرُبات مع صِفة الإخلاص، ووُروده بِاسم المفعول يدلُّ على أنَّ اللّه تعالى استخلصَه لنفْسه واصْطفاه لحَضْرته. وعلى كِلا الوَجْهيْن فإنَّه مِن أدلِّ الألفاظ على كونه مُنَزَّهًا عمّا نسَبوه إليه، وأمّا بيان أنَّ إبليس أقرَّ بطهارته، فلأنَّه قال: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٨٢ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ۝٨٣﴾ [ص: 82 - 83] فأقرَّ بأنَّه لا يُمْكنه إغواء المُخلَصين، ويُوسف مِن المُخلَصين؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾، فكان هذا إقرارًا مِن إبليس بأنَّه ما أغواه وما أضلّه عن طريقة الهُدى[2]. فزاد هُنا في التَّأكيد فوصَفَه بـ ﴿ٱلْمُخْلَصِينَ﴾؛ أيْ: هو مِن جملة مَن اتَّصف في طاعاته بصِفة الإخلاص، أو مِن جملة مَن أخلصَه اللّه تعالى، بِناءً على قِراءَتَيْ فَتْح اللّام وكسْرِها[3]، ومعنى التَّعليل على القِراءَتَيْن واحد[4].

التَّأكيد على إخلاص يوسف عليه السلام، واستخلاص الله له مكانَةً وقُرْبًا

نكتة الاعتراض في آية صرْف السّوء:

قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ﴾، جملة اعتراض بيْن ما سبَقَها مِن كلام، وبيْن الآية الّتي تليها، جيءَ به بيْن المتعاطفَيْن، والمعنى ولقد هَمَّت به وأبى هوَ واسْتَبَقا إلى الباب الخارجيِّ، وفيه تقريرٌ لنزاهة يوسف عليه السلام وعِفَّته[5]، وأنَّ ماهيَّة السُّوء والفحشاء مَصروفَة عنه، فقد شهِد اللّه تعالى في هذه الآية على طهارته أربَع مرّات، أوّلها: قوله: ﴿لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ﴾، واللّام للتَّأكيد والمبالَغة، والثّاني: قوله: ﴿وَٱلْفَحْشَآءَ﴾؛ أيْ: كذلك لنصْرِف

جمع البراءة ليوسف الصّدّيق مِن جميع الوجوه على الكمال والتّمام

(1) ابن الجزريّ، النَّشر: 2/295.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 18/439.
(3) النَّيسابوريّ، غرائب القرآن: 4/78.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 12/255.
(5) الدّرويش، إعراب القرآن الكريم: 4/474.

عنه السُّوء والفحشاء أيضًا، والثّالث: قوله: ﴿إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا﴾، مع أنّه تعالى قال: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ [الفرقان: 63]، والرّابع: قوله: ﴿ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾[1]. فكلّ هذه الدّلائل تَدُلُّ على عِصْمة يوسف عليه السلام، وأنَّه بريءٌ مِن الذَّنب، ولَو كان قد وُجِدَتْ منه زَلَّة لنُعِيَتْ عليه وذُكِرَتْ[2].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الهَمُّ والعزْمُ:

الـهَـمُّ خُـطـور الأمْر في النَّفْس، والـعـزْم هـو الـقـصْـد عـلى إمضائه

فَرَّق أَهْلُ العِلم بين الهَمِّ والعزم، بفروق كثيرة، فَقالوا: إنَّ الهمَّ: بَدْءُ الإرادة، والعزْم: مُنتهاها[3]، وقالوا: الهَمُّ في باب المَعصية، هو المَيْل الغَريزيُّ أو الميْل الطَّبعيُّ، فإنْ صَرَفَهُ عنه وازِعُ التَّقوى كُتِبَ له به حسنة؛ لقول الرَّسول ﷺ: «وَإِنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا، كَتَبَهَا اللهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً»[4]، بينما يُعاقَب بالعزْم على المعصية؛ لقول الله ﷻ: ﴿وَمَن يُرِدۡ فِيهِ بِإِلۡحَادِۭ بِظُلۡمٖ نُّذِقۡهُ مِنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ٢٥﴾ [الحجّ: 25].

وعليه يكون كلٌّ مِن الهَمِّ والعزْم مِن مراتب القصْد، فإنَّ أوَّل مَا يَمُرُّ الأمْرُ بالقَلْب يُسَمَّى خَاطِرًا، فَإذا تَرَدَّدَ صارَ حديثَ نفْس، فَإذا تَرجَّحَ فِعْلُهُ صارَ هَمًّا، فَإذا قَوِيَ واشْتَدَّ صارَ عَزْمًا، فَإذا قَوِيَ العَزْمُ واشْتَدَّ حَصَلَ الفِعْلُ أوِ القَوْلُ[5]، وقد جمَعَها بعضهم في قوله:

مَرَاتِبُ القَصْدِ خَمْسٌ؛ هَاجِسٌ ذَكروا *** وخَاطِرٌ فَحَديثُ النَّفْسِ فَاسْتَمِعَا
يَلِيهِ هَمٌّ، فَعَزْمٌ كُلُّها رُفِعَتْ *** سِوى الأَخيرِ فَفيهِ الأَخْذُ قَدْ وَقَعا[6]

فالهَمُّ فوقَ الإرادة دونَ العزْم؛ لأنَّ العزم: عَقْدُ القَلْبِ على

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 18/439.
(2) النَّيسابوريّ، غرائب القرآن: 4/78.
(3) الفيروزابادي، بصائر ذوي التّمييز: 5/345، والكفويّ، الكلِّيَّات، ص: 961.
(4) أخرجه البخاريُّ، صحيح البخاريِّ، كتاب الرّقاق، باب مَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ أَوْ بِسَيِّئَةٍ، الحديث رقم: (6491)، ومسلم، صحيح مسلم، الإيمان، بَابُ: إِذَا هَمَّ الْعَبْدُ بِحَسَنَةٍ كُتِبَتْ، وَإِذَا هَمَّ بِسَيِّئَةٍ لَمْ تُكْتَبْ، الحديث رقم: (131).
(5) أبو حيّان، البحر المحيط 3/325.
(6) القِنّوجيُّ، فتح البيان: 2/160، والجَمل، حاشية الجمل على الجلالين: 1/360.

إمضاء الأمْر، مِن عَزَمْتُ الأمْرَ، وعَزَمْتُ عليه، قال تعالى: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾ [آل عمران: 159]، فالعزْم: هو تصميمُ القَلْبِ على الشَّيءِ، والنَّفاذُ فيه بقصْدٍ ثابت[1]. وقد يأتي الهَمُّ بمعنى العزم على الفِعل كقوله تعالى: ﴿إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ﴾ [المائدة: 11]؛ أيْ: صمَّموا النِّيَّة وعزموا عليه، فَيُرادف العزْم، ويأتي بمعنى خُطور الشَّيءِ في البال، وإنْ لَم يَقَع العَزْمُ عليه، كقوله تعالى: ﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَاۗ﴾ [آل عمران: 122][2]. ومِن هَهُنا فالهَمّ أنسب لسياق الآية المُعبّر عن الحدَث مِن حيث كونُه ميْلًا غَريزيًّا، وكان بَدء إرادةٍ عندها، وترجّح فِعْله، وتنزّه عنه يوسفُ عليه السلام لما رأى مِن برهان رَبِّه.

النَّظَر والبَصَر والرُّؤية:

النَّظر هو عبارة عن تقليب العَين نحْو المرْئيّ، التِماسًا لرؤيته، فهو طلَبُ ظُهور الشَّيء، ويكون النّاظِر الطّالبَ لِظهور الشَّيء، بإدراكه مِن جهة حاسَّة بصَره، أو غيرها مِن حواسِّه، والنَّظر بالقلْب مِن جِهة التَّفَكُّر، والنَّظر أيضًا هو الفكْر والتَّأمُّل لأحوال الأشياء[3]، والرُّؤية هي إدراك المرْئيِّ، ولذلك قد يَنظر ولا يراه ولمَّا كانت الرُّؤية مِن توابع النَّظر ولوازِمه غالبًا، أُجْرِيَ لفظُ النَّظر على الرُّؤية، على سبيل إطلاق اسْم السَّبب على المسبّب[4]، كما ورَد في حكاية عن طلَبِ موسى: ﴿رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ﴾ [الأعراف: 143]؛ فكان الرَّدُّ: ﴿قَالَ لَن تَرَىٰنِي﴾ [الأعراف: 143]، وأيضًا فإنَّه قد يطلُب جماعةُ الهلالَ، فيَراه جماعةٌ منهم ولا يستطيع الآخَرون رؤيته، مع أنَّهُم جميعًا ناظِرون[5]؛ فالفرْق

الإبصار يتميَّز بالوضوح، والرُّؤية تتميّز بالعِلم، والنَّظر يُميِّزه التَّأمُّل

(1) الكفويّ، الكلّيّات، ص: 961، والرّاغب، المفردات: (عزم).
(2) العسكريُّ، الفُروق اللّغويّة، ص: 356.
(3) العسكريُّ، الفروق اللُّغويَّة، ص: 543.
(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 29/457.
(5) العسكريُّ، الفروق اللُّغويَّة، ص: 543.

بيْنهما أنَّ الرُّؤية هي: إدراك المرئيِّ، والنَّظر: الإقبال بالبَصَر نحْو المرئيِّ. أمَّا البصَر فهو إدراك العيْن، ويُطلق على القوَّة الباصِرة، الّتي مِن شأنِها إدراك أشباح الصُّوَر،[1] والعيْن هي أداة الإبصار، قال تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ﴾ [الأعراف: 195]، وقد يُطلق البصَر ليدلَّ على العِلم القويِّ، المُضاهي لإدراك الرُّؤية، فيُقال: بَصُرَ بالشَّيء: عَلِمَهُ عن عيان، فهو بصير به[2]، قال تعالى: ﴿فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ۝٥﴾ [القلم: 5]، وحينها يكون الفرْق بيْن النَّظر والبصَر، كالفرْق بيْن النَّظر والرُّؤية؛ قال تعالى: ﴿وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ۝١٩٨﴾ [الأعراف: 198].

وخُلاصة القول في الفرْق بيْنهم: أنَّ الإبصار يتميَّز بالوضوح، والرُّؤية تتميّز بالعِلم، والنَّظر يُميِّزه التَّأمّل، وهذا واضحٌ في استعمالات القرآن لهذه الألفاظ. ومِن هُنا كان الإدراكُ والعِلم المُتضمّنَان في لفظ الرُّؤية واللّذان تقتضيهما العِبرة مِن البُرهان؛ علّةً لاختياره في سياق الآية دون غيْرِه مِن الألفاظ المُشابهةِ له.

(1) الكفويُّ، الكلّيّات، ص: 247، والتَّهانويُّ، كشّاف اصطلاحات الفنون: 1/938.

(2) نشوان الحميريّ، شمس العلوم: 1/544.

﴿وَٱسۡتَبَقَا ٱلۡبَابَ وَقَدَّتۡ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٖ وَأَلۡفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلۡبَابِۚ قَالَتۡ مَا جَزَآءُ مَنۡ أَرَادَ بِأَهۡلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسۡجَنَ أَوۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ٢٥﴾ [يوسف: 25]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

ربط استِعْصام يوسف باسْتِباقِها، والمفاجأة بزوْجها وشَكواها له لَدى الباب

لَمَّا حكى اللّه ﷻ عنها أنّها هَمَّتْ به، وأنّ يوسف عليه السلام لمّا رأى البُرهان لَم يَهُمّ بِها، أتْبَعه هنا بكيفيَّة طلَبِها، وأنَّه قامَ مُبادِرًا إلى باب البيت هاربًا فتَبِعتْه المرأة لتمْسِك الباب حتّى لا يَخرج يوسف، فسبَق يوسفُ وأدركَتْه المرأة فتعلّقتْ بقميصه مِن خلْفِه فجذبَتْه إليها حتّى لا يخرج؛ فقال: ﴿وَٱسۡتَبَقَا ٱلۡبَابَ﴾[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَٱسۡتَبَقَا﴾: ابتَدَرا وأسْرَعا إليْه[2]، يُقال: استبَقَ إلى الشَّيءِ يَستبِقُ، اسْتِباقًا، فهو مُستبِقٌ، إذا أسرَع إليه وابتدَرَه، والاسْتِباقُ: افْتِعالٌ مِنَ السَّبْقِ، وأصْل السَّبْق تَقَدُّم الشَّيء مِن بَيْن ما حولَه في قوَّة وجِدٍّ[3]، والسّبْق القُدْمَة في الجَرْي، وفي كلّ أَمْر، يُقَال: لَهُ فيه سَبْق وسُبْقَة وسابِقَة، أَيْ سبَق النّاسَ إِلَيْه، قال أَبو زيد: يُقَال للرَّجُلَين إذا استَبَقا: سِبْقان، وهُم سِبْقي وأَسْباقي، وسابَقَه مُسابَقة وسِباقًا[4]، ومنه: سَبَقَهُ في الجَرْي، وفي كلِّ شيْءٍ: تقدَّمه. واسْتَبَقَ الفارِسان على فرَسَيْهما إلى أمَدٍ: تسابَقا إليه، فاستَوْلى أحدُهما على الغاية، إذا سبَق الآخَر إليها[5]؛ والمعنى هُنا: تَسابقا إليه[6].

(1) البغويّ، معالم التّنزيل: 2/487، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 18/444.
(2) الكجراتيّ، ومجمع بحار الأنوار: (سبق).
(3) الرّاغب، المفردات: (سبق)، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (سبق).
(4) ابن سيده، المخصّص: (التّقدّم والسّبق).
(5) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (ولي).
(6) العُليميّ، فتح الرَّحمن: 3/410.

2) ﴿وَقَدَّتْ﴾: بمعنى شَقَّتْ[1]، يُقال: قَدَّ فلانٌ الشَّيْءَ يَقُدُّه قَدًّا، إذا شقَّه، وأصْلُ (قدَّ): يدلُّ على قَطعِ الشَّيءِ وشَقِّه طولًا[2]، ومنه القَديدُ: ما قُطِّعَ مِن اللَّحم طُولًا وجُفِّفَ[3]، والقِدَّة: القِطعة مِن الشَّيء[4]، وصارَ القومُ قِدَدًا: تَفرَّقتْ أهواؤُهم وتقطَّعت[5]؛ والمعنى هُنا: قَطَّعَتْه، وشَقَّتْهُ طولًا[6].

3) ﴿قَمِيصَهُۥ﴾: ثَوْبُهُ، والقَميصُ ثَوْبٌ مَخيطٌ بكُمَّيْنِ[7]، وأصْل (قمص) يدلُّ على لبْسِ شَيءٍ والانْشيامِ فيه، والقَميص للإنسان مَعروف يُقال: تقمَّصَه، إذا لَبِسَه[8]، وقَمَّصَ الثَّوْبَ: قَطَع مِنْهُ قَميصًا، وتَقمَّص قَميصَه: لَبِسه، والجمْعُ: أَقمِصَةٌ وقُمُصٌ وقُمْصانٌ[9]. ومِن المَجاز: قمَّصَه اللّه وَشْيَ الخِلافة. وتقمَّصَ لِباسَ العِزِّ. وهَتَك الخوفُ قَميصَ قلْبِه؛ أيْ: حِجابهُ[10].

4) ﴿دُبُرٍ﴾: أيْ: خَلْفٍ، وأصْلُ الدُّبُر: آخِرُ الشَّيءِ، وخلْفُه خِلافُ قُبُلِه[11]، والدُّبُرُ والدُّبْرُ: نَقيضُ القُبُلِ، ودُبُرُ كلِّ شيءٍ عَقِبُه ومُؤَخَّرُه؛ وجمعُهُما: أدْبارٌ، ودُبُرُ كلِّ شَيءٍ خِلاف قُبُلِه، ودُبُرُ الشَّهر آخِرُه على المثل؛ يُقال: جِئْتُك دُبُرَ الشَّهر، وفي دُبُرِه، وعلى دُبُرِه[12]؛ والإدْبارُ: نَقيض الاقبال الإقْبالِ. وأدْبَرْتُ البَعيرَ فدَبِرَ. وأَدْبَرَ الرَّجلُ، إذا دَبِرَ بَعيرهُ، والاستِدْبار: خِلافُ الاستقبالِ. والتَّدبير في الأمْر: أنْ تَنْظُرَ إلى ما يؤول إليْه عاقِبَتُه[13]. والمعنى هُنا: مِن وَرائِه وخَلْفه[14].

5) ﴿وَأَلْفَيَا﴾: وَجَدَا، يُقال: أَلْفَيْتُه إلفاءً إذا لَقيتهُ ووَجَدتهُ، وأصلُ (ألفى): وجودُ الشَّيء

(1) الرّازيّ، مختار الصّحاح: (قدد).
(2) الرّاغب، المفردات، وابن فارس، مقاييس اللُّغة: (قدد).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (قدد).
(4) ابن منظور، لسان العرب: (قدد).
(5) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة: (قدد).
(6) ابن جرير، جامع البيان: 13/101، والهرريُّ، حدائق الرّوح والرَّيحان: 13/410.
(7) الزَّبيديّ، تاج العروس: (قمص).
(8) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (قمص).
(9) ابن سيده، المحكم، وابن منظور، لسان العرب: (قمص).
(10) الزّمخشريّ، أساس البلاغة: (قمص).
(11) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرّاغب، المفردات: (دبر).
(12) ابن منظور، لسان العرب: (دبر).
(13) الجوهريّ، الصّحاح: (دبر).
(14) القرطبيُّ، الجامع لأحكام القرآن: 9/170، وحقّي، روح البيان: 4/240.

أو إتاحَتُه على وَجْه الأرض، أو في المُتناوَل[1]، ويكون في الأعْيان، وفي الصِّفات والمعاني، كقولهم: ألفيْتُه صادقًا، أو كاذبًا؛ أيْ: وجدتُه على هذه الصِّفة[2]، ومعنى ﴿وَأَلْفَيَا﴾: ووَجَدَا وصادَفَا زَوْجَها[3].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

بيان مدافَعة يوسف للمرأة، ومسارَعتها للشَّكوى فورَ مصادَفة زوجها لدى الباب

وأسرَع يوسف إلى الباب يريد الخروج، وأسرعَتْ تحاول أنْ تسبِقَه إليه، لتَحولَ دون خروجه، وجذبَتْ قميصَه مِن خلْفه لتَحول بيْنه وبيْن الخروج فشقَّته، ووَجَدا زوجَها عند الباب، قالت امرأة العَزيز للعزيز مُحتالَةً: ليس عِقاب مَن قَصَد بزوجتك - يا عزيز - فعْلَ الفاحشة إلّا السّجن، أو أنْ يُعذَّب عذابًا موجعًا[4].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغة العطْف وأثره في السّياق:

خشية الله في الأزْمة مُفْضيَة إلى دفْع المِحنة، والوقاية مِن الفتنة

الواو في قوله تعالى: ﴿وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ﴾ عاطفة، والجملة مُتَّصلة بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا﴾؛ والمعنى: ولقد هَمَّتْ به وأبى هوَ، واستَبَقا إلى الباب الخارجيِّ[5]؛ فهي عَطْفُ حَدَثٍ على حدَثٍ، وهو بداية الفَرَج مِن هذا الابتلاء العظيم الّذي مَرَّ به النَّبيُّ العفيف الكريم عليه السلام، في تلك الغُرفَة المُغْلَقَةُ والفتنة المُحْدِقَة.

دلالة الإيجاز في قوله: ﴿وَٱسْتَبَقَا﴾:

بيان الاستِباق إلى الباب مع اختلاف القصْد؛ لتحقيق الهدف المتُوَخّى

الاستباق: افتعال مِن السَّبق، وهو هُنا إشارة إلى تَكَلُّفِهما السَّبْقَ؛ أيْ: إنَّ كُلَّ واحد منهما يحاوِل أنْ يكون هو السَّابق إلى الباب[6]، وقد

(1) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 215، وابن الهائم، التِّبيان، ص: 242، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (لفو).
(2) السَّمين الحلبيّ، عمدة الحُفَّاظ: (لفي)، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (لفو).
(3) أبو حيَّان، البحر المحيط: 6/260.
(4) لجنة من عُلماءِ الأزهر، المنتخبُ في تفسير القرآنِ الكريم، ص: 335، ونُخبة من أساتذة التّفسير، التّفسير المُيسّر، ص: 238، وجماعة من علماء التّفسير، المختصر، ص: 238.
(5) الدَّرويش، إعراب القرآن الكريم: 4/474.
(6) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 12/255.

ذَكر ﷺ مُبالَغته في الامتناع بالجِدِّ في الهرَب، دليلًا على إخلاصه، وأنَّه لَم يهُمّ بها أصلًا فقال: ﴿وَٱسۡتَبَقَا ٱلۡبَابَ﴾[1]، وفي صيغة الافتعال هذه بيانٌ لاختصار القرآن المُعجِز الّذي يجتمع فيه جملة مِن المعاني، وذلك أنَّه لمّا رأى برهان ربِّه، هَرَبَ منها فَتعادَيا، هي لتَرُدّه إلى نفْسها، وهو ليَهرب عنها، فأدركَتْه قبلَ أنْ يَخرج[2].

بلاغة التَّضمين في لفظ الاستباق:

تسابقا قاصدين الباب بقصْدَيْن متباينَيْن

في لفظ ﴿وَٱسۡتَبَقَا﴾ تضمينٌ؛ إذ تضمّن فعلُ الاستباق معنى القصْد[3]، ليكون جماع المعنى: قصَدا الباب متسابقَيْن، أو تسابقا قاصديْن الباب. وهو أقوى مِن إعطاء معنى واحدٍ. فيوسف عليه السلام جرى مُسرعًا للخَلاص منها، وهي متشبِّثة به لِقضاء شهوتها، وحاجتها منه.

نكتة نصْب المفعول بنَزْع الخافِض:

المقام مقام اختصار لا تطويل، وهو ما ينسجم مع المَشهد

قوله تعالى: ﴿وَٱسۡتَبَقَا ٱلۡبَابَ﴾ عوضٌ مِن: (واستَبَقا إلى الباب)؛ أيْ: أوْجَدا المُسابقة بغاية الرَّغبة مِن كلٍّ منهما، هذا للهرَب منها، وهذه لمَنْعِه، فأوصلَ الفِعل إلى المفعول بدون (إلى)؛ دليلًا على أنَّ كُلًّا منهما بذَل أقصى جهْدِه في السَّبق، فلحقَتْه عند الباب الأقصى مع أنَّه كان قد سَبَقها بقوَّة الرُّجوليَّة وقوَّة الدّاعية إلى الفِرار إلى اللّه[4]. ففي الكلام حَذْفُ حرْف الجَرِّ، وإيصال الفعل إلى المفعول؛ لأنَّ المقام مقام اختصار، حتَّى ينسجم النَّصُّ مع المَشهد[5].

تضمين الاستِباق معنى الابْتِدار

وقوله تعالى: ﴿وَٱسۡتَبَقَا ٱلۡبَابَ﴾ أصْلُه: (اسْتَبَقا إلى الباب) وهو كقوله: ﴿وَٱخۡتَارَ مُوسَىٰ قَوۡمَهُۥ سَبۡعِينَ رَجُلٗا﴾ [الأعراف: 155]؛ أيْ: مِن

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 10/66.
(2) القرطبيُّ، الجامع لأحكام القرآن: 9/170.
(3) عفيف، الشّامل: 2/79.
(4) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 10/66.
(5) الهرريّ، حدائق الرّوح والرَّيحان: 13/377.

قومِه[1]، أو على تضْمين ﴿وَٱسۡتَبَقَا﴾ معنى (ابْتَدَرا)، فَضُمِّنَ الاستباق معنى الابتدارِ فَعُدِّيَ تعديَتَه[2].

نكتة ذِكر الاستباق إلى الباب:

الإشارة إلى افتراقهما في القصْد، والغاية هي الطَّلب، وهو هنا الهرَب

قوله تعالى: ﴿وَٱسۡتَبَقَا ٱلۡبَابَ﴾ معناه: سابَقَ كُلُّ واحدٍ منهما صاحبَه إلى الباب، هيَ لَحاقًا به لتَرُدَّه إلى نفْسها، وطلبًا له لئلّا يُفْلتَ مِن يدها، وتُفْلس مِمَّا أرادَتْه عليه[3]، وهو ليهرب عنها، والخلاصِ ممّا تريده بسبب الفعلة الّتي كانت تطلبها منه[4]، فاختلَف القصْد والغاية، فيُوسف عليه السلام أسرَعَ إلى الباب هربًا، وأمَّا امرأة العزيز فأسرَعَت إليه طلَبًا[5].

نكتة ذِكر اشتراكهما في الاستباق:

بيان إتقانها للمَكر بتغليقها للأبواب، ممّا أخّره عن فتحها

قد يُقالُ: إنَّ مُقتضى قوَّة الرُّجوليَّة، أنَّه يَسبقها ولَم يَعُقْه عائق، والجواب: بأنَّ الّذي عاقَه عن السَّبق، إنَّما هو الاشتغال بفتح الأبواب[6]، فقد عاقَة إتقانُها لِلمَكر بكون الأبواب كانت مُغَلَّقةً، فكان يشتغل بفتْحها، فتعلَّقت بأدْنى ما وصلَتْ إليه مِن قميصه، وهو ما كان مِن ورائه خوف فَواتِه، فاشتدَّ تعلُّقها به مع إعراضه هو عنها وهرَبِه منها، ففَتَحه وأراد الخروج فمنعَتْه[7].

فائدة التّعريف في لفظ ﴿ٱلۡبَابَ﴾:

إفادة أنّ كلّ أبواب القصْر كانت مُغَلَّقة

في قوله: ﴿وَٱسۡتَبَقَا ٱلۡبَابَ﴾ التَّعريف في ﴿ٱلۡبَابَ﴾ تعريف الجِنْس؛ إذْ كانت عِدَّة أبواب مُغَلَّقةً، وذلك أنَّ يوسف عليه السلام فَرَّ مِن مُراوَدتها إلى الباب، يُريد فتْحَه والخروجَ، وهي تريد أنْ تسبقَهُ إلى الباب، لتَمْنعه مِن فتْحِه، فأدركتْه، فلزمَتْه[8].

---

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 18/444.
(2) الزَّمخشريّ، الكشَّاف: 2/458، والنَّيسابوريّ، غرائب القرآن: 4/80، والآلوسيّ، روح المعاني: 6/408.
(3) ملّا حويش، تفسير القرآن العظيم: 3/198.
(4) النَّعالبيّ، الجواهر الحسان: 3/321.
(5) الماورديّ، النُّكت والعيون: 3/27.
(6) الصّاويّ، حاشية الصّاويّ علي الجلالَيْن: 2/169.
(7) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/66.
(8) العليميّ، فتح الرّحمن: 3/410، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 12/255.

حِكمة إفراد لفظ ﴿ٱلۡبَابَ﴾:

الإشارة إلى الباب المُخرِج مِن الدّار، والمُخَلِّص مِن العار

قوله تعالى: ﴿وَٱسۡتَبَقَا ٱلۡبَابَ﴾، ذَكر بعضُ المُفسّرين أنَّ حكمة إفراد الباب هُنا وجمْعِه فيما تقدَّم؛ أنَّها لَم تتمكَّن مِن المُراوَدة، إلّا بَعد تغليق تلك الأبواب، وأمَّا فرارُه وتسابقهما، فلَم يَكُن إلّا عندَ باب مِن تلك الأبواب[1]؛ أيْ: الباب الخارجيُّ البَرّانيُّ الّذي هو المخرجُ مِن الدَّار، والمُخَلِّصُ مِن العار[2].

واستشكل بأنَّه كيف يَسْتَبقان إليه، ودونَه أبوابٌ جَوّانيَّة، بناء على ما ذكروا مِن أنَّ الأبواب كانت سبعةً، وأجيب بأنَّ أقفال هاتيك الأبواب، كانت تَتَناثر إذا قَرُبَ إليها[3] يوسف عليه السلام، وتتفتّح له؛ ويحتمل أنَّه لَم تَكُن تلك الأبواب المغلَّقة على التَّرتيب بابًا فبابًا، بل كانت في جهات مختلفة كُلّها منافذ للمكان الّذي كانا فيه، فاستبقا إلى بابٍ يخرج منه[4].

دلالة فعل (القدّ) وإسناده إلى المرأة:

بيان كونها فاعلة للإمساك بالثَّوب في منعِهِ عن الخروج ببذل مجهودها في ذلك

(القَدُّ) في قوله: ﴿وَقَدَّتۡ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٖ﴾: القطْع والشَّقُّ، وأكثر استعماله فيما كان طولًا وهو المُراد هُنا بناء على ما قيل: إنَّها جذبته مِن وَراء فانخرق القميصُ إلى أسفله[5]، بسبب تلك المُجاذَبة القويَّة؛ لأنَّ كُلًّا منهما بذل غاية قوَّته فيها، فاجتماع القوَّتَيْن سَبَبُ القدّ؛ إذ لو تراخى أحدُهما لَما وَقَع[6]؛ وإسناد القَدِّ إليها خاصَّة، مع أنَّ لقوَّة يُوسف أيضًا دَخْلًا فيه، إمَّا لأنَّها الجزء الأخير لِلعِلَّة التّامَّة وإمّا للإيذان بمبالغتها في منعِه عن الخروج، وبذْل مجهودها في

(1) الصّاويّ، حاشية الصّاويّ على الجلالين: 2/169.
(2) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 2/458.
(3) النَّسفيّ، مدارك التَّنزيل: 2/312.
(4) الآلوسيّ، روح المعاني: 6/408.
(5) أبو حيَّان، البحر المحيط: 6/259.
(6) ملّا حويش، تفسير القرآن العظيم: 3/198.

ذلك، لفوّت المَحبوب أو لخوفِ الافتِضاح[1]؛ ولَم يَضُرَّ يوسف عليه السلام، أنْ قَدَّت قميصَه وهو لِباس دُنياه، بعدما صحَّ عليه قميصُ تَقْواه[2].

سِرُّ إيثار لفظ (القَدِّ) دون (القَطِّ):

إفادة أنّ القدَّ قطْعٌ بالطّول مع امتداد، والقطّ قطْعٌ بالعَرْض مع نقْص

سبق أنّ معنى (القدِّ) قطْع بالطُّول وكذلك هي اللَّفظة، في قول النَّابغة يصِف السُّيوف:

تَقُدُّ السَّلُوقِيَّ المُضَاعَفَ نَسْجُهُ *** وتُوقِدُ بالصُّفَّاحِ نَارَ الحُبَاحِبِ[3]

فإنَّ قوله: (تُوقِدُ بالصُّفَّاح) يقتضي أنَّ القطْع بالطُّول[4]، في نفوذها مِن الفارِس ودِرْعه وفرَسه، إلى الحجارة تحتَه؛ فالمُراد هُنا بناءً على ما قيل إنَّها جذبَتْه من وراء، فانخرق القميص إلى أسفله، أمَّا (القَطُّ) فيُستعمل فيما كان عرضًا، وعلى هذا جاء ما قيل في وصْف عليّ رضي الله عنه، إنَّه كان إذا اعتلى قَدَّ، وإذا اعترض قَطَّ[5]، فالقدُّ والقَطُّ نوعان مِن القطْع، وفيهما أيضًا لطيفة اتفاقيَّة، لأنَّ القَدَّ قطْعُ الشَّيءِ مِن نِصفه أو قطْعه نصفَيْن، والقطّ قطْعُ الطَّرَف كما في الشَّمع والقَّلَم، فكأنَّه لكونه قليلًا مِن القطْع نَقَصَ منه العَيْنُ[6].

نكتة الاقتصار على قدِّ القميص:

بيان إبداع الآية في الإيجاز بجمْع المعاني المُتداخِلة في عبارة قصيرة

في قوله تعالى: ﴿وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ﴾ اختصار مُعْجِزٌ لنظْم القرآن الكريم، يُصَوِّرُ كيف أدركَتْ امرأةُ العزيزِ يوسفَ عليه السلام قَبْل أنْ يَخرج مِن الباب، فَتَعَلَّقَتْ بقميصه مِن خلْفه، وجَذَبَتْهُ إليها؛ حتَّى لا يخرج فقطعَتْ قميصه[7]، وقد جاء طيّ تفاصيل التَّدافع والاشتباك

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/267.
(2) القُشيريّ، لطائف الإشارات: 2/179.
(3) البيت للنّابغة، زِيَاد بن مُعاويَة الذُّبياني، من الطَّويل، يُنظر: ابن قتيبة الدّينوريّ، الشِّعر والشُّعراء: 1/168، وعبد الجبّار وخفاجي، قِصَّة الأدب في الحجاز، ص: 548.
(4) ابن عطيَّة، المحرّر الوجيز: 3/235.
(5) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/267.
(6) القِنّوجيّ، فتح البيان: 3/404.
(7) النَّحَّاس، إعراب القرآن 2/199، والدُّرّة، تفسير القرآن الكريم: 4/569.

والتَّجاذُب، مُبينًا عن المُراد، بليغًا في بابه، مَشحونًا بإشاراتٍ إلى ما تُفرِزه المَشاهد مِن مَواقفَ حسّاسةٍ، وتصرّفات جوهريّة مهمّةٍ، تدخل في بناء القِصّة، وتُتيح تعرّفَ مراحِلها وحَيثيّاتها.

دلالة قوله تعالى: ﴿مِن دُبُرٍ﴾:

تحديد القدّ؛ لأهميَّته ودَوره كقَرينة استدلال على الجُرْم

قوله: ﴿مِن دُبُرٍ﴾؛ لأنّه كان مُولّيًا عنها مُعْرِضًا فأمسكَتْه منه لردِّه عن إعراضه[1]؛ أيْ: مِن خلْفه، قَبضتْ في أعلى قميصه، فتخرَّق القميص عند طَوقه، ونزل التَّخريق إلى أسفل القميص[2]، مِن خلْف لا مِن قُدّام؛ لأنّ يوسف كان هو الهارب، وكانت هي الطّالبة[3]، ولكن صار فعلها وَبالًا على نفْسها، فكان بلاؤها مِن حيث طَلَبت راحتَها وشفاءها، وكان في ذلك افتضاحُ أمْرها؛ لأنَّ قبْضَها على قميصه، كان مَزجورًا عنه، ليُعلم أنَّ الفاسِد شَجُّهُ فاسِد. وكان صاحب البلاء في الهوى مسلوبَ التَّمييز، فصار ذلك عليها حُجَّة، وليوسف دلالة صِدْق، قال تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ [فاطر: 43][4].

بلاغة الإيجاز في قوله: ﴿وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا﴾:

الدّلالة على أكثر مِن حَدَثٍ في عبارة قصيرة

قوله تعالى ﴿وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا﴾؛ أي: وصادَفَ أَنْ ألفيا زوجَها، وهو العزيز، عند الباب الخارجيِّ يُريد الدُّخول إلى البيت؛ وقد عُلِمَ مِن الكلام أنَّ يوسف عليه السلام فتح الأبواب الّتي غلَّقتها زُليخا بابًا بابًا، حتَّى بلغ الخارجيَّ، كُلُّ ذلك في حال استباقهما، وهو إيجاز بديع أيضًا مع ما سَبَقَ مِن ألوان الإيجاز والاختصار في هذه الآية[5].

سِرُّ استعمال الفعل (ألفى):

دلالته على المفاجأة الّتي لَم تكن في الحُسبان

قوله تعالى: ﴿وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ﴾؛ أيْ: وَجَدا زوجها،

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 12/256.
(2) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 9/170.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 12/114.
(4) القشيريّ، لطائف الإشارات: 2/179.
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 12/256.

وصادَفاه فجأة وقد حضر في غير أَوان حُضورِه[1] فحدثَت المفاجأة الغريبة المُحرِجة بقُدوم زوجها[2]، والإلفاء: وجدان شيء على حالةٍ خاصَّة مِن غير سَعْيٍ لوجدانه، فالأكثر أنْ يكون مُفاجئًا، أو حاصلًا عن جهْل بأوَّل حصول، كقوله تعالى: ﴿قَالُواْ بَلۡ نَتَّبِعُ مَآ أَلۡفَيۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ﴾ [البقرة: 170][3].

نكتة استعمال ﴿سَيِّدَهَا﴾ بالإفراد:

قوله: ﴿سَيِّدَهَا﴾؛ أيْ: زوجها، وقد كانت المرأة تقول لبَعْلها يا سيّدي لِمُلْكِه التَّصرُّف فيها، والقِبْط يُسمُّون الزَّوج سَيِّدًا[4]، ولعلَّ الزَّواج في مصر في ذلك العهد، كان بطَريق المِلْك غالبًا[5]، ولم يَقُلْ: سَيِّدهما، لأنَّ يُوسف عليه السلام كان في الحقيقة حُرًّا، ولَم يَكُن العزيز له سيّدًا[6]، فلَم يدخل في رِقٍّ؛ لأنَّ المسلِم لا يُملَك وهو السَّيِّد[7]؛ فلَم يكن العزيز له سيِّدًا في الأمْر نفْسه، وأمَّا ما سبَق مِن قوله: ﴿إِنَّهُۥ رَبِّيٓ﴾؛ أيْ: سيّدي العزيز فبناء على زعمهم، ولعلَّ التَّعبير بسيّدها دون زوجها، إشارة إلى نفْي السِّيادة له عليه السلام[8]، فلم يَقُلْ: سيِّدهما؛ لأنَّ استِرْقاق يوسف غيرُ شرعيٍّ، وهذا كلام ربِّه العليم بأمْره، لا كلام مَن استرَقّه[9].

بيان أنَّ يوسف لَم يكن مملوكًا، بل بِيع ظُلمًا بثَمَن بخْسٍ، وهو حُرٌّ في الأصْل

دلالة لفظ ﴿مَا﴾:

﴿مَا﴾ في قوله تعالى: ﴿مَا جَزَآءُ مَنۡ أَرَادَ بِأَهۡلِكَ سُوٓءًا﴾ يحتمل أنْ تكون نافيةً، وهو الأظهر[10]؛ أيْ: ليس جزاؤه إلّا السّجْنُ. ويجوز أيضًا

الدَّلالة على أنَّ أمْره بيَدها لا بيَد زوجها، وأنّها هي الحاكمة في القضيَّة

(1) أبو حيَّان، البحر المحيط: 6/259.
(2) الزُّحيليّ، الوسيط: 2/1102.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 12/256.
(4) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 9/171، والدَّرويش، إعراب القرآن وبيانه: 4/474.
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 12/256.
(6) البقليّ، عرائس البيان: 2/163.
(7) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 10/66.
(8) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 10/296.
(9) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 12/132.
(10) أبو حيَّان، البحر المحيط: 6/259.

أنْ تكون استفهاميَّةً؛ يعني: أيُّ شيءٍ جزاؤه إلّا أنْ يُسْجَنَ؟ كما تقول: مَن في الدّار إلّا زيدٌ[1]، والمآلُ على كِلا الاحتمالَيْن واحد[2].

بلاغة الفصْل في: ﴿قَالَتْ مَا جَزَآءُ﴾:

كـون السِّياق جوابًا لِما يَقَع في ذِهن السّامع، عند هذه المفاجأة

جملة: ﴿قَالَتْ مَا جَزَآءُ﴾ مِن قوله تعالى: ﴿قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا﴾ مستأنفةٌ بيانيًّا؛ لأنَّ السّامع لمّا عَلِمَ أنَّهما ألْفَياه وهُما على هذه الحالة، كان كأنَّه قيل: ماذا حدَث؟ وماذا فعلَتْ عند مُفاجأة سَيِّدها وهُما في تلك الحالة العجيبة؟[3]، فقيل: ﴿قَالَتْ﴾ مُبادِرَةً مِن غير حَياءٍ ولا تَلَعثُم[4]، فجاء الفصْل هُنا للجواب باستئنافٍ مَبنيٍّ على سؤالِ سائلٍ[5].

نُكتة مُبادرة المرأة بالقوْل:

بيان ثقة يوسف عليه السلام في ربِّه، ومُبادرتها تَبْرئة لساحتها

عدم نُطقه عليه السلام أوَّلًا، مع ما لَهُ مِن الفصاحة والبيان، لكمال النَّزاهة، وثقةً منه بأنَّ الله تعالى سيُظْهره ويُظْهر براءته والأمْر وَقَع كذلك، واتّضح تمامُ العِفَّة هنالك، وأمَّا زُليخا فلِكمال خوْفها بادرَت الجواب واستنطاق سيِّدها على وجْه الصَّواب، إيهامًا بأنَّها فَرَّت مِن يوسف؛ تَبْرئة لساحتها عند زوجها، ولتُغَيِّر قلبَه على يوسف، ولتُغْريه به انتقامًا منه؛ إذ لَم يَسْتجب لرغبتها، فيما طلبَتْ منه، لكنْ ليس للخائن حُسن المآب[6].

دلالة تقديم الكلام في قالَب كلِّي:

بيان دَهاء المرأة وعجيب مَكرها في المبادرَة بالجواب العجيب في المؤقف المُريب

في قولها: ﴿مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، ابتدرَتْه زوجتُه بالكلام إمعانًا في البهتان بحيث لَم تَتَلعْثَم،

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 18/444، والبقاعيّ، نظم الدُّرر: 10/67.
(2) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 10/296.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 12/256.
(4) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 10/67.
(5) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/267.
(6) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 10/297، والدُّرَّة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 4/569.

وخَيَّلتْ له أنَّها على الحقِّ، وأفرغت الكلام في قالَب كُلِّيٍّ ليأخذ صيغة القانون، وليكون قاعدة لا يُعرف المقصود منها، فلا يَسَعُ المُخاطَب إلّا الإقرار لها. ولعلّها كانت تخشى أنْ تكون مَحَبَّة العزيز ليوسف عليه السلام مانِعةً له مِن عقابه، فأفرغَتْ كلامَها في قالب كلّيٍّ. وكانت تريد بذلك ألّا يَشعر زوجها، بأنَّها تَهوى غيرَ سيِّدها، وأنْ تُخيفَ يوسف عليه السلام مِن كيْدها لئلّا يَمتَنِع منها مرَّةً أُخْرى[1].

وهذه الجملة الكريمة الّتي حكاها القرآن الكريم عنها، تَدُلُّ على أنَّ تلك المرأة كانت في غاية المَكر والدَّهاء والتَّحَكُّم في إرادة زوجها[2]؛ فقد أَتَتْ تلك المرأة في هذه الحالة الّتي يُدهَش فيها الفطِنُ اللَّوْذعيّ؛ إذْ شاهدَها زوجُها على تلك الحالة المُريبة، بِحيلَةٍ جمعَتْ فيها غرضَيْها، وهُما تَبْرئة ساحتها ممَّا يَلوح مِن ظاهر حالها، واسْتِنزال يوسف عن رأيه، في استعصائه عليها، وعدَم طاعته لها، بإلقاء الرُّعب في قلبه مِن مَكرها طَمَعًا في موافَقَته لها كُرهًا عند يأسِها عن ذلك اختيارًا، كما قالت بَعد ذلك: ﴿وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ۝٣٢﴾ [يوسف: 32][3].

نكتة الاسم الموصول ﴿مَنْ﴾:

قولها: ﴿مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا﴾، لَم تُصرِّح امرأة العزيز باسْم يوسف عليه السلام، بل أتَتْ بالموصول ﴿مَنْ﴾؛ لأنَّها لمَّا شاهدَتْ مِن يوسف عليه السلام، أنَّه استعصَم منها مع أنَّه كان في عُنْفوان الشَّباب، وكمال القُوَّة ونهاية الشَّهوة، عَظُمَ اعتقادُها في طهارته ونزاهته، فاستحتْ أنْ تقول: إنّ يوسف قصَدني بسوء، وما وَجدَتْ مِن نفْسها أنْ ترميَه بهذا الكذب على سبيل التَّصريح، بل اكتفَتْ بهذا التَّعريض، وقد

التَّعريض بجملة مِن المعاني حِفْظًا لشَرَفِها، ومُراعاة لزوجها، وإشارة خَفيَّة لصَون غَريمها

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 12/256.
(2) طنطاويّ، التَّفسير الوسيط: 7/345.
(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/268.

يُراد أنّ يوسف عليه السلام، أراد أنْ يضربها ويدفعها عن نفسِه، وكان ذلك بالنِّسبة إليها جاريًا مَجرى السُّوء، فقولها: ﴿مَا جَزَآءُ مَنْ﴾ جارٍ مِجرى التَّعريض، فلعلّها بقلبها كانت تريد إقدامه على دفْعها ومنعِها، وفي ظاهر الأمْر كانت توهِم أنَّه قصَدني بما لا ينبغي[1]؛ ولَم تَقُل: (هذا أراد بأهلِك السّوء، وجزاؤه السّجن)، بل قصَدَت العموم، وأجملَتْ أيضًا حياءً، وحِشْمَةً لبَعلها[2]، ومِن جهة أُخرى عبَّرت بالموصول صَونًا لِلمَحبوب عن الذِّكر بالسُّوء والألم[3].

سِرُّ استعمال الفعل الماضي ﴿أَرَادَ﴾:

تَوجيه جملة: ﴿مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ﴾ أنّه لمَّا رأَتْ امرأة العزيز الفضيحة فزعَتْ إلى ظُلْم يوسف والبغي عليه، فأرَتِ العزيزَ أنَّ يوسف أرادها[4]، وجعلَتْ صُدورَ الإرادة المذكورة عن يوسف عليه السلام أمْرًا مُحقَّقًا مفروغًا عنه غَنيًّا عن الإخبار بوقوعه[5] مِن خلال تعبيرها بالفعل الماضي للدّلالة على ذلك، وفي تعبيرها بالإرادة إشارَةٌ إلى أنَّ الأمْر لَم يجاوِز حَدَّ الرَّغبة والإرادة[6] تَبْرئةً لنفْسها مِن وقوع الفعل المُشين.

الدّلالة على تحقُّق وقوع ذلك في الماضي، وكونه إرادة ورغبة لا ممارَسة وفعْلًا

دلالة التعبير في ﴿بِأَهْلِكَ﴾:

ذكرَتِ امرأة العزيز نَفْسها بعنوان أهليَّة العزيز، إعظامًا للخَطْب وإغراءً له على تحقيق ما يتوخَّاه بحُكم الغضب والحَميَّة[7].

إعظامُ الخَطْب، وإغراءُ العزيز على تحقيق العُقوبة

نكتة تنكير لفظة ﴿سُوٓءًا﴾:

معنى ﴿سُوٓءًا﴾ في قوله تعالى: ﴿مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا﴾؛ أيْ: شيئًا يَسوؤك صغيرًا كان أو كبيرًا، كما يَدُلُّ عليه تنكير اللَّفظ[8]،

إفادة الإبهام والإبهام، بعدم تحديد نوْع السُّوء ومقداره، تعميمًا لِما يَسوء

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 6/410.
(2) الخفاجيّ، عناية القاضي: 5/291.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 18/445.
(4) ابن عطيَّة، المُحرَّر الوجيز: 3/235.
(5) الآلوسيّ، روح المعاني: 6/409.
(6) الخطيب، التَّفسير القرآنيّ: 6/1259.
(7) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/268.
(8) رشيد رضا، تفسير المنار: 12/286، والمراغيّ، تفسير المراغيّ: 12/132.

وفي هذا التَّنكير دلالة على اكتمال قُدرتها على المَكر والدَّهاء، والّتي مِن مَظاهرها مُحاولتها إيهامَ زوجها بأنَّ يوسف قد اعتَدَى عليها بما يَسُوؤها ويسوؤه، ولكنْ بدون تصريح بهذا العُدْوان شَأن العاشق مع معشوقه حتَّى لا يسعى زوجها في التَّخَلُّص منه ببَيْعِه مثلًا[1].

سِرُّ طرْح امرأة العزيز لبدائل العِقاب:

أسلوب التّهديد مِن أجْل الإقناع والإلزام بأنَّ الذَّنب ثابتٌ مُتَقَرِّر

في قوله تعالى: ﴿إِلَّآ أَن يُسۡجَنَ أَوۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ اقترحَت امرأةُ العزيز في أمْر يوسفَ عليه السلام صِنْفيْن مِن العِقاب، وهُما: السّجن؛ أيْ: الحَبس، وكان الحبس عقابًا قديمًا في ذلك العصر، واستمرّ إلى زمن موسى عليه السلام، فقد قال فرعون لموسى عليه السلام: ﴿لَئِنِ ٱتَّخَذۡتَ إِلَٰهًا غَيۡرِي لَأَجۡعَلَنَّكَ مِنَ ٱلۡمَسۡجُونِينَ ٢٩﴾ [الشُّعراء: 29]، والصّنف الثّاني هو العذابُ، وهو أنواع، ومنه الضَّرب والإيلامُ بالنَّار وبقطْعِ الأعضاء وغيرها[2]. وهكذا تَتَّهم، وتَحْكُمُ في التُّهمة، فلا تَدَع لزوجها فُرصةً للتَّفكير، فيما ينبغي أنْ يُواجهَ به هذا المَوْقف، فها هو ذا الحلُّ حاضر بيْن يديه، لا يحتاج منه إلى تفكير[3]، فتَكلّمَت في الجزاء؛ أيْ إنّ الذَّنب ثابتٌ مُتَقَرّر[4].

نكتة تقديم السّجن وتأخير العذاب:

الإشارة إلى حُبِّها الشَّديد ليوسف، وطَمَعها في وِصالِه مستقبَلًا

قوله تعالى: ﴿إِلَّآ أَن يُسۡجَنَ أَوۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾، وفيه قَدّمَت امرأة العزيز ذِكر السّجن لخِفَّته، وأخّرَت العذاب لشِدَّتِه[5]، وذلك لحُبِّها الشَّديد ليُوسف عليه السلام، فحَمَلَها هذا الحُبُّ على رعاية دقيقتَيْن في هذا المَوضع، وذلك لأنَّها بَدَأَتْ بِذِكْرِ السّجن وأخَّرَت ذِكْرَ العذاب؛ لأنَّ المُحِبَّ لا يَسْعى في إيلام المحبوب[6]، وعيَّنَتْه لئلَّا يقتله،

(1) طنطاويّ، الوسيط: 7/345.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 12/257.
(3) الخطيب، التَّفسير القرآنيّ: 6/1259.
(4) ابن عطيَّة، المُحرَّر الوجيز: 3/235.
(5) الصَّاويّ، حاشية الصَّاويّ على الجلالَيْن: 2/169.
(6) الآلوسيّ، روح المعاني: 6/409.

فتحرَّزتْ عن قتْلِه بِذِكْرِ غيره[1]، وهي بهذا تُريد إخضاعَه لإرادتها، وهَيْمنتها عليه[2].

سِرُّ التَّعبير بالفعل عن السّجن:

قالت: ﴿إِلَّآ أَن يُسۡجَنَ أَوۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾، والمُراد منه أنْ يُسجن يومًا، أو أقلّ على سبيل التَّخفيف، حتّى لا يَبْتعدَ عنها كثيرًا؛ لأنَّ الحَبس الدَّائم لا يُعَبَّر عنه بهذه العبارة، بل يُقال: يجب أنْ يُجعَل مِن المَسْجونين، كقول فرعون حين هدّد موسى عليه السلام: ﴿لَئِنِ ٱتَّخَذۡتَ إِلَٰهًا غَيۡرِي لَأَجۡعَلَنَّكَ مِنَ ٱلۡمَسۡجُونِينَ ٢٩﴾ [الشّعراء: 29][3].

مُراعاة التَّخفيف مُدَّةَ بُعدِه حتّى لا يَبْتعدَ عنها كثيرًا

سِرُّ التَّعبير بقولها: ﴿إِلَّآ أَن يُسۡجَنَ﴾:

مُخالفة التَّعبير بَيْنَ ﴿أَن يُسۡجَنَ أَوۡ عَذَابٌ﴾ دون أنْ يقول: (إلّا السَّجن أو عذاب)، لأنَّ لفظ السّجن يُطلَق على المكان الّذي يوضَع فيه المَسْجون ويُطلق على مصْدر سَجَنَ، فقوله: ﴿أَن يُسۡجَنَ﴾ أوْضحُ في تَسَلُّط معنى الفعل عليه[4].

التّعبير عن تَسَلُّط معنى الفعل عليه، بعقوبته بالسّجن فعليًّا

دلالة الإبهام في: ﴿أَوۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾:

في إبهام العذاب زيادة تهويل لشأن الجزاء المذكورِ، بكونه قانونًا مُطَّرِدًا في حقِّ كُلِّ أحدٍ كائنًا مَن كان، وفيه أيضًا مبالَغة في التَّخويف[5] مِن خِلال إفهام يوسف عن طريق مُباشر، بأنَّ أمْره بيدِها لا بيَد زوجها، وأنَّها هي الآمِرة النَّاهيةُ[6].

التَّهويل للأمر المذكور، والمبالَغة في تَخويف يوسف عليه السلام

نكتة انتِخاب الاسم ﴿عَذَابٌ﴾:

قوله تعالى: ﴿أَوۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾؛ أيْ: دائم ثابت غير السّجن[7]؛ لأنَّ

الدّلالة على دَوام التَّعذيب واستمراره طَمَعًا في استجابته

(1) أطْفَيِّش، تيسير التّفسير: 7/101.
(2) الدُّرّة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه: 4/569.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 6/410.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 12/257.
(5) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/268، والآلوسيّ، روح المعاني: 6/409.
(6) طنطاويّ، الوسيط: 7/345.
(7) الخازن، لُباب التَّأويل: 2/523.

دوام تعذيبه وإيلامه قد يكون داعيًا له في الاستجابة آخِرَ المَطاف على حَدِّ زَعْمها وظَنِّها.

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(ألفَيا) و(وَجدا):

(ألفى) تَدُلُّ على وجودٍ بهَيْئَةٍ خاصَّةٍ، ولفظ (وَجَد) يَدُلُّ على وجُودٍ عامٍّ

الوِجدان يكون اتِّفاقيًّا على غَفْلَةٍ مِن غَيْرِ قَصْدٍ، ومنْهُ وِجْدانُ الضّالَّة، والإلفاء يَقْتَضي وِجْدانَ ما كان ثابتًا دائمًا مُسْتقرًّا[1]. يُقال: ألفيتُه يُصَلّي؛ أيْ: وَجَدْتهُ على تِلْكَ الحالَةِ[2]، فَفيهِ مَعْنى الوُجودِ على هَيْئَةٍ خاصَّةٍ، وأمّا الوُجودُ مَدْلولُ (وَجَد) فهو وُجودٌ عَامّ. وفي القرآن الكريم لَم يَرِد الفعلُ (ألفى) إلّا فيما هو مُشاهَد محسوسٌ، ولذلك قال بعض النُّحاة: إنَّه ليس مِن أفعال القلوب[3]، قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ أَلْفَوْا۟ ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ ﴿٦٩﴾﴾ [الصَّافات: 69]، أمّا (وَجد) ففي القرآن، وفي غير القرآن وَرَدتْ قَلْبيَّة وغير قلبيَّة[4]، ومُشاهَدَة وغير مُشاهدَة، فمثلًا قال تعالى: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا﴾ [آل عمران: 37] وقال: ﴿وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا﴾ [الكهف: 86] وقال: ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾﴾ [الأحزاب: 62]، وقال: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾﴾ [النِّساء: 110]؛ فـ (وَجَد) أشمَلُ وأعمُّ مِن هذه النَّاحية أيضًا. ولمّا كان الفعل (ألفى) يتضمّن معنى وِجدان شَيءٍ بشكل محسوس على حالةٍ خاصَّةٍ مِن غير سَعْيٍ لوِجْدانه؛ فقد اخْتيرَ في سياق الآية دون غيره.

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/501.
(2) الفيّوميّ، المصباح المنير: (لفي).
(3) الفيروزابادي، بصائر ذوي التَّمييز: 1/150.
(4) الكفويّ، الكُلِّيّات، ص: 175.

﴿قَالَ هِيَ رَٰوَدَتۡنِي عَن نَّفۡسِيۚ وَشَهِدَ شَاهِدٞ مِّنۡ أَهۡلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٖ فَصَدَقَتۡ وَهُوَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ٢٦ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٖ فَكَذَبَتۡ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ٢٧﴾ [يوسف: 26 - 27]

مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لما قَبْلَهُما:

الرَّبْط بيْن فِريَة امرأة العزيز، ورَدّ يوسف لتَبْرئة نفْسه مِن تداعيات ذلك الاتّهام

لَمَّا ذَكَرَت امرأة العزيز ذاك الكلام، ولطَّخَتْ عِرض يوسف عليه السلام؛ احتاج إلى إزالة تلك التُّهمة، فقال: ﴿هِيَ رَٰوَدَتۡنِي عَن نَّفۡسِيۚ﴾[1]، إذْ لَم يجِدْ مَفَرًّا في هذا المَوْقف إلّا الرّدّ على هذا الاتهام الباطل[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَشَهِدَ﴾: أَخْبَر وحَكَمَ، يُقالُ: شَهِدَ يَشْهَدُ، فهو شاهِدٌ وشَهيدٌ، وأصْل (شهد) يدلُّ على معنى: الحُضور والعِلْم والإعْلام[3]، وقد يُعبَّر بالشَّهادة عن الحُكْم[4] والشُّهداء: جمعٌ لِلشَّهيدِ، بمعنى: الشّاهِد؛ وهو المُخْبِرُ عَن عيَانٍ بحقٍّ لغَيرِهِ على آخَرَ[5]، والمعنى هُنا: أخْبَر خبرًا قطعيًّا عن مُشاهَدَة، أو عِلْمٍ كالمُشاهَدة وحَكَمَ به[6].

2) ﴿مِن قُبُلٖ﴾: مِن الأمام، وأصْل (قُبُل) يدلُّ على مواجَهة الشَّيء للشَّيْءِ، والقُبُل مِن كُلِّ شَيء: خِلافُ دُبُرِه، وذلك أنَّ مُقَدّمَه يُقبِل على الشَّيء[7]، قيل سُمِّيَ قُبُلًا؛ لأنَّ صاحِبَه يُقابِلُ به غيرَه[8]؛ والمعنى هُنا: مِن أمامِهِ وقُدّامِه[9].

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 18/445.
(2) طنطاويّ، الوسيط: 7/345.
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (شهد).
(4) الرَّاغب، المفردات: (شهد).
(5) الجرجانيّ، التَّعريفات، ص: 129.
(6) رشيد رضا، تفسير المنار: 12/237.
(7) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرَّاغب، المفردات: (قبل).
(8) الفيّوميّ، المصباح المنير: (قبل)، والمصطفويّ، التّحقيق: 9/187.
(9) الزَّمخشريّ، الكشَّاف: 2/460، والآلوسيّ، روح المعاني: 6/412.

المَعْنى الإجْماليُّ:

قال يوسف عليه السلام: هي الّتي طلَبَت منّي الفاحشة، ولَم أُرِدْها منها، فحَكَمَ حَكَمٌ مِن أهلِها، فقال: إنْ كان قميصُ يوسفَ شُقَّ مِن أمامِه، فذلك قرينة على صِدْقها؛ لأنّها كانت تَمنعه مِن نفْسها، فهو كاذب، وإنْ كان قميصه شُقَّ مِن خلْفه، فذلك قرينة على صِدْقه؛ لكونها كانت تُراوِده وهو هارِب عنها؛ فهي كاذبة[1].

دِفاع يوسف عن نفْسه، وشهادة الحكم في الدّلالة على قرينة صِدْقه

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

أثر الفصْل في السّياق:

قوله تعالى: ﴿قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِيۚ﴾، استئنافٌ وجواب، عمَّا يُقال: فماذا قال يوسف عليه السلام حينَ قذفَتْه بهذا؟ فقيل: ﴿قَالَ﴾ دافِعًا عن نفْسه لا هاتِكًا لها: ﴿هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِيۚ﴾، طالبَتْني للمُواتاة لا أنِّي أردْتُ بها سُوءًا كما زَعَمَتْ[2]؛ وفُصِلَتْ هذه الجملة عمَّا سَبَقها؛ لأنَّها جاءت على طريقة المُحاوَرة مع كلامها[3].

بيان الرَّدِّ الشّافي، وظهور الدَّليل الكافي، على براءة يوسف عليه السلام

بلاغة القَصْر في قوله: ﴿هِيَ رَاوَدَتْنِي﴾:

قوله تعالى: ﴿هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِيۚ﴾، لمَّا اتَّهمتْه بقصْدها بالسُّوء لم يَرَ بُدًّا دون أن يُصَرِّح بالحقِّ فقال: ﴿هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِيۚ﴾، وتقديم المبتدأ على خبره الّذي هو فعل يُفيد القصْر، وهو قصْر قلبٍ للرَّد عليها[4]؛ أيْ: لَم أُرِدْها بالسُّوء، بل هي الّتي أرادت ذلك، فراودَتني عن نفْسي.

بيان أنَّها هي الّتي أرادَتْه بالسّوء وراوَدَتْه عن نفْسه

نكتة التَّعبير بضمير الغيْبة ﴿هِيَ﴾:

قوله تعالى: ﴿قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِيۚ﴾، قال عليه السلام هذا القول

مُراعاة حُسْن الأدب اللّائق بالأنبياء، وإيماء للإعراض عنها

(1) لجنة من عُلماءِ الأزهر، المنتخَبُ، ص: 335، ونُخْبة من أساتذة التَّفسير، التَّفسير المُيَسَّر، ص: 238، وجماعَةٌ من علماء التَّفسير، المُخْتَصَر، ص: 238.

(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 10/67، والآلوسيّ، روح المعاني: 6/410.

(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 12/257.

(4) ابن عاشور، التَّحرير والتّنوير: 12/257.

لدفْع الضَّرر عن نفْسه لا لِتَفْضيحِها وهتْك ستْرِها، ولكن لمّا لَطَّختْ عِرْضه احتاج إلى إزالة هذه التُّهمة عن نفْسه فصرَّح بالأمر[1].

وقال: ﴿هِيَ﴾، ولَم يَقُل: (هذه)، مُشافِهًا لها بما تكْرَه[2]؛ لأنَّ التَّعبير عنها بضمير الغيْبة دونَ الخِطاب أو اسم الإشارة، مُراعاة لحُسن الأدب مع الإيماء إلى الإعراض عنها، فإنَّ ﴿هِيَ﴾ ضمير باتّفاق، وليس هو للغائب هنا، بل لِمَن بالحَضْرة، كقول مَن يُخاطِبُ شَخْصًا في شأنِ آخَرَ حاضِرٍ معه: قُلْتُ له اتّق اللّه تعالى، وأمَرْتُه بفعل الخير. ولأنّ هذا الضَّمير عائدٌ على ما قبْله، فالضمير في قوله: ﴿هِيَ رَاوَدَتْنِي﴾ عائد على الأهْل، في قولها: ﴿مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا﴾، ولمّا كَنَّتْ عن نفْسها بذلك، ولَم تَقُل: (بي) بدَل ﴿بِأَهْلِكَ﴾، كنَّى هو عليه السلام عنها بضمير الغيْبة، فقال: ﴿هِيَ رَاوَدَتْنِي﴾، ولَم يُخاطِبها بأنتِ راودْتِني، ولا أشار إليها بهذه راوَدَتْني، وكُلُّ هذا على سبيل الأدب في الألفاظ، والاستحياء في الخِطاب، فأبرَزَ الاسم في صورة ضمير الغائب؛ تأدّبًا مع العزيز وحياءً منه[3].

بلاغة الاستعارة في ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ﴾:

تصوير شهادة الشَّاهد على الأثَر، بحال الشَّاهد على المُراوَدة والخَبَر

قوله تعالى: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ﴾؛ أيْ: حَكَم حاكِمٌ مِن أهلها[4]، والشّاهد مِن المُشاهَدة، وامرأة العزيز ويوسف لَم يَكُن معهما أحدٌ ليكون شاهدًا على ما حَدَثَ، ولعلَّ الشّاهد قد شهِد موقف امرأة العزيز ويوسف عليهما السلام، وقد ألْفَيا سَيِّدَها لدى الباب، وذِكرُ الشّاهد قضيَّةَ قدِّ القميص، تعني بالضَّرورة عدَمَ رؤيته قميص يوسف، وقد قُدَّ مِن دُبُر، فيُلاحظ أنَّ الكلام مِن قريب زليخا لا يُعدُّ شهادة؛ لأنَّه لَم يَرَ شيئًا ممَّا حَدَثَ بينهما، ولكنَّه لمّا كان يُرشِد إلى

(1) الجاويّ، مراح لبيد: 1/529.
(2) الخفاجيّ، عناية القاضي: 5/291.
(3) أبو حيَّان، التَّذييل والتَّكميل: 2/253، والبقاعيّ، نظم الدُّرر: 10/67.
(4) الفرّاء، معاني القرآن: 2/41.

دليل الحُكم، أُطْلِقَ عليه شهادةً مَجازًا؛ لأنَّه يُشبهها في التَّوصيل إلى الحُكم الصَّحيح[1]؛ لأنَّ أصْل الشَّهادة، أنْ يقول كان ذلك أو لَم يكن، مع ما يحتاج فيه عند الكلام مِن التَّثبُّت والتَّأمُّل[2]؛ فهو مَجازٌ بطَريق الاستعارة التَّصريحيَّة التَّبعيَّة يُصوِّر حُكم الشَّاهد كأنَّه حدَثٌ مُشاهَدٌ؛ والمعنى: وذُكِرَ إنسانٌ قام يَفْصِلُ بينهما كما يفصل الشَّاهد بشهادته بيْن الخصْمَيْن، فقال: كذا وكذا[3]، فتَسْميَة كلامه شهادة؛ لأنَّها أدَّت مُؤَدَّاها[4].

تأويل الشّاهد على كونه مَجازًا:

وقد يُسمى الرَّجل شاهِدًا مِن حيث دلَّ على الشَّاهد، وهو تخريق القميص[5]، لأنَّها لَو كانت أمسكَتْ ثوبَه لأجْل القبض عليه لِعقابِه، لَكان ذلك في حال الإقْبالِ، فإذا أراد الانْفلات منها تخرَّق قميصُه مِن قُبُلٍ، وبالعَكس إنْ كان إمساكُه في حال فِرارٍ وإعراض[6]، فالرَّجل دلَّهم على القرينة البَيِّنة، فيكون بهذا التَّأويل مَجازًا مُرسَلًا، بعلاقة الملزوميَّة وفي هذا مُلازَمة الدَّليل للشَّهادة فيما يُوحي به سياقُ الآية الكريمة.

أيلولته إلى إظهار الحقِّ، في إثبات الدَّليل على التُّهمة

فائدة ذِكر كوْن الشَّاهد مِن أهلها:

في قوله تعالى: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ﴾، جعل اللّه تعالى الشَّاهد مِن أهلها؛ ليكون أدلَّ على نزاهته عليه السلام، وأنفى للتُّهمة وألزم لها[7]؛ لأنَّ الأهل أعظَمُ في الشَّهادة[8]؛ إذ عادة الشَّاهد القريب الانحياز لا الإنصاف. وخُصَّ هذا بما إذا لَم يكُن الشّاهد هو الطِّفل الّذي

شهادة الشّاهد، أوْجبُ للحُجَّة، وأوْثقُ لبراءة يوسف مِن التُّهمة

(1) شحاتة، تفسير القرآن الكريم: 12/2317.
(2) القِنّوجيّ، فتح البيان: 3/406.
(3) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/384.
(4) ابن عجيبة، البحر المديد: 3/269.
(5) أبو حيَّان، البحر المحيط: 6/260.
(6) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 12/257.
(7) حقّي، روح البيان: 4/240.
(8) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 10/68.

أنطقَهُ اللّه تعالى الّذي أنطقَ كُلَّ شيء، وأمّا إذا كان ذلك فذِكر كونه مِن أهلها؛ لبيان الواقع فإنَّ شهادة الصَّبي حُجَّةٌ قاطعة[1]؛ لأنَّ كونه لمْ يَتَكلَّم قَط، ثُمَّ تكَلَّم بذلك، كرامةً ليوسف عليه السلام[2].

سِرُّ ذِكر قَدِّ القميص مِن الشَّاهد:

الإشارة إلى ظَنِّ الشَّاهد صدقَ امرأة العزيز، ووقوع الكرامة ليوسف بعكس ما ظَنَّ

لا شَكَّ أنَّ الاستدلال بكيفيَّة تمزيق القميص، نشَأ عن ذِكْرِ امرأة العزيز وقوعَ تمزيق القميص محاوِلَةً جعلَه حُجَّة على أنَّها أمسكَتْه لتُعاقبه، ولولا ذلك ما خطرَ ببال الشَّاهد أنَّ تَمزيقًا وقَعَ، وإلّا فمِن أين علِم الشَّاهد تمزيق القميص، والظَّاهر أنَّ الشَّاهد كان يَظُنُّ صدقَها، فأراد أن يُقيم دليلًا على صدْقها، فوقع عكس ذلك كرامة ليوسف عليه السلام[3].

فإن قيل: إن دلَّ قَدُّ قميصه من دُبُر، على أنَّها كاذبة، وأنَّها هي الّتي تبِعَتْه واجتبَذَتْ ثوبَه إليها فقدَّتْه، فمِن أين دَلَّ قَدُّه من قُبُلٍ على أنَّها صادِقة، وأنَّه كان تابِعَها؟ فالجواب من وجهيْن؛ أحدُهما: أنَّه إذا كان تابعها وهي دافعَتهُ عن نفْسها، قدَّت قميصه مِن قدّامه بالدَّفع، والثَّاني: أنْ يُسرِع خلْفها لِيَلحَقها، فَيَتَعَثَّر في مَقادِم قميصه فيشُقّه[4].

سِرُّ استخدام الفعل ﴿قُدَّ﴾ وتَكراره:

بيان عدم تعيُّنِ التُّهمة على أحدهما قبل الفحص

﴿قُدَّ﴾؛ أيْ: شُقّ شقًّا مُستَطيلًا ﴿مِن قُبُلٍ﴾؛ أيْ: من جهة ما أقبَلَ من جسده[5]، وبُنِيَ الفِعْلُ ﴿قُدَّ﴾ للمفعول، للنِّزاع في القَادِّ[6] قبل الفحْص والتَّأمّل، فلا تتعيَّن تُهمة القدِّ ما دامَ الأمرُ لَم يَثبتْ على أحَدهما بعدُ، وذلك من حِكمة المحاكَمة ومِصداقيّتها بيْن يدَي

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 6/412.
(2) ابن جُزيّ، التَّسهيل: 385/1.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتّنوير: 12/257.
(4) الزَّمخشريّ، الكشَّاف: 2/459.
(5) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 10/68.
(6) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/69.

الحَكَم الّذي يُشبه القاضي في التّصوّر للقضيّة، ومُساءلة أطراف الاتّهام، والفَصل في الحُكم إيجابًا أو سلْبًا في النّهاية.

موقع جملة ﴿إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ﴾:

إن قيل: كيف جازتْ حكاية الجملة الشَّرطيّة بعد فعل الشَّهادة؟ فالجواب أنَّها قولٌ من القوْل، أو على إرادة القَول، كأنَّه قيل: وشهِد شاهد؛ فَقالَ: إنْ كان قميصُه[1].

بيان كونها مَقُول قَول لفعل مُقَدَّر، أو على تقدير إرادته

نكتة التقديم في الآية الكريمة:

قدّم أمارة صِدقها في قوله: ﴿إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ﴾؛ لأنّه ممّا يحبّه سيّدها، فهو في الظّاهر اهتمام بها، ولأنَّها البادئة بالشَّكوى، ولكنّ هذا التّقديم هو في الحقيقة تقرير لكذبِها مرّتيْن: الأولى باللُّزوم، والثّانية بالمُطابَقة[2].

تقديم ما يُحِبُّه سَيِّدُها اهتمامًا بشأنها، وتعظيمًا لمكانها مِن قلْبه

دلالة حذف الشَّرط ﴿إِن﴾:

الشَّرط في هذه الجملة على جهة التَّقرير للمعنى الّذي يُوجِبُ غيرَه لا على الشَّك[3]، و﴿إِن﴾ في موْضع جَزْم بالشَّرط، وفيه من النَّحو ما يُشْكِلُ؛ لأنَّ حروف الشَّرط تَرُدُّ الماضيَ إلى المستقبل، وليس هذا في (كان)، وتوجيه ذلك إمَّا لقوة (كان)، وأنَّه يُعَبَّر بها عن جميع الأفعال، وإمَّا أنَّ المعنى: إنْ يكُن؛ أيْ: إنْ يُعْلَم، والعِلم لَم يَقع، وكذا الكون؛ لأنَّه يُؤدِّي عن العِلم[4]. وإنْ قيل: كيف وقعَتْ شهادة الشَّاهد هاهُنا مُعلَّقَةً بشرْط، والشّارط غير عالم بما يشرطه؟ فعَنْهُ جوابان أحدهُما: أنَّ الشَّاهد شاهدٌ بأمر قَدْ عَلِمَهُ، فكأنَّه سَمِعَ بعض كلام يوسف وزليخا، فَعَلِمَ، غير أنَّه أوْقَعَ في شهادته شرطًا؛ لِيُلزِم المخاطَبين قبول شهادته من جهة العقل والتَّمييز، فكأنَّه قال: هو

بيان أنَّ أدوات الشَّرط لا تَدُلُّ إلّا على الرَّبط بَيْنَ مضمون شرْطها، ومضمون جوابها

(1) الزَّمخشريّ، الكشَّاف: 2/459.
(2) ابن عرفة: تفسير ابن عرفة: 2/385، والبقاعيّ، نظم الدُّرر: 10/69.
(3) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 10/68.
(4) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 9/174.

الصّادق عندي، فإن تدبَّرتم ما أَشْترِطه لكم، عقلْتُم قولي، ومثل هذا قول الحُكماء: (إن كان القَدَرُ حقًّا، فالحرص باطل، وإن كان الموت يقينًا، فالطُّمأنينة إلى الدُّنيا حُمْقٌ)، والجواب الثَّاني: أنَّ الشَّاهد لَم يَقطع بالقول، ولَم يَعلم حقيقة ما جرى، وإنَّما قال ما قال، على جهة إظهار ما يَسْنَحُ له من الرَّأي، فكأنَّ معنى قوله: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ﴾: أَعْلَمَ وبَيَّن، فقال: الّذي عندي مِن الرَّأي، أنْ نَقيس القميص ليوقَفَ على الخائن[1]. والظَّاهر أنَّ أدوات الشَّرط، لا تَدُلُّ على أكثر مِن الرَّبط والتَّسبُّب بَيْنَ مضمون شرطها ومضمون جوابها، مِن دون تقييدٍ باستقبالٍ ولا مُضيّ، فمعنى: ﴿إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ﴾ وما بعدها: أنّه إن كان ذلك حصل في الماضي، فقد حصل صِدْقها في الماضي[2].

بديع المقابَلة في (القَدّ):

جمع قرائن الحادثة في قَدِّ القميص وموضعِه دلالة على صدق يوسف عليه السلام

قوله: ﴿إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٢٦ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾، فيه أنّه لَمَّا كان صِدْقُها ليس قاطعًا في منْع صدْقه، قال: ﴿وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾؛ لأنَّه لولا إقباله - وهي تدفَعه عنها أو تهربُ منه، وهو يتْبَعها، ويعثرُ في قميصه - ما كان القَدُّ مِن القُبُل، ولمّا كان كذلك كذبُها في إرادته السُّوء، لا يُعَيِّنُ صدْقَه في إرادتها له، قال: ﴿وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾؛ لأنَّه لولا إدباره عنها وإقبالها عليه، لَما وقع ذلك[3]؛ وفي هذه الجملة مُقابَلَةٌ عجيبة، بين قرائن الحادثة في قَدِّ القميص قُبُلًا ودُبُرًا، ودلالتها على صدْق يوسف الصِّدّيق عليه السلام، وتكذيب دعوى امرأة العزيز في القضيَّة.

(1) ابن الجوزيّ، زاد المسير: 2/432.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 12/258.
(3) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 10/68 - 69.

دلالة جواب الشَّرط في الآية:

إقامة الحجّة الحسيّة المشاهدة بالعيان، قطع للشّكّ بالإيقان

في قوله تعالى: ﴿فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾، و﴿فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾، عبّر النّظم الكريم في جهتها بالفعل، فقال: ﴿فَصَدَقَتْ﴾ ﴿فَكَذَبَتْ﴾، وفي حقّ يوسف عليه السلام بالاسم، فقال ﴿مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ ﴿مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾، وذلك لاعتبارَيْن؛ أوَّلهما: أنَّ صدْق زليخا غيرُ مُحَقَّقٍ عند العزيز، فأُخْبِرَ فيه بالفعل، لكنَّه إذا ثبتَ صِدْقُها؛ فالمخالِف لها من الكاذبين، والثَّاني لأجْل رؤوسِ الآي، واعتبار الفاصِلَة[1].

دلالة جُملَتَيْ ﴿وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾، ﴿وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾:

تأكيدٌ لزيادة تقرير الحقِّ، كما هو شأن الأحكام

زيادة ﴿وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ بعد ﴿فَصَدَقَتْ﴾، وزيادة وهو ﴿مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾، بعد فكذبَتْ تأكيدٌ لزيادة تقرير الحقِّ، كما هو شأن الأحكام[2]؛ لأنَّ مِن قوله: ﴿فَصَدَقَتْ﴾، يُعْلَم كذبُه - حاشاه عليه السلام - ومِن قوله: ﴿فَكَذَبَتْ﴾ يُعْلم صدقُه.

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(الشَّهيد) و(الشَّاهد):

الشَّاهد يُؤَدّي شهادتهُ، انطلاقًا من خِبرَتِهِ ومَعْرِفتِهِ، والشَّهيد انْطلاقًا من سَمْعِهِ ورُؤيَتِهِ

الشَّهادة في أصل اللُّغة معناها: الحضور، وفي الاصطلاح هي: خَبرٌ قاطع، صادِر عن عِلم حصلَ بمُشاهدة بَصَر أو بصيرة[3]، وتنقسم من حيْث الطَّرف الّذي يُؤدِّيها إلى قسميْن: شَهادة شاهدٍ وشهادة شهيد؛ والفرْق بينهما: أنَّ شهادة الشَّاهد هي شهادة مَعْرفة وخِبْرة مُكتسَبة؛ ومثالها قوله تعالى في قِصَّة يوسف عليه السلام: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٢٦ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾، فهذا

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/385.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 12/258.
(3) الرَّاغب، المُفْرداتُ: (شهد).

الّذي شهِدَ مِن أهل امرأة العزيز، لَم يَشهد الواقعة بنفْسه، حتّى يكون شهيدًا عليها؛ ولكنَّه شَهِد من واقِع خِبْرته بالأدلّة، ومعرفَتِه بكيفيَّة سَيْر الأمور، ومنطقيَّةِ الأحداث بنتائجها[1]، أمَّا شهادة الشَّهيد فهي شَهادةٌ حُضوريَّة، تعتمد على السَّمع والبصَر؛ ومثالها قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ﴾ [البقرة: 282] إلى قوله: ﴿وَٱسْتَشْهِدُواْ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ﴾ [البقرة: 282] وقوله: ﴿وَأَشْهِدُوٓاْ إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ﴾ [البقرة: 282]، فنُلاحظ هُنا أنَّ الّذي طلبَ منه أن يَشهد على عقد المُدايَنة والمبايَعة، هو حاضِر العقْد، فهو شهيد، وليس بشاهد. وقيل أيضًا: إنَّ الشَّاهد بمعنى الحُدوث، والشَّهيد بمعنى الثُّبوت، فإنَّه إذا تحمَّل الشَّهادة، فهو شاهِد باعتبار حدوث تحمُّلِه، فإذا ثبتَ تحمُّله لها زمانَيْن أو أكثر فهو شهيد[2]. ويتحصَّل مِمّا تقدَّم أنّ الّذي يُؤَدّي شهادَتَه انطلاقًا من خِبْرته ومعرفته هو شاهد، وليس بشهيد، وأنّ الّذي يُؤَدّي شهادته انطلاقًا من سَمْعه ورُؤيتِه هو شهيد، وليس بشاهد.

(1) وهذا أحد وجوه تفسير وصْف الشَّاهد في القِصّة من أقوال المفسّرين، قال القرطبيّ لمّا ذَكر تحيّد هذا الشّاهد: وهو الصَّحيح في هذا الباب. ينظر: القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 06/321.

(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّةُ، ص: 292.

﴿فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ ۖ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ۝٢٨﴾ [يوسف: 28]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

ربط حيثيّات المحاكمة بالحُكم، والإقرار ببراءة يوسف عليه السلام من الاتّهام

لمّا كانت القرينةُ في صالِح يوسف عليه السلام، وأنَّه بريء، وتحقَّقَ الزّوج مِن كذب امرأته، قال: ﴿إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ﴾؛ أيْ: هذا الاتّهام من جملة كيْدكنّ أيّتها النِّسوة[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿كَيْدِكُنَّ﴾: حيلتكُنَّ، وصَنيعِكنَّ، وأصلُ (كيد): يدُلُّ على مُعالَجةٍ لشيءٍ بشِدَّةٍ، والكَيْدُ: ضَرْبٌ مِن الاحتيالِ، وقد يكونُ مذمومًا وممدوحًا، وإنْ كان يُستعمَلُ في المذمومِ أكثرَ[2].

المَعْنى الإجْماليُّ:

تبرئة العزيز ليوسف عليه السلام، وعِتاب زوجته على اتّهامها له بالإفْك

لمَّا شاهَد العزيز أنَّ قميص يوسف عليه السلام، شُقَّ مِن خلْفه تحقَّق من صدْق يوسف، وقال لزوجته: إنَّ اتّهامكِ له بما وقعْتِ أنت فيه، من جملة مَكْرِكُنَّ - معشر النّساء - إنَّ مَكْرَكُنَّ مكرٌ قويّ[3].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالة (الفاء) العاطفة في ﴿فَلَمَّا﴾:

تَرتُّب ما بعدها على ما قبلها مع دلالتها على التَّعقيب والسُّرعة في وُقوع ما بعدها

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ﴾؛ أيْ: فَلَمَّا نظر إلى القميص، ورأى الشَّقَّ من الخلْف، أَيْقَنَ بِصِدْقِ قولِه واعتقد كذِبَها[4]، والفاء

(1) الزّحيليّ، التَّفسير الوسيط: 2/1103.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرَّاغب الأصفهانيّ، المفردات: (كيد)، وابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 507، وابن جرير، جامع البيان: 13/113.
(3) لجنة من عُلماءِ الأزهر، المنتخَبُ، ص: 335، ونُخْبة من أساتذة التَّفسير، التَّفسير المُيَسَّر، ص: 238، وجماعَةٌ من علماء التَّفسير، المُخْتَصَر، ص: 238.
(4) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 12/135.

هنا للتَّعقيب مع السَّببيَّة؛ أيْ: إنّ قولها: ﴿مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ﴾، لِمَا مَرَّ من أنّ المُراد منه اتّهام يوسف عليه السلام، بإرادة سُوءٍ لها، والتَّعريض بأنَّه يستحقُّ أحد الأمريْن، إمَّا الحَبس أو عذاب أليم، فبهذا الاعتبار جَعَلَ هذا القول مِنْ كَيْدِها؛ لأنَّها بسبب هذا القول تُريد تَعْذيبهُ[1]، وليس بيْن قولها ورؤية شَقِّ القميص من الشَّاهد أو العزيز إلّا أن الْتَفَتَ يوسف بظَهْره إليه، أو الْتَفَّ العزيز نَحْوَ ظَهر يوسف، ليَراه ويتفَحّصهُ.

معنى الفعل ﴿رَءَا﴾ ودلالته:

بيان أهميَّة الرُّؤية العينيَّة البصَريَّة في إثبات العِلم، وإقامة الدَّليل على البراءة

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ﴾؛ أيْ: فَلَمّا رَأى السَّيّدُ، وقيل: الشَّاهدُ، والفعل من الرُّؤية البصَريَّة أو القلْبيَّة؛ أيْ: فلمّا عَلِمَ قَميصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ، قالَ: إنَّهُ من كيْدكُنّ[2]، ومَن قال: إنّ الرّؤية هنا قلبيّة، قدّر الكلام على أنَّ عزيز مصْر، كأنَّه لَم يكُن رأى ذلك، أو أنّه قد يكون لَم يتدبّره قبل كلام الشَّاهد، فلمَّا تنبّه عليه، وعلِم حقيقة الحال، وعرَفَ خيانة امرأته، وبراءة يوسف عليه السلام ﴿قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ﴾[3]، والظَّاهر في الرُّؤية هُنا اجتماع المعْنيَين؛ لأنَّه كان حاضرًا في مكان الحدث، فلمَّا رأى بِعَيْنَيهِ القميص مَشقوقًا من خلْفه، علِم كذِبَ زوجته وصدْقَ يوسف وبراءته ممَّا قذفَتْه به[4].

دلالة إضمار فاعل ﴿رَءَا﴾:

بيان أنَّ الرَّائي والقائل هو العزيز نفْسه؛ لأنّه هو الحاكم القادر على لَوْمها

قوله: ﴿فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ﴾، بمعنى: الّذي رَأى قميصه قُدَّ من دُبُرٍ وقال: ﴿إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ﴾ هو العزيز لا مَحالة، وقد استبانت لديه براءة يوسف عليه السلام من الاعتداء على المرأة، فاكْتفى بلَوْم زوجه، بأنَّ

(1) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 10/303.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 6/414.
(3) القنّوجيّ، فتح البيان: 3/407.
(4) الدُّرّة، تفسير القرآن الكريم: 4/573.

ادّعاءها عليه من كيد النِّساء[1]. وقوله: ﴿إِنَّهُۥ مِن كَيۡدِكُنَّۖ﴾ دليل على أنَّ الكلام الموَجَّه لِامْرأة العزيز، لا يَجرؤ عليه غيره.

دلالة (لمّا) الظَّرفيَّة:

الدّلالة على ترتيب الحُكم، قبل رؤية القميص والنُّطق به بعده

لفظ ﴿فَلَمَّا﴾ في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٖ قَالَ﴾ بمعنى (حين) مُتضمِّنة معنى الشَّرط في محلِّ نصْب متعلّق بـ (قال)[2]. وهذا الظَّرف يَدُلُّ على أنَّه رَتَّب الحُكم قبل أنْ يَرى القميص، وقرَّر المبدأ أوَّلًا في غَيبة رؤية القميص، ثُمَّ رآه بعدها، وهكذا جعلَ الحَيْثيَّة الغائبة هي الحُكم في القضيَّة الشَّاغلة[3].

بلاغة الاختصار في الآية:

تكذيبها وتصديق يوسف عليه السلام؛ عدول عن البحث عن أصل ما وَقَعَ

في قوله ﴿إِنَّهُۥ مِن كَيۡدِكُنَّۖ﴾، تكذيبٌ لها، وتصديق له عليه السلام على ألْطَف وجه، كأنَّه قيل: أنتِ الّتي راودْتِه، فلَم يفعل وفرَّ، فاجتذَبْتِه فشققْتِ قميصه، فهو الصّادق في إسناد المراوَدة إليك، وأنت الكاذبة في نِسبة السُّوء إليه، وقيل: الضَّمير للأمر[4] الّذي وَقعَ فيه التَّشاجر، وهو عبارة عن إرادة السُّوء الّتي أُسندت إلى يوسف عليه السلام، وتدبيرِ عُقوبته بقولها: ﴿مَا جَزَآءُ مَنۡ أَرَادَ بِأَهۡلِكَ سُوٓءًا﴾؛ أيْ: إنَّ ذلك من جِنس مَكْرِكُنَّ واحتيالكُنَّ، واختار الزّجّاجُ أنَّ المعنى: إنَّ قولَكِ: ﴿مَا جَزَآءُ مَنۡ أَرَادَ بِأَهۡلِكَ سُوٓءًا﴾ مِن كَيْدِكُنَّ[5]، فرجع الضَّمير في قوله ﴿إِنَّهُۥ﴾، إلى قولها ﴿مَا جَزَآءُ مَنۡ أَرَادَ بِأَهۡلِكَ سُوٓءًا﴾، وفيه عدول عن البحث عن أصل ما وقعَ فيه[6].

بلاغة الالْتِفات في قوله: ﴿إِنَّهُۥ مِن كَيۡدِكُنَّۖ﴾:

مُخاطبة زوجها لها، مُقابلة لخِطابها السَّابق له

في قوله: ﴿قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيۡدِكُنَّۖ إِنَّ كَيۡدَكُنَّ عَظِيمٞ﴾ الالْتِفات

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 12/258.
(2) الدّعاس، إعراب القرآن الكريم: 2/85.
(3) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 11/6924.
(4) الخفاجيّ، عناية القاضي: 5/294.
(5) الزَّجّاج، معاني القرآن: 3/103، والآلوسيّ، روح المعاني: 6/414.
(6) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/269.

الواقع هُنا بخِطابها بلفظ عامٍّ ﴿كَيۡدِكُنَّۖ﴾؛ أيْ: أنْتُنَّ، جاء بمُقابلة خطابها له به إذ قالت: ﴿مَا جَزَآءُ مَنۡ أَرَادَ بِأَهۡلِكَ سُوٓءًا﴾[1]؛ أيْ: أنْتَ. وفي خطابها اكتفاءٌ بلَوْمها بأنَّ ادّعاءها عليه من كيْد النِّساء[2].

سِرُّ إسناد القول لشاهِد واحد:

قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيۡدِكُنَّۖ﴾، أُسْنِدَ القول لواحد، والأصل في مثل هذا - فيما يَقعُ به التَّبكيت - أنْ يُسند القول فيه إلى كلِّ مَن حَضَرَ، لأنَّه مرْئيٌّ مُشاهد رآه الشَّاهد والعزيز؛ لأنَّهم ذَكروا أنَّ الشَّاهد كان حاضرًا. فالأمور قِسْمان: ضروريَّة ونظريَّة، فالأمور الضَّروريَّة لا يحتاج الإنسان فيها إلى غاية، ولا إلى تأمُّلٍ، فلو قيل: (فَلَمّا رَأى قَميصَه قالا)، يُتَوَهَّم أنَّ قطع القميص كان من جهةٍ، يُمكن أن تُضاف إلى القُبل وإلى الدُّبُر، بحيث لا يقطع الرَّأي الواحدُ بإضافتها إلى أَحَدِ الجهتَيْن، حتَّى يشترك في ذلك مع غيره ويتدابرا فيَعلَما، فأُسند (ما) إلى الواحد إفاداته من جهة الدُّبُر، صِرفًا بحيث لا يحتاج فيه إلى تأمّل، ولا إلى مُشارَكة غيْرٍ[3].

إفادة أنّ هذا القول لا يُحتاج فيه إلى مُشارَكة غيره؛ لأنَّ الدَّليل مُشاهَد مَرْئيٌّ

دلالة القول ومَقوله في الآية:

وجّه عزيز مصْر كلامه إلى زوجته مُعاتِبًا إيّاها، بقوله: ﴿إِنَّهُۥ مِن كَيۡدِكُنَّۖ﴾؛ أيْ: إنَّ محاولتك اتِّهام يوسف بما هو بريءٌ منه، هو نوْعٌ من ﴿كَيۡدِكُنَّۖ﴾ ومَكْركنّ وحِيَلِكنّ، ﴿إِنَّ كَيۡدَكُنَّ عَظِيمٞ﴾ في بابِه؛ لأنَّ كثيرًا من الرِّجال لا يَفطنون إلى مَراميه، وهكذا واجَه ذلك الرَّجل خيانة زوجه له بهذا الأسلوب النَّاعم الهادئ؛ بأن نَسبَ كيْدها ومكْرَها لا إليها وحْدَها بل إلى الجِنس كُلِّه[4]؛ خَوَرًا وتساهُلًا في العِرض بالتَّعبير بالقول، في موقف يقتضي الفعْل الحازم الرَّادع،

الدَّلالة على الخَوَر والتَّساهل في العِرض بالتَّعبير بالقول دون الفعل الحازم الرَّادع

(1) ملّا حويش، تفسير القرآن العظيم: 3/200.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 12/52.
(3) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/385.
(4) طنطاويّ، الوسيط: 7/347.

على عادة المُتْرَفين من النّاس في قلّة الغَيْرة والرَّخاوة في مواجهة الفضائح؛ والمَيل إلى كِتمانها عن المجتمع.

أَثَرُ التَّوكيد بـ (إنَّ) واسميَّة الجملة:

تَأكيد ما سبق ذِكْرُه من قيام الدَّليل والحجَّة عليها

الكلام في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مِن كَيۡدِكُنَّۖ﴾ موَجَّهٌ لها، وقد قطعَ بصدْقه وكذِبها، مُؤكّدًا لأجْل إنكارها بـ ﴿إِنَّهُۥ﴾[1]. وفي تصدير مَقول القول بـ (إنَّ) واسميّة الجملة، تَأكيد لِما سبَق ذِكْرُه؛ أيْ: مَكْركنَّ مَعْشَرَ النِّسوة واحتيالكنُّ، للتَّخلُّص مِمّا دبَّرتُنّ شيء عظيم مُؤَكَّدٌ لا مِرية فيه ولا شَكَّ، ولكنَّها لمّا أنكرَتْ أكّدَ لها الخبر بإثبات خطيئتها، مُستدلًّا عليها بالسُّنَّة العامَّة لهنّ في أمثالها[2].

سِرُّ خِطاب المرأة بـ ﴿كَيۡدِكُنَّۖ﴾:

دخولُ النِّسوة في صنفها، بتنزيلهنّ منزلة الحَواضِر

في قوله تعالى ﴿إِنَّهُۥ مِن كَيۡدِكُنَّۖ﴾ أسند ما للواحدة إليهنَّ جميعًا؛ لأنّ النِّساء في الجملة صواحِب حِيَلٍ ومَكْرٍ، لتواطُئهنّ على المَكْر، أو رِضاهُنَّ بما تفعل إحداهُنَّ، أو المُراد: إنّ هذا من جملة ما تفعل النِّساء مِثلَه، والخِطاب لها ولهنَّ، أو لهُنَّ داخلة هي فيهنّ، وذلك شامل لها ولجَواريها وسائر النِّساء، وقيل: لها ولجواريها، والصَّحيح العموم[3]، فدخل فيه مَن هُنَّ من صنفها بتنزيلهنَّ منزلة الحواضر[4].

أثر لفظ ﴿كَيۡدِكُنَّۖ﴾:

كَوْنُ النِّساء يجتهدنَ في البراءة من خطاياهُنَّ، بشتَّى أنواع الحِيَلِ والمَكْر

الكيد: فعل شيء في صورةٍ غير المَقصودة للتَّوصّل إلى مقصود[5]، وكيْدها هُنا هو محاولة للتَّنصّل من جُرمِها باتِّهامها له بضروب الحِيَل والمَكْر المعروفة عن النِّساء، فتجدهُنّ مُجتهدات في

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 10/69.
(2) رشيد رضا، تفسير المنار: 12/288.
(3) أطْفَيِّش، تيسير التَّفسير: 7/105.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 12/258.
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتّنوير: 12/258.

التَّجَشُّم والغُنْجِ والدَّلال، وتقليب طرْفهنّ، وكشْف زينتهنّ، ولطافة حركاتهنّ، ولطافة كلامهنّ، وحيث يقمن بهذه الرُّعونات على مَنْ له لَطافة وظَرافة ورِقّة طبْع وأهليَّةٌ للعِشق، فأين إبليس مِنهنّ؟[1] وهو سُنَّة عامَّة في أغلبهنَّ، وإذا وقَعْنَ في المحظور فهُنَّ يجتهدن في البراءة من خطاياهنّ، ما وجدْنَ إلى ذلك سبيلًا، فيَتظلَّمْنَ وهُنَّ الظّالمات[2].

سِرُّ استعمال حرْف الجرِّ ﴿مِن﴾:

الدّلالة على التَّبعيض إشعارًا بخطورة كيد النِّساء المُتجسِّد في هذا الموقف

قوله ﴿مِن كَيۡدِكُنَّۖ﴾؛ أيْ: ناشئٌ من جِنس احتيالكُنَّ - أيَّتُها النِّساء - ومَكْرِكُنَّ[3]، وأنَّ تدبير المَكر بالرِّجال من بعض كيْدكنّ وتدبيركنّ مَعْشَرَ النِّسوة، فهُنّ أكثر تَلَطُّفًا واحتيالًا للوصول إلى أهدافهنّ من الرِّجال؛ ولأنَّ ذلك يتناسب وطبيعة هذه الطّبَقة المُترفة من النّساء، الّتي تجِدُ سَعَةً من الوقت؛ لتدبير الكيْد وإحكام المَكْر[4]، وفيه إشعارٌ بخطورة كيْد النِّساء الّذي رآه مُجَسَّدًا في هذا الموقف رأْيَ العين.

نكتة تعميم الحُكم على جنس النِّساء:

التَّنبيه على عَراقة النّساء في الكيْد

تعميم الخِطاب للتَّنبيه على أنَّ ذلك خُلُقٌ لهُنّ عَريق[5]، قال الشَّاعر:

فَلَا تَحْسِبَنْ هندًا لَهَا الغدْر وَحدهَا *** سَجيَّةَ نفْسٍ كُلُّ غانيةٍ هِنْدُ[6]

سِرُّ الوصْف بِعِظَمِ الكيْد في الآية الكريمة:

الشَّيطان يُوَسوس مُسارَقة، والنّساء يواجِهْنَ بمَكرهنّ الرِّجال

قوله تعالى: ﴿إِنَّ كَيۡدَكُنَّ عَظِيمٞ﴾، والعظيم: ما يَنْقُصُ مقدارُ غيره عنه حِسًّا أو معنًى، فإن قيل: كيف وُصِفَ كيْد النِّساء بالعِظَم مع قوله تعالى: ﴿وَخُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ ضَعِيفٗا ٢٨﴾ [النِّساء: 28] وهَلّا كان

(1) البقليّ، عرائس البيان: 2/165.
(2) الهرريّ، حدائق الرّوح والرَّيحان: 13/382.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 6/414، وحقّي، روح البيان: 4/242.
(4) شحاتة، تفسير القرآن الكريم: 12/2319.
(5) حقّي، روح البيان: 4/242.
(6) البيت لأبي تمّام، من الطّويل، يُنظر: العسكريّ، جمهرة الأمثال: 1/62، والميدانيّ، ومجمع الأمثال: 2/162.

مَكْر الرِّجال أقوى من مَكر النِّساء؟ فالجواب: أنَّ الإنسان ضعيف بالنِّسبة لخَلْق ما هو أعظم منه، كخلْق السَّموات والأرض، كما أنّ كيْد النّساء أدَقّ من كيْد الرِّجال وألطَف وأخفى؛ لأنَّ الشَّيطان عليهنَّ لنَقْصهنّ أقْدَرُ، ومَكرهُنّ في هذا الباب أعْظَم من كيْد جميع البشَر؛ لأنّ لهُنّ من المكْر والحِيَل والكيْد في إتمام مُرادِهنّ ما لا يَقدر عليه الرِّجال في هذا الباب؛ ولأنَّ كيدهنَّ في هذا الباب يُوَرِّث العار ما لا يُوَرِّثهُ كيْد الرِّجال[1]، كما أنَّ كيدهنَّ ألصَقُ وأعْلَق بالقلب وأشدّ تأثيرًا في النَّفس؛ أيْ: مِن كيْد الرِّجال، فَعِظَمُ كيْد النِّساء على هذا بالنِّسبة إلى كيْد الرِّجال، ولأنَّ الشَّيطان يُوسوس مُسارَقة وهُنَّ يواجِهْنَ به الرِّجال، فالعِظَمُ بالنِّسبة إلى كيْد الشَّيطان. وأُثِر عن بعض العُلماء قوله: أخافُ من النِّساء ما لا أخاف من الشَّيطان؛ فإنَّه تعالى يقول: ﴿إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ۝٧٦﴾ [النِّساء: 76] وقال للنّساء: ﴿إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾[2].

فائدة التَّذييل في آخر الآية:

بيان كون العبارة ممّا سارَ على الألسِنة مَسار الأمثال في المواقف المشابِهة

(كيد النِّسَاء) يُضْرب بِهِ المَثل في كلّ زمان ومَكان، قالَ بعض السَّلف: إنّ كيد النِّسَاء أعظَم من كيد الشَّيْطَان، كما أسلفنا، فَإِنْ قيل: إن هذا الكَلام لم يحكِه الله عن نفسه، وإنّما حَكاه عن غيره، حيْث قال: ﴿إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ ۖ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾. قيل: قد صَدقتُم، والصِّفة على ما ذكرْتُم، إلّا أَنّ الكلام لو كان مُنْكَرًا لأنكره الله تعالى، ولو كان مَعيبًا لعابه تعالى وقد حكاهُ الله تعالى وَلم يَعِبْهُ، وجعله قُرْآنًا وعظّمه بذلك، والمعنى ممّا لا يُنكَر في العقل، ولا في اللُّغَة ولا في الكَلام[3].

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 10/69 - 70، والشّربينيّ، السّراج المنير: 2/117.
(2) حقّي، روح البيان: 4/242.
(3) الثّعالبيّ، ثمار القلوب، ص: 305.

وإنَّما وُصفَ كيْد النِّساء بالعِظَم، وكيْد الشَّيطان بالضَّعف؛ لأنَّ كيد النِّساء أقوى، بسبب أنَّهن حَبائلُ الشَّيطان، فكيدهُنَّ مَقرون بكيد الشَّيطان، فهُما كَيدان، بخلاف كيْد الشَّيطان دونَهنَّ فكيد واحد[1]. ولِربَّات القُصور مِنْهُنَّ القِدْحُ المُعَلّى مِن ذلك؛ لأنَّهن أكثر تَفَرُّغًا من غيرهنّ، مع كثرة اختلاف الكياداتِ إليهنَّ، فَهُنَّ جوامع كَوامل، ولِعظَم كيد النِّساء اتّخَذهنَّ إبليس عليه اللَّعنة وسائلَ لإغواء من صَعُب عليه إغواؤهُ[2].

دلالة التّشابُه اللَّفظيّ في الآية:

ضَعف كيد الشَّيطان بالنّسبة إلى كيد الرّحمن، وكيد النِّساء بالنِّسبة إلى كيد الرِّجال

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مِن كَيۡدِكُنَّۖ إِنَّ كَيۡدَكُنَّ عَظِيمٞ﴾، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ كَيۡدَ ٱلشَّيۡطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ٧٦﴾ [النّساء: 76]، عَظَّم اللّه كيد النِّساء، وأضعَف كيد الشّيطان بقوله: ﴿إِنَّ كَيۡدَ ٱلشَّيۡطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ٧٦﴾ [النّساء: 76]: وسبَبُ ضَعْفِ كيد الشَّيطان هاهُنا، أنَّه قبيح الصُّورة، شنيع المنظر، لا يقدر على الرِّجال إلّا بالوسوسة، وهُنَّ بحُسنهن حبائل للشَّهوات يَجرّون بها الجبال، وقد قال ﷺ: «ما تَرَكْتُ من بَعدي فتنة أضرَّ على الرِّجال من النِّساء»[3]. ومن الاختلاف بين الكَيْدَيْن، كون ضَعف كيد الشَّيطان، إنَّما هو في مُقابَلة كيد اللّه تعالى، وعِظَم كيدهنّ إنَّما هو بالنِّسبة إلى كيد الرِّجال[4].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الكيدُ والمكرُ:

المَكر ما يكون بَعد نظَرٍ وتَفَكُّرٍ، والكيد آكَد منهما وأشدُّ

ظاهر كلام أهل اللّغة: أنَّ الكيد والمكر مُترادفان، وقد فرّق بينهما بعض فقهاء اللّغة، فقال: الكيْد: المَضرّة، والمَكْر: إخفاء

(1) الصّاويّ، حاشية الصّاويّ على الجلالين: 2/170.

(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 6/414.

(3) الحديث مُتَّفق عليه من حديث أسامة بن زيد ﷺ، البخاريّ، صحيح البخاريّ، كتاب النّكاح، بَابُ مَا يُتَّقَى مِنْ شُؤْمِ المَرْأَةِ، برقم: (5096)، ومسلم، صحيح مسلم، كتاب الرّقاق، باب أكثر أهل الجنَّة الفقراء وأكثر أهل النّار النِّساء وبيان الفتنة بالنِّساء، برقم: (2740).

(4) حقّي، روح البيان: 4/242.

الكيْد، وإيصال المَضرّة، وقيل: الكيد: الأخذ على خفاء، وهو ضربٌ من الاحتيال، وقد يكون مذمومًا وممدوحًا، وإنْ كان يُستعمل في المذموم أكثر[1] ولا يُعدّ فيه إظهار خِلاف ما أبْطَنه، ويُعدّ ذلك في المَكر[2].

والكيْدُ – في حقِّ المخلوقِ – لا يكونُ إلّا بعد تدبُّر وفِكْرٍ ونظَرٍ، وأمّا المكر، فهو مِثْل الكيْد في كَوْنه – في حقِّ المَخلوق – لا يكون إلّا بَعْد فكْر ونظَر، إلّا أنَّ الكيْد أقوَى مِنَ المَكر[3].

والكَيْد يتعدَّى بنفْسه، والمكْر يتعدَّى بحرْف، فيُقال: كادَه يَكيدُه، ومَكَرَ به، ولا يُقال: مَكَرَه والّذي يتعدَّى بنفْسه أقوى، والمكْر – أيضًا – تقديرُ ضرر الغَيْر، مِن أنْ يفعلَ به، ألا تَرى أنَّه لو قال له: أقدرُ أنْ أفعلَ بك كذا، لَم يكُن ذلك مَكْرًا، وإنَّما يكون مَكْرًا إذا لَم يُعْلِمْه به، والكَيْد اسمٌ لإيقاع المكْروه بالغير قهْرًا، سواءً علِم أم لا[4]. ولِعِظَم الّذنب الّذي ارتكبَتْه امرأة العزيز ناسَب أنْ يخاطبها زوجها بالفعل الأقوى، والأشدّ وَقْعًا.

(1) الرّاغب، المفردات: (كيد).
(2) الزَّبيديّ، تاج العروس: (كيد).
(3) العسكريّ، الفروق اللُّغويَّة، ص: 213، 508، والكفويّ، الكلّيّات، ص: 771.
(4) العسكريّ، الفروق اللُّغويَّة، ص: 259.

﴿يُوسُفُ أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَاۚ وَٱسۡتَغۡفِرِي لِذَنۢبِكِۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلۡخَٰطِـِٔينَ ٢٩﴾ [يوسف: 29]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

توجُّه العزيز ليوسف عليه السلام بكتم الأمر بعد انكشاف فضيحة زليخا

بعدما ظهرَتْ براءة يوسف عليه السلام؛ اتَّجَه العزيز إليه بالخِطاب، طالبًا منه أنْ يكتُمَ الأمر، ولا يَفضح الزَّوجة[1]، آمرًا إيّاه بالإعراض، وإيّاها بالاستغفار والتَّوبة[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَعۡرِضۡ﴾: اتْرُكْ، مِن أعرضَ عن الشَّيء يُعرض إعراضًا؛ إذا وَلّاه ظَهْرَه، فهو مُعرِض، والعرْضُ بِناءٌ تَكْثُرُ فُروعُهُ وترْجعُ إلى أصلٍ واحد وهو الّذي يُخالِفُ الطّولَ، وأعرَضَ عنّي؛ أيْ: ولّى مُبديًا عرْضَه[3]، والمعنى هُنا: اتْرُكْ ذِكْر ما كان منها واكْتُمهُ فلا تَذْكرْه لأحدٍ[4].

2) ﴿وَٱسۡتَغۡفِرِي﴾: الغَفرُ السَّتْر، تَقول: غَفَرتُ كَذا إذا سَتَرتَهُ، ومِنْه قيل: لِجُنَّة الرَّأْس: مِغْفر؛ لأنَّهُ يغْفر الرَّأْس، وأصل الغَفْر: السّتْرُ والتَّغطيَة، وغَفَر اللّه ذنوبَه؛ أيْ: سَترها ولَم يَفْضَحهُ بها على رُؤوس المَلأ[5]، والمعنى هُنا: اطْلُبي المَغفرة واعْتَذري إلى زوجك مِن ذنبك[6].

3) ﴿ٱلۡخَٰطِـِٔينَ﴾: يُقال: خَطِئَ الرَّجلُ يَخْطَأُ خِطْأً؛ إذا تَعَمَّد الذَّنْبَ، فهو خَاطئ، وأصل (خطأ) يَدُلُّ عَلى تَعَدِّي الشَّيْء والذَّهابِ

(1) شحاتة، تفسير القرآن الكريم: 12/2319.
(2) السَّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 396.
(3) ابن منظور، لسان العرب، والسّمين الحلبي، عُمدة الحُفَّاظ: (عرض).
(4) النَّيسابوريّ، غرائب القرآن: 4/81، وابن عادل، اللّباب: 11/73.
(5) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة، والرَّاغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحُفَّاظ، وابن فارس، مقاييس اللُّغة: (غفر).
(6) السَّمرقنديّ، بحر العلوم: 2/189.

عنه، ومِنهُ الخَطّاء؛ لأنّه مُجاوَزَةُ حَدِّ الصَّوابِ، والمعنى هُنا، أي: الآثِمين المُنحرِفين إلى الشَّرِّ[1].

المَعْنى الإجْماليُّ:

قال عزيز مصر ليوسف عليه السلام: يا يوسف، اضرب عن هذا الأمر صفحًا، ولا تَذكُره لأحدٍ، واطْلُبي - أيّتها المرأة - المغفرة لإثْمِك، إنّك كنت من الآثمين الّذين تعمّدوا الوقوع في الخطأ وارتكاب الإثم، واتّهموا غيرهم بما أَثِموا هم به[2].

توجُّه العزيز بالخِطاب ليوسف بكِتْمان الأمر، ولزليخا بالاستغفار من الوِزْر

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغة حذف حرْف النِّداء في ﴿يُوسُفُ﴾:

في قوله تعالى: ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا﴾ حُذِفَ حرْف النِّداء؛ لأنَّه مُنادًى قريب مُناطٌ بالحديث، وفيه تقريب له وتَلْطيف لمحلّه[3].

الإشارة إلى قُرب المُنادى، والتَّلطُّف به وجبْر خاطره

دلالة فعل الأمر ﴿أَعْرِضْ﴾:

قوله تعالى: ﴿أَعْرِضْ﴾؛ أي: انْصَرف بكُلّيتك مُجاوزًا[4]؛ وفي هذا الأمر تسلية له؛ إذ لا إثم فيه، أو: ﴿أَعْرِضْ﴾ عن هذا القول تصديقًا له في براءته، وهو طَلَبٌ من الزَّوج؛ لأنَّه لَم يكُن غيورًا، أو سَلَبَهُ اللّه تعالى الغَيرة إبقاءً على يوسف وحفظًا له من بادِرَته[5].

بيان التَّسلية ليوسف عليه السلام، والتَّصديق على براءته

سِرُّ لفظ الإشارة ﴿هَٰذَا﴾:

قوله تعالى: ﴿أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا﴾؛ أيْ: اكْتِم الأمر الّذي دارَ بَيْنَك وبينها، ولا تَتَحدَّث به خَوفًا مِن الفضيحة، وحفاظًا على كرامتي

إشارة إلى قبْح الأمر وعاره، حتَّى لا ينتشر خبرُها، فيحصل العار بانتشاره

(1) الواحديّ، الوجيز، ص: 544.
(2) لجنة من عُلماءِ الأزهر، المنتخَبُ، ص: 335، ونُخْبة من أساتذة التَّفسير، التَّفسير المُيَسَّر، ص: 238، وجماعَةٌ من علماء التَّفسير، المُختَصَر، ص: 238.
(3) الزّمخشريّ، الكشَّاف: 2/461، والبيضاويّ، أنوار التَّنزيل: 3/161.
(4) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 10/70.
(5) العِزُّ ابن عبد السَّلام، تفسير العِزِّ ابن عبد السَّلام: 1/301.

وكرامتها[1]، فالإشارة بقوله: ﴿هَٰذَآ﴾ إلى الواقعة حتَّى لا ينتشرَ خبرُها، ولا يحصلَ العار العظيم بسببها[2].

نكتة إبراز اسم يوسف:

الإيناس ليوسف عليه السلام بذِكر اسمه، تكريمٌ لعِفَّته وصِدْقِه

نداء يوسف عليه السلام باسْمه في قوله تعالى: ﴿يُوسُفُ أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَآۖ﴾؛ تقريبٌ له وتلطيف وإزالة لخوفه[3] وتسكين لرَوْعه، فقد تتابعتْ عنه الأهوال في هذه الحادثة، من مراوَدة امرأة العزيز له عن نفْسه، وتغليق الأبواب عليه، ومِن اتّهامه بحَضرَةِ العزيز الّذي أحسنَ مَثواه مع جمْع من الحاضرين، ومن تخويف وتهديد بالسّجن أو العذاب الأليم؛ فكلُّ هذا جعَلَ العزيز يُلاطفه، ويُسكّن رَوْعته بذِكر اسمه، بعد ما تَبيّنت براءتُه، وظَهَر صدْقه.

دلالة الخِطاب ليوسف ابتداءً:

غرض الالتماس والرَّجاء، صَون السُّمعة، وحِفظ المقَام

في قوله تعالى: ﴿أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَآۖ﴾ أمرَ العزيز يوسفَ عليه السلام بالإعراض عمَّا رمَتْه به زوجته؛ أيْ: عَدم مؤاخَذتها بذلك، وأمرَهُ بالكفّ عن إعادة الخَوض فيه[4] مُبالغةً في السّتر وصَون السُّمعة، خصوصًا وأنّ المقام مَقامُ مُلْك، والفضيحة في هذه الفئَة من النّاس مِن أصحاب النّفوذ سريعة الانتشار، بدليل أنّها انتشرَتْ بعد هذا الحادِث مباشرة، وخاض فيها نِسوة المدينة مع الدّعوة إلى التَّكتُّم عليه.

بلاغة أسلوب الالتفات:

التَّفنُّن بالإقبال عليها بالخِطاب، بعد صرْفه إلى غيرها

في قوله: ﴿إِنَّهُۥ مِن كَيۡدِكُنَّۖ﴾، و﴿يُوسُفُ أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَاۖ وَٱسۡتَغۡفِرِي لِذَنۢبِكِۖ﴾، كافُ المؤنَّثة المخاطَبة في ﴿لِذَنۢبِكِۖ﴾، مُتعيِّن أنَّه خِطاب لامرأة العزيز، فالعزيز بعد أنْ خاطبَها بأنَّ ما دبَّرَته هو من

(1) طنطاويّ، التَّفسير الوسيط: 7/347.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 18/447.
(3) أبو حيَّان، البحر المحيط: 6/262.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 12/259.

كيد النِّساء، وجّه الخطاب إلى يوسف ﷺ بالنِّداء، ثُمَّ أعاد الخِطاب إلى المرأة. وهذا الأسلوب من الخطاب يُسمّى بالإقبال، وقد يُسمَّى بالالتفات، بالمعنى اللُّغويّ في الالتفات البَلاغيّ، وهو عزيز في الكلام البليغ، ومنه قول الشَّاعر:

إِخَالُكَ مُوعِدِي بِبَنِي جَفِيفٍ *** وَهَالَةَ إِنَّنِي أَنْهَاكَ هَالَا[1].

فقوله (إخالُ) ضرْبٌ من الاستهانة، يقول: أحْسَبُك تُهَدِّدُني ببَني جفيفٍ وبِهالة، ثُمَّ أقبَلَ على هالة، فقال: إنّي أزْجُرُك عن التَّحكُّك بنا، ونُصرة مَن يُنابذنا، والعرَب تَجْمع في الخطاب والإخبار بيْن عِدَّةٍ، ثُمَّ تُقبِل أو تَلْتفت مِن بينِهم إلى واحد؛ لكَونه أكبرهم أو أحسَنَهم سَماعًا، وأخصَّهم بالحال[2].

دلالة العطْف في ﴿وَٱسۡتَغۡفِرِي﴾:

جملة: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرِي لِذَنۢبِكِۖ﴾، عطْفٌ على جملة: ﴿يُوسُفُ أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَاۚ﴾، وهو في كلام العزيز عَطْفُ أمرٍ على أمْر، والمأمور مُخْتلِفٌ[3].

سِرُّ إيثار لفظ ﴿ٱلۡخَٰطِـِٔينَ﴾:

قوله تعالى: ﴿إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلۡخَٰطِـِٔينَ﴾؛ أي: العَريقين في الخطأ بغاية القُوَّة، ويُقال: خَطِىءَ يَخْطَأُ؛ إذا أذنبَ مُتعمِّدًا[4].

نكتة التَّعبير بـ ﴿ٱلۡخَٰطِـِٔينَ﴾:

اختار البيان القرآنيّ التعبير بـ ﴿ٱلۡخَٰطِـِٔينَ﴾، ولَم يَقُل: (من الخاطئات)؛ لأنّه لَم يَقصد به الخبَر عن النّساء، بل قصدَ به الخبر عمّن يفعل ذلك، وتقديره: من القوم الخاطئينَ؛ كقوله تعالى: ﴿وَكَانَتۡ مِنَ ٱلۡقَٰنِتِينَ ١٢﴾ [التَّحريم: 12][5]، وصيغَةُ جَمْعِ المُذَكَّرِ تَغْليبٌ

الدّلالة على اختلاف المأمور به

مَلْمَح التَّعمُّد والإصرار والتَّرصُّد، واضِح في العِبارة

جاء لفظ (الْخَاطِئِينَ) عِوَضَ (الخاطئات) للتَّغليب

(1) التَّبريزيّ، شرح ديوان الحماسة: 1/85، والبيت من الوافر، ويُنسب إلى بعض بني جرم مِن طيّئ.
(2) المرزوقيّ، شرح ديوان الحماسة، ص: 181، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 12/259.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 12/259.
(4) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 10/70.
(5) البغويّ، معالم التّنزيل: 2/488.

لجِنس الرِّجال على النِّساء؛ لأنَّ الجمع بـ: ﴿ٱلۡخَاطِـِٔينَ﴾ أَعَمُّ[1]. وعبَّر بهذه الصّيغة؛ ليُخَفِّف على نفْسِها وقْعَ هذه التُّهمة الّتي واجَهَها بها، فلا يجعل تلك الخطيئة مقصورةً على بنات جِنسها وحدَهنَّ، بل يُشاركهنّ الرِّجال فيها، وهو منهم، فلا عليها إذَن أنْ تستغفر لذنبها هذا الّذي كان النَّاس مِن نساء ورجال مُعرَّضين له، فإذا كُنتِ قد أخطأتِ فما أكثر الخاطئين قبْلَ الخاطئات! خصوصًا وقد رأيْنا مِن قبل كيف أنَّه لَم يُواجهها بالتُّهمة في شخصها، بل واجهها بها في بنات جنسها: ﴿إِنَّهُۥ مِن كَيۡدِكُنَّۖ﴾[2].

دلالة حرْف الجرّ في قوله: ﴿مِنَ ٱلۡخَاطِـِٔينَ﴾:

جَعْلُها من زُمْرة الّذين أَخْطَؤوا، تخفيفًا في مؤاخَذتها

كان عزيز مصْر قليلَ الغَيرة، وقيل: كان حليمًا عاقلًا، ولعلَّه كان مُولَعًا بها، أو كانت شُبْهة المِلْك تُخَفِّف مؤاخَذة المرأة بمراوَدة مَمْلوكها[3]؛ وعلى كُلِّ هذه التَّقديرات، جَعَلَها من زُمْرة الّذين أَخْطَؤوا تخفيفًا في مؤاخذتها.

نكتة الإسناد في ﴿لِذَنۢبِكِۖ﴾:

الدّلالة على عدم عَزْمه على عِقابها

اتَّهم بعض المفسّرين عزيز مصْر في قوله: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرِي لِذَنۢبِكِۖ﴾، بأنَّه كان ناقصًا في رُجولته، ولَم يكن له أربٌ في النِّساء؛ لأنَّه استقبل فَعْلة امرأته بهذا الاستخفافِ والبُرود! وهذا تعليل فيه نظَر؛ إذ المعروف أنّ مَن كان في رجولتهم شيء مِن النَّقص، داروه بتلك الغَيرة الزَّائدة المُجاوِزة لكلِّ حَدٍّ! ولعلَّ أقربَ تعليل لموقف العزيز هذا، هو أنَّه كان يَنْظُر إلى يوسف عليه السلام نظْرتَه إلى ابنه، وأنّ ما كان من امرأته لَم يكُن إلّا نَزوةً طائشة، أَعْمَتْها عن أنْ تنظُرَ إلى يوسف عليه السلام نظرة الأمّ إلى ولدها، وأنّها سرعان ما تعود إلى رُشدها،

(1) ابن عطيَّة، المُحرَّر الوجيز: 3/237.
(2) الخطيب، التَّفسير القرآنيّ: 6/1261.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 12/258.

وتُصحّح نظْرتها إليه، لذا دعاها إلى الاستغفار وطلَبِ الصّفح، وهذا هو الّذي يَشهَد به واقع الحال، وهو أنَّ العزيز، وهو صاحِب هذا المَقام في قومه، ما كان له أنْ يفضحَ نفْسه وأهلَه على الملأ، وأن يستدعيَ مَن يحتَكم إليه، في أمْرٍ شهِده هو بنفْسه، واطّلع عليه من غير أن يَدلَّه عليه أحَد! وإنَّه لمِن السَّفاهة والحُمْق، بل والعَجْز، أن يُعَرِّض العزيزُ مكانته وشرفَه وشرَف أهله لهذه الفضيحة على الملأ، فيصبح هو وزوجه على ألسِنة النَّاس، يُطلقون فيهما قالَةَ السُّوء، ويولّدون من هذا الحدَثِ أحْداثًا، تنمو وتتضخّم على الأيام! فكان من الحكمة إذًا أن يتدبَّر العزيز أمْرَه بنفْسه، وأن يحصر الأمْر في أضيق حدوده، وأنْ يحسمَه هذا الحسْم الرّشيد، في غير صَخَب وضَجيجٍ[1].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(المغفرة) و(التّكفير):

عند اقتران الذُّنوب والسَّيِّئات، ينصرف معنى الذُّنوب إلى الكبائر، ومعنى السَّيّئات إلى الصَّغائر، وعليه تكون المغفرة للذّنوب، والتَّكفير للسّيّئات[2]، قال تَعالى: ﴿رَبَّنَا فَٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرۡ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلۡأَبۡرَارِ ١٩٣﴾ [آلُ عِمْرَانَ: 193]، فالمغفرة أكمَلُ من لفظ التَّكفير، ولهذا كان مع الكبائر، والتَّكفير مع الصَّغائر؛ وعند الانْفراد يدخل كُلٌّ منهما في معنى صاحِبِه، قال تَعالى: ﴿كَفَّرَ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَأَصۡلَحَ بَالَهُمۡ ٢﴾ [مُحَمَّدٌ: 2]، وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ٥٣﴾ [الزُّمَرُ: 53]. ولأنّ ما جاءَتْ به المرأة مقدِّمة لكبيرةٍ وإصرارٌ عليها، فقد ناسَب أنْ يطلب منها استغفار الذَّنْب.

لفظ المغفرة يتضمَّن الوقاية والحِفظ، ولفظ التَّكفير يتضمَّن السّتر والإزالة

(1) الخطيب، التَّفسير القرآنيّ: 6/1262.
(2) ابن قيِّم الجوزيَّة، مدارج السَّالكين: 1/317.

الخاطئ والمُخطئ:

الخاطِئُ المتعمِّدُ الخطأ، والمُخطِئُ الَّذي لا يَتعمَّدهُ

الخَطأ هو أن يَقْصِدَ المَرْءُ الشَّيءَ، فَيُصيب غَيْرَهُ، واسْمُ الفاعِلِ منه: مُخْطِئٌ، قالَ تَعالى: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ [الأحزاب: 5]، والخِطْءُ مَصْدَرُ خَطِئَ، إذا أصابَ إثْمًا، ولا يَكون إلّا عن عَمْد، واسم الفاعل منه: خاطِئٌ، قالَ تَعالى: ﴿نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ۝١٦﴾ [العلق: 16]، وقال: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُواْ خَٰطِـِٔينَ ۝٨﴾ [القصص: 8]، فالخاطِئونَ الآثمون أصحابُ الخطايا هم الّذين تعمَّدوا الذَّنْب وقصدوه، أمَّا المُخطئون فقد أرادوا الصَّواب، لكنَّهم لَم يُوفَّقوا إليه، فصاروا إلى غيره[1].

وعليه فالخاطِئُ في الدّين، لا يكون إلّا عاصيًا، أمّا المُخْطئُ فلا يُعَدُّ عاصيًا، بل قد يكونُ المُخْطئُ من طريق الاجتهادِ مُطيعًا مأْجورًا، لأنَّه قصَدَ الحَقَّ واجتهد في إصابته[2].

فالفرْقُ بينهما أنّ الخطأ خِلافُ الصَّوابِ في الفعْلِ فقط، وفاعلُه تكون نيَّتُه حَسَنَةً، فهو غير مُتعمِّدٍ، فقد أصاب في الإرادة، وأَخطأَ في الفعل، وأمّا الخِطْءُ فهو الخَطأ التّامُّ في الإرادة والفعل، فمُرْتَكبه سَيِّئُ القَصْدِ مُتعمِّد لِما ارتكبَه[3]. قال الحريريّ في درّة الغوّاص:

لا تَخْطُوَنَّ إلى خِطْءٍ ولا خَطَأٍ *** مِن بعْدِ ما الشَّيْبُ في فَوْدَيْكَ قد وَخَطا

فأيُّ عُذرٍ لِمَن شابَتْ مفارِقُهُ *** إذا جَرى في ميادينِ الهَوى وَخَطا[4]

(1) الجوهريّ، الصّحاح: (خطأ)، وابن منظور، لسان العرب: 1/67، والزَّمخشريّ، الكشَّاف: 4/606، وابن عطيَّة، المُحرَّر الوجيز: 3/277، وأبو حيَّان، البحر المحيط: 8/287.

(2) العسكريّ، الفروق اللُّغويَّة ص: 221.

(3) الأمين الشّنقيطيّ، دفع إيهام الاضطراب، ص: 279.

(4) الحريريّ، درّة الغوّاص في أوهام الخواص، ص: 286، والبيت من البسيط.

﴿۞وَقَالَ نِسۡوَةٞ فِي ٱلۡمَدِينَةِ ٱمۡرَأَتُ ٱلۡعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفۡسِهِۦۖ قَدۡ شَغَفَهَا حُبًّاۖ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ٣٠﴾ [يوسف: 30]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

ذِكر خَوْض بعض النِّساء في الحادثة السَّابقة، بعد شهودها أو السَّماع عنها

بعد الحُكم الّذي أصدره العزيز على يوسف عليه السلام بكتْمان الأمْر، وعلى زليخا بالاستغفار مِن الوِزْر، انتقل الخبَرُ إلى نساء بعض الوزراء، فاجتمَعْن في بيت إحداهُنّ وتَحدَّثْنَ بما هو لَوم لامرأة العزيز؛ إذ راودَتْ عبدًا لها كنعانيًّا عن نفْسه، وهو ما أخبر تعالى عنه بقوله: ﴿وَقَالَ نِسۡوَةٞ فِي ٱلۡمَدِينَةِ﴾[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَتَىٰهَا﴾ الفَتى: الطَّريُّ والكَريمُ مِنَ الشُّبّانِ، والأُنْثى فَتاةٌ، يُقالُ: فَتِيٌّ بَيِّنُ الفَتاءِ؛ أَيْ: طَرِيُّ السِّنِّ، ويُعَبَّرُ بِالفَتى، والفَتاةِ عَنِ العَبْدِ والأَمَةِ[2] وهو المُراد هُنا.

2) ﴿شَغَفَهَا﴾: الشَّغاف: حِجابُ القَلْب، وقيل: حَبَّة القَلْب وسوَيْداؤه، وشَغَفَهُ الحُبُّ، يَشْغَفُهُ شَغْفًا وشَغَفًا: وَصَلَ إلى شَغافِ قلْبِه، وأصْلُ الشَّغَفِ: الإحاطَةُ بالشَّيء مِن ظاهِره، كشَغاف القلب[3]، وشُغِف بالشَّيء: أُولَعَ به[4]، ومعنى: ﴿شَغَفَهَا حُبًّا﴾: غَطّى على قلبِها، وأحاطَ بِهِ كالشَّغاف، ووَصَل حُبُّ يوسف إلى شَغاف قلبِها فدخل تحتَه، حتّى غَلَبَ على قلبِها[5].

3) ﴿ضَلَٰلٖ﴾: الضَّلال ضِدُّ الهُدى، يُقال: ضَلَّ في الأَمْر، يَضِلُّ

(1) الجزائريّ، أيسر التّفاسير: 608/2.
(2) ابنُ منظور، لِسانُ العرب، والسّمين الحلبي، عُمدةُ الحُفّاظ، والرّاغِبُ، المُفرداتُ: (فتى).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (شغف).
(4) ابن سِيده، المُحكم: 5/395، والجوهريّ، الصِّحاح: (شغف).
(5) ابن جرير، جامع البيان: 16/63، والخازن، لباب التّأويل: 2/525.

ضَلالًا؛ إذا لَم يَهْتَد لَهُ[1]، يُقال: ضَلَّ عن الطَّريق: تاهَ وابْتَعَد، وعَكْسُه: اهْتَدى، وضَلَلتُ بَعيري؛ إذا كان مَعْقولًا فلَم يهْتَد لِمَكانِه، وأضْلَلْتُه؛ إذا كان مُطلَقًا فمَرَّ ولَم تَدْر أيْنَ أخذَ، وضَلَّ الشَّيءُ: إذا ضاعَ، وضلَّ الرَّجل، إذا جارَ عن القَصْدِ[2]، ومِن المَجاز: ضَلَّ في الدّين، وقدْ ضَلَّلْتُه: نَسَبْتُهُ إلى الضَّلال، وواقِعٌ في أضاليلَ وأباطيلَ، وقد تَمادى في أضاليلِ الهَوى[3]، وأصْل الضَّلال يدلُّ على ضياعِ الشَّيءِ وذهابِهِ في غَيْرِ حَقِّه[4]، فالضَّلال إمّا العُدولُ عن الطَّريق المُستقيم، وإمّا الغَيْبوبة والضَّياع، والأوَّل يُقابله الهِداية، والثّاني يُقابله الوِجْدان، فهو يُقال لكلِّ عُدولٍ عن المَنهَج عمْدًا كان أو سَهوًا، يسيرًا كان أو كَثيرًا[5]، والمعنى هُنا: في خطأ بَيِّنٍ[6].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

انتشار خبَر امرأة العزيز بيْن النّساء، وخَوْضهنّ فيه كعادة نساء القُصور

انتشر خبَرُها في المدينة، وقالت طائفة مِن النّساء على سبيل الإنكار: امرأة العزيزِ تُحاوِل غلامَها عن نفْسه، قد خالَط حبُّه شَغاف قلْبِها، حتّى وصلَ إلى صميمه، إنّا لنراها - بسبب مُراوَدتها لعَبْدها، وحُبِّها إيّاه - في ضَلال واضحٍ[7].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالة العطْف وموقعه في قوله: ﴿وَقَالَ﴾:

انتقال الخبَر من حدَثٍ داخليّ في القصر، إلى خبر شائع في خارجِه

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي ٱلْمَدِينَةِ﴾ الواو عاطفة لتَتَساوقَ مُجْريات القِصّة[8]، حكاية لِما تناقلَتْه الألسنة عن امرأة العزيز،

(1) ابن دُرَيْد، جمهرة اللّغة: (ضلل).
(2) ابن عبّاد، المحيط (ضل).
(3) الزَّمخشريّ، أساس البلاغة: (ضلل).
(4) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (ضل).
(5) الرّاغب، المُفردات، والسّمين الحلبي، عُمدة الحُفَّاظ: (ضلل).
(6) الثّعلبيّ، الكشف والبيان: 5/217.
(7) لجنة من عُلماءِ الأزهر، المنتخَبُ، ص: 335، ونُخْبة من أساتذة التَّفسير، التَّفسير المُيَسَّر، ص: 238، وجماعَةٌ من علماء التَّفسير، المُخْتَصَر، ص: 238.
(8) الدَّرويش، إعراب القرآن الكريم: 4/480.

فقد جرَت العادة بين النِّساء، أن يتحدَّثن عن أمثال هذه الأمور في مَجالسهنّ، ولا يكْتمْنها خصوصًا إذا كانت صاحبة الحادثة مِن نساء الطَّبقة المَرموقة كامرأة العزيز[1]. وبهذا الحدث تدخل قِصّة يوسف وامرأة العزيز، فصْلًا آخر يكون ميدانه خارج قصر الملك، بانتشار الخبَر في المدينة، وذِكر رَدَّةِ فعْل امرأة العزيز عند انتشار خبَرِها بعد ذلك.

سِرُّ وُرود الفعل ﴿وَقَالَ نِسۡوَةٞ﴾ بالتَّذكير:

لَم يَقُل: (وقالت نسوة)؛ لأنَّ النِّسوة اسم مُفرَد لجمْع المرأة، وتأنيثه غيْرُ حقيقيّ فلذلك لَم يَلحق فعله تاءُ التَّأنيث[2]، كما أنَّ الفعل المُسند إلى ألفاظ الجُموع، غير الجمْع المذكّر السّالم، يجوز تجريدُه من التَّاء باعتبار الجمْع، وأمّا الهاء الّتي في آخر نسوة فليست علامة تأنيث، بل هي هاء (فِعْلَة) جمْع تَكسيرٍ، مثْل: صِبْيَة وغِلْمة[3].

جواز تجريد الفعل من علامة التَّأنيث لجمْع الاسم بعدَه، وكون الاسم مُؤَنَّثًا غير حقيقيٍّ

نكتة جمْع التّكسير ﴿نِسۡوَةٞ﴾:

(النّسوة) اسم جَمْعِ امرأة لا مُفرَد له، وهو اسم جمْع قِلّة، مثلُه نِساء[4]، وقد ذَكَر بعض أهل التَّفسير، أنّ النِّسوة كُنَّ أربَعًا أو خَمْسًا[5]، ولم يُبيِّن لنا التَّنزيل عددهنَّ ولا أسماءهنّ، ولا صفاتِهنّ؛ لأنَّ الفائدة في العِبرة محصورة في أنّ عمَلَهن عملُ جماعة قليلة، يُعْهَد في العُرف ائتمارُهنّ واتفاقهنَّ على الاشتراك في مثل هذا المكر المُنكَر، في مدينة كبيرة كعاصمة مصْر[6].

الدّلالة على أنَّ ذِكر العدد ليس معتبرًا؛ إذِ العبرة بعمل النِّسوة لا بعددهنَّ

بلاغة التّقييد بالوصْف ﴿فِي ٱلۡمَدِينَةِ﴾:

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ نِسۡوَةٞ فِي ٱلۡمَدِينَةِ﴾، الجارّ والمجرور في قوله:

التَّلميح لبيئة الخبر، القابلة أحوالها للإشاعة، وسرعة الانتشار

(1) طنطاويّ، التَّفسير الوسيط: 7/351.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 18/447.
(3) السَّمين الحلبيّ، الدُّرُّ المَصون: 4/172، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 12/260.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 12/259.
(5) الثّعالبيّ، الجواهر الحسان: 3/322، وأبو حيَّان، البحر المحيط: 6/266.
(6) رشيد رضا، تفسير المنار: 12/290.

﴿فِي ٱلۡمَدِينَةِ﴾ صِفة لـ﴿نِسۡوَةٌ﴾، والمقصود من ذِكْرِ هذه الصِّفة أنَّهن كُنَّ مُتَفرِّقات في ديارٍ من المدينة، وهذه المدينة هي قاعدة مصْر السُّفلى[1] وأنَّ النِّساء كُنَّ من أهل الحَضَر المستوطِنات بالمدينة، وهو تلميح لبيئة الخبر، القابلة أحوالها للإشاعة وسرعة الانتشار، والمعنى: قال نسْوة من نساء مدينة مصْر، على سبيل النّقد والتّشهير والتّعجُّب: إنّ امرأة العزيز، صاحبة المكانة العالية، والمنزلة الرّفيعة، بَلَغَ بها الحال في انقيادها لِهَواها، وفي خروجها عن طريق العِفّة، أنّها تُراوِد فَتاها عن نفْسه[2].

ووُصِفن بذلك؛ لأنَّ إغاظَةَ كلامهنّ بهذا الاعتبار لاتِّصافهنَّ بما يُقَوِّي جانب الصِّدق أكثر، فإنَّ كلام البَدَويّات لبُعدِهِنَّ عن مَظانِّ الاجتماع والاطّلاع على حقيقة أحوال الحَضَريَّات القَصْريَّات، لا يُلتفت إلى كلامهنَّ، فلا يغيظ تلك الإغاظة، والكثيرُ على اختيار تَعَلُّقِهِ بـ (قال)، ومعنى كون قَولهن في المدينة، إشاعته وإفْشاؤه فيها[3].

بلاغة حصْر الإشاعة:

بيان كون المناخ الاجتماعيّ والنّفْسيّ مؤهّلًا للإشاعة في الإفشاء والذّيوع

قوله ﴿فِي ٱلۡمَدِينَةِ﴾ وعلى اعتبار الجارِّ والمجرور ﴿فِي ٱلۡمَدِينَةِ﴾، ظَرفًا لِـ(قال)، يكون المعنى: أَشَعْنَ الأمرَ في مصر[4]، لكون المناخ الاجتماعيّ والنَّفْسيِّ مؤهَّلًا للإشاعة في الإفشاء، وهذا معنًى يُعتنى به[5].

دلالة الإضافة في ﴿ٱمۡرَأَتُ ٱلۡعَزِيزِ﴾:

استنكارٌ لفعلها وتَنديدٌ بسقطتها، فيما يَتَنزَّه عنه من هو دونها

لَم يصرّح النّسوة بِاسْم امرأة العزيز، بل أضفْنَها إلى زوجها، إرادةً لإشاعة الخبَر؛ لأنَّ النّفس إلى سماع أخبار أولي الأخْطار أَمْيَلُ؛ والعزيز: المَنيع بقُدْرَته من أنْ يُضام[6]. فذكروها بالوَصْف

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 12/259.
(2) طنطاويّ، التَّفسير الوسيط: 7/351.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 6/416.
(4) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/270.
(5) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 10/305.
(6) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 10/70.

الّذي يُنادي عليها بقبيح فعلها، بكونها ذات بَعْلٍ، فصدور الفاحشة مِن ذات الزَّوج أشنع مِن صدورها ممّن لا زوْج لها، خصوصًا وأنَّ زوجها عزيز مصْر ورئيسُها وكَبيرها، وذلك أقبح لِوقوع الفاحشة منها[1].

الأحداث تكبر، وتصغر، وتَتَّسِع دائراتها أو تضيق، تبعًا لمَن تعلّق به الحدث

أوَّل مَرَّة يكشف القرآن الكريم عن شخصيَّة المرأة الّتي راودَتْ يوسف عليه السلام عن نفْسه، فيُحدِّث عنها بأنّها امرأة العزيز؛ أي: السَّيِّد الحاكم في مصْر، ومن هذا نَعرف أنَّ البيت الّذي ضَمَّ يوسف إليه واحتواه، هو بيْتُ حاكم مصْر، ولَم يَكشف القرآن مِن قبل عن مَرْكز هذه المرأة الاجتماعيّ؛ لأنَّ الأحداث كانت تَجري على المستوى المألوف في حياة النَّاس، عامّتهم وخاصّتهم، على السَّواء فأيُّ بيت كان يُمكِن أنْ يضمَّ يُوسف إليه، وأيُّ امرأة كان مِن المُمكِن أنْ تراوِدَه عن نفْسه، سواء كانت امرأة مَلِكٍ أو سُوقَة، فهي امرأة أيًّا كان وضعها الاجتماعيّ! إذ لَم يكُن ليوسف خيار في اختيار السَّيِّد الّذي يملكه، أمّا حين يكون للحدث ذِكْرٌ يُراد به الكشف عن وَقْعِه في المجتمع، وأثَرِه في النَّاس، فإنَّ الأمر يختلف بالنِّسبة لمَن يتعلَّق به الحدث، من حيث وَضْعُه الاجتماعيّ ومكانتُه في المجتمع، فالحدث يَكبر أو يَصغر، وتَتَّسع دائرته أو تضيق، تبعًا لمَن تعلّق به الحدث. فعلى الرَّغم من أنَّ حادثة امرأة العزيز، كانت في دائرة ضيِّقة، لا تتعدَّى المرأة، ويوسف وزوجَها، إلا أنَّه سُرعان ما نفذت العيون من خدَم القصر إلى هذا السِّرِّ، ووَقعَت الآذانُ عليه، فكان هَمْسًا على الشّفاه، ثُمَّ كان حديثًا دائرًا على الألسنة، أقْرَب إلى الإشاعة منه إلى الحقيقة، وذلك لِما كان من العزيز في مُعالجة هذا الأمر بحِكمةٍ ولُطفٍ وحذَرٍ، والنِّساء هُنّ أكثر النَّاس بحْثًا عن أسرار البيوت، وأقْدَرُهُنَّ على فتْح مِغالقها وكشْفها، وها هي ذي امرأة العزيز

(1) ابن قيِّم الجوزيَّة، تفسير القرآن الكريم، ص: 327.

تصبح هي وفِعْلَتُها مع يوسف حديثَ الطَّبقة العالية في نِساء المجتمع ممّن هُنَّ على مُداناةٍ وقُرْب منها[1].

دلالة قولهنّ: ﴿تُرَٰوِدُ﴾ بالمضارع:

الإنكار عليها، والإشارة إلى أنَّ المُراوَدة، صارت كالسَّجيَّة لها

مَجيء ﴿تُرَٰوِدُ﴾ بصيغة المضارع، مع كون المراوَدة مضَتْ لِقَصْد استحضار الحالة العَجيبة، والإنكار عليها في أنفُسهنّ، ولَومها على صنيعها، ونَظيرُه في استحضار الحالة قوله تعالى: ﴿يُجَٰدِلُنَا فِي قَوۡمِ لُوطٍ ٧٤﴾ [هود: 74][2]؛ كما أنَّهنَّ عبَّرْنَ بالمضارع للدّلالة على دوام المراوَدة، إفهامًا لأنَّ الإصرار على المراوَدة صار لها كالسَّجيَّة[3].

نكتة الإضافة في ﴿فَتَىٰهَا﴾:

المبالَغة في اللَّوم، لِما بينهما من التَّباين البيِّن، النَّاشئ عن المالكيَّة والمَملوكيَّة

إضافة (الفتى) إلى ضمير امرأة العزيز في قوله تعالى: ﴿تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفۡسِهِۦۖ﴾؛ لأنَّه غلام زوجها فهو غلامٌ لها بالتَّبَع ما دامت زوجة لمالِكه[4]، وتعبيرهُنَّ عن يوسف عليه السلام بذلك، مُضافًا إليها لا إلى العزيز الّذي لا تستلزم الإضافة إليه الهَوان، بل ربَّما يُشْعِرُ بنوع عِزَّة، لإبانة ما بينهما من التَّباين البيِّن، النَّاشئ عن المالكيَّة والمملوكيَّة، وكُلُّ ذلك لتربية ما مرَّ من المبالَغة والإشباع في اللَّوم، فإنَّ مَن لا زوج لها مِن النِّساء، أوْ لها زوجٌ دنيء قد تُعذر في مُراوَدة الأخْدان، لا سيّما إذا كان فيهم عُلوّ الجَناب، وأمَّا الّتي لها زوج، كعزيز مصر، فمراوَدتها لغيْرِه لا سيّما لعبْدها وتماديها في ذلك، غاية الغَيّ ونهاية الضَّلال[5].

بلاغة المَجاز في لفظ ﴿فَتَىٰهَا﴾:

بيان ملازمة الفتى لمالكيه، كملازمة الصَّغير لأهله وأقْرَبيه

(الفتى): الطَّريُّ من الشَّباب والسَّخيُّ والكريم، ويُطلَق على

(1) الخطيب، التَّفسير القرآني: 6/1264.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/261.
(3) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 10/71، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/270.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 12/260.
(5) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/270.

المَملوك والخادم، ويُطلَقُ على الشَّهم ذي المروءة، وأُطلِقَ على يوسف عليه السلام؛ لأنَّه جامِعٌ لهذه الصِّفات كُلِّها، ويُكنَّى به عن المملوك وعن الخادم كما يُكنَّى بالغلام والجارية، وهو المُراد هُنا[1]، وإطْلاقُ لفظ (الفتى) على المملوك هنا دون غلامها أو خادمها، مِنْ قَبيلِ المَجازِ المُرْسَل؛ فأُطلِقَ عَلَيْه (فتى) بعَلاقَةِ اللُّزوم؛ لأنَّ المملوك يُعامَلُ مُعامَلَةَ الصَّغير المُلازِم في الخِدْمَةِ وقِلَّةِ المُبالاةِ[2]، وإنَّما عبّروا عنه بلفظ (فتى) مُبالغة باللَّوم عليها[3].

بلاغة الفصْل في جملة: ﴿قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا﴾:

جملة: ﴿قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا﴾، في موْضع التَّعليل لجملة: ﴿تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا﴾[4]؛ وكأنَّ سائلًا سأَلَ: لماذا تُراوِد امرأةٌ مِن الطَّبقة العالية في مجتمعها مملوكَها؟ فجيء بالفصْل تعليلًا لذلك، بأنَّ الدّافع للإقدام على هذا الفعل هو حُبُّها الشَّديد له، الّذي استولى وتمكّن من شَغاف قلبها، فلَم يَعُدْ في قلبها مكان لغير حُبِّ يوسف، وجَعَلَها تَخرج عن مَعهود جِنْسِها، من نساء المُلوك.

تعليلُ ما قبلها ببَيان شِدَّة تعَلُّقها به وحُبِّها له

بلاغة الاستعارة في لفظ (الشَّغف):

قوله تعالى: ﴿قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا﴾؛ أيْ: شَقَّ شغاف قلبها، وهو حِجابه حتّى وَصَل إلى فؤادها[5]؛ أيْ: أعلى المواضع من قلبها، أو وسط القلوب، فحبُّه أحاط بقلبها مثل إحاطة الشّغاف الرَّقيق بالقلب، ومعنى أحاط الحبّ به، هو أنّ اشتغالها بِحُبِّه صار حجابًا بينها وبين جميع ما سوى هذه المحبَّة، فلا يخطر ببالها سواه، ولذا قَدِمَتْ على أمْرٍ يتحيَّر فيه كُلُّ مَن عَداها، فلَو لَم يكُن سلطانُ قواه مغلوبًا لَما

تصوير تمكُّن حبِّها له في قلبها، واستحكامه عليه من جميع النَّواحي

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 12/260.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 5/14.
(3) ملا حويش، تفسير القرآن العظيم: 3/203.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 12/261.
(5) البيضاويّ، أنوار التَّنزيل: 3/161.

فعلَتْها[1] فهي استعارةٌ تصريحيَّة تَبعيَّة تُصَوِّر تمكُّن الحُبِّ مِن قلبها واستحكامَه عليه من جميع نواحيه. قال الشَّريف الرَّضيّ: "وهذه استعارة، والمُراد بها أنّ حبّه تَغلغل إليها، حتّى أصاب شغافها، وهو غشاء قلبها. كما تقول: بطَنْتُ الرّجل؛ إذا أصبتَ بطْنَه. ويُقال: معنى شَغَفَها؛ أيْ: سلب شَغاف قلبها، على طريق المبالَغة في وصْف حبِّها له، كما تقول: سلبْتُ الرّجلَ؛ إذا أخذتَ سلْبَه"[2].

بلاغة الكناية في ﴿قَدْ شَغَفَهَا﴾:

الدّلالة على شِدَّة التَّمكُّن التَّامِّ لحبِّه من قلبها

في قوله تعالى: ﴿قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا﴾ الضَّمير المُستتر في ﴿شَغَفَهَا﴾، عائدٌ على ﴿فَتَىٰهَا﴾؛ ولِما فيه من الإجمال جيءَ بالتَّمييز للنِّسبة بقوله: حُبًّا. وأصله شغفها حبُّه؛ أيْ: أصاب حُبُّه شَغافها؛ أي: اخترق الشَّغاف فبلغ القلْبَ، كنايةً عن التَّمكُّن[3]. وهذا يعني أنَّ المَشاعِر انتقلَتْ من إدراكها إلى عَقلها إلى قلبها، وأنَّ الحبّ تمكَّن تمامًا مِن قلبها[4].

دلالة الاستئناف في قوله: ﴿إِنَّا لَنَرَىٰهَا﴾:

تقرير اللَّوم والإنكار السَّابقَين، فضلًا عن التَّقريع

جملةُ: ﴿إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ استئنافٌ ابتدائيٌّ لإظهار اللَّوم والإنكار عليها[5]. والجملة مُقرِّرة لمضمون الجملتَيْن السَّابقتَيْن المَسوقتَيْن للَّوم والتَّشنيع، والتَّسجيل عليها بأنَّها في أمْرِها على خطأ عظيم[6].

فائدة التَّعبير في ﴿إِنَّا لَنَرَىٰهَا﴾:

الإشعار بأنَّ حُكمهنَّ بضلالها صادرٌ عن رؤيةٍ وعِلْمٍ

قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾؛ أيْ: إنَّا لَنَعْلم أمرَها عِلمًا هو كالرُّؤية[7]، وإقحام الرّؤية، للإشعار بأنّ حُكمهنّ بضَلالها صادِر

(1) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 10/305.
(2) الشّريف الرّضيّ، تلخيص البيان: 2/170.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 12/260.
(4) الشَّعراويّ، تفسير الشَّعراويّ: 11/6928.
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 12/261.
(6) الآلوسيّ، روح المعاني: 6/417.
(7) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 10/72.

عن رؤية وعِلم مع التّلويح إلى تنزُّههنّ عن مثل ذلك[1] والرُّؤية هنا قلبيَّة عِلميّة؛ لأنَّ الضَّلال معنًى، والبصَر لا يتعلَّق بالمعاني[2]، واستعمالها بمعنى العِلم، حقيقة كاستعمالها بمعنى الإحساس بالبصر، وإذا أريد منها البصَريَّة، ثُمَّ تُجوِّز بها عن العِلميَّة، كان أبلَغَ في إفادة كونها فيما صنعَتْ من المراوَدة والمحبَّة المُفْرطة مستقرّة[3]. فلَم يقُلْن: (إنَّها لفي ضلال مبين)؛ إشعارًا بأنَّ ذلك الحُكم غيرُ صادِر منهُنّ مُجازَفة، بل عن عِلم ورأْي، مع التَّلويح بأنَّهنّ مُتنزّهاتٌ عن أمثال ما هيَ عليه[4].

أثر المؤكِّدات في الآية:

أكَّدَ جملة الفاصلة: ﴿إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾، بـ (إنّ)، واللّام؛ لتحقيق اعتقادهنّ ذلك، وإبعادًا لتُهمَتهنّ، بأنّهنّ يحْسِدْنها على ذلك الفتى[5].

ترسيَة دلالة حُكمهنّ عليها من خلال سياق قولهنّ عنها

معنى (الضَّلال) في السّياق:

(الضَّلال) في قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾: مخالَفة طريق الصَّواب؛ أيْ: هي مفتونة العقْل بحُبِّ هذا الفتى، وليس المُراد الضَّلال الدّينيّ، وهذا كقوله تعالى آنِفًا: ﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ۝٨﴾ [يوسف: 8][6]، وكقول بعضهم ليعقوب عليه السلام: ﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَٰلِكَ ٱلۡقَدِيمِ ۝٩٥﴾ [يوسف: 95]، فلَم يكُن قولهنّ هذا إنكارًا للمنكَر، ولا كُرْهًا للرَّذيلة، ولا نصرًا للفضيلة، بل قُلْنَهُ مكرًا وحيلة، ليَصِل الحديث إليها، فيحملها ذلك على دعوتِهنّ، والرُّؤية بأبصارهنّ ما يكون فيه معذرة لها[7].

بيان فِتْنتها بفَتاها مَكْرًا وتَحَيُّلًا منهنّ، لحمْلِها على دعوتِهنّ لرؤيته

(1) القاسميّ، محاسن التَّأويل: 6/171.
(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/385.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 6/416.
(4) الآلوسيّ، روح المعاني: 6/417.
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتّنوير: 12/261.
(6) ابن عاشور، التَّحرير والتّنوير: 12/261.
(7) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 12/137.

بلاغة الاستعارة التَّصريحيَّة في الآية:

تصوير شِدَّة التَّلَبُّس بالوصْف بمَن أحاط به الضَّلال

قوله تعالى: ﴿لَنَرَىٰهَا فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾؛ أيْ إنَّها غائصة في مَهاوي الضَّلالة البَيِّنَة البعيدة[1]، وجيء بحرْف الظَّرفيَّة ﴿فِي﴾، المستعار لِشدَّةِ التَّلَبُّس بالوصْف بطَريق الاستعارة التَّصريحيَّة التَّبعيَّة؛ تَمثيلًا لِحالها في إحاطة الضَّلال بها بحال الشَّيءِ في ظَرْفٍ محيط به لا يتركه يُفارقه، ولا يتطلّع منه على خلاف ما هو فيه من ضيق يُلازِمهُ، فأخبر أنَّها في ضَلال، وجعلها مَظروفةً للضَّلال، وهو أبلغ من وصْفها بالضَّلالِ، فكأنَّ الضّلال صار ظَرفًا لها[2]، فحَرْف الظَّرفيَّة يُشير إلى تَمكُّنها من الضَّلال وانْغماسها فيه، لإفادَة أنَّهُ ضلال بَواحٌ لا شُبْهَةَ فيه، خصوصًا وقد أُكِّد بوَصْفه بلفْظ: ﴿مُّبِينٖ﴾.

تحتَمل الجملة المَجاز المُرسَل

أو هو مَجاز مرسَلٌ علاقته الحاليّة بإطلاق الحالّ وإرادة المحلّ؛ إذ جعل الضّلال ظَرفًا، والضّلال ليس ظرفًا يحلّ فيه المرء؛ لأنّه معنًى من المعاني، وإنّما يحلّ في مكانه؛ فاستُعمل الضّلال في مكانه للمبالَغة في وَصْفها بالضّلال[3].

نُكتة تنكير ﴿ضَلَٰلٖ﴾ و﴿مُّبِينٖ﴾ ودلالتها:

تعظيم الضَّلال الّذي انغمست فيه امرأة العزيز، وتهْويلُه

قوله تعالى: ﴿فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾؛ أيْ: عظيم، عن الحقِّ والرُّشد والصَّواب، أو: سنَنِ العقل[4]، فالتَّنكيرِ للتَّعظيمِ والتّفخيم والتّهْويل؛ فهو ضلالٌ هائلٌ لا حَدَّ له. ويجوزُ أنْ يكون لبيان النَّوعيّة؛ أيْ: أنَّه نوعٌ خاصٌّ من الضَّلالِ، ليس من جِنْس الضَّلال المَعهودِ، ولا تعارُضَ بيْن الدّلالتَيْن؛ لأنَّهما يَؤولانِ إلى المعنى المقصود في شِدَّة الضَّلال.

فائدة التَّقييد بوصْف الضَّلال بالمُبين:

بيان فساد عقلها وشِدَّة عَمايتِها؛ مع وُضوح خطأ مَيلها وجَلائه

وَصْفُ الضَّلال بـ﴿مُّبِينٖ﴾ في قوله تعالى: ﴿فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾؛ دليلٌ

(1) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 12/137.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/562.
(3) عفيف، الشّامل: 2/80.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 6/417.

على شِدّة فساد عقلِها؛ إذ لَم تتفطّن لضلالها، في إيقاع عِشقها بِفَتاها، ورِضاها لنفْسها بعد عِزِّ السِّيادة بالسُّفول[1]؛ مع أنَّ خطأها واضح كالمُشاهَد المَرئيِّ.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الضَّلال والغواية:

الضَّلال فُقدان الطَّريق الموصل، والغواية العدول عن الطَّريق القويم تَقَصُّدًا

الضَّلال: فقدان ما يُوصِلُ إلى المطلوب، وقيل: هو سلوك طريقٍ لا يُوصل إلى المطلوب[2]، وكلُّ عدُول عَن النَّهج عمْدًا أو سَهوًا، قليلًا كانَ أو كثيرًا[3]، فهو ضلالٌ، وفي باب الحقّ والباطل يكون الضّلال عدولًا عن الطّريق المستقيم[4]، وقد يكون عن قصْدٍ أو عن غير قَصْد، قال تعالى: ﴿وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلۡمٖ﴾ [الجاثية: 23]، وقال: ﴿ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعۡيُهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ يُحۡسِنُونَ صُنۡعًا ١٠٤﴾ [الكهف: 104]، أمَّا الغواية فهي جهْلٌ مِن اعتقادٍ فاسد[5]، فلا يكون للغاوي مَقْصِدٌ إلى الطّريق المستقيم[6]، والغواية إمّعان في الضَّلال، كما أنَّ الضَّلال عامٌّ[7] يكون للعاقل وغيره، فيُقال: ضلَّت الدَّابَّة ولا يُقال: غَوَت الدّابّة، أمَّا الغواية فهي للعاقل المُكلَّف. والضَّلال نقيضُ الهُدى، قال الله تعالى: ﴿يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۖ﴾ [فاطر: 8]، وقال: ﴿وَأَضَلَّ فِرۡعَوۡنُ قَوۡمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ ٧٩﴾ [طه: 79]، والغوايَةُ نَقيضُ الرُّشْد، قال تعالى: ﴿وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلرُّشۡدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗا وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلۡغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗاۚ﴾ [الأعراف: 146] وقال: ﴿قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ﴾ [البقرة: 256].

وقد اجتمع ذِكر الضَّلال والغوايَة في قوله تعالى: ﴿مَا ضَلَّ

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 10/72.
(2) الجُرجانيّ، التَّعريفات، ص: 138.
(3) الكفويُّ، الكلّيّات، ص: 567.
(4) المناويُّ، التّوْقيف، ص: 223.
(5) الرَّاغب، المفردات: (غوى).
(6) الكفويُّ، الكلّيّات، ص: 576.
(7) النَّيسابوريُّ، غرائب القرآن: 6/199.

﴿صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝٢﴾ [النَّجم: 2]، وفيه الشَّهادة للرَّسول ﷺ، بأنَّه راشِد تابعٌ للحقِّ لَيس بضالٍّ، وهو الجاهِل الّذي يَسلُك طريقًا بغير عِلم، والغاوي هو العالِم بالحقِّ، العادِلُ عنه قَصْدًا إلى غيره؛ فنَزَّهَ اللّٰه رسوله وشرْعَه عن مشابَهة أهل الضَّلال كالنّصارى، وطرائقِ غواية اليهود وهي عِلْم الشَّيء وكِتمانه، والعمَل بخِلافه، بل هو صلاة اللّٰه وسلامه عليه وما بعثَهُ اللّٰه به مِن الشَّرْع العظيم في غاية الاستقامة والاعتدال والسَّداد، فأثنى عليه بكمال العِلْم والعمل[1].

فالضَّلال أعمُّ وهو ألّا يَجِدَ السَّالك إلى مقْصدِهِ طريقًا أصلًا، والغوايَة ألّا يكون له إلى المَقْصد طريقٌ مستقيمٌ[2]. ولعموم الضّلال بوصْفه عدولًا عن النَّهْج، وانحرافًا عن الهُدى، وفقدانًا للطّريق المُوصل إلى المَقْصد؛ وُصِفتِ امرأة العزيز به جَزاءً لِفعْلها.

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 7/411.

(2) النَّيسابوريُّ، غرائب القرآن: 6/199، والتَّهانويّ، كشَّاف اصطلاحات الفنون: 2/1119.

﴿فَلَمَّا سَمِعَتۡ بِمَكۡرِهِنَّ أَرۡسَلَتۡ إِلَيۡهِنَّ وَأَعۡتَدَتۡ لَهُنَّ مُتَّكَـٔٗا وَءَاتَتۡ كُلَّ وَٰحِدَةٖ مِّنۡهُنَّ سِكِّينٗا وَقَالَتِ ٱخۡرُجۡ عَلَيۡهِنَّۖ فَلَمَّا رَأَيۡنَهُۥٓ أَكۡبَرۡنَهُۥ وَقَطَّعۡنَ أَيۡدِيَهُنَّ وَقُلۡنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٞ كَرِيمٞ ٣١﴾ [يوسف: 31]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الرَّبطُ بينَ تُهمَةِ النّسوةِ، وإبداءِ امرأةِ العزيزِ عُذرَها، في مُراوَدَةِ يوسُفَ عليه السلام

لَمَّا ذكرتِ الآيةُ السّابقةُ مقالةَ النِّسوةِ فى حقّ امرأةِ العزيزِ، وكانَت من أجلِ إهانتِها والتّقليلِ من شأنها بدليل أنّهنّ حَكَمْنَ عليها بالضّلالِ المُبينِ، جاءَتْ هذه الآيةُ لبيان ردِّ امرأة العزيز عليهنّ بإعداد خُطَّةٍ مدروسةٍ ومَكيدةٍ مُحْكَمَةٍ، للإيقاع بهنّ فيما لُمْنها فيه.

ومنها: لَمَّا ذَكَرَ اللّه سُبحانَهُ وصولَ خبرِ مُراودةِ امرأة العزيزِ ليوسفَ عليه السلام للنِّسوةِ في المدينَةِ، فتحدَّثْنَ به، وأنكرْنَ على امرأة العزيز فِعْلَتَهَا؛ بيَّنَ اللّه عز وجل أنَّ اغتيابَ النِّسوَةِ لَها وذمَّهُنَّ إيَّاهَا قَد بَلَغَها، فأرادَت أن تُبدِيَ عُذرَهَا فيما لُمنَهَا فيه.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿بِمَكۡرِهِنَّ﴾: الميمُ والكافُ والرّاءُ تدلُّ أكثرُ تصريفاتِهَا على معنى الاحتيالِ والخِداعِ[1]، وخصَّهُ الخَليلُ بما يكونُ في خُفْيَةٍ[2]، وحقيقةُ المَكرِ - عِندَ الرّاغبِ -: صَرفُ الغيرِ عمَّا يقصِدُهُ بحيلَةٍ مِن الحِيَلِ، وهذا نَوعان[3]: أحدُهما: محمودٌ؛ وذلك بأن يتحرَّى بذلكَ فِعلَ جَميلٍ أو صرفَ قبيحٍ، ومِنهُ المَكرُ الّذي يَرِدُ في حقِّ اللّه سبحانَهُ، كقولِ اللّه تعالى: ﴿وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ ٥٤﴾ [آل

(1) الجوهريّ، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (مكر).
(2) الخليل، العين: (مكر).
(3) الرّاغب، المفردات: (مكر).

عمران: 54]. والآخَرُ: مَذمومٌ؛ وهو أن يتحَرَّى بهِ فِعلَ قَبيحٍ، ومِنهُ قولُ اللّه سُبحانَهُ: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦٓ﴾ [فاطر: 43]. ومعنى ﴿بِمَكْرِهِنَّ﴾ في الآيةِ: باغتيابِهنَّ واحتيالِهنَّ.

2) ﴿وَأَعْتَدَتْ﴾: العينُ والدّالُ تدورُ اشتقاقاتُها على مَعنيَين كُلِّيَّين؛ أحدُهما: الإحصاءُ - وهو العَدُّ -، والآخرُ: تهيئةُ الشَّيءِ وهو الإعدادُ[1]. ومِنَ الثَّاني قولُ اللّه ﷻ: ﴿وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا﴾؛ فإنَّ معناهُ: هَيَّأَتْ وأعَدّتْ[2]، وأصلُ ﴿وَأَعْتَدَتْ﴾: أَعدَدَتْ؛ فأُبدلتِ الدّالُ الأُولى تاءً[3].

3) ﴿أَكْبَرْنَهُۥ﴾: الكافُ والباءُ والرَّاءُ تدلُّ اشتقاقاتُها على خلافِ الصِّغَرِ[4]؛ وهو نُمُوُّ حَجمِ الشَّيء أو زيادتُه بالنِّسبةِ لحَجمِهِ أو لحَجمِ غيرِهِ، ويُستعمَلُ كذلكَ في العِظَمِ المعنويِّ[5]، ومنهُ: الكبرياءُ، بمعنى: العَظمَةِ[6].والكِبَرُ يَرِدُ بمعنَى الثِّقَلِ؛ لأنَّ الثِّقَلَ لازِمٌ للعَظَمَةِ[7]، سواءٌ أكانتِ العظمةُ حسِّيَّةً أم معنويَّةً، ومِنهُ قولُ اللّه ﷻ: ﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ﴾؛ أي: أَعظَمنَهُ وهالَهُنَّ أَمرُه وبُهِتنَ[8].

4) ﴿حَـٰشَ﴾: حاشَ: كلمةٌ تدلُّ على الاستثناءِ[9]، وفيها ثلاثُ لغاتٍ: حاشَ، وحاشَا، وحَشَا[10]، وقولُهم: حاشَ للّه، بمنزلَةِ قولِهم: معاذَ اللّه، والمرادُ التَّنزيهُ[11]، وهذا التَّركيبُ ﴿حَـٰشَ لِلَّهِ﴾ عَرَبيٌّ يجري مَجرى المَثَلِ، والمرادُ مِنهُ: إبطالُ شيءٍ عن شيءٍ وبراءَتُهُ مِنهُ[12].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

فلمّا سَمِعَت امرأةُ العزيزِ بِمَكرِ النِّسوةِ اللّاتي قُلْنَ في حقِّها مَقالَةَ السُّوءِ، قرّرَت أنْ

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عد).
(2) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (عد).
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/262.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (كبر).
(5) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (كبر).
(6) الخليل، العين: (كبر).
(7) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (كبر).
(8) الواحديّ، التّفسير البسيط: 12/98.
(9) الخليل، العين: (حوش).
(10) الأنباريّ، الزّاهر: 2/287.
(11) ابن جرير، جامع البيان: 16/83، والهرويّ، الغريبين: (حشا).
(12) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/263.

تُقابلَ مكرَهُنّ بها بمكرٍ أشدّ وأنكى، وأعدّت لذلك خطّةً مدروسةً؛ لِيَقَعْنَ في ما وقعَت هي فيه؛ فأَرسَلَت إليهِنَّ تَدعوهُنَّ لزيارَتِها، وهيَّأَت لَهُنَّ مَجلِسًا للطَّعام، وما يتَّكِئْنَ عليهِ مِنَ النّمارقِ والوسائدِ، وأعطَت كُلَّ واحدةٍ مِنَ النِّسوةِ اللّائي حضَرنَهَا سكِّينًا لِتَقطَعَ بهِ مِنَ الطَّعام ما تقطَعُ، وقالَت ليوسُفَ: اخرُجْ عليهِنَّ، فخرجَ عليهِنَّ يوسُفُ، فلمَّا رأى النِّسوةُ يوسُفَ أعظَمنَهُ وأجلَلنَهُ، وقطَّعْنَ أيدِيَهُنَّ، وهُنَّ لا يشعُرْنَ، وقُلْنَ: معاذَ اللّه، ما هذا بشَرًا - لأنَّهنَّ لم يَرَيْنَ في حُسنِ صورَتِهِ أحدًا مِنَ البَشَر -، ما يكونُ هذا إلَّا مَلَكًا كريمًا[1].

بَيانُ حِيلَةِ امرأةِ العزيزِ لِرَدِّ مَكرِ النِّسوَةِ بها، وإبداءِ المُبَرِّراتِ المُقنِعَةِ لِما بَدَرَ مِنها

وترشدُ الآيةُ الكريمةُ إلى رغبةِ الإنسانِ في الثَّأر لكرامتِه، وما يحميه من دمٍ أو مالٍ أو عِرضٍ، وإلى ضَعفِ النِّساءِ أمامَ الرِّجالِ، وعدمِ قُدرتِهِنَّ على التَّحمُّل كالرِّجالِ، وجَرَيانِ العادةِ في تشبيه كلِّ مُتَناهٍ في الحُسْن بالمَلَك، كما جرَت في تشبيه كلِّ مُتَناهٍ في القُبح بالشَّيطان[2].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالةُ الفاءِ في: ﴿فَلَمَّا﴾:

الفاءُ في ﴿فَلَمَّا﴾ مِن قَولِ اللّه ﷻ: ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ﴾ دالَّةٌ على التَّرتيب والتَّعقيب، وذلك مُشعِرٌ، بأنَّ كلامَ النِّسوةِ في المدينَةِ، قَد نُقِلَ إلى امرأةِ العزيزِ، بضَربٍ مِنَ السُّرعَةِ والفَوريَّةِ[3].

سُرعَةُ نَقلِ كلامِ النِّسوَةِ إلى امرَأةِ العَزيزِ

سرّ التّعبير بـ ﴿سَمِعَتْ﴾:

عبَّرَ بالسّماع دون العِلم؛ لأنّ السّماعَ أخصُّ، وهو أَثَرٌ من آثار العِلم الّذي يُعرَفُ به الشَّيءُ، وأيضًا التّعبيرُ بالسّمع هو المُناسبُ لهذا المَقام؛ لأنّ خبرَ مُراودةِ امرأة العزيز لِفَتاها قد فشى في

السَّماعُ نَقلُ المَعلوماتِ، ونَشرُها بلا حُدودٍ، على سبيلِ الأخبارِ المُعرِضةِ

(1) ابن جرير، جامع البيان: 16/68 - 85، ونخبة منَ العلماء، التّفسير الميسّر، ص: 239.
(2) مجمع البحوث الإسلاميّة، التّفسير الوسيط: 4/314، والجزائريّ، أيسر التّفاسير: 2/610.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/72.

المدينة، وتعدّدَتْ فيه الرّواياتُ بَينَ مُقلٍّ ومُكثرٍ، ولائمٍ ومُتعرِّفٍ، يطلبُ الحقيقةَ، ومِثلُ ذلك المَوقفِ آلةُ انتشارِهِ تكونُ بِنَقلِ الأخبارِ، وهذا لا يتأتّى إلّا عن طريق السّماع، ولأنّه يصعبُ على أحدٍ أن يُعلِمَ امرأةَ العزيزِ مباشرةً؛ لموقعها المجتمعيِّ، فهي امرأةُ العزيز؛ فيتأتّى ذلك عن طريق التّواصلِ مَعَ الخَدَمِ والحَشَمِ والزُّوَّارِ.

دلالةُ التّعبيرِ بالفعلِ الماضي ﴿سَمِعَتْ﴾:

دلَّ التَّعبيرُ بالماضي على تَحَقُّقِ سماعِها بنفسِها، وأنّ الأمرَ صار بمَنزِلةِ المَعلومة المُحَقَّقةِ، فليس من باب الوَهمِ أو التَّخيُّلِ.

مُناسبةُ تَعَدّي ﴿سَمِعَتْ﴾ بالباء في ﴿بِمَكْرِهِنَّ﴾:

ما سَمِعتْ إلّا لمّا أُخبِرتْ

الفِعلُ (سَمِعَ) حَقُّهُ أن يتعدَّى إلى المَسموعِ بنفسِه، وتَعدِيَتُه هُنا بالباء تدلُّ على أنَّ فِعلَ السَّمعِ قَد ضُمِّنَ معنى الإخبارِ، فهو كقول العربِ في أمثالِهم: (تَسْمَعُ بِالمُعيدِيِّ خَيرٌ مِن أن تَراهُ)؛ أي: تُخبَرُ عَنهُ[1]، ويكونُ قولُ اللّه ﷻ: ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ﴾؛ بمعنى: فلمَّا أُخبِرَت بمكرِهِنَّ وسَمِعَتهُ، وهذا الوجهُ أَولى؛ لِمَا فيه مِنَ العُدول عن دَعوى القولِ بزيادَةِ الحرفِ، وما فيه مِن تكثيرِ المعاني القرآنِيَّةِ بالتَّضمينِ.

ويجوزُ أن تكونَ صِلَةً؛ لقصدِ توكيدِ الكلامِ وتقويَتِه؛ وذلك لأنَّ الفعلَ (سَمِعَ) يتعدَّى إلى المَسموعِ بنفسِه.

سرُّ التَّعبيرِ عن قَولِ النِّسوَةِ بالمَكرِ:

اشتراكُ المَكرِ مَعَ الغِيبةِ في الخَفاءِ

عُبِّر عَن مَقالةِ النِّسوةِ الّتي حكاها اللّه سبحانَه في قولِه: ﴿۞وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ ۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ۖ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٣٠﴾ [يوسف: 30] بالمَكرِ، فقال ﷻ: ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ﴾، وذلك لثلاثةِ أوجهٍ:

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/261.

أحدها: أنَّ النِّسوةَ إنَّما قُلْنَ ذلك الكلامَ لِيَتَوسَّلْنَ بِهِ إلى رؤيةِ يوسُفَ عليه السلام، والنَّظرِ إلى وجهِه؛ لأنَّهنَّ عرفْنَ أنَّهُنَّ إذا قُلْنَ ذلك عرضَتِ امرأةُ العزيزِ يوسُفَ عليهِنَّ؛ ليكونَ ذلكَ تمهيدًا لعُذرِهَا عِندَهُنَّ.

ثانيها: أنَّ امرأةَ العزيزِ كانَت قد أسَرَّت إليهِنَّ حُبَّها ليوسُفَ عليه السلام، واستَكتَمَتهُنَّ ذلك، فلمَّا أفشَينَ ذلك كان ذلك مِنهُنَّ غَدرًا ومَكرًا.

ثالثُها: أنَّ تلك المقالَةَ كانت على وَجهِ الغِيبَةِ لامرأةِ العزيزِ، ولمّا كانتِ الغِيبَةُ تُذكَرُ على سَبيلِ الخِفيَةِ؛ أشبَهَتِ المَكرَ في ذلك[1].

وممّا يُؤكِّدُ ذلك قولُهنّ: ﴿ٱمۡرَأَتُ ٱلۡعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا﴾ [يوسف: 30]، فلم يسمّوها باسمِها؛ بل ذكروها بالوصفِ الّذي يُنادَى عليها بقبيح فِعلِها؛ لأنهّا مُتزوّجةٌ، فصدورُ الفاحشةِ منها أقبحُ من صدورها من غير الّتي لا زوجَ لها، وأيضًا اختيارُ وصفِها بامرأة عزيزِ مِصرَ يجعلُ ذلك الفعلَ أشدَّ قُبحًا؛ لأنّها زوجٌ لكبير حُكّامِها، وأنَّ الّذي تراودُهُ مملوكٌ لها، وهذا أبلغُ في القُبح؛ لأنّه ليس حُرًّا، فهي المُراوِدةُ والطّالِبةُ من يوسُفَ عليه السلام، وليس ذلك مرَّةً واحدةً؛ بل مُستمرَّة في المُراودةِ بدليل التَّعبير بالمضارع ﴿تُرَٰوِدُ﴾ [يوسف: 30].

فكان التَّعبيرُ القرآنيُّ بالمَكرِ في قوله تعالى: ﴿بِمَكۡرِهِنَّ﴾ هو الأَبلَغَ للسّياق.

معنى إضافةِ المَكرِ إلى النِّسوة:

تَدبيرُ النِّسوَةِ المكرَ، قابلَه مَكرُ امرَأةِ العَزيزِ بِهِنَّ

أُضيفَ المَكرُ إلى الضَّمير الرّاجع إلى النِّسوةِ في قول الله عز وجل: ﴿فَلَمَّا سَمِعَتۡ بِمَكۡرِهِنَّ﴾؛ لأنَّهُنَّ اللّاتي دَبَّرْنَهُ، وخطَّطْنَ لَهُ، وصدرَ مِنهُنَّ، ولِيكونَ ذلك مُسوِّغًا لِما تفعلُهُ مَعَهُنَّ مِنَ الحيلَةِ؛ لأنَّ ذلكَ سَيَكونُ مَكرًا مُقابِلَ مَكرِهِنَّ. وفيه إشارةٌ إلى اتّفاقِهِنَّ على هذا

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 18/448.

المكرِ؛ فلا تفاوتَ في إيقاع المكرِ بامرأة العزيز؛ بل هو على هيئةٍ واحدةٍ كأنَّهُنَّ اتَّحدْنَ عليه.

دلالةُ التَّعبيرِ بالإضمارِ عَنِ النّسوةِ:

دَعـوَةُ امـرأةِ العزيزِ مَبنِيَّةٌ على التَّعيينِ والتَّخصيصِ

النّاظرُ في هذه الآية يَجِدُ تَعَدُّدَ التّعبيرِ بالضّمير عَنِ النّسوةِ في قولهِ تعالى: ﴿بِمَكْرِهِنَّ﴾ ﴿إِلَيْهِنَّ﴾ ﴿لَهُنَّ﴾ ﴿مِّنْهُنَّ﴾ ﴿عَلَيْهِنَّ﴾، ولم يأتِ التّعبيرُ بالإظهار (النّسوة)؛ وذلك لتقدُّم ذِكرِ النِّسوةِ في قولهِ تعالى: ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ﴾ [يوسف: 30]، أو لأنَّ المَقامَ مَقامُ تدبيرٍ ومُكايدةٍ، وهذا يكونُ في الخفاء، والإضمارُ مُناسِبٌ له، بخلاف الإظهار الّذي يحملُ الوضوحَ. كما أنَّ التّعبيرَ السّابقَ ﴿نِسْوَةٌ﴾ [يوسف: 30] جاء مُنَكَّرًا مُناسِبًا لحالة السّماعِ المُنتشرةِ في المدينة، أمّا مَقامُ الدّعوة الّتي قدّمَتها امرأةُ العزيز فهي مَبنِيّةٌ على التّعيينِ والتّخصيصِ، والضّميرُ وسيلةٌ من وسائلِ التّعريفِ، فكان مُناسِبًا لهذا المَوقِف.

سرُّ التّعبير بـ ﴿أَرْسَلَتْ﴾:

إحكامُ الخُطَّةِ يَقتَضي التَّمَهُّلَ ليأتيَ الدَّورُ مُقنِعًا ومَسبوكًا

جاءَ التّعبيرُ القرآنيُّ بالإرسال دونَ البعث؛ لوُجودِ فَرقٍ بينهما؛ فالإرسالُ يحملُ معنى الانبعاثِ على تُؤدَةٍ وتمهُّلٍ، بخلاف البعثِ، وهذا يدلُّ على أنّ امرأةَ العزيز أخذَت قرارَ الدّعوة لهنَّ بتمهُّلٍ ورويَّةٍ؛ لتُحكِمَ خطّتَها، ولأنَّ الإرسالَ لا يكونُ إلّا برسالةٍ أو ما يجرى مَجراها، وهذا هو المناسِبُ هنا فيما فَعَلَتهُ امرأةُ العزيز بدعوتِهنَّ للضّيافة، ولأنّ الإرسالَ يشيرُ إلى معنى العلوِّ، وهذا مُناسِبٌ لمكانة امرأة العزيزِ في علوِّ قدرِها على نُسوة المدينة.

معنى تَعدِيَةِ الفعلِ أرسَلَ بـ (إلى):

غـايـةُ امـرأةِ العزيزِ إظهارُ عُذرِها للنِّسوة، ورفعُ اللّومِ عنها

جاءَ التَّعبيرُ القرآنيُّ بالفِعلَ ﴿أَرْسَلَتْ﴾ مُتَعَدِّيًا بـ ﴿إِلَيْهِنَّ﴾ دون اللّام؛ لأنَّ (إلى) تحملُ معنى الغايةِ، بخلاف اللّام، فتأتي بمعنى الاستحقاقِ والاختصاصِ ونحو ذلك، وهذا غيرُ مُرادٍ من إرسالِها، بل غايتُها من هذه الدّعوة أن تعرضَ عليهنَّ يوسفَ عليه السلام، لِتُبَيِّنَ

عُذرَها، وتَرفَعَ اللّومَ عنها بما سَيَقَعنَ فيه، من قطع أيديهِنَّ عند رؤيتِهِ عليه السلام.

غَرَضُ اتّصالِ تاءِ التّأنيثِ بالأفعال:

دلَّ اتّصالُ تاء التّأنيث بالأفعال ﴿أَرْسَلَتْ﴾ و﴿وَأَعْتَدَتْ﴾ و﴿وَءَاتَتْ﴾ في الآية، مع أنّه يمكنُ أن تُنيبَ غيرها في فعل هذه الأشياء؛ للدّلالة على عِظَمِ الأمر وأهمّيّتِه، فهي الّتي أشرفَت بنفسها على تدبير هذه المَكيدةِ؛ لتشفي غليلَها؛ لأنّ ثورةَ النّفس حين تُتَّهمُ بشيءٍ ما، ولو كان حقيقةً واقعةً يَعلمُها المُتَّهَمُ إلّا أنّه يحاولُ بكلّ ما أُوتيَ ردَّ الاتّهام ما استطاعَ إلى ذلك سبيلًا، وللدّلالة على أنّ مكرَ النّسوةِ قُوبِلَ بمكرٍ أشدَّ من جانب امرأةِ العزيز، بدليل قيامِها بنفسِها على الأمر.

قيامُ امرأةِ العزيز على الأمر بنفسِها مُحاوِلَةً ردَّ ما اتُّهِمَت به

بَراعَةُ الإيجازِ:

في قول الله ﷻ: ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ﴾ إيجازٌ بالحذفِ، والتّقدير: فلمَّا سَمِعَت بمكرِهِنَّ أرسلَت إليهنَّ تَدعُوهُنَّ إلى وليمَةٍ لتُوقِعَهُنَّ فيما وقعَتْ فيهِ، فطُوِيَ ذلك مِنَ الكلام؛ لأنَّ سياقَ القِصَّةِ يدلُّ عليهِ، وفي حذفِهِ مِنَ الكلامِ إشعارٌ بأنَّها أَضمَرَت ذلكَ في نَفسِها؛ لتقابِلَ مكرَهُنَّ بمَكرٍ مِثلِهِ[1].

طَيُّ الكلامِ الّذي دَلَّ السِّياقُ عليه لونٌ مِنَ الاقتِصادِ في اللّفظِ

سرُّ التّعبير بالفعل ﴿وَأَعْتَدَتْ﴾:

قولهُ تعالى: ﴿وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا﴾، وفيه آثَرَ التّعبيرَ بالفعل ﴿وَأَعْتَدَتْ﴾ دونَ أعدَّت لوجود فرقٍ بينهما؛ فمادَّة (عَدَدَ) تُطلَقُ على ما أُعِدَّ لأمرٍ يحدُثُ، بخلاف (ع ت د)، فهي كما قال ابنُ فارس: تدلُّ على حضورٍ وقُربٍ، تقولُ: عَتُدَ الشّيءُ فهو عتيدٌ حاضِرٌ، وقد أَعتَدناهُ، وَهَيّأناهُ لأمرٍ إنْ حَزَبَ[2].

اتّساعُ دلالةِ الفعل (عَتَدَ) بتدبيرِ امرأة العزيز للنِّسوة أشدُّ من مَكيدتِهِنّ لها

(1) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 9/177.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عد - عتد).

والنّاظرُ في استعمال القرآن الكريم يجدُ دليلًا على التّفرقة بينَهما في المعنى من خلال السّياقِ؛ فأكثرُ سياقات الفعلِ (أعدَّ) جاءَت في ذكر الجنّةِ والنّارِ، والأجرِ والمَغفرةِ، والعُدّةِ وآلةِ الحرب، بينما لفظُ الفعل ﴿وَأَعْتَدَتْ﴾ جاءَت أكثرُ سياقاتِه مع النّار والعذاب، باستثناء ورودِها مَعَ الرّزقِ الكريمِ في آية الأحزابِ: ﴿وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾﴾ [الأحزاب: 31]، ومرّة مع المُتَّكَأِ في سورة يوسُف، وعلى هذا فالفعلُ ﴿وَأَعْتَدَتْ﴾ أخصُّ منَ الفعل (أعدّ)؛ لاتّساع المجال الدّلاليِّ له[1]. ولمَّا كان للفعل (أعتد) خصوصيّةٌ تَميَّزَ بها عنِ الفعل (أعدَّ)؛ في أنّ أغلبَ استعمالاتِه في القرآن في العذاب والمهانةِ، كان اختيارُهُ مُناسبًا لهذا المَشهدِ القرآنيِّ الّذي دبَّرَتْ فيه امرأةُ العزيز للنّسوة مكيدةً أشدَّ من مكيدتِهِنّ لها؛ وذلك بأن جعلَت دعوةَ الإكرام والضّيافة لهُنَّ سببًا للإيقاع والشّماتة بهِنّ، وذلك من خلال إعدادِ مجلسِ الطّعام.

دلالةُ تقديمِ ﴿لَهُنَّ﴾ على ﴿مُتَّكَـًٔا﴾:

مَزيدُ عِنايَة امرأةِ العزيز، بما تخطّطُ له في أمرِ المَكيدةِ العَجيبِ

دلَّ التّقديمُ على مزيدِ عنايةِ امرأة العزيز بما تخطّطُ له في أمر المَكيدةِ، حيث أعدَّت إعدادًا خاصًّا لهُنّ؛ ليَأخُذْنَ راحَتَهُنَّ، ويَجلِسْنَ كما يحلو لهُنّ حتّى يخرجَ تدبيرُها في ظاهرِه على كمال العنايةِ بهنّ، والواقع على غير ذلك. وأيضًا لو قُدِّمَ ﴿مُتَّكَـًٔا﴾ ما حَمَلَ هذا التّخصيصَ، وصار المعنى: (وأعْتَدَتْ متّكأً لهنّ ولغيرهنّ)، وهذا غيرُ مرادٍ.

سرُّ التّعبيرِ بـ ﴿مُتَّكَـًٔا﴾:

إظهارُ حالةِ التّنعُّمِ الّتي تعيشُها امرأةُ العزيز

آثَرَ التّعبيرُ القرآنيُّ لفظَ ﴿مُتَّكَـًٔا﴾؛ لإظهار حالةِ التّنعُّم الّتي تعيشُها امرأةُ العزيز، وللدّلالة على فخامةِ ما يُقدَّمُ لضيوفها في جَلسة الطّعامِ، فالمتّكأُ: اسمُ مفعولٍ منَ الاتّكاء، وهو الميلُ إلى أحد

(1) محمّد داود، معجم الفروق الدّلاليّة، ص: 338.

الجانبين في الجلوس، كما جرَت بذلك عادةُ المُترَفين عند تناول الطّعام، وعندما يريدون إطالةَ المُكثِ مع انتصابٍ قليلٍ في النّصف الأعلى منَ الجسم والاستراحة بعد الأكلِ؛ لذلك وردَ عنِ النّبيِّ ﷺ: «النّهيُ عن مَطعمَينِ، قال: وأمّا المَطعَمانِ فأنْ يأكلَ الرَّجلُ بشمالِه، ويمينُه صحيحٌ، وأن يأكلَ مُتَّكِئًا»[1]؛ لأنَّ الأكلَ مُتَّكئًا كان مِن دَأبِ المُترَفِينَ وفِعلِ المُتكبِّرينَ، والمُسلِمُ مأمورٌ بالتَّواضُعِ معَ نِعَمِ اللّه.

دلالةُ تنكيرِ: ﴿مُتَّكَـٔا﴾:

نُكِّرَت كَلِمَةُ ﴿مُتَّكَـٔا﴾ في قولِ اللّه ﷻ: ﴿وَأَعۡتَدَتۡ لَهُنَّ مُتَّكَـٔا﴾؛ لإرادةِ جنسِ المتَّكأ، ويجوزُ أن يكونَ المرادُ إرادَةَ التَّوزيعِ؛ أي: أعْتَدَتْ لكلِّ واحدةٍ مِنهُنَّ مُتَّكأً، كما جاء التَّصريحُ في مقابِلِه بَعدُ، بإيتائِها كُلَّ واحدةٍ مِنهُنَّ سِكّينًا[2]، وفي ذلك إشعَارٌ بإظهارِ كرامَتِها لكلِّ واحدةٍ مِنهُنَّ على سبيلِ الاستِقلالِ؛ مُبالِغةً في تَعميَةِ ما تُريدُهُ لَهُنَّ.

مُبالَغةُ امرأةِ العزيزِ في تَعمِيَةِ ما تُريدُهُ مِنَ النِّسوَةِ، نكالًا فيهنّ

دلالةُ الواو في: ﴿وَءَاتَتۡ﴾:

الواوُ في قولِ اللّه سُبحانَهُ: ﴿وَءَاتَتۡ كُلَّ وَٰحِدَةٖ مِّنۡهُنَّ سِكِّينٗا﴾ عاطفةٌ هذِهِ الجُملةَ على محذوفٍ قَبلَها، والتَّقديرُ: (وأعْتَدَت لَهُنَّ متكَّأً، فَجِئْنَ وجَلَسْنَ، وآتَت كُلَّ واحدةٍ مِنهُنَّ سكّينًا)، وقد دلَّ على مجيئِهِنَّ وجلوسِهِنَّ إيتاؤُهَا كُلَّ واحدةٍ مِنهُنَّ سكِّينًا؛ لأنَّ ذلكَ لا يكُونَ عادةً إلَّا بَعدَ حضورِهِنَّ وأخذِهِنَّ مجالِسَهُنَّ اللّاتِي أُعتِدْنَ لَهُنَّ، ولدِلالةِ الواوِ على مَحذوفٍ قَبلَهَا؛ استَحسنَ بعضُ أهلِ العِلمِ أن تُسمَّى هذِهِ الواوُ الواوَ الفصيحةَ[3]؛ حَملًا لَها على الفاءِ الفصيحَةِ الّتي تُفصِحُ عَن شرطٍ مُقدَّرٍ؛ لاشتِراكِهِما في الدّلالةِ على مَحذوفٍ مُتقدِّمٍ.

حَذفُ ما دلَّ السِّياقُ عليهِ مِن مَحاسِنِ الإيجازِ في البيانِ المُبِينِ

(1) أخرجه الطّبرانيّ، المعجم الكبير: 10/124، الحديث رقم: (10087)، والشّجريّ، في الأماليّ الخميسيّة، برقم: (1701) باختلاف يسير، وقال الحافظُ ابن حجر العسقلانيّ في الكافي الشّافي: برقم: (151): "إسناده جيّد".

(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/267.

(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 6/419.

سرُّ التّعبير بـ ﴿وَءَاتَتْ﴾:

عَدَم لَفتِ الانتباهِ إلى مَكرِها بالنِّسوةِ المَدعُوَّاتِ

لَمَّا كان الإيتاءُ يُستعمَلُ في المعاني الرّفيعةِ عُمومًا كان مُناسِبًا لمكانة النّسوةِ الرّفيعةِ في المجتمع؛ فالإيتاءُ فيه سُهولةٌ ويُسرٌ، يدلّان على الكرمِ، وفيه إشارةٌ إلى عَدَمِ لَفتِ الانتباه إلى مكرِها بهِنّ، بخلاف الإعطاء، فهو يُستخدَمُ - في الغالب - في القليل، وفي عدمِ الرّغبةِ في إعطاء الشَّيءِ.

دلالةُ التّعبيرِ بـ ﴿وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا﴾:

التّهويل بمكرِها، عندما يخرجُ يوسفُ على النّساء

دلّ التّعبيرُ على قصد امرأةِ العزيز في بروز النّسوةِ على هذه الهيئاتِ مُتّكئاتٍ، في أيديهنَّ سَكاكينُ، وعندَ خروجِ يُوسفَ عليه السلام يَندَهِشنَ عند رؤيتِه، ويَنشَغِلْنَ بأنفسِهنَّ، فتقعُ أيديهِنّ على أيديهِنّ فَيَقْطَعْنها فَتُبَكِّتُهُنَّ، ويكونُ ذلك مَكرًا بهِنّ.

وفيه إشارةٌ إلى التّهويل على يُوسفَ عليه السلام بمكرِها عندما يخرجُ على نساءٍ مُجتَمعاتٍ في أيديهِنّ السّكاكينُ، فَتُوهِمُهُ أنّهُنّ يُمكِنُ أن يَثِبْنَ عليه، وعند ذلك يَحذَرُ يوسفُ من مكرِ امرأةِ العزيز، ويَستجيبُ لأمرها بالمُراودة[1]. وفيه إشارةٌ أيضًا إلى بلوغ الحضارةِ المصريّةِ شأوًا عظيمًا، وأنَّ التَّرفَ في القصور بلغَ مَبلَغًا كبيرًا دلَّ عليه استعمالُ السَّكاكينِ في الأكل منذُ آلافِ السّنين قبلَ الحضارة المُعاصِرةِ.

وجهُ التّعقيبِ بـ ﴿وَءَاتَتْ﴾:

بيانُ إحكامِ مكرِ امرأةِ العزيزِ بالنّسوةِ الغريراتِ

قَولُ اللّه سبحانَهُ: ﴿وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا﴾، أتى التّعقيبُ القرآنيُّ بهذه الجملة بعدَ قولِه تعالى: ﴿وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا﴾؛ لتأكيدِ إعطاءِ السّكّين لكلِّ واحدةٍ منَ النِّسوةِ؛ لإحكام تخطيطِها بالمكرِ بهِنّ، وذلك باستعمال كلِّ واحدةٍ السِّكّينَ في قطع ما يُعهَدُ قطعُهُ منَ الطّعام، وغَرَضها من ذلك ما سيقعُ من تقطيع أيديهنّ لتَبْكِيتَهُنّ

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/302.

بالحُجّة، وهذا ظاهرٌ منَ النّصّ، وإلّا فقد كان يكفي قوله تعالى: ﴿وَأَعۡتَدَتۡ لَهُنَّ مُتَّكَـٔٗا﴾ تعبيرًا عن مجلس الطّعام، وما يشتملُ عليه من أطعمةٍ وفواكهَ وأشربةٍ، وما يَلزمُ لذلك من سكّينٍ ونحوه. وممّا يؤكِّدُ ذلك، أنّ السّياقَ القرآنيَّ في هذا المَشهَدِ مَبنيٌّ على الجمع، في قوله: ﴿بِمَكۡرِهِنَّ﴾ و﴿أَرۡسَلَتۡ إِلَيۡهِنَّ﴾ و﴿وَأَعۡتَدَتۡ لَهُنَّ﴾ إلّا مع مشهدِ إيتاءِ السّكّينَ، فخرجَ عن صورة جمعِ النّسوةِ إلى التّعبير بالإفراد لكلّ واحدةٍ منهُنّ، وهذا دليلٌ على سوء نيّتِها فيما تفعلُهُ بهنّ.

سرُّ تذكير: ﴿سِكِّينٗا﴾:

آثرَ القرآنُ الكريم التّعبيرَ بلفظ ﴿سِكِّينٗا﴾ مُذَكَّرًا مع جواز تأنيثِه، ونُقِلَ ذلك عن الكسائيّ والفرّاء، والسّكّينُ سُمِّيت بذلك؛ لإزالة حركةِ المذبوحِ به[1]، ولمَّا كان الهدفُ في إعطاء السّكّين المَكرَ بالنّسوةِ بقطع أيديهِنّ، ومنَ المعلوم أنّ التّذكيرَ أقوى منَ التّأنيث؛ آثرَ التّذكيرَ من أجل شدّة تحقيقِ هدفِها.

التّذكيرُ أقوى من التّأنيث؛ فآثرَ التّذكيرَ من أجلِ تحقيقِ هَدَفِها

دلالَةُ العطفِ بالواوِ: ﴿وَقَالَتِ﴾:

الواوُ في قولِ اللّه سُبحانَهُ: ﴿وَقَالَتِ ٱخۡرُجۡ عَلَيۡهِنَّۖ﴾ عاطفةٌ الجملةَ بعدَها على ما تقدَّمَهَا، والعطفُ بها دُون الفاءِ مُشعِرٌ بأنَّ أَمرَ امرأةِ العزيزِ ليوسُفَ بالبُروزِ لَهُنَّ لَم يكُنْ عَقيبَ ترتيبِ أمورِهِنَّ، وذلك أَمكَنُ في إتمامِ مرادِهَا مِن استغفالِ النِّسوَةِ، فيكونُ قولُ اللّه ﷻ: ﴿وَقَالَتِ ٱخۡرُجۡ عَلَيۡهِنَّۖ﴾؛ أي: قالَتْ ليوسُفَ، والحالُ أنَّ النِّسوةَ مَشغولاتٌ بإعمالِ السَّكاكينِ فيما بأيديهِنَّ ممّا يُقطَعُ بها عادةً[2].

مُبالَغَةُ امرأةِ العزيزِ في استِغفالِ النِّسوَةِ مَلمَحٌ واقعيٌّ منَ المشاهد

نكتةُ حَذفِ (فتاها):

جاء التّعبيرُ القرآنيُّ في قولِ اللّه ﷻ: ﴿وَقَالَتِ ٱخۡرُجۡ عَلَيۡهِنَّۖ﴾ بغير ذِكرِ فتاها، وتَّقديرُ الكلام: وقالَتْ لِيوسُفَ: اخْرُجْ عَليهِنَّ، أو

براءةُ يوسُفَ عليه السلام من حيلَةِ امرأةِ العَزيزِ في مَكرِها بالنِّسوَةِ

(1) ابن عادل، اللّباب: 11/83.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/271.

أنَّ المحذوفَ هو المُنادَى، والتَّقدير: وقالَت: يا يوسفُ اخْرُجْ عليهِنَّ، وفي حذفِهِ مِنَ الكلامِ إيماءٌ إلى أنَّه ليسَ لَهُ مَدخَلٌ في حيلَةِ امرأةِ العزيز ومَكرِها بالنِّسوةِ.

سرُّ التّعبير بالقول: ﴿وَقَالَتِ﴾:

دهاءُ امرأةِ العزيزِ بإدراجِ النّداءِ في القول، وإحكامِ الخطّةِ بمهارةٍ

جاء التَّعبيرُ القرآنيُّ بلفظ القول دونَ النّداء في قولِ اللّه تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱخۡرُجۡ عَلَيۡهِنَّۖ﴾؛ لأنّ القولَ أعمُّ منه؛ فيُطلَقُ على المُتَصَوَّر في النّفس قبل إبرازِهِ باللّفظ، ويُقالُ للدّلالة على الشّيء إلى غير ذلك، ممّا يُطلَقُ عليه القول[1]. وعلى هذا جاء التّعبيرُ بالقول لاندراج النّداءِ فيه، وللإشارة إلى إخفاء الحيلةِ الّتي اتَّبعتها امرأةُ العزيز في مُفاجأة النّسوةِ؛ فلو جاء التّعبيرُ بالنّداء لكانَ فيه رفعٌ للصّوت ممّا يؤدّي إلى لفت انتباهِ النّسوةِ، وهذا غيرُ مرادٍ عند امرأة العزيز.

دلالةُ الأمرِ في: ﴿ٱخۡرُجۡ﴾:

طاعةُ يوسُفَ عليه السلام لسيّدتِه في غيرِ معصيةِ الله

الأمرُ في قولِ اللّه ﷻ: ﴿وَقَالَتِ ٱخۡرُجۡ عَلَيۡهِنَّۖ﴾ يُرادُ بهِ طلبُ الفعلِ على وَجهِ الإلزام - كما هُوَ الأصلُ فيه -، ولذا امتثَلَ ما أمَرَتهُ بهِ؛ لكونِ هذا الأَمرِ لا معصيَةَ فيهِ، وبادرَ الخروجَ عليهِنَّ، وطاعتُهُ لَهَا بحسَبِ المُلْكِ[2]، وفيه إشارةٌ إلى إظهار امرأةِ العزيز لِسلطتِها عليه.

سرُّ التّعبيرِ بـ ﴿ٱخۡرُجۡ﴾:

المرادُ بالخروجِ هنا البروزُ لهُنّ، حتّى تتحقَّقَ المفاجأةُ للنِّسوةِ المَدعوَّاتِ

آثرَ القرآنُ الكريمُ التّعبيرَ بالخروج دون الدّخول؛ للدّلالة على أنّ يوسُفَ عليه السلام، كان في مكانٍ قريبٍ من حُجرة الطّعام، فليس بعيدًا عن مكان جلوسِهنّ، ويكونُ المرادُ بالخروج هنا البروزَ لهُنّ حتّى تتحقَّقَ المفاجأةُ؛ وذلك لأنّ النِّسوةَ لم يكنْ رتَّبْنَ أمورَهُنّ لخروجه.

(1) الرّاغب، المفردات: (قول).

(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/239، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 10/73.

نكتةُ تَعدِيةِ فِعلِ الخُروجِ بحرفِ الجرِّ (عَلى):

قولُ اللّه تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱخۡرُجۡ عَلَيۡهِنَّۖ﴾، وفيه عُدِّيَ فِعلُ الخروجِ هنا بحرف الجرِّ (عَلى) في قول اللّه ﷻ: ﴿وَقَالَتِ ٱخۡرُجۡ عَلَيۡهِنَّۖ﴾، دونَ تعديَتِه بـ (إلى)، كالواردِ في قولِ اللّه سُبحانَهُ: ﴿وَلَوۡ أَنَّهُمۡ صَبَرُواْ حَتَّىٰ تَخۡرُجَ إِلَيۡهِمۡ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡۚ﴾ [الحجرات: 5]؛ لأنَّ آيةَ يوسُفَ ضُمِّن فيه فِعلُ الخروجِ معنى الدُّخولِ؛ وذلك لأنَّ المقصودَ هو دخولُهُ عليهِنَّ لا مُجرَّدُ الخروجِ مِنَ المَوضِعِ الّذي هُوَ فيهِ[1]. وفي تعديةِ فِعلِ الخروجِ بـ (على) -وهي تدلُّ في الأصلِ على الاستعلاءِ- إشارةٌ إلى أنَّ قصدَها بخروجِهِ خروجَ استعلاءٍ ومُغالبَةٍ، وذلك بإيقاعِهِنَّ في الافتِتانِ بهِ.

إرادةُ امرأةِ العزيزِ إيقاعَ النِّسوَةِ في الفِتنَةِ؛ لأنّ المصيبةَ إذا عمَّت هانَت

بلاغةُ الإيجازِ في سياقِ الآيةِ الكريمة:

في قول اللّه ﷻ: ﴿وَقَالَتِ ٱخۡرُجۡ عَلَيۡهِنَّۖ فَلَمَّا رَأَيۡنَهُۥٓ أَكۡبَرۡنَهُۥ﴾ إيجازٌ بالحذفِ، والتَّقديرُ: وقالتِ اخرُجْ عليهِنَّ، فامتَثَلَ أمرَها فخرَجَ عليهِنَّ، وقد دلَّ على حذفِ خروجِهِ قولُهُ بعدَها: ﴿فَلَمَّا رَأَيۡنَهُۥٓ أَكۡبَرۡنَهُۥ﴾؛ لأنَّهُنَّ لم يَكُن لِيَرَيْنَهُ لَولا أنَّه قد خَرَج عليهِنَّ، ونُكتَةُ هذا الحذفِ: تحقيقُ مفاجأةِ رُؤيتِهِنَّ لَهُ، حتَّى كأنَّها تَفوتُ عِندَ ذِكرِ خروجِهِ عليهِنَّ، وفيه إيماءٌ إلى سُرعَةِ امتثالِهِ أمرَها[2].

سرعةُ امتثالِ يوسُفَ عليه السلام لأمرِها دليلٌ على نُبلِه ووفائِه

سرُّ التّعبيرِ بالفاء في: ﴿فَلَمَّا رَأَيۡنَهُۥٓ﴾:

آثرَ القرآنُ التّعبيرَ بالفاءِ في قولِ اللّه سُبحانَهُ: ﴿فَلَمَّا رَأَيۡنَهُۥٓ أَكۡبَرۡنَهُۥ﴾ دون غيرِها من حروف العطف؛ لأنّها تدلُّ على التَّعقيبِ، وأنَّهُنَّ أكبَرنَهُ وأعظَمنَهُ بمُجرَّدِ رُؤيَتِهِنَّ إيَّاهُ، ولم يتأخَّرْ إعظامُهُنَّ لَهُ إلى حينِ تأمُّلِهِنَّ محاسِنَهُ؛ لظهورِ هذه المحاسِنِ ظهورًا بيِّنًا لا يُحتاجُ معها إلى تأمُّلٍ.

سرعةُ إكبارِهِنّ ليوسُفَ عليه السلام راجعٌ إلى جمالِهِ الخلّابِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/262.

(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/268، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/272.

دلالةُ التّعبيرِ بالجمع في: ﴿رَأَيْنَهُۥٓ﴾:

الحرصُ الجماعيُّ على رؤيتهنّ لجمال يوسُفَ تعبيرٌ عنِ التّأثُّرِ بجمالِه الأخّاذِ

جاءَ التّعبيرُ القرآنيُّ في إثبات الرّؤيةِ منَ النِّسوةِ ليوسُفَ بصيغة الجمعِ في قولِه تعالى: ﴿رَأَيْنَهُۥٓ﴾ دونَ أن يأتي التّعبيرُ: (فلمَّا رأته كلُّ واحدةٍ منهُنّ)، مع أنّ ذلك حادثٌ وواقعٌ؛ لكنّ التّعبيرَ القرآنيَّ جاء لِيُشيرَ إلى لهفة النِّسوةِ جميعًا لرؤيتِه، عندما خرجَ عليهِنّ؛ فالأنظارُ كلُّها اتّجهَت إليه، دون أن تتخلَّفَ واحدةٌ منهُنّ، وأنَّهنَّ ينظرنَ إليه نظرةً واحدةً في الوقت نفسِه، وهذا يدلُّ على انبهارِهنَّ برؤيتِه عليه السلام.

سرُّ التّعبيرِ بـ ﴿رَأَيْنَهُۥٓ﴾:

الرّؤيةُ لها مزيّةٌ على الإبصار، في شمولها للإدراك الظّاهريِّ والباطنيِّ

آثرَ القرآنُ الكريمُ التّعبيرَ بالرّؤية دونَ الإبصار، فلم يقُلْ: (فلمَّا أبْصَرْنَه)؛ لوجود فرقٍ بينهما؛ ذلك أنّ مادّةَ (بَصَرَ) تدلُّ في اللّغة على وضوح الشّيءِ، ومادّةَ (رأى) تدلُّ على العلم بالشّيءِ، إمّا بالعين وإمّا بالقلب، وعلى هذا فالفرقُ ظاهرٌ بأنَّ مادّةَ الإبصار مُتعلِّقةٌ بحاسّة البصرِ؛ بخلاف مادّةِ الرّؤيةِ، فتجمعُ بينَ الرّؤيةِ بالعين أو بالقلب، وعلى هذا فالرّؤيةُ لها مزيّةٌ على الإبصار في شمولِها للإدراك الظّاهريِّ والباطنيِّ، وهذا هو المناسبُ في مَوقِفِ النِّسوةِ مع يُوسفَ عليه السلام؛ لأنّهُنّ شاهدنَ من وراءِ هذا الحُسن في الظّاهر نَفسًا جميلةً كريمةً، وهذا لا يتأتّى إلّا عن طريق الرّؤيةِ للجمع بين جمال الظّاهرِ والباطنِ.

نُكتةُ تَعليقِ الإكبارِ بالرُّؤيةِ:

فَخامَةُ قَدرِ يوسُفَ عليه السلام في الحُسنِ

عُلِّقَ إكبارُ النِّسوَةِ ليوسُفَ عليه السلام برؤيَتِهنَّ لَهُ دونَ خُروجِهِ عليهنَّ في قولِ اللّه عزّ وجلّ: ﴿وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّۖ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ﴾؛ لأنَّه قد يَخرجُ وتُذهَلُ إحداهُنَّ عن رؤيَتِه؛ لانشغالِها بأمرٍ ما عارِضٍ، وفي ذلك أيضًا الإشعارُ بعظيم حُسنِ يوسُفَ عليه السلام، وأنَّ الإكبارَ والإعظامَ وَقَعا بمُجرَّدِ الرُّؤيةِ، وإنْ لم يستَوفِ الخروجَ عليهِنَّ، وهذا أبلَغُ في حقِّ يوسُفَ وبيانِ فخامَةِ قَدرِه في الحُسنِ[1].

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/387.

سرُّ التّعبيرِ بـ: ﴿أَكۡبَرۡنَهُۥ﴾:

إعظامُ النِّسوَةِ جمالَ يُوسُفَ عليه السلام مَلمَحٌ مهمٌّ في مَشاهِدِ القصّة

آثرَ القرآنُ الكريمُ التّعبيرَ بالإكبار في قولِه تعالى: ﴿أَكۡبَرۡنَهُۥ﴾؛ لمناسبتِه للسّياق، فيُقالُ: أَكبَرتَ الشّيءَ كأنّك قد تخيّلتَه قبلَ أن تراهُ على حقيقتِه، وقد يكونُ خيالُك قد رسمَ له صورةً جميلةً، إلّا أنّك حين ترى الشّيءَ واقعًا تُكبِرُ المُرائي عنِ التَّخيُّل، وهذا الّذي حدثَ معَ النِّسوةِ اللّائي تناولْنَ خبرَ مَراودةِ امرأة العزيزِ لِفتاها؛ فَتخيَّلنَ له صورةً ما مِنَ الحُسنِ، لكنْ حينَ رأيْنَه، فاقَتْ حقيقتُهُ المَرئيّةُ كلَّ صورةٍ تخيّلْنَها عنه، فكان التّعبيرُ بقوله تعالى: ﴿أَكۡبَرۡنَهُۥ﴾ هو المُناسِبَ[1].

بلاغةُ الاستعارةِ في: ﴿فَلَمَّا رَأَيۡنَهُۥٓ أَكۡبَرۡنَهُۥ﴾:

إبرازُ جلالةِ الصِّفاتِ في صورةِ المَحسوساتِ مُبالَغةٌ في تَزيينِها

أُطلِقَ الكِبَرُ على عظيمِ الصِّفاتِ في قولِ اللّه ﷻ: ﴿فَلَمَّا رَأَيۡنَهُۥٓ أَكۡبَرۡنَهُۥ﴾، والأصلُ في الكِبَرِ إطلاقُهُ على عِظَمِ الأجسام؛ تشبيهًا لوَفرَةِ الصِّفاتِ بعِظَمِ الذَّاتِ[2]، فيكونُ في قولِه سُبحانَهُ: ﴿فَلَمَّا رَأَيۡنَهُۥٓ أَكۡبَرۡنَهُۥ﴾ استعارةٌ تصريحيَّةٌ تَبَعِيَّةٌ، والنُّكتةُ في ذلكَ: إبرازُ جلالَةِ الصِّفاتِ - وهي أمرٌ معنويٌّ - في صورةِ المَحسوسِ؛ مُبالغةً في تَزيينِها.

سرُّ التّعبيرِ بالواو في: ﴿وَقَطَّعۡنَ أَيۡدِيَهُنَّ﴾:

الاشتراكُ في وصفِ الحالةِ الّتي كانَت عليها النِّسوةُ، وذهولُهنَّ عن تقطيعِ الأيدي

جاءَ التّعبيرُ بالواو الّتي تدلُّ على مُطلَقِ الجَمعِ، وفي ذلك إشارةٌ إلى ذهولِ النِّسوةِ وتقطيعِ أيديهنّ، ولا يتأتّى هذا الجمعُ إلّا باستعمالِ الواوِ الّتي تفيدُ الاشتراكَ في وصفِ الحالةِ الّتي كانَت عليها النِّسوةُ مِن إكبارِه وتقطيعِ أيديهنّ.

دلالةُ تضعيفِ الفعلِ: ﴿وَقَطَّعۡنَ﴾:

صِيغَ الفِعلُ (قَطَّعَ) مِن قولِ اللّه ﷻ: ﴿فَلَمَّا رَأَيۡنَهُۥٓ أَكۡبَرۡنَهُۥ

(1) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 6932/11.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/262.

فقدانُ النِّسوةِ عقولَهنّ وحواسَهنّ عِندَ رُؤيَتِهِنَّ يوسُفَ عليه السلام

﴿وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ على وجهِ التَّضيعفِ دون أن يَردَ النَّظمُ القرآنيُّ: (وقَطَعْنَ أيْدِيَهُنَّ) بالتخفيف؛ للدّلالةِ على التَّكثيرِ، إمَّا بالنّسبة لتكثير الحَزِّ فى يَدِ كلِّ واحدةٍ منهُنّ، فكأنَّ إحدى النِّسوةِ كان يقَعُ السِّكّينُ على يدِها فَتَجرَحُها، فَتَرفَعُهَا عَن يَدِها بمُقتَضى الطَّبيعةِ، ثُمَّ يغلِبُهَا الدَّهَشُ، فَتقَعُ على مَوضِعٍ آخرَ، وهكذا[1]، فكأنَّ الجَرحَ وقعَ في اليدِ الواحدةِ مرّاتٍ عديدة، وصاحبُتها لا تشعرُ بما فعلَت؛ لِمَا راعها من جمالِ يُوسفَ عليه السلام، فكأنّها غابَتْ عن حسِّها، وإمَّا أنَّ الفعلَ ﴿وَقَطَّعْنَ﴾ دالٌّ على التّكثير بالنّسبة لكثرة القاطِعات.

نكتةُ التَّعبيرِ عَنِ الجَرحِ بالقَطعِ:

زَوالُ شُعورِ النِّسوَةِ مِن شدَّةِ إعظامِهِنَّ لِيوسُفَ عليه السلام دالٌّ على أنّه مُعجِزةٌ

عُبِّر عَنِ الجَرحِ بالقَطعِ في قولِ اللّه ﷻ: ﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾؛ لكونِ الجَرحِ كان بليغًا، فيكونُ في الآيةِ استعارةٌ؛ إذْ شُبِّهَ الجَرحُ البليغُ بالقَطعِ[2] بجامعِ شدَّةِ الحَزِّ في كُلٍّ مِنهُما، فحُذِفَ المُشبَّهُ، وصُرِّح بالمشبَّهِ به على سبيلِ الاستعارةِ التَّصريحيَّةِ التَّبعيَّةِ، وقد أفادَت هذه الاستعارَةُ أنَّ النِّسوةَ أعمَلْنَ السَّكاكينَ في أيديهِنَّ جَرحًا وحَزًّا، حتَّى إنَّهُنَّ مِن شدَّة إعظامِهِنَّ ليُوسُفَ عليه السلام، ودَهَشِهِنَّ بحُسنِهِ وجمالِهِ لَم يشعُرْنَ بهذا الحِزِّ، مع شدَّتِهِ وغَورِهِ.

براعةُ الكنايةِ:

دماءُ النّسوةِ تَسيلُ، وامرأةُ العزيزِ تَتَشَفّى فيهنّ

في قول اللّه ﷻ: ﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ كنايةٌ عَن شدَّةِ حَيرَتِهِنَّ وعظيمِ دَهشَتِهِنَّ، ولا يمنَعُ القولُ بالكنايَةِ مِن كونِ القَطعِ حاصِلًا حقيقةً. والّذي حَسَّنَ هذه الكنايةَ أنَّ الواحدةَ مِنهُنَّ لمّا دُهِشَت كانت تَظُنُّ أنَّها تَقطَعُ الفاكِهَةَ أو نحوَها، والواقعُ أنَّها كانَت تقَطعُ يدَ نفسِها، أو أنَّها لمّا دُهِشَتْ صارَت بحيثُ لا تستَطيعُ تمييزَ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/73.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3820.

أجزاءِ السِّكين، فكانَت تأخذُ بالجانبِ الحادِّ مِنهُ بكفِّهَا، فيحصُلُ لَها جَرحٌ في كَفِّها بسَببِ ذلكَ[1].

سرُّ بَدءِ التّنزيهِ بـ ﴿حَٰشَ لِلَّـهِ﴾:

تأكيدُ تنزيهِ يوسُفَ عليه السلام، ممّا رُمِي بِهِ

كان بَدءُ كلامِ النّسوةِ في تنزيهِ يُوسفَ عليه السلام، عمّا رُمِي به على أكملِ وجهٍ، بقول اللّه تعالى: ﴿حَٰشَ لِلَّهِ﴾ على ما هو الشّائعُ في مِثلِ ذلكَ؛ فالعربُ إذا أرادوا تَبرِئَةَ أحدٍ مِن سوءٍ ابتدؤُوا تَبرِئَةَ اللّه سبحانه وتعالى منَ السُّوءِ، ثمّ يُبَرِّئونَ مَن أرادوا تَبرِئَتَهُ على معنى: أنّ اللّه تعالى مُنزَّهٌ عن ألّا يُطهِّرَهُ ممّا يَضيمُهُ، فَيكونُ آكَدَ وأَبلَغَ[2].

دلالةُ ﴿حَٰشَ لِلَّـهِ﴾:

عَظيمُ قُدرَةِ اللّه سُبحانَهُ في خَلقِهِ البَديعِ

﴿حَٰشَ لِلَّهِ﴾؛ أي: تنزيهًا عظيمًا جِدًّا للّه سُبحانَهُ، وذلك وارِدٌ على وجهِ التَّعجُّبِ مِن عظيمِ قُدرَةِ اللّه سبحانه وتعالى على مِثلِ هذا الخَلقِ البَديعِ والجمالِ المِثاليِّ. واللّامُ في ﴿لِلَّهِ﴾؛ لبيانِ المُنَزَّهِ والمُبرَّأ، وهو اللّه سبحانَهُ، كاللّامِ الواردَةِ في قولِهِم: سُقْيًا لَكَ[3]. ويجوزُ أن يكونَ هذا التَّركيبُ مُستعمَلًا في تنزيهِ صاحبِ تلكَ الصُّورَةِ البديعَةِ والجمالِ الفائقِ عَن حدوثِ مُنكَرٍ أو فاحشةٍ بينَهُ وبينَ امرأةِ العزيزِ[4].

علَّةُ الفَصلِ ﴿مَا هَٰذَا بَشَرًا﴾:

عظيمُ خَشيَةٍ للّه تعالى، تَنقُلُها العباراتُ بدقّةٍ وبَيانٍ

فُصِلَ قولُ اللّه تَعالى: ﴿مَا هَٰذَا بَشَرًا﴾ عمّا قَبلَهُ؛ لكونِه واقِعًا على جهة البيانِ، وذلك أنَّه لمَّا كان المرادُ بـ ﴿حَٰشَ لِلَّهِ﴾ التَّنزيهَ والتَّعظيمَ بيَّنَهُ بقولِهِنَّ: ﴿مَا هَٰذَا بَشَرًا﴾؛ لكونِه قد فاقَ البَشَرَ في الحُسنِ جدًّا، ومعَ ذلك فهُو مُعرِضٌ عَنِ الشَّهوَةِ مِن غيرِ عِلَّةٍ - يَرَينَهَا - تمنَعُهُ من ذلكَ؛ لأنَّه في غايةِ القُوَّةِ والفُحولَةِ[5].

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 18/449.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 12/232.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/73، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/272.
(4) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 11/6936.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/73.

سرُّ تعريفِ المُسنَدِ إليه بالإشارةِ: ﴿هَٰذَآ﴾:

زيادةُ تقريرِ يوسفَ عليه السلام في الأذهانِ لِتَتَرَسَّخَ الأوصافُ المُسنَدَةُ إليهِ

عُرِّفَ المُسنَدُ إليه بالإشارة ﴿هَٰذَآ﴾ مِن قولِ الله ﷻ: ﴿وَقُلۡنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا﴾؛ لزيادةِ تقريرِهِ في الذِّهنِ، وأنَّ هذا الماثِلَ أمامَهُنَّ هُو مَن يُتَحدَّثُ عنهُ بنفيِ وصفِ البشريَّةِ عنهُ لا غيره.

عِلَّةُ الفَصلِ في: ﴿إِنۡ هَٰذَآ﴾:

الاستئنافُ البيانيُّ في إبرازِ مُتابعةِ المُتَلَقِّي وشَوقِهِ

فُصِلَ قولُ الله ﷻ: ﴿إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٞ كَرِيمٞ﴾ عمّا قَبلَهُ؛ لوقوعِهِ استئنافًا بيانيًّا؛ وذلك لأنَّ بينَ هذه الجملةِ والجملةِ قَبلَهَا شِبهَ كمالِ الاتِّصالِ؛ إذ إنَّ الجملةَ المُتقدِّمَةَ تبعثُ في نفسِ المُتلقّي سؤالًا، وهُوَ: إذا لَم يكُنْ بشرًا، فما هُوَ؟ فقُلْنَ: ﴿إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٞ كَرِيمٞ﴾؛ أي: ما هذا في الحُسنِ والجَمالِ إلَّا ملَكٌ كريمٌ[1].

نكتةُ تَكرارِ اسم الإشارةِ ﴿هَٰذَا﴾:

شدَّةُ احترامِ النِّسوَةِ لِيُوسُفَ، كانَ قَهرًا دونَ اختيارٍ

كُرِّرَ اسمُ الإشارةِ ﴿هَٰذَا﴾ مِن قولِ الله سُبحانَهُ: ﴿مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٞ كَرِيمٞ﴾؛ لدفعِ إمكانيَّةِ الغَلَطِ، وأن يُتَوَهَّمَ أنَّهُنَّ يُرِدْنَ شخصًا آخرَ.

واستعمالُ اسمِ الإشارةِ ﴿هَٰذَا﴾ في المَوضِعَينِ - وهو في الأصلِ للقريبِ - لإرادَتِهِنَّ تعظيمَهُ بالقُربِ، كما جاءَ نظيرُهُ في قولِ الله ﷻ: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ يَهۡدِي لِلَّتِي هِيَ أَقۡوَمُ﴾ [الإسراء: 9].

سِرُّ وَصفِهِنَّ لَهُ بـ ﴿مَلَكٞ﴾:

جَمالُ يوسُفَ عليه السلام الفائقُ ظاهِرًا وباطِنًا، مُعَقَّدُ الوَصفِ في الآيةِ

قولُ الله تعالى: ﴿إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٞ كَرِيمٞ﴾، وفيه وُصِفَ يوسُفُ عليه السلام بكونِهِ مَلَكًا في قول الله ﷻ: ﴿وَقُلۡنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٞ كَرِيمٞ﴾؛ وذلك لوجهَينِ[2]:

أحدهما: ما رُكِزَ في الطِّباعِ مِن نسبَةِ كُلِّ حُسنٍ بالغٍ فائقٍ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/73.

(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 18/449، والخازن، لباب التّأويل: 2/526، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 10/73 - 74.

إلى الملائكةِ، كما رُكِزَ في الطِّباع أيضًا نسبَةُ كُلِّ قُبحٍ شديدٍ إلى الشَّياطِين، فمقصودُ النِّسوَةِ من وصفِ يوسُفَ عليه السلام بكونِهِ مَلَكًا، هو إثباتُ الحُسنِ العظيمِ لَهُ.

الآخَرُ: أنَّ الملائكَةَ مُنزَّهونَ عَن دوافِعِ الشَّهوةِ وبواعِثِها، ونوازِعِ الانحرافِ عُمومًا، فلمّا رأى النِّسوةُ أنَّ يوسُفَ عليه السلام بهذا الجمالِ الفائقِ، وأنَّه مطلوبٌ لا طالبٌ، ولم يلْتَفِتْ إلى ما دُعِيَ إليهِ، ولا التفَتَ إلى النِّسوَةِ حين دخلَ عليهِنَّ، ورأيْنَ عليهِ هيبَةً وعلاماتِ الطَّهارةِ؛ ذكَرْنَ أنَّهُنَّ لم يَرَيْنَ فيه أثرًا من آثارِ الشَّهوةِ، وأنَّه قد تطهَّرَ من الصِّفاتِ المغروزَةِ في البَشَرِ، حَكَموا بأنَّه قد ترقّى عَن حدِّ البشريَّةِ، ودخلَ في حدِّ المَلَكِيَّةِ.

بلاغةُ القَصرِ:

في قولِ اللّه سُبحانَهُ: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ أسلوبُ قَصرٍ بأعلى طرُقِهِ، وهوَ النَّفيُ والاستثناءُ، وهو مِن قَصرِ الموصوفِ على الصِّفةِ؛ إذِ المقصودُ قصرُ هذا الماثِلِ أمامَهُنَّ على الصِّفاتِ الملكيَّةِ، وهو قَصرٌ إضافيٌّ.

ممّا هو مَركوزٌ في الطِّباعِ، أنّ الملائكةَ في الحُسنِ فاقتِ البَشَرَ في الذّاتِ والصّفاتِ

ويجوزُ أن يكونَ مِن قَصرِ الصِّفةِ على الموصوفِ؛ على معنى أنَّ صفاتِ هذا الماثِلِ أمامَهُنَّ لا تُوجَدُ إلّا في مَلَكٍ مِنَ الملائكةِ، والأوَّلُ أظهَرُ. فنَفَينَ عَنهُ البشريَّةَ؛ لعَظَمَةِ جمالِهِ، وأثبَتْنَ لَهُ المَلَكيَّةَ؛ بناءً على ما رَكَزَ في الطِّباعِ ألّا أحسَنَ مِنَ المَلَكِ، ولذا صارَ يُشَبَّهُ كُلُّ مُتَناهٍ في الحُسنِ بِهِ[1].

براعةُ التَّشبيهِ في ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾:

في قولِ اللّه عز وجل: ﴿مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ مبالغَةٌ في تفَوُّقِ محاسِنِه على محاسنِ البشرِ أوَّلًا بـ ﴿مَا هَٰذَا بَشَرًا﴾، فالجملةُ

تَفَوُّقُ مَحاسِنِ يوسُفَ عليه السلام على مَحاسِنِ البشرِ

(1) القاسميّ، محاسن التّأويل: 6/172.

واردَةٌ على معنى تفضيلِهِ في المحاسِنِ على عموم البشرِ، ثُمَّ شَبَّهَنَهُ بمَلَكٍ مِنَ الملائكةِ بطريقِ قَصرِهِ في جنسِ الملائكةِ، على طريقَةِ التَّشبيهِ البليغِ[1]؛ وذلكَ أنَّ يوسُفَ أُعطِيَ مِنَ الجمالِ الفائِقِ والنُّورِ والبَهاءِ، ما كانَ بِهِ آيةً للنّاظرينَ، وعِبرَةً للمُتَأَمِّلينَ[2]، وهو مصداقُ قولِه ﷺ: «أُعطِيَ يوسفُ شَطرَ الحُسنِ»[3].

سِرُّ وَصفِ المَلَكِ بالكريم:

في قولِ اللّه ﷻ: ﴿مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ وُصِفَ بكَونِهِ كريمًا بسببِ الأخلاقِ الباطنةِ، لا بسببِ الخِلقةِ الظّاهرةِ، يؤكّدُ هذا أنّه عليه السلام لم يلتفتْ إليهنّ البتّةَ، ولا شَمَمْنَ فيه أثرًا من آثارِ الشّهوةِ الإنسانيّةِ؛ بل شَهِدْنَ عليه الطّهارةَ الكاملةَ والعفّةَ الرّاقيةَ الّتي لا تكونُ إلّا للأنبياءِ ممّا جَعَلَهُنَّ يَصِفْنَهُ بالملائكيّة.

ظهورُ آثارِ أخلاقِ يوسُفَ الباطِنيَّةِ، ممّا شَهِدَ لَهُ بالعِفَّةِ الكاملةِ

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

المَكرُ والخِداعُ والكَيدُ:

الفرقُ بَينَها[4]: أنَّ الخِداع إظهارُ أمرٍ لِغَيرِكَ مَعَ إضمارِ خلافِهِ، ولا يَلزمُ منهُ أن يكونَ بَعدَ نظَرٍ وتدبُّرٍ، ولذا يُقالُ: خدعَهُ في البيعِ إذا غشَّهُ، ولو كان ذلكَ بديهَةً مِن غيرِ فِكرٍ سابقٍ.

الخِداعُ أَعَمُّ مِنَ الكَيدِ، والكَيدُ أقوى دلالةً مِنَ المَكرِ

بخلافِ الكَيدِ فإنَّه - في حقِّ المخلوقِ - لا يكونُ إلّا بَعدَ تَدَبُّرٍ وفِكرٍ ونظَرٍ.

وأمَّا المكرُ فهو مِثلُ الكَيدِ في كَونِهِ - في حقِّ المَخلوقِ - لا يكُونُ إلّا بَعدَ فِكرٍ ونَظَرٍ، إلَّا أنَّ الكَيدَ أقوَى مِنَ المَكرِ.

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/263.

(2) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 239.

(3) أخرجه أحمد، المسند، الحديث رقم: (14050) واللّفظ له، ومسلم، صحيح مسلم، الحديث رقم: (162)، مطوّلاً باختلاف يسير.

(4) العسكريّ والجزائريّ، معجم الفروق اللّغويَّة، ص: 213 - 508.

﴿قَالَتۡ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِي لُمۡتُنَّنِي فِيهِۖ وَلَقَدۡ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ فَٱسۡتَعۡصَمَۖ وَلَئِن لَّمۡ يَفۡعَلۡ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسۡجَنَنَّ وَلَيَكُونٗا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ٣٢﴾ [يوسف: 32]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

تَكمِلَةُ المَشهَدِ القَصَصِيِّ، بجَعل النِّسوَة أحَقّ باللَّوم مِن امرأةِ العزيزِ

لمّا ذكرتِ الآيةُ السّابقةُ مَقولةَ النِّسوةِ في امرأةِ العزيزِ، إنَّ يوسُفَ عليه السلام قد شغفَها حُبًّا، وأنَّهُنَّ يَرَينَها في ضلالٍ مُبينٍ، شقَّ ذلك عليها وعَظُمَ جدًّا، فاحتالَتْ عليهِنَّ فجمَعَتهُنَّ، فلمَّا رأَيْنَ يوسُفَ عليه السلام أَعظَمْنَهُ وقطَّعْنَ أيدِيَهُنَّ؛ جاءَتْ هذه الآيةُ لِتُجيبَ عن تَطلُّعِ الأنفُسِ لمعرفَةِ مقالَةِ امرأةِ العزيزِ لهؤلاءِ النِّسوَةِ، فجاءَ قولُ اللّه سُبحانَهُ: ﴿قَالَتۡ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِي لُمۡتُنَّنِي فِيهِۖ﴾، فبيَّنَتْ لَهُنَّ أنَّهُنَّ أحقُّ باللَّوم؛ لأنَّهُنَّ بنظرَةٍ واحدةٍ لَحِقَهُنَّ أَعظَمُ ممَّا نالَهَا مع طولِ مُكثِهِ عِندَها[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿لُمۡتُنَّنِي﴾: اللّامُ والواوُ والميمُ تدلُّ تصريفاتُها على معنيَين؛ أحدهما: العَتبُ والعَذلُ، والآخرُ: الإبطاءُ، ومنه التَّلَوُّمُ، وهو التَّمَكُّثُ. ومِنَ الأوَّل: اللَّومُ وهو العَذلُ والعِتَابُ، تقولُ: لُمْتُهُ لَومًا؛ إذا عاتَبتَهُ[2]، وحقيقةُ اللَّومِ: عَذلُ الإنسانِ وعِتابُهُ بنسبَتِهِ إلى ما فيه لَومٌ عليه[3] والتَّلاوُمُ: أنْ يَلومَ بَعضُهم بَعضًا. ومعنى قولِ اللّه عز وجل: ﴿قَالَتۡ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِي لُمۡتُنَّنِي فِيهِۖ﴾؛ أي: عيَّرتُنَّني في حُبِّهِ والافتِتانِ بِهِ[4].

2) ﴿رَٰوَدتُّهُۥ﴾: الرّاءُ والواوُ والدّالُ تدورُ اشتِقاقاتُها على الطَّلَبِ

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 18/450.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (لوم).
(3) الرّاغب، المفردات: (لوم).
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/273.

والاختيارِ، ومِنهُ أرادَ فلانٌ كذا إرادَةً؛ أي: طلبَهُ واختارَهُ، والفعلُ: راوَدَ مُفاعَلَةٌ مِنهُ، تقولُ: راودتُهُ على الأمر مُراوَدَةً؛ أي: طلبتُ مِنهُ فِعلَهُ، وكأنَّ في المُراوَدَةِ معنى الخِداعِ؛ لكونِ الطَّالبِ يتلطَّفُ في طلبِهِ كتلطُّفِ المُخادِعِ، ويحرِصُ على الأمرِ كحَرصِهِ[1]. فالمُراودُ يحاولُ جذْبَ الآخَرِ مَرّةً بعد مَرّةٍ، وكلُّ (مراودة) في القرآن فهي مُجارَّةٌ ومُجاذَبَةٌ[2]. والمُراوَدَةُ في قولِ اللّه ﷻ: ﴿وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا عَن نَّفۡسِهِۦ﴾ [يوسف: 23] كنايَةٌ عمَّا تريدُهُ النِّساءُ مِنَ الرِّجالِ[3].

3) ﴿فَٱسۡتَعۡصَمَۖ﴾: العينُ والصّادُ والميمُ تدلُّ اشتقاقاتُها على معنى الإمساكِ والمَنعِ والملازَمَةِ، ومِن ذلك: العِصمَةُ؛ وهي أن يَمنَعَ اللّه تعالى العَبدَ من سوءٍ يقَعُ فيهِ[4]. والاعتِصامُ هُوَ التَّمسُّكُ بالشَّيء، ومِنهُ: استَعصَم؛ أي: استَمسَكَ. ومعنى قولِ اللّه سُبحانَهُ: ﴿وَلَقَدۡ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ فَٱسۡتَعۡصَمَۖ﴾؛ أي: تأبَّى عليها ولَم يُجبها إلى ما طلَبَتۡ[5]، فكأنَّهُ طلَب ما يَعتَصِمُ بِهِ مِن رُكوبِ الفاحِشَةِ[6].

4) ﴿ٱلصَّٰغِرِينَ﴾: الصَّادُ والغينُ والرَّاءُ تدورُ تصاريفُها على معنى القِلَّةِ والحقَارَةِ، ومِنهُ الصِّغَرُ، وهو خلافُ الكِبَرِ[7]، والصِّغَرُ قد يُطلَقُ باعتبارِ الذَّاتِ، وتارةً باعتبار القَدرِ والمكانَةِ[8]، فالأوَّلُ صِغَرٌ حسِّيٌّ، والآخرُ مَعنويٌّ، ومِنَ المَعنَويِّ: الصَّغَارُ؛ وهو الذُّلُّ والهَوانُ[9]. ومعنى قولِ اللّه سُبحانَهُ: ﴿وَلَئِن لَّمۡ يَفۡعَلۡ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسۡجَنَنَّ وَلَيَكُونٗا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾ أي: الذَّليلِينَ[10].

المَعْنى الإجْماليُّ:

قالَتِ امرأةُ العزيزِ لِلنِّسوَةِ اللّاتي قَطَّعْنَ أيدِيَهُنَّ: فَهَذا الّذي أصابَكُنَّ في رُؤيتِكُنَّ

(1) الفيّوميّ، المصباح المنير: (رود).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (رود).
(3) الهرويّ، الغريبين: (رود).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عصم).
(5) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (عصم).
(6) الرّاغب، المفردات: (عصم).
(7) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (صغر).
(8) الرّاغب، المفردات: (صغر).
(9) ابن الأثير، النّهاية: (صغر).
(10) الواحديّ، التّفسير البسيط: 12/106.

إيّاهُ، وفي نَظرَةٍ واحدةٍ مِنكُنَّ إليهِ، فأصابَكُنَّ مِن ذَهابِ العَقلِ وعُزوبِ الفَهمِ وَلَهًا، حتَّى قَطَّعْتُنَّ أيدِيَكُنَّ؛ هُو الذي لُمْتُنَّني في حُبّي إيّاهُ، وشَغَفِ فُؤادي بِهِ، ثُمَّ أقرَّتْ لَهُنَّ بأنَّها قَد رَاوَدَتهُ عَن نَفسِهِ فاستعصمَ، ومَعَ ذلكَ أعلنتْ إصرارَها على إخضاعِها ليوسُفَ عليه السلام ليفعلَ ما تريدُ، فهَدَّدَتْهُ وأنذَرَتْهُ بقولِها: ولَئِنْ لَم يُطاوِعْني على ما أدعوهُ إليهِ مِن حاجَتي إليهِ؛ لَيُحبَسَنَّ، ولَيَكُونَنْ مِن أهلِ الصَّغارِ والذِّلَّةِ والمهانةِ[1].

انتصارُ امرأةِ العزيزِ على النِّسوةِ، ومُجاهرَتُها بفُجورِها واستِعلائِها

وتُرشدُ الآيةُ الكريمةُ إلى أنَّ يوسفَ عليه السلام لم يتَّجهْ بشهوتِهِ البشريَّةِ نحوَها، فقد ظلَّ سنينَ عديدةً تحت رعايتِها وبين يديها، وذلك لكمالِ نفسِه، وطِيبِ خُلقِه، وإعدادِ اللهِ إيّاهُ للنُّبُوَّةِ، وقد تأكَّدتْ هذه العصمةُ الرّبّانيَّةُ، وتجلَّتْ بأجلى مظاهرِها، حين دَعَتهُ إلى مُخالطتِها، وبذلَتْ له من أساليبِ الإغراءِ ما بذلَتْ؛ لِترفعَ بذلك عن نفسِه الخَشيةَ منها وتَهَيُّبَ مقامِها وتدفعُهُ إلى الرّغبةِ فيها والاجتراءِ عليها بعد أن أذلَّت له أنوثتَها، وأنَّه مَعَ هذا الإغراءِ والتّمكِّينِ التّامِّ، امتنعَ مع أنَّها شكَت حالَها إلى النِّسوةِ؛ لِتستعينَ بأئمّةِ المَكرِ والاحتيالِ عليه.

وترشدُ إلى أنّها بهذا التّصريحِ كذَّبَتْ نفسَها فيما قالَته لِزوجِها، مِن أنَّ يوسفَ أرادَ بها سوءًا، وإلى أنّها استعملَتْ مع يوسفَ نوعَ إكراهٍ، بأنْ توعَّدَتهُ بالسِّجنِ والمَهانَةِ، إذ هو تهديدٌ ممَّن يَغلِبُ على الظّنِّ وقوعِ ما هدَّدَ به[2].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

علَّةُ الفَصلِ في: ﴿قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ﴾:

فُصِلَ قولُ اللهِ عزّ وجلّ: ﴿قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ﴾ عمّا قَبلَهُ؛ لوقوعِهِ استئنافًا بيانيًّا، إذ بينَ الجُملتينِ شِبهُ كمالِ الاتِّصالِ؛ وذلك

شِبهُ كمالِ الاتّصالِ بينَ الجملتينِ، وأثرُهُ في الدّلالةِ

(1) ابن جرير، جامع البيان: 16/85 - 86.

(2) ابن القيّم، الجواب الكافي، ص: 210، ومجمع البحوث الإسلاميّة، التّفسير الوسيط: 4/314.

لأنَّ قولَ اللّه سُبحانَهُ: ﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ يبعَثُ في نفسِ المُتلقّي سؤالًا، وهُوَ: فما قالَت لَهُنَّ امرأةُ العزيزِ؟[1] فجاءَ الجوابُ في قولِ اللّه تَعالى: ﴿قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ﴾.

دلالةُ الفاءِ في ﴿فَذَٰلِكُنَّ﴾:

تَـركُ التَّصريحِ بما دَلَّ المَقامُ عليهِ؛ اقتِصادًا في اللَّفظِ

الفاءُ في قولِ اللّه ﷻ: ﴿قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ﴾ هي الفاءُ الفصيحَةُ[2]، وهي الّتي تُفصِحُ عن شَرطٍ مُقدَّرٍ، والتَّقديرُ في هذه الآيةِ: إنْ كانَ هذا كما زَعَمتُنَّ مَلَكًا؛ فهو الّذي بَلَغَكُنَّ خبرُهُ، فَلُمْتُنَّني فيهِ[3]، فطُوِيَ الشَّرطُ لدلالةِ المقامِ عليهِ، فكانَ في ذلك غُنيةٌ عنِ التَّصريحِ به؛ اقتصادًا في اللَّفظِ.

غرضُ التَّعبيرِ باسمِ الإشارةِ:

تَعظيمُ يُوسفَ عليه السلام ورِفعةُ شأنِه من بيانِ السّياقِ

جاءَ التَّعبيرُ باسمِ الإشارةِ (ذلك) مِن قولِ اللّه ﷻ: ﴿قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ﴾ ليوسفَ عليه السلام بالعُنوانِ الّذي وَصَفنَهُ به النِّسوةُ منَ الخروجِ في الحُسنِ والجمالِ، عَنِ المراتبِ البشريَّةِ إلى الملائكيّةِ، وقَصْدُها بذلك تمييزُ يوسُفَ عليه السلام أتمَّ تمييزٍ؛ لتُظهرَ عُذرَها في شغفِها به؛ إذْ كانَتِ النِّسوةُ لَم يَرَيْنَهُ مِن قَبلُ[4]، وفي التّعبيرِ به إيماءٌ إلى الأوصافِ السّابقةِ، كأنَّه قيلَ لهنَّ: الّذي قطَّعتُنَّ أيديَكُنَّ بسَبَبِهِ، وأَعظَمتُنَّهُ، وقُلتُنَّ فيه ما تقدَّمَ من نفيِ البشريَّةِ عَنهُ وإثباتِ الملَكيَّةِ لَهُ؛ هُوَ الّذي لُمْتُنَّني في حُبِّهِ وشغَفي بِهِ[5]. ويجوزُ أن تكونَ الإشارةُ إلى المعنى المُستفادِ من قولِهنَّ: إنَّها عشِقَت عَبدَها، فكأنَّها قالَت: هذا هو ذلك العَبدُ الّذي صوَّرتُنَّ في أنفُسِكُنَّ ثُمَّ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/74.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/272.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/264.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/264.
(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/272.

لُمْتُنَّني فيه، والمقصودُ: إنَّكُنَّ لو تصوَّرتُنَّهُ بحقِّ صورتِهِ، لعذرتُنَّني في الافتِتانِ به[1].

معنى التَّعبيرِ بـ (لام البُعْدِ) في ﴿فَذَٰلِكُنَّ﴾:

بيانُ عُلُوِّ رُتبَةِ يوسُفَ عليه السلام في الحُسنِ والعفّةِ

جاءَ التّعبيرُ بلامِ البُعدِ في ذلك من قولِ اللّه سُبحانَهُ: ﴿قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ﴾؛ للإيماءِ إلى عُلوِّ رُتبتِه ومنزلَتِهِ في الحُسنِ، وللإيماءِ إلى بُعدِه عَن أن يكونَ مَوضِعَ أمَلٍ ورجاءٍ لامرأة العزيز، وتمهيدًا لعذرِها في الافتِتانِ بهِ، ففيه تنزيلُ القَريبِ مَنزلَةَ البعيدِ[2]. ويجوزُ أن يكونَ التّعبيرُ باسم الإشارةِ على بابِهِ، وأنَّها أشارَت إليه بصيغَةِ (ذَلِكُنَّ) بعد انصرافِهِ مِن ذلك المَجلِسِ، فكانَ بعيدًا بهذا الاعتِبارِ[3]؛ لأنَّ انصِرافَهُ عَن مجلسِهنَّ كان بسَبَبِ ما رآه من دهَشهنَّ وتقطيعِ أيديهنَّ بالسَّكاكينِ، وقولِهنَّ: ﴿مَا هَٰذَا بَشَرًا﴾، فَبَعُدَ عَنهُنَّ إبقاءً عليهنَّ؛ لئلَّا تزدادَ فِتنَتُهُنَّ بِهِ[4].

نُكتةُ التَّعبيرِ بالاسمِ الموصولِ ﴿ٱلَّذِى﴾:

خَطَأُ النِّسوَةِ عندَما لُمنَ امرأةَ العزيزِ في حُبِّ يوسُفَ عليه السلام

جاءُ التَّعبيرُ بالاسمِ الموصولِ ﴿ٱلَّذِى﴾ المُبهَمِ في قولِ اللّه ﷻ: ﴿قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ﴾؛ لتأتيَ جُملَةُ الصِّلةِ مُزيلَةً ذلك الإبهامَ بما وَصَفنَهُ به بقولِهِنَّ: ﴿مَلَكُ كَرِيمٌ﴾ خارجٌ في الحُسنِ عن مراتبِ البشريَّةِ، أو الّذي قَطَّعْتُنَّ أيدِيَكُنَّ بسببه لعدمِ علمِ النِّسوةِ بشيءٍ مِن طُرُقِ تعريفِهِ إلّا ما ذُكِرَ في جملةِ الصِّلةِ، وليكونَ ذلكَ أوقَعَ في إرادَةِ بيانِ خطئِهِنَّ عِندما لُمْنَها في حُبِّهِ[5].

سرُّ التّعبيرِ بـ ﴿لُمْتُنَّنِى﴾:

الإنباءُ عن تأثُّرِ امرأةِ العزيزِ بمقالةِ النِّسوةِ في شأنها

جاءَ التّعبيرُ القرآنيُّ باللّومِ ﴿لُمْتُنَّنِى﴾ في قولِ اللّه ﷻ: ﴿قَالَتْ

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/467.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/271، والقزوينيّ، الإيضاح: 2/20، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 10/74، والبدويّ، من بلاغة القرآن، ص: 107.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 18/450.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/271، والخفاجيّ، عناية القاضي: 5/174.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/264.

﴿فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمۡتُنَّنِى فِيهِۖ﴾ في بيان مَوقف النِّسوةِ مِن امرأة العزيز، في مُراودتِها لفتاها؛ لِيُنبئ عن المَوقفِ النّفسيِّ مِنهُنَّ، وما يَحمِلْنَهُ من تشنيعٍ وفَضحٍ لها؛ لأنّ أصلَ اللّوم يُطلَقُ على الوصف القبيح، وعلى المُعايرة؛ كأنهّا قالَت: "هذا العبدُ الكنعانيُّ الّذي صَوَّرتُنَّ في أنفسِكُنّ، وقُلْتُنَّ فيه وفيّ ما قُلتُنَّ؛ فالآنَ قد عَلِمتُنَّ مَن هو وما قولُكُنَّ فينا"[1].

معنى حرفِ الجرِّ (في):

بَيانُ سَبَبِ لَومِ النِّسوَةِ وعِلّتِهِ في السّياقِ الحكيمِ

آثَرَ القرآنُ الكريمُ التّعبيرَ بحرف الجرِّ (في) دون الباء مِن قولِ اللّه سُبحانَهُ: ﴿قَالَتۡ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمۡتُنَّنِى فِيهِۖ﴾؛ للدَّلالةِ على استغراق لَومِهِنَّ امرأةَ العزيزِ ليوسفَ عليه السلام من جمالِه الظّاهريِّ والباطنيِّ، ويجوز أن يُرادَ بهِ التَّعليلُ[2] كالواردةِ في قولِ النَّبيِّ ﷺ: «دَخَلَتِ امرأةٌ النَّارَ في هِرَّةٍ»[3]، فقولُ اللّه عز وجل: ﴿قَالَتۡ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمۡتُنَّنِى فِيهِۖ﴾؛ أي: عاتَبتُنَّني مِن أجلِهِ أو بسَبَبِه.

دلالةُ التّعبيرِ بالإضمارِ:

تعدُّدُ أسبابِ لَومِ النِّسوَةِ لامرأةِ العزيزِ

قولُهُ تعالى: ﴿لُمۡتُنَّنِى فِيهِۖ﴾، وفيه آثرَ السِّياقُ الكريمُ التّعبيرَ بالإضمار بدلاً منَ الإظهار؛ لِتعدُّدِ المُرادِ بالضَّميرِ في ﴿فِيهِۖ﴾؛ فمنهم مَن قال: إنّه راجعٌ إلى يوسُفَ عليه السلام، ويجوزُ أن يكونَ راجعًا إلى الحُبِّ، والتَّقدير: ذلِكُنَّ الحبُّ الّذي لُمتُنَّني فيه[4]. وهما وجهانِ متآيلانِ؛ لأنَّ رجوعَ الضَّمير إلى يوسُفَ عليه السلام هو على حذفِ مضافٍ، وتقديره: لُمتُنَّني في حُبِّ يوسُفَ، والمعنى على ذلك مُوافِقٌ للتّعبير بالإضمار؛ لأنّ الحبَّ ليُوسفَ أمرٌ قلبيٌّ، وإنْ ظهرَت علاماتُهُ في طلبِ المُراودةِ، إلّا أنَّ أصلَ الحبِّ أمرٌ خفيٌّ ناسبَه التّعبيرُ بالإضمار.

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 12/232.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/264.
(3) رواه البخاريّ في صحيحه، الحديث رقم: (3318)، ومسلم في صحيحه، الحديث رقم: (2619).
(4) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/241، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 9/183.

براعةُ الإيجاز في سياق الجملةِ المُفيدة:

وقوعُ اللّومِ على المُراودةِ لا على الحُبِّ المُفرِطِ

في قول الله ﷻ: ﴿قَالَتۡ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِي لُمۡتُنَّنِي فِيهِۖ﴾ إيجازٌ بالحذفِ يدلُّ عليه تعدُّدُ المُرادِ في عود الضّمير؛ فيجوزُ أن يكونَ راجعًا إلى يوسُفَ عليه السلام، والتَّقدير: لُمْتُنَّني في حُبِّه؛ لقول الله تعالى قَبْلُ: ﴿قَدۡ شَغَفَهَا حُبّٗاۖ﴾ [يوسف: 30]، أو: لُمْتُنَّني في مُراوَدَتِه؛ لقول الله سُبحانَهُ: ﴿تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفۡسِهِۦۖ﴾ [يوسف: 30]، أو: لُمْتُنَّني في شأنِه وأمرِه[1]، فيكون شاملًا للأمرَينِ المُتقدِّمين. وذكرَ الخطيبُ القَزوينيُّ أنَّ العَادَةَ قاضِيَةٌ بتَعيينِ المُراوَدَةِ؛ وذلك لأنَّ الحُبَّ المُفرِطَ لا يُلامُ صاحبُهُ عليه؛ لقَهرِه صاحبَهُ وغَلَبتِه إيّاه، وإنَّما يقَعُ اللَّوْمُ على المراوَدَةِ؛ لكونِهَا داخلةً في قُدرَةِ الإنسانِ على مدافَعتِها[2].

بلاغةُ التّعبير بالجملة الخبريّة:

تَشَفِّي امرأةِ العزيزِ مِنَ النِّسوَةِ، و رفعُ المَلامةِ عنها

قولُ الله ﷻ: ﴿قَالَتۡ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِي لُمۡتُنَّنِي فِيهِۖ﴾ جملَةٌ خبريَّةٌ، والمقصودُ بها التَّشفّي والتَّباهي والاعتذارُ عمّا صدرَ منها مَعَهُ، وفيه الإعلانُ بالإنكارِ عليهنَّ؛ إذِ المعنى: هل يجوزُ أن تَلُمْنَني فيه، وقد قطَّعْتُنَّ أيديَكُنَّ بسبَبِ نظرةٍ، فكيف بمَنْ هو قريبٌ منهُ يطَّلِعُ عليه على وجهِ الدَّوامِ؟! قد عَلِمتُنَّ أنَّني معذورةٌ فيما جرى منّي مَعَهُ[3]، وفي هذا دليلٌ على أنَّ كيدَ المرأة أبلغُ من كيدِ النّسوة، إذِ انتهى كيدُها إلى إقامة الدّليلِ الحسّيِّ الّذي لا يمكنُهُنّ نسيانُهُ بتقطيع أيديهنّ.

نكتةُ التَّأكيدِ في: ﴿وَلَقَدۡ رَٰوَدتُّهُۥ﴾:

مُجاهَرَةُ امرأةِ العزيزِ، وتَصريحُها بمُراودتِها يوسُفَ عليه السلام، غايةُ المَلمحِ في القصّةِ

أُكِّدَ الخبرُ في قولِ الله ﷻ حكايةً عن امرأةِ العزيزِ: ﴿وَلَقَدۡ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ فَٱسۡتَعۡصَمَۖ﴾ باللَّامِ الواقعةِ في جوابِ قسمٍ محذوفٍ، وبـ (قَد) المفيدَةِ التَّحقيقَ؛ "أي: والله قد راودتُّهُ حسبما قلتُنَّ وسمعتُنَّ"؛

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/264.
(2) القزوينيّ، الإيضاح: 3/195.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3820، وطنطاويّ، التّفسير الوسيط: 7/354.

لأنَّها لمّا علِمَت أنَّ النِّسوةَ عَذَرنَها، جاهرَت بالتَّصريحِ بمراودَتِهَا يوسُفَ عليه السلام مُؤكِّدَةً ذلك على وجهِ الاستِلذاذِ بالهيامِ في حُبِّهِ[1]، وفي هذا إشارةٌ على إقرار امرأةِ العزيزِ بما ضاق صدرُها عن كتمِ ما تجدُهُ في قلبها من حبِّه؛ فأقرّت بذلك، وصرّحَت بما وَقَعَ منها مِنَ المُراودة.

سرُّ التّعبيرِ بالفعل الماضي ﴿رَٰوَدَتۡهُ﴾:

جاءَ التّعبيرُ بالفعل الماضي، لِيدلّلَ على تحقُّقِ وقوعِ المُراودةِ من امرأة العزيزِ لِيُوسفَ عليه السلام، وفي هذا ذكرُ دليلٍ آخر على براءتِه عليه السلام منَ الهمِّ الفعليّ في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ هَمَّتۡ بِهِۦۖ وَهَمَّ بِهَا﴾ [يوسف: 24]، فضلاً عنِ المُراودة.

تحقُّقُ وقوعِ المُراودة منِ امرأة العزيز ليوسفَ عليه السلام

دلالةُ التّعبير بـ ﴿عَن نَّفۡسِهِۦ﴾:

جاءَ التّعبيرُ بقوله: ﴿عَن نَّفۡسِهِۦ﴾ بدلاً من ذاتِه؛ للدّلالة على سمو معدنِه عليه السلام؛ لأنّ النّفسَ منَ النّفيس، وهذا واضحٌ في حقِّه عليه السلام بأنّ روحَه تتجلَّى فيها الرّوحُ الملكّيّةُ بأظهر صفاتِها.

ولِلإشارة أيضًا إلى معنى المنافسةِ؛ وهي مُجاهدةُ النّفس للتَّشبُّهِ بالأكمل؛ فكانَ التّعبيرُ بقوله تعالى: ﴿عَن نَّفۡسِهِۦ﴾ هو المَظهرَ للجمال الرّوحيِّ قبلَ الجمال الجسمانيِّ.

تجليةُ مَظهَرِ الجمالِ الرّوحيِّ قبلَ الجمالِ الجسمانيِّ

معنى التّعبيرِ بالفاء في: ﴿فَٱسۡتَعۡصَمَۖ﴾:

دلّ التّعبيرُ بالفاء العاطفة بلا تراخٍ في قولِه تعالى: ﴿فَٱسۡتَعۡصَمَۖ﴾ على كلامٍ محذوفٍ، جرى منها ليوسفَ عليه السلام لم يذكرْ تعظيمًا لقدرِه عليه السلام، وفيه إشارةٌ إلى سرعة رفضِ المُراودةِ؛ فبمُجرَّدِ طلبِها للمُراودة، كان الإباءُ والرّفضُ السّريعُ من يوسفَ عليه السلام؛ لطهارةِ نفسِه ومعدنِه.

الإباءُ والرّفضُ السّريعُ، بمُجرَّدِ طلبِها الفعلَ الرّخيصِ

سرُّ التّعبيرِ بـ ﴿فَٱسۡتَعۡصَمَۖ﴾:

جاءَ فِعلُ العِصمَةِ على زِنَةِ الاستِفعالِ (استَعصَمَ) في قولِ

تعلُّقُ يوسفَ بربِّه سبحانه وتعالى دليلُ الخصوصيّة وعمقِ اليقين

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/74.

اللّه ﷻ: ﴿وَلَقَدۡ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ فَٱسۡتَعۡصَمَۖ﴾، وهو فعلٌ ماضٍ زِيدَت فيه السّينُ للمُبالغةِ في الامتناع؛ للدِّلالة على الامتناعِ البليغِ والتَّحفُّظِ الشَّديدِ، حتَّى كأنَّه في عِصمَةٍ، وهو يجتَهِدُ للاستِزادَةِ مِنها، وفي ذلك دلالَةٌ بيِّنَةٌ على أنَّه لم يصدُرْ مِنهُ عليه السلام شيءٌ يقدَحُ في استِعصامِهِ[1]، وفي هذا دليلٌ على أنّ يوسفَ عليه السلام لم يدعْ في قلبِهِ مكانًا خاليًا لنظرات هذه المرأةِ الولهةِ الّتي شغفَها حبُّ يوسفَ عليه السلام.

نكتةُ التَّأكيدِ في الجملة الخبريّة:

جملةُ ﴿وَلَئِن لَّمۡ يَفۡعَلۡ مَآ ءَامُرُهُۥ﴾ جملةٌ خبريَّةٌ؛ لأنَّ التَّحقيقَ في جملةِ الشَّرطِ أنَّها بحسَبِ الجوابِ، والجوابُ ههُنا ﴿لَيُسۡجَنَنَّ﴾ وهو خبَرٌ، وقد أُكِّدَت جملةُ الشَّرطِ لكونِ حالِ حُبِّها يَقتَضي إنكارَ أن تَفعَلَ ما يُؤذي المحبوبَ، وذلك لِلمُنافاةِ بينَهُما؛ إذ مَنْ يُحِبُّ أحدًا يَمتَنِعُ أن يُؤذِيَهُ عادَةً، فضلًا عَن أَنْ يُبالِغَ في هذا الإيذاءِ بالسِّجنِ أو الإذلالِ[2]؛ لذلك كان التّعبيرُ باللّام الموطّئةِ للقسم؛ للدّلالة على تأكيدِ ما ذهبَت إليه منَ الإيذاء؛ لِتؤكِّدَ لنفسِها أنّها قادرةٌ على التَّخلّي عن هذا الحبِّ، مقابلَ إرهابِ يوسفَ عليه السلام وعقابِهِ.

حالُ امرأةِ العزيز في حبِّها ليوسفَ، يقتضي إنكارَ أن تفعلَ ما يؤذيه

دلالةُ التّعبير بالفعل ﴿يَفۡعَلۡ﴾:

جاء التّعبيرُ القرآنيُّ بقوله تعالى: ﴿يَفۡعَلۡ﴾ دون (يعمل)؛ للدّلالة على أنّ امرأةَ العزيز تطلبُ إلى يوسفَ عليه السلام أن يستجيبَ لكلّ ما تطلبُه، سواء وافق مرادَه أم لم يوافقْ؛ بخلاف (يعمل) فهو أخصُّ في الدّلالة مِن ﴿يَفۡعَلۡ﴾، ولو عبّرَ بـ (يعمل) لكان الأمرُ مقصورًا على أمر المُراودة دونَ تبعاتِها، إلّا أنّها آثرَتِ التّعبيرَ بما هو أوسعُ وأشملُ مِن ذلك.

الإشارةُ إلى أنَّ امرأةَ العزيز تطلبُ إلى يوسفَ عليه السلام أن يستجيبَ لكلّ ما تطلبُه

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/467، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/273.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/74.

غرضُ التّعبير بـ ﴿مَآ﴾:

يتعدَّدُ المعنى بتعدُّدِ التّأويلِ ووجوهِهِ، دليلًا على انفساحِ الجملةِ لكلّ احتمالٍ مسموحٍ به

جاء التّعبيرُ بـ ﴿مَآ﴾ في قولِه تعالى: ﴿يَفۡعَلۡ مَآ ءَامُرُهُۥ﴾؛ لِتعدُّدِ المرادِ بها، ويجوزُ أن تكونَ موصولةً، والجملة بعدَها صِلةٌ، والعائد (الهاء)، ويكونُ التّقديرُ: (الّذي آمُرُ به فيما سيأتي، كما لم يَفعَلْ فيما مضى)، ويجوزُ أن تكونَ ﴿مَآ﴾ مصدريّةً، والتّقديرُ: (لَئِن لم يَفعلْ أمري إيّاهُ)، ومعنى فعلِ الأمرِ فِعلُ مُوجِبِهِ ومُقتَضاهُ[1].

بلاغة الحذفِ في ﴿وَلَئِن لَّمۡ يَفۡعَلۡ مَآ ءَامُرُهُۥ﴾:

إرادَةُ امرأةِ العزيزِ أنْ يُمتَثَلَ أمرُها امتِثالًا مُطلَقًا، من مَظاهرِ سكرةِ الحُكمِ وغرورِه

في قول اللّه سُبحانَهُ: ﴿وَلَئِن لَّمۡ يَفۡعَلۡ مَآ ءَامُرُهُۥ﴾ حَذفٌ للمفعولِ الأوّلِ لـ (آمُرُ)، والتَّقدير: لئِنْ لم يفعَلْ ما آمرُ يوسُفَ به، وحُذِفَ لدِلالةِ ﴿يَفۡعَلۡ﴾ عليه؛ فإنَّ فاعِلَهُ ضميرٌ مستَتِرٌ تقديرُهُ: (هُوَ) يعودُ على يُوسُفَ عليه السلام، فاكتُفِي بهذا عنِ التَّصريح بهِ في ﴿ءَامُرُهُۥ﴾. ويجوزُ أن يكونَ المفعولُ مَتروكًا، فيكونُ الفعلُ ﴿ءَامُرُهُۥ﴾ – وهو مُتَعَدٍّ – مُنزَّلًا مَنزِلةَ اللّازِم؛ إذْ مقصودُ امرأةِ العزيزِ لزومُ امتثالِ ما أمرَتْ بِهِ مُطلقًا[2]، وفي ﴿ءَامُرُهُۥ﴾ حذفٌ وإيصالٌ؛ إذ حُذِفَ الجارُّ، وأُوصِلَ الفِعلُ إلى الضَّمير[3].

نكتةُ التَّعبيرِ عَنِ المُراودةِ بالأمرِ ﴿مَآ ءَامُرُهُۥ﴾:

إظهارُ جريانِ سلطةِ المرأةِ على يُوسُفَ عليه السلام، من مَظاهرِ ترفِ العيشِ في القصور

عبَّرَت امرأةُ العزيزِ عن مراودتِها بالأمرِ، فقالَ اللّه عز وجل: ﴿قَالَتۡ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمۡتُنَّنِى فِيهِۖ وَلَقَدۡ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ فَٱسۡتَعۡصَمَۖ وَلَئِن لَّمۡ يَفۡعَلۡ مَآ ءَامُرُهُۥ﴾؛ لإظهارِ أنَّ أحكامَهَا تجري عليهِ على جِهَةِ الإلزامِ، وليكونَ كلامُهَا مُقتَضِيًا جوابَ امتثالِهِ أمرَها[4].

دلالةُ اللّامِ في: ﴿لَيُسۡجَنَنَّ وَلَيَكُونًا﴾:

اللّامُ في قولِ اللّه عز وجل: ﴿لَيُسۡجَنَنَّ وَلَيَكُونًا﴾ لامُ القَسَمِ،

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 6/424.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 6/424.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/273.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/273.

والتَّقديرُ: واللهِ ليُسجنَنَّ وليَكونَنْ مِنَ الصّاغِرينَ، واللَّامُ المُتقدِّمَةُ في ﴿وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ﴾ مُؤذِنَةٌ بمجيءِ القَسَمِ[1]، وأُكِّد الفِعلانِ (يُسجَنُ ويَكونُ) بنونِ التَّوكيدِ، فاجتَمَعت صُنوفٌ مِن التَّوكيدِ، وذلك مُشعِرٌ بأنَّها عازِمَةٌ على إنفاذِ هذا الوعيدِ إذا لَم يُطاوِعْها يوسفُ عليه السلام فيما تدعوهُ إليهِ، وليكونَ الوعيدُ أقوى، فتَنصَحُ النِّسوَةُ ليوسفَ عليه السلام، ويُرشِدْنَهُ إلى مُوافَقتِها[2].

تهديدُها ليوسفَ عليه السلام بالسّجن والصَّغار، إنْ لم يفعلْ ما تأمرُهُ به

نكتةُ التّأكيدِ بالنّونين: الثقيلةِ، والخفيفةِ:

أُكِّدَ فِعلُ السِّجنِ بنونِ التَّوكيدِ الثَّقيلةِ ﴿لَيُسْجَنَنَّ﴾، وأكّدَ ما بعدَه بالنّون الخفيفةِ، قال تعالى حكايةً لكلامِ امرأةِ العزيزِ: ﴿وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾؛ وذلكَ لأنَّ عَزمَها على سَجنِهِ أقوى مِن عزمِها على إيقاعِ الذِّلَّةِ بهِ، أو لأجلِ تحقُّقِ السِّجنِ في نظَرِهَا، بخلافِ الصَّغارِ، فأكَّدَتهُ بنونِ التَّوكيدِ الخفيفَةِ؛ لأنَّه غيرُ مُتحقِّقٍ في نظَرِها، ولأنَّهُ مِن توابعِ السِّجنِ عادةً ولوازِمِهِ[3].

التّفريقُ بين العقابِ المُحقَّقِ وغيرِ المُحقَّقِ

وفي هذه المغايَرَةِ نُكتةٌ أُخرى؛ وهي أنَّ الزِّيادةَ في تأكيدِ السِّجنِ لِما يَلزَمُ مِنهُ مِن إبعادِهِ، وإبعادُ الحبيبِ يتأتَّى فيه الإنكارُ أشدَّ مِنَ الإنكارِ الحاصِلِ بإهانَتِهِ[4].

سرُّ التّعبيرِ بـ (السّجن):

في قوله تعالى: ﴿وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ﴾ جاء التّعبيرُ بالسّجن دون الحبس، وإنِ اشتركا في هذا المعنى، إلّا أنَّ السّجنَ حبسٌ للعقاب قال تعالى: ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ﴾، و(السّجّينُ) اسمٌ لجهنّمَ، وكلُّ ذلك يُشعِرُ بالعقاب، بخلاف الحبسِ؛ فإنّه يُطلَقُ على المنعِ منَ الانبعاثِ، والتَّحبيسُ: جَعلُ الشّيءِ مَوقوفًا على

السِّجنُ حبسٌ يحملُ معنى العقابِ والأذى، ويدخلُهُ مَن يستحقُّهُ أو مظلوم

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/241.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/273.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/74، وطنطاويّ، التّفسير الوسيط: 7/355.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/74.

التّأبيدِ، يُقالُ: هذا حَبيسٌ في سبيل اللّه، وعلى هذا فالحبسُ أعمُّ منَ السّجن؛ لأنّ الحبسَ منه ما يكون في الخير، ومنه ما يكونُ في الشّرِّ؛ بخلاف السّجنِ؛ فإنّه يحملُ معنى العقابِ والأذى[1].

سرُّ بناءِ فعلِ السِّجنِ للمَفعولِ ﴿لَيُسۡجَنَنَّ﴾:

إظهارُ سلطتِها حالَ عدمِ القُدرةِ، على ردِّ أمرِها

بُنِيَ فِعلُ السِّجنِ ﴿لَيُسۡجَنَنَّ﴾ لِلمَفعولِ فقالَ اللّه ﷻ حكايةً لكلامِ امرأةِ العزيزِ: ﴿وَلَئِن لَّمۡ يَفۡعَلۡ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسۡجَنَنَّ وَلَيَكُونٗا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾؛ وذلك جَريًا على عادَةِ المُلوكِ يُعظِّمون أنفسَهُم بذلك، وإيهامًا لسُرعةِ ترتُّبِ السِّجنِ على عَدَمِ امتثالِهِ أمرَها، كأنَّه لا يدخُلُ بينَهُما فِعلُ فاعِلٍ[2]؛ وذلك لأنّ عزيزَ مِصرَ (زوجها) هو صاحبُ السّلطةِ على السّجنِ، المديرُ له، والمُتولِّي لأمره.

نكتةُ عَدَمِ ذِكرِ العذابِ الأليمِ:

الجَمعُ بَينَ السِّجنِ والصَّغارِ أعظَمُ مِنِ انفِرادِ السِّجنِ أوِ العذابِ الأليمِ

لَم يُذكَرِ العذابُ الأليمُ في هذا المَوضِعِ في قولِ اللّه ﷻ: ﴿لَيُسۡجَنَنَّ وَلَيَكُونٗا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾، فلم يَرِدِ النَّظمُ القرآنيُّ: (لَيُسْجَنَنَّ ولأعذِبنَّهُ عذابًا أليمًا) أو نحو ذلكَ، بخِلافِ الموضِعِ المُتقدِّمِ في قولِهِ سُبحانَهُ: ﴿قَالَتۡ مَا جَزَآءُ مَنۡ أَرَادَ بِأَهۡلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسۡجَنَ أَوۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ٢٥﴾ [يوسف: 25]، وجعَلَت الصَّغارَ بدلًا مِنَ العذابِ الأليمِ؛ لأنَّ ما طلبَتْهُ هَهُنا أعظَمُ ممَّا أشارَت بطَلَبِهِ في الموضعِ المُتقدِّمِ، بدِلالةِ الواوِ ههنا، و(أو) في المَوضِعِ السَّابقِ، ولا رَيبَ أنَّ الجمعَ بين السِّجنِ والصَّغارِ أعظَمُ مِن انفرادِ السِّجنِ أو العذابِ الأليمِ، على أنَّ الصَّغارَ يكونُ بالعذابِ الأليمِ، كالضَّربِ بالسِّياطِ ونحوِها، وإنَّما بالغَتِ امرأةُ العزيزِ في التَّهديدِ بالعقوبَةِ بمحضَرِ النِّسوَةِ؛ لمزيدِ غَيظِهَا بظهورِ كذِبِها، وسُطوعِ صِدقِهِ مع إصرارِهِ على عدمِ إجابَتِها لِما تُريدُهُ مِنه، ولتُعْلِمَ يوسُفَ عليه السلام أنَّها في أمرِها هذا ليسَتْ على خِيفَةٍ

(1) الرّاغب، المفردات: (حبس - سجن).
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 6/424.

ولا خُفيَةٍ مِن أحدٍ، فتَضيقُ عليهِ الحيَلُ والسُّبُلُ، فيلجأُ إلى إجابَتِهَا[1]، وأيضًا فإنَّ العذابَ الأليمَ لم يُذكرْ هنا، وذُكِرَ في أوّلِ السّورةِ؛ لأنّها إذ ذاك كانَت في طَراوةِ غيظِها ومُتَنَصِّلَةً من أنّها هي الّتي راودَتهُ؛ فناسبَ في المَوضعِ الأوّلِ ذكرُ العذابِ، أمّا ما طلبَتهُ هنا فهو أعظمُ، إذ لوَّحَت بالجمع بين السّجنِ والصَّغارِ[2]. ويُؤكِّدُ هذا أنّها أنذرَتهُ في المَوضِعِ الأوّلِ بأحد العقابَين السِّجنِ أو العذابِ، أمّا هنا فأنذرَتهُ بالجمع بينهما.

سرُّ التّعبيرِ بالصَّغار:

آثرَ القرآنُ الكريمُ التّعبيرَ بالصَّغار دونَ الذّلِّ، في قوله تعالى: ﴿وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾؛ لوجود فرقٍ بينَهما؛ فالذّلُّ ضدُّ العزِّ، وقد يكون محمودًا، وقد يكونُ مذمومًا، وهو الغالبُ، ومن استعمالهِ في المحمود قال تعالى: ﴿فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة: 54] بخلاف الصَّغارِ، فأغلبُ استعمالهِ في القرآن في مَواضِع المهانةِ، وهذا هو مُرادُ امرأةِ العزيز في اختيارها لهذا اللّونِ منَ العذاب الّذي تأباهُ النّفوسُ الكبيرةُ، مثلُ يوسفَ عليه السلام الّذي استعلَى على رغباتِها وشهواتِها؛ فكأنّها أرادَت أن تكسرَ هذا العُلوَّ الرّوحيَّ بإهانتهِ.

أرادَت أن تكسرَ تأبّيَ يوسفَ على رغباتِها، بإهانتِه، فأعزّه الله بالعفّة

دلالةُ: ﴿وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾:

قولُ اللّه سُبحانَه حكايةً عَنِ امرأةِ العزيز: ﴿وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾ أقوَى في الوصفِ بالصَّغارِ مِن أن يُقالَ: (ولَيكُونَنَّ صاغِرًا)، ففي ﴿وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾ دلالةٌ على أنَّها تتوعَّدُهُ بأنْ يكونَ مُغرِقًا في الذِّلَّةِ، كما فرَّق أهلُ العلمِ بين قولِ القائلِ: زيدٌ مِنَ العُلَماء، وقولِه: زيدٌ عالِمٌ؛ فإنَّ الأوَّلَ أبلغُ؛ لاقتضائِهِ أنَّه غارقٌ في

تهديدُ امرأةِ العزيزِ ليوسُفَ عليه السلام، بأنْ تجعَلَهُ مُغرِقًا في ذلك لا ينفكُّ عنه

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 6/425.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 6/425.

العلم أبًا عَن جدٍّ، وأنَّكَ تشهَدُ لهُ بكونِهِ معدودًا في زُمرَتِهِم، ومعروفًا إسهامُهُ لَهُم في العِلمِ[1].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الصَّغارُ والذُّلُّ:

الذُّلُّ في أصلِ اللُّغةِ يدلُّ على الخضوعِ واللّينِ والانقيادِ، بخلافِ الصَّغارِ فإنَّهُ يدلُّ على القِلَّةِ والحقارَةِ والهوانِ، وقد يُشعِرُ بالرِّضا بالمَنزِلَةِ الدَّنيَّةِ. وورَدَ لفظُ (الذُّلِّ) بصيغٍ مُختلفةٍ، منها قولُ اللّه تَعالى: ﴿وَضُرِبَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلۡمَسۡكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٖ مِّنَ ٱللَّهِۚ﴾ [البقرة: 61]، وقولهُ سبحانَه: ﴿وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ﴾ [الإسراء: 24]. فالذُّلُّ والذِّلَّةُ في هذه الآياتِ وما أشبَهَها: ما كان عَن قَهرٍ، أو بعدَ تصَعُّبٍ، فقولُهُ ﷻ: ﴿وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ﴾ [الإسراء: 24]؛ أي: كُنْ بمَنزلَةِ المقهورِ لَهُما في اللّينِ والانقيادِ والطّاعَةِ. وفُسِّرت الذِّلَّةُ في آيةِ البقرةِ بأنَّها الجزيَةُ، وهي ممّا فُرِضَ عليهم دَفعُهُ على سبيلِ الإلزامِ والقَهرِ. أمَّا الصَّغارُ فوردَ في القرآنِ الكريمِ في ستَّةِ مواضِعَ، منها قولُ اللّه ﷻ: ﴿سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٞ شَدِيدُۢ بِمَا كَانُواْ يَمۡكُرُونَ ١٢٤﴾ [الأنعام: 124]، ويُرادُ بالصَّغارِ: الضَّآلَةُ والحقارَةُ بعَد عِزٍّ وشَرَفٍ. والحاصِلُ: أنَّ الذُّلَّ خضوعٌ وانقيادٌ يكونُ بضَربٍ مِن ضُروبِ القَهرِ، بخلافِ الصَّغارِ فلا يَلزَمُ فيه القَهرُ؛ إذ قد يكونُ برِضا المَرءِ بالهوانِ والمَنزِلَةِ الدَّنيَّةِ، فالصَّغارُ بهذا الاعتِبارِ أعمُّ. وفي الصَّغارِ مَلحَظٌ آخَرُ؛ وهو الهبوطُ إلى مَنزِلَةٍ دَنيَّةٍ بعدَ عِزٍّ وشَرَفٍ، فهو بهذا الاعتِبارِ أخصُّ[2].

الذُّلُّ انقِيادٌ بضَربٍ مِن ضُروبِ القَهرِ، بخلافِ الصَّغارِ فقَد يكونُ برِضا المَرءِ بالهَوان

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 1/236، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/263: 12/264 - 265.
(2) محمّد داود، معجم الفروق الدّلاليّة، ص: 260 - 261.

﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجۡنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِۖ وَإِلَّا تَصۡرِفۡ عَنِّي كَيۡدَهُنَّ أَصۡبُ إِلَيۡهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ٣٣﴾ [يوسف: 33]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

بَيانُ مَوقِفِ يوسُفَ عليه السلام مِن تَهديدِ امرأةِ العزيزِ لَهُ، وإيثارُه السّجنَ على الفاحشة

لمّا ذَكَرَ اللّه ﷻ تَهديدَ امرأةِ العزيزِ ليوسفَ عليه السلام بالسِّجنِ والإهانةِ والإذلالِ إنْ لم يَفعَلْ ما تطلبُهُ إليه؛ تشوَّفتِ النَّفسُ إلى معرِفةِ مَوقِفِ يوسُفَ عليه السلام وجوابِهِ عَن هذا التَّهديدِ، فجاءَ ذلك في قولِ اللّه سُبحانَهُ: ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجۡنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِۖ﴾[1].

ومنَ المناسبة أيضًا أنّه عليه السلام لَمَّا اشتدَّ عليه الكربُ، وهدّدَتهُ امرأةُ العزيز بقولها في الآية السّابقة: ﴿وَلَئِن لَّمۡ يَفۡعَلۡ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسۡجَنَنَّ وَلَيَكُونٗا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾، اتّجهَ إلى ربِّه ليفرِّجَ كربَه، وليخلِّصَه من كَيْد النِّسوةِ؛ فجاءَت هذه الآيةُ؛ لبيانِ مُناجاتِهِ لربّه العالِمِ بسرّهِ وجهرِه.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تَصۡرِفۡ﴾: الصَّادُ والرَّاءُ والفاءُ تدورُ تصاريفُها على معنى الرُّجوعِ، أو هُوَ ردُّ الشَّيءِ من حالٍ إلى حالٍ أو إبدالُهُ بغيرِه، ومِنهُ: انصَرَفَ القومُ؛ أي: رجعُوا. ويَرِدُ الصَّرفُ بمعنى التَّوبةِ؛ لأنَّه يُرجَعُ بِهِ عن رُتبةِ المُذنبينَ إلى حالِ الطَّائعينَ[2]، ومِن هذا البابِ قولُ اللّه تعالى: ﴿وَتَصۡرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ﴾ [البقرة: 164]؛ أي: تَحويلها من وَجهٍ إلى وَجهٍ، ومن حالٍ إلى حالٍ[3].ومعنى قولِ اللّه تعالى: ﴿وَإِلَّا تَصۡرِفۡ عَنِّي كَيۡدَهُنَّ﴾: إنْ لَم تَدفَعْ عنّي السّوءَ[4].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/74.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (صرف).
(3) الزَّبيديّ، تاج العروس: (صرف).
(4) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 397.

2) ﴿كَيۡدَهُنَّ﴾: الكافُ والياءُ والدّالُ تدلُّ تصريفاتُها على معالَجةٍ لأمرٍ ما بشيءٍ، ثمَّ يُتوسَّعُ في هذا المعنى، ومِن هذا التَّوسُّعِ تسمِّيتُهُم المَكرَ كيدًا[1]. والكَيدُ ضَربٌ مِن ضُروبِ الاحتيالِ، ثُمَّ إنَّ مِنهُ المذموم، وهو الأكثر، ومِنهُ المحمود[2]، ومِنَ المحمودِ قولُ اللّه سُبحانَهُ: ﴿كَذَٰلِكَ كِدۡنَا لِيُوسُفَۖ﴾ [يوسف: 76]، وقولُهُ ﷻ: ﴿وَأُمۡلِي لَهُمۡۚ إِنَّ كَيۡدِي مَتِينٌ ١٨٣﴾ [الأعراف: 183]، ومِنَ المذموم قولُه اللّه تعالى: ﴿وَإِلَّا تَصۡرِفۡ عَنِّي كَيۡدَهُنَّ﴾؛ فإنَّ معناهُ: إنْ لم تَصرِف عنِّي احتيالَهُنَّ في تَحبيبِ الزِّنى إليَّ وتَحسينِه عِندي[3].

3) ﴿أَصۡبُ﴾: الصّادُ والباءُ والحرفُ المُعتلُّ تدورُ اشتقاقاتُها على ثلاثةِ معانٍ كُلِّيَّةٍ؛ أحدُها: صِغَرُ السِّنِّ، وثانيها: ضَربٌ مِن ضُروبِ الرِّياحِ، وثالثُها: المَيلُ[4]. ومِنَ الثَّالِثِ قولُهم: صَبا فُلانٌ يَصبُو صَبْوًا وَصَبْوَةً؛ إذا نَزَع واشتاقَ[5]؛ لأنَّ في ذلكَ ضَربًا مِن مَيلِ النَّفسِ، وتقولُ العَربُ: صَبَا فلانٌ إلى فلانَةٍ، وَصَبا لَها؛ أي: مالَ إليها[6]، ومِنه قولُ اللّه سُبحانَهُ: ﴿وَإِلَّا تَصۡرِفۡ عَنِّي كَيۡدَهُنَّ أَصۡبُ إِلَيۡهِنَّ﴾.

4) ﴿ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾: الجيمُ والهاءُ واللّامُ تدلُّ تصريفاتُها على أصلَينِ؛ أحدهما: ضِدُّ العِلمِ، والآخرُ: الخِفَّةُ، وضدُّ الطُّمأنينَةِ[7]. وجعَلَ الرَّاغِبُ الجَهلَ ثلاثةَ أضرُبٍ[8]: أحَدُها: خلوُّ النَّفسِ مِنَ العِلمِ. ثانيها: اعتِقادُ الشَّيءِ بخلافِ ما هُوَ عليهِ في الواقِعِ. ثالثُها: فِعلُ الشَّيءِ بخلافِ ما يَنبغي أن يُفعَلَ، ومِنه قولُ اللّه سُبحانَهُ: ﴿وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تَذۡبَحُواْ بَقَرَةٗۖ قَالُوٓاْ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوٗاۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ٦٧﴾ [البقرة: 67]، ومعنى قوله ﷻ: ﴿وَأَكُن مِّنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾؛ المرادُ بالجَهلِ هَا هُنا ما يُقابِلُ الحِلْمَ[9].

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (كيد).
(2) الرّاغب، المفردات: (كيد).
(3) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/163.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (صبى).
(5) الرّاغب، المفردات: (صبا).
(6) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (صبا).
(7) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (جهل).
(8) الرّاغب، المفردات: (جهل).
(9) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/266.

المَعْنى الإجْماليُّ:

توجُّهُ يوسُفَ عليه السلام إلى ربِّه، لتفريجِ كربِهِ، ونجاتِه مِن مكرِهنّ

في هذه الآية تضرَّعَ يوسُفُ عليه السلام لربِّه قائلًا: يا رَبِّ! دخولُ السِّجنِ أسهلُ عندي وأهونُ مِمّا يَدعونَني إليه جميعًا مِن مَعصِيَتِك، ويُرَاوِدنَني عليهِ مِنَ الفاحِشَةِ، ففي السّجن راحةُ بالٍ لي، وهدوءُ نفسٍ، وإنْ لَم تَدفَعْ عنّي فِعلَهُنَّ الّذي يَفعَلْنَ بي في مُراوَدَتِهِنَّ إيّايَ على أنفُسِهِنَّ بتثبيتي على ما أنا عليه منَ العِصمةِ والعِفَّةِ أَمِلْ إليهِنَّ، وأُتابِعهُنَّ على ما يُرِدْن مِنّي ويَهوَيْنَ، وأكُنْ بِصَبوَتي إليهنَّ مِنَ الّذينَ جَهِلوا حَقَّك، وخالَفوا أمرَكَ ونَهيَكَ[1]. وترشدُ الآيةُ الكريمةُ إلى أنَّ العلمَ والعقلَ يدعو إلى تقديم أعظمِ المَصلحتَين وأعظمِ اللَّذّتَين، ويُؤثِرُ ما كان محمودَ العاقبة، فالسِّجنُ في ذاته ليس محبوبًا، كما أنَّ إجابتَها إلى ما طلبَته كذلك، فهي والسِّجن شرَّان غيرُ مَحبوبين له، ولكنْ أهونُهما وأقربُهما إلى نفسه هو السِّجنُ؛ ليتخلّصَ به منَ الفاحشة الكبرى. وترشدُ إلى أنَّ الجهلَ باللّه تعالى وبأسمائهِ وصفاتِه ووعدِه ووعيدِه وشرعِه هو سببُ كلِّ الجرائم في الأرض، وإلى طلبِ سؤالِ اللّه ودعائهِ أن يثبِّتَ القلبَ على دينِه، ويصرفَهُ إلى طاعتِه، وإلّا فإذا لم يُثَبَّتِ القلبُ صبا إلى الآمرين بالذُّنوب، وصارَ منَ الجاهلين، ففي هذا توكُّلٌ على اللّه واستعانةٌ به، أن يُثَبِّتَ القلبَ على الإيمان والطّاعة، وفيه صبرٌ على المحنة والبلاء والأذى الحاصلِ إذا ثَبَت على الإيمان والطّاعة[2].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

شبهُ كمال الاتّصالِ بين الجملتين مَلمَحٌ مهمٌّ في سياق المعنى

علَّةُ الفصلِ في: ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجۡنُ﴾:

فُصِلَ قولُ اللّه عز وجل: ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجۡنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِ﴾

(1) ابن تيميّة، مجموع الفتاوى: 4/39، والسّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 397، ومجمع البحوث الإسلاميّة، التّفسير الوسيط: 4/314، والجزائريّ، أيسر التّفاسير: 2/610.

(2) ابن جرير، جامع البيان: 16/85 - 86.

عمَّا قبلَهُ؛ لوقوعِه استئنافًا بيانيًّا، فإنَّ بينَ هذهِ الجملةِ وما قَبلَها شِبهَ كمالِ الاتِّصالِ، ووجهُ ذلك أنَّ إبراقَ امرأةِ العزيزِ وإرعادَها فى وجه يوسُفَ عليه السلام في مَجلس النِّسوة مِنْ شَأنِه أنْ يَبعَثَ في نَفسِ السَّامعِ سُؤالًا، وهُوَ: فما صنَعَ يوسُفُ حينئذٍ؟ فجاءَ الجوابُ بأنَّهُ تَضَرَّع إلى ربِّهِ، وآثَرَ السّجنَ بما فيه من شظف العيشِ، على ما يدعوهُ إليه النِّسوةُ ابتغاءَ مَرضاةِ ربِّهِ سُبحانَهُ: ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجۡنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِۖ﴾[1].

دلالةُ التّعبيرِ بالقول:

تَيئيسُ يوسُفَ عليه السلام النِّسوَةَ، مِنْ أنْ يَفعَلَ ما يَأمُرْنَهُ بِهِ

آثرَ التّعبيرَ بالقول دون الدّعاءِ مِن قولِ اللّه عز وجل: ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجۡنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِۖ﴾؛ لأنّه أعمُّ؛ فالقولُ يشمَلُ الدّعاءَ وغيرَهُ، وأيضًا أنّ الفعلَ ﴿قَالَ﴾ يحتَمِلُ أنَّ المرادَ بهِ النُّطقُ المَسموعُ، فيكون يوسُفُ عليه السلام قد جهرَ بهذا الكلامِ في مَلَئِهِنَّ؛ ليُأَيِّسَهُنَّ مِنْ أن يفعلَ ما يأمرُنَهُ بِهِ. ويجوزُ أن يكونَ هذا القولُ صادِرًا على سبيلِ المُناجاةِ لربِّهِ سُبحانَهُ، فيكونُ قد قالَهُ خاليًا مِن غَيرِ أن يكونَ بحضرَتِهِنَّ، وهذا هو الأظهَرُ[2]. ولا مانِعَ مِن أن يكونَ قالَ ذلك على وَجهِ المُناجاةِ، وجَهَرَ بذلكَ أيضًا.

نكتةُ حَذفِ حَرفِ النِّداءِ في: ﴿رَبِّ﴾:

شِدَّةُ قُربِ يوسُفَ عليه السلام مِنَ اللهِ سُبحانَهُ

في قولِ اللّه عز وجل: ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجۡنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِۖ﴾ حذفٌ لحرفِ النِّداءِ، والأصلُ: قالَ يا ربِّ، وفي حذفِهِ نكتَتانِ[3]:

إحداهُما: أنَّ في حذفِها إشعارًا بشدَّةِ القُربِ مِنَ اللّه عز وجل.

والأُخرى: الإيماءُ إلى تضجُّرِهِ مِن كلامِهِنَّ وتزيينِهِنَّ الباطِلَ لَهُ، وعادَةُ المُتَضَجِّر تقليلُ الكلامِ ما أمكَنَ.

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/273، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 10/75، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/265.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/265.

(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/75.

سِرُّ التّعبيرِ بالرّبوبيّة:

اعترافُ يوسُفَ عليه السلام بفَضلِ الله ﷻ ومِنّتِهِ عليهِ

جاءَ الدُّعاءُ باسم الله (الرَّبِّ) في قولِ الله سُبحانَهُ: ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجۡنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِۖ﴾ دونَ اسم الألوهيَّةِ؛ فلم يَقُلْ: (يا الله) أو (يا إلَهي)، مع أنَّ مناطَ التَّكليفِ هُو في الألوهيَّةِ؛ وذلكَ لأنَّ يوسُفَ عليه السلام أرادَ الاعترافَ بفضلِ الله سُبحانَهُ ومِنَّتِه عليهِ؛ فهو الّذي ربَّاهُ وتَعَهَّدَهُ وحَفِظَهُ، فهو الجَديرُ بأن يحفَظَهُ في المُستَقبَلِ، وأنْ لا يتخلَّى عنهُ في مثلِ هذا المَقامِ العَصيبِ[1].

تَوجيهُ القِراءاتِ في: ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجۡنُ﴾:

التَّكامُلُ الدّلاليُّ لِلقِراءاتِ القُرآنيَّةِ في بيانِ العقابِ ومكانِهِ

قُرِئَ قولُ الله سُبحانَهُ: ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجۡنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِۖ﴾ بفتحِ السِّينِ من كلمةِ (السَّجْن)، وكَسرِها ﴿ٱلسِّجۡنُ﴾، فالفَتحُ قراءةُ يعقوبَ الحضرَميِّ، والكَسرُ قراءةُ باقي العَشَرةِ[2]، وهُوَ بالكَسرِ ﴿ٱلسِّجۡنُ﴾ يُرادُ به المَكانُ، ولذا لَم يُختَلَفْ في كسرِ الكلمَةِ في قولِ الله ﷻ: ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجۡنَ فَتَيَانِۖ﴾، وقولِه: ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ﴾ [يوسف: 39 - 41]، وقولِه: ﴿فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجۡنِ بِضۡعَ سِنِينَ ٤٢﴾ [يوسف: 42]؛ لأنَّه يتعيَّنُ إرادَةُ المكانِ في جميعِها، ولا يَصحُّ إرادَةُ المصدَرِ في شيءٍ منها[3].

أمَّا بالفَتحِ (السَّجْن) فيُرادُ به المَصدَرُ، وإرادَتُهُ ظاهرَةٌ في الآيةِ الأولى، ولذا تَفتَقِرُ قراءةُ الكَسرِ إلى تقديرِ محذوفٍ، وهُوَ: دخولُ السِّجنِ أحَبُّ إليَّ، وبذلك تتكاملُ القراءتان في توظيفِ صورةِ المعنى الجامعِ بين العقابِ ومكانِه.

سرُّ التّعبيرِ بـ ﴿ٱلسِّجۡنُ﴾:

في كلِّ محنةٍ طارئةٍ منحَةٌ مُخبّأةٌ قد لا يُدركُها المُمتحَنُ إلّا بعد حين

آثرَ التّعبيرُ القرآنيُّ على لسانِ يوسُفَ عليه السلام التّعبيرَ بالسّجن دونَ الحبسِ، مع ما يحملُهُ هذا اللّفظُ ﴿ٱلسِّجۡنُ﴾ من قسوةٍ في المعيشة

(1) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 11/6944.
(2) ابن الجزريّ، النّشر: 2/295.
(3) البنّا الدّمياطيّ، إتحاف فضلاء البشر، ص: 331.

والاعتقال مع المُجرمين؛ لبيان أنّ طاعةَ اللّه أفضلُ من ترف القصورِ وزينتِها، والاشتغالِ بحبِّ النّساءِ فيها، بخلاف الحبس، فإنّه في بعض الأحيان يكونُ من باب الرّياضةِ النّفسيّةِ في التَّقرُّب إلى اللّه، وهذا معنىً لا يكلِّفُ صاحبَهُ الكثيرَ منَ العناء والمَشقّةِ.

دلالةُ أَفعَلِ التَّفضيلِ ﴿أَحَبُّ﴾:

تَفضيلُ يوسُفَ عليه السلام لِأهونِ الشَّرَّينِ دَفعًا لأعظَمِهما

أَفعَلُ التَّفضيلِ ﴿أَحَبُّ﴾ مِن قولِ اللّه عز وجل: ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجۡنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِۖ﴾ ليسَتْ على بابِها؛ لأنَّها لَو كانَت على أصلِ دلالَتِها؛ لاقتَضى ذلك أنَّه - وحاشاهُ - أحَبَّ ما يدعونَهُ إليهِ، وأحبَّ السِّجنَ، ولكنَّ حُبَّهُ السِّجنَ كان أعظَمَ، والواقِعُ أنَّه لم يُحِبَّ ما يدعونَهُ إليه قَطُّ، ولم تَكُنْ ثَمَّةَ شائبَةُ محبَّةٍ لذلكَ، وإنَّما هما أمرانِ شَرَّانِ، ففضَّلَ أَهونَ الشَّرَّينِ على الآخرِ، وهذا هو المُتبادَرُ مَن جَعَلَ اسمَ التّفضيلِ هنا على غير بابِهِ؛ فليسَ المرادُ أنَّ ما يدعونَني إليه محبوبٌ عندي، والسّجن أحبُّ إليّ منه، وإنّما معناهُ أنّ هذين الأمرين إذا تَعارضا، وكانَ لابدَّ من أحدِهما، فالسّجنُ آثرُ وأولى[1].

نُكتةُ التَّعبيرِ عنِ المبغوض بشدَّةِ الحُبِّ:

المُبالَغةُ في بَيانِ شِدَّةِ نُفرَةِ يوسُفَ عليه السلام مِنَ المَعصيَةِ

قولُ اللّه عز وجل: ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجۡنُ أَحَبُّ إِلَيَّ﴾؛ أي: أبغضُهُ[2]، فعُبِّرَ عَنِ المبغوضِ بشدَّةِ الحُبِّ، وذلكَ لِنكاتٍ: **إحداهَا**: أنَّ التَّعبيرَ بـ ﴿أَحَبُّ﴾ أدلُّ على غايةِ البُغضِ لموافقَتِها؛ وذلك لأنَّ السِّجنَ لا يُتصوَّرُ حُبُّهُ في العادَةِ، فالمَعنى: أنَّه لو كان يُتَصوَّرُ المَيلُ إليه؛ كان مَيلي إليهِ أعظَمَ، إلّا أنَّه لا يُتصوَّرُ المَيلُ إليهِ لكَونِه شَرًّا مَحضًا أو غالبًا، ومع ذلكَ فأُوثِرُهُ على ما دَعَونَني إليهِ؛ لكونِهِ أهونَ الشَّرَّينِ وأخفَّ الضَّرَرَينِ، **وثانيها**: أنَّ في التَّعبير بـ ﴿أَحَبُّ﴾ بمَنزِلَةِ دَعوى

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/273، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/274، ورشيد رضا، تفسير المنار: 12/297.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/75.

الشّيءِ مَقرونًا بالدّليل؛ وذلكَ أنَّهُ لمَّا وقعَتِ المفاضَلَةُ في الحُبِّ بينَ أمرينِ، أحدهما: يُقطَعُ ببُغضِهِ وكُرهِه؛ "فُهِمَ قَطعًا أنَّ المرادَ إنَّما هُو أَنَّ بُغضَ هذا البَغيضِ دُونَ بُغضِ المَفضولِ، فَعَلِمَ قَطعًا أنَّ ذلك يَظُنُّ حُبَّهُ أبغَضَ مِن هذا المَقطوعِ ببُغضِه، وكَذا كُلُّ ما فُوضِلَ بينَهُما في وصفٍ يُمنَعُ مِن حَملِهِ على الحقيقةِ كَونُ المُفَضَّلِ مُتَحَقِّقًا بضِدِّهِ"[1].

وثالثُها: أنَّ في التَّعبيرِ بـ﴿أَحَبُّ﴾ حسمًا لمادَّةِ طَمَعِها عن مُوافَقتِها خوفًا مِن السَّجنِ[2].

ورابِعُها: أنَّ هذا التَّعبيرَ أبلَغُ في بيانِ شدَّةِ نُفرَتِهِ منَ المعصيةِ؛ حيثُ إنَّه لمَّا لَم يَجِدْ ملجأً يتَّقِيها بِهِ إلَّا السِّجنَ؛ أحبَّهُ بهذا الاعتِبارِ.

دلالةُ الخَبرِ في: ﴿قَالَ رَبِّ﴾:

الجملَةُ المحكيَّةُ بعدَ النِّداءِ وهي قولُ اللّه ﷻ حكايةً عَن يوسُفَ عليه السلام قولَهُ: ﴿ٱلسِّجۡنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِۖ﴾ جملةٌ خبريَّةٌ لا يُرادُ بها إعلامُ المخاطَبِ بما تضمَّنَتهُ؛ لأنَّ المخاطَبَ هُوَ اللّه سُبحانَهُ، وهو أعلَمُ بحالِ يوسُفَ عليه السلام مِن نَفسِهِ، وإنَّما الخبَرُ هَهُنا خرجَ عَن أصلِهِ لإنشاءِ معنى الرِّضا بالسِّجنِ ابتغاءَ مرضاةِ اللّه ﷻ ومباعَدَةً لمحارِمِهِ ومساخِطِه[3].

رِضا يوسُفَ عليه السلام بالسِّجنِ؛ ابتِغاءَ مَرضاةِ اللّه تعالى ومُباعَدَةً لِمَساخِطِهِ

غرضُ الإيجازِ في: ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجۡنُ﴾:

في قولِ اللّه ﷻ: ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجۡنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِۖ﴾ إيجازٌ بالحَذفِ، والتَّقديرُ: قالَ ربِّ دُخُولُ السِّجنِ أحبُّ إليَّ ممّا يدعونَني إليهِ[4]، فحُذِفَ المضافُ وأُقيمَ المضافُ إليهِ مُقامَهُ، وهذا على قراءةِ الجمهورِ الّذينَ يقرَؤونَ بكسرِ السِّينِ في ﴿ٱلسِّجۡنُ﴾؛ لأنّه اسمُ مصدرٍ، أمَّا على قراءةِ يعقوبَ بفتحِ السِّينِ (السَّجن) فهو

التّخييرُ بينَ السِّجنِ وبينَ ما تَدعو إليهِ امرأةُ العزيزِ والنِّسوَةُ مَعَها

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/76.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/274.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/265.
(4) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 9/184.

مصدرٌ مُرادٌ منه ذاتُ العقوبةِ الواقعةِ عليه، فلا يُحتاجُ معَها إلى تقديرٍ؛ وتَصحُّ المفاضلَةُ بينَهُ وبينَ ما يدعونَهُ إليهِ.

سرُّ التَّعبيرِ بالجُملةِ الاسميَّةِ:

السِّجنُ السَّبيلُ الوَحيدُ أمامَه؛ لِلخَلاصِ مِن كَيدِ النِّسوَةِ

جاءَ التَّعبيرُ عَن محبَّةِ السِّجنِ في قولِ اللّه سُبحانَهُ: ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجۡنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِۖ﴾ بالجملةِ الاسميَّةِ ﴿ٱلسِّجۡنُ أَحَبُّ إِلَيَّ﴾ مبالغةً في إثباتِ محبَّتِهِ السِّجنَ، إذا كان السَّبيلَ الوحيدَ للخلاصِ مِن كَيدِ النِّسوَةِ والبُعدِ عَن دَعوَتِهِنَّ الباطلَةِ، حتَّى كأنَّ هذا الحُبَّ مستَمِرٌّ وفِطرِيٌّ؛ ليكونَ ذلكَ أقطَعَ لأطماعِهِنَّ فيهِ.

سرُّ عَدَمِ ذِكرِ الإذلالِ في الجملةِ الاسميَّةِ:

الصَّغارُ مِن مُستَتبَعاتِ السِّجنِ ولوازِمِهِ في العادَةِ

لَمْ يُذكَرِ الإذلالُ في قولِ اللّه ﷻ: ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجۡنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِۖ﴾؛ وذلك أنَّ مُقتَضى الظَّاهِرِ أن يَرِدَ النَّظمُ القرآنيُّ: (السِّجنُ أوِ الصَّغارُ أحبُّ إليَّ ممَّا يدعونَني إليهِ)؛ لأنَّه قد تقدَّمَهُ التَّهديدُ بواحدٍ مِنهُما في مقابَلَةِ عدمِ إجابتِهِ امرأةَ العزيزِ فيما تَدعو إليه، فقال سُبحانَهُ حكايةً عن قولِها: ﴿وَلَئِن لَّمۡ يَفۡعَلۡ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسۡجَنَنَّ وَلَيَكُونٗا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾، وذلك لنِكَاتٍ[1]: **إحداها**: أنَّ الصَّغارَ مِن مُستَتبَعاتِ السِّجنِ ولوازِمِهِ عادةً، فاكتفى بذِكرِ الأصلِ عَن ذكرِ فرعِهِ، و**ثانيها**: أنَّه اكتفَى بذِكرِ السِّجنِ عن ذِكرِ الصَّغارِ؛ لأنَّه يَفي بالغرضِ المقصودِ هَهُنا، وهو قَطعُ طَمَعِها عَن إجابتِهِ دَعوَتَها، و**ثالثُها**: أنَّ الاكتفاءَ بالسِّجنِ أدَلُّ على نَفيِهِ الخوفَ مِن تهديدِها؛ إذ كانَت تَظُنُّ أنَّ السِّجنَ أشدُّ عليهِ منَ الصَّغارِ، ومَتى كان الأشدُّ أحبَّ إليهِ ممَّا يَدعونَهُ إليه كانَ غيرُ الأشدِّ أحبَّ إليهِ مِن بابٍ أَوْلى وأَحْرى.

دلالةُ التّصريحِ بـ ﴿ٱلسِّجۡنُ أَحَبُّ﴾:

إعلانُ يوسفَ عدمُ الاكتراثِ بتهديدِ امرأةِ العزيزِ والنّسوةِ

في قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجۡنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِۖ﴾ دلّ تصريحُ يوسفَ عليه السلام بأنّ السّجنَ أحبُّ إليه ممّا يَدعونه إليه، على

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 6/425.

إعلانهِ عدم الاكتراثِ بتهديد امرأة العزيزِ والنّسوةِ، وأنّه لن يرضخَ لهُنّ، وفيه الإعراضُ الكاملُ عن الدّنيا وزخارفِها.

سرُّ طلبِ يوسفَ السّجنَ:

كونُ يوسفَ بين أمرين لا ثالثَ لهما

في قولِ اللّه ﷻ: ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجۡنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِۖ﴾ طلبَ يوسفُ عليه السلام السّجنَ دون النّجاة العامّةِ؛ لأنّه اعتقد بحسب الظّاهر أنّه بين أمرين لا ثالثَ لهما، إمّا استجابتُهُ للمحظور وإمّا الدّخولُ في السّجن؛ فاختارَ أخفَّ الضّررين؛ وهو السّجنُ على الوقوع في المحظور المُحقَّقِ، فيه المضرَّةُ الكبرى. ويمكن أن يُقالَ: إنّه اختار ذلك بنور البصيرةِ، بما أطلَعَه اللّه عليه منَ اليقين القلبيّ والمعرفة النّورانيّةِ.

علةُ التّعبير بـ ﴿إِلَيَّ﴾:

جعلَ يوسفُ عليه السلام السّجنَ غايتَه وهدفَه، إذا فُرِضت عليه المعصيةُ

آثرَ السِّياقُ الكريمُ التّعبيرَ بـ ﴿إِلَيَّ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَحَبُّ إِلَيَّ﴾ الّتي تدلُّ على انتهاء الغاية؛ لأنهّا هي المناسبةُ لهذا السّياق، فكأنّ يوسفَ عليه السلام جعلَ السّجنَ غايتَه وهدفَه إذا فُرِضت عليه المعصيةُ؛ فجعلَ السِّجنَ - إذا كان سبيلاً لتوفير دواعي مَرضاةِ اللّه - أفضلَ من كلِّ مُتعِ الدّنيا وما فيها، بخلافِ اللّام فلا تؤدّي هذا المعنى؛ لأنّها تُطلَقُ على الاختصاص والاستحقاق، ويوسفُ عليه السلام لم يقعْ منه ذنبٌ، ولم يرتكبْ جريمةً حتّى يستحقَّ السّجنَ.

نكتةُ التَّعبيرِ بالاسم الموصولِ:

كثرةُ الضّغوط على يوسفَ عليه السلام لم تُلنْ من عزيمتِهِ

عُبِّرَ عمَّا عَرَضَتهُ المرأةُ بالاسم الموصولِ وصِلَتِهِ، فقال اللّه ﷻ: ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجۡنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِۖ﴾؛ لِما في الصِّلَةِ منَ الإيماءِ إلى أنَّ المَطلوبَ أمرٌ هُوَ مَظِنَّةٌ للإجابةِ والإطاعةِ؛ وذلك لأنَّ تَتابُعَ النَّاسِ على طلبِ أمرٍ ما مِن شأنِهِ أن يُوطِّنَ نفسَ المَطلوبِ مِنه لأنْ يَفعَلَ، فأظهَرَ أنَّ تَتابُعَهُنَّ على طلَبِهِنَّ مِنهُ أن يُجيبَ امرأةَ العزيزِ لَم يَكسِرْ شيئًا مِن عَزمِهِ على الامتناعِ، وجعلَ

ذلكَ مُقدِّمَةً لسؤالِ اللّه تعالى العِصمَةَ مِنَ الوقوعِ في شَرَكِ مكرِهِنَّ وكَيدِهِنَّ[1].

نكتةُ التّعبيرِ بالدّعاء: ﴿يَدۡعُونَنِيٓ﴾:

آثرَ التّعبيرَ بالدّعاء دون الأمرِ في قولِه تعالى: ﴿مِمَّا يَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِۖ﴾؛ لأنّه صدرَ منَ النّسوةِ على سبيل النّصيحة والتّرغيبِ؛ بأن يطيعَ سيّدتَهُ، فيما تريدُ، ليأمنَ من عقوبتِها، فليس لهُنّ صيغةُ الأمر.

صدورُ التّرغيب منَ الحاضرات، بأن يطيعَ زوجةَ العزيز على وجه النُّصح

وممّا يُذكَرُ في سرّ التّعبيرِ بالدّعاء أنّهُنّ طلبْنَ الخَلوةَ لِنصيحتِهِ؛ فلمّا خلَت بهِ كلُّ واحدةٍ منهنّ دعَته إلى نفسها[2].

دلالةُ التَّعبير بالجمع في ﴿يَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِۖ﴾:

أُسنِدَ فِعلُ الدُّعاءِ إلى نُونِ الإناثِ - وهو مِن ضمائِرِ الجمع - فقالَ اللّه سُبحانَهُ: ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجۡنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِۖ﴾، وفي إسنادِ الفعلِ للجمعِ أوجهٌ[3]: **أحدُها**: أنَّ إضافَةَ الفعلِ إلى الجَمعِ فيه خُروجٌ مِنَ التَّصريحِ إلى التَّعريض، **وثانيها**: أنَّ الدّاعِيَ هي امرأةُ العزيزِ وَحدَها، وباقي النِّسوةِ رغَّبْنَهُ في مطاوَعَتِها، وخوَّفْنَهُ مِن مُخالفَتِها، فصحَّت إضافَةُ الدُّعاءِ إليهِنَّ جميعًا، فيكونُ في إضافةِ الفعلِ إلى الجَمعِ جَمعٌ بينَ الإسنادِ الحقيقيِّ والمجازيِّ، **وثالثُها**: أنَّ نسبةَ الدُّعاءِ إلى الجَمعِ؛ لكونِهِنَّ جميعِهِنَّ دَعَونَهُ إلى أنفُسِهِنَّ، فيكونُ الإسنادُ حقيقيًّا.

تَظاهُرُ أهلِ الباطِلِ في الدَّعوةِ إلى باطِلِهِم

غرضُ التّعبيرِ بالإضمار في: ﴿إِلَيۡهِۖ﴾:

جاءَ التّعبيرُ بالإضمار في قولِه تعالى: ﴿إِلَيۡهِۖ﴾ عنِ المُراودة دونَ الإظهار؛ فلم يقُلْ ممّا يدعونَني إليه منَ المُراودة؛ لِلتّرفُّع عن ذكرِه، فلا يحبُّ أن يلوكَه بلسانِهِ ولو تلفُّظًا، وفيه دعوةٌ للسّترِ وعدمِ الفضيحة.

التَّرفُّعُ عن ذكرِ خسيسةِ الطّلبِ أو التّلفُّظِ به

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/266.

(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 6/425.

(3) الخازن، لباب التّأويل: 2/526، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 10/75، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/274، والآلوسيّ، روح المعاني: 6/425، وابن التّمجيد، حاشية على تفسير البيضاويّ: 10/316.

دلالةُ الجُملةِ الخبريَّةِ في: ﴿وَإِلَّا تَصۡرِفۡ عَنِّي﴾:

الجملَةُ في قولِ اللّه ﷻ: ﴿وَإِلَّا تَصۡرِفۡ عَنِّي كَيۡدَهُنَّ أَصۡبُ إِلَيۡهِنَّ﴾ جملةٌ خبريَّةٌ؛ لأنَّ التَّحقيقَ في جُملةِ الشَّرطِ أنَّها باعتبارِ جوابِها، والجوابُ ههنا ﴿أَصۡبُ إِلَيۡهِنَّ﴾ جملةٌ خبريَّةٌ، فكذلكَ جملةُ الشَّرطِ.

والجملَةُ الخبريَّةُ ﴿وَإِلَّا تَصۡرِفۡ عَنِّي كَيۡدَهُنَّ أَصۡبُ إِلَيۡهِنَّ﴾ يُرادُ بها الدُّعاءُ؛ أي: يا ربِّ اصرِفْ عنّي كَيدَهُنَّ[1]، ولكنَّهُ أَخرَجَ الدُّعاءَ في صورةِ الخبرِ ليُضَمَّنَ معنى التَّخَوُّفِ والتَّوقُّعِ، التِجاءً إلى اللّه سُبحانَهُ ومُلازمةً للأدبِ معَهُ ﷻ، وذلك بتبرُّئِهِ مِنَ الحَولِ والقُوَّةِ، وإظهارِ الخشيةِ مِن تَقَلُّبِ قَلبِهِ، ومَيلِه إلى اللَّذَّةِ الحَرامِ[2].

التِجاءُ يوسُفَ عليه السلام إلى ربِّهِ سُبحانَهُ، ومُلازَمَتُهُ الأدَبَ مَعَهُ

بلاغةُ التّعبيرِ بالصّرف وبالمضارع:

في قولِ اللّه ﷻ: ﴿وَإِلَّا تَصۡرِفۡ عَنِّي كَيۡدَهُنَّ أَصۡبُ إِلَيۡهِنَّ﴾ آثرَ السّياقُ الكريمُ التّعبيرَ بالصَّرف دون غيرِهِ؛ لأنّه يدلُّ على ردّ الشّيء من حالٍ إلى حالٍ، وتحويلِه من وجهٍ إلى وجهٍ، وهو المناسبُ لهذا المَشهدِ مع يوسفَ عليه السلام في استدعاء لطفِ اللّه في تحويلِ كيدِهنَّ وردِّهِ عنه بحولِ اللّه وقوَّتِه. ودلّ التّعبيرُ بالفعل المضارع على فزعِ يوسفَ عليه السلام لربِّه جريًا على سنن الأنبياءِ في طلب حفظِه سبحانَه لَهم مِنَ الشّرورِ، وهذا ما استدعاه يوسفُ عليه السلام في طلب لطفِ اللّه سبحانه في صرف كيدِهنَّ، بإظهار عجزِهِ وعدم قدرتِه، كقول المُستغيث: أدركْني وإلّا هلكتُ.

استدعاءُ يوسفَ لطفَ اللّه في تحويل كيدِهِنَّ وردِّه عنه، وفَزَعُهُ لربِّه المُجيبِ

سرُّ التّعبيرِ بالاسميّة مع السّجن:

جاءَ التّعبيرُ بالاسميّة في قولِه تعالى: ﴿ٱلسِّجۡنُ أَحَبُّ إِلَيَّ﴾، والتّعبيرُ بالفعليّة في قوله تعالى: ﴿وَإِلَّا تَصۡرِفۡ﴾؛ لأنّ محبوبيّةَ يوسفَ عليه السلام للسّجن، ممّا يدعونَه إليه، كانت ثابتةً مُستمرَّةً بخلاف طلبِ الصّرفِ عن كيدِهنّ[3].

ثبوتُ محبوبيّةِ يوسفَ عليه السلام للسّجن، ممّا يدعونه إليه، واستمرارُها

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/273.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/266.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 6/425.

دلالةُ تقديم شبه الجملة ﴿عَنِّي﴾:

شدةُ التجائهِ إلى ربِّه في تضرُّعِه ودعائِه، ومزيدُ عنايتهِ واختصاصهِ

دلَّ تقديمُ قوله تعالى: ﴿عَنِّي﴾ على شدّة التجائهِ إلى ربّهِ في تضرُّعهِ ودعائهِ، وعلى هضمهِ لنفسِه، وأنّها لا تعدلُ شيئًا بغير حفظ اللّه لها، وللدّلالة على خصوصيّة شخصِ يوسفَ عليه السلام وعلوّ قدرهِ عند ربِّه في حفظهِ من كيد النِّسوةِ حفظًا خاصًّا تميّزَ به عن حفظ غيرِه؛ لأنّه في عصمة اللّه، ومَن كان في عصمة اللّه لم يصبْهُ أحدٌ بسوء.

سرُّ التّعبير بالكيد:

التّعبيرُ بالكيد يحملُ معنى الانتقامِ منه، إذا لم يرضَخ للماكِرات

في قولِ اللّه عز وجل: ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ﴾ آثرَ السّياقُ الكريمُ التّعبيرَ بالكيد دونَ المكر، وإنْ كانَ بينهما اشتراكٌ في المعنى فهما من ضروب الاحتيالِ في قصدِهنَّ إلى خديعةِ يوسفَ عليه السلام والتّغريرِ به، إلّا أنَّ السِّياقَ هنا جاء بعد تهديدِ امرأة العزيز بالسّجن أو الصَّغار، والمناسِبُ له التّعبيرُ بالكيد الّذي يحملُ معنى الانتقام.

نكتةُ التّعبيرِ بالفعل ﴿أَصْبُ﴾:

الدّلالةُ على الميل بحكم الطّبيعةِ البشريّةِ، والإيماءُ إلى قبح الاستجابةِ لهذا الطّلب

آثرَ السّياقُ الكريمُ التّعبيرَ بالفعل ﴿أَصْبُ﴾ دون غيرِه منَ الأفعال المُقارِبة في المعنى؛ لأنّه يدلُّ في أصله على الميل والاشتياقِ بحكم الطّبيعة وحكم القوّةِ الشّهوانيّةِ؛ فكأنّه يقولُ: يا ربِّ، وإلّا تَصرفْ عنّي أَمِلْ إليهنّ؛ فالتّعبير بها مُشعِرٌ بالميل فقط بحكم الطّبيعة لا بمباشرة المعصيةِ. وممّا يُؤكِّدُ هذا المعنى أنَّ الصَّبا تُطلَقُ على الرّيح المخصوصِ، وهي الّتي تَستَقبِلُ القِبلَةَ[1]، والنّفسُ تميلُ إليها لطيب نسيمِها وروحِها.

وفيه إيماءٌ إلى قبح الاستجابةِ لهذا الطّلب؛ لدلالتهِ على التَّصابي وفعل الصِّبيةِ بعدم التّفكير والتّقدير لمآلات الأفعالِ ونتائجها؛ إذ يقبحُ بالرَّجل الرَّزينِ فعلُ التَّصابي؛ ولذا ورد في الحديث: «إنَّ اللّه

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (صبى).

لَيَعْجَبُ مِنَ الشابِّ ليس له صَبْوَةٌ»[1]؛ دلالةً على محبّة اللّه تعالى لهذه السّيرة الحميدةِ المُنبِئةِ عنِ الاستقامة وسلوكِ الهدي الحَسنِ.

دلالةُ تعدّي الفعل ﴿أَصْبُ﴾ بـ (إلى):

المـيـلُ إلى النّساء من نزغ الشّيطانِ الخطير

عُدِّي الفعلُ ﴿أَصْبُ﴾ بـ (إلى) في قوله تعالى: ﴿أَصْبُ إِلَيْهِنَّ﴾؛ لأنّه ضُمِّن معنى الميل، ويكونُ المرادُ: (وإلّا تصرفْ عنّي كيدَهُنّ أصبُ مائِلًا إليهنّ)[2].

نُكتةُ التَّعبيرِ بفعلِ الكونِ ﴿وَأَكُن﴾:

المَـيـلُ إلى المَعاصي، يَفتَحُ على العَبدِ مَنافِذَ أُخرى للباطِلِ

عُبِّر بفعلِ الكونِ في قولِ اللّه ﷻ: ﴿أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾؛ للإيماءِ إلى ما جُبِلَ عليهِ ابنُ آدمَ مِنَ الميلِ النَّفسيِّ إلى مثلِ ذلكَ، وأنَّه متى انهَدَم شيءٌ مِن بناءِ صِيانَتِهِ بأمرٍ؛ أُتبِعَ بأمرٍ آخرَ، فاتَّسعَ الهَدمُ جدًّا، ولذلكَ قال: ﴿وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾؛ أي: أصيرُ بمنزِلَةِ مَن كان جاهلًا بمُقتَضى الجِبِلَّةِ[3].

سرُّ التَّعبيرِ بـ ﴿وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾:

الجـاهـلُ هو الّذي لا ينظرُ إلى عواقب الأمور

جاءَ التَّعبيرُ بـ: ﴿وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ دون (وَأَكُنْ جاهِلًا) في قولِ اللّه ﷻ: ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾؛ لكونِ الأوَّلِ أبلغَ؛ لأنَّ معناهُ: وأكُنْ منَ الغَريقينَ في الجهلِ بارتكابِ مثلِ أفعالِهِم، بخلافِ (أكُنْ جاهلًا)؛ فإنَّه لا يُفيدُ هذا المعنى، ولذا فرَّق العلماءُ بينَ قولِ القائلِ: زيدٌ مِنَ العلماء، وقولِه: زيدٌ عالِمٌ؛ فإنَّ الأوَّلَ أبلغُ؛ لاقتضائِهِ أنَّه غارقٌ في العلم أبًا عَن جَدٍّ، وأنَّكَ تشهَدُ لهُ بكونِهِ معدودًا في زُمرَتِهِم، ومعروفًا إسهامُهُ لَهُم في العِلمِ[4].

(1) أخرجه أحمد، المسند، الحديث رقم: (17371)، وأبو يعلى، المسند، الحديث رقم: (1749)، والطّبرانيّ، المعجم الكبير: 17/309، الحديث رقم: (853)، وحسّن إسناده الهيثميُّ، في مجمع الزّوائد: 10/270.

(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 6/425.

(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/76.

(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/76، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/263 - 12/266.

﴿فَٱسۡتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنۡهُ كَيۡدَهُنَّۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ٣٤﴾ [يوسف: 34]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

استِجابةُ الله لتضرُّعِ يوسفَ عليه السلام

لمّا ذَكَرَ اللّه ﷻ اختيارَ يُوسُفَ عليه السلام السِّجنَ على مطاوَعَةِ النِّسوَةِ فيما يَدعونَهُ إليهِ مِنَ الحرام، فقال سُبحانَهُ: ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجۡنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِۖ وَإِلَّا تَصۡرِفۡ عَنِّي كَيۡدَهُنَّ أَصۡبُ إِلَيۡهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾، وكان ذلكَ مِنه عليه السلام على وَجهِ التَّضرُّعِ والالتجاءِ إلى اللّه سُبحانَهُ، بيَّنَ تعالى في هذه الآية أنَّه استجابَ دعاءَ نبيِّهِ يوسُفَ عليه السلام فيما تضَرَّعَ بهِ إليهِ، فقالَ اللّه ﷻ: ﴿فَٱسۡتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنۡهُ كَيۡدَهُنَّۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَٱسۡتَجَابَ﴾: الجيمُ والواو والباءُ تدلُّ تصاريفُهُ على مراجعةِ الكلام[1]، ومِنه: الجوابُ؛ إذْ هو خاصٌّ بما يرجعُ مِنَ الكلام دون المُبتَدَأِ مِنَ الخِطاب، وهو مَقُولٌ في مقابلة السُّؤال، ثُمَّ إنَّ السُّؤالَ ضربَانِ: **أحدُهما**: طلبُ مَقالٍ، ويكونُ جوابُهُ بمقالٍ مثلِهِ، **والآخرُ**: طلبُ نَوَالٍ، ويكونُ جوابُهُ النَّوالَ[2]. وقِيلَ: الاستجابة هي الإجابَة، وحقيقتُها هي التّحرِّي للجواب والتّهيّؤ له، لكن عُبِّرَ به عن الإجابة بقلّةِ انفكاكها منها؛ يقالُ: استجابَ اللّه دعاءَهُ؛ أي: أجابَهُ[3]، ومعناه: قَبِلَهُ[4]، وقبولُهُ في دعاءِ المسألةِ: يكونُ بإعطاءِ العبدِ سُؤلَهُ، وقبولُهُ في دُعاء العبادةِ: بالإثابَةِ عليهِ[5].

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (جوب).
(2) الرّاغب، المفردات: (جوب).
(3) الجوهريّ، الصّحاح: (جوب).
(4) الفيّوميّ، المصباح المنير: (جوب).
(5) صالح آل الشّيخ، التّمهيد لشرح كتاب التّوحيد، ص: 180.

المَعْنى الإجْماليُّ:

فاستَجابَ اللّه ﷻ ليوسُفَ عليه السلام دُعاءَهُ، فَصَرَف عنهُ ما أرادَت امرأةُ العزيزِ وصواحِباتُها منه مِن مَعصيةِ اللّه سُبحانَهُ، وزادَهُ ثباتًا على ثباتِه وقوّةً على قوّتِه، ونجّاهُ مِن ذلكَ، إنَّ اللّه تعالى هُوَ السَّميعُ لدعاءِ يوسُفَ عليه السلام ودعاءِ كلِّ داعٍ مِنَ الخَلقِ، العليمُ بمَطلَبِه وحاجَتِه وحاجَةِ جميعِ الخلقِ[1].

مَن اعتَصَمَ باللّه تعالى عَصَمَهُ اللّه من كلِّ مكروهٍ وطارئ

وترشدُ الآيةُ الكريمةُ إلى استجابةِ اللّه سبحانَه لأهلِ الصّدق والإخلاصِ في دعائِهم إيَّاه واستعاذتِهم به تعالى من كلِّ مكروهٍ، وإلى أنّه بمُقتضَى كمالِ صفتي السّمع والعلم دليلٌ على أنَّ ربَّه تعالى لم يتخلَّ عن عنايتِه بتربيتِه أقصرَ زمنٍ يهتمُّ فيه بأمر نفسِه ومجاهدتِها[2]، وإلى أنَّ اللّه ﷻ هُوَ السَّميعُ الكامِلُ في السَّمعِ فلا يَخفَى عليهِ شيءٌ مسموعٌ، العليمُ الكامِلُ في عِلمِهِ فلا يخفى عليه شيءٌ.

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالةُ الفاءِ في: ﴿فَٱسۡتَجَابَ﴾:

الفاءُ في قول اللّه ﷻ: ﴿فَٱسۡتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ﴾ عاطفةٌ جملةَ الاستجابةِ على جملة الدُّعاءِ قَبلَها ﴿وَإِلَّا تَصۡرِفۡ عَنِّي كَيۡدَهُنَّ أَصۡبُ إِلَيۡهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾، وهي مع دلالتِها على العطفِ دالَّةٌ على التَّعقيبِ، وفي ذلك إيماءٌ إلى أنَّ اللّه سُبحانَهُ عجَّلَ بإجابةِ دعائِهِ في صَرفِ كَيدِ النِّسوَةِ عنهُ[3] بمُجرَّدِ تضرُّعِه ودعائِه إلى ربِّه، ولا ينافي التّعقيبُ والتّعجيلُ في الدّعاء أنَّ الصّرفَ تأخّرَ زمانًا عنِ الدّعاء؛ لأنّ الصّرفَ كان بسجنِه؛ فتعقيبُ كلِّ شيءٍ يكون حسبما يليقُ به منَ الزّمان المُلازِمِ له، ويؤكِّدُ ذلك قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِيٓ أَخۡرَجَ ٱلۡمَرۡعَىٰ ۝

سُرعَةُ إجابةِ اللّه تعالى دُعاءَ يوسُفَ عليه السلام، من نعمهِ عليه

(1) ابن جرير، جامع البيان: 16/90 - 91، ونخبة من أساتذة التّفسير، التّفسير الميسّر، ص: 239.
(2) رشيد رضا، تفسير المنار: 12/247.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/267.

﴿فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحۡوَىٰ ۝٥﴾ [الأعلى: 4-5]، ومعلومٌ أنّ إخراجَ المَرعى لا يعقبُهُ الغثاءُ الأحوى؛ إنمّا يكونُ في الزّمن المُقرَّرِ له.

معنى الفعلِ الماضي ﴿فَٱسۡتَجَابَ﴾:

تَحقُّقُ إجابةِ الله سُبحانَهُ دُعاءَ يوسُفَ عليه السلام

في التَّعبيرِ بالفعلِ الماضي ﴿فَٱسۡتَجَابَ﴾ في قولِ اللّه ﷻ: ﴿فَٱسۡتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ﴾ إيذانٌ بتحقُّقِ إجابةِ اللّه سُبحانَهُ دعاءَ يوسُفَ عليه السلام وإيجادِها تفضُّلاً منه تعالى وتكرُّمًا.

نكتةُ التَّعبيرِ بـ ﴿فَٱسۡتَجَابَ﴾:

الاستِجابَةُ أقوى دلالةً مِنَ الإجابة

جاءَ التَّعبيرُ ههنا بالاستجابة دونَ الإجابةِ، فقالَ اللّه ﷻ: ﴿فَٱسۡتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ﴾؛ وذلك لنُكتَتَين:

إحداهُما: أنَّ فيه إيماءً إلى أنَّ اللّه سُبحانَهُ قد أعطى يوسُفَ عليه السلام مَطلُوبَهُ الّذي سألَهُ؛ لأنَّ الاستجابةَ دالَّةٌ على القَبولِ، بخلاف ما لو وقعَ التَّعبيرُ بـ (أَجَابَ)؛ فإنَّها لا تدلُّ على قَبولِ ما دعا بِهِ؛ لأنَّ الإجابةَ تدلُّ عَلى مُطلَقِ الجوابِ قَبولًا كان ذلك أم ردًّا[1].

الأُخرى: لِمَا في الاستجابةِ مِنَ الدّلالة على حُصول جَميعِ مَطلُوبِهِ؛ وذلك لِكَثرَةِ مَبانيهِ، وزيادةُ المَبنى تدلُّ على زيادةِ المعنى[2]، فلو جاء النَّظمُ القرآنيُّ: (فأجابَه) لاحتمَلَ أنَّ الإجابةَ - إن وقعَتْ بإعطائهِ مَطلوباتِهِ - هي في مُقابلةِ مَجموعِ مَطلوباتِهِ لا جميعِهَا، بخلاف قولِهِ سُبحانَهُ: ﴿فَٱسۡتَجَابَ﴾؛ فإنَّه دالٌّ على إجابة اللّه سبحانَه لمطلوباتِهِ كلِّهَا. وفي التَّعبيرِ بالاستجابةِ ضربٌ مِن ضروبِ التَّأكيدِ؛ لأنَّ السّينَ والتّاءَ دالَّةٌ على التَّأكيدِ[3].

سرُّ تَعليقِ فِعلِ الاستجابةِ بالرّبوبيّة:

مِن آثارِ رُبوبيَّةِ اللّه تعالى إحسانُهُ إلى عِبادِهِ وتَفَضُّلُهُ عليهم

في تعليقِ فِعلِ الاستجابةِ باسمِ (الرَّبِّ) في قول اللّه ﷻ: ﴿فَٱسۡتَجَابَ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 4/202.
(2) الخطيب الشّربينيّ، السّراج المنير: 1/276.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3821.

﴿لَهُۥ رَبُّهُۥ﴾ إشعارٌ بأنَّ استجابةَ اللّه ﷻ لَهُ هِيَ مِن بابِ الإحسانِ إليهِ والتَّفضُّلِ عليه؛ وهو ما تَقتضِيه ربوبيَّتُهُ سُبحانَهُ على خلقِه.

وفي ذِكرِ اسمِ الرَّبِّ أيضًا مناسبةٌ لذِكرِه في دعاءِ يوسُفَ عليه السلام قبلُ في قولِ اللّه تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجۡنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِۖ﴾.

وجهُ التّعبيرِ بـ ﴿فَٱسۡتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ﴾:

النّاظرُ في الآية القرآنيّةِ يجدُ تعبيرَ الاستجابة ليوسفَ عليه السلام من غير تقدُّمِ مسألةٍ أو دعاءٍ صريحٍ، لكن بالنّظر والتّأمُّل في الآية يجدُ معنى الدّعاءِ، والمسألة مُضمَّنًا في قولِه تعالى: ﴿وَإِلَّا تَصۡرِفۡ عَنِّي كَيۡدَهُنَّ أَصۡبُ إِلَيۡهِنَّ﴾، كأنّه قال: ربِّ اصرفْ عنّي كيدَهنَّ؛ لذلك جاء التّعبيرُ بالاستجابة بعدَها في قولِه: ﴿فَٱسۡتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ﴾.

مَن شغلَه الذّكرُ عنِ الدّعاء، أعطاه اللّه خيرَ ما يعطي الدّاعين

دلالةُ تقديمِ الجارّ والمجرور ﴿لَهُۥ﴾:

قدَّمَ الجارَّ والمجرورَ ﴿لَهُۥ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَٱسۡتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ﴾؛ للدّلالة على خصوصيّة يوسفَ عليه السلام في هذا المَوقِف، وفي ذلك تثبيتٌ له في المِحَنِ الّتي تعرّضَ لها؛ بخلاف ما لو جاء التّعبيرُ (فاستجاب ربُّه له) لكانَتِ استجابةُ الدّعوات له ولغيره، وهذا على العُموم، والمَقامُ هنا مَبنيٌّ على الخصوص.

المَقامُ هنا مقامُ خصوصِ استجابةِ ليوسفَ، وهي حظوةٌ للنّبوّة

وجهُ الإضافةِ في: ﴿رَبُّهُۥ﴾:

دلَّتِ الإضافةُ على تشريف يوسفَ عليه السلام، ومزيد لطفِ اللّه عليه؛ فكأنّه اختصَّهُ بربوبيّتِه له دونَ غيرِه. وفي إسناد الاستجابةِ إلى الرّبِّ مُضافًا إلى يوسفَ عليه السلام ما لا يَخفى من إظهار اللُّطفِ[1].

إظهارُ اللُّطفِ في إسناد الاستجابة إلى الرّبِّ، مضافًا إلى يوسفَ عليه السلام

معنى الفاءِ في: ﴿فَصَرَفَ﴾:

دلَّ التّعبيرُ بالفاء على ترتيب نتيجةِ الدّعاءِ المُضمَّنِ في قوله: ﴿وَإِلَّا تَصۡرِفۡ عَنِّي كَيۡدَهُنَّ﴾؛ والمعنى: ربِّ اصرفْ عنّي كيدَهُنَّ؛

ترتيبُ نتيجةِ الدّعاء بعدَ استجابةِ الله له

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/274.

فاستجابَ له، فصرفَهُ عنه، وثبّتَهُ على العصمةِ والعفّةِ، وحالَ بينه وبين المعصية.

دلالةُ التّعبير بالماضي ﴿فَصَرَفَ﴾:

براءةُ يوسفَ من أيِّ نوعٍ من أنواع الصَّغوِ لكيد النِّسوة

دلَّ التّعبيرُ بالفعل الماضي على تحقُّقِ صرفِ كيدِ النِّسوة عنه؛ فلم يَصبُ إليهنّ بأيِّ نوعٍ من أنواع الصَّغوِ، فيحتاج إلى جهاد نفسِه لِكفِّها عنِ الميل إلى مُراودتِهنّ.

سرُّ تقديمِ الجارِّ والمجرورِ ﴿عَنْهُ﴾:

عظيمُ عِنايةِ الله سُبحانَهُ بيوسُفَ عليه السلام تَكرِمةٌ ومِنّةٌ

قُدِّمَ الجارُّ والمجرورُ ﴿عَنْهُ﴾ على المفعولِ بِهِ ﴿كَيْدَهُنَّۚ﴾ مِن قولِ اللّه سُبحانَهُ: ﴿فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّۚ﴾؛ لإرادةِ الاهتمام وبيانِ مزيدِ العنايةِ بيوسُفَ عليه السلام، والمبالَغةِ في إثباتِ إبعادِ كيدِ النِّسوةِ عنه.

عِلَّةُ الفصلِ في: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾:

سَعَةُ عِلمِ الله تعالى بالضَّمائِرِ والسَّرائِرِ

فُصِلَ قولُ اللّه ﷻ: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ عمّا قبلَهُ؛ لِوُرودِهِ في مقامِ التَّعليلِ للفعلِ ﴿فَٱسْتَجَابَ﴾ المعطوفِ بفاءِ التَّعقيبِ، والمرادُ: أنَّ اللّه سُبحانَهُ أجابَ دعاءَ يوسُفَ عليه السلام بدون مُهلةٍ؛ لأنَّ اللّه تَعالى سريعُ الإجابةِ وعليمٌ بالضَّمائِرِ والسَّرائِرِ والنِّيَّاتِ[1].

نُكتةُ التَّوكيدِ في السّياق المُفيد:

وَسِعَ سمعُ الله وعلمُه كلَّ شيء

أُكِّدَ قولُ اللّه ﷻ: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ بثلاثةِ مؤكِّداتٍ؛ وهي: (إنَّ)، وضميرُ الفصل ﴿هُوَ﴾، واسميَّةُ الجُملَةِ، وذلكَ لتحقيقِ هذا المَعنى وتثبيتِهِ[2]، وترسيخِ لوازِمِهِ في الأذهانِ.

وضَميرُ الفَصلِ في الآيةِ لا يُفيدُ القصرَ؛ إذِ القصرُ مُستفادٌ مِن تعريفِ طَرَفي الجُملةِ، وحيثُ وُجِدَ طريقٌ للقصرِ في الجُملةِ كان ضميرُ الفصلِ مُؤكِّدًا القصرَ لا مؤسِّسًا لَهُ.

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/77، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/267.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/267.

بلاغةُ التذييلِ بالقصر:

كمالُ أوصافِ الله ﷻ عظمةٌ وجلالٌ وجمالٌ

في قولِ اللّه ﷻ: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ أسلوبُ قصرٍ، وهو مِن قَصر الصِّفةِ على الموصوفِ، وطريقُه: تعريفُ جُزأي الإسنادِ: الضَّمير المنصوب في ﴿إِنَّهُۥ﴾ و﴿ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾، ففيهِ قصرُ السَّمعِ والعِلم على اللّه سُبحانَهُ؛ لأنَّ المقصورَ بتعريفِ طرفي الإسنادِ هُوَ المُعرَّفُ باللَّامِ، سواءٌ أكان مُقدَّمًا أم مُؤخَّرًا.

وهذا القصرُ ادِّعائيٌّ؛ إذ إنَّ ظاهرَ قولِه سُبحانَهُ: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ يَقتَضي نفيَ كونِ غيرِهِ سامِعًا وعالِمًا، وليس الأمرُ كذلكَ؛ فإنَّ السَّمعَ والعِلمَ مراتِبُ ودرجاتٌ، ويُوصَفُ المخلوقُ بالسَّمعِ والعِلمِ، ولكنْ لا نِسبَةَ بينَ عِلمِ اللّه تعالى وسَمعِهِ وبين عِلمِ المَخلوقِ وسَمعِهِ، فأفادَ هذا أنَّ القصرَ ادِّعائيٌّ، وليسَ حقيقيًّا تَحقيقيًّا؛ والمعنى: أنَّ اللّه ﷻ هو السَّميعُ الكامِلُ في السَّمعِ فلا يَخفَى عليه شيءٌ مَسموعٌ، العليمُ الكامِلُ في عِلمِهِ فلا يخفى عليه شيءٌ، فكان سَمعُ غيرِهِ وعِلمُهُ بالنِّسبةِ إلى سَمعِ اللّه سُبحانَهُ وعِلمِهِ ليسَ بشيءٍ.

دلالةُ الختمِ بالجملة الاسميّة:

بيانُ مزيدِ تأكيدِ حفظِ اللّه ليوسفَ عليه السلام، بصرفِ كيدِ النِّسوةِ عنه

جاء التّعبيرُ بالجملة الاسميّة في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾؛ لمزيد تأكيدِ حفظ اللّه ليوسفَ عليه السلام بصرف كيدِ النِّسوةِ عنه، فكأنَّ هذه الفاصِلةَ بهذا التّركيب دليلٌ وبيانٌ على كفاية اللّه ليوسفَ عليه السلام منَ النِّسوةِ. وفيه إشارةٌ إلى الثّناء على اللّه تعالى بما هو أهلُه في أسمائِه الحُسنى وصفاتِه العليا، ومنها صفتا السّمع والعِلم؛ فهما ثابتتان لا تنفكّان عنه سبحانَه؛ فلا يتمُّ أمرٌ في الكون إلّا تحت سمعِه، وبمُقتضى علمِه، ومِن ذلك ما جرى في قصّة يوسفَ عليه السلام على العُموم، وعلى الخصوص منها مَشهدُ امرأةِ العزيز والنّسوةِ معه عليه السلام.

سرُّ خَتمِ الآية بـ ﴿ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾:

تَناسُبُ مَقاطِعِ الآياتِ القرآنيَّةِ وفواصِلِها مَعَ مَضمونِها

خُتِمَ قولُ اللّه ﷻ: ﴿فَٱسۡتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنۡهُ كَيۡدَهُنَّۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ بالاسمَينِ الجليلَينِ ﴿ٱلسَّمِيعُ﴾ و﴿ٱلۡعَلِيمُ﴾ لتضمُّنِهما صفَتَي السَّمعِ والعِلمِ، وهما مُلائمَتانِ لصدرِ الآيةِ ﴿فَٱسۡتَجَابَ﴾[1]، فاللّه ﷻ سميعٌ لدعاءِ الدّاعينَ، مُجيبٌ لضراعةِ المُتضرِّعينِ؛ إذْ مِن مَعاني السَّميعِ: المُجيبُ، وهو ﷻ عليمٌ بأحوالِ القلوبِ، وما تَنطوي عليهِ مِن خيرٍ وشرٍّ، عليمٌ بِمَنْ يستحِقُّ أن يُجابَ دعاؤُهُ[2].

الاستجابةُ أخصُّ مِنَ الإجابةِ؛ لِكَونِها إجابَةً بما يُوافِقُ دعاءَ الدَّاعِي

وفيه إشارةٌ إلى تثبيت يوسفَ عليه السلام بأنّ اللّه يسمعُ دعاءَك ويعلَمُ نيّتَك، وهو يستجيبُ لك في صرفِ كيدِهنَّ عنك. وفيه إشارةٌ بالوعيد لامرأة العزيزِ وللنِّسوةِ بأنّ اللّه ﷻ سَمِعَ ما قالَت وقلْنَ له، وعليمٌ بما أضمرْنَهُ له عليه السلام.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الاستجابةُ والإجابةُ:

الفرقُ بينَهما مِن وجهَين[3]: **أوَّلُهما**: أنَّ الاستجابةَ أكثرُ حروفًا مِنَ الإجابة، وزيادةُ المَبنى يَقتَضي الزِّيادةَ في المعنى غالبًا، وزيادةُ المعنى هَهُنا مِن جهةِ أنَّ الاستجابةَ دالَّةٌ على إعطاءِ جميع المَطلوباتِ، **وثانيهما**: أنَّ الاستجابةَ أخصُّ مِنَ الإجابةِ؛ لِكَونِ الاستجابةِ الجوابَ بما يُوافِقُ دعاءَ الدَّاعي، بخلافِ الإجابةِ، فقد تكون بموافقتِهِ كما تكونُ بمُخالَفتِهِ.

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/242.
(2) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 7/356.
(3) الواحديّ، التّفسير البسيط: 8/109 - 13/362، والخطيب الشّربينيّ، السّراج المنير: 1/276، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 4/202.

﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا رَأَوُاْ ٱلۡأٓيَٰتِ لَيَسۡجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٖ ٣٥﴾

[يوسف: 35]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

سجنُ يوسفَ عليه السلام قرارٌ تحفُّظيٌّ، وليس قضائيًّا

لمَّا ذكرتِ الآياتُ السّابقةُ تبرئةَ يوسفَ على لسان امرأةِ العزيز صراحةً، بقولها: ﴿وَلَقَدۡ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ فَٱسۡتَعۡصَمَۖ﴾، فبهذا يكونُ أبعدَ النّاس عنِ السّجن لو كانت أمورُ النّاس تجري وفقَ مبدأِ العدالة، لكنّهم خالفوا الحقَّ، واتّبعوا هواهم؛ فجاءَت هذه الآيةُ لِتخبرَ عنهُم أنّهم خالفوا المنطقَ السّليمَ، واستبدلوا الغيَّ بالرّشاد، وحكموا عليه بالسّجن، قال تعالى: ﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا رَأَوُاْ ٱلۡأٓيَٰتِ لَيَسۡجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٖ﴾.

وكذلك لمّا ذكَرَ اللّه ﷻ أنَّه أجابَ يوسفَ عليه السلام، بصَرفِه كيدَ النِّسوَةِ عنه، فقالَ سُبحانه: ﴿فَٱسۡتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنۡهُ كَيۡدَهُنَّۚ﴾؛ بيَّنَ أنَّ صورةَ هذا الصَّرفِ حاصلٌ بإبعادِه عنهُنَّ في السِّجنِ، وذلك بَعدَ أن ظهَرَت براءَةُ يوسُفَ عليه السلام وعِفَّتُه، ولكنَّهُم سَجَنوهُ، فقال ﷻ: ﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا رَأَوُاْ ٱلۡأٓيَٰتِ لَيَسۡجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٖ﴾.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿بَدَا﴾: الباءُ والدّالُ والواوُ تدورُ اشتقاقاتُها على معنى الظُّهورِ[1]، يُقال: بَدا الشَّيءُ بُدُوًّا؛ أي: ظهَرَ ظهورًا بيِّنًا[2]، ومِنه قولُ اللّه ﷻ: ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمۡ يَكُونُواْ يَحۡتَسِبُونَ ٤٧﴾ [الزّمر: 47]، وقولُهُ سُبحانَهُ: ﴿وَبَدَا لَهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْ﴾ [الزّمر: 48]. ومِنهُ أيضًا قولُ اللّه تعالى: ﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا رَأَوُاْ ٱلۡأٓيَٰتِ﴾؛ أي: ظَهَرَ لَهُمْ[3].

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (بدو).
(2) الرّاغب، المفردات: (بدا).
(3) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 397.

ويَرِدُ هذا الفِعلُ (بَدا)؛ بمعنى: تغيُّر الرَّأي، فيُقال: بَدا لي في هذا الأمرِ بَدَاءٌ؛ أي: تَغَيَّرَ رَأيي عمّا كانَ عليه مِن قَبلُ، وهو راجِعٌ إلى المعنى الكُلِّيِّ للمادَّةِ؛ إذْ لا يُغيِّرُ المرءُ رأيَهُ إلَّا إذا ظَهَر لَهُ رأيٌ آخَر أقوى أو فيه مصلحَةٌ له أو دفعُ مفسَدَةٍ عنه، ويجُوز أن يكونَ هذا المعنى مُرادًا في قولِ اللّه سُبحانَهُ: ﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا رَأَوُاْ ٱلۡأٓيَٰتِ﴾[1].

2) ﴿ٱلۡأٓيَٰتِ﴾: الآيات جمعُ آيةٍ، وجذرُها - وهو الهمزةُ والياءُ والحرفُ المعتَلُّ - يدلُّ على بقاءِ الشَّيءِ في مكانِهِ شاخِصًا عَلَامَةً لِشَيءٍ[2]. ومنه قولُهم: خرجَ القومُ بآياتِهم؛ أي: جماعتِهم؛ فَلَم يَدَعوا شيئًا مِمَّا مِن شأنِهِ أن يكُونَ شاخِصًا إلّا حملوهُ، وفيه معنى الكثرةِ والجسَامَةِ أيضًا. والآية: كلُّ شيءٍ ظاهرٍ مُلازِمٌ لشيءٍ باطنٍ يُعرَفُ به حسّيًّا كان أم عقليًّا[3]. والآياتُ في قولِ اللّه سُبحانَهُ: ﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا رَأَوُاْ ٱلۡأٓيَٰتِ﴾؛ أي: أدِلَّة بَراءَةِ يوسُفَ عليه السلام، (وذلكَ أنَّ المرأةَ قالَتْ: إنَّ هذا العَبدَ فَضَحَني في النَّاسِ، يُخبِرُهم أنِّي راوَدتُهُ عَن نَفسِهِ، فاحبِسْهُ حتّى تَنقَطِعَ هذهِ المَقالَةُ)[4].

3) ﴿حِينٍ﴾: الحاءُ والياءُ والنُّونُ تدلُّ تصريفاتُها على معنى الزَّمانِ، ومنه: الحينُ؛ وهو الزَّمانُ قليلًا كان أم كثيرًا[5]، وذكَرَ الرَّاغبُ أنَّ حقيقَةَ الحينِ هو وَقتُ بُلوغِ الشَّيءِ وحُصولُهُ، ومعناهُ مُبهَمٌ، وإنَّما تَتَبيَّنُ دلالَتُهُ بما يُضافُ إليهِ، ومِنه قولُ اللّه عز وجل: ﴿وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ۝٣﴾[6] [ص: 3]. ومِنه قولُ اللّه سُبحانَهُ: ﴿لَيَسۡجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ﴾، فإنَّ المعنى: لَيَسجُنُنَّهُ إلى الوقتِ الّذي يَرَوْنَ فيهِ رأيَهُم[7]، وحَمَلَ أبو بكرٍ بن الأنباريّ الحينَ في هذه الآيةِ على سَبعِ سِنينَ[8]، وذلك غيرُ ظاهرٍ مِن حيثُ الدّلالةُ اللُّغويَّةُ والسِّياقيَّةُ.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

ثُمَّ ظَهَرَ لِلعزيزِ وأصحابِهِ رأيٌ جديدٌ بعدَ طول فكرٍ ونظرٍ مِن بَعدِ ما رأوا أدلَّةَ براءةِ

(1) الواحديّ، التّفسير البسيط: 12/108.
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (أيى).
(3) الرّاغب، المفردات، (أيّ)، ورشيد رضا، تفسير المنار: 1/238.
(4) الواحديّ، الوجيز، ص: 546.
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حين).
(6) الرّاغب، المفردات: (حين).
(7) ابن جرير، جامع البيان: 16/92.
(8) الأنباريّ، الزّاهر: 2/61.

يوسُفَ عليه السلام ممَّا قَذَفَتهُ بهِ امرأةُ العزيزِ؛ رأَوا أن يَسجُنوهُ إلى الوقتِ الّذي يَرَونَ فيهِ رأيَهُم - طالَ هذا الوَقتُ أو قصُرَ - مَنعًا لِلفضيحةِ[1]. وترشدُ الآيةُ الكريمةُ إلى أنّه لو أُكرِهَ رجلٌ على الزِّنى بالسّجن، فعليه الامتناعُ ولو سُجنَ، فإنْ فعلَ فهو آثمٌ بالإجماع. وأنَّ كلَّ أحوالِ يوسفَ عليه السلام لطفٌ في عُنفٍ، ونعمةٌ في طيِّ بَليَّةٍ ونِقمةٍ، ويُسرٌ في عُسرٍ، ورجاءٌ في يأسٍ، وخَلاصٌ بعدَ لاتَ مناصٍ، وسائقُ القدر ربّما يَسوقُ القدرَ إلى المَقدورِ بعُنفٍ، وربّما يَسوقُه بلُطفٍ، والقهرُ والعنفُ أحمدُ عاقبةً، وأقلُّ تَبِعةً[2].

سَجنُ يوسُفَ عليه السلام بعدَ ظُهورِ بَراءَتِهِ؛ مَنعًا لِفضيحةِ امرأةِ العزيزِ

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

معنى ﴿ثُمَّ﴾:

﴿ثُمَّ﴾ في قولِ اللّه عز وجل: ﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا رَأَوُاْ ٱلۡأٓيَٰتِ﴾ عاطفةٌ هذهِ الجملةَ على الجملةِ قبلَها، وهي دالَّةٌ على التَّرتيبِ، إلَّا أنَّ التَّرتيبَ ههُنا رُتبيٌّ، كما هو الشَّأنُ فيها إذا عَطَفَتِ الجملَ، وهي تدلُّ على مدّةٍ قضاها أهلُ الحلِّ والعقدِ في التّشاور والتَّروّي في الأمر قبلَ إصدار الحُكم بسجن يوسفَ، ويجوزُ أن يكونَ التّرتيبُ زمنيًّا، والمعنى: أنَّ الّذي بَدا لَهُم أشدُّ عَجَبًا بعدَ تَحَقُّقِ براءةِ يوسُفَ عليه السلام، وهُم إنَّما بدا لَهُم سَجنُهُ عَقِبَ انصرافِ النِّسوَةِ؛ لأنَّها خشِيَت إنْ هُنَّ انصَرَفْنَ أن يتحدَّثْنَ في شأنِها وشأنِ براءةِ يوسُفَ عليه السلام، فأرادَت امرأةُ العزيزِ أنْ تُغطِّيَ ذلك بسَجنِ يوسُفَ عليه السلام ليَظهرَ في صورةِ المُجرمينَ[3].

إرادةُ امرأةِ العزيزِ تَغطيةَ فَضيحَتِها، لِيَظهَرَ يوسفُ في صورةِ المُجرِمينَ

دلالةُ تعدُّدِ المُرادِ بفاعِلِ ﴿بَدَا﴾:

تعدَّدتِ الأقوالُ في تعيين فاعل ﴿بَدَا﴾ مِن قولِ اللّه سُبحانَهُ: ﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا رَأَوُاْ ٱلۡأٓيَٰتِ لَيَسۡجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٖ﴾، إذ يجوزُ أن

الاحتمالُ في تعدُّدِ المرادِ يزيدُ المعنى ثراءً

(1) ابن جرير، جامع البيان: 16/91 - 92، ونخبة من أساتذة التّفسير، التّفسير الميسّر، ص: 239.
(2) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 9/187، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 4/37.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/267.

يكونَ مَصدَرَ الفعل ﴿بَدَا﴾، والتَّقديرُ: بدا لَهُمُ بَداءٌ، أو يكونَ الفاعلُ الرَّأيَ المفهومَ مِن سياق الآيةِ؛ أي: بدا لهم الرَّأيُ، أو أنَّ الفاعِلَ هو المصدرُ الّذي دلَّ عليه الفعلُ ﴿لَيَسۡجُنُنَّهُۥ﴾؛ والمعنى: بدا لَهُم سَجنُهُ المَحتومُ[1]، وهذا الوجهُ الأخيرُ هو الأَوْلى.

سرُّ التّعبير بالجَمعِ في ﴿لَهُم﴾:

اتِّفاقُ المَلِكِ مع أهلِ مَشورَتِهِ على ظُلمِ يوسُفَ عليه السلام بسَجنِهِ

يجوزُ أن يَكونَ الّذي بدا لَهُ سَجنُهُ هُوَ المَلِكُ وحدَهُ، فيكون الجمعُ في قولِ اللّه سُبحانَهُ: ﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا رَأَوُاْ ٱلۡأٓيَٰتِ لَيَسۡجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٖ﴾ مِن جِهَة أنَّ المَلِكَ شاوَرَ غيرَهُ في ذلكَ الأمرِ[2]. ويمكن أن يُقالَ: عبَّرَ بالجمع ليشمَلَ مَن بيدِه الأمر، مِن أهل الحلِّ والعقدِ من علِّيَّةِ القومِ في مِصرَ، وتدخلُ امرأةُ العزيز في ذلك دخولًا أوّليًّا؛ لأنّها هي الّتي هددَتهُ بالسّجن علانيةً، فاحتالَت لذلك؛ بأنْ أثارَت أهلَ الحلِّ والعقدِ[3].

دلالةُ إسناد السّجن إلى الجماعة:

الإسنادُ العقليُّ يسهمُ في تقريب الصّورةِ ووضوحها

وأُسنِدَ السَّجنُ إلى الجَمعِ؛ لأنَّ قولَهُ: ﴿لَيَسۡجُنُنَّهُۥ﴾ أصلُهُ: لَيَسجُنُونَنَّهُ، فحُذِفَت نونُ الرَّفعِ لكراهَةِ توالي الأمثالِ، فصارَ الفعلُ (لَيَسجُنُونَّهُ)، ثُمَّ حُذِفَت واو الجماعةِ لالتِقاءِ السّاكِنَين، فآلَ حالُ الفعلِ إلى ما جاءَ في الآيةِ: ﴿لَيَسۡجُنُنَّهُۥ﴾، وهذا الإسنادُ يجوزُ أن يكونَ مُرادًا به المَلِكُ خاصَّةً، وأُسنِدَ إليهِ على وجهِ التَّعظيمِ، والإسنادُ مجازٌ عقليٌّ؛ لأنَّه لَم يُباشِرْ سَجنَهُ، وإنَّما أمَرَ بذلكَ.

معنى ﴿مِّنۢ﴾:

حروفُ المَعاني اللّغويّة تبرزُ دَقائِقَ المعاني القرآنيَّةِ

دخُولُ حرفِ الجرِّ ﴿مِّنۢ﴾ على ﴿بَعۡدِ﴾ مِن قولِ اللّه ﷻ: ﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا رَأَوُاْ ٱلۡأٓيَٰتِ﴾ أفادَ نُكتَتَين: **إحداهُما**: توكيدُ المعنى

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/274.
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/242.
(3) رشيد رضا، تفسير المنار: 12/247.

وتَقويَتُهُ؛ وهو الدّلالةُ الغالبةُ على ﴿مِّنۢ﴾ المُقترِنَةِ بـ ﴿بَعۡدِ﴾ و(قَبْلُ)، **والأُخْرَى**: أنَّه لمَّا وُجِدَ هذا البَداءُ والظُّهورُ في حينٍ مِنَ الدَّهرِ تلوَّنوا بعدَهُ إلى رأيٍ آخَرَ؛ أُدخِلَ الجارُّ للدّلالةِ على ذلك، فقال سُبحانَهُ: ﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا رَأَوُاْ ٱلۡأٓيَٰتِ﴾[1].

سرُّ التّعبير بالرُّؤيةِ: ﴿رَأَوُاْ﴾:

في التَّعبير بفعلِ الرُّؤيةِ ﴿رَأَوُاْ﴾ مِن قولِ اللّه ﷻ: ﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا رَأَوُاْ ٱلۡأٓيَٰتِ لَيَسۡجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٖ﴾ دون (علموا) إيماءٌ إلى ظهورِ هذهِ البيِّناتِ والأدلَّةِ، وأنَّهم رأوها على وَجهِ القَطعِ واليَقينِ، وجَزَموا ببراءةِ يوسُفَ عليه السلام، ومع ذلكَ حَكَموا بسَجنِهِ، وهذا غايةٌ في الظُّلمِ والجَورِ، ولم يُعبِّرْ بالعلمِ؛ لأنّ الرّؤيةَ أقوى وسائلِ الإدراكِ، وكما يُقالُ: ليسَ مع العينِ أينٌ، أمّا العلمُ فقد يحتاج إلى إقامة الدّليلِ.

آياتُ براءةِ يوسُفَ عليه السلام واضحةٌ جليّةٌ، لا غبارَ عليها

نكتةُ التَّعبيرِ بِالآياتِ: ﴿ٱلۡأٓيَٰتِ﴾:

عُبِّرَ بـ ﴿ٱلۡأٓيَٰتِ﴾ دونَ الأدلَّةِ في قولِ اللّه ﷻ: ﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا رَأَوُاْ ٱلۡأٓيَٰتِ﴾؛ للإيماءِ إلى ظُهورِ هذهِ الأدلَّةِ والشَّواهِدِ المُقتضيَةِ براءَةَ يوسُفَ عليه السلام؛ وذلك لأنَّ العادةَ أنَّه لا يُعبَّرُ بلفظ الآيةِ إلَّا فيما كانَ ظُهُورُهُ في غايةِ البيانِ والوضوحِ[2].

ظُهورُ الأدلَّةِ والشَّواهِدِ المُقتضِيةِ براءةَ يوسُفَ عليه السلام

معنى (الْ) في: ﴿ٱلۡأٓيَٰتِ﴾:

اللّامُ في ﴿ٱلۡأٓيَٰتِ﴾ مِن قولِ اللّه ﷻ: ﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا رَأَوُاْ ٱلۡأٓيَٰتِ﴾ تدلُّ على الاستغراقِ، وهو استغراقٌ عُرفيٌّ يُرادُ به خصوصُ الأدلَّةِ الدّالَّةِ على براءةِ يُوسُفَ عليه السلام.

ويجوزُ أن تكونَ اللّامُ دالَّةً على الكَمالِ؛ أي: مِن بعدِ ما رأَوُا الآياتِ الكاملَةَ، ولا تنافيَ بينَ الدّلالتينِ؛ فيكون المعنى: بَدا لَهُم سَجنُ

عِظَمُ الجَورِ بسجنِ يوسُفَ عليه السلام، مع كمالِ أدلَّةِ براءَتِهِ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/78.
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/243.

يوسُفَ عليه السلام مِن بعدِ ما رأَوا الآياتِ الكاملَةَ كُلَّها الدّالَّةَ على براءتِهِ وعِفَّتِهِ، وهذا إيغالٌ مِنهم في الظُّلمِ والجَورِ.

نُكتةُ الجمعِ في: ﴿ٱلْأَيَٰتِ﴾:

تَنَوُّعُ أدلَّةِ براءَةِ يوسُفَ عليه السلام، وكَثْرَةُ أفرادِها

جُمِعَت ﴿ٱلْأَيَٰتِ﴾ في قولِ اللّه سُبحانَهُ: ﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْأَيَٰتِ﴾؛ للدّلالةِ على ظهورِ أمورٍ واضحةٍ دلّت على براءتِه؛ فلم يُرِدْ تعيينَ آيةٍ؛ بل جميعُ قرائنِ القصّةِ ناطقةٌ ببراءتِه. وفيه إشارةٌ إلى كَثرتِها أو تنوُّعِها، فليسَت ثَمَّةَ آيةٌ واحدةٌ تَقضي ببراءةِ يوسُفَ عليه السلام، بل ثمَّةَ آياتٌ متنوِّعَةٌ دِلالاتُها، كثيرةٌ أفرادُها[1]. وذهبَ بعضُ أهلِ العِلمِ إلى أنَّ المرادَ بالآياتِ قَدُّ القميصِ، وهُو آيةٌ واحدَةٌ، إلَّا أنَّه عُبِّر عنهُ بالجَمعِ تعظيمًا لَهُ، أو أنَّ اللّامَ في ﴿ٱلْأَيَٰتِ﴾ تدلُّ على الجنسيَّةِ، وهي تُبطِلُ معنى الجمعيَّةِ[2]، والمعنى الأوَّلُ أظهَرُ وأقوَى.

سِرُّ تأكيدِ الفعلِ: ﴿لَيَسْجُنُنَّهُۥ﴾:

حسمُ الكلامِ في الموضوعِ حتّى لا تتناقلُهُ الألسنُ، وتزيدُ فيه وتنقصُ

أُكِّد فِعلُ السَّجنِ ﴿لَيَسْجُنُنَّهُۥ﴾ مِن قولِ اللّه عز وجل: ﴿لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ﴾؛ لخروجِهِ عن مُقتَضى العقلِ؛ إذ كيفَ يُسجَنُ مَن ثبَتَتِ الأدلَّةُ القاطِعةُ على براءَتِه، وعَلِمَها النَّاسُ وتيقَّنوها؟! إلَّا أنَّهم حكموا بهذا الحُكمِ الجائرِ؛ لأنَّهم وَجَدوا السّجنَ يُطفِئُ هذه الشّائعةَ الّتي هَزَّتْ مُجتَمَعَهُم[3]، ولرغبةِ أهلِ النّفوذِ والسّلطانِ في الحُكمِ قطعُ الكلامِ فيما حدثَ، والمحافظةُ على مكانةِ رجالِ الحُكمِ في الدّولةِ، وإيهامُ الجماهيرِ أنّ يُوسفَ عليه السلام هو المُذنِبُ؛ لأنّها لو كانت تحبُّهُ ما سعَت في سجنِه، وتحقيقُ رغبةِ امرأةِ العزيزِ في إلحاقِ الإهانةِ بيوسفَ عليه السلام.

دلالةُ تنكيرِ ﴿حِينٍ﴾:

إدخالُ الغَمِّ والهَمِّ على يوسفَ عليه السلام، بطولِ المدّةِ

نُكِّرَتْ كلمةُ ﴿حِينٍ﴾ مِن قولِ اللّه عز وجل: ﴿لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ﴾

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/78.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 6/427.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3823.

لعَدَم وجودِ مُقتضٍ للتَّعريفِ، وللإيماءِ إلى أنَّهُم لَم يقصِدوا زمنًا خاصًّا ينتَهي إليه السَّجنُ، وإنَّما أبهَموا ذلكَ حتَّى يَرَوا فيه رأيًا آخَرَ، وهذا أغلظُ في الظُّلم؛ إذ سَجنُ المَرءِ مِن غير بيانٍ لمُدَّةِ سَجنِه قَد يُدخِلُ عليهِ مِنَ الغَمِّ والهَمِّ ما لا يكونُ مِثلُهُ فيما لَو عُيِّنَتْ له المُدَّة، وإنْ طالَت.

سرُّ التّعبير بـ ﴿حِينٍ﴾:

آثرَ التّعبيرُ القرآنيُّ لفظَ ﴿حِينٍ﴾ دون غيرِه؛ لأنّه يُطلَقُ على الزّمان من غير حدودٍ، فيقعُ على القصير منه وعلى الطّويل، وهو مُبهمُ المعنى، وبذلك يكونُ هو المناسبَ لِما دبَّره أهلُ السّلطان حتّى تكونَ لهم مساحةُ وقتٍ يُقدِّرونها عند انقطاعِ المقالِ في شأن مُراودة امرأةِ العزيزِ ليوسفَ عليه السلام[1].

التَّمكُّثُ في سجن يوسفَ، حتّى انقطاعِ المقالِ، في شأن مُراودة امرأةِ العزيز له

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(بَدا) و(بَرَزَ) و(ظَهَرَ):

هذه الأفعالُ الثَّلاثةُ تَشترِكُ في معنًى عامٍّ، وهو الانكشافُ والوُضوح، وتمتازُ مادَّةُ (الباء والرّاء والزّاي) بدلالَتِها على الانكشافِ بعدَ الخفاءِ، ولذا جاء في لسان العرب: (وكلُّ ما ظَهَرَ بعدَ خَفاءٍ؛ فَقَد بَرَزَ)[2]، وتُستَعمَلُ كثيرًا في مقام الشِّدَّةِ، في حينِ أنَّ مادَّةَ (الظّاء والهاء والرّاء) تمتازُ بدلالةِ القُوَّةِ، وأمّا مادَّةُ (الباء والدّال والواو) فتَتميَّزُ بمَلمحِ البيانِ. ومِن الآياتِ الّتي ورَدَ فيها فعلُ (بَدا) وتَصريفاتُه قولُ اللهِ سُبحانَهُ: ﴿قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئۡهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡ قَالَ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَأَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ ٣٣﴾ [البقرة: 33]، وقولُهُ ﷻ: ﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا رَأَوُاْ ٱلۡأٓيَٰتِ لَيَسۡجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٖ﴾، وقولُه تَعالى: ﴿إِن

اشتِراكُ هذِهِ الألفاظ في الوُضوحِ والانكشافِ، واختصاصُ البُدُوِّ بمَلمَحِ البيان

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 6/427.
(2) ابن منظور، لسان العرب: (برز).

تُبۡدُواْ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِيَۖ وَإِن تُخۡفُوهَا وَتُؤۡتُوهَا ٱلۡفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۚ﴾ [البقرة: 271]. وغالبُ وُرودِ الفعلِ (بَدا) أن يأتِيَ مَقرونًا بألفاظٍ تدلُّ على الخفاءِ، مِثلُ: أخفى، وكَتمَ، ونحو ذلكَ، وفي هذا الاقترانِ إشعارٌ بأنَّ البُدُوَّ هُو مقابلُ الخفاءِ والكِتمانِ وضدُّهما.

ووردَ الفعلُ (بَرَزَ) كثيرًا في سياقاتِ الحَربِ والشِّدَّةِ، كقولِ اللّه سُبحانَهُ: ﴿وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُواْ رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٢٥٠﴾ [البقرة: 250]، وقولِه ﷻ: ﴿قُل لَّوۡ كُنتُمۡ فِي بُيُوتِكُمۡ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَتۡلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمۡۖ﴾ [آل عمران: 154]، ووردَ أيضًا في ذِكرِ أهوالِ القيامةِ؛ لِما في ذلكَ مِنَ الشِّدَّةِ، كما قالَ اللّه ﷻ: ﴿وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ بَارِزَةٗ وَحَشَرۡنَٰهُمۡ فَلَمۡ نُغَادِرۡ مِنۡهُمۡ أَحَدٗا ٤٧﴾ [الكهف: 47]. وأمَّا فعلُ الظُّهورِ فوردَ في القرآنِ لمعنى الانكشافِ والبيانِ، كقولِ اللّه سُبحانَهُ: ﴿وَأَسۡبَغَ عَلَيۡكُمۡ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةٗ وَبَاطِنَةٗۗ﴾ [لقمان: 20]، ووردَ بمعنى الغَلَبَةِ والقُوَّةِ، كما في قولِ اللّه ﷻ: ﴿كَيۡفَ وَإِن يَظۡهَرُواْ عَلَيۡكُمۡ لَا يَرۡقُبُواْ فِيكُمۡ إِلّٗا وَلَا ذِمَّةٗۚ﴾ [التّوبة: 8].

والحاصِلُ أنَّ هذه الأفعالَ؛ وهي: (بَدا) و(بَرَزَ) و(ظَهَرَ)، مُتقاربَةٌ في دلالاتِها؛ لاشتراكِها في معنى الوُضوحِ والانكشافِ، ويختصُّ البُدُوُّ بمَلمحِ البيانِ، ويختصُّ البروزُ بدلالةِ الشِّدَّةِ والبأسِ، والانكشافِ بعدَ خفاءٍ، وأمَّا الظُّهورُ فيختصُّ بإطلاقِهِ على معنًى آخَرَ، وهو القُوَّةُ والغلبَةُ[1].

(1) محمّد داود، معجم الفروق الدّلاليّة، ص: 107 - 109.

﴿وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجۡنَ فَتَيَانِۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعۡصِرُ خَمۡرٗاۖ وَقَالَ ٱلۡأٓخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحۡمِلُ فَوۡقَ رَأۡسِي خُبۡزٗا تَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِنۡهُۖ نَبِّئۡنَا بِتَأۡوِيلِهِۦٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٣٦﴾ [يوسف: 36]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لمّا ذَكَرَ اللّه ﷻ أنَّهم رأَوا سَجنَ يوسُفَ عليه السلام، وكانَ ذلكَ سَببًا ظاهِرًا في الإهانَةِ؛ شَرَعَ اللّه سبحانَهُ يَقُصُّ مِن أمرِ يوسُفَ عليه السلام ما حاصِلُهُ أنَّه جَعَلَ السِّجنَ سَبَبًا لكرامَتِهِ، إظهارًا لغَلَبةِ اللّه تعالى على الأمرِ واتِّصافِهِ بصفاتِ القَهرِ، معَ ما في ذَلك مِن إظهارِ تَحَقُّقِ مَوعودِ اللّه ﷻ ليوسُفَ عليه السلام، في دخولِهِ السِّجن وما جرى معه[1].

المنحُ مخبوءةٌ في المِحنِ، ولا يأسَ من فرجِ اللهِ، مهما طالَتِ البليّة

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَتَيَانِۖ﴾: الفاءُ والتّاءُ والحرفُ المعتَلُّ تدلُّ اشتقاقاتُها على مَعنَيينِ كُلِّيَّين؛ أحدهما: الطَّراوَةُ والجِدَّةُ، والآخرُ: تَبيينُ الأحكام[2]، ومِنَ الثّاني: الفَتوى، ومنه قولُ اللّه سُبحانَهُ: ﴿يَسۡتَفۡتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفۡتِيكُمۡ فِي ٱلۡكَلَٰلَةِۚ﴾ [النّساء: 176].ومِنَ الأوَّلِ: الفَتيُّ مِنَ الدَّوابِّ؛ وهُوَ الحَديثُ السِّنِّ، بخلافِ المُسِنِّ مِنها[3]، ومِنهُ: الفَتى؛ وهو الطَّريُّ مِنَ الشَّبابِ، ويُقال للأُنثى: فَتَاةٌ، وقَد يُكَنّى بِهما عَنِ العَبدِ والأَمَةِ[4]. ومعنى قولِ اللّه ﷻ: ﴿فَتَيَانِۖ﴾ معناهُ: عَبدانِ مَملوكانِ، ويجوزُ أن يكونَ المرادُ بهما الخادِمَينِ، وإنْ لم يكونا مملوكَينِ[5].

2) ﴿أَعۡصِرُ﴾: العينُ والصّادُ والرّاءُ تدلُّ تصريفاتُها على ضَغطٍ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/79.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (فتى).
(3) المطَرِّزيّ، المُغَرّب: (فتي).
(4) الرّاغب، المفردات: (فتى).
(5) القِنّوجيّ، فتح البيان: 6/333.

بِثِقَلٍ بالِغٍ يُسيلُ أو يُنفِذُ ما في الأثناءِ مِن مائعٍ ونحوِهِ، ومِن هذا المعنى: الإعصارُ: وهُوَ الرِّياحُ الشَّديدَةُ الّتي تَهُبُّ مِنَ الأرضِ، وتُثيرُ الغُبَارَ الملتَصِقَ بالأرضِ بسَبَبِ ضَغطِها البالِغِ الشِّدَّةِ، فيَرتَفِعُ كالعمودِ إلى السَّماءِ، ومِنهُ قولُ اللّه ﷻ: ﴿فَأَصَابَهَآ إِعۡصَارٞ فِيهِ نَارٞ﴾[1] [البقرة: 266]. والعصرُ: الضَّغطُ على شيءٍ حتَّى يتحلَّبَ، فيَخرُجَ ما فيهِ مِنَ المائعِ[2]، ومِن هذا المعنى قولُ اللّه سُبحانَهُ: ﴿قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعۡصِرُ خَمۡرٗاۖ﴾؛ أي: أعصِرُ عِنَبًا يؤولُ إلى خَمرٍ[3].

3) ﴿خَمۡرٗاۖ﴾: الخاءُ والميمُ والرّاءُ تدورُ اشتقاقاتُها حولَ معنى التَّغطيَةِ والسَّترِ اللَّطيفِ[4]، ومِنهُ الخِمارُ: وهو ما يُستَرُ بِهِ، ثُمَّ غَلبَ استعمالُهُ فيما تُغطِّي به المرأةُ رأسَها، ويُجمَعُ على خُمُرٍ، ومِنه قولُ اللّه سُبحانَهُ: ﴿وَلۡيَضۡرِبۡنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّۖ﴾[5] [النّور: 31]. والخَمرُ شَرعًا: اسمٌ لِكُلِّ مُسكِرٍ[6]؛ لقولِ النَّبيِّ ﷺ: «كُلُّ مُسكِرٍ خَمرٌ، وكُلُّ مُسكِرٍ حَرامٌ»[7]، ولا تختصُّ بما كانَ مِنَ العِنَبِ أو التَّمرِ[8]. والخَمرُ في قولِ اللّه ﷻ: ﴿أَعۡصِرُ خَمۡرٗاۖ﴾ العِنَبُ؛ تسميةً للشَّيءِ باسمِ ما يؤولُ إليهِ[9].

4) ﴿بِتَأۡوِيلِهِۦٓۖ﴾: الهمزةُ والواوُ واللّامُ تدلُّ اشتقاقاتُها على معنَيَينِ كُلِّيَّينِ؛ أحدهما: ابتداءُ الأمرِ، والآخرُ: انتهاؤُهُ، ومنه: التَّأويلُ؛ وهو تَفسيرُ ما يَؤولُ إليهِ الشَّيءُ[10]، ومِنه قولُ اللّه ﷻ: ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأۡوِيلَهُۥۚ﴾ [الأعراف: 53]؛ فإنَّ معناهُ: هل ينظُرونَ إلّا ما يَؤولُ إليهِ أمرُهُم مِنَ البَعثِ[11]. وتأويلُ الرُّؤى: تفسيرُها بما يؤولُ إليها في واقعِ الرّائي، ويُطلَقُ كثيرًا على المعنى الّذي تُؤوِّلُ بِهِ، ومِنهُ قولُ اللّه سُبحانَهُ: ﴿نَبِّئۡنَا بِتَأۡوِيلِهِۦٓۖ﴾، ويُطلَقُ على ذاتِ الواقِعَةِ الّتي كانَتِ الرُّؤيا رَمزًا لها، ومِنه قولهُ تعالى حِكايةً عَن يوسُفَ عليه السلام: ﴿هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَٰيَ﴾[12] [يوسف: 100].

---

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (عصر).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عصر).
(3) القِنّوجيّ، فتح البيان: 6/333.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (خمر).
(5) الرّاغب، المفردات: (خمر).
(6) ابن عثيمين، الشّرح الممتع: 1/428.
(7) رواه مسلم في صحيحه، الحديث رقم: (2003).
(8) الرّاغب، المفردات: (خمر).
(9) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 217.
(10) الجوهريّ، الصّحاح: (أول).
(11) الهرويّ، الغريبين: (أول).
(12) المُعلِّميّ اليمانيّ، رسالة في حقيقة التّأويل، ص: 43.

5) ﴿ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾: الحاءُ والسّينُ والنّونُ تدورُ تَصريفاتُها على ضدِّ القُبحِ[1]، والمحاسنُ مِنَ الأعمال: ضدُّ المَساوِئِ، ومِنهُ سُمِّيتِ الجنَّةُ: الحُسنَى؛ ضدُّ السُّوأَى، وهي النَّارُ[2].

والْحَسَنُ: كُلُّ مُبهِجٍ مرغُوبٍ فيه، والحَسَنَةُ يُعَبَّرُ بها عَن كُلّ ما يَسُرُّ مِن نعمةٍ تنَالُ العبدَ في نفسِه أَو بَدَنِه ونحو ذلكَ، والسَّيِّئَةُ ضدُّها[3]، والإحسانُ: ضدُّ الإساءَةِ[4]، وحدُّ الإحسانِ شرعًا: «أَن تَعبُدَ اللّه كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فإِنْ لَم تَكُنْ تَراهُ؛ فإِنَّهُ يَراكَ»[5].

والمُحسِنونَ في قولِ اللّه سُبحانَهُ: ﴿إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ مَن يوصِلُ الخَيرَ إلى الخَلقِ، والمعنى: إنَّا نراكَ ممَّن يُحسِنُ إلى الخَلقِ؛ فأَحسِنْ إلَينا في تَعبيرِكَ رُؤيانا كما أَحسَنتَ إلى غَيرِنا[6].

المَعْنى الإجْمالِيُّ:

مُقابلةُ يوسفَ عليه السلام في السّجن فَتيين مَملوكَين للمَلِك، لكلٍّ منهما رؤيا عجيبةٌ

بينّت هذه الآيةُ أنّ مَن بيدهم الأمرُ في الحُكم قضوا بسجنِ يوسفَ فسجنوهُ، ودَخَل معَه السِّجنَ فَتيانِ، ورأى كُلٌّ منهُما رُؤيا، فَقَصّا ذلكَ عليهِ؛ فقالَ أحدُهُما: إنّي رَأيتُ في المَنامِ أنّي أعصِرُ عِنَبًا لِيصيرَ خَمرًا، وقالَ الآخَرُ: إنّي رأيتُ أنّي أحمِلُ فوقَ رأسي خُبزًا تأكُلُ الطَّيرُ منه، أخبِرْنا يا يوسُفُ بتفسيرِ ما رأيْنا في منامِنا، مُحسِنًا إلينا في إخبارِكَ إيّانا بذلك، كما نراكَ تُحسِنُ في سائِرِ أفعالِكَ[7].

وترشدُ الآيةُ الكريمةُ إلى أنَّ دخولَ السِّجنِ ليس دائمًا دليلًا على أنّه بيتُ المُجرِمين والمُنحرِفين؛ إذ دخلَهُ صفيُّ للّه تعالى يوسفُ عليه السلام،

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حسن).
(2) الخليل، العين: (حسن).
(3) الرّاغب، المفردات: (حسن).
(4) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (حسن).
(5) رواه البخاريّ في صحيحه، الحديث رقم: (50)، ومسلم في صحيحه، الحديث رقم: (9).
(6) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 397.
(7) ابن جرير، جامع البيان: 16/94 - 100، ونخبة من أساتذة التّفسير، التّفسير الميسّر، ص: 239.

وإلى أنَّ السَّجينَ كثيرُ الخوف منَ المُستقبل مُحتاجٌ إلى الطّمأنينة، وقد اعتاد البشرُ من قديمٍ على الاستعانةِ بالأحلام للكشف بها عن المجهول، وإذا لم يستطعِ الحالمُ تأويلَ حُلمِه لجأ إلى من يحسِنُه ويشتهرُ بذلك، وإلى أنَّ تعبيرَ الرّؤى تابعٌ لصفاء الرّوحِ وقوّةِ الفِراسةِ، وهي في يوسفَ علمٌ لدنيٌّ خاصٌّ[1].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

معنى الواو في: ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجۡنَ﴾:

حَذفُ ما دَلَّ السِّياقُ عليه لونٌ منَ الاقتِصاد في اللَّفظِ

الواو في قولِ الله ﷻ: ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجۡنَ فَتَيَانِۖ﴾ عاطِفةٌ هذه الجملةَ على كلامٍ محذوفٍ يُفهَمُ مِن سياقِ القصَّةِ، والتَّقديرُ: بعدَ أن بَدا للعزيزِ وأهلِ مشورَتِه سَجنُ يوسُفَ عليه السلام؛ نَفَّذا ما بدا لهُم فسجَنوهُ، ودخلَ معهُ السِّجنَ فتيانِ مِن خَدَمِ المَلِكِ أو مِن عبيدِه[2]، ودلّ على هذا الحذفِ قولُه تعالى: ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجۡنَ فَتَيَانِۖ﴾.

نكتةُ التَّعبيرِ بـ(الدّخول):

حسنُ الأدبِ في مَقامِ الكلامِ عَن يوسفَ عليه السلام

عُبِّرَ بالدُّخول دونَ الإدخالِ في قولِ الله ﷻ: ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجۡنَ فَتَيَانِۖ﴾، فلَم يَرِدِ النَّظمُ القرآنيُّ: (وأُدخِلَ مَعَهُ السِّجنَ فَتَيانِ)؛ وذلكَ لمكانِ التَّعبير بالمعيَّةِ ﴿مَعَهُ﴾؛ فإنَّه يُفيدُ اتِّصافَ يوسُفَ عليه السلام بما يُنسَبُ إليهما، والمناسِبُ في حقِّهِ عليه السلام الدُّخولُ لا الإدخالُ؛ لقولِهِ قَبلُ: ﴿رَبِّ ٱلسِّجۡنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِۖ﴾، إذِ الإدخالُ مُشعِرٌ بسَلبِ الاختيارِ، فعُبِّرَ بالدُّخولِ مراعاةً لجانبِ يوسُفَ عليه السلام؛ والمعنى: دَخَل يوسُفُ عليه السلام السِّجنَ، ودخل معَهُ فتيانِ[3]. وفيه إشارةٌ إلى أنّ هذا الدّخولَ بغيرِ جريمةٍ ارتكبَها يوسفَ عليه السلام، بل باختيارِهِ الحبسَ على طلب المُواقَعةِ، عندما قال:

(1) مجمع البحوث الإسلاميّة، التّفسير الوسيط: 4/321، والجزائريّ، أيسر التّفاسير: 2/612.
(2) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 7/359.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 6/429.

﴿رَبِّ ٱلسِّجۡنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِۖ﴾، ولو عَبَّرَ بـ (أُدخل) لفاتَ هذا المعنى.

بلاغةُ إيجاز الحذفِ:

الاستِغناءُ بذِكرِ المَعِيَّةِ عَنِ التَّصريحِ بالدُّخولِ

في قولِ اللّه ﷻ: ﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا رَأَوُاْ ٱلۡأٓيَٰتِ لَيَسۡجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٖ ٣٥ وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجۡنَ فَتَيَانِۖ﴾ إيجازٌ بالحذفِ، والتَّقديرُ: فنفَّذوا ما بدا لَهُم، فَسَجَنوهُ، فدخلَ السِّجنَ ودخلَ مَعَهُ فتَيانِ، فاستَغنى عَنِ التَّصريح بدُخولِ يوسُفَ عليه السلام السِّجنَ بدلالَةِ قولِهِ: ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجۡنَ فَتَيَانِۖ﴾[1]، فُطوِيَ مِنَ الكلامِ ما دلَّت القرائِنُ عليهِ اقتصادًا في اللَّفظِ.

دلالةُ الظَّرفِ (مَعَ):

التَّشويشُ على ما حَدَثَ مِن فضيحةِ امرأة العزيز، بنشر خَبَرِ المُؤامَرَة عليه

عَبَّرَ القرآنُ الكريمُ بلفظ ﴿مَعَهُ﴾ في قولِ اللّه سُبحانَهُ: ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجۡنَ فَتَيَانِۖ﴾؛ لأنّها تدلُّ على المصاحبَةِ واستحداثِها والمقارنَةِ لِفعلِ الفاعِلِ في ابتداءِ تلبُّسِهِ بالفعلِ، فهي دالَّةٌ على دخولِ الثَّلاثةِ السِّجنَ في وقتٍ واحدٍ[2]، وقد ذُكِرَ أنَّ سببَ "دُخولِهما هُو رَغبَةُ بِطَانة عَزيزِ مِصرَ في التَّشويشِ على ما حدَثَ مِن فَضيحةٍ كُبرى؛ هي فَضيحةُ مُراوَدَةِ امرأةِ العزيزِ ليوسُفَ، ورَفضِ يوسُفَ لذلكَ، وكانَ التَّشويشُ هو إذاعَةُ خَبَرِ مُؤامرةٍ على العزيزِ، وأنَّ السّاقيَ والخبّازَ قد تَمَّ ضَبطُهُما بمُحاولةِ وَضعِ السُّمِّ لِلعزيزِ"[3].

سرُّ تقديمِ الظَّرفِ ﴿مَعَهُ﴾:

الاهتِمامُ بالمَعِيَّةِ أشدُّ مِنَ الاهتمامِ بالسِّجنِ

قُدِّمَ الظَّرفُ ﴿مَعَهُ﴾ على ﴿ٱلسِّجۡنَ﴾ في قولِ اللّه ﷻ: ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجۡنَ فَتَيَانِۖ﴾؛ لأنَّ الاهتمامَ بشأنِ المعيَّةِ في هذا المَقامِ أشدُّ مِنَ

(1) ابن جرير، جامع البيان: 16/94، والرّازيّ، مفاتيح الغيب: 18/453، والقِنَّوجيّ، فتح البيان: 6/333.
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/243، وأبو حيّان، البحر المحيط: 6/275، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 10/80، والآلوسيّ، روح المعاني: 6/429.
(3) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 11/6948.

الاهتمام بأمرِ السِّجنِ[1]، لكونِ المعيَّةِ تمهيدًا لذكرِ مبادئِ العِزَّةِ والكرامَةِ ليوسُفَ عليه السلام، ولأنّ تقديمَه يُوهمُ أن يكونَ خبرًا مُقدَّمًا على المبتدأ، وتكونُ الجملةُ حالاً.

معنى اللّامِ في: ﴿ٱلسِّجۡنَ﴾:

اللّامُ في ﴿ٱلسِّجۡنَ﴾ مِن قولِ اللّه عزّ وجلّ: ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجۡنَ فَتَيَانِۖ﴾ للعَهدِ الذِّكريِّ الصَّريحِيِّ؛ لتقدُّمِ ذِكرِه في قولِ اللّه سُبحانَهُ: ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجۡنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِۖ﴾، والمرادُ: دخَلَ مَعَهُ مكانَ السِّجنِ الّذي دخلَهُ يوسُفُ عليه السلام فتيانِ.

بيانُ صحبة الفَتَيَينِ ليوسُفَ عليه السلام في السِّجن

نكتةُ تأخيرِ الفاعِلِ عَنِ المفعولِ:

أُخِّرَ الفاعلُ ﴿فَتَيَانِۖ﴾ عَنِ المفعولِ ﴿ٱلسِّجۡنَ﴾ في قولِ اللّه عزّ وجلّ: ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجۡنَ فَتَيَانِۖ﴾؛ لإرادةِ الاهتمامِ بالمُقدَّم، والتَّشويقِ إلى المُؤخَّرِ؛ لِيتمكَّنَ في النُّفوسِ حينَ وُرودِهِ عليها فَضلَ تَمَكُّنٍ[2].

الاهتِمامُ بالمُقدَّمِ والتَّشويقُ إلى المُؤَخَّرِ مِن مَقاصِدِ البيانِ القرآنيِّ

سرُّ التّعبير بـ ﴿فَتَيَانِۖ﴾:

آثرَ التّعبيرُ القرآنيُّ وصفَ الفتوّة في قولِه: ﴿فَتَيَانِۖ﴾ دون القولِ: (غلامان)، وإنْ كان بينهما اشتراكٌ في المعنى؛ إلا أنَّ لفظَ الغلام يُطلَقُ على الشّباب حين بلوغِ سنِّ النّكاح، واستُعملَ بمعنى الشّابِ الّذي بلغَ سنَّ الشّهوةِ أو كادَ يبلغُها، كما في قوله: ﴿قَالَ يَٰبُشۡرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٞۚ﴾ [يوسف: 19]، ويُطلَقُ أيضًا على حقيقة الولدِ ما بين حولَين إلى البلوغ؛ بخلاف الفتى فإنّه استُعملَ بمعنيَين في القرآن؛ الأوّلُ: الشّابُ اليافعُ، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمۡ فِتۡيَةٌ ءَامَنُواْ بِرَبِّهِمۡ﴾ [الكهف: 13]، والمعنى الثّاني: العبدُ والخادمُ كما في قوله تعالى: ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجۡنَ فَتَيَانِۖ﴾، وهذا هو المُناسِبُ لهذا السّياق؛ لأنّه لا يكونُ خادمًا لسيّدِهِ حتّى يبلغَ سنَّ الشّباب، حتّى يستطيعَ خدمةَ مولاهُ[3].

الفتيانُ رمزٌ للقوّة والطّموح، وتأكيدٌ أنّ القدرَ يجري بما نحبُّ وما لا نحبُّ

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 6/429.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/275.
(3) محمّد داود، معجم الفروق الدّلاليّة، ص: 308.

علّةُ الفصلِ في ﴿قَالَ أَحَدُهُمَآ﴾:

تحضير ذهن المتلقّي لمشهد المحاورة

فُصِلَ قولُ اللّه سُبحانَهُ: ﴿قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعۡصِرُ خَمۡرٗاۖ﴾ عمّا قبلَهُ؛ لوقوعِهِ استئنافًا بيانيًّا، فبَينَ هذهِ الجملةِ وما قبلَهَا شِبهُ كمالِ الاتِّصالِ؛ وذلك لأنَّ قولَ اللّه ﷻ: ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجۡنَ فَتَيَانِۖ﴾ يَبعَثُ في نفسِ المُتَلَقِّي سؤالًا؛ وهُوَ: ما صَنَعا بعدَ ما دخَلا معهُ السِّجنُ؟ وأيُّ شيءٍ اتَّفقَ لهما بعدَ دخولِهما؟ فجاء الجوابُ في قولِ اللّه ﷻ: ﴿قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعۡصِرُ خَمۡرٗاۖ﴾[1]. وممّا يُذكَرُ في علّةِ الفصلِ أنّ السّياقَ الّذي وردَت فيه سياقُ المحاورة، والمحاوراتُ شأنُها عدمُ العطف.

دلالةُ التَّأكيدِ بـ (إنَّ):

دَفعُ تَوَهُّمِ المِزاح في السّياق دليلٌ على الجدّيَّةِ

أُكِّدَ قولُ اللّه ﷻ: ﴿قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعۡصِرُ خَمۡرٗاۖ﴾ بـ (إنَّ)، وكذا في قولِهِ سُبحانَهُ: ﴿وَقَالَ ٱلۡأٓخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحۡمِلُ فَوۡقَ رَأۡسِي خُبۡزٗا﴾؛ إمَّا لأنَّه قد كانَت عادَتُهُما المِزاحَ، فأرادَا أن يَدفَعَا توهُّمَ أن تكونَ هذه الرُّؤيا مِن هذا البابِ، فأكَّدَ الإخبارَ بها، وإمَّا لأنَّهُما لَم يرَيا شيئًا، وإنَّما اختَرَعا هذه الرُّؤى اختبارًا ليوسُفَ عليه السلام[2].

سرُّ التَّعبيرِ بالفعلِ المُضارعِ ﴿أَرَىٰنِيٓ﴾:

استِحضارُ صورةِ الرُّؤيا من فصيحِ البيانِ

عُبِّرَ عنِ الرُّؤيا بالفعلِ المضارعِ ﴿أَرَىٰنِيٓ﴾ في قول اللّه سُبحانَهُ: ﴿قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعۡصِرُ خَمۡرٗاۖ﴾، وكان مُقتضَى الظّاهِرِ أنْ يَرِدَ النَّظمُ القرآنيُّ: (قال أحدُهما إنّي رَأَيتُني أعصِرُ خمرًا)، ولكنْ عُدِلَ عنِ الماضي إلى المضارعِ لحكايةِ الحالِ الماضيةِ في المنامِ، واستحضارِ صورَتِها كأنَّها حاصَلةٌ في الحالِ[3].

بلاغةُ المَجازِ في ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعۡصِرُ خَمۡرٗاۖ﴾:

التَّعبيرُ بعَصرِ الخَمرِ فيه مَجازٌ بليغٌ، وإيجازٌ فصيحٌ

في قولِ اللّه ﷻ: ﴿قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعۡصِرُ خَمۡرٗاۖ﴾ مجازٌ؛

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/275.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/81.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/81، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/275.

وذلك لأنَّ الخَمرَ لا يُعصَرُ، وإنَّما يُعصَرُ العِنَبُ الّذي يؤولُ إلى خَمرٍ، ففي الآيةِ مجازٌ مُرسَلٌ باعتبار ما يكونُ، والعربُ تُسمِّي الشَّيءَ باسم ما يؤولُ إليه إذا اتَّضحَ المعنى، ولم يكُنْ ثمَّةَ لبْسٌ، فَيقولونَ: فلانٌ يَطبُخُ دِبسًا، وهو إنَّما يَطبُخُ عَصيرًا[1].

سرُّ التّعبير بـ ﴿أَعْصِرُ خَمْرًا﴾:

التَّعبير بـ ﴿أَعْصِرُ خَمْرًا﴾ دون التعبير بسواه - نحو: (أَعْصِرُ عِنَبًا) - إثباتٌ لآخرِ الأمرِ صراحَةً، وإثباتُ أوَّلِه ضِمنًا، ففيهِ تعبيرٌ عَن معنًى كثيرٍ بلفظٍ قليلٍ، فالآيةُ مِن قبيلِ المجازِ والإيجازِ.

التّعبيرُ عَنِ المعنى الكثيرِ بلفظٍ قليلٍ

سرُّ تأخيرِ المفعولِ عَنِ الظَّرفِ:

أُخِّرَ المَفعولُ ﴿خُبْزًا﴾ عَنِ الظَّرف ﴿فَوْقَ رَأْسِي﴾ مِن قول اللّه ﷻ: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحۡمِلُ فَوۡقَ رَأۡسِي خُبۡزٗا﴾؛ لإرادَةِ الاهتمام بالمقدَّم، إذ كونُ الحَملِ حاصلًا فوقَ رأسِهِ أهَمُّ مِن كونِ المحمولِ خُبزًا[2].

الاهتمامُ والعنايةُ بمكان الحملِ عنِ المحمول

علَّةُ الفَصلِ في ﴿تَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِنۡهُۖ﴾:

فُصِلَ قولُ اللّه ﷻ: ﴿تَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِنۡهُۖ﴾ عمّا قبلَهُ؛ لكونِ الجملةِ في محلِّ نصبِ صفةٍ لـ ﴿خُبْزًا﴾، وشأنُ الصِّفةِ أنْ لا تُفصَلَ عن موصوفِها بواوٍ، ويجوزُ أن تكونَ الجملةُ مُستأنَفَةً استئنافًا بيانيًّا، فيكون بينَ هذه الجملةِ وبينَ جُملةِ ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحۡمِلُ فَوۡقَ رَأۡسِي خُبۡزٗا﴾ شِبهُ كمالِ الاتِّصالِ؛ لكونِ الجملةِ المُتقدِّمةِ تبعثُ في نفسِ السّامِعِ سؤالًا؛ وهُوَ: ما الّذي قارَنَ حَملَهُ الخُبزَ فوقَ رأسِهِ؟ فجاء الجوابُ: ﴿تَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِنۡهُۖ﴾[3].

شبه كمال الاتّصالِ في المعنى، ودلالته في السّياق

معنى (ال) في: ﴿ٱلطَّيۡرُ﴾:

اللّامُ في ﴿ٱلطَّيۡرُ﴾ مِن قولِ اللّه ﷻ: ﴿تَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِنۡهُۖ﴾ للعَهدِ

العهدُ الذِّهنيُّ كالنَّكرة، فالآكلُ مِنَ الخبزِ طَيرٌ مِنَ الطُّيورِ

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 18/454، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 10/81.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/275.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/275.

الذِّهنيِّ - بمعناهُ عندَ البلاغيّين لا النَّحويّينَ - ، فيكونُ في المعنى كالنَّكرةِ؛ والمعنى: أحملُ فوقَ رأسي خُبزًا تأكُلُ طَيرٌ مِنَ الطُّيورِ منه؛ إذ لا عَهدَ ذِكريّ تقدَّمَ، ولا عَهدٌ عِلميٌّ بينَهُ وبينَ المُخاطَبِ، ولا يُرادُ باللّام العُمومُ؛ إذْ لا يُتصوَّرُ أن يأكُلَ كُلُّ طيرٍ خلقَهُ اللّه تعالى مِن خُبزٍ فوقَ رأسِ إنسانٍ، ولا يُرادُ باللّام الحقيقةُ مِن حيث هِيَ بِقَطعِ النَّظَرِ عنِ الأفرادِ؛ لأنَّ الحقيقةَ لا يصدُرُ مِنها أكلٌ كما لا يَخفى، فتعيَّنَ أن يكونَ المرادُ بها لامَ العَهدِ الذِّهنيِّ.

علَّةُ الفصلِ في ﴿نَبِّئۡنَا بِتَأۡوِيلِهِۦٓۖ﴾:

أثرُ الاستئنافِ البيانيِّ في إبرازِ مُتابَعَةِ المُتَلَقِّي

فُصِلَ قولُ اللّه ﷻ: ﴿نَبِّئۡنَا بِتَأۡوِيلِهِۦٓۖ﴾ عمّا قبلَهُ؛ لوقوعِهِ استئنافًا بيانيًّا، فبَينَ هذهِ الجُملَةِ وما قبلَها شِبهُ كمالِ الاتِّصالِ؛ وذلك لأنَّ حكايةَ الرَّجُلَينِ لِما رأياهُ في المنامِ يُورِثُ سؤالًا؛ وهو: ماذا تُريدانِ مِنَ الإخبارِ بهذا؟ فجاء الجوابُ: ﴿نَبِّئۡنَا بِتَأۡوِيلِهِۦٓۖ﴾؛ أي: أخبِرْنا بتفسيرِ هذه الرُّؤى[1].

سرُّ التَّعبيرِ بالإنباءِ:

عَظَمَةُ مَنزِلَةِ عِلمِ التَّعبيرِ وجلالةُ قَدرِهِ

عُبِّرَ بالإنباءِ دونَ الإخبارِ في قولِ اللّه ﷻ: ﴿نَبِّئۡنَا بِتَأۡوِيلِهِۦٓۖ﴾؛ للإيماءِ إلى عَظَمَةِ مَنزلَةِ التَّعبيرِ، وأنَّ الإخبارَ بتفسيرِ الرُّؤى عظيمٌ جليلٌ؛ أو أنَّ وقوفَهُما على تفسيرِ ما رأياهُ عظيمٌ قَدرُهُ عندَهُما، وهذا يُقوِّي قولَ مَن ذهبَ إلى أنَّهما رأيا ذلك حقًّا، ولم يَختَلِقاهُ.

نكتةُ العدولِ عنِ التَّثنيةِ إلى المُفردِ:

قد يَجري ضَميرُ المُفردِ مجرى اسمِ الإشارةِ فيعودُ على مُتَعَدِّدٍ

قولُ اللّه تعالى: ﴿نَبِّئۡنَا بِتَأۡوِيلِهِۦٓۖ﴾، وفيه أنّ الضَّميرَ في ﴿بِتَأۡوِيلِهِۦٓۖ﴾ مِن قولِ اللّه ﷻ: ﴿نَبِّئۡنَا بِتَأۡوِيلِهِۦٓۖ﴾ يَرجِعُ إلى ما تقدَّمَ مِنَ الرُّؤيَتينِ، وكان مُقتَضى الظَّاهِرِ أنْ يَرِدَ النَّظمُ القرآنيُّ: (نبِّئنا بتأويلِهما)، ولَكِنْ عُدِلَ عن ذلك بإجراءِ الضَّميرِ مَجرَى اسمِ الإشارةِ (ذَلِكَ) على جهةِ الاستعارةِ؛ وذلك لأنَّ اسمَ الإشارَةِ قَد يُشارُ بِهِ إلى

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/81.

مُتعدِّدٍ[1]. ويُقالُ: وإنّما وحَّدَ الضّميرَ؛ لأنَّ كلَّ واحدٍ منهما سألَ عن رؤيتِهِ؛ فكأنّ كلَّ واحدٍ منهما قالَ: نَبِّئْنا بتأويلِ ما رأيتُ[2].

علَّةُ الفَصلِ في: ﴿إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾:

شبهُ كمالِ الاتّصالِ في المعنى، ودلالتُهُ في الجملة

فُصِلَ قولُ اللّه ﷻ: ﴿إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ عمّا قبلَهُ؛ لكونِهِ استئنافًا بيانيًّا؛ إذْ بينَ هذه الجملةِ وما قبلَهَا شِبهُ كمالِ الاتِّصالِ؛ وذلك لأنَّ حكايةَ الرَّجُلَينِ لما رأَياهُ، وطلبهما مِن يوسُفَ عليه السلام تعبيرَ ذلك في قولِهِم: ﴿نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ﴾ يُورِثُ سؤالًا، وهوُ: وما يُدريكُما أنّني أعرِفُ تأويلَ الرُّؤى؟ فجاء الجوابُ: ﴿إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾، فكانت هذهِ الجملةُ تعليلًا لِعَرضِ رُؤياهُما عليهِ واستِفسارِهِما منهُ[3].

نكتةُ التَّعبيرِ بـ ﴿نَرَىٰكَ﴾:

ظُهورُ إحسانِ يوسُفَ عليه السلام، ودلالتُهُ في القصّة

جاءَ التَّعبيرُ بفعل الرُّؤيَة ﴿نَرَىٰكَ﴾ مِن قولِ اللّه سُبحانَهُ: ﴿إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾؛ ليكونَ بمنزلَةِ قَرنِ الحُكمِ بدليلِهِ، فلمْ يَرِدِ النَّظمُ القرآنيُّ: (إنَّك مِنَ المُحسنِين)؛ والمعنى مِن ﴿إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾؛ إنَّك مِنَ المُحسنينَ، ونحنُ نَعلَمُ ذلك عِلمًا جازمًا كالرُّؤيةِ، ونرى أدلَّتَهُ وشواهِدَهُ[4].

دلالةُ التّعبير بصيغة التّكلُّمِ في: ﴿إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾:

الصّيغةُ واقِعةٌ في الحكاية دونَ المَحكيِّ

جاء التّعبيرُ بصيغة التّكلُّمِ في قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾؛ لأنّها واقعةٌ في الحكاية دونَ المَحكيِّ بناءً على الظّاهر، أو لأنّ المُخاطَبَ ينكرُ كونَ المُتكلِّم عالِمًا بالحكمِ أو يتردَّدُ، فجُعِلَ كالمُنكِرِ[5].

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/275، والآلوسيّ، روح المعاني: 6/430.
(2) السّمين، الدّرّ المصون: 6/496.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/81، والآلوسيّ، روح المعاني: 6/430.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/81.
(5) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاويّ: 10/322.

سرُّ اختيار التّعبيرِ بالإحسان:

اختار التّعبيرُ القرآنيُّ وصفَ الإحسان دونَ غيرِه؛ لأنّه لفظٌ جامعٌ لِما جرى من يُوسفَ عليه السلام في السّجن؛ فيشملُ الإحسانَ الاجتماعيَّ من حيث معاملتُهُ الحسنةُ لأهل السّجن؛ فإذا مَرضَ إنسانٌ في السّجن قامَ عليه، وإذا احتاجَ جَمعَ له، وإذا ضاقَ عليه المكانُ أوسعَ له، ونحو ذلك منَ الأمور الأخلاقيّةِ الّتي يظهرُ فيها إحسانُهُ الخُلُقيُّ، ويشملُ أيضًا الإحسانَ التَّعبُّديَّ المُتَضَمِّنَ توثيقَ صِلتِهم باللّه تعالى، والإحسانَ العلميَّ في تفسير الرّؤيا، وعلى ذلك فالتّعبيرُ بالإحسان لفظٌ عامٌّ يشمَلُ كلَّ أنواع الإحسانِ[1].

التّعبيرُ بالإحسان لفظٌ عامٌّ، يشمَلُ كلَّ أنواعِ الإحسان المتُصوَّرةِ

غرضُ التَّعبيرِ بالجمع في ﴿مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾:

جاء التَّعبيرُ عَن إحسانِ يوسُفَ عليه السلام بـ ﴿إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ بالجمع، دونَ أن يُقالَ: (إنَّا نَراكَ مُحْسِنًا) على جهة الإفرادِ؛ لكونِ الأوَّلِ أبلغَ في وصفِهِ بالإحسانِ؛ لأنَّهُ يُفيدُ عراقَتَهُ في اتِّصافِهِ بهِ ما لا يُفيدُهُ (إنّا نراكَ مُحسنًا)، ولذا فرَّقَ العُلماءُ بينَ قولِ القائلِ: زيدٌ مِنَ العُلماء، وقولِه: زيدٌ عالمٌ، فالأوَّلُ أبلغُ؛ لاقتضائِهِ أنَّه غارقٌ في العلم أبًا عَن جدٍّ، وأنَّكَ تشهَدُ لهُ بكونِهِ معدودًا في زُمرَتِهِم، ومعروفًا إسهامُهُ لَهم في العِلم[2]. وفي هذا دليلٌ على أنّهم ما وصفوه بالإحسان إلّا لغلبةِ ظهورِ هذه الصّفةِ على يُوسفَ عليه السلام في جميع معاملاتِهِ.

عَراقَةُ يوسُفَ عليه السلام في الاتِّصافِ بالإحسانِ

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

التَّأويلُ والتَّفسيرُ:

التَّأويلُ في اللُّغة: عاقبةُ الشَّيءِ وما يؤولُ إليهِ، وأمَّا التَّفسير فهو بيانُ الشَّيءِ وإيضاحُهُ، مأخوذٌ مِنَ الفَسرِ، وهو رفعُ الغِطاءِ عَنِ الشَّيءِ. وقد وردَ التَّأويلُ في مَواضِعَ مِنَ القرآن الكريمِ، منها قولُ

يتميَّزُ لفظُ التَّأويلِ ببيانِ ما غَمُضَ معناهُ واشتَبَهَت مقاصِدُهُ

(1) مجمع البحوث الإسلاميّة، التّفسير الوسيط: 4/321.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/81.

اللّه ﷻ: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجۡتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِ﴾ [يوسف: 6]، وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ﴾ [آل عمران: 7]، بخلاف التَّفسيرِ؛ فإنَّه لم يَرِدْ في القرآنِ إلّا في مَوضِعٍ واحدٍ في قولِ اللّه سُبحانَهُ: ﴿وَلَا يَأۡتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ وَأَحۡسَنَ تَفۡسِيرًا ٣٣﴾ [الفرقان: 33]. والتَّفسيرُ والتَّأويلُ بينَهُما تقارُبٌ في الدّلالةِ؛ لاشتراكِهما في معنى البيانِ والإيضاحِ، إلَّا أنَّ التَّأويلَ يمتازُ ببيانِ ما غَمُضَ معناهُ، واشتبهَت مقاصِدُهُ، ويفتَقِرُ إلى تأمُّلٍ وتبَصُّرٍ[1]؛ ولذا ناسبَ ورودُهُ في الآية الكريمة لِتضمُّنِ الرّؤيتين رموزًا فيها غموضٌ، تحتاجُ إلى إيضاحٍ وفكٍّ.

(1) محمّد داود، معجم الفروق الدّلاليّة، ص: 94 - 95.

﴿قَالَ لَا يَأۡتِيكُمَا طَعَامٞ تُرۡزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأۡتُكُمَا بِتَأۡوِيلِهِۦ قَبۡلَ أَن يَأۡتِيَكُمَاۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓۚ إِنِّي تَرَكۡتُ مِلَّةَ قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ٣٧﴾ [يوسف: 37]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

اجتهادُ يوسُفَ عليه السلام في هِدايةِ الخَلقِ إلى الإسلامِ، باغتنام فرصةِ تعبير المَنام

لَمَّا ذَكَرَ اللّه سُبحانَه سؤالَ الفَتَيَينِ يوسُفَ عليه السلام عن تعبيرِ ما رَأياهُ، وكانَ في التَّعبيرِ بيانُ أنَّ أحَدَهُما سيُصلَبُ، ذكرَ اللّه تعالى أنَّ يوسُفَ عليه السلام قدَّمَ بينَ يَدَي جوابِهِ بهذه المقدِّمةِ - ﴿قَالَ لَا يَأۡتِيكُمَا طَعَامٞ تُرۡزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأۡتُكُمَا بِتَأۡوِيلِهِۦ قَبۡلَ أَن يَأۡتِيَكُمَاۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓۚ إِنِّي تَرَكۡتُ مِلَّةَ قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ﴾ - اجتهادًا منه عليه السلام في أن يُدخِلَ الرَّجُلَ الإسلامَ لِئلَّا يَموتَ على الكُفرِ[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تُرۡزَقَانِهِۦٓ﴾: الرّاءُ والزّايُ والقافُ تدُلُّ على العطاءِ[2]، فالرِّزقُ: العطاءُ، أو هو ما يُنتَفَعُ به[3]. والرِّزقُ عِندَ أهلِ السُّنّةِ يَشمَلُ الحلالَ والحرامَ، فالجميع يُسمَّى رزقًا؛ باعتبار حُصول النَّفعِ به، بصرف النَّظرِ عنِ التَّبعَةِ في الآخرةِ[4]. ومعنى قولِ اللّه سُبحانَهُ: ﴿قَالَ لَا يَأۡتِيكُمَا طَعَامٞ تُرۡزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأۡتُكُمَا بِتَأۡوِيلِهِۦ﴾؛ أي: لا يأتيكما طعامٌ تُعطَونَهُ في حالٍ منَ الأحوالِ إلَّا نبَّأتُكما بتأويلِهِ[5].

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 18/455.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (رزق).
(3) الجوهريّ، الصّحاح: (رزق).
(4) الأشعريّ، الإبانة عن أصول الدِّيانة، ص: 32، والقحطانيّ، شرح أسماء الله الحسنى في ضوء الكتاب والسّنّة، ص: 157.
(5) ابن جرير، جامع البيان: 16/100.

2) ﴿مِلَّةَ﴾: الميمُ واللّامُ تدلُّ تَصريفاتُها على تهيُّؤٍ أو تهيئةٍ بالامتدادِ لأجلِ الانتفاعِ والصَّلاحِ، ومنه قولُهم: طريقٌ مَليلٌ، وهو المُمتَدُّ المُهيَّأُ؛ وذلك لكونِه قد سُلِكَ حتَّى صارَ مَعلَمًا[1]. والمِلَّةُ: الطَّريقةُ المَسلوكَةُ[2]، وتُطلَقُ على الدّينِ، وتُجمَعُ على مِلَلٍ، مِثلُ: سِدرَةٍ وسَدَرٍ[3]، وحقيقةُ المِلَّةِ شرعًا أنَّها: اسمٌ جامعٌ لِما شَرَعَهُ اللهُ سُبحانَهُ لعبادِهِ على ألسِنةِ أنبيائِهِ ورسُلِهِ[4]. وأمَّا المِلَّةُ في قولِ اللهِ ﷻ: ﴿إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ فالمُرادُ بها مُطلَقُ الدّينِ الّذي يُتَدَيَّنُ بهِ[5].

3) ﴿قَوْمٍ﴾: القافُ والواوُ والميمُ تدورُ اشتقاقاتُها على أمرَينِ؛ أحدُهما: جماعةُ ناسٍ، والآخرُ: انتصابٌ أو عَزمٌ[6]. والقَومُ عند جمعٍ من علماء العربيَّةِ: اسمٌ يشمَلُ الرِّجالَ والنِّساءَ[7]. وخصَّهُ آخرونَ بالرِّجالِ؛ إذ لفظُ (القَوم) في الأصل: مَصدَرٌ وُصِفَ به، ثُمَّ غُلِبَ على الرِّجالِ دونَ النِّساء؛ لكونِهم قوّامينَ عليهنَّ بالأمورِ الّتي ليسَ لهنَّ أن يقُمْنَ بها[8]، ويُؤيِّدُ هذا أنَّ لفظَ (القَوم) يُقابَلُ بلفظِ (النِّساءِ)، كما في قولِ اللهِ ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّۖ﴾ [الحجرات: 11]، وفي قولِ زُهيرٍ:

وما أَدري، وسَوفَ إخالُ أَدري *** أقَومٌ آلُ حِصنٍ أم نِسَاءُ؟![9]

وإذا ذُكِرَ القومُ على جهةِ الانفرادِ دخلَ النِّساءُ فيهِ ليس بمقتضى الوَضعِ، وإنَّما على سبيلِ التَّبَعِ؛ كما في قولِ اللهِ سُبحانَهُ: ﴿إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾.

4) ﴿بِٱلْآخِرَةِ﴾: الهمزةُ والخاءُ والرّاءُ تدلُّ تصريفاتُها على ضِدِّ التَّقدُّمِ[10]، يُقالُ: هذا الآخِرُ وهذهِ الآخِرَةُ، وهما ضِدُّ: المُتقدِّمِ والمُتقدِّمَةِ، ويُطلَقُ الآخِرُ على الأبعدِ والغائبِ أيضًا[11].

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (ملل - ململ).
(2) الزّمخشريّ، أساس البلاغة: (ملل).
(3) الفيّوميّ، المصباح المنير: (ملل).
(4) الرّاغب، المفردات: (ملل).
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/272.
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (قوم).
(7) ابن دُريد، جمهرة اللّغة: (قوم).
(8) ابن الأثير، النّهاية: (قوم).
(9) ديوان زهير بن أبي سُلمى، ص: 17.
(10) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (أخر).
(11) الخليل، العين: (أخر).

والآخرةُ: نَقيضُ الدُّنيا، وسُمِّيَت الدُّنيا؛ لأنَّها دَنَتْ؛ أي: قرُبَت، وتأخَّرَتِ الآخِرةُ[1]، وسُمِّيت الآخرةُ بذلكَ؛ لِكونِها آخرَ المَنازِلِ، فلا انتِقالَ عنها إلى دارٍ أُخرى[2]، وأمَّا انتِقالُ الخَلقِ إلى الجنَّةِ أو إلى النَّارِ؛ فإنَّ ذلكَ مِن أحوالِ الآخرةِ. ويَدخُلُ في لفظِ الآخرةِ في نحو قولِ اللّه سُبحانَهُ: ﴿وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ﴾ كلُّ ما أخبرَ بهِ اللّه تعالى ورسولُهُ ﷺ ممَّا يكونُ بعدَ الموتِ[3].

المَعْنى الإِجْماليُّ:

بينَّت هذه الآيةُ أنّ يوسُفَ عليه السلام قالَ لَهُما: لا يَأتيكُما أيُّها الفَتَيانِ في مَنامِكُما طَعامٌ تُرزقانِهِ إلَّا أخبرتُكُما بتفسيرِهِ في يَقَظَتِكُما، وهذا الّذي أذكُرُ أنّي أعلَمُه مِن تعبيرِ الرُّؤى هو ممّا عَلَّمَني ربّي فَعَلِمتُهُ، إنّي بَرِئتُ مِن مِلَّةِ مَن لا يُصَدِّقُ باللّه سُبحانَهُ ولا يُقِرُّ بوحدانِيَّتِهِ، وهُم مع تَركِهِمُ الإيمانَ باللّه تعالى واليومِ الآخِرِ لا يُقِرّونَ بالمَعادِ والبعثِ، ولا بثوابٍ ولا عقابٍ[4]. وترشدُ الآيَةُ الكريمةُ إلى أنَّ مِن فِطنةِ يُوسُفَ عليه السلام أنّه لمَّا رأى فيهما قابليةً لدعوتِهِ - حيث ظنَّا فيه الظّنَّ الحسنَ، وقالا له: إنّا نراك منَ المُحسِنين، وأتياهُ لأنْ يُعبِّرَ لهما رؤياهُما، فرآهُما مُتشوِّقَيْن لتعبيرِها عندَه - رأى ذلك فرصةً؛ فانتهزَها، فدعاهما إلى اللّه تعالى قبلَ أن يُعبّرَ رُؤياهُما، وترشدُ إلى معجزةٍ ليوسفَ عليه السلام كمعجزةِ عيسى عليه السلام، حيثُ قال: ﴿وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأۡكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمۡۚ﴾ [آل عمران: 49]؛ وذلك من أجل أن يعلمَ الفَتَيانِ صدقَه، فيمتثلا دعاءَه لهما إلى التّوحيد[5].

مِنَّةُ الله ﷻ على يوسُفَ عليه السلام، بوحي الرّسالةِ، وهِداية العبادِ

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (أخر).
(2) الشِّنقيطيّ، أضواء البيان: 2/370.
(3) ابن تيميّة، مجموع الفتاوى: 3/145.
(4) ابن جرير، جامع البيان: 16/100 - 101، ونخبة من أساتذة التّفسير، التّفسير الميسّر، ص: 239.
(5) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 410، ومخلوف، صفوة البيان، ص: 108.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

عِلَّةُ الفصلِ في مطلع الآية:

الفصلُ في المَحاوراتِ حكمةٌ منَ الله الحكيمِ العليمِ

فُصِلَ قولُ الله سُبحانَهُ: ﴿قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ﴾ عمّا قبلَهُ؛ لكونِهِ جوابًا عن كلامِهما، فَفُصِّلَت هذهِ الجملةُ على طريقةِ حِكايةِ جُمَلِ التَّحاوُرِ[1].

براعةُ الإدماجِ في خطاب يوسفَ:

اغتنامُ يوسُفَ عليه السلام الفُرصةَ للدَّعوةِ إلى الله

في قولِ الله سُبحانَهُ: ﴿قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ﴾ إدماجٌ؛ وذلك لأنَّهُما طَلَبا مِنهُ تعبيرَ الرُّؤيا، فأرادَ بجوابِهِ هذا أن يَنتهِزَ فُرصةَ إقبالِهما عليهِ ومُلازمَةِ كلامِهما مَعَه؛ إذ هُما يَرتقبانِ تأويلَهُ رُؤياهُما، فأدمَجَ في ذلك دَعوتَهما إلى الدّين الصَّحيح، وهو توحيدُ الله سُبحانَهُ مع وَعدِهِ إيَّاهُما بأنَّه يُفسِّرُ لَهُما رُؤياهُما قريبًا[2].

دلالةُ التّعبيرِ بـ ﴿قَالَ﴾:

تأويلُ الرّؤيا علمٌ يخدمُ الدّعوةَ، إذا عُرِّيَ من الادّعاء

دلَّ التّعبيرُ بـ ﴿قَالَ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ﴾ على أنَّ يوسفَ عليه السلام يعرفُ أمرَ تعبير الرّؤيا، وما هو أدقُّ من ذلك؛ لِيقبلا نصحَه فيما هو أهمّ، وهو أمرُ توحيدِ الله وعبادتِهِ.

نكتةُ تقديمِ الهِدايةِ على تقديمِ تأويلِ الرّؤيا:

فطنةُ الدّاعية باقترانِ إعلانِ الدّعوةِ إلى الله، بآيةٍ دالّةٍ على صدقِهِ

النّاظرُ في قولِهِ تعالى: ﴿قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ﴾ يجدُ أنّه تقدَّمَ على تأويل الرّؤيا، وهذا من فطنة الدّاعية لِيقترنَ إعلانُ الدّعوة إلى الله بآيةٍ دالّةٍ على صدق صاحبِها، ولو تمَّ التّأويلُ قبلَ إعلان الدّعوةِ، لَما ارتبطَت أذهانُ السّامعين بدعوتِهِ، بل تنصرفُ أذهانُهُم عن متابعةِ الكلامِ والإصغاءِ إليه. وفيه إشارةٌ إلى أنَّ الدّافعَ في ذلك تقديمُ الأهمِّ على المُهمِّ؛ فأمرُ الدّعوة إلى الله أهمُّ من تأويل الرّؤيا.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/270.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/270.

سرُّ التّعبير بالمضارع ﴿لَا يَأۡتِيكُمَا﴾:

إفادةُ استمرار الحالِ، وأهمّيّتها في جلاء المعنى

جاء التّعبيرُ بالمضارع، وكان الظّاهرُ أن يأتيَ بالماضي، بأن يقولَ لهما: (ما آتاكم)؛ لأنّه كان يُذكّرُهُم بالماضي، ويخبرُ عنه بقرينةِ (إلّا نبَّأتُكُما)، ولكنّه عدلَ عنه إلى المضارع، ليفيدَ الاستمرارَ، وأنّ هذا الحالَ كان مُستمِرًّا في الماضي إلى الآن.

دلالةُ خطابِ المُثنّى:

مِن أوجُهِ العنايةِ بالسّائلِ تخصيصُ الخطابِ بِه

في تَوجيهِ الخطابِ بأسلوب التَّثنيَةِ ﴿يَأۡتِيكُمَا﴾ و﴿نَبَّأۡتُكُمَا﴾ من قولِ اللّه ﷻ: ﴿قَالَ لَا يَأۡتِيكُمَا طَعَامٌ تُرۡزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأۡتُكُمَا بِتَأۡوِيلِهِۦ﴾ إشعارٌ بأنَّ هذا خاصٌّ بالفَتَيَينِ دونَ غيرِهما مِن أهل السِّجنِ[1].

ويجوزُ أن لا يُرادَ به الاختصاصُ، وإنَّما كان الخطابُ بأسلوب التَّثنيَةِ لكونِ الكلامِ واقعًا جوابًا لكلامِهما.

نكتةُ تَخصيصِ الطَّعامِ بالذِّكرِ:

حُسنُ التَّخلُّصِ في الانتقالِ مِن موضوعٍ لآخَرَ

خُصَّ الطَّعامُ بالذِّكرِ في قولِ اللّه ﷻ: ﴿قَالَ لَا يَأۡتِيكُمَا طَعَامٌ تُرۡزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأۡتُكُمَا بِتَأۡوِيلِهِۦ﴾؛ لعَراقتِهِ في ذلك بحسبِ الحالِ، مع ما فيهِ من مُراعاةِ حُسنِ التَّخلُّصِ إليه ممَّا استَعبراهُ مِنَ الرُّؤيَيَنِ، وفي إحداهُما ذِكرٌ للمَشروبِ، وفي الأُخرى ذِكرٌ لِلمأكولِ[2]. ويؤكّدُ هذا أنّ لفظَ الطّعام يُطلَقُ على المطعوم، ويُطلَقُ على المشروب أيضًا، كما في الآية: ﴿فَمَن شَرِبَ مِنۡهُ فَلَيۡسَ مِنِّي وَمَن لَّمۡ يَطۡعَمۡهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّيٓ﴾ [البقرة: 249] والكلام على الماء.

سرُّ التّعبير بالطّعام دونَ الأكل:

الطّعامُ اسمٌ جامعٌ لكلّ ما يُؤكَلُ، ويُطلَقُ على المَشروب

آثرَ التّعبيرَ بالطّعام دون الأكلِ في قولِه تعالى: ﴿لَا يَأۡتِيكُمَا طَعَامٌ﴾؛ لأنّ الطّعامَ اسمٌ جامعٌ لكلِّ ما يُؤكَلُ؛ فيُقالُ: طَعِمَ طعمًا إذا أكلَ أو ذاقَ، ويُؤكِّدُ ذلك قوله تعالى: ﴿فَإِذَا طَعِمۡتُمۡ فَٱنتَشِرُواْ﴾ [الأحزاب:

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/82.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/276.

53]، فهذا يصدقُ على ما يتناولُ ويُطعمُ، ولذلك جعلَه القرآنُ الكريم بابًا واسعًا في الكفّارات تحتَ عنوان (إطعام الطّعام)، بخلاف الأكلِ، فقد لا يكونُ طعامًا إلّا إذا هُيِئَ للأكل.

سرُّ بناءِ الفعلِ ﴿تُرۡزَقَانِهِۦٓ﴾ للمَفعولِ:

الفاعلُ معلومٌ والاختصارُ مطلوبٌ

بُنِيَ الفعلُ ﴿تُرۡزَقَانِهِۦٓ﴾ لِما لَم يُسمَّ فاعِلُهُ في قولِ اللّه سُبحانَهُ: ﴿قَالَ لَا يَأۡتِيكُمَا طَعَامٌ تُرۡزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأۡتُكُمَا بِتَأۡوِيلِهِۦ﴾، ولم يقُلْ: يرزقُكما اللّه، مع أنَّ الرّزقَ مِنَ اللّه تعالى وحدَهُ، إمّا لأنّ الفاعلَ معلومٌ؛ فبنى الفعلَ لِما لم يُسمَّ فاعلُهُ، وذلك من باب الاختصارِ، أو لإرادةِ التَّعميم في الفاعلِ[1]؛ والمعنى: لا يأتيكُما طعامٌ أيًّا كان مُعطيهِ لَكُم، فإنَّ الرَّزقَ بمعنى مُطلَقِ العطاءِ يَصِحُّ إطلاقُهُ على غيرِ اللّه ﷻ، كما قالَ اللّه تعالى: ﴿وَإِذَا حَضَرَ ٱلۡقِسۡمَةَ أُوْلُواْ ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينُ فَٱرۡزُقُوهُم مِّنۡهُ﴾ [النّساء: 8]، أو لأنّ الفتيَين كانا مُشركَيْن لا يريانِ الرّزقَ منَ اللّه تعالى وحدَه؛ فلَم يَرِدْ عليهما أن يصطدمَ مع عقيدتِهما في أوّلِ الأمرِ؛ بل أرادَ التَّدرُّجَ بهما للوصول إلى غرضِهِ في دعوتِهما إلى توحيد اللّه.

دلالةُ وَصفِ الطّعام بـ: ﴿تُرۡزَقَانِهِۦٓ﴾:

طعامُ الفتيَين معلومُ الوقت

جملةُ ﴿تُرۡزَقَانِهِۦٓ﴾ مِن قولِ اللّه سُبحانَهُ: ﴿قَالَ لَا يَأۡتِيكُمَا طَعَامٌ تُرۡزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأۡتُكُمَا بِتَأۡوِيلِهِۦ﴾ في محلِّ رَفعٍ نعتٍ لـ ﴿طَعَامٌ﴾، وفي النَّعتِ بذلكَ: تصريحٌ بأنَّهُ طعامٌ معلومُ الوَقتِ، وليس ترقُّبًا لطعامٍ يُهدَى لهما، بحيثُ لا يَنضَبِطُ حُصولُهُ[2].

نكتةُ التَّعبيرِ بالإنباءِ:

جلالةُ عِلمِ تعبيرِ الرُّؤى وسُمُوُّ مَنزِلَتِهِ

عُبِّرَ بالإنباءِ دونَ الإخبارِ في قولِ اللّه ﷻ: ﴿قَالَ لَا يَأۡتِيكُمَا طَعَامٌ تُرۡزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأۡتُكُمَا بِتَأۡوِيلِهِۦ﴾؛ للإشعارِ بجلالةِ مَنزلَةِ التَّأويلِ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/82.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/270.

المُخبَرِ بِهِ، وأنَّ الإعلامَ بتفسيرِ الرُّؤى عظيمٌ جليلٌ؛ فإنَّ قولَهُ: ﴿نَبَّأْتُكُمَا﴾ معناهُ: (أخبَرتُكُما إخبارًا جليلًا عظيمًا)[1].

دلالةُ الاستثناءِ:

الإنباءُ عن تأويلِ الطَّعامِ، ببيانِ كُنهِهِ وكَيفيَّتِهِ وسائرِ أحوالِهِ

في قولِ اللّه سُبحانَهُ: ﴿قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ﴾ استثناءٌ مُفرَّغٌ مِن أعمِّ الأحوالِ؛ والمعنى: لا يَأتيكُما طعامٌ في حالٍ مِنَ الأحوالِ إلّا نبَّأتُكما بِهِ ببَيانِ كُنهِهِ وكيفيَّتِه وسائرِ أحوالِهِ.

وعُمُومُ الأحوالِ ههنا عمومٌ عُرفيٌّ يناسبُ الغرضَ المَسوقَ إليه الكلامُ، وهو حالُ الإنباءِ بتأويل الرُّؤيا وحالُ عَدَمِهِ، فيكونُ المرادُ: (لا يأتي الطَّعامُ المُعتادُ إلّا في حالِ أنّي قد نَبَّأتكُما بتأويلِ رُؤياكُما)؛ أي: لا في حالِ عَدَمِهِ.[2].

بيانُ مَرجِعِ الضَّميرِ في ﴿بِتَأْوِيلِهِۦ﴾:

قد يَجري ضميرُ المُفرَدِ مَجرَى اسمِ الإشارةِ، فيعودُ على مُتَعَدِّدٍ

الضَّميرُ في ﴿بِتَأْوِيلِهِۦ﴾ مِن قولِ اللّه ﷻ: ﴿قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ﴾ راجعٌ إلى الطّعامِ؛ لكونِهِ أقربَ مذكورٍ، والمعنى: إلَّا نبَّأتُكُما بتأويلِ الطّعامِ، وبما يَؤولُ ويَرجِعُ إليهِ أمرُه[3]، وفي هذا دلالةٌ على إفادة العُمومِ في أمرِ الطّعامِ وما يتعلَّقُ به. وجَوَّزَ بعضُ أهلِ العِلمِ أن يَعودَ الضَّميرُ على ما قصَّاهُ مِنَ الرُّؤيَتَينِ، وهو أمرٌ مُتعَدِّدٌ، وإنَّما أُفرِدَ الضَّميرُ معه؛ لكونِهِ أُجرِيَ مجرى اسمِ الإشارةِ (ذَلِكَ) على سبيلِ الاستعارةِ؛ إذِ اسمُ الإشارةِ قد يُشارُ بِهِ إلى مُتعدِّدٍ، والمعنى على هذا الوجهِ: (لا يَأتيكُما طعامٌ تُرزقانِهِ حَسَبَ عادَتِكُما إلّا أَخبَرتُكُما بتأويلِ ما قَصَصتُما عليَّ قَبلَ أن يأتِيَكُما ذلكَ الطَّعامُ المُوَقَّتُ)[4].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/82.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/271.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/82.
(4) الآلوسيّ، روح المعاني: 6/431.

دلالةُ حذفِ الجارِّ (مِنْ):

البيانُ في جميعِ الوَقتِ

حُذِفَ حَرفُ الجرِّ (مِنْ) في قولِ اللّه ﷻ: ﴿إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا﴾، فلمْ يَرِدِ النَّظمُ القرآنيُّ: (إلّا نبَّأْتُكُما بتأويلِهِ مِنْ قَبل أن يأتِيَكُما)؛ لأنَّ مرادَهُ البَيانُ في جميعِ الوقتِ الّذي بينَه وبينَ الطّعامِ الّذي قبلَهُ[1]، ولو أُدخِلَت (من) لأفادَتِ انحصارَ البيانِ في بعضِ الوقتِ دُونَ بعضٍ.

سرُّ العُدولِ عن التأويلِ إلى الدّعوةِ:

إصلاحُ مُهِمّاتِ الدّينِ أولى مِن إصلاحِ مُهِمّاتِ الدُّنيا

عدلَ يوسفُ عليه السلام عن تعبيرِ الرّؤيا للفتيَين إلى دعوتِهم للهداية من خلال قولِه: ﴿قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓ إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ﴾، وهو لَيسَ جوابًا عمَّا سألَهُ الفَتيانِ؛ لأنَّهما إنَّما سَألا عَن تعبيرِ الرُّؤيا، و لكنّ يوسُفَ عليه السلام عدلَ عَنِ التَّعبيرِ ابتداءً إلى ذِكرِ هذا الكلامِ لأوجُهٍ[2]:

أَحَدُها: أنَّه لمّا كان تعبيرُ إحدى الرُّؤيَتَينِ أنَّ صاحِبَها يُصلَبُ، ولا رَيبَ أنَّه إنْ سَمِعَ ذلكَ عَظُمَ كَربُهُ واشتَدَّ حُزنُهُ، فرأى يوسُفُ عليه السلام أنَّ صلاحَ أمرِهِ يكونُ بتقديمِ ما يُؤثِّرُ مَعَه بعِلمِهِ وكلامِهِ.

ثانيها: أنَّ الفَتَيَينِ طلبوا إليه التَّعبيرَ، وهو عِلمٌ مبنِيٌّ في الغالب على الظَّنِّ، فأرادَ أن يُبَيِّنَ بهذا الكلام درجَتَهُ في العِلمِ، وأنَّها أعَظمُ ممّا ظنّوهُ فيه.

ثالثُها: أرادَ أن يُبيِّنَ أنَّ عِلمَهُ بالتَّعبيرِ ليسَ مُختصًّا بالرُّؤيَتَينِ اللَّتَينِ رَأَياها، وإنَّما هو أعمُّ مِن ذلك، ولذا قال: ﴿إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ﴾.

رابِعُها: أنَّ يوسُفَ عليه السلام لمَّا رأى إقبالَهُما عليهِ وقبولَهُما كلامَهُ؛

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/82.

(2) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 18/455.

أورَدَ عليهما ما يُصلِحُ ديانَتَهُما؛ إذ إصلاحُ مُهمّاتِ الدّين أولى مِن إصلاحِ مُهمّاتِ الدُّنيا.

خامسُها: أنَّهُ لمّا كان التَّعبيرُ بيانَ أنَّ أَحَدَهُما سيُصلَبُ اجتهَدَ يوسُفُ عليه السلام في أن يُدخِلَ الرَّجُلَ الإسلامَ؛ لِئلَّا يَموتَ على الكُفرِ.

غرضُ التَّعبيرِ بالأفعال ﴿نَبَّأْتُكُمَا﴾ و﴿يَأْتِيكُمَا﴾:

إظهارُ فَضلِ يوسُفَ عليه السلام في فُنونِ العِلمِ وفُروعِهِ

في التَّعبير بالأفعال ﴿نَبَّأْتُكُمَا﴾ وَ﴿يَأْتِيكُمَا﴾ - في المَوضِعَين - في قولِ اللّه سُبحانَهُ: ﴿قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا﴾ إيماءٌ إلى تَعدُّدِ إتيانِ الطّعامِ وتَجَدُّدِهِ، وتعدُّدِ الإخبارِ بالتَّأويلِ تبعًا لذلكَ، وذلك مناسِبٌ لسياقِ الجملةِ؛ إذ هي واردةٌ في مَقامِ إظهارِ فضلِ يوسُفَ عليه السلام في فنونِ العِلمِ، بحيث يدخُلُ في ذلك تأويلُ الرُّؤى دخولًا أوَّليًّا[1].

سرُّ التّعبيرِ بالتّأويل في: ﴿بِتَأْوِيلِهِۦ﴾:

التّعبيرُ بالنّسبة للطّعام المُبهَمِ، بمَنزِلةِ التّأويلِ بالنّسبة إلى ما رُؤِيَ في المَنام

جاء التّعبيرُ القرآنيُّ بلفظ التّأويل في أمر الرّؤيا مع أنّ حقيقتَهُ في المشهورِ تفسيرُ الألفاظِ المُرادِ منها خلافُ الظّاهرِ ببيانِ المُرادِ بطريق الاستعارةِ؛ فإنّ ذلك يشبهُ تفسيرَ المُشكَلِ، أو أنّه بالنّسبة للطّعامِ المُبهَمِ بمَنزِلةِ التّأويلِ بالنّسبة إلى ما رُؤِيَ في المَنام، وهذا على سبيل الاستعارةِ[2].

وجهُ تخصيص الطّعامِ بالتّأويل:

حكمةُ يوسفَ عليه السلام في التّمهيد للتّعبير

خصّصَ سيّدُنا يوسفُ تأويلَ الطّعام لِيضعَهما على نفس الاتّجاه في التّأويل، حيث ذكرَ تأويلَ الطّعام لهما قبلَ أن يأتيَهما، ومعلومٌ أنّ الطّعامَ هو موضوعُ رؤيا كلٍّ منهما؛ فتخصيصُهُ بالتّأويل ليسَ للحصرِ، ولكنّه جاء لِمُقتضَى الحالِ من خلال الأحاديثِ الدّائرةِ بينَهم.

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/276.

(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 6/431.

علَّةُ الفصلِ: ﴿ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓ﴾:

شبهُ كمالِ الاتِّصالِ في المعنى

فُصِلَ قولُ اللّه ﷻ: ﴿ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓ﴾، عمّا قبلَهُ؛ لكونِهِ استِئنافًا بيانيًّا، إذ بينَ هذهِ الجملةِ وما قبلَها شِبهُ كمالِ الاتِّصالِ؛ وذلك لأنَّه لمّا وصفَ يوسُفُ عليه السلام نفسَهُ بالعِلمِ؛ أورَثَ ذلك في نَفسِ السّامِعِ سؤالًا عنِ الطَّريقةِ الّتي حَصَلَ بها على هذا العِلمُ، فكأنَّ السّامِعَ قالَ: مَنْ علَّمكَ هذا؟ فجاءَ الجوابُ: ﴿ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓ﴾[1].

نكتةُ التَّعبيرِ باسمِ الإشارةِ ﴿ذَٰلِكُمَا﴾:

عَظَمَةُ عِلمِ التَّعبيرِ، وعُلُوُّ مَنزِلَتِهِ، وجليلُ شَرَفِهِ

جاءَ التَّعبيرُ باسمِ الإشارةِ للبعيدِ ﴿ذَٰلِكُمَا﴾ مِن قولِ اللّه ﷻ: ﴿ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓ﴾، وهو راجِعٌ إلى التَّأويلِ والإخبارِ بالمُغيَّباتِ؛ للإيماءِ إلى عظمةِ عِلمِ التَّعبيرِ، وعُلوِّ درجَتِهِ، وبُعدِ مَنزلَتِهِ[2].

دلالةُ حرفِ الجرِّ (مِنْ):

الإيماءُ إلى غزارةِ عِلمِ يوسُفَ عليه السلام وتواضعِه

حرفُ الجرِّ (مِنْ) في ﴿مِمَّا﴾ مِن قولِ اللّه سُبحانَهُ: ﴿ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓ﴾ دالٌّ على التَّبعيضِ؛ والمعنى: أنَّ هذا العِلمَ العظيمَ، وهو عِلمُ التَّعبيرِ، بعضٌ مِنَ الّذي علَّمنيهِ ربّي، ففي هذا إيماءٌ إلى غَزارَةِ عِلمِ يوسفَ عليه السلام[3]. وفيه إشارةٌ إلى نعمِهِ الّتي لا تُحصى، فلم يقفِ الأمرُ عند الإنباءِ بما يؤولُ إليه الطّعامُ الّذي يرزقانه؛ بل يمتدُّ فيشمَل تعبيرَ الرّؤى، وهو مَحلُّ اهتمامِ الفتيَين.

وفيه إشارةٌ إلى ما حباهُ اللّه تعالى مِنَ العلومِ المُتعلِّقة بأمورِ الدّنيا والدِّين أخذًا من قولِهِ تعالى: ﴿إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ۝٥٥﴾ [يوسف: 55].

دلالةُ التّعبيرِ بالفعلِ الماضي ﴿عَلَّمَنِي﴾:

مَن طلبَ العلمَ اتّخذَ لتحصيلِهِ الأسبابَ

عبّرَ بالفعلِ الماضي ﴿عَلَّمَنِي﴾؛ لِيدلِّلَ على تحقُّقِ تعليمِ اللّه له،

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/83، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/271.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/277.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/83.

وفي هذا إشارةٌ إلى لفتِ انتباهِ الفتيَين، ومَن معَهم إلى السّعي، في تحصيل أسبابِ هذا العلم.

سِرُّ التَّعبير بالرّبوبيّة:

تضمُّنه لمعنى الإنعام الدّائم عليه

عُبِّرَ باسم الله (الرَّبِّ) في قولِ الله ﷻ: ﴿ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓ﴾؛ لدلالتِهِ على الإحسانِ؛ والمعنى: إنَّ الرَّبَّ الّذي أوجَدَني وربّاني بِنِعَمِه، وأحسنَ إليَّ، هو الّذي عَلَّمَني ذلكَ، ولم أَقْلَهُ عَن تنجيم أو كِهانَةٍ[1]، ويساعدُ على هذا المعنى ضميرُ المتكلِّم من ﴿رَبِّيٓ﴾ الّذي يثيرُ في نفس الفَتيَين الشّوقَ إلى معرفة خصائصِ هذا الرّبِّ العظيم.

نكتةُ الإضافةِ في: ﴿رَبِّيٓ﴾:

شَرَفُ العبدِ وعَظَمَتُهُ في اندِراجِهِ في سِلكِ العبادِ المَربوبينَ لله سُبحانَهُ

أُضيفَ اسمُ الله (الرَّبِّ) إلى ضميرِ المُتكلِّم (الياء) في قولِ الله سُبحانَهُ حكايةً لقولِ يوسُفَ عليه السلام: ﴿ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓ﴾؛ تعظيمًا وتشريفًا للمضافِ إليه، فممّا تشرَّفَ به يُوسُفُ عليه السلام وعَظُمَ به أنْ كانَ الله سُبحانَهُ ربًّا لَهُ ربوبيَّة خاصَّة بالإضافة إلى الرُّبوبيَّةِ العامَّةِ لكلِّ الخَلقِ.

علَّةُ الفصلِ في: ﴿إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ﴾:

شبه كمال الاتّصالِ في المعنى

فُصِلَ قولُ الله ﷻ: ﴿إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ عمّا قبلَهُ؛ لوقوعِهِ استئنافًا بيانيًّا، فبينَ هذهِ الجملةِ وما قبلَها شبهُ كمالِ الاتِّصالِ؛ وذلك لأنَّ قولَه: ﴿ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓ﴾ يبعَثُ في نفسِ السّامعِ سؤالًا، وهو: ما لِغَيرِكَ لا يُعَلِّمُهُ الله تعالى مِثلَ ما عَلَّمَكَ؟ أو لماذا علَّمكَ ربُّكَ تِلكَ العلومَ البديعَةَ؟ فجاء الجوابُ على وجهِ التَّعليلِ: ﴿إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾، فبيَّنَ أنَّ سَبَبَ عِنايةِ الله سُبحانَهُ بِهِ أنَّهُ انفرَدَ في ذلكَ المكانِ بإقامةِ توحيدِ الله ﷻ، وتركِ مِلَّةِ أهلِ الكُفرِ[2].

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/83.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/83، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/277، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/272.

دلالةُ التّأكيدِ بـ (إنَّ):

تَوحيدُ اللهِ سُبحانَهُ أعظَمُ مطلوبٍ مِنَ العِبادِ

أُكِّدَ قولُ اللّه سُبحانَهُ حكايةً لقولِ يوسُفَ عليه السلام: ﴿إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ بـ (إنَّ) اهتمامًا بمضمونِ الجملةِ؛ لتعلُّقِهَا بأعظمِ ما طُلِبَ مِنَ العبادِ التزامُهُ، وهو توحيدُ اللّه سُبحانَهُ والبراءَةُ مِنَ الشِّركِ وأهلِه، ولتنزيلِ المُخاطَبِ مَنزلةَ السّائِلِ؛ لأنَّ الجملةَ واردةٌ استئنافًا بيانيًّا.

سرُّ التّعبيرِ بـ ﴿إِنِّي تَرَكْتُ﴾:

لا يَلزَمُ في (التَّرْكِ) الدُّخولُ في أمرٍ، ثُمَّ الانتقالُ عنه إلى غيرِه

﴿إِنِّي تَرَكْتُ﴾ في قولِ اللّه عز وجل: ﴿إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ لا يَلزَمُ مِنهُ دخولُهُ في تلك الملّةِ ثُمَّ اجتنابُها؛ إذِ التَّركُ كما يكونُ للدّاخِلِ في شيءٍ، ثمَّ يَنتقِلُ عنه إلى غيرِه، يكونُ كذلكَ لِمَن لَم يَدخُلْ فيه رأسًا. وليسَ الأمرُ كذلك مع يوسفَ عليه السلام؛ لأنّ الأنبياءَ وُلِدوا على التّوحيد، وعلى هذا يكونُ المرادُ بالتّرك عدمَ التَّعرُّضِ للشّيء والالتفاتِ إليه بالمرّة، ولا يَلزَمُ مِن ذلك أن يكونَ قد كان داخلاً فيه ثمّ تَركَه على الإيمان، أو أنّ المرادَ أنّ يوسفَ عليه السلام كان في بيت العزيز، وهو بيتٌ كافرٌ، ويوسفُ عليه السلام على الإيمان الصّحيح؛ لذلك صحَّ قولُهُ: ﴿إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْآخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ﴾؛ فلم يوافقْهُم على ما كانوا عليه[1].

علّةُ التّعبيرِ بالتّرك:

لا نجاةَ إلّا في التّوحيد واتّباعِ النّبوّات

جاءَ التَّعبيرُ في الآيةِ بالتَّركِ دونَ الاجتنابِ؛ تأنيسًا للفَتَيَينِ واستدراجًا لَهُما إلى تَركِهما ملَّةَ الكُفرِ[2].

إذ إنّ التّركَ قد أجرى مَجرَى التَّجنُّب من أوّل حالةٍ، فكانَ ذلك ترغيبًا لهما لأنْ يتركا تلك الملّةَ الّتي كانا فيها ليقتديَا بيوسفَ عليه السلام[3].

(1) الدّقر، مختصر تفسير الخازن، ص: 813.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/84، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/245.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 6/431.

نكتةُ التَّعبير بالقومِ في: ﴿مِلَّةَ قَوْمٍ﴾:

بيانُ شدّةِ قومِ امرأة العزيز، وقوّتِهم على ما يريدون

عُبِّرَ بالقوم في قولِ الله ﷻ: ﴿إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾؛ لأنَّ لَفظَةَ القوم - وهي جماعةُ النَّاسِ - مُشعِرَةٌ بالقُوَّة؛ إذ إنَّ الرِّجالَ سُمُّوا قومًا؛ لكونِهم قوّامينَ على النِّساءِ في الأمورِ الّتي ليسَ للنِّساء أنْ يَقُمْنَ بها، فكانَ في التَّعبيرِ بالقومِ في الآيةِ الإيماءُ إلى أنَّ القومَ المتروكَةَ مِلَّتُهم أشدّاءُ وأقوياءُ على محاولة ما يُريدونَهُ، وهذا يُوَعِّرُ مخالفتَهُم، فكان في مخالَفتِهم، والحالُ هذه إشعارٌ بقُوَّةِ المُخالِفِ المُحِقِّ، وأنَّه لا يُؤثِرُ في سلامةِ ديانَتِه شيئًا، ولا يخافُ في سبيلِ ذلك أمرًا، وإنْ كانوا أقوياءَ على محاولةِ ما يريدون؛ فلذلك قدَروا على أذايَ وسَجني بعدَ رؤية الآياتِ الشّاهِدةِ لي[1].

براعةُ التَّعريضِ:

المُواجهةُ بالتَّشنيعِ مُنَفِّرٌ عن قبولِ المَوعِظةِ

في قولِ الله سُبحانَهُ: ﴿إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ أرادَ بالقومِ الّذين لا يُؤمنونَ بالله تعالى الكنعانيِّينَ، وهُمُ الّذينَ نشأَ فيهم، وفي هذا تعريضٌ بالقِبطِ الّذين ضاهوهُم في الشِّركِ بالله سُبحانَهُ، والنُّكتَةُ في العدولِ عنِ التَّصريح إلى التَّعريض مُجانَبَةُ أن يُواجِهَهُم بالتَّشنيعِ عليهِم؛ لِئلّا يكونَ ذلك مُنفِّرًا عن قبولِهما مَوعِظَتَهُ[2].

دلالةُ التّعبيرِ بالجملة الخبريّة:

ملاطفةُ الفتيَين لتركِ الشّركِ والإقبالِ على توحيد الله

جاءَ التّعبيرُ بقولِه: ﴿تَرَكْتُ﴾ على وجه الإخبار، ولم يقُلْ: (اتركوا)؛ لأنّ صيغةَ الأمر والنّهي تبعثُ على الخوف والخَشية مِن أن ينزلَ بهُمُ العقابُ، وهذا ليسَ من دأب الأنبياءِ في بدء دعوتِهم، وفيه مُلاطفةٌ للفتيَين بأن يفهما منَ التّعبير بقولِه تعالى: ﴿تَرَكْتُ﴾ أنّه كان على دينِهما، فلم يكُنْ لِيعلمَ شيئًا، ولمَّا ترَكَه علَّمَه الله تعالى، فيكونُ ذلك داعيًا لهما لتركِ ما هُم عليه لِيتعلّما ممّا علّمَه الله.

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/83.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/272.

نكتةُ التَّعبيرِ بالفعل المُضارع ﴿لَّا يُؤۡمِنُونَ﴾:

عُبِّرَ بالفعل المضارعِ ﴿يُؤۡمِنُونَ﴾ مِن قولِ اللّه ﷻ: ﴿إِنِّي تَرَكۡتُ مِلَّةَ قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾؛ لإفادةِ التَّجدُّدِ والاستمرارِ، والمرادُ استمرارُ النَّفي لا نفيُ الاستمرارِ، بقرينةِ ذمِّهم والتَّشنيعِ عليهم، والمرادُ: أنَّهم مُستمرُّونَ على عدَمِ الإيمانِ؛ لِما لَهُم مِنَ العَراقَةِ في الشِّرك[1].

الـعَـريـقُ في الشِّركِ، الموغِلُ فيه، مُستَمِرٌّ على عَدَمِ الإيمانِ

غرضُ تقييد الإيمانِ بـ ﴿بِٱللَّهِ﴾:

قُيِّدَ فِعلُ الإيمانِ باسم الجلالة (اللّه) في قولِ اللّه سُبحانَهُ: ﴿إِنِّي تَرَكۡتُ مِلَّةَ قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾؛ تعظيمًا للإيمانِ الّذي كَفَرَ بهِ هؤلاءِ، وهذا يقتَضي شناعَةَ صنيعِهم، وبشاعَةَ فِعلَتِهم في تَركِهِمُ الإيمانَ بِمَن لهَ جميعُ صفاتِ الجلالِ والجمالِ والكمالِ.

شَناعَةُ صَنيعِ الكُفَّارِ، وبَشاعَةُ فِعلِهِم، في تَركِهِمُ الإيمانَ باللّه ﷻ

علّةُ التَّصريحِ بعدمِ الإيمانِ بالآخرةِ:

في قولِ اللّه سُبحانَهُ: ﴿وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ﴾ تلويحٌ إلى التَّحذيرِ مِن يومِ الحسابِ والجزاءِ الّذي لا يُغني فيه أحدٌ عن أحدٍ شيئًا، وذلك مُنبِّهٌ على أنَّ الكُفرَ باليومِ الآخِرِ قاطِعٌ عنِ العِلمِ وعن كُلِّ خيرٍ[2].

الكُفرُ باليومِ الآخِرِ قاطِعٌ عَنِ العِلمِ، وعَن كُلِّ خَيرٍ

سِرُّ الاقتصارِ على الإيمانِ باللّه واليومِ الآخِرِ:

خُصَّ الإيمانُ باللّه واليوم الآخرِ بالذِّكرِ في قول اللّه ﷻ: ﴿إِنِّي تَرَكۡتُ مِلَّةَ قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ﴾؛ لنكَاتٍ:

إحداها: أنَّ الإيمانَ باللّه سُبحانَهُ والبعثِ وما يَتبَعُه أعظمُ مقاصدِ العقيدةِ الإسلاميَّة، فكان الكُفرُ بها إخلالٌ بأعظمِ المقاصدِ الدّينيَّة.

ثانيها: أنَّ الإيمانَ باللّه سُبحانَهُ على ما يَليقُ بجلال اللّه ﷻ وعظمتِه؛ يَلزمُ مِنه الإيمان ببقيَّةِ الأركانِ؛ مِنَ الكُتُبِ والرُّسُلِ والملائكةِ والقَدَرِ، والكُفرُ بهِ يستَلزِمُ الكُفرَ ببقيَّةِ الأركانِ.

الإيمانُ باللّه ﷻ إيمانٌ بالمبدأِ، والإيمانُ باليومِ الآخِرِ إيمانٌ بالمَعادِ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/83.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/84.

ثالِثُها: أنَّ الإيمانَ بمصيرِ العبادِ إلى اللّه ﷻ يَلزمُ منه الاستعداد بالأعمال الصَّالحةِ؛ فهو مفتاحٌ لكلِّ خيرٍ، ولازِمُ ذلك أنَّ الكُفرَ بمآلِ العبادِ إلى اللّه سُبحانَهُ يومَ القيامةِ يقتضي الإخلالَ بالأعمالِ الصّالحةِ، وهو مفتاحُ كلِّ شرٍّ.

رابعُها: أنَّ الإيمانَ باللّه ﷻ إيمانٌ بالمبدأِ، والإيمانَ باليوم الآخر إيمانٌ بالمَعَادِ[1]؛ فَهُما الطَّرفانِ، وما سِوَاهما داخلٌ فيهما، على قاعدة أَنَّ البَينَ مُستَحضَرٌ في الطَّرفينِ، فمَن كفَرَ بهما كَفَرَ بالجميعِ.

فائدةُ تقديمِ الآخرةِ على لفظِ الكُفرِ:

الكُفرُ باليومِ الآخِرِ مِفتاحُ كُلِّ شرٍّ وبلاءٍ

قُدِّمَ لفظُ الآخرةِ على لفظِ الكُفرِ في قولِ اللّه ﷻ: ﴿وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ﴾، ولَم يَرِدِ النَّظمُ القرآنيُّ: (وهُمْ كافرونَ بالآخرَةِ)؛ لأنَّ في تقديمِ الآخرةِ تأكيدًا لكُفرِهِم بالبَعثِ، وفي هذا التَّقديمِ أيضًا مزيدُ اهتمامٍ بالكُفرِ بالآخرةِ[2]؛ لكونِ الّذي لا يُؤمِنُ بالبعثِ لا يرجو مِن فِعلِ خيرٍ عاقبةً حسنَةً، ولا يخافُ مِن فِعلِ الشَّرِّ عاقبةً سيِّئَةً، فتَجري أعمالُهُ على وَفقِ ما تهواهُ نفسُهُ، وهذا مفتاحُ كلِّ شرٍّ.

نكتةُ تكرارِ الضَّميرِ ﴿وَهُم﴾:

الأدلَّةُ على ثُبوتِ اليومِ الآخِرِ قاطِعةٌ، وبراهينُهُ ساطِعةٌ

كُرِّرَ الضَّميرُ ﴿وَهُم﴾ في قولِ اللّه سُبحانَهُ: ﴿وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ﴾؛ لِنكاتٍ[3]:

إحداها: أنَّ في تَكريرِهِ تنبيهًا على أنَّ هؤلاءِ مُختصُّونَ بالجهلِ، وأنَّ غيرَهُم وقَفوا على الهُدى ووُفِّقوا إليهِ.

ثانيها: أنَّ إنكارَهُمُ المَعادَ كانَ أشدَّ مِن إنكارِهِم للمبدأِ، فلأجلِ مبالغَتِهِم في إنكارِ المَعادِ؛ أُكِّدَ الكلامُ بتَكرارِ الضَّميرِ.

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 18/456.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3824.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 18/456، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 10/84، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3824.

ثالثُها: أنَّ في تكريرِ الضَّمير إيماءً إلى أنَّ صنيعَهُم ينبغي أن يُنكِرَهُ كلُّ مَن وقفَ عليهِ ولا يُصدِّقَه؛ وذلك لِما للآخرةِ منَ البراهينِ السّاطِعةِ والأدلَّةِ القاطِعةِ الّتي مَن تأمَّلَها أدنى تأمُّلٍ لا يتأتّى لَهُ إلّا الإقرارُ بها ومُجانَبَةُ إنكارِها والتَّكذيب بها، ولعلّ إنكارَهُم للمَعادِ كان أشدَّ من إنكارِهِم للمبدأ؛ فلأجلِ مُبالغتِهم في إنكار المَعادِ كرّرَ هذا اللّفظَ للتّأكيد[1].

دلالةُ التَّعبيرِ بالاسمِ ﴿كَٰفِرُونَ﴾:

عُبِّرَ عَن كُفرِهِم بالاسمِ ﴿كَٰفِرُونَ﴾ في قول اللّه ﷻ: ﴿وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ﴾؛ للإيماءِ إلى أنَّهُم عريقونَ في التَّكذيبِ بالآخرةِ والسَّترِ لها[2]، مُستمِرُّونَ على ذلكَ، دائمونَ على لوازِمِ ذلكَ من تَركِ العملِ الصَّالِحِ واقتحامِ العظائمِ والقبائحِ.

مِن لَوازِمِ التَّكذيبِ بالآخرةِ اقتِحامُ القبائحِ، وتَركُ العملِ الصّالِحِ

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

المِلَّةُ والدّينُ:

بينَ المِلَّةِ والدّينِ فَرقانِ[3]: **أوَّلُهُما**: أنَّ المِلَّةَ اسمٌ لجملة الشَّريعةِ، بخلاف الدّينِ فهو اسمٌ لِما عليهِ كُلُّ واحدٍ من أهلِ الشَّريعةِ، ولذا يُقالُ: فلانٌ حسنُ الدّين، ولا يُقالُ حسنُ المِلَّةِ؛ بَل يُقالُ: هو مِن أهلِ المِلَّةِ، ويُطلَقُ الدِّينُ أيضًا على جملةِ الشَّريعةِ، كقولِ اللّه سُبحانَهُ: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ﴾ [آل عمران: 19].

المِلَّةُ اسمٌ لِجملةِ الشَّريعةِ، وديننا خيرُ مِلّةٍ أُرسِلت للنّاس

ثانيهما: أنَّ المِلَّةَ لا تُضافُ إلّا إلى النَّبيِّ الّذي تُنسَبُ إليهِ، كقولِ اللّه سُبحانَهُ: ﴿فَٱتَّبِعُواْ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ﴾ [آل عمران: 95]، ﴿وَٱتَّبَعۡتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ﴾، ولا تكادُ توجدُ مُضافَةً إلى اللّه ﷻ، ولا إلى آحادِ أُمَّةِ النَّبيِّ، وذكرَ العسكريُّ[4] أنَّ المِلَّةَ اسمٌ للشَّرائعِ مع الإقرارِ باللّه سُبحانَهُ، بخلافِ

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 18/456.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/84.
(3) الرّاغب، المفردات: (ملل)، والعسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 220.
(4) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 220.

الدّينِ، فهو ما يذهبُ إليه الإنسانُ مُعتقِدًا أنَّه يُقرِّبُهُ إلى اللّه تعالى، وإنْ لم يكُنْ فيه شرائعُ، وفرَّع على هذا أنَّ المِلَّةَ أعمُّ منَ الدّين، فكلُّ مِلَّةٍ دينٌ، وليسَ كلُّ دينٍ ملَّةً؛ وذلك لأنَّ النَّصرانيَّةَ - مثلًا - ملَّةٌ، بخلاف الشِّركِ، فهو دينٌ، وليسَ ملَّةً، ثُمَّ لمّا كان هذا مُشكِلًا ذكَرَ بأنَّ اللَّفظتينِ تتقارَضانِ؛ بأن تُطلَقَ إحداهُما مَوضِعَ الأُخرى.

وهذا فيه نَظَرٌ؛ لأنَّ الأصلَ أنَّ كُلَّ لفظةٍ لها دِلالَتُها الّتي تختصُّ بها، ولا يُعدَلُ عن هذا إلَّا لدليلٍ قويٍّ، ولا دليلَ يدلُّ على الفرقِ الّذي مالَ إليهِ؛ بل إنَّ ظاهرَ آيةِ يوسُفَ عليه السلام تردُّ هذا الفرقَ؛ فإنَّ فيها: ﴿إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ﴾، فسمَّى ما هُم عليهِ ملَّة، مع التَّنصيص على عدمِ إيمانِهم باللّه عز وجل ولا باليومِ الآخِرِ، وهذا عينُ الشِّركِ.

﴿وَٱتَّبَعۡتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشۡرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيۡءٖۚ ذَٰلِكَ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ عَلَيۡنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ ٣٨﴾ [يوسف: 38]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الرَّبط بين إقرار يوسف بأنعُم الله عليه، والدَّعوة إلى التَّوحيدِ ونبذ الشِّرك

لمّا بيَّنَ يوسُفُ عليه السلام في الآية السّابقة معالمَ الكفر في ملَّة القوم الّذين تركهم بقوله: ﴿إِنِّي تَرَكۡتُ مِلَّةَ قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ٣٧﴾ [يوسف: 37]؛ أتْبَعُه في هذه الآية ببيانِ ما يدينُ بهِ، وهو دينُ الإسلام، باتِّباعِهِ ملَّةَ الأنبياءِ إبراهيمَ وإسحاقَ ويعقوبَ عليهم السلام، وحقيقَةُ ذلك مباعَدَةُ الشِّرْكِ بالله سُبحانَهُ، ولازِمُ ذلك: إقامَةُ توحيدِ الله عز وجل، فقالَ جل جلاله حكايةً عَنْه أنَّه قال: ﴿وَٱتَّبَعۡتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشۡرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيۡءٖۚ﴾.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَٱتَّبَعۡتُ﴾: يُقال: تَبِعَهُ واتَّبعه: قفا أثره، وذلك تارةً بالجسم، وتارةً بالارتسام والائتمار، ومن ذلك قوله: ﴿وَٱتَّبَعۡتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ﴾[1].

2) ﴿مِلَّةَ﴾: الميمُ واللَّامُ تدلُّ تَصْريفاتُها على تهيُّؤٍ أو تهيئةٍ بالامْتِدادِ لأجْلِ الانتفاعِ والصَّلاحِ، ومنهُ قولُهم: طريقٌ مَليلٌ، وهوَ المُمتَدُّ المُهيَّأُ، وذلك لكونِهِ قَدْ سُلِكَ حتَّى صارَ مَعْلَمًا[2]، والمِلَّةُ: الطَّريقَةُ المَسْلوكَةُ[3]، وتُطْلَقُ على الدّينِ، وتُجْمَعُ على مِلَلٍ، مِثْلُ:

(1) الرّاغب، المفردات: (تبع).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (ملل).
(3) الزّمخشريّ، أساس البلاغة: (ملل).

سِدْرَةٍ وسِدَرٍ[1]، وحقيقَةُ المِلَّةِ شرعًا: أنَّها اسْمٌ جامِعٌ لِما شَرَعَهُ اللهُ سُبحانَهُ لِعبادِهِ عَلى أَلْسِنَةِ أَنْبِيائِهِ ورسُلِهِ[2]. وأمّا المِلَّةُ في قولِ اللهِ ﷻ: ﴿وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾؛ فالمُرادُ بِها مُطْلَقُ الدّينِ الّذي يُتَدَيَّنُ بِهِ.

3) ﴿نُّشْرِكَ﴾: الشِّينُ والرَّاءُ والكَافُ تدورُ اشْتِقاقاتُها علَى لُزومِ شَيءٍ شَيْئًا إِمْسَاكًا بِجَامِعٍ دَقِيقٍ، ومنهُ: شِرَاكُ النَّعْلِ؛ لكونِهِ ملازِمًا للنَّعْلِ مُمْسِكًا إيَّاهَا، وكذا شَرَكُ الصَّيْدِ، ومن هذَا التَّلَازُمِ: الشَّرِكةُ؛ وهِي خُلْطَةُ المِلْكَيْنِ[3]. وحقيقَةُ الشِّرْكِ شَرْعًا: تَسْوِيَةُ غيرِ اللهِ باللهِ، في شيءٍ من خَصَائِصِ اللهِ تعالَى، والمُشْرِكونَ هُمُ المُتلبِّسونَ بهذَا الشِّرْكِ[4]. وشِرْكُ الإنسانِ في الدّينِ ضربانِ: أحدهما: الشِّرك العظيم، وهو إثبات شريك للّه تعالى، يُقال: أشرك فلانٌ باللّه، وذلك أعظم كفرٍ، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾ [النّساء: 48]، والثّاني: الشّرك الصّغير، وهو مراعاة غير اللّه معه في بعض الأمور، وهو الرّياء والنّفاق[5]، عن شداد بن أوس رضي الله عنه قال: «كُنّا نعدُّ على عهد رسول ﷺ أنَّ الرّياءَ الشّركُ الأصغر»[6].

4) ﴿فَضْلِ﴾: الفاءُ والضّادُ واللّامُ تدور اشتقاقاتُها حول الزِّيادة في الشَّيء[7]، وقال بعضُهم: إنّ اسْتِعْمالُ الأصلِ (فضل) يكون في الخَيْرِ[8]، فالفَضْلُ: الزِّيادةُ في الخيرِ[9]، حِسِّيَّةً كانتِ الزِّيادةُ أو معنويَّةً[10]. إلّا أنّ الرّاغب قد ذهب إلَى أنَّ الفَضْلَ لا يخْتَصُّ بالخَيْرِ، بَلْ يقَعُ محمودًا ومذمومًا، واستعمَالُهُ في المحمودِ أكْثَرُ، وأَغْلَبُ، والفضل إذا استُعمِل لزيادة أحد الشّيئَيْن على الآخر، فعلى ثلاثة أضْرُب: فضلٌ من حيث الجنس، وفضلٌ من حيث النّوع، وفضلٌ من حيث الذّات[11].

(1) الفيّوميّ، المصباح المنير: (ملل).
(2) الرّاغب، المفردات: (ملل).
(3) الرّاغب، المفردات: (شرك). وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (شرك).
(4) ابن قاسم العاصميّ، حاشية كتاب التّوحيد، ص: 15، ومحمد الخميّس، شرح الرّسالة التّدمريّة، ص: 89.
(5) الرّاغب، المفردات: (شرك).
(6) الحاكم، المُستدرك على الصّحيحيْن، الحديث رقم: (8151)، وهو صحيح الإسناد.
(7) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (فضل).
(8) أبو حيّان، البحر المحيط: 1/302.
(9) ابن عادل، اللُّباب في علوم الكتاب: 2/45.
(10) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (فضل).
(11) الرّاغب، المفردات: (فضل).

ومعنى قَوْلِ اللّه ﷻ: ﴿ذَٰلِكَ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ عَلَيۡنَا﴾؛ أيْ: ذلك ممَّا تفضَّلَ اللّه تَعالى بهِ علينا، فَنَفَعَنا بِهِ[1].

5) ﴿ٱلنَّاسِ﴾: لفظَةُ (النّاسِ) أصلها (الأُناسُ)، حُذفتِ الهمزةُ تخفيفًا، فقيل: (النّاس)[2]. وقَدْ ذهبَ جماعةٌ من أهلِ العربيَّةِ إلى أنَّ اشتقاقَ (النَّاسِ) مِنَ (النَّوْسِ)، يُقالُ: ناسَ يَنوسُ نَوْسًا؛ إذا تحرَّكَ[3]، وسُمّوا بذلك؛ لِأَنَّ مِن شَأْنِهم الحركةَ[4]. ولفظُ (النَّاس) يُطْلَقُ على البَشَرِ بني آدمَ، وذكَر ابنُ عاشور أنَّ هذا هو التَّحقيقُ[5].والنّاس: قد يُذكَّر ويُراد به الفضلاء، دون مَن يتناوله اسم النّاس تجوُّزًا، وذلك إذا اعتبر معنى الإنسانية، وهو وجود العقل والذِّكر وسائر الأخلاق الحميدة والمعاني المُختصَّة به، فإنَّ كل شيء عُدِمَ فعله المختصُّ به لا يكاد يستحقُّ اسمه[6]. ولفظ النّاس في القرآن، له إطلاقاتٌ عديدة، تنوَّعت بحسب السّياق[7].

6) ﴿يَشۡكُرُونَ﴾: الشِّين والكاف والرّاءُ تدور اشتقاقاتُهَا حول امتلاءِ جوفِ الشَّيء، برَخْوٍ طيِّب وظُهورِه عليه، ولو كانَ رافِدُهُ قليلًا[8]، حِسِّيًّا كان ذلك أو معنويًّا: فَمِنَ الحِسيِّ قولهم: شاةٌ شَكْرَى: وهي ممتلئَةُ الضَّرع لَبَنًا[9]، ودابَّة شَكور: وهي الَّتي يكفيها قليلُ العَلَفِ، فَتَسْمَنُ عليهِ، وَتَصْلُحُ[10]. ومِنَ المعنويِّ: الشُّكْر؛ وهو عِرفانُ الإحْسانِ ونَشْرُه[11]؛ (إذْ هو تعبيرٌ عَنِ امتلاء النَّفْسِ ورِضاها بِما قُدِّم لَها مِن خَيْرٍ، ونُجوع هذا الخيرِ فيها)[12]. وحقيقة الشُّكْرِ شَرْعًا: ظُهورُ أثَرِ نِعْمَةِ اللّه سُبحانَهُ على لِسانِ عَبْدِه ثَناءً واعْترافًا، وعَلى قَلْبِهِ: شُهودًا ومحَبَّة، وعَلى جَوارِحِه: طاعةً وانقيادًا[13].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/86.
(2) الخليل بن أحمد، العين: (نوس).
(3) أبو هلال العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 274.
(4) الواحديّ، التّفسير البسيط: 2/125.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/633.
(6) الرّاغب، المفردات: (نوس).
(7) الدّامغانيّ، الوجوه والنّظائر، ص: 469.
(8) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (شكر).
(9) نشوان الحميريّ، شمس العلوم: (شكر).
(10) الزَّمخشريّ، أساس البلاغة: (شكر).
(11) الفيروزابادي، القاموس المحيط: (شكر).
(12) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (شكر).
(13) ابن القيّم، مدارج السَّالكين: 2/234.

المَعْنى الإجْماليُّ:

الهدايةُ إلى التَّوحيد الَّذي جاءت به النُّبوات، من أكبر النِّعم، وأعظم المكرُمات

بيَّنت هذه الآية أنَّ يوسف عليه السلام لم يقف أمره عند ترْكِ القوم الّذين لا يؤمنون بالله ولا بالآخرة، بل أعلن إيمانه، وذلك بقوله: واتَّبَعْتُ دينَ آبائي إبْراهيمَ وإسْحاقَ ويَعْقوبَ لا دينَ أهْلِ الشِّرك، ما جازَ لَنا معاشر الأنبياءِ أن نَجْعَلَ لله تَعالى شريكًا في عِبادَته وطاعَتِه، بَلْ هوَ الّذي عَلَيْنا إفْرادُهُ بالألوهيَّةِ والعِبادَةِ، واتِّباعي مِلَّةَ آبائي عَلى الإسْلام وتَرْكي مِلَّةَ الكُفْرِ: مِن فَضْلِ الله ﷻ الّذي تفضَّلَ بِهِ عَلَيْنا، فَأَنْعَمَ؛ إذْ أكْرَمَنا بِهِ، ومن فَضْلِه سُبْحانَهُ عَلى النَّاس؛ إذْ أَرْسَلْنا إلَيْهِم دُعاةً إلى تَوْحيدِهِ وطاعَتِه، ولَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ كفَروا، فَهُم بِكُفْرِهِم غَيْرُ شاكِرينَ ذَلِكَ الفَضْلَ، ولا يعرفون نعمةَ الله عليهم بإرسالِ الرّسلِ إليهم[1].

وترشدُ الآية الكريمةُ إلى أنَّه لا أفضلَ من منَّة الله على العِباد بالإسلام والدِّين القويم، فمَنْ قَبِله وانقادَ له فهو حظُّه، وقد حصل له أكبر النِّعم وأجلُّ الفضائل، وإلى ما فيه من التّرغيب للطّريق الّتي عليها يوسف عليه السلام ما لا يخفى، فإنَّ الفتيَيْن لما تقرَّر عنده أنَّهما رأياه بعين التَّعظيم والإجلال - وأنَّه محسِنٌ معلِّم - ذكر لهما أنَّ هذه الحالةَ الّتي أنا عليها، كلُّها من فضل الله وإحسانِه، حيث منَّ عليَّ بترك الشّركِ وباتباعِ ملَّةِ آبائي، فبهذا وصلتُ إلى ما رأيتُما، فينبغي لكما أن تَسْلكا ما سَلَكْتُ[2].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالة الوَصْلِ:

زِيادَةُ البَيانِ لِديانَةِ يوسُفَ وسابقيه من الأنبياء عليهم السلام

وُصِلَ قولُ الله ﷻ: ﴿وَٱتَّبَعۡتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ﴾ بالجملةِ الّتي قبلَها ﴿إِنِّي تَرَكۡتُ مِلَّةَ قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ٣٧﴾

(1) ابن جرير، جامع البيان: 16/103، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 2/460.
(2) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 398.

[يوسف: 37]؛ لِما بينَهُما مِنَ التَّوسُّطِ بينَ الكمالَيْنِ، وذلكَ لاشتراكِ الجملتَيْنِ في الخبريَّةِ، ووجودِ المناسبَةِ بينَهما؛ وهو التَّضادُّ في لَفْظِ المُسْنَدِ (تَرَكَ) و(اتَّبعَ)، مع اتِّحادِ المُسْنَدِ إليهِ فيهما، وحسَّنَ هذا الوصْلَ اتِّفاقُ الجملَتَيْنِ في الفِعْلِيَّةِ، والماضَوِيَّةِ، والمعنى كذلك؛ فالجملة السّابقة ترْكٌ، وهذه اتِّباعٌ.

غرضُ التَّنصيص على: ﴿مِلَّةَ﴾:

المُرادُ من التَّنصيصُ على ﴿مِلَّةَ﴾ في قولِ اللّه ﷻ: ﴿وَٱتَّبَعۡتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ﴾ مزيدُ بيانٍ لدِيانَةِ يوسُفَ عليه السلام، على أَكْمَلِ وجْهٍ نفيًا وإثباتًا.

الإسلام ملَّة الفطرة السَّليمة، والمبادئ المستقيمة

نُكْتَةُ تَقْديمِ ﴿تَرَكْتُ﴾:

قُدِّمَ ذِكْرُ تَرْكِه مِلَّةَ الكُفْرِ في الآية السّابقة ﴿إِنِّي تَرَكۡتُ مِلَّةَ قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ [يوسف: 37] عَلى ذِكْرِ اتِّباعِه مِلَّةَ آبائِه مِنَ الأنبياءِ عليهم السلام في هذه الآية ﴿وَٱتَّبَعۡتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ﴾؛ لأنَّ في الأوَّلِ تبرُّؤًا مِنَ القبائحِ والنَّقائصِ، وفي الآخرِ إثباتًا للمكارِمِ والمحامِدِ، فكانَ هذا التَّقديمُ من بابِ أنَّ التَّخليةَ مُقدَّمَةٌ على التَّحليَةِ[1].

التَّخلِيَةُ المذكورة، مُتَقَدِّمَةٌ عَلى التَّحْلِيَةِ المأثورة

دلالة التَّعبير بـ: ﴿وَٱتَّبَعۡتُ﴾:

جاء التَّعبير القرآنيُّ بقوله تعالى: ﴿وَٱتَّبَعۡتُ﴾ الَّذي يدلُّ على شدة الاتِّباع من يوسف عليه السلام لآبائه من غير تكلُّف ولا مشقَّة؛ لأنَّ الاتِّباع معناه اقتفاءُ الأثر، فيوسف عليه السلام، اقتفى أثر آبائه في الظّاهر والباطن.

شدةُ اقتفاء يوسف عليه السلام أثر آبائه في الظَّاهر والباطن

إفادةُ تاء المُتكلِّم في: ﴿وَٱتَّبَعۡتُ﴾:

دل التَّعبير بتاء المُتكلِّم على إعلان يوسف عليه السلام لنُبُوَّته، وذلك بعد أن أشار إليها في الآية السّابقة بقوله: ﴿قَالَ لَا يَأۡتِيكُمَا طَعَامٞ تُرۡزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأۡتُكُمَا بِتَأۡوِيلِهِۦ قَبۡلَ أَن يَأۡتِيَكُمَاۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓۚ﴾، حيث أخبرهم بشيء من علم الغيب، في تأويل أمر الطَّعام؛ فجاء هنا

الإعلانُ الصّريحُ من يوسف عليه السلام لنبوَّته

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/277.

مُعلنًا أمر نُبوَّته باتِّباعه لآبائه، في أصل الدّين، وهو التَّوحيد الّذي هو مهمَّة الرُّسل والأنبياء.

دلالة التَّعبير بلفظ (الملَّة):

الملَّة لا تُضاف إلّا إلى نبيٍّ؛ يؤدّي الشَّرع عن الله، ويُبلِّغ هداه

آثر السِّياق الكريمُ التّعبيرَ بالملَّة دون الدِّين؛ لوجود فرق بينهما: فالملَّة في اللُّغة تُطلق على السُّنّة والطَّريقة، يُقال: طريقٌ مُمَلٌّ؛ أيْ: مسلوكٌ معلوم، ومن هذا: المَلَّة: الرَّمادُ الحارُّ الّذي يُحْمَى ليُدفن فيه الخبز لينضَجَ، وقد ملَّ الخُبزةَ: أدخلَها في المَلَّة، ومنه حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ رَجُلًا قالَ: يا رَسولَ اللّه، إنَّ لي قَرابَةً أَصِلُهُمْ، وَيَقْطَعوني، وَأُحْسِنُ إليهم ويُسِيؤُونَ إلَيَّ، وَأَحْلُمُ عنْهمْ، وَيَجْهَلونَ عَلَيَّ، فَقالَ: «لَئِنْ كُنْتَ كما قُلْتَ؛ فَكَأنَّما تُسِفُّهُمُ المَلَّ، وَلا يَزالُ معكَ مِنَ اللّه ظَهِيرٌ عليهم ما دُمْتَ على ذلكَ»[1]. ثمَّ استُعيرت المِلَّة للطَّريقة في عقائد الشَّرع، كامتداد زمن بقاء الخبز في المِلّة لينضَج؛ أيْ: يتهيَّأ للأكل؛ لأنَّها تمدُّه ويُزَوَّدُ بها لإصلاح حال الخلق ومآلهم دائمًا، وأصبحت اسمًا لِما شرع اللّه تعالى لعباده على لسان الأنبياء؛ لذلك تُضاف إليهم، فمن ذلك نسبة المِلَّة إلى إبراهيم عليه السلام، قال تعالى: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ﴾ [البقرة: 130]، وقال تعالى: ﴿وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا﴾ [النّساء: 125]، إلى غير ذلك من الآيات، وعلى هذا فالملَّة لا تُضاف إلّا إلى نبيٍّ؛ لأنَّها تُقال اعتبارًا بمَن يؤدّي الشَّرعَ عن اللّه تعالى، بخلاف الدّين فيُقال اعتبارًا بمَن يُقيم، ويعمل به، وذلك لأنَّه مأخوذٌ من الجزاء، يُقال: (كما تَدينُ تُدان)[2].

وأيضًا؛ لأنَّ الملَّة لا تُوجد مُضافة إلى اللّه تعالى، وإلى آحاد أمَّة النّبيّ ﷺ، ولا تستعمل إلّا في جملة الشَّرائع دون آحادها، بخلاف

(1) مسلم، صحيح مسلم، الحديث رقم: (2558).
(2) الرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (ملل).

الدّين فيُنسب إلى اللّه وإلى البشر، يُقال: دِينُ اللّه ودينُ زيدٍ، ولا يُقال: الصَّلاة مِلَّة اللّه؛ لذلك جاء التَّعبير هنا بالمِلَّة للدَّلالة على أنَّ الأنبياء الّذين أظهروها قد أملوها وكتبوها لأُمَّتهم، وهي اسمٌ لما شرعه اللّه لعباده على لسان أنبيائه؛ ليتَوصَّلوا به إلى آجِلِ ثوابه، ولأنَّها تُطلَق على أصول الشَّريعة، وهذا هو المُراد هنا في اتِّباع يوسف عليه السلام لملَّة آبائه[1].

سرُّ التَّعبير بالمِلَّة مفردةً:

مِلَّةُ الأنبياء واحدةٌ، مناطُها الإيمان، ومركزُها التَّوحيد، والشَّرائع تختلف

جاء التَّعبير بلفظ المِلَّة مُفردًا مع أنَّها مُضافة إلى الآباء في قوله تعالى: ﴿وَٱتَّبَعۡتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ﴾، وهم جمع؛ للدَّلالة على أنَّها مِلَّةٌ واحدة، في أصل التَّوحيد، فلا تختلف مِلَّةٌ عن أخرى، في أمر الاتِّباع، فمَن اتَّبع ملَّة إبراهيم، كمَن اتَّبع ملَّة إسحاق ويعقوب؛ لأنَّ مدار الأمر فيهم جميعًا واحد، وهو أصول التَّوحيد وإجلال اللّه تعالى بالعبادة.

سِرُّ التَّنْصيصِ عَلى الآباءِ:

اجْتِماعُ الشَّرَفِ العِظامِيِّ، وَالشَّرَفِ العِصامِيِّ لِيوسُفَ عليه السلام

نَصَّ يوسُفُ عليه السلام على ذِكْرِ الآباءِ، في قولِهِ: ﴿وَٱتَّبَعۡتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ﴾ إعلامًا بفَضْلِهِم، وإظهارًا لسابقيَّةِ الصَّلاحِ فيه، وأنَّه مُتَسَلْسِلٌ مِن آبائِهِ، وقد أَدْرَكَ ذلكَ مِن ابتداءِ نشأَتِهِ، ثُمَّ تقوَّى ذلك، وتأكَّدَ بما عَلَّمَهُ ربُّهُ سُبحانَهُ، فاجتَمَعَ ليوسُفَ عليه السلام الشَّرفُ العِظامِيُّ والشَّرفُ العِصامِيُّ[2].

دلالَةُ الإضافَةِ في: ﴿ءَابَآءِيٓ﴾:

إظْهارُ شرفِ يوسُفَ عليه السلام، لِجَليلِ مَنْزِلَتِهِ، وَعَظيمِ شَرَفِهِ

إضافَةُ الآباءِ إلى ضَميرِ النَّفْسِ في قولِ اللّه سُبحانَهُ حكايَةً عَنْ قولِ يوسفَ عليه السلام: ﴿وَٱتَّبَعۡتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ﴾ يُرادُ به إظْهَارُ شَرَفِ المُضافِ إليه وبيانُ فَضْلِهِ ومنزِلَتِه؛ حيثُ كان مُنْتَسِبًا لهؤلاءِ الآباءِ الرَّفيعَة مكانَتُهُم العظيمَة أقدارُهُمْ.

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/277.

(2) الرّاغب، المفردات، (ملل)، والدّوري، دقائق الفروق اللّغويّة في البيان القرآنيّ، ص: 144.

سرُّ التَّعبير بالآباء:

طِيبُ النَّسَبِ مُعتبَرٌ في رفْعِ مَنزِلةِ الإنسانِ حالَ الإيمانِ والاصطفاء

جاء التَّعبير القرآنيُّ بلفظ الآباء في قولِهِ: ﴿مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ﴾، مع أنَّ ذلك لا يَصْدق إلَّا على يعقوبَ عليه السلام، أمّا إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام؛ فهما أجدادٌ له، وذلك لإعلان كمال ارتباطه، بهذا النَّسب الكريم، وأنَّه من بيت نُبوَّة، فهو عليه السلام: «الكَرِيمُ ابنُ الكَرِيمِ ابْنِ الكَرِيمِ ابْنِ الكَرِيمِ يوسُفُ بنُ يَعْقوبَ بن إسْحاقَ بن إبْراهِيمَ»[1]، فهو من نسبٍ اصطفاه الله لحمل رسالته، وأصْلُ الكرَم: كَثرةُ الخيرِ، وقدْ جمَعَ يوسفُ عليه السلام مَكارمَ الأخلاقِ مع شرَفِ النُّبوَّةِ، وكَونِه ابنًا لِثلاثةِ أنبياءَ مُتَناسِلِينَ، ومع شرَفِ رِياسةِ الدُّنيا ملَكَها بِالعدْلِ والإحسانِ.

غرضُ جُمْلَةِ: ﴿وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ﴾:

بيانُ النَّسبِ؛ من التَّحدُّث بنعمة الله عليه توطئةً لقبول دعوته

ذَكَر يوسُفُ عليه السلام، ما يدلُّ على شرَفِ أَصْلِهِ، في قولِه: ﴿وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ﴾، فصرَّحَ بأنَّه من بيتِ النُّبوَّةِ؛ ليكونَ نظرُهُمْ إليه بعينِ الإجلالِ والإكْبارِ، وذَلكَ أَرْجى لقبولِ قَوْلِهِ، وأوقعُ في نفسِ سامِعيهِ[2]؛ ذلك لأنَّ يوسف عليه السلام، لم يكن معروفًا بنسبه الشَّريف عند المصريِّين، وكانوا يظنّون أنَّه من عامَّة النّاس، فلم يُعرِّف بنفسه في مرحلة وجوده في بيت العزيز، ولا في بداية سجنه، فلمّا حانت الفرصةُ، وأكرمه الله بالنُّبوَّة؛ أظهر نَسَبَه الشَّريف وأَرومَتَه المباركة أمام الفتيَيْن ومَن كان في السِّجن؛ تمهيدًا لإبلاغ دعوته وعرضها عليهم، وذلك بإعلان التَّوحيد، والدَّعوة إلى عبادة الواحد الأحد، وترْكِ عبادة ما سواه، ولم يكن قصده التَّباهي والتَّفاخر، إنَّما من باب التَّحدُّث بنعمة الله عليه، وأيضًا لبيان فطنة الدّاعية عند عرض دعوته، حتّى يُقبِل النّاس عليه ويسمعوا لقوله، عندما يعلمون أنَّه من بيت نُبوَّة.

(1) البخاريّ، صحيح البخاريّ، برقم: (4688)، والحديث من أفراد البخاريِّ على مسلم رحمهما الله.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 18/456.

نكتة عدم وصف الآباء بالنُّبوَّة أو الرِّسالة:

شهرةُ بيت النّبوّة الإبراهيمية في زمانهم مُغنيةٌ عن وصفهم

جاء التَّعبير القرآنيُّ على لسان يوسف عليه السلام، بذِكْر الآباء، في قوله: ﴿وَٱتَّبَعۡتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ﴾، من غير وصْفِهم بالنُّبوَّة أو الرِّسالة؛ وذلك لشُهرتهم في أمر النُّبوَّة، من والدٍ عن والدٍ عن جَدٍّ، فطوى التّصريحَ بهذا الوصف؛ إذ هم بيت النُّبوَّة والرِّسالة يعرفهم القاصي والدّاني في أيّامهم، حتّى الجبابرة يعرفون نُبوَّتهم ورسالتهم.

بلاغة القرآن ذكر الآباء وترتيبهم:

بيان عراقةِ يوسُفَ عليه السلام، في الفَضْلِ وَالشَّرَفِ وأصالته في النُّبوّة

جاء ترتيب القرآن في ذكر الآباء على هذا النَّسق من البدء بـ ﴿إِبۡرَٰهِيمَ﴾ عليه السلام؛ لأنَّه أصل هذه الأُبوَّة، وكُلٌّ من ﴿وَإِسۡحَٰقَ﴾ وَ﴿وَيَعۡقُوبَۚ﴾ معطوفٌ عليه، وهما من نَسْله، والغرضُ من ذلك زيادَةُ التَّقريرِ في ذهن السّامِعِ، بأنَّهُ من نسْلِ المذكورينَ؛ إذْ إنَّ هذا المَعْنى يفوتُ لو جاءَ النَّظْمُ القرآنيُّ: (واتَّبعتُ ملَّة إبراهيم وإسحاقَ ويعقوبَ) بدون كلمة ﴿ءَابَآءِيٓ﴾، فالجملَةُ في الآيةِ دالَّةٌ على شرفِ أصْلِ يوسُفَ عليه السلام، وأنَّهُ من بيتِ النُّبوَّة[1].

وكذلك بخلاف ما لو جاء التَّرتيب مُشوّشًا: (يعقوب، وإسحاق، وإبراهيم)، فهذا لا يدلُّ إلّا على النَّسب لا غير، وليس هذا هو غرض يوسف عليه السلام، إنَّما هو إعلان أصالته في الدَّعوة اتِّباعًا لآبائه المُرسَلين.

سرُّ عدم ذِكْرِ إسماعيل عليه السلام:

ساقَ سلسلة النَّسب حقيقةً؛ جريًا على نسق السّورة، ومراعاةً للمخاطَبين

النّاظر في هذه الآية القرآنيَّة، يجد أنَّ يوسف عليه السلام، لم يذكر إسماعيل عليه السلام في قوله: ﴿وَٱتَّبَعۡتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۚ﴾، مع أنَّه من آبائه كما ذُكر في آية سورة البقرة، في قوله تعالى: ﴿قَالُواْ نَعۡبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ﴾ [البقرة: 133]، وسرُّ ذلك اختلاف السّياق في كلٍّ منهما، ففي سياق سورة

(1) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 10/84.

البقرة، كان المخاطَب هو يعقوب ﷺ من بَنِيه، وكانت الإشارة إلى إسماعيل وإسحاق قد تقدَّمت في قوله تعالى: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبۡرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعۡقُوبُ﴾ [البقرة: 132]، وكلمةُ الأب تُطلَق على العمِّ والجَدِّ، ثمَّ جاء ذِكْره صراحةً في آية سورة البقرة: ﴿قَالُواْ نَعۡبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ﴾، أمّا سورة يوسف؛ فجاء ذِكْره موافقًا لسياق السّورة، حيث بدأت بقوله تعالى: ﴿وَيُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعۡقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيۡكَ مِن قَبۡلُ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَۚ﴾ [يوسف: 6]؛ فلم يذكر إسماعيل ﷺ في مطالعها، فكان قول يوسف ﷺ: ﴿وَٱتَّبَعۡتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ﴾، جريًا على نسق السّورة، وفيه إشارة أخرى إلى أنَّ يوسف ﷺ، أراد سلسلة النَّسب على باب الحقيقة، ولو ذكر إسماعيل ﷺ؛ لكان من باب المجاز، وأيضًا لأنَّ مَن يسكنون مصر معرفتهم بنبوَّة إبراهيم وإسحاق ويعقوب ظاهرة، إمّا بالمرور على مصر، كإبراهيم ﷺ، أو بالإقامة فيها كيعقوب ﷺ؛ أمّا إسماعيل ﷺ؛ فكان في الجزيرة العربيَّة، فمعرفتهم به بعيدة.

دلالة التَّعبير بالجملة الخبريَّة:

الجملةُ في قولِ الله سُبحانَهُ: ﴿وَٱتَّبَعۡتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۚ﴾، خبريَّةٌ يُرادُ بها إعلامُ الفَتَيَيْنِ بما تضمَّنَتْهُ - كَما هوَ الأصلُ فيها - ويُرادُ بها مع هذا الأصلِ: إرادَةُ لازِمِه، وهو تَرغيبُهما في الإيمانِ والتَّوحيدِ، وتنفيرُهُما عَمّا كانا عليهِ مِنَ الضَّلالِ والشِّرْكِ باللّه تَعالى، ووجهُ ذلك: أنَّه جَعَلَ اتِّباعَهُ ملَّةَ إبراهيمَ ﷺ، وعدولَهُ عن ملَّة الكُفْرِ بمنزلَةِ العِلَّةِ في نَيْلِهِ الكراماتِ[1]، فحَرِيٌّ بِمَنْ يسلُكُ هذا السَّبيلَ أن تنالَهُ مِنَ الكرامات بقدر تمسُّكه به.

اتِّباعُ الكِرامِ، سَبَبٌ للفوزِ بالمكْرُماتِ

عِلَّةُ الفصْلِ:

فُصِلَ قَوْلُ اللّه ﷻ: ﴿مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشۡرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيۡءٖۚ﴾ عَمّا قَبْلَهُ؛

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/277.

لوقوعِهِ استئنافًا بيانيًّا، فبيْنَ الجُملتيْنِ شِبْهُ كمالِ الاتِّصالِ؛ إذْ قولُ اللّه سُبحانَهُ: ﴿وَٱتَّبَعۡتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۚ﴾ يُثيرُ في ذِهْنِ السّامِعِ سؤالًا، وهوَ: ما حقيقَةُ تِلْكَ المِلَّة[1]؟ فجاءَ الجواب: ﴿مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشۡرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيۡءٖۚ﴾، فكانَتْ هذهِ الجملَةُ في قوَّةِ البيانِ لما اقْتَضَتْهُ الجملَةُ قَبْلَها؛ من كَوْنِ توحيدِ اللّه سُبحانَه صارَ بمنزلَةِ السَّجِيَّةِ لَهُمْ عُرِفَ بها أسلافُهُ من بينِ الأُمَم[2]، وعرَّفهم بها لنفسه منتهزًا هذه الفرصة لاعتناقهم الملّة الصّحيحة.

شبهُ كمال اتّصال من كون توحيدِ الله سجيةَ معاشِر الأنبياء

دلالَةُ التَّعْبيرِ بِصيغَةِ الجُحودِ:

في التَّعبيرِ بصيغَةِ الجُحودِ ﴿مَا كَانَ لَنَآ﴾، مِن قولِ اللّه ﷻ: ﴿مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشۡرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيۡءٖۚ﴾ مبالغَةٌ في نفْيِ صُدورِ الشِّرْكِ منهُمْ؛ وذلك لأنَّ صيغةَ الجُحودِ، تَقْتَضي المبالغَةَ في انتفاءِ الوصفِ عنِ الموصوفِ، وذلك لأنَّ أصلَ التَّركيبِ: (ما كُنّا مُشْركينَ)، فلمّا أُريدتِ المبالغَةُ في النَّفْيِ؛ عُدِلَ عَن نفي الفِعْلِ إلى نفي المصدَرِ الدّالِّ على الجِنسِ، وجُعِلَ نفيُ الجِنْسِ عن الشَّخصِ بواسِطَةِ نفي الاستحقاقِ؛ وذلك لأنَّه لا سبيلَ لِحَمْلِ اسمِ ذاتٍ، على اسمِ ذاتٍ، إلّا بواسِطَةِ حَرْفٍ مِن حروفِ المعاني، فصارَ التَّركيبُ: (ما كانَ لنا أَنْ نُشْرِكَ باللّه)[3].

مغزى المُبالَغَة في نَفْيِ صُدورِ الشِّرْكِ عَنْهُمْ

سِرُّ التَّعْبيرِ بِالفِعْلِ المُضارِعِ ﴿نُّشۡرِكَ﴾:

عُبِّرَ بالفِعْلِ المضارِعِ ﴿نُّشۡرِكَ﴾، من قَوْلِ اللّه ﷻ: ﴿مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشۡرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيۡءٖۚ﴾ لإفادَةِ التَّجدُّدِ والاسْتمرارِ، والمُرادُ استمرارُ النَّفْيِ لا نفيُ الاستمرارِ، والمَعْنى: ما كان لنا أن نُحْدِثَ شِرْكًا في أيِّ وَقْتٍ مِنَ الأوقاتِ، بَلْ نَحْنُ مستمرّونَ على التَّوحيدِ دائمونَ عليهِ[4].

الاسْتِمْرارُ على التَّوْحيدِ وَمُجانَبَةِ الشِّرْكِ؛ مقصدُ كلِّ دعوة راشدة

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/85.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/273.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/294: 12/273.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/85.

غرضُ التَّعبير بلفظ (الشِّرك):

التنديدُ بالقوم وبما كانوا يشركون بالله من أنواع المعبودات

جاء التَّعبير القرآنيُّ، بنفي الشِّرك، في قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ﴾؛ لأنَّ نفيه هو المُراد، في دعوة يوسف عليه السلام؛ لأنَّ القوم كانوا يُشركون بالله تعالى، فكان منهم مَن يعبد الملوك الفراعنة، ومنهم مَن يعبد التَّماثيل والأصنام والحيوانات، إلى غير ذلك من صور الشِّرك الَّتي وقعت، وهي تُنافي التَّوحيد، وأيضًا لأنَّ الشِّرك يختلف عن الكفر، فقد يُوجد من الشِّرك ما لا يكون كفرًا، كالشِّرك الأصغر والشِّرك الخفيِّ، ومنه ما يكون كفرًا، بل من أشدِّ أنواع الكفر، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾ [النّساء: 48، 116]، وفي قوله: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ﴾ [المائدة: 72].

دلالة التَّعبير بالمصدر المُؤوَّل:

شناعة الشِّرك، وصفٌ لا ينفكُّ عنه في كلِّ الدُّهور والعصور

جاء التَّعبير القرآنيُّ بالمصدر المؤوَّل ﴿مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ﴾، دون المصدر الصَّريح، كأن يُقال: (ما كان لنا الشِّرك)؛ للدَّلالة على المبالغة في نفي وقوع الشِّرك في أيِّ زمن، وهذا ما يدلُّ عليه المصدر المُؤوَّل في نفي الشِّرك مع مراعاة الزَّمن.

نُكْتَةُ التَّعْبيرِ بِلفظ الجلالة (الله):

أكثرُ أنواعِ الشِّرْكِ الواقِعَةِ في الأُمَمِ الشِّرْكُ في الأُلوهِيَّةِ

جاء التَّعبير بلفظ الجلالة (اللّه) في قولِ اللّه ﷻ: ﴿مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾؛ للإيماءِ إِلَى أنَّ الشِّرْكَ المَنفيَّ ههنا هوَ الشِّركُ في الألوهيَّةِ والعبادَةِ؛ لأنَّ اسمَ (اللّه) معناهُ: ذو الألوهيَّةِ والعبوديَّةِ على خَلْقِهِ أجمعينَ، وإنَّما نُفِيَ هذا النَّوْعُ مِنَ الشِّرْكِ؛ لكونِهِ أكثَرَ أنواعِ الشِّرْكِ الّتي وقَعَتِ الأُمَمُ فيها، ولأنَّ إقامَةَ توحيدِ الألوهيَّةِ يتضمَّنُ إقامَةَ توحيدِ الرُّبوبيَّةِ، ويستَلْزِمُ إقامَةَ توحيدِ الأسماءِ والصِّفاتِ.

معنى حَرْفِ الجَرِّ ﴿مِن﴾:

حرفُ الجرِّ ﴿مِن﴾ في قولِ اللّه ﷻ: ﴿مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ

نَفْيُ جَميعِ أَفْرادِ الشِّرْكِ يَقْتَضي كَمالَ تَوْحيدِ الأنبياء

مِن شَيْءٍ﴾، صِلَةٌ يُرادُ بها توكيدُ العموم، وذلك أنَّ لفظَ ﴿شَيْءٍ﴾ نكرةٌ في سياق النَّفْي ﴿مَا﴾، فدلَّ على العُموم، إلّا أنَّ هذا العمومَ ظاهرٌ، وليسَ نصًّا، فلمَّا دَخلَ عليه حرفُ الجرِّ ﴿مِن﴾، نقلَ العمومَ من كونِهِ ظاهرًا إلى كونِهِ نصًّا، وهذا أقْوى في نفي الشِّرْكِ؛ إذْ لَمْ يُبْقِ شيئًا من أفرادِهِ ثابتًا، فلا يُشْرِكون باللّه سبحانَهُ شركًا أكبَرَ، ولا شِرْكًا أصْغَرَ، ولا يُشْركونَ مع اللّه تَعالى مَلَكًا أو إنسيًّا أو جِنّيًّا أو غيرَ ذلكَ[1]، ويجوز أن تكون ﴿مِن﴾ للتَّبعيض، ويكون المُراد نفي أقلِّ القليلِ من الشِّرك، وهو أبلغ؛ لأنَّ نفي جزء الشَّيء يلزم منه نفي الكلِّ.

دلالَةُ دخول ﴿مِن﴾:

الرَّدُّ عَلى جَميعِ طَوائِفِ أَهْلِ الشِّرْكِ، منهجٌ قرآنيٌّ في الإقناع

جاء التَّعبير القرآنيُّ بقوله: ﴿مِن شَيْءٍ﴾، في قولِ اللّه ﷻ: ﴿مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾؛ لإفادة العموم المأخوذ من دخول ﴿مِن﴾ على ﴿شَيْءٍ﴾؛ لتَعُمَّ أصنافَ الشِّرْكِ المتكاثرةَ؛ إذْ مِنَ المشركينَ مَن يعبدُ الأصنامَ، ومنهُمْ مَن يعبُدُ النَّار، ومنهُم مَن يعبُدُ الكواكبَ العُلويَّةَ، ومنهُمْ مَنْ يعبدُ العقلَ، ومنهُمْ مَنْ يَعْبُدُ الأَناسيَّ، ومنهُم مَن يعبُدُ الجنَّ، وغير ذلكَ، ولفظُ ﴿شَيْءٍ﴾ كفيلٌ باستغراقِ ذلكَ كُلِّهِ، فكانَت هذه الجملَةُ ردًّا على كلِّ طوائِفِ أهلِ الشِّرْكِ، وإرشادًا إلى الدّين الحقِّ[2]. ولفظُ ﴿شَيْءٍ﴾ يجوزُ أن يُرادَ به المُشْرَك به، ويجوزُ أن يُرادَ بهِ المصدَرُ؛ أيْ: من شيءٍ مِنَ الإشْراكِ، فتَكونُ الجملَةُ شاملةً للإشْراكِ قليلِهِ وكثيرِهِ، ويلْزَمُ من عموم ذلكَ: عمومُ متعلِّقاتِهِ، فلا يُشْرَكُ باللّه سُبحانَهُ أحدٌ، مَلَكًا كانَ أو إنسيًّا أو جِنّيًّا[3].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/86.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 18/456 - 457.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/277، والآلوسيّ، روح المعاني: 6/432.

سرُّ فَصْلِ جملةِ ﴿ذَٰلِكَ﴾:

فُصِلَ قَوْلُ اللّه ﷻ: ﴿ذَٰلِكَ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ عَلَيۡنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ﴾، عَمّا قَبْلَهُ؛ زيادةً في الاستئناف والتَّرغيب في اتباع دين التَّوحيد، ولبيان أنَّ ذلك من فضل اللّه[1]، فمجانَبَتُهُمُ الشِّرْكَ ولزومُهُم جادَّةَ التَّوحيدِ، حاصَلٌ بسَبَبِ فضلِ اللّه تَعالى عَليْهِم وعلى النَّاسِ[2].

التّوحيدُ مَحْضُ فَضْلِ الله على عبده، ولا يكفي العمر لاستيفاء شُكره

دلالَةُ التَّعبير بالجملة الخَبَريَّةِ:

قولُ اللّه ﷻ: ﴿ذَٰلِكَ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ عَلَيۡنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ﴾ جملَةٌ خبريَّةٌ، أُريدَ بها التَّرْغيبُ في اتِّباعِ هذِهِ المِلَّةِ الحنيفيَّةِ ملَّةِ التَّوحيدِ، ببيانِ أنَّه فَضْلٌ مِنَ اللّه ﷻ[3].

التَّرْغيبُ في اتِّباعِ مِلَّةِ التَّوْحيدِ، بِبَيانِ شَيْءٍ من فَضائِلِها على العبيد

نُكْتَةُ التَّعبيرِ بِاسْمِ الإشارَةِ ﴿ذَٰلِكَ﴾:

اسمُ الإشارَةِ ﴿ذَٰلِكَ﴾ من قَوْلِ اللّه ﷻ: ﴿ذَٰلِكَ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ عَلَيۡنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ﴾، راجعٌ إلى التَّوحيدِ المدلولِ عليهِ بنفْيِ الشِّرْكِ، أو إلى المِلَّةِ الحنيفيَّةِ وتسْهيلِها، وجَعْلِ الفِطَرِ مُنقادَةً إليها مُقْبِلَةً عليها، وهُما متلازِمَانِ، وفي هذا دليلٌ على عُلوِّ شأنِ هذهِ المِلَّةِ التَّوحيديَّةِ وجلالَةِ قَدْرِها ورفيعِ منزِلَتِها[4].

بيانُ عُلوِّ شَأْنِ المِلَّةِ التَّوْحيدِيَّةِ، وجلالةِ قَدْرِها

معنى حَرْفِ الجَرِّ ﴿مِن﴾ في سياق الإشارة:

حَرْفُ الجَرِّ ﴿مِن﴾ في قَوْلِ اللّه سُبحانَهُ: ﴿ذَٰلِكَ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ عَلَيۡنَا﴾ دالٌّ على التَّبعيضِ[5]؛ أيْ: ما تقدَّمَ - مع جلالَتِه وعظَمتِه - هو بعضُ فَضْلِ اللّه تَعالى عَلَيْنا وعلى النَّاسِ؛ وذلكَ لأنَّ فضلَ اللّه ﷻ لا يحدُّهُ حدٌّ، ولا يُحْصيهِ مُحْصٍ.

فَضْلُ اللّه سُبْحانَهُ عَلى عِبادِهِ، عطاء ممدود، وإنعام غير محدود

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/273.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/86.
(3) ابن عاشور، التّحرير: 12/273.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/86، والآلوسيّ، روح المعاني: 6/433.
(5) الآلوسيّ، روح المعاني: 6/433.

دلالة التَّعبير بالفضل:

جاء التَّعبير القرآنيُّ بلفظ (الفضل) على لسان يوسف عليه السلام، في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ عَلَيۡنَا﴾؛ للدَّلالة على أنَّه ناشئٌ من تأييد الله ﷻ لآبائه بالنُّبوَّة والرِّسالة؛ فهذا فضلٌ لا يُنال بالدِّراسة ولا بالقراءة، إنَّما هو محضُ فضل الله فيمَن يصطفيه من عباده.

مَن عمَّهُ فضل الله؛ أحاطت به النِّعم، ورَعَتْه عين الله

دِلالَةُ الإضافَةِ إلى لفظ الجلالة ﴿ٱللَّـهِ﴾:

أُضيف الفضل إلى لفظ الجلالة ﴿ٱللَّهِ﴾، في قَوْلِ الله ﷻ: ﴿ذَٰلِكَ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ عَلَيۡنَا﴾، دون لفظ الرَّب؛ لأنَّ المقام هنا يتعلَّق بأمر العقيدة، وهو رأس التَّشريع على ألسنة الرُّسل؛ بخلاف التَّعبير بلفظ الرَّبِّ كما ورد في سورة البقرة، في قوله تعالى: ﴿لَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَن تَبۡتَغُواْ فَضۡلٗا مِّن رَّبِّكُمۡۚ﴾، فهو في سياق الدَّعوة إلى الأخذ بالأسباب، في موسم الحجِّ، معتمدين على الخالق المُنعِم الَّذي ربّاكم وأنشأكم، وكلُّ ذلك من خصائص الرُّبوبيّة، وفيه إشارة إلى أنَّ الإضافة يُرادُ بها تعظيمُ المُضافِ، وتشريفُهُ - وهوَ الفَضْلُ - إذْ كان مِن عندِ الله سُبحانَهُ الَّذي لَهُ جميعُ صفاتِ الجلالِ والجمالِ والكمالِ، والصّادِرُ من عنْدِ مَنْ هذا وصْفُهُ؛ عظيمٌ.

توحيدُ الله رأسُ التَّشريع على ألسنة الرُّسل وهو فضله المُتجلّي على عباده

معنى حَرْفِ الجَرِّ (عَلى) في سياق الفضل:

حرفُ الجَرِّ (عَلى) في قَوْلِ الله ﷻ: ﴿ذَٰلِكَ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ عَلَيۡنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ﴾ دالٌّ على العُلوِّ، وفي هذا إيماءٌ إلى أنَّ فضْلَ الله سُبحانَهُ قَدْ علاهُمْ، وغَمَرَهُمْ، وشملَهُمْ، وفيه إشارةٌ إلى أنَّ التَّوحيد عُلوٌّ، مصدره تشريع السَّماء؛ بخلاف الشِّرك فهو سُفليٌّ، مصدره الأهواء والشَّيطان.

فَضْلُ الله سُبْحانَهُ يَغْمُرُ العِبادَ، وَيَشْمَلُهُمْ بما ينفع ويُستفاد

فائدةُ (أل) في لفظ ﴿ٱلنَّاسِ﴾:

اللّامُ في ﴿ٱلنَّاسِ﴾ من قَوْلِ الله ﷻ: ﴿ذَٰلِكَ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ عَلَيۡنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ﴾ يُرادُ بها العَهْدُ؛ وهُم المؤمِنون أتباعُ الأنبياءِ

الّذينَ عصَمَهُم اللّه سُبحانَهُ مِن الشِّرْكِ[1]، ويجوزُ أن تكونَ اللّامُ للاستغراقِ[2]؛ والمَعنى: أنَّ اللّه تَعالى تفضَّل على النَّاسِ كافَّةً بعِصْمَتِهِ لَهُمْ مِنَ الشِّرْكِ، والواقِعونَ منهُم في الشِّرْكِ لا يسْتَحقّونَ اندراجَهُمْ في سِلْكِ النّاسِ، وإنَّما هُمْ أشْبَهُ بالأنعامِ والبهائِمِ، أو أنَّ العمومَ باعتبارِ أنَّ اللّه سُبحانَهُ تفضَّلَ على النّاسِ كافَّةً من جِهَةِ بيانِهِ لَهُمْ معالِمَ التَّوحيدِ ليَلْتَزموهُ، ومخاطرَ الشِّرْكِ ليجتَنِبوهُ.

أَجَلُّ نِعَمِ اللهِ تَعالى عَلى العِبادِ عِصْمَتُهُ إيّاهُمْ مِنَ الشِّرْكِ

دلالة الجمع في التَّفضُّل بين آل إبراهيم، وسائر النّاس:

في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ عَلَيۡنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ﴾ جَمَع القرآنُ الكريم بين فضل اللّه على بيت النُّبوَّة، مُمثَّلًا في آل بيت إبراهيم، وبين النّاس لبيان إظهار كرم اللّه على الكلِّ، فعدم شِرك الأنبياء، هو من كمال فضله سبحانه، وذلك عن طريق الاصطفاء، فهو طريقٌ سمعيٌّ، وأمّا عدم شرك الَّذين آمنوا باللّه عن طريق الرُّسل؛ فهو عن طريق البلاغ ونصب الأدلَّة.

إظهارُ كرمِ اللهِ على البشرِ كلِّهم بين الاصطفاءِ والإقناعِ

سِرُّ التَّعبير بحرف الاسْتِدْراكِ:

﴿وَلَٰكِنَّ﴾ من قولِ اللّه سُبحانَهُ: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ﴾ حرفُ استدراكٍ، وقد جيءَ بجملةِ الاستدراكِ للتَّصريح بأنَّ حالَ المخاطَبين في شِرْكِهم حالُ مَن يكْفُرُ النِّعْمَة، ولا يشْكُرُها؛ وذلك لأنَّ إرسالَ اللّه ﷻ الرُّسُلَ هداةً نعمةٌ يجبُ أن ينظُرَ النّاسُ فيها، فيعلَموا أنَّ الّذي يدعونَهُم إليه محضُ خيرٍ، وإنقاذٌ لَهُمْ مِن سوءِ العاقبَةِ في الدُّنيا والآخرةِ، ولأنَّ الإعراضَ عنِ النَّظَرِ في صدْقِ أدلَّةِ المُرسَلينَ كُفْرٌ بنعمةِ العقلِ والنَّظَرِ[3].

الإعْراضُ عن النَّظَرِ في صِدْقِ أَدِلَّةِ المُرْسَلينَ، كُفْرٌ بِنِعْمَةِ العَقْلِ وَالنَّظَرِ

(1) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 9/191، وأبو حيّان، البحر المحيط: 6/277، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/273.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/278.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/273 - 274.

نُكْتَةُ وَضْعِ الظَّاهِرِ مَوْضِعَ الْمُضْمَرِ:

زيادةُ الإيضاحِ والبيانِ، ولئلّا يُتوَهَّمَ رجوعُ حكم انتفاءِ الشُّكْرِ إلى مَجموعِ المذكورين

في قولِ اللّه ﷻ: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ﴾ وُضِعَ المُظْهَرُ موضِعَ المُضمَرِ، وذلك لتقدُّمِ ذِكْرِ لَفْظِ ﴿ٱلنَّاسِ﴾ في قولِهِ سُبحانَهُ: ﴿ذَٰلِكَ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ عَلَيۡنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ﴾، فكان مقتضى الظَّاهِرِ أَنْ يَرِدَ النَّظْمُ القرآنيُّ: (ولكنَّ أكثرَهُمْ لا يشْكُرونَ)، إلّا أنَّه عُدِلَ في السِّياق عن الإضْمارِ إلى الإظْهارِ؛ زيادَةً في الإيضاحِ والبيانِ، ولئلّا يُتوَهَّمَ رجوعُ حكم انتفاءِ الشُّكْرِ عنْ مَجموعِ النّاسِ بمَنْ فيهِم الأنبياءُ المدلولُ عليهم بضمير (نا) في ﴿عَلَيۡنَا﴾[1]، والواقِعُ أنَّ الأنبياءَ عليهم السلام لا يُتصوَّرُ منهُم تَرْكُ الشُّكْرِ، بخلافِ غَيْرِهِم.

وهذا العدول من باب تلطيف الخطاب، في دعوته للفتيَيْن ومَن معه في السِّجن، للإيناس والتَّرغيب في سماع القول، وفي هذا تعليمٌ للدُّعاة في مخاطبة المَدعوّين، وفيه إشارةٌ إلى التَّعريض بالفتيَيْن، ومَن معهما في السِّجن، بأنَّهم ليسوا من الشّاكرين، بل هم من الكافرين بنعمة التَّوحيد، حيث أشركوا مع اللّه آلهةً أخرى.

نُكْتَةُ حَذْفِ المَفْعولِ:

إفادة عموم عدم الشُّكر، ممّا أفضى بالأمم إلى سوء المصير

في قولِ اللّه سُبحانَهُ: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ﴾، إيجازٌ بالحذْفِ، وذلك لأنَّ الفِعْلَ ﴿يَشۡكُرُونَ﴾ مُتعَدٍّ، وقد طُوِيَ مفعولُهُ، والتَّقديرُ: ولكنَّ أكثر النّاسِ لا يشكرونَ اللّه تَعالى عَلى هذهِ النِّعَمِ الّتي أنعم عَلَيْهِم بِها؛ إذْ تَركوا توحيدَهُ بالعبادَةِ، وأشْرَكوا فيها مَعَهُ غيرَهُ[2]. ويجوزُ أن يكونَ الفِعْلُ مُنزَّلًا منزلَةَ اللّازِمِ، والمُرادُ أنَّه لا يصْدُرُ منهُم شُكْرٌ أصلًا، وهذا أَبْلَغُ في الذَّمِّ والتَّوبيخِ.

التَّوحيد رأس الشُّكر من العبد لربِّه، ورحمة الله لا تَقصُر عن العباد

سِرُّ التَّعْبيرِ عَنِ التَّوْحيدِ بِالشُّكْرِ:

الشُّكْرُ في قولِ اللّه ﷻ: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ﴾،

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 6/433.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/277، والخازن، لباب التّأويل: 2/529.

يُرادُ به التَّوحيدُ، وعُبِّرَ عن التَّوحيدِ بالشُّكْرِ؛ لأنَّ التَّوحيدَ مَظْهرٌ مِن مظاهِرِه[1]؛ حيثُ إنَّ الشُّكْرَ: ظُهورُ أثَرِ نِعْمَةِ اللهِ سُبحانَهُ على لِسانِ عَبْدِه ثَناءً واعْترافًا، وعَلى قَلْبِهِ: شُهودًا ومحَبَّةً، وعَلى جَوارِحِه: طاعةً وانْقِيادًا[2]، والتَّوحيدُ من جملَةِ هذه الأفرادِ، فيكونُ في الآيةِ مجازٌ مرسَلٌ بعلاقةِ الكُلِّيَّةِ.

سرُّ الخَتمِ بالفعل: ﴿لَا يَشْكُرُونَ﴾:

دِقَّةُ البَيانِ القُرْآنِيِّ في انْتِقاءِ الأَلْفاظِ المُلائِمَةِ لِسِياقاتِها

خُتِمت هذه الآيةُ بقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ بخلاف الآية الّتي بعدها فقد خُتمت بقوله: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾، فالمُلاحَظ اختلاف فاصلةِ الآيتَيْنِ، ففي الأولى ﴿لَا يَشْكُرُونَ﴾، وفي الأُخْرى: ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾، ووجهُ المغايرةِ بينَهُما: أنَّ الآيةَ الأولى تَقدَّمها قولُ اللهِ تَعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ﴾، فلمَّا كان ذلك ممَّا يستحقُّ الشُّكْرَ، وكان أكثَرُ النَّاسِ لا يشْكُرُ؛ ناسَبَه خَتْمُ الآيةِ بالشُّكْرِ، فقال سُبحانَهُ: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾، بخلافِ الآيَةِ الأُخْرى، فقد وردَ فيها: ﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾، وهذه حقيقَةٌ عَلِمها أكثَرُ النَّاس، إلّا أنَّهم لمّا جانَبوا العَمَلَ بها، جُعِلوا بمنزلَةِ مَن لا يَعْلَمُ، فقال سُبحانَهُ: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

بلاغةُ الاحْتِباكِ:

لُزومُ الشُّكْرِ يَلزم منه مُجانَبَةُ الشِّرْكِ وكلِّ ما يُفضي إليه

في قَوْلِ اللهِ ﷻ: ﴿مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيْءٍ ۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ حذفٌ مُقابَلِيٌّ، وهوَ المُسمَّى الاحتباكَ؛ وذلك لأنَّ قولَهُ: ﴿مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾ نفيٌ للشِّرْكِ عَنْهُم، وهو دالٌّ على إثباتِهِ بَعْدُ، وقولُه: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ فيه نفيٌ للشُّكْرِ

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 6/433.
(2) ابن القيّم، مدارج السَّالكين: 2/234.

عَنْ غيرِهم، مع دلالَتِهِ على ثبوتِهِ لَهُمْ أوَّلًا، فيكون مُؤدَّى نَظْمِ الآيةِ هكذا: ما كان لنا أن نُشْرِكَ باللّه من شيءٍ، ونترُكَ شُكْرَهُ، ولكنَّ أكثرَ النَّاسِ لا يشكرونَ، وَوَقَعوا في الشِّرْكِ[1].

تَوْجيهُ المُتَشابِهِ اللَّفْظِيِّ:

بَراعَةُ البَيانِ القُرْآنِيِّ في التَّصَرُّفِ بِالأَلْفاظِ إِظْهارًا وَإِضْمارًا

قال اللّه سُبحانَهُ: ﴿ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾، وقالَ ﷻ: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ۝٧٣﴾ [النّمل: 73]، فأُظْهِرَ لفظُ (النَّاسِ) في الآيةِ الأولى، وأُضْمِرَ في الآيةِ الأُخْرى، ووجهُ ذلك: أنَّ الآيةَ الأولى كان السِّياقُ أَكثرَ تعلُّقًا بالمُشْركينَ، وقد أُريدَ زيادَةُ التَّقرير والتَّمكين، فناسَبَ ذلكَ الإظْهارُ، فَقالَ تَعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾، بخلافِ آيَةِ النَّمْلِ فقد صُدِّرت بقولِ اللّه سُبحانَهُ: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾، فلمّا تقدَّم تأكيدُ الخبرِ بأكثَرَ من مؤكِّدٍ؛ ناسبَه الاكتفاءُ بالضَّميرِ، فقال ﷻ: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ۝٧٣﴾ [النّمل: 73].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الشُّكْرُ والحَمْدُ:

بَيْنَ الشُّكْرِ وَالحَمْدِ عُمومٌ وَخُصوصٌ وَجْهِيٌّ

الحَمْدُ هو الشُّكْرُ عندَ الأَخْفَشِ وجماعةٍ[2]، وذهَب جمعٌ من أهل العِلْمِ، منهُمُ الخطّابيُّ إلى أنَّ الشُّكرَ أعمُّ مُطْلقًا مِنَ الحمد، فقال: (الحمد نوعٌ، وَالشُّكر جِنْس، فكلُّ حَمْدٍ شُكْرٌ، وليس كُلُّ شُكْرٍ حمدًا)[3]، وعكس الجَوْهَرِيُّ، فجعل الحَمْدَ أعمَّ مُطلقًا مِنَ الشُّكر[4]. والصَّوابُ أنَّ بين الحمدِ والشُّكْرِ عمومًا وخصوصًا وَجْهِيًّا؛ فالحمد أعمُّ مُتَعَلَّقًا أخصُّ آلةً، والشُّكْرُ: أخصُّ مُتَعَلَّقًا وأعمُّ آلةً.

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/86 - 87.

(2) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (حمد)، وذكر بِهرام الدّميريّ في تحبير المختصر: 1/62، أنَّه ظاهرُ قولِ سيبويه.

(3) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة: (حمد).

(4) الجوهريّ، تاج اللّغة وصحاح العربيّة: (حمد).

وذلك أنَّ الحَمْدَ يكون في مقابِلِ النِّعمةِ، ويكون ابتداءً، قال الأزهريُّ: (الحمدُ قَدْ يكون شُكْرًا للصَّنيعَة، وَيكون ابْتِدَاءً للثَّناء عَلَى الرَّجُلِ)[1]، بل قد يُحمدُ على المُصيبَةِ[2]، وذلك في حَمْدِ الله تعالَى؛ إذْ يكون على كلِّ حالٍ؛ بخلاف الشُّكْر فلا يكون إلّا في مُقابَلَةِ نِعْمَةٍ، قال في القاموسِ: "الشُّكْرُ (بالضَّمِّ): عِرْفانُ الإحْسانِ ونَشْرُه، وَلا يَكونُ إلّا عن يَدٍ"[3]. فتَحَصَّل مِن هذا أنَّ الحَمْدَ أعمُّ مُتعلَّقًا مِن الشُّكر.

أمَّا الآلةُ؛ فالحَمْدُ يكون باللِّسان والقلبِ دون الجوارحِ؛ إذْ إنَّ حقيقتَهُ أنَّهُ "الإخبارُ بمحاسِنِ المحمودِ معَ المحبَّةِ له"[4]، بخلاف الشُّكْرِ فَإنَّه يكون بالقلب واللِّسان والجوارح، كما قال الله سُبْحانَه: ﴿ٱعْمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًاۚ﴾ [سَبَأٌ: 13]، فتقرَّر من هذا أَنَّ الشُّكْرَ أعمُّ من جهة الآلَةِ.

(1) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة: (حمد).

(2) كمَا جاء مِن حديث أبي موسى الأشعريِّ ﷺ أنَّ رسول الله ﷺ قال: «إِذَا مَاتَ وَلَدُ العَبْدِ، قَالَ الله لِمَلَائِكَتِهِ: قَبَضْتُمْ وَلَدَ عَبْدِي، فَيَقولونَ: نَعَمْ، فَيَقولُ: قَبَضْتُمْ ثَمَرَةَ فُؤَادِهِ، فَيَقولونَ: نَعَمْ، فَيَقولُ: مَاذَا قَالَ عَبْدِي؟ فَيَقولونَ: حَمِدَكَ وَاسْتَرْجَعَ، فَيَقولُ الله: ابْنوا لِعَبْدِي بَيْتًا فِي الجَنَّةِ، وَسَمّوهُ بَيْتَ الحَمْدِ»، رواه التِّرمذي، سنن الترمذي، الحديث رقم: (1021).

(3) الفيروزابادي، القاموس المحيط: (شكر).

(4) ابنُ تيميَّة، مجموع الفتاوى: 6/259.

﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ٣٩﴾ [يوسف: 39]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الرَّبط بين ثنايا القصَّة، لإقامَةِ الدَّليلِ عَلى صحَّة التَّوحيد

لَمَّا أقامَ يوسُفُ عليه السلام الأدلَّةَ على ما يدينُ اللّه تَعالى بهِ من الدِّين الحنيفِ اتِّباعًا لصفْوَةِ الخَلْقِ من الأنبياءِ؛ أتبَعَهُ بدليلٍ على فسادِ كُلِّ ملَّةٍ غيرِ ملَّةِ الإسْلامِ الّذي يدعو إليه كلُّ الرّسل والأنبياء، فقال سُبحانَهُ حكايةً عَنْهُ: ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ﴾[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَٰصَٰحِبَيِ﴾: الصّادُ والحاءُ والباءُ تدلُّ تصريفاتُها على مقارنَةِ شيءٍ ومقارَبَتِه[2]، ومنهُ الصّاحبُ، وهوَ المُلازِمُ، سواءٌ أكانَ إنْسانًا أم حَيوانًا أم مَكانًا أم زَمانًا، من غيرِ فَرْقٍ بَيْنَ أنْ تَكونَ مُصاحَبَتُه بالبَدَنِ - وهوَ الغالِبُ والأصلُ - أوْ بالعِنايةِ والهِمَّةِ.

ولا يُقال في العُرف إلّا لِمَن كثُرت ملازمته، والمصاحبةُ والاصطحاب أبلغُ من الاجتماع؛ لأنَّ المُصاحبة تقتضي طولَ لُبثه؛ فكل اصطحابٍ اجتماعٌ، وليس كلُّ اجتماعٍ اصطحابًا[3].

وقولُ اللّه سُبحانَه: ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ﴾ أي: يا ساكِنَي السِّجن، وسُمّوا أصحابًا له؛ لملازَمَتِهم لَهُ[4].

2) ﴿ءَأَرۡبَابٞ﴾: الرَّاءُ والبَاءُ تَدورُ تَصَاريفُهَا علَى مَعانٍ، منهَا: إِصْلَاحُ الشَّيءِ والقِيَامُ عَلَيْهِ، ومنهُ يُقَال: رَبَّ فلانٌ ضَيْعتَه؛ إذَا قامَ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/87.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (صحب).
(3) الرّاغب، المفردات: (صحب).
(4) النّسفيّ، مدارك التنّزيل: 2/111.

علَى إصْلَاحِهَا[1]، ومنهُ: التَّربيَةُ؛ وهِي إنشاءُ الشَّيءِ حالًا بعْدَ حالٍ إلَى حدِّ التَّمام، ولَا يكونُ ذلكَ إلَّا بإصْلَاحٍ وعنايَةٍ[2].

ومنهُ سُمِّي الرَّبَّانيّون بِهَذَا الاِسْمِ؛ لقِيَامِهِم بتَدْبير أُمورِ النَّاسِ وإصْلَاحِهَا[3].

ويُطْلَقُ الرَّبُّ بِمَعْنَى المعبودِ؛ وذلك لِمَا فِيه مِن وصْفِ إصْلَاحِ عَابدِيهِ وقِيامِه علَى تدْبيرِ شؤونِهم، ولا يُطْلَقُ مُعرَّفًا باللَّام إلَّا علَى اللّه سُبْحَانَهُ، وجمع الرَّبِّ: أرباب، قال تعالى: ﴿ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾، ولم يكن من حقِّ لفظ (الرّبِّ) أن يُجمع إذا كان إطلاقه لا يتناول إلّا اللّه تعالى؛ لكن أتى بلفظ الجمع فيه على حسب اعتقاداتهم لا على ما عليه ذات الشّيء في نفسه[4].

3) ﴿مُّتَفَرِّقُونَ﴾: الفاءُ والرّاءُ والقافُ تدلُّ اشتقاقاتُها على تمييزٍ بين شيئَيْن[5]، ومنه سُمِّيَ القرآنُ الكريم فُرْقانًا؛ لأنَّه يُمَيِّزُ بينَ الحقِّ والباطلِ[6]، وسُمِّيَ عُمَرُ رضي الله عنه (الفاروقَ) لذلكَ[7]، والمُرادُ بقولِ اللّه تَعالى: ﴿ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ﴾؛ أيْ: أَأَربابٌ شَتّى خيرٌ؟[8].

4) ﴿ٱلْقَهَّارُ﴾: القافُ والهاءُ والرّاءُ تدورُ اشْتِقاقاتُها على مَعْنى الغَلَبةِ والعُلوِّ[9]، يُقالُ: أخَذَ فلانٌ فلانًا قَهْرًا؛ إذا أخَذَهُ من غَيْرِ رِضاهُ[10]، ومن أسماءِ اللّه القَهّارُ؛ وهو الّذي قَهَر خلقَهُ بقدرتِهِ وسُلطانِهِ، فصرَّفهم على ما أرادَه طوعًا أو كَرْهًا[11]، وهو الّذي خضَعت له الرّقابُ، وَذلَّت له الصِّعابُ؛ فَلا يَحْدُث حادِثٌ ولا يَسْكُن ساكِنٌ إلّا بإِذْنِه، وما شاءَ كانَ، وَما لَمْ يَشَأْ لَم يَكُنْ[12].

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (رب).
(2) الرَّاغب، مفردات ألفاظ غريب القرآن: (رب).
(3) نَشوان الحِمْيَرِيّ، شمس العلوم: (رب).
(4) الرَّاغب، مفردات ألفاظ غريب القرآن: (رب).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (فرق).
(6) ابن دُريد، جمهرة اللّغة: (فرق).
(7) ابن سِيده، المُخصَّص: 3/409.
(8) ابن جرير، جامع البيان: 16/104.
(9) ابن فارس، مقاييس اللّغة، ونشوان الحِميريّ، شمس العلوم: (قهر).
(10) الخليل بن أحمد، العين: (قهر).
(11) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (قهر).
(12) سعد القطحانيّ، الثّمر المُجتنى، ص: 56 - 57.

المَعْنى الإجْماليُّ:

تعدُّد الأربابِ دليلُ بطلانها، وتهافت الشِّرك وتهاويه

بيَّنت الآيةُ تلطُّفَ يوسفَ عليه السلام في حسن الاستدلالِ على فساد ما عليه قوم الفَتَيَيْن من عبادة الأصنام الّتي اتخذوها شركاء من دون اللّه، فقال لهم: أعبادَةُ أَرْبابٍ شَتّى مُتَفَرِّقين ما بينَ أشجارٍ وأحجارٍ وملائكةٍ وأمواتٍ، وآلهةٍ لا تَنْفَعُ، ولا تضُرُّ، ولا تُعطي، ولا تَمنع: خيرٌ، أَم عبادَةُ المعبودِ الواحدِ في ذاته وصفاته وأفعاله الّذي لا ثانيَ لَهُ في قُدْرتهِ وسُلْطانِه، فهو الّذي قَهَرَ كُلَّ شَيْءٍ فَذَلَّله وسخَّره، فأطاعَهُ طوعًا وكرهًا؟[1].

وتُرشدُ الآيةُ الكريمةُ إلى وجوبِ اغتنامِ الفُرصِ للدّعوة إلى اللّه تعالى، وإلى إقامة الدَّليل لصاحبَي السِّجن على فسادِ الشِّرك، وإلى أَنَّ يوسفَ عليه السلام لم يتعجَّل إجابةَ صاحبَي السِّجن بتفسير حلميهما كما طلبا، بل بدأَ يمارسُ معهما ما أعدَّه اللّه له من النُّصح والإرشادِ لعباده، والهدايةِ إلى توحيدِه وعبادته، كما هو شأن آبائه المُرسلين عليهم السلام، وإلى أنَّ مِن المعلوم أنَّ مَن له صفاتُ الكمالِ في ذاته وصفاتِه وأفعالِه، فلا شريك له، وهذا شأنُه ووصفُه خيرٌ من الآلهةِ المُتفرّقةِ الّتي هي مجرَّدُ أسماءٍ، لا كمالَ لها ولا أفعالَ لديها[2].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالة الفَصْلِ:

تنويع الجُمل بين الإنشاء والخبر، ملمحٌ بيانيٌّ أصيل

فُصِلَ قولُ اللّه عز وجل: ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ﴾، عمّا قَبْلَهُ؛ لوقوعِهِ استئنافًا ابتدائيًّا، وقد صُدِّر بتوجيهِ الخطابِ إلى الفَتَيَيْنِ عَنْ طريقِ النِّداءِ[3] المُسترعِي سمعُهما إلى ما يقوله؛ للاهتمام به، وحسَّنَ الفصلَ، وقوّاهُ مجيءُ الجملةِ في الآيةِ إنشائيَّةً،

(1) ابن جرير، جامع البيان: 16/104، والسّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 398.
(2) مجمع البحوث الإسلاميّة، التّفسير الوسيط: 4/325، والسّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 398.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/274.

بخلافِ الجملَةِ الّتي قَبْلَها، فإنَّها خبريَّةٌ، والغالبُ تَرْكُ عَطْفِ الإنشاءِ على الخَبَرِ.

نُكْتَةُ أُسْلوبِ النِّداءِ، وأثرها في السّياق:

اسْتِرْعاءُ سَمْعِ المُخاطَبِ، مقصدٌ في البلاغ مُبين

وَجَّه يوسُفُ عليه السلام الخطابَ لَهُما بأسلوبِ النِّداءِ في قوله: ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ﴾ اسْتِرْعاءً لِسَمْعِهِما إلى ما يقولُهُ[1]، وذلك لجلالَةِ المقولِ لَهُما؛ إذْ تعلَّق بأعظَمِ حقيقَةٍ، وهي توحيدُ اللّه سُبحانَهُ، ومجانبةُ الشِّرْكِ بِهِ، ولأنَّ النِّداء يكون فيما له وقعٌ عظيمٌ في النُّفوس، وتتمحَّض فيه النَّصيحة.

سِرُّ النِّداءِ بـ (يا):

للفظ المواساة والتَّلطُّف أثرٌ بالغ في مسح الأحزانِ في الأزمات الشِّداد

جاءَ النِّداءُ بـ (يا) في قولِ اللّه سُبحانَهُ - صَدْرَ الآية الكريمة - حكايةً عن يوسُفَ عليه السلام: ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ﴾، وهي أداةٌ تُستعمَلُ في الأصْلِ لنداءِ البَعيدِ، والحالُ أنَّ الفَتَيَيْنِ قَريبانِ، وذلكَ لِلإيماءِ إلى غفلَتِهما عمَّا يُوَجَّهُ إليهما، وهَيمانِهما في شِعابِ الضَّلالِ، وفيه إشارةٌ أيضًا إلى عَظَمَةِ مضمونِ النِّداءِ[2] لما له من وقعٍ خاصٍّ في نفس صاحبَي السِّجن من إزالة المرارة الَّتي يعيشونها في هذا الظَّرف العصيب، فهم في حاجة إلى كلِّ لفظ جميل يَحمل معنى التَّكريم لهما.

نُكْتَةُ نِدائِهما بـ ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ﴾:

التَّوَسُّلُ بِحُسْنِ اللَّفْظِ إلى ما يُؤَدّي إلى قَبولِ الوَعْظِ، منهج في البيان أثير

في نداءِ يوسُفَ عليه السلام الفَتَيَيْنِ بوصفِ صُحْبَتِهما السِّجْنَ ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ﴾؛ لكونِ السِّجْنِ مكانًا شاقًّا، تكثُرُ فيه الأحزانُ، فَتَصْفو فيه المودَّةُ، وتتمَحَّض النَّصيحةُ، فكأنَّ المَعنى: يا ساكنَيْ هذا المكان الشّاقِّ إنّي ذاكرٌ لكما أمرًا، فقولوا فيه: الحقَّ، ولا تَعْدلوا عن ذلكَ؛ إذْ أَنْتُم في شدَّةٍ، ولا يَنْبَغي لِمَنْ كان هكذا أن يَميلَ عَنِ الحقِّ[3]. فكان

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/274.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/87، والآلوسيّ، روح المعاني: 6/434، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/274.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 6/434.

في ندائِهما بذلك تحبُّبٌ إليهما وتودُّدٌ؛ لأنَّ النُّصح فيه ألمٌ نفسيٌّ، فمن الحكمة في النّاصح أن يصحبه بجميل العبارات ولطيف المعاني، وممّا يذكر في سرِّ ندائهما بهذا الوصفِ دونَ اسمَيْهما، إمَّا لعدَمِ علمِهِ بِهِ؛ لكونِ هذا الحوارِ حاصلًا بعدَ دخولِهما بيسيرٍ، قبلَ أن تطولَ العِشْرَةُ بينهُما وبينَه، وإمّا لِلْإيذانِ بما حَدَثَ مِنَ الصِّلَةِ بَيْنَهُما، وهي صِلَةُ المُماثَلَةِ في الضَّرّاءِ والإلْف في الوَحْشَةِ؛ لكونِ الموافقَةِ في الأحوالِ من جُملةِ الصِّلاتِ الَّتي تقومُ مقام صِلَةِ القرابَةِ، أَوْ تزيدُ عليها[1].

دِلالَةُ الإضافَةِ في: ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ﴾:

إضافةُ لفظِ الصّاحبَيْنِ إلى السِّجْنِ في قولِ اللّه سُبحانَهُ: ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ﴾، والمُراد به المكان الّذى يُسجن فيه المُعاقَبون؛ لأنَّ الصّاحب لا يُضاف إلى السِّجن إلّا بمعنى المكان؛ فأضيف لكونِهما ساكِنَيْهِ، كما في (أَصْحابِ الجَنَّةِ)؛ لِكَوْنِهم ساكنيها[2]. ويجوزُ أَن تَكون الإضافَةُ من الإضافة إلى الظَّرْفِ، بمعنى: يا صاحبيَّ في السِّجْنِ، كما يُقال: يا سارِقَ اللَّيلَةِ، والمعنى: يا سارقًا في اللَّيلةِ؛ إذِ اللَّيلَةُ ليسَتْ بمسروقَةٍ، وإنَّما هي مسروقٌ فيها[3].

المُساكنة إلفٌ وعِشرة، ولظرف المكان تأثيرٌ في الوجدان

معنى الاسْتِفْهامِ في: ﴿ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ﴾:

الهمزةُ في ﴿ءَأَرۡبَابٞ﴾ من قولِ اللّه سُبحانَهُ: ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ﴾ همزةُ استفهامٍ، والاستفهامُ ههنا خارجٌ عن أصلِهِ؛ إذْ لا يُرادُ به طلبُ العِلْمِ بشيءٍ لَم يكن معلومًا من قبلُ، وإنَّما المُرادُ به الإنكارُ مَع تقريرِهما بإبطالِ ما هُما عليهِ مِنَ الدّيانَةِ[4] بقوله: ﴿ءَأَرۡبَابٞ﴾، فأبرز ذلك في صورة

من طُرُقِ الدَّعْوَةِ إلى الله إبْطالُ ما عَلَيْهِ أَهْلُ الباطِلِ مِنَ الدِّيانَةِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/274.
(2) ابن عطيّة، المُحرّر الوجيز: 3/245، والقُونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 10/329.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/278، والخازن، لباب التّأويل: 2/529.
(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 18/458، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 10/87، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/274.

الاستفهام حتّى لا ينفر طبعُهما من المفاجأة بالدَّليل، من غير استفهام، فمن فقه الدَّعوة أنْ يُؤخذَ الجاهلُ بدرجة يسيرة من الاحتجاج يتقبَّلها، فإذا قبلها ترقَّى معه الدّاعي إلى غيرها، ثمَّ كذلك أبدًا حتّى يصلَ إلى الحقِّ، وإنْ أُخِذ الجاهلُ بجميعِ المذهب الّذي يُساق إليه دفعةً؛ أباهُ وعانَدَه[1]. وفي هذا بيانٌ لدور الاستفهام في عرض الدَّعوة على المَدعوِّ من حمله على المشاركة بإعمال عقله، وإشعاره بكيانه الفكريِّ.

سِرُّ التَّعبيرِ بِـ﴿ءَأَرۡبَابٞ﴾:

آثر القرآنُ الكريم التَّعبير بلفظ ﴿ءَأَرۡبَابٞ﴾ دون (آلهة)، في قولِ اللّه ﷻ: ﴿ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ﴾؛ بناءً على زعمهم واعتقادهم فيها، وفي هذا تنفيرٌ لهم من عبادتهم للأرباب؛ لأنَّ الإقرار بربوبيَّته سبحانه، المُتمثِّل في الخَلقِ والملكِ، والتّدبيرِ أمرٌ أقرَّ به جميع الخلق، ولم يُنكره إلَّا المُكابر، فكان التَّعبير بلفظ ﴿ءَأَرۡبَابٞ﴾؛ لتنفيرهم من عبادتهم لها.

تبشيعُ مظاهر الشِّرك، مسلكٌ تربويٌّ في القرآن الكريم

دلالَةُ الوَصْفِ: ﴿مُّتَفَرِّقُونَ﴾:

وُصِفَتْ معبوداتُ المُشركينِ بالتَّفرُّقِ في قولِ اللّه سُبحانَهُ: ﴿ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ﴾ للإشارَةِ إلى اختلافِها كِبَرًا وصِغَرًا، ولونًا وشكلًا، وذلك بسَبَبِ أنَّ صانِعَها وناحِتها يَجْعَلُها على تِلْكَ الصّورَةِ، فكان في وصفِها بالتَّفرُّقِ إيماءٌ إلى كونِها عاجزةً مقهورةً مغلوبَةً، ولذا جُعِلَ ذلك مُقابلًا لوصفِ اللّه سُبحانَهُ بالقهّارِ[2].

عَجْزُ المَخْلوقاتِ وَتَقاصُرُها عَنْ مَقامِ الرُّبوبِيَّةِ الأسمى

وفيه إشارةٌ إلى أنَّ أحوال الأرباب المُتفرِّقة ما بين أشجارٍ وأحجارٍ وملائكةٍ وأمواتٍ، وغير ذلك من أنواع المعبوداتِ الّتي يتَّخذُها المشركون، الّتي يعتريها الفساد، ويتطرَّق الخَلل إليها؛ لأنَّ

(1) ابن عطيّة، المُحرّر الوجيز: 3/245.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 18/458.

وصف التَّفرُّق يحمل في طيّاته معنى الضَّعف والعجز، فبنية اللَّفظ تُبطل عبادَتها.

علَّةُ التَّعبير بصيغة الخيريَّة:

التَّنَزُّلُ في الجِدالِ وَالمُحاوَرَةِ، مسلك مقنع، لإلْزامِ المُخالِفِ بالحُجج

آثر القرآنُ الكريم التَّعبيرَ بـ ﴿خَيْرٌ﴾ من قولِ الله ﷻ: ﴿ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾؛ لأنَّ البعض عَدَّه من باب أفعل التَّفضيل، وأصلُهُ: (أَخْيَرُ)، وهذه المفاضَلةُ بينَ الأرباب وبينَ الله ﷻ خرَجَتْ على سبيلِ الفَرضِ والتَّقديرِ، والمَقصود: لَو سلَّمنا أنَّه صدَرَ مِنَ الأرباب ما يَقْتَضي الخيرَ، فهلَ هي خيرٌ أَمِ الله الواحدُ القهّارُ؟[1].

وممّا يُذكر في هذا المقام أنَّنا إذا وضعنا لفظ ﴿ءَأَرْبَابٌ﴾ ووصْفَها بالتَّفرُّق في كفَّة، وفي الكفَّة الأخرى جاء التَّعبير القرآنيُّ بلفظ ﴿ٱلْوَٰحِدُ﴾، موصوفًا بصفة القهّار؛ لوجدنا أنَّ التَّعبير بلفظ ﴿خَيْرٌ﴾، يدعو السّامِعَيْنِ في السِّجن للإجابة عن هذا الاستفهام، فإذا رفضوا تلك المقارنة؛ كان ذلك اعترافًا ببطلان ما هم عليه، وإذا لم يرفضوا، وقارنوا؛ فإنَّ هذا الحوار يسوقهم إلى اكتشاف ما هم فيه من الباطل، فكان للتّعبير بهذا اللَّفظ أثره النَّفسيُّ عند الفتيَيْن المسجونيْن، من رفع الرّوح المعنويَّة عندهما.

بَلاغة أُسلوبِ الحوار، وأثرها في الموضوع المُثار:

قوَّةُ حُجَجِ أَهْلِ الحَقِّ، سبيلٌ لإثْباتِ تَوْحيدِ الله سُبْحانَهُ

في قولِ الله ﷻ: ﴿ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾، تقرير لإبطال ما هُما عليه منَ الدّيانَة بالحُجَّة العقليَّة، المُسمّاة عندَ جماعة منَ البلاغيّين بالمذهب الكلاميّ، وتسميتُها بَحثًا أَولى[2]، وتقريرُ هذه الحُجَّة أنَّه رتَّب لهما الاستدلالَ على طريقَة الخَطابَة؛ لأنَّها أقربُ لفَهم عامَّة النّاس، فَفَرَضَ لهُما إلهًا متفرّدًا بالرُّبوبيَّة والأُلوهيَّة كما هو اعتقادُ الملَّة التَّوحيديَّة الَّتي أخبرَهُم بها، وفَرضَ

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 18/459.
(2) ابن عبد الحقّ العُمريّ، درر الفرائد المُستحسنة في شرح منظومة ابن الشِّحنة، ص: 443.

لَهُما آلهةً مُتفرّقةً، كلّ منها يتصَرَّف في أشياءَ مخصوصة، من أصناف الموجودات لا يتعدّاها إلى غَيره، كما هو اعتقادُ ملَّة القبط، ثُمَّ فرضَ لَهُما أمرًا مُركَّبًا منَ الحالَين المتقدّمَين؛ وهو المفاضلَةُ بين حال الإلَه المتفرّد بالرُّبوبيَّة والألوهيَّة والأحوال المختلفَة المتفرّقة، للآلهَة المتعدّدَة؛ ليتوصَّلَ بذلكَ إلى إلزامهما بأنَّ حالَ المُتفرّد بالرُّبوبيَّة والألوهيَّة أَعظَمُ وأجلُّ، فيَرجعان عن اعتقادهما الشّركيّ إلى الاعتقاد الحقّ[1].

دلالَةُ تَنْكِير: ﴿خَيْرٌ﴾:

نُكِّرَ لَفْظُ ﴿خَيْرٌ﴾ من قولِ اللّه سُبحانَهُ: ﴿ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾؛ للدَّلالة على نفي الخيريّة عن الأرباب مطلقًا، فلا خير فيها في أيِّ وجهٍ مِنَ الوجوهِ وأيِّ حالٍ منَ الأحوالِ لكما ولغيركما في كلِّ ما تطلبون وتحتاجون إليه.

نفيُ الخيريّة عن الأربـاب مـن أيِّ وجهٍ مِن الوجوهِ

غرضُ وصف لفظ الجلالة بـ ﴿ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾:

خُتِمت الآية القرآنيَّة بوصف اللّه سبحانه بـ ﴿ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾، في مقابلة قوله تعالى: ﴿ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ﴾ فوصْفُ سبحانه بالواحد القهّار في غاية التَّناسب؛ لأنَّه قابلَ تفرُّق الأرباب بوصف ﴿ٱلْوَٰحِدُ﴾ الَّذي ينفي تعدُّد الآلهة، والّذي لا شبيه له ولا نظير، فهو الكاملُ في جميع صفاته وأفعالِه، وبوصف ﴿ٱلْقَهَّارُ﴾ ما يدلُّ عليه لفظ التَّفرُّق من العجز والضَّعف، ويكون المعنى: أمتعدِّدون سمّيتموهم أربابًا، وهم عَجَزَةٌ مقهورون خيرٌ أم اللّه الواحد الّذي يستحيل عليه التَّكثُّر بوجهٍ من الوجوه، القهّار الّذي لا موجود إلّا وهو مُسخَّر تحت قدرته؟[2].

إعلان وحدانيته من آثار صفاته، وكمال ألوهيّته

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/274 - 275.

(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 12/244.

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الواحِدُ والأَحَدُ:

الواحِدُ هوَ المُنْفَرِدُ بِالذّاتِ في عَدَمِ المِثْلِ وَالنَّظيرِ

ذهبَ بعضُ أَهْلِ العربيَّةِ إلى أنَّ الواحِدَ والأَحَدَ بمعنًى واحدٍ[1]، ومالَ آخرونَ إلى التَّفريقِ بينَهما، وحاصِلُ الفَرْقِ يرْجِعُ إلى أَوْجهٍ[2]: أحدُها: أنَّ الأحدَ أخصُّ مِنَ الواحِدِ، فإنَّ الواحِدَ يدخلُ في الأَحَدِ، من غيرِ عكسٍ. ثانيها: أنَّ الأَحَدَ أقْوى في النَّفْيِ، وذلك لأنَّك إذا قُلْتَ: فلانٌ لا يُقاوِمُهُ واحدٌ؛ جاز أن يُقال: ولكِنْ يُقاوِمُهُ اثنانِ، بخلافِ الأحدِ، فإنَّك إذا قلتَ: فلانٌ لا يُقاوِمُهُ أحدٌ، لَمْ يَجُزْ أَنْ تقولَ: لكِنْ يُقاوِمُهُ اثنانِ. ثالثُها: أنَّ الواحِدَ هوَ المُنْفَرِدُ بالذَّات فِي عَدم المِثْل والنَّظير، والأحدَ هو المُنْفَرِد بِالمَعْنَى.

وذكرَ بعضُ أهلِ العِلْمِ فرقًا آخرَ: وهوَ أنَّ الواحد يُستعمَلُ في الإثباتِ، والأحدَ في النَّفْيِ[3]، وهذا الفرقُ فيه نظَرٌ، ويردُّه قولُ اللّه سُبحانَهُ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ [الإخلاص: 1]. وفرَّق بينَهُما ثعلبٌ: بأنَّ الواحِدَ يَدْخُلُ في العَدَدِ، بخلافِ الأَحَدِ، فإنَّهُ لا يَدْخُل فيهِ، إلَّا أنَّ أبا حَيَّان اعترضَ عليه بِأَنَّهُ يصحُّ أن يُقالَ: أَحَدٌ وَعِشْرونَ ونحوُهُ، فَدَخَلَهُ العدَدُ[4].

(1) الخليل بن أحمد، العين: (وحد).
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 32/359 - 360، وابن الأثير، النِّهاية في غريب الحديث والأثر: (وحد).
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 32/360.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/571، والقِنّوجيّ، فتح البيان: 15/447.

﴿مَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسۡمَآءٗ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۚ أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٤٠﴾

[يوسف: 40]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

بسطُ تصريح يوسف للفتيَيْن بحقيقة ما يعبدون

لَمَّا ألقى يوسفُ عليه السلام على الفتيَيْن قضيَّةَ المقارنة بين عبادة الأرباب المُتفرِّقة الّتي لا حول لها ولا قوَّة، وبين عبادة اللّه الواحد القهَّار، وعلم منهما موافقة جوابهما لمُراده، دفعه ذلك إلى مواصلة الإرشاد وبيان سقوط آلهتهما عن درجة الاعتبار رأسًا، فضلًا عن الأُلوهيَّة، فأخبر عن حقيقة ما يعبدون، بقوله تعالى: ﴿مَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسۡمَآءٗ سَمَّيۡتُمُوهَآ﴾[1].

وكذلك لَمَّا كانَ جوابُ السُّؤالِ المتقدِّم في قوله: ﴿ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ﴾ لِكُلِّ مَن يَعْقِلُ ويُنصِفُ أَنْ يقولَ: اللّه خَيْرٌ؛ أَشار إلى ذَلِكَ الجوابِ بِقَطْعِ القَوْلِ بَعْدَ ذلكَ الاستفهام في سَلْبِ صَلاحِيَّتِهم قَبْلَ هذا الإمكانِ بِعَدَمِ حَياتِهِمْ، وعَلى فَرْضِ حَياتِهم بِالجَزْمِ بِعَجْزِهِمْ، فقال سُبحانَهُ: ﴿مَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسۡمَآءٗ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ﴾[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تَعۡبُدُونَ﴾: العبوديَّة: إظهار التّذلّل، والعبادة أبلغ منها؛ لأنَّها غاية التّذلّل، ولا يستحقها إلا مَن له غاية الإفضال، وهو اللّه

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 12/244.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/88.

تعالى، قال تعالى: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ﴾، والعابدُ هو المُوحِّد لله ربِّ العالمين[1]. فهذه هي العبوديّةُ الحقَّة، ولا تكون إلا لله تعالى.

2) ﴿أَسْمَآءٌ﴾: الاسم: ما يُعرف به ذات الشّيء، وأصله (سمو) بدلالة قولهم: (أسماء) و(سُمَيٌّ)، وأصله من السّموِّ: وهو الّذي به رفع ذِكْر المُسمّى، فيُعرف به، قال تعالى: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣٠﴾ [النّمل: 30]، ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ﴾ [البقرة: 31]، ومعرفة الأسماء لا تحصل إلّا بمعرفة المُسمَّى وحصول صورته في الضّمير، فقوله: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ﴾ معناه: أنَّ الأسماء الّتي تذكرونها ليس لها مُسمّيات، وإنّما هي أسماءٌ على غير مُسَمَّى، إذْ كان حقيقة ما يعتقدون في الأصنام بحسب تلك الأسماء غير موجودٍ فيها[2].

3) ﴿سُلْطَٰنٍۚ﴾: السّينُ واللّامُ والطّاءُ تدورُ حولَ مَعْنى القوَّةِ والقَهْرِ، ومن ذلكَ السَّلاطَةُ، وهِيَ مِنَ التَّسلُّطِ، وهوَ القَهْرُ، ومنهُ سُمِّيَ السُّلْطانُ سُلطانًا[3]، وسُمِّيَتِ الحُجَّةُ سُلْطانًا؛ لِما يَلْحَقُ مِنَ الهُجومِ عَلى القُلوبِ[4]، والمعنى المحوريُّ للجَذر: هو التّمكُّن من القهر من بعيد، ومنه: "دابَّةٌ سَلْطَة الحافر"، وكذلك: "بَعيرٌ سَلْط الخُفِّ"، فهُما يتمكَّنان من الوصول إلى الأبعاد السّحيقة؛ لشدّة تحمُّلهما، ومنه السّلطان: الحاكم؛ فهو ذو سُلْطة؛ أيْ: قهر يُطوِّع به الرّعيةَ وإن لم يكونوا تحت عينيه[5].

والمُراد بالسُّلطان في قولِ الله سُبحانَهُ: ﴿مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍۚ﴾: الحُجَّةُ[6].

4) ﴿ٱلْحُكْمُ﴾: الحاءُ والكافُ والميم تدلُّ اشتقاقاتُها عَلى المَنْعِ[7]، وقيَّده الرَّاغبُ بكونِهِ مَنْعًا للإصلاحِ[8]. ومِن هذا البابِ قولُ جريرٍ:

أَبَنِي حَنِيفَةَ أَحْكِموا سُفَهَاءَكُمْ *** إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمُ أَنْ أَغْضَبَا[9]

(1) الرّاغب، المفردات: (عبد).
(2) الرّاغب، المفردات: (سما).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سلط).
(4) الرّاغب، المفردات: (سلط).
(5) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (سلط).
(6) النَّسفيُّ، مدارك التّنزيل: 2/112.
(7) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (حكم).
(8) الرّاغب، المفردات: (حكم).
(9) جرير، ديوان جرير، ص: 47.

فإنَّ مَعْناهُ: امْنَعوهُم مِنَ التَّعَرُّض لي[1]، ومنهُ حَكَمَةُ الدَّابةِ؛ لأنَّها تَمْنَعُهَا من مُخالفة الرَّاكب[2]، والحُكم بالشَّيء أن تقضي أنَّه كذا، أو ليس بكذا، سواءٌ ألزمتَ ذلك غيرَه أم لم تلزمه، قال تعالى: ﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِٱلْعَدْلِۚ﴾ [النّساء: 58][3].

والحُكمُ في قول الله سُبحانَهُ: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ قضاءُ الله الشَّرْعِيُّ.

5) ﴿ٱلدِّينُ﴾: الدّالُ والياءُ والنّونُ تدلُّ تَصْريفاتُها عَلى مَعْنى اللُّزوم، فَتَأْتي في العربيَّةِ على أَوْجُهٍ تَرْجِع كلُّهَا إلى شيءٍ يَلْزَمُ الإنسانَ، أو يَلزمُهُ الإنسانُ[4]، وأَرْجَعَ ابنُ فارسٍ هذهِ المادَّةَ إلى جِنْسٍ مِنَ الانقيادِ والذُّلِّ[5]، وهذا والَّذي قبلَهُ مُتلازمانِ.

والدِّين يُقال للطّاعة والجزاء، واستعير للشَّريعة، والدِّين كالمِلَّة، لكنَّه يُقال اعتبارًا بالطّاعة والانقياد للشَّريعة[6]. وَوَرَدَ الدِّين في القرآن على أَوْجُهٍ، بلغَ بها ابنُ الجَوْزِيِّ إلى أحَدَ عَشَرَ وجْهًا[7].

والمُرادُ بالدِّين في قولِ الله سُبحانَهُ: ﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ ما شرعه الله سُبحانَهُ على ألسنَةِ أنبيائه ورسُلِه.

6) ﴿ٱلْقَيِّمُ﴾: القافُ والواوُ والميمُ تَدورُ تَصاريفُها عَلى أَمْرَيْنِ؛ أحدهُما: جماعةُ ناسٍ، والآخرُ: انتصابٌ أو عَزْمٌ[8]، ومنهُ قولُهمْ: خُلقٌ قيِّمٌ؛ أيْ: حسنٌ مستقيمٌ، وقولُ الله ﷻ: ﴿فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ۝٣﴾ [البّينة: 3]؛ أَيْ: مستقيمَةٌ، تُبيِّنُ الحقَّ من الباطلِ، وَمنهُ قولُ الله تَعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ [الرّوم: 30]؛ أي: المستقيمُ الّذي لا زَيْغَ فيهِ ولا مَيْلَ عَنِ الحقِّ[9].

المَعْنى الإجْماليُّ:

في هذه الآية الكريمة تفنيدٌ لعقائد الجاهليّة وأوهامِها، وذلك من إخبار يوسف عليه السلام

(1) القاسم بن سلَّام، غريب الحديث: (حكم).
(2) ابن الأثير، النِّهاية في غريب الحديث والأثر: (حكم).
(3) الرّاغب، المفردات: (حكم).
(4) أبو هلال العسكريُّ، الوجوه والنّظائر، ص: 217.
(5) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (دين).
(6) الرّاغب، المفردات: (دين).
(7) ابنُ الجوزيّ، نُزهة الأعين النَّواظر في علم الوجوه والنَّظائر، ص: 297 - 299.
(8) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (قوم).
(9) ابن منظور، لسان العرب: (قوم).

لَمن معه في السّجن، وذلك بقوله: ما تَعْبدون مِن دونِ اللّه إلّا أسماءً، جَعَلْتُموها أَنْتُم وآباؤُكم أَرْبابًا، جَهْلًا منكُم وضَلالًا، وهِيَ لا شَيْءَ، ولَيْسَ فيها شَيْءٌ مِن صِفاتِ الأُلوهِيَّةِ، ما أَنْزَلَ اللّه سُبحانَهُ مِن حُجَّةٍ أو بُرْهانٍ عَلى صِحَّتِها، بل أنزل اللّه الحُجة بالنّهي عن عبادتها وبيان بُطلانها بقوله: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾؛ أيْ: ما الحُكْمُ الحَقُّ إلّا للّه تَعالى وَحْدَهُ، لا شَريكَ لَهُ، أَمَرَ أَلّا تَنْقادوا، ولا تَخْضَعوا لِغَيْرِهِ، وأَنْ تَعْبُدوهُ وَحْدَهُ، وهَذا هو الدّينُ المُسْتَقيمُ المُوصِلُ إلى كُلِّ خَيْرٍ، وما سِواهُ فإنَّهُ غيرُ مُسْتَقيم، بَلْ مُعْوَجٌّ يوصِلُ إلى كُلِّ شَرٍّ، ولَكِنَّ أَكْثَرَ النّاسِ يَجْهَلونَ ذَلِكَ، فلا يَعْلَمون حَقيقَتَهُ[1].

تَوْحيدُ الله هوَ الدِّينُ القيِّم الموصِلُ إلى كُلِّ خَيْرٍ، وما سواه وَهْمٌ وهباءٌ

وتُرشدُ الآيةُ الكريمةُ إلى أنَّ الحُكمَ للّه وحده، فهو الّذي يأمرُ وينهى، ويشرِّعُ الشرائع ويسنُّ الأحكام، وإلى أنَّ عدمَ العلم من أكثر النّاس بالفرق بين عبادةِ اللّه وحدَه لا شريك له وبين الشركِ، حصلَ منهم ما حصلَ من أنواع الجهل والانحراف في عبادة اللّه تعالى؛ إذ إنَّ قدماءَ المصريّين كانوا يَفرضون آلهةً للزَّرع، وآلهةً تتوالد وأخرى تتقاتل، كلُّها فروضٌ لا وجود لها، وهي آلهةٌ لا تصلحُ للألوهيّة، وأنَّها أسماءٌ بلا مُسمَّيات وأُلوهيَّتُها دعوى بغير دليلٍ، وأنَّ المستحقَّ للألوهيّة هو اللّه وحده، وإلى أنَّ يوسفَ عليه السلام قام بواجبه في دعوة صاحبَي السِّجن إلى عبادة اللّه وحده، وإخلاصِ الدّين له، فيحتمِلُ أنَّهما استجابا وانقادا، فتمَّت عليهما النِّعمةُ، ويحتملُ أنَّهما لم يزالا على شِرْكهما، فقامت عليهما - بذلك - الحُجَّة[2].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

عِلَّةُ الفَصْلِ:

تصحيحٌ للمسار العقديِّ بإبْطالِ وُجودِ الآلهة المُفْتَعلة

فُصِلَ قولُ اللّه سُبحانَهُ: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً

(1) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 398، ونخبة من أساتذة التّفسير، التّفسير المُيسّر، ص: 240.
(2) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 398، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3825.

﴿سَمَّيْتُمُوهَآ﴾، عمّا قَبْلَكُم، لِكَوْنِها بمنزلَةِ البيانِ لِما قَبْلها، وذلك لأنَّه أومأَ إلى بُطْلانِ دينِهِم الشِّرْكِيِّ؛ بإثارَتِه الشَّكَّ في صحَّة إلهيَّةِ آلهتِهم المُتفرِّقينَ، ثُمَّ صرَّح بمضمونِ ذلكَ بالتَّنصيصِ على إبطالِ وجودِ تلكَ الآلهَةِ على جِهَة الحقيقَةِ[1]، فكانَ في هذه الآيةِ بيانٌ للجملَةِ المتقدِّمَةِ، فبينَ الجُملتيْنِ كمالُ الاتِّصالِ.

غرضُ التّعقيبِ بـ﴿مَا تَعْبُدُونَ﴾:

ما سمّاه البشر من الآلهة، لا يرقى إلى أن يكون معبودًا

جاء التَّعبير القرآنيّ لبيان الواقع الَّذي كان عليه الفتيان وأهلُ السِّجن ومَن على شاكلتهم في أمر عبادتهم لأربابهم الَّتي هي مُفرَّغة من جميع خصائص الألوهيَّة، فهي مجرَّد أسماء كاذبة باطلة لا مُسمّىً لها في الحقيقة، ويُؤكِّد ذلك تصدير الآية بأسلوب النَّفي، بقوله تعالى: ﴿مَا﴾، وفي هذا دلالة على نفي حقيقة الألوهيَّة لهذه الأرباب الّتي عبدوها من دون اللّه.

معنى النَّفي في: ﴿مَا تَعْبُدُونَ﴾:

تنقيَةُ الخواطر من زيف المعبودات الوهميَّة، هو مفتاحُ العبوديَّة

صُدِّرت الآية بالنَّفي، بقوله تعالى: ﴿مَا﴾، وذلك لنفي الخواطر الَّتي تتنازعهم في شأن آلهتهم الَّتي كانوا يعبدونها، ونفي الخرافات الّتي كانت تجول بخواطرهم في كيفيَّة ترك هذه الأرباب والخروج عن طاعتها؛ فكان النّفي لكشف زيفها وعجزها، وأنَّها من مخلوقات اللّه الّتي لا تملك شيئًا مع اللّه ﷻ.

براعةُ التَّعبير بالمضارع المَنفيِّ:

تجديد عبادة الأوثان الباطلة، دليل على خلل في الفطرة والعقل

دل التَّعبير بالمضارع المَنفيِّ في قوله تعالى: ﴿مَا تَعْبُدُونَ﴾، على تجدُّد عبادتهم لهذه الآلهة، واستمرارهم في تقديسها، مع أنَّ ذاتها غير موصوفة بصفات الألوهيَّة، وهذا يدلُّ على عدم سلامة فطرتهم وخيبة عقولهم.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/276.

دَلالَةُ العُدولِ عَنِ التَّثْنِيَةِ إلى الجَمْعِ:

تَعْميمُ الخِطابِ لِجَميعِ أَهْلِ السِّجْنِ، مراعاةً لواقعيَّة القصَّة

جاءَ الخطابُ في الآية المُتقدِّمَةِ موجَّهًا لصاحِبَي السِّجْنِ في: ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ﴾، ثُمَّ عُدِلَ عَن ذلكَ إلى خطابِ الجَمْعِ في قولِه: ﴿مَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسۡمَآءً﴾، ولم يَرِدِ النَّظْمُ القرآنيُّ على نحو: (ما تَعْبُدانِ من دونِه إلّا أَسْماءً)؛ وذلك لأنَّهُ ﷻ، أرادَ جميعَ مَن في السِّجْنِ ممَّنْ يُشْرِكُ باللّه سُبحانَهُ[1]، أَو أنَّ الخطابَ بـ ﴿تَعْبُدُونَ﴾ لَهُما ولقومِهما ممَّن هُم على دينِهما[2].

سرُّ التَّعبير بـ: ﴿مِن دُونِهِۦٓ﴾ ودلالة الإضمار:

كلُّ ما عُبِدَ من دون الله مَهين، وسُخفُ اعتقاد المشركين وسَفاهة أحلامهم

آثر السّياقُ الكريمُ التَّعبيرَ بقوله تعالى: ﴿مِن دُونِهِۦٓ﴾؛ لأنَّ لفظ (دون) يدلُّ على الدُّونيّة والانحطاط، لكل ما يُعبد من دون اللّه، فكلُّ ما يُعبد من دون اللّه حقير ومَهين، ومنها هذه الأرباب الَّتي عبدوها من دون اللّه. وعبَّر كذلك بالإضمار دون الإظهار، كأن يردَ النَّظم: (من دون اللّه)؛ لكنَّه عدل إلى الإضمارِ في هذا المقامِ لكونه أبلغَ في التّعبير عن سُخف اعتقاد المشركين وسَفاهة أحلامهم؛ لأنَّه يُشير إلى أنَّ الأصنام والأوثان الّتي يعبدونها ليست سوى أسماء أطلقَها عليها المشركون، وليس لها أيُّ وجودٍ حقيقيٍّ في المنفعة والمضرَّة لهم؛ ولذلك فإنَّ التّعبير بقوله تعالى: ﴿مِن دُونِهِۦٓ﴾ بالإضمار يؤكِّد أنَّ عبادة الأصنام والأوثانِ هي عبادة باطلة، وأنَّ العبادة الحقيقة لا تكون، ولا تصحُّ إلَّا للّه وحده اللّه، وفيه تنزيهٌ للرَّبِّ بالاسم الجليل في سياق تقرير عقيدة المشركين الوثنيّة، وما حسَّنته لهم الشّياطين، وذَهبَتْ بهم عن الفطرة الحنيفيَّة إلى الأباطيلِ، وحرَّمَتْ عليهم ما أحلَّ اللّه لهم، وأمرَتْهم أنْ يُشركوا باللّه ما لم يُنَزِّلْ به سُلطانًا، دونَ حُجَّةٍ وبُرهان.

(1) الخازن، لُباب التّأويل: 2/529.

(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/278، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/278.

دلالة تقديم ﴿مِن دُونِهِۦٓ﴾:

تقديم لفظ الدّون مناسبةً لما سبق، وتوبيخٌ وتقريع لعُبَّاد هذه الأرباب

جاء التَّعبير القرآنيُّ بتقديم ﴿مِن دُونِهِۦٓ﴾ على قوله: ﴿أَسۡمَآءً﴾؛ لأنَّه لمّا تقدَّم في الآية السّابقة إبطالُ أمر اتِّخاذ الأرباب، في قوله تعالى: ﴿ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ﴾ ناسب هنا تقديم ﴿مِن دُونِهِۦٓ﴾، وللإشارة إلى تبكيت وتوبيخ مَن يعبدون هذه الأرباب من دون الله.

بلاغةُ التَّعْبيرِ بِالأَسْماءِ في باب العبادة:

آلِهَةُ المُشْرِكينَ مُجَرَّدُ أَسْماءٍ لا تنفع ولا تضرُّ

الأسماء تُوضع عادةً للدَّلالة على المُسمّى، بحيث إذا نطقنا الاسم؛ نستحضر سورة المُسمَّى، كما نضع لذات الشَّخص اسمًا، فإذا أُطلق هذا الاسم؛ انصرف إلى تلك الذّات، فإذا وُضِع اسمٌ لمُسمًّى غير موجود، كما فعل الفَتَيان وأهلُ مصر، حيث وضعوا أسماء آلهة لا حقيقة لوجودها، فهم بذلك يكونون قد وضعوا الاسم على غير مُسمًّى[1]، ولذلك ذمَّهم القرآن على ذلك، حيث عبَّر عن آلهتهم بالأسماء في قوله: ﴿مَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسۡمَآءً﴾؛ للتَّنبيه على عَدَمِ صلاحِيَّتِها لشيءٍ ممَّا يُعْتَقَدُ فيها، فهي مُجرَّدُ أسماءٍ؛ أيْ: ألفاظٍ أحدثَها هؤلاءِ وآباؤهم، فهي فارغَةٌ لا مُسمَّياتٍ تحتها، ولا مطابِقَ لها في الخارِجِ، وليْسَ فيها شيءٌ مِنَ الحقيقَةِ؛ إذْ هي مخلوقَةٌ، وليسَتْ بخالقَةٍ، ومَرزوقَةٌ وليسَتْ برازقَةٍ، وزائلَةٌ وليسَتْ بِباقِيَةٍ، وما كان هذا وصْفَهُ؛ لا يستحقُّ أن يكونَ إلهًا[2].

سرُّ التَّعبير بالأسماء:

آلهتهم أسماءٌ بلا مسمًّى، كقرباتهم، عبادة بلا معبود

جاء التَّعبير القرآنيُّ بذِكْر الأسماء في قوله: ﴿مَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسۡمَآءً سَمَّيۡتُمُوهَآ﴾، والمُراد سمَّيتموها آلهةً، وهي لا يوجد

(1) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ، ص: 6956/11.

(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/278، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/278، وطنطاويّ، التَّفسير الوسيط: 7/362.

فيها من صفات الأُلوهيَّة شيء؛ لذلك لم يذكر القرآن المُسمَّيات لإسقاطها عن مرتبة الوجود، وللإشارة بأنَّ تسميتَهم لها غايةٌ في البطلان، فهي أسماءٌ بلا مُسمًّى، كعبادتهم بلا معبود[1]، ولذلك عدل التَّعبير عن وصفها بالآلهة، أو الأرباب إلى الأسماء المُجرَّدة الّتي لا دلالة فيها.

دلالَةُ التَّعبير بالأسماء عن الذَّوات:

لفظُ ﴿أَسۡمَآءٗ﴾ من قولِ اللّه ﷻ: ﴿مَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسۡمَآءٗ سَمَّيۡتُمُوهَآ﴾ إمّا أن يكون المُرادُ بها: ذواتُ الأصْنام، وإمَّا أن يكون المَعْنى: أنَّ عبادَتَهُمْ حاصلَةٌ لمعانٍ تدلُّ عليها الأسماءُ، ولكنَّها ليسَتْ موجودَةً في الأصنامِ الّتي عَبَدوها من دونِ اللّه تَعالى، ويكون قولُهُ: ﴿سَمَّيۡتُمُوهَآ﴾ بمنزِلَةِ: وضَعْتُموها، والضَّمير (ها) راجِعٌ للتَّسمياتِ[2].

مَعْبوداتُ المُشْرِكينَ أَسْماءٌ مُجَرَّدَةٌ عَنْ مَعانيها، لها شكلٌ ظاهريٌّ بلا جوهر

براعةُ أُسْلوبِ القَصْرِ:

في قولِ اللّه ﷻ: ﴿مَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسۡمَآءٗ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم﴾ أسلوبُ قَصْرٍ، وطريقُهُ: النَّفْيُ ﴿مَا﴾ والاستِثْناءُ ﴿إِلَّآ﴾، وهوَ من قصْرِ الصِّفةِ على الموصوفِ قصرًا إضافيًّا؛ فهي مجرَّدُ أسماءٍ لا مُسمَّياتِ لَها، فَلَيْسَ لها في الخارِجِ وجودٌ حقيقيٌّ إلَّا أسماؤُها[3]، وهذه الأسماء هي من مخترعاتهم، ومبناها قائمٌ على محض الجهل والضّلال.

مَعْبوداتُ المُشْرِكينَ مُجَرَّدُ أَسْماءٍ وهميَّة، لا قيمة لمُسمّياتها في ميزان العبوديَّة

دلالة التَّعبير بـ: ﴿سَمَّيۡتُمُوهَآ﴾:

عبَّر القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿سَمَّيۡتُمُوهَآ﴾؛ للإشارة إلى أنَّ هذه الأرباب من بنات أفكارهم، فهُم الَّذين صنعوها، وجعلوا لها أسماءً من باب الجهل والضَّلال؛ لأنَّ قدماء المصريّين كانوا يجعلون

ما يخترعه العقل القاصر لا يرقَى إلى أن يُعبد ويبقَى

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 12/244.
(2) ابن عطيّة، المُحرّر الوجيز: 3/246.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/276.

آلهةً للزُّروع، وآلهة تتوالد وتتقاتل، وكلُّها فروض لا وجود لها، فهي أسماءٌ سمَّوها وعبدوها، وتتابعت أجيالهم على عبادتها[1].

بلاغة الحذف:

حقارة المعبودات من دون الله خالق الأرض والسَّموات

في قولِ اللّه سُبحانَهُ: ﴿مَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسۡمَآءٗ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم﴾ إيجازٌ بالحذْفِ، وذلك لأنَّ فِعْلَ (سَمّى) يتعدَّى لمفعولَيْن، وقدِ اسْتَوْفى مفعولَهُ الأوَّل، وهو الضَّمير (ها)، وحُذِفَ مفعولُهُ الثّاني، والتَّقدير: سمَّيتُموها آلهةً[2]، وفي طَيِّ المفعولِ الثّاني تأكيدٌ لكونِ هذهِ المعبوداتِ لا حقيقةَ لها، وتربيةٌ لما اقتضاهُ المقامُ من إنْزالها عن مرتبةِ الوجودِ، وإعلامٌ بأنَّ تسميتَهم باطلَةٌ حيث كانت بلا مسمًّى[3]، وفي حذْفِهِ أيضًا إيماءٌ إلى شناعةِ صنيعِهم في اتِّخاذِهم غيرَ اللّه تَعالى آلهةً.

بَلاغَةُ الإدْماجِ في: ﴿أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم﴾:

سَدُّ مَنافِذِ الاحْتِجاجِ الباطِلِ، عَلى أَهْلِ الشِّرْكِ والضَّلال الزّائل

قولُه: ﴿أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم﴾ تفسيرٌ لِلضَّمير المرفوعِ (الواو)، في قولِهِ قبْلُ: ﴿سَمَّيۡتُمُوهَآ﴾، والمُرادُ به الرَّدُّ على آبائِهم، قطْعًا لِعذْرهم؛ لئلّا يقولوا: إنَّا وجدنا آباءنا كذلكَ يَفْعَلون، فسُدَّت عليهم منافِذُ الاحتِجاج، وبُيِّنَ لهم أنَّ آباءَهُم كانوا على ضلالٍ وجهْلٍ، فلا يصحُّ على هذا أن يقْتَدوا بهِمْ في ضلالِهم وجَهْلِهم، وفي الجملَةِ إدماجٌ يُرادُ به تلقينُ العُذْرِ للفَتَيَيْنِ؛ ليسْهُلَ عليهما تركُ عبادَةِ آلهةٍ متفرِّقةٍ متعدِّدَةٍ[4].

غرض تقديم ﴿أَنتُمۡ﴾:

من اتَّبع ضلالةَ مَن سبق، أُلحِقَت به التَّبِعة وإن كان لحقّ

قدَّمَ سياقُ القرآنِ الكريم تسمية الآلهة المزعومة إلى الأبناء وأسندها إليهم في قوله تعالى: ﴿سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم﴾، مع أنَّ أصل التَّسمية صادرٌ من آبائهم السَّالفين، ودور هؤلاء الأخلافِ في

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير 7/3825.
(2) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 7/362.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/278.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/276، وطنطاويّ، التّفسير الوسيط: 7/362.

عبادتها، هو دور المُتَّبع لآبائه فيما اختاروه، وابتدعوه، ثم رضاهم بها؛ لذلك كان تقديم ضمير الخالفين ﴿أَنتُمْ﴾ على الأسلاف، من باب التَّسجيل على الخلف بهذا الاتّباع الضّالِّ، فكأنَّهم هم الّذين قاموا بوضع هذه الأسماء الموهومة المُخترعة في قوله تعالى: ﴿سَمَّيْتُمُوهَآ﴾.

بلاغة الكناية في جملة نفي إنزال السلطان:

نَفْيُ إيجادِ دَليلٍ عَلى إلهيَّةِ غَيْرِ الله سُبْحانَهُ

في التَّعبير بنفي إنزال السُّلطان، في قولِ الله ﷻ: ﴿مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ﴾، كنايَةٌ عن نَفْيِ إيجادِ دليلٍ، يدلُّ على إلهيَّةِ معبوداتِهم في شواهِدِ العَالَم[1]. وفي هذا سدٌّ لطُرُقهم في توجيه صحَّة عبادة الأصنام عليهم أَحكمَ سدٍّ، فإنَّهم إن قالوا: إنَّ الله تعالى قد أنزل حُجَّة في ذلك، رُدّوا بقوله: ﴿مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ﴾. وفي العبارَةِ تلطُّفٌ في مقام المُناظَرَة؛ وذلك لأنَّ الله سُبحانَهُ لم يُنزلْ سلطانًا وحُجَّةً على كونِها آلهةً، بَلْ أنزلَ الأدلَّةَ والبراهينَ القاطِعَةَ عَلَى عَدَمِ استحقاقِ شيءٍ دونَ الله تَعالى للألوهيَّة، فذكر يوسُفُ عليه السلام نَفْيَ الحُجَّةِ على كونِها آلهةً، ولم يُصرِّحْ بإثباتِ الحُججِ الرَّبانيَّة، على نفي كونها آلهةً؛ تلطُّفًا مَع السَّجينَيْن ليكونَ ذلك أَدْعى لقبولِهما دَعْوتَهُ.

سرُّ التَّعبير بنفي الإنزال في: ﴿مَّآ أَنزَلَ﴾:

التَّوحيدُ مصدره إنزالُ وحي الله، واتِّخاذُ الأربابِ فعلٌ أرضيٌّ من أوهام البَشَر

عبَّر القرآن الكريم بنفي الإنزال، في قوله: ﴿مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ﴾؛ للدَّلالة على أنَّ أمر التَّوحيد مصدره العلوُّ، وإنزال وحي الله من السَّماء على ألسنة الرُّسل، وأمر اتخاذ الأرباب والشُّركاء، إنَّما هو مِن فعلٍ أرضيٍّ لا ارتباطَ له بتشريع ربِّ السّماوات والأرَضين، وإنَّما هو من أوهام البشر.

دلالة التَّعبير بلفظ الجلالة:

دلّ التَّعبير بلفظ الجلالة ﴿ٱللَّهُ﴾ في مقام الإنزال، على أنَّ العبادة لا تكون إلّا بدليل شرعيٍّ، فلا يعبد المولى ﷻ إلّا بما شرعه

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/276.

وبيَّنه ونزل به الوحي، وفيه إشارةٌ إلى تبكيتهم وتوبيخهم بأنَّ معبوداتكم، ليس لها في عالم الحقِّ مكانٌ؛ لأنَّها لم يأتِ بها كتابٌ أنزله الله، ولم يحملها نبيٌّ مُرسلٌ، إنَّما هي من وهمهم وضلالهم.

المعبودات دون الله وهمٌ وخيال، ما أنزل الله بها من سلطان

معنى حَرْفِ الجَرِّ: ﴿مِن﴾:

﴿مِن﴾ في قولِ الله ﷻ: ﴿مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ﴾، صِلَةٌ يُرادُ بها توكيدُ العُموم وتقْوِيَتُهُ، وذلك أنَّ لفظَ (سُلطانٍ) نكرةٌ في سياق النَّفْيِ ﴿مَّآ﴾، فأفادَتِ العُمومَ، إلّا أنَّ هذا العمومَ ظاهرٌ وليسَ نصًّا، فلمَّا دَخلَ عليهِ حرفُ الجرِّ ﴿مِن﴾ نقلَ العمومَ من كونِهِ ظاهرًا إلى كونِهِ نصًّا، وهذا أقْوى في نفي الحُجَّةِ والسُّلطانِ؛ إذْ لَمْ يُبْقِ شيئًا من أفرادِهِ ثابتًا، فلا بُرهانَ لهذهِ المعبوداتِ تتسلَّطُ به على تعظيمِها، فانتفى تعظيمُها لذاتِها أو لغيرِها[1].

الاستِغراقُ في نَفْيِ الحُجَجِ عَلى الشِّرْكِ، من بلاغة البيان

سرُّ التَّعبير بلفظ (السُّلطان):

آثر التَّعبير بلفظ ﴿سُلۡطَٰنٍۚ﴾ دون (حُجَّة)؛ لوجود فرق بينهما، فالحُجَّة تُطلق على الدَّلالة المُبيِّنة للمحَجَّة؛ أيْ: المقصد المستقيم الّذي يقتضي صحَّة أحد النَّقيضيْن، قال تعالى: ﴿قُلۡ فَلِلَّهِ ٱلۡحُجَّةُ ٱلۡبَٰلِغَةُۖ﴾ [الأنعام: 149]؛ بخلاف لفظ ﴿سُلۡطَٰنٍۚ﴾ الَّذي تدلُّ مادَّته على التَّمكُّن من القهر، يُقال: سلَّطته فتسلَّط، ومنه سُمّى السُّلطان؛ لذلك فالمادَّة اللُّغويَّة تحمل معنى القهر والقوَّة، وهو المناسب هنا في سياق نفي الآلهة الَّتي تُعبد من دون الله، فلا سلطان لها على عابديها، وفيه إشارة إلى بطلان عبادة هذه المعبودات لعدم قدرتها على النَّفع والضُّرِّ، وهذا دليل على أنَّها لا سلطان لها.

لا سلطان للآلهة المزعومة على عابديها؛ لعدم قدرتها على نفعهم وضَرِّهم

دلالَةُ أُسْلوبِ القَصْرِ في شأن الحُكم:

في قولِ الله سُبحانَهُ: ﴿إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ قصرٌ، وطريقُهُ: النَّفْيُ ﴿إِنِ﴾ والاستِثْناءُ ﴿إِلَّا﴾، وهوَ من قصْرِ الصِّفةِ على الموصوفِ،

إبطالُ جَميعِ التَّصَرُّفاتِ المَزْعومَةِ لِآلِهَةِ المُشْرِكينَ، دليل على بطلان حُكمها

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/89.

قصرًا حقيقيًّا ادِّعائيًّا، وذلك أنَّ غَيْرَ الله سُبحانَهُ أُطْلِقَ عليهِ وصفُ الحُكْم من حيثُ هو، ولكنَّ الحُكمَ الكامِلَ وفَصْلَ الأمر بما تقتضيهِ الحِكْمَةُ لله سُبحانَهُ، فكان حُكْمُ غيرِهِ بمنزلَةِ العَدَمِ في جَانبِ حُكْمِ الله تَعالى.

وفي جُملةِ القصْرِ إبطالٌ لجميعِ التَّصرُّفات المزعومَةِ لآلهَتِهِم؛ بأنَّها لَيْسَ لها مِنَ الحُكْمِ شيءٌ فيما زعمَهُ عُبّادُها أنَّه من حُكْمها وتصرُّفاتِها[1].

وعلى هذا فالحكم الحقُّ في الرُّبوبيَّة والعقائد والعبادات، لا يكون إلّا لله وحده، فلا مجال للبشر أن يحكم أحدٌ منهم فيه برأيه وهَواه.

بلاغة التَّعبير بـ ﴿ٱلْحُكْمُ﴾:

قوله تعالى: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾، هذه الجملة مع وجازتها تحمل كثيرًا من المعاني والدَّلالات في المجالات الشَّرعيَّة والدّينيّة، فتحصر أمر التَّشريع والعبادة لله وحده، والنّاس في هذا دورهم تطبيق ما شرعه الله تعالى.

جوامعُ الكَلِم الّذي يستوعبُ مقاصدَ الدِّين ومصالحَ الدُّنيا

دلالة التَّعبير بالإظهار ﴿إِلَّا لِلَّـهِ﴾:

جاء التَّعبير القرآنيُّ بإظهار لفظ الجلالة في قوله تعالى: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾، فلم يقل: (إنِ الحُكم إلّا له)؛ مع سبق ذِكْره في قوله سبحانه: ﴿مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍۚ﴾، وذلك لإعطاء القدسيَّة لأحكام الله ﷻ، فلا تُسوِّلُ نفسُ بشر أن يُدخِل نفسَه في مجال التَّشريع الإلهيِّ بأن يشرع ما لم يأذن به الله، فليس ذلك من خصائص البشر، إنَّما هو من خصائص ألوهيَّته سبحانه، وللإشارة إلى أنَّ أحكام الله ظاهرةٌ للعِيان، فلا يعتريها خفاء أحكام البشر لمراعاة أهوائهم.

التَّشريعُ الإلهيُّ له القداسةُ وليس من خصائص البشر

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/277.

عِلَّةُ الفَصْلِ:

فُصِلَ قولُ اللّه ﷻ: ﴿أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ﴾ عمّا قَبْلَهُ؛ لوقوعِه استئنافًا بيانيًّا؛ وذلك أنَّ هذهِ الجملةَ واردَةٌ جوابًا عن سُؤالٍ يُفْهَمُ مِنَ الجُملةِ المُتقدِّمَةِ عليها ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ﴾، فإنَّها تَبْعَثُ في نَفْسِ المُتلقّي سؤالًا حاصِلُهُ: فماذا حكَمَ اللّه سُبحانَهُ في هذا الشَّأْنِ؟ فجاءَ الجوابُ: ﴿أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ﴾[1]. ويَجوزُ أن تكون الجملةُ مُنزَّلةً ممّا قَبْلَها منزلَةَ التَّأكيدِ للجملةِ قَبْلَها؛ تأكيدًا للمَعْنى وإلزامًا بهِ أنَّه قَدْ حكمَ بِهِ[2]. ويحْتَمِلُ أن تكون الجملةُ في موقعِ التَّعليلِ لمحذوفٍ، والتَّقدير: حيثُ لم يكُن الحكم في شأنِ العبادَةِ إلّا للّه ﷻ؛ فإنَّه لا تكونُ العبادَةُ إلّا لَهُ سُبحانَهُ، لأنَّه أمر ألّا تعبدوا إلّا إيّاهُ[3].

ولا تنافيَ بينَ هذهِ المعاني، فإنَّ كُلًّا منها يصحُّ باعتبارٍ مناسِبٍ لَهُ، وقد تقرَّر أنَّ النِّكاتِ البلاغيَّةَ تتوارَدُ ولا تتزاحَمُ.

إفرادُ الله تعالى بالعبوديّةِ حُكمُه الّذي تتابعَ عليه الرُّسل

دلالة التَّعقيب بـ: ﴿أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ﴾:

لَمَّا ذكرت الجملة السّابقة أنَّ الحُكم لا يكون إلّا للّه؛ لأنَّه المُختصُّ بصفات الكمال والحكم، وانتفى عن غيره وكان ذلك كافيًا في وجوب توحيده رغبةً فيما عنده ورهبةً ممّا بيده؛ أتبعه تأكيدًا لذلك، وإلزامًا به أنَّه حَكَم به، فقال: ﴿أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ﴾[4].

الأمرُ بالعبادةِ، أمرٌ فاصل قاطع لكلِّ العبادِ

بلاغةُ أُسْلوبِ القَصْرِ في الأمر بالعبادة:

في قولِ اللّه ﷻ: ﴿أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ﴾ أسلوبُ قَصْرٍ، وطريقُهُ: النَّفْيُ (لا) والاسْتِثْناءُ، وهوَ من قصرِ الصِّفَةِ على الموصوفِ قصرًا حقيقيًّا تحقيقيًّا؛ إذْ إنَّ العبادَةَ مَحْضُ حَقِّ اللّه سُبحانَهُ لا يُصْرَفُ شيءٌ من أفرادِها لغَيْرِه.

العِبادَةُ مَحْضُ حَقِّ اللّه سُبحانَهُ، ولا معبود بحقٍّ سواه

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/278.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/89 - 90.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 6/435.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 4/42.

وفي قولِهِ سُبحانَه: ﴿أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ﴾ انتقالٌ من براهين إثباتِ اختصاصِ الألوهيَّةِ بالله تَعالى إلى التَّعليم بامتثالِ أمرِهِ ونهيِهِ؛ لأنَّ ذلك نتيجَةُ إثباتِ الوحدانيَّةِ لَهُ ﷻ[1].

سرُّ التَّعبير بالفعل ﴿أَمَرَ﴾ في موضوع العبادة:

أمر الله تعالى بعبادته وحده، على الوجوب، لا خِيَرَة فيه بالفعل والتَّرك

دلَّ التَّعبير بالفعل ﴿أَمَرَ﴾ على وجوب الالتزام والامتثال لأمر الله ونهيه في كلِّ ما شرع؛ لأنَّ ذلك إعلانٌ من العبد بإثبات وحدانيَّته سبحانه، وفيه ردٌّ على مَن يتعلَّلون في أمر شركهم، بأنَّ ذلك من أوامر أكابرهم.

وجهُ التَّعبير بالعبادة في: ﴿أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ﴾:

العبادة اسم جامع، لكلِّ محبوب لله من الأقوال والأعمال

آثر القرآن الكريم التَّعبير بالعبادة، في قوله تعالى: ﴿أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ﴾، دون غيرها كالتَّوحيد؛ لأنَّها تُطلق عليه، وتشمل غيره من قضايا الإيمان وقضايا التَّشريع؛ فهي اسمٌ جامع لكلِّ ما يُحبُّه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظّاهرة والباطنة، فالعبادة منهج حياة، فعلى العابد أن يلتزم أمر المعبود فيخضع، وينقاد له لا لغيره من البشر، وفيه إشارةٌ إلى ذمِّ عبادة البشر للبشر.

دلالة التَّعبير بـ: ﴿إِلَّآ إِيَّاهُۚ﴾:

الضَّميرُ في مقام التَّعريف لعدم صحَّةِ وقوعِ العبادة لغير الله

آثر القرآن التَّعبير بالضَّمير، في قوله تعالى: ﴿إِلَّآ إِيَّاهُۚ﴾؛ لدلالة ما سبق عليه، في قوله: ﴿مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾، فسبق ذِكْر الظّاهر، فاكتفى هنا بالضَّمير عنه، ولأنَّ العبادة الأصل فيها أن تكون لله، فلا تنصرف إلى غيره، فكان الضَّمير في مقام التَّعريف لعدم صحَّة وقوع العبادة لغيره، وللإشارة إلى العلم به، فلا يحتاج إلى إعادة ذِكْره مرَّةً ثانية.

نُكْتَةُ التَّعْبِيرِ بِاسْمِ الإِشارَةِ ﴿ذَٰلِكَ﴾:

﴿ذَٰلِكَ﴾ من قولِ الله ﷻ: ﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ﴾، اسمُ إشارةٍ يَعودُ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/277.

على اختصاصِ اللّه تَعالى بالعبادَةِ، وهو اسمُ إشارةٍ للبعيد، ونُكْتَةُ التَّعبير بِهِ: الإيماءُ إلى فضْلِهِ وعلوِّ مقامِهِ ورفيعِ منزلَتِه[1]؛ إذْ إنَّ إفرادَ اللّه ﷻ بالعبادَةِ أعظَمُ حقيقَةٍ بعثَ اللّه تَعالى بها رُسُلَهُ وأنبياءَهُ.

تخصيصه تعالى بالعبادة من قوانين الكون الإلهيَّة الرّاسية

سِرُّ وَصْفِ الدّينِ بِالقَيِّمِ:

وُصِفَ الدِّينُ بالقيِّم في قولِه اللّه ﷻ: ﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾، لإرادَةِ المَدْحِ والثَّناءِ، فهو الدّينُ الَّذي لا عِوَجَ فيه، ولا يتطَرَّقُ إليهِ شيءٌ مِنَ الخَلَلِ، وهوَ الدِّينُ الظَّاهرُ أمرُهُ، البيِّنَةُ أدلَّتُهُ[2]، وفي هذا الوصفِ أيضًا: ترغيبٌ في لزومِهِ بَعْدَ تشنيعِ العدولِ عَنْهُ إلى المعبوداتِ الباطلَةِ.

التَّرْغيبُ في لُزومِ دينِ الإسلامِ القيِّم، والنَّأي عن الأباطيل والأوهام

بَلاغَةُ أُسْلوبِ القَصْرِ في: ﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾:

في قولِ اللّه تَعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ أسلوبُ قصْرٍ، وطريقُهُ: تعريفُ جزأي جملَةِ الإسنادِ، فالمسنَدُ إليهِ: ﴿ذَٰلِكَ﴾ اسمُ إشارةٍ، وهو من أنواعِ المعارفِ، والمُسْنَدُ: ﴿ٱلدِّينُ﴾ معرَّفٌ باللّام، والمقصورُ في هذا الضَّرْبِ مِنَ القَصْرِ هوَ المُعرَّف باللّام تقدَّمَ ذلكَ أو تأخَّر، ففي قولِهِ ﷻ: ﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ قصْرُ الدّينِ القيِّمِ على عبادَةِ اللّه سُبحانَهُ وحْدَهُ دونَ ما سِواهُ؛ لأنَّه الدّين الّذي دلَّت عليه البراهين النقليّة والعقليّة، فأفادَ هذا أنَّ ما عداهُ مِمّا يتدَيَّنُ النَّاسُ بِهِ لا استقامَةَ فيهِ[3]، بل هوَ في غايَةِ الانحرافِ والضَّلالِ والبُطْلانِ.

ما عدا الإسلام مِمّا يتدَيَّنُ النَّاسُ بِهِ لا استقامَةَ فيهِ

دلالة وصف الدّين بالقيِّم دون غيره:

آثر التَّعبير القرآنيُّ وصف ﴿ٱلدِّينُ﴾ بـ ﴿ٱلْقَيِّمُ﴾ دون غيره من الألفاظ المقاربة؛ لأنَّ مادَّة (قَوَمَ)، تدلُّ على القيام بالشَّيء، وعلى ذلك كان الوصف للدّين بالقيِّم مناسبًا؛ لأنَّه يحمل وظيفة هذا الدِّين وثبوت أحكامه؛ فهو مُقوِّمٌ لأمور المعاش والمعاد في حياة

الإسلام دينٌ قيِّم، مبدؤه الحقُّ، وغايته النَّفع

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/90.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/90.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/277.

النّاس، ولأنَّها تحمل صفة هذا الدّين؛ لأنَّه الدّين الّذي لا اعوجاج فيه، فهو الدّين المستقيم الّذي يحمل الخير لكلِّ البشريَّة، بخلاف غيره من الأديان، فلا تؤدّي هذه الوظيفة؛ لذلك كان الوصف بالقَيِّم، هو الأوفق في هذا المقام.

بلاغةُ أسلوب التَّذْييلِ في السّياق:

تَلْخيصُ الاسْتِدْلالِ عَلى إِثْباتِ الدّينِ الحَقِّ، وَإِبْطالِ ما عَداهُ

قولُ اللّه سُبحانَهُ: ﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ واردٌ على جِهَة التَّذْييلِ لما قَبْلَهُ، وهوَ تذييلٌ غيرُ جارٍ مجْرَى المَثَلِ؛ لافْتقارِهِ إلى ما قَبْلَهُ في الكشْفِ عَنْ تمامِ مَعْناه، وهوَ خلاصَةٌ لِما تقدَّم مِنَ الاستدلالِ، والمُرادُ: ذلك الدّين القيِّمُ لا غيرُهُ ممّا أنتُم عليهِ وغيرُكم، والجملَةُ بمنزلَةِ ردِّ العَجُزِ على الصَّدْرِ لقولِ اللّه تعالَى حكايَةً عن يوسُفَ عليه السلام: ﴿إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ [يوسف: 37 - 38][1].

معنى الحَرْفِ ﴿وَلَٰكِنَّ﴾:

العُدولُ عَنْ تَوْحيدِ اللهِ سُبْحانَهُ، غايَةُ الجَهْلِ وَالانْحِرافِ

﴿وَلَٰكِنَّ﴾ من قولِ اللّه سُبحانَهُ: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ حرفُ استدراكٍ، وقد جيءَ بجملةِ الاستدراكِ للتَّصريح بأنَّ حالَ المخاطَبين في عدولِهم عَنِ الدّين القيِّمِ وسلوكِه دينًا باطلًا، حالُ الجاهِلِ الَّذي لا يَعْلَمُ شيئًا؛ وذلك لأنَّ اللّه سُبحانَهُ أرسلَ الرُّسُلَ بالبراهينِ القاطِعَةِ على استحقاقِهِ الألوهيَّةَ وحْدَهُ دونَ ما سِواهُ، فَمَنْ عَدَلَ عَن هذا الدّين الّذي جاءَت بهِ الرُّسُلُ كان في غايَةِ الجَهْلِ وفقدانِ العِلْمِ.

دلالة التَّعبير بقوله: ﴿أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ﴾:

جاء التَّعبير القرآنيُّ بقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/277.

يَعْلَمُونَ﴾، مع أنَّ يوسف عليه السلام خاطبهم في الآية السّابقة، بقوله: ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ﴾، فكان من الممكن أن يقول بناءً على هذا: (ولكنَّ أكثركم لا يعلمون)، ويكون الخطاب مُوجَّهًا إلى السَّجينَيْن ومن معهما، لكنَّه عدل عن ذلك، من باب تحسين الجواب، وتلطيف الخطاب، في أمر الدَّعوة بالموعظة الحسنة، كما قال ربُّنا سبحانه: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ﴾ [النّحل: 125]، وفيه إشارة إلى تبكيت الفتيَيْن ومَنْ معهما بعدم العلم بحقيقة الوحدانيَّة، وفيه تعليم للدُّعاة أن يُعمِّموا الأمر عند المعاتبة والنَّصيحة حتَّى يُقبِل النّاس على قبول دعوتهم، وقدوتهم في ذلك رسول الله ﷺ بقوله: «ما بالُ أقوام»[1].

تحسين الجواب، وتلطيف الخطاب، مسلك دعويٌّ جذّاب

نُكْتَةُ التَّعْبيرِ بِالفِعْلِ المُضارِعِ ﴿يَعْلَمُونَ﴾:

عُبِّرَ بالفِعْلِ المضارِعِ ﴿يَعْلَمُونَ﴾ من قَوْلِ الله ﷻ: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ لإفادَةِ التَّجدُّدِ والاستمرارِ، والمُرادُ استمرارُ النَّفيِ لا نفي الاستمرارِ، والمَعنى: ولكنَّ أكثرَ النّاسِ مُستمرّونَ على جَهلِهِم وعَدَمِ عِلمِهم، فلا يَفقَهون الأدلَّةَ والبراهينَ مع ظهورِها.

ويجوزُ أَن يَكونَ قَد نُزِّلَ عَدَمُ عمَلِهم بمقتضى البراهينِ الإلهيَّةِ منزلَةَ عدَمِ عِلمِهم بِها؛ لأنَّ العِلمَ إنَّما يُرادُ لأجلِ العَمَلِ، فيكون المُرادُ بـ: ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾؛ أيْ: لا يعْلَمونَ عِلْمًا يَنْتَفِعون بِهِ.

عَدَمُ العَمَلِ بِالعِلْمِ، يُنَزَّلُ مَنْزِلَةَ الجَهْلِ

سِرُّ حَذْفِ مفْعولِ العلم:

في قولِ الله سُبحانَهُ: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ إيجازٌ بالحذْفِ، وذلك لأنَّ الفِعْلَ ﴿يَعْلَمُونَ﴾ فعلٌ مُتعَدٍّ، وقَد حُذِفَ مفعولُهُ، والتَّقديرُ: ولكنَّ أكثر النّاسِ لا يعلَمونَ أَنَّ ذلك هو الدّينُ

إفادة العموم من المقاصد المؤثِّرة في المعنى المسوق هنا

(1) في قوله: «ما بالُ أقْوامٍ يَشْتَرِطونَ شُروطًا ليسَ في كِتابِ الله» أخرجه البخاريّ، الحديث رقم: (456)، ومسلم، الحديث رقم: (1504)، وقوله: «ما بالُ أَقْوامٍ قالوا كَذا وَكَذا؟ لَكِنِّي أُصَلِّي وَأَنامُ، وَأَصومُ وَأُفْطِرُ، وَأَتَزَوَّجُ النِّساءَ، فمَن رَغِبَ عن سُنَّتي فليسَ مِنِّي» أخرجه البخاريّ، الحديث رقم: (5063)، ومسلم، الحديث رقم: (1401).

القَيِّمُ؛ لِجَهْلِهِم بتلكَ الأدلَّةِ والبراهينِ، ويحْتَمِلُ أن يكونَ حذْفُ المفعولِ لإرادَةِ التَّعميمِ، فالمَعْنى: لا يَعْلَمونَ شَيْئًا، فيَعْبُدون أَسْماءً سمَّوها من عِنْدِ أنفسِهم، مُعْرِضينَ بذَلِكَ عَن البراهينِ النَّقْلِيَّة، والأدلَّةِ العَقْلِيَّة[1].

وجائزٌ أيضًا أن يكونَ الفِعْلُ هُهُنا منزَّلًا منزلَةَ اللّازِمِ، والمُرادُ أنَّه ليسَ لَهُمْ عِلْمٌ أصلًا؛ لكونِهِم لم ينتفعوا بعقولِهِم، فكانوا في حُكْمِ البهائِمِ العَجْماواتِ[2].

دلالة التَّعبير بنفْي العلم:

الكلمة اللَّطيفة، مفتاح للعقول، وأُنس للقلوب

آثر القرآن الكريم التَّعبير بنفي العلم دون وصفهم بالجهل، كأن يُقال: (ولكنّ أكثر النّاس يجهلون)؛ لفتح الباب أمام عقولهم للبحث عن خصائص هذا الدِّين القيِّم، ولو وصفهم بالجهل لكان ذلك مانعًا لهم، وصادًّا عن النَّظر في أدلَّة الدِّين القيِّم وبراهينه.

وفيه إشارةٌ تعليميَّة في مجال الدَّعوة إلى الله، فعلى الدّاعية ألّا يصدَّ النّاس عن دعوته، بل يفتح لهم الباب باختيار العبارات اللَّطيفة، والكلمات الباعثة على القبول.

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/90.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/279.

﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسۡقِي رَبَّهُۥ خَمۡرٗاۖ وَأَمَّا ٱلۡأٓخَرُ فَيُصۡلَبُ فَتَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِن رَّأۡسِهِۦۚ قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسۡتَفۡتِيَانِ ٤١﴾ [يوسف: 41]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الإقبالُ عَلى حاجَةِ السّائِلَيْن بتأويل رؤياهما بعد نُصْحِهما بما هو أَنْفَعُ لَهُما وأرفع

بعد أن بيَّن لهما يوسف عليه السلام في الآية السَّابقة، أنَّه لا خير إلّا في الدّين القيِّم الّذي هو ملَّة آبائه إبراهيم وإسحاق ويعقوب عليهم السلام، وهو بذلك قد بلغ الغاية من لفت انتباه الفتيَيْن إلى دعوته، جاءت هذه الآية لبيان انتقال يوسف عليه السلام، إلى تعبير الرّؤيا إجابةً لطلب الفتيَيْن.

ومنها لَمّا أَتَمَّ يوسُفُ عليه السلام نُصْحَهُ ودَعْوَتَهُ إلى توحيدِ اللّه سُبحانَهُ، وذلك أهَمُّ لَهُما وأنفَعُ؛ لما يترتَّبُ عليه من سعادَةِ الحياةِ الأبديَّة؛ أَقْبَلَ على حَاجَتِهما إلى تعبيرِ الرُّؤيا، فقال: ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسۡقِي رَبَّهُۥ خَمۡرٗاۖ وَأَمَّا ٱلۡأٓخَرُ فَيُصۡلَبُ فَتَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِن رَّأۡسِهِۦۚ﴾[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَيَسۡقِي﴾: السَّقْيُ والسُّقْيا: أن يعطيه ما يشرب، والإسقاء أن يجعل له ذلك حتّى يتناوله كيف شاء، فالإسقاء أبلغ من السَّقي؛ لأنَّ الإسقاء، هو أن تجعل له ما يُسقى منه ويُشرب، تقول: أسقيتُه نهرًا، قال تعالى: ﴿وَسَقَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡ شَرَابٗا طَهُورًا ٢١﴾ [الإنسان: 21]، وقال في الإسقاء: ﴿وَأَسۡقَيۡنَٰكُم مَّآءٗ فُرَاتٗا ٢٧﴾ [المُرسَلات: 27][2].

2) ﴿خَمۡرٗاۖ﴾: الخاءُ والميمُ والرّاءُ تدور اشْتِقاقاتُها حولَ مَعْنى التَّغطيَةِ، والسَّتْرِ اللَّطيفِ[3]، وَمنهُ الخِمارُ وهوَ ما يُسْتَرُ بِهِ، ثُمَّ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/90.
(2) الرّاغب، المفردات: (سقي).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (خمر)، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (خمر).

غَلبَ استعمالُهُ فيما تُغطِّي به المرأةُ رأسَها، ويُجْمَعُ على خُمُرٍ، ومنهُ قولُ اللّه سُبحانَهُ: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾[1] [النّور: 31]. والخَمْرُ شَرْعًا: اسْمٌ لِكُلِّ مُسْكِرٍ[2]؛ لقولِ النَّبيِّ ﷺ: «كُلُّ مُسْكِرٍ خَمْرٌ، وَكُلُّ مُسْكِرٍ حَرامٌ»[3]، وعند بعضهم اسمٌ للمُتَّخذ من العنب والتَّمر، وليس هذا من باب الحصر، ولا تختصُّ بهما[4]، وهوَ المُرادُ في قولِ اللّه تَعالى: ﴿فَيَسْقِي رَبَّهُۥ خَمْرًا﴾.

3) ﴿فَيُصْلَبُ﴾: الصّادُ واللّامُ والباءُ تدور اشْتِقاقاتُها على مَعْنى شدَّةِ شيْءٍ وتماسُكِهِ معَ امتدادِهِ[5]، ومنهُ سُمِّيَ الظَّهْرُ صُلْبًا؛ لقوَّتِهِ[6]، وهو مصدر صَلَبَهُ يَصْلِبهُ صَلْبًا، وأصله من الصّليب: وهو الوَدَك الّذي يخرج من العظم، وبه سُمِّي المصلوب لِما يسيل من وَدَكِه[7]. وَمِن هذا البابِ: الصَّلْبُ، وهوَ القِتْلَةُ المعروفَةُ، وحقيقتُها: تَعْليقُ الإنْسانِ للقَتْلِ[8]، وقيلَ لَها ذلك؛ لكونِها تَتِمُّ بشَدِّ المَصْلوبِ عَلى شيءٍ منصوبٍ، كما قالَ اللّه سُبحانَهُ حكايةً عَنْ فرعونَ أنَّه قال: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾ [طه: 71][9]. ومنه قولُه: ﴿وَأَمَّا ٱلْآخَرُ فَيُصْلَبُ﴾، فإنَّ المُرادَ أنَّهُ يُقْتلُ، ويُشدُّ على خشبَةٍ ونَحْوِها.

4) ﴿قُضِيَ﴾: فصْلُ الأمرِ قولًا كان ذلك أو فعلًا، وكلُّ واحدٍ منهما على وجهيْن: إلهيٍّ وبشريٍّ، فمن القول الإلهيّ قوله: ﴿۞وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: 23]؛ أيْ: أمر بذلك، وقال تعالى: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِي ٱلْكِتَٰبِ﴾ [الإسراء: 4]، فهذا قضاءٌ بالإعلام والفَصْل في الحُكم؛ أيْ: أعلمناهم، وأوحينا إليهم وحيًا جزمًا، ومن الفعل الإلهيّ قوله: ﴿وَٱللَّهُ يَقْضِي بِٱلْحَقِّ﴾ [غافر: 20]، وقوله: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ﴾ [فُصِّلت: 12] إشارةٌ إلى إيجاده الإبداعيّ والفراغ منه، ومن القول البشريّ: قضى الحاكم بكذا، ومن الفعل البَشريّ: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَٰسِكَكُمْ﴾ [البقرة: 200]، والقضاء في اللّغة له معانٍ عديدة مرجعها

(1) الرّاغب، المفردات: (خمر).
(2) ابن عثيمين، الشّرح الممتع: 1/428.
(3) رواه مسلم في صحيحه، الحديث رقم: (2003).
(4) الرّاغب، المفردات: (خمر).
(5) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (صلب).
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (صلب).
(7) ابن منظور، لسان العرب: (صلب).
(8) الرّاغب، المفردات: (صلب).
(9) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (صلب).

إلى انقضاء الشّيء وتمامه وإحكامه[1]. ومعنى الآية: ﴿قُضِيَ﴾: فُرغ من الأمر.

5) ﴿تَسْتَفْتِيَانِ﴾: الفاءُ والتّاءُ والحرفُ المُعتَلُّ تدلُّ اشْتِقاقاتُهَا على مَعْنَيَيْنِ كُلِّيَّيْنِ؛ أحدهما: الطَّراوَةُ وَالجِدَّةُ، وَالآخَرُ: تَبْيِينُ الأحْكام[2]، وَمِنَ الثَّاني: الفَتْوى، ومنه قولُ اللّه سُبحانَهُ: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي ٱلْكَلَٰلَةِ﴾ [النّساء: 176]، وحقيقَةُ الفَتْوى: الجَوابُ عَمّا يُشْكِلُ من الأحْكام[3]، والاسْتِفْتاءُ: طَلَبُ الفَتْوى، فالسّين والتّاء للطَّلَبِ عَلى ما هوَ الغالبُ فيها، وهو المَعْنى المُرادُ في قولِه: ﴿قُضِيَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾.

المَعْنى الإجْماليُّ:

تَعْبيرُ يوسُفَ عليه السلام لِرُؤْيا الفَتَيَيْنِ، وتضمينها نصيحة ودعوة إلى الحقِّ

في هذه الآية الكريمة شرعَ يوسفُ عليه السلام في تأويل الرُّؤيا، فقال: يا صاحبيَّ في السِّجْنِ؛ هاكُما تعبيرَ رُؤْياكُما؛ أمّا الَّذي رَأى في منامِهِ أنَّه يَعْصِرُ العِنَبَ؛ فإنَّهُ يَخْرُجُ مِنَ السِّجن، ويَكونُ سَاقِيَ الخَمْرِ لِلمَلِك، وأمَّا الآخَرُ الّذي رَأى أنَّه يَحْمِلُ خبْزًا عَلى رَأْسِهِ؛ فَإنَّهُ يُصْلَبُ، ويُتْرك، فَتأكُلُ الطَّيْرُ مِن رَأْسِهِ، ثم أغلقَ البابَ دون التّساؤلِ أو التّضرُّر ممّا أفتاهما به؛ إذ قَدْ فُرِغَ مِنَ الأمْرِ الّذي فيهِ اسْتَفْتَيْتُما، وثبَتَ حُكْمُ اللّه سُبحانَهُ عَلَيْكُما بالَّذي أَخْبَرْتُكُما بِه[4].

وترشدُ الآيةُ الكريمةُ إلى مشروعيَّةِ الاستفتاءِ في كلِّ مُشكِلٍ من الأمور، وإلى أنَّ القاضيَ يجبُ أن يكون ذهنُه مُنصبًّا على الحُكم لا على المحكوم عليه، فقد سمعَ يوسفُ عليه السلام منهما وهو لا يعرفُ مَن سينال البراءة، ومَن الّذي سوفُ يعاقب، فنزعَ يوسفُ ذاتَه من

(1) الرّاغب، المفردات: (قضى).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (فتى).
(3) الرّاغب، المفردات: (فتى).
(4) ابن جرير، جامع البيان: 16/107، ونخبة من أساتذة التّفسير، التّفسير المُيسّر، ص: 240.

الأمر، ولم يسمحْ لنفسه بدخول الهوى إلى قلبِه؛ لأنَّ الهوى يلوِّنُ الحُكْم، وتغلبُ العاطفة، ولا بدَّ للقاضي لحظةَ إصدار الحُكم أن يتجرَّد تمامًا من الهوى والذّاتيّات[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

عِلَّةُ الفَصْلِ:

فُصِلَ قولُ الله ﷻ: ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسۡقِي رَبَّهُۥ خَمۡرٗاۖ﴾ عمَّا قَبْلَهُ؛ لكونِ تأويل رؤيا الفتيَين مغايرًا لما سبقَ من دعوته عليهما السلام لهما إلى عبادة الله الواحد، فبينَ الجُملتيْنِ كمالُ الانقِطاعِ، وذَلِكَ لأنَّه بَعْدَ أن حقَّقَ الحقَّ، ودعا الفَتَيَيْنِ إليهِ، وبيَّنَهُ لَهُما؛ شرعَ في تأويلِ ما استعْبَراهُ، فكان هذا كلامًا مُباينًا للَّذي قَبْلَهُ[2].

تأويلُ الرُّؤيا مَلمحٌ من العلم اللَّدنيِّ الَّذي يؤتاه الصّالحون، خصوصيَّة دون سواهم

دلالة التكرار في: ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ﴾:

كرَّر يوسف عليه السلام النِّداء، بقوله تعالى: ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ﴾ لاختلاف المُتعلّق في كلٍّ منهما، فالنِّداء الأوَّل كان في دعوتهما إلى التَّوحيد، أمّا النِّداء الثّاني فكان لتأويل الرُّؤيا للفتيَيْن، وهذا هو المطلب الأصليُّ لهما؛ لذا كرَّر النِّداء ليُعلمهما بأهمّيَّة ما طلب من تأويل الرُّؤيا، وفي هذا من فقه الدَّعوة الكثير، وفيه إشارةٌ إلى توطئة لطيفة لتعبير الرُّؤيا.

دقَّة السّياق القرآنيّ في التَّعبير عن المعاني المختلفة بالإفراد والتَّكرار

بلاغة أُسْلوبِ النِّداءِ في صَدْر الآية الكريمة:

وَجَّه يوسُفُ عليه السلام الخطابَ لَهُما بأسلوبِ النِّداءِ في قوله: ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسۡقِي رَبَّهُۥ خَمۡرٗاۖ﴾ مرَّةً أخْرى لتَجْتَمِع أنفسُهما لسماعِ جوابِهِ عن اسْتِفْتائِهِما، ولإظْهارِ الاهتِمامِ بما يُلْقيهِ إليهما مِن التَّأويل[3].

اسْتِرْعاءُ سَمْعِ المُخاطَبِ، لِتَلَقّي مُهِمّاتِ الأُمورِ من الله العزيز الغفور

(1) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 11/6961.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/279، والآلوسيّ، روح المعاني: 6/435.
(3) ابن عطيّة، المُحرّر الوجيز: 3/246، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/277.

سِرُّ النِّداءِ بالحرف (يا):

جاءَ النِّداءُ بـ (يا) في قولِ اللّه ﷻ حكايةً عن يوسُفَ عليه السلام: ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ﴾، وهي أداةٌ تُستعمَلُ في الأصْلِ لنداءِ البَعيدِ، والحالُ أنَّ الفَتَيَيْنِ قَريبانِ، وذلكَ للإشارَةِ إلى أنَّ الكلامَ الَّذي بَعْدها كلامٌ عظيمُ القَدْرِ رفيعُ الشَّأْنِ، فيكونُ ذلك سببًا لِاسْتِرْعاءِ سَمْعِهِما إلى ما يقولُهُ من تعبيرِ رُؤياهُما[1].

الدَّاعيَةُ اللَّبيب، هو مَن يُبلِّغ بمنطقٍ مهذَّب أريب

نُكْتَةُ نِدائِهِما بِوَصْفِ (الصُّحبة):

في نداءِ يوسُفَ عليه السلام الفَتَيَيْنِ بوصفِ صُحْبَتِهما السِّجْنَ ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ﴾؛ لكونِ السِّجْنِ مكانًا تزولُ فيه الحظوظُ، ويحصلُ فيهِ للنَّفْسِ الانكسارُ، ورقَّةُ القلبِ، فتتمَحَّض فيه المَوَدَّةُ[2].

وفي ندائِهما بهذا الوصفِ أيضًا دونَ اسمَيْهما، لعدَمِ معرفَتِهِ بهما؛ لكونِ هذا الحوارِ واقعًا بَعْدَ دخولِهما السِّجْنَ بيَسيرٍ قبلَ أن تطولَ العِشْرَةُ بينَهُما وبينَهُ، وفي هذا النِّداءِ كذلكَ إيماءٌ إلى ما حدثَ مِنَ الصِّلةِ بَيْنَهُما، وهي صلةُ التَّشابُهِ في الضَّراءِ، وذلك لأنَّ المُماثَلَةَ في الأحوالِ من جُملةِ الرَّوابِطِ الّتي تقومُ مقام صِلَةِ القرابَةِ، وربَّما قَدْ تزيدُ عليها[3].

انْكِسارُ النَّفْسِ مَظِنَّةٌ لإخْلاصِ النُّصْحِ، ومتانة الرَّوابط

سرُّ الجمع بينهما في النِّداء، دون تفريق بينهما:

ثَنَّى يوسف عليه السلام في ندائهما: ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ﴾ ليندرج الحكمان معًا، فلا يُواجِه المحكوم عليه بالصَّلب بمصيره، بل ترك لهما إدراك تأويله للرُّؤيا، ليأخذ كلٌّ منهما ما يوافق ما رآه، وفي ذلك تلطُّفٌ من المواجهة بالسّوء، شفقة بالمصلوب، ومراعاةً لحسن الصُّحبة.

قول الحقيقة بالعبارة اللَّطيفة، يُهوِّن من الألم، ويُعين على تقبُّل المصير

معنى الإضافَةِ في ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ﴾:

إضافةُ لفظِ الصّاحبيْنِ إلى السِّجْنِ، في قولِ اللّه ﷻ حكايةً عَنْ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/90.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/90.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/274.

سُكْنى المكان، من ضُروبِ صُحْبَتِهِ

يوسُفَ عليه السلام: ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ﴾؛ لكونهما ساكِنَيْنِ فيهِ، كما يُقالُ: أَصْحاب الجَنَّةِ وأَصْحابُ النّارِ؛ لِكَوْنِهم سُكّانَها[1].

ويحتَملُ أَن تَكون الإضافَةُ مِن بابِ الإضافَةِ إلى الظَّرْفِ، والمَعنى: يا صاحبيَّ في السِّجْنِ، كما يُقال: يا سارِقَ اللَّيلَةِ، والمعنى: يا سارقًا في اللَّيلةِ؛ وذلك لأنَّ اللَّيلَةَ لا تُسْرَقُ، وإنَّما تقَعُ السَّرِقَةُ فيها[2].

دلالة الإبهام في الجَوابِ ضمن السّياق:

من رِعايَةِ حُسْنِ الصُّحْبَةِ، عَدَمُ مواجَهَةِ الصّاحِبِ بِما يَسوؤُهُ

تُرِكَ تعيينُ جوابِ الرُّؤْيَيَيْنِ لِمَنْ هو، فقال: ﴿أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسۡقِي رَبَّهُۥ خَمۡرٗاۖ وَأَمَّا ٱلۡأٓخَرُ فَيُصۡلَبُ فَتَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِن رَّأۡسِهِۦۚ﴾، وفي ذلك نِكاتٌ[3]:

إحداها: أنَّه أَبْهَمَ ثقةً بدلالَةِ التَّعبيرِ؛ فإنَّ الّذي يَسْقي سيِّدَهُ خمْرًا أَليَقُ وأنسبُ بِمَنْ رأى أنَّه يعصِرُ عنبًا، والّذي يُصْلَبُ، فتأكلُ الطَّيْرُ من رأسِهِ أَنسبُ بِمَنْ رأى في منامِهِ أنَّهُ يَحْمِلُ فوقَ رأسِهِ خُبْزًا، فتأكُلُ الطَّيْرُ منهُ، فيكونُ في هذا لفٌّ ونشْرٌ مُرتَّبٌ.

ثانيها: أنَّه لمّا كان في الجوابِ ما يسوءُ أحدَهُما؛ أَبْهَمَ وترَكَ التَّعيينَ؛ ليُجَوِّزَ كلُّ واحدٍ منهما أنَّه الظّافِرُ النّاجي، فإن أُلْجِئَ يوسُفُ عليه السلام إلى التَّعيين؛ كان ذلكَ الإلجاءُ عُذْرًا له في الخروجِ عَنِ الأَلْيَقِ.

ثالثُها: أنَّ في تَرْكِ التَّعيينِ اجتنابًا لمخاطَبَةِ أحَدِهما بما يُفْزِعُ قَلْبَهُ غايةَ الفزَعِ، كان في الإبهامِ رعايةً لحُسْنِ الصُّحْبَةِ.

معنى الفاء في: ﴿فَيَسۡقِي﴾:

طيُّ الزَّمن بعدم تحديد الميقات، إشارة إلى سرعة الخروج من السِّجن

دلَّت الفاء في قوله تعالى: ﴿فَيَسۡقِي﴾ على كلامٍ محذوف، تقديره: (أمّا أحدُكما؛ فيخرج من السِّجن، ويسقى ربَّه خمرًا)، فطوى زمن

(1) ابن عطيّة، المُحرّر الوجيز: 3/245، والقُونويّ، حاشيته على تفسير البيضاوي: 10/329.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/278، والخازن، لُباب التّأويل: 2/529.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/279، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 10/91، والشّوكانيّ، فتح القدير: 3/35، والآلوسيّ، روح المعاني: 6/436، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/277.

بقائه قبل الخروج، ليدُلَّ على سرعة خروجه من السِّجن، وفي هذا إسعادٌ لصاحب الرُّؤيا الأولى؛ لأنَّ ذلك إشارة إلى خروجه من الحبس.

دلالة التَّعبير بالمضارع ﴿فَيَسۡقِي﴾:

دل التَّعبير بالمضارع ﴿فَيَسۡقِي﴾، على دوام استمرار صاحب الرُّؤيا الأولى، في قصر الملك بتقديمه الشَّراب له، وفي هذا بشارة بسلامته من الأذى، لأنَّه يعيش في قصر ملك مصر.

معنى الاستمرار في الفعل، إشارة إلى استمرار عيشه في القصر

سرُّ التَّعبير بلفظ (الرَّبّ):

عبَّر القرآن الكريم بلفظ (الرّبّ)، في قوله: ﴿فَيَسۡقِي رَبَّهُۥ خَمۡرٗاۖ﴾ دون السَّيِّد؛ لأنَّ لفظ ﴿رَبَّهُۥ﴾ يُقال باعتبار أنَّ الملك هو الّذي يقوم على أمره وتربيته، بخلاف لفظ (السّيد)، فهو المُتولّي للسّواد؛ أيْ: للجماعة الكثيرة، فيُقال: سيِّد القوم، ولمَّا كان المقام مُتعلِّقًا بخدمته للملك الّذي يقوم على أمره؛ فقد عبَّر بلفظ الرَّبِّ[1].

المقامُ متعلِّقٌ بخدمة الساقي للملك الَّذي يقوم على أمره وتربيته

دلالة الإضافة في: ﴿رَبَّهُۥ﴾:

دلَّت الإضافة في قوله تعالى: ﴿رَبَّهُۥ﴾ على أنَّ ساقيَ المَلك، في محلِّ الحَظوة والتَّكريم، وفيه تمهيدٌ لما سيطلبه يوسف عليه السلام إليه، بعد ذلك بقوله: ﴿ٱذۡكُرۡنِي عِندَ رَبِّكَ﴾.

الإشارةُ إلى أنَّ ساقيَ المَلك في محلِّ الحَظْوة والتَّكريم

علَّةُ التَّعبير بلفظ ﴿خَمۡرٗاۖ﴾:

عبَّر القرآن الكريم بلفظ ﴿خَمۡرٗاۖ﴾ - ولم يقل: (شرابًا) - للدَّلالة على أنَّ ملوك مصر في هذا العهد، لهم سُقاة يقومون بصناعة الخمور لهم، وفي هذا إشارة إلى حالة البذخ والرَّفاهية الَّتي كانوا يعيشونها.

الخمر مظهر للبذخ، وهي مُحرَّمة في كلِّ الشَّرائع السَّماويَّة

معنى الفاء في: ﴿فَيُصۡلَبُ﴾:

دلَّت الفاء في قوله تعالى: ﴿فَيُصۡلَبُ﴾، على كلامٍ محذوف، وذلك أنَّ الَّذي رأى على رأسه خبزًا تأكل الطَّير منه، سيخرج من السِّجن،

(1) الرّاغب، المفردات: (ربّ).

لا مفرَّ من القَدَر، ولو كان فيه الأذى والضَّرر

ويذهب إلى العقاب المُعدِّ له، ويكون تقدير الكلام المحذوف: (يخرج من السِّجن، ويُذهب به إلى الملك، لإقامة الحُكم عليه، بالصَّلب، فيُصلب)، فحُذف ذلك الكلام بدلالة الفاء عليه.

بلاغة المجاز ببناءِ الفِعْلِ ﴿فَيُصْلَبُ﴾ لِلمَفْعولِ:

تجلية الصُّورة بالمجاز؛ فالعادَةُ قاضيَةٌ بأنَّ المِلكَ لا يُباشِرُ الصَّلْب

بُنِيَ الفِعْلُ في قوله: ﴿فَيُصْلَبُ﴾ للمفعول من قولِ اللّٰه سُبحانَهُ: ﴿وَأَمَّا ٱلْـَٔاخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِۦ﴾، للعِلْم بالفاعِلِ، فإنَّ الَّذي لهُ قوَّةُ الصَّلْبِ، والسُّلْطانُ على الأَمْرِ به؛ هو المَلِكُ[1]، فكان مَعْنى: ﴿فَيُصْلَبُ﴾؛ أيْ: يَصْلِبُهُ المِلكُ، ويكون الإسنادُ مِنَ المجازِ العقليِّ؛ لأنَّ العادَةَ قاضيَةٌ بأنَّ المَلِكَ لا يُباشِرُ مِثْلَ هذا.

دلالة التَّعبير بلفظ (الصّلب):

لوحِظَ في الصَّلْب المعنى التّعبيريُّ لرموز رؤية حامل الخبز على رأسه

آثر السِّياق الكريمُ التَّعبيرَ بالصَّلب دون القتل؛ لأنَّ الصَّلب أحد وسائل القتل، فللقتل صورٌ عديدة، منها الذَّبح والضَّرب ونحو ذلك، ممّا هو معروف من صور القتل، والصَّلب صورة من هذه الصُّور، بل هو من أشدِّها؛ لأنَّه تعليق الإنسان من صُلْبه، وتتمُّ بشدِّ المصلوب على شيء منصوب من حجَرٍ صُلْبٍ أو خشب؛ لينتهي أمره إلى الموت، وهذا اللّفظ لُوحظ فيه المعنى التّعبيريُّ لرموز رؤية حامل الخبز على رأسه، ملاحظةً ببروز الخبز المحمول على الرّأس وظهوره للنّاس مع الصَّلْب الّذي يكون في مكانٍ عام على مرأى النّاس ومجتمعهم، وقد استُخدم الصَّلْب عقوبةَ إعدامٍ في العديد من الحضارات القديمة، ومنها الحضارةُ المصريّة، وقد يكون الصَّلْب بعد القتل، وعلى ذلك فالقتل أعمُّ من الصَّلب؛ لأنَّ الصَّلب قد يكون من وسائل القتل، وقد يكون من باب التَّعذيب للعِظَة والعبرة، ثمَّ يُعفى عنه.

سرُّ التَّعبير بلفظ (الأكل):

جاء التَّعبير القرآنيُّ بالأكل، في قوله: ﴿فَتَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ﴾ دون

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/91.

(تَطْعَمُ)، وإن كان الأكل اسمًا جامعًا لكلِّ ما يُطعم، إلّا أنّ الأكل يفترق عن الإطعام، في أنَّه أعمُّ، فيُطلق على إنفاق المال، في قوله: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ﴾ [البقرة: 188]، لمَّا كان الأكل أعظم ما يُحتاج فيه إلى المال، ويُعبَّر به على أكيلَةِ الأسد؛ أيْ: فريسته الّتي يأكلها، ويُعبَّر به عن الفساد، نحو: ﴿كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ۝٥﴾ [الفيل: 5]، ويُعبَّر به في النَّهي عن الغيبة، في قوله: ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا﴾؛ ففي كلِّ ذلك لم يَرِد لفظ الإطعام، وهذا دليلٌ على أنَّ الأكل يختلف عن الإطعام، ويؤكِّد ذلك قوله: ﴿فَكُلُواْ مِنْهَا وَأَطْعِمُواْ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ ۝٢٨﴾ [الحجّ: 28]، والعطف يقتضي المغايرة؛ لذلك كان تعبير القرآن هنا بالأكل مناسبًا للآكل - وهم الطُّيور - فأمْرُ التَّذوُّقِ عندهم غير موجود[1].

التّعبيرُ هنا بالأكل، مناسبٌ للآكل، وهم الطّيور الّتي لا ذائقة لها

دلالةُ تخصيص (الطّير) دون غيره في تأويل الرّؤيا:

دلَّ تخصيص الأكل منه بالطَّير، على أنَّ المصلوب سيبقى مشدودًا في مكان صلبه زمنًا ممتدًّا، وينقطع عنه النّاس والمارَّة؛ ممَّا يُمكِّن الطَّيرَ الجارحة والكاسرة - الّتي طعامها اللّحوم - من أكل لحم رأسه وشَحمه، وما فيه من المخِّ؛ بدلالة رمز الخُبز في الرّؤيا الّتي رآها الفتى الآخر، وهذا يعني: أنَّه صُلب في مكان أو محلٍّ تتمكَّن الطَّير من أكل رأسه وما حوى، ووضُع في مكان مكشوف للطّيور الجارحة.

الصَّلب في العراء من أشنع التَّنكيل بجثَّة المصلوب

بلاغة المجاز المُرسل في التَّعبير بشبه الجملة:

خصَّ القرآن الكريم أكْلَ الطَّير من رأسه، مع أنَّ الأكل يكون من كلِّ جسده من باب المجاز المُرسل، باعتبار علاقة الجزء بالكلِّ، أو آثر التَّعبير بقوله تعالى: ﴿مِن رَّأْسِهِۦ﴾، باعتبار أنَّها أشرف ما في الجسد، وأنَّها كانت محلَّ التَّدبير لتسميم الملك وقتلِه من هذا الرّائي المتَّهم بأنَّه أراد أن يضع في طعام الملك السُّمَّ ليقتلَهُ.

تظليل المشاهد بالصُّور المقرَّبة، يجمِّل السَّرد القصصيَّ ويُرقِّيه

(1) الرّاغب، المفردات: (أكل).

بلاغة أسلوب الاحْتِباكِ في السّياق:

بيان أنَّ طَيَّ ما دَلَّتْ عَلَيْهِ القَرائِنُ اقْتِصادٌ في اللَّفْظِ

في قَولِ اللّه ﷻ: ﴿فَيَسْقِي رَبَّهُۥ خَمْرًاۖ وَأَمَّا ٱلْءَاخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِۦۚ قُضِيَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾ احتباكٌ، وهوَ المُسمَّى حذْفَ التَّقابُلِ أَوِ الحذْفَ المقابَلِيَّ، ووجْهُهُ أنَّ ذِكْرَ ملزومِ السَّلامَةِ والقُرْبِ في الأوَّلِ دليلٌ على الهلاكِ في الثّاني، وذِكْرَ ملزومِ العَطَبِ في الثّاني دليلٌ على السَّلامَةِ في الأوَّلِ[1]، وتوضيحُ ذلك: أنَّه ذكر أوَّلًا سَقْيَ الفَتى الملِكَ الخَمْرَ، ويَلْزَمُ من هذا سلامَتُهُ مِنَ السِّجْنِ والقَتْلِ وقُرْبُهُ مِنَ الملِكِ، فالمنصوصُ عليهِ في التَّعبير هو ملزومُ السَّلامَةِ والقُرْبِ، وحُذِفَ مقابِلُهُ مع الثّاني، وهوَ الإبْعادُ والهلاكُ، ثُمَّ نُصَّ في الثّاني على ملزومِ الهلاكِ، ولازِمُهُ: الصَّلْبُ؛ فإنَّ الصَّلْبَ لا يكونُ إلَّا بَعْدَ القَتْلِ؛ ليُجْعَلَ الميِّتُ عِبْرَةً لغيرِهِ، وحُذِفَ مقابِلُهُ مِنَ الأوَّلِ وهوَ السَّلامَةُ.

عِلَّةُ الفَصْلِ في: ﴿قُضِيَ ٱلْأَمْرُ﴾:

القَطْعُ بِوُقوعِ مَضْمونِ ما عَبَّرَهُ يوسُفُ عليه السلام

فُصِلَ قولُ اللّه ﷻ: ﴿قُضِيَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾ عمّا قَبْلَهُ؛ لوقوعِهِ استئنافًا بيانيًّا، وذلك لأنَّ الجُملةَ واردَةٌ جوابًا عَنْ سُؤالٍ يُفْهَمُ مِمَّا تقدَّم، فإنَّ يوسُفَ عليه السلام لمّا عبَّر الرُّؤيا، كأنَّه قيلَ لَهُ: انْظُر فيما تقولُ، هل ذلكَ واقِعٌ فِعْلًا؟ فجاءَ الجوابُ مؤكِّدًا ذلك: ﴿قُضِيَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾، فبين هذهِ الجملَةِ وما قَبْلَها شِبْهُ كمالِ الاتِّصالِ.

ويجوزُ أن تكون الجملَةُ جوابًا لسؤالٍ صريحٍ، طُوِيَ ذِكْرُهُ مِنَ القِصَّةِ، والتَّقديرُ - عَلى ما قالَهُ جماعَةٌ مِنْ أهلِ العِلْمِ بالتَّفسيرِ - أنَّهما قالَا: ما رأيْنا شيئًا في منامِنا، إنَّما كُنّا نَلْعَبُ وقد كذَبْنا؛ فجاءَ الجواب: ﴿قُضِيَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾؛ أيْ: سيكونُ الأمْرُ كما أَخْبَرتُكما بهِ قَبْلُ، ولو لَمْ تَريا ذَلِكَ في المنامِ حقًّا[2].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/91.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/91.

دلالة التَّعبير بـ ﴿قُضِيَ﴾:

الدلالة على أنَّ تفسير الرّؤيا لازم النَّفاذ

عبَّر القرآن الكريم بالقضاء دون الحُكم؛ لوجود فرق بينهما، فالتَّعبير بالقضاء يدلُّ على أنَّ الأمر فُصل، وتمَّ أمره بحيث لا يمكن تلافيه، أمّا الحُكم؛ فهو أن تُقضي على الشَّيء بأنَّه كذا أو ليس بكذا، سواءٌ ألزمتَ ذلك غيرك أم لم تُلزمه، وعلى هذا افترق القضاء عن الحُكم من ناحية الإلزام وعدمه، ولمَّا كان الأمر هنا مبنيًّا على النَّفاذ؛ ناسبه التَّعبير بالقضاء[1].

نُكْتَةُ بِناءِ الفِعْلِ ﴿قُضِيَ﴾ لِلمَفْعولِ:

الإشارة إلى عَظَمَةِ الله ﷻ، وأنَّ قضاءَ الأمورِ عليهِ سَهْلٌ وهيِّنٌ

بُنِيَ الفِعْلُ ﴿قُضِيَ﴾ للمفعولِ في قولِ الله ﷻ: ﴿قُضِيَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾؛ للإيماءِ إلى عَظَمَةِ الله ﷻ، وأنَّ قضاءَ الأمورِ عليهِ سَهْلٌ وهيِّنٌ[2].

سِرُّ التَّعْبيرِ بالماضي ﴿قُضِيَ﴾:

تَعْبيرُ الرُّؤيا من الأنبياء أمرٌ قطعيٌّ؛ لأنَّهم مُلهَمون من الله

النّاظر في الأسلوب القرآنيِّ يجد أنَّه عبَّر عَنِ المُسْتَقْبلِ بالفِعْلِ الماضي ﴿قُضِيَ﴾، ومُقتضى الظَّاهرِ أَنْ يَرِدَ النَّظْمُ القرآنيُّ على صيغة المضارع: (سيُقْضَى الأمرُ)؛ أيْ: سيَقَعُ على وَفْقِ ما أخبرتُكُم به.

فنُكْتَةُ العدولِ عَنِ التَّعبير بالفعْلِ المضارعِ إلى الفِعْلِ الماضي هوَ الإيماءُ إلى تحقُّقِ الوقوعِ، وأنَّه سيقَعُ قَطْعًا حتّى كأنَّه حصلَ وانْتَهى، وإنَّما قَطَعَ بالوقوعِ مع أنَّ تعبير الرُّؤى قائمٌ على الاجتهادِ والظَّنِّ؛ لكونِهِ نبيًّا، وقد قالَ ذلكَ بوحْيٍ مِنَ الله ﷻ[3].

معنى (أل) في: ﴿ٱلْأَمْرُ﴾:

ما أهمَّ واتَّصل بالمصير، فهو بالاستفتاء جدير

تعدَّد المُراد بـ (أل) في ﴿ٱلْأَمْرُ﴾ في قولِ الله تَعالى: ﴿قُضِيَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾، فيجوزُ أن تكون للجنس؛ أيْ: أمر كلٍّ منكما[4]،

(1) الرّاغب، المفردات: (قضى - حكم).
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/91.
(3) الماورديّ، النّكت والعيون: 3/39.
(4) الصَّاوي، حاشية الصّاوي على الجلالين: 2/244.

ويجوز أن يكون مُرادًا به السُّؤالُ والجوابُ، والمَعْنى: قُضِي سؤالُكم وجوابي عَنْهُ، ويَحْتَمِلُ أن يكون المُرادُ به التَّأويلَ، والمَعْنى: قُضِيَ تأويلُهُ.

دلالة إسناد القضاء إلى الأمر في ﴿قُضِيَ ٱلْأَمْرُ﴾:

أُسنِدَ القضاءُ إلى الأمر في قوله تعالى: ﴿قُضِيَ ٱلْأَمْرُ﴾ مع أنَّه من أحوال مآله؛ لأنَّه في الحقيقة عين ذلك المآل، وقد ظهر في عالم المثال بتلك الصّورة[1].

لكلِّ سؤال عند المُلْهَمين جواب، ولكلِّ أمرٍ مآلٌ

نُكْتَةُ إِفْرادِ لَفْظِ الأَمْرِ ﴿ٱلْأَمْرُ﴾:

أُفْرِدَ لفظُ الأمْرِ في قولِ الله ﷻ: ﴿قُضِيَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾، مع تَعَدُّدِ رُؤياهُما؛ لكونِهِ وردَ مناسِبًا لقولِهما حسبما وحَّداه في طلب تأويل الرّؤيين، في قوله تعالى: ﴿نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ﴾ [يوسف: 36] فوحَّدا الضَّميرَ، ولا يَصِحُّ أَنْ يُفسَّرَ الأَمْرُ ههنا بِما اتُّهِما بِهِ، وسُجِنا من أجلِهِ؛ فإنَّهما لم يُسألا عَنْ ذلكَ[2].

الإفرادُ جاء مناسِبًا لقولِهما حسبما وحَّداه في طلب تأويل الرّؤيين

سِرُّ تَقْييدِ المُسْنَدِ إِلَيْهِ بِالوَصْفِ:

أُتْبِعَ المُسْنَدُ إليه ﴿ٱلْأَمْرُ﴾ بالوصْفِ في قولِ الله تَعالى: ﴿قُضِيَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾؛ لإرادَةِ البيانِ والإيضاحِ، فإنَّ لَفْظَ الأَمْرِ فيه ضَرْبٌ مِنَ الإبهامِ، فجاءَ تفسيرُهُ بالوصْفِ: ﴿ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾؛ أيْ: الأَمْرُ الّذي طلبتُما الإفتاء فيهِ، وهوَ تعبيرُ الرُّؤْيا[3].

من مَقاصِدِ الوَصْفِ تَفْسيرُ المُبْهَمِ

دلالَةُ التَّعبير بالجملة الخَبَرِيّة:

قولُ الله سُبحانَهُ: ﴿قُضِيَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾ خَبَرٌ يُرادُ به تحقيقُ تعبيرِهِ وتأكيدُهُ، وأنَّ تأويلَ ما سألا عَنْهُ هو ما أَخْبَرَهُما به، وذلك لأنَّهما اسْتَفْتيا في دلالَةِ الرُّؤيا على ما سَيَكونُ في المستَقْبَلِ في أَمْرِ سَجْنِهما؛ إذْ ذلكَ أكبرُ ما يهُمُّهُما[4]. وفيه إشارة إلى أنَّه

تَحْقيقُ مَضْمونِ الرُّؤْيا وَتَأْكيدُهُ، هو قدر الله وحكمه

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 12/246.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/279.
(3) البقاعي، نظم الدّرر: 10/91.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/278.

ورد مورد الجواب عن سؤالٍ يخطر ببالهما في هذا التَّعبير، هل هو تعبير قطعيٌّ أم ظنّيٌّ، فكان الجواب: تسألاني عن تعبير رؤياكما وتفسيرهما، والشّأن فيهما أنَّه قد بُتَّ الحكمُ فيهما، وفيه دلالة على أنَّ ما قاله يوسف عليه السلام هو عن طريق الوحي من ربِّه سبحانه وتعالى، وليس مجرَّد تعبير رؤيا مبنيَّة على الظَّنِّ والتَّخمين.

نُكْتَةُ تَقْديمِ الجارِّ وَالمَجْرورِ على الفُتيا:

بيان إرادَةِ الحَصْرِ وَالقَصْرِ، مَعَ مُراعاةِ التَّناسُبِ في الفَواصِلِ

قُدِّمَ الجارُّ والمجرورُ ﴿فِيهِ﴾ من قولِ اللّه سبحانه وتعالى: ﴿قُضِيَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾ وكان حقُّهُ التَّأخيرَ، بأن يَرِدَ النَّظْمُ القرآنيُّ: (قُضِيَ الأمرُ الّذي تسْتَفتيانِ فيهِ)؛ وذلك لإرادَةِ القصْرِ والحصْرِ؛ أيْ: قُضِيَ الأمر الّذي عَنْهُ تَسْألانِ لا عَنْ غيرِهِ[1]، وحسَّنَ التَّقديمَ أيضًا تناسُبُ الفواصِلِ، فإنَّه لا يَخْفى أنَّ تأخيرَ الجارِّ والمجرورِ يُفوِّتُ هذا التَّناسُبَ.

فائِدَةُ التَّعْبيرِ بِالاسْتِفْتاءِ في السّياق المؤتى:

توكيدُ عظمةِ شأنِ تَعْبيرِ الرُّؤى، ورفعةِ مَقامِ يوسف بذلك العِلم

في التَّعبير عن طلبِ تأويلِ الرُّؤيا بالاسْتِفْتاءِ، في قوله: ﴿قُضِيَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾، تهويلٌ لأمْرِه وتفخيمٌ لشأنِه؛ وذلك لأنَّ أصلَ الاسْتِفْتاءِ مختصٌّ بالنَّوازلِ المشكلَةِ، والحُكْمِ المُبْهَمِ جوابُهُ[2].

سِرُّ التَّعْبيرِ بِالفِعْلِ المُضارِعِ ﴿تَسْتَفْتِيَانِ﴾:

اسْتِحْضارُ صورَةِ الاسْتِفْتاءِ؛ لِيَكونَ أَدْخَلَ في الإلْزامِ

جاءَ التَّعبيرُ بالفِعْلِ المضارِعِ ﴿تَسْتَفْتِيَانِ﴾ منْ قولِ اللّه سبحانه وتعالى: ﴿قُضِيَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾، معَ أنَّ اسْتِفْتاءَهُما مُتقدِّمٌ، فكان مُقْتضى الظّاهِرِ أن يَرِدَ النَّظْمُ القرآنيُّ: (قُضِيَ الأمْرُ الّذي فيهِ اسْتَفْتَيْتُما)؛ وذلِكَ لِما أنَّهُما بصدَدِ الاسْتِفْتاءِ إلى أن يَنْتَهِيَ يوسُفُ عليه السلام من فَتْواهُ[3].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/91.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/279، والقاسميّ، محاسن التّأويل: 6/178.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/279، والقاسميّ، محاسن التّأويل: 6/178.

ويجوزُ أن يكونَ التَّعبيرُ بالفِعْلِ المُضارِعِ لإرادَةِ استحضار صورَةِ اسْتِفْتائِهِما؛ لِيَكونَ أَلْزَمَ لَهُما؛ إذْ أَنْكَرا أَنْ يكونا رَأَيا شيئًا في منامِهما، كَما ذَكر ذلكَ جمعٌ من أهلِ التَّفسير.

دلالة التَّعبير بلفظ (الاستفتاء):

يقتضي المشهد استفتاء لا سؤالًا، لما فيه من خصوصيَّة

آثر السياقُ التَّعبيرَ بالاستفتاء في قوله: ﴿قُضِيَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾، دون السُّؤال، لوجود فرق بينهما؛ فالاستفتاء في اللُّغة: السُّؤال عن المُشكل المجهول، والفتوى جوابه سواءٌ أكان نبأً أم حُكمًا، وقد غلب في الاستعمال الشَّرعيِّ في السُّؤال عن الأحكام الشَّرعيَّة؛ بخلاف السُّؤال فهو عامٌّ لكلِّ شيء، وعلى هذا فالسُّؤال أعمُّ، والاستفتاء أخصُّ[1].

(1) رشيد رضا، تفسير المنار: 12/259.

﴿وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِى ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [يوسف: 42]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

طَلَبُ الشَّفاعَةِ مع تأويل رؤيا الفتيَيْن؛ لِرَفْعِ الظُّلْمِ وَالجَوْرِ

لَمَّا ذكرت الآية السّابقة تأويلَ يوسفَ عليه السلام الرّؤيا للفتيَيْن؛ اتَّجه لمَن ظنَّ أنَّه ناجٍ منهما، وهو السّاقي دون علم الآخر، وأوصاه أن يذْكُرَهُ عِنْدَ المَلِكِ بما رآهُ منهُ من مكارِمِ الأخلاقِ ومَعالي الشِّيَمِ المُنْبِئَةِ عَنْ نَزاهَتِهِ وبُعْدِهِ مِمَّا رُمِيَ بِهِ، فقال: ﴿وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ﴾[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ظَنَّ﴾: الظَّنُّ: اسم لما يحصل عن أمارة، ومتى قويتْ أدّت إلى العلم، ومتى ضعُفت لم تتجاوز حدَّ التّوهُّم، ومادّة (ظنَّ) الظّاءُ والنّون تدلُّ تَصْريفاتُها على توقُّع وجودِ شَيْءٍ مُهِمٍّ؛ لِأمارَةٍ أَوْ دليلٍ قويَّيْن[2]، فيكون ذَلِكَ شكًّا أَوْ يقينًا[3]. فمِنَ الأوَّلِ قولُ اللّه سُبحانَهُ: ﴿قُلْتُم مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴿٣٢﴾﴾ [الجاثية: 32]، ومِنَ الثَّاني قولُه تَعالى: ﴿إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾﴾[4] [الحاقّة: 20]، وَقولُ اللّه عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿٤٦﴾﴾ [البقرة: 46]؛ فإنَّ معناها: يتيقَّنونَ ذلك[5]. وفي الظَّنِّ الوارِدِ في قولِ اللّه سُبحانَهُ: ﴿وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا﴾ قولانِ؛ أحدُهما: أنَّهُ بِمَعْنى العِلْمِ، والآخَرُ: أنَّهُ الظَّنُّ الّذي يقابِلُ اليَقينَ[6].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/93.
(2) الرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (ظنن).
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (ظن).
(4) ابن الجوزيّ، نزهة الأعين النَّواظر، ص: 425.
(5) ابن جرير، جامع البيان: 2/17 - 20.
(6) ابن الجوزيّ، زاد المسير: 2/441.

2) ﴿نَاجٍ﴾: أصل النَّجاء: الانفصال من الشّيء، ومنه نجا فلانٌ من فلان، أنجيتُه ونجَّيتُه، والنَّجْوة والنَّجاة: المكان المرتفع المُنفصل بارتفاعه عمّا حوله، وقيل: سُمّي لكونه ناجيًا من السَّيل[1]. ومعنى قوله تعالى: ﴿نَاجٍ﴾؛ أيْ: محكومٌ ببراءته.

3) ﴿فَأَنسَىٰهُ﴾: النِّسيان: تركُ الإنسان ضبط ما استودع؛ إمّا لضعف قلبه، وإمّا عن غفلة، وإمّا عن قصد حتّى ينحذف عن القلب ذِكْره، يُقال: نسيتُه نِسيانًا، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ﴾ [طه: 115]، وكلُّ نسيانٍ من الإنسان ذمَّه اللّه تعالى به هو ما كان أصله عن تعمُّد، وأمّا ما عُذر فيه، نحو ما رُوِيَ عن النَّبي ﷺ: «رُفع عن أمّتي الخطأ والنّسيان..»[2]، فهو ما لم يكن سببُه منه[3].

4) ﴿فَلَبِثَ﴾: اللّامُ والباءُ والثّاءُ تدورُ اشْتِقاقاتُها على مُلازَمَةٍ مُمْتَدَّةٍ لِلمكانِ[4]، ومنهُ قولُهُم: لَبِثَ بِالمَكانِ؛ إذا أقامَ بهِ[5]، وقيَّدَهُ الرَّاغِبُ بكونِهِ إقامةً بالمكانِ على وَجْهِ المُلازَمَةِ لَهُ[6]، وهذا هوَ المَعْنى المُرادُ في قولِ اللّه تَعالى: ﴿فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾.

5) ﴿بِضْعَ﴾: الأصل في هذه الكلمة من (البَضْعُ): وهو جملةٌ من اللّحم تُبْضَع؛ أيْ: تُقطّع، والبَضْع: قطعةٌ وافرة من المال تُقتنى للتّجارة، قال تعالى: ﴿هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا﴾ [يوسف: 65]، والبِضْعُ بالكسر: المُقتطع من العَشَرة، ويُقال ذلك لما بين الثّلاث إلى العشرة، وقيل: بل هو فوق الخمس ودون العشرة، قال تعالى: ﴿بِضْعَ سِنِينَ﴾[7].

المَعْنى الإجْماليُّ:

بيَّنَتْ هذه الآيةُ أنَّ يوسفَ عليه السلام قَالَ لِلّذي عَلِمَ أنَّهُ ناجٍ مِن صاحِبَيْهِ اللَّذَيْنِ اسْتَعْبَراهُ الرُّؤْيا (وهو ساقي الملك): اذْكُرْني عِنْدَ سَيِّدِكَ المَلِكِ، وأَخْبِرْهُ بِمَظْلَمَتي، وأَنّي مَسجونٌ بِغَيْرِ جُرْم

(1) الرّاغب، المفردات: (نجو).
(2) أخرجه ابن ماجه، السُّنن، الحديث رقم: (2045)، والطّبرانيّ، المعجم الأوسط، الحديث رقم: (8273)، والبيهقيّ، السُّنن الكبرى، الحديث رقم: (11787).
(3) الرّاغب، المفردات: (نسي).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (لبث).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (لبث).
(6) الرّاغب، المفردات: (لبث).
(7) الرّاغب، المفردات: (بضع).

ولا ذَنْبٍ، فَأَنْسى الشَّيْطانُ ذَلِكَ الرَّجُلَ أَن يَذْكُرَ لِلمَلِك حالَ يوسُفَ عليه السلام، فَمَكَثَ يوسُفُ عليه السلام بَعْدَ ذَلِكَ في السِّجْنِ عِدَّةَ سَنواتٍ[1].

الأخذُ بالأسبابِ لا يُنافي التَّوكُّلَ على ربِّ الأرباب

وتُرشدُ الآيةُ الكريمةُ إلى أنَّ مَن وقَع في مكروهٍ وشدَّةٍ؛ لا بأس أن يستعينَ بمَن له قُدرةٌ على تخليصه، أو بالإخبارِ بحاله، وأنَّ هذا لا يكون شَكْوى للمخلوق، فإنَّ هذا من الأمور العادّيّةِ الّتي جَرى العُرف باستعانةِ النّاسِ بعضِهم ببعض، ولهذا قال يوسفُ للّذي ظنَّ أنه ناجٍ من الفَتَيَيْن: ﴿ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ﴾[2]، وإلى الاستعاذةِ باللّه من كيدِ الشّيطانِ ومكْرِه؛ فهو حريصٌ على أن يُنسيكَ حاجاتِك الدّينيَّةَ والدّنيويّة.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

عِلَّةُ الوَصْلِ:

تـوالي المَشاهد يقتضي الوَصْلَ بَيْنَها

وُصِلَ قولُ اللّه ﷻ: ﴿وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا﴾ بما قَبْلَهُ ﴿قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾؛ لما بينَهُما مِنَ التَّوسُّطِ بين الكمالَيْن، إذْ كِلتا الجُملتيْنِ خبريَّةٌ، وبينَهُما تناسُبٌ في المَعْنى؛ لكونِ الثّانيَةِ واردةً في استكمال بعض المشاهد، وحسَّنَ الوصلَ اتِّفاقُ الجملتيْنِ في الفِعْليَّةِ، فكلتاهما جملَةٌ فعليَّةٌ.

نُكْتَةُ التَّعْبيرِ بِالاسْمِ المَوْصولِ وَصِلَتِهِ:

التَّنْصيص عَلى وَصْفِ النَّجاةِ، تَمْهيدٌ لِمَناطِ التَّوْصِيَةِ

عُبِّر بالموصولِ وصِلَتِهِ في قولِ اللّه تَعالى: ﴿وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ﴾؛ لما تَتَضمَّنُهُ الصِّلَةُ مِنَ التَّنصيصِ على وصفِ النَّجاةِ، فيكون تمهيدًا لِمَناطِ التَّوصيةِ بذِكْرِهِ عِنْدَ المَلِك، وذلك أَدْعى إلى تحقيقِ ما وصّاهُ به، بخلاف ما لَوْ وردَ النَّظْمُ القرآنيُّ: (وقال للسّاقي)، فإنَّ وصْفَهُ بهذا الوَصْفِ ليسَ بوصْفٍ متميِّزٍ عَنْ وصفِ صاحبِهِ الآخَرِ بـ (الخبّاز)، وليسَ فيهِ ما يُشْعِرُ بموجبِ الوصيَّةِ[3].

---

(1) ابن جرير، جامع البيان: 16/110 - 111، ونخبة من أساتذة التّفسير، التّفسير المُيسّر، ص: 240.

(2) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 410.

(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/280.

سرُّ التَّعبير بالظَّنِّ في السّياق:

تعدُّد المُراد باللَّفظ يُفضي إلى سَعةٍ وتنوُّع

الظَّنُّ الواردُ في قولِ اللّه سُبحانَهُ: ﴿وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ﴾ بمعْنى اليَقين؛ لأنَّه تقدَّم القَطْعُ بمضمونِ ما أخبرهما بِهِ، فقال: ﴿قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾، فالظَّنُّ في الآيَةِ كالظَّنِّ في قولِ اللّه ﷻ: ﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿٤٦﴾﴾ [البقرة: 46].

ويَحْتَمِلُ أن يكونَ الظَّنُّ على بابِه؛ لأنَّ التَّعبير للرُّؤيا من باب الاجتهاد، فهو ظنّيٌّ لا قطعيٌّ، وهوَ ما يُقابِلُ اليَقينَ؛ لكونِ تعبيرِ الرُّؤى – من حيثُ الجُملَةُ – من بابِ الظُّنونِ[1].

نُكْتَةُ التَّعْبيرِ عَنِ القَطْعِ بِالظَّنِّ:

مُراعاةُ الأَدَبِ مَعَ اللهِ سُبْحانَهُ في الأَلْفاظِ من أرقى الأدب

في قولِ اللّه سُبحانَهُ: ﴿وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ﴾ عُبِّرَ بالظَّنِّ دونَ العِلْم، مَعَ أنَّ يوسُفَ عليه السلام قَطَعَ بمضمونِ تعبيرِهِ في قولِهِ: ﴿قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾، من بابِ التَّأدُّبِ مَعَ اللّه ﷻ في العِلْم بالغَيْب، أو لأنَّ الأمرَ وإن كان يقينًا عِنْدَ يوسُفَ عليه السلام، إلّا أنَّ طريقَ ذلكَ لا يُنْتِجُ إلّا ظنًّا في الأَصْلِ[2].

دلالةُ التَّعبير عن (العلم)، بلفظ (الظَّنِّ):

علمُ اللهِ مبنيٌّ على اليقينيَّات، وعلمُ البشر قائم على الظُّنون والافتراضات

عبَّر القرآن الكريم على لسان يوسف عليه السلام، بالظَّن عن العلم؛ لأنَّ كلَّ علمٍ بالنِّسبة إلى علم اللّه تعالى هو عدم.

سِرُّ التَّعْبيرِ بِالفِعْلِ الماضي ﴿ظَنَّ﴾:

عُبِّرَ بالفِعْلِ الماضي ﴿ظَنَّ﴾ في قولِ اللّه ﷻ: ﴿وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ﴾ دونَ المُضارِعِ، فلَمْ يَرِدِ النَّظْمُ القرآنيُّ: (وقال للّذي يَظُنُّ أنَّه ناج)؛ مبالغةً في الدَّلالَةِ على تحقُّقِ النَّجاةِ، كما أفادَهُ قَبْلُ قولُ اللّه سُبحانَهُ: ﴿قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ

(1) ابن عطيّة، المُحرّر الوجيز: 3/246.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3826.

تَسْتَفْتِيَانِ﴾[1]، وهو السِّرُّ في إيثار ما عليه النَّظم الكريم، على أن يُقال للَّذي ظنَّه ناجيًا[2].

تحقُّقُ نَجاةِ السّاقي، مسألة أكَّدها واقع القصَّة وصِدق النُّبوَّة

تَعْيِيْنُ مَرْجِعِ الضَّميرِ في الفِعْلِ ﴿ظَنَّ﴾:

فاعِلُ الفِعْلِ ﴿ظَنَّ﴾ من قولِ اللّه تَعالى: ﴿وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ﴾، ضَميرٌ مُستَتِرٌ، يرجِعُ إلى الموصولِ ﴿لِلَّذِى﴾، والمُرادُ بِهِ: ساقي المَلِكِ؛ وذلك لأنَّه اعْتَرَتْهُ أُبَّهَةُ السُّرورِ بسَبَبِ ما بُشِّرَ به، وصار في منزلَةِ مَنْ يُؤمِّلُ أنَّهُ ناجٍ[3]. ويَحْتَمِلُ أَنْ يكونَ الضَّميرُ راجِعًا إلى يوسُفَ عليه السلام، وأنَّ المعنى: قال يوسُفُ للفَتى الَّذي ظنَّ أنَّه ناجٍ؛ وهوَ السّاقي، ولا تعارُضَ بينَ المَعْنَيَيْنِ. ويصحُّ حَمْلُ اللَّفْظِ عليهما مَعًا، فيكونُ المَعْنى: قالَ يوسُفُ عليه السلام للفتى الَّذي ظَنَّ يوسُفُ أنَّه ناجٍ، وظنَّ الفَتى أيضًا أنَّه ناجٍ.

إفادَةُ مَعْنى النَّجاةِ في ظَنِّ يوسُفَ عليه السلام وَالسّاقي مَعًا

نُكْتَةُ التَّعْبيرِ بالاسميَّة في سياق النّجاة:

آثر القرآن الكريم التَّعبير بالاسميَّة، في قوله تعالى: ﴿أَنَّهُۥ نَاجٍ﴾، من قولِ اللّه عز وجل: ﴿وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ﴾، دونَ أن يُقال: (للَّذي ظَنَّهُ نجا)؛ للدَّلالة على ثبوت نجاته واستمرارها؛ مبالغَةً في إفادَةِ تحقُّقِ النَّجاةِ، وفي هذا تأكيدٌ للمَعْنى المذكورِ قَبْلُ، في قولِهِ سُبحانَهُ: ﴿قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾[4].

المُبالَغَةُ في إفادَةِ تَحَقُّقِ نَجاةِ السّاقي، مُفصحٌ عن بيان التَّركيب

دلالةُ الإبهام في: ﴿مِّنْهُمَا﴾:

أبهم يوسف عليه السلام في قوله مع علمه بالنّاجي منهما، وهو السّاقي، ومع ذلك لم يصرِّح به، مراعاةً لحقِّ الصُّحبة في عدم إيذاء مشاعره.

جبر الخواطر، والمحافظة على المشاعر، مقصدٌ نبيل في كلِّ الشَّرائع

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/280.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 12/247.
(3) ابن عطيّة، المُحرّر الوجيز: 3/247.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/280.

معنى الأَمْرِ في الفعل ﴿ٱذۡكُرۡنِي﴾:

خُروجُ الأَمْرِ مَخْرَجَ الالْتِماسِ، ينسجم مع السّياق ويُواتيه

الأَمْرُ في قولِ اللّه سُبحانَهُ: ﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنۡهُمَا ٱذۡكُرۡنِي عِندَ رَبِّكَ﴾ خرَجَ عَنْ أَصْلِهِ من إرادَةِ الإلزام، وإنَّما المُرادُ به الالْتِماسُ؛ وهو الطَّلَبُ الصَّادِرُ مِن مُساوٍ لِمُساويه، ولا رَيْبَ أنَّ يوسُفَ عليه السلام أعْلى قدْرًا مِنَ المأمورِ منهُ؛ ولكنَّ أَمْرَهُ - ﴿ٱذۡكُرۡنِي﴾ - صادِرٌ منهُ باعتبارِ الصُّحْبَةِ في السِّجْنِ، فكانَ التَّساوي بِهذا الاعتبارِ.

سرُّ اختيار لفظ ﴿ٱذۡكُرۡنِي﴾:

الإشارة إلى طبيعة النِّسيان في الإنسان ممّا يلمح إليه بالتَّذكُّر

آثر السِّياق الكريمُ التَّعبيرَ بالتَّذكير دون غيره؛ لأنَّه يُقال اعتبارًا باستحضاره، وتارةً يُقال لحضور الشَّيء بالقلب أو القول، ولذلك قيل: الذِّكر ذِكْران: ذِكرٌ بالقلب، وذِكرٌ باللِّسان، وكلُّ واحدٍ منهما ضربان: ذِكرٌ عن نسيان، وذكرٌ لا عن نسيان، بل عن إدامة الحفظ، وعلى هذا لمَّا كان من أحوال الذِّكر ما كان، عن نسيان بسبب طبيعة الإنسان البشريَّة، أو لكثرة مشاغله، فكأنَّ التَّعبير بهذا اللَّفظ يُشير إلى أنَّ السّاقي سينسى بحكم الطَّبيعة أو بكثرة المشاغل[1].

دلالَةُ إيجازِ الحَذْفِ في سياق ﴿ٱذۡكُرۡنِي﴾:

الاقْتِصادُ في اللَّفْظِ وَطَيُّهُ، ثِقَةً بِعِلْمِ المُخاطَبِ بِهِ، مسلكٌ في البيان جميل

في ﴿ٱذۡكُرۡنِي﴾ من قولِ اللّه سُبحانَهُ: ﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنۡهُمَا ٱذۡكُرۡنِي عِندَ رَبِّكَ﴾ إيجازٌ بالحذْفِ، والمُرادُ: اذكُرْ قضيَّتي ومَظْلَمتي لسَيِّدِكَ[2]، وإنَّما حذفَ ذلكَ لظهورِ أَنْ ليس المَعْنى ذِكْرَ شَخْصِهِ، فطَوى الكلامَ ثِقَةً بِعِلْمِ المخاطَبِ بِهِ.

غرضُ التَّعبير بـ: ﴿عِندَ﴾:

ما يقدِّره الرَّحمن أصلح وأحسن ممّا يرتجيه الإنسان

آثر التَّعبيرُ القرآنيُّ لفظ ﴿عِندَ﴾، في قوله: ﴿ٱذۡكُرۡنِي عِندَ رَبِّكَ﴾، دون أن يقول: (اذكرني لربِّك)؛ لأنَّ يوسف عليه السلام، لم يطلب إلى السّاقي أن يَذكره للملك إلّا عندما يجد فرصة لذلك، في مجلس

(1) الرّاغب، المفردات: (ذكر).

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/278.

الملك، فيخبر بما حدث، ورأى من يوسف عليه السلام، ويكون في هذا آية له على نبوَّته، وإعادة للتَّحقيق في قضيَّته؛ لتظهر براءته على الملأ.

معنى الفاءِ في ﴿فَأَنسَىٰهُ﴾:

الفاءُ في ﴿فَأَنسَىٰهُ﴾ من قول الله عز وجل: ﴿فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ ذِكۡرَ رَبِّهِۦ﴾ يُرادُ بها السَّبَبِيَّةُ، وذلك أنَّ تَوصِيَةَ يوسُفَ عليه السلام المُتضَمِّنَةَ استِعانتَهُ بغيرِ الله سُبحانَهُ؛ كانَت باعثًا وسببًا لِما نُصَّ عليهِ مِنَ الإنساءِ[1].

الاسْتِعانَةُ بِغَيْرِ اللهِ سُبْحانَهُ، تُورِثُ نِسْيانَ ذِكْرِ اللهِ تَعالى

وجهُ تَعَدُّدِ مَرْجِعِ الضَّميرِ في: ﴿فَأَنسَىٰهُ﴾:

في مَرْجِعِ الضَّمير (الهاءُ) في (أَنْسَاهُ) من قولِ الله تَعالى: ﴿فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ ذِكۡرَ رَبِّهِۦ﴾ قولانِ لأهْلِ العِلْمِ[2]:

الأوّل: أنَّه راجِعٌ إلى يوسُفَ عليه السلام، والمَعْنى: فأنْسى الشَّيطانُ يوسُفَ عليه السلام إنزالَ حاجتِهِ بربِّهِ.

مِنْ بَدِيعِ الإيجازِ، نَظْمُ الكَلامِ عَلى أَوْجُهٍ مُحْتَمَلةٍ صَحيحَةٍ

الثّاني: أنَّ الضَّميرَ يعودُ على الفَتى النّاجي، والمقصود: أنَّ الشَّيطانَ أَنْسى ساقِيَ الملِكِ أَنْ يَذْكُرَ يوسُفَ عليه السلام لسيِّدِه، ففي ﴿فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ ذِكۡرَ رَبِّهِۦ﴾ حذْفٌ، والتَّقدير: أنساهُ الشَّيطانُ ذِكْرَهُ لربِّهِ. وهذا القولُ أَظْهَرُ، ويدلُّ على ذلكَ قولُ الله سُبحانَهُ بَعْد ذلك: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِي نَجَا مِنۡهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعۡدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأۡوِيلِهِۦ فَأَرۡسِلُونِ ۝٤٥﴾ [يوسف: 45]، فأضافَ التَّذكُّرَ إلى السّاقي، فدلَّ على أنَّ النِّسيانَ كان واقعًا منهُ، ولا مانِعَ من الجَمْعِ بينَ القولَيْنِ، فيكونُ المَعْنى: أَنْسى الشَّيطانُ الفَتى الّذي نجا أَنْ يَذْكُرَ يوسُفَ عليه السلام لربِّهِ، وَأَنْسى الشَّيطانُ يوسُفَ عليه السلام ذِكْرَ الله تَعالى، ويكونُ هذا من بديعِ الإيجازِ[3].

بَلاغَةُ المَجازِ في ﴿فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾:

عَلى وَجْهِ إرجاعِ الضَّميرِ في ﴿فَأَنسَىٰهُ﴾ من قولِ الله تَعالى:

لا سَبيلَ لِتَسَلُّطِ الشَّيْطانِ عَلى الأَنْبِياءِ عليهم السلام

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/280.
(2) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 9/195 - 196.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/278 - 279.

﴿فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ ذِكۡرَ رَبِّهِۦ﴾ إلى يوسُفَ عليه السلام، فإنَّ المَعْنى يكون: أنْسى الشَّيطانُ يوسُفَ ذِكْرَ اللّه سُبحانَهُ، وإسنادُ الإنساءِ إلى الشَّيطانِ هوَ من قبيلِ المجازِ العَقْلِيِّ؛ إذِ النِّسْيانُ واقِعٌ من يوسُفَ عليه السلام، لكونِ الشَّيطانِ لا سبيلَ لهُ على الأنبياءِ[1].

دلالَةُ إيجازِ الحَذْفِ في: ﴿فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾:

ملمحُ الإضافَةِ بِأَدْنى مُلابَسَةٍ بَيْنَ المُضافِ والمُضافِ إلَيْهِ

عَلى وَجْهِ عَوْدِ الضَّميرِ في ﴿فَأَنسَىٰهُ﴾ من قولِ اللّه عز وجل: ﴿فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ ذِكۡرَ رَبِّهِۦ﴾ إلى ساقي المَلِكِ: إيجازٌ بالحذْفِ، فإنَّ التَّقدير: فأَنْسى الشَّيطانُ السّاقِيَ ذِكْرَ يوسُفَ عليه السلام عِنْدَ ربِّهِ، وذلك بإلقائه في القلب أشغالًا حتّى يذهل عن ذكر يوسف عند المَلِكِ، والإضافَةُ يُكْتَفى فيها بأَدْنى مُلابَسَةٍ[2].

وَيَجوزُ أَنْ تكونَ الإضافَةُ مِن إضافَةِ المَصْدَرِ إلى مَفْعولِهِ بتقديرِ مُضافٍ، والتَّقديرُ: فأَنْسى الشَّيطانُ السّاقِيَ ذِكْرَ إخبارِ رَبِّهِ[3].

معنى الفاءِ في ﴿فَلَبِثَ﴾:

أَثَرُ مَعاني الحُروفِ في فَهْمِ الدَّلالاتِ القُرْآنِيَّةِ

الفاءُ في ﴿فَلَبِثَ﴾ من قول اللّه عز وجل: ﴿فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجۡنِ بِضۡعَ سِنِينَ﴾ سببيَّة؛ أيْ: فمكث يوسفُ عليه السلام بسبب ذلك القول، أو الإنساء في السِّجن بضع سنين[4].

سرُّ التَّعبير باللُّبْث دون غيره:

تعدُّد معاني اللَّفظ الواحد، يُعطي فرصًا عدَّة لفهم السّياق

آثرت الآيةُ الكريمةُ التَّعبيرَ باللُّبْثِ دون غيره من ألفاظ الإقامة؛ لأنَّه لا يدلُّ على الاستقرار في المكان دائمًا، بل يدلُّ على الإبطاء والتَّأخُّر، ومنه قوله: ﴿فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجۡلٍ حَنِيذٖ ٦٩﴾ [هود: 69]، ولمَّا كان مقام يوسف عليه السلام في السِّجن بضع سنين، وهي سنواتٌ معدودة،

(1) الشّوكانيّ، فتح القدير: 3/35.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/280، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 10/93.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 6/437.
(4) الآلوسيّ، روح المعاني: 12/247.

عبَّر باللَّبْث للإشارة إلى أنَّ إقامته في السِّجن قصيرة، وقد يُعبَّر باللَّبْث عن طول المدَّة، كما في قوله: ﴿فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾ [العنكبوت: 14]، ويكون المُراد على هذا أنَّ سجن الأنبياء، ولو كان قليلًا، فهو في حُكْم الزَّمَن الطويل؛ لعلوِّ مقامهم، وحاجة الناس إلى هدايتهم وإرشادهم، كما في حقِّ يوسف عليه السلام[1].

معنى (أل) في: ﴿ٱلسِّجْنِ﴾:

بيان أنَّ يوسُفَ عليه السلام، مكث في السِّجْنِ الَّذي دَخَلَهُ أَوَّلًا

اللّامُ في ﴿ٱلسِّجْنِ﴾ من قَوْلِ الله عز وجل: ﴿فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾، للعَهْدِ الذِّكْرِيِّ الصَّريحِيِّ؛ لتقدُّم ذِكْرِه في قولِ الله سُبحانَهُ: ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ﴾ [يوسف: 33]، وفي قولِه: ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ﴾ [يوسف: 36]، والمُرادُ: فَلَبِثَ في السِّجْنِ الّذي دخلَهُ أوَّلًا؛ بأَنِ استمرَّ مُكْثُهُ فيه بِضْعَ سنينَ.

سرُّ التَّعبير بلفظ (السِّنين):

تَرِدُ السِّنين مع الجَدْب والقَحْط والشِّدَّة والضِّيق

آثرت الآيةُ الكريمةُ التَّعبيرَ بالسِّنين دون الأعوام، في قوله: ﴿فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾؛ لأنَّ السِّنين تكون مع الجدب والقحط والشِّدة، بخلاف الأعوام فهي في الخير والرَّخاء، يؤكِّد ذلك ما ورد في قوله تعالى: ﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا﴾ [يوسف: 47]، فوصف السِّنين بالدَّأب وهو التتابعُ والجِدُّ والاجتهادُ على التّوالي بلا انقطاعٍ؛ ليَكْثُر العطاء، وما جاء في عقوبة آل فرعون: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾﴾ [الأعراف: 130]، بابتلاء الله لهم بالقحط والجدب، ونَقْصِ ثمارهم وغَلّاتهم، ويؤيِّد هذا المعنى دعاءُ النَّبيِّ ﷺ على مشركي مكَّةَ حين حبَسوا جماعةً من الصّحابة رضي الله عنهم في مكَّة لمَّا أسلموا، ومنعوهم من الهجرة إلى المدينة، فقال ﷺ: «اللهمَّ أَنْجِ المُسْتَضْعَفِينَ مِنَ المُؤْمِنِينَ، اللهمَّ اشْدُدْ وَطْأَتَكَ

(1) الرّاغب، المفردات: (لبث).

علَى مُضَرَ، اللهمَّ اجْعَلْهَا عليهم سِنِينَ كَسِنِي يوسُفَ»[1]، وهو دعاء عليهم بالقَحط والجدب وشدَّة الجوع، أمَّا في حقِّ الأعوام؛ فقال تعالى: ﴿ثُمَّ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ عَامٞ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعۡصِرُونَ ٤٩﴾ [يوسف: 49]، فيشير إلى الفَرَج بعد الضِّيق، والرَّخاء بعد الشِّدَّة، وعلى هذا كان التّعبير بالسّنين مناسبًا للسّياق؛ لأنَّ السِّجن من باب الشّدَّة والغلظة.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

اللُّبْثُ والإقامَةُ والثّواءُ والمُكْثُ:

تَبايُنُ الأَلْفاظِ المُتَقارِبَةِ الدّلالة بِأَوْجُهٍ يَخْتَصُّ بِها كُلُّ لَفْظٍ، من بلاغة اللَّفظ وثراء اللُّغة

تَرِدُ الإقامَةُ مُرادًا بِها الدَّوامُ، كما في قولِ اللّه تَعالى: ﴿وَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّقِيمٞ ٣٧﴾ [المائدة: 37]، ولَفْظُ (مقيم) اسمُ فاعِلٍ مِن (أقامَ)، وإفادَتُهُ الدَّوامَ مستفادةٌ مِنَ الصِّيغةِ لا من ذاتِ المادَّة، ويَرِد لفظُ الإقامَةِ بِمَعْنى الاستقرارِ في الحضَرِ، بعْدَ طولِ سَفَرٍ، كما قالَ اللّه سُبحانَهُ: ﴿تَسۡتَخِفُّونَهَا يَوۡمَ ظَعۡنِكُمۡ وَيَوۡمَ إِقَامَتِكُمۡ﴾ [النّحل: 80].

أمَّا الثَّواءُ؛ فهو الإقامَةُ معَ استقرارٍ، ولذا يُعبَّر عنِ الثَّواءِ بمسْكَنِ الرَّجُلِ، ومَثْوى الغَنَمِ، ومَثْوى أصحابِ النّارِ؛ وهوَ المكانُ الّذي يَنْتَهون إليه، وفيه يستقرّون، وهوَ جَهَنَّمُ، فالإقامَةُ تُشْعِرُ بطولِ اللُّبْث، بخلاف الثَّواءِ، فيُرادُ به دوامُ اللَّبثِ، ولذا يُقال للرَّجُلِ الغريبِ الَّذي يطولُ بقاؤُهُ في غير بلَدِهِ: مقيمٌ، ولا يُقال ذلك لِمَنْ كان من أهلِ ذلك البلَدِ.

وَأمّا اللُّبثُ؛ فلا يدلُّ على الاستقرارِ في المكانِ، وإنَّما يدلُّ على التَّوقُّفِ والإبْطاءِ والتَّأَخُّرِ، وَمنهُ قولُ اللّه سُبحانَهُ: ﴿فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجۡلٍ حَنِيذٖ ٦٩﴾ [هود: 69]؛ أيْ: لم يتأخَّرْ، وإنَّما عَجِلَ بالقِرَى، وقد يطولُ هذا الاستقرارُ في المكانِ، كَما في قولِ اللّه ﷻ: ﴿فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجۡنِ بِضۡعَ سِنِينَ﴾.

(1) البخاريّ، صحيح البخاريّ، الحديث رقم: (3386)، ومسلم، صحيح مسلم، الحديث رقم: (675) باختلاف يسير.

وأمّا المُكْثُ؛ فهو الإقامَةُ معَ الانْتِظارِ، وهذا الانتظارُ قَدْ يقصُرُ، كما في قولِ اللّه ﷻ: ﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ [النّمل: 22]، وقَدْ يطولُ، بَلْ قد يكون الانتظارُ أبديًّا لا يَنْقَضي، كما في قول اللّه سُبحانَهُ: ﴿وَنَادَوْاْ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَۖ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ٧٧﴾[1] [الزّخرف: 77].

(1) زيدان، الفروق اللّغويّة في القرآن الكريم، ص: 165 - 170.

﴿وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ إِنِّيٓ أَرَىٰ سَبۡعَ بَقَرَٰتٖ سِمَانٖ يَأۡكُلُهُنَّ سَبۡعٌ عِجَافٞ وَسَبۡعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضۡرٖ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٖۖ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ أَفۡتُونِي فِي رُءۡيَٰيَ إِن كُنتُمۡ لِلرُّءۡيَا تَعۡبُرُونَ ٤٣﴾ [يوسف: 43]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

ربط جَميلِ لُطْفِ اللهِ سُبْحانَهُ بِيوسُفَ، بمضمون الرُّؤيا الَّتي طلب المَلك تأويلها

لمّا أَوْصى يوسُفُ عليه السلام السّاقِيَ أَنْ يذْكُرَهُ عِنْدَ المَلِكِ في الآية السّابقة، وأنْسى الشَّيطانُ السّاقِيَ ذلكَ، فَبَطل بذلكَ هذا السَّبَبُ؛ جاءت هذه الآية لتُبيِّن أنَّ اللهَ عز وجل أثار سَبَبًا يَنْفُذُ به ما أرادَهُ، ويأذنُ بإخراج يوسفَ من السِّجن، قدَّر لذلك سببًا لإخراج يوسفَ وارتفاعِ شأنه وإعلاءِ قَدْره، وهو رؤيا الملك، وما قضى بِهِ مِن رِئاسَةِ يوسُفَ عليه السلام، وسُجودِ مَن دَلَّت عليهِ الكَواكِبُ في رُؤيا يوسُفَ، وهوَ صغيرٌ، فقالَ سُبحانَهُ دالًّا عَلى هذا المَعْنى: ﴿وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ إِنِّيٓ أَرَىٰ سَبۡعَ بَقَرَٰتٖ سِمَانٖ يَأۡكُلُهُنَّ سَبۡعٌ عِجَافٞ﴾[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿عِجَافٞ﴾: العَيْنُ والجيمُ والفاءُ تدورُ تصريفاتُها على مَعْنيَيْن كُلِّيَّيْن؛ أحدهما: الهُزالُ، والآخَرُ: حَبْسُ النَّفْسِ وصَبْرُها على شيءٍ أَوْ عَنْ شيءٍ[2].

فَمِنَ الأوَّلِ: العَجَفُ؛ وهوَ الهُزالُ وزوالُ السِّمَنِ، ومنهُ قولُ اللهِ تَعالى: ﴿يَأۡكُلُهُنَّ سَبۡعٌ عِجَافٞ﴾، و(عِجافٌ) جمعُ أَعْجَف للذَّكَرِ وعَجْفاءَ للأُنْثى[3]، ومِنَ الآخرِ قولُهم: عَجَفْتُ نَفْسي عن الطَّعامِ؛ أيْ: حَبَسْتُها عَنْهُ وهيَ تَشْتَهيهِ، ومعنى ﴿عِجَافٞ﴾: الهُزْل الَّتي لا لحمَ عليها ولا شَحْم.

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/98، والسّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 398.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عجف).
(3) الرّاغب، المفردات: (عجف).

2) ﴿أَفْتُونِي﴾: الفاءُ والتّاءُ والحرفُ المُعتَلُّ تدلُّ اشْتِقاقاتُهَا على مَعْنَيَيْنِ كُلِّيَّيْن؛ أحدُهما: الطَّراوَةُ وَالجِدَّةُ، وَالآخَرُ: تَبْيينُ الأحْكام[1]، وَمِنَ الثَّاني: الفَتْوى، ومنه قولُ اللّه سُبحانَهُ: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي ٱلْكَلَٰلَةِ﴾ [النّساء: 176]، وحقيقَةُ الفَتْوى: الجَوابُ عَمّا يُشْكِلُ مِنَ الأحْكام[2]، والاسْتِفْتاءُ: طَلَبُ الفَتْوى، والمُرادُ بالإفْتاءِ في قولِ اللّه تَعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُءْيَٰيَ﴾: الإخبارُ عَن غامِضِ هذه الرُّؤيا بِتَعْبيرِها وتَأْويلِها.

3) ﴿تَعْبُرُونَ﴾: العَيْنُ والباءُ والرّاءُ تدلُّ اشْتِقاقاتُها على مَعْنى الانتقالِ والانتشارِ من حَيِّزٍ إلى آخرَ يقابِلُهُ بقوَّةٍ ولُطْفٍ[3]، وهذا الانتقالُ ضَرْبانِ: أحدهما: انتقالٌ حِسِّيٌّ، ومنهُ العبورُ؛ وهو مُختصٌّ - في الأصْلِ - بتَجاوُزِ الماءِ؛ سباحَةً أو في سفينَةٍ أو على قَنْطَرَةٍ، ونَحْو ذلكَ[4]. والآخَرُ: انْتِقالٌ مَعْنويٌّ، وَمنهُ: تَعْبيرُ الرُّؤْيا؛ والمُرادُ: تفسيرُها وتأويلُها؛ أيْ: نَقْلُها من عالَمِ الرَّمْزِ إلى عالَمِ الواقِعِ، ومن هذا قولُ اللّه ﷻ: ﴿إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ﴾[5].

المَعْنى الإجْماليُّ:

تَفْصيلُ رُؤْيا المَلِكِ الغَريبَةِ الَّتي طلب تأويلَها

بيَّنت هذه الآيةُ أنَّ اللّه ﷻ إذا أراد شيئًا هيَّأ له أسبابَه؛ فقد رأى ملكُ مصرَ - وهو من العَمالقةِ الّذين مَلكوا مصرَ - رؤيا عجيبةً أهمَّته وشغلته، فقال: إنّي رَأَيْتُ في مَنامي سَبْعَ بَقَراتٍ سِمانٍ، يَأْكُلُهنَّ سَبْعُ بقَراتٍ نَحيلاتٍ مِن شدَّةِ الهُزالِ، ورأَيْتُ سَبْعَ سُنْبلاتٍ خُضْرٍ، وسَبْعَ سُنْبُلات يابِساتٍ، يا أيُّها الأَشْرافُ مِن العلماء والحُكماء والكُهان أَخْبِروني عَن هذهِ الرُّؤْيا؛ فاعبُروها وأَوِّلوها، وأعلِموني بمعناها وما تدلُّ عليه، إنْ كُنْتُم لِلرُّؤيا تُفَسِّرونَ[6].

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (فتى).
(2) الرّاغب، المفردات: (فتى).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (عبر).
(4) الرّاغب، المفردات: (عبر).
(5) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (عبر).
(6) ابن جرير، جامع البيان: 16/116، ونخبة من أساتذة التّفسير، التّفسير المُيسّر، ص: 240.

وتُرشدُ الآيةُ الكريمةُ إلى أنَّ الرؤيا الصّالحةَ قد يراها الكافرُ أو الفاسقُ[1]، وإلى أنَّ الرؤيا الصّادقةَ الّتي تحتاج إلى تفسيرٍ وإيضاح تُقْلِقُ صاحبَها، وتُؤرِّقُه، وتبقى عالقةً في ذِهْنه وتفكيرِه لا تَنمحي من الذَّاكرة، وتأتي هذه الرُّؤيا بصورة رموزٍ تحتاجُ إلى فكٍّ وشرحٍ وبيان.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

عِلَّةُ وَصْلِ الآيَةِ بِما قَبْلَها في السّياق:

تباشيرُ نَجاةِ يوسُفَ عليه السلام مِنَ السِّجْنِ

وُصِلَ قولُ اللّه ﷻ: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّيٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ﴾ بِما قَبْلَهُ؛ عَطْفًا لجزءٍ مِنَ القِصَّةِ على جزءٍ منها؛ تكميلًا لوصفِ خلاصِ يوسُفَ عليه السلام ونجاتِهِ مِنَ السِّجْنِ[2]؛ فهو عطف على سياق صاحبي السِّجن وما قالاه.

معنى (أل) في: ﴿ٱلْمَلِكُ﴾:

بَيانُ مَنْزِلَةِ الرُّؤْيا وَمَنْزِلَةِ الاسْتِفْتاءِ عَنْها

اللّامُ في ﴿ٱلْمَلِكُ﴾ من قولِ اللّه ﷻ: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّيٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ﴾ لِلْعَهْدِ العِلْميِّ، والمُرادُ به: مَلِكُ مِصْرَ في زمن يوسفَ عليه السلام[3]، وذُكِرَ بوَصْفِهِ دون اسْمِهِ؛ لبيانِ منزلَةِ الرُّؤيا ومنزلةِ الاسْتِفْتاءِ عَنْها، وليكونَ ذلك أَظْهَرَ وأَبْيَنَ في عنايَةِ اللّه تَعالى بيوسُفَ عليه السلام.

سرُّ التَّعبير عن الحاكم في زمن يوسف بالمَلِك:

الإعجاز القرآنيُّ، يتطابق مع حقائق التّاريخ الإنسانيّ

عبَّر القرآن الكريم عن الحاكم في زمن يوسف عليه السلام بالمَلِك، دون أن يُلقِّبه بفرعون كما في زمن موسى عليه السلام؛ لأنَّه ثبت في تاريخ مصر القديم أنَّ المصريّين كانوا يُلقِّبون الحاكم إذا كان منهم بفرعون، ويلقِّبونه بالمَلِك إذا كان من غيرهم وسيطر عليهم؛ لأنَّ هذا الملك لم يكن من الفراعنة ملوك مصر القبط، وإنَّما كان ملكًا لمصر أيام

(1) الجزائريّ، أيسر التّفاسير: 2/617.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/279.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/280.

أن حَكَمها "الهكسوس"، وهم العمالقة الّذين مَلكوا مصر من 1900 قبل الميلاد إلى سنة 1525 ق.م، ف التّعبيرُ عنه بالملك هنا دون التّعبير عنه بفرعون مع أنَّه عبَّر عن مالك مصر في زمن موسى بفرعون، يعتبر من دقائق إعجاز القرآن العلميّ[1]. والمُتتبِّع لألفاظ السّورة في قصَّة يوسف عليه السلام يجد أنَّ لفظ ﴿ٱلْمَلِكُ﴾، تكرَّر خمس مرّات، تأكيدًا لهذه الحقيقة، وهذا دليلٌ على إعجاز القرآن الكريم، وأنَّه من عند الله تعالى؛ لأنَّ رسول الله ﷺ أُمِّيٌّ، فمن أين علم رسول الله بهذا العلم، وهو أُمّي، ولم يُكتشف ذلك إلّا بعد اكتشاف حجر رشيد وفكِّ رموزه[2]؟

نُكْتَةُ التَّأْكيدِ في السّياق:

إشْعارُ المَلِكِ بِصِدْقِ ما رَآهُ، وأنَّ إلحاح الرُّؤيا، دليل على صدقها

أُكِّدَت جملةُ مقولِ القولِ بـ (إنَّ) في قولِ الله سُبحانَهُ: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّيٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ﴾، معَ أنَّ المخاطَبينَ ليسوا بمُنْكِرين ولا متردِّدين؛ وذلك اهتمامًا بمضمونِ الرُّؤْيا، وللإعلام بأنَّه مُحِقٌّ في إخبارِهِ عمّا رآهُ، وأنَّه لَمْ يخْتَلِق المنامَ لأجلِ امتحانِهِمْ[3].

سِرُّ التَّعْبيرِ بِالفِعْلِ المُضارِعِ ﴿أَرَىٰ﴾:

اسْتِحْضارُ المَلِكِ الحالَ الماضِيَةَ لِشِدَّةِ ما هالَهُ من أَمْرِ الرُّؤْيا

عُبِّرَ بالفعْلِ بالمضارِعِ ﴿أَرَىٰ﴾ في قولِ الله سُبحانَهُ: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّيٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ﴾، مع أنَّ الرُّؤيا مُتقدِّمَةٌ على مقالَتِه هذه، فكان مُقْتضى الظّاهرِ أَنْ يَرِدَ النَّظْمُ القرآنيُّ: (وقال المَلِكُ إنّي رأَيْتُ سبعَ بقراتٍ...)، والنُّكْتَةُ في التَّعبير بالفِعْلِ المضارِعِ، حكايةُ الحالِ الماضيَةِ لشدَّةِ ما هالَهُ من تِلْكَ الرُّؤيا، ومراعاة لمقصودِهِ من حكايَةِ الرُّؤيا، وهو اسْتِقْبالُ النَّظَرِ في تأويلِها وتَعْبيرِها[4].

(1) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 7/367.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/280، والشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 11/6967.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/98.
(4) ابن عطيّة، المُحرّر الوجيز: 3/248، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 10/98، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/280.

سرّ التعبير بالماضي في رؤيا يوسف، وبالمضارع في رؤيا الملك:

تنوُّع الزَّمن الفعليّ، يتلاءم مع الأحداث، وتلوُّن السّياقات

النّاظر في أوَّل السّورة يجد تعبيرَ القرآن عن رؤيا يوسف بالماضي، في قوله: ﴿إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ ۝٤﴾ [يوسف: 4]، فعبَّر بالماضي الَّذي يدلُّ على تحقُّق الوقوع، ويُقال للشَّيء؛ إذا وقع مرَّةً واحدةً ومضى، فرؤية يوسف عليه السلام ينطبق عليها ذلك، أمّا إذا جاء الفعل مضارعًا، والمُراد الإخبار عن الماضي - كما في رؤيا المَلِك في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّيٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ﴾، والمُراد: ﴿إِنِّي رَأَيْتُ﴾؛ فهذا التَّعبير يدلُّ على أنَّ هذا الشَّيء وقع، واستمرَّ وقوعه؛ لأنَّ المضارع وُضع للحال والاستقبال، فإذا نُقل إلى الماضي، وأُخبر به؛ فلإفادة الاستمرار فيه، وهذا ينطبق أيضًا على رؤيا الفتيَيْن، حيث تكرَّرت في ليالٍ عديدة، وكذلك مع المَلِك، فلم يُخبر برؤيته إلّا بعد أن تكرَّر المشهد، وهَاله ما رأى، فقصَّ على الملأ من شدَّة هَوْله[1].

دلالة تَكرار الرُّؤى في سورة يوسف عليه السلام:

تعبيرُ الرُّؤى معروف عند المصريّين القُدامى، ويَعدُّه الكهنة من علومهم

القارئ لهذه السّورة، يجد في قصَّة يوسف عليه السلام تكرارًا لأمر الرُّؤيا معه في قوله: ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا﴾ [يوسف: 4] ومع الفتيَيْن، في قوله تعالى: ﴿قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعْصِرُ خَمْرًا ۖ وَقَالَ ٱلْءَاخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُ ۖ﴾ [يوسف: 36]، ومع الملك في قوله: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّيٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ﴾ الآية، فهذا يدلُّ على أنَّ تعبير الرُّؤى كان عِلمًا يشتغل به المصريّون، والكهنة منهم يعدّونه من علومهم، ولهم في تعبير الرُّؤى ورموزها قواعد علميَّة يرجع إليها في تاريخ مصر القديم، ولعلَّ ذلك ممّا يُساعد في تفسير اختصاص يوسف عليه السلام بتأويل الرُّؤيا، وأنَّ ذلك يُعدُّ من معجزاته الّتي وهبها الله له، وامتنَّ عليه بها في موضعيْن

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 4/46.

من هذه السّورة الكريمة: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجۡتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعۡقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيۡكَ مِن قَبۡلُ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ٦﴾ [يوسف: 6]، وفي قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِۚ﴾ [يوسف: 21]، وكما أعطى موسى العصا في ردِّ سحرة فرعون، أعطى يوسف تأويل الرّؤى تمييزًا له عن الكهنة في ذلك العصر[1]، وقد شكرَ يوسفُ عليه السلام ربَّه في نهاية هذه السّورة على ما أعطاه، وتفضَّل عليه من ملك «مصر»، وعلَّمه من تفسير الرّؤى وغير ذلك من العلم، قائلًا: ﴿۞رَبِّ قَدۡ ءَاتَيۡتَنِي مِنَ ٱلۡمُلۡكِ وَعَلَّمۡتَنِي مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ تَوَفَّنِي مُسۡلِمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ١٠١﴾ [يوسف: 101].

علَّةُ عدم ذِكر (في المنام) هنا، وذِكْرها مع إبراهيم:

لفظ الرُّؤيا يغني في اللِّسان العربيِّ، عن تقييده بالمنام

عرضَ الملك رؤياه على السّادة والكبراء من قومه بقوله: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰ﴾، ولم يذكر أنَّه رأى هذه الرّؤيا في منامه ولا في غيره؛ لتعارف العرب لاستعمالاتهم للفعل (رأى) في هذا السّياق بأنَّه في المنام، وعدَّه أصحاب المعاجم نوعًا من أنواع الرّؤيا الّتي ذكروها تحت مفردة (رأى) بأنَّها تكون للبصر أو للبصيرة، وعلى هذا جاء الاستعمال القرآنيّ، كما قال أبو حيّان: "﴿أَرَىٰ﴾ يَعْنِي: في مَنامِهِ، ودَلَّ عَلى ذَلِكَ: ﴿أَفۡتُونِي فِي رُءۡيَٰيَ﴾"[2]، والفتوى لا تتعلّق إلّا بالمبهم، فصار من لازم الرُّؤيا أن تكون في المنام، أمّا ما ورد في حقِّ سيِّدنا إبراهيم عليه السلام مع ولده إسماعيل، فهو أمرٌ خاصٌّ يتعلَّق بذبحه، فكان ذِكر قوله: ﴿أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ﴾ [الصّافّات: 102] قيدًا مهمًّا في استجابة إسماعيل لمطلب أبيه؛ لأنَّه يعلم أنَّ رؤيا الأنبياء وحي، وفيه إشارة

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/281.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/280.

إلى التَّلطيف في عرض هذا البلاء العظيم على سيِّدنا إبراهيم عليه السلام وعلى ولده للتَّأهيل النَّفسي.

سرُّ جعل الصّفة دون العدد:

صيغة التَّمييز، ذات أثر في تحديد الجنس والنَّوع، وأمّا العدد؛ فهو مُميَّز بالتَّمييز

جاء التَّعبير القرآنيُّ على هذا النَّسق ﴿سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ﴾، فجعل ﴿سِمَانٍ﴾ صفة للمُمَيَّز، وهو ﴿بَقَرَٰتٍ﴾ دون المُمَيِّز، وهو ﴿سَبْعَ﴾، والفرق بين الأمرَيْن - وكلاهما جائزان في قواعد النَّحو - أنَّك لو أوقعتها صفةً لبقرات، فقد أردت تمييز السَّبع بنوع من البقرات، وهي السِّمان منها خاصَّة لا بجنسهنَّ، ولو أوقعتها صفةً لسبعٍ؛ فقد أردتَ أن تُميِّز السَّبع بجنس البقرات لا بنوعٍ خاصٍّ منها، ثمَّ رجعت، فوصفتَ المُمَيَّزَ بالجنس[1].

نُكْتَةُ التَّعْبيرِ بِالفِعْلِ المُضارِعِ ﴿يَأْكُلُهُنَّ﴾:

اسْتِحْضارُ الصّورَةِ الماضِيَةِ؛ لِقَصْدِ التَّعْجيبِ مِن البيانِ العجيب

عُدِلَ في قول الله سُبحانَهُ: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّيٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ﴾ عنِ التَّعبيرِ بالفِعْلِ الماضي (أَكَلَتْهُنَّ) إلى التَّعبيرِ بالفِعْلِ المُضارِعِ ﴿يَأْكُلُهُنَّ﴾، لاسْتِحْضارِ هَذِهِ الصّورَةِ الماضِيَةِ تَعْجيبًا[2].

سرُّ التَّعبير بـ ﴿عِجَافٌ﴾:

صيغ على فِعال؛ لأجل المزاوجة لمقارنة (سِمَان)، والعربُ قد تبني الشَّيء على ضدِّه

آثر التَّعبيرُ القرآنيُّ جمعَ ﴿عِجَافٌ﴾ جمعًا لـ (عجفاء)، على غير قياس؛ لأنَّ أفعل فعلاء لا تجمع على فِعال، والسَّبب في جمعه أنَّهم بنَوْه على ضدِّه، والعرب قد تبني الشَّيء على ضدِّه، كما قالوا: عَدوُّه بناءً على صديقه؛ فصيغ هنا على وزن فِعال، لأجل المزاوجة والمقارنة، وهو ﴿سِمَانٍ﴾[3].

دلالة التَّعبير بالصِّفة دون الموصوف:

جاء التَّعبير القرآنيُّ بذِكْر الصِّفة ﴿عِجَافٌ﴾، دون ذِكْر الموصوف

(1) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 8/345، وأبو حيّان، البحر المحيط: 5/312.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/280، والآلوسيّ، روح المعاني: 6/438.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/280.

﴿بَقَرَٰتٍ﴾؛ لأنَّ الصِّفة قامت مقام الموصوف، وأيضًا؛ لأنَّ الموصوف معلومٌ، ممّا تقدَّم في قوله تعالى: ﴿سَبۡعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٖ﴾، وفيه إشارةٌ إلى تمكُّن صفة الضَّعف والهُزال في هذه البقرات، أخذًا من قوله: ﴿عِجَافٞ﴾، فكأنَّ الوصف صار عَلَمًا عليها[1].

قد يغلب الوصف على الشَّيء، فيصير كأنَّه عَلَمٌ عليه

سِرُّ التَّعبير بِـ ﴿سُنۢبُلَٰتٍ﴾:

عُبِّر بـ ﴿سُنۢبُلَٰتٍ﴾ دونَ (سَنابِلَ) في قولِ اللّه ﷻ: ﴿وَسَبۡعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضۡرٖ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٖۖ﴾؛ لأنَّ ﴿سُنۢبُلَٰتٍ﴾ جَمْعُ تصحيحٍ، وهو مِن الجُموعِ الدّالَّةِ على القِلَّةِ، فلمّا كانَ تأويلُ المنامِ الشِّدَّةَ والجَدْبَ والقحْطَ؛ أضافَ العَددَ إلى جَمْعِ القِلَّةِ، بخلافِ قولِ اللّه سُبحانَهُ: ﴿كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتۡ سَبۡعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٖ مِّاْئَةُ حَبَّةٖۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُۚ﴾ [البقرة: 261]، فإنّه كان في سياقِ المُضاعفةِ، فكان الأنسبُ إضافة العددِ إلى جمعِ الكثرةِ[2].

التَّصرُّفُ في صِيَغِ الجُموعِ بما يُلائِمُ سِياقَها، من فصيح الاستعمال

وجهُ عدم ذكر ﴿أَرَىٰ﴾، مع ﴿سُنۢبُلَٰتٍ﴾:

في عرض المَلِك لرؤيته ذَكَر الفعل ﴿أَرَىٰ﴾ مع ﴿سَبۡعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٖ﴾، ولم يذكره مع ﴿وَسَبۡعَ سُنۢبُلَٰتٍ﴾؛ أخذًا من العطف بالواو، ويكون التَّقدير: (ورأى سبع سنبلات)، فلم يُذكر لتقدُّم ما يدلُّ عليه.

ويمكن أن يُقال: إنَّ الملك رأى رؤيتين، واحدة بعد الأخرى، فرأى الأولى الخاصَّة بالبقرات، ورأى بعدها الخاصَّة بالسُّنبلات الخضر واليابسات، ويكون التَّقدير: (وأرى رؤية ثانية سبع سنبلات)[3].

احتمال تعدُّد الرُّؤيا، واختصاص كلٍّ منها بمشهد مستقلٍّ

دلالةُ التَّعبير بوصف ﴿خُضۡرٖ﴾:

آثر القرآن الكريم وصف السُّنبلات بالخُضر، والخضرة أحد الألوان بين البياض والسّواد، وهي إلى السّواد أقرب، واختار ذلك

اخضرار السَّنابل، رمزٌ للحياة والنُّموِّ والنَّفع

(1) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 8/347.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/98.
(3) القاسميّ، محاسن التّأويل: 4/368.

الوصف للدّليل على أنَّه انعقد الحَبُّ في السّنابل، واشتدت فهي خَضِرة ناضرة يؤمَّل فيها الخير[1].

نكتةُ التَّعبير بـ: ﴿يَابِسَٰتٍ﴾:

اختار القرآن الكريم التَّعبير بوصف اليابسات؛ للإشارة إلى أنَّ النَّبات كان فيه رطوبة فذهبت ويبس؛ فعندما جاء وقت الحصاد، لم يجدوا فيها حَبًّا، وهذا دليلٌ على عدم وجود الخير فيها[2].

التَّحوُّل من اليناعة إلى اليبوسة دليلٌ على عدم وجود الخير في السُّنبلات

بَراعَةُ إيجازِ الحَذْفِ في السّياق:

في قولِ الله ﷻ: ﴿وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ﴾ حذفٌ، والتَّقدير: (وسبع أُخَر يابساتٍ الْتَوَت على الخُضْرِ، فغَلَبَتْها)، وإنَّما حسَّنَ هذا الحذْفَ ما ذُكِرَ من حالِ العِجاف مع السِّمانِ في قوله: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ﴾[3]، والتَّقسيم في البقرات يقتضي التَّقسيم في السُّنبلات[4].

طَيُّ ما دَلَّ عَلَيْهِ السِّياقُ، يكون اقْتِصادًا في اللَّفْظِ

عِلَّةُ الفَصْلِ في: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ﴾:

فُصِلَ قولُ الله سُبحانَهُ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُءْيَٰيَ﴾ عمَّا قَبْلَهُ؛ لوقوعِهِ اسْتِئنافًا بيانيًّا، فبينَ الجُملتَيْنِ شِبْهُ كمالِ الاتِّصالِ، وذلك أنَّ قولَهُ قَبْل ذلك: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّيٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ﴾ يَبْعَثُ في نفس المُتلقِّي سؤالًا، وهوَ: فكان ماذا بعْدَ سَرْدِ المَلِكِ ما رآهُ؟ فجاءَ الجوابُ أنَّه قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُءْيَٰيَ﴾[5].

تشويق المُتَلَقّي، بشتّى أساليب الجذب والانتباه

دِلالَةُ النِّداءِ بِـ (يا):

جاء التَّعبيرُ في النِّداء بـ (يا) في قول الله سُبحانَهُ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ

تَعْظيمُ المُنادى وَالإيماءُ إلى رَفيعِ شَأْنِ الرُّؤْيا

(1) الرّاغب، المفردات: (خضر).
(2) الرّاغب، المفردات: (يبس).
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/99.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/312.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/99.

﴿أَفۡتُونِي فِي رُءۡيَٰيَ﴾، وهي في الأصل لِنِدَاء البَعيدِ، والظّاهِرُ مِن سياقِ القِصَّةِ أنَّه واجهَهُم بالنِّداءِ من قُرْبٍ، وفي التَّعبير بأداة النِّداء لِلْبَعيدِ نُكْتَتانِ:

أولاهما: تَعظيمُ المُنادى، ويُقوِّيهِ أنَّهُ ناداهُمْ بما يَقْتَضي عُلوَّ شأنهم، وهوَ لَفْظُ (المَلَأ)، والمُرادُ بِهِم: الأَشْرافُ النُّبلاء الّذين تَمْلَأُ مناظِرُهُم العيونَ ومآثرُهم القلوبَ[1].

ثانيهما: عِظَمُ شَأْنِ مَوْضوع النِّداءِ؛ لِما للرُّؤيا من عَجَبٍ وغرابَةٍ غير مألوفَيْن، والنِّداءُ بـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا﴾ فيهِ ضربٌ من تقويةِ النِّداءِ، وَوَجْهُ ذلك: أنَّ (أَيّ) لا يُفْهَمُ المُرادُ به إلَّا باسمٍ بعَدَهُ يُزيلُ غُموضَهُ، وفي هذا انتقالٌ مِنَ الإِبْهَام إلى الإيضاح والبيانِ، وفي هذا نوعُ توكيدٍ، وفي اقترانِهِ بـ (ها) التَّنبيهِ: زيادةٌ في التَّوكيدِ؛ إذِ النِّداءُ في الأصل يُرادُ به التَّنبيهُ.

غرضُ التَّعبير بالملأ في النّداء:

آثر التَّعبير بالملأ للدَّلالة على أنَّ المُراد بهم وجهاء القوم الَّذين يجتمعون مع المَلِك من العلماء وأصحاب المناصب، وقيل: من الكهنة والمُعبِّرين للرُّؤيا، ووصفوا بذلك؛ لأنَّهم يملؤون العيونَ رَواءً ومنظرًا، والنُّفوسَ بهاءً وجلالًا[2].

الملأُ يملؤون العُيون رَواءً، والرّأي إنضاجًا، والمشورة حكمةً

دلالَةُ الأَمْرِ في ﴿أَفۡتُونِي﴾ في طلب تعبير الرّؤيا:

فِعْلُ الأمرُ ﴿أَفۡتُونِي﴾ في قولِ الله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ أَفۡتُونِي فِي رُءۡيَٰيَ إِن كُنتُمۡ لِلرُّءۡيَا تَعۡبُرُونَ﴾ لَمْ يَجْرِ على إرادَةِ الإلْزام، مع أنَّه صادِرٌ مِنَ المَلِكِ لأفرادٍ مِن رعيَّتِه، وإنَّما واردٌ بمنزِلَةِ طَلَبِ المَشورَةِ، كما يُشْعِرُ بذلك نداؤُهم بوصْفِ التَّعظيمِ ﴿ٱلۡمَلَأُ﴾، وإتباعُهُ الطَّلَبَ

نِداؤُهُمْ بِوَصْفِ التَّعْظيمِ، دالٌّ عَلى إرادَتِهِ بِطَلَبِهِ المَشورَةَ

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 10/99.
(2) الرّاغب، المفردات: (ملأ).

بقولِهِ: ﴿إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ﴾، فمَعْنى: ﴿أَفْتُونِي﴾؛ أيْ: أَجيبوني، وأَوْضِحوا لي مآلَ الرُّؤيا[1].

نُكْتَةُ التَّعْبيرِ بِالإِفْتاءِ في تَعْبيرِ الرُّؤْيا:

تَهْويلُ أَمْرِ الرُّؤْيا، وَتَفْخيمُ شَأْنِها، وتشريفُ المُوَجَّهِ لهم الخطابُ

عُبِّرَ عَنْ تَعْبيرِ الرُّؤْيا بالإِفْتاءِ في قولِه: ﴿أَفْتُونِي فِي رُءْيَايَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ﴾ تهويلًا لأمْرِه وتَفْخيمًا لشأنِه؛ لكونِ أصلِ الاسْتِفْتاءِ مختصًّا بالنَّوازلِ المُشكلَةِ والحُكْمِ المُبْهَمِ جوابُهُ، وفيهِ أيضًا تشريفُ المُوَجَّهِ الخطاب إليهِم[2].

معنى حَرْفِ الجَرِّ ﴿فِي﴾:

تَوْجيهُهُمْ إلى عَدَمِ الخُروجِ، عَنْ مَقْصَدِ الطَّلَبِ

حرفُ الجرِّ ﴿فِي﴾ من قولِ اللّه سُبحانَهُ: ﴿أَفْتُونِي فِي رُءْيَايَ﴾ دالٌّ على الظَّرفيَّةِ المجازيَّةِ التي بِمَعْنى المُلابسَةِ، والمُرادُ: أَفْتوني إفتاءً مُلابسًا لرُؤيايَ كمُلابسَةِ البيانِ للأَمْرِ المُجْمَلِ، ويُفْهِمُ حرفُ الجرِّ ﴿فِي﴾ أيضًا أنَّ مرادَهُ ألّا يَخْرُجَ الملأُ الموجَّهُ الخطابُ لَهُمْ بالجوابِ عَنِ القصْدِ، ولا يَبْعُدوا بهِ[3].

دلالة ﴿إِن﴾:

ارتيابُ الملك من مقدرة السّادةِ والكبراء على التَّعبير وإدراكِ المقصود من الرُّؤيا

دلَّ التَّعبير بـ ﴿إِن﴾ دون (إذا)، في قوله تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ﴾، على وجود شكٍّ عند المَلِك في مقدرة الملأ على التَّعبير وإدراك المقصود من الرُّؤيا.

معنى حَرْفِ الجَرِّ (اللّام) في ﴿لِلرُّءْيَا﴾:

تَقْوِيَةُ العامِلِ المُؤَخَّرِ مَعَ مُراعاةِ التَّناسُبِ الصَّوْتِيِّ لِلفَواصِلِ

اللّامُ في قوله: ﴿لِلرُّءْيَا﴾ من قولِ اللّه ﷻ: ﴿إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ﴾ لتقويةِ العامِلِ المؤخَّرِ، فإنَّ أصلَ التَّركيبِ أَنْ يَرِدَ النَّظْمُ القرآنيُّ: (إنْ كُنتم تَعْبُرون الرُّؤْيا)، فأُخِّرَ العامِلُ مراعاةً للتَّناسُبِ الصَّوتِيِّ للفواصِلِ، وضَعُفَ العامِلُ عن العمَلِ بتأخيرِهِ عن معمولِهِ، ولذا احتيجَ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/99.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/280 - 281.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/99، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/281.

إلى تقويَتِه باللّام[1]. ويحتَمِلُ أَنْ تكونَ اللّامُ دالَّةً على تضمينِ الفِعْلِ مَعْنى فِعْلٍ تصلُحُ له اللّامُ، والتَّقدير: إن كُنْتُم تَنْتَدِبونَ لتعبيرِها[2].

مَعْنى التَّعْريفِ في (الرُّؤْيا):

بيانُ أثرِ اختِلافِ مَعاني الحُروفِ في إثْراءِ الدَّلالاتِ القُرْآنِيَّةِ

اللّامُ في ﴿لِلرُّءْيَا﴾ من قولِ اللّه ﷻ: ﴿إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ﴾ يُرادُ بها الجِنْسُ؛ أيْ: إنْ كُنتم تَعْلَمونَ تعبيرَ جِنْسِ الرُّؤْيا[3]. ويجوزُ أن تكونَ اللّامُ لِلعَهْدِ؛ والمُرادُ: الرُّؤيا الّتي قصَّها عَلَيْهم، على طريقَةِ إعادَةِ اللَّفْظِ مُعرَّفًا باللّامِ، فإنَّه يكونُ عَيْنَ الأوَّلِ، فالرُّؤْيا في قولِه: ﴿إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ﴾ هي الرُّؤيا في قوله: ﴿أَفْتُونِي فِي رُءْيَايَ﴾[4].

نُكْتَةُ تَقْديمِ الجارِّ وَالمَجْرورِ ﴿لِلرُّءْيَا﴾:

إرادَةُ الاهْتِمامِ بِشَأْنِ الرُّؤْيا في تَعْبيرِها

قُدِّمَ الجارُّ والمَجْرورُ ﴿لِلرُّءْيَا﴾ من قولِ اللّه ﷻ: ﴿إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ﴾؛ لإرادَةِ الاهتِمامِ بالرُّؤْيا في التَّعبيرِ، ولِما في التَّقديمِ مِن مراعاةِ التَّناسُبِ الصَّوْتِيِّ للفَواصِلِ[5].

نُكْتَةُ التَّعْبيرِ بِالفِعْلِ المُضارِعِ ﴿تَعْبُرُونَ﴾:

لا يَصْلُحُ للانْتِصابِ لِلرُّؤى الجَليلَةِ إلّا ضَليعٌ بِعِلْمِ التَّعْبيرِ

عُبِّرَ بالفِعْلِ المضارِعِ ﴿تَعْبُرُونَ﴾ من قولِ اللّه تَعالى: ﴿إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ﴾ لإفادَةِ مَعْنى الاستمرارِ، والمقصودُ: إنْ كُنْتم تعلمونَ تعبيرَ جِنْسِ الرُّؤى عِلْمًا مستمرًّا بحيثُ صارَتْ لَكُمْ فيه مقدرةٌ ومَهارةٌ ومَلَكَةٌ، فأَفْتوني في رُؤْيايَ[6]، وذلك لغرابَةِ ما رآه في المَنامِ، فكان لا يصلُحُ للانتصابِ لتعبيرِها إلّا ضَليعٌ.

سِرُّ الجَمْعِ بَيْنَ الفِعْلَيْنِ: الماضي وَالمُضارِعِ:

تَأْكيدُ الدّلالَةِ عَلى الاسْتِمْرارِ، وَالتَّضَلُّعِ من عِلْمِ التَّعْبيرِ

جُمِعَ بينَ الفِعْلَيْنِ الماضي ﴿كُنتُمْ﴾ والمُضارِعِ ﴿تَعْبُرُونَ﴾، في قولِ

(1) ابن عطيّة، المُحرّر الوجيز: 3/428، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 18/463، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/281.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/281.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/99، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/281.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/282.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/281.
(6) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/281.

اللّه ﷻ: ﴿إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ﴾؛ لتأكيدِ الدَّلالَةِ على الاسْتِمْرارِ[1]، وأنَّ المُرادَ: إنْ كان لَكُمْ عِلْمٌ بالتَّعبيرِ، وكانَ هذا العِلْمُ مستمرًّا مَعَكُمْ.

وجهُ التَّعبير بـ ﴿تَعْبُرُونَ﴾:

التَّأويلُ انتقالٌ من الصّور المنامِيَّة، إلى صور نفسيَّة واقعة في الخارج

آثرت الآيةُ الكريمةُ التَّعبيرَ بـ ﴿تَعْبُرُونَ﴾ دون (تعلمون)؛ لوجود فرق بين التَّعبير والعلم، فـ ﴿تَعْبُرُونَ﴾ مأخوذة من (عَبَرَ النَّهر)؛ أيْ: تجاوزه من شطٍّ إلى شطٍّ، وعابرُ الرُّؤيا ينتهي إلى آخر تأويلها؛ لأنَّه يتأمَّل جانبَي الرُّؤيا، فيتفكَّر في أطرافها، وينتقل من أحد الطَّرفيْن إلى الآخر، وكلُّ ذلك مبنيٌّ على أصولٍ علميَّة وخبرات عمليّة، والعلم جزءٌ منها؛ لأنَّ التَّأويل يعني الانتقال من الصّور الخياليَّة المشاهدَة في المنام، إلى ما هي صورٌ وأمثلة لها من الأمور النَّفسيَّة الواقعة في الخارج[2]، وعلى هذا فالتَّعبير بقوله: ﴿تَعْبُرُونَ﴾، أعمُّ من (تعلمون).

بلاغة الطِّباق في الآية الكريمة:

إبرازُ جماليات الألفاظ في عَرضِ رؤيا الملك، في تقابل معانيها، وجمال الأسلوب

يظهر الطِّباق في الآية بين كلٍّ من: ﴿سِمَانٍ﴾ - ﴿عِجَافٌ﴾ - ﴿خُضْرٍ﴾ - ﴿يَابِسَٰتٍ﴾، والغرض منه تحسين المعنى وإبراز الجمال الأسلوبيِّ في عرض رؤيا المَلِك.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(سنبلات) و(سَنابِل):

التَّفريقُ بَيْنَ أَنْواعِ الجُموعِ في دِلالاتِها الدَّقيقَةِ مُثْرٍ للمعاني ومُجمِّلٌ للسّياق

الفرْقُ بينَهُما من وجهيْن: لَفْظِيٌّ، ومعنَوِيٌّ:

أمّا الأوَّلُ: وهوَ اللَّفْظِيُّ؛ فهوَ أنَّ ﴿سُنۢبُلَٰتٍ﴾ جمْعُ مؤنَّثٍ سالمٌ، و(سَنابِل) جمعُ تكسيرٍ. وأمّا الآخَرُ: وهوَ المَعْنَوِيُّ؛ فهوَ أنَّ ﴿سُنۢبُلَٰتٍ﴾ من جموعِ القِلَّةِ، و(سَنابِل) من جموعِ الكَثْرَةِ.

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/281.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/281.

ويُغايَرُ بينَهُما في الاسْتِعْمالِ القرآنيِّ بحسبِ الدّلالَةِ المَعْنَوِيَّةِ، فيُستعمل لَفْظُ (السَّنابِلِ) في سياق التَّعبيرِ عن زيادَةِ الأجر ومضاعفَةِ الثَّوابِ، كما في قولِ اللّه سُبحانَهُ: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ﴾ [البقرة: 261].

وأمَّا لَفْظُ ﴿سُنۢبُلَٰتٍ﴾؛ فورَدَتْ تَمْييزًا للعَدَدِ ﴿سَبْعَ﴾، وذلك في قولِ اللّه تَعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّىٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ﴾[1]؛ إذ السِّياق في مقام تأويلِ المنامِ الدّالِّ على الشِّدَّةِ والجَدْب والقحْط؛ فناسب أن يُضافَ العَددُ إلى جَمْعِ القِلَّةِ.

(1) محمّد داود، معجم الفروق الدّلالية في القرآن الكريم، ص: 482.

﴿قَالُوٓاْ أَضۡغَٰثُ أَحۡلَٰمٖۖ وَمَا نَحۡنُ بِتَأۡوِيلِ ٱلۡأَحۡلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ٤٤﴾

[يوسف: 44]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لمّا ذكَرَ اللّه تعالى في الآيةِ السّابقة حكايةَ الملكِ لِمنامِه، ثمّ استفتاءَه لِحاشيتِه أنْ يُعبِّرُوا له رؤياه، ذكَر هنا حِوارَهم معه وردَّهم على ما نَشَدَ جوابَه منهم، وكان جوابُهم سبيلًا قَدَريًّا لفتح مقافيلِ سجْنِ يوسفَ عليه السلام.

قولُ (لا أدري) عِصمةٌ للمُفْتِي من الكَذِب وللمُستفتِي من الضَّلال

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَضۡغَٰثُ﴾: جمْعُ ضِغْثٍ: وهو الحُزْمَةُ أوِ القَبْضةُ مِنْ أعوادٍ مُختَلِفةٍ يَجْمَعها أصلٌ واحدٌ مثل الكُرّاث والحشيش وغيرِهما، أو تكونُ من جنْسٍ مختلفٍ، والأضغاثُ: الأخلاطُ الّتي يَصْعبُ تمييزُ آحادِها لعدمِ تناسُبِها أو لعدمِ تجانُسِها[1]. ومعنى ﴿أَضۡغَٰثُ أَحۡلَٰمٖۖ﴾ في الآية: "تخاليطُها وأباطيلُها، وما يكون منها من حديثِ نفْسٍ أو وسوسةِ شيطانٍ"[2]، فتَلْتبسُ[3].

2) ﴿أَحۡلَٰمٖۖ﴾: جَمْعُ حُلُم، بضَمّتيْن، أو بضمّةٍ فسُكون: لغتان، والحُلْم: ما يراه النّائمُ في نومِه منَ الأشياءِ ممّا يَصحُّ وممّا يَبْطلُ، وأصلُ (حلم) ضبْطُ النّفْس والطّبْعِ عن هيجانِ الغضب، وأُخِذَ منه الحُلُمُ في المنام؛ لأنّه يَسْري في عقلِ النّائم بتُؤَدَةٍ وهدوءٍ، فكأنّ حدوثَه وجَريانَه مُتَّصِفٌ بالحِلْم الّذي هو ضِدُّ الطّيْش والنَّزَق، أو لِأنّ حالَ النّائِم في سكونِه كحالِ الحليمِ في سكونِ طَبْعِه[4].

(1) الجوهريّ، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (ضغث).

(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/474.

(3) الفيروزابادي، بصائر ذوي التّمييز: 3/480.

(4) الرّاغب، المفردات: (حلم)، وابن الجوزيّ، زاد المسير: 2/442، وابن منظور، لسان العرب: (حلم).

المَعْنى الإجْماليُّ:

تَعبيرُ الأحلامِ عِلْمٌ له قانونٌ ومنهجيّةٌ

قالوا: رؤياكَ هذه أخلاطُ أحلامٍ ووَساوِسَ لا تَنضبِطُ في قانون تأويلِ الرُّؤيا، وما كان كذلك فلا تأويلَ له، ولسْنا عالِمين بتأويلِ الأحلامِ المختَلِطَةِ[1].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

موقعُ جُملةِ ﴿قَالُوٓاْ أَضۡغَٰثُ﴾ ممّا قبلَها:

العِلمُ أحدُ دعائمِ المُلْكِ

جُملةُ ﴿قَالُوٓاْ أَضۡغَٰثُ أَحۡلَٰمٖۖ﴾ استئنافٌ بيانيٌّ جوابٌ لسُؤالٍ مُقدَّرٍ، كأنّه قيل: بماذا أجابَ الملأُ على المَلِكِ لمّا أرادَ منهم تعبيرَ رؤياه؟ وذلك في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ أَفۡتُونِي فِي رُءۡيَٰيَ إِن كُنتُمۡ لِلرُّءۡيَا تَعۡبُرُونَ ٤٣﴾ [يوسف: 43][2]. وفي ذلك ما يُوجبُه حالُ العلماءِ من حاجةِ الملوكِ إليهم[3].

معنَى إضافَةِ الأضْغاثِ للأحْلامِ:

وُضوحُ المنامِ في تفاصيلِه يُسَهِّلُهُ للتّعْبيرِ

إضافةُ الأضغاثِ للأحلامِ للتّخْصيصِ والتَّقْييدِ، والإضافةُ في معنى تقديرِ (اللّام) أو (في)، أو (مِن)، كأنّه قيل: أضغاثٌ للأحلامِ، على معنى الاختِصاصِ والمِلْك؛ أيْ: أحلامٌ ذاتُ أضغاثٍ، أو أضغاثٌ في أحلامٍ، فكأنّ الأحلامَ صالحةٌ في ذاتِها إلّا أنّه وقعَ فيها ما يَشوبُها فصارتْ حقيقتُها أكدارًا لا تُمَيَّزُ، أو أضغاثٌ من أحلامٍ؛ أيْ: الأخلاطُ، تفسيرُها وبيانُها أنّها أحلامٌ؛ وعليه فالأحلامُ باطلةٌ في ذاتها وأجزائِها[4].

الأَضْغاثُ من جِنْسِ الأحْلامِ

الأضغاثُ بمعنى التَّخاليطِ، وهي تقعُ في الرُّؤيا الواحدةِ، وأضافَها للأحلامِ لا على أنّها أحلامٌ حتّى يلزمَ إطلاقُ الجمْعِ على الواحدِ، بل على أنّها من جنْسِها[5].

---

(1) مجمع الملك فهد، التّفسير الميْسّر، ص: 241.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 6/440.
(3) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 10/109.
(4) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 8/352، والبقاعيّ، نظم الدُّرر: 10/110، والآلوسيّ، روح المعاني: 6/440.
(5) الخفاجي، عناية القاضي: 5/181.

بَلاغةُ الاستعارةِ في تركيبِ ﴿أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ﴾:

ليس كلُّ الأحلامِ أخلاطًا لا تُستَبانُ

قوله تعالى: ﴿أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ﴾ استعارةٌ تمثيليّةٌ، حيث شبّهَ مجموعَ ما رآه في مِنامِه بتخاليطِ الأحلامِ والأطْيافِ المُتخَيَّلةِ على غيرِ حقيقةٍ ولا مُناسبةٍ بينَها. أو استعارةٌ تصريحيّةٌ بتشبيهِ رُؤيا الملكِ بالأضغاث؛ أيْ: الأخلاطِ المُلْتَبِسَةِ، ثمّ أضافَ المُشبَّهَ به (الأضغاثَ) إلى المُشبَّه (الأحلامِ) لتخْصيصِ الأضغاثِ وتفسيرِها؛ أيْ: هي أباطيلُ مخصوصةٌ من أحلامٍ. ولو قال: هذه الرُّؤيا كالأخلاطِ الباطلةِ وسَكَت، لم يُعرَفْ إلى أيِّ أخلاطٍ تنتمِي الرُّؤيا. وهذا كما يقولُ القائلُ في التّشبيهِ: هِنْدٌ هذهِ قمرٌ منَ النّساءِ، فكذلك هنا قال: رُؤيا الملِكِ أضغاثٌ منَ الأحلامِ[1].

أفراحُ الإنسانِ وأحزانُه كأخلاطِ الحشيشِ المجموعِ من أماكنَ مُتعرِّجةٍ

والتّشبيهُ بالأخلاطِ أبلغُ استعارةً وأحسنُ عِبارةً؛ لأنّ الضِّغْثَ: هو الخليطُ منَ الحشيشِ المضمومِ بعضِه إلى بعضٍ، كالحُزْمةِ وما يجرى مَجراها، فشبّهَ سُبحانه اختلاطَ الأحلامِ، وما مرّ به الإنسانُ منَ المحبوبِ والمكروهِ، والمُساءةُ والسّرورُ باختلاطِ الحشيشِ المجموعِ من أخيافٍ عِدّةٍ، وأصنافٍ كثيرةٍ[2].

ما يُوصَفُ بأنّه (أضغاثٌ) أشعرَ بالذّمِّ

لفظُ ﴿أَضْغَٰثُ﴾ استعارةٌ في الأباطيلِ والأوهامِ مُطلقًا، سواءٌ أكانت أحلامًا أم غيرَها، فالمُشبَّهُ هو الأضغاثُ، والمُشبَّهُ به الأباطيلُ والخُرافاتُ، وما تجمَعُه القوّةُ المُتخيِّلةُ من أحاديثِ النّفسِ، ووساوسِ الشّيطانِ، وما تُريها في المنامِ. ويكونُ قولُه: ﴿أَحْلَٰمٍ﴾ قرينةَ الاستعارةِ، أو تجريدًا لها[3].

(1) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 8/352، والسّمين الحلبي، الدُّرُّ المَصون: 6/506، والخفاجي، عناية القاضي: 5/180.

(2) الشّريف الرّضيّ، تلخيص البيان: 2/170، والأخياف: جمع خَيْف وهو كل هبوطٍ وارتقاءٍ فى سفح الجبل، أو ما ارتفع عن مسيل الماء.

(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 6/441، والقاسميّ: محاسن التّأويل: 6/180.

التّشبيهُ البليغُ في قوله: ﴿أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ﴾:

ما خَلا منَ القياسِ والمعيارِ خَلا منَ الاعتبارِ

الأَضْغاثُ: ما يكونُ منَ الرُّؤيا باطلًا؛ لكونِه من حديثِ النّفسِ أو وَسْوسةِ الشّيطانِ، من حيثُ شبَّهَها بأخلاطِ النّباتِ وعيدانِها الّتي لا تَناسُبَ بينَها؛ لأنّ الرُّؤيا تارةً تكونُ منَ اللّه تعالى وهي الصّحيحةُ، وتارةً تكونُ من تحريفِ الشّيطانِ وتخْليطاتِه، وتارةً من حديث النّفسِ[1].

ومن هنا يصحُّ اعتبارُ قولِه تعالى: ﴿أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ﴾ تشبيهًا بليغًا، أُضيفَ فيه المُشبَّهُ ﴿أَضْغَٰثُ﴾ إلى المُشبَّه به ﴿أَحْلَٰمٍ﴾، وهذا على اعتبارِ تشبيهِ الأحلامِ بأضغاثِ أعوادِ النّباتِ بجامعِ عدمِ القياسِ وامتناعِ التّناسُب في كُلٍّ، فيكونُ تشبيهًا بليغًا حُذِفَتْ منه الأداةُ ووجْهُ الشّبَه، وهو أعلى مراتبِ التّشبيهِ[2].

دَلالةُ جمْعِ ﴿أَحْلَٰمٍ﴾:

الجمْعُ يدلُّ على كثْرةِ الذّواتِ، وتعدُّدِ الرُّؤى، وعلى المبالغةِ في الاتّصافِ

عبّرَ السّياقُ الكريمُ عن رُؤيا المَلِكِ بالجمْعِ ﴿أَحْلَٰمٍ﴾ وإنّما هو حُلْمٌ واحدٌ أو منامٌ واحدٌ، وذلك من وجوهٍ:

الأوّلُ: باعتبارِ تعدُّد مُتعلَّقات الرُّؤيا، فهي أجزاءٌ وتقاسيمُ وإنْ كانت في منامٍ واحد لتضمُّنِها أشياءَ مختلفةً منَ السّبع السِّمانِ، والسّبعِ العجافِ، والسّنابلِ السّبعِ الخُضرِ، والأُخرِ اليابسات[3].

الثّاني: جمَعَ الأحلامَ لإفادة المُبالغةِ في كثرة الأباطيلِ الّتي اشتملَ عليها المنامُ، فلِكوْنِ الأباطيلِ الكثيرةِ تشملُ غالبًا أمورًا كثيرةً جمعَ لفظَ (الأحلام) لإفادة المبالغةِ في وصْفِ المنامِ المَرئيِّ بالبُطلان، فنَزّلَه منزلةَ المُتعدِّد لتكثيرِ زَيْفِهِ بِكَثْرةِ أفرادِه[4]، فإنَّ لفظَ الجمعِ

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 10/110.
(2) قاسم، علوم البلاغة، ص: 162.
(3) الخَلْوَتيّ، روح البيان: 4/267.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/281، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 10/340.

كما يدلُّ على كثرة الذّواتِ يدلُّ أيضًا على المبالغة في الاتّصاف كما تقول: (فلان يركب الخيل) لِمَن لا يركبُ إلّا فرسًا واحدًا تزيُّدًا في الوصْفِ، فهؤلاء أيضًا تزيَّدوا في وصْف الحُلم بالبُطلان، فجعلوه أضغاثَ أحلام[1].

الثّالث: ويجوزُ أن يكونَ قد قَصَّ عليهم مع هذه الرُّؤيا رُؤيا غيرَها[2]؛ أيْ إنّ الجمْعَ جارٍ على احتمال أنّه ذَكَر لهم رُؤًى متعدّدةً ليُفسّروها له، فأجابوا عنها جميعًا، وما ذكره القرآنُ واحدةٌ منها[3].

دَلالةُ التّعبيرِ بـ ﴿أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ﴾:

جوابُ الملأِ بقولِهم: ﴿أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ﴾ إشارةٌ إلى أنّها لتفاوُتِها واختلافِها في نفْسِها وتباعيضِها صارتْ شيئًا لا ينضبِطُ ولا يخضعُ لِقانون التّأويلِ، فأجابوا بما يُخرِجُها من "جنسِ الرُّؤيا الّتي لها عاقبةٌ تؤولُ إليها ويُعتَنى بأمرِها"[4].

لفْظُ (الأحلام) لا يدلُّ على مدْحٍ أو ذمٍّ إلّا بقيْدٍ

في التّعبير بأنّها ﴿أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ﴾ جمَعوا بين الجهلِ والجزْمِ، والإعجابِ بالنّفس، بحيث إنّهم لم يقولوا: لا نعلمُ تأويلَها، وهذا منَ الأمور الّتي لا تنبغي لأهلِ الدِّين والحِجا[5].

العقلاءُ المتّقون مُحترِزون مُحْتاطونَ

دَلالةُ اصْطِفاءِ لفْظِ ﴿أَضْغَٰثُ﴾:

اصْطِفاءُ لفظِ ﴿أَضْغَٰثُ﴾ يكْتنِفُه ثلاثةُ مستوياتٍ:

المُستوى الصّوتيُّ: فالجَرْسُ الصّوتيُّ للكلمةِ يُشْعِرُ بالتّعسُّر والتّعثّرِ، وتَوالي حرفَيِ الجهْرِ والتّفخيم يدلُّ على صعوبةٍ وتعقيدٍ، والختْمُ بحرف المدِّ والثّاءِ المُنفتحةِ الرّخْوةِ يدلُّ على انفلاتٍ وعدمِ تمكّنٍ واقتدارٍ مِنْ ذاتِ الشّيء، لِخشونةٍ فيه أو ثِقَلٍ، أو ما يجري

يُصْطفَى لِلأُنْسِ والإلْفِ ما يُناسِبُه منَ الألفاظِ السّهلةِ، والعكسُ صحيحٌ

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/475، والخلوتي، روح البيان: 4/267.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/475.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/281، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 10/340.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/281.
(5) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 399.

مَجْراهما من دَواعي الانْفكاكِ عنِ الإمساكِ وسَلاسةِ التَّحكّم، واجتماعُ التّفخيمِ مع التّرقيقِ في اللّفظ والإطباقِ مع الانفتاحِ والجهرِ مع الهمْسِ مُؤْذِنٌ بالاختلاطِ وعدمِ الانحصارِ والضّبطِ.

المُستوى الجَمْعيُّ: فلم يجئِ السّياقُ بإفراد الكلمةِ (ضِغْث) مع أنّها في حالة الإفراد دالّةٌ على تعدّدِ أجزائها، إذِ الضِّغثُ حُزمَة وقبضةٌ من أعواد النّباتِ المجموعةِ، فلو قيل: (ضِغْث) بالإفراد لكان كافيًا في بلوغِ المقصودِ، ولكنّه جمَعَ (أضغاث) ليكون أبلغَ في اعتذارِهم عن تأويل الرُّؤيا، لا سيّما وهم في حضرة المَلِك، فيُساقُ له أبلغُ المعاذير، وأبلغُ المعاذير هنا حاصلٌ بجمْع اللّفظِ، لدلالتِه على تعقيدٍ كثيرٍ والتباسٍ كبيرٍ ليس في محلٍّ واحدٍ فحسبُ، بل في محالَّ متعدّدةٍ مجموعةٍ يصعبُ تفكيكُها وتحريرُها، فكأنّهم قالوا: الخِلْطُ الواحدُ يعسُر تمييزُه، فماذا إذا كان أخلاطًا شتّى لا خِلْطًا واحدًا؟!

مُستوى المناسبةِ: هناك مناسبةٌ جليلةٌ في النّظم لإيثارِ التّعبير بـ ﴿أَضْغَٰثُ﴾ دونَ غيرها، وهي موافقةُ مضمون الرّؤيا في بعض مشاهِدِها، ذلك أنّ الأضغاثَ في حقيقتِها هي الحُزَم المجموعةُ من أعواد النّبات والزّرعِ الرَّطبِ منها واليابِس، وفي الرّؤيا ﴿وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍۖ﴾ [يوسف: 43] والسّنابلُ نباتٌ وزرعٌ كذلك، وذكَرَها هنا بِصِنْفَيْها: الرَّطبِ واليابسِ؛ فهي مختلطةٌ، وذكرَها بصيغةِ الجمع، فكان التّعبيرُ بـ ﴿أَضْغَٰثُ﴾ إشارةً إلى هذا التّناسُبِ المُتطابِقِ مع مضمون الرُّؤيا[1].

نُكتةُ حذْفِ المُسنَدِ إليه:

يَكثرُ في أُسلوبِ المحاوراتِ حذفُ المسنَدِ إليه إيجازًا

أصلُ الكلام: رؤياك أضغاثُ أحلام، أو: هي أضغاثُ أحلام، ولكنْ جرى حذْفُ المُسنَدِ إليه إيجازًا في هذا الموضع، وهذا يجري كثيرًا في أسلوب المُحاوراتِ.

(1) الجوهريّ، الصّحاح: (ضغث).

مَوقعُ جُملةِ: ﴿وَمَا نَحۡنُ بِتَأۡوِيلِ ٱلۡأَحۡلَٰمِ﴾:

خـتـمُ الـجـوابِ بِحسنِ الاعتذار من فِقْهِ المُجيبِ

قوله تعالى: ﴿وَمَا نَحۡنُ بِتَأۡوِيلِ ٱلۡأَحۡلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ﴾ معطوفٌ على جُملةِ مَقول القولِ ﴿أَضۡغَٰثُ أَحۡلَٰمٖۖ﴾، فهي من تمام قولِهم وجوابِهم على المَلِك[1]. ومُجملُ قولِهم في الآية لطفٌ منَ اللّه بيوسفَ عليه السلام، فإنّه لو عبّرها ابتداءً قبْلَ أن يعرضَها على الملأ من قومه وعلمائِهم فيَعْجزوا عنها، لم يكن لها ذلك الموقعُ، ولكن لمّا عرضَها عليهم فعجزوا عنِ الجواب، وكان الملكُ معنيًّا بها، فعبّرَها يوسفُ عليه السلام وقعت عندهم موقعًا عظيمًا، وهذا نظيرُ إظهارِ اللّه فضلَ آدمَ على الملائكة بالعلْم، بعد أن سألَهم فلم يعلَموا، ثم سأل آدمَ، فعلّمَهم أسماءَ كلِّ شيءٍ، فحصلَ بذلك زيادةُ فضلِه، وكما يظهرُ فضْلُ أفضلِ خلْقِه مُحمّدٍ ﷺ في القيامة، أن يُلهمَ اللّه الخلْقَ أن يَتشفّعوا بآدم، ثمّ بنوحٍ، ثمّ إبراهيمَ، ثمّ موسى، ثمّ عيسى عليهم السلام، فيَعتذرون عنها، ثم يأتون محمّدًا ﷺ فيُشفَّعُ في جميع الخَلْق، وينالُ ذلك المقامَ المحمودَ الّذي يَغبطُه عليه الأوّلون والآخرون. فسُبحان مَن خفيت ألطافُه ودقَّت في إيصالِه البرَّ والإحسانَ إلى خواصِّ أصفيائِه وأوليائِه[2].

معنى الواو:

تـــردّدُ الـــواوِ بـين الـعـطْـفِ والحاليّةِ

الواو قد تكون حاليّةً على معنى: والحالُ أنّنا غيرُ عالِمين بتأويل الأحلام، وقد تكون عاطفةً على معنى: رؤياك أضغاثُ أحلامٍ، إضافةً إلى أنّنا غيرُ عالِمين بتأويلِها.

دَلالةُ النّفْيِ في ﴿وَمَا نَحۡنُ﴾:

مِنَ النُّبْلِ أنْ يَدلَّ المرءُ على نفْسِه بعدَمِ العِلمش عندَ اقتضاءِ ذلك

النّفيُ في قوله تعالى: ﴿وَمَا نَحۡنُ بِتَأۡوِيلِ ٱلۡأَحۡلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ﴾ يَحتمِلُ أربعةَ وجوهٍ: **الأوّلُ**: أنّهم قصدوا محْوَها من صدْرِ المَلك حتّى لا يشتغلَ بها، ولم يكن ما ذكَروه من نفْيِ العلمِ حقيقةً[3]. **والثّاني**:

(1) الصافي، الجدول: 12/440.
(2) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 399.
(3) القِنَّوجيّ، فتح البيان: 6/346.

نفيُ العِلمِ المُطلَق بتأويل الأحلامِ؛ أيْ إنّهم ليسوا من أهل التّأويلِ أصلًا ليُجيبوا عليه بتعبيرِ ما رآه، وهذا يتناسبُ مع ظنّ الملك فيهم وخطابِه لهم على جهة الشّكِّ في أهليّتِهم بقوله: ﴿إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ﴾، فكأنّهم قالوا له: لسنا ممّن يُعبِّرُ الرُّؤى.

والثّالثُ: نفْيُ العِلم المُقيَّدِ مع قصدِ مفهومِه الصّحيحِ؛ أيْ: نحن لا نعلم تأويلَ الأضغاثِ منَ الأحلام، لفسادِها وبُطلانِها، لكنّنا نعلمُ الصّحيحَ المُستقيمَ منها. أيْ: ما نَحْنُ بِتَأْوِيلِ المناماتِ الباطلةِ الّتي لا أصلَ لها بعالِمين، لا لأنّ لها تأويلًا لا نعلَمُه، بل لأنّه لا تأويلَ لها، وإنّما التّأويلُ للمناماتِ الصّادقةِ.

والرّابعُ: نفيُ العِلمِ المُقيّدِ لجهالتِهم لا لفسادٍ في الأحلام؛ أيْ: لا نعلمُ تأويلَ أضغاث الأحلامِ لاقتضائِها مهارةً عاليةً في التّأويلِ، فلسْنا من أهلِها المُختصّين بهذا النّوعِ المُشْكِلِ من الأحلام مع أنّ لها تأويلًا، فكأنّهم قالوا: هذه الرُّؤيا مُختلطةٌ من أشياءَ كثيرةٍ والانتقالُ فيها منَ الأمورِ المُخيَّلةِ إلى الحقائق العقليّةِ الرّوحانيّةِ ليس بسهْلٍ، وما نحن بمتبحِّرين في علم التّعبيرِ حتّى نهتديَ إلى تعبيرِ مثلِها[1].

التّعليقُ بالشّرطِ دليلُ القصورِ، والتّعميةُ سببٌ للخَلاصِ

ويدلُّ على قصورِهم قولُ الملك: ﴿إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [يوسف: 43]، فإنَّه لو كان هناك مُتبحِّرٌ لبتَّ القول بالإفتاء، ولم يُعلّقْه بالشّرطِ وهو اللّائحُ بالبالِ. وعلى تقديرِ تبحُّرِهم عمّى اللّه عليهم وأعجَزَهم عنِ الجوابِ، ليصيرَ ذلك سببًا لخلاصِ يوسفَ عليه السلام منَ الحبس وظهورِ كمالِه[2].

بَلاغةُ التّخْصيصِ في نفْيِ التّأويلِ عن أنفسِهم:

في تقديمِ النّفْيِ على المُسنَدِ إليه والمُسنَدِ الفعليِّ دلالةٌ على

(1) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 9/200، والسّمين الحلبي، الدُّرُّ المَصون: 6/507، والخَلْوتيّ، روح البيان: 4/267.

(2) الخَلْوتيّ، روح البيان: 4/267.

التّخْصيصِ، حيث نفَوا عن أنفسِهم العِلمَ وأثْبَتوه لغيرِهم، على معنى: قد يكونُ غيرُنا أعلمَ بتأويلِه منّا، وهذا ما حصلَ لاحقًا.

بَلاغةُ الكِنايةِ في نفْيِ تأويلِ العِلْمِ:

ما كانَ أضغاثًا فلا تأويلَ له

مرادُهم بنفْيِ العلْمِ بتأويلِ الحُلْمِ في قولِه تعالى: ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ﴾، نفْيَ تأويلِه بطَريقِ الكنايةِ على زعْمِهم، كأنّهم قَالُوا هذه أضغاثُ أحلامٍ وكلُّ ما هذا شأنُه فلا تأويلَ له، إذ لو كان له تأويلٌ لعلِمْناه[1].

إيثارُ النّفْيِ بـ (ما):

وُضوحُ المُفتِي في تعريفِ المُستفتِي بعدَمِ درايتِه إنْ كان المُفتي لا يعلَمُ

جاء النّفيُ بـ (ما) في قولِه تعالى: ﴿وَمَا نَحْنُ﴾؛ لأنّه جاء ردًّا على قولٍ، لا جوابًا لسؤالٍ، فهو جوابٌ عن أمرِ ﴿أَفْتُونِى فِى رُءْيَٰىَ﴾ [يوسف: 43]، ولو كان عن سؤالٍ بأن قيل لهم: فهل أنتم للرّؤيا تَعبرون؟ لكان النَّفيُ بـ (لا)، ولم يَجئِ النَّفْيُ بـ (ليس) بأنْ يقولوا: (وَلَسْنَا بتأويلِ الأحلامِ بعالِمين) لجعْلِ جملةِ النَّفيِ جُملةً اسميّةً لا فعليّةً، لكوْنِ الاسميّةِ أوكدُ في التّحقُّقِ والثّبوتِ منَ الفعليّةِ، فـ (ليس) فِعلٌ، والنَّفيُ بها يجعلُ الجملةَ فعليّةً، و(ما) حرفٌ، والنَّفيُ بها بإدخالِها على الضّميرِ ﴿وَمَا نَحْنُ﴾ هو نفيٌ للجملةِ الاسميّةِ، فيكونُ النَّفْيُ بـ (ما) بلغَ وأوكدَ منَ النَّفْيِ بـ (ليس)[2].

دَلالةُ التّعبيرِ بالضّميرِ المُنفصلِ دونَ المتّصلِ:

ضميرُ المُتكلّمِ الجمْعيُّ المنفصِلُ مُؤْذِنٌ بالإجماعِ بحسَبِ سِياقِه

التّعبيرُ بالضّميرِ المُنفصلِ ﴿نَحْنُ﴾؛ لإفادةِ تحقُّقِ جميعِهم بما في حيّزِ النَّفْيِ من عدمِ العِلمِ، ولو قيل: (وما كنّا) أو (لَسْنَا) بضميرِ الجمْعِ المُتّصِلِ لاحتملَ نفيَ العِلمِ عن مجموعِهم لا جميعِهم، فلمّا قالوا: ﴿وَمَا نَحْنُ﴾ فكأنّ كلَّ واحدٍ فيهم ناطِقٌ بنفْيِ العِلمِ عنْ نفسِه.

(1) القُونويّ، حاشية على تفسير البيضاويّ: 10/341.
(2) السّامرّائيّ، معاني النّحو: 1/366، 4/191.

دَلالةُ الباءِ في لفظَيْ ﴿بِتَأْوِيلِ﴾ و﴿بِعَٰلِمِينَ﴾:

العالِمُ في تَمكُّنِه كأنّه يَلتصِقُ بالمعلومِ عِرفانًا وإدراكًا

الباءُ في قوله: ﴿بِتَأْوِيلِ﴾ للتّعديةِ، وشبه الجملة الجارُّ والمجرورُ متعلّق بـ ﴿بِعَٰلِمِينَ﴾؛ أيْ: عالِمين بتأويل الأحلام، كمن يقول: لستُ عالمًا بكذا، وباءُ التّعديةِ في معنى الإلصاقِ؛ على اعتبارِ أنّ العالِمَ يلتصِقُ بالمعلومِ عِرفانًا وإدراكًا، فالإلصاقُ لِحالِ التّمكُّنِ منَ العِلم وشدّةِ تعلُّقِه ببديهةِ العالِم. ومغزاها تأكيدُ اتّصالِ العاملِ بالمفعول، لأنّهم نفَوا التّمكُّنَ من تأويل هذا الحُلم.

والباءُ في قوله: ﴿بِعَٰلِمِينَ﴾ صِلةٌ سيقَتْ لتأكيد النَّفي؛ أيْ: لسْنا عالِمين بتأويلِها من كلّ وجْهٍ[1]. وقد تكونُ الباءُ للمُلابَسة والمُلاصقة، فأكّدوا نفْيَ عِلمِهم بالباء في ﴿بِعَٰلِمِينَ﴾، وكان تأكيدُ ذلك النَّفي لتأكيدِ أنّه لَا مدلولَ لها، لِيطمئنَّ بعد أن أصابَه القلقُ المُلْقي بالهَمِّ والحَزَنِ[2].

العُدولُ من لفْظِ (تعبير) إلى لفْظِ (تأويل):

من فِقْه المُجيب الإجابةُ بحسَبِ غايةِ السّائلِ من سُؤالِه

أوثِرَ لفظُ (تأويل) في جوابهم، وعدَلوا عن لفظِ (تعبير) الّذي سأل عنه الملِكُ في قولِه: ﴿إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ﴾، فلم يقلْ في السَّياق الكريم: (وما نحن بتعبير رؤياك)؛ لأنّ التّأويلَ هو مَبلَغُ التّعبيرِ وغايتُه، ولذا أجابوا به؛ لأنّه الغايةُ المقصودةُ من سؤالِ الملِك، والّذي يُعِينُ على هذا التّوجيه اقترانُ التّأويلِ بالعِلم، ﴿بِعَٰلِمِينَ﴾، فإنّه يدلُّ على مَبْلَغِ العِلْم الّذي يُفيدُ اليقينَ بحقيقة الشّيءِ، فلا بدّ أن يتعلّقَ بالتّأويل؛ لأنّه ما يؤولُ إلى حقيقة الشّيءِ، ولذا كان التّعبيرُ بالتّأويلِ هو الأمْكَنُ في جوابهم من غيره.

دَلالةُ التّقديم والتّأخيرِ في ﴿بِتَأْوِيلِ﴾ و﴿بِعَٰلِمِينَ﴾:

المعنى المُرادُ يَسبِقُ في التّراكيبِ ما دونَه في الرّتْبةِ

تقديمُ المعمولِ ﴿بِتَأْوِيلِ﴾ على الوصْفِ العامِلِ فيه ﴿بِعَٰلِمِينَ﴾ للاهتمامِ بأمر التّأويلِ، إذ هو المقصودُ في جوابِهم؛ لأنّه المعلومُ

(1) السَّمين الحلبيّ، الدُّرُّ المَصون: 6/506، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/282.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3829.

المقصودُ بالنَّفي، فالمقصودُ باسْم الفاعل ﴿بِعَٰلِمِينَ﴾ نفْيُ المعلوم الّذي تعلّق به وهو التّأويلُ، ولذلك قُدِّمَ، فضلًا عن رعاية الفاصلةِ[1].

دَلالةُ (ال) في ﴿ٱلْأَحْلَٰمِ﴾:

مِنْ حُسْنِ الجوابِ تضمينُه معنى الاعتذارِ عند جهلِ المسؤولِ به

(ال) في لفظ ﴿ٱلْأَحْلَٰمِ﴾ في قوله: ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ﴾ للجِنْس، أو للعهْدِ، فعلى الأوّلِ: يكون المُرادُ بالأحلام العُمومُ، وهي جميعُ المنامات الحقِّ منها والباطلِ، ويكونُ ذلك اعترافًا منهم بقصورِهم عن تأويل الرُّؤى عُمومًا وأنّه لا علْمَ لهم بها، فليسوا من أهل التّعبيرِ. وعلى الثّاني: فالمعهودُ هو ما صرّحوا به من قولِهم: ﴿أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ﴾، والمُرادُ بـ ﴿ٱلْأَحْلَٰمِ﴾: الأضغاثُ منها، ويكونُ اعتذارًا عن أنفسِهم بعدمِ علْمِهم بما لا يَنْضبِطُ بقانون العِلم، وإثباتِ عِلمِهم بالرّؤى والأحلامِ الّتي تنضبطُ وتستقيمُ. والأرجحُ أنّ اللّام للعهدِ؛ لكونِ قولِهم: ﴿أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ﴾ حُكمًا منهم على رؤيا الملِك، وتصنيفًا لها؛ أيْ: ما نحن بتأويل أحلامِك هذه بعالِمين. وهذا يُثبِتُ لهم عِلْمًا بمُقابِله، فكأنّهم قالوا: هذه أضغاثٌ وعِلمُنا كائنٌ بالأحلام الّتي ليست من هذا النّوع، ولو كان المقصودُ من قولهم: ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ﴾ نفْيَ مُطلَقِ العلم بالرُّؤى كافّةً، لم يكن لجوابِهم ﴿أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ﴾ معنًى، ولكانوا أجابوا مباشرةً بقولهم: ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ﴾؛ لإفادةِ جهلِهم بمُطلقِ الشّأن، لِتقصير الكلامِ على الملِك، ولِحُسْنِ الجوابِ عليه، فالجوابُ على الملوك يقتضي حُسْن الرّدِّ عليهم بالاقتصارِ على المطلوبِ وعدمِ الادّعاء أوِ التّطويلِ[2]. فترجيحُ العهديّةِ؛ لأنّهم ما جعلوا ذلك المنامَ أضغاثَ أحلامٍ إلّا لتمهيد عُذرِهم أنّهم غيرُ عالِمين بها، فالمناماتُ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/282.

(2) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 8/355 - 356، والسّمين الحلبي، الدُّرُّ المَصون: 6/507، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/282.

الباطلةُ خاصّةً ليس لها تأويلٌ، وإنّما التّأويلُ للمناماتِ الصّادقةِ، فكأنّ كلامَهم مقدّمةٌ ثانيةٌ للعُذر في جهلِهم بتأويلِه[1].

العُدولُ من لفْظِ (الرُّؤيا) إلى لفْظِ ﴿ٱلْأَحْلَٰمِ﴾:

مَقامُ الجَوابِ قد يُباينُ مقامَ السُّؤالِ في ألفاظِه لِمقتضًى

في جوابِ الملأِ عُدولٌ من لفْظِ (الرُّؤيا) إلى لفْظِ ﴿ٱلْأَحْلَٰمِ﴾ فلو اطّردَ السّياقُ بعد قولِه: ﴿أَفْتُونِي فِي رُءْيَٰيَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [يوسف: 43] لقيل: (وما نحن بتعبير الرّؤيا بعالِمين)، ولكنّهم آثروا لفظَ ﴿ٱلْأَحْلَٰمِ﴾ لتنزيلِ رؤياه منزلةَ الهَدَرِ والهَمَلِ الّذي لا يُؤْبَه به ولا يُلتَفَتُ إليه، فكأنّهم أفرَغوه من معنى الصِّدق، فهي أحلامٌ مُتضاربةٌ لا تؤوَّلُ لشيءٍ ثابت، وليس إيثارُهم لفظَ ﴿ٱلْأَحْلَٰمِ﴾ تعريضًا بكَذِبِها؛ لأنّها ما زالتْ غيرَ مؤوّلةٍ فلا تُوصف بصدْقٍ أو كذِبٍ، ولأنّه لا يستقيمُ لهم وصفُ رؤيا الملِك بالكذبِ في حضرتِه؛ لكونِه منَ التّجاوُزِ المُخِلِّ بمقام المُلكِ، وليس اعتبارُها هدَرًا كذلك؛ لأنّ معناه التّخفيفُ والتّلطيفُ على المَلِكِ بأنْ لا يَكْتَرِثَ ولا يَهتمَّ[2].

إيثارُ الجمْعِ السّالمِ على جمْعِ التّكسيرِ في الفاصلة:

العُلماءُ عالِمون، وليس كلُّ العالِمين عُلَماءَ

قال تعالى: ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ﴾ ولم يَقُل: (بعلماء)؛ لخمسةِ أغراض:

الأوّلُ: الدّلالةُ على الحَدَث المُساوي للفعلِ، فالجمعُ السّالمُ أدلُّ على الفِعليّة، فهو جارٍ مجرَى علامةِ الجمعِ منَ الفِعل، فـ (عالِمون) في معنى (يعلمون)، وأمّا جمعُ التّكسيرِ (علماء) فهو أدلُّ على الاسميّةِ، فهو مُستعملٌ في الدّلالةِ على صِنْفِ العلماء وجماعتِهم، كما يُقال: هيئةُ كبارِ العلماء، ولا يُقال: هيئةُ العالِمين؛ لأنّ المُرادَ الاسْمُ المُمَيِّزُ لفئةٍ بعينِها، وليس المُرادُ الدّلالةَ على معنى الفِعلِ في الوصْفِ.

(1) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/165، والطّيبيّ، فتوح الغيب: 8/355 - 356.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/281.

الثّاني: (عُلَماء) على وزن (فُعَلاء) الدّالِّ على طولِ المُلابسةِ وتمامِ المُزاولةِ للوصْف، فكأنّ الوصفَ به صار كالغريزةِ والسّجيّةِ والطّبعِ للموصوفِ، ولذا لم يقُلْ هنا (بعلماء) إذْ رُتْبَتُهُم تَقصُرُ عن ذلك، ولأنّ المرادَ أدنى مُلابسةٍ للعِلمِ بالرُّؤى بما يؤهّلُ للمقدارِ المطلوبِ فحسبُ، ولأنّ المُرادَ حدوثُ العِلمِ الحاضرِ إزاءَ ما اسْتفْتاهُمُ الملِكُ فيه من أمْرِ الرُّؤيا.

الثّالثُ: لإمكانِ مجيءِ الوصفِ على وزن اسْمِ الفاعل الدّالِّ على تحقّقِ عدمِ عِلْمِهم في الحال والاستقبالِ مع ثبوتِ ذلك واستمرارِه، فعدمُ علْمِهم بالرُّؤيا ليس حَدَثًا مؤقّتًا يُمكِنُهم بعده اكتسابُ العِلمِ فيه، بل هم ليسوا بعالِمين الآن وبعدَ ذلك.

الرّابعُ: للدّلالةِ بنفْيِ الرُّتْبةِ الأقلِّ على الرُّتبةِ الأعلى، فـ (عالمون) أقلُّ رتْبةً في الوصفِ من (علماء)، ونفيُ الأدنى يدلُّ على انتفاءِ الأعلى، ولو قالوا: (بعلماء) لم يَستلزمْ نفيَ الأدنى.

الخامسُ: مراعاةُ الفاصلةِ، فإنّ لفظَ ﴿بِعَٰلِمِينَ﴾ أمكَنُ في الفاصلةِ وأغْلَقُ لها، وأوقعُ في السَّمْعِ، وأتمُّ في الجَرْس الصّوتيِّ من لفظ (بعلماء)[1].

مُبالغتُهم في نفْيِ العلم بالأحلامِ إخفاءٌ لجهْلِهم

فهُم بقولهم: ﴿بِعَٰلِمِينَ﴾ أغرَقوا في النَّفي، فدلّسوا من غيرِ وجْهٍ، بجمْعِ الأحلام - وهي حُلمٌ واحدٌ - ليجعَلوها أضغاثًا لا مدلولَ لها، ونفَوا عن أنفسهم (العلمَ المُطلقَ) المُستلزِمَ لنَفْي (العِلمِ بالمُقيّدِ) بعد أن أتَوا بالكلام على هذه الصّورة، ليُوهِموا أنّهم ما جهِلوها إلّا لكونِها أضغاثًا[2].

(1) ابن جِنّيّ، الخصائص: 1/383، والسّامرّائيّ، معاني الأبنية، ص: 144.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 10/110.

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(الأحلامُ) و(الرُّؤى):

كلُّ رُؤيا حُلْمٌ، وليس كلُّ حُلْمٍ رُؤيا

الحُلْم: بضمّ الحاء وبإسكان اللّام وضمّها: هو مُطلَقُ ما يَراه النّائمُ في منامِه، سواء أكان خيرًا أم شرًّا، حقًّا أم كذِبًا، عبَثًا أم جادّةً، لأنّ الحُلْمَ يتعلّقُ بصفةِ وقوعِ المنامِ لا بصفةِ موضوعِه، فهو يتعلّقُ بكيفيّة الوقوعِ لا بكيفيّةِ الواقعِ في المنام، وكيفيّةُ الوقوعِ هي أنّ ما يراه النّائمُ في نومه أيًّا كان يحصُلُ بسَريانٍ لطيفٍ خفيفٍ هادئٍ ساكنٍ في عقلِه وخاطرِه وهو نائمٌ، ولذا سُمّي حُلْمًا؛ لأنّه يحصلُ على كيفيّةٍ تُشبِهُ الحليمَ في حِلْمِ نفْسِه وسكونِ طبْعِه من غير تعجُّلٍ وطَيْشٍ.

وأمّا الرُّؤيا: فهي اسْمٌ لِما يراه النّائمُ في المنام، لكنّها تتعلّقُ بكيفيّة المَرئيِّ وهو موضوعُ المنام، فلا تقالُ إلّا للقُوى المُتخيّلةِ في المنام ولها مناسبةٌ وموافَقةٌ في الصّدق والحقِّ، وقُيِّدتِ الرّؤيا فيما يُصادِفُ صِدْقًا وحقًّا؛ لأنّها منَ الرّؤيةِ الّتي هي بمعنى الانكشافِ التّامِّ والتّجلّي الواضحِ، فمعناها مشتمِلٌ على الحقيقة وعدمِ اللَّبْسِ والإيهامِ.

وعليه: فالحُلْمُ أعمُّ، والرّؤيا أخصُّ، فكلُّ رؤيا حُلْمٌ، وليس كلُّ حُلْمٍ رؤيا. والحُلْمُ يتعلّقُ بالكيفيّة الّتي يقعُ بها المنامُ في عقل النّائم ونفْسِه، والرّؤيا تتعلّقُ بكيفيةِ المَرئيّ لا بكيفيّة وقوعِه في النّوم[1].

يُكرهُ أن يُسمَّى ما كان منَ الله وما كان منَ الشّيطان باسْمٍ واحدٍ

والحُلْمُ عند العربِ مُستعمَلٌ استعمالَ الرّؤيا، والتّفريقُ إنّما كان منَ الاصطلاحاتِ الشّرعيّةِ الّتي لم يقتَضِها بليغٌ، ولم يهتدِ إليها حكيمٌ، بل سَنّها صاحبُ الشّريعة للفصْلِ بين الحقّ والباطلِ، ففي الحديث: «الرّؤيا منَ الله، والحُلْمُ منَ الشّيطان»[2]، كأنّه كرِه أن يُسمّى ما كان من الله وما كان منَ الشّيطان باسمٍ واحدٍ، وجعلَ

(1) الجوهريّ، الصّحاح: (رأى)، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (حلم - رأى).

(2) صحيح البخاريّ، الحديث رقم: (5747)، و(7005).

الرّؤيا عبارةٌ عنِ القِسمِ الصّالحِ لِما في صيغتِها منَ الدّلالة على مشاهَدةِ الشّيء بالبصرِ والبصيرةِ، وجعلَ الحُلْمَ عبارةً عمَّا كان منَ الشّيطان؛ لأنّ أصلَ الكلمةِ لم يُستعملْ إلّا فيما يُخيَّلُ إلى الحالمِ في منامِه من قضاء الشّهوةِ ممّا لا حقيقةَ له. ويُؤيِّد ذلك قولُه ﷺ: «رؤيا المؤمنِ جزءٌ من ستّةٍ وأربعين جُزءًا منَ النّبوةِ»[1].

الحُلمُ دليلُ الخلْطِ والتّهويشِ وعدمِ التّمييزِ، والرُّؤيا من صدْقِ الإلهامِ القريبِ منَ الوحْيِ

وباستقراءِ مواضعِ وُرود اللّفظَيْن في القرآن استعمَلَ الذّكرُ الحكيمُ لفْظَ (الأحلام) ثلاثَ مرّاتٍ، يشهدُ سِياقُها بأنّها الأضغاثُ المُهوَّشةُ والهواجسُ المُختلطةُ، وتأتي في المواضع الثّلاثةِ بصيغة الجمْعِ؛ دلالةً على الخلْطِ والتّهويشِ لا يتميّزُ فيه حُلْمٌ من آخرَ: في جدلِ المُشركين: ﴿بَلْ قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ ۝٥﴾ [الأنبياء: 5]. وعلى لسان المَلأ من قوم العزيزِ حين سألهم أن يُفتوه في رُؤياه: ﴿قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ ۖ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ﴾.

وأمّا الرّؤيا، فجاءت في القرآن سبْعَ مرّاتٍ، كلُّها في الرّؤيا الصّادقةِ، وهو لا يَستعملُها إلّا بصيغة المُفردِ، دلالةً على التّميُّز والوضوحِ والصّفاءِ. ومن بين المرّات السّبعِ، جاءت الرّؤيا خمسَ مرّاتٍ للأنبياء، فهي من صدْقِ الإلهامِ القريبِ منَ الوحْيِ: رؤيا إبراهيمَ عليه السلام في آية الصّافّاتِ: ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۝١٠٤ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ﴾ [الصّافات: 104 - 105]، ورؤيا يوسف إذ قال له أبوه: ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ﴾ [يوسف: 5] وقولُه: ﴿وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰيَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا﴾ [يوسف: 100]، ورؤيا المصطفى ﷺ في الإسراء: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِيٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾ [الإسراء: 60] ورؤياه في الفتحِ: ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ﴾ [الفتح: 27]. فهذه خمسُ مرّاتٍ منِ استعمال القرآنِ للرّؤيا منَ الأنبياء. والمرّتان الأُخْرَيان

(1) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 8/353 - 354، ويُنظر: صحيح البخاريّ، الحديث رقم: (6987)، و(6988).

في رؤيا العزيز وقد صَدقتْ. وفي آياتٍ عبّرَ عنها القرآنُ مرّتيْن على لسان المَلِك بالرّؤيا، لوضوحِها في منامِه وجلائِها وصفائِها، وإن بدت للملأ من قومه هواجسَ أوهامٍ وأضغاثَ أحلامٍ[1]. ومن ههنا اختيرَ لفظُ الرّؤيا فيهما دونَ الأحلامِ.

(1) بنت الشّاطئ، الإعجاز البيانيّ للقرآن، ص: 215 - 216.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنۡهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعۡدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأۡوِيلِهِۦ فَأَرۡسِلُونِ ٤٥﴾ [يوسف: 45]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

يتكلّمُ الأدْنى رُتبةً بعد فراغِ الأعْلى منه مُراعاةً لأدَبِ المجْلِسِ

لمّا ذَكَرَ في الآيةِ السّابقةِ عجْزَ الملأِ بأنفسِهم عن تأويل رُؤيا الملِك، أخبرَ هنا عمّنْ كان في الملأ واستدركَ بمعرفة تأويلِ الرّؤيا بوساطةِ غيرِه، وأنّه عرضَ عليهم أن يكونَ وسيطًا بين الملِك ومَنْ يستطيعُ تعبيرَها له؛ أيْ: لمّا أعضلَ على الملأ تأويلُ هذا الحُلْمِ، وظهر عَوَصُ تعبيرِها تذكّرَ ساقي الملِك ما جرى له مع يوسفَ عليه السلام، وتأويلَ رؤياه ورؤيا صاحبِه، وطلبَه إليه ليَذْكرَه عند الملِك، فقال: ﴿أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأۡوِيلِهِۦ﴾[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَٱدَّكَرَ﴾: أصلُها: (اذتكر) على وزن: (افْتَعَلَ) مِنَ (الذِّكْرِ)، فوقعتْ تاءُ (الافتِعال) بعد (الذّال)، فأُبْدِلت (دالًا) فاجتمع متقاربان، فأُبْدِلَ الأوّلُ مِنْ جنس الثّاني وأُدغِمَ. وأصلُ (ذكر): هيئةٌ للنّفْس تُمَكِّنُ الإنسانَ أن يَستحضِرَ ما يَقْتَنيه منَ المعرفة. والمُرادُ هنا: إمّا ذِكْرٌ عن نسيان، وإمّا ذِكْرٌ عن إدامةِ حِفْظٍ[2].

المَعْنى الإجْمالِيُّ:

لِلمقاديرِ أوقاتٌ مُقَدَّرَةٌ لا تَتَخطّاها

قال الّذي نجا من عقوبةِ القتْل من صاحبَيْ يوسفَ عليه السلام في السّجن، وتذكّرَ - بعدَ مُدّةٍ - أمْرَ يوسفَ ومقامَه العالي في تأويل الرّؤيا، فقال: أنا أخبرُكم بتأويلِ هذه الرُّؤيا، فابْعَثوني إليه لآتيكم بتفسيرِها[3].

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/284، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/283.
(2) الرّاغب، المفردات: (ذكر)، والسّمين الحلبي، الدّرّ المصون: 6/507.
(3) مجمع الملك فهد، التّفسير المُيسَّر، ص: 241.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بَلاغةُ الوَصْلِ في الآيةِ:

لا يتعجّلِ المرْءُ بالاستدراكِ على غيرِه إلّا بعد فراغِه من بَيانِه

جُملةُ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا﴾ معطوفةٌ على جملةِ: ﴿قَالُوٓاْ أَضۡغَٰثُ﴾، وبين الجُملتَيْن كمالُ اتّصالٍ، والوَصْلُ بالواو أفادَ إدخالَ الجملة الثّانيةِ مع الجملةِ الأُولى في حيّزِ الجوابِ على المَلِك، وهو يدلُّ على أنّ الّذي نجا في قوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنۡهُمَا﴾ هو منَ الملأ الّذين خُوطبوا بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ أَفۡتُونِى﴾ [يوسف: 43]، وإنّما ذَكَر جوابَه لاحقًا لجوابِهم، ليدلَّ على أمرَيْن: **الأوّل**: أنّه داخِلٌ في حُكْمِهم بعدمِ العِلْمِ المذكورِ في قولهم: ﴿وَمَا نَحۡنُ بِتَأۡوِيلِ ٱلۡأَحۡلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ﴾ فهو مِثْلُهم غيرُ عارفٍ بتأويل الرّؤيا. **والثّاني**: أنّه بعد ثبوتِ عدمِ علْمِهم جميعًا استدركَ على ذلك وذكَرَ عِرفانَه بِمَنْ يستطيعُ ذلك، فجملةُ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا﴾ في معنى الاستدراك بعد ثبوتِ عدمِ عِلمِهم، والاستدراك لاحِقٌ لِما سبَقَه[1].

عدَلَ بالعطْفِ بالواوِ دونَ الفاءِ إشعارًا بأنّه منَ الملأ

ولمّا كان تَعَصّي تأويل الحُلْمِ حالًا مُذكِّرًا للسّاقي بيوسفَ عليه السلام أخبرَ سُبحانه بأنّه ذَكَره بعد نِسيانِه، فقال عادلًا عنِ الفاء إيذانًا بأنّه من الملأ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا﴾[2].

دلالةُ التّعبيرِ بفعْلِ القولِ:

اجتماعُ الأدنَى مع الأعلَى في مجلِسٍ واحدٍ يَسْمحُ له بالمُداخَلةِ والاقترابِ

تصديرُ الجملةِ بفعل القول في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا﴾، لتأكيد ما سبقَ تقريرُه من أنّ الّذي نجا وهو السّاقي كان من جُملةِ الملأ، وليس معناه أنّه في رُتْبتِهم، بل معناه أنّه يكونُ في مَجْلِسِهم باعتباره السّاقيَ فيكونُ معدودًا فيهم محسوبًا عليهم، ونكتةُ تصديرِ الجُملة بفعل القول ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا﴾ يُشْعِر باتّحاد المَجلس، وأنّه كان حاضرًا وقْتَما قال الملِك ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ أَفۡتُونِى﴾ [يوسف: 43] ولم يَقل ذلك

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 10/111، وصافي، الجدول: 12/441.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 10/110 - 111.

في مجلسٍ منفصِلٍ أو سَمِعَ بما حدثَ بعد ذلك فقال ما قال؛ لأنّ مجيءَ الفعل (وقال) على وَفْقِ نظيره: ﴿قَالُوٓاْ أَضۡغَٰثُ﴾ يُؤذِنُ بأمورٍ:

الأوّلُ: أنّ لهذا السّاقي صَلاحيّةً في الكلام بأنْ يكونَ له قولٌ خاصٌّ إزاءَ أقوالِهم.

الثّاني: أنّ السّاقيَ كان مَعنِيًّا بخطاب المِلك وواحدًا منَ المَقْصودين به حين استَفْتاهم في تعبير رُؤياه، وإلّا ما صدرَ منه قولٌ أصلًا.

الثّالثُ: أنّ التّعبير بالقول: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا﴾ مع خطاب الجمْعِ في ﴿أُنَبِّئُكُم﴾ مُعينٌ على ما تقرّرَ منِ اتّحاد المجلِسِ وبُعدِ شأنِه في الملأِ الحاضرين.

دَلالةُ التّعبيرِ بالموصولِ الخاصِّ:

تعريفُ المجاهيلِ بما يُميّزُهم عندَ السّامعِ

التّعبيرُ بالموصولِ الخاصِّ ﴿ٱلَّذِى﴾ في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا﴾ لتَعْيينه والدّلالةِ عليه بشخصِه، وللإيذان بأنّه كان معروفًا مشهورًا، لأنّه السّاقي، ولِكونِ قصّةِ نجاتِه منَ السّجن لا تَخفَى على أحد، فعبّرَ بالموصول الخاصِّ؛ للنَّصّ عليه وتمْييزِه بقصّتِه ومِهْنتِه أكملَ تمييزٍ، لعدمِ عِلْم السّامعِ بالأحوالِ المُختَصّةِ به سِوى مضْمونِ الصِّلةِ، وأيضًا فيه إشارةٌ إلى سببِ القولِ المذكورِ[1].

سِرّ التّعبيرِ بفعْلِ النّجاةِ:

الإنجاءُ منَ الضُرِّ خيرُ العَطايا وأثْمَنُها

التّعبيرُ بفعلِ النّجاة في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا﴾ ليدلَّ على أنّ حظَّ هذا الرّجلِ منَ الخيرِ ونصيبَه منَ النِّعمة أعمُّ وأكبرُ من مجرّد خروجِه منَ السّجن، بل هي نجاةٌ منَ الهلَكَةِ والقتْلِ، فلم يكن حالُه كحال صاحبِه، ونجاةٌ من السّجن بعدم طولِ المُكْثِ فيه، فالتّعبيرُ بالفعل ﴿نَجَا﴾ لإفادة عمومِ التّخليصِ منَ الشّرّ، والفِكاكِ منَ المصيبةِ.

(1) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 10/341.

وأوثِرَ التّعبيرُ بوصْف النّجاةِ - أيضًا - مُراعاةً للنّظير السّابقِ في السّياق في قوله: ﴿وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا﴾ [يوسف: 42] حيثُ وصفَه بالنّجاة أوّلًا، فناسَبَ أنْ يُعيدَه بالوصفِ نفْسِه، لئلّا يُوهِمَ بأنّه غيرُ الأوّلِ، واستحسانًا لِوصفِ النّجاةِ لفظًا ومعنى، فهو أدلُّ على حُسن العاقبةِ والمُعافاةِ منَ السّوء[1].

عبّرَ بفعْلِ النّجاةِ مُراعاةً للنّظيرِ السّابقِ

عوْدُ الضّميرِ في ﴿نَجَا مِنْهُمَا﴾ ومعنى (مِن):

ضميرُ الاثنيْن في قوله تعالى: ﴿نَجَا مِنْهُمَا﴾ يعودُ على ﴿يَصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ﴾ [يوسف: 41] في قوله: ﴿يَصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسْقِى رَبَّهُۥ خَمْرًا ۖ وَأَمَّا ٱلْءَاخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِۦ ۚ﴾ [يوسف: 41]، فـ (مِن) في قوله: ﴿مِنْهُمَا﴾ بيانيّةٌ. ونُكتةُ النّصِّ على ضمير المُثنّى ﴿مِنْهُمَا﴾ دون أن يقول: (وقال الّذي خرج من السّجن أو الّذي نجا من السّجن) للدّلالةِ على موضعِ الامتنان عليه بأنّه نجا وصاحبُه هَلَك، وكان يمكنُ أن يكونَ مكانَ صاحبِه، فضميرُ الاثنيْن دالٌّ على الحال وضدِّها، لتأكيدِ معنى المِنّةِ في الشّيء باستحضارِ ما يُضادُّه من حال المِحنةِ والهَلَكَةِ، وفيه نُكتةٌ أخرى: وهو الدّلالةُ على الحافزِ الّذي استنْهَضَه للتّذكُّرِ والقولِ بين يدي الملِك، ذلك أنّ قوله: ﴿مِنْهُمَا﴾ فيه إشارةٌ إلى ما كان من أمر تعبيرِ الرّؤيا لهما من يوسفَ عليه السلام، فتذكّرَ من تعبيرِ الرّؤيا لهما أنْ يُخبرَ بمَنْ يستطيعُ تعبيرَ الرّؤيا للملِك.

يَصونُ المِنَحَ مَنْ خَبَرَ تجاربَ المِحَنِ

مَوقعُ جُملةِ ﴿وَٱدَّكَرَ﴾ ممّا قبْلَها:

جُملةُ: ﴿وَٱدَّكَرَ﴾ إمّا معطوفةٌ على جملة الصّلةِ ﴿نَجَا﴾، فتكونُ داخلةً في حيّز الصِّلةِ؛ أيْ: الّذي نجا وادّكرَ. وإمّا أنْ تكونَ الواو حاليّةً وجملةُ ﴿وَٱدَّكَرَ﴾ حالٌ منَ الموصول: ﴿ٱلَّذِى﴾ أو من عائدِ الموصولِ وهو فاعلُ: ﴿نَجَا﴾ أيْ: هو، والتّقديرُ: وقال الّذي نجا، والحالُ أنّه ادّكر بعد أُمّةٍ. والجملةُ الحاليّةُ أبلغُ هنا منَ المعطوفةِ،

قد يُخبَرُ عنِ المرءِ بما يُفيدُ العِتابَ عليه

(1) السَّمين الحلبيّ، عمدة الحُفّاظ: (نجو).

لدلالتِها على الظّرفيّة الزّمنيّةِ المُقترِنة بصاحب الحالِ؛ أيْ: قال ما قال إذْ هو مُدَّكِرٌ بعد أُمّة؛ أيْ: لم يَقُلْ مقولتَه في جوابه على المَلِك إلّا وهو متّصِفٌ بالادّكار، أوِ الجملةُ معترضةٌ بين القولِ ومَقولِه، ونظْمُ الكلامِ: وقال الّذي نجا منهما أنا أُنبِّئُكم بتأويلِه[1].

دَلالةُ اصطفاءِ لفْظِ ﴿وَٱدَّكَرَ﴾:

جاء لفظُ: ﴿وَٱدَّكَرَ﴾ على صيغةِ (افتعل) بمعنى (ذكَرَ) للدّلالةِ على تكلُّفِ الفعل في إتيانِه والقيامِ به، وللدّلالةِ على الاجتهادِ والمبالغةِ في تحصيل الفِعلِ، وللدّلالةِ على إظهارِ الفِعل، فالأوّل: لأنّ السّاقي ذَكَرَ أمرَ يوسفَ ﷺ بتكلُّفٍ بعد طولِ كتمانٍ مخافةَ أنْ يُذَكِّر الملكَ بذنْبِه وحالِ سَجنِه مع الخبّاز، طيًّا لتلك الصّفحةِ المُسيئةِ، فكان ذِكْرُه لأمر يوسفَ اضطرارًا، لحضورِ مُقتضاه من تعبير رؤيا المَلِك، فكأنّه قيل: لولا ذلك ما ذَكَرَ. والثّاني: لأنّه اجتهد وطلبَ تحصيلَ أصلِ الفِعلِ وهو الذِّكْرى، فأخذَ يتذكّرُ حتّى ذَكَر، وهذا يدلُّ على أنّه كان يَستدْعي ما غيَّبَه النِّسيانُ وطولُ الزّمن، ولذا قال: ﴿بَعۡدَ أُمَّةٍ﴾ أيْ: مُدّةٍ طويلة. أو أنّه تذكّر تذكُّرًا شديدًا ملائمًا لنسيانِه ما كلّفَه يوسفُ من أن يَذكُرَه عند ربِّه. والثّالثُ: لأنّه أظهرَ الذِّكْرَ للعَلَن، كما تقول: اعتذرَ، إذا أظهرَ العُذْرَ، فكذلك (افتعل) في (اذتكر) إذا أظهرَ الذِّكْرَ أو أظهر التّذكُّرَ. ولا يخفى أنّ التّعبيرَ بصيغة (افتعل) شديدُ المناسبةِ لتعليقِ الظّرفِ به وهو قوله: ﴿بَعۡدَ أُمَّةٍ﴾[2].

العِتابُ يَسْتَدْعي ألفاظًا صَعْبةً أحيانًا

دَلالةُ التّعبيرِ بالبَعدِيّةِ:

﴿بَعۡدَ﴾ في قوله تعالى: ﴿بَعۡدَ أُمَّةٍ﴾ ظرفُ زمانٍ مُنكّرٍ لإضافتِه إلى نكرةٍ، نحوَ: (جئتُ بعد سفرٍ طويلٍ). ويدلُّ على مرورِ زمنٍ مُحدَّدٍ بزوالِ أمّةٍ من غير تحديدٍ دقيقٍ لزَمَنِه بالأيّام أوِ السّنين، أو غيرِهما، وهذا الانقضاءُ غيرُ المُحدَّد للأمَّة يَستلزمُ لفظَ البَعديّةِ.

الانقضاءُ غيرُ المُحدَّدِ للأمّةِ يَستلزمُ لفْظَ البَعديّةِ

(1) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/165، والخطيب، التّفصيل في الإعراب: 6/292.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 10/111، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3830.

بَلاغةُ التّعبيرِ بلفْظِ ﴿أُمَّةٍ﴾:

طولُ الزّمانِ مَظنّةُ زوالِ الأُمَمِ

تُطلقُ الأمّةُ على الجماعةِ منَ الزّمانِ (المُدّةِ المجتمعةِ الطّويلةِ) على سبيل المجازِ المُرسلِ، فقد ذَكرَ المظروفَ وأراد الظّرفَ، ولفظُ (الأُمّة) يُرادُ به الجماعةُ الكثيرةُ منَ النّاسِ، والمُرادُ به هنا: المدّةُ الطّويلةُ أوِ الزّمنُ أو الحينُ، ويكونُ في الكلام إيجازٌ بحذْفِ مُضافٍ، وإقامةِ المضاف إليه مقامَه، والتّقديرُ: بعد انقضاءِ أُمّةٍ، أو بعدَ ذهابِ أُمّةٍ؛ أيْ: بعد انقراضِ جيلٍ أو جماعةٍ كبيرةٍ في الزّمن، فكنَّى بزوالِ الأمّة عن مُدّةِ الزّمان الطّويلِ، إذْ طولُ الزّمنِ لازِمٌ عن انقراضِها وزوالِها[1].

دَلالةُ تقديمِ المُبتدأِ على الخبرِ الفعلّي:

اسْتَدعى ما يَدلُّ به على ذاتِه بالجَدارةِ والاسْتِحقاقِ

افتتح البيانُ الإلهيُّ جملةَ مقولِ القول بضميرِ المُتكلّم وقدّمَه على الخبر الفِعليِّ، فلم يقل: أُنبّئُكم أنا بتأويلِه، لإفادةِ اختِصاصِه بحُكمِ الإنباءِ فيما استعصَى على مَنْ هم فوقَ رُتْبَتِه من أكابرِ الحاشيةِ وخواصِّ المَلِك، ولإفادةِ الحصْرِ الإضافيِّ؛ لأنّه استطاعَ ما عجَزوا عنه، فصحَّ له الحَصْرُ، فقدّم ضميرَه لاستدعاءِ استعْجابِ المَلِك منه، فكأنّه يدلُّ على ذاتِه بما يَجْعلُه في مقام التّزكيةِ عند المَلِك، وأيضًا لغرَضِ تقويةِ الحُكم، وهو ثبوتُ استطاعتِه على ذلك، لِقصدِ مُخاطبةِ المَلِك بأسلوبٍ يَحملُه على الاقتناعِ بقولِه والالتفاتِ له والثّقةِ فيه[2].

بَلاغةُ المَجازِ العقلّي في ﴿أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأۡوِيلِهِۦ﴾:

لا يَتشبَّعُ الكريمُ بما لم يُعْطَ

في إسنادِ الإنباءِ بتأويلِه إلى ضميرِ السّاقي ﴿ٱلَّذِى نَجَا﴾ في قوله تعالى: ﴿أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأۡوِيلِهِۦ﴾ مجازٌ عقليٌّ، لأنّه إسنادٌ للفعْلِ إلى غير فاعلِه، إذِ المُنْبِئُ بتأويلِه هو يوسفُ عليه السلام، وليس هو، فالمجازُ في

(1) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 9/201، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 10/341، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/283.

(2) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 10/342، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/283.

إسنادِ الفعْلِ إلى سببِ وقوعِه، والسّاقي هو سببُ الإنباء بالتّأويلِ، ويصحُّ أنْ يكونَ الإسنادُ في ﴿أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأۡوِيلِهِۦ﴾ على أصلِه منَ الحقيقة، ولا مجازَ فيه، على اعتبارِ أنّ ناقِلَ التّأويلِ هو مُنبِئٌ به حقيقةً، ولا يَلزمُ منَ الإنباء معنى الإنشاءِ؛ أيْ إنّه ليس مُنشِئًا للتّأويل، بل مُخبِرٌ به فقط، ففرقٌ بين الإنباء والإنشاءِ، ويدلُّ على ذلك قراءةُ الحسنِ: (أنا آتيكم بتأويله)[1].

دَلالةُ التّعبيرِ بفعْلِ (الإنباء) دون الفُتْيا أوِ الإخبارِ:

الإنباءُ هو إخبارٌ عن ذي شأنٍ وبالٍ

إيثارُ التّعبيرِ بفعْلِ الإنباء دونَ غيره، في قوله تعالى: ﴿أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأۡوِيلِهِۦ﴾ فيه عدّة دلالاتٍ؛ منها: تعظيمُ رُؤيا المَلِك بتعظيمِ أمْرِ تأويلِها؛ لأنّ الإنباء هو إخبارٌ عن ذي شأنٍ وبالٍ، وفيه إلفاتٌ إلى حُسنِ أدبِه في الجوابِ عمّا يَتعلّقُ بمقامِ المَلِك إجلالًا له.

ومنها: تعظيمُ أمرِ تأويل الرُّؤى، لاستلزامِه العِلمَ العظيمَ، فتكلّمَ عليه بفعْلِ الإنباء، لإفادةِ أنّ التّأويلَ نفسَه ذو بالٍ في اقتضائِه الأهليّةَ والتّمكُّن، فكأنّه قال: أُخبرُكم إخبارَ المُستأهِلِ لذلك الخبيرِ به، إضافة إلى إغراء المَلِك على الإنصاتِ له والاكتراثِ بقولِه والإذنِ في إرساله ومُجاراتِه في طلبِه، فتصديرُ جملةِ مَقول القولِ بلفظِ الإنباء يَلفِتُ الأسماعَ إليه.

وأيضًا فإنّ التعبير بفعْلِ الإنباء دونَ غيره للدّلالةِ على أنّه ناقِلٌ عن غيره، ولو قال: أُفْتيكم، لأوهَمَ أنّه من تلقاء نفسِه[2].

دَلالةُ ضميرِ الخِطابِ الجمعيِّ في ﴿أُنَبِّئُكُم﴾:

مِنْ سَلامةِ الإحساسِ العِرفانُ بأقْدارِ النّاسِ

ضميرُ الخطابِ الجمعيِّ في قوله تعالى: ﴿أُنَبِّئُكُم﴾ عائدٌ على المَلِك والملأِ الحاضرين، فجمَع في خطابِه بين تفخيمِ المَلِك

(1) الدّمياطيّ، إتحاف فضلاء البَشَر، ص: 332، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/283.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/282، والبقاعيّ، نظم الدُّرر: 10/111، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/283.

بصيغةِ الجمْعِ، وإكبارِ الملأِ الحاضرين بتوجيه الخطابِ إليهم، لئلّا يُقصِيَهم أو ينفردَ بخطابِ المَلِك عنهم؛ لأنّ في إكبارهم إكبارًا للمَلِك، وإهمالُهم في الكلام إنقاصٌ منهم وتعريضٌ بهم لا سيّما بعد اعترافِهم بعدمِ علْمِهم وقُصورِهم عن تأويلِ الأحلامِ[1].

معنى الباءِ في قوله: ﴿بِتَأۡوِيلِهِۦٓ﴾:

الباءُ في قوله تعالى: ﴿أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأۡوِيلِهِۦ﴾ للتّعْديةِ، كما تقول: أنبأتُ ونَبّأتُ بكذا، ومعنى الباءِ الإلصاقُ، إذِ الخبَرُ محلُّ الإنباء يكونُ كأنّه مُلتصِقٌ بأذُنِ السّامِع عند إخبارِه به، فيكونُ معلومًا عنده مُلتصِقًا عِرفانُه به[2].

لا يكونُ الإخبارُ مُفيدًا حتّى يَأبَهَ له السّامعُ

دَلالاتُ عوْدِ الضّميرِ في قوله: ﴿بِتَأۡوِيلِهِۦٓ﴾:

الضّميرُ في قوله تعالى: ﴿بِتَأۡوِيلِهِۦٓ﴾ عائدٌ على الحُلْمِ أو على المعنى؛ أيْ: أُنبِّئكم بتأويلِ حُلْمٍ، أو أمْرٍ، أو معنى الرّؤيا، أو على الحُلْم؛ أيْ: بتأويلِ الحُلْمِ المذكورِ، وأورد الضّميرَ على الإفراد والتّذكيرِ؛ لأنّه منامٌ واحدٌ، وعلى التّذكيرِ؛ لأنّه (حُلْم)، وعدَلَ عن جمْعِ الضّمير وتأنيثِه، فلم يقل: أُنبِّئكم بتأويلِها، كما قالوا: ﴿وَمَا نَحۡنُ بِتَأۡوِيلِ ٱلۡأَحۡلَٰمِ﴾ على الجمعِ والتّأنيثِ، لاختلاف الغرَضِ، فهم يُخبرون عن عموم معرفتِهم بالأحلام أو يُخبرون عن معهودٍ جمْعيٍّ وهو ﴿أَضۡغَٰثُ أَحۡلَٰمٖۖ﴾، ولذلك جمَعوا الضّميرَ، وهو هنا يُخبِرُ عن خصوصِ رُؤيا المَلِك، فأفردَ، ولم يَقُل: (بتأويلها) على الإفرادِ والتّأنيثِ عوْدًا على الرّؤيا؛ لأنّ المُرادَ حُكْمُها وأمْرُها، أوِ المُرادُ (الحُلْمُ) لمراعاةِ أقربِ نظيرٍ له وهو قولُهم: ﴿وَمَا نَحۡنُ بِتَأۡوِيلِ ٱلۡأَحۡلَٰمِ﴾، فأخبر هنا بتأويل الحُلْم، جَريًا على لفْظِهم.

تأويلُ الأمورِ ثقيلٌ في مُعالَجتِه، فيُسْنَدُ لفظُه إلى ضميرِ التّذْكيرِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/283.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/282.

بَلاغةُ الإيجازِ في جُملةِ الفاصلةِ:

من بَلاغَةِ نظْمِ القرآنِ بَديعُ الاكتفاءِ بالمذكورِ

في قوله تعالى: ﴿أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأۡوِيلِهِۦ فَأَرۡسِلُونِ﴾ ايجازٌ بحذْفِ الجُمَلِ؛ أيْ: فأرسلوني إلى يوسفَ لأستعبرَه الرّؤيا، ففعلوا وأتاه فقال له: يا يوسفُ[1].

بَلاغةُ العطْفِ بالفاءِ في قوله: ﴿فَأَرۡسِلُونِ﴾:

التّطوّعُ بما لا يُحسِنُه غيرُك أمارةٌ على المروءةِ والنُّبلِ

الفاءُ في قوله: ﴿فَأَرۡسِلُونِ﴾ عاطفةٌ مدخولَها على جملةِ مَقولِ القول: ﴿أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأۡوِيلِهِۦ﴾، وفائدةُ العطْفِ بها: ربْطُ المُسبَّبِ بسبَبِه، إذِ المعنى: أنا أنبِّئُكم بتأويلِه، فبِسَبَبِ الإنباء أرسِلون؛ أيْ: الإرسالُ مُسَبَّبٌ عن قصدِ الإنباء، وإرادةُ الإنباء سببٌ للإرسال، أوِ الفاء فصيحةٌ عاطفةٌ مدخولَها على شرطٍ مُقدَّر؛ أيْ: إنْ أردتُم التّأويلَ فأرسِلون، وجملةُ: ﴿فَأَرۡسِلُونِ﴾ في محلِّ جزْمِ جوابِ الشَّرطِ المُقَدَّرِ[2].

دَلالةُ ضميرِ الجمْعِ في قوله: ﴿فَأَرۡسِلُونِ﴾:

تُسنَدُ الأمورُ العظيمةُ إلى مَنْ هو أَوْلى بها

ضميرُ الجمْعِ (الواو) في قوله: ﴿فَأَرۡسِلُونِ﴾ عائدٌ على المَلِك، إذْ هو وحده الّذي يملِكُ إذْنَ إرساله، وجُمعَ الضّميرُ، لتعظيم المَلِك وإكبارِه[3]. والجمعُ أيضًا لموافقةِ الفواصلِ: ﴿تَعۡبُرُونَ ٤٣﴾ [يوسف: 43]، ﴿بِعَٰلِمِينَ﴾، ﴿يَعۡلَمُونَ﴾، ﴿تُحۡصِنُونَ﴾.

دَلالةُ حذْفِ مُتعلَّقِ الإرسالِ في ﴿فَأَرۡسِلُونِ﴾:

تقليلُ الكلامِ أفْضَى للمَصالحِ وأنهضُ عليها

لم يُعيِّنْ لهم جهةُ الإرسال، "لأنّه أراد أنْ يُفاجئَهم بخبرِ يوسفُ عليه السلام بعد حصولِ تعبيرِه ليكونَ أوقعَ، إذْ ليس مِثْلُه مَظِنّةَ أن يكونَ بين المساجين"[4]، واكتفاءً بقُربِ ذِكْرِه السّابق المفهومِ من قوله تعالى: ﴿وَٱدَّكَرَ بَعۡدَ أُمَّةٍ﴾ - ولذا لم يَذكرْ أيضًا: لأيّ شيءٍ أو شخْصٍ أو

(1) عفيف، الشّامل: 2/84.
(2) صافي، الجدول: 12/441.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/283.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/283.

موقفٍ كان تذكُّره بعد أمّة، لدلالة النّجاةِ عليه - واكتفاءً بِقُربِ ذِكْرِه اللّاحقِ تصريحًا به في قوله: ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ﴾[1].

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الإنباءُ والإخبارُ:

النّبأُ يُقالُ في الخبَرِ الّذي لا يعلَمُه المُخبَرُ

أصلُ (نبأ): الانتقالُ من مكانٍ إلى مكان، وسُمّيت الأخبارُ المَحكيّةُ بالأنباء؛ لكونِها تنتقلُ من جهةٍ إلى جهةٍ. والنّبأُ يُقالُ في الخبَر الّذي لا يعلمُه المُخبَرُ، ولذا يقتصرُ على الأخبارِ ذاتِ الفائدةِ العظيمةِ؛ لأنّ الإخبارَ بما لا يعلمُه المُخاطَبُ، يُحدِثُ عنده عِلْمًا لم يكن عندَه فيستفيدُ، ولكونِ (نبأ) يُقالُ في الانتقال من مكان إلى مكان، فلا يُتكلَّفُ الانتقالُ غالبًا إلّا في شأنٍ مُهمٍّ وعظيم. ولذا عبّرَ هنا بالإنباء في قوله: ﴿أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم﴾، لكونِه خبَرًا عظيمًا يُرحَلُ في طَلَبِه.

وأمّا الخبَرُ فهو العلْمُ بحقيقةِ الشّيء، وهو عامٌّ في جميع المعلوماتِ المعلومةِ بالخبَر، وهو أعمُّ منَ النّبأ في نفْسِه وفي جِهتِه (المُخبَر)، فقد يكونُ حقًّا وباطلًا وقد يكونُ ذا فائدةٍ أو خاليًا منها. وقد يكونُ المُخبَر عالمًا بما يُخبَر به أو غيرَ عالمٍ[2].

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/282.

(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المُفردات، وابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (خبر، نبأ).

﴿يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفۡتِنَا فِي سَبۡعِ بَقَرَٰتٖ سِمَانٖ يَأۡكُلُهُنَّ سَبۡعٌ عِجَافٞ وَسَبۡعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضۡرٖ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٖ لَّعَلِّيٓ أَرۡجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَعۡلَمُونَ ٤٦﴾ [يوسف: 46]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الاقتِصارُ على المُهِمِّ في الكلامِ مِنَ الحِكمةِ البالِغةِ

لمّا ذَكَرَ في الآيةِ السّابقةِ استئذانَ السّاقي في إرسالِه إلى مَنْ يُفسّرُ لهم رؤيا المَلِك، ذكَرَ هنا وصولَه إلى مَن أُرسِلَ إليه لاستفتائِه، وسَرَدَ الحوارَ الّذي دار بينَهما.

شرحُ المفرداتِ:

1) ﴿أَفۡتِنَا﴾: الاسْتِفتاء: مصدرُ (استفتى) إذا طلبَ الإفتاءَ، والإفتاءُ: هو الإخبارُ بإزالةِ مُشْكِلٍ، أو إرشادٌ إلى إزالةِ حَيْرةٍ. وأصلُ اشتقاقِ أفْتَى منَ الفَتَى وهو الشّابُّ، فكأنَّ الّذي يُفتيه يُقوّي نهْجَه ببَيانِه، فيصيرُ بقوّةِ بيانِه فَتِيًّا؛ أيْ: قَوِيًّا[1].

2) ﴿عِجَافٞ﴾: العين والجيم والفاء أصلانِ صحيحانِ، أحدُهما يدلُّ على هُزالٍ، وذهابِ سِمَنٍ، وعلى الدّقيق منَ الهُزال، من قولهم: نصلٌ أَعْجَفُ: دقيقٌ. وعجفتُ نفسي عنِ الطّعام؛ أيْ: حبسْتُها، وأنا أشْتَهيه لأوثرَ به جائعًا، ولا يكونُ العَجْفُ إلّا على الجوع[2]. ومعنى ﴿عِجَافٞ﴾ في الآية: الهُزالُ وذهابُ السِمَن؛ أيْ: غِلَظُ العظام وعَرَاؤها منَ اللّحم. والعَجْفاءُ منَ البقر والغنمِ: المهزولةُ الّتي لا لحمَ عليها ولا شحمَ[3].

(1) الرّاغب، المفردات: (فتى)، وابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (فتو)، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/278.
(2) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (عجف).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (عجف).

المَعْنى الإجْماليُّ:

خيرُ الحِوارِ ما انْعَقدَ على قَضاءِ المصالِحِ

لمّا أذِنَ الملكُ في إرسال الرَّجلِ لتعبير الرّؤيا، ووصَلَ إلى يوسفَ عليه السلام قال له: يوسفُ أيُّها الصِّدِّيق فسِّر لنا رؤيا مَن رأى سبْعَ بقراتٍ سمانٍ يأكلهنَّ سبعُ بقراتٍ هزيلاتٍ، ورأى سبعَ سنبلاتٍ خضرٍ وأُخرَ يابساتٍ، لعلّي أرجع إلى المَلِك وأصحابه فأُخبرُهم؛ ليعلموا تأويلَ ما سألتُك عنه، وليعْلَموا مكانَتَك وفضْلَك[1].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

بَلاغةُ الفصْلِ في الآية:

الاخْتِصارُ على المُخاطَبِ بجعْلِ الكلامِ في حُدودِ الغرَضِ

جُملةُ: ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ﴾ استئنافيّةٌ، وهي جملةُ نداءٍ مُقدَّرٍ، والتّقديرُ: (يا يوسف)، وحذَفَ حرفَ النّداءِ، وابتدأَ بالمُنادَى، ويصحُّ أنْ تكونَ جملةُ ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ﴾ مَقولًا لقولٍ محذوفٍ معطوفٍ على مضمونِ جملةِ: ﴿فَأَرْسِلُونِ﴾، والتّقديرُ: (أنا أنبّئكُم بتأويله فأرسلوني، فأرسلوه، فقال: يوسفُ)[2].

بَلاغةُ حذْفِ حرفِ النّداءِ:

الأنبياءُ قَريبونَ منَ الله تعالى

في جُملةِ: ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ﴾ نداءٌ مُقدَّرٌ، والتّقديرُ: (يا يوسف)، وحذَف حرف النّداءِ، وابتدأ بالمُنادَى، لِقُربِ (يوسفَ عليه السلام) منه، وتَفطُّنِه لحديثِه معه أنّه يطلبُ إقبالَه عليه، فمعنى النّداءِ ظاهرٌ لا يحتاجُ لإظهارِ الأداةِ. فالإيجاز بحذْفِها أحسنُ.

بَراعةُ الاسْتِهلالِ في المَطْلعِ:

حُسْنُ التّقديمِ مَظِنّةُ إجابَةِ المَطْلَبِ

في قوله تعالى: ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ﴾ براعةُ استهلالٍ، فقد قدّمَ الثّناءَ قبلَ السّؤالِ طمعًا في إجابة مَطلبِه[3].

---

(1) التّفسير المُيسّر، ومجمع الملك فهد، ص: 241.

(2) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 10/342، والخطيب، التّفصيل في الإعراب: 6/294.

(3) عفيف، الشّامل: 2/85.

عبارةُ الافْتِتاحِ هي مؤشِّرُ نَجاحِ الحِوارِ وإتْمامِهِ

مَوقعُ جملةِ ﴿أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ﴾ ممّا قبْلَها:

جملةُ: ﴿أَيُّهَا﴾ بدلٌ من ﴿يُوسُفُ﴾، والهاءُ للتّنبيهِ، أو مُنادًى لأداةِ نداءٍ ثانيةٍ محذوفةٍ، والتّقديرُ: (يا أيّها الصّدّيق)، و(الصّدّيق) بدلٌ أو عطفُ بيانٍ أو صفةٌ لـ(أيّ)، وفُصِلَتْ ولم توصَل بالواو لِبَدليّتِها، أو لاستئنافِها بالنّداءِ[1].

يُخاطَبُ الإنْسانُ بما يلائمُ مِقدارَه ويُناسِبُ المقامَ

فائدةُ إقْحامِ ﴿أَيُّهَا﴾ بين الصّفةِ والموصوفِ:

لم يَقُل في السّياق الكريم: (يوسف الصّدّيقُ أفْتِنا) بمتابعةِ الوصْفِ للموصوف، وإنّما فصلَ بقوله: ﴿أَيُّهَا﴾ لقصْدِ استقلالِ كلٍّ من جُملة الموصوفِ: ﴿يُوسُفُ﴾، وجُملة الصّفةِ: ﴿ٱلصِّدِّيقُ﴾ بالحُكْم، فهو يريدُ أنْ يُناديَه باسْمِه استقلالًا، ثمّ يُناديه بوصْفِه استقلالًا، إطنابًا في التّبجيل والإجلالِ له، وتَفصيلًا للتّقْدِمَةِ بين يديْه بتعديدِ الأسلوبِ وتقسيمِ مُفرداتِ الأدبِ معه بأحْكمِ صيغةٍ وأخْصرِ لفْظٍ[2].

رِعايةُ الوَقْتِ بالاقتصارِ على ما يَتعلّقُ به الغرَضُ

بَلاغةُ الإيجازِ بالحذْفِ:

في قوله تعالى: ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ﴾ إيجازٌ بديعٌ بحذْفِ ما لا يتعلّقُ الغرَضُ به، والتّقديرُ: فأرسلوه إلى مَن عنده العِلمُ، ثمّ جاء إلى السّجن وقابلَ يوسفَ، فلمّا دخل عليه قال: يا يوسفُ، يا أيّها الصدّيق أفْتِنا[3].

يُنادَى المرءُ بأجْمعِ صِفاتِه وأحْسَنِ أسمائِه

بَراعةُ الاسْتِهلالِ في الآية:

في جملةِ ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ﴾ براعةُ استهلالٍ من وجهَيْن:

الأوّلُ: افتتاحُ الخطابِ بالاسْمِ (يوسفُ) لِما في اسْمِ العلَمِ من زيادةِ التّعْيين، واستدعاءِ الانتباه؛ لِكوْنِ اسْمِ الشّخصِ أحبَّ مَنطوقٍ إليه يُدعَى به، فناداه أوّلًا بأوْلَى تَسميةٍ عنده. والثّاني:

(1) صافي، الجدول: 12/443، والخطيب، التّفصيل: 6/294.
(2) السّامرّائيّ، معاني النّحو: 4/330.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 18/465.

التّثنيةُ بمناداتِه بما يُفيدُ إجلالَه وتعظيمَه وهو النّداءُ بالوصْف الجميلِ ﴿ٱلصِّدِّيقُ﴾[1].

بَلاغةُ اصْطِفاءِ جُملةِ النِّداءِ ﴿أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ﴾:

التزامُ الأدَبِيّاتِ الرَّسميّةِ يحفظُ المسافاتِ

نُكتةُ تعْيينِ هذا الوصْفِ ﴿ٱلصِّدِّيقُ﴾ دونَ غيرِه منَ الأوصافِ والمناقبِ الّتي لا يَخْلو يوسفُ عليه السلام من شيءٍ منها؛ للإيماء إلى ذِكْراه الحَسَنةِ معه والعهْدِ القديمِ به، حينَما كان معه في السّجنِ وعبّرَ له الرُّؤيا، وصدقَ تعبيرُه وتحقّقَ فيه وفي صاحبِه ما أفتاهما، فكأنّه يقولُ له: قد صَدقْتَنا التّأويلَ في رؤيايَ في الماضي، فجئْنا الآن نتحرَّى صِدْقَ تأويلِك فيما عجَزَ النّاسُ عنه في تأويل رُؤيا المَلِك، فكأنّه يتوسّلُ إليه بالصِّفةِ الّتي تُناسِبُ المقامَ في الماضي والحاضرِ، فناداه بأنسَبِ مَنْقَبَةٍ للمقامِ الّذي التمسَهُ منه. وفي تحرّي هذا الأسلوبِ منَ السّاقي الّذي نجا إشارةٌ إلى حُسْنِ أدبِه والتزامِه بالتّقاليد الرَّسميّةِ في الخطابِ، إذْ هو مبعوثٌ رَسْميٌّ منَ المَلِك، فهو يُمثِّلُ الدّولةَ في نهْجِه، فلا بدّ أنْ يكونَ مُحسِنًا مُتْقِنًا فيما يقولُ ويفعلُ، لا سيّما وهو في حضرةِ صِدِّيقٍ منَ المُحسِنين.

دَلالةُ صيغةِ (فِعِّيل) في ﴿ٱلصِّدِّيقُ﴾:

الكامِلونَ في صِدْقِهم أندرُ الخَلْقِ وأعزُّهم

التّعبيرُ عنِ اتّصافه عليه السلام بالصّدق في قوله: ﴿ٱلصِّدِّيقُ﴾ بصيغةِ (فِعِّيل)؛ للدّلالةِ على بلوغِه حدَّ التّمامِ في الصّفةِ، فهو دائمُ الصِدْق مُعتادٌ عليه مُلازِمٌ له، فوزنُ (فِعِّيل) يدلُّ على الانْهماك في الصّفةِ والولَعِ بها، فكأنّ الصِّدقَ هو قُرّةُ عينِه وسكينةُ نفْسِه لا ينفكُّ عنه في قولٍ أو فِعلٍ فهو أدمَنَ العملَ بالصِّفة ظاهرًا وباطنًا. كما تقولُ على ذلك الوزنِ: (خِمِّير) و(سِكِّير) إذا كان غارقًا في السُّكْرِ مُدمِنًا له مُنهمِكًا فيه[2].

(1) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 10/342.

(2) السّامرائيّ، معاني الأبنية، ص: 104، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 18/465.

دَلالةُ التّعبيرِ بـ ﴿أَفْتِنَا﴾ دونَ غيرِه:

عِباراتُ الملوكِ يُتحرَّى إبلاغُها على وَفْقِ ما صَدَرتْ عنهم

في قوله تعالى: ﴿أَفْتِنَا﴾ التزامٌ بعبارة المَلِك إذْ قال: ﴿أَفْتُونِي فِي رُءْيَٰيَ﴾ [يوسف: 43]، ولم يَقُل: (نبِّئنا بتأويله) كما قال له في السّجن: ﴿نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝٣٦﴾ [يوسف: 36]، إجلالًا له بعد أنْ عرفَه وتحقّقَ من فضْلِه، بتنزيلِه منزلةَ المُفْتي، والإفتاءُ صِفةٌ رسْميّةٌ تُناسبُ المقامَ الّذي بُعِثَ السّاقي لأجلِه، بخلافِ الموضع الأوّلِ الّذي استخدمَ فيه لفْظَ الإنباء، ففي إيثارِ لفظِ: ﴿أَفْتِنَا﴾ إجلالٌ للمَلِكِ بالتزامِ طريقتِه، وفيه إشارةٌ إلى أنّ عباراتِ الملوك مُلتَزَمَةٌ يُتحرَّى إبلاغُها على وَفْقِ ما صدرتْ عنهم، وفيه تعظيمٌ للرّؤيا، وفيه إجلالٌ ليوسفَ عليه السلام بما اتّضحَ[1].

دَلالةُ جمْعِ الضّميرِ في ﴿أَفْتِنَا﴾:

يُمَثِّلُ المرءُ مَنْ يَنوبُ عنه

سِيقَ قولُه تعالى: ﴿أَفْتِنَا﴾ بضمير الجمْعِ، مع أنّ السّائلَ واحدٌ، فلم يَقُلْ: (أفْتِني) ليَدلَّ على أنّه لا يَسألُ باسْمِه، وإنّما يسألُ عنِ المَلِك، أو عنِ الدّولة، فعبّرَ بضمير الجمْعِ تعظيمًا لِنيابتِه عمّا يقتضي الجمْعَ[2].

دَلالةُ حرْفِ الوعاءِ ﴿فِي﴾:

وُجوبُ استيفاءِ المسألةِ عند عرْضِها على المُفْتي

﴿فِي﴾ في قوله تعالى: ﴿أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَٰتٍ﴾ للظّرفيّةِ المَجازيّةِ؛ لأنّ الإفتاءَ يتضمّنُ المسألةَ المُسؤولَ عنها تضمُّنَ الظّرفِ للمَظروفِ، فهو يشتمِلُ عليها ويُحيطُها من جميع جوانبِها استيفاءً وإيضاحًا، ودخلَ حرفُ الوِعاءِ ﴿فِي﴾ على مضمون الرُّؤيا وتفسيرِها مُباشرةً دونَ لفظِها، فلم يَقُلْ: (أفْتِنا في هذه الرّؤيا: سبعِ بقراتٍ وكذا وكذا)، فحذَفَ لفظَ المُفَسَّرِ إيجازًا، لدلالةِ المضمونِ حين سِياقِه أنّه رُؤيا، ولوضوحِ أنّه قبلَ ذلك أخبرَه بغرَضِ مجيئِه بخصوص الرُّؤيا، فاقتصرَ على القدْرِ اللّازمِ في الغَرَضِ؛ لأنّ المضمونَ هو المقصودُ[3].

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 6/443.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 6/443.
(3) الخُضريّ، من أسرار حروف الجرّ، ص: 125.

دَلالةُ الإطْنابِ بتَكرارِ نصِّ الرُّؤيا وإعادَتِها بلفْظِها:

لا يَتصرّفُ المرءُ في إبلاغِ ما يَنوبُ فيه إلّا بإذْنٍ ومُقتضًى

في قوله تعالى: ﴿أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ﴾ مُحاكاةٌ نصّيّةٌ لِلَفْظِ الرُّؤيا كما نطَقَ بها صاحبُها الملكُ في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ﴾ [يوسف: 43]، والذي يُلحظُ هنا في النّصّ القرآنيّ: أنّ القرآنَ أعاد اللّفظَ بنصِّه، دونَ أن يُشير إليه اكتفاءً بالنّصّ الأوّل، فلم يقل: (أفتِنَا في الرُّؤيا) بلام العهْدِ العائدةِ على ما سبقَ دون إطنابٍ مُوردًا الألفاظَ نفسَها، ونُكتَةُ ذلك من وجهَيْن:

الأوّل: في إعادةِ نصِّ الرّؤيا وعدمِ الإشارةِ إليها بالإضمارِ أو بالعهْدِ، دفْعٌ لتوَهُّمِ احتمالِ أنْ يكونَ السّاقي قد تصرّفَ فيها أو حكاها بالمعنَى ليوسفَ عليه السلام، فأعادها بلَفْظِها لدفْعِ هذا الاحتمالِ.

الثّاني: وهو اعتبارُ لفْظِ الرُّؤيا في تأويلِها؛ لأنّ تفسيرَ الرّؤيا قد يختلفُ بسببِ اختلافِ اللّفظِ، فروعِي الحِرصُ على نقْلِها بنصِّها دون تَصَرّفٍ[1].

سِرُّ العُدولِ من جمْعِ القِلّةِ إلى جمْعِ التّأنيثِ ﴿سُنْبُلَاتٍ﴾:

العُدولُ اتّساعٌ، وتجاوُزٌ، والتِفاتٌ منَ اللّفظِ إلى المعنَى

عَدَل إلى صيغةِ الجمع ﴿سُنْبُلَاتٍ﴾، وهو جمعُ مؤنّثٍ سالمٌ، في قوله تعالى: ﴿وَسَبْعِ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ﴾ مع أنّ الأصلَ جمْعُ التكْسير (سنابل)، وإن كان كلاهما يدلُّ على القِلّة لأسبابٍ:

الأوّلُ: أنّه من بابِ الاتّساعِ أو التّعاوُرِ الّذي يُرادُ به وقوعُ أحدِ الجَمعَيْن موقعَ الآخرِ. والثّاني: أنّه من بابِ التّجاوُرِ أو المُجاورةِ، فعدَلَ من (سنابل) إلى ﴿سُنْبُلَاتٍ﴾ لأجل مُجاورتِه ﴿سَبْعِ بَقَرَاتٍ﴾[2].

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 18/465.

(2) السَّمين الحلبيّ، الدرّ المَصون: 1/607، والخزرجيّ عماد حميد، والجبوريّ صالح، اسم الجنس الجمعيّ، بحث ص: 24 - 25، مجلة ديالى، العدد 62، 2014م.

والثّالثُ: ذَكَرَه ابنُ سينا قائلًا: "الإرادةُ شرطُ الدّلالةِ، يعني أنَّ الدّلالةَ هي الالتفاتُ منَ اللّفظِ إلى المعنى من حيث إنّه مُرادٌ، فلولا العِلْمُ بالإرادة لمعنى منَ اللّفظِ لم يتوجّهِ السّامعُ منَ اللّفظِ إلى المعنى، فلم يتحقّقْ دلالةً لا على المُرادِ، ولا على الجُزءِ منه، ولا على لازِمِهِ"[1].

فنُّ التّدبيجِ في قوله: ﴿سُنۢبُلَٰتٍ خُضۡرٖ﴾:

خَضارُ الزّرعِ أمارةُ نمائِه وخِصْبِه

في قوله تعالى: ﴿وَسَبۡعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضۡرٖ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٖ﴾ فنُّ التّدبيجِ، إذ ذكر الباري ﷻ اللّونَ الأخضرَ بقصْدِ الكنايةِ به عنِ الخِصْبِ والنّماءِ، والنُّعومةِ[2].

دَلالةُ التَّعبيرِ بحرْفِ الرّجاءِ ﴿لَّعَلِّيٓ﴾:

لا شيءَ مضمونٌ إلّا ما حصَلَ به اليقينُ

عبّر بالحرْفِ (لعلّ) في قولِه: ﴿لَّعَلِّيٓ أَرۡجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ﴾ المفيدِ للظّنِّ وعدمِ التّحقيقِ، للدّلالةِ على عدمِ ضمانِه وتحقُّقِه من الرّجوعِ بنفسِه أو بالفتوَى، أمّا بنفسِه: فقد يُدرِكُه الموتُ في الطّريق أو يَعرِضُ له عارضٌ فلا يستطيعُ الرّجوعَ، وأمّا بالفتوى، فتقديرُ الكلام: لعلّي أرجعُ إلى النّاس بفتواك، وهو لا يَضمنُ جوابَ يوسفَ عليه، ولا يجزِمُ به، فقدّم بذلك لأجلِ ذلك، أو لأنّ هذه هي العادةُ في الخطابِ إذا كان التماسًا أوِ استفتاءً أنْ يُبنَى على الاحتياطِ، وأنْ يُعلَّلَ بما يُفيدُ الرّجاءَ احترامًا للمسؤول وإعفاءً له من حرَجِ الإلزام، وفي الأسلوبِ إشارةٌ إلى تعظيم المُفتِي وكمالِ أدَبِ المُستفْتِي، وإجراءِ الأحاديثِ على أحوطِ العباراتِ وأحْسَنِ المُحتَرَزات[3].

دَلالةُ اصْطِفاء فعْلِ الرّجوعِ دونَ غيرِه:

حُسنُ استِعمالِ الألفاظِ في مواضعِها دليلُ الحِكمةِ البالغةِ

عبّر بفعْلِ الرّجوعِ في قوله تعالى: ﴿لَّعَلِّيٓ أَرۡجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ﴾ ولم يَقُلْ: (أذهب) أو: (آتي) أو غيرَهما، للدّلالةِ على أنّه مبعوثٌ من

(1) الكفويّ، الكليّات: 1/1015.
(2) عفيف، الشّامل: 2/85.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 18/465، والبقاعيّ، نظم الدُّرر: 10/112، وأبو حيّان، البحر المحيط: 6/285.

جهةٍ سيعودُ إليها بعد فراغِه معه، فالرّجوعُ هو العَوْدُ إلى المَوضِع الّذي كان منه البَدءُ[1].

دَلالةُ التّعْدِيةِ بـ ﴿إِلَى﴾ دونَ اللّام في: ﴿إِلَى ٱلنَّاسِ﴾:

إخبارُ السّائلِ المُفْتِي بما يقْتَضي تَخفيزَه على الجَوابِ

لم يَقُل في السّياقِ الكريم (لعلّي أرجعُ للنّاس)، وإنّما عدَّى الفعلَ بـ (إلى) للنّصِّ على الجهةِ الّتي تنتهي غايةُ مُهمَّتِه إليها، وفيه إيماءٌ إلى أنّه مُكلَّفٌ مُلزَمٌ ببلوغِ تلك الغايةِ، ولذا عبّرَ بحرف انتهاءِ الغاية ﴿إِلَى﴾، ولم يَقُلْ: (أرجع للنّاس) بتعْدِية الفعْلِ بحرفِ الاختصاصِ (اللّام)، ليدلَّ على أنّه لا يفعلُ ذلك لأجْلِهم على سبيل القُربِ والاختصاصِ، بل لأجلِ أنّه مُكلَّفٌ، والتّكليفُ ينتهي بإيصالِ نتيجتِه إلى غايةِ مكانِه الّذي صدرَ منه، سواءٌ أفتاه يوسفُ عليه السلام أم لم يُفْتِه.

إيثارُ لفْظِ ﴿ٱلنَّاسِ﴾ دونَ (المَلِك) أو (الملأ):

الكلامُ عنِ الشّأنِ العامِّ من دَواعي استِعمالِ العُمومِ في الحِوارِ

لفظُ ﴿ٱلنَّاسِ﴾ في قوله تعالى: ﴿لَّعَلِّيٓ أَرۡجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ﴾ من بابِ العامِّ الّذي أُريدَ به الخُصوصُ؛ لأنّه يقصِدُ به (المَلِك) على سبيل التّعظيم، فكأنّ المَلِك لمقامِه في إدارتِه ونيابتِه عنِ النّاس صارَ هو النّاسُ، أو يقصدُ به (المَلِك والملأَ) أو (الملأَ)، إذْ هم واسطةُ المَلِك في إرساله، فهو يرجعُ إليهم، ليُبَلِّغُوا المَلِكَ بردِّه، أو يقصدُ به (الشّعبَ) ويدخلُ فيهم المَلِكُ والملأ دخولًا أوّليًّا؛ لأنّه يجوزُ أنْ تكونَ رُؤيا المَلِك صارتْ خبرًا عامًّا مُذاعًا ينتظرُ الشّعبُ البَتَّ فيه، لتأثيرِه فيهم في تحديدِ سياسة الملِك معهم بناءً على تأويلِه وبيانِه، فهو أمرُ دولةٍ وشَعْبٍ، وعلى كلٍّ فجميعُ الاحتمالاتِ مخصوصةٌ لا يُرادُ منها العمومُ؛ لأنّ لفظَ ﴿ٱلنَّاسِ﴾ في أكبر احتمالاتِه وهو حمْلُه على (الشّعب) هو خاصٌّ كذلك؛ لأنّ الشّعبَ هو طائفةٌ من النّاس، وليس كلَّ النّاس[2].

(1) الرّاغب، المفردات: (رجع).
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/285.

دَلالةُ تكريرِ (لعلَّ):

لا تجزِمْ بما ليسَ في يدِكَ

في قوله تعالى: ﴿لَّعَلِّيٓ أَرۡجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾ كرّر (لعلّ) في الموضعيْن، لتغايُرِ مُتَعَلَّقِهما، وتغايُرُ التّعلّقِ يُفيدُ تغايُرَ المعنى، إذِ الأُولى متعلّقةٌ بالإفتاء، والثّانيةُ مُتعلّقةٌ بالرّجوعِ، وكلتاهما بمعنى (كي) فساغَ التّكريرُ، لاختلاف التّعلُّقِ، كأنّه قال: أفْتِنا كي أرجعَ إلى النّاسِ، كي يعلَموا، فالإفتاء سببُ الرّجوع، والرّجوعُ سببُ العِلمِ. وأيضًا: لمراعاةِ فواصلِ الآي، وإلا كان مُقتضى النّسَقِ أن يُقال: (لعلّي أرجع إلى النّاس فيعلموا)، ونظيرُ ذلك في هذه السّورة في اعتبار الفواصلِ قولُه تعالى: ﴿لَعَلَّهُمۡ يَعۡرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمۡ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ٦٢﴾ [يوسف: 62][1].

دَلالةُ إسْنادِ (لعلّ) إلى العِلمِ:

الاحتياطُ في مَوضِعِه من حُسْنِ الأدبِ وسَلامَةِ العقْلِ

أُسنِدَ حرفُ الرّجاءِ المفيدُ للظّنّ إلى عِلْمِهم في قوله تعالى: ﴿لَعَلَّهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾؛ لإفادة احتمالِ أنّهم ربّما لا يَقْبَلون عنه الفتوَى، فلا يَعتدّون بها، أو يأخذونَها على مَحمَلِ العِلمِ واليقينِ، فلا يتعامَلون معها بحُسْنِ التّلقّي منَ العملِ بمُقْتضاها والتّدبيرِ الصّالحِ بناءً عليها، وهو تابعٌ لِما قبْلَه من حُسْنِ أدبِه وشدّةِ تَحرُّزِه واحتياطِه[2].

دَلالةُ التّعبيرِ بـ ﴿يَعۡلَمُونَ﴾ دونَ غيرِه:

العِلْمُ هو أساسُ بلوغِ الحقائقِ وإبْطالِ الأوهامِ

لم يَقُل في السّياقِ الكريمِ: (لعلّهم يفقهون) أو: (يعقلون) أو غيرَ ذلك من مراتب الإدراك، بل عبّرَ بالعِلْم فقال: ﴿لَعَلَّهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾؛ لنُكتتَيْن: الأُولى: لأنّه أرادَ مجرّدَ الكشْفِ عن مدلول الرّؤيا وإظهارِ ما خفيَ من معناها، وهذا القَدْرُ يحصلُ بالعِلم الّذي هو أساسُ إدراكِ المعاني، وتجلِّيها. ولم يُعبِّرْ بما فوق العِلم؛ لأنّ أصلَ الإدراك - وهو العِلمُ - غيرُ مُتوفّرٍ في تلك المسألة أصلًا حتّى يعلُوَ بالرّتْبةِ،

(1) الواحديّ، التّفسير البسيط: 12/134، والنّيسابوريّ، غرائب القرآن: 4/93.
(2) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 9/202.

فأراد الأصلَ الّذي يتحقّقُ به الغرَضُ. الثّانية: - وهي نُكتةٌ جليلة - أنّ الرّؤيا في مضْمونِها تكونُ في معنى الاحتمالِ والظّنِّ حتّى تُؤَوَّلَ ويُعلَمَ تعبيرُها الّذي يؤولُ إلى حقيقتِها المُؤدّيةِ لليقين وعدمِ الظّنّ، ولا يكونُ اليقينُ إلّا بالعِلمِ، فعبّرَ بالعِلمِ لإفادةِ ارتفاع الظّنّ وحصولِ اليقينِ بتأويلِها[1].

دَلالةُ حذْفِ مُتعلَّقِ ﴿يَعْلَمُونَ﴾:

في قوله تعالى: ﴿لَّعَلِّيٓ أَرۡجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾ لم يُعيّنْ معمولَ العِلم، فلم يُحدِّدْ أيَّ شيءٍ يعلَمون، لظهور المُرادِ فحذَفَه إيجازًا لوضوحِه منَ السّياق في قوله: ﴿أَفۡتِنَا﴾؛ أيْ: لعلّهم يعلَمون تعبيرَ الرّؤيا الحاصلَ بفتواكَ. أو لإفادة عُمومِ المُراد، فيُرادُ: يعلَمون بفتواك، ويعلَمون بفضْلِك ومقامِك فيُخرِجونَك منَ السّجنِ[2].

تركُ مِساحةٍ للمُخاطَبِ أنْ يحتمِلَ فيها ما يشاءُ منَ التّوقُّعاتِ

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الاستفتاءُ والسّؤالُ:

الاستفتاءُ: مصدرُ (استفتى) إذا طلبَ الإفتاءَ، وهو: الإخبارُ بإزالةِ مُشْكِلٍ، أو إرشادٌ إلى إزالةِ حَيْرةٍ. وأصلُ اشتقاقِ أفْتَى منَ الفَتَى وهو الشّابُّ، فكأنَّ الّذي يُفتيه يُقوّي نهْجَه ببيانِه، فيصيرُ بقوّةِ بيانِه فَتِيًّا؛ أيْ: قَوِيًّا.

وأمّا السُّؤالُ: فهو طلبُ تحصيلِ شيءٍ أو طلبُ معلومةٍ عن شيءٍ، فهو سؤالُ عِلمٍ، أو سؤالٌ عن كمالٍ أو متاعٍ. والمَلْحَظُ الدّقيقُ بين السّؤال والإفتاءِ يقعُ في أمرَيْن:

الإفتاءُ يكونُ في المعقولاتِ والمعاني كالمعارفِ والمعلوماتِ والأحكامِ

الأوّلُ: أنَّ الإفتاءَ لا يكونُ إلّا في المعقولاتِ والمعاني كالمعارفِ والمعلوماتِ والأحكامِ، في حين يقعُ السّؤالُ في المعقولاتِ والمحسوساتِ،

(1) الرّاغب، المفردات: (علم).
(2) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 9/202.

فهو في المُدرَكاتِ بالعقلِ، والمُتَناوَلاتِ بالجوارحِ، كمَنْ يسألُ معرفةَ شيءٍ، ومَنْ يسألُ أخْذَ شيءٍ، والفيصلُ بينهما الحرفُ المُعدَّى به السّؤالُ.

الثّاني: أنَّ الاستفتاءَ يقعُ فيما هو معهودٌ أصلُه عندَ السّائلِ، لكنْ قد خالطَه شيءٌ منَ الالتباس أوِ الغُموضِ أوِ الجهالةِ في أحدِ أوجُهِه، فهو تفريعٌ على موجودٍ، وأمّا السّؤالُ فيقعُ في ذلك، ويقعُ فيما ليس له أصلٌ معهودٌ عندَ السّائلِ، بل هو طلبٌ لتأسيسِ معلومٍ أو إنشاءِ حُكْمٍ ليس له وجودٌ بوجْهٍ ما عند السّائلِ، فهو تأسيسٌ لِما خَلا الذّهْنُ عنه منْ جميعِ أوجُهِه[1].

ولمّا كانت رؤيا المَلِك مُهمّةً بوصْفِها رؤيا رأسِ الدّولةِ، وتفاصيلُها ذاتُ مَساسٍ بحال الدّولةِ ومآلِها، ولكوْنِها مَظنّةَ الحيرةِ، والجهالةِ الّتي عجزَ المُعبِّرون عن تأويلِها فاحْتيجَ إلى الفُتيا بوصْفِها إخبارًا بإزالةِ مُشْكِلٍ، أو إرشادًا إلى إزالةِ حَيْرةٍ، فضْلًا عمّا فيها من تعظيمٍ للرُّؤيا، وإجلالٍ ليوسفَ عليه السلام بحسبِ ما مرّ ذكْرُه آنفًا.

(1) الرّاغب، المفردات: (سأل، فتى)، وابن منظور، لسان العرب: (سأل، فتا)، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل (سأل، فتو)، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/278.

﴿قَالَ تَزۡرَعُونَ سَبۡعَ سِنِينَ دَأَبٗا فَمَا حَصَدتُّمۡ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلٗا مِّمَّا تَأۡكُلُونَ ٤٧﴾ [يوسف: 47]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الفتْوَى تصدرُ على قدر المطلوبِ

لمّا ذكرَ في الآيةِ السّابقةِ نَصَّ الرُّؤيا المُستفتَى عنها ذكَرَ هنا الجوابَ عليها وبيانَ تأويلِها.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿دَأَبًا﴾: أصلٌ يدلُّ على مُلازمةٍ ودوام. فالدّأْبُ: العادةُ والشّأْنُ؛ لأنّهما مُلازِمان دائِمان. والدَّأَبُ - هنا بالفتح والتّحريك - الجِدُّ والاجتهادُ على التّوالي بلا انقطاعٍ حتّى يصيرَ كالعادةِ الدّائمةِ[1].

2) ﴿فَذَرُوهُ﴾: أيْ: اتركوه، تقول: ذَرْهُ؛ أيْ: دَعْهُ. وهو يَذَرُهُ؛ أيْ: يَدَعُهُ[2]. وقولُه تعالى: ﴿فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ﴾؛ أيْ: اتركوا الزَّرعَ في السُّنبلِ إلّا ما لا غِنى عنه للأكل فإنّه أبقَى له، وأبعدُ منَ الفسادِ[3].

المَعْنى الإِجْمالِيُّ:

مُطابقةُ التَّأْويلِ لِمقْدارِ الشّيْءِ المؤَوَّلِ

قال يوسُف عليه السلام مُجيبًا على مُسْتَفْتيهِ في الرّؤيا: تأويلُ هذه الرّؤيا أنّكم تَزرعون سبعَ سنينَ مُتواليةً دائبين مُجتهدين في ذلك، فما حصدتُم في كلّ سنةٍ من تلك السّنين السّبعِ، فاتركوه في سنابلِه، حفْظًا له أنْ يأكلَه السُّوسُ أو تَعْتريه الآفات، إلّا شيئًا قليلًا ممّا تَحتاجون لأكلِه منَ الحبوبِ والأقواتِ[4].

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (دأب).
(2) الجوهريّ، الصّحاح: (وذر).
(3) الواحديّ، التّفسير الوسيط: 2/616، وابن عطيّة، المُحرّر الوجيز: 3/250.
(4) مجمع الملك فهد، التّفسير المُيسَّر، ص: 241، ومركز تفسير، المختصر في التّفسير، ص: 241.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

مَوقعُ جُملةِ ﴿قَالَ تَزۡرَعُونَ﴾:

البَدْءُ في الجوابِ مُباشرةً متى فرغَ السّائِلُ

جُملةُ ﴿قَالَ تَزۡرَعُونَ﴾ استئنافٌ بيانيٌّ واقعٌ في جوابِ سؤالٍ مُقدَّرٍ، كأنّه قيل: بعد أنِ استَفْتاه في الرُّؤيا، بماذا أجابَه وأفتاه؟ فقيل: ﴿قَالَ تَزۡرَعُونَ﴾[1].

دَلالةُ الخِطابِ بالخبرِ في ﴿تَزۡرَعُونَ﴾:

خِطابُ النّاسِ بما يَعرِفونَه من عاداتِهم

الخطابُ في قوله تعالى: ﴿تَزۡرَعُونَ﴾ لفظُه لفظُ الخَبَر، ومعناه الإنشاءُ (الأمر) بدليلِ صيغةِ الأمر في قوله: ﴿فَذَرُوهُ﴾، فكأنّه قال: ازْرَعوا فإنْ فعلتُم فذَروه. والغرَضُ من مجيئِه بلفْظِ الخبرِ دونَ الإنشاء: المُبالغةُ في إيجابِه والأمْرِ بتحصيلِه، بتنزيلِه منزلةَ الواقعِ بالفعلِ؛ ولِأنّ المنامَ خبَرٌ، فيَتأوّلُه بالخبَرِ لا بالأمْر[2]، ثمّ لأنّه في وضْعٍ لا يَحسُنُ معه البدءُ بالإنشاءِ الصّريحِ، فجاء بالخبرِ المفيدِ للإنشاءِ مُراعاةً لمُقتضى الظّاهرِ والحالِ.

اصْطِفاءُ لفْظِ ﴿سِنِينَ﴾:

يَغْلُبُ اسْتِعمالُ لفْظِ (السَّنَة) فيما يقترنُ بالكدِّ والكَدَرِ

أوثِرَ لفظُ (السّنين) في التّعبيرِ، دونَ الأعوامِ؛ لاقترانِه بمشقّةِ الدّأبِ في الزّراعةِ والعملِ، والاستعدادِ بكثرةِ الادّخارِ وقلّةِ المأكولِ المُستهلَكِ لِأيّامِ الشّدّةِ وسوءِ الحالِ، فلاشتمالِها على المشقّةِ في نفسِها، ولكوْنِها تَقْدِمَةً لمشقّةٍ تعقُبُها أوثِرَ التّعْبيرُ مع تلك الفترةِ بالسّنين، إذْ غلَبَ استعمالُ السّنةِ فيما يقترنُ بالكدِّ والكَدَرِ، واستعمالُ العامِ فيما يقترنُ بالبَسْطَةِ والاعتدالِ، وهذا جارٍ بحسبِ الاستعمالِ لا بحسَبِ أصلِ الوضْعِ[3].

---

(1) صافي، الجدول: 12/444.

(2) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/166، وأبو حيّان، البحر المحيط: 6/285، والخفاجي، عناية القاضي: 5/182.

(3) الرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (عوم، سنه).

عِلّةُ التّعبيرِ بالجمْعِ المُذكَّرِ ﴿سِنِينَ﴾:

قوّةُ التّذكيرِ تُناسِبُ مقاماتِ الشّدّةِ

لفْظُ ﴿سِنِينَ﴾ مُلحَقٌ بجمْعِ المُذكّرِ السّالمِ، ولفْظُ (سنوات) مُلحَقٌ بجمعِ المؤنّثِ السّالمِ، ولم يقل في السّياقِ الكريمِ (سبع سنوات) كما قال في مُقابلِه في الرّؤيا ﴿سَبْعِ بَقَرَٰتٍ﴾ لقوّة التّذكيرِ في دلالتِه على معنى التّأويلِ، لا سيّما وأنّ السّياقَ في مقام أزْمَةٍ ومشقّةٍ، فالتّذكيرُ أوْلى، ولأنّ معنى الرُّؤيا يشتدُّ ويقوَى بعد تعبيرِها، فلا جرمَ أنْ عبّرَ بالمؤنَّث: ﴿سَبْعِ بَقَرَٰتٍ﴾ في الرُّؤيا قبلَ تأويلِها لضعْفِها من غير تأويلٍ، وبالمُذكّر بعد تأويلِها في: ﴿سَبْعَ سِنِينَ﴾.

دَلالةُ قيْدِ الفِعْلِ بقوله: ﴿دَأَبًا﴾:

لا إنتاجَ من غيرِ دأْبٍ واجْتِهادٍ وكدٍّ

قوله تعالى: ﴿دَأَبًا﴾ مصدرٌ، والدَّأْبُ: الاستمرارُ على فِعلِ العادةِ، و﴿دَأَبًا﴾ حالٌ من فاعلِ ﴿تَزْرَعُونَ﴾ مؤوّلةٌ بوصْفٍ مُشتقٍّ؛ أيْ: تزرعون دائِبِيْن، أو منصوبةٌ على المصدريّةِ بفعْلٍ محذوفٍ؛ أيْ: تَدأَبُونَ دَأَبًا، والجُملةُ منَ الفعْلِ والمفعولِ المُطلَق حالٌ، ووجْهُ القيْد بالمصدرِ، ولم يقل: (تزرعون سبع سنين فما..)؛ للدّلالةِ على معنى الاجتهاد وعدم التّوقُّفِ عن أعمالِ الزّراعةِ طوالَ المُدّةِ المذكورةِ، فالدّأب: "العادةُ المُستمرّةُ دائمًا على حالةٍ"[1]، وفيه إيماءٌ إلى توفّرِ الماءِ والبَذْرِ والأدواتِ بما يُمكّنُهم من مواصلةِ العملِ. والتّعبيرُ بالمصدرِ للدّلالةِ على أنّه يَنبغي أنْ تكونَ تلك الحالُ مُلازِمةً لهم[2].

دَلالةُ إفرادِ المصْدرِ ﴿دَأَبًا﴾:

يُستدفَعُ المكروهُ الغائبُ بِحُسْنِ التدبيرِ

إفرادُ المصدرِ في قوله تعالى: ﴿دَأَبًا﴾؛ لأنّ الأصلَ في المصدرِ الإفرادُ، وعبّرَ به للمبالغة في لُزومِهم لوصْفِ الدّأْبِ مُدّةَ الزّمان المذكورِ[3].

(1) الرّاغب، المفردات: (دأب).
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/282.
(3) الخفاجي، عناية القاضي: 5/182.

مَوقعُ جُملةِ: ﴿فَمَا حَصَدتُّمْ﴾ ممّا قبلَه:

مآلُ العَمَلِ الدّؤوبِ حَصادٌ نافِعٌ

جُملةُ: ﴿فَمَا حَصَدتُّمْ﴾ معطوفةٌ على جُملةِ: ﴿تَزْرَعُونَ﴾، واختيرَ العطْفُ بالفاءِ دونَ غيرها، لترتيبِ الحَصادِ على الزّراعةِ، فهو مُسبَّبٌ عنها، وتلك وظيفةُ الفاءِ[1].

بَلاغةُ الاعْتِراضِ في: ﴿فَمَا حَصَدتُّمْ﴾:

إظْهارُ العِنايةِ بالمخاطَبين من مَظاهِرِ تمكُّنِ الخِطابِ

يُلحظُ في قولِه تعالى: ﴿فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ﴾ اعتراضٌ ورَدٌّ منَ النّبيِّ يوسفَ عليه السلام الغرَضُ منه العِنايةُ بشأنِ المُخاطَبين قبل تَتْميمِ التّأويلِ، وفيهِ ما يُؤكِّدُ أمرَ السَّابقِ واللّاحقِ كأنَّهُ قد كان[2].

دَلالةُ (ما) في قوله: ﴿فَمَا حَصَدتُّمْ﴾:

الإسْراعُ في مُعاجَلةِ السّامعِ بعاقِبةِ التّكاليفِ تَحْفيزًا عليها

(ما) في قوله تعالى: ﴿فَمَا حَصَدتُّمْ﴾ إمّا شرطيّةٌ، وإمّا موصولةٌ، والعائدُ محذوفٌ؛ أيْ: الّذي حصدتُموه. فباعتبارِها شرطيّةً: فهي في محلّ نصْبٍ مفعولٌ به لفعْلِ الشّرطِ، وباعتبارِها موصولةً، فهي في محلّ نصبٍ معطوفةٌ على محلّ جُملةِ: ﴿تَزْرَعُونَ﴾[3]. وفي كلا الوَجهيْن تُفيدُ (ما) العمومَ والإبهامَ الّذي يُناسبُ تنوّعَ الزّرعِ، وتعدّدَ أجناسِه، وكثرتِه.

سِرُّ التّعبيرِ عن حَصادِهم بالماضي:

تأْويلُه عليه السلام أمرٌ واقعٌ حتْمًا

أوقعَ حصادَهم منزلةَ الفعْلِ الواقعِ المُتحقّقِ بصَوْغِه على هيئةِ الماضي للتّعبيرِ عن كونِه واقعًا صدْقًا ولا مناصَ من تحقُّقِه، أو كأنّه قد كان، ثقةً بتأويلِه، وسعيًا إلى الاجتهادِ، وحثًّا على أنْ يبذُلوا جهدَهم مُلْتزمين بما وردَ في تعبيرِه للرّؤيا.

مَوقعُ جُملةِ ﴿فَذَرُوهُ﴾ ممّا قبلَه:

لا خيْرَ فيما يُدَّخَرُ وهو تالِفٌ

جُملةُ ﴿فَذَرُوهُ﴾ الفاءُ رابطةٌ لجوابِ الشّرطِ؛ للدّلالةِ على أنّ

(1) صافي، الجدول: 12/444.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 12/255.
(3) السَّمين الحلبيّ، الدُّرُّ المَصون: 6/510.

الجملةَ داخلةٌ في حيّزِ الشّرطيّةِ غيرُ أجنبيّةٍ عنها؛ لأنّ جملةَ: ﴿فَذَرُوهُ﴾ طلبيّةٌ، وفعلَها مبنيٌّ، لا يُجزَمُ كما هو الأصلُ في فعل الجوابِ، ولذا احتيجَ إلى مُوصِّلٍ خارجيٍّ يُلْحِقها بالحيّزِ الشّرطيِّ، ويدلُّ على انْدِراجِها فيه، فجيءَ بالفاء خاصّةً لدلالتِها على الجزاء المُضمَّن في معنى الشّرطيّةِ. وعلى اعتبارِ (ما) في ﴿فَمَا حَصَدتُّمْ﴾: موصولةً، فاقترانُ الفاء لتضمينِ الموصولِ معنى الشّرطِ، وتنزيلِ جملةِ ﴿فَذَرُوهُ﴾ منزلةَ الجوابِ له، وسببُ اقترانِ جواب الموصولِ بالفاء: إفادةُ أنّ تركَه في سُنْبُلِه مُسْتَحَقٌّ مع وقوعِ الحصادِ وحاصِلٌ بسببِه، ولو قيل على الموصوليّة: (فما حصدتم ذروه) لاحتمَل أنّ تركَه في سُنبُلِهِ لا يَلزَم منه وجوبُه بمجرّدِ الحصاد[1].

دَلالةُ الخطابِ بالأمرِ في قوله: ﴿فَذَرُوهُ﴾:

الخطابُ بصيغةِ الأمرِ في ﴿فَذَرُوهُ﴾ للإيجابِ إنْ كان قولُه: ﴿تَزْرَعُونَ﴾ جاريًا على معنى الإنشاءِ، وتكونُ الفاءُ في قوله تعالى: ﴿فَمَا حَصَدتُّمْ﴾ فصيحةً أو عاطفةً؛ أيْ: ازْرَعوا فإنْ استوفيْتُم ذلك، فما حصدْتُم فذَروه، أوِ الأمرُ في قوله: ﴿فَذَرُوهُ﴾ للإرشاد، على تمحّضِ جملةِ: ﴿تَزْرَعُونَ﴾ للخبريّةِ، والفاء في قوله: ﴿فَمَا حَصَدتُّمْ﴾ فصيحةٌ، أو عاطفةٌ، أوِ استئنافيّةٌ، وجملةُ: ﴿فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ﴾ اعتراضٌ[2].

التَّكليفُ الصّريحُ بما لا سَبيلَ للمُخاطَب إليه إلّا بالأمْرِ

دَلالةُ العُدول منَ الخبرِ إلى الأمرِ:

ابتدأتِ الآيةُ بلفظ الخبرِ ﴿تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا﴾ ثمّ تحوّلتْ إلى لفظِ الأمرِ في قوله تعالى: ﴿فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ﴾، وسببُ ذلك: "لأنّهم يَزرعون على عادتِهم؛ أمَرَهم، أو لم يأمُرْهم، وإنّما يُحتاجُ إلى الأمرِ فيما لم يكنْ من عادةِ الإنسانِ أن يفعلَه"[3]،

يقعُ (الأمرُ - غالبًا - بما ليس من عاداتِ المُخاطَبِ أو ما لا عِلمَ له به

(1) صافي، الجدول: 12/444.
(2) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/166.
(3) السَّمين الحلبيّ، الدُّرُّ المَصون: 6/509.

ولذا كانت الزّراعةُ أَلْيَقَ بلفظِ الخَبَر، وتركُ الحصادِ في سُنْبله أَلْيَقَ بلفظِ الإنشاء.

دَلالةُ التّعبيرِ باسْمِ الجنسِ الجمْعيِّ في ﴿سُنۢبُلِهِۦٓ﴾:

اسْمُ الجنسِ الجمعيُّ يدلُّ على الجنسِ والجمْعِ معًا

لفظُ (سُنْبُل) اسْمُ جِنسٍ جَمْعيٌّ، واحدُهُ (سُنْبُلَة)، وفُرِّقَ بينَه وبين مُفردِه بتاء التّأنيث، كـ(بقر) و(بقرة)، و(شجر) و(شجرة)، ولم يقل في السّياق الكريم هنا: (فذَروه في سنابله أو سُنْبُلاته) بالجمعِ؛ لأنّه أراد الدّلالةَ على الجنسِ وعلى الجمعِ، لكونِ المحصود كثيرًا مُتعدِّدًا في أجناسه وأنواعِه، فعبّرَ عن أوعيةِ الحَبِّ المحصودِ في قوله: ﴿فَمَا حَصَدتُّمْ﴾ باسْم الجنسِ الجمعيِّ؛ للدّلالة على اتّساع جِنْسِه في الأقوات، فـ (ما) في ﴿فَمَا حَصَدتُّمْ﴾؛ لإبهام الجنسِ، فليس المُرادُ العددَ؛ لأنّ الجنسيّةَ مُتّسِعةٌ والعدديّةَ محدودةٌ، ولذا قال: ﴿فِي سُنۢبُلِهِۦٓ﴾، لغرضَيْن: ليتناولَ النَّصُّ والتَّعيينَ لكلّ نوعٍ منَ الأقواتِ المُدّخرةِ استقلالًا، فكأنّه قَصَدَ لإرشادِهم على الحرصِ في الادّخار على كلّ محصودٍ فردًا فردًا في سُنبلِه، للمبالغة في حسابِ كلّ حبّةٍ في كلّ سنبُلة، لئلّا يقعَ إخلالٌ في التّنظيم الادّخاريِّ المُقرّرِ بأيّ وجهٍ، فكأنّه يُشيرُ إلى العناية بالفردِ والنّوعِ، ليدلَّ به بطريق الأولى على الاحتياط في الكثرةِ الجَمعيّةِ[1].

دَلالةُ الاسْتِثناءِ في قوله: ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾:

لا خيْرَ في الادّخارِ إذا كان تَضْييعًا لحقِّ النّفسِ في الحالِ

جملةُ الاستثناءِ في قوله تعالى: ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ﴾ أفادتْ أنْ ليس كلُّ الحصاد سيُدّخَرُ متروكًا في سُنْبُله، وعليه: فالمُستثنى منه هو هاءُ الضّمير في قوله: ﴿فَذَرُوهُ﴾، وأفاد لفظُ المُستثنى ﴿قَلِيلًا﴾ أنّ أكثر الزّرعِ هو المُدَّخَرُ، والقليلَ منه هو المأكولُ[2].

(1) الخزرجيّ عماد حميد، والجبوريّ صالح، اسم الجنس الجمعيّ، ص: 24.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/287.

معنى (مِنْ) في قوله: ﴿مِّمَّا تَأْكُلُونَ﴾:

خصَّصَ المأكولَ منَ المحصودِ

(مِنْ) في قوله تعالى: ﴿مِّمَّا تَأْكُلُونَ﴾ بيانيّةٌ، فسّرتِ القليلَ من أيّ شيءٍ هو، وهو المُخصَّصُ بالمأكول منَ المحصودِ.

معنى (ما) في قوله: ﴿مِّمَّا تَأْكُلُونَ﴾:

الإبهامُ يُناسبُ تنوُّعَ المزروعِ

(ما) في قوله تعالى: ﴿مِّمَّا تَأْكُلُونَ﴾ موصولةٌ، وعائدُها محذوفٌ، وهو مفعولُ الأكل؛ أيْ: تأكلونَه[1]. واختار الاسمَ الموصولَ الدَّالَّ على العمومِ والإبهامِ مع فعل الأكل ليُناسبَ تنوّعَ المزروع، وكثرتَه.

نُكتةُ التّعبيرِ عنِ الأكلِ بالمضارع ﴿تَأْكُلُونَ﴾:

تصويرُ الحدَثِ وكأنّه مُشاهَدٌ أدْعَى للعِظَةِ والاعتبارِ

عبّر عنِ الحَدَث وكأنّه مُشاهدٌ بالتّعبيرِ عن أكلِهم بصيغةِ المضارع، الّذي يدلُّ أيضًا على تجدُّد أكلِهم ممّا زرعوه بأنفسِهم، وتصويرِ الحَدَث وكأنّه واقعٌ مُشاهَدٌ في الحال أَدْعى للعِظَة والاعتبار.

توجيهُ حذْفِ مُتعلَّقِ الأكلِ:

مآلُ تنوُّعِ المزروعِ تنوُّعُ المأكولِ

حذفَ مفعولَ الفعلِ المضارع ﴿تَأْكُلُونَ﴾؛ لِما تقدّمَ من تنوّعِ المزروعِ على قلّة المأكولِ منه، إذ في تحديدِه تقييدٌ بالنّوع المذكور.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(الدَّأَبُ) و(العادَةُ):

في الدّأبِ معنى الدّيمومَةِ وعدَمِ الانقطاعِ، وفي العادةِ معنَى التَّكرارِ

الدّأَبُ أصلُ معناه: المُداومةُ والمُلازمةُ والاستمرارُ على الشّيء، وأمّا العادةُ فهي إعادةُ الشّيء مرّةً بعد مرّةٍ، وسُمّيتْ بذلك للعَودِ إلى الفِعلِ الّذي كان منه البدءُ بتَكراره وإعادتِه، فيُلحظُ في الدّأَبِ معنى الدّيمومةِ وعدمِ الانقطاع، ويُلحظُ في العادة معنَى التَّكرار، فالدّأبُ

(1) درويش، إعراب القرآن: 4/505.

أبلغُ منَ العادة، لتوقّع طُروءِ الانقطاعِ عنِ الثّاني دونَ الأوّل[1]. ومن هنا اصطُفِي (الدَّأب) في الآية؛ لأنّ عِظَمَ الأمر وأهمِّيَّتَه يَستدْعيان المداومةَ على الزّرع، وملازمتَه، والاستمرارَ عليه بوصْفِه سببَ بقائهم أحياءً.

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (دأب - عود).

﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [يوسف: 48]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

يجبُ على المُفتي استيفاءُ ما استُفْتِيَ فيه

لمّا ذَكَرَ في الآية السّابقةِ مَبدأَ تفسيره للرّؤيا المُسْتَفتَى عنها، ثنَّى هنا بإكمال بيانِها، وإتمامِ تأويلِها.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿شِدَادٌ﴾: جمْعُ (شديد)، صِفةٌ مُشَبَّهَةٌ، وأصلُه (شدد): يدلُّ على قوّةٍ في الشّيء، والشِّدَّةُ تُستعملُ في العَقْد، وفي البَدَن، وفي قُوَى النّفْس، وفي العذابِ. والمُرادُ هنا: الصُّعوبةُ في العيْشِ والزَّمَن[1].

2) ﴿تُحْصِنُونَ﴾: أصلُ (حصن) يدلُّ على الحِفْظ، والحِياطةِ، والحِرز، ومنه أحصنَ الشّيءَ وحصَّنه إذا أودَعَه في الحِصْن وأحاطَه بما يُحصِنُه؛ أيْ: يَحوطُه ويَحفظُه، والمُرادُ بـ﴿تُحْصِنُونَ﴾: الأقواتُ المخزونةُ والمُدّخَرَةُ في المُستودَعاتِ ومواضعِ التّخزين الحَصينةِ[2].

المَعْنى الإجْماليُّ:

إقرانُ المُفتي جوابَه بإرشادِ المُستفتي إلى حُسنِ إعمالِ الفتوى وإنفاذِها

قال يوسفُ عليه السلام مُتَمِّمًا تأويلَه للرّؤيا: ثمّ يأتي بعد هذه السّنين الخِصْبةِ سبعُ سنين شديدةُ الجَدْب، يأكلُ أهلُها كلَّ ما ادَّخرتم لَهُنّ من قبلُ، إلّا قليلًا ممّا تُخَزِّنونه، وتدَّخرونه ليكون بذورًا للزّراعة.

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وجبل المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (شدد).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (حصن).

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

مَوقعُ جملةِ: ﴿ثُمَّ يَأْتِي﴾ ممّا قبلَها:

سَرْدُ المفتي جوابَه بتفصيلٍ ووضوحٍ

جملةُ: ﴿ثُمَّ يَأْتِي﴾ معطوفةٌ على جملةِ: ﴿تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا﴾ إتمامًا للمَشُورة، ورجوعًا إلى بقيّة تأويلِ الرّؤيا[1].

إيثارُ ﴿ثُمَّ﴾ في قوله: ﴿ثُمَّ يَأْتِي﴾:

عادةُ الله بخلْقِه اللّطْفُ بهم في مُجْرياتِ السّوءِ

﴿ثُمَّ﴾ في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَأْتِي﴾ على بابِها من إفادةِ التّراخي الزّمنيِّ؛ أيْ: هذا الإتيانُ مُتَعاقِبٌ ومتأخّرٌ بعد انقضاء السّبعِ المذكورةِ في قوله: ﴿سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا﴾، وفائدةُ العطفِ بـ ﴿ثُمَّ﴾ دون غيرها، التّعقيبُ المُتَراخِي لوقوعِه كما تقعُ الأحداثُ هُنَيْهَةً هُنَيْهَة، فقد جرَتْ رحمةُ اللّه أنّ انسلاخَ أحوالِ السّوءِ من أحوالِ العافية يَحدثُ على غيرِ فجأةٍ في وقْتٍ يَتّسِعُ للنّاس في إعادة تدبيرِ معاشِهم وسياسةِ أحوالِهم بما يتّفِقُ والأزْمَةَ[2]، ويمكنُ أن تكونَ أيضًا من باب التّراخي الرُّتبيِّ لتغايُرِ حال المرحلتيْن، فيجتمعُ فيها التّرتيبان.

معنى ﴿مِنْ﴾ في ﴿مِنْ بَعْدِ﴾:

تكثيرُ الإنتاجِ والادّخارُ وقايةٌ للأمّةِ في سِنِيّ الشّدّةِ والسّوءِ

دخولُ ﴿مِنْ﴾ في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾؛ لإفادة عدمِ استغراقِ الظّرفِ للزّمن المختصِّ به في التّعقيب بين مُدّة سِنِيّ الدّأبِ وإتيانِ السّنِيّ الشِّدادِ، مع النّصّ على إرادةِ تحديدِ وقتِ ابتداءِ ذلك في حيّز البَعديّة، ليُفيدَ أنّ الشِّدّةَ وسِنِيَّ القحطِ حاصِلةٌ بعد سنوات الدّأب والادّخارِ مباشرةً على وجْه السّرعة والفوريّةِ، ومعنى السّرعة والفوريّةِ هنا: أنّ هذه السّنين واقعةٌ في ذَيْل تلك السّنين، فلا يُنْتَظَرُ بينهما فترةٌ منَ الرّخاء، فليس الأمرُ مجرّدَ إتيان شيءٍ بعد شيءٍ فقط، بل مجيءُ السّبع الشِّدادِ يكونُ مُبتدَئًا وناشِئًا من تحقُّق سبْعِ الدّأبِ والادّخار، لأنَّ (مِن) لابتداءِ الغاية، فالشّروعُ في بدْءِ الحدَث

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 10/113، ودرويش، إعراب القرآن: 4/505.
(2) درويش، إعراب القرآن: 4/505.

لا بدّ أن يكون فوريًّا وسريعًا بلا تمهّل. ففائدةُ دخولِ ﴿مِنۢ﴾ في ﴿مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ﴾ إبقاءُ النّاس في حالةٍ منَ الطّوارئ والاستعداد الحثيثِ والاجتهادِ في التّحضير للسّنواتِ المُجدِباتِ بكثرة الإنتاجِ والادّخارِ وقلّةِ الاستهلاك والإسراف[1].

دَلالةُ اسْمِ الإشارةِ ﴿ذَٰلِكَ﴾:

أوقاتُ البذْلِ والعملِ عزيزةٌ

لم يَقُلْ في السّياق الكريم: (ثمّ يأتي بعدهنّ)، وإنّما عبّرَ باسْمِ الإشارة للبعيد المُخاطَبِ ﴿ذَٰلِكَ﴾؛ لإعظامِ تلك السّنين الواردةِ في قوله تعالى: ﴿تَزۡرَعُونَ سَبۡعَ سِنِينَ دَأَبٗا﴾ فهي جديرةٌ بأنْ يُشارَ إليها كما يُشارُ للبعيد، لأنّها عزيزةٌ في تحصيلِها وعزيزةٌ في عائدِها ونفْعِها، وفي هذا التّفخيمِ للسّنين والإشارةِ لها بما يُفيد بُعدَ المنزلةِ تحريضٌ لهم على إحرازِ العملِ والنّصَبِ فيها، بما ينفعُهم ويَقيهم إذا تغيّر الحالُ ودخلَتْ سنواتُ الجدْب والشِّدَّة. وفي الآيةِ إظهارٌ في مقام الإضمارِ[2].

بَلاغةُ الإيجازِ في حذْفِ تَمييزِ العددِ:

إيجازُ الكلامِ إذا اشتملَ على ما يقْتَضي التَّشاؤُمَ واليَأْسَ

لم يَقُل في السّياق الكريم (ثمّ يأتي من بعد ذلك سبْعُ سِنين شِدادٌ)، وإنّما حَذف المعدودَ إيجازًا، لوضوحِه بدلالةِ ما قبلَه عليه، وقُرْبِ التّصريحِ به في قوله: ﴿تَزۡرَعُونَ سَبۡعَ سِنِينَ دَأَبٗا﴾، فعرفنا أنّ المحذوف (سِنين)، وفي الحذفِ اتّساقٌ مع شدّةِ السّنين وقسوتِها، إذْ طواها في الذِّكرِ واكتفى بذِكرِ الوصْفِ والعددِ تخفيفًا لدفْعِ التّشاؤمِ منها، ولئلّا يكونَ مع الشّدّة المعنويّةِ إطنابٌ لفظيٌّ، فكأنّه خفّفَ المعنى بإيجاز اللّفظِ[3].

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 10/113.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 6/445.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 6/445.

دَلالةُ صيغةِ فِعال في ﴿شِدَادٌ﴾:

الشِّدَّةُ العامّةُ أضَرُّ منَ الشِّدَّةِ الخاصّةِ

﴿شِدَادٌ﴾ في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ﴾ جمعُ تكسيرٍ على وزنِ (فِعال)، وهو مفردُ (شديد) صِفةٌ مُشبّهةٌ على وزن (فعيل)، ولم يَقُلْ في السّياق الكريم (أشِدّاء) بوزنِ (أفْعِلاء)، ليدلَّ على أنّها شِدّةٌ مادّيّةٌ يَحُسُّ النّاسُ آثارَها في الاقتصاد والمَعاشِ، وأمّا (أفْعِلاء) فيَغْلبُ استعمالُه في الشّدّة المعنويّةِ.

ووزنُ (فِعال: شِداد) مِنْ (فعيل: شديد) يدلُّ على الصّفات الّتي تجري مجرَى السَّجايا والطّباعِ والغرائزِ، فدلَّ إذَن بقوله: ﴿سَبْعٌ شِدَادٌ﴾ على أنّها أزْمَةٌ عويصة متشبّثةٌ في وقائع الأيّام والزّمن تَشَبُّثَ الأحوال بطبائع الرّجال وغرائز النّفوس، وهو إلماحٌ إلى كونها قَدَرًا مَقْضِيًّا لا فِكاك منه[1].

بلاغةُ المجاز في وصفِ السّنِي بالشِّداد:

شِدّةُ النّاس إذا زادت التحققت بالزّمان نفسِه

في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ﴾ وصفَ السّنينَ بالشِّدّة، والشّدّةُ حاصِلةٌ فيها بالجدْبِ والقحط، فليس الوصْفُ للظّرف، بل للمظروفِ، فإسنادُ الوصْفِ إلى السّنين مجازٌ عقليٌّ للمبالغةِ في الوصْفِ وأنّه مُستغرِقٌ لهم ومُحْدِقٌ بهم[2]. ويصحُّ أن يكون استعارةً، إذِ استعار الشّدادَ للسّنين المُجْدِبةِ[3].

بَلاغةُ الاستعارةِ في إسنادِ فعْلِ الأكْلِ إلى السِّنين:

كأنّ الزّمانَ في أيّامِ الشِّدّةِ مُسَلَّطٌ على أهلِه بإنْفادِ المعاشِ

في قوله تعالى: ﴿سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ﴾ أَسندَ الأكلَ إلى السّنين، مع أنّ الأكل حالٌّ فيها، وهو حالُ أهلِها لا حالٌ لها؛ لأنّ المعنى: "يأكلُ أهلُهنّ ما ادّخرتُم لأجلهنّ"[4]، فكان الأكلُ واقعًا، وإسنادُ فعلِ الأكل للسّنين مجازٌ عقليٌّ للمطابقةِ بين التّعبيرِ والرّؤيا؛

(1) صافي، الجدول: 12/446، والسّامرائيّ، معاني الأبنية، ص: 145.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/287.
(3) عفيف، الشّامل: 2/85.
(4) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/166.

لأنّه قال في الرُّؤيا: ﴿يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ﴾، فذَكَر لفظَ الأكل في السّنين السّبعِ الشِّدادِ مجازًا؛ لأنّه منسوبٌ في الرُّؤيا للبقرات العِجافِ حقيقةً، فذُكِرَ التّعبيرُ بلفظِ المُعبَّر عنه لوقوعِه في صُحبتِه على سبيل المُشاكَلةِ والمُحاكاة، وهي من بديع أبوابِ المعاني. وصورةُ المجازِ العقليِّ أنّ السّنين لا تأكلُ وإنّما يأكلُ النّاسُ ما ادّخروه فيها فهو من باب الإسنادِ إلى الزّمان كقول الفُصحاء: «نهارُ الزّاهد صيامٌ، وليلُه قيامٌ»[1].

بَلاغةُ الاستعارةِ في إسنادِ فعْلِ الأكْلِ إلى السِّنين:

شبّهَ أكْلَ النّاسِ بأكْلِ البقراتِ

ويصحُّ أن يكونَ قولُه تعالى: ﴿يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ﴾ استعارةً تمثيليّةً، حيثُ شبّهَ أكْلَ النّاسِ في زمانِ الشِدّة لِما ادّخروه في زمان الرّخاءِ بأكْلِ البقراتِ العِجافِ للبقراتِ السِّمان[2].

وجْهُ تشبيهِ البقراتِ والسُّنبُلاتِ بالسّنين:

جمَعَ في التّأويلِ بين التّعبيرِ، والإشارةِ إلى تدْبيرِهم في سِنِيّ الخِصْبِ إلى سِنِيّ الجَدْبِ

عبّر يوسفُ عليه السلام البقراتِ السّبعَ السّمانَ والسّنبلاتِ السّبعَ الخُضْرَ، بأنّهنّ سبعُ سنين مُخصِباتٌ، والبقراتِ السّبعَ العجافَ والسُّنبلات السّبعَ اليابساتِ، بأنّهنّ سُنون مُجدِباتٌ. وتوجيهُ ذلك أنّ الخِصْب والجَدْب لمّا كان الحرثُ مَبنيًّا عليه، وأنّه إذا حصل الخِصْبُ قويتِ الزّروعُ والحروث، وحَسُن منظرُها، وكثُرت غِلالُها، والجَدْبُ بالعكس من ذلك. وكانتِ البقرُ هي الّتي تُحرَثُ عليها الأرضُ، وتُسقَى عليها الحروثُ في الغالب، والسُّنبلاتُ هي أعظمُ الأقوات وأفضلُها، عبّرها بذلك لوجود المناسبةِ، فجمَعَ لهم في تأويلِها بين التّعبيرِ والإشارةِ لِما يفعلونَه، ويستعدّون به منَ التّدبير في سِنِي الخِصْب، إلى سِنِيّ الجَدْب فقال: ﴿تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا﴾؛ أيْ: متتابعاتٍ[3].

(1) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 10/340، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/283، وعفيف، الشّامل: 2/85.

(2) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 10/340، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/283.

(3) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 400.

معنى ﴿مَا﴾ في ﴿مَا قَدَّمْتُمْ﴾:

الضّئيلُ له قيمَةٌ إذا اختيجَ إليه

﴿مَا﴾ في قوله تعالى: ﴿مَا قَدَّمْتُمْ﴾ موصولٌ مُشتركٌ يُفيدُ الاتّساعَ في الصِّلة، وإيثارُه هنا؛ لكونِه واقِعًا في ذواتِ ما لا يعقِلُ، وهي أفرادُ الأقوات الّتي ادّخروها في سنابلِها، وهي المُرادةُ منَ الموصول وصِلَتِه في قوله: ﴿مَا قَدَّمْتُمْ﴾؛ أيْ: تأكلون من جميعِ ما قدّمتُموه وادّخرتُموه منَ الأقوات من غير تعْيينِ كَمِّها ولا تحديدِ نوعِها[1].

سِرُّ التّعبيرِ بمادّةِ التّقديمِ في ﴿قَدَّمْتُمْ﴾:

الاحتياطُ في التّدبيرِ يَعْصِمُ إذا ساءَتِ المقاديرُ

لم يَقُلْ في السّياق الكريم: (يأكلن ما ادّخرتم لهنّ)، وإنّما عبّرَ بالتّقديم بقوله: ﴿يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ﴾، ليدلَّ على معنى التّخطيطِ والاستعدادِ فيما أحرَزوه وحفِظوه، فادّخارُهُم كان بِخُطّةٍ واستعدادٍ واستشرافٍ لِما يَستقبلونَه في القادِم من سوءِ الأحوال، فالتّعبيرُ بالتّقديم لِمُحاكاة الواقع، فزمَنُ الشِّدَّة قادِمٌ قريبٌ، فيَستدْفعونَه بتقديمِ التّخطيطِ عليه، فكأنّهم قدَّمُوا الدّواءَ قبل قدومِ الدّاء، ولا يخفَى ما في التّعبير بـ ﴿قَدَّمْتُمْ﴾ منَ الإلماح إلى معنى أنّهم مُنتظرون ومُترقِّبون لِلشِّدَّة الّتي قدَّموا لها بتخزينِ الغِلال والغِذاء، وفي التّعبيرِ بالتّقديم إيماءٌ إلى قُربِ المُنتظَرِ وعدمِ استبْعادِه، وأصلُ التّقديم: تقريبُ الشّيءِ إلى جهة القُدّام[2].

دَلالةُ اللّامِ في قوله ﴿لَهُنَّ﴾:

وجوبُ التّدْبيرِ لأوْقاتِ العُسْرِ

اللّامُ في ﴿لَهُنَّ﴾ للاختصاصِ والتّعليلِ، والضّميرُ للسّنين؛ أيْ: اختصاصُكم تلك الأيامَ بادّخار الزّرعِ والحصادِ لأجل شِدّةِ تلك السّنين وانخلاعِ الرّخاءِ عنها[3].

---

(1) سيبويْه، الكتاب: 2/309، والسّامرّائيّ، معاني النّحو: 1/131.

(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 10/114.

(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 6/445.

إيثارُ المُستثنَى ﴿قَلِيلًا﴾ دونَ (شيئًا):

ادِّخارُ ما يَفيضُ حِصنٌ يمنعُ منَ الانْهيارِ في الأزْمَةِ

لم يَقُلْ: (إلا شيئًا ممّا تُحصنون)؛ لكوْنِ (شيئًا) لفظًا مُنكَّرًا موغِلًا في العُموم، فلا يتعيّنُ منه قليلٌ أو كثيرٌ، فيحتاجُ إلى تخصيصٍ بالوصفِ، فذكرَ الوصفَ ﴿قَلِيلًا﴾ تعيينًا للمقدار، وحذفَ الموصوفَ (شيئًا) إيجازًا، لصلاحيةِ قيامِ الصّفة مكانَ الموصوف، بدلالة المُستثنى منه عليه؛ أيْ: إلّا قليلًا منَ الشّيء المأكولِ الّذي كان مُدَّخَرًا من قبلُ.

نُكتةُ اصْطِفاءِ لفْظِ ﴿تُحْصِنُونَ﴾:

حِمايةُ حِصَصِ النّاسِ في المأكلِ والمشْرَبِ واجِبٌ خطيرٌ

التّعبيرُ بلفْظِ ﴿تُحْصِنُونَ﴾ في قوله تعالى: ﴿يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ﴾ للدّلالةِ على أمرَيْن: **الأوّلُ**: على صيانَةِ الأقواتِ المُدّخَرَةِ منَ الإنفاد، بإبقاء بعضِها بعد الحصولِ على قدْرِ الحاجةِ منها في الأكل والغِذاء في زمن القحْطِ، فهناك قدْرٌ مُدّخرٌ مَصونٌ عنِ الأخذ والتّناوُلِ بحفْظِه بعيدًا عن أغراضِ الاستهلاكِ وتوجيهِه إلى إعادة بَذْرِه وزَرعِه لاستخدامِه في تدوير الإنتاجِ. **الثّاني**: أنّه في حِرزٍ يصونُه عنِ الإتلاف فلا يَفسدُ بطولِ المُكْث، والدّلالتان حاضرتان من إيثارِ لفْظِ ﴿تُحْصِنُونَ﴾؛ أيْ: تحفظونَه وتصونونَه صيانةَ الشّيء المُحصَّنِ الممنوعِ عنِ المَتالِفِ والتّناوُلِ[1].

نُكتةُ التّعبيرِ بالفعلِ المضارعِ ﴿تُحْصِنُونَ﴾:

المَخْزونُ مَحَطُّ عنايةٍ يُناسِبُ شِدّةَ العَوَزِ

طولُ مدّةِ الخَزْن مَظنّةُ فسادِ المحصولِ والتّنبيهُ على ذلك يستلزمُ دلالةَ التّجدّدِ والاستمرارِ على حمايتِه، وحفْظِه. ومن هنا عبّرَ بالإحصانِ للدّلالة على إيلاءِ شأنِ صَوْن المُخزَّن، وحمايةِ المُدَّخَرِ عنايةً بالغةً تُناسبُ عِظَمَ شأنِ القَحْط والعَوَزِ القادمَيْن.

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (حصن).

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(تُحصِنُون) و(تُحرِزون) و(تدّخِرون) و(تُخَزِّنون):

الإحصانُ يُلْحظُ فيه معنى الحِمايةِ منَ التّلفِ والفَسادِ

(تُحصِن) من (حصن)، وهو أصلٌ يدلُّ على المنْعِ، والحِياطةِ، والحفْظِ، ومنه أحصنَ الشّيءَ إذا استوْدَعه في الحِصْن.

و(تُحرِز) من (حرز)، وهو أصلٌ يدلُّ على الحِفْظِ والصّيانةِ بتغييبِ الشّيء في الحِرْز وإحاطتِه به، والحِرزُ هو المَحلُّ الّذي يُضَمُّ فيه الشّيءُ ويُوارَى.

و(تدّخر) أصله (ذخر)، فأصل (ادّخر): اذتخر، فاستُثقِلتْ تاء الافتعال مع الذّال فقُلِبتْ دالًا، وأدغمت فيها الذّالُ الأصليّةُ، فصارت دالًا مُشدّدة، وهو أصلٌ يدلُّ على حِفْظِ الشّيء بتَخبِئتِه وإبعاده لاستخراجِه في عواقِبِ الظّروف وضَروراتِها.

و(تُخَزِّن) من (خزن)، وهو أصلٌ يدلُّ على حِفْظِ الشّيء في المَخْزَنِ الخاصِّ به.

وهذه الألفاظُ الأربعةُ تشتركُ في معنى مَنْعِ الشّيء لِحفْظِه وصيانتِه، وتختلفُ في أنّ الإحصانَ يُلحظُ فيه معنى الحمايةِ منَ التّلفِ والفسادِ، والإحرازَ يُلحظُ فيه معنى تغْييبِ الشّيء وإخفائِه بتضمينِه الحِرزَ، والتّخزينَ يُلحظُ فيه معنى الإيداعِ طويلِ الأمَد في وِعاءٍ مخصوصٍ، والادّخارَ يُلحظُ فيه معنى الإعداد للعاقبة والمآلِ[1]. وبذلك كانت أنسَبَ الألفاظ لسياقِ الاحتياطِ بحفْظ ما زرعوا وتخبِئتِه وإبعادِه لاستخراجِه في عواقِبِ الظّروف وضَروراتِها في السّنوات السّبعِ الّتي يسودُ فيها القحطُ.

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (حصن، حرز، خزن، ذخر).

﴿ثُمَّ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ عَامٞ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعۡصِرُونَ ٤٩﴾

[يوسف: 49]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

إتباعُ المُفتي جوابَه بما يَبْعثُ على التّفاؤُلِ والأمَلِ

لمّا أتمّ يوسفُ عليه السلام تأويلَ الرّؤيا، وأخبرَهم بأنّهم يَغتنِمون ويدّخِرون من سِنِيّ الزّراعة والمحصولِ لِسنواتِ شِدّتِهم وتصحُّرِهم، خَتَمَ ذلك بِبِشارتِهم بأنّ اللّه يوسّعُ عليهم بعد الضّيقِ ويُغيثُهم وينشرُ رحمتَه عليهم بعد المُعاناة والكَرْب.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يُغَاثُ﴾: لفظ (يُغاث) يصحُّ أن يكونَ منَ الغَيْث، ويصحُّ أن يكونَ منَ الغَوْث، والغيْثُ: المطر. والغوْثُ: النّصرةُ في الشِّدّة والإنجاءُ منَ الموقِفِ الصّعب[1].

2) ﴿يَعۡصِرُونَ﴾: مِنْ (عصر) وهو أصلٌ يدلّ على ضغْطِ شيءٍ حتّى يَتحلّبَ؛ أيْ: يَسِيلُ مِنْه العصيرُ، وهو خُلاصتُه منَ المائع. والمُرادُ بقوله: ﴿وَفِيهِ يَعۡصِرُونَ﴾؛ أيْ: يَعصِرون العِنَبَ والزَّيْتَ ونحْوَهما رمزًا لجرَيان الغَلَّةِ وحصولِ الإنتاج[2].

المَعْنى الإجْماليُّ:

إنَّ الفَرَجَ مع الضّيقِ

ثمّ يأتي من بعد هذه السّنين الصّعبةِ عامٌ يُغاثُ فيه النّاس بالمطر، فيرفعُ اللّه تعالى عنهم الشّدّةَ، ويَعصِرون فيه الثّمارَ من كثرة الخِصْب والنّماءِ[3].

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (غوث، غيث)، والرّاغب، المفردات: (غوث).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (عصر).
(3) مجمع الملك فهد، التفسير المُيسَّر، ص: 241.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بَلاغةُ الوَصْلِ في جُملةِ: ﴿ثُمَّ يَأْتِي﴾:

تتْميمُ الفتوَى على المُشكلةِ بالفَأْلِ

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ﴾ مَعطوفٌ على جُملةِ ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ﴾ وحرفُ العطف فيها كنظيره السّابقِ، وهو على بابه منَ التّراخي الزّمنيِّ[1]. ويمكنُ أن يكونَ أيضًا على معنى التّراخي الرُّتبيّ؛ لأنّ هذا العامَ أفضلُ لهم منَ السّنين العجافِ.

سِرُّ التّعبيرِ بالفعلِ ﴿يَأْتِي﴾ دونَ (يجيء):

معنَى اليُسْرِ في العامِ يُناسِبُ لفْظَ الإتيانِ الدّالِّ على المجيءِ بسُهولةٍ

المجيءُ كالإتيان، لكنَّ المجيءَ أعمُّ؛ لأنّ الإتيانَ مجيءٌ بسهولةٍ، والإتيانُ قد يُقالُ باعتبار القصْدِ وإن لم يكن منه الحصولُ، والمجيءُ يُقالُ اعتبارًا بالحصولِ[2]. ولمّا كان الحديثُ عن عام سيأتي ولمّا يَجِئْ بعدُ استَعملَ الفعلَ الدّالَّ على القصد، فضلًا عمّا يحملُه العامُ من رخاءٍ ويُسرٍ، وهو ما يُناسبُ لفظَ الإتيان الدّالّ على المجيء بسهولةٍ.

دَلالةُ التّعبيرِ بلفْظِ ﴿عَامٌ﴾:

لفظُ (العام) ألصقُ بمقامِ الوَفْرةِ والرَّخاءِ

أوثِرَ التّعبيرُ بلفْظِ: ﴿عَامٌ﴾ للدّلالةِ على الفرق بينَه وبين نظيرِه (السّنين) في معنى المُتعلَّقِ فيهما، فلمّا قرَنَ العامَ هنا بالإغاثةِ واليُسْر، وقرنَ السِّنينَ بالشّدّةِ والعُسْرِ، دلّ ذلك على المُقابلةِ بينهما في الاستعمال، وإنِ اتّفقا في الدّلالةِ على نفْسِ الوحدةِ الزّمنيّةِ، فاستعمالُ القرآن حجّةٌ في التّفريق بين الألفاظِ المُتَحاكِيَةِ في عموم دلالتِها، فيُخَصِّصُ كلَّ لفظٍ بمعناه الّذي لا اشتراكَ له مع نظيره فيه، فيختصُّ (العام) بظرفيّتِه لِما هو ميسورٌ، وتختصُّ (السَّنَةُ) بظرفيّتِها للعسير الصّعبِ، وهذا عند الاقترانِ، وعند الإطلاقِ فيَصدُقُ كلاهما على نفْس المقدارِ الظّرفيِّ بغضّ النّظرِ عن حال المظروفِ فيهما أخيرٌ أم شرٌّ![3].

(1) صافي، الجدول: 12/445.
(2) الرّاغب، المفردات: (جاء).
(3) الرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (عوم، سنه).

نُكتةُ تقديمِ الجارِّ والمجرورِ ﴿فِيهِ يُغَاثُ﴾:

المبالغةُ في إفراحِ اليائِسِ عندَ إفْتائِه

﴿فِيهِ﴾ في قوله تعالى: ﴿عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ﴾ متعلّقٌ بـ ﴿يُغَاثُ﴾، والأصلُ: يُغاثُ فيه، وقُدِّم الجارُّ والمجرور لغرضِ الاهتمامِ والاختصاصِ، ويصحُّ الحصرُ على معنى: (يُغاثُون في هذا العامِ إغاثةً لم يُغاثوا مثلَها)[1].

دَلالةُ التّعبيرِ بلفْظِ: ﴿يُغَاثُ﴾ مادّةً وصيغةً:

الغَيْثُ يَنزلُ بالغَوثِ والفَرَجِ والفَرَحِ

قوله تعالى: ﴿يُغَاثُ﴾ إمّا منَ الغيْثِ بمعنى المطر مِن غاث غَيْثًا، فالألفُ في ﴿يُغَاثُ﴾ منقلبةٌ عن ياءٍ، والفعلُ ثلاثيٌّ، وإمّا منَ الغَوْث بمعنى الإنقاذِ والفرج، والإغاثةِ والنُّصرةِ عند الشِّدّةِ من أغاثَ غَوْثًا[2]، فالألف منقلبةٌ عن واوٍ، والفعلُ رباعيٌّ. وجاء الفعلُ ﴿يُغَاثُ﴾ على بناءِ ما لم يُسَمَّ فاعلُه إيجازًا لوضوح جهةِ الغَوْث، فلا مُغيثَ إلّا اللّه، وزيادةً في إجلال الفاعلِ وتقْديسِه حين يأتي بالغوْثِ والغيْثِ ويَنْشُرهما مَشهودَيْن مَحسوسَين وهو في عَليائه لطيفٌ خبيرٌ لا تدركُه الأبصار، ثمّ لأنّ الأهمَّ بالنّسبة إليهم بعد هذه السّنين العجافِ مُنصَبٌّ على الغوثِ نفسِه دونَ النّظر إلى المُغيث في تلك الشِّدّةِ، وآثَرَ التّعبيرُ بمادّة الغوْث أوِ الغيْث، للدّلالة على أنّه تخليصٌ من أزْمَةٍ، وإنْقاذٌ من ورْطةٍ، وامتنانٌ بعد كَرْبٍ، وفرَجٌ بعد شِدّةٍ استحكمَتْ، فهو إنعامٌ لا نظيرَ له؛ لأنّه بعد يأسٍ، وهذا خيرُ الإنعامِ.

الغَوْثُ هو أثَرُ الغَيْثِ وغايَتُه

الغيثُ: هو المطرُ الّذي يُغيثُ النّاسَ بالخِصْب والإنبات ويُحيي الأرضَ بعد موتها. والغوْثُ هو تفريجُ الشدّةِ ودفْعُ عناء المُستغيثِ (طالِب الغوث)، وهو أثَرٌ من آثار الغيْث؛ لأنّ المطر النّازلَ منَ السّماء ينزل بالسّقْيِ والرّيِّ الّذي يَبعثُ الحياةَ ويَمحو الجفافَ والجَدبَ، فهو تفريجٌ، "وكأنّ الأصلَ هو الغيْثُ: الماءُ. ويُزكّيه أنّه هو الحياةُ ﴿وَجَعَلْنَا

(1) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 10/340، وصافي، الجدول: 12/445.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (غوث، غيث).

مِنَ ٱلۡمَآءِ كُلَّ شَيۡءٍ حَيٍّۚ﴾ [الأنبياء: 30]، فالأصلُ في الاستغاثة طلبُ الماء حقيقةً، ومن هذا نُقِلتْ إلى طلبِ الرِّفْق والرّحمة، وهما مناسِبان للماء، فكلاهما رِقّةٌ، كما أنّ كليهما إبقاءٌ على المستغيثِ ونجْدةٌ له، وربّما يؤيِّدُ هذا بقوله تعالى: ﴿وَإِن يَسۡتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٖ كَٱلۡمُهۡلِ﴾ [الكهف: 29] هم يطلبون ماءً، فيُؤتَون بماءٍ، لكنّه كالمُهْلِ"[1] والعياذُ بالله.

معنى (ال) في قوله: ﴿ٱلنَّاسُ﴾:

ليسَ أفْرَحَ بنزولِ الخَيْرِ منَ المُبْتَلَى المُصابِ

(ال) في ﴿ٱلنَّاسُ﴾ من قوله تعالى: ﴿عَامٞ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ﴾: للعهد؛ أيْ: النّاسُ المعهودون بالابتلاءِ والقحطِ المذكورِ، أو (ال) للاستغراق العُرْفيِّ؛ أيْ: كلُّ النّاس في عُرفِ السّياقِ والمقامِ الّذين هم في محلّ البالِ وحيِّزِ الاهتمامِ، وهمُ النّاسُ الّذين شَمِلَهم الغلاءُ والعناءُ[2].

مَوقعُ قوله ﴿وَفِيهِ يَعۡصِرُونَ﴾ ممّا قبْلَه:

فُتوحُ الله بالخيْرِ تأتي مُتَتابِعةً

جملةُ ﴿وَفِيهِ يَعۡصِرُونَ﴾ معطوفةٌ على قوله تعالى: ﴿فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ﴾، والعطفُ بالواو، للدّلالة على أنّه اجتمعت فيهم مِنَّتَان: مِنّةُ الغيْثِ بالمطرِ وزيادةِ الخِصْب، ومِنّةُ تيسيرِ الإنتاج وتنويعِه الحاصلِ بعصْرِ المحاصيلِ المزدهرةِ بالغيْث واستخراجِ زيوتِها وكافّة وجوهِ الانتفاعِ منها، فالمِنّةُ الثّانية مُترتِّبةٌ عنِ الأُولى، والمِنّةُ الأُولى ثابتةٌ بالوَهْبِ، والثّانية ثابتةٌ بالكسْب، فجملةُ ﴿وَفِيهِ يَعۡصِرُونَ﴾ تفريعٌ على مضمون جملةِ ﴿فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ﴾ فكأنّه ذَكَر الشّيءَ ثمّ ذكَر ما يَقْتضيه وما يلزمُ عنه منَ الأثَر[3].

تَوجيهُ القراءاتِ في ﴿يَعۡصِرُونَ﴾:

في قراءَةِ الخِطابِ تَوجيهٌ للخِطابِ إلى المُستَفْتين

في قوله تعالى: ﴿وَفِيهِ يَعۡصِرُونَ﴾ قرأ ابنُ كثير ونافعٌ وأبو عمرو وابنُ عامرٍ وعاصمٌ: ﴿يَعۡصِرُونَ﴾ بالياء. وقرأ حمزةُ والكِسائيُّ

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (غيث).
(2) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 10/340.
(3) صافي، الجدول: 12/446.

بالتّاء، ليوجَّهَ الخطابُ إلى المُستَفْتين. وقرأ سعيدُ بنُ جبيرٍ: ﴿يَعْصِرُونَ﴾ بضمّ الياء وفتحِ الصّاد؛ أيْ: يُمطَرُون من قوله: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا ﴿١٤﴾﴾ [سورة النّبأ: 14][1].

بَراعةُ الخِتامِ بلفظِ ﴿يَعْصِرُونَ﴾:

اصطفاءُ لفْظِ ﴿يَعْصِرُونَ﴾ للفاصلةِ بديعٌ جليلٌ، فلفظُ ﴿يَعْصِرُونَ﴾ يدلُّ على السِّيولةِ وعدمِ الجمود، ويدلُّ على توالُدِ شيءٍ من شيء، ويدلُّ على الأفضليّة؛ لأنَّ الشّيءَ حين يُعصَرُ يَسيلُ بأجْودِ ما فيه وهو الخُلاصَةُ، فلفْظُ العصْرِ في قوله: ﴿يَعْصِرُونَ﴾ دالٌّ على السّيولةِ بالخيرِ. فالإبداعُ في هذا النّظمِ الجليلِ هو في توالي لفظِ ﴿يَعْصِرُونَ﴾ بعد لفظِ ﴿يُغَاثُ﴾؛ لأنّ الغَيْث الّذي هو المطرُ دالٌّ على السّيولةِ كذلك؛ لأنّه ماءٌ يسيلُ، ولأنّه معصورٌ منَ السّحاب، وقد استعملَ القرآنُ فيه لفْظَ العصر في قوله: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا ﴿١٤﴾﴾ [النّبأ: 14][2]، فالغيْث مُشتمِلٌ على معنى العَصْرِ، والعَصْرُ مشتمِلٌ على معنى الغيث، وإذا كان ﴿يُغَاثُ﴾ منَ الغوث، فالإغاثة كذلك فيها من معنى السّيولةِ الّتي في الغيْث والعَصْرِ؛ لأنّها إخراجٌ للإنسان عن حال الجُمودِ والاحتباسِ، فيكونُ منطلقًا كالغيْثِ السّائلِ، فكان قوله تعالى: ﴿فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ﴾ استدلالًا على نزول المطرِ واستدلالًا على حصول الفَرَجِ واستدلالًا على الإنباتِ والخصوبةِ، وكان قوله: ﴿وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾ استدلالًا على أثَرِ الإنباتِ الحاصِل بالغيثِ المذكورِ، وهذا الأثرُ هو استخراجُ المنافعِ من تلك النّباتاتِ والزّروعِ المزدهرةِ بعصرِها واستخلاصِ ما فيها. فكان قوله: ﴿يَعْصِرُونَ﴾ مُستَخْلَصًا من قوله: ﴿يُغَاثُ﴾ ومُتأتِّيًا منه، كما تُستَخلَصُ العُصارةُ الطّيّبةُ من مصدرِها. فسبحان مَن نزّل الكتابَ!

العاقبةُ الحسَنةُ تُعوِّضُ ما فات من قَسْوَةِ الأيّامِ

(1) ابن الجوزيّ، زاد المسير: 2/444، وابن الجزريّ، النّشر: 2/295.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 18/466.

﴿وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ ٱئۡتُونِي بِهِۦۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرۡجِعۡ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسۡـَٔلۡهُ مَا بَالُ ٱلنِّسۡوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعۡنَ أَيۡدِيَهُنَّۚ إِنَّ رَبِّي بِكَيۡدِهِنَّ عَلِيمٞ ٥٠﴾ [يوسف: 50]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

سُرعةُ إنفاذِ الملوكِ لمُراداتِهم

لمّا ذكَرَ في الآيةِ السّابقةِ جوابَ يوسفَ عليه السلام في تعبيرِ رؤيا الملكِ، ذَكَر هنا كيفيّةَ تَلَقّي المَلِك لجوابِ يوسفَ عليه السلام، ببيانِ ردِّ فِعلِه وانفعالِه لِما أفتى به يوسُفُ رسولَ الملِك، وكيف أنّه بعثَ في طلَبِه وإحضارِه.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿بَالُ﴾: البالُ: هو الحالُ الّتي يُكْتَرَثُ بها ممّا وقعَ في الرُّوعِ والنّفْس، وكلُّ أمْرٍ ذي قيمةٍ في باطِنِه يُقال له: بالٌ، فهو مُختصٌّ بالحال الّتي يَنطَوي عليها الإنسانُ. والمُرادُ بقوله: ﴿مَا بَالُ﴾ السّؤالُ عن حالِ النِّسوةِ المُسْتَرِيبِ في قضيةِ المُراوَدَةِ[1].

المَعْنى الإجْماليُّ:

مُكافأةُ الملوكِ لِمَن أحْرَزَ لهم مَعْروفًا

وقال المَلِك لِلملأ: أَخْرجوا الرّجلَ المُعبِّرَ للرّؤيا منَ السّجن وأحْضِروه لي، فلمّا جاءه رسولُ الملك يَدْعوه، قال يوسفُ للرّسول: ارجعْ إلى سيّدِك الملِك، والتَمِسْ منه أنْ يسألَ النّسوةَ اللّاتي جرحن أيديَهنّ عن حقيقةِ أمرِهنّ وشأنِهنّ معي؛ لتَظهرَ الحقيقةُ للجميع، وتتّضِحَ براءتي، إنّ ربّي عليمٌ بصَنيعِهنّ وأفعالِهنّ لا يخفَى عليه شيءٌ من ذلك[2].

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (بول)، والرّاغب، المفردات: (بل)، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (بول).

(2) مجمع الملك فهد، التّفسير المُيسّر، ص: 241.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

مَوقعُ جملة ﴿وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ﴾ ممّا قبلَها:

مِنْ عَطايا الملوكِ التّقْريبُ والإدْناءُ مِنْ حَضْرَتِهم

جملةُ: ﴿وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ ٱئۡتُونِي بِهِۦۖ﴾ استئنافٌ نحويٌّ لبيانِ ردِّ الملك بعد بيانِ رُؤياه، أوِ الواوُ لعطفِ مَدخولِها على محذوفٍ مُقَدّرٍ تقتضيه القِصّةُ، والتّقديرُ: فانصرفَ السّاقي من عندِ يوسفَ عليه السلام، ورجعَ إلى الملك بفتواه في الرّؤيا، فأمَر المَلِكُ بإحضارِ يوسفَ عليه السلام ﴿وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ ٱئۡتُونِي بِهِۦۖ﴾[1].

عِلّةُ إيثارِ الملكِ فعلَ الإتيانِ:

أمْرُ المَلِك مُتَحَقِّقٌ بيُسْرٍ وسَلاسَةٍ

الإتيانُ مجيءٌ بسهولة ويُسرٍ، وهو هنا في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ ٱئۡتُونِي بِهِۦۖ﴾ يُناسبُ حالةَ الخَلاص منَ السّجن بأمْرِ المَلِك من تسهيلٍ للإجراءاتِ وتيسيرٍ للأمر، فلا معوقاتٌ ولا موانعُ، لا سيّما وأنّ المَلِك يشعرُ بالسّرور والحُبُور من تأويل يوسفَ للرّؤيا بشكلٍ شعرَ المَلِكُ فيه بالرّاحة والطُّمأنينة لهذا التّأويلِ.

بَلاغةُ الإيجازِ بالحذْفِ في جملةِ: ﴿وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ﴾:

اسْتَغنَى بالمذكورِ إيجازًا واقتصادًا ولِوُضوحِ المقصودِ منَ الخطابِ

في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ﴾ إيجازٌ بالحذف؛ لأنّ التّقديرَ: فلمّا عبّرَ يوسفُ عليه السلام الرّؤيا وجاء رسولُ المَلِك فقصّ عليهم قولَ يوسفَ عليه السلام، وأُعجبَ الملكُ بتأويله، فقال... فالمحذوفُ أكثرُ من جملةٍ، وهذا الحذفُ شائعٌ في النّظمِ القرآنيِّ في مقام القَصصِ، وهو حذفٌ واضحٌ ممّا يتقدّمُ عليه منَ الكلام ويتأخّرُ[2].

دَلالةُ جمْعِ الخطابِ في قوله ﴿ٱئۡتُونِي بِهِۦۖ﴾:

الدُّنُوُّ منَ المَلِك بُغيةٌ وراءَها ما وراءَها منَ الفُرَصِ

جاء الخطابُ في قوله تعالى: ﴿ٱئۡتُونِي بِهِۦۖ﴾ على صيغةِ الجمع؛ لأنّه مُوجَّهٌ إلى جماعة الملأِ المَسؤولين عن تصريفِ شؤون المَلِك، أو مَن يقوم مقامَهم في الدّيوان من مُوظّفي المِلك ومُساعِديه. فإن

(1) صافي، الجدول: 12/447.

(2) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 2/130 - 131.

قيل: جرتِ العادةُ بأنّ هناك فردًا واحدًا يكونُ لصيقًا بالمَلِك ويتلقّى عنه الأوامرَ، فلِمَ جَمَعَ الخِطابَ؟ ويُجابُ عن هذا بأنّ ذلك لا يلزمُ، إذ منَ المُمكِنِ أن يكونَ قال ذلك في مجلسٍ لا على انفرادٍ، والأصلُ حمْلُ الكلام على حقيقتِه، وإنْ كانَ قد خاطبَ واحدًا، فالجمعُ في الخطاب جارٍ على المجازِ لتعظيم أمْرِ المَلِك أو للمبالغةِ في اهتمامِه بالأمر أو لإكبارِ أمرِ يوسفَ عليه السلام وفتواه، فإنّ الملوكَ إذا انْفَعلوا لِشأنٍ وأرادوه خاطَبُوا بالجمْعِ، فيقولون: هاتوا لي كذا، وافعلوا لي كذا، ولو كان المأمورُ واحدًا، ذلك أنّ المملكةَ كلَّها تتحرّكُ لأمرِه، فيُصدِرُ كلامَه وخطاباتِه بصيغةِ الجمْعِ ولو لم يكن أمامَه إلّا مُخاطَبٌ واحدٌ.

مَوقعُ جملةِ ﴿فَلَمَّا جَآءَهُۥ﴾ ممّا قبْلَها:

الفاء في قوله: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُۥ﴾ عاطفةٌ مدخولَها على جملة: ﴿ٱئۡتُونِي بِهِۦۖ﴾، ويصحّ أن تكون فصيحةً، فتكون الجملة معطوفةً على محذوفٍ مُقدّرٍ؛ أيْ: ففعلوا وأرسلوا رسولًا منهم، فلمّا جاءه الرّسول[1].

سُرعة الهرولة في إنفاذ مطلوب المَلِك

نُكتةُ العُدُولِ منَ الإتيان إلى المجيءِ:

لم يَقُلْ في السّياق الكريم: (وقال الملك جيئوني به) أو (فلمّا أتاه الرّسول) فعبّرَ بالإتيانِ أوّلًا، وبالمجيءِ ثانيًا، ونُكتةُ ذلك: أنّ الإتيانَ يُقالُ في المجيء بسهولةٍ، والإجاءةُ هنا سَهلةٌ لأنّها بأمْرِ المَلِك، والمجيءُ يُقال في الإتيانِ المُتحقِّقِ والمصحوبِ بنوعِ مَشَقّة، ولذا قال: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ﴾، ولم يقل: (أتاه)؛ لأنّه أتى إليه بتكليفٍ، والتّكليفُ مشمولٌ بالمشقّةِ، وهو هنا إتيانٌ مُتحقِّقٌ بالفعل، وليس على وشَكِ التّحقُّقِ أو على وجْهِ القصد، ولذا ناسَبَه المجيءُ[2].

ما اقْتَرَبَ من حَيّزِ المَلِكِ سَهُلَ ولَانَ

وَجْهُ تعريفِ ﴿ٱلرَّسُولُ﴾:

(أل) في الرّسول عهديّةٌ، وهو مُعرّفٌ بوصْفِه النّاجي، صاحبَ

لفظُ (الرّسول) يُناسبُ فَخامةَ المُرسِلِ والمُرسَلِ إليه

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/288.

(2) الهَرَويّ، الغريبيْن، والرّاغب، المفردات، والزَّمخشريّ، أساس البلاغة، وابن الجوزيّ، نزهة الأعين، ص: 166، والسّمين الحلبي، عُمدة الحُفّاظ، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (أتى).

الرّؤيا الّتي فُسّرت من لَدُن يوسفَ ﷺ داخلَ السّجن. والتّعبيرُ عنه بهذا اللّفظ يُناسبُ مقامَ كلٍّ منَ المُرسِل والمُرسَلِ إليه وفخامتِهما، وأهمّيةَ الرّسالة الّتي يحملُها.

نُكتةُ سياقِ الحدَث بأسلوبِ الشّرطِ:

مُعامَلَةُ الملوكِ تكاليفُ وأجْزِيَةٌ

جملةُ ﴿فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ﴾ صُدِّرت بـ (لمّا) الحِينيّةِ الشّرطيّةِ غيرِ الجازمة، وهي تستدْعي فِعلَيْن ماضيَيْن، الأوّلُ: فعلُ الشّرط، والثّاني جوابُ الشّرط، وتُفيد الظّرفيّةَ الزّمانيّةَ، ومعنى شرطيّتِها مُوجَبٌ: فهي أداةُ وجودٍ لوجود؛ أيْ: وجودُ الجواب لوجودِ الشّرط، فهي تفيدُ تَحقُّقَ الجوابِ بتحقيقِ الشّرطِ، ومعنى التّحقّقِ ظاهرٌ في مجيء فِعْلَي الشّرطِ وجوابِه ماضيَيْن، وهي ظرفيّةٌ بمعنى (حين)، فحين وقعَ الشّرطُ حصلَ الجوابُ، فحينُهما واحدٌ، ولذا جاءا ماضيَيْن. ونُكتةُ مجيء الكلامِ بأسلوب الشّرطِ، فلم يقل: (فجاءه الرّسول فقال ارجع) على الخبرِ المحضِ، لإفادةِ أنّ مَقولةَ يوسفَ ﷺ للرّسول كانت لازمةً عن مضمونِ مجيئِه إليه ومسبَّبَةً عنه، ولو قال: (فجاءه الرّسول فقال ارجع إلى ربك) لاحتملَ أنْ يكون يوسفُ بادَره بمقولته: ﴿ٱرۡجِعۡ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ من تلقاء نفْسِه من غير أن يكون ناجِمًا عن غرَضِ مجيئِه إليه[1].

سِرُّ التّعبيرِ عنِ المَلِكِ بلفْظِ ﴿رَبِّكَ﴾:

تَلْبِيةُ طلَبِ المَلِك مَشروطةٌ برفْعِ الحَيْفِ

معنى الرّبِّ هنا: السّيدُ والصّاحبُ، فربُّ الشّيء: صاحبُه[2]، والمَعنِيُّ به الملكُ، ولذلك أضافه إلى ضمير الخطابِ (الكاف) العائدِ إلى الرّسول. وفي اصطفائِه دونَ لفظ المَلِك لما يحملُه لفظُ (الرّب) من معنى إصلاحِ الشّيء، يُقال: ربَّ فلانٌ ضيعتَه، إذا قام على إصلاحِها. واللّه جلّ ثناؤه الرّبُّ؛ لأنّه مُصلحُ أحوالِ خَلْقِه، والموضعُ

(1) عضيمة، دراسات لأسلوب القرآن: 2/627.
(2) الزّجّاج، معاني القرآن واعرابه: 3/114.

هنا موضعُ طلبِ إصلاحِ خطأِ سجنه وتصحيحِه عليه السلام، ففي التّعبير به إيماءٌ باشتراط رفْعِ الجَوْرِ الّذي وقع عليه لتلبيةِ طلبِ المَلِكِ.

لا يَتَمهّلُ في تقريبِ المَلِك له إلّا مُسْتَغْنٍ بِعزّةِ الحقِّ

بَلاغةُ الإيجازِ بالحذْفِ في جُملةِ الشّرطِ:

في الجملة الشّرطيّةِ في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرۡجِعۡ﴾ حذْفٌ لمضمونِ غرَضِ المجيء إيجازًا، لوضوحِه بدلالةِ ما قبْلَه عليه في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ ٱئۡتُونِي بِهِۦۖ﴾، والتّقديرُ: فلمّا جاءه الرّسول أخبره بغرَضِ المَلِكِ في الإتيان به، فقال له: ارجعْ إلى ربّك[1].

الاقتصادُ في الكلامِ من خُصوصياتِ القرآنِ

وتمامُ تقديرِ الحذْفِ الكثيرِ الّذي أغنى عنه المذكورُ في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرۡجِعۡ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾: فأرسَلوا إلى يوسفَ في سجنِه رسولًا يُبلّغُه أمرَ الملك، فدخلَ عليه فبلّغه رغبةَ المَلِك في إخراجه منَ السِّجن والقدومِ إليه، فلمّا عرف يوسفُ عليه السلام ما يريدُه الملكُ قال لرسول المَلِك: ارجع إلى ربك. فرجع الرّسولُ إلى المَلِك، وقصَّ عليه ما قاله يوسفُ عليه السلام[2].

مَوقعُ جُملةِ ﴿فَسۡـَٔلۡهُ﴾ ممّا قبلَها:

دَرْءُ المفسَدةِ قَبْلَ جَلْبِ المصْلَحةِ

الفاءُ في قوله: ﴿فَسۡـَٔلۡهُ﴾ عاطفةٌ مدخولَها على جملةِ مَقولِ القول في قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱرۡجِعۡ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ فهي من تمامِ مَقول القولِ، والعطفُ بالفاء أفاد أنّ السّؤالَ المذكورَ غرضٌ للأمر بالرّجوع وعِلّةٌ له[3].

بَلاغةُ المَجازِ في لفْظِ السّؤالِ:

اهْتِبالُ الفُرصَةِ في إظهارِ الحقيقةِ بواسِطةِ النّفوذِ الأعلَى

التّعبيرُ بالسّؤال في قوله: ﴿فَسۡـَٔلۡهُ﴾ مجازٌ قُصِدَ به تحرّي المسؤولِ وإقرارُه، إذِ السّؤالُ هو في أصله: طلبُ معلومةٍ ليستْ عند السّائل، ويوسفُ عليه السلام عالمٌ بالأمر المسؤولِ عنه، وإنّما يريدُ تحريضَ المسؤولِ للبحثِ والتّحرّي في المسؤول عنه لِتظهر براءةُ يوسُفَ له. فقوله:

(1) ابن عطيّة، المُحرَّر الوجيز: 3/251.
(2) المطعني، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 2/131.
(3) صافي، الجدول: 12/447.

﴿فَسْـَٔلْهُ﴾ كنايةٌ عن لازمه وهو دِراسةُ المَلِك وتحقيقُه لِمضمون السّؤال، إذْ يَلزمُ قبْلَ إظهارِ العِلمِ للسّائل إحاطةُ المسؤول بالمعلومِ أوّلًا[1].

معنى ﴿مَا﴾ في قوله ﴿مَا بَالُ﴾:

تَحرّي الحقيقةِ بالسُّؤالِ عنها لإطْلاعِ النّاسِ عليها

﴿مَا﴾ في قوله: ﴿مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ﴾ استفهاميّةٌ في محلّ رفعٍ مبتدأ، و﴿بَالُ﴾ خبرٌ، ويُستفْهمُ بـ ﴿مَا﴾ عن حقيقة الشّيء عاقلًا، أو غيرَ عاقل[2]. والمُرادُ بالاستفهام هنا سؤالُ النّسوة عمّا عرفْنَه عن يوسفَ عليه السلام ساعةَ دخل عليهنّ، هل لَمسنَ فيه ريبةً؟[3].

سِرُّ اصْطِفاءِ لفْظِ ﴿بَالُ﴾:

تَحْديدُ القَصْدِ والبحْثُ عنه من أهمِّ مُحدِّداتِ القانونِ

لم يقل في السّياق الكريم: (ما حال النّسوة؟ أو: ما شأنُ النّسوة؟) للإلماحِ إلى الحال الباطنةِ الّتي ينطوين عليها، فهو يسألُ عنِ الغرَضِ النّفسيِّ الّذي أدّى بِهنّ إلى أنْ يُقطِّعنَ أيديَهنّ، فتعيينُ لفْظِ (البال) أوضحَ عن قصدِه في البحثِ والتّحَرّي الدّقيقِ عن خلاصةِ الحقيقةِ وعدمِ الاكتفاء بظاهرِ الحال أو بما يُشاعُ، وهذا التّوجيهُ مؤسَّسٌ على كوْنِ البالِ ألصقَ بالحال الباطنةِ الّتي يَنطوي عليها الضّميرُ، ولذا عبّرَ به؛ لأنّ السّؤال في موضوع النّسوةِ محلّ حرجٍ وسِرّ، فهو مَظِنّة أنْ يُكتفى فيه بالظّاهر أو تُموّه فيه الحقيقةُ، فاحترز في سؤاله بتعيين ما يُفيد تحرّي الأسرار وإعلانَها بعد التّحقيق فيها[4].

موقعُ جُملةِ الاستفهامِ ﴿مَا بَالُ﴾ ممّا قبْلَها:

تَسْهيلُ المُهمّةِ بتَعْيينِ المطلوبِ وتَحْديدِه

جملةُ: ﴿مَا بَالُ﴾ تفسيريّةٌ لقوله: ﴿فَسْـَٔلْهُ﴾؛ لأنّ في السّؤال معنى القولِ دونَ حروفِه، أو استئنافٌ بيانيٌّ، فبينَها وما قبْلَها شِبهُ كمالِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/289.
(2) محمود، الجدول: 12/448، والسّامرّائيّ، معاني النّحو: 4/261.
(3) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 2/130.
(4) الرّاغب، المفردات: (بل).

اتّصالٍ، كأنّه قال: (ماذا أسأله)، أو في محلِّ نصبٍ مفعولٌ به للفعل ﴿فَسْـَٔلْهُ﴾ المُعلّقُ عنِ العملِ في معموله لفظًا لا معنى بسببِ الفصْلِ بما له حقُّ الصّدارةِ وهو الاستفهامُ[1].

بَلاغةُ صَوْغِ مضْمونِ السّؤالِ: ﴿مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ﴾:

الاخْتِراسُ في الأسْلوبِ عندَ خِطابِ ذَوي الشّأنِ العالي

لم يَقُلْ في السّياق الكريم: (فسأله أنْ يُفَتِّش أو يُحقِّق في حال النّسوة)، لئلّا يتضمّنَ موضوعُ السّؤال تكليفًا للملك فيكونَ جراءةً عليه ومُخالفةً لأدبيّات الحِوار معه، ووجْهُ ذلك: أنّه إذا قال: اسأله أنْ يُفتّش أو يُحقّق يكونُ قد أرشده إلى ما يجبُ عليه أنْ يفعلَه، والملوكُ لا تُخاطبُ بكيفيّاتِ إجراء الأمورِ؛ لأنّ فيه تعريضًا بهم بظَنِّ وادّعاءِ فواتِ كيفيّة إدارةِ الشّؤون عنهم، ولذا أجرى السّؤالَ بما لا يتضمّنُ إرشادًا أو إحراجًا، ولأجلِ أنْ يشتمِلَ السّؤالُ على قدْرٍ منَ الإبهام يَسْتفِزُّ المَلِك ويُحفّزُه على تجْليتِه وكشْفِه، وإجراءُ الكلام على أنْسَبِ أسلوبٍ وأرفَعِ طريقة هو من حكمةِ النّبوّةِ ومعالِمِها وأمارةِ تأييدِ الله لأنبيائِه بجوامعِ الكَلِم وفصْلِ الخِطابِ[2].

بَلاغةُ التّعريضِ في جُملةِ: ﴿مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ﴾:

مآلُ مَعرفةِ شأْنِ النِّسْوةِ تبيُّنُ حَقيقةِ مآلِ يوسفَ عليه السلام

في قوله تعالى: ﴿مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّۚ﴾ تعريضٌ بنفسِ يوسفَ للمَلِك، كأنّه قال: ما بالي؟ وما مآلُ الأمرِ في قضيّتي؟[3].

نُكتةُ مَجيءِ الفعْلِ ﴿قَطَّعْنَ﴾ مُضعّفًا:

يَذْهَلُ الإنسانُ عنِ الألمِ إذا استغرَقَ فيما يَشغَلُه عنه

جاء الفعلُ ﴿قَطَّعْنَ﴾ في قوله تعالى: ﴿قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّۚ﴾ بصيغةِ التّضعيفِ اللّفظيِّ المُفيدِ للتّضعيفِ المعنويِّ، للدّلالة على المُبالغةِ في القطع، وفيه إشارةٌ إلى ما اسْتَحوذَ عليهنّ من حال الذّهولِ والاستغراقِ في ملاحظةِ يوسفَ عليه السلام بما حجبَ الحاسّةَ عنِ استشعار

(1) صافي، الجدول: 12/448.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 6/447.
(3) عفيف، الشّامل: 2/85.

القطْعِ وهو يحصُلُ، وهذا يحصُلُ من شدّة الفناءِ في الشّيء والاستغراقِ فيه.

بَلاغةُ الكنايةِ في جُملةِ: ﴿ٱلنِّسۡوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعۡنَ أَيۡدِيَهُنَّۚ﴾:

فيما جاء من قول يوسف ﷺ المعبّر عنه في قوله تعالى: ﴿مَا بَالُ ٱلنِّسۡوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعۡنَ أَيۡدِيَهُنَّۚ﴾ كنايةٌ عنِ النّسوة اللّاتي دعتْهُنّ امرأةُ العزيز وأعتَدتْ لهنَّ مجالسَ يتّكِئْنَ عليها لِيَرَيْنَ يوسفَ ويَعذرنَها لفرْطِ حُسْنِه وجمالِه[1]. وفي قوله هذا ﷺ تحرٍّ للسَّترِ؛ لأنّ الأصلَ إثباتُ البراءة لا فضْحَ النّسوةِ.

تَحَرّي السَّترَ؛ لأنّ الأصْلَ إثباتُ البراءةِ لا فضْحَ النّسْوةِ

نُكتةُ تعْيين ﴿ٱلنِّسۡوَةِ﴾ موضوعًا لسؤالِه دونَ (امرأة العزيز):

جعل يوسفُ ﷺ طلبَ مُفاتَشةِ النّسوةِ موضوعًا لسؤاله في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرۡجِعۡ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسۡـَٔلۡهُ مَا بَالُ ٱلنِّسۡوَةِ﴾، فطلبَ السّؤالَ عنِ النّسوة لا عنِ امرأة العزيز مع كونِها أصلَ القضيّة ومحورَها وطرفَ الخصومةِ الحقيقيَّ فيها، وذلك لعدّة نِكاتٍ:

مُراعاةُ المَصالحِ والمفاسِدِ عندَ تبيُّنِ الحقِّ

الأُولى: أنّ النّسوةَ شهودٌ على الأمْر وضالعون فيه، فأراد أنْ يستعينَ بالشّهود أوّلًا، تأسيسًا لِلْبَيّنة واستدلالًا بالحُجّة تمهيدًا له بين يدي المَلِك.

الثّانية: احتياطًا واتّقاءً لإنكار امرأة العزيز، إذِ هي طَرفٌ في الخصومةِ، والغالبُ أنْ تظهرَ براءةُ البريء بحُجَج دِفاعِه لا بإقرار خَصْمِه، فلم يعتمِدْ على إقرارها لعدمِ ضمانِه.

الثّالثة: أنّه امتنع عن ذِكْرِها تكرّمًا منه بحُسنِ العهدِ لها، إذ كان في بيتها مُكَرَّمًا بأمرِ العزيز لها ﴿أَكۡرِمِي مَثۡوَىٰهُ﴾ [يوسف: 21].

الرّابعة: احترازًا عن مَكْرِها، إذِ اعتقدَها باقيةً في ضلالِها القديمِ، وأمّا النّسوة فقد كان يطمعُ في صَدعِهنّ بالحقّ وشهادتِهنّ

(1) المطعني، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 2/131.

بسببِ إقرارها لهنّ بأنّها راودَتْه عن نفسِه فاستعصم، ولذلك اقتصر على وصْفِهنّ بتقطيع الأيدي، ولم يُصرّح بمراودتِهنّ له.

الخامسة: لم يذكرْها في سؤاله اتّقاءً لنفوذها ونفوذِ زوجها أنْ يحول التّصريحُ بها في صدّ المَلِك عنِ استيفاء التّحقيقِ في الأمر، رعايةً منَ الملِك لمقام العزيزِ زوجِها صاحبِ المكانةِ عنده[1].

بَراعةُ الإيجازِ بكِتْمان القصّةِ عنِ المَلِك:

بالبَحْثِ والتّحَرّي، ودقّةِ الاسْتِغْلامِ تَتحقّقُ البراعةُ

أمر يوسفُ عليه السلام الرّسولَ بأن يسأل المَلِك، ويَستفهمَه عنِ الأمر، ولم يكشفْ له عنِ القصّةِ، ولا أوضحَها له؛ لأنّ السّؤالَ مجملًا ممّا يُهيّج الملكَ على الكشفِ والتّحَرّي، والبحثِ والاستعلام، فتحصلُ البراءةُ. وإنّما كان السّؤال المجمَلُ يُهيّجُ الإنسانَ، ويُحرّكُه للبحثِ عنه؛ لأنّه يأنفُ من جهلِه وعدمِ علمِه به، ولو قال: سَلْهُ أن يُفتّشَ عن ذلك، لكان طلبًا للفحصِ عنه، وهو ممّا لا يُتسامح ويُتساهلُ به، وفيه جرأةٌ عليه، فربّما امتنعَ منه، ولم يلتفتْ إليه[2].

بَلاغةُ فصْلِ جُملةِ الفاصلةِ عمّا قبْلَها:

اخْتِسابُ القَضيّةِ عندَ الله بعد رفْعِها للتّحكيمِ

جملةُ: ﴿إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾ استئنافيّةٌ، وهي كالتّفريع بالتّفويض بعد رجاءِ ما قُرِّر قبْلَها، كأنّه قيل: اسألوا عن حال النّسوةِ وأسرارِهنّ، ومهما يكن من شيءٍ خفِيَ عليكم أو ظهرَ لكم في أمرِهنّ فإنّ ربّي حسيبٌ عليهنّ وأعلمُ بكيدهنّ، وفصَلَ الجملةَ ولم يَعطفْها بالواو أو بالفاء، لإجرائِها مجرَى التّفويض والحُكم المُستقلّ؛ لأنّ قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾ كأنّه إشهادٌ للّه عليهنّ ليحكُمَ بما يشاء في أمرِه، وهذا من كمال نُبوّتِه عليه السلام: أنّه لم يَتّكِلْ على بلوغ مسألتِه للملِك، لا سيّما بعد حَظْوتِه عنده واقترابِه منه بعد تعبيرِه لرُؤياه، بلِ اتّكلَ على اللّه سُبحانه وآوَى إلى حُكْمِه

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 6/447، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/289.
(2) القاسميّ، محاسن التّأويل: 6/184.

وتضرّعَ إليه بصفاتِه، فإنّ قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾ وإنْ كان خبَرًا في معناه، إلّا أنّه في حُكمِ الإنشاء بدلالة معناه على التّوسّلِ والدّعاء بصفةِ العِلمِ الإلهيّةِ، فكأنّه لمّا سأل المَلِكَ أنْ يُفتّشَ في موضوع النّسوة معه، أتْبعَ ذلك بسؤال اللّه أنْ يَحكُمَ فيه بعلمِه الّذي لا يفوتُه شيءٌ، فأتْبَعَ ما ليس مضمونًا بما هو مضمونٌ؛ لأنّ المَلِك قد يَقْصُر عِلمُه وعزمُه عن متابعة الأمر وإدراكِ حقيقتِه، وأمّا اللّه سُبحانه، فقد أحاط بكلّ شيءٍ علمًا.

وإنّما ساق سُؤلَه للّه بلفْظِ الخبرِ بعد سُؤْلِه للملك بلفْظِ الإنشاء، ليَقعَ اللّفظُ منه موقعَ الثّناء على ربِّه والإجلالِ له، فيتضمّنَ عبوديّةَ الثّناء وعبوديّةَ الدّعاء، ولتضمينِه معنى الرّضا التّامِّ بحُكم اللّه، فهو لا يحتاجُ أنْ يسأله لأنّه مُتقرَّرٌ عنده أنّه عليمٌ حكيمٌ، فهو راضٍ بآثار صِفاتِه في أقضيتِه وأحكامِه في كلّ حالٍ. وفي اصْطفاءِ تلك الجملةِ ﴿إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾ لختْم الفاصلةِ تعليمٌ للمؤمنين أن يَستعينوا على قضاء حوائجِهم مع النّاس بتفويض الأمرِ كلّه للّه، كما فعل يوسفُ عليه السلام إذ التَمَسَ قضاء حاجتِه منَ النّاس ثمّ ولّى عنهم إلى ربِّه بمُناجاتِه وحُسنِ الثّناءِ عليه سُبحانه[1].

دَلالةُ اصْطِفاء اسْمِ الرُّبوبيّةِ وإضافتِه لضميره:

التّوسُّلُ إلى اللّه بقديمِ إحسانِه سَببٌ لاسْتِجابَتِه

لم يَقُلْ في السّياق الكريم: (إنّ اللّه بكيدهنّ عليم)، بل عبّرَ بصفة الرُّبوبيّةِ وأضافَها إلى ضميره ﴿رَبِّي﴾، توسُّلًا إليه سُبحانه بما يقتضي تفضُّلَه عليه وإجابتَه له، إذْ هو في مقام الاستغاثةِ والاضطرار، وهو توسّلٌ آخرُ وعِرفانٌ وشُكْرٌ مَكرورٌ من يوسفَ عليه السلام؛ لأنّه ما يزالُ في هذه السّورة يَذكرُ اللّه ويسألُه برُبوبيّتِه عليه، واللّه يُجيبُه ويُغيثُه بآثار رُبوبيّته وإحسانِه، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ رَبِّيٓ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/289.

أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ﴾ [يوسف: 23]، ﴿لَوۡلَآ أَن رَّءَا بُرۡهَٰنَ رَبِّهِۦۚ﴾ [يوسف: 24]، ﴿رَبِّ ٱلسِّجۡنُ أَحَبُّ إِلَيَّ﴾ [يوسف: 33]، ﴿فَٱسۡتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ﴾ [يوسف: 34]، ﴿ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓۚ﴾ [يوسف: 37]، فلا جرَمَ أنْ عبّرَ هنا كذلك بقوله: ﴿رَبِّي﴾ ليُعامِلَه بما عوّدَه إياه منَ العِصمة والفضلِ والإنقاذِ والتّمكينِ.

دَلالةُ إضافةِ الكيْدِ إلى ضميرهنّ:

إضافةُ الكيْدِ إلى ضمير النّسوةِ في قوله تعالى: ﴿بِكَيۡدِهِنَّ﴾ إضافةٌ لأدْنَى ملابسةٍ، إذْ إذِ الكيدُ واقِعٌ من بعضهنّ، فليس كلُّ واحدةٍ فيهنّ كادتْ بيوسفَ، ففي الإضافة إبهامٌ وتعميمٌ بقصْدِ التّعريضِ بمَنْ صدرَ منها كيْدٌ ومراودةٌ منهنّ له، وتعريضٌ بامرأة العزيز بنسبةِ الكيْدِ إليهنّ لا لها، من باب: إيّاكِ أعني، واسْمعي يا جارةُ[1].

إيكالُ عِلْمِ ما في ضَمائرِ الخَلْقِ إلى الله

ونسبةُ الكَيْد إليهنَّ والكائدةُ واحدةٌ هي امرأةُ العزيز أو بعضُهنّ، تأدُّبٌ منه عليه السلام، ودفعٌ لِما عساه أن يُحجمَ المَلكَ عن تنفيذ رغبةِ يوسفَ رعايةً لزوجِها عزيزِ مصرَ[2].

أَدَبُ الخِطابِ خُلُقُ الأنبياءِ

نُكتةُ التَّعبيرِ بالجُملةِ الاسميّةِ:

عبّرَ بالجملةِ الاسميّةِ المؤكَّدةِ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّي بِكَيۡدِهِنَّ عَلِيمٞ﴾، ولم يَقُلْ: (إنّ ربّي يعلم) للدّلالةِ على دوام علْمِه، فهو سُبحانه لم يَزَل عالِمًا بذلك، وللدّلالةِ على أنّه سُبحانه يعلمُ بالأشياء قبْلَ وجودِها الخارجيِّ، إذْ كيدُهنّ حاصِلٌ في صدورِهنّ قبل حدوثِه منهنّ، فهو بذلك يَستشهِدُ بعلْمِ اللّه على براءتِه وعلى مَكيدتهنّ له، فالاستشهادُ هذا في حقّه وعْدٌ، وفي حقّهنّ وعيدٌ[3]. وفي توكيدِ الخبرِ بـ ﴿إِنَّ﴾ واسْميّةِ الجملةِ أيضًا، إعلامٌ ببراءتِه ممّا اتَّهمتْه به امرأةُ العزيزِ[4].

اللهُ يَعْلَمُ بما يكونُ قبْلَ كَوْنِه

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/289.
(2) المطعني، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 2/131.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 6/447.
(4) المطعني، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 2/131.

نُكتةُ التّعريضِ في جملةِ الفاصلةِ:

وما عَلَى الرَّسولِ إلّا البَلاغُ

في قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾ تعريضٌ لرسولِ المَلِك ألّا يسألَ، وألّا يتدخّلَ في تفاصيل الأمرِ، ولْيحملْ رسالةَ يوسفَ عليه السلام من غير تعليقٍ[1].

نُكتةُ المُبالغةِ في صيغةِ (فعيل) لصِفةِ العِلْمِ:

صِفاتُ اللهِ واسعةٌ مُحيطةٌ لا يُحاذيها مِثالٌ ولا مِثالَ لها

مَجيءُ صفةِ الذّات الجليلةِ ﴿عَلِيمٌ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾ على وزن (فعيل) الّذي يَصلُحُ على مِثالِ الصّفةِ المُشبّهةِ ومثالِ المبالغةِ لإفادة معنى الدّيمومةِ؛ أيْ: دائمُ العلْمِ لا يتغيّرُ ولا يَغيبُ، وكاملُ العِلمِ لا يَنْقُصُ، فصيغةُ (فعيل) أفادت استقصاءَ التّعبيرِ عن إحاطةِ العلم وسَعتِه بكلّ ما تحملُه كلمةُ الإحاطةِ والسّعةِ من معنًى ومدلولٍ، فكيف إحاطتُه سُبحانه بكيدهنّ الّذي هو جزءٌ ضئيلٌ في مُتعلَّقات صفةِ عِلمِه الواسعِ، فلا يَفوتُه ولا يُعجِزُه ذرّةٌ منه[2].

عِلّةُ ختْمِ الآيةِ بصِفةِ العلمِ:

فوقَ كلِّ ذي عِلمٍ عليمٌ ولا منتهًى لعِلْمِ اللهِ

ختْمُ الآيةِ بصفةِ العِلمِ لِمُلاحظةِ المعلوماتِ المذكورةِ في المطلَعِ، وهي الأحوالُ المُنْكَشِفَةُ بتلك الصّفةِ، فلا يُجَلِّيها إلّا العِلمُ، وهو سؤالُه عن حقيقة أمْرِ النّسوة فيما يتّصلُ بشأنِه مع امرأة العزيزِ ومعهنّ، فخشِي الإنكارَ منهنّ فأوكَلَ ذلك إلى عِلْمِ اللّه الثّابتةِ فيه براءتُه وتُهمتُهنّ، فنَاسبَ أنْ يختِمَ بما لا تنكشِفُ الحقيقةُ إلّا به.

بَلاغةُ تقديمِ مُتعلَّقِ الخبرِ:

ما خَفِيَ كُنْهُهُ عَظُمَ خطَرُهُ

لم يقل في السّياق الكريمِ (إنّ ربّي عليمٌ بكيدهنّ)، وإنّما قدّمَ الجارَّ والمجرورَ المضافَ لضميرهنّ: ﴿بِكَيْدِهِنَّ﴾ الّذي هو متعلّقُ الخبرِ ﴿عَلِيمٌ﴾، لإفادة الاختصاصِ والقصرِ، كأنّه قال: هو كيدٌ

(1) عفيف، الشّامل: 2/85.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/324.

عظيمٌ لا يعلمُه إلّا اللّه، وهذا تعظيمٌ لكيدِهنّ ومبالغةٌ في آثاره منَ السّوءِ والشّرِّ، والقَصْرُ ادّعائيٌّ على معنى أنّه أراد أن يُبالغَ في كيدِهنّ فادّعى أنّ العِلمَ بكيدِهنّ منحصِرٌ في عِلْم علّام الغيوب، مع أنّ العِلمَ بكيدهنّ به مشهورٌ مُذاعٌ في النّاس، بدليلِ قولِ المَلِك لهنّ: ﴿مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ﴾، أوِ القَصْرُ حقيقيٌّ إذا أريدَ حقيقةُ الكيْد وكُنْهُه ومواقِعُه في الصّدور، فإنّ ذلك لا يعلمُه إلّا اللّه[1].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(البالُ) و(الخطْبُ):

(البالُ): هو الحالُ الباطنةُ للإنسان، وهو الكيفيّةُ الشّعوريّةُ الّتي تنطوي عليها نفْسُه ورُوْعُه. ولذا قال تعالى: ﴿سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ۝٥﴾ [محمّد ﷺ: 5]؛ أيْ: يَهْديهم ظاهرًا باستقامة السّلوك، ويُصلِحُ بالَهم باطنًا بسكينةِ النّفسِ وسلامة الخاطِر. وأمّا (الخطْبُ): فهو الحالُ والشّأنُ الّتي يقع فيها التّخاطُبُ، فهي حالٌ مُقيّدَةٌ بأمْرٍ خارجيٍّ ظاهرٍ، وعُمِّمَتْ في الاستعمالِ في كلّ شأنٍ فادحٍ وإنْ لم يَقع فيه تخاطبٌ ومُجاذَبةٌ تنزيلًا له منزلةَ ما يقعُ فيه ذلك، لاشتمالِه على سببِ المخاطبةِ، وهو معنى الاكتراثِ والشُّغْلِ الّذي يحمِلُ غالبًا على المراجعةِ والخطابِ، وعدمِ السّكوت والسّكونِ، وعليه: فالبالُ مُغايِرٌ للخَطْبِ في تعلُّقِهما وإنْ اشتركا في الدّلالةِ على عموم الشّأن والحالِ[2]. ومن هنا كان اختيارُ لفظِ (البال) بما يتضمَّنُه من دلالةٍ على الظّاهر والباطن أنسبَ لسياقِ السّؤال عن حال النّسوةِ وقد أتيْنَ بفعلٍ مُستَهجَنٍ.

الخطْبُ هو حالٌ ظاهرةٌ مخصوصةٌ والبالُ حالٌ باطنةٌ

(1) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 10/352، والآلوسيّ، روح المعاني: 6/447.

(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (بول - خطب)، والرّاغب، المفردات: (بال - خطب)، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (بول - خطب).

﴿قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦۚ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍۚ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝٥١﴾ [يوسف: 51]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

المُبادَرةُ في بَحْثِ المَظالِمِ مَسؤوليّةٌ واجِبةٌ

لمّا ذكر اللّه تعالى في الآية السّابقةِ إباءَ يوسفَ عليه السلام الخروجَ منَ السّجن قبل تبيُّنِ الحقيقةِ بمُساءَلة الملِك للنّسوةِ اللّاتي افْتَتَنَّ به، ذكَر هنا ما فعلَه الملكُ من إحضارهنّ واستجوابهنَّ.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿خَطْبُكُنَّ﴾: أصل (خطب) يدلُّ على مُراجعةِ الكلامِ بين اثنيْنِ بالخطاب، ومنه التّخاطُبُ والمُخاطَبةُ، والخطْبُ هو الشّأنُ الّذي يَكْثُرُ فيه التّخاطُبُ، صَغُر أو عَظُم، واسْتُعمِل في سببِ الأمْر؛ لأنّ مَدارَ مُجاذَبةِ الخِطاب تكون على السّببِ الّذي به حصَل الأمرُ، واستُعمِل في الأمْر الفادِح؛ لأنّه أمرٌ طارئٌ يتطلّبُ التفاتًا خاصًّا هو جَمْعٌ للذِّهنِ والهِمَّةِ في مواجَهَتِه[1].

2) ﴿رَٰوَدتُّنَّ﴾: راودتُهُ على كذا؛ أيْ: أردتُهُ وطلبتُه. والمُرَاوَدَةُ: أن تُنازع غيرَك في الإرادة، فتُريدُ غيرَ ما يُريد، وراوَدْتُ فلانًا عن كذا؛ أيْ: صرفتُه عن رأيه، وعلى ذلك قولُه تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ﴾ [يوسف: 32][2]، ومراودةُ الرّجل امرأةً عن نفسها، أوِ المرأةِ الرّجلَ عن نفسه: هي مجارّةٌ ومجاذبةٌ، فالمُراوِد يحاول جذْبَ الآخرِ مَرّةً بعد مَرّةٍ، وجاء معنى المحاولةِ من صيغة المفاعلةِ ﴿وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِي

(1) الجوهريّ، الصحّاح، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (خطب).
(2) الجوهريّ، الصّحاح، والرّاغب، المفردات: (رود).

﴿هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ﴾ [يوسف: 23]. وكلُّ مُراوَدةٍ في القرآن فهي مُجارّةٌ ومجاذَبةٌ[1].

3) ﴿حَصْحَصَ﴾: من (حصص)، وهو أصلٌ يدلُّ على وضوح الشّيءِ بانكشاف ما يَغمُره، ومنه الحِصّةُ: النّصيبُ والقطعةُ منَ الجُملة، ومنه الحَصُّ: قطعُ الشّيء واستئصالُه من غيره حتّى يَنكشفَ عنه[2].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

ما ضاعَ حقٌّ وراءَه مُطالِبٌ

أحضرَ المَلكُ النّسوةَ وسألهنّ: ما حالُكنّ عند لقائِكُنّ بيوسفَ ومُراوَدَتِكُنّ له يومَ المُتّكَأ المُعرَّف؟ فأجابَتْه النّسوةُ قائلاتٍ - تبرئةً لأنفسهنّ وتبرئةً ليوسفَ -: حاش للّه أنْ نكون راودناه عن نفْسِه، وحاش للّه أنْ نرمِيَ يوسفَ بتهمةٍ أو سوءِ ظَنٍّ، فما علمنا عليه من سوءٍ! فلمّا تمّ استجوابُهنّ، وكانتِ امرأةُ العزيز قد أُحضِرتْ في مجلسِ التّحقيق هذا، فسُئِلَتْ كذلك عن يوسفَ وشأنِها معه، فقالتْ: الآن وأنا أعترفُ يظهرُ الحقُّ الخالصُ، وهو أنّي أنا الّتي راودتُّه عن نفسه، لا غيري، وإنّ يوسفَ منَ الصّادقين المُتنزّهين عنِ الكذبِ والخيانةِ وتُهمةِ السّوء[3].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

مَوقعُ جُملةِ: ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ﴾ ممّا قبْلَه:

طواعيةُ الملِكِ لاقتراحِ يوسفَ عليه السلام دليلٌ على صلاحِه

جملةُ: ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ﴾ استئنافٌ بيانيٌّ ممّا قبْلَه، فإنّه في تقديرِ جوابٍ على سؤالٍ محذوفٍ، كأنّه قيل: ماذا فعلَ الملِكُ

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (رود).

(2) الجوهريّ، الصّحاح: (حصص)، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (حص)، وابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (حصص).

(3) ابن عطيّة، المُحرَّر الوجيز: 3/253، وأبو حيّان، البحر المحيط: 6/287، والبقاعيّ، نظم الدُّرر: 10/125، والآلوسيّ، روح المعاني: 6/448.

بعد أنْ بَلغه اقتراحُ يوسفَ عليه السلام باستجواب النّسوةِ، فأُجيبَ بالآية محلِّ الشّاهدِ[1].

بَلاغةُ الإيجازِ بحذْفِ ما لم يتعلّقْ به غَرَضٌ:

في المهمّاتِ العامّةِ يُقتَصَرُ على بَحْثِ المُهِمّ

بين جملةِ: ﴿ٱرۡجِعۡ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسۡـَٔلۡهُ﴾، وجملةِ: ﴿قَالَ مَا خَطۡبُكُنَّ﴾ كلامٌ محذوفٌ اختصارًا، واقتصارًا على خلاصةِ القصدِ، مع وضوح المحذوفِ وعدمِ إبهامِه أو غيابِه عن ذِهنِ السّامع، وتقديرُ المحذوفِ: (فرجع الرّسولُ، وأبلغَ المَلِكَ بما قال يوسفُ عليه السلام، فاستدعى الملكُ النّسوةَ اللّاتي قطّعن أيدِيَهنّ، ثم قال لهنّ ما قال)[2].

نُكتَةُ إسنادِ المُراودَة إلى ضميرِ النّسْوةِ:

التّعْريضُ بالخصْمِ عندَ إسْنادِ السّوءِ إليهِ

أُسنِدتِ المُراوَدةُ إلى ضمير النّسوةِ في قوله تعالى: ﴿رَٰوَدَتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفۡسِهِۦۚ﴾ مع كوْنِ المُراودةِ واقعةً مِن امرأةِ العزيز لا منهنّ، لتقريرِ بعض الوجوهِ:

أوَّلُها: للاحتمالِ، ومعنى الاحتمالِ: احتمالُ وقوع المُراوَدةِ من جِهتِهنّ يومَ أعتَدَتْ لهنّ مُتّكأً، فلا يُستبعدُ أنْ تكونَ واحدةٌ منهنّ راودَتْه عن نفسِه ساعتَها، فحتّى لو صدَر ذلك من بعضهنّ، فهو صادرٌ - إذَن - من جِهتِهنّ، فأسندَ الضّميرَ إليهنّ؛ لأنّه من جهتهنّ جميعًا، وإنْ لم يكنِ الفعلُ من كُلِّهنّ حصولًا، ووجْهُ ذلك: أنّ المُقرَّ كالفاعِل، فعلى فرْضِ أنّ إحداهنّ فعلتْ، أو بعضَهنّ فعلْن، فالباقياتُ منهنّ أقررنَ ولم يعترِضْن، فصِرْنَ كلُّهنّ بمنزلةِ الفاعِلِ المُباشِر، وحتى على افتراضِ عدمِ ثبوتِ مُراودتِهنّ له أو مراودةِ إحداهنّ له، فقد عرفْنَ جميعُهنّ بمراودةِ امرأةِ العزيز له فجاريْنَها ثمّ أقررْنَها، فكُنَّ بعدم اعتراضِهنّ عليها مُقرّاتٍ بما فعلتْ، والمُقرُّ كالفاعل، فصِرنَ كُلُّهنّ بمنزلَتِها في المراوَدة، وعلى هذا التّخريج صحَّ أنْ يُنسَبَ فِعلُ المُراوَدَةِ إليهنّ.

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/284.
(2) ابن عطيّة، المُحرَّر الوجيز: 3/253.

ثانيها: للاحتيالِ، ومعنى الاحتيالِ: أنْ يكونَ المَلِكُ قد نَسَبَ إليهنّ المُراوَدةَ استنطاقًا لهنّ بالفاعل الحقيقيِّ، كمن يُحقّقُ مع متورّطٍ ثمّ يَتّهِمُه احتيالًا عليه لاستخراج الحقيقةِ فيقول له فيما يصدرُ منه: لِمَ فعلتَ كذا وكذا؟ فيُجيبه: لم أفعل، بل الّذي فعل ذلك فلانٌ، وهذه الطريقةُ من أسلوبِ الحكيمِ في المُفاتَشَةِ والتّحَرّي، فكذلك هنا نسَبَ إليهنّ المُراوَدةَ ليحمِلَهنّ ذلك على استدفاعِ هذه العائبةِ عنهنّ بالتّصريح بالفاعلِ الحقيقيِّ وهي امرأةُ العزيز، ليقطعَ الشّكَّ باليقين، وليكونَ هذا دافعًا له في استدعاء امرأةِ العزيز واستجوابِها، فيَستدْعيها لاشتباهٍ عنده بخلافِ ما لو استَدْعاها من غير ذريعةٍ إلى ذلك، إذْ هي امرأةُ العزيز!

ثالثُها: للاعتبارِ، ومعنى الاعتبارِ: اعتبارُ ما حصلَ منهنّ، وهو حضورُهنّ مجلسَ امرأةِ العزيزِ الّتي أعتدتْ لهنّ مُتَكَأً فيه اعتبارُ ذلك مُراودةً حقيقيّةً؛ إذِ المَراوَدةُ والتّحرّشُ كما يكون بالبدن يكونُ كذلك باللّفظِ، وبإفراطِ الحواسّ في المُلاحظةِ والمُشاهدة، لا سيّما إذا كان ذلك عن شهوةٍ وانفلاتٍ، وهذا مُعتبَرٌ تسْميتُه تحرّشًا ومُراوَدةً في عُرفِ القوانين والدّوَل، فلا جرَمَ أنِ اعتبره المَلِكُ كذلك، وعلى أساسِه نسبَ المُراودةَ إليهنّ[1].

بَلاغةُ الكنايةِ في لفْظَةِ: (المُرَاوَدة):

المُراودةُ في قوله تعالى: ﴿إِذۡ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفۡسِهِۦۚ﴾ كنايةٌ عن طلب إيقاعِ الفاحشةِ. وإسنادُ المُراوَدة لهنّ والمراوِدَةُ واحدةٌ منهنّ جريًا على السَّتر، وتوصُّلًا إلى الإقرار بالحقِّ[2].

عـبَّرَ عـن طلَـبِ إيقاعِ الفاحشةِ بالمراودةِ سِرًّا

إيثارُ التَّعبيرِ بالخَطْبِ في جملةِ الاستفهامِ:

لم يقل في السّياق الكريمِ: (ما حالُكُنّ أو شأنُكنّ إذْ راودتُنّ..)،

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 10/126.

(2) المطعني، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 2/131.

سُؤالُ المَلِك عن الخطْبِ يدلُّ على اشْتهارِ القضيّةِ وذُيوعِها

وإنّما سأل عنِ الخطْبِ فقال: ﴿مَا خَطْبُكُنَّ﴾، لِلدّلالة بذلك على التَّعريض بهنّ والإلماح لهنّ إلى أنّ أمرهُنَّ شائعٌ معلومٌ؛ لأنّه أمرٌ وقع فيه تَخاطُبٌ كثيرٌ، والأمر إذا كَثُر فيه التّخاطُبُ شاعَ، فضمّنَ سؤالَه لفْظًا يُشْعِرهُنّ بعِلْمِه لئلّا يُوارينَ عليه أو يَكْذِبْن، أو يقعَ منهنّ تضليلٌ له، فدلّ إيثارُ هذا اللّفظِ على نوعِ تحذيرٍ منَ المَلِك لهنّ أنْ يَبْهَتْنَ الحديثَ، أو يُجانِبْنَ الاستقامةَ في الاعتراف.

وللدّلالة على أنّ هذا الأمرَ وقعَ فيه خطابٌ وكثرةُ ترديدٍ، فالاستفهامُ عنِ الخطْبِ كنايةٌ عن علانيةِ الأمرِ وعدمِ خفائِه.

وكذلك فإنّ السّؤالَ عنِ الخَطْبِ هو سؤالٌ عن سببِ الأمر، فهو سؤالٌ عنِ السّبب الّذي أدّى لكيفيّة الحال، فكأنّه بسؤاله عنِ الخطبِ يَستجوِبُهم بما يقتضي الإحاطةَ بتمامِ الأمرِ وكمالِه.

وفيه أيضا الإلماحُ إلى الشّأن الفادحِ والأمر العائبِ؛ لأنّ الخَطْبَ بقرينة السّياقِ مَقولٌ هنا فيما هو مُستهجَنٌ ومُستنكَرٌ.

ومجيءُ المسؤول عنه بصيغةِ المصدرِ (خطْب) دليلٌ على أنّه يَستجوِبُهم في الأصل الثّابتِ للواقعة، الّذي لا إشكالَ يَعتريه، ولا خلْطَ يَشوبُه[1].

فائدةُ الظّرفِ ﴿إِذْ﴾ ومتعلَّقِه:

إيقاعُ التَّحْقيقاتِ على الدِّقّةِ في التّفاصيلِ

﴿إِذْ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِذْ رَاوَدتُّنَّ﴾ ظرفٌ لِما مضَى منَ الزّمان، وهو متعلِّقٌ بـ ﴿خَطْبُكُنَّ﴾؛ لأنّه في معنى الفِعل الماضي، والجملةُ بعده ﴿رَاوَدتُّنَّ﴾ في محلّ جرٍّ مُضافٍ إليه؛ أيْ: ما فعلتُنّ به في ذلك الوقت الّذي راودتنَّه فيه، فَجيءَ بـ ﴿إِذْ﴾ تعليقًا للحادثة الماضيةِ به[2].

(1) الجوهريّ، الصحّاح، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (خطب)، والبقاعيّ، نظم الدُّرر: (10/126)، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (خطب).

(2) الخطيب، التّفصيل في الإعراب: 6/300.

دَلالةُ ﴿عَن﴾ في تركيبِ: ﴿عَن نَّفۡسِهِۦۚ﴾:

انْتِهاكُ حُرْمةِ الإنسانِ ومُجاوَزةُ اخْتِيارِه إثْمٌ عظيمٌ

جاءت ﴿عَن﴾ في قوله تعالى: ﴿رَٰوَدَتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفۡسِهِۦۚ﴾؛ للاستعلاء المجازيِّ ويقترنُ بها أصلُ معناها في دلالتها على المُجاوَزة، كأنّه قيل: راودتُنَّه على نفسِه؛ أيْ: مُغالبَةً ورغْمًا، لأنّ المُراوِدَ كأنّه استعلى على إرادةِ المُراوَد حين يُراوِدُه فكأنّما استعلى على نفسِه، وإنّما عبّرَ بحرف المُجاوزَة ﴿عَن﴾ للدّلالةِ على عدم اكتراثِهنّ برفضِه وعدم رضاه، فكأنّما جاوَزْنَ حُرمَتَه ورِضا نفْسِه بلا مُبالاةٍ وعدمِ اعتبارٍ؛ أيْ: جاوزْنَ نفْسَه وابتعدنَ عن رعايتها بسببِ المراوَدَة، والمجاوزةُ هنا مجازيّةٌ[1].

موقعُ جُملةِ ﴿قُلۡنَ حَٰشَ لِلَّهِ﴾ ممّا قبْلَها:

الجوابُ يكونُ على محلِّ السّؤالِ لا فيما خَرجَ عنه

جملةُ: ﴿قُلۡنَ حَٰشَ لِلَّهِ﴾ استئنافٌ بيانيٌّ واقعةٌ جوابًا لسؤالٍ مُقدَّرٍ محذوفٍ، كأنّه قيل: فبماذا رَدَدنَ على المَلِك لمّا سألَهُنّ: ﴿مَا خَطۡبُكُنَّ إِذۡ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفۡسِهِۦۚ﴾، فأُجيبَ بذلك[2].

بَراعةُ الاسْتِهلال في جملةِ: ﴿حَٰشَ لِلَّهِ﴾:

من حَقِّ المتّهَمِ أنْ لا يُعارَضَ في دفاعِه عن نفسِه

جملةُ: ﴿حَٰشَ لِلَّهِ﴾ عبارةُ تنزيهٍ ومدح واستبعادٍ لِلشَّيْن، كجملة: (معاذ اللّه)، وفي افتتاح جوابِهنّ بها براعةُ استهلالٍ تمهيدًا لمضمون الجوابِ بقول: ﴿مَا عَلِمۡنَا عَلَيۡهِ مِن سُوٓءٖۚ﴾، فافتتاحُ الجواب بها مَسوقٌ مَساقَ التّنبيه والتّمهيدِ لِما بعده، ومجيءُ تركيب: ﴿حَٰشَ لِلَّهِ﴾ قبل تركيبِ: ﴿مَا عَلِمۡنَا عَلَيۡهِ مِن سُوٓءٖۚ﴾ كمجيءِ التّخْليةِ قبل التّحْلية، فـ﴿حَٰشَ لِلَّهِ﴾ تخليةٌ للأذهان من أدنى ظنٍّ واحتمالٍ مَشِينٍ به في كلّ حالٍ، و﴿مَا عَلِمۡنَا عَلَيۡهِ مِن سُوٓءٖۚ﴾ تحليةٌ للنّفوسِ بتقرير براءتِه وتثبيتِها في الواقعة محلِّ التّداوُلِ، وهو من حُسْنِ أمانتِهنّ مع إفادةِ عدمِ التّردّدِ منهنّ – طرفَةَ عيْنٍ – في تبرئةِ يوسفَ عليه السلام[3].

(1) ابن هشام، أوضح المسالك: 3/40.
(2) صافي، الجدول: 13/6.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/134، والخفاجي، عناية القاضي: 5/174.

تَوجيهُ تركيبِ: ﴿حَٰشَ لِلَّهِ﴾ في الموضعَيْن:

(حاشَ لله) عبارةُ تنزيهٍ ومدحٍ واستِبْعادٍ لِلشَّيْن

في قوله تعالى: ﴿حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ﴾ يصحُّ إجراءُ (حاشَ) فيها فعلًا ماضيًا مبنيًّا على الفتح المُقدّرِ على الألف المحذوفةِ، ومعناه التّنزيهُ؛ أيْ: بَعُدَ أو تَنَزّه، وفاعلُه الضّميرُ العائدُ على يوسفَ، و﴿لِلَّهِ﴾ اللّامُ فيه للتّعليل، والتّقديرُ: حاشَ يوسفُ عن المَعصيةِ لأجل اللّه أيْ: بَعُدَ وتَنَزّه عنِ المعصيةِ لأجل اللّه. أمّا ﴿حَٰشَ لِلَّهِ﴾ [يوسف: 31] في قوله تعالى: ﴿وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾﴾ [يوسف: 31]، فيتعذّرُ فيه أن تكون ﴿حَٰشَ﴾ فِعلًا، لتعسُّفِ تأويلِها فعلًا ماضيًا على نحو معنى الفِعليّة في ﴿حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ﴾، فتُجرَى اسْمًا للتّنزيه في محل نصبٍ نيابةً عنِ المفعول المطلقِ، ولامُ ﴿لِلَّهِ﴾ [يوسف: 31] للبيان؛ أيْ: تنزيهًا كائنًا للّه؛ لأنّ غرَضَ قولهنّ ﴿حَٰشَ لِلَّهِ﴾ [يوسف: 31] في موضع الوُرودِ الأوّل ليس تبرئةَ يوسفَ أو تنزيهَه عن شيء، بلِ المُرادُ تنزيهُ الإله ﷻ تعجُّبًا واستعظامًا لإبداعه سُبحانه في خِلْقةِ يوسفَ، وتمام بهائه وجمالِه، ولذا كان تمهيدًا لقولهنّ: ﴿مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾﴾ [يوسف: 31]، وأمّا في موضع الورود الثّاني فيصحُّ تأويل ﴿حَٰشَ﴾ على الفعليّة لكون يوسفَ هو المُنَزّهُ، ولذا كانت عبارتُهنّ تمهيدًا لقولهنّ بعده ﴿مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ﴾[1].

معنَى اللّامِ المُسنَدةِ إلى اسمِ الجلالةِ:

النّسوةُ كُنّ يَعْرِفْنَ الله ويفْقَهْنَ ما يَكرهُه تعالى وما يُسْخِطُه

اللّام في ﴿لِلَّهِ﴾ من قوله تعالى: ﴿قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ﴾ بيانيّةٌ، على اعتبارِ أنّ ﴿حَٰشَ﴾ مصدرٌ. فهي اسمٌ للتّنزيه، بمعنى تنزيهًا للّه، أوِ اللّامُ للتّعليل على اعتبار أنّ ﴿حَٰشَ﴾ فعلٌ ماضٍ بمعنى التّنزيه؛ أيْ: تنزّه عنِ السّوء لأجل اللّه، وهذه أظهرُ الوجوه وأخْلاها منَ التّعقيد في هذا التّركيبِ[2].

(1) ابن هشام، مغني اللّبيب: 2/252: 6/652.
(2) الخطيب، التّفصيل في الإعراب: 6/265.

إيثارُ النَّفْيِ بـ ﴿مَا﴾ خاصّةً في ﴿مَا عَلِمْنَا﴾:

في مَقامِ الاتِّهامِ يُؤْتَى بأبلَغِ الألفاظِ وأَوْكَدِها

أوثِرَ النَّفيُ بـ ﴿مَا﴾ دونَ غيرِها من أدوات النَّفي كـ(لم) و(لا)؛ لدلالةِ (ما) على نفي الماضي القريبِ؛ أيْ: نفيِ الحالِ القريبةِ الماضيةِ، والسّياقُ هنا عن واقعةٍ قريبةٍ في حالٍ خاصّةٍ مضَتْ لكنّها ما زالتْ قيدَ التّحقيق، ولذا جاء النَّفيُ بـ ﴿مَا﴾، فقولُه تعالى: ﴿مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ﴾؛ أيْ: في حالنا المعهودةِ معه فيما يخصُّ تلك الواقعةَ، إذْ ليس لهنّ حالٌ معه غيرُها، وأمّا النّفيُ بـ (لم)، و(لا) فغيرُ مُتأتٍّ هنا لدخولِ الأداتيْن على المضارعِ، فيُقال: (لا نعلم عليه سوءًا، ولم نعلم عليه سوءًا)، وأمّا (ما) فتدخلُ على الماضي والمضارع، فهي أوسعُ، فإذا دخلتْ على الماضي فلِنفيِ الحالِ الماضيةِ القريبة، وإذا دخلت على المضارع فلِنفْيِ الفعلِ في الحال، ولاتّساعِها كان النَّفيُ بها أوْكدَ، ولذا كثُر اقترانُ مدخولِها المَنْفيّ بـ (مِنْ) الاستغراقيّةِ. وكذلك في مجيءِ النَّفي (ما) إيثارٌ لإجراء الفعلِ على صيغة الماضي تحقيقًا للفعلِ المَنْفيِّ وتناسُبًا مع المَقام، إذْ هو في واقعةٍ مُعيَّنةٍ ماضيةٍ، وأمّا النَّفيُ بـ (لم) وإنْ كان يَنفي الماضيَ، بقلبِ المضارع لزمن المُضِيِّ، إلّا أنّه ستتحوّلُ صيغةُ الفعل معه منَ الماضي كما هو في السّياقِ إلى المضارع (لم نعلم)، وقد سبقَ أنّ لمجيءِ الفعل على صيغة الماضي قصدًا يتعلّقُ بالمقام، وأنّ صيغةَ الماضي أقطعُ هنا وأوْكدُ في نفيِ التّهمة عنه، فضلًا عنْ أنّ (لم) لا تختصُّ بواقعٍ معيَّنٍ في الزّمن الماضي، فصار النَّفيُ بها أقلَّ توكيدًا وذريعةً لتغيير صيغةِ الفعل المنفيِّ في النّظم، وأبعدَ عن موافَقةِ المقامِ في إرادة نفْيِ الحال القريبةِ في الماضي، وكذلك النَّفيُ بـ (لا نعلم) غيرُ سديدٍ؛ لأنّها ستُغيّرُ الفعلَ المنفيَّ في النّظم إلى المضارع، ونفيُها حينئذٍ لن يكونَ له علاقةٌ بالزّمن الماضي الّذي يدورُ حولَه الحِوارُ الحاصلُ[1].

(1) السّامرّائيّ، معاني النّحو: 4/193.

فائدةُ ﴿مِن﴾ في قوله: ﴿مِن سُوٓءٍ﴾:

تَبْرِئَةُ النِّسْوةِ ليوسفَ تَبْرِئَةٌ عامّةٌ وتامّةٌ

﴿مِن﴾ في قوله تعالى: ﴿مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ﴾ هي (مِنْ) الاستغراقيّةُ، وهي صِلةٌ تُساقُ لتأكيد النَّفْي، ومعنى استغراقِها: إفادتُها لعموم النَّفي وشُموله؛ أيْ: ما علمْنا عليه من سوءٍ أدنى سوءٍ، ولو شيئًا ضئيلًا منَ السّوء، فهو مَنفيٌّ عنه من جميع الوجوه، وفائدةُ ﴿مِن﴾ هنا المبالغةُ في نفْيِ السّوءِ عنه، وإثباتُ مفهومِ النَّفي من تحقُّقِه بالفضيلةِ البالغةِ والأدبِ العالي[1].

نُكتةُ تَنكيرِ لفْظِ السّوءِ:

النِّسْوةُ كُنّ ذواتِ عَدْلٍ وحِكمةٍ في شهادَتِهنّ

تنكيرُ لفظِ ﴿سُوٓءٍ﴾ في قوله تعالى: ﴿مِن سُوٓءٍ﴾، ولم يَقُلْ: (مِنَ السّوء)؛ لإفادة العموم والشّمولِ، فكلُّ خَصْلةٍ من خصالِ السّوءِ مَنفيّةٌ عنه صغُرتْ أم كَبُرتْ[2].

نُكتةُ إيثارِ التركيبِ بنفْيِ السّوء:

إثباتُ المناقِبِ لا يَقْتَضي نَفْيَ المَعايِبِ

جاءت تبرئةُ النّسوةِ ليوسف بنَفْيِ السّوء عنه، لا بإثباتِ الخيرِ له، فلم يَقُلْنَ (ما علمنا عليه إلّا خيرًا)، وإنّما قُلْنَ: ﴿مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ﴾ ذلك أنّ الأبلغَ في هذا المقامِ هو نفْيُ السّوء من جميع الوجوهِ، لا إثباتُ الخيريّةِ، وذلك من وجهَيْن:

الأوّلُ: لِمُطابقةِ السّؤال مع الجواب، فإنّ سؤالَ المَلِك لهنّ تضمّن إلقاءَ تُهمةٍ، فاقتضى ذلك أن يأتيَ الجوابُ بنفي التّهمة، إذِ المُتّهَمُ مشغولٌ بدفْعِ المعايبِ قبلَ إثباتِ المناقبِ، وهذا من فِقْه المُجيبِ، وهنّ فعلْن ذلك في الجواب، فقد نَفَيْنَ التّهمةَ عن أنفسِهنّ بقولهنّ ﴿حَٰشَ لِلَّهِ﴾؛ أيْ: نتنزّه عمّا اتُّهِمْنا به، ثم نَفَيْنَ التّهمةَ عن يوسفَ، لئلّا يُظَنّ أنّهنّ يتّهِمْنَ يوسفَ بدفْعِ الاتّهام عن أنفسِهنّ، فنَفَيْنَ عنه كذلك قائلين: ﴿مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ﴾.

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/284.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 10/126.

الوجهُ الثّاني: أنّ إثباتَ المناقبِ لا يقتضي نفيَ المعايب، فقد يُخطئُ الفاضِلُ، وقد يُخفِي عنِ النّاس السّوءَ فلا يُعلَم عنه إلّا الخيرُ، وقد يجمعُ إلى مناقبه سوءًا في خَصلةٍ أو فِعل، لا سيّما في باب معاملة الرِّجال مع النِّساء، ولذا كان نفيُ السّوء عنه من جميع الوجوه - لا سيّما في هذا الباب - هو إثباتٌ للخيرِ له من جميع الوجوه، وليس العكسَ[1].

بَلاغةُ الفصْلِ في: ﴿قَالَتِ ٱمۡرَأَتُ﴾:

حُضورُ النّسْوةِ اسْتَلزمَ إحضارَ امرأةِ العزيزِ

جملةُ: ﴿قَالَتِ ٱمۡرَأَتُ ٱلۡعَزِيزِ﴾ مستأنفةٌ حكايةً لجوابِ طَرَفٍ آخَرَ متورّطٍ في القضيّة، وهي امرأةُ العزيز، ولذلك فُصِلَتِ الجملةُ عمّا قبلَها، ولم تُوصَل بالعطف، للتّنبيه على وُرودِ جوابيْنِ على سؤال الملِك، جوابِ النّسوة، وجوابِ امرأةِ العزيز، والجوابان مَحكيّان باستقلالٍ وتمايُزٍ. أوِ الجملةُ استئنافٌ بيانيٌّ، كأنّه لمّا ساق جوابَ النّسوةِ سأل سائلٌ: وأين جوابُ امرأةِ العزيز الّتي هي أصلُ القضيّة؟ فسِيقَ جوابُها[2].

سِرُّ التّعبيرِ بلفظِ ﴿ٱمۡرَأَتُ ٱلۡعَزِيزِ﴾:

تَجنُّبُ التّصْريحِ تَكرُّمًا، وتأدُّبًا، وحَياءً

آثرَ التّعبيرُ القرآنيُّ لفْظَ ﴿ٱمۡرَأَتُ ٱلۡعَزِيزِ﴾ ولم يُصرّحْ بذِكْر اسمِها، تكرّمًا وحياءً، وتأدّبًا واحترامًا[3] وفي وصْفِها بأنّها امرأةُ العزيز في موضع الإقرار بالذّنبِ إعلاءٌ لشأنِها، إذ لم تمنعْها مكانتُها وعلوُّ قدْرها من أن تعترف بخطئِها.

دَلالةُ استهلالِ الجوابِ بتقديمِ الظّرْفِ:

التّقديمُ بين يدَيِ الاعترافِ بما يُفيدُ القطْعَ بصِحَّتِه

قولُه تعالى: ﴿ٱلۡـَٔـٰنَ حَصۡحَصَ ٱلۡحَقُّ﴾ مَقولُ قولِ امرأةِ العزيز في جوابها على سؤال المَلِك، واستهلّتْ جوابَها بظرفِ الزّمان

(1) ابن عطيّة، المُحرَّر الوجيز: 3/253.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 10/126، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/291.
(3) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 10/115.

الحاضرِ ﴿ٱلۡـَٔـٰنَ﴾، لإفادة اختصاصِ المُتعلَّقِ بالظّرف وهو الفعلُ ﴿حَصۡحَصَ﴾؛ يعني: اختصَّ الوقتُ الحاضرُ ﴿ٱلۡـَٔـٰنَ﴾ بتميُّزِ جانبِ الحقّ من جانب الباطلِ، وكان قبْلَ هذا الوقتَ غيرَ بائنٍ ولا جليٍّ، ويصحُّ أنْ يدلَّ تقديمُ الظّرف على القصْرِ باعتبار أنّه لم يتعيّنِ الحقُّ للمَلِك في هذه القضيّة إلّا الآن، فهو قصرُ تعْيينٍ، إذْ لم تكن براءةُ يوسفَ مُتعيِّنةً في اعتقاد المَلِك قبلَ هذا الوقتِ[1].

إيثارُ لفْظِ ﴿حَصۡحَصَ﴾ على (ظَهَرَ):

الحقُّ مَقْطوعٌ عنِ الباطلِ بتمامِ ظُهورِه وعدمِ التِباسِه

لم يقل في السّياق الكريم: (الآن ظهر الحقّ)، ولا بغيرِه منَ الألفاظِ كـ(بان)، و(بدا)، وإنّما آثَر التّعبيرَ بلفظٍ فريدٍ فذٍّ، وهو ﴿حَصۡحَصَ﴾، للدّلالةِ على شِدّة التّنازُعِ والاختلاطِ الّذي كان بين الحقّ والباطلِ في تلك القضيّة، حتّى خُلِّصَ أحدُهما منَ الآخَر فصار الحقُّ في حِصّة؛ أيْ: في نِصابٍ مُستقلٍّ، والباطِلُ في حصّةٍ؛ أيْ كلٌّ منهما صار قِطعةً منفصِلةً عنِ الآخَر بعد أنْ كانا جُملةً باشتباهِهما واعتراكِهما، ثمّ الدّلالةِ بعد ذلك على ثبوت الحقِّ وتمكّنِه واستقرارِه، بانقطاعه عنِ الباطل، واستئصالِ الباطل عنه، إذْ لا تكونُ الحِصّةُ إلّا بإزالتِها واستئصالِها عن غيرها، وهو ما يُؤذِنُ أيضًا بمعنى القوّة والمُبالغةِ في ظهور الحقِّ وانكشافِ الباطل لِثبوت الحدِّ القاطعِ بينهما[2].

فنُّ الفرائدِ في اختيارِ لفْظِ ﴿حَصۡحَصَ﴾:

نظْمُ القُرآنِ كلِّه فريدٌ

في قوله تعالى: ﴿ٱلۡـَٔـٰنَ حَصۡحَصَ ٱلۡحَقُّ﴾ فنُّ الفرائدِ، إذ إنّ لفظةَ ﴿حَصۡحَصَ﴾ فريدةٌ من نوعِها لا نظيرَ لها في قوّة الفصاحةِ[3].

(1) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 10/354، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/291.
(2) الجوهريّ، الصحّاح: (حصص - ظهر)، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (حص - ظهر)، وابن منظور، لسان العرب: (حصص - ظهر)، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/285، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (حصص - ظهر).
(3) عفيف، الشّامل: 2/86.

بَلاغةُ الاستعارةِ في لفْظِ ﴿حَصْحَصَ﴾:

الحقّ له حدٌّ ومِعْيارٌ يُضبَطُ ويُوزَنُ به كي لا يَلْتبِسَ

استعمالُ الحصحصةِ في جانب الحقِّ بجعلِ الحقّ حِصّةً، فيه استعارةٌ تبعيّةٌ، إذ شبّهَ الحقَّ في انكشافه وظهورِه بحِصَصِ الأراضي الّتي تُفصَلُ بالحدود والمَقاييس، وهو من تشبيه المعقولِ بالمحسوسِ، أوِ استعارةٌ تمثيليّةٌ في التّركيب، حيث شبّهَ ثبوتَ الحقّ بظهورِه على الباطل بالأنصِبةِ والحدودِ والحِصَصِ الثّابتة لأعيانِ المُمتلكاتِ كحصص الأراضي في ثبوتِ أحقّيّتِها لأصحابها على مَنْ يدَّعيها ولا يَملِكُها[1].

التّعبير بالرُّباعيِّ المُضاعَفِ وإضافته إلى الحقّ:

الحقُّ سَهلٌ في مأخَذِه متينٌ في ثُبُوتِه وتمكُّنِه

لفظُ ﴿حَصْحَصَ﴾ رباعيٌّ مُضاعَفٌ، أصلُه منَ الثّلاثي (حصّ - حصَصَ) وزِيد فيه بالتّضعيف فصار (حصّصَ) بثلاث صاداتٍ متواليةٍ؛ الأُولى: عينُ الفِعل، والثّانية: مزيدةٌ، والثّالثة: لامُ الفعل، ولاستثقالِ توالي ثلاثةِ أمثال، لا سيّما عند الاتّصال بالضمائرِ (حصّصْتُ = حصْصَصْت) حُوِّلَتْ إلى صيغة خفيفةٍ (حصحصت) بإبدال الفاء الثّانية حاءً، ونُكْتةُ هذا التّركيبِ في إسناده إلى الحقّ تظهرُ في ثلاثة أمورٍ:

الأوّلُ: في تضعيف المادّةِ بالزّيادة اللّفظيّةِ فيها، وزيادةُ المَبنَى تُفيد زيادةَ المعنى، فيدلُّ على المبالغةِ والزّيادةِ في إظهار الحقّ وانكشافِه.

الثّاني: في تَكرار المقطعِ الصّوتيِّ (حص - حص) فهو يدلُّ على تَكرار المعنى، فيُصوّرُ أنّ للحقّ جَولاتٍ مُتكرّرةً مع الباطل في هذه القضيّة بين امرأة العزيز ويوسفَ عليه السلام حتّى استبدّ الحقُّ بالباطل في النّهاية، فتَكرارُ المقطعِ الصّوتيِّ في اللّفظ يُصوّرُ حركةَ الحقّ المُتواليةَ وكثرةَ ترديدِه بما يدلُّ على تجدّدِه وأنّه نَشِطٌ دائمًا في

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/285.

صراعِه واعتراكِه مع الباطل، وتَكرارُ المقطعِ (حص - حص) يُؤذِنُ بمعنى التّحدّي والعزمِ والتّصميمِ على تحقيق معنى الفِعل، وهذا يُؤذِنُ بمعنى القوّة والشّدّةِ والسّرعةِ في إتمام الانكشافِ والظّهورِ من جميع الوجوه.

الثّالثُ: الجَرْسُ الصّوتيُّ النّاعمُ لمادّة (حصحص) فإنّه برغْمِ تضعيفِها وتَكرارِ الحروف فيها، إلّا أنّ صوتَ اللّفظ سهلٌ في مأخَذِه نُطْقًا وسَمْعًا، لخِفّة حركاتِ اللّفظ ورقّةِ حروفِه، فتَكرارُ المقطعِ وإنْ كان يُصوّرُ معنى الاحتكاكِ والاصطكاكِ بين الحقّ وضِدّه، إلّا أنّ عذوبةَ اللّفظ وسلاستَه في الإيقاعِ الصّوتيِّ تُشعِرُ بأنّ اعتراكَ الحقّ مع الباطل هو اعتراكٌ بأدْنى مُلابسةٍ، فالحقّ يُغالِبُ الباطلَ بتمكّنٍ وقوّةٍ بالغةٍ تجعلُ إزاحتَه للباطل سَلِسَةً يسيرةً كسلاسةِ لفظِ ﴿حَصۡحَصَ﴾ في التّلفّظِ به برغم التّضاعيفِ الّتي فيه[1].

فنُّ (إرسالِ المَثَل) في تركيبِ: ﴿ٱلۡـَٰٔنَ حَصۡحَصَ ٱلۡحَقُّ﴾:

قولُه تعالى: ﴿ٱلۡـَٰٔنَ حَصۡحَصَ ٱلۡحَقُّ﴾ تركيبٌ جرَى مجرَى الأمثالِ في حِكَمَتِها وإحكامِها، فهو مثَلٌ سائرٌ مُطّرِدٌ في معناه وصالحٌ لترديده في كلّ موقفٍ ومقامٍ يُناسِبُه، كما تُردَّدُ الأمثالُ في كلّ ما يُناسبُها من مجالٍ وحالٍ، وإرسالُ المثلِ من الفنونِ اللّفظيّةِ البديعةِ الّتي تدلُّ على رجاحةِ النّاطِقِ به وتمامِ خبرتِه وحكمتِه الّتي استأهلَ بها أنْ ينطِقَ بالمُختار منَ الألفاظ والتّراكيبِ، فمجيءُ التّركيب على تلك الصّيغةِ شهادةُ مدْحٍ لامرأة العزيزِ بالحكمةِ والنّباهةِ[2].

في كلِّ آنٍ يَصحُّ أن يُقالَ (الآن حصحص الحقّ)!

دَلالةُ التّعبيرِ بصيغةِ الماضي في ﴿حَصۡحَصَ﴾:

أفاد التّعبيرُ بصيغةِ الماضي في قوله تعالى: ﴿حَصۡحَصَ ٱلۡحَقُّ﴾ سرعةَ الحقِّ في تحقُّقِه مع سرعة انقضاءِ الباطل وزوالِه، وفي

الحقُّ ثابتٌ في نفسِه ثُبوتَ الماضي في تحقُّقِه

(1) الجوهريّ، الصحّاح: (حصص)، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (حص)، وابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (حصص)، وصافي، الجدول: 13/7.

(2) الحمويّ، خزانة الأدب: 1/186.

صيغة الماضي إيماءٌ إلى أنّ الحقّ ثابتٌ في نفسِه ثبوتَ الزّمنِ الماضي في تحقُّقِه. وفي إجراء لفْظِ ﴿حَصْحَصَ﴾ بصيغة الماضي خِفّةٌ لفظيّةٌ صوتيّةٌ، بخلافِ ما لو عبّرَ بصيغة المضارع لكان هناك ثِقَلٌ غيرُ مُسْتحسَنٍ.

دَلالةُ الجمْعِ بين ظرْفِ الحاضرِ والزّمنِ الماضي:

الحقّ قديمٌ في ثُبوتِه، مُتجدّدٌ في ظهورِه وانْكشافِه

لفظُ ﴿ٱلْـَٔـٰنَ﴾ ظرفٌ للوقت الحاضرِ، وهو متعلَّقٌ بالفعل الماضي في قوله تعالى: ﴿ٱلْـَٔـٰنَ حَصْحَصَ﴾، والجمعُ بين الظّرفِ الحاضرِ والزّمنِ الماضي، للدّلالةِ على أنّ الحقّ مُتحقِّقٌ سَلَفًا واستمرَّ حُصولُه إلى الوقت الحاضرِ، فالجمعُ بين الزّمانَيْن للدّلالة على اتّصالِهما، أوِ الجمْعُ بين الحاضر والماضي على معنى: أنّه تمّ ظهورُ الحقّ الآن في زمن التّكلُّم الحاضر؛ أيْ: انقضى ظهورُه وتمّ حصولُه، فظرفُ ﴿ٱلْـَٔـٰنَ﴾ في الآية المقصودِ به زمنُ تكلُّم امرأةِ العزيز بقولها: ﴿ٱلْـَٔـٰنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ﴾ لا زمنُ شهادةِ النّسوة واعترافِهنّ بقولهنّ: ﴿مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ﴾[1].

بَلاغةُ تَقديمِ المُسنَدِ إليه على المُسنَدِ الفعلِّي:

وُضوحُ الجاني في إقرارِه يُغلِقُ بابَ البَحْثِ في القضيّةِ

اسْتَتَمَّتِ امرأةُ العزيز جوابَها ببيان الحقِّ وتفسيرِه الّذي عبّرتْ عنه بقوله: ﴿ٱلْـَٔـٰنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ﴾، فقالت: ﴿أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ﴾ بتقديم ضميرِ المُتكلّم على الفعل، وهو تقديمٌ للمُسنَد إليه على المُسْنَد (الفعل)، إقرارًا منها على نفسِها بتعيين ذاتِها بضميرِ ﴿أَنَا۠﴾ لإفادة الاختصاصِ وقصْرِ التّعْيين؛ أيْ: أنا لا غيري راودتُه، ففيه تبرئةٌ للنّسوةِ من مُراودة يوسفَ وقَصْرُ ذلك عليها وحدَها، وفي سوْقِ اعترافِها على هذا التّركيبِ: ﴿أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ﴾ مُدافَعةٌ لِنسبةِ المُراودةِ إلى النّسوةِ في سؤال المَلِك بقوله: ﴿مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ﴾، وتأكيدٌ لمضمون اعترافِ النّسوة بقولهنّ: ﴿حَٰشَ لِلَّهِ﴾،

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/285، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 10/354.

وتقريرٌ له، فإنّ جملةَ ﴿حَٰشَ لِلَّهِ﴾ يترجّحُ أن تكونَ منهنّ دِفاعًا عن أنفسِهنّ بدفْعِ نِسبةِ المُراوَدة إليهنّ، فهو في معنى (حاش للّه أنْ يصدر منّا مراودةٌ ليوسفَ، فنحن لم نفعل ذلك)، وعلى هذا فجُملة ﴿حَٰشَ لِلَّهِ﴾ في جوابهنّ تبرئةٌ لأنفسهنّ، والجملةُ الثّانيةُ في جوابهنّ ﴿مَا عَلِمۡنَا عَلَيۡهِ مِن سُوٓءٖۚ﴾ تبرئةٌ ليوسفَ، ويكونُ قولُ امرأة العزيز: ﴿أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ﴾ إقرارًا ببرائتِهنّ على إقرارهنّ لأنفسهنّ بالبراءةِ في ﴿حَٰشَ لِلَّهِ﴾[1].

نُكتةُ فصْلِ جُملةِ: ﴿أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ﴾ عمّا قبلَها:

جملةُ: ﴿أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ﴾ استئنافٌ بيانيٌّ، كأنّه لمّا قالت: ﴿ٱلۡـَٰٔنَ حَصۡحَصَ ٱلۡحَقُّ﴾ سأل سائلٌ: كيف ذلك؟ فقالت: ﴿أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ﴾، وجملةُ الاستئنافِ البيانيِّ لا تُوصلُ بالعاطف، ولذلك فُصِلتْ، ويصحُّ أن تكونَ جملةُ: ﴿أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ﴾ تعليليّةً لِما قبلَها، في معنى: حصحص الحقُّ الآن بسببِ أنّي أنا الّتي راودْتُه[2].

الإقرارُ الواضحُ دليلٌ على الاختيارِ وعدَمِ الإكراهِ

مَوقعُ جُملةِ ﴿وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ ممّا قبلَه:

جملةُ ﴿وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ معطوفةٌ على جملةِ ﴿أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ﴾ انتقالًا منَ الحُكمِ على نفسِها بالذّنْب إلى الحُكم على يوسفَ بالبراءة، تتْميمًا للاعترافِ باستيفاء طَرَفَيْه، ولذلك وُصِلَتْ مع الجملة قبلَها، لاشتراك الجُملتَيْن واتّصالِهما في حيِّزِ الجوابيّةِ والاعترافِ[3].

شهدتْ له بالصِّدْقِ الكامِلِ كما شهِدَ له السّاقي بذلك من قبْلُ

تَوجيهُ التَّعبيرِ بلفْظِ ﴿ٱلصَّٰدِقِينَ﴾:

إنّ التّعريفَ في ﴿ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ تعريفُ الجنسِ، لإفادة أنّ يوسفَ عليه السلام واحدٌ منَ الفئةِ الّتي تُعرَف عند النّاسِ بفئةِ الصّادقين، فهو من قَبيلِ الكنايةِ بطريقِ إثباتِ الشّيء بإثبات مَلزومِه، ذلك أنّ وجودَه

هذا الوصْفُ يجمعُ بين شرَفِ النّسبةِ وشرَفِ الاتّصافِ الذّاتيِّ

(1) ابن عطيّة، المُحرَّر الوجيز: 3/253، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 10/354.
(2) الخطيب، التّفصيل في الإعراب: 6/301.
(3) الخطيب، التّفصيل في الإعراب: 6/302.

ضِمنَ الصّادقين يلزمُ عنه أن يكون صادقًا، ولا يلزمُ العكسُ، فقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ استدلالٌ على صِدقِه، فكان وصْفُه بأنّه منَ الصّادقين أبلغُ من وصْفِه بأنّه صادقٌ، فالوصفُ الأوّلُ يجمعُ بين شرفِ النّسبةِ وشرَفِ الاتّصافِ الذّاتيِّ، والوصْفُ الثّاني مقتصِرٌ على الاتّصافِ الذّاتيِّ فقط، فكان الأوّلُ أبلغَ، وهو ما خُتِمَتْ به الفاصِلةُ[1]. ويزيدُ المبالغةَ في الوصف صوْغُه على هيئة اسْمِ الفاعل الدّالِّ على عراقَةِ الموصوفِ في الصّدْقِ، واستحكامِ صِفةِ الصّدقِ فيه، مع ثبوتِها فيه ودوامِها صادقًا صدِّيقًا.

بَلاغةُ حشْدِ المُؤكِّداتِ في الاعترافِ:

يُؤكِّدُ الإقرارُ في الجنايةِ بما يَحْسِمُ مادّةَ النّزاعِ

سيقَ اعترافُ امرأةِ العزيزِ في النّظمِ مَثبوتًا بتأكيداتٍ شتّى، وفائدةُ سياقِه بتأكيداتٍ متعدّدةٍ، لإفادةِ أنّ هذا الاعترافَ قد صدرَ منها عن تمامِ اقتناعٍ وكمالِ اختيارٍ، وقد صدر عنها في لحظةِ صِدْقٍ وندمٍ، ولذا ساقتْه بأتمِّ وجوه الإقرارِ، لإفادة أنّه إقرارٌ مُثَبَّتٌ عن وعْيٍ واختياريّةٍ تامّةٍ، فلا يصحبُه تردّدٌ، ولا تَعتريه شُبهةٌ، ولا يلتبِسُ شيءٌ فيه على أحدٍ، فهو حقُّ اليقين. وأوّلُ هذه المؤكِّدات: تقديمُ ضميرِ المُتكلِّم ﴿أَنَا۠﴾، وتصديرُ شهادتها ليوسفَ بحرف التّأكيد في ﴿وَإِنَّهُۥ﴾ والجملةُ الاسميّةُ، وذِكْرُ المُسنَدِ إليه مرّتيْن، مرّةً بكونِه مُبتدأً، ومرَّةً بكونه فاعلَ الفعل، وتأكيدُ الخبرِ باللّام ﴿لَمِنَ﴾، وإلحاقُه بزُمرة الصّادقين، فلم تقل: وإنه لصادق، مُبالغةً في تزكيتِه وتبرئتِه بحسبِ ما ذُكرَ آنفًا[2].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(حَصْحَصَ) و(ظَهَرَ):

(حَصْحَصَ) يُقالُ في نوعِ ظُهورٍ مخصوصٍ

حصحص: أصلُه منَ الثّلاثي المجرّدِ (حصّ - حصص)، وهو أصلٌ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/263.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/263.

يدلُّ على النّصيب، وعلى وضوحِ الشّيء وتمكّنِه، وعلى ذَهاب الشّيء وقِلّتِه، وعلى معنى الإزالة والقطعِ، ثمّ الظهورِ والانكشافِ، ثمّ الثّبوتِ والاستقرارِ، لأنّ تجزئة الجُملةِ إلى حِصَصٍ وأنصِبةٍ يكونُ بقطع أجزاءِ الشّيء وإزالةِ بعضِها من بعض، فإذا انقطعتْ ظهرَ كلُّ جُزءٍ وانكشفَ عن صاحبه، فإذا ظهرَ وانكشفَ حصل التّمكّنُ والثّباتُ والاستقلالُ.

وأمّا (ظهر) فهو يدلُّ على مجرّد الانكشافِ والبُروز، ولكن لا يلزمُ أنْ يكونَ مُجْملًا مع غيره قبلَ ظهورِه، ولا يلزمُ أن يكونَ مغمورًا بما يُخفيه ويُلبِسه، ولا يلزمُ فيه الثّبوتُ والاستقرارُ، وعليه فـ (حصحص) يُقال في نوعِ ظهورٍ مخصوصٍ، وهو ظهورٌ بعد انقطاعٍ من غيره وانكشافٌ من شيءٍ كان يحجُبُه، وأمّا (ظهر) فلا يدلّ على طرَفٍ مواجِهٍ أو ضِدٍّ مُقابِلٍ، أو مُعارضٍ مُدافِعٍ. ولذا آثر لفظَ (حصحص) هنا في ﴿ٱلْـَٔـٰنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ﴾؛ لأنّه أنسبُ بما كان في المُراودَة من مُفاعَلَةٍ ومُدافعةٍ، فجاء بلفظٍ يدلُّ على مُجاذبةٍ بين الحقّ والباطل قبل ظهورِ الحقّ وثُبوتِه، كأنّه قيل: هذا الحقُّ في تلك القضيّة ظهرَ بعد حصحصةٍ وقلقلةٍ وعدْوٍ وتحريكٍ[1].

(1) الجوهريّ، الصحّاح: (حصص - ظهر)، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (حص - ظهر)، وابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (حصص - ظهر).

﴿ذَٰلِكَ لِيَعۡلَمَ أَنِّي لَمۡ أَخُنۡهُ بِٱلۡغَيۡبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي كَيۡدَ ٱلۡخَآئِنِينَ ٥٢﴾ [يوسف: 52]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

إمْهالُ الجاني حتّى يَفْرَغَ من بيانِ دافِعِه على الإقرارِ

لمّا ذكر في الآيةِ السّابقةِ إقرارَ امرأة العزيزِ على نفسها بالجنايةِ والذّنْبِ، أخبرَ هنا عنِ الدّافع والعِلّةِ الّتي حملَتْها على الإقرار والاعترافِ.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَخُنۡهُ﴾: مِنَ الخِيانة، وأصل (خون) يدلُّ على التَّنَقُّص. يُقَالُ: خَانَهُ يَخُونُهُ خَوْنًا. وذلك نُقْصانُ الوفاء. والخيانةُ: مخالفةُ الحقِّ بنقضِ العهدِ في السِّرِّ، وضِدُّها الأمانةُ، فيُقالُ: خَانَ، لِمَنْ نقضَ الأمانةَ ونقضَ العهد[1].

المَعْنى الإجْماليُّ:

إنّما يَعْتَرِفُ بالذَّنْبِ أهْلُ المروءةِ والأصْلِ

قالتِ امرأةُ العزيز: ذلك الإقرارُ بذنْبي وبراءةِ يوسفَ، لأجل أنْ يعلمَ أنّي لم أكذب عليه ببُهتانِه بالغيب، فلا أغدِرُ به في غيابِه، وذلك لأنّ اللّه لا يهدي كيدَ الخائنين، فلا يُنْجِحُ لهم مقصودًا ولا يُتِمُّ لهم مُرادًا في خُطَطِهم الكائدةِ وأفاعيلِهم الماكِرة. ويصحُّ أن يكونَ القولُ ليوسفَ عليه السلام والمعنى: ليعلمَ العزيزُ أنّي لم أخُنْه بالغيبِ[2].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

مَوقعُ قولِه: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعۡلَمَ﴾ ممّا قبْلَه:

تَعْليلُ الاعْتِراف بالخطأ بما يَخْفَظُ مَقامَ المُخْطِئ

جُملةُ: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعۡلَمَ﴾ مستأنفةٌ في حيِّزِ القولِ السّابقِ لامرأة العزيزِ: ﴿قَالَتِ ٱمۡرَأَتُ ٱلۡعَزِيزِ﴾، فهو من تمامِ قولِها، وفُصلتِ الجملةُ

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحُفّاظ: (خون).
(2) ابن جرير، جامع البيان: 16/140 - 141.

لوقوعِها موقعَ العِلّة لِما تضمّنَتْه جملةُ ﴿أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ﴾؛ أيْ: أقررتُ واعترفتُ بذلك لأجلِ أنْ يعلمَ يوسفُ أنّي لم أكذبْ عليه وهو غائبٌ، ويَبْعُدُ حمْلُ قولِه: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعۡلَمَ﴾ على أنّه من قول يوسفَ عليه السلام، لاقتضاء ذلك تقديمًا وتأخيرًا في النّظْم، وانقطاعًا وعدمَ اتّصال في الكلام، وتقديرَ محذوفاتٍ، والأصلُ في الكلام أنْ يَطّردَ على وضْعِه من غير تقديمٍ ولا تأخيرٍ، وأن يتّصلَ ولا ينقطعَ، والأصلُ فيه عدمُ التّقديرِ، ولذا فالأرجحُ أنْ يكونَ قولُه: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعۡلَمَ﴾، وقولُه: ﴿۞وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ﴾ [يوسف: 53] من قولِ امرأةِ العزيز ومُتّصلًا باعترافِها[1].

دَلالةُ الاستِهلالِ باسْمِ الإشارةِ للبعيد:

شأنُ الإقرارِ بالخطأِ عظيمٌ

اسْمُ الإشارة في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعۡلَمَ﴾ يعودُ على الإقرار المُستفادِ من قول امرأةِ العزيز: ﴿قَالَتِ ٱمۡرَأَتُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡـَٰٔنَ حَصۡحَصَ ٱلۡحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ أيْ: ذلك الإقرارُ على نفْسي لأجلِ أن يعلمَ. وسياقُ كلامِها بالجملةِ الاسميّةِ واستهلالِ الجملةِ باسْمِ الإشارةِ الدّالِّ على البُعد: ﴿ذَٰلِكَ﴾ لتثبيتِ الاعترافِ وتأكيدِ إقراره، وفيه تعظيمٌ للإقرار إذْ هو منها، وهي مَنْ هي! فعظّمتْ إقرارَها واعترافَها بالإشارة لأنّه ذو خطرٍ وبالٍ، وعزيزٌ على مَنْ في رُتْبتِها أنْ يُقِرَّ بمثلِ ما أقرّتْ به، وهو دليلٌ على استطاعةِ مفهومِه المُقابل بقُدرتِها على الإنكارِ وعدمِ الإقرار، ولكنّها لم تفعلْ، فكان الإقرارُ منها حريًّا بأنْ يُشارَ إليه بما يُفيدُ بُعدَ المنزلةِ وعظيمَ القيمةِ والخطَرِ[2].

دَلالةُ اللّامِ في جُملةِ ﴿لِيَعۡلَمَ﴾:

إعظامُ امرأةِ العزيزِ لمقامِ يوسفَ عليه السلام

اللّامُ في جُملةِ: ﴿لِيَعۡلَمَ﴾ لامُ التّعليلِ بمعنى (كي)، والمضارعُ بعدَها منصوبٌ بأنْ مضمرةً، والجملةُ من أنْ والفعلِ في تأويلِ

(1) ابن عطيّة، المُحرَّر الوجيز: 3/253، وأبو حيّان، البحر المحيط: 6/289، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/292.

(2) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 10/355.

مصدَرٍ، والتّقديرُ: (لِعلْمِه)، والمصدرُ المُؤوّلُ مُتعلِّقٌ بمحذوفٍ فعلٍ ناصبٍ لاسْمِ الإشارة على المفعوليّة؛ أيْ: (قلتُ أو أظهرتُ أو فعلتُ ذلكَ لِعلمِهِ...)[1].

بَلاغةُ التَّعبيرِ بالمصدَرِ المُؤوّلِ دونَ الصَّريحِ:

للمَصْدَرِ المُؤوّلِ مَعْنَيانِ انتظما في سِلْكٍ واحدٍ

عدَلَ في السّياق الكريمِ عنِ المصدرِ الصّريحِ، إلى التّعبيرِ بالمصدرِ المُؤوّلِ المُنسَبِك من (أنْ المُضمَرَةِ والفعل)، للدّلالة على المعنى الجُمَليِّ التّركيبيِّ الحاصل بالإسناد، ويتضمّنُ ذلك الدّلالةَ على الزّمن بصيغةِ الفِعل، والدّلالةَ على الفاعل والمفعول، وأمّا المصدرُ الصّريحُ فهو مفردٌ يدلُّ على مجرّد الحَدَث، فدلالةُ المصدر المؤوّلِ أوسعُ، مع نيابتِه عنِ المصدر الصّريحِ، ونُكتةُ التّعبيرِ به هنا: استِحْضارُ الواقعِ الزّمنيِّ للحدَث (العِلم) وهو يعترِكُ في نفْس الفاعل، وينفعِلُ به وقتَ حصولِه. فتركيبُ ﴿لِيَعْلَمَ﴾ مُكوّنٌ من لام التّعليلِ الجارّةِ و(أنْ) المصدريّةِ المحذوفةِ جوازًا، والفعلِ (يَعلَم)، والمصدرُ المُؤوّلُ من (أنْ والفعل) في محلّ جرٍّ باللّام، ونُكْتَةُ التّعبير بالمصدرِ المؤولِ هنا تخليصُ الفعل للاستقبال، فـ (أنْ) إذا دخلتْ على المضارع خلّصَتْه للاستقبال، وفائدةُ ذلك: تنزيلُه منزِلَةَ البُغيَةِ المَرجُوِّ حصولُها، وغرضُ التّركيب: إرادةُ الزّمَنيّة، ليَستحضِر السّامعُ حركةَ المعنى جاريةً في الزّمن، وهو أحضُّ وأنهضُ على استحضار معنى الحدَث (العِلم) ونفْسُ الفاعِل تنفَعِلُ به، كأنّك ترى المعلومَ المقصودَ في الآية وهو يتحقّقُ ويُؤثّرُ بالانكشاف في نفْسِ الفاعِل، بخلافِ المصدرِ الصّريحِ (العِلْم) فإنّه دالٌّ على مُجرّد الحَدَث، فدلالتُه مُصمَتَةٌ، وأمّا المصدرُ المُؤوّلُ فذو حيويّةٍ في عمَلِه وجريَانِه[2]. وفي المصدرِ المُنْسَبِكِ أيضًا دلالةُ الاقتصارِ على إرادة

(1) صافي، الجدول: 13/8.
(2) السّامرّائيّ، معاني النّحو: 3/146.

فعلٍ (علمُه عدمَ الخيانةِ بالغيب) دونَ احتمالٍ زائدٍ عليه من سردٍ لتفاصيلِه وأحوالِه وكيفيّاتِه[1].

دَلالةُ التّعبيرِ بالعِلمِ في ﴿لِيَعْلَمَ﴾:

تُسْتَدامُ العلائقُ بتَحْقيقِ العِلْمِ والثِّقَةِ

التّعبيرُ بالعِلم في قوله تعالى: ﴿لِيَعْلَمَ﴾ للكشْفِ عن غرَضِ امرأةِ العزيز منِ اعترافِها، وهو إيصالُ معنى التّحقيق واليقينِ إلى نفْسِ يوسفَ عليه السلام تجاهَ امرأةِ العزيز بأنّها ذاتُ موقفٍ واضحٍ لا يَلتبِسُ في معاملتِها معه، ذلك لأنّها تعلمُ أنّ يوسفَ عليه السلام لم يكنْ على ثِقَةٍ بها ولا بأخلاقِها، فأرادتْ تحقيقَ ذلك له، فعبّرتْ بلفظ العِلمِ الدَّالِّ على معنى الجزمِ واليقينِ[2].

إيثارُ التّعبيرِ بالمصْدَرِ المُؤوّلِ:

تنزُّهُ امرأةِ العزيزِ عن خِصالِ الخِيانةِ والغَدْرِ

البِنْيةُ الإفراديّةُ للمصدرِ الصّريحِ لا تكفي هنا في التّعبيرِ عنِ المعنى المقصودِ، فجيءَ بالمصدرِ المُؤوّلِ في قوله ﴿أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ﴾ بتركيبٍ إسناديٍّ تامٍّ مع تعبيرِه عن مواقعِ الكلماتِ المُفردةِ الّتي يُفيدُها المصدرُ الصّريحُ، وعبّرَ بالمصدرِ المؤولِ في قوله: ﴿أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ﴾، فالجملةُ من أنّ واسمِها وخبرِها في تأويل مصدرٍ سدَّ مسدَّ مفعولَيْ (يَعلَم)، ولم يُعبّرْ بالمصدر الصّريحِ، فلم يقل: (لِيعلَمَ عدمَ كوني خائنةً)، أو (ليعلمَ كَوْني لم أخُنْه)، لأنّ المصدرَ المُؤوّل ينتظِم فيه معنَيان في سِلْكٍ واحدٍ، فهو يدلُّ على الصّريح وزيادةٍ، والصّريحُ لا يَفِي بمعنَيَيْن بل بمعنًى، فالمُؤوّلُ أبلغُ، واستعمالُه هنا دلَّ على أمرَيْن: **الأوّل**: تأكيدُ النّسبة القيديّةِ بين المُسنَدِ والمُسنَد إليه بالحرف المَصدريِّ المُشدّدِ. **والثّاني**: الدّلالةُ على تقريرِ الوقوع وقصديّةِ الإخبارِ بعلمِ أنّها غيرُ خائنة، فدلالةُ ذلك لا تحصلُ

(1) السّامرّائيّ، معاني النّحو: 3/148.
(2) السَّمين الحلبيّ، عمدة الحُفّاظ: (علم).

بالمصدرِ الصّريحِ[1]، فضلًا عمّا في المصدر المُنسبِكِ من دلالةِ الاقتصار على إرادة فعْلٍ (عدمِ خيانته) دون احتمالٍ زائدٍ عليه، أحوالًا، وكيفيّاتٍ.

نُكتةُ نفيِ الخيانةِ بـ ﴿لَمۡ﴾:

أقرَّتْ أنّها لم تَخُنْه في الماضي ولمّا تَزَل

تدخلُ (لم) على المضارع فتقلب زمنَه إلى ماض، والنَّفيُ بـ (لم) ليس مُقيّدًا بزمنٍ من أزمنة المُضيّ، بل إنّ نفيَ المضارع قد يدلُّ على التَّكرار، والتَّجدُّدِ والتَّطاولِ، فقولُك: (كتب) يدلُّ على انتهاء الحَدَث، وانقضائِه وقولُك: (يكتب) يدلُّ على تجدُّد الحَدَثِ واستمرارِه، فإذا دخلتْ (لم) على المضارع دلَّ على انتفاء الحَدَثِ في المُضيِّ، لكنْ بصيغة التّجدُّدِ والاستمرارِ، فدخول ﴿لَمۡ﴾ على فعل (الخيانة) يدلُّ على أن الحَدَث لم يحصلْ في الماضي في أيِّ زمانٍ من أزمنتِه على تطاوُلِ المُدّةِ واستمرارِها[2].

يَتَبرّأُ الحُرُّ منَ الخيانةِ بجميعِ الوجوهِ

نفيُ الخيانةِ بـ ﴿لَمۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿لَمۡ أَخُنۡهُ بِٱلۡغَيۡبِ﴾ للدّلالةِ على تحقُّقِها بعدمِ خيانة يوسفَ بالكذب عليه أوِ اتّهامِه وهو غائبٌ، فإنْ قيل: (لَمْ) تنفي المضارعَ وتقلبُ معناه لزمن المُضيّ، فهي نفيٌ لِما مضى، فكيفَ وهي تَنفي الخيانةَ المُقيَّدَةَ بالغيب الّتي هي تفريعٌ على اعترافها الحاضرِ وإقرارها الحاليّ، فكيف تكونُ الخيانةُ بالغيبِ منفيّةً إذن في الماضي؟ والجوابُ: أنّها أرادتْ تحقيقَ عدمِ خيانتِها بالغيبِ باعترافها وإقرارِها، فنَفَتْه عن نفْسِها كما تُنْفَى الأحوالُ الماضيةُ لتحقُّقِها، فكأنّها قالتْ إنّي متحقِّقةٌ بعدمِ خيانةِ الغيب مروءةً وطبْعًا في كلّ وقتٍ: مِن قبلُ، والآن، ومِن بعدُ، ولا يخفَى أنّ النَّفيَ بـ ﴿لَمۡ﴾ هنا مُتّصلٌ إلى زمن التّكلُّمِ والحالِ غيرُ مُنقطعٍ، وغيرُ متوقَّعٍ حصولُه مُستقبَلًا[3].

(1) عبدالقاهر، المقتصد: 478/1، والجندي، المصدر المُؤوّل، ص: 92.
(2) السّامرّائيّ، معاني النّحو: 4/194 - 195.
(3) السّامرّائيّ، معاني النّحو: 3/189.

دَلالةُ اصْطِفاءِ لفْظِ الخيانةِ:

نَفْيُ الخيانةِ أبلَغُ من نَفْيِ الكذبِ

معنى ﴿لَمۡ أَخُنۡهُ بِٱلۡغَيۡبِ﴾؛ أيْ: لم أكذِب عليه بِنِسْبَة السّوء إليه أو ردِّ التُّهمةِ عليه، فهي الّتي راودتْهُ لا هو الّذي راوَدَها. وإنّما آثَرَتِ التّعبيرَ بنفيِ الخيانة للدّلالة على معنى رعايةِ العهدِ وحفْظ الوفاءِ، وهو أعمُّ من نفْيِ الكذِب، وفيه إشارةٌ إلى اعتبارِها مُدّةَ إقامتِه في بيتِها بما يَدْعوها لِحُسنِ العهدِ وعدمِ الانفلاتِ بالبُهتان والغَدْرِ[1].

معنَى الباءِ في قوله ﴿بِٱلۡغَيۡبِ﴾:

شَرُّ الخِصالِ أنْ يَكيدَ الإنسانُ لغيرِه بالغيْبِ

(الباء) في قوله تعالى: ﴿أَنِّي لَمۡ أَخُنۡهُ بِٱلۡغَيۡبِ﴾ للملابَسة؛ أيْ: مُلْتبِسًا بالغيْب، أوْ: للظرفيّةِ؛ أيْ: بمحلِّ الغيبِ، وعلى معنى المُلابسةِ، فالجارُّ والمجرور ﴿بِٱلۡغَيۡبِ﴾ متعلّقٌ بمحذوفٍ حالٍ، إمّا منَ الفاعل - امرأة العزيز - والتّقديرُ: لم أخُنْه حالَ كوْني غائبةً عنه، وإمّا منَ المفعول - يوسفَ - والتّقديرُ: لم أخُنْه حالَ كونِه غائبًا غيرَ حاضر. وعلى معنى الظّرفيّة، فالجارُّ والمجرور ﴿بِٱلۡغَيۡبِ﴾ متعلِّقٌ بقوله: ﴿أَخُنۡهُ﴾[2].

دَلالةُ (ال) في لفْظِ ﴿بِٱلۡغَيۡبِ﴾:

ذو المُروءَةِ لا يَغْدِرُ وإنْ تمكّنَ

(ال) في لفظِ ﴿بِٱلۡغَيۡبِ﴾ لتعريف الجنْسِ، ومعناه أنّها تُراعي عدمَ الخيانةِ في جميع مواقعِ الغيب، فكأنّها تمدحُ نفسَها بأنّ هذا طبْعٌ ثابتٌ فيها، وسجيّةٌ لا تتخلّفُ عنها، وهو مدحٌ بالمروءةِ وحُسْنِ العهد والتّنزُّه عنِ الغدر[3].

نُكتةُ تقْييدِ نفْيِ الخيانةِ بالغيبِ:

الغَيْبُ هو أوْلَى الأوقاتِ بمُراعاةِ الحقوقِ والعُهودِ

قَيّدتِ امرأةُ العزيزِ عدمَ خيانتِها ليوسفَ عليه السلام بالغيب، لأنّه أوْلَى الأحوال بأنْ تُراعَى فيه الحقوقُ وتُصانَ العهودُ، لعدمِ استطاعةِ

(1) الرّاغب، المفردات: (خون).
(2) الخطيب، التّفصيل في الإعراب: 6/304.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/292.

الطّرَفِ الثّاني المُحاجَجَةَ عن نفسِه لِغيابِه، وفي التّقييدِ إشهادٌ منها على نفْسِها بالمروءة، لِمُراعاتِها حُرمَةَ مَنْ لا يُعجِزُها أنْ تكذِبَ عليه لغيابِه، وفي التّقييدِ إشارةٌ إلى صِدْقِها وعدمِ ادّعائِها؛ لأنّها كانتْ قد كذَبَتْ عليه وهو حاضرٌ، حين قالت: ﴿مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا﴾ [يوسف: 25] فأرادتْ بالتّقْييدِ بالغيب الاقتصارَ على تلك الحالِ الحاضرةِ وهي تعترفُ، لا حالِها معه من قبلُ. ولا يخفَى أنّ تقييدَ نفيِ الخيانة بالغيبِ لِمُطابقةِ الحالِ والمقامِ الّذي تتكلّمُ فيه؛ لأنّه تعقيبٌ على اعترافِها ببراءة يوسفَ وهو غائبٌ، فالتّقييدُ لمراعاةِ مُقتضى الحالِ[1].

مَوقعُ جُملةِ ﴿وَأَنَّ ٱللَّـهَ لَا يَهۡدِى...﴾ ممّا قبلَها:

تَعليلُ الأفعالِ بمعالي الأُمورِ وجوامِعِها

جملةُ: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِى...﴾ مصدرٌ مُؤوّلٌ معطوفٌ على المصدر المُؤوّلِ في قوله تعالى: ﴿أَنِّى لَمۡ أَخُنۡهُ بِٱلۡغَيۡبِ﴾، فهو واقعٌ في حيّزِ العِلّة الّتي دَعَتْها إلى الإقرارِ، كأنّه قيل: ذلك الإقرارُ لأنّي لم أخُنْه بالغيبِ، ولِأنّ اللّه لا يَهدي كيدَ الخائنين، فعِلّةُ الإقرارِ أنْ يَعلمَ الأمرَيْن[2].

فائدةُ التَّعبيرِ بالمصدَرِ المُؤوّلِ:

امرأةُ العزيزِ كانتْ تَعرِفُ اللهَ وتفْقَهُ مُعامَلَتَه

جملةُ ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِى كَيۡدَ﴾ مصدرٌ مُؤوّلٌ من أنّ واسمِها وخبرِها، معطوفةٌ على المصدرِ المُؤوّلِ في قوله: ﴿أَنِّى لَمۡ أَخُنۡهُ﴾، فهو داخِلٌ في حيّزِ التّعليل بالعِلم في قوله: ﴿لِيَعۡلَمَ﴾، وإيثارُ التّعبيرِ به: لتوكيدِ المعنى مبالغةً في تقويتِه وتثبيتِ مضمونِه[3].

بَلاغةُ المَجازِ في إسنادِ الهَدْيِ إلى الكَيْدِ:

مَخرومٌ منَ الهدايةِ مَن يَكيدُ خيانةً

في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِى كَيۡدَ ٱلۡخَآئِنِينَ﴾ أسندَ الفعلَ ﴿يَهۡدِى﴾ إلى (الكيْد)، لا إلى الخائنين، وأصلُ المعنى: واللّه لا

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/293.
(2) صافي، الجدول: 13/8.
(3) الجندي، المصدر المُؤوّل، ص: 91.

يَهدي الخائنين في كيدِهم، فأسندَ الفعْلَ إلى غير مفعولِه الحقيقيِّ مُبالغةً في الإبطال وعدمِ التّسديدِ، كأنّه قال: لا يَصلُحُ لهم كيدٌ أصلًا، فكيف يَصلُحونَ هم! والإسنادُ من باب المجازِ العقليِّ، وصحَّ المجازُ في إيقاع الهدايةِ على الكيْدِ، لكونِ الكيدِ سببًا لعدمِ الهدايةِ[1]. وتصحُّ أنْ تكونَ (هدايةُ الكيدِ) في الآيةِ مجازًا مُرسَلًا علاقتُه اللّازِميّةُ، إذْ أطلقَ لفظَ الهدايةِ، والمُرادُ ما يَلزَمُ منها وهو التّنفيذُ، فأطلَقَ اسْمَ اللّازمِ (التّنفيذ) على الملزومِ (الهداية)[2].

بَلاغةُ الكنايةِ والاستعارةِ في: ﴿يَهْدِى كَيْدَ﴾:

التّنفيذُ كالهِدايةِ في وُصولِ المَطالبِ

و(هدايةُ الكيْد) كنايةٌ عن إنفاذِه وإنجاحِه، فالمعنى الظّاهرُ الهدايةُ، والمعنى الخفيُّ هو لازمُ معنى الهُدى وهو التّحقيقُ والوصولُ والتّنفيذُ[3].

وتحتملُ (هدايةُ الكَيْد) الاستعارةَ التّبعيّةَ، إذ شبّهَ الهدايةَ الّتي هي الدّلالةُ الموصِلةُ للغَرَضِ، بتنفيذِ الشّيءِ بالفعْلِ وتحصيلِه، بجامعِ اشتمالِ كلٍّ منهما على معنى وصولِ المطالبِ[4].

الخائِنُ لا يُهدَى ولا يُسَدَّدُ لبلوغِ المَقْصِدِ

ووجْهُ الاستعارةِ أيضًا أنّه تعالى أقامَ كيدَ الخائنين مقامَ الخابطِ في طريقٍ، ليصلَ إلى مَضرَّةِ المكيدةِ وهو غافلٌ عنه، فأعلمَنا سُبحانه أنّه لا يَهديه، بمعنى: لا يُوفّقُه لإصابة الغرَضِ، ولا يُسدِّدُه لبلوغ المَقصدِ، بل يدعُه يخبطُ في ضلالِه، ويتسكّعُ في متاهِه؛ لأنّه كالسّاري في غيرِ طاعةِ اللّه، فلا يَستحقُّ أن يُهدَى لرُشدٍ، ولا يتسدّدُ لقصْدٍ[5].

(1) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 10/356.
(2) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 10/356.
(3) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 10/356.
(4) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 10/356.
(5) الشّريف الرّضيّ، تلخيص البيان: 2/171.

دَلالةُ تتابُعِ المؤكِّداتِ في فاصلة الآي:

في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي كَيۡدَ ٱلۡخَآئِنِينَ﴾ مجموعةٌ منَ المؤكِّدات: إنّ، والاسميّةُ، وتَكرارُ ذكرِ المُسنَدِ إليه، وكلُّ ذلك لزيادة تقريرِ هذه الحقيقةِ، وبيانِ أنّ مآلَ الخيانة إلى انكشافٍ، وأنّ الحقَّ لا بدَّ من أن يَظهرَ.

دَلالةُ إضافةِ الكَيْدِ إلى الخائنين:

يُـذَمُّ الـكـيْـدُ بحسَبِ ما اقْتَرَنَ به من قصْدٍ ونِيّةٍ

أضاف الكيْدَ للخائنين، لإفادة تعريفِ الكيْدِ وتعيينِه؛ لأنّ الكيدَ أفرادٌ كثيرةٌ، فليس كلُّ الكيْدِ حاصلًا منَ الخائنين، وليس كلُّ الكيْدِ مُنْفَكًّا عنِ الهداية، ففي الإضافةِ احترازٌ ممّنْ لم يَقْصِد بكيدِه خيانةً، ككيْد يوسفَ عليه السلام وكيْدِ الصّالحين، فليس داخلًا في نفيِ الهدايةِ عنه[1].

معنَى (ال) في لفْظِ ﴿ٱلۡخَآئِنِينَ﴾:

تَـوَعُّـدُ الخائِنين بـإفْـسـادِ مَقاصِدِهم

(ال) في ﴿ٱلۡخَآئِنِينَ﴾ لاستغراقِ النَّفيِ؛ أيْ: كلُّ الخائنين منْفيٌّ عنهمُ الهدايةُ ومنفيٌّ عنهم إنجاحُ كيدِهم إذا كان بغرَضِ الخيانةِ، و(ال) هنا داخلةٌ على اسْمِ الفاعِلين، فتُفيدُ استغراقَ الخصائصِ والصّفاتِ للأفرادِ، وهي تدلُّ على عَراقَةِ الموصوفِ في تَمَكُّنِ واستحكامِ صِفةِ الخيانةِ فيه[2].

بَلاغةُ ختْمِ الفاصلةِ بلفْظِ ﴿ٱلۡخَآئِنِينَ﴾:

وَصْفُ المرْءِ بأنّه خـائِـنٌ عـقـوبـةٌ وحدَه

مَجيءُ الفاصلةِ بقوله: ﴿ٱلۡخَآئِنِينَ﴾، هو خِتامٌ لوحظَ فيه التّناسُبُ مع مَطْلَعِ الآية، فقد سبقَه قولُه تعالى: ﴿لَمۡ أَخُنۡهُ بِٱلۡغَيۡبِ﴾، فناسَبَ أنْ يُعلِّلَ نفيَ الخيانةِ الخاصِّ بالواقعة، بنفْيِ التّوفيقِ عنِ الخائنين كلِّهم، وهو من تعليلِ الخاصِّ بالعامِّ، وردٌّ للعَجُز على الصَّدر، إذ وافقت كلمةُ ﴿ٱلۡخَآئِنِينَ﴾ صَدْرَ الآية في قوله: ﴿أَخُنۡهُ﴾.

(1) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 10/355.
(2) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 10/355.

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الخيانةُ والكذِبُ:

الخِيانَةُ حادِثَةٌ بين طرَفَيْن، والكذِبُ قد يكونُ أُحادِيًّا

الخيانةُ تُقالُ باعتبارِ العهدِ، فهي إخلالٌ به ونقْصٌ فيه، وضدُّها الوفاءُ، وهو إتمامُ العهدِ وتوفيتُه. وأمّا الكَذِبُ، فيُقالُ باعتبارِ مُخالفَةِ الحقيقةِ في القول والفِعل، ونقيضُه الصّدقُ، والصّدقُ والكذِبُ لا يدلّان على العهدِ إلّا بالاقتران والتّقييدِ كما في قوله تعالى: ﴿رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ﴾ [الأحزاب: 23]، وأمّا الخيانةُ فحيثما أُطلِقتْ فهي في العهدِ، والكذِبُ قد يكونُ من طرفٍ واحدٍ إذا قال المرءُ خلافَ الحقيقةِ، أوِ اعتقدَ خلافَ الحقيقةِ، فيوصَفُ بالكَذِب ولو لم يكذِبْ على غيره أو يُحادِثْ بكَذِبِه. وأمّا الخيانةُ فهي بين طرَفَيْن، لِمعنى المعاهدةِ الثّابتِ فيها. والخيانةُ أعمُّ منَ الكذِب؛ لأنّ الخائنَ يكذِبُ في عهدِه، فكلُّ خائنٍ كاذبٌ، وليس كلُّ كاذبٍ خائنًا[1]. ولعمومِ الخيانةِ، وحكايتِها باعتبارِ العهدِ نقصًا وإخلالًا اخْتيرتْ في الآيةِ دونَ لفْظِ الكذبِ أو غيرِه.

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (خون - كذب)، والرّاغب، المفردات: (خون - صدق - كذب)، وابن منظور، لسان العرب، والسّمين الحلبي، عمدة الحُفّاظ، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (خون - كذب).

الجُزْءُ الثَّالِثَ عَشَرَ

﴿ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٥٣ ﴾ [يوسف: 53]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

اتّهامُ يوسفَ في العلَنِ، ورفْضُ خِيانتِه بالغيْبِ بإعلانِ براءتِه وهو في السّجن

لمّا قالتِ امرأةُ العزيزِ فيما مضى: ﴿ٱلۡـَٰٔنَ حَصۡحَصَ ٱلۡحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ٥١﴾ [يوسف: 51]، وكان قد ترجّحَ لدينا من خلال السّياقِ والأدلّةِ الأخرى أنّها أيضًا هي الّتي قالت: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعۡلَمَ أَنِّي لَمۡ أَخُنۡهُ بِٱلۡغَيۡبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي كَيۡدَ ٱلۡخَآئِنِينَ ٥٢﴾ [يوسف: 52]، قالت بعد ذلك مُكمّلةً كلامَها: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾؛ أيْ: أنا مَن أخطأتُ، ويوسفُ صادقٌ، وكان ذلك ممّا زيّنتْهُ لي نفسي الأمّارةُ بالسّوءِ، وأقولُ ذلك: اعترافًا، وتبرئةً ليوسفَ عليه السلام، وإعلامًا للعزيز بأنّي ﴿لَمۡ أَخُنۡهُ بِٱلۡغَيۡبِ﴾ [يوسف: 52]، فلم يَحدُثْ أكثرُ من أنّني قد هممتُ، فواجهتُ إباءَ هذا المُستَعصِم، الّذي لم أخُنْه أيضًا بالغيب، وهو في سجنِه، بعد أن كذبتُ في اتّهامِه، قبلَ أن يدخلَ السّجنَ، لترميم صورةِ امرأةِ العزيز، وإسكاتِ الألسنةِ الّتي تلوكُ أمْرَ عِشْقِها لفتاها، الّذي بلغَ بها حدَّ الشّغفِ.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أُبَرِّئُ﴾: فعلٌ مضارعٌ مادَّتُه (برأ)، وهي تدلُّ على التَّباعُدِ منَ الشَّيْءِ وَمُزايَلَتِه، من ذَلِكَ البُرْءُ، وهو السَّلامَةُ منَ السُّقْمِ، وفيه لغتان، إذ يُقالُ: بَرِئْتُ وَبَرَأْتُ، وبَرَأتُ منَ المَرَضِ أبْرُؤُ بُروءًا، وبَرَأتُ أبْرَأُ بَرْءًا، وَمِنْ ذلك البَراءَةُ منَ العَيْبِ والمَكْروهِ[1]، "قال اللّحيانيُّ: يقول أهلُ الحجازِ: برأتُ منَ المرض أبرؤ بُروءًا. وأهلُ العالية

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (برأ).

يقولون: برأتُ أبرأ برءًا. ومن ذلك قولُهم: برئتُ إليك من حقّك. وأهلُ الحجاز يقولون: أنا بَراءٌ منك، وغيرُهم يقول: أنا بريءٌ منك، قال اللّه تعالى في لغة أهل الحجاز: ﴿إِنَّنِي بَرَآءٌ مِّمَّا تَعۡبُدُونَ ٢٦﴾ [الزّخرف: 26]، وفي غير موضعٍ منَ القرآن: ﴿إِنِّي بَرِيٓءٞ﴾ [الأنعام: 78]"[1]، ومعنى: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ﴾: وما أُنَزِّهُها[2].

2) ﴿ٱلنَّفۡسَ﴾: أصلُ مادَّة الكلمة: (نفس)[3]، والنَّفْسُ: الرّوحُ الذّي به حياةُ الجسد، وكلُّ إنسانٍ نَفْسٌ حتّى آدمُ عليه السلام. وكلُّ شيءٍ بعينِه نَفْسٌ. وجمْعُها: نفوسٌ[4]، يُقال: خرجتْ نَفْسُه، والنَّفْسُ: عينُ الشّيء وذاتُه[5]، "النّفسُ فيه معنى جملة الشّيء وحقيقتِه، تقول: قتل فلانٌ نفسَه، وأهلَكَ نفسه؛ أيْ: أوقع الإهلاكَ بذاته كلِّها، والجمْعُ من كلّ ذلك أنفُسٌ ونفوسٌ، وقولُه تعالى: ﴿تَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِي﴾ [المائدة: 116]؛ أيْ: تعلمُ ما أُضْمرُ، ﴿وَلَآ أَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِكَۚ﴾ [المائدة: 116][6]؛ أيْ: لا أعلمُ ما في حقيقتِك، ولا ما عندك عِلمُه بالتّأويل، تعلمُ ما أعلمُ ولا أعلمُ ما تعلمُ"، والرّوحُ والنَّفسُ بمعنًى واحدٍ عند العرب، إلا أنَّ الرّوحَ مذكرٌ، والنَّفسَ مؤنثٌ[7].

3) ﴿بِٱلسُّوٓءِ﴾: السُّوءُ نعتٌ لكلِّ شَيءٍ رديءٍ، وساءَ الشَّيءُ: قَبُحَ، فَهو سيّئٌ، والسّوءُ: اسمٌ جامعٌ للآفاتِ والدّاءِ[8]، وتقولُ: هذا رَجُلُ سَوْءٍ بالإضافةِ، ثُمّ تُدْخِلُ عليه الألفَ واللّامَ، فتقولُ: هذا رَجُلُ السَّوْءِ[9]، قال الشّاعر:

وَكُنْتُ كَذِئْبِ السَّوْءِ لَمّا رَأى دَمًا *** بِصاحِبِهِ يَوْمًا أحالَ على الدَّمِ[10]

والسّوءُ: كلُّ ما يَغُمُّ الإنسانَ منَ الأمورِ الدُّنيويَّةِ والأُخرويَّةِ، ومنَ الأحوالِ النَّفسيّةِ والبدَنيّةِ والخارجيّةِ، من فَواتِ مالٍ وجاهٍ وفقدِ حميمٍ[11]، والمعنى المِحوريُّ الّذي يدورُ

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (برأ).
(2) الكَفَويّ، الكُليّات، ص: 34.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نفس).
(4) الخليل، العين: (نفس).
(5) الجوهريّ، الصّحاح: (نفس).
(6) ابن سِيدَه، المُحكم: (نفس).
(7) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (روح).
(8) الخليل، العين: (سوأ)، والأزهريّ، تهذيب اللّغة: (سوأ).
(9) الرّازيّ، مختار الصّحاح: (سوأ).
(10) الجوهريّ، الصّحاح: (نفس) و(سوأ).
(11) الرّاغب، المفردات: (سوأ).

حولَه لفظُ السّوءِ: عيبٌ أو نقصٌ، قُبْحٌ أو فسادٌ أو مرضٌ يخالطُ ظاهرَ الشَّيءِ أو باطنَه، ثُمَّ يُنْقَلُ السّوءُ إلى القُبْحِ المعنويِّ، كالسَّيِّئَة: الذَّنْبُ والخطيئةُ[1].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

ليسَ للمَرْءِ تزكيةُ نَفْسِهِ، والاعترافُ بالذّنبِ مَسْلكٌ للتّوبةِ مَكِينٌ

ثُمَّ قالتِ امرأةُ العزيز: وما أُنَزِّهُ نفسي عن إرادةِ السّوءِ، وما أردتُ بذلك تزكيةَ نفسي؛ لأنَّ شأنَ النَّفس البشريّةِ كثرةُ الأمرِ بالسّوءِ، لِمَيْلِها إلى ما تشتهيهِ، وصعوبةِ كَفِّها عنه، إلّا ما رَحِمَهُ اللّه من تلك النُّفوسِ، فَعَصَمَها منَ الأمرِ بالسّوءِ، إنَّ رَبّي غفورٌ لِمَنْ تابَ من عِبادِه، رحيمٌ بهم[2]، والمعنى: "لم أقصدْ بالبراءة عمّا تقدّم مجرّدَ التّزكيةِ للنّفس، وعلّلَ عدَمَ التّبرئةِ بقوله مؤكِّدًا لِمَا لأكثر النّاس منَ الإنكار، أو لأنّ اتّباعَهم لأهويّتِهم فعلُ مَن يُنكرُ فعلَ الأمّارةِ"[3].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

دَلالةُ الواو في السّياقِ:

القولُ في معنى حرْفِ المعنى، يعتمدُ على تحديدِ القائِلِ

(الواو) في مطلعِ الآية يُحتملُ أن تكونَ العاطفةَ، بأن تكونَ قد عطفتْ قولَه تعالى: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ﴾ على قوله: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعۡلَمَ﴾ [يوسف: 52]، وسيأتي توجيهُ المعنى بناءً على تحديد القائلِ، هل هو يوسفُ عليه السلام أوِ امرأةُ العزيز؟ وعلى كونِها عاطفةً، تكونُ الجملةُ موصولةً بما قبلَها. وقيل: هي واوُ الاستئنافِ، والجملةُ بعدَها ابتدائيّةٌ[4]؛ وعليه فهي مفصولةٌ عمّا قبلَها.

معنى (ما) ودَلالةُ النّفْيِ بها:

(ما) نافيةٌ، وهي تَدلُّ على نفْيِ الحالِ

فائدةُ التّعبيرِ بها هنا، الدّلالةُ على أنّ اتّهام النّفسِ بعدمِ البراءة

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (سوأ).
(2) ابن جرير، جامع البيان: 16/142، وجماعة من العلماء، المختصر في تفسير القرآن الكريم، ص: 242.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/129.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/5.

لا يزالُ، "وهي هنا تُؤكّدُ القولَ بأنّها مُتّهَمةٌ، وأنّها لا تجدُ ما تُبرّئُ به نفسَها من هذا الذّنْب الّذي ارتكبَتْه في حقّ يوسفَ.. إنّها قد ضعُفتْ أمامَ نفسِها التّي الّتي سوّلت لها هذا المُنكَرَ.. وإنّها ليست إلّا بشرًا، من شأنِها أن تخطىء تُخطئَ وتَأثمَ، وأنّها ليست في عِصمةٍ منَ الخطأ"[1].

نُكتةُ التَّعبيرِ بالفعلِ المضارعِ ﴿أُبَرِّئُ﴾:

نَفْيُ تَبرئةِ النّفسِ من تُهمتِها في الحالِ، ومع تجدُّدِ الدَّواعي

يدلُّ التَّعبيرُ بالمضارعِ على حالِ المُتكلّمِ وقتَ الخطابِ، وأنّ نفْيَ تبرئةِ النّفس حاصلٌ في الحال، وأنّ المتكلّمَ يُجدّدُه كلّما دعا إلى ذلك داعٍ منَ النّفسِ، سَعيًا إلى تبرئتِها ممّا هو مُلتبِسٌ بها من منازعةِ صاحبِها الهوى، والعملِ على دفعِه إليه، وبحسبِ القائلِ يتوجّهُ الكلامُ: فإن كان هذا من قول امرأةِ العزيز، كما يدلُّ عليه تناسقُ السّياقِ؛ فهو يدلُّ على أنّ اتّهامَها لنفسها بعدمِ البراءة لا يزالُ قائمًا وقتَ الخطابِ، وأنّ نفسَها لا تزالُ تُزيّنُ لها السّوءَ وتأمرُها به، وأنّ داعيَ الهوى يُنازعُها ويدفعُها إلى العملِ على بلوغِ ما كانت تُريدُه من يوسفَ عليه السلام، وهو ما يدلُّ عليه إصرارُها، حين قالت: ﴿وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ۝٣٢﴾ [يوسف: 32]. وإن كان من كلامِه عليه السلام، فالمرادُ بهذا الاتهّام - وهو نفيُ تبرئةِ نفسِه - تجنُّبُ ما يَعتري النّفسَ من غرورٍ وزَهْوٍ، حالَ تغلُّبِها على هواها في واقعةٍ ما، والأصلُ أن تَعْزوَ هذا إلى توفيق اللّه، ومحْضِ فضلِه، فعلى هذا الوجهِ قال عليه السلام ما قال "هضمًا لنفسِه الكريمةِ البريئةِ، عن كلّ سوءٍ، ورَبْأً بمكانِها عنِ التّزكيةِ والإعجابِ بحالها، عند ظهورِ كمالِ نزاهتِها؛ أيْ: لا أُنزِّهُها عنِ السّوءِ من حيث هي، ولا أُسندُ هذه الفضيلةَ إليها، بمقتضى طبْعِها من غير توفيقٍ منَ اللّه عزَّ وعلا"[2].

(1) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن، ص: 7/3.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/285.

بيانُ ترتيبِ الكلامِ ودَلالةِ السّياقِ على ترجيحِ كونِه من كلامِ امرأة العزيزِ

دَلالةُ آراءِ المُفسِّرين في تحديدِ القائلِ في السّياق:

اختلف المُفسّرون في تعْيين قائلِ: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ﴾، على قولَيْن:

الأوّل: أنّه من كلام يوسفَ عليه السلام. والمعنى: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ﴾ من الزّلل، وما أَشهدُ لها بالبراءةِ الكُليّةِ ولا أزكّيها. وهذا يعني أن تكونَ تُهمتُه لنفسِه محصورةً في مَيلِ النّفسِ عن طريق الشّهوةِ البشريّةِ، لا عن طريقِ القصْدِ والعزمِ[1].

الثّاني: أنّه من كلام امرأةِ العزيز. والمعنى: ولستُ أُبرّئُ نفسي، فإنّ النّفسَ تتحدّثُ وتتمنّى؛ ولهذا راودتُه[2]. ودَلالةُ السّياق تُرجّحُ أنّ القولَ لامرأة العزيز، لا ليوسفَ عليه السلام: وذلك أنّ الآيةَ واردةٌ في سياق كلام هذه المرأة في حضرة المَلك، إذْ سأل النّسوةَ عن يوسفَ عليه السلام فبرّأْنَه، وعندها اعترفتِ امرأةُ العزيز كذلك ببراءتِه، وهو الحِوارُ المحكيُّ في قوله تعالى: ﴿قَالَ مَا خَطۡبُكُنَّ إِذۡ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفۡسِهِۦۚ قُلۡنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمۡنَا عَلَيۡهِ مِن سُوٓءٖۚ قَالَتِ ٱمۡرَأَتُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡـَٰٔنَ حَصۡحَصَ ٱلۡحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ٥١ ذَٰلِكَ لِيَعۡلَمَ أَنِّي لَمۡ أَخُنۡهُ بِٱلۡغَيۡبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي كَيۡدَ ٱلۡخَآئِنِينَ ٥٢﴾ [يوسف: 51 - 52]، وبعدها جاءتِ الآيةُ موصولةً بهذا الكلام، ولم تخرجْ عنِ السّياق: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ﴾. فيُلحظُ أنّ الكلامَ مُترابطٌ، وأنّ النّصَّ متماسكٌ، والحِوارُ موصولٌ بعضُه ببعض، وأنّه جميعَه من كلام مُتحدّثٍ واحدٍ هو امرأةُ العزيز؛ لأنّ ما سبقَه من كلام بدْءًا من: ﴿ٱلۡـَٰٔنَ حَصۡحَصَ ٱلۡحَقُّ﴾ [يوسف: 51] هو من كلامِها قَطعًا، وهو مسبوقٌ بما يقطعُ بذلك، وهو قولُه سُبحانه: ﴿قَالَتِ ٱمۡرَأَتُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡـَٰٔنَ حَصۡحَصَ ٱلۡحَقُّ﴾ [يوسف: 51]، وعلى هذا فإنَّ "ظاهرَ ترتيبِ الكلام، أنّ هذا من كلام امرأةِ العزيزِ، وأنّها مضتْ في بقيّة

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/480، والبيضاويّ، أنوار التنّزيل 3/167، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/285.

(2) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/394.

إقرارِها، فقالت: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ﴾ وذلك كالاحتراسِ ممّا يَقْتضيه قولُها: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعۡلَمَ أَنِّي لَمۡ أَخُنۡهُ بِٱلۡغَيۡبِ﴾ [يوسف: 52] من أنَّ تبرئة نفسها من هذا الذّنب العظيم، ادّعاء بأنّ نفسها بريئة براءةً عامّةً، فقالت: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ﴾؛ أيْ: ما أُبرّئُ نفسي من مُحاولةِ هذا الإثم"[1]. وممّا يَدعمُ القولَ بذلك أيضًا ويُضعِّفُ أنّه من كلام يوسفَ ﷺ: أنّه لم يَرِدْ له ﷺ ذِكْرٌ في هذا الحوارِ؛ لأنّه لم يكن موجودًا فيه، بل كان لا يزالُ داخلَ السّجن، ولا ريْبَ أنّ حصولَ ذلك في غيْبتِه، دليلٌ على سُموِّ أخلاقِه، ونُبْلِ سُمْعَتِه، وطهارتِه من أدران النّفسِ ودَواعي الهوى الّتي لا يَسْلمُ منها أحدٌ من غيرِ المَعْصومين منَ البشر، حيث تَتيهُ بهم نوازعُ النّفوس، فيَسقُطون في حَمْأةِ الرّذيلةِ، ويَتهافَتون على المَعاصي، كما يتهافتُ الفراشُ المبثوثُ على الشُّعاعِ البرّاقِ، الصّادرِ من نار الإحراقِ، فما يلبثُ أن تَخبو جَذوتُه وأن يتلاشى، وحتّى يكونَ ذلك من كلامه ﷺ، كان "يُحتاجُ فيه إلى أن يرجع الرّسولُ من ذلك المجلسِ - أي مجلسِ الملك مع النّسوة - إلى السّجنِ ويذكرَ له ﷺ تلك الحكايةَ، ثمّ إنّ يوسفَ يقول ابتداءً: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعۡلَمَ أَنِّي لَمۡ أَخُنۡهُ بِٱلۡغَيۡبِ﴾ [يوسف: 52]، ومثلُ هذا الوصلِ بين الكلامَيْن الأجنبيَّيْن، ما جاء البتّةَ في نثرٍ ولا نظم، فعلِمْنا أنّ هذا من تمامِ كلامِ المرأة"[2]، وهذا هو المُتبادرُ من نظْمِ الآيتَيْن المناسبِ للمَقام بغيرِ تكلّفٍ[3]، وهذا القولُ هو الأشهرُ والأليَقُ، والأنسبُ بسياق القصّةِ، ومعاني الكلامِ. وقد حكاه الماوَرديُّ في تفسيره، وانتَدبَ لنَصْرِه الإمامُ العلّامةُ ابن تيميّة، رحمه الله، فأفرده بتصنيفٍ على حِدَةٍ[4].

نُكتةُ الفصْلِ في: ﴿إِنَّ ٱلنَّفۡسَ﴾:

إزالةُ حيرةِ السُّؤالِ عن سِرِّ الوقوعِ في الذّنْبِ مع العلْمِ بعاقبَتِه

سِرُّ فصلِ جملة: ﴿إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾ عمّا قبلها، هو

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/5.
(2) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 18/469.
(3) رشيد رضا، تفسير المنار: 12/267.
(4) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 5/395.

كونُها معلِّلةً[1] لحُكم الجملةِ السّابقةِ ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ﴾؛ لأنّ ﴿ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾، وذلك أنّ قولَه تعالى: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ﴾ أورثَ المخاطَبَ حَيْرةً، فكيف لا يُنزِّهُ نفسَه مع كونِها مطمئنّةً زكيَّةً؟ فأزال حيرتَه بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ﴾، في جميع الأشخاصِ ﴿بِٱلسُّوٓءِ﴾ إلّا المعصومَ[2]. ولو حملنا الجملةَ على هذا السّؤال المُقدّرِ، وأنّها جوابٌ عنه، يكونُ سرُّ الفصل هو (شبهُ كمالِ الاتّصال)، أو ما يُسمّى (الاستئنافَ البيانيَّ).

نُكتةُ تَوالي المُؤكِّداتِ:

أهمّيّةُ المؤكَّدِ عليه في تَوجيهِ المعنَى وتَرْسِيتِه في السّياقِ

اشتمل قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾، على جملةٍ منَ المؤكِّدات؛ هي: أوّلًا: اسْميّةُ الجملةِ وتصديرُها بـ (إنّ) التّوكيديّةِ، وثانيًا: تعريفُ اسْمِ (إنّ)، وهو ﴿ٱلنَّفۡسَ﴾ ودلالتُه على الجنس، وهو من صِيَغ العمومِ، وثالثًا: دخولُ لام التّأكيدِ على الخبرِ ﴿لَأَمَّارَةُۢ﴾، ورابعًا: التّعبيرُ بصيغةِ المبالغةِ ﴿لَأَمَّارَةُۢ﴾؛ أيْ: كثيرةُ الأمر بالسّوءِ، و(أل) في ﴿بِٱلسُّوٓءِ﴾ للجنْسِ كذلك؛ أيْ: إنّ النّفسَ لكثيرةُ الأمر بالسّوءِ؛ أيْ: بجنْسِه، والمُرادُ أنَّها كثيرةُ المَيْل إلى الشّهواتِ، مُستعملةٌ في تحصيلِها القُوى والآلاتِ[3].

وتَوالي المُؤكِّدات وتسلُّطُها على مؤكَّدٍ واحدٍ دليلٌ على الأهمّيّة. فكونُ النّفس أمّارةً بالسّوء، أمرٌ يستدْعي مواجهتَها ومجاهدتَها، وألّا يسيرَ صاحبُها على هواها، إذا أمرتْ بسوءٍ. ولا تعني الجملةُ بحالٍ تلمُّسَ العُذرِ لمَن يقعُ في شَراكها، أو يضعفُ أمام إغراءاتِها؛ لأنّ المطلوبَ منَ المُكلَّف مقاومةُ دَواعيها، وحمْلُها على الطّاعةِ.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/5.
(2) الزّركشيّ، البرهان: 2/406.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/4.

معنَى(أل) في: ﴿بِٱلسُّوٓءِ﴾:

(أل) في ﴿بِٱلسُّوٓءِ﴾ للجنْسِ كذلك؛ أيْ: إنّ النّفسَ لكثيرةُ الأمرِ بالسّوءِ؛ أيْ: بجنْسِه، والمرادُ أنّها كثيرةُ المَيلِ إلى الشّهواتِ، مُستعملةٌ في تحصيلِها القُوَى والآلاتِ[1].

النّفسُ مَيّالةٌ للسّوءِ، بحُكْمِ الطّبْعِ والغَريزَةِ

بَلاغةُ التّشْبيهِ في: ﴿لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾:

في قوله تعالى: ﴿لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾، تشبيهٌ بليغٌ، ففيه تشبيهُ النّفس بمَيلِها إلى الشّهوات، بالآمرِ بها عن طريق القولِ[2]، فحُذفت أداةُ التّشبيه ووجْهُ الشّبه، وبقي رُكنا التّشبيه الأصليّان: المُشبّهُ، والمُشبّهُ به، وهذا التّشبيهُ في غاية الرّوعةِ والجمالِ، فقد ألصقَ وصْفَ (الأمّارة) بالنّفسِ البشريّةِ التّوّاقةِ إلى المُتعةِ العاجلةِ، حيث تَنطمسُ البصائرُ، وتَنحجبُ المصائرُ، فلا ترى النّفسُ البشريّةُ منَ المعاصي، إلّا بريقَها الخُلَّبِ، فلذلك تجدُها لا تَعبأُ بالألم، ولا تلتفتُ إلى سوءِ العُقبَى، من ذلك الّذي حذّرتْ منه الشّرائعُ، وأكّدتْه دعواتُ الأنبياء الّتي أبانوا فيها عنِ البلاغ النّافعِ، والمسلكِ الضّارِّ، ممّا يكونُ فيه الاتّباعُ والارتداعُ، سببًا في تحصين النُّفوسِ من مغبّة ذلك وفِتنتِه.

النّفسُ البشريّةُ دأبُها الأمرُ بالسّوء، لا تَفتأُ عنه، ولا تَفْترُ بحالٍ

دَلالةُ الاستثناءِ في: ﴿إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓ﴾:

الأوّلُ: أن يكون مُنقطعًا، وهو قولُ الجمهور وهو الأرجحُ[3] على معنى: ولكنّ (رحمة ربّي) هي الّتي تصرفُ الإساءةَ، كقوله تعالى: ﴿وَلَا هُمۡ يُنقَذُونَ ۝٤٣ إِلَّا رَحۡمَةٗ مِّنَّا﴾ [يس: 43 - 44]، وقوله: ﴿لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيۡنَا وَكِيلًا ۝٨٦ إِلَّا رَحۡمَةٗ﴾ [الإسراء: 86 - 87][4].

الثّاني: أنّه مُتّصل، والمُستثنى منه هو الضّمير المُستكنُّ في

المعاني المَحمولُ عليها الاستثناءُ تُحدِّدُ نوعَه وأهمّيّتَه

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/4.
(2) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 10/357.
(3) ابن عطيّة، المُحرَّر الوجيز 3/253، والخطيب وآخران، التّفصيل: 7/10.
(4) الهمذانيّ، الكتاب الفريد: 3/601، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/286.

﴿لَأَمَّارَةٌ﴾، كأنّه قيل: إنّ النّفس لأمّارة بالسّوءِ إلّا نَفْسًا رحمها ربّي، فيكونُ أراد بالنّفس الجنسَ، فلذلك ساغ الاستثناءُ منها، كقولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [العصر: 2 - 3] وفيه نظرٌ من حيث إيقاعُ (ما) على مَنْ يَعْقِلُ، والمشهورُ خِلافُه[1]. ويجوزُ أن يكونَ الاستثناءُ من أعمّ الأوقاتِ، على القول بأنّ ﴿مَا﴾ مصدريّةٌ؛ أيْ: ﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾، في جميع الأوقات إلّا وقتَ رحمةِ ربّي[2]؛ أيْ: رحمتُه بأن يُقيّضَ له ما يصرفُه عن فعلِ السّوء، أو يُقيّضَ حائلًا بينَه وبين فعلِ السّوء[3]، ولم يَسلمْ هذا التّوجيهُ منَ الاعتراض، لأكثرَ من سببٍ[4].

معنَى ﴿مَا﴾:

النّفسُ أمّارةٌ بالسّوءِ إلّا النّفسَ المرحومةَ، أوِ النّفسَ المعصومةَ

﴿مَا﴾ في قوله تعالى: ﴿مَا رَحِمَ رَبِّىٓ﴾ موصولةٌ بمعنى: (مَنْ). وقيل: مصدريّةٌ. وسواءٌ أكانت موصولةً أم مصدريّةً، ففي الكلام حذفُ مضافٍ على كلا الوجهَيْن، أمّا على الوجه الأوّل، فتقديرُه: إلّا نفسَ مَن رحم ربّي، فحُذفَ المضافُ.

وأمّا على الثّاني فتقديرُه: إلّا وقتَ رحمة ربّي، والمعنى: أنّ النّفسَ أمّارةٌ بالسّوء في كلّ وقتٍ وأوانٍ، إلّا وقتَ العصمة[5].

نُكتةُ حذْفِ مفعولِ ﴿رَحِمَ﴾:

رحمةُ اللهِ شاملةٌ للمخلوقات، وقد وسِعتْ كلّ شيءٍ حكمةً وعدلًا

حُذفَ مفعولُ ﴿رَحِمَ﴾ في قوله تعالى: ﴿مَا رَحِمَ رَبِّىٓ﴾ اختصارًا؛ لدلالةِ ما قبلَه عليه؛ أيْ: إلّا نفسًا رحمَها اللّه، ويمكنُ أن يكونَ الحذفُ لعموم رحمةِ اللّه ﷻ، وكوْنِ الرّحمةِ الإلهيّةِ شاملةً للبَشر كلِّهم، وهو الّذي يرحمُهم بغلبة الإيمانِ على الهوى، والعقلِ على

(1) السّمين الحلبيّ، الدُّرُّ المصون: 6/514.
(2) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 10/357.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/5.
(4) السّمين الحلبيّ، الدُّرُّ المصون: 6/515، والآلوسيّ، روح المعاني: 7/4.
(5) الهمذانيّ، الكتاب الفريد: 3/601.

النّزوعِ لمُبتغيات الأنفسِ، ومُتطلّباتِ الغرائزِ الدّنيا، ممّا يَهوي بالإنسان، إلى قاع الهوانِ.

فائدةُ التّعبيرِ بلفْظِ الرّبوبيّةِ، وإضافتِه إلى ضميرِ المتكلّمِ:

عبَّرَ بلفْظِ الرُّبوبيّةِ دونَ غيرِه، لِما فيه منَ الدّلالةِ على الإفضال بالغُفرانِ والرّحمةِ، في حالٍ تستحقُّ المؤاخذةَ والمعاقبةَ. وإضافتُه إلى ضمير المتكلّم، للتّعلّقِ به سُبحانه واسْتِعطافِه، وهي إضافةُ تشريفٍ، وفيها مزيدٌ منَ الاعتراف بفضلِه في إيقاع العفْوِ عنِ المُذنبِ المُعترفِ بذنبه التّائبِ منه.

التّعبيرُ بالرُّبوبيّةِ أنسبُ لدلالتِه على الإفضالِ بالغفرانِ، في محلِّ المؤاخَذةِ والمعاقبَةِ

سِرُّ إظْهارِ اسْمِ الرَّبِّ في موقعِ الإضْمارِ:

أُظهرَ اسْمُ الرّبّ مع كونِ الأَوْلى إضمارَه، لسبْقِ ذِكْرِه في قولِه تعالى: ﴿إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ﴾، قصْدًا إلى التّعرّض لعُنوانِ الرُّبوبيّةِ، لتربيةِ مبادئِ المغفرةِ والرّحمةِ[1].

رحمةُ اللهِ تَسْتَوعِبُ الموجوداتِ، وتَفيضُ بالإنعامِ على كافّةِ المخلوقاتِ

نُكتةُ الفصْلِ: ﴿إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾:

جملةُ ﴿إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، هي جملةٌ مفصولةٌ عمّا قبْلَها، على الاستئنافِ البيانيِّ، على كونِها إجابةً عن سؤالٍ مُقدّرٍ: ولماذا يرحمُ اللّه نفسًا أذنبتْ ثمّ استفاقتْ؟ فكان الجوابُ: ﴿إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

بلاغةُ شِبْهِ كمالِ الاتّصالِ، وأثرُها في دَلالةِ السّياقِ

عِلّةُ تَوالي المُؤكّداتِ في الفاصلةِ:

اشتملَ السّياقُ على جملةٍ منَ المُؤكّدات وهي التّأكيدُ بـ ﴿إِنَّ﴾ والجملةِ الاسميّةِ، ثمّ التّعبيرُ بالرّبِّ مضافًا إلى ضمير المُتكلّم، واسمُ الرّبِّ إنّما يُعبّرُ به في مقام الامتنانِ والإنعامِ، ثمّ ختْمُ الجملةِ بصِفتيْن جليلتَيْن للّه ﷻ؛ وهما: ﴿غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

تَوالي المُؤكّداتِ للاعترافِ بفضْلِه سُبحانه واسْتِعطافِه، والإطماعِ في عفْوِه

وفي هاتيْن الصِّفتَيْن الجليلتَيْن الدّلالةُ على الثّقةِ في إنعامِه

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/5.

سُبحانه، وإفضالِه على عبادِه بغُفران الزّلل، والرّحمةِ بالمُذنبِ طالما اعترفَ بذنْبِه واستغفرَ منه، وأخلصَ في التّوبةِ، وقد قال سُبحانه: ﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ﴾ [النّساء: 147]، وقال في الرّجاءِ والإطماعِ في مَغفرتِه وعفوِه: ﴿۞قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾﴾ [الزّمر: 53].

فائدةُ تذْييلِ الآيةِ بـ﴿غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾:

أَخْلِقْ بِمَن يَطرقُ الأبوابَ أن يَلِجَ

فائدةُ تَذْييلِ الآية بهذيْن الاسمَيْن الجليلَيْن ﴿غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، حثُّ المُقصِّرين على الرّجوعِ والإنابةِ إلى الله تعالى، وإطماعِهم في مغفرتِه ورحمتِه؛ لأنّه سُبحانه موصوفٌ دائمًا بهما، على الوجهِ الأكملِ اللّائقِ به، فما عليكم إلّا طرقُ الباب من خلالِهما، وستُفتحُ لكم كلُّ الأبواب المُفضيةِ إلى مغفرتِه ورحمتِه.

نُكتةُ تقديمِ ﴿غَفُورٌ﴾ على ﴿رَّحِيمٌ﴾:

المغفرةُ سَلامةٌ والرّحمةُ غنيمةٌ، والسّلامةُ مطلوبةٌ قبلَ الغنيمةِ

في سِرِّ تقديمِ ﴿غَفُورٌ﴾ على ﴿رَّحِيمٌ﴾ - وهو كذلك في أكثرِ القرآن - أنّ المغفرةَ هي صَوْنُ العبدِ من أن ينالَه العقابُ، أو يمسَّه العذابُ، مأخوذةٌ من قولِهم: اغْفِرْ ثوبَك في الوعاء، واصبغْ ثوبَك فإنّه أغْفَرُ للوَسَخ[1]، وأمّا الرَّحْمَةُ، فهي رقّةٌ تقتضي الإحسانَ إلى المَرحوم[2].

وعليه، فالتّرتيبُ بين الصِّفتَيْن في محلِّه، من حيث إنّ تقديمَ ما يفيد الأُولَى، مُقدَّمٌ على ما يُفيدُ الثّانيةَ؛ لأنّ التّخليةَ مُقدّمةٌ على التّحليةِ[3].

فائدةُ صِيَغِ المبالغةِ في الاسمَيْن الجليلَيْن:

بيانُ أنّ المُبالغةَ في صِفاتِ اللهِ، مرجِعُها إلى تعدُّدِ المفعولاتِ، وعظيمِ تأثيرِها

صِياغةُ هذيْن الاسمَيْن الجليلَيْن على طريقة المُبالغةِ راجعةٌ إلى عظيم أمرِهما، وجلالةِ قدْرِهما، وإلى تكرّرِ آثارِ كلِّ صفةٍ منهما مع

(1) الرّاغب، المفردات: (غفر).
(2) الرّاغب، المفردات: (رحم).
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/5.

الفردِ الواحدِ، فهو سُبحانه يغفرُ لعبدِه مرّاتٍ، ويتوبُ عليه مرّاتٍ ويرحمُه مرّاتٍ ومرّاتٍ، فتمتدُّ آثارُ رحمة اللّه بالعبدِ رأسيًّا وأفقيًّا، وهكذا بسائرِ العبادِ.

وممّا وجَّه به العلماءُ مجيءَ صفاتِ اللّه تعالى على جهة المبالغةِ كذلك، أنّها منظورٌ فيها إلى اعتبارِ تعدّدِ المفعولاتِ[1]، ومعنى ذلك أنّ سلطانَ صفاتِ اللّه تعالى، يقعُ على أفرادٍ عَديدين، بل جماعاتٍ مُتعدِّدين في الوقت الواحدِ؛ لأنّه سبحانه عظيمٌ في صفاته[2].

نُكتةُ تنكيرِ الاسمَين الجليلَين ﴿غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾:

نكّرَ البيانُ الإلهيُّ الاسمَيْن الجليلَيْن تفخيمًا وتعظيمًا، فهو سُبحانه لكونِه مُتّصِفًا بهاتيْن الصّفتَيْن الجليلتَيْن، فيجبُ عليكم أن تُبادِروا بالرّجوعِ إليه، ليَشملَكم في عموم عفْوِه ومغفرتِه، ولا تتعاظَموا ذنْبًا في جانب عفْوِه؛ لأنّه عظيمُ المغفرة، عظيمُ الرّحمةِ، ولا يَعظُمُ عليه ذنبٌ مهما كبُرَ.

لا تَتَعاظَموا ذنْبًا في جانبِ عفْوِه؛ لأنّه سُبحانه عظيمُ المغفرةِ والرّحمة

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

السّوءُ والمعْصِيةُ والذّنْبُ والإثمُ والجُرمُ:

السّوءُ في اللّغة: المَكْروه. يُقال: ساءَهُ يَسوؤه، إذا لَقيَ مِنْهُ مَكْروهًا[3]، وقد عُرّف بأنّه:

كلُّ ما يغمُّ الإنسانَ منَ الأمورِ الدّنيويّةِ والأخرويّةِ، ومنَ الأحوالِ النّفسيّةِ والبدنيّةِ، والخارجةِ من فواتِ مالٍ وجاهٍ، وفقْدِ حميم[4]، والمعصيةُ هي العِصْيانُ. يُقالُ: عَصَى، وهو عاصٍ، والجمعُ: عُصاةٌ وعاصون. والعاصي: الفَصيلُ إذا عَصَى أُمَّهُ في اتِّباعها[5]، وتُعرّفُ

السّوءُ لفظٌ عامٌّ يَشملُ كلَّ المفرداتِ الدّالّةِ على القُبحِ والمعْصِيةِ

(1) الزّركشيّ، البرهان: 2/508.
(2) الخطيب: مفاتيح التّفسير: 2/751.
(3) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 199.
(4) الراغب، المفردات: (سوء).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عَصَوَىٰ).

المعصيةُ اصطلاحًا بأنّها: مُخالفةُ الأمر قصْدًا[1]، والمعنى المِحوريُّ: امتدادُ الشّيءِ في صلابةٍ وغِلَظٍ، بحيث لا يَنثني: كعَرْقوَتَي البئرِ مُمتدّتيْن عَبرَ فَمِه صُلبتيْن، وكالعصا[2]، وكأنّ العاصي هو مَن يكونُ صلبًا في عصيانه صلابةَ العصا ونحوِها. والذَّنْبُ: الجُرْمُ. يُقالُ: أذْنَبَ يُذْنِبُ. والاسْمُ: الذَّنْبُ، وهو مُذْنِبٌ[3]، وعُرِّف الذَّنب بأنّه: ما يتبعهُ الذَّمُّ، أو ما يُتْبَعُ عليه العَبْدُ من قَبيح فعلِه، والأصْلُ في الذَّنْب الرَّذِل من الْفِعْل؛ كالذَّنبِ الَّذي هو أرذلُ ما في صاحبه.

وفُرِّق بينه وبين الإثم، بأنَّ الْإِثْم هو القَبيحُ الَّذي عَلَيْهِ تَبِعةٌ، والذَّنبُ هو القَبيحُ منَ الفِعْل، ولا يُفيدُ معنى التّبعةِ، ولهذا قيل للصَّبيّ: قد أذْنبَ، وَلم يُقل: قد أثِم. ومعلومٌ أنَّ الصّبيَّ لا تَبِعةَ عليه[4]. والإثمُ: هو ما يكونُ عليه تَبِعةٌ منَ الأخطاء كما ذُكر. والجُرْمُ: ما يَنقطعُ به عنِ الواجب، وذلك أنَّ أصلَه في اللُّغَة: القطعُ. وَمِنْه قيل للصِّرام: الجِرام، وهو قطعُ التَّمْر[5].

وبعد استعراضِ مُفرداتِ (السّوءِ والمعصيةِ والذّنبِ والإثمِ والجُرمِ) يظهرُ ما بينَها من تقارُبٍ دَلاليٍّ، كما يظهرُ أنّ لفْظَ السُّوء يَشملُها جميعًا، وبذلك يظهرُ أنّه اللّفظُ الأنسبُ للتّعبيرِ في الآيةِ الكريمةِ.

(1) الجرجانيّ، التعّريفات، ص: 222.
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: 3/1472.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ذنب).
(4) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 233.
(5) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 233.

﴿وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ ٱئۡتُونِي بِهِۦٓۖ أَسۡتَخۡلِصۡهُ لِنَفۡسِيۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلۡيَوۡمَ لَدَيۡنَا مَكِينٌ أَمِينٞ ٥٤ قَالَ ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ ٥٥﴾ [يوسف: 54 - 55]

مُناسَبَةُ الآيَتينِ لِمَا قَبلَهُما:

بعد أن تبيّنَ للملك براءةُ يوسفَ عليه السلام، ممّا كان قد رُميَ به من قِبَل امرأةِ العزيز، وهي البراءةُ الّتي ظهرت من خلال حوارِه مع النّسوةِ، ومع امرأةِ العزيز الّتي نطقت أمامَه بالحقّ في تبرئتِه عليه السلام، واعترفتْ بأنّها هي الّتي راودَتْه خُضوعًا لداعي نفسِها الأمّارةِ بالسّوء، وكان قد عظُم أمرُه عليه السلام في نفسِ الملك، حين عبَّرَ له رُؤياه، ودلَّه على ما سيكونُ من قحْطٍ في السّنين السّبعِ، وأرشدَه من خلال تعبيرِه رُؤياه كذلك إلى ما يَنبغي أن يَفعَلَ لمعالجةِ آثارِ ما سَتُخلِّفُه السِّنون العجافُ من قحْطٍ، وما سيترتّبُ عليها من مجاعةٍ عامّةٍ، هنا أراد اللّه ليوسفَ عليه السلام أن يعلُوَ شأنُه في الدّولة، لأمرٍ قد قدَّره، فبعثَ في نفس الملك الرّغبةَ بعد أن كلَّمه وسمعَه، في أن يَسْتخلصَه لنفسه؛ أيْ: بأن يكونَ ضمْنَ رجالِ مُلكِه، وأن يتولَّى فيها مَنصبًا يليقُ به، فكان ما كان، وقيل ما قيل ممّا حكَتْه الآيتانِ الكريمتانِ.

مَنِ اسْتَجارَ باللهِ أجارَه، وكان عاقبةُ أمرِه فوزًا ونصرًا يردُّ كيدَ الكائِدين، ويُمكِّنُ له أرْفَعَ تمكينٍ

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَسۡتَخۡلِصۡهُ﴾: فعلٌ مضارعٌ أصلُ مادَّتِه (خلص)، وهو أصلٌ يدلُّ على تَنْقيَةِ الشَّيْءِ وَتَهْذيبِه[1]، وخَلصَ الشَّيْءُ خُلوصًا، إذا كان قد نَشَبَ ثُمَّ نَجا وسَلِمَ، وخَلَصْتُ إليه: وصلتُ إليه، وتقول: هو خالصتي وخُلْصاني، وهؤلاء خُلْصاني وخُلصائي؛ أيْ: أخِلّائي[2]، واسْتَخْلَصَهُ

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (خلص).
(2) الخليل، العين: (خلص).

لنفسهِ: جَعَلَهُ خالِصًا لها[1]، واسْتَخلصه لنفسه: استخصَّها[2]، استخلص صديقًا: اختاره واختصَّه بدَخيلةِ نفسِه وجعلَه من خاصَّتِه، ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِيۖ﴾[3].

2) ﴿مَكِينٌ﴾: اسمٌ جَذْرُه (مكن)، وله أصلٌ واحدٌ[4]، يدورُ معناه حولَ رُسوخِ الشَّيْءِ مُتَجَمِّعًا في باطنٍ يَلْتَئِمُ عليه، كبَيْضِ الضِّبابِ والجَراد في باطنِهما، والتَّمكُّنُ: رُسوخٌ في باطنٍ، مكَّنَهُ منَ الشَّيءِ، ومكَّن له: جعلَ له عليه سُلطانًا وقُدْرَةً، والتَّمكينُ منَ الشّيء: إنالةُ ما يصحُّ به الفعلُ منَ الآلات والقوَى[5]، ورجلٌ مكينٌ: ذو مكانة عند السّلطان[6]، وفلانٌ مكينٌ عند فلانٍ: بيِّنُ المكانةِ والمنزلةِ[7]، ولفُلانٍ مَكانةٌ عِنْد السُّلْطان؛ أيْ: منزِلةٌ، وتمكّنتُ من كَذا وكَذا تمكُّنًا، واستمكنتُ مِنْهُ استمكانًا[8].

3) ﴿أَمِينٌ﴾: فعيلٌ من أمِنَ، وجَذرُه (أمن)، وهو أصلٌ يدلُّ على الأمانةِ الّتي هي ضدُّ الخيانةِ[9]، ورجلٌ أمينٌ؛ أيْ: مأمونٌ[10]، والأمينُ: القويُّ لأنَّهُ يوْثَقُ بقُدرتِه[11]، وهو ثقةٌ في نفسِه[12]، "وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ ۝٥١﴾ [الدّخان: 51]؛ أيْ: قد أمِنوا فيه الغِيَرَ، وأنتَ في آمنٍ؛ أيْ: في أمنٍ، ورجلٌ أَمْنَةٌ وأَمَنَةٌ؛ أيْ: يأمنُ كلَّ أحدٍ، وقيل يأمنُه النّاسُ ولا يخافون غائلتَه"[13].

4) ﴿خَزَآئِنِ﴾: جمعُ خِزانةٍ، وجَذرُ الكلمةِ (خزن)، وهو أصلٌ يدلُّ على صيانةِ الشَّيءِ، يُقالُ: خزنتُ الدّرهمَ وغيرَهُ خَزْنًا[14]، وخزنَ الشَّيءَ فلانٌ: يَخْزُنُه خَزْنًا إذا أحرَزَه في

(1) الحميريّ، شمس العلوم: (استخلص).
(2) الرّازيّ، مختار الصّحاح: (خلص).
(3) مختار، معجم اللّغة العربيّة المعاصرة: (خلص).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (مكن).
(5) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (مكن).
(6) ابن دُرَيْد، جمهرة اللّغة: (مكن).
(7) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (مكن).
(8) ابن دريد، جمهرة اللّغة: (كمن).
(9) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (أمن).
(10) الحميريّ، شمس العلوم: (أمن).
(11) ابن منظور، لسان العرب: (أمن).
(12) العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 228.
(13) ابن سِيدَه، المُحكَم: (نأم، مقلوبُه).
(14) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (خزن).

خِزانةٍ[1]، ومنه: خزنتُ المالَ: إذا جعلتَهُ في خزانةٍ[2]، ورُوِيَ عن لقمانَ الحكيم أنّه قال لابنه: (إذا كان خازنُك حفيظًا، وخزانتُك أمينةً، سُدْتَ في دنياك وآخرتك)، يعني: اللّسانَ والقلبَ. والخزانة: اسمُ المكان الّذي يُخزنُ فيه الشّيءُ، والخِزَانة: عملُ الخازن. قال ابنُ الأنباريِّ في قول الله ﷻ: ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ﴾ [هود: 31]، قال: معناها: غيوبُ علْمِ الله الّتي لا يعلمُها إلّا الله"[3].

5) ﴿حَفِيظٌ﴾: الحِفْظُ يُقالُ تارةً لهيئةِ النَّفسِ الّتي بها يَثبتُ ما يُؤدّي إليه الفَهْمُ، وتارةً لضَبْطِ الشّيء في النّفس، ويضادُّه النّسيانُ، وتارةً لاستعمالِ تلك القوّةِ، فيُقال: حَفِظْتُ كذا حِفْظًا، ثُمَّ يُستعملُ في كلِّ تفقُّدٍ وتعهُّدٍ ورعايةٍ، قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ١٢﴾ [يوسف: 12][4]، وهو حفيظٌ عليه: رَقيبٌ[5].

المَعْنى الإجْماليُّ:

العلمُ والعقلُ يَرفَعانِ صاحبَهما، ولا غضاضةَ في طلب التّمكينِ من الحفيظِ العليمِ

قال ملكُ مِصرَ لأعوانِه لمّا تَبَيَّنَ براءةَ يوسُفَ وعِلْمَهُ وعِظَمَ أمانتِه: جيئوني بِهِ أجْعَلْهُ خالصًا لنفسي، لا يُشاركني فيه أحدٌ، ومن خُلصائي وخاصَّتي، فجاؤوه به، فلما كلَّمَهُ، وتبيَّن له عِلْمُه وعقلُه قال له: إنَّك يا يوسُفُ قد صِرتَ اليومَ عندنا صاحبَ مكانةٍ وجاهٍ ومؤتمنًا[6]. وهنا يظهرُ عَدمُ كراهةِ طَلَبِ الولايةِ إنْ كان عالمًا بها قادرًا عليها: قال يوسفُ لملكِ مِصْرَ: ولِّني على حِفْظِ خزائنِ المالِ والأقواتِ، في أرْضِ مِصْرَ، فإنّي خازنٌ أمينٌ، ذو عِلْمٍ وبَصيرةٍ بما أتَوَلّاهُ، كاتبٌ حاسبٌ، فَولّاه الملكُ الولايةَ الّتي طلبَها، وكان لِفِرْعَوْنَ

(1) الخليل، العين: (خزن).
(2) الجوهريّ، الصّحاح: (خزن).
(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (خزن).
(4) الرّاغب، المفردات: (حفظ).
(5) الزّمخشريّ، أساس البلاغة: (حفظ).
(6) ابن جرير، جامع البيان: 16/147، وابن الجوزيّ، زاد المسير: 2/449، وجماعة من العلماء، المختصر في تفسير القرآن الكريم، ص: 242.

خزائنُ كثيرةٌ، فأسْلَمَ سلطانَه كُلَّه إلى يوسفَ، وجَعَلَ القضاءَ إليه؛ أمرُه وقضاؤه في البلادِ نافذٌ[1]. وفي قوله تعالى: ﴿ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ﴾، دليلٌ على جوازِ طَلَبِ التَّوليةِ وإظهارِ أنَّهُ مُسْتَعِدٌّ لها، والتَّولّي مِن يَدِ الكافرِ، إذا عَلِمَ أنَّهُ لا سبيلَ إلى إقامةِ الحَقِّ، وسياسةِ الخَلْقِ إلّا بالاستظهارِ به[2].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

معنى الواوِ في السِّياق:

الواوُ في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ ٱئۡتُونِي بِهِۦۖ﴾ هي واوُ الاستئناف[3]، ويمكنُ أن تكون عاطفةً من باب عطفِ القصّة على القصّة. والجملةُ حكايةٌ لِما طلبَه الملكُ بعد أن سمع عن يوسفَ عليه السلام، وخصوصًا بعد أن بلغَه تعبيرُه لرؤياه. وفي الكلام حذفٌ يُفهمُ منَ المقام، والتّقديرُ: ﴿وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ﴾، بعد أن سمعَ من ساقيهِ ما قاله يوسفُ، في تفسيرِ الرّؤيا ﴿ٱئۡتُونِي بِهِۦۖ﴾؛ أيْ: أحْضِروه لي لأراه وأسمعَ منه، وأستفيدَ من علْمِه[4].

الواوُ للاستئناف، والجملةُ بعدَها مُستأنَفةٌ

معنَى (أل) في: ﴿ٱلۡمَلِكُ﴾:

(أل) في ﴿ٱلۡمَلِكُ﴾ للعهدِ. والمعهودُ هو الملكُ الّذي كان في زمان يوسفَ عليه السلام، وقد عناه القرآنُ في حوارِه معه، ومن قبلُ كان حوارُه أيضًا مع النّسوةِ وامرأةِ العزيز، وهو الّذي رأى الرُّؤيا الّتي عبّرَها له يوسفُ عليه السلام.

الإشارةُ إلى فترةِ مُلوكِ الهكْسوسِ، في زمانِهم المشهودِ

دَلالةُ الأمرِ في فعلِ الأمرِ ﴿ٱئۡتُونِي﴾:

دلَّ الأمرُ في قوله تعالى: ﴿ٱئۡتُونِي بِهِۦۖ﴾ - وهو من كلام الملك -

أوامِرُ الملوكِ بإحْضارِ مَن يَنفعُ قُربٌ وشَرَفٌ وتَمكينٌ

(1) ابن جرير، جامع البيان: 16/148، والبغويّ، معالم التّنزيل: 4/251، وجماعة من العلماء، المختصر في تفسير القرآن الكريم، ص: 242.
(2) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/163.
(3) الخطيب وآخران، التّفصيل: 7/10، وصافي، الجدول: 13/11.
(4) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 7/373.

على الوجوبِ، حيث تعجّلَ الملكُ الإتيانَ به ﷺ، فخاطبَ عُمّالَه بما يدلُّ على سرعةِ استدعائِه.

معنَى الباءِ في الجارّ والمجرور ﴿بِهِۦٓ﴾، وعودُ الضّمير فيه:

الباءُ للمصاحبةِ؛ أيْ: معكم وبصُحْبتِكم. ويُلحظُ في ﴿بِهِۦٓ﴾، حيث يعودُ الضّميرُ في ﴿بِهِۦٓ﴾، إلى يوسفَ ﷺ لكونِه المعهودَ في هذا الحوارِ، وهذا سرُّ إضْمارِه.

نُكتةُ زيادةِ السّينِ والتّاءِ في ﴿أَسْتَخْلِصْهُ﴾:

نُكتةُ زيادةِ (السّين والتّاء) في ﴿أَسْتَخْلِصْهُ﴾ هي المبالغةُ، كما في: استجابَ واستأجرَ. والمعنى: أجعلُهُ خالصًا لنفسي؛ أيْ: خاصًّا بي لا يُشاركُني فيه أحدٌ[1].

دَلالةُ التّعبيرِ بالفعلِ ﴿أَسْتَخْلِصْهُ﴾:

يُقال: استخلصَه واستخصَّه، إذا جعلَه خالصًا لنفسه وخاصًّا به[2]، وفي التّعبير به مضارعًا، دلالةٌ على حرْصِ الملك على التّمسُّك به وملازمتِه حالًا واستقبالًا، ويظهرُ من أحداث القصّةِ، أنّ المَشاهدَ قد بلغت قمَّةَ التّعقيدِ، وأنّها قد وصلتْ إلى النّتائجِ المُتوخّاةِ منها، حيث وطّأتْ رُؤيا الملكِ المهادَ، وهيّأتِ الأسبابَ لمدّ الجسورِ بين الملك ويوسفَ ﷺ، فأصبحَ في مرتبةٍ ساميةٍ رضيّةٍ، مكّنَتْه من تسنُّمِ مقاليدِ الأمورِ، ليصبحَ عزيزًا بعد أن دخل مصرَ عبدًا ذليلًا، وقد رتّبَ السّياقُ ذلك بدقّةٍ وفصاحةٍ، ليؤكدَ قيوميَّتَه تعالى في تحقيق ما يريدُ، لِمَن يريدُ، وكما يشاء ويريدُ.

معنَى اللّامِ في: ﴿لِنَفْسِيۖ﴾:

اللّامُ في قوله تعالى: ﴿لِنَفْسِيۖ﴾، هي لامُ السّبب، والّتي يسمّيها الثعلبي والواحدي وابنُ عاشور وغيرهم (لامَ الأجْل)؛ أيْ:

اسْتِعمالُ الضّميرِ في موْضِعِه، مُغْنٍ عنِ الاسْمِ الظّاهِرِ

المبالغةُ زيادةٌ في التّوكيدِ، وإيضاحٌ في البيانِ

الاسْتِخلاصُ اصْطِفاءٌ وقُرْبٌ يَنالُ به صاحِبُه مَكانةً وحُظْوةً عند الملك

مَن وَثّقَ بالله الصّلاتِ، رفعَه اللهُ إلى أعلَى الدّرجاتِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/7.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/481.

﴿أَسۡتَخۡلِصۡهُ﴾ لأجل نفسي، والمعنى: "أستخلصه لنفسي: أيْ: أجعله خالصًا لي؛ أصْطَفيه، وأستأثرُ به.

وهكذا يخرجُ يوسفُ منَ السّجن إلى حيث يجلسُ مجلسَ الإمارة والسّلطانِ، فيكونُ من خاصّةِ الملك، المُقرَّبين إليه، المُشاركين له في الحُكم والسّلطانِ"[1].

بَلاغةُ الكنايةِ في: ﴿أَسۡتَخۡلِصۡهُ لِنَفۡسِيۖ﴾:

الجملةُ (كنايةٌ) عن شِدّةِ تعلُّقِ الملكِ بيوسفَ عليه السلام

قوله تعالى: ﴿أَسۡتَخۡلِصۡهُ لِنَفۡسِيۖ﴾، كنايةٌ عن شِدّةِ اتّصالِه به والعملِ معه[2]. "والاستخلاصُ: خلوصُ الشّيء من شوائبِ الشّركةِ، وقال ذلك لمّا كان يوسفُ نفيسًا، وعادةُ الملوكِ أن يجعلوا الأشياءَ النّفيسةَ خالصةً لهم دونَ غيرهم"[3].

دَلالةُ العطْفِ بالفاءِ في: ﴿فَلَمَّا﴾:

المبادَرةُ إلى انْتِقاءِ الكفاءاتِ الفعّالةِ، ضَرورةٌ لا بدَّ منها

سِرُّ إيثار العطف بالفاء: الدّلالةُ على إسراعِه في ذلك[4] الحكم، وهذا القرارِ الّذي اتّخذَه في حقِّه عليه السلام المُعبَّرِ عنه بقوله: ﴿إِنَّكَ ٱلۡيَوۡمَ لَدَيۡنَا مَكِينٌ أَمِينٞ﴾.

دَلالةُ الحذْفِ في: ﴿فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ﴾:

الحذْفُ في الجملةِ اختصارًا، ولدلالةِ السّياقِ على المحذوفِ

في الكلام حذْفٌ دلَّ عليه السّياقُ في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ ٱئۡتُونِي بِهِۦۖ﴾، وقولُه: ﴿فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ﴾، هو كلامٌ مُترتِّبٌ عليه؛ أيْ: (فأتَوا به)، ﴿فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ﴾ أو: (فأتَوْه به، فحضر لديه وكلّمه) ﴿فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ﴾[5] فتكونُ قد حُذفت جملةُ (فأتَوا به) للعلمِ بها تحقيقًا للإيجازِ، وللإيذان بسرعةِ الإتيانِ به، فكأنّه لم يكن بين الأمرِ بإحضاره، والخطابِ معه، زمانٌ أصلًا[6].

(1) الخطيب، التّفسير القرآنيّ: 7/4.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/7.
(3) درويش، إعراب القرآن: /5/25.
(4) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 10/130.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتنّوير: 13/7.
(6) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/286، والآلوسيّ، روح المعاني: 7/6.

معنَى (لمّا) ودلالةُ التّعبيرِ بها:

إفادةُ (لمّا) للظّرفِ والشّرطِ

عبَّر بـ ﴿فَلَمَّا﴾ لدلالتِها على الظّرفيّةِ والشّرطيّةِ، فقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ﴾؛ أيْ: حين كلّمه فهي للزّمان وللشّرط، فهي معدودةٌ ضمنَ أدوات الشّرطِ غيرِ الجازمة، "وفي هذا دلالةٌ على ما قاله المَلكُ، إذ إنّه لمّا علمَ أمانةَ يوسفَ، اختاره لِيَستخلصَه لنفسه، في خاصِّ خدمتِه. ﴿فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾، لأنّه استدلَّ بكلامه على عقلِه، وبعصمتِه على أمانتِه، فقال: ﴿إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾، وهذه منزلةُ العاقلِ العفيفِ"[1].

عوْدُ الضّميرَيْن في ﴿كَلَّمَهُۥ﴾:

تحقيقُ القولِ في عوْدِ ضميرَيِ الفاعلِ والمفعولِ في الجملةِ

يجوزُ أن يكونَ الفاعلُ ضميرَ المَلِك، والمفعولُ ضميرَ يوسفَ عليه السلام وهو الظّاهرُ، ويجوزُ العكسُ.[2] والرّاجحُ أنّ ضمير الفاعلِ للملك، وضميرَ المفعول ليوسفَ عليه السلام، وهو الأليقُ، "لأنّ مجالسَ الملوك، لا يَحسُنُ لأحدٍ أن يبدأ فيها بالكلام، وإنّما الّذي يبتدئُ به هو الملك"[3].

دَلالةُ ذِكْرِ جملةِ ﴿فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ﴾:

الآيةُ تُؤسّسُ لإجراءِ المقابلاتِ الشّخصيّةِ لاختيارِ الكفاءاتِ

فائدةُ هذه الجملة ودلالتُها، هو الإخبارُ بأنّ يوسفَ عليه السلام، قد امتلكَ كلَّ مُقوِّماتِ الذّكاءِ والفطنةِ والخِبرةِ، حتّى ظهرَ ذلك في كلامه ونطقَ به لسانُه، فما كان من أمر الملكِ إلّا أن يُرتّبَ على ذلك رغبةً في استخلاصِه لنفسه؛ ليكون واحدًا مهمًّا ممّن يَعتمدُ عليهم في دعمِ حُكمِه. ولعلّه كان يريدُه وزيرًا ومستشارًا، من فرطِ ما رآه فيه "من حكمةٍ وأدبٍ"[4]، وكأنّ الآيةَ بذلك تؤسّسُ لإجراء المقابلاتِ الشّخصّيةِ لاختيار الكفاءاتِ، أهلِ الأمانة والفطنةِ والخبرةِ والذّكاءِ، في تولّي عالي المناصبِ الّتي تُناسبُهم.

(1) الماورديّ، النّكت والعيون: 3/49.
(2) السّمين الحلبيّ، الدُّرُّ المصون: 6/515.
(3) شيخ زاده، حاشية زاده على تفسير البيضاويّ: 5/48.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/7.

نُكتةُ الفصْلِ: ﴿قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ﴾:

الفصلُ للاستئنافِ البيانيِّ (شِبْهِ كمالِ الاتّصالِ)

وذلك أن يكونَ القولُ، قد نشأ جوابًا عن سؤالٍ تقديرُه: فماذا قال له بعد أن كلَّمه؟

فكان الجوابُ: ﴿قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ﴾، وعلى هذا فبين هذه الجملة المفصولةِ والّتي فُصلت عنها ما يُعرف بـ (شبْهِ كمال الاتّصالِ)، أوِ (الاستئنافِ البيانيِّ).

مَوقعُ جملةِ ﴿قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ﴾، منَ الشّرطِ السّابقِ:

لا حُكْمَ قبْلَ اخْتِبارٍ، وعندَ الخبرِ تَنْقطعُ الظُّنونُ

قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ﴾، هو جوابُ ﴿فَلَمَّا﴾[1]، وقد مرَّ الكلامُ عن إفادةِ (لمّا) للشّرطِ والظرّفِ. "قال بعضُهم: إنّ مَن أمعنَ النّظرَ في قصّة يوسفَ عليه السلام، علمَ يقينًا أنّ التّقيَّ الأمينَ لا يُضيّعُ اللّه سعْيَه؛ بل يُحسنُ عاقبتَه، ويُعلي منزلتَه في الدّنيا والآخرة، وأنّ المعتصِمَ بالصّبرِ لا يخشَى حَدَثانَ الدّهرِ وتجاربَه، ولا يخاف صُروفَه ونَوائبَه، فإنّ اللّه يُعضّدُه، ويُنجحُ مسعاه، ويُخلّدُ ذِكْرَه العاطرَ على مَمَرِّ الأدهار"[2].

نُكتةُ التّوكيدِ في: ﴿إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾:

الحِرْصُ على تَعْيينِ الأصْلَحِ مَنْهجٌ تَنْتظِمُ به مقاصِدُ العدلِ والإصْلاحِ

أفادَ التّوكيدُ الّذي دلَّ عليه في الجملةِ تصديرُها بـ (إنّ) التّوكيديّةِ، ثمّ بكوْنِ الجملة اسميّةً، على الاعتناء بشأنه عليه السلام[3] من قِبَل الملك، وهو القولُ الذّي ترتّبَ على كلامه معه، في المقابلةِ الشّخصيّةِ الّتي أجراها له، ومن قِبَلِ الملك نفسِهِ، وليس بتكليف أحدِ وُجهاء الدّولةِ.

معنَى(أل) في: ﴿ٱلْيَوْمَ﴾ ونُكتةُ تقديمِه:

المُرادُ بلفْظِ (اليوم)، يومُ التّكلّمِ نفسُه، الّذي جرَى فيه الحوارُ بين الملك ويوسفَ

في تقديم ﴿ٱلْيَوْمَ﴾ دلالةٌ على قصدِ الزّمن، وأنّه الآن في هذا

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/7.
(2) القاسميّ، محاسن التّأويل: 6/190.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/6.

اليومِ، وفي تلك اللّحظة هو لدَيه ﴿مَكِينٌ أَمِينٌ﴾، لِيحترزَ به عن معنى التّسويف والتّأخير، وأنّه لم يُصبحْ عنده كذلك إلّا بعد حين، ووقتٍ طويلٍ.

نُكتةُ ذِكْر ﴿ٱلْيَوْمَ﴾ وأثرُها في السّياقِ:

تَثْبيتُ مكانةِ يوسفَ عليه السلام لدى الملك منذ لقائِهما أوّلَ يومٍ

في ذِكْر ﴿ٱلْيَوْمَ﴾ وسرِّ التّعبيرِ به دلالةٌ على أنّه عليه السلام قد حاز المكانةَ اللّائقةَ به عند الملك وأنّه قد صار لديه (مكينًا أمينًا)، في يوم لقائِهما نفسِه، بل في لحظتِه نفسِها، ولا يُفهمُ أنّ المُرادَ بذِكْر اليوم، كونُه معيارًا للمكانة والأمانةِ، بل هو مجّردُ آنِ التّكلّمِ، أُريدَ بذِكْره تحديدُ مبدئِهما احترازًا عن كونِهما قد صارا له بعد حينٍ[1] من العملِ والاختبارِ، كما يُقال الآن لَمن يتولّى شيئًا: أمامك مدّةُ كذا؛ هي مدّةُ اختبارك، وبعدها ننظرُ في أمرِ تَثْبيتِك في وظيفتِك، أو أنْ ترحلَ.

فائدةُ ذِكْرِ: ﴿لَدَيْنَا﴾:

الدّلالةُ على الاغْتِناءِ الحاضِرِ في الوقْتِ

في اختيار ﴿لَدَيْنَا﴾ وإيثارِه على (عندنا)، ما لا يخفَى منَ الاعتناءِ بشأنِه عليه السلام[2]، وذلك أنّ لفظَ (لدى) يدلُّ على أنّ ما تُضيفُه إليه حاضرٌ وقتَ الكلام، بخلاف (عندي)، فقد تدلُّ كذلك على ما هو غائبٌ[3]، ومِن ثَمَّ كان التّعبيرُ بـ ﴿لَدَيْنَا﴾ أشدَّ تمكّنًا ودلالةً منَ التّعبير بـ (عندنا).

نُكتةُ تقديمِ ﴿لَدَيْنَا﴾:

التّقديمُ للاخْتِصاصِ من فَصيحِ البيانِ

نُكتةُ تقديمِ الظّرف ﴿لَدَيْنَا﴾ على خبر (إنّ) - وهو قولُه: ﴿مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ - هو إفادةُ الاختصاصِ. وهو تأكيدٌ لمعنى الاستخلاصِ في قوله تعالى: ﴿ٱئْتُونِي بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي﴾، فدلّ ذلك على أنّه رأى من كلامِه وحُسنِ منطقِه، ما صدّقَ به الخبرَ أو أربى عليه، إذِ المرءُ

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/6.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/6.
(3) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 298.

مخبوءٌ تحت لسانِه، ثمّ لمّا زاولَ الأعمالَ، لم يزلْ يصعدُ في المراتب حتّى ولاه خُطّةَ العزيز[1]، فصار له أكبرُ رُتبةٍ بعد الملك في مصرَ، وذلك من توفيق اللّه الّذي أسبغَ على يوسفَ من نعمِه الظّاهرةِ والباطنةِ، ما تدلُّ عليه السّياقاتُ الآنفةُ واللّاحقةُ، وذلك فضلُ اللّه يُؤتيه مَن يشاءُ واللّه ذو الفضلِ العظيمِ.

نُكتةُ تَنْكيرِ ﴿مَكِينٌ﴾ و﴿أَمِينٌ﴾:

في تنكيرِ هاتيْن الصّفتَيْن الواقعتَيْن خبرًا، لـ (إنَّ) دلالةٌ على عِظمِهما في يوسفَ عليه السلام، وخصوصًا لدى الواصفِ - وهو الملك - وفي عينِه، "قال ابن عبّاس: ويريدُ بقوله: مَكينٌ أمينٌ؛ أيْ: قد مكَّنتُكَ في مُلكي، وائتمنتُكَ فيه، وقال مُقاتِلٌ: المَكين: الوجيهُ، والأمينُ: الحافظُ"[2].

الجمْعُ بين القوّةِ في التّسْييرِ والأمانةِ في التّقديرِ تَكملُ به الشّخصيّةُ المتماسِكةُ

عِلّةُ تقديم ﴿مَكِينٌ﴾، على ﴿أَمِينٌ﴾ في السّياقِ:

قدَّمَ ﴿مَكِينٌ﴾ على ﴿أَمِينٌ﴾؛ لأنّ المقصودَ، هو أن يكونَ أمينًا على ما تمكَّنَ منه، وقام عليه من مصالحِ الدّولةِ وأمورِها، وهاتان هما الصِّفتان اللّتان يَنشدُهما كلُّ قائدٍ لأيِّ دولةٍ، أن يكونَ عُمّالُه من أهل الخبرةِ والعلمِ، بما مُكِّنوا عليه، ومن أهل الأمانةِ على ما وُكِّل إليهم وقاموا عليه وصار تحت مَسؤوليتِهم من أمور الدّولةِ ومصالحِ الرّعيّةِ.

النّظرُ إلى الكفاءةِ أسبقُ منَ النّظرِ إلى أمانةِ الكُفءِ، ولا غِنى بإحداهما عنِ الأخرى

دَلالةُ الأبْنيّةِ الصّرفيّةِ، في ﴿مَكِينٌ أَمِينٌ﴾:

قوله تعالى: ﴿مَكِينٌ﴾ صِفةٌ مشبّهةٌ من مَكُن - بضم الكاف - إذا صار ذا مكانةٍ، وهي المرتبةُ العظيمةُ، وهي مشتقّةٌ منَ المكان. وقولُه: ﴿أَمِينٌ﴾ فعيل بمعنى مفعولٍ؛ أيْ: مأمونٌ على شيءٍ؛ أيْ: موثوقٌ به في حفْظِه[3].

المُكْنَةُ والأمانةُ صِفتان تُؤهّلان صاحبَهما للزّعامةِ

(1) ابن عطيّة، المُحرّر الوجيز: 3/255.
(2) ابن الجوزيّ، زاد المسير: 2/449.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/7.

نُكتةُ الفصْلِ: ﴿قَالَ ٱجۡعَلۡنِي﴾:

وكما هو معهودٌ في المقاولاتِ والمحاوراتِ، أنّ كلَّ قولٍ منها يكونُ محمولًا على كونِه جوابًا لسؤالٍ مُقدَّرٍ، فكأنّه قيل: وماذا قال يوسفُ عليه السلام بعد أن قال له الملك: ﴿إِنَّكَ ٱلۡيَوۡمَ لَدَيۡنَا مَكِينٌ أَمِينٞ﴾؟

أثَرُ الجُملةِ المفصولةِ بالاستئنافِ البيانيِّ (شِبْهِ كمالِ الاتّصالِ)

فائدةُ إضْمارِ ذِكْرِ يوسفَ عليه السلام:

أُضْمرَ ذِكْرُ يوسفَ عليه السلام، فلم يَقُل المولى سبحانه وتعالى: (قال يوسف)، للعلم بأنّه المقصودُ، فالحوارُ قائمٌ بين طرفيْن فقط، هما: الملك ويوسفُ عليه السلام، فأحدُهما يقول، والآخر يُجيبُه بقولٍ أيضًا.

إضمارُ المعلومِ اخْتِصارٌ للكلامِ واستعمالٌ للمفيدِ دونَ إطنابٍ

دَلالةُ التّعبيرِ في: ﴿ٱجۡعَلۡنِي﴾:

أمّا من حيث المادّةُ؛ فهي من (جَعَل)، وهو لفظٌ عامٌّ في الأفعال كلِّها[1]، وأمّا الصّيغةُ فهي صيغةُ طلبٍ؛ أيْ: إنّه عليه السلام، طلبَ منَ الملك أن يُوَلّيه مسؤوليةَ القيامِ على الخزائنِ وهذا ما أثار سؤالًا: كيف يطلبُ عليه السلام الإمارةَ والولايةَ وهو أمرٌ منهيٌّ عنه ولا يليقُ بالأخيار؟ والجوابُ: إنّ محلَّ النّهيِ ما لم يتعيّنْ عليهم، فإن تعيَّن عليهم وجبَ طلبُها، ثمّ إنّ الأنبياء إنّما بُعثوا لإقامة الحقِّ والعدلِ، ووضْعِ الأشياء مواضِعَها، وعَلِم يوسفُ صلى الله عليه وسلم أنّه لا أحدَ أقومُ بذلك ولا أوْضَعُ له في مواضعِه منه، فسأل ذلك إرادةً للصّلاح، إضافةً إلى كونِ هذا الطّلبِ كان بوحيٍ منَ اللّه[2]، وأيضًا: فإنّ طلبَه عليه السلام كان بعد أن قال له الملك: ﴿إِنَّكَ ٱلۡيَوۡمَ لَدَيۡنَا مَكِينٌ أَمِينٞ﴾، فما كان منه عليه السلام، إلّا أن يختارَ ما هو مُهيَّأٌ له مُتمكِّنٌ منه؛ ليقومَ بالمسؤوليّةِ عليه، وهو به خبيرٌ، ولتسهلَ عليه بعد ذلك أمانةُ القيامِ عليه بخيرِ ما يكونُ.

لا مانِعَ شَرْعًا من طلَبِ الولايةِ على ما يُحْسِنُه المرءُ، وخصوصًا إذا كانت مُتعيِّنةً

التّصرُّفُ في الخزائنِ مسؤوليّةٌ عُظمَى لا يَطلبُها إلّا عبقريٌّ أَحْوَذيٌّ

نُكتةُ التّعبيرِ بحرفِ الاستعلاءِ ﴿عَلَىٰ﴾:

تدلُّ ﴿عَلَىٰ﴾ كما هو معروفٌ، على معنى الاستعلاءِ، وهو هنا

(1) الرّاغب، المفردات: (جعل).

(2) الواحديّ، البسيط: 12/155، والصّاويّ، حاشية الصّاويّ على الجلالَيْن: 2/231.

استعلاءٌ مَجازيٌّ، مُعبَّر به عنِ التّصرُّف والتّمكُّنِ؛ أيْ: اجعلني مُتصرّفًا في خزائن الأرضِ[1].

غرَضُ التّعبيرِ بالخزائنِ بلفْظِ الجمعِ:

خزائنُ: جمعُ خِزانةٍ (بكسر الخاء)؛ أيْ: البيتُ أوِ المكانُ المُعدُّ لتخزين الحبوبِ والأموالِ، وفائدةُ التّعبير بالجمع: الدّلالةُ على أنّها كانت خزائنَ كثيرةً. والخزائنُ: هي خَزائِن الطَّعام والأمْوالِ. وقال ربيعُ بنُ أنس: ﴿ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ﴾؛ أيْ: على خَرَاجِ مصرَ ودَخْلِها[2].

خزائنُ الدّولةِ تَقْتضي ضَخامةً وفَخامةً يُعبَّرُ عنها بصيغةِ مُنتهَى الجُموعِ

دَلالةُ (أل) على العهْدِ في: ﴿ٱلۡأَرۡضِۖ﴾:

(أل) في ﴿ٱلۡأَرۡضِۖ﴾ للعهد، والمُرادُ بها أرضُ مصرَ، الّتي هي لكثرة خيرها كأنّها الأرضُ كلُّها[3].

عظُمَ خيرُ مصرَ وتَنامَى حتّى أُطلقَ عليها لفظُ الأرضِ تفخيمًا

وقد أطلقَ اللّه عليها ﴿ٱلۡأَرۡضِ﴾ كذلك، في قوله تعالى: ﴿وَنُمَكِّنَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَنُرِيَ فِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنۡهُم مَّا كَانُواْ يَحۡذَرُونَ ٦﴾ [القصص: 6]، وقيل: جُعلت الألفُ واللّامُ في ﴿ٱلۡأَرۡضِۖ﴾ بدلًا من تعريف الإضافة؛ أيْ: بدلًا من أن يقول: (اجعلني على خزائن أرضِكَ).

غرَضُ الإضافةِ في: ﴿خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ﴾:

من الأغراضِ الّتي حقّقتْها الإضافةُ في قوله تعالى: ﴿خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ﴾: توسيعُ المعنى؛ فكلمةُ الأرض كلمةٌ واسعةٌ في مدلولها، حتّى لو كانت منصرفةً إلى (مصر) وحدَها، وفي هذا دلالةٌ على كثرة الخزائنِ، وعلى اتّساع المسؤوليّةِ.

تَوسيعُ المعنَى يَقْتَضي الإضافةَ، ويَستَوعِبُ المعنى المُرادَ

نُكتةُ الفصْلِ: ﴿إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ﴾:

وجُملةُ: ﴿إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ﴾ جُملةٌ تعليليّةٌ، علّلتِ الطّلبَ السّابقَ: ﴿ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ﴾؛ أيْ: لأنّي ﴿حَفِيظٌ عَلِيمٞ﴾، ويمكنُ

الجُملةُ المفصولةُ جملةٌ تعليليّةٌ، وهي مُؤدّيةٌ للغرَضِ ببيانٍ فصيحٍ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/8.
(2) السّمعانيّ، تفسير القرآن: 3/40.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/131.

أن يكونَ سببُ الفصل الاستئنافَ البيانيَّ جوابًا عن سؤالٍ مُقدّرٍ. وكونُها تعليليّةً هو سببُ فصلِها عمّا وقعتْ علّةً له.

نُكتةُ تَوالي المُؤكِّداتِ في الفاصلةِ:

ذكر البيان القرآنيُّ في قوله: ﴿إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ عددًا من المؤكِّدات؛ هي: البدءُ بـ (إنّ)، واسميّةُ الجملةِ، والاسميّةُ فيها معنى الثُّبوتِ، والنّصُّ على وصفَيْن ما أكملَ مَن اتّصفَ بهما، وهما: ﴿حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾.

كثرةُ وُرودِ المُؤكِّدات على محلٍّ واحدٍ دليلٌ على أهميّةِ المؤكَّدِ

وفي كثرة المُؤكِّدات دليلٌ على أهمّيّة المُؤكَّدِ، كما أنّ فيها طمأنةً للملك بتنزيلِه منزلةَ الشّاكِّ، رغم أنّه لم يكن كذلك، كي يُشعرَه بأنّ اختيارَه له كان في محلِّه.

نُكتةُ اخْتِيارِ هذين الوصفَيْن: ﴿حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾:

اختار القرآنُ الكريمُ هذيْن الوصفَيْن دون غيرِهما؛ لأهمّيّتِهما أكثرَ من غيرِهما في الباب الّذي ذُكرا فيه، وهو بابُ المسؤوليّة والولايةِ، فقد وصَف نفسه "بالأمانةِ والكفايةِ اللّتيْن هما طِلْبةُ الملوك ممّن يُوَلّونه؛ وإنّما قال ذلك ليتوصّلَ إلى إمضاء أحكام اللّه تعالى وإقامةِ الحقّ وبسْطِ العدلِ، والتّمكّنِ ممّا لأجلِه تُبعث الأنبياءُ إلى العباد"[1]، قال الشّعراويُّ: "والمشكلةُ في مجتمعاتِنا المعاصرةِ، إنّما تحدثُ عندما يُرجِّحُ الحاكمُ مَنْ يراهم أهلَ الثّقة على أهل الخبرةِ والأمانةِ، فتختلُّ موازينُ العدل. وعلى الحاكم الذّكيِّ أن يختار الّذين يتمتّعون بالأمرَيْن معًا: أمانةٌ عند المحكوم، وثقةٌ عند الحاكم، وبهذا تعتدلُ الحياةُ على منهج اللّه"[2].

صِفَتا الحفظ والعلم هما سِرُّ الاخْتِيارِ في باب المسؤوليةِ والولايةِ

دَلالةُ البِناءِ الصّرفيِّ للصّفتَيْن: ﴿حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾:

قوله تعالى: ﴿حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾، كلاهما مبالغةٌ من: (حافظ) و(عالم)، وهدفُ المبالغة، بيانُ أنّه بالغٌ الغايةَ في هاتيْن

صيغَتا المبالغةِ لونٌ منَ التّنْبيهِ، عن أهمّيّةِ اتّصافِ الموصوفِ بهما

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/482.
(2) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 11/6997.

الصّفتَيْن، ولا غَرْوَ فهو رسولٌ يرى بنور اللّه الّذي يُضيءُ له عن طريق الوحْيِ دُروبَه.

نُكتةُ تنكيرِ هاتيْن الصّفتَيْن: ﴿حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾:

في تنكير هاتيْن الصّفتَيْن الواقعتَيْن خبرًا لـ (إنَّ)، دلالةٌ على عِظمِهما في يوسفَ عليه السلام وتمكّنِه منهما.

التّنكيرُ للتّعظيم، من فصيحِ البيانِ

نُكتةُ التّقديم والتّأخيرِ بين هاتيْن الصّفتَيْن:

في تقديم ﴿حَفِيظٌ﴾ على ﴿عَلِيمٌ﴾ سرٌّ بليغٌ، ذلك لأنّ ﴿حَفِيظٌ﴾ معناه: قادرٌ على ضبطِ ما إليّ، أمينٌ فيه. و﴿عَلِيمٌ﴾؛ أيْ: بالغُ العلمِ بوجوه صلاحِه واستِنْمائِه[1] ولا شكّ أنَّ المحافظةَ على أصل الشّيء مُقدّمٌ على صلاحه واستِنْمائِه.

المحافظةُ على أصْلِ الشّيءِ مُقدَّمٌ على صلاحِه واسْتِنْمائِه

فائدةُ التّقابُلِ بين ﴿مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ و﴿حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾:

في ذِكْر صِفتَيْ: ﴿مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ في كلام الملك وصفتَيْ: ﴿حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ في كلام يوسفَ عليه السلام تناسُبٌ عن طريق التّقابُلِ، فقد قابَل صِفتَيْن بصِفتَيْن، فالملك قد وصفَه بما هو جديرٌ بوصفِه لِما رآه منه، فأراد يوسفُ عليه السلام، أن يؤكّدَ للملك أنّه حقيقٌ بما وصفَه؛ لأنّه متّصفٌ بما يَفي بواجبِهما، وذلك هو: صفةُ الحفظ المحقِّقِ للائتمان، ولتحصيل الدّخْلِ والمال، ومعرفةِ مصالحِ النّاس، وصِفةُ العلم المحقِّقِ للمكانة، ومواضعِ صرفِ المال وجهاتِه[2]، بأنْ يكون الصّرفُ في موضعِه بلا إفراطٍ ولا تفريطٍ.

الصِّفتان على لسانِ الملك كالمِصْداقَين للسّابقَتَين من ذكرِه عليه السلام

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(أَسْتَخلصُه) و(أتّخذُه) و(أجعلُه):

﴿أَسْتَخْلِصْهُ﴾: يُقال: استخلَصه واستخصَّه، إذا جعلَه خالصًا

الاسْتِخلاصُ هو الانْتِقاءُ من بين اختياراتٍ، والتّطهيرُ من كلِّ الشّوائِبِ، والمُستخلَصُ المُنتقَى ممّا سِواه

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/131.

(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 81/474، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/9.

لنفسه وخاصًّا به[1]، والخالصُ كالصّافي، إلّا أنّ الخالصَ هو ما زال عنه شَوبُهُ، بعد أن كان فيه، والصّافي قد يُقال لِما لا شَوبَ فيه[2].

والمعنى المِحوريُّ له: نفاذُ الشّيء نقيًّا من أثناءِ ما كان يُخالطُه أو يَشوبُه؛ كالسَّمن والذَّهَب والفِضَّة، بعد تميّزِهنّ ممّا كنّ يختلطن به. قال ﷻ: ﴿نُّسۡقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيۡنِ فَرۡثٖ وَدَمٖ لَّبَنًا خَالِصٗا﴾ [النّحل: 66]؛ أيْ: نافذًا من بينِهما نَقيًّا، ومعنى ﴿أَسۡتَخۡلِصۡهُ لِنَفۡسِيۖ﴾: أصْطفيه وأنْتَقيه وأتّخذُه من بين مَن حولَه[3] وأجعلُه خالصًا لنفسي؛ أيْ: خاصًّا بي لا يُشاركني فيه أحدٌ[4].

وأمّا (جَعَلَ) فهو لفظٌ عامٌّ في الأفعال كلِّها، وهو أعمُّ من فَعَلَ وصَنَعَ وسائرِ أخواتِها[5]، وتأتي (جعل) وما تصرّفَ منها في القرآن الكريمِ بمعنى التّحويلِ والتّهيئةِ على وضعٍ، أو للخَلْقِ، وهو تحويلٌ للهيئة بإنشاء هيئةٍ جديدةٍ[6].

وأمّا (اتّخذ) فمِنَ الأخذِ، وهو حَوْزُ الشّيء وتحصيلُه، وذلك تارةً بالتّناوُلِ نحوَ قوله تعالى: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأۡخُذَ إِلَّا مَن وَجَدۡنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ﴾ [يوسف: 79]، وتارةً بالقهر، نحوَ قوله تعالى: ﴿لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ﴾ [البقرة: 255][7].

والمعنى المِحوريّ له: حَوْزُ الشّيء في الأثناء، ضمًّا أو قبضًا على غِلَظٍ ماديٍّ أو معنويٍّ؛ كبدء السِّمَن في البعيرِ، وغلظُه هنا هو حِدّةُ الشّحم أو عُسْرُ البدء[8].

وبعد هذا العرضِ الّذي يظهرُ منه عمومُ معنى (جعل)، وأنّه ماضٍ على كلّ فعلٍ منَ الأفعال، دون تمييزٍ لشيءٍ فيه عن غيره، ويظهرُ منه كذلك ما في (اتّخذ) من معنى التّناولِ مع الحَوْز، سواءٌ أكان المُتَّخذُ متناوَلًا باليد، كالأشياء العينيّة الماديّةِ، ومنه قولُه تعالى: ﴿خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ﴾ [التّوبة: 103]، أم كان تناولًا معنويًّا، بالامتثالِ والطّاعةِ مثلًا،

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/481.
(2) الرّاغب، المفردات: (خلص).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (خلص).
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/7.
(5) الرّاغب، المفردات: (جعل).
(6) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (جعل).
(7) الرّاغب، المفردات: (أخذ).
(8) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (أخذ).

كما في قوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾ [الحشر: 7]، وكلا اللّفظَيْن وإن كان بينهما وبين الاستخلاصِ اشتراكٌ في المعنى العامّ، لكنْ يبقى لكلمةِ ﴿أَسْتَخْلِصْهُ﴾ هنا، تَجلّياتُها الّتي لا تظهرُ لغيرها، إذ إنّها تعني الانتقاءَ من بين اختياراتٍ، والتّطهيرَ من كلّ الشّوائبِ، وكأنّ المُستخلَصَ هو الخلاصةُ النّقيّةُ من كلّ شيءٍ، كما كان يوسفُ عليه السلام الأكملَ والأنْقَى في نظر المَلك، من كلِّ مَن حولَه، حتّى استخلصَه من بينهم. ولذلك جعلَه اللّه تعالى وصْفًا للمنتَقَيْن، المُطهَّرين المُختارين من عباده، فسمّاهمُ العبادَ المخلَصين في عدد منَ الآيات؛ أيْ: المُختّصين به المُستخلَصين له، وتأمّلْ هذا المعنى في حقّ يوسفَ خاصّةً في قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [يوسف: 24]، فكان عليه السلام بهذا مُستخلَصًا من ربّه، ومستخلَصًا من خَلْقه، فجمع بين الكمالَيْن، فهل بعد ذلك يسوغُ أن يُنسبَ إليه عليه السلام شيءٌ منَ الرّيْبِ الّذي لاكَتْه ألسنةُ بعض المُفسّرين اعتمادًا على سقيم الرّواياتِ، ورأسِ الموضوعاتِ؟

المحتويات

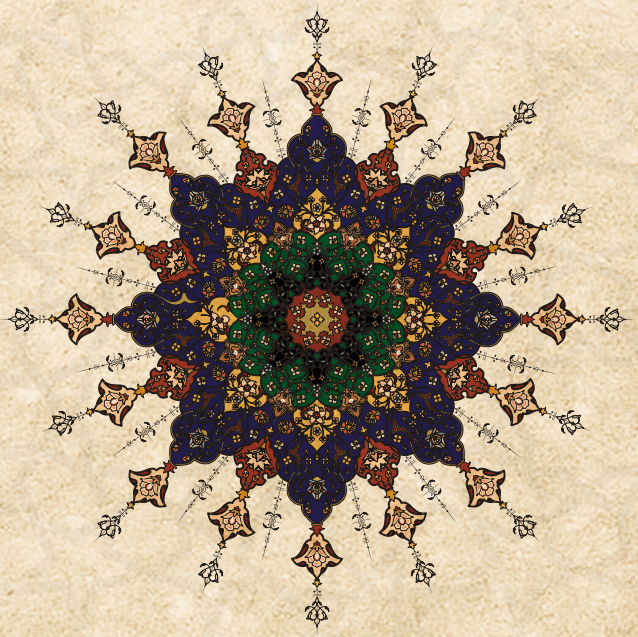

الجزء الثاني عشر 7

سورة هود 9

- [هود: 115] 10
- [هود: 116] 14
- [يونس: 117] 26
- [هود: 118- 119] 32
- [هود: 120] 63
- [هود: 121- 122] 83
- [هود: 123] 97

سورة يوسف 120

- [يوسف: 1] 129
- [يوسف: 2] 137
- [يوسف: 3] 149
- [يوسف: 4] 171
- [يوسف: 5] 186
- [يوسف: 6] 203
- [يوسف: 7 - 8] 222
- [يوسف: 9] 238
- [يوسف: 10] 252
- [يوسف: 11 - 12] 266
- [يوسف: 13] 286
- [يوسف: 14] 298
- [يوسف: 15] 304
- [يوسف: 16 - 17] 318
- [يوسف: 18] 337
- [يوسف: 19] 351
- [يوسف: 20] 370
- [يوسف: 21] 379
- [يوسف: 22] 402
- [يوسف: 23] 412
- [يوسف: 24] 434
- [يوسف: 25] 453
- [يوسف: 26 - 27] 468
- [يوسف: 28] 477
- [يوسف: 29] 486
- [يوسف: 30] 493
- [يوسف: 31] 505
- [يوسف: 32] 525
- [يوسف: 33] 539
- [يوسف: 34] 552
- [يوسف: 35] 559
- [يوسف: 36] 567
- [يوسف: 37] 579
- [يوسف: 38] 596
- [يوسف: 39] 616
- [يوسف: 40] 625
- [يوسف: 41] 643
- [يوسف: 42] 657
- [يوسف: 43] 668
- [يوسف: 44] 682
- [يوسف: 45] 698
- [يوسف: 46] 708
- [يوسف: 47] 719
- [يوسف: 48] 727
- [يوسف: 49] 735
- [يوسف: 50] 740
- [يوسف: 51] 753
- [يوسف: 52] 770

الجزء الثالث عشر 781

- [يوسف: 53] 782
- [يوسف: 54 - 55] 795

مجمع القرآن الكريم بالشارقة

موسوعة التفسير البلاغي

المُجَلَّدُ الثَّالِثُ والعِشرونَ

سورة يوسف من الآية 56 إلى سورة الرّعد الآية 15

موسوعة التفسير البلاغي

Government of Sharjah حكومة الشارقة
مجمع القرآن الكريم بالشارقة
HOLY QURAN ACADEMY IN SHARJAH

موسوعة التفسير البلاغي

المُجَلَّدُ الثَّالِثُ والعِشرونَ

سورة يوسف من الآية 56 إلى سورة الرّعد الآية 15

نُخْبَةٌ مِنْ عُلَماء مَجْمَعِ القُرْآنِ الكَرِيمِ بِالشّارِقَةِ

منشورات القاسمي
AL QASIMI PUBLICATIONS
20/24

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثالث والعشرون، سورة يوسف من الآية 56 إلى سورة الرّعد الآية 15
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الثالث والعشرون، سورة يوسف من الآية 56 إلى سورة الرّعد الآية 15
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 23 ، 800 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-20-3
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 23 : المجلد الثالث والعشرون، سورة يوسف من الآية 56 إلى سورة الرّعد الآية 15.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-768-20-3
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-8086351 بتاريخ 2024/02/16م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الجُزْءُ الثَّالِثَ عَشَرَ

سُورَةُ يُوسُفَ

﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَتَبَوَّأُ مِنۡهَا حَيۡثُ يَشَآءُۚ نُصِيبُ بِرَحۡمَتِنَا مَن نَّشَآءُۖ وَلَا نُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٥٦ وَلَأَجۡرُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ٥٧﴾ [يوسف: 56 - 57]

مُناسَبَةُ الآيَتينِ لِمَا قَبْلَهُما:

تَكملةُ المَشاهِدِ، لتأكيدِ أنّ الله تعالى حين يَهَبُ، فعطاؤُه ممدودٌ، وليست تَحُدُّه حدودٌ

لمّا كانتِ الآيتان السّابقتان قد ذكرتا موقفَ الملك من يوسفَ عليه السلام، بعد أن كلّمَه وأُعجبَ بكلامه وبنَمَطِ تفكيرِه، وقبّلَ ذلك بأمانتِه، ثمّ أعلن له أنّه قد صار لديه من هذا اليوم مكينًا أمينًا، ثمّ ما تلا ذلك من طلب يوسفَ عليه السلام أن يتولّى مسؤوليةَ إدارةِ خزائنِ الأرض - الدّولة - منَ الميرَة والأموال؛ لأنّه ﴿حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾. بعد ذلك بيّنتْ هاتان الآيتان، أنّه عليه السلام قد أُجيبَ إلى طلبه بالتّمكين ممّا طلبَه بتيسير اللّه، فقال سبحانه "مُعلمًا بأنه أُجيب بتسخير اللّه له: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَتَبَوَّأُ مِنۡهَا حَيۡثُ يَشَآءُۚ﴾؛ أيْ: ومثلُ ما مكنّا ليوسفَ في قلب الملك منَ المودّة والاعتقادِ الصّالحِ، وفي قلوب جميعِ النّاس، ومثلُ ما سألَ منَ التّمكين ﴿مَكَّنَّا﴾؛ أيْ: بما لنا منَ العَظَمة ﴿لِيُوسُفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾؛ أيْ: مُطلقًا، لا سيما أرضِ مصرَ، بتولية ملِكِها إيّاه عليها"[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مَكَّنَّا﴾: فعلٌ ماضٍ جَذْرُه (مكن)، وله أصلٌ واحدٌ[2]، يدور معناه حولَ رُسوخِ الشَّيْءِ مُتَجَمِّعًا في باطنٍ يَلْتَئِمُ عليه، كبَيْضِ الضِّبابِ والجَرادِ في باطنِهما، والتّمكُّنُ: رسوخٌ في باطن، مكَّنَهُ منَ الشَّيءِ، ومكَّن له: جَعَلَ له عليه سلطانًا وقُدْرَةً، والتَّمكينُ من

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/132.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (مكن).

الشّيء: إنالةُ ما يصحُّ به الفعلُ من الآلاتِ والقُوَى[1]. قال الجوهريُّ: "والمكانة: المنزلة. وفلان مكينٌ عند فلانٍ: بَيّنُ المكانة. والمكانة: المَوْضع. قال تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَٰهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ﴾ [يس: 67]، قال: ولما كثر لزومُ الميم، تُوهِّمتْ أصليّةً، فقيل: تمكّنَ، كما قالوا منَ المسكين: تمسْكَن[2]، ومكنّا ليوسفَ: جَعَلْناه في المكانةِ الرّفيعة منَ السّلطان والجاه[3].

2) ﴿يَتَبَوَّأُ﴾: أصلُ البَواء: مساواةُ الأجزاءِ في المكانِ. يُقال: مكانٌ بَواءٌ: إذا لم يكن نابيًا بنازله، وبَوَّأْتُ له مكانًا: سوّيتُه فَتَبَوَّأ، قال تعالى: ﴿يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ﴾[4]، وتبوَّأ فلانٌ منزلًا إذا اتَّخَذَهُ، وتبوَّأ: هيَّأ وأصلحَ، وتبوَّأ: نزلَ وأقامَ[5].

المَعْنى الإِجْماليُّ:

كما مَنَنّا على يوسُفَ بالبراءةِ والخلاصِ من السِّجْنِ، مَنَنّا عليه بالتَّمكينِ له في مِصْرَ، بعدَ الحبسِ والضّيقِ، والعبوديةِ والأسرِ، فصارَ يَنْزِلُ ويُقيمُ في أيِّ مكانٍ شاءَ، ويصنعُ فيها ما يشاءُ، نُعطي من رَحْمَتِنا في الدُّنيا مَن نشاءُ من عبادِنا، ولا نُضيعُ ثوابَ المُحْسِنينَ، بَلْ نوفّيهم إيّاه كاملًا غيرَ منقوصٍ، ولَثوابُ اللّه الَّذي أعدَّهُ في الآخرةِ خَيْرٌ من ثوابِ الدُّنيا للّذينَ آمنوا باللّه وكانوا يتَّقونَه، بامتثالِ أوامرِهِ واجتنابِ نواهيهِ[6]. والآيةُ الكريمةُ تُبَيِّنُ أنَّ أجْرَ الآخِرَةِ خَيْرٌ من هَذا الَّذي رأيناهُ ليوسفَ الصِّدّيقِ، عليه السلام، وإنَّما يَسْتحقُّه مَنْ كانَ فيهِ وَصْفان: الوصفُ الأوَّلُ: الإيمانُ، وهو يشملُ الإيمانَ باللّه تعالى، وهو

التَّمْكينُ بعدَ الابْتلاءِ من سُنَنِ اللّه تعالى، في عبادِهِ الصّالِحين أَوْصافُ مَن يَسْتَحقُّ ثوابَ الآخرةِ

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (مكن).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (مكن).
(3) ابن جرير، جامع البيان: 15/20.
(4) الرّاغب، المفردات: (باء).
(5) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (باء).
(6) ابن جرير، جامع البيان: 16/151، والبغويّ، معالم التّنزيل: 4/252، وجماعةٌ من العلماء، المختصر في تفسير القرآن الكريم، ص: 242.

رأسُ الإيمانِ، والإيمانَ بالحقِّ، والإيمانَ بالفضائلِ، والإيمانَ بحقوقِ النّاسِ، وحمايةَ هذهِ الحقوقِ. والإيمانُ باللّه تعالى يتضمَّنُ هذا كُلَّه. والوصفُ الثّاني: التَّقوى والاستمرارُ عليها، والتَّقوى استشعارُ خشيةِ اللّه تعالى، وأنْ يجعلوا بينهم وبينَ المفاسدِ أيًّا كانت وقايةً منَ الانحدارِ في مخازي الشّيطان[1]، وجوازُ الحيلةِ للوصولِ إلى مطلبٍ شرعيٍّ بشرطِ عدمِ الإضرارِ بالآخرين[2].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دَلالةُ الواوِ على الاستئنافِ، في الآيةِ الكريمةِ:

الواوُ في قوله ﷻ: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ﴾ هي واوُ الاستئناف[3]، والجملة مستأنَفةٌ لا محلَّ لها منَ الإعراب، ويمكنُ أن تكون عاطفةً من باب عطف القصّة على القصّة، ولها أثرٌ في الإبانة عنِ المُراد، في المعنى المُستفادِ.

تَلوُّنُ حرفِ المعنى، بين الاستئنافِ والعطفِ، يفسحُ المعنى لأكثرَ من دلالةٍ

بَلاغةُ التّشْبيهِ في جملةِ الاسْتِئنافِ:

والكلام مبنيٌّ على التّشبيه؛ أيْ: ومثلُ ما مكّنا ليوسفَ في قلب الملكِ، منَ المودّة والاعتقادِ الصّالحِ، وفي قلوب جميعِ النّاس، ومثلُ ما سأل هو منَ التّمكين: ﴿مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾[4].

تمكينُ اللّه ليوسفَ مُعجزةٌ خارقةٌ في ظروفٍ صنعَتْها القُدرةُ ولم تكنْ سانحةً

معنى الكافِ ودَلالتُها:

في قولِ اللّه ﷻ: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ﴾ جاءتِ الكافُ نائبَ مفعولٍ مُطلقٍ؛ أيْ: مكَّنّا ليوسفَ تمكينًا مثلَ ذلك التّمكين[5]، وهي أداةُ تشبيه دالةٌ على وجود تشبيهٍ في الجملة، والمعنى: "أنّه بهذا التّدبير الّذي كان منَ اللّه، أصبح يوسفُ مُمكّنًا في الأرض ذا سلطانٍ

من مكّنَتْه يدُ اللّه، خَضَعتْ لهُ سائرُ المُسخَّراتِ بإذنِ اللّه

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3836.
(2) في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ﴾ دَليلٌ على إجازَةِ الحيلَةِ في التَّوَصُّلِ إلى المُباحِ، وما فيه الغِبْطَةُ والصَّلاحُ، واسْتِخْراجُ الحُقوقِ.
(3) الخرّاط، المُجتَبى: 2/507، والخطيب وآخران، التّفصيل: 7/12.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/132.
(5) الخّراط، المجتبى: 2/507.

فيها، يفعلُ ما يشاء، ويُمضي ما يُريد، غيرَ واقعٍ تحت سلطانِ أحدٍ.. وأنّه لا خوفَ من مثل هذا السّلطانِ المُطلقِ، الّذي قام عليه حارسان لا يَغفلان، هما الحفظُ للأمانة، والعلمُ بمواقع الخيرِ للنّاس"[1].

بَلاغةُ التّشْبيهِ المُرَكّبِ:

بيانُ مَعالمِ التَّمْكينِ ليوسفَ الأمينِ، بأسلوبٍ بيانيٍّ جميلٍ

أيْ: ومثلُ ذلك التّمكين الظّاهرِ ﴿مَكَّنَّا لِيُوسُفَ﴾[2]، وذلك أنّه شبَّه تمكينَ اللّه تعالى: ﴿لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ﴾، وهو من إنعامِه عليه، بتمكينِه إيّاه في قلب الملك وقلوبِ النّاس، وإنعامِه عليه بإخراجِه منَ الجُبّ وبالبراءة، وبالنّبوةِ وغيرِها. والجامعُ بين رُكنَي التّشبيه، هو إنعامُ اللّه تعالى على يوسفَ عليه السلام في الحالَيْن.

نُكتةُ التّعبيرِ باسْمِ الإشارةِ للبعيدِ ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾:

الدّلالةُ على عُلُوِّ تمكينِ الله ليوسفَ عليه السلام وعُلُوِّ مكانتِه

أُشيرَ إلى التّمكينِ باسْمِ الإشارةِ الدّالِّ على البُعد، للدّلالةِ على عُلوِّ هذا التّمكين وبُعدِ مكانته، وأنّه قد "بلغ غايةَ ما يُطلبُ من نوعه، بحيث لو أُريد تشبيهُه بتمكينٍ أتمَّ منه لَما كان، إلّا أن يُشبَّه بنفسه"[3]، وهو أحدُ وجهَيْن في إجراء التّشبيه في الآية، أحدُهما الّذي مضى سابقًا في فقرة إجراءِ التّشبيه المُركّبِ، والثّاني هو هذا، وكأنّه من باب تشبيه الشّيء بنفسِه "فتكونُ الكافُ في محلّ نصبٍ على المفعول المُطلقِ، والتّقديرُ: مكنّا ليوسفَ تمكينًا كذلك التّمكينِ"[4].

نُكتةُ التّعبيرِ بـ ﴿مَكَّنَّا﴾، مادّةً وصيغةً:

الدّلالةُ على قُوّةِ التّمكُّنِ وكونِه قد حصلَ من أوّلِ الأمرِ

أمّا بالنّسبةِ للمادّةِ (مكن)، فمآلُها إلى الاستقرار والقوّةِ، والتّمكُّنِ منَ الشّيء والرّسوخِ[5] أيضًا.

(1) الخطيب، التّفسير القرآنيّ: 7/7.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/483، وأبو حيّان، البحر المحيط: 6/255.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/246.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/446.
(5) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (مكن).

أمّا الصّيغةُ وهي التّعبيرُ بالماضي للدّلالةِ على تحقّق حصولِ التّمكين له عليه السلام "من أوّل الأمر، لا أنّه حصلَ بعد السّؤال"[1].

نُكتةُ إضافةِ التَّمْكين إلى ضميرِ العَظَمةِ للمتكلّمِ:

ما يُسنَدُ منَ الأفعالِ إلى العظيمِ فهو لا محالةَ عظيمٌ

في إسنادِ التّمكينِ إلى ضميرِ العَظَمةِ دليلٌ على قيمتِه ومقدارِه، فهو عظيمٌ لكونِه مُسندًا إلى عظيمٍ.

وفيه كذلك الدّلالةُ على "تشريفِه عليه السلام، والمبالغةِ في كمال ولايتِه"[2]، "وإرادةُ اللّه تعالى التّمكينَ؛ أيْ: كهذا الّذي رآه القارئُ في القصّة، كان تمكينُ اللّه ليوسفَ عليه السلام، فهذا التّشْبيهُ يُفيدُ أنّ ما كان ليوسفَ في هذه الأدوار، كان بتمكين اللّه"[3].

معنَى اللّامِ في: ﴿لِيُوسُفَ﴾:

اللّامُ في ﴿لِيُوسُفَ﴾ قيل: زائدةٌ. على رأي مَن يُجيزُ ذلك[4]، وقد جوِّزَ أن تكون ناصرةً للفعل على معنى: مكنّا له الأمورَ[5].

بَلاغةُ الإظْهارِ بعدَ الإضْمارِ:

تَكريمُه عليه السلام بإظْهارِ اسمِه من فصيحِ البيانِ عن مقامِه وعُلوِّ شأنِه

في قولِ اللّه عز وجل: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ﴾ أُظهرَ اسْمُ (يوسف) عليه السلام بعد سبْقِ الإخبارِ عنه بالضّمائر فيما سبقَ، إكرامًا له عليه السلام، وإبرازًا لاسْمِه الشّريفِ بعد أنِ امتنّ اللّه عليه بالولايةِ والتّمكينِ بعد السّجن، وبالإكرامِ والإنعامِ بعد ما عاناه من شدائدَ ومصاعبَ.

دَلالةُ التّعبيرِ بـ ﴿فِي﴾ الظّرفيّةِ:

الدّلالةُ على الاستقرارِ والتّمكّنِ، بحرْفِ المعنى من فصيحِ البيانِ

دلَّ التّعبيرُ بـ ﴿فِي﴾ الّتي تُفيدُ الظّرفيّةَ المجازيّةَ، والظّرفيّةُ تُفيدُ الاستقرارَ والتّمكُّنَ؛ للإشارة إلى الحالة الجديدةِ الّتي انتقل إليها عليه السلام، منَ الضِّدّ إلى الضّدِّ، فقد مكّنَه اللّه من أن يَرتقيَ مكانَ العزِّ،

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/8.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/8.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3835.
(4) السّمين الحلبيّ، الدُّرُّ المصون: 6/515، والعُكْبريّ، التّبيان: 2/736.
(5) الهمذانيّ، الكتاب الفريد: 3/603.

بعد أن توعّدَتْه امرأةُ العزيز بأن يكونَ ﴿مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ۝٣٢﴾ [يوسف: 32]، بل ربّما مكانَ العزيز نفسِه الّذي كان قد أودعَه السّجنَ. وسُبحانَ مَن يغيّرُ ولا يتغيّرُ، وينزعُ الملك ممّن يشاء، ويُؤتيه مَن يشاء بحكمتِه البالغةِ، في العطاء والمنعِ.

معنَى(أل) في: ﴿ٱلْأَرْضِ﴾:

(أل) في ﴿ٱلْأَرْضِ﴾ هي العهديّةُ؛ أيْ: أرضُ مصرَ، الّتي كان يحكمُها ذلك الملكُ، كما سبقَ أن تمّ توجيهُها؛ (أيْ: اللّام) في قوله: ﴿ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ﴾.

أرضُ مصرَ بلدٌ مباركٌ حَدثتْ فيه القصّةُ ونوّهَ به السّياقُ القرآنيّ

نُكتةُ الفصْلِ: ﴿يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ﴾:

نُكتةُ فصلِ جملةِ ﴿يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ﴾، هو كونُها بيانًا لقوله: ﴿مَكَّنَّا لِيُوسُفَ﴾.

الفَصْلُ إمّا لكوْنِ الجملةِ بيانيّةً أو حاليةً

ويجوزُ أن تكونَ حالًا من ﴿لِيُوسُفَ﴾[1] فيكونَ ذلك أيضًا مُسوِّغًا للفصلِ، حيث إنّ فعلَها مضارعٌ مُثْبتٌ، وكونُ فعلِ الجملةِ الحالية كذلك، هو منَ الحالات الّتي تُفْصلُ فيها الجملةُ الحاليةُ[2]، ومنه قولُه تعالى: ﴿وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ ۝١٦﴾ [يوسف: 16] فقوله: ﴿يَبْكُونَ ۝١٦﴾ [يوسف: 16] جملةٌ حاليةٌ، فعلُها مضارعٌ مُثبَتٌ، ولذا تمّ فصْلُها.

دَلالةُ التَّعبيرِ بـ ﴿يَتَبَوَّأُ﴾:

دَلالةُ الفعلِ على كثرةِ تجوُّلِه ﷺ في البلادِ واتّخاذِ مقرّاتٍ لمتابعةِ المسؤوليّاتِ والالتقاءِ بالنّاس، والتّبوّء: تفعُّلٌ منَ البَوْء؛ أيْ: الرّجوعُ، وأصلُه منَ المَباءة؛ وهي المَرْجِعُ. قال الأعشى:

وَما بَوَّأَ الرَّحْمَنُ بَيْتَك مَنْزِلًا *** بِشَرْقيِّ أجْيادِ الصَّفا والمُحَرَّمِ[3]

اتّخاذُه ﷺ بيوتًا ومقرّاتٍ، في سائرِ الدّولةِ لتَيْسيرِ متابعةِ المسؤوليّاتِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/10.
(2) الجُرجانيّ، دلائل الإعجاز، ص: 204، والهاشميّ، جواهر البلاغة، ص: 188.
(3) السّمين الحلبيّ، الدُّرُّ المصون: 3/379.

وقد يُفهمُ منه أيضًا أنّه ﷻ جعلَ لنفسه بيتًا في أكثرَ من مكان[1]؛ أيْ: بسبب كثرةِ تجوّلِه في أنحاء الدّولةِ، ورعايةِ المصالحِ فيها، ومتابعتِها ومقابلةِ أهلِها للوقوف على مشكلاتِهم وحاجيّاتِهم.

غرَضُ الإضْمارِ بعدَ الإظْهارِ في فاعل ﴿يَتَبَوَّأُ﴾:

إذا أُمِنَ اللَّبْسُ كان الإضمارُ آثرَ وأبلغَ في السّياقِ

أُضْمرَ فاعلُ ﴿يَتَبَوَّأُ﴾ لانصرافِه إلى المُظهَرِ قبلَه، وهو ﴿لِيُوسُفَ﴾ بلا أدنى التباسٍ، في أن يعودَ إلى الملك، لكونِه المذكورَ، وليس الملكُ، ولأنّ الملكَ كان مُمَكَّنا له في دولتِه من قِبَله، ويتبوّأُ فيها حيث يشاء.

نُكتةُ حذْفِ مُتعلَّقِ التّبوُّءِ في السّياقِ:

حذفُ المفعولِ للتّعميمِ، مُفيدٌ في الإبانةِ والإيضاحِ للمعنى

حُذفَ مُتعلّقُ التّبوُّءِ لإطلاق معناه، بعيدًا عن قيْدِ الذّكْر الّذي قد يحدُّ من طلاقةِ معناه. والتّقديرُ: مكّنّا له كلَّ شيء، أو "مكّنّا له الأمورَ"[2] ونحوُ هذا ممّا يلائمُ عمومَ معنى المحذوفِ وطلاقتِه.

معنَى (من) في شبْهِ الجملة ﴿مِنْهَا﴾:

بيانُ مجالِ التّبوُّءِ في مِصرَ قاطبةً بإطلاقِ يدِه في الحُكمِ والتّسييرِ

(من) في ﴿مِنْهَا﴾ بيانيّةٌ لا تبعيضيّةً؛ لأنّ الملِك أطلقَ له حريةَ التّصرّفِ في سائر الدّولةِ، وليس في جزء منها، "وبذلك أنعم اللّه على يوسفَ نعمةً جليلةً، فجعل له سلطانًا وقدرةً في أرض مصر، يتبوّأُ منها حيث يشاء، وهذا شأنُ اللّه في عباده، يهبُ نعمتَه لمَن يختارُه منهم، ولا يُضيعُ أجرَ المحسنين"[3].

عَوْدُ الضّميرِ في شِبْهِ الجملةِ ﴿مِنْهَا﴾:

مَن بوّأه الله منَ الأرضِ، وضعَ له قَبولًا وبسَطَ له سُلطانًا

الضّميرُ يعودُ إلى ﴿ٱلْأَرْضِ﴾ وهي مصرُ، ومنها جارٌّ ومجرور، متعلِّقان بيتبوّأ، والمعنى: "مِنْها؛ أيْ: ينزلُ من بلادها حَيْثُ يَشاءُ، وذلك أنّه ﷻ، لَمّا ولّاه النّظرَ على خزائن مصر، تجوّل في قُطرها، وطاف قُراها، والأمرُ أمرُه، والإشارةُ إشارتُه، عنايةً منه تعالى ورحمةً"[4].

(1) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 11/7002.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/8.
(3) إبراهيم القطّان، تيسير التّفسير: 2/257.
(4) القاسميّ، محاسن التّأويل: 6/193.

معنَى ﴿حَيۡثُ﴾ وموقعُها في السّياقِ:

﴿حَيۡثُ﴾ ظرفُ مكانٍ، وَقد تردُ للزّمان، والغالِبُ فيها كونُها في مَحلّ نصبٍ على الظَّرْفيَّةِ، أو خفْضٍ بِمن وقد تُخْفضُ بغَيْرِها[1]، وهي هنا يجوزُ أن تكونَ ظرفًا لـ ﴿يَتَبَوَّأُ﴾، ويجوزُ أنْ تكونَ مفعولًا به[2]، والمعنى: "ينزلُ من بلادها ﴿حَيۡثُ يَشَآءُ﴾ ويتّخِذُه مَباءةً، وهو عبارةٌ عن كمال قدرتِه على التّصرّف فيها، ودخولِها تحت مملكتِه وسُلطانِه، فكأنّها منزلُه، يتصرّفُ فيها كما يتصرّف الرّجلُ في منزله"[3].

إفادةُ اتّساعِ سُلطانِ يوسفَ وتمكُّنِه من الأرضِ كما أراد الله وقدّرَ

نُكتةُ التّعبيرِ بالمضارعِ في ﴿يَشَآءُ﴾:

التّعبيرُ بالمضارعِ في ﴿يَشَآءُ﴾ يُفيدُ الاستمرارَ والتّجدُّدَ مهما تكرّرتِ المشيئةُ، ومعنى ﴿يَتَبَوَّأُ مِنۡهَا حَيۡثُ يَشَآءُ﴾؛ أيْ: "ينزلُ من بلادِها حيث يريدُ هو، أو ينزلُ منها حيث نريدُ، ﴿نُصِيبُ بِرَحۡمَتِنَا مَن نَّشَآءُۖ وَلَا نُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾، بل نُوفّي أجورَهم عاجلًا وآجلًا. ويوسفُ أفضلُهم في زمانه، فمكَّنَه اللّه من أرض مصرَ، حتّى ملكَها بأجمعِها"[4].

مَن أرادَ اللهُ له التَّمْكينَ بوّأَه من الأرضِ كما يفعلُ بالصّالحين

بَلاغةُ تَوجيهِ القراءاتِ القرآنيّةِ في ﴿يَشَآءُ﴾:

قرأ ابنُ كثير ﴿نَشَآءُ﴾ بالنّون على أنّها نونُ العَظَمةِ للّه تعالى، وقرأ الباقون ﴿يَشَآءُ﴾ بالياء على أنّه ضميرُ يوسفَ عليه السلام، وفي هذا تكريمٌ له ما بعده تكريمٌ. ففي ﴿حَيۡثُ يَشَآءُ﴾ "ويتّخذُه مَباءةً وهو عبارةٌ عن كمال قدرتِه على التّصرُّف فيها ودخولِها تحت مملكتِه وسلطانه، فكأنّها منزلُه يتصرّفُ فيها كما يتصرّفُ الرّجلُ في منزله"، وفي قراءة: ﴿حَيۡثُ نَشَآءُ﴾ فيتناسبُ مع قوله تعالى: ﴿نُصِيبُ بِرَحۡمَتِنَا مَن نَّشَآءُۖ﴾؛ أيْ: بمقتضى الحكمةِ الدّاعيةِ إلى المشيئة[5].

اخْتِلافُ القراءةِ، مفيدٌ في كشْفِ المعاني المتعدّدَةِ

(1) ابن هشام، مُغني اللبيب، ص: 176.
(2) السّمين الحلبيّ، الدُّرُّ المصون: 6/516.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/257.
(4) ابن عجيبة، البحر المديد: 2/606.
(5) ا - أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/287.

وجَوَّز أبو حيّانَ أن يكونَ الفاعلُ في قراءة الياء ضميرَ اللّه تعالى، ويكونَ التفاتًا[1].

بَلاغةُ الكنايةِ في: ﴿يَتَبَوَّأُ مِنۡهَا حَيۡثُ يَشَآءُۚ﴾:

بيانُ إطلاقِ تَصرُّفِه ﷺ في مملكةِ مصرَ كيفما شاء

الجملة تدلُّ على إطلاق يده ﷺ، بالتّصرّفِ في سائر الدّولةِ كيفما شاء، وكأنّها كلَّها قد صارت له سكنًا وراحةً، تمامًا كما يتصرّفُ صاحبُ المسكن في مسكنِه، فالجملةُ كنايةٌ عن هذا التّصرّفِ[2].

نُكتةُ الفصْلِ: ﴿نُصِيبُ بِرَحۡمَتِنَا مَن نَّشَآءُۖ﴾:

الاستئنافُ البيانيُّ وأثرُه في تَرسِيةِ المعاني

فُصِلَ قولُه تعالى: ﴿نُصِيبُ بِرَحۡمَتِنَا مَن نَّشَآءُۖ﴾ على الاستئنافِ البيانيِّ، فكأنّه قيل: لمَ كان هذا؟[3] فقال: ﴿نُصِيبُ بِرَحۡمَتِنَا مَن نَّشَآءُۖ وَلَا نُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾. أو يكونُ سببُ الفصل هو (كمالُ الاتّصال)، على أن تكونَ الجملةُ تعليليّةً، قد عُلّلت بها الجملةُ السّابقةُ.

دَلالةُ التّعبيرِ بالمضارعِ بالفعلِ ﴿نُصِيبُ﴾:

رَحمةُ اللهِ مُتعلِّقةٌ بمشيئَتِه في إحاطةِ مَن أرادَ اللهُ بألطافِها

في التّعبير بالمضارع ﴿نُصِيبُ﴾ دليلٌ على استمرار اللُّطفِ بالرّحمة، لمَن شاءت إرادةُ اللّه تعالى، له ذلك واختصّتْه بها، وفيه معنى: "إنّه تعالى يُصيبُ برحمته مَن يشاء، ولا يُضيعُ أجر المحسنين، الّذين أحسنوا العملَ، وإنّه لم يَضِعْ صبرَ يوسفَ، على أذَى إخوتِه، وصبرَه في السّجن"[4].

فائدةُ إسنادِ الإصابةِ إلى ضميرِ العظَمةِ:

الإسنادُ إلى ضميرِ العظَمةِ للتّنبيهِ على اختصاصِه سُبحانه بالأمرِ

في إسناد الإصابةِ إلى ضمير العظَمةِ ﴿نُصِيبُ﴾، دليلٌ على اختصاصِ ذلك باللّه تعالى، فهو وحده القادرُ على ذلك، كما يدلُّ

(1) السّمين الحلبيّ، الدُّرُّ المصون: 6/516.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/264: 13/10.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/132.
(4) حومد، أيسر التّفاسير: 1/1653.

على عظَمةِ هذه الرّحمةِ بمَنِ اختصّه اللّه تعالى بها؛ لكونِها منَ اللّه تعالى.

معنى الباءِ في: ﴿بِرَحْمَتِنَا﴾:

الباءُ للإلصاق، وهو أصلُ معناها، أو للسّببية؛ أيْ: بسببِ رحمتِنا "نُصيب برحمتِنا من نشاء؛ أيْ: رحمتِه من عبادنا، ولا نُضيع أجرَ المحسنين، وهذا وعدٌ منَ اللّه تعالى لأهل الإحسان بتوفيتِهم أجورَهم، ويوسفُ عليه السلام ممَّن شاء اللّه رحمتَهم كما هو من أهل الإحسان الّذين يُوفّيهمُ اللّه تعالى أجورَهم في الدّنيا والآخرة"[1].

رحمةُ الله عَطاءٌ ممدودٌ، وهي سببٌ لكلِّ لُطفٍ وتَكرِمةٍ

نُكتةُ إضافةِ الرّحمةِ إلى ضميرِ العَظَمَةِ:

في إسنادِ الرّحمةِ إلى ضمير العَظَمةِ ﴿بِرَحْمَتِنَا﴾، أيضًا دليلٌ على اختصاصِ ذلك باللّه تعالى، فهو الّذي يرحمُ مَن يشاء، وقولُه تعالى: بِرَحْمَتِنا؛ أيْ: بإحساننا، والرّحمةُ: النّعمةُ والإحسانُ. وَلا نُضيعُ أجْرَ المُحْسِنينَ؛ أيْ: لا نُضيعُ ثوابَ الّذين يُحسنون أعمالَهم، فنمنَحُهم في الدّنيا سعادةً وعزّا ومكانةً، وفي الآخرة خلودًا في الجِنان[2]، والإحسانُ جزءٌ من رحمة الرّحمن الّتي تفيضُ بالعطاء واللّطفِ والمَبرّة.

الرَّحمةُ المُسنَدةُ إلى الرّحيمِ أمانٌ وضمانٌ وتكريمٌ

معنى ﴿مَن﴾ الموصولةِ، ودَلالةُ جملةِ الصّلةِ في السّياقِ:

﴿مَن﴾ اسمٌ موصولٌ، واستعمالُها عامّةً (منْ)، عوضَ الموصولات الخاصّةِ، يُشيرُ إلى عموم الرّحمةِ وارتباطِها بالمشيئة، وأنّ العفّةَ والطُّهرَ، من شأنِها أن تؤولَ بصاحبها إلى رِفعة الشّأن وعلوِّ المكانة، وكانت صلةُ الموصول جملةً فعليّةً ترسمُ معالمَ المشيئة الإلهيّة المُطلقةِ، وهي مشيئةٌ راحمةٌ لكلِّ مَن شاءت، وهي لا تَغمِطُ المُحسنين حقَّهم، ولا تُضيعُ إحسانَهم.

الجملةُ الموصولةُ بناءٌ مَعنويٌّ مُتكاملٌ يُعبّرُ عنِ الدّلالةِ بدِقّةٍ

(1) الجزائريّ، أيسر التّفاسير: 2/624.
(2) الزحيلي، التّفسير المنير: 10/13.

نُكتةُ التّعبيرِ بالمضارع في ﴿نَّشَآءُ﴾:

الدّلالةُ على أنّ رحمةَ اللّه تعالى مَوصولةٌ بمَنِ اختصَّهم بها

للدّلالةِ على أنّ رحمةَ اللّه تعالى، موصولةٌ بمَنِ اختصَّهم بها وأرادها لهم، إذِ المعنى: ﴿نُصِيبُ بِرَحۡمَتِنَا مَن نَّشَآءُ﴾، أنْ نُصيبَه بالرّحمة من عبادِنا الّذين آمنوا واستَمرّوا على التّقوى[1]، ويدخلُ يوسفُ عليه السلام، تحت القصدِ دخولًا أوليًّا.

نُكتةُ إسنادِ المشيئةِ إلى ضميرِ العَظَمَةِ:

ما شاءَ اللّه كان وما لم يشأْ لم يكُنْ

في إسنادِ المشيئةِ إلى ضمير العَظَمةِ ﴿نَّشَآءُ﴾، دلالةٌ بحسبِ السّياق على ما أصابَ يوسفَ عليه السلام من رحمةٍ، فهي بمشيئة اللّه الجاريةِ على مُقتضى الحكمةِ الإلهيّةِ. ومعنى "﴿نُصِيبُ بِرَحۡمَتِنَا مَن نَّشَآءُ﴾؛ أيْ: بنعمَتِنا[2]، وهذا مُطلقُ الإنعام، ومُنتهى الإكرام، حيث لُطْفُ المشيئةِ الغامرُ، قد طال الأوائلَ والأواخرَ، واستبانَ في عُقبى يوسفَ، بعد الحمايةِ والنّجاةِ والتّمكينِ.

فائدةُ العطْفِ في: ﴿وَلَا نُضِيعُ﴾:

حِكمةُ اللّه لا يَضيعُ معها حقٌّ ولا يُستنقصُ إحسانٌ

جملةُ: ﴿وَلَا نُضِيعُ﴾ معطوفةٌ على جملة ﴿نُصِيبُ بِرَحۡمَتِنَا مَن نَّشَآءُ﴾، وكلتاهما نتيجةٌ للسّؤال المُقدّرِ: لماذا مكَّنَ اللّه تعالى ليوسفَ هذا التّمكينَ؟ فكان الجوابُ: قد وقعَ ذلك لأمرَيْن: **أحدُهما**: أنّ لنا الأمرَ كلَّه ﴿نُصِيبُ بِرَحۡمَتِنَا مَن نَّشَآءُ﴾، على وجه الاختصاصِ؛ أيْ: وليس على وجه العُمومِ، لتقييدِها بالمشيئة، ويوسفُ عليه السلام، قد شاء اللّه له أن يُصيبَه برحمتِه، ويُنعمَ عليه بفضله، **وثانيهما**: ﴿وَلَا نُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ برحمتِنا وحكمتِنا، وإن كان لنا أن نفعلَ غيرَ ذلك[3].

وهذا عامٌّ وحاصلٌ لكلّ المُحسنين - ويوسفُ عليه السلام منهم - دونَ استثناءٍ ولذا لم يقُيّدْه بالمشيئة كما قيَّد سابقَه.

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/8.
(2) الثّعلبيّ، الكشف والبيان: 5/232.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/132.

نُكتةُ التّعبيرِ بالمضارع في: ﴿وَلَا نُضِيعُ﴾:

التّعبيرُ بالمضارع في قوله سبحانه: ﴿وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾، للدّلالةِ على ملازمة هذا الفعلِ واسْتِمرارِه، فاللّه تعالى لا يُضيعُ أجرَ المُحسنين مطلقًا، بل يزيدُه من فضله.

التّعبيرُ عنِ الملازمةِ والاسْتِمرارِ مُفصِحٌ عنِ المُرادِ منَ السّياقِ

نُكتةُ إسنادِ الفعلِ ﴿نُضِيعُ﴾ إلى ضميرِ العظَمةِ:

في إسنادِه إلى ضمير العَظَمَة دلالةٌ على أنّه سبحانه وحدَه الّذي لا يُضيع أجرَ المحسنين، وفيه تعريضٌ بالبشر الّذين يتنكّرون للإحسان، ويُحاربون المُحسنين، بدلَ أن يُقدِّروا لهم إحسانَهم ويكافِئوهم عليه.

التّعريضُ بغيرِ المُحْسِنين بعد طَمْأنةِ المُحْسِنين على أجرِهم المُستَحَقِّ

نُكتةُ إضافةِ الأجرِ للمُحْسِنين:

وفي تلك الإضافةِ فائدةٌ هي أنّ هذا الأجرَ والإنعامَ الّذي أصاب يوسفَ عليه السلام، والّذي يُصيب كلَّ المُحسنين، إنّما هو بسببِ إحسانِهم، والمعنى: أيْ: "نختصُّ بنعمتنا: (النّبوَّةِ والإسلامِ والنّجاةِ) مَن نشاء ﴿وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾؛ يعني: لا نُبطلُ ثوابَ المُوحِّدين، حتّى نُوفّيَه جزاءَه في الدّنيا، ومع ذلك له ثوابٌ في الآخرة"[1]، وكلُّ مَن صبر جُوزي على ذلك، قال أحدُهم:

وراءَ مَضِيقِ الخَوْفِ مُتَّسَعُ الأَمْنِ *** وأوَّلُ مَفْرُوحٍ بِهِ آخِرُ الحُزْنِ
فلا تيْأَسَنْ فَاللّه مَلَّكَ يوسُفًا *** خزائِنَهُ بعد الخَلاصِ من السِّجْنِ[2]

التزمَ الله تعالى بحفْظِ أجْرِ العامِلين لأنّه لا يُضيعُ أجْرَ المُحسِنين

دَلالةُ (أل) في: ﴿ٱلْمُحْسِنِينَ﴾:

(أل) في ﴿ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ هي الجنسّيةُ المُفيدةُ للاستغراقِ، وهي تجعل الاسْمَ مُفيدًا للعموم، لكنْ على أن يدخلَ فيه دخولًا أوَّليًّا يوسفَ عليه السلام؛ لأنّه محورُ السّياقِ، وعليه يدورُ الكلام، وهو الموصوفُ

يوسفُ هو مِحورُ الإحسانِ وغُصْنُه الفينانُ على مدَى الزّمانِ

(1) السّمرقنديّ، بحر العلوم: 2/198.
(2) الثّعلبيّ، الكشف والبيان: 5/233.

في السّورة من قبلُ ومن بعدُ، بأنّه منهم ﴿إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾﴾ [يوسف: 36، 78].

نُكتةُ حذْفِ متعلَّقِ ﴿ٱلْمُحْسِنِينَ﴾:

حـذْفُ المتعلَّقِ لإفادةِ العمومِ مـن فَـصـيـحِ البيانِ

حُذفَ مُتعلَّقُ ﴿ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ لإفادة العموم حتّى لا يُقيَّدَ بنوعٍ محّددٍ من أنواع الإحسانِ، وعدمِ إضاعةِ أجرِ المُحسنين، بمعنى: نوفّيه بكمالِه، وفيه إشعارٌ بأنّ مدارَ المشيئةِ المذكورةِ، إحسانُ مَنْ تصيبُه الرّحمةُ المرقومةُ، وأنّها أجرٌ له ولدفْعِ توهّمِ انحصارِ ثمراتِ الإحسانِ، فيما ذكرَ منَ الأجر العاجلِ[1].

نُكتةُ التَّعبيرِ بـ ﴿ٱلْمُحْسِنِينَ﴾:

الـدَّلالـةُ على عـراقـةِ صـفـةِ الإحـسـان ورُسـوخِـهـا في المحسنين

عبّرَ القرآنُ الكريمُ بالاسْمِ المجموعِ جمْعَ سلامةٍ ﴿ٱلْمُحْسِنِينَ﴾، مُؤثِرًا إيّاه على التّعبير بالاسمِ الموصولِ وصِلتِه (الّذين أحسنوا) أو (الّذين يُحسنون)، للدّلالةِ على عراقتِهم، في هذه الصّفةِ ورسوخِها فيهم، وأنّها لم تكن مجرّدَ حدَثٍ قد مضى ومرَّ، أو أنّه فعلٌ يتجدّدُ.

معنَى الواوِ في: ﴿وَلَأَجْرُ ٱلْآخِرَةِ﴾:

ثَـوابُ الآخـرةِ بـالـتّـنـعُّـمِ في الجنانِ خيرٌ منَ الـدّنـيـا ومـتـاعِ العزِّ والسّلطانِ

الواوُ في قوله جلَّ ثناؤه: ﴿وَلَأَجْرُ ٱلْآخِرَةِ﴾، هي واوُ الحال[2]، "قال مجاهدٌ وغيرُه: ﴿وَلَأَجْرُ ٱلْآخِرَةِ﴾؛ أيْ: ثوابُها خَيْرٌ من نَعماء الدّنيا لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكانُوا يَتَّقُونَ"[3]، أو: "إنّ ثوابَ الآخرة للمؤمنين الأتقياءِ، وهو التّنعُّمُ في الجنان خيرٌ وأعظمُ وأكثرُ من خير الدّنيا، وما فيها من متاعِ العزِّ والسّلطانِ، والجاه والملكِ، والمال والزّينةِ ونحوِ ذلك. واللّه تعالى يُخبرُ بهذا أنّ ما ادّخره لنبيِّه يوسفَ عليه السلام، في الدّار الآخرة، أعظمُ وأكثرُ وأجلُّ ممّا أنعمَ عليه منَ التّصرّف والنّفوذِ في الدّنيا"[4].

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/287.
(2) الخطيب وآخران، التّفصيل: 7/15.
(3) المُظهريّ، التّفسير المُظهريّ: 5/175.
(4) الزّحيلي، التّفسير المنير: 13/10.

دَلالةُ (الْ) في: ﴿وَلَأَجْرُ﴾:

اللّامُ في ﴿وَلَأَجْرُ﴾ للتّأكيدِ، وقيل: للقسَم[1]، وعلى أيِّهما أو كليْهما، فالقصدُ هو تأكيدُ حُصولِ الأجر للمُحسِنين، والمعنى: أيْ: ثوابُها خيرٌ من ثواب الدّنيا للمؤمنين المّتقين، إشارةً إلى أنّ المطلبَ الأعلى، هو ثوابُ الآخرة، وأنّ ما يدّخرُ لهؤلاء هو أعظمُ وأجلُّ، ممّا يُخوَّلون به في الدّنيا منَ التّمكينِ في الأرض، والجاه، والثّروةِ والملكِ"[2].

اللّامُ مُفيدةٌ تأكيدَ حُصولِ الأجْرِ للمُحسِنين

نُكتةُ إضافةِ الأجْرِ إلى ﴿ٱلْأَخِرَةِ﴾:

إضافةُ الأجرِ إلى الآخرة للمُلابسةِ[3]، "وأجرُهم هو الجزاءُ الّذي يُجازيهم اللّه به فيها، وهو الجنّةُ الّتي لا ينفدُ نعيمُها، ولا تنقضي مُدّتُها"[4]، وأجرُ الآخرة هو ما يكونُ فيها منَ النّعيم المقيم للمُحْسنين، وهو عطاءٌ يُقوَّمُ بموازين الآخرةِ، وقوانينِ العالم الأبديِّ الأسْمَى، وبقدْرِ كرمِ اللّه الأعلى.

لا نعيمَ يَعْلو فوقَ أجْرِ الآخرةِ، وهو الجزاءُ الأوفَى للمُحْسِنين البَرَرةِ

معنَى (أل) في ﴿ٱلْأَخِرَةِ﴾:

(أل) في ﴿ٱلْأَخِرَةِ﴾ للعهدِ، فلا آخرةَ إلّا المعهودةُ المعروفةُ، والمعنَى الدّلاليُّ "فيه وجهان: أحدُهما: ولَأجرُ الآخرة خيرٌ للّذين آمنوا من أجرِ الدّنيا؛ لأنّ أجرَ الآخرة دائمٌ، وأجرَ الدّنيا منقطعٌ، الثّاني: ولَأجرُ الآخرة خيرٌ ليوسفَ منَ التّشاغُلِ بمُلك الدّنيا ونعيمِها، لِما فيه منَ التّبعةِ"[5].

الآخِرةُ المعهودةُ المورودةُ خيرٌ وأبقَى لمَن اتّقَى

نُكتةُ تنكيرِ ﴿خَيْرٌ﴾، وبنائِها الصّرفِيِّ (أفعل):

﴿خَيْرٌ﴾: اسمُ تفضيل، وأصلُه: أخْيَر، وحُذفتْ همزتُه تخفيفًا، لكثرةِ الاستعمال[6]، ومثلُه أيضًا كلمةُ (شرّ)، ونكَّره لتفخيمِه ولبيان

الجمعُ بين التّنكيرِ والتّفضيلِ، أو في التّعبيرِ عن كمالِ النّعيمِ

(1) الخطيب وآخران، التّفصيل: 7/15.
(2) القاسميّ، محاسن التّأويل: 7/15.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/287.
(4) القِنَّوجيّ، فتحُ البيان: 6/358.
(5) الماورديّ، النّكت والعيون: 3/53.
(6) ابن مالك، شرح الكافية: 2/1121، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/251.

أنّه جزيلٌ جدًّا، "والمعنى: ولَثوابُ الآخرة خيرٌ لمَن صدق وآمن، وخاف عقابَ اللّه ﷻ واتّقاه سبحانه، ممّا أُعطيَ يوسفُ في الدّنيا منَ التّمكين في أرضِ مصرَ"[1]، والنّكرةُ هنا تشملُ كلَّ ألوان الخير، على إطلاق ما يُسمَّى خيرًا في الجنّة العاليةِ، ذاتِ القطوفِ الدّانيةِ.

نُكتةُ توالي المؤكّداتِ في: ﴿وَلَأَجْرُ ٱلْآخِرَةِ خَيْرٌ﴾:

بيانُ المفاضَلةِ بين أجرِ الدّنيا الفاني وأجرِ الآخرةِ الباقي

في هذه الجملة منَ المؤكِّداتِ فأوّلًا: اللّامُ الدّاخلةُ على لفظِ ﴿وَلَأَجْرُ﴾، فهي لامُ التّأكيدِ، وثانيًا: اسْميّةُ الجملةِ، وثالثًا: كلمةُ ﴿خَيْرٌ﴾، وهي اسمُ تفضيلٍ.

والغايةُ من هذه المؤكِّدات، طَمْأنةُ المؤمنين بضمانة أجرِهم يومَ القيامة كاملًا غيرَ منقوصٍ، إضافةً إلى ما نالوه في الدّنيا من رحمة اللّه الّتي أصابَتْهم.

معنَى اللّامِ في ﴿لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾:

بَلاغةُ لامِ الاسْتِحقاقِ

اللّامُ في ﴿لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، هي لامُ الاستحقاقِ، فأجرُ الآخرة مُستَحَقٌّ فقط للّذين آمنوا، "ولمّا تقدّمَ في هذه الآية الإحسانُ منَ العبد، والجَريُ على طريق الحقّ لا يضيعُ عند اللّه، ولا بدَّ من حُسن عاقبتِه في الدّنيا، عقَّب ذلك بأنّ حالَ الآخرة، أحمدُ وأحرَى، أن تُجعلَ غرضًا ومقصدًا"[2]، وهي جزاءٌ يَستحقُّه الصّابرون منَ المؤمنين المتّقين.

نُكتةُ التّعبيرِ عنِ المُحسِنين بالاسْمِ الموصولِ، وما عُطفَ عليه:

غرَضُ التّعبيرِ بالموصولِ وصِلتِه، التّنصيصُ على استحقاقِهمُ الجزاءَ

قوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، هم أنفسُهم المُعبَّرُ عنهم في الآية السّابقةِ بـ ﴿ٱلْمُحْسِنِينَ﴾، وفي التّعبير عنهم بالاسْمِ الموصولِ ﴿لِّلَّذِينَ﴾ مدحٌ لهم وتشريفٌ، قد نالوه بإيمانِهم وتقواهم؛ لقوله: ﴿وَلَأَجْرُ ٱلْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾. وأمّا ذِكْرُ الصّلةِ وما

(1) مكّيّ بن أبي طالب، الهداية: 5/3590.
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/257.

عُطفَ عليها، وهي: ﴿ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾، فللتّنصيصِ على سببِ استحقاقِهمُ الأجرَ.

نُكتةُ تنوع التّعبير بين الماضي والمضارع:

الإيمانُ ثابتٌ والتّقوَى مُتجدِّدةٌ

في قولِ اللّه تعالى: ﴿وَلَأَجْرُ ٱلْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾ جاء التّعبيرُ في جانب الإيمانِ بصيغةِ الماضي، وفي جانب التّقوَى بصيغة المضارعِ؛ لأنّ الإيمانَ عقدُ القلبِ الجازمُ، فهو حاصلٌ دفعةً واحدةً. وأمّا التّقوَى فهي متجدِّدةٌ بتجدّدِ أسباب الأمرِ والنّهي واختلافِ الأعمال والأزمانِ[1].

نُكتةُ دخولِ (كان) مع التّقوَى:

المتّقون لا تُفارقُهم تَقْواهم في عُسْرٍ ولا يُسْرٍ

دخولُ (كان) مع التّقوَى مضارعًا ﴿وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾، دليلٌ على أنّ التّقوَى لم تفارقْهم في الماضي، وأنّها كانت ملازِمةً لهم؛ وذلك أخذًا من صيغةِ الماضي ﴿وَكَانُواْ﴾، ثمّ إنّها حاضرةٌ معهم ومُتجدِّدةٌ أخذًا من صيغةِ المضارعِ في ﴿يَتَّقُونَ﴾[2].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

التَّبوُّءُ والإقامةُ والسّكنُ:

التَّبوُّءُ هو المكانُ الّذي يَبوءُ إليه المرْءُ أحيانًا، والإقامةُ والسّكنُ يُفيدان الدّوامَ والاستقرارَ

السُّكونُ: ثبوتُ الشّيءِ بعد تحرُّكٍ، ويُستعملُ في الاستيطان، نحو: سَكَنَ فلانٌ مكانَ كذا؛ أيْ: استوطَنه، ومنه قولُه تعالى: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي﴾ [إبراهيم: 37][3]. والسّكنُ: اسمٌ بمعنى المسكونِ. يُقال: سكنَ فلانٌ البيتَ، إذا جعله مقرًّا له، وهو مشتقٌّ منَ السّكون؛ أيْ: القرار[4].

والمعنى المِحوريُّ للسّكن: استقرارٌ في جوفِ حيِّزٍ أو باطنٍ:

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/11.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/218.
(3) الرّاغب، المفردات: (سكن).
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/238.

كالقوتِ في الجوف. وسَكنَ بالمكان: أقام؛ بمعنى: استقرَّ في جوفه. ومنه قولُه تعالى: ﴿وَسَكَنتُمْ فِي مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ [إبراهيم: 45]. ويُقال لأهل الدّار: ساكنون؛ لأنهّم يَستقرّون في جوف البيت والمنزل[1].

وأمّا الإقامةُ فهي مِن: أقام بالمكان؛ بمعنى: استقرَّ فيه. وكذلك (المُقامُ) بضمّ الميم، فمعناه: الإقامةُ بالمكان[2]، وأمّا المَقامُ بِالْفَتْح فمصدرُ قامَ يقوم مَقامًا، والمقامُ أيْضًا: مَوضِعُ القيام، والمَقامَة (بِالْفَتْح): المجْلسُ الَّذي يُتحدّثُ فيهِ[3].

والمُقامةُ (بالضّمّ): الإقامةُ، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِيٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [فاطر: 35]؛ أيْ: الإقامة. وقولُه تعالى: ﴿لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُواْۚ﴾ [الأحزاب: 13] من قام؛ أيْ: لا مستقرَّ لكم[4].

أمّا التّبوُّءُ: تفعُّلٌ من البَوْء؛ أيْ: الرّجوع، وأصلُه من المَباءة؛ وهي المَرْجِعُ.

وكأنّه المكانُ الّذي يرجعُ إليه المرءُ مرّةً بعد مرّةٍ، أوِ المكانُ الّذي يمكثُ فيه المرءُ فترةً مُحدّدةً وليس للإقامةِ ولا السُّكنَى الطّويلةِ المتوارثةِ، كما قال سُبحانه آمرًا رَسولَيْه موسى وهارون عليهما السلام: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا﴾ [يونس: 87] مُؤثِرًا التّعبيرَ بالتّبوّءِ؛ لأنّه سُبحانه قد قضى عليهم بالخروجِ من مصرَ، وعدمِ الاستقرار فيها، وهذه كانت رسالتَهما عليهما السلام إلى فرعونَ، كما قال سُبحانه: ﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٦ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ۝١٧﴾ [الشّعراء: 16 - 17]، وبعد هذا، يُبيّنُ لنا أنّ هنالك مُشتركًا وتقاربًا دلاليًّا بين المفرداتِ الثّلاثِ (السّكنِ والإقامةِ والتّبوّءِ)؛ من حيث دلالتُها جميعًا على استقرارٍ بمكانٍ، غيرَ أنّ التّبوّءَ هو أنسبُها هنا، إذ هو المكانُ الّذي يبوءُ إليه المرءُ حينًا بعد حينٍ؛ أيْ: يروحُ منه ويرجعُ إليه؛ أيْ: ليس استقرارًا طويلًا، فيكونُ سُكنى وإقامةً، بل هو استقرارٌ مؤقّتٌ لغرَضٍ مُحدَّدٍ، وهذا أشْبَهُ بالمُكثِ في المَقرّاتِ والاستراحات الّتي يَبوءُ إليها المسؤولون في مختلف أنحاء البلادِ، لمتابعة المسؤوليّاتِ والالتقاءِ بالنّاس. ويُفهمُ منَ التّعبيرِ به في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (سكن).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (قوم).
(3) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 307.
(4) الرّاغب، المفردات: (قوم).

لِيُوسُفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَتَبَوَّأُ مِنۡهَا حَيۡثُ يَشَآءُۚ﴾، أنّ يوسفَ عليه السلام جعلَ لنفسه بيتًا في أكثرَ من مكانٍ[1]؛ أيْ: بسبب كثرةِ تَجوّلِه في أنحاء الدّولةِ ورعايةِ المصالح فيها ومتابعتِها ومقابلة أهلِها، للوقوف على مُشكلاتِهم وحاجيّاتِهم.

(1) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 11/7002.

﴿وَجَآءَ إِخۡوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُواْ عَلَيۡهِ فَعَرَفَهُمۡ وَهُمۡ لَهُۥ مُنكِرُونَ ۝٥٨ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمۡ قَالَ ٱئۡتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنۡ أَبِيكُمۡۚ أَلَا تَرَوۡنَ أَنِّيٓ أُوفِي ٱلۡكَيۡلَ وَأَنَا۠ خَيۡرُ ٱلۡمُنزِلِينَ ۝٥٩ فَإِن لَّمۡ تَأۡتُونِي بِهِۦ فَلَا كَيۡلَ لَكُمۡ عِندِي وَلَا تَقۡرَبُونِ ۝٦٠﴾ [يوسف: 58 - 60]

مُناسَبَةُ الآياتِ لِمَا قَبْلَها:

العَلاقَةُ بين مُكْنَةِ يوسفَ ومَجيءِ إخوتِه للكيلِ وردِّهم حتّى يكتملَ العددُ بأخيهم

بعدَ أن أخبرتِ الآياتُ السّابقةُ عن تمكينِ يوسفَ عليه السلام في الأرض، ﴿يَتَبَوَّأُ مِنۡهَا حَيۡثُ يَشَآءُۚ﴾ وكان أحدُ مظاهرِ هذا التّمكين أنّه أصبحَ المُتحكِّمَ بإدارة خزائنِ أرضِ مصرَ، وهي الخزائنُ الّتي تُدَّخَرُ فيها الأموالُ والغلالُ، وكانتِ الدّولةُ قدِ ادَّخرت في سبعِ سنينَ كثيرًا منَ الغلالِ، تحسُّبًا للمجاعةِ الّتي كانت مُنتظرةً، بسببِ نُضوبِ ماءِ النّيل وجدْبِ الأرض، وقد ظهرتْ أماراتُ هذا في رُؤيا الملك الّتي عبَّرَها له يوسفُ عليه السلام، وهو تعبيرٌ لا يكونُ بهذه الدّقةِ الّتي صدَّقَها الواقعُ بحصولِ كلِّ ما قاله عليه السلام في التّعبيرِ إلّا من خلال الوحْيِ، فهو ليس تعبيرًا بمعنى التّعبيرِ المعروفِ، ولكنّه كان إنباءً بالغيب في صورة تعبيرِ الرّؤيا لحكمةٍ قضاها ربُّ العالمين.

فلمّا حصلَ ما حصلَ "فأجدبَتْ جميعُ أرضِ مصرَ وما والاها من بلاد الشّامِ وغيرِها، فأخرجَ ما كان ادّخرَه من غلالِ سبْعِ سنينَ بالتّدريجِ كما حدَّ له العليمُ الحكيمُ، فتسامعَ به النّاسُ فجاؤوا للامتيارِ منه من كلّ أَوْبٍ"[1]، وكان ممّن جاءه للامتيار إخوتُه، فدار بينه وبينهم حوارٌ؛ لأنّه قد عرفَهم؛ بل كان ينتظرُ قدومَهم، أمّا هم فلم يَعرفوه؛ لظنِّهم أنّه قد هلك ثمّ لِما طرأَ عليه من تغيُّرٍ منذ وقتِ

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 10/145.

أن أَلقَوه في الجُبِّ، فقد كان وقتَها غلامًا صغيرًا، وأيضًا لِما طرأَ عليه من "مهابة المُلك وشدّةِ الحاجة وهما يُوجبان كثرةَ الخوف، وكلُّ ذلك ممّا يمنعُ منَ التّأمّلِ التّامِّ الّذي عنده يحصلُ العِرفانُ"[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مُنكِرُونَ﴾: اسمُ فاعل، جمعُ مُنْكِرٍ، أصلُ مادَّتِه (نكر)، وهو أصْلٌ صَحيحٌ يَدُلُّ على خلاف المعرفةِ الَّتي يَسكنُ إليها القلبُ، ونَكِرَ الشَّيْءَ وأنْكَرَهُ: لَمْ يَقْبله قلبُه ولم يعترفْ به لِسانُه، والبابُ كلُّه راجعٌ إلى هذا، والإنْكارُ: خلافُ الاعتراف[2]، والنَّكِرةُ نقيضُ المعرفةِ[3]، والإنكارُ: الجحودُ[4]، والإنكارُ: ضِدُّ العِرْفانِ، يُقال: أنكرتُ كذا، ونَكَرْتُ، وأصلُه: أن يَرِدَ على القلبِ ما لا يتصوَّرُه، وذلك ضَرْبٌ من الجَهْلِ. قال تعالى: ﴿فَدَخَلُواْ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾[5].

2) ﴿بِجَهَازِهِمْ﴾: اسمٌ جَذْرُهُ (جهز)، وله أصْلٌ واحِدٌ؛ هو: شَيْءٌ يُعتقدُ ويُحْوى نحو الجَهازِ وهو مَتاعُ البَيْتِ. وجَهَّزْتُ فُلانًا: تَكَلَّفْتُ جَهازَ سَفَرِهِ[6]، وهو ما يحتاجُ إليه في وَجْهِه[7]، وجَهَّزْتُ فلانًا، إذا هيَّأتَ جهازَ سَفَرِه، وتجَهَّزْتُ لأمرِ كذا؛ أيْ: تهيَّأتَ له[8]، وجَهازُ السَّفرِ: ما يحتاجُ إليهِ المرءُ في سَفرِه[9]، و"جهّزتُ القوم تجهيزًا، إذا تكلّفتَ لهم جَهازَهم للسّفر، وكذلك جَهازُ العروس والميّتِ، وهو ما يحتاجُ إليه في وجهه"[10]، والقرّاء كلُّهم على فتح الجيم في قول الله جلّ وعزّ: ﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ﴾، وجِهاز (بالكسر) لغةٌ ليستْ بجيّدةٍ[11].

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 18/476.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نكر).
(3) الخليل، العين: (نكر).
(4) الجوهريّ، الصّحاح: (نكر).
(5) الرّاغب، المفردات: (نكر).
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (جهز).
(7) الخليل، العين: (جهز).
(8) الجوهريّ، الصّحاح: (جهز).
(9) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (جهز).
(10) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (جهز).
(11) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (جهز).

3) ﴿أُوفِي﴾: فعلٌ مضارعٌ جَذرُه (وفى)، وهو أصلٌ يدلُّ عَلَى إِكْمالٍ وَإِتْمام. مِنْهُ الوَفاءُ: إتْمامُ العَهْدِ وإكْمالُ الشَّرْطِ، ووَفَى: أوْفَى، فهو وفيٌّ، ويقولونَ: أوْفَيْتُكَ الشَّيْءَ، إذا قَضَيْتَهُ إيّاهُ وافيًا. وَتَوَفَّيْتُ الشَّيْءَ واسْتَوْفَيْتُهُ: إذا أخَذْتَهُ كُلَّه، حتَّى لَمْ تترك منه شيئًا، ومنه يُقالُ للمَيِّتِ: تَوَفّاهُ اللّه[1]. ووَفَى يفي وفاءً فهو وافٍ، ووفيتَ بعهدك، وكلُّ شيءٍ بلغَ تمامَ الكمالِ، فقد وَفَى وتمَّ، ومنه: كيلٌ وافٍ، ورجلٌ وَفِيٌّ: ذو وفاء[2]. وأوفى الكيلَ هنا بمعنى: أتمَّهُ ولم يُنْقِص منه شيئًا[3].

4) ﴿ٱلْكَيْلَ﴾: كالَ البُرَّ يَكيلُ كيْلًا، والبُرُّ مَكيلٌ[4]، والكَيْلُ: المِكيالُ، والكَيْلُ: مصدرُ كِلْتُ الطعامَ كَيْلًا ومَكالًا ومَكيلًا أيضًا[5]، والمعنى المِحوريُّ الّذي يدور عليه الكيلُ هو: ضبطُ الشَّيْءِ ما فيه؛ أيْ: إمساكُه ما فيه لا يُخْرِجُه، كما يُمسكُ الزَّنْدُ الكَابِي نارَهُ لا يُخرجُها، وكما يَضْبِطُ المِكيالُ الحَبَّ؛ أيْ: يُمْسِكُهُ في جَوْفِه حتَّى يستوفيَ قدْرًا مُعيّنًا[6]، "قال اللّيث: الكَيْلُ: كَيْل البُرّ ونحوِه، تقول: كالَ يَكيلُ كَيْلًا، وبُرٌّ مَكيلٌ، ويجوزُ في القياس: مَكْيُولٌ، ولغةُ بني أسد: مَكُول، وهي لغةٌ رديئةٌ، ولغةٌ أردأ: مُكَال"[7]، وفي المثل: (أَحَشَفًا وسوءَ كَيْلةٍ)؛ أيْ: أتجمعُ أن تُعطِيَني حشفًا، وأن تُسيء لي الكيلَ[8].

5) ﴿ٱلْمُنزِلِينَ﴾: اسمُ فاعلٍ مفردُه: (مُنْزِل)، جَذْرُه (نزل)، وهو أصلٌ يدلُّ على هبوطِ شيءٍ ووقوعِهِ[9] وانحِطاطٍ من عُلُوٍّ، يُقال: نَزَلَ عن دابَّته، ونَزَلَ في مكان كذا: حَطَّ رَحْلَهُ فيه، وأنْزَلَهُ غيرُهُ. قال تعالى: ﴿أَنزِلْنِي مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ۝٢٩﴾ [المؤمنون: 29]، ونَزَلَ بكذا، وأنْزَلَهُ بمعنًى؛ أيْ: جعله في منزلٍ ومنزلةٍ[10]، فيكونُ معنى: ﴿وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ﴾؛ أيْ: وأنا خيرُ مَنْ أنْزَلَ ضيفًا على نفسهِ، في هذا البَلَدِ[11].

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (وفى).
(2) الخليل، العين: (وفى).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (وفى).
(4) الخليل، العين: (كيل).
(5) الجوهريّ، الصّحاح: (كيل).
(6) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (كيل).
(7) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (كيل).
(8) الجوهريّ، الصّحاح: (كيل).
(9) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نزل).
(10) الرّاغب، المفردات: (نزل).
(11) القيسيّ، الهداية: 5/3592.

6) ﴿تَقْرَبُونِ﴾: فعلٌ مضارعٌ جَذرُه (قرب)، وهو أصلٌ يدلُّ على خلافِ البُعْدِ[1]، والاقترابُ: الدُّنوُّ، والتَقَرُّبُ: التَّدَنّي والتّواصلُ بحقٍّ أو قَرابةٍ[2]، ومعنَى ﴿وَلَا تَقْرَبُونِ﴾: لا تَدْخُلونَ بِلادي فَضْلًا عن أنْ أُحْسِنَ إليكم.. فلا أُنْزِلُكُمْ عِنْدي منزلًا، كما أنزلْتُكمْ هذه المرَّة[3].

المَعْنى الإجْماليُّ:

تَنْفيذُ خطَّةِ يوسُفَ لرؤيةِ أخيه وضَمِّه إليهِ بذكاءٍ وحَصافةٍ

قَدِمَ إخوةُ يوسُفَ إلى أرضِ مِصْرَ ببضاعةٍ لهم، فدخلوا عليه فَعَرَفَ أنَّهم إخوتُه، ولم يعرفوا أنَّه أخوهم؛ لِطول المُدَّةِ وتَغَيُّرِ هَيْئَتِه؛ لأنَّه كان صَبيًّا حين رَمَوهُ في البئر. ولمّا أعطاهم ما طلبوه منَ الميرَة والزّاد، قالَ بعد أن أخبروه أنَّ لهم أخًا من أبيهم تركوه عند أبيه: جيئوني بأخيكم من أبيكم، أزِدْكُم حِمْلَ بعيرٍ، ألا ترونَ أنّي أُكْمِلُ الكيلَ وأُتِمُّه ولا أُنْقِصُه، وأنا خيرُ مَن يَنزلُ الضَّيْفُ عِنْدَه؟ فإنْ لم تَجيئوني به تَبَيَّنَ كَذِبُكم في دعواكم أنَّ لكم أخًا من أبيكم، فلن أكيلَ لكم طعامًا، ولا تدخلوا بلدي أو تَقْرَبوها[4].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

دَلالةُ الواوِ على الاسْتِئْنافِ أوِ العطْفِ في السّياقِ:

تَصْويرُ المَشْهَدِ المَسُوقِ ببيانٍ مُفصِحٍ عنِ المُرادِ

الواوُ في قوله تعالى: ﴿وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ﴾، هي واو الاستئنافِ[5]، والجملةُ بعدها مُستأنَفةٌ لحكايةِ مشهدٍ جديدٍ من مشاهد قصّةِ يوسفَ عليه السلام، وهو مشهدُ التقائه بإخوته، بعد أن مرّت سُنونٌ على فراقِهم، منذ يومِ إلقائه في الجُبِّ، ويمكنُ أن تكونَ الواوُ عاطفةً، من باب عطْفِ القصّةِ على القصّةِ.

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (قرب).
(2) الخليل، العين: (قرب).
(3) الشّوكانيّ، فتح القدير: 3/45.
(4) ابن جرير، جامع البيان: 16/154، والبغويّ، معالم التّنزيل: 4/255، وجماعة من العلماء، المختصر في تفسير القرآن الكريم، ص: 242.
(5) الخطيب وآخران، التّفصيل: 7/15، وصافي، الجدول: 13/15.

نُكتةُ التَّعريفِ بالإخوةِ بإضافتِهم إلى اسمِ يوسفَ:

مَن اصْطَفاه الله رفعَ قَدْرَه وأعلَى ذِكْرَه

الإضافةُ في قوله تعالى: ﴿إِخْوَةُ يُوسُفَ﴾ هي إضافةُ تعريفٍ بهم، بعد أن بعُد العهدُ بذِكْرِهم فيما مضى من آيات السّورة، فعرّف بهم من خلال نسبتِهم إلى أخيهم يوسفَ تشريفًا له، وتعريضًا بهم.

نُكتةُ الإظْهارِ بعدَ الإضْمارِ:

اسْتِحضارُ قصَّتِه عليه السلام المثيرةِ مع إخوتِه بأحسَنِ البيانِ وأَوْفاه

في قولِه تعالى: ﴿وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ﴾ من أسرار إظْهارِ اسمِه عليه السلام بإضافة إخوتِه إليه أن يَستحضرَ السّامعُ ما مرَّ به عليه السلام مع إخوتِه، إذْ ألقَوه في الجُبّ ليتخلّصوا منه، وقد أنجاه اللّه منَ الهلاك الّذي أرادوه له. وأيضًا قد نلمحُ في هذا الإظهار إبرازًا لمِنَّة اللّه تعالى على يوسفَ عليه السلام، بأن يرى إخوتَه بعد مرور السّنين، وهم في موضعِ الإجلالِ له والالتجاءِ إليه، بعد أن كانوا بالأمس يَزْدَرونه، ويَعملون على الخلاصِ منه، وقد فعلوا.

دَلالةُ الفاءِ على التّرتيبِ والتّعقيبِ:

قد يَجمعُ الله الشَّتيتَيْن بعدَ يأْسٍ منَ التّلاقي

في قوله تعالى: ﴿فَدَخَلُواْ عَلَيْهِ﴾ الفاء عاطفةٌ، عطفت هذه الجملةَ على الجملة السّابقةِ ﴿وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ﴾، وهي تدلُّ على سرعة دخولِهم عليه بعد مجيئِهم، ولعلّ هذا كان بإيعازٍ منه عليه السلام، وقد مضت سنونٌ وهو يترقّبُ هذا اليومَ، وها قد جاء.

دَلالةُ الفاءِ في: ﴿فَعَرَفَهُمْ﴾:

لقاءُ يوسفَ بعد انقطاعٍ دَالٌّ على قُدرةِ الله على جمْعِ الشَّتاتِ

الفاء عاطفةٌ ودالّةٌ على أنّه عرفَهم بمجرّدِ النّظرِ إليهم، فلم يستغرقِ الأمرُ معه وقتًا ولا جهدًا، "لأنّه كان مُرتَقِبًا لحضورِهم، لعلْمِه بجَدْبِ بلادِهم، وعقدِ همّتَه بهم مع كونِه يعرفُ هيئاتِهم في لباسهم وغيرِه، ولم يتغيّر عليه كثيرٌ من حالِهم؛ لمُفارقتِه إيّاهم رجالًا"[1]، ثمّ "لأنّهم رأوه على زيِّ الملوك، وكان قد تقرَّر في أنفسهم هلاكُ يوسف، وقيل: لأنَّهم رأوه من وراء سِترٍ"[2].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/145.
(2) الواحديّ، الوجيز، ص: 551.

دَلالةُ الواوِ في: ﴿وَهُمۡ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾:

واوُ الحال على معنى: فعرفَهم والحالُ أنّهم مُنكرون له، وذلك "لِبُعْدِ العهد وتغيُّر سِنِّه، ولم يقعْ لهم بسببِ مُلْكِه ولسانِهِ القبْطِيِّ ظَنٌّ عليه، ورُوِيَ في بعض القصص، أنّه لمّا عرفهم أراد أنْ يُخبروه بجميعِ أمرِهم، فباحَثَهُمْ بأنْ قال لهم بتَرْجُمَانٍ: (أُظنُّكُمْ جواسِيسَ)، فاحتاجوا حينئذٍ إلى التّعريفِ بأنفسِهم، فقالوا: نَحْنُ أبناءُ رجُلٍ صِدِّيقٍ، وكنا اثْنَيْ عَشَرَ، ذهب منَّا واحدٌ في البَرِّيَّة، وبقي أصغرُنا عنْدَ أبينا، وجئْنَا نَحْن للميرَة"[1].

إذا أرادَ الله أمرًا هيّأَ له الأسبابَ فتيسَّرَ بدون جُهدٍ ولا غِلابٍ

نُكتةُ العُدولِ منَ الجملةِ الفعليّةِ إلى الاسميّةِ:

عَدَلَ عنِ الجملة الفعليّةِ ﴿فَعَرَفَهُمۡ﴾ في حقّ يوسفَ عليه السلام، إلى الجملةِ الاسميّةِ ﴿وَهُمۡ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾، المُعبَّرِ بها في حقّهم، ولم يقل: (وأنكروه) للدّلالةِ على أنّ عدمَ معرفتِهم به أمرٌ ثابتٌ مُتمكّنٌ منهم عريقٌ فيهم، سواءٌ في مَحضرِهم أو مَغيبِهم، لعدم خُطورِه ببالِهم لطول العهدِ، مع ما تغيّرَ عليهم من هيئته بالسِّن، وانضافَ إليه منَ الحشمِ والخدمِ واللّباسِ، وهيئة البلدِ وهيبةِ المُلك وعزِّ السّلطان، وغيرِ ذلك ممّا يُنكَرُ معه المعروفُ، ويُستوحَشُ لأجله منَ المألوفِ، وَفْقَ ما قال تعالى: ﴿لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمۡرِهِمۡ هَٰذَا وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ١٥﴾ [يوسف: 15][2].

الدّلالةُ على أنّ عدمَ مَعرفتِهم به أمرٌ ثابتٌ مُلازمٌ لهم في مَحْضرِهم و مَغيبِهم

وأمّا الإخبارُ عن معرفته عليه السلام إيّاهم بالجملةِ الفعليّةِ المفيدةِ للتّجدُّدِ؛ فللدّلالةِ على أنّ معرفتَه إيّاهم حصلت بمجرّدِ حدوثِ رؤيتِه إيّاهم، دون توسُّم وتأمُّلٍ[3].

دَلالةُ الموقعِ النّحويِّ: ﴿وَهُمۡ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾:

قولُه تعالى: ﴿وَهُمۡ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾ جملةٌ حاليّةٌ، فقد سبقتْها واوُ الحال. وصاحبُ الحال هو ضميرُ المفعولِ في ﴿فَعَرَفَهُمۡ﴾؛ أيْ:

أسبابُ عدَمِ تعرّفِهم على يوسفَ موضوعيّةٌ وَجيهةٌ

(1) الثّعالبيّ، الجواهر الحسان، ص: 551.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/146، والآلوسيّ، روح المعاني: 7/9، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/12.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/12.

الهاء[1]؛ أيْ: والحالُ أنّهم مُنكِرون له لم يعرفوه، وقد عبّرتِ الجملةُ الحاليّةُ عن تناقضِ الحالِ بين طرفٍ عرفَ مَن يُقابلُه، وطرفٍ لم يستطع معرفتَه لأسباب موضوعيّةٍ، أهمُّها طولُ العهد، وتغيّرُ المظهر، واليقينُ بهلاك يوسفَ منذ وَضْعِه في الجُبّ.

دَلالةُ اللّامِ على التّقويةِ في شبْهِ الجملةِ ﴿لَهُۥ﴾:

للحروفِ دورٌ مُهمٌّ في تجليةِ المعنى في السّياقِ وضَبْطِه

اللّامُ في ﴿لَهُۥ﴾، هي لامُ التّقويةِ، وجيءَ بها لزيادة تقويةِ جهلِهم بمعرفتِه، ولذا لم يَقُلْ: (وهم مُنكرونَه)[2]، وحالُه في سُدّة المُلك يُوحي بأنّه ليس هو، "فكيف وقد مضت سنونٌ؟ وكيف وليس في تصوُّر إخوتِه ولا في خيالِهم أن يكونَ يوسفُ في مصرَ، أو أن يكونَ له هذا السّلطانُ الّذي كان عهدُ النّاس به يومذاك، أنّه ميراثٌ ينتقلُ من الآباءِ إلى الأبناء"[3].

غرَضُ ذِكْرِ شِبْه الجملة ﴿لَهُۥ﴾ وتقديمِها على الخبر:

صَرَفَ اللهُ الإخوةَ عن معرفتِه لِيتأجّلَ ذلك إلى وقْتٍ قد قضاه

في تقديم المجرور بلام التّقوية في ﴿لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾ اهتمامٌ بتعلُّقِ نكرتِهم إيّاه؛ للتّنبيه على أنّ ذلك؛ أيْ: إنكارَهم له من صُنع اللّه تعالى، وإلّا فإنّ شمائلَ يوسفَ عليه السلام ليست ممّا شأنُه أن يُجهلَ ويُنسى[4].

نُكتةُ التّعبيرِ عن جهلِهم به بالإنكار:

الإنكارُ يكونُ عن معرفةٍ، والجهلُ يعني عدمَ حُصولِها أصْلًا

عبَّرَ عن جهْلِهم به بالإنكار، فقال: ﴿لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾، ولم يَقُلْ: (جاهلون)، لأنّ الإنكارَ إنّما يكونُ عن معرفةٍ سابقةٍ أو حاليّةٍ، فلا مُنكَرَ دونَ اسْتِصْطحاب المعروفِ، وهم في الأصل كانوا يعرفونَه؛ لأنّه أخوهم الذّي سبقَ أن تخلّصوا منه بإلقائه في الجُبّ، لكنْ شاء اللّه تعالى - ولحكمةٍ قضاها - أن تتبدّلَ هذه المعرفةُ حينًا، إلى

(1) الخطيب وآخران، التّفصيل: 7/15، وصافي، الجدول: 13/16.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/12.
(3) الخطيب، التّفسير القرآنيّ: 7/10.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/12.

عكْسِها، وهو الإنكارُ، وأمّا الجهلُ فهو نقيضُ العلم، ولا يتأتّى التّعبيرُ به إلّا في حالة عدمِ وقوعِ المعرفةِ أصلًا.

بَلاغةُ العطْفِ بالواوِ في السّياقِ:

قولُه تعالى: ﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ﴾، وفيه جملةُ ﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُم﴾ معطوفةٌ على جملة ﴿فَعَرَفَهُمْ﴾، وفيها الدّلالةُ على أنّه لم يجهّزْهم بجَهازهم عقبَ معرفتِه لهم مباشرةً، وإلّا عبَّرَ بالفاء، بل كانت هنالك فرصةٌ للحوارِ الّذي دار بينه عليه السلام وبينهم، وأيضًا لإكرامِهم وإظهارِ الحفاوةِ بهم.

إفادةُ السّياقِ ترتيبَ الأحداثِ وَفْقَ المَشاهدِ المتُواليةِ

دَلالةُ (لمّا) على الظّرفِ والشّرطِ، وفائدةُ تَكرارِها:

عبَّرَ بـ (لمّا) لدلالتِها على الظّرفيّةِ؛ أيْ: حين جاء بأسُنا. كما أنّها شرطيّةٌ أيضًا، لكنّها لا تجزمُ، وكرّرَها بحسبِ تعدُّد مواضعِ الظّروف وما تمَّ فيها من أعمالٍ.

ارْتباطُ التّجهيزِ بظرْفِ وقوعِه جزءٌ منَ المشهدِ المُصاحِبِ

المجازُ العقلّي في العبارةِ، وأثرُه في المعنى:

في إسنادِ التّجهيزِ إلى يوسفَ عليه السلام مجازٌ عقليٌّ، والعلاقةُ هي السّببيّةُ، لكونِه الآمرَ بتجهيزِ جَهازِهم.

إسنادُ التّجهيزِ إلى ضميرِ يوسفَ عليه السلام إشارةٌ إلى مباشَرةِ ذلك بنفسِه

معنَى الباءِ في: ﴿بِجَهَازِهِمْ﴾:

الباءُ في ﴿بِجَهَازِهِمْ﴾ هي باءُ التّعديةِ، والمعنى: "أي: حين أعطاهمُ الكيلَ الّذي يُكالُ لهم ببضاعتِهم الّتي معهم"[1]، قال المراغيُّ: "؛ أيْ: ولمّا أَوْقَرَ ركائبَهم بما جاؤوا لأجلِه منَ الميرَة والطّعام، وجهّزهم بما سِوى ذلك منَ الزّاد، وبما يحتاجُ إليه المسافرون عادةً، على قدر طاقتِهم وبيئتِهم ﴿قَالَ ٱئْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْۚ﴾، هو شقيقُه بنيامين"[2].

استِخدامُ جَهازِهم في استِدراجِهم لمُرادِه من دهاءِ المعاملةِ

نُكتةُ إضافةِ الجهازِ إلى ضَمير (هم): ﴿بِجَهَازِهِمْ﴾:

الجَهازُ: هو فاخرُ المتاع الّذي يُحملُ من بلدٍ إلى بلدٍ[3]، والمُرادُ به

(1) الخطيب، التّفسير القرآنيّ: 7/10.
(2) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 11/13.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/146.

الإضافةُ للاختصاصِ مُفيدةٌ في التّعبيرِ عنِ المطلوبِ

هنا: الميرَة الّتي جاءوا يطلبونَها كما طلبها غيرُهم، بسبب القحْطِ الّذي أصاب البلادَ. وأضيفَ إلى ضميرِهم ليُفيد الاختصاصَ، فكان من لوازم إكرامِهم تخصيصُهم بجَهازٍ يُرضي حاجتَهم، كما عبَّر عنه قولُه بعدُ: ﴿أَنِّيٓ أُوفِي ٱلۡكَيۡلَ﴾، وأيضًا ليكونَ حافزًا لهم على التّمسّك به، والحرْصِ على العودة بأخيهم حين يُطلبُ منهم هذا.

دَلالةُ الأمْرِ في فعلِ الأمرِ ﴿ٱئۡتُونِي﴾:

الأمْرُ هنا مَسبوقٌ بحِوارٍ يُفهمُ منَ المقامِ في السّياقِ الواردِ

قوله تعالى: ﴿ٱئۡتُونِي بِأَخٖ لَّكُم مِّنۡ أَبِيكُمۡۚ﴾ دالٌّ على النّدبِ والحثِّ على إحضاره، وهذا يقتضي وقوعَ حديثٍ منهم، عن أنّ لهم أخًا من أبيهم، لم يحضرْ معهم وإلّا لكان إنباءُ يوسفَ عليه السلام لهم بهذا يُشعرُهم بأنّه يكلّمُهم عارفًا بهم وهو لا يريدُ أن يكشفَ ذلك لهم[1].

معنَى الباءِ، ودَلالةُ تنكيرِ: ﴿بِأَخٖ﴾:

التّنكيرُ للمبالغةِ في إخفاءِ مَعرفتِه إيّاه

الباءُ في قوله تعالى: ﴿بِأَخٖ﴾ هي باءُ المصاحبة، ونكَّرَ لفظَ ﴿بِأَخٖ﴾ مبالغةً في إخفاء أنّه يعرفُه، وأنّه فقط طلبَه لمّا عرفَ منهم أنّ لهم أخًا من أبيهم. وأيضًا لأنّه عليه السلام تذكّر حالَهم معه ومع أخيه، وأنّهم لم يكونوا يعاملونَهما معاملةَ الأخ بالمحبّةِ والتّرابطِ الّذي كان يجمعُهم كإخوةٍ أشقّاءَ، فلا شكّ أنّهم كانوا مترابطين ترابُطَ العصبةِ لكونِهم أشقّاءَ، على عكس موقفِهم من يوسفَ عليه السلام وأخيه، كما يُنبئ عنه قولُهم: ﴿لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحۡنُ عُصۡبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ۝٨﴾ [يوسف: 8]، فهذا مُسَوِّغٌ آخرُ للتّعبيرِ بالتّنكيرِ في قوله تعالى: ﴿بِأَخٖ لَّكُم مِّنۡ أَبِيكُمۡۚ﴾.

التّدقيقُ في الألفاظِ الدّالّةِ على جهةِ الأخوّةِ، من دقيقِ البيانِ

دَلالةُ اللّامِ في: ﴿لَّكُم﴾:

اللّامُ في ﴿لَّكُم﴾ هي لامُ الاختصاصِ، والغرَضُ منها التّنصيصُ على أنّ المرادَ ﴿بِأَخٖ لَّكُم﴾ لا لغيركم ﴿مِّنۡ أَبِيكُمۡۚ﴾، لا

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/13.

من أُمِّكم؛ أيْ: ليس بشقيقٍ[1]، "أي: أُخُوّتُه من جهة أبيكم، وهذا من مفهوم الاقتصارِ الدّالِّ على عدم إرادةِ غيره؛ أيْ: من أبيكم وليس من أُمِّكم؛ أيْ: ليس بشقيقٍ"[2].

غرَضُ ذِكْرِ شِبْهِ الجملةِ ﴿لَّكُم﴾ وتقديمِها:

حَصْرُ الأُخُوّة لأبٍ في بِنيامين أخيهم الأصْغَرِ

ذكرُ شِبْه الجملةِ ﴿لَّكُم﴾ وتقديمُها، لإفادة القصرِ، فالمطلوبُ محصورٌ في هذه الصّفة، كونُه أخًا لهم من أبيهم. ومعلوم أنّه "يُطلَقُ على الإخوةِ لأب بنو الأعيانِ، والإخوةِ لأمّ بنو العِلّات، ويُقال للإخوة من أمٍّ واحدةٍ وآباء متفرّقين: بنو الأخياف، وللإخوة من أب وأمّ أشقّاءُ، وقد نُكّرَ الأخُ مبالغةً في عدم معرفتِه، لئلّا يتّهموه بمعرفتِهم، أو ينتبهوا لها"[3].

نُكتةُ جملةِ: ﴿مِّنْ أَبِيكُمْ﴾ معنًى وإعرابًا:

إيثارُ قولِه (بِأَخٍ لَكُمْ من أَبِيكُمْ)، ولم يقل (بأخيكم)

﴿مِّنْ﴾ في ﴿مِّنْ أَبِيكُمْ﴾ للبيانِ، وقولُه تعالى: ﴿مِّنْ أَبِيكُمْ﴾، جارٌّ ومجرور متعلّقان بمحذوفٍ صفةٍ ثانيةٍ لـ (أخ) والصّفةُ الأولى هي ﴿لَّكُم﴾[4]، أو هو في محلّ نصْبٍ حالٌ من الكاف في ﴿لَّكُم﴾[5].

وإنّما نصَّ على قوله: ﴿بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ﴾، ولم يقل (بأخيكم)، لما مضى ذِكْرُه منَ المبالغة في إخفاء أنّه يعرفُه، أو لأنّه استحضرَ معاملتَهم القديمةَ له ولأخيه، وكانت تتّسمُ بالغيرة والجفاءَ.

ولو أنّه أضافه فقال: (ائتوني بأخيكم)، لاقتضى معرفتَه، ومن هنا قالوا في (أرسل غلامًا لك): الغلامُ غيرُ معروف. وفي (أرسل غلامك): الغلامُ معروفٌ، وبينَك وبين مخاطَبك عهدٌ فيه[6].

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/13.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/13.
(3) العاني، بيان المعاني: 3/230.
(4) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 5/15، والدّعاس، إعراب القرآن الكريم: 2/94.
(5) الهمذانيّ، الكتاب الفريد: 3/604.
(6) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/10.

نُكتةُ الفصْلِ في: ﴿أَلَا تَرَوْنَ أَنِّيٓ أُوفِي ٱلْكَيْلَ﴾:

كمالُ الاتّصالِ بين الجُملتَيْن من فصيحِ البيانِ

سببُ فصْلِ هذه الجملة هو قوّةُ اتّصالِها بما قبلَها، فهي كالعلّة لقوله: ﴿ٱئْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْۚ﴾؛ أيْ: لأنّني أُوفي الكيلَ، وأريدُ أن أصرفَ لكم كيلَ أخيكم أيضًا، حتّى يكفِيَكمُ الطّعامُ.

ولعلّه قال ذلك تعقيبًا على طلبٍ منهم، بأن يمنحَهم كيلًا زائدًا لأخٍ لهم من أبيهم، لم يأتِ معهم، "فطلب منهم يوسفُ أن يُحضِروا أخاهم، كي يزيدَ لهم كيلًا إضافيًّا؛ لأنّه لا يحبُّ أن يُعطيَ أحدًا دون دليلٍ واضحٍ؛ التزامًا منه بالعدلِ"[1]. ويمكنُ أن يكونَ سببُ الفصل من قَبيلِ الاستئنافِ البيانيِّ، جوابًا عن سؤالٍ مقدّرٍ في نفوسهم: لماذا نأتي به؟

نُكتةُ العُدولِ عن صيغةِ الماضي:

مزجُ التّرغيبِ بالتّرهيبِ هو مَناطُ هذا السِّياقِ الاسْتِفهاميِّ

قولُه تعالى: ﴿أَلَا تَرَوْنَ أَنِّيٓ أُوفِي ٱلْكَيْلَ﴾، وقد عبّرَ فيه بصيغة الاستقبالِ ﴿أَلَا تَرَوْنَ﴾، مع كونِه قد قال هذا القولَ بعد تجهيزِه لهم؛ للدّلالةِ على أنَّ إيفاءه هذا عادةٌ مستمرّةٌ له معهم، كلّما أتَوه[2].

بَلاغةُ الاستفهامِ، ونوعُه، وغرَضُه:

دَلالةُ الهمْزةِ على الاستفهامِ التّقريريِّ وغرَضِه

الهمزةُ للاستفهامِ التّقريريِّ؛ لدخول الهمزةِ على النّفي ونفيُ النّفيِ إثباتٌ[3] وغرضُه تقريرُهم، بأنّه عليه السلام يُوفي الكيلَ، ترغيبًا لهم بأن يأتوا بأخيهم ليكسِبوا كيْلَه.

معنَى (لا) في السّياقِ:

بيانُ التّلاؤُمِ بين الأسلوبِ المختارِ، وما يَقْتضيه المشهدُ من نظرٍ واعتبارٍ

(لا) في ﴿أَلَا﴾ نافيةٌ، وقد دخلت عليها همزةُ الاستفهام فصارت ﴿أَلَا﴾، ويجعلُها بعضُهم أداةَ عرضٍ[4]، وفيه يلفتُ نظرَهم إلى ما شاهدوه بأمّ أعينِهم، من عَمارٍ وازدهار وهيبةٍ ليوسفَ عليه السلام، ممّا يكونُ إغراءً لهم بالعودة مع أخيهم المطلوبِ، إلى مصرَ كَرّةً أخرى.

(1) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 11/7007.
(2) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 7/385.
(3) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 2/133.
(4) محمود صافي، الجدول: 13/16.

معنَى الرّؤيةِ، ومَفعولِها في السّياقِ:

الرؤيةُ هنا هي البصريّةُ والحاليّةُ، فقد شاهدوا وعايَشوا ما أخبرَهم عنه من إيفاءِ الكيْلِ، وإكرامِ الضِّيفان، وما يُحتفى به منَ التّرحاب والعملِ على راحتهم.

الدّعوةُ إلى الرّؤيةِ للإيقانِ بما هو حاصلٌ في واقعِ مِصرَ المتميّزِ

نُكتةُ تَوالي المُؤكِّداتِ في: ﴿أَنِّيٓ أُوفِي ٱلۡكَيۡلَ﴾:

تتمثّلُ هذه المؤكِّداتُ في: (أنَّ) الّتي هي حرفُ توكيدٍ، وضمير التّكلّم المضافِ إلى (أنَّ)، بمعنى أنّه هو بنفسِه مَن يقوم بعمليّةِ الكيْلِ، أو أنّه يكونُ تحت رقابتِه المباشرةِ ليضمنَ الإيفاءَ.

تعدّدُ المُؤكِّداتِ يَبُثُّ الاطْمِئْنانَ في القلوبِ

وأيضًا فإنّ التّعبير بـ ﴿أُوفِي﴾ مضارعًا يفيد التأكيد من حيث الدّلالةِ على تكرّرِ هذا وتجدّدِه في كلّ عمليّةِ كيْلٍ، وفيه فاعلٌ محذوفٌ يعودُ على يوسفَ عليه السلام.

وأيضًا التّعبيرُ بالمصدرِ ﴿ٱلۡكَيۡلَ﴾، يُفيد الثبوتية والتوكيد والاستقرار.

وكذلك الاختصاصُ المُستفادُ من تقدُّمِ المُسنَدِ إليه ﴿أَنِّيٓ﴾، على المُسنَدِ الفعليِّ ﴿أُوفِي﴾.

وغرضُ هذه المُؤكِّداتِ مجتمعةً بثُّ الاطْمِئنان في قلوبِهم إلى مسألة الاسْتيفاء، وترغيبُهم في العودة مجدّدًا بأخيهم، ليَسْتَوفوا كيْلَهم ويزيدوا كيْلَه.

فائدةُ تقدُّمِ المُسنَدِ إليه ﴿أَنِّيٓ﴾:

الفائدةُ من تقدُّم المُسنَدِ إليه ﴿أَنِّيٓ﴾ على المُسنَدِ الفعليِّ ﴿أُوفِي﴾، في هذه الجملةِ المُصدَّرةِ بالنّفي ﴿أَلَا تَرَوۡنَ أَنِّيٓ أُوفِي﴾، هي الدّلالةُ على الاختصاصِ؛ أيْ: أنا من يفعلُ ذلك لكم لا غيري.

يوسفُ نبيٌّ صِدّيقٌ وهو أحرَى بالوفاءِ وحُسْنِ المُعاملةِ

بَلاغةُ المجازِ الإسناديِّ (العقلّي) في ﴿أَنِّيٓ أُوفِي﴾:

في إسنادِ إيفاءِ الكيلِ إلى نفسِه مجازٌ عقليٌّ علاقتُه السّببيّةُ؛ لأنّ

الّذين يقومون بعمليّة الكيْلِ واستيفائِه هم عُمّالُه، لكنّه أسندَه إلى نفسه؛ لأنّه الآمرُ به، والمُراقبُ له، والمُشرفُ بنفسه عليه.

إسْنادُ يوسفَ إيفاءَ الكيْلِ إلى نفسِه مُنسجمٌ مع نُبوّتِه وعَدْلِه

معنَى (أل) في: ﴿ٱلْكَيْلَ﴾:

(أل) في ﴿ٱلْكَيْلَ﴾ هي الجنسيّةُ، وهذا أبلغُ في الدّلالةِ على كرمِ عطائِه، وكان يُشرفُ بنفسه على العُمّال والخَزَنةِ ليَضمنَ العدالةَ وتَساوي النّاسِ في الاستفادةِ من استيفاء الكيْلِ، قال القُرطبيُّ: "وذاع أمرُ يوسفَ عليه السلام في الآفاق للِينِه وقُربِه، ورحمتِه ورأفتِه، وعدلِه وسيرتِه، وكان يوسفُ عليه السلام حين نزلتِ الشّدّةُ بالنّاس، يجلسُ عند البيعِ بنفسه، فيُعْطيهم منَ الطّعام على عدد رؤوسِهم، لكلِّ رأسٍ وسقًا"[1].

إيفاءُ يوسفَ للكيْلِ يَستَوفي صِفاتِ النّبيِّ الحاكمِ

نُكتةُ التّعبيرِ بـ ﴿ٱلْكَيْلَ﴾ مادّة وبناءًا:

الكيْلُ هنا المُرادُ به المصدرُ[2]، وأصْلُ الكَيْلِ: ضَبْطُ الشَّيءِ وإمساكُهُ[3]، والتّعبيرُ به هنا من باب الدّلالةِ على مُطْلَقِ العدلِ، وإن دخلَ فيه كيلُ الميرَة ونحوِها دخولًا أوليًّا، فلا شكّ أنّه من فروع العدلِ ومَصاديقِه.

التّعبيرُ بالكيْلِ يدلُّ على مُطلَقِ العدْلِ وعُمومِه

سِرُّ الاقتصارِ في الكيْلِ على الإيفاءِ في السّياقِ:

لم يَزدْ في جانب الكيْلِ على ذكْرِ الإيفاء، "لأنّ معاملتَه عليه السلام معهم في ذلك كمُعاملتِه مع غيرهم في مُراعاةِ مواجبِ العدل"[4] فاقتصرَ عليه، إذ هو ميزانٌ واحدٌ يتعاملُ به مع جميعِ المُمتارين بلا تَفرقةٍ.

للكَيْلِ ميزانٌ واحدٌ أساسُه العَدْلُ

دَلالةُ العطْفِ في: ﴿وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ﴾:

دلَّ العطْفُ في قوله تعالى: ﴿وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ﴾، على أنّه عليه السلام، كان لا يكتفي بإيفاءِ الكيْلِ، وإنّما كان يُكرمُ أيضًا ضيافةَ المُمتارين - وكانوا كُثُرًا - كذلك، وهذه أخلاقُ الأنبياءِ والكرامِ.

أَخلاقُ الأنْبياءِ الكرامِ قُدوةٌ وكَرمٌ والتزامٌ

(1) الزّحيليّ، التّفسير المنير: 13/14.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/13.
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (كيل).
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/288.

نُكتةُ العُدولِ منَ الجملة الفعليّةِ إلى الاسميّةِ:

عدلَ منَ الجملةِ الفعليّةِ في قوله تعالى: ﴿أَنِّيٓ أُوفِي ٱلۡكَيۡلَ﴾، إلى الاسميّة في ﴿وَأَنَا۠ خَيۡرُ ٱلۡمُنزِلِينَ﴾؛ لأنّ إيفاءَ الكيلِ مُرتبطٌ بحدثٍ، وهو أنّه كلّما اكتالَ للنّاس أوفاهمُ الكيْلَ، فناسبَ أن يُعبّرَ بالمضارع الدّالِّ على التّجدّدِ والتّكريرِ.

أمّا الإكرامُ والإحسانُ؛ فهو منَ الصّفات الّتي تكونُ راسخةً ثابتةً، فيمَن يوصَفُ بالكرمِ وحسنِ معاملةِ الضّيفان، ولذا عدلَ إلى الجملةِ الاسميّةِ في قوله تعالى: ﴿وَأَنَا۠ خَيۡرُ ٱلۡمُنزِلِينَ﴾.

إكرامُ الضّيفِ منَ الصِّفاتِ المتميّزةِ بالرّسوخِ والثّباتِ عند الشّعوبِ

معنَى ﴿خَيۡرُ﴾ ودلالتُها على التّفْضيلِ:

﴿خَيۡرُ﴾ هو ما يُقابلُ الشّرَّ، وأصلُه العطفُ والميلُ[1] على معنَى أنّ مَن مال إليه، فقد أبى أن يميلَ إلى الشّرّ. وهو يُستعملُ اسْمَ تفضيلٍ على تقديرِ (أفعل منه)[2]، كما في ﴿خَيۡرُ ٱلۡمُنزِلِينَ﴾، وأصلُه: أخْيَر، وحُذفت همزتُه تخفيفًا لكثرة الاستعمالِ.[3] ومثلُه أيضًا، كلمةُ (شرّ).

لفظُ (خَير) للدّلالةِ على ما يُقابلُ الشّرَّ

دَلالةُ (أل) الجنسيّةُ في: ﴿ٱلۡمُنزِلِينَ﴾:

لن يقولَ يوسفُ عليه السلام هذا إلّا وهو واثقٌ بأنّهم قد جرَّبوا غيرَه منَ المُنزِلين في بلادهم، وفي غيرها منَ البلاد الّتي يَمرّون عليها في رحلاتِهم أو إقامتِهم فيها مدّةً منَ الزّمان.

ما بين كرمِ النُّبوّةِ وسائرِ النّاسِ بونٌ شاسعٌ، وفرقٌ واسعٌ

نُكتةُ الجمْعِ في: ﴿ٱلۡمُنزِلِينَ﴾:

جمَعَ ﴿ٱلۡمُنزِلِينَ﴾، لأنّ المُنزِلَ هو المُضيفُ، وطبيعيٌّ أن يكونَ المُضيفون جمْعًا، فالإضافةُ والإنزالُ ليست محصورةً فيه عليه السلام ولا مقصورةً عليه، بل هو خُلُقٌ يشيعُ بين الكرامِ في كلِّ المجتمعاتِ، لكنَّ المقصودَ أنّه عليه السلام خيْرُهم وأحسَنُهم.

الكرمَ طبعٌ أصيلٌ وهو في الأنبياءِ تميّزٌ وتفضيلٌ

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (خير).
(2) الرّاغب، المفردات: (خير).
(3) ابن مالك، شرح الكافية: 2/1121، وابن عاشور، التّحرير والتنّوير: 8/251.

بَلاغةُ الكنايةِ:

غرَضُ يوسفَ التّرغيبُ والاستِمالةُ، وليس الثّناءَ على النّفسِ

لم يكنِ القصدُ في قوله: ﴿أَنِّيٓ أُوفِي ٱلۡكَيۡلَ وَأَنَا۠ خَيۡرُ ٱلۡمُنزِلِينَ﴾ الثّناءَ على نفسه، بلِ التّرغيبَ والاستمالةَ، وكان قد بالغَ في إكرامِهم، فهذه الجملةُ كنايةٌ عنِ الوعدِ، بأن يُوفيَ لهمُ الكيْلَ، ويُكرمَ ضيافتَهم، إنْ أتَوا بأخيهم[1]، ولم يكنِ القصدُ من هذه العبارة أبدًا الثّناءَ على النّفس، فالأنبياءُ أرفعُ وأنْزهُ عن أن يفعلوا هذا، بل قصْدُه عليه السلام أن يُذَكِّرَهم بما يُشاهدون من حالِه وحُسنِ تعاملِه، ليَسْتميلَهم بهذا ويُرغّبَهم في العودة، ويُطَمئنَّ قلوبَهم بأنّهم سيكونون رابحين حِسًّا ومعنًى وهُمْ في رحابِه.

وهذا النّوعُ منَ الكنايات، ممّا يُلجَأُ فيه إلى "الانتقالِ منَ اللّازم وهو الثّناءُ، إلى الملزوم وهو الميلُ النّفسيُّ والتّرغيبُ"[2]. ويُفهمُ من هذه العبارة ﴿خَيۡرُ ٱلۡمُنزِلِينَ﴾، أنّه عاملَهم معاملةً فيها مزيدٌ منَ الإكرام على سواهم، وأنّه خصَّهم بما لم يخُصَّ به غيرَهم في الضّيافة، بخلافِ الكيلِ فقد كانوا هم وغيرُهم في ذلك سواءً لما اقتضاه من واجب تحقيقِ العدل، "وأمّا الضّيافةُ، فليس للنّاس فيها حقٌّ، فخصَّهم في ذلك بما شاء"[3].

دَلالةُ الفاءِ في: ﴿فَإِن لَّمۡ تَأۡتُونِي بِهِۦ﴾:

العطْفُ اشْتراكٌ بين الجُملِ في الحُكمِ وتكاملٌ في الدّلالةِ

الفاء في قوله تعالى: ﴿فَإِن لَّمۡ تَأۡتُونِي بِهِۦ﴾ عاطفةٌ، عطفت هذه الجملةُ على ما قبلَها. وهذه الآية "إيعادٌ لهم على عدم الإتيانِ به، والمُرادُ: لا كيْلَ لكم في المرّة الأخرى. فضلًا عن إيفائه، ﴿وَلَا تَقۡرَبُونِ﴾؛ أيْ: لا تقربوني بدخول بلادي، فضلًا عنِ الإحسان في الإنزال والضّيافةِ، وهو إمّا نهيٌ أو نفيٌ معطوفٌ على التّقديرَيْن على الجزاء"[4].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/13.
(2) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 2/133.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/288.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 7/11.

نُكتةُ التَّعبيرِ بـ (إنْ):

للتَّعبيرِ بالأداةِ المُعيَّنةِ مُرجِّحاتٌ تدعمُ صوابَ اختِيارِها دونَ سِواها

قوله تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِۦ﴾، وفيه آثرَ التّعبيرَ بـ (إنْ)، دون (إذا)، لما تُفيدُه (إنْ) منَ الشّكّ والتّقليلِ، فعبّرَ بهذا الحرفِ الدّالِّ على التّشكيك، ونُدرةِ الوقوع على رغبتِه بعدم حدوثِ هذا، فقد كان الرّاجحُ عنده، والغالبُ على ظنّه أنّهم سيعودون؛ لحاجتِهم الشّديدةِ إلى الميرَة من جهة، ولأنّه أطمَعَهم في كرمِه من جهةٍ أخرى، وأنّه حذّرَهم من دخول البلادِ بدون أخيهم لأبيهم من جهةٍ ثالثةٍ.

فكلُّ هذه الأسبابِ مُجتمعةً، رجَّحتِ التّعبيرَ بـ (إنْ)، وهي مُرجّحاتٌ ينطقُ بها النّصُّ الكريمُ، وأمّا ما هو زائدٌ على هذا من قول بعضِهم: إنّه كان قد أخذ أحدَهم رهينةً عنده ليضمنَ عودتَهم؛ فهو قولٌ لا يحتملُه النّصُّ الكريمُ، ولا يحتملُه خُلُقه كنبيٍّ، ولم يكن هنالك من داعٍ إليه في ظلِّ أنّه لم يكشِفْ لهم عن حاله، وأنّه أخوهم يوسفُ، بل إنَّ تعابيرَه في حوارِه معهم، كما يدلُّ السّياقُ، كلُّها في حيِّز التّخَفّي عنهم، وعدمِ البَوْح بحقيقةِ أمره.

غرَضُ التّعبيرِ بالجملةِ الشّرطيّةِ في السّياق:

ربْطُ دُخولِ مِصْرَ بالإتيانِ بأخيهم حافِزٌ للجدِّ في إقناعِ أبيهم

عبَّرَ بالجملةِ الشّرطيّةِ للدّلالةِ على جدّيّة الأمرِ، وتأكيدِ لزومِ تحقيقِ ما دلّ عليه فعْلُ الشّرط، فلا قدومَ لهم إلى مصرَ، إلّا بتحقّقِ هذا الشّرط، وهو الإتيانُ بأخيهم.

نُكتةُ التَّعبيرِ بالمضارعِ في ﴿تَأْتُونِي﴾:

بيانُ أنّ مُستقبلَ قوّتِهم مَرهونٌ بتحقيقِ ما طُلِبَ منهم

عبَّرَ بالمضارع في ﴿تَأْتُونِي﴾ لما فيه منَ الدّلالة على الاستقبالِ، فهذا الإيعادُ مُوجَّهٌ إلى المرّة القادمةِ الّتي سيأتون فيها، وهذا الاشتراطُ سيكونُ حائلًا بينهم وبين الميرَة، إذ لن يُتاحَ لهمُ الدّخولُ إلى مصرَ الّتي كانت المصدرَ الوحيدَ لشعوب المنطقةِ كلِّها، وذلك لعمومِ الجفافِ وغَلَبة السّبْعِ الشّدادِ على كلّ البلادِ.

دَلالةُ حرْفِ الباءِ في: ﴿بِهِۦ﴾:

اشْتِراطُ الإتيانِ بِبِنيامين ذاتِه للوفاءِ لهم بالوعْدِ المقطوعِ

الباءُ هنا للمُصاحبةِ، ويمكنُ أن تكونَ للتّعديةِ، "ولكلَيْهما أثرٌ في المعنى، والسّياقُ واردٌ في إطار التّرهيبِ والتّخويفِ، وذلك لعلْمِه باضطرارِهم إلى الإتيانِ إليه، وأنّ ذلك يحمِلُهم على الإتيانِ به"[1].

معنَى الفاءِ في: ﴿فَلَا﴾:

مَنْعُ الاقترابِ من مصْرَ وغلّاتِها مرهونٌ بعدَمِ استِجلابِ أخيهم إليها

الفاءُ رابطةٌ لجواب الشّرطِ الّتي تُسمَّى (فاء الجزاء)، وفي السّياقِ أنّه "قال لهم بعد أنْ جهّزَهم الجهازَ الكاملَ: أحضِروا أخاكم الصّغيرَ في المرّة القادمةِ، ولا تخافوا شيئًا، وإلّا فلا كيل لكم عندي ولا تأتوا إليَّ"[2].

نُكتةُ التَّعبيرِ بـ (لا) النّافيةِ للجنْسِ:

المؤمنون عندَ شُروطِهم ومَن نَكثَ فإنّما يَنكثُ على نفسِه

قوله تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِي﴾، وفيه عبّرَ بـ (لا) النّافيةِ للجنس، للدّلالةِ على العموم؛ أيْ: لا كيلَ لكم قليلًا ولا كثيرًا، وخلاصةُ قولِه لهم: "﴿فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِي وَلَا تَقْرَبُونِ﴾: ﴿وَلَا تَقْرَبُونِ﴾ داخلٌ في حُكمِ الجزاءِ مجزومًا، عطْفٌ على قوله: ﴿فَلَا كَيْلَ لَكُمْ﴾، كأنّه قيل: فإن لم تأتوني به، تُحْرَموا ولا تَقْرَبوا. أو أن يكونَ بمعنى النّهي"[3].

نُكتةُ التَّعبيرِ عنِ الإنشاءِ بالجملةِ الخبريّةِ:

الجُملةُ الخبريّةُ المُتضمِّنةُ للإنشاءِ أبلغُ منَ الإنشائيّةِ المَحْضَةِ

قوله تعالى: ﴿فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِي﴾، وفيه أنّ التّعبيرَ بالخبر مُرادًا به الإنشاءَ والطّلبَ، أبلغُ منَ التّعبير بالطّلبِ المحْضِ؛ لأنّه يؤكّدُ مضمونَ الطّلب، ويزيدُ عليه بذكْرِ نتيجتِه إن لم يقوموا بأداء المطلوبِ منهم، حتّى تغدُوَ هذه النّتيجةِ خبرًا منَ الأخبار، فيكونُ

(1) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 401.
(2) القطّان، تيسير التّفسير: 2/258.
(3) الأبياريّ، الموسوعة القرآنيّة: 10/136.

﴿فَلَا كَيۡلَ لَكُمۡ﴾، فإذا لاحت أمامَ أعينِهم هذه النّتيجةُ وقرعت أسماعَهم، عرفوا أنّه لا حيلةَ لهم إلّا الإتيانُ بأخيهم.

دَلالةُ اللّامِ في ﴿لَكُمۡ﴾:

اللّامُ في ﴿لَكُمۡ﴾ هي لامُ الاختصاصِ، والغرَضُ منها تعريفُهم بأنّهم المَخْصوصون بعدمِ الكيْلِ دونَ غيرِهم إن لم يَأتوا بأخيهم.

الإشارةُ إلى اخْتِصاصِهم بالحِرمانِ الّذي في العبارةِ

سِرُّ التّعبيرِ بقوله: ﴿عِندِي﴾:

في التّعبيرِ بقوله تعالى: ﴿عِندِي﴾ وعدمِ الاكتفاءِ بقوله: ﴿فَلَا كَيۡلَ لَكُمۡ﴾، ليُحرّضَهم على الالتزامِ بما شرطَه لهم، وإلّا حُرِموا الكيلَ مُطلقًا عنده، وعند غيرِه؛ لأنّه إذا لم يكن لهم كيلٌ عنده، فعدمُ حصولِ كيْلٍ لهم عند غيره بالطّريق الأوْلَى[1]، وذلك لعموم القحْطِ في البلاد، وعدمِ وجودِ الميرَة إلّا في خزائن مصْرَ، وأيضًا لَما وجدوه عنده من إيفاءِ الكيلِ وحُسن الإنزالِ، والضّيافةِ بما لن يَجدوه عند غيرِه.

التّحريضُ على الامْتِثالِ والالتزامِ بشرْطِه عليهم هو سرُّ التّعبيرِ بـ(عندي)

بَلاغةُ الكنايةِ:

ممّا يحملُه قوله تعالى: ﴿فَلَا كَيۡلَ لَكُمۡ عِندِي﴾، منَ البيانِ الكنايةُ عن منعِهم منِ ابتياعِ الطّعامِ[2]، وذلك لأنهّم أهلُ رَعْيٍ قد يَجْتَلبون معهمُ الصّوفَ والوَبَرَ، لِيتّجِروا فيه ويَبْتاعوا بثمنِه طعامًا، فتضمّنَ قولُه: ﴿فَلَا كَيۡلَ لَكُمۡ عِندِي﴾ المنْعَ من ذلك أيضًا.

غرَضُ الكنايةِ بيانُ مَنْعِهم من مُجْمَلِ التّجارةِ والمعاوضةِ بيعًا وشراءً

معنَى الواوِ في: ﴿وَلَا تَقۡرَبُونِ﴾:

الواوُ في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقۡرَبُونِ﴾، إمّا أن تكونَ عاطفةً أو استئنافيّةً[3]، وأثرُ هذا الاختلافِ سيظهرُ في بيان نوعِ (لا) وهل هي ناهيةٌ أو نافيةٌ.

منْعُ الاقترابِ تحذيرٌ مُسْبقٌ ومَلمحٌ لفهْمِ الدّلالةِ مُبينٌ

(1) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 10/366.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/13.
(3) الخطيب وآخران، التّفصيل: 7/18.

(لا) بين النّهْيِ والنّفْيِ في السّياقِ:

تحقيقُ القولِ في مَنْحَيَيِ النّهيِ والنّفيِ، وأثرُ ذلك في الدّلالةِ

اختُلفَ في (لا) في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُونِ﴾ على قولَيْن:

الأوّلُ: قيل: ناهيةٌ والمضارعُ بعدها مجزومٌ بحذف النّونِ، والنّونُ المذكورةُ في الفعل هي نونُ الوقاية، والياءُ المحذوفةُ تخفيفًا في محلِّ نصْبٍ مفعولٍ به.

واختُلِفَ في الواو بناءً على كوْنِ (لا) ناهيةً فقيل: هي الاستئنافيّةُ؛ لئلّا يلزمَ عطفُ الإنشاء على الخبر. وقيل: بل عاطفةٌ وأُجيبَ عن الاعتراض بأنّ العطفَ مُغتفرٌ فيه هنا؛ لأنّ النّهيَ يقعُ جزاءً[1]؛ أيْ إنّ هذا النّهيَ هو جزءٌ منَ الجزاءِ المُوقَّعِ عليهم، كنَفْيِ الكيلِ، فهو معطوفٌ عليه لأجل ذلك.

والثّاني: قيل: نافيةٌ، وأنّها معطوفةٌ على محلّ جملةِ الجوابِ ﴿فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِى﴾، وهذا وجْهٌ.

ووجْهٌ آخرُ: أنّه نفيٌّ مستقلٌّ، غيرُ معطوفٍ على جزاءِ الشّرطِ، وهو خبرٌ في معنى النّهي، كقوله: ﴿فَلَا رَفَثَ﴾ [البقرة: 197][2]، وهذا الوجهُ مُنْبَنٍ على كون الواوِ استئنافيّةً لا عاطفةً.

نُكتةُ التّعبيرِ بالمضارعِ في ﴿وَلَا تَقْرَبُونِ﴾:

بيانُ النّهيِ عنِ القُربِ من حيث تجدُّدُه وتَكرارُه

عبَّرَ بالمضارع في ﴿وَلَا تَقْرَبُونِ﴾ لدلالتِه على الاستقبالِ، "وفيه دليلٌ على أنّهم كانوا على نيّةِ الامتيارِ، مرّةً بعد أخرى، وأنّ ذلك كان معلومًا له عليه السلام"[3].

نُكتةُ النّهْيِ عنِ القُرْبِ:

النّهْيُ عنِ القُرْبِ أَبْلَغُ في الدّلالةِ على ما نَهاهُم عنه

وجَّه عليه السلام نهيَه إليهم بقوله: ﴿وَلَا تَقْرَبُونِ﴾ بدلَ (ولا تأتون)؛ لأنّ النّهْيَ عنِ القُرْبِ أبلغُ في الدّلالةِ على ما نهاهُم عنه، وهو مجيئُهم بدون

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/11.
(2) السّمين الحلبيّ، الدُّرُّ المصون: 6/517، والخطيب وآخران، التّفصيل: 7/18.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/289.

أخيهم منَ النّهي عنِ الإتيان تمامًا، كما أنّه حين أراد المبالغةَ في النّهي عنِ الصّلاة حالَ السُّكْر، سلَّطَ النّهيَ على القُرْب، فقال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمۡ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعۡلَمُواْ مَا تَقُولُونَ﴾ [النّساء: 43].

بَلاغةُ الكنايةِ في النّهي عنِ القُرْبِ:

في التّعبيرِ بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقۡرَبُونِ﴾ كنايةٌ عن عدمِ العودةِ إلى مصرَ إذا لم يَلتزموا ما شرَطَه عليهم، والمعنى: "أيْ: إنْ لم تأتوني بأخيكم هذا، فلا كيْلَ لكم عندي؛ أيْ: لا أكيلُ لكم شيئًا بعد هذا، إذا جئتم تطلُبون كيلًا جديدًا"[1].

لفظُ عدمِ القُرْبِ دالٌّ بقوّةٍ عن قطْعِ المنفعةِ المُرتجاةِ منَ القُرْبِ

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(المجيءُ) و(الإتيانُ):

يوجدُ بين المجيءِ والإتيانِ تقاربٌ دلاليٌّ شديدٌ، حتّى ذكرَ العسكريُّ أنّه: كثُرَ اسْتَعْمالُ أحدِ اللَّفْظَيْنِ في مَوضِعِ الآخرِ[2]، وممّا ذُكرَ في التّفريق بينهما، أنّ لفظَ المجيء يدلُّ على الشّدّةِ، بخلاف الإتيان فهو مجيءٌ كذلك، ولكن بسهولة[3]، وعلى هذا، فحين يأتي التّعبيرُ بالمجيء فإنّه يدلُّ على أنّ المُعبَّرَ عنه به، هو أمرٌ شديدٌ صعبٌ، أو هو أصعبُ ممّا يكونُ التّعبيرُ فيه بالإتيانِ[4].

المجيءُ يُنْبئُ عنِ الشّدّةِ، والإتيانُ عنِ السُّهولةِ

(المعرفةُ) و(العلمُ):

نذكرُ أنّ المعرفَةَ أخصُّ منَ العِلم؛ لِأنَّها علمٌ بعَيْنِ الشَّيْءِ مفصّلًا عَمّا سواهُ، والعلمُ يكون مُجملًا ومفصّلًا. والمعرفةُ مأخوذة من: عِرفان الدّار، يعني أثارَها الَّتي تُعرف بها. فَكلُّ معرفَةٍ علمٌ، وَلَيْسَ كلُّ علمٍ معرفَةً، وذلك أنّ لفظ المعرفَة، يُفيدُ تَمْييزَ المعلوم من غيرِه، ولفظُ العلمِ لا يُفيدُ ذلك إلّا بضربٍ آخرَ منَ التَّخْصيص، في ذِكر المَعْلومِ[5].

كلُّ معرفَةٍ علمٌ، وَلَيْسَ كلُّ علْمٍ معرفَةً

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/289.
(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 309.
(3) الرّاغب، المفردات: (جاء).
(4) السّامرّائيّ، لمسات بيانيّة، ص: 97.
(5) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 80.

﴿قَالُواْ سَنُرَٰوِدُ عَنۡهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ ٦١﴾ [يوسف: 61]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الحصْرُ بين خِيارَيْن أحلاهُما مُرٌّ، وعليهم أن يَختاروا أخفَّ الضّررَيْن لدفْعِ أشدِّ المصيبَتَيْن

لمّا كان يوسفُ عليه السلام قد ضيَّق عليهم في أمر مجيئِهم بأخيهم، مُستخدِمًا معهم شتّى الوسائل وعْدًا ووعيدًا، ترغيبًا وترهيبًا، حيث ذكَّرَهم في باب الوعد والتّرغيبِ بما كان منه تجاهَهم من إيفاء الكيلِ وغاية الإكرامِ بقوله: ﴿أَلَا تَرَوۡنَ أَنِّيٓ أُوفِي ٱلۡكَيۡلَ وَأَنَا۠ خَيۡرُ ٱلۡمُنزِلِينَ﴾، وفي باب الوعيد والتّرهيبِ والتّهديد كان قد قال لهم: ﴿فَإِن لَّمۡ تَأۡتُونِي بِهِۦ فَلَا كَيۡلَ لَكُمۡ عِندِي وَلَا تَقۡرَبُونِ﴾، وكان أن وجدوا أنفسَهم بين أمرَيْن أحلاهما مرٌّ، فإمّا أن يتنازلوا عنِ الميرَة ولا يقربوا البلادَ، وفي هذا الهلاكُ لهم ولأهلِهم، وإمّا أن يُفاوضوا أباهم ويتحمّلوا مغبَّةَ تذكيرهم بما كان منهم في حقّ يوسفَ بكلّ ما يحملُه هذا التّذكيرُ من قسوة الخطابِ، وشدّة اللَّومِ والعتابِ، فاختاروا الطّريق الثّاني على ما فيه، فقالوا ما أخبر به القرآن عنهم: ﴿قَالُواْ سَنُرَٰوِدُ عَنۡهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ﴾.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿سَنُرَٰوِدُ﴾: فعلٌ ماضٍ على وزنِ (فاعَل)، جَذرُه (رود)، وهو أصلٌ يَدُلُّ على مَجيءٍ وَذَهابٍ مِن انْطِلاقٍ في جِهَةٍ واحِدَةٍ. تَقولُ: راوَدْتُهُ عَلَى أنْ يَفْعَلَ كَذا، إذا أرَدْتَهُ عَلَى فِعْلِهِ[1]، وتقول: راوَدَ فلانٌ جاريتَه عن نفسها، وراوَدَته هي عن نفسه: إذا حاوَل كلٌّ منهما من صاحبه الوَطْءَ والجِماعَ[2]، وراودتُه على كذا مراودةً ورِوادًا؛ أيْ:

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (رود).
(2) الخليل، العين: (رود).

أردتَهُ[1]، فمعنى قولهم: ﴿سَنُرَٰوِدُ عَنۡهُ أَبَاهُ﴾: نسألُه أن يُخليَّه معنا حتَّى نجيءَ بهِ إليك[2].

2) ﴿لَفَٰعِلُونَ﴾: اسمُ فاعل، جَذرُ مادَّته (فعل)، وهو أصْلٌ صَحيحٌ يَدُلُّ عَلَى إِحْداثِ شَيْءٍ من عَمَلٍ وَغَيْرِه. من ذَلِكَ: فَعَلْتُ كَذا أَفْعَلُهُ فَعْلًا. وَكانَتْ من فُلانٍ فَعْلَةٌ حَسَنَةٌ أَوْ قَبيحَةٌ. والفِعالُ جَمْعُ فِعْلٍ[3]، والفَعْلُ بالفتح: مصدرُ فَعَلَ يَفْعَلُ، والفِعْلُ بالكسر: الاسمُ، والجمعُ: الفِعال، والفَعال بالفتح: الكَرمُ[4]، والفِعْلُ: التّأثيرُ من جِهَةِ مؤثِّرٍ، وهو عامٌّ لما كان بإجادةٍ أو غيرِ إجادةٍ، ولِما كان بعلمٍ أو غيرِ علمٍ، وقصدٍ أو غيرِ قصدٍ، ولِما كان من الإنسانِ والحيوانِ والجماداتِ، والعملُ مثلُه[5]، والفِعْلُ: كِنايَةٌ عَن كلّ عَمَلٍ مُتَعَدٍّ أو غيرِ مُتَعَدٍّ[6].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

أجابَ إخوةُ يوسفَ فقالوا: سنطلبُه من أبيهِ، ونجتهدُ في ذلك ونُحضرُه معنا، وإنّا لفاعلونَ ما أمرتَنا به دونَ تقصيرٍ[7]، قائلين: "سَنُراوِدُ عَنْهُ أَباهُ؛ أيْ: سنُخادعُه، ونحتالُ في انتزاعه من يده، ونجتهدُ في ذلك، وفيه تنبيهٌ على عزّة المَطْلب وصعوبةِ مناله"[8].

لا زال لدى إخوة يوسف الحافز لمراودة أبيهم في أخيهم

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

نُكتةُ الفصلِ:

قوله تعالى: ﴿قَالُواْ سَنُرَٰوِدُ عَنۡهُ أَبَاهُ﴾، شأنُه شأنُ ما يُقالُ في

فصلُ الجُملةِ للاستئنافِ البيانيِّ (شِبْهُ كمالِ الاتّصالِ)

(1) الجوهريّ، الصّحاح: (رود).
(2) ابن جرير، جامع البيان: 16/156.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (فعل).
(4) الجوهريّ، الصّحاح: (فعل).
(5) الرّاغب، المفردات: (فعل).
(6) ابن سِيدَه، المحكم: (فعل).
(7) ابن جرير، جامع البيان: 16/156، والبغويّ، معالم التنّزيل: 4/255، وجماعة من العلماء، المختصر في تفسير القرآن الكريم، ص: 242.
(8) القاسميّ، محاسن التّأويل: 6/194.

المحاوراتِ والمقاولاتِ: إنّه جوابٌ عن سؤالٍ مُقدّرٍ، كأنّه قيل: فماذا قالوا بعد أن توعّدَهم يوسفُ عليه السلام بمنْعِهم من قدوم بلادِه للميرَة ولا لغيرِها إن لم يأتوا بأخيهم لأبيهم معهم في المرّةِ القادمةِ؟ فكان الجوابُ: ﴿قَالُواْ سَنُرَٰوِدُ عَنۡهُ أَبَاهُ﴾.

نُكتةُ التّعبيرِ بالسّين في ﴿سَنُرَٰوِدُ﴾:

التّعهّدُ بالفعْلِ أمانةٌ يَلتزمُ بها مستقبلًا منْ تَعهَّدَ بتحقيقِها

التّعبيرُ بالسّين الدّالّةِ على الاستقبال، في ﴿سَنُرَٰوِدُ﴾، بجانبِ إفادتهِ الاستقبالَ، لكونِ هذا الوعدِ كان بحضرته عليه السلام، قبلَ أن يغادروا إلى مكانِهم، فإنّه يدلُّ على إصرارهم، وتأكيدِ عزمِهم على بذلِ ما يستطيعون من جهد، في سبيل إقناعِ أبيهم، بأن يدفعَ معهم أخاهم للامتيارِ، في المرّة القادمةِ.

نُكتةُ التّعبيرِ بالمُراوَدةِ من حيث المادّةُ والصّيغةُ:

الإشارةُ إلى عزّةِ المطلَبِ المُبتغَى، وصُعوبةِ تحصيلِه

الرَّوْدُ: التّردّدُ في طلب الشّيءِ برفق.[1] وأصلُه يدلُّ على مَجيءٍ وذَهابٍ مِن انْطِلاقٍ في جِهَةٍ واحِدةٍ. تَقولُ: راوَدْتُهُ عَلَى أنْ يَفْعَلَ كَذا، إذا أرَدْتَهُ عَلَى فِعْلِهِ[2].

ومعنى ذلك أنّ المراوَدة المنشودةَ سيصاحبُها بذلُ جهدٍ في الأخذ والرّدِّ، والمحاورة والإقناعِ، والاستمالةِ برفقٍ والتّمنّي والإغراءِ، وتكريرِ المحاولة، وعدمِ الاكتفاء بمرّة أو مرّتيْن، وكلِّ ما يحتالُ به المُراوِد من أساليبَ وحِيَلٍ، في سبيل الوصولِ إلى غرَضِه، ولو أدّى ذلك إلى المخادَعةِ، ولذا عبّروا بصيغة المضارعِ الدّالّةِ على التّشارُكِ بين المتراوِدين، والمصدَّرةِ بالسّين الدّالّةِ على قوّة العزمِ، وبذلِ غايةِ الجهدِ في المراوَدة، ليحمِلوا أباهم على الموافقةِ. وفي هذا التّعبيرِ ﴿سَنُرَٰوِدُ﴾ إشارةٌ وتنبيهٌ "على عزّةِ المطلبِ وصُعوبةِ مَنالِه"[3].

(1) الرّاغب، المفردات: (رود).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (رود).
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/11، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 10/367.

معنَى (عن) في: ﴿عَنْهُ﴾:

المُراوَدَةُ الاجتهادُ في الطَّلبِ لتحصيلِ ما هو عزيزُ المنالِ

الحرفُ (عن) معناه المجاوزةُ؛ أيْ: نُراودُه مُراوَدةً نُباعِدُ بها بينه وبين رغبتِه في الاحتفاظ بأخيهم وعدمِ دفعِه إليهم، "﴿قَالُواْ سَنُرَٰوِدُ عَنۡهُ أَبَاهُ﴾؛ يعني: سنطلبُ من أبيه أن يبعثَه معنا، ﴿وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ﴾؛ يعني: لصانِعون ذلك، فنطلبُه من أبيه ليبعثَه. ويُقال: وإنّا لضامِنون ذلك"[1].

نُكتةُ إضافةِ الأبِ إلى ضَميرِ أخيهم:

لا يزالُ في ضَميرِهم وَجْدٌ على أبيهم لحُبّه لأخيهم ومن قبْلُ حبِّه ليوسفَ

أضافوا الأبَ إلى ضميرِ أخيهم دون ضميرِهم فقالوا: ﴿سَنُرَٰوِدُ عَنۡهُ أَبَاهُ﴾، وكأنّه ليس أباهم أيضًا، فكشفوا عمّا في ضميرهم من وَجْد بسببِ حبِّ أبيهم لأخيهم وحرْصِه عليه وتوجُّسِه منهم حِيالَه، تمامًا كما كان الحالُ مع أخيه يوسفَ من قبْلُ، وهو شعورٌ متجذِّرٌ فيهم من قديم دلَّ عليه قولُهم من قبلُ: ﴿لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحۡنُ عُصۡبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ۝٨﴾ [يوسف: 8].

معنَى الواوِ في: ﴿وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ﴾:

لَطائِفُ الحِيَلِ وَسائلُ في الوصولِ إلى المُرادِ

الواوُ عاطفةٌ عَطفتْ هذه الجملةَ على جملة مقولِ القول: ﴿سَنُرَٰوِدُ﴾، والمُراوَدةُ محاولةُ إقناع طرفٍ آخرَ بفعلٍ لا يرغبُ فيه، ولذلك قالوا: ﴿وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ﴾ ذلك غيرَ مفرّطين ولا مُتَوانين، فعبّروا بما يدلُّ على الحال، تنبيهًا على تحقّقِ وقوعِه، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٞ ۝٦﴾ [الذاريات: 6]، وفيه إشارةٌ إلى أنّ لطائفَ الحِيَل وسائلُ في الوصول إلى المُرادِ، وأنّ الانخداع، كما أنّه من شأن العامّة، كذلك هو من شأن خواصِّ العبادِ، بموجبِ البشريّةِ الّتي ركّبها اللّه على السّويّة بين الأفرادِ"[2].

(1) السّمرقنديّ، بحر العلوم: 2/200.
(2) حقّي، روح البيان: 4/287.

نُكتةُ تتابُعِ المؤكِّداتِ في ﴿وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ﴾:

تواصُلُ المؤكِّداتِ في الجُملةِ الاسميّةِ كما سبقتْ في الجُملةِ الفعليّةِ

بعد أن أكَّدوا فعلَ المُراوَدة بالسّين فقالوا ﴿سَنُرَٰوِدُ﴾، وبما يحملُه فعلُ المُراوَدة من معنى التّكرير - والتّكريرُ يُفيدُ التّأكيدَ - أكّدوا بعد ذلك جملةَ ﴿وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ﴾ بما يأتي:

أوّلًا: اسميّةُ الجملة، والتّعبيرُ بالجملة الاسميّة، أقوى وآكدُ منَ التّعبير بالجملةِ الفعليّةِ، والاسميّةُ في طَرفيْها - المُسندِ والمُسندِ إليه - تدلُّ على الإخبار على ثبوتِ المُسنَدِ للمُسنَد إليه؛ أيْ: "إذا كانَ خَبرُها اسْمًا فقد يُقْصدُ به الدَّوامُ والاستمرارُ الثّبوتيُّ بمعونة القَرائِن"[1].

ثانيًا: تصديرُها بـ (إنَّ) التّأكيديّةِ.

ثالثًا: إدخالُ اللّام التّأكيديّةِ على الخبر، وهي المُسمّاة المُزحلقة فقالوا: ﴿لَفَٰعِلُونَ﴾.

رابعًا: تَكرارُ ذِكْر المُسنَد إليه في إضماره في قوله: ﴿لَفَٰعِلُونَ﴾.

وهذا إنّما يدلُّ على ما ذكرنا مِرارًا من إصرارهم على بلوغ قصْدِهم في الإتيان بأخيهم بكلِّ وسيلةٍ.

نُكتةُ العُدولِ منَ الفعليّة إلى الاسميّةِ:

بيانُ ثباتِهم وإصرارِهم في مراودَةِ أبيهم، للإتيانِ بأخيهم

عدلَ عنَ التّعبير بالفعل، في قوله: ﴿سَنُرَٰوِدُ﴾، إلى التّعبيرِ بالاسم الدّالِّ على الثبّوتِ في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ﴾، للدّلالة على إصرارِهم على الإتيانِ به، وأنّهم ثابتون على ذلك بلا تَوانٍ ولا ادّخارٍ لأيِّ جُهدٍ في سبيل الإتيانِ بأخيهم.

نُكتةُ التّعبيرِ بـ ﴿لَفَٰعِلُونَ﴾:

لفظُ الفعلِ يشملُ كلَّ عملٍ بلا تحديدٍ

عبَّروا بالفعل دونَ غيره، لِما فيه منَ الدّلالة على العموم، فهو يدلُّ على كلّ عملٍ بدون تحديدٍ[2] ودلالتُه الخاصّةُ هنا هو فتحُ الباب

(1) الكفويّ، الكليّات، ص: 341.

(2) الرّاغب، المفردات، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (فعل).

أمام كلِّ سبيلٍ يصلون به إلى المقصودِ، لكن لو لجؤوا إلى تعبير آخرَ كالإقناع أوِ الإلجاءِ أو نحوِ ذلك، لكان السّبيلُ محدودًا بنوعٍ مُعيَّنٍ منَ الأفعال، لكنّهم أرادوا أن يَبثّوا في نفْس يوسفَ عليه السلام الطّمأنينةَ في أنّهم سيدخُلون إلى أبيهم من كلّ بابٍ، ويَعبُرون إليه من كلّ طريقٍ حتّى يوافقَ على إرسال أخيهم معهم.

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

العملُ والفعلُ:

العملُ ما له أثرٌ وفيه كَدٌّ والفعلُ عَكْسُهُ

لا شكّ أنّ بين الفعل والعمل تقارُبًا دلاليًّا ومُشتركًا يسمحُ بأن يحلَّ أحدُهما محلَّ الآخر في كثير منَ المواضع حتّى عُرّف كلٌّ منهما بما يُعرّفُ به الآخر، ففي المفردات: "الفِعْلُ: التّأثيرُ من جهة مُؤثّر، وهو عامٌّ لما كان بإجادةٍ أو غيرِ إجادةٍ، ولِما كان بعلمٍ أو غيرِ علمٍ، وقصدٍ أو غير قصدٍ، ولِما كان منَ الإنسان والحيوانِ والجمادات، والعملُ مثله"[1]، لكنّه في مادّة (عمل)، فرّق بينهما من جهة العموم والخصوصِ، فقال: العَمَلُ: كلُّ فعلٍ يكون منَ الحيوان بقصدٍ فهو أخصّ من الفعل؛ لأنّ الفعلَ قد يُنسبُ إلى الحيوانات الّتي يقع منها فعلٌ بغير قصدٍ، وقد يُنسبُ إلى الجمادات، والعَمَلُ قلّما يُنسبُ إلى ذلك[2]. وقد قيل في الفرق بين الفعل والعمل: إنّ الفعلَ يُطلقُ على ما يمرُّ سريعًا وينقضي ولا يكون له أثرٌ، أمّا العملُ فيُقال لما يكون له أثرٌ[3]، ومن العَمَل: الفعلُ باليد من زراعةٍ وتلقيحٍ وسَقْيٍ[4]، لأنّ ما يعملُه الإنسانُ بكدِّ يدِه له تأثيرٌ أثناء عملِه على العامل، ويبقى أثرُه على المدى غير أنّه، ممّا لوحظَ في استعمال القرآن الكريم، أنّه إذا

(1) الرّاغب، المفردات: (فعل).
(2) الرّاغب، المفردات: (عمل).
(3) أبو حيّان التّوحيديّ، المقابسات، ص: 280، والرّاغب، المفردات: (عمل)، والعسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 134.
(4) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (عمل).

كان المقامُ مقامَ تعبير عن ممارسة دنيءِ الأخلاق، فإنّه يؤثرُ التّعبيرَ بلفظ الفعلِ، كما هو الشّأنُ في قوله تعالى: ﴿أَوۡ أَن نَّفۡعَلَ فِيٓ أَمۡوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْۖ﴾ [هود: 87]، والفَعْلة المُرادةُ في الآية هي بخسُ النّاس أشياءَهم، والنّقصُ في الكيل والميزان، وهي من أحطّ الخصالِ، وكما في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةٗ﴾ [الأعراف: 28]، والمُرادُ بالفاحشة في الآية الطّوافُ بالبيت عُراةً للرّجال والنّساء[1]. ولا أحطَّ ولا أدنى من هذه الفعلة، وكان كثيرٌ منَ العرب باستثناء قريشٍ وبعضِ القبائل إذا طافوا بالبيت طافوا عرايا[2]. ولا يعني ذلك أنّ التّعبيرَ بلفظ الفعل، لا يكونُ إلّا عما هو دنيء.

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 3/402.

(2) ابن جرير، جامع البيان: 10/154.

﴿وَقَالَ لِفِتۡيَٰنِهِ ٱجۡعَلُواْ بِضَٰعَتَهُمۡ فِي رِحَالِهِمۡ لَعَلَّهُمۡ يَعۡرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمۡ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ٦٢﴾ [يوسف: 62]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

كان يوسفُ عليه السلام حريصًا على قدوم إخوتِه المرّةَ القادمةَ ومعهم أخوهم لأبيهم - كما شرطَ عليهم - وحيث كان في خطابه معهم الخاصِّ بعودتِهم بأخيهم مُرغِّبًا ومُرهِّبًا - كما مضى بيانُه - إلّا أنّه كان في الجانب التّرغيبيّ أوضحَ، حيث قدَّم لهم البيّناتِ العمليّةَ الدّالّةَ على ما يُرغِّبُهم فيه، كإيفاء الكيْلِ وحسنِ الإنزال، فلا جَرَم بعد ذلك أن أضاف إلى رغائبِه رغيبةً أخرى، وإلى كرمِه معهم كرمًا جديدًا، وذلك أنّه أمر عُمّالَه وغِلمانَه أن يضَعوا لهم في رحالِهم - دونَ علمهم - بضاعتَهم الّتي جاؤوا بها معهم ليعاوضوها بالميرّة، ليُفاجَأوا بها عند عودتِهم إذا فتحوا متاعَهم، فيزيدَهم ذلك فرحًا وطُمأنينةً إلى كرم يوسفَ عليه السلام، كما يزيدُهم حرصًا على العودةِ إليه بأخيهم، وأيضًا يُضيفُ إليهم حُجّةً جديدةً تُساعدُهم في إقناع أبيهم عليه السلام، حتّى يرسلَ معهم أخاهم فقال كما أنبأتْ به الآية: ﴿وَقَالَ لِفِتۡيَٰنِهِ ٱجۡعَلُواْ بِضَٰعَتَهُمۡ فِي رِحَالِهِمۡ لَعَلَّهُمۡ يَعۡرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمۡ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ﴾.

التَّنويعُ في السُّبُلِ المحقّقةِ لغايةِ أن يَعودَ إخوتُه بأخيهم في مرّةٍ قادمةٍ

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿لِفِتۡيَٰنِهِ﴾: جمعُ فتًى، وهو الشّابُّ، والفتى: السَّخيُّ الكريمُ[1]، "يُقال للشّابّ: فتًى: والجميع: فِتيان، والقليل: فِتية، والفُتوّةُ: الإفراطُ في الظّرَفِ يُقال منه مُتَفَتٍّ، ومُتَفَتِّيَة، والفتى: الشّابُّ من النّاس، والبهائمِ، قال الشّاعر:

(1) الجوهريّ، الصّحاح: (فتى).

إِذَا بَلَغَ الفَتَى مِائَتَيْنِ عَامًا *** فَقَدْ ذَهَبَ اللَّذَاذَةُ والفَتَاءُ[1]

والفتى هنا بمعنى: العبدِ المملوكِ[2]، ومعنى ﴿لِفِتْيَٰنِهِۦ﴾، هنا المماليكُ[3]؛ وهم غِلْمانُ يوسفَ عليه السلام[4].

2) ﴿بِضَٰعَتَهُمْ﴾: البِضاعةُ: كُلُّ ما أُعِدَّ للبيعِ كائنًا ما كانَ[5]، واستبضعتُ الشَّيءَ: جعلتَه بِضاعةً[6]، والبضاعةُ: المالُ[7]، ومعنى ﴿بِضَٰعَتَهُمْ﴾ هنا: مالُهم الّذي دفعوه ثمنًا للحِنْطة الّتي اشتروها[8].

3) ﴿رِحَالِهِمْ﴾: جمعُ رَحْلٍ، وجَذرُ مادَّتهِ (رحل)، وهو أصلٌ يدلُّ على مُضيٍّ في سَفَرٍ، يُقالُ: رَحَلَ يَرْحَلُ رِحْلَةً، ورَحْلُ الرَّجُلِ: مَنْزِلُهُ ومأواهُ، لأنَّ ذلكَ إنَّما يُقالُ في السَّفرِ لأسبابِهِ الّتي إذا سافرَ كانت معه، يَرْتحِلُ بها وإليها عند النُّزولِ[9]. والرَّحْلُ: رَحْلُ البعيرِ، وهو أصغرُ منَ القَتَبِ، والجمعُ: الرِّحال[10]، والمعنى المِحوريُّ الّذي يدورُ عليه (رَحَل)، وما يُشْتَقُّ منه: الانتقالُ أوِ السّفرُ إلى مكانٍ بعيدٍ ركوبًا، وسَمَّوْا ما يُجَهَّزُ به البعير كالبرذعةِ ليُرْكَبَ عليه ومعه كلُّ ما يُلْحَقُ بهِ من متاعِ الرّاكبِ وزادِه: رَحْلًا، ومنَ الرَّحْل الَّذي هو متاعُ الرّاكب، والَّذي يُوضَعُ على ظَهْرِ البعيرِ، ﴿جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِى رَحْلِ أَخِيهِ﴾ [يوسف: 70][11]، ومعنى ﴿رِحَالِهِمْ﴾ هنا: أوْعيَتُهم[12].

4) ﴿ٱنقَلَبُوٓاْ﴾: فعلٌ ماضٍ مُسندٌ لواو الجماعةِ، مجرَّدُه: (انقلبَ)، وجَذرُ مادَّتِه: (قلب)، وهو أصلٌ يدلُّ على ردِّ شيءٍ من جِهَةٍ إلى جِهَةٍ، ومنه: قلبتُ الثَّوبَ قَلبًا، وقلبتُ

(1) الحربيّ، غريب الحديث: (فت).
(2) ابن الجوزيّ، زاد المسير: 2/434.
(3) الزَّجّاج، معاني القرآن: 3/117.
(4) ابن جرير، جامع البيان: 16/156.
(5) الخليل، العين: (بضع).
(6) ابن فارس، مُجمل اللّغة: (بضع).
(7) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (بضع).
(8) ابن جرير، جامع البيان: 16/157، والزّجّاج، معاني القرآن: 3/117، والبغويّ، معالم التّنزيل: 4/255.
(9) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (رحل).
(10) الجوهريّ، الصّحاح: (رحل).
(11) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (رحل).
(12) البغويّ، معالم التنّزيل: 4/255.

الشَّيءَ: كَبَبْتُه[1]، وقلبَ الشَّيءَ قَلْبًا: حَوَّلهُ عن وجهِه، وقلبَ المعلِّمُ الصّبيانَ: صَرَفَهم إلى بيوتِهم[2]، وانقلبَ: رَجَعَ[3]، ومعنى: ﴿ٱنقَلَبُوٓاْ﴾ هنا: انصرفُوا ورجعُوا[4].

5) ﴿أَهۡلِهِمۡ﴾: أهلُ الرَّجُلِ: أخَصُّ النّاسِ بهِ[5]، وهُم مَنْ يَجْمَعُهُ وإيّاهُم نَسَبٌ أو دِيْنٌ، أو ما يَجري مَجراهما من صناعةٍ وبيتٍ وبلدٍ، وأهلُ الرَّجُلِ في الأصلِ: مَنْ يَجْمَعُهُ وإيّاهم مَسكنٌ واحدٌ، ثُمَّ تُجوِّزَ بهِ فقيل: أهلُ الرَّجُلِ لِمَنْ يَجْمَعُهُ وإيّاهم نَسَبٌ[6].

المَعْنى الإجْماليُّ:

قال يوسفُ عليه السلام لِغِلمانه ومَماليكه: رُدّوا بضاعةَ بني يعقوبَ إليهم حتَّى يعرفوا عِنْدَ عودتِهم أنَّنا لم نَبْتَغِها منهم، فلا يُخلفونَ الوعدَ في الرُّجوعِ، إذا وَجَدوا في رحالِهم ثمنَ طعامٍ قد قبضوهُ وملَكهُ عليهم غيرُهم، عوضًا من طعامِه، ويتحرَّجوا من إمساكِهم ثمنَ طعامٍ قد قَبَضوه حتَّى يؤدّوه على صاحبِه، فيكونُ ذلك أدْعى لهم إلى العَوْدِ إليه، بل هذا يُجْبِرُهم على الرُّجوعِ ثانيةً ومعهم أخوهم؛ ليُثْبتوا ليوسفَ صِدْقَهم، ويقبلَ منهم بضاعتَهم[7].

ذَكاءُ يوسُفَ، عليه السلام في اسْتِدراجِ إخْوَتِهِ للعودةِ بأخيهِ إليه

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

دَلالةُ الواوِ: ﴿وَقَالَ﴾:

الواو في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ لِفِتۡيَٰنِهِ﴾ استئنافيّةٌ[8]، والجملةُ بعدها مُستأنَفةٌ، وما تحويه هذه الجملةُ هو كلامٌ مُستأنَفٌ جديدٌ،

أُسْلوبُ الأنبياءِ الدّعويُّ قائمٌ على التّرغيبِ بالإكرامِ والحُسْنى

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (قلب).
(2) الزّمخشريّ، أساس البلاغة: (قلب).
(3) الحميريّ، شمس العلوم: (قلب).
(4) البغويّ، معالم التّنزيل: 4/255.
(5) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (أهل).
(6) الراغب، المفردات: (أهل).
(7) ابن جرير، جامع البيان: 16/158، وجماعة من العلماء، المختصر في تفسير القرآن الكريم، ص: 242.
(8) الخطيب وآخران، التّفصيل: 7/20، وصافي، الجدول: 13/18.

يأتي في سياق ما قدّمَه إليهم من مظاهر التّرغيب والإكرام، فكان منه أن أمرَ فتيانَه أن يُعيدوا إليهم بضاعتهم الّتي جاؤوا بها من بلادهم، فيجعَلوها في رحالهم، فتكونَ من جملةِ إكرامِه لهم.

تَحديدُ الجِهةِ المُنفِّذةِ لأمرِ يوسفَ عليه السلام، وحرصُه الشّخصيُّ على المتابَعةِ

معنَى اللّام في: ﴿لِفِتۡيَٰنِهِ﴾:

اللّام في قوله تعالى: ﴿لِفِتۡيَٰنِهِ﴾، هي لامُ التّبليغِ الّتي تلحقُ باسْمِ السّامعِ أو ضميرِه، كالّتي في قولك: قلتُ لزيدٍ. أو: قلتُ له، قولُه ﷻ: ﴿وَقَالَ لِفِتۡيَٰنِهِ﴾: "وهم غلمانُه وأتباعُه، اجْعَلُوا بِضاعَتَهُمْ في رِحالِهِمْ، أراد بالبضاعةِ ثمنَ الطّعامِ الّذي أعطوه ليوسفَ وكانت دراهمَ. وحكى الضّحاكُ عن ابنِ عبّاسٍ أنّها كانتِ النّعالَ والأدمَ والرّحالَ.. وهي الأوعيةُ الّتي يُحملُ فيها الطّعامُ وغيرُه"[1].

تَوجيهُ القراءةِ الوجيهُ يُوافقُ البيانَ العربيَّ الفصيحَ

بَلاغةُ تَوجيهِ القراءاتِ القرآنيّةِ في: ﴿لِفِتۡيَٰنِهِ﴾:

قرأ حمزةُ والكسائيُّ وحفصٌ: ﴿لِفِتۡيَٰنِهِ﴾، والباقون: ﴿لِفِتۡيَٰتِهِ﴾[2]، وهو على القراءتيْن جمعُ (فتى) كإخوة وإخوان في (أخ)، غيرَ أنَ (فِعْلَة) للقلّة (وفِعْلانًا) للكثرة، وقد جرتِ العادةُ للملوك أن يأمروا غلمانَهم وعبيدَهم بالأمر، وإن لم يتولَّ ذلك جميعُهم[3].

لم يُقيِّدْ يوسفُ عليه السلام فِتيانَه بطريقةٍ مُحدّدةٍ لوضْعِ البضاعةِ في رحالِ إخوتِه

دَلالةُ الأمْرِ في: ﴿ٱجۡعَلُواْ﴾:

هذا أمرٌ إلزاميٌّ وُجوبيٌّ وجّهه يوسفُ عليه السلام لفتيانِه، والقصدُ منه أن يَتصنّعوا بأيِّ وجهٍ منَ الوجوه يختارونَه، لوضْعِ البضاعةِ في رحالِهم، ولم يُحدّدْ لهم طريقةً مُعيَّنةً، ولذا اختار الفعلَ (جعل)، وهو لفظٌ عامٌّ في الأفعال كلِّها، وهو أعمُّ من (فَعَلَ) و(صَنَعَ) وسائرِ أخواتِها[4].

---

(1) الخازن، لباب التّأويل: 2/539.

(2) السّمين الحلبيّ، الدُّرُّ المصون: 6/517.

(3) الهمذانيّ، الكتاب الفريد: 3/604، والعُكْبريّ، التّبيان: 2/736، والسّمين الحلبي، الدُّرُّ المصون: 6/517.

(4) الرّاغب، المفردات: (جعل).

نُكتةُ إضافةِ البِضاعةِ والرّحالِ إلى ضَميرِهم:

الإضافةُ إلى ضميرِهم في قوله: ﴿بِضَٰعَتَهُمۡ﴾ وقولِه: ﴿رِحَالِهِمۡ﴾ هي إضافةُ تخْصيصٍ، وإنَّما فعلَه ﷺ تفضُّلًا عليهم وخوفًا من أن لا يكونَ عند أبيه ما يَرجعون به مرّةً أخرى لَعَلَّهُمۡ يَعۡرِفُونَهَا؛ أيْ: يَعرفون حقَّ ردِّها، وحقَّ التّكرّم بإعطاءِ البدلَيْن، إذَا انْقَلَبُوا أيْ رجعوا إلى أَهْلِهِمْ، وفتحوا أوعيتَهم، فالمعرفةُ مقيّدةٌ بالرّجوع وتفريغِ الأوعيةِ"[1].

ردُّ بِضاعَتِهم في رحالِهم فَيْضٌ من كرمِ يوسفَ الصّديقِ ووصلٌ لرَحِمِه الوثيقِ

معنَى الظّرفيّةِ في: ﴿فِي رِحَالِهِمۡ﴾ في السِّياقِ:

والتّعبيرُ بـ ﴿فِي﴾ الدّالّةِ على الظّرفيّةِ يُفيدُ أن يَجعَلوا بضاعتَهم في مكانٍ عميقٍ داخلَ رِحالهم بحيث لا يَكتشفونَها إلّا عندما يَنقلِبون إلى أهلهم ويَفضّون رحالَهم لتتحقّقَ المفاجأةُ بوجودها، وقد "فعل يوسفُ ﷺ ذلك، تفضُّلًا عليهم، وقيل: ليَستَعينوا بها على الرّجوعِ إليه سريعًا لشراء الطّعام، وقيل: ليَرجعوا إليه مرّةً أخرى لعلْمِه أنّهم لا يقبَلون الطّعامَ إلّا بثمنٍ، قاله الفرّاءُ"[2].

وَضَعَ البضائعَ بشكْلٍ مُسْتَترٍ في الرِّحالِ كي يَعودوا مرّةً أخرى

معنَى (لعلّ) في السِّياقِ:

قولُه تعالى: ﴿لَعَلَّهُمۡ يَعۡرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمۡ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ﴾، (لعلّ) حرفٌ ناسخٌ من أخوات (إنّ) يفيدُ التّرجّيَ، وتحقيقًا للرّجاء المَسوقِ في هذه الآية أَمَر يوسفُ ﷺ فتيانَه أن اجْعَلُوا بِضاعَتَهُمْ في أوعيتِهم الّتي يَحملون فيها أشياءَهم؛ لأنّ ديانتَهم وأمانتَهم تَحملُهم على ردِّها، فيحصلُ المطلوبُ من قصْدِ حضورِهم بأخيهم[3].

السِّياقُ مَبْنيٌّ على رجاءِ يوسفَ التئامَ شمْلِه بالتحاقِ أخيه به

نُكتةُ التَّعبيرِ عن إكرامِه لهم بـ ﴿يَعۡرِفُونَهَآ﴾:

المعرفةُ تعني إدراكَ الشّيء بتفكُّرٍ وتدبُّرٍ لأثرِه، وهي أخصُّ منَ العلمِ[4]، والقصدُ بالمعرفة هنا أن يُدركوا أنّها عينُ بضاعتِهم، فإن

المعرفةُ أخصُّ منَ العلْمِ، فهي إدراكُ عينِ الشّيءِ والتّحقُّقُ به

(1) حقّي، روح البيان: 4/288.
(2) القِنّوجيّ، فتحُ البيان: 6/363.
(3) العاني، بيان المعاني: 3/233.
(4) الرّاغب، المفردات: (عرف).

كانت دراهمَهم فستكونُ مسكوكةً سكّةَ بلادِهم، أو بالصُّررِ الّتي كانت مصرورةً فيها، وأن يُدركوا أنّها وُضعتْ هنالك قصْدًا عطيّةً من عزيز مصرَ[1].

وإن كانت بضاعةً عينيّةً، كأن تكونَ صُوفًا أو وَبَرًا أو شيئًا غُزلَ منهما، لأنّهم كانوا أهلَ رعْيٍ، فالقصدُ أيضًا أن يعرفوا أنّها عينُ بضاعتِهم الّتي اجتلَبوها معهم. وفائدةُ أن يُدركوا أنَّ ما دُسَّ في رحالِهم هو عينُ بضاعتِهم، وأنّه ﷺ أراد إكرامَهم، والأظهرُ أنّه ﷺ قد عوَّض عن ذلك الإكرام من ماله الخاصِّ ما يُعادلُ ميرَتَهم، فيَبعدُ أن يكونَ ﷺ – وهو الأمينُ – قد حمَّل المالَ العامَّ تكاليفَ إكرامِهم.

عَوْدُ الضّميرِ في ﴿يَعْرِفُونَهَآ﴾ في السِّياقِ:

الضّميرُ في قوله تعالى: ﴿يَعْرِفُونَهَآ﴾ يعودُ إلى البضاعة، فيعرفونها ويعرفون سببَ وضْعِها في رحالهم، ويَقصدُ بـ ﴿لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ﴾؛ أيْ: يعرفون حقَّ ردّها، وحقَّ التّكرّم بإعطاء البدلَيْن ﴿إِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ﴾ وفرّغوا ظروفَهم، لعلّ معرفتَهم بذلك تَدعوهم إلى الرّجوعِ إلينا، أو لعلّهم يردُّونَها[2].

نُكتةُ التَّعبيرِ بـ ﴿إِذَا﴾ ومعناها في السّياقِ:

عبَّر بـ ﴿إِذَا﴾؛ لأنّها ظرفٌ لما يُستقبلُ منَ الزّمان، وهي تفيدُ التّحقّقَ؛ لأنّهم سيفتَحون متاعَهم حتْمًا وسيعرِفون أنّ بضاعتَهم رُدَّت إليهم، وجملةُ ﴿إِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ﴾ معناها هنا: وصَلوا، والرّحالُ: جمعُ رَحْل؛ وهي ركائبُهم، رجاءَ أن يعرفوها، ورجاءَ أن يرجِعوا إلينا بما وعَدوا به. ونرى هنا أنّ يوسفَ الّذي كان رفيقًا بأهل مصرَ، كان رفيقًا أيضًا بإخوتِه وأبيه، فلم يُؤخّرْ عنهمُ الميرةَ، بل عجّلَها لهم، وإنْ أوهمَهم أنّه يؤجِّلُها حتّى يعودوا إليه مع أخيه"[3].

ظَرْفُ الزّمانِ له أهمّيّةٌ في تَحديدِ الحوادثِ وتَبْريزِ المَشاهِدِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/15.
(2) الأبياريّ، الموسوعة القرآنيّة: 10/136.
(3) أبوزهرة، زهرة التّفاسير: 7/3837.

نُكتةُ التَّعْبيرِ عنِ العَوْدِ بالانْقلابِ:

الانقلابُ هو الانصرافُ إلى جهةٍ ما، والتّحوّلُ من وجهٍ إلى وجهٍ، كقلْبِ الثّوبِ[1] بما يُبيّنُ أنَّ المعنى في لفظ الانقلابِ هو نقطةُ الانطلاقِ؛ أيْ: الّتي ينطلِقون منها؛ أيْ: الانقلابُ من مصرَ إلى بلادهم. وقد يدلُّ لفظُ الانقلابِ أيضًا على تبدُّلِ الحالِ، فيكونُ مجازًا في ذلك[2]، وذلك أنّهم ذهبوا إلى مصرَ، في ثياب الحاجةِ والعَوَزِ، والطّمع والرّجاءِ، فانقلبوا منها بالميرَة والاطْمئنانِ إلى العودةِ إليها مرّاتٍ أخرى للتّزوُّد، لو أنّ أباهم انصاعَ لهم ورضيَ بأن يُرسلَ معهم أخاهم.

الانقلابُ يُطلقُ حِسًّا على التّوجُّهِ إلى مكانٍ، ومعنًى على تبدُّلِ الحالِ

نُكتةُ تَكرارِ ذكْرِ (لعلّ)، في السّياقِ:

كرّرَ (لعلّ) لتغايُرِ المَرجوِّ، فـ (لعلّ) الأولى متّجهةٌ إلى رجاء معرفةِ البضاعةِ، ﴿لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ﴾، وأمّا (لعلّ) الثّانيةُ فمتّجهةٌ إلى رجاء عودتِهم ورجوعِهم، ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾.

وقيل: التّرجّي الثّاني سببٌ على الأوّل، فيكونُ المعنَى: لعلّ معرفتَهم ذلك، تكونُ سببًا إلى رجوعهم مع أخيهم[3].

تَكرارُ (لعلّ) سبَبُه تعدُّدُ المَرْجُوِّ

دَلالةُ التّعبيرِ بـ ﴿يَرْجِعُونَ﴾ مادةً وصياغةً:

الرُّجوعُ هو العودُ إلى ما كان منه البدءُ[4]، والتّعبيرُ بالرّجوع في حديثِه ﷺ ملحوظٌ نُقطةِ البدءِ - وهي مصرُ - في كلامه؛ أيْ: يرجعون إلى مصرَ، وعبَّر بالمضارع لدلالتِه على الاستقبالِ والتَّكرار، فالظّاهرُ أنّهم كانوا قدِ انْتَوَوا أن يعودوا إلى مصرَ مرارًا للامتيار، فدبَّرَ لهم يوسفُ ﷺ ما يُشجّعُهم على هذا الرّجوع بما قدّمَه لهم من إيفاءٍ للكيل، وإكرامِ النّزلِ، وردِّ البضاعة.

عبّرَ بالمضارعِ لدَلالتِه على الاستقبالِ والتَّكرارِ

(1) الرّاغب، المفردات، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (قلب).
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 4/113.
(3) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 10/369.
(4) الرّاغب، المفردات: (رجع).

وقد يكونُ طمعُه عليه السلام في رجوعهم، لثِقتِه أنّهم لن يَقبَلوا أن يأخذوا المتاعَ والبضاعةَ معًا، إذا ظنّوا أن بضاعتَهم وُضعتْ في رحالهم على سبيل الخطأِ، فهم أبناءُ نبيٍّ، ولن يَقبلوا أبدًا مالًا حَرامًا، أو أن يكونوا قد عرَفوا القصْدَ لكنّهم سيرجِعون "لردّها تورُّعًا، أو للميرَة بها إن لم يكن عندهم غيرُها، أو طمعًا في مثل هذا"[1].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

البِضاعةُ والمتاعُ:

البِضاعةُ: قطعةٌ وافرةٌ منَ المال تُقتنى للتّجارة، يُقال: أبْضَعَ بِضاعَةً وابْتَضَعَها. قال تعالى: ﴿هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا﴾ [يوسف: 65]، وقال تعالى: ﴿بِبِضَٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ﴾ [يوسف: 88]، والأصلُ في هذه الكلمة: البَضْعُ وهو جملةٌ منَ اللّحم تُبْضَعُ؛ أيْ: تُقطعُ[2].

البضاعةُ ما يُقتَنَى منَ المال للتّجارةِ، والمتاعُ ما يُحقّقُ لَذّةً مؤقّتةً

المَتاعُ: النَّفْعُ الَّذي تُتعجّلُ به اللَّذَّةُ، وذلك إمّا لوُجود اللَّذَّةِ وإمّا بِما يكونُ معه اللَّذَّةُ نَحْوَ المالِ الجَليلِ والملكِ النَّفيس[3]، وأصلُ المَتاع والمُتعةِ ما يُنْتَفعُ به انتفاعًا قَليلًا غيرَ باقٍ، بل يَنْقَضي عن قريبٍ، ويشملُ كلَّ ما حصلَ به التَّمَتُّعُ والانْتِفاعُ به على وجهٍ ما منَ الوجوه. ويقعُ عُرْفًا على ما يلْبسهُ النّاس ويبسطونه، والثّياب والقميص والبُسُط والسُّتور والفراش[4] ويدخل فيه المِيرَة والطّعام وغيره ممّا ينتفع به ويزول ولا يبقى، فكلّ ذلك يُسمّى متاعًا.

وبهذا يظهرُ لنا سرُّ تسميةِ ما اجْتلَبه إخوةُ يوسفَ معهم بالبضاعةِ؛ لأنّه مالُ التّجارة، وتسمية ما أخذوه من مصرَ (متاعًا)، لكونِه يُحقّقُ حاجةً عاجلةً، ومنفعةً ستَنتهي وهو الميرة الّتي حمَلوها من مصرَ.

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/152.
(2) الرّاغب، المفردات: (بضع).
(3) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 196.
(4) الكفويّ، الكليّات، ص: 804.

الرّجوعُ والانقلابُ والعَوْدُ:

الرّجوعُ أوسعُ معنًى من كلٍّ من الانقلابِ والعَوْدِ

الانقلابُ: الانصرافُ، وهو مأخوذٌ من قَلْبِ الشّيء بمعنى تصريفِه وصرْفِه عن وجهٍ إلى وجهٍ؛ لأنّ معناه الانصرافُ والتّحوُّلُ من وجهٍ إلى وجهٍ، كقلْبِ الثّوبِ[1] بما يَعني الانطلاقَ من نقطةٍ ما اتّجاهًا إلى مكانٍ ما، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ ۝٣١﴾ [المطففين: 31].

ويُطلقُ الانقلابُ أيضًا على تبدُّل الحالِ، فيكونُ مجازًا في ذلك[2]، ومن ذلك قولُه تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٞ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِ ٱلرُّسُلُۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوۡ قُتِلَ ٱنقَلَبۡتُمۡ عَلَىٰٓ أَعۡقَٰبِكُمۡۚ وَمَن يَنقَلِبۡ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗاۗ﴾ [آل عمران: 144].

أمّا الرّجوعُ فهو المصيرُ إلى الموضعِ الّذي قد كان فيه قبْلُ، وبهذا يفترقُ عنِ الانقلابِ الّذي يعني المصيرَ إلى نقيضِ ما كان فيه - المنقلب - قبلُ. ويُوضِّحُ ذلك قولُك: انقلب الطّينُ خزفًا، فأمّا رجوعُه خزفًا فلا يصحُّ؛ لأنّه لم يكن قبلُ خزفًا[3].

وأمّا العَوْدُ، فهو الرّجوعُ إلى الشّيء بعد الانصرافِ عنه إمّا انصرافًا - حسّيًّا - بالذّات كما يدلُّ له قولُه تعالى: ﴿رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا مِنۡهَا فَإِنۡ عُدۡنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ۝١٠٧﴾ [المؤمنون: 107]، أو كان - معنويًّا - بالقول والعزيمةِ، كما في قولِه تعالى: ﴿وَلَوۡ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنۡهُ﴾ [الأنعام: 28][4].

وعلى هذا، يظهرُ لنا أنّ الرّجوعَ يدلُّ على المصير إلى موضع الانطلاقِ الأوّل الّذي كان فيه الرّاجعُ، وأمّا الانقلابُ فهو التّوجّهُ من مكانٍ إلى مكانٍ آخر، فهو يُعنى بنقطة الانطلاق، وأنّ العوْدَ هو الرّجوعُ إلى المكان أو إلى الشّيء بعد الانصرافِ عنه.

(1) الرّاغب، المفردات، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (قلب).
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 4/113.
(3) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 303.
(4) الرّاغب، المفردات: (عود).

وبذلك يكونُ التّعبيرُ بالانقلاب هو الأنسبُ، لانطلاق إخوةِ يوسفَ ﷺ من مصرَ إلى بلادهم، وأنّ التّعبيرَ بالرّجوع أنسبُ لعودتِهم إلى مصرَ، فهي دورةٌ كاملةٌ، انطلاقٌ من مصرَ إلى بلادهم، ثمّ عودٌ من بلادِهم إلى مصرَ.

﴿فَلَمَّا رَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيهِمۡ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلۡكَيۡلُ فَأَرۡسِلۡ مَعَنَآ أَخَانَا نَكۡتَلۡ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ٦٣﴾ [يوسف: 63]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

طلَبُ الأمورِ المهمّةِ، يُهوِّنُ على المرءِ سلوكَ وسائلِها مهما ظنَّها مستحيلةً

ذُكِرَ في الآيات السّابقةِ ما كان من أمرِ يوسفَ عليه السلام مع إخوتِه، وأنّه قد أكرمَهم بما مضى ذِكْرُه فيها من مَكرماتٍ، ثمّ إنّه قد تهدّدَهم بألّا يرجِعوا مرّةً ثانيةً للامتيار، بل ألّا يَقربوا مصرَ أصلًا إنْ لم يأتوا المرّةَ القادمةَ بأخيهم لأبيهم معهم، فوَعدوه بألّا يدّخِروا وُسعًا في سبيل العوْدِ به، وأنّهم سيَصبرون على مراودةِ أبيهم مرّاتٍ ومرّاتٍ في سبيل إقناعِه حتّى يرسلَه معهم، بعد ذلك تعجّلوا الرّحيلَ إلى أبيهم والانقلابَ إليه، فبادروه فورَ وصولِهم، وقبل أن يجفَّ عنهم عَرَقُ السّفر، أو يبتلَّ لهم عِرْقُ الظّمأ، فقصّوا عليه ما كان من أمرهم في مصرَ من إكرام النُّزُلِ وإيفاء الكيلِ، ثمّ ما شُرِطَ عليهم إنْ أرادوا العودةَ للتّزوّد بالميرةِ، منَ الإتيان بأخيهم معهم، وإلّا فليقعُدوا مكانَهم ولا يقرَبوا البلادَ، فكان ما كان من حوارٍ مطوَّلٍ مع أبيهم، كانت بدايتُه ما ذكرتْه هذه الآيةُ الكريمةُ: ﴿فَلَمَّا رَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيهِمۡ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلۡكَيۡلُ فَأَرۡسِلۡ مَعَنَآ أَخَانَا نَكۡتَلۡ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مُنِعَ﴾: فعلٌ ماضٍ بُنِيَ على ما لم يُسَمَّ فاعلُه، وجَذرُ (منع) أصْلٌ واحِدٌ هو خِلافُ الإعْطاءِ، ومَكانٌ مَنيعٌ، وهو في عِزٍّ ومَنْعَةٍ[1]، تقولُ: مَنَعْتُه أمْنَعُه مَنْعًا فامْتَنَعَ؛ أيْ: حُلتُ بينه وبين إرادتِه[2]، ومنعتُ الرَّجُلَ منَ الشَّيءِ فامتنعَ منه[3]، "ومن المجاز: فلانٌ يمنع

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (منع).
(2) الخليل، العين: (منع).
(3) الجوهريّ، الصّحاح: (منع).

الجارَ: يحميه من أن يُضامَ. وله في قومه حصنٌ وممنع، وقد مُنع فلانٌ: صار ممنوعًا محميًّا مَناعةً ومَنَعةً، وتمنّعَ به تمنُّعًا، وامتنع به امتناعًا، وهو منيعٌ، وحصن منيعٌ ومُمنّعٌ"[1].

2) ﴿نَكۡتَلۡ﴾: فعلٌ مضارعٌ مقترنٌ بضميرِ الجماعةِ، وجَذرُ مادَّتِه (كيل)، وهو منَ الكَيْلِ، والكَيْلُ: كَيلُ الطَّعام، يُقال: كِلْتُ لَهُ الطَّعام: إذا تولَّيتَ ذلك له، وكِلْتُهُ الطَّعامَ: إذا أعطيتَه كَيْلًا، واكْتَلْتُ عليه: أخذتَ منه كيلًا[2]، واكتال اكتيالًا من فلان؛ أيْ: أخذ كيْلًا، قال الله تعالى: ﴿إِذَا ٱكۡتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسۡتَوۡفُونَ ۝٢﴾ [المُطفّفين: 2][3].

3) ﴿لَحَٰفِظُونَ﴾: اسمُ فاعلٍ ورد بصيغة الجمعِ، والحِفْظُ يُسْتَعْمَلُ في كلِّ تفقُّدٍ وتعهُّدٍ ورعايةٍ، قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾[4]، "قال اللّيث: الحفظُ: نقيضُ النِّسيان، وهو التّعاهدُ وقلّةُ الغفلةِ. والحفيظ: المُوكَّلُ بالشّيء يحفظُه، يُقال: فلانٌ حفيظُنا عليكم وحافظُنا. قلتُ: والحفيظُ من صفات الله جلّ وعزّ، لا يعزبُ عن حفظِه الأشياءَ كلَّها مثقالُ ذرّةٍ في السّموات ولا في الأرض"[5]، ومعنى ﴿لَحَٰفِظُونَ﴾: راعونَ له كي لا يمسَّهُ سوءٌ[6].

المَعْنى الإجْماليُّ:

فلمّا رجعَ إخوةُ يوسُفَ إلى أبيهم، وقَصّوا عليهِ ما كان من إكرامِ يوسُفَ لهم قالوا: ﴿يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلۡكَيۡلُ﴾ إن لم نأتِ بأخينا معنا، فابعثْه معنا، فإنَّك إن بعثتَه معنا نكْتَلِ الطّعامَ، وإنّا لَنَتَعَهَّدُ لك بحفظِه حتَّى يرجعَ إليك سالمًا، ولا يَمَسُّه مكروهٌ[7].

وُصولُ إخْوةِ يوسفَ لأبيهم وطلبُهم اصطحابَ أخيهم للاكتيالِ، مع التّعهّدِ بحفْظِه

(1) الزّمخشريّ، أساس البلاغة: (منع).
(2) الرّاغب، المفردات: (كال).
(3) الحميريّ، شمس العلوم: (التّكايل).
(4) الرّاغب، المفردات: (حفظ).
(5) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (حفظ).
(6) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 9/224.
(7) ابن جرير، جامع البيان: 1/158، والبغويّ، معالم التنّزيل: 4/256، وجماعة من العلماء، المختصر في تفسير القرآن الكريم، ص: 242.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

معنَى الفاءِ ودَلالتُها في: ﴿فَلَمَّا﴾:

عطْفُ إخبارٍ على إخبارٍ، من بيانِ السِّياقِ المفيدِ

لا يزالُ الكلامُ موصولًا بما قبْلَه ليس مفصولًا عنه، فهو إخبارٌ عن حالهم مع أبيهم، وحِوارِهم معه فوْرَ عودتِهم من مصرَ؛ أيْ: هو عطفُ إخبارٍ على إخبارٍ. وكان العطْفُ هنا بالفاء الدّالّةِ على التّعقيبِ دلالةً على أنّهم اجتهدوا في سرعة الرّجوعِ إلى أبيهم، وأنّهم بدؤوا حِوارَهم معه، فوْرَ وصولِهم، فلم يُمهلوا أنفسَهم وقتًا للرّاحة.

نُكتةُ تَكرارِ (لَمَّا) في السِّياقِ:

المزامنةُ الظّرفيّةُ تُجلِّي المشهدَ وتُبرِزُ الدّلالةَ

كرّر التّعبيرَ بـ (لَمَّا) الدّالّةِ على الظّرفيةِ؛ أيْ: حين رجَعوا إلى أبيهم؛ لأنّ هذا ظرفٌ جديدٌ مغايرٌ للظّرف السّابق، و"هذا دليلٌ على أنّه قد كان معلومًا عندهم، أنّ يوسفَ قد ردّها عليهم بالقصدِ، وأنّه أراد أن يُملِّكَهم إيّاها فقالوا لأبيهم ترغيبًا في إرسال أخيهم معهم: ﴿يَٰٓأَبَانَا مَا نَبۡغِيۖ﴾ [يوسف: 65]؛ أيْ: أيُّ شيء نطلبُ بعد هذا الإكرام الجميلِ، حيث وفَّى لنا الكيْلَ، وردّ علينا بضاعتَنا على الوجه الحسنِ المُتضمّنِ للإخلاصِ ومكارمِ الأخلاق؟"[1].

نُكتة العُدولِ من ﴿ٱنقَلَبُوٓاْ﴾ إلى ﴿رَجَعُوٓاْ﴾:

الرّجوعُ يَعني العودةَ إلى نفسِ الموضعِ الّذي كان منه البَدْءُ

عدلَ من ﴿ٱنقَلَبُوٓاْ﴾ إلى ﴿رَجَعُوٓاْ﴾؛ لِما مضى بيانُه من كوْنِ الانقلابِ أفاد معنًى واحدًا، وهو انطلاقُهم من مصرَ إلى بلادهم، ولا يشملُ الرّجوعَ، وأمّا الرّجوعُ فهو أوسعُ مدًى؛ لأنّه يعني العودةَ إلى نفس الموضعِ الّذي كان منه البَدءُ، أو كان منه الانقلابُ.

نُكتةُ الفصْلِ في: ﴿قَالُواْ﴾:

الفصْلُ للاستئنافِ البيانيِّ

لمّا كان معنى جملةِ ﴿قَالُواْ﴾ مبنيًّا على سؤالٍ مُقدّرٍ، فكأنّ

(1) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 401.

سائلًا سأل: فماذا قالوا لأبيهم عند رجوعهم إليه مُسرعين؟ فكان الجوابُ: ﴿قَالُواْ يَـٰٓأَبَانَا﴾.

نُكتةُ نداءِ أبيهم بحرفِ النّداءِ (يا):

نُكتةُ النّداءِ بـ (يا) رغمَ أنّ النّداءَ بها يكونُ للبعيد لقصْدِ التّنبيه، ولأهمّيّةِ المُنادَى من أجله، وربّما كان النّداءُ للقريب بأداة البعيد لعُلوِّ منزلةِ المُنادى، أو دُنُوِّ منزلةِ المنادي، وكلُّه قد يكونُ مُرادًا هنا.

النّداءُ من أكثرِ الأساليبِ خِدمةً للسّياقِ وإجلاءً للمعاني المُتَوَخّاةِ فيه

نُكتةُ بناءِ الفعلِ ﴿مُنِعَ﴾ لما لم يُسمَّ فاعلُه:

في بناء الفعلِ ﴿مُنِعَ﴾ لِما لم يُسمَّ فاعلُه دلالةٌ على قوّة قرارِ المنع؛ أيْ: صدرَ قرارٌ أو حكمٌ عالٍ بمنْعِنا منَ الكيلِ ما لم نحقّقْ شرطَه، وهو إحضارُ أخينا معنا. ولا يُقال: كيف مُنعوا وقد عادوا بالميرة؟

لأنّ المَنْعَ هذا خاصٌّ بالمرّات القادمةِ في المستقبل؛ أيْ: مُنعنا منَ العودِ مرّةً أخرى، لنكيلَ كما كِلنا هذه المرّةَ، إلّا بتنفيذ الشّرطِ.

بناءُ الفعلِ لِما لم يُسمَّ فاعلُه، إمّا للعلْمِ بالفاعلِ، أو للدّعوةِ للانشغالِ بذاتِ الفعْلِ

معنَى (من) في ﴿مِنَّا﴾ ودَلالتُه:

دلالةُ هذا المعنى: الإخبارُ بأنّهم مَمنوعون من أن يقعَ منهم الابتداءُ[1] بالكيلِ، على تفصيلٍ وتأويلٍ سيأتي بيانُه.

(مِن) في قولِه (مُنِعَ منّا) هي الابتدائيّةُ

نُكتةُ تقديمِ شِبْهِ الجُملةِ ﴿مِنَّا﴾:

تقديمُ شِبْهِ الجُملةِ ﴿مِنَّا﴾، على ﴿ٱلْكَيْلُ﴾، للدّلالةِ على الاهتمامِ والقصرِ، فهم وحدَهم المنوعون منَ الكيلِ دونَ بقيّةِ النّاس. وفيه تحفيزٌ لأبيهم يعقوبَ عليه السلام، كي يوافقَ على إرسالِ أخيهم معهم.

مَنْعُ الكيلِ كان وسيلةَ ضغْطٍ لتحقيقِ المُرادِ

معنَى (أل) في: ﴿ٱلْكَيْلُ﴾:

(أل) في ﴿ٱلْكَيْلُ﴾ للعهدِ، والمعهودُ هو الكيلُ من مصرَ، الكائنُ بأمرِ يوسفَ عليه السلام. "بعد هذا يَطلُعون على أبيهم بهذا الخبرِ المُزعِج: ﴿مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ﴾، ثمّ ما العلاقةُ بين أن يُمنعَ منهم الكيلُ، وبين

الكيلُ وَسيلةُ العلاقةِ بين أبناءِ يعقوبَ ومصرَ بفعلِ المجاعةِ المُلْزِمةِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/15.

طلبِهم أن يُرسلَ معهم أخاهم كي يكتالوا؟ ما شأن الأخ بهذا؟، وهل هو بضاعةٌ يُشترى بها من مصرَ ما يُكالُ؟ ذلك شيْءٌ عجيبٌ"[1]، وهي حُمولةٌ معنويّةٌ، يَحملُها لفظُ ﴿ٱلۡكَيۡلُ﴾ الواردُ في هذه الآية.

دَلالةُ التّعبيرِ بـ ﴿ٱلۡكَيۡلُ﴾ عنِ البيعِ والشّراءِ:

التّعبيرُ بالكيلِ كنايةٌ عنِ البيعِ والشّراءِ والتّعامُلِ التّجاريِّ قديمًا

الكيلُ مصدرٌ صالحٌ لمعنى الفاعليّةِ، فينصرفُ إلى البيع، وصالحٌ للمفعوليّة فيصدقُ على الشّراء. وهو هنا بمعنى الإسنادِ إلى الفاعل؛ أيْ: لن نكيلَ، فالممنوعُ هو ابتداءُ الكيلِ منهم. ولمّا لم يكن بيدِهم ما يُكالُ، تعيّنَ تأويلُ الكيل بطلبِه؛ أيْ: ﴿مُنِعَ مِنَّا﴾ ذلك لعدمِ الفائدةِ؛ لأنّنا لا نُمْنَحُه إلّا إذا وَفّينا بما وعدْنا من إحضار أخينا[2].

معنَى الفاءِ في: ﴿فَأَرۡسِلۡ﴾:

الاستفادةُ من كَيْلِ مصرَ مرهونٌ بمجيءِ أخيهم إليها

الفاءُ في ﴿فَأَرۡسِلۡ﴾ هي الفاءُ الفصيحةِ، الواقعةُ في جواب شرطٍ مقدّرٍ، فهي مُنبئةٌ عنه، وقد كان هذا الفعلُ داخلًا في سياق إقناعِهم لأبيهم، ﴿فَلَمَّا رَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيهِمۡ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلۡكَيۡلُ﴾؛ أيْ: أُنْذِرنا بمنْعِه بعد هذا، إن لم نأتِ بأخينا، ﴿فَأَرۡسِلۡ مَعَنَآ أَخَانَا نَكۡتَلۡ﴾؛ أيْ: نرفعِ المانعَ منَ الكيل، ونَكتلْ منَ الطّعام ما نحتاجُ إليه"[3].

دَلالةُ الأمرِ في الفعلِ: ﴿فَأَرۡسِلۡ﴾:

الالْتِماسُ من أبيهم مُحبَّذٌ هنا لسَابقةِ فعْلِهم مع يوسفَ أخيه

الأمرُ في قوله تعالى: ﴿فَأَرۡسِلۡ﴾ على سبيل الالتماسِ والرّجاءِ، وقد "حَكَوْا لأبيهم قصّتَهم مع عزيز مصرَ، وإن وافق الأبُ على إرسالِ أخيهم (بِنيامين) معهم، فلَسوْفَ يَكتالون، ولَسوْفَ يحفَظون أخاهم الصّغيرَ، وهم في قولهم هذا يُحاولون أن يُبعِدوا رِيبةَ الأب، عَمَّا حدثَ ليوسفَ من قبلُ"[4].

(1) الخطيب، التّفسير القرآنيّ: 7/13.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/15.
(3) القاسميّ، محاسن التّأويل: 6/195.
(4) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 11/7012.

دَلالةُ (مع)، وسِرُّ تقديمِ: ﴿مَعَنَآ﴾ على المفعول:

الإقناعُ مُنصبٌّ على أنّهم يَضمَنون يوسفَ، وأنّ معيّتَهم له صادقةٌ

(مع) ظرفٌ منصوبٌ، و(نا) في محلّ جرٍّ مضافٌ إليه، وهما متعلّقان بـ ﴿فَأَرۡسِلۡ﴾[1]، وفي تقديم شِبْهِ الجملة ﴿مَعَنَآ﴾ على المفعول ﴿أَخَانَا﴾ إرادةُ تسكينِ قلْبِ أبيهم، وذَوْدِ خوفِه على ابنه، وكأنّه إذا كان معهم، فسيكونُ في أمانٍ تامٍّ.

بَلاغةُ توجيهِ القراءاتِ القرآنيّةِ في: ﴿نَكۡتَلۡ﴾:

للقراءةِ القرآنيّةِ دَوْرٌ في التّنوُّعِ والاستيعابِ للمعاني

قرأ ابنُ كثيرٍ ونافعٌ وأبو عمرو وعاصمٌ وابنُ عامرٍ: ﴿نَكۡتَلۡ﴾ بالنّون، وقرأ حمزةُ والكسائيُّ: (يَكْتَلْ) بالياء. فأمّا مَن قرأ بالنّون، فلِتَناسُقِه منَ الأفعال الآتيةِ بعدُ ﴿وَنَمِيرُ أَهۡلَنَا وَنَحۡفَظُ أَخَانَا وَنَزۡدَادُ كَيۡلَ بَعِيرٍ﴾ [يوسف: 65]، ويكونُ المعنى أنّه أخبر بذلك عن جماعتِهم، وأدخلَ أخاهم في الكيل معهم، وأمّا مَن قرأه بالياء: فلأنّه أراد انفرادَ كلِّ واحدٍ منهم بكَيْلِه[2].

دَلالةُ الموقعِ الإعرابيِّ لـ ﴿نَكۡتَلۡ﴾:

بعثُ أخيهم معهم يُحقّقُ لهمُ الكيلَ، وهو مطلبٌ يَتعلّقُ به مصيرُهم جميعًا

أصلُ ﴿نَكۡتَلۡ﴾: نكتيل، تحرّكتِ الياءُ وانفتح ما قبلها فقُلبتْ ألفًا ثُمّ حُذفتْ لالتقاء السّاكنيْن.[3]، وجملةُ ﴿نَكۡتَلۡ﴾ جوابٌ لشرطٍ مُقدّر؛ أيْ: إنْ تُرسلْه معنا، نكتلْ. وقيل: كلمةُ ﴿نَكۡتَلۡ﴾ مجزومةٌ في جواب الأمرِ[4].

معنَى الواوِ في: ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾:

التّعهّدُ بحفْظِ أخيهم مع سابقةٍ في النّكثِ لا يُؤتمنُ ولا يُطمأنُّ إليه

الواو قد تكونُ عاطفةً؛ أيْ: عطفت جملةَ ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾، على جملةِ ﴿نَكۡتَلۡ﴾، وقد تكون حاليّةً، والجملةُ بعدها في موضع نصْبٍ حالٍ من فاعلِ ﴿نَكۡتَلۡ﴾[5]، ولتقريرِ الحال الّتي تُصوّرُ ذلك

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 5/17.
(2) الفارسيّ، الحجّة: 4/432، وابن خالويه، الحجّة، ص: 196.
(3) الصّاوي، حاشية الصّاوي على الجلالين: 2/234.
(4) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3839، ودرويش، إعراب القرآن وبيانه: 5/17.
(5) الخطيب وآخران، التّفصيل: 10/22.

المشهدَ، فقد قالوا حين رجوعِهم إلى أبيهم: "إنّ عزيزَ مصرَ منع عنّا الكيلَ في المستقبل إن لم ترسلْ معنا أخانا بِنيامين... فأرسلْه معنا نكتلْ منَ الطّعام بقدر عددِنا، وإنّا له لحافظون من كلّ مكروهٍ وسوءٍ، في الذّهاب والإياب، فلا تَخفْ عليه، فإنّه سيرجعُ إليك"[1].

بَلاغةُ تتابُعِ المُؤكِّداتِ في ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾:

يوجدُ في الجملةِ عددٌ من المُؤكِّدات المتعاقبةِ، وهي كالآتي: اسميّةُ الجملةِ، وفي كونِها اسميّةً دلالةٌ على الثُّبوتِ، وتصديرُ الجملةِ بـ (إنَّ) التّأكيديّةِ، وتقديمُ شِبْه الجملةِ على الخبر، ودخولُ اللّامِ التّأكيديّةِ على الخبر.

المقامُ مقامُ تردُّدٍ أو مقامُ تنزيلِ أبيهم منزلةَ الشّاكِّ في محافظتِهم عليه

وسببُ التّأكيدِ في الآية، أنَّ المقامَ مقامُ تردُّدٍ[2]، وذلك أنّ أباهم لم يكن مُقتنعًا أبدًا بأن يدفعَه إليهم، وكان قد أَمِنَهم من قبلُ على أخيه يوسفَ، فضيَّعوه. أو أنّ المُرادَ تنزيلُ أبيهم يعقوبَ عليه السلام منزلةَ الشّاكِّ، وأنّه في الواقع لم يكن كذلك؛ لأنّه نبيٌّ يُوحَى إليه، وسيعلمُ ما يُحيكونَه لا محالةَ، لو أرادوا به سوءًا.

دَلالةُ حرْفِ اللّامِ في: ﴿لَهُۥ﴾:

اللّامُ في ﴿لَهُۥ﴾ للاختصاصِ، على معنى أنّهم سيُولونه عنايةً خاصّةً، وكأنّهم مُجرَّدون من كلِّ مُهمّةٍ تشغلُهم عنِ المحافظة عليه، وخلاصةُ المعنى في قولهم: "ابعث معنا أخانا فإنّك إنْ بعثتَه اكْتلْنا ما نحتاجُ إليه منَ الطّعام وافيًا، ونعدُك وعدًا مُؤكَّدًا، أنّا سنبذلُ الجهدَ في المحافظة عليه"[3].

الإشارةُ إلى أنّ اهتمامَهم سَيَتركّزُ على المحافظةِ على أخيهم

نُكتةُ تقديمِ: ﴿لَهُۥ﴾ على الخبرِ:

في تقديم شِبْهِ الجُملةِ ﴿لَهُۥ﴾ على الخبرِ بعضُ الفوائدِ والدّلالاتِ،

دَلالةُ القصْرِ على صدْقِهم بالمحافظةِ على أخيهم، إلّا أن يُحاطَ بهم

(1) الزّحيليّ، التّفسير المنير: 13/20.
(2) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 10/370.
(3) لجنة من علماء الأزهر، المنتخب، ص: 342.

منها: الدّلالةُ على الاهتمام بيوسفَ عليه السلام، وإفادةُ الاختصاصِ والقصرِ، بأن يكونوا قد جعَلوا أنفسَهم - لفرْطِ عنايتِهم به - بمنزلةِ مَن لا يَحفظُ غيرَه، إضافة إلى ما فيها من رعايةِ الفواصلِ[1].

معنَى اللّامِ في: ﴿لَحَٰفِظُونَ﴾:

مَن سَبَقَ له الكذبُ اتُّهم في صِدْقِه ولو كان صادقًا

اللّامُ في ﴿لَحَٰفِظُونَ﴾ هي اللّامُ المُزحلقةُ الّتي تدخلُ على الخبر لتأكيدِه، وهُم بهذه العبارةِ ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ قد "وعدوا وأكّدوا الوعْدَ بـ (إنَّ) واللّام، كوعْدِهم عند أخْذِهم ليوسفَ، ولكنّهم كانوا كاذبين، وهنا كانوا صادقين، فتشابهتْ ألفاظُ الوعدِ، واختلفتِ الحقائقُ فيها، وإنّ الأحكامَ على الأقوالِ تُؤخذُ منَ الظّاهر، ويُقاسُ فيه الحاضرُ بالماضي، وقد كان ماضيهم في يوسفَ، يجعلُه يخافُ من حاضرِهم"[2].

نُكتةُ التّعبيرِ بالحفظِ مادّةً وبناءً:

العِبْرةُ بالحفظِ إذا تجسّدَ وتحقّقَ ومَن تعهّدَ به فقد أفلَحَ إن صدقَ

يُستعملُ لفظُ (الحفظ) في كلّ تَفقُّدٍ وتعهُّدٍ ورعايةٍ، وفي التّعبير بقولِهم: ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾، بالتّعبير بالاسْمِ المُؤكَّدِ باللّام ليُطَمْئنوا أباهم، ويُطْفِئوا لهَبَ خوْفه على ابنه، بالإخبارِ بأنّهم ثابتون راسِخون "عريقون في هذا الوصفِ"[3].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الإرسالُ والبعثُ:

الإرسالُ أخصُّ والبعث أعمُّ، فكلّ إرسالٍ بعثٌ، وليس العكسُ

لا شكَّ أنّ المُفردتيْن (البعثَ والإرسالَ) من بابٍ واحدٍ، فكلاهما بعثٌ وكلاهما إرسالٌ، غيرَ أنّ الإرسالَ يزيدُ على المعنى الأصليِّ للبعث، كونُ المُرسَلِ لابدّ من أن يكون مُحمَّلا برسالةٍ ليُبلِّغَها أو يوصِلَها، وليس كذلك البعثُ فـ "يجوزُ أن يُبْعَثَ الرّجلُ إلى الآخر

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/229.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3839.
(3) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 10/153.

لحاجَة تخصُّه دونك، ودونَ المَبْعوث إلَيْهِ، كالصَّبيِّ تبعثُه إلى المكتب، فتقول: بعثْتُه. ولا تقول أرْسلتُهُ؛ لِأنّ الإرْسال لا يكونُ إلّا برسالةٍ، وما يجْري مجْراها"[1]، فيكونُ الإرسالُ بذلك أخصَّ منَ البعث.

وعلى هذا فقولُه تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ﴾ [النّحل: 36] محمولٌ على المعنى الأعمِّ، فالبعثُ يشملُ الإرسالَ وغيرَه. وفي مثل قولِه تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْۖ﴾ [إبراهيم: 4]، فإنّه محمولٌ على المعنى الأخصِّ.

(1) العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 289.

﴿قَالَ هَلۡ ءَامَنُكُمۡ عَلَيۡهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمۡ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبۡلُۖ فَٱللَّهُ خَيۡرٌ حَٰفِظٗاۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ٦٤﴾ [يوسف: 64]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

طلبُ الإخوةِ إرسال بنيامين أخاف يعقوبَ بعد إثارة شجونه القديمة

لَمّا طلبَ إخوةُ يوسفَ من أبيهم أنْ يرسلَ معهم بِنيامين، وقالوا له مُؤكِّدين: ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ٦٣﴾ [يوسف: 63]، تذكّرَ يعقوبُ قولَهم - باللّفظِ بعينِه ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ١٢﴾ [يوسف: 12] - حين طلبوا أنْ يرسلَ معهم يوسفَ، فقال: ﴿قَالَ هَلۡ ءَامَنُكُمۡ عَلَيۡهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمۡ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبۡلُ﴾[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ءَامَنُكُمۡ﴾ الهمزةُ والميمُ والنّونُ أصلان مُتقاربان: أحدُهما الأمانةُ الّتي هي ضدُّ الخيانةِ، ومعناها سُكونُ القلب، والآخرُ التّصديقُ، والمعنيان مُتَدانِيان، ورجُلٌ أُمَنَةٌ: إذا كان يَأْمَنُهُ النّاسُ ولا يَخافونَ غائِلَتَهُ؛ وأَمَنَةٌ بالفتحِ يُصَدِّقُ ما سَمِعَ ولا يُكَذِّبُ بِشيءٍ، يَثِقُ بِالنّاسِ[2]، والأمانةُ: الوديعةُ الّتي تودَعُ عند مَن يحفظُها كأنّ معنى اسمِها: الّتي ينبغي أنْ تُحفظَ في حرزٍ أوثقَ الحفْظِ، ومُؤتمنُ القومِ: الّذي يثقونَ به ويتّخذونهُ أمينًا حافظًا[3].

ومعنى ﴿ءَامَنُكُمۡ﴾ في الآية مُوافقٌ للمعنى اللّغويِّ؛ أيْ: هل أثقُ بكم في حفظِ بنيامين، كما وثقتُ بكم في حفْظِ يوسفَ، والمُرادُ: عدمُ ثِقتِه بحفظِهم وعدمُ الثّقةِ بهم وبوعودِهم[4].

2) ﴿خَيۡرٌ﴾: الخاءُ والياءُ والرّاءُ أصلُهُ العَطْفُ والمَيْلُ، ثم يُحملُ

(1) الخازن، لُباب التّأويل: 3/296.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (أمن).
(3) الزّبيديّ، تاج العروس، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (أمن).
(4) القاسميّ، محاسن التّأويل: 6/195، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3839.

عليه، فالخيرُ: خلافُ الشّرّ؛ لِأَنَّ كُلَّ أَحَدٍ يَميلُ إليه ويَعْطِفُ على صاحِبِهِ[1]، والخَيْرُ: ما يرغبُ فيه الكلُّ، كالعقل والعدلِ، والفضلِ، والشّيءِ النّافعِ، وخيرٌ: يُمكنُ أنْ يكون اسْمًا، ويمكنُ أنْ يكون وصْفًا وتقديرُه (أفعلُ منه)[2].

والمُرادُ بـ ﴿خَيْرٌ﴾ هنا: أفعلُ التّفضيل؛ أيْ: حفظُ اللّه أبلغُ من حفْظِ غيرِه لعلْمِهِ بما بطنَ وظهرَ[3].

3) ﴿حَٰفِظًا﴾: أصلُ الحِفظِ يدلُّ على مراعاةِ الشّيءِ، والتّحفُّظ: قلّةُ الغَفْلةِ، والحِفَاظُ: المحافظةُ على الأمور[4]، والحِفظُ: نقيضُ النِّسيان، والحافظُ والحفيظُ المُوكَلُ بالشّيءِ يحفظُهُ، والحفيظُ: من صفاتِ اللّه ﷻ لا يَعزبُ عن حفْظِهِ الأشياءَ كلَّها مثقالُ ذرّةٍ في السّماواتِ والأرض، والمُحافَظةُ: المُواظَبةُ على الأَمر، وحفِظْتُ الشّيءَ حِفْظًا؛ أَيْ: حَرَسْته، والمُحافَظة: المُراقبةُ، وقيل: المُحافظة: الوَفاءُ بالعَقْد، والتّمسُّكُ بِالوُدِّ[5]، والحفظُ: المنعُ للشّيْءِ بتفقُّدِه ورعايتِه، ويُستعملُ في كلّ تفقُّدٍ وتعهُّدٍ ورعايةٍ[6]. والمعنى: واللّه خيرُكم حفظًا، يعني حفظُ اللّه لبنيامين خيرٌ من حفظِكم[7]؛ أيْ: حفظُه أبلغُ من حفظِ غيرِه لعلْمِهِ بما بطنَ وظهر؛ أي: اللّه خيرُ الحافظين[8].

4) ﴿أَرْحَمُ﴾: أصلُ (رحم) يدلُّ على الرّقّةِ والعطفِ والرّأفةِ[9]، والرَّحْمَةُ في بَنِي آدَمَ: رِقَّةُ القَلْبِ وعَطْفُهُ، ورَحْمَةُ اللّه: عَطْفُه وإحسانه ورِزْقُهُ، والرَّحْمَةُ: المَغْفِرَةُ[10]، والرَّحْمَةُ رقّةٌ تقتضي الإحسانَ إلى المَرْحُوم، وإذا وُصفَ به الباري فليس يُرادُ به إلّا الإحسانُ المُجرّدُ دونَ الرّقّة، وعلى هذا رُوِيَ أنّ الرَّحْمَةَ منَ اللّه إنعامٌ وإفضال[11]، والمعنى: واللّه أرحمُ

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (خير).
(2) الرّاغب، المُفردات: (خير).
(3) السّمين الحلبيّ، عُمدة الحُفّاظ: (حفظ).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حفظ).
(5) ابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس: (حفظ).
(6) السّمين الحلبيّ، عُمدة الحُفّاظ: (حفظ).
(7) ابن جرير، جامع البيان: 16/160، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 18/479.
(8) السّمين الحلبيّ، عُمدة الحُفّاظ: (حفظ).
(9) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (رحم).
(10) ابن منظور، لسان العرب: (رحم).
(11) الرّاغب، المُفردات: (رحم).

راحم بخلْقِه، يرحمُ ضَعْفي على كِبَر سِنِّي، ووَحْدتي بفقدِ ولدي، فلا يُضيِّعُهُ، ولكنّه يحفظُهُ حتّى يردَّه عليَّ لرحمتِه[1].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

لا أمـــانَ من بعْدُ، لمَن فرّطَ من قبْلُ، والله خيرُ الحافظين والرَّاحمين

قال يعقوبُ لأبنائِه: كيف آمَنُكم عليه وقد أمِنتُكم على أخيه يوسُفَ مِن قَبلُ، والتَزمتُم بحِفظِه فلم تَفوا بذلك؟! لقد فرَّطْتُم في يوسُفَ وحُلْتُم بيني وبينهُ، فكيف آمنُكم على أخيه؟! فلا أثِقُ بالتزامِكم وحِفظِكم، ولكِنِّي أثِقُ بحِفظِ اللّه؛ فهو خيرُ الحافِظينَ، وأرحَمُ الرَّاحمينَ، أرجو أنْ يرحَمَني، فيحفَظَه ويَرُدَّه عليَّ[2].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دَلالةُ الاستئنافِ في الجُملةِ المُصدَّرةِ للآيةِ:

عدمُ ثقةِ يعقوبَ بحفْظِهم لأخيهم، مع إظهارِهِ طلَبَ الحفْظِ منَ الله

فُصِل قولُه تعالى: ﴿قَالَ هَلۡ ءَامَنُكُمۡ عَلَيۡهِ﴾ عمَّا قبلَه؛ لوقوعِه استئنافًا بيانيًّا؛ لِما بين الجُملتَيْن من شِبهِ كمالِ اتّصالٍ؛ إذ إنَّ أبناءَ يعقوبَ لَمّا طلبوا من أبيهم أنْ يُرسلَ معهم أخاهم بنيامين قالوا: ﴿فَأَرۡسِلۡ مَعَنَآ أَخَانَا نَكۡتَلۡ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ٦٣﴾ [يوسف: 63] فكأنّ سائلًا سألَ: ما فعلَ يعقوبُ في هذا بعد ما فعلوا بيوسفَ إذ أرسلَه معهم؟ قيل: عزمَ على إرسال بنيامين معهم، ولكنَّه أظهرَ اللِّجاءَ إلى اللّه تعالى في أمره غيرَ قانعٍ بوعدِهم المُؤكَّدِ في حفظِه، لِما سبقَ منهم من مِثْلِه في يوسفَ عليه السلام؛ بأنْ قال ﴿قَالَ هَلۡ ءَامَنُكُمۡ عَلَيۡهِ﴾[3].

الغرَضُ منَ الاستفهامِ في: ﴿هَلۡ ءَامَنُكُمۡ﴾:

استنكارُ وعْدِهم بحفْظِ بنيامين، بما بدرَ من تفريطِهم بيوسفَ

الاستفهامُ إنْكاريٌّ فيه معنى النَّفي؛ فهو يَستَفْهِمُ عن وجْهِ التَّأكيدِ في قولِهم: ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ٦٣﴾[4] [يوسف: 63]، والمعنى: ماذا

(1) ابن جرير، جامع البيان: 16/161.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 13/231 232.
(3) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 13/15.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/16.

أفادَ ائتمانُكم على أخيهِ من قبلُ حتّى آمنَكم عليه؟[1]، أو: ما آمنُكم عليه، ولا أتّكلُ على ضمانِكم حفظَه، وإنْ قلتُم: ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ٦٣﴾ [يوسف: 63]، فقد كنتُم قلتُم في أخيه يوسفَ: ﴿أَرۡسِلۡهُ مَعَنَا غَدٗا يَرۡتَعۡ وَيَلۡعَبۡ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ١٢﴾ [يوسف: 12]، ولكنِّي أتّكلُ على اللّه ﷻ[2].

والتّعبيرُ بحرفِ الاستفهام ﴿هَلۡ﴾ دونَ الهمزة؛ أيْ لم يَقُل: (أآمنُكم عليه)؛ للدّلالةِ على أنّ استنكارَه كان شديدًا، إذ ﴿هَلۡ﴾ أشدُّ استفهامًا منَ الهمزة، وهي مفيدةٌ للتّحقيق؛ لأنّها بمعنى قد في الاستفهام[3]، فهو استنكارٌ على ما يعلَمونَه مُحقّقًا من تفريطِهم بيوسفَ، كما أنّ في الاستفهام إشارةً إلى أنَّ سوءَ الظَّنِّ – مع وُجودِ القرائنِ الدّالَّةِ عليه – غيرُ ممنوعٍ ولا مُحرَّمٍ[4].

دَلالةُ التّعبيرِ بالمستقبلِ في ﴿ءَامَنُكُمۡ﴾:

اعتمادًا على دخول ﴿هَلۡ﴾ على الفعل ﴿ءَامَنُكُمۡ﴾ دلَّ على المستقبلِ القريبِ؛ لأنّه منَ الإخبارِ عنِ الأمور المستقبليّةِ، والمعنى: هل "أقبلُ منكمُ الآن وفي مستقبل الزّمانِ تأمينَكم لي فيه ممّا يَسوءُني"[5]، وقد قلتُم في يوسفَ: ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ١٢﴾ [يوسف: 12]، كما تقولونَه الآن في أخيه، ثمّ خُنْتُم بضمانِكم، فما يُؤمِّنُني من مثل ذلك[6]؛ أيْ: إنّ يعقوبَ نفى ائتمانَه أولادَه على أخيهم الأصغرِ؛ لأنّهم خيّبوا ظنَّه من قبلُ.

عدمُ ائتمانِ يعقوبَ أولادَه على بِنْيامين في المُستقبلِ، لعدمِ أهليتِهم لذلك

التّعبير بالمفعولِ به ضميرَ خطابٍ:

الضّميرُ أعرفُ المعارفِ[7]، ولذا فالتّعبيرُ به؛ أيْ بضميرِ

تخصيصُهم بعدمِ الائتمانِ، لأنّ مقامَهم في ذلك معروفٌ عندَه

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/16.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 18/479، وأبو حفص النّسفيّ، التّيسير في التّفسير: 8/438.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/47.
(4) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 407.
(5) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 10/153.
(6) الطّيبيّ، فتوح الغيب في الكشف عن قناع الرّيب: 8/380.
(7) الزّمخشريّ، المُفصّل في علم العربيّة، ص: 197.

الخطابِ عنِ المفعولِ به في ﴿ءَامَنُكُمۡ﴾؛ للدّلالةِ على الإيجازِ في الكلامِ، والرّبطِ المُحكمِ بين أجزاءِ الجُملةِ، وعلى اختصاصِهم بعدمِ ائتمانِهم على أخيهم بِنْيامين؛ لأنَّهم عندَه لا يَستحقّون أنْ يأمنَهم، ومقامُهم في ذلك معروفٌ عندَه؛ أيْ إنّ دلالةَ التّعبيرِ بالمفعولِ به (وهم إخوةُ يوسفَ بضمير الخطاب) هي للاختصاصِ.

معنى حرْفِ الجرِّ (على) ودَلالتُه:

استعلاءٌ مَجازيٌّ مُكنًّى به عن تمكُّنِهم من بِنْيامين، ودخولِه تحت رعايتِهم

معنى حرفِ الجرِّ (على) في قولِه تعالى: ﴿ءَامَنُكُمۡ عَلَيۡهِ﴾؛ استعلاءٌ مجازيٌّ مُكنًّى به عن تمكّنِ الإخوة من بِنْيامين، ودخولِه تحت رعايتِهم وحفْظِهم؛ لأنّ المُستعلي يتمكّنُ منَ المُستعلَى عليه، ويكونُ مُسلّطًا عليه ومُتصرّفًا بشؤونه ومسؤولًا ومؤتَمنًا عليه، ومؤتمنُ القومِ: الّذي يثقونَ به ويتّخذونهُ أمينًا حافظًا عليهم.

دَلالةُ التّعبيرِ بضميرِ الغائبِ في ﴿عَلَيۡهِ﴾:

الإضمارُ اختصارٌ، وتمامٌ في المُقابَلةِ والمُقارَنةِ بين يوسفَ وأخيه

عبّر البيانُ الإلهيّ بالمجرور ﴿عَلَيۡهِ﴾ مضمرًا بضميرَ الغائب في قوله تعالى: ﴿قَالَ هَلۡ ءَامَنُكُمۡ عَلَيۡهِ﴾، ولم يقل: (على بنيامين)؛ لأمور: منها الاختصار؛ لأنّه مفهومٌ من سياقِ القصّة، ولأنّ من عادة القرآن أنّه لا يذكر إلا أسماء الأنبياء والرسل، أو من تدور حوله القصّة، وتمهيداً كذلك لتمامِ المقابلة والمقارنة في الآية بين يوسف وأخيه؛ إذ عبّر عن كليهما بضمير الغائب.

نوعُ الاستثناءِ ودَلالتُه في ﴿إِلَّا كَمَآ﴾:

جريمتُهم الأُولى جرّتْ تُهمَتَهم في سائرِ الأمورِ

(إلّا): أداةُ حصْرٍ؛ لأنّ الاستفهامَ إنْكاريٌّ فيه معنى النَّفي، والمعنى: لا آمنُكم على بِنْيامين إلّا كأمْني على يوسفَ، يريدُ: أنّه لم ينفعْه ذلك الأمنُ، وأنّهم خانوه، فهو وإنْ أمِنَهم في هذا خافَ خيانتَهم أيضًا[1]، يقول البقاعيُّ: "ذكّرهم حديثَ يوسف ﷺ؛ ليُعْلَم

(1) الواحديّ، التّفسير الوسيط: 2/621.

أنّ جريمتهم الأُولى جرّت تهمتهم في سائر الأمور، فيندموا عليها، ولا يقدموا على مثلها"[1].

الغرَضُ منَ التَّشبيهِ في ﴿كَمَآ أَمِنتُكُمۡ﴾:

تشبيهُ ائتِمانِهم على بِنْيامين بائتِمانِهم على يوسفَ، تحفيزٌ لهم للحِفاظِ على بِنْيامين

الكافُ في ﴿كَمَآ﴾ بمعنى (مِثل)، وهي صفةٌ لمصدرٍ محذوفٍ، والتّقديرُ: إلّا ائتمانًا مثْلَ ائتماني لكم على أخيه[2]، وقد شبّهَ البيانُ القرآنيُّ بها ائتمانَ يعقوبَ أبناءَه على أخيهم بِنْيامين بائتمانِه لهم على أخيهم يوسفَ؛ أيْ: ساوى بين ائتمانِه لهم في المحافظةِ على بِنْيامين في رحلتهِ معهم - وإنْ كانوا صادقينَ في نيّتِهم - وبين ائتمانِه لهم على يوسفَ حين أرسلَه معهم يلعبُ ويرتعُ، ولم يكونوا صادقين بل فرّطوا به، وكأنّه يريدُ أنْ يُخبرَهم بأنّهم سيُضيِّعون بنيامين، ولن يستطيعوا المحافظةَ عليه، وهذا وجهُ الشّبهِ الّذي يربطُ الطّرفَيْن، وهو تشبيهُ محسوسٍ بمحسوس، وهذا التّشبيهُ له أثرٌ كبيرٌ في توصيلِ المعنى بأنْ يُحدثَ أثرًا في نفوسهم فيَصدَّهم عن طلبهم، أو يُحفّزَهم للحفاظِ على أخيهم، وألّا يفرّطوا فيه كما فرّطوا بأخيهِ من قبلُ.

دَلالةُ التّعبيرِ بالماضي في: ﴿أَمِنتُكُمۡ﴾:

تذكيرُهم بماضٍ فعلوه للاعتبارِ في الحاضرِ والمستقبلِ

الماضي ما دلَّ على زمنِ وقوعِ الحدثِ قبلَ زمنِ التّكلُّم، ومجيءُ الفعلِ ﴿أَمِنتُكُمۡ﴾ بالماضي في مقابلِ الفعلِ ﴿ءَامَنُكُمۡ﴾ الّذي هو للحال والمستقبلِ يتناسبُ مع مقصدِ الكلام؛ وهو الاعتبارُ منَ الماضي لأجلِ الحالِ والمستقبلِ؛ أيْ: ما فعلتُموه بيوسفَ لمّا أمنتُكم عليه في الماضي هو عبرةٌ لي في ألّا آمنَكم على أخيهِ في الحالِ والمستقبل، وهذا التّناسبُ نجدُهُ في السّورةِ كلِّها إذ موضوعُها قصّةٌ مضتْ يُقصدُ منها الاعتبارُ للحاضر والمستقبلِ، ولهذا نجدُ أنّ

(1) الجُرجانيّ، دَرْجُ الدُّرر في تفسير الآي والسّور: 3/1008.
(2) الصّاويّ، حاشية الصّاويّ على تفسير الجلالين، ص: 898.

أغلبَ الأفعال الّتي وردتْ في سورة يوسفَ عليه السلام هي أفعالٌ ماضيةٌ؛ حيث بلغَ مجموعُها مائتيْن وخمسة وثلاثين فعلًا، ثمّ تأتي بعدها الأفعالُ المضارعةُ الّتي بلغتْ مائةً وستةً وثلاثين فعلًا.

دلالة حرْفِ الجرِّ في ﴿عَلَىٰٓ﴾:

استعلاءٌ مَجازيٌّ مُكنًّى به عن تمكُّنِهم من حفظِ يوسفَ في الماضي

عدَّى البيانُ القرآنيُّ فِعْلَ ﴿أَمِنتُكُمْ﴾ بحرف الجرِّ ﴿عَلَىٰٓ﴾ في قوله تعالى: ﴿عَلَىٰٓ أَخِيهِ﴾؛ للاستعلاءِ المَجازيّ المُكنّى به عن تمكّنِ الإخوةِ من يوسفَ في الماضي، حين أرسله يعقوبُ معهم، وأدخلهُ تحت رعايتِهم وحفظِهم، وجعلَهم مسؤولين عن حفظِه ومؤتَمَنين عليه.

سِرُّ الإضافةِ في: ﴿أَخِيهِ﴾:

قوّةُ العلاقةِ والشّبَهِ بين يوسف وبِنْيامين يزيدُ خوفَ أبيهم عليه

اكتسبَ المُسنَدُ إليه (أخ) وهو بِنيامين في قوله تعالى: ﴿أَخِيهِ﴾ مع التّعريف بهذه الإضافةِ غرَضًا بلاغيًّا؛ هو بيانُ مَتانةِ العلاقةِ بين يوسفَ وأخيه، وقوّةِ وجْهِ الشّبهِ بينهما، والإشارةُ إلى خوفِ يعقوبَ من تَكرارِ فعْلِهم في بِنيامين كما فعلوا في أخيه يوسفَ، لشبَهِ حالِ علاقتِهم مع بِنيامين بحالِ علاقتِهم مع يوسف الّتي كانتْ تقومُ على الحسدِ الّذي دلّ عليه قولُه تعالى: ﴿لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا﴾ [يوسف: 8]، وفي هذا تشنيعٌ عليهم؛ لأنّهم يعلَمون ما فعلوا بأخيه يوسفَ عليه السلام.

نُكتةُ التّعبيرِ بظرْفِ الزّمانِ المجرورِ ﴿مِن قَبْلُ﴾:

تأكيدُهُ بالظّرفيّة على تفريطِهم بيوسفَ في الماضي، هو تأكيدٌ لرفْضِ طلبِهم

﴿مِن﴾: حرفُ جرّ، و﴿قَبْلُ﴾: ظرفُ زمانٍ مبنيٌّ على الضَّمّ لانقطاعِه عنِ الإضافة لفظًا لا معنًى، والتّقديرُ: (من قبل هذا الزّمان)، وهي في موضعِ الحال[1]، والظّرفيّةُ دلّتْ على الماضي مع أنّ الفعلَ ﴿أَمِنتُكُمْ﴾ يدلُّ على حدوث الفعلِ في الزّمن الماضي؛ أيْ لم تأتِ ﴿مِن قَبْلُ﴾ بزمنٍ جديدٍ، فالتّعبيرُ به أفادَ توكيدَ معنى عاملِه

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 5/18.

الدّالِّ على الائتمانِ في الزّمنِ الماضي، وتذكُّرَ ذلك الزّمان وتصوُّرَ أحداثِه في مُخيّلتهم بما يكونُ أدعى لصرْفِهم عن طلبِهم إرسالَ بِنيامين معهم، أو تحفيزًا لهم للحفاظ عليه، وعدمِ التّفريطِ به كما فرّطوا بأخيه يوسفَ عليه السلام.

نوع الفاءِ ودلالتها في ﴿فَٱللَّهُ﴾:

الفاءُ في قوله تعالى: ﴿فَٱللَّهُ خَيۡرٌ﴾، تحتملُ وجهَيْن:

الأوّلُ: أنْ تكونَ عاطفةً؛ عطفتْ قولًا محذوفًا على فعلٍ محذوفٍ تقديرُه: فتوكّلَ يعقوبُ على الله، ودفعَه إليهم، فقال: اللّه خيرٌ حافظًا[1].

الثّاني: أنْ تكون فصيحةً، أفصحتْ عن شرطٍ محذوفٍ، والتّقديرُ: فإذا كان لا بدَّ من إرسالِه فاللّه خيرٌ حافظًا[2]، والدّلالتان لا تتنافران في المعنى، وإنّما تتعانقان، وهذا من ثراء المعنى.

تتعانقُ المعاني في دَلالةِ الحروفِ عليها، لتدُلَّ على ثراء السّياقِ وقوّةِ بيانِه

غرضُ التّعبيرِ بالجملة الاسميّة في السّياق:

عبّر البيانُ الإلهيُّ بالجُملةِ الاسميّةِ ﴿فَٱللَّهُ خَيۡرٌ حَٰفِظٗاۖ﴾؛ أيْ لم يقُل يعقوبُ: (ويحفظه اللّه حفظًا خيرًا من حفظكم)؛ لِما تحملهُ الجملةُ الاسميَّةُ من معنى الثَّبات والدّوام؛ أيْ إنّ حفظَ اللّه لبِنيامين حفظٌ ثابتٌ لا ينقطعُ، فإليه التَّفويضُ وعليه الاعتمادُ في جميعِ الأمورِ[3]، فحفظُه ليس كحفظِكم، وفي هذا إشارةٌ إلى أنّ يعقوبَ يُعزّي نفسَه في حُزنِه على يوسفَ، وذلك بتسليمِ الأمرِ للّه سبحانَه، والاستسلامِ لقدَرِه، والرّضا بمقدورِه، وأنّه سبحانَه لو أرادَ حفظَ يوسفَ لحفِظَه، فهو خيرُ الحافظين، لا يقعُ شيءٌ في هذا الوجود إلّا بأمره[4]، إضافةً إلى أنّ مجيءَ الجملةِ اسميّةً - الّتي تفيدُ التّوكيدَ

حفظُ الله ثابتٌ دائمٌ لا ينقطعُ، لا كحفظِ المَخلوقين الواهي

(1) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 14/38.
(2) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 5/18، والدّعّاس، إعراب القرآن الكريم: 2/95.
(3) الشّربينيّ، السّراج المنير: 2/121.
(4) الخطيب، التّفسير القرآنيُّ للقرآن: 7/15.

- جاءَ مناسبًا لادّعائِهم حفظَ أخيهم، الّذي عبّروا عنه بالجملةِ الاسميّةِ ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ٦٣﴾ [يوسف: 63].

سِرُّ التّعبيرِ باسْمِ الجلالةِ مُسنَدًا إليه في السّياقِ:

لا يكونُ حفظُ اللهِ العظيمِ سبحانَه إلّا عظيمًا

من أكثرِ الأعلامِ ذِكرًا في سورة يوسفَ عَلَمُ الأعلامِ اسمُ الجلالة (اللّه) حيث ورد اثنتيْن وثلاثين مرّةً، وقد جاءتْ هذه المواقعُ كلُّها في سياقِ التّعظيم، ومنها قولُه تعالى: ﴿فَٱللَّهُ خَيۡرٌ حَٰفِظٗاۖ﴾، فالمقصودُ هنا تعظيمُ حفْظِهِ سبحانَه في مقابلة تأكيدِ حفظِهم لأخيهم بقولهم: ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ٦٣﴾ [يوسف: 63]؛ لأنّه سبحانه المحيطُ عِلمًا وقدرةً، بل له كلُّ صفاتِ الكمالِ المُطلَقِ الّتي يدلُّ عليها التّعبيرُ بالاسمِ الجليل، والمعنى: "فأنا في هذا لا آمنُ عليه إلّا اللّه تعالى، فاللّه المحيطُ عِلمًا وقدرةً خيرٌ حافظًا منكم ومن كلِّ أحدٍ"[1].

دَلالةُ التّعبيرِ بالمُسنَدِ أفعلَ تفضيلٍ ﴿خَيۡرٌ﴾:

كلُّ حفظٍ لا قيمةَ له في مقابَلةِ حفْظِ اللهِ الحافظِ الأرحمِ

عبّرَ القرآنُ بكلمة ﴿خَيۡرٌ﴾ وهي من أسماءِ التّفضيل في قوله تعالى: ﴿فَٱللَّهُ خَيۡرٌ حَٰفِظٗاۖ﴾؛ ليُنبّهَ على أنّ كلَّ حفظٍ لا قيمةَ له في مقابلةِ حفظِ اللّه تعالى؛ لأنّ اللّه هو الحافظُ حقيقةً وغيرُه حافظٌ مجازًا، ومَنْ كان لهُ الحفظُ بالأصالةِ والحقيقةِ خيرٌ ممّن كانَ له الحفظُ مجازًا؛ أيْ إنّ اسمَ التّفضيل ﴿خَيۡرٌ﴾ هنا على بابه؛ باعتبار أنّ الحفظَ يُنسبُ لغيره تعالى لكونِه سببًا، ولكنّ اللّه هو الحافظُ الحقيقيُّ، والمعنى: إنّني لا أثقُ بوعودِكم لي بعدَ الّذي حدثَ منكم بالنّسبةِ ليوسفَ، وإنّما أثقُ بحفظِ اللّه ورعايتِه[2]، فأنا في هذا لا آمنُ عليه إلّا اللّه، فاللّه المحيطُ عِلمًا وقُدرةً خيرٌ حافظًا منكم ومن كلّ أحدٍ، وهو باطنًا وظاهرًا أرحمُ الرّاحمين[3].

(1) الشّربينيّ، السّراج المنير: 2/121.
(2) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 7/389.
(3) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 10/153.

التّوجيه الإعرابيُّ في لفظِ ﴿حَٰفِظٗاۖ﴾:

يحتملُ إعرابُ ﴿حَٰفِظٗاۖ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَٱللَّهُ خَيۡرٌ حَٰفِظٗاۖ﴾ وجهَيْن[1]:

الأوّلُ: تمييزٌ منصوبٌ على البيان[2]، والمنسوبُ له الخيرُ هو حفظُ اللّه، والمعنى: حفظُ اللّه له خيرٌ من حفظِكم إيّاه، وفي هذا دليلٌ على أنّه أجابَهم إلى إرسالِه معهم[3].

حفظُ الله فوقَ أيّ حفظٍ، ومَن حفِظَه الله، فلا خوفٌ عليه

والثّاني: حالٌ من اسْمِ الجلالة[4]، وهي حالٌ لازمةٌ[5]. والتّمييزُ أوضحُ وأقوى منَ الحال؛ لأنّ ﴿خَيۡرٌ﴾ تفضيلٌ، قال أبو حيّانَ: "وأجاز الزّمخشريُّ أنْ يكون ﴿حَٰفِظٗاۖ﴾ حالًا، وهذا الرّأي ليس بجيِّدٍ؛ لأنّ فيه تقْييدَ ﴿خَيۡرٌ﴾ بهذه الحال"[6]؛ أيْ إنّ الحالَ قَيْدٌ لعاملِها، كأنّه خيرٌ فقط في هذه الحالِ من حالةِ الحفظِ[7]، ورُدَّ بأنَّها حالٌ لازمةٌ مؤكِّدةٌ لا مبيِّنةٌ[8].

تَنوّعُ القراءاتِ في ﴿حَٰفِظٗاۖ﴾ و ﴿حِفۡظٗاۖ﴾:

في قولِه تعالى: ﴿فَٱللَّهُ خَيۡرٌ حَٰفِظٗاۖ﴾ قراءتانِ مُتواتِرتانِ:

الأولى: ﴿حَٰفِظٗاۖ﴾ قرأ بها حمزةُ والكسائيُّ وعاصمٌ في رواية حفصٍ، والمعنى: فاللّه خيرٌ حَافِظًا منكم، على الحال أوِ التّمييزِ، كقولك: هو خيرُهم رَجلًا، وللّه درُّه فارسًا[9]، وإنّما كان أصلُه الإضافةَ، فلمّا حذفَها خلفَها بالتّنوين[10].

الحِفظُ حالٌ لازمةٌ لله، وحفْظُهُ خيرٌ من أيّ حفْظٍ مِن سواه

(1) الزّجّاج، معاني القرآن: 3/118، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/16، ودرويش، إعراب القرآن وبيانه: 5/18.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط في التّفسير: 6/295.
(3) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 9/224.
(4) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/485، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/290.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/16.
(6) أبو حيّان، البحر المحيط في التّفسير: 6/295.
(7) السّامرّائيّ، لمسات بيانيّة: 6/106.
(8) الخفاجيّ، عناية القاضي وكفاية الرّاضي: 5/189.
(9) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/485.
(10) ابن خالويْه، الحُجّة في القراءات السَّبع، ص: 197.

الثّانية: ﴿حِفۡظٗاۖ﴾ قرأ بها الباقون، على التَّفسيرِ والتَّمييزِ لا غيرُ[1]، والمعنى: حفظُه خيرٌ من حفظِكم، وحفظُه هو الحفظ، والقراءتان متعانِقتان.

معنى الواوِ ودَلالتُها في ﴿وَهُوَ أَرۡحَمُ﴾:

الواوُ في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ عاطفةٌ، والمعطوف عليه قولُه تعالى: ﴿فَٱللَّهُ خَيۡرٌ حَٰفِظٗاۖ﴾؛ والمعنى المشتركُ بين الجُملتَيْن أنّ منْ رحمتهِ سبحانه أنْ يكونَ حافظًا، ولكنّ التّغايُرَ بينهما يكمنُ في أنّ الحفظَ غيرُ الرّحمة، والمعنى: أنّ اللّه هو ذو الرّحمةِ الواسعةِ، فأرجو أنْ يُنعمَ عليَّ بحفظ بِنيامين، وأنْ يرحمَني؛ أيْ: يرحمني بحفْظِه، فلا يجمعَ عليّ مُصيبتَه ومُصيبةَ أخيه[2].

مِن رحمةِ الله تعالى أنْ يكونَ خيرَ الحافظين

بَلاغةُ التَّذْييلِ بالجملةِ الاسميّةِ:

جاء البيانُ الإلهيُّ بقوله: ﴿وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ تذييلًا لقولِه: ﴿فَٱللَّهُ خَيۡرٌ حَٰفِظٗاۖ﴾؛ للاستعطافِ والتّرحّم، ومن ثمَّ اعتبرَ الزّمخشريُّ في معنى قولِه تعالى: ﴿وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ الحفظَ، ففسّرها بقوله: "فأرجو أنْ يُنعمَ عليّ بحفظِه، ولا يجمعَ عليّ مصيبتَيْن"[3] وأتتْ هذه الجملةُ اسميّةً تفيدُ الثّباتَ والدّوامَ، فكانتْ بمثابةِ التّأكيدِ على ثباتِ رحمةِ اللّه سُبحانه، بيعقوبَ عليه السلام، بأنْ يحفظَ له بِنيامين، ولا يفجعَه بمصيبتَيْن.

تَذْييلٌ دلَّ على تأكيدِ ثباتِ رحمةِ اللهِ، بيعقوبَ عليه السلام

بَلاغةُ التّعريضَ في ﴿وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾:

يُفهمُ من عرْضِ الكلام المُركّبِ في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ نوعُ تَعريضٍ لهم، وإهانةٍ وتوبيخٍ وتلويحٍ إلى أنّهم لم يَسْتَوفوا الرّحمةَ، أو لم يَرحموا أباهُم أصلًا في أمرِ يوسفَ عليه السلام حين أمِنَهم عليه، والآيةُ في معنى الرّدّ لِما سألوه.

الثّناءُ على الله تعريضٌ بأبناءِ يعقوبَ، وتوبيخٌ لهم لعدَمِ رحمتِهم أباهُم

(1) أبو حفص النّسفيّ، التّيسير في التّفسير: 8/438، وأبو البركات النّسفيّ، مدارك التّنزيل: 2/122.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط في التّفسير: 6/295، والزّحيليّ، التّفسير المنير: 13/19.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/486، والطّيبيّ، فتوح الغيب في الكشف عن قناع الرَّيب: 8/381.

سِرُّ التّعبيرِ بالضّميرِ (هو):

التّعبيرُ بالضّميرِ (هو) أقوَى وآكدُ، وأبعدُ عنِ التّكرارِ

عبّرَ البيانُ القرآنيُّ بالمُسنَدِ إليه ضميرًا ﴿وَهُوَ﴾، في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾، إذْ لم يقلْ: (فاللّه خيرٌ حافظًا وأرحم الرّاحمين)؛ لإفادةِ التّوكيدِ الّذي يقومُ على تحقيق المعنى وتثْبيتِه؛ أي: اللّه خيرُ الحافظين، واللّه أرحمُ الرّاحمين. كما أنّه عَدلَ في الجملةِ عنِ الإظهارِ، فلَمْ يقُلْ: (واللّه أرحم الرّاحمين)؛ لأنّه سبقَ في الجملةِ المعطوفِ عليها ﴿فَٱللَّهُ خَيۡرٌ حَٰفِظٗاۖ﴾؛ فاحترزَ بالإضمارِ عنِ التّكرارِ، ولأنّه عرّفَ اسمَ الجلالة بالضّمير؛ لكوْنِ الضّمائرِ أقوَى المعارفِ[1].

دَلالةُ التّعبيرِ بالمُسندِ أفعلَ التّفضيل:

شمولُ رحمته سُبحانه ونفاذُها، أشملُ وأنفذُ وأبلغُ من أيّ رحمةٍ

عبّرَ القرآنُ بكلمة ﴿أَرۡحَمُ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ وهي من أسماءِ التّفضيل؛ والتّفضيلُ هنا على بابِه؛ باعتبار أنّ الرّحمةَ يمكنُ أن تُنسبَ لغير اللّه تعالى لكونِه سببًا، واللّه هو الرّاحمُ الحقيقيُّ، ولأنّ لِرحمةِ الغير أيضًا نفوذًا في الجملةِ، وهذا معنى أصلِ أفعلِ التّفضيل ﴿أَرۡحَمُ﴾ فتحصلُ المشاركةُ فيه، والمعنى: أنّ رحمتَهم قد تكونُ قاصرةً غيرَ شاملةٍ، أو ظاهرةً غيرَ باطنةٍ، أو تشوبُها المآربُ الخاصّةُ، لكنّ رحمةَ اللّه أشملُ وأبلغُ وأنفذُ من أيّ رحمةٍ، ولذلك قال البقاعيّ في تفسير الآية: "وهو - أيْ: باطنًا وظاهرًا - أرحمُ الرّاحمين، فهو أرحمُ بي من أنْ يفجعَني به بعد مصيبَتي بأخيه"[2].

سِرُّ الإضافةِ في ﴿أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾:

في التّعريفِ بالإضافة بيانٌ لعِظَمِ رحمةِ اللّه وطلب يعقوب إيّاها

أضافَ البيانُ القرآنيُّ لفظةَ ﴿أَرۡحَمُ﴾ إلى لفظةِ ﴿ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ الّتي جاءتْ بصيغةِ الجمعِ؛ بيانًا لرحمةِ اللّه وتعظيمًا لشأنِها، وتفضيلها

(1) ابن الحاجب، الكافية في علم النّحو، ص: 37.
(2) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 10/153.

على كلّ رحمةٍ سِواها، وطلبًا لرحمةِ اللّه بي وألّا يفجعَني اللّه ببِنيامين كما فُجعتُ بأخيه يوسفَ فهو "أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ من أهلِ السّماوات والأرَضين، فأرجو أنْ يرحمَني بحفْظِه، ولا يجمعَ عليّ مُصيبتَيْن"[1].

(1) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 14/25.

﴿وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَٰعَهُمۡ وَجَدُواْ بِضَٰعَتَهُمۡ رُدَّتۡ إِلَيۡهِمۡۖ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبۡغِيۖ هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتۡ إِلَيۡنَاۖ وَنَمِيرُ أَهۡلَنَا وَنَحۡفَظُ أَخَانَا وَنَزۡدَادُ كَيۡلَ بَعِيرٖۖ ذَٰلِكَ كَيۡلٞ يَسِيرٞ ٦٥﴾ [يوسف: 65]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

بعْدَ مُحاورتِهم مع أبيهم، أتتِ المُفاجأةُ بردِّ بضاعتِهم إليهم، ممّا زادَهم إلحاحًا

حاورَ أولادُ يعقوبَ أباهُم في طلبِهم إرسالَ بنيامين معهم في المرّة القادمةِ اتّجهوا إلى أمتعتِهم ليفتَحوها ويُخرجوا ما بها من زادٍ حضروا به من مصرَ، فكانتِ المفاجأةُ الّتي حكاها القرآنُ في قوله: ﴿وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَٰعَهُمۡ وَجَدُواْ بِضَٰعَتَهُمۡ رُدَّتۡ إِلَيۡهِمۡۖ﴾[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مَتَٰعَهُمۡ﴾: أصلُ (متع) يدلُّ على مَنْفَعةٍ وامتدادِ مُدّةٍ في خَيْرٍ، ومنه استمتعتُ بالشّيءِ، والمُتْعَةُ والمَتاعُ: المَنْفَعَةُ، والمَتاعُ من أَمْتِعَةِ البيتِ: ما يستمتعُ بهِ الإنسانُ في حَوائِجِه[2]، والمَتاعُ في الأصل: كلُّ شيءٍ يُنتفعُ به ويُتَبَلَّغُ بهِ ويُتَزَوَّدُ، ومن معاني المَتاع: السِّلْعَةُ، والأداةُ[3]، وكلُّ ما يُنتفع به على وجهٍ ما فهو مَتاعٌ ومُتْعَةٌ، وعلى هذا قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَٰعَهُمۡ﴾؛ أيْ: طعامَهم، فسمّاه مَتاعًا، وقيل: وعاءَهم، وكلاهما متاعٌ، وهما متلازمان، فإنّ الطّعامَ كان في الوعاء[4]؛ أي: المعنى: أوعيتُهم الّتي وضعوا فيها الميرَةَ[5].

2) ﴿بِضَٰعَتَهُمۡ﴾ أصلُ (بضع) يدلُّ على الطّائِفَةُ من الشَّيْءِ عُضْوًا أو غَيْرَهُ، والبَضْعَةُ: القِطْعَةُ، يُقال: بضَعَ الإنْسَانُ اللَّحْمَ يَبْضَعُهُ إذا

(1) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 7/389.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (متع).
(3) الزّبيديّ، تاج العروس: (متع).
(4) الرّاغب، المُفردات: (متع).
(5) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 14/26.

جَعلهُ قِطَعًا، ومنه: بِضاعَةُ التّاجِرِ من مالِه: طائِفَةٌ مِنْهُ، وقيل: سُمِّيَت البِضاعَةُ بِضاعَةً؛ لأنّها قِطْعَةٌ من المالِ تُجْعَلُ في التِّجارَةِ[1]، والبِضاعَة: قطعةٌ وافرةٌ من المالِ تُقتنى للتّجارة[2] ومعنى ﴿بِضَٰعَةٖ﴾ موافقٌ للمعنى اللُّغويّ؛ أيْ ثمنُ المِيرَةِ الّذي دفعوه للعزيزِ؛ أي الثّمنُ الّذي دفعوه ليوسفَ في مقابلِ ما أخذوه منه من زادٍ[3].

3) ﴿رُدَّتۡ﴾: أصلُ (ردّ) هو رجْعُ الشّيءِ، تَقولُ: رَدَدْتُ الشّيءَ أَرُدُّهُ رَدًّا[4]، وردَّ عليه الشَّيْءَ إذا لَمْ يَقبَلْهُ، واستَرَدَّ الشّيءَ وارْتَدَّه: طَلَبَ رَدَّه عليه[5]، وقيل: ردَّ يَتَعَدَّى إلى المفعولِ الثّاني بـ (إلى) عِنْد إرادةِ الإكْرام، وبـ (على) للإهانة[6]، والرّدُّ: صرفُ الشّيءِ بذاته، أو بحالةٍ من أحوالِه عمّا هو عليه[7]، ومعنى: ﴿رُدَّتۡ﴾ في الآية: أيْ: رجعتْ إليهم تفضّلًا وإكرامًا وإحسانًا من سيّدِ أرضِ مصرَ وهو يوسفُ عليه السلام[8].

4) ﴿نَبۡغِيۖ﴾: الباء والغين والياء أصلان: أحدُهما طلبُ الشّيء، والثّاني جنسٌ منَ الفسادِ، فمنَ الأوّل: بَغَيْتُ الشَّيْءَ أَبْغيه: إذا طَلَبْتَهُ، والبُغْيَةُ: الحاجَةُ، ومنَ الثّاني: قولهم: بغى الجرحُ: إذا ترامى إلى فسادٍ، والبَغيُ: الظّلمُ[9]، والبَغْيُ: قصدُ الفسادِ، وتجاوزُ الحقِّ إلى الباطلِ، والبغيُ: التَّعَدّي، وقيل: كلُّ مجاوزةٍ وإفراطٍ على المقدارِ الّذي هو حدُّ الشّيء بغيٌ[10]، والبَغْيُ: طلبُ تجاوُزِ الاقتصادِ فيما يُتحرّى، تجاوَزَه أمْ لمْ يتجاوزْه، يُقال: بَغَيْتُ الشّيء: إذا طلبتَ أكثرَ ما يجبُ[11].

ومعنى قوله ﴿نَبۡغِيۖ﴾: يحتملُ أنْ تكونَ منَ البُغية، والمعنى: أيّ شيءٍ نطلبُ وراءَ هذا؟! وفّى لنا الكيلَ، وردَّ علينا الثّمنَ[12]. أو أنْ تكونَ منَ البَغْيِ، والمعنى: ما افتريْنا فكذبْنا على

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (بضع).
(2) الرّاغب، المُفردات: (بضع).
(3) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 7/390.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ردّ).
(5) ابن منظور، لسان العرب: (ردد).
(6) الزّبيديّ، تاج العروس: (ردد).
(7) الرّاغب، المُفردات، والسّمين الحلبي، عُمدة الحُفّاظ: (رد).
(8) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/290.
(9) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (بغي).
(10) ابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (بغي).
(11) الرّاغب، المُفردات: (بغي).
(12) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 9/224.

هذا المَلِكِ، فيما وصفْنا لك من إحسانِه وإكرامِه[1]، أو: ما نَبغي وما ننطقُ إلّا بالصّوابِ فيما نشيرُ به عليك من تجهيزِنا مع أخينا[2].

5) ﴿وَنَمِيرُ﴾: المِيرَة: جَلْبُ القَوْمِ الطّعامَ للبَيْع، وهم يَمْتارونَ لأَنْفُسِهِمْ، ويَميرونَ غَيْرَهم مَيْرًا[3]، والمِيرَة: الطّعام يَمْتارُهُ الإنسان[4]، ومارَ عِيالَه يَميرُ مَيْرًا: إذا أتاهم بمِيرَة؛ أيْ: بطعامٍ، وامْتارَ لَهُم: جلبَ لَهُم[5]، والمِيرةُ: الطّعامُ المجلوبُ يُزادُ إلى ما عندَهم، فيُفرَّجُ عنهم، ويُوسَّعُ عليهم، بعد ما كانوا مقصورين على ما عندَهم[6].

ومعنى ﴿وَنَمِيرُ أَهْلَنَا﴾: موافقٌ للمعنى اللّغويِّ؛ أيْ: ونطلبُ لأهلنا طعامًا فنَشتريه لهم[7]، ونجلبُه لهم من عندِ المَلِك[8].

6) ﴿أَهْلَنَا﴾: أهلُ الرّجلِ: زوجُهُ، والتّأهّلُ: التّزوّجُ، وأهلُ الرّجلِ: أخصُّ النّاسِ به، وأهلُ البيت: سكّانُه، وأهلُ الإسلام: مَن يَدينُ به[9]، وأهلُ الرّجلِ في الأصل: مَن يجمعُه وإيّاهم مسكنٌ واحدٌ، ثمّ تُجُوّزَ به فقيل: أهلُ الرّجلِ لمَن يجمعُه وإياهم نسبٌ أَو دينٌ، أَو ما يَجْرِي مَجراهُما[10]، وقيل: أَهْلُ الرَّجُلِ: عَشِيرَتُه وذَوُو قُرباه[11]، والأَهْلُ في عُمُوم التّعارفِ: الأَقَاربُ منَ العَصبَة وذَوي الأَرْحَام؛ لِأَنَّهُ يجمعهُمْ النّسَبُ والتّناصر، ثمَّ يُستعارُ في مَواضِعَ تدلُّ عليها القَرينَةُ[12]. والمُرادُ بـ ﴿أَهْلَنَا﴾ في الآية: زوجاتُهم وأولادُهم؛ أي: الّذين يجتمعون معهم في مسكنٍ واحدٍ.

7) ﴿وَنَحْفَظُ﴾: أصلُ الحفْظِ يدلُّ على مُراعاةِ الشّيءِ، والتّحفّظُ: قلّةُ الغَفْلَةِ، والحِفَاظ:

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/296.
(2) القاسميّ، محاسن التّأويل: 6/196.
(3) الخليل، العين: (مير).
(4) الرّاغب، المُفردات: (مير).
(5) الزّبيديّ، تاج العروس: (مير).
(6) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (مير).
(7) ابن جرير، جامع البيان: 16/162.
(8) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/290.
(9) ابن فارس، مقاييس: (أهل).
(10) الرّاغب، المُفردات: (أهل).
(11) الزّبيديّ، تاج العروس: (أهل).
(12) ابن الجوزيّ، نزهة الأعيُن، ص: 163.

المحافظةُ على الأمور[1]، وحفِظْتُ الشّيءَ حِفْظًا؛ أَيْ: حَرَسْته، والمُحافَظة: المُراقبةُ، وقيل: المُحافظةُ: الوَفاءُ بالعَقْد، والتمسُّكُ بِالوُدِّ[2]، والحفظُ: المنعُ للشّيءِ بتفقّدِهِ ورعايتِه، ويُستعملُ في كلّ تفقُّدٍ وتعهُّدٍ ورعاية[3]، ومعنى: ﴿وَنَحۡفَظُ أَخَانَا﴾؛ أيْ: ونحفظُ أخانا بِنيامين بعنايتِنا ورعايتِنا، فلا يصيبُه شيءٌ ممّا تخافُه، فلا تخفْ عليه[4].

8) ﴿كَيۡلَ﴾: الكيلُ: المِكْيال، وهو مصدرُ كالَ الطّعامَ وهو شاذٌّ، يُقال: كالَ المُعطي واكتالَ الآخذُ، وكِيلَ الطّعامُ على ما لم يُسمَّ فاعلُه، والكيلُ والوزنُ سواءٌ في معرفةِ المقادير[5]، ومنَ المَجاز: كالَ الشّيءَ بالشّيءِ كَيْلًا: إذا قاسَه بِهِ[6]، والكيلُ معلومٌ وهو ما يُكال به، وكأنّه سُمّي بالمصدر في الأصل، يُقال: كلتُه أكيلُه كيلًا، وقولُه: ﴿وَنَزۡدَادُ كَيۡلَ بَعِيرٖۖ﴾؛ أيْ: مقدار حمْلِ بعيرٍ[7].

9) ﴿بَعِيرٖۖ﴾: البَعِيرُ معروفٌ، وهو واحدُ الإبلِ، وقد يقعُ للذّكَرِ والأنثى، وخصّه بعضُهم بالجَمَل[8]، فالبَعيرُ: الجَمَل البازِلُ، وَقيلَ: الجَذَعُ، وقيل البَعيرُ أَيضًا: الحِمارُ، والمُرادُ بالبعير في قوله تعالى: ﴿وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمۡلُ بَعِيرٖ﴾ [يوسف: 72] الحمارُ فَكَسَرَتْ مِنْ عِزَّتِهِ، وذلك أَن يَعْقوبَ وإِخْوَةَ يُوسُفَ عليهم الصّلاة والسّلامُ، كانُوا بِأَرْضِ كَنْعانَ وليس هناك إبلٌ، وإنّما كانوا يَمْتارونَ على الحَميرِ؛ أَيْ: حِمْلُ حِمارٍ، وقيل: البعيرُ ما صلحَ للرّكوبِ والحمْلِ، ويُقال لكلِّ ما يحمل بالعبرانيّةِ: بعيرٌ[9]. ومعنى ﴿بَعِيرٖۖ﴾ في الآية: موافقٌ للمعنى اللّغويِّ؛ أيْ: يحتملُ أنْ يكون معنى ﴿كَيۡلَ بَعِيرٖۖ﴾؛ أيْ: حِمل جمَلٍ؛ وهو قولُ الجمهور، أو: حِمل حمارٍ[10].

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حفظ).
(2) ابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس: (حفظ).
(3) السّمين الحلبيّ، عُمدة الحُفّاظ: (حفظ).
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/296، والزّحيليّ، التّفسير المنير: 13/21.
(5) ابن منظور، لسان العرب: (كيل).
(6) الزّبيديّ، تاج العروس: (كيل).
(7) السّمين الحلبيّ، عُمدة الحُفّاظ: (كيل).
(8) الرّاغب، المُفردات، والسّمين الحلبي، عُمدة الحُفّاظ: (بعر).
(9) ابن منظور، لسان العرب، ومجمع اللّغة العربيّة، المعجم الوسيط: (بعر).
(10) الماورديّ، النُّكت والعيون: 3/63.

10) ﴿يَسِيرٌ﴾: أصلُ (يسر) يدلُّ على انفتاحِ شيءٍ وخِفَّتِه، واليُسْرُ: ضِدُّ العُسْرِ[1]، واليَسَرُ: السَّهْلُ اللَّيِّنُ الانقيادِ، واليَسارُ واليَسارَةُ والمَيْسَرةُ: الغِنى والسَّعَة، واليَسيرُ: الهَيِّن أوِ القَليلُ، يُقَال: شيءٌ يَسيرٌ؛ أَيْ: هَيِّنٌ أَو قَليل[2].

والمعنى في الآية: ذلك الحمْلُ الزّائدُ أمرٌ يسيرٌ قليلٌ يُجيبُنا إليه المَلكُ ولا يُضايقُنا فيه، أو سهلٌ لا عسرَ فيه على هذا الرّجلِ السّخيِّ الرّحيم، فهو مُتيسّرٌ لا يتعاظمُه، يسيرٌ عليه أنْ يُعطِيَه[3]، أو ذلك الّذي يُكالُ لنا دونَ أخينا شيءٌ يسيرٌ قليلٌ، فابعثْ أخانا معنا حتّى نتّسعَ ونتكثّرَ بمكيلِه[4].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

ولَمَّا فَتَحوا أوعيَتَهم وجَدوا ثمنَ بضاعتِهم الَّذي دَفَعوه قد رُدَّ إليهم، قالوا: ترغيبًا في إرسالِ أخيهم معهم، وتطْييبًا لنفْسِ أبيهم[5]: يا أبانا ماذا نُريدُ بعدَ هذا الإكرام؟! هذا ثمَنُ الطَّعام رُدَّ إلينا بعدَ أنْ أُوفيَ لنا كيلُنا، فكُنْ مُطمَئِنًّا على أخينا، وأرسِلْه معَنا؛ لنجلِبَ طَعامًا وفيرًا لأهلِنا، ونحفَظَ أخانا، ونزدادَ حِمْلَ بعيرٍ له؛ فإنَّ العزيزَ يَكيلُ لكلِّ واحدٍ حِمْلَ بعيرٍ[6]، وذلك كَيلٌ يسيرٌ عليه[7].

ردُّ بضاعتِهم إليهم، رفْضٌ لما يَطلُبون وإغراءٌ ليعقوبَ بإرسال بِنيامين

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

دَلالةُ الواوِ في قولِه: ﴿وَلَمَّا فَتَحُواْ﴾:

الواوُ في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَٰعَهُمۡ﴾ استئنافيّةٌ[8]،

استئنافٌ يُبيّن حالَهم بعد تأنيبِ أبيهم وتذكيرهم بتفريطِهم بِيوسفَ

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (يسر).
(2) الزّبيديّ، تاج العروس: (يسر).
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/296، والزّحيليّ، التّفسير المنير: 13/21.
(4) القاسميّ، محاسن التّأويل: 6/196.
(5) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 402.
(6) البَغويّ، معالم التّنزيل: 2/502.
(7) ابن جرير، جامع البيان: 13/233، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/399.
(8) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 14/38.

والاستئنافُ بيانيٌّ، وكأنّ سائلًا سألَ: ماذا حدثَ بعد قول أبيهم لهم: ﴿هَلۡ ءَامَنُكُمۡ عَلَيۡهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمۡ عَلَىٰٓ أَخِيهِ﴾، فجاء الجوابُ بأنّهم سلّموا للأمرِ ولم يجادِلوه، بل قاموا وفتَحوا متاعَهم، وفي هذا إشارةٌ إلى امتثالِهم وطاعتِهم لأمرِ أبيهم بما يدلُّ على صلاحِ حالِهم.

دلالة ﴿وَلَمَّا﴾ في قولِه: ﴿وَلَمَّا فَتَحُواْ﴾:

﴿وَلَمَّا﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَٰعَهُمۡ وَجَدُواْ بِضَٰعَتَهُمۡ﴾ شرطيّةٌ ظرْفيّةٌ زمانيّةٌ؛ بمعنى: حينَ، لأنّ الجُملتَيْن بعدها فعْلُهما ماضٍ ﴿فَتَحُواْ﴾ - ﴿وَجَدُواْ﴾، ودَلالةُ الشّرط فيها إفادةُ تحقّقِ وقوعِ هذا الحدَثِ بطرفَيْه، وفي تقييدِ الجملةِ الخبريّةِ ﴿وَجَدُواْ بِضَٰعَتَهُمۡ﴾ بظرفِ الدّخولِ ﴿وَلَمَّا﴾ إشارةٌ إلى أنّ إيجادَهم ثمنَ الطّعامِ كان عَقِبَ فتْحِهم لمتاعِهم، وأنّهم لم يعلَموا أنّها رُدّت إليهم حتّى وصَلوا إلى أهلِهم وفتَحوا المتاعَ، فكأنّها إنّما رُدَّت حينئذٍ، لأنّه عندما يكونُ الفعلُ سابقًا والعهدُ به قريبٌ أُتي بـ (قد) وحدَها، وإلّا أُتي بها مع الواو، والقُربُ والبُعدُ في كلّ شيءٍ بحسَبِه، تقول: "جاء زيدٌ قد حجَّ" إذا كان مجيئُه عقِبَ الحجِّ، فإنْ تأخّرَ قيل: وقد حجَّ[1].

الإشارةُ إلى أنّهم لم يَكونوا يعلَمون بردِّ البضاعةِ، حتّى فتَحوا المتاعَ

دَلالةُ التّعبيرِ بفعْلِ الشّرطِ ماضيًا في ﴿فَتَحُواْ﴾:

عبّرَ البيانُ القرآنيُّ بفعل الشّرطِ ماضيًا في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَٰعَهُمۡ وَجَدُواْ بِضَٰعَتَهُمۡ﴾؛ للدّلالةِ على أنّ فعلَ فتْحِ متاعِهم الّذي حمَلوه من مصرَ قد تحقّقَ منهم، وهو الفتحُ الماديُّ الّذي يُزيلُ عنه الأربطةَ[2].

تحقّقَ منهم فتحُ أمْتِعتِهم بعْدَ حِوارِهم مع أبيهم

نُكتةُ الإسنادِ إلى واو الجماعةِ في ﴿فَتَحُواْ﴾:

عبّر القرآنُ بواوِ الجماعة ﴿فَتَحُواْ﴾؛ أيْ: إخوةُ يوسفَ،

(1) الفراهيّ، التّعقيب على تفسير سورة الفيل: 8/157.
(2) الشّعراوي، تفسير الشّعراوي: 19/11874.

اختصارًا لكي لا يذكرَ أحدًا منهم باسْمِه، إذ لو ذَكرهم لطالَ الكلامُ، وليس من عادةِ القرآنِ عمومًا وفي سورة يوسفَ خصوصًا ذِكرُ مَن ليسوا بأنبياءَ أو رُسلٍ، وللإشارةِ إلى توافُقِ حالِهم في عدمِ مجادلةِ أبيهم بعد أنْ أقام الحُجّةَ عليهم مُذكِّرًا إيّاهم بما فعلوا بيوسفَ، وبعد أنْ شعروا بمُوافقتِه؛ إذ لمّا امتنع يعقوبُ عن إجابة طلبِهم لم يُجادلْه أحدٌ منهم، وقاموا كلُّهم إلى متاعِهم يفتحونَه ليُخرجوا ما فيه منَ الميرةِ.

تـوافُـقُ حالِـهم في عدمِ مجادلةِ أبـيـهـم بـعـد مُحاجَجَته لهم، بـعْـدَ أنْ أقـامَ عليهمُ الحُجّةَ

دَلالةُ التّعبير بجوابِ الشّرط ﴿وَجَدُواْ﴾:

﴿وَجَدُواْ﴾ جوابُ شرْطِ ﴿وَلَمَّا﴾ وهو العاملُ فيها، وفيه إشارةٌ إلى مفاجأةٍ غريبةٍ أصابتْهُم؛ إذْ حين فتَحوا متاعَهم فَجَأَهم وجدانُ بضاعتِهم ضمْنَه، والمعنى: وحين فتحوا أوعيتَهم الّتي بداخلها الطّعامُ الّذي اشترَوْه من عزيز مصرَ، فُوجئوا بوجودِ أثمانِ هذا الطّعام، قد رُدّت إليهم معه، ولم يأخذْها عزيزُ مصرَ، بل دسّها داخلَ أوعيتِهم[1]، ولهذه المفاجأةِ أثرٌ كبيرٌ في زيادة الفرحِ بها وزيادةِ الحماس لإقناع أبيهم بإرسالِ بنيامين.

مُفاجأةٌ أفرحتْهُم وجعلَتْهُم أشَدَّ حِرصًا على إقناعِ أبيهِم بإرسالِ أخيهِم

نُكتةُ إسنادِ الفعْلِ إلى واوِ الجماعةِ في ﴿وَجَدُواْ﴾:

أسندَ البيانُ القرآنيُّ فعْلَ ﴿وَجَدُواْ﴾ إلى ضميره، وهو واوُ الجماعة؛ للإشارةِ إلى توافُقِ حالِهم في وجدان كلّ واحدٍ منهم بضاعتَه في متاعِه، ليكونَ من ذلك اجتماعُ كلمتِهم في إقناع أبيهم بإرسال أخيهم بنيامين معه، وهذا ما حصلَ منهم، فإنّهم نطقوا بلسانِ الجماعةِ الّتي يزدادُ فيها الإقناعُ في كلّ كلمةٍ قالوها، ﴿يَـٰٓأَبَانَا﴾، ﴿مَا نَبۡغِيۖ﴾، ﴿بِضَٰعَتُنَا﴾، ﴿رُدَّتۡ إِلَيۡنَاۖ﴾، ﴿وَنَمِيرُ أَهۡلَنَا﴾، ﴿وَنَحۡفَظُ أَخَانَا﴾، ﴿وَنَزۡدَادُ كَيۡلَ بَعِيرٍۖ﴾، وقد قصدَ يوسفُ من وضع بضاعةِ كلِّ واحدٍ منهم في متاعِه هذا الغرَضَ.

تـوافُـقُ وجدانِهمُ البضاعةَ وحّدَ كلمتَهم ليَنطقوا بلسانِ الجماعةِ إقناعًا لأبيهم

(1) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 7/389.

سِرُّ الإضافةِ في قولِه: ﴿بِضَٰعَتَهُمۡ﴾:

فـجـأتُـهـم بـردِّ عينِ بضاعتِهم، سـبـبٌ أدخـلَ السُّرورَ والفرحَ على قلوبِهم

أضافَ البيانُ القرآنيُّ البضاعةَ للضّمير (هم)؛ للإشارةِ إلى أنّ ثمنَ الطّعامِ الّذي وُضع في أمتعتِهم هو ذاتُه الثّمنُ الّذي دفعوه لا شيء آخر؛ ممّا يكون له أثرٌ في إدخال السّرورِ والفرحِ على قلوبِهم برؤية ثمنٍ قد تعِبوا في جَمعِه، وها هو قد عاد إليهم كما هو، وهذا الفرحُ من شأنِه أن يندفِعوا بسببِه أكثرَ في إقناع أبيهم بأخْذِ أخيهم معهم.

موقعُ ﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا﴾ ممّا قبلَها ودَلالتُه:

استئنافٌ يُبيّن تأكيدَ طلبِهم استِصْحابَ أخيهم معهم

لم يعطفِ البيانُ الإلهيُّ جملةَ ﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبۡغِيۖ﴾ على ما قبلها ﴿وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَٰعَهُمۡ وَجَدُواْ بِضَٰعَتَهُمۡ رُدَّتۡ إِلَيۡهِمۡۖ﴾ بالفاء مع أنّ السّياقَ مُشعرٌ بأنّهم قالوا ذلك عَقب وجدان بضاعتِهم، وإنّما فصلَ بين الجُملتَيْن؛ لكونِ قولِه تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبۡغِيۖ﴾ استئنافًا بيانيًّا لترقُّبِ السّامعِ أن يعلمَ ماذا صدرَ منهم حين فَجَأَهم وجدانُ بضاعتِهم ضمْن متاعِهم؛ لأنّه مفاجأةٌ غريبةٌ[1]، فكأنّه قيلَ: ماذا قالوا حينئذٍ؟ فقيل: قالوا لأبيهم: ..[2]؛ أيْ: قالوا بيانًا لذلك، وتأكيدًا لطلبِهم في استِصْحاب أخيهم[3].

نُكتةُ إثباتِ ياءِ ﴿نَبۡغِيۖ﴾ وحذفِها:

لمّا لم تكتملِ البُغيةُ حُذفَ منها، ولمّا اكتملتْ لم يُحذفْ

أثبتَ البيانُ الإلهيّ الياءَ ﴿نَبۡغِيۖ﴾ في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَبَانَا مَا نَبۡغِيۖ هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتۡ إِلَيۡنَاۖ وَنَمِيرُ أَهۡلَنَا وَنَحۡفَظُ أَخَانَا وَنَزۡدَادُ كَيۡلَ بَعِيرٖۖ ذَٰلِكَ كَيۡلٞ يَسِيرٞ﴾، ولم يُثبتْها ﴿نَبۡغِۚ﴾ [الكهف: 64] في قوله تعالى: ﴿قَالَ أَرَءَيۡتَ إِذۡ أَوَيۡنَآ إِلَى ٱلصَّخۡرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ ٱلۡحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيۡطَٰنُ أَنۡ أَذۡكُرَهُۥۚ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِي ٱلۡبَحۡرِ عَجَبٗا ٦٣ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبۡغِۚ فَٱرۡتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصٗا ٦٤﴾ [الكهف: 63 - 64]؛ لأنّ إثباتَها في سورة

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/17.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/290.
(3) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 10/154.

يوسفَ جاء على الأصلِ؛ وذلك لبيانِ أنّ ذلك هو غايةُ ما يُريدونَه ويطلبونَه، فالطّعامُ الّذي أحضروه من مصرَ هو المُرادُ لذاتِه، فهم جاؤوا للامتلاءِ فأعطاهُم الميرةَ وأرجعَ إليهم أموالَهم، فهذا أكثرُ ممّا يَبغون، فناسبَ كمالُ تمامِ الحرفِ كمالَ تمامِ الغايةِ، أمّا في سورة الكهفِ فلم يكن فُقدانُ الحوتِ هو الغاية والهدف الرّئيس، وإنّما غايتُه هي الالتقاءُ بالخَضِر، فلمّا كانت البُغيةُ لم تكتمل؛ لأنّه لم يرَ الشّخصَ الّذي يبحثُ عنه بعدُ، وإنّما وصل للمكان، ناسبَ نقصانُ تمامِ الحرفِ نُقصانَ تمامِ الغايةِ فقال: ﴿قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبۡغِۚ﴾ [الكهف: 64][1].

سِرُّ إسنادِ القولِ إلى الجماعةِ في ﴿قَالُواْ﴾:

توافُقُ مَضمونِ قولِهم المُعلَّلِ والمُؤكَّدِ من توافُقِ حالِهم

أسندَ البيانُ القرآنيُّ الفعلَ ﴿قَالُواْ﴾ إلى واو الجماعةِ في قوله تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبۡغِيۖ﴾؛ للإشارةِ إلى اتّحاد رَدّةِ فعْلِهم بعد فَجأتِهم بوجدان البضاعةِ في أمتعتِهم فنطقوا بلسان الجماعةِ الّذي له أثرٌ أكبرُ في قَبول طلبِهم، بمضمونٍ واحدٍ يعلّلُ ويؤكّدُ طلبَهم الّذي اتّفقوا عليه؛ وهو إرسالُ أخيهم بنيامين، بالإضافة إلى توافُقِ ذلك مع أسلوب القصّةِ من بدايتِها بأن جعلَ هؤلاء الإخوةَ جميعًا طرفًا في القصّةِ يُعبّرُ عنهم بلسان الجماعة في قولهم وفعْلِهم.

الغرَضُ منَ التّعبيرِ بالنّداءِ في ﴿يَٰٓأَبَانَا﴾:

في النّداءِ تنبيهٌ، وتوكيدٌ لطلبِهم، واستعطافٌ لنَيلِ مُرادِهم

عبّر البيانُ القرآنيُّ بأسلوب النّداءِ بأداةٍ تُستخدمُ في مناداة البعيدِ رغمَ أنّ أباهم حاضرٌ معهم؛ في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَبَانَا مَا نَبۡغِيۖ هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتۡ إِلَيۡنَاۖ﴾؛ اهتمامًا بالغَرَضِ المُخاطَبِ فيه؛ أيْ: لتنبيهِ المنادَى وهو أبوهم إلى أمرٍ مُهمٍّ يجدرُ به أن يكون على وعْيٍ به، وهو أنّهم ماذا يَطلبون منَ الإحسان والكرم أكثرَ من هذا

(1) السّنديّ، الفتوحات الرّبّانيّة في الفوائد التّفسيريّة والبيانيّة: 3/46، والسّامرّائيّ، لمسات بيانيّة: 6/105.

الّذي فعلَه معنا عزيزُ مصرَ؟ لقد أعطانا الطَّعامَ الّذي نريدُه، ثمَّ ردّ إلينا ثمنَه الّذي دفعناه له دون أن يُخبرنَا بذلك، أو أنّهم لا يَبغون ويعتدون في طلبِهم هذا كما فعَلوا مع يوسفَ من قبلُ، وفي النّداء توكيدٌ لطلبِهم بإرسالِ أخيهم توكيدًا يحتاجُه المَقامُ؛ إذ إنّ (يا) تحملُ معنى التّأكيدِ والتّنبيهِ.

وفي النّداء إشارة أيضًا إلى أنّهم أرادوا إظهارَ التَّبجيل والاحترام، وبيانَ المكانةِ العاليةِ في قلوبهم تجاهَ أبيهم، وذلك استعطافٌ لأبيهم؛ لنيلِ مُرادِهم من إقناعِه بإرسالِ أخيهم معهم. وفيه إشارة إلى مناداتِه بوصْفٍ يُشعرُ بالشّفقة والعطوفةِ، فكأنّهم قَالُوا: مِن ترحُّمِك علينا أن ترسلَ معنا أخانا حتّى تصلَ ما نرومُ به مِن ازدياد الكيْلِ اليسيرِ فيحصلَ لنا الرّزقُ الكثيرُ[1].

دَلالةُ ﴿مَا﴾ في قوله ﴿مَا نَبْغِي﴾:

(مـــا) بـــينَ الاســتـفـهـامِ والنّفْي والطّلب والتّجاوُزِ

إذا فُسّر ﴿نَبْغِي﴾ بـ (نطلب)، وهو منَ البُغية وهي الطّلبُ، فإنّ ﴿مَا﴾ تحتملُ أحدَ وجهَيْن:

الأوّلُ: أنّها للاستفهامِ الإنكاريِّ بتنزيل المخاطَبِ منزلةَ مَن يُتطلّبُ منهم تحصيلُ بُغيةٍ فينكرون أن تكون لهم بُغيةٌ أخرى؛ أيْ: ماذا نطلبُ بعد هذا، والمعنى أنّهم لمّا رأوا أنّ يوسفَ عليه السلام ردَّ إليهم بضاعتَهم، قالوا: ما نَبغي بعدَ هذا؟، أعطانا الطّعامَ ثم ردَّ إلينا ثمنَه، فأيَّ شيءٍ نَبغيه فوق هذا الإكرام؟[2]، وفيه كذلك معنى التّعجُّبِ من كرمِ عزيزِ مصرَ، وما فعلَه معهم عزيزُ مصرَ من مُروءةٍ وسخاءٍ؛ أيْ: كأنّهم قالوا لأبيهم: كيف لا نعجبُ وندهشُ، وهذه بضاعتُنا رُدَّت إلينا من حيث لا نَدري ومعها الأحمالُ الّتي اشتريْناها من عزيز مصرَ لم ينقصْ منها شيءٌ؟[3].

(1) القُونوي وابن التّمجيد، حاشية على تفسير البيضاويّ: 10/371.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/17.
(3) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 7/390.

الثّاني: أنّها للنّفي، ويكونُ المُرادُ أنّهم لمّا وصَفوا يوسفَ بالكرم واللّطفِ وحسنِ الضّيافة والإكرام، قالوا: ﴿مَا نَبۡغِيۖ﴾؛ أيْ: لا نُغالي ولا نُسرفُ في ما حدّثْناك به عن كرمِ هذا الرّجلِ، أوِ المُرادُ: أنّه بلغَ في الإكرام إلى غايةٍ لا نتطلّعُ بعدَها إلى شيءٍ آخرَ، يعني لا نريدُ أكثرَ من ذلك، فإنّه بعد أن بالغَ في إكرامنا أمرَ بثمنِ الميرةِ فرُدَّ إلينا.

والمعنى على الوجهَيْن واحدٌ؛ لأنّ الاستفهامَ الإنكاريَّ في معنى النّفي"[1].

وأمّا إذا فُسِّر البغيُ بمجاوزة الحدِّ؛ أيْ بالكذبِ والتّزيُّدِ في القول فـ﴿مَا﴾ نافيةٌ فقط، والمعنى: لا نَتعدّى على أخينا[2]، ولا نَبغي في القول ولا نتزيّدُ فيما وصفْنا لك من إحسان الملِك إلينا وكرمِه الموجبِ لما ذُكر؛ أيْ: ما نكذبُ[3]، والجملةُ المستأنَفةُ ﴿هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا﴾ لبيان ما ادّعَوْا من عدمِ البَغي[4]؛ أيْ جاءت "بيانًا لصدْقِهم وانتفاءِ التزيُّدِ عن قيلِهم"[5]؛ أيْ كان ردُّ البضاعة دليلًا على صدْقِنا فيما قُلناه من أنّه أكرمَنا.

دَلالةُ التّعبيرِ بالفعْلِ المضارعِ في ﴿نَبۡغِيۖ﴾:

أفادَ صَوغُ ﴿نَبۡغِيۖ﴾ بصيغةِ المضارعِ المَنفيِّ أنّ طلبَ إرسالِ أخيهم معهم غيرُ مُتكرِّرٍ منهم، فهم لم يَسبقْ أنْ طلبوا إرسالَه معهم، إذا كان المُرادُ من ﴿نَبۡغِيۖ﴾ الطّلبَ، وأمّا إذا كان المُرادُ التّجاوُزَ أوِ التّعدّي والكذب فإنّ التَّعبيرَ بالمضارع يفيدُ أنّ بَغْيَهم لن يتكرّرَ منهم فقد بغَوا على يوسفَ سابقًا وتابوا إلى اللّه، ولن يَعودوا لمثلِ ذلك مع أخيهم بِنيامين، وفي هذا طمأنةٌ لنفسِ أبيهم؛ إقناعًا له بإرسالِ أخيهم معهم.

بعْدَ توبتِهم من بَغْيِهم على يوسفَ، نفَوا أنْ يتكرّرَ مثلُ ذلك منهم مع أخيهم

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/17.
(2) ابن جُزيّ، التّسهيل لعلوم التّنزيل: 1/391.
(3) ابن عطيّة، المُحرّر الوجيز: 3/260.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/291.
(5) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 8/383.

سِرُّ إسنادِ الفعْلِ ﴿نَبۡغِيۖ﴾ إلى الجمْعِ:

نفيُ البَغي عنهم جميعًا، توكيدٌ وطَمأنةٌ لقلْبِ أبيهم

أسندَ البيانُ القرآنيُّ فعْلَ ﴿نَبۡغِيۖ﴾ إلى ضمير الجمْعِ في قوله تعالى: ﴿مَا نَبۡغِيۖ﴾؛ للإشارةِ إلى توكيدِ نفْيِ البَغي عن أنفسِهم جميعًا بلا استثناءٍ، سواءٌ أكان معنى (نَبغي): نطلبُ، أو: نتجاوزُ ونَعتدي، وذلك زيادةٌ في طمْأنةِ قلبِ أبيهم.

موقعُ ﴿هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا﴾ ممّا قبْلَها، ودَلالتُه:

اتّخذوا من ردِّ بضاعتِهم، دليلًا على أنّهم غيرُ باغين فيما يطلُبون

فَصلَ البيانُ الإلهيُّ قولَه تعالى: ﴿هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتۡ إِلَيۡنَاۖ﴾ عمّا قبْلَها؛ لأحدِ أمرَيْن:

الأوّلُ: أنّها جاءت مبيِّنةً لجملةِ ﴿مَا نَبۡغِيۖ﴾ على الاحتمالَيْن، سواءٌ أكان معنى ﴿مَا﴾ للاستفهام الإنكاريِّ، أم للنّفي، وسواءٌ أكان معنى ﴿نَبۡغِيۖ﴾: نطلبُ، أم: نتجاوزُ ونَعتدي[1]؛ أيْ: جاءت إمّا موضِّحةً لما دلَّ عليه الإنكارُ من بلوغ اللُّطفِ غايتَه، كأنّهم قالوا كيف لا وهذه بضاعتُنا ردَّها إلينا تفضّلًا من حيث لا ندري بعدما منّ علينا منَ المِنَنِ العظامِ، هل من مزيدٍ على هذا فنطلبَه، ولم يريدوا به الاكتفاءَ بذلك مُطلقًا، أوِ التّقاعدَ عن طلب نظائرِه بل أرادوا الاكتفاءَ به في استيجاب الامتثالِ لأمرِه والالتجاءِ إليه في استجلاب المزيدِ[2]، وإمّا جاءت بيانًا لصِدْقِهم، وانتفاءِ التّزيُّدِ عن قيلِهم وما وصفْنا لك من إحسان الملِك[3]، وكونِهم مصيبين في رأيهم[4]، أو بيانًا لعدم تعَدّيهم وإرادةِ السّوء بأخيهم[5].

الثّاني: أنّها جاءت مستأنَفةً استئنافًا بيانيًّا؛ فإنّهم لمّا فتحوا أوعيتَهم ورأوا بضاعتَهم قد رُدّت إليهم قالوا: ما نَبغي، فكأنّ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/17.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/290
(3) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 8/383، والشّوكانيّ، فتح القدير: 3/47.
(4) النّيسابوريّ، غرائب القرآن: 4/104.
(5) ابن جزيّ، التّسهيل لعلوم التّنزيل: 1/391.

أباهُم قال لهم: ما الخبرُ؟ فقالوا بيانًا لذلك وتأكيدًا لطلبِهم في استصحابِ أخيهم[1].

غرَضُ التّعبيرِ بالجملةِ الاسميّة ﴿هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا﴾:

في ثُبوتِ مُلكِهم للبضاعةِ المردودة بيانٌ لزيادةِ فضلِ يوسفَ عليهم

عبّرَ البيانُ الإلهيُّ بالجملةِ الاسميّةِ ﴿هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا﴾؛ أيْ لم يقولوا: (وجدنا بضاعتنا في أمتعتنا)؛ لما تحملُه الجملةُ الاسميَّةُ من معنى الثَّباتِ والاستمرارِ؛ أيْ إنَّ مُلكَها ثابتٌ لنا، فقد رُدَّت إلينا من حيث لا نشعرُ، وقد أوفى لنا الكيلَ، وأحسنَ إلينا، وردَّ لنا الثَّمنَ، وفي هذا بيانٌ لزيادة فضْلِ يوسفَ عليهم بما يكون داعيًا لموافقةِ أبيهم على أن يُوفوا له بما طلبَ من إرسال أخيهم.

سِرُّ التّعبيرِ بالمُسنَدِ إليه اسمَ إشارةٍ ﴿هَٰذِهِۦ﴾:

في الإشارةِ إلى البِضاعةِ القريبةِ لفتُ النتباهِ أبيهم، أو تحقيقُ ردِّ بضاعتِهم

عبّرَ البيانُ الإلهيُّ باسْمِ الإشارةِ ﴿هَٰذِهِۦ﴾؛ ليُشيرَ بها إلى شيءٍ مُعيّنٍ قريبٍ، وهو بضائعُهم الّتي يعرفُها يعقوبُ، رغمَ أنّ يعقوبَ معهم ويرى البضاعةَ دون إشارةٍ إليها؛ لأمرَيْن:

الأوّلُ: أنّهم لم يَثقوا بمعرفةِ أبيهم لها، فعرّفوها بإشارتِهم إليها؛ لفتًا للانتباه إليها وزيادة الاهتمام بها، وهذا عند مَن عدّ ﴿هَٰذِهِۦ﴾ اسْمَ إشارة.

الثّاني: التّقريبُ للرّدّ والتّحقيقِ له، كقول القائلِ: هذه الشّمسُ قد طلعتْ، فتقرَّب بـ (هذه) طلوعُ الشّمس وتحقُّقه، ولا يُعرّف بها عينَ الشّمس[2]، وهذا عند مَن عدّ ﴿هَٰذِهِۦ﴾ للتّقريب. إذن: يحتملُ أن يكون قولُهم تعريفًا، ويحتملُ أن يكون ترغيبًا، وهو أظهرُ الاحتمالَيْن[3].

سِرُّ الإضافةِ في قوله: ﴿بِضَٰعَتُنَا﴾:

إضافةُ (بضاعة) إلى أنفسِهم في قوله تعالى: ﴿هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا﴾؛ لأمرَيْن:

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/154.
(2) الواحديّ، التّفسير البسيط: 12/168.
(3) الماورديّ، النّكت والعيون: 3/58.

الأوّلُ: للدّلالة على أنّها عينُ بضاعتِهم الّتي دفَعوها ثمنًا للطّعام الّذي حصَلوا عليه، وإشارة بذلك إلى تملّكِهم لهذه البضاعةِ؛ إذ لم تكن موضوعةً في بعض أمتعتِهم دون بعض، وإنّما كانت موجودةً في جميع أمتعتِهم بما يدلُّ على قصْدِ يوسفَ تمليكَهم إيّاها بعد أنْ أخذَها منهم زيادةً في إكرامهم، وضمانًا منه لعودتهم بأخيهم.

ردُّ عينِ بضاعتِهم، دافعٌ أكبرُ لإقناعِ أبيهم بإرسالِ أخيهم

الثّاني: أنّ في عودةِ عينِ بضاعتِهم أكبرَ شاهدٍ على صدْقِهم أمامَ أبيهم الّذي ذاق منهم مرارةَ خداعِهم وتفريطِهم بيوسفَ عليه السلام من قبلُ.

موقعُ قولِه: ﴿رُدَّتْ إِلَيْنَا﴾ ممّا قبلَه ودَلالتُه:

يحتملُ إعرابُ جملةِ ﴿رُدَّتْ﴾ أن تكونَ حالًا منَ البضاعةِ والعامل معنى الإشارةِ[1] بإضمار (قد) معه؛ لأنّ (قد) تقرّبُ الماضي منَ الحال[2]، والتّقديرُ: هذه بضاعتُنا مردودةً إلينا.

في الخبريّةِ والحاليّةِ، تأكيدٌ على ردِّ البضاعةِ إليهم

ويحتمل أنْ تكون خبرًا مُستأنفًا، والمعنى: هذه بضاعتُنا، هي رُدّت إلينا[3]، أو أنْ تكون خبرًا لاسْم الإشارة ﴿هَٰذِهِۦ﴾ بأن يكونَ إعرابُ ﴿بِضَٰعَتُنَا﴾ بدلًا من ﴿هَٰذِهِۦ﴾[4].

ومَن جعلَ ﴿هَٰذِهِۦ﴾ للتّقريبِ لا يُجيزُ استئنافَ ﴿رُدَّتْ﴾؛ لأنّها خبرُ التّقريب، وهو يُفتقرُ إليه، كما يُفتقرُ إلى خبر (كان)، فلا يجوزُ الاقتصارُ على ﴿هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا﴾ دون ذِكْرِ ﴿رُدَّتْ﴾[5].

وفي جميع الاحتمالاتِ الإعرابيّةِ تأكيدٌ لردِّ البضاعةِ إليهم وتملُّكِهم لها، وفي هذا إشارةٌ إلى أنّ أبناءَ يعقوبَ أرادوا بهذا الكلام أنْ يُطيِّبوا نفسَ أبيهم على الإذن لهم بالمعاودةِ وإرسالِ بنيامين معهم.

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/290، ودرويش، إعراب القرآن وبيانه: 5/18.
(2) باستثناء الأخفش، فهذا رأي البصريّين الّذين أوجبوا دخول (قد) على الفعل الماضي الواقع حالًا، لإفادة التّقريب إمّا ظاهرًا أو تقديرًا، أمّا الكوفيّون فقالوا: لا حاجة لنا لهذا التّقدير.
(3) الواحديّ، التّفسير البسيط: 12/169.
(4) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 5/18.
(5) الواحديّ، التّفسير البسيط: 12/169.

نُكتة تَكرار الفعلِ ﴿رُدَّتْ﴾:

تحقيقُ ردِّ البضاعة، والإشارةُ إلى شدّةِ فرحِهم بإعادتِها

كرّرَ البيانُ الإلهيُّ الفعل ﴿رُدَّتْ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَٰعَهُمۡ وَجَدُواْ بِضَٰعَتَهُمۡ رُدَّتۡ إِلَيۡهِمۡۖ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبۡغِيۖ هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتۡ إِلَيۡنَاۖ﴾ مرّتيْن، رغْمَ أنّ هذا الأمرَ - وهو فتحُ أمتعتِهم - كان بحضور يعقوبَ ورؤيتِه للبضاعة الّتي رُدّت، بدليلِ إشارتِهم بالقريب ﴿هَٰذِهِۦ﴾؛ وذلك لأمرَيْن:

الأوّلُ: توكيدٌ وتحقيقٌ لردّ البضاعةِ؛ لأنّهم قد دفَعوها للمَلكِ وتسلَّموا الطّعامَ بدلًا عنها، ولذلك لم يقولوا: جاءتْنا؛ لأنّهم صدّقوا مقالةَ العزيز عندما قال: ﴿فَلَا كَيۡلَ لَكُمۡ عِندِي﴾ [يوسف: 60] كأنها أُخذت ثمّ ردَّها، كما يصنعُ الملوك، خصوصًا ملوك مصرَ[1].

الثّاني: إشارةٌ إلى شدّة فرحِهم بإعادتِها إليهم؛ لأنّهم كانوا في أشدّ الحاجةِ إليها.

نُكتةُ التّعبيرِ بالفعْلِ ﴿رُدَّتْ﴾ مبنيًّا للمفعولِ:

الإخفاءُ المفهومُ من كمالِ غفلتِهم عن فاعلِه، يُؤْذِنُ بكمالِ الإحسانِ المُفرحِ لقلوبِهم

آثرَ البيانُ القرآنيُّ التّعبيرَ بالفعل ﴿رُدَّتْ﴾ مبنيًّا للمفعول في الموضعَيْن من قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَٰعَهُمۡ وَجَدُواْ بِضَٰعَتَهُمۡ رُدَّتۡ إِلَيۡهِمۡۖ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبۡغِيۖ هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتۡ إِلَيۡنَاۖ﴾؛ مراعاةً لغرَضِ السّامعِ؛ إذ لا غرَضَ للسّامعِ هنا في ذكْرِ الفاعل، بلِ التّعلّق بالمفعول لا غير، وهو ثمنُ الطّعامِ الّذي قد رُدّ إليهم من حيث لا يَدرون، ولذا يقول البقاعيّ: " لَمَّا كان المُفرِحُ مُطلَقَ الرَّدِّ، بُنِيَ قولُه ﴿رُدَّتْ﴾ للمفعولِ"[2]، وقد حرص القرآنُ الكريمُ بهذا على أن يظلَّ السّامعُ مرتبطًا بالحَدَثِ المُفرحِ، وينحصرُ وعيُه فيه ولا يتوزّعُ في غيره.

وللإيذانِ كذلك بكمالِ الإحسانِ النّاشئِ عن كمالِ الإخفاءِ المفهومِ من كمالِ غفلتِهم عنه بحيث لم يشعُروا به ولا بفاعلِه[3].

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3840.
(2) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 10/154.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/290.

دَلالةُ تَعدّي الفعلِ ﴿رُدَّتْ﴾:

ردُّ يوسفَ البضاعةَ إلى إخوتِه، كان تفضُّلًا منه وإحسانًا

الفعْلُ (ردّ) يتعدّى إلى المفعول الثّاني بـ (إلى) عند إرادة الإكرام وبـ (على) عند إرادة الإهانةِ[1]، والمقامُ في ﴿رُدَّتْ إِلَيْهِمْ﴾، و﴿رُدَّتْ إِلَيْنَا﴾: مقامُ إكرامٍ من يوسفَ لإخوته، بردِّ بضاعتِهم إليهم تفضُّلًا وإكرامًا وإحسانًا من حيث لا يَدرون، وهذا بحدّ ذاتِه من كمال الإحسانِ إليهم، بعدما مَنّ عليهم منَ المِنن العظامِ[2].

سِرُّ التّعبيرِ بالمجرورِ للمُتكلّمين ﴿إِلَيْنَا﴾:

شمولُ إحسانِ يوسُفَ للجميعِ، تأكيدٌ على ما وصَفوه لأبيهم

في إسناد ردِّ البضاعةِ إليهم، في قوله تعالى: ﴿هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا﴾ فوائد منها:

الأوّلُ: تأكيدُ الإخوةِ لأبيهم على ما وصَفوه له من إحسانِ يوسفَ عليه السلام.

الثّاني: الإشارةُ إلى أنّ التّكريمَ والإحسانَ من يوسفَ عليه السلام شملَهم جميعًا، ولم يقصدْ بعضًا دونَ بعضٍ، بما يُؤْذِنُ أنّ غرَضَ يوسفَ هو ضمانُ رجوعِهم جميعًا مع أخيهم بِنيامين.

الثّالثُ: مراعاةُ سياقِ الكلام الّذي جاء على لسانِهم بصيغة ضميرِ جماعةِ المُتكلّمين ﴿أَبَانَا﴾ - ﴿بِضَٰعَتُنَا﴾ - ﴿إِلَيْنَا﴾ - ﴿وَنَمِيرُ أَهْلَنَا﴾ - ﴿وَنَحْفَظُ أَخَانَا﴾.

دَلالةُ الواوِ في قولِه: ﴿وَنَمِيرُ أَهْلَنَا﴾:

الواوُ بين العطْفِ والاعتراضِ، في سياقِ الآيةِ الكريمةِ

الواوُ في قوله تعالى: ﴿وَنَمِيرُ أَهْلَنَا﴾ تحتملُ وجهَيْن؛ **الوجه الأوّل:** أنْ تكون عاطفةً، والمعطوفُ عليه يحتملُ ثلاثةَ احتمالات:

أوّلًا: أنْ يكونَ المعطوفُ عليه جملةَ ﴿هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا﴾، لأنّها في قوّة: هذا ثمنُ ما نحتاجُه منَ المِيرة صارَ إلينا، ونميرُ به أهلنا؛ أيْ: نأتيهم بالمِيرةِ[3].

(1) الزّبيديّ، تاج العروس: (ردد).
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/290.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/17.

ثانيًا: أنْ يكونَ المعطوفُ عليه محذوفًا، والتّقديرُ: رُدَّتْ إلينا، فنستَظْهِرُ بها، ونَميرُ أهلَنا بالرُّجوعِ إلى الملكِ[1]، أو رُدَّتْ إلينا، فنرجعُ بها إليه بأخينا، فيظهرُ له نصحُنا وصدقُنا، ونَميرُ أهلَنا[2].

ثالثًا: أنْ يكون جملةَ ﴿مَا نَبْغِي﴾، سواءٌ كان معنى ﴿مَا نَبْغِي﴾: ما نطلبُ، والتّقديرُ: كأنّهم قالوا: ما نَبغي منك في هذا الوجه شيئًا تصرفُنا به، ومع ذلك نميرُ أهلنا؛ أيْ: نجلبُ إليهم الطّعامَ[3]، أو كان معنى ﴿مَا نَبْغِي﴾: ما نتزيّدُ وما نكذبُ؛ أيْ: لا نَبغي فيما نقولُ، ونميرُ أهلنا، ونفعلُ كيتَ وكيتَ[4].

والوجه الثّاني: أنْ تكون اعتراضيّةً، بأن يكونَ الكلامُ كلامًا مبتدأً، والمعنى: وينبغي أنْ نميرَ أهلنا[5]. وهكذا تتغازرُ المعاني بتغازُرِ الوجوهِ مع التّعانقِ، والعبارةُ واحدةٌ، وهذا منَ الإيجاز والإعجازِ.

دَلالةُ التّعبيرِ بالمضارعِ في ﴿وَنَمِيرُ﴾:

يدلُّ التَّعبيرُ بصيغة المضارعِ في قولِه تعالى ﴿وَنَمِيرُ أَهْلَنَا﴾ إلى أنّ إرسالَ أخيهم معهم سيكونُ سببًا في تَكرار مجيئِهم بالمِيرةِ إلى أهلِهم وتجدُّدِه؛ أيْ: نأتي لهم بالمِيرةِ بالرّجوعِ مرّةً بعد مرّةٍ، كما أنّ في هذا التّعبيرِ تصويرًا لذلك، بما يُحقّقُ استعطافَ قلبِ أبيهم، وترغيبَه وإغراءَه لإرسال أخيهم معهم، تخفيفًا منَ الجوع الّذي حلّ بأهلِهم في ظلِ قحْطٍ عمَّ البلادَ.

تَكرارُ جلْبِهم للمِيرةِ، و إغراء أبيهم لاستصْحابِ أخيهم

سِرُّ إسنادِ الفعْلِ إلى المُتكلّمين ﴿وَنَمِيرُ﴾:

في إسنادِ الفعْلِ ﴿وَنَمِيرُ﴾ إلى ضمير الجماعةِ، والقائلُ هم أبناءُ

في الجمْعِ تصويرٌ لجلْبِ كمّيةٍ وفيرةٍ منَ المِيرةِ، إغراءً لأبيهم بإرسالِ أخيهم معهم

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/486، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/298، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/290.

(2) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 10/154.

(3) الواحديّ، التّفسير البسيط: 12/169.

(4) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/486، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/17.

(5) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/486، والطّيبيّ، فتوح الغيب: 8/383، وضعّف هذا القولَ أبو حيّان، وقال: "وهذا كلّه تَحْمِيلٌ للفظ القرآن مَا يَبْعُدُ تَحْمِيلُهُ، وفيه مخالفةُ الظَّاهِرِ لغيرِ دَلِيلٍ". ينظر: أبو حيّان، البحر المحيط: 6/296.

يعقوبَ إشارةٌ إلى توافُقِ كلمتِهم وعزمِهم جميعًا للذّهابِ إلى جلْبِ المِيرةِ بعد أنْ وَجدوا بضاعتَهم في متاعِهم، وإغراءٌ بتصويرِ كمّيةٍ وفيرةٍ منَ المِيرة في حال ذهابِهم جميعًا ممّا يدفعُ أباهم إلى إرسالِ أخيهم معهم ليَستَطيعوا جلْب المِيرة الّتي هم في أمسّ الحاجةِ إليها في ظلّ ظروفِ القحْطِ والجوعِ الّتي يمرّون بها.

سِرُّ التّعبيرِ بالمفعولِ به مُضافًا في: ﴿أَهْلَنَا﴾:

أشار البيانُ الإلهيُّ من خلالِ تعريف المفعولِ به بالإضافةِ إلى ضمير المُتكلّمين في قولِه تعالى: ﴿وَنَمِيرُ أَهْلَنَا﴾ إلى إغراءِ أبيهم يعقوبَ بأمرَيْن:

الأوّلُ: بتحمُّلِهم مسؤوليّةَ تأمينِ الطّعامِ لأهلِهم الّذي لن يتمَّ تأمينُه إذا لم يوافقْ على ذهاب أخيهم معهم.

الثّاني: بالشّفقةِ والرّحمةِ على جميع أهلِهم منَ النّساء والأطفالِ، الّذين لا يَصبرون على الجوع مع وجودِ القحْطِ الشّديدِ الّذي عمّ بلدَهم والبلادَ المجاورةَ.

في الإضافةِ إشعارٌ لأبيهم بتحمُّلِهم مسؤوليّةَ تأمينِ الطّعام لأهلِهم، رحمةً وشفقةً بهم

دَلالةُ الواوِ في قولِه ﴿وَنَحْفَظُ أَخَانَا﴾:

الواوُ في قوله تعالى: ﴿وَنَحْفَظُ﴾ عاطفةٌ، عطفتْ جملةَ ﴿وَنَحْفَظُ أَخَانَا﴾ على جملةِ ﴿وَنَمِيرُ أَهْلَنَا﴾، والعطفُ طلبٌ ثانٍ بعد الطّلبِ الأوّل ﴿وَنَمِيرُ﴾؛ ومناسبتُه هي أنَّ المَيْرَ يقتضي ارتحالًا للجلْبِ، وهذا يقتضي محافظتَهم على أخيهم؛ لأنّ المِيرة لا تكون إلّا به، بما يحقّقُ التّطْمينَ لخاطرِ أبيهم[1]، وإغراءه بالتّسليم لهذا الأمر الّذي لا بدَّ منه، ففيه جلبُ الخيرِ لهم، وهم في وجه هذا العُسرِ والضّيق![2].

في العطْفِ وعدٌ بحفْظِ أخيهم تطمينًا لخاطرِ أبيهم

دَلالةُ التّعبيرِ بالفعْلِ المضارعِ ﴿وَنَحْفَظُ﴾:

عبّرَ البيانُ القرآنيُّ بالفعل المضارعِ ﴿وَنَحْفَظُ﴾ في قولِه: ﴿وَنَحْفَظُ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/18.
(2) الخطيب، التّفسير القرآنيُّ للقرآن: 7/17.

أَخَانَا﴾؛ للإشارة إلى أنّ حفظَهم لأخيهم سيكونُ مستمرًّا مُتجدِّدًا في جميع مراحلِ رحلتِهم للمجيء بالمِيرةِ، ولن يقطَعوا حفظَهم عنه في طريق الذّهابِ، وأثناءَ المقامِ بمصر، وفي طريق الرّجوعِ، كما أنّ فيه تصويرًا بمشهدِ استمرارِ حفْظِهم لأخيهم ممّا يبعثُ الطّمأنينةَ في قلبِ يعقوبَ فيوافقُ على طلبِهم.

الوعدُ المستمرُّ المُتجدِّدُ بحفظِ أخيهم صورةٌ تبعثُ الطُّمأنينةَ في قلبِ أبيهم

سِرُّ التّعبيرِ بالمفعولِ به مضافًا في ﴿أَخَانَا﴾:

أشارَ البيانُ الإلهيُّ من خلالِ تعريفِ المفعول به بالإضافة إلى ضميرِ المُتكلّمين (نا)، في قوله: ﴿وَنَحْفَظُ أَخَانَا﴾، إلى قصْدِ الإخوةِ أن يُذَكّروا أباهم يعقوبَ عليه السلام بعلاقةِ الأُخوّة بينهم وبين أخيهم بِنيامين الّتي تستلزمُ منهم جميعًا أنْ يُحافظوا عليه، ويَعتنوا به، وهذا استعطافٌ لأبيهم كي يُرسلَ معهم أخاهم.

الإشارةُ إلى علاقةِ الأُخوّة بينهم وبين أخيهم استعطافٌ لأبيهم

سرُّ تَكرارهم حفْظَ أخيهم دون الأَخْذ:

كرَّروا وعْدَهم لأبيهم بحفْظِ أخيهم فقالوا: ﴿وَنَحْفَظُ أَخَانَا﴾ مع أنّه سبقَ منهم الوعدُ بحفْظِه في قوله تعالى: ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [يوسف: 63]؛ مُبالَغةً في الحضِّ على إرْسالِه[1]، و"تأكيدًا للوعْدِ بحفظِه، وبيانًا لعدمِ ضررٍ في سفره"[2]. وعبّروا بالحفْظِ دونَ الأخذِ؛ أيْ لم يقولوا (ونأخذ أخانا)؛ اختصارًا واكتفاءً بالمقصود وهو حفْظُه؛ لأنّ امتناعَ أبيهم من إرساله معهم، هو عدمُ ثقتِه بحفْظِهم له، أو"كأنّ أخذَه أمرٌ مفروغٌ منه، لا مراجعةَ لأبيهم فيه، فقد سلّمَ به لهم حُكمًا إن لم يكن قد سلّمَ به واقعًا"[3].

المبالغةُ في الحضِّ، وتأكيدُ الوعْدِ بما يُثلجُ صدْرَ أبيهم

دَلالةُ الواوِ في قولِه: ﴿وَنَزْدَادُ﴾:

الواوُ في قوله: ﴿وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ﴾ عاطفةٌ؛ عطفت هذه الجملةَ

حِرصُهم على زيادةِ المِيرةِ، يَستلزمُ محافظَتَهم على أخيهم

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/296.
(2) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 10/154.
(3) الخطيب، التّفسير القرآنيُّ للقرآن: 7/17.

على الّتي قبلها ﴿وَنَحْفَظُ أَخَانَا﴾، والمعنى: بحفْظنا لأخينا نزدادُ حملَ بعيرٍ يُكالُ لأخينا، وفي هذا العطفِ دلالةٌ على شدّة حرصِهم على سلامة أخيهم؛ لأنّ في سلامتِه فائدةً لهم بازديادِهم كيلَ بعير؛ لأنّ يوسفَ عليه السلام كان لا يُعطي أحدًا أكثرَ من حملِ بعيرٍ منَ الطّعام، فإذا كان أخوهم معهم أعطاه حمْلَ بعيرٍ، وبه تظهرُ المناسبةُ بين هذه الجملةِ والتي قبلَها[1].

دَلالةُ التّعبيرِ بالمضارعِ في ﴿وَنَزْدَادُ﴾:

صورةُ تجدُّدِ ازديادِ مِيرتِهم، ترغيبٌ لأبيهم وإغراءٌ بتحقيقِ مُرادِهم

استعملَ البيانُ القرآنيُّ فعلَ ﴿وَنَزْدَادُ﴾ بصيغة المضارع؛ الّذي يدلُّ على التّجدُّدِ والاستمرارِ، والمعنى: أنّ كلّ مرّةٍ سيذهبُ بِنيامين معنا للمِيرةِ سنزدادُ كيل بعيرٍ، وفيه كذلك تصويرٌ لجلْبِهم كيلًا زائدًا على ما اكتالوا في المرّة الماضيةِ، ترغيبًا لأبيهم وإغراءً له بالتّسليمِ لهذا الأمرِ الّذي لا بدَّ منه، وهم يعيشون العُسرَ والضّيق[2].

سِرُّ التّعبيرِ بالمفعولِ به مُضافًا ﴿كَيْلَ بَعِيرٍ﴾:

في الإضافةِ إشارةٌ إلى شِدّةِ عَوَزِهم، فكيلُ البعيرِ عندَهم شيءٌ ثمينٌ

إضافةُ ﴿كَيْلَ﴾ إلى ﴿بَعِيرٍ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ﴾ إضافةٌ بيانيّةٌ؛ أيْ عبّرَ بالمفعول به مضافًا ليُبيّنَ أنّ نصيبَ بِنيامين منَ المِيرةِ إذا ذهبَ معهم مقدارُه كيلُ بعيرٍ؛ لأنّ يوسفَ قسّطَ الطّعامَ بين النّاس فلا يُعطى الواحدَ أكثرَ من حِمْلِ بعيرٍ؛ وفي هذا إشارةٌ إلى أنّ كيلَ بعيرٍ شيءٌ ثمينٌ وذو قيمةٍ كبيرةٍ بالنّسبةِ لهم وهم في حالةِ المجاعةِ والقحْطِ.

نكتة التّعبيرِ بالجُمَلِ الخمْسِ متتابعةً:

أولى الأمور بالنّجاحِ، التّكرارُ والإلحاحُ

جاءت هذه الجُملُ الخمسُ: ﴿هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا ۖ وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ﴾ متتابعةً ومُرتَّبةً ترتيبًا بديعًا؛ لأنّ بعضَها

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/17.
(2) الخطيب، التّفسير القرآنيُّ للقرآن: 7/17.

مُتولِّدٌ من بعضٍ[1]، وتوالي الواوات بين: ﴿وَنَمِيرُ أَهْلَنَا﴾ و﴿وَنَحْفَظُ أَخَانَا﴾ و﴿وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ﴾ يجمعُ تلك المتعاطفاتِ، ويقرنُ بعضَها إلى بعضٍ بما يُمثّلُ أروعَ ما يمكنُ أنْ يبلُغَه فنُّ العرْضِ لمجموعةٍ من فريدِ اللآلئِ وكريمِ الجواهرِ، تُحرّكُها يدُ صَناعٍ، فتجيءُ بها واحدةً إثرَ أخرى، حتّى لكأنّها أنغامٌ موسيقيّةٌ، تؤلّفُ لحنًا! وفي اختيارِ حرفِ (الواو) من بين حروف العطْفِ، وفي تَكرارِه، دونَ مغايَرةٍ في هذا ما يزاوجُ بين هذه المتعاطفاتِ، ويُؤاخي بينَها، بحيث تبدو مُتجمّعةً، وهى متفرّقةٌ لِما في حرف (الواو) من رخاوةٍ ولينٍ، حيث تصبحُ هذه المُتعاطفاتُ على هذا النّسقِ، كيانًا واحدًا لا يمكنُ الفصلُ بين أجزائه، إنّها أمرٌ واحدٌ وطلبٌ واحدٌ![2]، وأَولى الأمور بالنَّجاح التَّكرارُ والإلحاحُ، فلم يَبْرحوا يُجادلون أباهم جدالَ طَلَبٍ، وهو يجادلُهم جدالَ إباءٍ وامتناعٍ، حتَّى نزل عند رغبتِهم مُشترطًا عليهم لإرسالِه معهم أن يُعاهِدوه على إرجاعه له سالمًا، ففعلوا[3]، "وفي هذه الجُملِ المُتعدّدةِ الّتي حكاها القرآنُ عنهم تحريضٌ واضحٌ منهم لأبيهم على أنْ يسمحَ لهم باصطحابِ بِنيامين معهم في رحلتهم القادمةِ إلى مصرَ"[4].

موقعُ قولِه: ﴿ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ﴾ ودَلالتُه:

استئنافٌ بيانيٌّ وقَعَ تَعْليلًا لِما سَبَق، كأنَّه قيل: أيُّ حاجةٍ إلى الازْدِيادِ؟ فقيل: ﴿ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ﴾، سواءٌ كان اسمُ الإشارة ﴿ذَٰلِكَ﴾ يعودُ إلى الزّاد الّذي أحْضروه من مصر، فالمعنى: ذلك الطّعامُ الّذي أعطانا إيّاه عزيزُ مصرَ طعامٌ يسيرٌ، لا يكفينا إلّا لمدّة قليلةٍ منَ الزّمان، ويجبُ أنْ نعودَ إلى مصرَ لنأتيَ بطعامٍ آخرَ؛ أيْ: ذلك مَكيلٌ قليلٌ لا يقومُ بأَوْدنا.

استئنافٌ يُعلّل طلبَهم، وحاجتَهم إلى الازديادِ منَ الميرة

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/17.
(2) الخطيب، التّفسير القرآنيُّ للقرآن: 7/18.
(3) الشّوابكة، غُرر البيان من سورة يوسف عليه السلام في القرآن، ص: 131.
(4) سيد طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 7/390.

أو كان اسْمُ الإشارة يعودُ إلى قوله ﴿كَيْلَ بَعِيرٍ﴾؛ أيْ: نصيبُ بنيامين، فالمعنى: ذلك الكَيلُ الزَّائدُ شيءٌ قليلٌ لا يُضَايقُنا فيه المَلِكُ، أو سَهْلٌ عليه لا يَتَعاظَمُه[1].

نُكتةُ التّعبيرِ بالمُسندِ إليه ﴿ذَٰلِكَ﴾:

في الإشارةِ إيماءٌ إلى قِلّةِ الطّعام الّذي أتَوا به، أو بُعْدِ زمانِ أخْذِه

اختارَ البيانُ القرآنيُّ للتّعبيرِ عنِ المُسنَدِ إليه اسمَ الإشارةِ ﴿ذَٰلِكَ﴾ الّذي يُستخدمُ للبعيد في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ﴾ والطّعامُ الّذي في متاعِهم قريبٌ منهم؛ أيْ لم يَقُل: هذا كيلٌ يسيرٌ؛ لِما في ذلك منَ الدّلالة على زيادة قلّتِه، هذا إذا كانتِ الإشارةُ إلى الأحمال الّتي أتَوا بها، وأمّا إذا كانتِ الإشارةُ إلى كيلِ بعيرٍ الّذي سيأخذونَه من يوسفَ عندما يَرجعون إليه بأخيهم فاستخدامُ اسْمِ الإشارة ﴿ذَٰلِكَ﴾ هو الأنسبُ لبُعْدِ الكيل عنهم وقْتَ حديثِهم.

الغرَضُ من تنكيرِ المُسنَدِ ﴿كَيْلٌ﴾:

في التّنكيرِ إرادةُ الوَحدةِ وإفادةُ التّقليلِ، للإفصاحِ عنِ المُرادِ

نكّرَ البيانُ القرآنيُّ لفظَ ﴿كَيْلٌ﴾ في قوله: ﴿ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ﴾؛ لإرادة الوَحدةِ، ولإفادة معنى التّقليلِ، فإذا كانت الإشارة إلى ﴿كَيْلَ بَعِيرٍ﴾ فالتّنكير دلّ على الوَحدة وأنّه كيلٌ واحدٌ، وهو كيلٌ سهلٌ ومُتيسّرٌ على مَن يكيلُ لنا، وأمّا إنْ كانت الإشارةُ إلى الأحمال فالتّنكيرُ يفيدُ التّقليلَ، والمعنى أنّها قليلةٌ لا تَكفيهم، حتّى يُضافَ إليها كيلُ بعير.

سِرُّ قيْدِ المُسنَدِ ﴿كَيْلٌ﴾، بالصّفة ﴿يَسِيرٌ﴾:

في وصفِ الكيلِ باليسير، إفادةٌ بأنّه سهلٌ مُتيسِّرٌ وسريعٌ وقليلٌ

وصفَ البيانُ الإلهيُّ الكيلَ بأنّه يسيرٌ في قوله: ﴿ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ﴾؛ لإفادة معانٍ تتعلّقُ بالمُراد منَ الكيلِ المُشار إليه:

فإنْ كانت الإشارةُ إلى ﴿كَيْلَ بَعِيرٍ﴾؛ فالمعنى هو: إمّا أنّه كيلٌ سهلٌ ومُتيسّرٌ على مَن يكيلُ لنا؛ أيْ: سهل الحصول عليه؛ لأنّ العزيزَ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/290.

أوصى بإحضاره، أو هو حملُ بعيرٍ لا عسرَ فيه على عزيزِ مصرَ الجوادِ المُحسنِ[1]، ومنه قولُه تعالى: ﴿فَذَٰلِكَ يَوۡمَئِذٖ يَوۡمٌ عَسِيرٌ ۝٩ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ غَيۡرُ يَسِيرٖ ۝١٠﴾ [المدثر: 9 - 10]، أو أنّ ذلك المَكيلَ الزّائدَ قليلٌ لا يكثرُ عليه لسخائِه ولا يَشقُّ عليه، وإنْ كان يعلمُ أنّ كلَّ ما نأخذُه لبيتٍ واحدٍ[2]، أو كيلٌ يسير، يعني: سريعٌ، لا حبسَ فيه إنْ أرسلته معنا عجَّل الملكُ لنا الكيلَ[3]؛ أيْ: قصير المدّة ليس سبيلُ مثْلِه أنْ تطولَ مدّتُه بسببِ الحبْسِ والتّأخير[4]، فكأنّهم بذلك آنَسوه على هذا بقُربِ الأوبة[5]. وإنْ كانت الإشارةُ إلى الأحمالِ، فالمعنى أنّها قليلةٌ لا تَكفيهم حتّى يُضاف إليها كيلُ بعير[6]؛ أيْ: ذلك الّذي يُدفع إلينا دونَ أخينا شيءٌ قليلٌ لا يَكفينا، فابعثْ أخانا معنا حتّى نتبدّلَ تلكَ القِلّةَ بالكثرة[7]، ومنه قولُه تعالى: ﴿وَمَا تَلَبَّثُواْ بِهَآ إِلَّا يَسِيرٗا ۝١٤﴾ [الأحزاب: 14]، وهذا كلُّه إذا كان قولُه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ كَيۡلٞ يَسِيرٞ﴾ حكايةً لكلامِهم، وأمّا إذا كان من كلامِ يعقوبَ فوصْفُ الكيلِ باليسيرِ من تمام الكلامِ وتحسينِه؛ أيْ: إنَّ هذا يسيرٌ في مقابلة أخْذِ أخيهم ما يعدلُ هذا[8]؛ أيْ: "حِملُ بعيرٍ واحدٍ شيءٌ يسيرٌ لا يُخاطَرُ لمِثْلِه بالولدِ"[9].

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(يسير) و(قليل):

بين لفظَي القليلِ واليسيرِ تقاربٌ دلاليٌّ، إذ يُعبّرُ عنِ الشّيءِ القليلِ باليسير، وعن الشّيءِ اليسيرِ بالقليل؛ وذلك لأنّ الشّيءَ إذا

الشّيءُ إذا قلّت كمّيتُه، أو قلَّ عددُهُ، سهُلَ عدُّه وحَملُه، فكانَ يسيرًا

(1) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 8/384.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/290.
(3) السّمرقنديّ، بحر العلوم: 2/201.
(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 18/481.
(5) ابن عطيّة، المُحرّر الوجيز: 3/261.
(6) ابن جُزيّ، التّسهيل لعلوم التّنزيل: 1/391.
(7) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 18/481، والطّيبيّ، فتوح الغيب: 8/384.
(8) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/399.
(9) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/297.

قلّت كمّيته، أو قلّ عددُه سهُلَ حملُه وعطاؤه وعدُّه، إلّا أنّنا إذا رجعنا إلى الأصل اللّغويِّ لكلٍّ منهما وجدْنا فروقًا بين اللّفظيْن، وبيانُ ذلك:

أوّلًا: أصلُ (يسير) يدلُّ على انفتاحِ شيءٍ وخِفَّتِهِ، واليُسْرُ: ضِدُّ العُسْرِ[1]، واليَسَرُ: السَّهْلُ اللَّيِّنُ الانقيادِ، واليَسيرُ: الهَيِّن أوِ القَليلُ[2].

ثانيًا: وأصلُ (قليل) يدلُّ على نَزارَةِ الشّيء[3]، والقِلَّةُ: ضِدُّ الكَثْرَةِ، والقليلُ يُقال في قلّةِ العددِ، وفي دِقَّةِ الجُثَّةِ والنَّحافَةِ، والإقْلالُ: الافْتِقارُ[4].

فالفرقُ بين (اليسيرِ) و(القليلِ) هو أنّ اليسيرَ في أصلهِ يدلُّ على الخفّة والسّهولةِ واللّين، وضدُّه: العسيرُ، بينما القليلُ في أصله يدلُّ على نزارةِ الشّيء وقلّة عددِه، وضدُّه: الكثرةُ.

وقد فرّق العسكريُّ بينَهما فذكرَ أنّ القلَّة تَقْتَضِي نُقْصَان العدَد، يُقَال: قومٌ قَليلٌ وقليلون، ومن القُرْآن: ﴿لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ۝٥٤﴾ [الشّعراء: 54] يُرِيد أَنّ عَددهمْ ينقصُ عن عدَّةِ غَيرهم، وهي نقيضُ الكَثْرَة، وليستِ الكَثْرَةُ إلّا زيادةَ العدَد، وهي في غيره اسْتِعَارَةٌ وتشبيهٌ، بينما اليسيرُ منَ الأشياء: ما يَتَيَسَّر تَحْصيلُه، أَو طلبهُ، ولا يقتضي ما يَقْتَضيهِ الْقَلِيل من نُقْصان العدَد، أَلا ترى أَنّه يُقال: عددٌ قَليل، ولا يُقال: عددٌ يسير، ولكن يُقال مالٌ يسير؛ لأَنّ جمعَ مثلِه يَتَيَسَّرُ، فَإِنِ اسْتُعْمل اليَسيرُ في مَوضِع القَليل فقد يجْري اسْمُ الشَّيْء على غَيره إِذا قرُبَ منه[5].

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (يسر).
(2) الزّبيديّ، تاج العروس: (يسر).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (قلّ).
(4) الزّبيديّ، تاج العروس: (قلل).
(5) العسكريّ، الفروق اللُّغويّة، ص: 252.

﴿قَالَ لَنۡ أُرۡسِلَهُۥ مَعَكُمۡ حَتَّىٰ تُؤۡتُونِ مَوۡثِقٗا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأۡتُنَّنِي بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمۡۖ فَلَمَّآ ءَاتَوۡهُ مَوۡثِقَهُمۡ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٞ ٦٦﴾ [يوسف: 66]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

في مناسبةِ الآية لِما قبْلَها وجهان: **الأوّلُ**: لم يزالوا يُجادلون أباهم جِدالَ طلبٍ، واجتهدوا في ذلك حتّى أقنعوهُ بلُزومِ أوِ استحسان إرسالِ بِنيامين معهم، فسمحَ لهم بإنفاذ بِنيامين معهم، لكنْ بشروطٍ سلَكَ فيها معهم سبيلَ الاحتياطِ فقال: ﴿قَالَ لَنۡ أُرۡسِلَهُۥ مَعَكُمۡ حَتَّىٰ تُؤۡتُونِ مَوۡثِقٗا مِّنَ ٱللَّهِ﴾.

إسنادُ الحفْظِ للهِ لم يثْنِ يعقوبَ عن أخذِ المواثيقِ على أبنائِه

والثّاني: أنّ يعقوبَ لمّا قال: ﴿فَٱللَّهُ خَيۡرٌ حَٰفِظٗاۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ أبدَى عدمَ ثقتِه بحفْظِهم أوّلًا، وعدمَ الثّقةِ بما في نفوسهم ثانيًا، وبالنّسبة للأوّل تركَ الأمرَ للّه فهو خيرٌ حافظًا، وأخذَ موثِقًا للأمر الثّاني فقال: ﴿قَالَ لَنۡ أُرۡسِلَهُۥ مَعَكُمۡ حَتَّىٰ تُؤۡتُونِ مَوۡثِقٗا﴾، وذلك في أثناء مبادلةِ القولِ مع أبيهم بشأن أخيهم، وجدوا بضاعتَهم في رحالِهم[1] بعدَ إلحاحِهم وتحريضِهم ومحاورتِهم لأبيهم في إرسال بِنيامين معهم، لم يستجبْ لهم يعقوبُ إلّا على كُرهٍ منه، واشترطَ لهذه الاستجابةِ ما حكاه القرآنُ في قوله: ﴿قَالَ لَنۡ أُرۡسِلَهُۥ مَعَكُمۡ حَتَّىٰ تُؤۡتُونِ مَوۡثِقٗا مِّنَ ٱللَّهِ﴾[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تُؤۡتُونِ﴾: أصلُ (أتو) يدلُّ على مَجيءِ الشَّيْءِ وإصْحابِهِ وطاعَتِهِ، والأَتْوُ: الاستقامةُ في السَّيرِ والسُّرْعةِ، والإيتاءُ: الإعْطاءُ[3]،

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3839.
(2) سيد طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 7/391.
(3) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (أتو).

والإِتْيان: المَجيء، وآتَاه الشَّيْءَ؛ أَيْ: أَعطاهُ إِيَّاه، وآتَاهُ على الأَمْرِ: طاوَعَه، والمُؤاتاةُ: حُسْنُ المُطاوَعةِ، وآتَيْتُه على ذلك الأَمْر مُؤاتاةً إذا وافَقْتَه وطاوَعْتَه[1]. ومعنى ﴿تُؤْتُونِ﴾ في الآية موافقٌ للمعنى اللُّغويِّ؛ أَيْ: حتّى تُعطونِ موثقًا[2].

2) ﴿مَوْثِقًا﴾: أصلُ (وثق) يدلُّ على عقدٍ وإحكام، ووَثَّقْتُ الشَّيءَ: أَحْكَمْتُهُ، والميثاقُ: العَهْدُ المُحْكَمُ[3]، والوَثاقة: مَصْدَرُ الشَّيْءِ الوَثيق المُحْكَم، والحَبْلُ أَوِ الشَّيْءُ الَّذي يُوثَق بِهِ وِثاقٌ، وأَوْثَقهُ في الوَثاقِ؛ أَيْ: شَدَّهُ، والوَثِيقةُ: الإحكامُ في الأَمرِ، والوَثيقُ: الشَّيْءُ المُحْكم، والمَوْثِقُ: الْعَهْدُ[4]، والميثاقُ: عقدٌ مُؤَكَّدٌ بيمينٍ وعهدٍ، والمَوْثِقُ الاسمُ منه، كقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ﴾[5]. ومعنى ﴿مَوْثِقًا﴾ في الآية موافقٌ للمعنى اللُّغويِّ؛ أَيْ: بمعنى الميثاقِ، وهو ما يُوثَقُ به من يمينٍ وعهد[6].

3) ﴿يُحَاطَ﴾: أصلُ (حوط) هو الشَّيْءُ يُطيفُ بِالشَّيْءِ، فالحَوْطُ مِنْ حاطَهُ حَوْطًا[7]، يُقال: حاطَهُ حيطةً إذا تعاهدَه، واحتاطتِ الخيلُ بفلانٍ وأحاطتْ به؛ أَيْ: أحدقتْ، وكلُّ مَن أَحْرَزَ شيئًا كلَّه وبلغ عِلْمُه أقصاه فقد أحاطَ به، وسُمّيَ الحائِطُ، لأنّه يَحوطُ ما فيه[8]، وأَحاطَ بِهِ الأَمْرُ، إذا أَخَذَه من جَميعِ جَوانِبِه فَلم يَكُنْ مِنْهُ مَخْلَصٌ، ويُقال: أُحيطَ بفلانٍ، إذا أُتِيَ عَلَيْهِ، أَو دَنا هَلاكُه، وهو مَجازٌ[9]. ومعنى قوله تعالى: ﴿إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ﴾؛ أَيْ: تؤْخَذوا مِنْ جَوانِبِكم[10]، أو: إلّا أنْ تهلكوا جميعًا، أو: إلّا أنْ تُغلبوا حتّى لا تُطيقوا ذلك[11]؛ أَيْ: تَعُمُّكُمُ الغَلَبَةُ مِنْ جميعِ الجِهَاتِ حتّى لا يَكُونَ لكم حِيلَةٌ ولا وَجْهُ تَخَلُّصٍ[12].

4) ﴿وَكِيلٌ﴾: أَصْلُ (وكل) يدلُّ على اعْتِمادِ غيْرِكَ على أَمْرِكَ، والتَّوَكُّلُ منهُ، وهو

(1) ابن منظور، لسان العرب: (أتى).
(2) ابن جرير، جامع البيان: 16/163، والبغويّ، معالم التّنزيل: 2/502.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (وثق).
(4) ابن منظور، لسان العرب: (وثق).
(5) الرّاغب، المُفردات: (وثق).
(6) ابن جرير، جامع البيان: 16/163.
(7) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حوط).
(8) الخليل، العين: (حوط).
(9) الزّبيديّ، تاج العروس: (حوط).
(10) الهرويّ، الغريبيْن في القرآن والحديث: 2/511.
(11) البغويّ، معالم التّنزيل: 2/502.
(12) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/297.

إظهارُ الْعَجْزِ في الْأَمْرِ والاعْتِمادُ على غَيْرِكَ، وسُمِّيَ الوَكِيلُ، لأَنَّهُ يوكَلُ إليْهِ الأَمْرُ[1]، ووَكَّلَهُ في الأَمْرِ تَوْكِيلًا: فَوَّضَهُ إِلَيْهِ، والوَكِيلُ في أَسْماءِ اللّه تعالى هو المُقيمُ الكَفيلُ بِأَرْزاقِ العِباد، والوكيل أيضًا: الكافي والحافظُ والكَفيل[2]، والوَكيلُ أعمُّ؛ لأنّ كلّ كفيلٍ وَكيلٌ، وليس كلُّ وَكيلٍ كفيلًا[3]. ومعنى ﴿وَكِيلٌ﴾ في الآية موافقٌ للمعنى اللُّغويِّ؛ أيْ: شاهِدٌ، وقيّمٌ وحافظٌ وضامنٌ[4]، ومُطّلِعٌ ورقيبٌ، فإنّ الموكّل بالأمرِ يراقبهُ ويحفظُه[5].

❁ المَعْنى الإِجْماليُّ:

قال لهم يعقوبُ: لن أترُكَه يذهَبُ معكم حتَّى تتعَهَّدوا وتحلِفوا لي باللّه أنْ ترُدُّوه إليَّ، إلَّا أنْ تُغْلَبوا جميعُكم بأمرٍ لا قِبَلَ لكم به، فلا تقْدِروا على تخليصِ أخيكم ورَدِّه معكم، فلَمَّا أعطَوه عهدَ اللّه على ما طلَبَ، قال يعقوبُ: اللّه على ما نقولُ وكيلٌ، تكفينا شَهادتُه علينا، وحِفظُه لنا[6].

عـلّـقَ يعـقـوبُ إرسـالَ بنيامين على أخذِ العهدِ الـغـلـيـظ من أولاده

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

موقعُ الآيةِ ﴿قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُۥ﴾ ودَلالتُه:

جاءت جملةُ ﴿قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُۥ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ﴾ جوابًا على إلحاحِهم على أبيهم بتنفيذِ طلَبِهم؛ وهو إرسالُ بنيامين معهم بقولهم: ﴿قَالُواْ يَـٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِىۖ هَـٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَاۖ وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍۖ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ﴾ على طريقةِ المُحاوَراتِ؛ أيْ: فَصَلَ الجوابَ، ولم يعطفْ بالواو؛ كراهيةَ تَكريرِ

جِـــوارٌ قـرآنيٌّ جـاءَ فـيـهِ قـولُ يعقوبَ، جوابًا قاطعًا على طلَبِ أبنائِه

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (وكل).
(2) الزّبيديّ، تاج العروس: (وكل).
(3) الرّاغب، المُفردات: (وكل).
(4) ابن عطيّة، المُحرّر الوجيز: 3/261، والبغويّ، معالم التّنزيل: 2/502.
(5) سيد طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 7/391، والمراغيّ، تفسير المراغيّ: 13/14.
(6) ابن جرير، جامع البيان: 13/236، والسّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 402.

العاطفِ بتكريرِ أفعالِ القولِ، فإنّ المحاورةَ تقتضي الإعادةَ في الغالبِ، فَطَرَدوا البابَ فحذَفُوا العاطِفَ في الجميعِ، وهو كثيرٌ في التّنزيل[1]. والمعنى أنّ يعقوبَ لم يجدْ بُدًّا منَ التّسليمِ بالأمر الواقعِ بعدَ أنْ جادلهُ أبناؤهُ جِدالَ طلبٍ، وأخذوا عليه كلَّ سبيلٍ، فلم يجدْ بُدًّا للتّخلّصِ من هذا الطّلبِ الّذي طلبوه، وإنّه لكي يقيمَ لنفسه عذرًا بين يدي تلكَ المخاوفِ الّتي يتخوّفُها على بِنيامين، دفعَهم عنه مُجيبًا بقوله: ﴿لَنْ أُرْسِلَهُۥ مَعَكُمْ﴾، هكذا بدأهم بهذا الحُكم القاطعِ كما بدأوه هم بقولهم: ﴿مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا﴾ [يوسف: 63]، ثمّ جاءَهم مُستثنيًا هذا الحُكمَ بقوله: ﴿حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ﴾[2].

دَلالةُ تأكيد النّفي بـ ﴿لَنْ﴾ النّفْي:

﴿لَنْ﴾ حرفُ نفْيٍ تَنفي المستقبلَ القريبَ والبعيدَ معًا؛ والمعنى: لنْ أرسلَه، وإنّ إرسالَه يُنافي حالي، وقد رأيتُ منكم ما رأيتُ حتّى تُؤْتوني مَوْثِقًا مِنَ الله؛ أيْ: حتّى تُعطوني ما أتوثّق به من عند الله[3]، وفي هذا التّعبير تأكيدٌ على قطعيّةِ عدمِ إرسالهِ معهم إنْ لم يأتوهُ بالعهودِ الموثّقةِ الّتي تبدّدُ مخاوفَه.

بدأهم بحُكمٍ قاطعٍ بعدمِ إرسالِه إنْ لم يَأْتوهُ بما يُبدّد مخاوفَه

سِرُّ التّعبيرِ بالإرسالِ:

عبّرَ البيانُ القرآنيُّ بلفظِ ﴿أُرْسِلَهُۥ﴾ في: ﴿لَنْ أُرْسِلَهُۥ مَعَكُمْ﴾ دون (أبعثَه)؛ لكونهِ أكثرَ مناسبةً لحالِ يعقوبَ ﷺ، فإنّه كان يُمسِكُ بِنيامين كما كانَ يفعلُ مع يوسُفَ، بل إنّ إمساكَه لبِنيامين وحبْسَه عنهم أصبحَ أشدَّ بعدَ الّذي حصلَ ليوسفَ عندما أرسلهُ معهم؛ إذ إنّ الإرسالَ في المحبوسِ إطلاقُه[4]، بخلافِ ما لو عبّرَ البيانُ الإلهيُّ

لا يُلدغُ المؤمنُ من جُحرٍ مرّتيْن

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/401.
(2) الخطيب، التّفسير القرآنيُّ للقرآن: 7/18.
(3) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 8/384.
(4) ابن الجوزيّ، نزهة الأعيُن، ص: 152.

بـ (أبعثَه) الّذي يدلُّ على الإثارةِ والاندفاع[1]، يُقال انبعثَ الشّيءُ: اندفعَ، وبعثهُ من نومه: أيقظهُ وأهَبَّه، والبعثُ: النّشورُ[2]، وعليه فإنّه في حال التّعبير بالبعث قد يُفهمُ أنّ يعقوبَ هو الّذي يريدُ أنْ يدفعَه، وهذا يخالفُ حالَ يعقوبَ عليه السلام من إمساكهِ لبِنيامين.

دَلالةُ التّعبيرِ بالمضارعِ ﴿أُرۡسِلَهُۥ﴾:

قرارُ يعقوبَ قاطعٌ ومُستمرٌّ، حتّى يَحلِفوا الأيمانَ العظيمةَ

استعملَ القرآنُ الكريمُ صيغةَ المضارعِ في قوله تعالى: ﴿لَنۡ أُرۡسِلَهُۥ مَعَكُمۡ﴾؛ للدّلالةِ على نفْيِ حدوثِ إرسالِ يعقوبَ لبِنيامين مع إخوتِه، وعلى استمرارِه في قرارِه القاطعِ بعدمِ إرسالِه حتّى يأتوا بالعهودِ والمواثيقِ، وقد أُكّد هذا الاستمرارُ بالحرفِ ﴿لَنۡ﴾ الّتي تفيدُ النّفيَ في المستقبل القريبِ والبعيدِ.

سِرُّ التّعبيرِ بالمفعولِ به مُضمَرًا في ﴿أُرۡسِلَهُۥ﴾:

الإضمارُ أبلغُ اختصارًا وموافقةً للسّياقِ

أضمرَ البيانُ الإلهيُّ المفعولَ به في الفعل ﴿أُرۡسِلَهُۥ﴾؛ إذ جاءَ به ضميرًا غائبًا (الهاء)، وعدلَ بذلك عنِ الإظهارِ، فلم يَقلْ: (لنْ أرسلَ أخاكم معكم، أو: لنْ أرسلَ بِنيامين معكم)؛ لأمورٍ:

الأوّلُ: اختصارًا؛ لأنّ سياقَ الآياتِ وموضوعَها يتحدّثُ عن أخيهم، فقد سبقَ ذَكَرُه في طلبهم ﴿فَأَرۡسِلۡ مَعَنَآ أَخَانَا﴾، ولذا احتُرزَ عنِ الزّيادةِ بالتّصريحِ به.

الثّاني: توافقًا مع عادةِ القرآنِ بعدمِ التّصريحِ بأسماءِ غيرِ الأنبياءِ والرّسلِ، ومَنْ تدورُ عليهم كلُّ أحداثِ القصّة.

الثّالث: توبيخًا وعتبًا عليهم في التّعبيرِ بالضّمير دونَ قوله (أخاكم)؛ أيْ إنّهم لا يستحِقّون هذه الرّابطةَ؛ لأنّهم لم يكونوا أهلًا لأداءِ حقِّها مع أخيهم يوسفَ.

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (بعث).
(2) ابن سِيده، المُحكَم والمُحيط الأعظم، وابن منظور، لسان العرب: (بعث).

الرّابع: مناسبةً للسّياقِ الّذي جاءَ بحُكم قاطعٍ يشترطُ فيه المواثيقَ والعهودَ، والأصلُ أنّ ذلك لا يكونُ بحقِّ إخوةٍ للحفاظِ على أخيهم.

نُكتةُ التّعبيرِ بالظّرفَ المضافِ ﴿مَعَكُمْ﴾:

فـي التّأكيدِ بالظّرفيّة إشارةٌ إلى عدَمِ ائتمانِه معيَّتَهم

ذكَرَ البيانُ القرآنيُّ الظّرفَ المضافَ (مَعَكُمْ) في قوله تعالى: ﴿لَنْ أُرْسِلَهُۥ مَعَكُمْ﴾، علِمًا بأنَّه قد سبقَ ذِكرُه في طلبِهم ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا﴾ [يوسف: 63]؛ تأكيدًا على عدمِ ائتمانِه لمعيّتِهم، وعدمِ ثقتِه بهم، وتعليلًا لِما طلبَهُ من مواثيقَ؛ أيْ: "لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ إذْ رأيتُ منكم ما رأيتُ"[1]، ذلك لأنّ الظّرفَ ﴿مَعَكُمْ﴾ لم يأتِ بمكانٍ جديدٍ؛ إذ قد سبقَ ذِكرُ المكان ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَآ﴾ [يوسف: 63]، فالتّعبيرُ به أفادَ توكيدَ معنى عاملِه ﴿أُرْسِلَهُۥ﴾ الدّالِّ على عدمِ الإرسالِ معهم، وكذلك تذكّرُ وتصوّرُ تلك المعيّةَ في مُخيّلتهم حين أرسلَ معهم أخاهم يوسفَ بما يكون أدْعى لحرصِهم على بِنيامين، وعدمِ التّفريطِ به كما فرّطوا بأخيه يوسفَ عليه السلام من قبلُ.

دلالة ﴿حَتَّىٰ﴾ في قوله ﴿حَتَّىٰ تُؤْتُونِ﴾:

إتمامُ المَوثِقِ الّذي لا ينتهي أثرُهُ إلّا بعدَ عودةِ بِنيامين

تنصرفُ ﴿حَتَّىٰ﴾ مع الفعل المضارعِ إلى المستقبلِ، وتأتي غالبًا لإفادةِ بلوغِ الغايةِ، أو لتعليلِ الحدَثِ، وقد جاءتْ هنا في قولِه تعالى: ﴿حَتَّىٰ تُؤْتُونِ﴾ للغاية الدّالّةِ على المستقبل؛ أيْ دلّ التّركيبُ الفعليُّ (حتّى والفعلُ المضارعُ) ﴿حَتَّىٰ تُؤْتُونِ﴾ على المستقبل، والمعنى: لن أرسلَه معكم حتَّى تحلفوا بالعهودِ والمواثيقِ[2]؛ أيْ: حتّى يتحقّقَ إتمامُ الموثِقِ، وهو العهدُ المُؤكَّدُ باليمين؛ أي: القَسَم، وينتهي بعودةِ أخيهم بِنيامين بعد أنْ يرسلَهُ معهم، فهو غيرُ أبديٍّ وغيرُ دائمٍ؛ لكي يأمنَ مكرَهم وألّا يفعلوا به كما فعلوا بيوسفَ.

(1) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/170.
(2) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/399.

دَلالةُ التّعبيرِ بفعْلِ الإتيانِ ﴿تُؤۡتُونِ﴾:

في التّعبيرِ بإيتاءِ اليَمينِ، تفخيمٌ لـه وتأكيدٌ لِصدْقِهِ

عبّرَ البيانُ القرآنيُّ بفعل الإتيانِ في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ تُؤۡتُونِ مَوۡثِقٗا مِّنَ ٱللَّهِ﴾ دونَ قوله: (حتّى تحلفوا أو تُقسموا)؛ لأنَّ الإيتاءَ والإعطاءَ وما يُرادُ بهما اشتهرَ في إنشاءِ الحلفِ؛ وذلك ليَطْمَئِنَّ بصدْقِ الحالفِ غَيْرُهُ، وهو المَحْلوفُ لَهُ، وفي حديث الحشْرِ: «فَيُعْطِي اللّه مِنْ عُهُودٍ وَمَوَاثِيقَ أَنْ لَا يَسْأَلَهُ غَيْرَهُ»[1]، كما أطلقَ فعلَ الأخذ على تلقّي المَحْلوفِ لَهُ لِلْحَلِفِ، قال تعالى: ﴿وَأَخَذۡنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظٗا ٢١﴾ [النّساء: 21]، ولعلَّ سببَ إطلاقِ فعلِ الإعطاءِ أوِ الإتيانِ أنّ الحالفَ كان في العصورِ القديمةِ يُعطي المحلوفَ له شيئًا تذكرةً لليمين مثل سوْطِهِ أو خاتَمِه[2]، إضافةً إلى أنّ اختيارَ هذا اللّفظ يتناسبُ مع ما سيأتي بعد ذلك في السّياق نفسِه من مفرداتٍ: ﴿لَتَأۡتُنَّنِي بِهِۦٓ﴾، و﴿ءَاتَوۡهُ مَوۡثِقَهُمۡ﴾.

دَلالةُ التّعبيرِ بالمضارعِ ﴿تُؤۡتُونِ﴾:

مَوْثِقٌ مُتجدّد في كلّ زمانٍ ومكانٍ، لا يَنتهي إلّا بانتهاءِ غايتِه

عبّر البيانُ الإلهيُّ بالمضارع في قوله: ﴿تُؤۡتُونِ﴾؛ للدّلالةِ على أنّ العهد الّذي سيأخذهُ عليهم هو عهدٌ متجدِّدٌ في كلّ زمان ومكانٍ لا ينتهي إلّا بانتهاءِ غايتِه؛ أيْ: بعودةِ أخيهم بِنيامين، وللدّلالةِ على تصويرِ الحركةِ والسّعيِ منهم للإيتاءِ بهذا العهد المُؤكَّدِ باليمين، وذلك تأكيدًا على أهميّتِه عنده.

سِرُّ إسنادِ الفعْلِ إلى واو الجماعةِ في ﴿تُؤۡتُونِ﴾:

في العهدِ المُوثّق منَ الجماعةِ، زيادةُ احتياطٍ وإشارةُ صدْقٍ واطْمئنانٍ

أسندَ القرآنُ الفعلَ إلى واو الجماعةِ في قوله: ﴿حَتَّىٰ تُؤۡتُونِ مَوۡثِقٗا مِّنَ ٱللَّهِ﴾؛ زيادةً في توثيقِ العهدِ بألا يكونَ من بعضِهم، بل من جميعِهم، وزيادةً في تأكُّدِهِ من صدقِهم؛ إذ إنّهم في حالةِ عدمِ صدْقِهم سيظهرُ التّردّدُ من بعضِهم بسببِ الخوفِ منَ العهدِ المُوثَّقِ

(1) صحيح البخاريّ، كتاب: الرِّقاق، باب: باب الصّراط جسر جهنّم، الحديث رقم: (6573).
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/18.

منَ اللّه سُبحانه، والمعنى: لنْ أرسلَهُ معكم حتّى توثِّقوا كلُّكم معي عهدًا وميثاقًا تُشهدونَ اللّه عليه في أنْ تُعيدوا بِنيامين إليّ، إلّا إنْ أحاطَ بكم مكروهٌ، فغلبَكُم عليه[1].

الغرَضُ من تنكيرِ المفعولِ به ﴿مَوۡثِقٗا﴾:

المَوثِقُ الّذي عليهِ شهادةُ اللهِ العظيمِ، مَوثِقٌ عظيمُ الشّأنِ

نكّرَ البيانُ الإلهيُّ لفظَ ﴿مَوۡثِقٗا﴾ في قولِه تعالى: ﴿حَتَّىٰ تُؤۡتُونِ مَوۡثِقٗا مِّنَ ٱللَّهِ﴾؛ لإفادةِ معنى التّفخيم والتّعظيم لشأنِ هذا العهد المَوثِق؛ إذ هو في حقيقتهِ عشرةُ مواثيقَ ربّانيّةٍ من اللّه، والمعنى: لن أرسلَ بِنيامين معكم حتّى تُعطوني عهدًا مؤكَّدًا بإشهادِ اللّه وقسَمِهِ لتأتنّي به، ولترجعنّه إليّ[2].

دَلالةُ التّعبيرِ بـ﴿مِّنَ﴾ في ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾:

العهدُ المُوثّقُ بإشهادِ اللهِ والقسمِ به، عهدٌ ربّانيٌّ مُؤكَّدٌ

﴿مِّنَ﴾ في قوله: ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ للابتداء؛ أيْ: تؤتوني موثقًا صادرًا منَ اللّه تعالى، ومعنى ذلك أنْ يَجعلوا اللّه شاهدًا عليهم فيما وعَدوا به بأنْ يحلِفوا باللّه، فتصير شهادةُ اللّه عليهم كتوثيقٍ صادرٍ منَ اللّه تعالى بهذا الاعتبار، وذلك أنْ يقولوا: لك ميثاقُ اللّه، أو عهدُ اللّه أو نحوُ ذلك، وبهذا يُضافُ الميثاقُ والعهدُ إلى اسْمِ الجلالة، فكأنَّ الحالفَ استودعَ اللّه ما بهِ التّوثّقُ للمحلوفِ له[3]، والمعنى: "﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾؛ أيْ: عهدًا موثوقًا به؛ بسبب تأكُّدِ الشّهادةِ منَ اللّه، أو بسببِ القسَمِ باللّه عليه"[4]، "ليكون شهيدًا عليكم ومُنتقمًا منكم إنْ لم تكونوا أوفياءَ"[5].

سَرُّ التّعبيرِ بلفْظِ الجلالةِ ﴿ٱللَّهِ﴾:

القَسَمُ بالملكِ الأعظمِ قسَمٌ عظيمٌ، والعهدُ المُؤكَّدُ بشهادةِ اللهِ عهدٌ مُقدَّسٌ

أضافَ البيانُ الإلهيُّ الميثاقَ والعهدَ إلى اسْمِ الجلالة: ﴿ٱللَّهِ﴾ في قوله: ﴿حَتَّىٰ تُؤۡتُونِ مَوۡثِقٗا مِّنَ ٱللَّهِ﴾ دون غيرِه منَ الأسماء الحُسنى؛

(1) الخطيب، التّفسير القرآنيُّ للقرآن: 7/18.
(2) حجازيّ، التّفسير الواضح: 2/192.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/19.
(4) ابن عادل، اللُّباب في علوم الكتاب: 11/149.
(5) مجمع البحوث الإسلاميّة، التّفسير الوسيط: 5/355.

لأنّ اسْمَ (اللّه) هو اسمُ الذّاتِ الّذي يجمعُ كلَّ صفاتِ الكمال، وفي هذا زيادةُ تعظيمٍ لهذا الميثاقِ، والمعنى: حتّى تؤتون موثقًا منَ "الملكِ الأعْظمِ بأيمانٍ عظيمةٍ"[1].

غرَضُ حذْفِ القَسَمِ وتقديرُه:

إذا تساوى الذِّكرُ والحذْفُ، فالحذفُ أبلغُ

القَسَمُ في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِۦٓ﴾ محذوفٌ دلَّ عليه قوله: ﴿مَوْثِقًا﴾، و"المُرادُ بالمَوثِقِ من اللّه: اليمينُ، فتقديرُه: حتّى تحلفوا باللّه لتأتنّني به"[2]، إلّا في حالٍ واحدةٍ؛ وهي: أَن يُحَاطَ بكم. والغرَضُ من حذفِ القسَمِ هو الاختصارُ؛ إذِ القسمُ مفهومٌ منَ السّياق، وهذا الاختصارُ أبلغُ منَ الزّيادة، ويُسهمُ في رسْمِ صورةِ المشهدِ في المُخيّلةِ.

سِرُّ تأكيد جوابِ القسَم ﴿لَتَأْتُنَّنِي بِهِۦٓ﴾:

بيانُ المُؤكِّداتِ في جوابِ القسَمِ، بإعادةِ أخيهم إلّا أنْ يَهلكوا جميعًا

أكّدَ البيانُ القرآنيُّ جوابَ القَسَمِ المُقدَّر ﴿لَتَأْتُنَّنِي﴾ بمؤكِّدَيْن؛ هما: لامُ التّوكيدِ الواقعةُ في الجواب، والنّونُ المشدّدةُ (نونُ التّوكيدِ الثّقيلةُ)؛ وذلك لزيادةِ التّوكيد؛ والمعنى: حتّى تحلفوا لتُرجعُنَّه إليَّ سالمًا، إلّا في حالةٍ واحدةٍ، والسّرُّ في هذا التّوكيد: أنّ الجميعَ مُلزمونَ بالحفاظِ على بِنيامين، لذلك قال البقاعيّ شارحًا توكيدَ الآية بذكْرِ التّوكيد المعنويِّ: (كلّكم) فقال: "﴿لَتَأْتُنَّنِي﴾ كلُّكم ﴿بِهِۦٓ﴾"[3].

دَلالةُ الاستثناءِ في ﴿إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ﴾:

في الاستثناءِ عمومُ وجوهٍ، شدّة احتياطِ يعقوبَ

الاستثناءُ في قوله تعالى: ﴿إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ﴾ يحتملُ عدة أوجُه:

الأوّلُ: استثناءٌ منقطعٌ، قالهُ أبو البقاءِ، وتقديرُ الكلام: لكنْ إذا أُحيطَ بكم خرجتُمْ من عَتبي وغضبي عليكم إنْ لم تَأْتُوني به؛ لوضوحِ عُذْرِكُم[4].

(1) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 10/155.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 18/481.
(3) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 10/155.
(4) ابن عادل، اللُّباب في علوم الكتاب: 11/149 - 150.

الثّاني: استثناءٌ متّصلٌ مفرغٌ منَ المفعولِ له العامِّ؛ وهو قوله: ﴿أَن يُحَاطَ بِكُمۡۖ﴾، وبذلك يكون الكلامُ المُثبتُ ﴿لَتَأۡتُنَّنِي بِهِۦٓ﴾ في معنى النَّفي، والمعنى: لا تَمْتنِعُون منَ الإتيانِ به إلّا للإحاطةِ بكم، أو لا تَمْتنِعُون منه لعلّةٍ واحدةٍ وهي ﴿أَن يُحَاطَ بِكُمۡۖ﴾، فهو استثناءٌ من أعمِّ العامِّ في المفعولِ له[1].

الثّالث: استثناءٌ من أعمَّ العامِّ منَ الأحوال، قال أبو البقاء: تقديرُه: لتَأْتُنَّني به على كلِّ حالٍ إلّا في حالٍ؛ أيْ: حال الإحاطةِ بكم[2]؛ أي: المصدرُ المُنسبكُ من أنْ مع الفعلِ ﴿يُحَاطَ﴾ في موضع الحالِ، وهو كالإخبار بالمصدر فتأويلُه: إلّا محاطًا بكم[3].

الرّابع: أنَّه استثناءٌ من أعمَّ العامِّ في الأزمان، والتّقديرُ: لتَأْتُنَّني به في كلِّ وقتٍ إلّا في وقتِ الإحاطة بكم[4].

وفي كلّ الحالاتِ الاستثناءُ هنا "لفظٌ عامٌّ لجميعِ وجوهِ الغلبةِ والقسرِ، والمعنى: تعمُّكم الغلبةُ من جميعِ الجهاتِ حتّى لا تكونَ لكم حيلةٌ ولا وجهُ تخلُّصٍ، وقال مجاهدٌ: المعنى: إلّا أنْ تهلَكوا جميعًا، وقال قتادةُ: إلّا ألّا تُطيقوا ذلك"[5]. وفي هذا الإلزام دلالةٌ على شدّةِ احتياطِ يعقوبَ في هذه المرّة لا كالسّابقةِ وتحفيزٌ من يعقوبَ لهم على أخذ كلِّ أسبابِ الحَيطة والحذرِ والحفْظِ، وتأكُّدٌ وزيادةُ اطمئنانٍ منه على صدْقِ وحسنِ نيّتِهم.

سِرُّ التّعبيرِ بالإحاطةِ في ﴿يُحَاطَ﴾:

عبّر البيانُ القرآنيُ بمادّة الإحاطةِ دونَ غيرِها، فلم يَقُلْ مثلًا: إلّا أنْ تُحاصَروا؛ لاتّساعِ دلالةِ مادّةِ الإحاطةِ الّتي تعني: عدمَ وجودِ

عُذرُهمُ الوحيدُ إحاطةٌ بهم ليسَ لهم منها أيُّ نجاةٍ

(1) ابن عادل، اللُّباب في علوم الكتاب: 11/150، ودرويش، إعراب القرآن وبيانه: 5/19.
(2) ابن عادل، اللُّباب في علوم الكتاب: 11/150، ودرويش، إعراب القرآن وبيانه: 5/19.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/20.
(4) ابن عادل، اللُّباب في علوم الكتاب: 11/150.
(5) ابن عطيّة، المُحرّر الوجيز: 3/261.

أيِّ مَنفذٍ للتّخلّص؛ ولذلك يقول سُبحانه: ﴿وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلۡكَٰفِرِينَ ١٩﴾ [البقرة: 19]؛ أيْ: ليس هناك منفذٌ يُفلتون منه[1]، إذ أصلُ مادّةِ (حوط) في اللّغة يدلُّ على الشَّيْءِ يُطيفُ بِالشَّيْءِ، ويُقال: أحاطتِ الخيلُ بفلانٍ: أيْ: أحدقتْ[2]، والعربُ تقول: أُحيطَ بفلانٍ إذا أُتِيَ عليه، أَو دَنا هَلاكُه[3].

كما أنّ مُفردةَ الإحاطة مرتبطةٌ في الوِجدان العربيّ بأجواء الحروبِ، فأصلُها "أنّ العدوّ إذا أحاطَ بموضعٍ فقد هلكَ أهلُه"[4]، و"العربُ يقولون: أحاطَ العدوُّ بالقبيلة إذا تمكّن منها وغلبَها؛ لأنّ الإحاطةَ بها تدلُّ على الإحداقِ بها وتطويقِها"[5]. وهذه المعاني الّتي اشتملتْ عليها مُفردةُ ﴿يُحَاطَ﴾ تتناسبُ مع السّياقِ وحرْصِ يعقوبَ على ابنه بِنيامين، وعدمِ قبولِ أيِّ عذرٍ من أبنائه إذا لم يأتوا بأخيهم بعد أخذ الميثاقَ منهم إلّا إنْ حصلَ ما هو فوقَ طاقتِهم أو هلَكوا جميعًا، والمعنى: لتأتنّني به إلّا إذا أحاطَ بكمُ العدوُّ من كلّ ناحيةٍ وطوّقَكُم وأخذَكم وأهلكَكُم كلَّكم ولم يسلمْ منكم أحدٌ؛ أيْ: تَعُمُّكُمُ الغَلَبةُ مِنْ جميعِ الجِهاتِ حتّى لا يَكونَ لكم حيلَةٌ ولا وَجْهُ تَخَلُّصٍ[6].

سِرُّ التّعبيرِ بالفعْلِ المبنيِّ للمفعول ﴿يُحَاطَ﴾:

افتراضُ الهلاكِ المحيطِ بهم، عامًّا لا يسلمُ منهُ أحدٌ

آثرَ البيانُ الإلهيُّ التّعبيرَ بالمبنيِّ للمفعول في قوله: ﴿يُحَاطَ﴾؛ أيْ: صرفَ الحدثَ عمدًا عن مُحدِثِه ولم يُسندْه إليه، فلم يَقُل: إلّا أن يُحيط بكمُ العدوُّ؛ تركيزًا للانتباه على الحدث ذاتِه، وحصر الوعيِ فيه، فلا يتوزّعُ في غيره، وهو فعلُ الإحاطةِ بالشّيء من كلّ الجوانبِ،

(1) الشّعراوي، تفسير الشّعراوي: 10/5852.
(2) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (حوط).
(3) الزّبيديّ، تاج العروس: (حوط)، وابن عادل، اللُّباب في علوم الكتاب: 11/151.
(4) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 8/325.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/137.
(6) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/297.

وكذلك لإفادة العُموم؛ إذ لو أتى بالمَبنيِّ للمعلوم لقيّده بفاعلٍ واحدٍ ولاقتصرَ عليه، ولكنّه بذلك احتملَ الكثيرَ منَ المعاني منها: إلّا أنْ تُحاصَروا وتُغلبوا على أمركم بعدوٍ، أو بلاءٍ يُحيطُ بكم فتهلَكوا دونَه، فلا تستطيعون الإتيانَ به مجتمِعين ولا مُتفرِّقين، أو تُمنَعوا منَ النّجاة بشتّى السُّبلِ، أو تُغلَبوا، أو تَهلكوا جميعًا بقضاءٍ وقدرٍ منَ اللّه تعالى ولا يسلمَ منكم أحدٌ.

دَلالةُ التّعبيرِ بالجارِّ والمجرورِ ﴿بِكُمْ﴾:

لا عـذرَ لهم إلّا إذا التَصقَ الهلاكُ بهم، فأهلَكهم أو غلَبهم، وهذا نادرٌ جدًّا

﴿بِكُمْ﴾ جارٌّ ومجرورٌ مُتعلّقٌ بالفعل ﴿يُحَاطَ﴾ الّذي يعني الهلاكَ أوِ الغلبةَ والقهرَ المانعَ للقُدرة، وفي كونِ الجارّ هو حرف الباء الّذي يعني الإلصاقَ، وكونِ المجرور ضميرَ مخاطَبٍ للجمعِ المذكّرِ؛ أيْ جَمْع المُخاطَبينَ ﴿بِكُمْ﴾؛ دلالةٌ على التصاقِ الهلاكِ أوِ الغلبةِ بهم عن آخرهم؛ والمعنى: إلّا أنْ يلتصقَ الهلاكُ بكم، "فتهلَكوا من عند آخرِكم"[1]، أو تلتصقَ بكمُ الغَلَبةُ والقهرُ؛ أيْ: "إلّا أن تَصيرُوا مَغلوبين مَقْهورين، لا تَقدرون على الرّجوعِ"[2]. إضافةً إلى ما في التّعبيرِ بالباءِ وضميرِ جمْعِ المخاطَبين ﴿بِكُمْ﴾ اللّذَين يدلّان على الالتصاقِ والإحاطةِ منَ المناسبةِ لفعْلِ الإحاطةِ الواردِ في الآية ﴿يُحَاطَ﴾.

بَلاغةُ أسلوبِ الكنايةِ في ﴿يُحَاطَ بِكُمْ﴾:

الإحاطةُ تَستلزمُ هلاكَهم، بما لا يَقدرونَ على ردِّه

الكنايةُ في قوله تعالى: ﴿إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ﴾ كنايةُ النّسبةِ؛ وهي: "عُدولٌ بالكلامِ عنِ التّعبيرِ المباشرِ، وذلك عن طريقِ إثباتِ الصّفةِ لشيءٍ يتعلّقُ بمنْ نريدُ أن نُثبتَها له"[3]. فقد كنّى البيانُ القرآنيُّ بالإحاطةِ عن أخذِ المسالكِ كلِّها عليهم؛ أي: الأخذُ بأسرٍ أو هلاكٍ ممّا هو خارجٌ عن قُدرتِهم، وأصلُ الإحاطة إحاطةُ الجيشِ في

(1) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 10/155.
(2) ابن عادل، اللُّباب في علوم الكتاب: 11/151.
(3) شعيب، المُيسّر في البلاغة العربيّة، ص: 116.

الحرب، فاستُعملَ ذلك في لازمِهِ وهو أنّه لا يُفلتُهم؛ أيْ: في الحالةِ الّتي لا يُستطاعُ التّغلّبُ عليها[1].

دَلالةُ التّعبيرِ بالفاءِ في ﴿فَلَمَّآ﴾:

سُرعةُ أيمانِهم رغمَ تغليظِها بالمواثيقِ، دليلٌ على شِدّةِ حاجتِهم للمِيرةِ

الفاءُ في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ ءَاتَوۡهُ مَوۡثِقَهُمۡ﴾ حرفُ عطفٍ[2] يفيدُ التّرتيبَ والتّعقيبَ؛ أمّا التّرتيبُ: فقد رتّب ما بعدَه على ما قبْلَه؛ أيْ: رتّبَ إعطاءَ العهدِ من قِبَلهم على طلبِه من أبيهم، وأمّا التّعقيبُ: فللدّلالةِ على سرعةِ إجابتِهم؛ إذ سارعوا إلى تقديمِ المَوثِقِ رغمَ تغليظِه وشدّتِه عليهم بمجرّدِ موافقةِ أبيهم، وفي هذا إشارةٌ إلى صدْقِهم وشِدّةِ حاجتِهم للمِيرةِ.

الغرَضُ منَ التّعبيرِ بأسلوبِ الشّرطِ في السّياقِ:

إشهادُ يعقوبَ اللهَ على أيمانِ أبنائِه المُوثّقةِ، زيادةُ احتياطٍ في حفْظِه

عبّرَ القرآنُ في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ ءَاتَوۡهُ مَوۡثِقَهُمۡ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ بجملةٍ شرطيّةٍ علّقتْ وقوعَ أمرٍ وهو قولُ يعقوبَ: ﴿ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ على أمرٍ آخرَ وهو إتيانُهم بالعهد المؤكَّدِ: ﴿ءَاتَوۡهُ مَوۡثِقَهُمۡ﴾؛ للإشارة إلى أنّ يعقوبَ كان يترصّدُ وينتظرُ أيمانَهم الموثّقةَ ليقولَ مؤكِّدًا ميثاقَهم أكثرَ: ﴿ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾، وذلك زيادةُ احتياطٍ في حفظِ بنيامين.

دَلالةُ التّعبيرِ بفعْلِ الشّرطِ وجوابِه ماضيًا:

تحقّقَ الإتيانُ بالموثِقِ منهم جميعًا، فتحقّقَ الإشهادُ عليه بقولِ يعقوبَ

أداةُ الشّرطِ في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ ءَاتَوۡهُ مَوۡثِقَهُمۡ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ هي (لَمّا) ظرفٌ للزّمان الماضي بمعنى (حِين)؛ لأنّ الجملتَيْن بعدها فعلُهما ماضٍ، وقد ذهبَ النُّحاةُ إلى أنّ الشّرط يُفيدُ الاستقبالَ وإنْ كان فعلُه ماضيًا، ولا يُفيدُ الشّرطُ المُضيَّ، وما ورد من ذلك مؤوّلٌ، والصّوابُ: أنّ الشّرط قد يأتي للمُضيّ[3]، وقد

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/321 - 13/19.
(2) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 5/20.
(3) السّامرّائيّ، معاني النّحو: 4/63.

أتى هنا للدّلالة على الزّمن الماضي، وغرضُهُ؛ الدّلالةُ على تحقُّقِ وقوعِ هذا الحدثِ بطرفَيْه؛ لأنّ الآية نزلتْ بعده، والدّلالةُ على وقوعِ الحدثِ؛ وهو إعطاؤهم العهدَ المؤكّدَ جملةً واحدةً[1].

سِرُّ الإضافةِ في ﴿مَوْثِقَهُمْ﴾، في مقابلة التّنكيرِ ﴿مَوْثِقًا﴾:

الموثِقُ المُفخّم، لائِقٌ بنبيِّ الله يعقوبَ

نكّرَ البيانُ القرآنيُّ الموثِقَ حين طلبه منهم في قوله: ﴿حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا﴾؛ تفخيمًا لهذا الموثِقِ الرّبّانيّ، في حين عرّفه بالإضافةِ إلى أبنائه في قوله: ﴿فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ﴾؛ لأنّ فيه حكايةَ الأوّل[2]؛ أيْ إنّه معروفٌ لديهم؛ إذِ النكرةُ إذا أُعيدتْ معرفةً كان الثّاني عينَ الأوّل[3]، ويكونُ القرآنُ بذلك جمعَ بين غرضَيِ التّنكيرِ والتّعريف، بما يجعلُ الكلامَ أكثرَ فصاحةً وبلاغةً. كما أنّه أضافَ المَوثِقَ لأبنائه وإنّما هو مَوثِقُ يعقوبَ، والأصلُ إضافتُه إليه؛ ليُفيدَ أنّهم آتوه موثقَهم اللّائقَ بيعقوبَ عليه السلام[4].

سِرُّ التّعبيرِ بمَقولِ قولِه جملةً اسميّةً:

تأكيدٌ للميثاقِ بإشهادِ الله بينه وبينَهم

قصدَ يعقوبُ بالجملةِ المعبّرة في قوله: ﴿ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾، بعد أنْ أخذَ على أبنائه الميثاقَ توكيدَ هذا الحَلِفِ؛ أي: الميثاق، وذلك بتذْكيرهم بأنَّ اللّه تعالى رقيبٌ على ما وقَعَ بينهم[5]، وعرْضَ ثقتِه باللّه، وحثَّ أبنائِه على مراعاة ميثاقِهم[6]، وحضَّهم على وجوبِ الوفاء[7]، ولذا استعملَ القرآنُ لبيانِ ذلك الجملةَ الاسميّةَ الّتي تُفيد الثّباتَ وقوّةَ الحكمِ وبقاءَه، والمعنى: اللّه تعالى على ما نقول أنا وأنتم وكيلٌ؛ أيْ: مُطّلعٌ ورقيبٌ وشهيد، وموكولٌ له هذا العهدُ، فإنْ وفّيتم به

(1) السّامرّائيّ، معاني النّحو: 4/62.
(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/396.
(3) ابن هشام، مُغني اللّبيب، ص: 861.
(4) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/396.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/20.
(6) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/292.
(7) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 7/391.

جازاكم بأحسنِ الجزاء، وإنْ غدرتم فيه كافأكم بأعظمِ العقوبات؛ أيْ: سيُجازي الأوفياء خيرًا، وسيُجازي النّاقضين لعهودهم بما يستحِقّون من عقاب[1].

مجيء المُسنَدِ إليه بلفظ الجلالة:

الميثاقُ الّذي يكونُ الله رقيبًا عليه ميثاقٌ عظيمٌ

عبّرَ البيانُ الإلهيُّ بالمُسنَدِ إليه، في قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾، بالاسْمِ الجليل ﴿ٱللَّهُ﴾؛ لتقريرِ وتأكيدِ عظَمةِ هذا الميثاقِ الّذي أخذه يعقوبُ على أبنائه، فهو ميثاقٌ ربّانيٌّ، واللّه الّذي له جميعُ صفاتِ الكمال رقيبٌ عليه، والميثاقُ موكولٌ إليه؛ لأنّ "وكيل فعيلٌ بمعنى مفعول"[2]؛ أيْ: هو القادرُ على الوفاءِ به المرجُوُّ للتّصرّف فيه بالغِبطة، لا أنتم[3].

الغرَضُ من تقديمِ المجرورِ على الخبرِ في الآية:

تقديمُ العهدِ المؤكَّدِ، يُبرزُ زيادةَ العنايةِ بحفْظِهِ والوفاءِ به

قدّم البيانُ القرآنيُّ الجارَّ والمجرورَ ﴿عَلَىٰ﴾ على الخبر ﴿وَكِيلٌ﴾، في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾؛ أيْ لم يَقُل: اللّه وكيلٌ على ما نقول؛ اهتمامًا بالمُقدَّم وهو العهدُ المُؤكَّدُ والمُوثَّقُ باليمين، الّذي أخذه عليهم، وتشويقًا للمُؤخَّرِ وهو رقابةُ اللّه لهذا الميثاق، بما يقتضي زيادةَ العنايةِ بحفظِ هذا العهدِ والوفاءِ به.

سِرُّ التّعبيرِ بحرف الاستعلاءِ ﴿عَلَىٰ﴾:

العهدُ موثقٌ تكمنُ عظمتُهُ في كونِهِ تحتَ سُلطةِ اللهِ سُبحانه ورقابتِه

عبّرَ البيانُ القرآنيُّ بحرف الجرّ ﴿عَلَىٰ﴾ الّذي يُفيدُ الاستعلاءَ المجازيَّ في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾؛ ليُكنّي به في الآية عن تمكُّنٍ من رقابةِ اللّه وشهادتِه من هذا العهدِ المؤكَّدِ الّذي أخذه يعقوبُ على أبنائه، وهذا فيه زيادةُ توكيدٍ لعِظَمِ هذا العهد؛ لأنّ شهادةَ اللّه ورقابتَه، استعلَتْه وأحاطتْ به، فلا يخرجُ عنها.

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 18/481، وطنطاويّ، التّفسير الوسيط: 7/391.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/20.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/156.

دَلالةُ ﴿مَا﴾ بين المصدريّةِ والموصوليّةِ:

بيانُ عظَمةِ رقابةِ الله، على الميثاقِ المأخوذِ عليهم

﴿مَا﴾ في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ تحتملُ وجهَيْن: **الأوّلُ**: مصدريةٌ، و﴿مَا﴾ وما بعدها بتأويلِ مصدرٍ في محلّ جرٍّ بعلى، والتّقديرُ: اللّه وكيلٌ على قولنا[1]، و**الثّاني**: اسمٌ موصولٌ بمعنى: الّذي، والعائدُ إلى الموصول ضميرٌ محذوفٌ منصوبُ المحلّ؛ لأنّه مفعولٌ به. التّقديرُ: اللّه وكيلٌ على ما نقولُه[2].

دَلالةُ التّعبيرِ بالفعلِ المضارع ﴿نَقُولُ﴾:

مَوْثِقٌ صورتُه حاضرةٌ أمامَ أعينِهم، تُحفّزُهم على عدمِ الإخلالِ بالعهد

عبّرَ البيانُ الإلهيُّ بصيغةِ المضارعِ، في قوله: ﴿ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ الّتي تفيدُ الاستقبالَ؛ لاسْتِحضارِ صُورَة العهدِ، والّذي يؤدِّي إلى تَثَبُّتِهم، ومُحافظتِهم على تَذَكُّرِه ومُراقبَتِه[3]، بما ينعكسُ على المحافظةِ على أخيهم بِنيامين، وعدمِ كسْرِ قلبِ أبيهم.

لطيفةُ الوقفِ على قوله ﴿قَالَ﴾:

الوقفُ علْمٌ نبيلٌ، يُؤْمَنُ به منَ الوقوعِ في الخطأِ الجليل

معرفةُ الوقْفِ والابتداءِ والقطْعِ والاستئنافِ علمٌ نبيلٌ يُؤْمَنُ به منَ الوقوع في الخطأ الجليلِ، ولذا يُوقَفَ على وقفةٍ لطيفةٍ على ﴿قَالَ﴾ في قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾؛ لِئلّا يُتوهَّمَ أنَّ الفاعلَ لفظُ الجلالة؛ أيْ: (قالَ اللّه)، وإنَّما الفاعلُ هو يعقوبُ عليه السلام[4].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(أرسلَ) و(بعثَ):

الإرسالُ توجيهٌ برِفقٍ وتُؤدةٍ، والبعثُ إثارةٌ واندفاعٌ وإيقاظٌ

يتقاربُ لفظا (أرسل، بعث) إذْ يشتركان في معنى لُغويٍّ عامٍّ وهو التّوجيهُ، كما أنّه قد يُستعملُ كلٌّ منهما بمعنى الآخَر[5]؛ إذ أحدُ

(1) المُنْتجَب الهمذانيّ، الفريد في إعراب القرآن المجيد: 3/609.
(2) عبد الواحد صالح، الإعراب المُفصَّل لكتاب الله المُرَتل: 5/340.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/292.
(4) الشّوابكة، غُرر البيان من سورة يوسف عليه السلام في القرآن، ص: 132.
(5) الكفويّ، الكُليّات، ص: 244.

معاني الإرسالِ هو البعثُ[1]، وأحدُ معاني البعثِ هو الإرسالُ، إلّا أنّهما يفترقان ببعضِ الملامحِ المُميّزة لكلٍّ منهما، ومن هذه الفروق ما ذكره العسكريُّ، إذ قال: "الفرقُ بين البَعْث والإرسال: أنّه يجوزُ أَنْ يُبْعَثَ الرّجلُ إلى الآخر لحاجةٍ تخصّه دُونك ودون المبعُوث إليه، كالصَّبِيِّ تبعثُه إلى المكتبِ فتقول: بعثتُه، ولا تقول: أَرْسلتهُ؛ لأنّ الإِرْسَال لا يكونُ إلّا برسالة، وما يجْري مجْراها"[2].

بالإضافة إلى أنّ الإرسال يتميّزُ بملمحِ الرّفقِ والتُّؤَدة والسّهولة؛ إذ إنّ أصلَ (رسل) يدلُّ على الانْبعاثِ والامْتدادِ، والرَّسْلُ: السَّيْرُ السَّهْلُ[3]، والرِّسْل: الرِّفْقُ والتُّؤَدةُ، والإِرْسالُ: الإِطْلاقُ، والإهمالُ، والتَّخْلِيَةُ، والتّوجيه[4]، والإِرْسَالُ: في المَحْبوس إطْلاقه، وفي المُطلق بَعثُه[5].

بينما يتميّزُ البعث بملْمحِ الإثارةِ والاندفاعِ والإيقاظ، إذ إنّ أصلَ (بعث) يدلُّ على الإثارة[6]، والتّوجيهِ، ويختلفُ البعثُ بحسب اختلافِ ما عُلّق به، فبَعَثْتُ البعير: أثرتهُ وسيّرتُه، وبعثَ اللّه الموتى: أخرجَهم وسَيَّرهم إلى القيامة، وبعثَ رسولًا: أرسله ووجّهه[7]، وانْبعثَ الشّيءُ: اندفعَ، وبعثهَ من نومه: أيقظهُ وأهَبَّه، والبعثُ: النُّشور[8].

كما أنّ الإرسالَ قد يكون من حبْسٍ وإمساك، بينما البعثُ لا يكون من حبسٍ وإمساكٍ.

(آتى) و(أعطى):

لا يكادُ اللُّغويّون يُفرّقون بين الإيتاءِ والإعطاءِ؛ إذ يُعرّفون الإيتاءَ بالإعطاءِ، ويَستعملون أحدَهما مكانَ الآخَر، إلّا أنّه عندَ إمعانِ النّظرِ

الإيتاءُ فيه قوّةٌ فلا يَتوقّفُ على قَبولٍ، والإعطاءُ لا يكون إلّا بمحْضِ التَّفَضُّلِ

(1) ابن الجوزيّ، نزهة الأعيُن النّواظر، ص: 151.
(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 289.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (رسل).
(4) ابن منظور، لسان العرب، والزبيديّ، تاج العروس: (رسل).
(5) ابن الجوزيّ، نزهة الأعين، ص: 152.
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (بعث).
(7) الرّاغب، المُفردات: (بعث).
(8) ابن سِيده، المُحكَم والمُحيط الأعظم، وابن منظور، لسان العرب: (بعث).

في معانيهما، واستعمالِ القرآن لهما تتبيّنُ بعضُ الفروق الدّقيقةِ بين اللّفظيْن، وإيضاحُ ذلك من خلال الآتي:

أوّلًا: أصلُ الإيتاء يدلُّ على مَجيءِ الشَّيْءِ وإصْحابِهِ وطاعَتِهِ، والأتْوُ: الاستقامةُ في السَّيرْ والسُّرْعةِ، والإيتاءُ: الإعْطاءُ[1]، واشتُهرَ الإيتاءُ في معنى الإعطاءِ، وأصلهُ الإحْضارُ[2].

ثانيًا: وأصلُ الإعطاءِ يدلُّ على أخذٍ ومُناوَلةٍ، والعَطْوُ: التّناولُ باليد، والمعاطاةُ: المناولةُ، والتّعاطي: تناولُ ما ليس لهُ بحقّ، يُقال: فلانٌ يتعاطى ظُلمَ فلانٍ[3].

ثالثًا: الإعطاءُ يكونُ في الأشياءِ المادّيّةِ، إذ أصلُهُ التّناولُ، وفيه دليلٌ على التّملّك، بينما الإيتاءُ يكونُ في الأشياءِ الماديّةِ والمعنويّةِ.

رابعًا: الإيتاءُ قد يكونُ واجبًا وَقد يكونُ تَفَضّلًا، بخِلافِ الإعْطاءِ فإنَّه لا يكونُ إلّا بمحْضِ التَّفَضُّلِ[4].

خامسًا: الإيتاءُ أقوى منَ الإعطاءِ؛ لأنّ الإعطاءَ له مطاوعٌ، يُقال: أعطاني فعَطَوتُ، ولا يُقال: أتاني فأتيتُ، وإنّما يُقال: أتاني فأخذتُ، والفعلُ الّذي له مطاوع أضعفُ في إثباتِ مفعولهِ من الّذي لا مطاوعَ له[5]، لذلك استعملَ القرآنُ الإيتاءَ دون الإعطاءِ للأشياءِ العظيمة، مثل (المُلك والحكمة والسّبع المثاني والقرآن العظيم).

وقيل: الإعطاءُ أَقْوَى من الإيتاءِ، ولذا خَصَّ في دفْعِ الصَّدَقاتِ الإيتاءَ ليكونَ ذلك بسُهولَةٍ من غيرِ تَطَلّعٍ إلى ما يَدْفَعه، والكَوْثَرُ لَمَّا كانَ عَظيمًا شَأْنُهُ غيرَ داخِلٍ في حيطَةِ قدْرَةٍ بَشَريَّةٍ اسْتُعْمِل الإعْطاءُ فيه[6].

سادسًا: الإيتاءُ في أَكثر مَوَاضِعِ الْقُرْآن فيما لَهُ ثباتٌ وقرارٌ، كالحكمةِ والسّبعِ المَثاني، والملكِ الَّذِي لَا يُؤْتَى إِلَّا لذي قُوَّة، والإعطاء: فيما ينْتَقلُ منه بعد قَضَاء الحاجة منه

(1) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (أتو).
(2) الزّبيديّ، تاج العروس: (أتى).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عطو).
(4) الزّبيديّ، تاج العروس: (عطو).
(5) الزّركشيّ، البرهان في علوم القرآن: 4/85.
(6) الزّبيديّ، تاج العروس: (أتى).

كإعطاء كلِّ شَيْء خلْقَه لتكرّر حُدُوث ذلك بِاعْتِبَار الموجودات، وإِعْطاء الكَوْثَر للانتقال مِنْهُ إلى ما هُوَ أعظمُ مِنْهُ[1].

ونخلصُ إلى أنّ الإيتاءَ: يكونُ مع الأشياءِ الماديّةِ والمعنويّةِ، ولا يدلُّ على التّملّك، وغالبًا يكونُ للشّيء العظيم، وفيه قوّةٌ فلا يتوقّفُ على قَبولٍ، وقد يكونُ واجبًا وقد يكون تفضّلًا.

(1) الكفويّ، الكلّيّات، ص: 212.

﴿وَقَالَ يَٰبَنِيَّ لَا تَدۡخُلُواْ مِنۢ بَابٖ وَٰحِدٖ وَٱدۡخُلُواْ مِنۡ أَبۡوَٰبٖ مُّتَفَرِّقَةٖۖ وَمَآ أُغۡنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍۖ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۖ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ وَعَلَيۡهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ ٦٧﴾ [يوسف: 67]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

بعد أخذه بأسباب حماية بنيامين، أتبعَ ذلك بأسبابِ حمايةِ الجميعِ

لَمّا سمحَ يعقوبُ بخروجِ بنيامين مع إخوته بعد أنْ أخذَ عليهم المواثيقَ، أتبعَ ذلك بأمرِه لهم بالاحتياطِ منَ المصائب؛ لأنَّهم أحدَ عشر رجلًا وهم إخوةٌ أهلُ جمالٍ وبسْطةٍ، وكانوا قدِ شُهروا عند المصريّين بالكرامةِ والزّلفى لدى الملك بخلاف النّوبةِ الأولى، فكانوا مَئِنّةً لدنوِّ كلّ ناظرٍ وطُموحِ كلّ طامحٍ، ومظنّةَ الإصابة بالعين، فقالَ اللّه حكايةً عنه: ﴿وَقَالَ يَٰبَنِيَّ لَا تَدۡخُلُواْ مِنۢ بَابٖ وَٰحِدٖ وَٱدۡخُلُواْ مِنۡ أَبۡوَٰبٖ مُّتَفَرِّقَةٖۖ﴾[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿بَابٖ﴾: أصلُ بابٍ من (بوب) والبابُ بمعنى المَدخلِ والطّاقِ الّذي يُدخلُ منه، وبمعنى ما يُغلقُ به ذلك المدخلُ منَ الخشب وغيرِه، والبوّاب: لازمُه وحافظُه وهو الحاجبُ[2]، والبابُ يُقال لمدخل الشّيء، وأصلُ ذلك: مداخلُ الأمكنةِ، كبابِ المدينةِ والدّار والبيتِ، وجمعُه: أَبْوَابٌ، كقوله تعالى: ﴿لَا تَدۡخُلُواْ مِنۢ بَابٖ وَٰحِدٖ وَٱدۡخُلُواْ مِنۡ أَبۡوَٰبٖ مُّتَفَرِّقَةٖۖ﴾، ومنه يُقال في العلْم: بابُ كذا، وهذا العلمُ بابٌ إلى علمِ كذا؛ أيْ: به يُتوصّلُ إليه[3].

2) ﴿ٱلۡحُكۡمُ﴾: أصلُ (حكم) هو المنعُ، وأوّلُ ذلك الحُكْمِ هو

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 18/481، والبقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 10/156، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/292.

(2) الزّبيديّ، تاج العروس: (بوب).

(3) الرّاغب، المُفردات: (بوب).

المنعُ منَ الظّلم، والحكمةُ لأنّها تمنعُ منَ الجهل[1]، ومن هذا قيل للحاكِم بين النَّاسِ حاكِمٌ، لأنه يَمْنَعُ الظَّالِمَ من الظُّلْم، والحُكْمُ: العِلْمُ والفِقْهُ والقَضاءُ بِالعَدْلِ[2]، وحَكَمَ: منعَ منعًا لإصلاح، والحُكْم بالشّيء: أنْ تقضي بأنّه كذا، أو ليس بكذا، سواء ألزمتَ ذلك غيرَك أم لم تُلزمْه، والحِكْمَةُ: إصابةُ الحقّ بالعلم والعقل[3]، ومعنى ﴿ٱلْحُكْمُ﴾ في الآية: أيْ ما القضاءُ والحُكمُ إلّا للّه دون ما سواه منَ الأشياء، فإنّه يحكمُ في خلْقِه بما يشاءُ، فيُنفذُ فيهم حكمَه، ويقضي فيهم، ولا يُرَدُّ قضاؤه[4].

3) ﴿ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾: أَصْلُ (وكل) يَدُلُّ على اعْتِمَادِ غَيْرِكَ في أَمْرِكَ، وَالتَّوَكُّلُ منه، وهو إِظْهارُ العَجْزِ في الأَمْرِ والاعْتِمادُ على غَيْرِكَ، وسُمِّيَ الوَكيلُ، لِأَنَّهُ يُوكَلُ إليه الأَمْرُ[5]، ووَكَّلَهُ في الأَمْرِ تَوْكيلًا: فَوَّضَهُ إِلَيْهِ، والتَّوَكُّل عند أَهْلِ الحَقيقَة هو: الثِّقَةُ بما عند اللّه تعالى واليَأْسُ مِمّا في أَيْدي النَّاسِ، ويُقالُ: المُتَوَكِّلُ على اللّه الّذي يَعْلَمُ أَنَّ اللّه كافِلٌ رِزْقَهُ وأَمْرَهُ فَيَرْكَنُ إليهِ وَحْدَهُ ولا يَتَوَكَّلُ على غَيْرِهِ[6]. ومعنى ﴿ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ في الآية موافقٌ للمعنى اللُّغويِّ؛ أيْ: إلى اللّه فلْيفوِّضْ أمورَهم المفوِّضون[7].

المَعْنى الإِجْماليُّ:

يقولُ اللّه تعالى: وقال لهم أبوهم لَمَّا أرادوا الذَّهابَ إلى مصرَ: يا أبنائي إذا دخَلتُم أرضَ مصرَ فلا تدخُلوا مِن بابٍ واحدٍ، ولكنِ ادخُلوها مِن أبوابٍ مُتفرِّقةٍ، وإنِّي إذ أُوصيكم بهذا لا أدفَعُ عنكم

الأخذُ بأسبابِ السّلامةِ لا يمنعُ قضاءَ اللّه ولا بدَّ منَ التّوكّل عليه

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حكم).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (حكم).
(3) الرّاغب، المُفردات: (حكم).
(4) ابن جرير، جامع البيان: 16/166.
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (وكل).
(6) الزّبيديّ، تاج العروس: (وكل).
(7) ابن جرير، جامع البيان: 16/166.

شيئًا قضاه اللّه عليكم، فما الحُكمُ إلّا للّه وَحدَه، عليه اعتَمَدتُ ووَثِقتُ، وعليه وَحدَه يعتَمِدُ المؤمِنونَ.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دَلالةُ الواوِ في قوله: ﴿وَقَالَ يَٰبَنِيَّ﴾:

التّسليمُ بكفالةِ اللّه، والرّضا بقضائِهِ، بعْدَ الأخذِ بالأسبابِ

الواوُ في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ يَٰبَنِيَّ﴾ عاطفةٌ، والمعطوفُ عليه هو قولُه تعالى: ﴿قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾، والمعنى العامُّ الّذي يجمعُ المعطوفَ والمعطوفَ عليه هو أنّ كليهما قولٌ ليعقوبَ عليه السلام، وكلاهما مُسَبَّبٌ على إيتاءِ مَوْثِقِهم، ولكنّ أحدهما تأكيدٌ على أنَّ اللّه هو الكفيلُ بالوفاءِ القادرُ عليه لا أولاده الّذين أخذَ منهمُ الميثاقَ، والثّاني هو نصحُهم وإرشادُهم بما يَحميهم منَ الإحاطةِ بهم أوِ الحسد، وإعادةُ فِعْلِ (قال)؛ للإشارةِ إلى اختِلافِ زَمَنِ القَولَيْنِ، وإنْ كانا معًا مُسَبَّبَيْنِ على إيتاءِ مَوْثِقِهم؛ لأنّه اطمأنّ لرعايتِهم ابنَه بنيامين وظهرتْ له المصلحةُ في سفرهم لجلْبِ المِيرةِ[1].

دَلالةُ التّعبيرِ بالنّداءِ في قوله ﴿يَٰبَنِيَّ﴾:

الغرَضُ المُخاطَبُ بـه، هـو الأخـذُ بما يَحميهم منَ المخاطِرِ

عبّرَ البيانُ القرآنيُّ بأسلوبِ النّداءِ بأداةٍ تُستخدمُ في مُناداةِ البعيدِ مع كونِ المخاطَبين وهم أبناؤه حاضِرين؛ في قوله تعالى: ﴿يَٰبَنِيَّ لَا تَدۡخُلُواْ مِنۢ بَابٖ وَٰحِدٖ﴾؛ طلبًا لإحضارِ الذِّهنِ وتنبيهًا للاهتمام بمضمونِ ما سينْهاهُم عنه، وأنّه أمرٌ مهمٌّ يجدرُ بهم أنْ يكونوا على وعيٍ به، وهو ألّا يدخلوا المدينةَ من بابٍ واحدٍ خوفًا عليهم منَ الحسدِ أو من أذًى قد يُصيبُهم بلفْتِ الانتباه إليهم؛ لكونِهم غرباءَ، أيْ إنّ منَ المعاني الّتي يَخدمُها النّداءُ هنا العطف على أبنائه والخوف عليهم. والنّداءُ بالبعيد لمَن هو قريبٌ هو من إنزالِ المخاطَبِ منزلةَ الغائبِ المطلوبِ حضورُه، وهو كنايةٌ عنِ الاهتمامِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/20.

أوِ استعارةٌ له[1]. ولا بأسَ منَ الإشارةِ إلى أنّ كثرةَ أسلوبِ النّداء في سورة يوسفَ تشيرُ إلى طبيعةِ موضوعِ السّورةِ الّتي تحكي أحداثًا وألوانًا منَ المِحنِ تَستدْعي مشاهدُها التّنبيهَ والاهتمامَ بالغَرَضِ المُخَاطَبِ فيه، ومنها ما حلّ بيعقوبَ فاستدْعى منه هذا النّداء تنبيهًا لهم ممّا قد يَحلُّ بهم منَ المخاطرِ خوفًا عليهم ورحمةً بهم.

سِرُّ إضافةِ يعقوبَ أبناءَه إليه في ﴿يَٰبَنِيَّ﴾:

أضافَ يعقوبُ أبناءَه إلى نفسه، في قوله: ﴿يَٰبَنِيَّ﴾؛ أيْ: خاطبَهم بلهجةِ التّحبُّب والنُّصح وبلسان الشَّفقةِ والمحبَّةِ: ﴿يَٰبَنِيَّ﴾؛ تنبيهًا لهم على محلّ الشَّفقةِ بِطَبْعِ الأبوَّةِ، بما يجعلُهم يلتزمون نصحَهُ.

نُصحٌ بلسانِ شفقةِ الأبوّةِ ومحبّتِها رجاءَ الالتزامِ به

نُكتةُ التّعبيرِ بالنّهْيِ في ﴿لَا تَدۡخُلُواْ﴾:

عبّرَ البيانُ الإلهيُّ بفعل النّهي ﴿لَا تَدۡخُلُواْ﴾، وهو خطابُ يعقوبَ لأبنائه، وغرضُ النّهي هو النُّصحُ والإرشاد، والتّحذيرُ الممزوجُ بالحرْصِ على أبنائه والخوفِ عليهم، والاستبصار لتنْبيههم على ما ينبغي وتبصيرهم فيه، فأسلوبُ النّهي يأخذُ بالفكرِ ليوقِفهُ عند شيءٍ يستدْعي الوقوفَ عنده، فالنّهيُ هو من خشيةِ العين؛ لأنّهم كانوا ذوي بهاءٍ وشارةٍ حسنةٍ، فكانوا مَظنّةً لطموحِ الأبصار إليهم منَ الوفود، فخافَ عليهم أنْ يُصيبَهم ما يسوءُهم، ولم يُوصِهم بالتّفرّقِ في الدّخولِ في المرّة الأولى؛ لأنّهم كانوا مجهولين مغمورين بين النّاس[2]. وقد دلَّ هذا النّهيُ على أنَّ المُسلِمَ يجبُ عليه أنْ يُحَذِّرَ أخاه ممَّا يخافُ عليه، ويُرْشِدَه إلى ما فيه طريقُ السَّلامَةِ والنَّجاةِ؛ فإنَّ الدِّينَ النَّصيحةُ، والمُسلِمُ أخو المُسلِم[3].

رِعايةُ الأسبابِ المُعْتبَرَةِ في هذا العالَمِ، شرعٌ لا تجوزُ مخالفتُه

دَلالةُ التّعبيرِ بالفعلِ المضارعِ ﴿تَدۡخُلُواْ﴾:

استعملَ القرآنُ صيغةَ المضارع في قوله: ﴿يَٰبَنِيَّ لَا تَدۡخُلُواْ

تحذيرُ يعقوبَ لا يَقتصرُ على دخولٍ واحدٍ من بابٍ واحدٍ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/207.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/418.
(3) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 9/229.

مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ﴾؛ للدّلالةِ على نصيحةِ يعقوبَ أبناءَه بعدم إحداثِ الدّخولِ من بابٍ واحدٍ، وأنْ يكون ذلك منهم مستمرًّا متجدّدا، سواءٌ عند دخولهم المدينة، أم في أيّ سِكّة من سِككِها، أم أيِّ بابٍ خلالَ رحلتهم هذه.

إيجازُ الحذْفِ في السّياقِ:

إذا استوَى الذِّكْرُ والحذْفُ، فالحذْفُ أبلغُ

حَذَفَ البيانُ القرآنيُّ المفعولَ به (المدينة) في قوله تعالى: ﴿يَٰبَنِيَّ لَا تَدۡخُلُواْ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ﴾، والتّقديرُ: لا تدخلوا المدينةَ من بابٍ واحدٍ، وغرضُ الحذْفِ الاختصارُ؛ لأنّ الموضوعَ قصّةٌ، والحذْفُ أكثرُ ما يكونُ في القَصصِ القرآنيّ، ولأنّ المفعولَ معروفٌ من سياقِ الكلامِ، وفي الإطالةِ ملالةٌ على السّامع.

دلالة حرْفِ الجرِّ في ﴿مِنۡ أَبۡوَٰبٍ﴾:

في (من) الابتدائيّةِ إشارةٌ إلى شِدّةِ حرْصِ يعقوبَ على أبنائِه

حرفُ الجرّ ﴿مِنۡ﴾ في قولِه: ﴿مِنۡ أَبۡوَٰبٍ﴾ ابتدائيّةٌ، والمعنى: أيْ: لا تدخلوا مُبتدئين دخولَكم جميعًا من بابٍ واحدٍ من أبوابِ المدينةِ، أوِ الأبوابِ الّتي فيها، أو سِككِها، وإنّما ابدَؤُوا الدّخولَ من أبوابٍ مُتفرّقةٍ.

الغرَضُ من تنكير ﴿بَابٍ﴾:

النّهيُ عنِ الدّخولِ من بابٍ واحدٍ، يشملُ كلَّ بابٍ منها أو فيها

نكّرَ البيانُ القرآنيُّ لفظةَ ﴿بَابٍ﴾ في قوله تعالى: ﴿يَٰبَنِيَّ لَا تَدۡخُلُواْ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ﴾، للدّلالة على العموم؛ ليشملَ كلَّ بابٍ في المدينة خلالَ رحلتِهم يمكنُ أنْ يدخلوا منه، ولا يقتصر على بابٍ واحدٍ من أبواب المدينة فقط.

أضفْ إلى ذلك أنّ النّهيَ عنِ الدّخولِ من بابٍ واحدٍ يشملُ الدّخولَ والسّيرَ في سِككِ المدينة؛ أيْ: لا تمشوا في سِكّةٍ واحدةٍ، ولكنّه اكتفى بذِكر الدّخولِ من أبوابِ المدينة دون السَّيرِ في سِككها؛ لأنّ من شأنِ إقامةِ الحرّاسِ والأرصادِ أنْ تكون غالبًا على أبوابِ المدينة، ولأنّه وثقَ بأنّهم عارفون بسِككِ المدينة، فلم يخشَ

ضلالَهم فيها، وعلم أنّ (بِنيامين) يكونُ في صحبةِ أحدِ إخوته لئلّا يضلَّ في المدينة[1].

دَلالةُ وصْفِ البابِ بقوله ﴿وَٰحِدٍ﴾:

في الوصفِ توكيدٌ للنّهي، بعدمِ دخولِ أبنائِه من بابٍ واحدٍ

قيّد البيانُ القرآنيُّ البابَ في قوله تعالى: ﴿يَٰبَنِيَّ لَا تَدۡخُلُواْ مِنۢ بَابٖ وَٰحِدٖ﴾ بصفةِ ﴿وَٰحِدٖ﴾ مع أنّه لو لم يذكرْها وقال: (لا تدخلوا من بابٍ وادخلوا من أبوابٍ متفرّقة) لَتحقّق المعنى؛ ولكنّه وصفَه بـ ﴿وَٰحِدٖ﴾ توكيدًا لعدمِ دخولِهم من بابٍ واحد؛ إذْ وَصفت المنعوتَ ﴿بَابٖ﴾ بما يُقوّي معناه ويُؤكِّدُه؛ فهو بابٌ واحدٌ.

غرَضُ الإطناب بالأمرِ بعد النّهي:

في الإطنابِ بالأمرِ زيادةُ إيضاحٍ للنّهي، بما يُبرزُ كمالَ العنايةِ بمضمونِه

عبّرَ البيانُ الإلهيُّ بفعل الأمرِ ﴿وَٱدۡخُلُواْ﴾، وهو خطابُ يعقوبَ لأبنائه، وغرَضُ الأمرِ بيانٌ للمُرادِ بالنَّهي في قولِه: ﴿يَٰبَنِيَّ لَا تَدۡخُلُواْ مِنۢ بَابٖ وَٰحِدٖ﴾؛ لأنَّ عدَمَ الدُّخولِ مِن بابٍ واحدٍ ليس مُستلزِمًا للدُّخولِ مِن أبْوابٍ مُتفرِّقةٍ، فلو دخَلُوا مِنْ بابيْنِ مثلًا كانوا قدِ امتثلوا النّهيَ عنِ الدُّخولِ مِن بابٍ واحدٍ، وفي دُخولِهم مِن بابَيْنِ أو ثلاثةٍ بَعضُ ما في الدُّخولِ مِن بابٍ واحدٍ؛ مِن نوعِ اجتماعٍ مُصَحِّحٍ لوُقوعِ المحْذورِ؛ فأوضَحَه وبيَّنَه بقولِه: ﴿وَٱدۡخُلُواْ مِنۡ أَبۡوَٰبٖ مُّتَفَرِّقَةٖۖ﴾، ولم يَكتَفِ بهذا الأمْرِ، مع كَونِه مُسْتلزِمًا للنَّهي السّابقِ؛ إظهارًا لكَمالِ العِنَايةِ، وإيذانًا بأنَّه المُرادُ بالأمْرِ المذْكورِ، لا تَحقيق شَيْءٍ آخرَ[2]، إضافةً لِما فيه من تمكينٍ للمعنى في النّفس، مع ما يتضمّنُه ذِكرُ قوله: ﴿لَا تَدۡخُلُواْ﴾ مع قوله: ﴿وَٱدۡخُلُواْ﴾ من طباقِ سلْبٍ بديعٍ[3]، والأمر هنا يدلُّ على المستقبلِ البعيد بدلالةِ قرينةِ المقام؛ لأنّ الإرسالَ لن يحدثَ أثناءَ طلَبِ الإخوة، وإنّما حدثَ بعد فترةٍ زمنيّةٍ طويلةٍ نسبيًّا وذلك حين رجوعِهم للاكتيالِ.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/21.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/292، والآلوسيّ، روح المعاني: 7/19.
(3) الشّوابكة، غُرر البيان من سورة يوسف عليه السلام في القرآن، ص: 133.

دلالة حرف الجرّ في ﴿مِنۡ أَبۡوَٰبٖ﴾:

الإشارةُ إلى حرْصِ يعقوبَ، على إخفاءِ كونِهم جماعةً واحدةً

حرفُ الجرّ ﴿مِنۡ﴾ في قولِه: ﴿مِنۡ أَبۡوَٰبٖ﴾ ابتدائيٌّ، والمعنى: ابتدِئوا دخولَكم المدينةَ، أو أيّ مكانٍ فيها من أبوابٍ متفرّقةٍ إخفاءً لكونِكم جماعةً واحدةً، وهُم أحد عشر رجلًا، وذلك حماية لكم منَ الحسدِ والكيدِ وسوءِ الظنّ بنيّاتِكم.

سِرُّ الجمْعِ والتّنكيرِ في لفظ ﴿أَبۡوَٰبٖ﴾:

إيثارُ يعقوبَ دخولَهم من أبوابٍ كثيرةٍ، لحاجةٍ في نفسِه

نكّر البيانُ القرآنيُّ لفظَ ﴿أَبۡوَٰبٖ﴾ وأتى بها بصيغةِ الجمْعِ؛ لإفادةِ العُمومِ والتّكثيرِ، ولم يَقُلْ: (ادخلوا من الأبواب)؛ لأنّ الأبوابَ غيرُ معهودةٍ بالنّسبةِ ليعقوبَ وأولادِه، ولأنّ الغرضَ هو دخولُهم من أبوابٍ كثيرةٍ، لحاجةٍ في نفس يعقوبَ، وقد وردَ أنّ هذه المدينةَ في مصرَ هي "(منفيس) من أعظم مدنِ العالَم فهي ذاتُ أبوابٍ"[1].

سِرُّ وصفِ أبوابٍ بـ ﴿مُّتَفَرِّقَةٖۖ﴾:

لفظُ (متفرّقةٍ) إيماءٌ إلى إخفاءِ كونِهم إخوةً وقايةً لهم

وصفَ البيانُ القرآنيُّ الأبوابَ بأنّها ﴿مُّتَفَرِّقَةٖۖ﴾ وأرادَ بها مُتَعدِّدةً؛ لأنَّه جعَلَها في مُقابَلةِ الواحدِ، ووجْهُ العُدولِ عنِ المُتَعدِّدةِ إلى المُتَفرِّقةِ الإيماءُ إلى عِلَّةِ الأمْرِ؛ وهي إخفاءُ كونِهم جماعةً واحدةً[2]، واحترزَ كذلك بهذا الوصفِ من أنْ تكونَ الأبوابُ متلاصقةً أو متقاربةً جدًّا؛ أي: ادخلوا من أبوابٍ متفرّقةٍ تفرّقًا كبيرًا؛ وذلك خوفًا منَ الحسد، والتّحرّز منَ العين، فإنّ العينَ حقٌّ، وهي من قدَرِ اللّه، وقد ورد شرعُنا بذلك، فقد وردَ عنِ النبيِّ ﷺ أنّه قال: «العينُ حقّ ولو كان شيءٌ سابقَ القَدَرِ سبقَتْه العينُ»[3] وحتّى لا يُرَوا جماعةً واحدةً، أو يُحاطَ بهم إذا كانوا جميعًا، وكونَ أولادِ يعقوبَ عليه السلام ذوي جمالٍ.

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/20.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/21.

(3) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 10/157، والحديث أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب: السّلام، باب: الطبّ والمرض والرقى، رقم 2188.

دَلالةُ الواوِ في قوله ﴿وَمَآ أُغۡنِي﴾:

الواوُ عاطفةٌ؛ والمعطوفُ عليه جملةُ ﴿وَٱدۡخُلُواْ مِنۡ أَبۡوَٰبٖ مُّتَفَرِّقَةٖۖ﴾، ودلالةُ العطفِ هنا أنّ هذا الاحتياطَ هو من بابِ الأخذِ بالأسبابِ المأمورِ بها؛ لأنّها منَ القَدَر، لا من بابِ التّحرّز منَ القَدَر[1]، أي: إنّه لَمّا خافَ أنْ يَسبقَ من أمرِه هذا إلى بعضِ الأوهام أنّ الحذرَ يُغني منَ القدرِ عطفَ بنفيِ ذلك مبيِّنًا أنّه لم يقصدْ غيرَ تعاطي الأسبابِ على ما أمرَ اللّه[2].

الاحتراز سبَبٌ لا يَرُدُّ قدَرَ الله؛ لأنّه لا ينفَعُ مع القَدَرِ حَذرٌ

دَلالةُ (ما) النّافيةِ، في قوله ﴿وَمَآ أُغۡنِي﴾:

(ما): النّافيةُ؛ والمعنى: ما أُجزي وأسدُّ وأنوبُ عنكم منَ اللّه بعضَ أمرِ الملكِ الأعظمِ إنْ أرادَ بكم أمرًا سواءٌ كنتم مفترّقين أم مجتمعين، أيْ إنَّ الأمرَ بعد ذلك إليه؛ إنْ شاءَ سبّب عنِ الأسبابِ مسبّباتِها، وإنْ شاءَ أبطلَ تلكَ الأسبابَ، وأقامَ أسبابًا تضادُّها ويتأثّرُ عنها المحذورُ[3]، وفي النّفيِ إشارةٌ إلى تعليمِهم الاعتمادَ على توفيقِ اللّه ولُطْفِه مع الأخذِ بالأسبابِ المعتادةِ الظّاهرةِ؛ تأدّبًا مع واضعِ الأسبابِ ومُقدّرِ الألطافِ في رعايةِ الحالَيْن؛ لأنّنا لا نستطيعُ أنْ نطّلعَ على مرادِ اللّه في الأعمالِ، فعلينا أنْ نتعرّفَه بعلاماتِها، ولا يكونُ ذلك إلّا بالسّعيِ لها[4]؛ أيْ: عدَمِ التّعلّقِ بالأسبابِ بعد الأخذِ بها، وإنّما التّعلّقُ بخالقِ الأسبابِ، والرّكونُ إلى التَّوحيدِ المحْضِ، والبَراءة عن كلِّ شيءٍ سِوى اللّه تعالى[5].

الأمرُ أمرُه، إنْ شاءَ سبّبَ الأسبابَ، وإنْ شاءَ أبطلَها

دَلالةُ التّعبيرِ بالمضارعِ ﴿أُغۡنِي﴾:

استعملَ القرآنُ الكريمُ صيغةَ المضارعِ في قوله: ﴿وَمَآ أُغۡنِي

قدرُ اللّه لا يدفعُهُ شيءٌ؛ لأنّه الفعّالُ لِما يريدُ

(1) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 10/158.
(2) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 10/159.
(3) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 10/159.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/21.
(5) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 18/483.

عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾؛ للدّلالةِ على استمرارِ هذا الحالِ منه، وهو أنّ يعقوبَ عليه السلام لا يُغني عن أبنائهِ منَ اللّه من شيءٍ في زمنِ التّكلّمِ وفي كلِّ وقتٍ.

دَلالةُ حرْفِ الجرِّ (عن) في: ﴿وَمَآ أُغْنِي عَنكُم﴾:

حرفُ الجرِّ (عن) في قولِه تعالى: ﴿وَمَآ أُغْنِي عَنكُم﴾ للبدليّةِ وهي المجاوزةُ المجازيّةُ، جعلُ الشّيء البدلِ عنِ الشيء مُجاوزًا له؛ لأنّه حلّ محلَّه في حالِ غيبته فكأنّه جاوزه، فسَمّوا هذه المجاوزةَ بدليّةً، وقالوا: إنّ (عن) تجيءُ للبدليّة كما تجيءُ لها الباءُ، ومعنى: ﴿وَمَآ أُغْنِي عَنكُم﴾ لا أُجزي عنكم؛ أيْ: لا أكفي بدلًا عن إجزائِكم لأنفسِكم[1].

تحذيرُ يعقوبَ لا يكفي، بدلًا عن إجزائِهم لأنفسِهم

سِرُّ التّعبيرِ بالضّميرِ، وتقديمِ المجرورِ على المفعولِ به:

عبّرَ البيانُ القرآنيُّ بضميرِ الخطابِ ﴿عَنكُم﴾، في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُغْنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾؛ إشارةً إلى الاهتمامِ بهم، والخوفِ عليهم، بما يدفعُهم للاهتمامِ بمضمونِ ما سيُخبرُهم به من أنّ ما نصحَهم به لا يردُّ قدرَ اللّه إذا شاءَ شيئًا، فلا يَغترّوا بالأسبابِ الماديّةِ الّتي ذكرَها لهم، ولإفادةِ توكيدِ ذلك من أنّ هذا النّصحَ الّذي نصحَ لهم به منَ الدّخول من أبوابٍ مُتفرّقةٍ، لا يردُّ عنهم قضاءَ اللّه، ولا يدفعُ القدرَ المقدورَ لهم، لهذا قدّمَ البيانُ القرآنيُّ شبْهَ الجملة ﴿عَنكُم﴾، على المفعولِ به: ﴿مِن شَيْءٍ﴾ الّذي ناب منابَ (شيئًا)[2].

من حقيقةٍ إيمانيّةٍ بأنّ الأسبابَ لا تُغني عن قدَرِ اللّه

دَلالةُ حرفِ الجرِّ في: ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾:

حرفُ الجرِّ ﴿مِّنَ﴾ متعلّقٌ بـ ﴿أُغْنِي﴾، ويحتمل أحدَ معنيَيْن: **الأوّلُ**: ابتداءُ الغاية، والمعنى: لا يكونُ ما أمرْتُكم به مُغنِيًا غَنَاءً مُبتدِئًا مِن

القَدَرُ المقدورُ منه تعالى، لا يدفعهُ عنهم أيُّ سببٍ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/23.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/23.

عند الله، بل هو الأدَبُ والوقوفُ عند ما أمَرَ الله، فإنْ صادَفَ ما قدَّرَه فقد حصَلَ فائدتانِ، وإنْ خالَفَ ما قدَّرَه حصَلَتْ فائدةُ امتثالِ أوامِرِه، واقتِناعِ النَّفْسِ بعدَمِ التَّفريطِ[1]. **والثّاني**: التّبعيضُ، والمعنى: وما أغني عنكم منَ الله؛ أيْ: بعضَ أمرِ الملك الأعظمِ[2].

غرَضُ التّعبيرِ بالاسْمِ الأعظمِ ﴿ٱللَّـهِ﴾:

الاسمُ الجليلُ (الله)، يبعثُ في النّفسِ تعظيمَ الاعتمادِ عليه

آثرَ البيانُ الإلهيُّ التّعبيرَ بالاسمِ الأعظمِ الجليلِ ﴿ٱللَّهِ﴾، دونَ غيرِه منَ الأسماءِ الحُسنى في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾؛ لإفادةِ المبالغةِ في تعليمِ أبنائِه الاعتمادَ على توفيقِ الله بعد الأخذِ بالأسبابِ الظّاهرةِ، وتعظيمَ التّوكّل عليه؛ لأنّ اسمَ الجلالة (الله)، يجمعُ كلَّ صفاتِ الكمالِ؛ أيْ: يبعثُ في النّفس المهابةَ والتّعظيم.

دلالة حرْفِ الجرِّ ﴿مِن﴾ في السّياق:

الأخذُ بالأسبابِ لا يردُّ القدرَ، قليلًا كان أم كثيرًا

قولُه تعالى: ﴿مِن شَىْءٍ﴾ نائبٌ منابَ شيئًا؛ أيْ: جاءَ حرفُ الجرّ ﴿مِن﴾ لتوكيدِ عمومِ ﴿شَىْءٍ﴾؛ فإنّها نكرةٌ في سياق النّفي[3]؛ فدخولُ ﴿مِن﴾ عليها يزيدُها في التَّعميم، ويمنعُها منَ التَّخصيص؛ لأنّ دلالةَ العامِّ المطلقِ دلالةٌ ظنّيّةٌ، ومجيءُ الحرفِ ﴿مِن﴾ نفَى احتمالَ التّخصيص، فصارتْ دلالتُه قطعيّةً[4]، والمعنى: لا أُجزي ولا أسُدُّ ولا أنوبُ عنكم من قَدَرِ الله الملكِ الأعظمِ أيَّ شيء أراده بكم سواء كنتم مُفترقين أم مجتمعين[5] قليلًا كان أم كثيرًا، ومهما كان نوعُه وشكلُه.

الغرَضُ من تنكيرِ لفظِ ﴿شَىْءٍ﴾:

قَدَرُ الله تعالى، لا يردُّه رَادٌّ مهما كان نوعُه أو قوّتُه

في تنكير لفظةِ ﴿شَىْءٍ﴾ معنيان: **الأوّلُ**: العمومُ؛ لكونِ لفْظةِ ﴿شَىْءٍ﴾ نكرةً، في سياق النّفيِ، والمعنى: لا أُغني عنكم منَ الله أيَّ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/21.
(2) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 10/159.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/23.
(4) رشيد رضا، تفسير المنار: 11/339.
(5) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 10/159.

شيءٍ مهما كان نوعُه وشكلُه، سواءٌ كان حسدًا، أم غيرَ حسدٍ إذا قضى اللّه ذلك.

والثّاني: التّقليلُ والتّحقيرُ، والمعنى: لا أُغني عنكم منَ اللّه أيَّ شَيْءٍ مهما كان قليلًا إذا قضى اللّه به، وانتفاءُ الشّيءِ القليلِ يقتضي انتفاءَ الشّيءِ الكثيرِ بطريقِ الأَولى[1].

دلالة موقعُ جملةِ القصْرِ ﴿إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۖ﴾:

لا ينفعُ سببٌ إلّا باللّه، فالأمرُ كلُّه إليه

جملةُ ﴿إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۖ﴾ في موضعِ التّعليلِ لمضمونِ ﴿وَمَآ أُغۡنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍۖ﴾[2]، والمعنى: لا أُغني عنكم من قَدَرِ اللّه شيئًا؛ لأنّ الحُكمَ القَدَريَّ منَ التّصرّفِ والتّقديرِ والتّدبيرِ للّه وحدهِ؛ أيْ: له وحدَه - بعد الأخذِ بالأسبابِ - ثم علل ذلك بقوله: ﴿إِنِ﴾؛ أيْ: ما ﴿ٱلۡحُكۡمُ﴾ وهو فصل الأمرِ بما تدعو إليه الحكمةُ، فالأمرُ له كلُّه، لا يقْدِرُ أحدٌ على الفرارِ من شيءٍ من قَدَرِه[3]، ولا يتمُّ إلّا ما أراده سبحانه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمۡرِهِۦۚ﴾ [الطّلاق: 3]، فليس للعبدِ أنْ ينازعَ مرادَ اللّه تعالى في نفسِ الأمرِ، ولكنّ واجبَه أنْ يتطلّبَ الأمورَ من أسبابِها؛ لأنّ اللّه أمرَ بذلك[4].

غرَضُ التّعبيرِ بالقصْرِ في السّياقِ:

الحُكمُ والقضاءُ الفعليُّ، ليسَ إلّا لله وحدَه

﴿إِنِ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۖ﴾ حرفُ نفيٍ، وهو أقوى نفيًا من (ما)، و﴿إِلَّا﴾ استثناءٌ يفيدُ القصْرَ، وهو قصرٌ بالنّفي والاستثناء، والغرضُ البلاغيُّ منه هو تأكيدُ كوْنِ الحكمِ والقضاءِ الفعليِّ ليس إلّا للّه، ونفيُ أنْ يكونَ غيرَ ذلك، وجاءَ بـ ﴿إِنِ﴾ مع ﴿إِلَّا﴾ لأنّ النّفيَ والاستثناءَ أقوى طُرقِ القصْرِ، وهذا الأسلوبُ يبيّنُ مدى توكّلِ يعقوبَ على اللّه بعدَ أخذِهِ بالأسبابِ،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 6/201.
(2) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 10/160، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/23.
(3) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 10/160.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/23.

والمعنى: ما الحُكمُ والقضاءُ إلَّا للّه وحدَه؛ يحكُمُ في خلْقِه، ويقضي فيهم بما يشاءُ[1].

دَلالةُ (ال) على الاختصاصِ في ﴿لِلَّـهِۖ﴾:

الحكمُ القَدَريُّ للّه وحدَه، لا يُشاركه أحدٌ

لامُ ﴿لِلَّهِۖ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۖ﴾ هي لامُ الاختصاص، فالحكمُ مُختصٌّ به وحدَه؛ أيْ: ما شاءَ اللّه من قضاءٍ كان، وما لم يشأْ لم يكنْ؛ أيْ: "لا يشاركُه أحدٌ ولا يمانعُه شيءٌ"[2].

تَوجيهُ المُتشابهِ اللّفظيِّ بين الآيتَيْن (40)، (67):

قصْرُ الحُكمِ على اللّه على لسانِ يُوسُفَ ويعقوبَ

قولُه تعالى: ﴿إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۖ﴾ وردَ في سُورة يُوسُفَ مرَّتيْن وبمعنيَيْن، الأوَّلُ: على لسان يُوسُفَ، وجاءَ بمعنى الحُكم التَّشريعيِّ، والثَّاني: على لسانِ يعقوبَ، وجاءَ بمعنى الحُكم القدَريِّ، فيُوسُفُ عليه السلام لمَّا دعا صاحبَي السِّجن إلى التَّوحيد، قال: ﴿مَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسۡمَآءً سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ۝٤٠﴾ [يوسف: 40]، فقرّرَ لهما أنَّ الحُكمَ التَّشريعيَّ للّه وحدَه، ويعقوبُ عليه السلام لمَّا نهى أولادَه عنِ الدّخولِ من بابٍ واحدٍ وأمرَهم بالتَّفرّقِ، قال لهم في مقامِ الرِّضا بقدرِ اللّه: ﴿يَٰبَنِيَّ لَا تَدۡخُلُواْ مِنۢ بَابٖ وَٰحِدٖ وَٱدۡخُلُواْ مِنۡ أَبۡوَٰبٖ مُّتَفَرِّقَةٖۖ وَمَآ أُغۡنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍۖ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۖ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ وَعَلَيۡهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ﴾ فنصَّ لهم على أنَّ الحُكمَ القَدريَّ للّه وحده[3].

دَلالةُ موقعِ جملةِ ﴿عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ﴾:

لمّا قصرَ الأمرَ كلَّه عليه سُبحانه وجبَ ردُّ كلِّ أمرٍ إليه والاتّكالُ عليه

فصلَ البيانُ القرآنيُّ جملةَ ﴿عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ﴾ عمّا قبْلَها: ﴿وَمَآ أُغۡنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍۖ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۖ﴾، ولم يأتِ بينهما

(1) ابن جرير، جامع البيان: 13/238، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 9/228.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/292.
(3) الشوابكة، غرر البيان، ص: 140.

بعاطفٍ؛ لأنّها جاءتْ في موضعِ البيانِ لها؛ أيْ: ليُبيِّنَ يعقوبُ لبَنِيهِ أنَّ وصيَّتَه بأخذِ الأسبابِ مع التَّنبيهِ على الاعتمادِ على اللّه هو معنى التَّوكُّلِ الَّذي يَضِلُّ في فهمِه كثيرٌ منَ النَّاسِ اقتِصارًا وإنكارًا[1].

غرَضُ تقديمِ شبْهِ الجُملةِ ﴿عَلَيْهِ﴾:

قدّم البيانُ القرآنيُّ الجارَّ والمجرورَ ﴿عَلَيْهِ﴾ في قوله: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾، ولم يَقُل: (توكلت عليه)؛ لإفادةِ الحصْرِ، والمعنى: "على اللّه وحدَه الّذي ليس الحُكمُ إلّا له توكّلتُ؛ أيْ: جعلته وكيلي فرضيتُ بكلّ ما يفعلُه"[2]، لا على ما وصَّيتُكم به مِن دُخولِ مصرَ مِن أبوابٍ مُتفرِّقةٍ[3]، وفيه دَلالةٌ على أنّ ترتيبَ الأسبابِ غيرُ مُخلٍّ بالتّوكّل[4].

ينبغي أنْ يكونَ على الله مُعتَمدُ كلِّ مُعتمِدٍ، ومُستنَدُ كلِّ مُستنِدٍ

سِرُّ اختيارِ المُسنَدِ إليه، ضميرِ واحدٍ للغائبِ:

عبّرَ البيانُ القرآنيُّ بضميرِ الواحدِ الغائبِ ﴿عَلَيْهِ﴾ في قوله: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ والمُرادُ به اللّه سُبحانه، ولم يَقُل: (على اللّه توكلت) أي: لم يأتِ بالاسْمِ الجليل ظاهرًا، وإنّما أتى به ضميرًا؛ وذلك لورود الاسْمِ الجليلِ في السّياق مرّتيْن، في قوله: ﴿وَمَآ أُغْنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍۖ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِۖ﴾، فمع التّعبير بالضّمير هنا لا ينصرفُ الذِّهنُ إلّا إليه سُبحانه، وأتى الضّميرُ بصيغة الواحد؛ لأنّ اللّه واحدٌ أحدٌ، وعليه وحدَه التّوكّلُ.

عليه تعالى التّوكّلُ وحدَه، وله الحُكمُ فهو الواحدُ الأحدُ

دَلالةُ الواوِ، في قوله ﴿وَعَلَيْهِ﴾:

الواوُ في قوله تعالى: ﴿وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ﴾ عاطفةٌ، والمعطوفُ عليه قولُه تعالى: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾، وكلتا الجُملتَيْن بيانٌ لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أُغْنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍۖ﴾، ولكنْ جاءتْ هذه الجملةُ أمرًا لهم ولغيرِهم بالتّوكّل على اللّه، على مَعْنى أنَّ التّوكُّلَ هو واجِبُ

مقامُ التّوكّلِ يَستوعبُ المؤمنين الصّادِقين منَ الحاضِرينَ والغائِبينَ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/23.
(2) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 10/162، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/292.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 13/238.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/292.

الحاضِرينَ والغائِبينَ، وأنَّ مَقامَه لا يختصُّ بالصِّدِّيقينَ، بل هو واجِبُ كلِّ مؤمنٍ كاملِ الإيمانِ لا يخلطُ إيمانه بأخطاءِ الجاهليّاتِ[1].

غرَضُ تقديمِ شبْهِ الجُملةِ ﴿وَعَلَيْهِ﴾:

قدّمَ البيانُ الإلهيُّ الجارَّ والمجرورَ ﴿وَعَلَيْهِ﴾ فقال: ﴿وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾، ولم يَقُل: (فليتوكل عليه المتوكلون)؛ لإفادةِ الحصْرِ؛ أيْ: نفي غيرِ المذكورِ وإثبات المذكورِ وهو سُبحانه، والمعنى: وعليه وحدَه فليتوكّلِ المتوكّلون[2]؛ أيْ: لا على أمثالِهم منَ المخلوقين، ولا على أنفسِهم، بل يجبُ على كلِّ مَن يؤمنُ باللّه تعالى أنْ يتّخذَ لكلّ أمرٍ ما يقدرُ عليه منَ الأسبابِ، وأنْ يكونَ اتّكالُه في النّجاحِ وقضاءِ الحوائجِ على اللّه وحدَه ﷻ.

التّوكّلُ مقصورٌ على الله وحدَه، فهو الّذي يَستحقُّ التّوكّلَ

معنى الفاءِ في قولِه: ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ﴾:

تحتمل الفاءُ في قوله: ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ﴾ أحدَ معنيَيْن:

الأوّلُ: إفادةُ التّسبُّبِ؛ فإنَّ فِعلَ الأنبياءِ سببٌ لأنْ يُقتدَى بهم[3]، ويدخلُ في المقتدين بتوكُّلِ يعقوبَ بَنوهُ دخولًا أوليًّا[4].

الثّاني: التّوكيدُ، إذ يُمكنُ أنْ يقول: وعليه يتوكّلُ المتوكّلون، ولكنّه أضافها توكيدًا لتوكّلِ المُقتدين بيعقوبَ على اللّه ﷻ.

توكّلُ الأنبياءِ، سببٌ يُؤكّدُ الاقتداءَ في التّوكُّلِ بهم

غرَضُ التّعبيرِ بلام الأمرِ في ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ﴾:

عبّرَ البيانُ الإلهيّ بالفعْلِ المُقترنِ بلام الأمرِ ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ﴾، وهو خطابُ يعقوبَ لأبنائه، وغرضُه النّصحُ والإرشادُ، يقول أبو السُّعود: "وفي هذا ما لا يَخفَى من حُسنِ هدايتِهم وإرشادِهم إلى التّوكّل فيما

نصحٌ وإرشادٌ بالتّوكّلِ، وقايةً لهم منَ الاغترارِ، بما اتّخذوه من تدابيرَ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/23.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/106، 4/292، ويكاد أهل البيان يطبقون على أنّ تقديم المعمول يفيد الحصر، يُنظر: السّيوطيّ، الإتقان في علوم القرآن: 3/174.

(3) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/170.

(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/292.

هم بصددِه على اللّه ﷻ غيرَ مغترّين بما وصّاهم به منَ التّدبير"[1]، والفرقُ بين التّعبير بالأمر، والتّعبيرِ بالفعل المضارع المقترِنِ بلام الأمر، أنَّ المضارعَ المقترِنَ بلام الأمر، يرادُ منه أن يكون تنفيذُ الأمر على الفور في الحال، أمّا الأمرُ بغير اللّام فيحتملُ الفوريّةَ.

سِرُّ التّعبيرِ بالمُسنَدِ إليه جمعًا مُعرّفًا ﴿ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ﴾:

الثّباتُ في بابِ التّوكُّلِ من أعظَمِ الصّفاتِ؛ لأنّه أعظمُ الواجباتِ

عبّرَ البيانُ القرآنيُّ بالمُسنَدِ إليه: ﴿ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ﴾ بصيغة اسْمِ الفاعل، وهو من أهمِّ الأسماءِ الصَّرفيَّةِ الّتي تدلُّ على حدثٍ ثابتٍ، غيرِ مُحدَّدٍ بزمن، فيشملُ الماضي والحالَ والمستقبلَ، بما يُعطي للمعنى مزيدًا منَ المبالغةِ، لدوامِ التّوكّل على اللّه، لا مُجرَّد الحدوث، وعُرّف بأل التّعريف الجنسيّةِ الّتي تدلُّ على شمول جميعِ المُتوكّلين، وتشيرُ إلى قصْرِ التّوكّل على اللّه سُبحانه، فاللّه هو الّذي يستحقُّ التّوكّلَ عليه لا غيرُه، وجاء بصيغةِ الجمع؛ ليشيرَ إلى ثباتِ صفةِ التّوكّل؛ إذِ التّوكّلُ منَ الجماعةِ لا كالتّوكّلِ منَ الواحد، يقول البقاعيّ مختصرًا هذه المعاني: " أي: الثّابتون في باب التّوكّل، فإنّ ذلك من أعظمِ الواجبات، من فعَلَه فازَ، ومن أغفلَه خابَ"[2].

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/292.
(2) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 10/162.

﴿وَلَمَّا دَخَلُواْ مِنۡ حَيۡثُ أَمَرَهُمۡ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغۡنِي عَنۡهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍ إِلَّا حَاجَةٗ فِي نَفۡسِ يَعۡقُوبَ قَضَىٰهَاۚ وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلۡمٖ لِّمَا عَلَّمۡنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٦٨﴾ [يوسف: 68]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لمّا قال يعقوبُ: ﴿وَمَآ أُغۡنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍۖ﴾، صدَّقه اللّه في ذلك فقال: ﴿وَلَمَّا دَخَلُواْ مِنۡ حَيۡثُ أَمَرَهُمۡ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغۡنِي عَنۡهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍ﴾ أي: وما كان ذلك التّفرّقُ يُغني عنهم منَ اللّه من شيءٍ[1].

تَصديقُ اللهِ ليعقوبَ في بيانِه لأبنائه، وامتداحُ علْمِه تأكيدًا للتّوكُّلِ الحقِّ

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿حَاجَةٗ﴾: أصلُ (حوج) هو الاضْطِرارُ إلى الشَّيءِ، والحاجةُ واحدةُ الحاجات[2]، وأصلُها حائِجَة، حذفوا منها الياء، فلمّا جمعوها رَدُّوا إليها ما حذفوا منها فقالوا: حَوائِج، والحَوْجُ: الطَّلَبُ، والتَحَوُّجُ: طَلَبُ الحاجَةِ بعد الحاجَةِ، وتَحَوَّجَ إلى الشَّيءِ: احْتاجَ إليه وأَراده[3]، والحَوْجُ: السَّلامَةُ، يُقال للعاثِر: حَوْجًا لكَ، أَي: سَلامَةً، والحُوجُ: الفقر، والحاجَة: المأربةُ، والحاجَة: القُصورُ عنِ المَبْلَغِ المطلوبِ[4].

ومعنى ﴿حَاجَةٗ﴾ في الآية: إربًا ليعقوب[5]، وهو أمرٌ رغبَ به، وهو حرصُه على تنبيهِهم للأخطار الّتي تَعرِضُ لأمثالِهم[6]، والخاطرُ الّذي خطرَ على فكره، وإرادتُه أنْ يكونَ دخولُهم من أبوابٍ متفرّقةٍ شفقةً عليهم، وخوفُه منَ العين تصيبُهم[7].

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 18/484.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حوج).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (حوج).
(4) الزّبيديّ، تاج العروس: (حوج).
(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/298.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/25.
(7) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3842.

2) ﴿قَضَىٰهَآ﴾: أصلُ (قضي) يدلُّ على إحْكامِ أَمْرٍ وإتْقانه وإنْفاذِه لجهته، والقضاءُ: الحُكمُ، ولذلك سُمِّيَ القاضِي قاضِيًا؛ لأنّه يُحْكِمُ الأَحْكامَ ويُنْفذها[1]، ويأتي القضاءُ بمعنى الحتْم والأمرِ، كقوله تعالى: ﴿۞وَقَضَىٰ رَبُّكَ﴾ [الإسراء: 23] أي: حتّم وأمرَ، والقضاءُ في اللّغة يرجعُ إلى معنى انقطاعِ الشّيءِ وتمامِه، يُقال قضى وَطَرَه: أتمّهُ ونالهُ وبلغهُ، وقضى عليه عهدًا: أوصاهُ وأنفذه[2]، ومعنى ﴿قَضَىٰهَآ﴾ في الآية: أنفذَها[3]، وأظْهرَها ووصّاهُم بها دفعًا للخاطرةِ[4].

3) ﴿عَلَّمۡنَٰهُ﴾: العِلْمُ: نَقيضُ الجَهْلِ، وتَعَلَّمْتُ الشَّيءَ إذا أَخَذْتُ عِلْمَهُ[5]، وعَلِمْتُ الشّيءَ: عَرَفْتُه، وعَلِمَ بِالشَّيْءِ: شَعَرَ، وعَلِمَ الأَمرَ وتَعَلَّمَه: أَتقنَه، والعالِمُ: الّذي يَعْمَلُ بما يَعْلَمُ[6]، والعِلْمُ: إدراكُ الشّيءِ بحقيقتِه، وتّعليمُ اللّه يمكنُ أنْ يكونَ إلقاءً في الرّوع، فإنّ للّه تعالى علمًا يخصُّ به أولياءَه[7]، والعِلْمُ هو الاعْتِقادُ الجازِمُ الثّابِتُ المُطابِقُ للواقِعِ[8]، ومعنى ﴿وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلۡمٖ لِّمَا عَلَّمۡنَٰهُ﴾ في الآية: أيْ لَذو علمٍ لتعليمِنا إيّاه، أو معناه وإنّه لذو حفْظٍ لِما استودعْنا صدرَه منَ العلم، أو لَحافظٌ لوصيّتنا، أو إنّه لَعاملٌ بما علم، أو لَمتيقِّنٌ بوعدنا[9]، أو لِما علّمناه منَ الحكمةِ والنّبوّةِ[10].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

بيّن سُبحانه أنّ الأبناءَ قدِ امتثلوا أمرَ أبيهم، وأنّهم حين دخلوا

خاطرٌ شعرَ به يعقوبُ جعلهُ يُوصي أبناءَه، موقِنًا بنفاذ إرادة الله

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (قضي).
(2) الزّبيديّ، تاج العروس: (قضي).
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/24.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/293.
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (علم).
(6) ابن منظور، لسان العرب: (علم).
(7) الرّاغب، المُفردات: (علم).
(8) المناويّ، التّوقيف على مهمّات التّعريف، ص: 246.
(9) ابن جرير، جامع البيان: 16/167 - 168، والماورديّ، النُّكت والعيون: 3/60.
(10) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3842.

منَ الأبوابِ المُتفرّقةِ الّتي أمرَهم أبوهم بالدّخول منها ما كان هذا الدّخولُ يدفعُ عنهم شيئًا قدّره الله عليهم، ولكنّ الّذي حملَ يعقوبَ على أمرهم بذلك رغبةٌ خطرتْ في نفسه أظهرَها ووصّاهم بها، ولم يستطع إخفاءَها لشِدّةِ حبّه لهم، مع اعتقادِه بأنّ كلَّ شيءٍ بقضاءِ الله وقدرِه، وهذا لعلْمِه وحُسنِ تدبيره؛ فإنّه لذو علمٍ عظيمٍ للشّيءِ الّذي علّمه الله إيّاه عن طريقِ الوحي، وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ ما يعلمُه يعقوبُ من أنّ الأخذَ بالأسبابِ لا يتنافى مع التّوكّلِ على الله، أو لا يعلمون ما أعطاه الله لأنبيائِه وأصفيائِه منَ العلمِ والمعرفةِ وحُسنِ التّأتّي للأمور[1].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دَلالةُ الواوِ في قولِه: ﴿وَلَمَّا دَخَلُواْ﴾:

الواوُ في قولِه تعالى: ﴿وَلَمَّا دَخَلُواْ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم﴾ اعتراضيّةٌ، والجملةُ معترضةٌ[2]؛ غرضُها تأكيدُ أنَّ التَّقديرَ غالبٌ للتَّدبير، والإنسانُ وديعةُ غَيْبٍ، وأسيرُ قَدَرٍ، ومع ذلك يجبُ عليه الأخذُ بالأسباب.

الجمعُ بين الأخذِ بالأسبابِ والتّوكّل، حقيقةٌ أكّدتْها الجملةُ الاعتراضيّةُ

دلالة (لَمَّا) في قوله ﴿وَلَمَّا دَخَلُواْ﴾:

﴿وَلَمَّا﴾ شرطيّةٌ، وهي ظرفٌ للزّمانِ الماضي بمعنى حينَ؛ لأنّ الجُملتَيْن بعدَها فعْلُهما ماضٍ، وقد أتى الشّرطُ فيها للدّلالة على الزّمن الماضي بما يفيدُ تحقُّقَ وقوعِ هذا الحدثِ بطرفَيْه؛ لأنّ الآيةَ نزلتْ بعدَه، وقدِ اختُلف في جوابها، فقيل: هو قولُه: ﴿مَّا كَانَ يُغْنِي﴾، والمعنى: أنَّ دخولَهم من أبوابٍ متفرّقةٍ لا يدفعُ عنهم شيئًا ممّا قدّره الله، بلِ الدّخولُ مُتفرّقين كالدّخول مُجتمعين، بالنّسبةِ لقضاءِ الله، وعلى هذا القولِ الأوّلِ يكونُ في تقييد الجملةِ الخبريّةِ: ﴿مَّا

في التّقييدِ بـ (لَمَّا) إشارةٌ إلى أنّ قضاءَ الله، كان يترصَّدُهم عند تلك الأبوابِ

(1) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 7/393.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/24.

كَانَ يُغْنِي عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾ بظرْفِ الدّخول ﴿وَلَمَّا دَخَلُواْ﴾ رغْمَ "أنّ عدمَ الإغناءِ بالفعلِ إنّما يتحقّقُ عند نزولِ المحذورِ لا وقتَ الدّخول"[1] يكونُ في تقييدها دَلالةٌ على أنّ المُتحقّقَ هو عدمُ كونِ الدّخولِ مُغنيًا فيما سيأتي، وليس المُرادُ بيانَ سببيّة الدّخول المذكورِ، إضافةً إلى أنّ فيه إشارةً إلى أنّ قضاءَ الله كان يترصّدُهم على تلك الأبواب المُتفرّقةِ الّتي دخلوا منها، كما أمرَهم أبوهم[2]؛ هذا إذا كان الجوابُ محذوفًا، والتّقديرُ: ولمّا دخلوا من حيث أمرَهم سَلِموا ممّا كان يخافُه عليهم[3]، ويكونُ في هذا التّقييدِ إشارةٌ إلى أنّ سلامةَ الله لهم منَ الإحاطة بهم هي الّتي كانت تترصّدُهم، وأمّا إذا كان الجوابُ قولَه: ﴿ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَخَاهُۖ﴾ وهو جوابُ ﴿وَلَمَّا﴾ الثّانيةِ أيضًا في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ﴾؛ فإنَّ المقصود بدخول المدينة الدّخولُ على يوسف، والمقصودُ به إيواءُ الأخ، فـ (لَمّا) الثّانيةُ مرتّبةٌ على (لَمّا) الأولى، فصلحَ أنْ يكون جوابُهما واحدًا[4]. وعلى القول الثّاني يكونُ في تقييدِ الجملةِ الخبريّةِ بظرف الدّخولِ ﴿وَلَمَّا﴾ إشارةٌ إلى أنّ دخولَهم على يوسفَ عليه السلام كان عَقِبَ دخولِهم منَ الأبواب، وأنّ يوسفَ كان يترصّدُهم فبمجرّدِ دخولِهم عليه آوى إليه أخاه بِنيامين؛ ليكونَ قدرُ الله في أنْ يضُمَّ إليه أخاه.

الإيجازُ غرضُه التّركيزُ على المَشاهدِ البارزةِ في القصّةِ

إيجازُ الحذْفِ في: ﴿وَلَمَّا دَخَلُواْ﴾:

أغنتْ جملةُ ﴿وَلَمَّا دَخَلُواْ مِنۡ حَيۡثُ أَمَرَهُمۡ أَبُوهُم﴾، عن جُملٍ كثيرةٍ، وهي أنَّهمُ ارتحلوا ودخلوا من حيثُ أمرَهم أبوهم، ولمّا دخلوا من حيث أمرَهم سَلِموا ممّا كان يخافُه عليهم، وما كان دخولُهم من حيث أمرَهم أبوهم يُغني عنهم منَ الله من شيءٍ، لو قدّر الله أنْ

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/20.
(2) الخطيب، التّفسير القرآنيُّ للقرآن: 7/21.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/24.
(4) الصّاويّ، حاشية الصّاويّ على تفسير الجلالين، ص: 900.

يُحاطَ بهم، فالكلامُ إيجازٌ[1] غرضُهُ التّركيزُ على المَشاهدِ البارزةِ في القصّة، وتركُ ما بينَهما من فجَواتٍ تدلُّ عليها روابطُ بَدهيّةٌ؛ ليُفْسَحَ المجال للخيال حتّى يملأَها بما يُعطي قيمةً جماليّةً للقصّة، كانتْ ستضعفُ لو شُغل الذّهنُ بعرضِ تلك الفجَوات[2].

دَلالةُ التّعبيرِ بالماضي ﴿دَخَلُواْ﴾:

تحقّقُ امْتِثالِهم لأمرِ أبيهم، إشارةٌ إلى تغيُّرِهم، وتحسُّنِ حالِهم

عبّرَ البيانُ الإلهيُّ بالماضي في قوله: ﴿وَلَمَّا دَخَلُواْ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم﴾؛ للدّلالة على أنّ فعلَ الدّخولِ من حيث أمرَهم يعقوبُ قد تحقّقَ منهم، وانقضتْ مدّتُه، وحانَ وقتُ الدّخولِ على يوسفَ عليه السلام، وهذا فيه إشارةٌ إلى امتثالِهم وطاعتِهم لأمرِ أبيهم، بما يدلُّ على صلاحِ حالِهم.

دَلالةُ التّعبيرِ بالجارّ قبْلَ الظّرفِ ﴿مِنْ حَيْثُ﴾:

في (مِنْ) تَوكيدٌ لدقّةِ التزامِهم بتنفيذِ أمرِ أبيهم يعقوبَ عليه السلام

أتى البيانُ الإلهيُّ بحرف الجرِّ ﴿مِنْ﴾، في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا دَخَلُواْ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم﴾؛ تأكيدًا لالتزامِهم الدّخولَ منَ الجهاتِ الّتي أمرَهم أبوهم أنْ يدخلوا منها، بما يُشيرُ إلى تحسُّنِ حالِهم، والتزامِهم بدقّةِ تنفيذِ أمرِ أبيهم، وحرْصِهم على حفظِ أخيهم بِنيامين.

غرَضُ تَقييدِ الفعْلِ بالظّرفِ في الآية:

دخولُ الأبناءِ منَ الجهاتِ الّتي أمرَهم بها أبوهم، دليلٌ على التزامِهم

قيّد البيانُ الإلهيُّ الفعلَ ﴿أَمَرَهُمْ﴾ في قوله: ﴿مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ﴾، بالظّرف ﴿حَيْثُ﴾؛ لأنّها تدلُّ على الجهة؛ أيْ: لَمّا دخلوا منَ الجهاتِ الّتي أمرَهم أبوهم بالدّخولِ منها، فالجملةُ الّتي تُضافُ إليها حيثُ هي الّتي تُبيّنُ المُرادَ منَ الجهة[3]، وهذا فيه إشارةٌ إلى علمِ يعقوبَ بالدّيار المصريّة، وإلى حرْصِهِ على الأخذِ بالأسبابِ على أكملِ وجْهٍ،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/24.
(2) البغا، الواضح في علوم القرآن، ص: 195.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/24.

وإلى دقّة التزامِ أبنائِه وصيَّةَ أبيهم ممَّا يُظهرُ لنا حُسْنَ طاعتِهم وتغيّرَ حالِهم نحوَ الأحسن.

غرَضُ تعريفِ المُسنَدِ إليه ﴿أَبُوهُم﴾ بالإضافةِ:

تنبّؤٌ بتغيّرِ حالِ أبناءِ يعقوبَ، وحُسْنِ علاقتِهم بأبيهم

عرّف البيانُ الإلهيُّ المُسنَدَ إليه (أبو) بالإضافة، في قوله تعالى: ﴿أَمَرَهُمْ أَبُوهُم﴾؛ للإشارةِ إلى تشريف المضافِ إليه، وهم أبناؤه؛ لأنّهم استجابوا لأمرِه ونفّذوه بحذافيره، وباستجابتِهم هذه استَحقّوا هذا التّشريفَ بإضافتِهم إلى نبيِّ اللّه يعقوبَ عليه السلام، وهذا التّشريفُ يدلُّ على تغيُّرِ حالِهم، وحُسنِ علاقتِهم بأبيهم ودِفئِها، وعلى رِقّةِ يعقوبَ وحبِّه لأبنائه، وأنّ نُصحَه كان بدافعِ الخوفِ والحبّ لهم جميعًا لا لِبنيامين فقط.

نُكتةُ التَّعبيرِ بـ(كانَ) المَنفيّةِ ﴿مَّا كَانَ﴾:

عدمُ ردِّ الأسبابِ لقضاءِ اللهِ، رغْمَ وجوبِ الأخذِ بها، حكمٌ ثابتٌ

آثرَ القرآنُ الكريمُ التَّعبيرَ بلفظةِ ﴿كَانَ﴾ بصيغة الماضي المَنفيِّ في قوله: ﴿مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم﴾ على نفْيِ الفعل مباشرةً، فلم يَقُلْ: (ما أغنى دخولُهم عنهم شيئًا منَ اللّه)؛ لإفادةِ استمرارِ نفْيِ أنْ يردَّ الأخذُ بالأسباب قدرَ اللّه تعالى؛ لأنّ ﴿كَانَ﴾ عندما سُبقت بـ ﴿مَّا﴾ النّافيةِ دلّتْ على الزّمن الماضي القريبِ منَ الحال، ثمّ لَمّا جاء بعدَها الفعلُ بصيغة المضارع أفادتِ المستقبلَ؛ أي: الاستمرارَ، أضفْ إلى ذلك أنّ الجملةَ الاسميّةَ تفيدُ الدّوام والثّبوتَ.

دَلالةُ التَّعبيرِ بالمضارعِ، في قوله ﴿يُغْنِي﴾:

عدمُ إغناءِ الأخْذِ بالأسبابِ عن قدَرِ اللهِ المتَّجدّدِ الغلّابِ

عبّرَ البيانُ القرآنيُّ بصيغة الفعلِ المضارعِ، في قوله تعالى: ﴿مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾؛ لإفادة التّصويرِ والحركةِ والتّجدّدِ؛ أيْ: إنّ عدمَ إغناءِ الأخذِ بالأسبابِ المعتادةِ الظّاهرةِ عن قدَرِ اللّه سبحانه كان أمرًا مُتجدّدًا في رحلة أبناءِ يعقوبَ؛ إذ إنّ دخولَهم كان من أبواب متفرّقةٍ سواءٌ أكانت أبوابَ المدينة أم غيرها، كما أنّه أمرٌ مُتجدّدٌ في حياةِ الإنسان يعيشُه ويُعاينُه في

تفاصيل حياتِه، وهذا يساعدُ في تصويرِ مشاهدِ ذلك في مُخيّلتِه؛ لِما لها من أمثلةٍ كثيرةٍ في واقعِ حياتِه. ولا بأسَ من أنْ نشيرَ إلى أنّ الجُملَ الفعليّةَ في سورة يوسفَ قد بلغ مجموعها حوالي ثلاثمائة وواحدٍ وخمسين جُملةً؛ أيْ: زادت على الجُملِ الاسميّةِ الّتي بلغت مائة وثلاثًا وثلاثين، وذلك تناسقًا مع طبيعة قصّةِ يوسفَ المليئةِ بالحركةِ والمحطّاتِ المتنوّعةِ من حَسَدٍ ومحاولةِ قتْلٍ وفَتنٍ وافتراءاتٍ وإغراءاتٍ وغيرِها، وتصويرًا لكلِّ ذلك.

غرَضُ تقديمِ شبْهِ الجُملة على الفاعلِ:

مدارُ الحديثِ على أبناءِ يعقوبَ، والتّشويقِ لِما سَيَحلُّ بهم

قدّم البيانُ القرآنيُّ شبْهَ الجملةِ ﴿عَنْهُم﴾ على الفاعلِ ﴿مِن شَيْءٍ﴾ (عند مَن عدّه فاعلًا لا مفعول به) في قوله تعالى: ﴿مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾، ولم يَقُل: (ما كان يُغني شيءٌ عنهم منَ الله)؛ اهتمامًا بالمُقدَّم وهو أبناءُ يعقوبَ؛ إذِ التّركيزُ في سياقِ الكلام عليهم وعلى ما سيُصيبُهم من قدرِ الله منَ الاتّهام بالسّرقة، وأخذِ بنيامين منهم وعودَتِهم بدونه، رغْمَ كلِّ ما نصحَهم به يعقوبُ، وما اتّخذوه سلامةً لهم ولأخيهم بنيامين كان تطبيقًا للعهدِ الّذي قطعَه عليهم أبوهم، وفي الوقت نفسه أخّرَ الفاعلَ، وهو ما اتّخذوه من أسبابٍ، تشويقًا للنّفس إلى معرفتِه.

دَلالةُ (من) في قولِه: ﴿مِّنَ ٱللَّـهِ﴾:

التّقديرُ أقوَى مِنَ التّدبيرِ، والإنسانُ وَديعةُ غَيبٍ، وأسيرُ قَدَرِ الله

﴿مِّنَ﴾ في قولِه: ﴿مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾، متعلّقةٌ بـ ﴿يُغْنِي﴾، وهي ابتدائيّةٌ، والمعنى: ما كانَ ذلك الدّخولُ يُغْنِي عَنْهُمْ من جهتِه سُبحانه شيئًا[1]، أو: ما كان شيءٌ يُغني عنهم من جهتِه سُبحانه.

سِرُّ التَّعبيرِ باسْمِ الجلالة ﴿ٱللَّـهِ﴾:

آثرَ البيانُ الإلهيُّ التّعبيرَ بالاسْمِ الأعظمِ الجليلِ ﴿ٱللَّهِ﴾ دونَ غيرِه منَ الأسماء الحُسنى في قوله تعالى: ﴿مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم مِّنَ

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/20.

اسمُ الجلالةِ يُربِّي في النُّفوسِ تعظيمَه تعالى ومهابتَه

﴿ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍ﴾؛ لإفادةِ المُبالغةِ في تقريرِ عظَمةِ أمرِ اللّه سُبحانه، وأنّ تدبيرَ العبدِ الضّعيفِ لا يؤثّرُ في تقديرِ المَلكِ القويّ الأعلى سُبحانه[1]، ولإفادةِ تربيّةِ المهابةِ في النّفوس تجاهَ أقدارِ اللّه بما يُحقّقُ الاستسلامَ والخضوعَ لها عند العبدِ.

دَلالةُ (مِن) في قوله ﴿مِن شَيۡءٍ﴾:

قضاؤُه تعالى نافذٌ، لا يدفعُهُ أيُّ تدبيرٍ

أفادَ التّعبيرُ بـ ﴿مِن﴾ في قوله تعالى: ﴿مِن شَيۡءٍ﴾ التّوكيدَ؛ لإمكانيةِ الاستغناءِ عنها، والتّوكيدُ حاصلٌ بذكرِها سواءٌ كان التّركيبُ ﴿مِن شَيۡءٍ﴾ يحتملُ النَّصبَ بالمفعوليّة، أم الرّفعَ بالفاعليّة، أمّا الأوّلُ: فهو كقوله: ما رأيتُ من أحدٍ، فكذا هاهنا تقديرُ الآية: تفرّقُهم في الدّخولِ ما كان يُغني من قضاءِ اللّه شيئًا؛ أيْ: ذلك التّفرّقُ ما كان يُخرجُ شيئًا من تحتِ قضاءِ اللّه تعالى، وأمّا الثّاني: فكقولِك: ما جاءني من أحد، وتقديرُه: ما جاءني أحدٌ، فكذا هاهنا التّقديرُ: ما كان يُغني عنهم منَ اللّه شيءٌ مع قضائه[2].

الغرَضُ من تنكيرِ لفظِ ﴿شَيۡءٍ﴾:

قَدَرُ الله لا يردُّه أيُّ سببٍ منَ الأسبابِ، وكلُّ شيءٍ عندَه بقدَرٍ

الغرَضُ من تنكيرِ لفظةِ ﴿شَيۡءٍ﴾ في قوله تعالى: ﴿مَّا كَانَ يُغۡنِي عَنۡهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍ﴾ العمومُ؛ لكونِها نكرةً في سياقِ النّفي، وسواءٌ في ذلك كونُه في موضعِ الفاعليّة أوِ المفعوليّة، والمعنى: ما كان يُغني عنهم أيُّ شيءٍ عن قَدَرِ اللّه، أو ما كان دخولُهم مُفرَّقين يُغني عنهم من جهةِ اللّه تعالى شيئًا.

دَلالةُ الاستثناءِ في قوله ﴿إِلَّا حَاجَةً﴾:

نُصحُ يعقوب أبناءه بالدُّخول مُتفرّقين لحاجة في نفسه لا تردُّ القضاء

الاستثناءُ في قوله تعالى: ﴿إِلَّا حَاجَةً فِي نَفۡسِ يَعۡقُوبَ قَضَىٰهَاۚ﴾ يحتملُ وجهَيْن:

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/162.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 18/484.

الأوّلُ: استثناءٌ مُنقطعٌ؛ لأنَّ الحاجةَ الّتي في نفسِ يعقوبَ عليه السلام ليستْ بعضًا مِنَ الشَّيءِ المَنْفِيِّ إغناؤه عنهم منَ اللّه، والمعنى: ما يُغني دخولُهم مُتفرّقين عنهم من قدرِ اللّه شيئًا، لكنَّ حاجةً في نفسِ يعقوبَ قضاها[1]، يعني أنَّ الدّخولَ على صفةِ التَّفرّق قضاءُ حاجةٍ في نفسِ يعقوبَ قضاها[2]، وهي دفعُ العينِ عنهم[3]، أوِ الأذى والكيدِ بهم، وفي هذا الاستثناء المنقطعِ إشارةٌ إلى أنَّ يعقوبَ يعلمُ هذا حقَّ العلم، وأنّ نصحَه وتحذيرَه لا يُغني عنهم من أمرِ اللّه وقضائِه شيئًا، وهذا ما أشارَ إليه يعقوبُ بقوله: ﴿وَمَآ أُغْنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍۖ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِۖ﴾، ولكنّها حاجةٌ في نفسِ يعقوبَ قضاها، وكان واجبًا عليه أنْ يقضيَها؛ ذلك لأنّه يجبُ على المؤمنِ أن يُدبّرَ لنفسِه، ثمّ يَمضي أمرُه ذلك على الوجه الّذي قدّر اللّه[4].

الثّاني: استثناءٌ متّصلٌ، وقد جوّزوه على أنّه من باب: (ولا عيبَ فيهم غيرَ أنّ سيوفَهم)؛ فالمعنى: ما أغنى عنهم ما وصّاهم به أبوهم شيئًا إلّا شفقتُه الّتي في نفسه، ومنَ الضّرورة أنّ شفقةَ الأبِ مع قدَرِ اللّه تعالى كالهباء، فإذن ما أغنَى عنهم شيئًا أصلًا[5]، أو أنْ يكونَ التّقديرُ: ما كان يُغْني عنهم لشيء منَ الأشياء إلّا لأجلِ حاجةٍ كانت في نفسِ يعقوبَ، وفاعل ﴿يُغْنِي﴾ ضميرُ التّفرّقِ المدلولِ عليه منَ الكلام المُتقدِّم، وبهذا التّقديرِ تكونُ ﴿حَاجَةً﴾ مفعولًا لأجله[6].

الغرَضُ من تنكيرِ لفظِ ﴿حَاجَةً﴾:

نكّرَ البيانُ الإلهيُّ لفظَ ﴿حَاجَةً﴾ في قولِه تعالى: ﴿إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَاۚ﴾؛ لإفادةِ معنى الإبهامِ والتّفخيمِ لشأنِ

إبهامُ الحاجة، يفيدُ التّشويقَ لمعرفتِها، والتّفخيمَ لشأنِها

(1) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 9/228، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/24.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 18/484.
(3) الصّاويّ، حاشية الصّاويّ على تفسير الجلالين، ص: 900.
(4) الخطيب، التّفسير القرآنيُّ للقرآن: 7/22.
(5) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/21.
(6) السّمين الحلبيّ، الدُّرُّ المَصون: 6/525.

الحاجة، وهذا الإبهامُ جعلَ المفسّرين يذكرون في بيانِ معنى تلك الحاجة وجوهًا:

أحدُها: حرْصُ يعقوبَ على تنبيه أولاده للأخطارِ الّتي تعرِضُ لأمثالهم في مثلِ هذه الرّحلةِ إذا دخلوا من بابٍ واحدٍ.

وثانيها: تعليمُهمُ الأخذَ بالأسباب مع التّوكُّل على اللّه[1].

وثالثُها: خوفُه عليهم من إصابةِ العين.

ورابعُها: خوفُه عليهم من حسَدِ أهلِ مصرَ.

وخامسُها: خوفُه عليهم من أنْ يقصدَهم ملكُ مصرَ بشرٍّ.

وسادسُها: خوفُه عليهم من ألّا يَرجعوا إليه.

وكلُّ هذه الوجوه متقاربةٌ[2]، ولا تنافيَ بينَها، ويُحملُ المعنى عليها جميعًا عند المحقّقين، ويكونُ ذلك أبلغَ في الإعجازِ والفصاحةِ[3]؛ إذ تدلُّ على ثَراءِ المعنى للّفظةِ الواحدةِ.

دلالة حرف الجرّ في: ﴿فِي نَفۡسِ﴾:

عبّرَ البيانُ القرآنيُّ بحرفِ الجرِّ ﴿فِي﴾ الّذي يُفيدُ الظّرفيّةَ؛ إشارةً منه إلى هذه الحاجةَ؛ وهي الشّفقةُ والرّحمةُ بأبنائِه وحرصه على تنبيههم للأخطارِ الّتي تَعرضُ لأمثالِهم في مثلِ هذه الرّحلةِ والاحترازِ بما يُحقّقُ لهمُ الحمايةَ، ومن ذلك الدّخولُ من أبوابٍ متفرّقةٍ أخذًا بالأسبابِ الّتي كانت مُتمكّنةً ومُستقرّةً في نفسِ نبيّ اللّه يعقوبَ الّذي يحملُ العلْمَ الّذي يُوجبُ على المؤمنِ أنْ يأخذَ بالأسباب مع التّوكّل على مُسبّبِها سُبحانه، ولذلك امتدحهُ اللّه على فعْلِه هذا بقوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلۡمٖ لِّمَا عَلَّمۡنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾.

شفقةٌ وخوفٌ تمكّنا في نفسِ يعقوبَ فأظهرَهما وصيّةً لأبنائِه

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/25.

(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 18/484.

(3) الذّهبيّ، التّفسير والمُفسّرون: 1/199.

سِرُّ التّصريحِ بالاسمِ في ﴿نَفۡسِ يَعۡقُوبَ﴾:

الشّفقةُ والرّقةُ والرّحمةُ، من أوصافِ يعقوبَ عليه السلام

صرّح البيانُ الإلهيُّ باسْمِ يعقوبَ عليه السلام، في قوله تعالى: ﴿إِلَّا حَاجَةً فِي نَفۡسِ يَعۡقُوبَ﴾، ولم يَقُلْ: (إلّا حاجة في نفسِه قضاها)، إشعارًا بالتّعطّفِ والشّفقةِ والتّرحُّمِ الّذي اتّصفت به نفسُ يعقوبَ تجاهَ أبنائِه، وتجاهَ أُمّتِه؛ لأنّه عليه السلام قدِ اشتُهِرَ بالحزنِ والرّقّة[1]، وخاصّةً أنّ الحاجةَ في اللّغة، تَعني الفقرَ إلى الشّيءِ مع محبّتِه[2]، وهي الأمرُ المرغوبُ فيه، وسُمّي حاجةً؛ لأنّه محتاجٌ إليه[3]، وأنّها في الآية تعني شفقةَ يعقوبَ وحَرارتَه الّتي أخذتْ وجوهًا عدّةً، من أنْ يُعاني أبناؤه في رحلتِهم[4].

دلالة مَوقعُ قولِه: ﴿قَضَىٰهَاۚ﴾:

أظهرَ يعقوبُ الحاجةَ، ليُحقّقَ الطُّمأنينةَ لقلبِه، والرّاحةَ لنفسِه

جملةُ ﴿قَضَىٰهَاۚ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِلَّا حَاجَةً فِي نَفۡسِ يَعۡقُوبَ قَضَىٰهَاۚ﴾، صفةُ ﴿حَاجَةً﴾، والمعنى: إلّا حاجةً في نفسِ يعقوبَ أظهرَها ووصّاهُم بها دفعًا لِلْخَطَرَةِ غيرَ مُعتقدٍ أنَّ لِلتَّدْبيرِ تَأْثيرًا في تَغييرِ التَّقْديرِ[5]، وتأتي الصّفةُ هنا لتشيرَ إلى شفقةِ يعقوبَ بأبنائِه، وحرْصِه عليهم، وتنفيذِه للعلْمِ الّذي علّمه اللّه إيّاه بأنْ يأخذَ بالأسباب، وذلك أنّه لم يُبقِ هذه الحاجةَ حبيسةَ نفسِه، ولم يدَّخِرْها عنهم، وإنّما أظهرَها ليطمئنَّ قلْبُه بأنَّه لم يترُكْ شيئًا يظُنُّه نافعًا لهم إلَّا أبلَغَه إليهم؛ شفَقَةً منه، وحِرصًا على تنْبيههم للأخطارِ الَّتي قد تعرِضُ لهم، وتعْليمِهم الأخذَ بالأسبابِ مع التَّوكُّلِ على اللّه[6]. ويجوزُ أنْ تكُونَ خَبَرًا؛ لأنّ ﴿إِلَّا﴾ عندما تأتي بمعنى لكنَّ يكونُ لها

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/21.
(2) الرّاغب، المُفردات: (حاج).
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/25.
(4) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/21.
(5) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/21.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/25.

اسْمٌ وخبرٌ[1]، والتّقديرُ: ولكنّ حاجةً في نفسِ يعقوبَ قضاها، ومن كلا الوجهَيْن تؤخذُ حُجّيّةُ الاحترازاتِ خشيةَ العينِ؛ لأنَّ يعقوبَ عليه السلام نبيٌّ، وقد فَكَّرَ في هذا، واللّه سبحانه وإنْ كان قد بَيَّنَ أنَّ احترازَهم لم يُغْنِ عنهم شيئًا إلّا أنّه لم يُنْكِرْ وَصاةَ أبيهم بذلك، وقد قال النّبيُّ ﷺ: «العينُ حقٌّ، ولو كان شيءٌ سابقَ القَدَرِ، سبقَتْه العينُ»[2]، هذا على القولِ بأنَّه خافَ عليهم مِن العينِ.

سِرُّ التّعبيرِ بلفظةِ ﴿قَضَىٰهَا﴾:

عبّرَ البيانُ القرآنيُّ، بلفظِ (قضاها)، في قوله: ﴿إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا﴾؛ للدّلالةِ على حرْصِ يعقوبَ على إظهارِ ما أضمرَه في نفسه بتمامِه، لأنّ معنى القضاء في اللّغة الإنفاذُ[3] والحتمُ والأمرُ والإتمام[4]؛ أيْ إنّ نصيحتَه لأبنائه أدّاها لهم، ولم يدّخرْها عنهم؛ ليطمئنّ قلبُه بأنّه لم يتركْ شيئًا يظنُّه نافعًا لهم إلّا أبلغَه إليهم[5].

وصيّةُ يعقوبَ لأبنائِه، أنفذها تامّةً حرْصًا منه على تبليغِهم كلَّ ما ينفعُهم

دَلالةُ الواوِ، في قولِه: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ﴾:

الواوُ في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ﴾ تحتملُ معنيَيْن:

الأوّلُ: اعتراضيّةٌ، والجملةُ معترضةٌ بين جملةِ ﴿وَلَمَّا دَخَلُواْ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم﴾ وَبَيْنَ جُمْلَةِ ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[6] غرضُها تأكيدُ ما قامَ به يعقوبُ منَ الأخذِ بالأسبابِ مع التّوكّلِ على اللّه سُبحانه، والثّناءُ عليه بالعلْمِ والتّدبيرِ، وأنّ ما أسْداهُ منَ النُّصحِ لهم هو منَ العلْمِ الّذي آتاه اللّه، وهو من علْمِ النّبوّةِ.

جمعَ يعقوبُ الحُسْنيَيْن، فهو مُتوكّلٌ على الله تعالى وراسخٌ في العلمِ

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/21.
(2) القصّاب، النّكت الدّالّة على البيان: 1/621، والحديث أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب السّلام، باب الطّبّ والمرض والرّقى، برقم: (2188).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (قضي).
(4) الزّبيديّ، تاج العروس: (قضي).
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/24.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/25.

الثّاني: حاليّةٌ[1]، والمعنى: حالَ كونِه لِما علّمناه عليمًا، وهو تأكيدٌ لمعنى العطاءِ الإلهيّ له في العلم.

الغرَضُ منَ التّعبيرِ بالجملةِ الاسميّةِ المؤكّدةِ:

تأكيدٌ على رسوخِ علْمِ يعقوبَ، لِما علّمَه ربُّه بالوحيِ والإلهامِ

اشتملَ قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلۡمٖ لِّمَا عَلَّمۡنَٰهُ﴾ على عدّةِ مُؤكِّداتٍ، وهي: الجملةُ الاسميّةُ، الّتي تَدلُّ على الثّباتِ والقوّةِ، و(إنّ) واللّامُ المُزحلقةُ، وتنكيرُ عِلْمٍ وتعليلُه بالتّعليم المُسنَدِ إلى ضميرِ العظَمةِ[2]؛ مبالغة في التّأكيدِ على رسوخِ علْمِ يعقوبَ عليه السلام وبصيرتِه بالأمورِ لِما علّمَه ربُّه بالوحيِ والإلهامِ، وفي هذه المبالغةِ أمورٌ:

الأوّلُ: الدّلالةُ على جلالةِ شأنِ يعقوبَ عليه السلام، وعلوِّ مرتبةِ علْمِه وفخامتِه[3].

الثّاني: الإشارةُ إلى أنّ يعقوبَ يعلمُ هذه الحقيقةَ الّتي قرّرتْها الآيةُ الكريمةُ، وهي أنَّ قضاءَ اللّه نافذٌ لا مردَّ له، ولكنّ يعقوبَ مُطالَبٌ بأنْ يُعطيَ وجودَه حقَّه، من حيثُ هو إنسانٌ عاقلٌ مُريدٌ[4].

الثّالثُ: تَصريحٌ بأنّ يعقوبَ عليه السلام قد عملَ بما علّمَه اللّه؛ لأنّ "العالِمَ هو الّذي يعملُ بما يعلمُ"[5].

سِرّ التّعريفِ بالإضافةِ، في قولِه: ﴿لَذُو عِلۡمٖ﴾:

في الإضافةِ ثناءٌ على يعقوبَ بالعلْمِ الفائقِ، لمطابقةِ قولِه مُعتقدَه

أضافَ البيانُ القرآنيُّ ﴿لَذُو﴾ إلى لفظة ﴿عِلۡمٖ﴾ مُخبرًا بهذا التّركيبِ عن يعقوبَ عليه السلام فقال: ﴿لَذُو عِلۡمٖ﴾ ولم يَقُل: (صاحبُ علم أو عالمٌ)؛ تشريفًا ليعقوبَ وثناءً عليه[6] بالعلْمِ والتّدبير، وأنّ ما أسداهُ منَ النُّصحِ لأبنائِه هو منَ العلْمِ الّذي آتاه اللّه؛ وهو من علْمِ

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 5/25.
(2) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 7/21.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/21.
(4) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 7/22.
(5) ابن منظور، لسان العرب: (علم).
(6) أبو حيّان، البحر المحيط في التّفسير: 6/299.

النّبوءةِ[1]، وذلك "لأنّ الوصفَ بـ (ذو) أبلغُ منَ الوصفِ بـ (صاحب) والإضافةَ بها أشرفُ"[2]، وفي تنكير ﴿عِلْمٍ﴾، تفخيمٌ ليعقوبَ وعُلوِّ مرتبتِه في العلم وفخامة هذا العلم[3]، وتكثيرُه ليشملَ علومًا كثيرةً، ولذلك أطنبَ المُفسّرون في بيانِ المُرادِ بهذا العلم، فذكروا من معانيها: "معرفةٌ بالحُكْمَيْن؛ حُكمِ التّكليف، وحُكمِ التّقدير، واطّلاعٌ على الكونَيْن عظيمٌ"[4]، وذو حفْظٍ لِما استودعنا صدرَه منَ العلم[5]، ومراقبةٍ له، ولذو علْمٍ لفوائدِ ما علّمناه، وحسن آثارِه، وهو إشارةٌ إلى كونِه عاملًا بما علِمَه[6]، وعاملًا بما علمَ، ومُتيقّنًا بوعدنا، وحافظًا لوصيتنا[7].

دلالة حذفِ الجرِّ في: ﴿لِّمَا﴾:

حرفُ الجرِّ (اللّام)، في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلۡمٍ لِّمَا عَلَّمۡنَٰهُ﴾ للتّعليلِ[8]؛ أي: علّلتْ ما أكّده القرآنُ من رسوخِ علْمِ يعقوبَ بقوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلۡمٍ﴾، والمعنى: إنّه لذو علْمٍ لتعليمنا إيّاه بالوحْيِ ونصْبِ الأدّلة، حيث لم يعتقدْ أنّ الحذرَ يدفعُ القدرَ حتّى يتبيّنَ الخللُ في رأيه عند تخلّفِ الأثرِ، أو حيث بتَّ القولَ بأنّه لا يُغني عنهم منَ اللّه تعالى شيئًا فكانت الحالُ كما قال[9]، وفي هذا إشارةٌ إلى وجوبِ الاقتداءِ بيعقوبَ عليه السلام، في "الاحتياطِ في تعاطي الأسباب، مع اعتقاد أنّه لا أثرَ لها إلّا إنْ أمضاها الواحدُ القهّار"[10].

تعليلُ مدحِ الله لعلْمِ يعقوبَ، إشارةٌ إلى وجوبِ الاقتداءِ به

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/25.
(2) السّيوطيّ، الإتقان: 2/231.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/21.
(4) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 10/163.
(5) ابن جرير، جامع البيان: 16/168.
(6) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 18/485.
(7) الماورديّ، النُّكت والعيون: 3/60.
(8) محمد الأمين الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 14/42.
(9) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/21.
(10) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 10/163.

دلالة التّعبير بـ (لَمَا) في: ﴿لِّمَا عَلَّمۡنَٰهُ﴾:

تحتملُ ﴿لِّمَا﴾ في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلۡمٖ لِّمَا عَلَّمۡنَٰهُ﴾ معنيَيْن:

يتحدّد المعنى باعتبارِ الموصوليّةِ أوِ المصدريّةِ، لتأكيدِ أنّه وحيٌ

الأوّلُ: اسمٌ موصولٌ بمعنى الّذي، والهاءُ عائدةٌ إلى (ما)، والمعنى: وإنّه لذو علْمٍ للشّيءِ الّذي علّمناه، يعني: إنّا لِما علّمناه شيئًا حصلَ له العلمُ بذلك الشَّيءِ[1]، وغرضُ التّعبير بالاسم الموصول هو الاهتمامُ بصِلتِه التّي هي مناطُ الحُكم ﴿عَلَّمۡنَٰهُ﴾، والزّيادة في تقرير مضمونِها؛ أيْ: عبّرَ القرآنُ عن مضمونِ علمِ اللّه الّذي علّمه يعقوبَ بالموصوليّة؛ لِما في الصّلةِ منَ الإيماءِ إلى أنّ المذكورَ شيءٌ مُهمٌّ وعظيمٌ وهو خاصٌّ بيعقوبَ عليه السلام.

الثّاني: مصدريّةٌ والهاء عائدةٌ إلى يعقوبَ، والتّقديرُ: وإنّه لذو علمٍ لتعليمنا إيّاه بالوحي[2]، وفي هذا إشارةٌ إلى عِظمِ مصدرِ هذا العلْمِ لكونِه وحيًا منَ اللّه.

غرَضُ إسنادِ الفعْلِ إلى ضميرِ العظَمةِ ﴿عَلَّمۡنَٰهُ﴾:

أسندَ البيانُ القرآنيُّ فعلَ (علَّم)؛ أي: التّعليم إلى اللّه، مُعبِّرًا عنه بضمير العظَمةِ، في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلۡمٖ لِّمَا عَلَّمۡنَٰهُ﴾؛ تأكيدًا على جلالةِ شأنِ يعقوبَ عليه السلام، واتّصافِه بالعلمِ الفائقِ لمطابقةِ قولِه معتقدَه وعلوَّ مرتبتِه، وفخامتِه في هذا العلم[3]، وتكريمًا للعلم الّذي أوحاه إلى أنبيائه، بما يحملُ النّاسَ على تعظيمِ هذا العلْمِ والعملِ به.

العلمُ المُوحَى إلى يعقوبَ وأنبياءِ اللّه، عِلْمٌ عظيمٌ من ربٍّ عظيمٍ

دَلالةُ الواو في قوله ﴿وَلَٰكِنَّ﴾:

تحتملُ الواوُ في قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ معنيَيْن:

الواوُ بين الحاليّةِ والعاطفةِ، وأثرُها في الدّلالةِ

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 18/485.

(2) ابن جرير، جامع البيان: 16/167، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 18/485، والبقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 10/163.

(3) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 8/390، والآلوسيّ، روح المعاني: 7/21.

الأوّلُ: عاطفةٌ، والمعطوفُ عليه قولُه تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلۡمٖ لِّمَا عَلَّمۡنَٰهُ﴾[1]، وهذه الواوُ أكّدتِ المعنى المشتركَ بين الجُملتيْن؛ وهو أنّ هناك قلّةً يعلَمون علمَ يعقوبَ، ولكنّ التّغايُرَ يكمنُ فيما أضافتْه من أنّ أكثرَ النّاسِ لا يعلمون هذا العلْمَ الّذي أعطاه اللّه لأنبيائِه وأصفيائِه منَ العلمِ والمعرفةِ وحُسنِ التّأتّي للأمور[2].

الثّاني: حاليةٌ[3]، والمعنى: إنّ يعقوبَ لذو علمٍ لِما علّمناه حالَ كونِ أكثرِ النّاسِ لا يعلمون.

غرَضُ ختْمِ الآية بالجملةِ الاسميّةِ:

خَتَمَ البيانُ القرآنيُّ الآيةَ الّتي قرّرت وأكّدتْ رسوخَ علْمِ يعقوبَ عليه السلام، ومنه علْمُه بأنّ قضاءَ اللّه نافذٌ لا مَردَّ له، مع وجوبِ الأخذِ بالأسباب؛ ختمَ بجملةٍ اسميّةٍ ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾؛ لإفادة ثباتِ الحُكمِ الّذي تضمّنَتْه وقوّتْه؛ وهو أنّ أكثرَ النّاس لا يعلَمون هذه الحقيقةَ الّتي علّمها يعقوبَ، فهُم بين إنسانٍ يعمل غيرَ ناظرٍ أبدًا إلى ما للّه من سلطان فيما يعملُ، وإنسانٍ لا يعملُ شيئًا، مُستسلمًا لِما يأتي به القَدَرُ، وكلا الطّرفيْن جائرٌ بعيدٌ عنِ الطريق السّويِّ المستقيم؛[4]، أو لا يعلمون ما أعطاه اللّه لأنبيائِه وأصفيائِه منَ العلم والمعرفةِ وحُسنِ التّأتّي للأمور[5]، أو لم ينتفعوا بما علِموا[6].

النّاسُ بين مَن لا يرى لله سُلطانًا، وبين مُستسلمٍ للقَدَرِ دونَ عملٍ

بلاغةُ التّعريضِ في تذييل الآية:

يُفهمُ من قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ تعريضٌ بأنَّ يعقوبَ منَ القليلِ منَ النّاسِ الّذين علِموا مراعاةَ الأمريْن؛

مزيدٌ منَ التّأكيد في الثّناءِ على يعقوبَ وعلْمِه

(1) محمد الأمين الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 14/42.
(2) سيد طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 7/393.
(3) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 5/25.
(4) الخطيب، التّفسير القرآنيُّ للقرآن: 7/22.
(5) سيد طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 7/393.
(6) الماتُريديّ، تأويلات أهل السُّنّة: 6/264.

وهما الأخذُ بأسباب الاحتياط والنّصيحةِ مع علمِه بأنّ ذلك لا يُغني عنهم منَ اللّه من شيءٍ قدّره لهم؛ ليتقرّرَ الثّناءُ عليه باستفادتِه منَ الكلام مرّتيْن؛ مرّةً بالصّراحة في قوله ﴿وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلۡمٖ لِّمَا عَلَّمۡنَٰهُ﴾ ومرّةً بالاستدراك[1].

نُكتةُ التّعبيرِ بأفعلِ التّفضيلِ ﴿أَكۡثَرَ﴾:

الاستسلامُ لقدَرِ اللّه مع السّعْيِ يغْفلُ عنه كثيرون

عبّرَ القرآنُ باسْمِ التّفضيلِ ﴿أَكۡثَرَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾، والتّفضيلُ على بابه؛ باعتبارِ أنّ الرّضا بالقضاء والقدرِ والعلْمَ بثوابِ الصّبرِ عليه والرّضا به متفاوتٌ بين النّاس، ولذا نسَبَه اللّه إلى القليلِ ومنهم يعقوبُ عليه السلام، ونفاهُ عن أكثرِ النّاس، وفي هذا إشارةٌ إلى تعظيم هذا العلم، وأنّه علمٌ جليلٌ دقيقٌ يختصُّ بالعُظماءِ منَ الأنبياءِ والمُرسلين وصالحِ المؤمنين، وأنّ أكثرَ عقولِ البشرِ قاصرةٌ عن إدراكه، جاهلةٌ عن إمعانِ حقيقتِه، إلّا مَن وفّقه اللّه تعالى، واختصّه به[2]، فأكثرُ النّاس فيه بين طرفَيْن كلاهما جائرٌ بعيدٌ عنِ الطّريقِ السّويّ المستقيم؛ فهُم بين إنسانٍ يعملُ غيرَ ناظرٍ أبدًا إلى ما للّه من سُلطانٍ فيما يعملُ، وبين إنسانٍ لا يعملُ شيئًا، مُستسلمًا لِما يأتي به القَدرُ[3]، وإذا كان المُرادُ بـ ﴿أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ﴾ المشركين[4] فيكونُ التّفضيل بذلك بين الأنبياء والمؤمنين الّذين يعلمون هذه الحقائقَ الإيمانيّةَ من أنبيائِهم وبين المشركين الّذين يُنكرونَها ولا يعلَمون ما ألهمَ اللّه أولياءَه[5].

غرَضُ الإضافة في قوله: ﴿أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ﴾:

التّحريضُ على طلَبِ العلمِ، والتّنفيرُ منَ الجهْلِ به

إضافةُ ﴿أَكۡثَرَ﴾ إلى ﴿ٱلنَّاسِ﴾، في قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾، إضافةٌ بيانيّةٌ؛ لأنّه لا تتعيّنُ المفاضلةُ إلّا بذِكْر

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/25.
(2) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 8/390.
(3) الخطيب، التّفسير القرآنيُّ للقرآن: 7/22.
(4) الشّوكانيّ، فتح القدير: 3/50.
(5) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 14/32.

المفضولِ، وهذه الإضافةُ تومئُ بالتّحريض على طلبِ العلمِ والتّنفيرِ منَ الجهلِ به.

سِرُّ التّعبيرِ بالمُسنَدِ جملةً فعليّةً منفيّةً:

نفيُ العلْمِ عن أكثرِ النّاسِ، أمرٌ مُستمرٌّ مُتجدّدٌ، والعلماءُ قلّةٌ في النّاسِ

عبّرَ البيانُ القرآنيُّ بالخبرِ ﴿لَا يَعۡلَمُونَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ جملةً فعليّةً منفيّةً؛ لإفادةِ تقويةِ الحُكمِ؛ وهو عدمُ علْمِ أكثرِ النّاس بما علِمَه نبيُّ اللّه يعقوبُ وتوكيدِه، وقصدِ الاستمرارِ التّجدّديّ، بسبب تَكرار الإسناد؛ فقد وقعَ الفعلُ ﴿لَا يَعۡلَمُونَ﴾ خبرًا عنِ المُسنَدِ إليه؛ وهو الاسمُ ﴿أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ﴾، وهذا الفعلُ ﴿لَا يَعۡلَمُونَ﴾ في الوقت نفسِه مُسنَدٌ إلى الضّمير (واو الجماعة) العائدِ على المبتدأ، فكأنّ الحُكمَ هنا ذُكر مرّتيْن؛ مرّةً حين أُسند الفعلُ إلى المبتدأ، ومرّةً حين أُسندَ إلى ضميره العائدِ إلى المبتدأ، بخلافِ إنْ تأخّر المُسنَدُ إليه، فقال: (لا يعلم أكثر النّاس)، فلا يحدثُ هذا التَّكرارُ، بل يحدثُ الإسنادُ مرّةً واحدةً فقط. وأتى الفعلُ في جملة ﴿لَا يَعۡلَمُونَ﴾ بصيغة المضارع؛ لإفادة الاستمرار التّجدّديّ، ويترتّبُ على هذيْن الأمريْن أنّ نفيَ العلْمِ عن أكثرِ النّاس أمرٌ ثابتٌ دائمٌ ومستمرٌّ مُتجدّدٌ.

نُكتةُ حذْفِ مفعولِ ﴿يَعۡلَمُونَ﴾:

الحذْفُ اختصارٌ بليغٌ، له ملْمحٌ في البيانِ وثيقٌ

حَذَفَ البيانُ القرآنيُّ مفعولَ ﴿يَعۡلَمُونَ﴾؛ لأمريْن: **الأوّل**: دلالةُ السّياق عليه من قوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلۡمٖ لِّمَا عَلَّمۡنَٰهُ﴾، والتّقديرُ: أنَّ أكثرَ النّاس لا تعلمُ العلْمَ الّذي علّمناه ليعقوبَ.

و**الثّاني**: إفادةُ العموم، فيشملُ ما يجهلُه أكثرُ النّاس، ولهذا ذكرَ المُفسّرون عدّةَ تفاسيرَ لمفعولِ يعلمون المُقدَّرِ، منها: لا يعلمون أسرارَ القَدَر، ويَزعمون أنَّ الحذرَ يُغني عنِ القدر، أو لا يعلمون أنّ الواجبَ الجمعُ بين أخذِ العُدّةِ والسّعيِ في تحقيقِ الأسبابِ الصّحيحةِ

المُوصلةِ إلى المُرادِ، وبين الاتّكال على الله؛ وهو ما فعلَه يعقوبُ عليه السلام؟ أو لا يعلمون أنَّ يعقوبَ عليه السلام بهذه الصّفةِ والعلْمِ؟ أو لا يعلَمون ما كانَ يعلمُ يعقوبُ؟ لأنّهم لم يَسْلكوا طريقَ إصابةِ العلْمِ، أو لا يعلمُ المشركون ما ألهمَ الله أولياءَه؟[1].

(1) ابن جرير، جامع البيان: 13/241، والآلوسيّ، روح المعاني: 7/21، والهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 14/32.

﴿وَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَخَاهُۖ قَالَ إِنِّيٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبۡتَئِسۡ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٦٩﴾ [يوسف: 69]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

بعدَ مَشهدِ دخولِ الإخوةِ مُتفرّقين، جاءَ مشهدُ الدّخولِ على أخيهم بعدَ التّمكينِ

الرّبطُ بين قولِه تعالى: ﴿وَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَخَاهُۖ﴾ وقولِه: ﴿وَلَمَّا دَخَلُواْ مِنۡ حَيۡثُ أَمَرَهُمۡ أَبُوهُم﴾ واضحٌ، إذ هما أجزاءٌ ومَشاهدُ في قصّةٍ واحدةٍ ذاتِ حلقاتٍ متسلسلةٍ؛ فبعدَ أنِ اتّجه أولادُ يعقوبَ إلى مصرَ لجلْبِ المِيرةِ، مُزوَّدين بوصيّة والدِهم، وصَلوا إلى مكانِ وجودِ العزيز الّذي يتولّى بيعَ الطّعامِ للنّاس، فلمّا دخلوا عرفَ أخاه وضمَّه إليه[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ءَاوَىٰٓ﴾: الهمزةُ والواوُ والياءُ أصلان: أحدُهما التّجمّعُ، والثّاني: الإشفاقُ، ومنَ الأصل الآخِر قولُهم: أَوَيْتُ لِفُلانٍ هو أَنْ يَرِقَّ لَهُ وَيَرْحَمَهُ[2]، وأوى وآوى بمعنًى واحدٍ، وأوى إلى كذا: انضمّ إليه، وأوى إلى اللّه: رجعَ إليه، ومنَ الممدود ما جاء في الدّعاء: (الحمد للّه الّذي كفانا وآوانا)، والمأوى: المنزلُ والمكانُ الّذي يأوي إليه، وأوى له: رقّ له وأشفقَ عليه[3]. ومعنى قوله تعالى: ﴿ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَخَاهُۖ﴾؛ أيْ: ضمّه إليه في مأواه[4].

2) ﴿تَبۡتَئِسۡ﴾: أصلُ (بأس) يدلُّ على الشّدّةِ وما ضارَعَهَا، فالبَأْسُ الشِّدَّةُ في الحربِ، والبُؤْسُ: الشِّدَّةُ في العَيشِ، والمُبْتَئِسُ:

(1) الزّحيليّ، التّفسير المنير: 13/30.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (أوى).
(3) ابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (أوى).
(4) السّمين الحلبيّ، عُمدة الحُفّاظ: (أوي).

المُفْتَعِلُ منَ الكَراهَةِ والحُزْنِ[1]، والمُبْتَئِسُ: الكارهُ الحزينُ[2]، وقيل: إنّ مُبْتَئِسًا مُفْتَعِلٌ منَ البَأْسِ الَّذي هو الشّدَّةُ، وَمِنْه قولُه تعالى: ﴿فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ۝٣٦﴾ [هود: 36]؛ أَي: فَلَا يَشْتَدَّ عليكَ أمرُهم، وقيل: المُبْتَئِسُ: المسكينُ الحزين، ومنه الآيةُ؛ أَي: لَا تَحْزَنْ وَلَا تَسْتَكِنْ[3]، ولا تَشتكِ ولا تهتمَّ[4].

المَعْنى الإِجْماليُّ:

مقابلةُ يوسفَ لإخوته، وإيواءُ أخيه الشّقيقِ إليه، وإخبارُه بالحقيقةِ

يُخبرُ تعالى عن إخوة يوسفَ أنّهم لَمَّا دخلوا على يوسُفَ، في منزلِ ضِيافتِه، ومعهم شَقيقُه، ضمَّ يوسُفُ إليه شقيقَه، وأشعرَه بالاهتمامِ والأمان، وقال له سِرًّا: إنِّي أنا أخوك فلا تحزَنْ، ولا تغتمَّ بما صنَعوه بي وبك فيما مضى، وأمَرَه بكتمانِ ذلك عنهم[5].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

إيجازُ الحذْفِ في ﴿وَلَمَّا دَخَلُواْ﴾:

التّركيزُ على المَشاهدِ البارزةِ في القصّةِ، والتّعبيرُ عنها ببيانٍ سامٍ

موقعُ جملةِ ﴿وَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَخَاهُۖ﴾، كموقعِ جُملةِ ﴿وَلَمَّا دَخَلُواْ مِنۡ حَيۡثُ أَمَرَهُمۡ أَبُوهُم﴾ في إيجاز الحذف[6]؛ أيْ: أغنتْ جملةُ ﴿وَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَخَاهُۖ﴾ عن جُملٍ كثيرةٍ، وهي أنَّهم ارتحلوا، ودخلوا من حيثُ أمرَهم أبوهم، ولَمّا دخلوا من حيث أمرَهم سَلِموا ممّا كان يخافُه عليهم، وما كان دخولُهم من حيث أمرَهم يُغني عنهم من قدَرِ اللّه من شيءٍ، ثمّ دخلوا على أخيهم يوسفَ في مجلسِه الخاصِّ به بعد دخولِهم باحةَ القصرِ، فالكلامُ

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (بأس).
(2) الفيروزابادي، القاموس المحيط: (بأس).
(3) الزّبيديّ، تاج العروس: (بأس).
(4) محمد الأمين الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 13/117، ودَرْوَزة، التّفسير الحديث: 4/25.
(5) ابن جرير، جامع البيان: 13/244، والسّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 402.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/26.

إيجازٌ[1] غرضُه التّركيزُ على المَشاهدِ البارزةِ في القصّة، وتركُ ما بينها من فجَوات[2].

دَلالةُ الواو في قوله: ﴿وَلَمَّا﴾:

الواوُ في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَخَاهُۖ﴾ تحتملُ معنيَيْن:

عطفٌ أو استئنافٌ، يُبيّن دخولَهم على يوسفَ أو ضمَّ يوسفَ لأخيه

الأوّلُ: أن تكون عاطفةً، ويكون المعطوفُ عليه قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا دَخَلُواْ مِنۡ حَيۡثُ أَمَرَهُمۡ أَبُوهُم﴾، والمعنى المشتركُ بين الجُملتَيْن أنّهما ابتدأتا بعبارةِ بـ ﴿وَلَمَّا دَخَلُواْ﴾ الّتي تفيدُ الشّرطيّة؛ أي: الجُملتَان تُرتّبان على حدث الدّخول أمرًا مُعيّنًا، ولكنَّ التّغايُرَ بينهما يكمنُ في أنّ إحدَاهما تتحدّث عن حدثِ دخول المدينة من حيث أمرهم أبوهم حمايةً له في مواضع أخرى، كقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمۡ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِي رَحۡلِ أَخِيهِ﴾؛ للدّلالة على وجود فارقٍ زمنيّ بين فعل دخولهم المدينة، وفعل دخولهم على يوسف.

الثّاني: أن تكون استئنافيّة؛ وتكون جملةُ ﴿وَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ من فعلِ شرطِها وجوابِها مستأنَفةً استئنافًا بيانيًّا[3]، وكأنّ سائلًا سألَ بعد سماعِ قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا دَخَلُواْ مِنۡ حَيۡثُ أَمَرَهُمۡ أَبُوهُم﴾: ماذا كان من شأنهم مع يوسف بعد دخولِهم المدينةَ؟ فجاء الجوابُ: ﴿وَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَخَاهُۖ﴾.

الغرَضُ منَ التّعبير بـ ﴿وَلَمَّا﴾:

قدّمَ القرآنُ ما كان مُقدَّمًا في مشاعرِ يوسفَ، وهو ضمُّ أخيه واحتضانُه

﴿وَلَمَّا﴾ ظرفٌ للزّمان الماضي، بمعنى (حين) تتطلّبُ جُملتَيْن مرتبطتَيْن ببعضِهما ارتباطَ فعْلِ الشّرط بجوابِه، وغرضُ تقييدِ الجُملةِ الخبريّةِ: ﴿ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَخَاهُۖ﴾، بظرْفِ الدّخولِ ﴿وَلَمَّا دَخَلُواْ﴾؛

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/24.
(2) البغا، الواضح في علوم القرآن، ص: 195.
(3) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 14/68.

الإشارةُ إلى تعجيلِ يوسُف بضمِّ أخيه في المأوى، وإطْلاعِه على أنّه أخوه، ودعوتِه لأنْ يُزيلَ من ذاكرتِه ما فعلَه إخوتُه به من قبلُ، وهي ذكرى كان يبتئسُ لها الصّغيرُ كلّما علِمَها منَ البيت الّذي كان يعيش فيه، والإشارةُ إلى هذا التّعجيل علمًا أنّ إيواءَ يوسفَ لأخيه، لم يحدث فورَ دخولِهم على يوسفَ، وإنّما بعد أنِ اختلى يوسفُ بأخيه؛ لأنَّ أوّلَ خاطرٍ ساورَ يوسُفَ عند دخولِهم عليه كان رُؤيتَه لأخيه بعدَ الفراقِ الطّويل، ومن ثمَّ جعلَه السّياقُ أوّلَ عملٍ؛ لأنّه كان أوّلَ خاطرٍ.

دَلالةُ التّعبير بالماضي جمعًا ﴿دَخَلُواْ﴾:

عبّرَ البيانُ الإلهيُّ بفعل الماضي ﴿دَخَلُواْ﴾، بصيغةِ الجمعِ في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَخَاهُۖ﴾؛ للدّلالةِ على أنّ الدّخولَ على يوسُفَ قد تحقّقَ منهم كلِّهم بلا استثناءٍ، وأنّ دخولَهم عليه كان فرادَى تنفيذًا لوصيّةِ أبيهم في ألّا يدخلوا من بابٍ واحدٍ، وربّما تكونُ هي الحاجة الّتي ذكرها يعقوبُ؛ لتكونَ المساعدَ ليوسفَ في إيواءِ أخيه إليه، وإنْ لم يَقصدْ يعقوبُ ذلك.

دخولُهم فُرادى على يوسفَ مكّنه من ضمِّ أخيه وإخبارِه بالحقيقة

دَلالةُ ﴿عَلَىٰ﴾ في قولِه: ﴿عَلَىٰ يُوسُفَ﴾:

عدَّى البيانُ القرآنيُّ فِعْلَ ﴿دَخَلُواْ﴾، بحرف الجرِّ ﴿عَلَىٰ﴾، في قوله تعالى: ﴿دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾؛ للاستعلاءِ المجازيِّ المُكنّى به عن تمكُّنِ الإخوةِ منَ الدّخول على يوسفَ، ومقابلتِه دونَ أيّ مانعٍ.

استعلاءٌ مجازيٌّ كُنّي به عن تمكُّنِهم من الدّخولِ دون أيِّ مانعٍ

نُكتةُ التّعبيرِ بالاسمِ الصّريحِ ﴿يُوسُفَ﴾:

صرّح البيانُ القرآنيُّ باسْم ﴿يُوسُفَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَخَاهُۖ﴾؛ لأنّه لم يجْرِ له ذِكرٌ في الآيات الّتي سبقت هذه الآيةَ؛ إذِ المَشاهِدُ فيها كانت عنِ الحوارِ بين الإخوة وأبيهم يعقوبَ، في شأنِ إرسالِ أخيهم بِنيامين معهم، ولو عبّرَ بـ (أخيهم) لعادَ الضّميرُ على آخر مذكورٍ وهو بِنيامين، وفي هذه الآيةِ انتقلَ المشهدُ إلى الحديث عن دخولِهم على يوسفَ، فكان لا بدَّ منَ

التّأكيدُ على مقابلةِ يوسُفَ دونَ مَن هم تحت إمْرتِه

التّصريح باسْمِه، كما أنّ في التّصريحِ باسْمِه تأكيدًا للدّخول عليه، ومقابلتِه والاجتماعِ به دونَ غيره ممّن هم تحتَ إمْرتِه.

غرَضُ التّعبيرِ بالمجازِ في قوله ﴿ءَاوَىٰٓ﴾:

في التّقريبِ سبيلٌ للإسْرارِ بالحقيقةِ المُفرِحةِ وإشعارٌ بالأمانِ

أطلقَ البيانُ القرآنيُّ الإيواءَ في قوله تعالى: ﴿ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَخَاهُۖ﴾ مَجازًا على الإدناءِ والتّقريب كأنّه إرجاعٌ إلى مأوى، وكان له أشْبهَ بالمأوى الّذي يأوي إليه الإنسانُ، فلا يراه أحدٌ، وإنّما أدناه ليتمكّنَ منَ الإسرار إليه بقوله: ﴿إِنِّيٓ أَنَا۠ أَخُوكَ﴾[1]، وليُشعرَه بالأمانِ الكاملِ معه؛ لأنّ الإيواءَ يتضمّنُ معنى الضّمِّ الى النّفسِ والرّحمةِ والإشفاقِ التّامَّيْن منَ الخوف؛ إذِ المأوى هو الملجأُ والمأمنُ ممّا يُخشى منه[2]، ومن ذلك قولُه تعالى: ﴿إِذۡ أَوَى ٱلۡفِتۡيَةُ إِلَى ٱلۡكَهۡفِ﴾ [الكهف: 10][3].

سِرُّ تقديمِ ﴿إِلَيۡهِ﴾، على المفعولِ به ﴿أَخَاهُۖ﴾:

اهتمامُ يوسفَ بمكانِ أخيه، بما يُحقّقُ سُرورَهُ، وسِريّةَ الخطّةِ

قدّمَ البيانُ القرآنيُّ شبْهَ الجملةِ (مِنْ قَبْلِهِ) على المفعولِ به ﴿أَخَاهُۖ﴾ في قوله تعالى: ﴿ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَخَاهُۖ﴾، ولم يَقُل: (آوى أخاه إليه)؛ للاهتمام بالمكان الّذي تحقّقَ فيه الإيواءُ والتقريبُ؛ وهو يخصّ يوسفَ؛ أيْ: إلى نفسِه في الطّعام والمنزلِ والمبيتِ في مجلسٍ خاصٍّ بما يُدخلُ السّرورَ إلى قلبِ أخيه ويحفظُ له سريّةَ خطّته، ولتوكيدِ ضمِّ يوسفَ لأخيه، وإدنائِه وتقريبِه منه، وإشفاقِه عليه، وتطمينِ قلبِه.

سِرُّ الإضافةِ في قوله ﴿أَخَاهُۖ﴾:

في الإضافةِ إشارةٌ للصّفاءِ والشّوقِ، بين الأخوَيْنِ الشّقيقَيْنِ

أضافَ البيانُ القرآنيُّ لفظَ الأخ للضّميرِ (الهاء)، في قوله تعالى: ﴿ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَخَاهُۖ﴾؛ إشارةً إلى قوّة وجْهِ الشّبَهِ بين يوسفَ وأخيه في الخلْقِ والخُلُق؛ إذ كان يعقوبُ يتعزّى ببنيامين عن فقدِ يوسفَ، وإلى صفاءِ العلاقةِ بينهما، وشِدّةِ المحبّةِ، والشّوقِ بين

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/26.
(2) ابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (أوى).
(3) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 6/167.

الأخوَيْن الشّقيقَيْن، فأُخوّتُهما صافيةٌ غيرُ مُعكَّرةٍ ولا مُكدَّرةٍ، كما قال الشّاعرُ:

وَلَيْسَ أَخِي إِلَّا الصَّحِيحَ وِدَادُهُ *** وَمَنْ هُوَ فِي وَصْلِي وَقُرْبِيَ رَاغِبُ

ولذلك اجتمع في القرآن ذكرُهما معًا في كثير منَ الآيات مثل: ﴿إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ﴾ [يوسف: 8] و﴿هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ﴾ و﴿إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ﴾ [يوسف: 77]، و﴿فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ [يوسف: 87] و﴿أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِي﴾ [يوسف: 90]، كما أنّ من عادة القرآن ألّا يذكرَ غيرَ أسماءِ الرّسلِ والأنبياء.

دلالة مَوقعُ جملةِ ﴿قَالَ إِنِّيٓ أَنَا۠ أَخُوكَ﴾:

فَصلَ البيانُ الإلهيُّ قولَه تعالى: ﴿قَالَ إِنِّيٓ أَنَا۠ أَخُوكَ﴾ عمّا قبلَه ﴿ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَخَاهُۖ﴾؛ لأحدِ أمرَيْن: **الأوّلُ**: أنّها جاءتْ بدلَ اشتمالٍ من جُملةِ ﴿ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَخَاهُۖ﴾[1]؛ أيْ: بينَهما كمالُ اتّصالٍ، **والثّاني**: أنّها جاءتْ مستأنَفةً استئنافًا بيانيًّا؛ لِما بينَهما من شِبْهِ كمالِ اتّصالٍ؛ لأنّه لمّا آوى إليه أخاه فكأنّه قيل: ماذا قالَ له، هل أعْلَمه بنفسه، أو كتمَ ذلك عنه كما فعلَ بسائر إخوتِه؟ فقيل: بل ﴿قَالَ﴾ مُعْلِمًا له: إنِّي أنا أخوكَ؛ لأنّه لا سببَ يقتضي الكتْمَ عنه[2]، بل يقتضي الإخبارَ بهذه الحقيقةِ تسليةً لنفسِ أخيه، وتطمينًا له، وتهيئةً لِما سيُمتحنُ به.

في الإيواءِ والتّقريبِ والإخبارِ بأنّه الشّقيقُ تحقيقٌ للأمنِ وإزالةٌ للخوفِ عندَه

نُكتةُ تقدُّمِ ﴿ءَاوَىٰٓ﴾ على ﴿قَالَ﴾:

قدّمَ البيانُ القرآنيُّ الفعلَ ﴿ءَاوَىٰٓ﴾ أي: الإيواءَ على القول: ﴿قَالَ إِنِّيٓ أَنَا۠ أَخُوكَ﴾ وتعريفِ بنيامين بنفسه لأمورٍ: **الأوّل**: للحرْصِ على السّرّيّة؛ لأنّه لا يضمنُ ما سيترتّبُ على ذلك من مشاعرِ بنيامين

في تقديمِ الإيواءِ حرصٌ على السّرّيّة، وتمهيدٌ للخبرِ العظيمِ المؤثِّرِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/26.
(2) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 10/167.

عندما يعلمُ بأنّ يوسفَ هو أخوه، ممّا سيؤدّي إلى إفسادِ خطّتِه في لَمِّ شمْلِ أهلِه كلِّهم في مصرَ؛ إذ إنّ إخوتَه الّذين كادوا له إذا علِموا بأنّ يوسفَ أخوهم فلنْ يعودوا حياءً منه.

والثّاني: لِيعرّفه الحالَ بالتّدريج حتّى يتحمّلَ أثقالَ السّرورِ بالخبر العظيمِ المُؤثِّرِ ﴿إِنِّيٓ أَنَا۠ أَخُوكَ﴾؛ إذِ المفاجأةُ في مثل ذلك ربّما تكونُ سببَ الهلاك[1]، وحتى يتحمّلَ أثقالَ المَلامَة الّتي ستقعُ عليه من إخوته والحرسِ والنّاسِ الحاضرين وأبيه وأهلِه الغائبين؛ فرؤيةُ يوسفَ جعلتْ قلبَ بِنيامين يحتملُ المَلامةَ، وكيف لا يحتملُ ذلك وبلاءُ العالمِ محمولٌ بلمْحةِ رؤيةِ المعشوقِ، والعاشقُ الصّادقُ يُؤْثِرُ المَلامةَ ممّن كانت في هوى محبوبِه[2].

الثّالثُ: للإشارةِ إلى أنّ الأخوّةَ ليستْ كلامًا فحسبْ، وإنّما أفعالٌ قبْلَ القولِ.

سِرُّ التّعبيرِ بالجملةِ الاسميّةِ المُؤكّدة ثلاثًا:

الكلمةُ المُختصرةُ البليغةُ، تُثبتُ المضمونَ، وتُطمئنُ المحزونَ

عبّر البيانُ الإلهيُّ في قوله تعالى: ﴿إِنِّيٓ أَنَا۠ أَخُوكَ﴾ بكلمةٍ مُخْتَصَرةٍ بليغَةٍ جمعتْ عدّةَ مؤكِّداتٍ، هي: التّعبيرُ بالجملةِ الاسميّةِ الّتي تَدلُّ على الثّباتِ وقوّةِ الحُكْمِ وَبَقائِهِ، وهو أنّه هو أخوه الّذي ظنَّ أنّه قد أكَلَه الذِّئبُ، والمؤكّد الثّاني: تأكيد الخبر وهو أنّه أخوه يوسف بـ (إنَّ) الّتي تفيدُ التّوكيدَ، فلم يَقُل: أنا أخوك فحسب، والمؤكّد الثّالثُ: القَصْرُ الَّذي أفادَه ضميرُ الفَصْلِ ﴿أَنَا۠﴾، فلم يَقُل: (إنّي أخوك)، والمعنى: أنا مَقْصورٌ على كَوْني أخاك لا أجْنَبِيٌّ عنك؛ فهو قصرُ قَلْبٍ؛ لاعتقادِه أنَّ الَّذي كلَّمَه لا قَرابةَ بينه وبينه[3].

والمؤكّد الرّابعُ: التّعبيرُ باسْمِ (إنّ) بضمير المتكلّم ﴿إِنِّيٓ﴾ أي:

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/74.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/74.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/26.

بصوتي وملامِحي وأخلاقي الّتي تُشبهُك، مع التّعريف بالإضافة في ﴿أَخُوكَ﴾ تعريفَ نسبٍ وأخوّةِ شقيقيْن لأمٍّ واحدة؛ بما يزيلُ وحشةَ أخيه، ويُقرّرُ في قلبه حصولَ الأُنس.

فكلُّ هذه المؤكِّداتِ مجتمعةً تفيدُ مبالغةَ يوسفَ في توكيد إثباتِ أُخوّته لأخيه بِنيامين لِما كان عندَه منَ الإنكار؛ إذ إنّه أتَى بالآكدِ في هذه العبارةِ البليغةِ المختصرةِ، بما لا يتركُ عند أخيهِ أيَّ شكٍّ وإنكارٍ بعد هذا الغيابِ الطّويل الّذي زادَ على عشرين سنةً، فُقد فيها الأملُ؛ بسبب طولِ غيبته وتغيّرِ أحوالهِ وقطعِ الرّجاء منه[1]، وهو توكيدٌ مشحونٌ بالعاطفة والحُبِّ.

غرضُ التّعبير باسْمِ (إنّ) بضميرِ المتكلّم ﴿إِنِّيٓ﴾:

تنبيهُ يوسفَ أخاه إلى صورَتِهِ، وتذكيرُه بنفسه

عبّرَ القرآنُ عنِ اسْم (إنّ) بضميرِ المُتكلِّم (إنّي)، في قوله تعالى: ﴿إِنِّيٓ أَنَا۠ أَخُوكَ﴾؛ لأنّ ذلك أدْعى إلى تصديقِه، فمنْ كانتْ هذه حالهُ منَ المُلكِ والسّلطان ليس بحاجةٍ إلى أنْ يُكذَّبَ، إضافةً إلى لفتِ انتباهِ أخيه إلى صورتهِ وملامحِه الّتي ظهرتْ أكثرَ لمّا خلعَ عن رأسه التّاجَ، وذكّره بنفسِه.

سِرُّ تعريفِ المُسنَدِ بالإضافة ﴿أَخُوكَ﴾:

التّعريفُ بالنّسب، ووَشائجِ الرّحم، أقوى في إزالةِ الوحْشةِ، وحُصولِ الأُنسِ

الصّحيحُ ما عليه سائرُ المُفسّرينَ من أنّ يوسفَ أرادَ منَ التّعريفِ بالإضافة في قوله تعالى: ﴿إِنِّيٓ أَنَا۠ أَخُوكَ﴾ تعريفَ النَّسب، لا كما ذكرَ بعضُهم من أنّه لم يُردْ أنّه أخوهُ منَ النَّسب، ولكنْ أرادَ به إنّي أقومُ لكَ مقامَ أخيك في الإيناس؛ لئلّا تَستوحشَ بالتّفرّد؛ وذلك لأنّ التّعريفَ بالنَّسبِ أقوى في إزالةِ الوحْشةِ وحصولِ الأُنسِ، ولأنّ الأصلَ في الكلام الحقيقةُ، فلا وجهَ لصرْفِه عنها إلى المجازِ من غير ضرورةٍ[2]، كما أنّ الأخوّةَ هنا الّتي قصدَها يوسفُ بهذا

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/167.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 18/485.

التّعريف هي الأخوّةُ بالمعنى الخاصِّ، وهو أنّهما شقيقان، ولأنّ الحقْدَ عليهما جعلَهما ينحازان في منحازٍ واحدٍ، كما أراد الإخوةُ الكبارُ[1]، ولأنّ أخاه كان أشبَهَ النّاس به خلْقًا وخُلُقًا، ولذا كان يعقوبُ يتعزّى بوجودِهِ عن يوسفَ عليه السلام.

دَلالةُ الفاءِ في قوله ﴿فَلَا﴾:

(الفاء) في قولِه تعالى: ﴿فَلَا تَبْتَئِسْ﴾ حرفُ عطْفٍ وتفريعٍ[2]، مُترتّبةٌ على ما قبلَها؛ أيْ يتفرّعُ عن كوني أخاكَ يوسفَ ألّا تخافَ ولا تحزنَ فقد أمِنْتَهم بالاجتماعِ معي، كما أنّها تفيدُ التّعقيبَ وسرعةَ إيصالِ الأمنِ والسّرورِ إلى قلبِ أخيه.

لا بُؤسَ لبنيامين بعد لقاءِ يوسفَ، بل كان الاطْمئنانُ واصلًا بسرعةٍ لقلْبِه

الغرَضُ منَ التّعبيرِ بأسلوبِ النّهي:

﴿فَلَا﴾ في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَبْتَئِسْ﴾ ناهيةٌ، والقولُ هو قولُ يوسفَ عليه السلام لأخيه بعد أنْ عرّفه بنفسه أنّه أخوه، وغرضُ النّهيِ أمورٌ:

تسليةُ يوسفَ لأخيه بالأمانِ، ونُصحٌ منه بتصفيّةِ القلبِ وعدم الابتئاسِ

الأوّلُ: الكفُّ عنِ الابتئاسِ؛ شفقةً من يوسفَ وتسْريةً عن نفسِ أخيه[3]؛ أيْ: فلا يرهقنّك بعد الآن بؤسٌ ولا كدرٌ ولا شدّةٌ بسبب ما كانوا يفعلون منَ الجفاء والأذَى وسوءِ المعاملة بحسدِهم لي ولك، فأزلْ عنك الحزنَ، ولا تُدخلْه على نفسك، واعتضْ عنه بالسّرور[4]؛ فقد أمِنْتَهم[5]؛ أيْ: بالاجتماع معي، وكذا لا تأسفْ على ما صنعوا بي[6].

الثّاني: النّصحُ بتصفيةِ قلبه على إخوتِه، وذلك أنّ يوسفَ عليه السلام ما بقيَ في قلبِهِ شيءٌ منَ العداوةِ، وصارَ صافيًا مع إخوته، فأرادَ أنْ يجعلَ قلبَ أخيه صافيًا معهم أيضًا، فقال: ﴿فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُواْ

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3843.
(2) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 14/68.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3843.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/27.
(5) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/294.
(6) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/400.

﴿يَعۡمَلُونَ﴾؛ أيْ: لا تلتفتْ إلى ما صنعوه فيما تقدّمَ، ولا تلتفتْ إلى أعمالِهم المُنكَرةِ الّتي أقدَموا عليها[1]، وكأنّه أسرَّ إليه بالاطْمئنانِ إزاءَ ما سيفعلُه معهم، لا إرهابًا ولا انتقامًا، فمعاذَ اللّه أن يكونَ نبيُّ اللّه منتقمًا جبارًا، ولكنْ ليبقَى أخوه في ظلّه، ولِيستمتعَ كلاهما بالأُخوّةِ الرّفيقةِ القريبةِ[2]، وفي هذا دَلالةٌ على التّحلّي بصِفةِ العفوِ والتّسامُحِ، وإظهارِ الحبّ والوُدّ لإخوتِه، ونسيانِ الماضي وتجاوُزِ أخطائِهم معه في مقتَبلِ العمرِ[3].

الثّالثُ: التّطمينُ لبِنيامين بألّا يخافَ؛ ذلك أنّهم إنّما فعلوا بيوسفَ ما فعلوه؛ لأنّهم حسدوه على إقبالِ الأبِ عليه وتخصيصِه بمزيدِ الإكرام، فخافَ بِنيامين أنْ يحسدوه بسبب أنّ الملكَ خصَّه بمزيدِ الإكرامِ، فأمّنَه يوسفُ منهم، وقال: لا تلتفتْ إلى ذلك؛ فإنّ اللّه قد جمعَ بيني وبينَك[4].

دَلالةُ حرفِ الجرِّ الباءِ ﴿بِمَا﴾:

حرفُ الجرِّ (الباء) في قوله تعالى: ﴿بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ تحتملُ أن تكون للإلصاق، والمعنى: أنّ أعمالَ إخوتِه منَ الحسد والأذى، ليوسفَ وأخيه كانتْ مُلتصقةً بهم ملابِسةً لهم لا تنفكُّ عنهم.

وتحتمل أن تكون للسّببية، والمعنى: فلا تبتئسْ بسببِ الّذي كانوا يعمَلونَه منَ الأذى والحسدِ.

إساءات إخوةِ يوسُفَ السّابقة كانتْ سببًا في بؤس يوسفَ وأخيه

غرَضُ التّعبيرِ بالمجرورِ اسمًا موصولًا مبهمًا (ما):

عبّر البيانُ الإلهيُّ بالاسْمِ الموصولِ (ما) مبهمًا في قوله تعالى: ﴿بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾؛ لإفادة العُموم؛ ليشملَ كلَّ ما عملَه إخوتُه

إبهامُ أعمالِهم السّيئة، دَلالةٌ على كثرتها، ومع ذلك يتجاوزُ عنها

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 18/485.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3843.
(3) الزّحيليّ، التّفسير المنير: 13/33.
(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 18/485.

مع يوسفَ وأخيهِ وأبيهما من قولٍ أو فعلٍ، بخلافِ ما لو ذكرَ أحدَ أفعالهم، فإنّ ذلك يُذهبُ معنى العموم.

وقد ذكرَ المُفسّرون عدّةَ أقوالٍ في الأمور الّتي كانوا يعملونَها بيوسفَ وأخيه، منها[1]: أنّهم كانوا يعيِّرون يوسفَ وأخاه بعبادةِ جدِّهما - أبي أُمّهما - للأصنامِ، فقال له: لا تبتئسْ بما كانوا يعملون منَ التّعيير لنا. ولا تحزنْ بما سيعمَلون بعد هذا الوقت حين يُسرِّقونك، فتكونُ ﴿كَانُواْ﴾ بمعنى (يكونون)، ولا تحزنْ بما عملوا من حَسَدِنا، وحرصوا على صرفِ وجْهِ أبينا عنّا.

سِرّ التّعبير بالفعلِ ﴿كَانُواْ﴾ بصيغةِ الماضي:

بيانُ عفوِ يوسُفَ الكريمِ، وحضِّه أخاه على العفْوِ

عبّر البيانُ القرآنيُّ بفعل الكون بصيغةِ الماضي في قوله تعالى: ﴿بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾، ولم يَقلْ: بما عملوا؛ للدّلالةِ على أنَّ المُرادَ هو ما عمِلوه فيما مضى[2]، وما زالوا ثابتين مُستمرّين عليه راسِخين فيه[3]؛ لأنّ خبرَ الجُملةِ الاسميّةِ جاءَ فعلًا بصيغةِ المضارع، والمعنى: فلا تحزنْ بما كانوا يعمَلون من إقامتِهم على حسدِنا، والحرصِ على انصرافِ وجْه أبينا عنَّا[4].

دَلالةُ التّعبير بالمضارع ﴿يَعۡمَلُونَ﴾:

رغمَ تجدُّدِ إساءاتِ الإخوةِ ليوسُفَ وأخيه واستمرارِها، فالعاقبةُ خيرٌ

دلَّ صَوغُ ﴿يَعۡمَلُونَ﴾ بصيغة المضارعِ في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَبۡتَئِسۡ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ على أنّ أعمالَ إخوتِه مُتكرّرةٌ من الأذى، وفي هذا تهيئةٌ لنفسِ أخيه لتَلقّي حادثِ الصُّواع باطْمئنانٍ حتّى لا يخشى أنْ يكونَ بمحلِّ الرِّيبةِ من يوسُفَ عليه السلام[5]، والمعنى: فلا تُدخلْ على نفسك البُؤسَ والحزنَ بما كانوا يعملون؛ أيْ: بما استمرّوا على عملِه من

(1) ابن الجوزيّ، زاد المسير في علم التّفسير: 2/456.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/27.
(3) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 10/168.
(4) ابن عادل، اللُّباب في علوم الكتاب: 11/158.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/27.

إثارةٍ للحسدِ والحقْدِ، فقد عمِلوه معي وكانتْ عاقبتُه ما ترى لي، فقد آلتْ عاقبةُ فعلِهم إلى أنْ أكونَ عزيزَ مصرَ، وما يفعلونَه معك لا تتصوّرْ أنْ تكونَ عاقبتُه شرًّا، فعاقبتُه لك خير[1].

نُكتةُ حذْفِ مفعولِ ﴿يَعْمَلُونَ﴾:

الحذْفُ للعنصرِ المحذوف، بين الإيجازِ المُخصَّص، والعمومِ المألوفِ

حَذَفَ البيانُ القرآنيُّ مفعولَ ﴿يَعْمَلُونَ﴾ في قوله تعالى: ﴿بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾؛ لأمرَيْن:

الأوّلُ: دَلالةُ السّياقِ عليه؛ إذِ القصّةُ تدورُ على ما قام به إخوةُ يوسفَ بيوسُفَ وأخيه.

الثّاني: إفادةُ العُمومِ، ليشملَ كلَّ ما فعله إخوةُ يوسفَ بيوسفَ وأخيه قولًا وفعلًا منَ الحسد لهما وصرْفِ وجْهِ أبيهما عنهما، وإلقاءِ يوسفَ في البئر، والتّسبّبِ في كلِّ ما أصابه وأصاب أخاه وأباه من ألمِ الفراقِ، أو ليشملَ ما يقعُ به من إخوتِه في المستقبل حين يشبّهونَه بأخيه في السّرقةِ على اعتبار ﴿كَانُواْ﴾ بمعنى يكونون، وتقديرُه: لا تبتئسْ بما يكونون يعملون بعد هذا الوقت، وإلى هذا المعنى، والعربُ تجعلُ (كان) في موضع يكون، و(يكون) في موضع (كان) إذا انكشف المعنى[2].

نُكتةُ التّعبير بـ ﴿يَعْمَلُونَ﴾ دونَ غيرها:

عفوُ يوسُفَ كان عظيمًا، مقابلَ جُرمِ إخوتِه ومؤامراتِهم

عبَّرَ البيانُ القرآنيُّ بـ ﴿يَعْمَلُونَ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ دونَ غيرِها مثل: يفعلون أو يصنعون؛ لكوْنِ ﴿يَعْمَلُونَ﴾ أوسعَ دَلالةً من غيرها، وأنسبَ لسياقِ المقام؛ إذ إنّ لفظَ (عَمِلَ) يعمُّ أفعالَ القلوب والجوارح[3]؛ أي الجانب المادّيّ والمعنويّ، بخلافِ لفظِ الفعْلِ فإنّه يقتصرُ على الجانب المادّيّ دون المعنويِّ، وهذا ما كان

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3843.
(2) الواحديّ، التّفسير البسيط: 12/178.
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (عمل).

منهم؛ إذ لم يقتصرْ إيذاءُ إخوةِ يوسُفَ على البُغضِ القلبيّ والحسدِ، وإنّما تعدّى للإلقاءِ في البئر والكذبِ على الأب، وإبعادِ يوسفَ عن أبيه وأخيه وأُسرته، كما أنّ العملَ هو كلُّ فعلٍ يكون بقصدٍ؛ أيْ: يكونُ من مُكلَّفٍ، فلا يُقال عنه عملٌ إلّا فيما كان عن فكرٍ ورويّةٍ، ولهذا قُرن بالعلْم[1]؛ أيْ: هو أخصُّ منَ الفعل[2]، وما قام به إخوةُ يوسفَ بأخيهم وببنيامين كانَ عن فكرٍ ورويّةٍ وتخطيطٍ وتنفيذٍ، كما أنَّ العملَ يشملُ القولَ والفعلَ، وإيذاؤهم كان قولًا وفعلًا.

نُكتةُ كثرةِ الهَمزاتِ في الآيةِ:

تكافؤٌ بينَ قوّةِ الهَمزات وعُمقِها، وقوّةِ مشاعرِ يوسفَ عند لقاءِ أخيه

وردَ في قوله تعالى: ﴿ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَخَاهُۖ قَالَ إِنِّيٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبۡتَئِسۡ﴾ سبعُ همزاتٍ، والهمزةُ تخرجُ من أقصى الحلْقِ؛ أيْ هي من أعمقِ الحروف، وهي حرفٌ مجهورٌ شديدٌ انحبسَ في النَفَس والصّوت، وفي ذلك إشارةٌ إلى شدّة الانفعالاتِ والمشاعرِ الّتي عاشها يوسفُ في هذه اللّحظات التّي رأى فيها أخاه الشّقيقَ بعد طول غيابٍ وقوّتِها وعُمقِها، بما يدلُّ على تكافؤٍ بين اللّفظِ والمعنى؛ أيْ: تكافؤٌ بين قوّةِ وعُمْقِ الهمزات، وقوّةِ وعُمقِ مشاعرِ يوسفَ عند لقاءِ أخيه.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(بأس) و(حزن):

الحزنُ خشونةٌ في النَّفس وغمٌّ، والابتئاسُ شدّةٌ وكُرْهٌ وحزنٌ في استكانةٍ

أصلُ (حزن) يدلُّ على خُشُونَةِ الشّيءِ وشِدَّةٍ فيه[3]، والحُزْنُ: الغَمُّ الحاصِلُ لوقوعِ مَكْرُوهٍ، أو فَواتِ مَحْبوبٍ في الماضِي[4]، وعرّفه الرّاغبُ بأنّهُ: خشونةٌ في النّفس لِما يحصلُ فيه منَ الغمّ، ويُضادُّه: الفَرَحُ[5]، وأصلُ (بَأْسٌ) يدلُّ على الشِّدَّةِ وما ضارَعَهَا[6]، والمُبْتَئِسُ:

(1) الكفويّ، الكليّات، ص: 666.
(2) الرّاغب، المُفردات: (عمل).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حزن).
(4) الزّبيديّ، تاج العروس: (حزن).
(5) الرّاغب، المُفردات: (حزن).
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (بأس).

الكارِهُ الحزينُ[1]، وقيل: المُبْتَئِسُ: المِسكينُ الحزينُ[2]، وابتأسَ: حزنَ واكتأبَ واغتمَّ وخافَ[3]، فالحزنُ يتميّزُ بوجود خشونةٍ في النّفس لما يحصلُ فيه منَ الغمّ، والابتئاسُ يتميّزُ بوجود الشّدّة، فيصبحُ المُبْتَئِسُ كارهًا لها، ويحزنُ حزْنَ بائسٍ مُستكينٍ، ويغتمُّ ويكتئبُ ويخافُ.

(1) الفيروزابادي، القاموس المحيط: (بأس).

(2) الزّبيديّ، تاج العروس: (بأس).

(3) أحمد مختار عبد الحميد عمر، معجم اللّغة العربيّة المعاصرة: (بأس).

﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ ۝٧٠﴾ [يوسف: 70]

بعدَ الإيواء، الشّروعُ في أسباب الإبقاء، مِن قصّة يوسف الغرّاء

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لمّا أخبر النّظمُ الجليل عن دخولهم إلى البلد، وأخبر عن دخولهم لحاجتهم إلى يوسف عليه السلام، وأنّه آوى إليه شقيقَه بنيامين، وقالوا له: هذا أخونا الذي أمرتنا به قد أحضرناه، أخبر هنا أنّه قد ملأ لهم أوعيتَهم كما أرادوا[1]، وشرع في بيان طريقة أخذ يوسف لأخيه وإبقائه معه.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿جَهَّزَهُم﴾: فعلٌ ماضٍ جَذْرُهُ (جهز)، وهو أَصْلٌ يدلّ على شَيْءٍ يُعْتَقَدُ ويُحْوَى نَحْوِ الجَهازِ، وهو مَتاعُ البَيْتِ، وجَهَّزْتُ فُلانًا: تَكَلَّفْتُ جَهازَ سَفَرِهِ[2]، وكذلك جَهاز العَروس والميِّت، وهو ما يَحتاجُ إليهِ في وجْهِه[3]، وكسر جيم (جهاز) لغة قليلة[4]، وتجَهَّزْتُ لأمرِ كذا، أي: تهيَّأتُ له[5]. و﴿جَهَّزَهُم﴾ هنا بمعنى: هيَّأَ لهم طَلَبَهُم مِنَ الكيل، وقضى حاجتَهم[6].

2) ﴿ٱلسِّقَايَةَ﴾: مصدرٌ جَذْرُ مادَّتِه: (سقي)، أَصْلٌ يدلّ على إِشْراب الشَّيْءِ الماءَ وما أَشْبَهَهُ، تَقُولُ: سَقَيْتُهُ بِيَدِي أَسْقِيهِ سَقْيًا، وأَسْقَيْتُهُ، إذا جَعَلْتَ لَهُ سِقْيًا. والسَّقْيُ: المَصْدَرُ، والسِّقايَةُ: الصُّواعُ، وهُوَ الَّذِي كانَ يَشْرَبُ فِيهِ المَلِكُ[7]، والسِّقايةُ والصُّواعُ شيءٌ واحدٌ[8]،

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/167 - 168.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (جهز).
(3) الخليل، العين: (جهز).
(4) الفيومي، المصباح المنير: (جهز).
(5) الجوهريّ، الصّحاح: (جهز).
(6) ابن جرير، جامع البيان: 16/171.
(7) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سقى).
(8) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (صوع).

وتُطلقُ السِّقايةُ على كلِّ إناءٍ يُسْقَى به[1]، والسِّقاية هنا: الإناء الذي كان يشربُ به مَلِكُ مِصْرَ[2].

3) ﴿رَحْلِ﴾: مِنَ الجَذْر اللّغويّ: (رحل)، وهو أَصْلٌ واحِدٌ يَدُلُّ على مُضِيٍّ في سَفَرٍ. يُقالُ: رَحَلَ يَرْحَلُ رِحْلَةً، وجَمَلٌ رَحِيلٌ: ذُو رِحْلَةٍ، إذا كانَ قَوِيًّا على الرِّحْلَةِ، والرِّحْلَةُ: الارْتِحالُ. فَأَمّا الرَّحْلُ في قولك: هذا رَحْلُ الرَّجُلِ، لِمَنْزِلِهِ ومَأْواهُ، فهو مِنْ هَذا، لِأَنَّ ذلك إنَّما يُقالُ في السَّفَرِ لِأَسْبابِهِ الَّتي إذا سافَرَ كانَتْ مَعَهُ، يَرْتَحِلُ بها وإلَيْها عِنْدَ النُّزُولِ. هَذا هُوَ الأَصْلُ، ثُمَّ قِيلَ لِمَأْوَى الرَّجُلِ في حَضَرِهِ: هو رَحْلُهُ[3]. والرَّحْلُ: ما يُوْضَعُ على البعير للرُّكوب، ثُمَّ يُعَبَّرُ بِهِ تارةً عنِ البعيرِ، وتارةً عمَّا يُجْلَسُ عليه في المَنْزِلِ، وجَمْعُه: رِحالٌ[4].

4) ﴿أَذَّنَ﴾، ﴿مُؤَذِّنٌ﴾: مِنَ الجذر اللّغويّ: (أذن)، وهو أصل يدلّ على العلم والإعلام[5]، فَبِالأُذُنِ يَقَعُ عِلْمُ كُلِّ مَسْمُوعٍ، وتَقُولُ العَرَبُ: قَدْ أَذِنْتُ بِهَذا الأَمْرِ، أَيْ: عَلِمْتُ. وآذَنَنِي فُلانٌ: أَعْلَمَنِي، ومِنَ البابِ الأَذانُ، وهو اسْمُ التَّأْذِينِ، والمؤذِّنُ: كُلُّ مَنْ يُعْلِمُ بِشَيءٍ نِداءً[6]، ومعنى: ﴿ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ﴾: نادَى مُنادٍ[7].

5) ﴿ٱلْعِيرُ﴾: أصله اللّغويّ يَدُلُّ عَلَى نُتُوِّ الشَّيْءِ وارْتِفاعِهِ[8]، فالعَيْرُ: هُوَ العَظْمُ النّاتِئُ وسْطَ الكَتِفِ، وعَيَّرَ النَّصْلَ: حَرَّفَ في وسَطِهِ كَأَنَّهُ شَظِيَّةٌ[9]. والعِيْرُ: إبلٌ تحْمِلُ المِيْرَةَ والتِّجارة، لا تكونُ عِيْرًا إلّا كذلكَ، وهي القافلة[10]، وهي هنا: الإبلُ التي يُحملُ عليها، والمرادُ: أصحابُ الإبل[11].

المَعْنى الإِجْمالِيُّ:

لَمَّا حَمَّلَ يوسفُ عليه السلام إبلَ إخوتِه بالطَّعامِ، فكَّر بطريقةٍ لِيُبْقِيَ أَخاهُ مَعَه في مِصْرَ، فخبَّأَ

(1) ابن سيده، المحكم: (سقى).
(2) ابن أبي حاتم، تفسير القرآن العظيم: 7/2173.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (رحل).
(4) الرّاغب، المفردات: (رحل).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (أذن).
(6) الرّاغب، المفردات: (أذن).
(7) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (أذن).
(8) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (عير).
(9) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عير).
(10) ابن دريد، جمهرة اللّغة، وابن سيده، المحكم: (عير).
(11) الزّجّاج، معاني القرآن: 3/120، وابن أبي حاتم، تفسير القرآن العظيم: 7/2172.

في رحالهم إناء الملك الذي يشرب فيه[1]، ودسَّهُ في وِعاءِ أَخيهِ الشَّقيقِ دُونَ عِلْمِهم؛ حُجَّةً وذريعةً إلى إبقائِه معه، فلمَّا ارتحلوا عائدينَ إلى أَهلهم نادى منادٍ في إثرهم: يا أصحابَ الإبلِ المُحَمَّلةِ بالمِيرةِ، إنَّكم لسارقونَ[2]. وإنَّما قيل لهم: (سارقون) وهم لم يسرقوا؛ لأنَّ المناديَ لم يكن يعلم بما صنع يوسفُ عليه السلام[3]. ويُسْتَفادُ مِنْ هذه الآيةِ جوازُ الحِيْلَةِ الَّتي يُتَوصَّل بها لإحْقَاقِ الحَقِّ، بِشَرْطِ عَدَمِ الإِضْرارِ بِالغَيْرِ[4].

بيان مخطّط يوسف عليه السلام، بوضع السّقاية في الرّحل كي يأخذَ أخاه

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالة العطف بالفاء:

عَطفَ الجملة في قوله جلّ شأنه: ﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ﴾ بالفاء الدّالّة على السّبب؛ لبيان أنّ التّجهيز وما وقع بعدَه مِن جَعْل السّقايةِ في رحل أخيه، كان بسبب ما وقع مِنَ المقاولة بينَ يوسفَ وأخيه، وكان مِن ضِمنها وضعُ السّقايةِ في رَحْله، وإسنادُ السَّرقة إليه؛ حرصًا منهما على عدم المفارقة[5]. كما أنّ فيه إشارةً إلى التّعقيب وسُرعة التّنفيذ.

الشّروع بتجهيزهم مُسَبّبٌ عن اتّفاق خفيٍّ، دُبّر في غفلة منهم

علّة العطف بحرف (الفاء):

عطف النّظمُ الكريم الجملةَ في قوله جلّ شأنه: ﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِى رَحْلِ أَخِيهِ﴾ بالفاء دونَ الواو؛ لأنّها مبنيّة على السّبب، وعطف قولَه: ﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ٱئْتُونِى بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ﴾ [يوسف: 59]؛ وذلك لأنّه لم يتقدّم ذكر سبب هناك[6]، فكان قد جهّزهم في المرّة الأولى "ليتعرّف أخبارَهم في

انتفاء السّبب يُرجّح العطفَ بالواو، جريًا على المألوف في استعمال الحروف

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/27.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 16/171 - 172، والسّمرقنديّ، بحر العلوم: 2/203، وجماعة من العلماء، المختصر في تفسير القرآن الكريم، ص: 244.
(3) مكّي القيسيّ، الهداية إلى بلوغ النّهاية: 5/3602.
(4) جماعة من العلماء، المختصر في تفسير القرآن الكريم، ص: 244.
(5) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/397.
(6) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 10/382.

طول المدّة مِن حيثُ لا يشعرون، ولذلك لم يعطف بالفاء، وأسرع في تجهيزهم في هذه المرّة قصدًا إلى انفراده بأخيه، مِن غير رقيب بالحيلة التي دَبّرها، فلذلك أتت الفاء في قوله: ﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم﴾ أي: أعْجَلَ جَهَازٍ"[1].

سرّ التّعبير بـ (لمّا):

وقت التّجهيز ووقت جعل السّقاية فيه، متزامنان في نفس الآن

عبّر النّظمُ الكريم بالظّرف (لمّا) في قوله جلّ شأنه: ﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِى رَحْلِ أَخِيهِ﴾، وهو ظرف زمان بمعنى حين، مُتضمّن معنى الشّرط، مبنيٌّ في محلّ نصب، متعلّق بـ ﴿جَعَلَ﴾[2]. والفائدة مِن ذلك: ربطُ حَدَثين في وقت واحد، فإنّ وقتَ جَعْلِ السّقاية في الجهاز كان حين التّجهيز به، والفائدةُ مِنَ الإخبار بذلك: بيانُ اللّطائف الخفيّة لإبقاء يوسفَ على أخيه، والمعبَّر عنها في قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ۖ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ﴾.

نُكْتَةُ تضعيفِ ﴿جَهَّزَهُم﴾:

تضعيف الفعل، أسلوب للتّعبير عن كثرته وشِدّته

عبّر النّظمُ الجليل بالفعل المضعَّف (جهّز)، في قوله جلّ شأنه: ﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِى رَحْلِ أَخِيهِ﴾؛ للدّلالة على حمل الجهاز والمتاع، وأنَّه كان كثيرًا وفيرًا وافيًا، كما يدلُّ له قولُه: ﴿أَلَا تَرَوْنَ أَنِّىٓ أُوفِى ٱلْكَيْلَ﴾ [يوسف: 59]. فالجَهَاز: ما يُعَدّ مِن متاع وغيره، والتَّجهيز: حملُ ذلك[3]، فدلّ على تحميل الجَهاز، وذلك لما في التّضعيف مِن مبالغة وقُوّة في الدّلالة، تقتضيها عمليّةُ التّجهيز ورفعِ المتاع على العير، وما فيه مِن كُلْفَة، كما أنّ ذلك يُفيد أنّه قد أحسنَ جَهازَهم[4].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/168.
(2) محمود صافي، الجدول في إعراب القرآن: 7/15.
(3) الرّاغب، المفردات: (جهز).
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/168.

براعة الجناس الاشتقاقيّ:

الاهتمام بشأن الجهاز، جعلَ تجميلَ السّياق بتكرار جَذْره مفيدًا

أورد النّظم الكريم لفظين في جملة واحدة مِن جَذْر واحد، في قوله جلّ شأنه: ﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ﴾، على طريقة الجناس الاشتقاقيّ؛ فـ (جهّز) و(جَهاز) كلاهما مِنَ الجذر (جَهَزَ)، وفائدة ذلك: تأكيدُ شأنِ الجهاز والتّجهيز، ولَفْتُ عنايةِ السّامع بإيفاء يوسفَ عليه السلام لهم ما يبتغونه، كما أنّ فيه تمهيدًا وتحضيرًا لما سيقع في الجَهَاز مِن شأن السّرقة التي تكون سببًا في إبقاء يوسفَ عليه السلام على أخيه مَعَه.

دلالة استعمال لفظ﴿جَهَّزَهُم﴾:

إيثار اللّفظ الأعمّ، أبلغ في بيان شمول التّجهيز

آثر النّظم البليغ التّعبير بالجَهاز دون الرَّحل والمتاع، في قوله جلّ شأنه: ﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ﴾؛ لسعة دلالة الجَهاز، فهو يشمَل المتاعَ وغيرَه، فالجَهَاز هو ما يُعَدّ مِن متاع وغيره[1]، فهو يتضمّن متاعَ السّفر الّذي للطّريق، ويشملُ بضاعتَهم، فعَبّر بالجَهاز للدّلالة على أنّه أوفى لهم مآربَهم، بتزويدهم بالميرة.

دلالة نسبةِ الجَهاز إليهم:

مِنَ الإكرام الإيفاءُ بالتّجهيز، على وَفْق ما يريد السّائل

أضاف النّظم الجليل لفظَ الجَهاز إلى ضميرهم، في قوله جلّ شأنه: ﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ﴾ للنّصّ على أنّه الجَهاز الذي ابتَغَوه وأرادوه غيرَ منقوص[2]، فهو جَهازُهم المعيّن لهم، الخاصُّ بهم. فالإضافة إلى ضميرهم بيّنت أنّه جَهازهم الذي أرادوه، وبذلك خالف سائر الأجهزة. وبذلك يندفع ما قد يُفْهَم مِن إطلاق القول بتمييز جَهازهم عن جَهاز غيرِهم، مِن أنّه ميَّزهم بزيادة في الكَيل عمَّن سواهم، "لأنَّ معاملته عليه السلام معهم في ذلك كمعاملته مع غيرهم

(1) الرّاغب، المفردات: (جهز).
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3843.

في مُراعاة مَواجبِ العدل"[1]، بل إنَّه أعطاهم ما يُلبِّي حاجتَهم وطُلْبَتَهم، كما أنّه يُوفِّي الكيلَ لجميع الممتارين على السَّواء.

إيثار لفظ ﴿جَعَلَ﴾:

الجعل أنسب لتُهمة السّرقة، وأوفى بالدّلالة المقصودة

في قوله تعالى: ﴿جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِى رَحْلِ أَخِيهِ﴾ أُوثِرَ الفعلُ ﴿جَعَلَ﴾ دون (وضع)؛ للدّلالة على المبالغة والتَّكلُّف في جَعْله، فهو صَيّره هناك، وكَوّنَه ودبَّر له، وذلك دليلٌ على شِدّة الإخفاء؛ حتَّى لا يَلْحَظُوه، وليتناسبَ مع إرادة نسبةِ السّرقة إليهم، فلو وُضِعَ الصُّوَاعُ وضعًا لاحتمل أنّه كائن هناك سَهْوًا، ولا يَدلّ على أنّه مسروق، فجاء التّعبيرُ بالجَعْل لبيان أنّه جُعِلَ بحيث يكون مِنَ المتاع، فيكونَ ألصَقَ وأنسبَ معَ السّرقة في الدّلالة على القَصْديّة.

سرُّ تعريف ﴿ٱلسِّقَايَةَ﴾:

مقتضى حال السّقاية، يستجلب صورةً معهودةً لها في الذّهن

عرّف النّظم الكريم لفظَ السّقاية، في قوله جلّ شأنه: ﴿جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِى رَحْلِ أَخِيهِ﴾، بالألف واللّام، الدّالّةِ على العَهْد الذِّهنيّ، فمِنَ المعروف أنّ مجالسَ الرّؤساءِ والمترفين، لا تخلو مِن مثلها[2].

بلاغة المجاز العقلّي:

يوسفُ أمرَ بالجَعْل ولم يباشره بنفسه، على عادة أصحاب السّلطان

جاء في النّظم الكريم إسناد الفعل ﴿جَعَلَ﴾ إلى يوسف عليه السلام، في قوله جلّ شأنه: ﴿جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِى رَحْلِ أَخِيهِ﴾، على طريقة المجاز العقليّ، فهو لم يُباشر ذلك الفعلَ بيده، بل "أمر مَنْ جعلَها؛ إذِ الغالبُ أنّه لا يَجْلِس في مجلس الطّعام، ولا يجول إليه؛ لئلّا يُفْطَن إليه"[3]، فهو مِن حيثُ كونُه ملكًا، لا يُتَصَوَّر منه ذلك، بل أصدر أمرًا لفتيانه، أو غيرِهم أنْ يجعلها في رَحْلِهم[4]. لكنّه يدلّ في الوقت ذاته على مزيد اعتنائه عليه السلام بهذا الأمر، وشِدّة مراقبته له.

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/288.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/28.
(3) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/397.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/302.

دلالة العطف بـ ﴿ثُمَّ﴾:

بين التّأذين والجعل فُسْحَةٌ مِن الزّمان، اقتضتْها عناصرُ القصّة

آثر النّظم القرآنيُّ العطفَ بـ ﴿ثُمَّ﴾ في قوله جلّ شأنه: ﴿ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ﴾؛ للدّلالة على أنّ وقتَ التّأذين ليس وقتَ الجعلِ، بل بينَهما مُهْلَةٌ، فكان التّأذينُ بعد انطلاقهم وإمعانِهم في السّير[1]، فـ ﴿ثُمَّ﴾ "تقتضي مهلةً بينَ جَعْل السّقايةِ والتّأذين، فرويَ أنّه لمّا فصلتِ العيرُ بأوقارها، وخرجوا مِن مصر أُدركوا، وقيل لهم ذلك"[2]، أي: "أنّهم ارتحلوا وأمهلَهم يوسفُ حتّى انطلقوا، ثمّ أمَرَ بهم فأُدْرِكوا وحُبِسوا، ثمّ قيل لهم ذلك"[3].

دلالة فعل ﴿أَذَّنَ﴾:

تنبيه المخاطبِ إلى أمر خطير، يقتضي التّكرارَ، للإعلام والإنذار

عبّر جليل النّظم بصيغة التّفعيل، تعبيرًا عن ندائهم في قوله جلّ شأنه: ﴿ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ﴾؛ للدّلالة على تكرار النّداء، فالتّأذين يعني النّداءَ والتّصويتَ لإعلام السّامع مع تكرار ذلك[4]، فلمّا "بُحِث عنِ السّقاية، فتبيّن أنّها غير موجودة، وأنّها في رحال القوم، انطلق حُرّاس القافلةِ مُنادِينَ، وهذا معنى ﴿أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ﴾، أي: أعلمَ مُعْلِمٌ"[5]، فنِداؤهم إيَّاهم كان بتصويت مُكَرّر؛ لإعلامهم بالمقول الشّنيع، وهو نسبة السّرقة إليهم، وهو كَدَأب الّذين ينشدون المفقودَ، حيثُ يُكَرِّرون ذِكْرَه في كلّ زمان ومكان[6].

وجه الفرق بيَن ﴿أَذَّنَ﴾، و(آذن):

تكرار النّداء والإعلام، أنسبُ في إعلام أحدٍ بجُرمه

استعمل النّظم الجليل الفعل ﴿أَذَّنَ﴾ دون (آذن) في قوله جلّ شأنه: ﴿ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ﴾؛ لأنّ الفعل ﴿أَذَّنَ﴾ دالٌّ على إعلامٍ بعد

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/169.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/303.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/490.
(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 18/486، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/28.
(5) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3843.
(6) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 13/20.

إعلام؛ لأنّ (فعّل) يُوجِب تكريرَ الفعل[1]، وتكرارُ إعلامِ المخاطبِ ونداءِه بكونه سارقًا أبلغُ في تهويل الحَدَث مِن إعلامه مَرّة واحدة، التي يدلّ عليها الفعلُ (آذن).

سرّ حذفِ حرفِ النّداء:

حذفَ النّظم الكريم حرفَ النّداء مِنَ المنادَى في قوله جلّ شأنُه: ﴿أَيَّتُهَا ٱلۡعِيرُ﴾؛ للدّلالة على أنّهم كانوا في غاية القُرْب منهم[2]؛ وإنّما حُذِف حرفُ النّداء للتّعجيل بالنّداء، وإبلاغ المخاطب بمضمون الخطاب؛ لأنّ مقصودَ المُنادِي إبلاغُهم بأنّهم علموا بشأن السّرقة، وهم في حالة خروج مِنَ البلاد، فكان المطلوبُ سُرعةَ التّبليغِ، ودِقّةَ بيانِ المضمون.

حذفُ حرفِ النّداءِ يُسرّع إيصالَ مضمونِ الخطاب

سرّ المجيء بـ (أيّ) وتأنيثها:

دخل حرفُ النّداء على (أيّ) مع تأنيثها في قوله جلّ شأنه: ﴿أَيَّتُهَا ٱلۡعِيرُ﴾؛ لأنّ العير مؤنّث، فجِيء بـ (أيّ) التي يُتوصَّلُ مِن خلالها إلى نداء المؤنّث المعرّف باللّام[3]، فالتّأنيث على تأويل أنّ المنادى هو الجماعة؛ لأنّ الرّكابَ في العير هم الأهمّ، وهم المقصودون بالنّداء[4].

المقصود بالنّداء الجماعةُ رُكّابُ العِير

نُكْتَةُ إيثارِ: ﴿ٱلۡعِيرُ﴾:

آثر النّظم الكريم التّعبير بـ ﴿ٱلۡعِيرُ﴾ على (القافلة)، و(الإبل)، في قوله جلّ شأنه: ﴿ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلۡعِيرُ إِنَّكُمۡ لَسَٰرِقُونَ﴾، و(العِير): هي الإبلُ التي عليها الأحمال؛ سمّيت بذلك لأنّها تعير، أي: تذهب وتجيء، أو هي القافلة مِنَ الحمير، فلمّا كَثُر استعمالُها عُمّمَ، فقيل لكلّ قافلة: عير، فكلّ ما سِير عليه مِنَ الإبل والحمير

العِير أشملُ في الدّلالة على مضمون القافلة

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 18/486.
(2) السّمين، الدّر المصون: 6/525، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 10/169.
(3) السّمين، الدّر المصون: 6/525.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/28.

والبِغال صَحّ أن يقال له: عِير[1]، فأُوثِرَ اللّفظُ لدلالته على الدّوابّ مع حمولتها، فهو اسمٌ يدلّ على الحَمُولة مِنَ الإبل والحمير مع ركّابها وما عليها مِنَ الأحمال، فهو اسم لمجموع هذه الثّلاثة[2].

بلاغة الإيجاز بالحذف:

الخطاب يُراد به الرّكّابُ، ولا يُراد به الدّوابّ

أوجز النّظمُ البليغ التّركيبَ بحذف المضاف في قوله جلّ شأنه: ﴿أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ﴾؛ إذ إنّ خطابَ العير ومناداتَها، إنّما يُراد به أصحابُها؛ ولذلك جاء في آخر الخطاب قولُه: ﴿إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ﴾، فَجَمْعُ الضّميرِ لمراعاة المضاف المحذوف، ولم يقل: (إنّكِ لسارقة) بإفراد الضّمير، كما قال جلّ شأنه: ﴿وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِيٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا﴾ [يوسف: 82]، وقد يُراد بالعِير القافلةُ كلُّها أو الرِّفقةُ، فالخطابُ ليس مقصودًا به الدّوابُّ، بل المجموعةُ كلُّها، وعندئذٍ لا يكون مِن مجاز الحَذْف[3]، بل مِنَ المجاز المرسل، كما سيأتي.

بلاغة المجاز المرسل:

من فصيح البيان، أن يُطلَق اللّفظُ ويُرادُ مجاوِرُه

أوقع النّظم الكريم النّداءَ على العِير، في قوله جلّ شأنه: ﴿أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ﴾، والمراد مِنَ العِير راكبُوها أو أصحابُها، على طريقة المجاز المرسل، والعلاقة فيه المجاورةُ؛ إذِ العِير وأصحابُها مترافقان متجاوران[4].

بلاغة جمع المؤكّدات في جملة الفاصلة:

مَظِنّة إنكارِ المخاطَب للخبر تقتضي إيرادَه مؤكّدًا، فلا ينكر

أورد النّظم الكريم الجملة الّتي هي مقول المُنادي: ﴿إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ﴾ مؤكَّدَة بحرف التّأكيد (إنّ)، واللّام المزحلقة، وكون الجملة اسميّةً دالّةً على ثبوت المعنى وتأكيده؛ فجاء التّأكيدُ "لما

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/490، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 18/486.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/281.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/303.
(4) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/409، والطّيبيّ، فتوح الغيب: 8/393، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3843، محمود صافي، الجدول في إعراب القرآن: 7/32.

لهم مِنَ الإنكار"[1]، وذلك لتنزيل الاتّهام منزلةَ الأمرِ المقطوع به؛ لأنّ الإخبار بذلك يقابِلُه إنكارُ المخاطَب، فأُورِدَ مؤكّدًا دفعًا لهذا الإنكار، كما أنّ فيه مِنَ التّفجيع البليغ أكثرَ مِنَ النّداء بذلك خاليًا مِنَ المؤكّدات.

توجيه الخطاب بضمير الجمع ﴿إِنَّكُمْ﴾:

تُؤاخَذ الجماعةُ بفعل فردٍ واحد؛ باعتباره منهم، ولا ينفكّ عنهم

أَسنَد بليغُ النّظم السّرقةَ إليهم جميعًا، في قوله جلّ شأنه: ﴿أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ﴾، وإن كان الصُّواع قد وُجِدَ في رَحْل واحد منهم؛ جريًا على ما جرت عليه عادةُ النّاسِ مِن مؤاخذة الجماعة بجُرم الواحد منهم، كما يقال: (بنو فلانٍ قتلوا فلانًا)، وإنّما القاتلُ واحدٌ منهم لا كلُّهم[2]. ويُزاد على ذلك أنّ الخطاب قيلَ قبلَ أن يجدوه في رحلِ واحدٍ منهم، فالظَّنُّ بأنّ السّارق واحدٌ ولكنّه غيرُ معيّن، وهذا يجعل التّهمةَ تعمُّ الجميعَ، فكان الخطاب بالجمع لذلك، وهم لا يريدون أنّهم كلَّهم سرّاق.

علّة التّعبير باسم الفاعل ﴿لَسَٰرِقُونَ﴾:

إذا كانت صفةُ السّرقة راسخةً فيهم ثابتة، كانت في التّصوّر لازمةً لازبة

عبّر النّظم عنِ السّرقة باسم الفاعل، في قوله جلّ شأنه: ﴿إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ﴾؛ للدّلالة على ثبوت صفة السّرقة فيهم؛ وذلك لأنّ مَن يقدِر على سرقة ما يُتحفَّظ عليه بشدة، فيجرؤ على سرقة خواصِّ الملكِ، مع ما لا يخفى مِن شِدّة التَّحفُّظ عليها، والاعتناء بحراستها وحمايتها من قِبَل الحرّاس والمراقبين، فإنَّه يدلّ على أنّه ضليعٌ بهذا الشّأن خبيرٌ فيه، كما يدلّ على رسوخه في هذه الصّفة.

وجه إطلاق السّرقة عليهم:

عدم الإذن في حوز المحروز، يكون أخذُه سرقةً لا تجوز

أُسنِدت إليهم السّرقةُ في قوله جلّ شأنه: ﴿أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ﴾ وهم لم يسرقوا، وهذه النّسبة على وجه الحقيقة؛ لأنّ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/169.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/303، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/28.

"المنادي غيرُ عالم بما دَبّره يوسفُ، وقيل: إنّ المعنى: إنَّ حالَكم حالُ السّارقين، كون الصُّواعِ صار لديكم مِن غير رضًا مِنَ الملك"[1].

لفظ (السّرقة) بيَن التّشبيه، والمجاز:

تَشَبُّهُ أخذِ ما لم يُؤذَن فيه، بفعل السّارق السّفيه

ذكر ابنُ عرفة عن الفخر أنّ "حملهم لرحل أخيهم وفيه السّقايَة إمّا تَشَبُّهٌ بفعل السّارق، وإمّا مِن تسميّة الكلّ وإرادةِ البعضِ"[2]، فيكون مجازًا مرسلًا بهذه العلاقة، فـ"هذا الخطابُ إن كان بأمر يوسف عليه السلام، فلعلّه أُريدَ بالسّرقة أَخْذُهم له مِن أبيه، ودخولُ بنيامين فيه بطريق التّغليب، وإلّا فهو مِن قبل المؤذِّن، بناءً على زَعْمه، والأوّلُ هو الأظهرُ الأوفقُ للسّياق"[3]، وهو "مِن قبيل المبالغة في التّشبيه، أي: أخذتُم يوسفَ مِن أبيه، على وجه الخيانة كالسُّراق، وقد صَدَر التّعريضُ والتّوريَةُ مِنَ الأنبياء عليهم السلام"[4].

حَذْفُ متعلّق السّرقة:

السّرقة فعل مشينٌ، مهما كان نوع المسروق، مِنَ النّفيس أو المهين

لم يبيّن النّظم الكريم مفعولَ السّرقة في قوله جلّ شأنه: ﴿إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ﴾، فأطلق لفظَ السّرقة، فلم يبيّن المنادي ماذا سرقوا؛ لأنّ النّداء بصفة السّرقة يُفْصِح عن كونهم قد أثبتَ عليهم المنادي السّرقةَ على وجه التّأكيد، وهي جريمةٌ لا تتغيّر بنوع المسروق، فالوصفُ المشينُ يثبت بالفعل، لا بالنّظر لما سُرِق.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

السّارق واللّصّ:

السّارق يأخذ المسروق خفية، واللّصّ يأخذ المتاعَ عُنوَة

السّارق مِن (سَرَقَ)، وهو أَصْلٌ يَدُلُّ على أَخْذِ شَيْءٍ في خَفَاءٍ وسِتْرٍ[5]. أمّا اللِّصُّ: فهو مِن (لَصَّ) وأصلُه يَدُلُّ على مُلَازَّةٍ

(1) الشّوكانيّ، فتح القدير: 3/50.
(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/398.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/429.
(4) حقّي، روح البيان: 4/299.
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سرق).

وَمُقَارَبَةٍ. وسُمِّي اللِّصُّ لصًّا لِأَنَّهُ يُلْصَقُ بِالشَّيْءِ يُرِيدُ أَخْذَهُ. وَفِعْلُهُ اللَّصُوصِيَّةُ[1]. وعليه فإنّ اللّصَ أشبَهُ بمَنِ امتهن هذا المسلكَ للكسب، كقُطّاع الطُّرُق، فيأخذون أمتعةَ النّاسِ بالقوة والإيذاء. أمّا السَّارق فهو مَن يأخذ المتاعَ خفية بلا قوّة وإيذاء. وفي الآية أطلقوا لفظ السّارق؛ لأنّ أخذَ الصُّواع كان خفية، فكان التَّعبير بالسّرقة أنسبَ، ولم يكن مناسبًا أبدًا وَسْمُهم باللُّصوصيّة؛ لأنَّ الوسمَ به يُلْمِحُ بمعرفتهم السَّابقة بهم، لما يَدُلّ عليه مِنِ امتهانِ هذا الفعلِ مسلكًا وسبيلَ تحصُّلِ الرّزق، وهذا غيرُ مرادٍ في الآية.

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (لصّ).

﴿قَالُواْ وَأَقۡبَلُواْ عَلَيۡهِم مَّاذَا تَفۡقِدُونَ ٧١﴾ [يوسف: 71]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

بعد الوصف الشّنيع، أقبلوا بالرّدّ لتبرئة ساحتِهم مِن سُوء الوصفِ المهين

لمّا ذَكَر النظم أنّهم قد نُودِي عليهم بالسّرقة، أعقبَه ببيان رَدِّ إخوةِ يوسفَ في الإجابة عن تلك التُّهَمَة، فَحَكى ما رَدُّوا به على المُنادِي[1]، فبعد النّداء عليهم بكونهم سارقين، أتبَعَه ببيان مقولهم إزاءَ ذلك النّداء المتضمِّن سُوءَ الاتّهام.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَأَقۡبَلُواْ﴾: فعلٌ ماضٍ جَذْرُه: (قبل)، وهو أَصْلٌ يَدُلُّ على مُقدَّم الشَّيء الذي يُتَّجَه إليه منه، لملاقاته أو النّفاذ فيه[2]. يُقالُ: فَعَلَ ذَلِكَ قِبَلًا، أي: مُواجَهَةً. وهذا مِن قِبَلِ فُلانٍ، أي: مِن عِنْدِهِ، كَأَنَّهُ هُوَ الَّذِي أَقْبَلَ بِهِ عَلَيْكَ[3]، وأقبلَ إليهِ بوجهِه: نقيض أدبرَ[4].

2) ﴿تَفۡقِدُونَ﴾: فعلٌ مضارعٌ جَذْرُه: (فقد)، وهو أصلٌ يَدُلُّ على ذَهابِ شَيْءٍ وضَياعِهِ، ومِن ذَلِكَ قَوْلُهُمْ: فَقَدْتُ الشَّيْءَ فَقْدًا[5]. ويُقالُ: امرأةٌ فاقِدةٌ: ماتَ ولدُها أو حَميمُها. وأفْقَدَه اللّه كُلَّ حميمٍ، والتَّفَقُّدُ: تَطَلُّبُ ما غابَ[6]، والفقدُ: عَدَمُ الشَّيءِ بعد وجودِهِ[7].

المَعْنى الإجْمالِيُّ:

الواثقُ مِن طُهْرِ ساحتِه يستنكِرُ التّهمَةَ، ويُقبِلُ على دَفْعِها برَباطة جَأْشٍ

استَنكر إخوةُ يوسفَ هذه التُّهَمَةَ الّتي لا يعلمون عنها شيئًا، بسبب شِدَّة ثقتِهم بأنفسهم، استنكارَ المبهوت[8]؛ لكونهم أبناءَ نبيّ، ولا يمكن

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 18/478.
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (قبل).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (قبل).
(4) الفارابيّ، ديوان الأدب: 2/325.
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (فقد).
(6) الخليل، العين: (فقد).
(7) السّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (فقد).
(8) الماورديّ، النّكت والعيون: 3/62.

أن يَصْدُر منهم هذا العملُ الخسيس، أو أن تحومَ حولَهم شبهتُه، فانزعجوا منها، وأقبلوا على المنادي في إثْرِهِ ومَنْ معه مِن أصحابِهِ، فقالوا لهم مُتَعجِّبِيْنَ: ماذا ضاعَ منكم، حتّى تَتَّهِمُونا بالسّرقة؟[1].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغة الفصل:

الجملة في قوله جلّ شأنه: ﴿قَالُواْ وَأَقۡبَلُواْ عَلَيۡهِم مَّاذَا تَفۡقِدُونَ﴾ مستأنفةٌ استئنافًا بيانيًّا، ولذا اخْتيرَ الفَصْلُ[2]، فكأنّه قيل: إنّ اتّهامَهم بالسّرقة شأنٌ عظيم، فماذا ردّوا إجابةً عنها؟ فقيل: ﴿قَالُواْ﴾[3]. فالجملةُ جوابٌ لنداء المنادِي إيَّاهم: ﴿إِنَّكُمۡ لَسَٰرِقُونَ﴾، وهو سببٌ في فصلها؛ لأنّها في طريقة المحاورة[4].

فُصِلَ الكلامُ، لِمَا فيه مِن استئنافٍ يُبيّن الجوابَ، عن سُوء الاتّهام

دلالة الواو، في قوله: ﴿قَالُواْ وَأَقۡبَلُواْ﴾:

الجملة في قوله جلّ شأنه: ﴿وَأَقۡبَلُواْ عَلَيۡهِم مَّاذَا تَفۡقِدُونَ﴾، مفتتحةٌ بالواو الحاليّة، فالجملةُ حالٌ "مِن ضمير ﴿قَالُواْ﴾، جِيء بها للدّلالةِ على انزعاجٍ ممّا سمعوه، لمباينته لحالهم"[5]، أي: قالوا حالَ كونِهم مُقْبلين عليهم، وكان الغرضُ مِنَ الإقبال عليهم إظهارَ حُسنِ الأدبِ في الحوار، مع عدم تنبيههم على إساءتهم، وتغاضيهم عنها، بعد تعجّل المنادِي عليهم، بنسبتهم إلى السّرقة[6].

الخطابُ حالَ الإقبال عليهم، مَبعثٌ للعناية والاهتمام

إيثار لفظ ﴿وَأَقۡبَلُواْ﴾:

آثر النّظمُ الكريم التّعبير بالإقبال في قوله تعالى: ﴿قَالُواْ وَأَقۡبَلُواْ عَلَيۡهِم مَّاذَا تَفۡقِدُونَ﴾، دون غيره مِنَ الألفاظ، كـ (وعادوا)،

الإقبال يَدُلّ على المواجهة الجريئة، ويُفصِح عنِ الذِّمّة البريئة

(1) ابن جرير، جامع البيان: 16/175، وجماعة من العلماء، المختصر في تفسير القرآن الكريم، ص: 244.
(2) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 10/385، وصافي، الجدول في إعراب القرآن: 7/33.
(3) البقاعي، نظم الدّرر: 10/169 - 170.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/28.
(5) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/295.
(6) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 10/385.

و(رجعوا)؛ لأنّ الإقبال يقتضي المواجهةَ، وهذا تعبيرٌ عن يقينهم ببراءتهم، وفيه دلالة على كونهم ليسوا في قلق ممّا قيل؛ لثقتهم ببراءتهم من ذلك الاتّهام، فخاطبوا المنادي بحُسن الأدب، وبإقبالٍ عليه؛ لأنّ الأمر خطيرُ الشّأن، فتحدّثوا برفقٍ لإزالة ذلك الاتّهام.

وجه صوغ: ﴿قَالُواْ وَأَقۡبَلُواْ﴾، فعلين ماضيين مجموعين:

عبّر بالفعلين الماضيين ﴿قَالُواْ﴾، و﴿وَأَقۡبَلُواْ﴾ مجموعين؛ للدّلالة على تحقّق وقوعِ قولِهم، مع مجيئهم واجتماعهم على ذلك، وتمالُئِهم عليه.

لا مناص مِنَ المزامنة بين القول والعمل، في مثل هذا المشهد

دلالة شِبه الجملة:

علّق النّظمُ الكريم فِعْلَ الإقبالِ بشبه الجملة ﴿عَلَيۡهِم﴾، في قوله جلّ شأنه: ﴿وَأَقۡبَلُواْ عَلَيۡهِم﴾؛ إشارةً إلى أنّهم لم يحاولوا الهروبَ، أو التَّجَنُّبَ، بل جاؤوا لمواجهة المنادي، فدلّ شبهُ الجملة على أنّهم إذ أقبلوا فإنّهم قصدوا بإقبالهم المنادي الّذي أعلمهم بالسّرقة، ومن كان في معيّته مِن حاشية الملك أو شرطته.

الإقبال منوط بالمواجهة، وإظهارِ البراءة مِنَ التّهمَة

دلالة الاستفهام:

الاستفهام في قوله جلّ شأنه: ﴿مَّاذَا تَفۡقِدُونَ﴾ استفهامٌ حقيقيّ، وقد يكون مشوبًا بالتّعجّب[1]، والمراد منه: الاستعلام عمّا نُسب إليهم بسببه السّرقة.

الاستعلام عنِ المفقود على وجه الحقيقة، ذو أثر في الدّلالة

أمّا تركيبيًّا فيَحْتَمِل أن تكون ﴿مَّاذَا﴾ لفظة واحدة "في موضع نصب بـ ﴿تَفۡقِدُونَ﴾، ويحتمل أن تكون (ما) وحدها استفهامًا مبتدأ، و(ذا) موصولة بمعنى الذي خبرٌ عن (ما)، و﴿تَفۡقِدُونَ﴾ صلة لـ (ذا)، والعائد محذوف، أي: تفقدونه"[2].

إيثار التّعبير بـ ﴿تَفۡقِدُونَ﴾:

حكى النّظم الكريم قولَ إخوةِ يوسف وإيثارَهم التّعبير بالفقد

حُسنُ الأدبِ بتعليم المتعجّل بالاتّهام التّرويَ والتّمهّل

(1) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 2/136.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/303.

في قوله جلّ شأنه: ﴿مَّاذَا تَفْقِدُونَ﴾، وكانوا قد وجّهت إليهم تهمةُ السّرقة، ولم يقولوا: (ماذا سُرق منكم)؛ إذ إنّهم قد ساءَهم أن يُرْمَوا بهذا الوصف المشين، والتّهمةِ الكبيرة، فالتّعبير بالفقد جوابًا عن تهمة السّرقة يشير إلى كمال أدبهم، وترفُّعِهم عن هذا العمل الدّنيء، "ولله دَرُّ الأبرار والأخيار؛ حيثُ أُدّبوا بحُسن التّأديب، ولم ينبّهوهم بإساءة الأدب، وأشاروا إلى أنّ اللّائق له أن يناديَ بقوله: يا أيّتُها العِير فقدنا شَيْئًا، وضيّعنا أمرًا، قفوا حتّى نتفحّص مِن حاله، وهم تفطّنوا هذا التّلويحَ، وقَالُوا في المرّة الثّانية: ﴿نَفْقِدُ﴾"[1].

سرّ العدول عمّا يقتضيه الظّاهر في جملة الفاصلة:

إعلان البراءة والنّزاهة للأنام، وتعليمُ الاحترازِ في الاتّهام

عدل النّظم الكريم عن التّعبير بـ (ماذا سُرق منكم) بحسب ما يقتضيه الظّاهر، إلى قوله جلّ شأنه: ﴿مَّاذَا تَفْقِدُونَ﴾؛ وذلك "لبيان كمال نزاهتِهم، بإظهار أنّه لم يُسْرَق منهم شيءٌ - فمن ذا الذي يستطيع أن يسرق خاصة الملك؟ -، فضلاً أن يكونوا هم السّارقين له، وإنّما الممكنُ أن يضيع منهم شيءٌ، فيسألونهم أنّه ماذا، وفيه إرشادٌ لهم إلى مراعاة حسنِ الأدب والاحتراز عن المجازفة، ونِسبة البُرَآء إلى ما لا خيرَ فيه، لا سيما بطريق التّوكيد"[2].

نُكْتَةُ التّعبير بالمضارع ﴿تَفْقِدُونَ﴾:

التّعبير بالمضارع يستحضر الصّورةَ والمشهد

عبّر النّظم الكريم بالفعل المضارع في قوله جلّ شأنه: ﴿مَّاذَا تَفْقِدُونَ﴾؛ لاستحضار الصّورة وتصوير المشهد[3]، كما أنّ دلالة التّجدّد والاستمرار في الفعل المضارع، تُشير إلى أنّ الفقد كان متّصلًا بزمن التّكلُّم[4].

(1) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 10/385.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/295.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/295.
(4) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 2/137.

﴿قَالُواْ نَفۡقِدُ صُوَاعَ ٱلۡمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمۡلُ بَعِيرٖ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٞ ٧٢﴾ [يوسف: 72]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الجواب يعقب ذِكْرَ السّؤالِ؛ لتأكيد نوع المفقود، وجزاءِ مَن يعثُر عليه

بعد أن بيّن النّظم الكريم أنّ إخوة يوسف أقبلوا على المنادي متسائلين عمّا فقدوه، أورد النّظم الكريم ما أجابهم به فتيانُ يوسف عليه السلام، بأن بيّنوا لهم ما يفقدون، فقال: ﴿قَالُواْ نَفۡقِدُ صُوَاعَ ٱلۡمَلِكِ﴾.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿صُوَاعَ﴾: الصُّواعُ: الإناءُ؛ يُشْرَبُ بِهِ ويُكال، وهو صاعٌ وصُواعٌ، وقَدْ يَكُونُ مِكْيالٌ مِنَ المَكاييلِ صاعًا، وسُمِّيَ صاعًا؛ لِأَنَّهُ يَدُورُ بِالمَكِيلِ[1]، والصُّواعُ هنا: الإناء الَّذي كانَ الملك يَشربُ بِهِ[2].

2) ﴿ٱلۡمَلِكِ﴾: أَصْلٌ صَحِيحٌ يَدُلُّ عَلَى قُوَّةٍ في الشَّيْءِ وصِحَّةٍ، يُقالُ: أَمْلَكَ عَجِينَهُ: قَوَّى عَجْنَهُ وشَدَّهُ، ومَلَّكْتُ الشَّيْءَ: قَوَّيْتُهُ. والأَصْلُ هَذا، ثُمَّ قِيلَ: مَلَكَ الإِنْسانُ الشَّيْءَ يَمْلِكُهُ مَلْكًا، والاسْمُ المِلْكُ، لِأَنَّ يَدَهُ فِيهِ قَوِيَّةٌ صَحِيحَةٌ. فالمِلْكُ: ما مُلِكَ مِنْ مالٍ[3]. والمَلِكُ: هو المُتَصَرِّفُ بالأَمرِ والنَّهي في الجُمْهُورِ، وذلك يَخْتَصُّ بِسياسةِ النّاطقينَ، ولهذا يُقال: مَلِكُ النّاسِ، ولا يُقال: مَلِك الأشياءِ[4].

3) ﴿حِمۡلُ بَعِيرٖ﴾: جملةٌ اسميَّةٌ جَرَتْ مَجْرَى المَثَلِ، والبعيرُ حيوانٌ معروفٌ، ويقعُ على الذَّكر والأنثى، كالإنسانِ في وقوعِه عليهما[5]، وحِمْلُ البعيرِ: مقدارٌ معروفٌ في الوزن عند العربِ، وهو:

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (صوع)، والأزهريّ، تهذيب اللّغة: (صوع).
(2) ابن جرير، جامع البيان: 16/177.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ملك).
(4) الرّاغب، المفردات: (ملك).
(5) الرّاغب، المفردات: (بعر).

وَسْقٌ، وهو ستونَ صاعًا بصاع النّبيّ ﷺ، والجمعُ: أوسقٌ ووسوقٌ[1]، والبَعيرُ في القُرْآنِ: الحمارُ، وذَلِكَ أَنَّ يَعْقُوبَ وإِخْوَةَ يُوسُفَ، عَلَيْهِمُ الصَّلاةُ والسَّلامُ، كانُوا بِأَرْضِ كَنْعانَ، ولَيْسَ هُناكَ إبل، وإِنَّما كانُوا يَمْتارُونَ عَلَى الحَمِيرِ. قالَ اللّه تَعالَى: ﴿وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمۡلُ بَعِيرٍ﴾، أَي حِمْلُ حِمارٍ، والبَعِيرُ كُلُّ ما يَحْمِلُ، وكذا يُقالُ بِالعِبْرانِيَّةِ لِكُلِّ ما يَحْمِلُ: بَعِيرٌ[2].

4) ﴿زَعِيمٌ﴾: اسمٌ جَذْرُه: (زعم)، يدلّ على التَّكَفُّلِ بِالشَّيْءِ، تقول: زَعَمَ بِالشَّيْءِ، إذا كَفَلَ بِهِ، وتَكَفَّل به[3]. ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ﴾، أي: كفيلٌ، وزعيمُ القومِ: سَيِّدُهُمْ ورأسُهُمُ الذي يتكلَّمُ عنهمْ، وزَعُمَ يَزْعُمُ زَعامةً، أي: صار لهم زعيمًا سيّدًا[4].

المَعْنى الإِجْمالِيُّ:

رَدّ المنادِي مُحدِّدًا المفقودَ، وطالبًا إيّاه، ومكافئًا عليه

قال المُنادي ومَنْ مَعَهُ مِن أَصحابِه لإخوةِ يُوسُفَ: ضَاع مِنَّا صُواعُ الملكِ الَّذي يَكيلُ بِهِ أو يشرب، ولا نجدُهُ! والمنادِي صادقٌ بقوله: ﴿نَفۡقِدُ صُوَاعَ ٱلۡمَلِكِ﴾؛ لأنَّه في الحقيقة لم يَجِدْه، فصار فاقدًا له[5]، ثمَّ قال: قد جَعَلْنا لِمَنْ جاءَ بصاعِ المَلِكِ قَبْلَ التَّفْتِيشِ مكافأةً مُجْزِيَةً، وهي حِمْلُ جَمَلٍ - على رأيي - مِنَ الطعام والحِنطة[6]، وأَنا ضامِنٌ له ذَلِك. ويُسْتَفادُ مِنْ هذهِ الآيةِ أَنَّهُ يجوزُ لصاحبِ الضَّالَّةِ أو الحاجَةِ الضَّائعةِ رَصْدُ مُكافأةٍ مَعَ تَعْيينِ قَدْرِها وصِفَتِها لِمَنْ عاوَنَهُ على رَدِّها[7]. وكانت التُّهْمَةُ صريحةً ابتداءً، ثمّ هَدَأت للبحثِ عنِ المفقودِ، فتحايَلَ المُؤَذِّنُ المُتكلِّمُ باسمِ المِصْريينَ لِيَجِدَ المفقودَ، وتخلَّى عنِ

(1) ابن سيده، المحكم: (وسق).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (بعر).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (زعم).
(4) الخليل، العين: (زعم)، وابن دريد، جمهرة اللّغة: (زعم).
(5) القاسميّ، محاسن التّأويل: 6/250.
(6) الزّجاج، معاني القرآن وإعرابه: 3/120.
(7) ابن جرير، جامع البيان: 16/172، وجماعة من العلماء، المختصر في تفسير القرآن الكريم، ص: 244.

الاتِّهام الذي ابْتَدَأَهُ وعَرَضَ المكافأةَ، وتَكَفَّل بها، ولكنَّ الاتِّهامَ الأَوَّلُ بالسَّرِقَةِ ما زال قائمًا[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

توجيه الفصل بـ: ﴿قَالُواْ﴾:

حكاية الحوار بفعل القول الموجود؛ لبيان الجواب عنِ الصُّواع المفقود

الجملة في قوله جلّ شأنه: ﴿قَالُواْ نَفۡقِدُ صُوَاعَ ٱلۡمَلِكِ﴾ استئنافيّة[2]، استئنافًا بيانيًّا، كما جرتِ العادة في نقل المحاورة بينَ المتخاطبين، إذ إنّ ربط الكلام حاصل بالحوار، فلمّا كان ذلك كذلك اختير الفصلُ، فالجملة سيقت جوابًا لسؤالهم عنِ المفقود في ختام الآية السّابقة.

عود الضّمير في الفعل ﴿قَالُواْ﴾:

المجيب بهذا القول هم الفتيان القائمون على أمر الميرة

ضمير الفاعل في الفعل ﴿قَالُواْ﴾ في قوله جلّ شأنه: ﴿قَالُواْ نَفۡقِدُ صُوَاعَ ٱلۡمَلِكِ﴾، عائدٌ على المتكلّم باسم جماعة الملك، الّذين يبحثون عنِ الضّائع، وهو وإن كان مجموعًا، فإنّه واحد يتكلّم بلسان حالهم[3].

دلالة فنّ السّؤال، وبلاغة الجواب:

أسلوب المقاولة، سبيلُ الحِجَاجِ والاستقصاء

حكى البيان القرآنيّ كلامَ فتيةِ يوسفَ وإخوتِه بأسلوب المقاولة: ﴿قَالُواْ﴾، و﴿قَالُواْ﴾، وهو مِنَ المحسِّنات البديعيّة[4]، التي تجنح بالخطاب نحو تحقيق التّأثير المطلوب، واسترعاء الأسماع، والإقناع، بنفي الكلام أو تأكيده، بحوار متّسم بالحِجاج، والاستقصاء، والاستكشاف.

دلالة التّعبير بالفعل المضارع:

فقدان الصُّواع مستمرٌّ متّصلٌ بزمان الخطاب

حكى النّظمُ الجليل تعبيرَهم بالفعل المضارع عنِ الفقد في قوله جلّ شأنه: ﴿قَالُواْ نَفۡقِدُ صُوَاعَ ٱلۡمَلِكِ﴾؛ وذلك لحكاية الحال الماضية؛ إذ إنّ فُقْدان صُواعِ الملكِ ممّا يُستغرب؛ إذ إنّ الحرّاس والحَفَظَة

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3844.
(2) محمود صافي، الجدول في إعراب القرآن: 7/33.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3844.
(4) عفيف، الشامل في بلاغة القرآن: 2/90.

ممّا لا يمكن سرقتُهم لكثرتهم[1]، كما أنّ فيه دلالةً على أنّ الفقد متّصل بزمان التّكلّم؛ لتجدّده وعدمِ انقطاعه.

سرّ تناوب التّعبير، بين السّقاية والصّواع:

تعدّدت الوظائف، فكثُرت الأسماء

عبّر النّظم الكريم بلفظ الصُّواع في قوله جلّ شأنه: ﴿قَالُواْ نَفۡقِدُ صُوَاعَ ٱلۡمَلِكِ﴾، وكان قد ذُكِرَ بلفظ السّقاية في قوله: ﴿جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِي رَحۡلِ أَخِيهِ﴾، فاستَعْمَل لفظين للدّلالة على مسمًّى واحدٍ، وهذا يُظهِر أهميّة المذكور؛ لاستعماله استعمالًا مزدوجًا للشّرب والكيل، فسمّاه أوّلًا بإحدى وظيفتيه، وآخرًا بالوظيفة الثّانية[2]؛ وذلك "لأنّها استخدمت سقايةً، واستخدمت للكيل، ولا مانعَ للمقتصد مِن أن يستخدم أمرًا واحدًا في حاجتين مختلفتين، خصوصًا إذا كانت غاليةً في ذاتها، فقد قيل إنّها كانت مِنَ الفضة، أو نحوِ ذلك"[3]، وهذا التّنويع في التّعبير عنِ المسمّى بكِلَا وظيفتيه هو نوعٌ مِنَ التّفنّن في الكلام على طريقة العرب في التّعبير[4].

وجه تعريف لفظ ﴿ٱلۡمَلِكِ﴾:

الملك معهود ذِكْره، وصورتُه حاضرةٌ في الأذهان

عرّف النّظمُ الكريم لفظَ الملكِ بالألف واللّام في قوله جلّ شأنه: ﴿قَالُواْ نَفۡقِدُ صُوَاعَ ٱلۡمَلِكِ﴾؛ للدّلالة على المعهود الذّهنيّ، فالملك المراد به مَلِكٌ مِصْرَ في ذاك العهد بعينه، لا جِنسُ الملوكِ ولا مقامه، بل ذاته، فجاء الألف واللّام للتّعريف بهذا الملك المعهود الّذي يستجلب الذّهنُ صورتَه حالَ ذِكْره؛ لشُهرته وثباته في أذهان النّاس.

توجيه إضافة الصُّواعِ إلى الملك:

تعظيم المضافِ بما أُضيف إليه

أضاف النّظم الكريم لفظ الصُّواع إلى المَلِك، في قوله جلّ شأنه: ﴿قَالُواْ نَفۡقِدُ صُوَاعَ ٱلۡمَلِكِ﴾ تشريفًا له، وتهويلًا لشأن

(1) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 10/385.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/303.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3844.
(4) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 10/386.

سرقته لو سُرِق، وقد سَوّغ إضافتَه إلى الملك أنّ شؤون الدّولة كلَّها للمَلِك[1].

دلالة العطف بالواو:

الجملة في قوله جلّ شأنه: ﴿وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمۡلُ بَعِيرٖ﴾، معطوفة بالواو على الجملة: ﴿نَفۡقِدُ صُوَاعَ ٱلۡمَلِكِ﴾، فهي معطوفة على مَقول القول[2]، فكِلَا الجملتين مِنَ القائل نفسِه، فبعدَ بيان ماذا يفقدون، أعلن المكافأة حثًّا وحفظًا لهم مِنَ التّفتيش، بعد أن أحسنوا الجوابَ في الرّدّ.

عطف الجملتين المساقتين في مقول واحد

دلالة اللّام في ﴿وَلِمَن﴾، والغرض مِن التَّقديم:

دلّتِ اللّامُ الجارّة في قوله جلّ شأنه: ﴿وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ﴾ على التّخصيص والتّمليك، لبيان أنّ حِمْل البعيرِ الموضوع مكافأةً مخصّصٌ لمَن جاء بالشّرط. وتقديمُ شِبه الجملة أفاد تأكيد التّخصيص.

تخصيص المكافأة وتأكيدُها، مَلْمَحٌ في البيان مفيد

إيثار استعمال الموصول (مَنْ):

في قوله جلّ شأنه: ﴿وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمۡلُ بَعِيرٖ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٞ﴾، شَمِل الخطابُ عمومَ المخاطَبين؛ لبيان صلاحِ المكافأة لكلّ مَن جاء بالصُّواع، بِدَارًا مِن نفسه قبلَ التّفتيش، سواء كان منهم أو مِن غيرهم، فهو أشبه بالعدول عن وصفهم إيَّاهم بالسّرقة قبل التّحقّق.

صلاح الخطاب لعموم السّامعين، غايةٌ للإفصاح المبين

سرّ التّعبير بـ ﴿جَآءَ بِهِۦ﴾:

حكى النّظم إيثارَهم التّعبير بـ ﴿جَآءَ بِهِۦ﴾، في قوله جلّ شأنه: ﴿وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمۡلُ بَعِيرٖ﴾ ردًّا منهم على جميل قولهم، فقالوا "تربيةً لما تلقّوه مِن قِبَلهم، وإراءَة لاعتقاد أنّه إنّما بقي في رحلهم اتّفاقًا ﴿وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ﴾ مِن عند نفسه، مُظهرًا له قبل التّفتيش"[3]، فالتّعبير بالمجيء به أشبهُ بالاعتذار عنِ التّعجُّل بالاتّهام، كما أنّ

تسليم المفقود قبلَ التّفتيش دليلُ السّهو وانتفاءِ العَمْد

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/28.
(2) محمود صافي، الجدول في إعراب القرآن: 7/34.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/295.

التّعبير بذلك يشمل مَن أظهرَه، وكان قد أخذه، ومَن عَلِم بمكانه ودَلّ على سارقه[1].

توجيه شبه الجملة ﴿بِهِۦ﴾:

تقييد المجيء بالصّواع، بالمجيء به ذاتًا، أو الإخبارِ عنه مكانًا

دلّ شبهُ الجملة مِنَ الجارّ والمجرور، في قوله جلّ شأنه: ﴿وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ﴾ على المجيء بالسّقاية المفقودة، سواء كان بالدّلالة على السّارق وفَضْحِه[2]، أو كان عنده فأظهره وردّه إليهم بلا تفتيشٍ ولا عناء[3]، وأفاد شبه الجملة أنّ المجيء ليس هو المقصود، بل المقصود هو أن يجيء بالصُّواع بأيّ وجهٍ كان.

نكتة تخصيص المكافأة بـ ﴿حِمْلُ بَعِيرٍ﴾:

تقدير المكافأة بأوسع ما تُحْمَل عليه مبالغةً في المجازاة

حكى النّظم الكريم تخصيصهم المكافأة بأنّها ﴿حِمْلُ بَعِيرٍ﴾، في قوله جلّ شأنه: ﴿وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ﴾؛ بيانًا لمقدار المكافأة، فهو "قَدْرٌ مِنَ المتاع مُهَيّأ لأن يُحمَل على الظّهر"[4]، فالمتكلّم باسم الملك عيّن المكافأةَ، وهي مقدارُ كيل بعير يُكال له[5]، وهو مقدارٌ من الطّعام جُعِلَ له، "لا على نيّة تحقيق الوعد؛ لجزمهم بامتناع وجود الشّرط، وعزمهم على ما لا يَخفَى مِن أَخْذ مَنْ وُجد في رَحله"[6]، كما أنّ تقدير المكافأة بذلك لأنّه كان أكبرَ ما يُحْمَل فيه، فكان ذلك التّعبير دليلًا على سعة المكافأة وكونِها مجزية، ثمّ إنّ الطّعام في وقت المسغبة والقَحْط مِن أثمن الهدايا؛ فناسبَ الجزاءُ حالَ الفاقَةِ التي يعيشها النَّاسُ.

بلاغة الالتفات من صيغة الجمع إلى الإفراد:

القائل واحد في كلّ الحالات، والتّغيير بتغيير المتعلّق

أفرد النّظم الكريم ضمير المتكلّم، في قوله جلّ شأنه: ﴿وَأَنَا۠ بِهِۦ

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/304، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 10/170.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/304.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/170.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/170.
(5) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3844.
(6) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/295.

﴿زَعِيمٌ﴾، بعد أن جاء جمعًا في قوله: ﴿نَفۡقِدُ صُوَاعَ ٱلۡمَلِكِ﴾، للدّلالة على أنّ القائل واحدٌ، وإنّما نُسب القول إلى الكلّ لرضاهم بحديث القائل[1]، و"لكونه واحدًا منهم، ثمّ رجع الكلام إلى نسبة القول إلى المنادي وَحْدَه؛ لأنّه القائل بالحقيقة"[2]. ويُزاد على ذلك أنّ الفقد قد علموا به جميعًا، وهو ليس شأنًا خاصًّا بأحدهم أو بالمنادِي، فالتّعبير بالجمع ﴿نَفۡقِدُ﴾ لذلك، ولكنّ المتكلّم واحد، وأمّا كفالة حمل البعير فهو تعهّدٌ مِنَ المتكلّم، ومبادرةٌ شخصيّة منه، وهو المتكلّمُ ذاتُه، فعَبّر بالمفرد دون الجمع.

سرّ تكرار شبه الجملة ﴿بِهِۦ﴾:

تكرار اللّفظ يفضي للمقابلة بينَ الصّوَاع ومكافأة إرجاعِه

كرّر النّظم الكريم شبه الجملة ﴿بِهِۦ﴾، في قوله جلّ شأنه: ﴿وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمۡلُ بَعِيرٍ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ﴾، والأُوْلَى معنيٌّ بها الصُّواع، وأمّا الثّانية فيُراد بها الحِمْلُ الذي وُضِعَ وَعْدًا لمَن جاء بالصُّواع، أي: "وأنا بحِمْل البعير كفيلٌ، أُؤدّيه إلى مَن جاء به، وأراد وَسَق بعيرٍ مِن طعام جُعْلًا لمَن حصّله"[3]، وأفاد تكرار شبه الجملة إظهارَ المقابلة بينَ إرجاع الصُّواع، وبينَ حِمْلِ البعير الموضوع مكافأةً.

علّة تقديم شبه الجملة على الخبر:

تخصيص الكفالة بالمذكور، وتقييدها مِنَ العموم، مِن مفيد المعنى المُدرج

قُدِّم شبهُ الجملة على المسنَد في قوله جلّ شأنه: ﴿وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ﴾ والأصل: (وأنا زعيمٌ به) وذلك تخصيصًا للكفالة، أي: أنّه بهذا المذكور كفيلٌ على وجه الخصوص، لا كفالةً عامّة. كما أنّ فيه اهتمامًا بالحِمْل الموضوع للمكافأة فهو الأصل، ومَدارُ الحديث.

سرّ إيثار التّعبير بـ: ﴿زَعِيمٌ﴾:

آثر النّظم الكريم التّعبير بالزّعيم دون غيره في قوله جلّ شأنه:

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/170.
(2) القنّوجيّ، فتح البيان: 6/374.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/490.

﴿وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمۡلُ بَعِيرٍ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ﴾ لأنّه يقال: "للضّمان بالقول والرّئاسة: زَعَامَةٌ، فقيل للمُتَكَفّل والرّئيس: زَعِيمٌ"[1]، فهي كفالة متحقّقة بالقول، وهذا أنسب للسّياق، إذ إنّه لمّا وعدهم بحِمْل البعير حالَ المجيء به، كان ذلك عن قول، فأتْبعَه بكفالة بالقول، وهي الزّعامة، فقال ﴿زَعِيمٌ﴾، "وذلك أنّه لمّا كان الطّعام لا يوجد إلّا عند الملك، فُهِمَ مِنَ المؤذّن أنّه إنّما جعلَ عن غيره، فَلِخَوفِه ألّا يُوثَق بهذه الجَعَالة - إذ هي عنِ الغير - تَحَمَّل هو بذلك...، والزّعيم: الضّامن في كلام العرب، ويُسَمّى الرّئيسُ زعيمًا؛ لأنّه يتضمّن حوائج النّاس"[2]، كما أنّ إيثار ﴿زَعِيمٌ﴾ لما فيها مِن سعةٍ في الدّلالة؛ فهي بمعنى: كفيل وحميل، وضامِن، فتخلّى المؤذّنُ عنِ الاتهام الذي ابتدأه، فَعَرض المكافأةَ، وتَكَفَّل بها[3].

الزّعيم فيه مِن معنى الضّمانة والكفالة والتّحمّل ما يجعله أعمَّ وأشملَ

نُكْتَة التّعبير بصيغة فعيل:

عبرّ النّظم الكريم بلفظ ﴿زَعِيمٌ﴾ على وزن (فعيل) في قوله جلّ شأنه: ﴿وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ﴾، وهي صيغة مبالغة، والمراد من ذلك: المبالغة في صفة الضّمان؛ تأكيدًا للكفالة، وتطمينًا للسّامع بتحقّقها على وجه القطع، ففيه حثّ لهم على المبادرة بإظهار المسروق.

صفة الضّمان والتّحمّل بالموعود ثابتةٌ راسخةٌ، مؤكّدةُ الإنجاز

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الزّعيم والكفيل والضّامن:

"الكفَالَة تكون بِالنَّفسِ، وَالضَّمان يكون بِالْمَالِ، أَلَا ترى أَنَّك تَقول: كَفِلْتُ زيدًا، وتريد إذا التزمْتَ تَسْليمه. وضَمِنْتُ الأَرْضَ: إذا التزمتُ أَدَاءَ الْأجر عَنْهَا، وَلَا يُقَال كَفِلْتُ الأَرْض؛ لِأَن عينهَا لَا تغيب فَيحْتَاجُ إحضارُها، فَالضَّمَان: الْتِزَام شَيْء عَنِ الْمَضْمُون، وَالْكَفَالَة: الْتِزَام

الزّعيم مقتدر على الأداء، والضّامن للمال، والكفيل للنّفس

(1) الرّاغب، المفردات: (زعم).
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/264.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3844.

نفسِ الْمَكْفُول بِهِ"[1]. وأمّا الزّعيم: فمِنَ الزّعامة، وهي "تُفِيد الْقُوَّة على الشَّيْء، وَمِنْه قَوْله تعالى: ﴿وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ﴾، أَي: أَنا قَادر على أَدَاء ذَلِك، يَعْنِي: أَن يُوسُف زعيم بِهِ؛ لِأَن الْمُنَادِي بِهَذَا الْكَلَام كان يُؤَدِّي عن يُوسُف عليه السلام، وإِنَّمَا قال: أَنا قَادر على أَدَاء ذَلِك؛ لأَنَّهم كانوا فِي زمن قَحْطٍ لا يُقْدَر فِيهِ على الطَّعَام، ومِن ثَمَّ قيل للرّياسة: الزّعامة، وزعيمُ الْقَوْم: رئيسُهم، لأنّه أقواهم وأقدرُهم على مَا يُريدهُ"[2].

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 207.

(2) العسكريّ، الفروق، ص: 207 - 208.

﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدۡ عَلِمۡتُم مَّا جِئۡنَا لِنُفۡسِدَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ ٧٣﴾ [يوسف: 73]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

بعدَ البهتان والمسارعة بالاتّهام، يحسُن الرّدّ لبيان البراءة، وتبرئةِ السّاحة

لمّا تقدّم اتّهامُهم بالسّرقة، وإقبالُ إخوة يوسفَ عليه السلام على المنادي يسألونه عمّا يفقدون، فلمّا علموا شأن السّرقة وأنّها صادرة عنِ اتّهام بالشّبهة، وأنّ التُّهمة ما زالت موجّهةً إليهم، أعقبَ ذلك بحكاية رَدِّ إخوةِ يوسفَ عليه السلام على فتيانه[1]، فمناسبةُ الآية أنّها جاءت للرّدّ على البهتان بالاتّهام بالسّرقة دونَ تثبّت[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿لِنُفۡسِدَ﴾: الفَسادُ: ضِدُّ الصَّلاحِ[3]، والمعنى المحوريّ للفسادِ: ذهابُ نَفْعِ الشَّيْءِ المقصودِ منه، فالفَسادُ: خروجُ الشَّيْءِ عن حالِ استقامتهِ وكونِه مُنْتفعًا به. وجاء هنا بمعنى السَّرِقَةُ[4]، بجامعِ إتلافِ المالِ على صاحبِه، ومناقضةِ الصَّلاحِ في التّعاملِ مع مصالحِ النّاسِ.

المَعْنى الإجْماليُّ:

الاتّهامُ بالسَّرقةِ مفسدةٌ تأنف النُّفوسُ السّويّة مِنَ الاتّصاف بها، أوِ التلوّثِ بأدرانها

لمَّا كان الاتِّهامُ بالسَّرقةِ لا يزالُ قائمًا، قال إخوةُ يوسفَ: واللّه لَقَدْ عَلِمْتُم نَزاهتَنا وبراءتَنا، كما رأيتموهُ مِن أحوالِنا، وأنَّا ما جِئنا أَرْضَ مِصْرَ لِنُفْسِدَ فِيها، وما كُنَّا في حياتِنا سارقينَ[5]. وإنَّما قالوا ذلك لأنَّهم كانوا لا يَنْزِلُونَ على قومٍ ظلمًا، ولا يَرْعُون زَرْعَ أحَدٍ، بل جعلوا على أَفواهِ إبلِهم الأَكِفَّةَ لِئَلَّا تَعْبَثَ في زَرْعٍ، ولأنَّهم كانوا - فيما

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3844.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/170.
(3) ابن دريد، جمهرة اللّغة: (فسد).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (فسد).
(5) ابن جرير، جامع البيان: 16/181، وجماعة من العلماء، المختصر في تفسير القرآن الكريم، ص: 244.

رُوِيَ – قَدْ رَدُّوا البِضاعةَ التي وجدُوها في رِحالِهم، فمَن رَدَّ مَا وَجَده كيفَ يكونُ سارقًا[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

وجه فصل الجملة بفعل القول، وتكرارِه:

فَصْلُ جُمَلِ الحوارِ بالقول، يربط بينَ أطراف الحوار

الجملة في قوله جلّ شأنه: ﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ مستأنفةٌ استئنافًا بيانيًّا، فهي لبيان جوابِ إخوة يوسفَ عن نسبة الاتّهام إليهم، فكأنّه أُثير سؤالٌ، فقيل: فما قال إخوة يوسف؟ قيل: ﴿قَالُواْ﴾[2]. وتكرار فعل القول تقتضيه حكايةُ الحوارِ، لبيان جملةِ القائل وما رَدّ عليه محاورُه، فلو نُقِلَت المحاورةُ بلا فِعْل القولِ لاختلطَ الكلامُ وتداخلَ، ولم يُفْصِح عنِ المراد، فكان تكرارُ لفظِ القول لبيانِ فَصْلِ الجُمَل، كما أنّه يقوم مقامَ الرَّبط بينَ الجُمَل؛ إذ إنّها في حوار واحد، فيظهر ارتباطُها بكونها ردًّا عنِ الكلام السّابق، فلذا لا يَحُوج إلى العطف.

وجه القسم بالتّاء وأثرُه:

المعاني العجيبة والعظيمة، ممّا يُقسَم عليها بالتّاء

آثر النّظمُ الكريم القسمَ بحرف التّاء في قوله جلّ شأنه: ﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ دون الواو والباء؛ وهي أغرب أدوات القسم[3]، فناسب إيثارُها دون غيرها هذا الاتهامَ الغريبَ الذي صدمَهم وفاجأَهم. وأيضًا: فإنَّ نسبة السّرقة إليهم مثارٌ للتّعجّب، فإنّ التّاء تأتي في سياق القسم العظيم، والمتعجّب منه[4]، وهي لذلك مختصّة بالدّخول على لفظ الجلالة[5]، فأقسموا قسمًا مقرونًا بالتّاء، لأنّها مقترنة بالتّعجّب غالبًا، فهي

(1) الزّجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 3/121.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/170، وصافي، الجدول في إعراب القرآن: 7/34.
(3) الزركشيّ، البرهان في علوم القرآن: 3/378.
(4) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/490.
(5) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/295.

لمّا كانت نادرةً في أدوات القسم، جُعِلَت للنّادر مِنَ المعاني، والنُّدرة مَظِنّة التّعجّب[1].

بلاغة التّوكيد بـ ﴿تَٱللَّهِ لَقَدۡ﴾:

مِن مقتضى البلاغة أن يُرَدَّ الاتّهامُ المؤكَّد بكلام آكَد منه

بدأ النّظمُ الجليل الجملةَ بـ (القَسَم، ولام التّأكيد، وقد) في قوله جلّ شأنه: ﴿تَٱللَّهِ لَقَدۡ عَلِمۡتُم﴾؛ لتأكيد براءتِهم تأكيدًا لا يقبل الدَّحْضَ؛ إذ إنّهم عَرَفوا أمانتَهم وصِدْقَهم في مجيئهم الأوّل، فكان عِلْمُهم بحُسْن سيرتهم وأمانتِهم "علمًا جازمًا مُطابقًا للواقع"[2]، فجاء خطابُهم في غاية التّأكيد؛ لأنّ الخِطاب الذي وُجِّهَ إليهم بدءًا جاء بصورة الاتّهام المؤكَّد: ﴿إِنَّكُمۡ لَسَٰرِقُونَ﴾، فكان لا بُدّ أن يكون الرّدُّ على المؤكَّد بكلام مُؤكَّد مثله، فلا يُرَدُّ اليقينُ القائمُ على سُوء الظّنّ إلّا بيقين قائمٍ على الدّليل الذي لا يُنكَر.

دلالةُ جملةِ جوابِ القَسَم:

الواقع المعلوم ببراءتهم ثابت، بحيث يُقْسَم عليه

الجملة في قوله جلّ شأنه: ﴿لَقَدۡ عَلِمۡتُم مَّا جِئۡنَا لِنُفۡسِدَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ جوابُ القَسَم[3]، والفائدة مِن ذلك: تقريرُ إثبات البراءة مِن تُهْمَة السّرقة، بالإحالة على المعلوم مِن سلوكهم المعهود، فتضمّنت جملةُ الجواب الدّلالةَ القاطعةَ على انتفاء الفساد عنهم، استشهادًا بالواقع الذي لا يُنكَر.

توجيهُ جَعْلِ المقسَم عليه عِلْمُ يوسفَ عليه السلام وأصحابِه:

الاستدلال بعِلْم الخَصْم بالحال، أبلغ في الإلزام بمقصود الخطاب

حكى النّظم الكريم عنهم أنّهم جعلوا جوابَ قَسَمِهم عِلْمَ يوسفَ عليه السلام وفتيانِه بحالهم وشأنِهم، وذلك في قوله: ﴿تَٱللَّهِ لَقَدۡ عَلِمۡتُم مَّا جِئۡنَا لِنُفۡسِدَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾، ولم يجعلوا المقسَم عليه كونَهم أبرياءَ مِنَ التّهمة؛ "لأنّ العِلْم بأحوالهم الشّاهدة، يستلزم العِلْمَ بأحوالهم

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/170.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/295.
(3) محمود صافي، الجدول في إعراب القرآن: 7/34.

الغائبةِ، وإنّما لم يكتفوا بنفي الأمرين المذكورين، بلِ استشهدوا بعلمهم بذلك؛ إلزامًا للحُجّة عليهم، وتحقيقًا للتّعجّب المفهوم مِن تاء القَسَم"[1]، فعدلوا عن بيان براءتهم بطريق المباشرة إلى جعْلِ الخَصْمِ وعِلْمِه يشهدان على صِحّة قولهم، وبيانِ نزاهتِهم، وطهارتِهم مِنَ التّلوثِ بمثل هذه النّواقصِ؛ "لأنّهم قد شاهدوا منهم في قدومهم عليه المرّة الأولى، وهذه المرّة مِنَ التّعفّف والزُّهْد عمّا هو دونَ السّرقة بمراحل، ما يُسْتَفاد منه العِلْمُ الجازمُ بأنّهم ليسوا ممّن يتجارى على هذا النّوع العظيم مِن أنواع الفساد"[2]، فجعلوا عِلْمَ الخصمِ بحالهم، دليلًا على براءتهم، وهو الاستدلالُ بما يعلم الخصمُ، وفائدتُه: دَفْعُ الخصمِ إلى التّسليم.

نُكْتَة التّعبير عن علمهم بالفعل الماضي المجموع:

العلم بحالهم ونزاهتهم مُؤكَّد مُحقَّق

عبّر النّظم الكريم بالفعل الماضي لبيان علمهم، في قوله جلّ شأنه: ﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم﴾؛ تحقيقًا لكونهم عالِمين بذلك، وبيانَ أنّ علمَهم قد حصل وتأكّد حدوثُه في الزّمان الماضي، بحيثُ إنّه يُستَدَلُّ به ويُبنى عليه، بأن يُجعَل مقدّمةً لبيان براءتهم. وإسنادُ فِعْل العِلْم إلى واو الجماعة يَدلّ على أنَّ هذا المعلومَ شائعٌ بينَهم، وظاهرٌ لجميعهم، وليس مُختصًّا بأحد دون آخَر منهم، وهو أقوى في الاستدلال بظهور نزاهتِهم، وطهارةِ ذَيْلِهم مِن مسلك الفساد والسّرقة.

دلالة النّفي بـ ﴿مَّا﴾:

النّفي بـ (ما) آكَد وأدلُّ على نفي الماضي القريب مِنَ الحال

أُوثِرَ النّفيُ بـ ﴿مَّا﴾ في قوله تعالى: ﴿مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾؛ لأنّ الماضي المنفي بـ (ما) يكون في الغالب لنفي الماضي القريب مِنَ الحال، وهي آكَدُ في النّفي، وكثيرًا ما تكون (ما) ردًّا على كلامٍ، أو

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/295.
(2) الشّوكانيّ، فتح القدير: 3/51، والقنّوجي، فتح البيان: 6/374.

ما نُزّل هذه المنزلةَ[1]، والكلام المردود عليه بـ ﴿مَّا﴾ هاهنا، ما تقدّم مِن محاورةٍ.

نُكْتَة التّعبير بفعل المجيء مجموعًا:

المجيء: إتيان على نيّة التَّحَقّق لا على نية القصد، قال الرّاغب: "والإتيانُ قد يقال باعتبار القصد، وإنْ لم يكن منه الحصول، والمجيء يقال اعتبارًا بالحصول"[2]، فهم جاؤوا إلى مصر بكلّيّتهم في الواقع، فمَجِيْئُهم مُتَحَقِّقٌ، ونَفْيُ الفعل المُحَقَّقِ آكَد مِن نفي القَصْد، وأنسبُ لسياق توكيدِ نفي التُّهْمَة.

المجيءُ مُتَحَقَّقٌ مُؤَقَّتٌ، تنتفي معه التّهمة

دلالة اللّام في: ﴿لِنُفْسِدَ﴾:

حكى النّظمُ الكريم عن إخوة يوسفَ عليه السلام، قولَهم: ﴿مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾، بإدخال لام التّعليل على الإفساد، فنَفَوا المجيءَ نفيًا مُقيّدًا بالغاية التي لا يتناسب معها إيقاعُ السّرقة، فالّذي لا يأتي للإفساد ليس واردًا أن تقع منه السّرقةُ، فجعلوا "المجيءَ الذي يترتّب عليه ذلك - ولو بطريق الاتّفاق - مجيئًا لغرض الإفساد مفعولًا لأجله؛ ادّعاءَ إظهارٍ لكمالِ قُبْحِه عندهم، وتربيةً لاستحالةِ صدورِه عنهم"[3]، والغرضُ مِن ذلك تأكيدُ انتفاءِ السّرقة عنهم، وأنّها ليست مِن ضمن مقاصدِهم وأغراضِهم.

انتفاء غاية الإفساد عن مجيئهم، نفيًا مؤكّدًا بسياق كلامهم

إيثار نفي فعلِ الفساد على فعلِ السّرقة:

آثر النّظمُ الكريم التّعبيرَ بالفساد دونَ السّرقة، في قوله جلّ شأنه: ﴿مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾؛ للدّلالة على أنّ السّرقة مِن أعظم أنواع الفساد، ولِيَعُمَّ كلَّ أنواعِ الفساد، ممّا عزّ أو هان، مريدينَ بذلك إظهارَ نزاهتِهم، وقد كانوا على غايةٍ مِنَ الدّيانة

السّرقة أخصّ مِنَ الإفساد، ونفي العامّ أبلغُ في الدّلالة مِن نفي الخاصّ

(1) فاضل السّامرائي، معاني النّحو: 4/193 - 194.
(2) الرّاغب، المفردات: (أتى - جاء).
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/295.

والصّيانة[1]، فنَفَوا المآلَ (الإفساد)، وعدلوا عن سببه (السّرقة)، مبالغةً في دَفْع الشُّبهة عنهم؛ فالإفساد عامٌّ، والسّرقةُ أخصُّ منه، فَنَفَوا العامَّ للدّلالة على انتفاء وجود الفسادِ أصلًا، سواءٌ كان السّرقةَ أو غيرَها.

دلالة التّعبير عن الإفساد بالمضارع:

سلامة مقاصدهم مِنَ الإفساد مستمرّة في الزّمان

آثر النّظمُ الكريم التّعبيرَ بالفعل المضارع في قوله جلّ شأنه: ﴿مَّا جِئۡنَا لِنُفۡسِدَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾؛ للدّلالة على استمرار النّفي وتجدّده، تعبيرًا عن ثباتهم على حُسْن نواياهم، وسلامةِ مقاصدهم، ونظافةِ أيديهم مِن دوافع الإفساد، ومِن ضِمن ذلك السّرقةُ.

دلالة ﴿فِي﴾:

بالغوا في نفي الفساد، في كلّ موضع من بلدهم

﴿فِي﴾ في قوله تعالى: ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ حرف موضوعٌ في الأصل للظّرفيّة، تقول: (زيد في الدّار)، ومعناها في قوله تعالى: ﴿مَّا جِئۡنَا لِنُفۡسِدَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي: في داخل بلدكم مِصْرَ، بكلّ مواضعها، وهذا مَدْعَاةُ المبالغةِ في نفي الفساد.

وجه تعريف: ﴿ٱلۡأَرۡضِ﴾:

إطلاق الأرض على مصر، مبالغة في نفي الفساد عنهم

أدخل النّظم الجليل لامَ التّعريف على لفظ ﴿ٱلۡأَرۡضِ﴾ في قوله جلّ شأنه: ﴿مَّا جِئۡنَا لِنُفۡسِدَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾؛ للدّلالة على أرض معهودةٍ، وهي أرض مصر[2]، وتبيّن ذلك مِن قيد المجيء، فهم جاؤوا إلى مصر في الواقع، وإنّما لم يقولوا: (ما جئنا لنفسد في مصر)؛ لأنّهم أرادوا المبالغة في نفي الفسادِ عنهم، لأنّ جَعْلَ نفي الفسادِ مُتعلّقًا بمصرَ يحتمل أنّ الفساد قد يقع في مكان آخَر، فلمّا أرادوا أن يجعلوا الفسادَ مُنتفٍ على وجه الإطلاق، جعلوه في صورة العموم، بتعليقه بالأرض لا بمصر.

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/295.
(2) القنّوجيّ، فتح البيان: 6/375.

دلالة العطف بالواو في الآية:

نفيُ الإفسادِ ونفيُ السّرقة، مقولان مشتركان بالتّأكيد والقَسَم

الجملة في قوله جلّ شأنه: ﴿وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ﴾، معطوفة على الجملة في قوله تعالى: ﴿مَّا جِئۡنَا لِنُفۡسِدَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾؛ لكون الجملتين مِن مقولهما، فهما مُشتركتان بالتّأكيد والقَسَم، أي: ولقد علمتم أنّنا ما كنّا سارقين[1]، وفي عطف نفيِ السّرقةِ على نفي المجيء للإفساد، تأكيدٌ "لزيادة التّبرّي ممّا قذفوهم به، والتّنزُّهِ عن هذه النّقيصة الخسيسةِ الرّذيلةِ الشّنعاء"[2].

دلالة النّفي بـ ﴿وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ﴾:

انتفاء صفة السّرقة عنهم مِنَ الأصل، مِنَ المعنى المكرّس

آثر النّظم الكريم النّفيَ بإدخال حرفِ النّفي على فعل الكَوْن، في قوله جلّ شأنه: ﴿وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ﴾؛ للدّلالة على تأكيد نفي اتّصافهم بهذا الوصف، أي: ما كنّا "بوجهٍ مِنَ الوجوه سارقين، أي: موصوفين بهذا الوصف قطّ، بما رأيتُم مِن أحوالنا؛ مِن ردّنا بضاعتَنا التي وجدناها في رحالنا، وغيرِ ذلك، ممّا عاينتُم مِن شَرف فِعَالنا، مع عِلْمنا بأنّها خُلُق لنا، لا تصنُّع يَظهر لبعض الأذكياء بأدنى تأمّل"[3].

براعةُ تباينِ الأسلوب في نفي السّرقة، ونفي الإفساد:

نفيُ السّرقةِ بنفي الكونِ، أبلغُ مِن نفي الإفساد

باين النّظم الكريم في نفيه صفتي الإفسادِ والسّرقة، في قوله جلّ شأنه: ﴿مَّا جِئۡنَا لِنُفۡسِدَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ﴾، ففي شأن الإفساد، نفى فعلَ المجيء، وفي السّرقة نفى فعلَ الكون، ونفيُ الصّفة بتسليط النّفي على فعلِ الكَوْنِ أبلغُ في النّفي، فنفَوا "عن أنفسهم الاتّصافَ بالسّرقة بأبلغ ممّا نَفَوا به الإفسادَ عنهم، وذلك بنفي الكونِ سارقين، دونَ أن يقولوا: وما جئنا لنسرقَ؛ لأنّ السّرقة وصفٌ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/171.
(2) القنّوجيّ، فتح البيان: 6/375.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/171.

يُتَعيّر به، وأمّا الإفسادُ الّذي نَفَوه، أي: التّجَسُّسُ، فهو ممّا يقصده العدوّ على عدوّه، فلا يكون عارًا، ولكنّه اعتداءٌ في نظر العَدوّ"[1].

وجه التّعبير بفعل الكَون الماضي:

صفة النّزاهة، وصلاحُ حالِهم، راسخان فيهم

آثر النّظمُ الكريم التّعبيرَ بالفعل الماضي، في قوله جلّ شأنه: ﴿وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ﴾؛ للدّلالة على رسوخ الصّفة فيهم، وهي هنا نزاهتُهم عنِ الأفعال المُشينة، التي منها سرقةُ أموالِ النّاس، فالنّفيُ بتسليط حَرفِ النّفي على فعل الكَون يدلُّ على انتفاء الصّفة مِنَ الأصل، أي "وما كنّا قطُّ نُوصَف بالسّرقة، وهي منافيَةٌ لحالنا"[2]، فإنّ فعلَ السّرقة لا يَصِحُّ منهم، وليس من شأنهم، فالمعنى: ما كان مِن شأننا، ولا مِن خصالنا أن نتّصِفَ بالسّرقة[3].

سرّ الالتفات من المضارع إلى الماضي:

تجدّدُ الصّلاح ورسوخُ الأمانة، يؤكّدان نفيَ التُّهمَة عنهم بيقين

عبّر النّظم الكريم في قوله جلّ شأنه: ﴿لِنُفْسِدَ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ﴾ بفعلين؛ الأوّل منهما: مضارع ﴿لِنُفْسِدَ﴾، والآخر: ماضي ﴿كُنَّا﴾، فالتفت مِنَ المضارع إلى الماضي؛ وذلك لأنّ المراد مِن نفي الإفساد هو تجدّد النّفي؛ إثباتًا لصَلَاح مقاصدِهم على الدّوام، فَجِيء به بالفعل المضارع. أمّا نفيُ اتّصافِهم بالسّرقة فجِيءَ بالفعل (كان) في صورة الماضي، نفيًا لاتّصافهم بصفة السّرقة مِنَ الأصل، فنفيُ السّرقةِ صفةٌ راسخة فيهم، والغرضُ مِنَ التّعبير بالفعلين تأكيدُ نفي ما رُموا به ماضيًا وحالًا.

التّعبير عن نفي سرقتهم بصيغة اسم الفاعل:

نفي الاسمِ يُفْصِح عن ثبوت امتناع الصّفة

آثر النّظمُ الكريم نفيَ الصّفةِ عنهم باسم الفاعل، في قوله جلّ شأنه: ﴿وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ﴾، دونَ نفي الفعل، فلم يقولوا: (وما كنّا لنسرق)، فجعلوا المنفيَّ الاسمَ لا الفعلَ، وذلك لنفي الصّفة لا لنفي

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/29.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/490.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3845.

الفعل؛ لأنّ نفيَ الفعلِ مرّة قد ينتقضُ بإحداثه في مَرّة أُخرى، أمّا نفيُ الصّفة فيدلُّ على أنّ الصّفة منتفية فيهم، فنفيُ الاسمِ يدلّ على ثبوت النّفي، لا نفي الثّبوت، فَخُلوُّهم مِن صفة السّرقة أمرٌ ثابتٌ، راسِخٌ فيهم، أي: ما كنّا متّصفين بهذه الصّفة قطّ.

بلاغة جملة الفاصلة:

تأكيد مضمون الجملة، بتأكيد نفي السّرقة

أورد النّظمُ الكريم الجملةَ في قوله جلّ شأنه: ﴿وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ﴾ في رأس الفاصلة؛ تأكيدًا لنفي السّرقة عنهم، وإثباتِ نزاهتهم؛ وذلك "لزيادة التَّبرّي ممّا قذفوهُم به، والتّنزُّهِ عن هذه النَّقيصة الخسيسة، والرَّذيلةِ الشَّنعاء"[1].

(1) الشّوكاني، فتح القدير: 3/51.

﴿قَالُواْ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمۡ كَٰذِبِينَ ٧٤﴾ [يوسف: 74]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

بعد الاتّهام يُشرَع في التّحقّق بالمعاينة؛ لإقامة الحُجّة البالغة، بعقاب مُستَحقّ

لمّا سبق ذِكْرُ اتّهام فتيانِ يوسفَ عليه السلام لإخوته، وتبعَهُ بيانُ إخوةِ يوسفَ لبراءتهم على وجه التّأكيد، ونفي كونِهم سارقين، أَتْبَع ذلك بقول جماعة يوسف: ﴿فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمۡ كَٰذِبِينَ﴾؟ لإقامة الحُجّة عليهم، ولينطقوا هم بأفواههم بما يَستحِقُّه المذنبُ مِن عقابٍ وجزاءٍ، هو مِنَ المعروف عندهم، وهذا لونٌ مِنَ التّحقيق الجادّ المبني على التّدقيق والتّحرِّي في توجيه الاتهام، ثمّ التّدقيق والتّحرِّي أيضًا في تقرير الجزاء، فانتقلوا بذلك من الاتّهام والدّفاع المُجَرّدَين، إلى التّحرّي لبيان صدقِ أحد الفريقين.

المَعْنى الإجْماليُّ:

تحديد جزاءِ السّارق، إمضاءٌ للخُطّة، وإلزامٌ بالحُجّة

قال المُنادي وأَصحابُه: فما جزاءُ مَنْ سَرَقَ الصُّواعَ عِنْدَكُمْ إنْ كُنْتُم كاذبينَ في دعواكُمُ البراءةَ مِنَ السَّرِقَةِ[1]؟ وكانت شريعةُ بني يعقوبَ أنْ يَسْتَعْبِدُوا السَّارقَ سَنَةً عِنْدَ صاحبِ المَتاع، فعامَلَهم بما هُم عَليه[2]، وذلك موافقٌ لخطَّته التي وضعها لإبقاء أخيه معه.

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

وجه فصل الجملة المصدّرة بفعل القول:

الجمل في المحاورة تُفصل بفعل القول؛ بيانًا لجهة الخطاب

الجملة في قوله جلّ شأنه: ﴿قَالُواْ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمۡ كَٰذِبِينَ﴾ مفصولةٌ لأنّها جاءت للاستئناف البيانيّ؛ فهذا القول جاء جوابًا عن سؤال نشأ عن إنكار إخوة يوسفَ لما رُمُوا به مِنَ الاتّهام، فأقْسَموا

(1) ابن جرير، جامع البيان: 16/182، وجماعة من العلماء، المختصر في تفسير القرآن الكريم، ص: 244.

(2) القاسميّ، محاسن التّأويل: 6/246.

على براءتهم، فكأنّه قيل: فما قال فتيان يوسف؟ فقيل: ﴿قَالُواْ﴾، فالجملة جوابٌ عنِ السّؤال النّاشئ عن ذلك الإنكار[1].

عود ضمير القول في الآية:

صُدّرَ القولُ بالسّؤال عن فتيان يوسفَ، ردًّا على الإنكار

الضّمير في فعل القول في قوله جلّ شأنه: ﴿قَالُواْ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمۡ كَٰذِبِينَ﴾ عائدٌ إلى فتيان يوسف عليه السلام[2]، والجمع فيه للدّلالة على أنّ القول ليس خاصًّا بواحد منهم، بل هو قول صادر عن فرد منهم، يبلّغهم القولَ المتّفقَ عليه بينَهم.

دلالة الفاء على التّفريع:

يترتّب السّؤال المسوق عن الجزاء على إنكار الجناية

حكى النّظم عنهم أنّهم قالوا: ﴿فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمۡ كَٰذِبِينَ﴾، فَصَدّروا مقولَهم بالفاء الدّالّة على التّفريع[3]؛ لأنّ هذا السّؤال مُفَرّع عن إنكار إخوة يوسفَ أن يكون السّارقُ منهم، فترتّب على نُكرانهم ذلك أن يُوجّه إليهم السّؤالُ عن الجزاء، تمهيدًا لإيقاع التّحرّي في رحالهم عنِ السّقاية.

بلاغة الاستفهام ودلالته:

تقرير الخصم بالعقاب يَدفَع النّزاعَ وقتَ ثبوتِه عليهم

الاستفهام في قوله جلّ شأنه: ﴿فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمۡ كَٰذِبِينَ﴾ جاء للتّقرير والاعتراف بنوع العقوبة، التي اقتضى الكيدُ إيقاعَها بالسّارق، حتّى لا يقع نزاعٌ مِن إخوة يوسفَ عليه السلام بعد ثبوتها عليهم واستحقاقِهمُ العقابَ[4]، فسألوهم عنِ الجزاء لمن وُجِدَ الصُّواعُ في متاعه؛ ليكون الجزاءُ به برضاهم، ولا يكون فيه غَمْطٌ لهم، أو تجاوزٌ للحَدّ، أو شططٌ في زعمهم[5].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/171.
(2) الشّوكاني، فتح القدير: 3/51.
(3) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 2/137.
(4) المطعني، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 2/137.
(5) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3845.

عودُ الضّمير في: ﴿جَزَٰٓؤُهُۥٓ﴾:

السّؤال واقع عن جزاء سرقة الصُّواع، أو عن جزاء السّارق

يعود الضّمير المضاف إليه في قوله جلّ شأنه: ﴿فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ﴾ للصُّواع، فيكون على تقدير مضافٍ محذوف، أي: ما جزاء سرقةِ الصُّواع في شريعتكم، ويَصِحّ أن يكون الضّميرُ للسّارق، أي: فما جزاءُ سارقِ الصُّواع؟[1].

دلالة التّعبير بـ ﴿إِن﴾ الشّرطيّة:

عدم اليقين بكذبهم يُلزِم التّعبيرَ بحرف الشّرط الدّالّ على الافتراض

آثر النّظمُ الكريم التّعبيرَ بـ ﴿إِن﴾ الشّرطيّة في قوله جلّ شأنه: ﴿قَالُواْ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمۡ كَٰذِبِينَ﴾؛ لبيان أنّهم غيرُ جازمين بكونهم سارقين، فأظهروا أنّهم لا يعرفون بوجود السّقاية في رحالهم، وأنّ ذلك ليس إلّا احتمالًا، فيكون اتّصافُهم بالكذب مُحتمَلًا لا قطعيًّا، فأُوثِرَ لذلك التّعبيرُ بـ ﴿إِن﴾ الشّرطيّة؛ لما فيها مِن دلالةٍ على عدم اليقين، وعلى غير المتوقّع.

وجه التّعبير بفعل الكون الماضي:

ظهور الكذب بعد الأيمان المغلّظة دليلٌ على رسوخ صفة الكذب

آثر النّظمُ الكريم التّعبيرَ بفعل الكَون بصيغة الماضي، في قوله جلّ شأنه: ﴿إِن كُنتُمۡ كَٰذِبِينَ﴾؛ إيماءً إلى أنّ ظهورَ السّقاية في رحالهم يقتضي كونَهم عريقين بصفة الكذب، لمّا ساقوا دفاعَهم عن أنفسهم بكلام مؤكَّد غايةَ التّأكيد، وأقسموا قسمًا عظيمًا على نزاهتهم، فإذا بانَ انتقاضُ ذلك بأن يظهر الصُّواعُ في رحالهم، فإنّ ذلك يقتضي كونَهم في غاية الكذب، وأنّهم متّصفون به على وجه الرّسوخ، وأنّ صفة الكذب متأصّلةٌ فيهم.

سرُّ إيثارِ لفظِ (الكذب):

مَن ثبت كذبُه هان قدرُه، وتهاوَت قيمتُه

آثر النّظمُ الكريم التّعبيرَ بلفظ الكذب، في قوله جلّ شأنه: ﴿إِن كُنتُمۡ كَٰذِبِينَ﴾، دون جاحدين أو غيره؛ لكونهم لو ظهر خلافُ ما

(1) الشّوكانيّ، فتح القدير: 3/51، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/30.

قالوا فإنّهم سيكونون قد أخبروا بخلاف الحقيقة، وهذا هو الكذب، أي: "كاذِبِينَ في جحودكم وادّعائكمُ البراءةَ منه"[1].

سرّ التّعبير عن كذبهم باسم الفاعل المجموع:

يُفْصِحُ الاسمُ عن رسوخ صفة الكذب، والجمعُ عنِ التّواطئ عليها

عبّر النّظم الكريم في قوله جلّ شأنه: ﴿إِن كُنتُمْ كَٰذِبِينَ﴾ عن كذبهم باسم الفاعل المجموع؛ للدّلالة على رسوخ هذه الصّفة وثُبوتها بهم جميعًا؛ لكونهم قد أجمعوا جميعًا على نفي كونِ الصُّواع في رحالهم، أو يُرادُ به الجِنس، والمعنى: إنّكم كائنون مِن جنس الكاذبين.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الجزاء والعقاب:

الجزاء إيقاع الفعل المماثل بالجاني، والعقاب إلحاق العذابِ عَقِبَ الفعل

العقَاب يُنبئ عن اسْتِحْقَاق، وسُمّي بذلك؛ لِأَنَّ الفَاعِل يسْتَحقّهُ عقيبَ فعلِه. وأصلُ العقَاب التُّلُوُّ؛ وهو تأديةُ الأوّلِ إلى الثَّاني، يُقَال: عَقِبَ الثَّاني الأوّلَ: تلاه، وعَقِبَ اللَّيْلُ النَّهَارَ[2]. وأمّا الجَزَاء: فهو ما فيه الكفاية مِنَ المقابلة، إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فَشَرٌّ[3]. ففيه معنى المقابلة على الخير بالثّواب، وعلى الشّرّ بالعقاب، والجزاء يكون مماثلًا مساويًا للمَجْزي عنه. فحكموا في الآية، بأن يكون جزاءُ أخذِه ما ليس له أن يُؤخَذ هو نفسُه، فيكونَ جزاءً بالمقابل، وليس عقابًا.

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/490 - 491.
(2) العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 239.
(3) الرّاغب، المفردات: (جزا).

﴿قَالُواْ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِي رَحۡلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ ٧٥﴾ [يوسف: 75]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

بعد الاتّهام يُشْرَع في التّحقّق بالمعاينة، وإعطاءِ الحُكم المحتمَل مسبقًا

لمّا انتقلوا في الآية السّابقة إلى التّحرّي لبيان صِدق أحدِ الفريقين، قُوبِلوا بذِكْر الجزاءِ الدَّالِّ على جِدّيّة الموقفِ، والثّبات على المحاسبة.

المَعْنى الإجْماليُّ:

جَزاءُ مَن وُجِدَ المَسْرُوقُ في وِعائِهِ الاسترقاقُ، وهو العُرف المتداولُ آنئذٍ

قال لهم إخوةُ يوسفَ: جزاءُ السَّارِقِ عِنْدَنا، أَنَّ مَنْ وُجِدَ المَسْرُوقُ في وِعائِهِ، فالسارق نفسُه هو الجزاءُ، ويَظهَرُ أنَّ ذلك المبدأ كان معروفًا، وهو أنَّ السارق يكون جزاءً للمسروق، بأن يملكَه المسروقُ منه، ويكونَ عبدًا له، ولذا قال ﷺ عنهم: ﴿كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، أي: كهذا الجزاء نجزي الظالمين. وكي يتمّ ذلك يُسَلَّمُ السّارقُ بِرَقَبَتِه لِلمَسْرُوقِ مِنْهُ يَسْتَرِقُّهُ، ويعلُهُ عَبْدًا عِنْدَهُ، ومِثْلُ هذا الجَزاءِ بالاسترقاقِ نَجْزِي السَّارِقينَ[1].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

عود الضّمير في فعل القول:

ردُّ الجوابِ مِن إخوة يوسفَ على سؤال الفتيان، إقرارٌ بالحُكم على المُدَان

حكى النّظم الكريم ما قالَه إخوةُ يوسفَ في قوله جلّ شأنه: ﴿قَالُواْ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِي رَحۡلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥۚ﴾، فضمير الفاعلِ في الفعل ﴿قَالُواْ﴾ عائدٌ على إخوة يوسفَ عليه السلام، ومقولُهم ذلك صدرَ منهم لثقتِهم ببراءَتِهم، وإخبارًا منهم بالحُكم الذي سُئِلوا عنه[2].

(1) ابن جرير، جامع البيان: 16/182، وجماعة من العلماء، المختصر في تفسير القرآن الكريم، ص: 244.

(2) البقاعيّ، نظم الدرر: 10/171.

بيان خبر المبتدأ ﴿جَزَٰٓؤُهُۥ﴾:

الجزاء واضح بيّن، مَن سرقَ يُسترقّ

في قوله جلّ شأنه: ﴿قَالُواْ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِي رَحۡلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥۚ﴾ ذكر أئمّة التّفسير أنّ ﴿جَزَٰٓؤُهُۥ﴾ مبتدأ، واختلفوا في بيان خبره، فيجوز أنْ يكون الخبر محذوفًا، تقديره: بيّنٌ، أو واضحٌ، أو معروفٌ[1]، أو أن يكون الخبر هو الجملة: ﴿مَن وُجِدَ فِي رَحۡلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥۚ﴾، والمعنى: أنّ الّذي وُجد الصُّواع في رحله، سيكون هو ذاتُه جزاءَ السّرقة، بمعنى: أنّه هو عِوضٌ عن هذه الجريمة[2].

دلالة التّعبير بـ ﴿مَن﴾:

الحكم عامّ يشمل كلَّ مَن تحقّق فيه مضمون الجملة

آثر النّظمُ الكريمُ التّعبيرَ بـ ﴿مَن﴾ التي تحتمِل أن تكون موصولة أو شرطيّة، في قوله جلّ شأنه: ﴿مَن وُجِدَ فِي رَحۡلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥۚ﴾[3]، وهي في كِلَا الاحتمالين دَالّة على العموم، فتدلّ على أنّ الحُكم يشمل عمومَ مَن تحقّق فيهم مضمون الجملة، كما أنّ فيها إيماءً إلى أنّ الفاعل لو وُجِدَ بينهم فإنّهم غير مطّلعين على فِعلته؛ إذ جعلوا الخطاب عامًّا.

دلالة بناء الفعل للمفعول:

وُجْدَان الصُّواعِ، يُوجب الحُكم، لا بكونه مِن مُعيّن

بُنِيَ الفعل ﴿وُجِدَ﴾ للمفعول في قوله جلّ شأنه: ﴿قَالُواْ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِي رَحۡلِهِۦ﴾؛ لأنّ العبرة بالوجدان نفسِه[4]، لا بكون الوجدانِ مِن معيّن، فلا فرقَ بين مَن يجدُ ذلك الصُّواع في رَحْل أحدِهم، فَمُجَرَّد الوجدان يُلْزِم تنفيذَ الحُكم وإيقاعَه.

دلالة (الفاء) في صدر الجملة الاسميّة:

وَصْلُ آخرِ الكلام بأوّله بيانٌ لكونه جوابًا عنِ الشّرط

صَدَّر النّظمُ الكريم الجملةَ الاسميّةَ في قوله جلّ شأنه: ﴿فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥۚ﴾ بالفاء الرّابطة؛ لأنّ الجملة واقعةٌ جوابًا عنِ الشّرط

(1) محمود صافي، الجدول في إعراب القرآن: 7/36.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/30.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/30، وصافي، الجدول في إعراب القرآن: 7/36.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/171.

السّابق[1]، أو جوابًا عنِ اسم الموصول المضمّن الدّلالة على التّعليق، فيكون الرّبطُ بالفاء للدّلالة على أنّ مضمون الجملة الاسميّة متعلّق بالجملة السّابقة.

فائدة التّعبير بالضّمير (هو):

الإخبار بكون الجاني هو الجزاء، ينصُّ على حصر الجزاء به

عبّر النّظم الكريم عنِ الجزاء بالجملة الاسميّة في قوله جلّ شأنه: ﴿فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ﴾، وجاء المسنَد إليه ضميرًا للدّلالة على أنّ الجزاء هو، ليس غيرُه[2]، فالجملة "تقرير للحُكم، أي: فأَخْذُ السّارقِ نفسِه، هو جزاؤه لا غير، كقولك: حقّ زيدٍ أن يُكسى ويُطعم ويُنعم عليه، فذلك حقُّه، أي: فهو حقّه؛ لتُقَرِّرَ ما ذَكَرْتَهُ مِن استحقاقه وتَلْزَمَه"[3]، فجِيء بالمسنَد إليه ضميرًا منفصلًا؛ للنّصّ على أنّ الجزاء لا يكون إلّا السّارقَ نفسَه.

سرّ تكرار لفظ الجزاء، في السّياق المزجي:

تكرار اللّفظ بعينه دون إضماره، تفخيمٌ لشأنه

كرّر النّظمُ الكريم لفظَ الجزاء بِرَدّ العَجُزِ على الصَّدر في قوله جلّ شأنه: ﴿جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ﴾، مقيمًا الظّاهرَ مقامَ المضمر؛ إذِ الأصل أن يقول: (فهو هو)، فعدلَ عن ذلك إلى الإظهار، وتكرارِ لفظِ الجزاء، لئلّا يقع توهّمٌ في الكلام بأنّ (هو) المكرّرة ليست براجعة إلى الجزاء، فكَرَّره بلفظه ليبيّن أنّه هو المراد، كما أنّ فيه تفخيمًا لشأن الجزاء؛ فالعرب إذا أرادت تفخيم أمرٍ ما جعلت العائد إليه إعادةَ اللّفظ بعينه[4].

وجه الإشارة بلفظ ﴿كَذَٰلِكَ﴾:

الإشارة إلى الجزاء الّذي هو مَعْقِدُ التّشبيه

اسم الإشارة في قوله جلّ شأنه: ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ يُشير إلى الجزاء المُتَصَيَّد مِنَ الفعل ﴿نَجْزِى﴾، أي: نجزي الظّالمين جزاءً كذلك الجزاءِ، أو: مثلَ ذلك الجزاءِ الشّديدِ نجزي الظّالمين[5].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتنّوير: 13/30، وصافي، الجدول في إعراب القرآن: 7/36.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/171.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/491.
(4) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 8/395 - 396.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/172.

بلاغة التّشبيه المرسل:

التّشبيه في قوله جلّ شأنه: ﴿كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ تشبيهٌ مرسلٌ مجمَلٌ؛ لذِكْر أداةِ التّشبيهِ وحَذْفِ وَجْهِ الشَّبَه[1]، أي: "مثلَ ذلك الجزاءِ الكاملِ نجزي الظّالمين لغيرهم مِنَ النّاس بسرقة أمتعتِهم"[2]، والغرضُ مِن ذلك تأكيدُ الحُكم السّابق، وإظهارُ قُبْحِ السّرقة، وحُذِفَ وجهُ الشّبهِ مِنَ التّشبيه المرسل تفخيمًا لشأنه، بجعله مُبهمًا ليتحمّلَ كلَّ صفاتِ التّشنيع، مبالغةً في فداحة الجزاء.

جزاء السّارقين مُوافٍ لأغلظ جزاء

نُكْتَةُ التّعبير عن الجزاء بالمضارع:

آثر النّظمُ الكريم التّعبيرَ بالفعل المضارع في قوله جلّ شأنه: ﴿كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾؛ للدّلالة على أنّه جزاء دائمٌ مستمرٌّ، فهو سنّة من سُنَن الشّعوبِ، ماضيةٌ في النّاس، كما أنّ فيه استجلابًا للصّورة، وتصويرًا وتحريكًا للمشهد.

سنّةُ النّاسِ في الجزاء دائمةٌ بالجزاء المذكور

سرّ التّعبير باسم الفاعل المجموع: ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾:

عبّر النّظمُ الكريم باسم الفاعل في صيغة الجمع في قوله جلّ شأنه: ﴿كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾؛ للدّلالة على أنّ هذا الجزاء ثابتٌ لكلّ ظالم، فلا يختصّ بأحدٍ منهم دونَ آخر، وفيه إشعار بأنّ مَن قام بالسّرقة المذكورة قد دخل ضمن الظّالمين، والوصفُ بالاسم يدلُّ على ثُبوت هذا الوصفِ، فالجزاءُ لا يقع بأحدٍ ما إلّا بثبوت هذا الوصف وتحقّقه فيه.

جزاءُ الظّلم لا يقع إلّا بمَن اتّصف بالظّلم على وجه الثّبوت

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الرّحل والمتاع والوعاء:

الرَّحْلُ: ما يُوضَع على البعير للرّكوب، وجمعه رِحَالٌ، وأَرْحَلْتُ البعيرَ: وضعتُ عليه الرّحلَ[3] والمتاعُ: ما يَسْتَمْتِعُ بِهِ الْإِنْسَانُ فِي

الرّحل متاعٌ خاصٌّ بالرّحلة، والوعاء ما يُحفَظ فيه المتاعُ

(1) عفيف، الشّامل في بلاغة القران: 2/91.
(2) الشّوكانيّ، فتح القدير: 3/51.
(3) الرّاغب، المفردات: (رحل).

حَوَائِجِهِ[1] والوِعاءُ: واحد الأوعِيَةِ يقال: أوْعَيْتُ الزَّادَ والمتاعَ، إذا جَعَلْتُه في الوِعاءِ[2] والإِيعَاءُ: حِفْظُ الأمتعةِ في الوِعَاءِ[3] فالمتاعُ لفظٌ عامٌّ فيما يُتَمَتّع به مِنَ الأشياء في الرّحلة والإقامة والوعاءُ: هو الظّرفُ الذي تُوضَع فيه الأمتعةُ، وتُحفظ فيه، والرَّحل: المتاع الموضوع للرّحلة؛ لأنّه يوضع على الرّاحلة، فهو متاع خاصّ، ومن هنا اختير في الآية ليناسبَ اختصاصَه برِحْلَة إخوةِ يوسفَ طلبًا للمَؤُونة.

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (متع).
(2) الجوهريّ، الصّحاح: (وعى).
(3) الرّاغب، المفردات: (وعى).

﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِ ۚ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ۖ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾﴾ [يوسف: 76]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

بعد التّوافق على الحُكم، شرعوا يبحثون عن مُستَحِقّه، فوجدوا أخاه مدينًا به

لـمّا تساءلوا عن حُكم السّارقِ في شريعتهم، واتّفقوا على أنّه يُحكَمُ عليه بأن يُسْتَرقّ في نظير ما سَوّلت له نفسُه مِنَ السّرقة، بيّن النّظمُ أنّهم شرعوا يبحثون في الأمتعة حتّى يتبيّنَ الأمرُ، فأقبلوا على ذلك بتفتيش أوعيتهم[1]، قبل تفتيش وعاء أخيه المقصود، كي لا يَلْفِتَ النَّظرَ، ولا يُثيرَ الرِّيبةَ بأنّ الأمرَ مُدَبَّرٌ.

وقال الإمام الرّازيّ: "اعلم أنّ إخوة يوسف لـمّا أقرّوا بأنّ مَن وُجد المسروقُ في رَحْله فجزاؤُه أن يُسْتَرقّ، قال لهم المؤذِّن: إنّه لا بدّ مِن تفتيش أمتعتِكم، فانصرف بهم إلى يوسف، فبدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه"[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿كِدْنَا﴾: فعلٌ ماضٍ، جَذْرُه: (كيد)، وهو أَصْلٌ صَحِيحٌ يَدُلُّ على مُعالَجَةٍ لِشَيْءٍ بِشِدَّةٍ، فالكَيْدُ: المُعالَجَةُ، وكُلُّ شَيْءٍ تُعالِجُهُ فَأَنْتَ تَكِيدُهُ[3]، والكَيْدُ: مصدرُ كادَهُ كَيْدًا وكِدْتُه، في معنى أَرَدْتُه[4]، والكَيْدُ: التَّدبيرُ بباطلٍ أو حقٍّ[5]، والكَيْدُ: ضَرْبٌ مِنَ الاحتيالِ، وقَدْ

(1) الشّوكانيّ، فتح القدير: 3/51، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3845.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 18/488.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (كيد).
(4) ابن دريد، جمهرة اللّغة: (دكي).
(5) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (كيد).

يكونُ مَذْمُومًا ومَمْدُوحًا، وإنْ كان يُسْتَعْمَلُ في المَذْمُوم أكثرَ، وكذلك الاستدراجُ والمَكْرُ، ويكونُ بعضُ ذلك مَحْمُودًا[1]. ومعناه في الآية: أردنا ودبّرنا.

2) ﴿لِيَأْخُذَ﴾: الأصلُ في (الأَخْذِ) حَوْزُ الشَّيْءِ وجَبْيُهُ وجَمْعُهُ، تَقُولُ: أَخَذْتُ الشَّيْءَ آخُذُهُ أَخْذًا[2]، وهُوَ التَّناوُلُ، وهُوَ خِلافُ العَطاءِ[3]، وآخَذَهُ بَذَنْبِه مؤاخذةً: إذا حاسبَه[4]، وأَخَذَهُ بذنبِه وآخَذَه: عاقبَهُ[5]. ومعنى ﴿لِيَأْخُذَ﴾: ليَضُمَّهُ ويُدْخِلَه في حيازته.

3) ﴿دِينِ﴾: الدِّينُ: جِنْسٌ مِنَ الانْقِيادِ والذُّلِّ، والدِّينُ: الطّاعَةُ، يُقالُ: دانَ لَهُ يَدِينُ دِينًا، إذا أَصْحَبَ وانْقادَ وطاعَ، وقَوْمٌ دِينٌ، أي: مُطِيعُونَ مُنْقادُونَ[6]. ودِيْنُ الملكِ: طاعته[7]، وقضاؤه[8]. وقوله: ﴿فِي دِينِ ٱلْمَلِكِ﴾ أي: في طاعةِ المَلِكِ وقضائِه وسلطانِه[9].

❁ المَعْنى الإجْمالِيُّ:

تدبير الله تعالى لكيد يوسف عليه السلام، علوٌّ له ورفعٌ لدرجاته

حين أُرْجِعَ الإخوةُ إلى يوسفَ عليه السلام لِتَفْتِيشِ أَوْعِيَتِهم، بدأَ بتفتيش أوعيةِ إخوتِه غيرِ الأَشِقَّاءِ قبلَ تفتيشِ وِعاءِ أخيه الشَّقيقِ؛ سَتْرًا للحِيْلَة، ثُمَّ فَتَّشَ وِعاءَ شقيقِه، وأَخرجَ صاعَ المَلِكِ منه، كما كِدْنا لِيُوسُفَ بتدبيرِ وَضْعِ الصَّاعِ في وعاءِ أَخيه، كِدْنا له أَمرًا آخَرَ، أن يَأخذَ إِخْوتَه بعقابِ بلدِهم باسترقاقِ السَّارقِ، وهذا الأمرُ لا يَتَحَقَّقُ لو عَمِلَ بِعَقابِ المَلِكِ للسَّارقِ الَّذي هو الضَّرْبُ والتَّغريمُ، إلَّا أن يشاءَ اللّه تَدبيرًا آخَرَ فَهُو قادرٌ عَليهِ، نَرْفَعُ مَراتِبَ مَنْ نَشاءُ مِنْ عبادِنا،

(1) الرّاغب، المفردات: (كيد).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (أخذ).
(3) الخليل، العين: (أخذ).
(4) الجوهريّ، الصّحاح: (أخذ).
(5) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (أخذ).
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (دين).
(7) ابن دريد، جمهرة اللّغة: (دين).
(8) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (دين).
(9) ابن الجوزيّ، زاد المسير: 2/459.

كَما رَفَعْنا مَرْتَبَةَ يُوسُفَ، وفَوْقَ كُلِّ صاحبِ عِلْمٍ مَنْ هُوَ أَعْلَمُ مِنْهُ، وفَوقَ عِلمِ الجميعِ عِلمُ اللّه الَّذي يَعْلَمُ كُلَّ شَيءٍ[1].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالة الفاء، وأثرها في التّعبير:

صَدَّر النّظمُ الكريم الجملةَ في قوله جلّ شأنُه: ﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ﴾ بالفاء؛ للدّلالة على أنّ ما بعدَها مسبّبٌ عنِ الاتّفاق على حُكم السّارق[2]، فبَعْدَ بيانِ العقوبة تسبَّبَ عن ذلك أنّهم قد شرعوا في التّحرّي عنِ الصُّواع في أوعيتهم.

التّحرّي في الأوعية، مُسَبَّبٌ عن بيان الجزاء

سرّ التّعبير بـ ﴿فَبَدَأَ﴾ ماضيًا:

عبّر النّظم الجليل عن شُروع يوسفَ وفتيانِه بتفتيش أوعيَة إخوتِه بالفعل الماضي ﴿فَبَدَأَ﴾ في قوله جلّ شأنُه: ﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ﴾، والفعل الماضي يدلّ على وقوع الحَدث قبلَ زمنِ التّكلّم، تعبيرًا عن أنّ المعنى قد وُجِدَ وحصل، ففيه تأكيدُ الحصول، ويُبيّن أنّه قد نَجزَ، فالتّعبير عن بَدء التّحرّي والتّفتيش في الأوعية إخبارٌ عمّا آلَتْ إليه أحداثُ القصّة، بعد ما وقع مِنَ الجدال والمدافعة في شأن البراءة والاتّهام.

الإخبار بالفعل الماضي، تأكيدٌ على حصول الحَدَث

دلالة حرف الباء في ﴿بِأَوْعِيَتِهِمْ﴾:

أدخل النّظمُ الجليل الباءَ على متعلّق الفعل ﴿فَبَدَأَ﴾ في قوله جلّ شأنه: ﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ﴾ للتّعديَة، فدلّت على أنّ متعلّق بَدْئِه هو الأوعية، فوقع ابتداؤه في التّحرّي على أوعية إخوته، فعَمِلتِ الباء على إيصال معنى البَدْءِ وإيقاعِه على مفعوله؛ لأنّ (بدأ) فعل لازم يتعدّى بالحرف.

إيقاع فعل الابتداء على مفعوله إنّما يكون بوساطة باء التّعديَةِ

(1) ابن جرير، جامع البيان: 16/184، والبغويّ، معالم التّنزيل: 4/261، وجماعة من العلماء، المختصر في تفسير القرآن الكريم، ص: 244.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/172.

جمع الوعاء وعود الضّمير فيه:

تفتيش أوعيّة الإخوة العشرة، غايتُه التّمويه على الخطّة

أورد النّظم الكريم لفظَ الأوعية بصيغة الجمع في قوله جلّ شأنه: ﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ﴾؛ لأنّ الإخوة كانوا عشرةً، وكان لكلّ واحد منهم وعاءٌ، فصارتِ الأوعية كثيرةً[1]، فالتّعبير عن ذلك بالجمع مطابقةٌ للواقع، كما دلّ على أنّ التّفتيش وقع بها جميعًا على ما يقتضيه التّحرّي.

سرّ التّعبير بالظّرف ﴿قَبْلَ﴾:

سرعة إنجاز التّفتيش، لا تحوج إلى تبعيض الزّمان

آثر النّظمُ الكريم التّعبيرَ بالظّرف ﴿قَبْلَ﴾ دون حرف الجرّ (من) في قوله جلّ شأنه: ﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ﴾؛ إذ لم يكن بين فتح أوعيتهم وفتح وعاء أخيه فاصلٌ زمنيّ، فكان البَدءُ بأوعيتهم مستغرقًا للزّمان الذي وقع قبلَ فتح وعاء أخيه، فلم يُدْخَل حرفُ الجرّ لذلك[2]، فالزّمان مِن بَدء التّحرّي حتّى بلوغِ وعاءِ أخيه ليس فيه فسحةٌ بحيث يمكن أن يتجزّأ الزّمان إلى أبعاض، ففي ذلك تأكيدُ خلوّ تفتيش الأوعية مِنَ المهلة بينَ وعاءٍ ووعاء آخَر.

إيثار لفظ الوعاء على الرّحل:

الوعاء يقتضي حفظَ ما فيه، وحَرْزَه عن الأنظار

آثر النّظم الكريم التّعبيرَ بالوعاء دون الرّحل، في قوله جلّ شأنه: ﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ﴾؛ لدلالة الوعاء، إذ إنّه مشتقّ مِنَ الوعي، وهو الحفظ[3]، فهو مناسب للسّياق الذي يُورد حَدَثَ السّرقة، والسّرقة تقتضي حفظَ المسروقِ، والعنايةَ في إخفائه عنِ الأنظار، فالوعاءُ أدلّ على الحفظ مِنَ الرّحل الموضوع على الرّاحلة للرّحلة خاليًا مِن قيد الحفظ، ثمّ بالنّظر إلى الصُّواع المختفي، فإنّه لكِبَرِ حجمه لا يناسب أن يُخفَى في الرّحل، بل في وسط الوعاء، كي لا يظهر.

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/296.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/172.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/31.

دلالة إضافة الوعاء إلى الأخ الشّقيق:

أضاف النّظم الكريم لفظَ الوعاء إلى ﴿أَخِيهِ﴾ في قوله جلّ شأنه: ﴿قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ﴾، أي: أخي يوسف عليه السلام الشّقيق (بنيامين)؛ لأنّه المقصود بالتّفتيش لإظهار كون الصُّواع في وعائه، فيتمّ الكيدُ الذي قُصِدَ منه الإبقاءُ عليه، وإظهارُ لفظِ (الأُخوّة) دون الضّمير - فلم يقل: (قبل وعائه) - لبيان أنّ سبب كلِّ ذلك الكيدِ وما جرى فيه إنّما لكونه أخاه، ولكونه هو المقصود مِن أوّل الأمر.

الأُخوّة أصل القصّة، والمقصود من أوّل الأمر الإبقاء على الأخ الشّقيق

سرّ إيثار العطف بـ ﴿ثُمَّ﴾:

آثر النّظم الكريم التّعبيرَ بحرف العطف ﴿ثُمَّ﴾ دونَ غيرها مِن حروف العطف، في قوله جلّ شأنه: ﴿ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِۚ﴾؛ للدّلالة على أنّ التّحرّيَ قد وقع على سبيل التّأنّي[1]، والتّأنّي أنسبُ لإبعاد الشّبهةِ فيما لو وقع التّحرّي بعجلة؛ لأنّه سيثير شبهةَ أنّهم يعرفون مكانَ الصُّواع قبلَ التّفتيش.

التّأنّي في التّحرّي يُبعد الشّبهةَ عن المعرفة السّابقة بموضع السّقاية

دلالة صيغة الاستفعال:

آثر النّظمُ الكريم التّعبيرَ بصيغة (الاستفعال)، في قوله جلّ شأنه: ﴿ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِۚ﴾ في بيان إخراج السّقاية من رحل أخيه؛ للدّلالة على أنّه "أوجد إخراج السّقاية التي تقدّم أنّه جعلها في وعاء أخيه"[2]، فكأنّه لمّا بقي مِنَ الأوعية التي لم تُفتّش وعاءُ أخيه وحَسْبُ، ولم يكونوا قد وجدوا الصُّواع في تلك الأوعية، صار في حُكم المؤكّد أنّها في وعائه، فطَلَبَ منهم إخراجَها منه؛ إظهارًا منه لتَبرُّمه بهم، ممّا يزيد تعميةَ ما كاده بهم، من حيث لا يشعرون.

طلب إخراج السّقاية، لمّا لم يبق إلّا رحل أخيه

توجيه عود الضّمير، وتأنيثه:

الضّمير المؤنّث في قوله جلّ شأنه: ﴿ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا﴾ يجوز فيه

تأنيث ما يجوز فيه التّذكير والتّأنيث، إحالةٌ على السّقاية

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/172.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/172.

أن يعود على السّقاية، وكذلك على الصُّواع؛ لأنّه يجوز فيه التّذكير والتّأنيث، فالتّذكير بتأويل ما شرب منه، والتّأنيث بتأويل السقاية[1].

دلالة التّعبير بـ ﴿مِن﴾ الابتدائية:

ابتداء الإخراج كائنٌ مِنَ الوعاء، متضمِّنٌ الدّلالةَ على وُجدان السّقاية فيه

أدخل النّظم الجليل حرفَ الجرّ ﴿مِن﴾ الابتدائيّة في قوله جلّ شأنه: ﴿ثُمَّ ٱسۡتَخۡرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِۚ﴾؛ للدّلالة على ابتداء الإخراج، أي: ابتدأ إخراجَها مِن وعاء أخيه، وهذا يتضمّن الإخبارَ بأنّها كانت فيه، فتضمَّن التّعبيرُ بحرف الجرّ ﴿مِن﴾ الدّلالةَ على الوجود فيه ضمنًا، والاستخراج منه تصريحًا.

سرّ التّكرار والعدول:

تكرار لفظ الأُخُوّة، تنويهًا بأهمّيّة شأنها في سياق السّورة

كَرّر النّظمُ الجليل تركيبَ ﴿وِعَآءِ أَخِيهِ﴾، في قوله جلّ شأنه: ﴿قَبۡلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسۡتَخۡرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِۚ﴾ ولم يقل: (ثمّ استخرجها منه)، أي: مِنَ الوعاء، كما لم يقل: (من وعائه)؛ وذلك لقصد زيادة الإيضاح والبيان[2]، كما أنّ فيه اهتمامًا بلفظ الأُخُوّة، فتَكْرار هذا اللّفظ بأدنى مناسبة يناسبُ ما بُنيت عليه السّورةُ؛ إذ إنّها قد بُنيت على علاقة الأُخوّة مِن أوّلها حتّى آخِرها. وفي التّكرار إزالةُ للّبْس؛ لأنّه لو قيل: (فاستخرجها منه)، لأوهمَ عودَ الضّميرِ على الأخ، فيصير كأنّ الأخَ مباشرٌ لطلب خروجِ الوعاء؛ وليس كذلك، لما في المباشرة مِنَ الأذى الّذي تأباه النّفوس الأبيّة؛ فأُعيدَ لفظُ الظّاهر لنفي ذلك[3].

توجيه الإشارة في ﴿كَذَٰلِكَ﴾:

الإشارة بالمركّب (كذلك)، تعظيمٌ للمُشار إليه، وتنويهٌ به

اسم الإشارة في قوله جلّ شأنه: ﴿كَذَٰلِكَ كِدۡنَا لِيُوسُفَۖ﴾، يُشير إلى الكيد الذي يدلّ عليه الفعلُ ﴿كِدۡنَا﴾، أي: مثلَ ذلك الكيدِ العظيم

(1) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 10/391.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/296.
(3) عفيف، الشّامل في بلاغة القرآن: 2/91.

كِدْنا ليوسف، "ولمّا كان هذا كيدًا عظيمًا في أخذ أخيه بحكمهم، مع ما توثّق منهم أبوهم، عظّمه تعالى بالإشارة إليه بأداة البُعد"[1].

سرّ تقديم اسم الإشارة ﴿كَذَٰلِكَ﴾:

قدّم النّظمُ الجليل اسمَ الإشارة في قوله جلّ شأنه: ﴿كَذَٰلِكَ كِدۡنَا لِيُوسُفَۖ﴾، أي: مثلَ ذلك الكيدِ كِدْنا ليوسفَ، فقدّم الإشارةَ للقصر[2]، والأصل: كِدْنا ليوسفَ كيدًا مثلَ ذلك الكيدِ العظيم، لا كيدَ آخر غيرُه؛ تفخيمًا لشأنه.

ما يُنسب إلى الله تعالى مِن كيد على وجه التّسبّب، لا يكون كأيّ كيد

سرّ التّعبير بلفظ الكيد مضافًا إلى ضمير التّعظيم:

آثر النّظم الكريم التّعبيرَ بلفظ الكيد في قوله جلّ شأنه: ﴿كَذَٰلِكَ كِدۡنَا لِيُوسُفَۖ﴾؛ لأنّ المراد منه المآل، إذ إنّ "لفظَ الكيدِ مُشْعِرٌ بالحيلة والخديعة، وذلك في حقّ الله تعالى محالٌ، إلّا أنّا ذكرنا - والكلام للرّازيّ - قانونًا معتبرًا في هذا الباب، وهو أنّ أمثال هذه الألفاظ تُحمَل على نهايات الأغراض، لا على بدايات الأغراض؛ فالكيدُ: السّعي في الحيلة والخديعة، ونهايتُه إلقاء الإنسان - من حيثُ لا يشعر - في أمر مكروه، ولا سبيل له إلى دَفْعه، فالكيدُ في حقّ الله تعالى محمولٌ على هذا المعنى"[3]، فإسناده إلى الله تعالى؛ لأنّه ﷻ هو المُسَبِّب والملهم له، والتّعبير عنِ الجليل بضمير العَظَمة تعظيمًا وتفخيمًا لشأن هذا الكيد، فهو كيد بما لنا مِنَ العظمة، فلا يُغلَب ولا يقف دون تحقيق ما جيء به لأجله.

السّبب يُضاف إلى مُسَبِّبه، ويُعَظَّم بإضافته لله تعالى

دلالة التّعبير بالكيد على التّعليم:

آثر النّظم الكريم التّعبيرَ بالكيد الذي يُراد منه تعليمُ يوسفَ عليه السلام، في قوله جلّ شأنه: ﴿كَذَٰلِكَ كِدۡنَا لِيُوسُفَۖ مَا كَانَ لِيَأۡخُذَ أَخَاهُ

الكيد الّذي تعلّمه يوسفُ عليه السلام، تعليم خاصّ لا عامّ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/172.
(2) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 10/391.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 18/488.

﴿فِي دِينِ ٱلۡمَلِكِ﴾، فالكيدُ هنا بمعنى التّعليم، أي: تعليم الكَيد[1]، وهو فعل يُتَوصّل به إلى مقصد خفيّ، والمراد به هنا: تعليمُ يوسفَ عليه السلام بإلهامه هذه الحيلة المحكمة، في وضع الصُّواعِ وتفتيشه، وإلهامِ إخوته إلى ذلك الحُكم المُصْمِتِ[2]، فعبّر عنِ التّعليم بالكَيد؛ للنّصّ على خصوصيّة التّعليم هنا، فليس المراد مُطلق التّعليم، بل ما تُوُصِّل به إلى الإبقاء على أخيه.

دلالة التّعبير بلام الجرّ:

ذلك الكيد العظيم إنّما جيء به ليوسف خاصّة

أدخل النّظمُ الجليلُ لامَ الجرّ على يوسف عليه السلام، في قوله جلّ شأنه: ﴿كِدۡنَا لِيُوسُفَۖ﴾؛ للدّلالة على أنّ هذا الكيدَ خُصَّ به يوسفُ عليه السلام؛ لأنّه إنّما وقع لأجله ولفائدته[3]، أي: "صنعنا له، ودبَّرْنا لأجل تحصيل غرضِه مِنَ المقدّمات التي رتّبها مِن دسّ الصُّواعِ"[4].

نكتة إظهار اسم (يوسف) عليه السلام:

ما وقع مِن كيد إكرامًا ليوسف عليه السلام، وجزاءً لصبره

أظهر النَّظمُ الجليل اسمَ يوسف عليه السلام في قوله جلّ شأنه: ﴿كَذَٰلِكَ كِدۡنَا لِيُوسُفَۖ﴾؛ تنويهًا به، وإشارةً إلى أنّ الكيد العظيم إنّما وقع لأجله خاصّة، وبيانًا لعلوّ شأنه، فجِيء بكلّ تلك الصّنائع إعلاءً له، وإلجاءً لإخوته إليه[5]، فَذَكَر اسمَه نصًّا على كون ذلك إنّما وقع إكرامًا له، وجزاءً لصَبره.

دلالة النّفي في ﴿مَا كَانَ لِيَأۡخُذَ﴾:

نفيُ الكونِ أبلغُ في نفي المضمون، ودلالةُ تأكيدِ امتناعِه

آثر النّظمُ الكريم التّعبيرَ بالنّفي، بأسلوب نفي الكونِ، في قوله جلّ شأنه: ﴿مَا كَانَ لِيَأۡخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلۡمَلِكِ﴾؛ لتأكيد النّفي، فهو لم يكن بحال مِنَ الأحوال مستطيعًا أن يأخذ أخاه تبعًا لشريعة الملك[6]،

(1) ابن التّمجيد، حاشية ابن التّمجيد: 10/391.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/31.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/31.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/296.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/172، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/31.
(6) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/296.

ولكنّه أخذه تبعًا لشريعتهم هم، التي مكّنته مِن استبقاء أخيه معه كما هو مُدَبَّر، لأمرٍ سيُقضَى بعدُ، فالجملة "بيانٌ للكيد باعتبار جميعِ ما فيه، مِن وضع السّقاية، ومِن حُكم إخوته على أنفسهم بما يُلائم مرغوبَ يوسفَ ﷺ، مِن إبقاء أخيه عندَه، ولولا ذلك لما كانت شريعةُ القِبْطِ تُخَوِّلُه ذلك"[1].

علّة التّعبير بفعل الكون الماضي:

امتناعُ أخذِ أخيه، امتناعٌ مؤكّد لا يمكن نقضُه

جاء فعل الكونِ المنفيّ بصيغة الماضي في قوله جلّ شأنه: ﴿مَا كَانَ لِيَأۡخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلۡمَلِكِ﴾؛ للدّلالة على رسوخ الامتناع والنّفي، وكونه منفيًّا على جهة القطع مِنَ الأصل، فنَفْيُ الإمكان المتعلّقِ بالزّمان الماضي المنقطعِ يَدُلّ على أنّه ممّا لا يندفع بشيء، وأنّه قد وقع ذلك المنعُ في عهدٍ بعيد، فلا يمكن نقضُه، والغرضُ مِن ذلك: تأكيدُ الامتناع ممّا يفصِح عن ضرورة ذلك الكيدِ وعِظَمِه.

دلالة اللّام في حيّز النّفي:

لامُ الجحود تأكيدٌ لنفي أسبابِ أخذِ يوسف لأخيه

أدخل النّظم الجليل اللّامَ الدّالّةَ على الجُحود على الفعل ضِمن حيّزِ نفي فعلِ الكونِ، في قوله جلّ شأنه: ﴿مَا كَانَ لِيَأۡخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلۡمَلِكِ﴾؛ دلالةً على تأكيد النّفي[2]، "ومعنى لام الجُحود هنا: نفيُ أن يكون في نفس الأمر سببٌ يُخوّل يوسفَ ﷺ أَخْذَ أخيه عندَه"[3].

التّعبير عنِ الأخذ بالمضارع:

تجدّد النّفي بعد رسوخه، زيادةٌ في تأكيد الامتناع، وتعظيمِ الكيد

آثر النّظمُ الكريم التّعبيرَ عنِ الأخذ بالفعل المضارع في قوله جلّ شأنه: ﴿لِيَأۡخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلۡمَلِكِ﴾؛ دلالةً على تجدّد النّفي، ومِن ثمَّ تجدّدِ الحُكم واستمرارِه، فانتفاءُ قدرتِه على أخذ أخيه - تبعًا لقانون الملك - لا يتغيّر بمرور الزّمان، فجاء نفيُ المضارع لبيان وجهِ الكَيد وعِظَمِه.

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/32.

(2) البقاعي، نظم الدّرر: 10/173.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/32.

سرّ تكرارِ لفظ (الأخ) وإظهارِه:

تكرارُ لفظِ الأُخوّةِ، يعمل على تمتين بُنيَةِ السّورةِ اللّفظيّة

آثر النّظم الكريم التّعبيرَ بالاسم الظّاهر دونَ الضّمير في قوله جلّ شأنه: ﴿لِيَأۡخُذَ أَخَاهُ﴾، فلم يقل: (ليأخذه)؛ تنويهًا بذكره، وتقديرًا لشأنه، فلم يكتفِ بذكره بالإضمار، كما أنّ ذِكر لفظِ الأُخُوّة يناسبُ سياقَ السّورةِ التي نوّهت بموضوع الأُخُوّة في كثير مِنَ المواضع، فكان ذِكْرُه مُعَضِّدًا لتماسك الألفاظ في السّورة، بتكرار اللّفظ الواحد في مواضع مختلفة منها.

دلالة تعليق فعل الأخذ، بالجار والمجرور:

انتفاءُ أخذِه متعلّقٌ بدِين المَلِك، لا انتفاءً مطلقًا

علّق النّظم الجليل فعلَ الأخذ في قوله جلّ شأنه: ﴿مَا كَانَ لِيَأۡخُذَ أَخَاهُ﴾ بشِبه الجملة مِنَ الجار والمجرور: ﴿فِي دِينِ ٱلۡمَلِكِ﴾؛ لبيان وجهِ الكيد، إذِ امتناعُ أخذِه في دِين الملك يُبيّن ضرورةَ ذلك الكيدِ، ولولا ذلك لما سَوّغ إيقاعَ الكيدِ، وقد كان جزاءُ السّارقِ في دِين الملك غيرَ ما ذكره إخْوةُ يوسفَ[1].

بلاغة جملة الاستثناء:

لا حالَ يتيح أخذَ الأخِ إلّا الحالَ المتعلّق بمشيئة الله تعالى

الاستثناء في قوله جلّ شأنه: ﴿مَا كَانَ لِيَأۡخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلۡمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ يَدلُّ على استثناء حالٍ واحدٍ غيرِ منفيٍّ مِن جميع الأسباب المنفيّة، أي: ليس هناك حالٌ يمكن أن يأخذَ بها أخاه على وَفْق دِين المَلِك إلّا في حال مشيئةِ اللّه تعالى ذلك، فالاستثناء"مِن عموم أسباب أَخْذِ أخيه المنفيّة"[2]، فهو استثناءٌ مِن عموم الأحوال، أو العِلل والأسبابِ، والمعنى: لم يكن ليأخذ أخاه لعلّة مِنَ العِلل، أو بسببٍ مِنَ الأسبابِ، إلّا لعلّة مشيئتِه تعالى، أو إلّا بسبب مشيئتِه تعالى[3].

نُكْتَةُ التّعبير عنِ المشيئة بالمضارع:

لا يقع الكيدُ - مهما كان عظيمًا - إلّا بمشيئة الله تعالى

آثر النّظم الكريم التّعبيرَ بالفعل المضارع في بيان مشيئته

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/173.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/32.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/297.

تعالى، في قوله جلّ شأنه: ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ﴾؛ للدّلالة على أنّ أَخْذَ الأخِ لا يكون إلّا بحال مشيئة الله تعالى المستمرّة المُعِينةِ على بُلوغ هذا المرادِ، فلمّا كان الاستثناء جاريًا على استثناء حالٍ مِن عموم الأحوال المنفيّة، دلّ التّعبيرُ بالمضارع على أنّ الحال التي استُثْنِيَت يُشتَرط فيها الاستمرارُ، وذلك يدلّ على شِدّة صعوبة الأمر؛ إذ هو لا يكون إلّا بمشيئةٍ مِنَ الله تعالى، وهذا يُفصِح عن عظيم الإنعام مِنَ العلّام المُتَفَضّل.

دلالة التّعبير بالمضارع في ﴿نَرۡفَعُ﴾:

آثر النّظمُ الكريم التّعبيرَ بالفعل المضارع في قوله جلّ شأنه: ﴿نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُۗ﴾؛ للإشعار بأنّ ذلك العلوَّ والرَّفعَ سُنّة إلهيَّةٌ مستمِرّة[1]، لا سيّما وأنّ الرّفع وقع على اسم الموصول ﴿مَّن﴾ الدّالِّ على العموم، فهو يتعلّق بعموم مَن يشاء الله تعالى، وذلك يقتضي أنّه يَحْدُث في كلّ زمان، فاقتضى التّعبيرَ عن ذلك بالفعل المضارع.

سنّة الله تعالى في رفع عبادِه الصّالحين دائمة في كلّ مكان

بلاغةُ الالتفات مِنَ الغيبة إلى التّكلّم:

التفت النّظمُ الكريم مِنَ الغَيْبَة في قوله: ﴿يَشَآءَ ٱللَّهُۚ﴾، إلى التّكلّم في قوله جلّ شأنه: ﴿نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُۗ﴾؛ لما في التّكلّم مِنَ التّعظيم الذي يقتضيه السّياق، إذ "لما كان يوسف عليه السلام إنّما تمكّن مِن ذلك، بعلوّ درجتِه وتمكُّنِه ورِفْعَتِه، بعدما كان فيه عندهم مِنَ الصّغار، كان ذلك محلَّ عَجَبٍ، فقال تعالى - التفاتًا إلى مقام التّكلّم - تقويةً للكلام بمقام الغيبة والتّكلّم، وزاده إشعارًا بعَظَمة هذا الفعل، بصَوْغِه في مظهر العَظَمة، منبّهًا لمَن قد يغفُل: ﴿نَرۡفَعُ﴾، أي: بما لنا مِنَ العَظَمة"[2].

التّكلّم إخبارًا بالإنعام، أفصحُ في بيان التّعظيم

(1) القاسميّ، محاسن التّأويل: 6/205.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/177.

دلالة لفظ (الدّرجات) وجمعها:

مِنَحُ الله لعباده مُتفاوتةٌ بحسب مشيئته

أورد النّظم الكريم لفظَ (الدّرجات) بصيغة الجمع في قوله جلّ شأنه: ﴿نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُۗ﴾؛ للدّلالة على كَثْرة مِنَحِ اللّه تعالى لعباده، ودرجاتِ تفاوتِهم، ومعنى ذلك في الآية: أنّ اللّه تعالى يُري يوسفَ عليه السلام "وُجُوهَ الصّواب في بلوغ المراد، ويَخصُّه بأنواع العلوم، وأقسامِ الفضائل، والمراد هاهنا: هو أنّه تعالى رفعَ درجاتِ يوسفَ على إخوته في كلّ شيء"[1]، كما أنّ في الجمع بيانًا لسعة الإنعام الإلهيّ؛ إذ إنّه يعطي مَن يشاء الكثيرَ بلا حساب.

بلاغة الاستعارة في لفظ (الدّرجات):

يرفع الله مَن يشاء، كما يرتفع الصّاعدُ في السُّلَّم

استعار النّظمُ الجليل الدّرجاتِ للشّرف والرِّفعة في قوله جلّ شأنه: ﴿نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُۗ﴾، فهي استعارةُ المحسوس وهو الدَّرجة، للمعقول وهو المكانة والشّرف[2]. وحقيقة الدَّرجة: هي ما يُرتقَى عليه في سُلّم أو نحوِه، وقد صيغت مِن (دَرَجَ)، إذا انتقل على بُطء ومَهَل، وهي هنا استعارةٌ للرِّفْعَة المُكنَّى بها عنِ الزّيادة في الفضيلة، فقد تقرّر في المتعارف عليه تشبيهُ المزيّة في الفضل بالعلوِّ والارتفاع، فَشُبِّهَ عُلوُّ المكانةِ بزيادة الدّرجات في سَير الصّاعد؛ لأنّ بزيادتها زيادةَ الارتفاع[3]، فَشَبَّه رَفْعَ اللّه تعالى مَن يشاء من عباده بارتفاع درجات السُّلّم، فيرتفع العبادُ بالمكانة كما يرتفع مَن يصعد تلك الدّرجات، فهي استعارةٌ تصريحيّة. تحتمل أيضًا: تشبيهَ معالم الذّكر في الدّنيا، ومنازلَ الثّوابِ في الآخرة، ببناءٍ يُوَطّد، ودرجاتٍ تُشَيّد[4].

سرّ إيثار ﴿مَّن﴾ في السّياق:

إنعام الله تعالى متاحٌ لكلّ عباده، لا تَحُدُّه حدود

آثر النّظمُ الكريم التّعبيرَ باسم الموصول ﴿مَّن﴾ في قوله جلّ

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 18/489.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/33.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/33.
(4) عفيف، الشّامل في بلاغة القرآن: 2/91.

شأنه: ﴿نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُۗ﴾؛ للدّلالة على أنّ إنعام اللّه تعالى برفعِ الدّرجات - المتعلّق بمشيئته - يشمل عمومَ عباده، ولا ينحصر بأحد دون غيره، على وَفق ما تقتضيه المصلحةُ والحِكمة.

دلالة العطف في الآية:

الجملة في قوله جلّ شأنه: ﴿وَفَوۡقَ كُلِّ ذِي عِلۡمٍ عَلِيمٞ﴾ معطوفة على الجملة الاستئنافيّة في قوله تعالى: ﴿نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُۗ﴾، التي سِيقت للتّذييل، فعَطْفُ الجملةِ الثّانيةِ عليها لاشتراكهما بكونهما تذييلًا لقصّة أَخْذِ يوسفَ ﷺ لأخيه[1]، تُخبِر الأولى عن رفع مكانة يوسفَ بالعِلْم، وتُخبر الثّانيةُ أنّ كلّ عالِمٍ فوقَه عالِمٌ، انتهاءً إلى العليم الذي وَسِع علمُه كلَّ شيء.

علّة ما وقع مِن كيد؛ أنّ الله تعالى يميّز عبادَه بدرجات العِلْم

بلاغة المجاز في الظّرف (فوق):

عبّر النّظم الكريم بلفظ ﴿وَفَوۡقَ﴾ في قوله جلّ شأنه: ﴿وَفَوۡقَ كُلِّ ذِي عِلۡمٍ عَلِيمٞ﴾، والمراد بالفوقيّة: الفوقيّةُ المجازيّةُ، الدّالّةُ على شَرف الحال ورِفعتِه؛ لأنّ الشّرف قد جرت العادةُ أنّه يُشبَّهُ بالارتفاع[2].

بيان فوقيّةِ المكانة بالشّرف، لا فوقيّة الحيّز المعهودة

دلالة التّعبير بلفظ ﴿كُلِّ﴾:

عبّر النّظمُ الكريم بـ ﴿كُلِّ﴾ الاستغراقيّةِ في قوله جلّ شأنه: ﴿وَفَوۡقَ كُلِّ ذِي عِلۡمٍ عَلِيمٞ﴾؛ استغراقًا لكلّ أحدٍ منهم[3]، "أي: وفوقَ كلٍّ مِن أولئك المرفوعين عليمٌ يَرفَعُ كُلّا منهم إلى درجته اللّائقةِ به"[4]، فهي تدلّ على استغراق كلِّ صاحبِ عِلْمٍ، بأنّه مفضولٌ مِن صاحب علمٍ أعلى شأنًا منه، انتهاءً إلى علم اللّه تعالى المطلَق، الذي تنقطع دونَه الفوقيّة.

تأكيد استغراق كلِّ ذي علم، بكونه مفضولًا، انتهاءً إلى علم الله تعالى

(1) ابن التّمجيد، حاشية ابن التمجيد: 10/393، وصافي، الجدول في إعراب القرآن: 7/38.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/33.
(3) ابن التّمجيد، حاشية ابن التّمجيد: 10/393.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/298.

بلاغة التّعبير بـ ﴿ذِى عِلْمٍ﴾:

علمُه الذّاتيّ المطلَق ﷻ، يباين علمَ عباده الحادث

آثر النّظمُ الكريم التّعبيرَ بالمركّب ﴿ذِى عِلْمٍ﴾ في قوله جلّ شأنه: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾، دون أن يقول: (وفوق كلِّ عالم)؛ لأنّه مركّب مِن كلمتين، بمعنى: صاحب علم، فهو مكوَّن مِن كلمتين منفصلتين، والصّاحبُ يُوجَد أوّلًا؛ وبعد ذلك يطرأ عليه العِلْمُ؛ فيصير صاحبَ عِلْم، أمّا ﴿عَلِيمٌ﴾ فإنّ عِلْمه ذاتيّ فيه ﷻ[1]، فالمركّب (ذو علم) يدلّ على وجود جهلٍ سابق لهذا العِلْم، وأنّ عِلْمَه كسبيٌّ حادثٌ، فجِيء بهذا التّركيب تبيينًا لمباينة عِلْمِه ﷻ لعِلْم عباده.

علّة التّعبير بصيغة المبالغة ﴿عَلِيمٌ﴾:

علم الله تعالى واسع بليغ، لا يعزب عنه شيء

عبّر النّظم الجليل بصيغة ﴿عَلِيمٌ﴾ في قوله جلّ شأنه: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾، والمراد بهذا الوصف الله ﷻ، وهي صيغة مبالغةٍ دالّةٍ على أنّ الله تعالى له العلم البالغ[2]، ووجه المبالغة في سياق الآية: أنّ عِلْمَ الله تعالى واسعٌ لا يغيب عنه شيءٌ، وذلك لبيان كيفية رَفْعِه درجاتِ عباده، بحيث يرفعُ كلَّ واحدٍ منهم بحسب استعداده، وفوقَ كلِّ واحدٍ منهم عليمٌ لا يُقادَرُ قَدْرُ عِلْمِه، ولا يُكْتَنَهُ كُنْهُهُ، يَرْفَعُ كُلًّا منهم إلى ما يليقُ به مِن معارج العِلْمِ ومَدارجِه"[3].

وجه تنكير ﴿عَلِيمٌ﴾، والالتفات فيه:

تعظيم علم الجليل، وتفخيمُه بالمبالغة، والتّنكير، والالتفات

آثر النّظمُ الكريم التّعبيرَ بصفة (العليم) بصيغة التّنكير في قوله جلّ شأنه: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾؛ دلالةً على تعظيم صِفة العليم، فيضاف التّأكيدُ إلى ما دلّت عليه صيغةُ المبالغة مِن تعظيم العِلْم، كما أنّ الانتقال مِنَ التّكلّم في: ﴿نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ﴾، إلى الغَيْبَة التي يقتضيها الاسمُ الظّاهرُ ﴿عَلِيمٌ﴾؛ تعظيمًا لهذا العلم،

(1) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 11/7028 - 7029.
(2) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/172.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/298.

وتظافرت الدّلائل مِن صيغة المبالغةِ، والتّنكير، والالتفاتِ إلى الغَيبة، على الدّلالة على فخامة شأنِه عزّ ذكره[1]. والمعنى: أنّ فوق كلِّ صاحبِ عِلْم مِنَ الخَلْق "﴿عَلِيمٌ﴾ عظيمُ العِلْم، لا تَكْتَنِهُ عَظَمَةَ عِلْمِه العقولُ، ولا تتخيَّلُها الفُهُومُ، فهو يُسَبِّبُ مِنَ الأسباب ما تَطيحُ له أسبابُ العلماء، وتَحيرُ له ألبابُ العقلاءِ البُصراء، وهو اللّه تعالى"[2].

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/298.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 10/178.

﴿۞قَالُوٓاْ إِن يَسۡرِقۡ فَقَدۡ سَرَقَ أَخٞ لَّهُۥ مِن قَبۡلُۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفۡسِهِۦ وَلَمۡ يُبۡدِهَا لَهُمۡۚ قَالَ أَنتُمۡ شَرّٞ مَّكَانٗاۖ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ٧٧﴾ [يوسف: 77]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

بعد أن أُسقط في أيديهم، شَرَعوا في اعتذارهم، وربَّ عُذْرٍ أقبحُ مِن ذنب

لمّا سبق بيانُ النّظم ممّا وقع مِن جدال ومدافعة بينَ إخوة يوسفَ عليه السلام وفتيانِه، آلَتْ إلى تفتيش الأمتعة، ووجدان الصُّواع في رَحْل أخيه، ولمّا بُهتوا بوجوده هنالك، أعقبَه ببيان اعتذارِهم بأن نَسَبُوا أخاهم إلى إمكان حدوثِ السّرقةِ منه؛ إذ قد تسرّبت إليه خصلةُ السّرقة مِن أخٍ شقيقٍ له، غيرِ شقيقٍ لهم، فقد سبق وأن سَرقَ مِن قَبْلُ[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَأَسَرَّهَا﴾: الإسرار: إخْفاءُ الشَّيْءِ. والسِّرُّ: خِلافُ الإعْلانِ. يُقالُ: أَسْرَرْتُ الشَّيْءَ إسْرارًا، أي: كَتَمْتُه[2]. وأسْرَرتُ الشَّيءَ: أَظْهَرْتُهُ، فهو مِنَ الأَضْدادِ[3]. ﴿فَأَسَرَّهَا﴾: بمعنى: أخْفاها وكَتَمَها.

2) ﴿يُبْدِهَا﴾: فعلٌ مضارعٌ مجزومٌ، جَذْرُه (بدو)، وهو أَصْلٌ واحِدٌ، يدلُّ على ظُهُور الشَّيْءِ. يُقالُ: بَدا الشَّيْءُ يَبْدُو: إذا ظَهَرَ، فَهُوَ بادٍ. وسُمِّيَ خِلافُ الحَضَرِ بَدْوًا مِنْ هَذا؛ لِأَنَّهُمْ في بَرازٍ مِنَ الأَرْضِ، ولَيْسُوا في قُرًى تَسْتُرُهُمْ أَبْنِيَتُها[4]، وبَدا الشَّيءُ بُدُوًّا وأَبْدَى: ظَهَرَ[5]. ومعنى ﴿يُبْدِهَا﴾: يُظهِرْها.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/34.
(2) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (سر).
(3) الرّاغب، المفردات: (سرر).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (بدو).
(5) ابن سيده، المخصّص: (فعلتُ وأفلعتُ).

3) ﴿شَرٌّ﴾: الشَّرُّ: السَّوءُ، والفِعل للرَّجلِ الشِّرِّير، والمصدرُ: الشَّرَارةُ، والفِعْلُ: شَرَّ يَشُرُّ شَرًّا وشَرارةً، وقومٌ أشرارٌ خِلافُ الأخيار[1]، والشَّرُّ ضِدُّ الخَيْرِ[2]، وفُلانٌ شَرُّ النّاسِ، ولا يُقالُ: أَشَرُّ النّاسِ إلّا في لُغَةٍ رَدِيئَةٍ، يُقالُ: هُوَ شَرُّهُم، وهِيَ شَرُّهُنَّ، ولا يُقالُ هُوَ أَشَرُّهم؛ وفُلانٌ شَرُّ الثَّلاثَةِ وشَرُّ الاِثْنَيْنِ[3].

4) ﴿مَّكَانَاً﴾: اسمٌ جَذْرُه (مكن)، وهو أصلٌ واحدٌ، يدور معناه حولَ رسوخِ الشَّيْءِ مُتَجَمِّعًا في باطنٍ يَلْتَئِمُ عليه[4]. والتَّمكُّن: رسوخٌ في باطن، ومَكَّنَهُ مِنَ الشَّيءِ، ومكَّن له: جَعَلَ له عليه سلطانًا، وقدَّره، والتَّمكينُ مِنَ الشِّيء: إنالةُ ما يَصِحُّ به الفعلُ مِنَ الآلات والقُوَى، ومنه: المَكانة، بمعنى: الرُّسوخ في أثناء الشّيء[5]. والمكانَةُ: الحِيالُ والنَّاحيَة، ومنه قولُه تعالى: ﴿ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ﴾ [الأنعام: 135]، أي: على حِيالِكم وناحيتِكم. والمكانة: الطّريقةُ[6]، ومعنى المكان في الآية: المنزلة، ومعناه أيضًا الصّنيع والطّريقة[7].

5) ﴿تَصِفُونَ﴾: الوصف يدلُّ في أصلِه على تَحْلِيَةِ الشَّيْءِ وتهيئته، ووَصَفْتُهُ أَصِفُهُ وصْفًا، والصِّفَةُ: الأَمَارَةُ اللّازِمَةُ لِلشَّيْءِ، يُقالُ: اتَّصَفَ الشَّيْءُ في عَيْنِ النّاظِرِ: احْتَمَلَ أَنْ يُوصَفَ[8]. والوَصْفُ: ذِكْرُ الشَّيءِ بِحِلْيَتِه ونَعْتِه، والصِّفَةُ: الحالةُ التي عليها الشَّيءُ مِن حِلْيَتِه ونَعْتِه[9]، وقولُه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ١٨﴾ [يوسف: 18]، أي: تُهَيِّئُون أو تُلَفِّقُون مِنَ الهَيئات المُسَوَّاة، وإنْ كانت كاذبةً[10]، ويأتي الفعلُ ﴿تَصِفُونَ﴾ بمعنى: تَكْذبون[11].

(1) الخليل، العين: (شر).
(2) ابن دريد، جمهرة اللّغة: (شرر).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (شرر).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (مكن).
(5) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (مكن).
(6) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 311.
(7) ابن الجوزيّ، زاد المسير: 2/460.
(8) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (وصف).
(9) الرّاغب، المفردات: (وصف).
(10) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (وصف).
(11) الهرويّ، الغريبين: (وصف).

❁ المَعْنى الإجْمالِيُّ:

التَّسامُحُ والتَّغافُلُ عَنِ الأَذى، والإِسْرارُ بِهِ في النَّفْسِ، مِن خُلُقِ الأنبياء

قال إخوةُ يوسفَ: إن يَسْرِقْ فلا عَجَبَ، فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لهُ شَقيقٌ مِن قَبْلِ سَرِقَتِهِ هُوَ، يَعْنُونَ يوسُفَ عليه السلام، فأخفى يوسفُ تأذِّيه بقَوْلَتِهم هذه، ولم يُظْهِرْها لهم، قَالَ لهم في نَفْسِهِ: ما أنتم عليه مِنْ حَسَدٍ وصَنيعِ سُوْءٍ سَبَقَ منكم، هو الشَّرُّ بعينِه في هذا المقام، واللّه تعالى أَعلمُ بهذا الافتراءِ الَّذي يَصْدُرُ مِنْكُم، ويُسْتَفادُ مِنَ الآيَةِ: أَنَّ التَّغافُلَ عَنِ الأَذى، والإِسْرارَ بِهِ في النَّفْسِ، مِن مَحاسِنِ الأَخْلاقِ[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالة الفصل بفعل القول:

حكاية الجوابِ في الحوار، تُفْصَل برواية القول

الجملة في قوله جلّ شأنه: ﴿قَالُوٓاْ إِن يَسۡرِقۡ فَقَدۡ سَرَقَ أَخٞ لَّهُۥ مِن قَبۡلُۚ﴾ فُصِلت بفعل القول؛ لأنّها جاءت ضِمن الحوار، فلا يحوج ذلك إلى رابطٍ، لقيامِ ترابطِ الحوارِ الحضوريّ مقامَ الرّابط اللّفظيّ، وهي جملة استئنافيّة استئنافًا بيانيًّا، جِيءَ بها جوابًا عن سؤالٍ نشأ ممّا وقع، فكأنّه "قيل: إنّ انتزاعَ أخيهم منهم بعد تلك المواثيق التي أكَّدوها لأبيهم لَداهيَةٌ تطيش لها الحُلُوم، فماذا كان فعلُهم عندَها؟ فقيل: ﴿قَالُوٓاْ﴾ تسليةً لأنفسهم، ودفعًا للعار عن خاصّتهم ﴿إِن يَسۡرِقۡ﴾"[2]. وجاء الفعلُ مُسنَدًا لضمير الجماعة؛ للدّلالة على أنّهم جميعًا قد قبلوا هذا الوصف وأقرّوه.

سرّ إيثار الشّرط بـ ﴿إِن﴾:

بيانُ حُسنِ السّيرةِ، يدفع شبهةَ الفسادِ المثيرة

آثر النّظمُ الكريم إيرادَ حرفِ الشّرطِ ﴿إِن﴾ في قوله جلّ شأنه: ﴿قَالُوٓاْ إِن يَسۡرِقۡ فَقَدۡ سَرَقَ أَخٞ لَّهُۥ مِن قَبۡلُۚ﴾، الدّالّةِ على الاحتماليّة؛ لأنّهم لم "يجزموا بسرقته، لعلمِهم بأمانته، وظَنِّهم هذا الصُّواعَ دُسَّ في رَحْلِه وهو لا يَشْعُر، كما دُسّت بضاعتُهم في رحالهم"[3].

(1) ابن جرير، جامع البيان: 12/194، والبغويّ، معالم التّنزيل: 4/263، وجماعة من العلماء، المختصر في تفسير القرآن الكريم، ص: 244.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/178.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/178.

دلالة التّعبير بالجملة الشّرطيّة:

الجملة في قوله جلّ شأنه: ﴿إِن يَسۡرِقۡ فَقَدۡ سَرَقَ أَخٞ لَّهُۥ مِن قَبۡلُۚ﴾ جملةٌ شرطيّةٌ، رَبَطَتْ رَبطًا تعليليًّا بينَ الجواب والشّرط، فَسَرِقةُ بنيامينَ لا غرابةَ فيها؛ إذ إنّه مسبوقٌ بسرقة أخيه، فعلّقوا سَرقةَ بنيامين بسرقةِ أخيه تعليقًا سببيًّا، وذلك دفعًا لمَعَرّة السّرقةِ عنهم، وعن فرعهم مِن أبيهم.

لا غرابةَ بفساد مَن سبقَ فسادُ أصلِه، فإنّك لا تجني مِنَ الشّوكِ العنبَ

تناوب التّعبير عنِ السّرقة بالمضارع المجزوم، والماضي:

جُمِعَ بينَ الفعل الماضي والمضارع في جملةِ الشّرط، في قوله جلّ شأنه: ﴿قَالُوٓاْ إِن يَسۡرِقۡ فَقَدۡ سَرَقَ أَخٞ لَّهُۥ مِن قَبۡلُۚ﴾؛ للدّلالة على أنّ السّرقة الحادثة المتجدّدة فرعٌ عنِ السّرقة الماضية المؤكّدة.

الفعل الحادث المتجدّدُ، مُفَرَّع عنِ الأصل الماضي

دلالة (الفاء) في صدر الجملة الفعليّة:

أُدخلت الفاءُ في جملة جوابِ الشّرط، في قوله جلّ شأنه: ﴿إِن يَسۡرِقۡ فَقَدۡ سَرَقَ أَخٞ لَّهُۥ مِن قَبۡلُۚ﴾؛ لأنّ هذه الجملةَ لا يصحّ أن تكون جوابًا مباشرة؛ لانتفاء الرّابط اللّفظيّ بينهما، فيُصَار إلى بيان ارتباطِهما بالفاء، فالفاء لربط وتعليق الجملتين، وللتّصريح بأنّ السّرقة المحقّقةَ مِنَ الأخ مرتبطةٌ بسرقة هذا الشّقيق، فجُعِلَت قاعدةً يُقَاس عليها.

رَبْطُ جملتي الشّرطِ بالفاء، لخلوّهما مِنَ الرّابط اللّفظيّ، مفيدٌ في البيان

دلالة إدخال (قد) على الفعل الماضي:

أُدخِل الحرفُ (قد) على الفعل الماضي في قوله جلّ شأنه: ﴿فَقَدۡ سَرَقَ أَخٞ لَّهُۥ مِن قَبۡلُۚ﴾؛ للدّلالة على التّحقيق والتّأكيد، فأخبروا عنِ السّرقة المنسوبة إلى يوسفَ عليه السلام في صِغره إخبارًا مؤكّدًا، لتأكيد نزاهتِهم عنِ السّرقة، وأنّها ليست في فرعهم مِن أبيهم.

تأكيد سرقة الشّقيق، توثيقٌ لاختصاص السّرقة بالأخ دونهم

وجه تنكير لفظ ﴿أَخٞ﴾:

أوثِرَ التّعبيرُ عنِ الأخ بصيغة التّنكير في قوله جلّ شأنه: ﴿سَرَقَ

﴿أَخٌ لَّهُۥ﴾؛ تحقيرًا للأمر، ولجهالة الحاضرين بظنّهم بشأنه[1]، ولأنّ السّرقة ليست ممّا يُشَرَّف بذِكْر فاعلِها، فأعرضوا عنِ التّصريح به، ولأنّ المهمّ عندهم هو الإخبار عن سَبْق السّرقة مِن أخٍ شقيق له، ولا فائدةَ مِن تعيينه.

تحقير فاعل السّرقة، وانتفاءُ الفائدةِ بتعريفه يُوجبُ تنكيرَه

علّة التّعبير بشبه الجملة ﴿لَّهُۥ﴾:

في قوله جلّ شأنه: ﴿سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ﴾، عبّروا بشبه الجملة مِنَ الجارّ والمجرور ﴿لَّهُۥ﴾ إلصاقًا لبنيامين به؛ لأنّه شقيقُه[2]، لبيان أنّ "هذا الأمر ليس بغريب منه؛ فإنّ أخاه الذي هلكَ كان أيضًا سارقًا، وكان غرضُهم مِن هذا الكلام: أنّا لسنا على طريقته، ولا على سيرته، وهو وأخوه مختصّان بهذه الطّريقة؛ لأنّهما مِن أمّ أُخرى"[3]، فخصّصوه بالأخ السّارق؛ إيماءً إلى أنّ السّرقة مِن شأنهما، وأنّ هذه الصّفةَ الشّنيعة تلتصق بهذا الأخ وأخيه، والفائدةُ مِن ذلك تأكيدُ كلامِهم السّابقِ، بكونهم منزّهينَ عنِ السّرقة والإفساد، وأنّ هذا السّارقَ لا يَقْدَحُ بهم؛ فإنّ صفةَ السّرقة لها مثالٌ سابقٌ في شقيقه مِن قبلِه.

تخصيص السّرقة به وبأخيه، تأكيدًا لنزاهتهم

إيثار التّعبير بـ ﴿مِن قَبْلُ﴾:

أُدْخِلَ حرفُ الجرّ ﴿مِن﴾ على الظّرف ﴿قَبْلُ﴾، في قوله جلّ شأنه: ﴿فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ﴾؛ لأنّ السَّرقة التي نسبوها إلى يوسف عليه السلام كانت في زمان ليس بعيدًا[4]، فقالوا: ﴿مِن قَبْلُ﴾ إشارةً إلى أنّ تلك السّرقةَ لا تستغرق زمانَ القَبليَّة كلَّه.

زمان السّرقة المزعومة قريبُ عهد، ولا يستغرق كلّ زمان القَبليّة

دلالة التّعبير بالفاء في ﴿فَأَسَرَّهَا﴾:

الجملة في قوله جلّ شأنه: ﴿فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِۦ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ﴾، معطوفةٌ على الجملة في قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ

إسرارُ إجابةِ المسيء، خلقٌ رفيع

(1) ابن عطيّة، المحرر الوجيز: 3/266 - 267.
(2) ابن عطيّة، المحرر الوجيز: 3/266 - 267.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 18/490.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/179.

﴿سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبۡلُۚ﴾، وجاء العطفُ بالفاء[1]؛ لبيان أنّ الإسرار أعقبَ ذلك القولَ بلا مُهلة، ولم يَظهر منه ما يُثير انتباهَهم، وهذا خُلُقُ ذَوي الرّفعة، فهُم أقدَرُ النّاس على كَتْم الأذى، دونَ إظهارِ ما يُسِيء لحلمهم.

نكتة تضعيف فعل الإسرار ﴿فَأَسَرَّهَا﴾:

المبالغة في الإسرار تُفصِح عن كظم الغيظ، وتَحَمّل الأذى

آثر النّظمُ الكريم التّعبيرَ بفعل الإسرار المضعّف في قوله جلّ شأنه: ﴿فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفۡسِهِۦ﴾؛ للدّلالة على شِدّة كَتْمِه للغضب، فمعنى أنّه أسرّها في نفسه، "أنّه تَحَمّلها ولم يُظْهِر غضبًا منها، وأعرضَ عن زَجْرهم وعقابِهم، مع أنّها طعنٌ فيه، وكَذِبٌ عليه"[2]، كما يدلّ ذلك على أنّ قولهم قد بلغ مِنَ القباحة ما جعلَهُ في غاية الغضب، فكان تحمُّلُه ذلك الغضبَ مِن غير أن يُظْهِر ما يقتضيه، دليلًا على شِدّة إسرارِه وكَتْمِه.

سرّ إظهار الفاعل:

إظهار الاسم في سياق الصّفة الحسنة، ثناءٌ على الفاعل

آثر النّظم الكريم إظهارَ الفاعل دونَ الإضمار، في قوله جلّ شأنه: ﴿فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفۡسِهِۦ﴾؛ ثناءً عليه بهذا الفعل، فهو مِنَ الأفعال التي يُحمَد فاعلُها، فأظهر الاسم تنويهًا بحُسن هذا الفعل وحُسن فاعله، وأنّ مثل هذا الإسرار لا يفعله إلّا مَن أوتيَ حظًّا عظيمًا.

بلاغة الإطناب:

بيان تأكيد الإسرار، ونفي التّبكيت لاحقًا

لم يكتف النّظم في بيان كتمانه بالإسرار، بل عطفَ عليه انتفاءَ الإبداءِ في قوله جلّ شأنه: ﴿فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفۡسِهِۦ وَلَمۡ يُبۡدِهَا لَهُمۡۚ﴾؛ لأنّ الإسرار يدلّ على انتفاء التّصريح بما أسرَّه بالقول، ونفي الإبداء يدلّ على عدمِ إظهار فعلٍ يدلّ على غضبه، فهو لم يظهر شيئًا، لا بالقول ولا بالفعل؛ صفحًا وحِلمًا منه، وفي ذلك تأكيد لشِدّة

(1) محمود صافي، الجدول في إعراب القرآن: 7/39 - 40.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/34 - 35.

كَتْمِه وإسراره[1]، كما أنّه "لـمّا كان ربّما ظنّ ظانٌّ أنّه بكَّتَهُم بها بعد ذلك، نفى هذا الظّنّ قولُه تعالى: ﴿وَلَمْ يُبْدِهَا﴾ أي: أصلًا ﴿لَهُمْۚ﴾"[2].

دلالة الجزم بـ (لم):

امتدّ زمنُ الكتمان وتطاول، حتّى اجتماعِه بإخوته ثانيةً

جملة: ﴿وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْۚ﴾ توكيد لجملة ﴿فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ﴾، وجزم الإبداء بـ (لم) لامتداد النّفي، وعدم تقييده بالحاضر، فقدِ امتدّ زمنُ الكتمان حتّى لقائِه الثّاني بإخوته؛ لكون نفي المضارع بـ (لم) يدلّ على التّكرار، والتّجدُّد، وتطاول المدّة واستمرارها[3].

إيثار لفظ (يُبدي) على (يُظهر):

الإبداء إظهار بيّن، وهو أليق في نفي إظهار مكنون قلبه

آثر النّظم الكريم التّعبيرَ بلفظ الإبداء على الإظهار، في قوله جلّ شأنه: ﴿وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْۚ﴾؛ لأنّ أصل الإظهار، يَدُلُّ على قُوَّةٍ وَبُرُوزٍ، وظَهَرَ الشَّيْءُ: إِذَا انْكَشَفَ وَبَرَزَ[4]، ففيه قوّةٌ وبُروزٌ، أمّا الإبداء، فيدلُّ على الظّهور البيّن[5]، فنفي الإبداء في الآية، يدلّ على عدم الإظهار البيّن، ومعنى ذلك أنّه لم يظهرها لا بالقول ولا بالفعل[6].

وقد يكون نفيُ الإبداء مرادًا به انتفاءُ الإظهار البيّن، دون نفي أن يكون قد أظهر شيئًا خفيفًا، إشارةً إليهم برفضه مثل ذلك الاحتجاج والقياس. وأيضًا؛ فإنَّ الإعلان عمّا في النّفس يناسبه لفظ الإبداء، لما فيه مِن قُوّة في معنى الإظهار والإعلان، وعزمٍ عليه، تقابل قوّة الإخفاء وشِدَّته، والعزم على عدم إظهاره، بحسبِ مكان الإخفاء ومدى قدرته على ستر المراد، وليس شيءٌ أخفى ممّا تضمره النّفس وتحافظ عليه، وهذا فيض ممّا يدلّ له قولُه تعالى: ﴿وَإِن تُبْدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ﴾ [البقرة: 284]، وعادةً ما يقابل

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/298.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/179.
(3) فاضل السّامرائيّ، معاني النّحو: 4/193 - 195.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ظهر).
(5) الرّاغب، المفردات: (بدا).
(6) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/298.

الإبداء بالإخفاء في القرآن الكريم، ولم يرد أبدًا مقابلتُه بالإظهار؛ لأنّه الأقدر على مقابلة الأخفى. كما أنّ لفظ الإبداء - أيضًا - قد يحمل معنى المفاجأة، كما في قوله تعالى: ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُواْ يَحْتَسِبُونَ ۝٤٧﴾ [الزمر: 47]، وعليه فإن قوله ﴿وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْۚ﴾ أي: لم يفاجئهم بإظهار ما ليس في حسبانهم، إرجاءً له إلى وقت المواجهة والمصافاة، التي أعلنت عنها السّورةُ الكريمة فيما بعد.

بلاغة الطّباق:

إظهارُ صبرِ الأنبياء على تحمّل الأذى

الجمع بينَ الفعلين المتضادّين: ﴿فَأَسَرَّهَا﴾ و﴿يُبْدِهَا﴾، يُظْهِرُ صبرَ يوسفَ عليه السلام على أذى إخوته، بتوكيد الإسرار وعدم الإبداء حتّى يحين أوانُه، وتتحقّقَ غايتُه.

نُكْتَةُ التّعبيرِ بشبه الجملة ﴿لَهُمْۚ﴾:

كَتْمُ الغضبِ عنِ الّذين أثاروا الحفيظةَ، هو موطِنُ الثّناءِ بالكَظْم

علّق النّظم الجليل فعلَ الإبداء بشبه الجملة المتضمّنة ضميرَ إخوته، في قوله جلّ شأنه: ﴿وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْۚ﴾، فجعل انتفاءَ الإبداء متعلّقًا بهم على الخصوص؛ لأنّ عدم الإبداء للّذين أثاروا غضبَه، وأساؤوا إليه، هو موطن الثّناء عليه بشدّة الكَتم؛ فمَن أثار غضبَه في نفسه هُم، فيكون إظهارُ ذلك لغيرهم أو نفيُه، ليس ذا فائدة أو دلالة على حُسن خُلُق أو سُوئِه، بلِ الأمر يتعلّق بهم، فإخفاؤه التّأثّرَ بما قالوا أثناءَ قولِهم ذلك، هو المقصود بالثّناء.

بلاغة الاستئناف:

بيان حكاية السّرّ الّذي قاله في نفسه

الجملة في قوله جلّ شأنه: ﴿قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًاۖ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾ استئنافيّة استئنافًا بيانيًّا، سيقت كجواب لسؤال، "فكأنّه قيل: فما قولتُه التي أسرّها في نفسه؟ فقيل: ﴿قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًاۖ﴾ أي: مِن يوسف وأخيه؛ لأنّ ما نُسِب إليهما مِنَ الشّر إنّما هو ظاهرٌ لأمر خيرٍ اقتضاه، وأمّا أنتُم ففعْلَتُكم بيوسفَ شَرٌّ مقصود منكم ظاهرًا

وباطنًا"[1]. فهذه الجملة مقولٌ في النّفس؛ لأنّ الإسرار يقتضي عدمَ الإظهار، فهي قولٌ قيلَ في نفسه دون لفظه، فهي تفسيرٌ لِما أسرّه، "أي: قال في نفسه: أنتُم شَرٌّ في مكانتكم ومنزلتكم ممّن تُعَرِّضون به، أو تفترون عليه؛ إذ إنّكم سرقتُم مِن أبيكم أحبَّ أولادِه إليه، وعرّضتُموه للهلاك والرّقّ، وقلتُم لأبيكم قد أكلَهُ الذّئبُ"[2].

دلالة الضّمير ﴿أَنتُمْ﴾:

آثر النّظم الكريم التّعبيرَ عنهم بالضّمير المفصول ﴿أَنتُمْ﴾ في قوله جلّ شأنه: ﴿قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا﴾؛ لأنّه قصد توجيه الخطاب إليهم تعيينًا لهم بما سيخبِر به، وفيه تأكيدٌ لكونهم كذلك، أي: أنتُم لا غيرُكم.

تعيين المخاطب بالخطاب، تنبيهًا على قصده بالإخبار

سرّ تنكير لفظي: (الشرّ) و(المكان):

آثر النّظم الكريم التّعبيرَ بصيغة التّنكير في (الشّر) و(المكان)، في قوله جلّ شأنه: ﴿قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا﴾؛ تعظيمًا لشأن المذكور، فالشّرُّ الذي هم عليه ويتّصفون به لهو شَرٌّ عظيم؛ "لأنّكم أنتُم مَنْ أخذتموني طفلاً لألعب؛ ثمّ ألقيتموني في الجُبِّ؛ وتركتُم أبي بلا مُؤانسة، وأنا لم أسرقْ، بل سُرِقتُ، وهكذا سرقْتُم ابنًا مِن أبيه"[3]، فأيّ شرٍّ بعد ذلك الشّرّ؟! فأنتُم في شرّ ومكان عظيمين.

جناية سرقة الابن مِن أبيه، هي شَرٌّ عظيم، لا يليق ببيت النّبوّة

بلاغة الاستعارة:

استعار النّظم الجليل لفظَ المكان في قوله جلّ شأنه: ﴿قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا﴾، والمراد به الحالةُ والمكانةُ، فأَطلقَ "المكانَ على الحالة، على وجه الاستعارة، والحالةُ هي السّرقةُ، وإطلاق المكانِ والمكانةِ على الحالة شائع"[4]، ونسبةُ الشّرِّ إلى المكان دونَ الإخبار عن كونهم

وَصْفُ المكانِ بالشّرّ، يفصح عن الشّرّ الحالّ فيه

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/179.
(2) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 13/24.
(3) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 11/7032.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/35.

أشرارًا، على الطّريقة المباشرة، أبلغُ في وصفهم بالشّر، فإذا كانت سرقتُهم وحالتُهم أكثرَ شَرًّا مِن سرقات غيرِهم، فهذا يدلّ على المبالغة في كونهم أشرارًا بالذّات والصّفات.

دلالة العطف بالواو:

عطفُ الجُمَل يُبيّن أنّها جاءت في سياق واحد

الجملة في قوله جلّ شأنه: ﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾، معطوفة على قوله تعالى: ﴿قَالَ أَنتُمۡ شَرّٞ مَّكَانٗاۖ﴾، فهي معطوفة على مقولِ القَوْلِ[1]، فتكون كِلَا الجملتين مِن مقوله، وفي الجملة الثّانيَة معنى التّذييل، بمعنى أنّ اللّه تعالى أعلمُ بصِدقِكم فيما وَصَفْتُم أو بكذبِكم، والمراد: أنّه عالم بشأنهم وكَذِبِهم[2].

سرّ التّصريح باسم الجلالة:

التّصريح بلفظ الجلالة يُعَظّم مضمونَ الكلام

آثر النّظم الكريم التّصريحَ بلفظ الجلالة، في قوله جلّ شأنه: ﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾؛ تنويهًا بأنّ اللّه الذي له العلم المحيط الكامل، عليمٌ بما تقولون وتصفون كاذبين[3]، تعظيمًا لشأن عِلْمِه، وقُوّةِ إحاطته.

دلالة التّعبير باسم التّفضيل:

صيغة التّفضيل متجرّدةٌ للمبالغة، في أوصاف الجليل

عبّر النّظم الكريم باسم التّفضيل ﴿أَعۡلَمُ﴾ في قوله جلّ شأنه: ﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾، أي: "عالمٌ علمًا بالغًا إلى أقصى المراتب، وبأنّ الأمرَ ليس كما تصفون مِن صدور السّرقةِ منّا، بل إنّما هو افتراءٌ علينا، فالصّيغةُ لمجرّد المبالغة، لا لتفضيل عِلْمِه ﷻ على علمهم"[4]، فاسمُ التّفضيل مسلوبُ المفاضلة عند تعلّقه بصفات الجليل؛ إذ لا صفةَ لأحد هي في مكانةٍ بحيث تُقارَن بصفاته تعالى.

(1) محمود صافي، الجدول في إعراب القرآن: 7/40.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/36.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/180.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/299.

نُكْتَةُ إيثارِ الموصول (ما):

بيان أنّ عمومَ الأقوالِ والأفعال، معلومةٌ لله تعالى، مكشوفةٌ له

عبّر النّظم البليغ باسم الموصول (ما) في قوله جلّ شأنه: ﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾، وصلته الجملة الفعليّة مِن الفعل والفاعل ﴿تَصِفُونَ﴾، والعائد محذوفٌ، تقديره: بما تصفونه[1]، ودلّ التّعبير بـ (ما) على العموم، فالمعنى: أنّ اللّه تعالى يعلم عمومَ ما تقولون وما تكذبون، ولا تخفى عليه منكم خافية.

دلالة الفعل ﴿تَصِفُونَ﴾:

الكلامُ الحامِلُ دليلَ كونِه كذبًا، يُطْلَق عليه أنّه وَصْفٌ لا كلام

عبّر النّظم الكريم بالفعل (يصف) في قوله جلّ شأنه: ﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾، مُطْلِقًا إيّاه على الكلام الذي أَجْرَوْهُ على لسانهم" أي: إنّه سبحانه أعلمُ بما تنعتون، وتظهرون مِنَ العلامات والسِّمات، وغُلّبت كلمةُ ﴿تَصِفُونَ﴾ على الكلام. ومثالُ هذا هو قولُ الحَقّ سبحانه: ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلۡسِنَتُكُمُ ٱلۡكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٞ وَهَٰذَا حَرَامٞ﴾ [النحل: 116]، أي: أنّ ما تقولونه يُوحِي مِن تلقاء نفسه أنّه كَذِبٌ، وهكذا نعرف أنّ كلمة (تَصِف)، وكلمة (تصفون)، غُلّب استعمالُهما للكلام الذي يحمل معه دليلَ كَذِبه"[2]، فَجَرّدَ مقولهم مِن كونه كلامًا إلى كونه وصفًا؛ لما في قلوبهم وظنونهم، وهذا إشارةٌ إلى أنّه كذبٌ لا صِحّةَ له في الواقع.

وجه جمع الفعل وصوغِه مضارعًا:

بيان أنّ الله يعلم ما يصف جميعُهم، على الدّوام

التّعبير بالمضارع ﴿تَصِفُونَ﴾ فيه دلالةٌ على دوام علمه تعالى بما يصفون، وإن استمرّ وتطاوَل. فُرادى كانوا أو مجموعين.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

أبدى وأظهر وأعلن:

بَدَا الشّيء بُدُوًّا وبَدَاءً، أي: ظهر ظهورًا بيّنًا[3]، والإِعْلانُ:

(1) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 14/73.
(2) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 11/7033.
(3) الرّاغب، المفردات: (بدا).

الـمُجاهرة[1]. وأعلنته أنا، إذا أظهرتُه[2]. والظُّهور أَصْلُه يَدُلُّ عَلَى قُوَّةٍ وَبُرُوزٍ، مِنْ ذَلِكَ: ظَهَرَ الشَّيْءُ يَظْهَرُ ظُهُورًا، فَهُوَ ظَاهِرٌ، إِذَا انْكَشَفَ وَبَرَزَ[3]. وفي الآية عبّر عن نفي الإبداء لبيان انتفاء الإظهار البيّن، فكأنّه أظهر شيئًا خفيًّا، إشارةً إليهم برفضه مثلَ ذلك الاحتجاجِ والقياس.

الإبـــداء هـو الإظـهـار البـيّن، فــهــو أخـــصّ مِــنَ الإظـهـار، والإظـهـار مطلق الكشف

(1) ابن منظور، اللّسان: (علن).
(2) الجوهريّ، الصّحاح: (علن).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ظهر).

﴿قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبٗا شَيۡخٗا كَبِيرٗا فَخُذۡ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٧٨﴾ [يوسف: 78]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لمّا أظهروا العذرَ، ألحقوا به الالتماسَ للصّفح عنه، اعتبارًا لشيخوخة أبيه الحزين

بعد بيان العذرِ عمّا صدر مِن أخيهم، شرعوا في استعطاف العزيزِ ليُطلِقَ لهم أخاهم، ليرجعوا به إلى أبيه؛ لأنّه كان قد أخذ عليهم الميثاقَ بأن يَرُدّوه إليه[1]، فكأنّه بعد حكاية قولهم ذلك قيل: هل كان ذلك كلّ اعتذارِهم، وبيانِ موقفهم فاقتصروا عليه؟ فقيل: لا، بل التمسوا لما يغنيهم، بأن خاطبوا العزيزَ بشأنه بما يَرِقُّ لهم[2]. وعرضوا عليه أن يأخذ واحدًا منهم مكانه، كي يصدِّقَهم ويثقَ في تبريرهم، ويقبلَ استرحامَهم واستعطافَهم بأبيهم الكبيرِ المكلوم، وبكونه مِنَ المحسنين، فيتركَ لهم أخاهم.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿شَيۡخٗا﴾: اسمٌ جَذْرُهُ (شيخ)، أصلٌ واحدٌ. تَقُولُ: هُوَ شَيْخٌ، بَيِّنُ الشَّيْخُوخَةِ، والشَّيَخِ، والتَّشْيِيخِ[3]. ويُقالُ لِمَنْ طَعَنَ في السِّنِّ شَيْخٌ[4]، وهو الذي استبانت فيه السِّنّ، وظهر عليه الشّيبُ، والشّيخوخَة: جفافُ البدنِ، وذبولُ نضارتِه؛ لذهاب طراءة الشّباب وغضاضته مِن أثنائه[5]. وقد جاء هنا بهذا المعنى.

2) ﴿ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾: الحُسْنُ ضِدُّ القُبْحِ[6]، والمحاسنُ مِنَ الأعمال:

(1) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 13/24.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/180.
(3) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (شيخ).
(4) الرّاغب، المفردات: (شيخ).
(5) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (شيخ).
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حسن).

ضِدُّ المساوئ، وهو كلُّ مُبْهِجٍ مرغوبٍ فيه، وهو بمعنى: النّقاء، بخروج الخشن أو الغليظ، والإحسان: يقال على وجهين؛ أحدهما: الإنعام على الآخرين، يقال: أَحْسِن إلى فلان. والثّاني: إحسان في فعله، وذلك؛ إذا عَلِمَ عِلْمًا حسنًا، أو عَمِلَ عملًا حسنًا[1]، وكلُّ ما جاء في القرآنِ من هذا التركيبِ فأصلُه مِنَ النَّقاء الظَّاهريِّ والباطنيّ، ويُفَسَّر بالطّيِّب المُستحلَى، أو المستحبِّ، صورةً كان، أو مُقامًا، أو قولًا، أو عملًا، أو أداءً، أو تصرّفًا، ومعاملة مع النّاس[2].

المَعْنى الإجْماليُّ:

قال إخوةُ يوسفَ ليوسفَ: أَيُّها العَزيزُ، إنَّ له والدًا شيخًا طاعنًا في السِّنِّ يُحِبُّه كثيرًا، فأَمْسِك أَحَدَنا بَدَلًا منه، إنَّا نَراك مِنَ المُحْسِنينَ في مُعامَلَتِنا ومُعامَلَةِ غَيْرِنا، فَأَحْسِنْ إلينا بذلك[3].

استثمروا إحسان يوسف عليه السلام ليستعطفوه

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

وجه نداء يوسف بصفة العزيز:

بيّن النّظمُ الجليل أنّهم خاطبوا العزيزَ بندائه، إذ قالوا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ﴾؛ وذلك أنّهم بعد أن أُسْقِطَ في أيديهم، وشاهدوا مخايلَ أَخْذِ بنيامين منهم، أُحوِجُوا إلى إظهار الاستعطاف[4]، فإنّ نداء القريب ذي المكانة ومَن له الأمرُ، إنّما يُراد لإثارة عاطفته تجاهَهم؛ ليحقّقوا مآربهم، وقد نادَوه بوصف العزيز مِن باب مخاطبة الأكابر بما يليق مِنَ الأوصاف، والغايةُ مِن ذلك أن يَرِقَّ لهم[5].

النّداء بحسن الوصف، يُثيرُ عاطفةَ المخاطَب

(1) الرّاغب، المفردات: (حسن).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (حسن).
(3) ابن جرير، جامع البيان: 12/202، والزّجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 3/123، وجماعة من العلماء، المختصر في تفسير القرآن الكريم، ص: 244.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/299.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/180.

إيثار لفظ ﴿ٱلۡعَزِيزُ﴾:

نداء المرء بالصّفة المناسبة للسّياق، مِن فصيح البيان

آثر النّظم الكريم النّداءَ بصفة العزيز دون غيرها، في قوله جلّ شأنه: ﴿قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ﴾؛ لأنّهم خاطبوه بالوصف الذي يُبَاشِر به قضيَّتَهم، فنادَوه بالعزيز "إمّا لأنّ كلّ رئيسِ ولايةٍ مهمّةٍ يُدْعَى بما يُرادِف العزيزَ، فيكون يوسفُ عليه السلام عزيزًا، كما أنّ رئيس الشّرطة يُدْعَى العزيز، كما تقدّم في قوله تعالى: ﴿ٱمۡرَأَتُ ٱلۡعَزِيزِ﴾ [يوسف: 30]، وإمّا لأنّ يوسف ضُمّت إليه ولايةُ العزيزِ الذي اشتراه، فَجَمَع التّصرفاتِ، وراجعوه في أَخْذِ أخيهم"[1].

بلاغة التّوكيد بـ ﴿إِنَّ﴾، والجملة الاسمّية:

تأكيد الخبر، رَدًّا لإنكار استحقاقِ الاستعطاف

أورد النّظمُ الكريم الجملةَ في قوله جلّ شأنه: ﴿إِنَّ لَهُۥٓ أَبٗا شَيۡخٗا كَبِيرٗا﴾ اسميَّةً مصدَّرَةً بحرف التّأكيد ﴿إِنَّ﴾؛ تأكيدًا لمضمون الجملة، وتقويةً للخبر؛ لأنّ السّارق قد جرت العادةُ أن لا يُرَقّ له، فإنّ ذلك ممّا لا يُتصوّر، وهو بالإنكار أجدر، فجاء التّوكيدُ ردًّا لذلك الإنكار.

سرّ تقديم شبه الجملة ﴿لَهُۥٓ﴾:

اختصاص الأب بالابن دونَ غيره، يُفْصِح عن شِدّة الحُبّ، وانتفاءِ الصّبر عنه

قدّم النّظمُ الجليل المسَندَ شبهَ الجملةِ، على المسنَد إليه، في قوله جلّ شأنه: ﴿إِنَّ لَهُۥٓ أَبٗا شَيۡخٗا كَبِيرٗا﴾، وأصل الكلام: (إنّ أبًا له)؛ وذلك اهتمامًا بمكانته لدى أبيه، أي: هو "مُغْرَم به، لا يَقْدِرُ على فِرَاقه، ولا يَصْبِر عنه"[2]، فأفاد التّقديمُ تخصيصَ الأب به؛ لأنّه جاء في سياق الاستعطاف، فكأنَّ الأبَ هذا خاصٌّ به؛ لشِدّة محبّتِه له.

نُكْتَةُ العدول مِنَ التّصريح إلى الإضمار:

آثر النّظمُ الكريم ذِكْرَ الأخِ بالضّمير، في قوله جلّ شأنه: ﴿إِنَّ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/36.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/180.

لَهُۥٓ أَبًا شَيۡخًا كَبِيرًا﴾، دون لفظ الأُخُوّة، بأن يقولوا: (إنّ لأخينا)؛ لأنّهم قد أُسْقِطَ في أيديهم، وبُهِتُوا بكونه هو السّارقُ، فأَضْمَروا ذِكْرَه؛ تقليلًا لشأنه، "أي: هذا الّذي وُجِدَ الصُّواع في رَحْله"[1]، وإبرازًا للصّفات الثّلاث التي هي مَظِنّة تحقيقِ الاستعطاف. وصفةُ الأُخُوَّة هنا باتت لا تنفع في شيء، فأعرضوا عن ذِكْرها، كما أنّ في الإعراض عن ذِكْرها بعدَ أن تبيّن لهم أنّه هو السّارق إنزالُه عن رُتبَة الأُخُوّة؛ حفظًا لنزاهتِهم التي أشادوا بها أوّلَ الأمر.

الإضمارُ يقلّل شأنَ المذكورِ، والإعراضُ عن كونه أخاهم حفظًا لنزاهتهم

سرّ جمعِ ثلاثِ صفاتٍ مُنَكَّرَة:

أُورِدَ في قوله جلّ شأنه: ﴿إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيۡخًا كَبِيرًا﴾، ثلاثُ صفاتٍ مُنكَّرةٍ؛ إظهارًا للاسترحام والاستعطاف، فجَمْعُ هذه الصّفاتِ الثّلاث يقتضي التّرقيقَ عليه، وهي: الأُبُوَّة، والشّيخوخةُ، وكونُه كبيرًا في مكانته وعُمُره، فالأوصافُ مسوقةٌ للحَثّ على فَكّ أخيهم[2]؛ لأنّها جمعت كلَّ أسبابِ الاسترحام والاستعطاف.

تنكير الصّفاتِ وحشدُها، أبلغُ في استجلاب المقصود

إيثار لفظي ﴿شَيۡخًا كَبِيرًا﴾، على (عجوزًا):

آثر النّظم الكريم التّعبيرَ بالكبير دونَ العجوز، في قوله جلّ شأنه: ﴿قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيۡخًا كَبِيرًا﴾؛ لأنّ الوصفَ بالكِبَر أوسعُ في الدّلالة، فتَحْتَمِل الكِبَرَ في السّنّ والكِبَر في المكانة، فيكون أدعى للعفو والصّفح[3]، فصِفةُ الكبير "قد تكون ترقيقًا بالعزّة، أو ترقيقًا بالضّعف، أي: إنّ له أبًا شيخًا كبيرًا عظيمًا في قومه؛ وحين يَبْلُغُه أنّ ابنَه قدِ احتُجِزَ مِن أجل سَرقةٍ، فهذا أمرٌ مؤلمٌ؛ ولكَ أن تُقدِّر ذلكَ، وأنتَ عزيزُ مصرَ، ونرجو أن تحفظَ للأبِ شَرفَه ومَجْدَهُ وعَظَمَتَه، واسْتُرْ ذلك الأمرَ مِن أجل خاطرِ ومكانةِ والده.

الشّيخ الكبير، أوسع في الدّلالة مِنَ العجوز، وأبلغ في الاستعطاف

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/180.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/36.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 18/491.

أو أن يكون قولهم مقصودًا به: إنّ الأبَ شيخ مُهَدَّم، لا يحتَمِل الصّدمةَ، وخصوصًا أنّ له ابنًا قد فُقِد"[1]، وهذا الثاني أولى؛ لأنَّ معهود القرآن في التّعبير بلفظ (شيخ) في جميع موارده، أن يُرادَ به كبيرُ السّنّ، لا غير.

وجه العدول عن عطف الصّفات الثّلاث بالواو:

إيراد الأوصاف بلا عطف، يُفصِح عن استقلالها بجدارة الاستعطاف

عَدلَ النّظم الجليل عنِ العطف في سرد الصّفات الثّلاث في قوله جلّ شأنه: ﴿إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيۡخًا كَبِيرًا﴾؛ تنبيهًا على أنّ كلّ وَصْف مِن تلك الأوصاف كافٍ بالاستعطاف والاسترحام[2]، كما أنّ العطف بالواو يَدلُّ على المغايرة، فلو قال: (إنّ له أبًا وشيخًا وكبيرًا)، لدَلّ على أنّهم ثلاثة أشخاص، وهذا أضعفُ في الاستعطاف، فَجَمْعُ الصّفاتِ في شخصٍ واحد أبلغُ في إثارة عاطفةِ السّامع.

بلاغة الإطناب:

كثرة الأوصاف مع إمكان الاستغناء عنها، إطنابٌ يؤكّد الاستعطاف

جمع النّظم الكريم بين وصفين في قوله جلّ شأنه: ﴿إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيۡخًا كَبِيرًا﴾، فالشّيخ يغني عن الكبير، فذِكْرُ الصّفتين إطنابٌ، والغرضُ منه: الاسترحامُ والاستعطاف؛ لأنّ كِبَر السّنِّ معلومٌ مِن إيراد لفظ الشّيخ[3]، وفائدةُ هذا الإطناب: تقويةُ أسبابِ الاستعطاف، وفيه تأكيدٌ على صفة الكِبَر في السّنّ، ولفتُ النّظرِ إليها.

دلالة الفاء في: ﴿فَخُذۡ﴾:

تفريع الطّلب على مقدّماته، مِن فصيح البيان

فرّع النّظمُ الكريم طلبَهم أن يأخذ أحدَهم مكانَه في قوله جلّ شأنه: ﴿فَخُذۡ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ﴾ بالفاء العاطفة التّفريعيّة[4]؛ لأنّ هذا الطّلبَ مترتّبٌ على مقدّمة الاستعطاف، بسرد الصّفات الثّلاث في قولهم المحكيّ في المنظوم البليغ: ﴿إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيۡخًا كَبِيرًا﴾.

(1) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 11/7034.
(2) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 10/396.
(3) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 14/83.
(4) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 14/74.

دلالة فعل الأمر: ﴿فَخُذۡ﴾:

التماسُ ورجاءُ تحقيقِ الاستعطاف، بفعل الطّلب

فعل الأمر ﴿فَخُذۡ﴾ في قوله جلّ شأنه: ﴿فَخُذۡ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ﴾ مستعملٌ للعَرْض والالتماس؛ ولا يدلّ على الإلزام؛ لأنّه صادر ممّن هو أدنى رُتبةً في ميزان النّاس إلى مَن هو أعلى رتبةً، ومثلُه يُسَمَّى التماسًا أو رجاءً، وجِيء بفعل الأمر هنا دونَ غيرِه مِن صيغ الطّلب؛ لأنّه أسرعُ في بيان المطلوب، بوصفه طلبًا مباشرًا بالفعل الصّريح.

بلاغة المجاز في ﴿فَخُذۡ﴾:

فعل الأخذ مجاز، في المبالغة في طلب العفو

بيّن بعضٌ مِن أئمّة التّفسير أنّ فعل (الأخذ) في قوله جلّ شأنه: ﴿فَخُذۡ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ﴾، يحتمل أن يكون مجازًا، فيكون مستعملًا في غير ما وُضِعَ له مِنَ الأخذ والتّناول، فهو كما "تقول لمن تكرَهُ فِعْلَه: اقتلني ولا تفعل كذا وكذا، وأنت لا تريد أن يقتلكَ، ولكنّكَ تُبالِغ في استنزاله"[1]، فيكون طَلَبُ الأخذ مجازًا في الحَثّ على العفو عنه، بأن يكون استعارةً تبعيَّة، وقد يكون كنايةً عن هذا الاستعطاف والرّجاء.

وجه التّعبير بـ (أحد):

التّعبيرُ بالأحد أدلّ على تحقيق المعاوضة بلا مُزايدة

آثر النّظم الكريم التّعبير بـ ﴿أَحَدَنَا﴾ دون (واحد) في قوله جلّ شأنه: ﴿فَخُذۡ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ﴾؛ لأنّ الواحد: أوّل العدد[2]، و"الفَرْق بَيْنَ الْوَاحِدِ والْأَحَدِ: أَنَّ الأحَد بُنِي لنَفي مَا يُذْكر مَعَه مِنَ العَدد، تَقُولُ: مَا جَاءَنِي أَحَدٌ، وَالْوَاحِدُ: اسمٌ بُنِيَ لِمُفْتَتَح الْعَدَدِ"[3]، فلمّا طلبوا منه أن يأخذ أحدَهم، كأنّه طُلِبَ أن يكون العوضُ واحدًا فقط، ولو قالوا: (واحدًا) لاحتمل أنّهم يُشيرون عليه بقبول المزايدة، فلو طلبوا اثنين منهم فإنّهم يقبلون، وليس هذا المراد، بلِ المراد هو إبداءُ فكرةِ المعاوضة مِن حيثُ المبدأ.

---

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/268.

(2) الجوهريّ، الصّحاح: (وحد).

(3) ابن الأثير، النّهاية في غريب الحديث والأثر: (وحد).

بلاغة المجاز في ﴿مَكَانَهُۥٓ﴾:

لفظ المكان يدلّ على العوض؛ لوضع المعوَّض به مكانَ المعوَّض عنه

استعمل النّظم الكريم لفظَ المكانِ تعبيرًا عنِ العوض، في قوله جلّ شأنه: ﴿فَخُذۡ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ﴾، والمكان "أصلُه محلُّ الكونِ، أي: ما يستقرّ فيه الجسمُ، وهو هنا مجازٌ في العِوض؛ لأنّ العِوَضَ يَضَعُهُ آخِذُهُ في مكان الشّيء المعوَّض عنه"[1].

بلاغة التّوكيد:

تأكيد الإجماع على شُهرة إحسانه، أبلغُ في تحقيق المطلوب

أكّد النّظمُ الجليل الجملةَ في قوله جلّ شأنه: ﴿إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ بـ (إنّ) الدّاخلةِ على ضمير الجمع؛ تأكيدًا لمضمونها، والجمعُ فيها يدلّ على المضمون موضعِ الاتّفاق، فيكون إحسانُه مؤكّدًا، طلبًا وحثًّا له لإنجاز مأمُوْلِهم واستعطافِهم.

نكتة التعبير بالفعل ﴿نَرَىٰكَ﴾ مضارعًا:

إحسانُه للنّاس معلومٌ، بحيث يُرى، والتّعبير به أدعَى للظّفر بالغاية

عبّر النّظم الجليل بفعل الرّؤية في قوله جلّ شأنه: ﴿إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾؛ للدّلالة على علمهم بأنّه محسنٌ، مبالغةً في بيان إحسانه، أي: "نعلَمُكَ علمًا هو كالرُّؤية، أو بحسب ما رأيناه"[2]، والعِلْم العينيُّ أبلغُ في الدّلالة على إثبات المعنى. ومجيءُ الفعل مضارعًا في ذلك المعنى يدلُّ على أنّ إحسانَه غيرُ منقطع، بل عادةٌ دائمةٌ فيه، متجدّدةٌ في كلّ زمان، وهذا أبلغُ في بيان إحسانه، وأدعى لفوزهم بغرضِهم مِنَ الاستعطاف.

سرّ إيثار التّعبير بـ ﴿مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾:

الوجدان في فئةٍ ما، أبلغُ مِنَ الاتّصاف بصفة تلك الفئة منفردًا

أدخل النّظم الجليل حرف الجرّ ﴿مِنَ﴾ على ﴿ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾، في قوله جلّ شأنه: ﴿إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾، دون أن يأتيَ التّعبيرُ: (إنّا نراك محسنًا)؛ وذلك أنّ الإخبار بكونه فردًا مِن فئة مشهورةٍ بالإحسان، أبلغُ مِن أن يُوصَف بالإحسان المباشر؛ إذ إنّ ذلك يتضمّن

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/37.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/180.

تزكيَةً له، وشهادَةً بحُسْن إحسانِه وقبولِه، بحيث إنّه قدِ استَحَقّ به أن يكون ضِمْنَ أولئك المشهورين به.

وجه تعريف: ﴿ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ بـ (الْ):

أورد النّظم الجليل صفةَ الإحسان معرّفةً، في قوله جلّ شأنه: ﴿إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾؛ للدّلالة على جنس المحسنين، أو المعهودين بالإحسان، أي: أنتَ مِنَ المحسنين "إلينا، فأتمم إحسانَك بهذه التّتِمّة، أو المتعوّدين بالإحسان، فلا تُغيّر عادتَك"[1].

مِنَ المحسنين المعهودين بالإحسان إلينا، أو مِن جنس المحسنين

سرّ التّعبير عن الإحسان، بصيغة اسم فاعل:

في قوله جلّ شأنه: ﴿مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾، عبّر باسم الفاعل عنِ الإحسان؛ للدّلالة على ثبوت صفة الإحسان فيه، أي: أنت مِنَ العريقين بهذا الوصف[2]، والغرضُ من ذلك: تأكيدُ حَثِّهِ، وترغيبُه بتحقيق مَرْجُوّهم منه.

جعل الصّفة راسخة في الموصوف، أبلغُ في حَثّه على الإيفاء بالصّفة

وجه التّعليل في جملة الفاصلة:

الجملة في رأس الفاصلة: ﴿إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾، جِيء بها للتّعليل، حَثًّا لإجابة المطلوب، "والتّقدير: فلا تَردَّ سؤالَنا؛ لأنّا نراكَ مِنَ المحسنين؛ فَمِثْلُكَ لا يَصْدُر منه ما يَسُوء أبًا شيخًا كبيرًا"[3]، كما أنّ فيها تعليلًا للطّلب، أي: إنّما طلبنا منكَ ذلك؛ لكونكَ مِنَ المحسنين الّذين يُظنُّ بهم إجابةُ اللهفان، وهذا سِرّ الفصلِ في جملة الفاصلة.

حُسْنَ الطّلبُ بتوكيل المطلوب، إلى حُسْنِ أوصافِ المسؤول

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/299.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/180.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/37.

﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأۡخُذَ إِلَّا مَن وَجَدۡنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذٗا لَّظَٰلِمُونَ ٧٩﴾ [يوسف: 79]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الـــــرّدُّ عـلى التـمـاسِ إخـوةِ يـوسـفَ، بـأنّ العدْلَ ألّا يُؤخذَ بـالـذّنـبِ إلّا المُذنبُ

لمّا ذكرَ في الآيةِ السّابقةِ استنْجادَهم بيوسفَ عليه السلام وتعطُّفَهم إليه أنْ يأخذَ منهم بديلًا عن أخيهم؛ لخصوصِ حالِه فيهم، أخبر هنا بجوابِ يوسفَ عليهم وموقِفِه مِن مَطلَبِهم.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾: (معاذ): مصدرٌ ميميّ بمعنى: العَوْذ والعِياذ، وأصلُ (عوذ) يدلّ على الالتجاء والاحتماء والملاذِ والاعتصام بالشيء، ومعنى ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾: أعوذ باللّه مَعاذًا، فحُذِفَ الفعلُ، وأنِيبَ بالمصدر، وأضيفَ المصدر إلى معمول الفعلِ المحذوف، و(المَعاذ): يصلحُ للمصدر واسم المكان واسم الزمان، أي: اعتنقتُ التعوّذَ وسيلةً للاحتماء، ولجأتُ إلى مكان التحصّن وأوانه[1].

2) ﴿مَتَٰعَنَا﴾: مِنْ (متع) وهو أصلٌ يدلُّ على طُولِ المُدّةِ في الخيرِ والمنفعةِ، ومنه المَتاعُ: اسمُ مصدرٍ يدلُّ على انتفاعٍ مُمْتَدِّ الوقتِ، واسْمٍ لِما يُنْتَفَع به، والمرادُ به هنا الصُّواعُ[2].

المَعْنى الإجْماليُّ:

امتنـاعُ القاضي مِن إدانةِ البريءِ في مكانِ المُجرمِ، ولو بِرِضَاه!

قال يوسفُ عليه السلام مُجيبًا على مَطلَبِهم باستردادِ أخيهم، وأخْذِ بديلٍ عنه منهم: نَعتصمُ باللّه ونَستجيرُ به مُنزِّهين أنفسَنا عن

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (عوذ)، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/37.

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحفّاظ، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (متع).

أن نأخذَ أحدًا غيرَ الذي وجدْنا المكيالَ عنده - كما حكمْتُم أنتم وأقررْتُم على ذلك - لأنّنا إنْ نفّذنا مُرادَكم نكونُ قد جانَبْنا العدْلَ والسَّدادَ في الحُكْم، بعقابِنا البريءَ وإطلاقِنا سراحَ الجاني، وإنْ حصلَ ذلك فنحن إذن لَظالمون.

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

نُكتةُ فصْلِ الآيةِ عمّا قبْلَها:

تَقدُّمُ الاستعاذةِ في كلِّ أمْرٍ مُحرِجٍ يأباه الشّرعُ، وتَنبذُه النّفسُ

فُصِلتْ جملةُ: ﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾ عمّا قبْلَها، ولم توصَلْ بعاطفٍ؛ لوقوعِها استئنافًا بيانيًّا ممّا قبْلَها، فهي واقعةٌ جوابًا عن سؤالٍ مُقدَّرٍ بعد قولِه: ﴿فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ﴾ [يوسف: 78]، فكأنّه سأل سائلٌ: فماذا كان جوابُه عليهم؟ فأجيبَ: ﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ﴾، وجملةُ الاستئنافِ البيانيِّ تُفصَلُ ولا تُوصَلُ بالعاطفِ[1].

نُكتةُ التّعبيرِ بالمصدَرِ الميمِيِّ:

التماسُ التّحصُّنِ بالله، بأقْومِ الألفاظِ، حَصانةٌ ومَلاذٌ

قولُه تعالى: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾ مصدرٌ ميميٌّ نابَ عن فِعلِه: (أعوذ بالله)، ثمّ حُذفَ الفِعلُ وحُذفَ حرفُ التّعديةِ إلى المفعول، وأُضيفَ المصدرُ للمفعول: (مَعاذَ الله)، ونُكتةُ التّعبيرِ بالمصدرِ الميميِّ: الدّلالةُ على معنى الحدَثِ المجرَّدِ عنِ الزمن كما هو دَلالةُ جميعِ المصادرِ، وزاد المصدرُ الميميُّ دَلالةً على الذّات، فإنّ المَعاذَ يحملُ معه ذاتًا تُعيذُ وذاتًا تُعاذُ، ودَلالةً على تمامِ الحدَثِ وغايتِه، وهذه نُكتةُ إيثارِ التّعبيرِ بالمصدر الميميِّ دون غيرِه منَ المصادر كالعوْذِ والعِياذِ التي تدلُّ على الحدثِ مُجرّدًا من غيرِ اقترانِ معنىً إضافيٍّ به. وصيغةُ (مَفْعَل) هنا تصلحُ أيضًا أن تكونَ للمكانِ والزّمان، فتدلُّ على جهةِ العوْذِ وزمنِه، ليقعَ تعوُّذُه دالًّا على محلِّ التّوجّهِ وميقاتِ طلبِ الحمايةِ، فكأنّه قيل: هذا أوانُ التّعوّذِ ومُتَّجَهُه[2].

(1) البقاعي، نظم الدرر: 10/180.

(2) ابن منظور، اللسان: (عوذ)، وفاضل السامرائي، معاني الأبنية، ص: 31، ص: 26.

دلالة التّعبيرِ بالمصدرِ الميميّ:

تصويرٌ لمعنى المُتحقِّقِ لقيام معنى التعوّذ في قلبِ يوسف عليه السلام ولِسانِه

في قوله تعالى: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾ ذكر أبو زهرةَ في تفسيره توجيه التّعبيرِ بالمصدَرِ الميميِّ دونَ المصدَرِ المجرّدِ بقوله: "ولا شكَّ أنّ التّعبيرَ بالمصدرِ الميميِّ دونَ المصدَرِ الأصليِّ له معنى يُدركُه السّامعُ بذَوقِه، ولم نجدِ النّحويّين ولا البلاغيّين تَعرّضوا لبيانِ التّفرقةِ بين التّعبيرِ بالمصدَرِ الميميِّ وغيرِه؛ والذي يَتبدّى لنا ونظنُّه تفرقةً بينهما أنّ المصدرَ الميميَّ يُصوّرُ المعنى المَصدريَّ واقعًا قائمًا مُتحقِّقًا في الوجود، أمّا المصدرُ غيرُ الميميِّ فيُصوّرُ المعنى مُجرّدًا"[1].

فالتّعوّذُ باللّه قائمٌ متحقِّقٌ في خُلقِ يوسفَ عليه السلام صدّقَه الوِجدانُ، ولُفِظَ باللّسانِ، وجَسّده عملًا الجُسْمانُ[2].

دَلالةُ إضافةِ المصدَرِ، إلى اسمِ الذّات ﴿ٱللَّـهِ﴾:

إنّما العَوْذُ كُلُّه لله وبالله، ولا ضارَّ ولا نافعَ سِواه

قوله تعالى: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾، أضيفَ فيه المصدرُ إلى المفعول، وأفادتِ الإضافةُ تعريفَ المصدرِ وتعْيينَه، فهو عوْذٌ مُقيَّدٌ بأنّه باللّه العظيم، كما أفادتِ الإضافةُ الإيجازَ والتّخفيفَ، فأصلُ الكلام: معاذًا باللّه، لأنّه على معنى: أعوذُ باللّه مَعاذًا، فحذفَ التّنوينَ وحرفَ الجرِّ الدّالَّ على التّعديةِ والإلصاقِ، وأضاف المصدرَ لمفعولِه، فخَفَّ التّركيبُ، مع ما في إضافة المصدرِ إلى لفظ الجلالةِ من إفادةِ معنى القصْرِ؛ لأنّه لا تحصلُ الإعاذةُ على الحقيقةِ إلّا منه، وكلُّ مُعيذٍ أحدًا فبإعاذةِ اللّه أعاذَه.

وإضافةُ المصدرِ إلى اسْمِ الذّات ﴿ٱللَّهِ﴾ تدلُّ على تعظيم العوْذِ وكمالِه، إذْ أضيفَ إلى الكامل العظيم ﷻ، ولذا كانت الاستعاذةُ باللّه هي طلبُ أقصى درجاتِ الحمايةِ والعِصمةِ، كما يُستعانُ على

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 2/647.

(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 2/647، "والجُسْمانُ جِسْمُ الرجل، ويقال: إنه لنَحيفُ الجُسْمان"، يُنظر: ابن منظور، لسان العرب: (جسد).

تقرير الحصْرِ بِسَماعيّةِ التّركيب، فهذا التّركيبُ ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾ هو تركيبٌ متواترٌ منقولٌ على تلك الصّيغةِ منَ الإضافة، ولم تُسمَعْ إضافتُه لغير اسْمِ الجلالةِ[1].

الموقعُ النّحويُّ والبيانيُّ لجملةِ ﴿أَن نَّأۡخُذَ﴾:

جُملةُ: ﴿أَن نَّأۡخُذَ﴾ في محلِّ نصبٍ على نزع الخافض، والتّقديرُ: معاذَ اللّه مِنْ أنْ نأخذَ، أو في محل جرٍّ بالجارِّ المحذوفِ، أي: مِنْ أن نأخذ، ونُزِعَ الخافضُ لكثرةِ الاستعمالِ وأمْنِ اللَّبسِ، وللتّخفيفِ والاختصارِ والإيجازِ، ذلك أنّه لكثرةِ استعمالِ العوْذِ، وتعْديتِه بحرف جرٍّ متعيَّنٍ؛ وهو(مِنْ)، فلا يُتوهَّمُ التّعدّي بغيره، فيقال: دومًا: استعذتُ بكذا مِنْ كذا، فحُذِفَ الخافضُ بلاغةً لتوفُّرِ القرائنِ الدّالّةِ عليه، مع ما في الحذفِ من تمامٍ في الجرَسِ الصّوتيِّ عن إثباتِه[2].

مَـنْ قَـدَرَ على شيءٍ، فلا يأخذه إلّا بحقِّه

نُكتةُ نفْيِ فعْلِ الأخذِ دونَ كيفيّاتِه، وفي الحالِ والاستقبالِ:

في المصدَرِ المُؤوّلِ ولا سيما مع (أنْ) دَلالةٌ على مجرّدِ معْنى الحدثِ، دونَ احتمالٍ زائدٍ عليه، ففي ﴿أَن﴾ تحصينٌ مِنَ الإشكال، وتخْليصٌ له مِن شوائبِ الإجمالِ بتحديدِ هيئاتِ نفْيِ الأخذِ وكيفياتِه، وعلى أيّ وجهٍ سيحصلُ ذلك؛ فالجوابُ مُخصّصٌ عنِ التنزّه عن أخذ غيرِ المتَّهم فحسبُ[3]. فضلًا عمّا يحتملُه التّعبيرُ بالمصدرِ المُؤوّلِ من دلالة التّعوّذِ مِن فعلِ أخْذِ البريء حالًا واستقبالًا؛ فهو المناسبُ لخُلقِ الأنبياءِ عليهم السلام.

مـن أخـلاقِ الأنبياءِ الأثيرةِ، ألّا يُؤخذَ البريءُ بـذنْـبِ صاحبِ الجريرةِ

نُكتةُ التّعبيرِ بضميرِ العظَمةِ للمتكلّمِ:

جاء جوابُ يوسفَ عليه السلام مَسوقًا بضميرِ العظَمةِ للمتكلّم: ﴿نَّأۡخُذَ﴾، ﴿وَجَدۡنَا﴾، ﴿مَتَٰعَنَا﴾، ﴿إِنَّآ﴾، ﴿لَّظَٰلِمُونَ﴾، للدّلالة على أحد أمرَين:

لـيـس كـلُّ تعظيمٍ للنّفْسِ مَذمومًا، ولا كلُّ حمْدٍ لها مندوبًا

(1) ابن منظور، اللسان: (عوذ)، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/37.
(2) مكّي، مشكل إعراب القرآن: 1/393، والخطيب، التفصيل في الإعراب: 7/55.
(3) السّامرائي، معاني النحو: 3/149.

الأوّلُ: على المُشاركِ في القرارِ والحُكمِ وهم واضِعو أدبيّاتِ الدّولة، من أهل الحلِّ والعَقدِ، والمشرفون معه على تنفيذِها.

الثّاني: يعود الضّميرُ عليه وحدَه، والجمعُ للتّعظيم، لانتهاء الحُكم إليه، وتوقُّفِ الأمرِ عليه[1].

نُكتةُ التّعبيرِ عنِ الاسترقاقِ، أوِ الحبْسِ بالأخْذ:

حُسْنُ الجوابِ عن السّائلِ، كافٍ عنِ تَكرارِ السُّؤالِ في هذه المسائلِ

لم يقلْ في السّياقِ الكريمِ: (معاذَ اللّه أنْ نَسترِقّ أو نَسترهِنَ أو نُعاقِبَ أو نَحبِسَ..)، لنُكتتَين:

الأولى: موافقةُ اللّفظِ في سؤالهم، فإنّهم عبّروا بالأخْذِ في مطلبِهم له في قوله: ﴿فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ﴾ [يوسف: 78] فأجابَهم بما يوافق كلامَهم، ليدلَّ على أنّه يرفضُ عمومَ ما عبّروا عنه بالأخْذ، أيًّا كان الوجْهُ الذي سيقعُ عليه الاستبدالُ المَرجوُّ، وهذا مِن حُسْنِ الجوابِ وأسلوبِ الحكيمِ في الردّ على مَن يَسألُه، وهو أن يُجيبَ بنفسِ اللّفظ الذي استخدمَه السّائلُ، لِيقع جوابُه عليه على وَفْقِ مقصودِه لفظًا ومعنًى، لئلّا يُتوهّمَ أنّه أجاب على غير مقصودِ السّائل، ولا يتمُّ ذلك إلّا بتعْيين اللّفظ المُستعملِ دون غيره؛ لأنّ المقاصدَ والمعاني تتفاوتُ بتبايُنِ الألفاظِ والمباني.

الثّانيةُ: أنّ التّعبيرَ بالأخْذ أفادَ عُمومَ المُؤاخذَة على أيّ وجهٍ حصلَ ذلك، لأنّ الأخْذَ هو تناولُ الشّيءِ بحوْزِه وتحصيلِه والقبْضِ عليه، سواءٌ وقع ذلك على جهة التّراضي والاختيارِ أوِ القهْرِ والإكراهِ، فيدخلُ في لفظ الأخْذ حينئذٍ جميعُ وجوهِ العِقابِ وجميعُ وجوهِ البَدليّةِ في إحلالِهم محلَّ أخيهم، لتعميمِ عدمِ الجوازِ على كلّ حالٍ[2].

(1) الآلوسي، روح المعاني: 7/33، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/37.
(2) الرّاغب، المفردات: (أخذ)، والآلوسي، روح المعاني: 7/33.

معنَى الاستثناءِ المُفرّغِ، في سياقِ الآيةِ المُحكمِ:

قولُه تعالى: ﴿إِلَّا مَن وَجَدۡنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ﴾، استثناءٌ مُفرّغٌ، تفرّغَ فيه العاملُ ﴿نَأۡخُذَ﴾ للعملِ في المستثنَى بعد (إلّا) وهو ﴿مَن وَجَدۡنَا﴾، مع حذفِ المُستثنى منه، وصحَّ التّفريغُ، لكونِ العاملِ مَنفيًّا في معناه، لأنّ ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾ في معنى الامتناعِ والنّفي، فكأنه قيل: (لا نأخذ إلا من وجدنا)، وفائدة تفريغ الاستثناء: المبالغة في عموم القصر وشموله، وإجراء جملة الاستثناء مجرى القانون المطّرِد عنده، فلا يتخلّف إجراؤه مع كلّ أحد[1].

تَحرّي قصرِ الكلام ما أمْكَن، بشرْطِ وُضوحِه، وجَلاءِ مُؤدّاهُ

معنى ﴿مَن﴾، ونُكتةُ التّعبيرِ بالاسمِ الموصولِ، وبصلتِه:

المرادُ بـ ﴿مَن﴾ في قوله: ﴿مَن وَجَدۡنَا﴾: الموصوليّةُ، كأنّه قيل: إلّا الذي وجدْنا[2]. والتّعبيرُ بالموصولِ المشتركِ ﴿مَن﴾، دونَ الموصولِ الخاصِّ، فلم يقل: (الذي وجدنا)؛ لقصْدِ الإبهامِ والعمومِ في الحُكم المذكورِ، فهو يقرّرُ لهمُ الإجراءَ المُتَّبَعَ السّاري على كلّ أحدٍ، ويدخلون هم فيه دخولًا أوّليًّا مِن بابِ أَولى، ولذا كان التّعبيرُ بالموصول وصِلتِه مُفيدًا لِعلّةِ ما تضمّنَتْه الجملةُ مِن حُكمٍ، كأنّه علَّل رفْضَ مطلبِهم بكونِ عدمِ أخْذِ البديلِ خروجًا على القانون المُطّرِدِ المُضَمَّنِ معناه في حيّزِ الموصوليّةِ مِنَ الاسْمِ الموصول وصِلَتِه[3].

الشّريفُ لا يُحابي أحدًا بمنْصِبِه

نُكتةُ العُدولِ عنِ الفِعل (سرق)، إلى الفِعل ﴿وَجَدۡنَا﴾:

لم يقلْ في السّياق الكريمِ: (إلّا من سرق متاعنا)، بل عبّر بقوله: ﴿إِلَّا مَن وَجَدۡنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ﴾، وفي ذلك أربعةُ دلائلَ:

الأولى: الاحترازُ مِنَ الكِذَب، فعبّر بلفظٍ يُفيدُ التّعريضَ لا التّصريحَ، وفي المعاريضِ مندوحةٌ عنِ الكذبِ.

في المعاريضِ مندوحةٌ عنِ الكَذِبِ، وفي المجازِ ما يُغني عنِ النّشازِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/37، وفاضل السّامرائي، معاني النّحو: 2/249.
(2) صافي، الجدول: 13/41.
(3) عضيمة، دراسات لأسلوب القرآن: 1/264، وفاضل السّامرائي، معاني النّحو: 1/129.

الثانية: عدمُ الالتباسِ عند المُخاطَب، فإنّهم لا يحمِلون وِجدانَ المتاعِ في كلامه على غيرِ محمَلِ السَّرِقة، فحصلَ المقصودُ.

الثّالثةُ: موافقةُ ما عبّروا به في مَطلَبِهم وسؤالِهم، فإنّهم قالوا: ﴿فَخُذْ أَحَدَنَا﴾ [يوسف: 78] فأجابهم بالأخْذِ كذلك، مُوافَقةً لغرَضِهم لفظًا ومعنى، وهو من حُسنِ الجواب كما تقرّرَ مِن قبلُ[1].

الرّابعةُ: حسْنُ الأدبِ مِنَ المسؤول مع المُسيء، حِفظًا لمقامِه بعدم تنزّلِه في العبارة بغير مقتضى، فيختارُ أتمَّ العباراتِ في تحقيق المقصودِ.

سِرُّ التّعبيرِ عنِ (الصُّواع) بلفظِ (المتاع):

التّعبيرُ بالمتاع دون الصُّواع في قوله: ﴿وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا﴾ للمقابلةِ المعنويّةِ بين مضمون الأخذِ ومضمونِ المتاع، لاجتماع كلَيْهما في تقرير معنى الانتفاع، فإنّه لمّا أراد بالأخذ الاستعبادَ والاستخدامَ وهو أصلٌ في الانتفاع بالشّيء، وكان هذا الأخذُ جزاءً على سرقةِ الصُّواع الذي هو أداةُ انتفاعٍ في الكَيْل والمعيارِ، فقابَلَ انتفاعًا بانتفاعٍ، مُقابلةَ العقابِ لجنسِ الذّنْبِ[2].

العاقلُ ينطِقُ عن تُؤَدةٍ وتريّثٍ، فينتَقي ما يقولُ، ويَصطفي ما يَلفِظُ

نُكتةُ فصْلِ قولِه: ﴿إِنَّآ إِذًا لَّظَٰلِمُونَ﴾:

فُصِلتْ جملةُ: ﴿إِنَّآ إِذًا لَّظَٰلِمُونَ﴾ عمّا قبلَها، لوقوعِها جملةً تفسيريّةً لجملةٍ مُقدَّرةٍ مِن شرطٍ وجوابِه، على معنى: إنْ أخذنا بديلًا عنه ظلَمْنا[3].

ذِكْرُ التّعليل للسّائلِ، عندَ مَنْعِه ممّا يُؤَمِّلُ، لمزيدِ إيضاحٍ وإقناعٍ

غرَضُ توالي المُؤكِّداتِ في فاصلةِ الآيةِ:

في قوله تعالى: ﴿إِنَّآ إِذًا لَّظَٰلِمُونَ﴾ أراد تأكيدَ الجوابِ باللّام، و(إنْ)، ولامِ الابتداءِ المُزحلَقَةِ للخبر، و﴿إِذًا﴾ الجوابيّةِ، تحقيقًا لحصولِ ظُلْمِه على تقديرِ حصولِ الشّرط. والمرادُ: الكنايةُ عن

دفْعُ الشّبْهةِ والتُّهْمةِ بأوضحِ بيانٍ، من بليغِ البيانِ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السليم: 4/299.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 7/33.
(3) صافي، الجدول: 13/42.

عدْله وحِكْمته بوضع الأشياءِ في مواضعِها، وعدم الشّطَطِ فيها؛ لأنَّ المرءَ لا يرضَى أن يوصَفَ بالظّلم الذي هو وضْعُ الأشياءِ في غير مواضعِها، بسوء تقْييمِها وإساءةِ تقويمِها[1].

دَلالةُ ﴿إِذًا﴾ وغرَضُ تقديمِها على الخبر:

﴿إِذًا﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّآ إِذًا لَّظَٰلِمُونَ﴾ حرفُ جوابٍ لا عملَ له لتوسُّطِه وعدمِ صدارتِه، ومعناه: جوابٌ على القولِ، وجزاءٌ على الفعلِ الذي هو مضمونُ القول، وهو أخذُ البديلِ بالفعلِ، أي: إنْ فعلْنا ذلك إذن نظْلِمْ، والجوابُ والجزاءُ اعتراضٌ بين المبتدأ والخبرِ، وتوسّطَ بينَهما، لتقوية الإسنادِ بين المبتدأ والخبر وتأكيدِ مضمونِهما. ولم تتأخّر؛ مراعاةً للفاصلة، وتحقيقًا لمعناها الاعتراضيِّ التّأكيديِّ السّابقِ، بخلافِ ما لو تأخّرتْ بعدَ الخبرِ لكانت أضْعفَ[2].

مراعاةُ نيّةِ المتُكلّمِ، يُسَهّلُ إدراكَ مُرادِه، ويَبينُ عن قصْدِه ومُفادِه

نُكتةُ التّعبيرِ بلفْظِ (الظّلم)، مادّةً وصيغةً:

عبّرَ بالظّلم لكوْنِ الحُكْم على مُرادهم وضعًا للشّيء في غير موضعِه؛ إذْ هو خِلافُ مذهبِهم، وخلافُ ما أوحيَ إليه مِنَ الاحتفاظ بأخيه بِنيامين، وعبّرَ بصيغةِ اسمِ الفاعل ﴿لَّظَٰلِمُونَ﴾، للمبالغةِ في اتّصافِه بالظّلم، بإلصاقِ الظّلم بذاتِه في الحالِ والاستقبالِ وصفًا مُستمرًّا وثابتًا، وذلك بدلالة اسْمِ الفاعلِ على الحدَثِ والحدوثِ وذاتِ الفاعل، وأيضًا لمُراعاة الفاصلةِ، فإنّه لو قال: ظلَمْنا أو نظلمُ (بالفعليّة) لانخرمَتِ الفاصلةُ[3].

الظُّلمُ عاقبتُه وخيمةٌ، وظُلْمُ نَفْسٍ واحدةٍ، كظُلْمِ النّاسِ جميعًا

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الظُّلمُ والعُدوانُ:

يُفْصَلُ بين الظّلمِ والعُدوان بأنّ الظّلمَ: ما كان بغير حقٍّ بالكليةِ،

الظّلمُ أعمُّ والاعتداءُ أخصُّ، وكلاهما مفسدةٌ وأذًى

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/37، وصافي، الجدول: 13/42.
(2) فاضل السّامرائي، معاني النّحو: 3/346.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ظلم)، وفاضل السّامرائي، معاني الأبنية، ص: 41.

كأخْذ مالٍ بغيرِ استحقاقٍ لشيءٍ منه، وقتلِ نفسٍ لا يحلُّ قتلُها، وأمّا العُدوان: فهو مجاوزةُ الحدودِ وتَعدّيها فيما أصلُه مباحٌ، مِثْلُ أنْ يكون له على أحدٍ حقٌّ مِن مالٍ أو دمٍ أو عِرضٍ، فيستوفي أكثرَ مِمّا له، فهذا هو العُدوان، وهو تجاوزُ ما يجوزُ أخذُه، والقرآنُ صريحٌ في أنّ الاعتداءَ هو تجاوزُ الحدِّ فيما له أصلٌ صحيحٌ، ولذلك قال هاهنا: ﴿إِنَّآ إِذَا لَّظَٰلِمُونَ﴾؛ ولم يقل: (لَمُعتَدون)، لأنّ أخْذَ الغيْر بجنايةِ غيرِه لا أصلَ له صحيحٌ البتّةَ، فلا استثناءَ فيه. وأصلُ الظّلمِ عند أهل اللّغة وكثيرٍ مِنَ العلماءِ: وضعُ الشّيء في غير موضعِه المُختصِّ به، إمّا بنُقصانٍ، أو بزيادةٍ، وإما بعُدولٍ عن وقتِه، أو مكانِه. وأصلُ الاعتداءِ يدلُّ على تجاوُزٍ في الشّيءِ، وتَقَدُّمٍ لِما ينبغي أن يُقتصَر عليه، والخلاصةُ: أنّ الظّلمَ أعمُّ والاعتداءَ أخصُّ، والأوّلُ محظورٌ ليس فيه حقٌّ، والثّاني يعني تّخطّي الحقِّ إلى ما ليس حقًّا[1].

(1) ابن رجب، تفسير ابن رجب: 1/323، والسّمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (ظلم)، وابن فارس، مقاييس اللغة، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (عدو).

﴿فَلَمَّا ٱسۡتَيۡـَٔسُواْ مِنۡهُ خَلَصُواْ نَجِيّٗاۖ قَالَ كَبِيرُهُمۡ أَلَمۡ تَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ
أَبَاكُمۡ قَدۡ أَخَذَ عَلَيۡكُم مَّوۡثِقٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبۡلُ مَا فَرَّطتُمۡ فِي
يُوسُفَۖ فَلَنۡ أَبۡرَحَ ٱلۡأَرۡضَ حَتَّىٰ يَأۡذَنَ لِيٓ أَبِيٓ أَوۡ يَحۡكُمَ ٱللَّهُ لِيۖ
وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ٨٠ ٱرۡجِعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيكُمۡ فَقُولُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ
ٱبۡنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدۡنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمۡنَا وَمَا كُنَّا لِلۡغَيۡبِ حَٰفِظِينَ
٨١ وَسۡـَٔلِ ٱلۡقَرۡيَةَ ٱلَّتِي كُنَّا فِيهَا وَٱلۡعِيرَ ٱلَّتِيٓ أَقۡبَلۡنَا فِيهَاۖ وَإِنَّا
لَصَٰدِقُونَ ٨٢﴾ [يوسف: 80 - 82]

مُناسَبَةُ الآياتِ لِمَا قَبْلَها:

رَفْضُ ما طلَبوا لِبنيامين مِن سَراحٍ، وعلاقتُه بصيانةِ النّفسِ عنِ الإلحاحِ

لمّا ذكرَ اللّه تعالى في الآيةِ السّابقةِ رفْضَ يوسفَ عليه السلام لمطلَبِهم في إطلاق بنيامين عليه السلام أتبَعَ ذلك ببيانِ موقفِهم بعدَ ذلك، وتصرُّفِهم بناءً على تلك النّتيجةِ التي جدَّتْ لهم. قال البقاعيّ: " ولما أيّأسهم بما قال عن إطلاق بنيامين، حكى اللّه تعالى ما أثمرَ لهم ذلك من الرّأي فقال: ﴿فَلَمَّا ٱسۡتَيۡـَٔسُواْ﴾"[1]. وبعد أن رأى الأخُ الأكبر ما يفعلُ لنفسِه، رأى ما يفعلُ لإخوته فأمرهم بالرّجوع ليُعلِموا أباهم، ولمّا كانوا في غاية الثّقةِ من أنّ أحدًا منهم لا يلمُّ بمثلِ ذلك، أشاروا إليه بقولهم: ﴿وَمَا شَهِدۡنَآ﴾، أي: في ذلك ﴿إِلَّا بِمَا عَلِمۡنَا﴾[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿خَلَصُواْ﴾: مِنْ (خلص) وهو أصلٌ يدلُّ على تنقيةِ الشّيء مِن شَوْبِه، وتصفيتِه منه، فهو عزْلُ شَيءٍ عن شيءٍ بالتّصفيةِ والتّخليص، والمرادُ بـ ﴿خَلَصُواْ﴾ أي: انفرَدوا خالِصين عن غيرِهم.

2) ﴿نَجِيّٗاۖ﴾: مِن (نجو) وهو أصلٌ يدلُّ على الانفصالِ منَ

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 10/191.
(2) البقاعي، نظم الدّرر: 4/87 - 88.

الشّيءِ والتّفَصّي منه، ومنه النَّجِيّ: المُناجي، وهو المُشارِك في النّجْوى، والنّجْوى: المُسارّةُ؛ لأنّ المُتَناجينَ يخلُصُ بعضُهم إلى بعضٍ فينفصِلوا بحديثِ السِّرِّ عنِ الآخرين. والمرادُ بـ﴿نَجِيًّا﴾: مُتناجيْن[1].

3) ﴿أَبْرَحَ﴾: من (برح): أصلٌ يدلُّ على الزّوالِ عنِ الشيء ببُروزٍ وانكشافٍ، ومنه البَراحُ: وهو المكانُ المتّسعُ الظّاهرُ الذي لا بناءَ فيه ولا شجرَ، وبَرِح عنَ الشّيء: زالَ عنه وفارقَه. وما بَرِح: ثبتَ في البراحِ ولم يفارقْه. فـ (برح) تقتضي معنى النّفيِ والزّوال، فإذا دخلتْ عليها (ما) النّافيةُ، كان معناها الإثباتَ؛ لأنّ نفيَ النّفيِ إثباتٌ[2].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

فلمّا يئسوا من إجابةِ يوسفَ عليه السلام لمطلبِهم انفرَدوا عنِ النّاس يُناجي بعضُهم بعضًا، لِيتشاوروا فيما بينَهم: ماذا هم فاعلون؟! قال كبيرُهم في السِّنِّ: ألم تعلَموا أنّ أباكم قد أخذ عليكم العهدَ المُؤكَّدَ لَتَردُّنَّ أخاكم إلّا أن تُغلَبوا، ومِن قَبْلِ هذا كان تقصيرُكم في يوسفَ وغدْرُكم به؛ لذلك لن أفارقَ أرضَ (مصر) حتى يأذنَ لي أبي في مفارقتِها، أو يَقضيَ لي ربّي بالخروجِ منها، وأتمكّنَ مِن أَخْذ أخي، واللّه خيرُ مَن حَكَمَ، وأعدلُ مَن فَصَلَ بين الناس. ثمّ وجّهَهم فقال لهم: ارجِعوا أنتم إلى أبيكم، وأخبروه بما جرى، وقولوا له: إنّ ابنك (بِنْيامين) قد سرق، وما شهدنا بذلك إلا بعد أن تَيَقَّنّا، فقد رأينا - بأنفُسِنا - المكيالَ في رَحْلِه، وما كان عندنا اطّلاعٌ على الغيبِ أنه سيسرقُ حين عاهدناك على ردِّه. ولمّا رجَعوا وأخبَروا أباهم بما حدثَ، وطلَبوا منه أن يتأكّد - بنفسِه - ممّا أخبروه بهِ قائلين له:

إذا لم تُعطَ مَسألَتَك، فغادِرْ عن ساحَةِ مَنْ مَنَعَك، ولا تُهِنْ كرامتَك

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (خلص، نجو)، والسّمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (نجو)، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (خلص، نجو).

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات: (برح).

واسأل - يا أبانا - أهلَ (مصر)، ومَن كان معنا في القافلة التي عُدْنا فيها، وإنّا لَصادِقون فيما أخبرناكَ به[1].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

معنى الفاء في جملة: ﴿فَلَمَّا ٱسۡتَيۡـَٔسُواْ﴾:

المُشاوَرةُ دحضٌ لليأسِ ممّا لا يكونُ، إذْ ربّما أسلَسَ الحَرونُ

جملةُ ﴿فَلَمَّا ٱسۡتَيۡـَٔسُواْ﴾ معطوفةٌ على ما قبلَها، عطْفَ القِصّة على القِصّة، وهو عطفُ موقفِهم بعد يأْسِهم مِن تلبية مرادِهم، على موقفِ رفضِ مطلبِهم بإطلاق سراحِ أخيهم، والعطفُ بالفاء يدلُّ على فوريّة تلك المُراجعاتِ والمُباحثاتِ فيما بينَهم بمجرّدِ تحقُّقِهم مِن عدم إمكانيّةِ إطلاقِ سراحِ أخيهم[2].

معنَى ﴿فَلَمَّا﴾ في السّياق:

اصطفاءُ البِطانةِ العاقِلةِ في لحظاتِ الاغتِمامِ والحرَجِ، مَسلكٌ للفرجِ

﴿فَلَمَّا﴾ في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا ٱسۡتَيۡـَٔسُواْ مِنۡهُ خَلَصُواْ نَجِيّٗاۖ﴾: هي الحِينيّةُ الشّرطيّةُ غيرُ الجازمةِ، وهي تَستدعي فعلَين ماضيَين، الأوّلُ فعلُ الشّرطِ والثاني جوابُ الشّرطِ، وتفيدُ الظّرفيّةَ الزّمانيّةَ، ومعنى شرطيّتِها مُوجَبٌ: فهي أداةُ وجودٍ لوجودٍ، أي: وجودُ الجوابِ لوجود الشّرطِ، فهي تفيدُ تَحقّقَ الجوابِ بتحقيق الشّرطِ، ومعنَى التّحقّقِ ظاهرٌ في مجيءِ فعلَي الشّرط وجوابِه ماضيَيْن، وهي ظرفيّةٌ بمعنى(حين)، فحين وقعَ الشّرطُ حصلَ الجوابُ، فحينُهما واحدٌ، ولذا جاءا ماضيَيْن. ونُكتةُ مجيءِ الكلام بأسلوبِ الشّرط، ولم يقل: (فاستيئسوا منه وخلصوا نجيّا) على الخبرِ المحضِ، لإفادةِ أنّ تفرّغَهم للتّناجي والتّشاوُرِ كان لازِمًا عن مضمونِ يأسِهم ومسبَّبًا عنه، ولو قال: (فاستيئسوا منه وخلصوا نجيّا) لاحتملَ أنْ يكونَ تناجيهم وانفرادُهم عنِ النّاس ليس بخصوصِ رفْضِ مطلَبِهم، أو غيرَ ناجمٍ عن يأسِهم

(1) مجمع الملك فهد، التّفسير الميسّر: 1/245.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 10/191، وصافي، الجدول: 13/43.

مِن إطلاق سراحِ أخيهم، بل تكتنِفه أغراضٌ شتّى، وليس لهذا الغرَضِ تحديدًا[1].

نُكتةُ دخولِ التّاء والسّين في ﴿ٱسۡتَيۡـَٔسُواْ﴾:

اليأسُ إحدى الرّاحَتَيْن، وحسبُ المَنايا أن يكنّ أمانيَا

السّينُ والتّاء في قوله: ﴿ٱسۡتَيۡـَٔسُواْ﴾، زائدتان للمبالغةِ في تحقّقِ اليأس واستحواذِه، وتأكيدِه، أي: حصل لهم اليأسُ القاطعُ لكلّ أملٍ[2]. فمعنى استيأس: أي: يئِسَ يأسًا شديدًا، فأراد التّعبيرَ عن شدّة يأسِهم ومدى تمكّنِه منهم، بإلحاق السّين والتّاء، وهو من بلاغة الإيجازِ وبديعِه؛ لأنّ (استيأس) أَوجزُ مِن (يئس يأسًا عظيمًا أو شديدًا)، ويجوزُ أن تكون السّينُ والتّاء في(استيأسوا) للطّلبِ المجازيِّ، على معنىً لطيفٍ دقيقٍ، وهو كأنّهم طلَبوا اليأسَ واضطرّوا إليه لمّا عجَزوا عنِ الأمَل وانقطعَ تفاؤلُهم بإطلاق سراحِ أخيهم، فجعلَهم كأنّهم اختاروا اليأسَ لمّا فقدوا ضِدَّه، وهذا على وَفْقِ قول العربِ: اليأسُ إحدى الرّاحتَين، أي: هو مطلوبٌ للعاجزِ ليرتاحَ[3]!

دَلالةُ التّعبيرِ باليأسِ، في السّياق:

اليأسُ مِن أبوابِ النّاسِ، مُؤْذِنٌ بفتوحاتِ الله، وتمكينِه لأصفيائِه

عبّرَ بمادّة اليأس في قوله: ﴿فَلَمَّا ٱسۡتَيۡـَٔسُواْ مِنۡهُ﴾ ليدلَّ على انقطاع رجائِهم وانتفاءِ طمَعِهم في إطلاق سراحِ أخيهم، والتّعبيرُ باليأس لازمٌ عن حصول سببِه وهو الرّفضُ القاطعُ الذي لا هوادةَ فيه، وظهرَ ذلك في قوله: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾، وقولِه: ﴿إِنَّآ إِذٗا لَّظَٰلِمُونَ﴾، فناسَبَ ردُّ الفِعلِ الفِعلَ[4].

وجْهُ التّعبيرِ بالماضي المجموعِ، في السّياقِ المُحكمِ:

الفعلانِ (استيئسوا)، و(خلصوا) واقعانِ مُتحقّقانِ

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا ٱسۡتَيۡـَٔسُواْ مِنۡهُ خَلَصُواْ نَجِيّٗاۖ﴾ جاء الفعلانِ ماضيَيْن ﴿ٱسۡتَيۡـَٔسُواْ﴾، و﴿خَلَصُواْ﴾؛ للدّلالةِ على تحقّقِ الفعلين،

(1) عضيمة، دراسات لأسلوب القرآن: 2/627، وصافي، الجدول: 13/43.
(2) المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 2/139.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 7/33.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (يأس)، والرّاغب، المفردات: (يأس).

ورسّخ ذلك صَوغُهما على هيئة الشّرطِ وجوابِه الدّالَّين على تلازم وقوعِ الفعلَين وتحقُّقِهما. ومجيئهما مجموعَين دلالةُ اجتماع الإخوة على ذلك.

نُكتةُ التّعبيرِ بلفظِ ﴿نَجِيًّا﴾، في هذه الآيةِ القرآنيّةِ:

﴿نَجِيًّا﴾ في قوله تعالى: ﴿خَلَصُواْ نَجِيًّا﴾ حالٌ مِن واو الجمعِ في ﴿خَلَصُواْ﴾، وقد أُفرِدَتِ الحالُ وصاحبُها جمعٌ: إمّا لأنّ النّجيَّ (فعيل) بمعنى المُفاعِل (اسم فاعل)، كالعشير بمعنى المُعاشِر، والمرادُ: خلصوا مُناجين، وهذا يأتي في الاستعمال مُفردًا أبدًا، يقال (هم) خليطُك وعشيرتُك أي مُخالِطوك ومُعاشِروك، وإمّا لأنّه صفةٌ على (فعيل) بمنزلةِ (صدِيق)، وقد أُفرد لأنّه على وزن المصدرِ، ولكونِه موضوعًا للجنس، فهو مع إفرادِه يدلُّ على الجمعِ، ويفيدُ ما يفيدُه الجمعُ مِن معنى الكثرةِ، وإمّا لأنّه مصدرٌ بمعنى التّناجي، أي: خلصوا تناجِيًا، فنُزّل المصدرُ منزلةَ الوصفِ مبالغةً كأنّهم تلبّسوا بجميع الجنسِ وبنفس الحدَث حين انفردوا، كما يقال: قومٌ عدلٌ. فدلّ استعمالُ ﴿نَجِيًّا﴾ على تَشارُكِهم في التّناجي وعلى المبالغة في وصْفِهم بذلك ساعةَ انصرفوا عن غيرِهم واجتمعوا مع بعضِهم للنّظر وبحثِ الموقفِ. واصطفاءُ تلك المادّة دونَ غيرها، للدّلالةِ على معنى الاعتزالِ عنِ الجمهور أثناء التّفرّغِ لِمُراجعة الخصوصيّاتِ المُهمّة[1].

السِّرُّ أعونُ على قضاءِ الحاجاتِ، في بؤسِ الحياةِ

دَلالةُ مجيءِ الحالِ ﴿نَجِيًّا﴾، مَصدرًا في السّياقِ:

لفظُ ﴿نَجِيًّا﴾ في قوله تعالى: ﴿خَلَصُواْ نَجِيًّا﴾ جاء بصيغةِ المصدرِ، وهو حالٌ مُؤوّلةٌ بالوصف المُشتقّ، أي: مُتناجين، ونُكتةُ التّعبيرِ بالمصدرِ دون غيرِه، للدّلالةِ على الحدثِ المُجرّدِ عنِ الزمن الذي يكونُ في الفعل، وعنِ الذّات التي تكونُ في الوصف، فعبّرَ بالمصدرِ

في السِّرِّ والاستِتارِ، نجاةٌ وخلاصٌ مِنَ الأخطارِ

(1) السّمين الحلبي، الدّر المصون: 6/538، والآلوسي، روح المعاني: 7/34، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/39.

مبالغةً، فحين يقول: ﴿خَلَصُواْ نَجِيًّا﴾ فقد تَحوّلوا ساعةَ انفرادِهم إلى التّناجي، كأنّه لم يبقَ فيهم شيءٌ مِن عُنصر الذّاتِ ولا عنصرِ المادّةِ، بل كأنّهم خرَجوا ساعةَ تَناجيهم مِن حيِّزِ الزّمنِ، وهو كقولنا: (رجلٌ عدلٌ)، وفي هذا تصويرٌ لضغْطِ الموقفِ وحرَجِه الذي فصَلَهم عن كلِّ هذه القيودِ، وجرّدَهم لتَناجٍ خالصٍ. وأيضًا في التّعبيرِ بالمصدر: توسّعٌ في المعنى والدّلالةِ، فيصِحُّ أن يكون: ﴿نَجِيًّا﴾ حالًا، أي: مُتناجين، ويصحُّ أن يكون مفعولًا لأجله، أي: خلصوا لأجلِ التّناجي، ويصحُّ أن يكون مفعولًا مطلقًا، أي: خلصوا خلوصَ نجيٍّ، تَناجوا نجيًّا. وحيثما كان اللّفظُ أوسعَ كان اصطفاؤه أولَى، ما لم يكنْ للنّاطقِ غرضٌ في التّعبير بلفظٍ أضْيَقَ[1].

بَلاغةُ الايجازِ في قولِهم: ﴿خَلَصُواْ نَجِيًّا﴾:

في الجملة إيجازُ قصْرٍ بليغٌ؛ إذِ التّقديرُ: أوِ اعتزلوا النّاس حتى لا يَسمعوا ما يدورُ بينَهم من حديثٍ يخصُّ إيجادَ المخرج لِما هم فيه[2]. أوِ التّقديرُ: فلمّا استيئسوا من ردّه.

الكتمانُ عونٌ على قضاءِ الحاجةِ، بدونِ أدنى لَجاجةٍ

بَلاغةُ فنِّ الفرائدِ، في سياقِ الجملةِ الرّاشدِ:

في قوله تعالى: ﴿خَلَصُواْ نَجِيًّا﴾ فنُّ الفرائدِ؛ إذ جاء بلفظٍ تنزّلَ منزلةَ الفريدةِ في العِقد، ليدلَّ على عِظَمِ فصاحةِ هذا الكلامِ، وقوّةِ عارضتِه، وأصالةِ عربيّتِه، بحيث لو أُسقِطت منَ الكلام عزّت على الفُصحاءِ[3].

نظمُ القرآنِ فريدٌ في نسجِه، وصَوغِه، بما لا وجودَ لمثلِه

نُكتةُ سِرِّ فصلِ ﴿قَالَ كَبِيرُهُمۡ﴾، عمّا قبلَها:

فُصِلتْ جملةُ: ﴿قَالَ كَبِيرُهُمۡ﴾ لوقوعِها استئنافًا بيانيًّا منَ الجملة قبلَها، فكأنّه قيل: فبَعدَ أنْ خلصوا نجيًّا ماذا قالوا؟ فبيّن ذلك بقوله:

كِبَرُ النّفسِ والعقلِ، يَسبِقُ كِبَرَ السِّنّ

(1) فاضل السّامرائي، معاني النحو: 2/288.
(2) المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 2/139.
(3) عفيف، الشّامل في بلاغة القرآن: 2/92.

﴿قَالَ كَبِيرُهُمۡ﴾، فبينَ الجُملتَين ﴿خَلَصُواْ نَجِيّٗاۖ﴾ و﴿قَالَ كَبِيرُهُمۡ﴾ شِبْهُ كمالِ اتِّصالٍ، أو بين الجُملتَينِ كمالُ اتِّصالٍ على اعتبار أنّ جملةَ ﴿خَلَصُواْ نَجِيّٗاۖ﴾ بدلُ اشتمالٍ من جملةِ ﴿قَالَ كَبِيرُهُمۡ﴾، على معنى أنّ المناجاةَ تشتملُ على أقوالٍ كثيرةٍ، منها ذلك القولُ من كبيرِهم[1].

نُكتةُ إسنادِ القولِ إلى كبيرِهم دون غيرِه:

أُسندَ القولُ إلى كبيرهم؛ لكونِ الكبيرِ في السّنّ هو المسؤولُ عن جماعتِه وفريقِه عادةً، ولكونِه محلَّ المُساءلةِ والمَلامَةِ عند التّقصيرِ، أوِ الإشادةِ والتّبريك عند إنجاحِ المقاصدِ؛ لأنّ عزمَ الجماعةِ من عزمِ كبيرِها، أو لكونِ الكبيرِ هو الأسدُّ في الرّأي والتّدبيرِ والعِلمِ، فهو الأجدرُ بالبِدار للقولِ وإدارةِ الزِّمام، وإسنادُ القول لكبيرهم هو حكايةٌ للواقعِ، إذ هذا الّذي جرى بالفعل[2].

الكبيرُ أحقُّ بالتّقديمِ والكلامِ، إن كان أهلًا لإدارةِ الزِّمامِ

نوعُ الاستفهامِ وغرَضُه، في ﴿أَلَمۡ تَعۡلَمُوٓاْ﴾:

الاستفهامُ في قوله: ﴿أَلَمۡ تَعۡلَمُوٓاْ﴾ مجازيٌّ، وغرَضُه تقريرُ ما في حيِّزه منَ التّذكير بميثاق أبيهم عليهم، وعدَمِ رجوعِهم من غيرِ أخيهم، ويصحُّ أنْ يقترنَ غرضُ التّقرير بالتّوبيخ، بقرينةِ خطابِه لهم بضمير الجمْعِ، كأنّه وجدَهم غيرَ مُكترثين بالانقلابِ إلى أبيهم صِفْرَ الأيدي، فوبّخَهم بتذكيرِهم بالعهدِ المقطوعِ معه. وخروجُ الاستفهامِ عن حقيقته هنا مِن صُوَرِ المجازِ المُرسلِ الذي علاقتُه الإطلاقُ والتّقييدُ، فأطلق الاستفهامَ مِن دلالتِه على طلب الفهْم، ثم قَيَّده مرّةً أخرى باستعمالِه في التّقريرِ والتّوبيخِ والإنكارِ[3]. "وخلاصةُ ما يقالُ في هذا الاستفهام: إنّه للتّقريرِ، والتّذكيرِ، والتّهويلِ"[4].

سؤالُ العارفِ إعذارٌ جديرٌ، وتقريعٌ بالحُجّةِ مُثيرٌ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/192، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/39.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/310، والآلوسي، روح المعاني: 7/34.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 7/34، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/39.
(4) المطعنيّ، التّفسير البلاغي للاستفهام: 2/139.

نُكتةُ التّعبيرِ بالعالمِ، عن تذكيرِهم بالميثاقِ:

التّعبيرُ بلفظ العِلم في الاستفهامِ التّقريريِّ في قوله: ﴿أَلَمۡ تَعۡلَمُوٓاْ﴾، للدّلالةِ على أنّ ما في حيِّز الاستفهامِ واقعٌ منهم موقعَ الجزْمِ واليقينِ الذي لا يجهلُه أحدٌ فيهم أو يَمْتَري فيه[1].

لا يُؤخَذُ الميثاقُ إلّا بعِلمٍ، ومَن حصّلَ العلومَ التزم بالعَهدِ المعلومِ

وَجْهُ التّعبيرِ عنِ (العِلْم) بالمضارعةِ:

عبّرَ عنِ العِلم المُتحقِّقِ الماضي بصيغة المضارعِ في قوله: ﴿أَلَمۡ تَعۡلَمُوٓاْ﴾؛ للدّلالةِ على أنّ عِلمَ ذلك في الماضي ثبتَ لدَيْهم ثبوتَ الشّيءِ المُتكرّرِ الذي كان يتجدّدُ ويستمرُّ، ذلك أنّ المضارع هنا انتفَى بـ (لم) الدّاخلةِ على المضارعِ فتَنْفيه وتقلِبُه لزمن الماضي، مع إفادتِها للاحتمالِ في انقطاع النّفي بها في الحالِ والاستقبالِ أوِ استمرارِه فيهما[2]. ففي التّعبيرِ به استحضارٌ لصورةِ الفعلِ مع توكيد وقوعِه بالمُضيّ في المعنى[3].

العِلْمُ النّافِعِ يَستمرُّ، ويَتنامَى ولا يَندثرُ

نُكتةُ تَوالي المُؤكِّداتِ، في جملةِ: ﴿أَنَّ أَبَاكُمۡ﴾:

اجتمع في قوله تعالى: ﴿أَنَّ أَبَاكُمۡ قَدۡ أَخَذَ عَلَيۡكُم مَّوۡثِقٗا مِّنَ ٱللَّهِ﴾ جملةٌ منَ المؤكِّدات: التّصديرُ بـ ﴿أَنَّ﴾ المؤكّدةِ، والإضافةُ إلى ضميرِهم في ﴿أَبَاكُمۡ﴾، ودخولُ ﴿قَدۡ﴾ التّحقيقيّةِ، وتقديمُ ما حقُّه التّأخيرُ في ﴿عَلَيۡكُم﴾ وهو يفيدُ الاختصاصَ والقصرَ، وإسنادُ المَوثِق إلى الاسْم الجليلِ تعظيمًا له. وهذه المُؤكِّداتُ جميعًا تُناسبُ المقامَ، فالسّياقُ في واقعةٍ مُحرجةٍ لمصداقيّتِهم وقادحةٍ في أمانتِهم ومُؤذنةٍ بالتّشكيك في عدالتِهم، فوجبَ وهو يُخاطبهم - أي: كبيرهم - أن يستنْهِضَهم بهذه المُؤكِّدات مبالغةً في تقريرِهم وتذكيرِهم بما كان. وأيضًا: لمّا كان مضمونُ الخطاب عن معنى الوثوقيّةِ، والإلزامِ

التّذكيرُ ذِكْرٌ على ذِكْرٍ، بتأكيدِ المبانِي، مع آكِدِيَّةِ المعاني

(1) الرّاغب، المفردات: (علم).
(2) فاضل السّامرائي، معاني النّحو: 4/189.
(3) المطعني، التّفسير البلاغي للاستفهام: 2/139.

والقوّةِ في التّكليف بما أفادَه تركيبُ: ﴿مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ﴾ لمّا كان ذلك كذلك، ألْحَقَ بالتّركيبِ كلِّه جملةَ المؤكِّداتِ هذه، لينسجِم ذلك مع مضمون الميثاقِ المذكورِ، فاجتمعَ تأكيدُ المباني مع آكِدِيَّةِ المعاني[1].

سِرُّ إضافةِ الأبِ إلى ضميرِ المُخاطَبِ، دونَ المتكلّمِ:

الخطابُ بالنَّسَبِ يُحرّكُ المودّةَ في القلْبِ

لم يقلْ في السّياقِ الكريمِ: (ألم تعلموا أنّ أبانا)، بل أضاف لضمير الخطابِ دونَ المتكلم، فقال: (أباكم)، جريًا على نسق النّظمِ في الخطاب، فقد قال: ﴿أَلَمْ تَعْلَمُوٓاْ﴾ بالخطابِ، والأصلُ ألا يلتفِتَ.

والنُّكتةُ الأخرى: أنّ إضافةَ لفظِ (الأب) إلى ضميرِهم المخاطَبِ، لاستثارةِ عاطفَتِهم، وتحفيزِ هِمّتِهم، فهو تذكيرٌ لهم بنِسبَتِهم المباشِرةِ إليه، والتي تقتضي منهم مراعاتَها لأقصى مُستوىً، والتّنصّلَ منَ الإخلال بعهْدِهم معه[2].

نُكتةُ التّعبيرِ بحرْفِ الاستعلاءِ في ﴿عَلَيْكُم﴾:

في العهدِ واليمينِ إلزامٌ يقطَعُه المرءُ على نفسِه بين الأنامِ

حرف الاستعلاء (على) في قوله: ﴿قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم﴾: للاستعلاء المجازي، وهو يصوّر معنى الإلزام في العهد واليمين الذي يقطعه المرء على نفسه، فكأنّ لزوميّة الميثاق تعتَليه وتُجْهِز فوقه حتى يُبْرِئ ذِمَّتَه منها، فتزول عنه[3].

بَلاغةُ تقديمِ شبْهِ الجملةِ على المفعولِ:

المَواثيقُ في ذِمَمِ الأنْفُسِ حتّى تُؤدّيَها، ومن خانَ ضلَّ وهلكَ

تقديمُ ما حقُّه التّأخيرُ، وهو الجارُّ والمجرورُ في قوله: ﴿عَلَيْكُم مَّوْثِقًا﴾، ولم يقل: (أخذ موثقًا عليكم)، بل أخّرَ المفعولَ، لإفادة الاختصاصِ، يعني اخْتِصاصَهم بالأخْذ دونَ غيرِهم، وقد يفيدُ الحصْرَ؛ لأنّه لم يأخذ موثِقًا إلّا عليهم في خصوصِ هذا الموقِفِ. وفي تقديمِ شبْهِ الجملةِ تقديمٌ لضَميرِهم في ﴿عَلَيْكُم﴾، الذي

(1) صافي، الجدول: 13/43.
(2) أبو موسى، خصائص التراكيب، ص: 211.
(3) الخضري، من أسرار حروف الجر في الذكر الحكيم، ص: 55.

هو الفاعِلُ المُطاوِعُ للأخْذِ المذكور، فهو أولَى بالتّقديم للرّعايةِ والاهتمامِ، إذ هو في معنى: أخذَ الميثاقَ عليكم فأخذْتُموه والتزمْتُم به[1].

نُكتةُ تنكيرِ ﴿مَّوْثِقًا﴾، في سياقِ الآيةِ:

يُؤخَذُ المَوثِقُ بإعظامٍ وإلْزامٍ، وتوقيرٍ واحترامٍ

تنكيرُ لفظِ ﴿مَّوْثِقًا﴾ في قوله تعالى: ﴿أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا﴾ للتّفخيمِ والتّعظيمِ، بقرينة إسنادِه إلى اسْمِ الذّات الجليلِ في قوله: ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾[2].

معنَى ﴿مِّنَ﴾ في قولِه: ﴿مِّنَ ٱللَّـهِ﴾:

ما أذِنَ الله فيه، فكأنّما أخِذَ منه بعهدٍ، فلا يجوزُ نكْثُه

﴿مِّنَ﴾ في قوله تعالى: ﴿مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ﴾ لابتداء الغايةِ، فهو لتعيينِ جهةِ الميثاقِ، أي: صادرًا منَ اللّه، أو من جهةِ اللّه، ومعنى إسنادِ حَلِفِهِم لأبيهم إلى اللّه؛ لأنّ اللّه أذِن فيه وارتَضاه، فجُعِل كأنّه صادرٌ منه سُبحانه، أو على معنى أنّ الحالفَ باللّه يجعلُ يَمينَه موثوقًا باللّه ومَربوطًا به، فاللّه هو مَنشأُ التزامِه ومُنتهى إتمامِه[3]. فإضافةُ ﴿مَّوْثِقًا﴾ إلى اللّه تعالى بحرفِ الجرِّ ﴿مِّنَ﴾؛ للمبالغةِ في تهويل الأمرِ[4].

مَوقعُ جملةِ: ﴿وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ﴾:

المقابلةُ بين إلزام الميثاقِ بالتّحويطِ، وبين نَكْثِه بالتّفريطِ

جملةُ: ﴿وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ﴾ معطوفةٌ على جملةِ مَقولِ القولِ: ﴿أَلَمْ تَعْلَمُوٓاْ﴾، فهي داخلةٌ في حيّزِ القول في قوله: ﴿قَالَ كَبِيرُهُمْ﴾ واستتمامٌ له[5]. والجملةُ اعتراضيّةٌ أفادتِ التّذكيرَ بما وقع ليوسفَ عليه السلام على أيديهم عندما كان صغيرًا[6].

(1) أبو موسى، خصائص التراكيب، ص: 364.
(2) فاضل السّامرائي، معاني النحو: 1/40، وعلي بعداش، دلالة التّنكير وبلاغته، ص: 285.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 7/35.
(4) المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 2/139.
(5) صافي، الجدول: 13/44.
(6) المطعنيّ، التّفسير البلاغي للاستفهام: 2/139.

معنَى ﴿وَمِن﴾، في السّياق:

﴿وَمِن﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمِن قَبۡلُ مَا فَرَّطۡتُمۡ﴾: ابتدائيّةٌ، للدّلالةِ على أنّ مُدّةَ التّفريطِ غيرُ مُستغرِقةٍ لزمنِ القَبليّةِ[1].

زمانُهم كان زمانَ تفريطٍ، منَ الحينِ الذي أضاعوا فيه يوسفَ

معنَى ﴿مَا﴾، في سياقِ الآيةِ الحكيمِ:

﴿مَا﴾ في جملةِ: ﴿مَا فَرَّطۡتُمۡ﴾: صِلةٌ زيدتْ لتأكيدِ نفْيِ ما تضمّنَه الكلامُ، والمبالغةِ في ثبوت مضمونِه، فهو يؤكّدُ انتفاءَ حفظِ عهدِهم مع أبيهم، بالمبالغةِ في إثبات تفريطِهم وتضْييعِهم لحقّ يوسفَ، بالاعتداء على حُرمتِه قديمًا، وإخلافِ ظنِّ أبيهم فيهم، و﴿مَا﴾ على هذا مُتعلّقٌ بالظّرف، أي: فرّطتُم من قبلُ، وجملةُ: ﴿فَرَّطۡتُمۡ﴾ حالٌ من ضميرِ ﴿أَلَمۡ تَعۡلَمُوٓاْ﴾، والتّقديرُ: وقد فرّطتُم[2].

تأكيدُ الجنايةِ لِمَن طالَ عليه الأمَدُ، فنسِيَها وفقَدَ الرّشدَ

دَلالةُ التّعبيرِ بالتّفريطِ في ﴿فَرَّطۡتُمۡ﴾:

عبّرَ بلفظِ (التّفريط) في قوله تعالى: ﴿وَمِن قَبۡلُ مَا فَرَّطۡتُمۡ فِي يُوسُفَۖ﴾، للدّلالةِ على تقصيرِهم في حقّ أبيهم بتضْييعِهم لأخيهم، تقصيرًا وتضييعًا تقدّمَ أوانُ استدراكِه عليهم، فلم يُمْكِن إصلاحُه؛ لأنّ التّفريطَ هو تركُكَ الشّيءَ يتقدّمُ عليك فيفوتُك ويزولُ عنك، فاختيارُ لفْظِ التّفريطِ للدّلالةِ على معنى التّقدّمِ، وكأنّ المُفرِّطَ في الشّيء بعدم حفْظِه يكون قد تقدّمَ غيرَه في الإهمالِ والتّضييعِ له، والشّيءُ المُفَرَّطُ فيه يتقدّمُه بالفواتِ والزّوالِ عنه فلا يمكنُه العودةُ إليه لإصلاحه، فكان التّعبيرُ بالتّفريط دالًّا على استحكامِ خَيْبتِهم عن إصلاحِ الأمورِ في الوقت الحالي لتقدُّمِها عليهم بفواتِ أوانِها وخروجِها عن أيديهم، ودالًّا على سوءِ ماضيهم وسَبْقِ إصرارِهم في الجنايةِ الذي أفسدَ عليهم علاقتَهم بأبيهم، وكشَفَهم وأحرجَهُم عندَه[3].

المُفرِّطُ سابِقٌ إلى حتْفِه، باحثٌ عنه بظِلْفِه

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/113.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/192.
(3) السّمين الحلبي، عمدة الحفّاظ: (فرط)، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 10/192.

دَلالةُ الظّرفيّةِ في قولِه: ﴿فِي يُوسُفَ﴾:

أعظمُ التّفريطِ ما كان عُدوانًا على بريءٍ

﴿فِي﴾ في قوله تعالى: ﴿فَرَّطتُمْ فِي يُوسُفَ﴾: للظّرفيّةِ المجازيّةِ، أي: جعلتُم يوسفَ عليه السلام مشمولًا بالتّفريطِ، عالِقًا فيه، كما يغيبُ الشّيءُ في وِعائِه، فأنتم كأنّكم غيّبْتُموه في وعاءِ الغدْرِ بتفريطِكم، لمّا غيّبْتُموه في غيابة الجُبِّ[1].

معنَى الفاءِ في قولِه تعالى: ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ﴾:

النِّيَّةُ بُرهانُ العملِ، ومَعقِدُ الأملِ

جملةُ: ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ﴾ إمّا معطوفةٌ على جملة مَقول القول: ﴿أَلَمْ تَعْلَمُوٓاْ﴾، فهي داخلةٌ في حيّزِ ﴿قَالَ كَبِيرُهُمْ﴾، فهي من تتمّات قولِ الكبيرِ، وإمّا أن تكونَ فصيحةً معطوفةً على شرطٍ مقدّرٍ، أي: إذا ثبتَ ذلك من أخذ المَوثقِ عليكم وثبت تفريطُكم القديمُ، فلن أبرحَ الأرضَ، ويكونُ معنى الفاء التّفريعَ والسّببيّةَ، أي: فبسببِ ذلك لن أبرحَ[2].

دَلالةُ التّعبيرِ بـ ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ﴾:

يَضيقُ البَرَاحُ - على سَعتِهِ - بشُؤمِ الجناياتِ، وارتكابِ الموبقاتِ

الفعلُ المنفيُّ: ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ﴾ تامٌّ غيرُ ناقصٍ، بمعنى: لن أزولَ أو لن أفارقَ أو لن أغادرَ أو لن أنفصِلَ، ويكثُرُ اقترانُه بالمكان، ولا ينتظمُ منَ الضّميرِ المُستَكِنِّ فيه ولا من لفظ ﴿ٱلْأَرْضَ﴾ بعدَه مبتدأٌ ولا خبرٌ، ولذا جاءت تامّةً ولا يجوزُ أن تكون ناقصةً[3].

تَوجيهُ التّعديةِ من غير حرْفٍ، في ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ﴾:

التّشديدُ على النَّفسِ مأذونٌ فيه، إذا كان تَدارُكًا لتفريطٍ

في قوله تعالى: ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ﴾، جاء (برح) تامًّا غيرَ ناقصٍ، و(برح) التّامُّ يتعدّى بنفسِه أو يتعدّى بحرف: (مِنْ) أو (عن) أو (في)، تقولُ: برحتُ الأرضَ أو برحتُ من الأرض، وبرحتُ كذا، وعن كذا. وفي الآية هنا تعدّى (برح) بنفسِه، ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ

(1) الخضريّ، من أسرار حروف الجر في الذّكر الحكيم، ص: 119.
(2) القونويّ وابن التّمجيد، حاشية على تفسير البيضاوي: 10/400.
(3) الخطيب، التّفصيل في الإعراب: 7/59.

ٱلْأَرْضَ﴾، ولم يتعدَّ بحرف الجرّ؛ لتضّمين ﴿أَبْرَحَ﴾ معنى (أفارق أو أترك)، وعلى هذا فـ ﴿ٱلْأَرْضَ﴾ مفعولٌ لـ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ﴾، أوِ اعتبارُ أنّ ﴿ٱلْأَرْضَ﴾ ظرفٌ لـ﴿أَبْرَحَ﴾ على تضمينِه معنى الزّوالِ والانفصالِ، أي: لن أزولَ في الأرض أو لن أنفصلَ عن الأرض، بمعنى ثبوتِ الإقامة والاستمرارِ فيها، وحُذِفَ حرفُ الجرّ للدّلالةِ على شدّة التصاقِه بأرض مصرَ وتمسّكِه بعدم تركِها حتى تكونَ الغايةُ التي حدّدها بقوله: ﴿حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِيٓ أَبِيٓ أَوۡ يَحۡكُمَ ٱللَّهُ لِيۖ﴾[1].

معنَى (ال) في لفظِ ﴿ٱلْأَرْضَ﴾:

(ال) في (الأرض) في قوله تعالى: ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ﴾ للعهد، أي: أرضَ مصرَ، والمقصودُ الجزءُ الذي هو فيه منها، وهو "القُطْرُ والموضِعُ الذي ناله فيه المكروهُ المُؤدّي إلى سُخْط أبيه"[2].

العهودُ لا تسقطُ بالتّقادُمِ، بل تبقَى رهْنَ الالتزام، حتّى التّمامِ

دَلالةُ ﴿حَتَّىٰ﴾ في عبارةِ: ﴿حَتَّىٰ يَأْذَنَ﴾:

﴿حَتَّىٰ﴾ حرفُ غايةٍ أو تعليلٍ متعلّقٌ بـ ﴿أَبْرَحَ﴾، ومعنى الغايةِ: لن أبرح أرضَ مصرَ إلى أن يأذنَ لي أبي ويَحكمَ الله لي. ومعنى التّعليل: لن أبرحَ كي يأذنَ أبي، أي: لأجلِ ذلك، فكأنّ المعنى على التّعليل: لا أبرحُ رجاءَ إذْنِه وطلبًا لإعذارِه وإشفاقِه إذا وجدني حابسًا نفْسي لا أبرحُ، ويصحُّ هنا إجراؤها على معنى الاستثناءِ، أي: (لا أبرح الأرض إلّا أن يأذنَ لي أبي..)[3].

خيرُ الأعمالِ ما قُرِنَ بغايةِ الوفاءِ، والتُزِم فيه بالأداءِ

معنَى اللّامِ في شبْهِ الجملةِ ﴿لِيٓ﴾:

اللّامُ في ﴿لِيٓ﴾ من قوله تعالى: ﴿يَأْذَنَ لِيٓ﴾، و﴿يَحۡكُمَ ٱللَّهُ لِيۖ﴾ للتّعديةِ، كما تقول: أذِنْتُ لِفلانٍ، وحكمتُ لِفلانٍ، ومعناها الاختصاصُ، أي: يأذنُ لي إذنًا خاصًّا بي، ولم يقل: (يحكم الله

لا ينفعُ العبدَ باستقامتِه إلّا نفْسَه، والمستقيمُ أهلٌ للتّوقيرِ والتّكريمِ

(1) الآلوسي، روح المعاني: 7/36، والخطيب، التّفصيل في الإعراب: 7/59.
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/270.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/312، وعضيمة، دراسات لأسلوب القرآن: 2/132.

عليّ)، استبشارًا بحُكمِ اللّه، وأنّه راضٍ به على كلّ حالٍ، ولذا حذفَ متعلَّقَه، فلم يقل: يحكمُ لي بأيّ شيءٍ؟! لتنزيلِه منزلةَ ما لا يَطلبُ مُتعلَّقًا، ولذا فاللّام في قوله تعالى: ﴿يَحۡكُمَ ٱللَّهُ لِيٓ﴾ للأجْلِ والتّعليلِ الخصوصيِّ، أي: يحكمُ لأجْلي بما فيه نفعي ومصلحتي، فكلُّ ما يأتي منه خيرٌ، وإنْ كان على كُرهِ النّفوس[1].

نُكتةُ المُخالفةِ في موضعَيْ شِبْهِ الجملةِ تقديمًا وتأخيرًا:

اللّه أَولى بالتّوقيرِ والتّقديسِ، وتَوخّي البِشارةِ بالفرجِ النّفيسِ

لم يقلْ في السّياقِ الكريمِ: (يأذن أبي لي)، بتأخير الجارِّ والمجرورِ، وتقديمِ الفاعل، كما قُدّم الفاعلُ في بقيّة كلامِه، وأُخّر ضميرُه المجرورُ، في قوله: ﴿يَحۡكُمَ ٱللَّهُ لِيٓ﴾، بل قال: ﴿يَأۡذَنَ لِيٓ أَبِيٓ﴾، ذلك أنّ إذنَ أبيه له متوجِّهٌ له، فهو المقصودُ به، كما أنّ الإذنَ عرَضٌ لأبيه غيرُ ثابتٍ له، فقد لا يأذنُ أبوه، وقد يُحالُ بينَهم وبينَه فلا يَصِلُه الإذنُ، فقدّم ضميرَه المجرورَ ﴿لِيٓ﴾، ليفيد أنّه ليس المرادُ الإذنَ فقط، بلِ المرادُ أن يَصِلَه هذا الإذنُ ويتحقّقَ منه بذاتِه؛ لأنّ النّفسَ إليه أكثرُ تطلّعًا، وأمّا في جانِب اللّه سُبحانه، فقد قدّمَ اسْمَ الذّاتِ الجليلِ ﴿يَحۡكُمَ ٱللَّهُ﴾ على ضميره المجرور ﴿لِيٓ﴾، تعظيمًا لاسْمِ الذّات، فهو أحقُّ بالتّقديم، ولأنّ حُكمَ اللّه لا ينفكُّ عن ذاتِه، فاللّه حاكمٌ وحكيمٌ، فلا يُفصلُ بين صِفتِه واسْمِه، كما أنّ حُكمَ اللّه كائنٌ وثابتٌ ومقدّرٌ مِن قبْلِ وجودِه، فحُكمُ اللّه أسبقُ، وهو متأخِّرٌ وجودًا، فأُخِّر ضميرُه نظْمًا، وبالنّظرِ للتركيب قبلَه، فإنّ إذنَ أبيه له جزءٌ من حُكم اللّه وإرادتِه، إذ لا يأذنُ أبوه إلا بحُكم منَ اللّه، ولا يأذنُ أبوه ﷺ إلّا بحُكمِ اللّه، فحكمُ اللّه أسبقُ في كلّ شيءٍ، كما أنّ ما ينتظرُه مِن حُكمِ اللّه بتهيئةِ الأسبابِ وإيصالِ المنافعِ واستدفاعِ المخاوفِ هو تبَعٌ لحُكمِه العامِّ وإرادتِه الشّاملةِ، فذاتُه - أي الأخُ الكبيرُ - تبعٌ فيها ضِمنَ نظائرَ أخرى تحصُلُ، ومُقدَّراتٍ تَجري،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/40.

والتَّبَعُ لاحِقٌ لا سابقٌ، ولذا كان ضميرُه ﴿لِيٓ﴾ أولى بالتّأخيرِ في قوله: ﴿أَوۡ يَحۡكُمَ ٱللَّهُ لِيۖ﴾[1]. وفضلًا عن مُراعاة الأصلِ في تقديم لفظِ الجلالةِ على المجرورِ، فإنّ فيه قصدًا إلى التّفاؤلِ بتفريج الأزمةِ منه تعالى، فسارعَ إلى ذكره قبلَ نفسِه[2].

وجْهُ تقديمِ إذْنِ الأبِ، على إذْنِ الله تعالى:

لِيعقوبَ عليه السلام الحقُّ في التّصرّفِ بميثاقِه مع أبنائِه

قُدّمَ إذنُ الأب في تعليل البقاءِ بمصرَ على حُكم اللّه تعالى له؛ لأنّ الأبَ هو صاحبُ الحقِّ المُباشرِ في الدّنيا بمنْحِ الإذن، فضْلًا عن حقِّه في التّصرّفِ بنقْضِ المَوثقِ الذي تعاهدَهم عليه[3]، وفيه تشريفٌ ليعقوبَ عليه السلام، وإعلاءٌ لمكانته.

نُكتةُ العُدولِ مِن ضميرِ الخطابِ إلى ضميرِ المُتكلّمِ:

مِن أساليبِ العنايةِ والرّعايةِ تَوجيهُ الخطابِ بضميرِ الخطابِ

في قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ أَبَاكُمۡ﴾ أضافَ لفظَ (الأب) إلى ضمير الخطابِ الجمْعيِّ، وفي قوله تعالى: ﴿يَأۡذَنَ لِيٓ أَبِيٓ﴾ جعلَ الإضافةَ إلى ضميرِ المُتكلم الذّاتي؛ لأنّه في الموضع الأوّلِ كان يُخاطبُ إخوتَه، فأحرَى أن يُسنِدَ إلى ضميرِهم وهو يُخاطبُهم، وأسندَ إلى ضميرِ الخطابِ الجمْعيِّ لا إلى ضمير الغيبةِ الجمعيِّ، لأنّه واعِظُهم فأراد تسجيلَ اللّومِ والنّعي عليهم مع النّصحِ والإرشادِ، ولا يتمُّ ذلك إلّا بخطابِهم، ولم يقل: (يأذن لي أبيكم) تحمُّلًا منه بوصيّةِ أبيه وإذْنِه عنهم، كأنّه قال: إنْ فاتكم حفظُ العهدِ مع أبيكم، فلا يَفوتُني مسؤوليّةُ القيامِ بعهْدِه، فهو أبي الذي أنتسِبُ إليه قولًا وعملًا، ففي الإضافةِ إلى ضميرِه تعريضٌ بهم، وتلويحٌ بِلازمِ نِسبتِه إليه، وهو اتّباعُه فِعلًا وقولًا، كما تبِعَه في البُنُوّةِ التي اقتضاها التّعبيرُ بلفظِ (أبي)[4].

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 6/312.
(2) المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 2/139.
(3) المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 2/139.
(4) أبو موسى، خصائص التراكيب، ص: 211.

معنَى الحرْفِ ﴿أَوْ﴾ في السّياقِ الحكيمِ:

﴿أَوْ﴾ في قوله تعالى: ﴿يَأْذَنَ لِيٓ أَبِيٓ أَوۡ يَحۡكُمَ ٱللَّهُ لِيۖ﴾ للإباحة، فيجوزُ قصدُ أحدِهما دون الآخرِ، على اعتبار أنّهما مُتباينان، ومُنفكّان في الجهة، ويجوزُ قصْدُ الجمعِ بينَهما على اعتبارِ أنَّ الأوّلَ فردٌ مِن أفراد الثّاني، فهو مِن ذِكر العامِّ بعد الخاصِّ، والكلِّ بعدَ الجُزء[1].

كلُّ الغاياتِ تؤولُ إلى حُكمِ اللهِ، فهو الفيصلُ فيها دونَ سِواه

سِرّ حذْفِ مُتعلَّقِ ﴿يَحۡكُمَ﴾ في السّياقِ المُحكمِ:

لم يقل في السّياق الكريم: (أو يحكم اللّه لي في كذا)، فلم يُعلِّق (الحُكْمَ) على زمانٍ أو مكانٍ ولم يُحدِّدْه بمجالٍ، فحذفَ المفعولَ لأغراضٍ:

المؤمنُ كاملُ التّسليمِ لأحكامِ الله الحكيمِ

الأوّلُ: لِتوفُّرِ العنايةِ على إثباتِ الفعل للفاعل من غيرِ نظرٍ إلى شيءٍ وراءَ ذلك، فهو يريدُ إثباتَ الحُكْم للّه فحسبُ، فليس الغرَضُ متوجِّهًا إلى إثباتِ تلبُّسِ ذلك بالمفعول.

الثّاني: وهو مبنيٌّ على (الأوّل)، وهو أنّه لم يقل: (أو يحكمَ اللّه في كذا)، لِثقتِه بكوْنِ اللّه حاكمًا، فيَكفيه أنّ اللّه هو مَن يحكمُ، فلا يحتاجُ لتحديدِ مجالِ الحُكم أو موقعِه، فحيثما كان حُكمُ اللّه كان الخيرُ والإصلاحُ، فحذفَ المفعولَ ليدلَّ على أنّه واقفٌ مع مرادِ اللّه فيه، لا مع مُرادِه من اللّه.

الثّالثُ: لوضوحِ مُتعلَّقِ الحُكم، فحذَفَهُ إيجازًا، فإنّ مُتعلَّق الحُكم إمّا عامٌّ، أي: يحكمُ اللّه ما يريدُ، وحُكمُه لا جوْرَ فيه، ولا رادَّ له، أيًّا كان. وإمّا خاصٌّ بحسبِ قرينةِ السّياقِ، وقرينةُ السّياق هنا هي القِصّةُ، وضميرُ الخصوصِ، في قوله: ﴿لِيٓ﴾، و﴿يَحۡكُمَ ٱللَّهُ لِيۖ﴾، أي: يَحكمُ اللّه لي بالفرجِ وعاقبةِ الخير فيما نحن بصددِه مِنَ

(1) فاضل السّامرائي، معاني النّحو: 3/254.

الورطةِ النّازِلةِ، فيردُّ غربتَه، ويُنقِذُ أخاه، ويَنقلبون لأبيهم جميعًا غيرَ فاقِدين ولا مَفقودين.

الرّابعُ: أنّ حذْفَ مفعولِ الحُكم هنا لبناءِ ما بعْدَه عليه، وهو جملةُ ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ فإنّ وصْفَ الحُكمِ الإلهيِّ بالأفضليّة المطلَقَةِ، تفريعٌ عنِ الإخبار بثبوتِ الحُكم للّه بقوله: ﴿أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى﴾، فحتّى يتهيّأَ لتقرير الأفضليّةِ المُطلقةِ لحُكم اللّه على مَن سواه، لا بدّ أن يحذفَ المفعولَ ليفيدَ التّعميمَ والإطلاقَ؛ لأنّ معنى ﴿يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى﴾، أي: بأيّ شيءٍ، ومعنى: ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾، أي: خيرُ الحاكمين في كلّ حُكْمٍ يحكمُ به، وفي كلِّ شيءٍ يجري حُكمُه عليه[1].

فائدةُ تقديمِ إذنِ الأبِ على حُكمِ الله في الذّكرِ:

البدءُ بالغايةِ الأقربِ، والانتهاءُ بما إليه المُنتهَى

قدّمَ (إذْنَ الأبِ) في النّظْم على (حكم اللّه)، فبدأ بقولِه: ﴿يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ﴾، ثم ثنّى بقوله: ﴿يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى﴾؛ لأنّ مَعقدَ الكلام على أبيهم عليه السلام فجرى الكلامُ على أصل موضوعِه وفُرِّع عن مَنْزَعِه ومِحوَرِه، وانتهى بذكْر حُكْمِ اللّه تَنبيهًا على أنّ الأمرَ راجعٌ إليه، والتّدابيرَ لا تتمُّ إلا بمرادِه، فابْتَدَأ بأقْربِ الغايتَيْن، وهي موافقةُ أمْرِ أبيه، وانتهى بأبعدِها عنه في الشّهود والعِلْم، وهي ما لا بُدّ له منه ولا مَحِيدَ له عنهُ مِنَ الانقلابِ إلى حُكم اللّه وقَدَرِه. فأخبَر أنّه - في خصوص هذه الحالةِ - مُستوثِقٌ بعهْدِه مع أبيه، لا يُفَرِّطُ فيه، وأنّه في جميع أحوالِه مستوثِقٌ بعهْدِه مع اللّه في التّسليم للعواقبِ التي يَحكُمُ له بها سُبحانه، وهذا مِن تمامِ فِقْهِه وحِكْمَتِه[2].

معنَى الواوِ في قولِه: ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾:

كلُّ ما حَكمَ به اللّه فهو خيرٌ، وأحكامُه صلاحٌ وحِكمةٌ

جملةُ: ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ استئنافيّةٌ؛ قُصِدَ بها التّذييلُ المُقرِّرُ لمضمونِ ما قبلَها، فتركيبُ ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ بمثابةِ

(1) أبو موسى، خصائص التراكيب، ص: 341.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/312، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/40.

التّعليلِ للغايةِ المذكورةِ بعد ﴿حَتَّىٰ﴾ فكأنّه قيل: (سأنتظرُ إذْنَ أبي أو ما يَحكمُ اللّه به؛ لأنّه سُبحانه هو خيرُ الحاكمين)[1].

المَوقعُ البيانيُّ، لقولِه: ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾:

ما دامَ الله هو خيرُ الحاكمين، فلا يَستوحِشُ المُؤمنُ مع حفْظِه المكِين

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ تذييلٌ قُصِدَ به الثّناءُ على اللّه، فهو مِنْ تَتِمّةِ الغايةِ المذكورةِ في قوله: ﴿حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِيٓ أَبِيٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ﴾، وواوُ الوصْلِ استئنافيّةٌ لاعتبارِ الابتداء في قولِه: ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾، فالجملةُ مِن مبتدأٍ وخبرٍ، فروعِي مع الاستقلالِ معنَى الاستئنافِ، أوِ الواوُ حاليّةٌ، لاعتبار جُملةِ: ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ حالاً مِن اسْمِ الجلالةِ في قوله: ﴿أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ﴾، وعلى الاعتبارَين فجملةُ: ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ مُقرِّرةٌ ومؤكِّدةٌ لمضمونِ الجملةِ قبلَها وهو قولُه: ﴿أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ﴾ لدلالةِ اسْمِ الذّات ﴿ٱللَّهُ﴾ على معنَى ﴿خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾، فكأنّه قيل: أو يحكمَ خيرُ الحاكمين.

بَلاغةُ القصْرِ بتعريفِ طرفَي الإسنادِ:

مآلُ الأمورِ كلِّها إلى حُكمِ خيرِ الحاكمين، وأوثقِ الحاسِبين

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾، تعرّفَ فيه طرَفا الإسنادِ المبتدأُ والخبرُ، فأفاد قصرَ حُكمِ المُسنَد على المُسنَد إليه، فلا يَتّصِفُ بخيرِ الحاكمين إلّا هو سُبحانه، وهو قصرٌ حقيقيٌّ يُؤذِنُ بالثّناء على اللّه توسُّلًا بإنجاحِ مقصودِه، وعدمِ خِذلانِه؛ لأنّ مآلَه إلى حُكمِ خيرِ الحاكمين وخيرِ الحاسبين، فالقصرُ مُضَمَّنٌ معنى البُشرى والجزاءِ بالخير، لقرينةِ الخيريّةِ في قوله: ﴿خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾، ولم يقل: (أعدل الحاكمين)؛ ليدلَّ على أنّه لا يَحكمُ إلّا بالخيرِ.

نُكتةُ التّعبيرِ بصيغةِ أفعَلِ التّفضيلِ ﴿خَيْرُ﴾:

جعلُ المَفضولِ بإزاءِ الأفضلِ، يُبرِزُ كمالَ الأفْضلِ

مجيءُ التّركيبِ على صيغة التّفضيلِ في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾؛ لإثباتِ الخيريّةِ المُطلَقَةِ في حُكمِه ﷻ، على حُكْمِ مَن

(1) صافي، الجدول: 13/44.

سواه، وإنْ وُجِدَ في حُكم مَن سواه خيرٌ وعدلٌ، إلّا أنّ حُكْمَه لا يحتملُ الخطأَ والسّهوَ، أو نقصَ العِلْم، وحُكمُ مَن سواه تَعتريه احتمالاتُ النّقصِ، ولذا كان هو سُبحانه خيرَ الحاكمين، لاستحالة الخطأِ أوِ الخفاءِ في شأنِ حُكْمِه.

دَلالةُ (ال) في لفظِ ﴿ٱلْحَٰكِمِينَ﴾:

الصِّفاتُ على قَدْرِ الذَّوَاتِ، والتّفضيلُ في جانبِ اللهِ، يُؤكّدُ كمالَه عمّن سِواه

(ال) التّعريفِ في قوله تعالى: ﴿ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ هي (ال) الموصولةُ الدّاخِلةُ على أسماءِ الفاعلين، ولها دَلالةٌ على إفادة الكمالِ، وهو استغراقُ خصائصِ أفرادِ الجنسِ، أي: هو خيرُ الحاكمين ذَوي الأهليّةِ الذين استوفَوا صِفاتِ استئهالِ الحُكْم واستكملوا خصائصَه وحقائقَه، ودَلالتُها على الموصوليّةِ حقيقةٌ، ودَلالتُها على الكمال مجازٌ، ولا تَعارُضَ بين الدّلالتَين؛ لأنّ معنى الموصوليّةِ مُطّردٌ في (ال)، ثابتٌ بنفْسِه مِن غير قرينةٍ، والذي أعان على دلالة الكمالِ ليس (ال) وحدَها، بل قرائنُ السّياقِ، وهي في هذا التّركيبِ: مجيءُ الكلامِ بصيغة التّفضيلِ، التي تُؤذِنُ بثبوتِ أفضليّةٍ مرجوحةٍ للمفضولِ، ولِكوْنِ التّفضيلِ في جانبِ اللّه سُبحانه تأكَّدَ معنى الكمالِ في (الحاكمين)؛ إذِ اللّه لا يُفاضَلُ مع الحاكِمين الجائِرين أوِ النّاقِصين، وكذا تعريفُ اللّفظِ بـ (ال) الجنسيّةِ الدّالّةِ على استغراقِ صفاتِ الأفراد وعدَدِهم.

مَوقعُ جُملةِ ﴿ٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ﴾، ممّا قبلَها:

توزيعُ الأدوارِ، يضمنُ إنجازَ المُهمّاتِ الكبارِ

جملةُ: ﴿ٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ﴾ مفصولةٌ عمّا قبلَها، استئنافٌ بيانيٌّ، كأنّه قيل: هذا تدبيرُه لنفسِه: بألّا يبرحَ حتّى يأذنَ أبوه ويَحكُمَ اللّه، فماذا دبّرَ لإخوتِه؟ فأجيبَ بأنْ قال لهم: ﴿ٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ﴾. ويصحُّ أن تكونَ جملةُ ﴿ٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ﴾ استئنافًا في حيّز القول في جملةِ: ﴿قَالَ كَبِيرُهُمْ﴾، فهي مِن تَتِمّاتِ مقولاتِه[1].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/193، وصافي، الجدول: 13/45.

دَلالةُ الأمرِ في ﴿ٱرۡجِعُوٓاْ﴾ في السّياقِ:

مُواجهةُ الأخطاءِ لإصلاحِ ما أمْكَنَ، واستِدراكِ ما فات، قبْلَ الفواتِ

دلَّ خِطابُه لإخوتِه بصيغة الأمر، في قوله: ﴿ٱرۡجِعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيكُمۡ﴾، على المقابلةِ المعنويّةِ بين فِعلِه وفِعلِهم، فَفِعلُه: ﴿فَلَنۡ أَبۡرَحَ ٱلۡأَرۡضَ﴾ وهو عدمُ المغادرةِ وعدمُ الرّحلةِ، وفِعلُهم: ﴿ٱرۡجِعُوٓاْ﴾ أي: الأمرُ بالمغادرةِ والرّحلةِ، فدلّ قولُه: ﴿ٱرۡجِعُوٓاْ﴾ على أنّهمُ المُغادِرون دونَه، وأنّه باقٍ دونَهم[1].

معنَى الفاءِ في قوله تعالى: ﴿فَقُولُواْ﴾:

المسارعةُ بإنجازِ التّكاليفِ فوْرَ اعتِمادِها، طاعةً لمن كَلّفَ بها

جملةُ: ﴿فَقُولُواْ﴾ معطوفةٌ على جملةِ: ﴿ٱرۡجِعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيكُمۡ﴾، ونكتةُ وصْلِها بما قبلَها بالفاء دونَ الواو: الدّلالةُ على أنّ الأمرَ بالقول مُسبَّبٌ عنِ الأمر بالرّجوع ومُترتِّبٌ عنه وغرَضٌ له، ولو قيل: (ارجعوا إلى أبيكم وقولوا)، لأشْعرَ أنّ هناك أغراضًا أخرى تُزاحِم هذا الغرَضَ المذكورَ، أو أشعرَ أنّ رجوعَهم إلى أبيهم لا يلزمُ أن يكونَ سببًا لقوله: ﴿فَقُولُواْ﴾، فدلّ العطفُ بالفاء على أنّ رجوعَهُم رجوعٌ لتلك المُهمّة أصالةً، وهو إبلاغُ أبيهم بما جرَى[2].

دَلالةُ الأمرِ في فعْلِ الأمرِ ﴿فَقُولُواْ﴾:

إبلاغُ الرّسالةِ من غيرِ تصرُّفٍ، بحسبِ صدورِها، وتَوخّي مضمونِها

صيغةُ الخطابِ بالأمر في قوله تعالى: ﴿فَقُولُواْ يَٰٓأَبَانَآ﴾: تدلُّ على تلقينِه لهم بما يجبُ أن يُبَلِّغوا أباهم به، فهو دليلٌ على تحديد رسالةٍ مُوجَّهةٍ يجبُ إبلاغُها مِن غير تصرّفٍ بزيادةٍ أو نقصٍ، فحمّلَهم إياها كما تُحمّلُ الرّسائلُ التي تُؤدَّى كما تؤدَّى الأماناتُ. وأيضًا: صيغةُ الأمرِ في ﴿فَقُولُواْ﴾ مع قرينةِ السّياقِ تدلُّ على إرادةِ التّلطّفِ في توصيلِ المضمونِ المرادِ، فكأنّ معنى (ارجعوا فقولوا): أي: قولوا مُتودِّدين مُراعين للرّفْقِ والدِّقَّة في ضبط الأسلوبِ والحوارِ، وقرينةُ السّياقِ في الدّلالةِ على ذلك قولُه السّابقُ: ﴿حَتَّىٰ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/193.
(2) صافي، الجدول: 13/45.

﴿يَأۡذَنَ لِيٓ أَبِيٓ﴾ ففيه أبلغُ المُراعاةِ لخاطرِ أبيه، وقولُه اللّاحِقُ: ﴿يَٰٓأَبَانَآ﴾ بأسلوب النّداءِ بوصْفِ الأبوّة الذي يفيدُ المَرحمةَ والتّرفّقَ واستدعاءَ العاطفةِ بينه وبينَهم[1].

نُكتةُ النّداءِ بـ (يا) في قولهم: ﴿يَٰٓأَبَانَآ﴾:

التّهيئةُ بين يَدي الرَّسائلِ، بما يُناسِبُ مِن تَقْدماتٍ

صُدِّرتْ جملةُ مَقول القول بأسلوبِ النّداءِ ﴿يَٰٓأَبَانَآ﴾ لغرَضِ التَّنبيهِ على المضمونِ الّذي سيُلقَى بعدَها، وإيذانًا بتوقُّعِهم باستثقالِ أبيهم لسماعِهم، وكراهتِه وصدودِه عن تصديقِهم، لا سيّما وقد أتَوْه بنَكبةٍ جديدةٍ في أخٍ لهم، وهو لم يزلْ يُعاني من نكبتِه الأولى في يوسفَ، فلا بدَّ أنْ يدخُلوا عليه بأسلوبِ النّداء للبعيدِ بحرف (يا)، طلبًا لإقبالِه، واستدعاءً لإصغائِه[2].

دَلالةُ إضافةِ المُنادَى إلى ضميرِ المُتكلّمِ الجمْعيّ:

استعطافُ السّامعِ قبْلَ إبلاغِه بما يكرهُ، تأدُّبًا معَه

جاء المُنادَى في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَبَانَآ﴾ مُضافًا إلى ضمير المُتكلّم، تأكيدًا للغرَضِ الّذي سيقَ لأجلِه افتتاحُ كلامِهم، بصيغة النّداءِ، وهو التّنبيهُ والإسماعُ، فهذا في النّداء ذاتِه، ثمّ إيقاظُ العاطفةِ واستدعاءُ ما يكون سببًا وتحفيزًا على استمرار الإصغاءِ والتّنبُّه، وهو مجيءُ المنادَى بلفظ الأبوّةِ المضافِ إلى ضميرِهم، فكأنّهم يقولون له: إذا لم يكن من سببٍ يَدعوك للإصغاء إلينا فيما أتَيْناك به، فأصغِ إلينا وصدِّقْنا بحقّ بُنوّتِنا لك، وأبوّتِك علينا.

معنَى الإضافةِ في قولِه: ﴿يَٰٓأَبَانَآ﴾:

خطابُ الوالدِ بما يَستحقُّه منَ التّكريمِ

إضافةُ لفظِ (أب) إلى (نا) المُتكلّمين يفيدُ التّعريفَ، والإغناءَ عنِ التّفصيل، فالإضافةُ إيجازٌ بليغٌ أغْنَى عن أن يقال: قالوا يا يعقوبُ، أو يا نبيَّ اللّه، أو يا من وصْفُك كذا وكذا، فلمّا قالوا: ﴿يَٰٓأَبَانَآ﴾، سدَّ مسدَّ كلِّ الأوصافِ والتّفاصيلِ التي يصحُّ إجْراؤها على المُنادَى،

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/193، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/40.
(2) فاضل السّامرائيّ، معاني النّحو: 4/320.

واختيرَ لفظُ الأبوّةِ مُضافًا دون غيرِه، تعظيمًا لحقيقتِها، وتشرُّفًا منهم بانتسابِهم إليه، وتوسّلًا بها إلى استعطافِه، وتعظيمًا منهم لشخصِ يعقوبَ عليه السلام وبِرًّا به، فإنّ وصْفَ الأبوّة هو أحبُّ وصْفٍ إلى الشّخصِ أنْ يُناديَه ابْنُه به[1].

نُكتةُ فصْلِ جملةِ: ﴿إِنَّ ٱبۡنَكَ سَرَقَ﴾:

نزْعُ ذواتِهم مِنَ الأمرِ بما ساقوه، بوصْفِ الأُبوّةِ والبُنوّةِ

جملةُ: ﴿إِنَّ ٱبۡنَكَ سَرَقَ﴾ استئنافيّةٌ في حيّز القولِ مِن جملةِ: ﴿فَقُولُواْ﴾، فهي جوابُ جملةِ النّداءِ في قولِه: ﴿يَٰٓأَبَانَآ﴾، أو جملةُ: ﴿إِنَّ ٱبۡنَكَ سَرَقَ﴾ هي طليعةُ مَقول القول، وجملةُ النّداءِ ﴿يَٰٓأَبَانَآ﴾، اعتراضيّةٌ للتّقويّةِ والتّأكيدِ بين القول ومَقولِه، ولذلك فُصِلَتْ[2].

بَلاغةُ تَوالي المُؤكِّداتِ، في جملةِ: ﴿إِنَّ ٱبۡنَكَ سَرَقَ﴾:

تأكيدُ الأخبارِ، إذا كانت محلَّ تردُّدٍ أو إنكارٍ

سيقتْ جملةُ مَقولِ القول: ﴿يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبۡنَكَ سَرَقَ﴾ بجملةٍ مِنَ المُؤكِّدات، فصُدِّرتْ بالنّداءِ، ثمّ اصطفاءِ المُنادَى بلفظِ الأبوّة مُضافًا إلى ضميرِهم، ثمّ تأكيدِ جملةِ جوابِ النّداء بـ (إنّ) المُؤكِّدةِ للمضمون الإسناديِّ بين اسمِها وخبرِها، ثمّ التّأكيدِ بالجملةِ الاسميّةِ وتقديمِ المسنَدِ إليه على الخبر الفعليّ، فلم يقل: (سرق ابنك)، وكذا التّأكيدُ التّحقيقيُّ بصيغة الماضي في ﴿سَرَقَ﴾، بل حشَدَ تلك المُؤكِّداتِ مبالغةً في تقرير المضمونِ، اتّقاءً لنكير أبيهم عليهم وعدَمِ تصديقِه لهم، فنزّلوه منزلةَ المخاطَبِ المُنكِرِ، لا سيّما ولهم سوابقُ في يوسفَ مِنَ الكَذِبِ والخيانةِ، وأيضًا: لأنّ الإخبارَ بكونِ أعدَلِ أبنائِه وأصغرِهم سارقًا، هو أمرٌ يَستدعي تكذيبَهم وسوءَ الظّنِّ بهم، فلمّا كان الخبرُ مَظِنّةَ الرِّيبةِ ساقوه بالمُؤكِّدات التي هي مظِنّةُ التّصديق وإبعادِ التُّهمةِ عنهم[3].

(1) أبو موسى، خصائص التّراكيب، ص: 211.
(2) صافي، الجدول: 13/45.
(3) صافي، الجدول: 13/45.

نُكتةُ العُدولِ عن قولِه: (أخانا) إلى ﴿ٱبۡنَكَ﴾:

المُناداةُ بوصْفِ الأُبوّةِ والبُنوّةِ، يُسكِّنُ قلبَ الوالدِ عند غضْبتِه المَجلُوّةِ

لم يقولوا: (إنّ أخانا سرق)، بل قالوا ﴿إِنَّ ٱبۡنَكَ سَرَقَ﴾، وذلك لأربع نُكَتٍ:

الأولى: أنّ تَعبيرَهم بإضافة البُنوّةِ إلى كافِ يعقوبَ عليه السلام يُقابلُ التّعبيرَ بالأبوّةِ في السّياقِ قبلَه، في قوله: ﴿ٱرۡجِعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيكُمۡ فَقُولُواْ يَٰٓأَبَانَآ﴾، فعبّرَ هنا بلفظ (الابن) اطّرادًا في المقابلة وجريًا مع النّسق في التّعبيرِ بـ (الأب) من قبلُ.

الثّانيةُ: مُتابعةُ النّسَقِ في إيراد الخطابِ والوصْفِ، على نفْس المحلِّ المقصودِ، بمعنى أنّ لفظَ ﴿أَبِيكُمۡ﴾، ولفظَ ﴿أَبَانَا﴾، ولفظَ ﴿ٱبۡنَكَ﴾ هذه الثّلاثةُ المقصودُ منها شخصُ يعقوبَ عليه السلام، فأجرَى الكلامَ على محلٍّ واحدٍ هو المقصودُ بالخطابِ، ولو قال: (إنّ أخانا سرق): لم يكن لفظُ (أخانا) مقصودًا به يعقوبُ، بل مقصودًا به ذواتُهم، فيتعدّدُ المحلُّ تعدُّدًا لم يتعلّق به القصدُ والغايةُ، فكان توحيدُ المحلِّ للتّنبيه على الغايةِ والقصْدِ أوْلَى وأحسنَ.

الثّالثةُ: مُراعاةُ الأدبِ وتقريرُ ما يقتَضيه الحياءُ والخجلُ من اختيار اللّفظِ الأنسبِ لذلك؛ إذ إنّ أبناءَ يعقوبَ في مقام تقصيرٍ وإبلاغٍ بما يَسوءُ أباهم في أخيهم، وهذا يَستلزمُ منهم استحْياءً وخجلًا أنْ يَنسِبوا أنفسَهم إلى أخيهم بوصْفِ الأخوّة، فهذا لا يليقُ وهم ضيَّعوه وفرّطوا فيه وعادوا إلى أبيهم من دونه، فكيف يقولون (أخانا) وهم لم يحفَظوا عهدَهم مع أبيهم فيه، فالتّفريطُ وعدمُ الحفظِ لا يُناسِبُ وصْفَ الاستمساكِ والمُراعاةِ الّذي يقتَضيه لفظُ (أخانا).

الرّابعةُ: وهي غرَضٌ لفظيٌّ صَوتيّ، فإنّ لفظَ ﴿ٱبۡنَكَ﴾ أخفُّ لفظًا وصَوتًا في تركيب: ﴿إِنَّ ٱبۡنَكَ سَرَقَ﴾ مِنْ لفظِ (أخانا) في تركيبِ (إنّ أخانا سرق)، ذلك أنّ همزةَ الوصل في ﴿إِنَّ ٱبۡنَكَ﴾ أخفُّ مِن

همزة القطعِ في (إنّ أخانا سرق)، فاختار ما هو أسرعُ وتيرةً في التّركيب عندَ النُّطق والأداءِ.

معنَى الواوِ، في عبارةِ: ﴿وَمَا شَهِدْنَآ﴾:

جملةُ ﴿وَمَا شَهِدْنَآ﴾ معطوفةٌ على جملةِ مَقول القول ﴿يَـٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ﴾، تفريعًا عليها بما يُقرِّرُ صِدقَ مضمونِها، إتْباعًا للخبرِ بأَمارتِه وبُرهانِه المؤكِّدِ لوقوعِه وحقيقتِه[1].

إتْباعُ الأدلّةِ بقرائنِ ثُبوتِها، تأكيدٌ على صدقِها، ويقينِ وقوعِها

بَلاغةُ القصْرِ في قولِه: ﴿وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا﴾:

جملةُ ﴿وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا﴾ قصْرٌ حقيقيٌّ بصيغةِ النّفي والاستثناءِ، وهي أقوى صِيَغِ القصْر؛ لأنّها نصٌّ على الثّبوتِ الموجَبِ، والنّفيِ السّالبِ بين الشّيءِ وضدِّه في تركيبٍ واحدٍ، وصيغَ التّركيبُ بطريقة القصْرِ؛ لأنّه مسوقٌ مساقَ البيّنةِ بعد الادّعاءِ، والبراهينُ والبيّناتُ تُساقُ بطريق الجزْمِ القاطعِ، الّذي يَستلزمُ تنزيهَ المُدّعي بتقرير دَعْواه، وإثباتِها، وليس أوضحَ في البيّنة والاستدلالِ مِنَ القصْر بطريق النّفي والاستثناءِ.

ثُبوتُ البيّنةِ مِن ثباتِ أصحابِها، وصدْقِهم فيما يَدَّعونَ

نُكتةُ التّعبيرِ بلفظِ الشّهادةِ ﴿شَهِدْنَآ﴾:

التّعبيرُ بلفظِ الشّهادةِ يدلُّ على الإخبارِ بمّا أدّى إليه الحِسُّ مِن قولٍ أو فعْلٍ، أو بما أدّى إليه الدّليلُ القطعيُّ؛ لأنّه مقطوعٌ به كما تَقْطعُ الحاسّةُ بما تشهدُه عَيانًا، وإيثارُ لفظِ الشّهادةِ يدلُّ على أنّهم رَأَوا الصُّواعَ يخرجُ مِن وعاءِ أخيهم، فهذا خبَرُ الحاسّةِ، والمرادُ بالخبَر قولُه: ﴿إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ﴾، ويدلُّ لفظُ الشّهادة - أيضًا - على شهادتِهم أمامَ يوسفَ عليه السلام بأنّ عقوبةَ السّارقِ أنْ يُسْتَرَقَّ عند المسروقِ منه استدلالًا منهم بما في شريعة يعقوبَ ومذهبِه، فهذه شهادةٌ بالدّليلِ القطعيِّ، فالأولى شهادةٌ حسِّيّةٌ، والثّانيةُ شهادةٌ معنويّةٌ، وكلاهما مقصودٌ[2].

الشّهادةُ أعلى درجاتِ البُرهانِ، وهي دليلٌ قطعيٌّ بإيقانٍ

(1) صافي، الجدول: 13/45.

(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 3/270، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 10/193.

معنَى الباءِ في قولِه: ﴿بِمَا﴾ في السّياقِ:

لا مَندوحةَ مِن بناءِ الأماراتِ، على ما هو يقينيٌّ، أو في حُكمِ اليقينِ

الباءُ في قوله: ﴿بِمَا﴾ في جملةِ: ﴿وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا﴾ للسّببيّةِ، أي: شهادتُنا أمامَ يوسفَ بسببِ ما حصلَ لنا من عِلْمِنا بشرْعِك بأنّ السّارقَ يُستعبَدُ عند المسروقِ منه، وعِلمِنا بظاهرِ ما جرى من ثبوتِ السّرقةِ على ابنِك. ويصحُّ أن تكونَ الباءُ للمصاحبةِ، أي: شَهِدنا مُستصْحِبين دليلَنَا منَ العِلْم والبُرهان، أو للملابسةِ، أي: شهدْنا ونحن مُتلبّسون بالعِلم والبيّنةِ لا بالادّعاءِ والظّنّ. ويصحُّ أنْ تكونَ الباءُ للاستعلاءِ المجازيِّ، مُبالغةً في ثبوتيّةِ العلْمِ لديهم، وأنّهم مُتمكّنون منه تمكُّنَ المُستعْلي على شيءٍ مُستَولٍ عليه، أي: شهادتُنا جاءتْ على عِلمٍ مُتحقِّقٍ مبينٍ، ويُعينُ عليه صيغةُ الماضي في ﴿عَلِمْنَا﴾، أي: علِمْناه متحقِّقًا تحقّقَ الماضي المَقْضِيّ، ولذا لم يقل: (وما شهدنا إلا بما نعلمُ)[1].

لفظُ العلْمِ بين المجازِ والاستعارةِ:

إنزالُ المُعتقَدِ، منزلةَ المعلومِ المُحقَّقِ، من فصيحِ السّياقِ

في قوله تعالى: ﴿وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا﴾ مجازٌ؛ إذ يُنزّلُ المعتقَدُ منزلةَ المعلومِ المحقَّقِ، أي وما شهدنا إلا بما اعتقَدْنا. تجوّزًا بالعلْمِ عنِ الاعتقاد الذي ظنّوه علمًا، وهو مِن مجاز التّشبيه لاشتراكِهما في الجزمِ، ويجوزُ أنْ يكونَ استعارةً؛ إذِ استعارَ العلْمَ للاعتقاد، لاشتراكِهما في الرُّجحان[2].

معنَى (ما) في شبْهِ الجملةِ ﴿بِمَا﴾:

ما تَيقّنوا مِن علْمِه هو محلُّ تأمّلٍ وتدبُّرٍ

(ما) في قوله تعالى: ﴿بِمَا عَلِمْنَا﴾ موصولةٌ، وعائدُها محذوفٌ، أي: بالّذي علِمناه. أو مصدريّةٌ، أي: شهدنا بالعلمِ أو بعلْمنا. فعلى الأوّل: (ما) موصولٌ اسْميٌّ، وعلى الثاني: (ما) موصولٌ حَرفيٌّ[3].

(1) الواحديّ، التّفسير البسيط: 12/206.
(2) عفيف، الشامل في بلاغة القرآن: 2/92.
(3) صافي، الجدول: 13/45.

وفي التّعبيرِ بـ (ما) بما تتضمَّنُه من إبهامٍ يوحي بأنّ ما تَيقّنوا من علمِه، هو محلُّ تأمّلٍ وتدبّرٍ؛ لغرابة حصولِه.

موقعُ جملةِ ﴿وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ﴾ ممّا قبلَها:

جملةُ: ﴿وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ﴾ معطوفةٌ على جملةِ ﴿إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ﴾، فكلاهما في حيّزِ مَقول القولِ[1]، وبها جمْعُ الإخبار بالاعتذارِ.

العطفُ لجمعِ الإخبارِ بالاعتذارِ، مِن فصيحِ البيانِ

بَلاغةُ الاحتراسِ، في السّياق:

جملة: ﴿وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ﴾ احتراسٌ واستدراكٌ ممّا قبلَه، وهو استدفاعُ أنْ يكونَ المرادُ من عِلمِهم في قوله: ﴿وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا﴾ الجزمَ واليقينَ، بلِ المرادُ ما غلبَ على ظنّهم بحسبِ ما شَهِدُوه ظاهرًا من كوْنِ الصُّواعِ يخرجُ من وعاء أخيهم، ولكن لا يلزمُ من ذلك ثبوتُ سَرِقَتِه في واقع الأمرِ؛ لأنّهم لم يَشهدوه مُتلبِّسًا وهو يَسرقُ، بل شهدوا قرينةَ السّرقة، لا السّرقةَ ذاتَها، فلاحتمالِ تلفيقِ قرائنِ الجناية دونَ وقوعِها فعلًا، احترسوا بما يفيدُ عدَمَ الجزْمِ، استصحابًا لبراءةِ أخيهم، ولعدمِ كفاية الدّليلِ عندَهم في ثبوت سرقتِه، والمعنى على هذا: وما كنّا لغيْبِ ابنِك حافظين، فنحن نَحكي ما جرى أمامَ أعينِنا لغياب حقيقةِ الأمر وباطنِه عنّا.

احتياطُ المدّعي في بناءِ دفاعِه، بعدَمِ المُجازفةِ والمُبالغةِ في الادّعاء

بَلاغةُ التّذْييلِ، باحتمالِ الآيةِ الكريمةِ ذلك:

يصحُّ أنْ يكونَ ﴿وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ﴾، تذييلًا بالاعتذارِ عن أنفسِهم بالتّفريطِ في أخيهم، والتّقصيرِ في العهدِ بحفْظِه بينَهم وبين أبيهم، على معنى: وما كنّا نعلمُ الغيبَ حين عاهدْناك، أنّه سيُنْسَبُ إلى السّرقة، أو أنّه سيحصلُ هذا التّوريطُ، أو أنّك تُصابُ فيه كما أصِبْتَ في يوسف عليه السلام، وعلى الاعتبارَين فجملةُ: ﴿وَمَا كُنَّا

اعتذَروا عن تقصيرِهم وعدَمِ إيفائِهم بالعهْدِ الّذي قطَعوه مع أبيهم

(1) صافي، الجدول: 13/45.

﴿لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ﴾، تطييبٌ لخاطرِ أبيهم وتلطّفٌ معه بعدم القطْعِ بسرقةِ أخيهم عندَه[1].

نُكتةُ العُدول مِنَ الجملةِ الفعليّةِ إلى الجملةِ الاسميّةِ:

لم يقل في السّياق الكريم: (وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ نَحْفَظُ)، وعبّرَ بالاسميّةِ: ﴿حَٰفِظِينَ﴾؛ للدّلالة على انتفاء حفْظِ الغيبِ عنهم على جهة الدّوامِ والاستمرارِ وأنّ اتّصافَهم بذلك أصلٌ وسُنَّةٌ لا تتخلّفُ، فهم لم يكونوا حافِظين للغيبِ، ولن يكونوا أبدًا حافِظين له، فضلًا عن مراعاةِ الفواصلِ، ألا تنخرمَ إذا عبّرَ بالفعليّةِ.

عدمُ العلمِ بالغيبِ، وصْفٌ على الدّوامِ، ولا يعلمُ الغيبَ إلّا ربُّ الأنامِ

معنَى (ال) في لفْظِ ﴿لِلْغَيْبِ﴾:

(ال) في ﴿لِلْغَيْبِ﴾ في قوله: ﴿وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ﴾ للجنس، فيفيدُ استغراقَ أحوالِ الغيبِ كافّةً، فيدخلُ فيه حالُهم مع أخيهم، فهو مِن باب نفْيِ الخاصِّ بنفْيِ العامِّ.

بوّابةُ الغيبِ لا تُدرَكُ باستعجالِها، بل بِتَوخّي قدَرِ الله بها

نُكتةُ تقديمِ شبْهِ الجملةِ: ﴿لِلْغَيْبِ﴾ على الخبرِ:

لم يقل في السّياق الكريم: (وَمَا كُنَّا حَافِظِينَ لِلْغَيْبِ)، بل قدّم مُتعلَّقَ الخبر ﴿لِلْغَيْبِ﴾ على خبرِ كان ﴿حَٰفِظِينَ﴾؛ لإفادة الاختصاصِ، مُنبِّهًا على أهمّيّةِ المتعلَّقِ وخصوصيّتِه، واستباقًا في تعليلِ عدمِ العِلم اللّازم عن عدمِ الحفْظِ، بتقديم ما يُشعِرُ بعلّتِه، وهو لفظُ ﴿لِلْغَيْبِ﴾، كأنّهم قالوا: الغيبُ مستقبَلٌ غائبٌ، ولا حيلةَ لنا بعلْمِ المستقبَل قبلَ أوانِه ولا بما غاب قبلَ انكشافِه. ففي تقدُّمِ الجارِّ والمجرورِ على الخبرِ أيضًا، تنبيهٌ على أنّ الغرَضَ مُتوفِّرٌ على إثباتِ المتعلَّقِ لإثبات الخبرِ، فكأنّه بَنَى الخبَرَ على مُتعلَّقِه، كأنّه لم يَنْتَفِ عنهم في هذا الموقف إلّا الاحتياطُ مِنَ الغيبِ، فقد حفِظوا التّدابيرَ واحتاطوا بما في وُسْعِهم، إلا الغيبَ فليس في وُسْعِهم شيءٌ منه[2].

أسبابُ المخلوقِ مقطوعةٌ عنِ الغيبِ بلا ريْبٍ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/300، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/40.

(2) أبو موسى، خصائص التّراكيب، ص: 364.

بَلاغةُ العطْفِ في قوله: ﴿وَسْـَٔلِ﴾:

التّدرّجُ في إقامةِ البيّنةِ على الدَّعوَى، من بليغِ الخطابِ

جملةُ: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا﴾ معطوفةٌ على ما قبلَها من مَقول القولِ، ومجيئها بعد جملةِ: ﴿وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا﴾، وجملةِ: ﴿وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ﴾ هو مِن باب تدرُّج المُدَّعِي في إثبات البيّنةِ والبُرهانِ، على ما يدَّعيه، فأثبتوا البيّنةَ أوّلًا، ثمّ ردّوها إلى جهة التّحقيقِ - وهو أبوهم عليه السلام - لِيتحرَّى منها بنفسِه بما لدَيه مِن إمكانٍ وقُدرةٍ على ذلك، فأحالوه إلى التّحرّي والاستيثاقِ مِن أدلّةِ براءتِهم، مبالغةً منهم في إزالة التُّهمةِ عن أنفسِهم، لسوءِ ظنّه بهم بناءً على كذبِهم القديمِ في شأن يوسفَ[1].

بَلاغةُ المجازِ في قوله: ﴿وَسْـَٔلِ﴾:

السُّؤالُ هو أصلُ وسائلِ التّحَرّي، ومَناطُ الإدراكِ للحقائقِ

السُّؤالُ في قوله تعالى: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا﴾، مجازٌ في الإرسالِ، أي: أرسِلْ إلى أهلها لِتسألَهم، ذلك أنّه كان في أرض كنعانَ من فلسطين وما حولَها، فلا مساغَ له بالسّؤال عمّن هم في مصرَ إلّا بالإرسال، فأطلقَ اللّازمَ وهو السّؤالُ، وأراد الملزومَ وهو الإرسالُ على طريقة المجازِ المرسلِ[2]..

معنَى (ال) في لفظِ ﴿ٱلْقَرْيَةَ﴾:

بيانُ الإخبارِ بما هو مَعْهودٌ، في استدفاعِ مواطنِ الرّيبةِ

(ال) في ﴿ٱلْقَرْيَةَ﴾ مِن قوله تعالى: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ للعهدِ، سواءٌ أريد بها مِصرَ؛ إذْ كانوا يقولون للأمصار والمدائنِ: قُرى، أو المرادُ بها قريةٌ على مشارف مصرَ، وهي التي جرى فيها التّفتيشُ وهم خارجون من مصْرَ[3].

بَلاغةُ المجازِ العقلِّي، في إسنادِ السُّؤالِ للقريةِ:

إسنادُ السّؤالِ للقرية في قوله تعالى: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ مجازٌ عقليٌّ؛ لأنّ السّؤالَ يتوجّهُ إلى أهل القرية، لا إلى القريةِ ذاتِها، فالمجازُ في

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 18/495.
(2) القونويّ وابن التّمجيد، حاشية على تفسير البيضاوي: 10/401.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/301.

حذْفِ المُضافِ بإقامة المُضافِ إليه مقامَه، فنَسَبَ للمضافِ إليه ما هو للمضافِ. وغرَضُ ذلك: المبالغةُ في ثبوت براءتِهم، حتى كأنّها من فرْطِ ظهورِها التّامّ لو سألتَ القريةَ ذاتَها عنِ الأمر لأجابتكَ بالبراءةِ، ففي التّركيبِ - أيضًا - كنايةٌ عن ظهورِ الأمرِ ظهورًا تامًّا، ويصحُّ أنْ نقولَ مِن غير حذْفٍ: إنّ التّعبيرَ بالقرية مجازٌ مرسَلٌ، علاقتُه المحليّةُ؛ إذ أطلقَ المحلَّ وأراد الحالَّ، وهم أهلُها[1].

يأخذُ المحلُّ حُكمَ الحالِّ، وهو مِن فصيحِ المَقالِ

نُكتةُ التّعبيرِ بالاسْمِ الموصولِ وصِلتِه:

جملةُ: ﴿ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِي كُنَّا فِيهَا﴾ وُصِفَتْ فيها المعرفةُ ﴿ٱلْقَرْيَةَ﴾، بالجملةِ مِنَ الموصول وصِلتِه: ﴿ٱلَّتِي كُنَّا فِيهَا﴾، فقد أتى هنا بالموصولِ وصلتِه ليصِفَ المعرفةَ بالجملةِ، فأتى بالموصول ﴿ٱلَّتِي﴾ ليتوسّلَ بها إلى وصفِ المعرفةِ بالجملةِ. وأيضًا: جملةُ الموصول: ﴿ٱلَّتِي كُنَّا فِيهَا﴾ جاءت بالموصول الخاصّ ﴿ٱلَّتِي﴾، فأفاد العهديّةَ، والإخبار بما هو معهودٌ عن التي كُنَّا فِيهَا عندَ السامع ومُتعيّنٌ لديه، ومثلُ ذلك يقالُ في جملةِ ﴿وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِيٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا﴾، فأفادَ الموصولُ وصلتُه أنّ العِيرَ هي عيرٌ معلومةٌ عندَ يعقوبَ عليه السلام، ليكونوا بذلك اسْتَوْفَوا جميعَ الأدلّةِ معه، فأقَرّوا لأنفُسِهم بالبراءةِ أوّلًا بدليلِ شهادتِهم، فهذا دليلٌ من جهتِهم، وهو قوله تعالى: ﴿وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ﴾، ثمّ جعلوه يطلبُ دليلًا من جهةٍ محايدةٍ، لا يعرفونَهم ولا يعرفُهم، فيمتنعُ التّواطؤُ والمحاباةُ، وهو سؤالُ أهلِ القرية في قوله: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِي كُنَّا فِيهَا﴾، ثمّ ندبوه إلى طلب دليلٍ من جهةٍ معلومةٍ زيادةً في التّوثيقِ، وهو سؤالُ القافلةِ الّتي جاؤوا فيها، في قوله تعالى: ﴿وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِيٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا﴾. ليستتمّوا معه جهاتِ التّحقيق والتّحرّي المُمكِنةَ بما يقطعُ الظّنّ ويمحو التُّهمَةَ[2].

البريءُ لا يخجلُ مِنَ الاعترافِ، ولا يكتمُ شهادتَه ولا يخافُ

(1) ابن عطيّة، المحرر الوجيز: 3/271، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 18/495، وأبو حيّان، البحر المحيط: 6/313.

(2) صافي، الجدول: 13/45، وفاضل السّامرائي، معاني النّحو: 1/123.

بَلاغةُ المجازِ في سؤالِ (العير):

أسلوبُ الدّفاعِ في عرْضِ الأدلّةِ، يُؤثّرُ في نتيجةِ الحُكمِ المُحتملةِ

قوله تعالى: ﴿وَٱلۡعِيرَ ٱلَّتِيٓ أَقۡبَلۡنَا فِيهَاۖ﴾ معطوفة معطوفٌ على جملةِ ﴿وَسۡـَٔلِ ٱلۡقَرۡيَةَ ٱلَّتِي كُنَّا فِيهَا﴾، فالتّقديرُ: (واسأل العير التي أقبلنا فيها)، وما قيل في سؤالِ القرية من صُوَر المجازِ الواردةِ عليها يقال في سؤال العيرِ، فسؤالُ العيرِ مجازٌ عن سؤال أصحابِها، أي: اسألْ أصحابَ العيرِ الذين وفَدَوا معنا في طريقنا إليك، فالكلامُ على حذْفِ مضافٍ، وإسنادُ السّؤال للعير مجازٌ عقليٌّ، أوِ المرادُ سؤالُ العير نفسِها كنايةً عن شدّة ظهورِ الأمرِ وعرفانِه حتى إنّ الذّواتِ الّتي لا تعقِل باتتْ تعرفُها، أوِ التّعبيرُ بالعير مجازٌ مرسلٌ علاقتُه المُجاوَرةُ، وهي تسميَةُ الشّيء باسْمِ المجاوِرِ له، فأطلقَ العيرَ وأراد أصحابَها والمرافقين لها، لعلاقة المجاورةِ[1].

معنَى (ال) في لفظِ ﴿وَٱلۡعِيرَ﴾ في السّياقِ:

طلبُ الإشهادِ على المتَّهم بما يُحقّقُ براءتَه

(ال) في ﴿وَٱلۡعِيرَ﴾ للعهْدِ، ويؤكّدُ العهديّةَ وصْفُها بجملةِ الصِّلة، وهي قولُه: ﴿ٱلَّتِيٓ أَقۡبَلۡنَا فِيهَاۖ﴾، كما سبق بيانُه، في قولِه: ﴿ٱلۡقَرۡيَةَ ٱلَّتِي كُنَّا فِيهَا﴾[2].

بَلاغةُ التّضْمينِ في لفظ ﴿أَقۡبَلۡنَا﴾:

إعطاءُ مَعْنيَين أقوَى مِن إعطاءِ معنًى واحدٍ

في قولِه تعالى: ﴿وَٱلۡعِيرَ ٱلَّتِيٓ أَقۡبَلۡنَا فِيهَاۖ﴾، تضمينٌ؛ إذ يتضمّنُ لفظُ الإقبالِ في سياق الآية معنى السّلوكِ، والمعنى: واسألْ أصحابَ العير، أوِ القافلةَ الّتي سلكنا فيها[3]، وفي التّضمين إعطاءُ مَعْنيَين، والتّقديرُ: سلكْنا مُقبلين، وهو أقوَى مِن إعطاء معنًى واحدٍ.

معنَى الواوِ في جملةِ: ﴿وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾:

تَبرئةُ المتَّهمِ نفسَه، من صيانةِ النّفْسِ، وحفْظِ العِرْضِ

جملةُ: ﴿وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ معطوفةٌ على جُمَلِ مَقول القولِ التي

(1) ابن عطيّة، المحرر الوجيز: 3/271، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 18/495، وأبو حيّان، البحر المحيط: 6/313.

(2) فاضل السّامرائي، معاني النّحو: 1/122.

(3) عفيف، الشّامل في بلاغة القرآن: 2/93.

قبلَها، وجميعُها داخلٌ في حيّز القولِ في قوله: ﴿فَقُولُواْ يَٰٓأَبَانَآ﴾، وهذه الجملةُ هي خاتمةُ مَقولِ القولِ وفاصِلةُ الفراغِ منه[1].

نُكتةُ تتابُعِ المُؤكِّداتِ، في فاصلةِ الآية:

الإخبارُ بما يدفعُ سوءَ الظّنِّ عنِ البريءِ

جملةُ ﴿وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ اكتنفتها مؤكّداتٌ عِدّةٌ، بَدْءًا منَ الجملةِ الاسميّةِ، فلم يقل: (وقد صدَقْنَا) بالفعليّةِ، ثمّ التّصديرِ بـ (إنّ)، ولامِ الابتداء المُزحلَقة للخبرِ، ومجيءُ الخبر بصيغةِ اسْمِ الفاعلين، لإفادة الكمالِ في الصّفة، ولذا قيل: إنّ هذه الجملةَ في تأكيدها بمنزلةِ القسَمِ بعد استفراغِ الوُسْعِ في تثبيتِ البيِّنةِ وتحقيقِ البرهان على براءتِهم، وهذه هي القرينةُ التي جعلتِ التّركيبَ في معنى القسَم، كأنّه في قوّة قولِه: (واللّه إنّا لصادقون فيما أخبرناك به، فصدِّقْ إنْ شئتَ أو لا تُصدِّقْ، فإنّ الظّنّ لا يُغنِي منَ الحقّ شيئًا)، والتّذييلُ بتلك الجملةِ على هذا النّحو منَ التّأكيد، لعِرفانِهم بأنّهم محلُّ تُهمةٍ عند أبيهم، لِفعلِهِمُ القديمِ بيوسفَ عليه السلام[2].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الحكمُ والقضاءُ:

كلُّ قضاءٍ حُكمٌ، وليس كلُّ حُكْمٍ قَضاءً

الحُكْمُ هو: ضَبْطٌ يَمْنَعُ التّسَيُّبَ ويمكّنُ مِن جَعْلِ الشيء - أو جريانِه - على ما يَنبغي ويُرادُ. والقضاءُ: هو إجراءُ الحكْمِ وإنفاذُه، ويُطلَقُ كلٌّ منهما على الآخَر، فالقضاءُ يُستعمَلُ بمعنى الحُكم؛ لأنّ القاضي يَضْبِطُ أمرَ كلٍّ مِنَ الفريقَين وَيفْصِلُ، مانِعًا أن يَدخلَ أيٌّ منهما على الآخر في حقِّه، ويُستعملُ الحُكمُ بمعنى القضاءِ؛ لأنّ القاضي يُحكِمُ الأحكامَ ويُنْفِذُها، فكلُّ قضاءٍ حُكمٌ، وليس كلُّ حُكْمٍ قضاءً؛ لأنّ القضاءَ هو نهايةُ الشّيء وإتمامُه والفراغُ منه، ولذا

(1) صافي، الجدول: 13/46.

(2) القونويّ وابن التّمجيد، حاشية على تفسير البيضاوي: 10/402، والآلوسي، روح المعاني: 7/37.

فالقضاءُ ليس مجرّدَ إصدارِ الحُكمِ فقط بل إجراؤه وإنفاذُه، وأمّا الحكمُ فهو القضاءُ بالشّيء أن يكون كذا أو ليس كذا، سواءٌ أَلْزَمتَ ذلك غيرَك أو لم تُلْزِمْه، فالحكمُ أعمُّ والقضاءُ أخصُّ[1].

ومن هنا كان اختيارُ لفْظِ الحُكمِ في قوله تعالى: ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ أنسبَ؛ لكونِه انتظارًا لإصدار الحُكم ابتداءً مِن غير نظرٍ إلى إنفاذِه، وتطبيقِه.

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحفّاظ، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (حكم، قضى).

﴿قَالَ بَلۡ سَوَّلَتۡ لَكُمۡ أَنفُسُكُمۡ أَمۡرٗاۖ فَصَبۡرٞ جَمِيلٌۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَنِي بِهِمۡ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ٨٣ وَتَوَلَّىٰ عَنۡهُمۡ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبۡيَضَّتۡ عَيۡنَاهُ مِنَ ٱلۡحُزۡنِ فَهُوَ كَظِيمٞ ٨٤﴾

[يوسف: 83 - 84]

مُناسَبَةُ الآيَتَينِ لِمَا قَبْلَهُما:

المناسبةُ بين اعتذارِ الإخوةِ، وردِّ الأبِ الصّالحِ عليهم، بحدْسِه المَوصولِ بالله

لمّا ذكرَ في الآياتِ السّابقةِ رجوعَهم إلى أبيهم وإخبارَهم إيّاه بما جرَى مِن حبْسِ أخيهم في مِصر، لوِجدانهم صُواعَ المَلِك في متاعِه، أخبر هاهنا بما ردَّ به عليهم، وفِعلِه تُجاه ما فاجَؤوه به.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَٰٓأَسَفَىٰ﴾: من (أسف) وهو أصلٌ يدلُّ على الفَوْتِ والتّلَهُّفِ وما أشْبهَ ذلك مِنَ الغضَبِ والحُزْن؛ لكونِ كلَيْهما لا يكونُ إلّا عن فواتٍ وتلهُّفٍ[1]. و(الأسَفُ) هو الغضبُ والحُزْنُ معًا، ويُقالُ لكلِّ واحدٍ على انفراده، وحقيقتُه: ثَوَرانُ دَمِ القلْبِ شهوةَ الانتقام، فمتى كان ذلك على مَن يَقْدِر عليه انتشرَ فصارَ غضَبًا، وإنْ كان ذلك على مَن لا يَقْدِر عليه انقبَضَ فصار حُزْنًا[2]. والمرادُ بالأسَف في قوله: ﴿يَٰٓأَسَفَىٰ﴾: الحزنُ الشّديدُ؛ لأنّه لا يملِك معه غيرَه، والغضبُ موقِفُ القادر[3]. وتركيبُ ﴿يَٰٓأَسَفَىٰ﴾ نداءٌ مجازيٌّ بمعنى التّحسّرِ، كأنّه قيل: يا أشدَّ الحُزْنِ هذا أوانُك فاحضُرْ[4]. والمُنادَى وهو (أسفى) مضافٌ إلى ياء المُتكلّمِ المقلوبة ألِفًا، لأنّها أمدُّ في الصّوت وأدلُّ على

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (أسف).
(2) الرّاغب، المفردات: (أسف).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (أسف).
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/196.

الفجيعة. ويجوزُ أنْ يكونَ التّركيبُ مِن باب النُّدْبَةِ وهو نداءُ المتوجَّعِ منه والمتفجَّع عليه، والمرادُ هنا: المتوجَّعُ منه وهو الأسفُ، والألفُ في آخره مزيدةٌ لتأكيد التّفجُّع والتّوجُّع[1].

2) ﴿وَٱبۡيَضَّتۡ عَيۡنَاهُ﴾: الأبيضُ: لونٌ مِنَ الألوان، وهو ضِدُّ الأسْوَد، ويقال ابيضَّ الشّيءُ: إذا لَحِقَه اللّونُ الأبيضُ، تشَرَّبَ به أو غَلَبَ عليه[2]. وتركيبُ ﴿وَٱبۡيَضَّتۡ عَيۡنَاهُ﴾ معناه أنّ سَوادَ العينِ اعتَراهُ بياضٌ، وهو كنايةٌ عن إصابة العين بآفةٍ تحجُبُها عنِ الإبصار لسبَبٍ كاستيلاء الحزنِ الشّديدِ والبكاءِ المتواصِلِ، جُزئيًّا بضعْفِ البصر، أوكلّيًّا بذهابِ البصر[3].

3) ﴿كَظِيمٞ﴾: من (كظم) وهو أصلٌ يدلُّ على الإمساكِ والجمْعِ للشّيء. ومنه (الكَظْم) وهو اجتراعُ الغيظ والإمساكُ عن إبدائِه، وكأنّ الكاظمَ يحبِسُه في جوفِه. و(الكظْم) - أيضًا: مَخْرَجُ النَّفَس، يقال أخَذَ بكظْمِه، وقياسُه على الإمساك والجمْعِ للشّيء كذلك؛ لأنّه كأنّه منع نَفَسَه أن يخرجَ، فكتمَه في جَوْفِه وجَمَعَه إلى نفْسِه. والمرادُ هنا بقوله: ﴿فَهُوَ كَظِيمٞ﴾ أي: حزينٌ حزْنًا بالِغًا لا يُبْدِي التَّذَمُّرَ منه[4].

المَعْنى الإجْماليُّ:

ارتيابُ يعقوبَ في أقاويلِ أبنائِه، ودُعاؤه الله في حزنٍ وحسْرةٍ

قال أبوهم لهم - بعدما جاؤوه مِن غيرِ أخيهم وأخْبَروه بفقْدِه وحبْسِه: ليس الأمْرُ كما نَقَلْتُم، بلِ الحقيقةُ أنّه زيّنتْ لكم أنفسُكم أمْرًا أمَرَتْكم به وسهّلَتْه لكم، كما زيّنتْ لكم من قبلُ وحسّنَتْ لكم ما اقترفْتُموه في حقّ يوسفَ، فلله عليَّ صبْرٌ جميلٌ أولَى بي وأجْدرُ، عسَاه سُبحانه أنْ يكافِئَني على صبْري ويردَّهم إليّ جميعًا: يوسفَ

(1) السّمين الحلبي، الدّر المصون: 6/545.
(2) الرّاغب، المفردات: (بيض).
(3) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/174.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (كظم).

وبِنيامين وابْنَه الكبيرَ، فهو سُبحانه عليمٌ بمواقعِهم وأحوالِهم، ومطّلِعٌ عليكم وعليّ، وحكيمٌ يُهيِّئُ الأسبابَ بحكمةٍ وتدبيرٍ وترتيبٍ مُحكَمٍ، فيحكمُ ما يريدُ ولا مُعقِّبَ لحُكمِه، فالتّفويضُ إليه والتّوكّلُ عليه. وتولّى يعقوبُ عليه السلام عنهم، وانصرفَ مُتَّجِهًا إلى ربِّه منفرِدًا، فغَلَبَهُ الحنينُ، فقال متفجِّعًا ومتوجِّعًا أو مشتاقًا مُتلهِّفًا: يا أسفي وألمِي وإشفاقي على يوسفَ! ولِكثرةِ بكائِه واستيلاءِ حُزْنِه عليه، ابيضّتْ عيناه بذهابِ سوادِهما، فهو المَليءُ قلبُه حزنًا، ولكنّه شديدُ الكتمانِ له[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

نُكتةُ فصْلِ الآيةِ عن سابقتِها:

جملةُ ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ﴾ استئنافٌ بيانيٌّ، واقعةٌ جوابًا عن سؤالٍ مقدَّرٍ، كأنّه قيل: فماذا كان صنيعُ أبيهم حين عادوا وأخْبَروه بخبَرِ كبيرِهم وأخيهم الصّغيرِ؟ فأجيبَ بالآية، وجملةُ الاستئنافِ البيانيِّ تُفصلُ ولا توصَل بالعاطفِ[2].

رحمةُ الأبِ بأبنائِه، غريزةٌ مُستَبِدّةٌ، وبها يكونُ العطْفُ والإشفاقُ

بَلاغةُ الإيجازِ بالحذْفِ في السّياقِ:

جملةُ: ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا﴾، جوابٌ عن محذوفٍ تقديرُه: فلمّا رجَعوا إلى أبيهم وأبْلَغوه بقول كبيرِهم، قال لهم: بل سوّلت لكم أنفسُكم أمرًا. فحُذِفَ ذلك إيجازًا واختصارًا لغرضَيْن: **الأوّلُ**: لوضوحِه وعدمِ خفائِه، فإنّه لا يلتبِسُ على أحدٍ أنّ قول يعقوبَ عليه السلام لهم: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ﴾ لا يكونُ إلّا بحضورِهم عنده ورجوعِهم إليه، وامتثالِهم لأخيهم بإبلاغِ ما حمّلَهم إيّاه لأبيهم[3].

تركُ المُزاحمةِ في الأقوالِ والأفعالِ، جُزءٌ منَ الحكمةِ

(1) مجمع الملك فهد، التفسير الميسّر: 1/245.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السليم: 4/301، والبقاعيّ، نظم الدرر: 10/194، وصافي، الجدول: 13/48.

(3) الآلوسي، روح المعاني: 7/37.

معنَى الحرفِ ﴿بَلْ﴾، في سياق الآيةِ:

حذفُ ما يُفهمُ حذفُه، دِقَّةٌ في تخيُّرِ الخطابِ مُفيدةٌ

﴿بَلْ﴾ في قوله تعالى: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ﴾ إضرابٌ عن مَنفيٍّ مُقدَّرٍ، والمعنَى: ليس الأمرُ كما ذكرْتُم، بل سوّلتْ لكم أنفسُكم أمرًا، فالمحذوفُ الذي وقعَ الإضرابُ عنه هو تفريعٌ عمّا تضمّنَه كلامُهم له من ادّعاءِ البراءةِ عن ملابسةِ ما يضرُّ بأخيهم، وأنّ ما نزلَ بأخيهم من حجْزِ العزيز له ليس من جهتِهم ولا دخْلَ لهم فيه[1].

نُكتةُ التّعبيرِ بالفعْلِ ﴿سَوَّلَتْ﴾:

التّسويلُ مَصيدةُ النَّفْسِ لصاحبِها، وهو مِن غلبَةِ الهوَى عليه

عبَّرَ البيانُ الإلهيُّ بمادّة التّسويلِ في قوله تعالى: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا﴾ ليدلَّ على معنى إعطاءِ النّفْسِ سُؤْلَها الباطِلَ بتحسينِه وتصويرِه حقًّا، ومن هنا قالوا: إنّ التّسويلَ هو تزيينُ الشَّيءِ على غير حقيقتِه، بحيث يَسوغُ للنّفْسِ ارتكابُه. فدلَّ لفظُ التّسويل في الآيةِ على ثلاثةِ معانٍ لها مَدخَلٌ بواقعِ القِصّة: الحِرصُ على إنفاذِ شيءٍ غيرِ حقٍّ، فيقعُ تسويلُه في النّفْس مِن وجهَين: **الأوّل**: بسؤالِه وطلَبِه ورجاءِ تحقيقِه، ولذا قالوا السّؤْلُ مِنَ السُّؤلِ مهموزِ الواو، وهو السّؤالُ. والثّاني: تسويلُ الوجوهِ المُنْكَرةِ لهذا الشّيء بتعديلِها وتصويبِها وتخييلِ أحقّيّتِها للنّفْس، فالتّسويلُ إذن هو تعديلُ الشّيء وإخفاءُ وجْه الباطلِ فيه، ومنه: السَّويلُ، أي: العَديلُ، وهو النّظيرُ المُوازِنُ الذي تَعدِلُ به الخلَلَ فيما يُقابِلُه. فكذلك الباطلُ إذا حاك في النّفْس ألحّتْ في سؤالِه ثمّ سوّلَتْه بتعديلِه وتزيينِه، فكأنّ الهمزةَ في السّؤْل تعبّرُ عنِ انضغاطِ النّفسِ بإلحاحِ المسألةِ فيما يشتملُ على حرجٍ وشُبهةٍ، فإذا عدّلَتْه وزيّنَته تخفّفَ فاسترخَتِ النّفْسُ بعد انضغاطِها، فطُرحَتِ الهمزةُ كذلك مِن اللّفظ فصار السّؤْلُ

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 6/313، والآلوسي، روح المعاني: 7/38.

غيرَ مهموزٍ للإشارة إلى ذلك، فلِتصويرِ تلك المراحلِ في النّفسِ عبّرَ بلفظِ ﴿سَوَّلَتْ﴾[1].

بَلاغةُ الاستعارةِ في لفْظِ (التّسويل):

تصويرُ الأنفُسِ بمنزلةِ الإنسانِ الّذي يُحسِّنُ فعْلَ القبيحِ، منَ البيانِ الفصيحِ

جاء في تلخيص البيان: "وهذه استعارةٌ، وحقيقةُ التّسويلِ تزيينُ الإنسان لغيرِه أمرًا غيرَ جميلٍ، جعل سُبحانه أنفسَهم - لمّا قويَ فيها الإقدامُ على ذلك الأمرِ المذمومِ - بمنزلةِ الغيرِ الذي يُحسّنُ لهم فعْلَ القبيحِ، ويحملُهم على ركوب العظيم"[2].

دَلالةُ اللّامِ في شبْهِ الجملةِ ﴿لَكُمْ﴾:

سُوءُ الإنسانِ راجعٌ على نفْسِه، ولو توهّمَ في السّوءِ خَيرًا له

اللّامُ في قوله تعالى: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ﴾ للاختصاصِ وتعليلِ المنفعةِ، أي: سوّلتْ لِأجْلِ منفعتِكم، وتحقيقِ مَأْرَبِكُم، ولأمْرٍ يَخصُّكم وحدَكم.

نُكتةُ تقديمِ شبْهِ الجملةِ ﴿لَكُمْ﴾ على الفاعل:

تقديمُ ذواتِ النّظْمِ، لكونِها هي الآخِذةُ المُنتفِعةُ

تقديمُ شبْهِ الجملةِ ﴿لَكُمْ﴾؛ للاختصاصِ وتأكيدِ إسناد التّسويلِ إليهم، وهو يُصوّرُ الأثَرَةَ والطّبْعَ الرّديءَ، بدلالتِه على الانحيازِ للذّات بالشّطَطِ لا بالرَّشَدِ، فقدّمَ ذواتَهم بتقديمِ المتعلَّق المُشتمِلِ على ضميرهم، لتصويرِ وازعِ الحرْصِ على تلك الذّواتِ، فلمّا قدّموا أمانِيَها على ما سِواها واقعًا، تقدّمَ ما يدلُّ عليها نظْمًا.

وجْهُ نِسبةِ التّسويلِ إلى الأنفسِ:

الأنفسُ مركزُ قيادةِ سُلوكيّاتِ الإنسانِ، وهي مَعقِدُ فلاحِه أو خُسرانِه

أضاف التّسويلَ الى الأنفُس؛ لكونِها الجانبَ المُحرّكَ والمُوجِّهَ لسُلوكيات الإنسانِ، وأفكارِه، ونزواتِه، وأخلاقِه، وانفعالاتِه، وتوجّهاتِه خيرًا أم شرًّا، ونسبتُه إليهم مُجتمِعين دليلُ تمالُئِهم عليه، واشتراكِهم جميعًا فيه.

---

(1) مقاييس اللّغة، وابن فارس، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (سول).

(2) الشّريف الرّضي، تلخيص البيان في مجازات القرآن: 2/170.

نُكتةُ تنكيرِ ﴿أَمۡرًاۖ﴾، في السّياق:

الأمْـرُ هـو الّـذي من شأنِه أن تأمُرَ النّفْسُ به

تنكيرُ كلمةِ ﴿أَمۡرًاۖ﴾ في قوله تعالى: ﴿بَلۡ سَوَّلَتۡ لَكُمۡ أَنفُسُكُمۡ أَمۡرًاۖ﴾، إمّا للتّهويل والتّفظيعِ، أي: أمرًا فظيعًا عظيمًا في نَكَارتِه، وإمّا للإبهام، أي: أمرًا لا يُحيطُ بعلمِه إلا هو سُبحانه، وليس بين الإبهام والتّهويلِ تعارُضٌ، بلِ الإبهامُ مَدعاةٌ للتّهويل[1].

معنَى الفاءِ في لفظِ ﴿فَصَبۡرٞ﴾:

إتْباعُ قِلّة الحيلةِ بالصّبرِ، يُـؤذِنُ بالفرَجِ

الفاء في قوله تعالى: ﴿فَصَبۡرٞ جَمِيلٞۖ﴾ فصيحةٌ عاطفةٌ مدخولَها على مُقدَّرٍ، والمعنى: سوّلتْ لكم أنفسُكم أمرًا، فإنْ كان ذلك كذلك فصبرٌ جميل، أو فبسببِ ذلك التّسويلِ فصبْرٌ منّي جميلٌ، والفاء تفريعٌ بالمعلولِ بعد العِلّة، فالصّبرُ الجميلُ عِلّتُه التّسويلُ، وهي تفيدُ أيضًا سرعةَ التّعقيبِ بالصّبر والتّلبُّسِ به بعدَ انكشافِ تسويلِهم له[2]، فالصّبرُ من طبائعِ أهلِ العزائمِ، المتوكّلين على ربِّهم.

المَوقعُ النّحويُّ للَفظِ ﴿فَصَبۡرٞ﴾:

سـوّلـتْ لـهـم أنفسُهم أمـرًا، وسوّلتْ لأبيهم صبْرًا

قوله تعالى: ﴿فَصَبۡرٞ جَمِيلٞۖ﴾ نَكرةٌ موصوفةٌ، فيجوزُ أن تكونَ مبتدأً لخبرٍ محذوفٍ، والتّقديرُ: فصبرٌ جميلٌ، أولَى بي أو أمْثَلُ بي، أو مِنّي، أي: كائنٌ مِن نفْسي. ويجوزُ أنْ تكونَ خبرًا لمبتدأٍ محذوفٍ، والتّقديرُ: أمري، أو شأني، أو صبْري صبْرٌ جميلٌ، وهذا هو الأَلْيَقُ أنْ تكون النّكرةُ خبَرًا[3].

نُكتةُ تنكيرِ ﴿فَصَبۡرٞ﴾:

الـصّـبرُ مِـقـدارُه عـظـيـمٌ، ولـو قصُرَ أمَدُه

تنكيرُ الصّبرِ في جملةِ ﴿فَصَبۡرٞ جَمِيلٞۖ﴾ لتفخيم الصّبرِ، والمبالغةِ في شأنِه، وإعظامِ قدْرِه، ويصحُّ إجراؤُه على معنى الإبهامِ؛ لأنّه لا يُعرفُ مِقدارُه، وكونُه من نبيٍّ يجعلُ التّنوينَ في الصّبر دالًّا على الكمالِ، أي: صبْرٌ كامِلٌ ثقيلٌ، لكنّه جميلٌ.

(1) الآلوسي، روح المعاني: 7/38.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/32.
(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/271.

دَلالةُ وصْفِ الصّبرِ، بلفْظِ ﴿جَمِيلٌ﴾:

الصّبرُ لا يَسْهُلُ على النّفْسِ إلّا إذا كان جَميلًا

وُصِفَ الصّبرُ بأنّه جميلٌ، في قوله تعالى: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾، وهذا الوصفُ جعلَ التّركيبَ منَ الأمثالِ السّائرةِ التي تَلُوكُها الألْسِنَةُ، فتُجْريها مَجرى الحِكَم، وتُرَدِّدُها ترديدَ النّاصِحِ بها، والحاضِّ عليها، فتُقالُ خبَرًا، والمقصودُ إنشاءً وأمْرًا، كقوله: ﴿فَٱصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ۝٥﴾ [المعارج: 5]، لكنّ صورةَ الخبَرِ في هذا التّركيبِ أخَفُّ وأسرعُ في التّداولِ المثاليِّ، والإلقاءِ الحِكَمِيِّ، ويكأنّ الشّيءَ الصّعبَ إذا وُصِفَ بالجمال هانَ على النّفْسِ وجرَى عليها كما تَجري نفَحاتُ الجمالِ على صفحةِ القلْبِ نَسيمًا عابرًا يَشْرحُ ولا يَجْرَحُ، فهكذا الصّبرُ إذا كان جميلًا! "فمعنى وصْفِه بالجَمالِ أنَّهُ لَيْسَ فِيهِ شَكْوى إلى بَشَرٍ، ولا ضَجَرٌ بِقَضاءِ اللّه تَعالى"[1].

نُكتةُ فصْلِ قولِه: ﴿عَسَى ٱللَّهُ﴾ عمّا قبلَها:

انتظارُ الفَرجِ ورجاؤُه بعدَ الصّبرِ، من عزائمِ الإيمانِ

جملةُ: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ﴾ استئنافيّةٌ في حيّز القولِ، أي: قال بل سوّلتْ، ثمّ قال: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ﴾[2]، وبلاغةُ فصْلِ جملةِ الرّجاءِ وعدمِ عطْفِها على ما قبلَها من مَقول القولِ، للدّلالةِ على معنى انصرافِه عنهم وانفرادِه بالتّوجّهِ إلى اللّه في رجائِه، كمن ينفضُ يدَه من أفعالِ الخلْقِ فيجعلُ حيلَتَهُ إلى اللّه وباللّه، فاستأنَفَ لفظًا كما انقطعَ عنهم معنىً.

معنَى لفظِ ﴿عَسَى﴾ في سياقِ الآيةِ الكريمةِ:

المؤمنُ يَرجو اللهَ مُوقِنًا بإجابتِه

﴿عَسَى﴾ في قوله تعالى: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا﴾ فعلٌ ماضٍ جامدٌ ناقصٌ، وهو من أفعال المُقاربةِ في الرّجاء التي تدلُّ على الطمعِ والإشفاقِ والرّجاء في قُرب حصولِ الشّيء، ولذا لم يقل: لعلّ اللّه أنْ يأتيَني بهم، للدّلالةِ على معنى القُربِ لِما يؤمِّلُه[3].

(1) ابن عطّية، المحرّر الوجيز: 3/271.
(2) صافي، الجدول: 13/48.
(3) الجوهريّ، الصّحاح: (لعل)، وابن يعيش، شرح المفصّل: 4/372.

إيثارُ الفعْلِ ﴿يَأۡتِينِي﴾، دونَ (يجيئني):

التّعبيرُ بالإتيان في قولِه تعالى: ﴿يَأۡتِينِي﴾ للدّلالةِ على المجيءِ السّهلِ، المتحقِّقِ بوصْفِه مجيئًا بسهولةٍ، ويقال في الخير وفي الشّر[1]، فضلًا عن كونِ دلالةِ الإتيان على القصد - بوصْفه " قد يقال باعتبار القصْدِ وإن لم يكن منه الحصولُ، والمجيءُ يقال اعتبارًا بالحصولِ"[2] - تناسبُ معنى الطّمعِ والإشفاقِ والرّجاء في قُرب حصولِ الشّيء الّتي يؤدّيها الفعلُ (عسى).

دعـــاءُ الـلـه بأوسعِ ما يُمكنُ مِنَ العطاء عندَ البلاءِ

نُكتةُ التّعبيرِ بالمضارع في ﴿يَأۡتِينِي﴾، وإسنادِ الضّميرِ إليه:

جاء بصيغةِ المضارع للدّلالةِ على المستقبلِ الّذي ينتظرُه، وإسنادُ المضارع إلى ضميره، ولم يقل: (يأتي بهم) للدّلالةِ على أنّ المقصودَ بإتيانِهم حضورُهم عندَه في حياته، وللدّلالةِ على أنّ الغرضَ ليس أن يردَّهم اللّه، بلِ الغرَضُ أن يردَّهم اللّه إليه، وفيه ما لا يخفَى مِن أنّ الولد جُزءٌ من أبيه، وبَضعةٌ منه، فهو يبتغي ضمَّهم إليه.

دعـــاءُ الـلـه بأوسعِ ما يمكنُ مِـنَ الـعـطـاءِ، عندَ البلاءِ، فرَجٌ ورجاءٌ

معنَى الباء، في شبْهِ الجملةِ ﴿بِهِمۡ﴾:

الباء في قوله تعالى: ﴿يَأۡتِينِي بِهِمۡ﴾ للتّعديةِ، وتدلُّ على معنى المصاحبةِ، أي: بصحبتِهم، مَجموعين.

الاجتماعُ بالأهل والـعـيـالِ، مِـنَ النِّعَمِ المغفولِ عـن شُـكْـرِها في كلِّ حالٍ

دَلالةُ الموقعِ النّحويِّ للَفْظِ ﴿جَمِيعًا﴾:

﴿جَمِيعًا﴾ في قوله تعالى: ﴿يَأۡتِينِي بِهِمۡ جَمِيعًا﴾ حالٌ من ضمير الجمْعِ في ﴿بِهِمۡ﴾[3]، وإرادةُ الجميعِ دلالةُ حُنوِّ الأبِ، وعدمِ التّفريطِ بواحدٍ مِن أولادِه.

الأبُ لا يـفـرّطُ بـــواحـــدٍ مِـن أبـنـائِـه، مهما كانتِ الظُّروفُ، أوِ الصُّروفُ

المُتشابهُ اللفظيُّ في ﴿بَلۡ سَوَّلَتۡ﴾:

تكّرر قولُ أبيهم لهم: ﴿بَلۡ سَوَّلَتۡ لَكُمۡ أَنفُسُكُمۡ أَمۡرًاۖ فَصَبۡرٞ

(1) الرّاغب، المفردات: (أتى).
(2) الراغب، المفردات: (جاء).
(3) صافي، الجدول: 13/48.

الجنايةُ تستَتْبِعُ وراءَها جِناياتٍ

﴿جَمِيلٌۖ﴾ في واقعة يوسفَ لمّا أضاعوه، وفي واقعة أخيهم لمّا عادوا بدونِه، وفي الموضع الأوّلِ قال: ﴿وَٱللَّهُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾، وفي الموضع الثاني قال: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَنِي بِهِمۡ جَمِيعًاۚ﴾: والموازنةُ المعنويّةُ واللّفظيّةُ اتّفاقًا واختلافًا بين الموضعَيْن من وجوه:

الأوّلُ: أنّه أعاد الكلامَ بلفظِه هنا: ﴿بَلۡ سَوَّلَتۡ لَكُمۡ أَنفُسُكُمۡ أَمۡرًاۖ﴾ تعريضًا بهم بما دبّروه قديمًا في أمر يوسفَ مِنَ الكذب والاحتيالِ، فذكّرهم بأنّه لولا التّسويلُ القديمُ في فِعلِهم بيوسفَ عليه السلام لم يقع هذا الأمرُ لبِنيامين[1]، فأخبر أنّ هذا مِن مُسْتَتْبَعاتِ الجنايةِ القديمةِ، فيأخذ حكْمَه في مسؤوليّتِهم عنه، وإن لم يكن يُطابقُه في الكذبِ والاحتيالِ.

الثّاني: أنّه قصدَ في الموضع الأوّلِ التّسويلَ بالكذب والاحتيالِ في شأن يوسفَ، وفي هذا الموضع التّسويلَ بالتّخييلِ والتّوهّمِ، على معنى: أنّه خُيِّل إليكم أنّه سارقٌ وما هو كذلك[2].

الثّالثُ: أنّ المرادَ بتسويلِهم هنا إخراجُ بِنيامين عن يعقوبَ عليه السلام، والمصيرُ به إلى مصرَ طلبًا للمنفعةِ، فعاد من ذلك شرٌّ وضررٌ، والإلحاحُ على أبيهم في إرسالِه معهم، ولم يعلَموا أنّ قضاءَ اللّه إنّما جاء على خلاف تقديرِهم وتسويلِهم[3].

الرّابعُ: أنّ المرادَ بالتّسويلِ هنا ما سهّلتْهُ لهم أنفسُهم مِن إفتاء العزيز بأخذِ السّارق بسرقتِه، وليس ذلك مِن دينِ الملك[4].

الخامسُ: أنّ الختْمَ في الموضع الأوّلِ بقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ يتّفقُ في المعنى مع الختْمِ في الموضع الثاني بقوله

(1) البقاعي، نظم الدرر: 10/195.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 18/495.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 18/495.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 7/38.

تعالى: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَنِي بِهِمۡ جَمِيعًاۚ﴾، فكلاهما تعقيبٌ منه على فِعْلِهم بتفويضِ الأمرِ للّه والاستعانةِ به ورجائِه.

السّادسُ: أنّ كِلا الموضعَيْن في إضاعتِهم لأخٍ لهم، فالأوّلُ عندما أضاعوا يوسفَ، والثّاني عندما فقدوا بِنيامين، فلا غَروَ أنْ جاء ردُّه عليهم في الموقفَين بنفْسِ الجملة ﴿بَلۡ سَوَّلَتۡ لَكُمۡ أَنفُسُكُمۡ أَمۡرًاۖ﴾ لاتّفاق الموقفَيْن في معنى الفقْدِ والإضاعةِ فاتّفقا كذلك في اللّفظ.

السّابعُ: اختلف الختْمُ في الموضع الأوّلِ: ﴿وَٱللَّهُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ١٨﴾ [يوسف: 18] عن الختْمِ في الموضع الثاني: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَنِي بِهِمۡ جَمِيعًاۚ﴾ في اللّفظ والتّركيب، للدّلالة على اختلاف المقامَيْن وتغايُرِ الموقفَين، ففي الأوّل: دعاءٌ ورجاءٌ واستعانةٌ باللّه مقرونةٌ بخطابهم في ﴿تَصِفُونَ ١٨﴾ [يوسف: 18] لاعتقادِه كذبَهم واحتيالَهم عليه في شأن يوسفَ، فسأل اللّه ردَّ احتيالِهم عنه وإعانتَه بالتّدبيرِ له. وفي الموضع الثاني: ختَمَ بالدّعاءِ والرّجاءِ والاستعانةِ باللّه مُجرَّدًا عن خطابِهم، لاعتقادِه بعدمِ كذبِهم، وللإيذان بعدمِ اتّهامِه لهم فيما نقلوه بشأن واقعةِ أخيهم.

نُكتةُ فصْلِ تذييل الآية:

جملةُ: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ استئنافيّةٌ تعليليّةٌ ولذلك فُصلت، كأنّه قيل: (يأتي اللّه بهم جميعًا لأنّه هو العليم الحكيم)، فعلّلَ رجاءَهُ بما له سُبحانه من كمال العِلمِ والحكمةِ، فكأنّه سأل اللّه بعلْمِه وحكمتِه أنْ يردَّهم إليه[1].

كلُّ مسألةٍ وإنْ عظُمَتْ، فهي على الله هيِّنةٌ

غرَضُ تتابُعِ المُؤكِّداتِ، في فاصلة الآيةِ:

جملةُ الفاصلةِ: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ اكتنفتها مُؤكِّداتٌ عِدّةٌ: فصُدّرتْ بـ (إنّ) وبضميرِ الفصل بين المبتدأ والخبرِ، وتعريفُ

احتشادُ المؤكِّداتِ مع أسماءِ اللهِ، لترسيخِ مَعناها في النّفوسِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتنّوير: 13/41.

طرفَي الإسناد، والجملةُ الاسميّةُ، ومجيءُ صفتَي العليم والحكيم، على مِثالِ المبالغة، والصّفةُ المشبّهةُ، على وزن (فعيل)، فحشْدُ هذه المؤكِّدات، لتأكيد مضمونِ ما بنى عليه رجاءَه، لكونِ ما رجاه يَستبعدُه مَن لا يقينَ له، لكونِ القياسِ عند أغلبِ النّاسِ واقعًا على حسبِ ما ألِفوه مِن ظاهر العاداتِ والأسبابِ، فكذلك غيابُ أبنائِه عنه على تفاوُتِهم في أسبابِ كلٍّ منهم وتفاوُتِهم في مدّةِ غيابهم، هو مَظِنَّةُ ألّا يجتمعوا في رجوعِهم إليه كما لم يجتمعوا في تفرّقِهم وغيابِهم عنه، فالجمْعُ بينَهم جميعًا في ردِّهم إليه يقتضي الجمْعَ والتأليفَ بين الأسبابِ المتفرّقةِ التي كلُّ واحدٍ منها بعيدٌ عنِ الآخر بحيث لا تلتقي ولا تأتَلِفُ، وليس مُعتادًا على ذلك، في عموم تجاربِ النّاسِ، ولذا احتاجَ إلى هذه المؤكِّدات، لتنزيلِ من يسمعُه منزلةَ المتردّد، أو لتنزيلِ أبنائِه منزلةَ المُرتابِ، أو اليائسِ في رجائه، لئلّا يَحملوا رجاءَهُ على أنّه من أزيزِ النّفْسِ المُنفعِلةِ، أو من رجْع الحنينِ البائسِ[1].

فائدةُ الإتيان بضميرِ الفصْلِ ﴿هُوَ﴾ في الفاصلةِ:

ضميرُ الفصلِ ﴿هُوَ﴾[2]، في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾، تعظيمٌ لذاتِ الجليل سُبحانه، وفائدتُه: الحصرُ والتّوكيدُ، أي: لا عليمَ حكيمَ على جهة الكمالِ إلّا هو، فالقصرُ بهذا المعنى ادّعائيٌّ، وكلّ علمٍ وحكمةٍ في الخلْق، فهي من آثار عِلمِه وحكمتِه، فالقصرُ على هذا الاعتبارِ حقيقيٌّ، ويفيدُ التّوكيدَ الكَمَاليَّ، فلِكمالِه سُبحانه في هاتين الصّفتَين، فكأنّه هو المختصُّ بهما دون غيرِه، أي هو العليمُ الحكيمُ حقًّا وقطعًا مؤكّدًا، فالتّوكيدُ لإفادة الكمالِ، بقرينة تعريفِ طرفَي الإسناد، والّذي يفيدُ أيضًا تقريرَ المضمون، وتأكيدَ نسبةِ المُسنَدِ إلى المسنَدِ إليه، ويفيدُ القصْرَ، فهذه الجملةُ

لا عليمَ ولا حكيمَ، على جهة التّمامِ والكمالِ، إلّا الله ذو الجلالِ

(1) صافي، الجدول: 13/47.

(2) ويصحّ إعرابه مبتدأ وما بعده خبر له، والجملة من المبتدأ وخبره في محل رفع خبر (إنّ).

محشودةٌ بالتّأكيداتِ الحاصِرةِ، وهذا مِن بديع الختْمِ بما يناسبُ عجيبَ مضمونِ الرّجاءِ في المَطلعِ[1].

نُكتةُ التّذْييلِ بالاسمَيْن ﴿ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾:

كلُّ أقدارِ الله جاريةٌ بالعِلْمِ والحِكمةِ، في تدبيرِ الخلْقِ والملَكوتِ

ذُيِّل خِتامُ الآيةِ بصفتَي العليم والحكيم، لملاحظةِ المَطلعِ ومناسبتِه، فهو العليمُ الذي لا تخفَى عليه مواقعُهم المتفرّقةُ، والحكيمُ القادرُ على إيجاد أسبابِ جمْعِهم بعد التّفرّقِ[2]، وهو العليمُ بالأسباب التي تُوَصِّلُ للغايات، فهو بالِغُ رجاءَه في اللّه بعِلْم اللّه، وهو الحكيمُ سُبحانه في ترتيب الأسبابِ بوضعِها في مواضعِها بإحكام التّدبيرِ، وإجرائِه بحكمةٍ بالغةٍ[3]، كما أنّ الختْمَ بهما إيذانٌ بتسليمِه للمقاديرِ التي تقعُ بِعلمِ اللّه وحِكمتِه[4]، وفي ذلك نُكتةٌ جليلةٌ أيضًا: وهو أنّه أنيسٌ لهذه المقاديرِ؛ لأنّه ما دام وقوعُها جاريًا بالعلمِ والحكمةِ، فلا بدّ أنْ تقعَ على قدرِ رجائِه في اللّه في مطلعِ الآية، ففي الختْم إيذانٌ بالاستجابةِ.

نُكتةُ تقديمِ (العلمِ) على (الحكمةِ):

العِلمُ مُقدَّمُ الحُكمِ والحِكمةِ، وبه حياةُ الأكوانِ، ورُقيُّ الإنسانِ

قُدِّمَ العِلْمُ على الحكمةِ في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾، للدّلالةِ على أنّه يتصرّفُ في المعلوماتِ المُنْكَشِفَةِ بإنفاذِها على جهة الإحكامِ، والحُكْمِ، والحِكمة، تدبيرًا وتقديرًا، فتأخيرُ الحكيمِ، بعد العليمِ، لنفْيِ العبَثِ والعجْزِ أنْ يتطرّقَ إلى عِلْمِه سُبحانه، فتلك المعلوماتُ محجوزةٌ بالحكمةِ فلا تنخرِمُ بإفسادٍ أو آفةٍ.

تَوجيهُ العطْفِ في قوله: ﴿وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ﴾:

إظهارُ الحاجاتِ لله، وكِتمانُها عنِ النّاسِ، من عزْمِ الأمورِ

جملةُ ﴿وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ﴾ معطوفةٌ على جملةِ: ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ

(1) ابن يعيش، شرح المفصّل: 2/331، وفاضل السّامرائيّ، معاني النّحو: 1/54، والخطيب، التّفصيل في الإعراب: 7/64.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/41.

(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/195.

(4) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/271.

لَكُمْ﴾، فانتقلَ بالعطفِ من حال الحِوارِ معهم إلى حال الإعراضِ عنهم، فالأُولَى حالُ اجتماعٍ، والثّانيةُ حالُ انفرادٍ[1].

إيثارُ التّعبيرِ بالتّولّي، في سياقِ الآيةِ:

عبّرَ بالتّولّي في قوله تعالى: ﴿وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ﴾، ليدلَّ على الانصرافِ المتعمَّدِ عنهم، فالتّولّي هو الإعراضُ وتركُ القُرْبِ اختيارًا، ويكونُ بالباطن كما يكونُ بالظّاهر، والتّعبيرُ بالتّولّي هنا يفيدُ انصرافَه عنهم باطنًا وظاهرًا، واللّفظُ يُصوِّرُ حالةَ الاستيحاشِ منهم، والتّشاؤُمِ من أخبارِهم، وعدَمِ تصديقِهم[2].

الانفرادُ بالله أُنْسٌ عظيمٌ، وعطاءٌ كريمٌ

نُكتةُ عطْفِ ﴿وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ﴾:

جملةُ: ﴿وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ معطوفةٌ، على جملةِ: ﴿وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ﴾ وبين الجملتَين مقابلةٌ معنويّةٌ لتضمُّنِهما معنى الضِّدَّين، فكأنّه قيل: أعرضَ عنهم وأقبَلَ على يوسفَ عليه السلام، وكأنّ الإنسانَ إذا أعرضَ عن شيءٍ أقبلَ على ضِدّه، ففي التّركيبَين مقابلةٌ بين حالِ الإعراضِ وحالِ الإقبالِ. وجملةُ: ﴿وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ﴾ فِعلٌ، وجملةُ: ﴿وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ﴾ قولٌ، فعطفَ ما قاله على ما فَعَلَه، وجملةُ: ﴿وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ﴾ ألصقُ بالحال الظّاهرةِ، وجملةُ: ﴿وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ﴾ ألصقُ بالحالِ الباطنةِ؛ لأنّ ﴿وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ﴾ تحسُّرٌ، والتّحسّرُ مَوْرِدُه القلبُ والباطنُ قبلَ الظّاهرِ[3].

للمؤمنِ حالٌ سِرٌّ مع الله، لا يُظهرُها عندَ مُخالطةِ النّاسِ

مَجازاتُ النّداءِ وغرَضُه، في قوله: ﴿يَٰٓأَسَفَىٰ﴾:

الأسفُ: أشدُّ الحزن، ونداءُ الأسَفِ مجازٌ منَ الاستعارةِ المكنيّةِ، حيث شبّهَ الأسفَ بالعاقل الذي يصلحُ نداؤه واستدعاؤه، بجامعِ قابليّةِ الحضورِ في كلٍّ، أوِ استعارةٌ تمثيليّةٌ بتشبيه حالِه في ندائِه

الصّبرُ يُصيِّرُ البلاءَ صاحبًا، ويُخفّفُ الآلامَ النّازلةَ

(1) صافي، الجدول: 13/49، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/41.
(2) الرّاغب، المفردات: (ولي).
(3) صافي، الجدول: 13/49.

للأسفِ لِوخْزِه له وإيلامِه لنفْسِه بحالِ حاضرٍ مشهودٍ أمامَه يسمعُ فيناديه. وخروجُ النّداءِ عن معناه الحقيقيِّ وهو طلبُ الاستدعاءِ إلى التّحسّرِ واجترارِ الأسَى مجازٌ مرسلٌ علاقتُه الإطلاقُ والتّقييدُ، فالنّداءُ مقيّدٌ بطلب إقبالِ العاقلِ فأُطلِقَ إلى استعمالٍ آخرَ. وفي نداءِ الأسفِ تعظيمُ حُزنِه على مفارقة يوسفَ[1].

نُكتةُ الاقتصارِ على التّأسّفِ على يوسفَ دون غيرِه:

اقتصرَ على التأسّفِ على يوسفَ مع أنّه أقربُ عهدًا بفُقدان أخَوَيْه منه، وعهدُه بفُقدان يوسفَ قديمٌ، لوجوهٍ؛ **أحدها**: أنّه لا فقْدَ يَعدِلُ عنده فقْدَ يوسفَ، فكان فقْدُه عندَه هو كلُّ الفقْدِ، وهذا الوجْهُ يجعلُ قولَه: ﴿يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ من بابِ ذِكْرِ الأعلى عند حصولِ الأدنى، **والثّاني**: أنّ فقْدَ يوسفَ هو أصلُ نكْبَتِه التي انبنَى عليها فقْدُ أخَوَيْه، فلولا فقْدُ يوسفَ ما فَقَدَ أخوَيْه، والشّيء يُذكَرُ بأصلِ سبَبِه، وأساسِ حصولِه، وهذا يدلُّ على ما يُقابِلُهُ مِنْ أنّ إرجاعَ يوسفَ سيكون سببًا في إرجاع أخَوَيه، والاجتماعَ به سيكون سببًا في اجتماعهم كُلِّهم، وقد كان! **والثّالث**: أنّ فُقْدان يوسفَ عنده صار مِثالًا يُضرَبُ عندَه على كلّ فقْدٍ، فكلُّ مصيبةٍ تنالُه صار يَستدعي لها فُقْدانَ يوسفَ، فصار يتمثّلُ في كلّ نازلةٍ تنزِلُ به بعبارة: ﴿يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ لأنّ هذا التّركيبَ صار عنوانًا على كلِّ شِدَّةٍ تَجِدُّ له، وهذا الوجْهُ يجعلُ قولَه: ﴿يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ كنايةً عن كلِّ حادثٍ يُصيبُه.

والرّابعُ: أنّه لمّا كانتِ القصّةُ في يوسفَ عليه السلام، وكان الغرَضُ متعلِّقًا به ذكرَ أسَفَه عليه دونَ أسَفِه على أخَوَيه[2]، ولكن هذا لا يَنفي أنّه قد تأسّفَ عليهما أيضًا، إذْ هما فلْذة كبِدِه كيوسفَ، ولكنْ صرّح بأسَفِه

القلوبُ بيدِ الرّحمنِ، يقلّبُها كيف يشاءُ

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 18/496، والقونويّ وابن التّمجيد، حاشية على تفسير البيضاوي: 10/403.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/42.

عليه وحدَه لانعقادِ السّورة عليه، ولأنّ الأسفَ عليه يستدعي الأسفَ على أخَوَيْهِ الآخَرَيْن، ويدلُّ عليه.

بَلاغةُ الجناسِ بين ﴿يَٰٓأَسَفَىٰ﴾، و﴿يُوسُفَ﴾:

في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ جناسُ إطلاقٍ بين لفظَيْ ﴿يَٰٓأَسَفَىٰ﴾ و﴿يُوسُفَ﴾، وجناسُ الإطلاقِ أنْ يكونَ بين الكلمتَين مشابهةٌ لفظيّةٌ، وهي ما يُشبِهُ الاشتقاقَ وليس كذلك، فلا يَرجعان إلى أصلٍ واحدٍ، مع حصول المغايرةِ بين ركنَي التّجنيسِ في الحروفِ والحركاتِ، ولذا يُسمّى جناسَ إيهامِ الاشتقاقِ أو جناسَ المُقاربةِ أوِ المشابهةِ أوِ المغايرةِ[1]، وهو من مُحسّناتِ الفصاحةِ اللّفظيةِ، لكونِه واردًا على غير تكلُّفٍ وتعسّفٍ.

أفصحُ الكلامِ ما جاء مَطْبوعًا خاليًا، من عمْدِيّةِ السَّبْكِ

نُكتةُ عطْفِ ﴿وَٱبۡيَضَّتۡ عَيۡنَاهُ﴾:

جملةُ ﴿وَٱبۡيَضَّتۡ عَيۡنَاهُ﴾، معطوفةٌ على ما قبلَها، من جملة التَّولّي والتّحسّرِ: ﴿وَتَوَلَّىٰ عَنۡهُمۡ﴾، ﴿يَٰٓأَسَفَىٰ﴾، وهذا مِن باب عطْفِ الحالِ على الحالِ، والقصّةِ على القصّةِ، كأنّه قيل: كان مِن أحوالِه التّولّي والتّحسّرُ، وابْيِضاضُ العين، وكان مِن قصّتِه كذا وكذا، ولا يلزمُ مِنَ العطفِ أنّ هذه الأحوالَ متعاقبةٌ؛ لأنّ العطفَ بالواو لا يفيدُ التّرتيبَ بين الجُمَل، ولذا هذه الأحوالُ قد تكونُ متقطّعةً في أزمانٍ مختلفةٍ، ويصحُّ أن تكون الواوُ في جملة: ﴿وَٱبۡيَضَّتۡ عَيۡنَاهُ مِنَ ٱلۡحُزۡنِ﴾ استئنافيّةً؛ لأنّ التّولّيَ والتّحسّرَ تصحُّ المُقاربةُ الزّمنيّةُ بينَهما في الزّمن بل ويصحُّ التّعاقُبُ بينهما، بحصول التّحسّرِ بعدَ التّولّي، وأمّا ابْيِضاضُ عينِه فيقتضي طولَ الزّمن بالحزنِ بغضِّ النّظرِ عن جملتَي التّولّي وقوْلِ الأسف، فاعتبارُ استئنافيّتِها أدلُّ على تفرّدِها في المضمون وبُعدِها في الزّمن وأدلُّ على معنَى الانفصالِ في المضمون، والانتقالِ للعبورِ الزّمنيِّ الطويلِ[2].

اجْترارُ الأسَى يذهبُ بالعافيةِ، ويملأُ النّفسَ بالحسراتِ

(1) ابن معصوم، أنوار الرّبيع في أنواع البديع، ص: 19، وإنعام فوال، المعجم المفصّل، ص: 571.
(2) صافي، الجدول: 13/49، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/43.

بَلاغةُ الكنايةِ في ﴿وَٱبۡيَضَّتۡ عَيۡنَاهُ﴾:

يجوزُ في حقِّ الأنبياءِ الإصابةُ بالمرضِ، ولا تُؤثّرُ في تمامِ بَشَريّتِهم

قوله تعالى: ﴿وَٱبۡيَضَّتۡ عَيۡنَاهُ مِنَ ٱلۡحُزۡنِ﴾، ابْيِضاضُ العينِ: هو تحوّلُها إلى حالِ البياضِ، وابْيِضاضُ العين كنايةٌ عن ثلاثةِ احتمالاتٍ:

الأوّلُ: أنّ ابْيِضاضَ العين كنايةٌ عن غلَبةِ البكاء، وعند غلبةِ البكاءِ يكثُر الماءُ في العَين فتصيرُ كأنّها ابيضّتْ مِن بياضِ الدّموعِ، فالتّعبيرُ عن كثرة البكاء ببياضِ العين مجازٌ مرسلٌ علاقتُه المجاورةُ، فلمّا كان الدّمْعُ مُجاورًا للعين، عبّرَ عن بياض الدّموعِ ببياض العينِ، بإطلاقِ وصْفِ المُجاورِ على المُجاورِ له، ويكونُ في إسناد البياض للعين مجازٌ عقليٌّ؛ لأنّ البياض لدموعِ العينِ لا للعين، وأسندَه للعين مبالغةً في الدّلالة على استمرارِ بكائِه واستيلاء دموعِه على عيْنِه، بحيث صار كأنّ البياضَ لعينِه ذاتِها.

الثّاني: ابْيِضاضُ العين كنايةٌ عن ضعْفِ الإبصار، ولذلك قال: وابيضّتْ عيناه دونَ عمِيتْ عيناه، وحينئذٍ يكونُ ابْيِضاضُ العين على ظاهرِه، ويكونُ ضعفُ الإبصار مُسبَّبًا عن بياضها؛ لأنّ ابْيِضاضَها مؤْذِنٌ بانحجابٍ جزئيٍّ في الرّؤية، لا يعطّل العينَ بالكلّيّة، فالابْيِضاضُ بمثابة الغشاوةِ على جدار العين، فأطلقَ ابْيِضاضَ العين وأراد لازمَ معناه وهو ضعفُ الرّؤيةِ، مع إرادة التّنبيهِ على المعنى الأصليِّ وهو بياضُ العين.

الثّالثُ: ابْيِضاضُ العين كنايةٌ عنِ العَمى، وهو مبنيٌّ على أنّ الابْيِضاضَ غطّى سوادَ عينِه كلَّه، فانحجبتِ الرّؤيةُ بالكامل، وهذا محتمَلٌ، لكن لا يُصارُ إليه عند التّرجيح والاختيارِ؛ لأنّ خِلافَه مِنَ الوجهَين السّابقَيْن أحسنُ وأولَى، إذْ فيهما تنزيهٌ لنبيِّ اللّه عن آفةِ العَمَى، وما فيه تنزيهٌ أولى في الاختيارِ، وأولى النّاسِ بالتّنزيه - فيما يخصُّ البَشَرَ - الأنبياءُ عليهم الصّلاةُ والسّلامُ. ولا يُقال:

إنّ قوله تعالى: ﴿فَٱرۡتَدَّ بَصِيرٗاۖ﴾ [يوسف: 96]، يُقابِل معنى أنّه كان قد عَمِي؛ لأنّ البصير هنا يصحُّ حملُها على كمال الإبصارِ، لا أصلِ الإبصار، فإنّ الحزنَ وكثرةَ البكاء يُعيقُ العينَ عن كمالِ الإبصار لا عن سلامتِه[1].

بَلاغةُ فنِّ التّدبيجِ، في قوله: ﴿وَٱبۡيَضَّتۡ عَيۡنَاهُ﴾:

في قوله تعالى: ﴿وَٱبۡيَضَّتۡ عَيۡنَاهُ﴾ فنُّ التّدْبيجِ؛ إذ ذكرَ اللّه تعالى اللّونَ الأبيضَ، ويُكنّى به عن بعضِ الأمراضِ التي تصيبُ العينَ بذهاب سوادِها عند الحُزنِ الشّديدِ[2].

كنّى باللّونِ الأبيضِ عمّا يصيبُ العينَ مِن أذًى بسببِ الحُزنِ

معنَى ﴿مِنَ﴾ في قوله: ﴿مِنَ ٱلۡحُزۡنِ﴾:

﴿مِنَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَٱبۡيَضَّتۡ عَيۡنَاهُ مِنَ ٱلۡحُزۡنِ﴾ سببيّةٌ، أي: بسببِ الحزنِ[3]. ولا غرابةَ فالحزنُ يؤثّرُ في المؤمنِ، حتى إنّه لا شيءَ أحبُّ إلى الشّيطانِ من حزنِ المؤمن.

الحزنُ قاطِعٌ لأسباب الحياةِ، مُنغّصٌ للمَلذّاتِ

معنَى (ال) في لفظِ ﴿ٱلۡحُزۡنِ﴾ في السّياقِ:

(ال) في كلمة ﴿ٱلۡحُزۡنِ﴾، هي الجنسيّةُ لتعريف الحقيقةِ والماهيةِ، أي: المرادُ حقيقةُ الحزنِ المعهودِ.

الحزنُ شُعبةٌ مِنَ البلاءِ، وقِطعةٌ مِنَ العذابِ

لفظُ ﴿ٱلۡحُزۡنِ﴾ بين الحقيقةِ والمجازِ:

قوله تعالى: ﴿وَٱبۡيَضَّتۡ عَيۡنَاهُ مِنَ ٱلۡحُزۡنِ﴾، على اعتبار أنّ ابْيِضاضَ العين هو مجازٌ عن غلَبَةِ البكاء، فلفظُ الحزنِ هنا على ظاهره فالمرادُ حقيقةُ الحزنِ، ويكونُ قد جمعَ بين السّببِ وسببِ السّبب، فإنّ غلبةَ البكاءِ هي بسبب سَطْوةِ الحزنِ. وعلى اعتبار أنّ

البكاءُ يَزوي الحزنَ ويَسْقيه، فيَزيدُه أو يُفَرِّجُه

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 18/498، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/174، وأبو حيّان، البحر المحيط: 6/314، والقونويّ وابن التّمجيد، حاشية على تفسير البيضاوي: 10/404، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/43.

(2) عفيف، الشامل في بلاغة القرآن: 2/93، والتّدبيج: هو أن يذكر المُتكلّم ألوانًا، يقصد الكنايةَ بها، والتّوريةَ بذكرها عن أشياء من وصف أو مدح أو هجاء أو نسيب أو غيرِ ذلك منَ الفنون.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/43.

ابْيِضاضَ العين كنايةٌ عن ضعْفِ الإبصارِ، فيكونُ المرادُ بالحزن المُسَبَّبِ عنه وهو كثرةُ البكاء التي تُفضي إلى تكدير سوادِ العين وتبدُّلِ لونِه وتفتيحِه حتى يصيرَ أبيضَ أو أقربَ إلى البياض، ويكونُ لفظُ ﴿ٱلْحُزْنِ﴾ مجازًا مرسلًا علاقتُه السّببيّةُ، فعبّرَ بلفظ السّببِ وهو الحزنُ، وأراد المسبّبَ عنه وهو كثرةُ بكائه، بقرينة ابْيِضاض العين. وعلى اعتبارِ أنّ ابْيِضاضَ العين هو عدمُ الإبصارِ بالكلّيّة، فالحزنُ هو المرادُ؛ لأنّ استيلاءَ الحزن قد يؤثّرُ في عمل الدّماغ، فيَتلفُ عصبُ العين، فتنقطعُ الرّؤيةُ تمامًا، ولو حصلَ ذلك من غير بكاءٍ[1].

دَلالةُ الفاءِ في قوله: ﴿فَهُوَ كَظِيمٌ﴾:

جملةُ: ﴿فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ معطوفةٌ على جملة: ﴿وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ﴾، والفاءُ للسّببيّةِ، أي: بسبَبِ الحزنِ هو كظيمٌ[2].

الأنبياءُ عليهم السلام، يَحزنون ويألَمون كسائرِ النّاسِ

نُكتةُ إيثارِ التّعبيرِ بـ ﴿كَظِيمٌ﴾، مادّةً وصيغةً:

التّعبيرُ بالكظْمِ يدلُّ على معنى الإمساكِ والجمْعِ، فكأنّ الحزينَ الأسيفَ يتجرّعُ الغيظَ والحزَنَ فيُمسِكُ عن إبدائِه، وكأنّ الكاظمَ يجمّعُ ذلك في جوفه فيمتلِئُ به. فالمادّةُ تدورُ حول جمْع الشّيءِ وحبْسِه والمنْعِ مِن إظهارِه. و﴿كَظِيمٌ﴾ صفةٌ مشبّهةٌ على وزن (فَعِيل)، إمّا بمعنى (فاعل) كـ(كاظِم)، كنحوِ قولِه تعالى: ﴿وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ﴾ [آل عمران: 134]، فهو كاظِمُ الحزنِ لا يُظهِره بين النّاسِ، وإمّا بمعنى (اسم المفعول)، (مكظوم)، كنحوِ قوله تعالى: ﴿وَهُوَ مَكْظُومٌ ۝٤٨﴾ [القلم: 48]، أي: كَظَمَه أبناؤه بالغمِّ بتفريطِهم في يوسفَ وأخيه، ووزانُ (فعيل) أبلغُ مِن (فاعل)، و(مفعول)، ولذا لم يقل: كاظم أو

يتفاوتُ النّاسُ في احتمالِ البلاءِ، على قدْرِ منازلِهم ومَقاماتِهم

(1) الآلوسي، روح المعاني: 7/39، والقونويّ وابن التّمجيد، حاشية على تفسير البيضاوي: 10/404، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/43.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/196.

مكظوم، لدلالة (فعيل) على المعنَيَين، وإجراءُ اللّفظِ على المعنيَين (الفاعل والمفعول) أبلغُ من إيراده بأحدِهما فقط، فدلالةُ (فعيل) أوسعُ، ولكون الوصْفِ في فعيل أشدَّ منه في فاعل ومفعول، فمعنى الحدَثِ فيه أمْكَنُ، فيدلُّ على أنّ الوصفَ صار كالشّيء الثّابتِ أو كالطبيعةِ والسّجيّةِ المُلازمةِ لصاحبه، فـ (فعيل) في الصّفة المشبّهةِ تدلُّ على صفات النّفوسِ الملازمةِ لها سواء كان خِلْقَةً غريزيّةً، أو مكتسبةً صارت تُقارِبُ لِلُزومها الخِلْقةَ والسّجيّة، ويدلُّ - أيضًا - على أنّه متّصِفٌ به بالفعل، بخلاف ما لو قال كاظمٌ أو مكظومٌ، فيحتملُ أنّ اتّصافَه بذلك واقعٌ في الحالِ أو سيقعُ في الاستقبال، وأنّه لم يكن متحقِّقًا به من قبلُ، فكانت صيغةُ (فعيل) أبلغَ لموافقة حالِه بالدّلالةِ على مُلازمتِه للحزْنِ أمَدًا طويلًا. ويصحُّ أن تكونَ ﴿كَظِيمٌ﴾ صيغةَ مبالغةٍ، لإرادة معنى الكثرةِ، أي: كثيرُ الكظْم، وتكونُ الصّفة المشبّهةُ أدلَّ على الدّيمومةِ، أي: دائمُ الكظْمِ[1].

نُكتةُ تنكيرِ لفظِ ﴿كَظِيمٌ﴾:

تنكيرُ ﴿كَظِيمٌ﴾ لإبهام الوصْفِ تهويلًا له، كأنه قال: كظيمٌ مُنْطَوٍ على ما لا يُقَادَرُ قَدْرُه ولا يُحصَى عددُه مِن ألوان الكظْم لانكتامِه وعدمِ إظهاره، فهو كظيمٌ لا يحيط بمقدار ألَمِه إلّا الله، ولذا قصرَ شَكواه على الله في قوله: ﴿إِنَّمَآ أَشۡكُواْ بَثِّي وَحُزۡنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾.

(الكظيمُ) لفظٌ يدلُّ على احتباسٍ للهمِّ، واحتسابٍ للأجرِ

بَلاغةُ الاستعارةِ في لفظِ ﴿كَظِيمٌ﴾:

أصلُ ﴿كَظِيمٌ﴾ من كظْم القِربَةِ أوِ السِّقاء المليءِ بالماء بِشَدِّ حبْلٍ على فَمِ السِّقاء، ليُربَط فلا يخرجُ منه الماءُ، أو من كظْم البعيرِ جِرَّتَه، والجِرَّةُ: ما يُخْرِجُه البعيرُ مِن بطنه ليَمضُغَه ثمّ يبتلعَه فيردَّه إلى جوفِه فيكظِمُه ولا يَلْفِظُه، وعليه: ففي الكلام استعارةٌ تصريحيّةٌ، حذفَ فيها المشبّهَ وصرّح بالمشبَّهِ به، فشبّهَ امتلاءَ قلبه

على قدْرِ الاحتساب يكونُ الأجرُ، ولا يَضيعُ أجرُ المُحسِنين

(1) فاضل السّامرائي، معاني الأبنية، ص: 55، ص: 84.

بالحزن على يوسفَ بامتلاء القربةِ بالماء، وشبّهَه في صبره وترْكِه الشّكوى إلى غير اللّه، برابطٍ رُبطَ على فمِ السِّقاء المليءِ بالماء حتّى لا يخرجَ منها شيءٌ، وهذا هو معنى الكظْمِ[1].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(سوّلتْ) و(طوّعتْ):

التّسويلُ يقعُ فيما تلتذّ بفعْلِه النّفْسُ وتُحبُّه، والطَّوْعُ الانقيادُ للأمْر

السين والواو واللام (سول): أصلٌ يدلُّ على استرخاءٍ في شيءٍ، ومنه: تسويلُ النّفْسِ لصاحبِها أمْرًا، والتّسويلُ: التّزيينُ والتّحبيبُ والتّحسينُ، فكأنّ المَرءَ يسترخي لمطالبِ نفْسِه بتزيينِها وتحسينِها فيُجيبُها إلى ما سألتْهُ إيّاها، فالتّسويلُ هو تزيينٌ وتحسينٌ لِما سَألتْهُ النّفْسُ ورغِبَتْه. فيصحُّ على ذلك أنْ يكون أصلُ (سول) مهموزًا منَ السُّؤْل والسُّؤَالِ، ثمّ خُفِّفَتْ همزتُه في لفظ التّسويلِ، وكأنّ إبقاءَ الهمزة في السُّؤْل - وهو الحاجةُ الّتي تحرصُ عليها النفْسُ، فتسألُ تحقيقَها - دالٌّ على ثِقَلِ الرّغبةِ قبلَ سؤالِها وانضغاطِ النّفْس بها، فإذا أُرخِيَ لها بتحسينِ المطلوب وتزيينِه، وإعطائِها سؤْلَها، اسْتَرْخَتِ النّفْسُ وخفَّ حِمْلُها مِن ضغطِ رغبتِها بتحقيقِها واقترافِها، فأُزيلَتِ الهمزةُ تخفيفًا للّفظِ ليُطابِقَ خِفَّةَ المعنى الذي اشتمَل عليه[2].

والطَّوْع: أصلٌ يدلُّ على لِيُونَةٍ وانقيادٍ، وهو ضِدُّ الكَرْه، ومِنْهُ الطّواعِيَةُ والطّاعةُ: الانقيادُ للأمْر، ضِدُّ العصيانِ. ومِنْهُ قوله تعالى: ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ﴾ [المائدة: 30]، أي: انقادتْ له ولانَتْ فيما أرادَه مِن قتْل أخيه، فقتَلَ ونفْسُه مُخْتارةٌ غيرُ كارِهةٍ ولا مُتَرَدِّدةٍ[3]. والفرقُ الدّقيقُ بين التّسويلِ والطّواعيةِ: أنّ التّسويلَ فيه معنى التّزْيينِ والتّحبيبِ، فيقعُ فيما تَلْتَذُّ به النّفْسُ وتحبُّه، أو تُلِحُّ

(1) السمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (كظم)، والآلوسي، روح المعاني: 7/39، وصافي، الجدول: 13/49.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (سول).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (طوع).

فيه. وأمّا الطّوْعُ فلا يلزمُ أنْ يكونَ في المرغوب المحبوبِ، ولا عن إلحاحٍ. والطّوْعُ دالٌّ على معنى الاختيارِ وعدمِ الكراهيةِ، وليس هذا المعنى مُضمَّنًا في التّسويلِ. ومِن هنا اختيرَ التّسويلُ في لفظِ يعقوبَ عليه السلام إشارةً إلى تزيين أنفُسِ أبنائه، وتلذّذِهم بصنيعِهم.

﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ تَفۡتَؤُاْ تَذۡكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوۡ تَكُونَ مِنَ ٱلۡهَٰلِكِينَ ٨٥﴾ [يوسف: 85]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

المناسبةُ بين حزنِ يعقوبَ المُفرطِ، وبين العِتابِ الواقعِ على غيرِ علمٍ

قال البقاعيّ: "فلما رأَوا أنّه قد فاتَهم ما ظنّوا أنّه يكونُ بعد ذهاب يوسفَ مِن صلاح الحالِ مع أبيهم بقصْرِ الإقبالِ عليهم، ووقعَ لأبيهم هذا الفادحُ العظيمُ، تشوّفَ السّامعُ إلى قولِهم له، فاستأنف الإخبارَ عنه بقوله: ﴿قَالُواْ﴾" الآية[1].

ولمّا ذكرَ في الآية السّابقةِ تفجُّعَه على يوسفَ عليه السلام بعدما انصرفَ عن أبنائِه وتولّى عنهم، أخبر هنا بتعجُّبِهم منه، لمّا صادَفوه يذكرُ يوسفَ، فعاتبوه إشفاقًا أنْ يَعجَلَ الضرَّرُ إليه، أو يموتَ كَمَدًا عليه.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تَفۡتَؤُاْ﴾: أصل (فتئ): نَسِيَ، يقال: فتِئْتُ عنِ الأمر: إذا نَسِيْتَه وانْقَدَعْتَ؛ أي: كفَفْتَ وامْتَنَعتَ. وهو فِعلٌ ناقصٌ من أخوات (كان). ويأتي تامًّا بمعنى سكّنَ وأطفأَ، يقال: فَتَأَ عنِ الأمر: سكّنه، والنّارَ: أطفأها. فإذا قيل: ما فتِئَ: كان معناه ما نسِي أو ما سَكَن هذا أصلُها، ثمّ استُعمِلتْ مَنْفِيَّةً لإفادة الدّوام، فإذا قيل: ما فَتِئْتُ أفْعَلُ كذا، أي: ما نَسِيْتُ فِعلَه، أي: أنا أفْعلُه مُسْتَمِرًّا لَمْ أنْسَه، أي: ما زِلْتُ ذاكِرًا له، وما سكَنْتُ عن فِعله ولم أكُفَّ عنه. ولا يُستعملُ إلا مَنفيًّا، فإذا جاء بغير حرفِ النّفيّ كما في الآية هنا، فالنّفيُ مُضمَرٌ مُقَدَّرٌ، وحصيلةُ نفيِ الانقطاع والتّرك في (فتِئَ) ومجموعتِها (ما فتئ، ما زال، ما برِح، ما انفكّ) هو

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 4/90.

إثباتُ الاستمرارِ فيه، ومنه الآية هنا: ﴿تَٱللَّهِ تَفۡتَؤُاْ تَذۡكُرُ يُوسُفَ﴾، أي لا تنسى ذِكْرَه أبدًا[1].

2) ﴿حَرَضًا﴾: أصل (حرض) يدلُّ على أمارةِ الذّهاب والتّلفِ والهلاكِ والضّعفِ وما أشبهَ ذلك. ومنه: الحرَضُ: وهو الإشرافُ على الهلاك بحيث تذهبُ فائدتُه فلا يُعتَدُّ به. والحرِضُ: المُقارِبُ للهلاك. ويدخل فيه التّحريضُ: وهو الحثُّ والتّحضيضُ والإحماءُ على الشّيء، بحيث إنْ تخلَّفَ المأمورُ عنه صار حارِضًا مُشرِفًا على الهلَكةِ، كما في قوله تعالى: ﴿حَرِّضِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ عَلَى ٱلۡقِتَالِۚ﴾ [الأنفال: 65]؛ لأنّهم إذا خالفوه هَلَكوا. والمُرادُ هنا: ﴿حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا﴾ أي: مُعجِّلًا بنفْسِك إلى الهَلَكة، ومُسْرِعًا بها إلى شَفَا الموتِ[2].

المَعْنى الإجْماليُّ:

قالوا لأبيهم مُتعجّبين، عندما صادفُوه أو سَمِعوه يتأسّفُ على يوسفَ برغم تَقادُم عهدِه به: تاللّه ما تزال تتذكّرُ يوسفَ، ولا تنقطِعُ عنِ استحضار سيرَته، ولا تَفْتُرُ وتسْكُنُ عنِ استدعاءِ ذِكْراه، وما تزال حزينًا عليه حتّى تَسْتَشْرِفَ الهلاكَ، أو تَهْلَك فِعلًا فتموتَ، فكُفَّ عن ذلك فإنّه يضرُّك ولا ينفعُك.

التّعجّبُ مِن ألَمِ الحزينِ إيذاءٌ له، واستخفافٌ بمشاعرِه المكلومةِ

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

نُكتةُ فصْلِ الآيةِ عن سابقتِها:

جملةُ ﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ تَفۡتَؤُاْ﴾ استئنافٌ بيانيٌّ، كأنّ السّامعَ تشوّفَ إلى قولِهم لأبيهم بعد أنْ وجدوه يذكرُ يوسفَ أسفًا عليه بعد طولِ الأمدِ

الاستغرابُ والاستعجابُ مُتلازِمانِ

(1) ابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (فتأ)، وفاضل السّامرائي، معاني النحو: 1/244.

(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (حرض).

الذي هو مظِنّةُ نِسيانِه ما أفسدَ علاقتَهم معه، أوِ الجملةُ استئنافيّةٌ للانتقال إلى حالٍ أخرى في حوارِهم مع أبيهم[1].

نُكتةُ القسَمِ بـ ﴿تَٱللَّـهِ﴾ دونَ غيرِها:

إنّما يُتعجّبُ منَ النّادرِ، أو قليلِ الوقوعِ، في المُعتادِ

جاء القسَمُ في قوله تعالى: ﴿تَٱللَّهِ تَفۡتَؤُاْ﴾ مقرونًا بالتّاء، للدّلالةِ على أنّ المُقْسِمَ متعجِّبٌ ممّا يُقسِمُ عليه، فهم مُتعجّبون مِن حاله في ذِكْره يوسفَ حدَّ الإضرارِ بنفسِه. ذلك أنّ التّاء في القسَمِ تكونُ فيما يُتعجّبُ منه غالبًا؛ لأنّها لمّا كانت نادرةً في أدوات القَسَمِ جُعِلَتْ للنّادرِ مِنَ المعاني، والنّادرُ مِنَ المعاني يُتعجَّبُ منه، وهي بدَلٌ مِنَ الواو عند جمهورِ النّحويّين، وقيل أصلٌ بنفسِها، وهو وجْهٌ مختارٌ عند غيرِ واحدٍ من أئمّة اللّغةِ، ويقلُّ استعمالُها في غير اسْمِ اللّه تعالى[2].

نُكتةُ التّعبيرِ بـ ﴿تَفۡتَؤُاْ﴾ مادّةً وصيغةً:

نفيُ النّفيِ، يفيدُ الثّبوتَ والاستمرارَ

أصلُ (فتأ) يدلُّ على الانقطاعِ عنِ الشّيء بالنِّسيانِ أوِ بالانقطاعِ وهو الكفُّ والامتناعُ، ويأتي بمعنى: سَكَنَ وانطفأ. يُقال: فَتَأْتُه عنِ الأمر سَكّنْتُه، وفَتَأْتُ النارَ أطفأتُها، فإذا قيل: (ما فَتِئَ): فمعناه (ما نَسِيَ) أو (ما سَكَنَ)، ثمّ اسُتعملتْ منفيّةً لإفادة الدّوام، فإذا قيل: (ما فَتِئْتُ أفْعَلُ)، فمعناه: (ما نَسيتُ فِعلَه)، أي: (أنا أفْعلُهُ مُسْتَمِرًّا لم أنْسَه، وما سَكَنْتُ عن فِعلِه، ولم أكُفَّ عنه)، فكذلك هنا في قوله تعالى: ﴿تَٱللَّهِ تَفۡتَؤُاْ تَذۡكُرُ يُوسُفَ﴾، أي: لا تنسى ذِكْرَه على تَقَادُم العهدِ، ولا تَفْتُرُ نفسُك عنه، ولا تُطفِئُ ما في جوانحِك مِن نار التّعلّقِ به، فمعنى ﴿تَفۡتَؤُاْ﴾: تنسى، فإذا قُدِّر معها (لا) أو (ما) النّافيةُ، كان نفيًا للنِّسيان، ومفهومُه إثباتُ التّذكّرِ، أي: تبْقى تذكُرُ يوسفَ، إلّا أنّ التّعبيرَ ببقاء التّذكّرِ، وإن كان يدلُّ على

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/198.

(2) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 10/366، وأبو حيّان، البحر: 6/304، والبقاعيّ، نظم الدرر: 10/170.

الدّوام والاستمرارِ، كما في ﴿تَفۡتَؤُاْ﴾، إلّا أنّ (ما فتئ) تفيدُ التّحوّلَ والانقطاعَ، فهو مستمرٌّ على ذِكْر يوسفَ، مع احتمالِ أنّه سيفارقُ هذه الحالَ ويتحوّلُ عنها، بخلافِ لو قال: تبقى تذْكُرُ يوسفَ، أي: لا احتمالَ في انقطاع تذكّرِه له، ولا احتمالَ أنّه ربما تحوّلَ عن ذِكْرِه. واصطفاءُ اللّفظِ ﴿تَفۡتَؤُاْ﴾ أنسبُ فعلٍ في هذا المقامِ، فلا يسُدّ مَسَدَّه (مازال)، أو (ما برح) أو غيرُهما وهو الموضعُ الوحيدُ الذي جاء فيه هذا الفعلُ في القرآن. فثمّةَ فرقٌ بين قولنا (لا تزال تذكرُ) و (لا تفتأ تذكرُ)، فـ (لا تفتأ) معناه: لا تنسى، ولا تسكُنُ نفسُك، ولا تنطفي نارُ تفَجُّعِك، كما يقال: الهوى بين جنْبَيَّ لا يسكُنُ، والنّارُ لا تَنْطفي[1].

نُكتةُ التّعبيرِ بـ ﴿تَفۡتَؤُاْ﴾ دون النّفْيِ (لا تفتأ):

جملةُ ﴿تَفۡتَؤُاْ تَذۡكُرُ يُوسُفَ﴾ جوابُ القسَمِ في قوله تعالى: ﴿تَٱللَّهِ﴾، والتّقديرُ: (لا تفتأ) حذِفَ منها حرفُ النّفي جوازًا، لدلالة الكلامِ عليها؛ لأنّ القسَمَ إذا لم يكن معه علامةُ الإثبات دلَّ على النّفيّ، وعلامةُ الإثباتِ هي اللّامُ ونونُ التّأكيدِ، وهما يَلزمان جوابَ القسمِ المثبَتَ، فإذا لم يُذْكرا، دلَّ على أنّه منفيٌّ؛ لأنّ المنفيَّ لا يُقارِنُهما - أي: اللّام ونون التوكيد - ولو كان المقصودُ ها هنا الإثباتَ لقيل: (لَتَفْتَأُنّ)، ولذا دلَّ عدمُهما على النّفي المُضمَرِ[2].

الحذفُ والإيجازُ فيما هو واضحٌ، يجعلُه في رُتبةِ المذكورِ الصّريحِ

نُكتةُ تَكرارِ التّاءاتِ في: ﴿تَٱللَّـهِ﴾ و﴿تَفۡتَؤُاْ﴾ و﴿تَذۡكُرُ﴾ و﴿تَكُونَ﴾:

في قوله تعالى: ﴿تَٱللَّهِ تَفۡتَؤُاْ تَذۡكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوۡ تَكُونَ﴾ فنٌّ بلاغيٌّ أصيلٌ يُسمّى: (ائتلافَ اللّفظِ مع المعنى)، فألفاظُ التّركيب متلائمةٌ بعضُها مع بعض ليس فيها لفْظةٌ نابيةٌ أو قَلِقَةٌ عن جاراتِها في النّظم، ومنِ ائتلاف التّركيبِ ابتداؤه بغريبٍ في ألفاظ القسَم وهو التّاءُ، فاستعمالُها قليلٌ، وتوسُّطه بفعلٍ ناقصٍ

حُسْنُ كلٍّ منَ التّرتيبِ والنَّسَقِ والمَطلعِ في المقطعِ، من بديعِ النّظمِ المُعجِزِ

(1) ابن منظور، اللّسان: (فتأ)، وفاضل السّامرائي، معاني النّحو: 1/245.
(2) الخفاجي، عناية القاضي: 5/201.

غريبٍ في استعماله أيضًا وهو ﴿تَفۡتَؤُاْ﴾ وحَذفَ منه حرفَ النّفي اطّرادًا في الإغراب، ولعدمِ التباس الإعرابِ في إرادة النّفي، ثمّ انتهى بلفظٍ غريبٍ قليلِ الدّورانِ يُناسبُ حالةَ السّياق وهو لفظُ ﴿حَرَضًا﴾، وهو أغربُ من جميع مرادفاتِه من ألفاظ الهلاك، فاقتضى حسنُ النّظمِ وحسنُ الوضعِ فيه أن تُجاورَ كلُّ لفظةٍ بلفظةٍ مِن جنسها في الغرابةِ والاستعمال توخّيًا لحُسنِ الجوار، ورغبةً في ائتلاف المعاني بالألفاظ، ولتتعادلَ الألفاظُ في الوضْع، وتتناسبَ في النّظم. وقد ساعَدَ على جريان هذه الألفاظ بعضِها مع بعض برغم قِلّة استعمالِها، ولكنّ جرسَها المنطوقَ والمسموعَ سَلِسٌ متناغِمٌ، ساعد على ذلك تَكرارُ التّاءاتِ في صدر كلماتِها، وأثنائِها على التّوالي المُتتابعِ، الذي زاد مِن تجانُسِ التّركيبِ وتوفيقِ كلماتِه كأنّها وُصلَةٌ ناقِلةٌ بين كلّ كلمةٍ وصاحِبتِها[1].

معنَى الحرفِ ﴿حَتَّىٰ﴾، في السّياقِ:

تحديدُ الغايةِ يُؤْذِنُ ببلوغِها، وكلُّ مَن سارَ على الدّربِ وصَلَ

﴿حَتَّىٰ﴾ في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا﴾، حرفُ غايةٍ وجرٍّ، ومعناه (إلى أن)، وفائدتُها: بيانُ الغاية مِن جُملةِ القسَم: ﴿تَٱللَّهِ تَفۡتَؤُاْ تَذۡكُرُ يُوسُفَ﴾ فاليمينُ للإشفاقِ عليه بأنّه صائرٌ إلى الهلاك بسبب عدمِ تَناسيه مصيبةَ يوسفَ عليه السلام وليس المقصودُ تحقيقَ أنّه لا ينقطِعُ عن تذكّر يوسفَ[2].

نُكتةُ التّعبيرِ بلفظِ ﴿حَرَضًا﴾:

الحَرَضُ فيه معنَى الاستشرافِ والمُقارَبةِ

عبّرَ بالحرَض في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا﴾ للدّلالة على أنّه حين يذكُرُ يوسفَ ويتفجّعُ عليه فإنّه لا فائدةَ مِن ذِكْره إلّا اقتحامُ المرضِ والإشرافُ على الهلاك وتلَفِ البدنِ وانفساخ عزْمِ النّفْس، فكأنّهم يُعرّضون به في أنّ مَن يذْكُرُه - وهو يوسف - لا طَمَعَ

(1) صافي، الجدول: 13/51، ودرويش، إعراب القرآن: 5/37.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/44.

في إدراكِه، وأنّ هذا الاستذكارَ يضرُّ ولا ينفعُ. والحرَضُ مصدرٌ أُخبِرَ عنه به، وحذْفُ ضميرِ يعقوبَ، أي: تكون أنت حرضًا، لدلالةِ الخطاب عليه في ﴿تَكُونَ﴾ فإنّه مُستَكِنٌ في فِعل الكونِ، وأيضًا لتسريعِ إقحامِه في الحرَض، كأنّه - بقرينة الإخبار بالمصدر - سينطبعُ في جنسِ الحرَض باقتحامِه له بكثرة أسَفِه على يوسفَ، وكأنّه أُحيطَ بأصل الحدَث الذي دلَّ عليه المصدرُ، فلا فِكاكَ له منه، وهذه مُبالغةٌ منهم في أنّ استشرافَه للهلاك ومُقاربتَه له هو سَعيٌ منه إلى منْبع الهلاك وقَعْرِه، بحيث تصيرُ ذاتُه غائبةً فيه، فيكونُ هو الحرَضُ عيْنُه.

معنَى الحرفِ ﴿أَوْ﴾، في السّياق:

عـدمُ إيحـاشِ المُخـاطَـبِ عندَ تحذيرِه بتأخيرِ أسوأِ الفروضِ، وتقديمِ أهونِها

﴿أَوْ﴾ في قوله تعالى: ﴿حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ﴾ للتّرديد، وهو تشكّكُ المتكلّم في أحد المعطوفَين، فلا يجزمُ بأحدهما على الآخر، أي: إلى أن تُشرفَ على الهلاك فتضعُفَ وتَخُورَ، أو إلى أن تكونَ هالكًا ميّتًا بالفعلِ[1].

بَلاغةُ تقديمِ الحرَضِ على الهلاكِ:

الإشـــرافُ على الـهـلاكِ أسبَقُ مِنَ الهلاكِ

وقدّمَ الحرضَ على الهلاك، للترقّي الرُّتْبِيّ منَ الأدنى إلى الأعلى، ولأنّ الإشرافَ على الهلاك أسبَقُ مِنَ الهلاك، وفي هذا التّنقّلِ بين الغايتَين تعنيفٌ له عن ذِكْرِ يوسفَ، أو إلْطافٌ به بتفصيل عاقبةِ أمْرِه إنْ هو استدامَ على ذلك.

نُكتةُ العُدولِ عن (هالكًا) إلى ﴿مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ﴾:

الـهـلاكُ يُفْضي إلى المـوتِ أو هو الموتُ بعيْنِه

لم يقلْ في السّياق الكريم: (حتّى تكون هالكًا)، بل قال: ﴿مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ﴾، لأنّ ﴿مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ﴾ أبلغُ مِن (هالكًا)؛ لأنّ فيها زيادةَ استيحاشٍ وانقباضٍ وتشاؤمٍ، بِجَعلِه ضِمْنَ فريق الهالكين، فهو ليس

(1) الخفاجي، عناية القاضي: 5/201.

هالكًا وسطَ الأحياءِ أو في أُنْسٍ يُطِلُّ منه الأحياءُ عليه، بل هو في عِدادِ الهالكين وفي مُجتَمَعِهم الموحِشِ المعزولِ، وفي تركيب ﴿مِنَ ٱلۡهَٰلِكِينَ﴾ زيادةُ تعنيفٍ وتشديدٍ عليه بأنّه سيصيرُ مُهمَلًا متروكًا كأنّه لم يكن شيئًا مذكورًا، شأنُه كشأنِ الهالكين المَيّتين الذين تتراكَمُ حشُودُهم في القبور حينًا بعد حين. وفيه - فضلًا عمّا تقدّمَ - مُراعاةٌ لموقع الفاصلةِ، فلو قال: (هالكًا) لانخرمَتْ وما صحّتْ.

معنَى الحرفِ ﴿مِنَ﴾ في الآيةِ:

(من) في قوله تعالى: ﴿مِنَ ٱلۡهَٰلِكِينَ﴾ بيانيّةٌ، كأنّه قال: أو تكون هالكًا مِنَ الهالكين، فبيّنَ إلى أيّ فئةٍ ينتسِبُ إذا هلَك ولم يحفظْ نفْسَه، أو ظرفيّةٌ على التّضمين، كأنّه قيل: أو تكونَ ضِمْنَ الهالكين.

شرُّ ما يُمْكِنُ أنْ يكونَ، الانحيازُ إلى فريقٍ خاسِرٍ

معنَى (ال) في لفظِ ﴿ٱلۡهَٰلِكِينَ﴾ في السّياقِ المُبين:

(ال) في ﴿ٱلۡهَٰلِكِينَ﴾ لتعريف الجنس، أي: جنسُ الهالكين، والمرادُ: استغراقُ صفاتِ الأفراد، أي: ﴿ٱلۡهَٰلِكِينَ﴾ الذين استَوْفوا خصائصَ أفرادِ الهلاك. وبالنّظر هنا إلى أنّ (ال) داخلةٌ على وصْفٍ مشتقٍّ هو اسْمُ الفاعِلين ﴿ٱلۡهَٰلِكِينَ﴾، فيصحُّ اعتبارُها اسْمًا موصولًا، كأنّه قال: أو تكونُ مِنَ الذين هلكوا، ويفيدُ العمومَ، وهو على معنى الاستغراقِ السّابقِ، أو يفيدُ تمييزَ حقيقتِهم أكملَ تمْييزٍ، كأنّه قيل: ﴿ٱلۡهَٰلِكِينَ﴾ الذين لا تخفَى مصارعُهم عليك! و(ال) هذه تدلُّ على الكمال، أي: الهالكين المُطبِقين في الهلاك الغائِبين فيه، ودلالتُها على الموصوليّةِ حقيقةٌ، ودلالتُها على الكمال مجازٌ بقرينة السّياقِ ومدلولِ اللّفظ، ولم يقل: الذين هلكوا، لموقع الفاصلةِ، لئلّا تنخرمَ، وللدّلالة على الحدَثِ والحُدوث، وذاتِ الفاعل بصيغة المنطوق الأُحاديِّ، بلفظٍ واحدٍ، لا بصيغة المنطوقِ المُتعدّدِ بأكثرَ مِن لفظ، إيجازًا واكتفاءً به في الفاصلةِ.

يَكْمُلُ الأفرادُ باجتماعِهم، ولو كان ذلك في الشّرِّ والهلاكِ

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

المرضُ والسّقمُ والحرضُ:

الحرَضُ ألصقُ بالعاقبةِ والنّهايةِ مِنَ المرضِ والسّقمِ

المرض: أصلُ (مرض) يدلُّ على ما يَخرُج به الإنسانُ عن حدِّ الصِّحَّةِ والاعتدال في أيِّ شيءٍ كان، ولذا يكونُ جِسْميًّا، كالأمراض الحسّيّةِ التي تصيبُ البدنَ، ويكونُ معنويًّا، كالآفاتِ الأخلاقيّةِ السّلوكيّةِ منَ النّفاقِ والجُبْنِ والبُخْلِ وسائرِ الرّذائل، وعليه: فالمرضُ خِلْقِيٌّ في البدنِ، وخُلُقِيٌّ في النَّفْس والقلبِ.

والسُّقْم والسَّقَم: (سقم): أصلٌ يدلُّ على خَلَلٍ يَعتري بدنَ الإنسان، فيُخْرِجُه عن حدّ الاعتدالِ الذي ينبغي أنْ يكونَ عليه. والفرقُ بين السُّقْم والمرضِ: أنّ السُّقْمَ في البدنِ فقط، والمرضَ في البدنِ وفي النّفْس.

والحَرَض: الإشرافُ على الهلاك، و(حرض) أصلٌ في مُشارَفَةِ أيِّ تَلَفٍ أو فسادٍ أو خطَرٍ يعرِضُ للإنسان، سواء كان جسمِيًّا أو معنويًّا، في بدَنِه ونفْسِه أو في سائر شؤون حياته بحصول الفسادِ والخللِ فيها[1]، ولذا فالحَرَضُ أعمُّ منَ السُّقم والمرض في مُتَعلَّقاتِه، مع مُبايَنَتِه لهما في مَلْمَحيْن دقِيْقَيْن:

الأوّلُ: أنّ الحرَض فيه معنى المُشارَفَةِ على الشّيء المُخِلِّ بالاعتدالِ الوُجوديِّ للإنسان، ولو لم يتلبّسْ به، فالتّلبُّسُ في (الحرَض) تلبُّسٌ بالمُشارَفةِ والمُقارَبَة على الشّيء، لا تلبُّسٌ بالشّيء، وأمّا المرضُ والسُّقمُ فلا يُقالُ إلّا لِمُتَلَبِّسٍ بهما. وهذا من عِلل اختيارِه في الآيةِ الكريمةِ دونَهما.

الثّاني: أنّ (الحرض) يكونُ فيما يَصعُبُ معه التَّدارُكُ

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (حرض، سقم، مرض).

والاسْتردادُ؛ لأنّه يكون مُقاربَةً لما فيه تلَفٌ وهلاكٌ، والهلاكُ لا يُرجَى معه استردادُ العافيةِ وتَدارُكُ الاعتدال؛ لأنّ الهلاكَ يُفْضِي إلى الموتِ أو هو الموتُ، وأمّا المرضُ والسُّقْمُ فقد يُرجَى منهما التّعافي وزوالُ الخَلَل.

﴿قَالَ إِنَّمَآ أَشۡكُواْ بَثِّي وَحُزۡنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ٨٦﴾ [يوسف: 86]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

شتّانَ بين الجازِعِ والضّارِعِ، ومَن شكا إلى الله كفاه

ولمّا تشوّفتِ النّفسُ إلى ما كان عنه بعد ما رأى مِن غِلظة بَنيه، شفَى عيَّها بقوله: ﴿قَالَ إِنَّمَآ﴾ أي: لا أزالُ كذلك لأنّه مِن صفات الكمال للإنسان، لدلالتِه على الرّقّةِ والوفاءِ، وإنّما يكونُ مذمومًا إذا كان على وجه الشّكايةِ إلى الخلْقِ وأنا لا أشْكو إلى مخلوقٍ، إنّما ﴿أَشۡكُواْ بَثِّي وَحُزۡنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾، المحيطِ بكلّ شيءٍ علمًا وقدرةً تعرّضًا لنفحات كرمِه، لا إلى أحدٍ غيرِه[1].

أي: لمّا ذكَرَ في الآيةِ السّابقة عِتابَهم له وإشفاقَهم عليه فيما حسِبوه جزَعًا منه، أخبرَ هنا بما يردُّ هذا الحُسْبانَ، بأنّ هذا ليس جزَعًا أو قِلّةَ تصبُّرٍ - حاشاه وهو نبيُّ الله - بل شَكوى إلى مَنْ يسمعُ النّجوَى ويجيبُ المُضطرَّ إذا دعاه.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَشۡكُواْ﴾: أصلُ (شكو) يدلُّ على توجُّعٍ من شيء. ويقال: شَكَوْتُهُ شَكْوًا وشَكاةً وشِكايةً. وشَكَوْتَ فلانًا: أخبرتَ عنه بسوءِ فِعله بك (عَبَّرتَ عن ألمِك ممّا فَعَل بك)، والمرادُ هنا: الاستغاثةُ باللّه واستنزالُ فَرَجِه ولُطْفِه، لِكشْفِ ما نزلَ به وبِبَنِيْه من فقْدٍ وسوءِ حالٍ[2].

2) ﴿بَثِّي﴾: أصل البَثِّ: تفريقُ الشّيءِ وإظْهارُه، كبَثِّ الرّيحِ التُّرابَ، وبَثِّ النَّفْس: ما انطوتْ عليه مِنَ الغمِّ والسّرِّ، وسمّيَ بثًّا لكونِه مبثوثًا منثورًا في أنحاء النّفْسِ وتلافيفِ العقل. والبَثُّ: الحزنُ

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 4/90.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (شكو).

والغمُّ والمرضُ الشّديدُ المجتمِعُ في النّفْس الذي يضطرُّ صاحبُه مِن شدّتِه إلى أنْ يُفْضِي به إلى أصحابِه. وهذا (الإفضاء) بثٌّ ونشْرٌ وإذاعةٌ (والعامَّة تقول: فَضْفَضَ)[1]، والمرادُ هنا: الهمُّ العظيمُ والغمُّ العميقُ الذي أحاط به بسببِ يوسفَ عليه السلام وأخيه.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

قال يعقوبُ عليه السلام مُجيبًا لهم: ذلك الّذي تلومونَنِي فيه، إنّما هو شكوى ونجْوَى بما يَعِزُّ عليَّ إظهارُه لغير الله، مِنَ الغمِّ الطّويلِ والهمِّ القديمِ والحزنِ - الّذي يَغْلِبُني - على يوسفَ وأخيه، ذلك الفُقدانُ بعدَ الفُقْدانِ، لا أشْكو به إلّا لله الّذي أعلمُ منه سُبحانه، وأعلمُ مِن لُطفِه ورحمتِه وعِوَضِه ما لا تعلمونَه، فتُسارعون بإنكارِه والتّعجيبِ منه.

يُغالِبُ يعقوبُ بلاءَه، بما يَعلَمُه من رحمةِ الله التي غلَبَتْ عِقابَه

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

نكتةُ فصْلِ الآيةِ عمّا قبلَها:

جملةُ: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَشۡكُواْ بَثِّي﴾ استئنافيّةٌ بيانيّةٌ، كأنّه قيل: فماذا أجابَهم بعدَ أنْ خوّفوه بعاقبةِ ذِكْرِه ليوسفَ؟ فقال: ﴿إِنَّمَآ أَشۡكُواْ بَثِّي وَحُزۡنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾[2].

الشّكوَى للخالقِ عُبوديّةٌ، والضّارعُ إليه لا يَخيبُ

بَلاغةُ القصْرِ بالأداةِ ﴿إِنَّمَآ﴾:

﴿إِنَّمَآ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَشۡكُواْ بَثِّي وَحُزۡنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾، أداةُ قصْرٍ وتعيينٍ، ولا يُفارِقُها التّوكيدُ والمبالغةُ حيث وقعتْ[3]، وتفيدُ هنا قصرَ الحُكْمِ على الشّيءِ، أي: قصرَ شَكواه على الله وحدَه، وهو قصْرُ تعيينٍ، أي: تعيينُ جِهةِ شكواه بأنّها لله وحدَه، وفائدتُها: إثباتُ ما بعدَها ونفيُ ما سِواه، فيعقوبُ عليه السلام أثْبَتَ الشّكوى لله وحدَه، ونفاها عمّن سِواه، وخاطبَ أبناءَه بهذا التّركيبِ ﴿إِنَّمَآ

الشّاكي إلى الله مُتخفِّفٌ بضَراعتِه، فلا يَلتمِسُ تسْلِيةً من أحدٍ

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (بث، بثث).
(2) صافي، الجدول: 13/52.
(3) ابن عطية، المحرّر الوجيز: 2/500.

﴿أَشۡكُواْ بَثِّي وَحُزۡنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ دونَ غيرِه؛ لأنّهم لا يُنكرون شكايتَه إلى اللّه، ولا ينكرونَها عليه، فهو فقط أرادَ تنْبيهَهم إلى ذلك بطريقٍ يقطعُ لوْمَهم له على اجترارِ الماضي بذكر يوسفَ، أو كانوا يَظنّون أنّ أسفَه على يوسفَ مِنَ الشّكايةِ المذمومةِ، فخاطبَهم بـ ﴿إِنَّمَآ﴾ تنزيلًا لهم منزلةَ من يعلمُ ولا ينبغي أن يفوتَه عِلْمُ ذلك، بأنّ الشكايةَ لا تكونُ إلا للّه، ولذا لم يحتجّ معهم إلى أسلوبِ النّفي والاستثناءِ الذي يكونُ المخاطَبُ فيه جاهلًا أو مُنْكِرًا، فلم يقل: (لا أشكو إلا للّه)، وفي تركيبِ ﴿إِنَّمَآ أَشۡكُواْ بَثِّي وَحُزۡنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ تعريضٌ بهم في نُكرانِهم عليه ذِكْرَ يوسفَ، بأنّ هذا ليس شكايةً إليهم، فاعتراضُهم ليس في محلّ الذّمِّ، بل هي شكايةٌ محمودةٌ؛ إذ هي للّه، وحيثما كانت الشّكوى للّه وحدَه فهي عبادةٌ وضراعةٌ؛ لأنّها صورةٌ مِن دعاءِ المُضطرِّ، وهو أخصُّ العبادة التي يُحبّها اللّه، ويكونُ في هذا إيماءٌ منه إلى أنّ ابْيِضاض عينَيْه النّاشئَ عنِ التّذكّرِ النّاشئ عنِ الشّكوى صار أثرًا جسديًّا ناشئًا عن عبادةٍ مثلِ تفطُّرِ أقدامِ النّبيّ ﷺ مِن قيام الليل، فقَابَلَ لَوْمَهم له بلومٍ لهم وتعريضٍ بهم وتعليمٍ بما لم ينتبهوا إليه[1].

نُكتةُ التّعبيرِ بالمضارعِ في ﴿أَشۡكُواْ﴾:

صيغةُ المضارعِ في قوله تعالى: ﴿أَشۡكُواْ﴾ تفيدُ التّلبّسَ وعدمَ الانقطاع، وهي تؤكّدُ حمْلَ الشّكوى على معنى الضّراعةِ والدّعاءِ وطلبِ الاستغاثةِ مِنَ اللّه، كما تقرّرَ.

مَـــــنْ أدامَ الاستـغـاثـةَ بـالـلـه، أغـاثَـه الله، وحقّقَ له مُرتَجاه

وتومِئ صيغةُ المضارعة إلى معنىً آخرَ أيضًا وهو أنّه ستستمرُّ شَكواه لاستمرار سببِها، ولن تنقطعَ إلّا بانقطاعِ سببِها، وسببُ الاستمرارِ: فُقدانُ يوسفَ عليه السلام، وسببُ الانقطاعِ: وُجدانُ يوسف، مع

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/44، وفاضل السّامرائي، معاني النّحو: 1/330.

ما في لفْظِ المضارعةِ في ﴿أَشْكُواْ﴾ مِن تقابلٍ مَعنويٍّ بديعٍ مع لفظِ المضارعةِ في ﴿تَذْكُرُ يُوسُفَ﴾ فما دام يذكُرُ سيظلُّ يَشكو.

دَلالةُ تسْميّةِ الهَمِّ الثّقيلِ بالبَثّ:

(البَثُّ) في قوله تعالى: ﴿أَشْكُواْ بَثِّي﴾ هو إثارةُ الشّيء وتفريقُه، وهو مصدرٌ يُستعملُ في الغمِّ المُطبِقِ على النّفْسِ، فلا خلاصَ منه إلّا بإثارتِه وتفريقِه ونَثْرِه، وكأنّهم لاحَظوا في الغَمّ حين يَهجِمُ على النّفْسِ عزْمًا واجتماعًا وقوّةً وثِقَلًا، فلا يُزالُ إلا بتفريقِه وتفكيكِه ونشْرِه ونَثْرِه وبَثِّه، فيزولُ عنِ المغموم، ولا يُصيبُ غيرَه لأنّه تفكَّكَ، فأسْمَوه بثًّا تفاؤلًا بانفراجِه، كما أَسْمَوا اللّديغَ سليمًا، والمرضَ عافيةً، والرّواحِلَ قافلةً، والصّحراءَ مَفازَةً، مِن باب التّسميةِ بالضّدّ الذي يُتوقّعُ المآلُ إليه تفاؤلًا، فلعلّه مجازٌ مرسلٌ بعلاقةِ الأيلولةِ.

(البَثُّ) يَصِفُ حُزنًا يُلاحِقُ الإنسانَ ويُحيطُ به

معنَى المصدرِ في لفظِ (البثّ):

البثُّ في قوله تعالى: ﴿أَشْكُواْ بَثِّي﴾، إمّا بمعنى الفاعلِ، أي: الباثّ؛ لأنّ الغمَّ يبُثُّ الفِكْرَ ويفسخُ العزمَ، أو بمعنى المفعول؛ لأنّه مَبْثُوثٌ مِن صاحبِه، بتفريقِه وتوزيعِه على مَن يُعينُه عليه، ويأخذُ بيدِه على إزالتِه[1].

أصعبُ الأحزانِ، هي الّتي فاضَتْ بالبَثِّ

دَلالةُ إضافةِ البثِّ إلى ضميرِ المُتكلّم:

إضافةُ البثِّ إلى ضمير نفْسِه في قوله: ﴿أَشْكُواْ بَثِّي﴾ لتعريفِ البثِّ، والدّلالةِ على العهديّة، أي: بَثُّه هو، فالإضافةُ تنفي عمومَ الجنسِ، وتُثْبِتُ خصوصَ النّوع، أي: نوعٌ منَ البثّ، وضربٌ مِن ضروبِ جنْسِه، فهو بثٌّ جُزئيٌّ بحَسَبِه هو.

لكلِّ امرئٍ حظُّه مِنَ البثِّ، ولا تَخلو الحياةُ مِن كدَرٍ وآلامٍ

نُكتةُ الجمْعِ بين البثِّ والحُزنِ:

البثُّ هو الهمّ الثّقيلُ وهو أشدُّ الحزن، لانبِثاثِه وتفرُّقِه وتوزُّعِه

(1) الآلوسي، روح المعاني: 7/42.

في جميع أنحاءِ النّفْس، فيكونُ مبثوثًا فيها، مُحاصِرًا لها، لا ينفكُّ عنها، والجمعُ بينه وبين الحزن، مِن باب التّدرّجِ مِنَ الأعلى إلى الأدنى، أو مِن بابِ عطْفِ المُسبَّبِ على سببِه، فالبثّ سببٌ للحزن، أو مِن باب تفصيلِ الأنواعِ، فالبثُّ هو حزنُ الباطن المُتفرّقُ في جوانح النّفسِ، والحُزْنُ هو أثَرُه الظّاهرُ بالحُزونةِ والخُشونةِ والانقباضِ البادي على مَنْظَرِ الشّخصِ وخارِجِه. ويُطلق عليه أيضًا: (المماثلة)؛ لتماثُلِ كلمتَي (البثّ)، و(الحزن) في المعنى - وإن ليس على وجْهِ المُطابقةِ - واختلافِهما في اللّفظ.

جمَعَ بين البثِّ والحُزنِ لاجتماعِ كلَيْهما، على يعقوبَ عليه السلام

نُكتةُ تقديمِ البثِّ على الحزن:

قدّمَ البثَّ على الحزن في قوله تعالى: ﴿أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ ابتداءً بالحُزْنِ الأكبرِ وهو البثُّ وانتهاءً بالحزنِ الأصغرِ منه، للتّنبيه على أنّ الحزنَ درجاتٌ بعضُها فوق بعضٍ، فَفَوْقَ كلِّ حُزْنٍ حُزْنٌ أكبرُ منه. والنُّكتةُ الدّقيقةُ في جعْلِ البثِّ هو المُقدَّمُ: مراعاةُ مُجاورةِ فعلِ الشّكوى ﴿أَشْكُواْ﴾ فقدّمَه ليكونَ المُجاورَ للفعل؛ لأنّ البثَّ أعظمُ وأشدُّ فاستحقّ أن يتصدّرَ عندَ الشِّكايةِ منه، ولأنّ الشكوى - أصلًا - مُشتمِلةٌ على معنى البَثّ؛ لأنّ التّشكّي ذاتَه هو بَثُّ الشّكوى وإظهارُها، ولذا اقترن البثُّ بها فيقال: بَثَّ شكواه، فلاشتراكِ اللّفظين في هذا القدْرِ مِنَ التّطابُقِ المعنويِّ تجاوَرا لاتّحادِهما فيه. وقد يكونُ مِن تقديم السّببِ على المُسبَّبِ، فالبثُّ سببٌ للحزن كما مرَّ في الفقرةِ السّابقةِ.

الشّكوى بَثٌّ، والحزنُ العظيمُ بَثٌّ كذلك

بَلاغةُ الاستعارة في لفظِ ﴿بَثِّي﴾:

في قوله تعالى: ﴿بَثِّي﴾ استعارةٌ تصريحيّةٌ، حيثُ شبّهَ الحزنَ الشّديدَ الذي هو هيئةٌ نفسيّةٌ بالحِمْلِ الثّقيلِ الذي لا يُطيقُه حامِلُه فيبثُّه ويفرّقُه تخلّصًا منه أو طلبًا للمعونةِ على حَمْلِه. فالتّشبيهُ حاصلٌ بين الهيئةِ النّفسيّةِ والصّورةِ الحسّيّةِ، والبثُّ هو المشبَّهُ به

الشّكوَى تدلُّ على ثِقَلِ الحِمْلِ، وعدَمِ القُدرةِ على الكتْمِ

المذكورُ، والاستعارةُ أصليّةٌ، والمشبَّهُ محذوفٌ، وقرينةُ الاستعارةِ دلالةُ الحال. أو يقال: شبّه الحزنَ العميقَ في داخل النّفس، بالشّيء المبثوثِ المُذاعِ المُعلَنِ، بجامعِ الخروجِ عن حيّزِ الكتمانِ في كُلٍّ، وهذه الاستعارةُ تُعطينا تفريقًا إضافيًّا بين لفظَي (البثّ والحزن) في الآية، فإنّ البثَّ هو الحزنُ الذي فاض مِن داخل النفْس إلى خارجِها بحيث صارَ كالبثِّ المُذاعِ مِن فرطِ شِدّتِه وهَوْلِه، والحزْنُ هو أصلُ الهيئةِ النّفسيّةِ التي تتكوّنُ من جرّاءِ أسبابِه ودَواعيه[1].

نُكتةُ العطْفِ في جملةِ ﴿وَأَعْلَمُ﴾:

جملةُ: ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ﴾ معطوفةٌ على جملة مَقولِ القول: ﴿إِنَّمَآ أَشْكُواْ﴾، فهي داخلةٌ في حيّزِ القول، بغرَضِ استتْمامِه وبيانِ علّتِه، فكأنّها سبَبٌ للقصرِ، كأنّه قيل: شكواي للّه وحدَه لا إليكم؛ لأنّي أعلمُ مِنَ اللّه ما لا تعلمون، وفائدةُ العطفِ: الإيذانُ بأنّ رفْعَه شَكواه للّه وحدَه وحجْبَها عمّن سواه مبْنِيٌّ على ثِقَةٍ ويقينٍ وعِلْمٍ باللّه، وهو متّفِقٌ تمامَ الاتّفاق مع أنّ الشّكوى للّه دعاءٌ وتضرّعٌ وعبادةٌ، فإذا كانت كذلك فلا بدَّ أن تكونَ على بُرهانٍ مِنَ اللّه، فدلّتْ جملةُ: ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ﴾ على هذا البُرهانِ. وفي جملة المعطوفِ إيذانٌ بيقينِه بالفرَجِ وحسنِ العاقبةِ، فجمَعَ في حيّزِ القول بين الدّعاءِ والضّراعةِ وحُسنِ الظّنِّ بالخالقِ، ومفارقةِ الظّنِّ بالمخلوقين، ففي معنَى العطْفِ بالواو الجمْعُ بين المشروطِ وهو الدّعاءُ، وشرْطِه وهو العِلمُ باللّه وحُسنُ الظّنِّ في إجابتِه[2].

خيْرُ أمدادِ الله العِلْمُ، ومن علّمَه الله فتحَ عقْلَه وبصيرتَه

معنَى الحرفِ ﴿مِنَ﴾ في سياق الآيةِ:

﴿مِنَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ﴾ بيانيّةٌ، أي: عِلْمٌ هو من لُطفِ اللّه ورحمتِه بي، فالكلامُ على حذف مضافٍ، أو ابتدائيّةٌ، أي:

العِلمُ مِنَ الله برهانٌ وعزيمةٌ، وهِبةٌ مِنَ المولى عظيمَةٌ

(1) الآلوسي، روح المعاني: 7/42.
(2) صافي، الجدول: 13/52.

علمٌ ابتدأه اللّه وأوحاه إليّ من جهتِه بشأنِ حياةِ يوسفَ، ولا علْمَ لكم بذلك، إذْ هو علمٌ مِن آثارِ النّبوّةِ وأسبابِها[1].

نُكتةُ إظهارِ لفْظِ الجلالةِ، في موضعِ الإضمارِ:

لم يقل (وَأَعْلَمُ منه مَا لَا تَعْلَمُونَ) اعتمادًا على الظّاهرِ قبلَه ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾؛ بل قال ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ تعظيمًا لشأن العِلم الذي يعلمُه بإظهار مصدرِه وهو اللّه، فعظّم العِلمَ الّذي عنده بتقرير الألوهيّةِ وتمكينِها في النّفوس، بإظهار اسْمِ الذّات الجليلِ الذي يدلُّ على الإحاطة والكمال، فإذا كان عِلْمُ يعقوب عليه السلام منه، فهو عِلْمٌ مضمونٌ ومُحقَّقٌ، وإذا كان كذلك فانتظارُ مآلِه وحصولِه حقٌّ واجبٌ، وليس مِنَ الجزعِ أو ممّا يَستوجبُ اللّومَ، ففي إظهارِ الاسْم الجليلِ ترهيبٌ لهم أن يَنْتَهوا عن أسلوبِهم معه في المُؤاخذةِ والعتابِ، وتعريضٌ بهم بتقريرِ أنّ ذِكْرَه ليوسفَ لم يكن عبَثًا بل كان عِلمًا منَ اللّه العظيمِ أوحاه إليه وألهمَه إيّاه بمُقاربةِ لقائِه[2].

خيرُ زادِ العبدِ عِلمٌ ربانيٌّ يخصُّه الله به، ويكونُ فتحًا مبينًا

معنَى الحرفِ ﴿مَا﴾ في السّياقِ الكريمِ:

﴿مَا﴾ في قوله تعالى: ﴿مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ إمّا موصولةٌ، وصلتُها جملةُ ﴿لَا تَعْلَمُونَ﴾ والعائدُ محذوفٌ، أي: أعلمُ الذي لا تعلمونَه. وإمّا نكرةٌ موصوفةٌ، وجملةُ ﴿لَا تَعْلَمُونَ﴾ صفةُ ﴿مَا﴾، أي: أعلمُ منَ اللّه (عِلمًا) أو (شيئًا) لا تعلمونَه[3]، علمًا واسعًا لا حدَّ له بما تفيدُه ما على العموم.

إذا خصَّ اللهُ عبدَه بتكريمٍ، فقد خصَّه بواسعِ فضْلِه العظيمِ

نُكتةُ التّعبيرِ بالاسْمِ الموصولِ وصِلتِه:

على اعتبار موصوليّةِ ﴿مَا﴾ في قوله تعالى: ﴿مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، فالتّعبيرُ بالموصول المشترك ﴿مَا﴾ يدلُّ على الإبهام والتّعميم، تحفيزًا لهم على التّربُّصِ والتّرقُّب لِحكْم اللّه الذي تضمّنَه هذا المعلومُ

الإبهامُ في العَطايا، يفيدُ عظَمَتَها وكثْرتَها

(1) الآلوسي، روح المعاني: 7/42.
(2) أبو موسى، خصائص التّراكيب، ص: 247.
(3) صافي، الجدول: 13/52.

المُبْهَمُ المعبَّرُ عنه بالموصول، فدَعاهم إلى التّشوّفِ والاستشرافِ في قضيّةِ يوسفَ عليه السلام وأخيه إلى عِلْمٍ وكشْفٍ جديدٍ في القضيّةِ لا إحاطة لهم به[1].

نُكتةُ التّعبيرِ بالمضارعِ في ﴿تَعْلَمُونَ﴾:

العلمُ يورثُ كثرةَ الصّمتِ، وعدمُه يورثُ الهذرَ والثّرثرةَ

عبّرَ بالمضارع في قوله تعالى: ﴿مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، لإفادة استمرارِ نفْيِ عِلْمِهم بما يعلمُه منَ الله، حتى يأذنَ الله بانكشافِه، وفي تركيب نفْيِ العلْمِ عنهم بصيغةِ المضارعة إعذارٌ لهم في مراعاتِهم ظواهرَ الأمورِ دونَ بواطنِها، بانزعاجِهم منِ استرجاعِ أبيهم لذِكْرى يوسفَ عليه السلام بعد تقادُمِها، فكأنّه قال: معذورون في استبْعادِكم أمْرَ يوسفَ في أن يعودَ، ويُعادَ اجتماعُكم واجْتِماعي به مرةً أخرى بعد دهرٍ طويلٍ؛ لأنّكم جاهلون بحقيقةِ ما أعلَمُ منَ الله آخذين بظاهرِ الأمر دون لُبابِه.

نُكتةُ حذْفِ مفعولِ ﴿تَعْلَمُونَ﴾:

الله مع أوليائِه بالتّأييدِ والإغناءِ والتّكريمِ

حُذفَ مفعولُ ﴿تَعْلَمُونَ﴾ للاختصارِ والتّعميم، وهذا أنسبُ بالإبهامِ الذي أفاده الموصولُ في ﴿مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ فيتناولُ كلَّ جُزءٍ وكلَّ مرحلةٍ في العبورِ الزّمنيِّ الطويلِ في تلك القصّةِ، عنِ الحِكَمِ والتّدابيرِ ودقّةِ التّقديرِ الذي جرى فيها، فحُذِفَ المفعولُ لإفادة الفُتُوحِ الواسعِ الّذي أعلَمه الله به وجهِلوه هم، لتعظيمِ جهلِهم بحذفِ المفعول، والّذي مفهومُه تعظيمُ عِلْمِه هو مِن جهة أخرى، وتعظيمُ الّذي أذِنَ له به، ومنَعَهُ إيّاهم، وهو الله العظيمُ سُبحانه.

بَلاغةُ الانسجامِ والتّعطُّفِ في الآيةِ:

ألفاظُ القرآنِ عَذْبةٌ لتآلُفِها وحُسنِ نَظْمِها

في الآية: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾: انسجامٌ في النّظم؛ لسهولة سبْكِه، وعذوبةِ ألفاظِه، وسلامةِ تأليفِه، ويَزيدُه حُسنًا التّعطّفُ في قوله تعالى: ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾،

(1) فاضل السّامرائيّ، معاني النّحو: 1/131.

وقوله تعالى: ﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾، لما فيه مِن شِكايةٍ إلى قاضي الحاجاتِ، ملفوظٍ بها، مُصرَّحٍ بعبارتِها[1].

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الحُزْنُ والهمُّ والغمُّ والبَثُّ:

الحُزْنُ: (حزن) أصلٌ يدلُّ على خُشُونةِ الشّيء وشِدَّةٍ فيه، ومِنْه (الحُزْنُ) وهو خشونةٌ في الأرضِ، وخشونةٌ في النَّفْسِ لِما يَلحقُها مِنَ الغمّ. وليس فيه قيْدُ فواتِ شيءٍ في الماضي حسَبَ ما اشتَهر في التّفريقِ بينه وبين الخوف، فهو بمعنى الشّعور بالألم والخشونةِ في النّفْس والغَمِّ ولا يتأتّى فيه قيدُ فواتِ شيءٍ إلّا بتكلُّف[2].

الحـزنُ هو الأمارةُ الظّاهرةُ على الهمِّ والغمِّ والبثِّ، وجميعُها فصيحٌ

والهمُّ: (همَّ) أصلٌ يدلُّ على جَريانٍ وانسيابٍ وذَوبانٍ ودبيبٍ وما أشبهَ ذلك. و(الهَمّ): ما هَمَمْتَ به في نفْسِك، ويُطلقُ على الإرادة، لأنّ الإرادةَ هيئةٌ نفسيّةٌ تنسابُ في النّفْسِ وتدبُّ فيها فينْزِعُ الإنسانُ بسببِها إلى الأشياءِ، ومِن ذلك كلِّه: (الهَمُّ) وهو الحُزْن؛ لأنّه يَهُمُّ، أي: يُذيبُ الهِمّةَ ويَقْعدُ بها عن كمال الإرادةِ وتمامِ القصْدِ. فالهمُّ هو داءُ الهِمَّةِ وآفَتُها[3].

والغَمُّ: (غمّ) أصلٌ يدلُّ على تغطيةٍ وإطباقٍ، والغَمُّ: هو الحُزْنُ الذي يَغُمُّ القلَبَ، أيْ: يَغشاه فيستُره ويُغطّيه. فالغمُّ حزنٌ يحجِبُ النّفْسَ عن فُسْحتِها وبراحِها فتنقبِضُ وتضيقُ، ويحجِبُ القلْبَ عن كامِلِ الوعْيِ والتّبصّرِ، فيزولُ أُنْسُه ونشاطُه ويَكَلُّ ويَعمَى[4].

والبَثُّ: هو تفريقُ الشّيء وإثارتُه بنشْرِه وتفتيتِه، أو بإظهاره

(1) عفيف، الشّامل في بلاغة القرآن: 2/93، وفنّ الانسجام: هو أن يكون الكلام متحدّرًا كتحدّر الماء المنسجم، حتى يكون للجملة من المنثور وللبيت من المنظوم وقعٌ في النّفوس، وتأثيرٌ في القلوب.

(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والراغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (حزن).

(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحفّاظ، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (هم، همم).

(4) ابن فارس، مقاييس، اللّغة، والسّمين الحلبي، عمدة الحفّاظ: (غم، غمم).

وإذاعتِه، وأطلِقَ على الحُزْنِ الشّديدِ والغَمّ العظيم؛ لأنّه مبثوثٌ في النفْسِ منثورٌ في أنحائِها، ولأنّه مِنْ ثِقَلِه يَبثُّه صاحبُه ويُظهِرُه لغيرِه، ولأنّ الحزنَ الثّقيلَ تُلتمَسُ فيه المعونةُ عليه فكأنّه يُبَثُّ ويُفرَّقُ على من يتحمّلُه مع صاحبِه إعانةً له وتخفيفًا عليه. ولِأنّه إذا اشتدّ على النّفْس بَثّ فيها، أي: فَتَّ في عزْمِها وفَسَخَ اجتماعَها فأحالَها إلى تَفارِيقَ وأجزاءٍ مُتَفَكِّكةٍ مِنَ الوَهَنِ والضَّعفِ، فهو الحزْنُ الذي يجعل المرءَ أشتاتًا[1].

والفرقُ الدّقيقُ بين هؤلاء الكلماتِ: أنّ في كلّ واحدةٍ منها ما ليس في الأخرى، فالحُزنُ هو خشونةُ النَّفسِ وجفافُها منَ الفرَح، والهَمُّ هو ذَوبانُ الحُزْنِ في النَّفْس، فتنسابُ الهمّةُ والإرادةُ فيها، فيُحالُ بينها وبين تمام القصْدِ وسلامتِه. والغمّ هو الحزنُ الذي يغطّي صفحةَ القلب فيُحاطُ بالحجابِ الذي يُعطِّلُ اعتدالَه ويُؤذي حيويَّتَه، فيُظْلِمُ النّفْسَ ويُوشْئِمُها ويَضيقُ بها.

والبَثُّ هو الحزْنُ الذي لِكثرتِه فاضَ عن داخلِ النّفْسِ إلى خارجها، فانتشَرَ وظَهَر، وذاع وشاع، وتفرّقَ وتوزَّعَ، وفَرَّقَ وشَتَّتَ. وبذا فهو أنسبُ لشدّةِ الحزن الذي تملّك قلبَ نبيِّ اللّه يعقوبَ على فقد أولادِه ولا سيّما يوسفَ عليه السلام لطول مدّةِ فقدِه، وانقطاعِ خبرِه.

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (بث، بثث).

﴿يَٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ٨٧﴾

[يوسف: 87]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

ثقةُ المؤمنِ بالله تعالى غاليةٌ لا يَعرفُ قيمتَها إلّا الرّاسخون في العلمِ

لمّا طَمِعَ يعقوبُ عليه السلام في وجود يوسف عليه السلام بما ذُكِرَ من الأمارات، وبثَّ شكواه إلى ربِّه مع علمه ببقاء ولده خاطَبَهم على سبيل التَّلطُّف بطلب البحث عن ولديْه، مع طمعه في رجاء الله عز وجل بعدم خيبة أمله في عودتهما مرَّةً أخرى؛ فمُناسبةُ الآيةِ لما سبق هو طلبُ الفعلِ المَبْنيِّ على الأملِ بالله تعالى، ورفضُ اليأسِ المَبْنيِّ على الجهلِ، فالمناسبةُ تُظهرُ ثِقةَ المؤمنِ بوعدِ الله تعالى - وإنْ رفَضَه جميعُ النّاسِ - وهذه الثِّقةُ غاليةٌ لا يعرفُ قيمتَها إلّا الرّاسخون المُتيقِّنون.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَتَحَسَّسُواْ﴾ (حسّ) "الحاءُ والسّينُ أصْلانِ: فالْأَوَّلُ: غَلَبَةُ الشَّيْءِ بِقَتْلٍ أوْ غَيْرِهِ، والثّاني: حِكايَةُ صَوْتٍ عِنْدَ تَوَجُّعٍ وشَبَهِهِ. فالْأَوَّلُ: الحَسُّ: القَتْلُ، قالَ اللّه تعالى: ﴿إِذۡ تَحُسُّونَهُم بِإِذۡنِهِۦۖ﴾ [آل عمران: 152]. ومن هَذا البابِ قَوْلُهُمْ: من أيْنَ حَسِسْتَ هَذا الخَبَرَ؛ أيْ: تَخَبَّرْتَهُ .. والأصْلُ الثّاني: قَوْلُهُمْ: حَسٍّ؛ وهيَ كَلِمَةٌ تُقالُ عِنْدَ التَّوَجُّعِ. ويُقالُ: حَسِسْتُ لَهُ فَأنا أحَسُّ، إذا رَقَقْتُ له، كَأنَّ قَلْبَكَ ألِمَ شَفَقَةً عَلَيْهِ"[1].

والحَسيسُ: الصوتُ الخَفيُّ؛ قالَ اللّه تعالى: ﴿لَا يَسۡمَعُونَ حَسِيسَهَاۖ﴾ [الأنبياء: 102]، والحِسُّ، بِكَسْرِ الحاءِ: من أحْسَسْتُ بِالشَّيْءِ. حسَّ بِالشَّيْءِ يَحُسُّ حَسًّا وحِسًّا وحَسيسًا، وأحَسَّ بِهِ وأحَسَّه: شَعَرَ

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حسَّ).

بِهِ وتَحَسَّسَ الخَبَرَ: تطلَّبه وتبحَّثه. فالتَحَسُّسُ شِبْهُ التَّسَمُّعِ والتَّبَصُّرِ؛ قالَ: والتَجَسُّسُ، بِالْجيمِ، البَحْثُ عَنِ العَوْرَةِ[1].

وقال الرّاغب: "الحاسّة: القوَّة الّتي بها تُدرك الأعراض الحسّيّة، والحواسّ: المشاعر الخمس، يُقال: حَسَسْتُ وحَسَيْتُ وأحْسَسْتُ، فَحَسَسْتُ يُقال على وجهيْن: أحدهما: يُقال: أصبتُه بحِسّي، نحو: عِنْتُه ورمحتُه، والثّاني: أصبتُ حاسّته، نحو: كبدْتُه وفأدْتُه، وعبّر عن الحركة بالحسيس والحسّ"[2].

فالتّحسّس هو طلب الشَّيءِ بالحسِّ[3]؛ أي: اذهبوا فاطلبوا خبرَ يوسف عليه السلام بحواسِّكم عنِ اجتهادٍ ومثابرةٍ.

2) ﴿وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ﴾ يَئِسَ من اليَأسِ، وهو انقطاع الرَّجاء، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِۖ﴾: من انقطاع الرَّجاء، وهو من: يئست، وهو مثل (إيسٍ) في تصريفه[4]؛ فاليأس: قَطْع الرَّجاء[5]، وانتفاءُ الطّمعِ[6]، يَئِسَ منه يأسًا واستيأس، وأيأسته. وهو بين عطفة مطمعٍ وصدفة مؤيسٍ. ورجل يؤوس[7]، يُقال: يَئِسَ واسْتَيْأَسَ مثل: عَجِبَ واستعجَبَ، وسخر واستسخر[8]، ومعنى النَّهي عن اليأسِ في الآيةِ؛ تركُ أسبابِه الرّوحيَّة والمادّيّة وهو القنوطُ.

3) ﴿رَّوْحِ﴾ الرّاء والواو والحاء أصلٌ كبيرٌ مطَّردٌ، يدلُّ على سعةٍ وفُسحة واطِّراد. وأصل ذلك كلِّه الرّيح[9]، "والرَّوْحُ التّنفّس، وقد أراحَ الإنسان إذا تنفّس، وقوله: ﴿وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِۖ﴾؛ أيْ: من فَرَجِه ورحمته، وذلك بعض الرّوح"[10].

المَعْنى الإجْماليّ:

يُخاطِبُ يعقوبُ عليه السلام أبناءَه بأن يجتهدوا في طلبِ خبرِ أخَوَيْهم، من خلال الاستقصاءِ

(1) ابن منظور، لسان العرب: (حسس).
(2) الرّاغب، المُفردات: (حسَّ).
(3) الغزنويّ، باهر البرهان: 2/730.
(4) الأخفش، معاني القرآن: 1/279.
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (يأس).
(6) الرّاغب، المُفردات: (يأس).
(7) الزَّمخشريّ، أساس البلاغة: (يئس).
(8) الرّاغب، المُفردات: (يأس).
(9) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (روح).
(10) الرّاغب، المُفردات: (روح).

والبحث بكلِّ ما أوتوه من قوَّةٍ وحواسٍّ، وهو أمرٌ، وقد أتبَعَه بالنَّهي عن القنوطِ من رحمة الله تعالى؛ بقطع الرّجاءِ من وجدان أخَوَيْهما، وحذَّرهم بأنَّ ذلك مسلكُ القومِ الكافرين، ففي الآيةِ إرشادٌ إلى الاجتهادِ في طلبِ المأمولِ، وعدم الاستسلام لليأسِ؛ لأنَّه لا يليقُ بالمؤمنين، فالمؤمنُ واثقٌ بالله تعالى، بسببِ إيمانِه الرّاسخِ، وعلمِه الثّابت، ولو خالفَه النّاسُ جميعًا، فالثّقةُ بالله لا تعادلها أيُّ ثقةٍ، ولا توازيها أيُّ قوّة.

الثِّقةُ بالله تعالى غاليةٌ عزيزةٌ لا يقدرُ عليها إلّا الرّاسخون

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيّ:

نكتةُ النّداءِ بأداةِ البعيدِ:

اختيرَ النِّداءُ بأداةِ (يا) في قوله تعالى: ﴿يَٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ﴾ الدّالَّة على البُعد بتنزيل القريب منزلةَ البعيد؛ إمّا لكونهم بعد فَعلتهم تلك وضيعي القَدْر مُنحَطّي المَنْزِلة، أو للإشعار بأنَّهم لاهون غافلون عن حالة أبيهم بعدم مراعاة ما حلَّ به ونزل عليه مِن مُفارقة يوسف وأخيه، مع ما فيها من التّنبيه الدّالِّ على عظيمِ الحالةِ النَّفسيَّة لدى الأبِ بعد انقطاعِ ولدَيْه عنه.

مهمازُ الغفلةِ قوَّةُ النِّداءِ وبلاغةُ القولِ

بلاغةُ الاستئنافِ البيانيِّ:

لمّا ظهر ليعقوب عليه السلام كذبُ أولاده أراد أن "يُصَرِّحَ لَهُم بِشَيْءٍ مِمّا يَعْلَمُهُ وكاشَفَهُم بِما يُحَقِّقُ كَذِبَهُمْ ادِّعاءَ ائْتِكالَ الذِّئْبِ يوسُفَ عليه السلام حينَ أذِنَهُ اللهُ بِذَلِكَ عِنْدَ تَقْدِيرِ انْتِهاءِ البَلْوَى؛ فجملةُ ﴿يَٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ﴾ مُسْتَأْنَفَةٌ اسْتِئْنافًا بَيانيًّا، لِأنَّ في قَوْلِهِ: ﴿وَأَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ٨٦﴾ [يوسف: 86] ما يُثِيرُ في أنْفُسِهِم تَرَقُّبَ مُكاشَفَتِهِ عَلى كَذِبِهِمْ؛ فَإنَّ صاحِبَ الكَيْدِ كَثِيرُ الظُّنونِ[1]".

كادَ المريبُ أن يقول: خُذوني

دلالةُ التَّعبير بلفظ (بَنِيَّ):

التَّعبير بلفظِ (بَنِيَّ) في هذا السّياق أخفُّ نُطقًا من أبنائي

التَّلَطُّفُ بالمخاطَبين أدعى في إنفاذِ المطلوبِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/42.

أو أولادي، كما أنَّ فيه خصوصيَّةً بكونهم أبناءه المخصوصين لا غيرهم، فجاء الخطاب خطاب تلطُّف وتودُّد؛ ليجعل فيهم الحميَّة للعودة بأخويْهم، وليكون أبعثَ على امتثالهم لأمره وطلبه منهم.

نكتةُ الإضافةِ في لفظِ ﴿يَٰبَنِيَّ﴾:

شـدَّةُ الاقـترابِ داعيةُ الامتثالِ

في إضافةِ الأبناءِ إلى ضمير المتكلِّم في قوله: ﴿يَٰبَنِيَّ﴾ تخصيصٌ بكونهم أقرب النّاس إليه، فليسوا أبناء أحدٍ سواه، لذا فهُم أوْلى بإجابة طلبه وتلبية ندائه وتنفيذ أوامره.

براعة توطئة الأمر بالنِّداء:

النِّـداءُ إخضاعُ العقلِ والحِسِّ لسماعِ المطلوبِ وتحقيقِ المقصودِ

ورد التَّعبير بالنِّداءِ توطئةً للأمر في قوله تعالى: ﴿يَٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ﴾، تنبيهًا على الأمر الوارد بعدها؛ وهو رجوعهم إلى المكان أو القرية الَّتي كانوا فيها؛ للإتيان ببعض أخبار يوسف وأخويْه؛ ليُلقي في أنفسهم الامتثالَ إلى ما طَلَبه أبوهم منهم حتَّى تقرَّ عينُه، لعلْمِه يقينًا بعدم موت يوسف عليه السلام، وذلك فيما لاح له من رؤيا يوسف عليه السلام وتعبيره له بما لم يقع بعدُ.

نكتةُ انتقاءِ مُفرَدَة ﴿ٱذۡهَبُواْ﴾:

طَـلَـبُ الأمـرِ بلطفٍ مقدِّمةُ تحقيقه وتوطئةُ إيجاده

آثر النَّظمُ استعمالَ مفردةِ الذَّهابِ في قوله تعالى: ﴿يَٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ﴾ دون لفظِ الانطلاق ومرادفاتها، فلم يستعمل لفظَ الانطلاق مع دلالته على السُّرعة[1]، أو لفظَ الرُّجوع وهو العَوْد إلى ما كان منه البدء، أو تقدير البدء مكانًا كان أو فعلًا[2]، وقد تكرّر الفعل (ذهب) في قصَّة يوسف عليه السلام مراتٍ عديدة، ومعنى الذَّهابِ: المُضي[3]، فالذَّهاب سيرٌ ومرور مع الاهتمام بالبحث الجادِّ عن أخويْهم، فنكتةُ استعمال هذه المفردةِ أنَّ الذّهاب فيه تحنُّنٌ وتلطُّفٌ يُناسب أمره لهم؛ بأن يذهبوا مباشرةً بمجرَّدِ الأمرِ، أو بعد حينٍ، فهو يترك

(1) ابن منظور، لسان العرب: (طلق).
(2) الرّاغب، المُفردات: (رجع).
(3) الرّاغب، المُفردات: (ذهب).

لهم أمر تقديرِ وقتِ الذّهاب، كما أنَّه يناسب فعل التَّحسُّس الَّذي أمرهم به دون الرُّجوع أو الانطلاق الَّذي يكون فيه سرعة العودة وعدم الإقامة حتَّى العودة بمفقوديهم.

بلاغةُ ذِكْرِ الأمرِ دون الاكتفاءِ باللّاحقِ:

ظاهرُ الكلامِ إطنابٌ وحقيقتُه إيجازٌ بديعٌ

ذُكِر فعلُ الأمرِ ﴿ٱذۡهَبُواْ﴾ دون الاكتفاء بأمرِهم بالتَّحسُّسِ وذلك بأن يُقال لهم: (يا بَنيَّ تَحَسَّسوا)؛ وذلك بقصدِ المبالغةِ في إظهارِ جِدّيَّة الأمر، وبيان الحالة النَّفسيَّة الَّتي هو فيها، كما أنَّ الأمرَ بالتَّحسُّسِ المَبْنيِّ على الأمرِ بالذَّهابِ يُحدِّد الوجهةَ الّتي يذهبون إليها، فإنَّ أمرهم بالذّهابِ دالٌّ على معرفتِهم المكانَ المقصود، فأراد أن يكون التَّحسُّسُ بعد وصولِ المكانِ لا قبل ذلك، كأنَّه قال: اذهبوا إلى المكانِ الّذي أتيتم منه، فإذا وصلتموه فتحسّسوا من يوسف وأخيه، ففيه إيجازٌ بديعٌ يُناسبُ مقامَ الكلامِ، فكان ظاهرُ الأمرِ الإطنابَ، وحقيقتُه الإيجاز.

بلاغة تفريع الأمر بالتَّحسُّس على الذَّهاب:

تنزيلُ الأمرِ من الأمرِ منزلةَ العلَّةِ من المعلولِ

غرضُ الأمر في قوله تعالى: ﴿ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ﴾ محمولٌ على الوجوبِ، وصورته الظّاهرةُ هي النُّصحُ والإرشاد، وهو نُصْح يعقوب عليه السلام وإرشاده أولادَه الموجودين بتحسُّس أخبار يوسف وأخيه، والتَّحسُّسُ هو طلب الشَّيء بالحاسَّة؛ إمّا سماعًا بسماع خبرٍ، أو عيانًا برؤيتهم وتفقُّد مواضع وجودهما، فإذا تحقَّق النَّوعان نجح أمرُ الذَّهاب المقصود، ولا يُذهب إلى الشّيء إلّا إذا كان مُرادًا مقصودًا وهو من الأهميَّة بمكان، وفي ذِكْر فعل الذَّهاب الاهتمام والعناية، وفي ذِكْر التَّحسُّس حصول العِلْم بالخبر سماعًا، أو تحقُّقه عيانًا فترتَّب التَّحسُّس على الذَّهاب ترتُّب العلَّة على المعلول، وفي الأمر هنا إشارةٌ إلى البحث الجادِّ الحكيم المتأنّي.

معنى حرف ﴿مِن﴾:

لا تستصغر الأشياء فربَّما قادتك إلى ما تريد

حرفُ ﴿مِن﴾ في قوله تعالى: ﴿فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ﴾ للتَّبعيض؛ أيْ: تحسَّسوا خبرًا من أخبار يوسف وأخيه وتعرَّفوا بعض أخباره[1]، وعليه فهناك تقدير محذوفٍ وهو: فتحسّسوا نبأً أو حقيقةً من أمر يوسف. لكن يُحذف ما يدلُّ ظاهرُ القولِ عليه إيجازًا[2]، وحملها بعض المُفسِّرين على التَّناوب، فجعلوها بمعنى (عن)[3]، والصَّحيح أنَّها على بابِها، وأفادت معنى التَّبعيضِ، إذِ المطلوبُ هو معرفةُ شيْءٍ من الأخبارِ؛ للوصولِ إلى يوسف عليه السلام، لا مجرَّد السُّؤال عنه.

نكتةُ التَّصريح باسْمِ يوسف وإبهامِ اسم أخيه:

ذكرُ اسمِ الحبيبِ متعةُ نفسٍ ولطفُ حِسٍّ

صُرِّح باسْمِ يوسف عليه السلام وأُبهم اسمُ أخيه في قوله تعالى: ﴿مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾؛ وذلك لأنَّ مصبَّ الحديث كلِّه وأساسه هو يوسف عليه السلام، وهو محور الأمر ولُبُّ القضيَّة، وهو المقصود الأهمُّ بالنِّسبة له، فإذا وُجد يوسف وُجد من باب أوْلى أخوه (بنيامين)، وفي ذِكْرِه دليلٌ على أنَّه لم ينقطع عن فكر أبيه، وإن كانوا قد ضربوا عنه صفحًا، وطووا عنه كَشْحًا، فهو الأصل ولا مُقتضى للعدول عنه، وليقينه التّامِّ بحياته لا بموته.

سرُّ إيثار لفظِ الأخ على الشَّقيق:

حكمةُ الآباءِ بجمعِ الأبناءِ في رابطةٍ واحدةٍ

آثر النَّظمُ ذِكْرَ وصفِ الأخِ دون الشَّقيق في قوله تعالى: ﴿يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾، وذلك دفعًا لغائلةِ الحقدِ والحسد والمكر، فلو قال: (وشقيقه) لأفهم ذلك اختصاصًا بين الاثنيْن ما ليس لبقيَّة الإخوة، فلمّا قال: ﴿وَأَخِيهِ﴾ جعلهم جميعًا في رُتبةٍ واحدةٍ مُتغافلًا أنَّ يوسف شقيق بنيامين، بقصدِ الجمعِ بين الجميعِ في رابطةٍ واحدةٍ، وهذا

(1) الشّيخ زاده، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 5/71.
(2) ابن عطيّة، المُحرّر الوجيز: 3/374.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 9/203، 202.

هو مقتضى الحكمة لا سيّما وأنَّ الحَدَثَ جلَلٌ وهو المسارعةُ في البحث عنهما.

نكتةُ إيثارِ الإطنابِ:

تمامُ الحكمةِ في الخطابِ تقليلُ أوهامِ الأفهامِ

آثر يعقوب عليه السلام ذِكْرَ يوسف وبنيامين في قوله تعالى: ﴿يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ دون أن يقول: (فتحسَّسوا من أخويْكما) مع أنَّه أوجزُ لفظًا؛ وذلك أنَّ إظهارَ اسمِ يوسف عليه السلام كان مقصودًا، ولو قال: (من أخويْكما) لسألوه عن الآخر فأوقعه في حُزنٍ زائدٍ، فآثر ذِكْرَ المُستبعَد عن أذهانِهم - وهو يوسفُ عليه السلام - والبداءةَ به لِكيْلا يقع منهم مثلُ هذا.

نكتةُ العطفِ بين الجملِ الإنشائيَّة:

الأمرُ المُقترنُ بالاحتراسِ أدعى في الاستمرارِ من الأمرِ المُجرَّدِ

عُطِفَ قولُه تعالى: ﴿وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ﴾ على أمرِ يعقوب عليه السلام لأبنائه بالذَّهاب والبحث عن يوسف وأخيه، إذ إنَّه عليه السلام كان عنده من العلم ما لم يكن عندهم، ووصل هنا بين الجملتيْن لاتفاقهما في الإنشائيَّة، فالأولى بُنيت على الأمر، وهذه بُنيت على النّهي، وبين الجملتيْن جامعٌ وهو أنَّ الأولى فيها طمعٌ من يعقوب عليه السلام أنْ يأتيه خبرٌ أو نبأٌ عن ولَديْه، وفي الثّانية إلقاء الطّمأنينة في نفوس الإخوة، وإخبارهم بأنَّ فَرَجَ الله ورحمتُه قريبان يتغيّر بهما حال يعقوب، وتطمئنُّ نفسه الولْهى، فالجملتان مُتكاملتان في الغايةِ، الأولى في إنشاءِ الأمر، والأخرى في إنشاءِ الاحتراسِ عن اليأس والقنوط.

غرض النَّهي:

القنوطُ من رحمةِ الله تعالى سببُ الضَّعفِ عن المطلوبِ

المقصودُ من النَّهي في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ﴾ هو إرشادُهم إلى ما أُبهم عنهم في قوله تعالى: ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾﴾ [يوسف: 86]، ومعلوم أنَّ النَّهي في أصل معناه هو: طلب الكَفِّ عن الفعل على وجه الاستعلاء، فهنا طلب يعقوب عليه السلام من أولاده عدمَ اليأس من فرج الله أو رحمته، وأمّا وجه الاستعلاء

فَلِعِلْمِه من عند اللّه ما لا يعلمونه، وهو حياة ابنِه يوسفَ وأخيه، وغرضُ النَّهي هنا: إرشادُهم إلى عدم اليأس مع التَّسلية والتَّصبُّر بفرج اللّه تعالى، وهو إرشادٌ إيمانيٌّ واجبٌ، لا تجوزُ مخالفته.

نكتة التَّعبير باليأس دون القنوط:

الأمـلُ معقودٌ بنواصي الظُّنون

عبَّرَتِ الآيةُ باليأسِ دون القنوطِ في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ﴾، والقنوط "أشدُّ مبالغةً من اليأس، وأمّا اليأس فقد يكون قبل الأمل، وقد يكون بعده"[1]، وهنا كان نبي اللّه يعقوب عليه السلام مُؤمِّلًا خيرَ اللّه ورحمتَه وفَرَجَه برجوع يوسف عليه السلام وأخيه، وكان أمله كبيرًا لعلمه من عند اللّه تعالى ما لا علم لهم به، وأمّا القنوط فهو سخطٌ على قضاء اللّه تعالى وقَدَرِه ممّا لا يليق به عليه السلام، والقنوط قطع الأمل ونفْيُ الرَّجاء وهما ممّا لا يليق به عليه السلام، ولا يليق أن ينهى أبناءه عن القنوطِ لانعقادِ الأمل بتحقُّق المأمول.

معنى حرف ﴿مِن﴾:

حرفُ ﴿مِن﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ﴾ للابتداءِ، كأنَّه قال لهم: لا تيأسوا من رحمةِ اللّه تعالى، فمَنْ وثق باللّه تعالى ابتداءً كانت نهايتُه مُشرقةً، وعاقبته مُنيرةً.

براعة التَّعبير بمُفردة ﴿رَّوْحِ﴾:

رحمةُ الله أصلُ الـرّاحـةِ الّتي تُلائِم الرّوح

آثر النَّظمُ التّعبير بالرّوح في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِۖ﴾، والمقصودُ بها الرَّحمة كما ورد عن ابْنِ عَبّاسٍ رضي الله عنهما في معنى ﴿وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِۖ﴾ يُريدُ: من رَحْمَةِ اللّه، وعَنْ قَتادَةَ: من فَضْلِ اللّه، وقالَ ابْنُ زَيْدٍ: من فَرَجِ اللّه، وذلك أنَّ الرَّوْحَ ما يَجِدُهُ الإنْسانُ من نَسيمِ الهَواءِ فَيَسْكُنُ إلَيْه، وتَرْكيبُ الرّاءِ والواوِ والحاءِ يُفيدُ الحركة والاهتزاز، فكلُّ ما يهتزُّ الإنسانُ لَهُ ويَلْتَذُّ بِوُجودِهِ فَهوَ رَوْحٌ[2].

(1) العسكريّ، الفروق اللُّغويَّة، ص: 259.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 9/203.

والتَّعبير برَوْح بفتح الراء أدلُّ على هذا المعنى، لما فيها من ظلِّ الاسترواح من الكَرْبِ الخانق بما تتنسَّمه الأرواح من رحمة اللّه[1].

دلالة الإضافة:

أُضيفت لفظةُ ﴿رَّوْحِ﴾ إلى اسم الجلالة لأنَّها منه ﷻ، فهي على معنى (من)؛ أيْ: رحمةٌ من اللّه تعالى، وتخصيصها بالإضافة تشريفٌ لها وتعظيمٌ لشأنِها.

علَّة الفصل بين الجُملِ:

تعليلُ النَّهي وبيانُه أرْجى في الامتثال وأدْعى في الاستجابة

جاء قولُه تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ﴾ مفصولًا تعليلًا لحضِّهم على التَّحسُّس؛ والمعنى: لا تُقصِّروا في البحث عن يوسف وأخيه، ولا تقنطوا من رحمة اللّه؛ لأنَّه لا يقنط من رحمة اللّه إلّا القوم الكافرون، فإمّا أن تكون هذه الجملة قد فُصلت عن سابقتها لشبه كمال الاتِّصال إذ إنَّ قوله تعالى: ﴿وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِۖ﴾ قد أثار سؤالًا وهو: لماذا لا نيأس من روح اللّه؟ فقال: ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ﴾.

وإمّا أن تكون هذه الجملة ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ﴾ مفسِّرةً للجملة السّابقة مبيِّنةً لها، ومن هنا فُصِلَتْ لكمال الاتِّصال، فالجملة على التَّوجيهيْن أقامت تعليلًا وبيانًا للنَّهي السّابق، وهذه علَّةُ الفصلِ بين الجملتيْن.

غرضُ التَّوكيد:

إلهابُ المخاطَبِ مهماز الاستجابة

أُكِّدت الجملة في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ﴾ لتأكيدِ ما يعلمونه من ذلك[2]، والتَّوكيد هنا من قبيل تنزيل غير المُنكِر منزلةَ المُنكِر، وغرضُه إلهابُهم وتحريكُهم بقوَّةٍ بقصدِ النُّفرةِ عن الكسلِ في الامتثالِ للأمرِ؛ فإنَّ العبدَ إذا عَلِمَ حالَ الكافرين

(1) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 7/406.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 13/44.

واعتقادَهم باللّه تعالى نفر منه، وأتى بضدِّه هرَبًا من الاتِّصافِ بما يمحقُ العمل.

بلاغةُ القَصْر:

سببُ اليأسِ من رحمة الله الكفرُ المقترنُ بالجهلِ

القَصْر في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ من قبيل قَصْر الصِّفة على الموصوف، وهو قصر صفة اليأس على الموصوف وهم ﴿ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ وهو قصرٌ حقيقيٌّ، ونوعُه قصرُ إفراد، فإنَّه لا ييأس حقيقةً: ﴿مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِۖ﴾ ولا يقنط من رحمة اللّه إلّا القوم الكافرون؛ لعدم علمهم باللّه تعالى وبصفاته، وبعظيم قدرته، وبواسع رحمته، أمّا المؤمنون فإنَّهم لا ييّأسون من فرج اللّه أبدًا، حتَّى لو أحاطت بهم الكروب، واشتدّت عليهم المصائب.

فائدةُ استعمالِ أداة النَّفي ﴿لَا﴾:

اليأسُ متروكٌ فيما مضى وما هو كائنٌ وما سيأتي

استعملتِ الآيةُ الكريمةُ أداةَ النَّفي ﴿لَا﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ﴾ دون (لن)، وهي موضوعة لطلب التَّرْك؛ ترك اليأس من روح اللّه تعالى، وهي تختصُّ بالدُّخول على المضارع سواء أكان المطلوب منه مُخاطبًا - كما حدث مع إخوة يوسف وأبيهم - أم غائبًا أم مُتكلِّمًا، وهنا عدل عن النَّهي عن التَّعرُّض إلى النَّهي بعدم الكُفْر؛ لأنَّ الكُفْر مُسبَّبٌ عن اليأس من رحمة اللّه تعالى، وأسند المُسبَّب (اليأس) إلى فاعله؛ وهم إخوة يوسف عليه السلام، وفائدةُ التَّعبيرِ بها لإنشاءِ طلبِ تركِ أسبابِ اليأسِ منذ لحظةِ الخطابِ، وإشعارًا بأنَّ اليأسَ يجب أن يكونَ متروكًا بالكلِّيَّةِ فيما مضى وفيما هو كائنٌ وفيما سيأتي.

نكتة إظهار ما حقُّه الإضمار:

رحمةُ الله تعالى محيطةٌ بالرّاجين

ورد التَّعبير بالاسم الظّاهر المجرور: ﴿رَّوۡحِ ٱللَّهِۖ﴾ "ولم يَقُلْ: (منه) إشارةً إلى ظهور حصوله لِمَنْ لم ييأس"[1]، ولِما فيه من تعظيم

(1) القاسميّ، محاسن التَّأويل: 6/211.

شأنِ الرّوح الّتي هي من الله تعالى، فإنَّ للإظهارِ في هذا المقامِ ما لا يكون للإضمارِ.

نكتةُ ذِكْرِ الموصوفِ وعدمِ الاكتفاء بالصِّفةِ:

أعباءُ الرِّجال لا يُعرف فيها اليأس

القوم هم جماعة الرِّجال الَّذين يقوم بعضهم مع بعض في الأمور، ولا يقع على النِّساء إلّا على سبيل التَّبعيَّة، قال زهير بن أبي سُلمى:

وما أدري ولستُ إخالُ أدري *** أقَوْمٌ آلُ حِصْنٍ أم نساءُ

والمُراد بهم هنا: القوم الَّذين لهم قوة المحاولة، و﴿ٱلْكَٰفِرُونَ﴾؛ أي: العريقون في الكفر، وجاء التَّعريف في المُسنَد إليه ووصفه بأل العهديَّة؛ أي: المعهودون بكُفْرهم ويأسهم من رحمة الله تعالى، أو الجنس الكافر منهم، ونكتةُ ذِكْرِ القوم دون الاكتفاءِ بصفةِ الكافرين هو بيانُ أنَّ القومَ قد اجتمعوا على الكفرِ وقاموا عليه؛ فالكفرُ لمّا كان أصيلًا فيهم وراسخًا في عقولِهم وقلوبِهم، يئسوا من روح الله تعالى.

توجيهُ تخصيصِ الكُفرِ بالذِّكر:

الجهلُ بصفات الله يقود إلى اليأس ثُمَّ الكفر

خصَّ النَّظمُ وصفَ الكفرِ بالذِّكرِ دون الفِسق في قوله تعالى: ﴿ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾؛ وذلك أنَّ يعقوب عليه السلام قد جعل "اليأسَ من صفة الكافر؛ لأنَّ سببه تكذيبُ الرّبوبيّة، أو جهلٌ بصفات الله من قدرته وفضله ورحمته"[1]، "وَمَنْ كانَ يُؤْمِنُ بِأنَّ الله واسِعُ القُدْرَةِ لا يُحيلُ مِثْلَ ذَلِكَ فَحَقُّهُ أنْ يَأْخُذَ في سَبَبِهِ ويَعْتَمِدَ على الله في تَيْسيرِهِ، وأمّا القَوْمُ الكافِرونَ بِالله؛ فَهُم يَقْتَصِرونَ على الأُمورِ الغالِبَةِ في العادَةِ ويُنْكِرونَ غَيْرَها"[2].

(1) ابن جُزيّ، التَّسهيل لعلوم التَّنزيل: 1/395.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 13/46.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيّةُ:

اليأس والقنوط:

اليَأْسُ: قَطْعُ الرَّجاءِ[1] وانتفاءُ الطّمعِ، يُقال: يَئِسَ واسْتَيْأَسَ مثل: عجب واستعجب، وسخر واستسخر"[2].

اليأس أدنى من القنوطِ، والقنوط أعلى درجات اليأس

والقنوط أشدُّ مبالغة من اليأس، واليأس قد يكون قَبْل الأمل، وقد يكون بعده، والرّجاء واليأس نقيضان يتعاقبان كتعاقُب الخيبة والظَّفَر، والخائب: المُنقطع عمّا أمَّلَ"[3]. وعليه فالتَّعبير باليأس من باب ذكر الأدنى للتَّنبيه على الأعلى ضرورةً كقوله تعالى: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ﴾ [الإسراء: 23]؛ أيْ: لا يتخللكم اليأس، ولا يكون عندكم أدنى شكٍّ في رحمة اللّه تعالى ولُطفه بكم، فاليأسُ هو بدايةُ القنوطِ، فإذا وصل الإنسانُ مرحلةَ القنوطِ من رحمةِ اللّه تعالى، فقد دخل غارَ الظُّلمةِ والضَّلالِ.

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (يأس).
(2) الرّاغب، المُفردات: (يأس).
(3) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 259.

﴿فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيۡهِ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهۡلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئۡنَا بِبِضَٰعَةٖ مُّزۡجَىٰةٖ فَأَوۡفِ لَنَا ٱلۡكَيۡلَ وَتَصَدَّقۡ عَلَيۡنَآۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَجۡزِي ٱلۡمُتَصَدِّقِينَ ٨٨﴾ [يوسف: 88]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

استعطافٌ وتذلُّل بعد تجبُّر وتكبُّر

بعد أن أمرَ نبيُّ الله يعقوب عليه السلام أبناءه بالعودة إلى مصر للبحث عن يوسف وأخيه، ونهاهم عن اليأسِ من رحمةِ الله تعالى، أضمرتِ الآيةُ استجابةَ الأبناءِ لأبيهم يعقوب عليه السلام، وذهابهم إلى أرضِ مصر، وما يلفُّ ذلك من أحداثٍ، وبدأت مباشرةً بذِكْرِ حدثِ دخولِهم على أخيهم يوسف عليه السلام، وهم يحملون شكوى القَحطِ والجوعِ والعَوَز، فالمناسبةُ هي ذِكْرُ تنفيذِ الأمرِ بعد صدورِه عن أبيهم؛ باعتبارِ أنَّه المقصودُ الأبرزُ في هذه المرحلةِ.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلۡعَزِيزُ﴾ هو المَلِك القادر المنيع الجانب الَّذي له سطوة الحُكم وتنفيذ الأمر، وهو مأخوذٌ من الفعل (عزَّ) الدّالّ على القدرة والغَلَبَة، وهو أصْلٌ صَحيحٌ، يَدُلُّ على شِدَّةٍ وقوَّةٍ وما ضاهاهُما من غَلَبَةٍ وقهرٍ[1]، "والعَزيزُ: الّذي يَقْهَرُ ولا يُقهَر، يُقال: عَزَّ عَلَيَّ كذا: صَعُبَ، وعَزَّهُ كذا: غَلَبَه"[2]، والعَزُّ يتضمّن معنى الغَلَبَة والامتناع، فأمّا قولهم: عزَّ الطّعام فهو عزيزٌ؛ فمعناه: قلَّ حتى لا يُقدر عليه، فشُبِّه بمَن لا يُقدَر عليه لقوَّته ومَنَعَته؛ لأنَّ العَزَّ بمعنى القلَّة[3]، والمُراد بالعزيزِ في الآيةِ هو لقبُ المكانةِ الّتي تبوّأها يوسفُ عليه السلام.

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عزَّ).
(2) الرّاغب، المُفردات: (عزَّ).
(3) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 259.

2) ﴿مُّزۡجَىٰةٖ﴾ يَدُلُّ أصلُ (زجي) على الرَّمْيِ بالشَّيْءِ وتَسْييرِهِ من غَيْرِ حَبْسٍ. يُقالُ: أزَجَّتِ البَقَرَةُ ولَدَها، إذا ساقَتْهُ. والرّيحُ تُزْجي السَّحابَ: تَسوقُهُ سَوْقًا رَفيقًا[1]، وزَجا الشَّيءُ يَزْجو زَجْوًا وزُجوًّا وزَجاءً: تَيَسَّر واسْتقام. وزَجا الخراجُ يَزْجو زَجاءً: هوَ تيَسُّر جِبايتِه. والتَّزْجيَةُ: دَفْعُ الشَّيْءِ كَما تُزَجّي البَقَرةُ ولَدَها؛ أيْ: تَسوقُه، ويُقالُ: أزْجَيْتُ الشيءَ إزْجاءً؛ أيْ: دافَعْت بِقَليلِهِ، وزَجَّى الشيءَ وأزجاه: ساقَه ودَفَعه. وقالَ الأعشى:

إلى ذَوْدَة الوَهّابِ أُزْجي مَطيَّتي *** أُرَجّي عَطاءً فاضِلًا من نَوالِكا

والإزجاءُ من السَّوقِ والدَّفع القليل، من قولهم: زجيتُ الشيءَ تُزجيه إذا دفعتَه برفق، والمُزْجَى: القَليل. وقالَ ثَعْلَبٌ في معنى ﴿مُّزۡجَىٰةٖ﴾: بِضاعةٌ مُزجاةٌ: فيها إغْماضٌ لَم يَتِمَّ صلاحُها، وقيلَ: يَسيرَةٌ قَليلَةٌ[2]، أو: مدفوعةٌ يدفعها كلُّ أحدٍ لرداءتِها، أو: مردودةٌ مدفوعةٌ غير مقبولةٍ.

المَعْنى الإجْماليّ:

حوارٌ كاشفٌ عن الحالِ موصلٌ للكَشْفِ عمَّن يُطلبُ منه المنالُ

بيَّنتِ الآيةُ استجابةَ الأبناء لأمرِ أبيهم في الذَّهابِ بقصدِ التَّحسُّسِ لمعرفةِ أخبارِ أخويْهم، فأعدّوا عُدَّتهم للرحيل إلى مصر للمرَّة الثّالثة، ثم ساروا في طريقهم حتَّى دخلوها، والتقوا بعزيز مصر الَّذي احتجز أخاهم بنيامين، ودار بينهم حوارٌ اتّضحتِ الحقائق بعده[3]، فقد كشفتِ الآيةُ عن الحالِ المعيشيّ الّذي وصل إليه إخوةُ يوسف عليه السلام، وضَعْف المستوى الاقتصادي لبلادهم مِن ضعفٍ وهوانٍ، وذلك تَقدُمَة بين يديْ طلبِ الصَّدقةِ عليهم، ونيل الإحسانِ من العزيزِ.

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (زجي).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (زجا).
(3) طنطاويّ، التفسير الوسيط: 7/410.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيّ:

معنى الفاءِ وعجيبُ دلالتها:

سرعةُ الزَّمنِ والاستجابةِ للأمرِ بقصدِ تحقيقِ العودة السّريعة

الفاء في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيۡهِ﴾ تفريعيَّةٌ على أمرِ أبيهم لهم بالذَّهابِ إلى مصر، عاطفةٌ رحيلَهم إلى مصر ودخولَهم على يوسف عليه السلام، شاكين حالَهم وما آلَ إليه أمرُ أبيهم وأمرُهم، طالبين كشف الضُّرِّ عنهم وإزالةَ ما علق بهم من همٍّ وغَمٍّ وكربٍ حوَّل حياتهم إلى ما لا تُحمد عُقباه، ودلَّت الفاء هنا على سرعتهم في هذه المرَّة في أمر العودة لِما حلَّ بهم، وإفادتها التّعقيب السَّريع، وهذا أقوى دلالةٍ على وصف حالتهم تلك، كما أنَّ الفاءَ قد طوت الأحداث الحاصلةَ بين أمرِه عليه السلام بالذَّهابِ إلى مصر، وبين دخولِهم على عزيزِها، فالتَّعبير بالفاءِ دون (ثم) تعبيرٌ يلفت الأنظارَ إلى أنَّ الزَّمن مرَّ سريعًا، وأنَّ استجابتهم لاقتْ هوًى في أنفسِهم، وحاجةً تلقّفوها ببركاتِ أمرِ أبيهم، ولذلك اتّفق المفسِّرون "على أن هاهنا مَحْذوفًا، والتَّقْديرُ: أنَّ يَعْقوبَ لَمّا قالَ لِبَنيهِ: ﴿ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾، قَبِلوا من أبيهم هَذِهِ الوَصيَّةَ؛ فَعادوا إلَى مِصْر، ودَخَلوا على يوسُفَ عليه السلام؛ فَقالوا له: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ﴾"[1]، ونحوِ هذا من التَّقديرات.

براعةُ استعمال (لمّا) الحينيّة:

الإيماءُ إلى أحداثٍ مطويَّةٍ بعد الإشارةِ إلى سرعةِ انقضائها

وردتْ ﴿فَلَمَّا﴾ في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيۡهِ﴾ مفيدةً الحين والزَّمان، وهي تختص بالماضي، فتقتضي وجود جُملتيْن وُجدت ثانيتُهما عند وجود أولاهما، ومن هنا قيل فيها: حرف وجودٍ لوجودٍ أو وجوبٌ لوجوبٍ؛ فالأولى أفادت الدّخول، والثّانية أفادت مقالتهم له عليه السلام، ومن هنا وردت (لمّا) مفيدةً الحين والظَّرفيَّة الزَّمانيّة نظرًا لترتُّب الأحداث الواردة في استعدادهم ولرحيلهم ولقائهم بيوسف

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 9/205.

عليه السلام وحوارهم معه، وعليه فلم يأتِ التَّعبير بأنْ يُقال: (فدخلوا عليه وقالوا)؛ لأنَّه لم يكن أمرًا سريعًا أو مباشرًا، بل قطع حينًا من الزَّمن مناسبًا لحالتهم وما كان فيها؛ أيْ إنَّه كانت منهم أحداثٌ، فلمّا انتهت ودخلوا عليه قالوا ما قالوا، فهو تعبيرٌ عمّا طويَ ذِكْره ومناسبتُه مع الفاءِ بديعٌ، إذ جمع المَطْويَّ في (لمّا)، والإيماء إلى السُّرعةِ في الفاءِ.

براعةُ استعمالِ مفردة ﴿دَخَلُواْ﴾ صيغةً ومعنًى:

يدلُّ الدَّخولُ على التَّسهيلِ واليُسرِ بخلافِ الإدخالِ

جاء التَّعبير بلفظِ ﴿دَخَلُواْ﴾ إيجازًا لِما مرَّ ذِكْرُه من تقديرِ المحذوفِ، ولِما أنَّهم عندما جاؤوا إلى أرضِ مصر، طلبوا رؤيةَ العزيز بعد استئذانٍ، وضُرب لهم موعدٌ، وانتظروا، ثم بعد ذلك ﴿دَخَلُواْ﴾، لكنَّ النَّظْم أبرز أوضحَ ما في الأمرِ وهو الدُّخولُ على يوسف عليه السلام، لبيانِ سرعةِ الدُّخول وكرامته، ولذلك لم يَقُلْ: (فأُدخلوا)، فكأنَّهم دخلوا بإرادتهم دون تعقيداتٍ وترتيباتٍ، وهذا يدلُّ على تسهيلِ حالِ الدّاخلين على العزيزِ وقتئذٍ، ولمّا كان الأمر في هذه المرَّة جِدَّ خطيرٍ نظرًا لما صار إليه حال أبيهم وحالهم رِقَّةً لحال الأب المكلوم، أذِن لهم نبيُّ الله يوسف عليه السلام بالدُّخول عليه مباشرةً عطفًا على حالهم، ورحمةً بما وصلوا إليه.

برُّ الوالدَيْنِ طريقُ حياةٍ وطوقُ نجاةٍ

في التَّصريح بالدُّخول بيانُ أنَّ القرآن الكريم ليس كتاب تسليةٍ ونحوه، وإنَّما يأتي على العِبْرة المنشودة والدُّرَّة المفقودة من القصص المُساق فيه، ولذا تراه يطوي ما لا طائل في معرفته والوقوف عليه، وألمح من خلال التَّصريح المباشر بالدُّخول دون ذِكْر الرِّحلة وما قاسوه فيها أنَّ كلَّ أمر ذي عناء يهون ويصغر إذا كان في رضا الوالدَيْن برًّا بهما وصيانةً لحقِّهما.

دلالةُ استعمالِ حرفِ الاستعلاءِ:

استُعمل حرفُ (على) في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيْهِ﴾ الدّالّ

على الظَّرفيَّة؛ وذلك لوجودهم واستقرارهم عنده عليه السلام، دون (إلى)؛ لأنَّه ليس المُراد الغاية لأنَّها معلومة، والحديث الَّذي دار بينهم وبين أخيهم يوسف دلَّ على وجودهم عنده في القصر الكائن فيه، والحوار جِدٌّ طويلٍ يحتاج إلى استقرارٍ وكينونةٍ ليُدلي كلٌّ من الطَّرفيْن بما لديه، ومن هنا وردت (على) دون (إلى)، إذِ الغاية الَّتي يبتغيها هؤلاء معلومةٌ، ولو كانت واردةً للاستعلاء فهو استعلاءٌ مجازيٌّ؛ لأنَّ الحقيقيَّ هنا لا يصلح؛ لكونهم في حاجةٍ وعَوَزٍ واضطرابِ حالٍ، ويدلُّ حرفُ الاستعلاءِ على تمكُّنِهم من لقائه لتلبيةِ طلبِهم، كما أنَّ هناك دلالةً أخرى، وهي أنَّهم دخلوا بقوَّةٍ طالبين مُبتغاهم، لا يحيدون عنه حتى يُلبَّى، وهذه القوَّة قد اكتسبوها من أبيهم، وكانوا في تمامِ التَّوكُّلِ على الله تعالى.

تمامُ التَّوكُّلِ يُعطي صاحبَه قوَّةً واستعلاءً

نكتة إضمار المدخول عليه دون التَّصريح باسمه:

الضّمير في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيۡهِ﴾ عائدٌ على يوسف عليه السلام، وإضمارُ ذِكْرِ الاسم والتَّعبير بالضَّمير لكونه مفهومًا من المقام، فطوي ذِكْرُه صراحةً إيجازًا للعِلْم به، ولكونه لا يتحقَّق غرضٌ زائدٌ لدى السّامع من ذِكْرِه، وللإيذانِ بمسارعتهم إلى ما أُمروا بهِ، وللإشعارِ بأنَّ ذلك أمرٌ مُحقَّقٌ لا يفتقر إلى الذِّكر والبيان[1].

المسارعةُ إلى المطلوب تُعينُ على تحقيقِ المرغوب

تصويرُ المشهد بجوابِ (لمّا):

يُصوِّر القرآنُ مشاهدَ غيبِ الماضي من قصص السّابقين بنظم بيانيٍّ معجز، فجوابُ لمّا في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيۡهِ قَالُواْ﴾ صوَّر حالةَ الدُّخولِ فالقولِ؛ أيْ: بمجرَّد أن دخلوا قالوا، ويُعزِّز هذا أنَّهم دخلوُا قائلين منادين بأداة البعيدِ، فصوتُهم وجلبتُهم ونداؤهم هو سيِّدُ الموقفِ، ويُقوّي هذا المعنى استعمال حرفِ الاستعلاءِ؛ أيْ:

مسكنةٌ وتضرُّعٌ ليتحقَّق المقصودُ ويُنفَّذَ المطلوبُ

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 13/303.

دخلوا عليه منادين بصوتٍ عالٍ فيه من الاسترحامِ وطلبِ الإعانةِ ما يُرقِّقُ الحالَ.

نكتةُ الإطنابِ بذِكْرِ القولِ:

تقديم الوسائل أمام المآرب أنجح في تحقُّقِها

التَّعبير بالقول في قولِه تعالى: ﴿فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيۡهِ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ﴾ دون أن يُقال: (فلمّا دخلوا عليه نادوا) مع وجازتِه دليلٌ على أدبِهم، وأنَّ نداءهم لا يتعارض مع أدبِهم، وذلك بتقديم الوسائل أمام المآرب فإنَّها أنجح لها، فقدَّموا له ما ذكروا من رِقَّة حالهم ومَسكَنَتِهم، والعِوَض القليل الَّذي جاؤوا به؛ لينالوا رأفته ورحمته، ولا يُنادى إلّا صاحب القوَّة ومَنْ يمتلك القدرة والجاه، ولمّا كان يوسف عليه السلام بالمنزلة والمقام الَّذي رأوه عليه فقد هابوه ووقَّروه وهم أصحاب حاجة وعَوَز، والمحتاج دائمًا ما يُبدي كلَّ وسائله لينال ممَّن قصد بُغيته ولا يرجع خاليَ الوِفاض.

غرضُ النِّداء:

تعظيمُ العزيزِ وتبجيلُه من عُرفِ النّاس عند الطَّلبِ

خاطبَ إخوةُ يوسف عليه السلام عند دخولِهم عليه بالنِّداءِ في قوله تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ﴾ "تعظيمًا له على حدِّ خطابهم السّابق به ﴿قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبٗا شَيۡخٗا كَبِيرٗا﴾ [يوسف: 78] على ما هو الظّاهر، وهل كانوا يعرفون اسمه أم لا؟ فإن كانوا يعرفونه ازداد أمرُ جهالتهم غرابةً، والمُراد: يا أيُّها الملك القادر المنيع"[1]، وهذا التَّعظيم والتَّشريفُ عرفٌ سائدٌ بين النّاس عند الطَّلب، فكيف إذا كان الطَّلبُ من العزيزِ؟

فائدة التَّعبير بلفظ ﴿ٱلۡعَزِيزُ﴾:

من أدبِ خطابِ أهلِ الولاية إيثارُ أشرفِ الألقابِ

العزيزُ هو السَّيِّدُ المُبجَّل، أو المَلك القادر المنيع الجانب، وعندما نادَوْه ذكروا هذا اللَّقبَ له في قوله تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ﴾،

(1) الألوسي الآلوسيّ، روح المعاني: 13/46، 45.

استعطافًا واسترحامًا ليرقَّ لحالهم ويمنحهم الميرَة، ويَمُنَّ عليهم بإرجاع أخيهم لهم، و﴿ٱلۡعَزِيزُ﴾ من العِزَّة وهي حالة مانعة للإنسان من أن يُغْلَب، وكذلك كان يوسف عليه السلام مع عُلوِّ قَدْرِه ورِفعة شأنه عند المَلك وأهل مصر جميعًا.

غرضُ الإخبارِ بالاحتياجِ والعَوَز:

توطئةٌ تحريضيَّةٌ لطلب إيفاء الكَيْل

لمّا تلطَّفوا بتعظيمه ترقَّقوا له بقولهم: ﴿مَسَّنَا وَأَهۡلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئۡنَا بِبِضَٰعَةٖ مُّزۡجَىٰةٖ﴾ وهذا مدخل المحتاج دومًا لطلب الحاجة، وهو توطئة تحريضيَّة لطلب إيفاء الكيل؛ فلمّا أحسَّ إخوة يوسف منه حسن المعاملة وإيفاءه لهم في المرّات السّابقة، ومنحهم من الحِنْطة ما أرادوا واختباره لهم بِرَدِّ متاعهم إليهم فخاطبوه مخاطبة المسكين المحتاج ليلقوا في قلبه الرَّأفة والرَّحمة، وبلغوا منه ما أرادوا كرمًا كما قال الإمام عبد القاهر الجُرجانيّ: "ما زال يفتِلُ في الذُّروة والغارب حتى بلغ منه ما أراد"[1].

وللفخرِ الرّازيّ سؤالٌ في هذا المقام يُجيب عليه على هذا النحو: "إذا كانَ يَعْقوبُ أمَرَهُم أنْ يَتَحَسَّسوا أمْرَ يوسُفَ وأخيهِ فَلِماذا عَدَلوا إلَى الشَّكْوَى وطَلَبوا إيفاءَ الكَيْلِ؟ قُلْنا: لِأنَّ المُتَحَسِّسينَ يَتَوَسَّلونَ إلَى مَطْلوبِهِم بِجَميعِ الطُّرُقِ، والِاعْتِرافُ بِالعَجْزِ وضيقُ اليَدِ ورِقَّةُ الحالِ وقِلَّةُ المالِ وشِدَّةُ الحاجَةِ مِمّا يُرَقِّقُ القَلْبَ، فَقالوا: نُجَرِّبُهُ في ذِكْرِ هَذِهِ الأُمورِ، فَإنْ رَقَّ قَلْبُهُ لَنا ذَكَرْنا لَهُ المَقْصودَ، وإلّا سَكَتْنا. فَلِهَذا السَّبَبِ قَدَّموا ذِكْرَ هَذِهِ الواقعة"[2].

نكتةُ تقديم الفعل على الفاعل:

التَّلويحُ بطلبِ قضاءِ الحوائجِ أبلغُ من التَّصريح

جاء التَّعبيرُ في قوله تعالى: ﴿مَسَّنَا وَأَهۡلَنَا ٱلضُّرُّ﴾ بتقديم ذِكْر الفعل على الفاعلِ، ودون التَّعبير بالاسميَّة؛ وذلك لأنَّ الاسميَّة دالَّة على

(1) الجرجانيّ، دلائل الإعجاز، ص: 115.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 9/205.

الثّبوت والاستمرار؛ بمعنى أنَّ الضُّر لن يُفارقهم أبدًا، أمّا في تقديم الفعل، فقد حصل الضَّرر فعلًا، وهم قد أرادوا أنَّ الفقرَ والحاجة وكثرة العيال وقلَّة الزّاد قد لحقهم، ولم يجدوا له خلاصًا إلّا عنده ﷻ، إلّا أنَّ فيه تلويحًا وإشارةً وطمعًا في أن يكون إذهابُ الضُّرِّ على يده ﷺ، فتقديم الفعل والتَّعبير بالجملة الفعلية يدلُّ على استبشارهم بزوال هذا الضُّر على يديْ يوسف ﷺ، وهذا في غايةِ الحسنِ.

نكتةُ التَّعبيرِ بالمسِّ دون الإصابةِ:

يحسُنُ في سياقِ الاستعطاف الإتيانُ بألطفِ اللَّفظيْن

عبَّر النَّظم بالمسِّ دون الإصابةِ في قوله تعالى: ﴿مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ﴾، والمسُّ يُقال في كلِّ ما ينال الإنسانَ من أذى[1]، وأمّا الإصابةُ؛ فهي الفاجعةُ[2]، وفي سياقِ الاستعطافِ والاسترحام يُستعمل المسُّ لا الإصابة كما في خطابِ إبراهيم ﷺ لأبيه: ﴿يَـٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَـٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيۡطَـٰنِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾﴾ [مريم: 45]، وخطابُ إخوةِ يوسف جاء استعطافًا واسترحامًا أن يمدَّهم بالحِنْطة لسدِّ جوع الأهل والعشيرة، لئلّا يصيبَهم الجوعُ وتجتاحَهم الفاقةُ، فعبَّروا بالمسِّ وهو أخفُّ وطأةً من الإصابة بالقحطِ في أرضِ الكنعانيّين، فورد الاستعطاف بأخفِّ الألفاظ لِما رأوا من واسعِ كرمه وحُسن وِفادَته، وسُموِّ نفسه وحُنوِّه عليهم.

دلالةُ ذِكْر الأهل وهو معلومٌ من الحال:

اشتدادُ الحالِ يدعو للاسترحامِ بالأهلِ والاستعطافِ بالأرحامِ

ذُكِر الأهلُ في قوله تعالى: ﴿مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ﴾ دون الاكتفاءِ بذِكْرِ أنفسِهم، والمُراد بالأهلِ: الزوجات والأولاد؛ إذ هم المسؤولون عنهم والمُكلَّفون برعايتهم؛ لمزيدِ الاستعطاف والتَّحنُّن وترقيق النَّفس؛ لتشمل الرَّحمةُ والعطايا هؤلاءِ الجوْعى، وهو يدلُّ على أنَّهم إذا اشتدَّ الحال بهم استعطفوا واسترحموا ولم يصبروا على لأواءِ

(1) الرّاغب، المُفردات: (مسس).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (صوب).

المُصاب، والتَّعبير من قبيل الكناية عن موصوف، وكثيرًا ما يُكنّي الرَّجل عن زوجه وأولاده بلفظ الأهل، وهو وصف الأهليَّة لكونه راعيهم ومتولّي أمرِهم، ومِن هنا يَعافُ الرَّجل التَّصريح باسم الزوجة والأولاد في مثل هذا المعرض، ويرون أنَّ من لوازم السَّتر والصّيانة عدمُ التَّعرُّض لذِكرهنَّ في أيِّ حديثٍ، لا سيَّما إذا كان الحديث للاستعطاف والتَّحنُّن، قال النّابغة الجعديّ:

أُكَنّي بغيرِ اسْمِها وقد عَلِم *** اللّه خفيّاتِ كلِّ مُكتَتَمِ

دلالةُ العطفِ بين الجُملِ:

الأخبارُ المتُغايِرةُ تـأتي لـتـوكـيـدِ المعاني وتقويةِ الدّلالات

قال إخوة يوسف: ﴿وَجِئۡنَا بِبِضَٰعَةٖ مُّزۡجَىٰةٖ﴾ بعد أن بيَّنوا أنَّ الضُّرَّ والفقر والحاجة والعَوَزَ وقع بهم وأصابَهم، فعطفوا هذه الجملةَ على قولِهم: ﴿مَسَّنَا وَأَهۡلَنَا ٱلضُّرُّ﴾ مِن قبيل ذِكْرِ خبرٍ آخر يُؤكِّد السّابقَ استدرارًا لعطْفِه وتحريكًا لمروءته وسخائِه، قبل أن يخبروه بمطْلَبهم الّذي جاؤوا من أجله.

هذا وقد اتَّفقتِ الجملتان السّابقة واللّاحقة في الخبريَّة لفظًا ومعنًى، إلى جانبِ اتفاقهما في الغرض العامِّ، وهو إظهارُ الفقر والحاجة للاستعطاف والتَّحنُّن، ومن هنا وُصِل بينهما؛ فَعِلَّةُ الوصلِ التَّوسُّطُ بين الكمالَيْن.

نكتةُ اختيارِ لفظِ المجيءِ دون الإتيانِ:

كثرةُ الصُّعوباتِ تزيدُ مِن مشاقِّ الطَّلب

جاء إخوة يوسف عليه السلام من بلادٍ بعيدةٍ، وقد قطعوا مسافاتٍ طويلةً، ووجدوا صعوباتٍ كثيرةً، وتحمَّلوا المشاقَّ وشدَّةَ الحاجة، فناسب ذلك التَّعبير بالمجيء في قوله تعالى: ﴿وَجِئۡنَا بِبِضَٰعَةٖ مُّزۡجَىٰةٖ﴾ الَّذي يَرِدُ في مثل هذه المعاني دون الإتيان الَّذي يرد في الأمور الموسومة بالسُّهولة غالبًا.

معنى الباءِ:

الباء في قوله تعالى: ﴿وَجِئۡنَا بِبِضَٰعَةٖ مُّزۡجَىٰةٖ﴾ إمّا للمصاحَبة؛ أيْ:

التَّعويضُ بالقليلِ خيرٌ من التَّسوّلِ

مصاحبين معنا بضاعةً نمتري بها الحِنْطَة منكم، أو: للاستعانة؛ أيْ: مستعينين بهذه البضاعة وإن كانت قليلةً لنتزوَّد بها. ويرى بعض النُّحاة أنَّها "باء المقابلة؛ وهي الدّاخلة على الأعواض"[1]. والعِوَض هنا: البضاعة المقابلة للحِنْطة؛ فصارت ثمنًا وعِوضًا عنها، وهذا باعتبارِ ما سيكون.

نكتة وصف البضاعة بلفظِ ﴿مُّزۡجَىٰةٖ﴾:

جمعتِ المفردةُ بين الوصفِ والتَّعليلِ

وُصِفتِ البضاعةُ بقولِه تعالى: ﴿مُّزۡجَىٰةٖ﴾؛ أيْ: رديئةٌ أو قليلة، أو مدفوعة يدفعها كلُّ أحدٍ؛ إمّا لرداءتها أو لقلَّتها، والقليل يقتضي نقصانَ العددِ، يُقال: قوم قليلٌ وقليلون، وهي نقيضُ الكثرة، واليسيرُ من الأشياء ما يتيسّر تحصيلُه أو طلبُه، ولا يقتضي ما يقتضيه القليل من نقصان العدد[2]، فاستعمالُ مفردة ﴿مُّزۡجَىٰةٖ﴾ لاجتماعِ معاني القلَّةِ واليُسر والنُّقصان، فهذه أوصافُ البضاعةِ، وتعليلُها عدمُ الرَّغبةِ فيها بسببِ اتّصافِها بما ذُكِر، إذِ الإزجاءُ هو الدَّفع، ولا يكون إلّا بسببِ عدمِ الرَّغبةِ في المدفوع.

معنى الفاء ودلالتها:

شدَّة الحاجة تقتضي سرعة التّحرُّك

الفاء في قوله تعالى: ﴿فَأَوۡفِ لَنَا ٱلۡكَيۡلَ وَتَصَدَّقۡ عَلَيۡنَآۖ﴾ تفريعيَّةٌ، عطفت طلبَ توفيةِ الكيل على ما ذُكِر سابقًا، فصار ما ذكروه سابقًا في قولهم: ﴿مَسَّنَا وَأَهۡلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئۡنَا بِبِضَٰعَةٖ مُّزۡجَىٰةٖ﴾ تمهيدًا وتوطئةً لطلبهم هذا، وذلك حين أظهروا الذِّلَّة والانكسار استرحامًا واستعطافًا لحالهم.

غرضُ الأمرِ:

جودُ المسؤولِ يُعينُ السّائلَ على الطَّلبِ

المُراد بالأمر في قوله تعالى: ﴿فَأَوۡفِ لَنَا ٱلۡكَيۡلَ﴾ التماسُ أن يُتمَّ لهم الكيلَ ولا يُنقِصَه لرداءة بضاعتهم، فقد التمسوا منه وتمنَّوا

(1) ابن هشام، مُغني اللّبيب: 1/97.
(2) العسكريّ، الفروق اللُّغويَّة، ص: 267، 266.

ألّا يُنقص لهم ما يمتارونه نظرًا لحاجتهم الشَّديدة وما ألمَّ بهم من القحط، وهم قد اعترفوا له بكون بضاعتهم تافهةً لا يُرغب فيها، ولكن لمّا رأوا كرمه ورحمته طلبوا ذلك التماسًا وتمنّيًا بإتمام هذا الكيل.

نكتةُ تقديمِ الجارِّ والمجرورِ على المفعولِ:

إلحاحُ المحتاجِ بُرهانُ الاحتياجِ وأمارةُ الانبلاج

قُدِّم الجارُّ والمجرور ﴿لَنَا﴾ في قوله تعالى: ﴿فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ﴾ على المفعول: ﴿ٱلْكَيْلَ﴾ للتّخصيص؛ إذ هم المخصوصون بتوفية الكيل لا غيرهم، والمُراد: خُصّنا بتوفية الكيل أيُّها العزيز لشدَّة حاجتنا إليه، فالتّقديم قَصَرَ التَّوفية عليهم، ونفاها عن غيرهم، ومُراد التّقديم هنا: حصول الفعل بلا شكٍّ مع تعلُّقه بالجارّ والمجرور وعدم تعلُّقه بغيره؛ إذ هم قطب الرَّحا وعليهم دوران التَّوفية وحصولها، وهو ما يدلُّ على شدَّةِ إلحاحهم وقوَّة استعطافِهم وكبيرِ إصرارِهم.

بلاغةُ التَّوطئةِ والتَّعريض:

الطَّلبُ من المحسنين يشملُ التَّصريحَ والتَّلويح

عُطِف قولُه تعالى: ﴿وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ﴾ على الجملة السّابقة لاتِّفاقهما في الإنشائيّة لفظًا ومعنًى، إلى جانب اتِّفاقهما في الغرض العامِّ، وهو: طلبُ الوفاء في الكَيْلِ والتَّصدُّق عليهم، وشأنُ المُتصدِّق المسامحةُ والصَّفح؛ فهي بمثابةِ التَّوطئة، كما أنَّ فيها "تَعْريضًا بإطْلاقِ أخيهم لأنَّ ذَلِكَ فَضْلٌ مِنْهُ؛ إذْ صارَ مَمْلوكًا لَهُ"[1].

فنُّ اللَّف والنَّشر غير المُرتَّب:

لا تمنعك شدَّةُ الحاجة من الجِدِّ في السّير

في قوله تعالى: ﴿مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ﴾ ما يُعرف في البلاغة باسم اللَّفِّ والنَّشر[2]، وترتيب الجُمل على التَّرتيب يكون في هذه الصّورة: (مَسَّنا وأهْلَنا

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتّنوير: 13/42.

(2) هو ذِكْرُ مُتعدّدٍ على جهة التّفصيل أو الإجمال، ثم ما لكلِّ واحدٍ من غير تعيين ثقةً بأنَّ السّامع يردُّه إليه، وهو إمّا على ترتيب اللَّفِّ، وإمّا على غير ترتيبه، وهو ما يُسمَّى بالمُشوَّش. ينظر: القزوينيّ، الإيضاح: 6/42، وما بعدها.

الضُّرُّ، وجِئْنا بِبِضاعَةٍ مُزْجاةٍ، فتَصَدَّقْ عَلَيْنا، وأَوْفِ لَنا الكَيْلَ)، فإنَّ مسَّ الضُّر سببُ الصَّدقة، والبضاعة المُزجاة سببُ إيفاء الكيل لهم، لكن جاء ذِكْر الجمل على غير ترتيب اللَّف، وإنَّما بدؤوا بذِكْر الضُّرِّ استرحامًا، ثم البضاعة إثباتًا لجدِّهم في السَّعي، ثمَّ بدؤوا بإيفاء الكيل طلبًا للعدل، ثم الصَّدقة طلبًا للفضل، ومن هنا أحسنوا عرض ما أرادوا وما طلبوه.

دلالة استعمال حرف الاستعلاء:

تنزيلُ الأمورِ منازِلَها داعيةٌ أملٍ وبارقةُ نورٍ

لمّا كان يوسف عليه السلام السببَ المباشر بعد الله تعالى في العطاء والمنِّ والإكرام، فهو العزيز المُفوَّض في أمور الدَّولة، وهي مكانةٌ لا تُنكر، وقد رأوا ذلك عيانًا فخاطبوه بما يناسب هذه المكانة بتنزيله أعلى المنازل؛ لكونه صاحبَ اليد العليا في العطاء والمنع، فنزَّلوا أنفسهم منزلة الفقير الطّالب للحاجَة التماسًا منهم واسترحامًا، وعبَّروا بالجارِّ والمجرور في قوله تعالى: ﴿وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ﴾ الّذي أفادَ جعله في منزلةٍ عاليةٍ وهم في منزلةِ مَنْ يُتصدَّق عليه، وهذا من دواعي استدرارِ العطاءِ واستنزالِ الكرم.

بلاغةُ إطلاقِ الفعلِ بحذفِ مُتعلِّقه:

أدبُ الخطابِ يقتضي لطفَ العبارةِ وإجمالَ الطَّلبِ

المُراد بالتَّصدُّقِ في قوله تعالى: ﴿وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ﴾؛ أيْ: تصدَّق علينا فوق حقِّنا بما أنت أهلٌ له من كرمٍ ورحمةٍ، ولم يَقُلْ: (وتصدّق علينا مِن خيرك، أو ممّا أعطاك الله، ونحو ذلك)؛ لإطلاق الطّلب اعتمادًا على كَرَمه وتأدُّبًا في الخطاب، والتَّصدُّق هو التَّفضُّل مطلقًا سواء أكان من قبيل إنفاق المال للمحتاجين أم لم يكن، فيتناول إطلاق المحبوس والمسامحة في قبول القليل؛ أيْ: زيادة على الوفاء كما عوَّدتنا بفضلٍ نرجو ثوابه، وجاء الحذف هنا للتَّعميم إمّا من الخير الَّذي لديْه، أو من عطايا الله تعالى، وحُذف المفعول المتعلِّق بالفعل ليوكلوه إلى كرمه وفضله، أو أدبًا منهم ألّا يشترطوا

عليه عطاءً بعينه، ففي تحديد العطاء يكون التَّقتير وعدم التَّنفيذ، فقد يرى المُعطي في ذلك إملاءً من الطّالب يُفسد عليه ما يتمنّاه، ومعلوم أنَّهم يُخاطبون ملكًا وليس إنسانًا من العامَّة، فالكلام معه مختار موزون.

علَّة فصلِ الجملةِ:

محاسنُ الصَّدقاتِ مجزيَّةٌ بصلاحِ النيّات

جاء قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَجۡزِي ٱلۡمُتَصَدِّقِينَ﴾ توكيدًا لقوله: ﴿وَتَصَدَّقۡ عَلَيۡنَآۖ﴾، أو تعليلًا لطلبهم التَّصدُّق منه؛ ففُصلت إمّا لكمال الاتِّصال لكونها مؤكِّدة لسابقتها، أو أنَّ سؤالًا وقع في نفسه: لمَ أتصدَّق عليكم؟ فجاء الجواب: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَجۡزِي ٱلۡمُتَصَدِّقِينَ﴾، ففُصلت لشبه كمال الاتِّصال، والأوَّل أوْلَى في كونها كمال اتِّصال للتَّوكيد.

فائدةُ العدولِ عن الخطابِ إلى الغيبةِ:

دقَّةُ الخطابِ تقتضي الاحتراسَ عن الإغرابِ عن الصَّواب

عدل الخطابُ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَجۡزِي ٱلۡمُتَصَدِّقِينَ﴾ عن الخطابِ إلى الغيبةِ؛ إذ بعد قولِه تعالى: ﴿وَتَصَدَّقۡ عَلَيۡنَآۖ﴾ يُناسبُه أن يُقال: (إنَّ الله يجزيك بصدقتك)، لكنَّ النَّظم عدل إلى الغيبةِ، وقد عدَّه النَّقّاش من بابِ المعاريض، "وذلك أنَّهم كانوا يعتقدون أنَّه كافر؛ لأنَّهم لم يعرفوه، فظنّوا أنَّه على دينِ أهلِ مصر، فلو قالوا: إنَّ الله يجزيك بصدقتك كذبوا، فقالوا لفظًا يوهم أنّهم أرادوه وهم لم يُريدوه"[1]، كما أنَّ في العدولِ فائدةً أخرى؛ وهي أن تجري هذه الجملة مجرى الأمثال.

غرض التَّوكيد:

المُحسن يُجزى أحسنَ الجزاء من الله تعالى

فائدةُ التَّوكيد في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَجۡزِي ٱلۡمُتَصَدِّقِينَ﴾ بيانُ اعتقادهم في المتصدِّقِ، وأنَّه في دينهم على درجةٍ عاليةٍ من الخيرِ إن اقترن بإيمانٍ، فإن اعتقدوا أنَّه ليس بمسلمٍ فهي دعوةٌ ضمنيَّة

(1) ابن جُزيّ، التّسهيل لعلوم التنزيل: 1/395.

للإيمانِ؛ لأنَّ شرطَ قبولِ الصَّدقةِ هو الإيمان، فأمرهم له بالصّدقةِ هو أمرٌ ضِمنيٌّ بالإيمانِ، ولذلك جاء توكيدُ الكلام على اعتبارِ أنَّ المخاطَبَ قد يُكون منكرًا لمضمون الكلام.

غرض تقديم المُسند إليه ومجيء المُسند فعلًا:

يعظُم الرَّجاء والطَّمع إذا كان ربُّك هو المُعَوِّض

الغرض من تقديم المُسندِ إليه في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَجۡزِي ٱلۡمُتَصَدِّقِينَ﴾ التَّخصيص، والمُراد أنَّ المُسند إليه ﴿ٱللَّهَ﴾ هو الَّذي يقع منه جزاءُ المتصدِّقين لا غيره، وهذا ترشيحٌ في دعوتِهم العزيزَ للإيمان، أو أنَّ التقديم أفاد تقويةَ الحُكم وإثباته له سبحانه وحده، وفي هذا حثٌّ على التَّصدُّق والبذل لا سيَّما إذا علم المُتصدِّق أن جزاءه يكون عند الله تعالى الَّذي يملك كلَّ شيء، وبيده خزائنُ كلِّ شيء، فإنَّه يعظُم رجاؤه وطمعه في مزيد كرم الله تعالى.

دلالةُ استعمالِ المضارعِ ﴿يَجۡزِي﴾:

عطاء ربِّك لا يخلَق ولا يَبلى

التَّعبير بالفعل المضارع في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَجۡزِي ٱلۡمُتَصَدِّقِينَ﴾ دالٌّ على تجدُّدِ هذه المجازاة واستمرارها منه ﷻ مع استحضار صورة جزاء الله تعالى للمُتصدِّقين، وبيان أنَّه جزاءٌ لا يخلَق ولا يَبلى؛ وإنَّما هو متجدِّدٌ أبد الآباد، والفعل المضارع مناسبٌ لاسم الفاعل الدّالِّ على ديمومةِ الصَّدقةِ، فبدوامِها يدومُ الأجرُ والثَّوابُ.

نكتة حذف مفعول ﴿يَجۡزِي﴾ الثّاني:

عطاء الله تعالى يُدهش عقولَ النّائلين

حُذِفَ المفعول الثّاني في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَجۡزِي ٱلۡمُتَصَدِّقِينَ﴾، وتقديره: أحسن الجزاء، وحُذف لكونه معلومًا بدلالة الحال، وكذلك أفاد مغزى قوله: ﴿يَجۡزِي ٱلۡمُتَصَدِّقِينَ﴾ هذا المعنى ودلَّ عليه، وقد يكون الحذف من قبيل التَّعظيم لشأن هذا المفعول في كونه أحسنَ الجزاء.

بديعُ الجِناسِ:

بين الفعل ﴿وَتَصَدَّقۡ﴾ والاسم ﴿ٱلۡمُتَصَدِّقِينَ﴾ جناس الاشتقاق، إذ إنَّ أصل الكلمتيْن من الفعلِ (صدق)، وهذا الفنُّ قائمٌ على نظامِ

أساس المشتقّات من أصل الكلمتيْن الواحد، والبلاغة والفصاحة فيه من جهة التَّناغم الصَّوتيّ بالتَّكرار، وسرُّه البلاغيّ: لفتُ نظر المخاطَبين، وتنبيه حواسِّهم ومشاعرهم إلى مضمون الكلام؛ وهو المعنى المُراد، وهو يُسهم بقدرٍ كبيرٍ في التَّلاحم المعنويِّ بسبب تعدُّد الإسناد، إذ كلُّ اشتقاقٍ له مُسندٌ إليه غير الآخر، وكلَّما كثر الإسناد تأكَّد الكلام، وتلاحمت أجزاؤه.

من رحم الصَّدقةِ يأتي الفَرَج وتتحقَّق النِّعمةُ

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيّةُ:

المسُّ واللَّمس:

(مَسَّ) الميمُ والسّينُ أصْلٌ صَحيحٌ واحِدٌ يَدُلُّ على جَسِّ الشَّيْءِ بِالْيَدِ. ومَسِسْتُهُ أَمَسُّهُ. ورُبَّما قالوا: مَسَسْتُ أَمُسُّ. والمَمْسوسُ: الَّذي بِهِ مَسٌّ، كَأَنَّ الجِنَّ مَسَّتْهُ. والمَسوسُ من الماءِ: ما نالَتْهُ الأَيْدي"[1].

يعمُّ المسُّ المعنويّات والمحسوسات، ويخصُّ اللَّمسُ المحسوسات

وقد ذكر صاحب الفروق اللُّغويَّة: "أن اللَّمسَ يكون باليد خاصَّةً ليُعرف اللّين من الخشونة، والحرارة من البرودة، والمسَّ يكون باليد وبالحجر وغير ذلك، ولا يقتضي أن يكون باليد، ولهذا قال تعالى: ﴿مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ﴾ [البقرة: 214]، وقال: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ﴾ [الأنعام: 17، ويونس: 107]، ولم يَقُلْ: يلمسك"[2]. واللَّمْسُ: إدراكٌ بظاهر البَشرة كالمسّ، ويُعبّر به عن الطّلب، قال تعالى: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ۝٨﴾ [الجنّ: 8]، ويُكنّى به وبالمُلامَسة عن الجِماع[3].

وقال الرّاغب: "المَسُّ كاللّمس، لكنّ اللّمس قد يُقال لطلب الشّيْء وإن لم يوجَد، والمَسُّ يُقال فيما يكون معه إدراكٌ بحاسّة اللّمس، وكُنّي به عن النّكاح فقيل: مسّها وماسّها. والمَسيسُ كنايةٌ عن النّكاح، وكُنّي بالمَسّ عن الجنون، والمسُّ يُقال في كلّ ما ينال الإنسان من أذًى"[4].

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (مسَّ).
(2) العسكريّ، الفروق اللُّغويَّة، ص: 323.
(3) الرّاغب، المُفردات: (لمس).
(4) الرّاغب، المُفردات: (مسس).

الضُّرُّ والسّوء:

اختُصَّ السّوءُ بالشّرِّ بخلافِ الضُّرِّ فقد يكون في الخيرِ والشَّرِّ

الضُّر يكون من حيث لا يُعلم المقصود به، والسّوء لا يكون إلا من حيث يُعلم، ومعلوم أنَّه يُقال: ضررتُ فلانًا من حيث لا يعلم، ولا يُقال: سُؤْتُه. إلّا إذا جاهرتَه بالمكروه، والفرق بين الإساءة والمَضرَّة: أنَّ الإساءة قبيحة، وقد تكون مَضرّةً حسنةً إذا قصد بها وجهًا يحسُن. نحو: المضرّة بالضّرب للتّأديب، وبالكدّ للتّعلُّم والتّعليم[1].

وقال الرّاغب: "الضُّر سوءُ الحال، إمّا في نفسه لقلّة العلم والفضل والعفّة، وإمّا في بدنه لعدم جارحةٍ ونقصٍ، وإمّا في حالة ظاهرة من قلّة مالٍ وجاهٍ، يُقال: ضَرَّهُ ضُرًّا: جلب إليه ضُرًّا، ويُقابل الضُّرُّ بالنَّفع"[2].

وقال: "السّوءُ: كلُّ ما يغمُّ الإنسانَ من الأمور الدّنيويّة، والأخرويّة، ومن الأحوال النّفسيّة، والبدنيّة، والخارجة، من فوات مالٍ، وجاهٍ، وفقد حميم، وعبّر عن كلّ ما يقبح بِالسَّوْأى، ولذلك قوبل بالحُسنى. والسَّيِّئَةُ: الفَعلة القبيحة، وهي ضدّ الحسنة"[3].

فالفرقُ بين الضُّرِّ والسّوء أن الضُّرَّ يكون لما عاقبته خيرٌ أو شرٌ، أمّا السّوء فلا يكون إلّا للشَّرِّ.

الإيفاءُ والتّتميم:

الإيفاءُ تمامٌ دون أدنى نقصانٍ، والتّتميم اكتمالٌ باعتبارِ البداية والنِّهاية

(وَفَى): الواوُ والفاءُ والحَرْفُ المُعْتَلُّ: كَلِمَةٌ تَدُلُّ على إكْمالٍ وإتْمام. مِنْهُ الوَفاءُ: إتْمامُ العَهْدِ وإكْمالُ الشَّرْطِ. ووَفَى: أَوْفَى، فَهوَ وفيٌّ. ويَقولونَ: أَوْفَيْتُكَ الشَّيْءَ، إذا قَضَيْتَهُ إيّاهُ وافيًا. وتَوَفَّيْتُ الشَّيْءَ واسْتَوْفَيْتُهُ، - إذا أَخَذْتَهُ كُلَّهُ - حَتَّى لَم تَتْرُكْ مِنْهُ شَيْئًا. ومِنْهُ يُقالُ لِلْمَيِّتِ: تَوَفّاهُ اللّه"[4].

(1) العسكريّ، الفروق اللُّغويَّة، ص: 210.
(2) الرّاغب، المُفردات: (ضر).
(3) الرّاغب، المُفردات: (سوأ).
(4) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (وفي).

قال الرّاغب: "الوافي: الّذي بلغ التّمام. يُقال: درهمٌ وافٍ، وكيلٌ وافٍ، وأوْفَيْتُ الكيلَ والوزنَ، يُقال: وفَى بعهده يَفي وفاءً، وأوْفَى: إذا تمّم العهد ولم ينقض حفظه، واشتقاق ضدّه وهو الغدر يدلّ على ذلك وهو التّرك، والقرآن جاء بِأوْفَى، وتَوْفيَةُ الشّيْءِ: بذله وافيًا، واسْتيفاؤُهُ: تناوُله وافيًا"[1].

وقال الرّاغب في معنى التَّمام: "تَمام الشّيْء: انتهاؤه إلى حدٍّ لا يحتاج إلى شيء خارج عنه، والنّاقص: ما يحتاج إلى شيءٍ خارجٍ عنه. ويُقال ذلك للمعدود والممسوح، تقول: عددٌ تامٌّ وليلٌ تامٌّ"[2].

(1) الرّاغب، المُفردات: (وفي).
(2) الرّاغب، المُفردات: (تمَّ).

﴿قَالَ هَلۡ عَلِمۡتُم مَّا فَعَلۡتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذۡ أَنتُمۡ جَٰهِلُونَ ٨٩
قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِيۖ قَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ
عَلَيۡنَآۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٩٠
قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدۡ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ٩١ قَالَ لَا
تَثۡرِيبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَۖ يَغۡفِرُ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ٩٢﴾

[يوسف: 89 - 92]

مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قَبْلَها:

الانتقالُ من هوانِ الطَّلبِ إلى عظيمِ المفاجأةِ

لمّا عرضوا مَذلَّتهم وشدَّة حاجتهم، وما آل إليه حالهم في أرض الكنعانيّين من حصول الجدب وعدم وجود المؤونة الكافية من الحِنْطة الَّتي تسدُّ هذه الحاجة، ولمّا رأى يوسف عليه السلام منهم ما رأى رقَّ لهم وعطف عليهم، فقال لهم: ﴿هَلۡ عَلِمۡتُم مَّا فَعَلۡتُم بِيُوسُفَ﴾ من الضَّرب والبيع وغير ذلك، وما فعلتموه مع أخيه من إفراده عن يوسف وإذلاله إذ أنتم جاهلون قُبحَ فعلكم وعاقبته، فأقدمتم على ما أقدمتم عليه، فالمناسبةُ بين الآياتِ هي الانتقالُ من طلبِ الصَّدقةِ، إلى المفاجأةِ العُظمى، والدَّهشة الكبرى في ملاقاة غير المُتوقَّع.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿جَٰهِلُونَ﴾: "الْجيمُ والهاءُ واللّامُ أصْلانِ؛ أحَدُهُما: خِلافُ العِلْمِ، والآخَرُ: الخِفَّةُ وخِلافُ الطُّمَأْنينَةِ"[1]، ومعنى اتِّصافهم بالجهل في الآيةِ؛ أيْ: في حال جهلكم بعاقبة ما تفعلون بيوسف، وما إليه صائر أمره وأمركم[2].

2) ﴿ءَاثَرَكَ﴾: (أثَرَ): الهَمْزَةُ والثّاءُ والرّاءُ، لَهُ ثَلاثَةُ أُصولٍ:

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (جهل).
(2) ابن جرير، جامع البيان: 16/244.

تَقْديمُ الشَّيْءِ، وذِكْرُ الشَّيْءِ، ورَسْمُ الشَّيْءِ"[1]، و"الأُثْرة والمأْثَرَة والمأْثُرة، بِفَتْحِ الثّاءِ وضَمِّها: المَكْرَمَةُ؛ لأنّها تُؤْثَر؛ أيْ: تُذْكَرُ ويأْثُرُها قَرْنٌ عَنْ قَرْنٍ يَتَحَدَّثونَ بِها"[2]، ومعنى ﴿ءَاثَرَكَ﴾؛ أيْ: فضَّلك اللّه علينا بالتّقوى والصّبر وسيرة المحسنين[3].

3) ﴿لَا تَثْرِيبَ﴾: معنى التَّثْريبِ اللَّوْمُ والأخْذُ على الذَّنْبِ[4]، وقال الرّاغب: "التَّثْريب: التَّقريع والتّقرير بالذّنب، قال تعالى: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ﴾، ولا يُعرف من لفظه إلا قولهم: الثَّرْبُ، وهو شحمةٌ رقيقةٌ"[5]. قالَ الزَّجّاجُ: مَعْناهُ: لا إفسادَ عَلَيْكُمْ. وقالَ ثَعْلَبٌ: مَعْناهُ: لا تُذْكَرُ ذنوبُكم. والمُثَرِّبُ: المُعَيِّرُ، وقيلَ: المُخَلِّطُ المُفْسِدُ. والتَّثْريبُ: الإفْسادُ والتَخْليطُ، والتقْريعُ: أن يَقولَ الرَّجُلُ في وجه الرّجُل عَيْبَه، فَيَقولُ: فَعَلْتَ كَذا وكَذا. والتَّبْكيتُ قَريبٌ مِنْهُ[6]، فترك ﷺ ذكرَ عيوبِ إخوته، بقصدِ إكرامِهم وعدم إحراجهم.

المَعْنى الإجْماليّ:

حوارٌ نادرٌ وخُلُقٌ عن القلبِ صادرٌ ورفعةٌ يحتاجُها كلُّ قادر

هذه الآيات تنقل حوارًا من أعظم حوارات الإحسانِ في التّاريخ البشريِّ، ومن أشدِّ مسالك الرّحمة والإحسان على الشَّيطان، بذكرِ تذكير يوسف ﷺ إخوته بما صنعوا به، وهو تذكيرٌ من ورائه عتابُ المُحبِّ لا توبيخ الحاقد، فخاطبهم خطابَ العطف والرَّحمة يُذكِّرهم بفَعلتهم الدّنيئة، ويُقررهم بما فعلوه معه ومع أخيه، وقد أراد منهم أن يعترفوا بذنبهم، ويُعلنوا ندمهم، ويتوبوا إلى اللّه تعالى، وقد حصل ما أراد، ثم كانت المفاجأة الكبرى بأن تبيَّن لهم أنَّ الَّذي

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (أثر).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (أثر).
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/502.
(4) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (ثرب).
(5) الرّاغب، المُفردات: (ثرب).
(6) ابن منظور، لسان العرب: (ثرب).

يستعطفونه ويسترحمونه هو عزيز مصر، ورجلها الأول وجُذيْلُها المُحكَّك، ومقاليد مصر كلُّها بيده يصرِّفها بطاعة اللّه وفي طاعة اللّه القدير.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيّ:

علَّة الفصل:

فُصل قوله تعالى: ﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ عن سابقه لشبه كمال الاتِّصال، لأنَّ الإخوة لمّا عرضوا عليه مَذلَّتهم السّابقة، وأنَّهم قد مسَّتهم الضّرّاء، وجاؤوا ببضاعة مُزجاة، وطلبوا التَّوفية والتَّصدُّق عليهم، كلُّ ذلك أثار سؤالًا في نفس السّامع مفادُه: ماذا ردَّ عليهم يوسف ﷺ؟ فجاء الجواب بما قال، ومن هنا فُصلت هذه الجملة عن سابقتها للاستئناف البيانيّ، ومعرفةُ الجواب ممّا تتحفَّز له النَّفسُ وتترقَّبه.

معرفةُ جوابِ المظلومِ عند الاقتدارِ تترقَّبه كلُّ نفسٍ

نكتة إيثار أداة ﴿هَلْ﴾ على الهمزة:

خاطب يوسف ﷺ إخوته في قوله تعالى: ﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ﴾ بعد أن استأنسوا به، والاِسْتِفْهامُ مُسْتَعْمَلٌ في التَّوْبيخِ. و﴿هَلْ﴾ مُفيدَةُ التَّحْقيقَ؛ لِأنَّها تضمَّنت مَعْنَى (قَدْ) في الاِسْتِفْهام. فَهوَ تَوْبيخٌ على ما يعلمونه محقَّقًا من أفعالهم مع يوسُفَ ﷺ وأخيهِ؛ أيْ: أفْعالَهُمُ الذَّميمَةَ بِقَرينَةِ التَّوْبيخِ، وهيَ بِالنِّسْبَةِ ليوسُفَ ﷺ واضِحَةٌ، وأمّا بِالنِّسْبَةِ إلَى بِنْيامينَ فَهيَ ما كانوا يُعامِلونَهُ بِهِ مَعَ أخيهِ يوسُفَ ﷺ من الإهانَةِ الَّتي تُنافيها الأُخوَّةُ، ولِذَلِكَ جَعَلَ ذَلِكَ الزَّمَنَ زَمَنَ جَهالَتِهِمْ[1]، ولو استعمل الهمزةَ لما اشتملتْ على معنى التَّحقيقِ.

جزاءُ أفعالِ الجُهّالِ من الكرامِ عطاءٌ ورخاء

فائدةُ التَّعبير بالفعل الماضي:

ورد التَّعبير بالفعل الماضي في قوله تعالى: ﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 13/43.

تحقُّقُ العلمِ بقُبحِ الفعلِ يزيدُ من قُبحِه

﴿فَعَلْتُم بِيُوسُفَ﴾؛ لتحقّق وقوع العلم، وحصوله منهم، وإقرارهم بصدور ما فعلوه به وبأخيه، "والاستفهام ليس عن العلم بنفس ما فعلوه؛ لأنَّ الفعلَ الإراديَّ مسبوقٌ بالشّعور لا محالةَ، بل هو عمّا فيه من القبح"[1]، ففائدةُ التّعبيرِ بالماضي تحقُّق العلمِ بقُبحِ ما فعلوه، وهو ما يزيدُ مِن قُبحِ فعلِهم بعدم أوْبَتِهم ورجوعهم عنه.

معنى ﴿مَّا﴾ ودلالتها:

غصّاتُ الكرامِ تبقى مدفونةً في القلبِ لا ظاهرةً في اللِّسان

﴿مَّا﴾ في قوله تعالى: ﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ﴾ إمّا أن تكون اسمًا موصولًا بمعنى الَّذي، والمراد: الَّذي فعلتموه مع يوسف وأخيه، وإمّا مصدريَّة؛ أيّ: فعلكم بيوسف وأخيه، ولمّا كان الأمر هنا مُرادًا به تعظيم وتهويل ما ارتكبوه، فهو أمرٌ لا يُقدِم عليه أحدٌ، ولكنَّهم أقدموا عليه غير آبهين بالعواقب، ولا عارفين بما يؤول إليه أمر يوسف من الخلاص من الجُبِّ، ثم ولاية المُلك، فجاءت ﴿مَّا﴾ لتكون من باب توكيد المعنى وتقويته، كما أنَّ التَّعبير بها يُبيِّن ما حدث في قلب يوسف عليه السلام، لكنَّه لا يريدُ أن ينصَّ على شيءٍ ممّا حدث، فذَكَره مُبهمًا مطويًّا.

دلالة التَّعبير بالفعلِ دون الصنعِ:

رُبَّ إشارةٍ خيرٌ من ألفِ عبارة

جاء التَّعبيرُ بالفعل في قوله تعالى: ﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ﴾ دون أن يقول لهم: (ما صنعتم)، وظاهر ما صنعوه أقرب للصُّنعِ، وذلك أنَّه لا يُريد إشعارَهم بقصدِهم لما صنعوه من تبييت الأمر، وتدبير المَكْر، بل أراد أن يُشير إلى أنَّه صدر عنهم فعلٌ هم أدرى النّاس بتفاصيلِه، فالفِعْلُ عامّ لما كان بإجادة أو غير إجادة، ولما كان بعِلم أو غير عِلْم، وقَصْدٍ أو غير قَصْدٍ، والصّنعُ أخصُّ منه[2]، فكان استعمالُ الفعل كالإشارةِ إلى الصُّنعِ، وهم أدرى بحقيقةِ الأمرِ، وخفيِّ الفعال.

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 13/47.
(2) الرّاغب، المُفردات: (فعل).

معنى الباء ودلالتها:

الأسى يبقى مُلتصقًا بصاحبِه لا يُفارقه

الباء في قوله تعالى: ﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ للتَّعدية وهي التَّعدية العامَّة، وهي إيصال معنى العامل إلى المجرور على المعنى الَّذي يقتضيه الحرف، وهو بيان ما أوقعه هؤلاء الإخوة بيوسف من الضَّرب والرَّمي في الجُبِّ، وما فعلوه مع أخيه من إفراده وإذلاله وحرمانه من أخيه ابن أمِّه الوحيد، فالفعلُ تعدَّى إلى يوسف عليه السلام وأخيه، فهو واقعٌ عليهما دون غيرِهما، إذ هما المقصودان قصدًا تبييتيًّا.

نُكتة ذِكْر ﴿وَأَخِيهِ﴾ دون التَّصريح بالعَلَم:

كراهيةُ الأصلِ تورِّث الإساءةَ للتّابعِ

في قوله تعالى: ﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ ذَكَر صِفةَ الأخ دون ذِكْر الاسمِ العَلَم كما صرَّح باسم (يوسُفَ)، وذلك لكونه معلومًا لديهم، وليس في عدم التَّصريح باسمه ما يُشكل عليهم، فهو معلومٌ لديهم غيرُ مُنكَر لا باسمه ولا بصفته. أمّا يوسف فلكونه مجهولًا عندهم لانقطاع خبره عنهم، وظنِّهم أنَّه قد هلك أو ذهب إلى غير رجعة، فقطعوا أنفسهم من أمرِه وصار في حكم المجهول عندهم، لذا نصَّ على ذِكْر اسمه، وفيه إيماءٌ إلى أنَّه المقصود بالذِّكر، ولذلك عرفوه مباشرةً، كما أنَّ فيه بيانَ أنَّ الإساءةَ لبنيامين كانت بسبب علاقتِه بأخيه يوسف عليه السلام.

قال الزّمخشريُّ: "فإن قلتَ: ما فِعْلُهم بأخيه؟ قلتُ: تعريضُهم إيّاه للغمِّ والثَّكل بإفراده عن أخيه لأبيه وأمّه، وجفاؤهم به حتى كان لا يستطيع أن يُكلِّم أحدًا منهم إلا كلام الذّليل للعزيز، وإيذاؤهم له بأنواع الأذى"[1].

براعة تكرار عبارة ﴿يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾:

وردت عبارة ﴿يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ على لسان يعقوب عليه السلام في قوله

(1) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 2/341.

تعالى: ﴿يَٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِۖ﴾، وعلى لسان يوسف عليه السلام هنا، وذلك لما بين اللِّسانين من ترابطٍ، فأجرى الله على لسانَيْهما تلك العبارة الواحدة؛ للإيماءِ إلى أنَّها صادرةٌ عن لسانٍ واحدٍ، وهو لسانُ الحقِّ، فالأولى جاءت ابتداءً لطلب التَّحسُّس، والأخرى جاءت انتهاءً في حصولِ غايةِ التَّحسُّس.

عبارةٌ جاءت في ابتداءِ طلبِ التَّحسُّس وانتهاءً بتحقيقه

معنى ﴿إِذۡ﴾ ودلالتُها:

﴿إِذۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِذۡ أَنتُمۡ جَٰهِلُونَ﴾ حينيَّة بمعنى الزَّمن، وهي هنا لازمةٌ للإضافة؛ فهي مضافةٌ إلى الجملة الاسميَّة ﴿أَنتُمۡ جَٰهِلُونَ﴾: ومُرادها الظَّرفيَّة الزَّمانيَّة هنا؛ أيْ: حين جهلكم بما فعلتموه، وهي متعلِّقة بقوله: ﴿فَعَلۡتُم﴾، والمعنى: فعلتم ذلك وقت جهلكم. ففيه إيماءٌ إلى إعذارهم المؤدّي إلى مسامحتهم.

الإيماءُ إلى الإعذارِ بريدُ التَّسامح

فائدة تقديم المُسنَد إليه ومجيء المُسنَد اسم فاعل:

أفاد تقديمُ المُسنَدِ إليه على المُسنَد في قوله تعالى: ﴿إِذۡ أَنتُمۡ جَٰهِلُونَ﴾ التَّخصيصَ أو تقويةَ الحُكم الإسناديّ، أمّا فائدةُ التَّخصيصِ فقد قال لهم ذلك: "تلويحًا لهم إلى معرفته، وتذكيرًا بالذّنب ليتوبوا، وتلطُّفًا معهم في ذلك المقام الّذي يتنفَّس فيه المكروب، وينفثُ فيه المصدور، ويشتفي فيه المغيظُ المُحنَق، ويُدرك ثأره المَوْتور، بتخصيص جهلهم - بمقتضى ﴿إِذۡ﴾ - بذلك الزّمان، إفهامًا لهم أنَّهم الآن على خلاف ذلك"[1].

لا شيء يغلب الجهل في وقوع العداوة بين الخلق

وأمّا تقويةُ الحُكم؛ فهو إثباتُ حُكمِ الجهلِ لهم لا لغيرِهم ممَّن يصحّ أن تقع منهم العداوةُ والبغضاء والإذلال والإبعاد، وجاءَ المسندُ اسمَ فاعلٍ ﴿جَٰهِلُونَ﴾ للدّلالة على الثُّبوت والاستمرار، حتَّى الجهل كان صفةً لازمةً لهم زمانَ فعلهم ذلك لا يبارحهم قيد أنملة

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 10/201.

غلًّا وحسدًا وحقدًا، ولمّا كانت فعلتهم وجُرمهم من أهول الأمور وأفظعها؛ وُسِموا باسم الفاعل كنايةً عن ثبوت هذه الفعال بالجهل الّذي لا يفارق صاحبَه.

براعةُ الإيماءِ دون التَّصريح:

الكِرامُ يتلطَّفون مع المذنبين فتحًا لبابِ الأوبةِ

آثر يوسفُ عليه السلام استعمالَ الجهل في قوله تعالى: ﴿إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ﴾ دون الحسد والكيد وهم واقعون فيهما لقصدِ التَّلطُّفَ بهم بعد حالِهم الّذي وصلوه، ومنزلتهم الّتي بلغوها من الفقر والعَوَز والاحتياج، فمنزلةُ الكِرام التَّذكير بعمومِ الأفعال لا بخصوصِ الخبائث، فإنَّهم يُدركون مبادئ أفعالهم، ويستحضرون كيدَهم، وحسدهم وغِلَّهم، وذِكْرُ الجهل مفتاحُ كلِّ خبيئة، وشأنُ كرامِ الخلقِ أن يُشيروا لا أن يُعبِّروا، وأن يُلوِّحوا لا أن يُصرِّحوا.

علَّة فصل الفصل وبلاغتُه:

دَهْشةٌ تُناسب عِظَمَ المفاجأةِ

فُصِل قوله تعالى: ﴿أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُۖ﴾ عن سابقته؛ لشبه كمال الاتِّصال؛ إذ إنَّه لمّا أخبرهم بحالهم وما ارتكبوه في حقِّه وحقِّ أخيه وما كان من جهلهم، وبعد ما عرفوا من شمائله وكريم سجاياه سألوه: ﴿أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُۖ﴾ على طريقةِ المحاورات، حيث فاجأهم بهذا الكرم وهذا الحنوِّ، فأقرَّ لهم بكونه يوسف الَّذي فعلوا به وبأخيه ما فعلوا، فأثارت جملة ﴿مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ هذا السؤالَ.

غرضُ الاستفهامِ وسرُّ ذِكْر يوسف دون أخيه:

التَّعَجُّبُ مِنِ انعكاسِ الأحوالِ وتنكيسِ المقاصد

توجَّه سؤالُ الإخوة عن يوسف عليه السلام دون أخيه في قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُۖ﴾؛ "لكون مقصودهم هو تحقيق كونه يوسف عليه السلام وتقريره، وأُكِّد الكلام الاستفهاميّ بـ (إنَّ) و(لام الابتداء) تعجُّبًا منه"[1]، فالاستفهامُ تعجُّبيٌّ تقريريٌّ.

(1) شيخ زاده، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 5/74.

ومقصود الإخوة السّؤال عن هذا الغائب المقطوع خبره عنهم هذا الزّمن الطَّويل، ومن هول المفاجأة، وممّا رأوا فيه من كرم الشّمائل، والَّذي لا يفعله أحدٌ إلّا مع أقرب النّاس إليه، حتَّى وإن ارتكبوا معه أفظع الجرائم، وقد هالهم سؤاله عمّا فعلوه وتذكيرهم بهذه الفعال، وما الَّذي دفعه إلى أن يُخبرهم إلّا إذا كان عالمًا بما فعلوه، ومَنْ هذا الَّذي هاله ما وقع له إلّا أن يكون هو نفسه يوسف الَّذي سألوا عنه.

أمّا عدم السُّؤال عن أخيه، فلأنّ أمره معلومٌ لديهم، ظاهرٌ أمامهم لا يحتاج معه إلى أمر السُّؤال عنه، فأمر بنيامين ظاهرٌ عندهم في كونه مرهونًا بسرقته. أمّا مدار العَجَب وحيرة النَّفس فهو إظهار أمر يوسف وكيف وصل إلى ما وصل إليه، فكان السُّؤال عنه خاصةً.

براعةُ التَّأكيد وأثرُه في تصوير المشهد النَّفسّي:

الأعمال بخواتيمها، والعبرة بالمآلات

ورد قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُۖ﴾ مؤكَّدًا بأكثر من مؤكِّد وهي: (إنَّ)، و(اللّام)، و(الجملة الاسميَّة)، والمُراد تأكيد الحُكم ونسبته، وهنا أكَّد الإخوة كلامهم مع يوسف عليه السلام لكونهم صاروا مُتأكِّدين أشدَّ التَّأكُّد أنَّه هو أخوهم الَّذي ألقوه في البئر؛ لأنَّه لا يخبرهم بهذا الَّذي فعلوه إلّا هو عليه السلام، فلم يطَّلع أحدٌ غيرهم على ما فعلوه، فالتَّأكيد راجعٌ إلى حال المُتكلِّم. قال الدكتور محمد أبو موسى: "وهناك ضروبٌ من التّوكيد لا يُنظر فيها إلى حال المُخاطَب، وإنّما يَنظر فيها المتكلِّمُ إلى حال نفسه، ومدى انفعاله بهذه الحقائق، وحرصه على إذاعتها، وتقريرها في النّفوس كما أحسَّها مقرَّرة أكيدة في نفسه، وهذا اللّون كثيرٌ جدًّا، وله مذاقاتٌ حسنة"[1].

(1) أبو موسى، خصائص التَّراكيب، ص: 127.

بلاغةُ الجوابِ في خُلوِّه من المؤكِّدات النَّظيرة:

تصويرُ حالةِ الاطمئنانِ، في مقابلِ حالةِ الاضطرابِ

خلا جواب نبيّ الله يوسف عليه السلام في قوله تعالى: ﴿قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِي﴾ من المؤكَّدات المؤكِّدات، فلم تكن على نظيرِ ما قاله الإخوة: ﴿أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ﴾، فلم يَقُلْ: (إنّي لأنا يوسف)، فذَكَر كلامَه خاليًا من المؤكّدات الكثيرة الَّتي وردت في كلامهم؛ لأنَّ الأمر قد ظهر واستبان ولم يَعُد بحاجةٍ إلى تأكيد، وهم الآن مُتأكِّدون تمامَ التَّأكُّد أنَّ الَّذي يُحادثهم هو أخوهم يوسف عليه السلام، وفي خلوِّ الكلام من أدوات التَّأكيد ما يُصوِّر موقف المطمئنِّ في صوته، المُستقرّ في هدوئه، الثّابت في إيمانه، الحليم في نظراته، وهو ما يعكس طبيعةَ الموقف الضِّدّي، فيجعله في منازلِ الكرامة، ويجعلهم في منازل أخرى.

بلاغةُ العدولِ عن الجوابِ الموجز إلى التَّكرار:

تكرارُ الألفاظِ نفسِها قد يحملُ من المعاني ما لا تحملُه المُغايَرة بينها

في قوله تعالى: ﴿قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِي﴾ إطنابٌ وعدولٌ عن الإيجاز بأن يجيبهم بقولِه: (نعم)، لكن لمّا كان الكلامُ في معرض المجادلة والإنكار بين طرفيْن: طرف سوَّلت له نفسه ففعلَ ما فعل من ظلم واضطهاد وإهانة وإذلال، وطرف أعزَّه الله تعالى بعد كلِّ ما حدث معه، وأمامه الطَّرف الأول في موقف المذلَّة والحاجة والعَوَز، ومع سؤالهم سؤالَ المُتعجِّب بعد ظهور ما كان مُغيَّبًا في أفق الزَّمان وانقطع خبره، فلا بدَّ أن يأتي منه الجواب بإطالة الكلام وتَكرار ما صدر عنهم في مضمونِ السّؤال، وذلك لإيقاع المُتعجَّب منه موقعَ الأكادةِ والتَّحقيق، وهذا أقوى في الإجابة من الاكتفاءِ بنَعَم، كما أنَّ في إعادة الاسم الظّاهر من التَّبكيت الموجَّه لهم ما فيه، كأنَّه قال: أنا يوسف الَّذي ضربتموه وألقيتموه وبعتموه.

دلالة التَّعبير باسم الإشارة للقريب:

إكرامُ المُشارِ إليه بمنزلتِه العاليةِ ومكانتِه الغالية

المُراد بالأخ في قوله تعالى: ﴿وَهَٰذَآ أَخِي﴾: أخوه من أبيه وأمِّه، وقد ذكره تعريفًا لنفسِه به، وتفخيمًا لشأنه، وإدخالًا له في قوله:

﴿قَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَآۖ﴾ بالسَّلامة والكرامة، وورد تعريفُه باسم الإشارة دون التَّصريحِ باسمه؛ لقصد تمييزه أكمل تمييز، فإنَّ الإشارةَ إلى المخاطَب أمام الحاضرين له وقعٌ لا يَخفى، وفيها تأكيدٌ لرِفعةِ المُشار إليه عند المُشير، وهو هنا "خَبَرٌ مُسْتَعْمَلٌ في التَّعْجيبِ من جَمْعِ اللّه بَيْنَهُما بَعْدَ طولِ الفُرْقَةِ"[1]، وعبَّر باسمِ الإشارة للقريب لكونه موجودًا أمامهم لا يُنكرونه، ويرون ما آلَ إليه حالُه مع أخيه.

دلالةُ استعمالِ حرفِ التَّحقيق:

مجيء ﴿قَدۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿قَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَآۖ﴾ مرادٌ به التَّحقيق؛ أيْ: تحقيق المَنِّ الإلهيّ، كما أنَّها تجتمع لكلِّ فعلٍ مُتجدِّدٍ من عطاء اللّه تعالى لعباده والامتنان عليهم. والمَنّ الَّذي منَّ اللّه تعالى به على يوسف وأخيه هو العزُّ في الدُّنيا والآخرة، أو الجمع بينهما بعد الفُرْقة الطَّويلة والعزَّة بعد الذِّلة، والأُنس بعد الوَحْشة" فَجُمْلَةُ ﴿قَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَآۖ﴾ بَيانٌ لِلْمَقْصودِ من جُمْلَةِ ﴿وَهَٰذَآ أَخِيۖ﴾"[2].

نسبةُ الفضلِ إلى صاحبِه من شيمِ أهلِ الفضلِ

نكتةُ اختيارِ لفظِ (المَنِّ):

عبَّرت الآيةُ بلفظ (المَنّ) في قوله تعالى: ﴿قَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَآۖ﴾ دون لفظِ الإنقاذ أو الإنجاء، وهو مأخوذٌ من المِنَّة، وهي (النّعمة الثّقيلة)[3]، وذلك إذا صدرت عن المانِّ، أمّا إذا قالها الممنون، فهي النِّعمةُ الجزيلة، وما ورد من التَّعبير بالمنِّ هو المناسب؛ إذ أنعم اللّه على يوسف أنْ حفظه في غيابات الجُبِّ، ثمّ أنْ أرسل إليه مَن يتولّاه وهم السّيّارة، ثمَّ أنْ مَنَّ اللّه عليه بحفظه من الوقوع في شَرَك الرَّذيلة مع امرأة العزيز، ثم إخراجه من السِّجن، ثمَّ تمَّت المنَّة الكبرى بأنْ صار عزيز مصر الَّذي احتاج إليه ظالموه، فاستعطفوه

المنُّ لفظٌ يعمُّ الإفضالَ كلَّه ويشمل الإنعامَ جميعَه

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 13/43.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 13/43.
(3) الرّاغب، المُفردات: (منَّ).

وتمنَّوا رَفده وكَرَمه، ثمَّ أنْ جمع اللّٰه تعالى له شمله بأخيه، وهذا أوْلى من ذِكر لفظِ (الإنقاذ)؛ لأنَّه خاصٌّ في التَّخليصِ من ورطةٍ[1]، أو لفظِ (الإنجاء)؛ لأنَّه خاصٌّ في التَّخليص من هلاك[2]، فجاء استعمال المَنِّ الَّذي أدَّى المُراد، وأوفى على الغاية، تصويرًا لكرم اللّٰه وحفظه، وصيانته لهذا النَّبي الكريم عليه السلام.

فائدةُ ذكرِ اسم الجلالة:

اللّٰه تعالى هو المانُّ بالنِّعم الكبيرة والعطايا الجسيمة

ذُكر اسمُ الجلالةِ في قوله تعالى: ﴿قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآۖ﴾؛ لكون الفاعل - وهو هنا المُسند إليه - أصلَ العطاء والإنعام، ولتعظيمه سبحانه وإعظام عطائه، فلا مناص من ذِكْره ولا مُقتضى للعدول عنه، فإنَّه لا يمنح النِّعم الكبيرة والعطايا الجسيمة إلّا هو، وذِكْره تعالى هنا ليتميَّز عطاؤه عن عطايا البَشر؛ فإنَّه سبحانه إذا أعطى أجزل في العطاء.

دلالةُ استعمال حرف الاستعلاء:

كرم الله تعالى إعلاءٌ للمُكرَمِ ورفعةٌ للممنونِ عليه

مجيءُ حرفِ الاستعلاء في قوله تعالى: ﴿قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآۖ﴾ حقيقة مع الجمع، إذ المَنُّ عليه بما فعل اللّٰه معه من الحفظ والصّيانة، وإنزاله أكرم المنازل وأعلاها، وعلى أخيه إذ خلَّصه من إيذاء إخوته وإهانته، وجمعه بأخيه الغائب الَّذي افتقده طويلًا، فأراد يوسف عليه السلام أن يُبيِّن بأنَّ كرم اللّٰه تعالى ومنَّه قد علاه، وعلا أخاه حتَّى أحاط بهما من جميع الجوانب، فهو في عُلوٍّ من أمره هو وأخوه بإعلاءِ اللّٰه تعالى لهما، ومَن أعلاه اللّٰه تعالى فهو عالٍ لا خفض معه، كما أنَّ حرف العُلوِّ هنا مناسبٌ لما صار إليه حاله عليه السلام من العُلوِّ والرِّفعة، وكذا لما صار إليه أمر أخيه.

(1) الرّاغب، المُفردات: (نقذ).
(2) الرّاغب، المُفردات: (نجو).

علَّة فصل الجُملِ ودلالته:

الاستئنافُ البيانيُّ من أدوات التَّعليل وأغراضِ شفاءِ الغليلِ

فُصلت هذه الجملة ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ﴾ عن سابقتها؛ لأنّها استئنافٌ بيانيٌّ، وكأنَّه لمّا قال لهم: ﴿أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِي قَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَآۖ﴾ سألوه: وما الَّذي أوصلكما إلى هذه الحال؟ فجاء الجواب: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ من باب شبه كمال الاتِّصال؛ ففُصلت هذه الجملة عن سابقتها لهذا الغرض.

وهي كذلك "تَعْليلٌ لِجُمْلَةِ ﴿مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَآۖ﴾، فَيوسُفُ عليه السلام اتَّقَى اللّه وصَبَرَ، وبِنْيامينُ صَبَرَ ولَم يَعْصِ اللّه فَكانَ تَقيًّا. أرادَ يوسُفُ عليه السلام تَعْليمَهُم وسائِلَ التَّعَرُّضِ إلَى نِعَمِ اللّه تعالى، وحَثَّهُم على التَّقْوَى والتَّخَلُّقِ بِالصَّبْرِ تَعْريضًا بِأنَّهُم لَم يَتَّقوا اللّه فيهِ وفي أخيهِ، ولَم يَصْبِروا على إيثارِ أبيهِم إيّاهُما عَلَيْهِمْ. وهَذا من أفانينِ الخَطابَةِ أنْ يَغْتَنِمَ الواعِظُ الفُرْصَةَ لِإلْقاءِ المَوْعِظَةِ، وهيَ فُرْصَةُ تَأثُّرِ السّامِعِ وانْفِعالِهِ وظُهورِ شَواهِدِ صِدْقِ الواعِظِ في مَوْعِظَتِهِ"[1].

معنى ﴿مَن﴾ ودلالتُها الشَّرطيَّة:

شرطُ الثَّواب تقوى الله والصَّبر على المِحَن

﴿مَن﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ﴾ اسمُ شرط جازم في محلِّ رفع فاعل، والمعنى: مَن يتَّقِ معاصي اللّه ويصبر على أذى النّاس تقوى كاملةً صحيحةً وصبرًا يذوده عن الانجرار وراء المعاصي، فإنَّ اللّه لا يضيع أجرَه، وعلى قراءةِ قنبل - أحد راويي ابنِ كثير المكيِّ - (يتَّقي) بالياء وصلًا ووقفًا[2]، فيكون معنى ﴿مَن﴾: الَّذي؛ وعليه فلا جزم للفعل، وكذلك ما عطف عليه من فعل، ﴿وَيَصۡبِرۡ﴾ في موضع رفع، والأحْسَنُ أنْ يَكونَ (يَتَّقي) مَجْزومًا على لُغَةٍ، وإنْ كانَتْ قَليلَةً[3]، وعليه فـ﴿مَن﴾ تبقى شرطيَّةً جازمةً،

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 13/43.
(2) ابن الجزَريّ، النّشر: 2/297.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/321.

ودلالةُ الشَّرط حاضرةٌ قويَّةٌ، فشرطُ ثوابِ اللّه تعالى تقواه والصَّبر على المِحَن.

سرُّ تقديم التّقوى على الصَّبر:

الصَّبر وِكاءُ التَّقوى؛ فإن انفلت الوِكاءُ ضاعت التَّقوى

قُدِّم ذِكرُ التَّقوى على الصَّبرِ في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ﴾، وذلك باعتبارِ أنَّ التَّقوى هي الغاية العظمى، والصّبر أداةُ المحافظةِ عليها؛ وعليه؛ فمجيءُ فعلِ التَّقوى مقدَّمًا لأنَّ الوقاية مِن نزعات النَّفس تتحقَّق أولًا، فتكون حصنًا حصينًا لعدم انحرافها، ثمَّ يأتي بعدُ حبسُ النَّفْس وتصبُّرها على ما يَعرِض، فإذا اتّقى الإنسان ربَّه، وراقبه مراقبة الواثق بما لديه من الهِبات والعطايا، صبرت نفسه على البلايا والطّاعات؛ فابتعدت عن المعاصي، ومِن هنا قدَّم يوسف عليه السلام التَّقوى لكونها البابَ الأقوى لسدِّ نزغات الشَّيطان، ثمَّ تلاها صبرُه على شهوات نفسِه وتسويلات الشَّيطان، ودومًا تُعَدُّ الغاية مقدَّمة على الوسيلة، وقد يجوز عكس ذلك؛ فيقع معنى الصَّبر أولًا في نفس العبد، ثم يُكمله بالتَّقوى من باب التَّخلية قبل التَّحلية.

نكتةُ حذفِ متعلّقات التَّقوى والصَّبر:

التَّقوى سلوكٌ ثابتٌ لله تعالى والصَّبرُ معذوقٌ بها

يحذف المفعول به لأنَّ مقصود المتكلِّم الأوّل وغرضه الأسمى إثبات الفعل لفاعله فحسب دون النَّظر لمفعوله؛ إمّا إيجازًا، وإمّا لكونه معلومًا بدلالة الحال، والخطاب في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ﴾ لأبناء الأنبياء، فمعرفةُ مَن يُتَّقى ويُصبر على طاعته ويُكفُّ عن معصيته من المُسلَّمات، أو لكون المُراد من الحذف توجيه النُّفوس لإثبات الفعل للفاعل، وعدم الانشغال بالمفعول لكونه معلومًا لا يُحتاج إلى ذِكره ممّا يَرسخ في الطَّبع والنَّفس، ولا يغيب عن بالهم، والمُراد: مَن يتَّق اللّه ربَّه في جميع أحواله إتيانًا وتركًا، ويصبر على الضّرّاء وما تجلبه للإنسان من ضجرٍ أو سُخط، وعن المعاصي المهلكة.

وهو هنا يُعرِّض بهم في كونه عليه السلام وأخيه قد اتّقيا اللّه وصبرا على أذاهم؛ فنالهما من الشَّرف والعزِّ ما لم ينالوه بالجُرْم الَّذي ارتكبوه.

فلم يَقُلْ: (إنَّه مَن يتق اللّه ويصبر على المصائب)، بل أطلق الفعلَيْن لبيان أنَّ التَّقوى سلوكٌ ثابتٌ، ولا ينصرف عند إطلاقه إلّا للّه تعالى، والصَّبر على كلِّ شيء ممّا يتوقَّعه المؤمن وما لا يتوقَّعه، وهذا أمْدحُ وأرسخُ من التَّقييدِ.

معنى الفاء:

هل جزاء الإحسان إلّا الإحسان؟

الفاء في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ رابطةٌ للجواب، وجوابها جملة اسميَّة مؤكِّدة لمضمون وجزاء المتَّقين الصّابرين، فإنَّه مَن يتَّق اللّه فيراقبه ويصبر على البلايا والمِحَن ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾؛ أيْ: لا يُبطل أجرهم، ولا يُضيعُ إحسانهم؛ بل يجزيهم عليه أوفى الجزاء.

غرضُ التَّأكيد:

توكيدُ المعاني الثّابتة من شأنه طلبُ الزّيادةِ لتوريث الطُّمأنينة والسَّكينة

ورود التَّوكيد بأداةِ (إنَّ) في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ ربطًا للجملة بما قبلها، بحيث لو أُسقطت لذَهَب رونق النَّظم، وأصبح الكلام مُفكَّكًا لا ميزة له ولا روح فيه، ومجيء ضمير الشَّأن مع (إنَّ) تجد له رونقًا وطلاوةً يكسوان اللَّفظ، ودقَّةً وقوَّة يزيدان في المعنى. وجاء الكلام هنا مؤكَّدًا لإزالة أيِّ شكٍّ أو إبهام يقع في خَلَد هؤلاء الإخوة في شأن جزاء المتَّقي الصّابر؛ أيبقى له أم يذهب سُدى لا نفع فيه ولا جدوى من ورائه، فجاء كلامه قاطعًا عليهم بابَ الشُّبهة أو الشَّك، كما أنَّ هناك غرضًا آخر للتَّأكيدِ، وهو ما يُحدثه في نفسِ المتكلِّم؛ فإنَّ المتكلِّم يُؤكِّد لنفسِه مضمونَ الخطابِ لما يورِّثه من طلب الاستزادة شكرًا وطُمأنينةً وعافيةً.

فائدةُ تقديمِ المُسندِ إليه على المُسنَدِ الفعلِّي المَنفيِّ:

ربُّك الكريم هو الَّذي لا يضيع عنده أجر المتَّقين الصّابرين

جاء المسند إليه ﴿ٱللَّهَ﴾ لفظ الجلالة المُعظَّم مُقدَّمًا على المُسندِ الفعليِّ المَنفيّ في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ لقصد التَّخصيص وتقوية الحكم، والمُراد بالتَّخصيص: تخصيصه ﷻ بكونه الكريم الَّذي لا يضيع عنده أجر المتَّقين الصّابرين المُحتسبين المُحسنين، وأمّا تقوية الحُكم فتأكيد عدم ضياع أجر المحسنين عنده ﷻ.

نكتةُ إيثارِ لفظِ الجلالة:

آثارُ الهَيْبَةِ زيادةٌ في التَّرهيبِ والتَّرغيب

ذُكِر اسم الجلالة في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ تعظيمًا لقَدْره وكرم عطاياه على عباده المحسنين، وأنَّه سبحانه هو الحافظ لعباده المتَّقين بأُجورهم، فلا تضيع عنده، فهو أصلٌ في ذلك، ولا مقتضًى للعدول عن ذكر اسمه، إلى جانب ما في الذِّكر من التَّنبيه والتَّبكيت لهم، فكأنَّه يقول لهم: (اللّه تعالى الَّذي نسيتم مراقبته لكم واطّلاعه على أفعالكم هو نفسه سبحانه الَّذي ما ضيَّع لي أجرًا)، وفي الذِّكْر أيضًا إقرارٌ واعتراف بجميل صنع اللّه تعالى معه ﷻ.

نكتةُ التَّعبير بلفظِ الضَّياع:

أدنى درجاتِ الإهمالِ غيرُ متصوَّرةٍ فكيف بعظيمِها؟!

التَّعبيرُ بلفظِ الضَّياع في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ أبلغ من لفظِ الذَّهاب والخُسران؛ فلم يقل: (فإنَّ اللّه لا يُذهب ونحوه)؛ وذلك لأنَّ في الذّهاب والخُسران أملًا في عودة ما ذهب، وتعويض الخسارة بأيِّ وجهٍ من الوجوه، أمّا الضّياع فهو ذهابٌ وافتقادٌ بلا عودةٍ، وإذا ضاع الأجر من العبد فلا يعود، وإن بذل في سبيله كلَّ الوسائل، وفيه من التَّنبيه على أنَّ أدنى درجات إهمال الأجر غير حاصلة، فإن الضَّياع هو إهمالٌ للقليل والكثير.

نكتةُ التَّعبير بصيغةِ المضارع:

نفيُ الضَّياعِ فيه إثباتُ الحفظِ الدّائمِ

التَّعبير بالفعل المضارع المَنْفيِّ في قوله تعالى: ﴿لَا يُضِيعُ﴾ جاءَ للدّلالة على عدمِ تجدُّدِ هذا الضَّياع وعدم استمراره مع استحضار صورة حفظِ اللّه تعالى لعبادِه المحسنين، وفيه لفتٌ إلى كرمِ اللّه الواسع على مَنِ التجأ إليه وفوَّض أُموره إليه ﷻ؛ كما أنّه إذا كان تجدُّدُ الضَّياع منفيًّا فإنَّ تجدُّدَ الحفظِ ثابتٌ للعبادِ.

توجيه تخصيصِ الإحسانِ بالذِّكر:

قُبَّة الشَّرف والمعالي أن تلحق بركْب المُحسنين

آثر النَّظمُ تخصيص صفةِ الإحسانِ بالذِّكر دون التَّقوى أو الصَّبر في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾، والمحسن هو مَن جمع بين التَّقوى والصَّبر، والإحسان هو أعلى الدَّرجات بدليل ذِكْره في حديث أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه المشهور بحديث جبريل[1]؛ وذلك حين سأل جبريلُ رسولَ اللّه ﷺ عن الإسلام والإيمان والإحسان، فجاء الإحسان آخر الدَّرجات وأعلاها مِن باب التَّرقي من الأدنى إلى الأعلى، إذْ هو جِماع خصال الإسلام وأسسه وأركانه وقواعده، ولقيامه على المراقبة الَّتي نسوها وهم يرتكبون جُرمهم، ففي الإحسان يتَّحقَّق الإسلام والإيمان كما يتَّحقَّق الصَّبر والتَّقوى، فهو جامع لكلِّ هذه الأوصاف والمعاني.

بلاغةُ إظهارِ ما حقُّه الإضمارُ:

رُبَّ إظهارٍ أتى بواطنِ المُضمرات

وُضع لفظُ ﴿ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ موضع الضَّمير؛ ومن ثَمّ يكون التّقدير: (فإنَّ اللّه لا يُضيع أجرهم) العائد على المتَّقين الصّابرين، وذلك "للتَّنبيه على أنَّ المُحسن مَن جمع بين التَّقوى والصَّبر، فمَن وُصِفَ بهذيْن الوصفيْن نُعت بوصف الإحسان"[2]، فهو تعريفٌ للإحسان بأنَّه

(1) مسلم، صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب: الإيمانُ ما هوَ وبَيانُ خِصالِهِ: الحديث رقم: (9).
(2) شيخ زاده، حاشية زاده على تفسير البيضاويّ: 5/74، والآلوسيّ، روح المعاني: 13/49، والقاسميّ، محاسن التَّأويل: 6/214.

الجامع بين التَّقوى والصَّبر، "وَلِلتَّعْميم في الحُكْم ليَكونَ كالتَّذْييلِ، ويَدْخُلَ في عُمومِهِ هوَ وأخوهُ. ثُمَّ إنَّ هَذا في مَقامِ التَّحَدُّثِ بِالنِّعْمَةِ. وإظْهارُ المَوْعِظَةِ سائِغٌ لِلْأنْبياءِ؛ لِأنَّهُ من التَّبْليغِ كَقَوْلِ النَّبي ﷺ «إنّي لَأتْقاكُم للّه وأعْلَمُكُم بِهِ»"[1].

فائدةُ استعمالِ حرفِ التّاءِ للقَسَم:

توكيدُ العَجَب الظّاهر والحسرة الباطنةِ

لمّا سَمِع إخوةُ يوسف عليه السلام كلامَ أخيهم، وأنَّه لا يصدر إلّا ممَّن سَمَتْ أخلاقه وارتفع قدره؛ قالوا وهم مُتعجِّبون غايةَ العجب: ﴿تَٱللَّهِ لَقَدۡ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا﴾، فأقسموا مُستخدمين أداة قسَمٍ اختُصَّت بهذا المقام، وهو مقام التَّعجُّب، وهذه الأداة هي حرف جرٍّ معناه القَسَم، وتُختصّ بالتَّعجُّب وباسم الله تعالى، وممّا اختُصّت به أيضًا أنَّها مُجرَّدةٌ من الخطاب، والتزم فيها التَّذكير والتَّأنيث، كما أنَّها حَوَت من معاني التَّوكيدِ الممزوجِ بالتَّعجب الظّاهر والحسرة الباطنة ما لا يخفى على متأمِّلٍ.

غرضُ حشد المؤكِّدات:

اعترافٌ بالذَّنب ورجوعٌ إلى الحقِّ ورضوخٌ لحُكم الحقِّ

حشد الإخوة عددًا من المؤكِّدات في قوله تعالى: ﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدۡ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا﴾، ولمّا كان موقفُهم موقف المتعجِّب ممّا وصل إليه حالُه من السّموِّ والرُّقيّ والعزَّة والرِّفعة، فقد تمثَّلوا ما فعلوه معه في الماضي فانتابهم الخزي والخجل وما قابلهم به من الإحسان، فقالوا في استعطاف وتذلُّلٍ ما قالوا، وقد تعدَّدت المؤكِّدات بالقَسَم واللّام - وهي هنا جواب القَسَم - و(قد) المفيدة للتَّحقيق، وإنَّما ذكروا كلَّ هذا اعترافًا منهم بذنبهم وجريرتهم ليفتحوا سبيل القرب منه بالعفو والصَّفح، وهو تعريضٌ ببيان مكانه ومكانته، وتعريضٌ بندمهم ورجوعهم إلى الحقِّ، وهذا شأن الكرام وطباع نفوس الكبار عفوها عن الزّلّات ورجوعها إلى الحقِّ، مع ما في ذلك من الحسرةِ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 13/45.

الدّاخليَّة لما وقع منهم، فتمنَّوا أن يكونوا مكانَه، لكن هيهات لِمَن لا يمتلكُ طاقةَ التَّقوى المُحاطة بسياجِ الصَّبر.

براعةُ إيثارِ لفظِ الإيثارِ:

آثر النَّظمُ استعمالَ لفظِ الإيثارِ في قوله تعالى: ﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدۡ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا﴾ فلم يَقُلْ: (لقد فضَّلك الله علينا)؛ وذلك أنَّ الإيثارَ أوسع وأشمل من مرادفه التَّفضيل كأنَّه عليه السلام قد استأثر بجميعِ الخصال الكريمة، حتَّى آثره الله بها ومنحها إيّاه، حتَّى كان أفضل منهم وأعلى منهم ذِكْرًا، فهو ليس مجرَّد تفضيلٍ، إذِ التَّفضيل يُشعر بوجودِ فضلٍ لدى الطَّرفيْن أحدهما أرسخ من الآخر، لكنه هنا إيثارٌ كُليٌّ، ويُرشحه استعمال حرفِ الاستعلاءِ، ولمّا كان الأمر متعلِّقًا بالنُّبوّة، فإنَّ التَّفضيل غير متصوَّر، لأنَّ التّفضيل يكون بين الأنبياءِ، وهنا لا تفضيلَ بل إيثار.

التَّفضيلُ يكون بين المتساوين، أمّا درجةُ النُّبوّة فهي إيثارٌ واختيار

نكتةُ إظهارِ ما حقُّه الإضمارُ:

صرَّحتِ الآيةُ بالاسم الجليل في قوله تعالى: ﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدۡ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا﴾ دون التَّعبير بالضَّمير الّذي يعود عليه ﷺ، فلم يَقُلْ: (لقد آثرك علينا) تعظيمًا للمؤثِر ﷺ، إذ إنَّه لا يقع هذا الإيثار إلّا منه ﷻ، إلى جانب ما في ذلك من تربيةِ المهابة للمانحِ الأعلى ﷻ، المأخوذ من التَّعبير بالاسم الصَّريح دون ضميره؛ فقد "أدرك البلاغيّون وحيَ الكلمة وعملها بما يثيره لفظها من شؤونٍ في النَّفس لا يستطيعُها الضَّمير العائد عليها"[1].

تربيةُ المهابةِ للمانحِ الأعلى ﷻ

دلالةُ استعمال حرفِ الاستعلاء:

يَرِد الحرف (على) "للاستعلاء حقيقةً أو مجازًا، وفي قوله تعالى: ﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدۡ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا﴾ ورد حرفُ الاستعلاءِ مُرادًا به عُلوَّ قدر يوسف عليه السلام، وهي هنا معلِّلة لإيثاره عليهم، وهم إنَّما قالوا

اعترافٌ صريحٌ في رفعةِ الصِّدّيقِ وعلوِّ مكانته

(1) أبو موسى، خصائص التَّراكيب، ص: 284.

ذلك لمّا رأوا ما هو فيه من المكانة والعلوِّ لدى أهل مصر جميعًا وعلى رأسهم ملك البلاد، والمُراد: اختارك اللّه علينا بحسن الصّورة وكمال السّيرة، فهو ليس مثلهم ولا أدنى منهم، بل هو أرفع منهم وأعلاهم أُبَّهة، فكأنَّهم ذكروا ذلك اعترافًا منهم بعُلوِّه عليهم، فهو اعترافٌ صريحٌ بعُلوِّه عليهم؛ أيْ: آثره اللّه فرفعَه عليهم.

نكتة تكرار ﴿عَلَيْنَآ﴾:

تكرَّر الجارُّ والمجرورُ ﴿عَلَيْنَآ﴾ في هذا المقطعِ القرآنيِّ، فجاء في قوله تعالى: ﴿فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ﴾ من كلامِ إخوة يوسف عليه السلام؛ وإنَّما قالوا ذلك استدرارًا لعطفه، وتحريكًا لمروءته وسخائه، ثم أخبروه بمطلبهم.

الاستعلاءُ باعتباراتٍ متباينةٍ ومقاماتٍ مختلفة

وجاء في قوله تعالى: ﴿قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ﴾ من كلام يوسف عليه السلام مُبيِّنًا لهم كرم اللّه عليه بما وصل إليه من العزَّة والحفظ والصيانة، ثمَّ جعَلَه الوزير المفوَّض في مُلك مصر، وجمعه بأخيه الَّذي فارقه منذ زمن بعيد لم يَدر ما خبره.

وجاء في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا﴾ من كلامِ إخوة يوسف عليه السلام، بأنَّ اللّه قد فضَّله عليهم، فاختاره ليكون وارثًا نبوَّة أبيه، وآثره بالرِّفعة عليهم، فلم يكن لأحدهم مثل ما له من المكانة عند اللّه تعالى وعند أبيه يعقوب عليه السلام.

ومجيء الجارِّ والمجرور ﴿عَلَيْنَا﴾ هنا مُكرَّرًا جاء في موضعه اللّائق به حيث أثبت عُلوًّا مخصوصًا في كلِّ موضع من مواضع تكراره، ويُلحظ في هذا التَّكرار استعلاءٌ في كلِّ موضعٍ يليق به، وفي هذا التَّكرار دعوةٌ لمعرفةِ الفروق بين المقامات.

معنى الواو ودلالتها:

إصلاح ذي الحال سببٌ للرِّفعة وراحةٌ للبال

الواو في قوله تعالى: ﴿وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ﴾ حاليَّة، والمعنى: حالُنا وشأنُنا أنَّنا كنّا مُذنبين بصنيعنا الَّذي صنعناه بك، ولذا أعزَّك اللّه

ورفعك، وأنزلنا منازلَ الخزي والعار والشّنار، و﴿وَإِن﴾ خففوها من الثّقيلة تأكيدًا بالإيجاز للدّلالة على الاهتمام بالإبلاغ في الاعتذار في أسرعِ وقتٍ[1].

بلاغةُ أسلوبِ القَصْر:

التَّوبة النصوح بدايتها الاعتراف بالذّنب

اللّام في قوله تعالى: ﴿وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ﴾ هل هي اللّام المزحلقة الدّاخلة على خبر ﴿وَإِن﴾، أو الفارقة إن جعلناها في تأويل: وما كنّا إلّا خاطئين، فهنا يكون قصر صفة على موصوف قصرًا حقيقيًّا على طريقةِ النَّفي والاستثناء، فيكون اعترافًا صريحًا منهم بجُرم ما ارتكبوه من الخطأ في حقِّه ﷺ، فهم يقصرون فعلَهم على الخطأ المحضِ، وهذا مبالغةٌ في الاعترافِ بالخطأ.

براعة استعمال فعل الكون:

احرص على ماضٍ لا تعتذرُ عنه

التَّعبير بالفعل الماضي ﴿كُنَّا﴾ في قوله تعالى: ﴿وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ﴾ للدّلالة على تحقُّق وحصول وحدوث الجُرْم الَّذي ارتكبوه في حقِّه ﷺ؛ أيْ: لَمُتعمِّدين للذَّنب إذْ فعلنا ما فعلنا، فدلَّت (كان) هنا على مُضيِّ وقوع هذا منهم مع تأكيد ذلك الجُرْم أيضًا، وبيان أنَّهم ما كانوا على شيءٍ مثل كونهم خاطئين، فهو وصفٌ لكينونتِهم بالخطأ.

دلالة استعمال اسم الفاعل:

من تمامِ الاعترافِ بالذَّنبِ صحَّةُ وصفِه والإقرارُ بفُحْشه

التَّعبير باسم الفاعل في قوله تعالى: ﴿وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ﴾ للدّلالة على ثبوت واستمرار هذا الخطأ، والخاطِئُ: فاعلُ الخطيئةِ، وكأنَّه وصمةُ عارٍ لحقت بهم في غيابه، وكان هذا الخطأ سببًا في بُعد أبيهم عنهم وذهاب بصره، ووقوفهم نادمين مذنبين أمام أهل مصر جميعًا، والمُراد باسم الفاعل هنا؛ أيْ: عريقين في الخطأ، وهو تعمُّد الإثم[2].

(1) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 10/203.
(2) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 10/203.

بلاغةُ استعمالِ لفظِ التَّثريب:

كمالُ العفوِ والصَّفحِ التَّغاضي عن كبيرِ الذُّنوبِ وعظيمِ الخطايا

جاءَ اختيارُ لفظِ التَّثريبِ في قوله تعالى: ﴿قَالَ لَا تَثۡرِيبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَۖ﴾، والتَّثريبُ هو التَّوبيخُ والتَّقريعُ، دون اللَّومِ إذ المقامُ ليس مقامَ لومٍ، فاللّوم ما يُلام عليه الإنسانُ ولو كان شيئًا يسيرًا وما فعلوه ليس باليسير فلا يناسبه إلّا التّثريب، والتَّقريع إن أُريد هنا فلا يكون بمعناه الحقيقيّ، وإنَّما يكون للتَّأنيب والتَّعنيف بالكلام الموجع، وقد حصل في استعمال لفظ التَّثريب، وأمّا التَّوبيخ فهو إهانة النَّفس للنَّفس بتذكيرها ما فعلت ظنًّا منها أنَّها قد نسيت ما ارتكبته في حقِّ المظلوم وصاحب الحقِّ، وهو داخل في لفظ التَّثريب، فصار استعمال التَّثريب هنا شاملًا لجميع المرادفات من التَّوبيخ والتَّقريع واللّوم، فشمل جميعَ المعاني، وكان نفيُ التَّثريبِ نفيًا لجميعِ هذه المعاني من التَّقريعِ والتوبيخ واللَّوم مع الإيماءِ إلى استحقاقِهم لذلك، وهذا أبلغ في التَّسامح والتَّغاضي.

فائدة استعمال الجارِّ والمجرور ﴿عَلَيۡكُمُ﴾:

الصَّفح الزّائد من شيم الكبار

ذُكر الجارُّ والمجرور ﴿عَلَيۡكُمُ﴾؛ لِلتَّأكيدِ، وهي مِثْل زيادَةِ (لَكَ) بَعْدَ (سَقْيًا ورَعْيًا)، فَلا يَكونُ قَوْلُهُ: ﴿ٱلۡيَوۡمَۖ﴾ من تَمامِ الجُمْلَةِ، ولَكِنَّهُ مُتَعَلِّقٌ بِفِعْلِ ﴿يَغۡفِرُ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ﴾[1]، وقيل: إنَّ ﴿عَلَيۡكُمُ﴾ متعلِّق بمُقدَّر واقع خبرًا لقوله: ﴿لَا تَثۡرِيبَ﴾.

توجيهُ الوقفِ على لفظِ ﴿ٱلۡيَوۡمَۖ﴾:

الزَّمانُ متعلِّقٌ بفعل العافي لا بفعل غيره

ذكر الزَّمخشريُّ أنَّ ﴿ٱلۡيَوۡمَۖ﴾ إمّا أن يتعلَّق بالتّثريب؛ أيْ: لا تثريب اليوم عليكم، أو بالمُقدَّر في ﴿عَلَيۡكُمُ﴾ من معنى الاستقرار؛ أيْ: لا تثريب مستقرٌّ عليكم اليوم، أو بقوله تعالى: ﴿يَغۡفِرُ﴾، والمعنى: لا أُثرِّبكم اليوم، وهو اليوم الّذي هو مظنّة التّثريب، فما ظنّكم بغيره من الأيّام، ثم ابتدأ فقال: ﴿يَغۡفِرُ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ﴾ فدعا لهم بمغفرة ما فرط منهم[2].

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 13/45.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/503.

وقد رفض أبو حيّان الاحتمال الأوّل وقَبِلَ الثّاني، وقال: وأمّا تَقْديرُهُ الثّاني فَتَقْديرٌ حَسَنٌ، ولِذَلِكَ وقَفَ على قَوْلِهِ: ﴿ٱلۡيَوۡمَ﴾ أكثرُ القُرّاء، وابتدؤوا بـ ﴿يَغۡفِرُ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ﴾[1]، وهذا أقوى في المعنى؛ لأنَّه علَّق الزَّمان بنفْي تثريبه هو عنهم، قال ابن الأنباريّ: "إنَّما أشار إلى ذلك اليوم؛ لأنَّه أوَّل أوقات العفو وسبيل العافي في مثله أن لا يراجع عقوبة"[2]، وأجاز الحوفيُّ أن يكون ﴿عَلَيۡكُمُ﴾ في موضع الصِّفة لتثريب ويكون الخبر ﴿ٱلۡيَوۡمَۖ﴾، وهو وجه حسن"[3].

دلالة التَّعبير بالمضارع ﴿يَغۡفِرُ﴾ دون الماضي:

تتجدَّد المغفرة بتجدُّد التّوبة

التَّعبير بالمضارع يُفيد تجدُّد واستمرار فعل المغفرة، والمُراد في قوله تعالى: ﴿يَغۡفِرُ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ﴾ هو تجدُّدُ دعائه وطلبه لهم بأن يغفر اللّه لهم، قال الزَّمخشريّ: "يُقال: غفر اللّه لك، ويغفر اللّه لك، على لفظ الماضي والمضارع جميعًا. ومنه قول المُشَمَّت: (يهديكم اللّه ويصلح بالكم)، و﴿ٱلۡيَوۡمَۖ يَغۡفِرُ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ﴾ بشارة بعاجل غفران اللّه لما تجدّد يومئذٍ من توبتهم وندمهم على خطيئتهم"[4].

وقال البقاعيّ: "ولعلّه عبّر في هذا الدّعاء بالمضارع إرشادًا لهم إلى إخلاص التّوبة، ورغَّبهم في ذلك، ورجّاهم بالصّفة الّتي هي سبب الغفران، فقال: ﴿وَهُوَ﴾؛ أي: وحده؛ ﴿أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾"[5].

فائدةُ بناءِ فعلِ المغفرةِ للفاعلِ:

الَّذي يملك المغفرة والصَّفح هو الله تعالى

وردَ بناء الفعل ﴿يَغۡفِرُ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ﴾ مُسندًا إلى فاعله الحقيقيّ إذعانًا منه ﷻ، فإنَّ الَّذي يملك المغفرة والصَّفح هو اللّه تعالى، وذَكرَه هنا تربيةً للمهابة وإيقاعًا للاسم الجليل على أنفسهم وعلى

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/343.
(2) ابن الأنباريّ، البيان في غريب القرآن: 2/45.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/343.
(4) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/342.
(5) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 10/204.

قلوبهم لينزجروا، وليندموا على جَريرتِهم معه ومع أخيه، وتخويفًا من العودة إليها مرَّةً أخرى، وذكره للاسم الجليل ﴿ٱللَّهُ﴾ مُسندًا إليه فعلُ المغفرة؛ إمّا مِن باب الحَيْطة في الأمر ليسدَّ عليهم منازعَ الجبروت والطُّغيان اللّذين كانا عليهما، وإمّا تعظيمًا وتبرُّكًا بالاسم الجليل لكونه هو القادر على قبول التَّوبة المخلصة.

دلالة اللّام:

الرّاجعُ إلى الحقِّ مخصوصٌ بالمغفرة

اللّام في قوله: ﴿لَكُمۡۖ﴾ للتَّخصيص، لكونهم المخصوصين بالدُّعاء بالمغفرة المُستحقّين لها لمّا أذعنوا إلى التَّوبة، ورأى في أعينهم النَّدم على ما فرط منهم، ومنهم مَن جعلها للتَّعدية، وهي الَّتي تعدّي العامل إلى المعمولِ؛ لأنَّ الفعلَ يضعفُ بتقديمِ المفعول عليه، فبعد أن أظهر لهم عفوه وصفحه عاد إليهم بغفران اللّه تعالى وقبول توبتهم، وإنابتهم إلى اللّه تعالى.

فائدة العطف بين الجُملِ:

التَّلويحُ بالرَّحمةِ مرسالُ التَّبشيرِ بالمغفرة

عُطفت هذه الجملة ﴿وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ على سابقتها للدُّعاء، والجملة هذه بمثابة التَّعليل لقوله تعالى: ﴿يَغۡفِرُ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ﴾؛ أيْ: يغفر اللّه تعالى لكم لأنَّه أرحم الرّاحمين، وهي هنا لتحقيقِ حصول المغفرة؛ لأنَّه عفا عنهم، فاللّه أوْلى بالعفو والرّحمة لهم، وبيانٌ للوثوق بإجابة الدعاء[1].

فائدة التَّعريف بالضَّميرِ وبتعريفِ الطَّرفيْن:

رحمته ﷻ محيطةٌ بعباده المُنيبين عند الاعترافِ والأوبَةِ

جاءت الجملة ﴿وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ معرَّفة الطَّرفيْن بضمير الفصل الغائب؛ لأنَّ الغائب المُتحدَّث عنه سبق ذِكرُه في قوله تعالى: ﴿يَغۡفِرُ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ﴾ حتَّى يرتبط الكلام ببعضه، وفيه ما يدلّ على تَشوُّق النَّفس لمعرفة ما بعده. وبالجملة الاسميَّة؛ لتوكيد مزيد رحمته

(1) القاسميّ، محاسن التَّأويل: 6/215.

ﷻ بعباده المُنيبين إذا اعترفوا بذنبهم، والمُراد: تقرير المُسنَد إليه؛ أيْ: تحقيق مفهومه ومدلوله، وجعل هذا المدلول ثابتًا مُحقَّقًا مُستقرًّا لا يُظنَّ به غيره، وهو تخصيص المُسند إليه بحكم الرَّحمة، وأنَّها له وحده سبحانه "فالذَّنْبُ مَغْفورٌ لإخْبارِ اللّه في شَرائِعِهِ السّالِفَةِ دونَ احْتياجٍ إلَى وحْيٍ سِوَى أنَّ الوَحْيَ لِمَعْرِفَةِ إخْلاصِ تَوْبَتِهِمْ"[1].

نكتة استعمال صيغة التَّفضيل:

الله سبحانه جدير بإدرار النِّعم بعد الإعاذة من النِّقم

استُعمل أفعلُ التَّفضيل في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾؛ للتَّعظيم والتَّشريف، والمُراد: وهو أرحم الرّاحمين؛ فإنَّه يغفر الصَّغائر والكبائر، ويتفضَّل على التّائب، وهو هنا مُستعمل في العموم برحمته لجميع العباد، ولا سيَّما التّائب فهو سبحانه جديرٌ بإدرار النِّعم بعد الإعاذة من النِّقم، وأفعل التّفضيل "إذا أُضيف إلى جنسه لم يكن بعضه؛ فيصير المعنى: هو أرحم من الرّاحمين، وإذا ذُكر بعده جنسه أو واحدٌ من آحاد جنسه وجب إضافته إليه، الأصل فيه الأفضلية على ما أضيف إليه"[2].

دلالةُ جمعِ ﴿ٱلرَّٰحِمِينَ﴾:

رحمته سبحانه أعظمُ ممّا يُتصوَّر وأوسعُ ممّا يعرفه البشرُ

ورد اسم الفاعل ﴿ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ جمعًا؛ لكثرة الرّاحمين من الموصوفين بهذا الوصف، فجاء أفعل مميِّزًا له ﷻ عن سائر هؤلاء الرّاحمين، إذ رحمته ﷻ أوسع وأشمل وأعظم ممّا يُتصوَّر، وهي أوسع من جميعِ أنواع الرَّحمةِ الّتي يعرفها البشر؛ ولذا ورد الجمع مُضافًا إلى أفعل التَّفضيل؛ ليعكس هذا الشُّمول والعِظَم والسَّعة، فلا تصل رحمة مخلوق مهما كان إلى شيءٍ من رحمةِ الخالق ﷻ.

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 13/45.
(2) الزّركشيّ، البرهان في علوم القرآن: 4/169، 168.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيّةُ:

المَنُّ والتَّفضُّل:

التَّفضُّلُ زيادةٌ على المطلوبِ، والمِنَّةُ تذكيرٌ بالتَّفضيلِ

المِنَّة: هي النِّعمة المقطوعة من جوانبها كأنَّها قُطعتْ منها، ولهذا جاءت على مثال قِطْعة، وأصل الكلمة: القَطْع، ومنه قوله تعالى: ﴿لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ۝٨﴾ [فصلت: 8]؛ أيْ: غير مقطوع، وُسمّي الدَّهر مَنونًا؛ لأنَّه يقطع بين الإلف، وسُمّي الاعتداد بالنّعمة مَنًّا؛ لأنَّه يقطع الشّكر عليها[1].

والمَنُّ يأتي و"يَحْتَمِلُ تأْويلَيْن: أحدهما: إحسانُ المُحْسِن غيرَ مُعْتَدٍّ بالإحسان، يُقالُ: لَحِقَتْ فُلانًا من فُلانٍ مِنَّةٌ إذا لَحِقَتْه نعمةٌ باسْتِنْقاذٍ من قَتْلٍ أو ما أشبهه. والثّاني: مَنَّ فلانٌ على فُلانٍ إذا عَظَّمَ الإحسان وفخَرَ بِهِ وأبدأ فيهِ وأعاد حَتَّى يُفْسده ويُبَغِّضه، فالأوّل حَسَنٌ؛ والثّاني قَبيحٌ. وفي أسماء اللّه تعالى: الحَنّانُ المَنّانُ؛ أيْ: الَّذي يُنْعِمُ غيرَ فاخِرٍ بالإنعام"[2].

"والمِنَّةُ: النّعمة الثّقيلة، ويُقال ذلك على وجهيْن: أحدهما: أن يكون ذلك بالفعل، فيُقال: مَنَّ فلانٌ على فلانٍ: إذا أثقله بالنّعمة، وعلى ذلك قوله: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: 164]، والثّاني: أن يكون ذلك بالقول، وذلك مُستقبَح فيما بين النّاس إلّا عند كفران النّعمة، ولقُبح ذلك قيل: المِنَّةُ تهدم الصّنيعة"[3].

وأمّا الفضلُ فيَدُلُّ على زيادَةٍ في شَيْءٍ. من ذَلِكَ الفَضْلُ: الزّيادَةُ والخَيْرُ. والإفْضالُ: الإحْسانُ[4].

وقيل: "الفَضْلُ: الزّيادة عن الاقتصاد، وذلك ضربان: محمودٌ:

(1) العسكريّ، الفروق اللُّغويّة، ص: 209، 208.
(2) ابن منظور، لسان العرب: (منن).
(3) الرّاغب، المُفردات: (منن).
(4) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (فضل).

كفضل العِلم والحِلم، ومذمومٌ: كفضل الغضب على ما يجب أن يكون عليه. والفَضْلُ في المحمود أكثر استعمالًا، والفُضولُ في المذموم، والفَضْلُ إذا استُعمل لزيادة أحد الشّيئَيْن على الآخر، وممّا نحن فيه الفضل من حيث الذّات، كفضل رجل على آخر، وهو عرضٌ يمكن اكتسابه[1].

التَّثريب، واللَّوم، والتَّوبيخ:

التَّثْريبُ: اللَّوْمُ والأَخْذُ على الذَّنْبِ[2]؛ وهو التَّقريع، ولا يُعرف من لفظه إلّا قولهم: الثَّرْبُ، وهو شحمةٌ رقيقةٌ"[3]، والتَّثْريبُ كالتَّأْنيب والتَّعْييرِ والاسْتِقْصاءِ في اللَّوْم. والثّارِبُ: الموَبِّخُ. يُقالُ: ثَرَبَ وثَرَّب وأَثْرَبَ إذا وبَّخَ. والتَّبْكيتُ قَريبٌ مِنْهُ"[4].

اللَّوم يختص بالعتاب، والتَّثريب شاملٌ للَّوم والتّوبيخ والتّقريع، والتّوبيخ ما اشتمل على التَّهديد

وأمّا اللَّومُ فهو العَتْبُ والعَذْل، تَقولُ: لُمْتُهُ لَوْمًا، والرَّجُلُ مَلومٌ. والمُليمُ: الَّذي يَسْتَحِقُّ اللَّوْمَ. واللَّوْماءُ: المَلامَةُ، ورَجُلٌ لوَمَةٌ: يَلومُ النّاسَ. ولوْمَةٌ: يُلامُ[5]، واللَّوم: "عذْلُ الإنسان بنسبته إلى ما فيه لوم. يُقال: لُمْتُهُ فهو مَلومٌ. قال تعالى: ﴿فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُم﴾ [إبراهيم: 22] فإنه ذكر اللّوم تنبيهًا على أنَّه إذا لم يُلاموا لم يفعل بهم ما فوق اللّوم، والتَّلاوُمُ: أن يلوم بعضُهم بعضًا، ويُقال: رجل لوَمَةٌ: يَلومُ النّاسَ، ولوْمَةٌ: يَلومُهُ النّاسُ، نحو سُخَرَة وسُخْرَة، وهُزَأة وهُزْأة، واللَّوْمَةُ: المَلامَةُ، واللّائِمَةُ: الأمر الّذي يُلامُ عليه الإنسان"[6].

وأمّا التَّوْبيخُ: فهو التَّهْديدُ والتّأنيب واللَّوْمُ؛ يُقالُ: وبَّخت فُلانًا بسوءِ فِعْلِهِ تَوْبيخًا"[7].

(1) الرّاغب، المُفردات: (فضل).
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (ثرب).
(3) الرّاغب، المُفردات: (ثرب).
(4) ابن منظور، لسان العرب: (ثرب).
(5) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (لوم).
(6) الرّاغب، المُفردات: (لوم).
(7) ابن منظور، لسان العرب: (وبخ).

قال أبو هلال: "التّثريب شبيه بالتّقريع والتّوبيخ، تقول: وبّخه وقرّعه وثرّبه بما كان منه، واللّوم قد يكون لما يفعله الإنسان في الحال، ولا يُقال لذلك تقريع وتثريب وتوبيخ، واللّوم يكون على الفعل الحسن، ولا يكون التّثريب إلا على قبيح، ويجوز أن يُقال: التّثريب: الاستقصاء في اللّوم والتّعنيف، وأصله من الثّرب وهو شحم الجوف؛ لأنَّ البلوغ إليه هو البلوغ إلى المواضع الأقصى من البدن، واللّوم هو تنبيه الفاعل على موقع الضّرر في فعلة وتهجين طريقته فيه، وقد يكون اللّوم على الفعل الحسن كاللّوم على السّخاء، والذّم لا يكون إلا على القبيح، واللّوم أيضًا يواجه به الملوم"[1].

(1) العسكريّ، الفروق اللُّغويَّة، ص: 50.

﴿ٱذۡهَبُواْ بِقَمِيصِي هَٰذَا فَأَلۡقُوهُ عَلَىٰ وَجۡهِ أَبِي يَأۡتِ بَصِيرٗا وَأۡتُونِي بِأَهۡلِكُمۡ أَجۡمَعِينَ ٩٣﴾ [يوسف: 93]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

ثمرةُ الحوارِ كشفُ المستورِ عن الأبِ المكلوم

"لمّا أقرَّ أعينهم بعد اجتماع شملهم بإزالة ما يخشونه دنيا وأُخرى، بقي ما يخص أباهم مِن ذلك، فكأنّه وقع السّؤال عنه فأُجيب بقوله: ﴿ٱذۡهَبُواْ بِقَمِيصِي﴾، ولمّا كان قوله هذا ربما أوقع في أفهامهم قميصه الّذي سلبوه إيّاه، احترز عن ذلك بقوله: ﴿هَٰذَا فَأَلۡقُوهُ﴾؛ أيْ: عقب وصولكم"[1]، فالمناسبة بين الآيةِ والسّابق هو بيانُ نتيجةِ الحوارِ الفعليّ، إذ لم يقتصر الحوارُ على المذكورِ، بل أثمر مقصودًا آخر؛ وهو الإتيانِ بجميعِ الأهلِ إلى أرضِ مصر.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَأَلۡقُوهُ﴾: الإلْقاءُ: طرح الشّيء حيث تلقاه؛ أيْ: تراه، ثمّ صار في التّعارف اسمًا لكلّ طرح"[2]، "وَيُقال: ألقيتُ إلَيْهِ المَوَدَّة وبالمودّة، وفي التَّنْزيل العَزيز: ﴿تُلۡقُونَ إِلَيۡهِم بِٱلۡمَوَدَّةِ﴾ [الممتحنة: 1]. وألقى اللّه الشَّيْء في القُلوب قذفه"[3]، والمُراد في الآيةِ، هو رمي القميصِ بلطفٍ على وجه يعقوب عليه السلام ليرتدَّ إليه بصرُه.

المَعْنى الإجْماليّ:

آن للغمِّ أن يُدفع وللكآبةِ أن تُرفع

انتقل حوارُ يوسف عليه السلام من الصَّفح والعفوِ إلى جلبِ الأهل جميعًا إلى أرض مصر، ومعنى الآية: اذهبوا أيُّها الإخوة بهذا القميص الخاصِّ بي فضعوه على وجه أبي الَّذي اشتدَّ كربه، وطال غمُّه

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 10/204.
(2) الرّاغب، المُفردات: (لقي).
(3) مجمع اللّغة العربيّة بالقاهرة، المعجم الوسيط: (لقي).

وحُزنه بسبب فراقي عنه، فسيردُّه اللّه بصيرًا كما كان قبل، ثمَّ ائتوني بأهلكم أجمعين، وقد تحقَّق له ما أراد وجمع اللّه شمله الممزَّق، وعوَّض اللّه تعالى الأب المكلوم بردِّ ابنه إليه وبما رآه عليه من العزِّ والرِّفعة:

وَلَيْسَ على اللّه بِمُسْتَنْكَرٍ *** أَنْ يَجْمَعَ الْعالَمَ فِي واحِدِ

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيّ:

علَّة الفَصْل:

أعمالُ الرِّجال تسبقُ أقوالَهم وتسارع أفواههم

فُصلت هذه الجملة ﴿ٱذۡهَبُواْ بِقَمِيصِي هَٰذَا﴾ عن سابقتها لشبه كمال الاتِّصال؛ لأنَّ مفهوم الجملة الَّتي سبقت أثارت سؤالًا في نفس السّامع مفادُه: فما كان جوابه بعد ذلك؟ فجاء الجواب: ﴿ٱذۡهَبُواْ بِقَمِيصِي هَٰذَا﴾؛ فانتقل من الحوار معهم إلى الأمر الأهمِّ بالنِّسبة له وهو أمر أبيه عليه السلام.

براعة تَكرارِ الأمرِ بالذَّهاب في الآيات:

ذهاب الغايةِ متوقِّفٌ على ذهاب المبدأ

وقع تَكرارُ بعضِ الألفاظِ على لسان يعقوب ويوسف عليهما السلام، فمن ذلك ما قاله يعقوب عليه السلام لأبنائه أمرًا: ﴿ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ﴾، وهو لمعرفة أخبار يوسف وأخيه؛ لاعتقاده الكامل بحياة ولده، وهو هنا في موقف البائس الحزين أسفًا على فراق ابنه المُحبَّب إلى نفسه.

وكذلك قال يوسف عليه السلام لإخوته أمرًا: ﴿ٱذۡهَبُواْ بِقَمِيصِي هَٰذَا﴾ وفي هذه المرَّة فإنَّما هو ذهاب للبشارة، وإدخال السُّرور على هذا الأب المجروح، وفرقٌ بين الذَّهابيْن؛ فالأوّل ذهابُ الألم والتَّأسُّف على الفراق، والثّاني للتَّبشير والسُّرور، وكلاهما ذهاب وكلٌّ بقصده وقد كان الذَّهاب الأوّل مبدأ الذَّهاب الثّاني، ولولا الاستجابة للأوَّل لمّا تحقَّق الثّاني.

وفي ذهابهم الأوّل تلبية لطلب أبيهم الَّذي أحزنوه، وفي ذهابهم

الثّاني إعلانٌ لتوبتهم الخالصة، فانطلقوا وهم ينقلون هذا التَّحوّل الَّذي عمَّ خيره وبِشرُه جميع أبناء يعقوب عليه السلام، صدر أمرٌ واحدٌ وهو الذَّهاب بلفظٍ واحدٍ في زمنٍ متقاربٍ من الأب حين طلب منهم التَّحسس والاستخبار عن هذا الولد المفقود الغائب، ومن الابن وهو ذهاب البشارة والسُّرور، وإذهاب العمى ورَدِّ البصيرة، وإذهاب الفرقة الَّتي طالت بين هذا الأب وهذا الابن، فتحقَّق فرجُ اللّه للجميع.

معنى الباءِ ودلالتُها:

الباءُ في قوله تعالى: ﴿ٱذۡهَبُواْ بِقَمِيصِي هَٰذَا﴾ إمّا للمصاحبة أو للملابَسة؛ أيْ: اذهبوا مصحوبين أو ملتبسين به، أو للتّعدية على ما قيل؛ أيْ: أذْهِبوا قَميصي هَذا ﴿فَأَلۡقُوهُ عَلَىٰ وَجۡهِ أَبِي يَأۡتِ بَصِيرٗا﴾؛ أيْ: يَصِرْ بَصيرًا، ويَشْهَدْ لَهُ ﴿فَٱرۡتَدَّ بَصِيرٗا﴾ [يوسف: 96]، أوْ: يَأْتِ إلَيَّ وهو بَصيرٌ، ويَنْصُرُهُ قَوْلُهُ: ﴿وَأۡتُونِي بِأَهۡلِكُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾[1].

رمزيَّةُ القميصِ في القصَّة كلِّها:

عندما يكون القميصُ من جنود الله تعالى

يُعدُّ القميص إحدى الإشارات العجيبةِ في قصّة يوسف عليه السلام، فهو قُطْب الرَّحى الَّذي تدور عليه القصَّة كلُّها من أول تلطيخه بالدَّم الكاذب، وبالشَّقِّ مع زليخا، وكان سببًا في نجاته من مكرِها، وهنا كان سببًا في ردِّ بصر أبيه يعقوب عليه السلام.

قال الطّاهر ابن عاشور: "هَذا يَدُلُّ على أنَّهُ أعْطاهُم قَميصًا، فَلَعَلَّهُ جَعَلَ قَميصَهُ عَلامَةً لِأبيهِ على حَياتِهِ، ولَعَلَّ ذَلِكَ كانَ مُصْطَلَحًا عَلَيْهِ بَيْنَهُما. وكانَ لِلْعائِلاتِ في النِّظامِ القَديمِ عَلاماتٌ يَصْطَلِحونَ عَلَيْها ويَحْتَفِظونَ بِها لِتَكونَ وسائِلَ لِلتَّعارُفِ بَيْنَهُم عِنْدَ الفِتَنِ والِاغْتِرابِ، إذْ كانَتْ تَعْتَرِيهِم حَوادِثُ الفَقْدِ والفِراقِ بِالْغَزْوِ والغاراتِ وقَطْعِ الطَّريقِ، وتِلْكَ العَلاماتُ من لِباسٍ ومِنْ كَلِماتٍ

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 13/52.

يَتَعارَفونَ بِها وهيَ الشِّعارُ، ومِنْ عَلاماتٍ في البَدَنِ وشاماتٍ، وفائِدَةُ إرْسالِهِ القَميصَ إلَى أبيهِ أنْ يَثِقَ أبوهُ بِحَياتِهِ ووُجودِهِ في مِصْرَ، فَلا يَظُنُّ الدَّعْوَةَ إلَى قُدومِهِ مَكيدَةً من مَلِكِ مِصْرَ، ولِقَصْدِ تَعْجيلِ المَسَرَّةِ لَهُ"[1].

ثم يقول رحمه الله تعالى: "والأظْهَرُ أنَّهُ جَعَلَ إرْسالَ قَميصِهِ عَلامَةً على صِدْقِ إخْوَتِهِ فيما يُبَلِّغونَهُ إلَى أبيهِم من أمْرِ يوسُفَ عليه السلام بِجَلْبِهِ؛ فَإنَّ قُمْصانَ المُلوكِ والكُبَراءِ تُنْسَجُ إلَيْهِم خِصّيصًا، ولا توجَدُ أمْثالُها عِنْدَ النّاسِ، وكانَ المُلوكُ يَخْلَعونَها على خاصَّتِهِم، فَجَعَلَ يوسُفُ عليه السلام إرْسالَ قَميصِهِ عَلامَةً لِأبيهِ على صِدْقِ إخْوَتِهِ أنَّهُم جاؤوا من عِنْدِ يوسُفَ عليه السلام بِخَبَرِ صِدْقٍ"[2].

دلالة إضافة القميص إلى ياء المتكلِّم:

أُضيف القميص إلى ياء المتكلِّم في قوله تعالى: ﴿ٱذْهَبُواْ بِقَمِيصِي هَٰذَا﴾، وهو من باب تعريف المضافِ تشريفًا وتعظيمًا، مع ما فيه مِن إفادة الإيجاز والاختصار؛ لينفذوا مباشرة إلى الأب طمعًا في إعادة النّور إلى بصره، استعدادًا للقائه بابنه الغائب؛ ليراه عيانًا بلا حُجُبٍ مادّيَّة أو معنويَّة.

مجاورةُ الكرام شرفٌ يُرام وبهاءٌ يُنال

سرُّ ذكر اسم الإشارة القريب:

الأصل في الإشارة أن تكون لمحسوسٍ، أو بتنزيل غير المحسوس منزلةَ المحسوس، والإشارةُ إلى القميصِ في قوله تعالى: ﴿ٱذْهَبُواْ بِقَمِيصِي هَٰذَا﴾، لتمييزِ القميصِ، أو لإعطائه مزيدَ عنايةٍ واهتمامٍ، فإنَّ الإشارةَ تقتضي التَّعيين، والإشارة قريبة لكونهم يرون هذا القميص أمامهم لا يغيب عن عيونهم، والتَّعريف بها أو ذِكْرها ليتميَّز هذا القميص في أذهانهم أكمل تمييز، ويتصوَّروا أمرَه أكثر

الوسيلة المقصودةُ لا يُتصرَّف بها ولا تُستبدلُ بغيرِها

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/46.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/46.

تصوّرًا فلا يغيب شيءٌ مِن أوصافه عنهم لِما له من أثر في نفس يعقوب ويوسف عليهما السلام، إلى جانب ما للقميص من عِظَم القَدْر، وذلك حين أُضيف إلى يوسف عليه السلام؛ فاستمدَّ عَظَمَته من شيئَيْن: الأوّل: حين أُضيف إلى يوسف عليه السلام، والثّاني: حين أُشير إليه باسْم الإشارة.

والّذي يظهر أنَّه شكَّ في تصرُّفهم في أمرِه فيجتهدوا إن ضاع باستعمالِ قميصٍ آخر، فأراد أن يُنبِّههم على أنَّ القميص ليس مجرَّد وسيلة، بل هو وسيلةٌ مقصودةٌ لا يحلُّ محلَّها قميصٌ آخر.

معنى الفاء ودلالتُها:

الفاء في قوله تعالى: ﴿فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي﴾ عاطفة، ومعناها التَّعقيب، والتَّعقيب في كلِّ شيء بحسبه؛ والمعنى: أنَّ عليهم أن يأخذوا القميصَ ويُسرعوا به دون تريُّثٍ أو تأخُّرٍ، ليُلْقَى على وجه يعقوب عليه السلام ليرتدَّ بصيرًا، فالفاء طَوَتْ رحلةً طويلةً من التَّعب والأرق، وكأنَّه يُشير إلى أنَّه ما ينبغي عليك أن تفتر وأنت تسير في حاجة أبيك، وإنَّما تحتسب تعبك ونصبك، وكلّ ما تلاقيه فهو غير محسوب إذا قورن بما تُدخله على أبيك من فرح.

في حاجة والديْك، احتسبْ تَعبَك ونَصَبَك

بلاغةُ اختيارِ مُفردةِ الإلقاء دون الطَّرح:

استَعملتِ الآيةُ لفظ الإلقاء، وهو: طرح الشّيء حيث تلقاه؛ أيْ: تراه، ثم صار في التّعارف اسمًا لكلّ طرح[1]، وجاء التَّعبير بالإلقاء في قوله تعالى: ﴿فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي﴾ لما فيه من اللُّطفِ والخفَّة وتحقيق الغرض، وتحقيق الفرح والبُشرى، وإدخال السُّرور على قلب الأب الآسف الحزين، ولردِّ هذا البصر الَّذي ذهب من شدَّة الحزن، وهذا فعل النُّفوس الكبار، وأخلاق الأنبياء الكرام، وهل بُعثوا إلّا لعلاج الدّاءات، وإدخال السُّرور على النُّفوس المكلومة، والقلوب

الإلقاءُ فيه من لُطفِ المَسلكِ ورقَّةِ المعاملةِ ما لا يوجد في الطَّرح

(1) الرّاغب، المُفردات: (لقي).

الحزينة، فالفرق إذًا بين الإلقاءيْن كبيرٌ والبون شاسعٌ، ومن هنا قال أهل التَّحقيق: "إنَّما عَرَفَ أنَّ إلْقاءَ ذَلِكَ القَميصِ على وجْهِهِ يوجِبُ قوَّةَ البَصَرِ بِوَحْيٍ من اللّه تعالى ولَوْلا الوَحْيُ لَما عَرَفَ ذَلِكَ، لِأنَّ العَقْلَ لا يَدُلُّ عَلَيْهِ ويُمْكِنُ أنْ يُقالَ: لَعَلَّ يوسُفَ عليه السلام عَلِمَ أنَّ أباهُ ما صارَ أعْمَى إلّا أنَّهُ من كَثْرَةِ البُكاءِ وضيقِ القَلْبِ ضَعُفَ بَصَرُهُ، فَإذا أُلْقِيَ عَلَيْهِ قَميصُهُ فَلا بُدَّ أنْ يَنْشَرِحَ صَدْرُهُ وأنْ يَحْصُلَ في قَلْبِهِ الفَرَحُ الشَّديدُ، وذَلِكَ يُقَوّي الرّوحَ ويُزيلُ الضَّعْفَ عَنِ القوَى، فَحينَئِذٍ يَقْوَى بَصَرُهُ، ويَزولُ عَنْهُ ذَلِكَ النُّقْصانُ"[1].

وفرقٌ بين هذا الإلقاء وبين الطَّرح الّذي جاء على لسان إخوة يوسف عليه السلام: ﴿أَوِ ٱطۡرَحُوهُ أَرۡضٗا﴾ [يوسف: 9] الّذي أُريد به الغدر والخسَّة والانتهاء منه إلى الأبد بلا رحمة ولا شفقة، وهذا من تسويلات شيطان أنفسهم، حتَّى لمّا أراد أحدهم الشَّفقة به أشار بإلقائه في غيابات الجُبِّ، مُستعملًا مفردة الإلقاء ﴿وَأَلۡقُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلۡجُبِّ﴾ [يوسف: 10]؛ ليجده بعضُ المارَّة فيقتادوه مِن أرضهم إلى أرض بعيدة فيستريحوا منه أبدَ الآبدين.

فائدة استعمالِ حرفِ الاستعلاءِ:

فرحٌ كاملٌ وبِشرٌ تامٌّ عَمَّ الجميع

مجيء حرف ﴿عَلَىٰ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَأَلۡقُوهُ عَلَىٰ وَجۡهِ أَبِي﴾ يُفيد الاستعلاءَ حقيقةً أو مجازًا، والمُراد به هنا: وضعه على وجهه حقيقةً، والعُلوُّ مرادٌ به شمول القميص وعمومه وإحاطته بجميع وجهه إحاطة السّوار بالمِعْصَم، فلا يفارق شيئًا منه لحصول الفرح الكامل والبِشْر التّامِّ، وللاطمئنان والتّحقّق من كونه أُلقي على وجهه تمامًا.

توجيه تخصيص الوَجْه بالذِّكر:

مفاجأةٌ موجودةٌ وبشارةٌ مقصودةٌ

خُصَّ الوَجْه بالذِّكرِ في قوله تعالى: ﴿فَأَلۡقُوهُ عَلَىٰ وَجۡهِ أَبِي﴾؛ لأنَّه أشرف أعضاء الجسد، ويُعبَّر به على سبيل إطلاق الجزء وإرادة

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 9/211، 210.

الكلِّ وهو الجسد، أو أُطلق لكونه المحلَّ المقصود به العينان بإذهاب العَمَى عنهما وإعادة البصر إليهما. قال الطّاهر ابن عاشور: "وَأمّا إلْقاءُ القَميصِ على وجْهِ أبيهِ فَلِقَصْدِ المُفاجَأةِ بِالْبُشْرَى؛ لِأنَّهُ كانَ لا يُبْصِرُ من بَعيدٍ فَلا يَتَبَيَّنُ رِفْعَةَ القَميصِ إلّا من قُرْبٍ"[1].

معنى الإضافةِ ودلالتُها:

تمامُ الانتماءِ الإخلاصُ في التَّربيةِ والنَّماء

في قوله تعالى: ﴿وَجْهِ أَبِي﴾ إضافتان، الأولى: إضافة الوجه للأب، وهي من إضافةِ الجزءِ للكُلِّ، فأفادت البيانَ، والأخرى: إضافة الأب لضمير المتكلِّم، وهي مِن باب الإضافة الَّتي يُقصد بها تشريف المضاف والمضاف إليه، ولم يَقُلْ: وجه أبينا، أو: وجه أبيكم؛ لإخراجهم مِن حيِّز كلامه؛ إذ لو كان عندهم شيءٌ من الرَّحمة أو الشَّفقة ما فعلوا بأبيهم ما فعلوا مِن شناعة ما ارتكبوه بحقِّ يوسف وأخيه بنيامين، فكيف إذًا يُدخلهم معه في هذه الخصوصيَّة الَّتي لم يراعوها أبدًا؟ كما أنَّ تعبيره جاء بلفظٍ أوجَزَ وأخصَرَ في أداء المُراد تعظيمًا لقَدْرِه.

دلالاتُ غيبٍ ودلائلُ إعجازٍ:

تغيُّرُ الحالِ فرحةُ المآلِ

وقعت هذه الجملة ﴿يَأْتِ بَصِيرًا﴾ جوابًا للأمر في قوله تعالى: ﴿ٱذْهَبُواْ بِقَمِيصِي هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي﴾، والفاعل ضمير مستتر يعود على يعقوب عليه السلام، و﴿بَصِيرًا﴾ حالٌ؛ أيْ: صيرورته بصيرًا، وفي هذه الجملةِ عجيبُ بُشرى، وكبيرُ أملٍ، ودلالةُ حقٍّ على نبوَّة يوسف عليه السلام، فإنَّ علم الغيبِ لا يكون إلّا بوحيٍ[2]، وإلقاء القميص على الأعمى ليرتدَّ إليه بصرُه معجزةُ صدقٍ، فلهذه الجملة الَّتي هي جواب الطَّلب موقعٌ بديع، ودلالاتٌ عظيمة.

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 13/46.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 13/45.

نكتةُ إسنادِ الإتيانِ إلى يعقوبَ عليه السلام:

إتيانُ الأنبياءِ إتيانُ كرامةٍ وعزٍّ، وإتيانُ غيرِهم إتيانُ احتياجٍ وعَوَز

جاء التَّعبيرُ بقوله تعالى: ﴿يَأْتِ بَصِيرًا﴾ دون أن يقولَ (يُبصر)؛ ليُسنِدَ فعلَ الإتيان ليعقوب عليه السلام، فهو بمجرَّد الإبصار يأتي، وذلك ليُخالف بين إتيانه وإتيان أهله، فأسنَد الإتيان لهم مرَّةً أخرى فقال: ﴿وَأْتُونِي﴾، جاء في روح المعاني: "الإتيان في الأوّل مجازٌ عن الصَّيرورة، ولم يذكر إتيان الأب إليه لا لكونه داخلًا في الأهل، فإنه يَجلُّ عن التّابعيّة؛ بل تفاديًا عن أمر الإخوة بالإتيان، لأنَّه نوع إجبار على مَن يُؤتى به فهو إلى اختياره، وفي الثّاني على الحقيقة وفيه التّفادي المذكور، والجَزْم بأنَّه مِن الآتين لا محالة وثوقًا بمحبَّته، وإن فائدة الإلقاء إتيانُه على ما أحبَّ مِن كونه معافًى سليمَ البصر"[1].

معنى العطف ودلالته:

الـعـظـامُ لا يُغيِّرهم الملكُ ولا تُبدِّلهم النِّعم

عطفت هذه الجملة ﴿وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ على قوله: ﴿ٱذْهَبُواْ﴾ لاتفاقهما في الإنشائيَّة لفظًا ومعنى، فكلتاهما من باب الأمر، وعلَّة مجيئهم إليه إتمام الفرحة بلقاء أبيه وإخوته بعد هذا الفراق الَّذي مزَّق شملهم، وأدخل عليهم الحزن والكآبة، فإذا التقوا مرَّة أخرى سُعدوا واستبشروا، وهذا الأمر بطلبِ إتيانِ أهلهم جميعًا يدلُّ على أنَّ يوسف عليه السلام ما غيَّره الملك وأُبَّهته، فلم يجعله متكبِّرًا عن لقاءِ أحبابِه وأقاربه؛ بل جمعهم جميعًا في بلدٍ واحدٍ بعد طول فرقة وعظيم افتراق.

معنى الباء:

الباء في قوله تعالى: ﴿وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ للمصاحبة، والمعنى: لا يتخلَّف منهم أحدٌ.

دلالة إضافة الأهلِ للضَّمير:

سَعةُ الكرمِ صادرةٌ عن سعةِ الخُلُقِ لا عن كثرةِ العَرَضِ

إضافة الأهل لضمير المخاطَبين في قوله تعالى: ﴿وَأْتُونِي

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 13/53، 52.

﴿بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ للتَّخصيص؛ أيْ: أهلهم المخصوصون بهم من النِّساء والذَّراري وغيرهم ممَّن ينتظمه لفظ الأهل، وعبَّر بالإضافة إليهم نظرًا لعدم وجود أهله هو معهم لوجودهم معه في مصر، فالخطاب خاصٌّ بهم، ويُشير التَّعبير إلى دخولِ كلِّ مَن يصلحُ أن يكون داخلًا في مفهوم خطابِ الأهل، لغةً وعُرْفًا، وهذا في غايةِ الإكرامِ في جمع الشّمْل.

نكتة التَّعبير بأجمعين دون جميعًا:

التَّعبير بقوله: ﴿أَجْمَعِينَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ للتَّأكيد على مجيء الأهل جميعِهم بنسائهم وأولادهم وما يمتلكونه، فهي أبلغ من أن يقول: (جميعًا)، فإنَّ (أجمع) اسم معرفة يؤكَّد به الاسم المعرفة، ولا ينصرف لأنَّه أفعل معرفة، ولا يتبع نكرةً أبدًا، ويُجمع فيُقال: عندي إخوانُك أجمعون، ولا يكون إلّا تابعًا، و(أجمع) الَّذي للتَّوكيد لا يُضاف ولا يدخل عليه عاملٌ"[1].

من تمامِ كرمِ اللهِ تعالى اصطفاء الأنقياءِ وانتقاءُ الأصفياء

فجاءت (أجمع) أفعل تفضيل، وهي هنا أبلغ من المصدر جميعًا، فكأنَّهم لن يُبقوا أحدًا يخصُّهم ممّا يدخل في مفهوم الأهل عُرفًا أو لغةً إلّا جاؤوا به كما طلب منهم يوسف عليه السلام ذلك.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيّةُ:

الإلقاء والطَّرح:

يدلُّ الإلقاء على عموم طرحِ شَيءٍ، والأصْلُ أنَّ قَوْمًا من العَرَبِ كانوا إذا أتَوُا البَيْتَ لِلطَّوافِ قالوا: لا نَطوفُ في ثيابٍ عَصَيْنا اللّه فيها، فَيُلْقونَها، فَيُسَمَّى ذَلِكَ المُلْقَى لَقًى[2]، واللِّقاءُ: مقابلة الشّيْء ومصادفته معًا، وقد يُعبّر به عن كلّ واحدٍ منهما، يُقال: لَقيَهُ يَلْقاهُ لِقاءً ولُقيًّا ولُقْيَةً، ويُقال ذلك في الإدراك بالحسّ، وبالبصر،

الإلقاءُ أعمُّ من الطَّرحِ فيكون محسوسًا ومعنويًّا، ويشوبُ الطَّرحَ البُعدُ والقوّة

(1) العسكريّ، الفروق اللُّغويَّة، ص: 156، 255.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (لقى).

وبالبصيرة، واللِّقاءُ: الملاقاة. والإلْقاءُ: طرح الشَّيء حيث تلقاه؛ أيْ: تراه، ثم صار في التّعارف اسمًا لكلِّ طرح[1].

ويدلُّ الطَرحُ على نَبْذِ الشَّيْءِ وإلْقائِهِ. يُقالُ: طَرَحَ الشَّيْءَ يَطْرَحُهُ طَرْحًا. ومِنْ ذَلِكَ الطَّرَحُ؛ وهوَ المَكانُ البَعيدُ. وطَرَحَتِ النَّوَى بِفُلانٍ كُلَّ مَطْرَحٍ، إذا نَأَتْ بِهِ ورَمَتْ بِهِ[2].

والطّرْحُ: الشَّيْءُ المطروحُ لا حاجَةَ لأحدٍ فيهِ، وطَرَّحَه تَطْريحًا إذا أكثر من طَرْحه. ويُقالُ: اطَّرَحَه؛ أيْ: أبْعَدَه، وهوَ افْتَعله؛ وشَيْءٌ طَريحٌ وطُرَّحٌ: مَطْروحٌ. والطَّرَحُ، بِالتَّحْريكِ: البُعْدُ والمكانُ البَعيدُ، والطَّروحُ من البِلادِ: البعيدُ. وبَلَدٌ طَروحٌ: بَعيدٌ. وطَرَحَ بِهِ الدَّهرُ كلَّ مَطْرَح؛ إذا نأى عَنْ أهله وعَشيرَتِهِ. ونيَّةٌ طَروحٌ: بَعيدَةٌ[3]، وعليه فالإلقاءُ أعمُّ من الطَّرح لاشتمالِه على المعنويّات والمحسوسات، أمّا الطّرح فيشوبه معنى البُعد والقوَّة.

(1) الرّاغب، المُفردات: (لقي).
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (طرح).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (طرح).

﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ ۖ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾﴾ [يوسف: 94 - 95]

مُناسَبَةُ الآيَتينِ لما قَبْلَهُما:

بمجرَّد التَّحرُّكِ صوبَ الأبِ المكلومِ تحرَّكتِ مشاعرُ الصِّدقِ وأحاسيسُ الصّفاء

لمّا أمر يوسف عليه السلام إخوته بأن يذهبوا لإلقاء القميص على أبيهم، وأن يأتوا بأهلهم أجمعين، تحرَّكوا تجاه أبيهم عازمين على تنفيذِ الأمر اليوسفيّ، حينها بدأت مشاعر الأبوّة الصّادقة، وأحاسيس النُّبوّة بالتّحرّك تجاه الخير الآتي، فذكرت الآيةُ ما كان مِن يعقوب عليه السلام مِن ذِكْر ما يجده من ريح يوسف عليه السلام، وما كان من جوابِ مَنْ حوله من النّاس الّذين لا يفقهون حقيقةَ الأمر، ولا يُدركون ما يُدركه من واقع الحال، فالمناسبة بين الآيات هي بيانُ تحرُّك الإخوة بعد أمْرِ أخيهم، دون تريُّثٍ أو تأخُّر.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَصَلَتِ﴾: الفاءُ والصّادُ واللّامُ كَلِمَةٌ صَحيحَةٌ تَدُلُّ على تَمْييزِ الشَّيْءِ من الشَّيْءِ وإبانَتِهِ عَنْهُ. يُقالُ: فَصَلْتُ الشَّيْءَ فَصْلًا. والفَيْصَلُ: الحاكِمُ. والفَصيلُ: ولَدُ النّاقَةِ إذا افْتُصِلَ عَنْ أُمِّهِ. والمِفْصَلُ: اللِّسانُ، لِأَنَّ بِهِ تُفْصَلُ الأُمورُ وتُمَيَّزُ[1]، والمُراد في الآيةِ هو مفارقة العيرِ المكانَ الّذي كانوا فيه، فالانفصال هو الافتراق، والمِفْصَل هو مكان الافتراق[2].

2) ﴿ٱلْعِيرُ﴾: العَيْنُ والياءُ والرّاءُ أَصْلانِ صَحيحانِ، يَدُلُّ أَحَدُهُما على نُتوِّ الشَّيْءِ وارْتِفاعِهِ، والآخَرُ على مَجيءٍ وذَهابٍ[3]، وهذان

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (فصل).
(2) الرّاغب، المُفردات، وابن منظور، لسان العرب: (فصل).
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (عير).

المعنيان حاضران في العير، والعيرُ: القوم الّذين معهم أحمال الميرَة، وذلك اسمٌ للرّجال والجِمال الحاملة للميرَة، وإن كان قد يُستعمل في كلٍّ واحدٍ مِن دون الآخر. والعَيْرُ يُقال للحمار الوحشيّ، وللنّاشز على ظهر القدم، ولإنسان العين[1]، والمقصودُ في الآيةِ: القافلة بمجموعِها وما فيها من الميرَة والحمولةِ والرِّجال.

3) ﴿لَأَجِدُ﴾: الواوُ والجيمُ والدّالُ، يَدُلُّ على أصْلٍ واحِدٍ، وهوَ الشَّيُّ يُلْفيهِ. ووَجَدْتُ الضّالَّةَ وِجْدانًا[2]، وهو يأتي على أضرُبٍ من المعاني، ومعناه في الآيةِ: الوِجدان بعد الفقْد، والتَّعبير بقوله: ﴿لَأَجِدُ﴾ للتَّحقيق بحصول البشارة بحياة يوسف عليه السلام من الرّيح الَّتي أُرسلت إليه من اللّه تعالى إكرامًا وتحنُّنًا.

4) ﴿تُفَنِّدُونِ﴾: الفاءُ والنّونُ والدّالُ أصْلٌ صَحيحٌ يَدُلُّ على ثِقَلٍ وشِدَّةٍ، ويُقالُ بَعْضُهُ على بَعْضٍ. من ذَلِكَ الفِنْدُ: الشِّمْراخُ من الجَبَلِ، وقالَ قَوْمٌ: هوَ الجَبَلُ العَظيمُ، وبِهِ سُمّي الرَّجُلُ فِنْدًا. ومِمّا يُقاسُ عَلَيْهِ التَّفْنيدُ، وهوَ اللَّوْمُ، لِأنَّهُ كَلامٌ يَثْقُلُ على سامِعِهِ ويَشْتَدُّ. والفَنَدُ: الهَرَمُ، وهوَ ذاكَ القياسُ، ولا يَكونُ هَرَمًا إلّا ومَعَهُ إنْكارُ عَقْل"[3].

فالتَّفْنيدُ: نسبة الإنسان إلى الفَنَدِ، وهو ضعف الرّأي. قال تعالى: ﴿لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ﴾، قيل: أن تلوموني[4]، وقيل: الضّعف والهَرَم والكذب وذهاب العقل، وكل معاني الإفساد تدخل في التّفنيد، لأنّ أصل ذلك كله الفساد، والفساد في الجسم: الهَرَمُ وذهاب العقل والضّعف[5].

المَعْنى الإجْماليّ:

تُبيِّن الآية أن الإخوة تحرَّكوا تجاه أبيهم عليه السلام لإلقاء القميصِ عليه، ليرتدَّ إليه بصرُه، وليأتوا بأهلهم للعيشِ في مجتمعِ مصر الجديد بالنّسبةِ إليهم، وحين وجد يعقوب عليه السلام وهو في دياره ريحَ يوسف عليه السلام، "والتَّحْقيقُ أنْ يُقالَ: إنَّهُ تعالى أوْصَلَ تِلْكَ الرّائِحَةَ إليه على سبيل إظهار المعجزات لا لأنَّ وُصولَ الرّائِحَةِ إلَيْهِ من هَذِهِ المَسافَةِ البَعيدَةِ أمْرٌ

(1) الرّاغب، المُفردات: (عير).
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (وجد).
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (فند).
(4) الرّاغب، المُفردات: (فند).
(5) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 5/52.

مُناقِضٌ لِلْعادَةِ؛ فَيَكونُ مُعْجِزَةً ولا بُدَّ من كَوْنِها مُعْجِزَةً لِأَحَدِهِما، والأَقْرَبُ أَنَّهُا لِيَعْقوبَ عليه السلام حينَ أَخْبَرَ عَنْهُ، ونَسَبوهُ في هَذا الكَلامِ إِلَى ما لا يَنْبَغي"[1].

عودة الحياة مع إطلالة الرّائحة الزّكيّة لطهر الأنبياء وأنبياء الطهر

وما كان من جواب مَنْ حوله إلّا أن يخاطبوه خطابَ الإجحافِ، فما زالوا على صَلَفِهم بما ردّوا من قولهم مُقسمين: ﴿تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ﴾ مع أنَّ الأَوْلى كان النَّدم والاعتذار.

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيّ:

علَّةُ وصلِ الجملةِ بالسّابق:

الواو في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ﴾ عاطفةٌ، فقد عطفت خروج العير من عريش مصر قاصدةً أرض الكنعانيّين بعد أمر يوسف عليه السلام إخوته بالذَّهاب بقميصه والإتيان بأهلهم أجمعين. ووصلت هذه الجملة بسابقتها لاختلاف الجملتيْن خبرًا وإنشاءً، فبينهما كمال انقطاع، مع وجود مانعٍ من الفصل بينهما، لكون الفصل مُخلًّا بالمعنى، فلو تمَّ الفصل لترتَّب على ذلك إخلالٌ بالمعنى، إذِ المُراد هنا ترتُّب البشارة بالقميص وحمل الأهل ومجيئهم إلى مصر بعد الأمر لهم بذلك.

قميص البشارة يغادر أرض الكنانة

براعةُ استعمال (لمّا) الحينيَّة:

وجود لوجود أو وجوب لوجوب، وهي تقتضي جملتيْن وُجدت ثانيتهما ﴿قَالَ أَبُوهُمْ﴾ عند وجود أولاهما ﴿فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ﴾، فأفاد ورودها هنا لتحديد ظرف الخروج ووقته، إذ إن هذا الوقت هو وقت بدءِ شَمِّ الرّائحة، وليس فصلان العير دلالةً على قوّة المعجزة المؤيِّدة له عليه السلام، فاستعملت ﴿وَلَمَّا﴾ لبيانِ ترتُّب الشَّمِّ على الفصلِ من أرض مصر، وهذا إخبارٌ غيبيٌّ عجيب، ولو لم يكنِ القرآن من

الإخبارُ عن دقائق تفاصيل الغيبِ لا يكون إلا من وحي الحقِّ

(1) ابن جرير، جامع البيان: 16/256.

عند الله تعالى لَما جاء على هذا النَّظم، إذِ الإخبار في هذه الآية عن دقائق تفاصيل الغيب، وهذا أمرٌ لا يخطر على قلبِ بشرٍ، فسبحان مُنزِّل القرآن.

دلالةُ استعمال مفردة ﴿فَصَلَتِ﴾:

الأراضي كأعضاء الجسد قطعٌ مختلفةٌ تلتقي بمفاصل على الأرضِ

الفصل إبانةُ أحد الشَّيئَيْن من الآخر حتَّى يكون بينهما فُرْجة، والمُرادُ بالفصلِ هنا القطْع بين البلديْن بحاجزٍ، فتجاوزوا مصر إلى بلدهم، ومعنى ﴿فَصَلَتِ﴾: قطعت مفاصلها، وفَصَل القوم من مكان كذا وانفصلوا: فارقوه، قال تعالى: ﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ﴾، والمُراد: أنَّ العير قد فارقت أرض مصر تمام المفارقة، وبدأ دخولها أرض فلسطين، والتَّعبير بها أبلغ من المفارقة لاحتمال القُرب في الأخيرة، فكأنَّ الفصلَ هو بين قطعتيْن، وما بينهما مفصلٌ، وهذا المفصل الّذي بلغه إخوة يوسف واتجهوا نحو أبيهم، هو مكان المفارقة من قطعةٍ لأخرى، وتحديده يكون عُرفيًّا.

بلاغةُ المجازِ المُرسَل:

رجوعٌ مختلفٌ عن سائرِ الأسفار ولياليِ الأسمار

جاء التَّعبير بلفظ ﴿ٱلْعِيرُ﴾ باعتبارها الوسيلة الوحيدة يومئذٍ للانتقال في الصَّحراء، كما أنَّ التَّعبير بها مجازٌ مُرسلٌ لعلاقة المحلّيَّة، فأطلق المحل وأراد الحالَّ وهم أهلها، إذ إنَّ العير بمعناها المعلوم لا تُراد؛ وإنَّما يُراد أهلها الَّذين يحملون إلى أبيهم بشارة حياة ولده يوسف عليه السلام، والمُراد بالعير: العير الَّتي قدموا عليها من أرض فلسطين إلى مصر لطلب الميرَة مِن عزيزها، والتَّعبير المجازيُّ يُراد منه المبالغةُ بقصدِ شمولِ إخوةِ يوسف عليه السلام جميعًا؛ أيْ إنَّهم فصلوا بأجمعِهم للإتيانِ بأهلهم بما يحملون من متاعٍ ومالٍ وميرَة.

كما أنَّ التَّعبير بالعير لما فيه مِن معنى التّردُّد والظُّهور، فإنَّ هذه العير قد تردَّدت بين فلسطين ومصر، فكأنَّها إشارة إلى أنَّ هذا التَّردُّدَ قد آن له أن يهدأ بعد هذه المرّة.

دلالةُ جواب ﴿وَلَمَّا﴾:

بمجرَّدِ الفصل تحقَّق الوصلُ

فُصل فعل القول في جملة ﴿قَالَ أَبُوهُمۡ﴾ عن قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلۡعِيرُ﴾ للدّلالة على سرعةِ وجدانِ الرّيح، فبمجرَّد الفصلِ وقع الوصل؛ أيْ: بمجرَّد فصل العير تحقَّق وصلُ الرّيح، وهذا يدلُّ على أنَّ الأمر ضمن دائرة المعجزةِ، أو ضمن دائرة الشُّعور العالي الّذي لا يفقهه إلا الصِّدّيقون والنّبيِّون ممَّن أوتوا حظًّا من الصَّفاء، وطاقةً من البهاء.

دلالةُ إضافةِ الأبِ إلى الضَّمير:

لفتُ الأذهانِ إلى قيمة الأُبوّة

إضافةُ الأبِ إلى الضّميرِ في قوله تعالى: ﴿قَالَ أَبُوهُمۡ﴾ للإيجاز والاختصار والتَّشريف، فلم يَقُلْ: قال يعقوب، أو الَّذي ربّاهم، إلى جانب ما في التَّعبير بالأب مضافًا إلى ضميرهم مِن لفت أذهانهم إلى هذه الأُبوّة الَّتي لم يُراعوها، ولم يرحموا شَيبتَها وحُزْنَها.

غرضُ التَّوكيد:

يحسُنُ التَّوكيدُ عند توقُّع الإنكار

قوله تعالى: ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَۖ﴾ جاء فيه توكيداتٌ عِدَّة؛ فقد "أكَّدَ هَذا الخَبَر بـ (إنَّ) واللّام؛ لِأنَّهُ مَظِنَّةُ الإنْكارِ، ولِذَلِكَ أعْقَبَهُ بـ ﴿لَوۡلَآ أَن تُفَنِّدُونِ﴾"[1]. وقوله هذا مُؤكِّدٌ لعلمه أنَّهم يُنكرون عليه قوله هذا، ولذا جابههم وصدَّهم عن المواجهة بالإنكار حين أخبرهم بقوله: ﴿لَوۡلَآ أَن تُفَنِّدُونِ﴾؛ أيْ: لقلتُ غيرَ مُستحٍ ولا متوقِّف.

نكتةُ التَّعبير بلفظِ الوجدان:

الإيماءُ إلى ضياعِ صاحبِ القميصِ ووجدانه بعد طولِ انقطاع

الوجدان في أصل اللّغة لما ضاع أو لِما يجري مجرى الضّائع في ألّا يُعرف موضعه، يُقال: نشدت الضّالةَ إذا طلبتها نشدانًا، فإذا وجدتُّها قلتُ: وجدتُّها وِجْدانًا، وهو يستعمل في وجود الضّالة[2]، فما عبَّر به نبي اللّه يعقوب عليه السلام من لفظ الوجدان في قوله تعالى: ﴿إِنِّي

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/48.
(2) العسكريّ، الفروق اللُّغويَّة، ص: 92.

﴿لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ﴾ هو المناسب لضياع يوسف منه؛ فإنَّه ضاع منه فترةً من الزَّمنِ، ثمَّ ها هو يرجعُ إليه بمُقدِّماتِه، وهي ريحُ يوسف السّاكنةُ في القميصِ، فلمّا كانت بدايةُ الضَّياع بالقميصِ، وكان آخر العهد بشمِّ القميصِ، فحسُن حينئذٍ ردُّ الفرعِ إلى أصله؛ لتكون بداية النّهاية بشمِّ القميص كذلك، وهذا من بديع استعمال مفردة الوجدان في التَّصريحِ والإشارةِ.

سرُّ التَّعبير بالرّيح المُضافة إلى يوسف:

ريحٌ ثبتت في الأنفِ الزَّكيّ منذ لحظةِ الفراقِ إلى لحظةِ الوجدان

أُضيفت الرّيح إلى يوسف عليه السلام في قوله تعالى: ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ﴾، ووِجْدانُ يَعْقوبَ ريح يوسُف عليه السلام إلْهامٌ خارِقٌ لِلْعادَةِ، جَعَلَهُ اللّه بِشارَةً لَهُ، إذْ ذَكَّرَهُ بِشَمِّهِ الرّيحَ الَّذي ضَمَّخَ بِهِ يوسُفَ عليه السلام حينَ خُروجِهِ مَعَ إخْوَتِهِ، وهَذا من صِنْفِ الوَحْيِ بِدونِ كَلامِ مَلَكٍ مُرْسَلٍ، والرّيحُ: الرّائِحَةُ، وهيَ ما يَعْبَقُ من طيبٍ تُدْرِكُهُ حاسَّةُ الشَّمِّ[1]، فهو يُذكِّرُهم بآخر العهدِ وهي ريح يوسف، فما زالت تلك الرّيح مُتشبّعةً في أنفِ يعقوب الزَّكي منذ لحظةِ الفراق إلى لحظةِ الوجدان، وما بينهما زمانٌ متلاشٍ إلّا بذكرِ اللّه تعالى، فالإضافة للتَّعريف؛ أيْ: ريح يوسف المعهودة المعروفة الّتي لا تغيبُ ولا تبتعد عن حاسَّةِ الشَّمِّ.

بلاغةُ استعمال ﴿لَوْلَآ﴾:

دلالاتُ الإيماءِ لما في النُّفوسِ من الإيحاء

مفهوم ﴿لَوْلَآ﴾ أنَّها حرف امتناعٍ لوجوبٍ أو لوجودٍ، ويلزم في خبرها الحذف، ويُستغنى بجوابها عن الخبر، والأكثر في جوابها المُثبت، وقد يُحذف للعِلْم به، كما تفيد التّحضيض فتختصّ بالمضارع، والتَّوبيخ والتَّنديم فتختّص بالماضي"[2]، والمعنى على ذلك: "و﴿لَوْلَآ﴾ أن تنسبوني إلى الفَنَدِ، وضعف العقل لصدّقتموني فيما قلتُ، أو لولا أن تنسبوني إلى ذلك لقلتُ لكم إنّي أشعر أنّ لقائي

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/48.
(2) الزّركشيّ، البرهان في علوم القرآن: 4/377 - 376.

بيوسف قد اقترب وقته وحان زمانه"[1]، وتدلُّ ﴿لَوۡلَآ﴾ على أنَّ معرفته بأهله ظاهرة عميقة، فهو يعلم جوابهم وما يُحيط به من ضعفِ الأدب وقلَّة الحياءِ، ومع ذلك لم يستطع أن يصبر على الإشارةِ إلى ما يجد، ولا هم صبروا عن السُّكوت عمّا يجول في نفوسِهم.

فائد فائدة استعمال ﴿أَن﴾ مع الفعل المضارع:

العاقلُ يتحاشى ما سيقعُ قياسًا على ما وقَعَ

دخول ﴿أَن﴾ على الفعل المضارع في قوله تعالى: ﴿لَوۡلَآ أَن تُفَنِّدُونِ﴾ يُفيد الاستقبال، و﴿أَن﴾ صالحةٌ للاستقبال، ولو دخلت على الماضي كان ماضيًا لفظًا مُستقبلًا معنًى، كما تُستعمل في مقام التَّوبيخ إنكارًا لحدوث الفعل من فاعله - كما هنا - أو كان المخاطب غيرَ جازم بما يجزم به المتكلِّم كما في اعتقاد يعقوب عليه السلام حياة ولده، وأنَّه يشمُّ رائحته الآن، فلو قال: لولا تفنيدكم؛ أيْ: فيما مضى، فهو يريد ﴿لَوۡلَآ أَن تُفَنِّدُونِ﴾ في المستقبل.

سرُّ استعمال لفظِ ﴿تُفَنِّدُونِ﴾ دون مرادفاته:

لفظٌ يستوعب جميعَ المضمرات النَّفسيَّة والإيماءات المحكيَّة

"التَّفْنِيدُ: النِّسْبَةُ لِلْفَنَدِ بِفَتْحَتَيْنِ، وهوَ اخْتِلالُ العقل من الخرف"[2]، وهم قد اعتقدوا فيه عليه السلام ذهابَ عقله كما ذهب بصره فخاطبهم عليه السلام بوصف نفسه نافيًا أن يكون قد ضعُف عقله بسبب المرض والتَّقدُّم في العمر وكثرة البكاء والحزن، فلفظ التَّفنيدِ يدلُّ في أصله على عموم الفسادِ، ويدخلُ فيه المرض والضَّعف والخَرَف وذهاب العقل وما إلى ذلك، والّذي يظهر أنَّ استعمال هذا اللَّفظِ يُراد منه جميع هذه المعاني، وفيه كشفٌ لواقعِ مَنْ حوله من أهله، فكلٌّ ينظر من زاويةٍ ليعقوب عليه السلام، ويجتمعون في بؤرةِ سوءِ الأدبِ وقلَّة الحِشْمة، فكان التَّعبير على قلَّة استعماله مناسبًا للقومِ فيما يصدر عنهم.

(1) طنطاويّ، التفسير الوسيط: 7/413.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/48.

لطيفةٌ في حذف ياء المُتكلِّم:

تعليمُ الأدبِ يعمُّ الأحوالَ كلَّها

حُذِفَتْ ياءُ المُتَكَلِّم في قوله تعالى: ﴿لَوۡلَآ أَن تُفَنِّدُونِ﴾ تَخْفيفًا بَعْدَ نونِ الوِقايَةِ وبَقيَتِ الكَسْرَةُ[1]، فلم يَقُلْ: تُفنّدوني تخفيفًا لفظيًّا، ومن وراء ذلك إشارةٌ لطيفةٌ، وهي عدم إيقاع فعل التَّفنيد عليه مباشرة، بل جعله مُطلَقًا مُرسَلًا، وهذا من لطيف خطابه، وتعليمهم الأدب.

بلاغةُ حذفِ جواب ﴿لَوۡلَآ﴾:

الجهلُ والمكابرةُ يصدّانِ عن رؤية الحقِّ

حُذِف جوابُ ﴿لَوۡلَآ﴾ في قوله تعالى: ﴿لَوۡلَآ أَن تُفَنِّدُونِ﴾؛ لدلالة الكلام عليه، والمعنى: لولا أن تُفنِّدوني لتحقَّقتم ذلك أو لصدَّقتموني، وسرُّ حذفه أنَّه ما كان يطمعُ في تصديقهم له؛ لأنَّهم لا يمتلكون ما يمتلكه من تأييد الله تعالى له، وهو عليمٌ بأحوالِهم خبيرٌ بُقُدراتهم.

بلاغة إضمار الفاعل مع عدم تقدُّم ذِكْره:

المؤمنُ يأنسُ بالقلَّةِ المؤمنةِ ويستوحش من كثرة الضّالّين

قال يعقوب عليه السلام لمَن كان جالسًا معه من أهله وأقاربه: ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَۖ﴾؛ أيْ: رائحته الَّتي تدلُّ عليه، وتُشير إلى قُرب لقائي به، فكان جوابُ المجالسين له: ﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَٰلِكَ ٱلۡقَدِيمِ﴾، ولَم يَسْبِقْ ذِكْرُهُم، وذلك لِظُهورِ المُرادِ مِنْهُم، فهم لَيْسوا أبْناءَهُ؛ لِأنَّهُم كانوا سائِرينَ في طَريقِهِم إلَيْهِ[2]، والحذف هنا لعدم الفائدة من ذكر المسند إليه صراحةً، أو لكونه معلومًا لدى السّامع؛ أيْ: قال الحاضرون آنذاك معه، ومعلوم أنَّ أولاده ذهبوا إلى مصر لطلب الميرَة، ومَن تأمَّل نَظْم القرآن يجد أنَّه لا يذكر إلّا ما يُحتاج إليه، ومَن تأمَّل ما وراء النَّظم يجد أنَّهم لا يستحقّون أن يُذكروا في مواضع الشَّرف؛ لجرأتِهم على نبي الله يعقوب عليه السلام برميه بالضّلال.

بلاغة القَسَم بحرف التّاء:

إذا اجتمعَ القسَمُ مع التَّعجُّبِ زاد الإنكارُ ورسخَ

تأتي التّاء "مُحرَّكة في أوائِل الأسْماء ومُحرَّكة في أواخرها

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/48.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/48.

ومُحرَّكة في أواخِر الأفعال ومُسكَّنة في أواخرها، فالمُحرَّكة في أوائِل الأسماء حرف جرٍّ مَعْناهُ القسم وتختّص بالتّعجُّب وباسِم اللّه تعالى[1]، وورود القَسَم بالتّاءِ في قوله تعالى: ﴿قَالُواْ تَٱللَّـهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَٰلِكَ ٱلۡقَدِيمِ﴾ فيه زيادةُ معنى التَّعجُّب مِن أبناء يعقوب عليه السلام حين أخبرهم بوجود رائحة يوسف الَّذي ذهب منذ زمن بعيد وغُيِّب ذِكْرُه ولا يعلمون خبرًا عنه، فلمّا سمعوا ذلك منه بادروا إلى الحلف مستخدمين هذه التّاء الدّالَّة على شدَّة تعجُّبهم.

غرضُ اجتماع المُؤكِّدات:

لمّا كان مقامُ الأهل والأقارب مقامَ إنكار ما حدَّثهم به يعقوب عيه السَّلام، وكان حديثه مثارَ تعجُّب ردّوا عليه بحشد المؤكِّدات في قوله تعالى: ﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَٰلِكَ ٱلۡقَدِيمِ﴾ إنكارًا وتعجُّبًا معتقدين ضعف عقله.

رسوخُ الجهلِ يورِّث رسوخَ الرَّفض

بلاغةُ الاستعارةِ باستعمال حرف الظَّرفيَّة:

التَّعبير بحرفِ الظَّرفيّة في قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَفِي ضَلَٰلِكَ ٱلۡقَدِيمِ﴾ استعارة تبعيَّة في الحرف، للدّلالة على تمكُّنه في الضَّلال تمكُّن الظَّرف من المظروف، فاستُعيرت الظَّرفيَّة من معناها الحقيقيّ وهو الاستقرار إلى معنى التَّمكُّن الكامل في الضَّلال وهو معنى مجازيٌّ، قال الطّاهر ابن عاشور: "والظَّرْفيَّةُ مَجازٌ في قوَّةِ الاتِّصافِ والتَّلَبُّسِ وأنَّهُ كَتَلَبُّسِ المَظْروفِ بِالظَّرْفِ. والمَعْنَى: أنَّك مُسْتَمر على التَّلَبُّسِ بِتَطَلُّبِ شَيْءٍ من غَيْرِ طَريقِهِ. أرادوا طَمَعَهُ في لِقاءِ يوسُفَ عليه السلام"[2].

لا يقوى على مجابهةِ عِلْم العالِم إلّا اعتقادُ الجاهلِ

دلالة إضافة الضَّلال لضمير المخاطب:

أضاف أهل يعقوب الضَّلال - وهو الخَرَف وكِبَر السِّنِّ والضّعف

(1) ابن هشام، مُغني اللّبيب: 1/106.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/48.

رُبَّ أباطيل فاسدة تُعاملُ معاملةَ معارف ثابتة

- إلى ضميره في قوله تعالى: ﴿ضَلَٰلِكَ﴾ وهو من قبيل التَّخصيص، فخصّوه بذلك دونهم حتَّى صار هذا الضَّلال معروفًا به عليه السلام، ويرون أنَّه ابتعد عن طريق العقل، وذهب إلى غير جهة الصَّواب، فالإضافة قرُبت من معنى التَّعريفِ؛ أيْ: الضّلال المعروف اللّاصق بك منذ زمن، كأنَّهم يقولون: لا جديد عليك فأنت صاحبُ ضلالٍ معروفٍ!.

معنى التَّعريف في لفظ ﴿ٱلْقَدِيمِ﴾:

حبٌّ لم تُغيِّره الأيام، ولم يَعفُ عليه الزَّمان

ورد وصفُ الضَّلال في قوله تعالى: ﴿ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ﴾ بالقِديم، وتعريف القِدَم بأل العهديَّة؛ أيْ: ضلالك المعهود بقِدَمه في كونه لا يفتأ ينسى يوسف عليه السلام، بل هو مُكثرٌ لذِكْره حتَّى دخل عليه من المرض وضعف العقل ما دخل، فصار هذا البُعد عن جادَّة الصَّواب أمرًا قديمًا عُهد به يعقوب عليه السلام، وقد أفاد التّعريف بـ(أل) المبالغة في وصف هذا الضَّلال بكونه قديمًا قِدَم زمن بُعد يوسف عليه السلام.

دلالة الوصف بالقديم:

تعليلُ الموصوفِ ورفض الاستماعِ

جاء وصفُ الضَّلالِ بالقديم في قوله تعالى: ﴿لَفِي ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ﴾ باعتبارِ طولِ المدَّةِ، وتراخي زمانِها، فالمقصودُ مِن استعمالِ هذا الوصف تعليل رفضهم؛ أيْ: إنَّ ما أنت فيه من الضَّلالِ قديمٌ لا جديدٌ، وعليه فلا اعتبارَ له، ولا انتهاضَ لمضمونِه، مع ما فيه من انتفاء اللُّطفِ في الخطابِ، فهم يُعلِّلون رفضَ ما قاله بأنَّه ضلالٌ قديمٌ ليس بجديدٍ، مع رفضِ الاستماع إليه، إذ يوحي الوصف بالملِ مِن كثرةِ سماع مثل هذا الكلام.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيّةُ:

التَّفنيد ضعفُ المعرفةِ بسببِ الهَرَم، أمّا التَّجهيل فأعمُّ من ذلك

التَّفنيد والتَّجهيل:

التَّفْنيدُ: نسبة الإنسان إلى الفَنَدِ، وهو ضعف الرّأي. فمعنى ﴿لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ﴾: قيل: أن تلوموني، وحقيقته راجع إلى الأصل،

والإفْنادُ: أن يظهر من الإنسان ذلك، والفَنَدُ: شمراخ الجبل، وبه سُمي الرّجل فَنَدًا[1]، والفَنَدُ: الهَرَمُ، وهوَ ذاكَ القياسُ، ولا يَكونُ هَرَمًا إلّا ومَعَهُ إنْكارُ عَقْلٍ. يُقالُ: أفْنَدَ الرَّجُلُ فَهوَ مُفْنِدٌ، إذا أُهْتِرَ. ولا يُقالُ: عَجوزٌ مُفْنِدَةٌ، لِأنَّها لَم تَكُ في شَبيبَتِها ذاتَ رَأْيٍ. ويَقولونَ: الفَنَدُ: الكَذِبُ. ومُمْكِنٌ أنْ يَكونَ سُمّي كَذا لِأنَّ صاحِبَهُ يُفَنَّدُ؛ أيْ: يُلامُ. ومُمْكِنٌ أنْ يُسَمَّى كَذا لِأنَّهُ شَديدُ الإثْمِ شَديدٌ وِزْرُهُ[2]، فالتَّفنيد اتِّهامٌ بضعفِ الرّأي والجهل بسبب الهَرَم.

والتَّجهيل اتهامٌ بالجهل الّذي يقابل العلم أو الخِفَّةُ وخِلافُ الطُّمَأْنينَةِ. ويُقالُ: اسْتَجْهَلَتِ الرّيحُ الغُصْنَ، إذا حَرَّكَتْهُ فاضْطَرَبَ[3]، وقد يكون التَّجهيل عن سببٍ ظاهر أو غير ظاهر، وهو أعمُّ من التَّفنيد؛ لارتباطِ الأخير بالهَرَم.

ومن هنا تبيّن أنّ الأنسب والأليق بالمقام وطبيعة الحال هو ما جاء به التَّعبيرُ القرآنيُّ؛ لأنَّهم ما كانوا يصفون نبيَّ اللّه يعقوب بالجهل عمومًا، فهم يعلمون تمام العلم أنَّه على علم من اللّه تعالى، إنَّما كانوا يُنكرون أمرَ وجود يوسف حيًّا وشمِّ رائحته مِن قِبَل والده يعقوب، ويرون أنَّ ذلك بسبب كِبَر سِنِّه وشغفه بيوسف عليه السلام؛ لذا ناسب ذلك التَّعبير بالتَّفنيد لا بالجهل.

(1) الرّاغب، المُفردات: (فند).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (فند).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (جهل).

﴿فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلۡبَشِيرُ أَلۡقَىٰهُ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ فَٱرۡتَدَّ بَصِيرٗاۖ قَالَ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ٩٦ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا ٱسۡتَغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ ٩٧ قَالَ سَوۡفَ أَسۡتَغۡفِرُ لَكُمۡ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ٩٨﴾ [يوسف96 - 98]

مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قَبْلَها:

مواقف الرِّجال تبين في شديدِ الأحوال وترتسمُ معالمُها في كلمات الارتجال

لمّا ذكرتِ الآيات السّابقة وجدان يعقوب عليه السلام ريحَ يوسف عليه السلام، وموقف أهله ممّا قال، عقَّبتِ الآيات هنا حين مجيءِ البشير وما كان من إلقاء القميص وارتداد يعقوب عليه السلام بصيرًا، وكانت نتيجةُ ذلك أن "عمَّت الفرحة أولاد يعقوب عليه السلام في أرجاء مصر بعد تعارفهم، وانتقل أثر الفرح إلى أرض كنعان في أسعد عودةٍ من رحلتهم الثّالثة إلى مصر، وأظهر اللّه المعجزة على يد يعقوب عليه السلام بإحساسه برائحة يوسف، وأيّد اللّه ذلك الشّعور ببشارة البشير ابنه الأكبر الّذي اعتصم في مصر، حتّى يأذن له أبوه بالرّجوع بعد بقاء أخيه بنيامين"[1]، فالمناسبةُ هي بيان موقف يعقوب عليه السلام باستغفاره لأهله وأبنائه بعد بيان موقف أهله ممّا يَجِدُ، لإبرازِ التّباين بين الموقفيْن.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلۡبَشِيرُ﴾ أصلُ (بشر): أصْلٌ واحِدٌ: وهو ظُهورُ الشَّيْءِ مَعَ حُسْنٍ وجَمالٍ. فالبَشَرَةُ ظاهِرُ جِلْدِ الإنسانِ، وسُمّيَ البَشَرُ بَشَرًا لِظُهورِهِمْ. والبُشرى: الخبر الَّذي يُغيِّر البَشَرة مِن حُزْنٍ أو سُرورٍ، ثمَّ خُصَّ في عُرْفِ اللُّغة بالسُّرور، ولا تكون إلّا بالخبر الأوَّل[2]، فيُقالُ:

(1) الزّحيليّ، التّفسير المنير: 13/62.
(2) النّوويّ، تحرير ألفاظ التّنبيه، ص: 267، والبقاعيّ، نظم الدُّرر: 11/184.

أَبْشَرْتُ الرَّجُلَ، وبَشَّرْتُهُ؛ أيْ: أخْبَرْتَهُ بِأمْرٍ سارٍّ[1]، وسُمِّيَتْ بذلك من البِشْرِ وهو السُّرورُ؛ لأنَّها تُظْهِرُ طَلاقَةَ وجْهِ الإنْسانِ وفرَحَه. والبَشيرُ: فعيلٌ بمَعْنَى مُفَعِّلٍ؛ أي: المُبَشِّرُ[2]. والتَّبْشيرُ يكونُ بالخيْرِ والشَّرِّ، كقولِه تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٢١﴾ [آل عمران: 21]، والاسْمُ البُشْرَى، وقوله تعالى: ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ [يونس: 64][3]. والمقصود بالتَّبْشيرِ في الآية: المُبادَرَةُ بإبلاغِ الخَبَرِ المُسِرِّ بِقَصْدِ إدْخالِ السُّرورِ[4].

2) ﴿فَٱرْتَدَّ﴾ أصلُ الرَّدِّ: صَرْفُ الشَّيْءِ، يُقالُ: رَدَّهُ عن طَريقِه؛ أيْ: صَرَفَهُ. ويأْتي بِمعنى الإعادَة والإرْجاع، تَقول: رَدَّهُ إلى مَنْزِلِه؛ أيْ: أعادَهُ، ورَدَّ إلَيْهِ جَوابًا؛ أيْ: أرْجَعَهُ وأرْسَلَهُ. ومنه سُمّيَ المُرْتَدُّ لأنّه رَدَّ نَفْسَهُ إلى كُفْرِهِ[5]. ومِن مَعانيهِ أيضًا: المَنْعُ والرَّفْضُ، وشَيْءٌ مَرْدودٌ؛ أيْ: مَرْفوضٌ. ورَدَّ فُلانًا: خَطَّأَهُ؛ أيْ: لَم يَقْبَلْهُ[6]. والمُرادُ بـ ﴿فَٱرْتَدَّ﴾ في الآية: رَجَعَ، وهو افْتِعالٌ مُطاوِع رَدَّهُ؛ أيْ: رَدَّ اللّه إلَيْهِ قوَّةَ بَصَرِهِ[7]. كما كان سابقًا.

المَعْنى الإجْماليّ:

فـــرحٌ يـعـمُّ القلوبَ كلَّها

تُبيِّن الآياتُ الكريمات تحقيقَ فرجِ اللّه تعالى لنبيِّه يعقوب عليه السلام، بعد ما كان من حزنٍ شديدٍ على ابنه يوسف عليه السلام، فحلَّت المفاجأة أرض كنعان، وكانت الكرامة والبشارة، ووعد اللّه تعالى الّذي لا يتخلَّف مع الصّالحين الصّادقين؛ فلَمّا أنْ جاءَ المُخبِر بما يَسرُّ يعقوب من أمر يوسف؛ ألْقى القميص عَلى وجْهِهِ؛ أو ألقاه يعقوبُ نفسُه على

(1) ابن الأنباريّ، الزّاهر في معاني كلمات النّاس: 2/128، والعَوْتَبيّ، الإبانة في اللّغة العربيّة: 2/280.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/53.
(3) الجوهريّ، الصّحاح، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المُؤصّل: (بشر).
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/53.
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (ردَّ).
(6) الجوهريّ، الصّحاح، وابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس: (ردَّ).
(7) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/53.

وجهه، فعاد بصيرًا لما حدث معه مِنَ السّرور، ثمّ قال مقرّرًا لهم بعلم حاله مع اللّه ممّا عجزوا عن إدراكه مِن حياة يوسف، وإنزال الفَرَج[1]، وحينها طالبوه بالاستغفارِ لما صدر منهم مِن مَواقف بائسةٍ سابقةٍ، ولم يكن مِنَ الكريم إلّا الاستجابة لطلبهم، فكان عنوان هذه الآيات هو حلولُ الفرح تلو الفرح على جميعِ القلوب، القلب الحزين، والقلب الظّليم.

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيّ:

معنى الفاء ودلالاتها على الإيجاز:

الفاء في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلۡبَشِيرُ﴾ تعقيبيَّةٌ أفادت عَجَلَة هذا البشير وسُرعته بعد فصْله مِن مصر يطوي البيداء ليُعجِّل البشارة لأبيه المكلوم الَّذي طوت الأيّامُ والسّنين فرَحَه وشغفَه بولده الغائب، كما أفادته هذه الفاء إيجازَ المشهد الّذي بدأ منذ لحظةِ فصلِ العير وخروجهم من مصر، إلى وصوله، وكأنَّ بين ﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلۡعِيرُ﴾ [يوسف: 94] والمجيءِ بُرهةً من الوقتِ، وهذا الإيجازُ دليلُ طيِّ المشهد وجمعه في تلكم اللَّحظة الّتي هي غايةُ الخروجِ من مصر.

الأحداث تُطوى بغاياتِها والأعمال تُحتوى بأهدافِها

بلاغةُ استعمالِ ﴿فَلَمَّآ﴾:

(لمّا) في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلۡبَشِيرُ﴾ ظرفيَّة حينيَّة، أو رابطة لجملة مجيء البشير إلى أرض كنعان بفصول العير من مصر، فجاءت هنا محدِّدة لهذا الزّمن الَّذي فصلت فيه العير من أرض مصر ودخول هذا البشير أرض يعقوب عليه السلام، وتبدُّل الأحوال وانقلاب الأمور من تَرَحٍ إلى فَرَح ومن حزنٍ إلى سرور، ومن غمٍّ إلى بشارة.

ما بين غَمْضةِ عَينٍ وانتباهتِها، يُغيّر الله من حالٍ إلى حالٍ

فوائدُ ذكر ﴿أَن﴾:

ذُكرت ﴿أَن﴾ في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلۡبَشِيرُ﴾؛ لفوائد عدَّة:

المسارعةُ في التَّبشير سيِّد الموقفِ الشَّهير

(1) القاسميّ، محاسن التَّأويل: 6/218.

الأولى: تأكيد مجيئه على تلك الحال، ووقوع ﴿أَن﴾ "بعد ﴿فَلَمَّآ﴾ التَّوْقيتيَّةِ كثير في الكَلام، وفائِدَةُ التَّأْكيدِ في هَذِهِ الآيَةِ تَحْقيقُ هَذِهِ الكَرامَةِ الحاصِلَةِ ليَعْقوبَ عليه السلام؛ لِأنَّها خارِقُ عادَةٍ، ولِذَلِكَ لَم يُؤْتَ بـ (أنْ) في نَظائِرِ هَذِهِ الآيَةِ مِمّا لَم يَكُنْ فيهِ داعٍ لِلتَّأْكيدِ"[1].

الثّانية: ربطُ الجملة بما قبلها، وأنَّها لو سقطت ذهب رونق النَّظم، وصار الكلام مفكَّكًا لا ميزة له ولا روح فيه، كما أنَّ الفاء لا تُغني عنها ولا تكون بدلًا لها.

الثّالثة: إضفاء معنى المسارعةِ؛ أيْ: بمجرَّد وصول البشير ألقى القميص على وجه أبيه، فهو لم يتأخَّر لأيِّ سببٍ كان، فلم يكن بين وصوله أرض يعقوب عليه السلام وإلقاء القميص أيُّ فاصلٍ زمانيٍّ أو مكانيٍّ، وهو الّذي يتناسب مع استعمال الفاء، ويُظهر براعة استعمالِ ﴿فَلَمَّآ﴾.

نكتة استعمال المجيء دون الإتيان:

مجيء يحمل البشريات يمسح حزن ما فات

استُعمل المجيءُ في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ﴾ باعتبارِ أنَّ المجيءَ يُقال اعتبارًا بالحصول، وهو أعمُّ مِنَ الإتيانِ؛ إذ يُقال (جاء) في الأعيان والمعاني، ولما يكون مجيئه بذاته وبأمره، ولِمَن قصد مكانًا أو عملًا أو زمانًا[2]، وهذه الثَّلاثة متحقِّقةٌ في مجيءِ البشيرِ، فهو لم يأت أرضَ كنعان منها، وإنَّما جاء من أرض مصر، وبينها وبين أرض يعقوب عليه السلام من المسافات ما بينها، وقد قصدَ عملًا وهو إلقاء القميص على وجه يعقوب عليه السلام، وكانتِ المسارعة مقصودةً، وهي تُمثِّل زمن المجيء، ولذا كان الأنسب في هذا السّياقِ استعمالَ المجيء لا الإتيان.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/53.
(2) الرّاغب، المُفردات: (جاء).

وجهُ التَّعبير بالمُفرد ﴿ٱلۡبَشِيرُ﴾:

نيابةُ المُفردِ عن الجميعِ لا تُسقطُ التَّكليف ولا تعلَّلُ بالتَّخفيف

عُبِّر عن البشيرِ بالمفرد لا بالجمعِ ويوسف عليه السلام قد قال لإخوته: ﴿ٱذۡهَبُواْ بِقَمِيصِي هَٰذَا﴾ [يوسف: 93]، فكان خطابُه لهم جميعًا لا لمفردٍ منهم، فيُسأل عن سرِّ إفرادِ لفظ ﴿ٱلۡبَشِيرُ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلۡبَشِيرُ﴾.

والجوابُ أنَّ الّذي حمل القميص هو واحدٌ منهم، فذُكر مُفردًا لكونه الأصل، ولا يُعدل عنه إلى غيره، فإطلاقُ المُفردِ باعتبارِه الأداة لا باعتبارِه المقتصر على حملِ القميص، فالجميعُ مكلَّفٌ به، والواحد منهم أُنيب عنهم جميعًا في إلقائه لتعذُّر الاجتماع على ذلك، ولفظ البشير إذا أُطلق يُغني عن المجموع، فالكلمة المُفردة إذا كانت مُؤدّية معنى الجَمْع عُبِّر بها، والّذي عيَّن أنَّ المقصود بالبشير مفرد لا جمع قوله تعالى: ﴿أَلۡقَىٰهُ﴾، وقد يقول قائلٌ: إنّ ذلك لمراعاة اللَّفظ، والصَّحيح أنَّ الّذي ألقى هو واحدٌ نيابةً عن البقيَّة، والأصل حملُ الكلامِ على ظاهره.

دلالة التَّعريف في: ﴿ٱلۡبَشِيرُ﴾:

الأعمال الشَّريفةُ يحرصُ عليها جميعُ النّاس، ولا يتنازل عنها الأكياس

البشير في قولِه تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلۡبَشِيرُ﴾ هو المُبشِّر بخبر يوسف عليه السلام، وقد قيل: هو يهوذا، والمنهجُ السَّديد أنَّ مُبهمات القرآنِ تبقى على إبهامها، إذْ لا فائدةَ تُرتجى من وراء تعيين ما لم يُعيِّنه القرآن، فأيًّا كان حامل القميص فإنَّ التّبشير قد حصل، والتَّعريف هنا للعهد العلميّ أو الحضوريّ، حيث لم يَرد لِلَفظ البشير ذكرٌ البتَّة، لا صراحةً ولا كنايةً، إلّا أنَّ السّامع يُدرك المقصود من نُطق المُتكلِّم، فإذا قيل: (جاء البشير) عُرف أنَّه ليس هنا إلّا هذا البشير، فـ(أل) هنا للعهد العلميّ، وليس عهدًا صريحًا ولا كنائيًّا، ولعلم السّامع بالمقصود أحضره في ذهنه إحضارًا تامًّا، وعليه سمّي عهدًا حُضوريًّا أو علميًّا، وهو حضور إجماليٌّ؛ أيْ: أحد إخوان

يوسف عليه السلام، ونكتةُ إيثارِ ذلك أن يصدقَ عليهم جميعًا، فإنَّ التَّعبير بقوله: ﴿ٱلۡبَشِيرُ﴾ يصدقُ على الجميعِ؛ لأنَّهم جميعًا أرادوا أن يكونوا البشير، واللَّفظ بهذا الإطلاق يصدُق على الجميعِ، وهذا أدْعى لإكسابهم فضيلة ذلك الإلقاء.

نكتة التَّعبير بلفظِ الإلقاءِ:

تصويرُ مشهدِ الآداب العالية، والالتزامِ بالإرشادات الرّاقية

جاء التَّعبيرُ في قوله تعالى: ﴿أَلۡقَىٰهُ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ﴾ بلفظِ الإلْقاءِ دون الطَّرح أو الرّمي، وهو اسم عامٌّ في كلِّ طرح، بينما اختصَّ الطَّرْحُ بإلقاء الشّيء وإبعاده لقلَّةِ الاعتدادِ به، والرَّمْيُ يُقال في الأعيان كالسّهم والحجر، ويُقال في المقال كنايةً عن الشّتم كالقذف[1]، وما حدث مع يعقوب عليه السلام هو الإلقاء، حيث وضع البشيرُ القميص على وجهه وضعَ شوقٍ وتلهُّف، ولم يطرح عليه القميص من بُعد؛ بل كان البشير واقفًا أمامه إجلالًا وتقديرًا، ولم يَرمه عليه وإلّا خرج بذلك عن دائرة الأدب مع ما كان يحمله ابنه يومها من الاعتراف بالذَّنب، فالوضع كان بأدب ووقار، وهو ما يناسبه لفظُ الإلقاء، مع الالتفات إلى أمر قد صدر لهذا البشير من يوسف عليه السلام بأن يكون وضع القميص على وجه أبيه إلقاءً لا رميًا ولا طرحًا فالتزمه.

دلالةُ حرفِ الاستعلاءِ ﴿عَلَىٰ﴾:

شمولٌ يستغرقُ الوجهَ كلَّه؛ فالوجهُ قبلَ القميصِ لا كما بعدَه

حرف ﴿عَلَىٰ﴾ يدلّ على الاستعلاء حقيقةً أو مجازًا، والاستعلاء في قوله تعالى: ﴿أَلۡقَىٰهُ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ﴾ استعلاء معنويٌّ؛ بمعنى أنَّ هذا القميص وُضِعَ على وجهِ يعقوب عليه السلام فغطَّى به وجهه، إذ إنَّه لم يكن مُجرّد قميص، وقيل: إنَّ نبيّ الله يعقوب عليه السلام كان جالسًا بين أهله، إلّا أنَّه شمَّ رائحةَ القميص حين حلَّت بأرض كنعان، وقيل قبلها، فلمّا وصل بادَر بإلقاء هذا القميص على وجه أبيه تعجيلًا للمَسرَّة

(1) الرّاغب، المُفردات: (لقي)، (طرح)، (رمي).

والبشارة لأبيه، فشملَ القميصُ كلَّ الوجه شمولًا استغراقيًّا، لبيانِ أنَّ ما قبل القميصِ لا كما بعدَه، وأنَّ الشُّمولَ للوجهِ كان بقصدِ إدخال السُّرورِ عليه كلِّه.

سرُّ إظهار الوجه دون إضماره:

قميص السَّعد والشِّفاء والضّياء عَمَّ وجه الكريمِ ابن الكريم

أظهر النَّظمُ (الوجه) في قوله تعالى: ﴿أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ﴾، فلم يَقُل: (ألقاه على أبيه)، وهذا بخلافِ القميص فقد أُضمر ذِكره في قوله: ﴿أَلْقَىٰهُ﴾، فلم يَقُلْ: (ألقى القميص)، وذلك أنَّ الوجه هو أشرف الأجزاء، وعليه يظهر الفرح والسُّرور والحزن والألم، وعلى قسمات وجه الإنسان يُعرف ما بداخله، وإظهار الوجه لكونه المقصودَ الأهمّ في هذا السّياق، فهو الّذي نالَه ما نالَه من الحزنِ والألم، والمُراد العينان اللّتان محاهما الحزن وابيضَّتا من شدة الفراق وكثرة البكاء، والإلقاء لا يكون على العينيْن فحسب؛ بل على الوجه بأكمله، فلذلك ذَكَرَه دون الاكتفاء بالعينيْن.

نكتةُ الإضمارِ في ﴿أَلْقَىٰهُ﴾:

ضميرُ القميصِ أشهرُ من لفظ بعض البشر

آثر النَّظمُ الكريم إضمارَ ذِكر القميصِ في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ﴾ فلَم يَقُلْ: (ألقى القميص)، اكتفاءً بذِكره قبل ذلك، فحذفه هنا اختصارًا وإيجازًا لكونه معلومًا، ولبيانِ سرعةِ الإلقاء الّتي يترتَّب عليها سرعة البشارة، ولِما في الإضمارِ من ضرورة استحضارِ أنَّ القميصَ عومل معاملةَ ما لا يُنسى وجودُه وحضورُه في الأذهانِ.

سرُّ إضمار ذِكر لفظِ المضافِ إليه:

الوجه هو المقصودُ بعودةِ الإبصار

أُضمِر ذِكر لفظ الأب أو اسم يعقوب عليه السلام في قوله تعالى: ﴿أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ﴾ فلم يَقُلْ: (ألقاه على وجه أبيه) أو (ألقاه على وجه يعقوب)؛ لكونه معلومًا مقصودًا من الحديث وليس غيره، فحُذف إيجازًا ولفتًا للنَّظر إلى التّأمُّل والتَّدبُّر في أمر

عودة البصر بسبب هذا القميص، ولتوجيه الأنظار إلى أنَّ الوجه هو المقصود بعودة الإبصار.

دلالة الفاءِ في ﴿فَٱرۡتَدَّ بَصِيرٗاۖ﴾:

مِنَحٌ للأنبياء من ربِّ السماء

الفاء في قوله تعالى: ﴿فَٱرۡتَدَّ بَصِيرٗاۖ﴾ عاطفةٌ لفعل ردِّ البصر على جملة ﴿أَلۡقَىٰهُ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ﴾ دلالةً على سرعة الفعل، فبمجرَّدِ الإلقاء ارتدَّ الوجهُ بصيرًا، وأنَّ الأمرَ لم يستغرق وقتًا، وهذا من خوارق السُّننِ الكونيَّة، أرادَها اللّٰه تعالى إكرامًا لهذيْن الرّسوليْن الكريميْن.

دلالةُ التَّعبير بالفعل ﴿فَٱرۡتَدَّ﴾:

اختيارُ الألفاظِ يأتي بما يكشف الغيبَ ويرفع سترَ الخفيِّ

جاء التَّعبير بفعلِ ﴿فَٱرۡتَدَّ﴾ دون (رجع)، وذلك أنَّ الارتداد هو انقلاب الشّيْء إلى حال كان عليها[1]، أمّا الرجوع فهو العَود إلى ما كان منه البدء[2]، فالمعنيان متقاربان، إلّا أنَّ الرَّدَّ يدلُّ على سرعةِ الرُّجوعِ إلى ما كان عليه الشَّيءُ، وهو ما يُرشِّحه النَّظم من استعمالِ أدواتٍ كلُّها دالَّة على السُّرعةِ، وعلى هذا فاستعمال الفعل ﴿فَٱرۡتَدَّ﴾ هو الأنسب بالمقام، كما أنَّ التّردُّد الصّوتيّ لهذا الفعل يدلُّ دلالة قويَّة على ردِّ بصره إليه عليه السلام حين إلقاء القميص عليه مباشرة.

سرُّ التّعبير بجملة ﴿فَٱرۡتَدَّ بَصِيرٗاۖ﴾:

ردُّ البصرِ كما كان، لا مجرَّد إبصارٍ كيفما كان

كما عبَّر النَّظمُ في قوله تعالى: ﴿فَٱرۡتَدَّ بَصِيرٗاۖ﴾ دون أن يقول: (فأبصر)، وهي أوجز لفظًا، تتميمًا لكرامة اللّٰه تعالى على نبيِّه يعقوب عليه السلام، وخرقًا للعادة، ومبالغةً في عودة بصره إليه بقوَّة وشدَّة رؤية لم تكن له قبل الإلقاء، وهو أبلغ من أن يُقال: (فأبصر)، إذ إنَّ الأمر لمّا كان صعبًا طويلًا عليه ناسب أن يأتي التَّعبير بهذا الفعل المُمتدِّ. وذُكر الحالُ وهو كونه ﴿بَصِيرٗاۖ﴾؛ لأنَّ أبصر ربَّما يرى شيئًا وتغيب عنه أشياء أخرى لم يرها، فجاء بلفظِ ﴿فَٱرۡتَدَّ﴾ قويًّا ليناسب

(1) ابن عادل الحنبليّ، اللّباب في علوم الكتاب: 11/210.
(2) الرّاغب، المُفردات: (رجع).

قوَّة البصر وضياءه، ولبيانِ أنَّ الإبصارَ عاد كما كان، ولو قال: (فأبصر) لأفهم أنَّه أبصر دون إفادةِ أنَّ الإبصار عاد حديدًا ربما أقوى ممّا كان.

نكتةُ اختيارِ صيغة (فعيل): ﴿بَصِيرًا﴾:

اجتماعُ نورِ العينِ والعلمِ من جليلِ النِّعَمِ بعد زوالِ الهمِّ

جاء التَّعبير بصيغة (فعيل) دون اسم الفاعل في قوله تعالى: ﴿بَصِيرًا﴾، و"البصير على وجهيْن؛ أحدُهما: المُختصُّ بأنَّه يُدرك المبصَر إذا وجد، وأصله البصر وهو صحة الرّؤية، ويُؤخذ منه صفة مُبصر: راءٍ، والرّائي هو المدرك للمرئي والقديم راءٍ بنفسه، والآخر: البصير بمعنى العالِم، تقول منه: هو بصير وله به بصر وبصيرة؛ أيْ: عِلْم، والمُستبصر هو العالم بالشّيْء بعد تطلُّب العلم؛ كأنَّه طلب الإبصار مثل المُستفهِم والمُستخبِر المُتطلِّب للفهم والخبر، ولهذا يُقال: إنَّ اللّه بصيرٌ، ولا يُقال: مُستبصر"[1].

ونبيُّ اللّه يعقوب عليه السلام رأى وعلم حقيقة قميص ابنه يوسف، وأحاط بجميع أخباره من البشير، فلم يقتصر أمره على الرّؤية إذا عبَّرنا عنها بالصِّفة وهي (مبصر)؛ وإنَّما علِم عليه السلام بعدما رأى؛ فصار بصيرًا بجميع أحوال ابنه يوسف عليه السلام، وهو ما لم يكن موجودًا قبل مجيءِ البشيرِ، فحصل له البصر المحسوس، والبصر المعقول بحال الابن المحبوب.

بلاغةُ المحاوراتِ في الرَّبطِ بين المعاني السّابقة:

يقينٌ في الجنانِ يعكسُ عِظَمَ الإيمانِ

فُصلت جملة ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ﴾ عن سابقتها لشبه كمال الاتّصال على سبيل الاستئناف البيانيّ، كأن قائلًا قال: ماذا قال يعقوب عليه السلام بعد ردِّ بصره إليه؟ فكان الجواب: ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، فهو "جَوابٌ لِلْبِشارَةِ؛ لِأنَّها تَضَمَّنَتِ

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 83.

القَوْلَ، ولِذَلِكَ جاءَ فِعْلُ قالَ مَفْصولًا غَيْرَ مَعْطوفٍ لأنّه على طَريقَةِ المُحاوَراتِ، وكان بَقيَّةُ أبْنائِهِ قَدْ دَخَلوا فخاطَبَهُم بِقَوْلِهِ: ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾"[1]، فكان قوله: ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ﴾ ردًّا على قولهم: ﴿تَٱللَّهِ تَفْتَؤُاْ تَذْكُرُ يُوسُفَ﴾ [يوسف: 85]، وقوله: ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٨٦﴾ [يوسف: 86] إيماء إلى هذا.

غرضُ الاستفهام ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ﴾:

الاستفهام في قوله تعالى: ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ تقريريٌّ، أراد أن يُقرِّرهم بكونه يعلم عن اللّه ومن اللّه ما لا يعلمه هؤلاء الأبناء، وكونه مُطمَئنًّا مُتأكِّدا من حياة ابنه، وأنَّه لم يمُت. والمُراد بالتَّقرير هنا تقريرهم بشيء ثابت عنده على هيئة الاستفهام، إذ هو أوقع في النّفس، وأدلُّ على الإلزام مع وجود الحجَّة النَّفسيَّة الدّامغة لديه بحياة ولده وعدم موته.

الثِّقةُ الثّابتةُ في قلوبِ العبادِ راسخةٌ بما يُحقِّق الرَّشاد

ومن هنا نرى أنَّ يعقوب عليه السلام كان يُردِّد على أسماعهم دومًا علمه من اللّه ما لا يعلمونه، ولذا لم يَرِد التَّعبير بلفظ الخبر؛ لأنّه يُذكر مرَّة ثمَّ ينقطع تمامًا.

دلالة استعمال الفعل ﴿أَقُل﴾:

في قوله تعالى: ﴿أَقُل لَّكُمْ﴾ آثر النَّظم مفردةَ القولِ دون أن يقول: (أخبركم)، والقول يقتضي المقول بعينه، مفردًا كان أو جملةً، أو ما يقوم مقام ذلك؛ ولذلك تعدَّى تعدّيا مطلقًا ولم يتعدَّ إلى غير المقول، بينما الخبر هو القول الّذي يصحُّ وصفه بالصّدق والكذب، ويكون الإخبار به عن نفسك وعن غيرك، وأصله أن يكون الإخبار به عن غيرك، وما به صار الخبر خبرًا هو معنى غير صيغته؛ لأنَّه يكون على صيغة ما ليس بخبر[2]. ولمّا كان نبيّ اللّه يعقوب عليه السلام قد كرَّر لهم

الطُّمأنينةُ بوحي اللّه تعالى توزِّث القولَ الدّائمَ بتحقيقِ موعوده

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/53.

(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 37، 32.

بيان علمه عن الله تعالى كثيرًا، أجرى كلامه مَجرى القول بعكس الخبر الَّذي يُخبر الإنسان به مرَّة ولا يُكرره، فالقول ترادفٌ للحديث، والخبر لا تكرار معه؛ ولذا عبَّر بالقول؛ لأنَّ الأمر تردَّد كثيرًا في كلام يعقوب عليه السلام.

بلاغةُ الاحتراسِ بذكر الجارِّ والمجرور ﴿لَّكُمْ﴾:

لمُنكِرِ الحقِّ يومٌ يُعاتَب فيه وإن طالَ

ذُكِر الجارُّ والمجرورُ في قوله تعالى: ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ﴾ دون حذفِهما؛ لأنَّهم كانوا هم المخصوصين بالحديث والقول؛ أيْ: ألم أقل لكم لا لغيركم، وفيه احتراسٌ عن إهمالِ تنبيههم منه بتسجيل قوله لهم تكرارًا ومرارًا، وأنَّه لم يفتأ يقول لهم ذلك.

غرضُ التَّأكيد ﴿إِنِّيٓ أَعۡلَمُ﴾:

نفسٌ مطمئنَّةٌ واثقةٌ بموعود ربِّها

علَّل نبيُّ الله يعقوب عليه السلام التَّقرير بقوله: ﴿إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ مؤكَّدًا؛ لأنَّ قولهم قولُ مَن يُنكِر[1]. وكأنَّه عليه السلام نزَّلهم منزلةَ المُنكِرين؛ فأكَّد لهم الكلام، وحالُ المُنكِر يوجب التَّأكيد، ومن الممكن أن يكون التَّأكيد راجعًا إلى حال المُتكلِّم، وكاشفًا عن نفسيَّته المطمئنَّة الواثقة بموعود ربِّها.

علَّةُ التَّعبير بالمضارعِ ﴿أَعۡلَمُ﴾:

علمٌ لا ينقطع، ووصلٌ دائم بالله تعالى

جاء التَّعبير بالفعل المضارع في قوله تعالى: ﴿إِنِّيٓ أَعۡلَمُ﴾ للدّلالة على تجدُّد العلم واستمراره، مع استحضار الصّورة الماضية الَّتي تعكس أنَّه موصولٌ بالله تعالى وصلًا مستمرًّا لا ينقطع، وهذا يدلُّ على الامتنانِ أنَّه يعلم من الله تعالى علمًا لا ينقطع، وهو لا يكون إلّا لمن بلغ درجةً عاليةً من اليقين، ومنزلة رفيعةً من التَّحقيق.

دلالة ﴿مِنَ﴾:

علمُ الأنبياءِ مددٌ من الله تعالى

جاءت ﴿مِنَ﴾ في قولِه تعالى: ﴿إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ﴾ ابتدائيةً؛ أيْ: إنَّ علمَه يبدأُ من لدن الله ﷻ، فما عنده من علم هو من مدده تعالى له

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 10/214.

بوجود ابنه يوسف عليه السلام على قيد الحياة؛ بدليل مطالبته إيّاهم بالبحث عنه، وإذا كان العِلم مِنَ اللّه تعالى ابتداءً؛ فإليه الأمر انتهاءً.

دلالة لفظ الجلالة في: ﴿مِنَ ٱللَّـهِ﴾:

العلم الحقيقيّ النّورانيُّ لا يكون إلّا من الله تعالى

التَّعبير باسم الجلالة في قوله تعالى: ﴿إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾؛ لتربية المهابة في النُّفوس، والدَّلالة على كون العلم الحقيقيّ النّورانيِّ لا يكون إلّا منه، إلى جانب ما في ذِكره من التَّعظيم والتَّشريف والتَّبرُّك والتَّلذُّذ بذِكْره سبحانه.

دلالة ﴿مَا﴾:

البَوْنُ الشّاسِعُ بين عِلْمِ الضَّعيفِ الباهت، وعلمِ الواسعِ البسيط

﴿مَا﴾ في قوله تعالى: ﴿مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ اسمٌ موصولٌ بمعنى (الَّذي)، وجملة ﴿لَا تَعۡلَمُونَ﴾ صلته، والمُراد من مجيئها هنا تفخيمُ هذا العلم وتعظيمُه في كونه مُستمَدًّا من اللّه تعالى، فليس يُضاهي هذا العلمَ في صحته ونورانيَّته واتِّصاله وكماله علمٌ آخر، وفي استعمال ﴿مَا﴾ دون الاسم الموصول الظّاهر (الّذي) دلالةٌ على العموم، فإنَّه يعلمُ من اللّه تعالى ما علِموه الآن، وما أنبأهم به سابقًا، وما لا يعلمونه ممّا لا يتوقَّعون، وهذا دليلٌ على البَون الشّاسعِ بين علمِهم الضَّعيفِ الباهت، وعلمِه الواسعِ البسيط.

نكتة نفي العلم لا التّجهيل ﴿مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾:

لُطفُ الوالد بأبنائه تعليمٌ لهم رجاءَ الاسترشاد

نفى يعقوب عليه السلام عن أولاده عِلْمَ ما يَعلمه هو في قوله تعالى: ﴿مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾، دون أن يُثبت لهم الجهل قائلًا: (ما تجهلون)، وهذا يدلُّ على أدبٍ عالٍ منه عليه السلام، إذِ العلم هو الإحاطة الكاملة بالأشياء، وهو نقيضُ الجهل، أمّا الجهل فهو "خلوُّ النفس من العلم، هذا هو الأصل أو اعتقاد الشّيْء بخلاف ما هو عليه. أو فعل الشّيْء بخلاف ما حقّه أن يفعل، سواء اعتقد فيه اعتقادًا صحيحًا أم فاسدًا. والجهلُ تارةً يُذكر على سبيل الذَّمِّ، وهو الأكثر، وتارةً لا على سبيل الذّمِّ"[1]، ومن

(1) الرّاغب، المُفردات: (جهل).

هنا أراد يعقوب عليه السلام أن يحصُل العلمُ في نفوس أبنائه، ولذلك نفى عنهم العِلم، ولم يَنسبهم إلى الجهل لطفًا بهم وأدبًا منه، وأملًا في أن يتحلَّوا بمنهاج النُّبوّة الَّذي كان يتحلَّى به أخوهم يوسف عليه السلام.

نكتة التَّعبير بالمضارع في: ﴿تَعۡلَمُونَ﴾:

عِلم الأنبياء مُتجدِّدٌ وموصول

ورَدَ الفعل ﴿تَعۡلَمُونَ﴾ مضارعًا للدّلالة على تجدُّد هذا العلم واستمراره له عليه السلام، فإنَّ نفيَه عنهم إثباتٌ لهم، مع استحضار صورة تجدُّد عدم علمهم، وهذا واضح من أفعالهم الَّتي ارتكبوها.

اجتماعُ فنِّ الجناس والطِّباق في مُفردةِ العِلم:

بالنَّظر إلى لفظ العِلم فجناسٌ، وبالنظر إلى المعنى فطباقٌ

وقعَ فنُّ الجِناسِ والطِّباق في قوله تعالى: ﴿إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ بين فعلَيْن مضارعيْن؛ الأوَّل مُفرد وهو ﴿أَعۡلَمُ﴾، والثّاني جمع وهو ﴿تَعۡلَمُونَ﴾، وهو جناس اشتقاق من مادَّة واحدة هي مادة (علم).

كذلك وقع في هذيْن الفعليْن فنُّ طباق السَّلْب، حيث أثبت لنفسه عليه السلام العلمَ ثمَّ نفاه عنهم، فإذا نظرنا إلى لفظِ العلم وحدَه فهو جناس اشتقاق، وإذا نظرنا إلى المعنى فهو طباق سَلْب، ولو قال: (ما تجهلون) لتعيَّن الطِّباق، ومراعاةُ الألفاظ والمعاني في اصطلاحات البديع أوْلى من إهمال أحدِها، وهذا من بديعِ اجتماعِ فنونِ البديعِ في سياقٍ واحد.

نكتة حذف المفعول في ﴿مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾:

نعمُ الله الخاصَّةُ ببعضِ العبادِ لا يستطيعُها عمومُ العباد

يُحذف المفعول عند البلاغيّين إذا كان مقصدُ المتكلِّم وغرضه بيانَ وقوع الحدث فحسب دون النَّظر إلى الفاعل أو المفعول، أو يكون الغرض بيان الفاعل دون النَّظر إلى المفعول أو العكس، وفي قوله تعالى: ﴿مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ قصد يعقوب عليه السلام الحدثَ وهو العلم، والفاعل الخاصّ بهم وهو عدم علمهم، وذلك أنَّ مثلَ هذا العلمِ لا يكون إلّا للأنبياءِ، إلى جانب ما في حذفه من الإيجاز والاحتراز

عن ذكر ما هو معلوم، والتَّعميم وبيان سعة ما علمه من اللّه تعالى، والمُراد: "لا تعلمون ما خصَّني به تعالى من أنواع المواهب وهو عامٌّ لأخبار يوسف عليه السلام وغيرها وهو من التَّحدُّث بنعمة اللّه عليه"[1].

علَّةُ الفَصْلِ في: ﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا﴾:

لمُنكِر الحقِّ ندمٌ آتيه لا محالة

فُصلَ قوله تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا ٱسۡتَغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَآ﴾ عن السّابقِ لكونه استئنافًا بيانيًّا، وهو ما يُعرف بشبه كمال الاتِّصال، فكأنَّ سائلًا سأل: فما كان ردُّهم بعد ظهور الحقِّ؟ فكان الجواب: ﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا ٱسۡتَغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَآ﴾.

بلاغةُ الاستعارةِ باستعمال النِّداء بـ (يا):

تشبيه القريبِ بالمُنادَى البعيدِ الواقعِ في بئرٍ عميقٍ

نادى أبناء يعقوب عليه السلام أباهم بأداة النداء (يا) في قوله تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا ٱسۡتَغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَآ﴾ الدّالَّة على بُعد منزلة هذا المنادَى، وأنَّه رفيع القَدْر عظيم الشَّأن، فجُعل بُعد المنزلة ورفعتها كأنّه بُعدٌ في المكان، "﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا﴾ منادين بالأداة الّتي تدلّ على الاهتمام العظيم بما بعدها لما له من عظيم الوقْع"[2]، وفيها من الشُّعور بالنَّدمِ ما يُفصح عنه السّياق، إذ فيه تشبيههم بمَن وقع في بئرٍ عميقٍ، وهم ينادون من جوفِه بأعلى صوتِهم، فاستعمال هذه الأداة دلَّ على النَّدمِ والأوْبة، فيكون من بابِ تشبيه المُنادَى القريب بالمنادَى البعيد بقصد إيصال مضمون النِّداء، طلبًا للإنقاذ والإخراج، وهذا على سبيل الاستعارةِ التَّبعيَّة بالحرف.

غرضُ ذِكْر جملة النِّداء ﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا﴾:

طلبُ العطفِ والرَّحمةِ دلالةٌ على النَّدمِ والشَّفقة

نادى الأبناء أباهم بقولهم: ﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا ٱسۡتَغۡفِرۡ لَنَا﴾ دون أن يُقال: (قالوا استغفر لنا)، والطَّلب معلومٌ أنَّه متَّجهٌ إلى أبيهم يعقوب عليه السلام؛ فكان ذِكْر جملةِ النِّداءِ بقصد تحريك عاطفةِ الأبوّة "للعطف

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/214.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/214.

والشّفقة، وعلَّلوا ذلك بقولهم: ﴿إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ﴾"[1]. فجاء قولهم هذا تمهيدًا منهم لطلب النَّظر إليهم بالرَّحمة طمعًا في المغفرة.

غرضُ الأمر ﴿ٱسۡتَغۡفِرۡ لَنَا﴾ ودلالتُه:

إذا قويت رغبةُ الاستغفار تحقَّقت ولو طال الانتظار

معلوم أنَّ الأمر هو طلب الفعل على جهة الاستعلاء لكنَّه قد يخرج إلى معان مجازيَّة يقتضيها السّياق ويتطلَّبها المقام، وهو في قوله تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا ٱسۡتَغۡفِرۡ لَنَا﴾ مرادٌ به رجاء الاستغفار لذنوبهم في حقِّ أبيهم وأخيهم عليهم السلام، وهم هنا يُعلنون تذللهم وانكسارهم أمامه بسبب ما ارتكبوه، ومجيءُ الرَّجاءِ على صورة الأمر يعكس شِدَّة الرَّغبة في وقوع الاستغفار لهم.

دلالة السّين والتّاء في: ﴿ٱسۡتَغۡفِرۡ﴾:

لا يُلاذُ بأحدٍ مع وجودِ الوالدِ

السّين والتّاء إذا دخلتا على الفعل دلَّتا على الطَّلب، وأبناءُ يعقوب قد طلبوا منه عليه السلام المغفرة لذنوبهم من الله تعالى في قولهم: ﴿ٱسۡتَغۡفِرۡ﴾، قال ابن عطيَّة: "روي أن يوسف عليه السلام لمّا غفر لإخوته، وتحقّقوا أيضًا أنَّ يعقوب يغفر لهم، قال بعضهم لبعض: ما يُغني عنّا هذا إن لم يَغفرِ الله لنا؟! فطلبوا حينئذ من يعقوب أن يطلب لهم المغفرة من الله تعالى، واعترفوا بالخطأ، فقال لهم يعقوب: ﴿سَوۡفَ أَسۡتَغۡفِرُ﴾، فقالت فرقة: سوَّفهم إلى السَّحَر"[2].

نكتةُ حذفِ اسمِ الجلالة ﴿ٱسۡتَغۡفِرۡ لَنَا﴾:

تمامُ الحياءِ من الله تعالى الالتجاءُ إليه بالسِّترِ وإخفاءِ الحال

حُذف المفعول به وهو اسم الجلالة في قوله تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا ٱسۡتَغۡفِرۡ لَنَا﴾؛ إذِ المعنى: استغفر لنا الله تعالى؛ لأنَّ غرضهم بيانُ وقوع الاستغفار مع علمهم أنَّ الله تعالى هو الغافر لا غيره، وأمّا غفران البشر للبشر فإنَّما هو قبول العذر والعفو والصَّفح ورجعُ الأمور إلى خيارها. أمّا الله تعالى فهو الَّذي يمحوها حتَّى لا يُحاسب

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 3/280.
(2) ابن عطيّة، المُحرّر الوجيز: 3/280.

عليها العبد في أُخراه، فحُذف المفعول هنا إيجازًا لكونه معلومًا بدلالة الحال، وأيضًا فحذْف المفعول لغرض توجيه النُّفوس لإثبات فعل الاستغفار لأبيهم عليه السلام، فلمّا طلبوا من أبيهم الاستغفارَ كأنَّهم "صرّحوا بالذُّنوب دون الله، لمزيد اهتمامهم بها، وكأنَّهم غلب عليهم النَّظر إلى قهْره"[1].

دلالة حرف الجرّ: ﴿ٱسۡتَغۡفِرۡ لَنَا﴾:

استغفارٌ مخصوص لذنبٍ مخصوص

اللّام في قوله تعالى: ﴿ٱسۡتَغۡفِرۡ لَنَا﴾ للاختصاص؛ أيْ: خُصَّنا يا أبانا بالاستغفار لما جَنَته نفوسُنا، وما ارتكبناه فطلبوا منه تخصيصهم بهذا الاستغفار لمحو ما بدَرَ منهم عسى أن يكون هذا توطئةً لرحمة الله تعالى بهم، وهو ما يدلُّ على استشعارهم لعظيم خصوصِ ما صدر عنهم.

سرُّ التَّعبير بالذُّنوب من حيث المادّة:

الذَّنبُ تَبِعةٌ يُلاحقُ صاحبَه، ولا يمحوه إلّا استغفارٌ عريض

النّاظر في التَّعبير بمُفردة الذَّنب في قوله تعالى: ﴿ٱسۡتَغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَآ﴾، وهو ما طلبه إخوة يوسف عليه السلام لأبيهم اعترافًا منهم بذنوبهم، يجده أبلغ في الاستعمال من أن يُقال: (استغفر لنا خطايانا أو معاصينا)، إذ الذَّنب أقوى في ارتكابه من المعصية، وما فعله إخوة يوسف كان كبيرةً وجُرمًا عظيمًا بيوسف، وكذلك ما فعلوه مع أبيهم من التَّفريق بينه وبين ابنه وحزنه عليه، وسرُّ ذلك أنَّ الذَّنبَ هو التَّبِعَة الّتي تتبع الإنسان بعد معصيته وخطئه، فيُستعمل الذّنبُ في كلّ فعلٍ تُستوخم عقباه اعتبارًا بذنب الشَّيْء، ولهذا يُسمّى الذَّنْبُ تبِعةً، اعتبارًا لما يحصل مِن عاقبته[2]؛ فهم قد استشعروا ذلك، وعرفوا أنَّهم في طامَّةٍ كبرى، فطلبوا رفعَها بالاستغفارِ.

(1) القاسميّ، محاسن التَّأويل: 6/219.
(2) الرّاغب، المُفردات: (ذنب).

نكتةُ الجمع في قولهم: ﴿ذُنُوبَنَآ﴾:

الإيماءُ إلى كثرةِ الذُّنوبِ وجهالةِ بعضِها للمخاطَب

وردت كلمة (ذنوب) جمعًا في قوله تعالى: ﴿ٱسۡتَغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَآ﴾ لتشمل كلَّ الذّنوبِ الصّادرة عنهم، ابتداءً من الذَّنبِ الكبير في إلقاء يوسف عليه السلام في غيابت الجُبّ، إلى اتِّهامه بالسَّرقة والتَّعريض ببنيامين، وما بينهما ممّا لا يعلم بحقيقةِ أمره إلّا اللّه تعالى، فطلبُ الاستغفار بالجمع يُراد منه الكثرة والعموم؛ أيّ: ما علمتَ وما لم تعلم، فبعضُ الذُّنوبِ مجهولةٌ لدى يعقوب عليه السلام.

فائدة إضافة (ذنوب) إلى ضمير الجمعِ:

ذنوبٌ تُطارد أصحابها فتُهلكَهم، أو يحظوا بمغفرة الله

ورد التَّعبير بإضافة الذُّنوب إلى أنفسهم في قوله تعالى: ﴿ٱسۡتَغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَآ﴾ اختصارًا وإيجازًا، وهو أوجز من أن يُقال: استغفر لفلان وفلان، وأيضًا لتعذُّر التّفصيل؛ أيّ: اغفر لنا ما فعلناه بأخينا من كذا وكذا، وبما ارتكبناه معك من جميع ما بدر منّا، إلى جانب ما في هذه الإضافة من تخصيص هذه الذُّنوب بهم لا تتعدّاهم إلى غيرهم، فهي ذنوبٌ مخصوصةٌ بهم.

غرض التَّوكيد في ﴿إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ﴾:

الاعتراف بالذَّنب شرط التّوبة وعزيمتُها الأولى

غرضُ التَّأكيد في قوله تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ﴾ هو توكيدُ الإنسان لنفسِه بقصد إظهار الحسرةِ والنَّدامة، فلمّا "سألوه الاستغفار لذنوبهم، علّلوه بالاعتراف بالذّنب؛ لأنَّ الاعترافَ شرطُ التَّوبة كما قال ﷺ: «إنّ العبد إذا اعترف بذنبه ثم تاب، تاب اللّه عليه»؛ فقالوا مؤكّدين تحقيقًا للإخلاص في التّوبة: ﴿إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ﴾؛ أيّ: مُتعمّدين للإثم بما ارتكبنا في أمر يوسف عليه السلام"[1].

دلالةُ ذِكْرِ لفظِ: ﴿كُنَّا﴾:

مجيء الفعل الماضي ﴿كُنَّا﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ﴾

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/214.

دلالة على تحقُّق وقوع الفعل وحصوله، وهو هنا خطؤهم الّذي ارتكبوه في حقِّ الابن والأب على السَّواء. ولو قيل: (إنّا خاطئون) فهو اعترافٌ منهم بثبوت هذا الخطأ فيما سبق، لكن التَّعبير بفعل الكينونة هو لبُّ الكلام وأساسُه، فهم يرمون إلى الفَعْلة الأولى والجُرم الأكبر الَّذي وقع سابقًا؛ لأنَّه الأساس الَّذي بُنيت عليه الكذبة، كما أنَّه هو الَّذي فتح البابَ لما هم فيه الآن، ودلَّ فعلُ الكينونة على العَمد والقصد لهذه الفَعلة الشَّنيعة، كما أنَّهم أرادوا من التَّعبير بهذا الفعل في صورة الماضي لصرف نظر أبيهم إلى أنَّ ما فعلوه صار في عداد الماضي، الَّذي لا يعود ممّا يصرف إلى طلب المغفرة لهم.

ملازمةُ الذُّنوبِ الأولى رداءةٌ في الحالِ ومقتٌ في المآل

سرُّ التَّعبير بقوله: ﴿خَٰطِـِٔينَ﴾:

الخطأ: هو العُدول عن الجهة والميل عنها، فيقع من الإنسان ما لا يُستحسن، وهو ممّا يُؤخذ به الإنسان ويُعاقب عليه لما يترتَّب عليه من أشدِّ الظُّلم ماديًّا ومعنويًّا، والخطأ أقلُّ حدَّةً مِنَ الذَّنب؛ لأنَّه مَنوطٌ بعدم القصد، ففي قولِهم: ﴿خَٰطِـِٔينَ﴾ يعتذرون بأنَّهم ما كانوا يقصدون أن يجلبوا كلَّ هذا الحزن على أبيهم وأخيهم، فقد سوَّل لهم الشّيطان أنَّها مرحلة ستمرُّ سريعًا، ثم ينسى والدهم وتعود الأمور إلى طبيعتها، لكن هيهات هيهات، ثم إنَّهم يطلبون المغفرة من اللّه تعالى فناسب ذِكْر الخطيئة؛ لأنَّ الخطيئة ما كانت بين الإنسان وبين اللّه تعالى.

الذُّنوبُ لا تُحدَّدُ بتقديرِ الإنسانِ بل بتعيينِ الشَّرعِ والوحي

وفي ذِكْر الخطيئة بعد الذَّنب بيانٌ أنَّهم أتَوا ذنبًا عظيمًا لكنَّهم لم يقصدوا تلك العَظَمةَ، فهم مجرَّد خاطئين، فقد يقترف الإنسانُ ذنبًا أكبرَ من فهمِه، وأعظم ممّا توقَّعه.

دلالة التَّعبير باسم الفاعل ﴿خَٰطِـِٔينَ﴾:

التَّعبير باسم الفاعل عمومًا دالٌّ على الثّبوت والدَّوام والاستمرار،

عجّل بالرُّجوع حتّى لو عكفت على المعصية أزمانًا

وهذا الخطأ في قوله تعالى: ﴿خَٰطِـِٔينَ﴾ ثبت منهم، وقد استمرّوا عليه تدليسًا وكذبًا في تلطيخ قميص يوسف بالدَّم واتِّهام الذّئب بأكله، ومع أبيهم بإخفاء أمر يوسف تمامًا عنه دون مراعاة لحالة الأب المكلوم، وعدم الاعتراف بما فعلوه هذا الزَّمن الطّويل ظنًّا منهم أنَّ أثر أخيهم قد انقطع البتَّة ولا أمل فيه، فالتَّعبير باسم الفاعل يدلُّ على ما رأوه بعد مرور هذا الزَّمن الطَّويل، فعلموا أنَّهم كانوا خاطئين مدَّةً طويلةً من الزَّمانِ.

علَّةُ فَصْلِ الجملةِ ﴿قَالَ سَوْفَ﴾:

هكذا هي قلوب الآباء مليئةٌ رحمةً وإباءً

فُصلت هذه الجملة: ﴿قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيٓ﴾ عن سابقتها لشبه كمال الاتِّصال؛ أيْ: الاستئناف البيانيّ، كأن قائلًا سأل: ما كان ردُّ أبيهم عليهم لمّا طلبوا منه أن يستغفر لهم؟ فجاء هذا الجواب منه عليه السلام: ﴿قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيٓ﴾.

فائدةُ إيثار ﴿سَوْفَ﴾ على حرف السّين:

تربيةُ المُذنبِ وتأديبُه أولى من إجابته لما يعود عليه بالطُّمأنينةِ والرُّكون

﴿سَوْفَ﴾ حرفٌ يختص بالدُّخول على الفعل المضارع، ويُجرِّده عن معنى الحال إلى الاستقبال، وفي قوله تعالى: ﴿قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيٓ﴾ تنبيهٌ على أنَّ ما يطلبونه - وإن لم يكن حاصلًا الآن - سيكون فيما بعد، وفيه فائدتان:

الأولى: توكيدُ الاستغفارِ، حيث إنَّ يعقوب عليه السلام لا يستغفر بالقول المجرَّد، بل باستحضار القلب والدَّمع والالتجاء، لا سيَّما أنَّ الذُّنوبَ عظيمةٌ، فهي تحتاج إلى مزيدِ إخلاصٍ وإصرار في طلب الاستغفار، ولذلك هو ينتظر الوقت الّذي يراه مُلائمًا للاستغفار، هذا ما يقتضيه أمر الثِّقةِ بهذا الكريم ابن الكريم ابن الكريم.

الأخرى: تربيةٌ وتأديبٌ، فالعبد إن رأى أنَّ طلبَه قد استُجيب فورًا فإنَّه قد يستهين به، ويراه ذا مطلبٍ سريع، "ولعل التّسويف

على هذا ليزداد انقطاعهم إلى اللّه تعالى فيكون ذلك أرجى لحصول المقصود"[1].

دلالة التّعبير بالمضارع ﴿أَسْتَغْفِرُ﴾:

قلوب الآباء لا تملُّ الاستغفار لأبنائهم

الفعل المضارع في قوله تعالى: ﴿قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ﴾ يدلُّ على التَّجدُّد والاستمرار مع استحضار الصّورة الماضية في ذهن السّامع، ولهذا روي: أنَّه كان يستغفر لهم في كلِّ ليلة جمعة في نيِّف وعشرين سنة، فلم يستعجل في طلب المغفرة لأولاده والدُّعاء لهم وإنَّما أخَّر ذلك.

دلالة السّين والتّاء: ﴿أَسْتَغْفِرُ﴾:

مَن أدمن طَرْقَ البابِ سيُفتح له وإن تأخَّر الجواب

دخول السّين والتّاء على الفعل ﴿أَسْتَغْفِرُ﴾ يُراد به طلب الفعل ووقوعه إمّا الآن أو بعده، ويُلمح منهما توكيد الكلام وتقويته، قال ابن عاشور: "وإنَّما وعَدَهُم بِالِاسْتِغْفارِ في المُسْتَقْبَلِ إذْ قالَ: ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيٓ﴾؛ لِلدَّلالَةِ على أنَّهُ يُلازِمُ الِاسْتِغْفارَ لَهُم في أزْمِنَةِ المُسْتَقْبَلِ. ويُعْلَمُ مِنْهُ أنَّهُ اسْتَغْفَرَ لَهُم في الحالِ بِدَلالَةِ الفَحْوَى، ولَكِنَّهُ أرادَ أنْ يُنَبِّهَهُم إلى عِظَمِ الذَّنْبِ وعَظَمَةِ اللّه تَعالَى، وأنَّهُ سَيُكَرِّرُ الِاسْتِغْفارَ لَهُم في أزْمِنَةٍ مُسْتَقْبَلَةٍ. وقيلَ: أخَّرَ الِاسْتِغْفارَ لَهُم إلى ساعَةٍ هيَ مَظِنَّةُ الإجابَةِ"[2].

دلالة اللّام في: ﴿لَكُمْ﴾:

استغفارٌ مخصوص لذنبٍ مخصوص

اللّام في قوله: ﴿لَكُمْ﴾ أفادت الاختصاص إذ مقصدهم من الطّلب: أن يتضرَّع أبوهم عليه السلام إلى ربِّه بأن يستغفر لهم ذنوبهم وخطاياهم الّتي ارتكبوها، فهم المخصوصون بهذا الاستغفار، والمعنى: سأطلب من ربّي غفرانَ ذنوبِكم؛ لأنَّ غيركم لم يفعل أيَّ شيء يُلام عليه ويُؤخذ به.

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 13/56.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/54.

براعة التَّعبير بالرُّبوبيَّة في ﴿رَبِّيٓ﴾:

العفوُ نعمةٌ والمغفرةُ منَّةٌ، والأنسبُ بهما عنوانُ الرُّبوبيَّة

التَّعبير بلفظ الرَّبّ في قوله تعالى: ﴿سَوۡفَ أَسۡتَغۡفِرُ لَكُمۡ رَبِّيٓ﴾ دون اسم الجلالة مع تقدُّم ذِكْره في قوله تعالى: ﴿وَأَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ﴾ [يوسف: 86] هو الأنسب بالمقام؛ لأنَّه مقامُ طلبٍ للعفو والصّفح، وحصول العفو نعمة عظيمة من الخالق ﷻ، والقرآن استعمل (الرَّبّ) غالبًا في سياق ذِكْر النِّعم؛ لأنَّه مأخوذ من التَّربية، كما أنَّ من معاني الرَّبوبيّة: المُلك التّامّ المُطلق، وهو مُلك الله تعالى لإنشاء الأنفس باختراعها وتصريفها أتمّ التَّصريف من الإيجاد والإعدام والتّقليب من حال إلى حال في جميع الأمور من غير تعب، فهو وحده ﷻ الَّذي يملك العفو عنهم.

نكتة الإضافة إلى المتكلِّم في: ﴿رَبِّيٓ﴾:

مطالعة نعم الله تعالى تجعلك تفخر بإضافتك إليه سبحانه

أضاف يعقوب عليه السلام (الرَّبَّ) إليه في قوله: ﴿رَبِّيٓ﴾ تشريفًا وتعظيمًا للمُضاف إليه، واعترافًا بنعم الله تعالى عليه، ولم يُضفه إليهم كأن يقول: (ربكم)؛ لأنَّهم ما زالوا مذنبين خاطئين من وجهة نظره لم تُقبل توبتهم بعد، مع ما فيه مِنَ الإيماء إلى تشريفٍ خاصٍّ به، فهو ربّي الّذي أعبده ولا أعصي أمره.

علَّة فصل ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾:

تعليل المغفرةِ باختصاصِ الله تعالى بها

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ جملة تعليليّة لا محلّ لها من الإعراب، وفُصلت عن قوله: ﴿سَوۡفَ أَسۡتَغۡفِرُ لَكُمۡ رَبِّيٓ﴾ لكمال الاتِّصال، حيث جاءت مفسِّرة ومعلِّلة لبيان توقُّف الاستغفار عليه ﷻ لكونه هو الَّذي يملك العفو والصَّفح التّام لا أحد غيره يفعل ذلك.

غرض التَّوكيد في: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ﴾:

من شأنِ النَّفسِ المطمئنَّة دفعُ أوهامِ النَّفسِ اللَّوامة

وردت جملةُ ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ مؤكَّدة بجُملة من المؤكِّدات، وهي: (إنَّ)، وضمير الشَّأن، واسم إنَّ، وضمير الفصل ﴿هُوَ﴾، وتعريف

الطَّرفيْن أو الوصفيْن، والجملة الاسمية، مبالغة في كونه ﷻ هو الغفور الَّذي يغفر لعباده ذنوبهم لا أحد سواه، الرّحيم الَّذي يتولّاهم برحمته دون سواه، وورود هذا الكمِّ من المؤكِّدات على لسان يعقوب عليه السلام فيه تعظيمٌ لجلال اللّه تعالى، وقربٌ منه سبحانه، والمقصودُ بالتَّوكيدِ دفع الشُّعور بالإحباطِ والخوف الّذي يعيشه أبناؤه، فهو قد أنزلهم منزلةَ المُنكِر؛ لدفعِ علائقِ الشَّيطان عن نفوسِهم، وإنّما كان ذلك "تسكينًا لقلوبهم وتصحيحًا لرجائهم ليقوى أملُهم، فيكون تعالى عند ظنّهم بتحقيق الإجابة وتنجيزًا لطلبه"[1].

براعةُ اقتران اسمي ﴿ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾:

تقويةُ الأملِ جالبةٌ لحسنِ الظّنِّ في الله تعالى

قوله عليه السلام واصفًا ربَّه ﷻ بهاتيْن الصِّفتيْن ﴿ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾، أراد بهما سترَ الذّنوب الَّتي ارتكبوها، ثم يتولّاهم برحمته بقبول توبتهم فيكون قد أنعم عليهم وتفضَّل؛ ليُحسنوا الإقبالَ عليه، والتّوبة والإنابة بين يديه، فيكون ذلك أدّعى إلى تقوية أمَلِهم بمغفرة اللّه لهم، وذَكَر الرَّحيم بعد الغفور لتنزيلِه منزلةَ العلَّة من المعلول، فرحمتُه ﷻ هي سببُ مغفرته لعبادِه.

نكتةُ تقديم ﴿ٱلۡغَفُورُ﴾ على ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾:

التّخلية قبل التّحلية

المغفرة هي السّتر، يُقال: غفر له ذنبه؛ أيْ: ستره على صاحبه، فيستر الذّنب أولًا، ثم يأتي بعده الإنعام والإفضال بقبول توبة العبد، فتحلُّ عليه الرَّحمة، وترتيبُ الصفات ﴿ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ من باب التَّرقي من السّتر والمحو إلى الإنعام والتّفضُّل؛ فيكون من باب التّحلية قبل التّخلية.

بلاغةُ اختلافِ الصّيغ:

بُنيت صفةُ الغفور على وزن (فعول) صفةً مُشبَّهة أفادت المبالغة

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/215.

الصِّدقُ في الإقبال عليه سبحانه جنيّ لمغفرته ورحمته

في الغفران، وستر الذُّنوب ومحوها، والرَّحيم جاء على وزن (فعيل) صفةً مُشبَّهة أيضًا أفادت المبالغة في رحمته وإنعامه وتفضُّله بقبول توبة هؤلاء والعفو والصَّفح عنهم لصدقهم في الإقبال عليه ﷻ.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيّةُ:

الرَّدّ والرَّجع:

الرَّدُّ مطلقُ صرفِ الشَّيءِ، والرّجع عودٌ إلى حالةٍ سابقةٍ

الرّدُّ والرَّجع من الألفاظ المتشابهة في معناها، والفرق بينها دقيقٌ يكاد يخفى على الكثير، حتَّى فُسِّر الرَّدُّ بالرَّجعِ والرَّجعُ بالرَّدِّ، "ثم ربَّما استُعملت إحدى الكلمتيْن موضع الأخرى لقُرب معناهما"[1]، ويَكْمُنُ الفرق بينهما في أنَّ الرَّدَّ هو صرفُ الشَّيءِ بذاته، أو بحالةٍ من أحواله[2]، ويُلاحظ فيه السُّرعة والإجمال، بينما الرُّجوع هو عودٌ إلى الحالةِ السّابقة بخطواتِها تفصيلًا.

وقد سُمّيَ المُرْتَدُّ لأنّه رَدَّ نَفْسَهُ إلى كُفْرِهِ، وهو عودٌ سريعٌ وبدون تفصيلٍ، وكذلك يُقالُ شاةٌ مُرِدٌّ وناقَةٌ مُرِدَّةٌ، وذَلِكَ إذا أضْرَعَتْ، كَأنَّها لَم تَكُنْ ذاتَ لَبَنٍ فرُدَّ عَلَيْها، أوْ رَدَّتْ هيَ لَبَنَها[3].

أمّا الرَّجع فتَقولُ: رَجَعَ يَرْجِعُ رُجوعًا، إذا عادَ. والرّاجِعَةُ: النّاقَةُ تُباعُ ويُشْتَرَى بِثَمَنِها مِثْلُها، والثّانيَةُ هيَ الرّاجِعَةُ. وقَدِ ارْتُجِعَتْ، وامْرَأةٌ راجِعٌ: ماتَ زَوْجُها فرَجَعَتْ إلى أهْلِها. والرَّجْعُ: رَجْعُ الدّابَّةِ يَدَيْها في السَّيْرِ. والمَرْجوعُ: ما يُرْجَعُ إلَيْهِ مِنَ الشَّيْءِ. والمَرْجوعُ جَوابُ الرِّسالَةِ[4]، فيُلاحظ في الرّجوع مزيد تفصيلٍ عن الرَّدِّ، فالرجوعُ هو رجوعٌ بالخطوات نفسِها، ولذلك قال الرّاغب: "الرُّجوعُ: العود إلى ما كان منه البدء، أو تقدير البدء مكانًا كان

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 117.
(2) الرّاغب، المُفردات: (ردَّ).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (رد).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (رجع).

أو فعلًا، أو قولًا، وبذاته كان رجوعه، أو بجزء من أجزائه، أو بفعل من أفعاله"[1].

الخطأ والمعصية:

الخطأ هو أن يَقصد أحدٌ الشّيءَ فيصيبُ غيرَه، ولا يُطلق إلّا في القبيح، فإذا قُيِّد جاز أن يكون حَسَنًا، مثل أن يقصد القبيحَ فيصيب الحَسن؛ فيُقال: أخطأ ما أراد وإن لم يأت قبيحًا، والخاطئ في الدّين لا يكون إلّا عاصيًا؛ لأنَّه قد زلّ عنه لقصده غيرَه[2]، فالخَطَأ هو العدول عن الجهة[3]، والخاطئ يوازي معنى العاصي في الشَّرع، فاستعمال اسم الفاعل في الخطأ لوحظ فيه معنى قصد المعصية، والمعصيةُ لا تكون إلّا في المَنهيِّ عنه، والعاصي هو الخارج عن الطّاعة، والخطأ هو خروجٌ عن الصَّواب.

الخطأ خروجٌ عن الصَّواب، والمعصية خروجٌ عن الطّاعة

(1) الرّاغب، المُفردات: (رجع).
(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 52.
(3) الرّاغب، المُفردات: (خطأ).

﴿فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَبَوَيۡهِ وَقَالَ ٱدۡخُلُواْ مِصۡرَ إِن
شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ٩٩ وَرَفَعَ أَبَوَيۡهِ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدٗاۖ
وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَٰيَ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّٗاۖ وَقَدۡ
أَحۡسَنَ بِيٓ إِذۡ أَخۡرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجۡنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلۡبَدۡوِ مِنۢ
بَعۡدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بَيۡنِي وَبَيۡنَ إِخۡوَتِيٓۚ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٞ لِّمَا يَشَآءُۚ
إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ١٠٠﴾ [يوسف: 99 - 100]

مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِما قَبْلَهُما:

الانتقالُ من ردِّ البصر والاستغفار إلى ردِّ الأهل والاستبصار

بعد حديث الآيات السّابقة عن مجيءِ البشير وإلقاء القميص على وجه يعقوب عليه السلام، واستغفاره لأبنائه، انتقل السّياق إلى مشهدٍ جديدٍ من مشاهد القصَّة، وهو مشهد الانتقال إلى مصر ودخولهم على يوسف عليه السلام في عزِّ سلطانه وبهاء ملكه، وقد تحقَّقت رؤياه الَّتي ذَكَرها لأبيه يوم أن كان طفلًا صغيرًا، فاجتمع شملُهم بعد تفرُّقٍ وحلَّ بهم الأُنس بعد الحُزن والكَدَر، واللّه غالب على أمره.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ءَاوَىٰٓ﴾: أصلُ (أوى) يدلُّ على التَّجَمُّعُ. قالَ الخَليلُ: يُقالُ: أوَى الرَّجُلُ إلى مَنْزِلِهِ وآوَى غَيْرَهُ أويًّا وإيواءً[1]. والإيواءُ: جعلُ الغَيْر آويًا؛ أيْ: راجعًا إلى مَكانِهِ حَيْثُ فارَقَ، فيؤول مَعْناهُ إلى الحِفْظِ والرِّعايَةِ[2]. والمَأْوَى: مَكانُ كُلِّ شَيْءٍ يُؤْوَى إلَيْهِ لَيْلًا أوْ نَهارًا. والتَّأوّي: التَّجَمُّعُ، يُقالُ: تَأوَّتِ الطَّيْرُ: إذا انْضَمَّ بَعْضُها إلى بَعْضٍ[3]. والمُرادُ بالإيواء في الآية: الضَّمُّ والانحيازُ[4].

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (أوى).
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/320.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (أوى).
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/320.

2) ﴿ٱلۡعَرۡشِ﴾: أصْلُ (عرش) يَدُلُّ على ارْتِفاعٍ في شَيْءٍ مَبْنِيٍّ، يُقال: عَرَشْتُ الشَّيْءَ وعَرَّشْتُهُ، أعْرُشُهُ، تَعْرِيشًا؛ أيْ: رَفَعْتُهُ، ومِنْهُ العَرِيشُ، وهو: بِناءٌ يُرْفَعُ يُسْتَظَلُّ بِهِ[1]؛ وسمّي مجلس السّلطان عَرْشًا اعتبارًا بعُلوّه[2]، والعَرْش: اسْمٌ لِعالَمٍ يُحيطُ بِجَميعِ السَّماواتِ، سُمّي عَرْشًا لأنّه دالٌّ على عَظَمَةِ اللّه تَعالَى كما يَدُلُّ العَرْشُ على أنَّ صاحِبَهُ من المُلوكِ. والمقصود بالعرش في الآية: سَريرٌ لِلْقُعودِ فيَكونُ مُرْتَفِعًا، وفيهِ سَعَةٌ تُمَكِّنُ الجالِسَ مِنَ الاتِّكاءِ[3].

3) ﴿وَخَرُّواْ﴾: أصلُ (خرّ): أصْلٌ واحِدٌ، وهو اضْطِرابٌ وسُقوطٌ مَعَ صَوْتٍ. فالخَريرُ: صَوت الماء والرّيح والعُقاب وغير ذلك ممّا يسقط من عُلوّ[4]. وخَرَّ للّه ساجِدًا يَخِرُّ خُرورًا؛ أيْ: سَقَطَ سقوطًا يُسمَعُ منه خَريرٌ[5]. والمُراد بالخُرورِ في الآية: الهويُّ من عُلوٍّ إلى الأرْضِ خضوعًا.

4) ﴿سُجَّدٗا﴾: أصلُ (سجد) أصلٌ واحِدٌ مُطَّرِدٌ يَدُلُّ على تَطامُنٍ وذُلٍّ. يُقالُ سَجَدَ، إذا تَطامَنَ. وكُلُّ ما ذَلَّ فقَدْ سَجَدَ. وأسْجَدَ الرجلُ إذا طَأطَأ رأسَهُ وانحَنى، وسَجَدَ إذا وضعَ جَبهتَهَ بِالأرْضِ[6]. وجعل ذلك عبارة عن التّذلّل للّه وعبادته، وهو عامٌّ في الإنسان، والحيوانات، والجمادات، وذلك ضربان: سجود باختيار، وليس ذلك إلّا للإنسان، وبه يستحقّ الثّواب، نحو قوله: ﴿فَٱسۡجُدُواْ لِلَّهِ وَٱعۡبُدُواْ ۩ ٦٢﴾ [النّجم: 62]. وسجود تسخير، وهو للإنسان، والحيوانات، والنّبات، وعلى ذلك قوله: ﴿وَلِلَّهِ يَسۡجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا وَظِلَٰلُهُم بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ ۩ ١٥﴾ [الرّعد: 15][7]. والمَساجِدُ: السُّجودُ ومَواضِعُه من الجَسَدِ والأرْضِ، الواحِدُ: مَسْجِدٌ[8]. والإسجاد: إدامة النّظر مَعَ سُكون[9]، والمقصود بالسّجود في الآية: وضْعُ الجَبْهَةِ على الأرْضِ بقصد التَّحية، إذ كان السُّجودُ تَحيَّةَ المُلوكِ وأضْرابِهِمْ[10].

(1) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة: (عرش).
(2) السّجستانيّ، غريب القرآن، ص: 335، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن عبّاد، المحيط في اللّغة: (عرش).
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/56، و30/249.
(4) ابن سيدَه، المُحكَم، والرّاغب، المُفردات: (خرَّ).
(5) الجوهريّ، الصّحاح، وابن منظور، لسان العرب: (خرَّ).
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سجد).
(7) الرّاغب، المُفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحُفّاظ: (سجد).
(8) ابن سيدَه، المُحكَم: (سجد).
(9) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة: (سجد).
(10) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/228.

5) ﴿تَأۡوِيلُ﴾: أصْلُ الكلِمَةِ: الإرْجاعُ، كَقَوْلِكَ: أوَّلَ الشَّيْءَ إلى أهْلِهِ؛ أيْ: أرْجَعَهُ ورَدَّهُ إلَيْهِم، والأوْلُ: الرُّجوعُ[1]. والمَآلُ: مُنْتَهَى الشَّيْءِ ومَرْجِعُهُ ومَصيرُهُ وعاقِبَتُهُ. وقيل: أصْلُهُ التَّأْويلُ مِن الأوَّلِ وهو مُبْتَدَأُ الشَّيْءِ، ومنه سُمّيَ التَّفْسيرُ تَأْويلًا؛ لأنّ فيه إرْجاع الكَلام إلى ما يَحْتَمِلُهُ مِنَ المَعاني، أو إرْجاعهُ إلى بِدايَتِهِ. ومِن مَعانيه أيضًا: التَّقْديرُ. التَّأويلُ: الإيضاحُ والبَيانُ والتَّفْسيرُ، يُقال: أوَّلَ الكَلامَ إذا أوْضَحَهُ وبَيَّنَ معناهُ. ويأْتي بِمعنى الصَّرْفِ والتَّغْيير، يُقال: أوَلْتُهُ فتَأوَّلَ؛ أيْ: صَرَفْتُهُ فانْصَرَفَ[2]. والمقصود بالتَّأويل في الآية: تَوْضيحُ ما خَفيَ تَفْسيرُه من مَقْصِدِ كَلامٍ أوْ فِعْلٍ.

6) ﴿نَّزَغَ﴾: أصلُ (نزغ) كَلِمَةٌ تَدُلُّ على إفْسادٍ بَيْنَ اثْنَيْن. ونَزَغَ بَيْنَ القَوْم: أفْسَدَ ذاتَ بَيْنِهِم[3]. والنَّزْغُ: النَّخْسُ، وحَقيقَتُهُ: مَسٌّ شَديدٌ لِلْجِلْدِ بِطَرَفِ عودٍ أوْ إصْبَعٍ، فهوَ مَصْدَرٌ، ويُسْتَعارُ لاتِّصالِ القوَّةِ الشَّيْطانيَّةِ بِخَواطِرِ الإنسانِ تَأْمُرُهُ بِالشَّرِّ وتَصْرِفُهُ عَنِ الخَيْرِ[4]. والنّزَغُ أيضًا: الكَلام الَّذي يُغري بَين النّاس ويُسلِّطُ بعضهم على بعضٍ[5]. والمقصود بالنَّزغ في الآية: إدْخالُ الفَسادِ في النَّفْسِ.

❁ المَعْنى الإجْماليّ:

تُبيِّن الآياتُ مجيءَ يعقوب عليه السلام بجميع أهله وقت أن دخلوا على يوسف عليه السلام، وما جرى من ضمِّ أبويه، قال أكثر المُفسّرين: هو أبوه يعقوب وخالته (ليا) وكانت أمّه قد ماتت في نِفاس بنيامين، وقالَ: ﴿ٱدۡخُلُواْ مِصۡرَ﴾، قيل: المُراد بالدّخول الأوّل في قوله: ﴿فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ أرض مصر، وذلك حين استقبلهم، ثم قال:

مفارقة أرضٍ مُجدبةٍ موحشة إلى أرض كريمة مُخصِبة

(1) الخليل، العين، الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (أول).
(2) الجوهريّ، الصّحاح، والزّبيديّ، تاج العروس: (أول)، والجُرجانيّ، التّعريفات، ص: 72.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نزغ).
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/297.
(5) ابن سيدَه، المُحكَم، والسّمين الحلبي، عمدة الحُفّاظ: (نزغ).

﴿ٱدۡخُلُواْ مِصۡرَ﴾ يعني: البلد، وقيل: إنّه أراد بالدّخول الأوّل دخولهم مصر، وأراد بالدّخول الثّاني: الاستيطان بها؛ أيْ: ادخلوا مصر مستوطنين فيها إنْ شاءَ اللّه آمِنينَ، قيل: إن هذا الاستثناء عائد إلى الأمن لا إلى الدّخول، والمعنى: ادخلوا مصر آمنين إن شاء اللّه، وقيل: إنه عائد إلى الدّخول، فعلى هذا يكون قد قال ذلك لهم قبل أن يدخلوا مصر. ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيۡهِ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ﴾ يعني: على السّرير الّذي كان يجلس عليه يوسف، والرّفع: النّقل إلى عُلوٍّ، ﴿وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدٗاۖ﴾، يعني يعقوب وخالته وإخوته، وكانت تحية النّاس يومئذ السّجود، وهو الانحناء والتّواضع ولم يُرد به حقيقة السّجود من وضع الجبهة على الأرض على سبيل العبادة، وقال يوسف عندما رأى ذلك: ﴿يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَٰيَ مِن قَبۡلُ﴾، يعني هذا تصديق الرّؤيا الّتي رأيتُ في حال الصّغر، ﴿قَدۡ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّٗاۖ﴾ يعني: في اليقظة، وقوله: ﴿وَقَدۡ أَحۡسَنَ بِيٓ﴾ يعني أنعم عليّ، يُقال: أحسن بي وإليّ بمعنًى واحد، ﴿إِذۡ أَخۡرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجۡنِ﴾ إنّما ذكر إنعام اللّه عليه في إخراجه مِنَ السّجن وإن كان الجُبُّ أصعب منه استعمالًا للأدب والكرم لئلّا يخجل إخوته بعد أن قال لهم: ﴿لَا تَثۡرِيبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَۖ﴾ [يوسف: 92] ولأنّ نعمة اللّه عليه في إخراجه من السّجن كانت أعظم من إخراجه من الجُبّ، وسبب ذلك أن خروجه من الجُبّ كان سببًا لحصوله في العبوديّة والرّق وخروجه من السّجن كان سببًا لوصوله إلى المُلك، وقيل: إنّ دخوله الجُبّ كان لحسد إخوته، ودخوله السّجن كان لزوال التّهمة عنه، وكان ذلك من أعظم نعمه عليه، ﴿وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلۡبَدۡوِ﴾ يعني: من البادية، وأصل البدو هو البسيط من الأرض يبدو الشّخص فيه من بُعْدٍ، يعني: يظهر، والبدو خلاف الحَضَر، وكان يعقوب وأولاده أصحاب ماشية فسكنوا البادية، ﴿مِنۢ بَعۡدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بَيۡنِي وَبَيۡنَ إِخۡوَتِيٓۚ﴾، يعني: أفسد ما بيننا بسبب الحسد، وأصل النّزغ دخولٌ في أمر لإفساده. ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٞ لِّمَا يَشَآءُۚ﴾ يعني أنّه تعالى ذو لطف عالم بدقائق الأمور وخفيّاتها"[1].

(1) الخازن، لُباب التَّأويل في معالم التَّنزيل: 2/556، وما بعدها.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيّ:

دلالة الفاءِ الاختزاليَّة في: ﴿فَلَمَّا﴾:

الـقـرآنُ كـتـابُ اعتبارٍ لا كتابُ إخبارٍ

الفاء في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ تعقيبيَّةٌ دالَّة على السُّرعة، وهي عاطفة على محذوف تقديرُه: فرحل يعقوب عليه السلام بأهله أجمعين، وساروا حتَّى نزلوا على يوسف عليه السلام في أرض مصر، وفيها إرشادٌ إلى أنَّ القرآنَ هو كتابُ اعتبارٍ لا كتاب إخبار، حيث "طَوَى ذِكْرَ سَفَرِهِم من بِلادِهِم إلى دُخولِهِم على يوسُفَ عليه السلام إذْ لَيْسَ فيهِ مِنَ العِبَرِ شَيْءٌ"[1]، فإنَّ العبرةَ قد قصَّها القرآن وذَكَر أحداثَها، وحذفُ مثلِ هذه الجُمل لا يُؤثِّر في المعنى مطلقًا، وإنَّما يزيد من طلاوة النَّظم وحلاوته بحذف ما هو معلوم، كي لا يقع إطنابٌ وتكثيرٌ لا يريده القرآن.

دلالة استعمال ﴿فَلَمَّا﴾ الحينيَّة:

أعـظـمُ مشاهد الغائبين تكمُن فـــي لـحـظـات اللِّقاء

﴿فَلَمَّا﴾ ظرفيَّة حينيَّة أو رابطة لدخول آل يعقوب جميعًا على يوسف بضمِّه أبويه ورفعهما على سرير ملكه، فأفادت ﴿فَلَمَّا﴾ في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ وقت مجيئهم ودخولهم على يوسف عليه السلام، فهي تصويرٌ للمشهدِ بوقت الدُّخول فالإيواء؛ فإنَّ أعظمَ ما يكون في مشاهد الغائبين عن أحبَّتهم يكمُنُ في لحظات اللِّقاء.

نكتةُ الإيجاز في ﴿فَلَمَّا دَخَلُواْ﴾:

الـقـرآنُ يطوي الأسفارَ ويُبقي مـــا يـجـذب الأبصار

في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ إيجازٌ بديعٌ، وهو إيجازُ قَصْرٍ، حيث ذَكَر دخولَهم على يوسف عليه السلام مباشرةً، دون أن يذكر الإذن في الدُّخول، والمُراد: فلمّا وصلوا أرض مصر أُذن لهم بدخولها؛ فدخلوها مع استقبال يوسف عليه السلام لهم أحسنَ استقبال، ونكتةُ ذلك بيانُ المقصد من الإيراد، دون العنايةِ بتفاصيلِه.

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 13/54.

بلاغةُ حذفِ المضافِ في الآية:

الأمورُ بمقاصدِها والأسرارُ بمطالبِها

في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ مجاز بالحذفِ، حيث إنَّ الدخولَ لا يكون على شخصِ يوسف عليه السلام، بل على مجلسِه أو عرشِه، فحُذِفَ المضافُ وذُكر المضاف إليه - وهو يوسف عليه السلام - لبيانِ أنَّه المقصودُ بالدُّخولِ، فهم أتوه هو من حيث هو، لا من حيث مَنصِبه، فحذْفُ المُضافِ مُرادٌ، فإنَّ النَّظر للمقصودِ، وتوجيه الأنظار للمطلوبِ، ولمّا كان الأمر كذلك، حصل الاستقرارُ، وتمَّ القرار لهم في تلك الأمصار.

فائدة جعل ﴿ءَاوَىٰٓ﴾ جواب ﴿فَلَمَّا﴾:

سرعةُ الإكرامِ لونٌ من الإكرام

وجود الفاء الدّالَّة على السُّرعة بارتحال يعقوب عليه السلام وأهله ودخولهم المباشر، والدّخول هو فعل الشَّرط لقولِه: ﴿فَلَمَّا﴾ الجزائيَّة الرّابطة، وجاء جوابُ الشَّرط ﴿ءَاوَىٰٓ﴾؛ أيْ: بمجرد دُخولهم آواهما، وهذا في غاية الإكرام والاعتراف بالجميل وتوقير الأبوَيْن ممّا كان له أكبر الأثر في سرعة لقائه بهما، وإنزالهما المنزلة اللّائقة بهما، وأدب الكبار كبير، وخُلق العظماء أعظم.

بلاغةُ استعمالِ الفعل ﴿ءَاوَىٰٓ﴾:

معانقةٌ حارَّةٌ، وإكرامٌ لائقٌ

والمقصود بالإيواء في قوله تعالى: ﴿ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَبَوَيۡهِ﴾ ليس فقط الضَّم، بل هو المعانقة الحارَّة والإكرام اللّائق، ولقاء القلوب والنُّفوس لقاء صادقًا، وفيه ضمٌّ بإحاطة وعناية وتقدير وعطف، كما أنَّ الإيواء يدلُّ على رعايةٍ خاصَّةٍ، وعنايةٍ فائقةٍ.

فائدةُ حرف الجرِ في: ﴿إِلَيۡهِ﴾:

انتهاءُ الغايةِ إيواءٌ وارتواءٌ

استعمالُ حرفِ (إلى) في قوله تعالى: ﴿ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَبَوَيۡهِ﴾ جاء دالًّا على انتهاءِ الغاية المكانيَّة؛ أيْ: ضمَّهما إلى المكان الَّذي هو فيه؛ فأنزلهما المنزلَ اللّائق بهما، وابتداءُ الغايةِ كان منذ دخولِهما، وإن قلنا إنّ الإيواء بدأ بإرسالِ القميصِ إلى أبيه فلن نتجاوز الحقيقة

بل هي الحقيقة، أو قد تدلُّ على المعيَّة؛ أيْ: جمعهما معه في مجلسِ عرشِه فأجلسهما عليه، والقول بدلالتِها على الغايةِ المكانيَّة هو الأوفق ببلاغةِ النَّظم، وظاهر الاستعمال.

سرُّ تغليب الأبوّة على الوالديَّة:

تغليبُ الأبِ في مقامِ التَّوقيرِ، والوالدة في مقامِ الإحسان

في قوله تعالى: ﴿ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَبَوَيۡهِ﴾ غلَّب ذِكرَ الأبويَّة على الوالديَّة، إذ المقام هنا مقامُ توقيرٍ، وفي مقام التَّوقير والتَّشريع يُغلَّب ذكرُ الأب، كما في قوله تعالى: ﴿وَلِأَبَوَيۡهِ لِكُلِّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ﴾ [النّساء: 11]، وفي مقام الإحسان يُغلَّب ذِكر الوالدة، كما في قوله تعالى: ﴿وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ حُسۡنٗاۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ فَلَا تُطِعۡهُمَآۚ إِلَيَّ مَرۡجِعُكُمۡ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٨﴾ [العنكبوت: 8]، وقوله تعالى: ﴿وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ حَمَلَتۡهُ أُمُّهُۥ وَهۡنًا عَلَىٰ وَهۡنٖ وَفِصَٰلُهُۥ فِي عَامَيۡنِ أَنِ ٱشۡكُرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيۡكَ إِلَيَّ ٱلۡمَصِيرُ ١٤﴾ [لقمان: 14].

نكتة إفراد الضّمير في ﴿أَبَوَيۡهِ﴾:

لا يتساوى في نيلِ المقاماتِ مَن تفاوتت بينهم المقالات

أُفرد الضَّمير العائد على يوسف عليه السلام دون أن يجمع فيعود على جميع الأبناء في قوله تعالى: ﴿أَبَوَيۡهِ﴾، فلم يَقُلْ: (أبويهم)؛ وذلك أنَّ الإكرامَ كان لأبويْه من حيث هما أبواه، وهذا عائدٌ في المآل إليه، ولو قال: (أبويْهم) لكان في ذلك تساوٍ بين يوسف عليه السلام وإخوته في هذه الحيثيَّة، وأنَّى لهم ذلك الشَّرف المروم، والمكان المعلوم، ففيه تعظيمٌ وتشريفٌ لقَدْره ومكانته ما ليس لهم، وهو الأنسبُ بمقامِ العدالةِ، والأليق بهيبةِ الفضل.

دلالة عطف: ﴿وَقَالَ ٱدۡخُلُواْ﴾:

الدُّخولُ دخولان دخول الضّيافةِ، ودخول الاستقرار

عُطفت هذه الجملة ﴿وَقَالَ ٱدۡخُلُواْ مِصۡرَ﴾ على الجملة السّابقة؛ لاتفاقهما في الخبريَّة لفظًا ومعنًى، إلى جانب اتِّفاقِهما في الغرض العام، وهو بيانُ كيفيَّة استقبال يوسف لأبويْه وأهله، وإظهار حفاوة استقباله لهم، "وكأنّه عليه السلام ضرب في المُلتقى خارج البلد مَضربًا،

فنزل فيه فدخلوا عليه فيه فآواهما إليه، ثم طلب منهم الدّخول في البلدة، فهناك دخولان: أحدهما دخولٌ عليه خارج البلدة، والثّاني دخول في البلدة، وقيل: إنّهم إنّما دخلوا ﷺ في مصر"[1]، وعلى هذا الأخير يكون دخولهم مصر هو في معنى الاستقرار؛ أيْ: دخلوا مصر باعتبارِهم ضيوفًا، ثم أُمروا بإدخالِهم دخول الاستقرار، وهذا الأقرب للصَّواب، ومجيءُ الفعل الواحد لمعنيَيْن باعتبارَيْن عادةٌ في القرآنِ معروفةٌ.

معنى الأمر في ﴿ٱدۡخُلُواْ مِصۡرَ﴾:

الأمر في قوله تعالى: ﴿ٱدۡخُلُواْ مِصۡرَ﴾ للاستقرار والتَّمكُّن؛ والمعنى: تمكَّنوا منها واستقرّوا فيها واستوطنوها، قال الزّمخشريّ: "فإن قلتَ: ما معنى دخولهم عليه قبل دخولهم مصر؟ قلتُ: كأنّه حين استقبلهم نزل لهم في مضرب أو بيت ثَمَّ، فدخلوا عليه وضمّ إليه أبويْه، ثم قال لهم: ﴿ٱدۡخُلُواْ مِصۡرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾، ولمّا دخل مصر، وجلس في مجلسه مستويًا على سريره، واجتمعوا إليه؛ أكرم أبويْه فرفعهما على السّرير"[2].

الاستقرارُ في مصر بدايةُ مرحلةٍ جديدةٍ لبني يعقوب

فنُّ الجناس: ﴿دَخَلُواْ﴾ ﴿ٱدۡخُلُواْ﴾:

ورد الجناس بين فعليْن؛ أحدهما ماضٍ وهو ﴿دَخَلُواْ﴾ دلَّ على تحقُّق وحصول ووقوع الدُّخول، والثّاني ﴿ٱدۡخُلُواْ﴾ أمرٌ دالٌّ على مستقبل هذا الدُّخول، وهو جناسُ اشتقاق من مادَّة واحدة هي (دخل)، وهذا ممّا يُكسب الألفاظ دقّتها ورونقها، ويُكسبها جَرْسها الخاصَّ بها.

يكفيك أن تدخل على الكرام فتحظى بالإكرام

بلاغةُ الاحتراس في: ﴿إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾:

جملة ﴿إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ اعتراضيَّة دُعائيَّة لا محلَّ لها من الإعراب،

الإذنُ الحقيقيُّ لله تعالى

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 13/57.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 13/57.

وهي "تَأَدُّبٌ مَعَ اللّه كالاِحْتِراسِ في الدُّعاءِ الوارِدِ بِصيغَةِ الأمْرِ وهوَ لِمُجَرَّدِ التَّيَمُّنِ، فوُقوعُهُ في الوَعْدِ والعَزْمِ والدُّعاءِ بِمَنْزِلَةِ وُقوعِ التَّسْميَةِ في أوَّلِ الكَلامِ"[1].

سرُّ إيثار لفظِ ﴿ءَامِنِينَ﴾ على (سالمين):

الأمنُ أصل كلِّ متعة نفسيَّة وماديَّة

آثر النَّظم الكريم استعمالَ مُفردة الأمن دون السَّلامة في قوله تعالى: ﴿ءَامِنِينَ﴾؛ وعليه فالأنسب في أمره بالدُّخول الدّعاء بالأمان، إذْ هو الأحقُّ بالاستعمال هنا، ومعناه وأساسه هو المُراد لما هم عليه، فتقييدُ "الدُّخولِ بِآمِنينَ وهوَ مَناطُ الدُّعاءِ، والأمْنُ: حالَةُ اطْمِئْنانِ النَّفْسِ وراحَةِ البالِ وانْتِفاءِ الخَوْفِ من كُلِّ ما يُخافُ مِنْهُ، وهوَ يَجْمَعُ جَميعَ الأحْوالِ الصّالِحَةِ لِلْإنْسانِ مِنَ الصِّحَّةِ والرِّزْقِ ونَحْوِ ذَلِكَ"[2]، أمّا السَّلامة فهي التَّعرّي من الآفات الظّاهرة والباطنة[3].

دلالة الواو ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ﴾:

بعد أن تحظى بالأمن يأتي كمال النِّعم

الواو في قوله تعالى: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ عاطفة هذه الجملة على قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱدْخُلُواْ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾، قال البقاعيّ: ولمّا ذَكَر الأمن الّذي هو ملاك العافية الّتي بها لذّة العيش، أتبعه الرِّفعة الّتي بها كمال النّعيم، فقال: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ﴾؛ أيْ: بعدما استقرّت بهم الدّار بدخول مصر مُستويين ﴿عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾؛ أيْ: السّرير الرّفيع"[4].

سرُّ التَّعبير بالرَّفع لا بالإقعادِ:

الرَّفع تصويرٌ للواقعِ وإيماءٌ إلى الرِّفعة

آثر النَّظم استعمالَ (الرَّفع) وهو النَّقل إلى عُلوٍّ في قوله تعالى: ﴿وَرَفَعَ﴾ دون أن يقول: (وأقعد)، إذْ فيه تقريبُ الشَّيْء وإذاعته وإظهاره، ولمّا كان المقامُ مقامَ تكريمٍ وتشريف؛ فقد أجلس يوسفُ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 13/55.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 13/55.
(3) الرّاغب، المُفردات: (سلم).
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/215.

عليه السلام أبويْه على سرير المُلك بعد استوائهم جميعًا عليه، فالرَّفع على العرش تصويرٌ لأمرٍ محسوس، إذِ العرش مرتفعٌ، وهو كذلك إيماءٌ إلى أمرٍ معقول وهو الرِّفعة، وهذا لا يكون في القعود، إذ يكون عن قيام، ولا يحمِل معنى الرِّفعة.

نكتةٌ إظهار ما حقُّه الإضمار:

ورد التَّعبير بذكر الأبويْن في قوله تعالى: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ دون أن يقول: (ورفعهما) وحقُّهما الإضمار، وهذا من باب الإطناب زيادة في توضيح المعنى وتقريره في نفوس السّامعين مبالغة في إكرامهما وبيان علو شأنهما، وبيان أنَّ وصْلَ يوسف بهما بعد انقطاع عنهما كان من أجَلِّ النِّعم؛ ولذا أنزلهما المكان اللّائق بهما من التَّشريف والتّعظيم، ومن ثَمَّ لم يطوِ ذِكْرهما.

من مظاهرِ الإكرامِ تَكرارُ الإفصاح

بلاغة حرف الاستعلاء: ﴿عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾:

علا الشّيء عُلوًّا: استعلى عليه، واستقرَّ استواء المُطمئنّ المُتمكِّن لا القلق المتحرِّك، ولمّا كان المقام مقام تكريم وعلوٍّ؛ فقد عبَّر بحرف الجرِّ ﴿عَلَى﴾ في قوله تعالى: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ المفيد للعُلوِّ الحقيقيّ تكريمًا لهما، وللإيماءِ إلى أنَّ رفعَهما هو رفعٌ ثابتٌ مستقرٌّ لا مؤقت زائل، كما أنَّ هذا الحرف أفاد معنى الفوقيَّة؛ أيْ: رفعهما فوق العرش، لإعطائهما صفة الفوقيَّة.

الرَّفع ثابتٌ لا يزول والرِّفعة ماكثةٌ لا تحول

معنى التَّعريف في لفظ ﴿ٱلْعَرْشِ﴾:

العرش هو سرير المُلك المُعدُّ لقعود يوسف عليه السلام ويكون مرتفعًا؛ لأنَّ العرش كلُّ ما عُرِّش وكان صالحًا للجلوس، وفيه سَعة تُمكِّن الجالس مِنَ الاتكاء، والتَّعريف هنا للعهد، وهو عهد صريح لكون هذا العرش معهودًا لدى جميع الملوك.

عرشٌ جلس عليه أهله ومستحقّوه

دلالة الواو في: ﴿وَخَرُّواْ﴾:

الواو في قوله تعالى: ﴿وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدًاۖ﴾ حاليَّة مبيِّنة للحالة الَّتي

السُّجود سجودُ توقيرٍ لا سجود عبادة

قام بها أبواه وإخوته، حيث سجدوا له، فلا تُفيد الواو هنا ترتيبًا؛ أيْ: لم تُرتِّب خُرورهم سجَّدًا بعد الرَّفع على العرش، قال ابن عاشور: "والأحْسَنُ أنْ تكونَ جُمْلَةُ ﴿وَخَرُّواْ﴾ حاليَّةً؛ لِأنَّ التَّحيَّةَ كانتْ قَبْلَ أنْ يَرْفَعَ أبَوَيْهِ على العَرْشِ، على أنَّ الواوَ لا تُفيدُ تَرْتيبًا. و﴿سُجَّدًاۖ﴾ حالٌ مُبَيِّنَةٌ؛ لِأنَّ الخُرورَ يَقَعُ بِكَيْفيّاتٍ كَثيرَةٍ"[1].

بلاغةُ الاستعارةِ بـ (الخُرور):

تشبيه نزولهم للسّجودِ بخُرورِ المـاءِ سرعةً وصوتًا

الخرور هو اضطراب وسقوط مع صوت، ومنه: خرير الماء؛ أيْ: صوته، وخرَّ الماء الأرض إذا شقَّها، وعُبِّر بقوله تعالى: ﴿وَخَرُّواْ﴾ دون أيِّ لفظٍ آخر، لأنَّ الخرورَ مُشعرٌ بالإتيان بالسُّجود على أكملِ الوجوه، وأجيبَ بأنَّ الخرورَ يُعنى به المرور فقط، وعلى كلٍّ فهو مبالغة في تكريمه وتعظيمه وإرجاع بعض حقِّه، كما أنَّ هذا الخرور يُصوِّر صوتَ الإسراعِ في السُّجود، وحالُهم كحال الماءِ السَّلِس، فخرورهم كخرورِ الماءِ، وفيه على ذلك استعارةٌ، حيث شبَّه نزولهم بالخُرور، على سبيل الاستعارة التَّصريحيَّة التَّبعيّة.

براعةُ الإطناب في: ﴿وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدًاۖ﴾:

الاحتراسُ عن التَّعبيرِ بما يُشعر بالسُّجودِ الحقيقيِّ

أفاد الإطناب في قوله تعالى: ﴿وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدًاۖ﴾ دون أن يُقال: (وسجدوا) احتراسًا من تشبيه خرورهم ساجدين بالسّاجدين حقيقةً لله تعالى، وأفاد كذلك التَّتميم للمبالغةِ في تصوير حالتهم الَّتي بُنيت على إكرامهم ليوسف عليه السلام، وتعظيمًا لقدره، ولو قيل: (سجدوا) لم تُفد معنًى زائدًا كما أفادته جملة: ﴿وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدًاۖ﴾ من إظهار عظم فضله وكرمه عليهم، خرّوا مُذعنين موقنين معترفين بما له من الفضل والمكانة عند الله تعالى.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/55.

دلالة اللّامِ في: ﴿وَخَرُّواْ لَهُۥ﴾:

نهايةُ الصّابر المحتسب إجلالٌ وإكرامٌ وتبجيلٌ وإنعام

اللّام في قوله تعالى: ﴿وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدٗاۖ﴾ لام الأجْل، والمعنى: خرّوا من أجله سجَّدًا، وهو سجود التَّحيةِ والتَّعظيم والتَّبجيل، والشُّكر لله تعالى حيث جمع شملهم، وتاب عليهم، وغفر ذنوبهم، وأعزَّ جانبهم، ووسَّع بيوسف عليهم، فخصّوه بمزيد تكريم وتشريف وتقدير.

نكتة اختيارِ صيغة جمع ﴿سُجَّدٗاۖ﴾:

التّائب المُستغفر يُسارعُ إلى التَّواضع بعد الكِبْر، والرِّضا بعد الحسد

اختير جمع ﴿سُجَّدٗاۖ﴾ بهذه الصّيغة دون أن يُقال: (ساجدين)، وهي حالٌ منصوبةٌ مبيِّنةٌ لهيئةِ سجود هؤلاء جميعًا، وجاءت بتشديد العين مبالغة لتُناسب الفعل ﴿وَخَرُّواْ﴾ الدّالّ على السّقوط من عُلوٍّ إلى أسفل، و﴿سُجَّدٗاۖ﴾ جمع تكسير يشمل أولي العلم وغيرَهم، وجمع السّلامة (ساجدين) يختصّ بأولي العلم، وإن وجد في غيرهم فبحكم الإلحاق والتَّشبيه، وأراد بجمع التّكسير هنا بيان هيئتهم لا دوام السّجود المُفاد من اسم الفاعل.

ونكتةُ اختيار هذه الصّيغة هو بيانُ سرعتهم في السُّجود وعدم الإباء، وأنَّهم في تمام الرِّضا وكامل الطُّمأنينة، وهو ما يدلُّ على أنَّهم تابوا عن استغفارٍ حقيقيٍّ، ولاذوا بالله تعالى بعد أن كان منهم ما كان.

دلالة الواو في: ﴿وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ﴾:

تأويل الرّؤيا هو وقوعها فعلًا وتحقُّقها واقعًا

الواو في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَٰيَ مِن قَبۡلُ﴾ عاطفة قوله عليه السلام مُتحدِّثًا بنعمة الله تعالى: ﴿يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَٰيَ﴾ موجّهًا كلامه لأبيه يعقوب عليه السلام، مشيرًا إلى أنَّ هذا السّجود هو تأويل الرّؤيا الّتي قصصتها عليك حال صغري، قد جعلها ربي حقًّا بعد مُضيّ الزّمن الطّويل، وهو ما يعكسُ فرحَه بما تحقَّق له، بسببِ نجاحه وفلاحه فيما قام به من صبرٍ واحتساب.

غرضُ النِّداءِ بأداةِ البعيد:

أدبٌ نبويٌّ في معرفة حقِّ الأُبوَّة

تستعمل (يا) النِّداء لنداء البعيد، أو مَنْ هو بمنزلة البعيد، وهو ما ذهب إليه كثير من العلماء، وقيل: إنَّها مشتركة بين نداء القريب والبعيد، ولكن غلب عليها نداء البعيد، وفي قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَبَتِ﴾ نُزِّل القريب وهو يعقوب عليه السلام منزلة البعيد لرِفعة قدره وعِظم شأنه، فصار بُعد المنزلة كأنَّه بُعدٌ في المكان، ولهذا ناداه بما يستحقُّ من الشَّرف والتَّقدير.

سرُّ التَّلطُّفِ في قوله: (أبَتِ):

الذِّكريات تحضرُ في اللَّفظِ والتَّعبير اللَّطيف

التَّعبير بهذا اللَّفظ (أبَتِ) تلذُّذ له بالخطاب بالأُبوّة[1]. إلى جانب ما فيه من التَّعطُّف وتقدير المنزلة، ويومئ إلى سرٍّ بديعٍ، وهو أنَّ يوسف عليه السلام لا يزال يستحضر الأيّام الخوالي الّتي كان يُنادي بها والدَه بهذا اللّطف والرِّقّة، فهو يعود بذاكرته إلى تلك الأيّام الّتي حُرِم منها من حنانِ الأبِ ورقّة التَّواصل.

نكتةُ الإشارة بالاسم ﴿هَٰذَا﴾:

الله يُؤيّد أنبيائه حتَّى فيما يرونه منامًا

عبَّر يوسف عليه السلام باسم الإشارة القريب ﴿هَٰذَا﴾ في قوله تعالى: ﴿هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَٰيَ مِن قَبۡلُ﴾ حين ذكر لأبيه قصَّة رؤياه الَّتي رآها قبل ذلك وأعادها عليه هنا مرَّةً أخرى بعد تحقُّقِها، والأصل في الإشارة أن تكون لمحسوس أو ما يُنزَّل فيها غير المحسوس منزلة المحسوس، تعظيمًا لشأنها وتحقُّق وقوعها، فاستعمل اسم الإشارة القريب وسيلةً لكونها حاضرةً أمامه الآن يراها عيانًا.

سرُّ إيثار ﴿تَأۡوِيلُ﴾ على (تعبير):

رؤيا تحقَّقت كفَلَق الصُّبح

تأويل الكلام هو عاقبته وما يؤول إليه، وعبَّر الرّؤيا تعبيرًا إذا فسَّرها، فهو يأخذ فيها من وجهٍ إلى وجه، كعابر سيل الماء ينتقل بين

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/216.

أمواجه، وما وقع مع يوسف ﷺ في قوله تعالى: ﴿هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَٰيَ مِن قَبۡلُ﴾ يناسبه استعمال التَّأويل؛ لصيرورة رؤياه إلى ما آلت إليه وعاقبتها سجودهم له جميعًا كما رآها أوّلًا، فهو تأويلٌ باعتبارِ وقوعها الآن، لا تعبير باعتبار وقوعها مستقبلًا.

نكتة تعريف ﴿رُءۡيَٰيَ﴾ بالإضافة:

رؤيا يوسف ﷺ جرت كالسِّرِّ الخاصِّ بين الأب وابنه

أُضيف لفظ الرُّؤيا إلى ضمير المُتكلِّم في قوله تعالى: ﴿هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَٰيَ مِن قَبۡلُ﴾ فعُرِّفت بالإضافةِ لا بأل، ونكتةُ ذلك إرادةُ خصوصِ تلك الرُّؤيا، فهي رؤيا مخصوصة جرت بين الوالد والولد سرًّا، فكأنَّه يقول هذا تأويل رؤياي الّتي بيني وبينك، رؤياي الّتي أخفيتُها عن إخوتي وعن جميع النّاس، رؤياي الّتي انتظرنا رؤيتها تأويلًا واقعًا، فكان التَّعريف لا لمجرَّد تعريفِها، بل لاستحضارِها بأنَّها رؤيا خاصَّة بينهما.

فائدة ذِكْر قيد ﴿مِن قَبۡلُ﴾:

حصولُ المُراد يُنسي طولَ البِعاد

أتى النَّظمُ بقيد ﴿مِن قَبۡلُ﴾؛ للدّلالة على قصر الزّمن الَّذي رآها فيه[1]، وقوله: ﴿مِن قَبۡلُ﴾ يجوز أن يتعلّق بـ ﴿رُءۡيَٰيَ﴾؛ أي: تأويل رؤياي في ذلك الوقت، ويجوز أن يكون العامل فيه: ﴿تَأۡوِيلُ﴾؛ لأنَّ التَّأويل كان من حين وقوعها هكذا، والآن ظهر له، ويجوز أن يكون حالًا من: ﴿رُءۡيَٰيَ﴾[2].

غرض التَّأكيد بحرف ﴿قَدۡ﴾:

رؤيا صادقة تحقَّقت بعد حينٍ

قوله تعالى: ﴿قَدۡ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّٗاۖ﴾ حالٌ من ﴿رُءۡيَٰيَ﴾، ويجوز أن يكون مُستأنفًا، قال ابن عاشور: "ومَعْنَى ﴿قَدۡ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّٗاۖ﴾ أنَّها كانتْ مِنَ الأخْبارِ الرَّمْزيَّةِ الَّتي يُكاشِفُ بها العَقْلُ الحَوادِثَ المُغَيَّبَةَ عَنِ الحِسِّ؛ أيْ: ولَم يَجْعَلْها باطِلًا من أضْغاثِ الأحْلامِ النّاشِئَةِ عَنْ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/216.
(2) ابن عادل الحنبليّ، اللّباب في علوم الكتاب: 11/215.

غَلَبَةِ الأَخْلاطِ الغِذائيَّةِ، أوِ الانْحِرافاتِ الدِّماغيَّةِ"[1]، فدلَّ التَّعبير بحرف التَّحقيق على تحقُّق رؤياه وصدقه فيها وحصولها.

نكتة إيثار ﴿رَبِّي﴾ على اسم الجلالة:

التَّعبير بالرَّبِّ في قوله تعالى: ﴿قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا﴾ فيه إشعار بالامتنان والرِّضا من صنيع ربِّه تعالى معه؛ لأنَّها مأخوذة من التَّربية والتَّعهُّد، فالله تعالى هو الَّذي ربّاه وتعهَّده في البئر والرِّق وغير ذلك، إلى أن أوصله إلى ما هو عليه، فالعبرة بمآلات الأحداثِ لا ببداياتها.

وصفُ الأحداثِ بالذَّمِّ أو المدح باعتبارِ مآلاتِها

بلاغةُ استعمالِ الحقِّ دون الصِّدق:

جاء ذكرُ الحقِّ لا الصِّدق في قوله تعالى: ﴿قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا﴾، فرآها يوسف عليه السلام صدقًا مطابقًا للواقع في الحسِّ، وهو الحقُّ الثّابت، والحقُّ هو الأمر الثّابت بوقوعه؛ وهو ما حدث مع يوسف عليه السلام، إذْ رأى رؤياه في صغره، ثمّ تحقَّقت وصدقت رؤياه في كبره حتَّى وفد عليه أبوه وإخوته ساجدين، فذِكر الحقِّ يُراد به أمران: صدق الوقوع، ومطابقة الوقوع، فلو قال: (صدقًا) لكان إخبارًا عن تحقُّقها، أمّا في ذِكر الحقِّ فهو إخبارٌ عن الوقوع مطابقًا، وهذا أعظم في تحقُّقها، وأعجب في وجودِها.

الحقُّ هو صدق الوقوع ومطابقة الوقوع

دلالة الواو في: ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِيٓ﴾:

الواو في قوله تعالى: ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِيٓ﴾ على سابقتها؛ جاءت لبيان كرم الله تعالى عليه وامتنانه بهذه العطاءات، واتفقت الجملتان في الخبريَّة، ومن ثَمَّ كان الوَصْل بينهما إذْ هما موضِّحتان فضل الله تعالى على نبيِّه يوسف عليه السلام، وحراسته، ومدى حفظه له.

عطاءات الله مُتنوِّعة وأفضاله مُتجدِّدة

غرضُ التَّأكيدِ بـ (قَدْ): ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ﴾:

تُعدُّ (قَدْ) من الحروف الَّتي لا تدخل إلّا على الفعل؛ فتدخل على

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/56.

الماضي لتُفيد التَّحقيق، أو التَّقريب، وعلى المضارع مفيدةً التّقليل أو التّكثير، وتكون للتّأكيد كما في قوله تعالى: ﴿وَقَدۡ أَحۡسَنَ بِيٓ﴾؛ لأنَّها منطقيَّة الأسباب، والمُراد: تأكيد تحقيق فضل الله تعالى على يوسف عليه السلام بعد أن حقَّق له رؤياه فصارت حقيقةً، بعد أن كانت مطويَّةً مع الزَّمن الطَّويل، إلى جانب ما حقَّقه له قبل ذلك وبعده.

نفسٌ زاد يقينُها وطمأنينتُها فأخرجتْ كلامَها مؤكَّدًا

دلالة الباءِ في: ﴿أَحۡسَنَ بِيٓ﴾:

الباءُ في قوله تعالى: ﴿وَقَدۡ أَحۡسَنَ بِيٓ﴾ تحتملُ معاني عدَّةً:

الأوّل: أنّها بمعنى (إلى)، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَحۡسِن كَمَآ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ﴾ [القصص: 77].

الثّاني: أنَّها على بابها، والمفعول محذوف تقديره: وقد أحسن صنعه بي[1]، وتعديته بالباء أدلُّ على القُرب من المُحسِن.

الثّالث: أن يُضمَّن الفعل ﴿أَحۡسَنَ﴾ معنى (لَطفَ)، كقوله تعالى: ﴿وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنًا﴾ [البقرة: 83][2].

الرّابع: باءُ ﴿بِيٓ﴾ لِلْمُلابَسَةِ؛ أيْ: جَعَلَ إحْسانَهُ مُلابِسًا لي.

والأوفق أن يُحمل معنى الباءِ على أصله، أو يُضمَّن معنى فعلٍ آخر، والقول بالتّناوب بعيدٌ، فلو أراد القرآن معنى (إلى) لذَكَرَها كما ذَكَرَها في آيةٍ أخرى، ودعوى التَّفنُّنِ من التَّفنُّنِ.

لطفُ اللهِ تعالى حاضرٌ في إحسانِه، وإحسانُه مُلابسٌ لعبادِه

معنى ﴿إِذۡ﴾ ودلالتها:

﴿إِذۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِذۡ أَخۡرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجۡنِ﴾ ظرفٌ لقوله: ﴿أَحۡسَنَ﴾، "وهيَ بإضافَتِها إلى ذَلِكَ الفِعْلِ اقْتَضَتْ وُقوعَ إحْسانٍ غَيْرِ مَعْدودٍ، فإنَّ ذَلِكَ الوَقْتَ كان زَمَنَ ثُبوتِ بَراءَتِهِ مِنَ الإثْمِ الَّذي رَمَتْهُ بِهِ امْرَأةُ العَزيزِ وتِلْكَ مِنَّةٌ، وزَمَنَ خَلاصِهِ مِنَ السَّجْنِ فإنَّ السَّجْنَ عَذابُ النَّفْسِ بِالانْفِصالِ عَنِ الأصْدِقاءِ والأحِبَّةِ،

ألمُ الفراقِ عن الأحبَّةِ يُؤذِن بالافتراقِ بنزولِ الإحسانِ

(1) العُكْبُريّ، التّبيان في إعراب القرآن: 2/59.
(2) ابن عادل، اللّباب: 11/216.

وبِخُلْطَةِ مَنْ لا يُشاكِلونَهُ، وبِشَغْلِهِ عَنْ خَلْوَةِ نَفْسِهِ بِتَلَقّي الآدابِ الإلَهيَّةِ، وكان أيْضًا زَمَنَ إقْبالِ المُلك عَلَيْهِ. وأمّا مَجيءُ أهْلِهِ فزَوالُ ألَمِ نَفْسانيٍّ بِوَحْشَتِهِ في الانْفِرادِ عَنْ قَرابَتِهِ وشَوْقِهِ إلى لِقائِهِم، فأفْصَحَ بِذِكْرِ خُروجِهِ مِنَ السِّجْنِ، ومَجيءِ أهْلِهِ مِنَ البَدْوِ إلى حَيْثُ هوَ مَكينٌ قَويٌّ[1]".

معنى ﴿مِنَ﴾ ودلالتها في الآية:

استدامة الشُّكر من رُقي النّفس ودأبها

وردت ﴿مِنَ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجْنِ﴾ دالَّةً على ابتداءِ الغاية، والمعنى: نجّاني من العبوديَّة، وجعل الملك مُطيعًا لي مفوِّضًا إليّ خزائن الأرض، وفي الاقتصار على التّحدّث بالخروج من السّجن على جلالة مُلكه، وفخامة شأنه من التّواضع، وتذكُّر ما سلف من الضّرّاء، استدامةً للشّكر، ما فيه من أدب النّفس الباهر، وفيه إشارة إلى النّعمة في الانطلاق من الحبس[2].

معنى التَّعريف في لفظ ﴿ٱلسِّجْنِ﴾:

الانطلاق من الحبس نعمة لا توازَن ومنَّةٌ لا تُقارَن

(أل) في لفظِ ﴿ٱلسِّجْنِ﴾ للعهد العِلميِّ أو الحضوريِّ، ومُرادٌ به السِّجن المعلوم لدى المصريّين جميعًا، وكان يُسمّى بسجن زاويره، والعهد العلميُّ أو الحضوريُّ ألّا يسبق للمعرَّف بـ (أل) ذِكرٌ البتَّة، لا صراحة ولا كناية، ولكن يُدرك المقصود من نظم الكلام، فلمّا ذُكر ﴿ٱلسِّجْنِ﴾ كانت (أل) هنا للعهد، وليس عهدًا صريحًا ولا كنائيًّا، ولكن نظم الكلام وسياقه قام بدوره في تحديد المُراد، فالمقصود ذِكر نعمة خروجه من ذلك السّجن.

براعةُ تقييد الإحسان بالإخراج من السّجنِ:

ذكر الجفاءِ وقتَ الصّفاءِ جفاءٌ

جاء ذِكر قيد الإحسان بقوله تعالى: ﴿إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجْنِ﴾ دون أن يذكر الإخراجَ من البئر، وذلك أنَّه ﷺ أراد أن يكون مترفِّعًا

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/56.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/56.

عن "لوم إخوته، وتكريمًا لهم، وحفاظًا على حيائهم، ولأنَّ السّجن كان آخر المحن، وأخطر من السّقوط في الجبّ لما فيه من اتّهام بالنّساء، ولأنَّه بعد خروجه من البئر صار عبدًا لا ملكًا، وصار بعد السّجن ملكًا، فكان الإخراج منه أقرب إلى الإنعام الكامل"[1].

فلم يُرِد ﷺ ذِكرَ ما حدث بينه وبين إخوته في الجُبِّ، حتى لا ينبش الماضي بآلامه، ولأنَّهم في ساعة صفاء، وذِكْر الجفاءِ وقتَ الصفاءِ جفاءٌ، كما أنَّ إخراجه مِنَ السِّجن إلى المُلك الرِّفعة أوضح وأظهر.

دلالةُ العطفِ في: ﴿وَجَآءَ بِكُم﴾:

الواو في قوله تعالى: ﴿وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلۡبَدۡوِ﴾ عاطفةٌ مجيئَهم على بيان إحسان اللّه تعالى عليه في إخراجه مِنَ السِّجن، وجمعِهِ بهم مرَّةً أخرى؛ فجاء "قوله: ﴿وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلۡبَدۡوِ﴾ معطوفًا على ما قبله تعديدًا لنعم اللّه تعالى؛ أيْ: ﴿وَقَدۡ أَحۡسَنَ بِيٓ﴾ ربّي حيث ﴿أَخۡرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجۡنِ﴾، وأحسن بي أيضًا حيث يسَّر لكم أموركم، وجمعني بكم في مصر، بعد أن كنتم مقيمين في البادية في أرض كنعان بفلسطين"[2].

اجتماعُ النِّعمِ يغمرُ المحن ويُبدِّد النِّقَم

معنى الباء في قوله: ﴿وَجَآءَ بِكُم﴾:

الباء في قوله تعالى: ﴿وَجَآءَ بِكُم﴾ للتَّعدية لوجود الفعل اللّازم ﴿وَجَآءَ﴾، "وتُسَمّى باء النَّقْل أيْضًا، وهي المعاقبة للهمزة في تصيير الفاعِل مَفْعولًا، وأكْثر ما تُعدّي الفِعْل القاصِر، تَقول في ذهب زيد: ذهبتُ بزيد، وأذهبتُه"[3]، وفيها بيان نعم اللّه تعالى وإفضاله عليهم جميعًا، فقد امتنَّ عليه بإخراجه مِنَ السِّجن، ثمَّ أتمَّ النِّعمة بجمع شملهم، فانتقل أهله مِنَ الشَّقاوة والقحط والبؤس إلى السَّعادة والنَّعيم وسُكنى الحاضرة.

الباء لتعدية الفعلِ في تصييرِ الفاعلِ مفعولًا

(1) الزّحيليّ، التّفسير المنير: 13/69.
(2) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 7/417.
(3) ابن هشام، مُغني اللّبيب، ص: 138.

دلالة إسناد المجيء ﴿وَجَآءَ بِكُم﴾:

الشُّكر لا يتحقَّق إلّا بذِكره سبحانه في كلِّ نعمةٍ وعند كلِّ منَّة

إسناد المجيء إلى اللّه تعالى في قوله تعالى: ﴿وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ﴾ فيه اعترافٌ بمزيد فضل اللّه عليه، حيث لم يَقُلْ: (جئتم) تأدُّبًا بنسبة الفعل إلى القادر الفاعل الحقيقيِّ، وهو اللّه تعالى المُتفضِّل عليه، والمُتمِّم لنعمته عليهم جميعًا، حيث جعله يتقلَّب في صنوف النِّعم، ولم يحجب عنه لطفَه وتوفيقه منذ صغره إلى أن أخرجه مِنَ الجبِّ وخلَّصه مِنَ العبوديَّة والسِّجن، وجعله عزيزًا على أهل مصر، وإحضار أهله له في مقرِّه ومَسكَنه، فهو يُسند النِّعمَ إلى صاحبِها الحقيقيِّ ﷻ.

معنى ﴿مِّنَ﴾ ودلالتُها الإيمائيَّة:

الإيماءُ إلى النِّعمِ يُغني عن التَّصريح بها

حرفُ ﴿مِّنَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ﴾ لابتداء الغاية في المعنى؛ لأنَّ ابتداء مجيئهم كان من البادية الّتي يقطنونها؛ فالبدء كان من أرض كنعان، والانتهاء كان في مصر حيث مُستقَرّ يوسف عليه السلام وحاشيته وأبنائه، فذكر ﴿مِّنَ﴾ يُشير إلى الانتهاءِ، ففيه إيماءٌ لطيفٌ يُغني عن التَّصريح بذِكْر نعمةِ الانتقالِ من حالٍ إلى أخرى خيرٍ منها.

بلاغة التَّعبير بـ ﴿ٱلْبَدْوِ﴾ دون البادية:

الانتقالُ من حياةِ البدوِ إلى حياةِ الحَضَرِ نعمةٌ باديةٌ ومِنَّة حاضرةٌ

جاء التَّعبيرُ في قوله تعالى: ﴿وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ﴾ دون أن يُقال: (البادية)، فالبدو يشمل المكانَ والسُّكّان، فهو انتقالٌ من حياةِ البادية بجميع تفاصيلِها، إلى حياةِ الحاضرةِ بجميعِ تفاصيلِها، ولو قال: (البادية) لاقتصر على المكان، ففيه تفصيلٌ للنِّعم الّتي انتقلوا إليها، وإظْهارٌ لِتَمامِ النِّعْمَةِ، لِأنَّ انْتِقالَ أهْلِ الباديَةِ إلى المَدينَةِ ارْتِقاءٌ في الحَضارَةِ.

معنى حرف الجر في قوله: ﴿مِنۢ بَعْدِ﴾:

﴿مِنۢ﴾ في قوله تعالى: ﴿مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ لابتداء الغاية

كسابقتها، مُبيِّنة نعمة اللّه تعالى وفضله عليه، دالَّة على أنَّ جميع العطايا والمنح الَّتي أصابته عليه السلام وتفضَّل اللّه عليه بها كان بدؤها وساوس الشّيطان، ونزغاته الَّتي أوقعها في قلوب إخوته يوم فعلوا به ما فعلوا، فما من محنة تحُلُّ بالعبد يرضى بها ويتصبَّر عليها إلّا صارت منحةً بدليل قوله لإخوته سابقًا: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٩٠﴾ [يوسف: 90].

في البلايا عطايا، وفي المِحَن منحٌ

دلالة ذِكر ﴿أَن﴾ في: ﴿أَن نَّزَغَ﴾:

﴿أَن﴾ حرف مصدريٌّ ناصب للمضارع في قوله تعالى: ﴿مِنۢ بَعۡدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾ للتّأكيد على وقوع النَّزغ من الشّيطان بين هؤلاء الإخوة، فلم يَقُلْ: (من بعد نزغ الشّيطان) فلو أُسقطت لذهب رونق النَّظم، وصار الكلام مُفكَّكًا لا ميزة له ولا روح فيه، كما أنَّها تُهيِّئ النَّكرة لتكون صالحةً للحديث عنها، كما يحذف معها الخبر لإغنائها عنه، وسياق كلام يوسف عليه السلام استدعى وجود ﴿أَن﴾ تأكيدًا على أنَّ ما وقع بينه وبين إخوته السّبب الرّئيس فيه هو نزغ الشّيطان.

الشّيطان الرَّجيم خلف كلِّ بليَّة ووراء كلِّ ضحيّة

بلاغة التَّعبير بالنَّزغِ دون الوسوسة:

ما فعله إخوة يوسف عليه السلام معه كان غضبًا منه وحسدًا عليه، حتَّى أحالوا مع أبيهم الحيل فأزعجوا أخاهم بما فعلوه معه من الضّرب والإهانة والإلقاء في الجُبِّ، بما لا تستطيع النَّفس السَّويَّة قبوله أو الرِّضا به، والّذي يناسبُ هذا المعنى هو لفظ النّزغ، فالنّزغ هو الإغواء بالوسوسة، وأكثر ما يكون عند الغضب، والنَّزغ يأتي بعد الوسوسة، فليس بالضَّرورةِ أن تتحقَّق الوسوسة بوقوعها، فكلّ نزغٍ وسوسة دون العكس، فالشّيطان يوسوس لكثيرين فلا يُفلح، أما النَّزغ فهو لفظ دالٌّ على تحقُّقِ الوسوسة.

النّزغُ ثمرةُ الوسوسة، والوسوسةُ مفتاحُه

بلاغةُ الاستعارةِ التَّصريحيَّة ﴿نَّزَغَ﴾:

في قوله تعالى: ﴿نَّزَغَ﴾ استعارة، حيث شبّه نزغ الشّيطان لهؤلاء

الإخوة بتحريكهم إلى الغضب والانتقام من أخيهم يوسف بنخس الدّابّة؛ لإثارتها وتحريك قواها إلى السَّير السَّريع، ثم صرَّح بالمُشبَّه به وهو النَّزغ، واشتقَّ منه الفعل ﴿نَّزَغَ﴾ بمعنى حرَّك بشِدَّة على سبيل الاستعارة التَّصريحيَّة التَّبعيَّة، والقرينة عقليَّة لاستحالة أن ينزغ الشّيطان حقيقة، وإنَّما يثير كوامن النَّفس بالغضب ليفسد بين الإخوة، ونكتةُ الاستعارةِ هي تصويرُ الشَّيطان براكبٍ يعلو الدّابة، وهو ينزغ بها ليُرديها إلى المهالك، وهي تتحرَّك دون مقاومةٍ أو شعورٍ بما ستؤول إليه.

تصويرُ الشّيطانِ براكبٍ يعتلي دابَّةً ليقودها إلى هلاكِها

معنى التَّعريف في لفظ ﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾:

جاء تعريف الشّيطان بأل العهديَّة، والعهد هنا علميٌّ حضوريٌّ؛ وذلك لأنَّه لم يسبق لهذا المُعرَّف بـ(أل) ذِكرٌ البتَّة لا صراحةً ولا كناية، ولكن لمّا ذكره يوسف عليه السلام عَلِمَ الجميع أنَّه السّبب المباشر في وقوع الإفساد بين الإخوة، وأضاف يوسف عليه السلام النَّزغَ إلى الشّيطان؛ لأنَّه سبب في الإفساد، هذا إلى جانب ما في هذه الإضافة من مزيد أدب ليوسف عليه السلام، وذلك لأنَّه نسب الفعل كلّه للشّيطان، وبرَّأ ساحةَ إخوته، ونفى عنهم التُّهمة، وهذا أدب لا نظير له.

الشَّيطان عَلَمٌ على مَن يوسوسُ بقصدِ الإفسادِ والتَّفريق

دلالةُ استعمال البينيَّة:

قوله تعالى: ﴿بَيۡنِي وَبَيۡنَ إِخۡوَتِيٓۚ﴾ من باب الإطناب لبيان قوَّة نزغ الشّيطان وما فعله من الإفساد بينهم جميعًا، وكان يمكن أن يكون التَّعبير (نزغ بيننا)، والمعنى تامٌّ كافٍ، إلّا أنَّ الأمر لمّا كان إنعامًا وتفضُّلًا وعدم تثريب وإلقاءِ تُهم أعاد ذِكر البينيَّة مع إخوته عنوانًا للصَّفح والعفو، قال البقاعيُّ: "حيث قسم النّزغ بينه وبينهم ولم يُفضِّل أحدًا مِنَ الفريقيْن فيه، ولم يثبت الجارّ إشارةً إلى عموم الإفساد للبينيّن، كلّ ذلك إشارة إلى تحقّق ما بشّر به يعقوب عليه السلام

النَّزغ كان بين فريقيْن، والنِّزاع صدر عن أحدِهما لا عن كليهما

من إتمام النّعمة وكمال العلم والحكمة"[1]، وفيه إشارةٌ عجيبةٌ إلى أنَّ النَّزغ وقع بين فريقيْن؛ أيْ إنَّه لم يكن شريكًا في النِّزاع مع إخوته، فهم الّذين استجابوا للنَّزغ فنازعوه، فهو فريقٌ وهم فريق، وجاء التَّعبير مشيرًا إلى هذه الحيثيَّة لدفعِ إدخالِ يوسف عليه السلام في نزاعٍ لم يكن له فيه ناقةٌ ولا جَمَل.

فائدةُ إيثارِ الغَيْبةِ على الخطابِ:

من علامات الصَّفاء طيُّ صفحة الماضي

ذَكر الإخوة في قوله تعالى: ﴿بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِيٓ﴾ إيماءٌ إلى تكريمهم، وطيِّ صفحة الزّمن الماضي بما فيه، والخطابُ كان ليعقوب عليه السلام، فأجرى الكلام على الغيبة، ولو كان لهم لكان على سبيل الخطاب، بأن يقول: "بيني وبينكم"، وحينها سيُلقي في أنفسهم الشَّكَّ والارتيابَ بأنَّ عفوه السّابق عنهم وطلبه مغفرة اللّه لهم كأن لم يكن، فأتى بالغيبةِ دون الخطابِ تطمينًا لهم وتأكيدًا أنَّه على عهده من العفو والمغفرة، وهذا من طيب نفسه وكرم سجاياه.

بلاغةُ الاستئنافِ الابتدائِّي:

مردُّ الخيرِ كلِّه لله تعالى لطفًا وفضلًا

جملةُ ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُۚ﴾ مستأنفة استئنافًا ابتدائيًّا لقصد الاهتمام بها وتعليم مضمونها[2]، كما أنَّ هذه الجملة قد أفادت تعليلًا، فقد "علَّلَ الإحسانَ إليهم أجمعين بقوله: ﴿إِنَّ رَبِّي﴾؛ أيْ: المحسن إليّ على وجوه فيها خفاء، ﴿لَطِيفٌ﴾؛ أيْ: يعلم دقائق المصالح وغوامضها، ثم يسلك في إيصالها إلى المستصلح سبيل الرّفق دون العنف، فإذا اجتمع الرّفق في الفعل واللّطف في الإدراك فهو اللّطيف"[3].

غرض التَّوكيد:

لطف الله تعالى لـلّذي يشاء ويُقدِّر

جاء التَّوكيد في قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُۚ﴾ مُبيِّنًا

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/216.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/56.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/216.

لطف اللّه تعالى للَّذي يشاؤُه ويُقَدِّره، وقوله ﷻ ذلك بعد ما ذكر من تفضُّل اللّه عليه وعلى إخوته نزَّلهم - وهم لم يسألوه عن علَّة كلِّ ما سبق - منزلة مَن يسأل، فأكَّد لهم كلامه ببيان لطف اللّه تعالى بهم على السَّواء، ووردت جملة التَّأكيد مع ذِكر الرَّبّ وكونه ذا لطف، وهذا "تذييل قُصد به الثناء على اللّه تعالى بما هو أهله"[1].

بلاغةُ إظهارِ ما حقُّه الإضمار:

الإضمارُ والإظهار بحسبِ الأليق بالمقامِ لا باعتبار صنعةِ الكلام

ورَد ذِكرُ الرُّبوبيَّة في قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُۚ﴾ بعد أن ذكره سابقًا ﴿قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّاۖ﴾؛ لإظهار مزيدٍ مِنَ الامتنان والشُّكر للّه تعالى، الَّذي تولّاه بالتَّربية والرِّعاية والحفظ، فهو المحسن إليَّ من جميع وجوه كرمه وعطفه.

على أنَّ النظم قد أضمر لفظ الرّبوبيّة في قوله تعالى: ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِيٓ إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ﴾، لكن لمّا قال: ﴿مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِيٓۚ﴾ حسُن الإظهار، فلا يليق أن يأتي بعد ذِكر الشَّيطان ذِكر الرّبّ إضمارًا.

فائدة الإضافة:

اجتماعُ التَّعظيمِ للمُنعِمِ والتَّشريفِ للمُنعَمِ عليه

إضافة لفظ (رَبِّ) إلى ضمير المُتكلِّم في قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُۚ﴾ وردت للاختصار والإيجاز، إذ التَّقدير: الَّذي ربّاني، وهي هنا إضافة تعظيم للرَّب ﷻ، وتشريفٌ للمُضاف إليه وهو يوسف ﷺ، فأفادت الإضافةُ تعظيمَ المُضاف وتشريف المُضاف إليه.

بلاغةُ المناسبةِ في صفة ﴿لَطِيفٌ﴾:

عالِم الخفايا يُنجّيك من البلايا

اللّطيف في قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ﴾ بمعنى العالم بخفايا الأمور، المُدبّر لها، والمُسهِّل لصعابها، ولنفوذ مشيئته سبحانه، فإذا أراد شيئًا سهَّل أسبابه، ولذلك أُطلق عليه جلّ شأنه: اللّطيف؛

(1) طنطاويٌّ، التّفسير الوسيط: 7/417.

لأنّ ما يلطف يسهل نفوذه[1]، وناسب التَّعبير بـ (اللّطيف) في هذا السّياقِ باعتبارِ حضور معنى الاستخراج، تنبيهًا على ما أوصل إليه يوسف حيث ألقاه إخوته في الجُبّ[2]، فأخرجه اللَّطيف سبحانه من قعرِ البئر، ومن ظُلمة السّجن، ومن كيد النِّسوة، ومن غرور المُلك، وهذا لا يكون إلّا للأصفياءِ الأنقياء.

سرُّ التّعدية باللّام ﴿لَطِيفٌ لِّمَا﴾:

تضمين اللَّطيف معنى المُدبِّر

أصل "اللَّطيف" أن يتعدَّى بالباء، وإنَّما يتعدَّى باللّام لتضمُّنه معنى مدبِّر، ففي قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُۚ﴾؛ أيْ: أنت لطيف مُدبِّر بمَنْ تشاء تدبيرَ أمرِه، وفيه معنى العناية والرّعاية، وحقيقته: اللُّطف الّذي يوصل الإحسان إلى غيره بالرّفق[3].

علَّةُ الفصلِ في: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ﴾:

اجتماعُ الحكمةِ التّامّةِ مع العلمِ المُطلقِ لله تعالى وحدَه

يحتمل قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ أن يكون مُستأنفًا استئنافًا بيانيًّا؛ لأنَّ قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُۚ﴾ مثير لسؤال وهو: ما العلَّة في ذلك؟ أو لماذا يفعل ذلك؟ فجاء الرَّدّ والجواب بقوله: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

ويحتمل أن يكون واقعًا موقع التَّعليل لما سبق، فوجب الفصل لكمال الاتِّصال لكونها تفسيرًا وبيانًا وتعليلًا، وهما من وادٍ واحدٍ عند الإمام عبد القاهر رحمه الله تعالى، إذ الأمر عنده إمّا الاتِّصال إلى الغاية أو الانفصال عنها.

غرض التَّوكيد:

توكيدٌ يبعث على الرّضا المُطلق

ورد التَّوكيد في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ بـ (إنَّ) وضمير الشَّأن، وضمير الفصل، والتَّعريف للاهتمام بكونه ﷻ

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 13/60.
(2) الرّاغب، المُفردات: (لطف).
(3) ابن عادل، اللُّباب: 11/218.

اللَّطيف، العليم، الحكيم، وجاء ضمير الفصل ﴿هُوَ﴾ في وسط الجملة المؤكَّدة تقويةً للوصف وتعظيمًا لشأنه ﷻ.

سرُّ اقتران صفتي ﴿ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾:

أفعال الله تعالى صادرةٌ عن علمٍ أحاطت به الحكمةُ

اقتران هاتيْن الصِّفتيْن ﴿ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ يعطي العبد مزيدًا من الرّضا والارتياح؛ لأنَّه عندما يعلم أنَّ خالقه ومولاه لا يتصرَّف إلّا بعلم ولحكمة يقتضيها علمه سيوقن أنَّ العاقبة خيرٌ له وأنفع، فيسكن قلبه الرّضا وتغمره السَّكينة، فإنَّ أفعالَه صادرةٌ عن علمٍ، وعلمه مُحاطٌ بالحكمةِ، فهو العليم بمصالح عباده وأحوال خلقه علمًا تامًّا، والحكيم في أقواله وأفعاله وقضائه وقدره وما يختاره ويريده، والعالم بمتصرِّفات الأمور لا يغيب عنه شيءٌ منها أبدًا، الحكيم الّذي يضع الأمور في نصابها بحكمته فلا يذهب عنه أصلها ولا فرعها؛ "أي: البليغ الإتقان لما يصنعه طبقَ ما ختم به يعقوب عليه السلام بشراه في أوّل السّورة؛ أيْ هو منفرد بالاتّصاف بذلك لا يُدانيه أحدٌ في علمٍ ليتعرّض إلى إبطال ما يُقيمه من الأسباب، ولا في حكمة ليتوقّع الخلل في شيء منها"[1].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيّةُ:

المأوى والمثوى:

المأوى مكانٌ ملحوظٌ فيه معنى الاجتماع، والمثوى يُطلقُ على المكان

دلَّ الإيواء على التَّجَمُّعِ، يُقالُ: أوَى الرَّجُلُ إلى مَنْزِلِهِ وآوَى غَيْرَهُ أويًّا وإيواءً. ويُقالُ: أوَى إواءً أيْضًا. والأويُّ أحْسَنُ. قالَ اللّه تَعالَى: ﴿إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ﴾ [الكهف: 10]، وقالَ: ﴿وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ﴾ [المؤمنون: 50]. والمَأْوَى: مَكانُ كُلِّ شَيْءٍ يُأْوَى إلَيْهِ لَيْلًا أوْ نَهارًا. وأوَتِ الإبِلُ إلى أهْلِها تَأْوِي أويًّا فهيَ آوِيَةٌ. قالَ الخَليلُ: التَّأوّي: التَّجَمُّعُ، يُقالُ:

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/217.

تَأَوَّتِ الطَّيْرُ: إذا انْضَمَّ بَعْضُها إلى بَعْضٍ، وهُنَّ أوِيٌّ ومُتَأَوِّيات[1]، فالمأوى فيه إقامةٌ مع معنى الاجتماع.

ودلَّ المثوى على الإقامَةِ. يُقالُ: ثَوَى يَثْوِي فهوَ ثاوٍ، والثَّوِيَّةُ والثّايَةُ: مَأْوَى الغَنَمِ. والثَّوِيَّةُ: مَكانٌ. وأُمُّ مَثْوَى الرَّجُلِ: صاحِبَةُ مَنْزِلِهِ. والقياسُ كُلُّهُ واحِدٌ[2].

التَّأويل والتَّعبير:

تَأْويلُ الكَلامِ، عاقِبَتُهُ وما يَؤولُ إلَيْهِ، وذَلِكَ قَوْلُهُ تَعالَى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ﴾ [الأعراف: 53]، يَقولُ: ما يَؤولُ إلَيْهِ في وقْتِ بَعْثِهِم ونُشورِهِمْ[3]، وتعبير الرُّؤْيا يَعْبُرُها عَبْرًا وعِبارَةً، ويُعَبِّرُها تَعْبيرًا، إذا فسَّرَها. ووَجْهُ القياسِ في هَذا؛ عُبورُ النَّهْرِ؛ لأنّه يَصيرُ من عِبْرٍ إلى عِبْرٍ. كَذَلِكَ مُفَسِّرُ الرُّؤْيا يَأْخُذُ بها من وجْهٍ إلى وجْهٍ، كَأَنْ يُسْأَلَ عَنِ الماءِ، فيَقول: حَياةٌ. ألا تَراهُ قَدْ عَبَرَ في هَذا من شَيْءٍ إلى شَيْءٍ[4].

تأويلُ الرُّؤى وقوعها فعلًا، وتعبيرُها تفسيرها

الرّؤيا والحلم:

الرُّؤْيا: ما يُرى في المنام، وهو فُعْلى، وقد تُخفَّفُ فيه الهمزة فيُقال بالواو[5]، والرّؤيا تُطلق على ما يراه النّائم من الخير، والحُلم: ما يراه النّائم من الشّيطان، وقد استعمل القرآن الرّؤيا في الخير كما في رؤيا يوسف عليه السلام، واستعمل الحُلم فيما كان تخليطًا كما في قول الملأ: ﴿قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍۖ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾﴾ [يوسف: 44]، على أنَّ الملك سمّاها رؤيا ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّيٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٖ سِمَانٖ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٞ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٖ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٖۖ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُءْيَٰيَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [يوسف: 43].

الرّؤيا ما كانت حقًّا، والحلم ما كان تخليطًا

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (أوى).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ثوى).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (أول).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عبر).
(5) الرّاغب، المُفردات: (رأى).

النّزغ والوسوسة:

الوسوسة إغواءٌ متوقَّع، والنزغُ إغواءٌ واقع

النزغُ كَلِمَةٌ تَدُلُّ على إفْسادٍ بَيْنَ اثْنَيْنِ. ونَزَغَ بَيْنَ القَوْمِ: أفْسَدَ ذاتَ بَيْنِهِمْ[1]، والوسوسة في أصلها ما يُقالُ لِصَوْتِ الحَلْيِ. وهَمْسُ الصّائِدِ وسْواسٌ. وإغْواءُ الشَّيْطانِ ابْنَ آدَمَ وسْواسٌ[2].

قال العسكريّ: النّزغ هو الإغواء بالوسوسة وأكثر ما يكون عند الغضب، وقيل أصله للإزعاج بالحركة إلى الشّر، ويُقال: هذه نزعة مِنَ الشّيطان للخصلة الدّاعية إلى الشّرّ، وأصل الوسوسة الصّوت الخفيّ، ومنه يُقال لصوت الحُلي: وسواس، وكل صوت لا يُفهم تفصيله لخفائه: وسوسة ووسواس، وكذلك ما وقع في النّفس خفيًّا[3].

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نزغ).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (وسَّ).
(3) العسكريّ، الفروق اللُّغويَّة، ص: 537.

﴿۞رَبِّ قَدۡ ءَاتَيۡتَنِي مِنَ ٱلۡمُلۡكِ وَعَلَّمۡتَنِي مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ تَوَفَّنِي مُسۡلِمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ١٠١﴾ [يوسف: 101]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الانتقالُ من ذِكرِ النِّعم الدُّنيويَّة إلى رجاءِ النِّعم الأخرويَّة

بعد أن حَمِدَ يوسف عليه السلام ربَّه على لطفه ونعمِه باجتماعه بأبويْه وإخوته، وما منَّ الله به عليه مِنَ النُّبوة والمُلك، وهي نِعمٌ "استوجبت من يوسف إعلان شكر الله تعالى على نعمِه عليه، من العِلم والمُلك، وطلب من الله تعالى أن يتولّاه في الدّنيا والآخرة، وأن يتوفّاه مسلمًا؛ أيْ: مطيعًا لله، غيرَ عاصٍ، وأن يُلحقه بالصّالحين من آبائه الأنبياء"[1]، فهو انتقالٌ من خطابِ الوالد بما مَنَّ الله عليه، إلى الدُّعاء بما يحبُّ أن يكون عليه في الدّارِ الحقيقيَّة الباقية.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلۡمُلۡكِ﴾: (ملك): أصْلٌ صَحيحٌ يَدُلُّ على قوَّةٍ في الشَّيْءِ وصِحَّةٍ. يُقالُ: أمْلَكَ عَجينَهُ: قَوَّى عَجْنَهُ وشَدَّهُ. ومَلَّكْتُ الشَّيْءَ: قَوَّيْتُهُ، والأصْلُ هذا. ثُمَّ قيلَ مَلَكَ الإنسانُ الشَّيءَ يَمْلِكُهُ مَلْكًا. والاسمُ: المِلْكُ؛ لأنَّ يَدَهُ فيهِ قَويَّةٌ صَحيحَةٌ[2]، والمُلْكُ: الحقُّ الدّائم لله؛ فلذلك قال: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلۡمُلۡكَ مِمَّن تَشَآءُ﴾ [آل عمران: 26]، فالمُلْك ضَبْطُ الشَّيء المُتصرَّف فيه بالحكم، والمِلْكُ كالجنس للمُلْكِ، فكلّ مُلْك مِلْك، وليس كلّ مِلْك مُلْكًا[3]، والمُرادُ بِالمُلْكِ في الآية: التَّصَرُّفُ العَظيم

(1) الزّحيليّ، التّفسير المنير: 13/72.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والجوهريّ، الصّحاح: (ملك).
(3) الرّاغب، المُفردات: (ملك).

الشَّبيه بِتَصَرُّفِ المَلِكِ، إذْ كان يوسُفُ عليه السلام هو الَّذي يُسَيِّرُ المُلْكَ بِرَأْيِهِ[1].

2) ﴿فَاطِرَ﴾ أصلُ (فطر): يَدُلُّ على شقِّ شَيءٍ وإبرازِهِ[2]. يُقال: فطَرَ البِئرَ، يَفطُرها، فطْرًا؛ أيْ: شَقَّها وحَفَرَها. والفَطْرُ: الخَلْقُ والإنشاء، يُقالُ: فطَرَ اللّه الخَلْقَ؛ أيْ: خَلَقَهُم وأنشأهُم، وهو إيجاده الشَّيء وإبداعه على هيئة مترشّحة لفعل من الأفعال، فقوله: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الرّوم: 30]، إشارة منه تعالى إلى ما فَطَرَ؛ أيْ: أبدع وركَّز في النّاس من معرفته تعالى[3]. والفاطِرُ: فاعِلُ الفَطْرِ، وهوَ الخَلْقُ، وفيهِ مَعْنَى التَّكَوُّنِ سَريعًا؛ لأنّه مُشْتَقٌّ مِنَ الفَطْرِ وهوَ الشَّقُّ كما ذَكَرنا[4]. والمقصود بالفاطر في الآية: الخالِقُ، وفاطِرُ السَّماواتِ والأرْضِ فاطِرٌ لِما تَحْتَوي عليهِ.

المَعْنى الإجْماليّ:

إتمام أمرِ الله تعالى وإكرامُه لنبيِّه يوسف عليه السلام

قال يوسف بعد اجتماعه بأبويْه وإخوته: ربّ قد أعطيتني مُلك مصر، وجعلتني حاكمًا مطلقَ التّصرُّف فيها دون منازع ولا معارض ولا حاسد. روي أن يوسف عليه السلام أخذ بيد يعقوب عليه السلام، وطاف به في خزائنه، فأدخله خزائن الذّهب والفضّة، وخزائن الحُليّ، وخزائن الثّياب، وخزائن السّلاح، فلمّا أدخله خزائن القراطيس، قال: يا بني ما أغفلك! عندك هذه القراطيس، وما كتبتَ إليّ على ثمان مراحل، قال: نهاني جبريل عليه السلام عنه"[5].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/59.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (فطر).
(3) الجوهريّ، الصّحاح، والرّاغب، المُفردات، وابن منظور، لسان العرب، والسّمين الحلبي، عمدة الحُفّاظ: (فطر).
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/249.
(5) الزّحيليّ، التّفسير المنير: 13/72.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيّ:

علَّة الفصل في: ﴿رَبِّ قَدۡ ءَاتَيۡتَنِي﴾:

قوله تعالى: ﴿رَبِّ قَدۡ ءَاتَيۡتَنِي مِنَ ٱلۡمُلۡكِ﴾ لا محلَّ له من الإعراب، لأنَّه مستأنفٌ استئنافًا بيانيًّا، ومن هنا فُصل عن سابقه، كأنَّه قيل: فماذا كان من شأن يوسف عليه السلام بعد أن ذَكر إنعامَ الله عليه؟ فجاء الجواب: لجأ إلى ربِّه فذَكَر ما ذكَر؛ ففُصلت لشبه كمال الاتِّصال.

نفسٌ مُطمئنَّة مُقرَّةٌ بالإنعام

نكتةُ حذفِ أداةِ النِّداء:

حُذفت أداةُ النِّداء من قوله تعالى: ﴿رَبِّ قَدۡ ءَاتَيۡتَنِي مِنَ ٱلۡمُلۡكِ﴾ لما في النِّداء مِنَ اللُّطفِ، ولما في الخطابِ مِنَ العطفِ، ولما في استحضار النّفس من معاني الجلالِ والكمال والجمال، فإنَّه يُنادي الله تعالى نداءَ الخَفيّ النَّقيّ، لا سيَّما أنَّ النِّداء قد جاء بعد ذِكر النِّعم العظيمة، والآلاء الجسيمة، فإنَّ النفس في طُمأنينةٍ، والقلب في سكونٍ.

رُبَّ حذفٍ أبلغُ من ذِكْرٍ، ورُبَّ ذِكْرٍ في ثنايا الحذفِ

نكتة حذف ضمير المُتكلِّم:

حُذف ضمير المُتكلِّم المُضاف إليه في قوله تعالى: ﴿رَبِّ قَدۡ ءَاتَيۡتَنِي مِنَ ٱلۡمُلۡكِ﴾، والأصل: (ربّي)، وذلك اختصارًا وإيجازًا للتّخفيف؛ فحذَف الضّمير إشارةً دالَّةً على ما أراده يوسف عليه السلام بأوجز عبارة في كونه أسرع لإنجاز مُراده، وحذَفها تخفيفًا لكونه سبحانه وتعالى حاضرًا في ذهنه، فهو ربُّه الَّذي لا يغيب عنه، فقد رعاه وحفظه وصانه، وألقى زمام ستره ورحمته عليه، ولما فيها من معنى المحبَّة والشَّفقة والدُّعاء.

من تمامِ إضمارِ الفرح إخفاء الحروف

دلالة حرف التَّحقيق ﴿قَدۡ﴾:

افتتح يوسف عليه السلام نداءه بحرف التَّحقيق ﴿قَدۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿رَبِّ قَدۡ ءَاتَيۡتَنِي مِنَ ٱلۡمُلۡكِ﴾؛ "لأنَّ الحال حالُ توقُّع السّامع لشرحِ مآل الرّؤيا"[1]، ومجيء ﴿قَدۡ﴾ "لتحقيق وقوع المتعلِّق مع المضارع،

تأكيدُ العبدِ لنفسِه وقوعَ لطفِ اللهِ؛ لطفٌ لا يقعُ إلّا من مولاه

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/217.

بشرط تجرُّده من الجازم والنّاصب وحرف التّنفيس، ومع الماضي، وورودها مع المضارع مرادٌ به الماضي، ولذا قيل: إذا دخلت على الماضي اجتمعت لكل فعل متجدّد، ولا تستعمل في أوصاف اللّه؛ فلا يُقال: قد كان اللّه غفورًا رحيمًا"[1]، والافتتاحُ بهذا الحرفِ يُراد منه توكيد الإيتاء لجلبِ الطُّمأنينة في النَّفسِ، فهو ينادي اللّه تعالى، ويُؤكِّد لنفسِه، وهو تأكيد المسرور المغمور بالفرح والحبور.

توجيه التَّعبيرِ بالإيتاء:

نـفـسُ المـؤمـن طُلَعَة إلى الخير

استُعملت مُفردة الإيتاء في قوله تعالى: ﴿رَبِّ قَدۡ ءَاتَيۡتَنِي مِنَ ٱلۡمُلۡكِ﴾ دون الإعطاء، وذلك لأنَّ إيتاءه سبحانه مشتملٌ على المُلك والعلم؛ وهما أمران معقولان، والإيتاء يختصُّ بأمور الدُّنيا، بخلاف الإعطاء فهو عامٌّ فيهما، وقد "كثُر استعمالُ الإعطاءِ حتَّى صار لا يُطلق إلّا على التَّمليك؛ فيُقال: أعطاه مالًا إذا ملَّكه إيّاه"[2]، والّذي يظهر أنَّ يوسف عليه السلام ذكَر الإيتاء في الدُّنيا وهو يرجو العطاء في الآخرةِ.

نكتة استعمالِ حرف الجر ﴿مِنَ﴾:

معـرفـةُ حقيقةِ الأمـرِ فـائـدةٌ إلى كلِّ خير

﴿مِنَ﴾ في قوله تعالى: ﴿رَبِّ قَدۡ ءَاتَيۡتَنِي مِنَ ٱلۡمُلۡكِ﴾ للتّبعيض، وعليه كلمة العلماء جميعًا؛ لأنَّ يوسف عليه السلام لم يُؤتَ مُلك مصر كلَّه، فما أوتيه هو بعضُ مُلك الدّنيا؛ بل بعض ملك مصر، "ولا عَلَّمَهُ إلّا بَعْضَ التَّأْوِيلِ. ويَبْعُدُ قَوْلُ مَنْ جَعَلَ (من) زائِدَةً، أوْ جَعَلَها لِبَيانِ الجِنْسِ، والظّاهِرُ أنَّ المُلْكَ هُنا مُلْكُ مِصْرَ"[3]، "وجَعَلَ الَّذي أوتيَهُ بَعْضًا مِنَ المُلْكِ ومِنَ التَّأْوِيلِ؛ لِأنَّ ما أوتيَهُ بَعْضٌ من جِنْسِ المُلْكِ، وبَعْضٌ مِنَ التَّأْوِيلِ، إشْعارًا بِأنَّ ذَلِكَ في جانِبِ مُلْكِ اللّه، وفي جانِبِ عِلْمِهِ شَيْءٌ قَلِيلٌ"[4].

(1) الزّركشيّ، البرهان: 4/305 - 309.
(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 176، 175.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/349.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/58.

معنى التّعريف في لفظ ﴿ٱلْمُلْكِ﴾:

المُلك هو ما تستحضره الأذهان عند الإطلاق

التَّعريف في قوله تعالى: ﴿ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ﴾ للعهد، والمُراد به مُلك مصر المعهود للجميع، وهو عهدٌ عِلميٌّ يعلمه جميع المملوكين، كما يعلمه ويراه أبوه وجميع إخوته الَّذين قصدوه مرّاتٍ ومرّات، والعهد هنا حضوريٌّ؛ لإحضاره هذا المعهود في الأذهان إحضارًا تامًّا، ولم يُذكر هذا المُلك قبل لا صراحةً ولا كنايةً، "أيْ: آتَيْتَني بَعْضَ المُلْكِ؛ لِأنَّ المُلْكَ مَجْموعُ تَصَرُّفاتٍ في أمْرِ الرَّعيَّةِ، وكان ليوسُفَ عليه السلام من ذَلِكَ الحَظُّ الأوْفَرُ"[1].

سرُّ تقديم ذِكرِ إيتاء المُلك على تعليم التَّأويل:

التَّحدُّث بالنّعم من لوازم الاعتراف بفضل الله تعالى وكرمه

قُدِّم ذكرُ إيتاء المُلك على تعليم تأويل الأحاديث في قوله تعالى: ﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِۚ﴾ فإن أُريد "بتعليم تأويلِ الأحاديث تفهيمُ غوامضِ أسرار الكتب الإلهيّة ودقائق سَننِ الأنبياءِ عليهم الصَّلاةُ والسّلام، فالتّرتيبُ ظاهرٌ. وأمّا إن أريد به تعليمُ تعبيرِ الرّؤيا كما هو الظّاهرُ فلعل تقديمَ إيتاءِ المُلك عليه في الذِّكر لأنَّه بمقام تعدادِ النّعم الفائضةِ عليه من الله سبحانه والمُلك أعرقُ في كونه نعمةً من التّعليم المذكور وإن كان ذلك أيضًا نعمةً جليلةً في نفسه، ولا يمكن تمشيةُ هذا الاعتذارِ فيما سبق؛ لأنّ التّعليمَ هناك واردٌ على نهج العلّة الغائيّةِ للتّمكين، فإن حُمل على معنى التّمليك لزم تأخرُه عنه، وأمّا الواقع ههنا فمجردُ التّأخيرِ في الذِّكر والعطف بحرف الواو لا يستدعي ذلك التّرتيبَ في الوجود"[2].

ولمّا كان المقام هنا هو الاعتراف بفضل الله تعالى وكرمه عليه، لزم من هذا الاعتراف أن يذكر ما هو أهمّ أو المقصود الأسمى، وهو

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/58.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/308.

إيتاء المُلك؛ إذ هو الباب لأن يَصْدُق تأويله، وألّا يُكذَّب فيه، نظرًا لما أكرمه الله تعالى به، وهذا يُعَدُّ من باب التَّرقّي.

سرُّ التَّعبير بالتَّعليم دون الإيحاء:

وحيٌ تعليميٌّ وإيحاء عِلمٍ

جاء التَّعبير بمُفردة التّعليم في قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِۚ﴾ دون أن يقول: (وأوحيتَ لي)، وذلك أنَّ تأويل الأحاديث الّتي كانت ليوسف عليه السلام هي عبارةٌ عن تعليمٍ بوساطة الوحي، ولمّا كان الوحي تعليمًا في هذا المقام، كان ذكره بعنوانِه هو الأوْلى بالسّياق.

سرُّ ذكر التَّأويل بدلَ التَّعبير:

الرُّؤيا بعد وقوعها تأويل وقبل ذلك تعبيرٌ

لسائلٍ أن يسأل عن سرِّ إيثارِ ﴿تَأْوِيلِ﴾ على (تعبير)، والجواب: أنَّ "تسميةَ التّعبير تأويلًا لأنَّه جُعل المرئيُّ آيلًا إلى ما يذكره المُعبِّرُ بصدد التّعبير ورجْعِه إليه؛ فكأنَّه عليه السلام أشارَ بذلك إلى ما سيقع منه من تعبيره لرؤيا صاحبيِ السّجنِ، ورؤيا المَلِك، وكون ذلك ذريعةً إلى ما يبلّغه الله تعالى إليه من الرّياسة العظمى الّتي عبَّر عنها بإتمام النّعمة"[1].

نكتةُ تسمية الرّؤى بالأحاديث:

اشتهارُ الرُّؤى في الآفاقِ جعلها أحاديث الأنفسِ والرّفاق

سُميت الرّؤى بالأحاديث باعتبارِ اشتهارِها بين النّاس، فرؤيا صاحبيِ السّجن ورؤيا المَلك من أشهر الرّؤى الّتي عرفها النّاس، وأصبحوا يتحدَّثون بها في مجالسهم، لا سيَّما بعد وقوعها، فهي أحاديث عن الرّؤى، فاشتهار الرّؤى بين النّاس، وبيان صدق نبيّ الله يوسف عليه السلام في تعبيرِها ووقوعها، هو بمثابة الدَّعوة إلى الله تعالى، فكما أنَّ القرآن الكريم أصبح حديث الأمم، فكذلك رؤى يوسف عليه السلام كانت حديث الأمم بعد تأويلِها ووقوعها.

نكتةُ استعمالِ ﴿فَاطِرَ﴾:

اتّساقُ المفردات القرآنيّة في سياقِها مظهرٌ بديعٌ في لغةِ القرآن

قالَ أهْلُ اللُّغَةِ: أصْلُ الفَطْرِ في اللُّغَةِ؛ الشَّقُّ، يُقالُ: فطَرَ ناب البعير إذ بَدا، وفَطَرْتُ الشَّيْءَ فانْفَطَرَ؛ أيْ: شَقَقْتُهُ فانْشَقَّ، هَذا

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/254.

أَصْلُهُ في اللُّغَةِ، ثُمَّ صارَ عِبارَةً عَنِ الإيجادِ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ الشَّيْءَ حالَ عَدَمِهِ كَأَنَّهُ في ظُلْمَةٍ وخَفاءٍ، فلَمّا دَخَلَ في الوُجودِ صارَ كَأَنَّهُ انْشَقَّ عَنِ العَدَمِ، وخَرَجَ ذَلِكَ الشَّيْءُ مِنْهُ[1]، فاستعمالُ (فاطر) فيه إشارةٌ إلى الخَلْقِ من العدم والظّلمة والخفاء، وهو مناسبٌ لذِكْرِ الرّؤى الّتي تكون في الظُّلمة والخفاء، فمناسبتها مناسبةٌ من حيث اختيار المُفردة في مكانها المناسب.

نكتة جمع ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾، وإفراد ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾:

شرفُ السّماوات يلج في السّمع بغير استئذان لنصاعته وعذوبته

جمع البيانُ القرآنيُّ ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ وأفرد ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾ مع أنّها على ما تقتضيه النّصوص متعددةٌ أيضًا، والمؤاخاة بين الألفاظ من مُحسّنات الكلام، فإذا جُمِع أحد المتقابلَيْن أو نحوهما؛ ينبغي أن يُجمَع الآخر عندهم[2]، وقد كثُر الكلامُ في نكتةِ جمع (السّماء) وإفراد (الأرض)، ويقوم في غالبه على التَّوجيه اللَّفظي[3]، وقد قدَّم كثيرٌ من المُفسّرين أجوبةً على ذلك، فمنها: "الإشارة إلى تفاوتهما في الشّرَف، فجمع الأشرف اعتناءً بسائر أفراده، وأفرد غير الأشرف. وأشرفيّة السّماء لأنّها محلّ الملائكة المُقدّسين على تفاوت مراتبهم، وقِبلة الدّعاء، ومعراج الأرواح الطّاهرة، ولعظمها وإحاطتها بالأرض على القول بكرويّتها الذّاهب إليه بعضٌ منّا، وعِظَم آيات الله فيها، ولأنّها لم يُعصَ الله تعالى فيها أصلًا، وفيها الجنّة الّتي هي مقرّ الأحباب ولغير ذلك. والأرض وإن كانت دارَ تكليف ومحلّ الأنبياء عليهم الصّلاة والسّلام؛ فليس ذلك إلّا للتّبليغ، وكسب ما يجعلهم متأهّلين للإقامة في حَضيرة القُدُس، لأنّها ليست بدارِ قرارٍ"[4].

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 9/222، 221.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 4/77.
(3) ابن قيّم الجوزيَّة، بدائع الفوائد: 1/115، 114.
(4) الآلوسيّ، روح المعاني: 4/77.

بديعُ فنِّ الطّباق: ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾:

الطِّباق هو الجمع بين الشّيْء وضدِّه، اسمين كانا أو فعلَيْن أو حرفيْن، وما ورد في الآية فهو طباق بين اسميْن: ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ من وادي العُلوِّ، و﴿وَٱلۡأَرۡضِ﴾ من وادي السُّفْل والتَّحتْ، ويُضربان مثلًا للبُعد بين الأشياء كناية عن بُعد المكانة والمنزلة في الأولى، وانحطاطها وقُربها في الثّانية، وهو طباق إيجاب لا نفي فيه.

إحاطة الله تعالى بمخلوقاته واقتداره عليها

فائدة تقديم المُسنَد إليه ﴿أَنتَ وَلِيِّۦ﴾:

مجيءُ المُسندِ إليه في قوله تعالى: ﴿أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ﴾ ضمير المُتكلِّم ﴿أَنتَ﴾ لإحداث تشويقٍ لدى المخاطَب إلى معرفة الخبر (المُسنَد)، مع كون المُسنَد إليه مُثبتًا لا منفيًّا؛ فإنَّ التَّقديمَ أفاد تقويةَ الحُكم، ويرى بعضُهم أنَّه يُفيدُ التَّخصيصَ مع التَّقوية، والسّياق يدلُّ على التَّخصيص.

مَن كان الله وليَّه فلا يُخشَى عليه

بلاغةُ إيراد الخَبر وإرادةِ الإنشاء:

جاءتْ جملةُ "﴿أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ﴾ من قَبيلِ الخَبَرِ في إنْشاءِ الدُّعاءِ، وإنْ أمْكَنَ حَمْلُهُ على الإخْبارِ بالنِّسْبَةِ لِولايَةِ الدُّنْيا، قيلَ لإثْباتِهِ ذَلِكَ الشَّيْءَ لِولايَةِ الآخِرَةِ. فالمَعْنَى: كُنْ وليّي في الدُّنْيا والآخِرَةِ"[1]، وهذا من بديعِ الدُّعاء بالإخبارِ، فهو جمعٌ بين الإقرارِ بالمُعتقد، والدُّعاء به لتحقيق الولاية الدُّنيويَّة بالرّعاية والنُّصرة، والولاية الأخرويّة بالرِّضوان والفوز بالجِنان.

معتقدُ المؤمنِ أصلٌ في الدُّعاءِ ورُكنٌ في الالتجاءِ

نكتة ذكرِ الصِّفةِ دون الموصوف:

أراد ﷻ بالدُّنيا في قوله تعالى: ﴿أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ﴾ الحياةَ الدُّنيا، والله سبحانه لم يذكر الدُّنيا إلّا مقلِّلًا لها، ومُحقِّرًا لشأنها، فلم يذكر هنا الموصوف وهو الحياة؛ لأنَّ غالبَ استعمال

الدُّنيا وسيلةٌ موصلةٌ للغايةِ العظمى وهي الآخرةُ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/58.

القرآن لهذا التَّركيب الوصفيّ (الحياة الدّنيا) جاء في سياق ذمِّ الدُّنيا، أمّا هنا فهو طلبُ الولاية فيها، فذكر الدُّنيا لا باعتبارِها حياةً مُرضيةً مطلوبةً، بل باعتبارِها وسيلةً موصلةً إلى الدّار الآخرةِ الّتي هي غاية المؤمنين في قلوبِهم وعقولهم.

فنُّ الطِّباق: ﴿ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ﴾:

قوله تعالى: ﴿ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ﴾ طباقٌ بين اسمَيْن مختلفَيْن، أحدهما من وادٍ قريب يعيشه الإنسان؛ وهو "الدُّنيا"، والآخر من واد بعيد غيبيٍّ لا يراه الإنسان الآن؛ وهو (الآخرة)، فبينهما طباقُ إيجابٍ لا نفي فيه، وأفاد التَّعبير بالطّباق أن يوسف عليه السلام جعل اللّه تعالى وليَّه في أوَّل الأمر وآخره، ممّا يعكس تسليمه الكامل المُطلق للّه تعالى في شأنه كلِّه.

ولايةُ الله شاملةٌ للزَّمانِ كلِّه دنيا وأُخرى

بلاغةُ اختيارِ فعلِ ﴿تَوَفَّنِي﴾ دون (أمِتْني):

في دعاء يوسف عليه السلام ﴿تَوَفَّنِي﴾ آثر ذِكرَ التَّوفّي، ولم يتمنَّ نبيّ اللّه يوسف عليه السلام الموتَ، بأن يقول: (أمِتْني)؛ وذلك لابتعادِه عن دائرةِ الضّجرِ، ولكن تمنَّى وفاته على الإسلام؛ بمعنى: إذا جاء أجلي وحضرتْ منيَّتي؛ فيا ربِّ توفَّني إليك مسلمًا، كما أراد أن تُقبض روحه وافيةً تامَّة غير منقوصة بجميع أُمورها حسًّا ومعنًى؛ فأشارَ بقَوْلِه: ﴿تَوَفَّنِي مُسۡلِمٗا﴾ إلى "النِّعْمَةِ العُظْمَى؛ وهيَ نِعْمَةُ الدّينِ الحَقِّ، فإنَّ طَلَبَ تَوَفّيهِ على الدّينِ الحَقِّ يَقْتَضي أنَّهُ مُتَّصِفٌ بِالدّينِ الحَقِّ المُعَبَّرِ عَنْهُ بِالإسْلامِ مِنَ الآن، فهوَ يَسْأَلُ الدَّوامَ عَلَيْهِ إلى الوَفاةِ"[1]، فهو دعاءٌ بالتَّوفية على الإسلام، لا دعاءٌ بطلبِ الموتِ الآن.

دعاءٌ بليغٌ في التَّوفية على الإسلامِ، لا دعاء بطلبِ الموت الآن

فائدة التَّعبير بـ ﴿مُسۡلِمٗا﴾ دون (مؤمنًا):

ليس المُراد بالإسلام في قوله تعالى: ﴿مُسۡلِمٗا﴾ الإسلامَ المعهود بأركانه المعلومة للعامَّة، وإنَّما المُرادُ به إسلامَ الوجه للّه تعالى

الكمال أن يستسلم المؤمن لحُكم الله تعالى استسلامًا زائدًا عن الإسلام

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/60.

إسلامًا خالصًا حُكمًا ومعنًى، فإذا كان كذلك حقَّق الإسلام بجميع مطلوباته، قال تعالى: ﴿۞وَمَن يُسۡلِمۡ وَجۡهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰۗ وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ ٢٢﴾ [لقمان: 22]، فإنَّ كمال حال المسلم: "أن يستسلم لحُكم الله على وجهٍ يستقرُّ قلبه على ذلك الإسلام، ويرضى بقضاء الله، وتطمئنّ النّفس، وينشرح الصّدر في هذا الباب، وهذه حالةٌ زائدة عن الإسلام الّذي هو ضدُّ الكفر، والمطلوب هاهنا هو الإسلام بهذا المعنى"[1].

دلالة العطف: ﴿وَأَلۡحِقۡنِي﴾:

عُطفت هذه الجملة ﴿وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ على سابقتها لتغايرهما في المعنى، وبينهما جامع يجمعهما، كما أنّهما اتّفقتا في الإنشائيّة، فكلتاهما طلبٌ ودعاء، ومن هنا وُصلت بها، ويدلُّ هذا العطف على قوَّة رجاء يوسف عليه السلام وحُسن ثقته بربِّه جل جلاله.

حُسن ثقتك بمولاك تدعوك لطلبِ ما يجولُ في هواك

بلاغةُ الكنايةِ في استعمالِ ﴿وَأَلۡحِقۡنِي﴾:

الإلحاق في قوله تعالى: ﴿وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ "حَقيقَتُهُ: جعلُ الشَّيْء لاحقًا؛ أيْ: مُدْرِكًا مَنْ سَبَقَهُ في السَّيْرِ"[2]، يُقال: لحقتُه ولحقتُ به: أدركتُه، وكنتُ مدركًا مَن سبقني، فالإلحاقُ هو باعتبارِ الزَّمن لا باعتبارِ الرُّتبة، فهم سابقون وهو بهم لاحق، وقد أراد نبيّ الله يوسف عليه السلام اللَّحاق بآبائه الكرام: إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب عليهم السلام؛ أي: اجعلني في زمرتهم، والتَّعبير باللَّحاقِ ونبيُّ الله يوسف منهم دليل التَّواضع والانتسابِ والانتماء، فإنَّ العبدَ يزدادُ تواضعًا إن ترقَّى في سلَّم العبوديَّة، وارتفع في دَرَج الإحسان، وفيه إثباتُ النَّجاة للصّالحين في الآخرةِ، فهذا الدُّعاءُ كنايةٌ عن طلبِ النَّجاةِ.

تواضعُ العبدِ ثمرةُ العبوديَّة وجَنَى الصَّلاح

(1) ابن عادل، اللّباب: 10/220.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/60.

دلالة الباء في: ﴿بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾:

الباء في قوله تعالى: ﴿بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ للمصاحبة، وهي بمعنى (مع)، وتُسمَّى باء الحال، أراد يوسف عليه السلام هنا مصاحبته لآبائه الكرام في دار الكرامة والنَّعيم، ومحبَّة الصّالحين فلاح، وطلبُه اللَّحاق بهؤلاء الكرام هضمٌ لنفسه؛ فسبيله سبيلهم، ومنهجه منهجهم؛ والمُراد: "ألحقني بهم في ثوابهم ومراتبهم ودرجاتهم"[1].

محبَّة الصّالحين فلاح

معنى الجمع والتَّعريف: ﴿بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾:

(أل) في قوله تعالى: ﴿بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ للجنس الاستغراقيّ إذْ كان عليهم السلام جمع الأفراد الصّالحين، فتكون (أل) هنا للاستغراق الحقيقيِّ الّذي يشمل جميع أفراد الخلق الصّالحين، جمَعَهم تعظيمًا وتشريفًا لمنزلتهم ورفعة أقدارهم، وما عليه كلمة الأكثرين أنَّها للعهد، وأراد بهم المعهودين المعلومين بالصَّلاح، وهم آباؤه الكرام عليهم السلام، "فإنْ كان يوسُفُ عليه السلام يَوْمئِذٍ نبيًّا فدُعاؤُهُ لِطَلَبِ الدَّوام على ذَلِكَ، وإن كان نُبِّئَ فيما بَعْدُ؛ فهوَ دُعاء لحصوله، وقد صار نبيًّا بعد ورسولًا"[2].

من عظيم التّواضع أن تعترفَ من صلاح مَن سبقك

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيّةُ:

(فاطر) و(خالق):

الفاءُ والطّاءُ والرّاءُ أصْلٌ صَحيحٌ يَدُلُّ على فتْحِ شَيْءٍ وإبْرازِهِ، من ذَلِكَ الفِطْرُ مِنَ الصَّوْمِ[3]، وأصله: الشّقُّ طولًا، يُقال: فطَرَ فلانٌ كذا فطْرًا، وأفْطَرَ هو فُطورًا، وانْفَطَرَ انْفِطارًا، وفَطَرْتُ الشّاة: حلبتُها بإصبعيْن، وقيل للكَمْأة: فُطْر، من حيث إنّها تَفْطِرُ الأرض فتخرج منها[4]، فالفَطْر هو الشَّق والحفر بقصد استخراجِ شيءٍ،

الفَطر هو إيجادٌ من عَدَمٍ، والخَلق تقديرُ الشَّيءِ بعد إيجادِه

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 9/226.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 13/60.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (فطر).
(4) الرّاغب، المُفردات: (فطر).

هذا أصله، وقد استُعمل في فطر السّماوات والأرض وفي إخراجها من العدم على غير مثالٍ سابق.

وأمّا الخلق فهو يدلُّ على تَقْديرِ الشَّيْءِ، ومنه: خَلَقْتُ الأديمَ للسِّقاءِ، إذا قَدَرْتَهُ، ومن ذَلِكَ الخُلُقِ، وهيَ السَّجيَّةُ؛ لِأنَّ صاحِبَهُ قَدْ قُدِّر عَلَيْهِ[1]، وأصل الخَلقِ: التّقدير المستقيم، ويُستعمل في إبداع الشّيء من غير أصلٍ ولا احتذاء، قال: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [الأنعام: 1]؛ أيْ: أبدعهما، ويُستعمل في إيجاد الشّيء من الشّيْء نحو: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ [النّساء: 1]، وليس الخَلْقُ الّذي هو الإبداع إلّا للّه تعالى، وأمّا الذي يكون بالاستحالة؛ فقد جعله اللّه تعالى لغيره في بعض الأحوال، كعيسى عليه السلام حيث قال: ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى﴾ [المائدة: 110][2].

فالخَلق يُغلَّب في التَّقدير، هذا أصله، واستعماله في خلق السّماوات والأرض باعتبارِ إيجادهما مقدرتيْن، فالفرق بين (فاطر) و(خالق)، أنَّ الفَطر ملحوظٌ فيه الشَّق والإخراج من عَدَمٍ، وأمّا الخلق فملحوظٌ فيه التَّقدير.

الوفاة والموت:

الوفاةُ كَلِمَةٌ تَدُلُّ على إكْمالٍ وإتْمام. مِنْهُ الوَفاءُ: إتْمامُ العَهْدِ وإكْمالُ الشَّرْطِ. ووَفَى: أوْفَى، فهوَ وفيٌّ. ويَقولونَ: أوْفَيْتُكَ الشَّيْءَ، إذا قَضَيْتَهُ إيّاهُ وافيًا. وتَوَفَّيْتُ الشَّيْءَ واسْتَوْفَيْتُهُ؛ إذا أخَذْتَهُ كُلَّهُ حَتَّى لَم تَتْرُكْ مِنْهُ شَيْئًا. ومِنْهُ يُقالُ لِلْمَيِّتِ: تَوَفّاهُ اللّه[3]، فالوفاة ملحوظٌ فيها توفية الأمر على تمامه دون نقصان، ومنه توفية الإنسان إذا مات؛ أيْ: عمره ورزقه.

أمّا الموت فهو يَدُلُّ على ذَهابِ القوَّةِ مِنَ الشَّيْءِ، ومِنْهُ المَوْتُ: خِلافُ الحَياةِ[4]، وهو اسمُ علمٍ على نهاية الكائن الحيِّ.

الموت نهاية الحياةِ، والوفاة ملحوظٌ فيها توفية الحي العمر والرّزق

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (خلق).
(2) الرّاغب، المُفردات: (خلق).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (وفَى).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (موت).

﴿ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهِ إِلَيۡكَۖ وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ أَجۡمَعُوٓاْ أَمۡرَهُمۡ وَهُمۡ يَمۡكُرُونَ ١٠٢ وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ ١٠٣﴾ [يوسف: 102 - 103]

مُناسَبَةُ الآيَتيْنِ لِما قَبْلَهُما:

بيانُ الاعتبار من قصصِ الأخيار

وردت الآيتان خطابًا لرسول الله ﷺ مبيِّنتيْن له أمورًا من أخبار الغيب السّابقة وحيًا إليه، وتعليمًا له لما تضمَّنته من العبرة والاتِّعاظ، وفيهما تعريض لقريش ومعاصري الرّسول ﷺ لبيان العظة والاعتبار بأحوال مَن سبق من الأمم، فلا يصيبه ضجرٌ أو حُزنٌ لما يفعله هؤلاء معه، ومع مَن آمن معه من صحابته الكرام رضي الله عنهم، فتلك شنشنة نعرفها من المكذِّبين دائمًا، فالمناسبة بين هاتيْن الآيتيْن، والسّابق هو بيان الاعتبارِ، من قصص الأخيارِ، لتسليةِ المخاطَب، وإثبات صِدْقه فيما أخبر عن ربِّه تعالى.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَنۢبَآءِ﴾: أصلُ (نبأ): الإتْيانُ من مكانٍ إلى مَكانٍ. يُقالُ لِلَّذي يَنْبأُ من أرضٍ إلى أرْضٍ نابِئٌ. وسَيْلٌ نابِئٌ: أتَى من بَلَدٍ إلى بَلَدٍ، ورَجُلٌ نابِئٌ مِثْلُه. ومِنْهُ النَّبأُ: الخَبَرُ؛ لأنَّهُ يأتي من مَكانٍ إلى مَكانٍ، والنَّبْأَةُ: الصَّوْتُ؛ لِأنَّ الصَّوْتَ يَجيءُ من مَكانٍ إلى مَكانٍ، ومَنْ هَمَزَ النَّبيَّ فلأنَّهُ أنْبأ عَنِ الله تعالى[1]. والنُّبوَّةُ: سِفارَةٌ بَيْنَ الله وبَيْنَ ذَوي العُقولِ من عِبادِهِ، لإزاحَةِ عِللهم في أمْرِ مَعادِهم ومَعاشِهم. وتَنَبَّأ فلان: ادَّعى النُّبوَّة[2]. وأصلُ الخَبَرِ: الصِّدْقُ؛ أيْ: الموافَقَةُ للواقِعِ، فإذا قيلَ: أتاني نَبَأُ كذا، فمعناهُ الخَبَرُ عَنْ حالِهِ في الواقِعِ[3].

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والزّبيديّ، تاج العروس: (نبأ).
(2) الرّاغب، المُفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحُفّاظ: (نبأ).
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/310.

والأنْباءُ: جَمْعُ نَبَأٍ، وأنباءُ الغَيْبِ: الأخبارُ المُغَيَّبَةُ عَنِ النّاسِ أو عَنْ فريقٍ مِنْهُمْ[1]. والمقصود بالأنباء في الآية: جَمْعُ نَبَأٍ، وهو الخَبَرُ الَّذي له أهميَّةٌ.

2) ﴿أَجۡمَعُوٓاْ﴾: أصلُ (جمع): يدلُّ على تَضامٍّ الشَّيءِ[2]، يُقال: جَمَعَ الشَّيءَ عَنْ تَفْرِقة يَجْمَعُه جَمْعًا، وجَمَّعَه وأجْمَعَه فاجتَمع. وكَذَلِكَ تجمَّع واسْتَجمَعَ. والمَجْموعُ: الَّذي جُمع من هاهنا وهاهنا، وإن لَم يُجْعَلْ كالشَّيْءِ الواحِدِ[3]. والإجْماعُ: إحكامُ النيّةِ والعَزيمةِ، أجْمَعْت الرّأْي وأزْمَعْتُه وعزَمْت عَلَيْهِ بِمَعْنًى[4]. والمقصود بقوله: ﴿أَجۡمَعُوٓاْ أَمۡرَهُمۡ﴾ في الآية: أحكَموا تدبيرهم؛ أي: اتفقوا على أن يُلقوا يوسف في غيابَة الجُبِّ.

3) ﴿أَمۡرَهُمۡ﴾: أصْلُ: (أمر): يدُلُّ على أمْرٍ مِنَ الْأُمورِ[5]. يُقالُ: أمْرُ فلانٍ مستقيمٌ وأُمورُهُ مستقيمةٌ. والأمْرُ: الحادِثَةُ، والجَمْعُ أُمورٌ، لا يُكَسَّرُ على غَيْرِ ذَلِكَ[6]. والمُرادُ بالأمْرِ في الآيةِ: الشَّأْنُ والفِعْلُ، والمقصودُ مِنه المَكْرُ.

❁ المَعْنى الإجْماليّ:

تثبيتُ الدُّعاةِ وتوطينُهم على الحقِّ تسليةٌ وتصبير

في هاتيْن الآيتيْن إشارة منه ﷻ بقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ﴾؛ أيْ: النّبأ العالي الرُّتبة الَّذي قصصناه يَعجز البلغاء من حملته ورواته فكيف بغيرهم؟ ﴿مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ﴾؛ أيْ: أخباره الَّتي لها شأن عظيم، ﴿نُوحِيهِ إِلَيۡكَۖ﴾ إيحاءً شريفًا يبقى معك، ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ﴾؛ أيْ: لدى إخوة يوسف عليه السلام وهم يجمعون مكرهم وخُبثهم للخلاص منه

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والزّبيديّ، تاج العروس: (نبأ).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (جمع).
(3) ابن سيدَه، المُحكَم، وابن منظور، لسان العرب: (جمع).
(4) ابن منظور، لسان العرب: (جمع).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (أمر).
(6) الجوهريّ، الصّحاح، وابن منظور، لسان العرب: (أمر).

إمّا نفيًا وإمّا قتلًا، ﴿وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ﴾ كلُّهم وجلُّهم لا عهد لهم ولا إيمان لديهم، يستعملون في مراضي اللّه تعالى ونفع العامَّة، وأنت يا مُحمّد لا تُذهب نفسك حسراتٍ على مَنْ لم يُذعن للإيمان، ويتَّخذه طريقه إلى نجاته الأخرويَّة، "وهذه الآية تعريضٌ لقريش وتنبيه على آية صدق مُحمّد، وفي ضمن ذلك الطّعن على مكذبيه"[1].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيّ:

علَّة الفصل في: ﴿ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ﴾:

ابتداءُ كلامٍ جديدٍ للاعتبارِ بالسّابق والاسترشاد للّاحقِ

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ﴾ جملة مُستأنفة استئنافًا ابتدائيًّا، وهو ما يُعرف بالاستئناف النَّحويِّ، وهو كلُّ كلام منقطع عن غيره وكان مبتدأً به، وهو عند النُّحاة قريبٌ من الجملة الابتدائيَّة، ويأتي مُقترنًا بالواو وغير مُقترن بها، وهي جملة لا محلَّ لها من الإعراب فتأتي مفصولةً، وجاء قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ﴾ تعقيبًا بعد ختام قصَّة يوسف عليه السلام، وبيان الاعتبارِ من نهايتها، موجّهًا فيها الخطاب إلى رسول اللّه ﷺ؛ ففُصلت عمّا قبلها لكونها ابتداءَ كلامٍ جديدٍ.

نكتةُ استعمالِ الإشارةِ للبعيدِ:

الأنباءُ العظيمةُ الشَّأنِ لها مكانةٌ في النَّفسِ عاليةُ الشَّأن

الإشارة في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ﴾ لما "سبق من نبأ يوسف، البعيد درجة كماله في جميع ما لا يتناهى من المحاسن والأسرار حتّى صار مُعجزًا"[2]، واستعمال اسم الإشارة البعيد ﴿ذَٰلِكَ﴾ هنا لتعظيم أمر هذه الأنباء الموحاة إليه ﷺ، وأنَّها من الأهميَّة بمكان، ولعُلوّ رتبتها ورفعة قدْرها، و"لِتَمْييزِ الأنْباءِ أكْمَلَ تَمْييزٍ لِتَتَمَكَّنَ من عُقولِ السّامِعينَ لِما فيها مِنَ المَواعِظِ"[3].

(1) ابن عطيّة، المُحرّر الوجيز: 3/285.
(2) القاسميّ، محاسن التَّأويل: 6/226.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/62.

معنى حرف ﴿مِنۡ﴾ ودلالته:

بعضُ أنباءِ الغَيبِ كافيةٌ لإزالةِ الرَّيب

حرف ﴿مِنۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ﴾ إمّا أن تكونَ لبيان الجنس، والمُراد كون هذه الأنباء من جنس الأمور الغيبيَّة الَّتي ما كان يعلمها النّبيّ ﷺ، حتَّى أرشده الله تعالى إليها، وإمّا أن تكون للتَّبعيض، فإنَّ ما أوحاه الله تعالى إلى رسوله ﷺ إنَّما هو بعض قصَّة يوسف عليه السلام مع إخوته.

فائدةُ ذكر النَّبأ دون الخبر:

الإشارةُ إلى ما سيقع في قابل الأيّام من محاولةِ قتلٍ وطردٍ

الأنباء: جمع نبأ، وهو لا يكون إلّا للإخبار بما لا يعلمه المُخبَر، ويجوز أن يكون المُخبَر بما يعلمه وبما لا يعلمه[1]، والنَّبأ خبر ذو فائدة عظيمة يحصل به عِلمٌ أو غَلَبَة ظنٍّ[2]، واستعمال لفظ (أنباء) في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ﴾ دون (أخبار)؛ لبيانِ أهمّيَّة هذا النَّبأ في حياة المصطفى ﷺ، فقد كان فيه إشارةٌ عظيمةٌ لما سيكون معه مع قومه حين إخراجه من مكَّة، ومحاولة قتله، كما كان ليوسف عليه السلام ابتداءً وانتهاءً، "وفيه أيضًا إيذانٌ بأنَّ ما ذُكر من النّبأ هو الحقُّ المطابق للواقع، وما ينقُله أهلُ الكتاب ليس على ما هو عليه، يعني أنَّ مثلَ هذا التّحقيقِ بلا وحيٍ لا يُتصوّر إلّا بالحضور والمشاهدة، وإذ ليس ذلك بالحضور فهو بالوحي"[3].

معنى التَّعريف في لفظ ﴿ٱلۡغَيۡبِ﴾:

الله تعالى يعلم كلَّ ما غاب وخفي

تعريف لفظِ ﴿ٱلۡغَيۡبِ﴾ بـ (أل) مرادٌ به العهد العلميُّ أو الحضوريُّ؛ بمعنى عدم سبق ذِكر للمعرَّف بـ (أل) لا صراحةً ولا كناية، وكذلك هنا إلّا أنَّ السّامع يدرك المقصود حال النطق به؛ فـ(أل) في ﴿ٱلۡغَيۡبِ﴾ للعهد؛ ولكن ليس صريحًا ولا كنائيًا، إلّا أنّا علمنا المقصود

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 38، 37.
(2) الرّاغب، المُفردات: (نبأ).
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/309، 308.

به وأحضرناه في الذِّهن حضورًا تامًّا، ومن هنا سُمّي عهدًا حضوريًّا أو علميًّا، ومنهم مَن جعله تعريفًا مُرادًا به الاستغراق العُرفيّ، وهو ما دلَّ على جميع أنواع الغيب، فأفاد العموم والشُّمول حتَّى في حالة الإفراد؛ لأنَّ المُعرَّف بـ (أل) يستوي في حالتيِ الإفراد والجمع.

سرُّ التَّعبير بالإيحاء دون الإنزال:

الأنسبُ في المعرفة الإشاريَّة استعمالُ الإيحاءِ لا الإنزال

آثر النَّظم التّعبيرَ بالإيحاء دون الإنزال في قوله تعالى: ﴿نُوحِيهِ﴾، و"أصل الوحي: الإشارةُ السّريعة، ولتضمُّن السّرعة قيل: أمرٌ وحْيٌ، وذلك يكون بالكلام على سبيل الرّمز والتّعريض"[1]، بخلافِ النُّزول؛ فهو في الأصل انحِطاطٌ مِن عُلوٍّ[2]، وذلك أنَّ التَّعبير بلفظ الوحي هو الأنسب بالمقام، لكونه يعتمد الإشارة السَّريعة المعبِّرة عمّا ذكره الله تعالى لنبيِّه ﷺ، لما فيه من الإشارةِ إلى ما سيكون له ﷺ، وهو المناسب للغيب كذلك، ولمّا كان "الغَيْب ما غابَ عَنْ عِلْم النّاس، وأصْلُهُ مَصْدَرُ (غابَ)؛ فسُمّيَ بِهِ الشَّيْءُ الَّذي لا يُشاهَدُ"[3] ناسبه التَّعبير بالإيحاء.

دلالة حرف الجرّ في: ﴿إِلَيْكَ﴾:

نبيُّنا الكريم هو قِبلةُ الوحي الشَّريف ومُنتهى العلم المُنيف

معلوم أن (إلى) تأتي لانتهاء الغاية في مقابلة (من)، وقد تأتي بمعنى (مع)، كما تأتي للتَّبيين، وهي المعلَّقة في تعجُّب أو تفضيل بحبٍّ أو بغضٍ، إلّا أنَّ مجيئها في قوله تعالى: ﴿نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾ موافقة لـ(اللّام)، والمعنى: نوحيه لك يا مُحمّد لا لغيرك، وقيل: للانتهاء؛ أيْ: نُنهيه إليك تخصيصًا؛ لنُعلِّمَك إيّاه، ولتَعلَمه أنت إذا كان مُغيّبًا عنك. وتَذْكيرُ ضَميرِ ﴿نُوحِيهِ﴾ لأجْلِ مُراعاةِ اسْم الإشارَةِ[4]، والأنسبُ مقامًا وبلاغةً حملُ الحرف على ظاهره، فإنَّ الإيحاءَ مُنتهٍ إليه ﷺ؛ ففيه معنى الخصوص.

(1) الرّاغب، المُفردات: (وحي).
(2) الرّاغب، المُفردات: (نزل).
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/62.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/62.

دلالة الواو: ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ﴾:

الواو في قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ﴾ حاليّة؛ أيْ: لم تكن موجودًا حال فعلوا ما فعلوا يا مُحمّد ﷺ فهي حاليَّة لكونها تمام التَّعجُّب.

معنى (ما) ودلالتُها:

نصٌّ على غيابِ المصطفى دليلٌ على إرادةِ الكلام المُنتقى

﴿وَمَا﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ﴾ نافيةً ولها صدر الكلام، وهي تدخل على الأسماء والأفعال، وفي الأسماء تُرفع وتُنصب مثل (ليس) عند الحجازيّين، وعلى الأفعال بلا عمل، وتدخل على الماضي بمعنى (لم) مثل هذه الآية، والمعنى: لم تكن موجودًا يا مُحمّد حال فكرهم بأخيهم عليه السلام، كما تدخل على المضارع لتُعطي معنى نفي الحال كالحرف (لا)، تقول: ما يخرج إلّا علي؛ أيْ: لا يخرج فهنا نفيتَ أن يكون قد حصل منه خروج في الحال، والنَّفي هنا أفاد أنَّ الآية أرادت النَّصَّ على نفي كونه عليه السلام معهم - وهو أمر معلوم -؛ بقصد نفي أن يكون افترى هذا القرآن من عنده.

بلاغةُ التَّهكُّم في نفي الشَّكِّ:

الشَّكُّ في المعلومِ مُـؤذِنٌ بسقوط التَّكليف ممّا هو معلوم

في قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ﴾ نفى سبحانه أن يكون نبيُّه ﷺ حاضرًا في زمنِ يوسف عليه السلام، وهذا أمرٌ معلوم، لكنَّ القصدَ منه هو التَّهكُّمُ "بالكفّار فكأنّهم يشكّون في ذلك فيدفع شكّهم"[1]، ومعنى التَّهكُّم: "أنه تعالى جعل المشكوك فيه كونه عليه السلام حاضرًا بين يديّ أولاد يعقوب عليه السلام ماكرين، فنفاه بقوله: ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ﴾، وإنّما الّذي يمكن أن يرتاب فيه المرتاب قبل التّعرّف هو تلقّيه من أصحاب هذه القصّة، وكان ظاهر الكلام أن ينفي ذلك، فلمّا جعل المشكوك ما لا ريب فيه؛ لأنَّ كونه عليه السلام لم يلقَ أحدًا، ولا سمع، كان عندهم كفَلَق الفجر، جاء التّهكّم البالغ، وصار حاصل المعنى: قد علِمتم يا

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/309، 308.

مُكابِرة أنّه لم يكن مُشاهدًا لِمَن مضى من القرون الخالية، وإنكاركم لِما أخبر به يُفضي إلى أن تُكابروا بأنَّه قد شاهد مَن مضى منهم"[1].

دلالة استعمال الفعل ﴿كُنتَ﴾:

ما ذَكَر النّبيّ الكريم من النّبأ هو الحقُّ المطابق للواقع

استُعمل فعل ﴿كُنتَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ﴾ بقصدِ نفي العامّ المُطلق لنفي حضوره ﷺ أحداث هذه القصَّة، فهو نفيٌ للكينونة العامّة، ولا رأى شيئًا ﷺ منها البتّة، فليس "المُرادُ مُجرّدَ نفيَ حضوره ﷺ في مشهد إجماعِهم ومكرِهم فقط، بل في سائر المشاهدِ أيضًا، وإنّما تخصيصُه بالذّكر لكونه مطْلعَ القصّة وأخفى أحوالِها كما يُنبئ عنه قوله: ﴿وَهُمۡ يَمۡكُرُونَ﴾، والخطابُ وإن كان لرسول الله ﷺ؛ لكنّ المُرادَ إلزامُ المُكذّبين، والمعنى: ﴿ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهِ إِلَيۡكَۖ﴾؛ إذ لا سبيلَ إلى معرفتك إيّاه سوى ذلك، إذْ عدمُ سماعِك ذلك من الغير، وعدمُ مطالعتِك للكُتب أمرٌ لا يَشكُّ فيه المكذِّبون أيضًا، ولم تكن بين ظَهرانيهم عند وقوعِ الأمر حتّى تعرِفه كما هو فتبلّغَه إليهم"[2].

فنُّ المذهب الكلاميّ:

دليلٌ جَلَّ عن مثيلٍ، ويا ليتهم يعلمون

في قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ﴾ فنٌّ بديعيٌّ يُعرف بالمذهب الكلاميّ[3]، والمعنى: "﴿وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ﴾؛ أيْ: عند إخوة يوسف ﷺ في هذا النّبأ الغريب جدًّا، ﴿إِذۡ﴾، أيْ: حين ﴿أَجۡمَعُوٓاْ أَمۡرَهُمۡ﴾ على رأي واحد في إلقاء يوسف ﷺ في الجُبِّ بعد أن كان مُقسَّمًا ﴿وَهُمۡ يَمۡكُرُونَ﴾؛ أيْ: يُدبّرون الأذى في خفية من المكر وهو القتل؛ لتعرف ذلك بالمشاهدة، وانتفاء تعلّمك لذلك من بشر مثل انتفاء كونك لديهم في ذلك الحين، ومن المُحقّق لدى كلِّ ذي لُبٍّ أنّه لا علم إلّا

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 13/64.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/309، 308.
(3) المذهب الكلاميّ هو: إيرادُ المتكلِّم حجَّةً لما يدَّعيه على طريق أهل الكلام. يُنظر: الخطيب، الإيضاح: 6/65.

بتعليم، فثبت أنَّه لا مُعلّم لك إلّا الله كما علّم إخوانك من الأنبياء عليهم الصَّلاة والسَّلام، فيا له من دليل جلّ عن مثيل، وهذا من المذهب الكلاميّ، وهو إيراد حُجّة تكون بعد تسليم المُقدّمات مستلزمة للمطلوب، وهو تهكُّم عظيم ممَّن كذّب النّبيّ ﷺ"[1].

بلاغةُ استعمالِ ﴿لَدَيْهِمْ﴾ دون (عندهم):

في قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ﴾ "(لَدُنْ) و(لدَى) أخصّ من (عند)؛ لأنّه يدلُّ على ابتداء نهاية، نحو: أقمتُ عنده من لَدُن طلوع الشّمس إلى غروبها، فيوضع (لَدُن) موضع نهاية الفعل، وقد يوضع موضع (عند) فيما حكي، يُقال: أصبتُ عنده مالًا، ولَدُنه مالًا. قال بعضهم: (لَدُنْ) أبلغ من (عند) وأخصّ"[2]، فاستعمال لدى القريب معناها من (لَدُن) يدلُّ على أنَّ النَّفي انصبَّ على مكانِ المكر بيوسف عليه السلام، وهو يدلُّ على النَّفي المنتهي إلى ذلك المكان انتهاءً كاملًا، أمّا (عند) فهي "لفظٌ موضوعٌ للقُرْب، فتارةً يُستعمل في المكان، وتارةً في الاعتقاد، نحو أن يُقال: عِنْدي كذا، وتارةً في الزّلفى والمنزلة"[3].

مَكرٌ مات قبل أصحابه، وميراثُ نبوَّةٍ بقي في أحبابه

معنى ﴿إِذْ﴾:

﴿إِذْ﴾ ظرفٌ لماضي الزَّمان يُضاف للجملتيْن، وهي في قوله تعالى: ﴿إِذْ أَجْمَعُوٓاْ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ بمعنى (حين)، والمُراد: وما كنتَ لديهم حين أجمعوا أمرهم.

بلاغة استعمال ﴿أَجْمَعُوٓاْ﴾ دون (جمعوا):

الجَمْع: ضمّ الشّيْء بتقريب بعضه من بعضٍ، يُقال: جَمَعْتُهُ فاجْتَمَعَ، وأجْمَعْتُ كذا أكثر ما يُقال فيما يكون جمعًا يُتوصَّل إليه بالفكرة قال تعالى: ﴿فَأَجْمِعُواْ كَيْدَكُمْ﴾ [طه: 64]، وقيل: جمعوا

فكَّروا وعزموا وجزموا على فعلتهم والله أبطلها

(1) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 10/224.
(2) الرّاغب، المُفردات: (لدُن).
(3) الرّاغب، المُفردات: (عند)، والزّركشيّ، البرهان: 4/290 - 292، 397، 396.

آراءهم في التّدبير عليه[1]، وهؤلاء عزموا وجزموا على فعلتهم تلك ولهذا يُقال: ﴿فَأَجۡمِعُوٓاْ أَمۡرَكُمۡ﴾ ولا يُستعمل ذلك إلّا في الأفعال الّتي قويت الدّواعي إلى فعلها[2].

نكتةُ التَّعبير عن صنيعهم بالأمر:

مهما بلغت عزيمةُ الماكرين فكفاية الله غُنيةُ الفائزين

الأمر في قوله تعالى: ﴿أَمۡرَهُمۡ﴾ هو إلقاء يوسف عليه السلام في الجُبِّ، و"الأَمْرُ: الشّأن، وجمعه: أُمور، ومصدر أمرتُه: إذا كلّفته أن يفعل شيئًا، وهو لفظ عامٌّ للأفعال والأقوال كلها، وهو التّقدّم بالشّيء سواء أكان ذلك بقولهم: افعل وليفعل، أم كان ذلك بلفظ خبر، وقيل: أمِرَ القومُ: كثروا، وذلك لأنّ القوم إذا كثروا صاروا ذا أمير من حيث إنّهم لا بدّ لهم من سائس يسوسهم"[3].

ولمّا كان تدبيرهم وفعلهم هذا له شأن خطير على حياته وحياة أبيه عليهما السلام وتآمرهم جميعًا عليه؛ صار خبرًا يتناقله النّاس إلى يوم الدّين؛ لخساسة ما فعلوه، وحقارة ما ارتكبوه، والأمر هنا مناسبٌ لإعدادهم وعزيمتهم على هذا الأمر، كأنَّهم لم يدعوا شيئًا من أمر مكرهم إلّا أحضروه.

موقع جملة ﴿وَهُمۡ يَمۡكُرُونَ﴾:

قوله تعالى: ﴿وَهُمۡ يَمۡكُرُونَ﴾ جملة حاليَّة من الضّمير في قوله: ﴿أَجۡمَعُوٓاْ﴾ مبيِّنة حال مكرهم وتدبيرهم.

فائدة تقديم المُسنَد إليه على المُسنَد الفعلّي:

اختصاصُ قومٍ بمكرٍ أمارةُ بؤسٍ وسوء فكر

أفاد تقديم المُسنَد إليه في قوله تعالى: ﴿وَهُمۡ يَمۡكُرُونَ﴾ على خبره الفعليِّ التَّخصيص، فالمُسند الفعليّ إذا تقدَّم عليه المُسنَد إليه أفاد تخصيصًا أو تقويةً للحُكمِ بحسب القرائن، وهنا أفاد التَّخصيص باعتبارِ السّياق، إذ لم يصدر المكر إلّا عنهم.

(1) الرّاغب، المُفردات: (جمع).
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/285.
(3) الرّاغب، المُفردات: (أمر).

نكتة التَّعبير بالمضارع ﴿يَمْكُرُونَ﴾:

من علمَ مغفرةَ الله لمَن مَكر؛ زال عنه القنوط بكلِّ الفِكَر

التَّعبير بالفعل المضارع في قوله تعالى: ﴿يَمْكُرُونَ﴾ يُفيد استحضار صورة هذا المكر وقت وقوعه، وما اجترمه هؤلاء الإخوة في حقِّ أخيهم عليه السلام، ولم يقصَّ الله علينا ﷻ تلك القصَّة، وبذلك التّعبير الدّاعي إلى الاستحضارِ؛ لنعيّرهم بها، ولكن قص الله علينا نبأهم لئلّا يقنط عبده[1].

نكتةُ حذف متعلّق فعل ﴿يَمْكُرُونَ﴾:

الإيجازُ يُحقِّق المعاني ويصدُر عن المطلوبِ بأوجز المباني

في قوله تعالى: ﴿يَمْكُرُونَ﴾ طوي ذِكرُ هذا المكر وإن كان معلومًا بدلالة السّياق فيما سبق، وهو إلقاؤهم يوسف عليه السلام في غيابات الجُبِّ، فحذف المتعلِّق أو المفعول إيجازًا لهذا، أو أنَّ ذِكر هذا المُتعلّق يوهم خلاف المقصود فحذف أيضًا، أو أنَّه معلوم بدلالة الحال لجريان الحديث عنه فيما سبق من خلال تدبيرهم وحواراتهم مع أبيهم عليه السلام.

تعيين مرجعِ الضَّمائرِ في الآية:

ذِكرُ الضَّمائر لمجموعٍ واردٍ في قصَّةٍ ابتكارٌ قرآنيٌّ وتجديدٌ خطابيٌّ

مرجع الضّمائر في ﴿لَدَيْهِمْ﴾ و﴿أَمْرَهُمْ﴾ و﴿وَهُمْ﴾ وهي كلُّها ضمائر الغائبين؛ فإنَّه لا مرجع لها إلّا ما اشتملت عليه السّورة من مكر إخوة يوسف عليه السلام به، ثمَّ مكرهم بعد ذلك في رميه إيّاه بالسَّرقة، فالضّمير للإخوة وليوسف كما يفهم من السّورة، وإن لم يذكر المرجع قبل الضَّمير قريبًا إليه مُرتبطًا به[2]، وقد ذهب ابن عاشور إلى أنَّ الضَّمائر راجعةٌ إلى جميع مَن ورد ذِكره في القصَّة فقال: "وضَمائرُ ﴿لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓاْ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ عائِدَةٌ إلى كُلِّ مَنْ صَدَرَ مِنْهُ ذَلِكَ في هَذِهِ القِصَّةِ مِنَ الرِّجالِ والنِّساءِ على طَريقَةِ التَّغْليبِ؛ يَشْمَلُ إخْوَةَ يوسُفَ عليه السلام، والسَّيّارَةَ، وامْرَأةَ العَزيزِ،

(1) ابن عطيَّة، المُحرَّر الوجيز: 3/283.
(2) تمّام حسّان، البيان في روائع القرآن، ص: 232.

ونِسْوَتَها"[1]. ثمَّ يختم كلامه ببيان العبرة من هذا كلِّه فيقول: "وهَذِهِ الجُمْلَةُ اسْتِخْلاصٌ لِمَواضِعِ العِبْرَةِ مِنَ القِصَّةِ. وفيها مِنَّةٌ على النَّبيِّ ﷺ، وتَعْريضٌ لِلْمُشْرِكينَ بِتَنْبيهِهِم لِإعْجازِ القُرْآنِ مِنَ الجانِبِ العِلْميِّ، فإنَّ صُدورَ ذَلِك من النّبي ﷺ الأُمّيِّ آيَةٌ كُبْرَى على أنَّهُ وحْيٌ مِنَ اللّه تَعالَى"[2].

دلالة الواو: ﴿وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ﴾:

الواو في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ﴾ عاطفة على جملة ﴿ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهِ إِلَيۡكَۖ﴾ باعْتِبارِ إفادَتِها أنَّ هَذا القُرْآنَ وحْيٌ مِنَ اللّه، وأنَّهُ حَقيقٌ بِأنْ يَكونَ داعيًا سامِعيهِ إلى الإيمانِ بِالنَّبي ﷺ. والجملة انْتِقالٌ من سَوْقِ هَذِهِ القِصَّةِ إلى العِبْرَةِ بِتَصْميمِ المُشْرِكينَ على التَّكْذيبِ بَعْدَ هَذِهِ الدَّلائِلِ البَيِّنَةِ"[3].

إصرارُالكافرِ لا ينفعُه صاغرٌ ولا كابرٌ

معنى (ما) في: ﴿وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ﴾:

﴿وَمَآ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ﴾ نافية؛ والمعنى: لم تكن موجودًا يا مُحمّد حالَ مكرهم بأخيهم عليهما السلام، كما تدخل على المضارع لتُعطي معنى نفي الحال كالحرف (لا) تقول: ما يخرج إلّا عليّ؛ أي: لا يخرج فهنا نفيت أن يكون قد حصل منه خروج في الحال، والمعنى: ليس أكثر النّاس بمُصدِّقين دعوتك ورسالتك يا مُحمّد.

حقيقة الكثرة من البَشَر مُرَّةٌ لا تُحرِّك البِشَر

بلاغة التَّعريض ﴿وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ﴾:

المُراد بالأكثريَّة في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ﴾ العموم، والسّبب في التَّعبير بالأكثريَّة "أنَّهم في غفلة عن التَّفكُّر في الدَّلائل الدّالَّة على وجود الصّانع وتوحيده"[4]، والأكثر: القِسم الزّائد على القِسم الآخر من الجملة، ونقيضه الأقلُّ، و(القلَّة) والكثرة

ذمُّ أكثرِ النّاس لعدمِ إيمانِهم إيماءٌ بمدحِ القلَّة المؤمنة

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/62.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/62.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/63.
(4) وهبة الزّحيليّ، التّفسير المنير: 13/77.

يستعملان في الأعداد، ثم يُستَعار كلٌّ واحد من الكثرة والعظم ومن القلَّة والصِّغر للآخر، ويُستعملان في الكمّيّة المنفصلة كالأعداد[1].

وهي هنا كناية عن الجمع الغفير من هؤلاء النّاس الّذين لا يؤمنون، وهم العدَّة الزّائدة على مقدار غيرها، والتّعبير بالأكثريَّة لمدحِ الأقلّ بطريق التَّعريض.

معنى التَّعريف في لفظِ ﴿ٱلنَّاسِ﴾:

التَّعريف في لفظِ ﴿ٱلنَّاسِ﴾ للجنس مقصود به الاستغراق، وإنَّما أُريد بنفي الإيمان عن أكثر النّاس إضافة الأكثريّة لهم، فهو لفظٌ دالٌّ على الاستغراق، وأخرجه عن الاستغراقِ إضافةُ (أكثر) لهم.

النّاس اسمٌ جامعٌ لأفرادِه من الإنس

فائدةُ الاعتراض:

قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ﴾ جملةٌ "في مَوْضِعِ الحالِ مُعْتَرِضَةٌ بَيْنَ اسْمِ (ما) وخَبَرِها، و﴿وَلَوۡ﴾ هَذِهِ وصْليَّةٌ، وهيَ الَّتي تُفيدُ أنَّ شَرْطَها هوَ أقْصَى الأسْبابِ لِجَوابِها. وجَوابُ (لَوْ) هوَ ﴿وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ﴾ مُقَدَّمٌ عَلَيْها، أوْ دَليلُ الجَوابِ، والحِرْصُ: شِدَّةُ الطَّلَبِ لِتَحْصيلِ شَيْءٍ ومُعاوَدَتِهِ"، ومفاد الاعتراض هنا: أنَّ الهداية بيد الله ﷻ وحده لا غيره[2].

الهداية بيد الله ﷻ وحدَه

نكتةُ حذف متعلِّق ﴿حَرَصۡتَ﴾:

حُذف متعلِّق الفعل ﴿حَرَصۡتَ﴾، وهو مُقدَّر بشبه الجملة من الجارِّ والمجرور، والتّقدير: ولو حرصت على إيمانهم، وبالغت في إرشادهم بمصدِّقين لك لتصميمهم على الكفر، وهذه الجملة تسلية للنّبيّ ﷺ إلى جانب ما في حذف المتعلِّق من الإيجاز والاختصار بحذف ما هو معلوم، وبيان أنَّ القصد هو إثبات الفعل للفاعل دون النَّظر إلى متعلِّقٍ للعلم به.

لا تُبالغ في إرشاد مَن أدمن الكفر وعشقَ العناد

(1) الرّاغب، المُفردات: (كثر)، (قلَّ).
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/63.

معنى الباء في: ﴿بِمُؤْمِنِينَ﴾:

الباء في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ حرف جرٍّ أفاد التَّأكيد، دخلت لتأكيد الاتِّصال؛ أيْ: لتأكيد ارتباط الفعل بالفاعل؛ لأنَّ الفعل يطلب فاعله طلبًا لا بُدَّ منه، والباء توصل الأوّل إلى الثّاني، فكأنَّ الفعل يصل إلى الفاعل، وزادته الباء اتِّصالًا[1]، والمُراد: ولو حرصتَ يا مُحمّد أن يؤمنوا فلن يؤمنوا.

عليك بعرض دعوتك بإتقان ولا يضرّك مَن صدَّ وغوى

نكتة حذف متعلَّق ﴿بِمُؤْمِنِينَ﴾:

حذف ما يتعلَّق بالجارِّ والمجرور في قوله تعالى: ﴿بِمُؤْمِنِينَ﴾، والتّقدير: بمؤمنين لك أو بدعوتك ورسالتك، أو ما تدعوهم إليه من الإيمان وإقامة الدَّلائل والبراهين على صدق دعواك.

الضّياع والكُفر هما نتيجة عدم النَّظر في الدَّلائل والبراهين

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيّةُ:

النّبأ والخبر:

أصل النَّبأ: الإتْيانُ من مَكانٍ إلى مَكانٍ. يُقالُ لِلَّذي يَنْبَأُ من أرْضٍ إلى أرْضٍ نابِئٌ. وسَيْلٌ نابِئٌ: أتَى من بَلَدٍ إلى بَلَدٍ، ورَجُلٌ نابِئٌ مِثْلُهُ. ومن هَذا القياسِ: النَّبَأُ: الخَبَرُ، لأنّه يَأْتي من مَكانٍ إلى مَكانٍ. والمُنْبِئُ: المُخْبِرُ. وأنْبَأْتُهُ ونَبَّأْتُهُ. ورَمَى الرّامي فأنْبَأ، إذا لَم يَشْرِم، كَأنَّ سَهْمَهُ عَدَلَ عَنِ الخَدْشِ وسَقَطَ مَكانًا آخَرَ. والنَّبّأةُ: الصَّوْتُ. وهَذا هوَ القياسُ، لِأنَّ الصَّوْتَ يَجيءُ من مَكانٍ إلى مَكانٍ[2]، بينما يدلُّ الخَبَرُ على العِلْم بِالشَّيْءِ. تَقولُ: لي بِفُلانٍ خِبْرَةٌ وخُبْرٌ. واللّه تَعالَى الخَبيرُ؛ أي: العالِمُ بِكُلِّ شَيْءٍ[3].

النَّبأُ خبرٌ بارزٌ ذو شأنٍ، والخبر أعمُّ منه

فالفرق بين النّبأ والخبر: أنّ النّبأ لا يكون إلّا للإخبار بما لا يعلمه المُخبَر، ويجوز أن يكون المُخبَر بما يعلمه وبما لا يعلمه ولهذا

(1) الزّركشيّ، البرهان: 4/252.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نبأ).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (خبر).

يُقال: تُخبرني عن نفسي، ولا يُقال: تُنبئني عن نفسي، وإنّما يُطلق عليه هذا لما فيه من عظم الشّأن، والإنباء عن الشّيء أيضًا قد يكون بغير حمل النّبأ عنه، تقول: هذا الأمر يُنبئ بكذا؛ ولا تقول: يُخبر بكذا؛ لأنَّ الإخبار لا يكون إلّا بحمل الخبر[1].

المكر والخديعة:

المكر كيدٌ مع فكرٍ وتدبير، والخديعة غشٌّ وإخفاءُ حقٍّ بقصد تحقيق مصلحةِ الخادع

يدلُّ المَكْرُ على الِاحْتيالُ والخِداعُ[2]، والمكر مثل الكيد في أنّه لا يكون إلّا مع تدبُّر وفكر، والمكر أيضًا تقدير ضرر الغير مِن أن يُفْعَل به، وأصل المكر في اللّغة الفَتْل، وذلك أنَّ الماكر يُنْزِل المكروه بالممكور به من حيث لا يعلم، فلمّا كان هذا سبيل ما توعَّدهم به مِنَ العذاب؛ سمّاه مكرًا، ويجوز أن يُقال: سمّاه مكرًا؛ لأنَّه دبّره وأرسله في وقته[3].

وأمّا الخديعة: فهي تدلُّ على إخْفاءِ الشَّيْءِ، قالَ: وبِذَلِكَ سُمّيَتِ الخِزانَةُ المَخْدَعَ[4]، وهي "إظهار ما ينطق خلافه، أراد اجتلاب نفعٍ أو دفع ضرٍّ، ولا يقتضي أن يكون بعد تدبُّرٍ ونظر وفكر، والخديعة اسم لفعل المكروه بالغير من غير قهر؛ بل بأن يريد بأنّه ينفعه، ومنه الخديعة في المعاملة، والخدع: أن يستر عنه وجه الصّواب فيوقعه في مكروه، وأصله من قولهم: خدع الضّب إذا توارى في جُحْره، وخدعه في الشّراء أو البيع إذا أظهر له خلاف ما أبطن فضرَّه في ماله، والخدع يُسمَّى غرورًا على التّوسّع، والخدع مرجع يُستر عنه وجه الأمر"[5].

قال ابن عطيّة: "المكر هو أن تُدبِّرَ على الإنسان تدبيرًا يضرّه ويؤذيه، والخديعة هي أن تفعلَ بإنسان وتقول له ما يوجب أن يفعل هو فعلًا فيه عليه ضررٌ"[6].

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 38، 37.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (مكر).
(3) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 275، 274 بتصرف.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (خدع).
(5) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 274، 273 بتصرف.
(6) ابن عطيّة، المحرر الوجيز: 3/283.

﴿وَمَا تَسۡـَٔلُهُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۚ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٤﴾

[يوسف: 104]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الانتقالُ من بيانِ حالِ كفرِ النّاسِ إلى دفعِ توهُّمِ سببِ ذلك

بعد أنْ ذكرَ في الآية السّابقةِ زُهدَ النّاسِ بقضية الإيمانِ؛ إذ تجدُ أنّ أكثرَ النّاس لا يُؤمِنون، ولا يَهتمّون أو يحرصونَ على أن يكونوا منَ المؤمِنين، ورسولُ الله ﷺ هو أشدُّ حِرصًا على دعوةِ النّاسِ وإيمانِهم؛ ناسبَ أن يذكُرَ في هذه الآيةِ أنَّ نأيَهم عنِ الإيمانِ ليس بسببِ مُطالبتِهم بأجرٍ على ذلك، فالمناسبةُ هي الانتقالُ من وصْفِ حالِ أكثرِ النّاس بعدمِ الإيمانِ إلى دفْعِ توهُّمِ أنَّ الامتناعَ عنِ الإيمانِ هو بسببِ المُطالَبةِ بالأجر.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تَسۡـَٔلُهُمۡ﴾: جَذرُ الكلمة هو (سأل)؛ والسُّؤلُ هو ما يَسألُهُ الإنسانُ، وسَألَهُ الشّيءَ، وسألَهُ عنِ الشّيءِ سُؤالًا ومَسألةً[1]، والسُّؤالُ: استدعاءُ مَعرفةٍ، أو ما يُؤدّي إلى المَعرفةِ، واستدعاءُ مالٍ، أو ما يُؤدّي إلى المال، وإذا كان السّؤالُ لاستدعاءِ مالٍ فإنّه يَتعدَّى بنفسِه أو بمِن، نحوَ قولِه تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلۡتُمُوهُنَّ مَتَٰعٗا فَسۡـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٖۚ﴾ [الأحزاب: 53]، وقوله تعالى: ﴿وَسۡـَٔلُواْ مَآ أَنفَقۡتُمۡ وَلۡيَسۡـَٔلُواْ مَآ أَنفَقُواْۚ﴾ [الممتحنة: 10]، وقوله تعالى: ﴿وَسۡـَٔلُواْ ٱللَّهَ مِن فَضۡلِهِۦٓۚ﴾ [النّساء: 32]. ويُعبَّرُ عنِ الفقير إذا كان مُستَدعيًا لِشيءٍ بالسّائلِ، نحو قوله: ﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنۡهَرۡ ١٠﴾ [الضّحى: 10]، وقوله: ﴿لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ ١٩﴾ [الذّاريات: 19][2]، ومعنى السّؤالِ في الآيةِ طلبُ المالِ بدلَ الإبلاغِ والإخبارِ.

(1) الرّازيّ، مختار الصّحاح: (سأل).
(2) الرّاغب، المفردات: (سأل).

2) ﴿أَجْرٍ﴾: جَذرُ الكلمةِ هو (أجر)؛ والأجرُ والأُجرَةُ: ما يعودُ من ثَوابِ العملِ دُنيويًّا كان أو أُخرويًّا، نحو قولِه تعالى: ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ﴾ [يونس: 72]، وقولِه تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [العنكبوت: 27]. والأُجرةُ في الثَّوابِ الدُّنيَويِّ، وجمعُ الأجرِ أُجورٌ، وقولُه تعالى: ﴿وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ [النّساء: 25] كنايةٌ عنِ المُهور، والأجرُ والأُجرَةُ يُقالُ فيما كان عن عَقدٍ، وما يجري مَجرَى العَقدِ، ولا يُقالُ إلّا في النَّفعِ دونَ الضُّرِّ، نحو قولِه تعالى: ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ﴾ [آل عمران: 199]، وقولِه تعالى: ﴿فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۚ﴾ [الشّورى: 40][1]. ومعنى الأجرِ في الآية استدعاءُ مالٍ مُقابلَ ما يُقدِّمُ لهمُ الرّسولُ ويحرصُ عليه من دعوتِهم إلى الإيمان، فرسولُ اللّه ﷺ لا يسألُ أحدًا أجرًا على دعوتِه، وهو الأنموذجُ الأسمى للدّعاة وللأمّةِ.

المَعْنى الإجْماليّ:

الدّعوةُ إلى الإيمانِ لا تُشابِهُ الدَّعوةَ في طلبِ الأثمانِ

تُخاطِبُ الآيةُ رسولَ اللّه ﷺ: "وما تَسألُ يا محمّدُ، هؤلاء الّذين يُنكِرونَ نبوّتَك، ويَمتنعونَ من تَصديقِكَ والإقرارِ بما جئتَهم به من عند ربِّكَ، على ما تَدْعوهم إليه من إخلاصِ العبادةِ لربِّكَ، وهجْرِ عبادةِ الأوثانِ وطاعةِ الرَّحمنِ"[2]. والآيةُ تَنفي عن رسولِ اللّه ﷺ أن يسألَ النّاسَ أجرًا؛ كما يفعلُ القُصّاصُ وناقلو الأخبار[3]، لكنّهُم تَحجَّجوا بقولِهم: إنّما تريدُ بدعائِكَ إيّانا إلى اتّباعك لِننزلَ لك عن أموالنا إذا سألتَنا ذلك؛ وإذ كنتَ لا تسألُهم ذلك؛ فقد كان حقًّا عليهم أن يعلموا أنَّك إنَّما تَدعوهُم إلى ما تَدعوهُم إليه؛ اتّباعًا منكَ لأمر ربِّكَ، ونصيحةً منكَ لَهم[4].

(1) الرّاغب، المفردات: (أجر).
(2) ابن جرير، جامع البيان: 16/284.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/479.
(4) ابن جرير، جامع البيان: 16/284.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيّ:

معنى الواو:

الواوُ في قولِه: ﴿وَمَا تَسۡـَٔلُهُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۚ﴾ هي واوُ العطفِ، فقد عُطفتِ الآيةُ على قولِه: ﴿وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ﴾ [يوسف: 103]؛ والجُملتان خَبَريّتان مُتغايِرتان، فالأولى تناولَت حالَ أكثرِ النّاسِ في عدمِ حرصِهم، والثّانية تناولَت حالَ الرّسولِ في حرصِه دونَ سؤالِ الأجرِ، فتكامَلَ المعنى بالوصل.

تَيْئيسُ الحريصِ مِن إيمانِ الأكْثرِ راحةَ بالٍ وهُدوءَ حالٍ

وفائدةُ العطفِ التَّيئيسُ من إيمان أكثرِهم؛ أي: لا يسوءُكَ عدمُ إيمانِهم، فلستَ تَبتغي إيمانًا مَرهونًا بالنّفع المادّيِّ والمالِ المُكتسَبِ؛ ولكنّك ترجو لهم الإيمانَ لفائدتِهم وإنقاذِهم ممّا هُم فيه منَ الضّلال، قال تعالى: ﴿قُل لَّا تَمُنُّواْ عَلَيَّ إِسۡلَٰمَكُمۖ﴾ [الحُجُرات: 17][1].

نُكتةُ استعمالِ (ما) في النّفي وفائدتُه:

كلُّ ما يُتوقَّعُ من معنى الأجرِ مَنْفيٌّ عن سيِّد البشرِ

استعملَ النَّظمُ الكريمُ (ما) النّافيةَ في قولِه تعالى: ﴿وَمَا تَسۡـَٔلُهُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۚ﴾ لِتنفيَ عن رسولِ الله ﷺ أن يَسألَ النّاسَ أجرًا على دعوتِه، وفائدةُ النّفي: لفتُ أنظارِ النّاسِ إلى عظيمِ ما يأتي به الرّسلُ جميعًا؛ ألا وهي قضيّةُ الإيمانِ الّتي يتفرَّدُ الرّسولُ بإبلاغها إلى قومه، ونكتةُ اختيارِ النَّفي بهذه الأداةِ هو إشرابُها معنَى العموم؛ أي: لا تسألُهم أيَّ نوعٍ من أنواع الأجرِ على تبليغكَ إيّاهُم دعوةَ الله تعالى.

دَلالةُ التَّعبيرِ بصيغةِ المضارعِ:

نفيُ السُّؤالِ مُطلَقٌ غيرُ مُحدَّدٍ في الحالِ والاستقبالِ

عبَّرتِ الآيةُ بصيغةِ المضارعِ: ﴿تَسۡـَٔلُهُمۡ﴾ للدّلالةِ على نفيِ السّؤالِ في الحال والاستقبالِ، وأنَّ نفيَ ذلك عنكَ هو نفيٌ مُطلَقٌ غيرُ مقيَّدٍ بزمنٍ دونَ زمن، ويُفيدُ هذا التَّجدُّدُ ما ينبغي أن يكونَ عليه الدّعاةُ في العمل بسُنّتِه ﷺ، في الدّعوة إلى الله للأقوام الّتي ستأتي بعد

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/62.

رسولِ اللّه منَ التّابعينَ وتابعيهم إلى يوم القيامةِ، وخطابُ النّبيِّ يمكنُ أن يُفهمَ خطابًا لِلمُقتدينَ بسُنّتهِ منَ العلماء والدّعاةِ.

تَعيينُ مَرجِعِ الضّمير في ﴿عَلَيۡهِ﴾:

يعودُ الضّميرُ في ﴿عَلَيۡهِ﴾ على الإيمان، أو على الدّعوةِ إلى الإيمان، أو على حرصِكَ على إيمانهم؛ لأنَّه سبقَها قولُه تعالى: ﴿وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ ١٠٣﴾ [يوسف: 103]، فأنت لا تسألُهُم على إيمانهم أجرًا[1]، والإيمانُ إنْ قيسَ بمقاييسِ الضَّروراتِ الّتي يحتاجُ إليها الإنسانُ في الحياة فإنّه أعظمُ ما يستحقُّ أن يُنفَقَ على تحصيلِه المالُ، ولكنْ هيهاتَ هيهاتَ، فلا يُعْطيه اللّه إلّا للّذين يَستحقّونَهُ، ولو استحقَّهُ هؤلاءِ لنالوه ولآمَنوا.

الإيمانُ لا ينالُهُ إلّا مَن يَستحقُّه، ولا يَرتَضيهِ إلّا مَن يُحقِّقُه

فائدةُ تقديمِ الجارِّ والمجرورِ:

قُدِّم الجارُّ والمجرورُ ﴿عَلَيۡهِ﴾ على قولهِ تعالى: ﴿مِنۡ أَجۡرٍۚ﴾، فلم يقُلْ: (وما تسألُهم من أجرٍ عليه)؛ لإفادةِ تخصيصِ الإيمانِ بالسُّؤال، ومضمونِ الرّسالةِ كونُهما هدايةً من عند اللّه؛ فلا يَسألُ الرّسولُ النّاسَ على دعوتِهم للإيمان أجرًا.

ما كان لنبيٍّ أن يسألَ قومَه أجرًا

معنَى حرفِ ﴿مِنۡ﴾:

معنى حرفِ ﴿مِنۡ﴾ في قولِه تعالى: ﴿وَمَا تَسۡـَٔلُهُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۚ﴾؛ توكيدُ النّفيِ أي: من ثوابٍ وجزاءٍ منهم؛ بل إنّما ثوابُك وأجرُ عملِك على اللّه[2]، ودلّ التّوكيدُ على نفْيِ أخذِ الأجرِ منهُم، مهما كان ذلكَ الأجرُ قليلًا، وهذه سنّةُ الأنبياء والمُرسَلين ﷺ جميعًا.

توكيدُ نفْيِ الأجرِ تأصيلُ الامْتِناعِ عنه

فائدةُ تَنكيرِ ﴿أَجۡرٍۚ﴾:

نُكِّر لفظُ ﴿أَجۡرٍۚ﴾؛ لإفادة العمومِ والشُّمولِ، فيشمَلُ الأجرُ كلَّ أجرٍ يخطرُ في الأذهان، سواءٌ أكان عظيمًا كثيرًا أم قليلًا حقيرًا،

كلُّ أجرٍ يخطرُ على الأذهانِ مَنفيٌّ عنِ القَبولِ عند أهلِ الإيمانِ

(1) السّمرقنديّ، بحر العلوم: 2/212.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 16/284.

وما بينَهما؛ فإنَّ الأجرَ مهما كان عظيمًا وكثيرًا فإنَّك لا تسألهُموه، فكيف إذا كان قليلًا وحقيرًا؟! وقد أفاد التّنكيرُ معنًى آخرَ يُقابلُ المعنى الأوّلَ؛ وهو تحقيرُ الأجرِ وتقليلُهُ أمام قضيّة الإيمانِ، فمهما بلغَ الأجرُ منَ العظمةِ والكثرةِ فإنَّه يبقَى حقيرًا ضئيلًا لا قيمةَ له في نظر أهلِ الإيمانِ، فالعمومُ والشُّمولُ باعتبارِ نفْيِه، والقلّةُ والحقارةُ باعتبار ما يُقابلُه منَ الثَّواب الأُخرويِّ.

المَوقعُ البيانيُّ لقوله: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾:

الخيرُ العامُّ لا يُطلَبُ عليه الأجرُ الخاصُّ

نُزِّلَ قولُه تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ مَنزِلَةَ التَّعليلِ لجملة ﴿وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍۚ﴾[1]. فالإيمانُ لا يكونُ لِمن يُعطي الأجرَ المادّيَّ عليه؛ بل هو مَكرُمةٌ منَ اللّه وفضلٌ من عنده للعالَمينَ جميعًا إنسِهم وجنِّهم، فمَن شاءَ آمنَ، ومَن شاءَ كفرَ. فيكون معنى قولِه: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾؛ "أي: هو تذكرةٌ لهم في دلائل التّوحيدِ والعدلِ والنّبوَّةِ والمَعادِ والقَصَصِ والتَّكاليفِ والعباداتِ، ومعناه: أنّ هذا القرآنَ يشتملُ على هذه المنافعِ العظيمةِ، ثُمّ لا تَطلُبُ منهم مالًا ولا جُعْلًا، فلو كانوا عقلاءَ لَقبلوا، ولم يتمرَّدوا"[2]. فيكونُ سببُ فصْلِ هذه الجملةِ التّعليليّةِ عن سابقتِها كمالَ الاتّصال، ويمكنُ أن يكونَ سببُ فصْلِها شِبْهَ كمالِ الاتّصال المعبّرَ عنه بالاستئناف البيانيّ إجابةً عن سؤالٍ مقدّرٍ: لماذا لا تأخذُ عليه أجرًا؟

غرضُ القَصْرِ ونوعُه:

القرآنُ ذِكرٌ للعالَمين لا أجرٌ للدّاعين

معنَى قولِه تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾: ما القرآنُ والوحيُ[3] إلّا ذكرٌ للعالَمين، فهو قصرٌ موصوفٍ على صفة، والقصرُ إضافيٌّ للمبالغة؛ إذ إنّ لهذا القرآنِ صفاتٍ أخرى غيرَ أنّها ذكرٌ،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/62.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 18/178.
(3) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 9/271.

ووقعَ القصرُ بالاستثناء بعد النّفي؛ أي: ما هو إلّا ذكرٌ لا لتحصيل أجرٍ مُبَلِّغِه[1]، فيكونُ نوعُ القصرِ قصرَ قلبٍ؛ لمُعتقَدِ المُشركين الظّانّين أنَّ القرآنَ سبيلُ الأجرِ المادّيِّ، فقلبَ اعتقادَهُم هذا، وأثبتَ أنَّه ذكرٌ للعالَمين.

نُكتةُ تنكيرِ ﴿ذِكْرٌ﴾:

القرآنُ عظيمٌ في القلوبِ جليلٌ في الخطوبِ

نُكِّر لفظُ ﴿ذِكْرٌ﴾ للدّلالة على التَّعظيم؛ وذلك لتفرُّدِه وارتقائِه إلى ماهيةٍ لا تُعلَمُ عَظائمُها، فأثرُ القرآن في قلوب المُؤمنين به عظيمٌ؛ إذ لا تُعرَفُ لذلك حدودٌ، قال تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ۝٨٧ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ ۝٨٨﴾ [ص: 87 - 88]؛ فلا يُعلَمُ نبؤُهُ إلى يوم القيامةِ، حينَها يُعرَفُ شأنُ هذا الذّكر، وعظيمُ أثرِهِ في المؤمنين به، الذّاكِرينَ له.

بلاغةُ اخْتيارِ وصْفِ الذِّكرِ دونَ بقيَّةِ أوصافِ القرآنِ:

الـذِّكـرُ شـرفٌ مَـرومٌ، وحُضورٌ في القلبِ يُذهِبُ ضيقَ المَهمومِ

(الذِّكْرُ): تارةً يُقالُ ويُرادُ به هيئةٌ للنّفس؛ بها يُمكِنُ للإنسان أن يَحفَظَ ما يَقتَنيهِ منَ المَعرفة، وهو كالحِفظِ، إلّا أنّ الحِفظَ يُقالُ اعتبارًا بإحرازِه، والذِّكرُ يُقالُ اعتبارًا باستحضارِهِ، وهو ذِكرٌ بالقلب، وذِكرٌ باللّسان[2]. أمّا الذّكرُ في قوله تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾؛ فهو ما تدُلُّ عليه التَّذكرةُ من شُمولِ أمورِ الدّين كلِّه كـ "التّوحيدِ، والعَدلِ، والنُّبوَّةِ، والمَعادِ، والقَصَصِ، والتّكاليفِ، والعِباداتِ. ومعناهُ أنّ هذا القرآنَ يشتمِلُ على هذه المَنافعِ العظيمةِ"[3]. والذّكرُ هو القرآنُ الكريمُ الّذي له أثرٌ عظيمٌ مُعجِزٌ في النّفوس والقلوب، فما يُسمَّى بالإعجاز الرّوحيِّ للقرآن الكريم؛ هو ذلكُمُ التّأثيرُ العظيمُ للقرآن الكريم في النّفوس؛ إذ لا يُعرَفُ كتابٌ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/62.
(2) الرّاغب، المفردات: (ذكر).
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 18/178.

في الدّنيا كلِّها له منَ الأثر في تاليهِ ومُستمِعِه، كما للقرآن الكريم، بل إنّه قد تَرَكَ أثرَهُ في الّذين لا يُدرِكون معانيه، ولعلّ ذلك تفسيرُ قولِه تعالى: ﴿ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾، ولعلّ أوّلَ مَن نبّهَ على هذا الوجهِ في القرآن الكريم الإمامُ الخطّابيُّ يقول: "قلتُ في إعجاز القرآنِ وجهًا آخرَ ذهب عنه النّاسُ، فلا يكادُ يعرفُهُ إلّا الشّاذُّ مِن آحادِهم، ذلك صنيعُهُ بالقلوب وتأثيرُهُ في النُّفوس"[1].

بلاغةُ التَّعبيرِ بلفْظِ ﴿لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾:

تعدُّدُ النِّكاتِ البيانيّةِ بين الحقيقةِ والمجازِ المُرسَلِ والتَّهكُّمِ

آثرَ النَّظمُ الكريمُ التّعبيرَ بلفظِ ﴿لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ دون (النّاس) في قوله تعالى: ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾؛ للدَّلالةِ على كثرة الأنواعِ الّتي تنتفعُ منَ الذّكر انتفاعًا مُباشرًا وغيرَ مُباشرٍ، "فالعالَمُ؛ جماعةُ الحَيوانِ الكثيرة الّتي مِن شأنِها أن تَعلَمَ؛ لأنّه أخَذَ منَ العلم، وفيه معنَى التَّكثيرِ"[2]، فذكرَ (العالَمين)؛ ليدخلَ فيه عمومَ ما خَلقَ اللّه تعالى في هذا الكونِ؛ أي: مَن يَعقلُ ومَن لا يَعقلُ منَ المَخلوقات.

فإذا حملناهُ على المَجازِ خصَّصناهُ بالعقلاءِ منهم؛ إذ أراد الجُزءَ وذكرَ الكلَّ، والعلاقةُ الكلّيَّةُ، وإذا حملناهُ على الحقيقةِ - وهو الأولى بالمَقام - يكونُ المرادُ جميعَ المَخلوقاتِ؛ كالطّيرِ والشّجرِ والجبالِ، وعالَمِ الجنّ، ويُصدّقُ ذلك قولُه تعالى: ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ وَٱلطَّيۡرَۖ﴾ [سبأ: 10]، وقولُه تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ﴾ [الإسراء: 44]. وإنّما قلنا: إنّه أولَى بالمَقام؛ لبيان التَّفاوُتِ بين عموم العالَمينَ وخصوصِ المُشركينَ، فإنَّ البهائمَ والدّوابَّ والطّيورَ خيرٌ مِن أولئكَ الّذين رفضوا الإيمانَ بسببِ كفرِهم وعِنادِهم؛ ففيه معنَى التَّهكُّمِ بهم.

(1) الخطّابيّ، بيان إعجاز القرآن، ص: 70.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 4/106.

الاتِّساقُ اللَّفظيُّ سِمةٌ تعبيريَّةٌ ومَلحظٌ بيانيٌّ

تَوْجيهُ المتشابِهِ اللّفظيِّ:

جاء التّعبيرُ عنِ الذّكرِ في قولهِ تعالى: ﴿وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾، وقولهِ تعالى: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ۝٨٦ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ۝٨٧﴾ [ص: 86 - 87] بالتَّذكير، لكنّنا نجدُ في قولهِ تعالى: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًاۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ ۝٩٠﴾ [الأنعام: 90]، أنّه جاء بصيغةِ المؤنَّثِ ﴿ذِكْرَىٰ﴾ [الأنعام: 90].

والجوابُ: أنَّه في الأنعامِ تقدَّمَ قولُه تعالى: ﴿وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٦٨﴾ [الأنعام: 68]، وقولُه تعالى: ﴿وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ﴾ [الأنعام: 69]، فكان لفظُ ﴿ذِكْرَىٰ﴾ [الأنعام: 90] بالتَّأنيثِ أليقَ في قولهِ تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ ۝٩٠﴾ [الأنعام: 90][1]، على خلافِ ما في سورتَيْ يوسفَ و ص.

فالذّكرُ مصدرٌ للفعل الثّلاثيّ (ذَكَرَ)، والذّكرى قد تكونُ اسمَ مصدرٍ لهذا الفعل الثّلاثيّ، وقد تكونُ اسمَ مصدرٍ للفعل الرّباعيّ (ذَكَّر)، أو للخماسيّ (تذَكَّرَ)، وعلى هذا فتكونُ المبالغةُ في التّذكير قد وقعت في سورة الأنعام؛ لأنّه سبقَها قولُه: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِۦۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٦٨ وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ۝٦٩﴾ [الأنعام: 68 - 69]، فسورةُ الأنعامِ قصدتْ إلى المبالغةِ في النّهيِ لا سيّما وقد نفتْ عنِ النّبيّ ﷺ الحسابَ في الآيةِ.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيّةُ:

الأجرُ والأُجرَةُ والجزاءُ:

الجزاءُ يُستعمَلُ فيما كان عن عقدٍ وغيرِ عقدٍ، ويُقالُ في النّافِعِ

(1) الكرمانيّ، البرهان، ص: 64، والفيروزابادي، بصائر ذوي التّمييز: 1/194.

والضّارِّ، نحوَ قولِه تعالى: ﴿وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُواْ جَنَّةً وَحَرِيرًا ١٢﴾ [الإنسان: 12]، وقولِه تعالى: ﴿فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ﴾ [النّساء: 93]. بينما الأجرةُ جزاءٌ في النّافع فحسب، أمّا الأجرُ فهو ثوابُ فعلٍ يكونُ مالًا أو غيرَه، وأجَرَ يأجُرُ أجرًا؛ أعطاهُ الشَّيءَ بأُجرَةٍ، وآجَرَ عمرو زيدًا: أعطاهُ الأجرةَ، قال تعالى: ﴿عَلَىٰٓ أَن تَأۡجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٖۖ﴾ [القَصص: 27]، وآجَرَ كذلك، والفرقُ بينَهما أنّ أجَرتُه يُقالُ إذا اعتُبِرَ فِعلُ أحدِهما، وآجَرتُهُ يُقالُ إذا اعتُبِرَ فِعلاهُما، وكلاهما يَرجعانِ إلى مَعنًى واحدٍ، ويُقالُ: آجَرَهُ اللّه وأجَرَهُ اللّه. والاستِئجارُ: طَلبُ الشَّيءِ بالأُجرةِ، وعلى هذا قولُه تعالى: ﴿ٱسۡتَـٔۡجِرۡهُۖ إِنَّ خَيۡرَ مَنِ ٱسۡتَـٔۡجَرۡتَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡأَمِينُ ٢٦﴾ [القَصص: 26].

الجزاءُ عامٌّ في النّافعِ والضّارِّ، والأجرُ خاصٌّ في النّافعِ

الأجرُ والثّوابُ:

الأجرُ يكونُ قبلَ الفعل المَأجورِ عليه، والشّاهدُ أنَّك تقولُ: (ما أعملُ حتّى آخذَ أجري)، ولا تقول: (لا أعملُ حتّى آخذَ ثوابي)؛ لأنَّ الثَّوابَ لا يكونُ إلّا بعد العملِ على ما ذكرْنا، هذا على أنَّ الأجرَ لا يُستحقُّ له إلّا بعد العملِ كالثَّواب، إلّا أنّ الاستعمالَ يجري بما ذكرناه، وكذلك فإنّ الثَّوابَ قد شُهِرَ في الجزاءِ على الحسناتِ، والأجرُ يُقالُ في هذا المعنى، ويُقال على معنى الأجرةِ الّتي هي من طريقِ المُثامَنةِ بأدنى الأثمان، وفيها معنى المُعاوضةِ بالانتفاع[1]، فيكونُ الأجرُ مادّيًّا أو معنويًّا، أمّا الثّوابُ فيكونُ معنويًّا.

الأجرُ عامٌّ في الأثمانِ والحسناتِ، والثّوابُ خاصٌّ في الحسناتِ

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 17.

﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾ أَفَأَمِنُوٓاْ أَن تَأْتِيَهُمْ غَٰشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ ٱللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٠٧﴾﴾ [يوسف: 105 - 107]

مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قَبْلَها:

الانْتِقالُ مِنَ الأدلّةِ القُرآنيّةِ إلى الأدلّةِ الكَونيَّةِ

بعد أنْ بيّنَ السّياقُ السّابقُ أنّ أكثرَ النّاس لا يُؤمنون، حتّى وإنْ حَرَصَ الرّسولُ على إيمانِهم، وجاءَهُم بأعظم الآياتِ الدّالّةِ على صدقِ الرّسالةِ، ووَحدانيّةِ اللّه، وقُدرتِه في خلقِه سبحانَه، دونَ أن يَسألَهُم أجرًا؛ ناسبَ أن يذكُرَ هنا عظيمَ الآياتِ في السّماواتِ والأرضِ، الّتي يراها النّاسُ أمامَهم، فيمرّونَ عليها، ولا يؤمنون أو يَعتبِرونَ بعظيمِها، فالانتقالُ من بيانِ كفرِ الجاحدينَ بآيات القرآنِ إلى بيان كفرِهم بآيات الكونِ المنشورِ، فيهِ بيانُ كفرِهم بسببِ جُحودِهم بعمومِ الآياتِ الدّالّةِ على الإيمانِ.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَكَأَيِّن﴾: فيها أربعُ لغاتٍ: (كَأيِّن)، و(كائِن) بوزن كاعِنٍ، و(كَأْين) الهمزةُ بعدَ الكاف بوزن كعْين، و(كَئِنْ) في وزن كَعِنْ[1]، وهذه اللّغات في معنى (كم)[2]، وتأويلُه: التَّكثيرُ[3]، ومعناها في الآية: "كَأيِّ عددٍ شئتَ منَ الآياتِ والعلاماتِ الدّالَّةِ على وجودِ الصّانعِ ووَحدَتِه، وكمالِ علمِه وقدرتِه وحكمتِهِ غيرِ هذه الآيةِ الّتي جئتَ بها"[4]؛ فإنَّهم لا يُؤمنون.

(1) الغزنويّ، باهر البرهان: 1/325.
(2) الفرّاء، معاني القرآن: 1/168.
(3) الكرمانيّ، مفاتيح الأغاني، ص: 133.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/309.

2) ﴿يَمُرُّونَ﴾: جَذرُ الكلمة (مرّ)؛ ومعناه: المُضيُّ والاجتيازُ بالشّيء دونَ توقُّفٍ، ويُقالُ لما هو خِلافُ الحَلاوةِ والطّيبِ: المُرُّ؛ فمرارةُ الشّيءِ تمنعُ النّاسَ منَ المُكث فيه، وسُمّي المَصيرُ - مفرد المُصْران - الأمَرَّ؛ لأنّه غيرُ طيِّبٍ، ثمّ سُمّيت بعدَ ذلكَ كلُّ شدّةٍ وشديدةٍ بهذا البِناءِ، يَقولون: أمرَرتُ الحبلَ: فَتَلتَهُ، وهو مُمَرٌّ، والمَرُّ: شدّةُ الفَتلِ، والمَريرُ: الحبلُ المَفتولُ[1].

والمعنى المرادُ في الآية: بيانُ كثرةِ مرورِهم على الآيات البيّنات منَ الخلقِ دونَ أنْ يؤثِّرَ ذلك في نفوسِهم وقلوبِهم، فهُم لا يؤمِنونَ، وقدِ استعملَ القرآنُ ما كان لجزءٍ يسيرٍ منَ الزّمانِ مرَّةً ومرّتين، قال تعالى: ﴿يَنقُضُونَ عَهۡدَهُمۡ فِي كُلِّ مَرَّةٖ﴾ [الأنفال: 56]، وقال: ﴿وَهُم بَدَءُوكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٍۚ﴾ [التوبة: 13]، وقال: ﴿إِن تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ سَبۡعِينَ مَرَّةٗ﴾ [التّوبة: 80]، وقال: ﴿لَتُفۡسِدُنَّ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَّتَيۡنِ﴾ [الإسراء: 4]، استبشارًا بسرعة الزّوالِ.

3) ﴿مُعۡرِضُونَ﴾: جَذرُ الكلمة هو (عرض)؛ وعارضتُ فلانًا؛ أي: أخذَ في طريقٍ، وأخذتُ في طريقٍ غيرِه، ثمّ لَقيتُهُ. واعترضَ الشّيءُ؛ أي: صارَ عارِضًا كالخَشَبةِ المُعترِضَةِ في النّهر[2]. والعَرَضُ والعارِضُ: الآفةُ تَعرِضُ في الشَّيءِ. وشُبهَةٌ عارِضةٌ: مُعترِضَةٌ في الفؤاد[3]. وأعرضتُ عنه؛ أضربتُ وولَّيتُ عنه، وحقيقتُه جعلُ الهمزةِ للصَّيرورة؛ أي: أخَذتُ عَرضًا؛ أي: جانبًا غيرَ الجانبِ الّذي هو فيه[4]، والمقصودُ بالإعراضِ في الآيةِ عدمُ التّفكُّرِ والتَّدبُّرِ في الآيات، ومعاملَتُها معاملةَ الشَّيءِ المُعرَضِ عنه، المكروهِ النَّظرُ فيه.

4) ﴿غَٰشِيَةٞ﴾: جَذرُ الكلمة هو (غشي)؛ والغَشيُ والغَشَيانُ: الإحاطةُ من كلِّ جانبٍ، ومنه قولُه تعالى: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوۡجٞ كَٱلظُّلَلِ﴾ [لقمان: 32]، وقولُه تعالى: ﴿يُغۡشِي ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَ﴾ [الأعراف: 54]. والغاشيةُ الحادِثةُ الّتي تُحيطُ بالنّاسِ، والعربُ يُؤنِّثونَ هذه الحوادثَ مثلَ: الطّامّةِ، والصّاخّةِ، والدّاهيَةِ، والمُصيبَةِ، والكارثَةِ، والحادِثَةِ، والواقِعَةِ، والحاقَّةِ[5]. والغِشاوَةُ: ما غَشي القلبَ من رَينِ الطّبعِ. غشي: غاشية، وغاشيةُ السَّيفِ والرَّحلِ: غِطاؤه. والرَّجلُ

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (مرر)، والرّاغب، المفردات: (مرر).
(2) الخليل، العين: (عرض).
(3) ابن سيده، المحكم: (عرض).
(4) الفيومي، المصباح المُنير: (عرض).
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/64.

يَستَغشي ثَوبَه كي لا يسمَعَ ولا يَرَى، كقوله تعالى: ﴿وَٱسۡتَغۡشَوۡاْ ثِيَابَهُمۡ﴾ [نوح: 7]، والغاشيةُ: الّذين يَغْشَونكَ يَرجونَ فَضلَكَ. والغاشيةُ: القيامةُ[1]. ويقولون: انجَلَتْ عنهُ غَشيةُ الحمّى؛ أي: لَمَّتُها، ونَزَلَت به غَشيةُ الموتِ، وغُشيَ عليه، وأصابه غُشيٌ، وعلى قلبه غِشاوة فما يقبلُ الحقَّ[2]، والمقصودُ بالغاشية في الآية: العقوبةُ الّتي تُحيطُ بمَن نزلَت بهم.

5) ﴿بَغۡتَةً﴾: جذرُ الكلمة (بغت)؛ والبَغتُ والبَغتةُ: الفجأةُ، وفي التَّنزيل: ﴿وَلَيَأۡتِيَنَّهُم بَغۡتَةً﴾ [العنكبوت: 53]؛ أي: فجأةً، بغَتَه الأمرُ يَبغتهُ بَغتًا: فَجَأَهُ[3]، بغتَهُ الأمرُ وباغَتَه، وجاءَهُ بَغتَةً[4]، والمقصودُ أن تأتيَهُمُ السّاعةُ من غيرِ سابقةِ إنذارٍ وتنبيهٍ.

❁ المَعْنى الإجْماليّ:

غَفلةُ الجاحِدينَ واستشعارُهُم بالأمنِ منَ العقوباتِ سببُ كُفرِهم

تُبيِّنُ الآياتُ أنَّ المشركينَ يمرّون على آياتٍ كثيرةٍ دالَّةٍ على الحقِّ ممّا يُشاهدونَه، لكنَّهم يمرّون عليها وهم معرضون عنِ التَّفكُّرِ بما فيها منَ الدّلائلِ والبراهينِ على صدقِ رسالاتِ الأنبياءِ - والتي لا تَنقضي لِكثرتِها - والآياتِ الشّاهدةِ على عظيمِ خلْقِ اللّه وقُدرتِه وقيّوميّتِه سبحانَه على ما خَلَقَ منَ السّماواتِ والأرضِ، وما فيهما من أنظمةٍ وسُننٍ كونيّةٍ عظيمةٍ، وسببُ ذلك غفلتُهُم ووقوعُهُم في شَرَكِ الأمنِ مِن مجيءِ العقوباتِ المُحيطةِ بهم، أو أن تأتيَهُمُ السّاعةُ فَجْأةً دونَ سابقِ إنذارٍ.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيّ:

معنَى الواوِ ودلالتُها:

الواو في قولِه تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّنۡ ءَايَةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾

(1) الخليل، العين: (غشو، غشي).
(2) الزّمخشريّ، أساس البلاغة: (غشي).
(3) ابن سيده، المحكم: (بغت).
(4) الزّمخشريّ، أساس البلاغة: (بغت).

للعطفِ على جملة: ﴿ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهِ إِلَيۡكَۖ﴾ [يوسف: 102]؛ باعتبار إفادتِها أنّ هذا القرآنَ وحيٌ منَ اللّه، وأنّه حقيقٌ بأن يكونَ داعيًا سامِعيهِ إلى الإيمان بالنَّبيِّ ﷺ؛ أي: ليسَ إعراضُهم عن آيةِ حصولِ العلمِ للأُمّي بما في الكتب السّالفةِ فحسب؛ بل هُم مُعرِضونَ عن آياتٍ كثيرةٍ في السَّماوات والأرض[1]. وقد شملَتِ الآياتُ الكونيَّةُ النّاسَ جميعًا لِقُدرتِهم جميعًا على التَّفكُّرِ بها ومَعرفةِ عظيمِ شأنِ اللّه فيها.

اسْتواءُ الكافرين في إعراضِهم عنِ الحقِّ في الآيات القرآنيَّةِ والكونيَّةِ

دلالة استعمالِ ﴿وَكَأَيِّن﴾ على التَّكثير:

معنى ﴿وَكَأَيِّن﴾؛ معنى (كم) الخبريّةِ الّتي تأتي للتَّكثير[2]، وقدِ استُعملَت في هذا السّياقِ لبيان كثرة الآياتِ الّتي بسطَها اللّه في الأرض، وقد غَفَلَ عنها المشركونَ، وقد أُشرِبَت معنى التَّعجُّبِ والاستفهام؛ أي: على كثرة هذه الآياتِ المَبسوطةِ، والدّلائلِ المَمدودَةِ، والبراهينِ المَكشوفةِ، وهُم بعدَ ذلك كلِّه لا يَرعَوونَ عن كفرِهم وجُحودِهم!.

كثرةُ الآياتِ الكونيَّةِ لا تُؤثِّر فيمَن غرقَ في الشَّهواتِ الشَّيطانيّةِ

فائدةُ تقديمِ المُسنَدِ إليه على المُسنَدِ الفعلِّي:

قُدِّمَ المُسنَدُ إليه ﴿وَكَأَيِّن﴾ على المُسنَدِ الفعليِّ ﴿يَمُرُّونَ﴾ للتّشويقِ؛ إذ عندما يسمعُ المُخاطَبُ ﴿وَكَأَيِّن﴾ الدّالّةَ على التّكثير يَتشوَّقُ لمعرفة ما بعدَه، ولا سيَّما أنّه جاء ﴿مِّنۡ ءَايَةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾، فتشويقُ السّامعِ لمعرفةِ الخبر يدلُّ على زيادة التَّعجُّبِ من صنيعِهم في الجُحودِ والكُفرانِ وعدمِ الاعتبارِ من مشاهِدِ الأكوانِ.

تشويقُ المُخاطَبِ يُؤكِّدُ معنى التَّعجُّبِ والإنكارِ

دَلالةُ دخولِ ﴿مِّنۡ﴾ على تمييزِ ﴿وَكَأَيِّن﴾:

التّكثيرُ المُستفادُ من ﴿وَكَأَيِّن﴾ واقعٌ على تمييزِها، وهو لفظُ ﴿ءَايَةٖ﴾، فدلالةُ ﴿مِّنۡ﴾ هو التَّأكيدُ على التّكثير، وفيها معنى العُموم؛ أيْ: أيُّ آيةٍ مهما كانت واضحةً فهُم يمرّونَ عليها دونَ اعتبارٍ أوِ اتّعاظٍ.

تأكيدُ كثرةِ الآياتِ لزيادةِ التَّعجُّبِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/63.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/344.

فائدةُ تَنكيرِ ﴿ءَايَةٍ﴾:

وفي كُلّ شيءٍ لهُ آيةٌ تدُلُّ على أنَّهُ واحِد

أفادَ تنكيرُ ﴿ءَايَةٍ﴾ في قولهِ تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ العُمومَ، فيدخُلُ فيها كلُّ آيةٍ فيها برهانٌ على وحدانيّةِ اللّه تعالى، بقرينةِ ذكرِ الإشراكِ بعدَها[1]، وفائدةُ تنكيرِها كذلك هو عظيمُ شأنِها؛ لدلالتِها على عظيم شأنِ اللّه تعالى، فكلُّ آيةٍ من آياتِ الخلْقِ هي عظيمةٌ في شأنها، وتكفي دليلًا لتحقيق الإيمانِ بالخالِق سُبحانَه.

براعةُ اسْتعمالِ حرفِ الظَّرفيَّةِ:

الـكـونُ كـتـابُ الـلـه المـنـظـورُ، والـقـرآنُ كتابُ الله المَسطورُ

أفادَ حرفُ الظَّرفيّةِ في قولهِ تعالى: ﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ الظَّرفيّةَ المكانيّةَ، وهي ظرفيّةٌ حقيقيّةٌ، وحرفُ الجرِّ ﴿فِي﴾ هو للوِعاء؛ لأنَّه جعلَه إذ أدخلَه فيه كالوعاءِ له[2]، فتكونُ السّماواتُ والأرضُ كالوعاء لتلك الآياتِ، وفائدةُ ذلك أنّها آياتٌ وبراهينُ علميّةٌ كونيَّةٌ مُندَرِجةٌ في مُفرداتِ السّماواتِ والأرضِ، وهي مُضمَّنةٌ في كُلِّ دقيقةٍ من دقائقِ خلْقِ السّماواتِ والأرضِ، وهو يدُلُّ على استقرارِ الآياتِ في السَّماواتِ والأرضِ فلا تغيبُ عنهم.

نُكتةُ جمعِ السّماوات وإفرادِ الأرض:

سَعةُ السّماوات الشّاملةِ لعظيمِ الآيـاتِ، وقـربُ الأرض الشّاملةِ لواضحِ الآياتِ

نُكتةُ الجمعِ والإفرادِ في قولهِ تعالى: ﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ للدّلالةِ على سَعةِ السَّماءِ ومَحدوديّةِ الأرضِ، وقد كثُرَ الكلامُ في نُكتةِ جمْعِ السّماءِ وإفرادِ الأرضِ، ويقومُ في غالبِه على التَّوجيه اللَّفظيِّ[3]، وقد قدَّمَ كثيرٌ مِنَ المُفسّرينَ أجوبةً على ذلك، فمنها: "الإشارةُ إلى تفاوتِهما في الشّرفِ، فجَمَعَ الأشرَفَ اعتناءً بسائرِ أفرادِه، وأفردَ غيرَ الأشرَفِ. والأرضُ وإنْ كانَت دارَ تكليفٍ، ومَحِلَّ الأنبياءِ عليهم

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/63.
(2) سيبويه، الكتاب: 2/308، والمبرّد، المُقتضب: 4/139.
(3) ابن القيّم الجوزيَّة، بدائع الفوائد: 1/115، 114.

الصّلاة والسّلام، فليسَ ذلك إلّا للتّبليغِ، وكَسبِ ما يجعلُهُم مُتأهِّلينَ للإقامةِ في حضيرة القُدسِ؛ لأنّها ليسَت بدارِ قَرارٍ"[1].

نُكتةُ تَقديمِ السّماواتِ على الأرض:

لأشرفيَّةِ السّماءِ؛ لأنّها مَحلُّ الملائكةِ المُقدّسينَ على تَفاوُتِ مَراتبِهم، وقِبلَةُ الدُّعاءِ، ومعراجُ الأرواحِ الطّاهرةِ، ولِعظمِها وإحاطَتِها بالأرض، وعِظَمِ آياتِ اللّه فيها، وفيها الجنّةُ الّتي هي مَقرُّ الأحبابِ ولغير ذلك.

معنَى التّعريفِ في ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾:

التّعريفُ في لفظِ السّماواتِ والأرضِ للعهدِ الذِّهنيِّ، فإنَّ السّامعَ يَستحضِرُ عند سماعِ هذين اللّفظَين المعنَى المُتبادَرَ، وهو السّماءُ الّتي تَعلونا، والأرضُ الّتي نعيشُ فيها.

فائدةُ استعمالِ فنِّ الطِّباقِ:

في قوله تعالى: ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ طِباقٌ من جوانبَ عدّةٍ، فالأرضُ بالنِّسبة للإنسانِ تحتيّةٌ والسَّماءُ عُلويَّةٌ، والأرضُ مفردةٌ والسّماواتُ جمعٌ، والسّماواتُ هي الكونُ كلُّه، والأرضُ جزءٌ منها. ويفيدُ ذلك الطِّباقُ معنى الشّمولِ؛ إذ إنّ الآياتِ موجودةٌ في كلّ شيءٍ من حولِهم، من دقائقِ الخلقِ إلى عظائمِه، مثل: النّجومِ والمَجرّاتِ، وهذا التَّقابلُ بين السّماوات والأرض يدُلُّ على معنى الشُّمولِ والعُمومِ للآياتِ كلِّها.

التَّقابُلُ بين الأضدادِ يُقوّي معنَى الشُّمولِ

فائدةُ استعمالِ لفْظِ المرور:

استُعمِل لفظُ المرور دونَ مرادفاتِه في قوله تعالى: ﴿يَمُرُّونَ﴾؛ للدّلالة على سرعة مُرورِ هؤلاء بالآيات المُشاهَدةِ دون الانتفاعِ بها، وعلى عدم اكتراثِهم بها، فإنَّ المارَّ لا يكتَرِثُ بما مرَّ عليه؛ لذلك هو لا يعقلُ الحقائقَ، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّكُمۡ لَتَمُرُّونَ عَلَيۡهِم

الغافلُ عن الآياتِ مُسرِعٌ عن حقائقِها، مُتجاوزٌ لعِبَرِها

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 4/77.

مُّصۡبِحِينَ ١٣٧ وَبِٱلَّيۡلِۗ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ١٣٨﴾ [الصّافّات: 137 - 138]، فهي بمعنى مرورِ النّاس وسيرِهِم في الأرض دون التَّفكُّرِ فيما خلقَ اللّه تعالى فيها منَ الجبالِ، والأنهارِ، والبيئاتِ، والنّظرِ في ملكوت السّماواتِ والأرضِ، فهُم على الضّدِّ من صنيعِ إبراهيمَ عليه السلام: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ ٧٥﴾ [الأنعام: 75].

بَلاغةُ التَّعْبيرِ المجازيِّ:

يَلزَمُ عنِ المرورِ المُشاهَدةُ الاعتباريَّةُ لا الغفلةُ الاغترارِيّةُ

شبَّهتِ الآيةُ مشاهَدةَ الآياتِ السّماويّةِ والأرضيّةِ دونَ اعتبارٍ بالمرور مع الاغترارِ، فهو مرورُ الفكرِ والتَّدبُّرِ ودراسةِ الحقائقِ وقوانينِ الخلقِ ونواميسِه، على سبيل الاستعارةِ التّصريحيّةِ التّبعيَّة، أو يكونُ من باب المَجازِ المُرسَلِ بإطلاقِ المرورِ وإرادةِ المُشاهَدةِ؛ إذِ المُشاهَدةُ من لوازم المرورِ، وهذا معنى قولِ ابنِ عاشور رحمَه اللّه تعالى: "والمُرورُ مَجازٌ مَكني به عنِ التَّحقُّقِ والمُشاهَدةِ؛ إذ لا يَصِحُّ حَملُ المرورِ على المعنى الحقيقيِّ بالنِّسبة لآياتِ السّماواتِ"[1].

نُكتةُ التَّعبيرِ بالمضارع ﴿يَمُرُّونَ﴾:

كنايةٌ عنِ العنادِ على الكفرِ والإصرارِ على الغفلةِ

دلَّ التّعبيرُ بصيغة المُضارعِ في قولِه تعالى: ﴿يَمُرُّونَ عَلَيۡهَا﴾ على عنادِ المُشركينَ في كفرِهِم وجحودِهِم، فهُم مع تجدُّدِ انتقالِهم ومرورِهم بالآياتِ الكونيّةِ، وكثرةِ مُشاهَداتِهم لها؛ لا يؤمنونَ، ولا يَعتبرونَ، بل يُعرِضونَ، فهذا التَّعبيرُ كنايةٌ عن إصرارِهم وعنادِهم على الكفرِ، وعدمِ الاستجابة إلى البراهين المُقنِعةِ والآياتِ الواضحاتِ، وهُم مع الآياتِ القرآنيّةِ أشدُّ كفرًا.

بَراعةُ استعمالِ حرفِ الاستعلاءِ:

قوّةُ وُضوحِ آثارِ الآياتِ الاستدلاليَّةِ كقوَّةِ الآياتِ نفسِها

استعملَ النّظمُ الكريمُ حرفَ الاستعلاءِ في قولِه تعالى: ﴿يَمُرُّونَ عَلَيۡهَا﴾، والضّميرُ عائدٌ على الآية؛ أي: يمرّونَ على الآية، ففيه بيانُ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/63.

أنَّهُم مُتمكِّنون منَ المرورِ على الآياتِ ومُشاهَدتِها، لا أنَّهم يمرّونَ دونَ تمكُّنٍ، ففيه إقامةُ الحجَّةِ عليهم، في كونِ الآياتِ قريبةً منَ العقولِ المُتفكِّرةِ، والأذهانِ المُتدبِّرةِ لِمن أراد الوصولَ إلى الحقِّ، وبلوغَ درجةِ اليقين. والاستعمالُ مَجازيٌّ؛ إذ لا يُتصوَّرُ المرورُ على الآية مرورًا مَحسوسًا، وهو تعبيرٌ أخّاذٌ؛ إذ شبَّه آثارَ الآياتِ العقليّةِ والاستدلاليّةِ بالآياتِ نفسِها، فهو استعارةٌ تصريحيَّةٌ.

مَوقِعُ جملةِ الحالِ منَ السّابقِ:

جملةُ ﴿وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ حاليَّةٌ، وهي وصفٌ لحال النّاسِ، وهم يمرّونَ على الآيات العظيمةِ فهُم يرونَها؛ لكنّهم لا يعقلون عظيمَ شأنِ اللّه في خلقِ تلك الآياتِ وتقديرِها، فترى حالَهم مُعرِضينَ عنها، فهُم يمرّونَ مُسرِعينَ مُتجاوزينَ، وحالُهُمُ الإعراضُ، فيكونُ مَوقِعُ جملةِ الحالِ بيانَ سببِ عدم الاعتبارِ منَ الآيات، وهو الإعراضُ، فمَن لم يحرِصْ على النَّظر من تلقاءِ نفسِه لم يَعتبرْ لإنقاذ نفسِه.

مَن لم يَعتبرْ مِن تلقاءِ نفسِه لم يسعَ لإنقاذِ نفسِه

فائدةُ تقديمِ المُسنَدِ إليه على المُسنَدِ:

قُدِّمَ المُسنَدُ إليه ﴿وَهُمْ﴾ في قولِه تعالى: ﴿وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ على المُسنَد الفعليِّ للتّوكيدِ وتَقويةِ الحكم؛ فالآيةُ تبيّنُ مدى سفاهةِ النّاسِ الّذين لا يُؤمنونَ، على الرّغم ممّا يُشاهدونَ منَ الآياتِ العظيمةِ المُتجدِّدةِ مع الزّمن، والّتي لا تنتهي. وفائدةُ هذا التّوكيدِ بيانٌ لظاهرةِ إعراضِ النّاسِ عنِ الحقّ، واتّخاذِ غيرِ سبيلِ الرّشدِ والهدايةِ.

إعراضُ النّاسِ عنِ الحقّ ظاهرةٌ بشريّةٌ سببُها غفلةٌ شيطانيَّةٌ

فائدةُ تقديمِ الجارِّ والمجرورِ:

في قولِه تعالى: ﴿وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾؛ قُدِّمَ شبهُ الجملة: ﴿عَنْهَا﴾ على قوله: ﴿مُعْرِضُونَ﴾ لإفادةِ العنايةِ بأمر هذه الآياتِ العظيمةِ المُستمرَّةِ المُشاهَدةِ أو المعلومةِ بالعقل؛ إذ يفيدُ ذلك التّخصيصُ إثباتَ الحُجَّةِ على المُنكرينَ، والّذين لا يؤمنون؛ وهذا

الإصرارُ على الإعراضِ، وإثباتُ الحُجّةِ على أكثرِ النّاسِ

الإعراضُ يُظهرُ جانبًا من مَلامحِ النّفسِ البشريّةِ، وما تتضمَّنُهُ منَ الإصرار على تجنُّبِ سُبلِ الهدايةِ، واتّخاذِ سبيلِ الغيِّ طريقًا.

بَلاغةُ ذكرِ حرفِ (عن):

الإعراضُ عن الحقّ وتجاوزُ أسبابِهِ قَرينا الكُفرِ

ذُكِرَ حرفُ (عن)، ولو افترضنا حذفَه لفُهِمَ المقصودُ في قولِه تعالى: ﴿وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾؛ فلو قيلَ: (وهُم مُعرضونَ) لكان المعنى صحيحًا؛ لأنَّ الإعراضَ فيه معنى التَّجاوزِ، لكنَّه آثرَ ذكرَ هذا الحرفِ؛ لبيانِ أنَّ الإعراضَ جانبٌ من جوانبِ الكِبرِ الّذي في نفوسِهم عن هذه الآيات العظيمةِ، ومَظهَرٌ مِن مظاهرِه؛ وأنّ (عن) تفيدُ المُجاوزةَ؛ أي: إنّهُم تجاوزوا البراهينَ والحُجَجَ الدّامغةَ مع وضوحِها في نفسِها إلى الإصرارِ والتّعنُّتِ، فجمعوا بينَ الإعراضِ والتّجاوزِ.

نكتة المجازِ المُرسَلِ بذكرِ الإعراضِ دونَ الكفر:

التَّنبيهُ على خطورةِ الأسبابِ، وأنَّها أصلُ المُسبَّباتِ

ذَكرَتِ الآيةُ الإعراضَ دون الكفرِ في قولِه تعالى: ﴿وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾؛ لبيانِ سببِ الكفر، فاكتفَتِ الآيةُ بذكر الإعراضِ دونَ الكفرِ؛ فلم يقُلْ: (وهُم بها كافرون)، مع أنّ السّياقَ يُقرِّرُ كفرَهُم باللّه تعالى؛ لإبرازِ سببِ الكفرِ، وهو إعراضُهُم عنِ التَّفكُّرِ في آيات اللّه وحُججِهِ، ففي الآية مَجازٌ مُرسَلٌ بذكر السّببِ وإرادةِ المُسبَّبِ، وعلاقتُهُ السَّببيَّةُ؛ تنبيهًا على خطورةِ السّببِ وآثارِه البليغةِ في الكفر.

فائدةُ التّعبيرِ باسْمِ الفاعلِ ﴿مُعْرِضُونَ﴾:

التّعبير باسْمِ الفاعلِ يدلُّ على تمكُّنِ الفعْلِ بصاحبِه حتّى باتَ اسْمًا له، وهذا يدلُّ على شدّة إعراضِهم عنِ الحقِّ.

معنَى الواوِ ودلالتُها:

ذكرُ نفْيِ الإيمانِ بعدَ الإعراضِ دليلُ الاستمرارِ وأمارةُ الإصْرارِ

الواو في قولِه تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ﴾ تحتملُ أن تكونَ عاطفةً[1]، وتحتملُ أن تكونَ في مَوضِعِ الحالِ من ضمير ﴿يَمُرُّونَ﴾؛

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 5/61.

أي: وما يُؤمِنُ أكثرُ النّاسِ باللّه إلّا وهُم مُشرِكون به، وهذا إبطالٌ لِما يَزعمونَهُ منَ الاعترافِ بأنّ اللّه خالقُهُم، كما في قولِه تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [الزمر: 38]، وبأنَّ إيمانَهُم باللّه كالعَدَمِ؛ لأنَّهُم لا يُؤمنونَ بوجودِ اللّه إلّا في تَشريكِهِم معهُ غيرَهُ في الإلهيَّةِ[1].

دَلالةُ التَّعبيرِ بالفعل المضارعِ:

الإيمانُ الظّاهرُ لأكثرِ النّاس يَغرُّ الجاهلَ ويُؤلمُ العاقلَ

عبَّرتِ الآيةُ بالفعل المضارعِ ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم﴾ للدّلالةِ على الحال تنصيصًا؛ لأنّ الفعلَ جاء مَنْفيًّا بـ (ما)، فتكونُ أحوالُ أكثرِ النّاسِ أنّهم لا يَدورونَ في حلقةِ الشِّركِ، فإذا ذكروا اللّه، واحتاجوا إلى عونِهِ، وتفكَّروا في عظيم خلْقِهِ ممّا جعلَ لهُم منَ الآيات العظيمةِ؛ فإنّهم يَسلكونَ مَسلكَ الإشراكِ بأساليبَ شتّى؛ تُمليه عليهم شياطينُهُم، فإيمانُهم الظّاهرُ يَغُرُّ الجاهلَ، وشركُهم الباطنُ يُؤلمُ العاقلَ.

فائِدةُ التَّعبيرِ بالأكثريَّة:

عُمومُ أحوالِ النّاس تَشوبُها حالاتُ الشّرك باللّه تعالى

أُسندَ نفيُ الإيمان إلى ﴿أَكْثَرُهُم﴾ باعتبار أكثرِ أحوالِهم وأقوالِهم؛ لأنَّه قد تصدُرُ عنِ المُشركين أقوالٌ خاليةٌ عن ذكر الشَّريكِ. وليسَ المُرادُ أنَّ بعضًا منهُم يؤمنُ باللّه غيرَ مُشركٍ معَه إلهًا آخرَ[2]. وإذا قُصِدَ بضمير (هم) النّاسُ جميعًا كانَ معنى قوله: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ﴾؛ أي: وما يُقرُّ أكثرُ النّاسِ بوَحدانيّةِ اللّه وبألوهيّتِهِ، وبكونِهِ الخالقَ الرّازقَ المحيي المُميتَ في حالٍ منَ الأحوالِ ﴿إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ باللّه تعالى؛ أي: إلّا في حال إشراكِهم باللّه تعالى في عبادتِهم سواهُ منَ الأصنامِ والأوثانِ والملائكةِ والبشرِ، فالكافرونَ مُقرّونَ بوجود اللّه تعالى، لكنَّهم يُثبتونَ له شريكًا في المَعبوديّة[3].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/63.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/63.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 7/63.

أكثرُ النّاس يُخالفونَ الحقَّ ومُقتضياتِهِ

أوِ "المُرادُ بـ ﴿أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ﴾ [يوسف: 103]: أهلُ الشِّركِ منَ العربِ. وهذا إبطالٌ لِما يَزعُمونَهُ منَ الاعترافِ بأنَّ اللّه خالِقُهُم، كما في قولِهِ تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ﴾ [الزّمر: 38]، وبأنّ إيمانَهُم باللّه كالعَدَم؛ لأنَّهم لا يُؤمنون بوجود اللّه إلّا في تَشريكِهِم معهُ غيرَهُ في الإلهيّة"[1]. فهؤلاء هُمُ الأنموذجُ للأكثريّة منَ النّاس، كما أنّنا نجدُ في القرآنِ الكريمِ آياتٍ تَصِفُ أحوالَ أكثرِ النّاسِ بحالِ الشِّركِ والكُفرِ والجهلِ وغيرِها؛ كقوله تعالى: ﴿فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلُۚ كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّشۡرِكِينَ ٤٢﴾ [الرّوم: 42]، وقولِه تعالى: ﴿وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَٰهُ بَيۡنَهُمۡ لِيَذَّكَّرُواْ فَأَبَىٰٓ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورٗا ٥٠﴾ [الفرقان: 50]، وقولِه سبحانه: ﴿قُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ٦٣﴾ [العنكبوت: 63]، وقولِه تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ١٨٧﴾ [الأعراف: 187]، وقولِه تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ ٦١﴾ [غافر: 61].

تعيينُ مَرجِعِ الضَّمير:

مُشركو العربِ أُنموذَجُ خلْطِ الإيمانِ الزّائفِ بالشِّركِ الظّاهرِ

ذَكَرَ المُفسّرونَ أنَّ المُرادَ بالضَّمير في قولِهِ: ﴿أَكۡثَرُهُم﴾ مُشركو العرب؛ لأنّهُم الأنموذجُ الأوّلُ في هذه الحال، ثمَّ يُعمَّمُ هذا الأنموذجُ على جميع أهلِ الأماكنِ والأزمانِ، فهي حالةٌ بشريّةٌ عامّةٌ. فمعنى قوله: ﴿وَمَا يُؤۡمِنُ أَكۡثَرُهُم﴾ في إقرارِهِم باللّه، وبأنَّه خلقَهم وخلقَ السّماواتِ والأرضَ، إلّا وهم مُشركون بعبادتِهِ الأوثانَ أو ما يقومُ مقامَها. "وعنِ الحسن: هُم أهلُ الكتابِ معَهم شركٌ وإيمانٌ. وعنِ ابن عبّاس رضي الله عنهما: هُمُ الّذينَ يُشبّهون اللّه بخلقِه"[2].

دَلالةُ اخْتيارِ لفْظِ الجلالةِ:

أذهانُ النّاسِ مُعلَّقةٌ بالاسْمِ الأعظمِ (الله)

آثرَ النَّظمُ الكريمُ ذكرَ عنوانِ الألوهيّةِ لا الرّبوبيّةِ في قولِه تعالى: ﴿وَمَا يُؤۡمِنُ أَكۡثَرُهُم بِٱللَّهِ﴾؛ وذلك أنَّ المُشركينَ هُم يَعترفونَ بتوحيد

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/63.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/479.

الرّبوبيّةِ دونَ الألوهيّة، فحَسُنَ ذكرُ ما يُشركونَ به، وهو توحيدُ الألوهيّةِ، ولمزيدِ تقبيحِ فعلِهم وتشنيعِ مُرتكَبِهم، فهُم وإنْ أقرّوا بربوبيّة الله تعالى، وأنَّه الخالِقُ الرّازِقُ المُدبِّرُ لجميع الأمور، فإنَّهم يُشركونَ في الألوهيّةِ.

فائدةُ جملةِ الحالِ:

اقترانُ الشِّركِ بالإيمانِ مُنادٍ بالعقوبةِ مُستَنزِلٌ للغضبِ

جملةُ ﴿وَهُم مُّشۡرِكُونَ﴾ حالٌ من ﴿أَكۡثَرُهُم﴾، والمقصودُ من هذا تشنيعُ حالِهم[1]؛ أي: لا يكونُ منهُم إيمانٌ إلّا ويُلابسُه شركُهم، ويقارنُهُ جحودُهُم، فهؤلاء الّذين وصلوا إلى هذه الحالِ لم يبقَ عليهم إلّا أن يَحلَّ بهم العذابُ، ويَفجأهُمُ العقابُ، وهُم آمنون[2]؛ أي: وما يُؤمِنُ أكثرُ هؤلاء الضّالّينَ بالله في إقرارِهم بوجودِه، وفي اعترافِهم بأنّه هو الخالِقُ، إلّا وهُم مُشركونَ به في عقيدتِهم وفي عبادتِهم وفي تصرُّفاتِهم، فإنّهُم مع اعترافِهم بأنّ خالِقَهم وخالِقَ السّماواتِ والأرضِ هو الله، لكنّهم مع ذلك كانوا يَتقرَّبونَ إلى أصنامِهم بالعبادة، ويقولونَ: ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ [الزُّمر: 3]، والآيةُ تشمَلُ كلَّ شركٍ سواء أكان ظاهرًا أم خفيًّا، كبيرًا أم صغيرًا[3].

بَراعةُ التَّعبيرِ بالشِّركِ دونَ الكفرِ:

الشّركُ هو اعتقادٌ بوجودِ آلهةٍ مع الله

آثرتِ الآيةُ استعمالَ لفظِ الشّركِ دونَ الكُفرِ في قولِه تعالى: ﴿وَهُم مُّشۡرِكُونَ﴾؛ وذلك أنَّ الكفرَ واضحٌ في مناقضتِه للإيمان، فذَكَرَ الشّركَ لبيانِ أنَّ غالبَ ما يقعُ النّاسُ في ظلمتِه هو الشِّركُ؛ للحذرِ منه، والابتعادِ عن أسبابِه، وعلى رأسها اعتقادُ أنَّ أحدًا نافعًا أحدًا غيرُ الله تعالى، فذَكَرَ الشِّركَ، وهو مبدأُ الكفرِ، وبوابةُ الجحودِ، وأصلُ كلِّ مُنكَرٍ، وأساسُ كلِّ باطلٍ، والنّاسُ مُتفاوتونَ فيه،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/63.
(2) السّعديّ، تيسير الكريم الرحمن: 1/406.
(3) طنطاويّ، الوسيط: 7/422.

وبسبب تفاوتِهم قد يقعُ في خاطر بعضِ النّاسِ أنَّ قليلَه لا يضرُّ؛ فنبَّهتِ الآيةُ على أنَّ الشِّركَ يتخلَّلُ أكثرَ النّاسِ، ومنهُم مَن يؤمِنُ باللّه تعالى.

نُكتةُ حذفِ مُتعلِّقِ ﴿مُّشْرِكُونَ﴾:

الشِّركُ لا يكونُ إلّا مع اللّه تعالى

ومُتعلِّقُ ﴿مُّشْرِكُونَ﴾ مَحذوفٌ دلّ عليه ما قبلَه؛ أي: لا يُؤمِنُ أكثرُهُم باللّه إلّا وهُم مُشركونَ به سبحانَه، فحذفَ لفظَ الجلالة أوِ الضَّميرَ الدّالَّ عليه؛ أي: مُشرِكون باللّه؛ وذلك لِوروده مع قضيّة الإيمانِ، وذلك أجملُ للنَّظم، وأنسبُ أن يُذكَرَ الإيمانُ مع لفظ الجلالةِ، ويُكتفَى بذلك فلا يُذكَرُ مع الشّرك، أو أن يُرادَ بالإشراك الفعلُ اللّازمُ؛ أي: الاتّصافُ به سلوكًا واعتِقادًا، ولا مانعَ من إرادتِهما معًا.

فائِدةُ التّعبيرِ باسْمِ الفاعلِ ﴿مُّشْرِكُونَ﴾:

العراقة في الشّرك حتى صار علَمًا

التّعبيرُ باسْمِ الفاعلِ يدلُّ على تمكُّنِ الفعلِ بصاحبِه حتّى بات اسمًا له، وهذا يدلُّ على شدّة شِرْكهم باللّه.

بلاغةُ التَّهكُّمِ بتأكيدِ الشَّيءِ بما يُشبهُ ضدَّه:

إيمانُ الجاحِدين شِرْكٌ يُحيطُ به إعراضٌ

جملةُ: ﴿وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ في قولِه تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾؛ حالٌ من ﴿أَكْثَرُهُم﴾، والمقصودُ من هذا تشنيعُ حالِهم. والأظهَرُ أن يكونَ هذا من قبيل تأكيدِ الشَّيءِ بما يُشبِهُ ضِدَّهُ على وجه التَّهَكُّم[1]؛ أي: إنْ آمنوا فإيمانُهُم هو إيمانُ المُشرِكين؛ إذ كيف يكونُ الإنسانُ مُؤمِنًا مع بقاء لوثةِ الإشراكِ في أقوالِه وأفعالِه؟! فذَكَرَ إيمانَهُم مُؤكِّدًا ذلك بوجود بعضِ مُقوِّماتِ الشّركِ لديهِم، تهكُّمًا بإيمانِهم الّذي لا يُعدُّ إيمانًا، وإنّما هو وجهٌ من وجوه الإشراكِ.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/63.

غَرَضُ الاستفهامِ:

الأمانُ من عَذابِ الله تعالى غفلةٌ توجِبُ التَّوبيخَ

في قولِه تعالى: ﴿أَفَأَمِنُوٓاْ أَن تَأۡتِيَهُمۡ غَٰشِيَةٞ مِّنۡ عَذَابِ ٱللَّهِ﴾ استفهامُ توبيخٍ وتقريعٍ؛ لأنَّه كائنٌ على فعلٍ قد وقَعَ، فَأمانُهُم من عذاب الله واقِعٌ منهُم، فاستحقّوا على ذلك التّوبيخَ والتَّهديدَ، وهو يمكنُ كذلك إنْ لَم يقعْ هذا الأمانُ من عذاب الله عند بعضِ القومِ؛ ليكونَ المعنى: أنّ ذلك الأمانَ لا ينبغي أن يكونَ منَ النّاس، فهو تحذيرٌ لهُم من ذلك الأمانِ والطّمأنينةِ. فليسَ لأحدٍ أن يأمنَ عذابَ الله، ولكن ليستَعِذْ من عذاب الله سبحانَه.

معنَى الفاءِ وتعيينُ المعطوفِ عليه:

من أمِنَ مكْرَ الله لـم يـخَـفْ من عذابِه

الفاءُ في قولِه تعالى: ﴿أَفَأَمِنُوٓاْ﴾ عاطفةٌ على محذوف؛ أي: "أغَفَلَ هؤلاء المُشركون عن مكر الله تعالى، فأمِنوه، ولم يَخافوا؟!"[1].

بَراعةُ الجمْعِ بين نفيِ الإيمانِ وإثباتِ الأمانِ في سياقٍ واحدٍ:

تـمـامُ الـوقـاحـةِ وكمالُ الشّناعةِ الأمنُ في مَوضِعِ العقوبةِ

بعد أن نفتِ الآيةُ السّابقةُ الإيمانَ بالله تعالى عنهم إلّا في حال شركِهم، أثبتَت هنا الأمانَ من مكرِ الله تعالى، وفي هذا الجمعِ بين نفيِ الإيمانِ وإثبات الأمانِ تشنيعٌ عليهم، وتقبيحٌ لبَلادةِ فكرِهم، وتفظيعٌ لسوءِ مُرتكَبِهم، فهُم يأمنونَ مكرَ الله من حيث يُشركونَ به! فهو تفظيعٌ لحالِهم وجُرأتِهم على خالِقِهم، والاستمرارِ على ذلك دونَ إقلاعٍ؛ فبيّنتِ الأولى إعراضَهُم، وبيّنتِ الثّانيةُ إشراكَهم، فكأنَّ إعراضَهُم عن آيات الله وإشراكَهُم بالله جانبٌ من جوانب أمانِهم من وقوع غضبِ الله عليهم، أن تأتيَهُم غاشيةٌ من عذابِه في الدُّنيا أو تأتيَهُم السّاعةُ بَغتةً، فَتَحولُ بينَهُم وبينَ التَّوبةِ، ويَصيرونَ إلى العذاب الخالِدِ[2].

(1) الهرريّ، حدائق الرَّوح والرَّيحان: 14/135.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/64.

دَلالةُ التَّعبيرِ بـ ﴿أَن﴾ والمُضارعِ بدلَ المَصدر:

التّهديدُ المُقترِنُ بالتَّحذيرِ رحمةٌ ورأفةٌ بالعبادِ

جاءَ التّعبيرُ في قوله تعالى: ﴿أَن تَأْتِيَهُمْ﴾؛ بحرف ﴿أَن﴾ المصدريِّ، وهو يدخلُ على الفعل المضارع فينصبُهُ ويَصرِفُهُ إلى الاستقبال[1]، وهو أبلغُ منَ التّعبير بالمصدرِ (إتيان)؛ لِما فيه من معنى التَّهديدِ بما سيأتي مُستقبَلًا، وهو مَشوبٌ بمعنى التَّحذير، وهو دليلُ رحمةِ اللّه تعالى بهِم؛ إذ إنذارُ النّاسِ وتحذيرُهُم منَ العقوبةِ كاشفٌ عن حرصِ القرآنِ على إنقاذِهِم.

بَلاغةُ اخْتيارِ ﴿غَٰشِيَةٌ﴾ مادَّةً وصيغةً:

الغاشيةُ تُحيطُ بالجميعِ، فلا مَهربَ ولا مَفلتَ منها

عبَّرَ النَّظمُ الكريمُ بلفظِ ﴿غَٰشِيَةٌ﴾، وهي نقمةٌ وعقوبةٌ تغشاهُم، وقيلَ: ما يغمرُهُم منَ العذابِ ويجللهم[2]؛ لِما في هذا اللّفظِ منَ الإحاطةِ والإقفالِ عليهِم، فلا مَخرجَ منها، ولا مَفرَّ من عذابِها. ومن معاني الغاشيةِ العزلُ التّامُّ عنِ الخارج فلا يُعرَفُ حالُهم، ولا يُنقذونَ مِن أحدٍ. فالتَّعبيرُ بالغاشيةِ وهي اسمُ فاعلٍ أو صفةٌ مُشبَّهةٌ؛ لبيانِ أنْ لا مَهربَ ولا مَفلتَ لأحدٍ منها، وفيه مزيدُ تهديدٍ ووعيدٍ.

غرَضُ تَنْكيرِ ﴿غَٰشِيَةٌ﴾:

إبهامُ العذابِ تَفظيعٌ وتحذيرٌ

جاءَ تنكيرُ ﴿غَٰشِيَةٌ﴾ لغرَضِ التَّعظيمِ من شأنِها، وما يمكنُ أن تفعلَه، أو تُحدِثَه من آثارٍ، وأفاد كذلك تجهيلَ آثارِها وخفاءَ أشكالِها، فيعظمُ في عين السّامعِ شأنُها، وما تتضمَّنُهُ منَ المُفاجآت، وفي النّكرات منَ المعاني ما لا يكونُ في المعارف؛ إذِ الجهالةُ سببٌ في مزيدِ الخوفِ، والإبهامُ قائدٌ لليقظةِ.

معنَى حرفِ ﴿مِّنْ﴾ ودلالتُهُ:

دلَّ حرفُ ﴿مِّنْ﴾ في قولِه تعالى: ﴿مِّنْ عَذَابِ ٱللَّهِ﴾ على الابتداءِ، أي: غاشيةٌ نازلةٌ ابتداءً من عذاب اللّه تعالى، ففيه تهديدٌ بأنَّهم مُنتهى

(1) الرّضيّ، شرح الكافية: 2/57.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/479.

الغايةِ. ويَصحُّ أن تكونَ للجنس؛ أي: بيانِ جنس تلك الغاشيةِ. فلمّا عُلِمَ أنّها من عذاب اللّه عُلِمَ حينَها عظيمُ شأنِ ذلكَ التّهديدِ والوعيدِ.

سِرُّ اخْتيارِ لفظِ العذابِ دونَ العقابِ:

العَذابُ دالٌّ على عظيمِ الأفعالِ وشِدَّةِ المُجازاةِ

في قولِه تعالى: ﴿مِّنْ عَذَابِ ٱللَّهِ﴾ ذَكَرَ العذابَ دونَ العقابِ؛ والفرقُ بين العقابِ والعذابِ: أنّ العقابَ يُنبِئُ عن استحقاقٍ، وسُمّي بذلك؛ لأنَّ الفاعلَ يستحقُّهُ عَقيبَ فعلِه، ويجوزُ أن يكونَ العذابُ مُستَحَقًّا وغيرَ مُستَحَقٍّ، وأصلُ العقاب التُّلُوُّ، ومنه: عَقَبَ اللّيلُ النّهارَ إذا جاء بعده، وفي التّنزيل: ﴿وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ [النمل: 10]؛ أي: لم يَرجعْ بعدَ ذهابِهِ تاليًا له مَجيئَهُ، وفيه ﴿لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ﴾[1]، والعذابُ يُنبِئُ عن شدّة ما يُلاقي الإنسانُ فيه، فلمّا ذكرَ في الآيات السّابقةِ عظيمَ شركِهم، ذكرَ هُنا عظيمَ ما سَيُلاقونَ من عذاب اللّه تعالى.

معنَى إضافةِ العذابِ للفْظِ الجلالةِ:

عَظمةُ العَذابِ من عظمةِ مَصْدرِه

الإضافةُ هي نسبةٌ بين لفظتَين، تُنسَبُ الأولى إلى الثّانيةِ بغيةَ تعريفِها أو تخصيصِها، والإضافةُ في قوله تعالى: ﴿عَذَابِ ٱللَّهِ﴾ لتعريف العذابِ بأنّه عذابُ اللّه، وهو أشدُّ وعيدًا وأبلَغُ تهديدًا؛ لأنّه منَ اللّه، وهل أشدُّ وأعظمُ من عذاب اللّه ؟! فهو سبحانَه الّذي خلقَ العذابَ، وقدَّرَ آلامَهُ في الأجساد.

معنَى حرفِ ﴿أَوْ﴾ ودلالتُهُ:

إهلاكُ الكافرين مُتحقِّقٌ في الدُّنيا، وما بعدَه أشدُّ وأطمُّ

معنى ﴿أَوْ﴾ في قولِه: ﴿أَفَأَمِنُوٓاْ أَن تَأْتِيَهُمْ غَٰشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ ٱللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً﴾ للتّنويع، أي: أن تأتيَهُم غاشيةٌ من عذاب اللّه تعالى في الدُّنيا فتُهلِكَهُم، أوِ السّاعةُ فتُهلِكَهُم كذلك، فالمقصودُ مجيءُ شيءٍ يكونُ فيه هلاكُهُم جميعًا، فسواءٌ أصابَتهُم غاشيةٌ خاصّةٌ أو عامَّةٌ فالمصيرُ واحدٌ، وهو الإهلاكُ في الدّنيا، والمصيرُ

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 364.

إلى الآخرة، وفيه بيانُ تهاوُنهم في تقدير عظيمِ شأنِ اللّه وقُدرتِه، حتّى إنّهم لا يُفكِّرون بالسّاعة، ولا تخطُرُ ببالهم.

نُكتةُ التَّعبيرِ بالمضارع:

إتيانُ السّاعةِ مُتوقَّعٌ في كلِّ لحظةٍ، فالحذرُ يجبُ أن يَقترنَ مع كلِّ لفظةٍ

في قولِه: ﴿تَأۡتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ﴾ جاء التّعبيرُ بالمُضارع: ﴿تَأۡتِيَهُمۡ﴾ لفائدة تجدُّدِ احتمالِ إتيانِ السّاعةِ في أيِّ لحظةٍ منَ الزّمان القادمِ، فهو يملِكُ المفاجأةَ الّتي كان ينبغي على النّاس أن يَحذروا منها؛ خشيةَ أن يكونَ أمرُ السّاعة فيها، فيكونُ حالُ أكثرِ النّاسِ في غفلةٍ عنِ السّاعة أو عن لحظة الموتِ الّتي هي بمنزلة قيامِ السّاعةِ؛ لانقطاع عملِ النّاسِ، والدّخولِ في أحوال الآخرةِ، وإخفاء آجالِ النّاسِ عنِ المخلوقاتِ كلِّها؛ ولذا جَعَلَ وقتَ قُدومِ الآجالِ يوصَفُ بـ (البغتة)، ويتجدَّدُ ترقُّبُها في كلِّ حين. ويدلُّ التّعبيرُ بالمضارع هنا على استحضار الصّورةِ للقارئ كأنّها رأيُ عيْنٍ.

بَلاغةُ تناسُبِ لفْظِ ﴿ٱلسَّاعَةُ﴾ و﴿بَغۡتَةً﴾:

أشارَتْ لفظةُ السّاعةِ إلى السُّرعةِ، ولفظةُ البغتةِ إلى المفاجأةِ

﴿ٱلسَّاعَةُ﴾ كنايةٌ عن يوم القيامةِ وأهوالِها، وبلاغةُ اختيارِ هذه الكنايةِ للدّلالة على السّرعة الّتي يمكنُ أن تقعَ فيها تلك الأهوالُ؛ لتدُلَّ على مُدّةٍ زمنيّةٍ قصيرةٍ يمكنُ أن يحضُرَ فيها الموتُ، وحينَها لا رادَّ لقضاء اللّه سبحانَه، وتَنسجمُ اللّفظةُ مع قولِه: ﴿بَغۡتَةً﴾، الّتي تَكتنِهُ فيها السّرعةُ والمفاجأةُ، و﴿بَغۡتَةً﴾ حالٌ بمعنى: مباغِتةً مُفاجِئةً لهم، وهي للمُبالغةِ في التَّهويل؛ لأنَّ الدَّواهي إذا فاجأتِ الإنسانَ كانَت أشدَّ وقعًا ممّا لو تَقدَّمَ عليها علمٌ بها؛ لِتوهُّمِ مَفاداتِها والتَّحرُّزِ منها[1]، فاجتمعَت في لفظ السّاعةِ الدّلالةُ المباشِرَةُ على القيامة، والإشارةُ إلى سرعةِ مَجيئِها.

(1) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 2/145.

معنَى(أل) في ﴿ٱلسَّاعَةُ﴾:

التّعريفُ هنا للعهدِ، على معنى السّاعةِ التي تعرفونَها، وهذا كنايةٌ عن يومِ القيامةِ.

حكمةُ إتيان السّاعةِ بغتةً:

الحكمةُ في إبهام وقت السّاعةِ أنّ الفائدةَ لا تتمُّ إلّا بذلك، ليخشى أهلُ كلِّ زمانٍ إتيانَها، فَيَحملَهُمُ الخوفُ على مُراقبةِ اللّه تعالى في جميعِ أعمالِهم وفي عمومِ زمانِهم.

تـرقّـب قـيـام الساعة يكرّس مـراقـبـة الـلـه الدائمة

مَوقِعُ جملةِ ﴿وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾:

جملة ﴿وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ في محلِّ نصبِ حالٍ؛ لبيان حالِهم عندما تأتيهُمُ السّاعةُ، فتأخذُهُم على غفلةٍ من أمرِهم، ولعلّ الشّعورَ هو أدقُّ ما يتحسّسُهُ الإنسانُ في أمور حياتِهِ، فيَشعُرُ بأقلّ تأثيرٍ على حواسّهِ من الجسدِ أوِ السّمعِ أوِ النّظرِ أو غيرِها، فلمّا قال هنا: ﴿وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ صوّرَ للمُتلقّينَ عظيمَ شأنِ تلك البغتةِ أو مجيءَ لحظةِ الموتِ الفارِقَةِ، والمرادُ من كلِّ هذا أنّها تبغَتُ النّاسَ، وهُم مُنهمِكونَ في أمورِ مَعايشِهم، فلا يَشعرون إلّا وقد أتَتهُم.

وَصـــفُ حـالِ الـكـافـريـنَ بفقدان الشّعورِ والإحساسِ

غرَضُ تقديمِ المُسنَدِ إليه على المُسنَدِ الفعلّي المنفيِّ:

أفادَ تقديمُ المُسندِ إليه ﴿وَهُمۡ﴾ على المُسند الفعليِّ المنّفيِّ ﴿لَا يَشۡعُرُونَ﴾ تخصيصَهُ بحكم التّخصيص؛ أي: إنّ كلَّ مَن وقَعَ في غفلةِ الآياتِ، فهو عنِ السّاعةِ أشدُّ غفلةً، فأفادَت هذه الجملةُ أنّهم خصوصًا لا يَشعرونَ بهذا الحدثِ الّذي هو إتيانُ الغاشية أو إتيانُ السّاعة، فلا تنالُهُمُ الرَّحمةُ الّتي يتغمَّدُ بها اللّه قومًا آخرين اتّقوا هذا اليومَ، ولم يغفُلوا عنه.

الـغـفـلـةُ خاصةٌ بـمَـن غـفَـلَ عن آيات الله جزاءً وفاقًا

نُكتةُ التَّعبيرِ بحذْفِ مُتعلّقِ الشُّعور المَنْفيِّ:

حُذِفَ مُتعلِّقُ الفعل ﴿يَشۡعُرُونَ﴾؛ ليدلَّ على انعدام الشّعورِ العامِّ

بكلِّ شيءٍ، وليجعلَ الغافلين على خطِّ الخطرِ لما هُم فيه مِنَ الغفلةِ عنِ الآخرة. ونكتةُ التّعبيرِ بنفْيِ الشّعورِ هو بيانُ أنَّهم كالأنعام لا يَشعرون ما يكونُ لَهم في قابلِ الأيّام، وعليهِ فأصبحَ انتفاءُ الشُّعورِ عندهم صفةً لازمةً لهم، كأنَّهم خُلِقوا، وهُم لا يَشعرون.

انعدامُ الشّعور عندَ الغافلين عقوبةٌ عاجلةٌ

بَراعةُ تَكرارِ ضميرِ الفصلِ ﴿وَهُمْ﴾:

في تَكرار ضمير الفصلِ ﴿وَهُمْ﴾ في قولهِ تعالى: ﴿وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾، وقولهِ تعالى: ﴿وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾، وقولهِ تعالى: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾؛ براعةٌ في إظهار الغافِلينَ على أنَّهم فريقٌ واحدٌ يعودُ عليه ضميرُ الجمع (هُمْ)، فدلَّ على أولئك الّذين يُنكِرون، والّذين يُعارِضون، والّذين هُم مُنشغلون بالدّنيا، غافلون عنِ الآخرة، فهؤلاء هُم أنفسُهم لا غيرُهم، يفعلونَ كلَّ تلك الأفعالِ والخصالِ، ويَشتركونَ فيها.

لفُّ جميعِ الجاحِدين في ثوبِ الغفلةِ والنَّكارةِ

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيّةُ:

البغتَةُ والفجأةُ:

الفَجأةُ: ما فاجَأ الإنسانَ، وما يأخذُ الإنسانَ بغتةً. وقد بغتهُ الأمرُ يبغتهُ بغتًا: فَجَأَهُ، والمباغتةُ: المُفاجأةُ. وهو مواجهةُ أمرٍ دفعةً واحدةً، وبدون مُقدِّمةٍ ظاهرةٍ، قال تعالى: ﴿جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً﴾ [الأنعام: 31]، وقال تعالى: ﴿أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً﴾ [الأنعام: 44]، ﴿أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً﴾ [الزُّمر: 55]. وقوله: ﴿إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً﴾ [الأنعام: 47].

البغتةُ باعتبارِ صدورِها عن جِهةٍ، والفجأةُ باعتبارِ وقوعِها على المفعولِ

فـ(البغتة) فجأةٌ مشروطةٌ مقصودةٌ لشخصٍ أو جهةٍ مُعيَّنةٍ، على خلاف (الفجأة) الّتي لا تكونُ مقصودةً لأحدٍ أو مَشروطةً بذلك. فالبغتةُ أخصُّ منَ الفجأةِ، كما أنَّ البغتةَ تكونُ باعتبار صدورِها المُباغِتِ، فهي وصفٌ للفاعل، نقولُ: باغتَهُمُ العسكرُ، بينما الفجأةُ صفةٌ كائنةٌ بمَن وقَعَ عليه الفعلُ، نقولُ: تفاجأ الكسولُ بنتيجتِهِ، فالنّتيجةُ وقعَت على الكسول فتَفاجَأ.

﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ [يوسف: 108]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الانتقالُ من بيانِ حالِ أهلِ الغيِّ إلى بيان حال أهلِ الرُّشدِ

لمّا ذَكَرَ في الآيات السّابقةِ حالَ أكثرِ النّاس من إعراضِهم وجحودِهم وشركِهم باللّه تعالى، شَرَعَ في هذه الآية مُرشِدًا رسولَ اللّه ﷺ أن يكونَ مُقبلًا على السّبيل في مُقابِلِ مَن يُعرضُ عنها، داعيًا إلى اللّه تعالى في مُقابلِ مَن يدعو إلى الأوثان، على بصيرةٍ في مُقابلِ مَن هو في ظلمةٍ، مُؤيَّدًا بالمؤمنين في مُقابلِ مَن هو مُؤيَّدٌ بأهل الباطلِ، ثابتًا على التّوحيد في مُقابلِ مَن يُشركُ باللّه تعالى، فهي مُناسبةٌ انتقاليّةٌ بين الحقِّ والباطلِ، وبين التَّوحيدِ والشّركِ، تَظهَرُ فيها المُتقابِلاتُ بأسلوبٍ أخّاذٍ، وانتقالٍ بديعٍ.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿سَبِيلِىٓ﴾: جَذرُ الكلمة هو (سبل)؛ والسَّبيلُ: الطَّريقُ، وسبيلُ اللّه طريقُ الهدى الّذي دعا إليه، وقوله تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ﴾؛ أي: سبيلُ الإيمانِ، وقوله تعالى: ﴿وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ۚ﴾ [إبراهيم: 12]؛ أي: هدانا الشّرائعَ الّتي أنزلَها اللّه إلينا مُضمَّنةً في الرِّسالات السّماويّةِ. وقوله تعالى: ﴿وَأَنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: 195]؛ أي: في الجهادِ وكلِّ ما أمرَ اللّه به منَ الخير فهو من سبيل اللّه؛ أي: مِنَ الطّرقِ إلى اللّه. واستُعمِلَ السَّبيلُ في الجهاد أكثرَ، قال تعالى: ﴿وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۚ﴾ [الأعراف: 146]، وقال تعالى: ﴿وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۖ﴾ [التّوبة: 60][1].

(1) ابن سيده، المُحكم: (سبل).

2) ﴿بَصِيرَةٍ﴾: جذرُ الكلمة هو (بصر)؛ البَصَرُ: العَينُ، والبَصَرُ: نَفاذٌ في القلب. وأبصَرتُ الشَّيءَ وتَبَصَّرتُ به، واستَبصرَ في أمرِه ودينِه، إذا كانَ ذا بصيرةٍ. والبصيرةُ اسمٌ لِما اعتُقِدَ في القلب منَ الدّين وحَقيق الأمرِ. ويُقالُ للفِراسةِ الصّادقةِ: فِراسةٌ ذاتُ بَصيرةٍ. والبَصيرةُ: العِبرةُ، يُقالُ: أما لكَ بصيرةٌ في هذا؟ أي: عِبرةٌ تَعتَبرُ بها[1]. ومعنى البصيرةِ في الآية؛ أي: على علمٍ وهُدًى ودرايةٍ بالشّرعِ بما يرضاه اللّه منَ النّاس، وهي مَضمونُ الوحيِ إلى رسول اللّه ﷺ.

❁ المَعْنى الإجْماليّ:

سبيلُ الحقِّ أبلجُ واضحٌ، وهو سبيلُ الرّسولِ والمؤمنين إلى يوم الدّين

تُرشِدُ الآيةُ رسولَ اللّه ﷺ إلى أنْ يَلتزمَ سبيلَ الحقِّ والتّوحيدِ والهدى، وخطابُه هو خطابٌ لأمَّتِه؛ لأنّه هو القدوةُ في هذا المَسلكِ، الّذي هو الدّعوةُ إلى اللّه، وإلى دين اللّه، وإلى شرع اللّه، وإلى التّوحيدِ، وهو مَسلكُ جميع المُؤمنينَ المُتّبِعينَ للرّسول ﷺ. وتكونُ الدّعوةُ إلى دين اللّه على بصيرةٍ؛ أي: على علم وهدًى ومعرفةٍ بالشّرع وبالرّسالة، لا على جهلٍ وتقليدٍ. ثمّ خُتمَتِ الآيةُ بتنزيه اللّه تعالى عنِ النّقائص، وإثباتِ الكمالاتِ له بإفرادِهِ بالعبادةِ الحقَّةِ الّتي لا تكونُ لِمَن سواه.

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيّ:

علَّةُ فصلِ الآية عن سابقتها:

خيرُ البَدءِ ما كان أمرًا برُشدٍ ونفيًا لضلالٍ

فُصِلَ قولُه تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ﴾؛ لأنَّه استئنافٌ ابتدائيٌّ مُعترِضٌ بين الجملِ المُتعاطِفةِ؛ للانتقال منَ الاعتبار بنزولِ هذه القصَّةِ للنّبيِّ ﷺ الأُمّي، دليلًا على صدق نبوَّته ﷺ وصدقِه فيما جاء به منَ التّوحيد؛ إلى الاعتبارِ بجميع ما جاءَ به من هذه الشَّريعةِ عنِ

(1) الخليل، العين: (بصر).

اللّه تعالى[1]. وسببُ الفصلِ بين الجُملتين؛ هو حالةُ كمال الانقطاعِ بينَهما، فالجملةُ السّابقةُ خبريّةٌ، وهذه إنشائيّةٌ، ولا ارتباطَ يُذكَرُ بين معنى الجُملتين.

سِرُّ استعمالِ اسْمِ الإشارةِ:

تَنزيلُ الشَّريعةِ مَنزِلةَ المُشاهَدِ المحسوسِ كنايةٌ عنِ الوضوحِ

استُعملَ في قولِه تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ﴾ اسمُ الإشارة القريبِ ﴿هَٰذِهِۦ﴾؛ إشارةً إلى السّبيل الّذي أراد به التّوحيدَ والشَّريعةَ، أو أن تكونَ الدّعوةُ إلى اللّه على ما دعا إليه كتابُ اللّه وسُنةُ نبيّه ﷺ[2]، فنزَّلَ المعقولَ مَنزلةَ المحسوسِ؛ لِبُلوغِه منَ الوضوح للعقول حدًّا لا يخفى فيه إلّا على من لا يُعَدُّ مُدْرِكًا[3]. واستعمالُ اسم الإشارةِ للقريبِ؛ لبيانِ قُربِ المُشارِ إليه، كنايةً عنِ الوضوح.

بَلاغةُ الاستعارةِ في لفظِ السّبيلِ:

الشّريعةُ واضحةٌ مُستقيمةٌ كوضوحِ السَّبيلِ واستقامتِهِ

عُبِّرَ عنِ التّوحيد والشّريعةِ في قولِه تعالى: ﴿سَبِيلِىٓ﴾ "بالسَّبيل على وجه الاستعارةِ لإبلاغها إلى المطلوب؛ وهو الفوزُ الخالدُ، كإبلاغ الطّريقِ إلى المكانِ المقصودِ للسّائِرِ، وهي استِعارةٌ مُتكَرِّرةٌ في القرآن وفي كلامِ العربِ"[4]. فالشَّريعةُ كالسَّبيل، ووجهُ الشّبهِ بينَهما هو الإبلاغُ إلى المقصود، فحَذفَ المشبّهَ وأبقى المشبّهَ به؛ فهي استعارةٌ تصريحيّةٌ أصليّةٌ، وفيها تجسيدُ التَّحرُّكِ والمُضيِّ المُستَنيرِ في هذه السُّبل الواضحةِ الّتي هي كالصّراط المستقيمِ الّذي يَمنحُ سالكَهُ المِنَحَ الكثيرةَ والجوائزَ العظيمةَ.

دَلالةُ إضافةِ السَّبيل إلى ضميرِ المُتكلِّم:

سبيلُ الثّقاتِ تَكسوها الطُّمأنينةُ، وتحفُّها السَّكينةُ

أُضيفَ لفظُ السَّبيل في قولِه تعالى: ﴿سَبِيلِىٓ﴾ إلى ضمير المُتكلِّم، وهو رسولُ اللّه ﷺ؛ تعريفًا بعظيم شأنِ هذه السّبيلِ؛ فهي "قريبةُ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/64.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 4/105.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/64.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/64.

المَأخَذِ، جليَّةُ الأمر، جليّةُ الشَّأن، واسعةٌ واضحةٌ، فكأنَّه قيلَ: ما هي؟ فقال: ﴿أَدۡعُوٓاْ﴾ كلَّ مَن يَصِحُّ دعاؤُه إلى اللّه[1]. وفي هذه الإضافة دعوةٌ إلى الحرصِ عليها، والأخذِ بها، ومراقبةِ آثار الرّسولِ فيها، والاقتداءِ بها، فهي سبيلُ رسول اللّه ﷺ لا سبيلَ غيرِه، مع ما فيها من توريث الطُّمأنينةِ؛ فإنَّ مَن يسلكُ سبيلًا سلكَها الثّقاتُ فإنَّه يكونُ في تمامِ السّكينة والطُّمأنينةِ.

نُكتةُ تأنيث السَّبيلِ:

السّبيلُ هي الدّعوةُ على البصيرةِ الواضحةِ المُنكشِفةِ

السَّبيلُ والطَّريقُ: يُذكَّران ويُؤنَّثان، وقد أنّثَها في قولِه تعالى: ﴿قُلۡ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ﴾؛ لأنّه أراد بها (الدّعوة)؛ وهي الّتي تؤدّي إلى الغاية المَرجوّةِ منَ السَّير في هذه السّبيلِ؛ إذ فَسَّرَها بقولِه: ﴿أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٖ﴾، أي: أدعو إلى دينِه مع حجّةٍ واضحةٍ غيرِ عمياءَ[2]، فجاء التَّأنيثُ مُنسجِمًا مع الدَّعوةِ والبصيرةِ.

بَلاغةُ التَّفصيلِ بعدَ الإجمالِ:

الإشارةُ إلى السّبيلِ هي إشارةٌ إلى وظيفةِ التّبليغِ والدّعوةِ

قولُهُ تعالى: ﴿أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٖ﴾ بيانٌ لمعنى السّبيلِ في قولِه تعالى: ﴿قُلۡ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ﴾؛ فكانتِ الجملةُ مُبيِّنةً لهذه السّبيل، مُفصِّلةً لحال مَن يسلكُها[3]. ولهذا التَّفصيل نكتةٌ؛ وهي بيانُ الوظيفةِ الّتي كُلِّفَها ﷺ، فالإشارةُ إلى السّبيل في الحقيقةِ هي إشارةٌ إلى وظيفة التّبليغِ والدّعوةِ إلى اللّه تعالى على بصيرةٍ وبيّنةٍ. فتركَ عطفَ هذه الجملةِ عن سابقتِها؛ لأنّها متّصلةٌ بها كمالَ اتّصالٍ لكونها مبيّنةً ومُفسّرةً لها.

نكتةُ حذف المفعول:

دعوةُ الرّسولِ عامّةٌ لا تخصُّ أحدًا بعينِه

حُذِفَ مفعولُ ﴿أَدۡعُوٓاْ﴾؛ وتقديره: أدعو مَن تَصحُّ دعوتُه، أو أدعو

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 4/105.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/479.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/345.

النّاسَ؛ لبيان شمولِ الدَّعوةِ، وأنَّها لجميع النّاسِ، فالدّعوةُ مُطلَقةٌ غيرُ مُقيَّدةٍ، ورحمتُها في إطلاقها، فالحذفُ للتّعميم.

دَلالةُ استعمالِ حرفِ ﴿إِلَىٰ﴾:

غايةُ الدَّعوةِ بلوغُ رضوانِ الله تعالى

دلَّ حرفُ ﴿إِلَىٰ﴾ في قولِه تعالى: ﴿أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾ على انتهاءِ الغاية، مع الإشارة إلى ابتدائِها؛ أي: أدعو ابتداءً النّاسَ في هذه السَّبيل إلى الله تعالى، فتكونُ غايةُ الغايات هي الوصولَ إلى رضا الله تعالى، وتطبيقَ شريعتِه، كما أمرَ ﷺ.

نُكتةُ ذكرِ لفْظِ الجلالةِ:

توريثُ المُخاطَبِ الطُّمأنينةَ، وإكسابُ الخطابِ ثوبَ الجمالِ

في ذكر لفظ الجلالةِ في قولِه تعالى: ﴿أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾ إشارةٌ إلى عظيم هذه الدّعوةِ، وأنَّها دعوةٌ مُرتبِطةٌ بالله تعالى، فلم يقُلْ: أدعو إلى الدّين، أوِ الإسلام، أوِ الحقِّ، بل أتى بغايةِ الغاياتِ، ومُنتهى التّطلُّعاتِ؛ لتوريث الطُّمأنينةِ، وإكسابِ الخطابِ ثوبَ الجلالِ والبهاءِ والجمالِ والسَّناءِ.

بَلاغةُ استعمالِ حرفِ الاستعلاءِ:

مَن كانَ على بصيرةٍ فارقَ الباطلَ وجانبَ الجهلَ

استُعمِلَ حرفُ الاستعلاءِ في قولِه تعالى: ﴿عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾؛ للاستعلاء المَجازيِّ المُرادِ به التَّمكُّنُ، وهو مثلُ قولِه تعالى: ﴿عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ﴾ [البقرة: 5][1]؛ أي: حُجّةٍ واضِحةٍ بالأدلّةِ القاطِعةِ، وتَركِ التّقليدِ الدّالِّ على الجمود؛ لأنّ البصيرةَ تمييزٌ للمَعرفة الّتي يُفرَّقُ بها بين الحقِّ والباطل دينًا ودُنيا، فيصيرُ كأنّه يُبصرُ المعنى بالعين[2].

نُكتةُ تَنكيرِ ﴿بَصِيرَةٍ﴾:

أفادَ تنكيرُها هنا معنَى التّفخيمِ والتّعظيمِ لشأنِ هذه البصيرةِ.

بَلاغةُ المجازِ في لفظ البصيرةِ:

إذا سطعتِ الحُجَّةُ أُبْصِرتِ المحجّةُ

معنى البصيرةِ في قولِه تعالى: ﴿عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾؛ الحجّةُ الواضِحةُ،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/64.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 4/105.

والبرهانُ القاطِعُ؛ والمعنى: أدعو إلى اللّه على بصيرةٍ مُتمَكِّنًا منها. وفي استعمال ﴿بَصِيرَةٍ﴾ مَجازٌ؛ إذِ البصيرةُ وصفٌ لصاحب الحُجّةِ؛ لأنَّه بها صار بَصيرًا بالحقيقة، والعلاقةُ المُسبَّبيّةُ. ومثلُهُ وصْفُ الآيةِ بمُبصِرَةٍ في قولهِ تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً﴾ [النّمل: 13]. وبعكسِهِ يوصَفُ الخَفاءُ بالعَمى كقوله: ﴿وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ﴾ [هود: 28][1].

نُكتةُ ذكْرِ ضميرِ الفصْلِ ﴿أَنَا﴾:

ضابطُ البَصيرةِ أن تكونَ موافِقةً لسنَّةِ رسولِ الله ﷺ

جاءَ ضميرُ الفصل ﴿أَنَا﴾ بعد جملةِ ﴿أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾ توكيدًا لفاعل ﴿أَدْعُوٓا۟﴾، فقد أُتي به لتحسينِ العطفِ، بقوله: ﴿وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾، وهو تحسينٌ واجِبٌ في اللّغة[2]؛ أي: أدعو إلى توحيد اللّه بهذه الملَّةِ، ويدعو إليه مَنِ اتّبعَني، وآمنَ بي، وصَدَّقَني. ويمكنُ أن يكونَ قد تمَّ الكلامُ عند قولِه تعالى: ﴿أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ﴾، ثمّ استأنفَ ﴿عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾؛ فيكون المعنى: أنا على بصيرةٍ وحُجّةٍ واضحةٍ، ومَنِ اتَّبعَني أيضًا على بصيرةٍ.

فائِدةُ التّعبيرِ بـ(مَنْ) دونَ الّذي:

أتباعُ النّبيِّ يلقُّهُمُ الزّمانُ كلُّهُ

﴿وَمَنِ﴾ في قولهِ تعالى: ﴿أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾ اسمٌ موصولٌ بمعنى الّذي، وعبّرَ به دونَ الّذي للنَّصِّ على العُموم؛ فيدخلُ كلُّ المُؤمنينَ المُتّبِعينَ في الزّمان كلِّه، ولو أتى بالّذي فقالَ: (والّذي اتّبعني)؛ لفُهِمَ أنَّ المرادَ واحدٌ، وفي الآية دلالةٌ على أنّ أصحابَ النَّبيِّ ﷺ والمُؤمِنينَ الّذين آمنوا به مَأمورونَ بأنْ يَدعوا إلى الإيمان بما يَستطيعونَ، بوسائلِ بثِّ القرآنِ، وأركانِ الإسلام، والجهادِ في سبيل اللّه. فهذه هي سبيلُ البصيرةِ الّتي ذكرَتها الآيةُ[3].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/64.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/64.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/64 - 65.

نُكتةُ إفرادِ الفاعل:

الاتِّباعُ المُتجرِّدُ للحقِّ مزيَّةُ أهلِ الحقِّ

في قولِه تعالى: ﴿أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِي﴾ أفرد الفاعلَ ﴿ٱتَّبَعَنِي﴾ دونَ أن يقولَ: (اتّبعوني)، وذلك لملاحظة تفرُّدِ كلِّ مُتَّبِعٍ للحقِّ في قضيّة الدّعوةِ، وأنّ كلَّ واحدٍ مَسؤولٌ عن نفسِه، وعن إصلاحِ عملِه، وهو مُكلَّفٌ بما أوتي من قدراتٍ وإمكاناتٍ أن يبذلَ ما يستطيعُ من جهدٍ وعملٍ وقولٍ في اتّباع هذه السّبيلِ داعيًا النّاسَ إليها، ناشطًا في الدّعوة إليها، فيدخلُ في مضمونِها كلُّ أحدٍ من شأنِه أن يكونَ مُتَّبِعًا بالاعتبارِ الانفراديِّ المُتجرِّدِ في متابعة النَّبيِّ ﷺ، دونَ مُتابعةِ أربابِ الفرقِ والنِّحلِ والملِ والمَذاهِبِ الّتي مِن شأنِها لَيُّ أعناقِ النّصوص، وطيُّ دلالاتِ الألفاظ.

نُكتةُ التَّعبيرِ بقوله: ﴿ٱتَّبَعَنِي﴾ دون (تبعني):

الاتِّباعُ في التّوحيدِ والدّعوةِ، وهو أشدُّ وألزمُ مِنَ التّبعِ في التَّوحيدِ

الفعلُ (اتّبع) على وزن (افْتَعَلَ)، وهي صيغةُ الفعل الثُّلاثيِّ المَزيدِ بحرفين، ويفيدُ الفعلُ بهذه الصّيغةِ مَعنيين: الأوَّلُ: المُطاوعَةُ، مثل: أشرَكتُه فاشتَرَكَ. والمعنى الثّاني: المُشاركةُ، مثل: اجتَمَعَ المُصلِحون. والقاعدةُ الأغلبيّةُ: (الزّيادةُ في المَبنَى تدلُّ على الزّيادةِ في المعنى)، تُعينُ على فَهمِ أنَّ الفعلَ ﴿ٱتَّبَعَنِي﴾ فيه زيادةُ معنًى، مِن بذل جهدٍ في التَّحقُّقِ من سبيل الاستقامةِ، والثّباتِ عليها، وليس في الفعل (تَبِعَني) تلك الزّيادةُ في المعنى الذي يفيد التَّكلُّف والاجتهادَ، ولذلك جاءَ ﴿ٱتَّبَعَنِي﴾ في سياق الدّعوةِ والثّباتِ، وأمّا (تَبِعَني) في قوله تعالى: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّي ۖ وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾﴾ [إبراهيم: 36]، فجاء في سياق التّوحيدِ عمومًا؛ أي: تَرَكَ الشِّركَ، بخلاف آية سورةِ يوسفَ، ففيها حثٌّ وحضٌّ على التّوحيد والدَّعوة.

معنى الواو في قوله تعالى: ﴿وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ﴾:

عُطِفَت جملةُ ﴿وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ﴾ على جملة ﴿أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾؛ أي:

أدعو إلى اللّه وأُنزِّهُهُ[1]، فإنَّ ذكرَ التَّنزيهِ بعدَ الدّعوة فيه تنبيهٌ على أنَّ كلَّ دعوةٍ إليه سبحانَه يجبُ أن تقترنَ بتنزيهِهِ سبحانَه عن كلِّ نقصٍ؛ فَأُثْبِتُ له من صفاتِ الكمالِ ما يَليقُ بجلالِهِ، وأُنَزِّهُهُ عمّا هو مُتعالٍ عنهُ. وفي تخصيص اللّه بذلك، عَقِبَ ما أثبَتَ الرّسولُ لنفسِه ولأتباعِهِ مُضمّنًا في لُجوئِه إلى سبيل اللّه تعالى، والرّكونِ إليها؛ تلويحٌ بنسبة النَّقصِ إليهم تَواضُعًا، واعتِذارًا عمّا يَلحقُهُم منَ الوَهَنِ، وطلبًا لِلعَفوِ عمّا يكونُ فيه من تقصيرٍ[2].

تَنزيهُ الله تعالى شرطٌ في قَبولِ الدَّعوةِ وركنٌ في نجاحِها

بَلاغةُ المجيءِ بالمصدرِ (سُبحان) بدلًا منَ الفعلِ:

جاءَ التّسبيحُ في قولِهِ تعالى: ﴿وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ﴾ مَصدرًا، ولم يأتِ فعلًا؛ وذلك للمبالغةِ والدّلالةِ على الثّبات. والتَّقديرُ: وأُسَبِّحُ اللّه سُبحانًا؛ أي: أدعو النّاسَ إلى توحيدِه وطاعتِه وتنزيهِه عنِ النَّقائصِ الّتي يمارسُها، ويدعو لها المُشركون من عبادة غيرِ اللّه أو سؤالِه، ودعوةِ أنّ له ولدًا، أو صاحِبةً[3]. والاسمُ أقوَى وأدلُّ على الثّبات منَ الفعل، فدلالةُ الفعل على التَّجدُّدِ والتَّغيُّرِ مع الزّمن على خلاف الاسْم، فالمُؤمِنُ في جميع الأحوال، يُسبِّحُ اللّه، وينزِّهُهُ عنِ الشَّريك أوِ النّقائصِ سبحانَه.

المصادرُ أقوَى في دلالاتِها، وأرسخُ في معانيها

دَلالةُ (ما) النّافيةِ:

(ما) النّافيةُ تنفي الجُملَ الاسميّةَ والفعليّةَ، فإذا دخلَت على الجُمل الاسميّةِ كان نفيُها للحال عندَ الإطلاق، وفي قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ نَفَى مُطلقَ الإشراكِ عن نفسِه.

فائدةُ تَقديمِ المُسنَدِ إليه المَنْفيِّ على المُسنَدِ:

في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ تقدَّمَ المُسندُ إليه، وهو

لا يكتملُ توحيدُ المؤمنِ ما لم يقترنْ بالتّبرئةِ منَ الشّركِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/65.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 4/105.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/65.

الضّميرُ المُنفصِلُ المَسبوقُ بالنَّفي على المُسنَد، فأفادَ تخصيصًا؛ إذ نفَى المُتكلِّمُ عن نفسِه أن يكونَ منَ المُشركين، وأثبتَ ذلك لغيرِه. ونكتةُ التَّخصيص بيانُ شيوعِ الشِّركِ في النّاس، وقلَّةِ الموحِّدينَ فيهم، ففيه بيانُ واقعِ المُتكلِّم، والتّبرُّؤُ ممّا سواه منَ المُشركين، وهذه فائدةُ التَّخصيص، وهي مُستفادةٌ منَ النّظمِ والسّياقِ.

نُكتةُ اختيارِ مُفردةِ الشّركِ دون الكُفرِ:

آثرَ النَّظمُ الكريمُ لفظَ الشّركِ في قولِه تعالى: ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ دونَ الكفرِ، فلم يقُلْ: (منَ الكافرين)؛ لبيانِ أخسِّ أنواعِ الكفرِ وأرْدَئِها، وهي أن يجعلَ العبدُ للّه ندًّا، أمّا الكفرُ فهو عامٌّ يدخلُ فيه الجحدُ والتّكذيبُ وغيرُهما، بالإضافة إلى أنَّ الشِّركَ هو المُنتشِرُ في جزيرة العربِ، والمُشركون يَزعمون انتسابَهُم إلى إبراهيمَ عليه السلام، فكان نفيُ الشِّركِ تبرئةً منَ الواقعِ الباطلِ الّذي نَزَلَ فيه القرآنُ، وهو أرسخُ في التّبرئةِ.

الشّركُ أخصُّ منَ الكفرِ، وهو المُنتشِرُ عند نزولِ القرآنِ

معنَى ﴿مِنَ﴾ في: ﴿مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾:

يمكنُ أن تكونَ ﴿مِنَ﴾ هنا ابتدائيّةً على معنى: أن يكون بدءُ أمري منهم، أو تبعيضيّةً على معنى: أن يكون بعضًا منهم.

فائِدةُ الجمْعِ دونَ الإفرادِ:

آثرَ النّظمُ الكريمُ في قولِه تعالى: ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ الجمعَ دون الإفرادِ، فقال: ﴿مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾؛ أي: في عداد مَن يُشرِكُ به شيئًا بوجهٍ منَ الوجوه. وأفادَ التّعبيرُ بالجمع شمولَ أنواع الشّركِ، ودرجاتِ المُشركين، ونفَى عن نفسِه أن يكونَ بينَهم أو أن يكونَ راضيًا عنهُم، كلامًا أو سكوتًا، أو أن يُعايشَهم، ويرضَى بأفكارِهم وعقائدِهم، أو أن يتغاضَى عن باطلِهم، فالنّفيُ في أن يكونَ في زمرتِهم لا أن يكونَ مُشركًا، فنبَّه بالأدنى على الأعلى، وهذا هو اللّائقُ بسيّدِ الخلْقِ ﷺ، وهو الأبلغُ بالنّفي.

مَن كَثَّرَ سوادَ المُشركين، أو رَضِي بهم، أو اطمأنَّ إليهم، فهو منهُم

بَلاغةُ التَّذْييلِ:

السَّيرُ في سبيلِ الدّعوةِ تنزيهٌ للنَّفسِ عن مُجتمَعِ الشِّركِ

وجملة ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ تعمُّ ما تضمَّنَتهُ الجملةُ قبلَها منَ المعنى وتُؤكِّدُه، فتكونُ بمَنزلةِ التّذييلِ لها، فالدّعوةُ إلى اللّه على بصيرةٍ هي دعوةُ التّوحيدِ للّه سبحانَه دون الإشراكِ في عبادته شيئًا، وقولُه: ﴿وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ﴾ مِصداقُ ذلك التّوحيدِ، ثمّ ختمَ بقوله: ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ مُختصِرًا ما ذَكَرَ سابقًا.

بَراعةُ تَرتيبِ الجُملِ:

التدرُّجُ في بيانِ المعاني وانسجامُها وارتباطُ بعضِها ببعضٍ

الخطابُ في قوله تعالى: ﴿قُلۡ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾؛ جاء بديعًا في ترتيبِه، ففي الجملةِ الأولى جاءَ الأمرُ بالانتسابِ للدّعوةِ والتّوحيدِ، وأنّ هذه السَّبيلَ هي دعوةُ النّاسِ إليه سبحانَه على بصيرةٍ وهِدايةٍ، ثمّ يأتي دورُ المُتَّبِعين للرّسول على الهدى، ليشملَ ذلك الأمّةَ المُؤمِنةَ كلَّها حتّى قيامِ السّاعةِ، ثمّ يَنفي عن نفسِه الإشراكَ باللّه تعالى، أو أن يكونَ من جماعة المُشركينَ، فمَنِ اختارَ الإيمانَ واتّباعَ النّبيِّ، فعليه أن يَتحرَّى سبيلَ الإيمان الصّحيح بعيدًا عنِ الشّركِ والمُشركين، والمقصودُ بهذا التّرتيب بيانُ مبدأ الدّعوةِ، فكونُها على بصيرةٍ، فبيانُ الأتّباعِ، فبيانُ الاحترازِ مِن مُخالَفتِها.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيّةُ:

البَصيرةُ والحُجّةُ:

البَصيرةُ؛ هي الحُجّةُ بعلمٍ، وما لا زيغَ فيها

البصيرةُ هي تكاملُ العلمِ والمَعرفةِ بالشَّيءِ، ولهذا لا يجوزُ أن يُسمَّى الباري تعالى بصيرةً؛ إذ لا يتكاملُ علمُ أحدٍ بعظمتِه وسلطانِه[1]. والحُجّةُ ما يَحتجُّ بها المُناظرُ؛ ليُثبتَ رأيَه، وقد تكونُ الحجّةُ باطلةً، أمّا البصيرةُ فهي الحجّةُ الواضحةُ، والبرهانُ القاطِعُ، ممّا لا بُطلانَ فيه ولا زيغَ.

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 102.

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِم مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰٓۗ أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۗ وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ١٠٩﴾ [يوسف: 109]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

نَتيجةُ مُخالفةِ سَبيلِ التّوحيدِ الوقوعُ في التّعذيبِ

بعد أن بيَّنَ في الآية السّابقةِ سبيلَ الرّشدِ الّتي يرضاها اللّه تعالى لعبادِه المُؤمنين، وأمرَ رسولَه بالدّعوة إليها هو ومَن اتّبعَهُ، ناسبَ أن يذكرَ هنا الرّسالاتِ السّابقةَ والرّسلَ الّذين جاؤوا بها من عند اللّه، وأوحى إليهم، فلمّا أعرضَ النّاسُ عنهم أصابَهُم من عذاب اللّه ما أصابَهُم، وما زالَت آثارُهم وديارُهم شاهِدةً على ذلك.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿عَٰقِبَةُ﴾: جَذرُ الكلمة هو (عقب)؛ ويُجمَعُ أعقابَ الأمور. وعاقِبَةُ كلِّ شيءٍ: آخرُه. وعَقِبُ الرَّجُل: ولَدُه وولَدُ ولَدِه الباقونَ من بَعدِه، وقولُهم: لا عَقِبَ له: أي لم يبقَ له ولَدٌ ذَكَرٌ. والتَّعقيبُ: انصِرافُكَ راجِعًا من أمرٍ أرَدتَه أو وجهٍ. والمُعَقِّبُ: الّذي يتتبَّعُ عَقِبَ إنسانٍ في طلب حَقٍّ أو نحوِه[1]. وقولُه ﷻ: ﴿وَلَمۡ يُعَقِّبۡۚ﴾ [النّمل: 10]؛ أي: لم يَنْتظِرْ، وقولُه: ﴿لَا مُعَقِّبَ لِحُكۡمِهِۦۚ﴾ [الرّعد: 41]؛ أي: لا رادَّ لقضائِه، ومنهُ قولُهُ تعالى: ﴿هُوَ خَيۡرٞ ثَوَابٗا وَخَيۡرٌ عُقۡبٗا ٤٤﴾ [الكهف: 44]. والعِقابُ: العُقوبَةُ، وعاقَبَهُ بذنبِهِ. والعُقبَى: جزاءُ الأُمور. ومنهُ قولُهُ تعالى: ﴿فَأَعۡقَبَهُمۡ نِفَاقٗا﴾ [التّوبة: 77]؛ أي: أورَثَهُم بُخلُهُم نِفاقًا. وأعقبَهُمُ اللّه؛ أي: جازاهُم بالنِّفاقِ. وتَعَقَّبَهُ: عاقَبَهُ بذَنبِهِ[2]. وفي الآيةِ العاقبةُ؛ أي: الخاتِمةُ الّتي انتهى إليها أمرُهُم من عذابِ اللّه وسخطِهِ.

(1) الخليل، العين: (عقب).
(2) الرّازيّ، مختار الصّحاح: (عقب).

❁ المَعْنى الإجْماليّ:

سُنَنُ اللهِ لا تتبدّلُ، وإرسالُ الرّسلِ سُنّةٌ لا تتحوَّلُ

بيَّنتِ الآيةُ سنَّةَ إرسالِ الرّسلِ في الأقوامِ السّابقين، مُبيّنًا سبحانَه أنّه لم يُرسلْ رسولًا إلى البشر إلّا منَ البشر أنفسِهم، ومِن مُجتمعاتِهم الّتي يَعيشونَ فيها، ثمّ إنّ إرسالَ الرُّسلِ ﷺ سنّةٌ إلهيّةٌ قديمةٌ، فلماذا يَجعَلُ المُشركون نبوءَتكَ أمرًا مُستحيلًا، فلا يُصدِّقونَ بها؟! وهل كان الرُّسُلُ السّابقونَ ﷺ إلّا رجالًا من أهل القرى أوحى اللّه إليهم، فَسَلَّمَ المُشركون ببعثتِهم، وتَحدَّثوا بقِصصِهم[1]، ثمَّ إنّ هؤلاء يُنكرونَ نبوءَتَك. ثمّ لفتَ نظرَهُم إلى سُنّة اللّه في المُكذِّبين تهديدًا لهم، فلو ساروا في الأرض لوجدوا الآياتِ على ما حلَّ بالمُكذِّبين لرسلِهم، ثمّ أردفَ التّرهيبَ بالتّرغيب على نهج القرآنِ في ذلك، فبيَّنَ أنّ الدّارَ الآخرةَ هي خيرٌ وأبقى، وعلى أصحاب العقولِ أن يَعلموا ويتَّعظوا[2].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيّ:

معنَى الواوِ ودلالتُها:

الرُّسلُ رجالٌ اصْطفاهُمُ اللهُ تعالى لإصلاحِ الخلْقِ بسُنَنِ الحقِّ

(الواو) في قولِه تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا﴾ واوُ الاستئناف؛ إذ وقعَت بعدَها جملةٌ ابتدأت خبرًا جديدًا، فبعد أن بيّنَ في آياتٍ سابقةٍ حالَ النّاس، وأنّ أكثرَهُم لا يؤمنون بما أودعَ اللّه في هذا الكون من آياتٍ دالَّةٍ على قُدرتِه سُبحانَه، ثمَّ بيّنَ اللّه سُبحانَه سبيلَ الرُّسلِ والمُؤمنين؛ استأنفَ هنا ليُبيّنَ طبيعةَ الرُّسلِ وخلْقَهم، وأنّهم رجالٌ بشرٌ من أهل القرى الّتي أُرسِلوا إليها، وأنَّ ما جرى لهم ومعهم، إنَّما هو ضمْنَ سُننٍ لا تتبدَّلُ ولا تتغيَّرُ.

غرَضُ القصْرِ ونوعُه:

لا يُرسلُ اللهُ تعالى إلّا بشرًا رجالًا

القصْرُ في قولِه تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا﴾ قصرُ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/65.
(2) الموصليّ، أولى ما قيل: 4/342.

صفةٍ على موصوفٍ، حيث قصرَ صفةَ الإرسالِ على الرّجالِ، وهو قصرٌ إضافيٌّ[1]؛ أي: لم يكنِ الرُّسلُ عليهم السلام قبلَك ملائكةً أو ملوكًا أو خلْقًا مُختلِفًا عنِ البشر، فقوله تعالى: ﴿إِلَّا رِجَالًا﴾؛ أي: مِثلكَ في البشريَّة، فيكونُ ﴿إِلَّا رِجَالًا﴾ حَصَرَ في الرُّسل الدّعاةَ إلى الله، وهو قصرُ قلبٍ لِما اعتقدَهُ العربُ من إنزال الملائكةِ رُسلًا لِلبشر، ففيه ردٌّ على مَن قال: ﴿لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً﴾ [فصلت: 14]. وحملَهُ بعضُ المُفسِّرينَ على قصرِ الإرسالِ على الرّجالِ دونَ النّساء، فيكونُ قصرَ إفرادٍ، قال ابنُ عبّاس: يعني رجالًا لا نساءً، فالرَّسولُ لا يكونُ امرأةً[2].

سِرُّ اخْتيارِ الإرسالِ دونَ البعثِ:

الإرسالُ ملحوظٌ في الانْتِظامِ والبعثِ، مَلحوظٌ فيه الانتشارُ

اختيرَ لفظُ الإرسالِ في قولِه تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا﴾ دونَ (البعث)، وذلك للتّنبيه على غاية الإرسالِ، وهي هِدايةُ الخلقِ بالوحي، أمّا البعثُ فيغلِبُ عليه معنَى الإثارةِ والانتشارِ، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا﴾ [النحل: 36]، أي: بُعثوا في كلِّ الأممِ، وهذا يدلُّ على الانتشار، كما أنَّ في الإرسال سلاسةً وانتظامًا، وهو الملحوظُ في الآية، فإنَّ سنّةَ الله قضَت أن يكونَ الإرسالُ للبشرِ الرّجالِ.

بَلاغةُ إسْنادِ فعْلِ الإرسالِ إلى ضميرِ العظَمةِ:

عظمةُ الرّسولِ تأتي من عظيمِ اصطفاءِ الله له

أُسنِدَ فعلُ الإرسال في قولِه تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا﴾ إلى ضمير العظمةِ؛ لتعظيم أمرِ الإرسالِ، وأنَّه صادرٌ عنِ الله تعالى بحكمةٍ وعنايةٍ، وأنّه مُتّصِلٌ بالله سبحانَه، فهو المُرسِلُ بجلالِه وعظيمِ قدرِه، والإرسالُ لا يكونُ إلّا بعدَ الانتقاءِ من بين عموم الرّجالِ،

(1) القصرُ الإضافيُّ: هو أن يختصَّ المقصور عليه بحسب الإضافةِ والنّسبةِ إلى شيءٍ آخر مُعَيّن، لا لجميع ما عداه. نحو: ما عليٌّ إلّا مُسافِرٌ، فإنّك تقصدُ قصرَ السَّفرِ على عليّ بالنّسبة إلى شخصٍ غيرِه، كمحمّد مثلًا، وليس قصدُكَ أنّه لا يوجدُ مُسافِرٌ سواهُ، إذِ الواقعُ يَشهَدُ ببطلانِه. يُنظر: الهاشميّ، جواهر البلاغة، ص: 164.

(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/345.

اختارَ منهُم، واصطفى رجالًا، يكونون أهلًا لهذه المكانة العظيمةِ في تلقّي الوحيِ من عند اللّه واستلهامِ الرّسالةِ منه سبحانَه.

معنَى حرفِ ﴿مِن﴾ ودلالتُه:

في قولِه تعالى: ﴿مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا﴾؛ فإنّ ﴿مِن قَبْلِكَ﴾ يتعلَّقُ بـ ﴿أَرْسَلْنَا﴾، و(مِنْ) لابتداء الأزمنةِ؛ أي: من أوّلِ أزمنةِ الإرسالِ. فأوّلُ رسولٍ أُرسِلَ إلى الأقوام كان رجلًا من أهلِ القرى، ونوحٌ عليه السلام هو أوّلُ الرّسل بحسب ما ذكرَهُ القرآنُ، واستمرّ النّهجُ نفسُه، إلى أن تمّ إرسالُك إلى قومِك، ولولا وجودُ ﴿مِن﴾ لكانَ ﴿قَبْلِكَ﴾ في معنى الصّفة للمُرسَلين المَدلولِ عليهم بفعلِ الإرسالِ[1].

إرسالُ الرُّسلِ بدأ منذُ الزَّمانِ الأوّلِ، وليس بِدَعًا في هذا الزَّمانِ

فائِدةُ اختيار لفظِ الرّجالِ دون الرُّسلِ:

في قولِه تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا﴾، فيه ردٌّ ضمنيٌّ على طلب إرسالِ الملائكةِ؛ أي: ﴿إِلَّا رِجَالًا﴾ لا ملائكةً؛ لأنَّهم كانوا يقولون: ﴿لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً﴾ [فصّلت: 14][2]، والرِّجالُ: اسمُ جنسٍ جامدٌ؛ أُطلِقَ هنا مُرادًا به أناسٌ ذُكورٌ؛ واختيرَ ﴿رِجَالًا﴾ هنا دون غيرِه لِمطابقتِه الواقعَ؛ فإنّ اللّه لم يُرسِلْ رُسلًا منَ النّساء لحكمةِ قَبولِ قيادتِهم في نفوس الأقوام؛ إذِ المرأةُ مُستضعَفةٌ عندَ الرِّجال دونَ العَكسِ[3]. فضْلًا عن أنّ لفظةَ الرّجولةِ في القرآن تأتي في سياقِ القوّةِ والفاعليّةِ والجَلَدِ.

الرَّدُّ على القائِلينَ بضرورةِ إرسالِ الملائكةِ دونَ البشرِ

نُكتةُ تَنكيرِ ﴿رِجَالًا﴾:

أفادَ التّنكيرُ هنا معانيَ التّعظيمِ والتّفخيمِ لشأنِ الرُّسلِ.

بَلاغةُ مجيءِ الإيحاءِ فعلًا مضارعًا:

في قولِه: ﴿إِلَّا رِجَالًا نُّوحِيٓ إِلَيْهِم﴾ حكايةُ الحال الماضيةِ؛ لأنّه

الإيماءُ إلى أنَّ الرّسالاتِ مُستمرَّةٌ في الرُّسلِ لا انقطاعَ لها

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/67.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/480.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/67.

مضارعٌ بمعنى الماضي[1]. وجملةُ قوله: ﴿نُّوحِيٓ إِلَيۡهِم﴾ صفةٌ أولى لـ ﴿رِجَالٗا﴾؛ أي: نوحي إليهم كما نوحي إليكَ. وقد أفاد المضارعُ هنا استمرارَ نزولِ الوحي على الرّسلِ حتّى أوحي إليكَ، كما أوحي إليهم. وقولُه: ﴿مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰٓۗ﴾ صفةٌ ثانيةٌ له، وكأنَّ تقديمَ هذه الصّفةِ على ما قبلَها أكثرُ استعمالًا؛ لأنّها أقربُ إلى المُفرد، فهو إيحاءٌ مُستمرٌّ من أوّلِ رسولٍ إلى أن بلغَكَ الوحيُ، وهذا يدلُّ على وحدة الرّسالةِ، لوحدة الإيحاءِ والموحي ﷻ. فضلًا عن أنّ التّعبيرَ بالفعلِ المضارعِ عن أمرٍ قد تمّ وانتهى إنّما يفيد استحضارَ الصّورةِ أمام القارئ الكريم، كقوله تعالى في شأن معركةِ بدر: ﴿إِذۡ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمۡ فَثَبِّتُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ سَأُلۡقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعۡبَ فَٱضۡرِبُواْ فَوۡقَ ٱلۡأَعۡنَاقِ وَٱضۡرِبُواْ مِنۡهُمۡ كُلَّ بَنَانٖ ١٢﴾ [الأنفال: 12].

نُكتةُ ذكْرِ الإيحاءِ مع اشتمالِ الإرسالِ له:

إكرامُ اللهِ للرُّسل بالإرسال ابتداءً، وبالإيحاءِ استمرارًا

ذُكِرَ الإيحاءُ في قولهِ تعالى: ﴿نُّوحِيٓ إِلَيۡهِم﴾، والإرسالُ مُتضمِّنٌ له، وذلك للتّفصيل بعد الإجمالِ، ولبيان أنَّ الإرسالَ كان بوساطة الوحيِ، فتأتيهم الرّسالةُ من عند الله بوساطة جبريلَ المُكلَّفِ بالإيحاء بالرّسالات إلى الأنبياء ﷺ، فيكونُ الإيحاءُ في حياة الرّسول مُستمرًّا إلى نهاية حياتهِ؛ لِتكتَملَ الرّسالةُ، وتَنطلِقَ الدّعوةُ بعد أن هُدي كلُّ رسولٍ سبيلَه: ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدۡ هَدَىٰنَا سُبُلَنَاۚ﴾ [إبراهيم: 12]. وفيه مزيدُ تشريفٍ للرُّسل الكرامِ بأنَّ الله أكرمَهُم ابتداءً بالإرسال، ثمّ أكرمَهُم باستمرار الوحيِ فيهم.

بَلاغةُ توجيهِ القراءاتِ القرآنيّةِ:

القراءاتُ اعتنَت بالإيحاءِ والموحي لاستكمالِ عظيمِ شأنِ الوحيِ

في قولهِ تعالى: ﴿نُّوحِيٓ إِلَيۡهِم﴾، قَرَأ حَفص ﴿نُّوحِيٓ﴾ بالنّونِ وكسر الحاءِ، وقَرَأ الباقونَ ﴿يُوحَىٰٓ﴾ بالياءِ وفتح الحاءِ[2]، "فمَن قرأ

(1) الهرريّ، حدائق الرَّوح والرَّيحان: 14/152.
(2) ابن الجزريّ، النّشر: 2/296.

بكسر الحاءِ، فالمعنى: كذلك يوحي اللّه إليك. ومَن قَرَأ: ﴿يُوحَىٰ﴾ فمعناه التّكريرُ، كأنّه قال: كذلك يوحَى إليك، وأُضمِرَ: يوحيه اللّه إليك، وكلٌّ جائزٌ"[1]. والفرقُ بين القراءتين هو صيغةُ البناءِ للفاعل في قراءة حفصٍ، وللمفعولِ في قراءة الجمهورِ. وفائدةُ صيغةِ البناءِ للمفعول في قراءة ﴿يُوحَىٰ﴾ هي العنايةُ بالوحي، والاحتفاءُ بهِ باعتبارِهِ أصلَ الرّسالةِ والإرسالِ الّذي يختلفُ عليه القومُ، على اعتبار أنّ الموحي معروفٌ.

وأمّا البناء للفاعل في قولهِ تعالى: ﴿نُّوحِيٓ﴾ فيجعلُ المعنى أقوَى في بيان مصدرِ الإيحاءِ، وهو المُتكلِّمُ، وهو اللّه ﷻ، فيظهرُ مع الإيحاء جانبُ العظمةِ والقدرةِ على إتمام أمر الرّسالةِ مَنوطًا ذلك بمشيئتِهِ سبحانَه. وفي هذا الخطاب للنّبيِّ دعوةٌ للتَّمسُّكِ بذلك الوحيِ؛ قال تعالى: ﴿فَٱسۡتَمۡسِكۡ بِٱلَّذِيٓ أُوحِيَ إِلَيۡكَۖ﴾ [الزّخرف: 43].

معنَى حرفِ (إلى) ودلالتُه:

قال سيبَويه: وأمّا (إلى) فمنتهى ابتداءِ الغايةِ، تقول: مِن كذا إلى كذا[2]. وجاء في (المُقتضَب): "وأمّا (إلى) فإنَّما هي للمُنتَهى؛ ألا ترى أنَّك تقول: ذهبتُ إلى زيدٍ، وسرتُ إلى عبد اللّه، ووكلتُكَ إلى اللّه"[3]، كما قال تعالى: ﴿وَٱلۡأَمۡرُ إِلَيۡكِ﴾ [النّمل: 33]؛ أي: مُنتَهٍ إليكِ. فالمعنى في قوله تعالى: ﴿نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡ﴾؛ أنّه قد انتهى الوحيُ إليهم؛ أي: إلى الرُّسل، كما انتهى الوحيُ إليك، وفيه إيماءٌ إلى تشريف مَن قُصِد بأن يكونَ مُنتهى الوحي وغايتَهُ.

تَشريفُ مَن قُصِدَ أن يكونَ مُنتهى الوَحي وغايتَهُ

بَلاغةُ الصّفةِ الثّانيةِ:

ذُكِرَت في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِم

الرُّسلُ ليسوا رجالًا فحسب، بل من أهلِ القُرَى المَدعوَّةِ

(1) الأزهريّ، معاني القراءات: 2/52.
(2) سيبويه، الكتاب: 2/310.
(3) المبرّد، المُقتضب: 4/139.

﴿مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ﴾ صفتان؛ صفةُ المُرسَلين الأولى: وهي أنّهم يوحَى إليهم، وصفتُهم الثّانية: أنّهم مِن أهل القُرى، فهُم رجالٌ يوحَى إليهم منَ القُرى نفسِها الّتي أراد اللّه تعالى لهم الخيريّةَ في إرسال الرّسولِ إليهم. ومَوضِعُ الصّفةِ الثّانيةِ تأكيدُ أنَّهم ليسوا رجالًا فحسب، بل هُم من أهل قُرى المدعوّين، فيكونُ الرّسولُ منهم؛ أي: مِن قريتِهم ليخاطبَهُم بلغتِهم، وتكون أساليبُ دَعوتِه مُنسجِمةً مع ما يكونُ له الأثرُ الأكبرُ في إقناعِهم، فتكون دعوتُه مُتَّصِفةً بالحكمة والمَوعظة الحسنةِ.

نُكتةُ التّعبير بالقُرى دونَ المُدُنِ:

قولهُ تعالى: ﴿مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ﴾: يُقالُ للمدينةِ: قَريةٌ؛ لاجتماع النّاسِ فيها، من قَرَيتُ الماءَ إذا جَمَعتُهُ[1]. وأهلُ القُرى هم أقوامُ الأنبياءِ والرُّسُلِ فآمنَ بعضُهُم، ولم يؤمنْ أكثرُهُم بما جاءهم به أنبياؤُهُم ورسلُهُم من دلائلَ وبيّناتٍ، وسياقُ السّورة دالٌّ على ذلك، فمعنى الآيةِ هو أخذُ العِبرةِ من تلك الأقوامِ، والاستجابةُ لرسول اللّه ﷺ. وقد ذهبَ بعضُ المُفسِّرين إلى اختصاص الإرسالِ بالقُرى، قال الحسن: لم يُبعَثْ نبيٌّ من بَدْوٍ ولا منَ الجنِّ ولا منَ النّساء[2]. والصّحيحُ أنْ لا دلالةَ في الآية على نفيِ إرسالِ رسولٍ من أهل الباديةِ[3]، فليسَ المُرادُ بالقُرى الأمصارَ والحواضرَ المُستقرّةَ في علم الاجتماع البشريِّ، بلِ اجتماعُ النّاسِ مُطلَقًا، وعليه قد يجتمعُ في البادية عددٌ أكثرُ ممّا يجتمعُ في القُرى الّتي هي بمعنى المدنِ والأمصارِ، فالعِبرَةُ باجتماع النّاسِ في مكانٍ بقطع النّظرِ عن وصْفِه، وهذا يَنطبقُ على المُدنِ والقُرى والباديةِ. وهذه نكتةُ التّعبيرِ

القُرى يدخُلُ فيها أهلُ الأمصارِ والبوادي، فالعِبرةُ بالاجتماع لا بالاصطلاح

(1) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 7/253.
(2) الهرريّ، حدائق الرَّوح والرَّيحان: 14/137.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/67.

بالقُرى دونَ المدنِ؛ ليدلَّ على الاجتماعِ لا على الاصطلاحِ؛ أي: اجتماعِ النّاسِ في المدينة أوِ القريةِ أوِ الباديةِ، لا اصطلاحِ القُرى بمعنى المدنِ.

بَراعةُ اجتماعِ الزّمان والمكانِ، ودلالتُهما على العُمومِ:

مِن بديعِ الموافقةِ مصطلحُ (أمُّ القُرى) الشّاملُ للسّابقِ والحاضرِ

ذكرَ النَّظْمُ الكريمُ الزّمانَ ﴿مِن قَبْلِكَ﴾ والمكانَ ﴿مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ﴾ لبيان الشّمولِ، فالزّمانُ السّابقُ لرسول الله ﷺ، فلمّا بُعِثَ رسولُ الله مُحمّدٌ ﷺ كان هو خاتمَهُم وكان المكانُ شاملًا لكلِّ القُرى الّتي بُعِثَ فيها الرُّسلُ سابقًا، فلمّا بُعِثَ ﷺ كان هو خاتمَهُم بالمكان الخاتم كذلك، فخُتِمَ الإرسالُ بأفضل رسولٍ، وبأفضل مكانٍ، والزّمانُ والمكان يشملان أزمنةَ الأنبياء والرّسلِ السّابقين والقُرى والبقاع الّتي بُعِثُوا فيها، فلمّا بُعِثَ رسولُ الله مُحمّدٌ ﷺ كان خاتمَهُم زمانًا ومكانًا وفضلًا. وحَسُنتِ الموافقةُ بين قولهِ تعالى: ﴿مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ﴾ الشّاملِ لكلِّ القُرى السّابقةِ، مع قولهِ تعالى: ﴿وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ [الأنعام: 92] الشّاملِ لمكّةَ وما حولَها، فكانَت رسالتُهُ قد شملَتِ النّاسَ جميعًا في المكان والزّمان، وهذا مِن بديع الموافقةِ الإشاريّةِ.

سِرُّ ذكْرِ ﴿أَهْلِ﴾ دونَ الاكتفاءِ بالقُرَى:

تأكيدُ أنَّ الرّسلَ من أهلِهم، ودفعُ أوهامِ إرسالِ الملائكةِ

الخطابُ يكونُ دومًا لأهل القُرى أو عنهم، وقد وردَ مثلُ هذا الخطابِ في أكثرَ من مَوضِعٍ في القرآن الكريم على المَجاز؛ كقوله تعالى: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ [يوسف: 82] دون أن يذكُرَ (أهل)، والمرادُ (أهل القريةِ). وجاءَ الخطابُ هنا على الحقيقة دونَ المَجاز، فقال: ﴿مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ﴾؛ لإرادة الحقيقةِ نفسِها دون توسعةِ الخطابِ إلى أبعدَ مِن ذلك، فقولُ الله: ﴿مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ﴾؛ لاقتضاء المَقام، فالحديثُ عنِ الرّجال الّذين اختارَهُمُ الله من أهل تلك القرى؛ فاصطفى من أهل كلِّ قريةٍ رجلًا رسولًا منهم، أوحى الله إليه بالرّسالة؛ ليُنذرَ أهلَ قريتِه. فذَكَرَ الأهلَ لذكرِهِ رجالًا قبلَها، ولتأكيدِ ردِّ شُبهةِ إرسالِ

الملائكةِ، بينما لمّا كان الكلامُ على الرّسالةِ نفسِها ذَكَرَ ﴿ٱلۡقُرَىٰ﴾ دونَ (الأهل)، قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلۡقُرَىٰ وَمَنۡ حَوۡلَهَا﴾ [الشّورى: 7]. وهذا من قبيل التّشابهِ اللّفظيِّ بين الآيتَين.

فائِدةُ الجمعِ والتّعريفِ:

اتّساقُ الصّيغِ مع السّياقِ والألفاظِ

جَمعُ القُرى وتعريفُها يُناسبُ جمعَ الرّجالِ المُرسَلين، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِم مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰٓۗ﴾ شاملًا بذلك جميعَ المُرسَلين وكلَّ القُرى. وأفادَ تعريفُ القُرى دلالةَ الكَثرةِ، وشمولَ القُرى الّتي أُرسِلَ إليها قبْل رسالةِ محمّد ﷺ.

غرَضُ الاستفهامِ:

الاستفهامُ للتّوبيخِ والتّقريعِ والإنكارِ

جاءَ الاستفهامُ في قولِه تعالى: ﴿أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾؛ للتّوبيخ والتّقريع الإنكاريِّ[1]، فمجموعُ المُتحدَّثِ عنهُم قد ساروا في الأرضِ، فَرَأوا عاقبةَ المُكذِّبين، مثل قومِ نوحٍ وعادٍ وثَمودَ[2]، ولكنَّهم لم يَعتبروا ولم يَنزجِروا عن غيِّهم، فاستحقّوا هذا التّوبيخَ والتّقريعَ.

معنَى الفاءِ وتعيينُ المعطوفِ عليه:

تَنزيلُ العالِمِ السّائرِ في الأرضِ مَنزِلةَ الجاهلِ القاعدِ في بلدِهِ

الهمزةُ في قولِه تعالى: ﴿أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ داخلةٌ على محذوفٍ، والفاءُ عاطفةٌ على ذلك المحذوفِ[3]؛ والتّقديرُ: أقَعَدوا فلم يسيروا في الأرض، وهي لتفريع قولِه: ﴿أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ على ما دلَّت عليه جملةُ ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا﴾ منَ الأُسوةِ؛ وهذا التَّفريعُ اعتراضٌ بالوعيد والتَّهديد[4]. والمعنى: كذّبَهُم أقوامُهُم من قبل قومِك مثلَما كذّبَك قومُكَ، أفلم يَسِرْ هؤلاء المُشركون من أهل مكّةَ ممَّن يكذّبونَك ويجحدونَ نبوَّتَك، ويُنكرون ما جئتَهُم به من

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/346، والهرريّ، حدائق الرَّوح والرَّيحان: 14/137، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/68.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/67.

(3) الهرريّ، حدائق الرَّوح والرَّيحان: 14/137.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/68.

توحيدِ اللّه، وإخلاصِ العبادةِ له[1]، فينظروا كيف كانَ عاقبةُ الأقوام السّابقين؟! أي: فينظروا آثارَ آخرِ أحوالِهم منَ الهلاك والعذاب، فيعلموا أنّ عاقبتَهُم مثلُ عاقبة الّذين كذّبوا الرُّسلَ قبلَهم.

نُكتةُ التَّعبيرِ بالمضارع المَنْفيِّ:

تَصويرُ السَّيرِ في الأرض بدون اعتبارٍ كالمرور على الآياتِ باغترارٍ

دلَّ المضارعُ المَنْفيُّ بعد الاستفهام الإنكاريِّ في قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ على أنَّهم قد ساروا في الأرض، ورأوا آثارَ الأقوام الّذين كذّبوا رسلَهُم كعادٍ وثمودَ، فدلَّ على روايةِ حدثٍ قد مضى، فأفادَ تصويرَ السّير؛ أي: أنّهم ساروا في الأرض ورأوا، لكنّها لم تكنْ رؤيةَ الاعتبار، وفيها إيماءٌ إلى أنَّ السّيرَ يجبُ أن يَقترنَ بالعِبرةِ ممّا يُشاهَدُ.

وفيها ربطٌ بقولِه تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا﴾؛ أي: يمرّون دونَ اعتبارٍ، كما أنّ السّيرَ هنا دون اعتبارٍ، فاتَّفقَ لهم انعدامُ العِبرةِ في العقول، في الآيات المَمرورِ بها في السّماوات والأرضِ، والسّيرُ في رؤية عاقبةِ المُكذِّبين.

معنَى حرفِ الظَّرفيّةِ ودلالتُه:

آثارُ الأقوامِ المُكذِّبةِ مَبثوثةٌ في الأرض، فمَن سارَ اعتبرَ

الضّميرُ في قولِه تعالى: ﴿يَسِيرُواْ﴾ عائدٌ على مَن أنكرَ إرسالَ الرُّسلِ منَ البشر، ومَن عانَدَ الرَّسولَ، وأنكرَ رسالتَهُ كَفَرَ؛ والمعنى: هلّا يَسيرون في الأرض فَيَعلمونَ بالتَّواتُر أخبارَ الرُّسلِ السّابقةِ، ويَرونَ مَصارعَ الأممِ المُكذِّبَةِ، فَيَعتَبرونَ بذلك؟[2]، فيكون حرفُ ﴿فِي﴾ للظّرفيّة المكانيّة، وفيه إيماءٌ إلى أنَّ المُخاطَبين والأممَ السّابقةَ جميعًا في وعاءٍ واحدٍ وهو الأرضُ، فما بالُكُم لا تتَّعظونَ ولا تُؤمنون؟! وكذلك أفادَ هذا الحرفُ الدّلالةَ على معنى التَّوغُّلِ والانتشارِ؛ فمَن تحرَّكَ في الأرض باحثًا عن آثار تلك الأممِ وجدَها مَبثوثةً في أماكنَ كثيرةٍ.

(1) الهرريّ، حدائق الرَّوح والرَّيحان: 14/137.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/346.

معنَى حرفِ الفاءِ ودلالتُه:

الفاءُ في قوله تعالى: ﴿فَيَنظُرُواْ﴾ أفادتِ التَّرتيبَ والتَّعقيبَ والتَّسبُّبَ؛ إذِ النَّظرُ مُتسبِّبٌ عنِ السَّير، والفاءُ تضمُّ الشَّيءَ إلى الشَّيء، وتجعلُ ذلك مُتَّسِقًا بعضَه في إثر بعضٍ[1]، والنَّظرُ المقصودُ منه أخذُ العِبرِ لا يكونُ على الحقيقة إلّا بعدَ السَّير، وهو مقصودُ السّير وغايتُه.

النَّظرُ ثمرةُ السَّيرِ في الأرض وفائدتُه

سِرُّ التَّعبيرِ بالنَّظرِ:

آثرَ النَّظمُ الكريمُ التَّعبيرَ بالنَّظرِ في قوله تعالى: ﴿فَيَنظُرُواْ﴾؛ ليدلَّ على التَّفكُّرِ بمَصائرِ الأقوامِ الغابرةِ الّتي عصَت رسلَها، كيف حلَّ بها من عظيم غضبِ اللّه عليها، وخُصَّ النّظرُ بالذِّكر دونَ ذكر الاعتبارِ أوِ الاتّعاظِ؛ لأنّ ما بقي من آثار الأقوامِ لا يُعرَفُ إلّا بالنّظر، فتُرصدُ مَشاهدُ كثيرةٌ، وتُستحدَثُ في الخيالِ حركةُ حياتِهم في مَساكنِهم وأسواقِهم، قبل أن يُصيبَهُم ما أصابَهم منَ العذاب؛ قال تعالى: ﴿فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًاۖ﴾ [القصص: 58].

وأصلُ النّظرِ المُقابلَةُ، فالنَّظرُ بالبصر الإقبالُ نحوَ المُبصِرِ، والنَّظَرُ بالقلبِ الإقبالُ بالفكر نَحو المُفكَّرِ فيه، ويكونُ النّظرُ باللّمس ليُعرَفَ اللّيّنُ منَ الخشنِ، والنَّظَرُ منَ المَلكِ لِرعيّتِه هوَ إقبالُه نحوَهُم بِحسنِ السّياسةِ، والنَّظَرُ في الكتابِ بالعينِ والفكرِ هو الإقبالُ نَحوَه بهما[2]، ففي هذا اللّفظِ إيماءٌ إلى ضرورة الإقبالِ على تلك الآثارِ للاعتبارِ لا لتضييعِ الأوقاتِ بالهوى والاغترارِ.

النّظرُ هو إقبالٌ على الآثارِ للاعتبارِ لا لتَضْييعِ الوقتِ بالاغترارِ

نُكتةُ استعمالِ ﴿كَيْفَ﴾:

﴿كَيْفَ﴾ هي للسّؤال عنِ الحال، قال سيبَويه: "وكيفَ على أيّ حال"[3]. وتُعربُ في قوله تعالى: ﴿كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ﴾ خبرًا للفعل

التَّفكُّرُ بأحوالِ الأممِ الغابرةِ من خلالِ الآثارِ الهالكةِ

(1) سيبويه، الكتاب: 2/304.
(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 74.
(3) سيبويه، الكتاب: 2/311.

النّاسخ ﴿كَانَ﴾. وفي هذه الآية دعوةٌ للتَّفكُّرِ من خلالِ آثارِهم الماحقةِ، وإمعانِ النَّظرِ فيما جرى لهم، وأخذِ العِبَرِ والعظاتِ، لا التَّغنّي بالأمجاد السّالفةِ من خلال الآثار الهامدةِ.

فائِدةُ ذكرِ ﴿كَانَ﴾ ودلالتُها:

العاقبةُ سُنَّةٌ مُتحقِّقةٌ في جميعِ الأممِ المُكذِّبةِ

دلَّ ذكرُ ﴿كَانَ﴾ في قوله تعالى: ﴿كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ﴾ على الحصول المُطلَقِ، وخبرُه يدلُّ على الكونِ المخصوصِ، و﴿كَيْفَ﴾ هو خبرُ كان، فلا يفيدُ استفهامًا؛ بل هي لَفْتُ نظرٍ إلى حقيقةِ الكيفيّةِ المُؤلمةِ؛ أي: العاقبةِ العجيبةِ الّتي كانَت، فخبرُ ﴿كَانَ﴾ هي (كيفيّةُ العاقبة وعجيبُ حصولها) أو هولُ حصولها، فجيءَ أوّلًا بلفظٍ دالٍّ على حصولٍ ما، ثمّ عيَّنَ بالخبر ذلكَ الحاصلَ، فكأنّك قلت: حصلَ شيءٌ، ثمَّ قلتَ: حصلتِ العاقبةُ، فالفائدةُ في إيراد مُطلَقِ الحصولِ أوّلًا، ثمَّ تخصيصِه، مع فائدةٍ أخرى هي دلالتُه على تعيين زمانِ ذلك الحصول المقيَّدِ. لكنّ دلالةَ (كان) على الحدث المُطلَق، أي: (الكون)؛ وضعيّةٌ، ودلالةَ الخبر على الزّمان المُطلَقِ عقليّةٌ[1]، ففائدةُ ذكرِ (كان) التَّنبيهُ على أنَّ تلك العاقبةَ كانَت في الجميعِ، وهي حاصلةٌ فيهم باعتبارٍ سنَنيٍّ لا يتخلَّفُ.

نُكتةُ ذكرِ ﴿عَٰقِبَةُ﴾:

إيماءٌ تحذيريٌّ أن يصبحَ المُخاطَبون عاقبةً للّاحقينَ، كما كانَ لهمُ السّابقون

العَقِبُ: مُؤَخَّرُ الرِّجْلِ[2]، وقولهُ تعالى: ﴿ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ [آل عمران: 144]، ﴿نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ [الأنفال: 48]، فالعاقبةُ تُطلَقُ على مُؤخَّرِ الشّيء وما تؤولُ إليه الأمورُ. وحَسُنَ ذكرُ العاقبةِ هنا لبيانِ ما آلَ إليه حالُ الأمم السّالفةِ منَ التَّكذيب، وأنَّ ما كان عاقبةً لأولئك سيكونُ كذلك عاقبةً لغيرِهم، ففيه إيماءٌ تحذيريٌّ أن يستمرّوا في التَّكذيب فيصبحوا عاقبةً!.

(1) الرّضيّ، شرح الكافية: 2/221.
(2) الراغب، المفردات: (عقب).

نُكتةُ استعمالِ الاسمِ الموصولِ:

الاسمُ الموصولُ اسمٌ ناقصُ الدّلالة، فلا يتّضحُ معناه إلّا إذا وُصِلَ بالصّلة، وقد جاء التَّعبيرُ بالاسم الموصولِ في قوله تعالى: ﴿عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۗ﴾ دون أن يقولَ: (عاقبة السّابقين)؛ لبيانِ أنَّ الّذين حلَّت بهمُ العاقبةُ هُم من قبلِهم زمانًا، فليسوا أقوامًا بعيدينَ، ففيه إيماءٌ إلى أنَّ المُخاطَبين هُم من بعدِ المُتقدِّمينَ، فعليهم أن ينتبهوا ويتَّعظوا لعظيمِ القادمِ، ولا يَغترّوا بما هُم عليه في الحاضر.

العذابُ قريبٌ بقُربِ المُعذَّبين السّابقين

معنَى حرفِ ﴿مِن﴾ ودلالتُه:

معنَى الحرفِ ﴿مِن﴾ في قولِه تعالى: ﴿عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۗ﴾ الابتداءُ، وعند سيبَويه والبصريّين أنّها لا تكون لابتداء غايةِ الزّمانِ، وأجاز الكوفيّون استعمالَها في الزّمان؛ أي: أنّها عامّةٌ في ابتداء غايةِ الزّمانِ وغيرِه، واستدلّوا بقوله: ﴿لَّمَسۡجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقۡوَىٰ مِنۡ أَوَّلِ يَوۡمٍ﴾ [التّوبة: 108]، وقوله: ﴿إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ﴾ [الجمعة: 9][1]. وقوله تعالى: ﴿عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۗ﴾ دلَّ على ابتداء الزّمانِ البعيدِ من أوّلِ البشريّةِ امتدادًا وانتهاءً بآخر المُعذَّبين؛ فيكونُ فيها معنى إحصاءِ الأقوامِ جميعًا وحصرِهم في مَشهدٍ واحدٍ، فمَن آمنَ فله أجرُهُ، ومَن كفرَ فعليه إثمُه.

جمعُ المُعذَّبين في مَشهدٍ واحدٍ لِلإيقاظِ من غفلةِ الهَذَيانِ

بَراعةُ التّآخي اللّفظيِّ واختلافِ الضَّمائرِ:

من جميل التّناسُبِ في اتِّحاد التَّعبيرِ واختلاف الضَّمائرِ قولُه تعالى: ﴿مِن قَبۡلِكَ﴾، وقولُه: ﴿مِن قَبۡلِهِمۡۗ﴾، ففي قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِم مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰٓۗ أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۗ﴾ كُرِّر الجارُّ والمجرورُ (من قبلِ)، واختلفَ الضّميرُ بين المَوضِعين؛ فالضّميرُ في قوله: ﴿مِن قَبۡلِكَ﴾ يعودُ إلى خاتم الأنبياءِ والمُرسَلينَ محمّدٍ ﷺ، والضَّميرُ في

اتِّحادُ الإرسالِ في المُرسَلين كاتِّحادِ العاقبةِ في المُكذِّبين

(1) ابن يعيش، شرح المفصّل: 8/10.

قوله: ﴿مِن قَبۡلِهِمۡۗ﴾ يعودُ إلى أهل مكَّةَ الّذين ظهرَت فيهم الرّسالةُ أوّلَ ما ظهرَت. وفي ذلك إشارةٌ إلى أنَّ إرسالَهُ كإرسالِ الأنبياء السّابقينَ، وأنَّ عاقبةَ المُكذِّبين - إنْ أصرّوا - كعاقبةِ المُكذِّبين ممّن قبلَهُم، فالمَشهدُ واحدٌ في الإرسال والعقوبة أوِ الثّوابِ.

بَلاغةُ التَّقابُلِ بين الجُملِ:

عاقبةُ المُكذِّبين تُقابلُها عاقبةُ المتَّقين

قولهُ تعالى: ﴿وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞ﴾ معطوفٌ على جملةِ الاعتراض بالتّقريع والتّهديد، وهي قولُه تعالى: ﴿أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۗ﴾؛ فلِقوله تعالى: ﴿وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞ﴾ حكمُ الاعتراضِ الأوّلِ، وهو اعتراضٌ بالتَّبشير وحُسنِ العاقبةِ للرُّسل عليهم السلام، ومَن آمنَ بهم؛ وهو تعريضٌ بسلامة عاقبةِ المُتَّقينَ في الدُّنيا، وتعريضٌ أيضًا بأنَّ دارَ الآخرة أشدُّ على الّذين مِن قبلِهم، مِنَ العاقبةِ الّتي كانَت في الدُّنيا؛ فَحَصَلَ إيجازٌ بحذفِ جُملتَين[1]، وهذا من بديع التَّقابلِ بينَ الجُملِ.

بَلاغة الاختِباكِ في الآيةِ:

انشغل الكافرون بالدُّنيا فذُكِرَت عاقبتُهم فيها، واشتغل المتَّقونَ للآخرة فذُكِر جزاؤُهم فيها

في قولهِ تعالى: ﴿أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۗ وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْۚ﴾ احتباكٌ؛ والتّقديرُ: أفلَم يَسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبةُ الّذين من قبلِهم مِنَ الكافِرين، ولدارُ الآخرةِ شرٌّ للّذين كفروا، وألَم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبةُ الّذين من قبلِهم مِنَ المُؤمنين، ولَدارُ الآخرةِ خيرٌ للّذين اتّقوا، فَذَكَرَ في كلِّ جملةٍ ما يدعو إلى الإعجاب، ففي جملة الكافرينَ ذَكَرَ العاقبةَ في الدّنيا، وفي جملةِ المتَّقينَ ذَكَرَ العاقبةَ في الآخرة؛ تنبيهًا على غاية كلِّ فريقٍ، فالكافرون همُّهُم الدُّنيا فَذَكَرَها، والمُتَّقون عنايتُهُم بالآخرة فَذَكَرَها. وهذا من بديع الإيجازِ.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/68.

معنَى الواو في قوله تعالى: ﴿وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾:

الواو قد تكون عاطفة على قوله ﴿فَيَنظُرُواْ﴾، أي: فينظروا كيف كان عاقبةُ الذين من قبلهم، وينظروا أنّ الدّار الآخرة خيرٌ للمتّقين، ويمكنُ أن تكونَ الواوُ حاليّةً على معنى: والحالُ أنّ الدّارَ الآخرةَ خيرٌ للمتّقين في أثناءِ نظرِهم.

نكتةُ الإيجازِ بالحذفِ:

في قولهِ تعالى: ﴿وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞ﴾ حُذِفَ الموصوفُ، وأُقيمَت صفتُهُ مُقامَهُ، وأصلُه: ولدارُ النّشأةِ الآخرةِ[1]، ونكتةُ ذلك تمحيضُ النَّظرِ إلى الآخرةِ باعتبارِها المقصودَ بالخطاب.

معنَى إضافةِ الدّارِ إلى الآخرةِ:

أضاف الدّارَ إلى الآخرة في قولهِ تعالى: ﴿وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞ﴾؛ مع أنّ المرادَ بالدّار هي الجنّةُ؛ وهي نفسُ الآخرة؛ وذلك مثلُ قولِهم: حقُّ اليقين، والحقُّ: هو اليقينُ نفسُهُ؛ لأنّ العربَ تفعلُ ذلك لإفادة التّأكيدِ[2].

وكانَ الظّاهرُ أن يُقالَ - كما قالَ الطّيبيّ - وما الدّارُ الآخرةُ إلّا جدٌّ وحقٌّ لمكانٍ، وما الحَياةُ الدُّنيا إلّا لَعِبٌ ولَهوٌ، إلّا أنّه وضَعَ ﴿خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَۚ﴾ [الأنعام: 32]؛ مَوضِعَ ذلك إقامةً لِلمُسبَّبِ مَقامَ السَّببِ[3].

تَوجيهُ المُتشابِهِ اللَّفظيِّ:

وَقَعَ تشابُهٌ لفظيٌّ بين قولهِ تعالى: ﴿وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾، وقولهِ تعالى: ﴿وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا لَعِبٞ وَلَهۡوٞۖ وَلَلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ٣٢﴾ [الأنعام: 32]، وقولهِ تعالى: ﴿وَٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ١٦٩﴾ [الأعراف: 169]، فيُسألُ عنِ الفرقِ بين هذه الآياتِ. وبيانُهُ على النحو الآتي:

المسألةُ الأولى: قولهُ تعالى في سورة يوسف: ﴿وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾، وقولهُ تعالى في سورة الأعراف: ﴿وَٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ﴾ [الأعراف: 169]، فوَصَفَ الدّارَ بالآخرة، وفي الآية الّتي في سورة يوسف أضاف الدّارَ إلى الآخرة؛ وذلك لأنّ قبلَه: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٞ وَرِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ

(1) الهرريّ، حدائق الرَّوح والرَّيحان: 14/137.
(2) الهرريّ، حدائق الرَّوح والرَّيحان: 14/137 - 152.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 4/127.

﴿يَأۡخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلۡأَدۡنَىٰ﴾ [الأعراف: 169]، فقوله: ﴿هَٰذَا ٱلۡأَدۡنَىٰ﴾ [الأعراف: 169] إنَّما يعني هذا المَنزِلَ الأدنى، وهو والدّارُ الدّنيا بمعنى واحدٍ، فلمّا جَعَلَ الأدنى وصفًا لِلمَنزِلِ ذَكَرَ الدّارَ الآخرةَ بعدَهُ، فجَعَلَ الدّارَ موصوفةً، والآخرةَ صفةً لها، وكلٌّ يُؤدّي معنًى واحدًا، إلّا أنّه يختصُّ ببعض اللَّفظ دونَ بعضٍ لمشاكلةِ ما قبلَه وموافقتِه له. وأمّا قولهُ: ﴿وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ في سورة يوسف فإنَّ قبلَه: ﴿أَفَأَمِنُوٓاْ أَن تَأۡتِيَهُمۡ غَٰشِيَةٞ مِّنۡ عَذَابِ ٱللَّهِ أَوۡ تَأۡتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغۡتَةٗ﴾، والسّاعةُ هي السّاعةُ الآخرةُ، وهي القيامةُ، فلمّا ذُكِرَتِ الدّارُ أُضيفَت إليها، فكأنّه قال: ولدارُ السّاعةِ الآخرةِ خيرٌ[1].

المسألةُ الثّانيةُ: في سورتي الأنعام والأعراف قولهُ: ﴿خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَۚ﴾ [الأنعام: 32، والأعراف: 169]، وفي سورة يوسف: ﴿خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَۚ﴾. فقولهُ: ﴿لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَۚ﴾ في سورة يوسف هو أنّ القومَ دُعوا إلى الاعتبار بأحوال الأممِ الّذين أُهلِكوا في أزمنة أنبيائِهم بالنَّظر إلى منازِلِهم، وهي خاويةٌ على عروشها؛ ليعلموا أنَّ الدّارَ الآخرةَ خيرٌ لِمَن اتّقى منهم. وقولهُ في سورة الأعراف ترهيبٌ لليهود الّذين في عصر النّبيِّ، وارتِشائهم على كِتمان أمرِ النّبيِّ، وترغيبٌ لهم فيها عند اللّه تعالى إذا صدقوا ما في كتاب اللّه ﷺ، والتّرغيبُ والتّرهيبُ لا يَتعلَّقان إلّا بالآنِفِ المُستقبِلِ، فلذلك قال: ﴿لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ [الأنعام: 32، والأعراف: 169].

المسألةُ الثّالثةُ: هي إدخالُ اللّام على دار الآخرةِ في سورة يوسف في قوله: ﴿وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾، وإخلاؤها منها في سورة الأعراف في قوله: ﴿وَٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ﴾ [الأعراف: 169]. والجوابُ عن ذلك: أنّ قولَه: ﴿وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ جاءَ بعدَ قولِه: ﴿فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۗ﴾، ومعناه: فيعلموا كيف كان حالُ مَن قبلَهُم، وأنّ الدّارَ الآخرةَ خيرٌ لَهم، فاللّامُ هي لامُ الابتداء التي تدخل على المبتدأ وتعلِّق عمل الفعل، والفعل هو: فيعلموا الدار خيرا لهم. وأمّا قولهُ تعالى: ﴿وَٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ﴾ [الأعراف: 169] في سورة الأعراف فلم يتقدَّمه اللّامُ، بل قوله: ﴿أَلَمۡ يُؤۡخَذۡ عَلَيۡهِم مِّيثَٰقُ ٱلۡكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّ وَدَرَسُواْ مَا فِيهِۗ وَٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ١٦٩﴾ [الأعراف: 169] من غير أن يتقدَّمَه ما يجري مَجرَى التّوكيدِ والقسمِ الّذي يُتَلقَّى باللّام[2].

(1) الإسكافيّ، درّة التّنزيل: 2/808 - 809.
(2) الإسكافيّ، درّة التّنزيل: 2/810 - 811.

توجيهُ المخصوصِ بالذِّكرِ:

خُصَّتِ التَّقوى بالذّكر في قولهِ تعالى: ﴿وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْۗ﴾؛ لأنَّ المُتَّقينَ هُمُ الأصلُ فيها، من حيث إنَّ درجتَهُم أعلى، وغيرهم تَبَعٌ لهم[1]. وفائدةُ التَّعبير بالاسمِ الموصولِ تعظيمُ شأنِ المُتَّقين بذكر علّةِ دخولِ الجنَّةِ والفوزِ بها، وهي التَّقوى، وبيانُ أنَّ التَّقوى عملٌ عظيمٌ تُبذَلُ فيه الجهودُ، وتُراقُ في سبيلهِ الدِّماءُ.

التَّقوى عملٌ عظيمٌ لا يتأتَّى بالكلماتِ الفارغةِ والأفعالِ الخاويةِ

نُكتة فصْلِ قوله تعالى: ﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾:

الفصلُ إما لكمال الانفصالِ لاختلاف الخبريّةِ والإنشائيّةِ؛ لأنّه سبقه قولُه تعالى: ﴿وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْۗ﴾، وإمّا لكمال الاتّصالِ لكونِها مؤكِّدةً لمضمونِ ما سبقَها.

غرَضُ الاستفهامِ:

الاستفهامُ في قوله تعالى: ﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ للتَّوبيخِ[2]، وهو الاستفهامُ الثّاني في الآية، فأنكرَ عليهم في الاستفهام الأوّل، ثمّ وبّخَهم؛ ليحثَّهُم على التَّعقُّل والاعتبار بما قد رأوا من عواقبِ السّابقين.

تَوبيخُ مَن ترك التَّعقُّلَ والاعتبارَ

معنَى الفاءِ في قولهِ تعالى: ﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾:

(الفاء) في قولهِ تعالى: ﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ عاطفةٌ على محذوفٍ، دخلَت عليه همزةُ الاستفهام، تقديرُهُ: "أتعرضونَ يا أهلَ مكّةَ عن إعمال فكرِكُم في هذا، فلا تعقلونَ أنَّها خيرٌ لهُم منَ الحياة الدُّنيا، فتتوسَّلوا إليها بالإيمان؛ أما إنَّكم لو عَقلتُم ذلك لآمنتُم"[3].

الإيمانُ بما جاءَت به الرّسلُ هو سبيلُ العُقلاء

تَوجيهُ المخصوصِ بالذِّكرِ:

خصَّتِ الآيةُ التَّعقُّلَ بالذّكرِ في قولهِ تعالى: ﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ دون مُرادفاتِه؛ لأنَّه لمّا ذَكَرَ سيرَهم ونظرَهم، فكأنَّما دعاهُم إلى إعمال

التَّفكُّرُ مبدأُ التَّعقُّلِ، والتَّعقُّلُ سياجُه وأمانُه

(1) الرّازيّ، غرائب آي التّنزيل، ص: 123.
(2) الهرريّ، حدائق الرَّوح والرَّيحان: 14/137.
(3) الهرريّ، حدائق الرَّوح والرَّيحان: 14/137.

العقلِ بعد الفكرِ؛ إذِ الفكرُ هو مقدِّمةُ العقلِ، فذَكَرَ الغايةَ، وهي التَّعقُّلُ جمعًا بينَهما، وللتّنبيه على أنَّ التَّعقُّلَ هو الّذي يُحافظُ على إيمان المُتفكِّرِ. وفيه إشارةٌ إلى أنَّ القومَ كانوا يتفكَّرون، لكنَّهم لا يعقلونَ بما تؤولُ إليه نتائجُ أفكارِهم.

دَلالةُ التَّعبير بالمضارعِ:

تَنزيلُ المُشركين مَنزِلةَ مَن لا يعقلُ لِفقدِهِم غايتَه

عبّرَ بالمضارع في قولهِ تعالى: ﴿تَعۡقِلُونَ﴾ للدّلالةِ على الاستقبال تنصيصًا؛ لأنّه اقتضى طلبًا، وتحضيضًا لهم على التَّعقُّل. وعلى هذا فإنّه يفيدُ التّجدُّدَ مع الزّمن، فدعوةُ القرآن لهؤلاء أن يتعقَّلوا فيَعتبروا هي دعوةٌ دائمةٌ، ففيه الفعلُ المضارعُ المُقترنُ بالاستفهام وهو أمرٌ ضمنيٌّ، كأنَّما قال: اعقلوا، وفيه تنزيلُهُم مَنزِلةَ مَن لا يعقلُ لفقدِهِم غايةَ العقلِ، وهي الاهتداءُ إلى سواء الصّراط، وهذا مَكمَنُ التَّوبيخ.

نُكتةُ حذفِ مُتعلِّقِ الفعل:

كثرةُ المعاني المُتواردةِ على النَّصِّ دليلُ دقَّةِ النَّظمِ وبلاغةِ الأسلوبِ

في قولهِ تعالى: ﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾؛ حَذْفُ مُتعلِّقَ فعلِ ﴿تَعۡقِلُونَ﴾، ونكتةُ ذلك العمومُ؛ أي: تعقلون ما حَدَثَ لِمَن سبقوكم مِنَ الأمم، وما حلَّ بهم مِنَ العذابِ والدّمارِ، وذلك للدّلالةِ عليه فيما سبقَ؛ إذ قالَ تعالى: ﴿أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۗ﴾، فيكونُ المعنى: أفلا تعقلونَ كيف كانَ عاقبتُهُم، فيُصيبَكُم مثلُ ما أصابَهم، وأفلا تعقلون التّحذيرَ بأنْ يصيبَكُم مثلُ ما أصابَهم، وأفلا تعقلون أنَّ الإيمانَ نجاةٌ والكفرَ هلاكٌ، وما إلى ذلك مِنَ المعاني الّتي يحتملُها السّياقُ، فهي داخلةٌ في العموم.

بَلاغةُ توجيهِ القراءاتِ القرآنيّةِ:

قراءةُ الأصلِ موافقةٌ للسّياق، وقراءةُ الالتفاتِ موافِقةٌ للمَقام

في قولهِ تعالى: ﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾؛ قرأ الجمهورُ بالياء ﴿يَعۡقِلُونَ﴾

على الأصل، رَعيًا لِقولِهِ: ﴿أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ﴾[1]، وقرأ نافع وأبو جعفر ويعقوب وابن عامر وعاصم[2] بتاء الخطابِ ﴿تَعۡقِلُونَ﴾ على الالتفاتِ منَ الغائبِ إلى المُخاطَب؛ لأنَّ المُعانِدين لمّا جرى ذكرُهُم، وتكرّرَ، صاروا كالحاضرين، فالتفتَ إليهم بالخطاب بالتّاء على خطاب هذه الأمّةِ؛ تحذيرًا لهُم ممّا وقَعَ فيه أولئكَ، خشيةَ أن يصيبَهُم ما أصابَهُم[3].

الفُروقُ المُعْجَمِيّةُ:

البَعثُ والإرسالُ:

الإرسالُ غايتُهُ إيصالُ رسالةٍ، والبعثُ يغلبُ عليه الانتشارُ

الإرسالُ لا يكونُ إلّا برسالةٍ، وما يجري مَجراها[4]، فالمُرسِلُ يكونُ حاملًا لرسالةٍ، وغايةُ إرسالِهِ هي إيصالُ تلك الرّسالةِ، الّتي عادةً ما تكون قيِّمةً بالنّسبة إلى المُرسَلِ إليهم، وهذا على خلاف المَبعوث؛ إذ إنّ المبعوثَ قد يُبعَثُ لذاته، ولا يُحمّلُ شيئًا أو يصاحبُهُ شيءٌ.

وأمّا البعثُ فيُلحظُ فيه الإثارةُ والانتشارُ، فالبعثُ قد يكون فيه إرسالٌ، وفيه معانٍ أخرى غيرُ الإرسال؛ أي: فيه إرسالٌ وزيادةٌ، كقوله تعالى: ﴿وَقَالَ لَهُمۡ نَبِيُّهُمۡ إِنَّ ٱللَّهَ قَدۡ بَعَثَ لَكُمۡ طَالُوتَ مَلِكٗاۚ﴾ [البقرة: 247]، أي: أقامَهُ منكم؛ ولذلك يُستعمَلُ البعثُ فيما هو أشدُّ. وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثۡنَا عَلَيۡكُمۡ عِبَادٗا لَّنَآ أُوْلِي بَأۡسٖ شَدِيدٖ فَجَاسُواْ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِۚ وَكَانَ وَعۡدٗا مَّفۡعُولٗا ۝٥﴾ [الإسراء: 5] فيه قوةُ عملٍ.

القَريةُ والمدينةُ:

القريةُ تدُلُّ على اجتماعٍ مُتَّفَقٍ عليه لا يُشترَطُ في المدينة لاتّساعها

القريةُ من الجذر (قري)، والقِرَى: الاجتماع والجمع والإمساك،

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/334.
(2) ابن الجزريّ، النّشر: 2/257.
(3) الهرريّ، حدائق الرَّوح والرَّيحان: 14/137.
(4) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 103.

وسُمّيتِ القريةُ قريةً لاجتماع النّاسِ فيها، وهم يجتمعون في الغالب على مجموعةٍ منَ العاداتِ والتّقاليدِ والمَذهبِ. والمدينةُ من (مَدَن): بمعنى: أقامَ، وهي تجمُّعٌ سكانيٌّ يزيدُ على تجمُّعِ القريةِ، كما هو في استعمال القرآن الكريم، فالقريةُ: تدلُّ على توجُّهٍ ثقافيٍّ وفكريٍّ وعَقَديٍّ واحدٍ للمُقيمينَ فيها، وذلك على خلافِ المدينةِ؛ لاتّساعِها وانتشارِها؛ فتدلُّ على اختلافِ توجُّهاتِ المُقيمينَ فيها.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسۡتَيۡـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ جَآءَهُمۡ نَصۡرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَآءُۖ وَلَا يُرَدُّ بَأۡسُنَا عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ١١٠﴾ [يوسف: 110]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الانتقالُ من ذكرِ هلاكِ المُكذِّبين إلى نصرِ المُرسَلين

بعد أن ذَكرَ في الآية السّابقةِ إرسالَ الرُّسُلِ إلى أقوامِهم، ودعوةَ مَن جاء بعدَهم إلى النّظر في أحوال أقوامِهم لمّا أنكروا الرّسالاتِ، وما آلَ بهم منَ العذابِ والعقوبةِ والدّمارِ، ناسبَ أن يذكُرَ هُنا لحظةً زمنيّةً فارقةً في حياة الرّسلِ ودعوتِهم، ولعلّها أشدُّ وأصعبُ لحظات الدَّعوةِ عليهم، وهم يبلِّغون الرّسالاتِ إلى أقوامهم؛ إذ بَلَغوا ما بَلَغوا منَ اليأسِ، وظنّوا أنّ الأمرَ قدِ انتهى بتكذيبِهم من أقوامِهم، هنا جاء نصرُ اللّه لهم، وجاء دمارُهُ على أقوامِهم المُكذِّبين، ثمّ جعلَ مساكنَ تلك الأقوامِ آيةً لمَن سيأتي بعدَهُم، ولذلك جاءَ عندَ المفسِّرين في بيان التّناسُبِ: وما أرسلْنا مِن قبلِك يا محمّدُ إلّا رجالًا، ثمّ لم نُعاقِبْ أُممَهم بالعقابِ حتّى إذا استَيأسَ الرّسلُ[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱسۡتَيۡـَٔسَ﴾: جَذرُ الكلمة هو (يأس)؛ يئسَ منه يأسًا واستيأسَ. ورجلٌ يؤوسٌ[2]. واليَأْسُ: القُنوطُ، ورجلٌ يَؤوسٌ، ويَئِسَ أيضًا بمعنى علمَ، ومنه قوله تعالى: ﴿أَفَلَمۡ يَاْيۡـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ [الرعد: 31]. وآيَسَهُ اللّه من كذا فاستَيأسَ منه؛ بمعنى: أيِسَ. و(أيِسَ) منه لغةٌ في يَئِسَ وبابُهما فَهِمَ، و(آيَسَهُ) منه غيرُهُ بالمدِّ مثلُ أيأسَهُ، وكذا (أيَّسَهُ) بتشديد الياء تَأييسًا[3].

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/335.
(2) الزّمخشريّ، أساس البلاغة: (يئس).
(3) الرّازيّ، مختار الصّحاح: (أيس).

2) ﴿فَنُجِّيَ﴾: جَذر الكلمة هو (نجو): (نَجا) مِنْ كَذا يَنْجو (نَجاءً) بِالمَدِّ و(نَجاةً) بالقَصرِ. والصِّدقُ (مَنجاةٌ). و(أنجَى) غَيرَهُ و(نَجّاهُ)، وقُرِئَ بهما قولُهُ تعالى: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ﴾ [يونس: 92][1]. والنّجاءُ: الخلاصُ منَ الشَّيء. نجا نجاةً[2].

3) ﴿بَأۡسُنَا﴾: جذرُ الكلمة هو (بأس)؛ والبَأسُ العذابُ، وهو أيضًا الشِّدَّةُ في الحربِ، تقول منه: بَؤُس الرّجلُ بالضّمِّ، فهو بَئيسٌ كفَعيل؛ أي: شُجاعٌ، وعذابٌ بَئيسٌ أيضًا، أي: شديدٌ[3]. ومعنى البأسِ في الآية هو عذابُ اللّه للمُنكِرينَ المُعانِدينَ للرّسل، الّذي هو نصرٌ للرُّسل عليهم السلام.

❁ المَعْنى الإجْماليّ:

تَصويرٌ لتأخُّرِ النّصْرِ واستبطاءِ المؤمنين له

تُبيِّنُ الآيةُ أنَّ بُطءَ النّصر وتأخيرَهُ يكونُ إلى أجلهِ الّذي تتكاملُ فيه الأسبابُ، بحسب حكمة اللّه في سُننهِ الكونيّةِ؛ إذِ الرّسلُ لا تيأسُ من روح اللّه، فمدّةُ التّكذيبِ والعداوةِ منَ الكفّارِ، وانتظارُ النّصر منَ اللّه، وتأميلُهُ؛ قد تطاولَت على الرّسل، حتّى استشعروا القُنوطَ، وتَوهَّموا أنْ لا نصرَ لهم في الدّنيا، فجاءَهُم نصرُنا فجأةً من غير احتسابٍ[4]، وهذا مثلُ قولهِ تعالى: ﴿وَزُلۡزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصۡرُ ٱللَّهِۗ﴾ [البقرة: 214]؛ فإذا كان الأمرُ كذلك جاء نصرُ اللّه، فنُجّيَ مَن شاء سبحانَه؛ أي: نُجّيَ النّبيُّ والمؤمنون، ثمّ ختمَ تعالى الآيةَ بتوعُّدهِ العظيمِ للكافرين، وأنّ بأسَه ﷻ لا يُردُّ عنهم.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيّ:

معنَى ﴿حَتَّىٰٓ﴾ ودلالتُها:

إمدادُ الكافرينَ سببٌ في دوامِ تكذيبِهم، وتأخُّرِ نزولِ العذاب

﴿حَتَّىٰٓ﴾ في قولِه تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسۡتَيۡـَٔسَ ٱلرُّسُلُ﴾؛ ابتدائيّةٌ،

(1) الرّازيّ، مختار الصّحاح: (نجو).
(2) ابن سيده، المُحكم: (نجو).
(3) الرّازيّ، مختار الصّحاح: (بأس).
(4) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/480.

وهي عاطفةٌ جملةَ ﴿إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ﴾ على جملة ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم﴾ باعتبار أنّها حجّةٌ على المُكذِّبين، فتقديرُ المعنى: وما أرسلنا مِن قبلِك إلّا رجالًا يوحَى إليهم، فكذّبَهُم المُرسَلُ إليهم، واستمرّوا على التّكذيبِ، حتّى إذا استيئسَ الرُّسلُ إلى آخره[1]. فـ ﴿حَتَّىٰٓ﴾ غايةٌ لِما قبلَها، وليسَ في اللّفظ ما يكونُ له غايةٌ، فاحتيجَ إلى تقديرٍ، فقدَّرَهُ الزّمخشريُّ بقوله: وما أرسلنا من قبلِك إلّا رجالًا، فتراخى نصرُهُم، حتّى إذا استيأسوا عنِ النّصر[2]. وقال ابنُ عَطيةَ: ويتضمَّنُ قولُه: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ﴾ إلى ما ﴿قَبْلِهِمْ﴾، أنَّ الرُّسلَ الّذين بعثَهُمُ اللّه من أهل القُرى دَعَوهم فلم يُؤمنوا بهم، حتّى نزلَت بهِمُ المَثُلاتُ، فصاروا في حَيِّزِ مَن يُعتَبَرُ بعاقبتِه، فلهذا المُضَمَّنِ حَسُنَ أن تَدخُلَ ﴿حَتَّىٰٓ﴾ في قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ﴾[3]. والمعنى: فدامَ تكذيبُهم وإعراضُهم وتأخَّرَ تحقيقُ ما أنذَروهُم به منَ العذاب؛ حتّى اطمأنّوا بالسَّلامة، وسَخِروا مِنَ الرُّسلِ، وأيِسَ الرُّسلُ ﷺ من إيمان قَومِهِم[4].

نوعُ ﴿إِذَا﴾ ودلالتُها:

﴿إِذَا﴾ في قولِه تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ﴾ اسمُ زمانٍ مُضمَّنٌ معنى الشّرط، فهو يَلزمُ الإضافةَ إلى جملةٍ تبيّنُ الزّمان. وذكرَ سيبَويه: "أنّ إذا تجيء وقتًا معلومًا"[5]، والأصل في (إذا) أن تكونَ للمقطوع بحصوله، وللكثير الوقوع[6]. وهذا يبيّنُ معنى الآيةِ أنّ القضيّةَ الّتي تناولَتها هي أمرٌ مقطوعٌ به، وهو تأخُّرُ زمانِ النّصر، وأنّه سُنّةٌ كونيّةٌ، وأنّه يأتي في وقت مشيئةِ اللّه تعالى له. ويمكنُ

تأخيرُ النّصرِ ابتلاءٌ للمؤمنين وعقابٌ للكافرين

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/69.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/480.
(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/293، والسّمين الحلبي، الدّرّ المصون: 6/563.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/69.
(5) سيبويه، الكتاب: 1/433.
(6) القزوينيّ، الإيضاح: 1/88، والسّيوطيّ، الإتقان: 1/149.

أن تكون ﴿إِذَا﴾ خرجت عن أصل استعمالِها، ولكنّها لم تخرج عن مقتضَى الحالِ، فالأصلُ أن تأتيَ (إن) في مثل هذا الموضع؛ لأنّها تأتي مع الأمر المشكوكِ فيه، ولكنّ سببَ الخروج هنا تأكيدُ مجيء النّصرِ وعدم تأخّرِه عنهم، وتأكيدُ أنّ الضّعفَ واليأسَ هو ديدنُ البشرِ حتّى لو كانوا رُسلًا، وجملة ﴿ٱسْتَيْـَٔسَ﴾ مُضافٌ إليها ﴿إِذَا﴾، وجملة ﴿جَآءَهُمْ نَصْرُنَا﴾ جوابُ ﴿إِذَا﴾؛ لأنّ هذا التّرتيبَ في المعنى هو المقصودُ من جَلب ﴿إِذَا﴾ في مثل هذا التّركيبِ[1].

بَراعةُ التَّعبيرِ بقولِه تعالى: ﴿ٱسْتَيْـَٔسَ﴾:

الاستيئاسُ مبالغةٌ في اليأسِ وانقطاعِ الطّمعِ

وردَ فعلُ اليأس في السّورة في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِۖ﴾ [يوسف: 87][2]. والاستيئاسُ واليأسُ: انقطاعُ الطّمع. وصيغةُ الاستيئاس (استفعال) تدلُّ على المبالغةِ في اليأس، فزيادةُ حروفِ الألف والسّين والتّاء تدُلُّ على قوّة المعنَى والمبالغةِ فيه؛ أي: يئِسوا منَ النّصر يأسًا عظيمًا. والاستيئاسُ منَ النّصر، أو من إيمان قومِهم قولان[3]: الأوّل: استيأسوا من قومِهم أن يُؤمنوا باللّه، ويُصدِّقوهُم فيما أتوهم به من عند اللّه، والثّاني: استيأسوا من مَجيء النَّصرِ لهم على أعدائِهم.

نُكتةُ اختيارِ مادّةِ الرِّسالةِ لا النُّبوَّةِ:

ذكرُ الرُّسلِ يَستوعبُ الأنبياءَ ومَن دونَهم بدلالةِ الأولى

في قولِه تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ﴾ اختيرَت مادّةُ الرّسالة دونَ النّبوّة، والفرقُ بين النّبيِّ والرّسولِ؛ أنّ كلَّ رسولٍ نبيٌّ، وليس العكسُ؛ لأنّ النّبيَّ مَن لم يأتِ بشرعٍ جديدٍ، وإنّما يكونُ مُبلِّغًا بشرعِ مَن قبلَه؛ أي: إنّه يحكمُ بشريعةِ مَن قبلَه بدون وحي جديدٍ يوحَى به إليه، وذكرُ الرُّسل هو الأنسبُ بالألفاظ السّابقةِ من مثل: ﴿أَرْسَلْنَا﴾،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/69.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/69.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/346.

وإذا كان الرُّسلُ هُم أعلى شأنًا منَ النّبيّين، فَذكرُهُم يَستلزِمُ ذكرَ مَن دونَهُم، فهو منَ التَّنبيه على الأدنى بذكرِ الأعلى.

معنَى (أل) في قوله تعالى: ﴿ٱلرُّسُلُ﴾:

أفاد التّعريفُ هنا الاستغراقَ لجميع الرّسلِ الذين أرسلَهمُ اللّه تعالى.

سنّةٌ إلهيةٌ ماضيةٌ في جميعِ الرُّسلِ

بَلاغةُ إظهار لفْظِ ﴿ٱلرُّسُلُ﴾:

غرَضُ إظهار الرّسلِ في قولهِ تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسۡتَيۡـَٔسَ ٱلرُّسُلُ﴾ إعطاءُ الكلامِ استقلالًا بالدّلالة واهتمامًا بالجملة[1]، ولإزالة اللَّبس، حيثُ يوهِمُ الضّميرُ أنّه غيرُ المُراد. فلو أنّه قال: (حتّى إذا استَيأسوا)؛ لحصلَ لَبسٌ بأنّ الّذين أُمِروا بالسّيرِ في الأرض والنّظرِ قد أصابَهُمُ اليأسُ فجاءَهُم نصرُ اللّه، فلمّا قال: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسۡتَيۡـَٔسَ ٱلرُّسُلُ﴾؛ عُلِمَ أنّ الرّسلَ هُمُ المَقصودون لا غيرُهُم.

دفعُ توهُّمِ أنَّ غيرَ الرّسلِ هُمُ المُرادونَ

معنَى (الواو) ودلالتُها:

في قولِه تعالى: ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ﴾ الواو حرفُ عطفٍ، أفاد الوصلَ بين الجملتين؛ إذ إنّه عطفَ جملةً خبريّةً على جملة خبريّةٍ، فتحقَّقَ الاتّصالُ، مع التّغايرِ في المعنى، فجملة ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ﴾ أفادَت معنًى نفسيًّا هو الظَّنُّ بالتّكذيب، وعُطِفَت على جملة ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسۡتَيۡـَٔسَ ٱلرُّسُلُ﴾، أي: أصابَهم اليأسُ منَ النّصر على المُنكرين.

الظُّنونُ المُتوهّمةُ مُقترنةٌ بالاستيئاسِ

دَلالةُ التَّعبير بـ (الظَّنّ):

في قولِه تعالى: ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ﴾ يُفهَمُ مِنَ الآية معانٍ أحسَنُها: وظنَّ الرُّسُلُ، وأيقنوا أنّهُم قد كذّبَتهُمُ الأممُ الّذين آمنوا بهِم، وارتدّوا عنِ الإيمان بهم. وهذا المعنى مَنقولٌ عن عائشةَ رضي الله عنها، وهو أحسنُ الوجوهِ، وعليه فيكونُ الظَّنُّ آتيًا على معنى الظّنون الّتي

الظَّنُّ لا يأتي إلّا بسببِ الاعتناء بالمَظنونِ به والخوفِ عليه

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/69.

تأتي حينًا، وتغيبُ حينًا آخر. والمعنى الآخر: وظنَّ القومُ أنّ الرُّسلَ قد أُخلِفوا في وعدِهِم بالنّصر؛ وظنّ الأممُ أنّ الرّسلَ قد كذَّبوهُم فيما أخبروهُم به من نصر الله إيّاهُم، وإهلاكِ أعدائهِم[1].

غرَضُ التَّوكيدِ:

تَصويرُ واقعِ نفسٍ مُنكِرَةٍ لحالٍ عظيمِ الصّعوبة

قولهُ تعالى: ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ﴾؛ فيه أكثرُ من توكيدٍ؛ الأوّل: التّوكيدُ بـ (أنَّ)، والثّاني: التّوكيدُ بـ ﴿قَدۡ﴾ الدّاخلةِ على الفعل الماضي، والثّالث: التّوكيدُ بالتّشديد لـ (كُذِّبوا) على مَن قرأ بها. وقد قَرَأ ابنُ كثير ونافِعٌ وأبو عَمرو وابنُ عامر (كُذِّبوا) مُشَدَّدَةَ الذّالِ[2]. وهذه التّوكيداتُ تعكِسُ واقعَ النّفس المُنكِرةِ لحالٍ عظيمِ الصّعوبةِ؛ إذ أُغلِقَت بوجهِهِم كلُّ فرصِ النُّصرةِ والقَبولِ بهِم من جهة قومِهِم.

فائِدةُ التَّعبيرِ بالمبنيِّ للمفعولِ لا الفاعلِ:

تَكذيبُ الرّسلِ في عمومِ ما قد أتَوا به مِنَ المُعجزاتِ

جاءت صيغةُ فعلِ التَّكذيبِ في قوله تعالى: ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ﴾ بالتَّخفيف والتّشديد بالبناء للمفعولِ، فحُذفَ الفاعلُ لإفادة العُمومِ، وكأنَّهم قد كُذبوا في عمومِ ما قد أتوا به مِنَ المُعجزاتِ والبيّناتِ من عموم النّاسِ، وهذا أعظمُ تكذيبٍ وأصعبُ حالٍ. ومعنى الآية: أنّ مدَّةَ التَّكذيبِ والعَداوةِ مِنَ الكفّار، وانتظارِ النَّصر مِنَ الله قد تطاولَت عليهم وتَمادَت، حتّى استَشعَروا القُنوطَ، قال تعالى: ﴿وَزُلۡزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصۡرُ ٱللَّهِۗ﴾ [البقرة: 214]، وتَوَهَّمَ المؤمنونَ أنْ لا نصرَ لَهم في الدّنيا، فجاءَهُم نصرُنا فجأةً من غير احتِسابٍ[3].

توجيهِ القراءات القرآنيّة:

قُدومُ النّصرِ مُرتبِطٌ بالمَشيئةِ الإلهيّةِ

اختلفَ القُرّاءُ في تَشديد الذّالِ وتخفيفِها في قَولِه تعالى: ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ﴾؛ فقَرَأ ابنُ كثيرٍ ونافِعٌ وأبو عَمرو وابنُ

(1) الهرريّ، حدائق الرَّوح والرَّيحان: 14/139.
(2) ابن مجاهد، السَّبعة في القراءات، ص: 351.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/347.

عامر (كُذِّبوا) مُشَدّدَةَ الذّالِ، وقَرَأ عاصِمُ وحَمزَةُ والكسائيُّ: ﴿كُذِبُواْ﴾ خَفيفَةً[1]. يقول السّمينُ الحلبيُّ عن قراءة التّخفيف ﴿كُذِبُواْ﴾: وقد وجَّهها النّاسُ بأربعة أوجه، أجودُها: أنَّ الضميرَ في ﴿وَظَنُّوٓاْ﴾ عائدٌ على المُرْسَل إليهم لتقدُّمهم في قوله: ﴿كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۗ﴾، ولأنَّ الرُّسلَ تَسْتدعي مُرْسَلاً إليه. والضّميرُ في ﴿أَنَّهُمۡ﴾ و﴿كُذِبُواْ﴾ عائدٌ على الرّسل، أي: وظنَّ المُرْسَل إليهم أنَّ الرُّسُلَ قد كُذِبوا، أي: كذَّبهم مَنْ أُرْسِلوا إليه بالوحيِ وبنصرِهم عليهم.

الثّاني: أنَّ الضّمائرَ الثّلاثةَ عائدةٌ على الرُّسل، والمعنى: حتى إذا اسْتَيْئَسوا من النّصر وظنّوا أنّهم قد كُذِبوا، أي: كَذَّبَهم كذّبتهم أنفسُهم حين حَدَّثَتْهم أنّهم يُنْصَرون أو رجاؤُهم، والمعنى: أنّ مدَّةَ التّكذيبِ والعداوةِ منَ الكفّار، وانتظارَ النّصر منَ اللّه وتأميلَه قد تطاولتْ عليهم وتمادَتْ، حتى استشعروا القُنوطَ، وتَوَهَّموا ألّا نَصْرَ لهم في الدنيا فجاءهم نَصْرُنا.

الثّالثُ: أنَّ الضّمائرَ كلَّها أيضًا عائدةٌ على ﴿ٱلرُّسُلُ﴾، والظّنُّ على بابه منَ التّرجيح، قالوا: والرُّسل بَشَرٌ فَضَعُفوا وساءَ ظَنُّهم، وهذا ينبغي ألّا يَصِحَّ عن هؤلاء فإنّها عبارةٌ غليظةٌ على في حقِّ الأنبياء ﷺ، وحاشى الأنبياءَ من ذلك.

الرّابعُ: أنّ الضّمائرَ كلَّها تَرْجِعُ إلى المُرسَل إليهم، أي: وظَنَّ المُرْسَلُ إليهم أنَّ الرّسلَ قد كَذَبوهم فيما ادَّعوه منَ النبوَّة وفيما يوْعِدون به مَنْ لم يؤمنْ بهم منَ العقاب قبلُ، وهذا هو المشهورُ.

وأمّا قراءةُ التشديدِ فواضحةٌ، وهو أن تعودَ الضّمائرُ كلُّها على الرّسل، أي: وظنَّ الرُّسلُ أنّهم قد كَذَّبهم أممُهم فيما جاؤوا به لطول البلاءِ عليهم، وبهذا يَتَّحدُ معنى القراءتَين، والظّنُّ هنا يجوزُ أن يكون على بابه، وأن يكونَ بمعنى اليقين، وأن يكونَ بمعنى التّوهُّم حسبما تقدَّمَ[2].

(1) ابن مجاهد، السَّبعة في القراءات، ص: 351.
(2) السّمين الحلبي، الدرّ المصون: 6/560 - 564.

بَلاغةُ الاستعارةِ:

تَشبيهُ النّصرِ برجُلٍ مُرسَلٍ من عندِ الله تعالى

شبّهَ النّظمُ القرآنيُّ نصرَ اللّه لهم برَجلٍ أو كائنٍ ذي قوّةٍ مُرسَلٍ من عندِ اللّه جاء إليهم، فحَذَفَ المشبَّهَ به (وهو ذلك الكائنُ)، وأبقى شيئًا من لوازمِهِ، وهو المَجيءُ، وذَكَرَ المُشبّهَ؛ وهو (النّصر) وتشخيصَه، فهي استعارةٌ مكنيّةٌ. فائدتُها تصويرُ سرعةِ تَحقُّقِ النّصر، فالنّصرُ سيأتي مثلَ مَجيءِ رجلٍ أو مَلَكٍ مُرسَلٍ من عند اللّه، كقوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا﴾ [فصلت: 16]، وقوله تعالى: ﴿جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ﴾ [يونس: 22]، وغيرهما.

فائِدةُ إضافةِ النَّصرِ إلى ضميرِ العظَمةِ:

طبيعةُ هذا النّصرِ أنّه نصرُ الله تعالى

الإضافةُ نسبةُ اسمٍ إلى اسمٍ آخر، أفادَت في قوله تعالى: ﴿نَصْرُنَا﴾ تعظيمًا للنَّصر، وتشريفًا لمَن نزلَ عليهمُ النَّصرُ، فأيُّ نصرٍ أعظمُ من مجيئِهِ من عندِ اللّه تعالى! وأيُّ شرفٍ أعظمُ من أن يَنزلَ النّصرُ من عندِ اللّه تعالى!

نُكتةُ الإطنابِ دونَ الإيجازِ:

سُرعةُ النّصرِ من جهةِ القوّةِ المُطلَقةِ؛ وهي قوّةُ الله سبحانَه

قولهُ تعالى: ﴿جَآءَهُمْ نَصْرُنَا﴾ جملةٌ بليغةٌ بما تضمَّنَتهُ منَ الاستعارة والبناءِ للفاعل والتّقديم والتّأخيرِ وضميرِ العظَمةِ (نا)، ولو أنّ الجملةَ جاءت موجزةً بالقول: (نُصروا)؛ لأضعفَ المعنَى بالبناء للمفعولِ، فقد يَسألُ سائِلٌ: مَنِ الّذي نصرَهُم؟! ومِن أين أتى النّصرُ، في الوقت الّذي وجدَ الرُّسلُ والمؤمنون أنّهم قد كُذِبوا؟! فيحدثُ اللَّبسُ الكبيرُ في المعنى. هذا فضلًا عن تجريد الجملةِ من بعض فنون البلاغةِ الّتي أدّت فوائدَ ونكاتٍ مُهمَّةً في إبراز المعنَى المرادِ، وهو سرعةُ النّصرِ من جهة القوّةِ الكونيّةِ الوحيدةِ، وهي قوّةُ اللّه سبحانَه.

بَلاغةُ التّغْليبِ واللّفِّ والنّشرِ:

مجيءُ النَّصر في قولِه تعالى: ﴿جَآءَهُمْ نَصْرُنَا﴾ مُصاحِبٌ لإنزال العقوبةِ، بدليل ﴿فَنُجِّيَ مَن نَّشَآءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا﴾؛ فيمكنُ أنْ يُسألَ عن

سرِّ التّصريحِ بالنّصر دونَ العقوبة. وفي هذه العبارة لفٌّ ونشرٌ؛ إذ إنّ قولَه: ﴿جَآءَهُمۡ نَصۡرُنَا﴾ يُفهَمُ منه: جاءَت عقوبتُنا على الأقوام المُنكِرةِ للرّسالاتِ والإيمانِ، فذَكَرَ النّصرَ، ولم يذكُرِ العقابَ؛ لأنّه عُلِمَ بداهةً، فمفهومُ النّصرِ على العدوّ عقوبةُ العدوِّ بالخُسرانِ والخذلانِ، وهذا هو اللَّفُّ، ثمّ ذَكَرَ النّجاةَ مِنَ العقابِ للمُؤمنين، وذَكَرَ العقابَ بقوله: ﴿وَلَا يُرَدُّ بَأۡسُنَا عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾، وهذا هو النّشرُ. أمّا سببُ المبادرةِ بذكر النّصرِ فذلك لأنّ الحديثَ كان عنِ الرُّسل، وعن استبطاء النّصرِ واستيئاسِهم من قدومِه، فجعلَ مَجيءَ النّصر مُرتبطًا بإنفادِ كلِّ طاقات العملِ والدّعوةِ والجهادِ في سبيلِه سبحانَه.

التّصريحُ بمَجيءِ النّصرِ تلويحٌ بنُزولِ العذابِ

معنَى الفاءِ ودلالتُها:

أفادتِ الفاءُ معنى التّفريع في قوله: ﴿فَنُجِّيَ مَن نَّشَآءُۖ﴾ على ﴿جَآءَهُمۡ نَصۡرُنَا﴾؛ لأنَّ نصرَ الرُّسلِ عليهم السلام هو تأييدُهُم بعقاب الّذين كذَّبوهُم بنزول العذابِ، وهو البأسُ، فينجّي اللّه الّذين آمنوا، ولا يُرَدُّ البأسُ عنِ القوم المُجرمين[1].

يُنجّي اللهُ المؤمنين، ولا يُرَدُّ بأسُه عنِ المُجرِمين

توجيه القراءات القرآنيّة:

في قولِه تعالى: ﴿فَنُجِّيَ مَن نَّشَآءُۖ﴾؛ قرأ الجمهورُ (فنُنْجي) بنونَين وتخفيفِ الجيمِ وسكونِ الياءِ؛ مُضارعَ أنْجى، والمعنى على الاستقبال. وقرأهُ ابنُ عامرٍ ويعقوبُ وعاصمٌ ﴿فَنُجِّيَ﴾ بنونٍ واحدةٍ مَضمومةٍ وتَشديدِ الجيمِ مَكسورة[2]، وفَتحِ التّحتيَّةِ على أنّه ماضي (نَجّى) المُضاعَف؛ مبنيًّا لِما لم يُسمَّ فاعلُه. وعليه فـ ﴿مَن نَّشَآءُۖ﴾ هو نائبُ الفاعل[3].

(1) الكرمانيّ، مفتاح الأغاني، ص: 227.
(2) ابن الجزريّ، النّشر: 2/296.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/70.

بَلاغةُ الاختِباكِ بين أزمنة الأفعالِ:

﴿فَنُجِّيَ﴾ بنونٍ واحدةٍ مَضمومةٍ، وتَشديدِ الجيمِ مكسورةً، وفتحِ التَّحتيَّةِ، على أنّه ماضي نَجّى المُضاعَفِ بُنِي للمفعول، وعليه ﴿مَن نَّشَآءُ﴾ هو نائبُ الفاعل، والجمعُ بين ﴿فَنُجِّيَ﴾ على لفظ الماضي، وبين المضارع في ﴿نَّشَآءُ﴾؛ احتباكٌ تقديرُهُ: فنُجّي مَن شِئنا مِمَّن نَجا في القرونِ السّالِفةِ، ونُنجي مَن نشاءُ في المُستقبَلِ مِنَ المُكذِّبين[1] في الدّنيا، ولا يُرَدُّ بأسُنا عنِ القوم المُجرِمين.

النّجاةُ من عذابِ الدّنيا مَعذوقةٌ بمشيئة الله تعالى

نُكتةُ اسْتعمالِ الاسمِ الموصولِ:

في قولِه تعالى: ﴿فَنُجِّيَ مَن نَّشَآءُ﴾؛ يكونُ ﴿فَنُجِّيَ﴾ بنونٍ واحدةٍ وجيمٍ مُشدَّدةٍ مكسورةٍ وفتحِ الياء فعلًا ماضيًا، مَبنيًّا للمفعول، و﴿مَن﴾ الموصولةُ نائبُ الفاعل[2]. و﴿مَن﴾ الموصولة تختصُّ بأولي العلمِ، وتقعُ على المُفرد والمُثنّى والجمع والمذكَّر والمؤنَّث، فهي دالَّةٌ على العُموم؛ إذ يكونُ النّاجونَ ذكورًا وإناثًا، أفرادًا وجماعاتٍ. فضْلًا عن دلالتِها في هذا الموضعِ على التّعظيمِ والثّناءِ على النّاجين.

عُمومُ فئاتِ النّاجينَ وأجناسِهم وأعدادِهم

فائِدةُ حذْفِ مفعولِ المَشيئةِ:

في قولِه تعالى: ﴿فَنُجِّيَ مَن نَّشَآءُ﴾ في العبارة دلالةُ العُموم؛ إذ كان منَ المُمكنِ أن يُقالَ: فنُجّي مَن نشاءُ مِنَ الرُّسلِ والمؤمنين، لكنّه حذفَ مفعولَ المَشيئة لاحتمال نجاةِ بعض مَنْ لَم يُؤمِنْ أيضًا، فتكونُ نجاةُ النّاس مرهونةً بمشيئتِهِ سبحانَه فحسب، ومفعولُ المَشيئةِ الأصلُ فيه الحذفُ.

نجاةُ النّاسِ بقطْعِ النَّظرِ عن إيمانِهم مَرهونةٌ بمَشيئتِهِ سُبحانَه

معنَى العطفِ بالواو واحتمالاتُه:

الواو في قوله تعالى: ﴿وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ أفادتِ الوصلَ بين الجملتين، والتّغايُرُ بينَهما بيّنٌ؛ فبعد أن بيّنَ احتمالَ

سُننُ الله تعالى في الإنجاءِ والتَّعذيبِ ثابتةٌ بثباتِ صفاتِ الرّحمة والعدلِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/70.
(2) الهرريّ، حدائق الرَّوح والرَّيحان: 14/139.

نجاة بعضٍ منهُم لمّا قال: ﴿فَنُجِّيَ مَن نَّشَآءُۖ﴾، عَقَّبَ أنّ هؤلاء الّذين نَجوا من غير المُؤمنين لن يُرَدَّ بأسُ اللّه تعالى عنهم، إنْ لم يعودوا ويتّعظوا ويؤمنوا، فإنَّهم واقعونَ في بأس اللّه تعالى.

أو أن تكونَ الواو لبيانِ حُكم اللّه تعالى الكلّيِّ في المُجرمين؛ أي: إنّ بأسَ اللّه نازلٌ في المُجرِمين في كلّ زمانٍ، كما كانَ للسّابقين، وعليه فالعطفُ من باب عطفِ سُنّةٍ كونيّةٍ على أخرى، فالأولى: إنجاءُ المُؤمنين، والأخرى: تعذيبُ المُجرِمين.

بَلاغةُ بناءِ الفعلِ للمفعولِ:

حذفُ المفعولِ أدلُّ على العمومِ، وأرسخُ في التّهويلِ

بُني فعلُ ﴿يُرَدُّ﴾ في قولِه تعالى: ﴿وَلَا يُرَدُّ بَأۡسُنَا﴾ للمفعول للتّخويف؛ فهذا البأسُ لا رادَّ له؛ إذ لا توجدُ قوّةٌ مهما بلغ شأنُها، في هذا الكون قادرةٌ على ردِّهِ ومنعِهِ، فبناءُ الفعل للمفعول تهويلٌ وتخويفٌ من عظيم عقابِ اللّه وبأسِه الّذي سيصيبُ القومَ المُجرِمين، ولا رادَّ له مهما كان مِنَ القوّةِ الّتي يمتلِكُها الطُّغاةُ؛ لأنَّ بأسَ اللّه يكونُ بتسخير سُننِ الكونِ في ذلك، ﴿وَلَا يُرَدُّ بَأۡسُنَا﴾؛ أي: عذابُنا لِما له مِنَ العَظَمةِ[1]. فَعَدَمُ ذكرِ الفاعلِ المقصودُ منه العمومُ، وهذا أبلغُ في إثبات عظمةِ اللّه تعالى واقتدارِهِ على إنفاذ إرادتِه.

بديعُ فنِّ المُقابلةِ:

أقدارُ النّاسِ والأُممِ رهينةُ المَشيئةِ الإلهيّةِ

وردَ في الآية فنُّ المُقابلة؛ إذ ذكرَ مع الرُّسلِ (مجيءَ النّصر)، وذكرَ مع الكافرين (نفيَ ردِّ البأس)؛ وفائدتُه بيانُ شمولِ القدرة الإلهيّةِ لكلّ حالاتِ النّصرِ والعقوبةِ، والتأييدِ والخذلانِ. ولا يكون ذلك إلّا بمشيئةِ اللّه تعالى، فقوّةُ اللّه وإرادتُهُ هي الحاكِمُ الأوحدُ في هذا الكون، وفي مصائرِ النّاسِ والأُممِ.

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 4/113.

بَلاغةُ الكنايةِ:

قوّةُ الأممِ المُجرِمةِ بريدُ شُؤمٍ

التّصريحُ بذكرِ الموصوفِ ﴿ٱلْقَوْمِ﴾ مع إغناءِ الصّفةِ عنه ﴿ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ في قوله تعالى: ﴿ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾؛ أي: وإنْ كانوا في غايةِ القوّةِ[1]؛ كنايةٌ عن قوّةِ هؤلاء، وهي كنايةٌ عن نسبةٍ؛ إذ نَسَبَ إليهُمُ الإجرامَ، وهو مُتفاوتٌ بينَهُم، فكلٌّ سيُؤخَذُ بجريمتِهِ، ولن يُرَدَّ بأسُ اللّه عنهم جميعًا، فصرّحَ بالقوم لِما فيها من دلالة القوّةِ والتّماسُكِ المُجتمعيِّ، والاتّفاقِ على الرّأي.

سِرُّ اخْتيار صِفةِ الإجرامِ:

الإجرامُ هو علّةُ التّعذيبِ الحقيقيّةِ، وليسَ الكفرَ المُجرَّدَ

جرَت سنّةُ اللّه أنْ يُبَلِّغَ الرّسلُ أقوامَهم، ويقيموا عليهم الحُجَّةَ، وينذروهُم سوءَ عاقبَةِ الكُفرِ والتَّكذيب، فيؤمِنَ المُهتدون، ويُصِرَّ المُعاندون، فيُنَجّي اللّه الرُّسُلَ، ومَن آمنَ من أقوامِهم، ويُهلِكَ المُكذِّبين المُجرِمين. ولا يخفى ما في الآية مِنَ التَّهديد والوَعيد لكفّار قُريشٍ، ومَن كانَ على شاكلتِهم[2]. وذَكَرَ المُجرِمين؛ لأنّ كثيرًا مِنَ المُكذِّبين يتّخذون سُبلًا إجراميّةً في منع الرّسلِ ومَنْ آمنَ معهم مِن دينِهم والدّعوة إليه، فاستحقّوا على إجرامِهم التّهديدَ والوعيدَ، فالإجرامُ هو علّةُ التَّعذيبِ، لا مُجرَّدُ الكفرِ أوِ الشّركِ، وإذا ذُكِرَ الكفرُ مع العذابِ، فالمرادُ منه الكفرُ المُحفِّزُ على الإجرام ونصبِ العداءِ الفعليِّ، لا الاكتفاء بالقولِ الحِجاجيِّ.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيّةُ:

اليَأسُ والقُنوطُ والخيبةُ:

اليأسُ انقطاعُ الطَّمعِ مِنَ الشّيء، والقُنوطُ أخصُّ مِن مُطلَقِ اليأسِ

القُنوطُ أشدُّ مُبالغَةً مِنَ اليَأس، فأمّا اليَأسُ فقد يكونُ قبلَ الأمل، وقد يكونُ بعدَه[3]، وإذا كان اليأسُ هو انقطاعَ الطَّمعِ مِنَ الشّيء، فإنّ القُنوطَ أخصُّ منه، فهو أشدُّ اليأس.

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 4/113.
(2) الهرريّ، حدائق الرَّوح والرَّيحان: 14/142.
(3) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 245.

وقال الرّاغب: القُنوطُ: اليأسُ، وقيل هو منَ الخير، فهو أخصُّ من مُطلَقِ اليأس[1]. قال تعالى: ﴿فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ ۝٥٥﴾ [الحجر: 55]، وقال: ﴿وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ۝٥٦﴾ [الحجر: 56]، وقال: ﴿يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ﴾ [الزُّمر: 53].

الرَّدُّ والرَّجْعُ:

الرّجعُ من غير كراهةٍ، والرَّدُّ مع الكراهةِ

يجوزُ في الرّجع أن يكونَ من غير كراهةٍ له؛ قالَ تعالى: ﴿فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ﴾ [التّوبة: 83]، والرّدُّ يأتي مع الكراهيةِ لأمرٍ ما، مثل قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ۝٧٦﴾ [هود: 76]، ثمَّ رُبّما استُعمِلَت إحدَى الكَلِمَتَينِ مَوضِعَ الأُخرَى لقُربِ مَعناهُما[2]، كما أنَّ الرّدَّ يكونُ لِما في ترداد.

(1) الرّاغب، المفردات: (قنط).

(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 436.

﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ١١١﴾ [يوسف: 111]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

مُناسبةُ الآيةِ الأخيرةِ مَطلعَ السّورةِ الكريمةِ في ذكْرِ القَصصِ والاعتبارِ منها

بعد أن ذَكَرَ في الآيات السّابقةِ قصصَ السّابقين منَ المُرسَلين، وما يجمعُهُم مع أقوامِهم من مَواقِفَ ثابتةٍ، ثُمَّ ذَكَرَ النّهايةَ المَحتومةَ بنصر الرُّسلِ على أقوامِهم المُنكِرين المُعانِدين؛ ناسبَ أن يذكُرَ في هذه الآية أنّ في هذهِ القصصِ عِبرةً لمَن يتفكَّرُ بها، وأنّ ما وردَ فيها ليس حديثًا كأحاديث القاصّينَ الّذين يَرْوونَ من خيالاتِهم ما شاؤوا، إنّما هو ما وقعَ فعلًا على مدى تاريخ الأمم. وتُمثِّلُ هذه الآيةُ آخرَ السّورة، وهي مَردودةٌ على مَطلعِ السّورة في قولهِ تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ٣﴾ [يوسف: 3]. فالآيةُ من باب التَّصدير في ردِّ الأواخرِ على الصّدور، وهي مُناسبةٌ حَسَنةٌ على مستوى السّورة كلِّها.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلْأَلْبَٰبِۗ﴾: جَذرُ الكلمة (لبب)؛ ولُبّ اللَّوز وغيره ولُبابُه. ومِنَ المَجاز: هو ذو لُبٍّ، وهو من أولي الألباب، وهو لبيبٌ منَ الألبّاء[1]، ولبُّ كلِّ شيءٍ ولُبابُه خالصُه وخيارُه، وقد غلبَ اللُّبُّ على ما يُؤكَلُ داخلُهُ، ويُرمَى خارجُهُ مِنَ الثّمَرِ، وشيءٌ لبابٌ خالصٌ، وهو لبابُ قومِه، وهم لبابُ قومِهم، وهي لبابُ قومِها[2]. والمُراد في الآية

(1) الزّمخشريّ، أساس البلاغة: (لبب).
(2) ابن سيده، المُحكم: (لبب).

من قوله: ﴿لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِۗ﴾ أصحابُ العقولِ الّتي تُعمِلُ عُقولَها في التَّفكُّر فيما هو نافعٌ لها من هذه القصص العظيمةِ، الّتي ذكرَها القرآنُ الكريمُ، ويأخذون منها العِبرَ والعِظاتِ.

2) ﴿يُفۡتَرَىٰ﴾: جذرُ الكلمة هو (فري). والفَرْيُ الشَّقُّ ... وفَرَيتُ الشّيءَ بالسَّيف وبالشَّفرة: قطعتُه، والفَرِيَةُ: الجَلَبة. وقيل: أفراهُ: شقَّهُ وأفسدَهُ. وفَرَى يَفري فلانٌ الكَذِبَ، إذا اختلقَهُ. والفِرية: الكَذِبُ والقَذفُ[1]. والفَري: الأمرُ العَظيمُ في قوله تعالى: ﴿لَقَدۡ جِئۡتِ شَيۡـٔٗا فَرِيّٗا ٢٧﴾ [مريم: 27]. والفريةُ: الكذبُ فَرَى كذبًا فريًا، وافتراهُ: اختلقَهُ، ورجلٌ فَري ومِفْرًى، وإنّه لَقبيحُ الفِرْيَة[2]. وهذا هو المعنى المُرادُ في الآية: أنّ القرآنَ الكريمَ لم يكنْ من أكاذيبِ الأخبارِ الّتي كان النّاسُ يَتناقلونَها بينَهُم، بل هو تصديقٌ لِما جاء من قصصٍ في الكتبِ الإلهيّةِ السّابقةِ.

المَعْنى الإجْماليّ:

خُتِمَتِ السّورةُ بما يحثُّ على إدراك مَواضِعِ العِبرِ والعِظاتِ المُكتَنَهةِ فيما ورد من قصص الأنبياءِ وأقوامِهم، ثمّ نبّهَ إلى عظيم شأنِ القرآن، وأنّ ما فيه ليس حديثًا كأحاديث القاصّين الّذين يرْوون نَتاجاتِ خيالاتِهم منَ الأباطيل والأساطير؛ بل كتابَ اللّه الّذي جاء مُصدِّقًا لِما كان قبلَهُ من كتبٍ إلهيّةٍ، وفيه تفصيلُ كلِّ شيءٍ؛ إذ يحتاجُهُ البشرُ في إصلاح النّفوسِ وتنظيمِ الأحوالِ، في الدّنيا والآخرة، ومَنِ التزمَ هديَهُ وشرعَهُ كانَ له هُدًى ورحمةً.

القرآنُ كتابُ هدايةٍ واعتبارٍ لا كتابُ حِكايةٍ واجترارٍ

العِبرةُ المُستفادةُ منَ القصّةِ:

وجهةُ الاعتبار بقصّة يوسفَ عليه السلام؛ أنّ الّذي قَدِرَ على إنجاء يوسفَ بعد إلقائه في الجُبّ، وإعلاءِ أمرِه بعد وضعِه في السِّجن،

اللـه قـادرٌ على إعزاز محمّدٍ ﷺ وإظهارِ دينِه

(1) الخليل، العين: (فري).
(2) ابن سيده، المُحكم: (فري).

والتَّمكينِ له في الأرض من بعد الحبس الطَّويلِ، وتمليكِه مِصرَ بعد أن بيعَ بالثَّمن البَخسِ، وإعزازِه على مَن قَصَدَهُ بالسّوء مِن إخوتِه، وجمْعِ شملِهِ بأبويه وبهِم بعد المُدّة والزّمن الطّويل؛ قادرٌ على إعزازِ محمّدٍ ﷺ، وإعلاءِ كلمتِه، وإظهارِ دينِه، وإخراجِه من بين أظهرِكُم، وإظهارِه عليكم، وتمكينِه في البلاد، وتأييدِه بالجنّد والرّجال والأتباع والأعوان. وإنّ الإخبارَ بهذه القصّةِ جارٍ مَجرَى الإخبارِ عنِ الغيوب، فكانَت مُعجزةً لمحمّدٍ ﷺ[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيّ:

بلاغةُ التّذييلِ للسّابق:

طلبُ العِبرةِ مَسلكُ أولي الألبابِ

نُزّلَتِ الآيةُ مَنزِلةَ التّذييلِ للجُملِ المُستَطرَدِ بها لقصدِ الاعتبارِ بالقصَّةِ ابتداءً من قولِه تعالى: ﴿وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ ١٠٣﴾ [يوسف: 103][2]؛ إذ جاءَتِ الآيةُ ببيان طلبِ العِبرَةِ عند أولي الألبابِ ممّا ذُكِرَ من أخبار الرّسُلِ وأقوامِهم.

بَلاغةُ التَّصديرِ:

ربطُ آخرِ السّورةِ بأوّلِها دليلُ ترابُطِ المقاصدِ وتجاذُبِ الغاياتِ

رُدَّ لفظُ القَصصِ في آخرِ السّورةِ ﴿لَقَدۡ كَانَ فِي قَصَصِهِمۡ عِبۡرَةٞ﴾ على أوّلِها في قولِه تعالى: ﴿نَحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ﴾ [يوسف: 3]؛ وهذا ما يُسمّى بفنّ التَّصديرِ[3]. وفائدةُ ذلك العَوْدُ بالفكرِ المُتدبِّرِ إلى أوّل السّورة، ليُعلمَ أنّ أحسنَ القَصص الّتي يقصُّها القرآنُ على رسولِه هي أصدقُ القَصصِ الّتي فيها العِبرَةُ والعِظاتُ، وقولِه: ﴿لَقَدۡ كَانَ فِي قَصَصِهِمۡ﴾؛ أي: الخبرِ العظيمِ الّذي تُلي عليكَ تَتَبُّعًا لأخبار الرُّسلِ الّذين طالَ بهِم البلاءُ حتّى استَيأسوا، من نوحٍ إلى يوسفَ

(1) الهرريّ، حدائق الرَّوح والرَّيحان: 14/142.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/71.
(3) التّصديرُ هو أن تكونَ تلك اللّفظةُ بعينِها تقدّمَت في أوّل الآيةِ، وتُسمّى أيضًا ردَّ العَجُزِ على الصّدر. يُنظر: السّيوطيّ، الإتقان: 3/354.

ومَن بعدَهُ[1]؛ ﴿عِبْرَةٌ﴾ لمَن جاءَ بعدَهم، وصَدَّقَ بما قصصْنا عليك، وآمنَ بالكتاب.

عِلَّةُ فصْلِ الآيةِ:

فُصِلَ قولُه تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ﴾ عن سابقِه لكمالِ الاتّصالِ بين الآيتين؛ فالجملتان خبريّتان، وقد تناولتا معنًى واحدًا؛ فكانَتِ الجملةُ الثّانيةُ بمنزلة البدل منَ الجملةِ الأولى؛ إذ تناولَتِ الآيةُ السّابقةُ الدّعوةَ إلى السّيرِ في الأرض، وأخذِ العِبرةِ في هذه الحياة من قَصص الأقوامِ السّابقةِ، وأتَت هذه الآيةُ لِتُبيّنَ الحقيقةَ نفسَها، وتؤكّدَها بقوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ﴾.

تأكيدُ مَقاصِدِ النَّظرِ في الأمم السّابقةِ بمَقاصِد العِبرِ في الرّسلِ السّابقةِ

غَرَضُ التَّوكيدِ:

في قولِه تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ﴾ تأكيدُ الجملةِ بـ (قد) واللّام الموطئة للقسَم للتّحقيق[2]. وقد أفاد هذا التّوكيدُ أهمّيّةَ تلك القَصص، وما تؤدّيه مِنَ العِبرةِ لمَن يَعتبرُ، وهُم أصحابُ العقول القابلةِ للنّصيحة، المُتفاعِلةِ مع قصصِ الأنبياءِ، وما حَدَثَ لأقوامِهم. وغرضُ التَّوكيد تثويرُ الأذهان وتحريكُ العقولِ؛ للاعتبار والمُفاتَشَة عن مَوضِع العِبرةِ.

تحريكُ الأذهانِ وإيقادُ الأفئدةِ في التَّفتيشِ عن مَوضِعِ العِبرَةِ

نُكتةُ التَّعبيرِ بالمصدرِ مع إضافتِه إلى الضّميرِ:

القَصَصُ مَصدرُ قصَّ الخبرَ؛ إذا حدَّثَ به؛ والمقصودُ به في قوله: ﴿فِي قَصَصِهِمْ﴾: "أي: قصصِ يوسفَ وإخوتِه وأبيه وخبرِهم، وقُرِئَ شاذًّا بكسر القافِ جمعُ قصّةٍ؛ أي: قصصِ الأنبياءِ وأممِهم"[3]؛ والإضافةُ إلى ضمير (هم)؛ أي: قصص الأنبياءِ الّتي وردَت في القرآن الكريم، ومنها: قصّةُ يوسفَ عليه السلام الّتي جاء تفصيلُها في سورة يوسفَ، باعتبارها الأنموذجَ لذلك القَصص، فالقَصصُ

قَصصُ الرّسلِ هي ميدانُ تَفكُّرِ العقولِ السَّليمةِ الباحثةِ عنِ الحقيقةِ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 4/116.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/71.
(3) الهرريّ، حدائق الرَّوح والرَّيحان: 14/142.

ميدانُ تفكُّرِ العقولِ السَّليمةِ الباحثةِ عنِ الحقيقة، والضّميرُ في ﴿قَصَصِهِمْ﴾ عائدٌ على الرّسلِ، أو على يوسفَ وأبَوَيه وإخوَتِه، أو عليهم، وعلى الرّسُلِ ثلاثةُ أقوالٍ[1]. وجميعُ هذه الحالات فيها مِنَ العِبرةِ ما يكفي لاتّعاظ الأممِ بها.

دَلالةُ استعمالِ حرفِ الظَّرفيَّة المجازيَّة:

العِبرَةُ مُتضمَّنةٌ في قَصصِهم كما يوضَعُ الشَّيءُ في وِعائِه

حرفُ ﴿فِي﴾ في قولِه تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ﴾ ظرفيٌّ مجازيٌّ، وآثرَ النّظمُ الكريمُ استعمالَه دون حرف الباءِ، فلم يقُلْ: (بقصصهم)؛ لجعلِ العِبرَةِ مُتضمَّنةً في قَصصِهم كما يوضَعُ الشَّيءُ في وعائِه، فمَن أراد العِبرَةَ فلا بُدَّ له مِنَ التَّدبُّر في قصصِهم والسَّيرِ في الأرض والنّظرِ في آثارِهم. ومعنى كونِ العِبرَةِ في قَصصِهم أنَّها مَظروفَةٌ فيه ظَرفيّةً مَجازيّةً، وهي ظرفيّةُ المَدلولِ في الدَّليل، فهي قارَّةٌ في قصصِهم، سواءٌ اعتَبَرَ بها مَن وُفِّقَ للاعتبار أم لم يَعتَبِرْ لها بعضُ النّاسِ[2].

فائِدةُ انتقاءِ لفظِ ﴿عِبْرَةٌ﴾ دون (عِظَةٍ):

الـعِـبرَةُ وسيلةٌ موصِلةٌ للغاية، وهي الاتّعاظُ

في قولِه تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ﴾؛ والعِبرَةُ هي عِظَةٌ عظيمةٌ وذكرى شريفةٌ[3]. والعِبرَةُ: اسمُ مصدرٍ للاعتبار، وهو التَّوصُّلُ بِمَعرفةِ المُشاهَدِ المَعلومِ إلى مَعرفةِ الغائِبِ، وتُطلَقُ العِبرَةُ على ما يَحصُلُ به الاعتبارُ المذكورُ من إطلاقِ المصدرِ على المفعولِ كما هنا[4]. وذلك على خلافِ العِظةِ الّتي هي نتيجةٌ للعِبرَة، وتأتي مُباشرةً دون التَّفكُّر، ودون تلك الوسائطِ الفكريّةِ الّتي تكون سببًا للوقوف أمام تلك الأحداث والتّأثُّر بها. فالعاقلُ مَنِ اتّعظَ بتلك العِبَر، فمَنِ اعتبرَ فقد اتَّعظَ، فَذَكَرَ الوسيلةَ الموصِلَةَ للغاية.

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/348.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/71.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 4/116.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/71.

نُكتةُ تَنكيرِ ﴿عِبۡرَةٞ﴾:

قَصصُ الأنبياء مناهجُ وقواعدُ تصويبٍ لحياة الأممِ والشّعوبِ

أفادَ تنكيرُ ﴿عِبۡرَةٞ﴾ التَّفخيمَ والتّعظيمَ؛ إذ ما أعظمَ أن تُؤخَذَ العِبَرُ من حوادث الماضي، وما أفخَمَ أن تكونَ من أحوال قصصِ الأنبياءِ، فيكونُ لكلّ نبيٍّ قصّةٌ فيها مِنَ العِبَرِ والعِظاتِ الّتي تستحقُّ أن تكونَ جميعًا مَنهجًا مُجتمَعيًّا، وقواعدَ تصويبٍ لِمَسيرة الحياة، فهي عِبرةٌ عظيمةٌ، ودلَّ على ذلك سياقُ الآيةِ.

معنَى (اللّامِ) ودلالتُها:

معنى اللّام في قولِه تعالى: ﴿عِبۡرَةٞ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِۗ﴾ الاختصاصُ؛ فقد اختُصَّ أولو الألباب بتلك العِبرةِ العظيمة؛ لأنَّ عقولَهم قد ميّزَتهُم من غيرِهم؛ أنّها تَستمدُّ من تلك القصصِ الدّروسَ الثّمينةَ الّتي هي بمنزلة ناصحٍ أمينٍ لهم.

تَوجيهُ المخصوصِ بالذِّكرِ:

أولو الألبابِ هُمُ الّذين يَجمعون إلى العقولِ الصّافيةِ السّلوكيّاتِ الرّاقيةَ

خَصَّتِ الآيةُ بالذّكر (أولي الألباب) دونَ أولي النّهى وأصحابِ العقول ومُرادفاتِها. والألبابُ: جمعُ اللّبِّ. واللُّبابُ: الخالصُ من كلّ شيءٍ، ورجلٌ مَلبوبٌ؛ أي: موصوفٌ باللّبّ. وقد اختُصّ اللُّبُّ؛ لأنَّ لُبَّ الرَّجلِ ما جُعِلَ في قلبه منَ العَقل[1]، ولأنّ منظومةَ التَّفكير تراوح بين القَلب والعَقل، فيكونُ اللُّبُّ ما يراه فيتفكَّرُ به فيعقلُهُ، ويعتقدُ به فيؤثّرُ ذلك في قلبه، فيأخذُ ممّا عَلِمَ العِبرةَ والعِظَةَ. وهؤلاء قلَّةٌ في النّاس؛ إذ يجبُ أن يجمعوا إلى العلم سلوكًا، وإلى السّلوك إحسانًا ومُصابرةً، ولذلك فقد اختصَّ أولي الألباب دونَ غيرِهم، فلم يقُلْ: لأولي النُّهى، أو لِلمُؤمنين، أو لِلمتَّقين.

نُكتةُ جمعِ لفظِ ﴿ٱلۡأَلۡبَٰبِۗ﴾:

يقول الرافعي: إنّك ترى بعضَ الألفاظِ لم يأتِ فيه إلا مجموعًا

(1) الخليل، العين: (لب).

دعوةٌ إلى التّفكيرِ الجمعيِّ في سبيل الوصولِ إلى الحقائقِ

ولم يُستعمل منه صيغةُ المفردِ، فإذا احتاج إلى هذه الصّيغةِ استعمل مرادفَها: كلفظة (اللبّ)؛ فإنّها لم ترد إلا مجموعةً، بل جاء في مكانها (القلب)، وذلك لأنّ لفظَ الباء شديدٌ مجتمعٌ، ولا يفضي إلى هذه الشدّةِ إلا منَ اللّام الشّديدة المُسترخيةِ، فلمّا لم يكن ثَمَّ فصلٌ بين الحرفين يتهيّأُ معه هذا الانتقالُ على نسبة بين الرخاوةِ والشّدةِ؛ تُحسّنُ اللّفظةَ مهما كانت حركةُ الإعراب فيها؛ نصبًا أو رفعًا، أو جرًّا؛ فأسقطها من نظمِه بتّةً، على سَعة ما بين أوّله وآخره، ولو حَسُنت على وجه من تلك الوجوه لجاء بها حسنةً رائعةً[1]. فضلًا عن أنّ في جمعها دعوةً للتّفكير الجمعيِّ في سبيل الوصولِ إلى الحقائق، لذا جاءت في سياقاتٍ تدعو إلى هذا العمل الجمعيِّ في سبيل الوصول إلى الثّمرةِ.

مَوقِعُ الجملةِ مِنَ السّابق:

القَصَصُ خَبَرُ صِدقٍ مُطابِقٌ للواقعِ

جملةُ ﴿مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ﴾ إلى آخرِها تعليلٌ لجملةِ ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ﴾؛ لأنَّ ذلك القَصَصَ خبرُ صدقٍ مُطابِقٌ للواقع، وما هو بقصّةٍ مُختَرَعةٍ. ووَجهُ التّعليلِ أنّ الاعتبارَ بالقصّةِ لا يحصُلُ إلّا إذا كانَت خبرًا عن أمرٍ وقَعَ؛ لأنّ تَرتُّبَ الآثارِ على الواقِعاتِ تَرَتُّبٌ طبيعيٌّ، فمِن شأنِها أن تَترتَّبَ أمثالُها على أمثالِها كلّما حَصَلَت في الواقع، ولأنّ حُصولَها مُمكِنٌ؛ إذِ الخارجُ لا يقعُ فيه المُحالُ ولا النّادرُ، وذلك بخلافِ القِصصِ المَوضوعةِ بالخَيالِ والتَّكاذيبِ؛ فإنَّها لا يَحصُلُ بها اعتبارٌ؛ لاستبعادِ السّامعِ وقوعَها؛ لأنّ أمثالَها لا يُعهَدُ، فالسّامِعُ يتلقّاها تَلَقّي الفُكاهاتِ والخَيالاتِ، ولا يَتَهيَّأُ للاعتبارِ بها[2].

(1) الرافعي، إعجاز القرآن والبلاغة النّبويّة، ص: 160.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/71 - 72.

سِرُّ العُدولِ بتَسميةِ القَصصِ بالحديثِ:

الآيةُ تعريضٌ بمَن يَسمعون الأحاديثَ المُفتراةَ فيُضيِّعون أوقاتَهم هذرًا

في قولِه تعالى: ﴿مَا كَانَ حَدِيثًا يُفۡتَرَىٰ﴾ هذه الآيةُ ناظرةٌ إلى قوله تعالى في أوّل السّورة ﴿نَحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ﴾ [يوسف: 3]، فلمّا سمّاهُ اللّه أحسنَ القَصصِ في أوّل السّورة؛ نفى عنه الافتراءَ في هذه الآيةِ؛ تعريضًا بمَن أنكروا القرآنَ، وادّعوا بأنَّه مُفترًى؛ وسمَّى القصصَ بالحديث المُفترى؛ لأنّ النّاسَ كانوا يَستأنسونَ لسماع أحاديثِ القاصّين، فيرْوونَ لهم منَ الخيال والأكاذيب والمُبالغات والخُرافات، فالسّامِعُ يتلقّاها أحاديثَ مُجرَّدةً عن أخذِ العِبرةِ والعِظةِ منها، إنّما هي للتّسامُرِ وقضاءِ الأوقات؛ أي: ما كان حديثًا مُفترًى كما تظنّون، أو كما اعتَدتُم من سماع القصصِ بهذا الاعتبار.

ومجيء كلمة ﴿حَدِيثًا﴾ بصيغة التّنكير ليُفيد هنا تعظيمَ القرآن وتفخيم شأنه، من جهة تنقيص قدر أيّ حديث مفترًى.

نُكتةُ التّعبيرِ بالمضارعِ المبنيّ للمفعولِ:

تهوينُ شأنِ ما يُفترَى من أساطيرِ الأوّلين

في قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ حَدِيثًا يُفۡتَرَىٰ﴾؛ أفاد المُضارعُ هُنا التَّجدُّدَ مع الزّمان، فالقصصُ يستمرُّ تداولُها بين النّاس على مدى الأجيال المُتعاقِبةِ، فهذه القصصُ لم تكنْ كحديثٍ يُفترَى ممّا يخترعُه القاصّون من أساطيرِ الأوّلين، ولكنّه حقيقةٌ وصدقٌ. وتعبيرُهُ بالمفعول ﴿يُفۡتَرَىٰ﴾؛ لتهوين شأنِ تلك القصصِ الّتي تُفترَى، ونبذِ ذكر القاصّين لتلك الأحاديثِ الكاذبةِ؛ تحقيرًا لشأن أولئك القاصّينَ الّذين يَكذبونَ على النّاس؛ ليتكسَّبوا من قصصِهم أجرًا قليلًا، وهذا مُناسِبٌ لِما ذُكِرَ قبلُ في بيانِ أنّ الرّسولَ لا يسألُ النّاسَ على طلب الهدايةِ لهم أجرًا؛ فقال: ﴿وَمَا تَسۡـَٔلُهُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۚ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾.

بَلاغةُ الاسْتدراكِ:

في قولِه تعالى: ﴿وَلَٰكِن تَصۡدِيقَ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ﴾ استدراكٌ؛

لبيانِ أنَّ القرآنَ جاء به من لم يقرأ الكتبَ، ولا تَتَلمَذَ لأحَدٍ، ولا خالطَ العُلماءَ من بني إسرائيلَ، فمُحالٌ أن يفتريَ هذه القصّةَ؛ بحيث تُطابِقُ ما وردَ في التّوراة من غير تفاوتٍ[1]. فتكون فائدةُ الاستدراك هنا الإخبارَ بالغيب المُكتَنَهِ في تلك القصص، وبيانَ علمِ اللّه تعالى، وقدرتِه وتصرّفِه في الأشياء على ما لا يخطرُ على بالٍ، ولا يجولُ في فكرٍ.

ما كان قَصصُ القرآن حديثًا مُختلَقًا، بل هو من عندِ ربِّ البشرِ

ويمكنُ أن يعودَ المعنَى إلى القرآن؛ أي: ما كان القرآنُ الّذي تضمَّنَ قصصَ يوسفَ عليه السلام وغيرِه حديثًا يُختلَقُ، ولكنْ كانَ تصديقَ الكتبِ الإلهيّةِ السّابقةِ لنزولِه[2]. فأفادَ هنا الاستدراكُ أن تُختمَ السّورةُ، وما في قصصِها مِنَ العِبرَةِ والعِظاتِ؛ بالعَوْدِ إلى القرآن الكريم، فكانَ كلُّ ما ذُكِرَ آنفًا لم يُذكَرْ إلّا لغايةِ بيانِ أنّ القرآنَ الكريمَ جاء تصديقًا لِما سَبَقَه من رِسالاتِ الرُّسل.

ما كان القرآنُ حديثًا يُختلَقُ، ولكنّه تصديقٌ للكُتبِ الإلهيّةِ السّابقةِ

بَلاغةُ الكناية:

في قولِه تعالى: ﴿وَلَٰكِن تَصۡدِيقَ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ﴾ مقصودٌ به؛ أنّ القرآنَ جاء تصديقًا للكتب الإلهيّةِ السّابقةِ، وضميرُ ﴿بَيۡنَ يَدَيۡهِ﴾ عائدٌ إلى القرآن الّذي من جملتِه هذه القِصصُ[3]. فيكونُ معنى ﴿تَصۡدِيقَ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ﴾ كنايةً عن تصديقِه للكتب الإلهيّةِ، وهي الزّبورُ والتّوراةُ والإنجيلُ؛ إذ تضمَّنَ إعجازًا عن غيب الماضي الّذي هو أخبارُ الأمم السّابقةِ مع أُمّية النّبيِّ ﷺ.

القرآنُ تضمَّنَ إعجازًا قَصصيًّا غيبيًّا مُصدِّقًا لقِصصِ السّابقينَ

بَراعةُ الانتقالِ من خصوصِ التَّصديقِ إلى عمومِ التَّفصيلِ:

قولُه تعالى: ﴿وَلَٰكِن تَصۡدِيقَ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ﴾؛ أي: إنّ ما جاء به رسولُ اللّه ﷺ، هو تصديقٌ لِما سبقَهُ منَ الكُتُب والرّسالات الّتي جاءَت بها الرُّسلُ؛ لأنّه قد جاء ذكرُها في القرآن الكريم، فمِن أركان

الانتقالُ منَ التّصديقِ والإيمانِ إلى روايةِ قصصِ الاعتبارِ

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/337.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/348.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/72.

الإيمان؛ أن تؤمنَ برُسل الله وبكُتبه. ثمّ انتقلَ إلى مسألة التّفصيلِ، فقال: ﴿وَتَفۡصِيلَ كُلِّ شَيۡءٖ﴾، فذَكَرَ الأقوامَ، وذَكَرَ ما حلَّ بهم بعد أن أعرضوا وأصرّوا على الكفر، فكانوا عِبرةً وآيةً وعِظةً لأولي الألباب، فانتقلَ منَ الخاصِّ إلى العامِّ، انتقلَ منَ التّصديق والإيمان إلى رواية أحداثِ القصصِ الّتي كان فيها للمُؤمنين عِبرَةٌ. هذا فضلًا عنِ المعنى الشّاملِ لقوله: ﴿وَتَفۡصِيلَ كُلِّ شَيۡءٖ﴾؛ أي: تفصيلَ ما جاء في القرآن الكريم منَ الإيمانِ والشّريعةِ والقصصِ والأمثالِ والحِكَمِ والعلومِ وغيرها. ويكونُ قولُه: ﴿وَتَفۡصِيلَ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ واقعًا ليوسفَ مع أبَوَيهِ وإخوَتِه، إنْ كان الضّميرُ عائدًا على قصص يوسفَ، أو كلِّ شيءٍ ممّا يُحتاجُ إلى تفصيلِه في الشّريعة إنْ عادَ على القرآن[1].

دَلالةُ إضافةِ التَّفصيلِ لألفاظِ العُمومِ:

قولُه: ﴿وَتَفۡصِيلَ كُلِّ شَيۡءٖ﴾؛ والتّفصيلُ: التَّبيينُ. والمُرادُ بـ ﴿كُلِّ شَيۡءٖ﴾ الأشياءُ الكثيرةُ ممّا يَرجِعُ إلى الاعتبار بالقصصِ. وإطلاقُ الكلِّ على الكَثرةِ ورَدَ مثالُهُ في قوله: ﴿وَإِن يَرَوۡاْ كُلَّ ءَايَةٖ لَّا يُؤۡمِنُواْ بِهَاۖ﴾ [الأنعام: 25][2]. فـ﴿كُلِّ شَيۡءٖ﴾ يُرادُ بها الكثرةُ والمُبالغةُ لِما تضمَّنَته تلك القصصُ مِنَ العِبَرِ العَظيمةِ والعِظاتِ الكَريمةِ. فإضافةُ التَّفصيل لألفاظِ العُموم ﴿وَتَفۡصِيلَ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ دون أن يُقالَ: (وتفصيل القصص)؛ أفادَ تفصيلَ القصصِ وغيرِها من قضايا الإيمان، والشّريعة، وتربية النّفس، وإشارات العلوم، وغيرِها، وقد كان مُعجِزًا في كلّ ذلك ومُفصِّلًا له، فيدخلُ فيه جميعُ القيمِ والهداياتِ والفوائدِ والإشاراتِ والإرشاداتِ.

القُرآنُ الكريمُ تفصيلٌ للقيمِ والإرشاداتِ والهِداياتِ

سِرُّ عطْفِ النّكراتِ ﴿وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ﴾ على المَعارفِ:

الهُدى الّذي في القَصصِ؛ بمعنى: العِبَرِ الباعثةِ على الإيمان

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/348.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/72.

والتّقوى، بمشاهَدَةِ ما جاء منَ الأدلّة في أثناء القَصصِ، وعلى أنّ التّقوى هي أساسُ الخيرِ في الدّنيا والآخرة، وكذلك الرّحمةُ؛ فإنّ في قَصَصِ أهلِ الفَضلِ دلالةً على رحمة اللّه لهم وعنايتِهِ بهم، وذلك رحمةٌ للمُؤمنينَ، فَتَصلُحُ أحوالُهم، ويَكونونَ في اطمئنانِ بالٍ، فهي رحمةٌ مِنَ اللّه بهِم في الحياة الدّنيا، وسببٌ لرحمتِهِ تعالى إيّاهُم في الآخرة[1].

في قصص أهل الفضلِ هدايةٌ للمُؤمنين ورحمةٌ واطمئنانٌ

نُكتةُ تقديمِ الهُدى على الرّحمةِ:

قدَّمَ الهدى على الرّحمة في قولِهِ تعالى: ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً﴾؛ فالقرآنُ الكريمُ جاءَ بالهداية للنّاسِ كافّةً؛ قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [سبأ: 28]، ولا تكونُ الهدايةُ إلّا باتّباع الرّسولِ فيما أُنزِلَ عليه منَ الإيمان والتّشريع، فمَن آمنَ فقدِ اهتدى، ومنِ اهتدى فقد أصابَته رحمةُ اللّه تعالى، فتكونُ الرّحمةُ نتيجةً للهداية الرّبّانيّةِ في الإيمان والاتّباع، فالتّقديمُ من باب تقديمِ السّببِ على المُسَبَّبِ.

مَنْ آمنَ فقدِ اهتدى، ومنِ اهتدى أصابَته رحمةُ الله تعالى

بَراعةُ التّرقّي في التَّرتيبِ:

في الآية ما هو من قبيل التّرقّي في ترتيب المعاني؛ إذ بدأ بذكر التّصديقِ؛ فالقرآنُ الكريمُ هو استمرارٌ لِما جاءَت به الكتبُ السّماويّةُ مِنَ الدّين والإيمان، ثمّ إنّ القرآنَ الكريمَ أتى بالشّريعة التّفصيليّة الّتي ليسَت على ما جاءَت به شرائعُ الرُّسل السّابقينَ، فقال: ﴿وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ﴾؛ فيُفهَمُ تفصيلُ كلِّ شيءٍ ممّا يحتاجُه النّاسُ مِنَ الشّرع في عباداتِهم وحياتِهم، وفي التزام ذلك الإيمان بأركانه الّتي جاء بها القرآنُ، وجاءَت بها الرِّسالاتُ السّابقةُ، وتطبيقِ الشّرعِ الّذي جاء به القرآنُ الكريمُ؛ تفصيلًا لكلِّ قضيّةٍ ومَسألةٍ، يُضافُ إليها سنّةُ رسولِ اللّه ﷺ، فيكونُ صاحبُ هذا

تَصديقُ السّابقِ، فتفصيلُ القادمِ، فهِدايةُ العبادِ، فرحمةُ المُهتدين

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/72 - 73.

النّهجِ الرّبّانيِّ المستقيم قدِ اهتدى، ومَنِ اهتدى فقد حفّتهُ رحماتُ اللّه تعالى، فالتّرتيبُ بذكرِ التَّصديقِ للسّابق، فالتّفصيلُ للقادم، فالهُدى للعباد، فالرّحمةُ بمَنِ اهتدى، وهو ترتيبٌ بديعٌ.

نُكتةُ تنكير ﴿لِّقَوْمٍ﴾:

قوله: ﴿لِّقَوْمٍ﴾: أفاد تنكير هذه اللّفظة هنا التّعميمَ والتّفخيمَ لشأن هؤلاء القوم.

نُكتةُ ذكرِ ﴿لِّقَوْمٍ﴾:

آثرَ النّظمُ الكريمُ الإتيانَ بلفظ قوم في قوله تعالى: ﴿لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ دونَ أن يقولَ: (للمؤمنين)؛ كنايةً عنِ التّآزر الإيمانيِّ في المُجتمع، فهُم أهلُ دينٍ وإيمانٍ، يتناصحونَ بينهم، يؤيّدُ بعضُهم بعضًا على الإيمان، ويُعينُ بعضُهم بعضًا على الثّبات وأخذِ العِبرةِ من هذه القصص العظيمةِ، ولو قالَ لِلمُؤمنين لَما أفادَ هذه المعاني. وفيه إشارةٌ إلى أنَّ المُؤمِنين إنّما يقومونَ بمثلِ هذا، فلا قوامَةَ لَهم إنْ لم يجتمعوا قائِمينَ على أخذِ العِبرةِ والعِظةِ.

رابطةُ المجتمع الإيمانيّ عظيمةٌ مُؤثِّرةٌ

تَوجيهُ تَخصيصِ الإيمان بالذِّكرِ:

في قولهِ تعالى: ﴿لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ ذَكَرَ الإيمانَ دونَ التّقوى؛ بسببِ ما سبق من حديث الإيمان، وتصديقِ ما جاء في الكتب السّماويّةِ، مِنَ الإيمان باللّه والرّسل والرّسالات، فخُتِمَتِ الآيةُ بالتذييل بذكر الإيمانِ والمُؤمنين.

الإيمانُ والدّعوةُ إليه هو محورُ حديثِ هذه السّورة

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيّةُ:

العِبَرةُ والعِظةُ:

(العِبرَةُ): هي الدّلالةُ بالشّيء على مثله للعِظة والاعتبار، وهي الحالةُ الّتي يُتوَصَّلُ بها من مَعرفة المُشاهَدِ إلى ما ليس بمُشاهَدٍ، كما ورد هُنا في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ﴾. أمّا معنى (العِظَة) والمَوعظة فهو النّصحُ والتّذكيرُ بالعواقب. ولعلّ

العِظةُ تذكيرٌ بالشّيء، والعِبرَةُ دلالةٌ عليه

المَوعظةَ تذكيرٌ بالخير والشَّرِّ، والعِظةَ تذكيرٌ بالخير، وما يَرِقُّ له القلبُ.

الألبابُ والنُّهَى:

النُّهى هو النِّهايةُ في المَعارف، ويجوز أن يُقالَ: إنّها تفيدُ أنّ الموصوفَ بها يصلحُ أن يُنتهى إلى رأيه، وسُمّي الغديرُ نهيًا؛ لأنَّ السَّيلَ ينتهي إليه، والتّنهيةُ المكانُ الّذي ينتهي إليه السَّيلُ، والجمع التَّناهي[1]. أمّا الألبابُ فلُبُّ كلِّ شيءٍ خالصُه وخيارُه، وشيءٌ لبابٌ خالِصٌ[2]. والمُرادُ في الآية من قوله: ﴿لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِۗ﴾؛ أي: أصحابُ العقولِ النّاضجةِ الّتي تقدِّمُ خلاصةَ فكرِها فيما هو حَسَنٌ، وتُعمِلُ عُقولَها في التَّفكُّر والتَّدبُّر، لِتصلَ إلى عين الحقيقةِ.

النُّهَى للمعارفِ، والألبابُ لخالصِ الشَّيءِ

الافتراءُ والكذبُ:

الكذبُ: هو عدمُ مُطابقةِ الخبرِ للواقع، والافتراءُ أخصُّ منه؛ لأنَّه الكذبُ في حقِّ الغير بما لا يرتضيه، بخلاف الكذبِ فإنّه قد يكونُ في حقِّ المُتكلِّم نفسِه، ولذا يُقالُ لمَن قال: (فعلتُ كذا، ولم أفعلْ كذا) مع عدم صدقِهِ في ذلك: هو كاذبٌ، ولا يُقالُ: هو مُفترٍ، وكذا مَن مَدَحَ أحدًا بما ليس فيه، يُقالُ: إنَّه كاذبٌ في وصفِهِ، ولا يُقالُ: هو مُفترٍ؛ لأنَّ في ذلك ممّا يرتضيه المَقولُ فيه غالبًا. وقال سبحانَه حكايةً عنِ الكفّار: ﴿ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ [الأنعام: 21]؛ لزعمِهم أنَّه أتاهُم بما لا يرتضيه اللّه سبحانه مع نسبتِه إليه. وقد يحسنُ الكَذِبُ على بعض الوجوه دونَ الافتراء، كالكذبِ في الحرب، وإصلاحِ ذاتِ البَينِ[3].

الكذبُ عامٌّ، والافتراءُ أخصُّ منه؛ فهو كذِبٌ في حقّ الغير

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 552.
(2) ابن سيده، المُحكم: (لبب).
(3) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 449 - 450.

سُورَةُ الرَّعْدِ

سُورَةُ الرَّعْدِ

التَّعريف العامُّ بالسّورة:

حظيتْ سورة الرَّعد بنصيبٍ وافرٍ من اختلاف العلماء في مكّيّتها ومدنيَّتها؛ وقد ذكرها السّيوطيُّ ضمن السّور المُختَلَف فيها[1].

والرّاجحُ هو القول بمكيَّة السّورة كلِّها؛ فالرِّوايات الّتي ذكرت مكّية السّورة، ثم استثنت من مَكّيَّتها بعض الآيات؛ لم تَصِحَّ[2]، ويدفعه أسلوب الآيات الَّتي زعموا مدنيَّتها، والسّياق الَّذي جاءت فيه، وكذلك الاستثناء في الآية الأخيرة يدفعه أنَّها مُختتم السّورة قوبل بها ما في مُفتتحها[3].

وسورة الرَّعد هي السّورة الثّالثةَ عشرةَ من حيث ترتيبُها في المصحف الشّريف بعد سورة يوسف وقبل سورة إبراهيم، وأمّا ترتيبها النُّزوليِّ؛ فالَّذين قالوا: هي مكّيَّة لم يذكُروا موقعها من ترتيب المكّيّات[4].

وعدد آيات سورة الرّعد ثلاث وأربعون آية في العدد الكوفيِّ، وأربع وأربعون في العدد المدنيِّ والمكّيِّ، وخمس وأربعون في العدد البصريِّ، وسبع وأربعون في العدد الشّاميِّ[5].

تسمية السورة ومناسبة التّسمية:

لم يُعرف لسورة الرَّعد غير هذا الاسم التّوقيفيِّ، فقالوا: إنَّ سبب تسميتها بذلك كان لذكر الرَّعد فيها في قوله تعالى: ﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ ﴿١٣﴾﴾ [الرّعد: 13]، وهذا

(1) السّيوطيّ، الإتقان في علوم القرآن: 1/48، وللنظر في الأقوال يُرجى الرجوع إلى: الماورديّ، النّكت والعيون: 3/91، وابن الجوزيّ، زاد المسير في علم التّفسير: 3/480، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 9/278، وأبو حيّان، البحر المحيط: 6/343.

(2) كلُّ الروايات الّتي ذكرت قصة أربد بن قيس وعامر بن الطّفيل ومحاولتهما قتل النَّبيِّ ﷺ في المدينة، وأنَّها سبب نزول لتلك الآيات، كلُّها في سندها كلام طويل لضعف رُواتها. يُنظر تخريج تلك الرّوايات والحُكم عليها في: الهيثميّ، مجمع الزوائد ومنبع الفوائد: 8/41 - 43.

(3) الطّبطبائيّ، الميزان في تفسير القرآن: 8/254، ودَرْوَزَة، التّفسير الحديث: 5/515.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/76، والّذين جعلوها مدنيَّةً عدّوها في النُّزول بعد سورة القتال، وقبل سورة الرّحمن، وعدّوها سابعةً وتسعين في عداد النُّزول.

(5) الدّاني، البيان في عدّ الآي، ص: 169، والآلوسيّ، روح المعاني: 7/80.

ظاهر في التَّسمية، ولكنَّه لا ينهض أن يكون التَّوجيه الوحيد في ذلك، فقد وردت كلمة (الرَّعد) في سورة البقرة أيضًا.

وجه التَّسمية:

لم يرد للسورة تسمية سوى سورة الرّعد

صرَّح المفسِّر المهايميُّ برأيٍ معتبر في وجه تسمية سورة الرَّعد بهذا الاسم، فقال: "سُمّيت بها لما فيها من قوله ﷻ: ﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعۡدُ بِحَمۡدِهِۦ﴾ [الرّعد: 13] الدّالِّ على الصِّفات السَّلبيَّة والثُّبوتيَّة، مع الإخبار عن الأمور الملكوتيَّة، ومع كون الرَّعد جامعًا للتَّخويف والتَّرجيَةِ، وهذا من أعظم مقاصد القرآن"[1].

الرّعد رمزٌ للتقابل من حيث الخوف والطّمع

وهذا ملحظٌ مُعتبر، فإنَّ الرَّعد من النّاحية العلميَّة يتشكَّل نتيجة الالتقاء بين شحنتَيْن كهربائيَّتَيْن مُتنافرتَيْن؛ أيْ: إنَّه رمزٌ للتَّقابل، وإذا كانت هذه السّورة قد حُفَّت بشتّى أصناف المُتقابلات الحسّيَّة والمعنويَّة، والإيجابيَّة والسَّلبيَّة، والدُّنيويَّة والأخرويَّة، فلا غرابة حينئذٍ في تسميَتِها بهذا الاسم.

الثنائيّات المتقابلة في سورة الرّعد

ففي كلِّ مقطع، بل في كلِّ آية تجد الثّنائيّات المتقابلة في جنباتها، فيتقابل كتاب الحقِّ المسطور مع الكون المنظور، ويتقابل رفع السّماء بغير عمد مع الاستعلاء في الاستواء على العرش، وتتقابل السّماء مع الأرض، والشّمس مع القمر، واللَّيل مع النَّهار، والجبال الرّاسية مع الأنهار الجارية، ويتقابل الزَّوجان في الثَّمرات، ويتقابل الزَّبد الذّاهب مع الماء الباقي، وقطع من الأرض المتجاورات مع المختلفات، والنَّخيل الصّنوان مع غير الصِّنوان، ويتقابل ما تغيض به الأرحام مع ما تزداده، ويتقابل الماء مع النّار، والحِلية مع المتاع.

ومن التَّقابل المعنويِّ في السّورة: تقابل السَّيئة مع الحسنة، والمغفرة مع العقاب، ويتقابل مَن أسرَّ القول مع مَن جهر به، ومَن هو

(1) المهايميّ، تبصير الرّحمن وتيسير المنّان: 1/376.

مستخفٍ باللَّيل مع من هو ساربٌ بالنَّهار، ويتقابل الغيب مع الشّهادة، ويرتبط تغيير حال القوم مع تغيير ما بأنفسهم، وتتقابل إرادة اللّه مع عدم ردِّها، ويتقابل الخوف مع الطَّمع تجاه البرق، وتسبيح الرَّعد حمدًا مع تسبيح الملائكة خوفًا، ويتقابل فيها دعوة الحقِّ للّه مع دعوة الباطل للشّركاء، والطّوع مع الإكراه، والغدوُّ مع الآصال، والنَّفع مع الضّرِّ، والظُّلمات مع النّور، والأعمى مع البصير، والحقُّ مع الباطل، والذَّهاب مع المُكث، والاستجابة مع الإعراض، ويتقابل مَن يعلم مع مَن هو أعمى، والّذين يفرحون من أهل الكتاب بالقرآن مع مَن يُنكر بعضه، والمحو مع الإثبات في الكتاب، ونعم عقبى الدّار مع سوء الدّار، وغيرها من الثّنائيّات الظّاهرة والمُستترة.

الـرَّعـد سببٌ للماء والحياة، وسـبـب لـلـنّـار والموت

فالرَّعد عنوان المُتقابلات الثّنائيَّة الضِّديَّة الّتي ذكرت في السّورة، فكان ذلك وفاقًا وانسجامًا للاسم مع المضمون، وكان ذلك الاسم والمضمون مُمثِّلًا ومعانِقًا لمحور السّورة في مقابلة قوَّة الحقِّ لوهن الباطل، فإذا هو زاهق، فينبعث شعاع البَرقِ ليملأ الآفاق، وليزيل ظلمة اللَّيل البَهيم، فيسقي الأرض والضَّرع ليسبِّح الكون كلُّه مع تسبيحة الرَّعد؛ لذا فقد جمعت سورة البقرة بين الرَّعد والبرق في المثل المضروب في المنافقين في قوله تعالى: ﴿أَوۡ كَصَيِّبٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٞ وَرَعۡدٞ وَبَرۡقٞ يَجۡعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمۡ فِيٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلۡمَوۡتِۚ وَٱللَّهُ مُحِيطُۢ بِٱلۡكَٰفِرِينَ ١٩﴾ [البقرة: 19]، فمثَّلت حال المنافقين، وهم يتخبَّطون في ظلمات الكفر، بحال الغيث حين ينزل، وفيه أسباب الحياة وأسباب الموت، كما في إنذارهم من الوعد والوعيد، وهم يفرّون من دعوة الحقِّ.

❁ المحور الرّئيس الَّذي تدور حوله السّورة:

يقول البقاعيُّ في بيان مقصود السّورة وبيان محورها الرّئيس: "وُصف الكتاب بأنَّه الحقُّ في نفسه، المُنَزل إلى النَّبيِّ ﷺ، فتارةً

يتأثَّر عنه مع أنَّ له صوتًا وصيتًا وإرعابًا وإرهابًا يهدي بالفعل، وتارةً لا يتأثَّر بل يكون سببًا للضَّلال والعَمَى، لذا كان أنسب ما فيها لهذا المقصد: الرَّعد، فإنَّه مع كونه حقًّا في نفسه يسمعه الأعمى والبصير والبارز والمُستتر، وتارةً يتأثَّر عنه البرق والمطر وتارةً لا، وإذا نزل المطر؛ فتارةً ينفع إذا أصاب الأراضي الطّيّبة، وسلمت من عاهة، وتارةً يخيب إذا نزل على السّباخ الخوّارة، وتارةً يضرُّ بالإغراق أو الصَّواعق أو البرد وغيرها"[1].

كلُّ مقاطع السّورة تتحدَّث عن مظاهر نُصرة الحقِّ وخذلان الباطل بأساليب مُتعدِّدة، سواءٌ أكان ذلك في الظّواهر الطّبيعيّة أم كان في المَثَل، أم كان في الدّارين الدّنيا والآخرة، أم كان بإحاطة عِلمِه تعالى، أم كان باشتمال قدرته للعالمَيْن: العلويِّ والسّفليِّ، أم كان بقوة الدَّليل والحُجَّة الدّامغة، أم كان بالإنعام على خَلْقه، أم كان بإظهار القوَّة والقهر، كلُّ ذلك ينطق ويصدح بفناء الباطل، وتغلُّب الحقِّ[2].

ولا شكَّ أنَّ قهر الباطلِ بقوَّة الحقِّ يحتاج إلى الأخذ بأسباب الحقِّ؛ فقد قرَّرت السّورة بوضوح سنَّة اجتماعيَّة لا تتغيَّر، ولا تتبدَّل قد ربطت بين الأسباب والنَّتائج بجملة شرطيَّة، وهي قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ سُوٓءٗا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ١١﴾ [الرّعد: 11].

موضوعات سورة الرَّعد:

تناولت هذه السّورة عددًا من الموضوعات الَّتي يُنظّمها محورٌ واضح، وهي:

الأوّل: إقامة الأدلَّة المتنوِّعة على كمال قدرة الله تعالى وعظيم حكمته، تارة عن طريق التأمُّل في هذا الكون، وتارة عن طريق علمه المحيط بكلِّ شيء، وتارةً عن طريق المصائب والقوارع الّتي يُنزلها سبحانه بالكافرين.

الثّاني: إثبات أنَّ هذا القرآن من عند الله تعالى، وأنَّ الرَّسول ﷺ صادق فيما يُبلّغه عن ربِّه، والرَّدّ على المشركين فيما طلبوه من النَّبيِّ ﷺ من مطالب مُتعنِّتة.

الثّالث: تثبيت فؤاد النَّبيِّ ﷺ وتسليته عمّا لحقه من أذًى؛ وذلك لأنَّ السّورة الكريمة - كما سبق أن أشرنا - مكّيَّة، وأنَّها على الرّاجح قد نزلت في فترة اشتدَّ فيها إعراض

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 4/117.

(2) وقد قرَّر الشّيخ عبد الحميد طهماز قريبًا من هذا، يُنظر: طهماز، الأسباب والمُسبّبات في سورة الرّعد، ص: 25.

المشركين عن دعوة الحقِّ وتكذيبهم لها، وتطاولهم على صاحبها ﷺ ومطالبتهم له بالخوارق الّتي لا يؤيِّدها عقل سليم.

الخصائص الموضوعيّة:

الأوّل: حفلت السورة بإطار عامٍّ من كثرة المشاهد الكونيّة الحسّية تعرض فيها قوَّة الحقِّ وزهوق الباطل، والّتي شملت مشاهد السّماوات، ومشاهد الأرض، ومشاهد في جوانب الأرض وكوامن الحياة؛ ليأخذ ذلك كلُّه بلبِّ القارئ، وهذا الزَّخم بتلك الموضوعات لم يتكرَّر ذِكرُه في سورة أخرى بتلك الطّريقة.

الثّاني: الحديث عن صدق المُنزَل إلى النَّبيِّ محمَّد ﷺ وتبليغه له، وذلك لتثبيت الحقِّ الّذي معه في مواجهة الباطل، حيث كثر فيها الحديث عن المُنزَل، فبدأت السّورة بتأكيد أنَّ المُنزَل حقٌّ، ثم نفت استواء العلم بالمُنزَل ممَّن عمي عنه، ثمَّ مَدحتْ أهل الكتاب الّذين يفرحون بما أُنزل على مُحمَّد ﷺ، ثمَّ ذمَّت طلبَ المشركين إنزال آيات حسيَّة للدَّلالة على صدق المُنزل عليه، ثم تحدَّثت عن عظمة القرآن في علوِّ وضوحه وهدايته، كلُّ ذلك ليتلاءم مع محور قوَّة الحقِّ في مواجهة وهن الباطل.

الثّالث: الحديث الحثيث عن تقرير مصير الإنسان المؤمن أو الكافر، سواء أكان في الدّنيا أم في الآخرة؛ مثل قوله تعالى: ﴿۞وَإِن تَعۡجَبۡ فَعَجَبٞ قَوۡلُهُمۡ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدٍۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡأَغۡلَٰلُ فِيٓ أَعۡنَاقِهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [الرّعد: 5] وغيرها من الآيات في تقرير المصير، والّتي تحسم نصرة الحقِّ وقوَّته على وهن الباطل وهزيمته.

الرّابع: حديث السّورةِ عن الحقِّ والباطل صراحة، حيث ضربت السّورة الكريمة مثالًا فريدًا بنُصرة الحقِّ على الباطل في قوله تعالى: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَسَالَتۡ أَوۡدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا فَٱحۡتَمَلَ ٱلسَّيۡلُ زَبَدٗا رَّابِيٗاۖ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيۡهِ فِي ٱلنَّارِ ٱبۡتِغَآءَ حِلۡيَةٍ أَوۡ مَتَٰعٖ زَبَدٞ مِّثۡلُهُۥۚ كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡحَقَّ وَٱلۡبَٰطِلَۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذۡهَبُ جُفَآءٗۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمۡكُثُ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَالَ ١٧﴾ [الرّعد: 17]، وقد ورد ذِكر الحقِّ في السّورة ثلاث مرّات، والباطل مرةً واحدة، وتكرَّر ذِكْر الحقِّ والباطل بصور مجازيَّة متقابلة، مثل: (الأعْمَى والبَصيرُ، الظُّلُماتُ والنّورُ، آمنوا، وكفروا) وغيرها من دلالات قوَّة الحقِّ ووَهن الباطل.

الخصائص الأسلوبيّة:

هناك العديد من الأساليب والقضايا اللُّغويَّة الّتي ميَّزت هذه السّورة وأعطتها طابعًا خاصًّا، فمن ذلك الأمور الآتية:

الأوّل: ظاهرة التَّقابل الثّنائيَّة الّتي حفلت بها السّورة من أوَّلها إلى آخرها، في كلِّ مقطع، بل في كلِّ آية منها تجد الثّنائيّات الضِّدّية المتقابلة في جَنَباتها.

الثّاني: تميَّزت السّورة الكريمة بالتنوُّع في فواصل آياتها في الحرف الّذي تنتهي به كلُّ آية من آيات هذه السّورة، ففواصل السّورة الكريمة من سبعة أحرف، هي: حرف (الباء) في خمس عشرة آية، وحرف (الرّاء) في ثماني آيات، وحرف (اللّام) في سبع آيات، وحرف (النّون) في خمس آيات، وحرف (الدّال) في أربع آيات، وحرف (القاف) في ثلاث آيات، وحرف (العين) في آية واحدة، والَّذي يجذب القلوب، ويُشنِّف الآذان أنَّ جميع الفواصل الّتي اشتملت عليها هذه السّورة الكريمة يوقف عليه بالسُّكون مسبوقًا بحرفَيْ مدٍّ؛ هما: الألف والواو، وذلك علامة على وحدة الجَرْس في حرف الرَّويِّ وما قبله؛ لأنَّ للسُّكون بعد المدِّ وقعًا ترتاح له الأذن.

الثّالث: تفرَّدت السّورة عن غيرها من السّور بذِكْر الحروف المُقطَّعة (المر) في عقد سور (الر)، ولعلَّ ذلك عائدٌ إلى تفرُّداتها الموضوعيَّة والأسلوبيَّة، في عرض قوَّة الحقِّ ووهن الباطل بأسلوب الثّنائيّات الضِّدّيَّة؛ حتّى يشدَّ السّامعَ، ويقرع سمعه، ويذهب في ذلك كلَّ مذهب.

الرّابع: تفرَّدت سورة الرَّعد عن غيرها من السّور باشتقاقات وصيغ لم تَرِد إلّا فيها، ومن تلك الألفاظ: ﴿ٱلۡمَثُلَٰتُۖ﴾ [الرّعد: 6] و﴿ٱلۡمُتَعَالِ ٩﴾ [الرّعد: 9] و﴿تَحُلُّ﴾ [الرّعد: 31] و﴿خِيفَتِهِۦ﴾ [الرّعد: 13] و﴿رَّابِيَاۖ﴾ [الرّعد: 17] و﴿طُوبَىٰ﴾ [الرّعد: 29]، وحظيت السّورة الكريمة كذلك بألفاظٍ تفرَّدت بها عن غيرها من السّور من جهة الجَذْر والمادَّة؛ وهذه الألفاظ هي: ﴿صِنۡوَانٌ﴾ [الرّعد: 4] و﴿جُفَآءَۖ﴾ [الرّعد: 17] و﴿ٱلۡمِحَالِ ١٣﴾ [الرّعد: 13]، وإنَّ الجامع لهذه الألفاظ الثّلاثة الّتي تفرَّدت بها السّورة: أنَّها ذات اتِّصال مباشر بمحور السّورة في ضعف الباطل وهلاكه وقوَّة الحقِّ وبقائه، ثمَّ إنَّنا نجد أنَّ تلك الألفاظ الثّلاثة لها اعتلاق مباشر بالرَّعد، فالرَّعد المُتمثِّل بالقرآن هو قوَّةٌ وحياة لِمَن استجاب له، وضعفٌ وموتٌ لِمَن تركه ﴿صِنۡوَانٌ وَغَيۡرُ صِنۡوَانٍ﴾،

وكذلك خالق الرَّعد شديد المِحال، وكذا الرَّعد نجد دوره في المطر، ليجلّي النَّفع في الحقِّ الماكث في الأرض، وليمحق، ويذهب الباطل ﴿جُفَآءً﴾ [الرّعد: 17] بسيل المطر النّاتج عنه.

المناسبة بين سورة الرّعد وسورة يوسف:

أولًا: زخرت السّورتان بالعديد من الخصائص المُشتركة وضوابط القرآن المكّيّ وخصائصه الموضوعيَّة، وأوّلها تقرير العقيدة، وكذلك افتُتِحت السّورتان بالحروف المُقطّعة ﴿الٓرۚ﴾ [يوسف: 1]، ﴿الٓمٓرۚ﴾ مُنوِّهَةً بعدها بشأن القرآن الكريم، وأكَّدت السّورتان على وحدة الرِّسالة والرُّسل ووحدة دعوتهم وحقيقة نعمة الله تعالى على البشر بإرسال الرُّسل.

ثانيا: ذَكر الله سُبحانه في سورة يوسف قوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ١٠٥﴾ [يوسف: 105]، فأجْمَلَ سبحانه الآيات السَّماويّة والأرضيَّة في هذه الآية من سورة يوسف، ثُمَّ جاء بها مُفَصَّلة في سورة الرَّعد أتمَّ تفصيل في مواضع مُتعدّدة للتَّأكيد على أنَّ الكون كتاب مفتوح ينطق بقدرة الله وعظمته، كما أنَّه أشار في سورة يوسف إلى أدلَّة التَّوحيد بقوله: ﴿ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ٣٩﴾ [يوسف: 39]، ثُمَّ فَصَّل الأدلّة في سورة الرَّعد بإسهاب لم يُذكَرْ في سالفتها[1].

ثالثًا: في نهاية سورة يوسف يقول الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓاْ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ١٠٢ وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ١٠٣﴾ [يوسف: 102 - 103]، وفي مطلع سورة الرّعد قال: ﴿الٓمٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِۗ وَٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾، فالّذي أوحاه إليه؛ كما أشار في سورة يوسف ﴿نُوحِيهِ إِلَيْكَۖ﴾ [يوسف: 102] هو الّذي أنزله في كتابه المذكور في سورة الرَّعد ﴿ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ﴾[2].

رابعًا: في سورة يوسف ورد قوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنُوٓاْ أَن تَأْتِيَهُمْ غَٰشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ ٱللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ١٠٧﴾ [يوسف: 107]، وجاء في سورة الرَّعد ما يُؤَكِّدُ هذا المعنى في قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ ٱلْمَثُلَٰتُۗ﴾ [الرَّعد: 6]، وفي قوله: ﴿وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ﴾ [الرَّعد: 13].

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/80، والمراغيّ، تفسير المراغيّ: 13/60.
(2) السُّيوطي، أسرار ترتيب القرآن، ص: 97.

خامسًا: في سورة يوسف جاء ذِكر الرَّسول ودعوته إلى اللّه على بصيرة وهدًى في قوله تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ﴾ [يوسف: 108]، وفي سورة الرَّعد ذكر دعوة الرَّسول، وأشار إلى هدايته في قوله: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ ۖ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ۝٧﴾ [الرَّعد: 7]، كما ذَكرَ في كِلْتا السّورتيْن أخبار الماضين مع رسلهم، وأنَّهم لاقوا منهم ما لاقوا، وأخذهم اللّه أخذ عزيز مقتدر، وكتب الخزيَ على الكافرين، والنَّصر لرسله والمؤمنين، كقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ۝١١٠﴾ [يوسف: 110]، وقوله في سورة الرَّعد: ﴿كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَٰكَ فِىٓ أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ لِّتَتْلُوَاْ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ [الرَّعد: 30] وفي ذلك تسلية لرسوله ﷺ وتثبيتٌ لقلبه[1].

والحقُّ أنَّه إذا كان محور هذه السّورة يقوم على إظهار هذا الصّراع الأزليِّ بين الحقِّ والباطل، وأنَّه لا بدَّ لأهل الحقِّ من أسباب يسلكونها حتَّى يصلوا إلى ثمرة جهدهم؛ فإنَّ مجيء سورة الرَّعد بعد عرض قصَّة يوسف عليه السلام لا يحتاج إلى مزيد تكلُّفٍ في الرَّبط بينهما، فإنَّ سورة يوسف عليه السلام قد أخذت على عاتقها عرض هذا الصِّراع الطَّويل بين الحقِّ، والباطل، حتّى انتصر الحقُّ في النِّهاية بعد أن تحقَّقت أسبابه، واكتملت نتائجه.

المناسبة بين سورة الرّعد وسورة إبراهيم:

وأمّا عن مجيء سورة إبراهيم عليه السلام بعد الرّعد؛ ففيه الوجوه الآتية:

أوَّلًا: أنَّه تعالى قد ذكر في سورة الرَّعد أنَّه أنزل القرآن حُكمًا عربيًّا، ولم يُصرِّح بحكمة ذلك، وصرَّح بها في سورة إبراهيم.

ثانيًا: أنَّه ذَكَر في سورة الرَّعد قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ﴾ [الرّعد: 38]، وفي سورة إبراهيم ذَكَر أنَّ الرُّسل قالوا: ﴿وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ﴾ [إبراهيم: 11].

ثالثًا: أنّه تعالى قد ذَكر في سورة الرَّعد أمره عليه السلام بالتوكُّل على اللّه، وفي سورة إبراهيم حكى عن إخوانه المُرسَلين أمرهم بالتّوكُّل عليه جلَّ شأنه.

(1) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 13/60.

رابعًا: اشتملت سورة الرَّعد على تمثيل الحقِّ والباطل، واشتملت سورة إبراهيم على ذلك أيضًا.

خامسًا: ذكر تعالى في سورة الرَّعد رفعَ السّماء بغير عمد ومدِّ الأرض، وتسخير الشّمس والقمر، وذَكر في سورة إبراهيم نحو ذلك.

سادسًا: ذكر في سورة الرَّعد مكر الكفّار، وذكر مثله في سورة إبراهيم، وذكر من وصفه ما لم يذكر هناك[1].

(1) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 13/122.

﴿الٓمٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِۗ وَٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ ١﴾ [الرّعد: 1]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الحديثُ عن القرآنِ رابطٌ مشتركٌ بين نهايةِ سورةٍ وبداية أخرى

لمّا ختم اللّه تعالى سورة يوسف بالدَّليل على حقّيَّة القرآن، وأنَّه هدًى ورحمةٌ لقوم يؤمنون، بقوله: ﴿لَقَدۡ كَانَ فِي قَصَصِهِمۡ عِبۡرَةٞ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِۗ مَا كَانَ حَدِيثٗا يُفۡتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصۡدِيقَ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَتَفۡصِيلَ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ١١١﴾ [يوسف: 111]؛ افتتح سورة الرَّعد بالحديث عن القرآن أيضًا بقوله: ﴿الٓمٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِۗ وَٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾، من قَبيل تشابه الأطراف أو على طريقة اللَّفِّ والنَّشْر؛ لأنَّه أفصح للبداءة في نشره بالأقرب فالأقرب، فقوله: ﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِۗ﴾ من الأنباء المَتلوَّة والأقاصيص المَجلوَّة المُفصَّلة هي بدر المعاني، وبديع الحِكَم، وثابت القواعد، والمباني العالية المراتب[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلۡكِتَٰبِۗ﴾: على وزنِ فِعالٍ مِنَ الكَتْبِ، وأصْلُهُ: ضمُّ الشَّيءِ إلى الشَّيء[2]، ويُطلق الكتابُ على الخطِّ والكتابةِ[3]، ويُطلق ويُراد به المكتوبُ، فيكون مِن إطلاقِ المصدَرِ وإرادة اسمِ المفعول، كقَوْلِهم: فِراشٌ بمعنى: مفروشٍ، ولِباس بمعنى: مَلْبوس، ثم أُطْلِقَ على الصَّحيفة مَعَ ما كُتِبَ فيها[4]، ويأتي (الكِتابُ) في القرآن الكريم على أحدَ عشَرَ وجْهًا[5]، والمُرادُ بِهِ هُنا: القُرآنُ الكريمُ[6].

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 10/262 - 263، والسُّيوطيّ، أسرار ترتيب القرآن، ص: 97.
(2) ابن دُرَيْد، جمهرة اللّغة: (كتب).
(3) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 3/223، ونصر الهوريني، المطالع النَّصريَّة، ص: 41.
(4) نصر الهوريني، المطالع النّصريّة، ص: 41.
(5) ابن الجوزيّ، نزهة الأعيُن النَّواظِر، ص: 526 - 527.
(6) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 3/223،

2) ﴿ٱلۡحَقُّ﴾: نقيضُ الباطل، والأصل في معناه دلالتُه على إحكام الشَّيء وصحَّته، ثمَّ يرجعُ كُلُّ فرع إليه بجودة الاستخراج وحُسن التَّلفيق، وأصل الحَقِّ: المُطابقة والموافقة للواقع، كمُطابقة رِجلِ الباب في حُقِّه لدورانه على استقامةٍ[1]، والحقُّ يُلازمه دائمًا معنى الثُّبوت، والاستقرار والوجوب، يُقال: حَقَّ الأمر يَحِقُّ حقًّا، فهو حَقٌّ؛ أيْ: ثبت واستقرَّ، وحَقَّ الشَّيءُ: وجَبَ[2]، والمعنى هُنا: الثّابت الَّذي لا شَكَّ فيهِ ولا شُبْهَةَ، ولا لَبْسَ فيهِ ولا اخْتِلافَ فيهِ، وهوَ الْقُرْآنُ[3].

❁ المَعْنى الإجْماليّ:

الحقُّ عزيزٌ وأهله ثلّةٌ قليلةٌ وجوهرةٌ ثمينة

ابتدأت الآية الأولى في سورة الرّعد بهذه الأحرف المُقطّعة ﴿الٓمٓرۚ﴾، وهي توطئةٌ لفظيَّةٌ تُشير إلى أنَّه مُعجز، وهو منظومٌ من الحروف الّتي تنظمُ بها العربُ كلماتها، هذه آيات القرآن الرَّفيعة القدر، وعُلوُّ شأنها وكمالُها آتيان من كونها حقًّا في مبانيها وفي معانيها؛ لأنَّها من كلام الحقِّ ﷻ، فهذا القرآن المُنَزَّل عليك - أيُّها الرَّسول - هو الحَقُّ الّذي لا مِرية فيه، ومن شأن الحقِّ أنْ يُؤمن به العُقلاء المُنصِفون، ومع هذا فأكثر النّاس لا يُصدِّقون به، ولا يعملون[4].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيّ:

براعة الاستهلال بالأحرف المقطعة:

توطئةٌ لفظيَّة وتنبيهٌ موقظٌ ودعوةٌ للإنصاتِ والتَّأمُّل

ذكر غير واحد من المُفَسِّرين أنَّ الحروف المُقَطَّعة في أوائل السّوَر بمنزلةِ أدوات التَّنبيه، والغرض من استعمال هذه الحروف

(1) الرّاغب، المُفردات: (حق).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والسَّمين الحلبيُّ، عُمدة الحفّاظ: (حق).
(3) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/450، والشّوكانيّ، فتح القدير: 3/93.
(4) لجنة من عُلماءِ الأزهر، المُنتخَبُ في تفسير القرآنِ الكريم، ص: 352، ونُخْبة من أساتذة التَّفسير، التَّفسير المُيَسَّر، ص: 249، وجماعَةٌ من علماء التَّفسير، المُخْتَصَر في تفسير القرآن الكريم، ص: 249.

إثارة انتباه السّامع إلى ما يُراد إلقاؤه إليه[1]، فهي بمنزلة التّوطئة اللّفظيّة، للدّلالات المعنويَّة، والموضوعات القرآنيّة.

ولا شَكَّ أنَّ مثل هذا الاستعمال لافتٌ للنَّظر، ومثيرٌ للانتباه، وذلك أنَّ المألوف على السَّمع يَمُرُّ دون أن يُحرِّك في النَّفس ساكنًا، أو يوقِظَ في الفكر نائمًا، أو يُنبِّه به غافلًا؛ فإذا طرق السَّمعَ جديدٌ غير مألوف في أساليب الكلام تحرَّك السّاكن، وتَنَبَّه الغافل كما أنَّ اللّه وضعَها لإطْفاءِ تَشْغيبِ الكُفّار، حيث قالوا: ﴿لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ﴾ [فُصّلت: 26]، فأتى اللّه بِها ليَسْمَعوها لِغَرابَتِها، ثُم يُبَلِّغُ الرَّسول رسالَتَهُ[2].

ومن هُنا فقد جاءت فاتحة سورة الرَّعد من تحقيق التَّنبيه التّامِّ بما لا يزيد عليه، وقُلْ مثل ذلك في السّور الأخرى الّتي نهجت هذا المنهج من الفواتح[3].

الأحرفُ المُقطَّعة مشيرةٌ إلى عجزِ العربِ وعُلوِّ القرآن

وذكروا أيضًا أنَّ الحروف المُقَطَّعة الّتي ابتدأت بها بعض السّور هي بيان لإعجاز القرآن، وأنَّ الخلق عاجزون عن الإتيان بمِثله مع أنَّه مُرَكَّبٌ من هذه الحروف الّتي يتخاطَبون بها، ودليل ذلك أنَّ السّور المُفتَتحة بالحروف المُقَطَّعة يُذكر فيها دائمًا الانتصارُ للقرآن الكريم، وأنَّه الحَقُّ الّذي لا شَكَّ فيه، وأنَّه الكتاب المُعجز وغيره دونه[4].

فتحدَّى اللّه النّاسَ أن يأتوا بمثل هذا القرآن مع أنَّ مادَّة القرآن الّتي أُلِّفت منه آياته وسوره هي الكلام العربيّ الّذي يستعملونه دائمًا في تخاطبهم وفي أدبهم شعرًا ونَثْرًا، ويتفاخرون ببلاغتهم فيه على سائر الأمم، وهذا الكلام العربيّ معروض أمامهم في متناول نُطقهم

(1) السَّمين الحلبيّ، الدُّرُّ المَصون: 4/222، والمراغيّ، تفسير المراغيّ: 13/61.
(2) السُّيوطيّ، مُعتَرَك الأقران: 3/200.
(3) محمَّد بن سعد الدَّبل، النَّظم القرآنيّ في سورة الرَّعد، ص: 46.
(4) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 1/160، والمراغيّ، تفسير المراغيّ: 13/61.

وكتاباتهم، وحروف التَّهجّي العربيَّة تُمثّل المادَّة الأولى لهذا الكلام، فمَن يُنكر أنَّ هذا القرآن كلام اللّه المُنزَّل؛ فليأتِ بمثله، وهذه مادَّة جُمَلِهِ وتراكيبه الكلاميَّة معروضة أمامه في اللُّغة العربيَّة[1].

وفي هذا الافتتاح أيضًا براعةُ استهلال - وهو أخَصُّ مِن حُسن الافْتِتاح - إذْ إنَّ الافتتاحَ بالحروف المُقطَّعة تنويهٌ بما في القرآن الّذي هذه السّورة جزء منه مقصود به تهيئة السّامع للتّأمُّل مِمّا سَيرد عليه من الكلام[2].

بلاغةُ الاستعارةِ في الإشارةِ بأداة البعيدِ:

تشبيه رفيعِ المكان ببعيده تنزيلٌ للبُعدِ الرُّتبيِّ منزلةَ الحسيِّ

استعمل النَّظم اسم الإشارة ﴿تِلْكَ﴾ الموضوع للإشارة إلى البعيد، مع أنَّ الآيات المُشار إليها آتيةٌ من قُرْبٍ للدَّلالة على عُلوِّ شأنها ورِفعة منزلتها، والإشارة إلى آياتها باعتبار أنَّها لتلاوة بعضها، وبعضها الآخر في معرض التِّلاوة صارت كالحاضرة[3]، وفي هذا استعارة تصريحيَّة تبعيَّة قائمة على تشبيه رفيع المكان ببعيد المكان، حيث أشار إلى الآيات بإشارة البعيد تنزيلًا للبُعد الرُّتبيِّ منزلة البُعد الحِسيِّ[4].

احتمالاتُ تعيينِ المُشارِ إليه:

تعدُّدُ المُرادِ بالإشارةِ عمومٌ بليغٌ وإطلاقٌ بديع

يحتملُ اسمُ الإشارةِ ﴿تِلْكَ﴾ في قولِه تعالى: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ احتمالاتٍ عديدة:

الأوّل: ما سبق نزولُه من القرآنِ قبل هذه الآية، حيث أخبر عنها بأنَّها آيات، ولذلك أُشير إليه باسم إشارة المُؤنّث مُراعاةً لتأنيث الخبر[5].

---

(1) قد جمع ابن فارس وجوه الافتتاح بهذه الحروف في كلامٍ جامع مانعٍ لخَّص فيه ما ذكره المُفسّرون في تأويل معاني هذه الحروف، يُنظر: ابن فارس، الصّاحبيّ في فقه اللُّغة، ص: 85.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 13/79.

(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/82.

(4) الهرريّ، حدائق الرَّوح والرَّيحان: 14/160.

(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 13/78.

الثّاني: آيات هذه السّورة، والمُراد بالكتاب حينئذٍ السّورة؛ أيْ: تلك آيات السّورة الكاملة العجيبة في بابها[1]، ويكون إطلاق الكتابِ من باب إطلاق العامِّ وإرادة الخاصِّ.

الثّالث: الحروف المُقطّعة ﴿الٓمٓرۚ﴾؛ أيْ: إنَّه من تلك الحروف وأمثالها من حروف الهجاء، الَّتي نظمت آياتِ القرآن الكريم، فكان منها هذا النَّظم البديع، وهذا البيان المُبين، الّذي أفحم البلغاء، وأعجز العالمين، وفي هذا تنويه بهذا الكتاب، وعرض له في معرض التَّحدّي، بهذه الأحرف الّتي نظمت منها كلماته، ونضَّدت آياته[2].

الرّابع: ما قصَّ عليه من أنباء الرُّسل المُشار إليها بقوله تعالى: ﴿تِلۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ﴾ [هود: 49][3] في السّورة السّابقة، والإشارةُ مُحتمِلَةٌ أن تكون لكلِّ هذه المعاني العظيمة، والحَملُ على العمومِ هو الأوْلى ما لم يَرِدْ دليلُ التَّخصيص.

معنى الإضافةِ ونُكتتُها:

الآياتُ كلُّها أو بعضُها قرآنٌ يُتلى ونظمٌ يُعجز

الإضافة في قوله تعالى: ﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِۗ﴾ يُحتمل أن تكون بمعنى (مِنْ)؛ أيْ: إنَّ تلك آياتٌ من كتاب الله تعالى، أو أن تكون بيانيَّة؛ أيْ: تلك آياتٌ هي الكتاب، من قبيل أن جُزءًا في الكتاب هو قرآن يُتَحدَّى به، فقد كان يُتحدَّى بآيات القرآن على أنَّ فيها كُلِّها ما امتاز به الكتاب الكريم[4]، فهي إمّا أن يُراد بها الجزء من الكلِّ، أو التَّعبير بالجزء باعتبارِ إطلاقه على الكلِّ لتوافقهما في الخصائص والصِّفات.

معنى التَّعريف في لفظِ ﴿ٱلۡكِتَٰبِۗ﴾:

التَّعريف دليلٌ على بلوغه حدَّ الكمال المُستغني عن الوصف

لمعنى ﴿ٱلۡكِتَٰبِۗ﴾ معنيان:

الأوّل: أن يكون بمعنى السّورة، وهو بمعنى المكتوب صادقٌ عليها

(1) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 2/511، والخازن، لُباب التّأويل: 3/3.
(2) ابن عطيّة، المُحرّر الوجيز: 3/290، وعبد الكريم الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 7/64.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/343.
(4) المظهريّ، التَّفسير المظهريّ: 5/212، ومحمَّد أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3888.

من غير اعتبار تجوُّزٍ، والمعنى: تلك الآيات السّورة الكاملة العجيبة في بابها، واستُفيد من اللّام، وذلك أنَّ الإضافة بيانيَّة، فالمآل ذلك الكتاب، والخبر إذا عُرِّف بلام الجنس؛ أفاد المبالغة، وأن هذا المحكوم عليه اكتسب من الفضيلة ما يوجب جعله نفس الجنس، وأنَّه ليس نوعًا من أنواعه[1].

الآخر: أن يكون المُراد بالكتاب: القرآن الكريم، والمعنى: الكتاب العزيز والقرآن الكريم البالغ حَدَّ الكمال في نَظمِه وبلاغته، وأحكامه وتشريعاتِهِ؛ المُستغني عن الوصف من بين الكتب السَّماويّة، الجدير بأن يختصَّ باسم الكتاب[2]، والكمال مُستفاد من اللّام؛ فإنَّها تُحمَل في أمثال تلك المقامات على الاستغراق للمُبالغة في الكمال، فكأنَّه الكُلُّ في الكمال[3].

سرُّ إطلاق الكتابِ بلا قيدِ الوصفيَّة:

المعاني المُستقاةُ من السّياقِ تسوقُ إلى تقديرِ المحذوفات

جاءت إضافة ﴿ءَايَٰتُ﴾ للفظِ ﴿ٱلۡكِتَٰبِۗ﴾ دون ذكر الوصفِ، وهذا هو الموضع الوحيد في القرآن بهذا النّظم القرآنيّ الخالي من ذِكر الوصف، وأمّا آية الحِجر؛ فقد أغنى وصف ﴿وَقُرۡءَانٖ﴾ [الحِجر: 1] بصفةِ ﴿مُّبِينٍ ١﴾ [الحِجر: 1] عن وصف الكتاب، وسرُّ ذلك أنَّ الوصف مستنبطٌ من لفظِ الكتابِ نفسِه، فإذا لم يوصف لفظًا؛ فهو موصوفٌ استنباطًا وسياقًا؛ فإنَّ الكتابَ دالٌّ على الثّبوتِ والاستقرار والحقِّ، وقد أكَّد هذا المعنى سياقُ الآيةِ نفسِها حين قال سبحانه: ﴿وَٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ﴾، فوُصف الكتابُ بالنُّزولِ، وبكونه حقًّا، فناسب أن يكون وصفُ الكتابِ بالحقِّ الثّابتِ، وعدمُ ذِكرِه لإغناءِ السّياقِ عنه، ولِما في الإطلاق من قوَّةٍ أكيدةٍ، دالَّةٍ على هذا المعنى.

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/82.
(2) الهرريّ، حدائق الرَّوح والرَّيحان: 14/160.
(3) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 10/444، والشِّهاب الخفاجيّ، حاشية على تفسير البيضاويّ: 5/374.

نوعُ العطفِ بالواوِ ودلالتُها:

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ﴾ يجوز أن يكون عطفًا على جملة ﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِۗ﴾، فيكون قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ﴾ إظهارًا في مقام الإضمار، ولم يكتفِ بعطف خبر على خبر اسم الإشارة، بل جيء بجملة كاملة مبتدئة بالموصول للتّعريف بأنّ آيات الكتاب منزَّلةٌ من عند اللّه تعالى؛ لأنَّها لمّا تقرَّر أنَّها آيات؛ استلزم ذلك أنَّها مُنزَّلة من عند اللّه، ولولا أنَّها كذلك؛ لما كانت آيات[1].

العطفُ إمّا من بابِ عطفِ الجملةِ على الجملة أو المُفرد على المُفرد

والعطف جاء لبيان أنَّ ما أُنزل منه من ربِّك هو الحَقُّ الثّابت، وهذا من صفات كمال الكتاب، فكان من هذه الصِّفات أنَّه ليس من عندك، بل أُنزل من اللّه تعالى إليك، وأنّه من ربِّك الّذي يُدَبِّر الأمر بحكمته، ويُنزل كُلَّ شيء منزلته، وهو الّذي اختار أن يكون المعجزة المحمديَّة الكُبْرى.

وهو الحقُّ الثّابت الّذي ما جاء فيه إلّا الحقّ في العقيدة وفي الشَّريعة، وفي دفع الأوهام، ودفع الفساد في الأرض، وعلاج أمور النّاس بالحقِّ، فهو الحقُّ في كلِّ ما جاء به؛ لأنَّه من الحَقِّ ﷻ، وعلا كماله.

فيكون العطف إمّا من بابِ عطفِ الجملة على الجملة، فجملة ﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِۗ﴾ معطوفٌ عليها جملة ﴿وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ﴾؛ لبيان أنَّ الكتاب مُتَّصِفٌ بصفتيْن كلتاهما تؤدّي معنى الكمال، وهما:

القرآنُ الكريم جامعٌ للكمالَيْن الذّاتيّ والإضافيّ

الأولى: أنَّه الكتاب الكامل في ذاته.

الثّانية: أنَّه الكامل؛ لأنَّه من عند اللّه تعالى، فالتقى فيه الكمالان: الكمال الذّاتيّ والكمال الإضافيّ[2].

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 13/78.

(2) محمَّد أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 7/3889، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 13/78.

ويجوز أن يكون من بابِ عطف مُفردٍ على مُفردٍ، فقوله: ﴿ٱلۡكِتَٰبِۗ﴾ مُفردٌ، والاسم الموصول مُفردٌ، فهو من عطف الصِّفة على الاسم[1].

بلاغةُ استعمال الاسم الموصول:

على تقدير أنَّ ﴿ٱلۡكِتَٰبِۗ﴾ هو القرآن الكريم يكون الموصول في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ﴾ للدّلالة على فخامة المُنزَل التّابعة لشأن جلالة المُنْزِل[2].

تعميم إثبات الرِّفعة والكمال لِكُلِّ سوَرِ القرآن الكريم

أمّا على تقدير أنَّ المقصود من الكتاب: هذه السّورة؛ فإنَّ الموصول بعده يُفيد العموم: لأنَّ أسماء الموصول تُفيد العموم؛ أيْ: وكُلُّ القرآن الّذي أنزله إليك ربُّك حَقٌّ لا شكّ فيه، وهذا كالإجمال بعد التَّفصيل لما تَقَدَّم من وصف السّورة بالكمال؛ فكأنَّه سبحانه بعد أن أثبت لهذه السّورة الرِّفعة والكمال، عَمَّم هذا الحُكم، فأثبته للقرآن جميعِه، فلا تختصُّ به سورةٌ دون أخرى، وهذا الأسلوبُ جارٍ على سُنَنِ العرب في تخاطبهم، فقد قالت فاطمة الأنماريَّة وقد سُئِلَتْ عن بنيها: أيُّ بَنيكِ أفضل؟ فقالت: (ربيعة، بل عُمارة، بل قيس، بل أنس، ثَكِلْتُهُم إنْ كُنْتُ أعلم أيُّهم أفضل، هُم كالحلقة المُفْرَغَةِ، لا يُدرى أين طرفاها)، فبعد أن أثبتت الأفضليّة لِكُلٍّ منهم على سبيل التَّعيين، أجملت القول، وأثبتت لهم الفضل جميعًا[3].

نكتة الإخبار بصيغة القصر:

القرآنُ هو الحقُّ الخالصُ وما سِواه فممزوجٌ به أو مصفًّى منه

أخبر النَّظم الكريم عن الّذي أُنْزِلَ بأنَّه الحقُّ بصيغة القصر؛ أيْ: هو الحقُّ لا غيرُه من الكُتُبِ، فالقصر إضافيٌّ بالنِّسبة إلى كُتُبٍ معلومة عندهم، والمقصود: الرَّدُّ على المشركين الّذين زعموه كأساطير الأوَّلين، أو القَصْرُ حقيقيٌّ ادّعائيٌّ مُبالغة لعدم الاعتداد بغيره من

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 13/78.
(2) القاسميّ، محاسن التَّأويل: 6/254.
(3) الزَّمخشريّ، ربيع الأبرار ونصوص الأخيار: 4/222، والمراغيّ، تفسير المراغيّ: 13/61.

الكتب السّابقة؛ أيْ: هو الحقُّ الكامل؛ لأنَّ غيره من الكُتُبِ لم يَسْتَكْمِلُ مُنتهى مُراد الله من النّاس؛ إذ كانت درجات موصلة إلى الدَّرجة العُلْيا، فلذلك ما جاء منها كتاب إلّا ونُسِخَ العمل به، أو عُيِّنَ لأمَّة خاصَّة[1]، فقصر الحَقيَّة على المُنْزَل لعراقته فيها، وليس في ذلك ما يدلُّ على أنَّ ما عداه ليس بِحَقٍّ أصلًا، على أنَّ حقيَّته مُستتبَعَة لحقيَّة سائر الكُتُبِ السَّماويَّة لكونه مُصَدِّقًا لما بين يديه، ومُهيمنًا عليه، أو هو الحَقُّ لا غيره من الكتب، بناء على تحريفها ونسخها[2].

وهذا القصر مُستفادٌ من كون طرَفي الإسناد مُعَرّفَيْن، وهُما: ﴿وَٱلَّذِىٓ﴾ و﴿ٱلْحَقُّ﴾، ولو جاء مُنَكَّرًا - كما هو مألوفٌ - لما وقع القصر؛ فإنَّه شَتّان بين قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ﴾، وبين أن يُقال: (والّذي أُنزل إليك من ربِّك حَقٌّ)[3].

نكتةُ تقديمِ حرفِ انتهاءِ الغايةِ على ابتدائها:

الاهتمام بشأن المُنَزَّلِ وتشريف المُنْزَلِ عليه

لسائلٍ أن يسأل عن سرِّ تقديم (إلى) - وهو حرف انتهاء الغاية - على ﴿مِن﴾ وهو حرف ابتدائها؛ أيْ: لماذا قدَّم ذِكرَ ما انتهى إليه الإنزال، على ما ابتدأ من عنده الإنزال في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ﴾؟ والجواب: أنَّ غرضَ السّياق بيان غاية الإنزال، وتشريف المنزل إليه وتخصيصه بالإنزال، ثُمَّ ذكر الابتداء لما فيه من مَزيد تشريف المُنزَل إليه، فتقديمُ ذِكْرِ المُنْزَلِ؛ للاهتمام به، وللتّنبيه إلى أنَّ النُّزول إنَّما هو إليه وعليه؛ لأنَّ المشركين إنَّما جادلوا في المُنَزَّل، وكَذَّبوا المُنْزَلَ عَلَيْه[4].

فائدةُ التَّعبير بالمَبنيّ للمفعولِ:

الجمعُ بين تعظيم الرِّسالةِ وتشريفِ الرّسول

إسناد الإنزال إليه بصيغة المَبنيّ للمفعول في قوله تعالى:

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 13/78.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/82.
(3) عبد الكريم الخطيب، التَّفسير القرآنيّ للقرآن: 7/64.
(4) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/413.

﴿وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ﴾؛ للدّلالة على عُلوِّ مكانة المُنزِل التّابعة لجلالةِ شأنِ المُنزِلِ وقدرِهِ[1].

فإن قيل: لماذا بَنى الفعل هُنا للمفعول، ثُمَّ دلَّ على المُنزِلِ بعد ذلك بقوله تعالى: ﴿مِن رَّبِّكَ﴾؟ والجواب: أنَّ الكلام هُنا عن الكتاب، وذُكِرَ مُنْزِلُه فيما بعد زيادةً في تعظيمِ الكتاب، وتشريف المخاطَب الّذي أُنزل عليه الكتاب، فتحقَّق في البناءِ للمفعول تعظيم الرِّسالة، وفي ذِكر الفاعل تشريف الرّسولِ.

نكتةُ إيثارِ عنوانِ الرُّبوبيَّة على لفظِ الجلالة:

الإيماءُ إلى أنَّ الإنزال من مقتضيات عناية اللّه بخَلْقه وتربيتهم

التَّعرُّض لوصف الرُّبوبيّة مضافًا إلى ضميره ﷺ في قوله: ﴿مِن رَّبِّكَ﴾ دون اسم الجلالة للتَّلطُّف والإنعام[2]، فلم يَقُلْ: (أُنزلَ إليك من اللّه)؛ لما فيه من الإيماءِ إلى أنَّ الإنزال من مُقتضيات عناية اللّه بخلقه وتربيتهم بإنزال ما فيه صلاحهم.

بلاغة ذِكرِ القيدِ المعلومِ للمُخاطَب:

النَّصُّ على ذِكرِ غايةِ الإنزالِ واستكماله في ذِكر بدايته

لو أنَّ النّظم استغنى عن قيدِ ﴿مِن رَّبِّكَ﴾، وجاء: (والّذي أُنزل إليك الحقُّ)؛ لفُهِمَ المُراد، لكنَّ النَّظم آثر ذِكرَ هذا القيد، وبلاغته تكمن في النَّصِّ على ابتداءِ الإنزال وانتهائه، ففيه مزيدُ تشريفٍ للنَّبيِّ ﷺ، وتثبيتٍ لمصدر القرآن، وفيه مزيد من التَّلطُّف في الخطاب معه ﷺ؛ فكأنَّه سبحانه يقول له: إنَّ ما نزل عليك من قرآن هو من عند ربِّك الّذي تعهَّدك بالرِّعاية والتَّربية حتَّى بَلَغْتَ درجة الكمال[3].

توجيه تخصيصِ ذِكر الحقِّ بالذِّكر:

الحقُّ لفظٌ شاملٌ لكلِّ خيرٍ مُستدعٍ لكلِّ كامل

قوله تعالى: ﴿ٱلۡحَقُّ﴾؛ أي: الكتاب المذكور بكماله هو الحَقُّ

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 5/2.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 13/79.
(3) طنطاويّ، التَّفسير الوسيط: 7/437.

الثّابت المُطابق للواقع في كلِّ ما نَطَقَ به، الحقيق بأن يُخَصَّ به الحقيَّة لعراقته فيها[1]، وفي هذا تنويه بشأن القرآن الكريم، وأنَّ تلك الآيات الّتي نقرؤها عليك - يا مُحمَّد - في هذه السّورة هي آيات الكتاب الكريم، وما أنزله اللّه تعالى عليك في هذا الكتاب، هو الحقُّ الخالص الّذي لا يلتبس به باطل، ولا يحوم حول صِحَّته شَكٌّ أو التباس[2]، واختار الحقَّ دون الصِّدق، لاشتمالِ الحقِّ على الصِّدق، بخلاف العكس، فقد يكون الكلام صدقًا لكن لا حقَّ فيه، فليس من لوازمِ القول الصّادق المطابق للواقع أن يكون حقًّا.

دلالةُ الاستدراك:

بيان سبب النِّزاع من المشركين في كونه حَقًّا

الاستدراك في قولِه تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ راجعٌ إلى ما أفاده القصر من إبطال مُساواة غير القرآنِ له في الحَقيَّة إبطالًا يقتضي ارتفاع النِّزاع في أحقيَّته؛ أيْ: ولكنَّ أكثر النّاس لا يؤمنون بما دَلَّت الأدلّة على الإيمان به، فمن أجْلِ هذا الخُلُقِ الذَّميم فيهم يَسْتَمِرُّ النِّزاع منهم في كونه حَقًّا[3]، فسببُ الكفرِ بالحقِّ - مع أنَّه حقٌّ - هو رفضُ الإيمانِ الدّالّ على الأخلاقِ الذَّميمةِ، والتّمسك بالشّهوات الرّذيلة.

سِرُّ الاستدراك على محذوف:

الإيجاز بِذِكْرِ السَّبب الجامع لموانع التَّصديق وهو عدم إيمانهم

قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ استدراك على محذوف بغية الإيجاز، وهذا المحذوف يُفهم ضِمْنًا لدى التَّأمُّل؛ أيْ: لمّا كان ما أُنزل إليك من ربِّك هو الحقُّ؛ فالمفروض أن يُؤمن به النّاس؛ لأنَّهم قد وهبوا ما به يعرفون الحقَّ، وهو العقل ولكنَّ الواقع أنَّ أكثر النّاس لا يؤمنون، وهذا الواقع يَستدعي التَّساؤل عن السَّبب.

(1) القاسميّ، محاسن التَّأويل: 6/254.
(2) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 7/437.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 13/79.

دلالة ذِكر الأكثريّة:

تقرير أنَّ الصَّلاح قليلٌ والضَّلال كثيرٌ؛ داعية تنبيهٍ ومهماز إيقاظ

﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ بهذا القرآن، إمّا جَهلًا وإعراضًا عنه وعدم اهتمام به، وإمّا عِنادًا وظُلمًا؛ فلذلك أكثر النّاس غير مُنتفعين به، لعدم السَّبب الموجِب للانتفاع، وأيضًا لأنَّ أكثر النّاس قد استحوذ عليهم الشَّيطان، فمسخ نفوسهم وقلوبهم، فصاروا مع حرص أهل الحَقِّ على إيمانهم، وحرصهم على دعوتهم إلى الحقِّ، لا يُؤمنون بالحقِّ المُبين، ولا يستجيبون للصِّراط المستقيم؛ لاستيلاء المطامع والشَّهوات على نفوسهم، وسيطرة الأحقاد على قلوبهم[1].

وفي القرآن الكريم آيات كثيرة تصف أحوال أكثر النّاس بوصف قبيح، كقوله سبحانه: ﴿فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلُۚ كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّشۡرِكِينَ ٤٢﴾ [الرّوم: 42]، وقوله: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ١٨٧﴾ [الأعراف: 187]، وقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ ٢٤٣﴾ [البقرة: 243]، وقوله عزَّ من قائل: ﴿فَأَبَىٰٓ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورٗا ٥٠﴾ [الفرقان: 50]، وقوله سبحانه: ﴿قُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ٦٣﴾ [العنكبوت: 63]، وبالمقابل، فقد وردت بعض الآيات تمتدح القِلَّة من النّاس، كقوله: ﴿وَقَلِيلٞ مِّنۡ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ١٣﴾ [سبأ: 13] والقرآن الكريم من خلال وصفه لأكثر النّاس بتلك الأوصاف إنَّما يقرِّر قاعدة عامة، وسنة كونيّة، حاصلها: أن الخير في البشر عامةً قليلٌ، وأنَّ الأكثريّة على عكس ذلك، فكثير منهم لا يؤمنون، وكثير منهم لا يعلمون، وكثير منهم لا يشكرون، فهم الأكثرون عدَدًا، الأقلّون قَدْرًا[2].

توجيه تخصيص نفي الإيمان بالذِّكر:

الإيمانُ مطلبُ الحقِّ وضدُّه مطلبُ الباطل

اختار النَّظم الكريم لفظة ﴿يُؤۡمِنُونَ﴾ في آخر الآية دون (يعقلون) أو (يتفكَّرون)، وما ذاك إلّا لأنَّ الإيمان بهذا وبمَن نزل من عنده،

(1) السَّعديّ، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 412.
(2) القُشيريّ، لطائف الإشارات: 2/215.

وبمَن نُزّل عليه هو مطلب الآية الكريمة، وفي الذُّروة من هذا الإيمان المطلوب، الإيمان بالله خالق كلِّ شيءٍ؛ ولذا حسن اختيار ﴿يُؤۡمِنُونَ﴾ على غيرها ممّا ذُكِرَ[1].

نكتة التَّعبير بالمضارع:

كنايةٌ عن العنادِ على الباطل

عبَّرتِ الآية بصيغةِ المضارعِ في قوله تعالى: ﴿لَا يُؤۡمِنُونَ﴾؛ أيْ: لا يَتجدَّد منهم إيمان أصلًا بأنَّه الحقُّ في نفسه، وأنَّه من عند الله، بل يقولون: إنَّه من عند محمَّدٍ صلى الله عليه وعلى آله وسلم، وإنَّه تخييل ليست معاينة[2]، فعدمُ إيمانهم يتجدَّد، وهذا كنايةٌ عن إصرارِهم وعنادِهم على الباطلِ.

غرضُ حذفِ متعلِّق ﴿يُؤۡمِنُونَ﴾:

شمول نفي إيمانهم بجميع ما ذكر

لم يقيِّد النَّظم الكريم نفي الإيمان بالله مثلًا في قوله: ﴿لَا يُؤۡمِنُونَ﴾، حتَّى يَشمَل نفي كُلِّ إيمان عنهم ممّا ينبغي الإيمان به فيما سَبَقَ؛ لكونهم كذَّبوا بالقرآن، وكذَّبوا بمن أُنزل عليه، وكفروا بالمُنْزِلِ ﷻ، فكان عدم إيمانهم مُشتمِلًا على كلِّ هذا.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيّةُ:

الإنزالُ والتَّنزيلُ:

الإنزال دَفْعيٌّ، والتَّنزيلُ تدريجيٌّ

الإنزالُ على ما يكون دفعةً واحدة[3]، ويُطلق التَّنزيل على ما يكون مُفرَّقًا أو تدريجيًّا، فالإنزال دَفْعيٌّ، والتَّنزيلُ تدريجيٌّ، قال الله تعالى: ﴿نَزَّلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ ٣﴾ [آل عمران: 3]، وهذا لأنَّ حُكْمَ القرآن الكريم مُؤَبَّدٌ، وهو مناسبٌ لـ ﴿نَزَّلَ﴾؛ فإنَّه بِناءٌ لِلمبالغة، ولِما في التَّنزيل مِن معنَى

(1) الدَّبل، النَّظم القرآنيّ في سورة الرّعد، ص: 48.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/264.
(3) السَّمينُ الحَلَبيُّ، عُمْدَةُ الحُفّاظ: (نزل)، والعسكريّ، الفروق اللُّغويَّة، ص: 79، والجُرجانيّ، التَّعريفات، ص: 68، والشِّهاب الخفاجيّ، عناية القاضي وكفاية الرّاضي: 1/3.

التَّدريج، فبينَ الإنزالِ والتَّنزيل عموم وخصوص، والإنزالُ أعَمُّ مِنْهُ؛ لأنَّه قد يدلُّ على معنى التَّدْريجِ، وقد لا يدلُّ[1].

ولا يُشكِلُ على هذا الفَرْقِ وقوع التّعبيرِ عن نزول القُرآن الكريم بالفِعْلَيْنِ معًا؛ وذلك لأنَّ لِلْقُرْآنِ الكريمِ نُزولَيْنِ: دَفْعيٌّ إلى السَّماءِ الدُّنيا، وتدريجيٌّ بحسب الوقائع والأحداث[2].

(1) الرّاغب، المُفرداتُ: (نزل).

(2) أبو شامة المقدسيُّ، المُرشِد الوَجيزُ، ص: 17، والسّيوطيّ، الإتقان: 1/146.

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ۝٢﴾ [الرّعد: 2]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الانتقالُ من الإخبارِ عن الواقعِ إلى الدَّعوةِ إلى إصلاحه

لَمّا ذكر اللّه تعالى انتفاء الإيمان عن أكثر النّاس بقوله: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾؛ ذكرَ عَقيبَه ما يدُلُّ على صِحَّةِ التّوحيدِ والمعادِ، وما يجذبهم إلى الإيمان، فيما يفكِّر فيه العاقل، ويشاهده من عظيم القُدرة وبديع الصُّنع[1]، فقال: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾[2]، فهو انتقالٌ من إخبارٍ عن واقعٍ، إلى دعوةٍ إلى إصلاحِ هذا الواقع، من خلال النَّظر، والبحث عن الحقِّ في واسع الفِكَر.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿عَمَدٍ﴾: عَمَدَ الشَّيْءَ يَعْمِدُه عَمْدًا: أقامَهُ، والعِمادُ: ما أُقيم بِهِ، وأصل (عمد) الاستقامة في الشَّيء، مُنتصِبًا أو مُمتدًّا[3]، والعَمَدُ: اسْم الْجمع ويُطلق على أساطين الرُّخام[4]، والعامد والعماد والعمود بمعنًى واحد، وهو ما يعمد به من خشبٍ ونحوه[5]، وأعْمَد الشَّيْءَ: جعل تَحْتَهُ عَمَدًا[6]، والمعنى هُنا: أساطين ودعائم[7].

2) ﴿وَسَخَّرَ﴾: أصْلُ هذه المادّة يَدُلُّ على اسْتِذْلالٍ، وسَخَرَتِ السَّفينةُ: أطاعت، وجَرَتْ، وطابَ لَها السّيرُ، واللّه سخَّرَها

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/344.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 18/525.
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (عمد).
(4) ابن منظور، لسان العرب: (عمد).
(5) السَّمين الحلبيّ، عمدة الحُفّاظ: (عمد).
(6) ابن سيدَه، المُحكَم: (عمد).
(7) البيضاويّ، أنوار التَّنزيل: 3/180، والقنّوجيّ، فتح البيان: 3/477.

تسخيرًا[1]، وسَخَّرَ اللّه ﷻ الشَّيْءَ، إذا ذَلّله لَهُ لِأَمْرِهِ وإرادَتِه[2]، والتَّسْخيرُ: سياقَةٌ إلى الغَرَضِ المُخْتَصِّ قَهْرًا، والمُسَخَّرُ هو المُقيَّضُ للفِعْل[3]، وكُلُّ ما ذَلَّ، وانْقادَ، أو تَهَيَّأ لَك على ما تُريد؛ فقد سُخِّرَ لَك[4]، والمعنى هُنا: ذَللهما لِمَنافِعِ خَلْقِهِ ومَصالِحِ عِبادِهِ[5].

❁ المَعْنى الإجْماليّ:

عظيمُ خلقِ الله دالٌّ على عظيمِ كلامِ الله

تُبيِّن الآيةُ أنَّ اللّه تعالى هو الّذي خلق السَّماوات مرفوعاتٍ دون دعائم يُشاهدها النّاس، ثمَّ علا وارتفع على العرش علوًّا يليق بجلاله وعظمته، وذَلَّل الشَّمس والقمر لمنافع خلقه، كُلٌّ منهما يدور في فلكه إلى يوم القيامة، يُصرّف سبحانه الأمر في السَّماوات والأرض بما يشاء، يبيّن آياته الكونيَّةَ على قدرته رجاء أن توقنوا بلقاء ربِّكم يوم القيامة، فتستعدّوا له بالعمل الصّالح[6].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيّ:

بلاغة الاستئنافِ:

ذكرُ أدلَّةِ الإيمانِ شُـروعٌ في بيان المقصود

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ استئناف ابتدائيٌّ، وهو ابتداء المقصود من السّورة، وما قبله بمنزلة الدّيباجة من الخُطبة، ولذا طال الكلام في هذا الغرض واطَّرد، فهذه الجملة مُقرِّرة لما قبلها، ولذا فُصلت؛ إذ مَن هذا شأنه فلا جرم أن ما أنزله من عنده ليس إلّا الحقّ[7]، ومُناسبة هذا الاستئناف لما قبله في قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أنَّ أصل كُفْرِهم بالقرآن

(1) ابن منظور، لسان العرب: (سخر).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سخر).
(3) الرّاغب، المُفردات: (سخر).
(4) الزَّبيديّ، تاج العروس: (سخر).
(5) القرطبيُّ، الجامع لأحكام القرآن: 9/279.
(6) لجنة من عُلماءِ الأزهر، المُنتخَبُ في تفسير القرآنِ الكريم، ص: 353، ونُخْبة من أساتذة التَّفسير، التَّفسير المُيَسَّر، ص: 249، وجماعَةٌ من علماء التَّفسير، المُختَصَر في تفسير القرآن الكريم، ص: 249.
(7) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 10/446.

ناشئ عن تَمَسُّكِهم بالكفر، وعن تَطَبُّعِهم بالاستكبار والإعراض عن دعوة الحقِّ[1].

سرُّ البَدْءِ باسم الجلالةِ دون الإضمار:

الافتتاح باسم الجلالة دون ذِكرِ ضميرٍ يَعود على لفظِ ﴿رَّبِّكَ﴾ وهو مقتضى الظّاهر في الآية السّابقة؛ وذلك لمراعاة مقتضى الحال، فالبدءُ بلفظِ الجلالةِ فيه من توريثِ الهيبةِ في نفوسِ المخاطَبين، كما أنَّ فيه التفاتًا من الخطابِ إلى الغيبةِ.

التفاتٌ من الخطابِ إلى الغيبةِ يورِّث الهيبةَ في نفوسِ المخاطَبين

فالخالق المُدَبِّر المُتَّصِفُ بكلِّ كمال، والمُستحقُّ وحده للعبادة، ولا يُعبد معه شيء: من شمس أو حجر، أو نجم، أو غير ذلك مما توهَّم فيه بنو الإنسان في العصور المختلفة قوَّة يُعبَد لأجلها[2]، كما عَدَلَ عن ضمير الرَّبِّ إلى اسم الجلالة الكريم أيضًا لترشيح التَّقرير، كأنَّه قيل: كيف لا يكون المُنزَل مِمَّن هذه أفعاله هو الحقُّ؟[3].

سِرُّ اختيار لفظِ الجلالةِ دون غيره من الأسماء الحسنى:

اختير اسم الجلالة ﴿ٱللَّهُ﴾ لتربية المهابة وللتَّنبيه على أنَّ القادر على هذه الأفعال العجيبة لا يكون إلّا الموصوف بجميع صفات الكمال؛ ولذا لم يُعَبِّر بسائر الأسامي السّامية، وأمّا اختيار لفظ (الرَّبِّ) فيما قبله؛ فلأنَّ إنزال القرآن الّذي هو شفاء وبرهان من آثار التَّربية، واختير هذا على القول هكذا: الله رافع السَّماوات؛ لأنَّ فيه تقريرَ الحُكم بالإجمال أوَّلًا والتَّفصيل ثانيًا[4].

التَّنبيه على أنَّ الموصوف بالجلالة هو القادر على الأمور العظيمة

غرضُ تقديمِ المُسنَد إليه على المُسنَدِ:

تقدَّم المُسنَد إليه - وهو لفظُ الجلالةِ - على المُسنَدِ، وقد اختلف المُعرِبون في تعيينِه، فقيل: الخبر الاسم الموصول ﴿ٱلَّذِى﴾[5]، فيكون

التَّشويقُ للخبرِ والاختصاصُ للمُسنَدِ إليه

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 13/79.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 13/80، ومحمَّد أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 7/3890.
(3) الشِّهاب الخفاجيّ، عناية القاضي: 5/376.
(4) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 10/446.
(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/344.

التَّقديمُ من باب التَّشويق، وقيل: الخبر الفعل ﴿يُدَبِّرُ﴾، فيكون من باب تقوية الحكم الإسناديّ، أو الاختصاص، على الخلاف المشهور بين البيانيّين في هذه المسألة، والسّياق يُرشِّح أنْ يكون مُفيدًا الاختصاصَ، وكذلك فالتَّقديم يُفيد التَّشويق، ولا إشكال، فالنِّكات لا تتزاحم.

نوعُ القصرِ ودلالتُه:

الدّلالة على الاختصاص ترشيحٌ للقولِ به في تقديم المُسنَدِ إليه

الإسنادُ في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ قصرٌ حقيقيٌّ، وهو من باب قصر الصِّفة على الموصوف؛ أيْ: ما رافع السَّماوات إلّا اللّه، وقد استُفيد هذا القصر من تعريف طرفَي الإسناد ﴿ٱللَّهُ﴾ و﴿ٱلَّذِى﴾، ويَنْجَرُّ القصر أيضًا إلى الاستواء على العرش، وتسخير الشَّمس والقمر؛ لأنَّها من ملحقات صلة الموصول؛ أيْ: هو وحده الّذي رفع واستوى وسَخَّرَ.

نكتةُ التَّعبير بالاسم الموصولِ بدلًا من الفعل:

الإيماءُ إلى أنَّ صلةَ الموصولِ مِمّا شأنه أن يكون معلومًا بالنَّظر الثّاقب والفكر الصّائب

في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ جاء التَّعبير عن الخبرِ بالاسم الموصول دون أن يكون الخبر فعلًا؛ كأن يُقال: (اللّه يرفع السّماوات)، وذلك لكون الصِّلة معلومة الدَّلالة على أنَّ مَن تَثبُتُ له هو المتوحِّد بالرُّبوبيَّة، إذ لا يستطيع مثلَ تلك الصِّلة غيرُ المُتوحِّد، ولأنَّه مُسَلَّم له ذلك ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [لقمان: 25][1].

ويجوز أن يكون الموصول صفة بناء على أنَّ مضمون صلته معلوم، أو مما شأنه أن يكون معلومًا بالنَّظر الثّاقب، والفِكْرِ الصّائب، والخبر حينئذٍ ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾، والنُّكتة مَبنيَّة على الإرادة؛ فحينئذٍ التَّعبير بالموصول للإيماء إلى وجه الخبر[2] مثل قول الفرزدق:

إنَّ الّذي سَمَكَ السَّماء بنى لنا *** بيتًا دعائمُهُ أعَزُّ وأطْوَلُ[3].

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 13/80.
(2) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 10/446.
(3) البيت من بحر الكامل. يُنظر: المبرِّد، الكامل في اللُّغة والأدب: 2/227.

دلالةُ التَّعبير بمُفرَدة ﴿رَفَعَ﴾ دون (خَلَقَ):

لفتُ الانتباه إلى مظاهر القُدرة الإلهيَّة الّتي تُحَرِّك الوجدان وتوقظ الأذهان

عبَّر النَّظم بالرَّفعِ لا بالخلقِ في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾؛ أيْ: خلقها مُرتفعة، كما يُقال: وسَّع طَوقَ الجُبَّةِ، وضيَّق كُمَّها، لا تريد: وسَّعه بعد أن كان ضيقًا، ولا ضيَّقه بعد أن كان واسعًا، وإنَّما يُراد: جعله واسعًا، أو: جعله ضَيِّقًا، فليس المُراد أنَّه رفعها بعد أن كانت مُنخَفِضَةً[1]، وهذه اللَّفتة الأولى إلى مظاهر القُدرة الإلهيَّة تُحَرِّك الوجدان؛ فيقف أمام هذا المشهد الهائل يتملّاه، ويُدرك أنَّه ما من أحد يقدر على رفع السَّماء بلا عَمَد أو حتَّى بعَمَد إلّا اللّه، وقصارى ما يرفعه النّاس بعَمَد أو بغير عَمَد تلك البنايات الصَّغيرة الهزيلة، القابعة في ركنٍ ضيّق من الأرض لا تتعدّاه، ثُمَّ يتحدَّث النّاس عمّا في تلك البنايات من عظمة ومن قُدرة وإتقان، غافلين عمّا يشملهم، ويعلوهم من سماوات مرفوعة بغير عَمَد، وعمّا وراءها من القُدْرَة الحَقَّة، والعظمة الحقَّة، والإتقان الّذي لا يتطاول إليه خيال إنسان[2].

فاللّه وحده هو الّذي رفعها بغير عَمَدٍ تعتمد عليه، وفي هذا تَنَزُّل في الخطاب إلى مستوى تصوُّراتهم، فإذا كان يسيرًا عليهم أن يَقْبَلوا رفعها بَعَمَدٍ، فاللّه قد رفعها بغير عمد، وإلّا فرفعُها بِعَمَدٍ أو بغير عَمَد سواء عند قُدرة الخالق ﷻ، وإن رُفعت بعَمَد؛ فالعَمَدُ على أيِّ شيء تَعْتَمِدُ.

نكتةُ جمع ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ دون إفرادِها:

بيان كون السَّماوات أجناسًا مختلفةً

جُمعت (السّماوات) في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾، ولم يُفردها بأن يقول: (اللّه الّذي رفع السَّماء) مع كونها مؤدّيةً المعنى المُراد، لما تقدَّم مرارًا من جمعها في كثير من المواضع من

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 13/80.
(2) شحاتة، تفسير القرآن الكريم: 13/2422.

كونها أجناسًا مُختلفة، وهي الكواكب السّيارة وطبقات الجوِّ الّتي تَسْبَحُ فيها.

دلالةُ النَّفي وتوجيهه بين الحقيقة والمجاز:

بيان كونها ممسوكةً بقُدرة الله تعالى وقوّته على كلا الاحتمالين

لأهل التَّفسير اتجاهان في توجيه النَّفي في قوله تعالى: ﴿بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾: نفي وجودِ العَمَدِ، وإثبات وجود العَمَدِ مع نفي رؤيتها:

الاتِّجاه الأوَّل: أنَّ النَّفي مُتَّجِهٌ إلى وجود العَمَدِ، وقوله تعالى: ﴿تَرَوْنَهَا﴾ دليلٌ على عدم وجودها وعدم رؤيتكم لها، فاللّه ﷻ أنشأ السَّماوات كالقُبَّة المحيطة بالأرض من كلِّ أطرافها، من غير عَمَدٍ قائمة، ويُرَشِّحُ لهذا المعنى قوله تعالى: ﴿وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ﴾ [الحجّ: 65].

الاتِّجاه الثّاني: أنَّ النَّفي واقع على الرُّؤية، وعلى هذا يكون هُناك عَمَدٌ، ولكن لا تُرَى، فاللّه ﷻ قد أوجد تماسكًا بَيْنَ السَّماء والأرض بالجاذبيَّة، وكأنَّها عَمَدٌ، ولكنَّها لا تُرى، وهذه الجاذبيَّة كأنَّها العَمَدُ الّتي لا تُرى، والاتجاهان يحتملهما اللَّفْظُ، وهُما صادقان، ورجَّح المحقِّقون من أهل التَّفسير الاتجاه الأوَّل، وأنَّ السَّماوات لا عَمَدَ لها البَتَّة، ولو كان لها عَمَد؛ لاحتاجت تلك العَمَد إلى عَمَدٍ، ويتسلسل الأمر، فالظّاهر أنَّها مُمسَكَة بالقدرة الإلهيَّة[1]، وكلاهُما فيه قُدرة اللّه تعالى الجليَّة واضحة[2]، فيكون العَمَدُ على هذا المعنى استعارة[3].

بلاغةُ الاستئنافِ البيانِّي:

التَّدليل على وجود الصّانع الحكيم لكون السَّماوات مرفوعةً بقدرته

جملة ﴿تَرَوْنَهَا﴾ استئنافيَّة واقعة جوابًا لسؤال اقتضاه الكلام السّابق؛ كأنه قال: ما دليل أنَّها بغير عَمَد؟ فقيل: المشاهدة الّتي لا أجْلَى منها[4].

(1) البغوي، معالم التَّنزيل: 3/5، وأبو حيّان، البحر المحيط: 6/344.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3890.
(3) محمود صافي، الجدول: 13/91.
(4) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 10/270.

لأنَّ بينها وبين سابقاتها شبه كمال الاتصال، وجيء بهذا الاستئناف للاستشهاد على كون السَّماوات مرفوعة كذلك، كأنَّه قيل: ما الدَّليل على ذلك؟ فقيل: رُؤيتكم لها بغير عَمَد، فهو كقولك: أنا بلا سيف ولا رُمحٍ تراني[1]، وفي هذا الاستئناف أيضًا دليل على وجود الصّانع الحكيم[2].

غرضُ الخبرِ ودلالتُه:

جاء قوله تعالى: ﴿تَرَوْنَهَا﴾ خبرًا في اللَّفظ، ومعناه: الأمر؛ أي: انظروا هل لها من عَمَدٍ، وفي هذا أكبر دليل على قُدرة الخالق العظيم[3].

معنى حرف التّراخي ودلالتُه:

بيان تفاضل الخَلْقَيْنِ وتفاوتهما

حرفُ ﴿ثُمَّ﴾ في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ لبيان تفاضل الخَلْقَيْنِ وتفاوتهما، فإنَّ العرش أفضل من السَّماوات، لا للتَّراخي في الوقت لتقدُّمه عليها[4]، و﴿ثُمَّ﴾ هُنا لمجرَّد العطف لا للتَّرتيب؛ لأنَّ الاستواء على العرش غير مُرَتَّب على رفع السَّماوات[5]؛ أيْ: ثُمَّ استوى على عرشه الّذي جعله مركز هذا التَّدبير العظيم استواءً يليق بعظمته وجلاله، يُدبِّر أمر مُلكه بما اقتضاه علمُه من النِّظام، وإرادته وحكمته من إحكام وإتقان، والاستواء على العرش صفة ثابتة للّه تعالى، بلا كيف نعتقدها، ولا نُعطِّلها، ولا نُكيِّفها، ولا نُمثِّلُها، كما هو مُقرَّر في موضعه من علم الاعتقاد[6].

بلاغةُ ترتيب الجُمل:

الشّاهدُ دليلٌ على عظمةِ الغائب

جملة ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ رُتِّبَت بعد جُملة رفع السَّماوات، لذِكرِ دليل آخر على قُدرة اللّه تعالى، عن طريق الغائب الهائل

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/83.
(2) البيضاويُّ، أنوار التَّنزيل: 3/180، وثناء الله المظهريّ، التَّفسير المظهريّ: 5/212.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/85.
(4) إسماعيل حقّي، روح البيان: 4/336.
(5) السَّمين الحلبيّ، الدُّرُّ المَصون: 4/223.
(6) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 14/162.

الّذي تتقاصر دونه المدارك، بعد أن أقام الأدلّة على ذلك عن طريق الحاضر المُشاهَد[1].

علَّةُ الوصل ومعناه:

التَّنبيه على كمالِ القدرةِ في الغيبيّات بما هو محسوسٌ في المُشاهَدات

قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلّٞ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ﴾ أي: وذَلَّل الشَّمس والقمر وجعلهما طائعيْن لِما أُريد منهما لمنافع خَلْقِه، فَكُلٌّ منهما يسير في منازله لوقت معين؛ فالشَّمس تقطع فلكها في سنة، والقمر في شهر لا يختلف جَرْي كلٍّ منهما عن النِّظام الّذي قُدِّرَ له[2]، وفي اختصاصهما بالحركة الدّائمة على وجه مخصوص من البُطءِ والسُّرعة كل وقت وحين تنبيه على كمال القدرة[3]، بما هو مُشاهَد منظور بعد ذِكر ما هو غائب مستور، وهذا من الوصل بالعطف؛ لأنَّ فيه توسُّطًا بين الكماليْن، بين المُشاهَد والغائب؛ فنحن أمام ارتفاع في الفضاء المنظور، يُقابله ارتفاع في الغيب المجهول، وإذا نحن أمام استعلاء يُقابله التَّسخير، وإذا نحن أمام الشَّمس والقمر يَتقابلان في الجنس: نجم وكوكب، ويتقابلان في الأوان، بالليل والنَّهار.

نكتةُ استعمال مفردة التَّسخير:

التَّنبيه على خلقِ السّماوات والأرض وغايته، وبيان كمال حكمته وقدرته وإنعامه على خلقه

استعملتِ الآيةُ مفردة التّسخير في قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ﴾ دون ذِكر الخَلقِ، والتَّسخير هو التَّذليل العظيم؛ أيْ: إنَّ من مظاهر فضله على خلقه أنَّه سُبحانه سَخَّر ذلك وأخضع لقُدرته الشَّمس والقمر، بأنْ جعلهما طائعيْن لما أراده منهما من السَّير في منازل مُعيّنة، ﴿لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ وَكُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ ٤٠﴾ [يس: 40][4]، وقد جعل لطائف مكامن

(1) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 7/439.
(2) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 13/63.
(3) ابن عطيّة، المُحرّر الوجيز: 3/292، وزاده، حاشية على تفسير البيضاويّ: 5/90.
(4) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 7/440.

الرُّشد في سيرهما لدلالته على كمال حكمته[1]، فيكون التَّسخير شاملًا للخَلْق من باب أوْلى، فنكتةُ ذِكْر مفردة التّسخير التَّنبيه على غاية خلق السّماوات والأرض، وأنَّه سبحانه سخَّرهما لمخلوقاته.

توجيه تخصيص الشَّمس والقمر بالذِّكر:

التَّنبيه على الأدنى بذِكر الأعلى

ذُكِر الشَّمسُ والقمر؛ لأنَّهما أظهر الكواكب السَّيارة السَّبعة الّتي هي أشرف وأعظم من الثَّوابت، فإذا كان قد سخَّر هذه، فلأنْ يدخل في التَّسخير سائر الكواكب بطريق الأوْلى والأحرى، كما نبَّه بقوله تعالى: ﴿لَا تَسْجُدُواْ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُواْ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ۝٣٧﴾ [فُصّلت:37]، مع أنَّه صرَّح بذلك بقوله: ﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٥٤﴾ [الأعراف: 54][2]، وذكر الشَّمس والقمر أيضًا؛ لأنَّهما أظْهَرُ في الدَّلالة على التَّسخير الّذي فيه المصلحة للخَلق.

التَّعريف بـ (أل) لـ﴿ٱلشَّمْسَ﴾ و﴿وَٱلْقَمَرَ﴾:

دخلت اللّام فيهما، وكلُّ واحدٍ منهما لا ثاني له لما في الاسم من معنى الصِّفة؛ إذْ لو وُجِدَ مَثَلٌ لهما لم يتوقَّف في إطلاق الاسم عليه[3].

معنى التّنوين:

تنوينُ العِوَض ينوب عن محذوفٍ لفظًا

جاء التّنوين في قولِه تعالى: ﴿كُلٌّ يَجْرِى﴾ في موضع (كلاهُما)، فلذلك جاءت للشَّمس وللقمر؛ لأنَّ التّنوين بدلٌ من الكناية[4]، ففي تنوين ﴿كُلٌّ﴾ إشارة يُقصد بها كُلٌّ من السّابق؛ أيْ: الشَّمس والقمر[5]، وهذا من إيجاز الحذف، والتّنوين هو تنوين عِوض عن اسمٍ.

(1) المهايميّ، تبصير الرَّحمن: 1/377.
(2) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/430.
(3) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 10/271.
(4) أبو عبيدة، مجاز القرآن: 1/321.
(5) الشَّعراويّ، تفسير الشَّعراويّ: 12/7179.

معنى اللّامِ ونُكتتها:

الأجل المُسمّى كالعِلّة الّتي لا تتخلَّف، والزّمن الّذي لا يتخفَّف

اللّام في قوله تعالى: ﴿لِأَجَلٍ مُّسَمًّىۚ﴾؛ أيْ: لمدّة معيَّنة هي نهاية الدُّنيا ومجيء القيامة، أو لمدَّة محدَّدة يتمُّ فيها دورانه، فالشَّمس تُتِمُّ دورتها في سنة، والقمر يُتِمُّ دورته في شهر[1]، فللشَّمس والقمر منازل، كُلٌّ منهما يغرب في كلِّ ليلة في منزل، ويطلع في منزل آخر حتَّى ينتهي إلى أقصى المنازل[2]، فاللّام بمعنى: (إلى)؛ أيْ: إلى وقتٍ معلوم[3]، وهي للتّاريخ، كما تقول: كُتبتْ لثلاثٍ خَلَوْنَ[4]، ولا يخفى أنَّ كونها للأدوار والمنازل هو الأنسب للمَقام؛ إذ حدوث النَّفع بالأدوار مع صِحَّة احتماله للمعنى الآخر أيضًا[5]، واختيارُ اللّام دون (إلى) للإيماءِ إلى أنَّ هذا الجريان يجري لعلَّةٍ زمانيَّة لا تتخلَّف.

توجيه المُتشابه في استعمال الحروفِ:

تنوُّعُ الاستعمالِ مرجعُه تنوّع معاني السّياق

قال سبحانه: ﴿كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّىۚ﴾، وقال في سورة لقمان: ﴿كُلٌّ يَجْرِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [لقمان: 29]، فعبَّر بـ ﴿إِلَىٰٓ﴾ [لقمان: 29] ولا ثاني له؛ وذلك لأنَّه يُقال في الزَّمان: جرى ليوم كذا، وإلى يوم كذا، والأكثر اللّام، كما في هذه السّورة وسورة (فاطر): ﴿يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّىۚ﴾ [فاطر: 13]، وكذلك في (يس): ﴿تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَاۚ﴾ [يس: 38]؛ لأنَّه بمنزلة التّاريخ، وأمّا في سورة (لُقمان)؛ فوافَق ما قبلها، وهو قوله: ﴿۞وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [لقمان: 22]؛ أيْ: يقصد بطاعته إلى اللّه، وكذلك ﴿يَجْرِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [لقمان: 29]؛ أيْ: يجري إلى وقته المُسمَّى له[6].

---

(1) البيضاويّ، أنوار التَّنزيل: 3/180، وثناء الله المظهريّ، التَّفسير المظهريّ: 5/212.
(2) الهرريّ، حدائق الرَّوح والرَّيحان: 14/162.
(3) إسماعيل حقّي، روح البيان: 4/336.
(4) النَّيسابوريّ، غرائب القرآن: 4/136.
(5) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 10/450.
(6) الكرمانيّ، أسرار التَّكرار، ص: 151.

نكتةُ ذِكر الأجل دون الوقت:

الأجلُ لفظٌ اختزلَ معاني كثيرةً

في قولِه تعالى: ﴿كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ ذُكِر الأجل دون الوقت، أو الزّمن، مع أنَّ الأجل زمن، وذلك لبيان أنَّه أجل مُحدَّد، له بداية وله نهاية، وله معنى معلوم، وأهوال لا تخفى، وأمور عظام لا تبلى، ثم هو أجلٌ مقطوع بقدومه، مقطوع بوقوعه، مقطوع بعدم تخلُّفه، لا يتقدَّم، ولا يتأخّر، وكلُّ هذه المعاني حاضرة في لفظ الأجل.

فائدةُ ذِكر الصِّفة:

ذِكرُ المُسمَّى كناية عن وجوده وأنَّه معلومٌ عند من سمّاه

المُسَمَّى: أصله المعروف باسمه، وهو هُنا كناية عن المُعَيَّن المُحدَّد؛ إذ التَّسمية تستلزم التَّعيين والتَّمييز عن الاختلاط[1]، وقد ذُكر الوصف، وهو مُسمًّى في قولِه تعالى: ﴿كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾؛ لبيانِ أنَّه معلومٌ باسمه، وأنَّه آتٍ لا محالةَ، فإن جهله أهل الأرض؛ فلا يجهله مَن سمّاه.

بلاغةُ الاستئناف البيانّي:

الإجمال بعد التَّفصيل تقريرٌ بعد تحرير

قوله تعالى: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾؛ أي: اللّه وحده هو الّذي يُدَبِّرُ أمر الكون، ويُصرّفه على وفْق إرادته ومُقتضى حكمته، ويُسيِّر الأفلاك في نظام دقيق ثابت لا يُخطئ، ولا يَتَغَيَّرُ[2]، وكأنّ سائلًا سأل، فقال: إنَّ رَفْعَ السَّماوات والاستواء على العرش وتسخير الشَّمس والقمر كلُّ ذلك يحتاج إلى تَدْبير، فمَنِ المُدبِّر؟ الجواب: يُدَبِّر الأمر؛ أيْ: أمْرَ العالم العلويّ والعالم السّفليّ من أعلى العرش إلى ما تحت الثّرى بحيث لا يشغله شأن عن شأن، فهو إجمال بعد تفصيل[3]، وبين هذه الجملة وبين سابقتها شبه كمال الاتصال؛ لذا فُصّلت.

براعةُ التَّعبير بلفظ التَّدبير:

جمَعَ لفظ ﴿يُدَبِّرُ﴾ معنى الإبرام والتّنفيذ والإتقان، وعبَّر

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 13/81.
(2) وهبة الزُّحيليّ، التَّفسير المنير: 13/103.
(3) النَّيسابوريّ، غرائب القرآن: 4/136.

إجمال المعاني الكثيرة في اللّفظ الواحد دالٌّ على الإعجازِ

بالتَّدبير، تقريبًا للأفهام[1]، فهو سبحانه تعالى يتصرَّف في مُلْكِهِ على أتَمِّ الحالات وأكمل الوجوه؛ فهو يُميت ويُحيي، ويوجد، ويُعدم، ويُغْني، ويُفْقِر، ويُنزل الوحي على مَن يشاء من عباده، وفي ذلك بُرهان ساطع على القُدرة والرَّحمة، فإنَّ اختصاص كلِّ شيء بوضعٍ خاصٍّ وصفة مُعَيَّنَةٍ لا يكون إلّا من مُدَبِّرٍ اقتضت حكمته أن يكون كذلك، فتدبيره لعالم الأجسام كتدبيره لعالم الأرواح، وتدبيره للكبير كتدبيره للصَّغير، لا يشغله شأن عن شأن، ولا يمنعه تدبير شيء عن تدبير آخر، كما هو شأن المخلوقات في هذه الدّنيا، وكذلك هو دليل أيضًا على أنَّه تعالى مُتعالٍ في ذاته وصفاته وعلمه وقُدرته لا يُشْبِهُ شيئًا من مخلوقاته[2]، فمن المعلوم أنَّ كُلَّ مَن اشتغل بتدبير شيء؛ فإنَّه لا يُمكنه تدبير شيء آخر إلّا الباري ﷻ؛ فإنَّه لا يشغله شأن عن شأن[3].

التّعريف في لفظ ﴿ٱلْأَمْرَ﴾:

الأمر هو ملكوت السَّماوات والأرض من حركات النُّجوم، وأبراجها، وإحياء الأحياء وإماتتهم و(أل) في ﴿ٱلْأَمْرَ﴾ للعهد، وهو ما يتعلَّق بهذا الملكوت[4].

علَّةُ فصلِ الجملة عمّا قبلها:

تقريرٌ لما سبقها في أنَّ الأمر كُلَّهُ لله تسخيرًا وتدبيرًا وتفصيلًا

جملة ﴿يُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ﴾ حال ثانية تُرِكَ عطفُها على الّتي قبلها لتكون على أسلوب التَّعداد والتَّوقيف، وذلك اهتمامٌ باستقلالها[5]، فكأنَّ سائلًا قال: إنَّ هذه الظّواهر الكونيَّة آيات مُفصَّلات، فمَن الّذي يُفَصِّلها؟ ولماذا؟ فجاء الجواب: ﴿يُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾، فبينها وبين سابقاتها شبه كمال الاتّصال، وهي

(1) الثَّعالبيّ، الجواهر الحسان: 3/358.
(2) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 13/63.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 18/527.
(4) محمد أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 7/3892.
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 13/81.

مقرِّرة لما سبقها في أنَّ الأمر كُلَّهُ لله تسخيرًا وتدبيرًا وتفصيلًا، على النَّحو العجيب من التَّدبير، فإلهُ يُسخِّر الشَّمس والقمر، ويمسك بالأفلاك الهائلة والأجرام السّابحة في الفضاء، فيُجريها لأجل لا تَتَعَدّاه؛ لا شَكَّ عظيمُ التَّدبير جليل التَّقدير[1].

معنى (أل) التَّعريفيَّة:

بيان اشتمالها للآيات القرآنيَّة والبراهين الكونيَّة

الآيات: جمع (آية) والمُراد بها في قوله: ﴿يُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ﴾: ما يشمل الآيات القرآنيَّة، والبراهين الكونيَّة الدّالّة على وحدانيَّته وقدرته سبحانه؛ أيْ إنَّهُ سُبحانه يقضي، ويُقَدِّر، ويتصرَّف في أمر خلقه على أكمل الوجوه، وأنَّه سُبحانه يُنزل آياته القرآنيَّة واضحة مُفصّلة، ويسوق الأدلَّة الدّالّة على وحدانيَّته وقدرته بطرق متعدِّدة، وبوجوه متنوِّعة[2]، فالآيات معهودٌ ذِكْريّ سبقتِ الإشارةُ إليها في قوله تعالى: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أو معهود حُضوريّ باعتبارِها حاضرة في أذهان المخاطَبين في سياق الكلام عن الآيات الكونيَّة.

بلاغة الإدماج بالجمع بين جملتيْن:

إفادة أنَّ شأن مجموع الأمريْن يُفيد اهتداء النّاس إلى اليقين

جمع النّظم بين جملةِ: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾ وجملة: ﴿يُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ﴾ لبيانِ أنَّ تدبيرَ الأمر يشمل تقدير الخَلق الأوَّل والثّاني؛ فهو إشارة إلى التَّصرّف بالتَّكوين للعقول والعوالم، وتفصيلُ الآيات مُشيرٌ إلى التَّصرّف بإقامة الأدلَّة والبراهين، وشأن مجموع الأمريْن أن يُفيد اهتداء النّاس إلى اليقين بأنَّ بعد هذه الحياة حياة أخرى؛ لأنَّ النَّظر بالعقل في المصنوعات وتدبيرها يهدي إلى ذلك، وتفصيل الآيات والأدلّة يُنبِّه العقول، ويُعينها على ذلك الاهتداء ويُقرِّبه، وهذا قريب من قوله في سورة يونس: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ﴾ [يونس: 3]، وهذا من إدماج غرض في أثناء غرض آخر؛

(1) شحاتة، تفسير القرآن الكريم: 13/2422.
(2) طنطاويّ، التَّفسير الوسيط: 7/440.

لأنَّ الكلام جارٍ على إثبات الوحدانيَّة، وفي أدلّة الوحدانيَّة دلالة على البعث أيضًا[1].

بلاغةُ التّعبير بصيغة المضارع:

العوالم تسيرُ مُسرعةً إلى أجلٍ معلومٍ ومسارٍ محتوم

في الجُمَلِ: ﴿تَرَوْنَهَا﴾، و﴿كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ﴾، و﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾، و﴿يُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ﴾ اختير أن يكون المُسنَد في هذه الجُمل فعلًا مضارعًا لإفادة معنى التَّجدّد المتتابع؛ لأنَّ أحوال الرُّؤية والجريان والتَّدبير والتَّفصيل فيها معنى التَّجدّد والاستمرار، وهذا التّوالي في صيغة المضارع، يدلُّ على التّجدُّد المستمرّ إلى يوم القيامة، وأنَّه لا انقطاع له، فهو متوالٍ إلى يومِ الدّينِ، يُنبِّه العبدَ على ضرورة الانتباه إلى سرعة الانقضاءِ.

دلالة التّعبير بصيغة الماضي:

ما سوى الثّوابت متجدِّدٌ مُتغيِّر

في الجُمَلِ: ﴿رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾، و﴿ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾، و﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾ اختير أن يكون المُسنَد في هذه الجُمل فِعلًا ماضيًا للدَّلالة على إنشاء هذه الأمور وإحداثها في الزَّمان الماضي، فهي مستمرة على ما أنشئت، وأمّا رفع السَّماوات وتسخير الشَّمس والقمر، فقد تَمَّ واستقر دفعةً واحدة[2]، واستعمال الماضي يُشير إلى انقضاء خَلق هذه الثّوابت وتسخيرها، وأنَّ المُتجدِّد فيما سواه، وأنَّ العالم ما بين ثابتٍ ومُتجدِّد.

غرض استعمال أداة الرَّجاء:

التَّرجية في معرفة دلائل الإيمان للوصول إلى درجات اليقين

استُعملت أداة الرّجاء في قوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾، والمعنى: لعلكم ترجون لقاء ربكم، وتوقنون به، فالرَّجاء ليس من اللّه، ولكن الرَّجاء من الخَلق، وهو على كل شيء قدير، والمعنى: يُفصِّل اللّه الآيات إرادة أن تتأمَّلوا، وتنظروا فيها، فتستدلّوا بها عليه

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 13/81.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 13/82.

وعلى وحدته وقدرته وحكمته، وتتيقَّنوا أنَّ مَنْ قدر على خلق السَّماوات والأرض والعرش، وتسخير الشَّمس والقمر مع عظمها، وتدبير الأمور كلِّها كان على خَلق الإنسان مع مهانته، وعلى إعادته وجزائه أقدر[1].

بلاغةُ الكنايةِ:

الإشارة إلى القُدرة على البعث والنُّشور بدلائل الخلق وتدبير الأمور

لقاء الله تعالى هو الرُّجوع إليه بالبعثِ، وهو مصير كلِّ المخلوقات وذلك للقاء ثواب الله أو عقابه، وهو المقصود في قوله: ﴿لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾، فالبعث هو لقاء الله[2].

والدَّلائل المذكورة في هذه الآية، كما تَدُلُّ على وجود الصّانع الحكيم، فهي أيضًا تَدُلُّ على صِحَّة القول بالحشر والنَّشر؛ لأنَّ مَن قَدرَ على خَلق هذه الأشياء وتدبيرها على عَظَمتها وكثرتها، فلأنْ يقدر على الحشر والنَّشر كان أولى[3].

وكما أنَّ الله تعالى قدر على إبقاء الأجرام الفلكيَّة العظيمة من الشَّمس والقمر وسائر الكواكب في الجوِّ بلا عمد، ودبَّر الأمور بغاية الإحكام والدِّقّة، ولم يشغله شأن عن شأن، ليس بالبعيد عليه أن يَرُدَّ الأرواح إلى الأجساد، ويُعيد العالم إلى حياة أخرى، حياة استقرار وبقاء لا فناء بعدها، وإذا أيقنتم بذلك؛ ولَّيتم مُعرضين عن عبادة الأصنام والأوثان، وأخلصتم العبادة للواحد الدَّيان، وائتمرتم بوعده ووعيده، وصدَّقتم برُسله، وبادرتم إلى اتباع أوامره، وتركتم ما نهى عنه، ففزتم بسعادة الدّارَيْن[4].

سرُّ التَّعبير بالإيقانِ دون الإيمان:

الجمعُ بين الأدلّة القرآنيّة والآفاقيَّة يوصل العبدَ إلى مرتبة اليقين

قوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾؛ أيْ: تعلمون ذلك من غير شكٍّ استدلالًا بالقدرة على ابتداء الخَلق على القدرة على

(1) محمد أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 7/3893، والهرريّ، حدائق الرَّوح والرَّيحان: 14/167.
(2) محمد أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 7/3893.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 18/527.
(4) الهرريّ، حدائق الرَّوح والرَّيحان: 14/167، والمراغيّ، تفسير المراغيّ: 13/63.

ما جرت العادة بأنَّه أهون من الابتداء، وهو الإعادة، وأنَّه لا تتم الحكمة إلّا بذلك[1]، وفي التّعبير بقوله: ﴿تُوقِنُونَ﴾ بَدَلًا من قوله: (تؤمنون) إشارة إلى أنَّ هذا الإيمان الّذي يجيء عن طريق النَّظر والتَّأمل في آيات اللّه الكلاميَّة أو الكونيَّة أو هما معًا، هو الإيمان الكامل، الّذي يصل بالعبد إلى مرتبة اليقين[2]، فالمطلوبُ إيمانٌ يبلغ بصاحبِه درجةَ اليقين، وذلك بوساطة الأدلَّة القرآنيّة والكونيَّة، فإذا اجتمعا في فؤاد العبد؛ تمكَّن يقينُه.

فاللّه تعالى يُبين الآيات الدّالّة على وحدانيَّته وكمال قدرته؛ لكي توقنوا، وتُصدِّقوا بلقائه والمصير إليه بعد الموت؛ لأنَّ مَن قدر على إيجاد الإنسان بعد عدمه قادر على إيجاده وإحيائه بعد موته، واليَقين صفة من صفات العلم، وهو فوق المعرفة والدِّراية، وهو سكون الفهم مع ثبات الحُكم وزوال الشَّكِّ[3].

لأنَّ كثرة الأدلّة وبيانها ووضوحها، من أسباب حصول اليقين، في جميع الأمور الإلهيَّة، خصوصًا في العقائد الكبار، كالبعث والنُّشور والإخراج من القبور[4].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيّةُ:

اليقين والإيمان:

اليقين صفة من صفات العلم، والإيمان أشملُ منه وأعمّ

اليقين علمٌ يحصل بعد زوال الشُّبهة بسبب الفكر والتَّأمّل بعد أن كان صاحبه شاكًّا فيه[5]، وإذا كثرت الدَّلائل وتوافقت وتطابقت صارت سببًا لحصول اليقين؛ إذ يحصل بكلِّ واحد منها نوع تأثير وقوَّة، فتتزايد حتَّى تصل إلى مرحلة الجزم[6].

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 10/274.
(2) عبد الكريم الخطيب، التَّفسير القرآنيّ للقرآن: 7/65.
(3) الخازن، لباب التّأويل: 3/3.
(4) السَّعدي، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 475.
(5) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 374.
(6) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 13/37، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/564.

أمّا الإيمان؛ فهو التَّصديق، ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤۡمِنٖ لَّنَا﴾ [يوسف: 17]؛ أيْ: بمُصَدِّق[1]، واصطلاحًا هو العِبادات القلبيَّة، كالإيمان بالله واليوم الآخر، والإخلاص لله ومحبته ﷻ، والتَّوبة من الذُّنوب، والخشوع في الصَّلاة، وتدخل جميع صنوف العبادات في مُسمّاه، فيُطلق الإيمان على الهدى، وعلى ما يثبت في القلوب من صفة الإسلام وما ظهر من العمل[2].

(1) الخليل، العين: (أمن).
(2) العسكريّ، الفروق اللُّغويّة، ص: 318.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا ۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ۝٣﴾ [الرّعد: 3]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

تفصيل ذِكْرِ الدَّلائل الأرضيَّة بعد ذِكْرِ الدَّلائل السَّماويَّة

لمّا ذَكَرَ ربُّنا ﷻ الدَّلالةَ على وحدانيَّته وكمال قُدرته، وهي رفع السَّماوات بغير عمد، وذكر أحوال الشَّمس والقمر؛ أردفها بذِكْر الدَّلائل الأرضيّة، فقال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ﴾[1]، فبعد أنْ ذَكَرَ سُبحانه الدَّلائل السَّماويَّة على وحدانيَّته وكمال قدرته؛ أردفها بالأدلَّة الأرضيَّة[2]، فهو انتقال من الآيات الكونيَّة السّماويّة، إلى الآيات الكونيَّة الأرضيّة؛ بغرض التّفكّر والتّدبُّر في خلق الرّحمن، والابتداءُ بالسّماويَّة باعتبارِها أوضح وأشرف.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مَدَّ﴾: المَدُّ: البَسْطُ، يُقال: مدَّ اللّه الأرضَ يَمُدُّها مَدًّا: بَسَطَها، وسَوّاها[3]، ومَدَّ الحرْفَ يَمُدُّه مَدًّا: طَوَّلَه[4]، وأصل (مدَّ) يَدُلُّ على استطالة جِرم الشَّيء في نفسه أو باتصاله بغيره، فيزيده طولًا واستمرارًا، أو قَدْرًا[5]، ومدَّ النَّهر، ومدَّه نهر آخر، إذا زاد فيه، وواصله، فأطال مُدَّتَه[6]، والمعنى هُنا: بَسَطَها طولًا وعَرْضًا لتثبت عليها الأقدام، ويَتَقَلَّبَ عليها الحيوان[7].

(1) الخازن، لباب التّأويل: 3/4.
(2) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 13/65.
(3) ابن منظور، لسان العرب: (مدَّ).
(4) الزَّبيديّ، تاج العروس: (مدد).
(5) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (مدد).
(6) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة، وابن فارس، مقاييس اللُّغة: (مدَّ).
(7) الجمل، حاشية الجمل على الجلالين: 4/93.

2) ﴿رَوَاسِيَ﴾: ثوابت، والرُّسوُّ: الثُّبوت، والإرساء: الإثبات، يُقال: رسا الشَّيءُ يرسو رُسوًّا، إذا ثَبَتَ[1] وأصل الرُّسوِّ يَدُلُّ على ثبات الشَّيءِ بلزوم أسفله أو باطنه ما يُمسِكُهُ بِتَمَكُّنٍ[2]، ومنه رَسا الجَبَلُ: ثَبَت أصلُه في الأرض، ورَسَت السَّفينة: بلغ أسفلُها القَعْرَ، وانتهى إلى قَرار الماء، فثبتَتْ، وبقيت لا تَسيرُ، وقِدْرٌ راسية: لا تبرح مكانها، ولا يُطاقُ تحويلها لعِظَمِها[3]، والمعنى هنا: جعل فيها جبالًا ثوابت رواسخ[4].

3) ﴿يُغْشِي﴾: يُغطّي، والغشاء: الغِطاء، وغاشية السَّرْج: غطاؤه، وغِشاء كلِّ شيء: ما تغشّاه كغشاء القلب والرَّحْل والسَّرْج والسَّيْف ونحوها، وغاشية القلب وغِشاوته: قميصه، وأصلُ (غشي): يدلُّ على تغطيةِ شَيءٍ بِشَيءٍ كثيف يَعُمُّه كغشاء السَّرج والجَفن، ومن ذلك: تَغَشَّى ثيابه واستغشاها: تَغَطَّى بها كي لا يَرى، ولا يَسْمع، وسُمّي يومُ القيامَةِ غاشيةً؛ لأنَّها تغشَى الخلْقَ بإفزاعِها[5]، وقد تُطْلَقُ الغاشيَةُ علَى النّار؛ لكونِها تَغْشَى وُجوهَ الكفّار[6]، كما قال اللّه تعالَى: ﴿وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ۝٥٠﴾ [إبراهيم: 50]، والمعنى هُنا؛ أيْ: يجعل اللَّيل غاشيًا يغشى النَّهار بظُلمته، فيَذهب بنور النَّهار، ويُغَطّيه بظُلمَة اللَّيل، ويُلبِسُهُ مكانه[7].

المَعْنى الإجْماليّ:

اللّه وحده هو الّذي بسط الأرض بحكمته وإتقانه، وجعلها مُتَّسعة

بيان مِنَن الله وإنعامه على خَلْقِهِ بشتَّى صُنوف النِّعم الظّاهرة والباطنة

(1) الرّاغب، المُفردات: (رسا)، والسّجستانيّ، غريب القرآن، ص: 239.
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصَّل: (رسو).
(3) السَّمين الحلبيُّ، عُمدة الحُفّاظ: (رسي)، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المُؤصّل: (رسو).
(4) البيضاويّ، أنوار التَّنزيل: 3/181.
(5) المعجم الاشتقاقيّ المُؤصّل: (غشو - غشى)، وابن فارس، مقاييس اللُّغة، والزَّبيديّ، تاج العروس: (غشي).
(6) ابن سيدَه، المُحكَم: (غشو).
(7) إسماعيل حقّي، روح البيان: 3/175، والآلوسيّ، روح المعاني: 7/96.

مُمتدَّة وخلق فيها جبالًا ثوابت تُثبِّتُها حتَّى لا تضطرب بالنّاس، وأنهارًا لشُربكم ومنافعكم، ومن كُلِّ أنواع الثَّمرات جَعل فيها صنفيْن كالذَّكر والأنثى في الحيوان، يُلْبِسُ اللَّيل النَّهار، فيصير مُظلِمًا بعدما كان مُنيرًا، إنَّ في ذلك المذكور لأدلَّة وبراهين بيِّنة لقوم يتفكَّرون في صنع اللّه، ويتأمَّلون فيه، فهم الّذين ينتفعون بتلك الأدلّة والبراهين[1].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيّ:

بلاغةُ العطف بين الجُملِ:

ذِكرُ مدِّ الأرضِ بعد رفعِ السَّماءِ تناسبٌ ضِدّيٌّ دالٌّ على عظيمِ الاقتدارِ

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ﴾ عَطْفٌ على الجملة الاسميَّة ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ فَبَيْن الجُملتيْن شِبْهُ التَّضادّ، فقد اشتملت الأولى على ذِكر العوالم العُلويَّة وأحوالها، واشتملت الثّانية على ذِكر العوالم السُّفليَّة، والمعنى: أنَّه خالق جميع العوالم وأعراضها[2]، فلمّا قَرَّرَ الدَّلائل السَّماويّة؛ أردفها بتقرير الدَّلائل الأرضيَّة[3].

فائدةُ القصر ودلالتُه:

وحدة الصّانع وتَفَرُّدُه في التَّدبير مستقرٌّ في عقلِ كلِّ بصيرٍ

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ﴾؛ أيْ: وحدَه[4] دون سِواه، وفي هذا الإسناد قصرٌ حقيقيٌّ من باب قصر الصِّفة على الموصوف، وهو قصرٌ مُستفادٌ من تعريف طَرَفي الإسناد بذِكر ضمير الفصل والاسم الموصول، ويَنْجَرُّ القصر هُنا أيضًا إلى جعل الرَّواسي والأنهار في الأرض، وجعل الثَّمرات؛ لأنَّها من مُلحقات صلة الموصول ﴿مَدَّ ٱلْأَرْضَ﴾، وفي هذا القصر دلالةٌ على وحدة الصّانع الحكيم العليم المُريد الّذي أعطى كلّ شيء خلْقه، ثمّ هدى[5].

(1) لجنة من عُلماءِ الأزهر، المُنتخَبُ في تفسير القرآنِ الكريم، ص: 353، ونُخْبة من أساتذة التَّفسير، التَّفسير المُيَسَّر، ص: 249، وجماعَةٌ من علماء التَّفسير، المُختَصَر في تفسير القرآن الكريم، ص: 249.

(2) السّيواسيّ، عيون التَّفاسير: 2/256، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 13/82.

(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 19/5.

(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/274.

(5) محمد أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3893.

إنّ إسنادَ فعل المدِّ إلى اللّه تعالى وحده دون سِواه، دالٌّ على أنَّه مدٌّ مقصودٌ، أراده المعبود، لا أنَّه مدٌّ اعتباطيٌّ، أو طبيعيٌّ، كما يزعمُه مُخمِّنو الجيولوجيا، ومفكِّرو هذا العصر، فإنَّ مقتضى القصر أن يكون فعلًا للخالقِ ﷻ لا لغيرِه، ومُقتضى العطفِ أن يكون مقصودًا، كما أنَّ رفعَ السّماء كان مقصودًا، وهو خبرٌ غيبيٌّ ليس لنا فيه إلّا الإذعان والتّسليم، لا التَّسليم للدَّعاوى العريضة، والنَّظريّات الهجينة، فهذا مرتعٌ غير سديد، ومسلك غير حميد.

النَّظريّات العلميَّةُ خاضعةٌ لأخبارِ القرآنِ القطعيَّة

دلالةُ استعمال مُفردةِ ﴿مَدَّ﴾:

اختيرت مفردةُ المدِّ في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ﴾ دون (بسط)؛ لأنَّ المدّ هو البسطُ طولًا وعرضًا إلى ما لا يُدرك مُنتهاه، فهو بسط وسَعَة، فلفظ المدِّ يُشعر بأنَّه تعالى جعل حجم الأرض حجمًا عظيمًا لا يقع البصر على منتهاه؛ لأنَّ الأرض لو كانت أصغر حجمًا ممّا هي عليه؛ لما كَمُلَ الانتفاع بها[1]، والمعنى: خَلقَ الأرض ممدودة مُتَّسعة للسَّير والزَّرع؛ لأنَّه لو خلقها أسنمة من حجر أو جبالًا شاهقة مُتلاصقة لما تيسَّر للأحياء الّتي عليها الانتفاع بها، والسَّير من مكان إلى آخر في طلب الرِّزق وغيره[2]، فمفردةُ المدِّ دالَّةٌ على الحكمةِ الإلهيّة، والتّدبير الرّبانيّ.

مدُّ الأرضِ مشيرٌ إلى النِّعم الظّاهرة والغيوبِ الباطنة

دلالةُ استعمالِ صيغة الماضي:

دلَّت صيغةُ الماضي في قوله تعالى: ﴿مَدَّ﴾ على ثبوت ذلك وتحقُّقِه في الزّمن الماضي، وأنَّ ما يزعمه بعض علماء الجيولوجيا بأنَّ الأرض تتشكَّل كلَّ فترة زمانيّة، وأنَّها غير ثابتة زعْمٌ باطل، فإنَّ اللّه قد مدَّ الأرض، وجعل فيها رواسي لتثبيتها بعد مدِّها، فالماضي يَرُدُّ على هذا الزَّعم القائم على نظريات تخمينيَّة، ودلالة نظم القرآن أصدق في بيان حقيقةِ غيب الماضي.

التَّدليل على ثبوت المدِّ وتحقُّقِه في الزّمن الماضي تقريرًا للقُدرة واللُّطف والإنعام

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 19/5.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 13/82.

وليس المُراد من الفعل الماضي أنَّها كانت غير مَمْدودة، فَمَدَّها، بل هو كقوله: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾، فهذه خِلْقَةٌ دالَّة على القُدرة وعلى اللُّطف بعباده، فهي آية ومنَّةٌ[1].

دلالة استعمال مفردة ﴿وَجَعَلَ﴾ دون (خلق):

التَّنبيهُ على أصلِ الخَلْقِ ثمَّ التَّصيير لغايةٍ

استعمل النَّظم مفردة ﴿وَجَعَلَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا﴾، وهي تُستعمَل بمعنى خَلقَ ووَضعَ، وصَنعَ، وصَيَّرَ، كما تُستعمَل في غير ذلك من المعاني، واستعمالُ الجَعْل دون الخلق دالٌّ على وظيفته، وهي تثبيت الأرض بعد مَدِّها، أمّا الخلق؛ فهو تعبيرٌ عن إيجادِها، فاشتمل الجَعْل على دلالة الخَلْق لزومًا، ثم التَّصيير لغايةٍ، وما تُضفيه ظلال هذا الفعل على معنى الإيجاد الّذي لا يُعجز اللّه وقوعُه في أيّ وقت وفي أيّة بقعة من الأرض[2]، فهو خلقَ الأرضَ، ثم مدَّها، ثم جعل فيها رواسي وأنهارًا، ولو قال: خلق؛ لكان فيه تنبيهٌ على أصل الخلق، وهو مِنَّةٌ عظيمةٌ، لكنَّه آثر الجَعْل لما فيه من بيانِ الحكمة، فاشتملت المِنَّةُ على المِنَّة.

نكتةُ تقديمِ الجارِّ والمجرورِ:

تنبيهُ العبادِ على معالم البلاد للشُّكر والامتنان

قُدِّم الجارُّ والمجرور في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ﴾ اهتمامًا بهذا الجَعل العظيم، وتشويقًا للمُؤَخَّر استدلالًا بخلق الجبال على عظيم القُدرة لِما في خلقها من العظمة المُشاهدة بخلاف خلقة المعادن والتُّراب، فهي خفيَّة، كما قال تعالى: ﴿وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾﴾ [الغاشية: 19][3]، كما أنَّ في التّقديم تنبيهًا على تأمّلِ المجعولِ فيه، وهو الأرض؛ أيْ: جعل فيها عن قصدٍ وإرادةٍ وحكمةٍ، ففيه دعوةٌ للتّأمُّل والتَّفكُّر امتنانًا على العباد.

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 13/82.
(2) الدَّبل، النَّظم القرآنيّ في سورة الرَّعد، ص: 50.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 13/82.

سرُّ ذِكرِ الصّفةِ وحذف الموصوف:

تنزيلُ الاسم الوظيفيّ منزلةَ الاسم العلميّ لإظهارِ الأهميَّة

ذُكرت الرّواسي دون ذِكر الموصوف، وهو الجبال في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ﴾، والرّواسي جمع راسية، وهي الثّابتة، يُقال: أرسيتُ الوتد في الأرض: إذا أثبته[1]، وهي هُنا صفة لموصوف محذوف، وهو من الصِّفات الّتي تُغني عن ذِكرِ مَوْصوفها، فإنَّه لولا الجبال، لمادت بأهلها؛ لأنَّها لا ثبوت لها، ولا استقرار، إلّا بالجبال الرَّواسي الّتي جعلها الله أوتادًا لها[2]؛ فلمّا غَلَبَ على الجبال وصفها بالرَّواسي، وصارت الصِّفة الّتي هي تعبيرٌ عن وظيفةِ الجبالِ مغنيةً عن الموصوف جُمعت جمع الاسم كحائط وكاهل[3]، وحذف موصوفها لظهوره، فهو كقوله: ﴿وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِي ٱلْبَحْرِ﴾ [الرَّحمن: 24]؛ أي: السُّفُن الجارية[4]، فحذف الموصوف لإقامةِ الصِّفة مكانه باعتبارٍ من الاعتبارات المقاميّة، والاعتبار هنا وظيفة الجبال في الرّسوّ والاستقرار.

صيغة جمع (فواعل) في قوله: ﴿رَوَاسِيَ﴾:

كون الجمع هُنا جمع تكسير لما لا يعقل

فواعل يكون جمع فاعل؛ إذا كان صفة مؤنث كحائض، أو صفة ما لا يعقل مُذَكَّرًا؛ كجمع بازل وبوازل، أو اسمًا جامدًا، أو ما جرى مجراه كحائط وحوائط، وانحصار مجيئه جمعًا لذلك في فوارس وهوالك ونواكس إنَّما هو في صفات العُقلاء لا مُطلقًا، والجمع هُنا في صفة ما لا يعقل[5]، لأنَّ جمع التَّكسير من المُذَكَّر الّذي لا يعقل يجري مجرى جمع الإناث[6].

علَّةُ عطفِ الأنهار على الرَّواسي:

الإشارة إلى سَبَبِ تَوَلُّدها ومنشأ خروجها وتفجُّرها

قوله تعالى: ﴿وَأَنْهَـٰرًا﴾ معطوفةٌ على ﴿رَوَاسِيَ﴾ وعلَّق بهما فعلًا

(1) ابن جرير، تفسير ابن جرير: 13/63.
(2) السَّعديّ، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 475.
(3) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 10/275.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 13/82.
(5) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/89.
(6) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/346.

واحدًا، وذلك من حيث إنَّ الجبال أسبابٌ لتولُّدها، وذلك أنَّ الحَجر جسمٌ صلب؛ فإذا تصاعدت الأبخرة من قعر الأرض، ووصلت إلى الجبل؛ احتبست هُناك، فلا تزال تتزاحم، وتتضاعف حتَّى تحصل بسبب الجبل مياهٌ عظيمة، ثُمَّ إنَّها لكثرتها وقوَّتها تَنْقِبُ الجبل، وتخرج، وتسيل على وجه الأرض، وتصير عيونًا في عروق الأرض، تنشق الأرض عنها في المكان الّذي يُؤمر بالانشقاق فيه؛ فتظهر على وجه الأرض منفعة للخلائق[1].

التَّقابل الضِّدّي سببٌ في العطف

كما أنَّ هُناك مُناسبة أخرى لعطف ذِكر الأنهار على ذِكر الجبال وهو التَّقابل بينهما؛ لأنَّ الجبال أحجار أو نحوها، والأنهار ماء سهل، فهما متقابلان في الجملة؛ ولأنَّ أودية الماء تكون بجوار الجبال وتُتَّخذ منها، أو تتكون مياه الأنهار ما ينحدر من الجبال، أو تنزل الأمطار على الجبال، ثُمَّ تنحدر حتّى تجري في الأنهار[2]، فهو تَقابلٌ بين عُلوِّ الجبال وسَفَلِ الأنهار، كما قابل بين رفْعِ السَّماء ومدِّ الأرض، ولهذا في أكثر الأمر إذا ذَكَرَ الله تعالى الجبال؛ ذكر الأنهار كهذه الآية، وكقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَمِخَٰتٍ وَأَسْقَيْنَٰكُم مَّآءً فُرَاتًا ۝٢٧﴾ [المُرسَلات: 27]، وقوله تعالى: ﴿وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا﴾ [النّحل: 15][3].

غرضُ التَّنكير:

إفادة العموم والتَّكثير مع التَّعظيم

قوله تعالى: ﴿رَوَاسِيَ﴾ و﴿وَأَنْهَٰرًا﴾ جاءا مُنَكَّرَيْن لقصد التَّكثير والتَّعظيم؛ أيْ: وجعل فيها رواسي كثيرة عظيمة، وأنهارًا كثيرة عظيمة منفجرة منها مياه كثيرة، وفي ذلك تكثير النّبات والأشجار، وتكثير الحبوب والثِّمار[4]، وهذه المعاني مُستوحاةٌ من السّياق.

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 19/5، وإسماعيل حقّي، روح البيان: 4/337.
(2) مُحمَّد أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 7/3893.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/346.
(4) المهايميّ، تبصير الرّحمن: 1/377.

توجيه اجتماعِ المجازِ بالحذفِ والمُرسَل:

ذِكرُ المَحلِّ إشارةٌ إلى عظيمِ الحالِّ فيها

في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۡهَٰرٗاۖ﴾ حذفٌ، والتَّقدير: ومياه الأنهار؛ لأنَّ التَّمَتُّنَ بالمياه أكمل من التَّمتُّنِ بأخاديدها، ولأنَّ القُدرة والحكمة في خلق الماء أتَمُّ منها في خلق الأخاديد[1]، وذلك على جعل المحذوف المضاف، أو أن يكون من باب المجاز المُرسَل بإطلاقِ المَحلِّ وإرادة الحالِّ، على سبيل العلاقة المحليَّة.

توجيه تعلُّق المعطوفِ:

تنوُّعُ الاحتمالِ سعةٌ في الارتباطِ وتعدُّدٌ في الامتنان

قوله تعالى: ﴿وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ يجوز فيه ثلاثة أوجه:

الأوّل: أن يتعلَّق بقوله: ﴿جَعَلَ﴾ بعده؛ أيْ: وجعل فيها زوجيْن اثنيْن من كُلِّ صِنْفٍ من أصناف الثَّمرات، وهو ظاهر.

الثّاني: أن يتعلَّق بمحذوف على أنَّه حال من ﴿ٱثۡنَيۡنِۖ﴾؛ لأنَّه في الأصل صفاته.

الثّالث: أن يتمَّ الكلام على قوله: ﴿وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾، فيتعلَّق بقوله: ﴿وَجَعَلَ﴾ الأوَّل، على أنَّه من عطف المُفردات[2]، تقديره: أنَّه جعل في الأرض كذا وكذا من كلِّ الثَّمرات، ويكون ﴿جَعَلَ﴾ الثّاني مُستأنفًا[3]؛ وفي هذه الأوجه تنويع لمواضع المِنَّة والعبرة ومواطنها.

معنى الحرف (من) ودلالتُه:

توجيه معاني الحروفِ بحسبِ اعتباراتها

دخول ﴿وَمِن﴾ على ﴿كُلِّ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ جرى على الاستعمال العربيّ في ذِكر أجناس غير العاقل، كقوله: ﴿وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٖ﴾ [البقرة: 164]، و(مِنْ) هذه تُحمَل على التَّبعيض؛ لأنَّ حقائق الأجناس لا تنحصر، والموجود منها ما هو إلّا بعض جزئيات الماهيَّة؛ لأنَّ منها جزئيات انقضت، ومنها جزئيات

(1) الدَّبل، النّظم القرآنيّ في سورة الرّعد، ص: 90.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 13/83.
(3) الجمل، الفتوحات الإلهيّة: 4/93.

ستوجَدُ[1]، هذا ما يقتضيه العمومُ المُطلق، ويصحُّ أن تكون (من) بيانيَّة باعتبارِ المشاهد في الواقع.

نكتةُ إضافةِ العمومِ إلى العموم:

الدَّلالة على العموم المُطلَق في الأنواع والأجناس

قوله تعالى: ﴿وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ أُضيف لفظُ العموم ﴿كُلِّ﴾ إلى الجمعِ ﴿ٱلثَّمَرَٰتِ﴾، والجمع فيه معنى العموم كذلك، فأُضيف العمومُ إلى العموم، فاكتسب عمومًا مُطلقًا، ممّا هو معلومٌ لدى المخاطَب، وممّا هو مجهول؛ أيْ: وجعل فيها من كلِّ أصناف الثَّمرات زوجيْن اثنيْن: ذَكَرًا وأنثى حين تَكَوُّنها، فقد أثبت العلم حديثًا أنَّ الشَّجر والزَّرع لا يولّدان الثَّمر والحَبَّ إلّا من اثنيْن: ذَكَرٍ وأنثى، وعُضْوُ التَّذكير قد يكون مع عضو التَّأنيث في شجرة واحدة؛ كأغلب الأشجار، وقد يكون عضو التَّذكير في شجرة وعضو التّأنيث في شجرة أخرى كالنَّخل، وما كان العضوان فيه في شجرة واحدة؛ إمّا أن يكونا معًا في زهرة واحدة كالقُطن، وإمّا أن يكون كلٌّ منهما في زهرة كالقرع مثلًا[2]، ويحتمل معنى آخر للزوجيّة، وهي: أن اللّه خلق فيها من جميع أنواع الثَّمرات زوجيْن كالحلو والحامض، والأسود والأبيض، والأصفر والأحمر، والصَّغير والكبير[3]، وعلى كلا المعنييْن فإنَّ لفظة ﴿كُلِّ﴾ تدلّ على العموم المُطلق[4].

توجيهُ المخصوصِ بالذِّكر:

المُراد بالثّمرات في قولِه تعالى: ﴿وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ الثّمراتُ وأشجارها، وإنَّما ذُكِرت الثّمرات وحدَها؛ لأنَّها هي موضع المنّة والعبرة، كقوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۚ﴾ [الأعراف: 57][5].

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 13/83.
(2) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 13/65.
(3) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 9/280.
(4) الدَّبل، النَّظم القرآنيّ في سورة الرَّعد، ص: 50.
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 13/83.

فائدةُ تقديمِ المعمول على العامل:

ردُّ أوهامِ الأفهام في تخصيص الزَّوجيَّة ببعض الثَّمرات

قُدِّمَ ذِكرُ المعمولِ على العاملِ في قوله تعالى: ﴿وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ﴾، وهو ﴿وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ على ﴿جَعَلَ﴾؛ وذلك لِرَدِّ خطأ المخاطَبين إلى الصَّواب؛ لأنَّهم كانوا يظنّون أنَّ الزَّوجيْن خاصّان ببعض الثَّمرات؛ كالتَّمر والتّين، فَرَدَّهم إلى الصَّواب، وبَيَّنَ لهم أنَّ جميع الثَّمرات مُكوَّنة من زوجيْن اثنيْن: ذكر وأنثى، وهذا على جعل هذه الجملة متعلِّقةً بقوله: ﴿جَعَلَ﴾ الثّانية، كما سبق بيان ذلك.

غرضُ التَّنكير:

الدَّلالة على التَّنويع في الأزواج

تنكير ﴿زَوۡجَيۡنِ﴾ في قوله تعالى: ﴿جَعَلَ فِيهَا زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ﴾؛ للتَّنويع؛ أيْ: جعل زوجيْن من كلِّ نوعٍ، فإن قيل: إنَّه ذكَّرها بصيغة التّثنية، فأين هو محل التّنويع؟ فالجواب: أن معنى التَّثنية في ﴿زَوۡجَيۡنِ﴾ أن كل فردٍ من الزَّوج يُطلَق عليه: زوج، كما جاء في سورة الأنعام عند قوله تعالى: ﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزۡوَٰجٖۖ مِّنَ ٱلضَّأۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَمِنَ ٱلۡمَعۡزِ ٱثۡنَيۡنِۗ﴾ [143][1].

فائدةُ الوصف بالاثنيْن:

دفع تَوَهُّم ازدواج الأصناف عند بدء الخَلق

خصَّ النَّظمُ الاثنيْن بوصفِ الزّوجين في قوله تعالى: ﴿جَعَلَ فِيهَا زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ﴾، وإن كان من أجناس الثِّمار ما يزيد على ذلك؛ لأنَّه الأقلُّ؛ إذ لا نوع تنقص أصنافه عن اثنيْن، فلو قال: خلق زوجيْن، لم يعلم أنّ المُراد النَّوع أو الشَّخص، فلمّا قال: ﴿ٱثۡنَيۡنِۖ﴾؛ علمنا أنَّه أوَّل ما خلق من كلِّ زوجيْن اثنيْن لا أقلَّ ولا أزيد، فالشَّجر والزَّرع كبني آدم، حصل منهم كَثْرَةٌ، وابتداؤهم من زوجيْن اثنيْن بالشَّخص؛ وهما: آدم وحواء[2].

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 13/84.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/346.

فعند بدء الخلق خلقَ من كلِّ صنف اثنيْن فقط، أحدهما ذَكَرٌ والآخر أنثى، ثُمَّ تكاثر الزَّوجان من الثَّمرات كما تكاثر الإنسان وسائر الحيوانات، كما أنَّ في الوصف بقوله: ﴿ٱثۡنَيۡنِۖ﴾ تأكيدًا تحقيقًا للامتنان[1].

بلاغةُ الاستئناف البيانِّي التَّفصيلِّي:

تفصيلُ ما سَبَقَ ببيان زمن حصوله وسبب صلاحه

قوله تعالى: ﴿يُغۡشِي ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَۚ﴾ أي: يُلبس اللَّيل بالنَّهار لتسكين البرودة، والنَّهار باللَّيل لتسكين الحرارة؛ ليحصل الاعتدال في طبيعة الهواء المُنْضِجِ للثَّمرات[2]؛ وذلك لأنَّ اللَّيل والنَّهار لهُما تَعَلُّقٌ بالثَّمرات من حيث العَقْدُ والإنضاج، على أنَّهما أيضًا زوجان مُتقابلان مثلها[3]، فجاء الكلام عنهما مُستأنفًا لشبه كمال الاتّصال بينه وبين ما قبله، فكأنَّه قيل: ما الّذي يُنضجها؟ فقال: ﴿يُغۡشِي ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَۚ﴾، فيُنضج هذا بحَرِّه، ويُمسك هذا ببردِه، فيعتدل فعلُهما على ما قدَّره تعالى لهما في السَّير من الزّيادة والنُّقصان للحَرِّ والبرد للإخراج والإنضاج، إلى غير ذلك من الحكم النّافعة في الدّين والدُّنيا، والظّاهر لِكُلِّ ذي عَقْلٍ أنَّها بتدبيره بفعله واختياره وقهره واقتداره[4]، وفي هذا الاستئناف بيانٌ لمظهرٍ آخر من مظاهر قُدرته سبحانه ورحمته بعباده[5]، إذ هو استئنافٌ بيانيٌّ يحتاج إلى ذهنٍ ثاقبٍ لاستنباطِ العلاقة بين الجملتيْن.

بلاغة المجاز في التَّعبير بالغشيان:

المجاز المُرسل بجعلِ الجوِّ مكانًا للنَّهار بعثًا للتأمُّل

معنى ﴿يُغۡشِي﴾: يُلبس النَّهار ظُلمةَ اللَّيل، فيصير الجوُّ مُظلِمًا، وكذلك يُلْبِسُ اللَّيلَ ضياءَ النَّهار، فيصير الجوُّ مُضيئًا، وفي هذا

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 13/84.
(2) الشَّيخ علوان، الفواتح الإلهيَّة: 1/389.
(3) القاسمي، محاسن التَّأويل: 6/256.
(4) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 4/122.
(5) الطَّنطاويّ، التَّفسير الوسيط: 7/440.

الاستعمال مجازٌ مُرسَلٌ علاقته المكانيَّة، بجعل الجوِّ مكانًا للنَّهار؛ لأنَّ الزَّمان لا مكانَ له، والمكان إنَّما هو للضَّوء الّذي هو لازِمُه[1]، والأصل: يُغشي اللَّيلَ مكان النَّهار ويُغشي النَّهار مكان اللَّيل؛ فَحُذِفَ المكان ووُضع الحالُّ فيه محلَّه؛ لأنَّه لا يجتمع الظَّلام والنّور في شيء واحد حتّى يُغشي أحدهما الآخر، فمتى حلَّ النّور؛ انتفى الظَّلام، ومتى ذهب النّور؛ حلَّ الظلام، فيتابع اللّه بين اللَّيل والنَّهار في انتظام عجيب ونظام دقيق يبعث على التَّأمل في ناموس هذا الكون، والتَّفكير في القدرة المُبدعة الّتي تدبِّره، وترعاه[2].

الاستعارة التَّصريحيَّة التَّبعيّة في تصوير اللَّيل بجعله غطاءً للنَّهار

ويجوز حمل ﴿يُغْشِى﴾ على الاستعارة، بجعله مَغْشيًّا للنَّهار ملفوفًا عليه كاللِّباس على الملبوس، كقوله تعالى: ﴿يُكَوِّرُ ٱلَّيۡلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ﴾ [الزُّمر: 5][3]، وهي استعارة تصريحيَّة تبعيَّة مبنيَّة على تشبيه إزالة نور الجوِّ بالظُّلمة بتغطية الأشياء الظّاهرة بالأغطية؛ أيْ: يسترُ النَّهارَ باللّيل، والتَّركيب وإن احتمل العكسَ أيضًا بالحمل على تقديم المفعول الثّاني على الأوَّل، فإنَّ ضوء النَّهار أيضًا ساترٌ لظلمة اللَّيل، إلّا أنَّ الأنسب باللَّيل أن يكون هو الغاشي[4].

بلاغة الاستعارةِ المَكنيّة:

تجسيدُ المحسوس الكُلّيّ البعيد بالمحسوس الجزئيّ القريب

الاستعارة في لفظي اللّيل والنّهار في قوله تعالى: ﴿يُغْشِى ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَ﴾ مكنيَّة أصلية، حيث شبَّه النَّهار برجل، ورمز إليه بإلباس اللِّباس، فتكون الاستعارة مكنيَّة بهذا المعنى[5]، وحينئذٍ تكون الاستعارةُ في لفظِ النَّهارِ، وإذا جعلنا الاستعارة في لفظ اللّيلِ، فتكون بتشبيه اللَّيلِ باللِّباس، ورمز إليه بالغشيان، فإنَّ اللّباس

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/96.
(2) شحاتة، تفسير القرآن الكريم: 13/2423.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/96.
(4) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 5/3.
(5) أطْفيشْ، تيسير التَّفسير: 7/221.

يُغشي صاحبَه، وتكون الاستعارة مكنيَّة أصليةً في لفظ اللّيل، وبلاغةُ الاستعارةِ تكمنُ في تصويرِ حركة اللَّيلِ والنَّهار بما يُقرِّب الصّورة للمخاطَب، تجسيدًا للمحسوسات الكُلّيّة البعيدة بالمحسوسات الجزئيّة القريبة.

بلاغةُ الاكتفاءِ:

السّترُ في اللّيلِ أوضحُ منه في النّهارِ

في قوله تعالى: ﴿يُغۡشِي ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَۚ﴾ اكتفاء؛ أيْ: يجعل اللَّيل غاشيًا، يُغْشي النَّهار بظُلمته، فيذهب بنور النَّهار، ويُغطّيه بظُلمتِه، ولم يَذْكُر العكس بأن يقول: (يُغشي النَّهار اللّيل) اكتفاءً بأحد الضِّدّين، لدلالة الكلام على أحدهما[1]، وهذا لونٌ من الإيجاز، وإيثارُ اللَّيلِ باعتبارِ أنَّ السِّترَ أوضحُ فيه، كحال اللّباس الّذي يستر صاحبَه.

وقد يكون لفظ النَّهار معطوفًا على اللَّيل، وحَرْفُ العطف محذوفٌ، وحَسُنَ حَذْفُ حرفِ العطف؛ لأنَّ النَّهار واللَّيل لا يجتمعان، فكأنَّه قال: (يُغشي اللَّيل ويغشي النَّهار)، قياسًا على ما ذَكَرَهُ ابن هشام في (مُغني اللَّبيب) حكايةً عن أبي زيد: (أكَلْتُ خُبْزًا لَحْمًا تَمْرًا)، قال: "قَدْ خُرِّج على ذلك آيات إحداها ﴿وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ نَّاعِمَةٞ ٨﴾ [الغاشية: 8]؛ أيْ: (ووجوه) عطف على ﴿وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ٢﴾ [الغاشية: 2]"[2]، وتقدير حرف عطفٍ محذوفٍ لا يليق بهذا المقامِ قياسًا على ما ذُكر، فالنَّظمُ على ظاهرِه.

دقَّةُ التَّعبيرِ بصيغةِ المُضارعِ:

إفادة التَّجدّد والاستمرار وتعلُّقهما بحياة الإنسان طلبًا لمعاشه وسكونه

جيء في قولِه تعالى: ﴿يُغۡشِي ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَۚ﴾ بصيغةِ المُضارع لِما يَدُلُّ عليه من التَّجدُّد؛ لأنَّ جعل الأشياء المُتَقَدِّم ذِكْرُها جَعْلٌ ثابت مستمرٌّ، وأمّا إغشاء اللَّيل والنَّهار؛ فهو أمر مُتجدِّد كُلَّ يوم وليلة، وهذا استدلال بأعراض أحوال الأرض، وذِكره مع آياتِ العالم

(1) السّيواسيّ، عيون التّفاسير: 2/256.
(2) ابن هشام، مُغني اللَّبيب، ص: 831.

السُّفليّ في غاية الدِّقّة العلميَّة؛ لأنَّ اللَّيل والنَّهار من أعراض الكُرة الأرضيَّة بحسب اتجاهها إلى الشَّمس، وليسا من أحوال السَّماوات؛ إذِ الشَّمس والكواكب لا يتغيَّر حالُها بضياءٍ وظُلمة[1].

ومدُّ الأرض، وبَسْطُها وتثبيتها بالجبال الرّاسية، وبَثُّ الثَّمرات في جنباتها من الدَّلائل على عظمة الخالق وقُدْرَتِهِ، ولكنَّ فَرْطَ أُلفة النّاس لهذه المخلوقات، مع بقائها صامتةً جامدة قد يُهَوِّنُ أمرها عندهم، دون تَدَبُّرٍ واعتبار طويلَيْن، باعتبارِ أنَّ الألفةَ مُذْهِبةٌ لاستشعارِ النِّعمة، أمّا آية اللَّيل، وآية النَّهار؛ فَهُما آيتان كبيرتان، في إحداهما طَلَبُ المعاش، وفي الأخرى طَلَبُ السُّكون، فالكيفيَّة البشريَّة فيهما مُتَجدِّدة نشيطة مُستمرَّة، ولذا جاء التَّعبير بالمُضارع الدّالّ على التَّجدُّد والحدوث[2].

توجيه القراءات القرآنيَّة في ﴿يُغْشِي﴾:

قراءةُ التَّشديد معنى التَّكرير والتَّكثير والتَّخفيف معنى الاقتدارِ

قرأ الجمهور قولَه تعالى: ﴿يُغْشِي﴾ بسكون الغين وتخفيف الشّين، وهو مُضارع (أغشى)، وقرأه حمزة والكسائيّ، وشعبة عن عاصم، ويعقوب، وخلف بتشديد الشّين[3] ﴿يُغَشِّي﴾ من (غَشَّى)؛ أيْ: يُغَشّي اللّه اللَّيل النَّهار، وحُجَّة مَن قرأ بالتَّشديد أنَّ هذا فعل يَتردَّد ويتكرَّر، وذلك أنَّ كلَّ يوم وكلَّ ليلة غير اليوم الآخر وغير اللَّيلة الأخرى، فالتَّغشية مكرورة مردودة لمجيئها يومًا بعد يوم، وليلة بعد ليلة، وفي التَّنزيل ﴿فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ۝٥٤﴾ [النّجم: 54][4]، فالقراءتان مُتساويتان، وفي التَّشديد معنى التَّكرير والتَّكثير والمداومة[5]، وهي مناسبةٌ للسّياق، كما أنَّ قراءة التَّخفيف مناسبةٌ لعظيمِ اقتدارِه سبحانه.

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 13/84.
(2) الدَّبل، النَّظم القرآنيّ في سورة الرّعد، ص: 56.
(3) ابن الجزريّ، النَّشر: 2/269.
(4) ابن زنجلة، حُجَّة القراءات، ص: 284.
(5) مكّيّ بن أبي طالب، الكشف عن وجوه القراءات: 1/465.

دلالةُ البدءِ بذِكر اللَّيل:

الظُّلمة هي الأصل في الفضاء، ومعنى السِّتر في اللّيلِ أوضح

قوله تعالى: ﴿يُغْشِي ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَۚ﴾ وإنِ احتمل العكس أيضًا بالحَمل على تقديم المفعول الثّاني على الأوَّل، فإنَّ ضوء النَّهار أيضًا ساترٌ لظُلمة اللَّيل إلّا أنَّ الأنسب باللَّيل أن يكون هو الغاشي[1]، فإنَّ اللَّيل هو الأصل؛ لأنَّ الفضاء مُظْلِمٌ، والظُّلمة هي الأصل، ويأتي الضَّوء ليُمزِّق هذه الظُّلمة ويَسْري فيها، ويُبدِّدها، فالضَّوء يأتي بعد الظُّلمة، كما أنَّ اللَّيل مَحَلُّ السُّكون السّابق للحركة فبه تُظْلِمُ الآفاق، ويَسْكُنُ كلُّ حيوان إلى مأواه، ثُمَّ إذا قضوا مأربهم من النَّوم، غشي النَّهارُ اللَّيل، فإذا هم مُصبحون ينتشرون في مصالحهم وأعمالهم في النَّهار[2].

علَّة فصل الجملةِ عن السّابق:

تقرير ما سبق استدلالًا بالصّنعة على الصّانع، وبالسَّبب على المُسَبِّب

بعد أن ذَكَرَ النَّظم الكريم الأدلَّة الّتي تُشاهَد رأي العين في كُلِّ صباح ومساء، وفي كُلِّ حين ووقت، ذكر أنَّ هذه الأدلّة لا يَلْتَفِتُ إليها، ولا يعتبر بها إلّا مَن له فكرٌ يَتَدبَّر به، وعَقْلٌ يَهتدي به إلى وجه الصَّواب، وينتقل من النَّظر في الأسباب إلى مسبِّباتها، فقال: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ﴾، فيستدلّون بالصّنعة على الصّانع، وبالسّبب على المُسبِّب؛ أيْ: إنَّ فيما ذُكِرَ من عجائب خلق اللّه وعظيم قدرته الّتي خلق بها هذه الأشياء العظيمة؛ لَدلائلَ وحُججًا لمَن يتفكَّر فيها، ويعتبر، فيعلم أنَّ الخالق لذلك هو القاهر فوق العباد[3]، فقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ﴾ تعليلٌ لما سبق؛ أيْ: إنَّما ذُكر ما ذُكر؛ لأنَّ فيه آياتٍ للمُتفكّرين، لعلهم يؤمنون، ثم يوقنون بآيات اللّه تعالى القرآنيَّة المؤيَّدة بالآيات الكونيَّة.

(1) القنّوجيّ، فتح البيان: 3/478.
(2) السَّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 475.
(3) الخازن تفسير الخازن: 3/4، والمراغيّ، تفسير المراغيّ: 13/65.

نُكتة الإشارة بالبعيد:

التَّنبيه على عِظَم المُشار إليه وأنَّه بمنزلةٍ رفيعةٍ

استعمالُ اسم الإشارة للبعيد في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾؛ أيْ: فيما ذُكِرَ من مَدِّ الأرض وجَعْلِ الرَّواسي عليها، وإجراء الأنهار فيها، وخَلْقِ الثَّمرات وإغشاء اللَّيل النَّهار، وفي هذه الإشارة تنبيهٌ على عِظَم المُشار إليه في بابه[1]، فهو بعيدٌ يحتاج إلى مزيدِ تأمُّلٍ، وغور فكرٍ، وكبير تدبُّر، للوصولِ إلى حقيقةِ تلك الآيات، وأنَّها آياتٌ عظيمةٌ في بابِها.

سِرُّ جعل الأشياء المذكورة ظُروفًا للآيات:

جعل الأشياء المَذكورات ظروفًا لآيات؛ لأنَّ كُلَّ واحدة من الأمور المذكورة تتضمَّن آيات عظيمة يجلوها النَّظر الصَّحيح، والتَّفكير المُجرَّد عن الأوهام[2].

غرض التَّوكيد:

تقوية الحُكْمِ والتَّنبيه على فضيلة التَّفكُّر وأثرِ نَفعِه على العبد

جاء التَّوكيدُ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ لغرضٍ بلاغيٍّ، فإنَّ الّذي فعله الله تعالى من بَسْطِ الأرض طولًا وعَرْضًا، ومن تثبيتها بالرَّواسي، ومن شقِّها بالأنهار لآيات باهرة، ودلائل ظاهرة على قدرة الله تعالى ورحمته بعباده[3]، فأُكِّد هذا الخبر بأداةِ (إنَّ) واسميّة الجملة واللّام المُزحلَقة من (آيات)؛ تقويةً لحُكْمِهِ وتنبيهًا على فضيلة التَّفكُّر وأثر نفعه على العبد.

دلالةُ تنكير (آيات):

الدَّلالة على التَّفخيم والتَّعظيم كمًّا وكيفًا

قولُه تعالى: ﴿لَآيَٰتٍ﴾ اسمُ إنَّ دخلته اللّام لتأخُّره عن خبرها، والتَّنكيرُ للتَّفخيم كمًّا وكيفًا؛ أيْ: ﴿لَآيَٰتٍ﴾ عظيمةً كثيرةً دالَّة على القُدَرة والحِكمة الباهرةِ، والرَّحمةِ الواسعة المُقتضية لاختصاص الألوهيَّة به سبحانه.

---

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/97.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 13/85.
(3) الطَّنطاويّ، التَّفسير الوسيط: 7/440.

سرُّ ذِكرِ لفظِ (قوم):

صفةُ التَّفكُّرِ سرٌّ من أسرار قيامِ البشرِ على الحقِّ

نبَّه النَّظم الكريم على أنَّ المقام يحتاج إلى تَعَبٍ بتجريد النَّفس من الهوى وتحكيم العقل صرفًا بقوله: ﴿لِّقَوْمٍ﴾؛ أيْ ذوي قوَّة زائدة على القيام فيما يحاولونه[1]، فلم يَقُلْ: (لآياتٍ للمُتفكّرين) بحذف لفظِ (قوم)، فأجرى صفة التَّفكُّر على لفظ (قوم) إشارة إلى أنَّ التَّفكُّر المُتكرِّر المُتجدِّد هو صفة راسخة فيهم، بحيث جعلت من مقوِّمات قوميتهم؛ أيْ: جِبِلَّتهم[2].

نكتةُ التَّعبير بصيغةِ المُضارع دون الاسم:

بقاءُ التَّفكُّر بقاءُ الإيمانِ وبزواله زوالُه

جيء في التَّفكير بالصّيغة الدّالّة على التَّكلُّف في قولِه تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾، وبصيغة المضارع للإشارة إلى تفكير شديد ومكرَّر مُتجدِّد[3]، ولم يَقُلْ: (لقوم متفكّرين)، وذلك لدعوةِ النّاس لديمومةِ التَّفكُّر في خلق اللّه تعالى، لبقاء الإيمان حاضرًا في النُّفوس، باقيًا في القلوب، فإذا زال التَّفكُّرُ؛ ضعف الإيمان وزال.

نكتةُ ذكر التَّفكر دون التَّدبر أو التعقُّل:

تعليق المذكورات بالفكر لِما فيها من الدِّقَّة وتَطَلُّب البحث

جاء التّعبير في قولِه تعالى: ﴿يَتَفَكَّرُونَ﴾ دون (يعقلون) ونحوه؛ لأنَّ في هذه المخلوقات، وبديع صُنعها، وتسخيرها ما يستوجب التَّفكُّر، والتَّأمُّل في ملكوت الكون[4]، فلمّا ساق سبحانه هذه الآيات مُفَصَّلة إلى أربع، وكان فيها دِقَّة، جَمعها وناطها بالفِكْرِ[5]؛ لأنَّ الفكر هو تصرُّف القلب في طلب الأشياء[6].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيّةُ:

يتفكرون ويتذكرون:

التَّذكُّر مقصود التَّفكُّر وثمرته فإذا فَكَّرَ القلب؛ تَبَصَّر، وإذا تبصَّر؛ تَذكَّر

التَّفكُّر تَصَرُّف القلب بالنَّظر في الدَّلائل ومعاني الأشياء ليدرك

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 10/277.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 13/85.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 13/85.
(4) الدَّبل، النَّظم القرآنيّ في سورة الرَّعد، ص: 56.
(5) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 10/277.
(6) الخازن، لباب التّأويل: 3/4.

المطلوب[1]، وهو سراج القلب يرى به خيره وشره، ومنافعه ومضارَّه، وكلُّ قلب لا تَفَكُّر فيه؛ فهو في ظلماتٍ يتخبَّط[2].

وفي القرآن الكريم يأتي طلبُ التَّفكُّر إمّا بضرب مَثَلٍ حتّى يتأمَّل الإنسان هذا المثل، وإمّا يكون جوابًا عن سؤال حتّى يتفكَّر في الإجابة عنه، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [يونس: 24] وقال: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الحشر: 21].

أمّا التَّذَكُّر؛ فهوَ محاولة النَّفس استرجاع ما زالَ من المعلومات[3]، ويكون التَّذكُّر للاتِّعاظ وأخذ العبرة قال تعالى: ﴿۞وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥١﴾﴾ [القصص: 51]، وقال: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [الدُّخان: 58].

والتَّفكر والتَّذكر أصل الهدى والفلاح، وهُما قُطْبا السَّعادة، إذ التَّفكر: طلب القلب ما ليس حاصلًا من العلم، والتذكُّر: استرجاع مازال عن القلب، والمتفكر ينتقل من المقدِّمات والمبادئ الّتي عنده إلى المطلوب الّذي يريده، فإذا ظفر به؛ تحصَّل له تَذَكُّرٌ به، وأبصر مواقع الفعل والتَّرك، وما ينبغي اجتنابه، فحينها يكون التَّذكر؛ فالتَّذكُّر هو مقصود التَّفكُّر وثمرته، فإذا فَكَّرَ القلب؛ تَبَصَّر، وإذا تبصَّر؛ تَذكَّر[4].

(1) الجُرجانيّ، التَّعريفات، ص: 63، والعسكريّ، الفروق اللُّغويَّة، ص: 121.
(2) الجُرجانيّ، التَّعريفات، ص: 63.
(3) الكفويّ، الكليّات، ص: 67.
(4) ابن القيّم، مفتاح دار السَّعادة: 1/214.

﴿وَفِي ٱلۡأَرۡضِ قِطَعٞ مُّتَجَٰوِرَٰتٞ وَجَنَّٰتٞ مِّنۡ أَعۡنَٰبٖ وَزَرۡعٞ وَنَخِيلٞ صِنۡوَانٞ وَغَيۡرُ صِنۡوَانٖ يُسۡقَىٰ بِمَآءٖ وَٰحِدٖ وَنُفَضِّلُ بَعۡضَهَا عَلَىٰ بَعۡضٖ فِي ٱلۡأُكُلِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ٤﴾ [الرّعد: 4]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

تفصيل المُجملات تناسبٌ تدرُّجيٌّ وانتقالٌ فريد

لَمّا ذكرتِ الآية السّابقةُ مدَّ الأرضِ وما فيها من آياتٍ دالَّةٍ على عظيمِ صُنعه سبحانه؛ شرع تعالى في شيء من تفصيل ما في الأرض من الآيات الّتي هي أكثرُ تفصيلًا، فقال: ﴿وَفِي ٱلۡأَرۡضِ﴾[1]، فبَيَّن أنَّ في الأرض علامات كثيرة، ودلائل كثيرة لوحدانيَّته، لِمَن له عقل سليم[2]، فالانتقال من الآية السّابقة إلى هذه الآيةِ هو بيانُ نتاج الأرض الّتي جعل الله فيها رواسي وأنهارًا، وهو قوتُ الإنسانِ وغذاؤه، بعد بيان ذلك إجمالًا.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿قِطَعٞ﴾: القَطْعُ: إبانة بعض أجزاء الشَّيء من بعض فَصْلًا[3]، يُقال: قطَعَ الشَّيءَ يقْطعُه قَطْعًا ومَقْطَعًا، وأصْلُ القَطْع: فَصْلُ بعض الجِرْمِ المُمتدِّ المُلْتَحِم عَنْ بعضه، ومَقْطَعُ كلِّ شيء ومُنْقَطَعُه: آخره حيث ينقطع؛ كمقاطع الرِّمال والأودية والحَرَّة وما أشبهها[4]، والقِطعةُ: طائفةٌ من كلِّ شيء، والجمع: القِطَعات والقِطَعُ[5]، والمعنى هُنا: بقاعٌ مُتقاربات مُختلفة الطَّبائع[6].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 4/124.
(2) السَّمرقنديّ، بحر العلوم: 2/216.
(3) ابن سيدَه، المُحكَم والمُحيط، والرّاغب، المُفردات: (قطع).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المُؤصّل: (قطع).
(5) الخليل، العين: (قطع).
(6) القاسميّ، محاسن التَّأويل: 6/258.

2) ﴿صِنۡوَانٞ﴾: مُجتمِع، يدلُّ على تقارب بين شيئَيْن، قرابة أو مسافة، من ذلك الصّنو: الشّقيق، وعمُّ الرّجل: صِنو أبيه، يُقال: فلان صنو فلان؛ إذا كان أخاه وشقيقه لأمّه وأبيه[1]، والصّنو: النّظير والمثيل، والأصل في ذلك النّخلتان أو النّخلات يجمعها أصلٌ واحِد، وتتشعب[2]، فكلُّ واحدةٍ منهما على حيالها صِنو، والجمع: صنوان[3]، والمعنى هنا: الأصول المجتمعة في منبت واحد كالرّمان والتّين والنّخل وغيره[4].

❁ المَعْنى الإجْماليّ:

تُبيِّن الآيةُ أنَّ في الأرض بقاعًا مُتقاربةً يُجاور بعضُها بعضًا، وجعل فيها زُروعًا مُختلفةً ونخيلًا مجتمعًا في منبتٍ واحد، وغير مجتمع فيه، تُسْقَى هذه البساتين وتلك الزُّروع بماءٍ واحد، وبعضها أفضلُ من بعض في الطَّعم وغيره من الفوائد على رغم تجاورها وسقيها بماءٍ واحد، إنَّ في ذلك المذكور لدلائل واضحة على قُدرة اللّه لِمَن له عقل يُفَكِّرُ به[5].

اتِّحادُ الأصلِ ليس شرطًا في اتِّفاقِ الفرعِ

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيّ:

معنى الواو ودلالة استعمالِها:

الواو في قوله تعالى: ﴿وَفِي ٱلۡأَرۡضِ قِطَعٞ مُّتَجَٰوِرَٰتٞ﴾ يصحُّ حملُها على الاستئنافِ أو العطفِ؛ فمعناها على الاستئنافِ: هو في كون الأرض مُشتمِلةً على طائفة أخرى ونوع آخر من الآيات؛ أيْ: في الأرض بقاعٌ كثيرة مختلفة في الأوصاف، فمن طيبة مُنبتة، ومن

الانتقال إلى طائفة من النِّعم الدّالَّة على قُدرة الله تعالى فيما ألْهَمَ النّاس من العمل

(1) الخليل، العين: (صنو).
(2) ابن فارس، جمهرة اللّغة: (صنو).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (صنو).
(4) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/370.
(5) لجنة من عُلماءِ الأزهر، المنتخَبُ في تفسير القرآنِ الكريم، ص: 352، ونُخْبة من أساتذة التَّفسير، التَّفسير المُيَسَّر، ص: 249، وجماعَةٌ من علماء التَّفسير، المُخْتَصَر في تفسير القرآن الكريم، ص: 249.

سبخة لا تُنبت، ومن رَخوة، ومن صلبة، ومن صالحة للزَّرع لا للشَّجر، ومن صالحة للشَّجر لا للزَّرع إلى غير ذلك[1].

ومعناها على العطفِ: هو الانتقال إلى ذِكْر النِّعم الدّالّة على قدرة اللّه تعالى فيما أَلْهَمَ النّاس من العمل في الأرض بفلحها وزرعها وغرسها والقيام عليها، فجاء ذلك معطوفًا على الأشياء الّتي أُسند جعلها إلى اللّه تعالى[2].

معنى التَّعريفِ:

معنى ﴿ٱلْأَرْضِ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي: الّتي أنتم سُكّانها، تُشاهدون ما فيها مُشاهدة لا تقبل الشَّك[3]، فاللّام للمعهود ذِكْرُها آنفًا.

نكتةُ إظهارِ ما حقُّه الإضمارُ:

تجديد الأسلوب بإظهار الاسم دون الإضمار

أُعيد اسم ﴿ٱلْأَرْضِ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ﴾ الظّاهر دون ضميرها الّذي هو المقتضَى؛ ليستقلَّ الكلام، ويتجدَّد الأسلوب فيزداد حلاوة وبلاغة، وأصلُ انتظامِ الكلام أنْ يُقال: (جعل فيها زوجيْن اثنيْن، وفيها قطع مُتجاورات)، فَعَدَلَ إلى هذا توضيحًا وإيجازًا[4].

سرُّ التَّعبير بالقطع:

الإيماء إلى أنَّ هذه الأراضي قُطعت بتدبير وإرادة عليَّة

في التَّعبير بالقِطَعِ في قوله تعالى: ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ﴾ اختصاص كلٍّ من تلك القطع بما لها من الأحوال والصِّفات، بمحض خلق الخالق الحكيم جلَّت قُدرته حين مَدَّ الأرض ودحاها،

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/5، والآلوسيّ، روح المعاني: 7/97، والقنّوجيّ، فتح البيان: 3/479.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 13/85 - 86.

(3) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 10/278.

(4) طنطاوي، التَّفسير الوسيط: 7/442.

والإيماءُ إلى كونِ تلك الأحوال صفاتٍ راسخةً لتلك القِطَعِ[1]، وكُلُّ ما كان هذا شأنه؛ فلا يختلف، ولا يتفاوت بذاته ولا بلازمه، فلا بُدَّ من مُخَصِّصٍ قادر[2] لا إله إلّا هو، ولا ربَّ سواه.

فنكتةُ التَّعبير بالقطعِ هو بيانُ أنَّ اللّه ﷻ أرادها قطعًا مفصولًا بعضها عن بعضٍ بنوعِ اختصاصٍ فيها، من وضع خصائص للتُّربة تختلف كلُّ قطعةٍ عن غيرِها، وهو سرُّ التَّباين في نتاجها من الثّمرات المَسقيَّة بماءٍ واحد؛ فلم تأتِ هذه القطع اعتباطًا، وإنَّما بإرادةٍ مقصودةٍ، وفي هذا ردٌّ صريحٌ على معتقد الملاحدة في كون الأرض جاءت بتطوُّرٍ غير مقصود.

سِرُّ الوصف بمتجاورات:

تجاورُ القِطَعِ مع تباعد الطُّعومِ من عجيبِ القدرةِ وعظيم الحكمة

وُصِفت القطع بـ ﴿مُّتَجَٰوِرَٰتٌ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَفِي ٱلۡأَرۡضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ﴾، وهذا الوصفُ مقصودٌ بالذّات في هذا المقام؛ إذ هو محل العبرة بالآيات، فإنَّ من عجيبِ صنعِ اللّه تعالى في جعل القطع متجاورات اختلاف النتائج البيِّنات، في تفضيل بعض الثّمار على بعضها الآخر في القِطَعِ المجاورة في الأُكُل، فإنَّ مقتضى تجاور القطع تجاور الطُّعوم، لكن أن تتجاور القطع، وتتباعد الطُّعوم، فهذا هو موطن العِبرة؛ ولذلك جاء الوصف كاشفًا عن سرِّ هذه القطع المتجاورة المتآخية، فهي مع تجاورها وتقاربها مختلفةٌ في أوصافها، فتختلف وجوهًا، وتتباين صورًا وأشكالًا، فبعضها جديب، وبعضها خصيب، وقِطَعٌ منها مياه، وقطع أخرى يابسة، وجوانب منها عشب وزروع، وجوانب أخرى حدائق وبساتين[3]، مما يشهد بقدرة اللّه تعالى العظيمة، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلۡجِبَالِ جُدَدُۢ بِيضٞ وَحُمۡرٞ مُّخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٞ ٢٧﴾ [فاطر: 27][4].

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 5/5.
(2) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 10/453.
(3) عبد الكريم الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 7/68، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 13/86.
(4) طنطاويّ، التَّفسير الوسيط: 7/442.

كما أنَّها دالَّةٌ على استقلالِ كلِّ قطعة بخصائص غير موجودة في الأخرى، مع الحفاظ على حقِّ التّجاور في عدم الالتصاق وعدم الانفصال، بما يؤدّي إلى الفصل المُفضي إلى الفساد، وفيه إشارةٌ إلى أنَّ تجاور الجمادات خير من تجاور كثيرٍ من النّاس.

غرض التّنكير:

الاستقصاءُ لجميعِ أصنافِ المزروعاتِ مقصدٌ مُراد

جاء ذكر الجنّات نكرةً في قوله تعالى: ﴿وَجَنَّٰتٌ مِّنۡ أَعۡنَٰبٖ﴾، وذلك للتَّنويعِ والعمومِ، فيدخل في هذا اللَّفظِ عمومُ الجنّات، ما أُشيرَ إلى ما فيه في الآية من الأعناب والزّرع والنّخيل وغير ذلك، وهذا العمومُ مقصودٌ؛ لأنَّ الآية تُريدُ الاستقصاءَ بإجمالٍ دون ذِكْر جميع التَّفاصيل الّتي هي في الواقع الّذي يعيشه النّاس، فجيءَ بالتَّنوين للتَّعبيرِ عن هذا العمومِ، مع ذِكرِ تمثيلٍ له.

مُناسبةُ العطفِ بين الجمل:

الانتقال من وصف الأرض إلى وصف ما تُثمرُه

قوله تعالى: ﴿وَجَنَّٰتٌ مِّنۡ أَعۡنَٰبٖ﴾ معطوفٌ على قوله تعالى: ﴿وَفِي ٱلۡأَرۡضِ قِطَعٞ مُّتَجَٰوِرَٰتٞ﴾، وهو انتقالٌ من وصف الأرض إلى ما تُثمره، وما تأتي به من خير[1]، من بابِ عطفِ الخاصِّ على العامِّ، وتفصيلًا لأنواع الخارج منها ممّا تَتمُّ به المِنَّة، وتعظم به النِّعمة.

مناسبةُ التَّرتيب في ذكرِ الجنّات:

مراعاة مقام التَّفاضل والاختلاف والتَّباين

ابتدأ النَّظم الكريم في قوله تعالى: ﴿أَعۡنَٰبٖ وَزَرۡعٞ وَنَخِيلٞ﴾ بذكر جنّات الأعناب؛ لأنَّها كانت أحبَّ الثِّمار إلى العرب، يتَّخذون منها سَكَرًا ورزقًا حسنًا، ولأنَّها سهلة ليِّنة، ولأنَّها أطيب ما تُخرجه الأرض العربيَّة[2]، ثمَّ ثنَّى بذِكر الزَّرعِ، وتقديم ذِكر الأعناب على الزَّرع مع كونه عمود المعاش أيضًا لظهور حالها في اختلافها ومباينتها لسائرها ورسوخ ذلك فيها[3].

(1) محمَّد أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 7/3896.
(2) محمَّد أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 7/3896.
(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 5/5.

وتوسيطُ الزَّرع بين الأعناب والنَّخيل؛ لأنَّها كثيرًا ما تكون كذلك في الوجود، كقوله تعالى: ﴿جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ۝٣٢﴾ [الكهف: 32][1].

وتأخير قوله تعالى: ﴿وَنَخِيلٌ﴾ لئلّا يقع بينها وبين صفتها، وهي قوله تعالى: ﴿صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ﴾، وكذلك لمّا كان تفاوت ما أصله الحَبُّ أعجبَ، قال: ﴿وَزَرْعٌ﴾، ولمّا كان ما جَمَعَهُ أصلٌ واحد ظاهرٌ أغربَ؛ أخَّرَ قوله تعالى: ﴿وَنَخِيلٌ﴾[2].

توجيه القراءات القرآنيَّة في ﴿وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ﴾:

رعاية حقِّ الإيجاز على كلتا القِراءتيْن

قرأ الجمهور: ﴿وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ﴾ بالجَرِّ عطفًا على أعناب، وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وحفص، ويعقوب بالرَّفع عطفًا على ﴿وَجَنَّتٌ﴾[3]، والمعنى في القراءات واحد؛ لأنَّ الزَّرع الّذي في الجنّات مساوٍ للّذي في غيرها، فاكتُفي به قضاءً لحقِّ الإيجاز، وكذلك على قراءة الرَّفع هو يُغني عن ذِكر الزَّرع الّذي في الجنّات، والنَّخل لا يكون إلّا في جنات[4].

فائدةُ ذِكرِ نوعَي النَّخيلِ:

اختلافُ أشكالِ النَّخيلِ متناسبٌ مع اختلافِ القِطعِ

ونَصَّ على الصِّنوان في قوله تعالى: ﴿وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ﴾؛ لأنَّها بمنزلة التَّجاور في القِطَعِ الّذي تظهر فيها غرابة اختلاف الأُكُل[5]، فذكر اختلافَ النَّخيلِ، كما أنَّه ذكر قبل ذلك اختلافَ القطعِ، فأومأ النَّصُّ إلى أنَّ الاختلافَ كائنٌ في القطعِ، وفي النَّخيلِ، وفي غيرِهما ممّا لم يذكره النَّصُّ، وأنَّ التّباين بين مخلوقاتِ اللّه تعالى يحتاج إلى تدبُّرٍ وتأمُّلٍ وتفكُّرٍ يقودُ إلى معرفةِ أنَّ هذا الاختلاف هو سُنَّةٌ كونيَّة، وأنَّه كذلك سُنَّةٌ اجتماعيَّةٌ.

(1) النَّيسابوريّ، غرائب القرآن: 4/138.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 10/278.
(3) ابن الجزريّ، النَّشر: 2/297.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 13/87.
(5) الثَّعالبيّ، الجواهر الحِسان: 3/359.

نكتةُ التَّعبير بلفظِ ﴿صِنۡوَانٍ﴾:

العاقلُ هو الّذي يتعاملُ مع النّاسِ بحسبِ حكمتِه لا بحسب واقعهم

جاء التَّعبيرُ بالصّنوان وغير الصّنوان في قوله تعالى: ﴿وَنَخِيلٌ صِنۡوَانٌ وَغَيۡرُ صِنۡوَانٍ﴾، والصِّنْوُ: النَّخلة المُجتمعة مع نخلة أخرى نابتتيْن في أصل واحد أو نخلات، الواحد: صنوٌ، والمُثنّى: صنوانِ دون تنوين، والجمع: صنوانٍ بالتَّنوين جمعُ تكسير، وهذه الزِّنة نادرة في صيغ الجموع في العربيَّة، وخصَّ النَّخل بذِكر صفة صنوان؛ لأنَّ العِبرة بها أقوى، ووجه زيادة ﴿وَغَيۡرُ صِنۡوَانٍ﴾ تجديد العِبرة باختلاف الأحوال[1].

ونكتة التَّعبير بهذا اللّفظِ دون غيرِه؛ للتَّنبيه على ما فيه من غرابةٍ، فالنَّخيل أقسامٌ، فمنه ما يكون له أكثر من رأسٍ، ومنه ما لا يكون إلّا برأسٍ واحدٍ، وهذا كحال النّاس، فمن النّاس مَن يكون له أكثر من وجه، ومنهم مَن لا ترى له إلّا وجهًا واحدًا، وعلى المُسلم أن يُحسن التَّعامل مع النّاس وإن انشطرت لهم رؤوس كثيرة، كما يتعامل مع هذا النَّخل، يأخذ خيرَه، ولا يكترث بشرِّه.

توجيه القراءات القرآنيَّة في: ﴿يُسۡقَىٰ﴾:

التَّذكير والتَّأنيث بِحَسَبِ تأويل ما قبلها

قرأ الجمهور: ﴿تُسۡقَىٰ﴾ بِالتّاءِ على التَّأنيثِ اعتبارًا بجمع ﴿وَجَنَّٰتٌ﴾، وقرأه ابن عامر، وعاصم، ويعقوب: ﴿يُسۡقَىٰ﴾ بالياء على التَّذكيرِ على تأويل المذكور[2].

دلالةُ وصفِ الماء بالواحد:

الإشارة إلى عدمِ تأثيرِ الماءِ في اختلافِ الطُّعومِ والألوان

المياه أنواع وبدرجات مُتفاوتة، لكنَّه في قوله تعالى: ﴿يُسۡقَىٰ بِمَآءٖ وَٰحِدٖ﴾ وصفَ الماء بالواحد؛ وذلك لبيان أنَّ الماء لا يُؤَثِّر على المُنتج من الأرض؛ إذْ يبقى النِّتاج مختلفًا، ولو اتَّحدَ الماء، فليس المقصود بذِكر الماء الواحد أنَّ الأراضي في الأرض كلِّها تُسقى بنوعٍ واحد من

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 13/87.
(2) ابن الجزريّ، النَّشر: 2/297، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 13/88.

المياه، بل المُراد بيان أنَّ هذه الأراضي المُتجاورة الّتي تتفاضل ثمارُها في الأُكُل تُسقى بماءٍ واحد من هذه الأنواع، ومع ذلك تتفاضلُ فيما بينها، بل يقع التّفاضل بينها حتّى في الجنس الواحد، إشارةً إلى عجيب صُنع اللّه فيها، فالسَّبب المُقتضي لاختلافها ليس إلّا قدرة الصّانع الحكيم جلَّ سلطانه وتعالى شأنه؛ لأنَّ تأثير الاختلاف فيما يخرج منها، ويحصل من ثمراتها لا يكون في نظر العقلاء إلّا للسَّببيْن، إمّا اختلاف المكان الّذي هو المَنْبت، أو اختلاف الماء الّذي تُسقى به، فإذا كان المكان مُتجاورًا وقطع الأرض مُتلاصقة والماء الّذي تُسقى به واحدًا؛ لم يبق سبب للاختلاف في نظر العقل إلّا تلك القُدرة الباهرة والصُّنع العجيب[1]؛ لأنَّه لو كان ظهور الثِّمار بالماء والتُّراب؛ لوجب في القياس ألّا تختلف الألوان والطُّعوم، ولا يقع التَّفاضل في الجنس الواحد؛ إذا نبت في مغرسٍ واحد، وسُقيَ بماء واحد، ولكنَّه صُنْعُ اللَّطيف الخبير[2].

بلاغة الكناية بذِكر التّفضيل ﴿وَنُفَضِّلُ﴾:

التَّفضيل مِنَّة بالأفضل واعتبارٌ بِضِدِّه

قوله تعالى: ﴿وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ كنايةٌ عن الاختلافِ في الطُّعوم، فهو كنايةٌ عن صفة؛ أيْ: إنَّ الأشجار قد تكون مُتماثلة وغير متماثلة مع اتحاد التُّربة والزَّرع يُسقى ذلك كلُّه بماء واحد، ونُفَضِّل بعضها على بعض في الأُكُل، أليس في هذا دليل على بديع صنعه وعظيم قُدرَته؟ فإنَّ القِطَعَ المُتجاورة فيها الجنّات متلاصقة، بل الأشجار المُتشابكة المتداخلة، تُسقى بماء واحد وبنظام واحد، وبذرُها واحد، ثُمَّ نرى في بعضها نضجًا وكمالًا وطعمًا وحلاوة، وفي البعض جفافًا ونقصًا، وصغرًا وحموضة، بل وطعمًا مُتَغيِّرًا تمامَ التَّغيُّر عن زميلتها، أليس هذا دليلًا على وجود القادر المختار

(1) القنّوجيّ، فتح البيان: 7/17.
(2) السَّمرقنديّ، بحر العلوم: 2/216.

الواحد القهار، وأنَّ الدُّنيا لم تَسِر بطبعها من غير مُدَبِّرٍ لها حكيم[1]، فالتَّفضيل مِنَّة بالأفضل وعِبرة به وبضدِّه، وكناية عن الاختلاف[2].

نكتةُ الإشارةِ إلى ما ورد في قصَّة يوسف عليه السلام:

البشرُ كالقطع المتجاورات

وفي الآيةِ إشارةٌ إلى اختلافِ النّاس بعضِهم عن بعضٍ، فإنَّ الأشقاء من بطنٍ واحدٍ وأبٍ واحدٍ، وهم يتفاوتون بتقواهم وعلمهم وعقلهم وأخلاقهم وأشكالهم، وفيه إشارةٌ إلى ما جاء في سورة يوسف عليه السلام، من التّباين بينه وبين إخوته، وأنَّ هذه سُنَّة كونيّة، وعلى الإنسانِ التَّسليم، وأن يدعو اللّه سبحانه وتعالى أن يجعله من المُفضَّلين لا من المفضَّل عليهم.

توجيه القراءات القرآنيَّة في: ﴿وَنُفَضِّلُ﴾:

قراءة الجمهورِ قائمةٌ على الالتفات بخلافِ قراءة البقيَّة

قرأ الجمهور: ﴿وَنُفَضِّلُ﴾ بنون العَظَمَةِ؛ أيْ: بما لنا من العظمة المُقتضية للطّاعة[3]، وقرأها حمزة، والكسائيّ، وخلف: (ويُفَضِّل) بالياء، والضَّمير عائد إلى اسم الجلالة في قوله: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ﴾[4]، فعلى قراءة الجمهور ففي الآيةِ التفاتٌ من الغيبةِ إلى التَّكلُّم، وعلى قراءة البقيَّة فلا التفات فيها.

نكتةُ إسنادِ التَّفضيلِ إلى الله دون سائر المُتقدِّم:

التَّفضيل هو منتهى العِبرة وبالغ المنَّةِ وفيه يكمُنُ الاعتبار

لم يتقدَّم في الآية ذكرُ إسناد اختلاف القطع المتجاورات، وسقيها بماءٍ واحد إلى الفاعل، لكنَّ النَّظم في قوله تعالى: ﴿وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ﴾ أسند التَّفضيل إلى اللّه تعالى؛ وذلك أنَّها بأسرارٍ أودعها اللّه تعالى فيها هي موجِب تفاضلها، وأمثال هذه العِبَرِ، ولفت النَّظر مِمّا انفرد به القرآن من بين سائر الكُتُبِ[5]،

(1) محمَّد حجازيّ، التَّفسير الواضح: 2/214.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 13/88.
(3) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 10/280.
(4) ابن الجزريّ، النَّشر: 2/297، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 13/88.
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 13/85 - 86.

فإنَّ التَّفضيلَ هو منتهى العبرة، وبالغ المنَّة فيما سبق ذِكْره، وعلى العاقل أن يتحرَّى معرفته، ويبلغ مُراده.

سرُّ اختيارِ (بعض) بدلًا من (جنّات):

دفعُ توهُّم أنَّ التَّفضيل للجنَّة بعمومِها الكلّيّ

آثر النَّظم في قوله تعالى: ﴿وَنُفَضِّلُ بَعۡضَهَا عَلَىٰ بَعۡضٖ فِي ٱلۡأُكُلِۚ﴾ أن يذكر ﴿بَعۡضَهَا﴾؛ إشارةً إلى الجنّات؛ أيْ: ونُفضّل جناتٍ على جناتٍ في الأُكُل، لكنَّه لم يُصرِّح بالجنّات، بل أضمرها، وأضاف لفظَ (بعض) إلى ضميرِها، وذلك أنَّ المقصودَ هو تفضيل بعضٍ على بعض، لا خصوص جنّات على جنّات، وهذا التَّفضيل متفاوت المراتب والأزمنة، فقد تكون بعض الثّمار في جنَّة أفضل من ثمارِ أخرى في جنّة أخرى، والعكس صحيح، ولو قال: (جنّات)؛ لظُنَّ أنَّ التّفضيل للجنَّة بعمومِها على أخرى بعمومِها، وهذا غير مُراد، بل المُراد تفضيل بعض الجنّات على بعضٍ آخر، ففيه دفْعُ توهُّم هذا المعنى.

سِرُّ تخصيصِ التَّفضيل في المأكول ودلالة الظَّرفيَّة:

أغلب وجوه الانتفاع بالثَّمرات يَظْهَرُ في النَّتيجةِ وهي الأكل

خصَّ النَّظم الكريم ذِكرَ التَّفضيل ﴿فِي ٱلۡأُكُلِۚ﴾ مع وقوع التَّفاضلِ في غيره؛ وذلك لأنَّه غالب وجوه الانتفاع من الثَّمرات[1]، وهو مُنَبِّهٌ على اختلاف غيره من اللّيف والسَّعف واللَّون للمأكول، والطَّعم والطَّبع والشَّكل والرّائحة والمنفعة وغيرها، مع أن نسبة الطَّبائع والاتصالات الفلكيَّة إلى جميع الثّمار على حدٍّ سواءٍ لا سيَّما إذا رأيت العنقودَ الواحد، جميعُ حَبّاته حلوةٌ نضيجة كبيرة إلّا واحدة، فإنَّها حامضة صغيرة يابسة[2]، فظَرفيَّةُ التَّفضيل ﴿فِي ٱلۡأُكُلِۚ﴾ ظرفيَّة في معنى المُلابسة؛ لأنَّ التَّفاضل يَظْهَرُ بالمأكول[3].

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/348.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 10/280.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 13/88.

دلالة دخولِ حرفِ الظَّرفيّة على اسم الإشارة:

جَعْلُ جميع المذكور بمنزلة الظَّرف للآيات

أشار في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ إلى جميع المذكور من قوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ﴾، وقد جعل جميع المذكور بمنزلة الظَّرف للآيات، وجعلت دلالته على انفراده تعالى بالإلهيّة دلالات كثيرة؛ إذ في كل شيء منها آية تدلُّ على ذلك[1].

وإن كانت بالنَّظر إلى الماء مُفردةً في دلالات واضحات على أنَّ ذلك كُلَّه فعل واحد مختار عليم قادر على ما يُريد من ابتداء الخلق، ثُمَّ تنويعه بعد إبداعه، فهو قادر على إعادته بطريق الأولى[2].

سرُّ ذكر لفظِ (قوم):

التَّنبيه على أنَّ صفة التَّفكُّر جارية على ذوي القيام والاجتهاد من النّاس

ذكرَ لفظ (قوم) في قوله تعالى: ﴿لِّقَوْمٍ﴾، مع إمكان أن يُقال: (للعاقلين)، ومعنى قوم: ذوي قوَّة على ما يحاولونه[3]، وفيه تنبيه على أنَّ صفة العقل جارية على ذوي القيام والاجتهاد من النّاس، فالّذين يعقلون حياتَهم، ويربطونها بنواميس كونيَّة لا تتخلَّف هم الّذين يقومون فيها أحسن قيامٍ، بما يحبُّ الله تعالى، ويرضى.

توجيه تشابه فواصل الآيات بذِكرِ التَّعقُّل بَعْدَ التَّفكُّر:

التَّفكُّرُ طريق العقلِ وسببُه وهو أداةُ الرَّبطِ والفهمِ

نبَّه الله تعالى في هذه الآية على قُدرته وحكمته، وأنَّه المُدَبِّرُ للأشياء كُلِّها، وذلك أنَّ الشَّجرة تَخْرُج أغصانها وثمراتها في وقت معلوم لا تتأخَّر عنه ولا تَتَقدَّم، ثُمَّ يتصعَّد الماء في ذلك الوقت علوًّا، فيتفرَّق ذلك الماء في الورق والأغصان والثَّمر كُلٌّ بقسطه وبقدر ما فيه صلاحه، ثُمَّ تختلف طعوم الثِّمار والماء واحد، والشَّجر جنس واحد، وكلُّ ذلك دليل على مُدَبِّر دبَّره وأحكمه، لا يُشبه المخلوقات[4].

وفي كلِّ هذا ﴿لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾؛ أيْ: يعلمون على قضية

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 13/88.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 10/280.
(3) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 10/281.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/348.

العقل وما يوجِبُه غير مُهملين لما يقتضيه من التَّفكُّر في المخلوقات والاعتبار في العِبَرِ الموجودات، ويستعملون عقولهم بالتَّفكُّر فيها، وخُصَّ هذا بالعقل، والأوَّل بالتّفكُّر؛ لأنَّ الاستدلال باختلاف النَّهار أسهل، ولأنَّ التَّفكُّر في الشّيْء سَببٌ لتعقُّله، والسَّبب مُقَدَّمٌ على المُسَبِّب، فناسب تقديم التَّفكّر على التَّعقُّل[1]، فالتَّفكُّر في الرُّتبة الأولى، ثُمَّ ختم هذه بالعقل؛ لأنَّه إذا تفكَّر؛ استثمر ما تفكَّر فيه[2].

بلاغةُ التَّعريض بِذِكْرِ التَّعقُّل:

العقلُ أصلٌ في الانتفاعِ الموصلِ إلى الحقِّ في السُّننِ الكونيَّة

من أسرار التَّذييل بِذِكْرِ العقل ﴿لَآيَٰتٍ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾ التّعريضُ بمَن لم يعقل هذه الآيات والبراهين الواضحة الجليَّة، فوُصِفَتِ الآياتُ بأنَّها من اختصاص الّذين يعقلون، تعريضًا بأنَّ مَن لم تقنعهم تلك الآيات مُنزَّلون منزلةَ مَن لا يعقل، وزيد في الدّلالة على أنَّ العقل سجيَّةٌ للّذين انتفعوا بتلك الآيات بإجراء وصف العقل على كلمة ﴿لِّقَوۡمٖ﴾، إيماءً إلى أنَّ العقل من مُقوِّمات قَوْميَّتهم[3].

(1) القنّوجيّ، فتح البيان: 3/479.
(2) الرَّسعنيّ، رموز الكنوز: 3/439.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 13/88.

﴿۞وَإِن تَعۡجَبۡ فَعَجَبٞ قَوۡلُهُمۡ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدٍۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡأَغۡلَٰلُ فِيٓ أَعۡنَاقِهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٥﴾ [الرّعد: 5]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الانتقالُ من عجائب الخلق المشاهدة إلى عجائب القول المُنكر المسموعة

لمّا ثَبَتَ بما أقام سبحانه من الأدلّة والبراهين المشاهدة على عظيم قُدرته بما أودعه من مظاهر الحكمة، وعجائب السُّننِ في ملكوته الّتي لا يقدر عليها سواه، وأنَّ هذا إنَّما هو فعلُ واحدٍ قَهّارٍ مُختار يوجِدُ المعدوم، ويُفاوت بين ما تقتضي الطَّبائع اتحاده، كان إنكار شيء من قدرته عجبًا، فقال عطفًا على ما سبق: ﴿وَإِن تَعۡجَبۡ فَعَجَبٞ قَوۡلُهُمۡ﴾[1]، فهو انتقالٌ من الحديثِ عن عجائب الخلق الدّالّة على القدرة المطلقة، إلى ذِكر قولٍ عجيبٍ عن فكرٍ لئيم وعقلٍ عديم، فناسب أن يذكرَ بعد عجائبِ الخلقِ المشاهدة، عجيب الكلام المُنكَرِ المسموع، لبيانِ بُطلانِ معتقداتهم، وفساد قيلهم.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تَعۡجَبۡ﴾: العين والجيم والباء تدلُّ على غرابة حال الشَّيءِ لكونه دقيقًا، لم يُعْهَد مثلهُ[2] يُقال: عَجِبَ يَعجَب عَجَبًا، والعَجَبُ النَّظَرُ إلى شيءٍ غَيْرِ مأْلوف ولا مُعتادٍ[3]، والتَّعجُّب ممّا خَفيَ سببه، ولم يُعلَم، حيرة تعرض للإنسان عند سبب جهل الشّيء[4]، والمعنى هُنا: إن يَقَعْ منك عَجَبٌ[5].

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 10/281.
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل، والرّاغب، المُفردات: (عجب).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (عجب).
(4) الزَّبيديّ، تاج العروس: (عجب)، والحميريّ، شمس العلوم: 7/4380.
(5) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/99.

2) ﴿ٱلْأَغْلَٰلُ﴾: جمعُ غُلٍّ، والغُلُّ: مختصٌّ بما يُقيَّدُ به، فيجعلُ الأعضاءَ وسطَه[1]، وأصلُ (غلل): تدرُّعُ الشّيءِ وتوسُّطُه[2]، أو: هو طوقٌ أو حَلْقَةٌ مِنْ حديدٍ أو غيرِه تُحيطُ بالعنقِ تُناطُ بها سلسلةٌ مِنْ حديدٍ[3]، والمعنى هُنا: الطَّوْقُ الّذي تُشَدُّ بِهِ اليَدُ إلى العُنُقِ[4].

3) ﴿أَصْحَٰبُ﴾ جمعُ صاحب، والصّاحبُ: المُلازِم؛ إنسانًا كان أو حيوانًا أو مكانًا أو زمانًا[5]، ومادَّة (صَحِبَ) تدُلُّ تصاريفُها على مُلازمةِ الشَّيء بقوَّةٍ[6]، وتُطلقُ على مطلقِ المقارنةِ، ومجرَّد الاقتران[7]، ومِنْ هذا البابِ: سُمّيت الزَّوجَةُ صاحبةً، كما في قول الله تعالى: ﴿يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍۭ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾﴾ [المعارج: 11 - 12]؛ لملازمَتِها زَوْجَها مدَّةَ الحياة الدُّنيا، وأصحاب النّار في القرآن الكريم؛ فالمُرادُ أهلُها المعذَّبونَ فيها، إلّا في موضعٍ واحد؛ فيُرادُ به: خَزَنَتُها، وهو الواردُ في قول الله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً﴾[8] [المدّثر: 31]، والمُراد بأصحاب النّار هنا: أهلها الّذين يلازمون نارَ جهنَّم ملازمةً دائمةً لا تنقطع.

المَعْنى الإجْماليّ:

العجب من حال المُكذّبين بالبعث وبيان مآلهم يوم القيامة

تُبيِّن الآيةُ أنَّ أمر المشركين مع هذه الدَّلائل لعجب، وإن تتعجَّب - أيُّها الرَّسول - من شيء، فالعجب الأشدُّ من قولهم: أإذا مِتنا وصِرنا ترابًا وعظامًا بالية نَخِرَةً أنُبْعَث ونُعاد أحياء؟ أولئك المنكرون

(1) السَّمين الحلبيّ، عُمدة الحفّاظ: (غلل).
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرّاغب، المُفردات: (غلل).
(3) الرّاغب، المُفردات، والسَّمين الحلبيّ، عُمدة الحُفّاظ: (غلل).
(4) القُرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 9/284.
(5) الرّاغب، المُفردات: (صحب)، والفيروزابادي، بصائر ذوي التّمييز: (صحب).
(6) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصَّل: (صحب).
(7) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصَّل: (صحب).
(8) السّيوطيّ، الإتقان في علوم القرآن: 2/158.

للبعث بعد الموت الّذين كفروا بربِّهم، فأنكروا قُدرته على بعث الموتى، وأولئك توضع السَّلاسل من النّار في أعناقهم يوم القيامة، وأولئك هم أصحاب النّار، وهم فيها ماكثون أبدًا، لا يلحقهم فناء، ولا ينقطع عنهم العذاب[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيّ:

معنى الواو وعلاقتُها بالمتقدِّم:

الرَّد على مُنكري البعث الّذين بيَّن الله لهم الأدلّة القاطعة والحجج السّاطعة

قولُه تعالى: ﴿وَإِن تَعۡجَبۡ فَعَجَبٌ قَوۡلُهُمۡ﴾ عطفٌ على جملة ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ﴾، فلمّا قُضي حقُّ الاستدلال على الوحدانيَّة؛ نُقِلَ الكلام إلى الرَّدّ على مُنكري البعث، وهو غرض مستقل مقصود من هذه السّورة، وقد أُدمج ابتداءً خلال الاستدلال على الوحدانيَّة بقوله: ﴿لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمۡ تُوقِنُونَ﴾ تمهيدًا لما هُنا[2].

سِرُّ ذِكْرِ التَّعجيب وموقعُه ممّا سَبَقَ:

صياغة التَّعجيب من مُنكري البعث؛ لأنَّ الأدلَّة السّالفة لم تُبْقِ عذرًا لهم

قوله تعالى: ﴿وَإِن تَعۡجَبۡ فَعَجَبٌ قَوۡلُهُمۡ﴾ تقدير الكلام: إن تعجب - يا مُحمَّد ﷺ - فقد عَجِبتَ في موضع العجب؛ لأنَّهم لمّا اعترفوا بأنَّه تعالى مُدَبِّر السَّماوات والأرض وخالق الخلائق أجمعين، وأنَّه هو الّذي رفع السَّماوات بغير عمد، وهو الّذي سخَّر الشَّمس والقمر على وفق مصالح العباد، وهو الّذي أظهر في العالم أنواع العجائب والغرائب، فمَن كانت قدرته وافية بهذه الأشياء العظيمة؛ كيف لا تكون وافية بإعادة الإنسان بعد موته؟ لأنَّ القادر على الأقوى الأكمل، فأن يكون قادرًا على الأقلِّ الأضعف أولى، فهذا تقرير مَوْضِع التّعجُّب[3]، فصيغ بصيغة التَّعجيب من إنكار مُنكري البعث؛

(1) لجنة من عُلماءِ الأزهر، المنتخَبُ في تفسير القرآنِ الكريم، ص: 354، ونُخْبة من أساتذة التَّفسير، التَّفسير المُيَسَّر، ص: 249، وجماعَةٌ من علماء التَّفسير، المُختَصَر في تفسير القرآن الكريم، ص: 249.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 13/89.

(3) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 19/9.

لأنَّ الأدلَّة السّالفة لم تُبْقِ عذرًا لهم في ذلك، فصار إنكارهم مَحَلَّ عجب المُتَعَجِّب[1].

معنى ذِكرِ الشَّرطِ مع تحقُّقِ وقوعه:

تقريرُ الاتِّصاف بالتَّعَجُّب ممَّن أنكر البعث بعد أن رأى دلائله في الخَلْقِ

ليس المقصود من الشَّرط في قوله تعالى: ﴿وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ﴾ تعليق حصول مضمون جواب الشَّرط على حصول فعل الشَّرط، كما هو شأن الشُّروط؛ لأنَّ كون قولهم: ﴿أَءِذَا كُنَّا تُرَبًا﴾ عجبًا أمرٌ ثابت، سواء عجب منه المُتَعَجِّبُ، أم لم يَعْجَب، ولكنَّ المقصود أنَّه إن كان اتصاف بتعجُّبٍ، فقولهم ذلك هو أسبق من كُلِّ عَجَبٍ لِكُلِّ مُتَعَجِّب[2]، فمدلول الشَّرط (إنْ يقع منك عجبٌ، فليكن من قولهم: ﴿أَءِذَا كُنَّا﴾، وكان المعنى الّذي ينبغي أن يُتَعَجَّب منه هو إنكار البعث؛ لأنَّه تعالى هو المخترع للأشياء، ومَن كان قادرًا على إبرازها من العدم الصِّرف؛ كان قادرًا على الإعادة[3].

نكتةُ التّعبير بالمضارع:

لا مكانَ في القلبِ لألفةِ المُنكَرِ، أو الرِّضا بوجودِه

جاء فعل العجب بصيغة المضارع في قوله تعالى: ﴿وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ﴾، والمعنى: إن تجدَّد منك التَّعَجُّبُ لإنكارهم البعثَ؛ فاستمرَّ عليه؛ فإنَّ إنكارهم ذلك من الأعاجيب[4]، فصدور ما يُتعجَّب منه في الأمور العظمى، يُستنكر على الدَّوام، ولا يُؤلف العجبُ ممّا يُتعجَّب منه فيما يتعلَّق بأصول الدّين، فلا مكان في القلبِ لألفةِ المُنكرِ، أو الرِّضا بوجوده.

توجيه حذف مُتَعَلَّق فعل العجب:

عجبٌ ممَّن يُثبت الأصعبَ ويُنكِر الأهون فيما يعتقدُه

قوله تعالى: ﴿وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ﴾؛ أيْ: إن تَعْجَبْ من إنكارهم النَّشأة الآخرة مع إقرارهم بابتداء الخلق، فعجب أمرهم!

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 13/89.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 13/89 - 90.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/351.
(4) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/100.

وقد كان المشركون يُنكرون البعث مع إقرارهم بابتداء الخلق من اللّه تعالى، وقد تقرَّر في القلوب أنَّ الإعادة أهون من الابتداء، فهذا موضع العجب[1]، ويحتمل أن يكون معناه: وإن تعجب من تكذيب المشركين واتخاذهم ما لا يَضُرُّ، ولا ينفع آلهة يعبدونها، وهم قد رأوا من قدرة اللّه تعالى ما ضرب لهم به الأمثال فَعَجَبٌ قولهم؛ أيْ: فَتَعَجَّبْ أيضًا من قولهم[2].

توجيه الإعرابِ تقديمًا وتأخيرًا:

التَّسجيل من أوّل الأمر بكون قولهم ذاك أمرًا عَجيبًا

قوله تعالى: ﴿فَعَجَبٌ﴾ خَبَرٌ قُدِّم على المبتدأ ﴿قَوْلُهُمْ﴾ للقصر والتَّسجيل من أوَّل الأمر بكون قولهم ذاك أمرًا عَجيبًا، ويجوز أن يكون ﴿فَعَجَبٌ﴾ مُبتدأً لكونه موصوفًا بالوصف المُقدَّر كما أُشير إليه؛ فالمعنى: وإن تعجب؛ فالعجب الّذي لا عَجَبَ وراءه قولهم هذا؛ فاعجب منه. وعلى الأوَّل: وإن تعجب؛ فقولهم هذا عجبٌ لا عجب فوقه[3].

غرضُ تنكير العجبِ:

معنى التَّنكيرِ في قوله تعالى: ﴿فَعَجَبٌ﴾؛ أيْ: عظيم لا تتناهى درجاته في العِظَم[4]، فالتَّنكير للتَّهويل والتَّعظيم[5].

غرضُ الاستفهام ومعناه:

استنكارُ المُكابرِ كاملٌ في نُكرانه تامٌّ في باطلِه

الاستفهام في قوله تعالى: ﴿أَءِذَا كُنَّا تُرَابًا﴾ للإنكار الوقوعيّ لكمال الاستبعاد؛ لأنَّهم يُظهرون أنَّهم موقنون بأنَّهم لا يكونون في خَلقٍ جديد بعد أن يكونوا ترابًا، والقول المَحكيُّ عنهم، فهو في معنى الاستفهام عن مجموع أمرَيْن، وهما: كونهم ترابًا، وتجديد خلقهم ثانيةً، وليس مَدارُ إنكارهم كونهم ثابتيْن في الخَلق الجديد عند كونهم ترابًا - كما

(1) إسماعيل حقّي، روح البيان: 4/342.
(2) البغويّ، معالم التّنزيل: 3/7، والمراغيّ، تفسير المراغيّ: 13/70.
(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 5/6.
(4) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 10/282.
(5) طنطاويّ، التَّفسير الوسيط: 7/445.

يُشعر به ظاهر مقالهم؛ فإنَّ هذا ليس بمُستبعَدٍ إنكاره - بل كونهم قابلين لذلك واستعدادهم له، كأنَّهم قالوا: (أإذا كُنّا تُرابًا أإنّا لَفي خَلْقٍ جَديدٍ بعده)، فالمقصود من ذلك العجب والإحالة[1]، وفيه من الدَّلالة على عتوِّهم وتماديهم في النَّكير ما لا يخفى[2].

توجيه القراءات القرآنيّة في ﴿أَءِذَا كُنَّا تُرَبًا﴾:

المُنكرون مُتباينون في إنكارِ البعث مختلفون في مواقفِهم

اختلف القُرّاء في قوله تعالى: ﴿أَءِذَا كُنَّا تُرَبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۗ﴾، وفي مواضع من القرآن[3]، فمنهم مَن قرأ بالاستفهام في الأوَّل دون الثّاني، ومنهم بالعكس، ومنهم مَن قرأ بالاستفهام فيهما، فمَن قرأ بالاستفهام في الأوَّل دون الثّاني؛ فإنَّما القصد هو الثّاني؛ لأنَّهم إنَّما أنكروا كون الإنسان يصير ترابًا ثم يُبعث، وأمّا كونهم يصيرون ترابًا؛ فلا إنكار عندهم فيه[4]، ومَن قرأ بالاستفهام في الثّاني؛ فعلى الأصل، ومَن قرأ بالاستفهام فيهما؛ فزيادةُ تأكيدٍ بقصد المبالغة في الإنكار وشِدَّة الحرص على البيان[5].

واختلافُ القرّاء مردُّه إلى اتفاقِ وقوع الإنكارِ من هؤلاء المشركين، وبلاغةُ القراءات تكمنُ في بيانِ تبايُن المشركين، وأنَّهم على درجاتٍ متفاوتةٍ في الإنكار، وأنَّ مواقفَهم مُتعدِّدة، ففيه إيماءٌ إلى بقاء البغيض الألدِّ على كفرِه، ورجوع المتأرجح في الباطلِ إلى الحقِّ الأبلج.

براعةُ استعمالِ (إنْ) و(إذا) في سياقٍ واحدٍ:

العالم لا يتعجَّب إنَّما التَّعجُّبُ من الجاهل

استُعملت (إنْ) في قوله تعالى: ﴿وَإِن تَعْجَبْ﴾ مع أنَّ الأصل في (إنْ) أنْ تُستعمل في الأمور غير المحقَّقةِ الوقوع، واستعمالُها هنا

(1) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 10/455، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 13/90.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 5/6.
(3) اختلف القُرّاء في هذا الاستفهام المُكرَّر، فقرأ ابن كثير وأبو عمرو وعاصم وحمزة، جميعًا بالاستفهام، وقرأ نافع والكسائي ويعقوب بالاستفهام في الأول، وبالإخبار في الثّاني، وقرأ ابن عامر وأبو جعفر بالإخبار في الأوّل والاستفهام في الثاني، يُنظر: ابن الجزريّ، النَّشر: 1/373.
(4) ابن عجيبة، البحر المديد: 3/321.
(5) ابن الأنباريّ، البيان في غريب إعراب القرآن: 2/48، والسَّمين الحلبيّ، الدّرّ المَصون: 7/19.

لنُدرة تعجُّبه ﷺ، فكأنَّ حصول التَّعجُّب عنده من الأمور النّادرة، إذ التَّعجب إنَّما يحصل عند مَن يجهل الأسباب، أمّا مَن يعلمها؛ فلا، والرَّسول ﷺ يُزَوَّد باستمرار بالمعارف الربّانيَّة عن طريق الوحي، فقلَّما يجهل أسباب الأشياء، واستعملت (إذا) في قولهم: ﴿أَءِذَا كُنَّا تُرَابًا﴾؛ لأنَّ مصير النّاس إلى ترابٍ من الأمور المُحقَّقة الوقوع، فأداةُ (إذا) تُستعمل غالبًا في الأمور المُحقَّقة لا المشكوك فيها.

دلالة تقديم الظَّرف:

تقديم الظَّرف في قوله تعالى: ﴿أَءِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍۗ﴾؛ لتقوية الإنكار بالبعث بتوجيهه إليه في حالة منافية له[1].

دلالة التَّعبير بالخلق الجديد:

جاء التَّعبير بقولِه تعالى: ﴿خَلْقٍ جَدِيدٍۗ﴾ دون أن يُقال: (أنُبعث أحياءً ونحو ذلك)؛ لما في هذا التَّعبيرِ من الكشفِ عمّا يجول في سويداءِ قلوبِهم، فإنَّ الخلق الجديد هو الخلق الّذي كانوا عليه سابقًا، لكنَّه جديدٌ باعتبارِ إعادةِ الأبدانِ لما كانت عليه مع تجديدٍ لها، ففي هذا التَّعبير إيماءٌ إلى حقائق تسود وأفكار تجول، منع من اعتقادِها باطلٌ زائف وكبرٌ أعمى.

تعبيراتُ القرآنِ موحيةٌ بما يجولُ في الصُّدور

علَّة الفصل بين الجُملِ:

فُصل قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡۖ﴾ عن السّابق على سبيل الاستئناف البيانيِّ، ومعنى الآيةِ؛ أيْ: أولئك الّذين جَحَدوا قُدرة ربِّهم، وكذَّبوا رسوله على ما عاينوا من آياته الكبرى الّتي تُرشدهم إلى الإيمان، وتهديهم سبيل الرَّشاد لو كانوا يُبصرون هُم الّذين تمادوا في عِنادهم وكُفرهم، فإنَّ إنكار قُدرته تعالى إنكار له؛ لأنَّ الإله لا يكون عاجزًا[2]، وهذا يَدُلُّ على أنَّ كُلَّ مَن أنكر البعث

سببُ إنكارِ البعثِ على الحقيقةِ الكفرُ بالله تعالى

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 5/6.
(2) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 13/70.

والقيامة فهو كافر[1]؛ فكأنَّ سائلًا سأل: ما سببُ إنكارِهم البعثَ بعد الممات فجاء الجواب بهذه الجملة السّامية مُبيِّنًا سبب الإنكار: وهو أنَّهم كفروا بربهم، وكفروا بقدرته القاهرة[2]، فَبَيْنَ هذه الجُملة وسابقتها شبه كمال الاتصال لذلك فُصِلَتْ عنها.

بلاغةُ استعمالِ اسمِ الإشارةِ:

معنى اسم الإشارةِ في قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡۖ﴾؛ أي: الّذين جمعوا أنواعًا من البُعْدِ عن كُلِّ خير[3]، والإشارة بقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ للتَّنبيه على أنَّهم أحرياء بما سَيَرِدُ بعد اسم الإشارة من الخبر لأجل ما سبق اسم الإشارة من قولهم: ﴿أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدٍۗ﴾، وتلك المقالة إنَّما هي تقرير مُصَمّم على الجحد والإنكار للبعث بعد أن رأوا دلائلَ الخلق الأوَّل، فَحَقَّ عليهم بقولهم ذلك حُكمان: أحدهما: أنّهم ﴿كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡۖ﴾؛ لأنَّ قولهم: ﴿أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدٍۗ﴾ لا يقوله إلّا كافر باللّه؛ أيْ: بصفات إلهيَّته؛ إذ جعلوه غيرَ قادر على إعادة خلقه، وثانيهما: استحقاقهم العذاب[4].

الكافرُ بالله تعالى بعيدٌ عن الحقِّ، بعيدٌ عن مواطنِ الخير في الدُّنيا والآخرة

سرُّ التَّعبير بالكُفر دون الشّرك:

جاء ذِكرُ الكفرِ دون الشِّركِ في قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡۖ﴾، ومعناه: جحدوا بوحدانيّة اللّه تعالى[5]، وغَطَّوا كُلَّ ما يجب إظهاره بسبب الاستهانة بالّذي بدأ خلقهم، ثُمَّ ربّاهم بأنواع اللُّطف، فإذا أنكروا معادهم؛ فقد أنكروا مبدأهم[6]، فعبَّر النَّظم الكريم بالكُفر دون الشِّرك لما في الكُفْرِ من معنى الجَحْدِ

الكافر يسعى إلى تغطية الحقِّ ما استطاع إلى ذلك سبيلًا

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 19/9.
(2) محمد أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3898.
(3) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 10/282.
(4) ابن عطيَّة، المُحرَّر الوجيز: 3/295، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 13/90.
(5) السَّمرقنديّ، بحر العلوم: 2/217.
(6) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 10/282.

والتَّغطية، فلظهور هذه الحقيقةِ، وبروزها أتمَّ بروز، كان ذِكرُ الكفر مناسبًا لما فيه من محاولة تغطيةِ الحقائق بإنكارٍ زائفٍ.

دلالة إيثارِ عنوان الرُّبوبيَّة:

الاستدلالُ على المُنكرين بما يزعمون اعتقاده

التَّعبير بلفظ الرّبوبيَّة في قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡۖ﴾ له سرُّه العميق؛ لأنَّهم يكفرون بقدرته وهو الّذي أنشأهم وربّاهم، ويقوم على أمورهم، فكيف يعجز عن حالٍ من أحوالهم؟[1] فهؤلاء المكذِّبون لك - يا مُحمَّد - والمُنكرون للبعث يَكْفرون بالرُّبوبيَّة المقتضية للخَلق والمُلك والتَّدبير، فذكرُ عنوان الرُّبوبيَّة لبيانِ سوء صنيعِهم مع خالقِهم ﷻ، ففيه تنبيهٌ على أنَّ مقتضى الرُّبوبيَّة هو عكس ما أنكروه، فهو استدلالٌ عليهم بما يزعمون اعتقادَهُ.

معنى العطفِ بين الجُملِ:

استحقاقُ الجزاءِ الأخرويّ بسببِ الكفر الدُّنيويِّ

عَطْفُ جملة ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡأَغۡلَٰلُ فِيٓ أَعۡنَاقِهِمۡۖ﴾ على سابقتها مُفتتحةً باسم الإشارة لمثل الغرض الّذي افتتحت به الجملة قبلها؛ فإنَّ مضمون الجُملتيْن اللَّتيْن قبلها يُحَقِّقُ أنَّهم أحرياء بوضع الأغلال في أعناقهم، وذلك جزاء الإهانة[2]، فلمّا كفروا بربِّهم في الدّنيا، وأنكروا البعث، استحقوا ما ينالونه في الآخرة من الجزاءِ العادل.

براعةُ استعمالِ ﴿ٱلۡأَغۡلَٰلُ﴾ بين الحقيقة والمجاز:

تشبيه حالِ الكافرين في الامتناع عن الإيمان بحال المُصَفَّد بالأغلال

قوله تعالى: ﴿ٱلۡأَغۡلَٰلُ فِيٓ أَعۡنَاقِهِمۡۖ﴾، فيه احتمالان: الأوَّل أن يكون المُراد وصفهم بذلك في الدُّنيا، فهو تشبيه لحالهم في امتناعهم عن الإيمان وعدم الالتفات إلى الحقِّ بحال طائفة في أعناقهم أغلال وقيود لا يمكنهم الالتفات معها، فلا يتحرَّكون إلّا تحت سيطرة هذه الأغلال، كقول الشّاعر:

كيف الرَّشاد وقد خُلِّفْتُ في نَفَرٍ *** لهم عن الرُّشد أغلالٌ وأقياد

(1) محمَّد أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 7/3898.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 13/91.

كأنَّه قيل: أولئك مُقيَّدون بقيود الضَّلالة لا يُرجى خَلاصهم[1].

ففي الكلام استعارة تصريحيَّة أصليَّة، وقد يكون التَّشبيه من قبيل تشبيه هيئة بهيئة على الاستعارة التَّمثيليَّة بجامع عدم رجاء الخلاص، والتَّمكُّن في الهلاك، فإنَّ وجود تلك الموانع للقلب والحواسِّ وتسلُّطها عليها كوجود الأغلال ووضعها في الأعناق، يقادون بها، ولا يمتنعون، أو يربط أيضًا الأرجل والأيدي، ولا يجدون التَّصرُّف حيث شاؤوا[2].

حمل مدلول (الأغلال) على الحقيقة وعيدًا للكَفَرَةِ الجاحدين

الاحتمال الثّاني: أن يكون المُراد وصفهم به في الآخرة، والكلام إمّا باقٍ على حقيقته؛ فإنَّهم يوم القيامة عند العرض للحساب توضع الأغلال في أعناقهم، كما يُقاد الأسير الذَّليل بالغلِّ، كما قال سبحانه: ﴿إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ﴾ [غافر: 71][3]، وفي هذا وعيدٌ بسوقهم إلى الحساب سوق المَذَلَّة والقهر، وكانوا يضعون الأغلال للأسرى المُثْقَلين[4]، وعلى هذا فالأغلال الّتي سُيجازَون بها يوم القيامة على كفرهم ستُطوِّق أعناقهم لا محالة، ونزل الشّيء الّذي لا بد من وقوعه منزلة الشّيء الواقع في الحال، فقال تعالى: ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْ﴾، فيكون ما سيُلاقون في الآخرة جزاء لما طوّقوا به أنفسهم في الدُّنيا.

بلاغة القلب:

بيان أنَّ الأغلال محيطة بأعناقهم كإحاطة الظَّرف بالمظروف

قوله تعالى: ﴿ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْ﴾ من باب القلب[5]، والأصل فيها: (أولئك أعناقهم في الأغلال)؛ لأنَّ الأغلال محيطة بأعناقهم،

(1) الشِّهاب الخفاجيّ، عنايةُ القاضي: 5/220، والآلوسيّ، روح المعاني: 7/100.
(2) أطْفيشْ، تيسير التّفسير: 7/230.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/100.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتّنوير: 13/91.
(5) القلب: جعلُ أحد أجزاء الكلام مكان الآخر، والآخر مكانه، على وجه يثبت حكم كلّ منهما للآخر، والظّاهر أنّه من الحقيقة، وربما يدّعي أنّه من المجاز العقليّ، وهو من مباحث المعاني والبديع باعتبارَيْن. يُنظر: القزوينيّ، الإيضاح: 2/97.

كإحاطة الظَّرف بالمظروف، فأعناقهم هي المظروف، كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ ۝٣٢﴾ [الحاقة: 32]، المعنى: اسلكوا فيه سلسلة؛ أي: أدخلوا في عنقه سلسلة[1].

دلالة تكرار ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ في الآية الكريمة:

إبعادُ المُنكرين للبعثِ إبعادًا تلو الإبعاد وتهويل حالهم وتشنيعُ مقامهم

في تكرار الإشارة إليهم في قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡۖ﴾، وفي قوله تعالى: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡأَغۡلَٰلُ فِيٓ أَعۡنَاقِهِمۡۖ﴾، وفي قوله تعالى: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ في هذه الجُمل المتتابعة، فَضْحٌ للمُنكرين على رؤوس الأشهاد، وشَدٌّ لوثاق المُمسك بهم من أعناقهم، حتَّى لا يُفلتوا، وحتَّى لكأنَّ كُلَّ إشارة من تلك الإشارات الثَّلاث طوقٌ من حديد، يُطوَّقون به، وإنَّ ذلك لَسِمَةٌ من السِّمات الدّالّة عليهم بين أهل المحشر، فليس ثمَّة شَكٌّ في أمرهم، أو في التَّعرُّف على ذواتهم، وقد وُسموا بتلك السِّمات الفاضحة، وفي الإشارة إليهم بأنَّ الأغلال في أعناقهم، وبأنَّهم أصحاب النّار، مع أنَّهم لم يُبعثوا بعدُ، ولم يُساقوا إلى جهنَّم بَعْدُ، حُكمٌ قاطع من اللّه عليهم بهذا، ولكنَّه مُؤَجَّلُ التَّنفيذ إلى يوم البعث[2]، فإعادَة اسم الإشارةِ ثلاثًا لِلتَّهْويلِ[3].

دلالةُ اسمِ الإشارةِ:

جيء باسم الإشارةِ ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ الّذي هو للبَعيدِ في قوله: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ﴾ للدَّلالة على بُعدِ مَنزِلَتِهم في السّيئاتِ والخَطايا الموجِبة للخُلود في النّار.

سرُّ استعمال لفظ ﴿أَصۡحَٰبُ﴾:

مقتضى الصُّحبة المُلازَمة كما أنَّ مقتضى الخلود التَّأبيد

في قوله تعالى: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ ذُكر لفظ أصحاب دون الاكتفاء أنَّهم في النّار خالدون، وذلك لبيانِ أنَّ

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/416.
(2) عبد الكريم الخطيب، التَّفسير القرآنيّ للقرآن: 7/72.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 13/91.

خلودَهم خلودُ صحبة وملازَمة، فأولئك أهل النّار الملازمون لها، المستحقّون دخولها، الماكثون فيها أبدًا لا يحولون عنها، ولا يزولون بسبب كفرهم وإنكارهم البعث وتكذيبهم الرّسول[1]، فلمّا كانت الصُّحبة تقتضي المُلازمة؛ صرَّح بها[2]، ففي هذا التَّعبير دلالة نفسيَّة تقتضي تعذيب المتحدَّث عنهم، بالإضافةِ إلى عذابِهم الحِسّيِّ.

سرُّ التَّعبير باسميَّة ﴿أَصۡحَٰبُ﴾ دون الفعل:

الدَّلالة على الاستقرار والمُلازمة الثّابتة الدّائمة

استُعمل لفظ ﴿أَصۡحَٰبُ﴾ بالاسميَّة في قوله تعالى: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾، دون أن يقول: (وأولئك يصحبون النّار)؛ لدلالتها على الثُّبوت؛ لذلك جاءتْ مُشتقّاتُها في القرآن الكريم اسميَّةً أكثرَ منْ مجيئها فعليَّة؛ لأنَّ الصُّحبة أمرٌ إذا حصل؛ فإنَّه يستمرُّ، ويستقرُّ، ويدومُ، والصّاحبُ مَن لازَم أبدًا[3]، فالاسميَّة أليقُ بهذا اللَّفظ؛ لذلك جاءَ هذا المعنى في أغلبِ وُروده في آيات القرآن بالاسميَّة، ومنْه هذه الآية، دلالة على ثبات حال الموصوفين بها.

علَّة الفصلِ عن السّابق:

تنزيل هذه الجملة منزلةَ البيانِ مِنَ الأولى وأنَّ صحبةَ الكافرين للنّار أبديَّةٌ

فُصِلَ قول الله تعالى: ﴿هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ عن قوله: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ﴾؛ لأنَّ بينَهما كمالَ الاتِّصالِ؛ فإنَّ الجملة الثّانيةَ، ﴿هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾، نُزِّلت منزلةَ البيانِ مِنَ الأولى[4]؛ إذ دُخولُ طائفةٍ ما النّارَ بحيثُ يَصحَبونَها، لا يَلزَمُ مِنهُ أن تكونَ صُحبَتُهُم لها أبديَّةً، فجاءت الثّانيةُ مبيِّنةً مُدَّةَ المُصاحبة.

نُكتَةُ تَقديمِ الجارِّ والمَجرورِ ﴿فِيهَا﴾:

إفادةُ تأكيد التَّخصيصِ بعد توكيد المُلازَمة

قدَّم النَّظم الكريم الجارَّ والمجرور ﴿فِيهَا﴾، ولم يَقُلْ: (هُم خالِدونَ فيها)؛ لإفادة التَّخصيص؛ فقد تَأكَّد خلودهم بضمير

(1) وهبة الزَّحيليّ، التَّفسير المنير: 13/111.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 10/283.
(3) الرّاغب، المُفردات: (صحب).
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 13/91.

الفعل ﴿هُمْ﴾، كما تأكَّد اختصاصهم بها بتقديم الجارِّ والمجرور على ﴿خَٰلِدُونَ﴾؛ أيْ: هم وحدهم الخالدون فيها، وخلودهم مقصور عليها، فلا حول لهم ولا قوّة[1].

بلاغةُ الاحتراسِ بذكرِ الخلودِ بعد الصُّحبةِ:

صُحبةُ النّارِ دليلُ المُلازَمةِ، والخُلودُ دليلُ الدّوامِ

أكَّد النّظْم الكريم خلودهم في النّار بالتّعبير عنهم بأنَّهم أصحاب النّار خالدون فيها؛ أي: الّذين يلازمونها بالصُّحبة الدّائمة المستمرّة[2]؛ لأنَّ المصاحبةَ تقتضي طولَ لُبثٍ[3]، ولا يُشترطُ في الصُّحبةِ الخلود، فقد يعقبُها الفِراقُ، وأمّا الخلودُ؛ فهو دائمٌ، فزيادَةُ لفظِ الخلودِ دليلٌ على أنَّ هذه الصُّحبةَ دائمة لا انقطاع فيها، فيكون ذِكرُ الصُّحبةِ عذابًا معنويًّا، وذِكرُ الخلود عذابًا حِسيًّا، وذكرُه بعد الصُّحبة احتراسٌ عن توهُّمِ انقطاعِ العذابِ.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيّةُ:

الصّاحِب والصَّديقُ:

الصّداقةُ اتِّفاقُ الضَّمائرِ وصِدْقُ المَشاعِرِ، والصُّحْبَةُ مُطْلَقُ الرُّفْقَةِ

الصّاحِبُ مِنَ الصُّحْبَةِ في الزَّمانِ والمَكانِ، وقَدْ تَكونُ صُحْبَتُهُ مؤقَّتةً في الطَّريقِ مِثْلَ العَبْدِ الصّالِحِ مَع موسى: ﴿قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَٰحِبْنِيۖ﴾ [الكَهْفُ 76].

أوْ في مَكانٍ مِثْلَ يوسُفَ مَعَ صاحِبَيْهِ في السِّجْنِ: ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾﴾ [يوسُفُ 39]، وقَدْ تَكونُ الصُّحْبَةُ مُؤَبَّدَةً مِثْلَ الوالِدَيْنِ، قال تَعالى: ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِي ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًاۖ﴾ [لُقمانُ: 15]، ومِثْلَ الزَّوْجَةِ الّتي تَصْحَبُ الزَّوْجَ طيلَةَ عُمُرِهِ، قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾﴾ [عَبَسَ: 34 - 36].

(1) محمّد أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 7/3898.
(2) محمّد أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 7/3900.
(3) الرّاغب، المُفردات: (صحب).

أمّا الصَّديقُ؛ فَمِنَ الصَّداقَةِ: وهيَ اتِّفاقُ الضَّمائِرِ وصِدْقُ الاعْتقادِ على المَوَدَّةِ[1]، وفي التَّنْزيلِ جَوازُ الأكْلِ مِنْ بَيْتِ الصَّديقِ واعْتِبارِهِ ضِمْنَ الأقارِبِ، قال تَعالى: ﴿أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ أَوْ صَدِيقِكُمْۚ﴾ [النّور: 61]، وقالَ تعالى يَصِفُ حالَ المُشْركينَ، وهُم في النّارِ يَصْطَرِخونَ، ويتَحَسَّرونَ على فَقْدِ الأصْدِقاءِ: ﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ۝١٠٠ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ۝١٠١﴾ [الشُّعَراء: 100 - 101]، فمُصْطَلَحُ الصّاحِبِ أعَمُّ مِنَ الصَّديقِ، والصَّداقَةُ مِنْ دَرجاتِ الصُّحْبَةِ.

(1) الرّاغب، المُفرداتُ: (صدق)، والعسكريّ، الفُروقُ اللُّغويّة، ص: 285.

﴿وَيَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبۡلَ ٱلۡحَسَنَةِ وَقَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِمُ ٱلۡمَثُلَٰتُۗ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغۡفِرَةٖ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلۡمِهِمۡۖ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ٦﴾ [الرّعد: 6]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

تعقيب الدَّعوى بالدَّليل مبيِّنٌ للعَجَبِ ومفصحٌ عن السَّبب

لمّا ذكر سبحانه عجيبَ إنكارِ المشركين للبعث، وما توعَّد الله الجاحدين لآياته بالهلاك إن أصرّوا عَلى كفرهم، وتكذيبهم بما أُنْذِروا بِهِ مِنَ العَذابِ؛ عطف - على ذلك القولِ العجب الصّادر عن عقولِهم الخرِبَة، وقلوبهم المريضة - استعجالَ العذابِ، حيث أغلّوا عقولهم عن الاعتبار بمصارع الغابرين من المُكذِّبين بآيات الله، وطالبوا بتعجيل العقوبة بدلًا من طلب العافية، وذَلِكَ عَلى سبيل الاِستِهزاءِ والاستخفاف؛ ظانّين أنَّه مجرَّد تَهْديد، ولا يَتَحَقَّقُ شَيْءٌ مِنهُ؛ وذا لفرط جهلهم بالخالق الجليل ﷻ؛ فإنَّه يُمهل، ولا يُهمل[1]، فالمناسبة بين الآيتَيْن، هي ذكر الدِّليل بعد الدَّعوى، فذِكْر إنكارهم البعث دعوى، ودليلها استعجالهم العذاب، وكلا الأمرَيْن عجبٌ عُجابٌ.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَيَسۡتَعۡجِلُونَكَ﴾: العَجَلُ والعَجَلة: طَلَبُ الشَّيء وتَحَرّيه قبل وقته، وهو من السُّرعة خلاف البُطْء[2]، وأصل (العَجَل): "سَبْقٌ بتحصيل الشَّيء قبل وقته"[3].

واستعجلتُه: حَثَثْتُه، وأمَرْتُه أن يُعَجِّل في الأمر، والاستعجال

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 19/11، وأبو حيّان، البحر المحيط: 6/353، وابن عادل، اللُّباب: 11/253، والبقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 10/284، والآلوسيّ، روح المعاني: 7/102.

(2) الرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (عجل).

(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (عجل).

والإعجال والتَّعَجُّل بمعنًى واحدٍ: الاستحثاث وطلب العَجَلة، واستعجل الرَّجلَ: حثَّه، وأمره أن يُعَجِّل في الأمر[1].

2) ﴿خَلَتۡ﴾: خلا المكان والشَّيْء؛ إذا كان فارغًا لا يوجد فيه شيْءٌ ولا أحدٌ[2]، وأصلُهُ من (الخُلوِّ): وهو فراغ الحيِّز أو الظَّرف ممّا كان يشغله، أو من شأنه أن يشغله مع بقاء الحيِّز أو الظّرف متماسكًا[3].

والخُلوُّ يُستعمل في الزَّمان كما يُستعمل في المكان، ويكون في الزَّمان بمعنى المُضي والذَّهاب، يُقال: خلا الشَّيءُ: مضى، وذهب[4]، والقرون الخالية والأيام الخالية: هي القرون والأيام الماضية[5].

3) ﴿ٱلۡمَثُلَٰتُۖ﴾: المَثُلات جمع مُثْلة، وهي العقوبة والتَّنكيل بالآخر[6]. و"النِّقمة تنزل بالإنسان، فيُجعَل مثالًا يرتدع به غيره"[7]، وأصله من (المَثَل)؛ وهو تشخُّص الشَّيْء قائمًا على هيئة أو صفات معينة، فالتَّمثيل بالمجرم عقوبة تُصيبه، فتُنصِّبه مثلًا وعِبرةً؛ لأنَّه إذا نُكِّل به؛ جُعل ذلك مثالًا لكلِّ مَن صنع مثله[8]، ومَثَل بالرَّجل يَمثُل به مَثْلًا ومُثْلةً، ومثَّل، كلاهما: نكَّل به، وهي المَثْلة والمُثْلة[9].

المَعْنى الإجْماليّ:

تُبيِّن الآية حال المشركين في منازعةِ ما تقتضيه الفطرةُ السَّليمة، والعقل السَّديد، فيطلبون من رسول الله ﷺ تعجيلَ العذاب بالبلاء والنِّقمة والعقوبة قبل الرَّخاء والنِّعمة والعافية،

الاستهزاء بالرُّسل وبما جاؤوا به سُنَّة الجاهلين في كلِّ زمان

(1) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (عجل).
(2) ابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس: (خلو).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (خلو).
(4) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحُفّاظ، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (خلو).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (خلو).
(6) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، والجوهريّ، الصّحاح: (مثل).
(7) الرّاغب، المفردات: (مثل).
(8) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (مثل).
(9) ابن منظور، لسان العرب: (مثل).

وقد مضت من قبلهم في الأمم العاصية المُكذِّبةِ العقوباتُ والمُنكِّلاتُ، بين إغراق وخَسْف ومَسْخ، فلم يُشفقوا أنْ ينزل بهم مثلُ ما استأصل سابقيهم، وإنَّ ربَّك لذو ستر وعفو وصفح وتجاوز عن المشركين على فعلهم وكُفرهم؛ إذا آمنوا، وعن المُذنبين؛ إذا تابوا، فلا يُعاجِلُ أحدًا بالعقوبة، وإنَّه سبحانه - كذلك - لشديد العذاب للمُصرّين على الشِّرك[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيّ:

معنى الواو في ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ﴾:

الواو عاطفة، وجملة ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ﴾ معطوفة على جملة ﴿وَإِن تَعْجَبْ﴾ [الرّعد: 5]؛ لأنَّ كلتا الجملتَيْن حكايةٌ لغريبِ أحوالهم في المكابرة والعناد والاستخفاف بالوعيد، فابتدأ بذِكرِ تكذيبهم بوعيد الآخرة لإنكارهم البعثَ، ثمَّ عطَفَ عليه تكذيبَهم بوعيد الدُّنيا لتكذيبهم الرَّسولَ ﷺ[2].

الجرأةُ في طلب العذابِ الدُّنيويِّ نتيجةٌ للضَّلالِ الفكريِّ

وفائدة هذا العطف تعداد جوانب سَفَهِهم، وطَيْشِهم، وعنادهم، وغلوِّهم في الاستكبار والكفر، ومع ذلك فقد أمهلهم اللّه تعالى، وحَلُمَ عليهم، ولم يُعاجلهم بالعقوبة مع استحقاقهم إيّاها.

سرُّ التَّعبيرِ بالمضارعِ في ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ﴾:

في التَّعبير بالمضارع في قولِه تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ﴾ معنى التَّكرار، لإفادته التَّجدُّدَ والاستمرار، وهذا يدلُّ على وقوع هذا الفعل (أيْ: طلب إيقاع العذاب عاجلًا) من الكافرين مرارًا، ويدلُّ - بالمفهوم - على تكرُّر إنذارهم بالعذاب إن هم أصرّوا على

المعاندة المستمرَّة تُجفِّف ماءَ القلبِ وتُعدِمُ العقلَ

(1) ابن جرير، جامع البيان: 13/435، والبغويّ، معالم التّنزيل: 4/296، وابن الجوزيّ، زاد المسير: 4/305، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 9/285، وابن جُزيّ، التّسهيل لعلوم التّنزيل: 2/131، وأبو حيّان، البحر المحيط: 5/359، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 2/519، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 1/514.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/91.

الكفر، كما وقع لأمثالهم من الأمم الخالية الكافرة، والحاصل أنَّهم كلَّما أُنذِروا، وحُذِّروا؛ قالوا: أين عذابُك الَّذي تتوعَّدُنا به؟ فلْتأتِنا به عاجلًا، فلم يزدهم تَكرارُ الإنذار إلّا عنادًا واستكبارًا.

دلالةُ السّين والتّاء في ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ﴾:

طلبُ إنزالِ العذاب برهانُ استحقاقِه

السين والتّاء في قولِه تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ﴾ للطَّلب، فالمشركون يطلبون التَّعجيل بالسَّيِّئة قبل الحسنة؛ أيْ: إنَّهم عندما يسمعون البشيرَ النَّذير ﷺ، يستعجلونه بالعقوبات الَّتي تضمَّنها الإنذارُ، بدلَ أن يُحسنوا، ويتركوا ما هم فيه من العنادِ والكفرِ، فيستعجلونها طلبًا متكرِّرًا، وذلك من فساد الفكر وضلال النَّفي، وسيطرة العادة، والمبالغة في إنكار الحقِّ[1].

بلاغةُ استعمال لفظ ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ﴾:

الاستعجالُ دليل الطَّلبِ الحثيث والصَّوت الفحيح

قوله: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ﴾: هو أبلغ في هذا الموطن من (ويسألونك)[2]، ولم يَقُلْ: (ويسألونك العذاب)، كما في قوله تعالى: ﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ۝١﴾ [المعارج: 1]، لما فيه من سوء أدب القوم النّابع من تغلُّف قلوبهم بالكفر؛ إذ فيه معنى الاستحثاث، وكأنَّهم يطلبون إيقاع العذاب طلبًا حثيثًا، لا يصدُّهم عنه ورعٌ ولا خوفٌ، فهم يستعجلون على الدَّوام دون كَللٍ أو مَلَلٍ.

نكتة ضمير المُخاطَب في ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ﴾:

الحسد يُعمي الأبصارَ ويُدمي القلوبَ

الأصل أنَّ العذاب بيد الله ﷻ، وأنَّ الثَّواب يكون منه ﷻ، وإنَّما جاء النَّبيُّ ﷺ بشيرًا ونذيرًا، فلمّا أنذرهم بطشةَ الله إنْ هم أصرّوا على كفرهم؛ لم يستعجلوا الله سبحانه بها، بل استعجلوا النَّبيَّ ﷺ، وكأنَّه هو الَّذي بيده أمر الثَّواب والعقاب.

وفي هذا دليلٌ على أنَّهم لم يُصدِّقوا أنَّ النَّبيَّ ﷺ مُرسلٌ من ربِّه،

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3900.
(2) البَسيليّ، نكت وتنبيهات: 2/271.

مبلِّغٌ عنه، بل رموه ﷺ بالافتراء على اللّه؛ ولذلك استعجلوه هو، (وفي ذلك زيادة تعجُّبٍ من حالهم، وهو كاشفٌ عن استهزائهم).

كما أنَّ استعجالَه دليلُ حسدهم واستكبارهم، فكأنَّهم يقولون: إن كان العذاب سيأتي من جهتك؛ فاستعجله لنا، وهذا في غايةِ المكابرة الصّادرة عن الحسد.

معنى الباء في ﴿بِٱلسَّيِّئَةِ﴾:

تعدية الفعل لما لم يكن يتعدَّى إليه

الأصل في الفعل ﴿وَيَسۡتَعۡجِلُونَكَ﴾ أنْ يتعدَّى بنفسه إلى مفعول واحد، وهو المطلوب منه تعجيل شيءٍ، فإذا أُريد ذِكْر الأمر المُعجَّل عُدي إليه بالباء، فالباء في ﴿بِٱلسَّيِّئَةِ﴾ لتعدية الفعل إلى ما لم يكن يتعدَّى إليه[1].

معنى التَّعريفِ في ﴿بِٱلسَّيِّئَةِ﴾:

عادةُ المشركين مع عذابِ الآخرة الإنكارُ، ومع عذابِ الدُّنيا الاستعجالُ

التَّعريف هاهنا للعهد الذِّهنيّ، ذلك أنَّ النَّبيَّ ﷺ كان يُهدِّد الكافرين المكذِّبين تارةً بعذاب القيامة، وتارةً بعذاب الدُّنيا، والقومُ كلَّما هدَّدهم بعذاب القيامة؛ أنكروا القيامةَ والبعثَ والنُّشورَ، وكلَّما هدَّدهم بعذاب الدُّنيا؛ استعجلوه[2]. فالسَّيِّئة هاهنا هي العقوبة الَّتي هُدِّدوا بها على الإصرار على الكفر استهزاءً وتكذيبًا[3].

فكأنَّه قال لهم: احذروا أن يحلَّ بكم مثلما حلَّ بمَن قبلكم ممَّن خُسِفَ بهم، ومَن أُغرقوا، ومَن زُلزِلوا، ومَن أخذته الصَّيحة، فلمّا سمعوا ذلك منه؛ قالوا له: ائتنا بهذا العذاب الَّذي تتوعَّدنا به، فأمطِر علينا حجارةً من السَّماء، أو اخسف بنا الأرض كما تقول! ولا شكَّ أنَّ في هذا ما فيه من العتوِّ والاستكبار، فبدلًا من أن يفزعوا، ويمتلئوا رعبًا من سماع ما حلَّ بالسّابقين إذا بهم - لفرط كفرهم - يقولون: نستعجلك هذا الَّذي توعَّدتنا به دون إبطاءٍ!.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/92.
(2) ابن عادل، اللّباب: 11/253.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/101.

سرُّ التَّعبير في قوله: ﴿بِٱلسَّيِّئَةِ﴾:

السَّيِّئة تسوءُ السّامعين وتُنادي على غفلةِ المستعجلين

السَّيِّئة هي ما يسوء في ذات نفسه، وهي هنا بمعنى العقوبة والعذاب، أيْ: إنَّهم سألوا من الآيات ما فيه عذاب بسوء[1]، وإنما سُمي العذابُ سيِّئةً؛ لأنَّه يَسوؤهم ويُؤذيهم[2].

والسِّرُّ في إيثارها دون معانيها الَّتي فُسِّرت بها (كالعقوبة والعذاب): هو بيان جهل المكذِّبين الكافرين، فلو علموا أنَّ هذا الّذي يستعجلون به، ويطلبونه مستهزئين بالوعيد والمتوعِّد به، - لو علموا أنَّه سيسوؤهم - ؛ لما أقدموا على طلبه فضلًا عن التَّكذيب به، فقد جمعوا مع الكفرِ والعنادِ وسوءِ الأدبِ الحماقةَ الَّتي أعيت مَن يداويها.

كما أنَّ لفظ السَّيئة يسوءُ السّامعين، ويُنادي على غفلةِ المستعجلين، ويأخذ بصمةَ الاعتراف بكَلالةِ الرَّأي وهشاشة الفكر من المستعجلين.

نكتةُ الإفراد في قوله: ﴿بِٱلسَّيِّئَةِ﴾:

اشتمالُ اللَّفظِ على أنواعِ العذابِ الَّذي أُنذروه عبارةً أو إشارةً

أُفردت السَّيِّئة لتشمل كلَّ ما يصحُّ أنْ يقع تحتها من معانٍ، كما هو الحال في أسماء الأجناس، وقد أفاد هذا الإفراد نكتةً لطيفةً، وهي الدَّلالة على تكرُّر الإنذار وتنوُّعه، فكلَّما أنذرهم النَّبيُّ ﷺ عقوبةً من العقوبات؛ استعجلوها بعينها، فإذا قال لهم مَثلًا: إني أخاف عليكم أن يصيبكم مثلُ ما أصاب قوم نوح؛ قالوا: إذًا فأغرِقْنا إن كنتَ صادقًا فيما تدَّعي، وإذا قال لهم: اذكروا ما حدث لقوم عاد؛ قالوا له: إذًا فأرسل علينا ريحًا، كما أُرسل عليهم وهكذا.

دلالةُ الظَّرفِ في ﴿قَبۡلَ ٱلۡحَسَنَةِ﴾:

اختيار السَّيِّئة دون الحسنةِ أمارةُ السَّخافةِ ومَوضعِ الحماقة

إنَّ قبليَّة السَّيِّئة قبليَّةٌ اعتباريَّة، وليست قبليَّة ظرفيَّة: زمنيَّة أو مكانيَّة، بل المعنى: أنَّهم يختارون السَّيِّئة دون الحسنة[3].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/92.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 19/11، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3900.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/92.

فهُم لا يقصدون أن تأتي السَّيِّئة أوَّلًا، ثمَّ تتبعها الحسنة، بل إنَّهم يُقدِّمون السَّيِّئة على الحسنة، وهذا من أعجب العجب! وفيه رائحةُ التَّهكُّم بالقوم.

فالمعنى: إنكار جعْلِهم تأخيرَ العذابِ أمارةً على كذب الوعيد به، وأنَّ الأوْلى بهم أنْ يجعلوا امتداد السَّلامة أمارةً على إمهال الله إيّاهم، فيتَّقوا حلول العذاب، أيْ: لمَ تبقون على التَّكذيب منتظرين حلول العذاب؟ وكان الأجدر بكم أن تُبادروا بالتَّصديق منتظرين عدم حلول العذاب بالمرَّة[1]، فما أسرع سَيْرَكم في سبيل الهلَكَة!

معنى ﴿ٱلۡحَسَنَةِ﴾ ودلالة تعريفها:

الحسنة: هي ما يَحسُن في ذات نفسه[2]، وهي هنا بمعنى: الرَّخاء والعافية[3]، أو بمعنى: الإيمان الَّذي يُرجَى به الأمان والحسنات، والَّذي يمتاز به الخبيث من الطَّيِّب[4].

المكذِّبون يرغبون في كلِّ سيِّئة، ويرغبون عن كلِّ حسنة

وقد جاءت ﴿ٱلۡحَسَنَةِ﴾ هنا مُعرَّفةً لتشمل كلَّ ما تصدُق عليه من معاني العافية والرَّخاء والإيمان والحياة الطَّيِّبة، فتعريفها - إذًا - مختلفٌ في دلالته عن تعريف السَّيِّئة؛ إذ كان تعريف السَّيِّئة للعهد الذِّهنيّ، ومعناها العقوبة المعيَّنة الَّتي هُدِّدوا بها، أمّا تعريف الحسنة؛ فلشمول كلِّ حسنة، وهذا يدلُّ على فجور القوم وعُتوِّهم وقساوة قلوبهم؛ حيث إنَّهم يستعجلون بعقوبة عظيمة، ولا يرغبون في أيِّ حسنة كانت.

بلاغةُ الجملةِ الحاليَّة في الآية:

جاءت الجملة الكريمة ﴿وَقَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِمُ ٱلۡمَثُلَٰتُۗ﴾ في موضع الحال لبيان ركاكة رأيهم في الاستعجال بطريق الاستهزاء، أيْ: يستعجلونك بذلك مُستهزئين بإنذارك، مُنكرين لوقوع ما أنذرتهم

أعمَت مكابرةُ الكافرين قلوبَهم عن أن ترى ما حلَّ بأمثالهم

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/280.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3900.
(3) البغويّ، معالم التّنزيل: 4/296، والثَّعلبيّ، الكشف والبيان: 15/215.
(4) الجرجانيّ، درج الدُّرر: 3/1021، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 9/284.

إيّاه، والحال أنَّه قد مضت العقوبات الفاضحة النّازلة على أمثالهم من المُكذِّبين المستهزئين[1].

وهو محلُّ زيادة التَّعجيب؛ لأنَّ ذلك قد يُعذَرون فيه لو كانوا لم يروا آثار الأمم المُعذَّبة مثل عاد وثمود[2]، ولو كان ذلك لم ينزل قَطُّ؛ لكانوا أعذر[3].

فهُم مع علمهم بما حلَّ بغيرهم من مُكذِّبي الرُّسل في الأمم السّالفة، ومرورهم على ديارهم وآثارهم، مع هذا كلِّه يستعجلون النَّبيَّ ﷺ بالسَّيِّئة! وهذا يدلُّ على سُخْف عقولهم؛ إذ يستعجلون بالعذاب والحالة هذه، ولكنَّهم لا يعتبرون[4].

نكتةُ اقترانِ (قد) مع الماضي في ﴿وَقَدْ خَلَتْ﴾:

تأكيدُ الأدلَّةِ منهجُ القرآنِ في إلزامِ أهلِ البُهتان

أفاد اقتران حرف التَّحقيق (قد) مع الفعل الماضي ﴿خَلَتْ﴾ مزيدًا من التَّوكيد الَّذي يؤديه كلُّ واحد منهما مستقلًّا، فباجتماعهما زاد صوت قَرع المؤكِّدات وضوحًا وبيانًا لمَن كان له قلب، أو ألقى السَّمع وهو شهيد، فحرف (قد) أكَّد الدليلَ، وهو مجيءُ العذابِ لِمَن قبلهم، فقد قدَّم اللّه إليهم بالوعيد، وبعث إليهم النُّذُر بالبشارة والتَّهديد، وساق لهم أسباب التَّحقيق والتَّأكيد، فما زادهم إلّا نفورًا، وما اكتسَوا من تأخُّر نزول العذاب إلّا غرورًا، وفي هذا بيانٌ لما امتلؤوا به من الكِبر والبَطَر، بقدر ما خَلَت قلوبهم من الاعتبار بمَن غَبَر.

سرُّ التَّعبيرِ بالفعلِ ﴿خَلَتْ﴾:

الخُلوُّ مُضي ماحقٌ لا يتركُ بشرًا أو أثرًا

تدور معاني الخُلوِّ حول الفراغ والتَّعري: تعري الشَّيْء من الشَّيْء،

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/101.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/92.
(3) ابن عطيّة، المُحرَّر الوجيز: 3/296.
(4) أبو حيَّان، البحر المحيط: 6/353.

وفراغ الحيّز من الشَّيء الَّذي كان يملؤه[1]، وتدور معاني المُضي حول النَّفاذ والمرور[2].

ولمّا كان معنى الآية الإنكارَ على القوم المُخاطَبين استعجالَهم بالعذاب، دون أن يعتبروا بما حلَّ بالأقوام السّابقين الَّذين استأصلهم العذاب لكُفرهم وعنادِهم؛ كان التَّعبير بالفعل ﴿خَلَتۡ﴾ أبلغ في هذا الموضع من مرادفاته.

ذلك أنَّه يدلُّ - بالنَّظر إلى أصل معناه الَّذي وُضع له - على الإهلاك المُستأصِل الّذي ترك الديار خاليةً من أهلها الَّذين كانوا يشغلونها، كما قال تعالى في موضعٍ آخر: ﴿فَتِلۡكَ بُيُوتُهُمۡ خَاوِيَةَۢ بِمَا ظَلَمُوٓاْۚ﴾ [النَّمل: 52].

فالحاصل أنَّ المَثُلات من العقوبات المستأصِلات قد ذهبت بمَن نزلت بهم حتَّى أخلَت منهم مساكنَهم وديارَهم، فأصبحَتۡ ﴿حَصِيدًا كَأَن لَّمۡ تَغۡنَ بِٱلۡأَمۡسِۚ﴾ [يونس: 24].

معنى ﴿مِن﴾ ودلالته في ﴿مِن قَبۡلِهِمۡ﴾:

مضت سُنَّة الله في الغابرين، من قبل أن تبدأ حياةُ اللّاحقين

يفيد حرف الجرِّ ﴿مِن﴾ معنى ابتداء الغاية الَّذي هو أصل معانيها[3]، ويأتي كذلك لابتداء الغاية وانتهائها[4]، أيْ: إنَّ عقوبات الأمم السّابقة قد نزلت بهم، وانتهت من قبل أن يأتي هؤلاء المخاطَبون.

وقد دلَّ دخول حرف الجرِّ ﴿مِن﴾ على الظَّرف (قبل) على توكيد المعنى، وقد تآزر مع المؤكِّدات الَّتي شُحِنت بها الآية الكريمة مُتمثِّلة في جملة الحال، وحرف التَّحقيق (قد)، والفعل الماضي (خلت)، وهذا الحشد من المؤكِّدات في جملة قليلة المبنى يَشي بضراوة الإنكار الَّذي شنَّه المخاطَبون على الإنذار والوعيد الَّذي كان على

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (خلو)، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: 1/590.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (خلو)، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: 4/2088.
(3) ابن هشام، مُغني اللَّبيب، ص: 429، والمُرَاديّ، الجَنَى الدَّاني، ص: 315.
(4) أبو حيَّان، البحر المحيط: 9/511، والمالقيّ، رصف المباني، ص: 388.

لسان الصّادق المصدوق ﷺ، فاقتضى أن يُقابَل ذلك بمزيد من التَّوكيد لإعذارهم بعد إنذارهم، ولإقامة الحُجَّة عليهم، كما هو المعهود في مخاطبة المُخاطَب المُنكِر.

والأصل أنَّ الظُّروف الَّتي ليست بمُتمكِّنة مثل: (قبل)، و(بعد)، و(عند) ونحوها؛ حكمُها ألّا يدخل عليها شيْء من حروف الجرّ؛ لعدم تمكُّنها وقلَّة استعمالها استعمال الأسماء، وإنَّما أجازوا دخول (مِن) عليها توكيدًا لمعناها وتقويةً له[1].

سرُّ التَّعبير بمُفردةِ ﴿ٱلۡمَثُلَٰتُۖ﴾:

المَثُلات هي العقوبات المُنكِّلات الَّتي تجعل الإنسان مثلًا يتمثَّل به، ومنه التَّمثيل بالقتلَى، ومنه المُثلة بالعبيد، وأصل هذا الحرف من المِثْل الَّذي هو الشَّبه، ولمّا كان الأصل أن يكون العقاب مُشابهًا للمُعاقَب ومماثلًا له لا جَرَم سُمي بهذا الاسم.

المَثُلاتُ عقوبةُ الله الَّتي تُضرَبُ بها الأمثال

فالحاصل أنَّه عُبِّر عن العقوبة بالمثلة لما بين العقاب والمعاقَب عليه من المماثلة؛ ولأنَّ الجناية سبب لأنْ يُعاقَب الجاني بمثل ما جناه، كما سُمي جزاءُ السَّيِّئة سيِّئة؛ لأنَّه مُسبَّب عنها ومماثل لها، أو هي مأخوذة من المثال بمعنى القصاص، يُقال: أمثلْتُ الرَّجُل من صاحبه، وأقصصته بمعنًى واحد، أو هي من المَثَل المضروب لعِظَمها[2].

معنى الواو في ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ﴾:

الواو عاطفة، حيث عطفت هذه الجملة الكريمة على الجملة الحاليَّة السّابقة عليها ﴿وَقَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِمُ ٱلۡمَثُلَٰتُۗ﴾، وهذا كشفٌ لغرورهم بتأخير العذاب عنهم؛ لأنَّهم لمّا استهزؤوا بالنَّبيِّ ﷺ، وتعرَّضوا لسؤال حلول العذاب بهم، ورأوا أنَّه لم يُعجَّل لهم

الحليم لا يُعاجِل بالعقاب، بل يُمهل المذنبين عسى أن يكون مَتابٌ

(1) السَّخاويّ، سفر السَّعادة: 2/844.

(2) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 2/514، وابن عطيَّة، المُحرّر الوجيز: 3/296، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 19/12، والطيبيّ، فتوح الغيب: 8/466، والآلوسيّ، روح المعاني: 7/101.

حلولُه؛ اعترتهم ضراوةٌ بالتَّكذيب، وحسِبوا تأخير العذاب عجزًا من المتوعِّد، وكذَّبوا بالنَّبيِّ ﷺ، وهم يجهلون أنَّ اللّه حليم يُمهل عباده لعلَّهم يرجعون، فالمغفرة هنا مستعملة في المغفرة المؤقَّتة، وهي التَّجاوز عن ضراوة تكذيبهم وتأخير العذاب إلى أجَل[1].

ويصحُّ صناعةً أن تكون الواو حاليَّة، وتكون جملةُ ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ﴾ حاليَّةً بالأصالة، وفي هذا ما فيه من دلالات الرَّحمة والحلم العظيم من اللّه الكريم بعباده حتَّى المستكبرين منهم.

بلاغةُ أدوات التَّوكيد في ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو﴾:

أُكِّدت هذه الجملة الكريمة بمؤكِّدات عدَّةٍ، منها: الجملة الاسميَّة، ومنها حرف التَّوكيد (إنَّ)، ومنها لام التَّوكيد المُزحلَقة الواقعة في خبر (إنَّ)، ومنها التَّعبير بالاسم الدّالِّ على المصاحبة (ذو)، وقد أفاد حشد هذه المؤكِّدات إزالةَ كلِّ شكٍّ أو لَبْسٍ عند الكافر المُكذِّب الَّذي تحدِّثه نفسه بالتَّوبة وبالإسلام، فجاءت الآية تفتح ذراعَيها لاحتضان كلِّ تائب على ما كان منه، فهي بليغة في عدم تيئيس أحد - كائنًا مَن كان - من رحمة اللّه تعالى، وهي - في الوقت نفسه - بليغة في الإعذار لِمَن أصرَّ - بعد كلِّ هذا - على الكفر والعناد.

مغفرة الله واسعة، وظلالها وارفة، ولا يخرج من دوحتها إلّا محروم

نكتةُ إيثار عنوان الرُّبوبيَّة على الألوهيَّة:

يُلاحظ في قولِه تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ﴾ أنَّه ﷻ عبَّر بلفظِ الرَّبِّ في صحبة المغفرة، وشِدَّة العقاب، وفي ذلك إشارةٌ إلى أنَّ ذلك من مقتضيات الرُّبوبيَّة، فهو يُهذِّب عبيده بالإنذار بشِدَّة العقاب، ويفتَح باب التَّوبة من غير أنْ يُقنِّط العُصاة من رحمته[2].

فتْح باب التَّوبة لئلّا يقنَط عاصٍ من رحمة مولاه

دلالةُ الإضافة في ﴿رَبَّكَ﴾:

في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ﴾ تسلية للنَّبيِّ ﷺ؛

معيَّة الله للحبيب ﷺ تشريفٌ وتخفيف

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/92 - 93.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3901.

إذ كذَّبه قومه، واستعجلوا عذاب الله تعالى مستهزئين مستكبرين، وهو ﷺ الحريصُ على إيمانهم، الباخع نفسه أسفًا على آثارهم؛ فجاء لفظ (الرَّبِّ) - الذي يحمل بين أحرفه دلالات المعيَّة والرِّعاية، والحفظ والعنايَة - مضافًا إلى ضمير المُخاطَب العائد على أشرف الخلق ﷺ، ففي الخطاب ظلال الأُنس والملاطفة، وفي الإضافة دلائل التَّشريف والرِّفعة، وفي الرُّبوبيَّة معاني الرَّحمة والتَّدبير، وذلك حتى لا يحزن النَّبيُّ ﷺ أو يضيق صدره بما يقولون.

سرُّ إضافة ﴿لَذُو﴾ إلى ﴿مَغْفِرَةٍ﴾:

لمّا كان لفظ ﴿لَذُو﴾ يعني: الصّاحب، وكان في الصُّحبة معنى الملازمة، ولمّا كان لفظ ﴿مَغْفِرَةٍ﴾ قد جاء على صورة المصدر، حيث معنى الفعل مُجرَّد عن الزَّمن للدَّلالة على الدَّيمومة والاستمرار، وجاء مُنكَّرًا لإفادة معنى التَّعظيم، لمّا كان ذلك كذلك؛ فقد تجلَّى سرُّ إضافة ﴿لَذُو﴾ إلى الاسم الظّاهر ﴿مَغْفِرَةٍ﴾، وهو إفادة معنى التَّوكيد لمغفرة ربِّ العالمين لكلِّ ذنب وإنْ عظم، وهذا يتناسب مع سياق الآية الَّتي يُذكر فيها استعجال عتاة المشركين بالعذاب العظيم استخفافًا واستهزاءً، فإنَّ الَّذي يرسخُ في نفس المخاطَبِ في عدمِ إيقاع العقوبة، وإنزال العذاب، هو هذه المغفرة الرّاسخة، وهذا الحلم العظيم، وقد أفاد اجتماعُ هذه المؤكِّدات إظهارَ شدَّة رحمة الله بعباده في الدُّنيا[1]، وأنَّ المغفرة من صفات الرُّبوبيَّة ومقتضياتها.

لولا عظيم مغفرة الله المُلازِمة له؛ لنزل العذاب، وتحقَّق العقاب

نكتةُ استعمال صفة المغفرة في الآية:

أوثر التَّعبير بصفة المغفرة دون الرَّحمة في قولِه تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ﴾؛ لأنَّ سياق الآية يدلُّ على أنَّ المُراد بالمغفرة هنا التَّجاوزُ عن المشركين في الدُّنيا بتأخير العقاب لهم إلى أجَلٍ أرادَهُ الله أو إلى يوم الحساب، وأنَّ المُراد بالعقاب في قوله: ﴿وَإِنَّ

تأجيلُ العقوبةِ مغفرةٌ يُرجى من ورائها الاهتداء والارتداع

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/93.

﴿رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾ ضِدُّ تلك المغفرة، وهو العقاب المُؤجَّل في الدُّنيا أو عقاب يوم الحساب[1]، فإنَّ مقتضى صنيعِ المشركين هو العقوبة، فتأجيلُ العقوبةِ وإنساء العذاب، هو مغفرةٌ يُرجى من ورائها الاهتداءُ والارتداعُ.

كما أنَّه من المعلوم أنَّ المغفرة في الدُّنيا تشمل كلَّ الذُّنوب - وعلى رأسها الشِّرك - إن تاب المشرك وآمن قبل أن يحضره الموت، وعليه فإنَّ إطلاق المغفرة (بمعنى قبول التَّوبة، ومحو الذُّنوب) متضمِّنٌ لمعنى الرَّحمة؛ إذ هو من لوازمها، وكذلك تفسير المغفرة بمعنى (عدم المعاجلة بالعقوبة عسى أن يتوب المُنذَرون). أمّا المغفرة بمعنى (تأخير العقوبة إلى الآخرة)؛ فهذا استدراج للكافرين المعاندين، ولا يتضمَّن الرَّحمة، بل هم قد خرجوا عن مِظلَّتها غيرِ متناهيةِ الفُيوء.

فالحاصل أنَّ في التَّعبير بالمغفرة مزيدَ دلالة - في هذا السياق - عن الرَّحمة؛ فالرَّحمةُ هي سببُ المغفرةِ، فبذِكْر المغفرة صراحةً؛ ضُمِّنت الرّحمةُ إشارةً، ولذلك أوثرت دونها.

معنى لام التَّعريف في ﴿لِّلنَّاسِ﴾:

اللّام للعهديّة، والمُراد بالنّاس إمّا المعهودون، وهم المستعجِلون المذكورون قبلُ، أو الجنس دلالةً على كثرة الهالكين لتناولهم وأضرابهم[2]، والأوفقُ أنَّ المُرادَ كلُّ من يستعجل العذابَ، ويدخل فيهم المعهودون دخولًا أوَّليًّا.

مغفرةُ الله تعالى ورحمتُه أعلى من ظلمِ العبادِ ومعصيتهم

معنى حرف الاستعلاء ودلالته في ﴿عَلَىٰ ظُلۡمِهِمۡ﴾:

﴿عَلَىٰ﴾ في هذا الموضع بمعنى (مع)، وهي ومجرورها في محلِّ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/92 - 93.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/102.

نصبٍ على الحال؛ أيّ: حال كونهم ظالمين[1]؛ والمعنى: أنَّ اللّه تعالى لغفور للنّاس مع كونهم ظالمين[2].

وقد أوثر التَّعبير بالحرف ﴿عَلَىٰ﴾ دون (مع) للدَّلالة على أنَّ ظلم النّاس يقتضي العقوبة، ولكنَّ رحمة اللّه سبحانه قد عَلَت على استحقاقهم هذه العقوبة، وهكذا أدَّى الحرف ﴿عَلَىٰ﴾ معنى (مع)، وزاد عليه؛ فإنَّ المعيَّة لا تقتضي العُلوَّ، فلو قلنا: (مع ظلمهم)؛ فالمعنى: أنَّ المغفرة موجودة مع الظُّلم مجرَّد معيَّة، أمّا قول الحقّ سبحانه: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ﴾؛ فإنَّه يعني: أنَّ المغفرة علت على الظُّلم، فالظُّلم يتطلَّبُ العقاب، ولكنَّ رحمة اللّه ومغفرته علت على أنْ تُعامِل الظّالم بما يستحقُّ، فرحمة اللّه تعالى سبقت غضبه، وهي تعلو ظلم العباد[3].

معنى الظُّلم ودلالة إضافته في ﴿ظُلْمِهِمْ﴾:

الظُّلم معهودٌ من المشركين، فهو الظُّلم الَّذي يُمارسونه، ويستحقّون به العذاب

الظُّلم في الآية بمعنى: الشِّرك، ومغفرته بمعنى: الإمهال والسَّتر وتأخير العقوبة، أمّا إنْ كانت بمعنى: العفو والصَّفح؛ فهي مقيَّدة بالتَّوبة والإيمان[4]، وسياق الآية يدلُّ على أنَّ المُراد بالمغفرة هنا: التَّجاوز عن المشركين في الدُّنيا بتأخير العقاب لهم إلى أجَلٍ أراده اللّه، أو إلى يوم الحساب، وأنَّ المُراد بالعقاب في قوله: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ ضدُّ تلك المغفرة، وهو العقاب المؤجَّل في الدُّنيا، أو عقاب يوم الحساب، فمحمَل الظُّلم على ما هو المشهور في اصطلاح القرآن من إطلاقه على الشِّرك، ويجوز أن يُحمَل الظُّلم على ارتكاب الذُّنوب بقرينة السياق[5].

(1) الشَّوكانيّ، فتح القدير: 3/81.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/101.
(3) الشّعراويّ، تفسير الشعراوي: 12/7222، 13/8282، 15/9030.
(4) السَّمرقنديّ، بحر العلوم: 2/218، والخازن، لباب التَّأويل: 3/6.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/93.

ودلالةُ إضافته إلى الضَّمير العائد على الظّالمين؛ لبيانِ أنَّه ظلمٌ معروفٌ معهودٌ منهم، فهو الظُّلم الَّذي يمارسونه ويستحقّون لأجلِه العذاب.

معنى الواو في ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ﴾:

تكرار الإنذار مبالغةٌ في الإعذار

الواو: واو العطف، حيث عطفت جملة ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ على جملة ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ﴾؛ لأنّ الذي هم فيه من ضراوة التّكذيب مع سعة النّعماء عليهم أرخى لهم حَبْلَ الغرور، فباغتتْهم الآية لتبيّنَ الّذي هم فيه من جهل، ولتكشف ما بهم من غرور بتأخير العذاب عنهم، وقد تعرَّضوا لسؤال حلول العذاب بهم، وحسِبوا تأخير العذاب عجزًا من المتوعِّد، فقابل تعالى بينَ إمهالِه لهم مع اغترارهم، وبين نكاله بهم على غفلتهم[1].

فنُّ التَّقابلِ في الآية الكريمة:

نذارةٌ بعد بِشارةٍ، وترعيبٌ بعد ترغيبٍ، فلا يغترُّ مُذنبٌ ولا يقنط عاصٍ

قوبل بين الجملتَيْن الكريمتيْن في قولِه: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾؛ لتحقيق معنى الرَّجاء والخوف، فقد رجَّى سبحانه بقوله: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ﴾، ثُمَّ خوَّف بقوله: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾[2]، فجمع بين الوعد والوعيد؛ ليعظُم رجاءُ النّاس في فضله، ويشتدَّ خوفهم من عقابه وعذابه الشَّديد؛ لأنَّ مطامع العقلاء محصورةٌ في جلب النَّفع ودفع الضُّرِّ، فاجتماع الخوف والطَّمع أدعى للطّاعة[3].

ومن لطائف التَّعبير أنَّ كلتا الجملتيْن المتقابلتيْن قد أُكِّدتا بحرف التَّوكيد (إنَّ)، واللّام الدّاخلة على خَبَرِه، وجاء في المغفرة بلفظ ﴿لَذُو﴾ الدّالِّ على الملازمة مضافًا إليه المصدر ﴿مَغْفِرَةٍ﴾ منكَّرًا، وجاء

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/92 - 93.
(2) الثّعالبيّ، الجواهر الحِسان: 3/361.
(3) الشِّنقيطيّ، أضواء البيان: 3/92.

في العقاب بصيغة المبالغة ﴿لَشَدِيدُ﴾ مضافًا إليها المصدر ﴿ٱلْعِقَابِ﴾ معرَّفًا، وذُكر مع المغفرة لفظ ﴿لِّلنَّاسِ﴾، ولم يُذكر مع العقاب.

نكتةُ التقديم في الآية الكريمة:

قُدِّم قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ﴾ على قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾؛ فإنَّ كفَّة التَّوكيد لتُرجِّح جملة المغفرة، وهذا لأنَّ رحمة الله تعالى أوسع من عقابه، وقد سبقت غضبه ﷻ، فتبارك مِن إله حليم رحيم؛ لذلك قُدِّمت الجملة المقتضية للمغفرة على الجملة الَّتي ذكرت العقاب.

نكتةُ إظهارِ ما حقُّه الإضمار:

في قولِه: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ أُعيد لفظ الرَّبِّ مضافًا إلى ضمير المخاطَب دون أن يُعوَّض عن هذا اللَّفظ بضمير، فلم يَقُلْ: وإنَّه لشديد العقاب، لأمورٍ:

إحاطة الحبيب النَّبيِّ ﷺ بظلال المعيَّة، وتوكيد مغفرة الله للبريَّة

أوَّلًا: المبالغة في تسلية النَّبيِّ ﷺ، ولزيادة الإيناس في خطابه ﷺ حيث لاقى مِن قومه ما لاقى من الكفر والاستهزاء والعتوّ والاستكبار، والكفر بما يدعوهم إليه، والسُّخرية ممّا يحذِّرهم منه، وهو ﷺ الحريص عليهم، وعلى هدايتهم ونجاتهم، فلمّا أظهر؛ أضاف اللَّفظَ لضمير المخاطَب، ولو قال: (وإنَّه)؛ لَما روعيت هذه النُّكتة.

ثانيًا: إظهار لفظ الرُّبوبيَّة يومِئ إلى استقلال كلِّ جملةٍ عن الأخرى؛ لتذهب كلُّ جملةٍ مَثلًا سائرًا، وهذا من لطيف التَّعبير القرآنيِّ.

ثالثًا: فيه مزيد توكيد لمغفرة الله تعالى لكلِّ ذنبٍ، وعدم ردِّه ﷻ توبةَ عبد، وهذا مُستفاد من الظِّلال الدِّلاليَّة للفظ (الرَّبِّ).

المغفرة مَنوطةٌ بالاستغفار، والعقاب شديدٌ للجاحدين الفجّار

فنُّ الاحتراس في الآية الكريمة:

جاء الاحتراس في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ في تذييل الآية الَّتي يُذكَر فيها استعجالُ الكافرين بالعذابِ والعقوبات،

ومغفرةُ اللّه تعالى لكلِّ الذُّنوب والسَّيِّئات؛ لتحقيق الوعيد بهؤلاء المعاندين، وإن كانوا تحت ستره وإمهاله، ففيه إشارة إلى أنَّ ذلك إمهال لا إهمال[1]؛ لئلّا يحسبوا أنَّ المغفرة المذكورة مغفرة دائمة، تعريضًا بأنَّ العقاب حالٌّ بهم مِن بعد[2]. ففي هذا التَّعقيب إيذانٌ بأنَّ اللّه تعالى بعدَ الإمهال يعاقبهم عقابًا شديدًا[3].

دلالةُ الإضافة في ﴿لَشَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾:

تخويف العباد من التَّمادي في العناد، فالعقاب شديدٌ، والوعيد أكيدٌ

أصل معنى الشِّدَّة هو القوَّة، وهذا مناسب لسياق الآية الَّتي جاءت لبيان استخفاف المشركين بإنذار النَّبيِّ ﷺ إيّاهم، واستعجالهم إيّاه ﷺ بإنزال العقوبات عليهم، كما نزلت بمَن قبلَهم، فاستخفافهم هذا يدلُّ على عدم خوفهم، وكأنَّهم رأوا في أنفسهم قوَّةً يستطيعون بها درْأ العذاب عن أنفسهم، فجاءت الآية مُحذِّرة: ألا إنَّ عقاب اللّه أليم شديد.

ولأنَّ هذه الجملة الكريمة سُبقت ببيان عظيم رحمة اللّه تعالى بعباده، فقد ناسب ألّا يُعبَّر هاهنا بسرعة العقاب؛ لأنَّ ذلك يتنافى مع الإمهال المفهوم من قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغۡفِرَةٖ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلۡمِهِمۡۖ﴾، ولكنَّ الأنسب هو التَّعبير بشدَّة العقاب لتُقابلَ واسع الرَّحمة.

معنى التَّعريف في لفظ ﴿ٱلۡعِقَابِ﴾:

العقاب عامٌّ يشمل كلَّ عذاب في الدُّنيا والآخرة

المُراد بالعقاب في هذا الموطن هو ما يُضادُّ المغفرة الَّتي سبقته في نظم الآية، ومعناه: العقاب المؤجَّل في الدُّنيا أو عقاب يوم الحساب[4]، فالمقصود باللّام فيه إرادة الجنس[5]، أيْ: هو ﷻ شديدٌ في عقابه كلِّه، فإذا جاء الأجَلُ الَّذي قدَّرَه لقوم كفروا، أخذهم أخذَ عزيزٍ مُقتدِر.

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/102.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/94.
(3) الطيبيّ، فتوح الغيب: 8/468.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/93.
(5) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/102.

سرُّ استعمال مفردة ﴿ٱلۡعِقَابِ﴾:

الجحود تعقبه مغبّته، والإيمان تُلازمه ثمرته

تدور معاني العقاب حول اللُّحوق والتَّأخير، أمّا معاني العذاب؛ فتدور حول الإيلام والنَّفاذ[1]، فالعقاب هو ثمرة العمل الَّتي تلحق عامله، وخُصَّ استعمالها بالشَّرِّ، والعذاب هو إيلام الحيِّ وإيجاعه، وعليه فقد يسبق العذابُ العملَ، وقد يعقبه، وقد يخلو عنه، أمّا العقاب؛ فلا يكون إلّا تاليًا للعمل؛ لأنَّه ثمرةٌ مترتِّبة عليه.

ومن هنا يظهر سرُّ إيثار التَّعبير بمُفردة ﴿ٱلۡعِقَابِ﴾ دون (العذاب)؛ ذلك أنَّ الآية تُبيِّن مدى حِلْم الله تعالى على العُصاة والكافرين، وأنَّه سبحانه لا يُعاجلهم بالعقوبة الَّتي استعجلوا بها، بل يُمهلهم حتَّى يتوبوا، فإنْ أصرّوا على غيِّهم وعنادهم وفجورهم، فإنَّهم سيجنون ثمرة كفرهم عقابًا استحقّوا أشدَّه.

فضلًا عن أنَّ مفردة ﴿ٱلۡعِقَابِ﴾ - بالنَّظر إلى أصل معناها الَّذي وُضعت له - تدلُّ على الإمهال والمماثلة، أمّا الإمهال؛ فهو مأخوذ من معنى التَّأخير الموجود في معنى الجَذر (عقب)، وأمّا المماثلة؛ فمستفادَة من معنى (اللّحوق) الَّذي تدلُّ عليه معاني مُشتقّات هذا الجَذر.

فالحاصل أنَّ الله تعالى أمهل الكافرين المستعجلين نزولَ العذاب، وأخَّر عقوبتهم، وحذَّرهم من أن يلحقوا بسابقيهم فيما حلَّ بهم، وعلى هذا كلِّه قد دلَّت مفردة العقاب بظلالها الدِّلاليَّة، وهي ظلال لا توجَد في غيرها.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيّةُ:

العقاب والعذاب:

العقاب يدلُّ على تأخير العذاب، والإمهال قبل حلوله

العذاب: الإيجاع الشَّديد، وأصله من المَنع، وسُمّيت العقوبة والإيلام عذابًا باعتبار منعها من معاودة ما عوقب عليه[2]. والعقاب

(1) الرّاغب، المفردات: (عذب، عقب)، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: 3/1428، 3/1496.
(2) السّمين الحلبيّ، عمدة الحُفّاظ: 3/42.

فيه معنى التَّأخير، ومجيء العذاب بعد إمهالٍ[1]، ويكون بعقب الذَّنب واكتسابه[2]؛ فتقول: عذَّب الرَّجلُ الغلامَ؛ إذا فعل ذنبًا أو عملًا يَدفع الرَّجلَ إلى تعذيبه، أو لم يفعل، ولا تقول: عاقبه؛ إلا إذا ارتكب إثمًا أو عملًا يدفعه إلى عقابه.

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عقب).

(2) السّمين الحلبيّ، عمدة الحُفّاظ: 3/102.

﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦٓۗ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٞۖ وَلِكُلِّ قَوۡمٍ هَادٍ ٧﴾ [الرّعد: 7]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الكشف عن تناقض المشركين وتضارب مطالبهم

لمّا أخبر ربُّ العزَّة سبحانه عن طعن المشركين في نبوَّة رسول الله ﷺ، عبر طعنهم في قضيَّة البعث والنُّشور، وطعنهم في صدق النُّذر الآتية من ربِّهم؛ بيَّن سبحانه أنَّ من جملة الطَّعن في نبوَّته طلبهم معجزة خارقة للعادة؛ لعدم اعتدادهم بالآيات الَّتي تَأيَّد بها ﷺ، وأعظمها آيات القرآن الكريم[1]، فالمناسبة بين هذه الآية والسّابقة، هو الانتقال من طلب المشركين الإتيان بالسَّيِّئة الَّذي هو دليل القطع بالتَّكذيب، إلى طلب الإتيان بمعجزةٍ الَّذي هو دليل احتمال التَّكذيب، فأثبَتتِ المناسبةُ تضاربَ أقوال المشركين، وتناقض كلامهم.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ءَايَةٞ﴾: الآية: هي العلامة الظّاهرة، بحيث تكون مصاحبةً لأمرٍ آخر لا يظهر ظهوره، فمتى أدرك أحدٌ العلامة الظّاهرةَ؛ أدرك الأمر المصاحب والمُلازم لها الَّذي لم يُدركه لذاته؛ لأنَّهما متلازمان يلزم من إدراك الأكثر ظهورًا إدراكُ الأقلِّ ظهورًا[2]. وأصلها (أوَيَة) على وزن (فَعَلة)[3]، وجمعها: آيٌ، وآيايٌ، وآيات[4].

ومعناها المحوريُّ: بقاء الشَّيء في مكانه شاخصًا علامةً لشيء آخر، بحيث إنَّه إذا نظر إليه النّاظر قاصدًا شخصه؛ دلَّه على أمر آخر[5].

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 19/12، وابن عادل، اللُّباب: 11/256، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/94.
(2) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحُفّاظ: (أيي).
(3) الجوهريّ، الصّحاح، وابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس: (أيي).
(4) الجوهريّ، الصّحاح: (أيي).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (أيي).

والمُراد بآية في هذه الآية، ما يُرادِف المعجزةَ في الاصطلاح العُرفيِّ.

2) ﴿مُنذِرٌ﴾: الإنذار: إخبار وإبلاغ مع تخويف وتحذير[1]. وأصله من التَّخويف والتَّحذير ممّا يُخشى منه[2]، ومنه النَّذير بمعنى المُنذِر، والنَّذير بمعنى الإنذار، وجمعه: نُذُر[3]. والإنذار: الإعلام بالشَّيء يُحذَر منه، والمُنذِر هو المبلِّغ والمُعْلِم بهذا الشَّيء، والمُنذِر كذلك الرَّسول أو النّبيُّ يبلِّغ بالأمر العظيم من شأن الآخرة يخوِّفهم، ويحذِّرهم منها[4].

❁ المَعْنى الإجْماليّ:

إنزالُ الآيات تابعٌ لإرادةِ ربِّ العالمين لا لاقتراح المقترِحين

يعاند الجاحدون، فيقترحون على سبيل الاستكبار إنزالَ معجزةٍ وحُجَّةٍ مادّيةٍ على النَّبيِّ ﷺ؛ ليؤمنوا به، ويصدِّقوا نبوَّته، ولم يكتفوا بآية القرآن الباهرة، وحججه المتواترة، فيجيبهم المولى سبحانه مُبيِّنًا لنبيِّه ﷺ، أنَّه داعٍ ومُبلِّغٌ ورسولٌ عن الله، وأنَّ لِكُلِّ جماعة إمامًا يأتَمّون به، وقائدًا يقودهم، ويدعوهم، إمّا إلى الخير والحقِّ، وإمّا إلى الشَّرِّ والضَّلال[5].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيّ:

معنى الواو في ﴿وَيَقُولُ﴾:

الاستئناف والعطف يقتضيان وجودَ علاقةٍ صريحةٍ أو ضمنيَّةٍ بالسّابق

الواو في قولِه تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ تحتمل وجهيْن:

أحدهما: أن تكون الواو استئنافيَّةً، فلا يكون لجملتها ارتباطٌ

(1) الجوهريّ، الصّحاح، وابن فارس، المُجمَل، والرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحُفّاظ: (نذر).

(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (نذر).

(3) الجوهريّ، الصّحاح، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحُفّاظ، وابن منظور، لسان العرب: (نذر).

(4) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحُفّاظ: (نذر).

(5) ابن جرير، جامع البيان: 13/437، والبغويّ، معالم التّنزيل: 4/296، وابن الجوزيّ، زاد المسير: 2/484، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 9/285، وابن جُزيّ، التّسهيل: 1/400، وأبو حيّان، البحر المحيط: 6/354، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/372، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/182، والسيوطيّ والمحلّيّ، تفسير الجلالين، ص: 322، والشّوكانيّ، فتح القدير: 3/82، والآلوسيّ، روح المعاني: 7/102، والهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 14/181.

مباشرٌ بجملة سابقة بعينها، ولكنَّ ارتباطَها ناشئٌ عمّا سبق من الكلام.

فهولاء الكافرون في ضلال بعيد، وحالهم كما بيَّنه اللّه سبحانه لا يتغيَّر؛ فهم ثابتون على الجحود والتَّكذيب.

والآخر: أن تكون الواو عاطفةً، حيث جاءت جملتها ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ معطوفةً على جملة ﴿وَيَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ﴾؛ فهذه حالة من أعجوباتهم، وهي عدم اعتدادهم بالآيات الَّتي تأيَّد بها مُحمَّد ﷺ، وأعظمُها آيات القرآن الكريم[1]. فجاءت هذه الآية غضًّا من اقتراحاتهم المتشطِّطة الَّتي لم يُجرِ اللّه به عادةً إلا للأُمَّة الَّتي حتَّم بعذابها واستئصالها[2].

بلاغةُ إظهار ما حقُّه الإضمار في الآية:

الكفر علَّةُ التَّكذيبِ وأمارةُ التَّعذيب

عدلتِ الآية عن الإضمار إلى الموصول في قولِه تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾؛ فلم يَقُلْ: (ويقولون لولا أنزل..)؛ ذمًّا لهم بكفرهم بآيات اللّه الَّتي تخرُّ لها الجبال، حيث لم يرفعوا لها رأسًا، ولم يعدّوها من جنس الآيات، وقالوا: ﴿لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦٓۗ﴾ إلى آخره[3]، وذلك أقصى مراتب المكابرة والعناد.

نكتةُ التَّعبير بالمضارع في ﴿وَيَقُولُ﴾:

تصويرُ مشهد المطالبة بإنزال المعجزة يورث الإشفاق في نفوس المؤمنين

آثر النَّظمُ التَّعبيرَ بالمضارع في قولِه تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾؛ فلم يَقُلْ: (وقال الّذين كفروا..)، مع تحقُّق قيلهم؛ إشارةً إلى أنَّ ذلك القول ديدنهم[4]، فصيغة المضارع تدلُّ على تجدُّد قولهم وتكرُّره[5]، واستحضارًا للحال الماضية، وتصويرًا للمشهد الَّذي يبعث

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/94.
(2) ابن عطيّة، المُحرَّر الوجيز: 3/297.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/7، والهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 14/203.
(4) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/102.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/95.

في نفوس العقلاء الاشمئزاز، وفي صدور المؤمنين الإشفاق، فكان المضارعُ أكثر أثرًا من الماضي مع استحضار تحقُّقه.

ويومئ التَّعبير بالمضارعِ إلى أنَّ هذه المطالبة قد تتكرَّر من أتباع الَّذين كفروا في قابل الأيام، فتكون الآيةُ مشيرةً إلى إعجازٍ غيبيٍّ.

دلالة استعمال الاسم الموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾:

اجتماعُ الَّذين كفروا كان انطلاقُه من الكُفرِ، ومبناه على الكُفر، وغايته الكُفر

آثر النَّظم الكريمُ التَّعبيرَ بالاسم الموصول في قولِه تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾، دون أن يقول: (ويقول الكافرون)، أو بالإضمار على ما سبق توجيهه، ذلك أنَّ المقصودين بالاسم الموصول هم عين أصحاب ضمير ﴿وَيَسۡتَعۡجِلُونَكَ﴾، وإنَّما استعمل الاسم الموصول لزيادة تسجيل الكفر عليهم، ولما يومئ إليه الموصولُ من تعليلِ صدور قولهم ذلك[1]، وللإشارةِ إلى أنَّ القائلين معهودون معروفون بأعيانهم، وجاء جمعًا لبيانِ أنَّ مثل هذه الأقوال لا تصدرُ عن فردٍ بعينِه، بل عن مجموعٍ بأعيانِهم، وأنَّ اجتماعَهم كان انطلاقُه من الكفرِ وغايته للكُفرِ، ومبناه على الكفر.

سرُّ إيثارِ عنوان الكُفر في ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾:

سياقُ الآيات حديثٌ عن الجحود والتَّكذيب والإنكار لا عنِ اتخاذِ الأنداد

تدور معاني الكفر حول السَّتر والتَّغطية[2]، بينما تدور معاني الشِّرك حول المُقارَنة وخِلافِ الانفراد[3]، كما أنَّ نقيض الشِّرك في الحقيقة الإخلاص، ثمَّ لمّا استُعمل في كلِّ كفرٍ؛ صار نقيض الإيمان، ولا يجوز أن يُطلق اسم الكفر إلّا لمَن كان بمنزلة الجاحد لنِعَم اللّه، وذلك لعِظم ما معه من المعصية[4].

وقد حكى اللّه تعالى عن الكفّار أنَّهم طعنوا في نبوَّةِ رسول اللّه ﷺ؛ بسبب طعنهم في الحشر والنَّشر أوَّلًا، ثمَّ طعنوا في نبوَّته بسبب

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/94.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (كفر).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (شرك).
(4) العسكريّ، الفروق اللّغويّة: 1/230.

طعنهم في صحَّة ما ينذرهم به من نزول عذاب الاستئصال ثانيًا، ثمَّ طعنوا في نبوَّته بأن طلبوا منه المعجزة والبيِّنة ثالثًا، وهو المذكور في هذه الآية[1]. فعبَّر بالكفر دون الشِّرك لتجلّي معاني الجحود الَّتي تقتضي ستر الحقِّ رغم علمهم به عنادًا له صلوات ربّي وسلامه عليه.

فالكفرُ أعمُّ بلاءً من الشِّرك من جهة، والشِّرك أشدُّ اجتراءً من جهةٍ أخرى، والمناسب لسياقِ الآيات هو ذِكرُ الكفرِ؛ لأنَّ السّياقَ حديثٌ عن جحود الكافرين وتكذيبهم وإنكارهم، لا عن شِركهم مع الله غيره.

بلاغةُ حرف التَّحضيض ﴿لَوْلَآ﴾:

إظهارُ الرُّقيّ والصِّدق في التَّعامل مسلك الكافرين وديدنُ المنافقين

جاء حرف التَّحضيض في قولِه تعالى: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ﴾؛ لبيان أنَّ الَّذين كفروا يُموِّهون بتحضيضهم أنَّهم حريصون وراغبون في نزول آيةٍ غير القرآن ليؤمنوا، وهم كاذبون في ذلك؛ إذ لو أوتوا آية كما يقترحون؛ لكفروا بها، كما قال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْـَٔايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ﴾ [الإسراء: 59][2]، وهذا دليلٌ على أنَّ الَّذين كفروا يُمارسون الأسلوب النّاعم في هذه المرحلةِ؛ للوصول إلى أهدافهم المُبتغاة، وهم كاذبون غير آبِهين بأحدٍ.

نكتةُ استعمالِ الإنزال دون المجيء:

طلبُ الإنزالِ يومئ إلى الاعترافِ الضِّمنيِّ بأنَّ ما يأتي النَّبيَّ مُنزَلٌ

معنى المَجيء: الإتيان[3]؛ وهو الحضور إلى حيِّز[4]. أمّا الإنزال؛ فتدور معانيه حول الهُبوطِ والوُقوعِ[5]. كما تختلف صيغة ﴿أُنزِلَ﴾ عن نزَّل في قولِه تعالى: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ﴾، فالإنزال يُستعمل في الدَّفعة، والتَّنزيل يُستعمل في التَّدريج[6].

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 19/12.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/95.
(3) ابن منظور، لسان العرب: (جيأ).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: 1/264.
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نزل).
(6) الجرجانيّ، التّعريفات، ص: 68.

ولمّا كان هؤلاء الكافرون غير معتدّين بالآيات الباهرات الَّتي أنزلها الله على رسوله من قبل، واقترحوا آيةً عظيمةً أخرى غير ما أنزل؛ ناسب هذا التَّعبير بلفظ الإنزال لا المجيء، فلم يقُل: (لولا جاءنا بآية)، وفي ذلك إيماءٌ إلى زلتهم في الاعتراف بأنَّه أُنزل عليه، ولِما في الإنزالِ من معنى الوقوع في دفعة عظيمة بيِّنة للرّائي، فمع علمهم بآيات الله المنزلة واعترافهم بنزولها في أنفسهم، لا يعتدّون بها، بل يقترحون إنزال آية من مثل ما أوتي موسى وعيسى عليهما السلام.

سرُّ بناءِ الفعل ﴿أُنزِلَ﴾ للمفعول:

آثر التَّعبيرَ ببناءِ الفعلِ للمفعولِ في قولِه: ﴿أُنزِلَ﴾؛ للاهتمام بالمُنزَل لا المُنزِل؛ أيْ: إنَّ هؤلاء الكافرين يهتمّون فقط بالآية الَّتي يطلبون نزولها، ولا يهتمّون كثيرًا بمَن يُنزلها؛ يريدون أن يروها بإنزال أيِّ كائنٍ كان، وهذا لجحودهم وإنكارهم كلَّ ما آتاه ربُّه من آيات سابقات[1].

المشركون يهتمّون بطلبهم ومقترحهم لا بمَن يُحقِّقه

سرُّ التقديم في قوله: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ﴾:

قُدِّم الجارُّ والمجرور في قولِه تعالى: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ﴾؛ للاهتمام بالمُتقدِّم؛ فطلبُ الكافرين إنزالَ آية هو في كونِ الإنزال على رسول الله ﷺ، ففيه تهكُّمٌ يومئُ إلى حسدِهم، أيْ: لولا أُنزل على مَنْ يدَّعي النُّبوَّة آيةٌ؛ لنعلم صدقه من كذبه.

تهكُّمُ الكافرين يكشفُ حسدَهم، ويفضحُ كراهيتهم

دلالة حرف الاستعلاء ﴿عَلَيْهِ﴾:

تعدَّى فعلُ الإنزال في قولِه تعالى: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ﴾ بحرف الاستعلاءِ، دون حرف انتهاءِ الغاية (إلى)؛ للإشارةِ إلى طلبِ إنزالِ الآيةِ على وجه السُّرعة، فإنَّ الإنزال من عُلوٍّ يقتضي تسارع نزوله، كما أنَّه المناسب مع المعجزة المحسوسة.

طلبُ المعجزةِ المحسوسة على وجه السُّرعةِ

(1) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 10/285.

نكتتا التنكيرِ والإفراد في ﴿ءَايَةٌ﴾:

التَّنكيرُ محمولٌ على الوحدة أو الإبهام وكلاهما مقبول في هذا المقام

المُراد بالآية في قولِه تعالى: ﴿لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ﴾ الآية الحسيَّة، كقلب عصا موسى حيَّة وناقة صالح[1]، وفي ذلك تتجلَّى أقصى مراتب المكابرة والعناد؛ كأنَّ ما أنزل عليه ﷺ من الآيات العِظام الباهرة ليست عندهم بآية، حتى اقترحوا ما لا تقتضيه الحكمة من الآيات، كسقوط السّماء عليهم كسفًا، وسير الأخشبَيْن ... إلى غير ذلك[2]، ونُكِّرت ﴿ءَايَةٞ﴾، وأُفردت؛ للدّلالة على الوحدة[3]؛ أيْ: آية واحدة لا أكثر، أو الإبهام؛ أيْ: أيُّ آية خارقة للسُّنَّة الكونيَّة، دون تحديد مواصفاتٍ لها، أو تعيين ماهيتها، وهما مقبولان في هذا المقام.

سرُّ التَّعبير بقوله: ﴿مِّن رَّبِّهِۦٓ﴾:

آثر النَّظم بناءَ الفعل للمفعول، فلم يَقُلْ: لولا أنزل ربُّه عليه آيةً، ثمَّ ذكر الفاعل الَّذي هو الجارّ والمجرور ﴿مِّن رَّبِّهِۦٓ﴾، وسرُّ ذلك أنَّ الَّذين كفروا اعتنوا بتوجيه الطَّلب في إنزال الآية، ثمَّ بعد ذلك قالوا: ﴿مِّن رَّبِّهِۦٓ﴾ على سبيل التَّهكُّم، أيْ: فليأتِ بآية نازلةٍ من ربِّه كما يزعم.

دلالةُ الإضافة في قوله: ﴿مِّن رَّبِّهِۦٓ﴾:

التَّهكُّمُ بالنَّبيِّ سبيلُ الحاسدين ومَهْيَعُ الجاحدين

إنَّ هؤلاء المشركين لا يؤمنون بأنَّ اللّه هو مَن أرسل مُحمَّدًا، وأنزل عليه قرآنه؛ لذا فهم يطالبون النَّبيَّ ﷺ بأن يأتيهم بآية واضحة عظيمة من ربِّه المُحسن إليه تصديقًا لادِّعائه؛ إيهامًا منهم بأنَّهم يسعون إلى الإيمان[4]، أو تهكُّمًا بما يزعم - على حدِّ ادِّعائهم - أنَّه مؤيَّدٌ من ربِّه؛ كأنَّهم قالوا: إن كان ربًّا؛ أفلا يؤيِّد عبده، ويلبّي اقتراحات خصمه؟

(1) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 14/200.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/140 - 141.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/102.
(4) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 10/286.

كما أنَّ في إضافة لفظ (رب) إلى الضَّمير إشارةً منهم إلى أنَّ ربَّ النَّبيِّ ﷺ ليس ربَّهم، ولا إلههم الَّذي يعبدونه، وأنَّهم لا ينتسبون إليه.

بلاغةُ القصر في ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ﴾:

دفعُ توهُّم أن يكون للرَّسول مهمَّةٌ سوى الإنذار

ردَّ اللّه اقتراحهم من أصله بقوله: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ﴾[1]، وجاء هذا الرَّدُّ بصيغة الحصر لبيان أنَّه صلَّى اللّه عليه وآله وسلَّم مُرسَلٌ لإنذار العباد، وبيان ما يَحذَرون عاقبته، وليس عليه غير ذلك[2]، ونكتةُ الحصر بإنَّما: أنَّها تأتي لما يعرفه المخاطَب، وقد أتى بها لدفع أيِّ تعلُّق ممّا قاله المشركون، والمعنى: أنَّ وظيفتك محصورةٌ في الإنذارِ لا بشيءٍ آخر، فلا تنظر فيما يقولون، ولا تذهب نفسُك عليهم حَسَراتٍ في إقناعِهم بما لا يعقلون.

دلالة استعمال ضمير الخطاب ﴿أَنتَ﴾:

زيادة تأكيد تخصيص النَّبيِّ بمهمَّة الإنذار

إن النَّبيَّ ﷺ وحده فقط هو المُرسَل لإنذار الكافرين من قومه، فلا يلزمه الالتفات إلى مقترحاتهم، ولا يبتئس بجحودهم؛ فما عليه إلّا البلاغ والإنذار[3]، واستُعمل ضمير الخطاب ﴿أَنتَ﴾ في قولِه: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ﴾؛ لتحريك مشاعرِه تجاه المطلوب بقوَّةٍ، كما قال تعالى ليحيى عليه السلام: ﴿يَٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ بِقُوَّةٖ﴾ [مريم: 12].

نكتة قصر الموصوف على صفة الإنذار:

مقامُ الإنذارِ تُنتقى ألفاظُه الخاصَّة به

أصل الإنذار الإعلام بموضع المخافة ليُتَّقى[4]، وقصَرَ النظم القرآني النبيَّ ﷺ في قولِه: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ﴾ على صفة الإنذار، وهو قصرٌ إضافيٌّ، والمعنى: إنَّما أنت منذِر لا موجِد خوارقِ عادة، ويظهر بهذا وجه قصره على الإنذار دون البشارة؛ فهو قصرٌ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/95.
(2) الشّوكانيّ، فتح القدير: 3/82.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/102.
(4) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 10/285.

إضافيٌّ بالنِّسبة لأحواله نحو المشركين، أيْ: إنَّما أنت منذر هؤلاء الكافرين[1]؛ فالمقامُ مقام إنذارٍ لا تبشير، والسّياقُ معينٌ على فهم أسرار اختيارِ الألفاظ.

بلاغةُ التَّذييل في قولِه: ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾:

الرَّسول منذرٌ وهادٍ كغيره من الرُّسل

في ختام الآية الكريمة تذييل بالأعمِّ؛ أيْ: إنَّما أنت منذر لهؤلاء لهدايتهم، ولكلِّ قومٍ هادٍ أرسله الله؛ يُنذرهم لعلَّهم يهتدون، فما كنتَ بِدْعًا من الرُّسل، وما كان للرُّسل من قبلك آياتٌ على مقترَح أقوامهم، بل كانت آياتهم بحسب ما أراد الله أن يُظهره على أيديهم[2].

نكتةُ تأخير المُسنَد إليه ﴿هَادٍ﴾:

تأتي الهداية من الله وحده

أخَّرتِ الآيةُ المسندَ إليه، وذلك لتقديم المُسند ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ﴾ بغرضِ إفادة العموم، فلكلِّ قوم هادٍ يهديهم، فيتَّبعونه، ويأتمّون به، والنَّبيُّ ﷺ ليس بدعًا من الرُّسل صلوات ربّي وسلامه عليهم، كما أنَّ في تأخير المُسنَد إليه ﴿هَادٍ﴾ إشارةً لطيفة إلى أن تأخُّر الهداية يكون بقدَر الله؛ فما على كلِّ رسولٍ إلّا البلاغ، وإنَّما تأتي الهداية متى يُقدِّر الله ﷻ هدايتهم.

دلالةُ إيثار التَّعبير بلفظِ ﴿قَوْمٍ﴾:

لكلِّ قومٍ منذرٌ، ولـه أمـة تتَّبع هداه

القوم في الأصل جماعة النّاس عامَّة، ويُلحظ فيه معنى الانتصاب والقيام، فالقوم هم المظاهِرون المُقَوّون لمَن هو منهم، ولذلك تُطلق على الرِّجال دون النِّساء، باعتبار أنَّهم مَن يُعْتَدُّ بهم في الحروب وما إليها[3].

أمّا لفظ (الأمَّة)؛ فتدور معانيه حول التَّضامِّ بين الأشياء المتجانسة، أيْ: لحاق بعضها ببعض في حيّزٍ يُحيط بظاهرها[4].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/95.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/95.
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (قوم).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (أمم).

فلمّا كان السّياق سياقَ مفارقة وعدم تجانس في المعتقد بين النَّبيِّ وقومه؛ ناسبه التَّعبير بلفظ ﴿قَوْمٍ﴾ دون (أُمَّة).

سرُّ إيثار لفظ ﴿هَادٍ﴾:

الهداية أعمُّ من الإنذار

آثر النَّظمُ اختيارَ ﴿هَادٍ﴾ دون مرادفاته لاسيَّما (منذر)، ذلك أنَّ معنى ﴿هَادٍ﴾ في قولِه: ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾، أي: داعٍ يهديهم إلى مراشدهم، ومنذرٌ يُنذرهم من مغاويهم؛ أيْ: يُبيِّن لهم ما أرسلنا به من النِّذارة والبشارة[1]؛ والمعنى: إنَّما أنت منذرٌ لقومك خاصَّةً، هادٍ إيّاهم إلى الحقِّ، وآثر لفظ الهداية دون الإنذار؛ لأنَّ الهداية أعمُّ من الإنذار، فما من هداية إلا وفيها إنذار[2]، كما أنَّ فيها بشارةً.

فنُّ الاحتباك في قوله: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌۖ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾:

الإنذار والهُدى متلازمان، فبذكرِ أحدهما استغناءٌ عن الآخر

بالعموم الحاصل بالتَّذييل في قولِه: ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾، والَّذي يشمل الرَّسول ﷺ؛ صار المعنى: إنَّما أنت مُنذر لقومك هادٍ إيّاهم إلى الحقِّ، ولكلِّ قوم مُنذر منهم وهادٍ؛ فإنَّ الإنذار والهُدى متلازمان، فما من إنذار إلّا وهو هداية، وما من هداية إلّا وفيها إنذار، والهداية أعمُّ من الإنذار، وفي هذا احتباكٌ بديع[3]؛ حيث إنَّ ذِكْر المُنذر أوَّلًا يدلُّ على حذفه ثانيًا، وذِكْر الهادي ثانيًا دالٌّ على حذفه أوَّلًا[4].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيّةُ:

الآيةُ والبيِّنةُ والبرهانُ:

الآيــة إشارة إلى الدَّليل، والبيِّنة الحُجَّة الواضحة، والبرهان الحُجَّة القاطعة وأوْكَدُ الأدلَّة

الآية: العلامة، يُقال: ائتني بآية كذا، أيْ: بعلامةٍ، وقيل: الآيات إشارة إلى الأدلَّة[5]، والآية مُشتقَّة من التَّأيّي الَّذي هو التَّثبُّت والإقامة على الشَّيء[6].

(1) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 10/286.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/95.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/95.
(4) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 10/287.
(5) السّمين الحلبيّ، عمدة الحُفّاظ: 1/149.
(6) الرّاغب، المفردات، ص: 101، 102.

أمّا البيِّنة: فهي الحُجَّة الواضحة، والدَّلالة الواضحة عقليَّةً كانت أو محسوسة[1]. وأمّا البرهان: فهو الحُجَّة القاطعة المفيدة للعلم، ولا يكون إلّا قولًا يشهد بصحَّة الشَّيء[2]، وهو أوكد الأدلَّة، وهو الَّذي يقتضي الصِّدق أبدًا لا محالة[3].

(1) الزّبيديّ، تاج العروس: (بين)، والرّاغب، المفردات، ص: 157.
(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 97.
(3) الرّاغب، المفردات، ص: 121.

﴿ٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَحۡمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلۡأَرۡحَامُ وَمَا تَزۡدَادُۖ وَكُلُّ شَيۡءٍ عِندَهُۥ بِمِقۡدَارٍ ٨ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلۡكَبِيرُ ٱلۡمُتَعَالِ ٩﴾ [الرّعد: 8 - 9]

مُناسَبَةُ الآيَتينِ لِما قَبْلَهُما:

بيانُ علَّةِ عدمِ إنزالِ الآياتِ المطلوبات

لمّا كذَّب الجاحدون بالبيِّنات، والدَّلائل الواضحات، ولم يرعووا بالزّاجرات، وطالبوا رسولَ الله صلَّى الله عليهم وسلَّم أن يأتيهم بما يُقنعهم من الآيات؛ علم سبحانه أنَّ إجابتهم إلى ما اقترحوا غيرُ نافعٍ لهم؛ لأنَّهم إنَّما أرادوا التَّعنُّت لا الاسترشاد؛ فبيَّن سبحانه أنَّه العظيم الَّذي أحاط بكلِّ شيءٍ علمًا، وأنَّه هو وحده من يُقدِّر نُزولَ الآيات، وأنَّ إنزالها إنَّما يكون بعلم وحكمة، لا باقتراح مَن لا علم له، ولا يملك من الأمر شيئًا[1]، فالمناسبة بين هاتَيْن الآيتَيْن وما قبلها، هي بيانُ سببِ عدمِ إنزال ما طلبَه الكافرون، فإذا كان سبحانه عالمًا بأخفى الخفيّات فيما يكون في المستقبل، فهو العالم بما يؤول إليه حالُ المشركين لو نزلتِ الآيات المطلوبةُ، فالمانعُ من إنزالِها علمُه الَّذي أحاطَ بكلِّ شيءٍ، رحمةً بهم ورأفةً بحالِهم.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلۡأَرۡحَامُ﴾: الرَّحِم: رَحِم المرأة، وهو ما يكون فيه الجنين، وجمعه: أرحام[2]. وأصله من الرِّقة والعطف والرَّأفة[3]. ومنه

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 19/14، وأبو حيّان، البحر المحيط: 6/356، وابن عادل، اللُّباب: 11/258، والبقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 10/278، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/96.

(2) الجوهريّ، الصِّحاح، وابن فارس، المُجمل، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (رحم).

(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (رحم).

استُعير الرَّحِم للقرابة[1]، فالرَّحِم أيضًا: "أسباب القرابة، وأصلها الرَّحِم الَّتي هي منبت الولد"[2].

2) ﴿تَغِيضُ﴾: غاض الماء يغيض: قلَّ ونقص[3]. وأصله من النُّقصان في الشَّيء مع غؤور في المائع[4]. و﴿وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ﴾؛ أيْ: ما تُفسده الأرحام وتَنقُصه بأن يسقط قبل تسعة أشهر، ولهذا قوبل بقوله: ﴿وَمَا تَزْدَادُ﴾[5].

3) ﴿ٱلْمُتَعَالِ﴾: العُلوُّ: ضدُّ السُّفل، وهو الارتفاع[6]. ومعناه المحوريُّ: ارتفاع الشَّيء فوق شيء تحته، وسُموُّه عليه[7]. ومنه العُلوُّ بمعنى التَّكبُّر في الأرض[8]، و"العُلوُّ لله ﷻ عن كلِّ شيء، فهو أعلى وأعظم ممّا يُثنَى عليه"، و"العلوُّ: العظمة والتَّجبُّر"[9].

و"العَلي: هو الرَّفيع القدر مِن (عَلي)، وإذا وُصِف اللّه تعالى به في قوله: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ ۝٦٢﴾ [الحج: 62]، وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا ۝٣٤﴾ [النّساء: 34]؛ فمعناه: يعلو أن يحيط به وصفُ الواصفين، بل عِلْم العارفين، وعلى ذلك يُقال: تعالى"[10].

والمتعال: هو "المُستعلي على كلِّ شيء بقُدرته، وهو المتفاعل من العُلوِّ"[11].

المَعْنى الإجْماليّ:

يخبر تعالى عن تمام علمه وإحاطته بكلِّ شيء من بني آدم وغيرهم؛ فهو سبحانه يعلم ما تحمله كلُّ أنثى من نَوْعٍ وخَلْقٍ وعَدَدٍ ومُدَدٍ وآجالٍ ومَآلٍ، ويعلم سبحانه ما تنقصه الأرحام، وما تزداده في الجثَّة والمدَّة والعدد؛ لأنَّ كلَّ شيءٍ عنده سبحانه بتقدير وحَدٍّ لا يجاوزه، ولا يُقَصِّر عنه، وهوَ سبحانه - كذلك - العالِمُ بِما غابَ عَنِ الخَلْقِ وبِما شَهِدوهُ؛

(1) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحُفّاظ: (رحم).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (رحم).
(3) الجوهريّ، الصِّحاح، وابن فارس، المُجمَل، والرّاغب، المفردات: (غيض).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (غيض).
(5) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحُفّاظ، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (غيض).
(6) ابن فارس، المُجمَل، والرّاغب، المفردات: (علو).
(7) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (علو).
(8) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (علو).
(9) الخليل، العين: (علو).
(10) الرّاغب، المفردات: (علو).
(11) ابن جرير، جامع البيان: 16/366.

فهو العظيم الشَّأن الَّذي لا يخرج عن علمه شيء، والمستعلي سبحانه على كلِّ شيءٍ بقدرته وسلطانه[1].

عِلْمُ الله محيطٌ بخلقِه فهو المتعالي عليهم بقُدرته وقَهرِه

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيّ:

علَّةُ فصل قوله: ﴿ٱللَّهُ يَعۡلَمُ﴾:

هذه الجملة الكريمة استئنافٌ ابتدائيٌّ، وجُعِلت في هذا الموقع؛ لمناسبتها لقولهم: ﴿لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦٓۗ﴾، فإنَّ ما ذُكر فيها مِن عِلم اللّٰه وعظيم صنعه آيةٌ من آيات اللّٰه تعالى، صالح لأنْ يكون دليلًا على أنَّه سبحانه لا يُعجزه الإتيان بما اقترحوا من الآيات، ولكنَّ بعثة الرَّسول ﷺ ليس المقصد منها المنازَعات، بل هي دعوة للنَّظر في الأدلَّة[2].

من شأن الاستئناف الاستدلال على تفرُّد الله بالإلهيَّة وإحاطته بكلِّ شيء علمًا

وتحتمل أن تكون الجملةُ مُستأنَفةً استئنافًا بيانيًّا، فهي إذًا جواب سؤال، وهو: لماذا لم يُجَب الجاحدون لمقترحهم بإنزال الآيات الحسية؛ فتنقطع حُجَّتهم، فلعلَّهم يهتدون؟ فالجواب: أنَّه ﷻ آمِرٌ، مُدبِّر، عليمٌ، نافذُ القدرة، فعّالٌ لما تقتضيه حكمته البالغة دون آرائهم السَّخيفة[3].

فالاستئناف على الوجهَيْن: هو الانتقال إلى الاستدلال على تفرُّد اللّٰه تعالى بالإلهيَّة، ولبيان إحاطته سبحانه بالعلم، وعلمه بالغيب الَّذي هذه الأمور منه؛ ذلك أنَّه لمّا قامت البراهين العديدة بالآيات السّابقة على وحدانيَّة اللّٰه تعالى بالخَلْق والتَّدبير، وعلى عظيم قدرته الَّتي أودع بها في المخلوقات دقائقَ الخِلْقة؛ انتقل الكلام إلى إثبات العلم له تعالى علمًا عامًّا بدقائق الأشياء وعظائمها[4].

---

(1) ابن جرير، جامع البيان: 13/444، والآلوسيّ، روح المعاني: 7/104، والسّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 414.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/96.

(3) القاسميّ، محاسن التّأويل: 6/262.

(4) القِنَّوجيّ، فتح البيان: 7/23، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/96.

وقد أدَّى هذا الفصل إلى إثارة الانتباه لدى المخاطَبين؛ لأنَّه خالف ما كانوا يتوقَّعونه من الوَصْل.

براعةُ الابتداءِ والتقديم في ﴿ٱللَّهُ يَعۡلَمُ﴾:

التَّنبيه على عظيم قدرة الله، وقصر العِلْم عليه سبحانه

ابتُدئ باسم الجلالة دون الضَّمير؛ لأنَّه عَلَمٌ على الذّات العليَّة، مُعيَّنٌ به، لا يشتبه مع غيره من آلهة المشركين الباطلة؛ وذلك ليكون الخبر المقصود جاريًا على مُعيَّن لا يحتمل غيرَه إبلاغًا في قطْعِ شائبةِ الإشراك؛ ذلك أنَّ خلْقَ الله العوالمَ وغيرها كان معلومًا لدى المشركين، ولكنَّ الإقبال على عبادة الأصنام كان يُذهلهم عن تذكُّره، فمِن ثمَّ كانوا غير محتاجين لأكثر من التَّذكير بذلك، وبالتَّنبيه إلى ما قد يخفى من دقائق التَّكوين[1].

أمّا تقديمه على المسند الفعليّ؛ فلإفادة التَّوكيد والتَّخصيص، فالفعل المضارع ﴿يَعۡلَمُ﴾ مُسند لاسم الجلالة، ثمَّ إنَّ فيه ضميرًا مُستترًا يعود أيضًا على لفظ الجلالة، فكأنَّ الإسناد تكرَّر مرَّتَيْن، وتكرُّره هذا يفيد التَّوكيد والتَّخصيص، فالمعنى: أنَّ الله تعالى وحدَه هو الَّذي ﴿يَعۡلَمُ مَا تَحۡمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ﴾ ... إلى آخر الآية.

دلالة المضارع في قوله: ﴿ٱللَّهُ يَعۡلَمُ﴾:

علْمُ الله مستمرٌّ دائم أبديٌّ محيطٌ بكلِّ إنسيٍّ وجِنّيٍّ

صيغ الخبر بصيغة المضارع المفيد للتَّجدُّد والتَّكرير لإفادة أنَّ ذلك العِلم مُتكرِّر مُتجدِّد التَّعلُّق بمقتضى أحوال المعلومات المتنوِّعة والمتكاثرة، ويتجدَّد تعلُّقه بحسب حدوث الحادثات على الاستمرار[2].

وهذا التَّجدُّد يجعل العِلم مستمرًّا محيطًا بكلِّ زمنٍ، بل بكلِّ شيءٍ، وقد كان من شُبَه المشركين أنَّ تفرُّق أجزاء البدن بعد الموت واختلاط بعضها ببعض لا يتهيَّأ معه الامتياز بينها؛ لذلك نبَّه الله سبحانه بهذه الآية على إحاطة علمه جلَّ شأنه بكلِّ شيء إزاحةً لشُبهتهم[3].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/80، 13/96 - 97.
(2) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 10/287، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/79.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/104.

نوعُ ﴿مَا﴾ في الآية الكريمة:

تحتملُ أن تكونَ ﴿مَا﴾ في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَحۡمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ﴾ موصولةً، لإفادةِ العموم، وعمومُها يقتضي علم الله بحال الحَمْل الموجود من ذُكورة وأُنوثة، وتمامٍ ونقص، وحُسْن وقُبْح، وطول وقِصر، ولَون... إلخ[1]، من حين العلوق إلى زمن الولادة، لا بعد تكامل الخَلق فقط[2].

تحتمل (ما) أن تكونَ موصولةً أو مصدريَّة لتشملَ الحاملَ والمحمولَ والحملَ

وتحتمل أن تكون ﴿مَا﴾ مصدريَّة، أيْ: يعلم حَملَ كلِّ أنثى من أيِّ الإناث كانت، والحمل على هذا بمعنى المحمول[3].

وهو قريب من الأوَّل غير أنَّ في هذا دلالة أخرى، وهي العلم بما يحيط بالحمل من ملابسات، كالخِفَّة والثِّقل، والسُّهولة والحُزونة، وما يصاحب ذلك من آلام ونحوه.

فالحاصل أنَّ معنى الموصولة: أنَّه تعالى يعلم ما تحمل كلُّ أنثى من الولد: أهو ذكَر أم أنثى، ومكتمل أم ناقص، وحَسن أم قبيح، وطويل أم قصير، أو غير ذلك من الأحوال، ومعنى المصدريَّة: أنَّه تعالى يعلم حَمْل كلِّ شيء، ويعلم غيض الأرحام، وازديادها لا يخفى عليه شيء من ذلك، ولا أوقاته، وأحواله[4].

فالأولى لما يتعلَّق بالمحمول (الجنين)، والثّانية لما يتعلَّق بالحمل نفسه وبالحامل[5].

فائدة التَّعبير بمفردة ﴿تَحۡمِلُ﴾:

المقصود بما تحمل كلُّ أنثى هو أجنَّة الإنسان والحيوان؛ فهو عامٌّ فيهما، غير أنَّ الحبَل يختصُّ بحَمْل المرأة، فأثبت الله سبحانه

الحَمل عامٌّ يشمل حمل جميع الإناث بخلافِ الحَبَل فهو خاصٌّ بالبشر

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/356، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/97.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/103.
(3) القاسميّ، محاسن التّأويل: 6/262، والآلوسيّ، روح المعاني: 7/103.
(4) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/515، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 19/14 - 15، وابن عادل، اللُّباب: 11/259 - 261.
(5) وقيل في معنى: (ما) قولٌ ثالثٌ، وهو أن تكون استفهاميَّة، وضعَّفه ابن عطيَّة وغيره.

لنفسه العلم بما في أرحام النِّساء من نُطفة ومُضغة وعَلقة مُخلَّقة وغير مُخلَّقة، ونوع المحمول، وما كُتب له من رزق وأجَل... إلخ، وكذلك العلم بما تحمل كلُّ إناث الحيوانات، وممَّن حملت، ولم يكن نزاعٌ في أنَّ هذا كلَّه لم يعلمه أحدٌ من الخلق يومئذٍ، ولم تكن آلهة المشركين المزعومة لتُستشار فيه؛ ولذلك جيء بفعل الحَمْل دون الحَبَل ليشمل حَمْلَ الحيوانات والآدميّات، وذلك على وجه المثال بإثبات العِلم الجزئيّ لإثبات العِلم الكُلي[1].

دلالة التَّعبير بالمضارع في ﴿تَحْمِلُ﴾:

تعلُّق عِلْم الله تعالى بجميع مراحل الحَمْل

دلَّ التَّعبير بصيغة المضارع ﴿تَحْمِلُ﴾ على معنى لطيف، وهو تعلُّق علم الله تعالى بجميع مراحل الحَمْل منذ أن كان نطفةً غير مُلقَّحة في الأنثى، ثمَّ أثناء تلقيحها من الذَّكَر، ثمَّ استقرارها في الرَّحم، ثمَّ تعلُّقها وتخلُّقها إلى أن تنزل من الرَّحم وليدًا حيًّا كامل الخِلقة أو قبل ذلك.

فلو كان التَّعبير بالماضي (الله يعلم ما حملت)؛ لانسحب ذلك على المُضي دون غيره، أمّا التَّعبير بالمضارع؛ فقد دلَّ على علم الله بالمحمول في كلِّ لحظة تُتلَى الآية على مسامع المخاطَبين.

فالمعنى: أنَّ الله يعلم ما تحمل كلُّ أنثى الآن، فهذه دلالة الحال، أمّا دلالة المستقبل؛ فمستفادة من معنى الاستمرار المستكنِّ في صيغة المضارع.

غرضُ استعمالِ أداة العموم ﴿كُلُّ﴾:

إحاطة علم الله تعالى بحمل الإناث على عموماتها، وحمل كلِّ أنثى على حِدَتها

أُضيف إلى أداة العموم ﴿كُلُّ﴾ لفظُ ﴿أُنثَىٰ﴾ مفردًا منكَّرًا لتحقيق غرض إفادة الخصوص من وجه، والعموم من وجه.

أمّا الخصوص؛ فمُستفاد من معنى التَّركيب، فلكلِّ أنثى استقلالٌ عن غيرها مفردة، وكلُّ أنثى يعلم الله حملها على حَدَتها؛ لأنَّ لكلِّ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/97.

أنثى حملًا يختلف عن الأخريات، فأثبت بهذا علمًا مستقلًّا خاصًّا بكلِّ واحدة من أفراد جنس الإناث، مهما كثرت أعدادها.

وأمّا العموم؛ فهو مستفاد من مجموع ما تفرَّق بخصوصه، فإذا كانت كلُّ أنثى مفردةً معلومًا حملُها؛ فإنَّ مجموع الإناث معلوم حملُهنَّ، والعموم أيضًا مُستفاد من ظاهر اللَّفظَيْن المضاف أحدهما إلى الآخر، فيعمّان كلَّ أنثى يصحُّ أن يقع منها الحمل؛ من إنسيَّة أو جِنية أو دابَّة أو طير، فاللّه تعالى يعلم حملها جميعًا.

ولو كان التَّعبير على هذا النَّحو: (يعلم ما تحمل الأرحام)؛ لكان هذا من باب العمومات المُجمَلة الَّتي يشترك في معرفتها النّاس، وتغيب في مُطلقاتها خصوصيّات الجزئيّات، ذلك أنَّ الأرحام لا تحمل إلا الأجنَّة، مكتملة النَّموِّ أو غير مكتملته، وهذا يعرفه العالم والجاهل بالضَّرورة، هذا وجه.

ووجه آخر: أنَّ هذا التَّعبير سيجعل الذِّهن منصرفًا إلى أرحام الآدميّات، وسيُخرج بيوض الطُّيور ونحوها، أمّا التَّعبير بكلِّ أنثى؛ فإنَّه داخلٌ فيه هذا وغيرُه.

ووجه ثالث أن الحَمْل لم يُسند إلى الأرحام قطُّ في القرآن، وإنَّما أُسند إليها الاشتمال، ووُصفت بالقرار، ذلك أنَّها هي وما اشتملت عليه محمولة.

نوعُ ﴿وَمَا﴾ في قوله: ﴿وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ﴾:

(ما) إمّا أن تكون موصولة، وإمّا مصدريَّة؛ فالموصولة بمعنى: الَّذي تغيضه الأرحام، والمصدريَّة بمعنى: نفس غيض الأرحام[1].

لا يَعزُب شيءٌ عن علم الله، سواءٌ غيضُ الأرحامِ، أم الَّذي ينزل منها

واختلاف هذا التَّأويل يجعل الآية - رغم قِصَر مبناها - متضمِّنة لجليل المعاني الإيمانيَّة، وبديع الفوائد البلاغيَّة.

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/515، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 19/14 - 15، وأبو حيّان، البحر المحيط: 6/357، وابن عادل، اللُّباب: 11/259 - 261.

وبيان ذلك أنَّ (الذي) تغيضه الأرحام إمّا أنْ يكون زمنًا، فيكون المولود مكتمل الخلقة رغم انتقاص مدَّة الحمل، أو ناقص الخِلقة لانتقاص مدَّة الحمل، وإمّا أن يكون بدنًا بانتقاص بعض الأعضاء مع حياته، أو بانتقاصها مع موته، وإمّا أن يكون دمًا يلفظه الرَّحم أثناء الحمل، فينقص من غذاء الجنين فيضعف، أو يكون هو ذاته الجنين، فيسقط.

وفائدة هذا هي تأكيد أنَّ كلَّ هذا يحصل بقدَر، ولا يكون عبثًا، ولا يكون ذلك عيبًا في الصّانع - حاشاه - بل ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ﴾، فلا يظُنَّن جاحد جهول أنَّ اللّه غفل عن هذا الحمل، فسقط، كلّا، بل قد علِم اللّه ذلك، وقدَّره على ما تقتضيه حكمته البالغة، هذا على تأويل الموصوليَّة.

أمّا على تأويل المصدريَّة؛ فإنَّ هذا (الغيض نفسه) لم يغب عن علم اللّه تعالى، ولم يشِبَّ عن طَوْق قُدرته ﷻ، ولم تَخْفَ على اللّه أسبابُه، بل هو الَّذي قدَّرها وأحكم قدْرها بعِلْمه سبحانه وحكمته، وفي ذلك ردٌّ على الطَّبيعيين الَّذين يُرجعون كلَّ شيء لأسباب المادَّة دون أن يلتفتوا إلى إرادة اللّه سبحانه.

فالحاصل أنَّه ليس اكتمال خلق الجنين ونزوله بشرًا وليدًا بأدلَّ على قدرة اللّه من نزوله سقطًا غير مكتملٍ، فكِلا الأمريْن قد قدَّرهما اللّه وقضاهما.

سرُّ التَّعبير بمفردة ﴿تَغِيضُ﴾:

تدور معاني الغيض حول النُّقصان في الشَّيء، والغموض والقلَّة[1]. وأصله: ذهاب المائع في العمق الغامض[2].

مطابقة ما يدلُّ عليه لفظ الغيضِ، ويُعبَّر عنه من حال المَغيض

ولمّا كان المُراد به في هذه الآية ما ينقص من الحمل مدَّةً أو

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (غيض)، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: 3/1588.
(2) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 10/288.

خِلقةً أو غيرهما؛ فيولد تامًّا قبل تمام التِّسعة أشهر، أو يولد ناقصًا عضوًا بعد تمامها، أو يلفظه الرَّحم سقطًا، أو دمًا سائلًا، وكان في ذلك كلِّه نقصٌ وغموضٌ وذهاب للمائع (الدَّم)؛ لمّا كان ذلك كذلك؛ ناسب أن يُعبَّر بمفردة ﴿تَغِيضُ﴾ دون غيرها من مرادفاتها كالنَّقص مثلًا؛ لتضمُّنها ما ليس في غيرها من الدِّلالات.

نكتة التَّعبير بالمضارع ﴿تَغِيضُ﴾:

جاء التَّعبير بالمضارع ﴿تَغِيضُ﴾؛ لإفادة نكتة لطيفة، وهي أنَّ غيضَ الأرحام لا تكاد تخلو منه أنثى، إذِ الرَّحِم إمّا أن يكون خاليًا من الولد، وإمّا أن يُزداد فيه بالحمل ونموّه وتعدُّده، وإمّا أن يغيض بالخلوِّ من الدَّم الَّذي يشتمل على خلايا التَّولُّد وامتلائه بهذا الدَّم[1].

غيضُ الأرحامِ مستمرٌّ إلى يوم القيامةِ لا يقوى أحدٌ على إيقافِه

ولمّا كان ذلك كذلك؛ ناسب أن يُعبَّر عنه بصيغة المضارع الدّالَّة على التَّكرير، وفي هذا دلالة قويَّة على عظيم قدرة اللّه تعالى؛ إذ إنَّه سبحانه هو مَن خلق ذلك في الأرحام، وهو مَن قدَّر ذلك فيها، وكلُّ ذلك بعِلم وحكمة، فتجدُّد غيض الأرحام وازديادها يدلُّ على قدرة اللّه تعالى على الخَلق، وأنَّها لا تخلو منها لحظةٌ من الزَّمان.

وفيها إشارةٌ إلى أنَّ غيضَ الأرحامِ مستمرٌّ إلى يوم القيامةِ، لا يقوى العلم الحديث على إيقافِه، فاللّه سبحانه لم يزَل خالقًا مريدًا مقتدرًا، وهي الصِّفة الَّتي لا ينازعه سبحانه فيها أحد، ولا يكاد المشركون ينتظرون وقوعها من آلهتهم.

بلاغةُ المجاز في قوله: ﴿وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ﴾:

إسناد الغيض إلى الأرحام في الآية مجازٌ عقليٌّ، حيث أُسند الفعل المضارع ﴿تَغِيضُ﴾ إلى غير فاعله على الحقيقة، وهو ﴿ٱلْأَرْحَامُ﴾ إذ هي لا تغيض، وإنَّما ما فيها[2] هو الَّذي يغيض، فالعلاقة مكانيَّة؛ إذْ

تصويرُ الأرحام بما فيها من غيضٍ وفيض

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3906.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/515.

ذَكَرَ المكان - وهو الأرحام - وأراد ما فيها، وفائدته تصوير الأرحام وما يكون فيها من غيضٍ وفيضٍ، ففيه من البلاغة والإيجاز ما فيه، حيث أدَّى المعنى بأوجز لفظ وأخصر عبارة، وأوضح بيان.

نكتتا الجمع والتعريف في ﴿ٱلۡأَرۡحَامُ﴾:

إفادةُ العمومِ الاستغراقيِّ وتعدُّد أنواعِ الأرحام

جاء التَّعريف في لفظ الأرحام باللّام لا بالإضافة، فلم يَقُلْ: وما تغيض أرحامها، بحيث يرجع على كلِّ أنثى، فمعنى اللّام الاستغراق، وهذا مفيد للعموم والتأكيد، ثمَّ هو مناسب للعموم الحاصل من إضافة لفظ ﴿أُنثَىٰ﴾ إلى لفظ ﴿كُلُّ﴾، والحاصل أنَّ علم اللّه تعالى قد أحاط بما في كلِّ رحِمٍ علمًا، وقد خلقه وخلق ما فيه، وقدَّره بحكمته سبحانه، ولا يقدِر على ذلك إلّا اللّه ﷻ، وكلُّ هذا يؤكِّد تفرُّد اللّه بالإلهيَّة، وأنَّه سبحانه المستحقُّ للعبادة والطّاعة.

ونكتةُ جمعِ الأرحامِ هو بيانُ تنوُّعِها، فالأرحام أنواعٌ عديدةٌ، فأرحام البشر تختلف عن أرحام الحيوانات، والطيور، والحشرات، وما لا نعلم ممّا خلق اللّه تعالى، فجاءَ التَّعريفُ للعمومِ الاستغراقيِّ، والجمع لبيان تعدُّدِ الأنواع.

بلاغة مقابلة ﴿تَغِيضُ﴾ بـ ﴿تَزۡدَادُۚ﴾:

إفادة الحصر لشمول الشَّيء وضدِّه

قوبل الفعل ﴿تَغِيضُ﴾ الدّالُّ على النُّقصان والقلَّة وذهاب المائع بالفعل ﴿تَزۡدَادُۚ﴾ الدّالِّ على الفضل[1]، والنُّموِّ[2]، والامتداد[3].

وهذه الزيادة تصدق على ما فُسِّرت به في الآية الكريمة من زيادة العضو، وزيادة العَدَد، وزيادة جسم الجنين إن لم تحِضْ وهي حامل، وزيادة أمد الحمل عن القَدْر المعتاد[4].

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (زيد).
(2) الجوهريّ، الصّحاح، وابن منظور، لسان العرب: (زيد).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: 2/886.
(4) الشّنقيطيّ، أضواء البيان: 10/288.

ومن هنا تظهر بلاغة المقابلة في براعة الجمع بين المفردات المتضادَّة من وجه، وفيما تؤديه معًا من إفادة التَّوكيد وإثارة الذِّهن، وتصوير المعنى حيًّا مُتجسِّدًا للمخاطَبين به من وجه آخر.

فضلًا عمّا تؤديه من إفادة الحصر المستنبَطة من تعميم الحُكم ليشمل الشَّيء وضدَّه.

نكتة التَّعبير بالمضارع ﴿تَزۡدَادُۚ﴾:

مطابقة حالة ازدياد الحمل من حين علوقه بالرَّحم حتى ولادته

فُسِّرت الزيادة المذكورة في الآية بمعنى: الزيادة في الجثَّة والمدَّة والعَدَد[1].

وهذه الزيادة لا تنشأ زائدةً، بل تبدأ قليلة صغيرة، ثمَّ تأخذ في الازدياد شيئًا فشيئًا؛ فهو ازديادٌ متجدِّد ومستمرٌّ لحين الوضع، وتتكرَّر الكرَّة مع كلِّ حمل؛ ولهذا كلِّه عُبِّر بالفعل المضارع الَّذي يكتسي عباءة التَّكرير وحُلَّة التَّجدُّد والاستمرار.

بلاغةُ ترتيب المعطوفات في الآية الكريمة:

تناسق المعطوفات مع رتبة وقوعها في الخارج

جاء ترتيب المعطوفات في هذا النَّسق - في قوله تعالى: ﴿مَا تَحۡمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلۡأَرۡحَامُ وَمَا تَزۡدَادُۚ﴾ - مترابطًا متآزرًا بحيث يُسلِم كلٌّ واحد منها إلى تاليه في ترتيب منطقيٍّ بديع؛ ذلك أنَّ أوَّل هذه الثَّلاثة وقوعًا هو الحمل، ثمَّ يترتَّب عليه واحدٌ من أمرَيْن: إمّا الغيض، وإمّا الزيادة؛ فلذلك قُدِّم عليهما، ولمّا كان الغيض هاهنا أسبقَ من الزيادة زمنًا وعقلًا قُدِّم عليها؛ إذْ هي متحقِّقة بشرط عدم وقوعه، فجاء نسق المعطوفات متَّسقًا مع وقوعها في الخارج؛ ليكون ذلك أوقع في نفوس المخاطَبين.

تعيين المعطوفِ عليه لجملةِ: ﴿وَكُلُّ شَيۡءٍ عِندَهُۥ بِمِقۡدَارٍ﴾:

العليم بكلِّ شيء، المقدِّر كلَّ أمر بحكمة بالغة هو وحدَه المستحقُّ للعبادة

هذه الجملة الكريمة معطوفة على جملة ﴿يَعۡلَمُ مَا تَحۡمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ﴾، فالمُراد بالشَّيءِ الشَّيءُ من المعلومات[2].

(1) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/182.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/97.

وهذا العطف أفاد جمع بعض صفات الرُّبوبيَّة؛ كالعلم المُستفاد من قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَعۡلَمُ﴾، والقدرة والحكمة المستفادتَيْن من قوله تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيۡءٍ عِندَهُۥ بِمِقۡدَارٍ﴾؛ وذلك للتَّدليل على استحقاق اللّٰه تعالى بالعبادة.

دلالة أداة العموم ﴿وَكُلُّ شَيۡءٍ﴾:

قوله: ﴿وَكُلُّ شَيۡءٍ عِندَهُۥ بِمِقۡدَارٍ﴾ لفظ عامٌّ في كلِّ ما يدخله التَّقدير[1].

وهذه قضيَّة كلية أثبتت عموم علمه تعالى بعد أن وقع إثبات العموم بطريقة التَّمثيل بعلمه بالجزئيّات الخفيَّة في قوله: ﴿ٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَحۡمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلۡأَرۡحَامُ وَمَا تَزۡدَادُۖ﴾[2]، فهي من قبيل إثباتِ العمومِ بعد الخصوص، عموم التَّقدير، بعد ذِكْر خصوص العلم، بغرضِ الاحتراس عن أن يظنَّ ظانٌّ أن علم اللّٰه خاصٌّ بما تحمله الأرحامُ، بل تقديرُه لا علمه فحسب عامٌّ في كلِّ شيءٍ.

عِلْمُ الله تعالى يشملُ الكليّات وجزئيّاتها وتقديرُه يستغرقُ كلَّ شيءٍ

بلاغة الإضافة في ﴿وَكُلُّ شَيۡءٍ﴾:

أُضيف لفظُ ﴿شَيۡءٍ﴾ إلى لفظِ ﴿وَكُلُّ﴾؛ لإفادة العموم والاستغراق؛ ذلك أنَّ الزيادة المذكورة في الآية الكريمة، تعني: ضَمَّ شيء إلى المقدار وكثرته شيئًا بعد شيء، فيُقدَّر ذلك، ولا يُمكن أحدًا زيادتُه ولا نقصانُه، وذلك كلُّه يستلزم الحكمة، فلذا ختَمَه بقوله: ﴿وَكُلُّ شَيۡءٍ﴾، أيْ: من هذا وغيره من الآيات المقترحات وغيرها[3].

إفادة العموم والاستغراق التّامّ

نكتة تقديم ﴿عِندَهُۥ﴾ على المُسنَد ﴿بِمِقۡدَارٍ﴾:

تقديم الظَّرف ﴿عِندَهُۥ﴾ أفاد التَّخصيص والتَّوكيد والحصر، أيْ: عنده سبحانه، وليس عند غيره، فإنَّ اللّٰه تعالى هو الخالق المُدبِّر على الحقيقة، وقد خَلق كلَّ شيء بقدَر ولحكمة، ولا ينزِّل

تخصيص الله تعالى بالعلم الشّامل، والاقتدار الكامل

(1) ابن عطيّة، المُحرَّر الوجيز: 3/298.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/98.
(3) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 10/288.

الآيات لاقتراحِ مُقترحٍ تضمَّخ بالعناد، ولا يكون الوحي تابعًا لرغبة العباد، فليس أمر الخالق العلّام الَّذي يدبِّر الأمور ويقدِّر المقادير كأمر المخلوق الظَّلوم الجهول الَّذي يخبط في دنياه خبط عشواء، ويرضى لدينه أن يسجد للأحجار الصَّمّاء.

بلاغة الكناية في الظَّرف ﴿عِندَهُۥ﴾:

كلُّ الأشياء جارية وفق قدر الله المُقدَّر من الأزل

المُراد بالظَّرف: ما عند الله من العلم، فمعنى ﴿عِندَهُۥ﴾، أيْ: في قدرته وعلمه ﷻ، و﴿بِمِقْدَارٍ﴾، أيْ: في كيفيَّته وكمّيته لا يتجاوزه، ولا يقصر عنه؛ لأنَّه عالمٌ بكيفيَّة كلِّ شيءٍ وكميته على الوجه المُفصَّل المُبيَّن، فامتنع وقوع اللَّبس في تلك المعلومات، وهو قادر على ما يريد منها، أيْ: كلُّ الأشياء عند الله سبحانه جارية على قدره الَّذي قد سبق وفرغ منه، لا يخرج عن ذلك شيء[1].

غرضُ حذف المُسند إليه في الآية:

حُذِف المُسنَد للعلم به، فلا يعلم الغيب إلّا الله

في قوله تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ﴾: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ﴾ يجوز أن يكون مبتدأً، وخبرُه: ﴿ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ﴾، وأن يكون خبرًا لمبتدأ محذوف، أيْ: هو عالِم[2]، أو خبرًا بعد خبرٍ[3]، وقُرئ بالنَّصب على المدح، وهذا كالدَّليل على ما قبله من قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَعْلَمُ﴾[4].

فعلى تقدير حذف المُسند إليه - وهو هنا المبتدأ المُقدَّر بالضَّمير العائد على الذّات العليَّة - فإنَّ غرض حذفه إنَّما هو لكونه مُعيَّنًا حقيقةً؛ إذْ لا يصحُّ الغيب إلّا له[5]، فليس ثَمَّ مَن يعلم الغيب والشَّهادة إلّا الله، فهو من باب (حذف ما يُعلَم)، وهذا من باب التَّسليمِ لأمرٍ لا تصحُّ المجادلةُ فيه، أو المكابرة حوله.

(1) الشّوكانيّ، فتح القدير: 3/82.
(2) السَّمين الحلبيّ، الدُّرُّ المصون: 7/23.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/105، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/8.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/8.
(5) عبد المتعال الصّعيديّ، بُغية الإيضاح: 1/70.

سرُّ التَّعبير بـ ﴿عَٰلِمُ﴾ بعد ﴿يَعۡلَمُ﴾:

الله عالمٌ بكلِّ شيءٍ ثباتًا، ويعلمُ كلَّ متجدِّد استمرارًا

التَّعبير باسم الفاعل يُفيد ملازمة الصِّفة للموصوف، والتَّعبير بالمضارع يُفيد تجدُّدَها واستمرارها، وعليه فإنَّ المقصود بالاسم ﴿عَٰلِمُ﴾ إثبات صفة العلم لله سبحانه على النَّحو اللّائق به، وقيام هذه الصِّفة الجليلة به ﷻ، فهو جلَّ شأنه لم يزل عالمًا.

أمّا التَّعبير بالمضارع ﴿يَعۡلَمُ﴾؛ فيفيد تعلُّق صفة العلم بالمعلومات، فكلُّ ما يقع في الوجود حادثًا قد تعلَّق عِلمُ الله به، وقد أراده وقدَّره.

وهذا التنوُّع في التَّعبير بين الاسميَّة والفعليَّة ضربٌ من التَّفنُّن في النَّظم البليغ، وهو معدود من المُؤكِّدات.

وقد جاء التَّذييل بالاسم دون الفعل، فقال: ﴿عَٰلِمُ﴾، ولم يَقُلْ: يعلم؛ للإشارة إلى أسمائه ﷻ، وأنَّ العلم صفة ملازمة له ﷻ، وذكَر الغيب والشَّهادة لإثبات أنَّ علمه واحدٌ بالشّاهد والمغيب على سواء؛ لأنَّه علمٌ محيط، لا يفترق فيه شيء عن شيء[1].

وهذا الكلام كالدَّليل على ما قبله من قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَعۡلَمُ﴾ الآية[2].

ويلاحَظ أنَّ هذه الآية استوفت بيان كمال علم الله تعالى، ففي مطلع الآية - الذي هو كلامٌ مستأنَف - أوضح تعالى أنَّه عالم بالجزئيات والمفردات، ثمَّ ذكر أنَّه عالم بمقادير الأشياء وحدودها، لا تتجاوزها، ولا تقتصر عليها، وخصَّص كلَّ حادث بوقته بعينه وبحالة معيَّنة بمشيئته الأزليَّة، وإرادته السَّرمديَّة، ثمَّ أضاف أنَّه عالم بأشياء خفيَّة لا يعلمها إلا هو، وهي أشياء جزئيَّة من خفايا علمه، فهو سبحانه يعلم الباطن والظّاهر[3].

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3907.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/105.
(3) الزّحيلي، التّفسير المنير: 13/121.

شمول كلّ المعلومات بتعميم العِلم بالظّواهر والخفيّات، وهما قسما الموجودات

بلاغة عطفِ ﴿وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ على ﴿ٱلۡغَيۡبِ﴾:

الغيب مصدرٌ بمعنى الغائب، والشَّهادة مصدر بمعنى الشّاهد، أيْ: هو سبحانه عالمٌ بما غاب عن الخلق، فلم يدركوه بحواسِّهم، وبما شهدوه من الأمور الظّاهرة المحسوسة، فنبَّه سبحانه على انفراده بعلم الغيب، والإحاطة بالباطن الَّذي يخفى على الخَلْق، فلا يجوز أن يشاركه في ذلك أحدٌ[1].

ومن هنا تظهر بلاغة عطف لفظ ﴿وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ على لفظ ﴿ٱلۡغَيۡبِ﴾؛ إذ المقصود من الغيب والشَّهادة تعميمُ الموجودات كلِّها كقوله: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَا تُبۡصِرُونَ ٣٨ وَمَا لَا تُبۡصِرُونَ ٣٩﴾ [الحاقّة: 38 - 39].

وجملة ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ تذييل وفذلَكَة لتعميم العِلْم بالخفيّات والظَّواهر؛ وهما قِسما الموجودات[2].

فبدلًا من أن يقول: (عالم كلِّ شيء) جاء بما يُعبِّر عن هذا المعنى بإيجاز وتدليل يترك كلُّ واحد منها في القلب أثرًا بليغًا؛ وهو تأكيد ما تضمَّنته الآية السّابقة من علمه سبحانه بما في الأرحام منذ وجودها فيها ومكنونها، وأدوارها، وقابلها، وكان التَّأكيد بذِكْر عموم علمه للغائب والحاضر[3]، إضافة إلى أنَّه عطَفَ ﴿وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ على ﴿ٱلۡغَيۡبِ﴾ لتحصل الدَّلالة عليها مرَّتيْن: أوَّلًا: باللُّزوم، وثانيًا: بالمطابقة، بخلاف العكس[4].

استيفاء بيان كمال علم الله تعالى، وإثبات عظيم قدرته سبحانه

براعة ترتيب الأخبار في الآية الكريمة:

في قولِه: ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلۡكَبِيرُ ٱلۡمُتَعَالِ﴾ جاء ترتيب هذه الأخبار الجليلة على نسقٍ بلاغيٍّ فريد، بحيث يُسلم كلٌّ منها إلى تاليه، ويترتَّب تاليهِ على سابقه، وبيان ذلك أنَّ قوله: ﴿ٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا

(1) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 9/289.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/98.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3907.
(4) البَسيليّ، نكت وتنبيهات: 2/272.

﴿تَحۡمِلُ﴾ فيه بيانٌ لنوعِ علمٍ دقيق لا يقدر عليه إلّا اللّه تعالى، ولذلك ناسب أن يُؤكَّد هذا بما يدلُّ على إحاطة علمه سبحانه لا بالمذكور فقط، بل بكل شيء؛ فلذلك قال: ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ ليعُمَّ جميعَ الموجودات المُدرَكَة وغير المُدرَكَة؛ للدَّلالة على واسع علمه وعظيم حكمته سبحانه، ولمّا كان العلم والحكمة لا يتمّان إلا بكمال القدرة والعَظَمة؛ قال: ﴿ٱلۡكَبِيرُ﴾، أي: الَّذي يتضاءل عنده كلُّ ما فيه صفاتٌ تقتضي الكِبْر[1].

ولمّا كان ﴿ٱلۡكَبِيرُ﴾ صفة عظَمةٍ؛ ناسب أن يأتي بعدها: ﴿ٱلۡمُتَعَالِ﴾، وهي صفة عُلوٍّ؛ وهو احتراس؛ أي: المتعال عن صفة الحدوث الَّتي يوهمها ﴿ٱلۡكَبِيرُ﴾[2]، وليضُمَّ مع العلم العظَمَة والقُدرة[3].

توجيه حذف الياء من قوله: ﴿ٱلۡمُتَعَالِ﴾:

صيغَت الصِّفةُ بصيغة التَّفاعل للدَّلالة على أنَّ العُلوَّ صفة ذاتيَّة له سبحانه؛ أي: الرَّفيع رفعة واجبة له عقلًا، وثَمَّ لطيفةٌ أخرى؛ وهي أنَّ لفظ ﴿ٱلۡمُتَعَالِ﴾ فيه دلالة على كمال العلوّ، فأُريدَ له أن يكون كذلك في التَّلفُّظ به، فلا يُتبع بكسرة وياء فيهما سفول، وليستقلَّ سبحانه بهذا اللَّفظ الدّالِّ على عُلوٍّ لا يكون لسواه، فكثيرٌ من النّاس يوصَفون بالمتعالي، ولمراعاة الفواصل السّاكنة.

تآزر اللَّفظ والمعنى في الدَّلالة على كمال العُلوّ

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيّةُ:

الحَمْل والحَبَل:

الحاء والميم واللّام أصلٌ واحد يدلُّ على إقلال الشَّيء[4]، والحاء والباء واللّام أصلٌ واحد يدلُّ على امتداد الشَّيء[5].

الحَمْل يكون مع أنثى الإنسان والحيوان، والحَبَل يختصُّ بحَمل المرأة

(1) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 10/289.
(2) البَسيليّ، نكت وتنبيهات: 2/272.
(3) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 8/472.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حمل).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حبل).

والحَبَل: الاشتمال على الحَمْل، وامتلاء الرَّحِم، وسُمّيت المرأة: حُبْلَى؛ لأنَّ حملها صار وصْلةً بينها وبين الرَّجل[1].

والحَبَل: للآدميّات، والحَمْل لغيرهنَّ[2]؛ فلا يُقال لأنثى الحيوان: حُبْلى، ويُقال لأنثى الإنسان والحيوان: حاملٌ.

ويظهر ممّا سبق أنَّ الحَمْل يشمل كلَّ أحوال البطن وما فيها، وأنَّ الحَبَل يختص بامتلاء الرَّحم وامتداده، وليست حالُ الرَّحم والبطن في أوَّل الحمل كحالهما في أوسطه أو آخره، ولا ريب في أنَّ عِلمَ الله يشمل الأحوالَ كلَّها والأزمنةَ كلَّها والإناثَ كلَّهُن.

(1) السّمين الحلبيّ، عمدة الحُفّاظ: 1/370، وابن منظور، لسان العرب: (حبل).
(2) الزّبيديّ، تاج العروس: (حبل).

﴿سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ ١٠﴾ [الرّعد: 10]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

التَّفصيل بعد الإجمال، في بيان علم الله سبحانه؛ لا يداخله تَفاوت، ولا يَعْقُبُه احتمال

لمّا بيَّن ﷻ قدرته العظيمة، وإحاطة علمه بكلِّ شيءٍ، وكانت العادة قاضيةً بتفاوت العلم بالنِّسبة إلى السِّرِّ والجهر؛ أتبع سبحانه ذلك بما ينفي هذا الاحتمال عنه على وجه الشَّرح والبيان؛ لاستواء الغيب والشَّهادة بالنِّسبة إلى علمه ﷻ[1]، فالمناسبة بين الآية والسّابق: أنَّه بيَّن في السّابق عِلمَه في أحوالٍ خفيَّة، ثمَّ بيَّن علمه في كلِّ شيءٍ على سبيل الإجمال، فحسُن بعد ذلك ذِكرُ أحوال النّاس بإسرارِ الأقوال والجهر بها، والاختفاءُ في اللَّيل والانتشار في النَّهار، فهي من باب التَّفصيل بعد الإجمال.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَسَرَّ﴾: السِّرُّ: هو ما تكتمه وتُخفيه عن غيرك، وهو ضدُّ الإعلان، وجَمعُه: أسرار[2].

ومعناه المحوريُّ: إخفاء الشَّيء[3]. وأسررتُ الشَّيء: أخفيتُه، وأسررتُه كذلك: أعلنتُه وأظهرتُه، فهو من الأضداد[4].

2) ﴿مُسْتَخْفٍ﴾: الخفاء: السِّتر والتَّغطية، مِن خَفي الشَّيء خفاء: استتر، وأخفيتُه: كتمتُه، ضدَّ أظهرته[5].

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 19/14، وابن عادل، اللُّباب: 11/258، والبقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 10/290.
(2) الجوهريّ، الصِّحاح، وابن فارس، المُجمَل، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (سرر).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سرر).
(4) الخليل، العين، والجوهريّ، الصِّحاح، وابن منظور، لسان العرب: (سرر).
(5) الخليل، العين، والجوهريّ، الصِّحاح، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحُفّاظ، وابن منظور، لسان العرب: (خفي).

وأصلُه من الاستتار استتارًا ضعيفًا بحيث يظهر من وراء السّاتر ظهورًا ضعيفًا أيضًا[1]. وخفيتُ الشَّيء كذلك: أظهرتُه، فهو من الأضداد[2].

والاستخفاء: طلب الخفاء، واستخفيتُ من فلان؛ أيْ: توارَيتُ، واستترتُ عنه بحيث لا يراني[3]، ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَنۡ هُوَ مُسۡتَخۡفِۭ بِٱلَّيۡلِ﴾.

3) ﴿وَسَارِبُۢ﴾: السّارب: هو الذّاهب على وجهه ظاهرًا في الأرض في تحدُّر[4]. وأصله من الاتِّساع والذَّهاب في الأرض[5].

والسِّرْب: القطيع من الظِّباء والشّاء والإبل وغيرهم ممّا يرعى في الأرض؛ لأنَّه ينسرب في الأرض راعيًا[6]. والسَّرْب: الطَّريق، ومنه: سارب؛ أيْ: ذاهب في الطَّريق، الظّاهر فيه[7].

❁ المَعْنى الإجْماليّ:

الجهر والإخفاء والظُّهور والخفاء من الخلق عند الله سواء

يُخبر المولى ﷻ في هذه الآية الكريمة عن حقيقة ثابتة راسخة، وهي إحاطة علمه بجميع خَلْقه، وأنَّه يستوي عنده سبحانه مَن يُخفي القولَ منهم، ويكتمه ممَّن يُعلنه، ويُظهره، ومَن هو مُستترٌ متوارٍ في ظلمته بمعصية اللّه، ومَن هو ظاهرٌ بالنَّهار مُتصرِّف في حوائجه بسرعة[8].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيّ:

بلاغة الاستئناف البيانّي في الآية:

استواء الخفيّات والظَّواهر في علم الله لإحاطته بها، وتقديره إيّاها

موقع الجملة في قولِه تعالى: ﴿سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنۡ أَسَرَّ ٱلۡقَوۡلَ﴾

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المُؤصّل: (خفي).
(2) الجوهريّ، الصّحاح، وابن منظور، لسان العرب: (خفي).
(3) الجوهريّ، الصّحاح، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (خفي).
(4) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، والجوهريّ، الصّحاح، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (سرب).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سرب).
(6) الجوهريّ، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (سرب).
(7) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (سرب). وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/99.
(8) ابن جرير، جامع البيان: 13/453، والبغويّ، معالم التّنزيل: 4/299.

استئناف بيانيٌّ؛ لأنَّ مضمونها بمنزلة النَّتيجة لعموم علم الله تعالى بالخفيّات والظَّواهر[1].

ذلك أنَّه لمّا دلَّت الآية السّابقة على كمال عِلْم الله تعالى، وشموله لكلِّ العمومات، وإحاطته بكل الجزئيّات؛ كانت الآية الَّتي أُكِّد فيها هذا المعنى بمنزلة المقدِّمة، وكانت آية ﴿سَوَآءٌ مِّنكُم﴾ بمنزلة النَّتيجة لِما سبق.

والحاصل أنَّه لمّا كان علم الله محيطًا بدقائق كلِّ شيء، كان مستويًا عنده الظّاهر والخفي، والمُعلَن والمُسَرُّ.

توجيه إعراب ﴿سَوَآءٌ﴾:

في ﴿سَوَآءٌ﴾ وجهان: أحدهما: أنَّه خبر مُقدَّم، و﴿مَّنْ أَسَرَّ﴾، و﴿وَمَن جَهَرَ﴾ هو المبتدأ، وإنَّما لم يُثَنِّ الخبر؛ لأنَّه في الأصل مصدر، وهو ههنا بمعنى مستوٍ، و﴿مِّنكُم﴾ على هذا حالٌ من الضَّمير المُستتر في ﴿سَوَآءٌ﴾؛ لأنَّه بمعنى مُستوٍ.

والثّاني: أنَّه مبتدأ، وجاز الابتداء به لوصفه بقوله: ﴿مِّنكُم﴾[2]. ويكون قوله: ﴿مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ﴾ فاعلًا سدَّ مسَدَّ الخبر[3].

ليس علم الله بجهر المعلِن بأكمل من علمه بسِرِّ الكاتم، فكلاهما مستويان عند الله

الالتفات في قولِه: ﴿سَوَآءٌ مِّنكُم﴾:

عُدِل عن الغيبة المُتَّبعة في الضَّمائر فيما تقدَّم إلى الخطاب هنا في قوله: ﴿سَوَآءٌ مِّنكُم﴾؛ لأمور:

أولًا: أنَّه تعليم يصلُح للمؤمنين والكافرين، وفيها تعريض بتهديد المشركين المتآمرين على النَّبيّ ﷺ[4].

ثانيًا: ليُشعر المتكلِّمُ الجليل سبحانه الأُناسَ من خلقه بأنَّه معهم،

إشعار العباد بمقام المراقبة ليُحسنوا التَّعبُّد، ويخافوا التَّوعُّد

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/99.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/358، وابن عادل، اللُّباب: 11/262.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/99.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/99.

فإن لم يكونوا يرونه؛ فإنَّه يراهم، ويخاطبهم ﷺ، وهذا إشعار لهم بمقام المشاهدة ليتَّجهوا إليه؛ ليحسّوا برقابته، وكمال شهادته[1].

ثالثًا: تحريكُ خواطرِ الأذهانِ؛ فإنَّ للمباغتةِ شأنًا لا يُستهان به في لفتِ انتباه المخاطَب، والالتفات من الغيبةِ إلى خطابِ المُتكلِّم يُغري بالاستماعِ لما سيُقال.

سرُّ استعمال ﴿مَّنْ﴾ الموصوليَّة:

عمومية الموصول تُناسب عموم المخاطَبين

﴿مَّنْ﴾ اسم موصول مُشترك يُستعمَل لمعانٍ عدَّة، فيأتي للمفرد والمُثنّى والجمع المُذكَّر والمُؤنَّث بلفظٍ واحدٍ[2]، والمقصودُ استعمالُ ما يدلُّ على العموم، دون أن يكون هناك احتمالٌ دلاليٌّ بإرادةِ مُعيَّن، فالاسم الموصولُ الظّاهر يُشعرُ بإرادةِ مُعيَّنٍ، فلو قال: (سواءٌ منكم الَّذي أسرَّ القول والذي جهر به)؛ لاحتملَ الكلامُ أن يكونَ المقصودُ بالاسم الموصولِ مُعيَّنًا.

فكأنَّه قيل: سواءٌ منكم اثنان: مُستخفٍ باللَّيل، وساربٌ بالنَّهار، وهذا سرُّ التَّعبير بـ ﴿مَّنْ﴾؛ فهو مشترك بين المفرد والمثنّى والجمع مُذكَّرهم ومؤنَّثهم، وأمّا لو قيل: سواءٌ الَّذي أسرَّ القول والَّذي جهر به؛ فإنْ أريدَ الجنس؛ فالتَّعبيرُ به وبـ ﴿مَّنْ﴾ سواءٌ، لكنَّ الأوَّل نصٌّ، وإنْ أريدَ المعهود حقيقةً أو تقديرًا؛ لزم إيهام خلاف المقصود[3]، وهو غير مقصود.

نكتة التَّعبير بلفظ ﴿أَسَرَّ﴾:

الإسرار أشدُّ كتمانًا من الإخفاء

تدور معاني السِّرِّ حول الخفاء، والكتمان، والغؤور إلى العمق، ويضادُّه الجهر والإعلان[4]. والسِّرُّ إخفاء الشَّيء في النَّفس، ولو اختفى بسِتر أو وراء جدار لم يكن سرًّا[5].

---

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3907.

(2) الأزهريّ، التّصريح: 1/154، والسّامرّائيّ، معاني النّحو: 1/123.

(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/105 - 106، والقاسميّ، محاسن التّأويل: 6/263.

(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (سرر).

(5) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 63.

أمّا الخفاء؛ فتدور معانيه حول السِّتر، غير أنَّه استتارٌ ضعيف يظهر من وراء السِّتر[1]، وهو من الأضداد، حيث يدلُّ على الظُّهور أيضًا[2].

ومن هنا يظهر سرُّ إيثار التَّعبير بالإسرار دون الخفاء، فهي الأنسب للقول؛ لما فيها من معاني الكتمان، أمّا الخفاء؛ فهو أنسب للأعيان الظّاهرة المُدرَكة بالبصر، والاستتار فيه أضعف من الإسرار، ومن هنا كان الأنسب والأبلغ في التَّعبير عن المبالغة في الكتمان أن يكون بالإسرار دون الإخفاء.

بلاغة الابتداء في قولِه: ﴿مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ﴾:

قُدِّم الإسرار على الجهر؛ لإظهار كمال علمه تعالى، فكأنَّه في التَّعلُّق بالخفيّات أقدم منه بالظَّواهر، وإلّا فنسبته إلى الكلِّ سواءٌ[3]، وهذا من باب التَّأكيد والبيان بطريق الأَوْلَى، فإذا كان اللّه سبحانه عالمًا بالسِّرِّ؛ فهو بالعلانية أعلم، والكلُّ عنده سبحانه سواء.

دفعُ توهُّمِ الأفهام ممّا قد يخطرُ في الأذهانِ من أوهام

ويلوح منه دفع توهُّم الأفهام، فلو قال: (سواء منكم مَن جهر بالقول ومَن أسرَّ به)؛ لظُنَّ أنَّ تقديمَ العِلْم بالجهر على العِلْم بالسِّرِّ بسبب سهولةِ العلم بالمَجهورِ، قياسًا على المخلوقِ - والعياذ باللّه - فقُدِّم ما في النَّظم لدفع مثل هذا الوهم.

نكتةُ التَّعبير بالماضي في الآية:

التَّعبير بالماضي يفيد التَّحقُّق والتَّوكيد؛ لدلالته على وقوع الفعل في زمن المُضيّ، وهذا التَّوكيد مُرادٌ هنا في ﴿مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ﴾؛ إذ الآية تُبيِّن أنَّ اللّه تعالى محيطٌ علمُه بجميع خلقه، وأنَّه سواءٌ منهم مَن أسرَّ قولَه وأخفاه، ومَن جهَر به وأعلنه، فإنَّه سبحانه يسمعه لا يَخفى عليه من ذلك شيء[4].

إحكامُ كتمِ الأسرارِ والجهر بها عن إصرارِ سيّان في علمِ الله

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (خفي).
(2) ابن الأنباريّ، الأضداد، ص: 76.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/8.
(4) الزّحيليّ، التّفسير المنير: 13/121.

ولو كانت العبارة: (سواء منكم مَن يُسِرّون القول، ومَن يجهرون به)؛ لانصرف الذِّهن إلى تصوُّر حالة ثابتة لكِلا الفريقيْن، ففريقٌ دأبُه إسرار القول، وفريق دأبُه الجهر به، وسينشأ عن هذا إغفال فريق ثالث يُسِرُّ تارةً، ويجهر تارةً، ولا شكَّ أنَّ هذا غير مُراد، بل المُراد هو إثبات إحاطة علم الله تعالى بكل فرد، وأنَّ هذا العلم لا يخفى عليه أبدًا أيُّ حال من أحوال هذا الفرد إنْ مُسِرًّا وإنْ مُعلِنًا.

أمّا القول الَّذي يُسَرُّ، والقول الَّذي يُجهَر به، فلِتجدُّد حدوثهما من الفرد الواحد؛ ناسب أنْ يُعبَّر عنه - في مواضع أخرى - بالمضارع، كقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعۡلِنُونَ ١٩﴾ [النّحل: 19]، وقوله تعالى: ﴿وَيَعۡلَمُ مَا تُخۡفُونَ وَمَا تُعۡلِنُونَ ٢٥﴾ [النّمل: 25].

وبالإضافةِ لما تقدَّم تلوح نكتةٌ بديعةٌ: وهي أنَّ استعمال صيغة الماضي للإشعارِ بأنَّ هذا المُسِرَّ يُسِرُّ قولَه بإحكامٍ شديدٍ، فهو أسرَّ قولَه في ظنِّه بحيث لا يعلم به أحدٌ، كما أنَّه في المقابل ذَكَر مَن جهر به، بحيث إنَّ المُرادَ بالجهر إطلاقُ القول ليبلغ الجميع، فإنَّه على تباعد هذَيْن الحالَيْن فإنَّ الله تعالى يعلمُ القولَ الّذي أُحكِم سرُّه، والقولَ الَّذي جُهر به على حدٍّ سواء.

نكتة التَّعبير بلفظ ﴿ٱلۡقَوۡلَ﴾:

تدور معاني القول حول النُّطق بالكلام، وهو يَصدُق على أيّ كلامٍ، مُركَّبًا كان أو غير مركَّب، ويصدق حتَّى على المُسارِّ في النَّفس[1].

شمول القول لكلِّ معنًى منطوقٍ أو نفسيٍّ أو مكتوبٍ، مفهومٍ أو غير ذلك

ويُلاحظ في معانيه ذِكرُ ألفاظٍ مثل: (النُّطق، والكلام) ممّا يستدعي التَّفريق بينها وبين القول لبيان ما تميَّزت به كلُّ مفردة منها عن غيرها، ثمَّ لبحث السِّرِّ في إيثار التَّعبير هاهنا بالقول دون غيره من مرادفاته.

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (قول).

أمّا الفرق بين القول والكلام؛ فهو أنَّ الكلام لا يُطلَق إلّا لجملةٍ مفيدة لفظًا أو تقديرًا، والقول قد يُقال لبعض الجملة، فإذًا كلُّ كلام قولٌ، وليس كلُّ قولٍ كلامًا[1]. والسَّبب في ذلك أنَّ تركيب القول يدلُّ على الخفَّة والسُّهولة، فلذلك يتناول الكلمة الواحدة، أمّا تركيب الكلام؛ فيُفيد التَّأثير، وذلك لا يحصل إلا من الجملة التامَّة[2].

وأمّا الفرق بينهما وبين النُّطق؛ فالنُّطق هو إدارة اللِّسان في الفم بالكلام[3]، وهو الأصوات المُقطَّعة الَّتي يُظهرها اللِّسان، وتعيها الآذان، ولا يكاد يُقال إلّا للإنسان، ولا يُقال لغيره إلّا على سبيل التَّبع[4].

وممّا تنبغي ملاحظته أنَّ الصَّوت في النُّطق أبرز، بينما التَّأثير في الكلام أظهر؛ ولذلك لا يُطلق النُّطق على المكتوب، بل على الملفوظ، ولا يُشترط هذا في الكلام، بل يُلحظ فيه الكَثرة والتَّأثير، أمّا القول؛ فهو أعمُّ منهما، فهو يشملهما معًا، فيُعبَّر به عنهما، ويصدُق القول على الإشارة؛ نحو: «فقال بيده هكذا، فأقامه»[5]، وعلى الصَّوت؛ نحو: «فقال النّاسُ: حَلْ حَلْ، فألَحَّتْ، فقالوا: خَلَأَتِ القَصْواءُ»[6].

ومن هنا تظهر نكتة إيثار القول دون مفرداته، فلمّا كان السياق سياق إثبات إحاطة علم الله تعالى بكل شيء؛ ناسَب أن يُعبَّر بالأعمِّ (أي: القول) ليشمل الأخصَّ من باب أوْلى (أيِ: النُّطق والكلام ونحوهما).

بلاغةُ الاكتفاءِ بذِكْر القول دون الفعل:

لقد جمعت هذه الآية الكريمة - ﴿مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ﴾ - كلَّ أنواع العمل من قول وفعل؛ فالعمل هو شغل الجوارح بمتعلَّقاتها؛ فعمل اللِّسان أنْ يقول، وأنْ يذوق، وعمل الأيدي أنْ تفعل، وعمل الأُذن أنْ تسمع، وعمل القلب هو النيَّة.

والعمل يكون مرَّةً قولًا، ومرَّة فعلًا، وهكذا نجد القول قد أخذ مساحة نصف العمل؛

(1) الرّاغب، المفردات: (قول).
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 1/34.
(3) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 542.
(4) الرّاغب، المفردات: (نطق).
(5) صحيح البخاريّ، كتاب التّفسير، سورة الكهف، حديث رقم: (4727): 6/91.
(6) صحيح البخاريّ، كتاب الشّروط، باب الشّروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب، حديث رقم: (2732): 3/193.

الأعمال الظّاهرة نصفٌ للّسان ونصفٌ للجوارح، والقول إذا أُسِرَّ فالعملُ للقلبِ

فالبلاغ عن اللّه قولٌ، وعمل الجوارح خاضعٌ لمقول القول من الحقّ ﷻ؛ ولذلك أوضح لنا الحقُّ سبحانه أنَّ العمل هو كلُّ فعل مُتعلّق بالجوارح؛ وأخذَ القول شِقًّا بمفرده، وأخذت أفعال الجوارح الشّقَّ الآخر؛ لأنَّ عمل بقيَّة الجوارح يدخل في إطار ما سمع من منهج اللّه[1].

ثمَّ إنَّ العمل مفهوم من قوله تعالى: ﴿مُسْتَخْفٍ﴾، و﴿وَسَارِبٌ﴾، فذُكر القول مع العمل، وقُدِّم القولُ لكثرته، وخفَّة آلته، وهي اللِّسان، ولعِظَم أثره فيمن بلَغه وإن لم يرَ قائله، علاوة على أنَّه متى أسرَّ القائل قوله في نفسه، فإنَّه يلحق بأعمال القلوب، وهكذا كان القول أعمَّ وأشمل ودالًّا على المطلوب.

نكتة التَّعبير بلفظ ﴿جَهَرَ﴾:

الجهرُ إعلانُ ما يُسمعُ والإظهارُ انكشافُ ما يُرى

تدور معاني الجهر حول الإعلان والانكشاف والبروز والعلوّ، ويضادُّه الإسرار[2]. أمّا الظُّهور؛ فتدور معانيه حول القوَّة والشِّدَّة والبروز بعد خفاء، ويضادُّه الخفاء والخمول[3].

ومن هنا تتبيَّن نكتة إيثار التَّعبير بلفظ ﴿جَهَرَ﴾، فهو الأنسب للقول، فملحظ السَّماع فيه أظهر، أمّا الظُّهور؛ فملحظ الرُّؤية فيه والغلبة والانكشاف لما كان مخفيًّا من مادي ومعنويٍّ أبرز؛ ولذلك عُبِّر بالجهر بالقول في مقابلة الإسرار به.

فنُّ الطِّباق بين الإسرار والجهر:

إحاطة علم الله بالموجودات عن طريق حصر الأحوال المُمكِنات

جيء بالطِّباق بين الإسرار والجهر، وهو طباق إيجاب؛ لتأكيد المعنى، وإثبات أنَّ اللّه تعالى قد أحاط بكل شيء علمًا، وذلك بطريق حصر الأحوال المُمكِنات؛ فإنَّ الإنسان يدور في كلامه بين إسرار وجهر، وهذان قد جاءت الآية ببيان أنَّ اللّه يعلمهما، وقد أوثر

(1) الشّعراويّ، تفسير الشّعراوي: 12/7235.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (جهر).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (ظهر).

فيهما أن يكون معمولهما هو القول؛ لانطباقه على الكلام الملفوظ والكلام النَّفسيّ، فإنَّ اللّه يعلمه أيضًا، ويعضّده قوله تعالى: ﴿وَإِن تَجۡهَرۡ بِٱلۡقَوۡلِ فَإِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخۡفَى ۝٧﴾ [طه: 7]، فحصر بذلك أحوال البشر في حال كلامهم وسكوتهم؛ إذ هي لا تخرج عن ذلك.

معنى العطف في قوله: ﴿وَمَنۡ هُوَ﴾:

عموم الحُكم المحيط لكلِّ ما ذُكر ممّا عُطِف بعضُه على بعض

في قولِه تعالى: ﴿وَمَنۡ هُوَ مُسۡتَخۡفٍۭ بِٱلَّيۡلِ وَسَارِبُۢ بِٱلنَّهَارِ﴾، هذه الواو الَّتي عَطفت أسماء الموصول على الموصول الأوَّل للتَّقسيم هي بمعنى: (أو)[1]، وليست (أو) هنا للشَّكِّ أو للتَّخيير، بل هي (للتَّقسيم والتَّفصيل)[2]، فتكون النَّتيجة عموم الحكم (وهو هنا العلم المحيط) لكلِّ ما ذُكر.

الآيةُ ذكرت حالتيْن: الأولى: ﴿مَّنۡ أَسَرَّ ٱلۡقَوۡلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ﴾، والأخرى: ﴿وَمَنۡ هُوَ مُسۡتَخۡفٍۭ بِٱلَّيۡلِ وَسَارِبُۢ بِٱلنَّهَارِ﴾، فعُطفتِ الثّانية بكليّتها على الأولى بكليّتها، فالأولى سوَّت بين المُسرِّ والجاهرِ بالقول، والأخرى سوَّت بين المستخفِ والسّاربِ بالنَّهارِ، فالمعنى: أنَّ إسرارَكم وجهركم في حالةِ الكلامِ، واستخفاءكم وظهوركم في حالةِ الأفعالِ سواءٌ عند اللّه تعالى، فتكونَ الواو على هذا بمعنى التَّقسيم، فعطف القسم الآخر على القسم الأول، وقد جعل ابنُ عاشور رحمه اللّه الواوَ بمعنى (أو)[3].

نكتة التَّعبير في ﴿مُسۡتَخۡفٍۭ﴾ و﴿وَسَارِبُۢ﴾:

ملازمة المُستخفي لخفائه، والسّارب لسُروبه

التَّعبير باسم الفاعل يدلُّ على تصوير الفعل[4]، وعلى شدَّة اتِّصال الفعل بفاعله، ولخلوِّه من الزَّمن، فقد دلَّ على الثَّبات والدَّيمومة، فلِشدَّة طلب المُستخفي للخفاء أمسى كالملازم له، ولمبالغة السّارب في الظُّهور أصبح كالمُلازم له.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/100.
(2) الشّاطبيّ، المقاصد الشّافية: 5/123.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/100.
(4) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2599.

والتَّنصيص على هذه الحالة تنبيه على رقابة اللّه في كلِّ مكان قد يظنُّ صاحبه أنَّه بتواريه عن أنظار النّاس، لا يطَّلع عليه أحد، ومعنى: ﴿وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ﴾؛ أيْ: ظاهرٌ ماشٍ في ضوء النَّهار، فإنَّ كليهما في علم اللّه على السَّواء[1].

معنى السّين والتّاء في ﴿مُسۡتَخۡفٍ﴾:

الاستخفاء هنا بمعنى الخفاء، فالسّين والتّاء للمبالغة في الفعل، مثل: استجاب[2]، فقوله ﴿مُسۡتَخۡفٍ﴾، أيْ: مبالِغ في الاختفاء كأنَّه مختفٍ باللَّيل وطالب للزيادة أشدَّ الطَّلب[3].

طلبُ الخفاء والمبالغةُ فيه لا تُغيِّب صاحبَها عن الله تعالى

وقيل: السين والتّاء للطَّلب، أيْ: هو طالب للاختفاء باللَّيل، فهو لا يكتفي بخفاء اللَّيل وظلمته، بل يطلب خفاءً آخر بأن يكون في كِنٍّ من الأرض مستورٍ لا يعلمه أحد[4]. فالحاصل أنَّه على كلا التَّأويلَيْن، فالمعنى هو المبالغة في التَّخفي.

معنى حرف الباء في ﴿بِٱلَّيۡلِ﴾ و﴿بِٱلنَّهَارِ﴾:

الباء هنا ظرفيَّة بمعنى (في)، فقوله تعالى: ﴿بِٱلنَّهَارِ﴾، أيْ: في النّهار[5]، وقوله تعالى: ﴿بِٱلَّيۡلِ﴾، أيْ: في أخفى الأوقات، فساربٌ أو كامنٌ فيه، يظنُّ أنَّ ذلك الاستخفاء يُغنيه من القدرة، ﴿وَسَارِبٌۢ﴾، أيْ: ذاهبٌ على وجهه في الأرض ﴿بِٱلنَّهَارِ﴾، أيْ: مُتجاهر بسروبه فيه[6]، فهي تُشعِر بالانغماس الكامل في ظُلمة اللَّيل، والتَّجلُّل الباهر بنور النَّهار.

التصاق المُستخفِ والسّاربِ بالزَّمنِ كلِّه بقصد الخفاءِ والظُّهور

والتَّعبيرُ بالباء عوضًا عن حرف (في) - فلم يَقُلْ: (مُستخف في اللَّيل وساربٌ في النَّهار) - لبيان شدَّة التصاق المُستخفِ والسّارب

(1) الزّحيليّ، التّفسير المنير: 13/122.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/99.
(3) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 10/291، والآلوسيّ، روح المعاني: 7/105.
(4) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3908.
(5) الهلال، تفسير القرآن الثّريّ: 13/69.
(6) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 10/291.

بهذيْن الوقتيْن، فهو مُلازمٌ للَّيلِ كلِّه في الاستخفاءِ، كما أنَّه ملازمٌ للنَّهارِ كله في الظُّهور والانكشاف، فهي كنايةٌ عن شدَّة طلبه الخفاء والظُّهور.

براعة المقابلة في الآية:

قوبل هاهنا بين ستَّة: (الإسرار، والجهر)، و(الاستخفاء، والسُّروب)، و(اللَّيل، والنَّهار).

الظّاهر والخفيُّ في علم الله سواءٌ وإحاطةُ الله بعبادِه شاملةٌ لجميعِ الأحوال

ولقد ارتقت هذه المقابلة البديعة ذروة سنام البلاغة إذْ روعي فيها أن يجمع بين اللَّفظ وما يُناسبه ممّا يتعلَّق بمقابِله، حيث ذُكر الاستخفاء مع اللَّيل لكونه أشدَّ خفاء، وقوبل بذِكْر السُّروب مع النَّهار لكونه أشدَّ ظهورًا، والمعنى: أنَّ هذيْن الصِّنفيْن سواء لدى علم الله تعالى[1].

كما روعي أن يُقدَّم الخفيُّ على الظّاهر، وأنْ يُعطَف عليه ما يناسبه، حيث ذُكر الإسرار بالقول، وقوبل الجهر به، وذلك قُبَيل ذِكْر الاستخفاء والسُّروب، وتقديم الإسرار والخفاء لإثبات العلم بطريق الأوْلى، فإذا عَلِم سبحانه السِّرَّ؛ فهو للجهر أعلم، وإذا علم - تباركت أسماؤه - الخفاء؛ فهو للعلانية أعلم.

فالحاصل أنَّه لا تفاوت في علمه سبحانه بين الظّاهر والخفيّ، بل الجميع في علمه على سواء، إنَّما التَّفاوت يكون فيمن يكون علمه مبنيًّا على الحِسّ فيختلف عنده المحسوس عن غير المحسوس، وعِلمُ الله ﷻ ذاتيٌّ، كلُّ المعلومات عنده ﷻ على سواء، ولإشعار النّاس جميعًا بأنَّهم تحت سلطان علمه المحيط[2].

سرُّ التَّعبير بـ ﴿وَسَارِبٌ﴾ و﴿مُسْتَخْفٍ﴾:

على تبايُن الأحوالِ وتعارُضها فهي في علمِ الله سواء

تدور معاني (سرب) حول الاتِّساع والذَّهاب في الأرض[3]،

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/99.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3908.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (سرب).

ويُضاف إلى ذلك أنَّ مجيئه على هذه الصيغة يُشير إلى نوع تجرُّؤ واقتحام، بخلاف ﴿مُسۡتَخۡفٍ﴾ فتدلُّ صيغته على نوع تكلُّف وجهد.

ومن هنا يظهر سرُّ جمال الطِّباق بين ﴿وَسَارِبُۢ﴾، و﴿مُسۡتَخۡفٍ﴾، فالأولى تدلُّ - بمعناها وصيغتها - على المبالغة في الظُّهور[1]، بينما تدلُّ الأخرى - بمعناها وصيغتها - على المبالغة في الخفاء.

والمعنى: يستوي في علم اللّه السِّرُّ والجهر المبالغ فيهما من النّاس، والظّاهر في الطُّرقات، والمستخفي في الظُّلمات، وهما اثنان قُصدت التَّسوية بينهما في اطِّلاع اللّه عليهما، مع تباين حالهما[2].

سرُّ الاكتفاء بلا إضافة (مَنْ هوَ):

حصر أحوال النّاس في الاستخفاء والظُّهور، وشمول علم الله تعالى بكلِّ مذكور

ظاهر التَّقسيم في قوله: ﴿وَمَنۡ هُوَ مُسۡتَخۡفٍ وَسَارِبُۢ بِٱلنَّهَارِ﴾ يقتضي تكرار (مَنْ) لكنَّه حُذف للعلم به؛ إذ تقدَّم قوله: ﴿مَّنۡ أَسَرَّ ٱلۡقَوۡلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ﴾؛ فلم يَقُلْ: (مَنْ أسَرَّ القَوْلَ وجَهَرَ بِهِ)، ويجوز أن يكون: ﴿وَسَارِبُۢ﴾، معطوفًا على ﴿مَّنۡ﴾ لا على ﴿مُسۡتَخۡفٍ﴾، فيصحُّ التَّقسيم، كأنَّه قيل: سواءٌ شخص هو مستخفٍ باللَّيل، وشخص هو ساربٌ بالنهار، ويجوز أن يكون معطوفًا على ﴿مُسۡتَخۡفٍ﴾، وأريدَ بـ ﴿مَّنۡ﴾ اثنان، والمعنى: سواء اللَّذان هما مستخفٍ باللَّيل والسّارب بالنَّهار.

وقيل: إنَّ المستخفي باللَّيل والسّارب بالنَّهار: صفتان لموصوف واحد، يستخفي باللَّيل، ويظهر بالنَّهار، ويعضِّد هذا كونه قال: ﴿وَسَارِبُۢ﴾، فعطفه عطف الصِّفات، ولم يَقل: (ومَن هو سارب) بتكرار (مَنْ)، كما قال: ﴿مَّنۡ أَسَرَّ ٱلۡقَوۡلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ﴾، إلّا أنَّ جعْلهما اثنيْن أرجح؛ ليقابل ﴿مَّنۡ أَسَرَّ ٱلۡقَوۡلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ﴾، فيكمل

(1) وقيل: ﴿وَسَارِبُۢ﴾ متوارٍ في سَرَب. ينظر: القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 9/290، وابن الجوزيّ، زاد المسير: 2/485.

(2) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 2/290، وابن جُزَيّ، التّسهيل: 1/401.

التَّقسيم إلى أربعة على هذا، ويكون قوله: ﴿وَسَارِبٌ﴾ عطف على الجملة، وهو قوله: ﴿وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ﴾ لا على ﴿مُسْتَخْفٍ﴾ وحده[1].

فالحاصل أنَّ حذف (مَن هوَ) من جملة ﴿وَسَارِبٌ بِٱلنَّهَارِ﴾ قد أدَّى - مع اختصار العبارة - معنيَيْن كليهما صحيح، فإمّا أن يكون المقصود شخصيْن: أحدهما مستخفٍ باللَّيل، والآخر: ساربٌ بالنَّهار، وإمّا أن يكون المقصود شخصًا واحدًا يستخفي باللَّيل ويسرب بالنَّهار، وهذا من بلاغة النَّظم المُعجِز أن تؤدي عبارة واحدةٌ أكثر من معنى، وتكون كلُّ المعاني المُؤدّاة بهذه الألفاظ صحيحة ومقصودة.

فإنَّ هذه الآية - بتضمُّنها هذا الحذف المُشار إليه - قد حصرت أحوال النّاس في الاستخفاء والظُّهور، فكأنَّه نشأ عن هذا في الذِّهن تصوُّر لفريقيْن: أحدهما دأبُه الاستخفاء باللَّيل، والآخر دأبُه السُّروب بالنَّهار، وهذان الفريقان قد عُبِّر عنهما بعطف ﴿وَسَارِبٌ﴾ على (مَن)، أو بالموصول العامّ (مَنْ) الَّذي يعني - في هذا الموضع - اثنيْن أُجري عليهما الحكم بالسَّواء، أو بتقدير (مَنْ) قبل ﴿وَسَارِبٌ﴾ وبقاء المعنى، وهذا مذهب الكوفيين.

والقسمة العقليَّة تقتضي وجود فريق ثالث يستخفي تارةً، ويسرب تارةً، فكلا الأمريْن مُتحقِّقٌ فيه، فينشأ عن تصوُّر ذلك سؤالٌ: أين ذِكرُه في الآية؟

فتأتي الإجابة أيضًا من بلاغة الحذف، أيْ: حذف (ومَنْ هوَ)، ويكون التَّقدير: سِرُّ مَن أسرَّ، وجهر مَن جهر سواءٌ منكم[2].

أمّا سرُّ عدم حذف (مَنْ) في مقابلة الإسرار بالجهر في قوله تعالى: ﴿مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ﴾؛ فإنَّه راجع إلى أنَّ مفعول فِعْلَي الجهر والإسرار واحد، وهو القول، فإمّا أنْ يُسَرَّ، وإمّا أن يُجهَرَ به، ولا يُتوجَّه للقول الواحد من الفاعل الواحد إسرار وجهر في الوقت ذاته، بخلاف الجملة الأخرى حيث ذُكر فيها ظرفان متغايران، أحدهما هو اللَّيل، والآخر هو النَّهار، ويصحُّ أن يُتوجَّه من الفاعل الواحد إسرار باللَّيل وجهر بالنَّهار.

(1) ابن جُزَيّ، التّسهيل: 1/401.
(2) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 9/290.

والنُّكتة في زيادة ﴿هُوَ﴾ في الأوَّل أنَّه الدّالُّ على كمال العلم، فناسب زيادة تحقيق، وهو النُّكتة في حذف الموصوف عن ﴿وَسَارِبٌ﴾ أيضًا، وهو الوجه في تقديم ﴿أَسَرَّ﴾ وإعماله في صريح القول على جهرِه وإعماله في ضميره[1].

فنُّ الطِّباق بين اللَّيل والنَّهار:

حصرُ الأوقاتِ تكميلٌ لحصر الأحوال

جيء بالطِّباق بين اللَّيل والنَّهار، وهو طباق إيجاب؛ لتأكيد المعنى، وإثبات شمول علم الله تعالى وإحاطته بكلِّ شيء، وذلك بطريق حصر الأوقات؛ ذلك أنَّ العمل (قولًا كان أو فعلًا) لا يخلو عن زمنٍ، والزَّمن لا يخلو عن نهار وليل.

وهذا من باب التَّفنُّن في التَّعبير عن المعنى؛ لأنَّه لمّا كان ذِكرُ الإسرار بالقول والجهر به حاصرًا لأحوال اللِّسان، ولمّا كان ذكرُ الاستخفاء باللَّيل والسُّروب بالنَّهار حاصرًا لأحوال الجوارح؛ جيء بما يحصر أحوال الزَّمن الَّذي هو ظرف للأعمال القوليَّة والفعليَّة.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيّةُ:

السرُّ والخفاء:

السرُّ أغْوَر من الخفاء

السِّرُّ: إخفاء الشَّيء في النَّفس، ولو اختفى بستر أو وراء جدار لم يكن سرًّا، ويُقال: في هذا الكلام سرٌّ تشبيهًا بما يخفي في النَّفس، ويُقال: سِرّي عند فلان تريد ما يُخفيه في نفسه من ذلك، وتقول لصاحبك: هذا سرٌّ أُلقيه إليك، تريدُ المعنى الَّذي تخفيه في نفسك[2].

ويدور المعنى المحوريُّ لأصل السِّرِّ حول غُؤور إلى العمق بامتداد ودقَّة؛ ومن ذلك السِّرُّ يُكتَم كأنَّه أُخفيَ في الجوف بعمق، وأسَرَّ الشَّيءَ: كتَمَه[3].

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/105 - 106.
(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة: 2/63.
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: 2/981 - 983.

والخَفاء: ما يُستر به كالغطاء، فيُقال: أخفيته؛ إذا أوليته خفاءً، أيْ: سترته[1]. ويدور المعنى المحوريُّ لأصل الخفاء حول استتار الشَّيء استتارًا ضعيفًا بحيث يظهر من وراء السّاتر ظهورًا ضعيفًا أيضًا[2].

القول والكلام والحديث:

القول أعمُّ من الكلام والحديث

القول: كلُّ لفظ نطق به اللِّسان، تامًّا كان أو ناقصًا، فالقول قد لا يَتمُّ معناه إلا بغيره، ألا ترى أنَّك إذا قلت: قام وأخليته من ضمير؛ فإنَّه لا يَتمُّ معناه الَّذي وضع في الكلام عليه وله؟ لأنَّه إنَّما وُضِع على أن يُفاد معناه مقترنًا بما يُسند إليه من الفاعل، وقام هذه نفسها قول، وهي ناقصة محتاجة إلى الفاعل، وليس كذلك الكلام؛ لأنَّه وضع على الاستقلال والاستغناء عمّا سواه[3]. ومن أدلِّ الدَّليل على الفرق بين الكلام والقول: إجماعُ النّاس على أن يقولوا: القرآن كلام اللّه، ولا يقولوا القرآن قول اللّه، وذلك أنَّ هذا موضعٌ ضيِّق متحجِّر لا يمكن تحريفه، ولا يسوغ تبديل شيء من حروفه، فعُبِّر لذلك عنه بالكلام الَّذي لا يكون إلّا أصواتًا تامَّةً مفيدة[4].

والقول يُستعمَل في المتصوَّر في النَّفس قبل الإبراز في اللَّفظ، ومنه: في نفس فلانٍ قول لم يبرزه، وعليه قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ لَوۡلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُۚ﴾ [المجادلة: 8][5].

والحديث: هو الخبر يكشف عمّا في النَّفس[6]، ويَلزم ذلك تمامُ المعنى، ويلزمه كذلك انتفاءُ الإسرار عما كُشِف.

ولأنَّ القولَ الصَّوتيَّ دلالة على معنًى في النَّفس استُعمِل لفظه في

(1) الرّاغب، المفردات، ص: 289، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحُفّاظ: 1/518.
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: 1/582.
(3) ابن منظور، لسان العرب: (قول).
(4) ابن منظور، لسان العرب: (كلم).
(5) السّمين الحلبيّ، عمدة الحُفّاظ: 3/350.
(6) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: 1/390.

إشارة غير الصَّوت إلى معنًى، نحو: وقالت له العينان: سمعًا وطاعة، والعرب تجعل القول عبارة عن جميع الأفعال، أيّ: تُعبِّر به عنها، وتُطلقه على غير الكلام واللِّسان؛ فتقول: قال بيده، أيّ: أخذ، وقال برجله، أيّ: مشى[1].

فإذا أسرَّ الإنسانُ قولًا في نفسه، أو أسرَّ به إلى أحدٍ من البشر، فأبهمَ فيه، أو جعله ناقصًا عمّا هو مخبوء في نفسه، أو جعله تامًّا مُخبِرًا كاشفًا عمّا فيها، أو خانه لسانُه عند الإسرار به، فلم يُفصح، أو أشار إليه إشارةً سِرّيَّةً؛ كان ذلك كلُّه معلومًا عند الله ﷻ، لا يَخفَى عليه مكتومٌ ولا مُرادٌ ولا شيء.

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: 4/1825، وابن منظور، لسان العرب: (قول).

﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٞ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ سُوٓءٗا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٖ ١١﴾ [الرّعد: 11]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

ذِكْـر المُعقِّباتِ استكمالٌ لذِكْر أحوالِ الإنسانِ

لمّا أخبر ربُّ العزَّة سبحانه أنَّ السِّرَّ والإعلان، والغيب والشَّهادة سواءٌ في علمه، وأنَّه لا يخفى عليه شيءٌ في الأرض ولا في السَّماء؛ بيَّن وجودَ المُعقِّبات، وأنَّ إرادةَ الله إذا وقعت؛ فلا حافظَ من أمرِ الله إلا هو، وهذا دليل إحاطته سبحانه الكاملة؛ وهو مع ذلك لا يسلُب قومًا نعمةً أنعم بها عليهم حتى يغيِّروا الَّذي بأنفسهم من الخير والأعمال الصّالحة، أو يُغيِّروا الفطرة الَّتي فطرهم عليها؛ فإذا حلَّت عقوبته سبحانه بقوم لاستحقاقهم لذلك، فلا رادَّ لعذابه، ولا ناقض لحكمه[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مُعَقِّبَٰتٞ﴾: عَقِبُ كلِّ شيء، وعَقْبه، وعاقبته: آخره[2]، والعَقِب: مؤخَّر القَدَم، والعاقِب: الَّذي يخلف مَن كان قبله في الخير، وهو من أسماء النَّبيِّ محمَّد ﷺ؛ لأنَّه عقب مَنْ كان قبلَه من الأنبياء، وكل شيء خلف بعد شيء؛ فهو عاقب له[3]. وأصل معناه: "تأخير شيء، وإتيانه بعد غيره"[4].

والتَّعقيب: أن يأتي بشيء بعد آخر، والمُعقِّب: المُتتبِّع لشيء من حقٍّ أو غيره ليستردَّه[5]، و"التَّعاقب والاعتقاب: التَّداول"[6].

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 19/20، وأبو حيَّان، البحر المحيط: 6/360، والشّوكانيّ، فتح القدير: 3/81، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/102.
(2) الجوهريّ، الصِّحاح، وابن منظور، لسان العرب: (عقب).
(3) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، المُجمَل: (عقب).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عقب).
(5) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحُفّاظ، وابن منظور، لسان العرب: (عقب).
(6) ابن منظور، لسان العرب: (عقب).

والمُعقّبات: جمع مُعقِّبة، اسم فاعل عَقَبه إذا تَبِعه؛ وصيغة التَّفعيل فيه للمبالغة في العَقِب، يُقال: عَقَبه؛ إذا اتَّبعه واشتقاقه من العَقِب، وهو اسم لمؤخَّر القَدَم؛ لأنَّ الَّذي يتبع غيره كأنَّه يطأ على عقبه، والمُراد به في الآيةِ: الملائكة، ملائكة باللَّيل تعقب ملائكة النَّهار، وهم الحفَظَة، ومفرده مُعقِّب[1]، هذا قولٌ لدى المفسِّرين، والقول الآخر، المقصودُ بالمُعقِّبات: الحرس الَّذين يكونون مع الأمير[2]، وما يجري هذا المجرى، ممّا يتَّخذه النّاس لحمايتِهم من الأقدارِ.

2) ﴿يُغَيِّرُ﴾: "تغيَّر الشَّيء عن حاله: تحوَّل. وغيَّره: حوَّله وبدَّله، كأنَّه جعله غير ما كان"[3]. ومعناه المحوريُّ: "تحوُّل الشَّيء لحِدَّةٍ تخالطه تحوُّلًا تامًّا أو كالتّامّ"[4].

"والتَّغيير يُقال على وجهيْن: أحدهما: لتغيير صورة الشَّيء دون ذاته، يُقال: غيَّرتُ داري؛ إذا بنيتها بناءً غير الَّذي كان، والثّاني: لتبديله بغيره، نحو: غيَّرتُ غلامي ودابَّتي: إذا أبدلتهما بغيرهما، نحو: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ﴾"[5].

3) ﴿مَرَدَّ﴾: الرَّدُّ: صرف الشَّيْء، وردَّه يردُّه ردًّا ومَرَدًّا: صَرَفه[6]. وأصله من رجع الشَّيء[7]. و"الرَّدُّ صرف الشَّيء بذاته أو بحالة من أحواله"[8].

والمَرَدُّ: مصدر كالرَّدِّ، وأمرُ اللّه لا مَرَدَّ له: لا رادَّ له[9]. ومنه قوله اللّه تعالى: ﴿فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ﴾.

❁ المَعْنى الإجْماليّ:

يُبَيِّن المولى جَلَّ شأنه في هذه الآية الكريمة أنَّ لكلِّ إنسان ملائكةً وحَفَظةً يحفظون بدنه وروحه مِنْ كلِّ مَنْ يريده بسوء، ويحفظون عليه أعماله، وهم ملازمون له دائمًا، وهذا على

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، والجوهريّ، الصّحاح، وابن فارس، المُجمَل، وابن منظور، لسان العرب: (عقب)، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/100.

(2) ابن جرير، جامع البيان: 16/373.

(3) ابن منظور، لسان العرب: (غير).

(4) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (غير).

(5) الرّاغب، المفردات: (غير).

(6) الجوهريّ، الصّحاح، وابن منظور، لسان العرب: (ردد).

(7) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ردد).

(8) الرّاغب، المفردات: (ردد).

(9) ابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (ردد)، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/183.

أحدِ قولَيِ المُفسِّرين، والقول الآخر: هو ما يتَّخذه النّاس من أدواتٍ ووسائل؛ لتحميهم من أقدارِ الله تعالى، ومثَّلوا لذلك بالحرس الَّذي يحرسُ الأُمراء، وهذا القول هو الَّذي رجَّحه إمامُ المُفسِّرين، وهو ما عليه طائفةٌ من السَّلفِ[1]، وهو المُتناسبُ المتناغم مع السّياقِ، والمُنسحب على قانون البلاغةِ وعامودها، كما بيَّن سبحانه مدى رحمته بخَلقه؛ فهو لا يُغيِّر ما بهم من النِّعمة والعافية إلى النِّقمة والعقوبة حتى يُغيِّروا ما بأنفسهم بارتكاب المعاصي، وانتقالهم من بيئة الطّاعة والإيمان إلى بيئة الكفر والعصيان؛ فيسلبهم حينئذٍ النِّعمةَ، ويُحِلُّ عليهم النِّقمةَ، وفي ختام هذه الآية الكريمة يُجلّي لنا ربنا سبحانه مدى قدرته الخارقة من أنَّه تعالى إذا أراد هلاك قومٍ أو عذابهم لا يقدر على ردِّ ذلك أحدٌ، وليس لهم من دون الله وليٌّ، أو حبيب يدفع عنهم البلاء والعذاب[2].

الانتقالُ من نعمةِ الطّاعة إلى نقمةِ المعصية مؤذِنٌ بنزولِ العقابِ التَّأديبيِّ

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيّ:

علةُ فصل جملة ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٞ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ﴾:

يَجوزُ أنْ تَكونَ جملةُ ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٞ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ﴾ مُتَّصِلَةً بـ ﴿مَّنۡ﴾ المَوْصولَةِ، مِنْ قَوْلِه: ﴿مَّنۡ أَسَرَّ ٱلۡقَوۡلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنۡ هُوَ مُسۡتَخۡفِۭ بِٱلَّيۡلِ وَسَارِبُۢ بِٱلنَّهَارِ﴾، على أنَّ الجُمْلَةَ خَبَرٌ ثانٍ عَنْ ﴿مَّنۡ أَسَرَّ ٱلۡقَوۡلَ﴾ وما عُطِفَ عَلَيْه.

المعقِّباتُ شأنُها الحفظُ من غوائل الأوقاتِ، لا من إرادةِ ربِّ السَّموات

والضَّميرُ في ﴿لَهُۥ﴾، والضَّميرُ المَنْصوبُ في ﴿يَحۡفَظُونَهُۥ﴾، وضَميرا ﴿مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ﴾ جاءَتْ كُلُّها مُفْرَدَةً؛ لأنَّ كُلًّا مِنْها عائِدٌ إلَى أحَدِ أصْحاب تِلْكَ الصِّلات، حَيْثُ إنَّ ذِكْرَهُم ذِكْرُ

(1) ابن جرير، جامع البيان: 16/374.

(2) ابن جرير، جامع البيان: 13/456، والبغويّ، معالم التّنزيل: 4/300، وابن الجوزيّ، زاد المسير: 2/486، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 9/294، وابن جُزيّ، التّسهيل: 1/402، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/377، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/183، والسّيوطيّ والمحلّي، تفسير الجلالين، ص: 323، والسّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 414، والهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 14/187.

أقْسام مِنَ الَّذينَ جُعِلوا سَواءً في عِلْمِ اللّه تَعالَى، أيْ: لِكُلِّ مَنْ أسَرَّ القَوْلَ، ومَنْ جَهَرَ بِهِ، ومَنْ هوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ، وسارِبٌ بِالنَّهارِ؛ مُعَقِّباتٌ يَحْفَظونَهُ مِنْ غَوائِلِ تِلْكَ الأوْقاتِ[1].

وهذا التَّوجيهُ يسْتقيمُ مع القولَيْن المشهورَيْن في تفسيرِ الآيةِ.

معنى اللّام ومرجع الضَّمير في ﴿لَهُۥ﴾:

وظيفةُ المُعقِّبات حمايةُ البشر، واللّام هي لام شبه المِلك

جاءت اللّام في قولِه تعالى: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ﴾ الَّتي هي لام شبه المِلك، لبيانِ العلاقةِ الوثيقة بين المُعقِّبات والإنسان، وفي هذا دليل على شدَّة اقتراب الملائكة من الإنسان الَّذي يصحبونه، والمعنى: أنَّ لكلِّ مَن أسرَّ القول، ومَن جهر به، ومَن هو مستخفٍ باللَّيل، وسارب بالنَّهار؛ مُعقِّبات تُحيط به.

وعلى القول بأنَّ المُعقِّبات هي الحرس الَّتي تحرس الإنسان، ونحو ذلك من أدواتٍ يتَّخذها النّاسُ لحمايةِ أنفسِهم من الأقدار، كأساليب الحمايةِ المُتعدِّدة، فإنَّ أقدار اللّه إذا وقعت؛ كانت هذه الوسائل حاميةً للإنسانِ، كمَن يتَّخذ نظامًا لإطفاء الحرائق، فإذا نشب حريقٌ؛ عملَ نظامُ إطفاء الحرائق على إطفائها، فأنقذ الإنسان من الحريق، فإنَّ اللّام تدور ما بين أن تكون للمِلك، أو شبه المِلك.

نكتة إفراد الضَّمائر في الآية الكريمة:

المقصودُ حقيقةً الإنسانُ ككلٍّ فحسْن إفرادُ الضَّمائر

الضَّمائر في قولِه تعالى: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ﴾ ترجع إلى قوله: ﴿مَّنۡ أَسَرَّ﴾، وهي بمعنى الجمع، فيسأل عن نكتة الإفراد؟ ولماذا لم يَقُلْ: لهم مُعقِّبات؟ وهي الضَّمير في ﴿لَهُۥ﴾، والضَّمير المنصوب في ﴿يَحۡفَظُونَهُۥ﴾، وضميرا ﴿مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ﴾ جاءت مفردة، والجواب: أنَّ كلًّا منها عائدٌ إلى أحد أصحاب تلك الصِّلات؛ حيث إنَّ ذِكرَهم ذِكرُ أقسامٍ من الَّذين

(1) ابن عاشور: التّحرير والتّنوير: 13/100.

جُعلوا سواءً في علم اللّه تعالى، والمعنى: أنَّ لكلٍّ مَن أسرَّ القول، ومَن جهر به، ومَن هو مستخفٍ بالليل، وسارب بالنهار؛ مُعقِّبات يراقبون كلَّ أحدٍ في أحواله من إسرار وإعلان، وسكون وحركة وفي جميع أوقاته[1]، ولمّا كان المقصودُ من تلك الأحوال وهي الإسرارُ والجهر، والاستخفاء والظُّهور، ما يعتري الإنسانَ عمومًا؛ صفات الإنسانِ؛ كان الضَّميرُ عائدًا على الإنسانِ بكُلِّيَّتِه؛ فحسُن الإفرادُ دون الجمعِ.

غرض التَّقديم في قولِه: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ﴾:

قُدِّم المُسندُ على المُسند إليه في قولِه: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ﴾؛ لغرض التَّخصيص والقصر، فعلى تفسير المُعقِّبات بالملائكة يكون المعنى: أنَّ اللّه خلقَ لكلِّ إنسان ملائكةً خصَّه سبحانه بهم، فالضَّمير في ﴿لَهُۥ﴾ راجع إلى ﴿مَّنۡ﴾ في قوله: ﴿مَّنۡ أَسَرَّ ٱلۡقَوۡلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنۡ هُوَ مُسۡتَخۡفِۭ﴾، أيْ: لكلٍّ من هؤلاء مُعقِّبات[2].

اختصاصُ الإنسانِ بالمُعقِّباتِ بما يحميه من شرِّ نفسِه وشرِّ زمانِه

وعلى تفسير المُعقِّبات بما يحرسُ الإنسانَ يكون المعنى: أنَّ الإنسانَ يخصُّ نفسَه بمُعقِّباتٍ تحميه من الأقدارِ، ووسائل تدفعُ عنها غوائل الزَّمان.

بلاغة التَّعبير بلفظ ﴿مُعَقِّبَٰتٌ﴾:

المُعقِّبات: جمع مُعقِّبة (اسم فاعل) من (عقَّب)، وفي معناه مبالغةٌ في (عقب)؛ فصيغة التَّفعيل للمبالغة والزّيادة في التَّعقيب؛ فهو تكثير للفعل أو الفاعل.

التاءُ في (مُعقِّبة) للمبالغةِ لبيانِ متينِ ما يُحمى به الإنسانُ

والتّاء في (مُعقِّبة) للمبالغة لا للتَّأنيث؛ لأنَّ الملائكة لا توصف به، مثل نسّابة وعلّامة[3]، فالمعقِّبات، أي: المتناوبات الَّتي يخلف كلُّ واحد منها صاحبه، ويكون بدلًا منه، وهم الحَفَظَة من الملائكة في قول عامَّة المُفسِّرين[4].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/100.
(2) الشّوكانيّ، فتح القدير: 3/83.
(3) القاسميّ، محاسن التّأويل: 6/265.
(4) الشّوكانيّ، فتح القدير: 3/83.

يتعاقبون ليل نهار، الجماعة تأتي بعد الأخرى، وقد جاءت بصيغة الاسميَّة؛ لتدلَّ على أنَّهم ثابتون على هذه الصِّفة يظلّون هكذا مع كلِّ إنسان حتى يأتي أمر الله، وقد جاءت بصورة الجمع للكثرة؛ باعتبار كثرة الجَماعات[1].

أو يكون معنى ﴿مُعَقِّبَٰتٌ﴾ الَّتي تعقب الأحداثَ لتحمي الإنسانَ منها، وذلك على التَّفسير الآخر، وبلاغة التَّعبير تكمن في أنَّها معقِّباتٌ رصينةٌ في ذاتها، متينةٌ في وظيفتها، ثابتةٌ في غايتها، والإنسان يتَّخذها لتكون له حمايةً ووقاية.

وعُبِّر بلفظِ ﴿مُعَقِّبَٰتٌ﴾ دون الألفاظ الَّتي فُسِّرت بها اللَّفظة؛ لاحتمالِ هذا اللَّفظِ المعاني الَّتي فُسِّرت بها الآية، وهي الملائكة، والأسباب الَّتي يتَّخذها النّاس في حفظ أنفسهم، وكلُّ احتمالٍ له وجهه، والاحتمال الثّاني هو لائقٌ بالسّياق، وإن لم تكن له شهرة الأوَّل.

فائدةُ التَّركيب ﴿مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ﴾:

شمولُ التَّركيبِ لأحوالِ الإنسانِ كافَّة

هذا التَّركيب ﴿مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ﴾ مستعملٌ في معنى الإحاطة من الجهات كلِّها[2]، فالملائكة محيطة به لتحفظ كلَّ شاردة وواردة.

وعلى التَّفسير الآخر، فمعنى التَّركيب: هو ما يأتي الإنسانَ من أمامِه، وما يأتيه من خلفِه على حينِ غِرَّة، فهو يتَّخذ الأسبابَ الَّتي تحميه من كلِّ ما يُتصوَّر وقوع الخطر من جهته، فكان التَّعبيرُ دالًّا على شمولِ هذه المُعقِّباتِ لكلِّ الأحوال.

نكتة مجيء جملة الصفة ﴿يَحۡفَظُونَهُۥ﴾ متأخِّرةً:

إحاطةُ المُعقِّباتِ بالإنسانِ متقدِّمةٌ على وظيفتها

قولُه تعالى: ﴿يَحۡفَظُونَهُۥ﴾ صفةٌ لـ﴿مُعَقِّبَٰتٌ﴾، وقد فَصل بينها وبين الموصوف بقوله: ﴿مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ﴾؛ وذلك لبيانِ أنَّ هذه المُعقّباتِ محيطةٌ بالدَّرجةِ الأولى بالإنسانِ؛ إذ لا فائدة

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/360.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/101.

من حفظِها إن لم تكن محيطةً به، فقد يأتي الخطر من جانب، والحفظ يكون من جانب آخر، فكان ذِكر الإحاطةِ قبل الحفظ من حياطة الأفهام.

الحفظُ مستمرٌّ ومتفاوتٌ بحسب احتياجِ الإنسان

وإيثارُ صيغةِ المضارع لبيانِ تجدُّدِ الحفظِ، وأنَّ الحفظ مستمرٌّ باستمرار حياةِ الإنسان، كما أنَّه يومئ إلى تنوُّعِ الحفظ وتفاوته من إنسانٍ لآخر، فإنَّ النّاسَ متفاوتون بدرجاتٍ متباينةٍ في حاجتهم للحفظ، فحفظُ الأميرِ ليس كحفظِ الفقير، وهذا ظاهرٌ على تفسير المُعقِّباتِ بالحرس، وما يجري مجراها من الأسباب الحافظة، والوسائل الحامية ممّا يتخذه النّاسُ.

معنى ﴿مِنۡ﴾ في قوله: ﴿مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ﴾:

أفادت (مِنْ) معنى الابتداءِ، وهو الأنسبُ بسياق الآيةِ ونظْمِها

﴿مِنۡ﴾ إمّا أن تكونَ للسَّببيَّة، أيْ: بسبب أمر الله تعالى لهم بذلك[1]، فحفظهم ومراقبتهم إيّاه متسبَّبٌ عن أمر الله لَهم بذلك، ووُرود (من) للسَّبب ثابتٌ من لسان العرب[2]، وقيل: إن ﴿مِنۡ﴾ بمعنى (عن)؛ أيْ: يحفظونه عن أمر الله، بمعنى: من عند الله لا من عند أنفسهم[3]، قال الزَّجّاج: "المعنى: حفظهم إيّاه من أمْرِ الله، أيْ: ممّا أمَرَهُمُ الله تعالى به، لا أنَّهم يقدرون أن يدفعوا أمر الله، كما تقول: يحفظونه عن أمر الله"[4]، أيْ: يحفظونه حفظًا صادرًا عن أمرِ الله لهم بذلك الحفظ، وهذا ظاهرٌ على تفسير المُعقِّبات بالملائكة.

أمّا على تفسير المُعقِّبات بالوسائل الحامية؛ فإنَّ ﴿مِنۡ﴾ على بابِها، أيْ: يحفظونه ابتداءً من أمرِ الله بما يجري في هذه الحياة من أحداث، قال أبو البقاء: "مِنْ أمْرِ الله، أيْ: من الجنِّ والإنس،

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/107.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/361.
(3) درويش، إعراب القرآن: 5/91.
(4) الزّجّاج، معاني القرآن: 3/142.

فتكون ﴿مِنۡ﴾ على بابها[1]. يعني: أنْ يُرادَ بأمر الله نفسُ ما يُحْفَظُ منه كَمَرَدة الإنس والجنِّ، فتكون ﴿مِنۡ﴾ لابتداء الغاية[2]، أيْ: ما يوقعه الإنس والجنُّ على الإنسانِ من أحداثٍ، فهي لا تكون إلّا بأمر الله وإرادته سبحانه.

والقولُ بأنَّ ﴿مِنۡ﴾ على بابِها من معنى الابتداء هو الأليق بالمقامِ؛ إذ إنَّ المُعقِّبات بمعنى الحرس، والأدوات الحامية، والوسائل الرّاعية للإنسانِ، تحفظُ الإنسانَ ابتداءً من أمر الله تعالى، والمُراد بأمر الله ما يأتي من عمومِ الإنس أو الجنِّ من أمورٍ قد تقع للإنسانِ، فتُحدِثُ له شرًّا.

بلاغةُ ترتيبِ الكلامِ في الآية الكريمة:

تـرتـيـبُ نـظْـمِ الـقـرآنِ أصـلٌ لا يُـتـرك ورُكــنٌ لا يُجافى

في قولِه تعالى: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٞ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ﴾، ذهب الفرّاء إلى القول بالتَّقديمِ والتَّأخير بناءً على تفسير المُعقِّبات بالملائكة، فقال: "والمُعقِّبات من أمر الله ﷻ يَحفظونه، وليس يُحفظ من أمْرِه، إنَّما هوَ تقديمٌ وتأخير، والله أعلم، ويكون ﴿يَحۡفَظُونَهُۥ﴾ ذَلِكَ الحفظ من أمر الله وبأمره وبإذنه ﷻ"[3]، أيْ: له مُعقِّباتٌ من أمرِ الله يحفظونه، والقول بالتَّقديمِ والتَّأخير خلاف الأوْلى في قانون البلاغة، فإنَّ مُقتضى نظمِ القرآن التزامُ ترتيبه لمعرفةِ المُرادِ منه، لا تعكيسه ليوافق تفسيرَ المجتهدين، وكما قال السّمين الحلبيُّ: "وليس في الكلام تقديمٌ وتأخيرٌ كما زعم الفرّاءُ وغيرُه، وأنَّ الأصلَ: (له مُعَقِّبات مِنْ أمْرِ الله يحفظونه مِنْ بينِ يديه)؛ لأنَّ الأصلَ عدمُه مع الاستغناءِ عنه"[4].

(1) العُكبريّ، التّبيان: 2/754.
(2) السّمين، الدُّرُّ المصون: 7/30.
(3) الفرّاء، معاني القرآن: 2/60.
(4) السّمين الحلبيّ، الدُّرُّ المصون: 7/30.

وإنَّما قال الفرّاء ما قال؛ ليستقيم مع تفسير المُعقِّبات بالملائكةِ، مع عدم تقبُّلِه لأنْ تحفظ الملائكة الإنسانَ من أمرِ الله، وهي تحفظ بأمر الله، فقال بأنَّ الكلامَ على التَّقديمِ والتَّأخير، أيْ: إنَّ المعقِّبات آتيةٌ من أمر الله للحفظِ.

فائدة الإضافة في ﴿أَمْرِ ٱللَّهِ﴾:

الملائكةُ والإنس والجنُّ جميعًا ضمن أمر الله وإرادته

في إضافة ﴿أَمْرِ﴾ للفظ الجلالةِ تأكيدٌ للسّامع أنَّ هؤلاء الملائكة ليسوا مأمورين من قبل أيِّ أحدٍ، وإنَّما من الله القهّار الَّذي يكون ما يقول؛ فهم مطيعون منقادون لهذا الأمر، ولا رادع يمنعهم عنه، ولا تقصير في أداء مهمَّتهم، فإذا علم المرء أنَّ الملائكة يكتبون ما يفعله ويقوله؛ كان هذا رادعًا له عن المعاصي، وإذا علم أنَّ الله هو مَن كلفهم بهذا؛ كان الرّادع أكمل.

وعلى تفسير المُعقِّبات بالحرس والأدوات الحامية، وتفسير أمرِ الله بما يقع من الإنس والجنِّ، فإطلاقُ ﴿أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ بدلًا ممّا يقع من الإنسِ والجنِّ؛ لبيانِ أن لا شيءَ يقع إلّا بأمره ﷻ، فكلُّه ضمن أمرِه بمعنى إرادته تعالى.

علَّة الفَصْل في الآية:

الإصرار على الشِّرك جزاؤه زوال النِّعم وحلول العقاب

هذه الجملة - في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ - جاءت معترضة بين الجُمَل المتقدِّمة المَسوقة للاستدلال على عظيم قدرة الله تعالى وعلمه بمصنوعاته وبين التَّذكير بقوَّة قدرته وبين جملة ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾، والمقصود تحذيرهم من الإصرار على الشِّرك بتحذيرهم من حلول العقاب في الدُّنيا في مقابلة استعجالهم بالسَّيِّئة قبل الحسنة، ذلك أنَّهم كانوا في نعمة من العيش، فبطروا النِّعمة، وقابلوا دعوة الرَّسول ﷺ بالهُزْءِ، وعاملوا المؤمنين بالتَّحقير، فقالوا: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾﴾ [الزّخرف: 31]، ﴿وَذَرْنِى وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُوْلِى ٱلنَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ﴿١١﴾﴾ [المُزّمّل: 11].

فذكَّرهم اللّه بنعمته عليهم، ونبَّههم إلى أنَّ زوالها لا يكون إلا بسبب أعمالهم السَّيِّئة بعد ما أنذرهم، ودعاهم[1].

نكتة التَّأكيد:

في التَّأكيد على هذا المعنى - في قولِه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ﴾ - تنبيهٌ للزوم الطّاعة لعظيم أجرِها، ووبال المعصية، حيث قال عزَّ من قائل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ﴾ من النِّعمة والعافية ﴿حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ﴾؛ أيْ: ما اتَّصفت به ذواتهم من الأحوال الجميلة، لا ما أضمروه، ونووه فقط، والمُراد بتغيير ذلك تبديله بخلافه لا مجرَّد تركه[2].

يُجازى المرء على ما يُقدِّمه من أعمال

وبهذا التَّوكيد يطمئنُّ المحسن بأنَّه في حفظ اللّه دائمًا، فلا خوف عليه من عقاب اللّه، وبه يتوعَّد اللّه المُسيء بعذابه لإصراره على المعصية.

فائدة التقديم في ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ﴾:

تقدَّم المُسند إليه (الفاعل) وهو لفظ الجلالة ﴿ٱللَّهَ﴾ بما فيه من معاني الكمال على المُسنَد الفعليِّ المنفيِّ ﴿لَا يُغَيِّرُ﴾؛ طمأنةً للمُحسن، وتخويفًا للمُسيء، وتأكيدًا لفضل الطّاعة ووبال المعصية، فلا شيء يُعجز اللّه القادر، ولا مَردَّ لحُكْمه.

التَّغييرُ لا يكون من اللّه إلّا عند وقوعه من النّاسِ

كما أنَّ هذا التَّقديم أفاد الحصر، فإنَّ التَّغييرَ لا يقع من اللّه إلّا عند وقوعِ التَّغييرِ من النّاس، وفيه إشارةٌ إلى وعد اللّه تعالى لعبادِه ألّا يكون إيقاعُ العقوبةِ، إلّا إذا وقعت منهم معصيةٌ عامَّة.

سرُّ التَّعبير بمفردة ﴿يُغَيِّرُ﴾:

تدور معاني التَّغيير حول الاختلاف، فقولنا: هذا الشَّيء غير ذاك، أيْ: هو سواه وخلافه[3]، مخالفةً تامَّة، كما قال تعالى: ﴿يَوۡمَ تُبَدَّلُ ٱلۡأَرۡضُ غَيۡرَ ٱلۡأَرۡضِ﴾ [إبراهيم: 48].

التَّغيير تحويلُ الشَّيءِ بما يخالفه مخالفةً تامَّةً، والتَّبديل تبديل صورةِ الشَّيءِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/101 - 102.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/110.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (غير).

أمّا التَّبديل؛ فتدور معانيه حول قيام شيء مقام شيءٍ ذاهبٍ، يُقال: هذا بدل الشَّيء وبديله[1].

وبدَّلتُ الحلقة بالخاتم؛ إذا أذبتها وجعلتها خاتمًا، قال أبو العبّاس: وحقيقته أنَّ التَّبديل تغيير الصّورة إلى صورةٍ أخرى والجوهرة بعينها[2].

والتَّغيير: التَّبديل بالمغاير، فلا جرم أنَّه تهديدٌ لأولي النِّعمة من المشركين بأنَّهم قد تعرَّضوا لتغييرها[3]. فعبَّر في الآية الكريمة بـ ﴿يُغَيِّرُ﴾ ليخوِّفهم من تبديل جوهر حالهم وأصله، إلى حالٍ آخر لا علاقة له بالأوَّل بتاتًا؛ فعند ذلك يقع التَّغييرُ الماحقُ الَّذي حذَّر اللّه عبادَه منه.

نكتة المضارع المَنفيّ في ﴿لَا يُغَيِّرُ﴾:

في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ﴾، أي: إنَّ اللّه لا يسلب قومًا نعمةً أنعم بها عليهم حتى يُغيّروا الَّذي بأنفسهم من الخير والأعمال الصّالحة، أو يُغيّروا الفطرة الَّتي فطرهم اللّه عليها[4]، وجاء الحدث مُعبَّرًا عنه بصيغة المضارع المنفيِّ؛ لما في ذلك من وعدٍ أكيدٍ بنفي التَّغيير في كلِّ الأحوالِ المُتجدِّدة، إلّا في حالٍ واحدةٍ، وهي حال إحداثِ التَّغييرِ من قِبَل النّاسِ أنفسِهم.

وعدٌ من الله بنفي التَّغيير في كلِّ مُستجدٍّ إلّا في حال وقوعه من النّاس

فائدة مجيء الموصول بأداة ﴿مَا﴾:

في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ﴾، المقصودُ بـ ﴿مَا﴾ الموصولة هو حالةٌ، أيّ: حالة نعمةٍ؛ لأنَّها محلُّ التَّحذير من التَّغيير، وأمّا غيرها؛ فتغييره مطلوبٌ[5]. وصلتها ﴿بِقَوۡمٍ﴾، وكذا ﴿مَا

إبهام الأحوال وعمومها، فأيُّ حالةٍ تدخل في مضمون الخطاب

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (بدل).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (بدل).
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/102.
(4) الشّوكانيّ، فتح القدير: 3/84.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/102.

﴿بِأَنفُسِهِمۡۗ﴾. وفي ﴿مَا﴾ إبهامٌ؛ لا يتغيَّر المُراد منها إلا بسياق الكلام واعتقادٍ محذوفٍ يتبيَّن به المعنى، والتَّقدير: لا يُغيِّر ما بقوم من نعمة وخيرٍ إلى ضدِّ ذلك حتى يُغيِّروا ما بأنفسهم من طاعته إلى توالي معصيته[1]، وجيءَ بها بغرضِ العموم، أيّ: إنَّ اللّه لا يُغيِّر ما بقومٍ من أيِّ حالةٍ كانت، إلى الأخرى حتى يُحدِثوا هم التَّغيير.

معنى الباء في قوله: ﴿بِقَوۡمٍ﴾:

الباء للمُلابسة، والمعنى: حالة مُلابِسَةٌ لِقَوم؛ أيّ: حالة نعمة وخير؛ لأنَّها محلُّ التَّحذير من التَّغيير، وأمّا غيرها؛ فتغييره مطلوب[2].

سرُّ ذكر ﴿بِقَوۡمٍ﴾ دون (أحد):

تدور معاني كلمة (أحد) حول الانفراد[3]. أمّا لفظ (قوم)؛ فتدور معانيه حول الانتصاب والتجمُّع والمراعاة[4]، وهذه الظِّلال الدّلاليَّة تُبرز لنا سِرَّ إيثار التَّعبير بلفظ (قوم) دون أحدٍ؛ وهؤلاء الكافرون قوم اجتمعوا على التَّكذيب والجحود، فناسب ذلك العناد المجتمع لفظ (قوم)، ولذلك كان التَّغيير تغييرًا يشملهم جميعًا، بل قد يُصيب البلاء غير المذنب المجتمع بهم.

تهديدٌ بقدرة الله للمجتمعين على التَّكذيب والكفر

كما أنَّ لفظَ (قوم) فيه معنى القيام بالشّيءِ، فإنَّ القومَ قد قاموا على تغييرِ ما بهم من نِعَم، إلى ضدِّها، وهذا يدلُّ على أنَّ اللّه لا يظلمُ آحادَ النّاس، فيُغيِّر ما بهم؛ لأنَّ بعضهم قد غيَّر، بل لا يحدثُ التَّغييرُ إلّا إذا وقع التَّغيير ممَّن قام عليه، وبه، وإليه، باجتماعِ النّاس قائمين على تغييرِه.

فاللّه لا يُغيِّر ما بقوم حتى يقع منهم تغيير، إمّا منهم أو من

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/363.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/102.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (أحد).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (قوم).

النّاظر لهم، أو ممَّن هو منهم بسبب، كما غيَّر الله بالمنهزمين يوم أُحُد بسبب تغيير الرُّماة بأنفسهم، إلى غير هذا من أمثلة الشَّريعة[1].

معنى ﴿حَتَّىٰ﴾ في قوله: ﴿حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ﴾:

في قوله: ﴿حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ﴾، ﴿حَتَّىٰ﴾ الجارَّة - عند البَصْريّين - جاءت بمعنى الغاية هنا، والتَّقدير: إلى أن يُغَيّروا، وعلامة كونها للغاية أن يحسُن في موضعها (إلى أن)[2].

ترهيب المتمادي في المعصية بشدَّة العقاب، وترغيب التّائب بعظيم الثَّواب

والمعنى: أنَّ الله سبحانه لا يُغيِّر ما بقوم إلى أن يُغيِّروا ما بأنفسهم، وليس معنى الآية: أنَّه ليس ينزل بأحدٍ عقوبة إلّا بأنْ يتقدَّم منه ذنب، بل قد تنزل المصائب بذنوب الآخرين[3]، فالعبرةُ بأن يحدث التَّغييرُ من المجموع الكليِّ، الَّذين يقومون على إحداثه، وهناك مصائب يريد الله بها أجر المُصاب، فتلك ليست تغييرًا[4] منه، بل هي تغييرٌ وقع عليه، فليس عليه وزرها، بل له الأجر إن أمرَ بالمعروفِ، ونهى عن المنكر، فإنَّ الله لا يُكلِّف نفسًا إلّا وُسْعها.

بلاغة وقوع ﴿حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ﴾ موقع التَّسبُّب:

المعاصي بريد نزولِ النِّقم، والاستقامة سبيل مُثول النِّعم

أُطلق التغيير في قوله: ﴿حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ﴾ على التَّسبُّب فيه على طريقة المجاز العقليِّ[5]. وأُسنِد الفاعل إلى غير فاعله، فكأنَّه جعل اختيارهم التَّغيير قدرةً منهم عليه، ومعنى التَّسبُّب هنا ليس المُراد منه أنَّه لا يُنزل بأحدٍ من عباد الله عقوبةً حتى يتقدَّم له ذنب، بل قد تنزل المصائب بذنوب الآخرين، كما في الحديث[6] أنَّ رسول الله سأله سائل: «أنهلِك وفينا الصّالحون؟ قال: نعم؛ إذا كثُر

(1) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 9/294.
(2) ابن قاسم المُراديّ، الجنى الدَّاني، ص: 554.
(3) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 9/294.
(4) ابن عطيّة، المُحرَّر الوجيز: 3/303.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/102.
(6) الحديث عن أمّ المؤمنين زينب بنت جحش رضي الله عنها، صحيح البخاريّ، كتاب أحاديث الأنبياء صلوات الله عليهم، حديث رقم: (3346): 4/138.

الخَبَث»[1]؛ فقد تنزل مصائب بذنوب الآخرين، ومصائب يريد الله بها أجر المُصاب[2].

معنى الواو في ﴿وَإِذَآ﴾:

مقام التَّخويف والتَّحذير يقتضي التَّقريع والتَّكرير

الواو عاطفة، وجملة ﴿وَإِذَآ أَرَادَ﴾ معطوفة على جملة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ﴾[3].

وفائدة هذا العطف هي أنَّ جملة ﴿وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٍ سُوٓءٗا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ﴾ تصريح بمفهوم الغاية المُستفاد من ﴿حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ﴾ تأكيدًا للتَّحذير؛ لأنَّ المقام لكونه مقام خوف ووجل يقتضي التَّصريح دون التَّعريض ولا ما يقرب منه[4].

سرُّ التَّعبير بأداة الشَّرط ﴿وَإِذَآ﴾:

بمجرَّد إرادة الله إنزالَ العذاب بقومٍ فإنَّه يقع بهم مُتحقِّقًا

في قولِه تعالى: ﴿وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٍ سُوٓءٗا﴾، معنى ﴿وَإِذَآ﴾ هو تحقُّقُ الحدث، أيْ: إذا أراد الله أن يُغيِّر ما بقوم حين يُغيِّرون ما بأنفسهم لا يردُّ إرادته شيء، وذلك تحذير من الغرور أن يقولوا: سنسترسل على ما نحن فيه، فإذا رأينا العذاب؛ آمنّا، وهذا كقوله: ﴿فَلَوۡلَا كَانَتۡ قَرۡيَةٌ ءَامَنَتۡ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوۡمَ يُونُسَ﴾ [يونس: 98][5].

غرضُ التأخير في قولِه: ﴿وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٍ سُوٓءٗا﴾:

الله مُنزَّهٌ عن إرادةِ السّوء مُطلقًا فهي مُقيَّدةٌ بأحوالٍ مخصوصةٍ

تأخَّر المفعول به اهتمامًا بما تعلَّق به ﴿بِقَوۡمٍ﴾، وقد جرى في طريقة التَّنبيه على قدرة الله تعالى وإحاطته، تخويفًا لكلِّ امرئ على حِدَته؛ فالله الَّذي يُغيِّر أقوامًا لن يعجزه تغييرك أيُّها العبد.

كما أنَّ السّوء والخير بمنزلة واحدة في أنَّهما إذا أرادهما الله

(1) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 9/294.
(2) ابن عطيّة، المُحرَّر الوجيز: 3/303.
(3) الصّافي، الجدول: 3/99.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/102.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/102.

بعبد؛ لم يُردّا[1]. ولمّا كان سياق الكلام في تخويف للعصاة؛ اقتصر على قوله: ﴿سُوٓءًا﴾؛ وذلك لبيان قدرته، فإذا أراد تعالى شيئًا؛ فلا مَردَّ له، فذكر السّوء مبالغةً في التَّخويف[2].

وغرضُ التَّقديمِ تنزيهُ اللّه عن إرادةِ السّوءِ مُطلقًا، فقُدِّم الجارُّ والمجرور بغرضِ التَّقييدِ، وهذا من ملائح التَّقديمِ في القرآن الكريم، ونكتةٌ أخرى أقرب لأن تكون لطيفةً، فلو قال: (وإذا أراد اللّه سوءًا بقوم)، ووقف القارئ عند قولِه: (سوءًا)؛ لما صحَّ الوقفُ بأيِّ حالٍ، فقُدِّم الجارُّ والمجرور رعايةً لهذا الأدبِ.

نكتةُ التَّعبير بلفظِ الجلالة في الآية:

ذِكْرُ عنوانِ الألوهيَّة أدعى للارتداع عن مسالك الابتداع

عُبِّر بلفظ الجلالة ﴿ٱللَّهُ﴾، ولم يُعبَّر بـ (الرَّبِّ)، في قولِه: ﴿وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ سُوٓءٗا﴾؛ لأنَّ الرَّبَّ هو المُربي والقيِّم على الأمر والرّازق والهادي، وربُّ الشَّخص عادة يريد له هدايته وصلاحه وخيره، والشَّخص إذا أصابه سوءٌ أو فَزَعٌ؛ فَزِعَ إلى مالك الأمر والقائم عليه، وذِكْرُ لفظ الجلالةِ لما فيه من توريثِ المهابةِ في نفوسِ العبادِ، وفيه إشارةٌ إلى أنَّ الإرادةَ صادرةٌ عن اللّه ﷻ، فذلك أدعى للارتداعِ عن مسالك الابتداعِ.

وفي القرآن الكريم لم يَرِد إسنادُ إرادة السّوء أو الضُّرّ إلى لفظِ الرَّبِّ، وإنَّما إلى لفظِ الجلالةِ، فمثلًا قال تعالى: ﴿قُلۡ فَمَن يَمۡلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔا إِنۡ أَرَادَ أَن يُهۡلِكَ ٱلۡمَسِيحَ﴾ [المائدة: 17]، وقال: ﴿وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ سُوٓءٗا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ﴾، وقال: ﴿قُلۡ مَن ذَا ٱلَّذِي يَعۡصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنۡ أَرَادَ بِكُمۡ سُوٓءًا﴾ [الأحزاب: 17].

أمّا إذا ذُكِر لفظُ الرَّبِّ؛ فلا يُسند إليه إلا إرادة الخير والرُّشد ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبۡلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسۡتَخۡرِجَا كَنزَهُمَا رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۚ﴾ [الكهف: 82]، ﴿أَمۡ أَرَادَ بِهِمۡ رَبُّهُمۡ رَشَدٗا ١٠﴾ [الجنّ: 10].

(1) ابن عطيّة، المُحرَّر الوجيز: 3/303.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/363.

يعني: إسنادُ إرادة العقوبات والخيرِ يكون إلى لفظِ الجلالةِ، لكن إذا ذُكِر لفظُ الرَّبِّ في القرآن؛ فلا يُسنَد إليه إلّا إرادة الخير[1].

بلاغة اختيار مفردة ﴿سُوٓءًا﴾:

تدور معاني السّوء حول القبح[2]، وهو كلُّ ما يغمُّ الإنسان[3]. أمّا العقوبة؛ فتدور معانيها حول التَّأخير وإتيان الشَّيء بعد غيره، وقد سُمّيت عقوبةً؛ لأنَّها تكون آخرًا (ثاني الذَّنب)[4]. والعقاب والمعاقبة أن يُجزى الرَّجل بما فعل سوءًا، وعاقبه بذنبه معاقبةً وعقابًا: أخذه به[5]، ولمّا كان السّياق سياق تخويف وإنذار؛ ذكر اللّه السّوء وحده؛ لأنَّه يجمع كلَّ ما يسوء من مرض وفقر وغيرهما من أنواع البلاء[6]، فيعمُّ كلَّ بلاءٍ، واللّه يأخذُ النّاس ببلاءٍ يُناسبُ حالَهم، ويقع موقع العدلِ مع سلوكهم.

ذُكِر السّوء؛ لأنَّه يجمع كلَّ ما يسوء؛ فهو أعمُّ من العقوبة

نكتة استعمال ﴿مَرَدَّ﴾ دون (رادٍّ):

عُبِّر بالمصدر الميميِّ للدَّلالة على الاهتمام بالحدَث لا بمَن أحدثه، أيْ: فلا ردَّ له[7]. ونفيه بـ (لا) النّافية للجنس يتضمَّن تخويفًا لهم، بمعنى: أنَّه لا يكون ردٌّ إلّا بقدر اللّه، فلا أحدَ أي أحدٍ كان يقدر على دفعه، بل لو اجتمع أهل السَّموات وأهل الأرض كلُّهم جميعًا لردِّ السّوء، فلن يستطيعوا.

لا يُرَدُّ قضاء الله عن معاقَب، ولو اجتمع لذلك أهل الأرض والسَّموات

معنى الواو في قوله: ﴿وَمَا لَهُم﴾:

الواو عاطفة، حيث عطفت جملة ﴿وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ﴾ على جملة جواب الشَّرط السّابقة: ﴿فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ﴾[8].

تحذير المُفترين أنَّ أصنامهم تُنجّيهم من عذابِ الله

(1) السّامرّائيّ، لمسات بيانيّة: 12/313.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سوء).
(3) الرّاغب، مفردات القرآن: (سوء).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عقب).
(5) ابن منظور، لسان العرب: (عقب).
(6) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/111.
(7) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/111.
(8) الصَّافي، الجدول: 7/99.

وقد أفاد هذا العطف زيادة في التَّحذير من الغرور؛ لئلّا يحسبوا أنَّ أصنامهم شفعاؤهم عند اللّه[1].

فائدة التَّعبير بأداة ﴿وَمَا﴾ للنَّفي:

نـفـيُ عـمـومِ الـولايـة من دون الله في كلِّ الأزمنة

عدَلَ في الجملة عن النَّفي بـ (لا) الَّتي في الجملة السّابقة ﴿فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ﴾، كما عدَلَ عن استعمال المصدر الميميّ، كما استعمله في ﴿مَرَدَّ﴾، وآثر الاسم ﴿وَالٍ﴾؛ ذلك لما في النَّفي بـ (ما) من معنى العموم، وقد دلَّت على عموم نفي الولاية في كلِّ الأزمنة، ولا شكَّ أن (ما) أوسع استعمالًا لنفي الجنس من (لا)؛ فإنَّنا نستطيع نفي الجنس بها مُتَّصلةً ومُنْفصلة، وقد جاءت ﴿وَمَا﴾ هنا، ومعها ﴿مِّن﴾ الاستغراقيَّة الزّائدة الَّتي تعني: استغراق نفي الجنس[2]، والمقصود نفي جنس الولاية عنهم.

نكتة تقديم الخبر ﴿لَهُم﴾:

تأكيد نفي وجود والٍ عن كلِّ أحدٍ لاسيَّما عمَّن حقَّت عليهم كلمة العذاب

أفادت هذه الجملة الكريمة تأكيد نفي وجود ناصر ينصر الَّذين كفروا باللّه؛ إن أراد اللّه أن يُعذِّبهم، وذلك عن طريق نفي الجنس الَّذي أفاده اقتران (ما) النّافية العاملة عمل ليس، و﴿مِّن﴾ الزّائدة في خبرها.

ومن هنا تبرز نكتة تقديم الخبر ﴿لَهُم﴾ الَّذي أفاد التَّخصيص والتَّوكيد، فما لهؤلاء الَّذين أراد اللّه أن يُعذِّبهم من ناصرٍ ينصرهم من دون اللّه تعالى.

وقد جاء هذا التَّقديم جريًا على نسق الآية الكريمة، حيث قال اللّه تعالى في أوَّلها: ﴿وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ سُوٓءٗا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ﴾، فإن قضى اللّه نزوله عليهم؛ فليس لهؤلاء الَّذين قصدهم اللّه بعذابه من مانع يَحجُبهم، أو ناصر ينصرهم، أو صَريخ يُغيثهم.

ويُضاف إلى ذلك أنَّ تقديم هذا الخبر قد أتاح لاسم (ما) المتأخِّر

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/102.
(2) السّامرّائيّ، لمسات بيانيّة: 11/27.

- وهو ﴿وَالٍ﴾ - أن يُؤَكَّد بالحرف الزّائد (من)، والحاصل أنَّه قد اجتمعت في هذه الجملة الكريمة جملةٌ من المُؤكِّدات، وهي النَّفي بـ (ما)، وتقديم خبرها على اسمها، ودخول حرف الجرِّ الزّائد على خبرها، ومجيئها معطوفة على جملة مصدَّرة بـ (لا) الَّتي لنفي الجنس.

دلالة التَّعبير بقوله: ﴿مِّن دُونِهِۦ﴾:

التَّعبير يوحي بدونيَّة جميع الأغيار، وعُلوِّ الله الواحد القهّار

دون: نقيضُ فوق (أيْ: إنَّها بمعنى: تحت)، وتعني هذه التَّحتيَّة كَوْن الشَّيء منخفضًا في أسفل شيء، ولأنَّ المنخفض قريب التَّناول استُعملت في معنى قرب المسافة، ومن كونِ الشَّيء أقربَ من شيء بعدَه، استُعملت في معنى الاختصاص بالشَّيء من حيث إنَّ الأقرب إلى الشَّيء يحوزه أوَّلًا قبلَ غيره، ثمَّ دونَ غيره، ويؤول هذا الاختصاص إلى معنى الغيريَّة ﴿مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأحزاب: 50] يُساوي (من غير المؤمنين) ﴿خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأحزاب: 50]؛ أيْ: هبة النِّساء أنفسهنَّ مُختصٌّ بك لا يجوز أن تهب المرأة نفسها لغيرك، وبهذا جاء التَّركيب: (من دون الله)، (من دون الرَّحمن)، (من دونه)[1].

كما أنَّ التَّعبير بدون، يومئ إلى أنَّ كلَّ ما يعتقده المشركون بإنزال النَّفع لهم، فهو دون الله تعالى، وما كان دون الله؛ فهو في الدّونِ، وقد بيَّن الله سبحانه في هذه الآية الكريمة نفي عموم الولاية باستثناء ولايته جلَّ شأنه؛ أيْ: ليس لهم من دون الله مَن يتولّاهم.

بلاغة التَّعبير بقوله: ﴿مِن وَالٍ﴾:

عموم نفي النُّصرة والمحبَّة والنَّفع بين المشركين وأندادهم

الوالي هو الَّذي يَلي أمرَ أحدٍ، أيْ: يشتغل بأمره اشتغال تدبير ونفع، مشتقٌّ من (ولي)؛ إذا قرب، وهو قرب مُلابسة ومعالجة[2]، والمعنى: ﴿وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ﴾ سبحانه ﴿مِن وَالٍ﴾ يلي أمورهم من ضَرٍّ ونفع[3]. فليس لهم مَن يلتجئون إليه، فيدفع عنهم ما ينزل بهم

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (دون).
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/102.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/111.

من اللّه سبحانه من العقاب[1]. وهذا المعنى لا تُؤدّيه مفردة ناصر الّتي تدور معانيها حول إتيان الخير وإيتائه[2].

الفُروقُ المُعْجَمِيّةُ:

التَّغيير والتَّبديل:

التَّغيير التَّبديل بالمغاير، والتَّبديل لا يُشترط فيه الاختلاف والمخالفة

الغين والياء والرّاء أصلان، أحدهما يدلُّ على اختلاف شيئَيْن[3]، والباء والدّال واللّام أصلٌ واحد، وهو قيام الشَّيء مقام الشَّيء الذّاهب[4]، والتَّغيير: التَّبديل بالمغاير[5]؛ فإذا أتيت بثوب أبيض مكان ثوب أسود مختلفٍ في القماش واللَّون؛ قلتَ: غيَّرتُ الثَّوب، وإذا أتيتَ بثوب أبيض مكان ثوب أسود، مصنوع من قماش واحدٍ، وكان الثّوبان لا يختلفان في شيء؛ قلتَ: بدَّلتُ الثَّوب.

ويدور معنى التَّغيير حول تحوُّل الشَّيء تحوُّلًا تامًّا أو كالتّامِّ، كتحوُّل نفس الغَيْرانِ من الرِّضا ونحوه إلى الغضب الشَّديد، وكالتحوُّل من القصاص إلى الدّية، ويُرَجَّح أنَّ أصلَ هذا التَّحوُّل يكون من حَسَن أو خَير إلى شرٍّ، كما جاء في الآية الكريمة: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمۡ يَكُ مُغَيِّرٗا نِّعۡمَةً أَنۡعَمَهَا عَلَىٰ قَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ﴾ [الأنفال: 53].

والتَّحوُّل من ذات أو حال إلى ذات أو حال أخرى ينشأ عنه معنى الاختلاف والمخالفة من جهتَيْن: أوّلاهما: أنَّ أحدهما مختلف عن الآخر ضرورة. والثّانية: أنَّ المتأخِّر منهما يخلف السّابق، قالوا: تغايرت الأشياء: اختلفت، ومن هذا الاختلاف جاءت ﴿غَيۡرَ﴾ صفةً بمعناه: ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوۡلًا غَيۡرَ ٱلَّذِي قِيلَ لَهُمۡ﴾ [البقرة: 59][6].

(1) الشّوكانيّ، فتح القدير: 3/84.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نصر).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (غير).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (بدل).
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/102.
(6) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: 3/1568، 1569.

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ﴿١٢﴾ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ ﴿١٣﴾﴾ [الرّعد: 12 - 13]

مُناسَبَةُ الآيَتينِ لِما قَبْلَهُما:

مَن أنزل النِّعمَ قادرٌ على أن يجعلها نِقَمًا، كما أنَّ البرقَ خوفٌ وطمعٌ

لمّا أنذر اللّه سبحانه الجاحدين لآياته بإنزال ما لا مردَّ له من العذاب والهلاك؛ أتبع ذلك بذكر آيات عظيمات مبهرات، فيها دلائل قدرته تعالى وحكمته؛ فهي تشبه النِّعم والإحسان من وجوه، وتشبه العذاب والقهر من وجوه، وهي كذلك تبعث على الرَّهبة والتَّرقُّب، والخوف والطَّمع، والضَّراعة والارتجاف في سياق يُصوِّر سلطان اللّه المتفرِّد وحده بالعظمة والقهر[1]، فالمناسبةُ كامنةٌ في التَّمثيل الحسّيِّ بقصدِ الإنذارِ والتَّرهيب، والإطماع والتَّرغيب، فإنَّ الإنسانَ إذا تفكَّر في آياتِ اللّه القائمةِ الَّتي تجمع الخوفَ والطَّمعَ؛ فهو سيعلم أنَّ الَّذي أنزلَ النِّعم، هو القادر على إنزال النِّقم.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلْبَرْقَ﴾: البرق: لمعان السَّحاب وتلألؤه، ومعناه المحوريُّ: لمعان الشَّيء، وبرقت السَّماء: لمعت، وكلُّ شيءٍ يتلألأ، ويلمع؛ فهو بارقٌ[2].

2) ﴿وَيُنشِئُ﴾: الإنشاء: ابتداء الخلق وإحداث الشَّيء وابتداؤه، وأصله من ارتفاع الشَّيء وسُموِّه، ومنه: نشأ السَّحاب: ارتفع، وأنشأه

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 19/20، وأبو حيّان، البحر المحيط: 6/363، وابن عادل، اللُّباب: 11/272، والبقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 10/294، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/103.

(2) الجوهريّ، الصِّحاح، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحُفّاظ، وابن منظور، لسان العرب: (برق).

اللّه: رفعه، و"نشأ السَّحاب لحدوثه في الهواء، وتربيته شيئًا فشيئًا، قال تعالى: ﴿وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ﴾، والإنشاء: إيجاد الشَّيْءِ وتربيته"[1].

3) ﴿ٱلثِّقَالَ﴾: الثِّقل: ضدُّ الخفَّة، فهما متقابلان، "فكلُّ ما يترجَّح على ما يوزن به، أو يُقدَّر به يُقال: ثقيل"، وهو واحد الأثقال، وهي الوزن.

ومعناه المحوريُّ: انجذاب الشَّيء المحمول إلى الأرض بقدر وزنه، والثِّقال: جمع ثقيل، وهو ما ترجَّح وزنه على خفَّته وازداد[2]، و"الثِّقل: كون الشَّيء أكثر كميَّة أجزاء من أمثاله، فالثِّقل أمر نسبيٌّ يختلف باختلاف أنواع الأجسام، فرُبَّ شيء يعدُّ ثقيلًا في نوعه، وهو خفيف بالنِّسبة لنوع آخر، والسَّحاب يكون ثقيلًا بمقدار ما في خِلاله من البخار"[3].

4) ﴿ٱلرَّعْدُ﴾: أُرعِد الرَّجل: أخذته الرِّعدة، وهي: نفضة ورجرجة تصيب الإنسان من فزع أو داء، ورجل رِعْديد: جبان، ورَعَد الرَّجل وبَرَق، وأرعد وأبرق: هدَّد وتوعَّد، ورعدت المرأة، وبرقت، وأرعدت: تحسَّنت، وتزيَّنت، وأصله من اضطراب الشَّيء وحركته، فكلُّ ما اضطرب؛ فقد ارتعد. ومنه: رعدت السَّماء، وأرعدت: ذاتُ رعدٍ، والرَّعد: صوت يُسمَع من السَّحاب[4].

5) ﴿خِيفَتِهِۦ﴾: الخوف: الذُّعر والفزع، وهو توقُّع المكروه عن أمارة مظنونة أو معلومة، ومعناه المحوريُّ يدور حول معنى الذُّعر والفزع، ومنه الخيفة: بمعنى: الحالة الَّتي يكون عليها الإنسان من الخوف[5].

6) ﴿ٱلصَّوَٰعِقَ﴾: صعِق الإنسانُ صَعْقًا وصَعَقًا: غُشي عليه من صوت يسمعه، وأصله من شدَّة الصَّوت، ومنه الصّاعقة: وهي نار تسقط من السَّماء في رعد شديد.

والصّاعقة كذلك: الصَّوت الشَّديد يتساقط معه قطع نار يُغشى منه، وهي صيحة العذاب.

---

(1) الرّاغب، المفردات: (نشأ).

(2) الخليل، العين، والجوهريّ، الصِّحاح، وابن فارس، المُجمَل، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (ثقل).

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/104.

(4) الخليل، العين، والجوهريّ، الصِّحاح، وابن فارس، المُجمَل، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (رعد).

(5) الجوهريّ، الصِّحاح، وابن فارس، المُجمَل، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (خوف).

وأصل الصّاعقة: الصَّوت الشَّديد في الجو، ثمَّ قد ينتج عنها نار فقط، أو عذاب، أو موت[1].

7) ﴿ٱلْمِحَالِ﴾: المَحْل: الكَيد والمَكْر، مَحَل فلانٌ بفلان: إذا سعى به عند السُّلطان بالوشاية والمكر، ويدور حول أصلٍ واحد وهو: الوشاية والسِّعاية بالمكر والحيل، ومنه المِحال: الكيد، والتَّوصُّل للأمر المطلوب بالحيل، "ومنه قولهم: تمحَّل؛ إذا تحيَّل"، ومنه قوله تعالى: ﴿وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ﴾. "جعل جدالهم في اللّه جدال كيد؛ لأنَّهم يُبرزونه في صورة الاستفهام"، وهو شديد المِحال: لا يغلبونه، والمعنى: شديد الجدال؛ لقوَّة حجَّته[2].

❁ المَعْنى الإجْماليّ:

يخبِر المولى تعالى أنَّه هو الَّذي يُسخِّر البرق؛ خوفًا للمسافر من أذاه ومشقَّته، وطمعًا للمُقيم يرجو بركته ومنفعته، وهو سبحانه مَن يُكوِّن السُّحب المملوءة بالأمطار، ويُقدِّسه كلُّ ما في الكون من الرَّعد والملائكة وكلُّ المخلوقات خضوعًا له وإذلالًا، وهو الذَّي يُنزِّل الصَّواعقَ المُدمِّرة نِقمةً يُهْلكُ بها مَنْ شاء، ومع هذه القُدْرة الخارقة والخضوع التّامّ له سبحانه، لا يزال هناك مَنْ يجادلون في وجود اللّه ووحدانيَّته، وهو تعالى شديد القوَّة والبطش والنَّكال[3].

يزجر الله عباده بالنِّعمة كما يزجر بالنِّقمة؛ فهو سبحانه البديع في خلقه، العظيم في صنعه

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيّ:

عِلَّة الفَصْل في ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ﴾:

في قولِه تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ استئناف ابتدائيٌّ على أسلوب تعداد الحججِ الواحدة تلو الأخرى، فلأجل

تعداد الحُججِ المتماثلة؛ إظهارٌ لقدرة الله، وتحقيقٌ لشمول علمه

(1) الخليل، العين، والجوهريّ، الصِّحاح، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (صعق).

(2) الجوهريّ، الصِّحاح، وابن فارس، المُجمَل، والمقاييس، وابن منظور، لسان العرب: (محل)، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/106.

(3) ابن الجوزيّ، زاد المسير: 2/486، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/378.

أسلوب التَّعداد - إذ كان كالتَّكرير - لم يعطف على جملة ﴿سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ﴾.

وقد أعرب هذا عن مظهر من مظاهر قدرة اللّه وعجيب صنعه، وفيه من المناسبة للإنذار بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ﴾ أنَّه مثال لتصرُّف اللّه بالإنعام والانتقام في تصرُّف واحد مع تذكيرهم بالنِّعمة الَّتي هم فيها، وكلُّ ذلك مناسب لمقاصد الآيات الماضية في قوله: ﴿ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ﴾، وقوله: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ﴾، فكانت هذه الجملة جديرةً بالاستقلال، وأنْ يُجاء بها مستأنفةً؛ لتكون مستقلَّة في عداد الجُمل المستقلَّة الواردة في غرض السّورة[1].

وهكذا نلحظ براعة الفصل دون الوصل في مجيء قوله تعالى: ﴿سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ﴾، وقولِه جلَّ شأنه: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ﴾، بعد قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ﴾ هكذا من دون حرف النَّسَق؛ لأنَّ قوله تعالى: ﴿سَوَآءٌ مِّنكُم﴾ مُقَرِّرٌ لقوله سبحانه: ﴿ٱللَّهُ يَعْلَمُ﴾ من زيادة الإدماج المذكور تحقيقًا للعلم، وقوله ﷻ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ﴾ مقرِّرٌ لما ضُمِّن من الدَّلالة على القدرة في قوله تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ﴾، مع رعاية نمط التَّعديد على أسلوب: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝٣﴾ [الرّحمن: 1 - 3]، وفي هذا ما يبهر الألباب، ويُظهِر للمتأمِّل في وجه الإعجاز التَّنزيليِّ العجب العجاب[2].

نكتةُ البَدْء بضمير الفصل لا باسْمِ الجلالة:

افتُتِحت الجملة بضمير الجلالة دون اسم الجلالة المفتَتَح به في الجُمل السّابقة، فجاءت على أسلوب مختلف؛ وذلك مراعاةٌ لكون هذه الجملة الكريمة مفرَّعةً عن أغراض الجُمل السّابقة؛ ذلك أنَّ

الجملُ المتفرِّعةُ عن جُملِ فواتحِ المقاصدِ تختلفُ في بنائها وأسلوبها

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/103.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/115.

جُمَلَ فواتح الأغراض افتُتِحت بالاسم العَلَم الجليل، كقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ﴾ [الرّعد: 2]، وقوله سبحانه: ﴿ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ﴾، وقوله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾. أمّا جُمَلُ التَّفاريع؛ فافتُتِحت بالضَّمائر، كقوله تعالى: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾ [الرّعد: 2]، وقوله سبحانه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ﴾ [الرّعد: 3]، وقوله ﷻ: ﴿جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ﴾ [الرّعد: 3][1].

بلاغة الاسم الموصول في الآية:

التَّعبير بالاسم الموصول في سياق التَّعظيم زيادةٌ في التَّعظيم

استعمال الاسم الموصول في هذا السياق - في قولِه تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ - له دلالات بلاغيَّة لطيفة، منها:

أولًا: إفادة الاختصاصِ، فالاسمُ الموصول من المعارف، وقد وقع خبرًا للمبتدأ ﴿هُوَ﴾، أيْ: إنَّه (مُسنَد)، ومن المتقرَّر في علم المعاني: أنَّ في تعريف المُسنَد قصرًا له على المُسنَد إليه، والقصر هنا حقيقيٌّ[2]. وهذا ممّا يُفيد الاختصاص.

ثانيًا: وقوع الاسم الموصولِ خبرًا في مثل هذا السّياق قد أفاد مع الاختصاص شيئًا آخر تُغمغِم به الصِّلة، وهو قصر مدلول الصِّلة عليه، وهذه الدَّلالة الهامسة تكمن في طبيعة التَّعريف بالصِّلة؛ لأنَّها لا بدَّ أن تكون أمرًا معروفًا، كما يقول النُّحاة، وتظهر هذه الإيماضة الجاذبة جليَّة عند تأمُّل مواقعها في الكتاب العزيز.

ففي قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ﴾ نجد أنَّ التَّعريف بالصِّلة - فوق دلالته على الاختصاص - يشير إلى أنَّ أمر تلك القصَّة اللّافتة، والَّتي جذبت أنظاركم إلى محيط النَّظر فيها إنَّما فاعلها هو الله ﷻ، فإنَّ إراءة البرق، وإسماع الرَّعد، وتسبيح الملائكة؛ كلُّ هذا مقصور على الله ذي الجلال، فلا يُشاركه فيه

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/103.
(2) أبو موسى، خصائص التّراكيب، ص: 304 - 305.

أحد، ولا يُنازعه منازعٌ على الأبد، ولو حُذف الموصول في ذلك، ونُقلت الجملة من وضعها، أيّ: كونها صلة لها هذه الخصوصيَّة إلى أن تكون خبرًا فحسب؛ لذهب هذا المعنى[1].

ثالثًا: الاسم الموصول مُفتقر بالضَّرورة إلى صلة تُفسِّره، طالبٌ إيّاها بشدَّة، وهذا الافتقار جعل ارتباطه بصِلته ارتباطًا تلازميًّا، ممّا يُضفي على التَّركيب ظلالًا من التَّوكيد تغيب بغيابه.

والصِّلات المذكورة في الآية هي قوله تعالى: ﴿يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ﴾، وقوله سبحانه: ﴿وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ﴾، وقوله ﷻ: ﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ﴾، وقوله ﷻ: ﴿وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ﴾.

وهذه الصِّلات الأربع الَّتي وُصلت بها ﴿ٱلَّذِى﴾ تدلُّ على القدرة الباهرة، والتَّصرُّف التّامّ في العالم العُلويّ والسُّفليّ، فالمتَّصف بها ينبغي ألّا يُجادَل فيه، وأن يُعتَقَد ما هو عليه من الصِّفات العلويَّة[2].

رابعًا: اشتمال جملة الموصول على مجموعة من الأفعال المتعاطفة، بُجمَل فعليَّة لها متعلِّقات كلُّها داخلة في الإخبار عن الله تعالى، فهو الَّذي يُري عباده البَرق لا غيره، وهو الَّذي يُنشئ السَّحاب لا غيره، وهو الَّذي تسبِّحه الملائكة لا غيره.

والاسم الموصول جاء في سياق التَّعظيم، فزاد من تعظيمه، وتبيَّن لنا إلى أيّ مدًى كان التَّعبير بالموصول في هذا السياق بديعًا بليغًا.

نكتة التَّعبير بالمضارع في ﴿يُرِيكُمُ﴾:

أفاد التَّعبير بالفعل المضارع تجدُّدَه وتكرُّره، فقوله تعالى: ﴿يُرِيكُمُ﴾، أيّ: على سبيل التَّجديد دائمًا[3]. ويُستفاد من ذلك تأكيد طلاقة قدرة الله تعالى مع عظيم رحمته وامتنانه سبحانه

تأكيد طلاقة قدرة الله تعالى مع عظيم منّته على خلقه إذ تتكرَّر منه النِّعم

(1) أبو موسى، خصائص التّراكيب، ص: 304 - 305.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/366.
(3) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 10/293.

على خلقه، وأنَّه المستحقُّ للعبادة؛ لأنَّه الخالق المُدبِّر الَّذي تتكرَّر منه النِّعم، وتتجدَّد منه الآلاء، ويأتي منه الإنذار بعد الإنذار ليُطمِّع المؤمنين في ثوابه، ويُخوِّف الكافرين من عقابه.

بلاغة الجمع في ﴿خَوۡفٗا وَطَمَعٗا﴾:

الخوف يعبِّر عن حالةٍ نفسيَّة تقابلها حالة الأمن، والطَّمع يُعبِّر عن توقُّع خير، ونكتة الجمع أن الخوف هو نتيجة لرؤية البرق، والطَّمع لما يأتي بعد البرق من الخير العميم، فالمقصود بالخوف هو الخوف المؤقَّت، فالجمع بين اللَّفظيْن لا باعتبار التَّضادِّ بل باعتبار الآثار، وفيه تعريض بالمشركين الَّذين استعجلوا العقوبات، فهذا البرق ترونه خائفين من أن تُصيبكم نارُه، وطامعين في أن تغيثكم أمطاره، فأنَّى بعد هذا الخوف من مخلوق من مخلوقات اللّه العظيم تستعجلون عذابه، وتجحدون هداه؟ وكيف بعد افتقاركم لرزقه ورحمته تكفرون به، وتعبدون سواه؟

كيف لخائف من مخلوقٍ ألّا يخاف خالقَه؟ وأنَّى لِطامعٍ في رزق ألّا يعبد رازقَه؟

سرُّ الفصل بين رؤية البرق وتسبيح الرَّعد:

عند تأمُّل المواقع الإعرابيَّة لألفاظ ﴿ٱلۡبَرۡقَ﴾، و﴿ٱلسَّحَابَ﴾، و﴿ٱلرَّعۡدُ﴾ في الآية الكريمة يظهر أنَّها وقعت معمولاتٍ لأفعال سبقتها؛ فأمّا البرق؛ فوقع مفعولًا به للفعل ﴿يُرِيكُمُ﴾؛ وفاعلُه هو اللّه جلَّ ذِكرُه.

وأمّا السَّحاب؛ فوقع مفعولًا به للفعل ﴿وَيُنشِئُ﴾؛ وفاعلُه هو اللّه ﷻ، وأمّا الرَّعد؛ فوقع فاعلًا للفعل ﴿وَيُسَبِّحُ﴾.

ومن هنا يبرز سرُّ الفصل بين رؤية البرق وتسبيح الرَّعد بإنشاء السَّحاب، حيث روعيت المناسبة بين المتعاطفات، فعطف البيانُ القرآنيُّ جملة ﴿وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ﴾ على مشاكِلتها في الإعراب، ثمَّ عطف عليها جملة ﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعۡدُ﴾.

تسبيحُ الرَّعدِ يستقلُّ بمفهومٍ تعبُّديٍّ يختلفُ عن إراءة البرقِ وإنشاءِ السَّحابِ

ويُضاف إلى ذلك أنَّ البرق يُدرَك بالبصر لقوله تعالى:

﴿يُرِيكُمُ ٱلۡبَرۡقَ﴾، وكذلك السَّحابُ يُدرَك بالرُّؤية، أمّا الرَّعد؛ فيُدرَك بالسَّمع، ولو قُدِّر سماع تسبيح الملائكة؛ فسيُدرَكُ بالسَّمع كذلك، فروعيت هذه المناسبة في ترتيب المعطوفات.

كما أنَّ تسبيحَ الرَّعد فيه إشارةٌ إلى عبادةِ الرَّعد لله تعالى، مع ما عُطفَ عليه من تسبيح الملائكة، فيُؤخذُ من هذا أنَّ التَّسبيحَ قد تراخى عن فعل الإراءةِ والإنشاء؛ لما فيه من استقلالٍ في مفهومِ العبادةِ.

نكتة التَّعبير بلفظ: ﴿وَيُنشِئُ﴾:

الإشـــارةُ إلى تـدرُّجِ السَّحابِ في الإنشاءِ حتَّى يكتملَ

تدور معاني النُّشوءِ حول الارتفاع والسُّموّ، ويدلُّ على حدوث الشَّيْء من جنسه مبتدَأً صغيرًا آخذًا في الاستغلاظ، ومن هنا قيل: نَشَأ السَّحابُ؛ لحدوثه في الهواء، وارتفاعه، وتربيته شيئًا فشيئًا[1]. والإنشاء أيضًا: فعل الشَّيْء من غير سبب مولِّد[2].

ومن هنا تبرز نكتة إيثار التَّعبير - في هذا الموطن - بالإنشاء دون الخلق أو السَّوق أو التَّسيير؛ لدلالته على معاني الإيجاد، والتَّربية، والتَّكوين، والرَّفع.

وإذا كان الإنشاء يلتقي مع الخلق في معنى الإيجاد من عدم؛ فإنَّ الإنشاء فيه معنى الارتفاع والتَّربية شيئًا فشيئًا، وهذا يُناسب حالة السَّحاب الَّذي يخلقه الله في جوِّ السَّماء، ويبدأ صغيرًا، ثمَّ يأخذ في النُّموِّ شيئًا فشيئًا حتَّى يصبح ثقيلًا على ما اقتضته إرادة الله تعالى وحكمته.

وإنشاء السَّحاب: تكوينه من عدم بإثارة الأبخرة الَّتي تتجمَّع سحابًا[3]، وفي هذا دلالة على أنَّ السَّحاب يعدمه الله تعالى، ثمَّ يخلقه جديدًا[4].

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (نشأ).
(2) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 10/294.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/104.
(4) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 14/206.

وعبَّر ﷻ بالنِّسبة للسَّحاب بأنَّه أنشأها، ولم يَقُلْ سيَّرها؛ لأنَّ اللّٰه تعالى يشير بذلك إلى رحمته بالنّاس[1].

أمّا التَّعبير بصيغة المضارع؛ فللدَّلالة على تجدُّد هذا الإنشاء وتكرُّره، كما يراه النّاس، ويلمسون أثره، وفي التجدُّد إشارةٌ لعظيم رحمة اللّٰه بعباده حتى الكافرين، فبرغم كفرهم لم يقطع عنهم رزقه، بل يُحدثه لهم كلَّ يوم بلطفه ورحمته ﷻ.

ثمَّ إنَّ التَّعبير بالمضارع فيه مناسبة ومشاكلة للأفعال الواردة في هذه الآية الكريمة قبله وبعده، حيث جاءت على هذا النَّحو: ﴿يُرِيكُمُ﴾، ﴿وَيُنشِئُ﴾، ﴿وَيُسَبِّحُ﴾، ﴿وَيُرْسِلُ﴾، ﴿فَيُصِيبُ﴾، ﴿يُجَٰدِلُونَ﴾.

فائدة وصف السَّحاب بـ ﴿ٱلثِّقَالَ﴾:

عظيمُ صنيعِ الله ورحمتِه في حمل الماءِ الثَّقيل لسَقْي الكافرِ الثَّقيل

الثِّقل كون الجسم أكثرَ كَمية أجزاءٍ من أمثاله، والسَّحاب يكون ثقيلًا بمقدار ما في خلاله من البخار، وعلامة ثِقله قربُه من الأرض وبطءُ تنقُّلِه بالرياح، والخفيف منه يُسمَّى جَهامًا[2].

ومن هنا تبرز فائدة وصف السَّحاب بقوله: ﴿ٱلثِّقَالَ﴾، فإنَّ ذلك أنسب في سياق الامتنان، فهذا السَّحاب المُترع بالماء فوق رؤوسكم لم تحملوه، وإنَّما حمله اللّٰه تعالى بقدرته، وهو في السَّماء كالجبال في الأرض عِظَمًا وثِقلًا، لم تحرِّكوه، وإنَّما ساقه اللّٰه لكم بلطفه ورحمته، ولم تتكلَّفوا أن ترتقوا لتنالوا منه الماء، بل أمطره اللّٰه سبحانه بحكمته، ولم يكن ماؤه ملحًا، بل هو عذب فرات طهور يُسقيه اللّٰه ممّا خلق أنعامًا وأناسيَّ كثيرًا.

فالحاصل أنَّ قوله تعالى: ﴿ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ﴾ في معنى: خير عميم، وفضل عظيم.

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3913.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/104.

بلاغة المقابلة في الآية الكريمة:

مقابلةُ البشارة للنِّذارة، والتَّرغيب للتَّرهيب؛ إمعانٌ في الإعذار بعد بلوغ الإنذار

لمّا خوَّف الله تعالى العباد بقوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ سُوٓءٗا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ﴾؛ أتبعه بما يشتمل على أمور دالَّة على قدرة الله تعالى وحكمته، تُشبه النِّعَم والإحسان من بعض الوجوه، وتُشبه العذاب والقهر من بعض الوجوه[1].

أمّا الّذي يُشبه النِّعَم والإحسان من بعض الوجوه؛ فهو البرق والسَّحاب الثِّقال، وأمّا الّذي يشبه العذاب والقهر من بعض الوجوه؛ فصوت الرَّعد الرَّهيب الرَّعيب، وإرسال الصَّواعق.

فالمقابَلَة تشابه مقابَلَة النِّذارة للبشارة، فالبرق والسَّحاب الثِّقال يمثِّلان البشارة، وقد قابلهما ذِكرُ الرَّعد والملائكة وإرسال الصَّواعق، وهذه تمثِّل النِّذارة.

براعة ذِكْر تسبيح الرَّعد في الآية الكريمة:

بيان بعض مظاهر قدرة الله تعالى في التَّدبير والإنعام، والتَّحذير والانتقام

جيء في ذِكْر البرق بلفظ الإراءة مُسندًا إلى الله العظيم ﷻ، فقال سبحانه: ﴿يُرِيكُمُ﴾، فأسند الإراءة إلى ذاته سبحانه؛ لأنَّه الخالق في الأبصار نورًا يحصل به الرُّؤية للخلائق[2].

أمّا الرَّعد؛ فقد جيء فيه بذِكْر التَّسبيح، خلافًا لما قد يُتوقَّع من ذِكْر الإسماع مثلًا لمُشاكلة الإراءة في البرق، وسرُّ ذلك أنَّ هذه الآيات المباركات جاءت لبيان بعض مظاهر قدرة الله تعالى في التَّدبير والإنعام، والتَّحذير والانتقام.

فإنَّ هذا الرَّعد الَّذي تسمعون صوته عظيمًا ما هو إلّا مخلوق من مخلوقات الله تعالى[3] يُسبِّحه، ويُقدِّسه، ويُنزِّهه، ويحمده، فما لكم لا تؤمنون[4]؟

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 19/21، وأبو حيّان، البحر المحيط: 6/363.

(2) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 14/206.

(3) وذلك على كلا التَّأويلَيْن: أنَّه ملَك من الملائكة يسوق السَّحاب، وصوته تسبيحه، وهذا قول أكثر المفسِّرين. والتَّأويل الثَّاني: أنَّه صوت اصطكاك السُّحب بعضها ببعض، ولا يخفى على المتأمّل والموفّق أن لا تعارُض بين العلّة المادّية، وبين العلّة الغيبية، فلكلٍّ من الغيب والشّهادة عالمه، وتأويلاته.

(4) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/113.

وفي تسبيحه دلالة على خضوعه لله، وتنزيهه سبحانه عن الشَّريك والعجز، كما يدلُّ صوت المُسبِّح وتحميدُه على انقياده لقدرة ذلك الحكيم الخبير[1]، فما لكم لا تذعنون؟

وإذا كنتم تخافون صوته الَّذي يكاد يقتلع القلوب، وهو صوت تسبيح وخضوع لله، فكيف إذا كان صوتَ غضبٍ صُبَّ عليكم؟ فبأيِّ شيء تطلبون العذاب وتستعجلون؟

فالحاصل أنَّه لمّا كان الرَّعد صوتًا عظيمًا؛ جعل ذِكره عِبرةً للسّامعين لدلالة الرَّعد بلوازم عقليَّة على أنَّ الله مُنزَّه عمّا يقوله المشركون من ادِّعاء الشُّركاء، وكان شأنُ تلك الدَّلالة أن تبعث النّاظر فيها على تنزيه الله عن الشَّريك؛ لمّا كان ذلك كذلك؛ جُعل صوتُ الرَّعد دليلًا على تنزيه الله تعالى[2].

بلاغةُ الإسنادِ في قوله: ﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعۡدُ﴾:

في هذه الجملة الكريمة أُسنِد التَّسبيح إلى الرَّعد، فإنْ كان ممّا يصحُّ منه التَّسبيح؛ فهو إسناد حقيقيٌّ، وإن كان ممّا لا يصحُّ منه؛ فهو إسنادٌ مجازيٌّ[3].

خضوعُ الرَّعدِ مُسبِّحًا لله حُجَّةٌ على المشركين في إشراكِهم بالله

وبناءً على ذلك ففي الرَّعد قولان:

أحدهما: أنَّه ليس بملَك؛ لأنَّه عطَف عليه الملائكة، فقال: ﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ مِنۡ خِيفَتِهِۦ﴾ والمعطوف عليه مغاير للمعطوف.

والثّاني: لا يبعد أن يكون من جنس الملائكة، وإنَّما أفرده بالذِّكر تشريفًا، كقوله تعالى: ﴿وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبۡرِيلَ وَمِيكَىٰلَ﴾ [البقرة: 98]، وقوله تعالى: ﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمۡ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٖ﴾ [الأحزاب: 7][4].

(1) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 14/208.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/104.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/364.
(4) ابن عادل، اللُّباب: 11/275.

فعلى القول بالإسناد المجازيّ يكون توجيه المعنى: أنَّ الرَّعد ذاته يكون في حال تسبيح اللّه تعالى وحدَه؛ لأنَّ هذا الصَّوت المزعج الرَّهيب المفزع يكون خاضعًا للّه تعالى، دالًّا على توحيده سبحانه، وعلى كمال سلطانه، فكلُّ شيء يُسبِّح بحمده، وكلُّ الكون يخضع للّه تعالى مُسبِّحًا بحمده، وهي تدلُّ على الباعث على هذا التَّسبيح، وهو حمدُه على نعمة إيجاده، وكمال خضوعه[1].

ومن هنا تبرز بلاغة المجاز؛ فإذا كان الرَّعد - على جلاله وسطوته وشدَّة وطأته - يخضع لجلال اللّه تعالى وعظمته مُسبِّحًا حامدًا، فما للمشركين لا يؤمنون؟

وقيل: المضاف محذوف، أيْ: يُسبِّح سامعو الرَّعدِ من العباد الرّاجين للمطر حامدين له[2].

فنُّ الاحتباك في الآية الكريمة:

تناسُبُ ذِكْرِ الإراءةِ مع البرق، والتَّسبيح مع الصَّوت نسيجُ الاحتباكِ

في هذه الآية من المُحسِّنات البديعيَّة ما يُسمَّى بالاحتباك بين قوله: ﴿يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ﴾، وقوله: ﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ﴾، حيث حذف التَّسبيح من الطَّرف الأوَّل لذِكْر نظيره في الطَّرف الثّاني، وذكر الإراءة في الطَّرف الأوَّل لحذف نظيرها من الطَّرَف الثّاني، فتقدير الاحتباك: يُريكم البرق مُسبِّحًا، ويُسمِعكم الرَّعد مُسبِّحًا، وفي هذا من البهاء والرَّونق والبلاغة ما فيه، فقد أدَّى المعنى بأوجز لفظ وأخصر عبارة، وأثار الذِّهن لاستنباط ما حُذِف بدلالة ما ذُكِر، وهو من إبداعات القرآن وعناصر إعجازه.

سرُّ تعلُّق صفة الحمد بتسبيح الرَّعد:

تستوجبُ النِّعمُ شكرَ المنعِم بها على الوجه اللّائق به تقديسًا وتنزيهًا

المُراد بتسبيح الرَّعد: تنزيهه للّه تعالى عن كلِّ ما لا يليق بجلاله وعظيم سلطانه، وقد اقترنت صفة التَّسبيح بحمد اللّه تعالى بطريق

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3914.
(2) النّيسابوريّ، غرائب القرآن: 4/147.

المُلابسة، أيْ: ينزِّه الرَّعدُ اللّه تنزيهًا ملابسًا لحمده سبحانه من حيث إنَّه دالٌّ على اقتراب نزول الغيث، وهو نعمة تستوجب الحمد[1]، وفي هذا دلالة على فضله جلَّ شأنه ورحمته بحمد الحامد لما فيهما من الدَّلالة على صفات الكمال[2]، فالتَّنزيه دعوى دليلُها حمدُ اللّه تعالى.

موقع جملة ﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ مِنۡ خِيفَتِهِۦ﴾:

البرقُ والسَّحابُ والرَّعد تُشابِه الملائكةَ في الوظيفةِ والإنذار

قوله تعالى: ﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾ عطفٌ على الرَّعد، أيْ: وتسبِّح الملائكة من خيفته، أيْ: من خوف اللّه ﷻ[3]، ولهذه الجملةِ موقعٌ أخّاذ؛ إذ ذكَر الملائكة في سياق ذِكر البرق والسَّحابِ والرَّعد، وذِكرُ الملائكةِ دليلٌ على عظمةِ المخلوقاتِ المذكورةِ قبلها، وأنَّها تقومُ بوظيفتِها في هذه الحياةِ عابدةً مُسبِّحةً للّه تعالى، فإيرادُ الملائكةِ مُشعرٌ بأنَّ البرقَ والسَّحابَ والرَّعد تقتربُ من وظيفةِ الملائكة في التَّسبيح والتَّنزيه، وهي كذلك آيةٌ أقامَها الحقُّ للإنذارِ والتَّبشير.

معنى ﴿مِنۡ﴾ في قوله: ﴿مِنۡ خِيفَتِهِۦ﴾:

حقُّ العظيم أن يُخاف عقابُه، وأن يُعظَّم جنابُه

﴿مِنۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿مِنۡ خِيفَتِهِۦ﴾ للتَّعليل، أيْ: يُنزِّهون اللّه لأجل الخوف منه؛ أي: الخوف ممّا لا يرضى به، وهو التَّقصير في تنزيهه، وهذا اعتراض بين تعداد المواعظ لمناسبة التَّعريض بالمشركين، أيْ: إنَّ التَّنزيه الَّذي دلَّت عليه آيات الجوِّ يقوم به الملائكة، فاللّه غنيٌّ عن تنزيهكم إيّاه، كقوله تعالى: ﴿إِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمۡۖ﴾ [الزُّمر: 7][4].

بلاغة الاستعارة في ﴿وَيُرۡسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ﴾:

كلُّ ما في الملأ الأعلى يُطيع الله العليَّ الأعلى

في قوله تعالى: ﴿وَيُرۡسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ﴾ استعارة بديعة؛ حيث شبَّهت الآية الصَّواعق برُسل تعي عن ربِّها ما بلَّغها، ثمَّ تنقَضُّ على أعدائه

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/104.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/113.
(3) الخازن، لباب التّأويل: 3/9، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/104.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/104.

مهلِكةً منتقمة، فحذف المُشبَّه به، وجاء بشيء من لوازمه على سبيل الاستعارة المكنيَّة.

وقد أفادت هذه الاستعارة بيان طاعة الصَّواعقِ أمرَ ربِّها ﷻ، وأنَّها لا تعصيه، وأنَّها لا تحنو على أعدائه.

غرض جمع الصَّواعق وتعريفها باللّام:

التَّكثير مناسبٌ للتَّهديد والتَّذكير ملائمٌ للوعيد

الصَّواعق جمع صاعقة، وهي العذاب النّازل من البرق، فيحترق مَن تصيبه.

وقيل: هي الصَّوت الشَّديد النّازل من الجوِّ، ثمَّ يكون فيه نارٌ أو عذاب أو موت، وهي في ذاتها شيء واحد، وهذه الأشياء الثَّلاثة تنشأ منها[1].

والتَّعريف فيها للعهد؛ إذ المخاطَبون على علم بها وبآثارها، فناسب أن تكون زجرًا لهم، واقتصر في العبرة بالصَّواعق على الإنذار بها؛ لأنَّها لا نعمة فيها؛ لأنَّ النِّعمة حاصلة بالسَّحاب، وأمّا الرَّعد؛ فآلةٌ من آلات التَّخويف والإنذار، وكان العرب يخافون الصَّواعق[2].

وفي جمعها دلالة على التَّكثير والتَّعظيم، واستحضار الذِّهن لصورة نزولها من السَّماء على قدر المُكذِّبين المعاندين، فلكلِّ واحد منهم صاعقة محرقة، وفي ذلك من الرَّهبة والخشية ما يأخذ بمجامع القلب.

غرض الإخبار في قوله: ﴿فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ﴾:

التَّلويحُ بعصا التَّأديبِ زاجرٌ لِمَن استقرَّ في قلبِه رحى التَّأنيبِ

لقد حقَّق هذا الإخبار غرض الرَّد على مزاعم الكافرين الَّذين حسبوا أن تأخير نزول العذاب بهم مع كفرهم وتكذيبهم إنَّما يرجع لأمرَيْن: إمّا لكذب المتوعِّد أو لعجزه، تعالى اللّه عن ذلك علوًّا كبيرًا.

(1) الخازن، لباب التّأويل: 3/9.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/105.

فجاءت هذه الآية لتبيِّن أنَّ من آيات الله الصَّواعق، ولم يكن المخاطَبون يجهلون شأنها ولا بليغ أثرها فيمَن تصيبه، فوجَّههم خطاب القرآن إلى أنَّ إرسال الصَّواعق الَّتي رأيتموها، ولمستم ما أحدثته من دمار إنَّما كان بمشيئة الله وقُدرته وإرادته، وأنَّ صرْفها عنكم - مع استعجالكم بها - إنَّما هو لأمر أراده الله سبحانه، فلا معقِّب لحكمه، ولا رادَّ لقضائه.

فكما قدر سبحانه على إرسالها على غيركم، فهو قادر على أن يرسلها عليكم، وفي هذا تهديد وإنذار وتخويف بقرب نزول السَّيِّئات لِمَن طلبها.

فائدة التَّعبير بقوله: ﴿مَن يَشَآءُ﴾:

إكسابُ اللَّفظِ العمومَ وتوجيه قلوبِ العبادِ إلى مشيئة الرَّحمن

في التَّعبير بقوله: ﴿مَن يَشَآءُ﴾ فائدة عظيمة، وهي بيان أنَّ الله ﷻ لا ينزل العذاب باقتراح مقترح، ولا يُصيب بالعقوبة مَن رامها متحديا إن لم يشأ الله تعالى ذلك، ولا يجعل التَّنكيل بيد أحدٍ يوجِّهه كيف شاء، بل كلُّ شيء تابع لمشيئة الله سبحانه، فلا يكون إلّا ما يريد.

ولو كان النَّظم (فيُصيب بها الكافرين)؛ فلربَّما خرج الكافرون صائحين على سبيل التَّعنُّت: إنّا بما أُرسِلتَ به كافرون، فأين العذاب الَّذي تتوعَّدنا به، وزعمت أنَّه سيصيبنا؟ كما هي عادتهم، لكنَّه آثر التَّنويعَ في الخطابِ، فما لم ينفع معهم في سياقٍ، ينفع في سياقٍ آخر.

براعة جملة الحال: ﴿وَهُمۡ يُجَٰدِلُونَ فِي ٱللَّهِ﴾:

مجادلةُ المشركين تدعو إلى العجب وإصرارُهم عليها قد يُنزل الغضب

جملة: ﴿وَهُمۡ يُجَٰدِلُونَ فِي ٱللَّهِ﴾ في موضع الحال؛ لأنَّه من متمِّمات التَّعجُّب الَّذي في قوله ﷻ: ﴿وَإِن تَعۡجَبۡ فَعَجَبٞ قَوۡلُهُمۡ﴾ [الرّعد: 5] ... إلي آخره.

فضمائر الغيبة كلُّها عائدة إلى الكفّار الَّذين تقدَّم ذِكْرهم في صدر السّورة بقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ ١﴾ [الرّعد: 1]، وقوله سبحانه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡۖ﴾ [الرّعد: 5] وقوله

ﷻ: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦۗ﴾، وقد أُعيدَ الأسلوب هنا إلى ضمائر الغيبة لانقضاء الكلام على ما يصلح لموعظة المؤمنين والكافرين، فتمحَّض تخويفُ الكافرين[1].

ومعنى الآية: يرسل اللّه الصَّواعق، فيُصيب بها مَن يشاء في حال جداله في اللّه[2]. وفي هذا إرعاب للمشركين المجادلين في اللّه، الجاحدين لباهر الآيات الدّالَّة على وحدانيَّة اللّه وعظمته؛ فإنَّ تخصيص إرسال الصَّواعق على المجادلين في حال جدالهم يملأ قلوبهم رعبًا، ويصدُّ كثيرًا منهم عن الجدال، وكأنَّه قال لهم: إن لم تؤمنوا؛ فلا تجادلوا حتَّى لا تصدّوا غيركم عن الإيمان، وإن لم تفعلوا؛ فاحذروا أن تصيبكم صاعقة من عذاب اللّه تعالى.

نكتة التقديم في ﴿وَهُمۡ يُجَٰدِلُونَ فِي ٱللَّهِ﴾:

في هذه الجملة الحاليَّة قُدِّمَ فيها المُسنَد إليه على المُسنَد الفعليّ لتقوية الإسناد فيها وتأكيده؛ لأنَّ مقتضى الحال يستدعي التَّقوية والتَّأكيد.

مقتضى الحال يستدعي التَّقوية والتَّأكيد

والسِّرُّ في أنَّ تقديم المُسند إليه هنا على المُسند الفعليّ يُفيد تقوية الحكم وتوكيده هو تكرار الإسناد؛ فقوله تعالى: ﴿وَهُمۡ يُجَٰدِلُونَ﴾ وقع الفعل ﴿يُجَٰدِلُونَ﴾ خبرًا عن المسند إليه ﴿وَهُمۡ﴾، وهذا الفعل مُسند في الوقت نفسه إلى الفاعل، وهو ضمير الجملة العائد على المبتدأ، فكأنَّ الحكم هنا قد ذُكِرَ مرَّتيْن: مرَّةً عند إسناد الفعل إلى ذات المسند إليه، ومرَّةً عند إسناده إلى ضميره، وتكرار الإسناد على هذا النَّحو يفيد تقوية الحُكم وتوكيده[3].

ويُضاف إلى ذلك أنَّ العدول عن الفعليَّة إلى الاسميَّة وطرح رعاية التَّناسب جاء للدَّلالة على أنَّهم ما ازدادوا بعد الآيات إلا عنادًا[4].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/105.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 19/24.
(3) حسن طبل، علم المعاني، ص: 125 - 126.
(4) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/116.

فضلًا عن أنَّ هذا التَّقديم أفاد قصر المجادلة على المعنيين بقوله تعالى: ﴿وَهُمۡ﴾، فكأنَّه لا يُجادِل أحدٌ في شأن اللّه إلّا هؤلاء الَّذين رأوا نعم اللّه في البرق والمطر، ورأوا إنذاره في الرَّعد والصَّواعق، وفي هذا ذمٌّ لهم لسوء ما قابلوا به حِلم اللّه بهم، ولكفرانهم نِعمَه السّابغة عليهم.

سرُّ التَّعبير بالمجادلة في هذا السّياق:

الجدال العقيم وصفٌ لحال صاحبه في إنكار الواضحات وتكذيب البيِّنات

تدور معاني الجدال حول الشِّدَّة، والمنازعة، والخصومة، والمغالبة[1].

وفي هذا السياق نجد أنَّه بعد أن بيَّن اللّه سبحانه دلائلَ العلم بقوله: ﴿يَعۡلَمُ مَا تَحۡمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ﴾، ودلائلَ كمال القدرة في هذه الآية، قال تعالى: ﴿وَهُمۡ يُجَٰدِلُونَ فِي ٱللَّهِ﴾، يعني: أنَّ الكفار مع ظهور هذه الدَّلائل يجادلون في اللّه[2].

أيْ: يجادلون في قدرة اللّه على البعث وإعادة الخلق بقولهم: ﴿مَن يُحۡيِ ٱلۡعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٞ ٧٨﴾ [يس: 78]، ويجادلون في وحدانيَّته باتِّخاذ الشُّركاء والأنداد، ونسبة التَّوالد إليه ﷻ بقولهم: الملائكة بنات اللّه، تعالى اللّه عمّا يقولون علوًّا كبيرًا.

والمعنى: أنَّه ﷻ متَّصف بهذه الأوصاف من العظمة والخَلق والقدرة وغيرها، ومع ذلك رتَّبوا عليها غير مقتضاها مِن المجادلة فيه وفي أوصافه تعالى، وكان مقتضاها التَّسليم لما جاءت به الأنبياء[3].

ولمّا كان أصل الجدال يُعبِّر عن استحكام الشَّيء في استرسالٍ يكون فيه، وامتداد الخصومة ومراجعة الكلام[4]؛ كان أنسب للتَّعبير عن موقف الكافرين إزاء آيات اللّه.

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (جدل).
(2) ابن عادل، اللُّباب: 11/276.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/366.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (جدل).

فهم - مع علمهم بالحق ومعاينتهم الآيات - يسترسلون في المنازعة بقصد هزيمة النَّبيّ ﷺ، ويخاصمونه ويراجعونه الكلام، فأقلُّ محاروةٍ هي مُتَّصفة بالمجادلةِ؛ بسبب وضوحِ الأدلَّة والبراهين الَّتي يُجادِل فيها المشركون.

غرض الحذف في قوله: ﴿وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِي ٱللَّهِ﴾:

لم تذكر الآية مَن هم المُجادَلون، ولكن فُهِم أنَّ مفعول ﴿يُجَٰدِلُونَ﴾ هو النَّبيُّ ﷺ والمسلمون، فالتَّقدير: يجادلونك، أو: يجادلونكم، كقوله تعالى: ﴿يُجَٰدِلُونَكَ فِي ٱلْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ﴾ [الأنفال: 6][1].

وفي هذا تسلية للنَّبيِّ ﷺ، فإنَّهم لم يقتصروا على إنكار نُبوَّته ﷺ، بل تجاوزوا ذلك إلى إنكار الألوهيَّة[2].

لم يقتصر الكافرون على إنكار النُّبوَّة بل جاوزوا ذلك إلى إنكار الألوهيَّة

فائدة استعمال حرف الظَّرفيَّة ﴿فِي﴾:

أفاد حرف الظَّرفيَّة ﴿فِي﴾ - في قوله تعالى: ﴿وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِي ٱللَّهِ﴾ - أنَّ الكافرين المُعاندين جعلوا الله ﷻ ظرفًا لجدالهم، فكأنَّهم لم يجادلوا في شيء غيره، فإذا كُلِّموا في غير الله تعالى؛ لم يعبؤوا بموافقة أو إباء، أمّا إذا دُعوا إلى الله ﷻ؛ فإنَّهم يأبون، ويجادلون، ويعاندون.

فما جدالهم في آيات الله العظيم ورسوله الكريم ﷺ إلّا جدالًا في ذاته ﷻ، وهذا يدلُّ على شدَّة كفر القوم وشدَّة عنادهم وجحودهم، فكأنَّهم لفرط عتوِّهم منغمسون في الجدال، متضمِّخون بأوحال الضَّلال!.

المُكذِّبون ممتلئون كفرًا، مُنغمسون في الجدال، لا يُعظِّمون الله ذا الجلال

براعة المجاز بالحذف في ذِكْر لفظ الجلالة:

المجادلة إنَّما تكون في الشُّؤون والأحوال، فتعليق اسم الجلالة المجرور بفعل ﴿يُجَٰدِلُونَ﴾ - في قوله تعالى: ﴿وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِي ٱللَّهِ﴾

تهويل جدال المشركين، فما مِن شيء يتعلَّق بذات الله سبحانه إلّا جادلوا فيه

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/105.
(2) الزّحيليّ، التّفسير المنير: 13/134.

- يَتَعَيَّن أن يكون على تقدير مضاف تدلُّ عليه القرينة، أيْ: في توحيد الله تعالى، أو في قدرته سبحانه على البعث[1]، فيُكذِّبون ما يصفه الصّادق به من كمال العلم والقدرة والتَّفرُّد بالألوهيَّة وإعادة النّاس ومجازاتهم، فالمُراد بالمجادلة فيه تعالى: المجادلةُ في شأنه سبحانه وما أخبر به عنه جلَّ شأنه[2]. لكن حذف المتعلِّق لتهويل جدالهم، ولتذهب النَّفس في تصوُّره كلَّ مذهب، وتستشنع جدال المعاندين كلَّ مستشنَع.

بلاغة ذِكر الحال بعد الحال السابقة:

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ﴾ هذه الجملة حال من الجلالة الكريمة، والمِحال: الجدال، وفيه على هذا مقابلة معنويَّة[3]، وذلك أنَّه لمّا أخبر عنهم أنَّهم يجادلون في الله أخبر أنَّه أشدُّ جدالًا منهم[4]، حيث يأتي أعداءه بما يريد من إنزال العذاب بهم من حيث لا يحتسبون[5].

الله هو القويُّ العزيز، لا يغالبه أحدٌ في الوجود وهو تعالى أقوى من كلِّ موجود

ويجوز أن يكون المعنى: شديد العقاب، ويكون مثلًا في القوَّة والقدرة، كما جاء في الحديث: «ساعِدُ الله أشَدُّ مِنْ ساعِدِكَ، وموسَى الله أحَدُّ مِنْ موساك»[6].

فالحاصل أنَّ ذِكر هذه الحال - بعد جملة الحال السّابقة عليها: ﴿وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِي ٱللَّهِ﴾ - قد أفاد تأكيد أنَّ الله تعالى لا يُغالبه في الوجود أحدٌ، فهو أقوى من كلِّ الوجود، ومع ذلك يجعلون ذاته الكريمة موضع جدال.

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/106.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/115.
(3) ابن عادل، اللّباب: 11/277.
(4) الخازن، لباب التّأويل: 3/10.
(5) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 10/295.
(6) أخرجه أحمَدُ، المسند، الحديث رقم: (15888)، والنَّسَائيُّ في السُّنن الكبرى، الحديث رقم: (11155)، وابن حِبَّان في صحيحه، الحديث رقم: (5615) واللَّفظُ له.

ولكنَّه الضَّلال الَّذي أغشى العقول، فصرفها عن إدراك الحقِّ المبين الواضح، الَّذي قامت فيه الدَّلائل على قوَّة الله القاهرة، فجادَلوا في الله بأوهام توهَّموها[1].

وهذا يدلُّ على المفارقة العجيبة بين جدالهم بالباطل، وبين قوَّة الله ذي الجلال، ويشير كذلك إلى بُعد غور القاع الَّتي انسحقوا فيها من عدم معرفتهم بالله تعالى، وعدم تقديرهم إيّاه تعالى حقَّ قدره؛ إذ خافوا من مخلوقاته، ولم يخافوه، واستعجلوا بعذاب لم يطيقوه.

غرض التقديم في ﴿شَدِيدُ ٱلۡمِحَالِ﴾:

تخصيص الحكم وبيان المفارقة بين الحالَيْن، والتَّعريض بحماقة المشركين

في تقديم المُسنَد إليه ﴿وَهُوَ﴾ - العائد على الله ﷻ - على المُسنَد ﴿شَدِيدُ ٱلۡمِحَالِ﴾ تقوية للحكم وتقريره، وقد حسُن أن تُختتم بها الآية الكريمة لبيان المفارقة بين الحالَيْن، والتَّعريض بحماقة المشركين؛ إذ يجادلون في الله تعالى، ويجحدون كلَّ آيات وحدانيَّته، ويحسبون أنَّهم على شيء، فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا، ومكر بهم، وجعل تدبيرهم مردودًا عليهم.

ويُشعر السّياقُ بالحصرِ، فهذا الوصف لا يليق بالإطلاقِ إلّا لله تعالى.

سرُّ إيثار ذِكر الشدَّة:

تعضيد المماحلة بالشِّدَّة دلالةٌ على مُطلق القدرة، وقوَّة الأخذ بالعقوبة

تدور معاني الشِّدَّة حول القوَّة والصَّلابة[2]. أمّا المِحال؛ فهو فِعال من المَحْل، وهو الشِّدَّة، والكَيْد، ورَوم الأمر بالحيل، والقدرةُ، والعذاب، والعداوة، والمعاداة[3]. ولفظ فِعال يقع على المجازاة والمقابلة، فكأنَّ المعنى: أنَّه تعالى شديد المغالبة[4].

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3915.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (شدد).
(3) الفيروزابادي، بصائر ذوي التّمييز: 4/487.
(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 19/24.

ومن هنا يبرز سِرُّ إيثار التَّعبير بالشِّدَّة مع المماحلة، فلم يَقُلْ: (وهو قوي المحال)؛ فلمّا كانت المماحلة تدور معانيها حول الشِّدَّة، والقدرة، والعذاب، والأخذ بالعقوبة؛ كان الأنسب أن يُجاء معها بلفظ ﴿شَدِيدُ﴾ للمشاكلة.

ويُضاف إلى ذلك أنَّ العذاب قد وُصف في القرآن بالشِّدَّة، والعِظَم، والكِبَر، لكنَّ المعذِّب لم يتَّصف بالعِظَم أو الكِبَر حال العذاب، فلم يأتِ في القرآن: عظيم العذاب، ولا: كبير العذاب، بينما جاء: ﴿شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ١٦٥﴾ [البقرة: 165]، فناسب أن يكون شديد المحال كشديد العذاب؛ لما أنَّ شديد المحال سيُعذب المجادلين إن ماتوا على حالِهم في الشِّرك والعنادِ.

بلاغة التَّعبير بقوله: ﴿ٱلْمِحَالِ﴾:

المِحال: بكسر الميم يحتمل هنا معنيَيْن؛ لأنَّه إن كانت الميم فيه أصليَّة؛ فهو فِعالٌ بمعنى: الكيد، وفعله: مَحَلَ، ومنه قولهم: تَمَحَّلَ؛ إذا تَحَيَّل، جعل جدالهم في الله جدال كيد؛ لأنَّهم يُبرزونه في صورة الاستفهام في نحو قولهم: ﴿مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ٧٨﴾ [يس: 78]، فقوبل بـ ﴿شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ﴾ على طريقة المشاكلة؛ أيْ: وهو شديد المِحال لا يغلبونه، ونظيره: ﴿وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ٥٤﴾ [آل عمران: 54]. وقيل: هو مَن ماحَل عن أمره، أيْ: جادَل، والمعنى: وهو شديد المجادلة، أيْ: قويُّ الحُجَّة، وذلك على غرار قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ٣٣﴾ [الفرقان: 33][1].

الله سبحانه يُملي للكافرين ويستدرجهم من حيث لا يعلمون

وقد زاد من جمال التَّعبير بهذه المفردة دون غيرها مراعاة الفواصل، وموافقة رؤوس الآي: ﴿ٱلْمُتَعَالِ﴾، ﴿وَالٍ﴾، ﴿ٱلثِّقَالَ﴾، ﴿ٱلْمِحَالِ﴾.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/106.

الفُروقُ المُعْجَمِيّةُ:

الخوف والخشية:

الخشية خوف خاصٌّ، وهي أشدُّ من الخوف

الفرق بين الخوف والخشية: أنَّ الخوف يتعلَّق بالمكروه وبترك المكروه، تقول: خفتُ زيدًا، كما قال تعالى: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۩ ۝٥٠﴾ [النّحل: 50]، وتقول: خفتُ المرض، كما قال سبحانه: ﴿وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ۝٢١﴾ [الرّعد: 21]، والخشية تتعلَّق بمنزل المكروه، ولا يُسمّى الخوف من نفس المكروه خشية، ولهذا قال تعالى: ﴿وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ۝٢١﴾ [الرّعد: 21]. فإن قيل: أليس قد قال: ﴿قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِيٓ ۖ إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [طه: 94]؟ قلنا: إنَّه خشي القول المؤدّي إلى الفُرقة، والمُؤدّي إلى الشَّيء بمنزلة مَن يفعله، وقال بعض العلماء: يُقال: خشيتُ زيدًا، ولا يُقال: خشيتُ ذهاب زيد، فإن قيل ذلك؛ فليس على الأصل، ولكن على وضع الخشية مكان الخوف، وقد يوضع الشَّيء مكان الشَّيء؛ إذا قرب منه[1].

والخشية: أشدُّ من الخَوْف؛ لأنَّها مَأْخوذَة من قَوْلهم: شَجَرَة خاشية، أيْ: يابسة[2]. وبين خوف اللّه وخشيته فرق، وهو أنَّ الخوف تألُّم النَّفس من العقاب المتوقَّع بسبب ارتكاب المنهيّات، والتَّقصير في الطّاعات، وهو يحصل لأكثر الخلق، وإن كانت مراتبُه متفاوتةً جدًّا، والمرتبة العليا منه لا تحصل إلا للقليل، والخشية: حالة تحصل عند الشُّعور بعظمة الخالق وهيبته وخوف الحَجْب عنه، وهذه حالة لا تحصل إلا لِمَن اطَّلع على حال الكبرياء وذاق لذَّة القرب؛ ولذا قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ﴾ [فاطر: 28]، فالخشية: خوفٌ خاصٌّ، وقد يُطلقون عليها: الخوف.

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 241.
(2) الكفويّ، الكليّات، ص: 428.

ويُؤيّد هذا الفرق أيضًا قوله تعالى يصف المؤمنين: ﴿وَيَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلۡحِسَابِ ٢١﴾ [الرّعد: 21] حيث ذَكَر الخشية في جانبه سبحانه، والخوف في جانب الحساب[1]. ونكتته عدم التَّسوية بين ذِكْر الخوف من الله والحساب في سياق واحد.

الخَلْق والإنشاء:

النّون والشّين والهمزة أصلٌ صحيح يدلُّ على ارتفاع في شيء وسموٍّ، وأنشأ الله السَّحابَ: رَفعَه[2]. والإنشاء: إيجادُ الشَّيءِ وتربيتُه، وهو الإحداث حالًا بعد حال من غير احتذاء على مثال[3]، والخَلْقُ أصله: التَّقدير المستقيم، ويُستعمل في إبداع الشَّيء من غير أصل ولا احتذاء، قال الله ﷻ: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾ [الأنعام: 1]، أيْ: أبدعهما، بدلالة قوله تعالى: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾ [البقرة: 117][4]. وكلُّ شيءٍ خلقه الله؛ فهو مبتدِئه على غير مثال سُبِق إليه.

فالإنشاء والخَلْق يحملان معنى الإحداث وإيجاد الشَّيء بعد أن لم يكن[5]، ولكن يزيد مع الإنشاء معنى الرَّفع.

الخَلقُ الإحداث والإيجاد، والإنشاء الإحداث والإيجاد مع رفعٍ

المُجادلة والمِراء والمُماحلة:

المُجادلة: المُخاصمة والمُقاوحة على سبيل المغالبة، وهي مذمومة في الأشياء الظّاهرة غير المحتملة للجدال، كقوله تعالى: ﴿مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ [غافر: 4]، ﴿وَجَٰدَلُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ لِيُدۡحِضُواْ بِهِ ٱلۡحَقَّ﴾ [غافر: 5]، تنبيهًا بأنَّ الجدال قد يكون بحقٍّ، وهو محمود ليظهر الحقُّ، كقوله تعالى: ﴿۞وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ﴾ [العنكبوت: 46][6].

المُجادلةُ مخاصمة قد تكون مذمومةً أو محمودة، والمِراءُ مخاصمةٌ مذمومة، والمُماحلةُ المُماكرة والمُكايدة والمُجادلة

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 218.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نشأ).
(3) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 134.
(4) الرّاغب، المفردات، ص: 296.
(5) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 134.
(6) السّمين الحلبيّ، عمدة الحُفّاظ: 1/312.

والمِراء: طعنٌ في كلام الآخر لإظهار خللٍ فيه من غير أن يرتبط به غرض سوى تحقير الآخر[1].

والمماحلة: شِدّة المُماكرة والمُكايدة[2]. وهو يُماحل عن الإسلام، أيْ: يُماكر، ويُدافع، ويُجادل[3].

(1) الزّبيديّ، تاج العروس: (مري).

(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/519، والرّازيّ، الصّحاح، ص: 291.

(3) ابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس: (محل).

﴿لَهُۥ دَعۡوَةُ ٱلۡحَقِّۖ وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسۡتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيۡءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيۡهِ إِلَى ٱلۡمَآءِ لِيَبۡلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ ١٤﴾ [الرّعد: 14]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

المـوصـوفُ بصِفاتِ الكَمالِ، هو وحدَه المعبودُ بحقٍّ، وما سِواه سَرابٌ

لمّا بيّنَ تعالى فيما مضَى ما له منَ الآياتِ التّابعةِ لصفاتِ الكمالِ، الّتي منها التَّنزُّهُ عمّا لا يليقُ بالجلالِ، وبيّنَ أنّه شديدُ القوّةِ والتّدبيرِ ضدَّ مَن يُشركون به، ويُجادِلون فيه بغيرِ الحقِّ، ولا يَعتبرونَ بآياتِه في الكوْنِ الدّالّةِ على وحدانيّتِه، انتقلَتِ الآياتُ بعد ذلك لِتُقرِّرَ النّتيجةَ المُدلَّلَ عليها بالآياتِ السّالِفةِ، المُعلِّلةَ لِما تقرَّرَ فيها، الّتي هي براهينُ الانفرادِ بالخلقِ الأوّلِ، ثمّ الخلقِ الثّاني، وبالقُدْرةِ التّامَّةِ الّتي لا تُدانيها قُدرَةُ قَديرٍ، وبالعلْمِ العامِّ، فلا جَرَمَ أن يكونَ صاحبُ تلك الصّفاتِ، هو المَعبودَ بالحقِّ، وأنّ عبادةَ غيرِهِ ضلالٌ[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿دَعۡوَةُ ٱلۡحَقِّۖ﴾: الدُّعاءُ: النِّداءُ، وأصلُه: إمالَةُ الشَّيءِ إليكَ بصَوتٍ وكلامٍ يكونُ مِنكَ، ومنه سُمّيتِ الرَّغبةُ إلى اللّه ﷻ دُعاءً[2]. ويأتي الدُّعاءُ بمعنى الطَّلبِ والسُّؤالِ، يُقالُ: دَعَوتُ اللّه؛ أدعوهُ؛ أي: سألتُهُ[3]. والدَّعوَةُ: طَلَبُ الإقبالِ، وكَثُرَ إطلاقُها على طَلَبِ الإقبالِ لِلنَّجدَةِ أو لِلبَذلِ، وذلكَ مُتَعَيِّنٌ فيها إذا أُطلِقَت في جانِبِ اللّه لاستِحالةِ الإقبالِ الحقيقي. و(الدَّعوةُ) هي (الحقُّ)، كما أُضيفتِ الدّارُ إلى الآخرة في قوله: ﴿وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ [يوسف: 109]، وإنَّما عنَى

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/300، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/107.
(2) الجوهريّ، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن الأثير، النّهاية: (دعا - دعو).
(3) الفيّوميّ، المصباح المنير: (دعو).

بالدَّعوة الحقِّ تَوحيدَ الله، وشهادةَ أنَّ لا إلهَ إلّا الله، ويَصحُّ أن يكونَ معناها: لهُ دعوةُ العِباد بالحقِّ، ودعاءُ غيره منَ الأوثان باطلٌ[1]. والمقصودُ بدعوة الحقِّ في الآية: طَلَبُ الإغاثَةِ أوِ النِّعمَةِ[2].

2) ﴿لَا يَسۡتَجِيبُونَ﴾: أصلُ الإجابةِ يدلُّ على مُراجعةِ الكلام[3]؛ أي: مُداولتُه بين طَرفَين، والإجابةُ مصدرُ أجابَ، يُجيبُ، إجابةً، ومعناها: قَبولُ الدَّعوة، ومنه: أجابَ عن سؤالِه، وفي أمثال العربِ: أساءَ سَمعًا فأساءَ جابَة (إجابةً)[4]. والإجابةُ والاستجابةُ بمعنًى؛ يُقالُ: أجابَه إجابةً: إذا دَعاه إلى شيءٍ فأطاعَ، وأجابَ الله دعاءَه واستجابَ له؛ أي: قَبِلَه[5]. والمقصودُ منَ الاستجابة في الآية: إجابَةُ نداءِ المُنادي ودعوةِ الدّاعي، فالسِّينُ والتّاءُ لقوَّةِ الفِعل[6].

3) ﴿كَبَٰسِطِ﴾: أصلُ البَسطِ: الاتِّساعُ في الشّيء، ومنه بَسطُ الرِّزق، والبِساطُ: المُفترَشُ من ذلك لاتِّساعِه[7]، والبَسيطةُ منَ الأرض كالبِساط منَ الثِّياب، والجميعُ البُسُط[8]، واستعارَ قومٌ البَسطَ لكلِّ شيءٍ لا يُتصوَّرُ فيه تركيبٌ وتأليفٌ ونظمٌ، منه قوله تعالى: ﴿۞وَلَوۡ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزۡقَ لِعِبَادِهِۦ﴾ [الشّورى: 27]؛ أي: لو وسَّعَهُ، وبَسطُ اليدِ: مَدُّها. وبَسطُ الكَفِّ يُستعمَلُ تارةً للطَّلب، وتارةً للأخذِ، وتارةً للصَّولَة والضَّربِ، وتارةً للبَذلِ والإعطاءِ[9]، والمقصودُ بـ (باسطِ كفَّيه) في الآية: الّذي يَغترِفُ ماءً بكفَّينِ مَبسوطَتينِ غيرِ مَقبوضَتَين[10].

4) ﴿لِيَبۡلُغَ﴾: أصلُ البُلوغِ لُحوقُ الشَّيءِ والوُصولُ إليه أوِ المُشارَفَةُ عليه[11]، يُقالُ: بَلَغَ الغُلامُ والجاريةُ بُلوغًا: إذا أدرَكا واحتَلَما، وهُما بالِغانِ، وبَلَغتُ المَكانَ بُلوغًا؛ أي: وصَلتُ

(1) الواحديّ، التّفسير البسيط: 12/322، وابن جرير، جامع البيان: 13/397، والنّسفيّ، التّيسير في التّفسير: 9/42، والزّمخشريّ، الكشّاف: 2/520، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/305، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/107.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/107.

(3) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن عبّاد، المحيط في اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (جوب).

(4) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن عبّاد، المحيط في اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (جوب).

(5) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (جوب).

(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/108.

(7) السّمين الحلبي، عمدة الحفّاظ: (بسط).

(8) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (بسط).

(9) الرّاغب، المفردات: (بسط).

(10) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/109.

(11) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والأزهريّ، تهذيب اللّغة: (بلغ).

إليه، وكذلك إذا شارَفتُ عليه. مَصدَرُ: بَلَغَ الشَّيءُ يَبلُغُ بُلوغًا وبَلاغًا. وتقولُ: له في هذا الأمر بلاغٌ وبُلغةٌ وتَبَلُّغٌ؛ أي: كِفايَةٌ، وشيءٌ بالغٌ؛ أي: جَيِّدٌ، والمبالغةُ: أنْ تبلُغَ مِنَ العَمَلِ جُهدَكَ[1]. والمقصودُ بـ ﴿لِيَبْلُغَ فَاهُ﴾ في الآية الوصولُ، وفيه بيانُ وجْهِ الاستحالةِ في ذلك[2].

❁ المَعْنى الإجْماليّ:

يُخبِرُ اللّه تعالى في هذه الآيةِ أنَّ له ﷻ وحدَه الدَّعوةَ الحَقَّ والصِّدقَ - وهي كلمةُ التَّوحيدِ: لا إلهَ إلّا اللّه - فهو المُستحِقُّ وحدَه للعِبادةِ والدُّعاءِ دونَ ما سواه، والَّذين يَعبُدُهم المُشرِكونَ ويَدعونَهم مِن دونِ اللّه لا يُجيبونَ دُعاءَهم بأيِّ شيءٍ ممّا يُريدونَه - قليلًا كان أم كثيرًا - ولا ينفعونَهم إلّا كما ينتَفِعُ مَن يبسُطُ كفَّيه إلى الماءِ، ويدْعوه ليرتفِعَ إلى فَمِه، وهذا غيرُ ممكنٍ؛ فالماءُ جمادٌ لا يشعُرُ ببَسطِ كَفَّيه ولا بعطَشِه، ولا يقدِرُ أن يُجيبَ دُعاءَه ويبلُغَ فَمَه، وكذلك ما يَدعونَه من دونِ اللّه جمادٌ لا يُحِسُّ بدُعائِهم، ولا يستطيعُ إجابَتَهم، ولا يقدِرُ على نَفعِهم، وما دُعاءُ الكافرينَ لآلهتِهم إلّا في ضياعٍ وخَسارٍ؛ لأنَّهم لا ينتَفِعونَ بدُعائِهم[3].

دعوةُ اللّه هي الحقُّ المُبينُ، ودعوةُ أندادِهم هي الباطلُ المهينُ

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيّ:

بَلاغةُ الفَصْلِ بالاستئنافِ الابْتِدائِّي:

تُعدُّ هذه الآيةُ كالنّتيجةِ لِما مضى من مُقدِّماتٍ في الآياتِ السّابقةِ، "الّتي هي براهينُ الانْفرادِ بالخَلْقِ الأوّلِ، ثمّ الخَلْقِ الثّاني، وبالقُدرةِ التّامّةِ الّتي لا تُدانيها قُدرةُ قديرٍ، وبالعِلْمِ العامِّ"[4]، ومَن كانَ مُتّصِفًا بهذه الصّفاتِ كانَ جديرًا بأن يكونَ له وحدَه حقُّ العبادةِ.

المُتَّصِفُ بصفاتِ الكمالِ المُطلَقةِ، هو الأحقُّ بالعبادةِ المُصدِّقةِ

(1) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة: (بلغ).
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3917.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 13/491، والبغويّ، معالم التّنزيل: 3/13، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 9/301، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/184، والسّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 415.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/107.

دَلالةُ التّعْريضِ في الآيةِ الكريمةِ:

في الآية تعريضٌ بالأصنامِ وغيرِها ممّا عُبِدَ من دونِ اللّه؛ لأنّها لم تخلُقْ ابتداءً، ومِن ثَمَّ فهي غيرُ قادرةٍ على الإعادةِ والبعثِ، فلماذا تُعبدُ؟!

عِبادَةُ مَسلوبِ القُدْرةِ والنّفْعِ إشارةٌ إلى سَفَهِ العابدِ

وتعريضٌ أيضًا بعابِديها فاقِدي البصَرِ والبصيرة؛ فما مقوِّماتُ عبادَتِها، وكيف يُعرِضون عن عبادة اللّه صاحبِ القُدرةِ المُطلَقةِ، ثمّ يَعبدون أصنامًا عاجزةً عن أن تنفعَ نفسَها، أو تدفعَ عنها ضرًّا، قبل عجْزِها عن أن تنفعَكم أوتضرَّكُم.

سِرُّ تقديمِ الجارِّ والمجرورِ في السّياقِ:

في تقديم شِبْه الجُملةِ الجارِّ والمجرورِ ﴿لَهُۥ﴾ على المبتدأ ﴿دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ﴾ إفادةٌ باختصاصِه سُبحانَه بأنّ ﴿دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ﴾ له وحدَه لا لغيرِه، مقصورةٌ عليه "وهو قصرٌ إضافيٌّ"[1].

دعوةُ الحقِّ مُختصَّةٌ به تعالى وحدَه، دونَ سِواه منَ المدّعينَ

سِرُّ إيثارِ الضّميرِ (الهاء) على الاسْمِ الظّاهرِ:

أوثِرَ التّعبيرُ بالضّميرِ مجرورًا باللّام على التّعبير بالاسْمِ الظّاهرِ، فلم يقُلْ: (للّه دعوةُ الحقّ)؛ للعلْمِ بكوْنِ المقصودِ بالضّمير هو اللّه تعالى لا غيرَهُ، بحيث لا يحتاجُ إلى إظهار اسْمِهِ الجليلِ كي يُعرَفَ، بل يمتنعُ أن ينصرفَ إلى غيره بأدنى احتمالٍ؛ إذ لا إلهَ غيرُه.

اكْتَفَى بالمَذكورِ للعلْمِ به، واسْتيفائِه الدّلالةَ على المعنَى

دَلالةُ لفْظةِ ﴿ٱلْحَقِّ﴾:

قولُهُ تعالى: ﴿ٱلْحَقِّ﴾ هنا إمّا أن تكونَ بمعنى الحقِّ الّذي هو خلافُ الباطل، فتكونَ من باب إضافةِ الصّفةِ إلى الموصوفِ، أو أن تكونَ اسمًا للّه ﷻ؛ فهو وصفٌ جُعلَ علّةً لاستجابة الدّعاءِ، فإنْ جُعِلَ بمعنى الحقِّ الّذي هو خلافُ الباطلِ فيجبُ أن يُفَسَّرَ بالمصلحةِ، لتترتَّبَ عليها الإجابةُ، وإنْ جُعِلَ وصفًا للّه تعالى فيجبُ أن يَثبُتَ له

الوصْفُ بلفْظِ الحقِّ، عِلّةٌ لاسْتجابةِ الدّعاءِ لدى ربِّ الأرضِ والسّماءِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/108.

وصفٌ يصلحُ لترتُّب الإجابةِ، وهو أن يُقالَ: إنّه المَدْعوُّ الحقُّ الّذي يسمعُ فيجيبُ[1].

فائدةُ إضافةِ الدّعوةِ إلى لفْظِ ﴿ٱلْحَقِّ﴾:

تحتملُ الإضافةُ في قولِه تعالى: ﴿لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ﴾ أن تكونَ من باب إضافةِ الصّفةِ إلى الموصوفِ على تقديرِ (الدّعوةُ الحقُّ)؛ أي: الدّعوةُ الحَقّةُ الّتي ليسَت باطلًا، وتحتملُ كونَ المقصودِ بـ ﴿ٱلْحَقِّ﴾ اللّه سبحانَه على معنى: المَدعوُّ الحقُّ سبحانَه الّذي يَسمعُ فيُجيبُ؛ فللإضافة دلالتُها على كلا الاحتمالَين؛ وهي على المعنى الأوّل الإيذانُ بملابستِها للحقِّ واختصاصِها به وكونِه بمَعزِلٍ من شائبةِ البُطلانِ، والضَّياعِ، والضّلالِ، كما يُقالُ: كلمةُ الحقِّ، وعلى المعنى الثّاني فدلالتُها كذلك واضحةٌ؛ أي: له دعوةُ اللّه سُبحانَه؛ أي: الدّعوةُ اللّائقةُ بحضْرتِه، كما في قولِه ﷺ: «فَمَن كانَت هجرتُه إلى اللّه ورسولِه فهِجرتُه إلى اللّه ورسولِه»[2].

دَعْوةُ الله هي الدّعوةُ الحقُّ، الّتي لارَيْبَ فيها ولا شكَّ

دَلالةُ (أل) في لفْظِ ﴿ٱلْحَقِّ﴾:

(أل) في ﴿ٱلْحَقِّ﴾ هي التّعريفيّةُ، وهي هنا إمّا للجنس على كوْنِ المقصودِ به كلَّ ما يُخالِفُ الباطلَ اعتقادًا وعملًا، وهو أرجحُ الرّأيَين في تفسير ﴿ٱلْحَقِّ﴾، وإمّا للعهْدِ، وذلك على كونِ ﴿ٱلْحَقِّ﴾ اسمًا للّه تعالى، وهو ضعيفٌ؛ لأنّ المعنى عليه: للّه دعوةُ اللّه[3].

لا يُسمَّى حقًّا إلّا ما خالفَ الباطلَ، وكانَتْ قرائنُ صِدْقِه بارزةً

بَلاغةُ الكنايةِ في قولِه تعالى ﴿دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ﴾:

في قولِه تعالى: ﴿دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ﴾ كنايةُ نسبةٍ عن نفْيِ هذا الوصْفِ عنِ الأصنام؛ بمعنى: أنّ في ﴿دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ﴾ إشارةً إلى التّوحيدِ والإقرارِ بألوهيّتِه، ونفْيِ نسبةِ أيّة صفةٍ منها إلى الأصنام.

الأصْنامُ لا تملِكُ استجابةً للدُّعاء، ولا هَيمَنةً على الكوْنِ

(1) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 8/487.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/11، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 19/25. والحديث في صحيح البخاريّ، كتاب الإيمان، باب ما جاء أنّ الأعمال بالنّيّة: 1/20.

(3) زاده، حاشية على تفسير البيضاويّ: 5/110.

فالأصنامُ لا تمتلِكُ القُدرةَ على الاستجابةِ للدّعاءِ أوِ التّأثيرِ في الكونِ، والمُستجيبُ الحقيقيُّ للدّعاءِ هو اللّه خالِقُ الكونِ.

بَلاغةُ التّعْريضِ بعابِدي الأصنامِ منَ الأنامِ:

في قولِه تعالى: ﴿دَعۡوَةُ ٱلۡحَقِّۖ﴾ تعريضٌ بالمشركين وآلهتِهم، من حيثُ إنّهم لا يَتَّبعونَ الحقَّ، وإنّ آلهتَهُم لها دعوةُ الباطلِ في مُقابلِ دعوةِ الحقِّ الثّابتةِ بالتّوحيدِ.

جديرٌ بالهوانِ والتّسْفيهِ مَن يرفضُ دعوةَ الحقِّ بِتَجافيهِ

دَلالةُ الواوِ على العطْفِ في جملةِ ﴿وَٱلَّذِينَ﴾:

قد يُقالُ: أليسَ الفصلُ في قولِه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ﴾ كان أولَى منَ الوصلِ؟ فلماذا العطفُ بالواوِ؟ والجوابُ: أنّها "عُطِفَت لِما فيها مِنَ التّفصيلِ والتّمثيلِ، فكانَت زائدةً على مِقدارِ البيانِ. والمقصودُ بَيانُ عدمِ اسْتِحقاقِ الأصنامِ أن يَدْعوها الدّاعونَ"[1].

الأصْنامُ غيرُ مُستحِقَّةِ الدّعوةِ؛ لأنّها لا تسمعُ ولا تَعقِلُ

بَلاغةُ التَّعبيرِ بالموصولِ ﴿وَٱلَّذِينَ﴾:

المرادُ بالموصولِ في قولِه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ﴾ الأصنامُ المَعبودةُ[2]، وعَبَّرَ عنها بالاسم الموصولِ ﴿وَٱلَّذِينَ﴾ تحقيرًا لها، فضلًا عنِ احتمال تعَدّي دَلالتِها الأصنامَ، والآلهةَ المعبودةَ إلى كلِّ ما يُعبَدُ بما يُضمِّنُهُ الموصولُ من دلالة العُمومِ والشُّمولِ.

التَّعبيرُ عنِ الأصْنامِ بغيرِ أسمائِها تحقيرٌ لها وحطٌّ من شَأْنِها

بَلاغةُ الإيجازِ بالحذْفِ في السّياقِ المُحكَمِ:

وحُذِفَ مفعولُ ﴿يَدۡعُونَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ﴾، وهو (الأصنامُ) اختصارًا؛ للعلم به، وللدّلالةِ عليه، بقوله: ﴿مِن دُونِهِۦ﴾ على تقديرِ: "والأصنامُ الّذين يَدعوهُمُ المُشركونَ، فَحُذِفَ الرّاجِعُ، أو على تقديرِ: والمُشركون الّذين يَدعون الأصنامَ"[3].

الحذْفُ اخْتِصارًا في السّياقِ من بليغِ البَيانِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/108.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/108.
(3) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/184.

ولعلّه أيضًا حُذِفَ لتعدُّد ما يحتمله هذا المفعول من أنواع المعبودات التي كانوا يعبدونها.

التَّعبيرُ عنِ الدّاعين بالمضارعِ ﴿يَدْعُونَ﴾:

تَفاني المُشرِكينَ في عبادتِهم الأصنامَ، دليلٌ على قِصَرِ النَّظَرِ

عبَّرَ بالمضارع ﴿يَدْعُونَ﴾؛ للدّلالةِ على مُداومتِهم على عبادة الأصنامِ، وكأنّها منهم بسبيلٍ، بحيث لا يُفارقونَ عبادتَها، بل يُجدِّدون نشاطَهم للاستمرارِ عليها.

دَلالةُ ﴿مِن﴾ في قوله ﴿مِن دُونِهِۦ﴾:

لله العلوُّ المُطلَقُ، ولغيرِه السُّفولُ المُسْقَطُ

﴿مِن﴾ في قوله تعالى: ﴿يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ﴾ للتّأكيدِ، وتفيدُ تحقيرَ ما يعبدون غيرَ اللّه، وسُفولَ رُتبتِه كائنًا ما كان، ومَن كان، وترسيخَ دونيتِه وصَغارِه أمامَ عظَمةِ اللّه الخالِقِ جلّ ثناؤه، وتقدَّسَ في عليائِه، الّذي لا يُماثلُه ولا يُقاربُه أحدٌ مِنَ الخَلْقِ. قال البقاعيُّ: "ولمّا كانتِ الرُّتبُ كلُّها مُتقاصِرةً عن رُتبتِه، وكانَت مُتفاوتةً، وكانَ ما يعبدونَه منَ الأصنامِ في أدناها رُتبةً، أدخلوا الجارَّ فقالوا: ﴿مِن دُونِهِۦ﴾"[1]. وقال: "ولمّا كانَت كلُّ رُتبةٍ دون رُتبتِه، وكانَتِ الرُّتبُ الّتي دون رُتبتِه كثيرةً جدًّا لِما له منَ العُلوِّ المُطلَقِ، ولغيرِه من مَراتبِ السُّفولِ الّتي لا تُحدُّ، قال مُشيرًا لذلك بالجارّ: ﴿مِن دُونِهِۦ﴾"[2].

إيثارُ التَّعبيرِ بلفْظِ (دون) في السّياقِ المَصونِ:

تَحقيرُ كُلِّ ما عُبِدَ من دونِ اللهِ؛ لتَفاهَتِه ودَلالتِه على السَّفاه

آثرَ التّعبيرَ بـ (دون) دونَ غيرِه، فلم يقُلْ مثلًا: (من غيره)؛ لأنّ كلمةَ (دون) مع دلالتِها على ما تدلُّ عليه (غير)، فإنّها تضيفُ بُعدًا آخرَ، وهو دَلالتُها على الدّونيّةِ والسّفلِ في المَنزِلة. وهكذا الحالُ، فكلُّ إلهٍ اتّخذوه من دون اللّه هو كذلك، لا يَليقُ به إلّا الدّونيّةُ، والحَقارةُ، والصَّغارُ.

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/154.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 20/496، وينظر: 5/405، 9/310، 10/88 - 310.

تَوجيهُ عَوْدِ الضّميرِ في لفْظِ ﴿دُونِهِۦ﴾:

يعودُ الضّميرُ في ﴿دُونِهِۦ﴾ إلى ما عاد إليه في ﴿لَهُۥ﴾ من قوله تعالى: ﴿لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّۚ﴾، وهو لفظُ الجلالةِ في قوله تعالى: ﴿وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِي ٱللَّهِ﴾ [الرّعد: 13] في الآية السّابقةِ.

لفظُ الجلالةِ مَعقِدُ الهيْبةِ، وعظيمُ الدّلالةِ

دَلالةُ ﴿لَا﴾ النّافيةِ على الحالِ والاسْتقبالِ:

دلَّ نفيُ الفعلِ ﴿يَسْتَجِيبُونَ﴾ بـ ﴿لَا﴾ النّافيةِ على صَلاحيةِ هذا النّفيِ للحال والاسْتقبالِ؛ أي: لا يَستجيبونَ لهُم في حالِهم، ولا يَستجيبون لهُم في غَدِهم؛ لكونِهم ليسوا أهلًا للاستجابة أصلًا، فمَن يَطلُبُ مِن حَجَرٍ أن يُلبّي له طلبًا فلا يعتبَنَّ إلّا على نفسِه، إنْ ضُرِبَت له الأمثالُ القاسيةُ.

مَن ظنَّ استجابةَ مَن لا يَسْتجيبُ، فهو طالبٌ للمُستحيلِ

عِلّةُ التَّعبيرِ عنِ الاسْتِجابةِ بالمضارعِ:

دلَّ التّعبيرُ بالمضارعِ المَنفيِّ في قوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَجِيبُونَ﴾ على استمرار عدمِ استجابة الأصنامِ لِما يطلبونَه منها. وفي إثبات دَيْمومةِ عدمِ الاستجابةِ تعريضٌ بمُتّخِذيها آلهةً من دون اللّه؛ لأنّ دوامَ العَجزِ دليلُ النّقص، والعاقلُ يَعتبِرُ.

الأصْنامُ عاجِزةٌ؛ لأنّها لا تملِكُ نفعًا ولا ضرًّا لها، ولا لعابِديها

فائدةُ السّينِ والتّاءِ في فعلِ ﴿يَسْتَجِيبُونَ﴾:

فائدةُ السّين والتّاء في الفعل ﴿يَسْتَجِيبُونَ﴾ تقويةُ الفعلِ[1]، وهما تُزادان في الفعل للدّلالةِ على الطّلب، فهي هنا على هذا الأصلِ[2]، وكأنّه طوى طلبَهُم ثمّ أخبرَ عن عدمِ الاسْتجابةِ من مَعبوديهم؛ والمعنى: أنّهم يطلبونَ من أصنامِهم تلبيةَ ما يريدون، وإجابتَه، فكانَ المُقابلُ الإخبارَ بأنّهم ﴿لَا يَسْتَجِيبُونَ﴾ نفيًا للإجابة على وجهِ المُبالغةِ.

بيانُ أنّ عدمَ إجابةِ الأصْنامِ الصّماءِ مُبالغةٌ في وصْفِ عجْزِها

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/108.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 8/3926.

سِرُّ إيثارِ الفعلِ ﴿يَسْتَجِيبُونَ﴾ دون (يجيبون):

الاستجابةُ تعني إجابةَ الدّاعي وفْقَ طلبِه، ممّن يَقْدرُ عليها

اختيرَ الفعلُ ﴿يَسْتَجِيبُونَ﴾ دون (يُجيبون)؛ لأنّ الفعلَ (استجاب) يدلُّ على إجابة الطّلبِ بما يوافقُ غرَضَ السّائلِ على وجهِ المُبالغةِ، ولا شكَّ أنّ مَطلوبَهُم منَ الآلهةِ، إنّما هو حصولُ غرَضِهم؛ فنفاهُ؛ أي: بصيغةِ الفعلِ الدّالِّ على ذلك، فقال: ﴿لَا يَسْتَجِيبُونَ﴾ دونَ (يُجيبون) الّذي يدلُّ على الإجابة مُطلَقًا موافقةً أو مُخالَفةً[1]، وفيه تهكُّمٌ بهم وبآلهتِهم؛ لأنّهم يَطلبونَ تحقيقَ أغراضِهم ممّن لا يجيبُ مُطلَقًا، لا بما يوافقُ الغرَضَ ولا بسواه.

سِرُّ إجْراءِ ضَميرِ العُقلاءِ على الأصْنامِ:

تَنْزيلُ الأصنامِ مَنزِلَةَ العاقلِ؛ لمعاملةِ عابِديها لها مُعامَلةَ العاقلِ

السّببُ في إجراء ضميرِ العُقلاء (الواو) في قوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَجِيبُونَ﴾؛ أي: بتنزيل غيرِ العاقل مَنزِلةَ العاقلِ؛ لأنّ مِن مُقتضَى اتّخاذِهِمُ الأصنامَ آلهةً أن تكونَ في نظرِهم عاقلةً، ومِن ثَمّ كانوا يعاملونَها مُعامَلةَ العقلاءِ، فعادَ الضّميرُ عليه كالعقلاء لمعاملتِهم إيّاها معاملتَهُم[2].

فائِدةُ شبْهِ الجُملةِ ﴿لَهُم﴾:

تَنْزيلُ المُخاطَبين مَنزِلةَ المَقصودِ بعدمِ الاسْتِجابةِ لتركِ عبادةِ الأصنامِ

أفادَ ذكرُ الجارِّ والمجرورِ ﴿لَهُم﴾ في قولِه ﴿لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم﴾ دون أن يكتفيَ بقوله: (لا يَسْتَجيبونَ بِشَيْءٍ)، تنزيلَهم مَنزِلَةَ المقصودِ بالذّات بعدمِ الاستجابةِ، ولفتَ أنظارِهم إلى حالِهم؛ إذ كيف يدْعونَ آلهةً لا تستجيبُ لهُم، وكأنّ عدمَ استجابتِها هو خاصٌّ بهم فقط، وكأنّهم وحدَهُم مُنزَّلونَ منها مَنزِلةَ عدمِ القَبولِ، مع أنّها كذلك في كلّ حالٍ، ومع كلّ أحدٍ، فهي أصنامٌ صَمّاءُ عَمْياءُ، لا تنفعُ ولا تضرُّ. فالآيةُ بهذا التّعبير بشِبْه الجملة المكوَّنِ منَ اللّام الجارّة، ومعها ضميرُ (هُم) مجرورُها ﴿لَهُم﴾، تجرُّهُم إلى إعادة النّظرِ في

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/424.

(2) السّمين الحلبي، الدّرّ المصون: 7/34، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/108.

حالهم جرًّا، وتفرضُ عليهم مراجعةَ أمرِهم في عبادتِها، وهي على هذا الحالِ من عدمِ الاستجابةِ.

دَلالةُ الباءِ في شبْهِ الجُملةِ ﴿بِشَيْءٍ﴾:

بيانُ تَيْئيسِ المُخاطَبينَ مِن اسْتِجابةِ مَعبوديهم لِدُعائِهم

الباءُ هنا للتّعدية؛ فبها تعدَّى الفعلُ (أجاب) إلى المفعول ﴿بِشَيْءٍ﴾، والقصدُ بهذه التّعديةِ نفيُ إجداءِ دُعائِهمُ الأصنامَ - نفيًا تامًّا - بالدّلالةِ على انتفاءِ أقلِّ ما يُجيبُ به المَسؤولُ، وهو الوعْدُ بالعطاء أوِ الاعتذارُ عنه، فهُم عاجزون عن ذلك، ومِن ثَمَّ فَهُم أعجزُ عمّا فوقَه من بابِ أوْلَى[1].

نُكتةُ تَنْكيرِ لفْظِ ﴿بِشَيْءٍ﴾ في السّياقِ:

التَّحقيرُ والإبهامُ تَعبيرٌ عنِ اسْتِصغارِ الشّيءِ وحقارته

نكَّرَ ﴿بِشَيْءٍ﴾ للتّقليل والتّحقيرِ؛ أي: لا يَستجيبون لكم بأيِّ شيءٍ، وإنْ قلَّ وصَغُرَ، فضلًا عنِ احتمالِها العُمومَ، والإبهامَ، وعدمَ التّحديدِ.

دلالةُ جملة ﴿لَا يَسْتَجِيبُونَ﴾ على الذّمّ:

تَأكيدُ الذّمِّ بما يُشبهُ المدحَ

قولهُ تعالى: ﴿لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيْءٍ﴾، وفيه "تأكيدُ الذّمِّ بما يُشبهُ المدحَ"[2]؛ لأنّ الغرَضَ هو ذمُّ مَن يطلبونَ شيئًا من أحدٍ غيرِ اللّه والنّعيُ عليهم، ثمّ هُم حين يطلبونَه فَممَّن؟ مِمَّن لا يستجيبُ لهم بشيءٍ حالًا ولا استقبالًا؛ لأنّه لا يملِكُ أصلًا أن يَستجيبَ.

بَلاغةُ الاسْتِثناءِ المُفرَّغِ في السّياقِ:

تَأكيدُ نَفْيِ الاسْتِجابةِ في عمومِ الأحوالِ

الاستثناءُ المُفرَّغُ في قوله تعالى: ﴿إِلَّا كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ﴾ هو من عُمومِ الأحوالِ والعللِ على معنى؛ أنّهُم لا يَستجيبون لَهُم في حالٍ منَ الأحوال، ولا لعلَّةٍ منَ العلل، إلّا في حالِ لداعٍ ومُستجيبٍ، تشبهُ حالَ باسطٍ ﴿كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ﴾[3].

(1) ابن عاشور: التّحرير والتّنوير: 13/108.
(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/424.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/109.

بَلاغةُ التّمليحِ والكِنايةِ في جملةِ الاستِثناءِ في الآية:

نفيُ الاستِجابةِ في سائرِ الأحوالِ دليلٌ على ما هُم فيه من ضلالٍ

وجملةُ الاستثناءِ هنا أفادَتْ تأكيدَ نفْيِ الاستجابةِ في كلّ حالٍ، وهو من باب "تأكيدِ الشّيءِ بما يشبهُ ضِدَّهُ، فَيَؤولُ إلى نفْيِ الاستجابةِ، في سائر الأحوالِ بطريق التّمليحِ والكنايةِ"[1].

سِرُّ إيثارِ كلمةِ ﴿كَبَٰسِطِ﴾ في التّشبيه دونَ (فاتح):

من شأْنِ الدّاعي أن يَبْسُطَ يَدَيْه بالدّعاءِ، تَوخّيا للقَبول والرّجاءِ

أوثرَ في التّشبيه ﴿كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ﴾ دونَ (فاتحٍ فيهِ للماء)؛ لأنّه داعٍ، وشأنُ الدّاعي أن يبسُطَ يدَيْه[2]، لا أن يفتحَ فاه.

بَلاغةُ (التَّشبيهِ التّمثيلِّي) أوِ (المُركّبِ العقلِّي):

لا يحصُلُ على مُرادِه مَن يَطْلبُه، ممّن لا يملِكُ تحقيقَه

التّشبيهُ في قوله تعالى: ﴿إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ﴾ تشبيهٌ تمثيليٌّ؛ إذ إنّ أركانَه مُنتزَعةٌ من جملةِ التّركيب، فقد شبَّه "حالَ مَن يدعو ما لا يضرُّ، ولا ينفعُ، ولا يجيبُ، ولا يُدركُ معنى الطّلبِ أوِ العبادةِ، بحال العَطْشانِ الّذي أمضَّهُ العطشُ، فيطلبُ منَ الماءِ أن يرتفعَ إلى فمِه إذا بَسَطَ يدَهُ، ومدَّ أناملَه إليه على قُربٍ أو بعدٍ، فإنّ الماءَ لا يجيءُ إليه، ولا يستطيعُ أن يتناولَ منه بهذه الطّريقة ما يَنقَعُ غُلَّتَه، ويُطفِئُ ظمأَهُ"[3].

بَلاغةُ تأكيدِ الذّمِّ بما يُشبهُ المدْحَ في السّياقِ:

مُنْتهى الاحتقارِ المُبالغةُ في الذّمِّ والاستِصغارِ

وكان من جملةِ ما أفادَه التّشبيهُ في قولِه تعالى: ﴿إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ﴾ تأكيدُ الذّمّ بما يُشبهُ المدحَ، كما في قول الشّاعر:

هو الكَلبُ إلّا أنَّ فيه مَلالَةً *** وسوءَ مُراعاةٍ، وما ذاكَ في الكَلبِ[4].

وهذا التّشبيهُ يُبرزُ عجْزَ الأصنام وضعْفَها، وعدمَ قُدرتِها على الاستجابة لدَعواتِ عابِديها.

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/109.

(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/424.

(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3917، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/109.

(4) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/424. والبيت لإبراهيم الغزي كما في الدر الفريد وبيت القصيد: 11/74.

دَلالةُ إخراجِ الكلامِ مَخرَجَ التّهكُّمِ في السّياقِ:

والمُرادُ منَ التّشبيه نفْيُ الاستجابةِ رأسًا، إلّا أنّه قد أُخرِجَ الكلامُ مَخرَجَ التَّهكُّم بهم، فقيلَ: لا يَستجيبون لهم شيئًا منَ الاستجابةِ إلّا استجابةً كائنةً في هذه الصّورةِ، الّتي ليسَت فيها شائِبةُ الاستجابةِ قطْعًا، فهو في الحقيقةِ من باب التّعليقِ بالمُحال؛ أي: تشبيهُ دعاءِ الكافرين لغير اللّه بالّذي يبسُطُ كفَّيهِ إلى الماء ليبلُغَ فاهُ تشبيهُ بأمرٍ مُحالٍ، فكما أنّ هذا مُحالٌ، فالمشبَّهُ به مُحالٌ، والتّعليقُ على المُحالِ مِن أبْلَغِ ما يكونُ في نفيِ الشّيء، كما قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلۡجَمَلُ فِي سَمِّ ٱلۡخِيَاطِۚ﴾ [الأعراف: 40][1].

التّعليقُ على المُحالِ مِن أبْلَغِ ما يكونُ في نفْيِ الشَّيءِ

تَوجيهُ المضافِ المحذوفِ في ﴿كَبَٰسِطِ كَفَّيۡهِ﴾:

في قولِه تعالى: ﴿كَبَٰسِطِ كَفَّيۡهِ﴾ حذفٌ لمضافٍ، تقديرُه: إلّا كاستجابة باسطِ كفَّيهِ، والاستجابةُ في المشبَّه به مُستحيلةٌ، فالماءُ جمادٌ لا يستجيبُ لأحدٍ، فتكونُ استجابةُ أندادِهم مُستحيلةً كذلك[2].

الجمادُ لا يَستجيبُ لداعيه، فكيفَ يَستجيبُ لعابِديه؟

سِرُّ تَثْنيةِ لفْظِ ﴿كَفَّيۡهِ﴾ في السّياقِ:

ثنَّى الكفَّين للدّلالةِ على شدّة الحرْصِ على جلْبِ الماءِ والاجتهادِ في طلبِه بكفَّيه كلتَيْهما لا بكفٍّ واحدةٍ، لِما ألمَّ به من شدّةِ الظّمأ، ثمّ هو لا ينالُ بعدَ هذا الاجتهادِ مرادَهُ؛ وهكذا حالُ مَن يَجتهدُ في دُعاء مَن لا يستجيبُ له، وفي عبادتِه، ثمّ هو لا يظفرُ منه بشيءٍ، والمُشترَكُ بينَهما هو اليأسُ منَ الحُصولِ على المَطلوبِ في كلتا الحالتَين. وقد تكون تثنيةُ (الكفّين) لتأكيدِ حالةِ الضّعفِ والعجْزِ الّتي يَعيشُها الشّخصُ المذكورُ في المَثلِ؛ إذ يَستعملُ كلتا يدَيْه في محاولتِه الوُصولَ إلى الماء لا يدًا واحدةً، يُعبِّرُ بها عن قُدرتِه، وتَمكُّنِه، وثِقتِه بنفسه.

تَثْنيةُ الكفَّينِ دليلُ الحِرْصِ على طلَبِ الماءِ بهما؛ لردِّ شِدّةِ الظّمأ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/11.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3917.

فائِدةُ تعريفِ ﴿كَفَّيْهِ﴾ بالإضافةِ إلى الضّمير:

شِدّةُ الحاجةِ إلى الماء تَقتضي طلبَهُ بنفسِه لا بوسيطٍ

عَرَّفَ الكفّين بالإضافة إلى الضّمير؛ للدّلالةِ على شدّة الحاجةِ إلى الماء، الأمرُ الّذي جَعَلَ هذا الظّمآنَ يتكلَّفُ لطلَبِه بنفسِه لا بوسيطٍ، وربَّما هو في مَوضِعٍ لا يوجدُ فيه إناءٌ ليشرَبَ من خلالِه، فيطلبُ الماءَ بكفّيه اللّتين يَملِكُهُما، ثمّ الماءُ بعيدٌ لا يستطيعُ أن يَغترِفَ منه، فيحاولُ أن يصلَ إليه عبرَ بسْطِ كفَّيهِ، وما هو ببالغِهِ، ولا الماءُ بالغٌ فاهُ لو دعاه ليبلُغَه.

إيثارُ الكَفَّين على اليَدَينِ في السّياقِ المُبين:

بيانُ أنّ الماءَ يُغرفُ بالكَفَّيْنِ، لا بكامِلِ اليَدَينِ

لفظُ اليَدَين يشيرُ إلى الذّراعَين بأكملِهما، بدْءًا منَ الكتفِ وحتّى أطرافِ الأصابعِ، أمّا لفظُ الكفّين فيشيرُ إلى جزءٍ مُعيَّنٍ منَ الذّراع، وهو الجزءُ الّذي يمتدُّ منَ المِعصَم وحتّى أطرافِ الأصابعِ. وآثرَ التّعبيرَ بـ (الكفّين) دون (اليدين)؛ لأنّ غَرْفَ الماءِ يكونُ بهما، وليس بكاملِ اليَدين. فالكفُّ: "هو مَوضِع القبْضِ باليد، وأصلُهُ مِن (كَفَّهُ)، إذا جَمَعَ أطرافَهُ"[1].

دَلالةُ الحرفِ ﴿إِلَىٰ﴾ في السّياقِ المُجْتلَى:

المبالغةُ في بسْطِ الكفَّين للوُصول إلى الماءِ بعيدِ المنالِ

تدُلُّ ﴿إِلَىٰ﴾ هنا على أصلِ معناها، وهو انتهاءُ الغاية، فالمَوضِعُ الّذي انتهَت إليه كفّاه هو الماءُ بوصْفِهِ مَقصِدًا. وفائدتُه هنا الدّلالةُ على أنّه مدَّ كفَّيهِ إلى الماءِ مَبسوطتَين تفسيرًا لقوله: ﴿كَبَٰسِطِ﴾[2]. وتحتملُ دلالةُ التّعديةِ بـ ﴿إِلَىٰ﴾ أن يكونَ المعنى عدمَ وُصولِ الكفَّين إلى الماء، فما الماءُ بمُجيبٍ دعاءَه في بلوغِ فيهِ ﴿وَمَا هُوَ﴾؛ أي: الماءِ ﴿بِبَٰلِغِهِۦ﴾؛ أي: فيهِ، فللكافِرينَ بذلكَ دعوةُ الباطلِ، كما أنّ الماءَ جَمادٌ لا يُحِسُّ بِدعوةِ هذا فَلا يُجيبُهُ، فأصنامُهم كَذلك[3].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/301.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/109.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/301.

دَلالةُ (الْ) على العهْدِ في لفْظِ ﴿ٱلْمَآءِ﴾:

غايةُ حِرْمانِ الظّمآنِ أن يمدَّ يدَه إلى الماء، ثمّ لا يُدرِكُه

السّرُّ في تعريف ﴿ٱلْمَآءِ﴾ هو تعيينُهُ لشدّةِ الحاجةِ إليه، وكي لا يُتأوَّلَ بمائعٍ آخرَ ممّا لا تكونُ الحاجةُ إليه كالحاجة إلى الماء؛ فالماءُ قِوامُ أساسِ الحياةِ. و(أل) هنا للعهد؛ للإشارة إلى أنّ المقصودَ ماءُ بئرٍ صَعْبُ المَنالِ، فهو المُتصوَّرُ في هذا المثال دون ماءِ المطرِ أو ماءِ النّهر؛ أي: أن يبسُطَ الظّمآنُ إليه كفّيه لينالَ منه رشفةً يُطفِئُ بها ظمأَهُ، لكنْ لبُعد الماءِ عنه داخلَ عُمقِ البئرِ، فإنّه لا يستطيعُ الوصولَ إليه، وإنْ طالَه، فإنّه لا يطالُهُ إلّا بأطراف أصابعِه، بحيث لا يتمكَّنُ منَ الاغترافِ منه.

وتحتملُ الجملةُ أنّ عدمَ استطاعةِ الظّمآنِ تكمنُ في بلوغ الماءِ المعهودِ فمَهُ، ومن ثَمّ لن يرتويَ؛ لكونِ الماءِ سيَتبدَّى أكثرُهُ من بين الأصابعِ، فلا يُطفِئُ ظمأه، إلّا بلوغُ الماءِ نفسِه بالكفّينِ.

دَلالةُ حرْفِ اللّامِ في قوله تعالى ﴿لِيَبْلُغَ﴾:

عِلّةُ بسْطِ اليدِ أن يَبلُغَ الماءُ فمَ العَطْشان، فيرويَ ظمأهُ

اللّامُ في ﴿لِيَبْلُغَ﴾ للتّعليل؛ والمعنى: أنّه باسِطٌ كفّيهِ إلى الماء، كي يَبلُغَ الماءُ فاهُ، ليردَّ به ظمأَهُ.

التَّعْبيرُ عنِ البلوغِ بالمضارع ﴿لِيَبْلُغَ﴾:

تَكْرارُ محاولاتِ جلْبِ الماء مع اليأْسِ دَلالةٌ على شدّةِ الحاجةِ إليه

عبَّرَ عنِ الوصول إلى الماء بصيغة المضارع قائلًا: ﴿لِيَبْلُغَ﴾؛ للدّلالة على تكرُّرِ محاولاتِ أن يَبلُغَ الماءُ فاهُ، وتجدُّدِها مع اليأسِ من حصولِ المَطلوبِ، وفيه دلالةٌ على شدَّة الحاجةِ إليه، بعد أن بلغَ الظّمأُ مبلَغَهُ.

تَوْجيهُ معنَى الواوِ في سياق الآيةِ:

بيانُ حالِ الظّمآنِ حالةَ اضْطِدامِه بالحِرمانِ

الواو في قوله تعالى: ﴿وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ﴾ حاليّةٌ؛ أي: والحالُ أنّه - أي: الماء - ليس ببالغٍ فمَ الظّمآنِ، ومِن ثَمّ فلا ارتواءَ، ولا انطِفاءَ لجَمرةِ العَطشِ في النّفس.

وَجْهُ النّفي بـ(ما) في سياقِ الآيةِ المُحكَمةِ:

لا يَشْعرُ الجمادُ الأصمُّ بعطشِ الظّمآنِ المؤلِم

والنّفيُ بـ ﴿وَمَا﴾ ودخولُهُ على الاسْم هنا مقصودٌ به العُمومُ والمبالغةُ[1]؛ فليس الماءُ ببالغٍ فيه أبدًا؛ لكونِه جمادًا لا يشعُرُ بعَطَشِه، ولا ببَسْطِ يدِه إليه، فضلاً عنِ الاستطاعةِ لِما أرادَهُ منَ البلوغِ إلى فيهِ[2].

تَوجيهُ إعرابِ الضّميرِ ﴿هُوَ﴾:

بُلوغُ اليأْسِ مُنْتهاهُ، فلا فوهُ يبلغُ الماءَ، ولا الماءُ يبلغُ فاه

الضّميرُ المنفصلُ ﴿هُوَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦۚ﴾ مبنيٌّ على الفتح في محلِّ رفعٍ، إمّا على أنّه اسمُ ﴿وَمَا﴾ أو على أنّه مبتدأ. والمرادُ به إمّا ﴿ٱلْمَآءِ﴾ والهاءُ في ﴿بِبَٰلِغِهِۦۚ﴾ للفم؛ والمعنى: وما الماءُ ببالغٍ فاهُ، وإمّا أنّ المُرادَ به (الفم) والضّميرُ في ﴿بِبَٰلِغِهِۦۚ﴾ للماء؛ والمعنى: وما فوه ببالغٍ الماءَ[3]. وأفادَ الضّميرُ هنا توكيدَ العَجْزِ عن بلوغِ الماءِ الفَمَ.

معنَى حرْفِ الباءِ في شبْهِ الجُملةِ ﴿بِبَٰلِغِهِۦۚ﴾:

أكّدَ العَجْزَ عن بُلوغِ الماءِ، باسْتِحالةِ بلوغِه

الباءُ في قوله تعالى: ﴿وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦۚ﴾ زائدةٌ لتأكيدِ نفْيِ بُلوغِ الماءِ، وتَقويةِ عجْزِه عنِ القيام بفعلِ إيصالِ الماء إلى فيهِ.

التّعبيرُ عن نَفْيِ البُلوغِ بصيغةِ اسْمِ الفاعلِ:

التَّعبيرُ بالاسْمِ دالٌّ على الثّبوتِ على الحالِ دونَ تَجدُّدٍ

التّعبيرُ بالاسْمِ يدلُّ على الثّبوتِ، لكنّه هنا الثّبوتُ المَنفيُّ، وهو أبلغُ في النّفي؛[4] لدلالتِه على نفيِ ثبوتِ بلوغِ الماءِ إليه، وأنّ أمرَ عدمِ البلوغِ بمَنزلةِ الحاصلِ الثّابتِ المُستقرِّ.

بَلاغةُ الكنايةِ في سياقِ الآيةِ:

إثباتُ عجْزِ المَدْعوِّ، وخَيبةِ الدّاعي فيما يَرْجو

دلّتِ الكنايةُ بقوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦۚ﴾ على عدمِ القُدرةِ، كما دلَّت أيضًا على خَيبةِ الدّاعي؛ لأنّه يسْعَى في دعاءِ أصنامِه، ثمّ لا ينالُ

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/424.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/11.
(3) عبد اللّطيف الخطيب وآخران، التّفصيل في إعراب التّنزيل: 7/143.
(4) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/424.

من وراء سَعْيِه إلّا الخيبةَ، فيذهبُ سعيُهُ وتعبُهُ باطلًا؛[1] وذلك أنّ الكفَّ المَبسوطَ لا يمكنُهُ أن يُمسِكَ الماءَ، ولا الكفَّ المَقبوضَ أيضًا[2]، فكلاهما لا يُمسكُ الماءَ، فكذلك "الّذين يدّعونَ الأصنامَ، لا ينفعُهم دُعاؤها، وهي لا تقدرُ على شيءٍ"[3].

وجْهُ عطْفِ جملةِ ﴿وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾:

جملةُ ﴿وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾ عطفٌ على جملةِ ﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ﴾، وهدفُ هذا العطفِ القصدُ إلى "استيعاب حالِ المَدعوِّ وحالِ الدّاعي، فقد بيّنَت جملةُ ﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ﴾ حالَ عجْزِ المَدعوِّ عنِ الإجابة، وأُعقِبَت بالتّمثيل المُشتَمِلِ على كنايةٍ وتَمليحٍ، ثمّ بيّنَت جُملةُ ﴿وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾ حالَ خَيبةِ الدّاعي بالتّصريحِ عَقِبَ تَبْيينِه بالكنايةِ"[4].

اسْتِقْصاءُ أحوالِ الدّاعي والمدْعوِّ؛ لِلدّلالةِ على مُنتَهى العَجْزِ والخَيْبةِ

فائِدةُ التّعبيرِ بلفْظِ ﴿دُعَآءُ﴾ في السّياقِ المُحكَمِ:

عَبَّرَ بلفظ الدّعاءِ دَلالةً على العبادة؛ لأنّ غايةَ العبادةِ هي دعاءُ المَعبودِ قصدَ الإجابة. وقد سمَّى اللّه تعالى الدّعاءَ عبادةً في قوله: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾ [غافر: 60].

الدّعاءُ مخُّ العبادةِ، وهو مفتاحُ الدّخولِ إلى القَبولِ

عِلّةُ تَعْريفِ لفْظِ ﴿دُعَآءُ﴾ بالإضافةِ إلى ﴿ٱلْكَٰفِرِينَ﴾:

قولُهُ تعالى: ﴿دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ هو من إضافة المصدرِ لفاعلِه، حيث قَصَرتِ الإضافةُ هنا (الدّعاءَ الضّلالَ) في دعاءِ الكافرينَ، كي لا يدخلَ في الوصْفِ كلُّ دعاءٍ، فدعاءُ المؤمنين ليس في ضَلالٍ.

إضافةُ المصْدَرِ إلى فاعلِه حتّى لا يَدخلَ معه غيرُه

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/109.

(2) قال الآلوسيّ في روح المعاني: 7/119: وعن أبي عبيدة أنّ ذلك تشبيهٌ بالقابض على الماء في أنّه لا يحصُلُ على شيءٍ، ثمّ قال: والعربُ تضربُ المَثَلَ في السّاعي فيما لا يدركُهُ بذلك، وأنشدَ قولَ الشّاعر:
فأصبَحتُ فيما كانَ بَيني وبينَها *** مِنَ الودِّ مثلَ القابِضِ الماءَ باليَدِ

(3) الطّيبيّ، حاشية الطّيبيّ على الكشّاف: 8/489.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/109.

دَلالةُ (ال) في لفْظِ ﴿ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ في السّياقِ:

دُعاءُ كلِّ كافرٍ في ضَلالٍ بيّنٍ ظاهرٍ

و(ال) في كلمة الكافرين لاستغراقِ الجنسِ؛ ليشمَلَ كلَّ كافرٍ في دُعائِه؛ فدعاؤُهُ في ضلالٍ كما صنيعُه ومُعتقَدُه.

سِرُّ الجمْعِ بلفْظِ ﴿ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ دون (الكفّار):

جمعُ السّلامةِ يُقرِّبُ الصّفةَ منَ الفعلِ، وجمْعُ التّكسيرِ يُقرِّبُها منَ الاسْمِ

وجمعُ ﴿ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ هنا جمعُ سلامةٍ دونَ أن يقولَ: (الكفّار) جمعَ تكسيرٍ؛ لأنّ الغرَضَ هو الإشارةُ إلى فعْلِهم، وهو كفرُهُم الّذي هو دعاؤُهُم أصنامَهُم، وهذا ما يدلُّ عليه جمعُ السّلامةِ، فجمعُ السّلامة يُقرِّبُ الصّفةَ منَ الفعل، وليسَ كذلك جمعُ التّكسيرِ الّذي يُقرِّبُها إلى الاسميّةِ[1].

بَلاغةُ الاسْتِثناءِ المُفرَّغِ:

دُعاءُ الكافرينَ وحْدَهُ في ضَلالٍ لا ضَلالَ بعدَه

في قولِه تعالى: ﴿وَمَا دُعَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ﴾ استثناءٌ مُفرَّغٌ من أعمّ العِللِ والأحوالِ؛ أي: وما دعاءُ الكافرين في حالٍ منَ الأحوال، ولا لعلّةٍ منَ العللِ، إلّا في ضَلالٍ.

وقد دلّ الاستثناءُ هنا على القَصرِ؛ إذ قصرَ دعاءَ الكافرين على كونِه وحدَه في ضلالٍ، وليس كذلك دعاءُ المُؤمِنين، وهو من قصْرِ المَوصوفِ على الصّفة.

معنَى الحرْفِ ﴿فِي﴾ منَ السّياقِ المُحكَمِ:

أفادَتْ (في) التَّمكُّنَ في وصْفِ ضَياعِ دُعاءِ الكافرين

﴿فِي﴾ للظّرفيّةِ المَجازيّةِ للدّلالة على التَّمكُّن في الوصْفِ؛ أي: ﴿وَمَا دُعَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ إلّا ضائعٌ ضياعًا شديدًا؛[2] وذلك أنّ رجاءَهم في إجابة الدّعاء، إمّا أن يكونَ مُتَّجهًا إلى أصنامِهم، وهي فاقدةُ النّفعِ والضّرِّ لأنفسِها قبل أن تَفقدَهُ في حقِّ الآخرين، وإمّا أن يكونَ رجاءً في اللّه، وهو سبحانَه لا يجيبُهُم؛ لأنّهُم لم يتوجَّهوا إليه أصلًا بالعبادة ولا بالدّعاء، فكيف يُجيبُهُم؟!

(1) ابن يعيش، شرح المفصّل: 3/250، والسّامرائيّ، معاني الأبنية في العربيّة، ص: 126.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/110.

سِرُّ التّعبيرِ عنِ الضّلالِ بالمصدَرِ الصّريحِ:

التّعبيرُ بالمصدَرِ آكَدُ منَ التّعبيرِ بالفعلِ في السّياقِ الفصيحِ

عبّرَ بلفظ الضّلالِ مصدرًا صريحًا، ولم يقُلْ: (وما دعاءُ الّذين ضلّوا) أو (يَضلّون) تحقيقًا للغرَض في ذمِّهم؛ لأنّ المصدرَ الصّريحَ آكَدُ لكونِه دالًّا على الحدثِ نفسِه مُجرَّدًا عنِ الزّمان المُتلبِّسِ بدلالة الفعلِ، ماضيًا أم مضارعًا.

بَلاغةُ الفَذْلَكةِ في جملةِ الفاصلةِ:

خَيبةُ المُشركين في نتيجةِ دُعائِهم مَن لا يَستجيبُ لهُم

تُعدُّ جملةُ ﴿وَمَا دُعَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ﴾ فَذْلَكةً[1]، ونتيجةً لِما ورَدَ فيما سبقَها من تفصيل حالِ الّذين يَدعونَ من دون اللّه أصنامًا، وأنّ أصنامَهُم لا تَستجيبُ لهُم بشيءٍ، كما لا يَستجيبُ الماءُ لطالبِه؛ لكونِه جمادًا لا يشعرُ بعَطشِ أحدٍ، بعدَ تناوُلِ هذا المعنى بضروبٍ منَ البلاغة فيها التّشبيهُ والكنايةُ، ذَكَرَ هنا النّتيجةَ مُلخِّصًا إيّاها في قوله: ﴿وَمَا دُعَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ﴾.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيّةُ:

(أجابَ) و(استَجابَ):

كلُّ استجابةٍ إجابةٌ، وليسَ كلُّ إجابةٍ اسْتِجابةً

عندَ ورودِ صيغةِ استجابَ أو مُشتقّاتِها في الكتاب العزيزِ، نلحظُ في تفسيرها أنّ غالبَ المُفسِّرينَ يكتفونَ بالقول: استجابَ بمعنى أجابَ، في حين يبحثُ بعضُهم عن سرّ زيادةِ السّين والتّاء؛ ليفرِّقَ بينَهما دَلاليًّا. وممّا أوردوهُ في هذا: أنّ استجابَ بمعنى أجابَ، وأنّ زيادةَ السّين والتّاء لِتقويةِ الفعل[2]، أو أنّ زيادةَ السّين والتّاء في الأصل للطّلبِ[3]، وأنّ (استجابَ) خاصٌّ بمَن أجابَ بما يوافقُ غرَضَ السّائل، و(أجابَ) عامٌّ في المُجيب بالموافِق والمُخالِف[4].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/110.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/108.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 8/3926.
(4) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/423.

ويُفرِّقُ العسكريُّ بينَهما بأنّ: أجابَ معناهُ فعلُ الإجابةِ، واستجابَ طَلَبُ أن يفعَلَ الإجابةَ؛ لأنّ أصلَ الاستفعالِ لطلب الفِعلِ، وصَلحَ استَجابَ بمعنى: أجابَ؛ لأنّ المعنى فيهِ يؤولُ إلى شيءٍ واحدٍ، وذلكَ أنّ استَجابَ طلبَ الإجابةَ بقَصدِهِ إليها، وأجابَ أوقعَ الإجابةَ بِفِعلِها[1]. والحاصلُ أنّ كلَّ استجابةٍ إجابةٌ، وليس كلُّ إجابةٍ استجابةً، فبينَهما عُمومٌ وخصوصٌ مُطلَقٌ.

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 223.

﴿وَلِلَّهِ يَسۡجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا وَظِلَٰلُهُم بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ ١٥﴾ [الرّعد: 15]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

رَبْطُ ذِكْرِ ضلالِ الكافرين بكوْنِ الوجودِ برُمّتِه يَسجدُ لربِّ العالَمين

بعد أن بيّنَ ﷻ في الآية السّابقةِ بُطلانَ الشّركِ، وعدمَ أهليّةِ الشّركاءِ لأنْ يُعبَدوا ويُدْعَوا من دون اللّه، ثمّ ضربَ الأمثالَ على انعدامِ فاعليتِهم؛ لكونهِم لا يستجيبونَ لهم دُعاءً، ولا يَسمعونَ لهم نداءً، فهُم لا يملِكونَه؛ بل لا يملِكونَ لأنفسِهم نفعًا ولا ضرًّا، فكيف يملِكونَه لغيرِهم؟ تمامًا كما لا يملِكُ الماءُ أن يبلُغَ أفواهَ العَطاشى؛ لأنّه جمادٌ لا يتحرّكُ بنفسِه، ولكن بمُحرِّكٍ، بعد ذلك كلِّه، بيَّنَ سبحانَه أنّه غنيٌّ عنهم وعن عبادتِهم، فله سُبحانه يَسجدُ وينقادُ الوجودُ كلُّه عُلْويُّه وسُفليه حتّى الظّلالُ، فقال: ﴿وَلِلَّهِ يَسۡجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا﴾.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿طَوۡعٗا﴾: أصلُ الطَّوعِ يدُلُّ على الإصحابِ والانقيادِ. يُقالُ: طاعَهُ يَطوعُهُ، إذا انقادَ معَهُ ومضَى لأمرِه. وأطاعَهُ بمعنى طاعَ لَهُ. ويُقالُ لِمَن وافقَ غَيرَهُ: قد طاوَعَهُ[1]. وطاعَةُ اللّه: الانقيادُ والامتِثالُ بفعلِ أوامِرِه واجتِنابِ نواهيه[2]. والطَّوعُ: نقيضُ الكَرْه، تقولُ: لَتَفعَلَنَّهُ طَوْعًا أو كَرهًا، طائعًا أو كارِهًا[3]. والمقصودُ بالطَّوعِ في الآية: الانسياقُ منَ النَّفس تقرُّبًا وزُلفى لِمحضِ التَّعظيمِ ومَحبَّةِ اللّه[4]، وهو خاصٌّ بمَن يأتي بالسُّجود والخضوعِ اختيارًا كالمُؤمِنين، حالةَ كانَ

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (طوع).
(2) ابن الأمير الصنعاني، التنوير شرح الجامع الصغير: 7/119.
(3) الخليل، العين: (طوع).
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/110.

المقصودُ بالسّجودِ مَعناهُ الشَّرعيَّ، وإن كانَ المُرادُ به معناهُ اللّغويَّ، أي: الانقياد، فدائرةُ الطّوْعِ تتّسعُ لتشملَ كلَّ الجمادات غيرِ العاقِلة.

2) ﴿وَكَرْهًا﴾: أصلُ كَرِهَ يدُلُّ على خلافِ الرِّضا والمحبَّةِ. يُقالُ: كَرِهتُ الشَّيءَ أكرَهُهُ كَرهًا. والكُرهُ: الاسمُ. والكَرهُ: أنْ تُكَلَّفَ الشَّيءَ فَتَعمَلَهُ كارِهًا[1]، والكَراهةُ مِنَ الكُرهِ أوِ الكَرهِ؛ وهو المَشَقَّةُ والشِّدَّةُ، يُقالُ: قُمتُ على كُرهٍ؛ أي: على مَشقَّةٍ[2]، ومنه سُمّيتْ الحَربُ كريهَةً[3]، والمَكارِهُ: الشَّدائِدُ، والمَكروهُ: ما يَكرَهُهُ الإنسانُ ويَشُقُّ عليه[4]، والمُرادُ بالكَرهِ في الآية: الاضطرارُ عندَ الشِّدَّةِ والحاجةِ[5]، وتُطلَقُ على مَن يَستكبرُ عن عِبادة ربِّه، وفطرته تكذّبه في ذلك.

3) ﴿وَظِلَٰلُهُم﴾: أصلُ الظّلِّ يدُلُّ على سَترِ شيءٍ لشيءٍ. فالظِّلُّ: ظِلُّ الإنسانِ وغيرِهِ، تَقولُ: أظَلَّتني الشَّجَرَةُ. وظِلٌّ ظَليلٌ: دائِمُ الظِّلِّ[6]، ولا تقولُ العرَبُ: ظَلَّ يَظَلُّ إلّا لكلِّ عَمَلٍ بالنَّهار[7]، ويُقالُ لكلِّ مَوضِعٍ لم تصلْ إليه الشّمسُ ظِلٌّ، ويُعبَّرُ بالظِّلِّ عن العِزَّة والمَنَعَةِ، وعَنِ الرَّفاهَة. والظُّلَلُ: جمعُ ظُلَّةٍ، كغُرفَةٍ وغُرَفٍ: سحابةٌ تُظِلُّ، وأكثرُ ما يُقالُ فيما يُستوخَمُ ويُكرَهُ، قال تعالى: ﴿كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ﴾ [الأعراف: 171][8]. والمقصودُ بـ ﴿وَظِلَٰلُهُم﴾ في الآية: صورةُ الجسمِ المُنعَكِسِ إليه نورٌ[9].

4) ﴿بِٱلْغُدُوِّ﴾: أصلُ (غدو) يدُلُّ على زمانٍ، مِن ذلكَ الغُدوُّ، يُقالُ غَدا يَغدو[10]، والغَداةُ والغُدوَةُ والغُدوُّ بمعنًى، وهو مِن أوّلِ النَّهار إلى الزَّوال[11]، والغُدوُّ جمعُ غَداة، كقُنًى جمعُ قَناة[12] والغَدوَة: المَرَّة مِنَ الغُدوِّ، وهو سَيرُ أوّلِ النّهارِ، نقيضُ الرَّواحِ[13]، والغاديةُ: سَحابَةٌ

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (كره).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (كره).
(3) ابن عبّاد، المحيط في اللّغة: (كره).
(4) ابن الأثير، النّهاية: (كره)، وابن منظور، لسان العرب: (كره).
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/110.
(6) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (ظل).
(7) الخليل، العين: (ظل).
(8) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحفّاظ: (ظلل).
(9) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/111.
(10) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (غدو).
(11) السّمين الحلبي، عمدة الحفّاظ: (غدو).
(12) الكرمانيّ، غرائب التّفسير، ص: 565.
(13) ابن منظور، لسان العرب: (غدا).

تَنشأُ صَباحًا. والغَداءُ: الطَّعامُ بعَينِه، سُمّي بذلكَ لأنَّهُ يُؤكَلُ في ذلك الزَّمانِ[1]. والمرادُ بالغُدوِّ في الآية: الزَّمانُ الَّذي يغدو فيه النّاسُ؛ أي: يخرجون إلى حوائجِهم.

5) ﴿وَٱلۡأٓصَالِ﴾: الأصيلُ ما كانَ مِنَ النَّهارِ بعدَ العَشي، وهو الوقتُ بعدَ العَصرِ إلى المَغرِبِ، وجَمعُهُ: أُصُلٌ وآصالٌ[2]، وقد آصَلْنا؛ أي: دَخَلْنا في الأصيلِ، ولَقيتُهُ أُصَيلالًا وأُصَيلانًا: إذا لقيتَه بالعَشي[3]. والمقصودُ بـ (الآصال) في الآية: وقتُ اصفِرارِ الشَّمسِ في آخرِ المساءِ[4].

❁ المَعْنى الإجْماليّ:

يُبيِّنُ ﷻ في هذه الآية أنَّ خضوعَ الوجودِ كلِّه وانقيادَهُ له سبحانَه، فقالَ تعالَت كلماتُه: ولله وحدَه يخضعُ بالسُّجود جميعُ مَن في السَّماوات ومَن في الأرض، طائعينَ ومُكرَهينَ؛ سُجودَ ذلٍّ وقهرٍ وخضوعٍ، فكلُّ أحدٍ خاضِعٌ لقدَرِ الله، مَقهورٌ تحتَ سُلطانِه، لا يقدرُ أن يمتنعَ عليه، وله ينقادُ ظِلُّ كلِّ ما لهُ ظِلٌّ مِنَ المخلوقاتِ أوَّلَ النَّهار وآخرَهُ[5].

يَسجُدُ لله تعالى كُلُّ مَن في السّماواتِ والأرضِ، خاضِعًا مُنقادًا، رغبةً ورهبةً

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيّ:

بَلاغةُ الوصْلِ في الآيةِ الكريمةِ:

الصّلةُ بين جملةِ ﴿وَلِلَّهِ يَسۡجُدُ﴾ وجملةِ ﴿لَهُۥ دَعۡوَةُ ٱلۡحَقِّۚ﴾ واضحةٌ، ولذا وصلَ بينَهما بالعطف بالواو؛ إذِ المعنى: له ﴿دَعۡوَةُ ٱلۡحَقِّۚ﴾، وله ﴿يَسۡجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾؛ وذلكَ شِعارُ الإلهيةِ[6].

دَعوةُ الحقِّ صورةٌ لألوهيّتِه الموجِبةِ السُّجودَ له جلَّ في عُلاه

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (غدو)، والرّاغب، المفردات: (غدا).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (أصل).
(3) ابن سيده، المُحكم، وابن منظور، لسان العرب: (أصل).
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/111.
(5) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/306 - 305، والشّنقيطيّ، أضواء البيان: 2/237، 239، وجماعة من علماء التفسير، المختصر في تفسير القرآن، ص: 251.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/110.

وجْهُ العُدولِ عن ضَميرِ الجلالةِ إلى اسمِه تعالى ﴿وَلِلَّهِ﴾:

أُظهرَ الاسمُ الجليلُ (اللّه)، والمَقامُ يقتضي إضْمارَه، بأنْ يُقالَ: (وله يسجدُ) فهو معطوفٌ على ﴿لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ﴾؛ لاقتضاء المقام هذا، تحقيقًا للغرَضِ الّذي وردَ فيه السّياقُ، وهو إثباتُ أنّ الدّعوةَ الحقَّ، والعبادةَ الخالِصةَ الكامِلةَ، هي للّه وحدَهُ.

لا دعوةٌ بحقٍّ، ولا عبادةٌ بإخلاصٍ، إلّا لله وحدَه

سِرُّ تقْديمِ شبْهِ الجُملةِ ﴿وَلِلَّهِ﴾ في السّياقِ:

تقديمُ الجارِّ والمجرورِ ﴿وَلِلَّهِ﴾ فيه دلالةٌ على حصْرِ السّجودِ الحقِّ للّه وحدَه دونَ سواه، أو لأنّ السّجودَ بمعناه المُتبادَرِ؛ وهو الهَوي على الأرض بقَصدِ الخُضوعِ قَدِ اختَصَّ اللّه بهِ على الإطلاقِ؛ لأنَّ المَوجوداتِ العُليا والمُؤمِنينَ باللّه يسجُدونَ له، والمُشرِكينَ لا يَسجُدونَ للأصنامِ ولا للّه تعالى[1].

اخْتِصاصُ السُّجود بالله وحدَه، من مُقتضياتِ الألوهيّةِ الحَقّةِ

نُكتةُ التَّعبيرِ عنِ السُّجودِ بالمضارع ﴿يَسْجُدُ﴾:

التّعبيرُ بلفْظِ السُّجودِ مُضارِعًا دالٌّ على استمرارِه وتجدُّدِه؛ إذ إنّ السّجودَ للّه ﷻ لا ينقطِعُ لحظةً، بل يَستمرُّ كأثَرٍ لتَعدُّدِ السّاجِدين وتنوُّعِهم، سواءٌ في الأرض أم في الملأ الأعلى.

لا ينقطعُ السُّجودُ لله في كونِهِ الواسعِ؛ تَعظيمًا لجلالِه الخافِضِ الرّافِعِ

جُملةُ ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ﴾ بين الحقيقةِ والمَجازِ:

لفظُ (السّجود) ينصرفُ - حقيقةً شرعيّةً - إلى السّجودِ المعروفِ في الصّلاة الّذي هو أحدُ أركانها، ويعني الهوي على الأرض خُضوعًا للّه وتذلُّلًا، كما أنّه في حقيقتِه اللّغويَّةِ إنّما يعني الذّلَّ والتّطامُنَ[2]، وهو مُفيدٌ للانقيادِ والطّاعةِ والخضوعِ. وبناءً على هذين التّأصيلَين صارَ اللّفظُ مُحتمِلًا للتّوجيهَين:

يُرادُ بالسُّجودِ ما كان على الحقيقةِ، أو الذُّلُّ والخضوعُ على المَجاز

الأوّلُ: حملُهُ على حقيقتِهِ الشّرعيّةِ، وهو هنا الأظهرُ، وحصولُهُ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/110.

(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سجد).

يكونُ منَ الملائكةِ والمؤمنين منَ الإنسِ والجنِّ، والآيةُ عليه خبرٌ مُرادٌ به الطّلبُ[1].

الثّاني: حملُهُ على معناه اللُّغويِّ الّذي هو الذُّلُّ والتّطامُنُ، مُرادًا به لازمُه ونتيجتُه؛ أي: الانقياد والخضوع، وهذا الثّاني أوسعُ معنًى وأشملُ، من حيث إنّ الانقيادَ قَدَرٌ مُشترَكٌ بين الجميعِ، "فيصحُّ إطلاقُه على العقلاءِ السّاجدين وغيرِهم، وعلى ظلالِهم أيضًا"[2] والسّجودُ على هذا مَجازٌ مُرسَلٌ، علاقتُهُ اللّزوميّةُ أوِ السّببيّةُ، حيث أطلقَ السّجودَ، وأرادَ لازمَه[3].

بَلاغةُ الاسْتِعارة في جُملةِ ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ﴾:

السُّجودُ خُضوعٌ للخالِقِ، وتذلُّلٌ لمَقامِهِ السّامِقِ

مضى في الآيةِ السّابقةِ أنّ لفظَ ﴿يَسْجُدُ﴾ بمعناه اللُّغويِّ هو مَجازٌ مُرسَلٌ، وهنا نبيّنُ أنّه بمعناه الشّرعيِّ؛ أي: السّجودُ باعتبارِهِ ركنًا في الصّلاة هو - من منظورٍ بلاغيٍّ - مجازٌ لُغويٌّ (اسْتعارةٌ تبعيّةٌ)، لعلاقةِ المُشابهةِ في الذّلِّ والخضوعِ بين السّجودِ بمعْنَيَيْه اللُّغويِّ والشّرعيِّ[4]، لكنَّ علماءَ الشّريعةِ مُصطلِحون على تسميةِ مثلِ ذلك بالحقيقةِ الشّرعيّةِ.

إيثارُ الموصولِ ﴿مَن﴾ الدّالِّ على العاقِلِ:

العُقلاءُ أصْلُ الانقيادِ، وانقيادُهم دليلٌ على انقيادِ غيرِهم

أوثِرَ التّعبيرُ بـ ﴿مَن﴾ الموصولةِ الدّالّةِ على العاقِلِ، مع كون الظّلالِ المذكورةِ في الآية مشمولةً فيها، وهي ليسَت منَ العقلاء، من باب تغليبِ العاقلِ على غيره[5]. وهو الأرجحُ، أو يكونُ تخصيصُ العقلاء ملحوظًا فيه أنّهم العُمدَةُ، وأنّ انقيادَهُم دليلُ انقيادِ غيرِهم[6]. وتدُلُّ (من) الموصولةُ على العُموم، وهو عمومٌ عُرفيٌّ يُرادُ

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/370.
(2) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 8/489.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3918.
(4) الرّضيّ، تلخيص البيان، ص: 122.
(5) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3918.
(6) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/119.

به الكثرةُ الكاثِرةُ. وأمّا سرُّ عدمِ إعادة ﴿مَن﴾ مع الأرض، فلم يقُلْ: (ومَن في الأرض) فهو الاستخفافُ بالكفّارِ والأصنامِ[1].

سِرُّ تَقْديمِ السّاجِدين في السّماواتِ على السّاجِدين في الأرْضِ:

أهلُ السّماواتِ أسْبقُ وجودًا، والسُّجودُ صفةٌ عامّةٌ فيهم

الّذي يظهرُ في بيان سببِ تقديمِ السّاجدين في السّماوات على السّاجِدين في الأرض، أنّ مرجعَه لأسبابٍ ثلاثةٍ:

الأوّلُ: أنّ السّجودَ في أهل السّماواتِ صفةٌ عامّةٌ فيهم لا تتخلَّفُ، فكلُّ أهلِ السّماواتِ ساجِدون للّه، خاضِعون له، طائِعون، ولذا قدَّمَهُم أيضًا في قوله سبحانه: ﴿وَلَهُۥٓ أَسۡلَمَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا﴾ [آل عمران: 83]، بخلاف أهلِ الأرض؛ ففيهمُ الطّائعُ السّاجدُ، وفيهم الضّالُّ الّذي لا يسجدُ للّه. ويُعبِّرُ عن هذا المعنى قولُه تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسۡجُدُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلۡجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٞ مِّنَ ٱلنَّاسِۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيۡهِ ٱلۡعَذَابُۗ﴾ [الحجّ: 18]

الثّاني: الأسبقيّةُ الزّمانيّةُ؛ فإنّ أهلَ السّماوات (الملائكة) أسبقُ وجودًا من أهل الأرض. وحِوارُ اللّه تعالى لملائكتِه في قصّة خلقِ آدمَ دالٌّ على هذه الأسبقيّةِ الوجوديّةِ[2].

الثّالث: دلالةُ السّياقِ هنا ترجِّحُ البدءَ بأهل السّماواتِ؛ لأنّه قد سبقَ هذه الآيةَ ذِكرُ العُلوياتِ منَ البَرق والسّحاب والصَّواعِقِ، ثمَّ ذِكرُ الملائِكةِ وتسبيحِهم، ثم ذَكَر بعد ذلك الأصنامَ والكفّارَ، فاقتضى السّياقُ والتّرتيبُ أن يبدأ هنا بذكرِ مَن في السّماوات، ثمّ ذِكرِ الأرضِ تبعًا[3].

(1) الكرمانيّ، أسرار التّكرار، ص: 152.

(2) من الآيات الدّالّة على ذلك وهي كثيرة، قوله تعالى: ﴿إِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرٗا مِّن طِينٖ ۝٧١ فَإِذَا سَوَّيۡتُهُۥ وَنَفَخۡتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ۝٧٢﴾ [ص: 71 - 72].

(3) الكرمانيّ، أسرار التّكرار، ص: 152.

توجيهُ إعرابِ ﴿طَوْعًا وَكَرْهًا﴾:

تنوُّعُ الإعراب سَعةٌ في المعنى، وإفصاحٌ في الدّلالةِ

في توجيه النّصبِ في قولهِ تعالى: ﴿طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ احتمالاتٌ؛ فهو إمّا مفعولٌ مِن أجله، وإمّا حالٌ؛ أي: طائعين وكارهين، وإمّا منصوبٌ على المصدر المُؤكِّدِ بفعلٍ مُضمَرٍ[1].

دَلالةُ الطّوعِ والكَرْهِ على العُمومِ:

المخلوقاتُ المُختارةُ العاقلةُ وغيرُ العاقلةِ كلُّها تَسجدُ لله

دلَّ هذا التّقسيمُ ﴿طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ على أنّ كلَّ المخلوقاتِ ساجدةٌ للّه؛ سواءٌ منها المخلوقاتُ غيرُ العاقلة، وهو فيها أظهرُ لقوله تعالى: ﴿ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾﴾ [فُصّلت: 11]، أمِ المخلوقاتُ المُختارةُ العاقلةُ كالإنس والجنّ، أمّا في المؤمنِ منهما فظاهرٌ، وأمّا في الكافرِ منهما فإنّه أيضًا "في حكمِ السّاجدِ، وإنْ أباهُ لِما بهِ منَ الحاجةِ الدّاعيةِ إلى الخُضوعِ"[2]، وعلى هذا يكونُ هذا التّقسيمُ ﴿طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ دالًّا على العُموم. ومثلُهُ في الدّلالة على هذا أيضًا قولُه تعالى: ﴿وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ [آل عمران: 83]. وفي هذه الدّلالةِ على العُموم دَلالةٌ أخرى على "كمالِ السّلطانِ للّه تعالى"[3].

دَلالةُ تَقْديمِ الطَّوعِ على الكَرْهِ:

إنّ الاعتقادَ وما يَتْبعُه منَ الطّاعات، لا يكونُ إلّا عن طواعيةٍ

دأبَ القرآنُ الكريمُ على تقديم الطَّوع على الكَره في آياته، فهي عادةٌ قُرآنيّةٌ؛ لأنّ الأصلَ في حصول الإسلام وفي الطّاعة عمومًا أن يكونَ طواعيةً لا كَرهًا، كما أنّ أكثرَ ورودِ هذين المُتقابلَين، أنّه يأتي ضمنَ تقابُلٍ آخرَ في الإخبارِ عن طاعة أهلِ السّماواتِ والأرض، كما في قولهِ تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾ [آل عمران: 83] وقولهِ: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ

(1) السّمين الحلبي، الدّرّ المصون: 7/36.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/302، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 19/25.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3919.

﴿مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا﴾ وقد مضى أنّ الطّاعةَ في أهل السّماواتِ أشملُ وأسبقُ. وقد مضَت هذه العادةُ أيضًا في مَوضِعَين آخرَين؛ هما قولُه تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٞ فَقَالَ لَهَا وَلِلۡأَرۡضِ ٱئۡتِيَا طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهٗا قَالَتَآ أَتَيۡنَا طَآئِعِينَ ١١﴾ [فصّلت: 11]، وقولُه تعالى: ﴿قُلۡ أَنفِقُواْ طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهٗا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمۡ إِنَّكُمۡ كُنتُمۡ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ ٥٣﴾ [التّوبة: 53]، ومرَدُّ هذا التّقديمِ للطَّوْعِ إلى أنّ الاعتقادَ، وما يَتْبعُه منَ الطّاعات، لا يكونُ إلّا عن طواعيةٍ؛ إذ ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾ [البقرة: 256]، كما نصّ القرآنُ.

معنَى العطْفِ بالواوِ في السّياقِ الكريمِ:

قولُه تعالى: ﴿وَظِلَٰلُهُم﴾ معطوفٌ على ﴿مَن﴾ في قوله: ﴿وَلِلَّهِ يَسۡجُدُ مَن﴾، وسرُّ العطفِ هنا كونُ سجودِ ظلالِهم تابعًا لسُجودِهم؛ فإنْ هُم سجدوا سجدَت معهم ظلالُهم، فما الظّلُّ سوى انعكاسٍ لصورةِ الجسمِ من تأثيرِ وقوعِ أشعّةِ الشّمس عليه.

سُجودُ الظّلِّ تابعٌ لسُجودِ المرْءِ

سِرُّ التّعبيرِ بلفْظِ (الظّلال) في الآيةِ الكريمةِ:

عبَّرَ بـ (الظّلال)؛ لأنّ مَقامَ السّياقِ هو في الحديث عنِ الانقياد والخضوعِ، وهو أظهرُ في (الظّلال)؛ لأنّ الظّلالَ مُنقادَةٌ مُسخَّرةٌ لِما أرادَ سبحانَه، فظلالُهم تسجدُ للّه بامتدادِها على الأرض، تَقصُرُ تارةً بارتفاعِ الشّمس وتطولُ أخرى بانحطاطِها، وهُم لا يَقدِرونَ على منْعِ ظلالِهم مِن ذلك حيثُ يكونُ لهُم ظلالٌ[1]. وفيه إشارةٌ إلى أنّ أولئك المُشركين خاضعون مُنقادون للّه حتّى ظلالُهُم الّتي تلازمُهُم، فالوجودُ كلُّه - تابعًا ومَتبوعًا، مُلازمًا وغيرَ ملازمٍ - خاضعٌ للّه تعالى[2].

الوُجودُ كلُّه خاضعٌ لله، مُنقادٌ له دونَ سواه

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/303.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3919، وابن جُزَيّ، التّسهيل: 1/403.

إضافةُ الظّلالِ إلى الضّميرِ (هم):

تَخْصيصُ الظّلالِ في السّياقِ المُبينِ تَوجيهٌ لنظَرِ الغافِلين

يعودُ الضّميرُ في قوله تعالى: ﴿وَظِلَٰلُهُم﴾ إلى ﴿مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، مع تخصيصه بالصّالح له منَ الأجسامِ الكثيفةِ ذاتِ الظّلِّ تَخصيصًا بالعقلِ والعادةِ[1].

والسّرُّ في إضافة الظّلالِ إلى ضمير (هم) تَخْصيصُ ظلالِهم؛ لتكونَ أقربَ لتوجيهِ نظَرِ الغافِلين إلى هذه الموازَنةِ، وهي أنّه إذا كان هذا الغافلُ لا يستطيعُ التَّحكُّمَ في ظلاله؛ لكونِها مُنقادةً للّه، يتصرَّفُ فيها كيفما شاءَ؛ امتدادًا وتقلُّصًا بحسبِ وضْعِها بالغدوِّ والآصال، فهلّا انقادَ هو لخالقِه كانقيادِ الظّلالِ لمشيئة للّه، فوحَّدَه وعبَدَه عن طواعيةٍ واقتناعٍ، ففيه دعوةٌ إلى النّظر، كما صرّحَ به في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّؤُاْ ظِلَٰلُهُۥ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ﴾ [النّحل: 48].

دَلالةُ حرْفِ (الباء) في قوله تعالى ﴿بِٱلْغُدُوِّ﴾:

اسْتِعمالُ حرفِ المعنى، بأكثرَ من معنًى، مُفيدٌ في البيانِ

دلّتِ الباءُ في قوله تعالى: ﴿بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ﴾ على الظّرفيّة؛ أي: أنّها بمعنى (في)[2]، وذلك جائزٌ من حيث إنّ الباءَ للإلصاق، والمُلاصِقُ للزّمان والمكانِ حاصلٌ فيهما[3].

نُكتةُ إفْرادِ الغُدوّ:

الغدوُّ على المصدريّة، مَصدر

المُرادُ بالغدوّ الأوقاتُ، وأُفرد في النّظم ولم يُجمَعْ على (غَدَوات) أو(غَديات) فيُقابلَ (الآصال)؛ لكون الغدوِّ في معنى الجمع، فاستغنى به؛ ولكونهِ مصدرًا في الأصل، والمُرادُ به الزّمانُ، مثل: جئتُك طلوعَ الشّمس؛ أي: وقتَ طلوعِها، وأُطلِقَ للوقت مَجازًا؛ لِمجاورتِه ثمّ صارَ حَقيقَةً عُرفيّةً، ومعناهُ الدّخولُ في وقت الصّباح[4].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/111.
(2) السّمين الحلبي، الدّرّ المصون: 7/37.
(3) عضيمة، دراسات لأسلوب القرآن: 2/13.
(4) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 8/586 و13/388.

فائِدةُ تَخْصيصِ وقْتَيِ الغُدوِّ والآصالِ:

الظِّلالُ من صُنْعِ اللهِ البديعِ، وهي تَعْظُمُ وتَكثُرُ في الغدوّ والآصال

وتخصيصُ الوَقتَين بالذّكر مع أنّ انقيادَها مُتحقِّقٌ في جميع أوقاتِ وجودِها لظهورِ ذلك فيهما، فالظّلالُ إنّما تَعظُمُ وتَكثُرُ فيهما[1].

فهذان الوقتان الغدوُّ والآصالُ، هما اللّذان يختلفُ فيهما الطّولُ والعرضُ؛ ولأنّ الغَدوةَ تشرقُ فيها الشّمسُ على الوجود فتمدُّه بكلِّ أسباب القوّةِ والنّماءِ للأحياء؛ ولأنّ الأصيلَ هو الوقتُ الّذي تُؤْذنُ فيه الشّمسُ بزوالٍ، واللّه على كلّ شيءٍ قديرٌ[2].

تَوْجيهُ التّشابُهِ اللّفْظيِّ:

ناسَبَ ورودُ كلِّ حرفٍ سياقَه، ودِقّةَ نَظْمِه

وردَت في القرآن الكريم آياتٌ مُتشابهةٌ مع قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، مع فروقٍ بينها في التّناوُبِ بين ﴿مَن﴾ و﴿مَا﴾ [النّحل: 49]، وفي ذكر ﴿فِي﴾ [النّحل: 49] مع الأرض أو عدمِ ذكْرِها، وكذلك في التّقديمِ والتّأخيرِ، على النّحو الآتي:

في سورة الرّعد: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، وفي سورة النّحل: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [النّحل: 49]، وفي سورة الحجّ: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ﴾ [الحجّ: 18].

فأمّا آيةُ الرّعد فقد تقدَّمَها ذِكرُ العُلويّاتِ منَ البَرق والسّحابِ والصَّواعِقِ، ثمَّ ذِكرُ الملائِكَةِ وتسبيحِهم، وذكرَ بعدَ ذلك الأصنامَ والكفّارَ. وفي آية السّجدةِ كانَ التّرتيبُ على هذا النّسق فبدأ بذكرِ مَن في السّماواتِ، ثمّ ذكرَ الأرضَ تبعًا، ولم يذكرْ ﴿مَن﴾، بل قال: ﴿مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ استِخفافًا بالكفّارِ والأصنامِ.

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/12، وأبو حيّان، البحر المحيط: 6/370.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3919.

وأمّا آيةُ النَّحلِ فقد تقدَّمَها ذكرُ ما خلقَ اللّه على العُموم، ولم يكنْ فيهِ ذكرُ الملائكةِ ولا الإنس - وهما الجنسان العاقِلان - بالصَّريحِ، فاقتضَتِ الآيةُ التّعبيرَ بـ ﴿مَا﴾ [النّحل: 49] دون ﴿مَن﴾ فقال: ﴿مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ [النّحل: 49].

وأمّا آيةُ الحَجِّ فقد تقدَّمَها ذكرُ المُؤمنينَ، وسائِرِ الأديان، فقدَّمَ ذكرَ ﴿مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ [الحجّ: 18] تعظيمًا لَهُم ولها، وذَكَرَ بعدَ ذلك ﴿وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [الحجّ: 18]؛ لأنّهُم هُمُ الَّذين تقدَّمَ ذكرُهُم. فقالَ في كلِّ آيَةٍ ما يليقُ بها[1].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيّةُ:

الطَّوْعُ والرَّغْبَةُ:

كلُّ طَوْعٍ رغبةٌ، وليسَت كلُّ رَغْبةٍ طَوعًا

الطَّوعُ الانقيادُ، وقد قوبِلَ بالكَره عدّةَ مرّاتٍ في القرآن الكريم، ومنها قولُه تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسۡجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا﴾، والطّاعَةُ مِثلُه، لكنْ أكثرُ ما تُقالُ في الائتِمار لِما أُمِرَ، والارتِسامِ فيما رُسِمَ[2] إيماءً إلى أنّ الطّاعةَ هي الانقيادُ للّه لا عن كرهٍ، بل عن إخلاصٍ ومحبّةٍ ورضا، وهذا معنًى شرعيٌّ للطّاعة. أمّا اللّغةُ فمُطلَقُ الانقيادِ هو طاعةٌ سواءٌ وقعَت عن "رَغبَةٍ أو رَهبةٍ"[3]، والمعنى المحوريُّ للطَّوع "لُيونةُ الشّيءِ وتَأتّيه لِما يُرادُ منه"[4].

أمّا الرّغبةُ فأصلُها السَّعةُ في الشّيء، يُقالُ: رَغُبَ الشّيءُ: اتّسَعَ، وحَوضٌ رَغيبٌ[5]؛ أي: واسعٌ. وتُطلَقُ الرّغبةُ على الإرادة في الشّيءِ والحرْصِ عليه، أو على الانصرافِ والإعراضِ عنه تبعًا لحرف الجرِّ الّذي عُدّي به.

(1) الكرمانيّ، البرهان، ص: 152.
(2) الرّاغب، المفردات: (طوع).
(3) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 223.
(4) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (طوع - طيع).
(5) الرّاغب، المفردات: (رغب).

"فإذا قيل: رَغِبَ فيه وإليه يقتَضي الحِرصَ عليه، قال تعالى: ﴿إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ۝٥٩﴾ [التّوبة: 59]، وإذا قيل: رَغِبَ عنه اقتَضى صَرفَ الرّغبةِ عنه والزّهدَ فيه، نحوَ قولهِ تعالى: ﴿وَمَن يَرۡغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبۡرَٰهِـۧمَ﴾ [البقرة: 130]"[1].

وخلاصةُ هذا الطّرح أنّ بين الطَّوعِ والرّغبةِ تقارُبًا دَلاليًّا، فيجتمعان في الانقياد للشّيء حرصًا عليه، ثمّ تنفرِدُ الرّغبةُ بانصرافِها إلى معنى الإعراضِ حالَ التَّعدّي بـ (عن) الّتي هي للمُجاوزةِ، وعلى هذا فكلُّ طوعٍ رغبةٌ، وليسَت كلُّ رغبةٍ طوعًا.

الكَرْهُ والغَصْبُ والإجْبارُ:

الكَرهُ: ما يُحمَلُ عليه بإكراهٍ، والغصبُ: أخذُهُ ظلمًا، والإجبارُ: حَملُ الآخر على الأمر.

االكَرْهُ: المَشقّةُ الّتي تنالُ الإنسانَ من خارجٍ فيما يُحمَلُ عليه بإكراهٍ[2] والإكراهُ: حَملُ الإنسانِ على أمرٍ لا يُريدهُ طبعًا أو شرعًا[3]، والغصبُ: أخذُ الشّيءِ ظلمًا. تقولُ: غَصَبَه منه، وغَصَبَه عليه، بمعنى[4].

والإجبارُ: في الأصلِ حَملُ الآخرِ على الأمر، تُعورِفَ في الإكراه المُجَرّدِ، فقيلَ: (أجبرَهُ على كَذا)؛ أي: أكرهَهُ فهو (مُجبَر)[5].

وبعد هذا العرْضِ لتعريف كلٍّ واحدةٍ منَ المفردات الثّلاثِ، يبيّنُ لنا أنّ هُنالك مُشترَكًا، وتقارُبًا دَلاليًّا بينَها، من حيث تضادُّها جميعًا للاختيار، لكنّها تصبُّ ثلاثتُها في معنى الكَره والإكراه، فمعناه سارَ في مُفردتَي الغصب والإجبار، ولذلك آثرَهُ القرآنُ في التّعبير، ولم يَستعمِلْ مُفردتَي الغصب والإجبار، فهو إذن لفظٌ قرآنيٌّ، وهو أيضًا أعمُّ من لفْظَي الغصبِ والإجبارِ، فهما مُتفرِّعان عنه، من جهة المعنى، ومَردودان إليه.

(1) الرّاغب، المفردات، السّمين الحلبي، عمدة الحفّاظ: (رغب).
(2) الرّاغب، المفردات: (كره).
(3) الكفويّ، الكلّيّات، ص: 163.
(4) الجوهريّ، الصّحاح: (غصب).
(5) الكفويّ، الكلّيّات، ص: 49.

المحتويات

الجزء الثالث عشر 7

سورة يوسف 9

- [يوسف: 56 - 57] 10
- [يوسف: 58 - 60] 28
- [يوسف: 61] 48
- [يوسف: 62] 55
- [يوسف: 63] 65
- [يوسف: 64] 74
- [يوسف: 65] 87
- [يوسف: 66] 111
- [يوسف: 67] 130
- [يوسف: 68] 145
- [يوسف: 69] 164
- [يوسف: 70] 178
- [يوسف: 71] 190
- [يوسف: 72] 194
- [يوسف: 73] 203
- [يوسف: 74] 212
- [يوسف: 75] 216
- [يوسف: 76] 221
- [يوسف: 77] 236
- [يوسف: 78] 248
- [يوسف: 79] 256
- [يوسف: 80 - 82] 265
- [يوسف: 83 - 84] 297
- [يوسف: 85] 318
- [يوسف: 86] 327
- [يوسف: 87] 337
- [يوسف: 88] 349
- [يوسف: 89 - 92] 366
- [يوسف: 93] 393
- [يوسف: 94 - 95] 403
- [يوسف96 - 98] 414
- [يوسف: 99 - 100] 438
- [يوسف: 101] 465
- [يوسف: 102 - 103] 477
- [يوسف: 104] 491
- [يوسف: 105 - 107] 500
- [يوسف: 108] 519
- [يوسف: 109] 529
- [يوسف: 110] 549
- [يوسف: 111] 562

سورة الرّعد 576

- [الرّعد: 1] 585
- [الرّعد: 2] 599
- [الرّعد: 3] 616
- [الرّعد: 4] 634
- [الرّعد: 5] 646
- [الرّعد: 6] 660
- [الرّعد: 7] 679
- [الرّعد: 8 - 9] 690
- [الرّعد: 10] 707
- [الرّعد: 11] 723
- [الرّعد: 12 - 13] 742
- [الرّعد: 14] 766
- [الرّعد: 15] 785

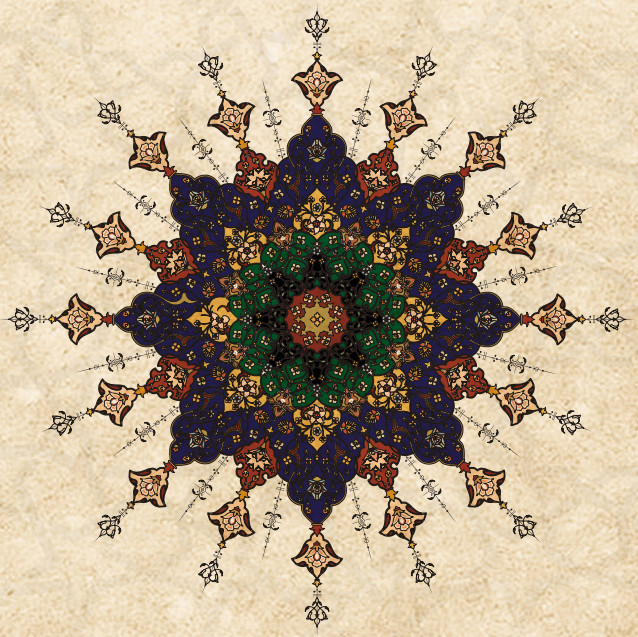

مجمع القرآن الكريم بالشارقة

موسوعة التفسير البلاغي

المُجلَّدُ الرَابِعُ والعِشرونَ

سورة الرّعد من الآية 16 إلى سورة إبراهيم الآية 25

موسوعة التفسير البلاغي

Government of Sharjah حكومة الشارقة
مجمع القرآن الكريم بالشارقة
HOLY QURAN ACADEMY IN SHARJAH

موسوعة التفسير البلاغي

المُجَلَّدُ الرَابِعُ والعِشرونَ

سورة الرّعد من الآية 16 إلى سورة إبراهيم الآية 25

نُخْبَةٌ مِنْ عُلَماء مَجْمَعِ القُرْآنِ الكَرِيمِ بِالشّارِقَةِ

منشورات القاسمي
AL QASIMI PUBLICATIONS
20/24

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الرابع والعشرون، سورة الرّعد من الآية 16 إلى سورة إبراهيم الآية 25
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الرابع والعشرون، سورة الرّعد من الآية 16 إلى سورة إبراهيم الآية 25
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 24 ، 808 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-21-0
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 24 : المجلد الرابع والعشرون، سورة الرّعد من الآية 16 إلى سورة إبراهيم الآية 25.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-768-21-0
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-1718375 بتاريخ 2024/02/19م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الجُزْءُ الثَّالِثَ عَشَرَ

سُورَةُ الرَّعْدِ

﴿قُلۡ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ قُلِ ٱللَّهُۚ قُلۡ أَفَٱتَّخَذۡتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ لَا يَمۡلِكُونَ لِأَنفُسِهِمۡ نَفۡعٗا وَلَا ضَرّٗاۚ قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُ أَمۡ هَلۡ تَسۡتَوِي ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُۗ أَمۡ جَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُواْ كَخَلۡقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلۡخَلۡقُ عَلَيۡهِمۡۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُوَ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّٰرُ ١٦﴾ [الرّعد: 16]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

عَدَمُ التَّمْييزِ بين مَن يَسْتحِقُّ العِبادَةَ ومَن لا يَسْتَحقُّها، فُقْدانٌ للتَّمْييزِ

اعلم أنّه تعالى لمّا بيّنَ أنّ كلَّ مَن في السّماوات والأرض ساجدٌ له سُبحانَه، بمعنى كونهِ خاضعًا له، عادَ إلى الرّدِّ على عَبدةِ الأصنام[1]، مُقرِّرًا بطريق الاستفهامِ التّقريريِّ أنّه ربُّ السّماواتِ والأرضِ، ومُنكِرًا عليهم في جملةٍ مِنَ الاستفهامات الإنكاريّةِ فقدانَهُمُ البَداهةَ؛ لعدمِ تمْييزِ عقولِهم بين مَن يستحِقُّ العبادةَ ومَن لا يَستحِقُّها، أو بين الإله الحقِّ والشّركاءِ الّذين لا يملِكون لأنفسِهم نفعًا ولا ضرًّا، ولا يخلُقون بل يُخلَقون، ويَفتقدونَ كلَّ مُقوِّمات الرُّبوبيَّةِ، الّتي هي حقٌّ مُطلَقٌ للّه الواحدِ القهّارِ.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَسْتَوِي﴾: أصلُ (سوي) يدُلُّ على استِقامةٍ واعتِدالٍ بينَ شَيئَينِ. يُقالُ هذا لا يُساوي كذا؛ أي: لا يُعادِلُهُ. وفُلانٌ وفُلانٌ على سَويةٍ مِن هذا الأمرِ؛ أي: سَواءٍ[2]. والتَّسويةُ: ضِدُّ المُفاضَلَةِ. وتأتي بمعنى العَدلِ والإنصافِ، فيُقال: سَوَّيتُ بين الشَّيئَينِ: إذا عَدَلت بَينَهما[3]، وهي أيضًا: تَقويمُ الشَّيءِ وتَعديلُهُ، تقولُ: سَوَّيتُ الشَّيءَ

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 19/26.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سوي).
(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (سوا).

فاستَوى؛ أي: قَوَّمتُهُ فاستَقامَ[1]. والمقصودُ بـ ﴿هَلۡ يَسۡتَوِي﴾ في الآية: استنكارُ جعْلِ الأشياءِ المُتَضادَّةِ مُتساويةً.

2) ﴿شُرَكَآءَ﴾: أصلُ (شرك) الشِّركَةُ، وهو أن يكونَ الشَّيءُ بين اثنَينِ لا يَنفَرِدُ به أحدُهُما. يُقالُ: شارَكتُ فُلانًا في الشَّيءِ، إذا صِرتَ شَريكَهُ. وأشرَكتُ فُلانًا، إذا جَعَلتَهُ شريكًا لَكَ[2]. والشِّركُ: يأتي بمعنى المُشارَكَةِ، وهي الانضِمامُ والمُخالَطَةُ بين الشَّريكَينِ، يُقالُ: شَركتُهُ في الأمرِ وشارَكتُهُ: إذا انضَمَمتُ إليهِ وخالَطتُهُ، وصِرتُ شَريكًا لَهُ[3]. والشِّركُ باللّه تعالى ضربان: ضربٌ يُجعَلُ للّه فيه شريكٌ. وهذا - والعياذُ باللّه منه - وصفَه تعالى بأنَّه ظُلمٌ عظيمٌ، والثّاني: الشِّركُ الصَّغيرُ؛ وهو مراعاةُ غيرِ اللّه في بعض الأمورِ، وذلك كالرّياء والنِّفاق. والمقصودُ بالشُّركاء في الآية: النُّظراءُ والأندادُ في الخَلْقِ[4] الّذين عبدوهُم من دون اللّه.

3) ﴿فَتَشَٰبَهَ﴾: أصلُ الكلمةِ يدُلُّ على تَشابُهِ الشَّيءِ وتَشاكُلِهِ لَونًا ووَصْفًا[5]. والاشتِباهُ: على وزنِ افتِعال، ومعناه: الالتِباسُ، وهو مَصدَرُ اشتَبَهَ الأمرُ، يَشتِبُه، اشتِباهًا؛ أي: اختَلَطَ وأشكَلَ[6]. والمقصودُ بقوله ﴿فَتَشَٰبَهَ﴾ في الآية: اختلطَ الأمرُ وأشكلَ؛ أي: لم يَقدِروا على التّفريق بينَ الخَلْقَين.

4) ﴿ٱلۡوَٰحِدُ﴾: أصلُ واحدٍ يدُلُّ على الانفِرادِ[7]، فهو الَّذي لا يَتَجَزَّأُ، ولا يُثَنَّى، ولا يَقبَلُ الانقِسامَ، ولا نَظيرَ لَهُ ولا مِثل[8]، وإذا وُصِفَ اللّه تعالى به فمعناه: هو الَّذي لا يصحُّ عليه التَّجزّي ولا التَّكثُّر[9]، فهو مُنفَرِدٌ بالذّات، في عَدم المِثلِ والنَّظيرِ[10]، والواحِدُ: اسمٌ بُني

(1) الجوهريّ، الصّحاح: (عدل).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (شرك).
(3) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 27، والفيّوميّ، المصباح المنير: (شرك).
(4) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحفّاظ: (شرك).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (شبه).
(6) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/52.
(7) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (وحد).
(8) الرّاغب، المفردات، وابن الأثير، النّهاية: (وحد).
(9) الرّاغب، المفردات: (وحد).
(10) ابن الأثير، النّهاية: (وحد).

لِمُفتَتَح العَدَدِ، تَقولُ: جاءَني واحِدٌ مِنَ النّاسِ[1]، والمقصودُ بـ ﴿ٱلۡوَٰحِدُ﴾ في الآية: الفردُ الّذي لا ثانيَ له؛ أي: المُتَوَحِّدُ بالخَلْقِ[2].

5) ﴿ٱلۡقَهَّٰرُ﴾: أصلُ القَهرِ يدُلُّ على غَلَبَةٍ وعُلوٍّ. يُقالُ: قَهَرَه يَقهَرُه قَهرًا فهو قاهِرٌ، وقَهّارٌ للمُبالَغة. وأقهَرتُ الرَّجُلَ إذا وجَدتُه مَقهورًا، أو صارَ أمرُهُ إلى القَهر[3]، والقَهّارُ صفةٌ للّه ﷻ ثابتةٌ بالكتاب، وهو الَّذي يقهَرُ كلَّ شيءٍ، فَيَغلِبُهُ ويصرِفُهُ لِما يشاءُ كيف يشاءُ[4]. وهو المقصودُ بـ ﴿ٱلۡقَهَّٰرُ﴾ في الآية.

❁ المَعْنى الإجْماليّ:

الآلهةُ المتَّخذَةُ من دونِ الله زيفٌ وضَلالٌ، والمعْبودُ هو الله ذو الجَلالِ

يقولُ الحقُّ ﷻ: قُلْ يا محمَّد للمُشركين الَّذين يعبدونَ مع اللّه غيرَهُ: مَن خالقُ السَّماوات والأرضِ ومُدبِّرُ أمرِهما؟ قُل: اللّه هو الخالِقُ المدَبِّرُ لهما، ثمَّ قُلْ لهم مُلزِمًا بالحُجَّةِ: أتَّخَذتُم غَيرَه معَبودينَ لكُم، وهُم لا يَقدِرونَ على نَفْعِ أنفُسِهم أو ضَرِّها، فَضلًا عن نَفْعِكم أو ضَرِّكم، وترَكتُم عبادةَ مالِكِها؟! قلْ لهم: هل يستوي الكافِرُ الَّذي هو أعمى البَصيرةِ، والمؤمِنُ الَّذي هو البصيرُ المُهتدي؟ أم هل يستوي الكُفرُ الَّذي هو ظُلماتٌ، والإيمانُ الَّذي هو نورٌ؟ أم جَعَلوا للّه سُبحانَه شُرَكاءَ معه في الخَلقِ خَلَقوا مِثلَ خَلْقِ اللّه، فاختلطَ عندَهم خَلْقُ اللّه بخَلْقِ شُرَكائِهم؟! قُلْ لهُم: اللّه وحدَهُ هو خالِقُ كُلِّ شَيءٍ لا شريكَ له في الخَلْقِ، وهو الواحِدُ القهّارُ الَّذي يستحِقُّ الألوهيَّةَ والعبادةَ، لا الأصنامُ والأوثانُ الَّتي لا تضرُّ ولا تنفَعُ[5].

(1) ابن الأثير، النّهاية، وابن منظور، لسان العرب: (وحد).
(2) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 13/87، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/116.
(3) ابن منظور، لسان العرب، وابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن الأثير، النّهاية: (قهر).
(4) الخطابيّ، شأن الدّعاء، ص: 315، والبيهقيّ، الأسماء والصّفات، ص: 315.
(5) ابن جرير، جامع البيان: 13/493، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/446، وابن عجيبة، البحر المديد: 3/16، والسّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 415.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيّ:

بَلاغةُ الفَصْلِ في الآيةِ الكريمةِ:

تَذْكيرٌ بالحقّ الّذي يَعرفونَه ويُنكرونَه، مع التَّوبيخِ على صَنيعِهم

هذه الآيةُ الكريمةُ عامرةٌ بعددٍ منَ الاستفهامات، مُترابطةٌ ترابطًا يُظهرُ ما بينها من وثاقةِ الاتّصالِ؛ لأنّها إمّا مُؤكِّداتٌ للمعنى الأوّل المقصودِ أصلًا، وإمّا أنّها بمثابةِ إقامةِ الدّليل على مُقرّراتِه، على ما سيَظهرُ عند تناوُلِ كلٍّ واحدٍ منها، ثمّ هي جميعُها تقرعُ مَسامِعَ الّذين جعلوا بينَهم وبين ربِّهم صُدودًا، وأقاموا بينَهم وبينَه سُدودًا، فتركوا عبادتَه إلى عبادةِ مَن لا يستحقُّ، ودعَوا مَن لا يجيبُ دعاءَهم؛ لأنّه لا يملِكُ لنفسِه نفعًا ولا ضرًّا، هنا تأتي الجُملُ الاستفهاميّةُ في الآية؛ لِتُقرِّرَهُم بالحقِّ الّذي يَعرفونَه ويُنكرونَه، ولِتُنكرَ عليهم وتوبِّخَهُم على صَنيعِهم بهذا الإعراضِ عن ربِّهم، وبئسَ ما صَنعوا.

بَلاغةُ الاسْتِفهامِ في المَطلَعِ:

تَقْريرُ المُشركين بأنّ ربَّ السّماواتِ والأرضِ هو الله، دونَ سِواه

أوّلُ استفهام فيها قولُه تعالى: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، وجوابُه: ﴿قُلِ ٱللَّهُ﴾ وهو استفهامٌ تقريريٌّ، غرضُه: تقريرُهُم بأنّ ربَّ السّماواتِ والأرضِ هو اللّه، لا أحدَ سواه. وقد كان المشركون - والخطابُ هنا لهم - مُقرّينَ بهذه الرُّبوبيّةِ، ومُعترِفين بأنّ اللّه تعالى هو خالقُ السّماواتِ والأرضِ، كما قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [العنكبوت: 61]، وإنّما حَسُنَ تقريرُهُم بما هُم به مُقِرّون في الأساس؛ لأنّهم لم يَبْنوا على هذا الأساس إيمانًا كاملًا باللّه وحدَه، يُنْجيهم مِن عذابِه، وإنّما أشركوا معه آلهةً أخرى؛ "لاعتقادِهِمُ الباطلِ أنّها تقرِّبُهم إلى اللّه زُلفى"[1].

(1) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام في القرآن الكريم: 2/153.

تَوْجيهُ تَجاهُلِ العارِفِ في المَطلَعِ:

سَوقُ المَعلومِ مَساقَ غيرِ المَعلومِ، محضُ تَقْريعٍ وتَوْبيخٍ

في توجيه السّؤالِ بهذه الصّيغةِ: ﴿مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾، لا يعني أنّه يَستفهمُ استفهامًا حقيقيًّا؛ لكونِه مَعلومًا؛ بدليل إردافِه بالجواب: ﴿قُلِ ٱللَّهُۚ﴾، ولكنّ الهدفَ من سَوقِ السّؤالِ هنا، وهو معلومُ الجوابِ، مساقَ غيرِ المعلوم؛ لِما يحملُهُ من هدفِ تقريرِهم، وأيضًا ما يحملُه من تمهيدٍ لِما سيأتي بعدَه من استفهاماتٍ توبِّخُهم وتُقرِّعُهم على انصرافهم عن عبادة مَن يُقِرّون برُبوبيّتِه.

نُكتةُ تَصْديرِ الاسْتفهامِ بفعلِ الأمرِ ﴿قُلۡ﴾:

لِلمَقولِ قيمةٌ في مَضْمونِه، تَستحقُّ التَّأمُّلَ

في تصديرِ جُملة الاستفهامِ بالأمرِ ﴿قُلۡ﴾ دلالةٌ على أهمّيّةِ المَقولِ وقيمةِ ما يحملُه من معنًى ومضمونٍ؛ بل قُلْ: الأهمّيّةُ البالغةُ لجملةِ الاستفهامِ[1]، ولِما قصدَتْه من غرَضٍ لفْتِ أنظارِهم إلى خطأ انْصرافِهم عنِ الإيمانِ الكاملِ باللّه وعن عبادتِه، مع إقرارِهم برُبوبيّتِه، و"تقريعِهم على الإشراك تقريعًا لا يَسَعُهم إلّا تَجَرُّعُ مَرارتِه"[2].

إيثارُ الاسْتِفهامِ بالأداةِ ﴿مَن﴾:

المَعبودُ هو اللّه الأكملُ، لا جملةُ مَعْبوداتِهم الّتي لا تَعقِلُ

أوثرَ تَوجيهُ السّؤال بـ ﴿مَن﴾ الاستفهاميّةِ الّتي يُستفهَمُ بها عنِ العاقل، دون (ما) الّتي يُستفهَمُ بها عن غير العاقِل؛ لأنّ المقصودَ تقريرُ أنّ ربَّ السّماواتِ والأرضِ هو اللّه، فالسّؤالُ مطروحٌ لتقرير هذا الجوابِ المُتعَيَّن الّذي ليس منه بدٌّ، وهو ما ورد الجوابُ به في الجملة ﴿قُلِ ٱللَّهُۚ﴾، وهو ليس استفهامًا حقيقيًّا كي يُسألَ عنه بـ (ما)، من حيث إنّ في جملة مَعبوداتِهم ما لا يَعقِلُ؛ بل هو استفهامٌ تقريريٌّ جوابُه مُحدَّدٌ مُتعيَّنٌ كما عرفتَ.

إيثارُ اسْمِ الرّبِّ على لفْظِ الجلالةِ ﴿ٱللَّهُۚ﴾:

أوثِرَ في التّعبير هنا اسْمُ الرّبِّ على لفظِ الجلالة ﴿ٱللَّهُۚ﴾؛

(1) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام في القرآن الكريم: 2/153.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/112.

لأنّ المَقامَ مَقامُ رُبوبيّةٍ، فالاستفهامُ التّقريريُّ مُتَّجَهُ تقريرِ خالقِ السّماواتِ والأرضِ ومَن فيهما، ومُدبِّرُ أمورِهما وأمورِ ما فيهما ومَن فيهما، وأيضًا لأنّ المقصودَ بالخطاب هُمُ المشركون، وهُم كانوا يُقرّون بالرُّبوبيّةِ.

فـي مَـقـام الـخـالـقـيّـةِ والـعـنـايـةِ الكاملةِ، يُؤثَرُ التّعبيرُ بالرّبوبيّة

وَجْهُ إضافةِ الرّبِّ إلى السّماواتِ في السّياقِ:

الّذي يظهرُ أنّ الإضافةَ هنا هي إضافةُ تشريفٍ وتعظيم فضلًا عنِ التّخصيص؛ إذ لا مُنازعَ له سبحانَه في خلْقِهما، والمُخاطَبون كانوا بذلك يُقِرّون ويَعترفون؛ فتوجَّهَ القصدُ إلى لفْتِ أنظارِهم إلى الإيمان الكاملِ بمَن يُقِرّون له برُبوبيّتِهما، ونَبْذِ الشّركاءِ الّذين عبدوهُم من دونِه.

الإضـافَـةُ فـي الـجـمـلـةِ الآنـفـةِ تَشريفٌ وتَخْصيصٌ

وَجْهُ عطْفِ الأرضِ على السّماواتِ:

عَطفُ الأرضِ على السّماواتِ هنا تبعًا لها، حيث الغرَضُ هنا دعوتُهم إلى التّوحيد ونبذِ الشّركِ، ولمّا كان خلقُ السّماواتِ أعظمَ من خلْق الأرضِ، كان توجيهُ النّظرِ إلى خلقِها أهمَّ في تحقيق المَقصِدِ، ثمّ ذكرَ الأرضَ تبعًا لها، ولأنّها شريكتُها وتاليتُها عند الدّعوةِ إلى النّظر والاعتبارِ، كما قال سبحانه: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ﴾ [الأعراف: 185]، وكما قال: ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [يونس: 101]، وهذا فضلًا عن أنّ دلالةَ السّياقِ مُرجِّحةٌ لهذه التّبعيّةِ، كما لفتَنا الكِرمانيّ؛ حيث كانَ الأسبقَ الأهمَّ والأسبقَ ذكرًا في السّورة ذِكرُ العُلْويّاتِ منَ البَرق والسّحابِ والصَّواعِقِ، ثمَّ ذِكرُ الملائِكةِ وتسبيحِهم[1].

الأرضُ شريكةُ الـسَّـمـاواتِ في الدّعوةِ إلى النّظَرِ إلـى خـلْـقِـهـا، والاعتبارِ بها

تَبَعيّةُ الأرضِ لـلـسَّـمـاواتِ في الخَلقِ سِرٌّ كونيٌّ دالٌّ على عظمةِ الله وقُدرتِه

سِرُّ العُدولِ عن تَكرارِ لفْظِ الرّبِّ مع الأرضِ:

تمَّتِ الإشارةُ إلى أنّ ذكرَ الأرضِ قد وردَ تبعًا لذكر السّماواتِ،

(1) الكرمانيّ، أسرار التّكرار، ص: 152.

لكونِها تاليتَها في الخَلق، وشراكةُ الخلقِ هذه والتّبعيّةُ فيها هي السّرُّ في العُدول عن تَكرار لفْظِ الرّبِّ مع الأرض، والاكتفاءِ بذكرها أوّلًا.

دَلالةُ قَصْديّةِ التّصريحِ بجوابِ الاسْتفهامِ المَجازيِّ:

تَلْقينُهُم الجوابَ عندَ النّكوصِ عنِ التّصريحِ بهِ، وحكايتُهُ عندَ إعلانِهِ

التّصريحُ بالجوابِ في قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُۚ﴾ مَرجِعُه إلى واحدٍ منِ احتمالَين:

الأوّل: تلقينُهُمُ الجوابَ إنْ هُم كفّوا عنه، فلم يُجيبوا به مُكابرةً وعنادًا؛ لأنّهم في الواقع يُقِرّونَ به. "وحينئذٍ لا يُرادُ بقوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُۚ﴾ الجوابُ، ولكنْ تحريضُهُم إلى الجواب وتلقينُهُم كما هو المُتعارَفُ في المُناظَرةِ حين يريدُ الخصمُ التَّعنُّتَ والمُكابرةَ"[1] وحينئذٍ لا يستطيعونَ إنكارَه؛ لأنّه الجوابُ المُتعيَّنُ الّذي يستوي في تقريره هو ﷺ والخَصْمُ[2] ويؤيِّدُ هذا الاحتمالَ ويُرجِّحُهُ تَوالي الاستفهامات المُرتّبةِ عليه.

الثّاني: أن يكونَ أمرًا بحكاية قولِهم واعترافِهم، بأنّ ربَّ السّماواتِ والأرضِ هو اللّه. وهذا الاعترافُ قد حكاه القرآنُ في غير مَوضِعٍ، منه قولُه تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ﴾ [لقمان: 25] وقوله: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۖ﴾ [العنكبوت: 61]، "كأنّه قيلَ: احْكِ اعترافَهُم، فَبَكِّتْهم بما يُلزِمُهُم منَ الحُجَّةِ، وألقِمْهُمُ الحَجَرَ"[3]، والسّياقُ كما رجَّحَ الوجهَ السّابقَ، فقد أبى اختيارَ هذا الوجه[4].

نُكتةُ إظْهارِ الاسْمِ الأعظمِ ﴿قُلِ ٱللَّهُۚ﴾:

في إظْهارِ اسمِهِ الأعظَمِ، إشعارٌ بعِلّةِ القُدرةِ الباهرةِ

في قولِه تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُۚ﴾ أظهرَ الاسمَ الجليلَ في المعاني الفخمةِ في النّفوس تفخيمًا لشأن المَخلوق، وتعظيمًا له، وتربيةً للمَهابةِ بما يتضمّنُه من إشعارٍ بعِلّة القُدرةِ الباهرةِ المُعجِزَةِ.

(1) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 10/482.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/12.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/12.
(4) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 10/483، والآلوسيّ، روح المعاني: 7/121.

دَلالةُ تَكرارِ فعلِ الأمرِ ﴿قُلْ﴾:

تفرُّعُ الاستِفهامِ الإنكاريِّ على سابقِه التّقريريِّ

كرَّرَ فعلَ الأمر ﴿قُلْ﴾ مع الاستفهام الجديد ﴿قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾، وهو استفهامٌ مُتفرِّعٌ ومُرتَّبٌ على الاستفهام السّابقِ وجوابِه: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ﴾؛ "لقصد الاهتمامِ بذلك التّفريعِ لِما فيهِ منَ الحُجّة الواضحةِ"[1].

فائِدةُ حذْفِ الجارِّ والمجرور (لهم) بعدَ (قل):

السّؤالُ الموجَّهُ مَنطقيٌّ، ولا حاجةَ في إجابتِه إلى تفكيرٍ

عادةُ القرآن حَذفُ الجارّ والمجرور (لهم) بعد (قل) في السّؤال، وفي الجواب المُشتمِلِ عليه؛ وذلك للإيجاز[2]، وليبقى السّؤالُ مَفتوحًا ومَطروحًا لكلِّ مُنكِرٍ، وليس فقط الّذين شوفِهوا بالقرآن إبّانَ نزولِه. وفي حذفِه كذلك دلالةٌ على منطقيّة السّؤالِ الموجَّهِ، ومناسبتِه للحال، وأيضًا على تعيُّن الجوابِ ووجوبِه وإقناعِه، وكأنّ الجوابَ لبروزِه لا يحتاجُ إلى وقتٍ للتّفكير فيه. ومن هذا النّمطِ هذه الاستفهاماتُ الخمسةُ المُشتمِلةُ عليها الآيةُ، مَحَلُّ التّفسيرِ.

دَلالةُ الاستِفهامِ في ﴿قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم﴾:

تَوبيخُهُم لاتّخاذِهم شركاءَ عاجِزين، وتركِهم عبادةَ اللهِ القادرِ المَكينِ

نوعُ الاستفهام هنا إنكاريٌّ وتوبيخيٌّ، وذلك أنّه لمّا كان هذا الاستفهامُ ﴿قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم﴾ مُرتَّبًا على الاستفهامِ التَّقريريِّ السّابقِ ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، فقد ألزمَهُم به وبكَّتَهم. وقصدَ بالاستفهام إنكارَ الواقعِ، كما في قولكَ: أضَرَبْتَ أباكَ - إنكارًا لواقعٍ مُحرَّم ما كان ينبغي أن يكونَ - لا إنكارَ الوقوعِ[3] على معنى: إذا تقرَّرَ أنّ ربَّ السّماواتِ والأرضِ، ومَن فيهما وما فيهما هو اللّه، فلماذا تتّخذونَ مِن دونِه أولياءَ؟ فإنّ هذا التّقريرَ يُلزمُكُم أن تُفردوه بالإيمان والعبادة، لا أنْ تُشركوا معه غيرَهُ، وكأنّه لا عقولَ لكُم.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/113.
(2) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 2/153.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/12.

دُخولُ الفاءِ العاطِفةِ بين همزةِ الاستِفهامِ والفعْلِ:

عَطفَتِ الفاءُ ما بعدَها على محذوفٍ قبلَها

الفاءُ في قوله تعالى: ﴿قُلۡ أَفَٱتَّخَذۡتُم﴾ عاطفةٌ ما بعدَها على محذوفٍ قبلَها بينها وبين همزة الاستفهام، والتّقديرُ: أبعدَ أنْ عَلِمتُموهُ ربَّ السّماواتِ والأرض اتّخذتُم من دونه أولياءَ[1].

التَّعْبيرُ عنِ الاتّخاذِ بالماضي:

اتِّخاذُهُم للأولياءِ أمرٌ مُتحقِّقٌ

عبَّرَ بالماضي في قوله تعالى: ﴿قُلۡ أَفَٱتَّخَذۡتُم﴾؛ لتحقُّقِ وقوعِه، فهو هنا يُعبِّرُ عن واقعٍ قد حصلَ بالفعل، فقدِ اتّخذوا أولياءَ من دون اللّه.

دَلالةُ ﴿مِّن﴾ في قولِه ﴿مِّن دُونِهِۦٓ﴾:

ما يُعبَدُ من دونِ اللهِ لا يَستحقُّ العبادةَ

الظرف (دونَ) من ظروف الأمكنةِ، ولا تَتَصَرَّفُ – على المشهورِ – إلا بالجرِّ بـ (مِنْ)، وهي؛ أي: ﴿مِّن﴾ في قوله تعالى: ﴿مِّن دُونِهِۦٓ﴾ زائدةٌ؛ لتأكيدِ أنّ ما يعبدُهُ هؤلاء بدلًا مِنَ اللّه ليس فقط أقلَّ وأدنى، ولكنّه أيضًا غيرُ مُستحِقٍّ للعبادة.

نُكتةُ إيثارِ لفْظِ ﴿دُونِهِۦٓ﴾ على (غيره):

للهِ وحدَه العلوُّ والكمالُ، وللشّركاءِ الدّونيّةُ والتّردّي والخبالُ

آثرَ التَّعبيرَ بـ (دون) على (غيره)، فلم يقُلْ مثلًا: (من غيره)؛ لأنّ كلمةَ (دون) مع دلالتِها على ما تدلُّ عليه (غير)، فإنّها تضيفُ بُعدًا آخرَ، وهو دَلالتُها على الدّونيّةِ والسَّفَلِ في المَنزِلة. وهكذا الحالُ، فكلُّ إلهٍ اتّخذوهُ من دون اللّه هو كذلك.

سِرُّ تَنْكيرِ لفْظِ (الأولياء):

بيانُ أنّ تَنْكيرَهم لِتَحْقيرِهم

تنكيرُ كلمةِ ﴿أَوۡلِيَآءَ﴾ في قوله تعالى: ﴿قُلۡ أَفَٱتَّخَذۡتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ﴾ مُرادٌ به تحقيرُ شأنِ أوليائِهم وتقليلُه؛ فأين هذه الأصنامُ العاجزةُ منَ الإلهِ الخالقِ القويِّ القادرِ؟!

سِرُّ تَقْديمِ المجرورِ ﴿مِّن دُونِهِۦٓ﴾ على ﴿أَوۡلِيَآءَ﴾:

مُقتضَى التَّقْديمِ التّشريفُ

قدّمَ المجرورَ ﴿مِّن دُونِهِۦٓ﴾ على ﴿أَوۡلِيَآءَ﴾، مع أنّ الأصلَ تقديمُ

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/522. وهذا مذهب الزّمخشريّ فيها، سواءٌ في هذا المثال أو في أمثاله، وغيرُه يرى أنّ الهمزةَ مُقدَّمةٌ من تأخير، لكونِ الصّدارةِ من حقّها.

المرفوعِ ثمّ المنصوبِ ثمّ المجرورِ؛ وذلك لأنّه أُضيفَ إلى ضمير ﴿ٱللَّهُ﴾، فالضّميرُ في المجرورِ ﴿دُونِهِۦٓ﴾ عائدٌ على ﴿ٱللَّهُ﴾، وقدِ اقتضى هذا تقديمَه؛ لكونِه الأشرفَ، فالأشرفُ قطْعًا هو ما أُضيفَ إليه ضميرُ ﴿ٱللَّهُ﴾[1]، ثمّ أنّ مَحطَّ شناعةِ الفعلِ اتّخاذُ الأولياءِ من دونِ اللّه، فضلًا عن عُمومِ الاتّخاذِ.

وَجْهُ التَّعبيرِ عن ﴿أَوْلِيَآءَ﴾ بالجمْعِ:

عبَّرَ عنِ الأولياء بالجمْعِ الدّالِّ على الكثرةِ (أفْعِلاء) كـ(أغنياء)؛ أخْذًا منَ الواقع؛ لأنّهم في الواقع اتَّخذوا من دون اللّه آلهةً، لا إلهًا واحدًا؛ فأوثانُهُم كثيرةٌ مُتعدِّدةٌ، بتعدُّدِ قبائلِهم وأفرادِهم.

أوْثانُهُم وآلهتُهُم كثيرةٌ مُتنوِّعةٌ، ولكنّها لا تُغني عنهم شيئًا

إيثارُ التَّعبيرِ بالأولياءِ دونَ الأربابِ:

آثرَ التّعبيرَ بلفظ الأولياءِ دونَ الأربابِ؛ لأنّ التّعبيرَ به أعمُّ منَ التّعبير بالأربابِ، من حيث إنّ الوليَّ والنّاصرَ قد يكونُ ربًّا، وقد لا يكونُ، فهُم وُبِّخوا على الوصْفِ الأعمِّ، وهو طلبُهُمُ النّصرةَ من غير اللّه، فيلزمُ منه الذّمُّ على الوصفِ الأخصِّ، وهو اتِّخاذُهُم أربابًا من دون اللّه من بابٍ أحرى. وعلى هذا؛ فلو قال: (اتّخذتُم من دونه أربابًا) لأفادَ التّوبيخَ على هذا الوصْفِ الأخصِّ، لا على ما دونَه، وهو مُطلَقُ النّصرةِ[2].

التَّوبيخُ على الوصْفِ الأعَمِّ، مُقتضٍ لحُصولِه على الوصْفِ الأخَصِّ

دَلالةُ جملةِ الصّفةِ ﴿لَا يَمْلِكُونَ﴾:

جملةُ ﴿لَا يَمْلِكُونَ﴾ صفةٌ لـ﴿أَوْلِيَآءَ﴾، فالجُملُ بعد النّكرات صفاتٌ، والمقصودُ منها لفتُ أنظارِ المُخاطَبين، وتنبيهُ السّامِعين للنّظرِ في تلك الصّفةِ والتّدقيقِ فيها، فإنّهم إنْ تَدَبَّروا عَلِموها، وعَلِموا أنّ مَن كانَت تلك صفتَهُ فليسَ بأهلٍ لأنْ يُعبَدَ[3].

عَجَبًا لمعبودٍ لا يملِكُ جلْبَ نفْعٍ لنفسِه، ولا دفعَ ضُرٍّ عنها

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/425، والسّيوطيّ، معترك الأقران: 2/336.
(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/425، والسّيوطيّ، معترك الأقران: 2/336.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/113.

دَلالةُ نفْيِ الملكيّةِ للنّفس:

فاقدُ الشّيء لنفسه، لا يملِكُ أن يُعْطيه غيرَه

دلَّ التّعبيرُ ﴿لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ﴾ بنفْيِ ملكيّةِ الأولياء لأنفسِهم نفعًا ولا ضرًّا، دون أن يقولَ لهُم: (لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ)؛ للدّلالة على بالغِ عجْزِهم، فإنْ كانَت معبوداتُهُم لا تملِكُ أن تجلبَ لنفسِها نفعًا، ولا أن تَدفعَ عنها ضُرًّا، فكيفَ تستطيعُ فعلَ ذلك لعابِديها؟ إنّ فاقدَ الشّيءِ لنفسِه، لا يملِكُ أن يُعطيَه غيرَهُ.

تَوْجيهُ عطْفِ الضُّرِّ على النّفع في السّياقِ:

استِقصاءُ حالاتِ عجْزِ الأولياء، منَ البيانِ المُفصِحِ عنِ المُرادِ

عَطَفَ الضُّرَّ على النّفع، وكان يمكنُ أن يكتفيَ بالنّفع فيدلَّ عليه، وذلك "استقصاءٌ في عجْزِهِم"[1]؛ أي: بالإتيان على جميع الحالاتِ الّتي تُظهرُ حالةَ هذا العَجْزِ.

سِرُّ تَنْكيرِ النّفعِ والضُّرِّ:

النّكرةُ في سياقِ النّفْيِ مفيدةٌ للعُمومِ

تنكيرُ النّفعِ والضُّرِّ هنا؛ لإفادةِ العُموم، فـ﴿نَفْعًا﴾ و﴿ضَرًّا﴾ نَكرتان وقعَتا في سياق النّفي، فأفادَتا العُمومَ؛ والمعنى: لا يملِكونَ لأنفسِهم جلبَ نفعٍ قليلًا كان أم كثيرًا، ولا دفعَ ضرٍّ قليلًا كان أم كثيرًا.

نُكتةُ تَقْديمِ نفْيِ النّفعِ على نفْيِ الضُّرِّ:

تَقْديمُ النّفعِ لكونِ تحصيلِه الغايةَ منَ التّصرُّفاتِ

قدَّمَ نفيَ النّفع هنا على دفع الضُّرّ، مع أنّ الأصلَ تقديمُ درْءِ المَفسدةِ على جلْبِ المَنفعةِ؛ لأنّ المَقامَ يَقْتضيه في إثبات عجْزِ الأولياء؛ وذلك أنّ النّفعَ هو المقصودُ بالذّات مِنَ التّصرُّفات وبذلِ الجهود، فإذا عَجَزَ الأولياءُ عمّا يكون الحرصُ عليه أكثرَ - وهو جلبُ النّفع - فإنّهم عن غيره أعجزُ بطريق اللّزوم، ولا يتحقَّقُ هذا المعنى هنا لو قدَّمَ نفيَ الضُّرِّ على نفي النّفع؛ "لأنّه لا يَلزَمُ من عدم القُدرةِ على دفع الضُّرِّ عدمُ القُدرةِ على جلْبِ النّفع... فقدَّمَ النّفعَ ليكونَ الثّاني تأسيسًا، وزيادةً في بيان عجْزِهم"[2].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/113.

(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/425.

عِلّةُ تَكرارِ لفظِ (لا) في قوله ﴿وَلَا ضَرًّا﴾:

﴿وَلَا﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلَا ضَرًّا﴾ زائدةٌ لتأكيد نفْيِ استطاعتِهم دفعَ الضُّرِّ عن أنفسِهم؛ إثرَ الإخبارِ عن عدم استطاعتِهم جلْبَ النّفعِ لها.

تأكيدُ نفْيِ استطاعةِ دفْعِ الضُّرِّ

نُكتةُ تَكرارِ (لا) النّافيةِ:

تَكرارُ (لا) أفادَ ورودَ النّفي على وقوعِ فِعلَي النّفع والضُّرِّ حالَ الاجتماع، وفي حالِ الانفرادِ؛ فالمعنى: لا يوقِعون شيئًا منهما[1]. فالتّأكيدُ بـ (لا) الثّانيةِ يفيدُ التّصريحَ بعُموم النّفي، إذ بدونِها ربّما يُحمَلُ اللّفظُ على نفيِ الاجتماع[2].

(لا) الثّانيةُ تُفيدُ التّصريحَ المُفيدَ، بعُمومِ النّفي بالتّأكيدِ

بَلاغةُ الفصْلِ في جملة ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى﴾:

جُملةُ ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى﴾ استفهامٌ ثالثٌ، هو بمثابةِ إقامةِ الدّليلِ المُؤكِّدِ على صحّة الجوابِ الّذي أُجيبَ به عنِ الاستفهام الأوّلِ المُقرِّرِ بأنّ ربَّ السّماواتِ والأرض هو ﴿ٱللَّهُ﴾، وهذا هو علّةُ فصْلِه، وعدمِ عطفِه.

إقامةُ الدّليلِ على صِحّةِ كَوْنِ رُبوبيّةِ السَّماواتِ والأرضِ لله

تَوْجيهُ الاسْتفهام في ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى﴾:

الاستفهامُ في قوله ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ﴾ إنكاريٌّ مُتضمِّنٌ معنى النّفي[3]، وفيه أيضًا تهكُّمٌ بالكافرين وتوبيخٌ لهم[4]؛ لأنّ حالَهُم في العمى عنِ الحقِّ، باتّخاذِهم أولياءَ من دون اللّه، أشبهَ حالَ الأعمى الّذي لا يُبصِرُ النّورَ الّذي أمامَه. ومن جملة أهدافِه أيضًا: إظهارُ مزيّةِ المُؤمنينَ باللّه على أهل الشّركِ، بنفْيِ التّسويةِ بينَهما، بعدَ أن أبطلَ في الاستفهامَين السّابقَين استحقاقَ آلهتِهم العبادةَ[5].

لا عقلَ لِمَن يُساوي بينَ الضّدّين؛ العمَى والبصرِ

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/428.
(2) السّيوطيّ، نواهد الأبكار: 2/270.
(3) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 2/152.
(4) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 8/3921.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/114.

سِرُّ تقْديمِ ﴿ٱلۡأَعۡمَىٰ﴾ على ﴿وَٱلۡبَصِيرُ﴾:

ناسبَ وصْفُ العمى ما عُرِفَ من شَنيعِ كُفْرِهم

قدَّمَ الأعمى على البصير؛ لأنّ المُرادَ نفيُ مُساواتِه به[1]، ولمناسبتِه الحديثَ عنِ الكُفران والجحودِ، باتّخاذِ أولياءَ من دون الله تعالى، فقَدَّمَ ما يوائِمُهُ من وصْفٍ، وهو العمى، بما يحملُهُ من دلالة نفْيِ النّظَرِ والتّأمُّلِ.

دَلالةُ ﴿أَمۡ﴾ في ﴿أَمۡ هَلۡ تَسۡتَوِي ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُۗ﴾:

اسْتِنْكارُ حالةٍ أُخرى من حالاتِ التّسْويةِ بين الضِّدَّين

﴿أَمۡ﴾ مُنقطِعةٌ بمعنى (بل)، وهي هنا للإضراب الانتقاليِّ في التّشبيه، حيث انتقلَ الكلامُ بعدَها لتشبيهٍ آخرَ[2]، فبعدَ أن شبَّهَ كلًّا مِنَ المُؤمنِ والكافرِ بالأعمى والبصير؛ لغرَضِ نفْيِ التّسويةِ بينَهما، انتقلَ ليُشبِّهَ الكفرَ والإيمانَ بالظّلماتِ والنّورِ، لنفس الغرَضِ، وجعلَ ذلك تشبيهًا - على قول ابنِ عاشور - بيانُهُ: أنّ "نفيَ التّسويةِ بين الحالَين، يتضمَّنُ تشبيهًا بالحالَين، وهذا من صيغِ التّشبيهِ البليغِ"[3]. وسيأتي أنّ هذا من باب الاستعارةِ التّصريحيّةِ[4].

تَوْجيهُ الاسْتِفهام في جملةِ ﴿أَمۡ هَلۡ تَسۡتَوِي ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُۗ﴾:

لا يَستَوي الكفرُ والإيمانُ، كما لا تَستَوي الظّلماتُ والنّورُ

الاسْتفهامُ هنا كالاستفهامِ السّابقِ ﴿هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُ﴾، فهو أيضًا إنكاريٌّ مُتضمِّنٌ معنى النّفي؛ أي: نفْيُ التّسويةِ بين الكفر والإيمانِ يُشبهُ عدمَ التّسويةِ بين الظّلمات والنّور، وفيه أيضًا ذمٌّ وتقبيحٌ للكفرِ ومدحٌ للإيمان، وتهكُّمٌ بالكافرين ومدحٌ للمُؤمنين.

بَلاغةُ الاسْتِعارتَين التّصْريحيتَين في سياقِ الآية:

بَلاغةُ المَجازِ في التّنفيرِ منَ الكفرِ، والتَّرغيبِ في الإيمانِ

في جملتَي الاستفهام ﴿قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُ أَمۡ هَلۡ تَسۡتَوِي ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُۗ﴾ استعارتان تصريحيّتان أصْليّتان؛ إذِ

(1) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 2/152.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/114.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/114.
(4) والخلاف في هذا حكاه الشّهاب في حاشيته على تفسير البيضاويّ: 5/230.

استعارَ في الأولى لفظَ ﴿ٱلۡأَعۡمَىٰ﴾ للكافر، ولفظَ ﴿وَٱلۡبَصِيرُ﴾ للمُؤمن، وصرَّحَ بالمُستعار - المشبَّه به - فيهما بعد حذفِ المشبَّه فيهما أيضًا، وكذلك فَعَلَ في الجملة الثّانية، فقد استعارَ لفظَ ﴿ٱلظُّلُمَٰتُ﴾ للكفر، ولفظَ ﴿وَٱلنُّورُۚ﴾ للإيمان، وحذفَ اللّفظَين المُشبَّهين، وصرَّح باللّفظَين المُستعارَين. وهدفُ هاتين الاستعارتَين بيانُ علاقةِ المُشابَهةِ بين المُشبّهِ والمُشبّهِ به في الجُملتَين تنفيرًا وتحذيرًا ممّا يحملُهُ المشبّهُ فيهما من سوءِ المعنى وحَقارَته، ولفتًا إلى ما يحملُه المشبَّهُ به من وضاءَةٍ ومَلاحةٍ ترغيبًا فيه.

وفي هذه الاستعارة تتحدَّدُ الصّلةُ الوثيقةُ بين الكفرِ والعَمى، وتتحدَّدُ كذلك شدّةُ ضلالِ الكافر، فهو أعمى في ظلامٍ، والعمى وحدَه حاجبٌ لرؤيتِه شيئًا. فكيف إذا كان هذا الأعمى في ظلامٍ فهو أشدُّ عُرضةً للهلاك، حيث لا يتّقي بنفسه الشّرَّ، وتراه لتخبُّطِه في الظّلام يحكمُ على الأشياء أحكامًا خاطِئةً. والمُؤمِنُ بصيرٌ، والإيمانُ نورٌ. وهنا كذلك تتحدَّدُ الصّلةُ القويّةُ بين الإبصار والنّور؛ بمعنى: الإيمانِ، وتتحدَّدُ كذلك درجةُ هِداية المُؤمنِ؛ لأنّه مُبصِرٌ في نورٍ[1].

قال عبدُ القاهر الجرجانيُّ: "استعارةُ النّور للبيان والحُجّةِ، فهذا شَبَهٌ أُخِذَ من محسوسٍ لمَعقول، ألا ترى أنّ النّورَ مُشاهَدٌ مَحسوسٌ بالبصر، والبيانُ والحجّةُ ممّا يُؤدّيه إليك العقلُ من غير واسطةٍ منَ العين أو غيرها مِنَ الحواسِّ... والنّورُ يُستعارُ للعلم نفسِه أيضًا والإيمانِ، وكذلك حُكمُ الظّلمة، إذا استُعيرَت للشُّبهةِ والجهلِ والكفرِ؛ لأنّه لا شُبْهَةَ في أنّ الشُّبَهَ والشّكوكَ مِنَ المعقول، ووجهُ التّشبيه أنّ القلبَ يحصُلُ بالشُّبهةِ والجهلِ في صفة البصرِ، إذا قَيّدَه دُجَى اللّيل فلم يجِدْ مُنصرَفًا، وإنْ استُعيرَت للضّلالة والكفر، فلأنّ صاحبَهُما كمَن يسعى في الظّلمة، فيذهَبُ في غير الطّريقِ، وربّما دُفِعَ إلى هُلْكٍ، وتردَّى في أُهوية"[2].

العُدولُ مِنَ الاستفهامِ بالهمزةِ إلى الاستفهامِ بـ ﴿هَلۡ﴾:

عَدَلَ عنِ الاستفهام بالهمزة إلى الاستفهام بـ ﴿هَلۡ﴾ لإفادةِ تحقيقِ نفْيِ المُساواةِ

(1) المطعنيّ، خصائص التّعبير القرآنيّ وسماته البلاغيّة: 2/212.
(2) الجرجانيّ، أسرار البلاغة، ص: 66 - 67.

إنكارُ وُقوعِ الاستِواءِ بينَ المُتضادَّين

بين الأعمى والبصير[1]، فضلًا عن إنكارِ وقوعِ الاستواءِ بينَ المُتضادّين، فالاستفهامُ بـ ﴿هَلۡ﴾ يفيدُ إنكارَ وقوعِ الشّيءِ، فضلًا عنِ النّفي[2].

عِلّةُ إظهارِ حرف ﴿هَلۡ﴾ بعدَ ﴿أَمۡ﴾:

إظهارُ (هل) بعدَ (أم) يُفيدُ تَحقيقَ الاستِفهامِ

العلّةُ في إظهار حرفِ الاستفهام ﴿هَلۡ﴾ بعدَ ﴿أَمۡ﴾ في قولِه تعالى: ﴿أَمۡ هَلۡ تَسۡتَوِي ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُۗ﴾؛ هي "إفادةُ تحقيقِ الاستفهامِ، وذلك ليسَ ممّا تُغني فيهِ دلالةُ (أم) على أصل الاستفهام، ولذلك لا تَظهَرُ الهمزةُ بعدَ (أم) اكتِفاءً بدلالة (أم) على تقديرِ استفهامٍ"[3].

سِرُّ جمْعِ الظّلماتِ وإفرادِ النّورِ:

طَريقُ الحقِّ واحدٌ، وسُبُلُ الضّلالِ مُتشعِّبةٌ

جمعَ الظّلماتِ لتعدُّدِ طرُقِ الشّكِّ وكثرةِ مَداخلِه، وأفردَ النّورَ لاتّحادِ طرقِ الإيمان[4]؛ إذ إنّ الإيمانَ مُنحصِرٌ في اتّباعِ الصّراطِ المُستقيم، الّذي بلغَهُ الرّسولُ الكريمُ: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ۝٥٢ صِرَٰطِ ٱللَّهِ﴾ [الشّورى: 52 - 53].

نُكتةُ تَقديمِ الظّلماتِ على النّور:

تَقديمُ ذِكرِ الأدنى على الأعلى في نفيِ التّسويّةِ بينَهما

نُكتةُ تقديمِ الظّلماتِ على النّور يُشبهُ سرَّ تقديمِ الأعمَى على البصير؛ إذِ المقصودُ هنا أيضًا يُشبهُ المقصودَ هناك، وهو نفيُ التّسويةِ بينَهما[5]، وليجاورَ كلٌّ بما يُناسبُهُ، فيُقدِّمُ ما يُقابلُ الأوّلَ، ويُؤخِّرُ ما يُقابلُ الآخرَ.

بَلاغةُ الطِّباقِ بين الأضْدادِ في السّياقِ:

استِعمالُ الطِّباقِ لِتَبشيعِ صورةِ الكُفرِ في عددٍ منَ الأضْدادِ

في هذه المُتقابلات بالتّضادِّ (النّفعِ والضُّرِّ)، و(العمى والإبصارِ)، و(الظّلماتِ والنّورِ) طباقُ الإيجاب، وهدفُهُ: إبرازُ الفرقِ بينَ كلِّ واحدٍ

(1) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 2/154.
(2) الخفاجيّ، عناية القاضي: 7/214.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/114.
(4) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/436، والآلوسيّ، روح المعاني: 11/360.
(5) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 2/154.

منها وما يُضادُّه، ونفيُ التّسْويةِ بينَهما، تحذيرًا وتنفيرًا من سيِّئِها، وترغيبًا وتحفيزًا للنّهوضِ بطيِّبِها.

تَوْجيهُ الاسْتِفهام في جملةِ ﴿أَمْ جَعَلُواْ لِلَّـهِ شُرَكَآءَ خَلَقُواْ﴾:

(الخَلْق) أولَى عِللِ الرُّبوبيّةِ، ولا يَسْتوي مَن خَلَقَ ومَن لم يَخْلُقْ

﴿أَمْ﴾ هنا مُنقطِعةٌ؛ أي: بمعنى: (بل) الّتي للإضراب، والإضرابُ هنا انتقاليٌّ؛ إذِ انتقلَ من غرض نفْيِ التّسْويةِ بين كُلٍّ منَ الأعمى والبصير، والظّلماتِ والنّورِ، إلى غرضٍ آخرَ، وهو الإنكارُ عليهم؛ حيثُ جعلوا للّه شركاءَ ليسَت لديهم أولَى عِللِ الرُّبوبيّة وهي الخَلْقُ، كما دلَّ عليه قولُه سُبحانَه: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ [النّساء: 1].

وهناك همزةٌ مُقدَّرةٌ مفيدةٌ للاستفهام الإنكاريِّ التّهكُّميِّ التّوبيخيِّ دلَّت عليها ﴿أَمْ﴾؛ أي: بل أجَعَلوا ﴿لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُواْ كَخَلْقِهِۦ﴾؟ والإنكارُ هنا للواقع[1] إنْ كانَ مُتَّجهًا إلى جعلِهم للّه شركاءَ، أو هو للوقوعِ إنْ كانَ مُتَّجهًا إلى قوله: ﴿خَلَقُواْ كَخَلْقِهِۦ﴾؛ لأنّهم لم يجعلوا للّه تعالى شركاءَ خَلقوا كخلقِه[2].

فنُّ التَّهكُّمِ في جملةِ ﴿أَمْ جَعَلُواْ لِلَّـهِ شُرَكَآءَ﴾:

الالْتِفاتُ عنهم تهكُّمٌ بهم، وازْدِراءٌ لحالِهم

في توجيه هذا الاستفهامِ إليهم بأسلوبِ الالتفاتِ عن خطابِهم إلى الغَيبةِ مُعرِضًا عنهم، وكأنّهم غيرُ مَوجودين، ما يدلُّ على التَّهكُّم بهم، وتوبيخِهم[3]، وإهمالِ شأنِهم؛ وهُم أهلٌ لذلك؛ لأنّهم أوّلًا: جعلوا للّه شركاءَ. ثانيًا: وليتهم إذ جعلوا له شركاءَ كان لشركائِهم منَ الصّفاتِ ما يبعثُ على إشكال الأمرِ عليهم واشتباهِه، فيكونُ لهم عذرٌ في عبادتِهم، لكنْ أنّى لهُمُ العُذرُ في عبادتِهم، وما عبدوا إلّا أصنامًا لا حراكَ فيها، ولا تملِكُ لنفسِها

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 8/3922.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/13.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/371.

نفعًا ولا ضرًّا، فأينَ هي منَ الإلهِ الّذي خلقَهُم؟ ﴿أَفَمَن يَخۡلُقُ كَمَن لَّا يَخۡلُقُۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ١٧﴾ [النّحل: 17].

سِرُّ تَقْديم الاسْمِ الأعْظَمِ، والتّصْريحِ به:

جَعْلُ الشّركاءِ مَحلَّ الإنكارِ تأكيدٌ لوَحدانيّة الله وإقرارٌ

قدَّمَ الاسمَ الجليلَ (اللّه) فقال: ﴿أَمۡ جَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ﴾، ولم يقُلْ: (أم جعلوا شركاءَ للّه)؛ لأنّ جَعْلَ الشّركاءِ له سبحانَه هو مَحلُّ الإنكارِ[1]، وفيه إظهارٌ لِعظَمِ ما اقترفوه مِن إثمٍ؛ إذِ استهانوا بمَن له الصّفاتُ العُلى، خالِقُ الكونِ، وما فيهِ ومَن فيه جلَّ تعالى عمّا يَصفون.

عِلّةُ تَنْكيرِ لفْظِ ﴿شُرَكَآءَ﴾ في السّياقِ المُحكَمِ:

التَّحْقيرُ بالتَّنْكيرِ مِن أساليبِ التَّوبيخِ والنَّكيرِ

نكَّرَ ﴿شُرَكَآءَ﴾ فقالَ: ﴿أَمۡ جَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ﴾، ولم يقُلْ: (الشُّرَكاء) تحقيرًا لهم، وتقليلًا من شأنِهم؛ فهُم أحقرُ وأقلُّ مِن أن يُعرَّفوا، مع أنّ مِن أغراض التّعريفِ أحيانًا الذّمَّ والتّحقيرَ، لكنّه حين يُنالُ بالتّنكير، فهو أقوى كما لا يَخفَى.

بَديعُ تَرتيبِ الاسْتِفهاماتِ، والحِكْمةُ فيه:

اللّه ربُّ كلِّ شيءٍ، وكلُّ شريكٍ مُتَّخَذٍ، فهو باطلٌ وغيٌّ

اشتملَت هذه الآيةُ: ﴿قُلۡ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ قُلِ ٱللَّهُۚ قُلۡ أَفَٱتَّخَذۡتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ لَا يَمۡلِكُونَ لِأَنفُسِهِمۡ نَفۡعٗا وَلَا ضَرّٗاۚ قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُ أَمۡ هَلۡ تَسۡتَوِي ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُۗ أَمۡ جَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُواْ كَخَلۡقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلۡخَلۡقُ عَلَيۡهِمۡۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُوَ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّٰرُ﴾ على خمسةِ اسْتِفهاماتٍ، وهي مُترابِطةٌ مُتراتِبةٌ؛ فالاسْتِفهامُ الأوّلُ منها تقريريٌّ، غرَضُه تقريرُهُم بأنّ ربَّ السّماواتِ والأرض هو اللّه، وما بعدَه مِن استفهاماتٍ هي للإنكار، بعضُها لإنكار الوقوعِ، وبعضُها لإنكار الواقعِ[2]، وفيها أيضًا إقامةُ الدّليلِ على إبطال اتّخاذِ شُركاءَ للّه، وتدعيمِ أنّه لا إلهَ سِواه. وبهذا التّرابُطِ تظهرُ خاصيّةُ التّماسُكِ النّصّي بين هذه الجُملِ الاستفهاميّةِ، فهي

(1) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 2/155.
(2) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 2/152.

على تعدُّدِها، وتنوُّعِ أغراضِها خادِمةٌ للاسْتِفهام الأوّلِ المُقرِّرِ أنّ ربَّ كلِّ شيءٍ هو اللّه وحدَه دونَ سواه.

دَلالةُ الفاءِ في قولِه تعالى ﴿فَتَشَٰبَهَ﴾:

الفاءُ في قوله تعالى: ﴿فَتَشَٰبَهَ﴾ عاطفةٌ، عطفَت جملةَ ﴿فَتَشَٰبَهَ ٱلۡخَلۡقُ عَلَيۡهِمۡۚ﴾ على جملةِ: ﴿خَلَقُواْ كَخَلۡقِهِۦ﴾، وكلتاهُما صِفتان لـ ﴿شُرَكَآءَ﴾[1]، وتحتملُ الفاءُ أن تكونَ للسّببيّةِ؛ أي: تشابَهَ الخَلْقُ بسَبَبِ ذلك[2].

لا يَتشابَهُ خلْقُ اللـه مع غيرِه، إلّا على المُشرِكين المُذبذَبينَ

التَّعْبيرُ بالفعْلِ ﴿فَتَشَٰبَهَ﴾ ماضيًا بصيغةِ (التَّفاعل):

تدلُّ صيغةُ التّفاعُلِ على التّشارُكِ في الفعل؛ يعني أن يُسهِمَ كلُّ واحدٍ منَ الطّرفَين بنسبةٍ في الفعل، تأمّلْ هذا في قولِكَ: تشارَكَ فلانٌ وفلانٌ، أو قولِك: تقاتَلَ فلانٌ وفلانٌ. وعليه فقد دلَّت صيغةُ ﴿فَتَشَٰبَهَ﴾ على شِدّةِ المُشاكَلَةِ بين الطّرفَين بما يَلتَبِسُ حتّى لا يَفصِلَ فيهِ بينَ أحدِ الشّيئَين والآخر[3].

قِمّةُ التّشابُهِ حُصولُ المُشاكَلةِ بين المُتشابِهين حدَّ الالتِباسِ

إيثارُ لفْظِ الخَلْقِ في السّياقِ الحكيمِ:

وآثرَ هنا التّعبيرَ بلفظ الخَلْقِ، لِلَفْتِ نظرِهِم إلى كونِهم يَعبدونَ آلهةً مَخلوقةً، لا خالِقةً، فماذا فيها مِن مُقوِّماتِ الرُّبوبيّة والألوهيّةِ، وهي مَخلوقةٌ؟

مَعبودٌ مَخلوقٌ، يَفنَى ويَزولُ، فأين العقولُ؟

سِرُّ تَكرارِ لفْظِ الخَلقِ بمُشتقّاتِه:

كرَّرَ لفظَ الخلقِ باشتقاقاتٍ مُتعدِّدةٍ؛ ليؤكِّدَ دليلَ الخالقيّةِ، وأهمّيّتَه في إثبات صحّةِ الرُّبوبيّةِ، فمَن ليس خالِقًا، هو قطعًا ليس ربًّا، فإذا أُضيفَ إلى ذلك كونُه مَخلوقًا، لم يبقَ له من حظِّ الرّبوبيّة شيءٌ.

الشّيءُ إذا تكرَّرَ تقرَّرَ

وتوسُّلًا لتقرير هذا حرِصَ القرآنُ على أن يَقرعَ هذا اللّفظُ مَسامِعَهم بصيغٍ شتّى واشتقاقاتٍ مختلفةٍ، ليتقرَّرَ مرادُهُ في لحظ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/115.
(2) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 10/484.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/314.

دليلِ الخَلقِ كمُقوِّمٍ أساسيٍّ في صحّة الرُّبوبيّةِ، والشّيءُ إذا تكرَّرَ تقرَّرَ، كما يُقال.

بَلاغةُ التّشْبيه في ﴿خَلَقُواْ كَخَلْقِهِۦ﴾:

دَلالةُ التّشْبيه على المُبالغةِ في إثباتِ عجْزِ آلهتِهم

إذا كان التّشبيهُ أحدَ الوسائلِ البلاغيّةِ في التّصوير والتّقريبِ؛ فإنّه قد استُعمِلَ هنا مُبالغةً في إثبات العَجزِ لآلهتِهم على سبيل الاسْتدراجِ، وإرخاءِ العِنانِ، حيثُ أنكرَ عليهم أوّلًا اتّخاذَهُم من دونِه شركاءَ، ووَصفَها بأنّها لا تملِكُ لأنفسِها نفعًا ولا ضَرًّا، ثمّ أنكرَ عليهم ثانيًا على سبيل التَّدرُّجِ وصْفَ الخَلقِ أيضًا[1].

دَلالةُ شِبْه الجملةِ ﴿عَلَيْهِمْ﴾ في السّياقِ:

ما كانَ للشّركاء خَلقٌ كخَلقِ اللهِ تعالى، حتّى يَلتَبسَ الأمرُ عليهم في عبادتِهم

للتّعبيرِ بقوله: ﴿عَلَيْهِمْ﴾ دورٌ مُتمِّمٌ لِما قامَت به جملةُ التّشبيهِ السّابقةِ، ثمّ التّعبيرِ بصيغة ﴿فَتَشَٰبَهَ﴾، حيث تعاضدَت ثلاثتُها على تصوير شِدّةِ التّشابُهِ بينَ خلْقِ الشّركاءِ - لو كان - وخلقِ اللّه، تصويرًا بليغًا؛ بدا معه كأنّ شدّةَ المُشاكَلةِ بينَهما قد بلغَت حدًّا لم يَدَعْ لهُم من سبيلٍ في وجوبِ التَّعلُّقِ بشركائِهم والوثوقِ بهم، وكأنّها - لقوّتِها - واقعٌ قد فُرِضَ عليهم فرضًا، بما يوجِبُ لهُم العذرَ فيما فعلوا. ويُساعدُ هذا المعنى ما ذكرَهُ القونويُّ من تضمُّنِ ﴿فَتَشَٰبَهَ﴾ معنى الاشتباه؛ تعليلًا منه لتعدّيهِ بالحرف (على)؛ أي: يَشتبهُ الأمرُ عليهِم حدَّ الالتباس، "فيَظنّون أنّهُم مِثلُهُ تعالى في استحقاقِ العبادةِ، لكونِهم مِثلَهُ في الخالقيّةِ"[2].

تَوْجيهُ جملةِ الأمرِ ﴿قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾:

إفْحامُ المُشركين بتقريرِ كوْنِ الخالقيّةِ لله وحدَه

قولُهُ تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ أمرٌ موجَّهٌ للرّسول ﷺ، بأنْ يقولَه للمُشركين الّذين لن يملكوا معه سوى التّسليمِ؛ إذ ليسَ في إمكانهم ادّعاءُ أنّ آلهتَهم تَخلقُ شيئًا.

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/122.

(2) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 10/485.

دَلالةُ قولِهِ ﴿قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ على القَصْرِ:

قولُهُ تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾، يفيدُ حصْرَ خلْقِ كلِّ المَوجوداتِ باللّه تعالى، فلا خالقَ غيرُهُ، والقصرُ هنا مُستفادٌ من تقديم المُسنَدِ إليه ﴿ٱللَّهُ﴾، مُعرَّفًا بالألف واللّام[1].

لا خالِقَ إلّا الله، وكلُّ مَخلوقٍ هو دليلٌ على بديعِ ما سَوّاهُ

بَلاغةُ الفَذْلَكةِ في سياقِ الآيةِ الكريمةِ:

جملةُ ﴿قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ فذلكةٌ لِما تقدَّمَ ونتيجةٌ له، فإنّه لمّا جاء الاستفهامُ التّوبيخيُّ في ﴿أَفَٱتَّخَذۡتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ﴾، وفي ﴿أَمۡ جَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُواْ كَخَلۡقِهِۦ﴾، كان بحيث يَنْتُجُ أنّ أولئك الّذين اتّخذوهُم شركاءَ للّه، والّذين تَبيَّنَ قُصورُهم عن أن يَملِكوا لأنفُسِهم نَفعًا أو ضَرًّا، وأنّهُم لا يَخلُقونَ كخلقِ اللّه إنْ هُم إلّا مَخلوقاتٌ للّه تعالى، وأنّ اللّه خالِقُ كلِّ شيءٍ، وما أولئكَ الأصنامُ إلّا أشياءُ داخِلةٌ في عُموم كلِّ شيءٍ، وأنّ اللّه هو المُتوحِّدُ بالخَلق[2].

أصْنامُهم شيءٌ ممّا خلقَ الله، فكيف تُعبَدُ مِن دونِه؟

تَكْرارُ إظْهارِ الاسْمِ الأعظَمِ ﴿ٱللَّهُ﴾:

إظهارُ الاسم الجليلِ ﴿ٱللَّهُ﴾ وتَكرارُه مظهرٌ لتربيةِ المَهابةِ في قلوب المُخاطَبين؛ لعلَّهم أن يفيقوا من غيِّهم، ويثوبوا إلى رشدِهم.

تَربيّةُ المَهابةِ والهلَعِ في القلوبِ المُنكِرةِ، بذِكْرِ الاسْمِ الجَليلِ (الله)

إيثارُ اسْمِ الفاعلِ ﴿خَٰلِقُ﴾:

التّعبيرُ باسْمِ الفاعل هنا دالٌّ على ثبوت حُكم الخالقيّةِ للّه، ودوامِها له جلّ في علاه؛ إذ إنّه ليسَ لأحدٍ سواهُ أن يَخلُقَ.

ليسَ لأحدٍ أن يَخلُقَ إلّا الله، خالقُ الوجودِ، وموجِدُ كلِّ مَوجود

دَلالةُ لفْظِ ﴿كُلِّ﴾ في سياقِ الآيةِ الكريمةِ:

﴿كُلِّ﴾ في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ دالّةٌ على العُموم، فما مِن شيءٍ إلّا هو مَخلوقٌ للّه ﷻ، بما في ذلك هُم وآلهتُهُم.

خلْقُ اللّه تعالى، يشمَلُ عمومَ المَخلوقاتِ

سِرُّ تَنْكيرِ لَفْظِ ﴿شَيۡءٖ﴾:

تَنكيرُ ﴿شَيۡءٖ﴾ دالٌّ على أنّ كلَّ ما في الكون كَبُرَ أو صَغُرَ، هو من

(1) القونوي وابن التّمجيد، حاشية على تفسير البيضاويّ: 10/485.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/115.

كلُّ شيءٍ كَبُرَ أو صَغُرَ، فهو مِن خلْقِ الله تعالى

خلْقِ اللّه، بما في ذلك أصنامُهم، فما هي "إلّا أشياءُ داخِلةٌ في عُموم كلِّ شيءٍ"[1].

بَلاغةُ وصْلِ جملةِ الفاصِلةِ:

مُسَوِّغُ الوَصْلِ بين الجُملتَين، كونُهما مَقولَ القولِ

جملةُ الفاصلةِ وهي قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ﴾ معطوفةٌ على قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ على أنّه من جملة مَقولِ القولِ؛ والمعنى: أنّه ﷺ مأمورٌ بأن يقولَ لهُم: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ﴾، وأن يقولَ لهُم: ﴿وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ﴾[2]، وهذا هو الأظهرُ.

بَلاغةُ القصْرِ في قوله ﴿وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ﴾:

الوَحْدانيّةُ والقَهرُ صِفتان لِتَجلّياتِ عظَمةِ الله الخالِقِ

دلّ قولُه تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ﴾ على قصر هاتين الصِّفتَين عليه، إذ هو وحدَه دونَ غيرِه المُتفرِّدُ بالوَحدانيّةِ والقهرِ، بحسبِ ما أفادَه تقديمُ الضّمير المُنفصِلِ ﴿وَهُوَ﴾ عليهما مع تعريفِهما، كما في قولِك: هو المُنطلِقُ[3].

إيثارُ اسْمَي ﴿ٱلْوَٰحِدُ﴾ و﴿ٱلْقَهَّٰرُ﴾ دونَ غيرِهما:

مَن لا مثلَ له، ومَن يقهَرُ ولا يُقهَرُ، هو الإلهُ الأجْدَرُ

أمّا اسمُ ﴿ٱلْوَٰحِدُ﴾ فالغرَضُ منه دفعُ دعوَى التّشريكِ الّتي عملتِ الآيةُ باستفهاماتِها المُتعدّدةِ على إبطالِها؛ أي: هو الواحدُ الّذي ليسَ له مثيلٌ ولا شبيهٌ، فلا يُجانِسُهُ شيءٌ، وكلُّ ما سواهُ لا يَخلو عن مُجانِسٍ يُماثِلُه، وأين رُتبةُ مَن يُماثِلُ مِن رُتبةِ مَن لا مِثلَ له؟[4]، وأمّا اسمُ ﴿ٱلْقَهَّٰرُ﴾ فمُرادٌ منه بيانُ أنّهُم وآلهتَهم مَقهورون تحتَ قُدرةِ اللّه، فكيف يكونُ المَقهورُ إلهًا؟ كما أنّ فيه إشارةً إلى ما يُعرَفُ بـ "بُرهانِ التّمانُعِ فإنّ أربابَهُم مُتعَدِّدونَ، فلو كانَت لهم حياةٌ، وكانوا مُتَصرِّفينَ في المُلكِ لأمكنَ بينَهم تَمانُعٌ، وكانَ كُلٌّ منهُم مُعرِضًا لأنْ يكونَ مَقهورًا، فكيفَ وهُم جَمادٌ! فَثَبتَ قطعًا أنّه لا شيءَ منهُم يَصلُحُ للإلهيّةِ على تقديرٍ مِنَ التّقاديرِ"[5].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/116.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/372.
(3) القونوي وابن التّمجيد، حاشية على تفسير البيضاويّ: 10/485.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/314.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/314.

﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتۡ أَوۡدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا فَٱحۡتَمَلَ ٱلسَّيۡلُ زَبَدًا رَّابِيًاۖ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيۡهِ فِي ٱلنَّارِ ٱبۡتِغَآءَ حِلۡيَةٍ أَوۡ مَتَٰعٖ زَبَدٞ مِّثۡلُهُۥۚ كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡحَقَّ وَٱلۡبَٰطِلَۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذۡهَبُ جُفَآءٗۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمۡكُثُ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَالَ ١٧﴾ [الرّعد: 17]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

عَوْدٌ إلى ضَرْبِ الأمثالِ؛ للاعْتِبارِ والاتِّعاظِ، بما يَنفعُ ويَبْقَى

لمّا كانَت سورةُ الرّعد قد ركّزَت منذ بدايتِها على مَقصدِ التّوحيد، ونبْذِ الشّركِ، وساقَت على ذلك الدّليلَ يَتلوه الدّليلُ، والمثالَ يتبعُه المثالُ، وخاطبَتِ المُشركين بالتّقريعِ والتّهكُّم والإنكارِ، وحاكمَتْهم إلى البَديهيّات، ووجَّهَت إليهم الاستفهاماتِ مُتعدّدةَ الأغراض، تصريفًا وتفنُّنًا، وتلوُّنًا في الخطاب، لعلّهُم أن يثوبوا إلى رُشدِهم، ويَعودوا إلى صوابِهم، لمّا تمَّ ذلك فيما مَضى، ولمّا كان ذلك كُلُّهُ لم يُؤثِرْ شيئًا على أهل الباطلِ، فلم يُراجعوا أنفسَهم، ولم يُلبّوا نداءَ الفِطرةِ فيهم، فقسَت قلوبُهُم، وانطمسَت عقولُهم، عادَتِ الآياتُ إلى ضرب الأمثالِ، فعسى أن يكونَ في إعادة ضَرْبِها عِظةٌ لمُتَّعِظٍ، وعِبرَةٌ لمُعتَبِرٍ، فساقَت هنا مَثلَين للحقّ النّافعِ، والباطلِ الزّاهقِ، فقال سُبحانه: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتۡ أَوۡدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا﴾ ... إلي آخر الآية.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَسَالَتۡ﴾: أصلُ السَّيْلِ يدُلُّ على جَرَيانٍ وامتِدادٍ[1]، والسَّيلُ اسْمٌ لا مَصدَرٌ، وجَمعُهُ سُيولٌ يُقالُ: سالَ الشَّيءُ سَيلاً وسَيَلانًا جَرَى. وهو الماءُ الكَثيرُ السّائلُ[2] ويُطلَقُ السّيلُ على المَوضِعِ الّذي

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سيل).
(2) ابن سيده، المُحكم: (سيل)، والرّاغب، المفردات: (سال).

تَجتَمِعُ فيه مياهُ الأوديةِ ونَحوها، ثمّ تَجري منه لِتَنتَقِلَ إلى مكانٍ أخفَضَ مِنه. والمُرادُ بالسَّيل في الآية: جَريانُ الماءِ في الأودية[1].

2) ﴿أَوۡدِيَةٞ﴾: أصلُ الوادي: المَوضِعُ الَّذي يَسيلُ فيه الماءُ، وأوديةٌ: جمعُ وادٍ، وسُمّي واديًا لخروجِه وسَيلانِه، والوادي كلُّ مَفرَجٍ بين جبالٍ وآكام، وتلالٍ يكونُ مَسلَكًا للسَّيل أو مَنفَذًا[2]. والمُرادُ بـ (الأوديَة) في الآية: الحَفيرُ المُتَّسِعُ المُمتَدُّ مِنَ الأرضِ الَّذي يَجري فيهِ السَّيلُ[3].

3) ﴿بِقَدَرِهَا﴾: أصلُ (قدر) يدُلُّ على مَبلَغِ الشَّيءِ وكُنهِهِ ونِهايَتِه، فالقَدْرُ: مَبلَغُ الشَّيءِ ونِهايَتُهُ، يُقالُ: قَدْرُهُ كذا؛ أي: نِهايَتُهُ. ويأتي بمعنى التَّقديرِ، وهو: بيانُ كَمّيةِ الشَّيءِ، يُقالُ: قَدَرَ الشَّيءَ بالشَّيءِ، يَقدُرُه، قَدرًا، وقَدَّرَه؛ أي: قاسَهُ وبَيَّنَ مِقدارَهُ[4]. والمُرادُ ﴿بِقَدَرِهَا﴾ في الآية: بملئِها ما أطاقَتْ[5].

4) ﴿فَٱحۡتَمَلَ﴾: أصلُ كلمةِ الاحتِمالِ مِنَ الحَملِ، وهو: الرَّفعُ، يُقالُ: حَمَلَ الشَّيءَ على ظَهرِ الدّابَّةِ يَحمِلُهُ حَمْلًا وحُمْلانًا[6]؛ أي: رَفَعَهُ ووَضَعَهُ عليه، فهو مَحمولٌ وحَميلٌ[7]، والحَملُ: ما كانَ على ظَهرٍ أو رَأسٍ، ويأتي الاحتِمالُ والتَّحَمُّلُ بمعنى التِزامِ الشَّيءِ والتَّكَفُّلِ بِهِ، تَقولُ: احتَمَلَ عنه الدَّينَ وتَحَمَّلَهُ إذا التَزَمَ به وضَمِنَهُ[8]. والمقصودُ بالاحتمالِ في الآية: الرَّفعُ؛ أي: رفعَه على وجهِ الماءِ[9].

5) ﴿زَبَدًا﴾: أصلُ (زبد): يدلُّ على تولُّدِ شيءٍ عن شيءٍ[10]، مِن ذلك: زَبَدُ الماءِ: ما يَطفو عليه مِن تَراكُمِ أمواجِهِ، وقَد أزبَدَ الماءُ يَزبدُ؛ أي: صارَ ذا زبدٍ[11]. والزَّبَدُ أيضًا: لعابٌ

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 8/3923.
(2) الخليل، العين: (ودي)، والرّاغب، المفردات: (وادي)، والسّمين الحلبي، عمدة الحفّاظ: (ودي).
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/118.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحفّاظ: (قدر).
(5) مجاهد، تفسير مجاهد، ص: 406.
(6) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (حمل).
(7) ابن سيده، المُحكم، وابن منظور، لسان العرب: (حمل).
(8) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حمل).
(9) ابن عجيبة، البحر المديد: 3/18.
(10) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (زبد).
(11) السّمين الحلبي، عمدة الحفّاظ: (زبد).

أبيض على مِشفرِ الجَمَل[1]، والزُّبدُ اشتُقَّ منه لمشابَهَتِه إيّاهُ في اللَّونِ[2]. ومنَ البابِ الزَّبدُ، وهو العَطيةُ. يُقالُ زَبَدتُ الرَّجُلَ زَبدًا: أعطَيتُهُ[3]. والمُرادُ بالزَّبَدِ في الآية: هو الغثاءُ الَّذي يَعلو على وجه الماءِ[4].

6) ﴿رَّابِيًا﴾: أصلُ (ربو): يدلُّ على الزّيادةِ والنَّماءِ والعُلوِّ، تَقولُ مِن ذلك: رَبا الشَّيءُ يَربو، إذا زادَ، ومِنه أُخِذَ الرِّبا الحَرام[5]، والرّابيةُ: ما ارتفعَ منَ الأرض[6]، ورَبا الرّابيَةَ يَربوها، إذا عَلاها[7]. والمقصودُ بقوله ﴿رَّابِيًا﴾ في الآية: عاليًا عليه، مُرتَفِعًا فوقَه[8].

7) ﴿يُوقِدُونَ﴾: أصلُ (وقد): يدُلُّ على اشتِعالِ نارٍ. وقَدَتِ النّارُ تَقِدُ واتَّقَدَتْ وتَوَقَّدَتْ، وأوقَدتُها أنا[9]. والوَقودُ يُقالُ للحَطَب المجعولِ للوُقودِ[10]، وهو أيضًا: ما تَرى مِن لَهَبِها لأنّه اسمٌ، والوُقودُ المَصدَرُ[11]. والوُقودُ: فِعلُ النّارِ إذا وقَدَتْ. والوَقَدُ: نَفسُ النّارِ. ووَقدَةُ الصَّيفِ: أشَدُّهُ حَرًّا[12]. والمقصودُ بقوله ﴿يُوقِدُونَ﴾ في الآية: يُشعِلون النّارَ.

8) ﴿حِلْيَةٍ﴾: (حلو) ثلاثة أصول، الثالث منها: الحَلْيُ: يدُلُّ على تحسينِ الشَّيءِ[13]. وهو كلُّ حِليَةٍ حلَّيتَ بِهِ امرأةً أو سَيفًا أو نحوَه مِن مَصوغِ المعدنيّات أوِ الحِجارَة. والجميعُ حُلي[14]. وحِليَةُ الشَّيءِ صِفَتُهُ[15]. والمُرادُ بـ ﴿حِلْيَةٍ﴾ في الآية: ما يُتحَلَّى به ويُتَزيَّنُ.

9) ﴿مَتَٰعٍ﴾: أصلُ المَتعِ: الامتدادُ والارتفاعُ[16]، يُقالُ: جبلٌ ماتِعٌ: طويلٌ شاهِقٌ. وقد مَتَعَ النَّهارُ مُتوعًا: ارتفعَ وبلغَ غايةَ ارتفاعِه قبلَ الزَّوالِ. والمتوعُ هو امتدادُ الشَّيء مع قوَّتِه

(1) الخليل، العين: (زبد).
(2) الرّاغب، المفردات: (زبد).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (زبد).
(4) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 7/464.
(5) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (ربو).
(6) الخليل، العين: (ربو).
(7) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ربي).
(8) الزّحيليّ، التّفسير المنير: 13/144.
(9) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (وقد).
(10) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (وقد).
(11) ابن منظور، لسان العرب: (وقد).
(12) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (وقد).
(13) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حلو).
(14) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن سيده، المُحكم: (حلي).
(15) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن سيده، المُحكم: (حلو - حلي).
(16) الرّاغب، المفردات: (متع).

وكمالِ حالِه: كتلك الموصوفات حيث يُلحَظُ فيها الامتدادُ طولًا أو بقاءً مع جَودةٍ وكمالِ حالٍ؛ ولذا استُعملَ في ما يبلُغُ به الشَّيءُ ذلك من قوَّةٍ باطنةٍ وزادٍ وأسبابهما[1]. والمَتاعُ: ما يَستمتعُ به الإنسانُ في حوائجِه، مِن ذلكَ المَسكوكُ الَّذي يَتعامَلُ به النّاسُ مِنَ الذَّهبِ والفِضَّةِ[2]. والمقصودُ بـ ﴿مَتَٰعٍ﴾ في الآية: ما يُتَمَتَّعُ به ويُنتَفَعُ مِنَ المعادن الثَّمينةِ والأواني ونحوِها ممّا يُصنَعُ منَ الذّهب والفضّة للمُترَفين.

10) ﴿يَضۡرِبُ﴾: أصلُ الضَّربِ: إيقاعُ شيءٍ على شيءٍ وإصابَتُهُ بِهِ، يُقالُ: ضَرَبَهُ بالعصا، يَضرِبُهُ، ضَربًا؛ أي: أوقَعَها عليه[3]. والضَّربُ الصِّنفُ منَ الأشياء؛ يُقالُ: هذا مِن ضَربِ ذاك؛ أي: مِن نَحوِه، وجمعُه ضروبٌ[4]، وضَربُ الأمثالِ: اعتِبارُ الشَّيءِ بالشَّيءِ وتَمثيلُه بِهِ، يُقالُ: ضَرَبَ اللّه مثلًا؛ أي: وصَفَ وبَيَّنَ، قيلَ مأخوذٌ: من ضَربِ الدِّرهَم؛ أي: صَوغُه لإيقاعِ المَطارِقِ، سُمّي بِهِ لتَأثيرِه في النُّفوسِ. وقيلَ: إنَّه مأخوذٌ منَ الضَّريبِ؛ أي: المَثيلِ. تَقولُ: هو ضَريبُه، وهُما مِن ضَريبٍ واحِدٍ؛ لأنَّه يَجعَلُ الأوَّلَ مِثلَ الثّاني[5]. والمُرادُ بقوله ﴿يَضۡرِبُ﴾ في الآية: يُبَيِّنُ ويُمَثِّلُ[6].

11) ﴿جُفَآءٗۖ﴾: أصلُ الجَفاءِ: ابتِعادُ الشَّيءِ عَنِ الشَّيءِ، يُقالُ: جَفا الشَّيءُ يَجفو جَفًا وتَجافٍ؛ أي: ابتَعَدَ، وكُلُّ شَيءٍ إذا لَم يَلزَم شَيئًا فهو جافٍ عَنهُ[7]، والتَّجافي والمُجافاةُ: التَّباعُدُ والإبعادُ، والجَفوَةُ: البُعدُ بينَ الشَّيئَينِ[8]، والجُفاءُ ما نَفاهُ السَّيلُ وأبعَدَهُ[9]، ويُقال: أجفَأَتِ القِدرُ بزَبدِها: إذا ألقَت زَبَدَها عنها، ومِنهُ اشتِقاقُ الجَفاءِ[10]، وضِدُّ الجَفاءِ: القُربُ والاتِّصالُ واللُّزومُ[11]. والجَفاءُ: الغِلظَةُ، يُقالُ: جَفا الثَّوبُ يَجفو إذا غَلُظَ[12]، والجافي: غَليظُ

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (متع).
(2) الخليل، العين: (متع).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ضرب).
(4) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (ضرب).
(5) الزّبيديّ، تاج العروس: (ضرب).
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/120.
(7) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (جفو).
(8) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (جفو).
(9) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (جفو).
(10) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 227.
(11) ابن عبّاد، المحيط في اللّغة: (جفو).
(12) ابن الأثير، جامع الأصول: 10/64.

الطَّبعِ، ويأتي الجَفاءُ بمعنى: الإعراض، جَفَوتُ الرَّجُلَ إذا أعرَضتُ عنه[1]. والمقصودُ بالجُفاء في الآية: الطَّريحُ المَرمي[2].

12) ﴿فَيَمۡكُثُ﴾: أصلُ المُكثِ يدُلُّ على تَوَقُّفٍ وانتِظارٍ وتلبُّثٍ في المكانِ[3]، يُقال: رَجُلٌ مَكيثٌ قَد مَكُثَ مَكاثَةً: وهو الرَّزينُ الّذي لا يَعجَلُ في أمرِه[4]. والماكِثُ: المُنتظِرُ[5]. والمقصودُ بالمكث في الآية: الاستقرارُ في المكان.

❁ المَعْنى الإجْماليّ:

فَضْلُ الله تعالى دائمٌ، مُستمرٌّ، مُثبِتٌ لرُبوبيّتِه الكاملةِ

ضربَ اللّه سُبحانَه مثَلًا للحَقِّ والباطلِ بماءٍ أنزَلَه منَ السَّماءِ، فجَرَت به أوديةُ الأرضِ بقَدرِ صِغَرِها وكِبَرِها، فحمَلَ السَّيلُ غُثاءً طافيًا فوقَه لا نفْعَ فيه، وضربَ مَثلًا آخرَ: هو المعادِنُ يوقِدونَ عليها النّارَ لِصَهرِها؛ طلَبًا للزّينةِ - كما في الذَّهَبِ والفِضَّةِ - أو طلَبًا لمنافِعَ يَنتفِعونَ بها - كما في النُّحاسِ - فيخرجُ مِنها خَبَثُها ممّا لا فائدةَ فيه، كالّذي كان مع الماءِ، بمِثلِ هذا يضرِبُ اللّه المَثَلَ للحقِّ والباطلِ؛ فالباطِلُ - كغُثاءِ الماءِ والمعادِنِ - يتلاشَى أو يُرمَى؛ إذ لا فائدةَ منه، والحقُّ - كالماءِ الصّافي والمعادِنِ النَّقيَّةِ - يبقَى في الأرضِ للانتفاع به، كما بيَّنَ لكم هذه الأمثالَ، كذلك يضرِبُها للنّاسِ؛ ليتَّضِحَ الحَقُّ مِن الباطِلِ، والهُدَى منَ الضَّلالِ[6].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيّ:

بَلاغةُ الفصْلِ بالاسْتِئنافِ الابتدائِّي:

تَسجيلُ جِرمانِ المُشركين، منَ الانتفاع بالأدلّةِ الهاديةِ

قولُه تعالى: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ كلامٌ جديدٌ مُستأنَفٌ استئنافًا ابتدائيًّا، مَسوقٌ لضربِ مثَلٍ جديدٍ للحقِّ والباطلِ، وفائدتُه "تسجيلُ

(1) الجوهريّ، الصّحاح: (جفا).
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/121.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن الأثير، النّهاية: (مكث).
(4) ابن عبّاد، المحيط في اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والزّبيديّ، تاج العروس: (مكث).
(5) الخليل، العين: (مكث).
(6) جماعة من علماء التفسير، المختصر في تفسير القرآن، ص: 251.

حِرمانِ المُشركين منَ الانتفاعِ بدلائلِ الاهتداءِ الّتي مِن شأنِها أن تَهدي مَن لم يَطبَعِ اللّه على قلبِهِ، فاهتدَى بها المُؤمنونَ"[1].

التّعْبيرُ عنِ الإنزالِ بالماضي ﴿أَنزَلَ﴾:

عبَّرَ عنِ الإنزال بالماضي في قوله تعالى: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾؛ لِتَحقُّقِ وقوعِ ما جرى به المَثَلُ؛ فإنزالُ الماءِ منَ السّماء مُشاهَدٌ مَلموسٌ من جميع المُخاطَبين، و"التّمثيلُ بما هو كائِنٌ مُحقَّقٌ أوقعُ في القلوب، وأبْلَغُ في إظْهار الحقِّ والغُيوبِ"[2].

التّمْثيلُ بما هو مُحقَّقٌ، أوْقَعُ في القلوبِ، وأبْلَغُ في إظْهارِ الغُيوبِ

إضْمارُ فاعلِ الإنزالِ (جلَّ في علاه):

أضمرَ فاعلَ ﴿أَنزَلَ﴾ فلم يقُلْ: (أنْزَلَ اللّه)؛ لكونِه مَعلومًا، واقتضاءُ غرَضِ الإيجازِ ألّا يذكُرَ ما يُمكنُ الاستغناءُ عن ذكرِهِ.

الإضْمارُ طلبًا للإيجازِ، مُفيدٌ في الإبانةِ عنِ المُرادِ

معنَى ﴿مِنَ﴾ في قولِهِ تعالى ﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾:

﴿مِنَ﴾ في قوله تعالى: ﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ لابتداء الغايةِ؛ فبدايةُ إنزال الماءِ إنّما يكونُ منَ السّحاب الّذي في السّماء. وفي لفظ ﴿مِنَ﴾ استعارةٌ تبعيّةٌ حرفيّةٌ؛ لأنّ مباديَ الماء لمّا كانَت مِنَ السَّماءِ جعلَ نفسَهُ مِنَ السَّماءِ[3].

السَّماءُ مُبتدأُ إنزالِ الماءِ، ومَنْبعُ العطاءِ العُلويِّ الأوْفَى

بَلاغةُ الإطْنابِ في ﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾:

عادةُ القرآن الكريم عندَ الإخبار أوِ التّمثيلِ بإنزال الماءِ؛ فإنّه يصرِّحُ بكوْنِه ﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾، مع أنّ التّعبيرَ بـ ﴿أَنزَلَ﴾ وحدَها كافٍ في الدّلالة على كوْنِه منَ السّماءِ، والّذي يظهرُ أنّ مَرجِعَ ذلك إلى الآتي:

من عاداتِ القُرآنِ في التّمثيلِ التّصْريحُ بإنزالِ الماءِ منَ السّماءِ

أوّلًا: التّنبيهُ ولَفْتُ الأنظار إلى هذه النّعمةِ الّتي بها قِوامُ حياةِ النّاس، وهي نعمةُ إنزالِ الماء منَ السّماء، فتحيا به الأرضُ الميّتةُ،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/116.
(2) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 10/485.
(3) الخفاجيّ، عناية القاضي عناية القاضي: 5/231.

فيحيا النّاسُ بحياتِها، ولا جَرَمَ فقد سمَّى اللّه تعالى إنزالَه رِزقًا في قوله تعالى: ﴿وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزۡقٗاۚ﴾ [غافر: 13].

ثانيًا: الآيةُ واردةٌ في التّسجيل على المُشركين، والنّعْيِ عليهم عدمَ إيمانِهم وعدمَ انتفاعِهم بالأدلّة المُعينةِ على الاهتداءِ إلى اللّه، ففي تذكيرِهم بهذه النّعمةِ الّتي لا يجهلونَ قدرَها؛ لحاجتِهم إليها دومًا - حيثُ لم تكنْ عندَهم أنهارٌ - تذكيرٌ تصويريٌّ، وكأنّهُم وقتَ الخطابِ يَنظرون إلى السّماء يَنزلُ منها الماءُ، ربّما كانَ ذلك أدْعى إلى الاعتبار ومراجعةِ حالِهم.

ثالثًا: التّنبيهُ على ما تمرُّ به دورةُ تكوينِ المياه، فقد باتَت هذه الدّورةُ مَعروفةً من قِبَلِ مَن له صلةٌ بالعلم، حيث تتبخَّرُ مياهُ الأنهار والبحارِ، بفعْلِ حرارةِ الشّمسِ؛ لتتكثَّفَ في السّماء، فيتكوَّنَ السّحابُ الّذي يَنزلُ منه الماءُ. وقد أُشيرَ إليه قريبًا في قوله تعالى: ﴿وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ١٢﴾ [الرّعد: 12]؛ أي: الثِّقالَ بالماء الّذي يَنزلُ على الأرض مرّةً ثانيةً بقَدرِ اللّه، وهكذا دَوالَيكَ في دورةٍ مُتكرِّرةٍ.

بَلاغةُ المَجازِ المُرسَلِ في سياقِ الآيةِ الكريمةِ:

إيثارُ السَّماءِ على المُزْنِ، أوِ السّحابِ، أبلَغُ في الدّلالةِ

المرادُ بالسّماء هنا معناها العُرفيّ[1]؛ أي: الّذي كان يعرفُه العربُ، وهي القبّةُ الزّرقاءُ. وفي إيثار التّعبيرِ بها دونَ المُزنِ أوِ السّحابِ، مع أنّ الماءَ يتكوّنُ فيه؛ لكوْنِ السّحابِ موجودًا في السّماء، فهو جزءٌ منها، باعتبار أنّ السّماءَ كلُّ ما علا وارتفعَ، فهو مَجازٌ مُرسَلٌ، علاقتُه الكلّيّةُ أوِ الحاليّةُ. وغرضُهُ النّظرُ إلى السّماء نفسِها، لا باعتبار كونِها مَهبطَ الماءِ فقط؛ بل باعتبارِها مَهبطَ الوحْيِ أيضًا. وقد يشيرُ إلى هذا الرّبط قولُه تعالى: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ وَمَا تُوعَدُونَ ٢٢﴾ [الذاريات: 22].

(1) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 10/486.

تَقْديمُ شبْهِ جملةِ ﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ على المفعول ﴿مَآءً﴾:

السَّماءُ مَهبِطُ النِّعمِ، غِذاءً للبدنِ، والقلبِ، والرّوحِ

قدَّمَ الجارَّ والمجرورَ ﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾، فلم يقُلْ: (ماءً مِنَ السَّماءِ)؛ اهتمامًا بالسّماء نفسِها، كما سلفَتِ الإشارةُ إليه، لا باعتبار كونِها مَهبِطَ الماءِ فقط؛ بل باعتبارِها مَهبِطَ الوحْيِ أيضًا؛ والشّاهدُ أنّها هنا لم تَرِدْ في مَقامِ الإنعام، ولكن في سياق تعنيفِ المُشركين على شِرْكِهم، وعلى عدمِ اعتبارِهم بالأدلّةِ الواضحةِ على الإيمان، على مَحمَلِ: هلّا آمنتُم بغِذاء القلبِ والرّوحِ المُنزَلِ منَ السّماءِ، وهو القرآنُ، كما تنعّمتُم بغذاء البدنِ المُنزَلِ منها أيضًا، وهو الماءُ.

إيثارُ لفْظِ الماءِ على الغَيْثِ:

التَّعْبيرُ بالماء أعمُّ منَ التّعبيرِ بالغيْثِ أوِ المطرِ

آثرَ التّعبيرَ بـ (الماء) دونَ الغيثِ؛ لأنّ الغيثَ إنّما يُعبَّرُ به في مَقامِ الإنعامِ والرّحمةِ[1]، كما في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِمَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ﴾ [الشّورى: 28]، فعبَّرَ هنا بالماء باعتبارِ أنّه الاسمُ الأعمُّ الّذي يعمُّ ما كانَ رحمةً كالغيثِ، أو نقمةً وعذابًا كالتّعبيرِ بالمطرِ[2].

سِرُّ تَنْكيرِ لفْظِ الماءِ في قوله ﴿مَآءً﴾:

الماءُ المُنْزَلُ كثيرٌ، ولم يَنْضَبْ عَطاؤه منذُ فجْرِ التّاريخِ

نكَّرَ الماءَ في قوله تعالى: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾؛ للدّلالة على كثرتِه؛ لقولِه بعدها: ﴿فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا﴾، وكثرتُهُ دليلُ الدّوامِ.

وَجْهُ العطْفِ بحرفِ (الفاء):

بيانُ أنّه ما إنْ يَنْزِلِ المطرُ حتّى يسيلَ في الأوديةِ مُتَدَفِّقًا

قولُهُ تعالى: ﴿فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا﴾، وفيه عبَّرَ بالفاء دلالةً على سُرعة الاستجابةِ، على معنى: أنّه بمُجرَّدِ نزولِ الماءِ، يتجمَّعُ بكثرةٍ في الأوديةِ على هيئةِ سَيْلٍ.

---

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 195.

(2) صنّفَهُ ابن عاشور ضمن عادات القرآنِ، وقال: ما سمّى اللهُ مطرًا في القرآن إلّا عذابًا. يُنظر: التّحرير والتّنوير: 1/124.

تَوْجيهُ التّعبيرِ بلَفْظِ ﴿فَسَالَتْ﴾ في السّياقِ:

في التّعبير بـ ﴿فَسَالَتْ﴾ دلالةٌ على كثرة الماءِ الّذي جرى فيها، فـ(سال) يُقالُ للماء إذا طَغَى وجَرَى. والسّيلُ هو الماءُ الكثيرُ الجاري[1].

الماءُ المُنزَلُ كثيرٌ طاغٍ، وسَيَلانُه تدفُّقٌ للحياةِ، ونفعٌ للمَخلوقاتِ

دَلالةُ جمْعِ ﴿أَوْدِيَةٌ﴾ في سياقِ الآيةِ الكريمةِ:

دلَّ جمْعُ الأوديةِ – وهو جمعُ قِلّةٍ ﴿أَوْدِيَةٌ﴾ – على قلّتِها عددًا، وهو المُناسِبُ؛ لأنّ تجمُّعَ الماءِ الكثيرِ، يُناسِبُهُ العددُ القليلُ منَ الأودية الّتي تجمَعُه، حتّى إنّه لَيَبْدو بعدَ تجمُّعِه فيها كأنّها أنهارٌ، ولا يناسبُ هنا جمعُ الكثرةِ (وديان)؛ لأنّه سيُفهمُ منه تشتُّتُ الماءِ وتوزُّعُه لا تجمُّعُهُ، وهو خلافُ المَقصود.

بِتَجمُّعِ الماءِ في الأوديةِ، تَبْدو كأنّها أنهارٌ مُتدفِّقةٌ

سِرُّ تَنْكيرِ الأوديةِ في قوله ﴿أَوْدِيَةٌ﴾:

السّرُّ في تنكير ﴿أَوْدِيَةٌ﴾ هو الدّلالةُ على تناوُبِها؛ بمعنى: أنّ الماءَ يسيلُ فيها بالتّناوبِ[2]، ولا يسيلُ في جميعِها مرّةً واحدةً، فهذا لا يحقِّقُ المقصودَ؛ إذِ المقصودُ هو التّعبيرُ عن كثرة الماءِ وقلَّةِ الأوديةِ؛ ليناسبَ كثرتَه واجتماعَه. جاء في الكشّاف: "فإنْ قلت: لمَ نُكّرَت الأوديةُ؟ قلتُ: لأنّ المطرَ لا يأتي إلّا على طريق المُناوبةِ بين البقاعِ، فيسيلُ بعضُ أودية الأرضِ دونَ بعض"[3]. ويُشعِرُ التّنكيرُ أيضًا باختلاف هذه الأوديةِ، وتنوُّعِها حجمًا، وسَعةً، كما يدُلُّ قولُه تعالى: ﴿بِقَدَرِهَا﴾.

الأوديةُ يَسيلُ فيها الماءُ بالتّناوُبِ، فيتجمَّعُ السّيلُ إلى وادٍ هنا، ثمّ لآخرَ هناك

فائدةُ الحالِ في قولِه تعالى ﴿بِقَدَرِهَا﴾:

أكثرُ العلماءِ[4] على أنّ ﴿بِقَدَرِهَا﴾ صفةٌ لـ ﴿أَوْدِيَةٌ﴾؛ لكونِها نكرةً، فالجملةُ بعدَها صفةٌ. لكنْ نصَّ ابنُ عاشور على أنّ قولَه تعالى: ﴿بِقَدَرِهَا﴾ هو في مَوضِعِ الحالِ من ﴿أَوْدِيَةٌ﴾، وعلّلَ ذكرَهُ بأنّه من

اسْتِقبالُ الوادي للماءِ وسَيَلانُه فيه، بحسبِ سَعتِه

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (سيل).
(2) الخفاجيّ، عناية القاضي: 5/231.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/523.
(4) السّمين الحلبي، الدّرّ المصون: 7/38، والعكبريّ، التّبيان: 2/756.

مَواضِع العِبرَةِ، وهو أنْ كانَت أخاديدُ الأوديةِ على قدرِ ما تحتمِلُهُ منَ السّيولِ، بحيثُ لا تَفيضُ عليها، وهو غالِبُ أحوالِ الأوديةِ. وهذا الحالُ مَقصودٌ في التّمثيل؛ لأنّه حالٌ دالٌّ على انصراف الماءِ لنفعٍ لا ضُرَّ معَه؛ لأنّ منَ السّيولِ جَواحِفَ، تَجرُفُ الزّرعَ والبيوتَ والأنعامَ[1].

ومِن هنا فالتّعبيرُ بقوله تعالى: ﴿بِقَدَرِهَا﴾ له دلالتُه في التّركيب، وهو النّصُّ على اختلاف الأوديةِ طولًا وقِصَرًا، وضيقًا واتّساعًا، بحيث يأخذُ كلُّ واحدٍ منها قدرَ ما يحتملُهُ منَ السّيول، حتّى لا يزيدَ عليها الماءُ فيفيضَ، فيمكنَ أن يوقِعَ ضررًا بالبيوت وبالزّروع وبالأرواح أيضًا، كما هو مُشاهَدٌ مَعلومٌ؛ أي: أنّ كلَّ وادٍ يستقبلُ الماءَ، بحسب سَعتِه، ويحتملُهُ بملئِه؛ الكبيرُ بكِبَرِه، والصّغيرُ بِصِغَرِه[2]، وبمقداره الّذي عرفَ اللّه أنّه نافِعٌ لِلمَمطورِ عليهم غيرُ ضارٍّ[3].

بَلاغةُ الاحْتِراسِ في قوله ﴿بِقَدَرِهَا﴾:

ذكرُ لفظِ (بِقَدَرِها)، يَدْفعُ تَوهُّمَ زيادةِ السَّيلِ، عن طاقةِ الأوديةِ

دلَّ قولُه تعالى: ﴿بِقَدَرِهَا﴾ على الاحتراس[4]، وذلك أنّ ذكرَهُ يدفعُ توهُّمَ زيادةِ ماءِ السّيل عن طاقة احتمالِ الأوديةِ، فيكونُ دلالةً على المَضرَّة دونَ المَنفعةِ، فالسّيلُ عندما يزيدُ عن طاقة الوادي، فإنّه ينتشرُ ليجتاحَ كلَّ ما يقابلُه من بيوتٍ وزروعٍ ومَتاجرَ، وهو خلافُ المَقصودِ منَ المَثَل.

بَلاغةُ التّشْبيهِ التّمْثيلِّي في السّياقِ:

الصّورةُ التّمْثيليّةُ أدْعى للتّفكُّرِ، وأبلَغُ في الرّدْعِ

لمّا كانَ المقصودُ في جملة ﴿فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا﴾ التّشبيهَ بالهَيئَةِ كلِّها، جيءَ في حكاية ما تَرتَّبَ على إنزال الماءِ بالعطف بفاء

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/118. ولأنّ صاحبَ الحال ﴿أَوْدِيَةٌ﴾ نكرةٌ، فالأرجحُ تقديرُ مُسوِّغٍ لأن يكونَ صاحبَ الحال، وتقديرُه: أوديةٌ كائنةٌ بِقَدرِها لتكونَ النّكرةُ مَخصوصةً بالوصف، وهو إذن مُسوِّغُها، أو أن يكونَ المُسوِّغُ هو تقديرَ مضافٍ، أي: فسالَت مياهُ أوديةٍ. وابنُ عاشور طوى السّببَ فلم يذكرْه.

(2) ابن جرير، جامع البيان: 16/409.

(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/523.

(4) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 5/113.

التّفريعِ في قولهِ: ﴿فَسَالَتْ﴾ وقولِه: ﴿فَٱحْتَمَلَ﴾، فهذا تَمثيلٌ صالِحٌ لِتَجزئةِ التّشبيهاتِ الّتي تَرَكَّبَ منها، وهو أبلغُ التّمثيلِ[1]. والتّمثيلُ إنْ "كانَ وعْظًا كان أشْفَى للصّدر، وأدْعَى إلى الفكرِ، وأبلغَ في التّنبيه والزّجر، وأجدرَ بأن يُجلّيَ الغيايةَ[2]، ويُبصّرَ الغايةَ، ويُبرِئَ العليلَ، ويَشفي الغليلَ"[3].

بَلاغةُ المَجازِ في قوله تعالى: ﴿فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ﴾:

الأودية لا تَسيلُ، وإنّما يَسيلُ الماءُ الّذي فيها

يمكنُ حملُ قولِه تعالى: ﴿فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ﴾ على المجاز اللُّغويِّ في كلمة ﴿أَوْدِيَةٌۢ﴾، مُرادًا بها الماءُ، وعليه فالمَجازُ هنا مُرسَلٌ، علاقتُهُ المحلّيةُ، حيثُ أطلقَ المَحلَّ وهو ﴿أَوْدِيَةٌۢ﴾، وقصدَ الماءَ الجاريَ فيها، أو يكونُ المجازُ هنا منظورًا فيه إلى الإسناد؛ أي: إسنادِ السّيلِ إلى الأودية، وعليه فالمَجازُ هنا عقليٌّ؛ لأنّ الأوديةَ لا تسيلُ، وإنّما يسيلُ الماءُ الّذي يكونُ فيها، وهو شبيهٌ بالتّعبير بجرْيِ الأنهارِ، فالأنهارُ لا تجري، وإنّما يجري الماءُ الّذي فوقَها. وهذا شرحُ ما لخصَّه الشّهابُ بقوله: "فإطلاقُه - أي: لفظ الأوديةِ - على الماء الجاري، إمّا مجازٌ لغويٌّ بإطلاق اسْمِ المَحلِّ على الحالِّ، أو عقليٌّ، والتَّجوُّزُ في الإسناد"[4].

سِرُّ إسْنادِ السَّيلانِ إلى الوادي دونَ الماء:

تَصويرُ أنّ الواديَ يَسيلُ فعلًا؛ لكثرةِ تَدفُّقِ الماءِ

الغرَضُ البيانيُّ منَ الإسناد في قول اللّه تعالى: ﴿فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا﴾ تصويرُ المَشهدِ للسّامعِ أوِ القارئِ بهيئةٍ تُشعِرُ على سبيل التّخيُّل، بأنَّ الواديَ يَسيلُ فعلاً لكثرة تدفُّقِ الماءِ وارتفاعِ نِسبتِه في جانبَي الوادي؛ فيُتوهَّمُ في لحظات الانبهارِ، أنّ الأوديةَ تجري أيضًا مع الماء[5].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/117.
(2) الغياية: كلُّ ما أظلَّك من فوق رأسِك كالسّحاب ونحوه.
(3) الجرجانيّ، أسرار البلاغة، ص: 87.
(4) الخفاجيّ، عناية القاضي: 5/231.
(5) القمّاش، من لطائف ونكات البلاغة العربيّة، ص: 164.

ومن بديعِ هذا إضفاءُ السّيلان على الأودية، وهي لماء السّيولِ فيها، أنَّ الأوديةَ حينما تسيلُ فيها السّيولُ العارِمةُ، توقِعُ في خيال المُشاهِدِ المُندَهِشِ أنّ الأوديةَ والجبالَ أنفُسَها تسيلُ مع حركة المياهِ الجارفةِ فيها. وفي ذلك نقلٌ للأسماء أوِ الصِّفات من مَواضِعها الطّبيعيَّةِ وإضفاؤها على غيرها[1].

دَلالةُ حرفِ (الفاء) في السّياقِ الكريمِ:

اختِمالُ السَّيْلِ للزّبدِ الرّابي، ظاهرةٌ طبيعيّةٌ مألوفةٌ

دلّتِ الفاءُ في قوله تعالى: ﴿فَٱحۡتَمَلَ ٱلسَّيۡلُ﴾ على سرعة احتمالِ السّيلِ للزّبَد الرّابي؛ أي: الغُثاءُ المُنتَفخُ من عِظمِ رَغوتِه؛ فإنّه بمُجرَّدِ سيلانِ الأوديةِ بالماء، تحوَّلَ إلى غُثاءٍ عظيمِ الرَّغوة.

إيثارُ لفْظِ ﴿فَٱحۡتَمَلَ﴾ (فعلًا ماضيًا):

الزَّبَدُ مُلازِمٌ للسّيلِ، وهو مُتحقِّقُ الحصولِ

آثرَ التّعبيرَ بالفعل الماضي ﴿فَٱحۡتَمَلَ﴾؛ ومعناه: حَمَلَ، جاءَ فيه افتَعَلَ بمعنى المُجرَّدِ كاقتَدَرَ وقَدَرَ[2]؛ للدّلالة على تحقُّقِ وقوعِه، فالزَّبَدُ عادةً ما يلازمُ السّيلَ؛ لأنّ اندفاعَ الماءِ يجمَعُه، ثمّ يذهبُ جُفاءً أو يَطفو فوقَ سطحِه مُنتفِخًا، ليبدِّدَهُ الهواءُ، أو أنّ التّعبيرَ بالماضي مع ترقُّبِ ما لم ينزِلْ منه، هو تغليبٌ للموجود على غير المَوجودِ، أو تنزيلٌ للمُنتظَرِ مَنزِلةَ الواقعِ[3].

وَجْهُ وُرودِ السَّيلِ مَعرفةً لا نكرةً:

السّيلُ مَعرِفةٌ؛ لكونِهِ مَفهومًا منَ الفعلِ قبلَه، أو للعَهدِ الذِّكْريِّ

أوردَ لفظَ ﴿ٱلسَّيۡلُ﴾ مَعرفةً لا نكرةً؛ لأنّه عنى به ما فُهِمَ منَ الفعلِ - ﴿فَسَالَتۡ﴾ - وهو لو ذُكِرَ لكان نكرةً، فلمّا أُعيدَ أُعيدَ بلفظِ التّعريفِ، نحوَ: رأيتُ رجلًا فأكرمتُ الرّجلَ[4]، أو أنّه عُرِّفَ لِكونِه معهودًا؛ أي: عهدًا ذِكريًّا، في قوله: ﴿أَوۡدِيَةُۢ﴾ سواءٌ حملْنا اللّفظَ على مجازِهِ المُرسَلِ، بأنْ يكونَ المُرادُ به الماءَ، أو حملنا

(1) القمّاش، من لطائف ونكات البلاغة العربيّة، ص: 164.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/373.
(3) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 10/489.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/373، والقاسميّ، محاسن التّأويل: 6/276.

الإسنادَ على المجاز العقليِّ، فسنَفهَمُ أنّه الماءُ أيضًا، بقرينة نسبةِ السّيلانِ إليه[1].

سِرُّ العُدولِ عن جمْعِ لَفْظِ ﴿ٱلسَّيۡلُ﴾:

يَنْدَفِعُ السّيلُ مُتّصِلًا دفعةً واحدةً

وإنّما لم يجمعْ لفظَ ﴿ٱلسَّيۡلُ﴾، كما جمعَ لفظَ ﴿أَوۡدِيَةٌ﴾؛ فيُقالُ: (فاحْتَمَلَتِ السُّيولُ)؛ لأنّه في الأصل مصدرُ الفعل (سال)[2] وأفردَه؛ لأنّ السَّيلَ يندَفِعُ مُتّصلًا بقوّةٍ مرّةً واحدةً، ويجتازُ أوديةً مُختلِفةً مُتعدِّدةً مُتنوِّعةً فَجَمَعَ.

سِرُّ تَنْكيرِ لَفْظِ ﴿زَبَدًا﴾:

حَقَّرَ الزَّبَدَ، ونَوَّعَ مادّتَهُ؛ لتدقيقِ الوصْفِ، واستبانةِ العِظَةِ

تنكيرُ الزّبدِ في قولِه تعالى: ﴿فَٱحۡتَمَلَ ٱلسَّيۡلُ زَبَدًا رَّابِيًاۖ﴾ للتّحقير؛ بوصْفِه يعمُّ كلَّ ما يَجرفُه السّيلُ في مَسيرِه، ويستغرقُ كلَّ ما يقابلُه في طريقه، لاحتمال السّيلِ - لأجل ما اختُصَّ به منَ الحركة، والانحدارِ، وقوّةِ الاندفاعِ - زَبَدًا رابيًا مُتنوِّعًا يَعلو على ظهر الماءِ.

لفْظُ (الزّبد) بين الحقيقةِ والمَجازِ:

يُرادُ بالزّبدِ الرّغوةُ، أو ما يَعمُّ الغُثاءَ وغيرَه

الزَّبَدُ معروفٌ وهو الرَّغوةُ الّتي تطفو فوقَ الماء، ومن صفاتِه الخِفّةُ[3] الّتي تسوِّغُ له هذا الطَّفو، ويحدثُ نتيجةَ تفاعلاتٍ مُعيّنةٍ بين ماء السّيل، وما يحملُه في طريقه من أتربةٍ، وحشائشَ، ومُخلَّفاتٍ، وغُثاءٍ؛ أي: العشبُ اليابسُ كما ذكرَ القونويُّ، الّذي يرى كذلك، أنّه مَجازٌ إنْ أُريدَ به ما يعمُّ الغُثاءَ وغيرَهُ ممّا يحصُلُ من اضطراب الماء[4]؛ أي: يكونُ مَجازًا مُرسَلًا، علاقتُه المُسببيَّةُ؛ لأنّ الزَّبَدَ مُسبَّبٌ عنه، فيكونُ من باب إطلاقِ المُسبَّبِ وإرادةِ السّبب. لكنْ إنْ أُريدَ بالزَّبَد هنا معناه المذكورُ؛ أي: الرّغوةُ الّتي تطفو فوق الماء، فهو تعبيرٌ حقيقيٌّ لا مجازَ فيه، وهو الأظهرُ.

(1) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 10/487.
(2) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 10/487.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/315.
(4) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 10/487.

دَلالةُ وصْفِ الزَّبدِ بالرّابي في الآيةِ الكريمةِ:

لا يَدْخلُ في الزّبدِ الرّابي، ما كان ثقيلًا لا يَطْفو

الرّابي معناه المُنتفِخُ العالي[1]؛ وذلك بسببِ خفّتِه وتخلُّلِ الهواء في أثنائِه. ووصفَ الزّبدَ بالرّابي ليُخرِجَ ممّا احتملَه السّيلُ ما يكون ثقيلًا لا يَطفو كالأشجار الثّقيلةِ[2] والمَعادنِ ونحوِها، ممّا لا يصلحُ للطَّفو بسبب ثِقلِه، وفيها المفيدُ بلا شكٍّ، فيكونُ منَ الباقي الّذي ينفعُ النّاسَ، فلا يذهبُ جُفاءً كالزَّبَد.

بَلاغةُ تَشْبيه الحقِّ بالماءِ والجوهرِ الصّافي، والباطلِ بالزّبدِ:

الصّالحُ النّافعُ يبقَى، والباطلُ عمرُه قصيرٌ، وخطرُه حقيرٌ

هنا جزءٌ منَ التّشبيه المُركَّبِ الكائنِ في الآية، ضُرِبَ فيه مثلٌ للحقّ والباطل؛ إذ شبّهَ فيه الحقَّ بالماء الصّافي؛ إذ لا يناسبُهُ مثلًا إلّا أنْ يكونَ صافيًا خالِصًا نافِعًا "خاليًا منَ المَضرّة، ولا يكونُ كبعض الأمطار والسّيول الجَواحِف"[3] أمّا الباطلُ فما أبلغَ تمثيلَهُ بالزَّبَد؛ لأنّ الزَّبَدَ قد يبدو فوق الماء، كأنّه زينةٌ لها، لكونهِ مُنتفِخًا طافيًا، غير أنّه مع أوّل تدفُّقٍ للهواء، يذهبُ أدراجَ الرّياح، وكأنّه لم يكنْ موجودًا، بل لم يكنْ شيئًا مذكورًا، وهكذا الباطلُ قد يتبهرجُ ويتبختَرُ في زينتِه، فيُغري ضعافَ النّاس، لكنَّه مع أوّلِ عاصفةٍ للحقّ، لا ترى له من أثرٍ، إلّا أثرَ الخيبةِ والوبالِ على أهله، فشابَهَ الزَّبَدَ الّذي لم يصمدْ أمام أوّلِ عاصفةٍ منَ الرّياح، وهكذا الحالُ، فإنّه لا يبقى إلّا الصّالحُ النّافِعُ، وأمّا الباطلُ فعمرُهُ قصيرٌ وعظيمُه حقيرٌ، وإنْ أوهمَ خلافَ ذلك.

جَوازُ أن يكونَ المَثَلُ للقرآنِ والقلوبِ:

الماءُ مثلُ القرآن، لِما فيه من حياةِ القلوبِ

كما تمَّ توجيهُ إجراء المَثَلِ على أنّه للحقّ والباطل، فإنّه يمكنُ أن يكونَ أيضًا للقرآن وللقلوب، والسّياقُ يحتملُهما معًا، ولا يبعدُ الجمعُ بينَهما، وتحريرُ إجراءِ المَثَلِ عندئذٍ أنّ "الماءَ مثلُ القرآن لِما فيه من

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/14.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/14، والآلوسيّ، روح المعاني: 7/123.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/523.

حياة القلوبِ، وبقاءِ الشّرعِ والدّينِ، والأوديةُ مَثَلٌ للقلوب، ومعنى ﴿بِقَدَرِهَا﴾ على سِعةِ القلوبِ وضيقِها، فَمِنها ما انتُفِعَ به فَحَفِظَهُ ووَعاهُ وتدبَّرَ فيه، فَظَهَرَت ثمرتُهُ، وأدركَ تَأويلَهُ ومعناهُ، ومنها دونَ ذلك بطَبَقَةٍ، ومنها دونَهُ بطَبقاتٍ. والزَّبَدُ مثلُ الشُّكوكِ والشُّبَهِ وإنكارِ الكافرين أنّه كلامُ اللّه، ودَفعِهم إيّاهُ بالباطلِ. والماءُ الصّافي المُنتَفِعُ به مِثلُ الحقِّ"[1].

دَلالةُ العطْفِ بالواوِ في قوله: ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ﴾:

قوله تعالى: ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي ٱلنَّارِ﴾ جملةٌ معطوفةٌ على جملة ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾؛ للتّشريك بينَهما في ضرْب المَثَلِ، لِما هو نافِعٌ وغيرُ نافعٍ، فالعطفُ "لِضربِ مَثلٍ آخرَ"[2].

أهمّيّةُ العطْفِ في التّشريكِ في ضَرْبِ الأمثالِ

معنَى (من) المُدْغَمةِ في (ما) في السّياقِ:

(من) في قوله تعالى: ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ﴾ ابتدائيّةٌ دالّةٌ على مُجرَّدِ كونِه مبتدأً وناشئًا منه؛ أي: نشأ منه. وجوِّزَ كونُها للتّبعيض؛ أي: هو بَعضُهُ؛ وردَّهُ أبو السّعود بأنّهُ يُخِلُّ بالتّمثيلِ[3].

بيّنَ السّياقُ ما يَنْشأُ من إيقادِ النّارِ

فائِدةُ (ما) الموصولةِ في السّياقِ الحكيمِ:

(ما) موصولةٌ، وفائدتُها هنا الإيجازُ، فالتّعبيرُ بها أخصرُ وأجمعُ[4]، فضلًا عن كونِه يدلُّ على العُموم؛ وذلك أنّ الموصولَ جَمَعَ بإيجازٍ كلَّ أنواعِ المعادنِ منَ الذّهب والفضّة ونحوِهما، دون الحاجةِ إلى تفصيلِها، والخروجِ عن حدّ الإيجاز.

التّعبيرُ بـ(ما) أخصرُ وأجمعُ وأعمُّ

سِرُّ العُدولِ عنِ اسْمِ الذّهبِ والفضّةِ إلى الموصولِ:

التّعبيرُ بالموصول والعُدولُ عن تسمية الذّهبِ والفضّة إلى الموصوليّةِ، بقوله تعالى: ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي ٱلنَّارِ﴾؛ أي: ومِنَ

إبرازُ قِلّةِ الاكتراث بالذّهبِ والفضّةِ، بعدمِ ذكْرِ اسمِهما

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/372، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/117.
(2) القاسميّ، محاسن التّأويل: 6/277.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/14، والقاسميّ، محاسن التّأويل: 6/277.
(4) القاسميّ، محاسن التّأويل: 6/277، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/119.

الّذي توقِدون عليه، لتحقيقِ غرضَين، فضلًا عن غرضِ الإيجاز الّذي مرَّ ذكرُه، وهما:

الأوّل: أنّ جملةَ الصّلة ﴿يُوقِدُونَ عَلَيْهِ﴾ مقصودةٌ بالذِّكر؛ لأنّ الوقودَ هو سببُ حصول الزَّبدِ، ومِن ثَمَّ ففي النّصِّ عليه غرضٌ وحاجةٌ.

الثّاني: إبرازُ قلّةِ الاكتراثِ بالذّهب والفضّة بالعُدول عن ذكر اسمهما تهاونًا بهما وترفُّعًا، وبالنّصِّ على الإيقاد عليهما في النّار المُستَلزِم للطّرقِ بالمَطارِقِ، وفيه منَ الإهانة ما هو ظاهرٌ، والغرضُ الحدُّ من ولَعِ النّاسِ المُبالَغِ بهما، فإنّ اسمَيْهما قدِ اقترنا بالتّعظيم في عُرفِ النّاس[1]، وهذا لا ينافي كونَه ضُرِبَ مَثَلًا للحقّ؛ لأنّ مَقامَ الكبرياءِ يقتضي التّهاوُنَ به، مع الإشارة إلى كونِه مَرغوبًا فيهِ مُنتَفَعًا به بقوله تعالى: ﴿ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ﴾، فَوَفّى كُلًّا منَ المَقامَين حقَّهُ[2].

التّعبيرُ عنِ الإيقادِ بالمضارعِ ﴿يُوقِدُونَ﴾:

في التَّعبير بالمضارع دَلالةٌ على استمرار الإيقادِ وتجدُّدِه؛ لأنّ إذابةَ المَعادن وصَهرَها يحتاجُ وقتًا طويلًا، ودَيْمومةً في تسليط النّارِ عليها، والمُتحقِّقِ باستمرارِ الإيقادِ.

الصَّهرُ يحتاجُ دَوامَ تَسليطِ النّارِ على الشّيءِ المَصْهورِ

تَوْجيهُ القراءةِ القرآنيّةِ في ﴿يُوقِدُونَ﴾ و(توقِدونَ):

قرأ أكثرُ القرّاء (توقِدونَ) على الخطاب، وتوجيهه أنّه لاتّساقه مع ما قبلَه منَ الخطاب، وهو قولُه: ﴿قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم﴾، في حين قرأه حمزةُ، والكسائيُّ، وحفصٌ عن عاصمٍ، وخلفٍ ﴿يُوقِدُونَ﴾ على الغَيبة؛ وتوجيهُه أنّه لاتّساقه مع ما قبلَه منَ الغَيبة في قوله: ﴿أَمْ جَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ﴾، ويجوزُ على القراءتين - الخطاب والغَيبة - أن يُرادَ عُمومُ النّاسِ[3].

بِجماعِ القراءتَين يُرادُ عُمومُ النّاسِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/119، والخفاجيّ، عناية القاضي: 5/232.
(2) القاسميّ، محاسن التّأويل: 6/277.
(3) الفارسيّ، الحجّة للقرّاء السّبعة: 5/16.

سِرُّ تَعْديةِ الإيقادِ بـ (على) وإسْنادِه إلى (الهاء):

عُدّي ﴿يُوقِدُونَ﴾ بـ ﴿عَلَيْهِ﴾؛ لأنّ الغرضَ ليس الإخبارَ عن إيقاد النّارِ، وإنّما عمّا أوقِدَت عليه النّارُ ولأجلِه، وهو الذّهبُ والفضّةُ، ولذلك أسندَ الضّميرَ إليها فقال: ﴿يُوقِدُونَ عَلَيْهِ﴾، ومثلُه قولُه تعالى: ﴿فَأَوْقِدْ لِي يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ﴾ [القَصص: 38].

ليسَ الغرَضُ الإخْبارَ عن إيقادِ النّارِ، وإنّما عمّا أوقِدَت عليه النّارُ

سِرُّ العُدولِ عن ذِكْرِ إخراجِ ما يوقِدون عليه منَ الأرضِ:

ولم ينصَّ على إخراج ما يوقِدون عليه في النّار منَ الأرض، كما نصّ على نزول الماء منَ السّماء؛ فلم يقُل مثلًا: (وأخرج منَ الأرض ما توقِدون عليه في النّار)، كما قال: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾؛ "لِعَدَم دَخْلِ ذلك العُنوانِ في التّمثيل، كما أنّ لعُنوانِ إنزالِ الماءِ منَ السَّماءِ دخلًا فيه"[1].

ما يوقِدون عليه في النّارِ غيرُ داخلٍ ضمْنَ التّمثيلِ الواردِ في الآيةِ

دَلالةُ شِبْه الجُملةِ ﴿فِي ٱلنَّارِ﴾ في أثناءِ السّياقِ:

قولُه تعالى: ﴿فِي ٱلنَّارِ﴾ جارٌّ ومجرورٌ، مُتعلِّقٌ بمحذوفٍ؛ أي: كائنًا ﴿فِي ٱلنَّارِ﴾، أو هو مُتعلِّقٌ بـ ﴿يُوقِدُونَ﴾، والنّصُّ على النّار مع كوْن الإيقادِ لا يكونُ إلّا بها، هو التّأكيدُ، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾ [الأنعام: 38][2]، وفيه كذلك "إشعارٌ بالمُبالَغة في الاعتمالِ لِلإذابَةِ"[3]؛ لأنّ الإذابةَ تتطلَّبُ نارًا مُكثّفةً تُصدِرُ حرارةً عاليةً، تتمكَّنُ من إذابة المَعادنِ كالذّهب والفضّة ونحوِهما.

إذابةُ المَعادنِ كالذّهبِ والفضّةِ، تَستدْعي نارًا مَخصوصةً

نُكتةُ تَقْديمِ ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ﴾ وتأخيرِ ﴿زَبَدٌ﴾:

قدَّمَ الخبرَ ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ﴾ على المبتدأ ﴿زَبَدٌ﴾ للاهتمام به؛ لأنّه مَوضِعُ اعتبارٍ أيضًا ببديع صُنعِ اللّه تعالى، إذ جَعَلَ الزّبدَ يَطفو على أرقّ الأجسامِ، وهو الماءُ، وعلى أغلظِها، وهو المَعدِنُ فهو ناموسٌ

في التّقديمِ تَشويقٌ للمُتأخِّرِ، وترقُّبٌ مع اهتمامٍ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/15.
(2) السّمين الحلبي، الدّرّ المصون: 7/40.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/14.

من نَواميسِ الخِلقَةِ، فبالتّقديم يَقعُ تَشويقُ السّامعِ إلى ترقُّبِ المُؤخَّر، وهو المبتدأ[1].

بَلاغةُ التّشْبيهِ التّمثيلّي في جملةِ ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ﴾:

تمثيلٌ آخرُ لأهْلِ الحَضَرِ، إثرَ التّمثيلِ السّابقِ لأهلِ البَدْوِ

وهنا تسوقُ الآيةُ الكريمةُ تمثيلًا آخرَ موجَّهًا لسُكّان القُرى من أهل الحَضرِ، الّذين لم يشاهدوا سيولًا تُساعدُهم على فهم المُرادِ بالمَثَل السّابقِ، كأهل مكّةَ الّذين كان لدَيْهم "صَوّاغونَ... فَقَرَّبَ إليهم تَمثيلَ عدمِ انتِفاعِهم بما انتَفعَ به غَيرُهم، بمثلِ ما يُصهَرُ منَ الذّهب والفضّة في البَواتِقِ، فإنّه يَقذِفُ زبدًا يَنتَفي عنهُ، وهو الخَبَثُ، وهو غيرُ صالحٍ لشيءٍ، في حين صَلاحِ مَعدِنه لاتِّخاذِه حِليَةً أو مَتاعًا"[2]. ووجهُ هذا التّشبيه أيضًا، أنّ هذه المعادنَ في أصلها كالزّبدِ، يشيرُ إلى أنّ ابتداءَ خِلقتِها كذلك، إلّا أنّها صارَت هكذا بالإخلاص؛ ليكونَ أدخلَ في الحكمة، وأظهرَ في كمال القُدرةِ[3].

التَّعْبيرُ عنِ الابتغاءِ بالمصدرِ ﴿ٱبْتِغَآءَ﴾:

مِن نِعَمِ الله على النّاس، تَسْخيرُهُ ما تشتدُّ رغبتُهُم إليه

لفظُ ﴿ٱبْتِغَآءَ﴾ منصوبٌ على المفعول لأجله؛ أي: يوقدون النّارَ على الذّهب والفضّة؛ لأجل الحصولِ على حِليةٍ أو مَتاعٍ، وهو الأظهرُ والأوفقُ للمَقام، أو هو مصدرٌ في مَوضع الحال؛ أي: مُبتَغين حِليةً[4]، وصاحبُ الحال هو ضميرُ الفاعِلين في ﴿يُوقِدُونَ﴾. وعبَّرَ بالمصدر ﴿ٱبْتِغَآءَ﴾ للدّلالة على جِدّية الطّلب والاجتهادِ فيه، فمِثلُ الذّهب والفضّة يُبذَلُ لأجلِهما الوُسعُ والطّاقةُ. وأيضًا "لإيضاح المُرادِ منَ الصّلة، ولإدماجِ ما فيه مِن مِنّةِ تَسخيرِ ذلك للنّاس؛ لشدّة رَغبتِهم فيهما"[5].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/119.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/118.
(3) العلويّ، الطّراز: 1/204.
(4) السّمين الحلبي، الدّرّ المصون: 7/40.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/120.

سِرُّ تَنْكِير ﴿حِلْيَةٍ﴾:

نكَّرَ لفظَ ﴿حِلْيَةٍ﴾ تحقيرًا لها، نظرًا إلى الشَّغفِ الزّائدِ بها من قِبَل النّاسِ، فضلًا عن كونها مُتنوّعةَ الأشكال والهيئاتِ، بحسب أماكنِ لُبسِها، واستعمالاتِها الأخرى.

شَغفُ النّاس بالمُحقَّرِ منَ الزّينة مَعهودٌ معلومٌ

وَجْهُ العطْفِ بـ ﴿أَوْ﴾:

عَطَفَ بـ ﴿أَوْ﴾ في قوله تعالى: ﴿ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ﴾؛ للدّلالة على التّنويع؛ فالذّهبُ والفضّةُ لا يُتّخذان فقط حِليةً للتّزيُّن، ولكنْ بعضُ المُترَفين يتّخذون منها أواني وتُحفًا ونحوَ ذلك.

تَنوُّعُ استعمالاتُ الحِليةِ زينةً، وغيرَها

سِرُّ تَنْكِير ﴿مَتَٰعٍ﴾:

سرُّ تنكيرِ ﴿مَتَٰعٍ﴾ هو نفسُه سرُّ تنكيرِ ﴿حِلْيَةٍ﴾، وهو المَهانةُ والتّحقيرُ، مُعاكسةً لغرضِ النّاسِ منهما؛ إذ إنّ أغراضَهم منهما هو التَّنعُّمُ، والتّرفُّعُ والتّمايزُ على النّاس.

تحقيرُ ما يَصْرفُ النّاسَ عن شُكْرِ ربِّهم منَ النِّعَمِ

إيثارُ لفْظَيْ ﴿حِلْيَةٍ﴾ و﴿مَتَٰعٍ﴾:

ويعودُ إيثارُ لفظَيْ ﴿حِلْيَةٍ﴾ و﴿مَتَٰعٍ﴾؛ لأنّهما أكثرُ ما يُستعمَلُ فيهما الذّهبُ والفضّةُ من قِبَل المُترَفين. وهما مَظنّةُ شَغفِ النّاس زينةً وادّخارًا.

الحِليةُ والمَتاعُ زينةُ المُترَفين، ومُتعةُ المُتنَعِّمين

تَنْكِيرُ لفْظِ ﴿زَبَدٌ﴾:

نَكَّرَ لفظَ ﴿زَبَدٌ﴾، ونوَّنَه تحقيرًا وتهاونًا، وهو كذلك؛ لأنّه الخبثُ المفصولُ عنِ الجوهرِ الرّاقي، والغُثاءُ المُضرُّ الّذي لا نفعَ فيه.

ما لا فائدةَ فيه مُحقَّرٌ، لا اعتبارَ له ولا قيمةَ

إيثارُ الوَصْفِ بلَفْظِ ﴿مِّثْلُهُۥ﴾:

آثرَ الوصْفَ بلفظِ ﴿مِّثْلُهُۥ﴾ للدّلالة على المُطابقةِ بين المَثَلين في الدّلالة على الغرَضِ، فالمِثلُ هو الشّبيهُ والنّظيرُ[1].

أرادَ المُطابقةَ بين المَثَلَين للإيضاحِ والبيانِ

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (مثل).

عَوْدُ الضّميرِ في لفْظِ ﴿مِّثْلُهُۥ﴾ في السّياقِ:

زَبَدُ الحِلية كزبدِ السّيلِ غُثاءٌ لا نفعَ فيه

يعودُ الضّميرُ في ﴿مِّثْلُهُۥ﴾ إلى الزّبد في قوله تعالى: ﴿زَبَدًا رَّابِيًا﴾؛ أي: أنّ زبدَ الذّهب والفضّةِ مثلُ زبدِ السّيل، كلاهما لا ينفعُ؛ لكونِهما خُبثَ الأشياءِ.

بَلاغةُ التّعريضِ والكنايةِ في جملةِ التّشْبيهِ:

تبشيرُ أهلِ الحقِّ بأنّهم باقونَ، وإنذارُ أهلِ الباطلِ بأنّهم هالِكونَ

إنّ المَثَلين المَذكورَين في الآية، وما يَحملانَه من تشبيهاتٍ ومَجازاتٍ داخلةٍ في جملتَي التّشبيه التّمثيليِّ، والمقصودُ بهما في النّهاية تبشيرُ أهل الحقِّ بأنّهم هُم النّافعون الباقون، وإنذارُ أهلِ الباطل بأنّهم خَبثٌ زائلٌ مَطرودٌ مَتروكٌ، "فصارَ التّشبيهُ تعريضًا وكنايةً عنِ البِشارةِ والنِّذارَةِ، كما دلَّ عليه قولُهُ عَقِبَ ذلك: ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾"[1].

بَلاغةُ الفَذْلكةِ في جملةِ الاعتراضِ:

ضَربُ الأمثالِ إبرازٌ للحقِّ، وإعلاءٌ له على الباطل

جُملةُ ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ﴾ مُعترِضَةٌ، وهي في الوقت ذاتِه (فَذْلَكةُ) التّمثيلِ ونتيجتُهُ الّتي بيّنَت الغرضَ منه وكشفَتْه؛ أي: مِثلَ هذه الحالةِ يكونُ ضَربُ مَثَلٍ للحقِّ والباطلِ[2].

بَلاغةُ التّشْبيهِ في جملةِ ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ﴾:

حَذْفُ المضافِ (مثل) في الجُملتَين؛ للإنباءِ عنِ التَّماثُلِ بين طرفَيِ التّشبيهِ

الكافُ في قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ﴾ كافُ التّشبيه؛ أي: مِثلُ ذلك الضّربِ البديعِ المُشتمِلِ على نُكتٍ رائقةٍ ﴿يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ﴾؛ أي: يضربُ مثَلَ الحقِّ ومثَلَ الباطل، وحَذَفَ المضافَ (مثل) في المُتعاطِفين؛ للإنباء عن كمال التَّماثُل بين المُمثَّل (المُشبَّه)، والمُمثَّل به (المُشبَّه به)، كأنّ المَثَلَ المضروبَ عينُ الحقِّ والباطل[3]. وهذه بلاغةٌ ومبالغةٌ في تصوير التّماهي بين

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/120.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/120.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/15، والآلوسيّ، روح المعاني: 7/124.

المُشبَّه والمُشبَّه به، وكأنّهما شيءٌ واحدٌ، فضلًا عمّا فيه من إيجاز الحذفِ الّذي سوَّغَه ظهورُ القرينة الدّالّةِ عليه[1]، وهي الفعلُ ﴿يَضْرِبُ﴾؛ فمعناه يُمثِّلُ، يريدُ أنّ الحقَّ مُشابهتُه للسّيل من جهةِ صفائِه وركودِه، وكثرةِ الانتفاع به، وأنّ الباطلَ يشبهُ الزّبدَ في خفّتِه، وجفافِه، وطيرانِه بهبوب الرّيح، وقلّةِ الجدوى فيه[2].

سِرُّ التَّعبيرِ باسمِ الإشارةِ (ذلك) في السّياقِ:

إعلاءُ قدْرِ التّمثيلِ المذكورِ في الآيةِ، وتفخيمُ شأنِه

اسمُ الإشارةِ (ذلك) في قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ﴾ دالٌّ على البُعدِ، ومقصودٌ به هنا رفعُ شأن هذا المَثَلِ، والدّلالةُ على مدى أهمّيّتِه في تقرير الموازَنةِ المَقصودةِ بين كلٍّ منَ الحقّ والباطلِ.

التَّعْبيرُ عنِ الضّربِ بالمضارعِ ﴿يَضْرِبُ﴾:

تجدُّدُ ضَربِ الأمثالِ وتَكرُّرُه، لتَحقيقِ أغراضِها

دلَّ التّعبيرُ بالمضارع هنا، على تجدُّدِ ضربِ الأمثال، لكُلٍّ منَ الحقّ والباطل، ترغيبًا في الأوّل وتنفيرًا منَ الثّاني، وهو أمرٌ مُتكرِّرٌ في الكتاب العزيز وملحوظٌ.

إظهارُ الفاعلِ لفْظِ الجلالةِ ﴿ٱللَّهُ﴾:

إظهارُ الاسمِ الجليلِ، مُفادُهُ التّأنيسُ والتّشريفُ والتّخويفُ

والتّصريحُ بلفْظِ الجلالة ﴿ٱللَّهُ﴾ هنا إضافةً إلى تشريف المَثيلِ بهذا الإظهار يُحقِّقُ غرضَين آخرَين: أحدُهما: زرعُ المَهابة في قلوب أهلِ الباطل، والآخرُ: بثُّ الطّمأنينةِ والأنسِ في قلوب أهلِ الحقِّ.

وَجْهُ تعريفِ الحقِّ والباطلِ:

صَلاحيةُ ضرْبِ التّمثيلِ لكُلِّ حالةٍ يوازَنُ فيها بين حقٍّ وباطلٍ

عرَّفَ كلًّا منَ الحقّ والباطلِ بـ (أل) الجنسيّةِ؛ لأنّ هذا المَثَلَ، وإنْ ضُرِبَ هنا لصورةٍ مُعيّنةٍ، غير أنّه صالحٌ لاستغراق كلِّ أفرادِ كليْهما، فهو كالقانون العامِّ، بحيث يمكنُ استدعاؤُه والاحتكامُ إليه، في كلّ حالةٍ تتمُّ فيها الموازنةُ بين حقٍّ وباطلٍ.

(1) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 10/489.
(2) العلويّ، الطّراز: 1/204.

عِلّةُ تَقْديمِ الحقِّ على الباطلِ:

التَّقْديمُ لِلاهتمامِ، ومُراعاةِ السّياقِ

تقديمُ ﴿ٱلْحَقَّ﴾ على ﴿وَٱلْبَٰطِلَۚ﴾ في قولِه تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَۚ﴾؛ لكونِه الأوّلى بالاهتمامِ، فهو النّافعُ الباقي، والباطلُ زاهقٌ مُنتَهٍ، كما أنّ الجملةَ هنا بمثابة التّمهيدِ لإعلان نتيجةِ الموازَنةِ عَقِبَ الانتهاءِ مِنَ التّمثيل، وهي النّتيجةُ المَنصوصُ عليها في الآية: ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰۚ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُۥ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْاْ بِهِۦٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ﴾، فقد قَدَّمَ فيها أهلَ الحقِّ على أهل الباطلِ.

بَلاغةُ الطِّباقِ بين الحقِّ والباطلِ:

الدّعوةُ إلى مُراجعةِ النّفسِ، فرصةٌ للاهتبالِ، قبلَ انْصِرامِ الآجالِ

في المُقابلةِ والتّضادِّ بين الحقّ والباطل في جملة الفَذْلَكةِ: ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَۚ﴾ طباقُ الإيجابُ، وفيه دعوةٌ لأنصار الباطلِ لأجل مُراجعةِ النّفسِ، فكيفَ بهم حين يرونَ أنفسَهُم مَحْمولين في كفّة الباطلِ، بائِسين، يواجهُهم الصّالِحون في كفّة الحقِّ فرحينَ بفضلِ اللّه؟

دَلالةُ (الفاء) في قولِه ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ﴾:

مَرتبةُ البيانِ والتَّفصيلِ عَقيبَ مَرتبةِ الإجمالِ

الفاءُ عاطفةٌ لجملةٍ على جملةٍ، حيث عطفَت جملةَ ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ﴾ على جملةِ ﴿فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًاۖ﴾، وأفادَت هنا التّعقيبَ والتّفريعَ على التّمثيل؛ لأنّ مَرتبةَ البيان والتَّفصيلِ عقيبَ مَرتبةِ الإجمالِ[1].

افتتاحُ الجملةِ بـ ﴿فَأَمَّا﴾ في السّياقِ:

التّأكيدُ وتَفْصيلُ المُجمَلِ من فوائدِ الافْتِتاحِ بـ (أمّا)

افتُتِحَتِ الجملةُ بـ ﴿فَأَمَّا﴾ الدّالّةِ على التّفصيل الّذي يعقُبُ الإجمالَ[2]؛ أي: الواردَ في الجملةِ السّابقةِ، ومن فوائد الافتتاحِ بـ (أمّا) أيضًا "التّوكيدُ وصرفُ ذهنِ السّامعِ إلى الكلام؛ لِما فيه من خفيِّ البِشارةِ والنِّذارَةِ، ولأنّه تمامُ التّمثيلِ"[3].

(1) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 10/489، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/120.
(2) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 10/489.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/120.

سِرُّ التّناوُبِ في تَقْديم الزّبدِ وتَأْخيره:

الزّبدُ هو المنْظورُ لأعينِ النّاسِ، أمّا الجوهرُ فهو النّافعُ الباقي

السّرُّ في البدء بالزّبدِ في البيان في قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذۡهَبُ﴾، مع أنّه مُتأخِّرٌ في الكلام السّابق؛ أي: في قوله تعالى: ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيۡهِ فِي ٱلنَّارِ ٱبۡتِغَآءَ حِلۡيَةٍ أَوۡ مَتَٰعٖ زَبَدٞ مِّثۡلُهُۥۚ﴾؛ لأنّ الزّبدَ هو الظّاهرُ المنظورُ أوّلًا لأعين النّاسِ، أمّا الجوهرُ فهو مُستترٌ خلفَه؛ لأنّه هو الباقي النّافعُ المُستمِرُّ، ولذا أُخِّرَ، أو لأنّه جرَتِ العادةُ في التّقسيم أن يُبدأ بالمُتأخِّر، كما في قوله تعالى: ﴿يَوۡمَ تَبۡيَضُّ وُجُوهٞ وَتَسۡوَدُّ وُجُوهٞۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسۡوَدَّتۡ وُجُوهُهُمۡ﴾ [آل عمران: 106]، وهي طريقةٌ فصيحةٌ يُبدأُ في التّقسيم بما ذُكِرَ آخِرًا، اللهمّ إلّا إذا اقتضى المقامُ البدءَ بالسّابق، كما في قولهِ تعالى: ﴿فَمِنۡهُمۡ شَقِيّٞ وَسَعِيدٞ ١٠٥ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُواْ فَفِي ٱلنَّارِ لَهُمۡ فِيهَا زَفِيرٞ وَشَهِيقٌ ١٠٦ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٞ لِّمَا يُرِيدُ ١٠٧ *وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِي ٱلۡجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَۖ عَطَآءً غَيۡرَ مَجۡذُوذٖ ١٠٨﴾ [هود: 105 - 108] وكأنّه يبدأُ في التّفصيل بما هو أهَمُّ في الذّكر[1].

عِلّةُ تَعريفِ لفْظِ ﴿ٱلزَّبَدُ﴾ في السّياقِ الكريمِ:

التّعريفُ بـ (أل) العهديّةِ للدّلالةِ على (الزّبد) المذكورِ قَبْلًا

عرَّفَ ﴿ٱلزَّبَدُ﴾ لينصرفَ إلى الزّبد المذكورِ، فـ (أل) للعهد[2]، والمعهودُ هو الزّبدُ المذكورُ سابقًا في المَثَلَين، باعتبار الاشتراكِ في المعنى العامِّ فيهما، وهو الخَبثُ، والاشتراكِ في الدّلالة أيضًا على عدم النّفعِ.

نُكتةُ تَقْديمِ ﴿ٱلزَّبَدُ﴾ على الفعلِ:

لا يَلي (أمّا) التّفصيليّةَ إلّا الأسماءُ دونَ الأفعالِ

تقدَّمَ ﴿ٱلزَّبَدُ﴾ على الفعل في قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ﴾؛ لِتقدُّم ﴿فَأَمَّا﴾ التّفصيليّةِ المُتضمِّنةِ معنى الشّرطِ عليه؛ فإنّه لا يليها إلّا

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/374، والخفاجيّ، عناية القاضي: 5/232، وطنطاويّ، التّفسير الوسيط: 7/466.

(2) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 10/489.

الأسماءُ، ومع إفادتِها التّفصيلَ هي مُتضمِّنةٌ معنى الشّرط، ومُفيدةٌ للتّوكيد والاهتمام، فلو وليها الفعلُ لَتوهِّمَ أنّها فقط الشّرطيّةُ، وأنّ الفعلَ المذكورَ هو فعلُ الشّرط[1]، والحالُ ما قد عرفتَ من كونِها لا يَليها إلّا الاسمُ، ويكونُ مبتدأً، و﴿ٱلزَّبَدُ﴾ بعدَها مبتدأٌ، وخبرُهُ ﴿فَيَذۡهَبُ﴾ والجملةُ في محلّ جزمٍ جوابُ الشّرط.

سِرُّ إفرادِ الزّبدِ في قوله ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ﴾:

السّرُّ في إفراد الزَّبَد، مع كونِهما زبَدَين؛ زبدَ السّيل وزبدَ ما يوقدون عليه، هو "اشتراكُهما في مُطلَق الزّبديّةِ، فهما واحدٌ باعتبارِ القَدْرِ المُشترَكِ"[2].

الاشتراكُ في المعنى عِلّةُ الإفرادِ

دَلالةُ الفاءِ الثّانيةِ في قوله ﴿فَيَذۡهَبُ جُفَآءٗۖ﴾:

الفاءُ في قوله تعالى: ﴿فَيَذۡهَبُ جُفَآءٗۖ﴾ رابطةٌ لجواب شرطِ ﴿فَأَمَّا﴾، فهي شرطيّةٌ مع إفادة التّفصيلِ.

أفادَتِ الفاءُ التّفصيلَ، وهو مُفيدٌ في الإبانةِ

التَّعْبيرُ عنِ الذّهابِ بالمضارعِ ﴿فَيَذۡهَبُ﴾:

دلَّ التّعبيرُ بالمضارع في قوله تعالى: ﴿فَيَذۡهَبُ جُفَآءٗۖ﴾ على الاستمرار والتَّجدُّدِ، فحيثما وُجِدَ الزَّبدُ فإنّه يَذهبُ.

لا بقاءَ طويلًا للزّبدِ؛ لانْعِدامِ نفْعِه

إيثارُ لفْظِ ﴿جُفَآءٗۖ﴾ على غيرِها في السّياقِ:

الجُفاءُ: هو الطّريحُ المَرمي، الّذي يُلقيه السّائلُ ويقذفُ به، ليبقى الجوهرُ - ماءً كان أم ذهبًا ونحوَه - صافيًا خاليًا منَ الخبثِ والأكدارِ. وفي التّعبير به تعريضٌ بالمُشركين[3]، ووعيدٌ لهم بأنّهم وشِركَهُم سيُطرحون كما يَطرحُ السّيلُ زبدَه، فيَذهبُ جُفاءً؛ لأنّ سنّةَ اللّه قد جرَت ألّا يبقى إلّا النّافعُ، وهو الحقُّ، وأمّا الباطلُ وإنِ انتفخَ وظهرَ، فإلى حين.

لا يَغُرَّنَّكَ انتفاخُ الباطلِ وبهرجتُه، فإنّه زاهقٌ مُتلاشٍ

(1) المراديّ، الجنى الدّاني، ص: 525.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/124.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/121.

نُكتةُ العطْفِ بالواوِ في سياقِ الآيةِ:

ونُكتةُ العطف بالواو في جملة ﴿وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ﴾ على جملةِ ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ﴾، لكونهِ تمامَ التّفصيل: أمّا كذا، وأمّا كذا.

وَجْهُ العطْفِ تمامُ التّفصيلِ، وهو منَ البيانِ الأصيلِ

إيثارُ ﴿مَا﴾ الموصولةِ في السياقِ:

أوثِرت ﴿مَا﴾ الموصولةُ لدلالتِها على الاختصار والجمعِ، فقد شملَت كلَّ ما ينفعُ، وهو كثيرٌ جدًّا وعصيٌّ على الحصْرِ، وقد جُمِعَ كلُّهُ في دلالة ﴿مَا﴾.

التَّعبيرُ بـ (ما) الموصولةِ أخصَرُ وأجْمَعُ

إيثارُ التَّعبيرِ عنِ النّفع، وعنِ الماءِ بالمضارعِ:

عبَّرَ عنِ النّفع بصيغةِ المضارع ﴿مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ﴾؛ لتجدُّدِه واستمرارِه، "وعَبَّرَ به عنِ الماءِ، فقال: بـ ﴿مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ﴾؛ أي: الماءِ الماكِثِ في الأرض"؛ للإيماء إلى وجهِ بناءِ الخبرِ، وهو البقاءُ في الأرض، وتَعريضًا للمشركين بأنْ يَعرِضوا أحوالَهم على مَضمونِ هذه الصِّلةِ؛ ليعلَموا أنّهُم ليسوا (ما يَنفعُ النّاسَ)، وهذه الصِّلةُ موازِنَةٌ للوَصْفِ في قوله تعالى: ﴿أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ ۝١٠٥﴾ [الأنبياء: 105][1].

نفعُ النّاسِ عِلّةُ بقاءِ الأشياءِ، وعدمِ انْدِثارِها

إيثارُ لَفْظِ ﴿ٱلنَّاسَ﴾ على (الخلْقِ):

أوثِرَ لفظُ النّاس على لفظ الخَلْقِ، مع كونه أعمَّ، والنّفعُ بالماء حاصلٌ لكلّ مَن يعيشُ عليه من حيواناتٍ وطيورٍ ونباتٍ وكثيرٍ منَ الكائنات الحيّة؛ لكون المَثلِ مَضروبًا للنّاس، وليس لبقيّة الخَلْقِ، ولأنّهُم هُمُ المَقصودون بالتّقسيم والتّفصيلِ في المَثل، فمِنهُم أهلُ الحقّ، ومنهم أهلُ الباطل.

المَثلُ مضروبٌ للنّاسِ، لا لكلِّ المَخلوقاتِ

معنَى الفاءِ في قوله ﴿فَيَمْكُثُ﴾:

الفاءُ واقعةٌ في جواب شرطِ ﴿وَأَمَّا﴾، القائمةِ مقامَ أداةِ الشّرط وفعله، إذ هي بمعنى: مهما يكنْ من شيءٍ فكذا، كما يرى سيبَويْه[2].

الفاءُ بمعنَى مهما يَكُنْ من شيءٍ، وهي تَعرضُ المعنَى الشّرطيَّ بإيجازٍ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/121.
(2) سيبويه، الكتاب: 4/235.

إيثارُ لَفْظِ المكوثِ في السّياقِ المُدرَجِ في الآيةِ:

المـاءُ يَستقرُّ في الأرضِ؛ لينتفعَ به

آثرَ التّعبيرَ بـ ﴿فَيَمْكُثُ﴾؛ لأنّ المُكثَ يدلُّ على الاستقرار والثّبات بالمكان زمنًا مع ترقُّبٍ وانتظارٍ[1]، وهذا الزّمنُ قد يطولُ وقد يقصرُ، لكنّ السّياقَ هنا دالٌّ على أنّ المُرادَ بالمُكثِ المدّةُ الطّويلةُ الّتي قد لا تنتهي بذهاب الماءِ في عيون الأرضِ وعروقِها، "فالمُرادُ بالمُكث في الأرض، ما هو أعمُّ منَ المُكثِ في نفسِها، ومنَ البقاءِ في أيدي المُتَقَلِّبينَ فيها"[2].

ولفظُ المُكثِ أكثرُ التّعابير مُلاءمةً للسّياق؛ لكوْنِ الماءِ يَستقرُّ في الأرض لينتفعَ به، ثمّ يواصِلُ دورتَه المعروفةَ، ليعودَ إليها من جديدٍ مرّةً أخرى، وهكذا دواليَكَ، وهذا سرُّ التّعبيرِ عنه بالمضارع.

دَلالةُ التّعريفِ بـ (ال) للّفظِ ﴿ٱلْأَرْضِ﴾:

تعريفُ لفظِ ﴿ٱلْأَرْضِ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَيَمْكُثُ فِي ٱلْأَرْضِ﴾؛ للاعتناء بذكرها مُعرَّفةً في مُقابل ذكرِ السّماءِ في بداية الآية: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾، إذ بهذا التّقابُلِ يحصلُ التّكاملُ، فما يُنزِلُه اللّه مِنَ السّماء لينفعَ النّاسَ، يَمكثُ بعدَ ذلك في الأرض للتَّمكُّنِ منَ الانتفاعِ به، مع استمرارِه في بقيّة الأجيالِ عبرَ الدّورةِ المَعروفةِ للماء منَ التَّبخُّرِ والتَّجمُّعِ في السّحب، ثمّ النّزولِ ثانيةً إلى الأرض.

تعريفُ الأرضِ لإبرازِ دَوْرِها في المَثَلِ المَسوقِ في الآيةِ

فنُّ التَّفْصيلِ المتَّصِلِ، وتقسيمُ اللّفِّ والنّشر، والتّنكيتُ:

في قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ فنونٌ من القولِ، وأسرارٌ من البلاغة، تحريرُها في الآتي:

أوّلًا: فنُّ التّفصيل المُتَّصِلِ الّذي يعقُبُ الإجمالَ:

ما يَنْفعُ النّاسَ هو الّذي يبقَى في الأرضِ ويَرسو

فصَّلَ بقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ

(1) الرّاغب، المفردات، وابن فارس، مقاييس اللّغة، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (مكث).
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/15، والآلوسيّ، روح المعاني: 7/125.

﴿فَيَمۡكُثُ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ ما أجملَه سَلفًا مِن كونِ السّيلِ يحملُ معه الزّبَدَ، وكذا الذّهبُ والفضّةُ الموقَدُ عليهما النّارُ، يخرجُ منهما الزّبَدُ. بعد ذلك جاء التّفصيلُ هنا ببيان أنّ الزّبدَ في كليْهما لا يبقى، وإنّما يبقَى ما ينفعُ النّاسَ، وهو الماءُ والجوهرُ الصّافيان، وهذا تفصيلٌ مُتّصلٌ يعقُبُه إجمالٌ[1].

ثانيًا: الجمْعُ والتّقسيمُ مع الجمْعِ:

كلُّ ما لا نفعَ فيه، يذهبُ جُفاءً، وكلُّ ما يُنتفعُ به يَمكثُ

فقد "جَمَعَ أوّلًا الماءَ والفِلزَّ في حُكم كونِهما جامعَين لمعنًى ما ينتفعُ به النّاسُ، ولِما لا نفعَ فيه، فإنزالُ الماء على القَدرِ المُحتاجِ إليه خالصٌ للنّفع، وحميلُهُ - الّذي هو زَبدُ السّيل - لا نفعَ فيه، وكذا الفِلزُّ: ما يُتّخذُ منه الحُلي والأواني هو المُنتَفَعُ به، وخبثُه الّذي هو زبدُهُ ممّا لا نفعَ فيه، ثمّ فصلَ ثانيًا حُكمَ كُلٍّ مِنَ اللّذَيْن لا نفعَ فيهما على طريق الجمعِ بقوله: ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ﴾ إلى آخرِه؛ أي: كلُّ ما لا نفعَ فيه من زبدِ الماءِ، وزبدِ الفِلزِّ يذهبُ جُفاءً، وكلٌّ مِنَ المُنتفَعِ بهما - وهما الماءُ المُنزَلُ بقَدرٍ، والفِلزُّ المُتّخذُ منه الحُلي والمتاعُ - يمكثُ في الأرض"[2].

ثالثًا: اللّفُّ والنّشرُ المشوَّشُ:

بدأ بالأهمِّ في هذا المَقامِ، وهو إبطالُ الباطلِ

ذلك أنّ الآيةَ لمّا نبَّهَت على عُلوّ هذا المثلِ بقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡحَقَّ وَٱلۡبَٰطِلَۚ﴾، شرعَ في شرحِه، فبدأ بما هو الأهمُّ في هذا المَقام، وهو إبطالُ الباطلِ الّذي أضلَّهم، ومضَى في تقسيمِه على طريق النّشرِ المُشَوَّشِ[3]؛ أي: غيرِ المُرتَّبِ، حيث فصّلَ أوّلًا ما يتّصلُ بالثّاني، فقال: ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذۡهَبُ جُفَآءٗۖ﴾، ثمّ رَجَعَ وفصَّلَ ثانيًا ما يتّصلُ بالأوّل، فقال: ﴿وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمۡكُثُ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾.

(1) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 10/489.
(2) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 8/495.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/318، ودرويش، إعراب القرآن وبيانه: 5/113.

رابعًا: بَلاغةُ التَّنْكيتِ في السّياقِ الحكيمِ:

وجْهُ النّفعِ في الماءِ أظهرُ؛ لعدمِ إمكانِ الاستغناءِ عنه؛ بخلافِ الذّهبِ

يَظهرُ هذا في إيثار الآيةِ عدمَ ذكْرِ وجْه الشّبهِ مع الذّهب والفضّة وزبدِهما، وذكْرَهُ مع الماءِ وزبدِه، وذلك بقرينةِ قوله تعالى: ﴿فَيَمْكُثُ فِي ٱلْأَرْضِۚ﴾، فهذا لاشكَّ مقصودٌ به الماءُ، وذلك لوجود نُكتةٍ في المذكور ظاهرةٍ، وهي أنّ وجهَ النّفع في الماء أظهرُ؛ لعدم إمكان الاستغناءِ عنه من جميع النّاس؛ بخلاف الذّهب. وكذلك أيضًا مقابلُه وهو زبدُه، فهو أظهرُ في التّمثيل من زبدِ الذّهبِ، من حيثُ إنّ زبدَ الماء يُرى للجميع، بخلاف زبدِ الذّهب والفضّة، فقد لا يَطلِّعُ عليه إلّا الصُّنّاعُ، ولَفتَ ابنُ عاشور إلى نكتةٍ أخرى وهي الاستغناءُ؛[1] ولعلّه يعني به الاستغناءَ بالمذكورِ اكتفاءً، لتحقيقِ غرضِ الإيجازِ.

بَلاغةُ التّشْبيهِ في قولِه ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ﴾:

رِفعةُ شأْنِ المَثَلِ المَضروبِ في الآيةِ، وسائرِ أمثالِ القرآنِ

المُشارُ إليه في اسم الإشارةِ ﴿كَذَٰلِكَ﴾ هو المَثَلُ الواردُ في أوّل الآيةِ ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾؛ أي: مَثَلُ ذلك الضّربِ البَديعِ ﴿يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ﴾، وهو المَقصودُ بهذا التّذْييل؛[2] أي: مَقصودٌ به بيانُ رِفعةِ شأنِ المَثَلِ المَضروبِ المُستهَلِّ، بقوله تعالى: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾.

سِرُّ إيثارِ التّعبيرِ باسمِ الإشارةِ (ذلك):

القيمَةُ العاليةُ لأمثالِ القرآنِ في تَصويرِ مُراداتِه

عبَّرَ باسمِ الإشارةِ ﴿كَذَٰلِكَ﴾ في قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ﴾ تنويهًا بشأن المَثَلِ المَضروبِ، ولَفتًا إلى قيمة التّمثيلِ، وبيانًا لحِكمتِه، وما يحملُهُ مِنَ العِبرِ والمَواعظِ[3] والحُججِ المُقنِعةِ؛ لأنّه يَحتكِمُ في التّمثيل والتّصويرِ إلى أشياءَ مَلموسةٍ، يراها النّاسُ ويُعايِشونَها ويعلمونَها، ويَقفونَ على نتائجِها.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/121.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/121، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/15.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/121.

نُكتةُ تَكرارِ جملةِ ﴿كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ﴾:

تكرّرَت جملةُ ﴿كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ﴾ مرّتين في الآية، والتَّكرارُ بجانب كونِ الجملةِ الثّانيةِ مُؤكِّدةً للجملة الأولى فيه دلالةٌ على "تفخيم شأنِ التّمثيلِ"[1] المَضروبِ في الآية.

التَّكرارُ بغرَضِ التّفخيمِ والتّأكيدِ، له أثرٌ في الدّلالةِ مُفيدٌ

بَلاغةُ فَصْلِ الجملةِ بالاسْتِئنافِ الابتدائِّي:

بينَ قولِه تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَالَ﴾ والجملةِ السّابقةِ: ﴿كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡحَقَّ وَٱلۡبَٰطِلَۚ﴾، (كمالُ اتّصالٍ)، وهو مُسوِّغُ الفصلِ هنا؛ لأنّها مُؤكِّدةٌ لها؛ إمّا باعتبار ابْتِناءِ هذا على التَّمثيل الأوّلِ، وإمّا بجَعْلِ ذلك إشارةً إليهما[2] ويُزادُ على هذا أنّ العلاقةَ بين الجُملتَين هي علاقةُ العُموم والخصوصِ، فلفظُ الأمثال لفظٌ عامٌّ؛ لكونِه جمعًا مُعرَّفًا بالألف واللّام، وعليه فالجملةُ الثّانيةُ "أعمُّ من جملة ﴿كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡحَقَّ وَٱلۡبَٰطِلَۚ﴾ لدلالتِها على صِنفٍ مِنَ المَثَلِ دونَ جميعِ أصنافِه، فَلَمّا أُعقِبَ بمَثَلٍ آخرَ وهو ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذۡهَبُ جُفَآءٗۖ﴾، جيءَ بالتّنبيه إلى الفائدة العامّةِ مِن ضربِ الأمثالِ. وحَصَلَ أيضًا تَوكيدُ جملةِ ﴿كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡحَقَّ وَٱلۡبَٰطِلَۚ﴾؛ لأنّ العامَّ يَندَرجُ فيه الخاصُّ"[3].

علاقةُ العُمومِ والخصوصِ بين الجُملتَين، هي عِلّةُ الفصْلِ

سِرُّ النّصِّ على لفْظِ ﴿ٱلۡأَمۡثَالَ﴾ في السّياقِ:

في النّصِّ على ﴿ٱلۡأَمۡثَالَ﴾ بقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَالَ﴾ دلالةٌ على إظهارِ كمالِ اللّطفِ الإلهيِّ، والعنايةِ بالنّاس وإرشادِهم حرصًا على هدايتِهم[4]، وهذا هدفٌ مُهمٌّ لوقوع التّمثيلِ في القرآن الكريم، في كلّ بابٍ يليقُ به؛ لأنّه بالأمثال تتّضحُ المُشتَبِهاتُ، وتتحقّقُ المُتَخَيّلاتُ[5].

إظْهارُ كمالِ اللُّطْفِ بضرْبِ الأمثالِ للنّاس، لعلّهم يَهتدون

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/15.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/15.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/121.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/15.
(5) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 10/490.

نُكتةُ تعريفِ (ال) للّفظِ ﴿ٱلْأَمْثَالَ﴾:

تعريفُ ﴿ٱلْأَمْثَالَ﴾ بالألف واللّام لإفادة العُموم[1]، فالجمعُ المُعرَّفُ بالألف واللّام أحدُ صيغِ العُموم، وهو يُناسِبُ سَعةَ الأمثال وتنوُّعَها.

من صيغِ العُمومِ الجمعُ المُعرَّفُ بالألفِ واللّامِ

التَّعْبيرُ عنِ ﴿ٱلْأَمْثَالَ﴾ بالجمْعِ:

جَمَعَ لفظَ ﴿ٱلْأَمْثَالَ﴾ مع أنّ المذكورَ في الآية مَثَلان فقط، قصْدًا إلى بقيّة الأمثالِ المَذكورةِ في السّورة وفي غيرِها أيضًا، فاللّفظُ عامٌّ كما مضى، وهو يشيرُ إلى أهمّيّة ضربِ الأمثالِ في كلِّ مَوضِعٍ تصلحُ له في إظهار كمالِ العنايةِ بالنّاس، والحرْصِ على صلاحِهم وهِدايتِهم.

الشُّمولُ والعُمومُ سِرُّ جمْعِ اللّفظِ الكريمِ

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيّةُ:

(يوقدون) و(يُشعلون) و(يُضرِمون):

يوقدون: الوَقدُ: ما ترى من لَهَبِ النّار[2] والوُقودُ، هو الحَطبُ، وكلُّ ما أوقِدَ بِهِ فهو وقودٌ[3] ويَضرمون: الضّرمُ أصلٌ صحيحٌ يدلُّ على حَرارةٍ والتِهابٍ. من ذلك الضِّرامُ مِنَ الحَطبِ: الّذي يَلتهِبُ بسرعةٍ[4].

ويُشعلون: الشَّعلُ: أصلٌ صحيحٌ يدلُّ على انتِشارٍ وتفرُّقٍ في الشّيءِ الواحدِ من جوانبِه. يُقالُ أشعَلتُ النّارَ في الحَطبِ، واشتَعَلَتِ النّارُ. واشتَعَلَ الشّيبُ. قال اللّه ﷻ: ﴿وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا﴾ [مريم: 4]. والشَّعيلَةُ: الفَتيلةُ إذا كانَت مُشتَعِلَةً، وقيلَ: بَياضٌ يَشتَعِلُ، قال تعالى: ﴿وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا﴾ [مريم: 4] تشبيهًا بالاشتِعالِ من حيثُ اللّونُ[5].

الإيقادُ للفعل، والإشعالُ لِما انتشرَت نارُه، والإضرامُ لسرعة الإشعالِ

وبعدَ هذا العرضِ نستطيعُ تلمُّسَ الفروق بين ثلاثتِها، وهي دقيقةٌ جدًّا؛ لأنّ التّقارُبَ الدّلاليَّ بينَها وثيقٌ للغاية على هذا النّحو:

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/121.
(2) الخليل، العين: (وقد).
(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (وقد).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (ضرم).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (شعل).

يوقدون: يدلُّ على الفعل نفسِه، ويشيرُ إلى استعمالِه تعبيرًا عن نفس الفعلِ بلا زيادةِ معنًى عليه، قولُه تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [يس: 80]، والوقودُ يكون بحطبٍ وبغيرِ حَطبٍ، فكلُّ ما يتمُّ به الإيقادُ داخلٌ فيه، ولذلك استعملَه القرآنُ مع الإيقادِ على المَعادن في قوله تعالى: ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ﴾، وهي تحتاجُ إلى نارٍ ثقيلةٍ ومُستمرّةِ التَّوقُّدِ، وهو ما لا يكفي فيه الحطبُ وحدَه، بل يحتاجُ إلى موادَّ أخرى تدومُ وتطولُ، فالحدّادون مثلًا رأيناهُم قديمًا يَستعملون نوى التّمر؛ لأنّه أبقى وأدومُ، كما استعملَه القرآنُ أيضًا في الإيقاد على الطّين في قوله تعالى: ﴿فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ﴾ [القصص: 38]، والإيقادُ على الطّين مِثلُ سابقِه يحتاجُ إلى موادَّ أخرى أشدَّ منَ الحطب وأثقلَ، ليطولَ بقاؤه مُتوقِّدًا، ليتمَّ تصلُّبُ اللّبِن، فيقسو، ويكونَ أقوى تحمُّلًا.

وأمّا الإشعالُ فيُطلَقُ على النّار المُنتشرَةِ المُتشعِّبةِ، وهو يختلفُ عنِ الإيقاد الّذي يُطلَقُ على النّار المُجتمِعةِ، لتكونَ أشدَّ حرارةً، ولذا استعملَ القرآنُ لفظَ الاشتعال مجازًا في انتشار الشّيبِ في الرّأس في قوله تعالى: ﴿وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا﴾ [مريم: 4]، وكأنّ الاشتعالَ يكونُ بموادَّ خفيفةٍ، كالحطبِ وما دونَه، كسيقان النّباتِ اليبسةِ، فإنّها لِخفَّتِها تنتشرُ نارُها وتتطايرُ. وأمّا الإضرامُ فيكونُ بالحطب سريعِ الاشتعال، وكأنّه لا يُقالُ: أُضرِمَتِ النّارُ في كذا، إلّا مصحوبًا بالسّرعة في الفعل لسرعة الوصولِ إلى الغرض. ومِن هنا فإنّ لفظَ الإيقاد أنسبُ لسياق الآية؛ لدخولِ كُلِّ ما يَتِمُّ به الإيقادُ فيه، ولذلك استعملَه القرآنُ مع الإيقاد على المَعادن في الآية.

الابْتِغاءُ والطّلبُ:

كلُّ ابتِغاءٍ طلبٌ، وليسَ كلُّ طلبٍ ابْتِغاءً

في المُعجم اللّغويِّ، يُعرَفُ كلٌّ منهما بما يُعرَفُ به الآخرُ؛ وذلك لتقاربِهما الدّلاليِّ الشّديدِ، قال ابنُ فارس في بيان معنى الطّلب:

"الطّاءُ واللّامُ والباءُ أصلٌ واحدٌ يدُلُّ على ابتِغاءِ الشَّيءِ"[1] وكذلك في بيان معنى الابتغاءِ قيلَ: هو الطّلبُ. يُقال: "بَغَى الشّيءَ يبغيه: طلبَه"[2] لكن يُفرَّقُ بينَهما بأنّ الابتغاءَ هو نوعٌ مخصوصٌ منَ الطّلب، فهو الطّلبُ الّذي بُذِلَ في سبيل تحصيلِه جهدٌ مُميَّزٌ، وليس كذلك كلُّ طلبٍ"؛ فالابتغاءُ افتِعالٌ منَ البغي.

وقد غلبَ اختصاصُ هذه الكلمة للدّلالة على الاجتهاد في الطّلب، سواء كان الطّلبُ مَحمودًا أم مذمومًا. ثمّ إنّه يُحمَدُ بحمدِه ويُذَمُّ بذمِّه؛ أي: أنّ الطّلبَ متى كان لشيءٍ مَحمودٍ فالابتغاءُ فيه محمودٌ، ومنه قولُه تعالى: ﴿وَإِمَّا تُعۡرِضَنَّ عَنۡهُمُ ٱبۡتِغَآءَ رَحۡمَةٖ مِّن رَّبِّكَ تَرۡجُوهَا فَقُل لَّهُمۡ قَوۡلٗا مَّيۡسُورٗا ٢٨﴾ [الإسراء: 28]، ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: 265]، ومنه أيضًا الآية الّتي معنا: ﴿وَٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِمۡ﴾ [الرّعد: 22]، ومتى كانَ الطّلبُ مذمومًا كانَ الابتغاءُ فيه مذمومًا، كما في قوله سبحانه: ﴿لَقَدِ ٱبۡتَغَوُاْ ٱلۡفِتۡنَةَ مِن قَبۡلُ﴾ [التّوبة: 48][3].

وعلى هذا يكونُ بين الطّلبِ والابتغاءِ عُمومٌ وخصوصٌ مُطلَقٌ، فكلُّ ابتغاءٍ طلبٌ، وليسَ كلُّ طلبٍ ابتغاءً. وعليه يكونُ اختيارُ لفظ الابتغاءِ أنسبَ للسّياق بوصْفِ الحِلية والمَتاعِ ممّا يُطلَبُ، ويُبذَلُ في سبيل تحصيلِه جهدٌ مُميَّزٌ.

المكوث والبقاء:

كلُّ مُكثٍ بقاءٌ، وليسَ كلُّ بقاءٍ مُكثًا

المُكثُ يدلُّ على الاستقرار والثّباتِ بالمكان زمنًا، مع ترقُّبٍ وانتظارٍ[4] وهذا الزّمنُ قد يَطولُ وهو المعنى المناسِبُ لقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمۡكُثُ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾، وقد يَقصرُ كما في قوله

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (طلب).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (بغو).
(3) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحفّاظ: (بغي).
(4) الرّاغب، المفردات، وابن فارس، مقاييس اللّغة، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (مكث).

تعالى: ﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ [النّمل: 22]، وقد يكونُ على الدّوام كما في قوله سبحانه: ﴿وَنَادَوْاْ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَۖ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ٧٧﴾ [الزّخرف: 77].

وأمّا البَقاءُ فهو ثباتُ الشّيءِ على حالهِ الأولى، والبقاءُ المُطلَقُ هو للّه وحدَه[1]، وهو أيضًا يطولُ ويقصرُ، وفي طولهِ قد يمتدُّ إلى معنى الدّوام[2]، وعليه يكونُ هنالك اشتراكٌ في أصل المعنى بين المُكثِ من حيثُ معناه الثّباتُ والاستقرار بالمكان، والبقاءِ؛ أي: في المكان، وهو الثّباتُ فيه كذلك، وكلاهما يشتركان كذلك في طولِ الزّمن أو قصرِه، غير أنّ المُكثَ ينفردُ بمعنى التَّرقُّبِ والانتظارِ. ومِن ثَمّ يكونُ بينهما عمومٌ وخصوصٌ مُطلَقٌ، فكلُّ مُكثٍ بقاءٌ، وليسَ كلُّ بقاءٍ مُكثًا. ومعنى التّرقُّبِ والانتظارِ المُصاحبَين للاستقرار في الأرضِ يناسبُ اختيارَ لفْظِ المُكثِ، لِما ينفعُ فيها.

(1) الرّاغب، المفردات: (بقي).
(2) السّمين الحلبي، عمدة الحفّاظ: (بقي).

﴿لِلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِرَبِّهِمُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ وَٱلَّذِينَ لَمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَهُۥ لَوۡ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا وَمِثۡلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفۡتَدَوۡاْ بِهِۦٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ سُوٓءُ ٱلۡحِسَابِ وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ١٨﴾ [الرّعد: 18]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الـرَّبْـطُ بين الزّبدِ وما يَنفعُ النّـاسَ، وبين مآلِ المُستَجيبين والمُعرِضين

لمّا ضَرَبَ اللّه الأمثالَ المُؤثِّرةَ القويّةَ للنّاس لعلّهم يَعلمون فيؤمنون، افترقَ المخاطَبون حيالَها إلى فريقين؛ فريقٌ استجابَ لربِّه، واتّعظَ بالأمثال، وأفادَ من مَراميها، وفريقٌ عميَ وتغافلَ عنِ الاعتبار بها وبمقاصدِها، فجاءَتِ الآيةُ: ﴿لِلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِرَبِّهِمُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ وَٱلَّذِينَ لَمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَهُۥ لَوۡ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا وَمِثۡلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفۡتَدَوۡاْ بِهِۦٓۚ﴾ لتُبيّنَ مآلَ المُستجيبين المُعتبِرين، ومآلَ المُعرِضين المُعانِدين الّذين لم يَسْتَجيبوا لربِّهم. فللمُسْتجيبين الحُسنى، وللمُعرِضين الحسرةُ والنّدامةُ وعذابُ جهنّمَ.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿لَٱفۡتَدَوۡاْ﴾: أصلُ (فدي) أنْ يُجعَلَ شيءٌ مكانَ شيءٍ حِمًى لَهُ، يُقالُ: فَدَيتُهُ أفديهِ، كأنَّكَ تَحميهِ بنَفسِكَ أو بشيءٍ يُعَوِّضُ عنهُ[1]، والفِدَى: جَمعُ فِديَةٍ. والفِداءُ: ما تَفدي به وتُفادي. والفِعلُ: الافتِداءُ[2]. وافتَدى: إذا بَذَلَ ذلك عن نَفسِه، والمُفاداةُ: هو أن يَرُدَّ أسرَ العِدَى، ويَسترجِعَ منهُم مَن في أيديهم[3]. وتَفادَى القومُ: استَتَرَ بعضُهم ببعض مَخافةً، وتَفَدَّيتُه وفَدَّيتُه واحدٌ[4]. والمقصودُ بـ ﴿لَٱفۡتَدَوۡاْ﴾ في الآية: إعطاءُ شيءٍ بدلًا عَن حَقٍّ للمُعطَى.

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (فدي).
(2) ابن عبّاد، المحيط في اللّغة: (فدى).
(3) الرّاغب، المفردات: (فدى).
(4) الخليل، العين: (فدي).

2) ﴿ٱلۡمِهَادُ﴾: أصلُ (مهد) يدُلُّ على تَوطِئَةٍ وتَسهيلٍ للشَّيءِ[1]. والمهدُ: التَّوثيرُ، ويُقالُ للفِراش: مهادٌ لوَثارته. يُقالُ: مَهَّدتُ لنَفسي، ومَهَّدتُ؛ أي: جَعَلتُ مَكانًا وطيئًا سهلًا، ويُقالُ: مَهَدتُ لنَفسي خيرًا؛ أي: هيَّأتُه ووطّأته[2]. والمَهدُ أيضًا: للصَّبيِّ، وكذلك المَوضِعُ إذا مُهِّدَ ووُطِّئَ[3]. والمِهادُ اسمٌ أجمَعُ منَ المَهد، كالأرض جَعَلَها اللّه مِهادًا للعباد، وجمعُ المِهاد مُهُد وثَلاثَة أمهدة[4]. والمُرادُ بـ ﴿ٱلۡمِهَادُ﴾ في الآية: اسمٌ لشيءٍ يُمَهَّدُ؛ أي: يوطَّأُ ويُسَهَّلُ لِما يَحِلُّ فيهِ. وإنَّما سَمَّى جهنَّمَ مِهادًا تَهكُّمًا؛ لأنَّ العُصاةَ يُلقَونَ فيها فَتُصادِفُ جنوبَهم وظهورَهم[5].

❁ المَعْنى الإجْماليّ:

بيَّنَ اللّه سُبحانَه في هذه الآية عاقبةَ أهلِ الحقِّ، وعاقبةَ أهلِ الباطلِ، فقال: للّذينَ أجابوا ربَّهم، فآمَنوا به، وأطاعوه ورَسولَه، الجزاءُ الحسَنُ في الدُّنيا، والجنَّةُ في الآخرةِ، والّذين لم يُؤمِنوا برَبِّهم، ولم يطيعوه ورَسولَه، لو أنَّهم يَملِكونَ كُلَّ شَيءٍ في الأرضِ، ويَملِكونَ مِثلَه معه، لقدَّموه فداءً؛ لتخليصِ أنفُسِهم من عذابِ النّارِ يومَ القيامةِ، فلن يُتَقبَّلَ منهُم، أولئك يُحاسَبونَ على كُلِّ ما أسلَفوه مِن عمَلٍ سيِّئٍ، ومَسكَنُهم ومَقامُهم جهنَّمُ تكونُ لهم فِراشًا، وبِئسَ الفِراشُ الَّذي مَهَدوه لأنفُسِهم[6].

للمُؤمنين الطّائعين الجزاءُ والنّعيمُ، وللعُصاةِ النّارُ والعذابُ الأليمُ

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيّ:

فائِدةُ الاسْتِئنافِ البيانِّي في السّياقِ:

تعودُ فائدةُ الاستئنافِ البيانيِّ هنا إلى بيان جزاءِ كُلٍّ مِن أهل

بيانُ جَزاءِ الفريقَين أهلِ الحقِّ وأهلِ الباطلِ

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (مهد).
(2) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (مهد).
(3) ابن عبّاد، المحيط في اللّغة: (مهد).
(4) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (مهد).
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/272.
(6) ابن جرير، جامع البيان: 13/505، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 9/307، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/449، والسّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 416.

الحقِّ وأهلِ الباطلِ، بعد أن سلفَ في المَثَلين السّابقَين تمثيلُ كُلٍّ منَ الحقّ والباطل للمُمثَّل لهم، بما يعظِّمُ من قدرِ الحقِّ ويحبِّبُه للنّاس، ويشنِّعُ الباطلَ ويبغِّضُه لديهم. وكأنّ سائلًا سألَ: إذا كانَ هذا شأنَ كُلٍّ منَ الحقّ والباطل، فما جزاءُ مَنِ امتثلَ للحقِّ، وما جزاءُ مَن هوى إلى الباطل؟ فكانَ الجوابُ: ﴿لِلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِرَبِّهِمُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ وَٱلَّذِينَ لَمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَهُۥ لَوۡ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا وَمِثۡلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفۡتَدَواْ بِهِۦٓۚ﴾، وحينئذٍ يكونُ بين هذه الجملةِ وما قبلَها شِبْهُ كمالِ اتّصالٍ، وقد يكونُ تقديرُ السّؤال: ما فائدةُ ضربِ الأمثال؟ والجوابُ: الفائدةُ أنّها حين تُضَربُ يظهرُ أنّ ﴿لِلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِرَبِّهِمُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ﴾، وحينئذٍ يكونُ في ذكر جملة الاستئنافِ البيانيِّ، "زيادةُ تنبيهٍ لِلتّمثيلِ ولِلغرضِ منه، مع ما في ذلكَ مِن جزاءِ الفَريقَين؛ لأنّ المُؤمنينَ استجابوا للّه بما عَقَلوا الأمثالَ، فجوزوا بالحُسنى، وأمّا المُشركون فأعرَضوا، ولم يَعقِلوا الأمثالَ، كما قال تعالى: ﴿وَمَا يَعۡقِلُهَآ إِلَّا ٱلۡعَٰلِمُونَ ٤٣﴾ [العنكبوت: 43]، فكانَ جَزاؤُهم عذابًا عظيمًا، وهو سوءُ الحساب"[1].

إيثارُ الاسمِ الموصولِ عن ذِكْرِ المؤمنين والكافرين:

تَعليلُ جزاءِ كُلٍّ منَ الفريقين بارزٌ في الصِّلتَين

لم يصرِّحْ هنا بذكر الفريقَين؛ المؤمنين أهلِ الحقّ، والكافرين أهلِ الباطل، وإنّما عَدَلَ إلى المَوصولَين وصِلَتَيهما في قوله: ﴿لِلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ﴾ و﴿وَٱلَّذِينَ لَمۡ يَسۡتَجِيبُواْ﴾ إيماءً إلى أنّ الصِّلَتَين - الاستجابةَ وعدمَ الاستجابة - سَببانِ لِما حَصَلَ للفريقَين[2]، فكان الموصولُ هنا مدحًا لأهل الحقِّ، والموصولُ الثّاني ذمًّا لأهل الباطلِ.

دَلالةُ تَقْديمِ جملةِ الخبرِ (المُسنَدِ) على المُسنَدِ إليه:

فائدةُ التَّقْديم الحصْرُ، وهو من فَصيح البَيانِ

في تقديم جملةِ الخبرِ ﴿لِلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ﴾ على المبتدأ ﴿ٱلۡحُسۡنَىٰۚ﴾ ما يفيدُ الحصْرَ[3]، وفيه تحقيقٌ لغرَضٍ مُهمٍّ هو التّنويهُ بشأن الّذين

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/122.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/122.
(3) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 10/491.

استَجابوا[1]، وتفخيمُ أمرِهم؛ لكونِهم استجابوا لربِّهم، وانْتَفعوا بضرب الأمثالِ، بخلاف غيرِهم.

التَّعْبيرُ عنِ الاسْتِجابةِ بالفعْلِ الماضي:

الاسْتِجابةُ للهِ سِمةُ الصّالحين، ماضيا وحاضِرًا

عبَّرَ في جملة الصّلة بالماضي فقال: ﴿ٱسۡتَجَابُواْ﴾ دلالةً على تحقُّقِ ذلك فيهم في الماضي، واستمرارِه أيضًا في الحال، كما هو معروفٌ من دلالة الصّلةِ عندما تكونُ فعلًا ماضيًا. ووَسْمُهُم بحتميّةِ الانقيادِ والاستجابةِ إعلاءٌ لِمكانتهم بوصْفِهم خاضعينَ، مُنقادينَ، طائعينَ لربِّهم، وهذه صفاتُ المؤمنِ الحقِّ.

بِناءُ الفعْلِ على صيغةِ الاسْتِفعالِ:

بيانُ أنّ اسْتِجابَتَهم كانت عن طلَبٍ، ورغْبةٍ، وطاعةٍ

وقوله تعالى: ﴿ٱسۡتَجَابُواْ﴾؛ معناه: أجابوا، والسّينُ والتّاءُ فيه لتقوية الفِعل[2]. وتدلُّ على معنى الطّلب؛ أي: أنّهم طالِبونَ للإجابة، راغبونَ فيها انقيادًا وطاعةً.

دَلالةُ اللّامِ وتعلُّقُها مع مجرورِها:

تَحقيقُ القولِ في المُتعلَّقِ، وما يترتَّبُ عليه من مَعانٍ

اللّام هي لامُ الاسْتِحقاقِ، والأصحُّ في مُتعلَّق اللّام الجارّة ومجرورِها، أنّه محذوفٌ، والجملةُ ﴿لِلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ﴾ خبرٌ مُقدَّمٌ، والمبتدأُ هو ﴿ٱلۡحُسۡنَىٰۚ﴾، وذلك لأنّ الجملةَ استئنافيّةٌ، كما مضى توجيهُها على هذا. ويجوزُ كونُ الجارِّ والمجرور مُتعلِّقَين بـ﴿يَضۡرِبُ﴾[3]، وحينئذٍ يكونُ ضربُ الأمثال هو ﴿لِلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ﴾، واللّامُ داخِلةٌ على المُمثَّل له[4]، ولا يُساعدُ هذا الرّأيُ جمعَ لفظ الأمثالِ، مع كون الّذي مرَّ في الآية السّابقة مثلَين فقط، فصيغةُ الجمع إذن غيرُ مُلائِمة[5] وهذا معناه أنّ ضربَ الأمثال مُرادٌ به النّاسُ، وليس

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/122.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/108.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/534.
(4) الخفاجيّ، عناية القاضي: 5/233.
(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/375، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 10/491، والآلوسيّ، روح المعاني: 7/126.

فقط المُستجيبين وقسماءَهم. ثمّ إنّ تخريجَ الآية على الاستئنافِ أقوى، وفصاحةُ النّظْم تَستدعيه[1]؛ لأنّ فيه بيانًا لجزاء الفريقَين، وهي النّتيجةُ والغايةُ، كما أنّ التّخريجَ عليه يَخلو مِنَ الاعتراض المذكورِ. ولذا فإنّ علماءَ الوقف والابتداءِ نَصّوا على لزوم الوقفِ على ﴿ٱلْأَمْثَالَ﴾، فهو عندَهم وقفٌ تامٌّ[2] بحسب ما يرجِّحُه أيضًا قولُه تعالى: ﴿۞لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ وَزِيَادَةٞۖ﴾ [يونس: 26]، فـ﴿ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ هي الجنّة، وعليه يكونُ معنى الآية: ﴿لِلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِرَبِّهِمُ﴾ الجنّة، فيَلتئِمُ السّياقُ، بخلاف التّخريج الآخرِ، فإنّ ﴿ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ عليه تكونُ صفةً لمصدرٍ محذوفٍ؛ أي: الاستجابة ﴿ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾، ولا معنى حينئذٍ لهذا الوصف؛ لأنّ كلَّ استجابةٍ للّه هي حُسنى.

التَّعْبيرُ بلفْظِ (الرّبّ) في السّياقِ الأكرمِ:

في التّعبير باسْمِ الرّبِّ في قوله تعالى: ﴿ٱسۡتَجَابُواْ لِرَبِّهِمُ﴾ إشارةٌ إلى إنعامِه سُبحانَه عليهم بتوفيقِهم إلى الاستجابة، وتنويهٌ بشأنِهم في عدم الغفلةِ عنِ الاستجابة لربِّهم كما فعلَ غيرُهُم.

عِلّةُ إضافَةِ الرُّبوبيّة إلى ضميرِ المُستجيبين:

في إضافةِ اسْمِ الرّبِّ إلى ضميرِهم تشريفٌ لهم، وإعزازٌ لمكانتِهم، وإعلاءٌ لشأنِهم، وهم أهلٌ لهذه المَكرُمةِ لاستجابتِهم داعيَ ربِّهم.

إيثارُ لفْظِ ﴿ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ صيغةً ومعنًى:

الحُسنى مُؤنَّثُ أحسن - أفعلَ التّفضيل منَ الحُسن - لكنّه هنا ليس على بابِه، لذا فالمُرادُ بالحُسنى الحالُ البالغةُ أقصى درجاتِ

مِن نِعَمِ الله على العبد، أن يُريَهُ الحقَّ حقًّا، ويَرْزُقَهُ اتّباعَه

الاستجابةُ للرّبّ الرّحيمِ تشريفٌ واصطفاءٌ وتكريمٌ

لا شيءَ أوْفَى بوصْفِ (الحُسنَى) منَ الجَنّةِ

(1) الطّيبيّ، حاشية الطّيبيّ على الكشّاف: 8/500.
وقال الطّيبيّ في هذا الموضع: الفصاحةُ على انقطاعِ ما بعدَ الفاصلة عنها، ولهذا انحطَّ قولُ امرئ القيس:

أَلَا أيّها اللّيلُ الطّويلُ ألَا انجَلي *** بصُبحٍ وما الإصباحُ منكَ بأمثَلِ

عن قول أبي الطّيب:

إذا كانَ مدحٌ فالنّسيبُ المُقَدَّمُ *** أكُلُّ فصيحٍ قالَ شِعرًا مُتَيَّمُ

(2) الدّاني، المكتفى في الوقف والابتدا، ص: 107، والأشمونيّ، منار الهدى، ص: 407، وأبو حيّان، البحر المحيط: 6/375.

الحُسنِ ونهايتِه الّتي لا غايةَ في الحُسن بعدَها[1]، ولا شيءَ أوفَى بهذا الوصف منَ الجَنّة، ولا أحقَّ به منها.

إيثارُ الإجْمالِ في جزاءِ المُسْتَجيبين:

ولم يَزِدْ في جزاء الّذين استجابوا على النّصِّ بأنّ لهُمُ ﴿ٱلۡحُسۡنَىٰۚ﴾، كما فصَّلَ في جزاء الّذين لم يَستجيبوا؛ إيثارًا للإجمال والاختصارِ؛ وللدّلالة على أنّ جزاءَ المُستجيبين، لا يدخلُ تحتَ الوصْفِ[2]، فهو أعلَى مِن كلِّ وصْفٍ يُمكنُ أن تذهبَ إليه نفسٌ.

الوَصْفُ بـ (الحُسنى) أعلَى من كلِّ وصْفٍ مُحتَملٍ

دَلالةُ الواوِ في قوله ﴿وَٱلَّذِينَ لَمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَهُۥ﴾:

الواوُ في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَهُۥ﴾ ابتدائيّةٌ أوِ استئنافيّةٌ[3]، والجملةُ بعدَها مُستأنَفةٌ. واسْمُ الموصول مبتدأٌ، وخبرُه جملةُ ﴿لَوۡ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا وَمِثۡلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفۡتَدَوۡاْ بِهِۦٓۚ﴾[4]، واستأنفَ ولم يعطفْ لانتفاءِ الشَّراكةِ بين مَن يَستجيبُ ومَن لا يَستجيبُ، فضلًا عنِ الإيذان برديء فعلِهم أنّهم لم يستجيبوا.

لا شَراكةَ بين مَن يَسْتجيبُ لربِّه، ومَن لا يَسْتجيبُ

فائِدةُ تَكرارِ الموصولِ في السّياقِ الكريمِ:

ذَكَرَ الموصولَ مع الجملة الثّانيةِ ﴿وَٱلَّذِينَ لَمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَهُۥ﴾ ذمًّا لهم، وقصدًا لجملة الصّلةِ؛ لأنّها تحملُ سببَ عدمِ اعتبارِهم بالأمثال، تمامًا كالموصول وصِلَتِه في الجملة الأولى[5].

ذَكَرَ الموصولَ لِذَمِّهم، بما تحملُه جملةُ الصّلةِ

تَوْجيهُ جملةِ النّفْيِ بالحرف ﴿لَمۡ﴾ دونَ غيرِه:

صيغَتْ جملةُ النّفي مُصدرَّةً بـ ﴿لَمۡ﴾ النّافيةِ دونَ غيرها، كـ(لا)، و(لن) للدّلالة على أنّهم لم يستجيبوا لربِّهم في ماضيهم، وأيضًا في حاضرِهم؛ بخلاف (لا) فهي لنفيِ الحال والاستقبال، و(لن)

دَلالةُ (لم) على نفْيِ اسْتِجابتِهم، ماضيًا وحاضرًا

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 8/3926.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/126.
(3) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 10/491.
(4) السّمين الحلبي، الدّرّ المصون: 7/43، ودرويش، إعراب القرآن وبيانه: 5/109.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/122.

لنفيِ الاستقبال، كما هو مَعلومٌ. وفي النّفيِ بها دعوةٌ لهم إلى تدارُكِ حالِهم، حيثُ لم يقضِ عليهم نصُّ الآية بعدمِ الاستجابة أبدًا.

التّعْبيُر عن نفْيِ الاسْتجابةِ بالمضارع:

عبَّرَ بالمضارع الّذي دخلَت عليه ﴿لَمْ﴾ النّافيةُ الجازمةُ؛ للدّلالةِ على نفْيِ الاستجابةِ في الماضي، واستمرارِهِ في الحال.

نفيُ الاسْتِجابة دائـمٌ؛ لـدوامِ رُكـونِـهـم إلى الكفْرِ والكنودِ

بَلاغةُ طِباقِ السّلْبِ بين ﴿ٱسْتَجَابُواْ﴾ و﴿لَمْ يَسْتَجِيبُواْ﴾:

بينَ قوله تعالى: ﴿ٱسْتَجَابُواْ﴾ في الجملة الأولى وقولِه تعالى: ﴿لَمْ يَسْتَجِيبُواْ﴾ في الجملة الثّانية ما يُعرَفُ بطِباقِ السّلبِ النّاتجِ عن اختلافِهما إيجابًا في الأولى؛ إذ أثبتَ الاستجابةَ لفريق أهلِ الحقّ، وسلبًا في الثّانية حيثُ نفاها عن أهل الباطلِ.

بضدِّها تَتميّزُ الأشياءُ، والضِّدُّ يُظهِرُ حُسنَهُ الضِّدُّ

نُكتةُ العُدولِ منَ الرُّبوبيّةِ إلى الضّميرِ في ﴿لَهُۥ﴾:

يُلحَظُ من جملة الفروقِ بين الجملة الأولى والثّانية، أنّه في الأولى أظهرَ اسْمَ الرّبِّ، وأضافَه إلى ضمير المُخاطَبين، تشريفًا لهُم، وهو ما لم يحدُثْ في الجملة الثّانية، فقد عبَّرَ بالضّمير؛ مَنْعًا للتَّكرار بلا داعٍ، وبيانًا لكونِهم ليس من شأنِهم أن يستجيبوا لحقٍّ[1]، وأيضًا كي لا يَحوزوا شرفَ الإضافةِ الّتي حازَها أهلُ الحقِّ.

حِرْمانُ الكافرين مِـن شَـرَفِ الإضـافـةِ إلى اسْمِ الرّبِّ

بَديعُ إخْفاءِ عَذابِ الّذين لم يَسْتَجيبوا:

في سَوق الجملةِ الامتناعيّةِ: ﴿لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْاْ بِهِۦٓ﴾ دونَ أن يُصرِّحَ بنوع العذابِ، دلالةٌ على هوْلِه؛ بحيث لا تساعدُ على وصْفِه العبارةُ الصّريحةُ ولا الإشارةُ[2] وهذا من جملة الفروقِ بين الجُملتَين كذلك. ومن جملة الفروقِ بين الجُملتَين العُدولُ بتقديمِ المُسنَدِ على المُسنَدِ إليه في جملة ﴿وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُۥ﴾؛ إذ إنّه في سبيل الإخبارِ عن

تهويلُ عَذابِهم بإخْفاءِ نوْعِه

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 8/1327.

(2) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 10/491.

وعيدِهم "أُجري على أصل نظمِ الكلامِ في التّقديم والتّأخير؛ لقلّةِ الاكتراثِ بهم"[1].

دَلالةُ ﴿لَوْ﴾ الشّرطيّةُ في هذه الجُملةِ القُرآنيّةِ:

تفيدُ ﴿لَوْ﴾ الشّرطيّةُ في قوله تعالى: ﴿لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦٓ﴾ الامتناعَ المُتكرِّرَ؛ أي: امتناعَ وقوعِ الجزاءِ، لامتناع وقوعِ الشّرط، فهي مفيدةٌ هنا عدمَ وقوعِ الفداء؛ لأنّه ليسَ لهم ما في السّماواتِ والأرضِ، فضلًا عن ضعْفِه، ودالّةٌ على فداحةِ عذابِهم، وهوْلِ عقابِهم.

لن يَقعَ الفِداءُ منهم؛ لاسْتِحالةِ حيازةِ ما في السَّماواتِ والأرضِ

وَجْهُ التّوكيدِ بـ ﴿أَنَّ﴾ في سياقِ الآيةِ:

في التّعبير بـ ﴿أَنَّ﴾ التّوكيديّةِ دلالةٌ على أنّ الأمرَ ليس مَبنيًّا على المُبالغة؛ بل هو حقيقةٌ، لو حصلَ المُمتنَعُ - وهو غير حاصلٍ -، فلو أنّ لديهم ما ذكرَتْه الآيةُ، ما تردّدوا في التّضحيةِ به، فداءً لأنفسهم، ممّا يلاقونَه من عذابٍ.

لا شيءَ يَعدلُ النّفسَ عندَ صاحبِها، وكلُّ شيءٍ دونَها يهونُ

نُكتةُ تَقْديمِ شِبْهِ الجملةِ ﴿لَهُم﴾ في السّياقِ:

قولهُ تعالى: ﴿لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾، وفيه أنّ اللّامَ الجارّةَ هي لامُ شبْهِ المُلكِ الدّاخلةُ على ضميرِهم، وهي ملكيّةٌ قُصِدَ بها التّحسيرُ، وفي تقديمِهما دلالةٌ على الاخْتصاصِ، والاختصاصُ هنا مُجرَّدُ فرْضٍ؛ لأنّ الكلامَ مُعلَّقٌ على مُستحيلٍ، وهو أن يَملِكوا ما في الأرض وضِعفَه، وهو مُستحيلٌ حُصولُه.

الاخْتِصاصُ والتّحْسيرُ في التّعبيرِ منَ البيانِ الأثيرِ

إيثارُ ﴿مَّا﴾ الموصولةِ في الجملةِ:

أوثِرَت ﴿مَّا﴾ الموصولةُ؛ لكونِها جامِعةً للمَقصود مع تحقيق الإيجاز؛ لاستغراقِها عمومَ موجوداتِ الأرض، بما تحملُه من دلالة الإبهامِ والعُموم.

حَصَلَ المقصودُ بالإعمامِ، وحقّقَ الإيجازَ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/123.

وَجْهُ تعريفِ لفْظِ ﴿ٱلْأَرْضِ﴾:

ذُكِرَتِ الأرضُ مُعرّفةً؛ لتفخيمِها والتّنبيهِ إلى أهمّيّتِها

أفاد تعريفُ الأرض في قوله تعالى: ﴿مَّا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ التّفخيمَ على معنى: أنّ هذه الأرضَ الفخمةَ، المُشتمِلةَ على المَنافعِ العظيمةِ، لو أنّها في ملكِهم لضَحّوا بها؛ فداءً لأنفسِهم منَ العذاب.

فائِدةُ التّوكيدِ بلَفْظِ ﴿جَمِيعًا﴾ في السّياقِ:

لن يَضِنّوا على فِداءِ أنفسِهم، بكلِّ ما في الأرض، لوِ امْتَلكوه

أفادَت كلمةُ ﴿جَمِيعًا﴾ التّوكيدَ؛ أي: توكيدَ الموصولِ في قوله تعالى: ﴿مَّا فِي ٱلْأَرْضِ﴾، فمِنَ المُؤكَّدِ أنّهم لن يَضِنّوا على فداءِ أنفسِهم، بكلّ ما في الأرض لو مَلَكوه. ففي لفظِ التّوكيدِ بيانُ شدّةِ اضطرارِهم لأدنى شيءٍ يَفتدونَ به أنفسَهم، أيًّا كان.

سِرُّ عطْفِ ﴿وَمِثْلَهُۥ﴾ بالواوِ في الآيةِ الكريمةِ:

بيانُ المبالغةِ في إظهارِ الرّغبةِ، في فداءِ النّفسِ بكلِّ نفيسٍ

قولهُ تعالى: ﴿وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ﴾ معطوفٌ على ﴿مَّا فِي ٱلْأَرْضِ﴾، والعطْفُ بالواو بقصْدِ الجمْعِ والتّشريكِ والمُبالغةِ في إظهارِ رغبتِهم في التّضحيةِ بالنّفيس والسّعيِ للفداء بالعزيز، بل بما في الأرض جميعًا على فرضِ تملُّكِهم إيّاه، لغرضِ الأمانِ منَ العذابِ.

دَلالةُ الإطْنابِ في السّياقِ بقوله ﴿مَعَهُۥ﴾:

تَهْويلُ العذابِ الواقعِ عليهم بالنّصِّ على المَعيّةِ

نصَّ على قوله تعالى ﴿مَعَهُۥ﴾ وهو ظرفٌ مُتعلِّقٌ بمحذوفٍ؛ لوقوعِه مَوقِعَ الحال من قوله تعالى: ﴿وَمِثْلَهُۥ﴾[1]، وفائدةُ النّصِّ على المعيّةِ "التّصريحُ بفرض كينونَتِهما لهم بطريق المعيّةِ، لا بطريق التَّعاقُبِ؛ تحقيقًا لكمال فظاعةِ الأمر"[2].

معنَى اللّام في قوله ﴿لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦٓ﴾:

الإنكارُ يَستدعي التّوكيدَ، في السّياقِ الرّشيدِ

اللّامُ هي الواقعةُ في جواب ﴿لَوْ﴾، وهي مُفيدةٌ للتّأكيد؛ لأنّ المُشركين كانوا مُنكِرين للبعث، ومُنكِرين أن يذلَّهم شيءٌ، أو يوهِنَ

(1) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 4/143، ودرويش، إعراب القرآن وبيانه: 5/110.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/33.

قواهم شيءٌ[1]. وقد حكى القرآنُ عنهم هذا في قوله سبحانه: ﴿وَقَالُواْ نَحۡنُ أَكۡثَرُ أَمۡوَٰلٗا وَأَوۡلَٰدٗا وَمَا نَحۡنُ بِمُعَذَّبِينَ ٣٥﴾ [سبأ: 35].

بناءُ الافْتِداءِ على صيغةِ الافْتِعالِ:

المحبوبُ بالذّات أقوَى منَ المحبوب بالعَرَض

بَنى صيغةَ ﴿لَٱفۡتَدَواْ﴾ على الافتعال، فلم يقُلْ: (لفدوا) دلالةً على استعدادِهم لبذْلِ أقصى طاقاتِهم في البذل والتّضحيةِ، بكُلِّ ما يَملِكون، ولو كانَ ما يملكونَه كلَّ ما في الأرض وضعْفَه بل وأكثرَ؛ "لأنّ المَحبوبَ بالذّاتِ لكلِّ إنسانٍ هو ذاتُهُ، وكلُّ ما سواهُ فإنّما يحبُّهُ لكونهِ وسيلةً إلى مَصالحِ ذاتِهِ، فإذا كانَتِ النّفسُ في الضَّرَرِ والألمِ والتَّعبِ، وكانَ مالكًا لِما يُساوي عالَمَ الأجسادِ والأرواحِ، فإنّه يَرضى بأنْ يَجعلَهُ فِداءً لنفسِه؛ لأنّ المحبوبَ بالعَرَضِ، لا بدَّ وأنْ يكونَ فِداءً لِما يكونُ محبوبًا بالذّات"[2].

دَلالةُ شِبْهِ الجملةِ ﴿بِهِۦٓ﴾ في السّياقِ:

دَلالةُ الباءِ على المبذولِ بدخولِها عليه

الباءُ الجارّةُ في قوله تعالى: ﴿لَٱفۡتَدَواْ بِهِۦٓ﴾ هي باءُ العِوضِ الّتي تدخلُ على المَتروك أوِ العِوضِ المبذولِ.

عِلّةُ إفرادِ الضّميرِ في سياقِ الآيةِ الكريمةِ:

أفردَ الضّميرَ المجرورَ ﴿بِهِۦٓ﴾ مع أنّ الّذي تقدَّمَه شيئان؛ وهما: ﴿مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا وَمِثۡلَهُۥ مَعَهُۥ﴾؛ للإشارة إلى أنّهما لتلازمِهما قد صارا بمنزِلةِ شيءٍ واحدٍ، أو لإجراء الضّميرِ مَجرَى اسْمِ الإشارةِ، بأن يُؤوَّلَ المَرجِعُ المُتعدِّدُ بالمذكور[3] أو يكونَ الضّميرُ عائدًا إلى ﴿وَمِثۡلَهُۥ مَعَهُۥ﴾؛ لكونهِ شاملًا ما في الأرض وزيادةً[4].

أفردَ الضّميرَ؛ ليدُلَّ على أنّه شامِلٌ ما في الأرض وزيادةً

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/326.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 19/31.
(3) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 4/143.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 6/188.

فائدةُ الإتيانِ باسْمِ الإشارة ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ﴾:

مَنزلتُهم عاليةٌ في الكفْرِ لا في الإيمانِ

جيءَ باسْمِ الإشارة الخاصِّ بالبعيد ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ﴾ في قوله تعالى: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ﴾؛ للدّلالة على بُعدِ مَنزلتِهم في الكفر، وفي عدم الاستجابةِ للّه.

ومِن أسباب الإتيانِ به كذلك "التّنبيهُ على أنّهم أحرياءُ بما بعدَ اسْمِ الإشارةِ مِنَ الخبرِ بسببِ ما قَبْلَ اسْمِ الإشارةِ مِنَ الصّلةِ"[1]؛ أي: هُم جديرون بأن يكونَ لهم سوءُ الحساب؛ لكونهم لم يستجيبوا لربِّهم.

نُكتةُ تَقْديمِ شِبْهِ الجملةِ ﴿لَهُم﴾:

رَفَضوا الاسْتِجابةَ، فخَصّوا أنفسَهُم بسوءِ العذابِ

أفادَ تقديمُ شِبهِ الجملةِ مِنَ الجارّ والمجرور ﴿لَهُم﴾ على قوله تعالى: ﴿سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ﴾ قصْرَ سوءِ الحسابِ عليهم، واختصاصَه بهم، وإخراجَ أهلِ الحقِّ منه، بحيث لا ينالُهُم منه شيءٌ.

تَعْريفُ السّوءِ بالإضافةِ:

أبرزَ المَوْصوفَ؛ ليحملَهُم على الارتِداعِ

عَرَّفَ السّوءَ بالإضافة فقال: ﴿سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ﴾، وهو من إضافةِ الصّفةِ إلى الموصوفِ؛ إبرازًا للموصوف، وهو ﴿ٱلْحِسَابِ﴾، لعلَّه أن يُحدثَ فيهم هزّةً فَيرتدِعوا. والمُرادُ بـ ﴿سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ﴾ ما يَحُفُّ به "من إغلاظٍ وإهانَةٍ للمُحاسَبِ. وأمّا أصلُ الحسابِ فهو حَسَنٌ؛ لأنّه عَدلٌ"[2] ومن صوَر سوءِ الحسابِ المناقشةُ فيه، والسّؤالُ عن النّقير والقِطمير، وما يُصاحبُهُ من تقريعٍ وتوبيخٍ، ويُشيرُ إليه قولُه ﷺ: «مَنْ نوقِشَ الحِسابَ عُذِّبَ»[3].

إيثارُ لفْظِ ﴿ٱلْحِسَابِ﴾ دونَ (العقابِ والعذابِ):

الحِسابُ هو العَدْلُ، وقد لا يَقتضي عِقابًا

أوثِرَ التّعبيرُ بـ ﴿ٱلْحِسَابِ﴾ دون العقابِ في قوله تعالى: ﴿سُوٓءُ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 6/123.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 6/123.
(3) البخاري، صحيح البخاريّ، الحديث رقم: (6536).

ٱلْحِسَابِ﴾؛ لأنّ المقصودَ بسوء الحسابِ، ما يسوءُ الإنسانَ، مُتزامِنًا مع الحساب، وليس شرطًا أن يكونَ ما يسوءُ عقابًا، فقد يسوءُ الإنسانَ، ما لم يبلُغْهُ من مراتبَ منَ الكمال، كان يَطمحُ في الوصول إليها، وإنْ كانَت تُعَدُّ عند غيرِه - ممّن لم يكنْ له نفسُ طموحِه - منَ المَكرماتِ.

فائِدةُ التّذْييلِ بجملةِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ سُوٓءُ ٱلۡحِسَابِ﴾:

قابَلَ تمنّيهُمُ الافتداءَ، بتَثْبيتِ سوءِ عذابِهم

جملةُ التّذييل ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ سُوٓءُ ٱلۡحِسَابِ﴾ مُقرِّرةٌ لمفهوم ما قبلَها من عدمِ خلاصِهم من سوء العذابِ، لو افتدَوا به، ومُؤكِّدةٌ له[1] ومُبرِزةٌ عسيرَ مآلِهم؛ وشنيعَ مصيرِهم؛ إذ قوبِلَت تَفديتُهُم أنفسَهُم بما في الأرض - لو كانت ملكَهم - بسوء الحسابِ.

دَلالةُ تَكرارِ العطْفِ بحرفِ (الواو) في الجُملِ الثّلاثِ:

حيازتُهُم لأنواعِ العذابِ بالجمْعِ والتّزامُنِ، لا بالتّعاقُبِ

دلَّ العطفُ بالواو - وهي لمُطلَق الجمع - بين الجُملِ الثّلاثِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ سُوٓءُ ٱلۡحِسَابِ وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ﴾ على حيازتِهم لأنواعِ العذابِ الثّلاثةِ المذكورةِ. ونصّ الرّازيُّ على عذابٍ رابعٍ، هو المفهومُ من قوله تعالى: ﴿لَوۡ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا وَمِثۡلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفۡتَدَوۡاْ بِهِۦٓۚ﴾[2].

عَطْفُ الإنشاءِ على الإخبارِ في جملةِ ﴿وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ﴾:

بئسَ المآلُ مآلُ مَن يُفْضي إلى النّارِ، وبئسَ القرارُ

فيما يخصُّ الجملةَ الثّالثةَ ﴿وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ﴾ فإنّها معطوفةٌ بالواو، وذلك على رأيِ مَن يرى جوازَ عطفِ الإنشاء على الخبر، أمّا على رأيِ مَن لا يجيزُه، وهُم أكثرُ البيانيّين، فإنّ الواوَ تكونُ للحال؛ والمعنى: بيانُ مآلِ حالِهم، بأنّه بئسَ المِهادُ.

إضافةُ المَأوَى إليهم:

طولُ الصُّحبةِ والمُلازَمةِ، هي مُسوِّغُ الإضافةِ

معنى قوله تعالى: ﴿وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ﴾؛ أي: مكانُهم ودارُهم،

(1) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 10/491.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 19/31.

فالمَأوَى اسمُ مكانٍ، وإضافةُ هذا المكان إليهم دلالةٌ على طول المُلازَمةِ له، بل دوامِها؛ بوصْفِها مأواهم، ومحلَّ استقرارِهم.

إيثارُ لفْظِ ﴿جَهَنَّمُ﴾ على (النّار):

الجمْعُ بين التّعذيبِ بالألم، والتّعذيبِ بالتَّجهُّمِ

في تفسير عربيّة لفْظِ (جهنّم) يُحتملُ أنّه مُشتَقٌّ منَ الجهم أو الجهومة، وهو الشّيءُ المخوفُ العابسُ الكريهُ[1].

وعندئذٍ يكونُ ما يحملُه لفظُ ﴿جَهَنَّمُ﴾ من معنى الكراهية والبُغض والخوف هو مُسوِّغَ اختيارِهِ هنا؛ فلكونِهم كرهوا الاستجابةَ لربّهم، يعاقِبُهُم اللّه في جهنّمَ الّتي يحملُ اسمُها المعاني الموصوفة المذكورة جزاءً وفاقًا.

بَلاغةُ التَّعبيرِ بفعْلِ الذّمِّ ﴿وَبِئْسَ﴾:

إردافُ الذّمِّ بسوءِ المصيرِ، مَسلكٌ في التّنبيهِ والتّحذيرِ

الفعلُ ﴿وَبِئْسَ﴾ وُضِعَ للدّلالة على الذّمِّ، ويقابلُه (نِعمَ) الدّالُّ على المَدح، وهو فعلٌ جامدٌ غيرُ مُشتقٍّ، لا يدخلُه التّصريفُ[2]، وأصلُهُ منَ البؤس[3] وهو يعبِّرُ هنا عنِ الذّمّ، وقُبحِ المآلِ، وشدّتِهِ، ومَشقّتِهِ.

تَوْجيهُ الإيجازِ بحذْفِ المَخصوصِ بالذّمِّ:

الحذْفُ اخْتِصارًا يكونُ بتقدُّمِ ذِكْرِ ما يدلُّ على المَحذوفِ

المخصوصُ بالذّمِّ محذوفٌ، وحذفُه يكونُ للاختصار، وحَذَفَ المخصوصَ بالذّمّ مُكتفيًا بالمذكورِ لورودِ ما يدلُّ عليه، وهو جهنّمُ؛ أي: بئسَ المِهادُ جهنّمُ[4].

إيثارُ لفْظِ المِهادِ مُعرَّفًا في السّياقِ الحكيمِ:

التّهكُّمُ بالمُعذَّبين، بتَسْمية جهنّمَ مِهادًا

المِهادُ هو ما يُمهَّدُ من فراشٍ لأجل النّوم عليه، ومنه مَهدُ الطّفلِ. و(أل) التّعريفيّةُ فيه للعهدِ، والمعهودُ معروفٌ لكونهِ مذكورًا، وهو ﴿جَهَنَّمُ﴾، ومن أغراضِ ذكرِه اسمًا لِجهنَّمَ وتعريفِه: التّهكُّمُ؛ لأنّ

(1) الشّعراوي، تفسير الشّعراوي: 7/4138.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/272، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 10/326، والشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 7/4138.

(3) السّيوطيّ، الإتقان: 2/221.

(4) الخفاجيّ، عناية القاضي: 5/233.

العُصاةَ يُلقَونَ فيها فَتُصادِفُ جنوبَهُم وظهورَهُم[1] وعندئذٍ لن يستطيعَ المُلقَى في جهنّمَ أن يتصرَّفَ لحظةَ وضْعِه في النّار، كما لا يستطيعُ الطّفلُ الوليدُ أن يتصرَّفَ في مِهادِه[2].

تَوْجيهُ المُتشابِهات في ﴿وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾:

في تنوُّعِ التّعبيرِ استِقْصاءٌ لألوانِ العذاب، وإنذارٌ بِعِظَمِها

﴿وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾، ﴿وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ﴾، ﴿وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ هذه ثلاثةُ أوصافٍ لجهنّمَ مسبوقةٌ بفعل الذّمِّ (بئس)، وكلُّها تدُلُّ على سوء حالِ أهلِ النّار، والاختلافُ بينَها هو من باب التَّفنُّنِ، واستقصاءِ أحوالِ العذابِ، وعيدًا وإنذارًا للكافرين، وتفصيلُ ذلك:

أنّ التّعبيرَ بـ ﴿وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ قد وردَ في عددٍ منَ الآيات، منها قولُه سبحانه: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ ۚ فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ ۖ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٢٠٦﴾﴾ [البقرة: 206]، وقولُه: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٢﴾﴾ [آل عمران: 12]، وقولُه: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾.

والمِهادُ هو ما يُمهَّدُ من فراشٍ لأجل النّوم عليه، ومنه مهدُ الطّفلِ. والمعنى: بئسَ المِهادُ جهنّمُ، وهو دلالةٌ على العذاب الّذي يأتيهم من تحتِهم؛ ليكونوا مَشْمولين بالعذاب من كلِّ جهاتِهم، ومن أغراضِ ذكرِه اسمًا لجهنّم وتعريفِه التّهكُّمُ؛ لأنّ العُصاةَ يُلقَونَ فيها فَتُصادِفُ جنوبَهُم وظهورَهُم[3].

وأمّا القرارُ فالمُرادُ به المَقرُّ الّذي يكونُ فيه المُستقرُّ، على معنى بئسَ القرارُ مَقرُّهم، وهو تعبيرٌ عن طول المَقامِ السَّيّىءِ. وقد وردَ في قوله تعالى: ﴿۞أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٢٩﴾﴾ [إبراهيم: 28 - 29] وفي قوله:

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/272.
(2) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 12/7274.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/272.

﴿هَٰذَا فَوۡجٞ مُّقۡتَحِمٞ مَّعَكُمۡۖ لَا مَرۡحَبَۢا بِهِمۡۚ إِنَّهُمۡ صَالُواْ ٱلنَّارِ ٥٩ قَالُواْ بَلۡ أَنتُمۡ لَا مَرۡحَبَۢا بِكُمۡۖ أَنتُمۡ قَدَّمۡتُمُوهُ لَنَاۖ فَبِئۡسَ ٱلۡقَرَارُ ٦٠﴾ [ص: 59 - 60]، وكأنّه أرادَ أن يُؤكِّدَ على وصْفِ دارِ البَوارِ والهلاكِ، بكونِها أيضًا بئسَ المَقرُّ، لزيادةِ تبئيسِهم لعلَّهم يَرجعون.

وأمّا المصيرُ فهو المَرجِعُ والمَآلُ، والتّعبيرُ بـ ﴿وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ١٢٦﴾ [البقرة: 126] كثيرٌ في الكتاب العزيز؛ والمعنى: بئسَ المصيرُ مصيرُهُم.

إذن هذا التّنوُّعُ وذاك التَّفنُّنُ في ذمِّ جهنّمَ، المقصودُ منه التّهديدُ والوعيدُ والإنذارُ، عساهُم أن يَرتدعوا ويثوبوا إلى رشادِهم.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيّةُ:

الحسابُ والعقابُ والعذابُ:

الحسابُ العدلُ في المُحاسَبة، وكلُّ عقابٍ عذابٌ، وليسَ كلُّ عذابٍ عقابًا

الحسابُ: في الأصل العدُّ، ثمّ أُطلِقَ على عدِّ الأشياءِ الّتي يُرادُ الجزاءُ عليها أو قضاؤُها، فصارَ الحسابُ يُطلَقُ على الوفاء بالحقِّ. يُقالُ: حاسبَه؛ أي: كافأه أو دفعَ إليه حقَّه، ومنه سُمّي يومُ القيامة يومَ الحساب[1] وعلى هذا، فهي تسميّةٌ دالّةٌ على العدل والوفاء بالحقِّ، وهو اسمُ مدحٍ. وهذا هو الفرقُ بينَه وبينَ كُلٍّ منَ العقابِ والعذابِ؛ أنّه يعني المحاسبةَ بالعدل الّتي قد يَؤولُ معَها الأمرُ إلى العقابِ.

وأمّا عنِ الفرق بين العقابِ والعذابِ فهو أنّ العقابَ يُنبِىءُ عَنِ استِحقاقٍ، وسُمّي بذلك؛ لأنّ الفاعِلَ يستَحقُّهُ عَقيبَ فعلِه، أمّا العذابُ فيجوزُ أن يكونَ مُستَحَقًّا وغيرَ مُستحَقٍّ[2] ومعنى هذا أنّ بينَ العقاب والعذاب – من حيث اللّغةُ – عمومًا وخصوصًا مُطلَقًا، فكلُّ عقابٍ عذابٌ، وليسَ كلُّ عذابٍ عقابًا. أمّا عن عذاب اللّه في الآخرة فلا فرقَ بينَه وبين العقابِ؛ لأنّ اللّه تعالى لا يُعذِّبُ إلّا عنِ استحقاقٍ،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/249.
(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 239.

ولِتضمُّنِ دلالةِ الحسابِ العدلَ والوفاءَ بالحقّ ناسبَ اصطفاءَه في الآية للدّلالةِ على مُجازاتِهم بصنيعِهم، وهو أشدُّ وقعًا على المُعذَّب؛ فلسانُ حاله: ﴿يَٰلَيۡتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٢٧﴾ [الأنعام: 27].

المَأوَى والمَنزِلُ والمَثوى:

المَأوَى دالٌّ على التَّجمُّع، والمَثوى على عدَمِه، والمَنزِلُ دالٌّ على الاستقرارِ

المَأوَى: هو كلُّ مكانٍ يأوي إليه شيءٌ ليلًا أو نهارًا. ومنه قولُه تعالى: ﴿قَالَ سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٖ يَعۡصِمُنِي مِنَ ٱلۡمَآءِۚ﴾، ومن أصولِه الدّالِّ عليها التَّجَمُّعُ، كما هو مَلحوظٌ في قوله تعالى: ﴿إِذۡ أَوَى ٱلۡفِتۡيَةُ إِلَى ٱلۡكَهۡفِ﴾ [الكهف: 10]، وقال: ﴿وَءَاوَيۡنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبۡوَةٖ﴾ [المؤمنون: 50]، قالَ الخليلُ: التَّأوّي التَّجَمُّعُ، يُقالُ: تَأوَّتِ الطَّيرُ: إذا انضَمَّ بَعضُها إلى بَعضٍ[1] وهو ضَمٌّ مع ضعفٍ ما - كما في الإيواءِ للنُّصرة والحياطةِ، وكما في تأوّي الجُرحِ، فإنّ تقاربَه للبرءِ، يتمثَّلُ في تضامِّه. وكما في الأوي إلى المَنزِل، وكذا إيواءُ الرّجل، وكذا المَأوَى المَنزِل، فكلُّ ذلك لا يُستعمَلُ فيه (أوَى) إلّا لضعفٍ ما - كالحاجةِ إلى الحماية من عدوّ أو مَخوفٍ أو جوٍّ يضرُّ التّعرُّضُ له، وكالحاجة إلى الرّاحة[2]، وقَد أُطلِقَ المَأوَى في التَّنزيلِ على الجَنَّةِ، وهو على الأصلِ في استِعمالِه، وعلى نارِ الجَحيم، وهو مِن بابِ التَّهكُّم، ونُكتَتُهُ بَيانُ أنَّ مَن كانَتِ النّارُ مَأواهُ لا يَكونُ لَهُ مَلجأٌ يَنضوي إليهِ، ولا مَأمَنٌ يَعتَصِمُ به[3] وهو علّةُ اختيارِه في الآية دونَ غيرِه منَ الألفاظ المُشابِهة له.

المَثوَى: الثَّواء: الإقامَةُ مع الاستِقرارِ، قال ﷻ: ﴿وَمَا كُنتَ ثَاوِيٗا فِيٓ أَهۡلِ مَدۡيَنَ﴾ [القَصص: 45]، وقال: ﴿أَلَيۡسَ فِي جَهَنَّمَ مَثۡوٗى لِّلۡمُتَكَبِّرِينَ ٦٠﴾ [الزّمر: 60] وقال: ﴿فَٱلنَّارُ مَثۡوٗى لَّهُمۡۖ﴾ [فصّلت: 24]، وقال: ﴿ٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ

(1) الخليل، العين: (أوى).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (أوو - أوى).
(3) رضا، تفسير المنار: 10/93.

جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾﴾ [الزّمر: 72]، وقال: ﴿ٱلنَّارُ مَثۡوَىٰكُمۡ خَٰلِدِينَ فِيهَآ﴾ [الأنعام: 128][1]، فهو مِن ثَوَى بالمكان إذا أقامَ به إقامةَ سُكنى أو إطالةَ مُكثٍ، وقد بيّنَ الثّواءَ بالخلود بقوله: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ﴾ [الأنعام: 128][2] ونَلحظُ أنّ القرآنَ قد خصَّه بأهل النّار، ولم يذكرْهُ مع أهل الجنّةِ. فسائرُ ما في القرآن منَ التّركيب هو (مَثوَى) بمعنى مكانِ الثّواءِ والإقامةِ (جهنّم) للكفّار حسب السّياق[3].

والمَنزِلُ - بكسر الزّاي -: الدّارُ مَوضِعُ النّزول[4] والنُّزُلُ - بضمَّتين -: ما يُعَدُّ للنّزيل والضّيف مِنَ القِرى. وإطلاقُ اسمِ النُّزُلِ على العذاب استعارةٌ، علاقتُها التَّهكُّمُ، كقول عمرو بن كلثوم:

قَرَيناكُم فَعَجَّلنا قِراكُم *** قُبَيلَ الصُّبحِ مِرداةً طَحونا[5]

والدّارُ: المَنزِلُ اعتبارًا بدَوَرانِها الّذي لها بالحائطِ، ويُقالُ لكُلٍّ مِنَ الدّنيا والآخرة دارٌ[6] وأطلقَ على النّار بإضافتِها إلى صفتِها في قولِه سبحانه: ﴿دَارَ ٱلۡبَوَارِ ﴿٢٨﴾﴾ [إبراهيم: 28][7]، أمّا الجَنّةُ فقد أطلقَ عليها ﴿ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾﴾ [الرّعد: 24] مُطلَقًا دونَ الحاجةِ إلى وصفٍ في قوله سبحانه: ﴿فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾﴾ [الرّعد: 24]، وأحيانًا مع وصفٍ حسبَ السّياق، كما في قولِه تعالى: ﴿۞لَهُمۡ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمۡۖ﴾ [الأنعام: 127].

وبعدَ هذا العرض، نرصدُ الفروقَ بين أربعتِها، مع تأكيدِ التّقارُبِ الدّلاليِّ بينَها؛ لكونِها جميعًا دالّةً على الإقامة بالمكان مع طولِ مُكثٍ.

أمّا لفظُ المَأوَى فملحوظٌ في دلالتِه معنى التَّجمُّع، وهو ما يميّزُهُ من بقيتِها، سواءٌ كان هذا التَّجمُّعُ في الدّنيا كتجمُّعِ أهلِ الكهف، وكما يُطلَقُ الآنَ على التَّجمُّعِ السّكانيِّ لِمَن فقدوا ديارَهُم: (منازل الإيواء)، أو كانَ هذا التَّجمُّعُ في الآخرة، كتجمُّعِ أهلِ الجنّةِ فيها للأُنس ﴿جَنَّٰتُ ٱلۡمَأۡوَىٰ﴾ [السّجدة: 19]، أو تجمُّعِ أهل النّارِ ﴿وَمَأۡوَىٰهُ ٱلنَّارُۖ﴾ [المائدة: 72].

(1) الرّاغب، المفردات: (ثوى).
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/70.
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (ثوى).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (نزل).
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/45. وينظر: ديوان عمرو بن كلثوم، ص: 73.
(6) الرّاغب، المفردات: (دار).
(7) يُنظر قول ابن عاشور في التّحرير والتّنوير حول التعبير بالدّار لأهل النّار: 14/140.

وأمّا لفظُ المَثوَى فملحوظٌ فيه أنّ القرآنَ لم يَستعملْهُ إلّا في حقّ أهلِ النّارِ، ولم يُعبِّرْ به عن أهل الجنّةِ، وقد ألمَحَ ابنُ عاشور إلى دلالة التّعبيرِ به، وهو أنّ أهلَ النّارِ "مُتراصّونَ في النّار، وهُم في مَثوَى؛ أي: مُحلّ ثواء"[1]، ففيه معنى التّحقيرِ لهم.

أمّا المَنزِلُ فهو الدّارُ، والدّارُ هي محلُّ الاطمئنانِ والاستقرارِ، ولذا فإنّ التّعبيرَ به لا يخرجُ عن هذا المعنى، إلّا مقصودًا به غرضٌ آخرُ كالتَّهكُّم ونحوِه، وهو المَفهومُ منَ التّعبير به عن جهنّمَ بكونِها نُزلًا للكافرين، مع أنّ التّعبيرَ به لا يكونُ إلّا في معنى الإكرامِ؛ إذ أصلُهُ: إعدادُ القِرى للضّيف.

ومثلُ المَنزِلِ التّعبيرُ بالدّار، فالدّارُ مَحلُّ الاستقرارِ والاطْمئنانِ، ومِن ثَمّ أطلقَ على الجنّة لفظَ (الدّار)، بخلاف جهنّمَ، فما أُطلِقَ عليها لفظُ الدّارِ إلّا موصوفةً بما يدُلُّ على سوءِ ما فيها، كدار البوارِ.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/140.

﴿۞أَفَمَن يَعۡلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ كَمَنۡ هُوَ أَعۡمَىٰٓۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ١٩﴾ [الرّعد: 19]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

العلاقة بين من لم يستجيبوا لربّهم، ومن يفتقدون ميزانَ العدل في الحُكم على النّاس

لمّا قَسّمتِ الآيةُ السّابقة النّاسَ إلى مستجيبين وغيرِ مستجيبين، ووعدت كلًّا بما يستحِقُّه؛ فَلِلمُستجيبين الحُسنى، وهي الجنّة، ولغيرهم العذابُ الشَّديد الّذي يستأهل أن يَفْتَدوا أنفسَهم منه بكلّ ما في الأرض، وأكثر منه لو كانوا يملِكونه، ولمّا كان ذلك كذلك، لفتتِ الآيةُ هنا إلى السَّبب في الاستجابة وعدمها، فبيَّنت أنَّ إبصارَ الحقّ، ورؤيتَه حقًّا على وجهه الذي هو عليه، ثمّ الانتفاعَ به واتّباعَه كان سببَ الاستجابة، وأنَّ العمى عنه وعدمَ رؤيتِه حقًّا كما هو، كان سببًا في الزَّيغ عنه وعدمِ الاستجابة له، وهذا حالُ الآخرين الّذي أُنكر عليهم مَن سوَّى بين مَن يعلمُ الحقَّ المُنزَّلَ مِنَ اللّه تعالى ويعملُ به، وبين مَن لا يعلمُه، أو يعلمُه ولكنّه يعمل خِلافَه، كما أُنكِر سابقًا على مَن سوَّى بينَ الأعمى والبصير، وسَوَّى بينَ الحَقّ والباطل.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَعۡلَمُ﴾: العلم: إدراكُ الشّيء بحقيقته، ومعرفتُه على ما هو عليه. وأصلُ عَلِمَ يَدُلُّ على أثَرٍ بِالشَّيْءِ يَتَمَيَّزُ بِهِ عَنْ غَيْرِهِ، ومنه العَلامَةُ. والعِلْم نوعان: نظريٌّ وعمليٌّ؛ فالنّظريّ ما إذا عُلِمَ فقد كَمُل، نحوُ العِلْم بموجودات العالم، والعمليُّ ما لا يتمُّ إلّا بأن يُعمَل، كالعِلْم بالعبادات[1]. ومعنى العِلْم في الآية: الاعتقادُ الجازم المُحَقّق للإيمان الكامل في الحَقّ المُنزّل على النّبيّ ﷺ.

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (علم).

2) ﴿ٱلۡحَقُّ﴾: نقيضُ الباطل. وأصلُ (حقّ) يَدُلُّ على إحْكام الشَّيْءِ وصِحَّتِهِ. ثُمَّ يَرْجِعُ كُلُّ فَرْعٍ إلَيْهِ، بِجَوْدَةِ الاسْتِخْراجِ وحُسْنِ التَّلْفيقِ. ومنه يُقالُ: حَقَّ الشَّيْءُ وجَبَ وثبت[1]. ومِن معانيه: الاعتقادُ للشّيء المُطابقُ لما عليه ذلك الشّيء في نفسه، كقولنا: اعتقادُ فلانٍ في البعث والثّواب والعقاب والجنّة والنّار حَقّ[2]. والمرادُ بـ ﴿ٱلۡحَقُّ﴾ في الآية هو ما يرجع إلى هذا المعنى، أي: الاعتقاد الجازم، واليقين الكامل، المُحَقِّقُ للإيمان بالله ورسولِه والقرآن.

3) ﴿يَتَذَكَّرُ﴾: الذّكْر خِلافُ النّسيان، وهذا أصله، تقول: ذَكَرْتُ الشَّيْءَ، خِلافُ نَسيتُهُ، ثُمَّ حُمِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ بِاللِّسانِ. ويَقولونَ: اجْعَلْهُ مِنْكَ على ذُكْرٍ، بِضَمِّ الذّالِ وبكسرها، أيْ: لا تَنْسَهُ[3]. والذِّكر: هيئةٌ للنّفس، بها يمكن للإنسان أن يحفظ ما يقتنيه مِنَ المعرفة[4]. ومن خلال هذا يستدعي هذا المحفوظَ مِنَ الذّاكرة وقتَ الحاجة. والمقصودُ بالذّكر هنا في قوله: ﴿يَتَذَكَّرُ﴾ أحدُ لوازِمه، وهو العِلْم والعِظَةُ والاعتبار.

4) ﴿أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾: الألباب: جمع لُبّ؛ وهو العقلُ الزّاكي، وأصْل اللُّبِّ: الخُلوصُ والجَوْدةُ، والشَّيءُ المُنتقَى[5]، واللُّبُّ مِن كلّ شيءٍ: هو الخالص منه، وسُمّي العقلُ لُبًّا؛ لكونه خالصَ ما في الإنسان مِن قوّةٍ، كاللّباب مِنَ الشّيء[6].

المَعْنى الإجْماليّ:

تستنكر الآيةُ افتقادَ الميزانِ العادل في الحُكم على النّاس، فهلِ

لا يستوي عند الله عالم مُتفرّد، وجاهل مُتمرّد

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حقَّ).
(2) الرّاغب، المفردات: (حقَّ).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ذكر).
(4) الرّاغب، المفردات: (ذكر).
(5) السّجستانيّ، غريب القرآن، ص: 51، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (لبب).
(6) الرّاغب، المفردات: (لبب).

الّذي يستخدم عقلَه فيما خُلِقَ لأجله مِنَ الانتفاع به، فيعلمُ أنّ ما جاءك - أيّها الرّسول - مِن عند اللّه هو الحَقّ، فيؤمنُ به، كَمَن يغفُل عن حكمة اللّه في مِنْحَه آلةِ العقل؛ فيصبحُ كالأعمى عنِ الحَقّ، الذي لم يرَه أصلًا، فضلًا عن أن يؤمنَ به؟! لا يستويان. فالحال أنَّه لا يتّعِظُ، ولا يُدْرِكُ الأشياءَ على ما هي عليه إلّا أصحابُ العقولِ الزّاكيَة، التي تُحْسِن النَّظر، فتقودُ أصحابَها إلى الإيمان.

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيّ:

دلالة الاستفهام في ﴿أَفَمَن﴾:

الاستفهام هنا إنكارٌ على مَن يُساوون بين مُبْصِرِ الحَقّ ومُتّبِعِه، ومَن عميَ عنه، وتبكيتٌ لهم؛ إذ لا يستقيم في نظر العقلاء أولي الألباب هذان الفريقان؛ الذين يعلمون ويعملون، والّذين يتعامَون عنِ الحَقّ ولا يعملون به، أبَعْدَ هذا التَّفاوتِ الظّاهِرِ بينَ فريقي الاستجابة وعدمِها، وبعد ضَرْب الأمثال في نفي المماثلة بينَهما، يمكن لعاقلٍ أن يدّعيَ هذه المماثلةَ؟! وفيه ما فيه مِن إنكار هذه التّسوية. "كأنَّه قيل: أبَعْدَ ما بُيّن حالُ كُلٍّ مِنَ الفريقين ومآلُهما، يُتَوهَّم المماثلةُ بينَهما؟!"[1].

التّسويّة بين العالِم والجَهول، انتقاص مِن قدر العالِم وغُلول

دلالة الفاء في قوله: ﴿أَفَمَن﴾:

في الفاء وجوه:

الأوّل: أنّها استئنافيّة، وجملةُ الموصول مستأنَفَة[2]، ومقصودُ الاستئناف: تقريرُ ما ورد قبلَه في قوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰۚ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُۥ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْاْ بِهِۦٓۚ﴾ [الرّعد: 18] مِنَ التّمييز وعدم التّسوية في الجزاء بينَ المستجيبين للّه، ومَن لم يستجيبوا له. ثمَّ سَوْق صورةٍ أُخرى ودليلٍ

تنوّع دلالاتِ حروف المعاني دليلٌ على سعة العربيّة وغناها

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/16.

(2) الخرّاط، المجتبى من مشكل إعراب القرآن: 2/530، والدّعّاس، إعراب القرآن الكريم: 2/116.

آخَر على عدم جواز التّسوية - في حُكم العقل - بينَ المستجيبين وغيرهم، وهي صورةُ عدمِ التّسوية كذلك بينَ مَنِ انتفعوا بعقولهم التّي منحهمُ اللّه إيّاها، فعَلِموا الحقَّ وأذعنوا لسلطانه، وبين مَن أهملوها أو عاندوها وجحدوا نعمةَ اللّه فيها.

والثّاني: أنّها فاء العطف، والنّيّةُ في همزة الاستفهام التّأخيرُ عنها، كما هو مذهب الجمهور، ومذهبُ الزّمخشريّ فيها أنّه يجعلُها عاطفةً على محذوف مُقدّر بعد الهمزة، وتقديره هنا: أيستوي المؤمن والكافر؟ ﴿أَفَمَن يَعۡلَمُ﴾[1]. وقيل: إنّه لا يمكن تقديرُ فعلٍ هنا، وفيه حُجّةٌ على ضعف مذهبه[2].

والثّالث: أنّها فاءُ التّفريع[3] الدّالّةُ على كَوْن ما بعدَها كلامًا مُتفرّعًا على ما قبلَها، وما قبلَها هي جملة: ﴿لِلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِرَبِّهِمُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ وَٱلَّذِينَ لَمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَهُۥ لَوۡ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا وَمِثۡلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفۡتَدَوۡاْ بِهِۦٓۚ﴾ [الرّعد: 18]، فهي مُتفرّعة عليها.

سرّ اختيار العلم دون غيره:

وإنّما عبّر بالعلم في قوله: ﴿أَفَمَن يَعۡلَمُ﴾ دون التّعبير بالرّؤية أو النّظر - مثلًا على قيمتهما واعتبارهما أيضًا - ؛ لأنّ المرادَ العِلْمُ الجامع بينَ النّظر الصّحيح والاعتبار به، المُفضي إلى اليقين القلبيّ، أي: حتّى يستقرَّ علمًا يقينيًّا في القلب، يتحقّق به الإيمانُ.

خير العلم ما كان جامعًا بين النّظر العقليّ، واليقين القلبيّ

(1) الدّرويش، إعراب القرآن وبيانه: 5/115. وتقديم همزة الاستفهام على الفاء العاطفة إنّما النّية فيه تأخيرها عنَ الفاء في قول الجمهور - عدا الزّمخشريّ -، لأنّ تقديمها مخالف للأصل في تقديم حرف العطف على الاستفهام، كما في قوله تعالى: ﴿وَكَيۡفَ تَكۡفُرُونَ وَأَنتُمۡ تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمۡ رَسُولُهُۥۗ﴾ [آل عمران: 101]، وقولِه تعالى: ﴿فَأَيۡنَ تَذۡهَبُونَ ٢٦﴾ [التكوير: 26]، وذلك أنّ أدوات الاستفهام هي جزء مِن جملة الاستفهام، والعاطف لا يُقدّم عليه جزءٌ من المعطوف، وإنّما خُولِف هذا في الهمزة، لأنّها أصل أدوات الاستفهام، فكان تقديمُها - منويًّا بها التّأخير - تنبيهًا على أنّها الأصل في الاستفهام، وأنّ لها صدر الكلام. ينظر: الزّركشيّ، البرهان في علوم القرآن: 2/350. وللاستزادة: سيبويه، الكتاب: 3/187، والسّمين الحلبي، الدّرّ المصون: 1/328.

(2) عضيمة، دراسات لأسلوب القرآن: 2/616.

(3) الشّهاب الخفاجيّ، عناية القاضي: 5/233، ومحيي زاده، حاشية زاده على تفسير البيضاويّ: 5/117، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/123.

دلالة المضارع في قوله: ﴿يَعۡلَمُ﴾:

الحثّ على النّظر العلميّ، من مأمورات القرآن المتُجدّدة باطّراد

يهدف التّعبير بالمضارع هنا ﴿يَعۡلَمُ﴾ إلى الإخبار عن أولي الألباب، بأنّهم مستمرّون على ما هم عليه مِن نافع العِلْم، ثمّ إلى تحفيزهم وحَثّ غيرهم على مواصلة البحث والنّظر، الّذي يساعد على تجدّد هذا العِلْم النّافع.

دلالة التّعبير بـ (ما) في قوله: ﴿أَنَّمَآ أُنزِلَ﴾:

اشتمالُ المُنزَل على الكتاب الشّريف والهَدي النّبويّ المُنيف

ولمّا كان في (ما) مِنَ الدّلالة على العموم والشّمول وعدم الاختصاص، بخلاف (الّذي)، فقد أوثِرت هنا؛ ليَشْمَلَ التّعبيرُ بها كلّ ما أنزلَه اللّه ﷻ على الرّسول مِنَ الحَقّ الموْحَى به إليه؛ قرآنًا كان أو سُنّةً. وفي هذا تنبيهٌ لمَن يتجاوزون في حَقّ سنّة الرّسول ﷺ، أو لا يُقَدّرونها قَدْرَها، وتحذيرٌ لهم بأنّهم على خَطَر عظيم؛ لأنّهم يُهمِلون بعضَ ما أنزل اللّه على رسوله ﷺ.

دلالة التّعبير بالإنزال:

تفخيم شأن المُنزَّل وتعظيمُه، من فصيح البيان

دلّ التّعبيرُ بالإنزال في قوله: ﴿أَنَّمَآ أُنزِلَ﴾ مبنيًّا للمفعول على تفخيم شأن المُنزَّل - وهو القرآن -، وهو إنّما اكتسب فخامتَه وعَظَمتَه مِن عَظَمَة مُنزِّله سبحانَه، قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ﴾ [الحجر: 9] ثُمّ لِما يحمله من دلائل على صدق المُنزَّل عليه ﷺ؛ إذ هو معجزتُه المُفحِمةُ الباقيةُ في جميع الأجيال، حتّى قيام السّاعة، ثمّ هو عظيم - أيضًا - لعَظَمَة ما يحملُه مِن هدايات وأحكام.

والتّعبير بالإنزال فيه دلالةٌ على عموم المُنزَّل على الرّسول ﷺ؛ مِنَ القرآن سواء منه السّورة التي نزلت مُفَرّقة، أو التي نزلت مَرّة واحدةً؛ كسورة الأنعام، فالتّعبير بالإنزال أعمّ مِنَ التّعبير بغيره، كالتّنزيل مثلًا[1].

(1) الرّاغب، المفردات: (نزل).

وتتنوّعُ أساليب القرآن الكريم المُصرّحة بهذا الإنزال مِنَ اللّه بِطُرق في عديدة في التّعبير متنوّعة، ما بين إنزال وتنزيل، وتضعيفٍ وتخفيف، كما في ﴿نَزَّلَ﴾ [آل عمران: 3] و﴿نَزَلَ﴾ [الشعراء: 193]؛ للدّلالة على هذا الإنزال بأساليب شتّى، وبطرقٍ مِنَ الدّلالة متنوّعة.

دلالة التّعدي بحرف الجرّ (إلى):

في القرآن من وسائل الإقناع، ما يكفي طالبَ الهداية للانتفاع

عُدّي الفعلُ ﴿أُنزِلَ﴾ بحرف الجَرّ (إلى) الدّالِّ على انتهاء الغاية، دونَ حرفِ الجَرّ (على) الدّالِّ على الاستعلاء، بما يجعلُ (إلى) عند النّظر للوَهْلة الأولى، أوْلى لمناسبتها للإنزال؛ لأنّ الغرضَ هنا هو مُجَرّد الإخبار بإنزال القرآن على الرّسول ﷺ مِن ربّه، إخبارًا يكفي في تحقيق الإيمان به، ويُقْنِعُ مَن يُعْمِل عقلَهُ، ليَعْلَمَ بأنّهُ الحَقّ المُنزَّل. وهذا الغرضُ تكفي فيه (إلى)، بخلاف ما لو كان الغرضُ هو الافتخارُ والتّشريفُ، أوِ الاحتجاجُ بهذا الإنزال، فإنّه قد تُساعِد في تحقيقه (على)، بما تَدلُّ عليه مِنَ الاستعلاء.

وأيضًا: في إيثار التّعبير بـ ﴿إِلَيْكَ﴾ في هذا الموضع، وفي غيره من المواضع المُناظِرة، دونَ ﴿عَلَيْكَ﴾ [آل عمران: 7] الوارد في آياتٍ أُخرى، إشارةٌ إلى ثِقَل المسؤوليَّة، وشِدّة المُهِمّة والتّكليف المَنوطِ به ﷺ. وفي الجملة: كُلّ مَوضِعٍ خوطِب فيه النَّبي ﷺ بقوله: ﴿أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ﴾ [البقرة: 99] فَفيهِ تَكْليف، وإذا خوطِب بقوله: ﴿أَنزَلْنَا عَلَيْكَ﴾ [النحل: 64] فَفيهِ تَخْفيف[1].

دلالة كاف الخطاب في ﴿إِلَيْكَ﴾:

تشريفه ﷺ بتوجيه الخطاب إليه، تكريمٌ وتَجِلّةٌ

وكاف الخطاب في ﴿إِلَيْكَ﴾ للنّبيّ ﷺ، وفي الخطاب بها دلالة على شرفه ﷺ، وعُلوّ منزلتِه عند ربّه، التي استحقّ بها أهليّة الخطاب.

دلالة تقديم الجارّ والمجرور:

في تقديم الجارّ والمجرور ﴿مِن رَّبِّكَ﴾، دلالةٌ على القَصْر

(1) الخطيب الإسكافيّ، درّة التّنزيل: 1/1107، والكرمانيّ، أسرار التّكرار في القرآن، ص: 217.

والاختصاص؛ لبيان أنّ المُنزَّل عليه ﷺ، إنّما هو مِن ربّه لا غير، وهو كذلك الحقّ لا غير؛ لأنّه الكتابُ الأوحد الّذي ضمن حِفظَه مُنَزِّلُه سبحانَه، وصانه مِنَ التّغيير والتّحريف.

براءة الرّسول ﷺ، من فِريَة اختلاقِ القرآن

سرّ التّعبير بالرّبوبيّة دون لفظ الجلالة:

إيثار التَّعبير بالرَّبّ في قوله: ﴿مِن رَّبِّكَ﴾، على التّعبير بالاسم الجليل (اللّه)؛ لما أنَّ المقام مقامُ إنعامٍ وامتنانٍ على الرّسول ﷺ، بإنزال القرآن عليه، الّذي جعله اللّه تعالى له سلوةً عندما تُحيط به الشّدائدُ، ويَكْثُرُ العِناد مِنَ المُخاطَبين، كما قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾﴾ [الفرقان: 32].

القرآن نعمة ربّ العالمين، على الرّسول الأمين، وعلى أمّة المسلمين

سرّ التّعبير عن القرآن بالحقّ:

وَصْفُ القرآن بالحَقّ في قوله تعالى: ﴿أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ﴾، لدلالةٍ يقتضيها السّياق، وذلك أنّ الآية تنعي على أولئك الذين تعامَوا عن رؤية الدّلائل الظّاهرة المُفضية إلى الإيمان باللّه تعالى، ومنها هذا الكتابُ الحَقّ الأبلجُ الواضح، الذي يحمل مِنَ الهدايات والأدلّة على صدق الرّسول والرّسالة، ما لا يحتاج إلى كدٍّ نظرٍ ولا كثير بحث؛ لأنّه الحَقّ الذي لا يلتبس بغيره، فلا تَضِلّ عنه العقولُ، ولا تزيغ عنه الأبصارُ. وقد اختُصّ القرآنُ دون غيره مِنَ الكتب باسم (الحَقّ)، لكونه ثابتًا لا يناله تحريفٌ ولا تبديل، كما نال غيره مِنَ الكتب؛ ضرورةَ أنّ اللّه تعالى هو الذي ضَمِن حفظه، وجعل مِن وسائل هذا الحفظ: أن يسَّر سبلَ حفظِه في صدور النّاس، وفي سطور المصاحف، ترجمة لوعده الصّادق سبحانَه، إذ قال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾﴾ [الحِجر: 9].

القرآن هو الكتاب الحقّ، بما يحمله من دلائل الصّدق

دلالة الكاف في: ﴿كَمَنْ هُوَ﴾:

الكاف هنا للتّشبيه، ومَقْصِد التّشبيهِ: هو نفي تسوية مَن يعلم

لا يستوي مَن يعلم ويؤمن، ومَن يتعامى ويكفر

ويؤمن، بمَن يتعامى ويكفر[1]، ومِن هذا المنطلق فليس التّشبيه مقلوبًا، ومثله التّشبيه في قوله تعالى: ﴿أَفَمَن يَخۡلُقُ كَمَن لَّا يَخۡلُقُۚ﴾ [النّحل: 17]، فهو لنفي التّساوي بين الطّرفين. وقد يكون المُسَوّغ لجعل مَن هو أعمى مُشَبَّها به، والمشبَّه به أقوى في وجه الشّبه من المشبَّه كما هو معلوم؛ أنَّ المقام مقامُ ذَمٍّ لمَن تعامَوا عنِ الحَقّ، وهم في الذَّمّ أقوى، فَصَحّ التّشبيهُ على ذلك دون حاجة إلى دعوى القلب.

سرّ العلاقة بين ﴿أَنَّمَآ أُنزِلَ﴾، وقوله: ﴿وَٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ﴾:

غرض سورة الرّعد وصف القرآن بأنّه الحقّ، وإثبات ذلك

تُعتَبر هذه الآيةُ تأكيدًا لما قرّرته الآيةُ الأولى في مطلع السّورة، وهي قوله سبحانه: ﴿وَٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ﴾ [الرعد: 1]، مِن وصف القرآن بكونه الحَقّ، فهما تدلّان معًا على أنّ غرضَ السّورة والمقصودَ منها؛ هو وصْفُ المُنزَّل بأنّه الحَقّ، وإقامةُ الدّليل عليه. إذًا فبينَ الآيتين اتصالٌ ظاهرٌ في المعنى[2]، ومِن آثاره الواضحة، أنَّهما اشتركتا في صيغة التَّعبير وأسلوبه، وهو القَصْر، على معنى أنَّ القرآن هو الحَقّ لا غيرُه مِنَ الكتب، وهو قصرٌ إضافيٌّ بالنّسبة إلى كتبٍ معلومةٍ عندهم، مثل: قصّتي رُستم وإسفنديار اللّتين عرفَهما النَّضْرُ بن الحارث. أو هو قَصْرٌ ادّعائيّ، غرضُه المبالغةُ؛ لعدم الاعتداد بغيره مِنَ الكتب السّابقة، أي: هو – وحده – الحَقّ الكامل[3].

بلاغة الاستعارة:

مَن لا يرى ما يحمله القرآنُ مِنَ الحقّ، فهو كالأعمى المُطْبق

في قوله تعالى: ﴿كَمَنۡ هُوَ أَعۡمَىٰٓۚ﴾، لمّا كان الحقّ مِنَ الوضوح بمكان، بحيث لا يخفى على أحد، فقد استُعير لفظُ العَمَى لِمَن أنكر

(1) قال ابن عاشور في التحرير والتنوير: "فالكلام لنفي استواء المؤمن والكافر في صورة الاستفهام، تنبيهًا على غفلة الضالين عن عدم الاستواء، كقوله: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤۡمِنٗا كَمَن كَانَ فَاسِقٗاۚ لَّا يَسۡتَوُۥنَ ١٨﴾ [السجدة: 18].

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/264، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/123.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/79.

الحَقّ بعد ظهوره، للمُشابهة بينَه وبين مَن لا يرى شمسَ الضُّحى في الأفق، وهي طالعة تملأ الأرض ضياءً.

دلالة التّعبير بـ ﴿أَعۡمَىٰٓ﴾ دون (لا يبصر):

الوصف بالعمى أبلغ؛ لأنّ مَن لا يبصر قد لا يكون أعمى

قولُه: ﴿كَمَنۡ هُوَ أَعۡمَىٰٓ﴾، أي: كمَن لا يعلَمُ ذلك، إلّا أنَّه أُريدَ زيادةُ تقْبيحِ حالِه فعُبِّرَ عنه بالأعْمى[1]، وإيثار التّعبير بالعمى في اللّفظ المُستعار، دون التَّعبير بعدم البصر؛ لأنَّ الأوَّل أمكنُ في الدّلالة على المبالغة في التّعبير عن عدم الرُّؤية، حيثُ إنّه يدلّ على عدم الرّؤية مطلقًا؛ لفقدان حاسّة البصرِ، بخلاف مَن يوصف بعدم البصر، فلرُبما كان عدمُ إبصارِه لعارضٍ مؤقَّتٍ، أو لذُهول، أو انشغالٍ يصرف التّركيزَ للإبصار، دون أن يكون فاقدَ البصر، ويدلّ لذلك قولُه تعالى: ﴿وَتَرَىٰهُمۡ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ وَهُمۡ لَا يُبۡصِرُونَ ١٩٨﴾ [الأعراف: 198].

ومنه قول شوقي:

لَقَد أَنَلتُكَ أُذنًا غَيرَ واعيةٍ *** ورُبَّ مُنتَصِتٍ والقَلبُ في صَمَمِ

أو أن يكون لفظ العَمى هنا متّجهًا كذلك إلى انعدام البصيرة، وهو ما يُعْرَف بعمى القلب، فيكون معنى: ﴿كَمَنۡ هُوَ أَعۡمَىٰٓ﴾ أي: كَمَن لا بَصَر له ولا بصيرة؛ "لأنه لا يعمل، وإن كان عالمًا فهو لا ينتفع بالأمثال، فكأنّه قيل: لا يستويان مثلًا أصلًا"[2].

بلاغة الاحتباك:

دلالة المذكور على المحذوف، من بلاغة البيان المألوف

في الآية احتباك، حيث حُذِفَ المقابلُ مِنَ الجملتين؛ للدّلالة عليه في الجملة الأُخرى، والتّقدير: أفمن ينظر فيعلم، كمن هو أعمى ولا يعلم[3].

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/16.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/327.

(3) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/428، بوصف حَذْفِ التّقابل، وقال في تقديره: "أي: أفمن ينصر فيعلمُ أنما أُنزل إليك مِن ربّك الحقّ، كمن هو أعمى جاهل".

دلالة الفصل:

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾، بين هذه الجملة وما قبلَها شبهُ كمالِ اتّصال؛ لأنَّها "تعليل للإنكار الذي هو بمعنى الانتفاء، بأنَّ سبب عدمِ علمهم بالحَقّ، أنّهم ليسوا أهلًا للتَّذَكّر؛ لأنّ التّذَكّر مِن شعار أولي الألباب"[1].

عدم إدراك الحقّ، لعدم إعمال العقل

دلالة أسلوب القصر:

﴿إِنَّمَا﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ﴾ للقَصْر، وهي أداة قصرٍ حقيقيٍّ دالٍّ على أنّ التّذكّر والاتّعاظ والاعتبار، إنّما هو مقصورٌ على أولي الألباب، أي: أصحاب العقول السّليمة النّافعة.

الانتفاع بالدّلائل العظيمة، مُسَبّب عن إعمال العقول السّليمة

سرّ اختيار ﴿يَتَذَكَّرُ﴾ دون غيره:

التّعبير بالتّذكر هنا، وإيثاره على التّفكر ونحوه؛ لما له من دلالة على ما هو من طبع كلّ إنسان، في كونه قابلًا لأن تعتريَه الغفلةُ في بعض الأحيان؛ ولا ضَيْرَ على أولي الألباب في هذا؛ لأنّ هذا العارض معهم لا يَطول؛ بل سريعًا ما يزول، فيُذَكِّرون أنفسَهم ويراجعونَها حتّى لا تَرْكَنَ إلى الغفلة، وهذا مِن دواعي كونهم منتفعين بنعمة العقل، التي منحهم الله إيّاها، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ ٢٠١﴾ [الأعراف: 201]. وفيه تعريضٌ بالمشركين والغافلين أبدًا، بأنَّهم ليسوا أهلًا للتَّذكُّر، فعقولهم بما سيطر عليها مِن داعي الغفلةِ والهوى، قد حُجِبَت عن أن تَعِظَ صاحبَها فتُذَكّرَه.

أولو الألباب لا يغفلون، وإن غفلوا عادوا سراعا للتّذكّر

سِرّ اختيار ﴿يَتَذَكَّرُ﴾ دون (يذَّكرُ):

وإنّما ناسب أن يقول: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾، مع أنّه في موضع آخر قال: ﴿وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٥٢﴾ [إبراهيم: 52]؛ لأنّ الحديث هنا عنِ المؤمنين الموقنين بالحَقّ، وهؤلاء إذا ما أصابتهم غفلةٌ لا

أولوا الألباب يتذكّرون، ولا يحتاجون إلى مُذَكّر

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/123.

يحتاجون إلى جهد كبير للرّجوع والعودة واليقظة منها، كما قال تعالى في حقّهم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ ٢٠١﴾ [الأعراف: 201] فهم رجّاعون، ومِن ثمّ التّعبير بـ ﴿يَتَذَكَّرُ﴾ يكفيهم، ولا يحتاج في حقّهم إلى التّعبير بـ (يَذَّكَّر) الذي هو أكثر مبالغةً؛ لما في بنيته مِنَ التَّضعيف المُكَرّر في حرفين، وهو ما أفرز زيادةً في المعنى ليست موجودةً في ﴿يَتَذَكَّرُ﴾، ولذلك غايرَ لمّا اختصّ الكلامُ في موضع سورة إبراهيم بالمُجرمين ومصيرهم وما ينتظرهم في قوله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلۡمُجۡرِمِينَ يَوۡمَئِذٖ مُّقَرَّنِينَ فِي ٱلۡأَصۡفَادِ ٤٩ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٖ وَتَغۡشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ٥٠ لِيَجۡزِيَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ٥١﴾ [إبراهيم: 49 - 51] فقد قال بعد هذا: ﴿هَٰذَا بَلَٰغٞ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُواْ بِهِۦ وَلِيَعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٥٢﴾ [إبراهيم: 52] فأولو الألبابِ منهم أحوجُ إلى أن يذَّكَّروا ما سيؤول إليه حالُهم، ليتّعِظوا ويتوبوا ويثوبوا إلى رشدهم.

سرّ التّعبير بـ ﴿أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ دون (أصحاب الألْبابِ):

العقل لا يوصَف بالمصاحبة؛ لطروء العوارض عليه

وإنّما عَبّر بـ ﴿أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾، دون (أصحاب الألباب)؛ لأنّ الصّاحب هو الملازم؛ إنسانًا كان، أو حيوانًا، أو مكانًا، أو زمانًا[1]، ومِن ثَمّ فما لم تكن ملازمة، لا يقال لها: صحبة، ولذلك قيل عنِ المؤمنين حالَ كونِهم ملازمين الجنّة في الآخرة - خالدين فيها -: ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ﴾ [البقرة: 82]، كما في قوله سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٨٢﴾ [البقرة: 82]، وقيل عن الكافرين: ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ﴾ [البقرة: 39]. ومنه قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٣٩﴾ [البقرة: 39]، أمّا العقول والألباب وسائرُ ما لا يُلازم صاحبَه؛ بل

(1) الرّاغب، المفردات: (صحب).

تعتريه المفارقةُ له قليلًا أو كثيرًا، فلا يقال له: صاحب. كما في التّعبير بأولي الألباب، ومنه أيضًا قولُه تعالى: ﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلۡأَحۡمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعۡنَ حَمۡلَهُنَّۚ﴾ [الطّلاق: 4]، فالمرأةُ لا تُلازمُ الحَمْلَ أبدًا.

سرّ التّعبير بـ ﴿أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ دون (أولو العقول):

ليس كلّ عاقل لبيبًا، ومَن لم ينتفع بعقله فليس بلبيب

وإنّما عَبّر عنهم بـ ﴿أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ دونَ (أولو العقول)؛ لأنَّ المقصود هنا ليس اتّصافُهم بالعقل الّذي هو حاصلٌ لنوع الإنسان، وإنّما العقل النّافع لصاحبه، الذي يُحكِم به تفكيرَه؛ لتستقيمَ تصرفاتُه على الجادّة، فهذا هو الذي يقال له: (لُبّ). وقد وصف القرآنُ أصحابَ العقول الّتي لا ينتفعون بها بحيث تقودهم إلى الكُفر بالله، والافتراءِ عليه، بأنّهم لا يعقلون، كما قال تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۖ وَأَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ١٠٣﴾ [المائدة: 103]، وقال سبحانه: ﴿وَلَقَدۡ ذَرَأۡنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ لَهُمۡ قُلُوبٞ لَّا يَفۡقَهُونَ بِهَا وَلَهُمۡ أَعۡيُنٞ لَّا يُبۡصِرُونَ بِهَا وَلَهُمۡ ءَاذَانٞ لَّا يَسۡمَعُونَ بِهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ ١٧٩﴾ [الأعراف: 179].

سرّ اختيار: ﴿أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾، دون (أولو النُّهى):

انتفاع أولي الألباب بالعقل، أفضى بهم إلى الحقّ والهداية

وسرّ التّعبير بـ ﴿أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾، هنا وصفًا لهم دون (أولو النُّهى)؛ لكونهم أفادوا بالفعل مِن توجيه عقولهم السّليمة، والتزموا خيارَها الصّائب، حين آمنوا بالحقّ الّذي علموا أنّه منزَّل مِنَ الله.

سرّ ختام الآية بتذكّر أولي الألباب:

العقل المُتذكّر موصلٌ للإيمان، ولا يَكْفُر إلّا مَن عَطّل عقلَه

ختم الله تعالى الآية بقوله: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾؛ تنويهًا بشأن المؤمنين الّذين أعانتهم عقولُهم لبلوغ الحقّ، فعرفوا الله، وآمنوا به، وأذعنوا لأوامره، واجتنبوا نواهيَه. وفي المقابل فيه تعريضٌ بالمشركين، واتّهامٌ لهم بالخِفّة والغَفلة، وأنّهم ليسوا مِن أصحاب العقول الفاعلة المُبْصرة.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيّةُ:

العقل واللُّب:

العقلُ: هو الحابِسُ عن ذَميم القَوْلِ والفِعْلِ، فـ(الْعَيْنُ والقافُ واللّامُ) أَصْلٌ واحِدٌ مُنْقاسٌ مُطَّرِدٌ، يَدُلُّ عُظْمُهُ على حُبْسَةٍ في الشَّيْءِ[1].

كـلّ لُـبٍّ عـقـلٌ، وليس كـلّ عقلٍ لُبًّا

واللُّبُّ: هو الخالص من كلّ شيء، فـ(اللّامُ والباءُ) أَصْلٌ صَحيحٌ يَدُلُّ على لُزومٍ وثَباتٍ، وعلى خُلوصٍ وجَوْدَةٍ[2].

ويُفْهَم مِن هذا التّأصيل اللّغوي أنّه قد روعيَ في تسميته عقلًا كَونَهُ يحصر مَعْلومات المَوْصوف بِهِ، كما روعي في تسميته لُبًّا كونَهُ مِن خالص صِفات المَوْصوف به[3].

فاللُّبّ: هو العقل الزّاكي الذي ينتفع به صاحبه، ولا يكفي أن يكون صاحبه فردًا من أفراد الجنس العاقل؛ لأنَّ اللّبّ هو الخالص المُنتَقَى مِن كلّ شيء، الخالي مِنَ الشّوائب، فإطلاقُه على العقل؛ "لكونه خالصَ ما في الإنسان مِن قوّةٍ، كاللّباب مِنَ الشّيء"[4].

ونخلص: إلى أنَّ بين العقل واللّب عمومًا وخصوصًا مطلقًا: فكلُّ لُبٍّ عقلٌ، وليس كُلّ عقلٍ لُبًّا.

أولو الألباب، وأولو النّهى:

أولـو الألـبـابِ عقولُهم زاكيَة، وأولـو الـنُّـهـى عـقـولُـهـم عـنِ القبيح نائية

النّاظر في استعمال القرآن الكريم لهذين الوصفين يجد فرقًا بينهما؛ فكلُّ وصفٍ منهما له دلالة في الاستعمال؛ فالوصف بأولي الألباب يدلُّ على سلامة عقولهم في التّوجيه، وأنّها قد قامت بذلك بالفعل، وممّا يؤكّد ذلك استعمالُ القرآن لوصف (أولي الألباب)، الّذين هم أهل الصّفاء الرّوحي المُكْتَسب مِنَ التَّقوى والحِكْمة

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عقل).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (لب).
(3) العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 84.
(4) الرّاغب، المفردات: (لب).

والرُّسوخ في العلم، في مواضع عديدة مِنَ القرآن الكريم، منها: في مقام حديث القرآن عنِ الرّاسخين في العلم في قوله: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٧﴾ [آل عمران: 7]، وأيضًا في مخاطبة أهل الحِكْمة بقوله: ﴿يُؤۡتِي ٱلۡحِكۡمَةَ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُؤۡتَ ٱلۡحِكۡمَةَ فَقَدۡ أُوتِيَ خَيۡرٗا كَثِيرٗاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٢٦٩﴾ [البقرة: 269]، وفى خطاب أهل التّقوى، قال تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيۡرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ١٩٧﴾ [البقرة: 197]، وفي مقام الاعتبار، قال تعالى: ﴿لَقَدۡ كَانَ فِي قَصَصِهِمۡ عِبۡرَةٞ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِۗ﴾ [يوسف: 111]، وفى مقام التَّدبّر لآيات الله، قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ١٩٠﴾ [آل عمران: 190].

وأمّا الوصف (بأولي النُّهَى) فإنَّه يُطلَق على أصحاب العقول، حالَ كونها صالحةً لأن تَنْهَى صاحبَها عن فعل القبيح، وسُمّيت بذلك؛ لأنّ "مِن شأنها النَّهيَ عمّا لا ينفع، فضلًا عمّا يَضُرّ"[1]. وقد ورد ذِكرُ هذا الوصف في القرآن مرّتين في سورة طه، الأولى في قوله تعالى: ﴿كُلُواْ وَٱرۡعَوۡاْ أَنۡعَٰمَكُمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلنُّهَىٰ ٥٤﴾ [طه: 54]، فبعد أن ذكر النّعم التي سَخّرها سبحانَه للخَلْق، عطف إلى الدّعوة إلى الاتّعاظ وتَرْكِ الأباطيل والانتهاءِ منها، والإقبالِ على الحَقّ بتَذَكّر النَّشأة الأولى في قوله تعالى: ﴿۞مِنۡهَا خَلَقۡنَٰكُمۡ وَفِيهَا نُعِيدُكُمۡ وَمِنۡهَا نُخۡرِجُكُمۡ تَارَةً أُخۡرَىٰ ٥٥﴾ [طه: 55]، والثّانية: ﴿أَفَلَمۡ يَهۡدِ لَهُمۡ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّنَ ٱلۡقُرُونِ يَمۡشُونَ فِي مَسَٰكِنِهِمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلنُّهَىٰ ١٢٨﴾ [طه: 128]، جاءت في سياق التّذكير بالأُمم السّابقة، ونهي العقلِ عنِ السَّير في طريقها[2].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 12/365.

(2) محمّد الدّوريّ، دقائق الفروق اللّغوية، ص: 163.

﴿ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلۡمِيثَٰقَ ٢٠﴾ [الرّعد: 20]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

العلاقة بين المُبْصِر للهدَى والأعمى، وكونُ توثيقِ الحُكم بالدّليل أحكمَ سبيل

لمّا نفتِ الآيةُ السّابقةُ المساواةَ بين مَن يعرف الحَقّ ويُذعِنُ له، وبين مَن ينكرُه ويرفضُه، وأنكرت على مَن يتوهّم هذه التّسوية، جاءت هذه الآيةُ، لتقيمَ الدّليل على صِحّة الحُكم، ولِتُظهِرَ أنّ "ذلك النَّفيَ المُرادَ به تفضيلُ أحدِ الفريقين على الآخَر هو نفيٌ مُؤيّد بالحُجّة"[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يُوفُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ﴾: أي: يُؤَدّونه بتمامه، فالوافي من كلّ شيء: هو الّذي بلغ التّمامَ، فيُقال: دِرهمٌ وافٍ، وكَيلٌ وافٍ، أي: بلغ تمامَه. ويأتي ماضيه ثلاثيًّا (وفَى)، ورباعيًّا (أوْفى)، وهو ما جاء في القرآن[2]، والمراد بالوفاء بالعهد: أداؤه كما وقعتِ المعاهدةُ عليه، وعدمُ الإخلال به.

2) ﴿وَلَا يَنقُضُونَ﴾: أصل النَّقْض: "انْتِثارُ العَقْدِ مِنَ البِناءِ والحَبْلِ والعِقْدِ. وهو ضِدُّ الإبْرام، يقال: نَقَضْتُ البِناءَ والحَبْلَ والعِقْدَ ... ، ومِن نَقْضِ الحَبْل والعِقْد استُعيرَ نَقْضُ العَهْدِ"[3]. وينقضون: ضِدّ يوفون، فإذا كان الأوّل معناه: الأداء على وجه التّمام، فالثّاني معناه: التّرك والإخلال بالأداء.

المَعْنى الإجْماليّ:

أولو الألباب تتطابق أقوالُهم وأعمالُهم، فيوفون بالعهد ولا ينقضونَهُ

أولئك الّذين مدحَهُم الله حين وصفهم بأولي الألباب؛ لأنّهم أدركوا الحَقَّ والتزموه، وهم - أيضًا - الّذين يوفون بعهد الله تعالى

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 12/124.
(2) الرّاغب، المفردات: (وفى).
(3) الرّاغب، المفردات: (نقض).

الّذي أخذَهُ عليهم حين أشهدهم على أنفسهم فأقرّوا بربوبيّته، وهو العَهْدُ المَدْلولُ عليه بقوله سبحانه: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْۖ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدْنَآۚ﴾ [الأعراف: 172]، ثُمّ هم كذلك يوفون بكلّ عهودِهم معَ اللّه، ووصاياه لهم فيما أمر وفيما نهى، وفي كُلّ ما قام عليه الدّليل والحُجّة أنّه مِن دينه سبحانَه وشرعِه. "فلا يخالفون العهدَ الذي عاهدوا اللّه عليه إلى خلافه، فيعملون بغير ما أمرهم به، ويخالفون إلى ما نهى عنه"[1].

ثُمّ هم - أيضًا - أولئك الّذين لا يقطعون المواثيقَ الّتي أبرموها مع العباد باسم اللّه، فلا يجوز لهم بحال أن يخالفوا عن شرع اللّه فيهم، فهو عَهْدُه الذي قَطَعَه عليهم، وتعبَّدَهُم به.

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيّ:

دلالة الفصل في الآية عمّا قبلها:

نعوت أولي الألباب نبعت مِن تميّزِ عقولهم، لا مِن مجرّد وجودِها

قد يتوهّم كثير مِنَ المُقصِّرين أنَّه مشمولٌ في هذا الوصف ﴿أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾، بمقتضى أنَّ اللّه تعالى قد ركَّب في رأسه عقلًا، فجاءت هذه الجملة: ﴿ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ﴾؛ لتزيل هذا التَّوهُّم، ولِتوقِظَ هذا الواهِمَ، ولِتُنَبِّهَهُ إلى أنّ أولي الألباب لهم نعوتٌ خاصّة، نَبَعَت مِن تَميّز عقولِهم، لا مِن مُجَرّد وجودِها، فعقولُهم المُتَميّزةُ الزّاكيَةُ قادَتْهم إلى أن يَتَّصِفوا بأسمى الصّفات، ويتَخَلّقوا بأسمى الأخلاق، فهم ﴿ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ﴾، حتّى كأنَّها أجابت عن سؤالٍ تقديرُه: مَن هم أولو الألباب؟ وهل يشمل جنسَ الإنسانِ باعتبار كونِهم ذوي العقول؟

وعليه: ففي الآية (شبه كمال اتصال)، وأيضًا فإنّ هذه الآيةَ تُعْتَبر تعليلًا واحتجاجًا للحُكْم السّابق الواردِ في الآية السّابقةِ، مِن

(1) ابن جرير، جامع البيان: 16/419، والزّمخشريّ، الكشّاف: 2/525.

نفي التّسويَة بينَ الفريقين المتقابِلَين، المُستَجيبَين للحَقّ، والغافِلَين عنه. والمقصودُ مِن هذا التَّعليل "تفضيلُ المؤمنين على المشركين، فيكونُ قولُه: ﴿ٱلَّذِينَ يُوفُونَ﴾ مُسنَدًا إليه، وكذلك ما عُطِف عليه، وجملة: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمۡ عُقۡبَى ٱلدَّارِ﴾ مسندًا"[1].

دلالة الاسم الموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾:

الموصول وصلته: ﴿ٱلَّذِينَ يُوفُونَ﴾، يجوزُ أنْ يكونَ نعتًا لأولي الألباب، أو بدلًا منه، أو بيانًا له، أو هو استئنافٌ ابتدائيٌّ[2]. وفي كلّ الحالات؛ فالموصول مع صلته فيه تعظيمٌ لهم ومدحٌ، قدِ استحَقّوه بوفائهم بعهودهم ومواثيقِهم، ومِن قبلُ بيقظة عقولهم. كما أنّ التّعبيرَ بالموصول في الآية مفيدٌ للعموم؛ ليكون في ذلك تحفيزٌ لكلِّ الأجيال، ولجميعِ المُخاطَبين، للتَّحَلّي بالصِّفات التي تَضَمَّنَتْها الصّلةُ، والامتثالِ لها، إذا أرادوا أن يكونوا مِن أولي الألباب، وأهلًا لهذا المَدح، ويَلْحَقوا بركب هؤلاءِ المُفْلِحين، وينالوا ما نالوه مِن ثناءٍ وجزاءٍ حَسَنٍ، في الدُّنيا والآخِرَة.

تحفيز الأجيال المتعاقبة، للاقتداء بطريق أولي الألباب الصّائبة

سرّ اختيار الفعل ﴿يُوفُونَ﴾:

في اختيار الفعل ﴿يُوفُونَ﴾ دونَ غيره - ممّا قد يُظنّ أنّه يمكن أن يقوم مقامَه، كالفعل (يؤدّون) مثلًا - سِرٌّ يكشف عنه مدلولُه؛ إذ هو يَدلُّ على أداء الشّيء بتمامه، دونما زيادةٍ ولا نقصانٍ، أي: على وجهه الأتمّ، الّذي يُعَبِّر عن مقام الإحسان، الّذي هو أرقى المقامات، وليس مُجرّدَ الأداء الّذي يَحْمِل أقلّ ما تَبْرأُ به الذّمّةُ. وممّا يُذْكَر - أيضًا - في سِرّ اختيار الفعل ﴿يُوفُونَ﴾، أنّ الوفاء متعلّقٌ بعهد اللّه، وعهد اللّه على نوعين: إمّا بما عاهدوا اللّه عليه، أو بما عَهِدَ اللّه به إليهم، وهذان النّوعان لا يفي بأدائهما على أكمل وجهٍ، إلّا فِعْلُ

الهِمَم الوفيّة العالية، توّاقةٌ دومًا للقِمَم السّامية

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/124. وينظر: الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 19/33.
(2) السّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 7/43، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/124.

الوفاءِ. وأيضًا أنّ هذا المقامَ لا يتحمّل زيادةً ولا نقصًا، ولا سيّما العهودُ الشّرعية؛ لذلك كان اختيارُ صِفةِ الوفاء هي الأولى.

دلالة التّعبير بالمضارع:

خيرُ أعمال البرّ أدومُها وإن قلّ

غير خافٍ أنّ صيغة المضارع في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يُوفُونَ﴾ دالّة على الاستمراريّة، وتجدّد النّشاط للوفاء بعهد الله، حتّى يصبحَ هذا الوفاء لطول محافظة الموفي عليه، كأنَّه عادةٌ وسجيّة، فلا يتكلّف له، ولا يَحول عنه، مهما كانت المُغْرَيات، ولا ينصرف عنه إلى غيره مهما كانتِ الصّوارفُ والشّواغل.

سرّ التّعبير بالصّلة ﴿ٱلَّذِينَ يُوفُونَ﴾:

التّعبير بتمكّن صفة الوفاء، وتجدّدها مع العهود الطّارئة

عبَّر بجملة الصّلة: ﴿ٱلَّذِينَ يُوفُونَ﴾؛ للدّلالة على تعظيم هؤلاء في تمكّن صفة الوفاء منهم، فلا يعتريهم مانعٌ من تجدّد الوفاء في تعاملهم معَ العهود التي أبرموها مع غيرهم، ولا سيما أنّ الموانع في تنفيذ الوفاء بها أمرٌ وارد حسب طبيعة النّفس قوةً وضعفًا في الالتزام بالوفاء بالعهود؛ أمّا ما ورد في سورة البقرة فجاء في آية البرّ الّذي اشتمل على مفردات الإيمان القلبيّة والسّلوكيّة، وكان الحديث فيها عن إعطاء المال وإقامة الصّلاة وإيتاء الزّكاة، إلى غير ذلك من الأفعال المطلوبة في ذاتها، والّتي تتجدّد آنًا بعد آن؛ أمّا الوفاء الّذى عُبِّر عنه بقوله تعالى: ﴿وَٱلۡمُوفُونَ﴾ [البقرة: 177] فهو صفةٌ دائمة يتحلّى بها أهلُ الإيمان، فلا تنفك عنهم؛ فتحولّت مِنَ الوصفيَّة إلى العَلَميَّة.

دلالة الباء:

التزام المؤمن بعهد الله صفةٌ لازمة له، مع وجود العوارض

الباء في قوله: ﴿بِعَهۡدِ ٱللَّهِ﴾ للمصاحبة، على معنى أنَّ وفاء أولي الألبابِ بعهد الله ملازمٌ لهم ملازمة الصّاحب للصّاحب، فهم يستصحبونه ويستدعونه في كلّ موقف لله فيه عهد؛ بأمر أو بنهي.

ويمكن أن تكون الباء للسّببيّة، على معنى: أنهم يوجِدون الوفاءَ

لكلّ شيءٍ ﴿بِعَهۡدِ ٱللَّهِ﴾، أي: بسبب العقد المؤكّد مِنَ المَلِك الأعلى، بأوامره ونواهيه، فيفعلون كلًّا منهما كما رسمَه لهم، ولا يوقِعون شيئًا منهما مكان الآخر[1].

سرّ اختيار لفظ (العهد):

الوفاء بعهد الله تعالى يُلْتَزم، دون أن يحتاج إلى التّوثيق والتّأكيد

قوله تعالى: ﴿بِعَهۡدِ ٱللَّهِ﴾، العهدُ: هو الوعدُ والالتزامُ الموثَّقُ المُؤكَّد، بإظهار العزم على تحقيقه، مِن يمينٍ أو تأكيد، ومِن ثَمّ فإنّه يَلْزم مُراعاته وأداؤه[2]، ولهذا اختير دون ما قد يشترك معه مِنَ الألفاظ في أصل المعنى، كالعقد والميثاق، وذلك لخصوصيّة المعنى الدّقيق المذكور فيه، وأيضًا لأنّ العهد يحمل معنى الاحتفاظ بالشّيء ومراعاته والوصيّة به، ولا يحتاج إلى التّوثيق والتّأكيد؛ لأنّ أولي الألباب يُقْبِلون على الوفاء بعهد الله دون تردّد، ودون حاجة إلى تأكيده؛ يؤكّد هذا أنّه لم يَرِد في القرآن الكريم أسلوبُ الوفاء بالميثاق، بأن يقول: (أوفوا بميثاق الله)، كما قال: ﴿وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ﴾ [النّحل: 91].

سرّ التّعبير عنِ الإيمان بقوله: ﴿بِعَهۡدِ ٱللَّـهِ﴾:

لا تكليف إلّا بشرعٍ موثوق، ولا شرع إلّا بإيمان صدوق

في قوله تعالى: ﴿بِعَهۡدِ ٱللَّهِ﴾ عَبّر عنِ الإيمان بالعهد؛ لأنّ العهد هو العقد المُتَقَدّم على الأمر، بما يُفْعَل أو يُجْتَنب[3]. وهذان عهدان بالنّسبة للمؤمن: عهد عامّ قديمٌ قِدَم البشريّة، وهو عهد: ﴿أَلَسۡتُ بِرَبِّكُمۡۖ﴾ [الأعراف: 172]، وعهد جديد، وهو تجديد للعهد القديم، منبثق عنه، وتحقيقُه بالإيمان بالله تعالى إيمانًا تكليفيًّا، يقتضي الإصغاء لأوامره ونواهيه، فهذا "عهد إيمانيّ موثّق بما أخذْتَه - أيّها العبد

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/328.
(2) الجوهريّ، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (عهد)، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/125.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/328.

- على نفسك مِن التزام"[1]. وعلى كلٍّ فالإيمان مُتقدّم على الأمر والنّهي، وهذا مُسَوِّغُ تسميتِه عهدًا.

كما أنَّه يُفيد أثرًا آخَرَ، وهو أنّه لا تكليفَ إلّا بشرعٍ نابع مِنَ الإيمان، فالإيمانُ مُتقدّم على التّكليف، وهذا ترتيبٌ طبيعيّ وُجوديٌّ، يمثّلُه الإيمانُ، وهو الأصل، ثمّ التّكليفُ، وهو فرع الأصل، ولمّا كان الأصل كائنًا في الوجود قبلَ الفرع، فقد صحّ أنّه لا تكليفَ - شرعيًّا - بلا إيمان.

دلالة إضافة ﴿بِعَهۡدِ﴾ إلى لفظ الجلالة ﴿ٱللَّـهِ﴾:

عهد الله آكَدُ وأوثق، والالتزام به أوجبُ وألصقُ

مرَّ بأنَّ العهد هو الالتزام والوعد الموثّق المُؤكّد الذي يَلْزَم مُراعاتُه وأداؤه، وإنَّ تأكيدَه يزداد، ووثاقتَه تعلو، والالتزامَ به أوجب، إذا كان منسوبًا إلى الله ومضافًا إليه، كما في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ﴾، وكذا في غيره مِن نصوص القرآن الكريم، كقوله تعالى: ﴿وَبِعَهۡدِ ٱللَّهِ أَوۡفُواْۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ١٥٢﴾ [الأنعام: 152]، وقوله: ﴿وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمۡ﴾ [النّحل: 91]، وقوله: ﴿وَلَا تَشۡتَرُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ ثَمَنٗا قَلِيلًاۚ﴾ [النّحل: 95].

دلالة التّعبير بالمصدر:

الالتزام بعهد الله في كلّ الزّمان، ولا حصر له في آن دون آن

يدلّ التّعبير بالمصدر (عهد) على لزوم اقتفاءِ آثارِ عهدِ الله تعالى أينما كان، للوفاء به، بلا تقييد بزمن معيّن، ولا مكان معيّن، وفي ذلك تنبيهٌ لمَن يختارون للنّشاط في العبادة زمنًا معينًا، مِن غير دليل يَنصّ عليه، ليَخْرجَ بذلك ما كان منصوصًا على فضل زمنه، كشهر رمضان، أو عشرِ ذي الحِجّة، أو المُحَرّم، ثمّ في غير هذه الأوقات التي حددوها للنّشاط في العبادة، يُقصِّرون ويَعبثون كما يريدون. وقس على ذلك مَن ينشطون فقط في أماكن معينة كالحَرم مثلًا.

(1) الشّعراويّ، خواطري حول القرآن الكريم: 12/7276.

ثمّ نرى لهذا المصدر هنا خصوصيّة الإضافة، إمّا لمفعوله، فيكون المراد ﴿بِعَهۡدِ ٱللَّهِ﴾ أي: ما عاهدوا الله على فِعْله، أو هو مضاف إلى فاعله، والمعنى: ما عهِد الله به إليهم. وعلى كِلا الوجهين فالمراد به - أولًا - الإيمانُ الذي أخذه الله على الخلق يومَ أشهدهم على أنفسهم: ﴿أَلَسۡتُ بِرَبِّكُمۡۖ قَالُواْ بَلَىٰ﴾ [الأعراف: 172][1]، ثمّ يدخل فيه كلُّ عهد مُؤكّد منضبط بأصول الشّرع، قد تَفَرّع عنه، سواء في المعاملة مع الله، أو مع عباده.

دلالة عطف الجُمَل:

يدلّ عطف جملة: ﴿وَلَا يَنقُضُونَ ٱلۡمِيثَٰقَ﴾، على جملة: ﴿يُوفُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ﴾ على تأكيد مضمونِ جملةِ الوفاء بعهد الله، إمّا بطريق المُضادة، أو بطريق عطف العامّ على الخاصّ، أو بكليهما معًا.

الوفاءُ وعدمُ النّقض متلازمان، بالمضادّة أو بعطف العامّ على الخاصّ

فأمّا طريق المضادّة: فلأنّ جملة ﴿وَلَا يَنقُضُونَ ٱلۡمِيثَٰقَ﴾، قد نفت ضِدّ ما أثبتته الأولى، فحصل التّأكيدُ لمعنى الأولى بنفي ضِدّها.

وأمّا طريق العموم والخصوص: فعلى القول بأنَّ الميثاق أعمّ مِنَ العهد؛ لأنّه يشمل المواثيقَ الحاصلةَ بينَ النّاس؛ مِن عهود وأيمان، فحصل التّأكيدُ باعتبار المغايرة بالعموم والخصوص، ومن دلالات العطف هنا التّعريضُ بالمشركين؛ لاتّصافهم بضدّ ذلك الكمال، الّذي حصل لأولي الألباب المؤمنين، بسبب وفائهم بعهد الله، وعدمِ نقضهم مواثيقَهم[2]. وعلى هذا فالجملتان تتعاونان في سبيل وجوب الوفاء بالعهد وتحريمِ نقضه.

بلاغة الاستعارة المكنية:

جملة (وَلا يَنقُضونَ المِيثاقَ) بعد (يوفونَ بِعَهْدِ الله)، قرينةٌ دالّةٌ على الاستعارة

مِنَ الأسرار البلاغيّة لذِكْر جملة: ﴿وَلَا يَنقُضُونَ ٱلۡمِيثَٰقَ﴾، وعدمِ الاكتفاء بالوصف السّابق: ﴿يُوفُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ﴾، أنّها قرينة دالّة على

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/125.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/126.

الاستعارة المكنيّة في (العهد)، وبحسب تعبير الزّمخشريّ: "ساغ استعمالُ النّقض في إبطال العهد، من حيث تسميتُهمُ العهدَ بالحبلِ على سبيل الاستعارة؛ لما فيه مِن إثبات الوصلةِ بينَ المتعاهدين، وهذا مِن أسرار البلاغة ولطائفِها، أن يسكتوا عن ذِكْر الشّيء المُسْتَعار، ثُمّ يَرْمزوا إليه بذِكر شيء مِن روادفه، فيُنَبّهوا بتلك الرّمزة على مكانه، ونحوه قولُكَ: شجاعٌ يفترس أقرانَه، وعالمٌ يغترف منه النّاسُ، فقد نبّهت على الشّجاع والعالِم بأنّهما أسدٌ وبحرٌ"[1].

دلالة النّفي:

بيان محافظة أولي الألباب على عدم نقض مواثيقهم، حالًا واستقبالًا

دلَّ النّفيُ بـ (لا) الدّاخلةِ على المضارع في قوله: ﴿وَلَا يَنقُضُونَ﴾، على نفي نقضِ أولي الألباب مواثيقَهم على الدّوام، حالًا واستقبالًا، فهم دائمو المحافظة على عدم نقض مواثيقهم، التي يُلْزمون أنفسَهم بها، ومستمرّون على هذا حالًا واستقبالًا.

دلالة التّعبير بالفعل المضارع المَنفيّ:

صفات أولي الألباب الرّاسيَة، لا يُغيّرها طولُ الآجال الفانيَة

التّعبير بالمضارع منفيًّا في قوله: ﴿وَلَا يَنقُضُونَ﴾؛ للدّلالة على أنّهم مستمرّون على ذلك، محافظون على مواثيقهم التي ألزموا أنفسَهم بها، فلا ينقضونها أبدًا، مهما تقلّبت بهمُ الأيامُ، أو طالتِ الأعمار، فقد صار هذا جُزءًا مِن أخلاقهم وسجاياهم، لا يتخلّف فيهم.

سرّ اختيار لفظ (النّقض) دون (النّكث):

تشديد الخطاب إذا تعلّق التّكليفُ بالمؤمنين، وتخفيفه إذا تعلّق بالكافرين

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ﴾، اختير فيه لفظُ (النّقض) دون (النّكث) مع قربِهما في المعنى[2]، فقال: ﴿وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ﴾، ولم يقل: (وَلا يَنكثونَ الْميثاقَ)؛ لأنّ تسميَتَه ميثاقًا يحمل التّعبيرَ عن نفسه، كما يحمل الجوابَ عنِ السّؤال المُثار، إذِ الميثاقُ

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 13/126.

(2) المعجميّون كما في مقاييس اللّغة لابن فارس، واللّسان لابن منظور، يعرّفون كلًّا منهما بالآخر، ولتقاربهما جُمِع بينَهما في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا﴾ [النّحل: 92]، لكن تظهر الفروق الدّقيقة بالتّأمل، ورصد المواضع والسياقات التي تَرِد فيها الألفاظ محلّ الدّراسة.

التزامٌ وثَّقَهُ المَرءُ على نفسه، كالعقود المُبرَمَة بينَ النّاس بعضِهم مع بعضٍ، والمعاهداتِ المُؤكَّدَةِ بينَ الأفراد أو المجتمعات. والإخلالُ به حينَئِذٍ أوْلى به أن يُسَمّى (نقضًا) لا (نكثًا)، فهو مأخوذ مِن قولك: نَقَضْتُ الْحَبْلَ والبِناءَ[1]، أي: إذا حَلَلْتُ الحبلَ بعد فَتْلِه، أو هَدَمْتُ البناءَ بعد قيامه. ولذا آثرَه القرآنُ في التّعبير على النَّكْث، كما جاء في الآية هنا: ﴿وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ﴾، وفي آية أخرى: ﴿وَلَا تَنقُضُواْ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ [النّحل: 91]، ولا خِلافَ في أنّ آية النّحل خطابٌ للمؤمنين الّذين لا يُنْتَظَر منهم إلّا الالتزامُ بأيْمانهم مطلقًا، ولهذا دلالتُه التي ستذكر بعد.

وأمّا النّكثُ وإن كان نقضًا كذلك إلّا أنّه أخفّ، ولذا استعمله القرآن حِسًّا في قوله: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا﴾ [النّحل: 92]، واستعمله معنًى في الإخبار عن نقض الكفّار أيْمانهم وعهودَهم مع المؤمنين فقال: ﴿وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيْمَٰنَهُم مِّنۢ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُواْ فِي دِينِكُمْ فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ﴾ [التّوبة: 12].

والحاصل: أنّ ما كان في خطاب المؤمنين سُمّي نقضًا، وما كان في الإخبار عن الكفّار سُمّي نكثًا. ولأنّ مخاطبة المؤمنين يناسبها التّشديد في التّكليف، والحَسْم في التّعبير، فقد دلّ على أنّ النّقض أشدّ تكليفًا، وأقوى تعبيرًا مِنَ النّكث، لنخلُص مِن هذا إلى أنّ النّقض أقوى مِنَ النّكث في الاستعمال القرآنيّ. وممّا يؤكّد هذا المعنى: أنّ البنيَة اللّغويّة في كلٍّ منهما تدلّ على ذلك، فصِفات الضّاد والقاف في (نقض) تُنبئ عنِ الشّدّة والقوّة، بخلاف الكاف والثّاء في (نكث)، فلا يتأتّى فيها ذلك.

الالتزام بعدم نقض المواثيق واجب، سواء تعلّقت بالخالق أو بالمخلوق

دلالة (أل) التّعريفيّة:

(أل) التّعريفيّةُ في ﴿ٱلْمِيثَٰقَ﴾ جنسيَّةٌ مفيدةٌ للاستغراق، حيثُ

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (نقض).

يستغرق اللّفظُ هنا جميعَ المواثيق. قال ابن عاشور: "التّعبير بالميثاق أعمّ مِنَ التّعبير بـ (عهد الله)، فيشمل المواثيقَ الحاصلةَ بينَ النّاس مِن عهود وأيْمان[1]. وقد تكون (أل) للعهد؛ لتَختصّ بمواثيق النّاس التي يُلْزِمون بها أنفسَهم، في حين يختصُّ عهدُ الله بما يكون مِنَ الله تعالى للعبد.

سرّ اختيار التّعبير بالميثاق دون العهد:

الميثاق ما وثّقه العبد، وألزم به نفسَه

يمكن أن يكون السّرُّ في ذلك، هو الجمع بينَ ما يُلْزِم الله تعالى به عبادَه، وهو المُسَمّى عهدَ الله، وما يُلزِم المَرءُ به نفسَه ويوثّقه، وهو المُسَمّى ميثاقًا. وهو أحد الوجوه في التّفريق بين العهد والميثاق على ما مرَّ، وما سيأتي.

سرّ الجمع بين الوفاء بالعهد، وعدم نقض الميثاق:

المكلَّف بين أمرٍ يجب التزامُه، ونهيٍ يجب اجتنابُه

في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلۡمِيثَٰقَ﴾، غاير بينَ الجملتين، حيث عبّر في الأولى بالعهد، وفي الثّانية بالميثاق، وربط الأولى بالوفاء، والثّانية بنفي النّقض، حتّى يبرزَ معهودُ القرآن في الأمر والنّهي، فإذا كانت الأولى راجعةً إلى فِعْل المأمورات، فالثّانية راجعة إلى ترك المنهيات، وشريعة القرآن هي كذلك أوامرُ ونواهٍ.

سرّ الجمع بين العهد والميثاق:

الميثاق أعمّ مِنَ العهد، وبينهما عموم وخصوص

جُمِعَ بينَ العهد والميثاق في الآية: ﴿ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلۡمِيثَٰقَ﴾؛ لأنّ الميثاق أعمّ مِنَ العهد، فهو يشمل المواثيق الحاصلة بين النّاس مِن عهود وأيْمان، ممّا أفاد التّأكيد باعتبار المغايرة، بالعموم والخصوص[2].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/126.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/126.

دلالة البدء بالوفاء بالعهد:

الوفاء بعهد الله هو العمل بكلّ ما هو برّ، والانتهاء عن كلّ ما هو شرّ

البَدءُ بالوفاء بالعهد في الآية مقدَّمًا على مقابله، وهو عدم نقض الميثاق؛ أدلُّ على تمكّن الإيمان في القلوب، حتّى يبدوَ اللّائق بحال المؤمنين الصّادقين أولي الألباب، أن تكون حياتهم كلّها تحقيقًا للمصالح وتَحَلّيًا بالجمال، بحيث لا يكون للمفاسد ولا للرّذائل في حياتهم وجود، فيضطروا معه إلى تقديم ما هو أوْلى، وهو دَرءُ المفسدة، فإنّه - بلا ريب - مُقدّم عند المفاضلة على جَلْب المصلحة.

كما يدلّ البَدءُ بالوفاء بالعهد، على أنّه أصل لكلّ ما سيجيء بعدَه، فمن يحافظ على عهد اللّه، سيفعل كلَّ بِرّ، وينتهي عن كلّ شَرّ.

سرّ تعدّد صفات أولي الألباب:

تشريفُ أولي الألباب، بتعدُّد صفاتِهم الطّيّبةِ، تنويهٌ بعلوّ شأنهم

كلّ ما ذُكر مِن صفاتٍ معطوفٍ بعضها على بعض، بعد قوله: ﴿يُوفُونَ بِعَهْدِ﴾ هي راجعةٌ إلى أولي الألباب، وقد دلّ تعدُّدها على شرفهم، فتَعَدُّد الصّفات للموصوف الواحد، مِن دواعي تشريفِه، إذا كانت الصّفات ممّا يُمتدح بها.

سرّ ترك إضافة الميثاق إلى لفظ الجلالة:

الميثاق ما يكون بين النّاس مِن التزامات، والعهد ما شرّعه الله

في ترك إضافة الميثاق إلى اللّه، فلم يقل: (وَلا يَنْقُضونَ ميثاقَ اللّه) احتمالان؛ الأوّل: أن يكون المراد بالميثاق: ما يكون بينَ النّاس بعضِهم مع بعض، ولذا لم تصلُح الإضافة. وممّا يؤكّد ذلك، ورودُ الميثاقِ في القرآن مصرّحًا فيه بالإضافة إلى ضمير المخاطَبين، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ﴾ [البقرة: 84]، ونحوه في آياتٍ أخرى في سورة [البقرة: 63، 93]، و[الحديد: 8]. والثّاني: أن تكون الألف واللّام نائبة مناب الإضافة إلى ضميره، أي: (ولا ينقضون ميثاقه)[1].

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/428.

الفُروقُ المُعْجَمِيّةُ:

العهد والعقد والميثاق:

لا غرو أنّ بين ثلاثتها تقاربًا شديدًا في المعنى، وتقاطعًا قد يصعب الفكاك منه، إلّا بتقدير أنّ إحداها أوفى معنًى مِنَ الأخرى، أو أبلغ دلالةً، ونحو هذا.

تتقارب في المعنى، والتّفاوت بينَ ثلاثتها، يُقَدّر بكون إحداها أوفى بالمعنى

فالعقدُ وإن كان عهدًا، والعهد وإن كان عقدًا؛ إلّا أنّه يمكن التّفريق بينهما، بأنّ العقد أبلغُ مِنَ الْعَهْد، فإنّك تَقول: عَهِدتُ إلَى فلان بِكَذا، أي: ألزمتُه إياه. وتقول: عقدتُ عليهِ وعاقدتُه: ألزمتُه باستيثاق. وتقول: عاهَدَ العَبْدُ ربَّه، ولا تَقول: عاقد العَبْدُ ربّه؛ إذْ لا يجوز أن يُقال استوثَقَ مِن ربّه[1].

وأمّا الميثاق والعهد؛ فلشِدّة ارتباطِ كلٍّ منهما بالآخر، قيل: هما مترادفان[2]، معَ أنّ النّاظر في سياق الآيات يجد فرقًا بينهما؛ فالميثاق توكيدُ الْعَهْد، مِن قَوْلكَ: أوثقتُ الشَّيْء، إذا أحكمتُ شَدّه. والعَهْد يكون حالًّا مِنَ المُتعاهِدَيْن، والميثاقُ يكون مِن أحدهما[3]. ويمكن أن يكون الفرقُ بينهما هنا فيما يحتمله سياقُ الآية، أنّ العهد: ما يُلزِم اللّه تعالى به عبادَه كالصّلاة مثلًا، والميثاقَ: ما يُلْزِم المَرءُ به نفسَه كالنُّذور. أو أنّ العهد: ما يكون بينَ اللّه والعبد، والميثاقَ: ما يكون بينَ العبدِ والعبد.

وفَّى، وأوفى:

(وفَّى) أبلغ من (أوفى)، فالأوّل للتّأدية والإعطاء، والثّاني للعهد والكَيْل والميزان

النّاظر في آيات القرآن الكريم يجد فرقًا بين (وفَّى) و(أوفى)، فقد خُصّص الفعلُ ﴿أَوْفَىٰ﴾ [آل عمران: 76] بالعهد والكَيْل والميزان، فممّا ورد في العهد قوله تعالى: ﴿وَأَوْفُواْ بِعَهْدِيٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ [البقرة: 40]،

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 57.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/126.
(3) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 57.

وممّا جاء في الكيل والميزان قوله: ﴿وَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ وَٱلۡمِيزَانَ بِٱلۡقِسۡطِۖ﴾ [الأنعام: 152]، إلى غير ذلك مِنَ الآيات التّي وردت في هذا السّياق. أمّا الفعل ﴿وَفَّىٰٓ ٣٧﴾ [النجم: 37] فاستُعمل في القرآن بمعنى: التّأدية والإعطاء، تقول: وفَّيتُه أجرَه كلّه، أي: أعطيتُه إيّاه وافيًا؛ لذلك وردت في مقام مجازاة العبد على عمله، قال تعالى: ﴿وَإِنَّ كُلّٗا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمۡ رَبُّكَ أَعۡمَٰلَهُمۡۚ﴾ [هود: 111]، وقال تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمۡ أُجُورَهُمۡۗ﴾ [آل عمران: 57].

ومِنَ الفروق بينهما: أنَّ (وفَّى) بالتّضعيف أبلغ مِن (أوفى)؛ لأنّ (فعَّل) وإن شارك (أفعل)، إلّا أنّه لمّا كان دالًّا على التّقصّي شيئًا بعد شيء، كان أدلَّ على المبالغة، وقد راعى القرآن هذا المعنى عندما تحدّث عن توفية اللّه أجورَ عبادِه في الآخرة، فقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجۡرَهُم بِغَيۡرِ حِسَابٖ ١٠﴾ [الزمر: 10]، ومدح إبراهيمَ عليه السلام بقوله: ﴿وَإِبۡرَٰهِيمَ ٱلَّذِي وَفَّىٰٓ ٣٧﴾ [النجم: 37]؛ وذلك لأنّه وفَّى بكلّ ما أُمِر به على وجه التّمام والكمال.

﴿وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلۡحِسَابِ ٢١﴾ [الرّعد: 21]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الرّبط بين الوفاء بعهد الله، والصّفات المُنبثقة عنه، كالصّلة والخشية

لمّا ذكر الله تعالى في الآية السّابقة مِن صفات أولي الألباب، أنّهم ﴿يُوفُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ﴾، وكانت هذه الصّفة أصلًا تترجمُه صفاتٌ أُخرى متفرّعةٌ عنها؛ ككونهم ﴿وَلَا يَنقُضُونَ ٱلۡمِيثَٰقَ﴾، أرْدفَها هنا بفرعين آخرين، يعودان إلى الوفاء بعهد الله، هما: أنّهم يَصلونَ ما أمر الله بوصله، وأنّهم يخشون ربّهم، ويخافون عقابَه يومَ الحساب.

وكذلك أيضًا: لمّا كان قولُه تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ مقتضيًا أنّه لا ينضوي تحت وصف (أولي الألباب)، إلّا مَن كانوا مؤهّلين لذلك، ذكر هنا بعضَ الصّفات الّتي مكّنتهم مِن هذا الوصف، فكان مِن جملتها: أنّهم يَصِلون ما أمر الله بِوَصْلِه، وأنّهم يخشون ربّهم، ويخافون عقابَه يومَ الحساب.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَصِلُونَ﴾: الاتّصالُ ضِدُّ الانفصالِ والتّركِ والهِجران، و"(الْواوُ والصّادُ واللّامُ): أصْلٌ واحِدٌ يَدُلُّ على ضَمِّ شَيْءٍ إلى شَيْءٍ حَتَّى يَعْلَقَهُ"[1]، ومعناه: اتّحادُ الأشياء ووصلُ بعضِها ببعض، كاتّحاد طرفي الدّائرةِ، ويُستَعمل الوَصْلُ في الأعيان والمحسوسات، كما يُستَعمل في المعاني[2]، ومِن استعماله في المعاني كلمة ﴿يَصِلُونَ﴾ في الآية؛ إذِ المُرادُ بها هنا مُلازمةُ المُكلَّفِ لأوامر الله، وبلوغُه مرادَ الله منها علمًا وعملًا وانقيادًا.

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (وصل).
(2) الجوهريّ، الصّحاح، والرّاغب، المفردات: (وصل).

2) ﴿وَيَخۡشَوۡنَ﴾: الخشية: خوفٌ يشوبُه تعظيمٌ. "(الْخاءُ والشّينُ والحَرْفُ الْمُعْتَلُّ): يَدُلُّ على خَوْفٍ وذُعْرٍ"[1]؛ فالخشيةُ وإن كانت تعود في معناها إلى الذُّعْر والخَوف، لكنّها في واقعِها هي أشدُّ أنواعِه وأخصّها، فهي خوفٌ يشوبُه تعظيمٌ للمَخْشي، كأثرٍ للعِلْم بمقامه العظيم[2]. وعلى هذا فمعنى: ﴿وَيَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ﴾ يخافون ربَّهم خوفَ إجلالٍ وتعظيمٍ ومهابةٍ.

3) ﴿وَيَخَافُونَ﴾: الخوفُ ضِدّ الأمن، و"(الخاءُ والواوُ والفاءُ): أصْلٌ واحِدٌ يَدُلُّ على الذُّعْرِ والفَزَعِ، يُقالُ: خِفْتُ الشَّيْءَ خَوْفًا وخيفَةً، والياءُ مُبْدَلَةٌ مِنْ واوٍ لِمَكانِ الْكَسْرَةِ"[3]، وأصله: يدلّ على الذُّعْرِ والفَزَعِ مِن شيءٍ ما، سواء كان هذا الشّيء المَخوفُ مُتعلّقًا بالأمور الدّنيويّة أو الأُخرويّة، وحقيقتُه: أنّه شعور ينتاب الإنسانَ عند توقّع حلولِ مكروهٍ، أو فواتِ محبوبٍ، عن أمارةٍ مظنونةٍ أو معلومة، ولذا قوبِل بينَه وبينَ الرّجاء في قوله تعالى: ﴿وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓۚ﴾ [الإسراء: 57]، مِن حيثُ إنّ الرّجاء ينشأ عن توقّع محبوبٍ عن أمارَة مظنونة، أو معلومة[4]. ومعنى: ﴿وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلۡحِسَابِ﴾، أي: يفزعون منه وجلًا وذُعْرًا، ومِن ألّا يكونوا مِنَ المقبولين.

❁ المَعْنى الإجْماليّ:

تقديمُ أعمالِ البِرّ، وصِلة الأرحام، إخلاصًا لله، وخشيَةً منه وخوفًا

بيّنت هذه الآيةُ أنّ مِن صفات أولي الألباب، الموفين بعهد اللّه: أنّهم يَصِلون أنفسَهم وأعمالَهم، بكلّ ما أمر اللّه به أن يوصَل مِن أعمال البِرّ والمعروف، فيستجيبون لأوامر اللّه ورسوله، ومِن ذلك أنّهم يَصِلون أرحامَهم، ويعودون مَرضاهم، ويُحسِنون إلى كلّ

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (خشي).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحفّاظ: (خشي)، وابن الهائم، التبيان، ص: 82.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (خوف).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (خوف)، والجرجانيّ، التّعريفات، ص: 101.

مُسْتَحِقّ للإحسان مِنَ النّاس، بما يَستَحِقّه أو يزيد، يفعلون ذلك حُسْبَةً لله، وخَشْيَةً منه، وهَيْبَةً لجلاله، وتعظيمًا له، وخوفًا مِن عقابه يومَ الحساب، لو أنّهم خالفوا أمرَه، أوِ انتهَكوا حُرماتِه.

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيّ:

دلالة الواو العاطفة:

في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ﴾، الواو عاطفة لجملة الصّلة، على قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ﴾، باعتبارها فرعًا مِن فروعها، وأثرًا مِن آثارها.

وصل ما أمر الله به أن يوصل، من جملة الوفاء بعهد الله

سرّ تكرار اسم الموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾:

أُعيدَ اسْمُ المَوْصولِ تنويهًا بشأن ما في حَيّزه مِن جملة الصّلَة، وما عُطِف عليها مِن صفات؛ ولبيان أنّها بذاتها جديرةٌ بالاهتمام، وأنّها لعَظَمتِها كافيةٌ في مدح مَنِ اتّصف بها، والاهتمام به، وأيضًا لِدَفْعِ تَوَهُّمِ أنَّ عُقْبَى الدّارِ لا تَتَحَقَّقُ لَهُم إلّا إذا جَمَعوا كُلَّ هَذِهِ الصِّفاتِ[1].

لكلّ صفة فُضْلى قيمةٌ مستقلةٌ عُليا، تمتاز بها وتتحدّد

دلالة الإتيان بالفعل ﴿يَصِلُونَ﴾ بعد ﴿يُوفُونَ﴾:

دلّ الإتيان بصفة الوصل، بعد الوفاء بالعهد، في قوله: ﴿يُوفُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ﴾ ومقدِّمًا إيّاها على جملة الصّفات الأُخرى، دلّ على كونها أدخلُ الصّفاتِ في معنى الوفاء بالعهد، وأبرزُ وأخصّ ما يُعَبّر عنها، وهو من باب عطف الخاصّ على العامّ؛ وفيه بيانٌ لأهميّة هذا الخاصّ.

فائدة عطف الخاصّ على العامّ، وأثره في السّياق

سرّ اختيار الفعل ﴿يَصِلُونَ﴾ دون غيره:

في قوله تعالى: ﴿يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾، أوثِرَ التّعبيرُ بالوصل على غيره؛ لكونه أدلَّ على شِدّة الالتصاق والالتحام، بما أمر الله بوصله والالتزام به بلا محيدٍ عنه، ثمّ لكونه لفظًا شاملًا، يشمل معناه كلّ ما أمر الله به من حقوق النّاس بعضِهم على بعض،

التّعبير بلفظ (يَصِلون)، أدلُّ على التّمكّن وعلى العموم

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/126.

فيدخلُ فيه مِنَ التّفاصيل صلةُ الأرحامِ، وموالاةُ المؤمنين، والإيمانُ بجميع الأنبياء، وجميعُ حقوقِ النّاس، وسائرُ الأواصرِ والعلائق الّتي أمرَ اللّه بالمودّة والإحسان لأصحابها[1].

بلاغة الاستعارة التّبعيّة:

مُجمَلُ البرّ بالنّاس، مشمولٌ في كلمة الوصل، ومستوعبٌ فيها

في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾، دلّتِ الاستعارةُ التّبعيَّة في قوله: ﴿يَصِلُونَ﴾ على كافة أنواع القُرْب مِنَ النّاس، والإحسانِ إليهم، والتّلَطّفِ في معاملتهم، ومُراعاةِ حقوقِ اللّه فيهم؛ بمنحِهم حقوقَهم وعدمِ هضمِها، فالوصلُ في حقيقته يكون للأشياء المحسوسة، ومجازًا في غير المحسوس.

دلالة التّعبير بـ ﴿مَآ﴾ دون (الّذي):

لا تفريقَ في الطاعة بينَ أوامر الله، فكلُّ قطعيِّ الدّلالة، واجبُ التّطبيق

دلّ التّعبيرُ بـ ﴿مَآ﴾ دون (الّذي) في قوله تعالى: ﴿مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾ على شُمول المأمورِ به وعمومِه، دونَ تعيين أمر معيّن، حتّى يَعُمّ جميعَ وجوهِ الصّلة مِنَ الأرحام والقرابات، ويدخلَ فيه وصلُ قرابةِ رسولِ اللّه ﷺ، وقرابةِ المؤمنين الثّابتةِ بسبب الإيمان بالإحسان إليهم، ونصرتِهم، والذّبِّ عنهم، والشّفقةِ عليهم، والنّصيحةِ لهم، إلى غير ذلك مِن وجوه الصّلة[2].

دلالةُ جملة الصّلةِ:

المدحُ بالوصل إطنابًا وتعريضًا، مِن فصيح البيان

وإنّما أطنب مادحًا في التّعبير عن صفة الوصل، فقال: ﴿مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾، ولم يكتف بقول: ﴿مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ﴾؛ لما في الصّلة مِنَ التّعريض بأنَّ واصِلَها آتٍ بما يُرضي اللّه، ففيها ثناءٌ على المؤمنين، بأنّهم يصلون الأرحام، وأنّهم لم يقطعوا أرحامَ قومِهم المشركين، إلّا عندما حاربوهم وناوَؤوهم.

---

(1) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/186، والشّهاب الخفاجيّ، عناية القاضي: 5/224، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/127.

(2) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 8/503.

وفي هذا الإطناب أيضًا تمهيدٌ للانتقال بالثّناء على المؤمنين بوصلهم الأرحامَ، إلى ما ورد في الآية التّالية مِنَ التّعريض بالمشركين الّذين قطعوا أواصرَ القرابةِ بينَهم وبينَ رسول الله ﷺ؛ ومَن معه مِنَ المؤمنين، وأساؤوا إليهم في كلّ حال، وكتبوا صحيفةَ القطيعةِ مع بني هاشم[1].

دلالةُ التّعبير بالفعل ﴿أَمَرَ﴾ دون غيره:

مادّة الأمرِ دالّة على الحَتميّة بلا تأوّل

دلّ التّعبيرُ بمادّة الأمرِ دون صيغته، في قوله: ﴿أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾، على وجوب وصْل ما أمر الله بوصلِه، بحيث لا يحتمل شيئًا آخرَ إلّا الوجوب، أمّا التّعبيرُ بالصّيغة فهو قابل بالقرائن، إلى أن يَؤولَ بالنّدب أوِ الإرشاد.

سرّ التّعبير بلفظ الجلالة ﴿ٱللَّـهُ﴾، دون لفظ (الرّب):

كلّ الهيبة والجلال، في اسم (الله) ذي الجلال

دلّ التّعبير بالاسم الجليل ﴿ٱللَّهُ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ﴾، على الهَيْبة والجلال؛ ليكون التّعبير به أدعى إلى التزام ما أمر الله بوصله.

دلالة التّعبير بالضّمير ﴿بِهِۦٓ﴾:

زيادة تقرير المقصود بالوصل، في سياق الجملة

دلّ التّعبير بالضّمير المجرور، في ﴿بِهِۦٓ﴾، بحيث لم يكتفِ بقوله: ﴿أَن يُوصَلَ﴾، على زيادة تقرير المقصود بالوصل، وهو الأرحام وما في معناه، بعد تقريره بالموصوليّة[2].

دلالة المصدر المؤوّل بدلًا مِنَ الصّريح:

أفضل الأعمال ما دام واتّصل، لا ما انقطع وانفصل

في إيثار المصدر المؤوّل ﴿أَن يُوصَلَ﴾، على المصدر الصّريح (بوصله)، فائدةٌ مترتّبة على المضارع ﴿يُوصَلَ﴾، وهي إفادة تجدّدِ النّشاطِ للوصل، لو اعتراه مِنَ العوائق ما يقطع استمرارَه[3]، أو مِنَ الصّوارف والشّواغل ما يُثَبّط الهِممَ نحوَه.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/127.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/128.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/329.

دلالة عطف جملة ﴿وَيَخْشَوْنَ﴾، على ما قبلها:

عطف العامّ على الخاصّ للاهتمام بالخاصّ

الوصل المطلوب هنا هو جزء من خشية اللّه، وداخلٌ فيها، وذلك مِن عطف العامّ على الخاصّ؛ اهتمامًا بشأن الخاصّ في إفراده بالذِّكر، وكأنّه قد أمر به مَرّة بالأمر الخاصّ، ومَرّة بإدراجه ضمن الأمر العامّ بالخشية.

سرّ التّعبير بلفظ (الخشية) دون غيره:

لا يُخشى إلّا العظيمُ، وهو الأحقّ بالخشية والتّعظيم

عبّر في الإخبار عنِ الممدوحين بصفة الخشية للّه، وليس بوصف الخوف أو غيره؛ إيغالًا في مدحهم بأنّهم لعلمهم بعَظَمة ربّهم، وتهيّبهم لجلاله، فهم ﴿وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾؛ لأنّ الخشية: هي الخوف مع العِلْم بعَظَمة المَخْشي.

دلالة التّعبير بالمضارع ﴿وَيَخْشَوْنَ﴾:

أولو الألباب الموفون بعهد الله، خشيتُهم لله مُتجدّدة

دلّ التّعبير بالمضارع ﴿وَيَخْشَوْنَ﴾، على تجدّد خشيتِهم للّه تعالى، حتّى لوِ اعتراها ما يُعطّلها حينًا؛ فإنّهم ينشطون لها مِن جديد، فهو" كناية عنِ الاستمرار"[1].

دلالة التّعبير بالرّبوبية دون الألوهيّة:

خشيتك لربّك، من جملة نعمه عليك

وإنّما كان التّعبير هنا بالرّبوبية الدّالّة على الشّفقة والرّحمة والإنعام، دون التّعبير بالألوهيّة الدّالّة على الهيبة والجلال؛ للدّلالة على أنّ خشيتهم لربّهم هي مِن إنعام ربّهم عليهم، وإحسانه إليهم، حيثُ وفّقهم إلى معرفة مقامه، وتهيُّب جلالِه، فقَدَروه قَدْرَه حتّى استحقّوا بذلك أن تكون تلك الخشية مِن مسوّغات مدحهم. وممّا يضاف إلى ذلك، أنّ لفظ الخشية، يحمل معنى الخوف العظيم؛ فجاء التّعبيرُ بلفظ الرّبوبيّة ليُخفّف حِدّة هذا الخوف. كما أنّ من مقتضيات التّعبير بالرّبوبيّة - أيضًا - طمأنةُ الخاشين؛ بإعذار اللّه لهم، لو اعترض طريقَ خشيتِهم للّه ما يعوقه بعضَ الوقت؛ فإنّه

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/128.

سبحانه لا يعاجلهم بعقوبة، ولا يغلق في وجههم أبوابَ العَودة إليه؛ بل يواصل إحسانَه إليهم، حتّى يعودوا إلى صوابهم.

دلالة الإضافة، في قوله: ﴿رَبَّهُمْ﴾:

في إضافة ضميرهم إلى (ربّ)، ما يقتضي شرفَهم، فهي إضافة تشريف وتكريم.

شرف الإضافة إلى الرّبّ، وكفى به فخرًا

دلالة العطف في قوله: ﴿وَيَخَافُونَ﴾:

في قوله تعالى: ﴿وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ﴾، نلحظ في ذِكْر جملة: ﴿وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ﴾، وعطفِها استقلالًا على جملة: ﴿وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾، وعدمِ إدراجها ضمنًا في قوله: ﴿وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾، ما يدلّ على المغايرة بينَ مضمون الجملتين، ومع هذه المغايرة فقد جمعوا بينَ هاتين الصّفتين، المتفرّعةِ إحداهما مِنَ الأُخرى تفرّعَ الخاصّ مِنَ العامّ، فإذا كانت خشيتُهم لربّهم تعني مهابتَهم له، وتعظيمَهم إيّاه، فإنّ خوفهم مِن عقابه هو صفة أُخرى خاصّة، وإن كانت مِن لوازم الصّفة الأعمّ منها، وهي صفة الخشية لربّهم.

المغايرة بين معنى الجملتين المُتعاطفتين، تعميمًا وتخصيصًا

سرّ اختيار التّعبير بالفعل ﴿وَيَخَافُونَ﴾:

دلّ التّعبيرُ بالخوف مِن سوء الحساب، مغايرًا للتّعبير بالخشية مِنَ الرّب على اختلاف المقامين، فترجمةُ الخوفِ مِن سوء الحساب يوم القيامة، هو الالتزام بالتّكليفات، دونما زيادة مضرّة، أو مَنقَصَة مُخِلّة. أمّا الخشية؛ فترجمتُها التّعظيمُ والمهابةُ للّه؛ لأنّه اللّه المُسْتَحِقّ لذلك، قبلَ النّظر إلى ثواب، أوِ الوجلِ مِن عقاب.

الالتزام بالتّكليفات، بوّابة الأمن يوم القيامة

دلالة التّعبير بالمضارع:

دلّ التّعبير بالمضارع في ﴿وَيَخَافُونَ﴾، على استمرارهم على طاعاتهم، وتجدّد نشاطهم حينًا بعد حين، حذرًا مِن عقاب يوم القيامة.

فضيلة الخوف من عقاب الله، في المداومة عليه

سرّ تقديم الخشية على الخوف:

مِن أسرار تقديمِ الخشية على الخوف، في قوله تعالى: ﴿وَيَخْشَوْنَ

الخشية أصل، والخوف فرع

﴿رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ﴾، أنّ الخشية مِنَ اللّه أصلٌ، والخوفَ مِن عقابه فَرْعُه، ولا وجودَ للفرع استقلالًا عن وجود الأصل.

سرّ اختلاف متعلّق الخشية والخوف:

التّعبير بالخشية دالٌّ على مهابة متعلّقها بخلاف متعلّق الخوف

إنّما جَعَل متعلّق الخشيةِ ﴿رَبَّهُمْ﴾، ومتعلّقَ الخوفِ ﴿سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ﴾، دون العكس؛ لما مضى ذِكْره مِن أنّ الخشية تعني: العِلْمَ بعظمة المَخشيّ لتَهَيُّبِه، وهو مناسبٌ لأن يكون متعلّقه ﴿رَبَّهُمْ﴾، ولمّا كان متعلّق الثّانية - وهو ﴿سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ﴾ - أقلَّ مكانة مِن سابقه، فقد ناسبه التّعبيرُ بالخوف.

سرُّ اختيار التّعبير بلفظ ﴿سُوٓءَ﴾:

السّوء ما يسوء الإنسان، وإن كان عند غيره خيرًا

أوثِرَ التّعبيرُ بلفظ ﴿سُوٓءَ﴾، في قوله تعالى: ﴿سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ﴾، دون أن يستخدم تعبيرًا آخر، مثل: (شرّ الحساب)؛ لأنّ التّعبير به هنا هو الأدلّ، فليس كلّ ما يَسوء يُسَمّى شرًّا، فقد يسوء الإنسانَ - مثلًا - قلّةُ الثّواب، أو عدمُ بلوغِ كمالِ المُراد، مع كونه ليس شرّا.

سرّ ذِكر كلمة ﴿سُوٓءَ﴾، دون الاكتفاء بـ (يخافون الحساب):

من دوافع العمل النّصُّ على الجزاء

سرّ التّنصيص على هذا الوصف ﴿سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ﴾؛ كونه تحذيرًا يحمل الدّافعَ لهم إلى ترك العمل السّيء، الّذي قد يؤول بهم إلى سوء الحساب.

دلالة حذف المضاف (يوم) وإبقاء المضاف إليه ﴿ٱلْحِسَابِ﴾:

سوءُ الحساب بتقدير الله، يكون شديد اللّأواء والعذاب

الحساب في الأصل العدّ، ثمّ أُطلق على عدّ الأشياء التّي يُراد الجزاءُ عليها أو قضاؤها، فصار الحسابُ يُطلق على الوفاء بالحَقّ، يقال: حاسبه، أي: كافأه أو دفع إليه حَقّه، ومنه سُمّي يومُ القيامة يومَ الحساب[1]، فهي تسمية دالّة على العدل والوفاء بالحَقّ، وهو اسم مدح.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/249.

وعليه، فلو قال: (سوء يوم الحساب) لجعل للعدل سوءًا، فلا يستقيم المعنى، ولا يتّفق ومقصودَ تسميةِ يوم القيامة بـ (يوم الحساب)، بما يحمله مِن معنى العدلِ، المقتضي المدحَ، كما سُمّي مدحًا أيضًا بـ (يوم الدّين) أي: يوم الجزاء. وخصوصًا أنّ السّياق في الآية مسوقٌ لمَدح الّذين يخافون ﴿سُوٓءَ ٱلۡحِسَابِ﴾، أي: ما يَحتفّ به ممّا قد يسوؤهم، لا أنّه هو نفسُه يسوؤهم، ولذلك لمّا اختلف السّياقُ وكان المقامُ مقامَ ذَمّ للمُخْبَر عنهم، صرّح فيه باليوم فقال: ﴿وَقَالُواْ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبۡلَ يَوۡمِ ٱلۡحِسَابِ ١٦﴾ [ص: 16]، وقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدُۢ بِمَا نَسُواْ يَوۡمَ ٱلۡحِسَابِ ٢٦﴾ [ص: 26].

دلالة التّعبير بـ ﴿ٱلۡحِسَابِ﴾، دون العقاب:

أوثِر التّعبيرُ بـ ﴿ٱلۡحِسَابِ﴾ دون العقاب، في قوله: ﴿سُوٓءَ ٱلۡحِسَابِ﴾؛ لأنَّ المقصود به ما يسوء الإنسان متزامنًا مع الحساب، وليس شرطًا أن يكون ما يسوء عقابًا، فقد يسوء الإنسانَ ما لم يبلغه مِن مراتب الكمالِ الّتي كان يطمح في الوصول إليها، وإن كانت تُعَدُّ عند غيره - ممّن لم يكن له نفس طموحه - مِنَ المَكرُمات، وأيضًا: هو أنّ العقاب نتيجةُ الحساب.

الحساب لا يعني العقابَ، ولكلّ منهما مسلكٌ وباب

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيّةُ:

الخشية والخوف:

لا شكّ أنّ بينَ الكلمتين تقاربًا دلاليًّا، فهما من بابٍ واحد، ومِن شِدّة التّقارب بينهما ظُنّ أنّ بينهما ترادفًا، وقد فُرِّق بينهما بما يلي:

الخشية أبلغُ دلالةً مِنَ الخوف، وأقرب إلى المقصود في السّياق

أولاً: قيل: إنّ الخشية أعلى مِنَ الخوف، وهي أشدّ أحوالِ الخوف، فإنّها مأخوذة من قولهم: شجرةٌ خشيَةٌ، أي: يابسة، وهو فواتٌ بالكليّة. والخوف من قولهم: ناقةٌ خَوْفاء، أي: بها داء، وهو نقصٌ وليس بفوات؛ ولذلك خُصّتِ الخشيةُ بالله، في قوله تعالى: ﴿وَيَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلۡحِسَابِ﴾.

ثانيًا: وفُرِّق بينهما أيضًا بأنّ الخشية تكون مِن عِظَم المُختَشَى، وإن كان الخاشي قويًّا. والخوف يكون مِن ضعف الخائف، وإن كان المَخوفُ أمرًا يسيرًا[1].

ويدلّ لذلك أنّ (الخاء والشّين والياء) في تقاليبها، تدلّ على العظمة، نحو: شيخ: للسّيّد الكبير، وخَيْش: لما غَلُظَ مِنَ اللّباس، ولذا وردتِ الخشية غالبًا في حَقّ اللّه تعالى، نحو قوله تعالى: ﴿مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِۖ﴾ [البقرة: 74] وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْۗ﴾ [فاطر: 28].

قال السّيوطيّ: "وأمّا قوله تعالى: ﴿وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ﴾ ففيه نُكْتَةٌ لطيفة، فإنّه في وصف الملائكة، ولمّا ذَكَر قوّتَهم وشِدَّة خَلْقِهم عبّر عنهم بالخوف، لبيان أنّهم وإن كانوا غلاظًا شدادًا، فهم بين يديه تعالى ضعفاءُ، ثمّ أردفه بالفوقيّة الدّالّة على العَظَمة، فجمع بينَ الأمرين، ولمّا كان ضعف البشر معلومًا، لم يحتج إلى التّنبيه عليه"[2]، فالملاحظ أنّ الاختلاف بينَهما، راجعٌ إلى اختلاف المقام فيهما؛ فعند إرادة إظهار ضعفِ الخاشي، كما في جانب الملائكة، قال: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾ [النحل: 50]، حتّى لا يتطرّق توهّمُ أنّ الملائكة أقوياءُ لا يَضْعُفون، وعند إرادة إظهار عظمة المَخشيّ، قال في جانب النّاس ﴿وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾؛ لأنّ ضعف الإنسان محسوس لا يحتاج إلى تنصيص[3].

(1) الكفويّ، الكلّيّات، ص: 428.
(2) السّيوطيّ، الإتقان في علوم القرآن: 2/363.
(3) الزّركشيّ، البرهان: 4/78 - 79.

﴿وَٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِمۡ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ وَيَدۡرَءُونَ بِٱلۡحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عُقۡبَى ٱلدَّارِ ٢٢﴾ [الرّعد: 22]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

مواصلة التّحفيز لصالح الأعمال، وكونها تدوم بالهمّة والمصابرة

لمّا كان الاستمرار على التّخلّق بعظيم الصّفات، وكريم الخلال في الآيات السّابقة، وكان للمداومة عليها ثقلٌ قد تضعف معه العزائمُ، وكان هذا كلّه يفتقر - بلا ريب - إلى الهِمَم العالية، والصّبرِ الجليل الجميل، جاءت هذه الآية: ﴿وَٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِمۡ﴾ لبيان ذلك.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱبۡتِغَآءَ﴾: الابتغاء (افتعال) مِنَ البغي، وقد غلب اختصاص هذه الكلمة للدّلالة على الاجتهاد في الطّلب، سواءٌ كان الطّلب محمودًا أو مذمومًا، وهو هنا مِنَ الابتغاء المحمود، أي: طلبًا حثيثًا في سبيل رضا ربّهم، وإخلاصًا له[1].

2) ﴿وَيَدۡرَءُونَ﴾: الدّرء: "الميل إلى أحد الجانبين"[2]، وأصل (دَرَأ) دَفْعُ الشَّيْءِ[3]، ومَن يميل إلى أحد الجانبين، فإنّه يدفع عنه. تقول: قوّمتُ دَرْأَهُ، ودَرَأْتُ عنه: دفعت عن جانبه[4]. ومعنى: ﴿وَيَدۡرَءُونَ﴾ أي: يدفعون. قال تعالى: ﴿وَيَدۡرَءُونَ بِٱلۡحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ﴾ أي: يدفعونها بها، ومنه أيضًا قوله تعالى: ﴿وَيَدۡرَؤُاْ عَنۡهَا ٱلۡعَذَابَ﴾ [النّور: 8]، أي: يدفع عنها الحَدّ.

(1) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحفّاظ: (بغي).
(2) الرّاغب، المفردات: (درأ).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (درى).
(4) الهرويّ، الغريبين في القرآن والحديث: 2/626.

3) ﴿عُقْبَى﴾: (الْعَيْنُ والقافُ والباءُ) أصْلانِ صَحيحانِ؛ أحَدُهُما: يَدُلُّ على تَأْخيرِ شَيْءٍ وإتْيانِهِ بَعْدَ غَيْرِهِ. والأصْلُ الْآخَرُ: يَدُلُّ على ارْتِفاعٍ وشِدَّةٍ وصُعوبَةٍ"[1]، وأصل العَقِبُ: مؤخَّرُ الرِّجل، ثمّ صار يُطلق على آخِر كلّ شيء، وما يتبقّى منه، فيقال لآخِر الشّهر: عقبه ... ، "والعُقْبُ والعُقْبَى يختصّان بالثّواب نحو: ﴿خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٤٤﴾﴾ [الكهف: 44]، وقال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾. والعاقِبةُ إطلاقُها يَختصّ بالثّواب نحو: ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [القصص: 83]، وبالإضافة قد تُستَعمل في العقوبة نحو: ﴿ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ﴾ [الرّوم: 10]، وقوله تعالى: ﴿فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِي ٱلنَّارِ﴾ [الحشر: 17]، ومعنى: ﴿عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ أي: عاقبتها الحسنة"[2].

❁ المَعْنى الإجْماليّ:

تقاطع الصّبر مع جميع الطّاعات، دليلٌ على أهميّته، وخصوصًا في الأزمات

ثمّ تواصِل الآياتُ مدحَ أولي الألباب، بتعديد صفاتهم، فكان منها: أنّهم الصّابرون على طاعة اللّه وعن معاصيه؛ إخلاصًا للّه وطلبًا لمرضاته، ومن مقتضيات هذا: أنّهم محافظون على صلاتهم، بكامل أركانها ومطلوباتها الظّاهرة والباطنة، ومُنفقون مِن أموالهم ما يُزكّيها فرضًا ونفلًا، سِرًّا وعلانيّةً، حسبما يكون الخير والأفضل، ويدفعون ما يقع منهم مِن زلّات وهَفَوات، بفعل حسنات تمحو أثَرَها، بالارتداع عنها وتذكير النّفس بسوء عاقبتها، إن كانت مُجرّد همٍّ لم يُتَرجَم إلى فعل، أو بالاستغفار والتّوبة منها بعد فعلها ووقوعها، أولئك الجديرون بدخول الجنّة وسكناها، ونِعمَ ما هي.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيّ:

دلالة عطف هذه الآية على ما قبلها:

العلاقة بين الأصل الأخلاقيّ وفرعه

في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ﴾، الواو عاطفة

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عقب).
(2) الرّاغب، المفردات: (عقب).

لجملة الصّلة، على قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ﴾، باعتبارها فرعًا مِن فروعها، وأثرًا مِن آثارها.

دلالة إعادة ذكر الموصول ﴿وَٱلَّذِينَ﴾:

إعادة الموصول محقّق لشرف الموصوف

أُعيدَ اسْمُ المَوْصولِ في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِمۡ﴾؛ تنويهًا بشأن ما في حيّزه مِن جملة الصّلة وما عطف عليها من صفات؛ لبيان أنّها بذاتها جديرةٌ بالاهتمام، وأنّها لعظمتها كافيةٌ في مدح مَنِ اتّصف بها والاهتمام به، وأيضًا: لِدَفْعِ تَوَهُّمِ أنَّ عُقْبَى الدّارِ لا تَتَحَقَّقُ لَهُم إلّا إذا جَمَعوا كُلَّ هَذِهِ الصِّفاتِ[1].

سرّ التّعبير بالصّبر وحذف متعلّقه:

العمل الجليل، يحتاج إلى الصّبر الجميل

دلّ قوله تعالى: ﴿صَبَرُواْ﴾ بعدما مضى من سرد صفات أولي الألباب، وما ألزموا أنفسَهم به من عبادات وأخلاق، على أنّه لا يقوى على المُداومة عليها، ولا يُلقّاها إلّا الّذين صبروا عليها، وصبروا عن أضدادها، وقد حُذِف متعلّق ﴿صَبَرُواْ﴾ لإفادة العموم، والمراد: صبروا على كلّ ما تكرهه النّفس مِنَ المصائب الماليّة والبدنيّة، وعمّا يخالف هوى النّفس مِن حُبّ الانتقام ممّن آذاه، ومِنَ العموم أيضًا ما يتعلّق بالتّكاليف الشّرعيّة، وما يتبعُ الالتزامَ بها من عقبات ومعوّقات.

دلالة التّعبير بالماضي ﴿صَبَرُواْ﴾:

بيان مكانة صفة الصّبر، وتمكّنها منهم

جاءت الصّلةُ بصيغة الماضي في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِمۡ﴾ لما يلي:

أوّلًا: التّنويه بشأن هذه الصّفة؛ لإظهار دورها في المحافظة على بقية الصّفات المذكورة؛ إذ جميعُها مُفتقِر إلى الصّبر؛ لضمان دوامِ الاستمرار عليها، فصِفةُ الصّبر متقدّمة في الوجود على بقيّة

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/126.

الصّفات السّابقة واللّاحقة، فكان مسوّغًا لاستئثارها بالتّعبير بصيغة الماضي دون سواها.

ثانيًا: أنّ ما تقدّم مِنَ الصّلات التّي جاءت بالمضارع قُصِد بها الاستصحابُ والتَّلَبُّس، أمّا هذه ﴿صَبَرُواْ﴾ فقد قُصِدَ بها تقدّمها على ذلك؛ لأنّ حصول تلك الصّفات مترتّبٌ على حصول الصّبر فيها، وتقدّمه عليها[1].

ثالثًا: ومِنَ المسوّغات - أيضًا - إفادةُ تحقُّقِها في المُخبَر عنهم، وتمكُّنِها مِن أنفسهم[2].

رابعًا: وكذلك لمّا كان اسمُ الموصول هنا في معنى اسم الشّرط، فقد ساغ التّعبير في الصّلة بالماضي، مخالفًا ما سبقه مِنَ التّعبير بالمضارع، "لأنّ الماضي كالمضارع في اسم الشّرط، فكذلك فيما أشبهه"[3].

سرّ التّعبير بالابتغاء دون ﴿وَجْهِ رَبِّهِمْ﴾:

أولـو الألـبـاب، وطَرقُ الأبواب

الابتغاءُ هو الاجتهادُ في الطّلب، والنّصب فيه إمّا على الحال، أي: طالبين وجهَ اللّه ورضاه، أو على المفعول لأجله، أي: أنّهم صبروا لأجل أن يجتهدوا في طلب رضى ربّهم، فيكون الابتغاء هنا برزخًا بين صبرهم وبلوغهم رضا ربّهم، من حيث إنّ هذا الاجتهاد في الطّلب هو المَدخل الّذي سيحقّق لهم رضا ربّهم، لما فيه مِن طَرْق الأبواب، الّذي يتبعه إفاضةُ الوَهّاب عليهم بالرّضا والقَبول والتّوفيق. وقد قيل[4]:

أَخْلِقْ بِذي الصَّبْرِ أَنْ يَحْظَى بِحاجَتِهِ *** ومُدْمِنِ القَرْعِ لِلْأَبْوابِ أَنْ يَلِجا

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 13/141.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/17، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/128.

(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/134.

(4) البيت لمحمد بن بشير البصري الخارجيّ، ينظر: ابن قتيبة الدينوري، الشعر والشعراء: 2/867.

بلاغة التّعبير بقوله: ﴿وَجۡهِ رَبِّهِمۡ﴾:

بيان الاحتراس في الآية الكريمة، بين المعنى والغرض

ليس التّعبير بقوله: ﴿وَجۡهِ رَبِّهِمۡ﴾، من قبيل الصّفة الإلهيَّة، وإنّما المقصود به: "الْجِهَةُ الَّتي تُقْصَدُ عِنْدَهُ تَعالَى بِالْحَسَناتِ لِتَقَعَ عَلَيْها الْمَثوبَةُ، كَما تَقولُ: خَرَجَ زَيْدٌ لِوَجْهِ كَذا"[1]، وليس من جهةٍ يكافئها الله بالحسنات إلّا الجهةُ المرادُ بها وجهُ الله بالإخلاص له دون سواه، وبهذا انتفت سائرُ الجهات التي تُنافي الإخلاصَ لله في صبرهم، كالرّياء ونحوه.

فكانت هذه الجملة ﴿ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِمۡ﴾ احتراسًا دفعَ به توهّم أن يكون صبرُهم لأيّ سبب آخر غيرِ طلب ﴿وَجۡهِ رَبِّهِمۡ﴾؛ لأنّ الإنسان قد يُقدم على الصّبر لأغراض أُخَر:

أحدها: أن يصبر ليقال: ما أكملَ صبرَه، وأشدَّ قوّتَه على النّوازل.

ثانيها: أن يصبر لئلّا يُعابَ بسبب الجَزَع.

ثالثها: أن يصبر لِئلّا تحصُل شماتةُ الأعداء.

رابعها: أن يصبر لعلمه أن لا فائدة للجَزَع.

فكلّ هذه الوجوه لم تكن داخلة في الصّبر لابتغاء وجه الله[2].

سر التّعبير بالرّبوبيّة دون الألوهيّة:

النّعم من آثار الرّبوبية وتجليّاتها

في قوله تعالى: ﴿ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِمۡ﴾، عبّر باسم الرّبّ المُشعِر بالإنعام، وأضاف ضميرهم إليه، وآثره في التّعبير هنا دون الاسم الجليل (الله) المُشعر بالمهابة؛ لما أنّ المقام مقامُ إنعامٍ ومَنٍّ مِن ربّهم عليهم؛ إذ وفّقَهم للتّخلّق بأعظم الأخلاق، وأخصّ الصّفات، وأعانهم عليها بأن مَكّن في نفوسهم الصّبرَ، لدوام المحافظة عليها.

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/380.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 8/41.

دلالة العطف:

العلاقة التّكامليّة الوثيقة بين الصّبر والصّلاة

دلّ عطفُ قولِه: ﴿وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ على قوله: ﴿صَبَرُواْ ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِمۡ﴾ على مدى التّلازم، ووثاقة العلاقة بينَ الصّبر والصّلاة، وهو المُعَبّر عنه في مواضع أُخرى في القرآن، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلۡخَٰشِعِينَ ٤٥﴾ [البقرة: 45]، وقولِه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٥٣﴾ [البقرة: 153]، فالمحافظة على الصّلاة تحتاج إلى الصّبر، وهو كذلك يحتاج إلى محفِّز الصّلاة، ومِن ثَمّ كان النّبيّ ﷺ يَهْرَع إليها عندما تشتدّ عليه الأمور، فعن حذَيْفَةَ رضي الله عنه، قال: «كانَ النَّبي ﷺ إذا حَزَبَهُ أمْرٌ، صَلَّى»[1].

سرُّ ترتيب إقامة الصّلاة بعد الصّبر:

من أسرار التّرتيب بين إقامة الصّلاة وسابقها ولاحقها

رَتَّب في الذّكر الإخبارَ عن إقامتهم الصّلاة على الإخبار بصبرهم، وهو من عطف الخاصّ على العامّ؛ لأنّ إقامتهم الصّلاة هو أثَرٌ لصبرهم على طاعة الله، ثمّ قدّم في التّرتيب أيضًا الصّلاة على الزّكاة وما تلاها، إثْرَ الإخبار عن صبرهم؛ لما للصّلاة مِن حَقّ التّقديم والأسبقيّة المُطلقة على سائر العبادات، وذلك أنّ الصّلاة أهمّ أركان الإسلام بعدَ الشّهادتين، والمحافظةُ عليها خيرُ معين على المحافظة على ما بعدَها، كالزّكاة وغيرها، وخيرُ معين أيضًا على البُعد عمّا يُغْضِب الله تعالى، كما قال سبحانه: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۗ﴾ [العنكبوت: 45].

سرّ التّعبير بـ (إقامة الصّلاة)، دون أدائها:

لا يكفي في أداء الصّلاة إبراء الذّمة؛ بل إعلاء الهمّة

يحرص القرآن الكريم على الأمر بإقامة الصّلاة بصيغة الأداء؛ وذلك لأنّ المطلوبَ صلاةٌ تقوم على مراعاة الأركان الظّاهرة المعروفة، وكذلك الأركان الباطنة مِنَ الخشوع والخضوع الّذين

(1) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الصلاة، برقم: (1319).

يليقان بمقام المثول بين يدي ربّ العباد، وهذا كلّه لا يكفي فيه مجرّدُ الأمر بالأداء؛ من حيث إنّ المطلوب للصّلاة أداءٌ خاصّ تعلو به الهِمّة، لا أداءٌ تبرأُ به الذّمّة. وممّا يؤكّد ذلك أنّ اللّه تعالى لم يمدح إلّا المقيمين للصّلاة، في قوله تعالى: ﴿لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ مِنۡهُمۡ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَۚ وَٱلۡمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَۚ﴾ إلى قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ سَنُؤۡتِيهِمۡ أَجۡرًا عَظِيمًا ١٦٢﴾ [النساء: 162]، ولم يَرِد ذِكْر المُصلّي إلّا في حقّ المنافقين، قال تعالى: ﴿فَوَيۡلٞ لِّلۡمُصَلِّينَ ٤ ٱلَّذِينَ هُمۡ عَن صَلَاتِهِمۡ سَاهُونَ ٥﴾ [الماعون: 4-5]، وعلى هذا فالمصلّون كُثُر، والمُقيمون للصّلاة قليل.

دلالةُ التّعبير بالماضي في ﴿وَأَقَامُواْ﴾:

دلالة التّعبير بالماضي، في قوله: ﴿وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ دونَ المضارع، وهو الصّيغة السّائدة في الصّلاة الماضية؛ للتّنويه بشأن الصّلاة، وتمكُّنها في نفوسهم، وللدّلالة أيضًا على تحقّقهم بإقامة الصّلاة، والمحافظة على أدائها بكامل حقّها ومُستَحَقّها.

مِنَ الوفاء بعهد الله، التّحقّق بإقامة الصّلاة

سرّ التّعبير عنِ الزّكاة بالإنفاق:

دلّ التّعبيرُ بالإنفاق في الآية دون النّص على الزّكاة؛ ليشملَ الزّكاةَ وسائرَ مظاهرِ الإنفاق الواجبِ منه، كالإنفاق على العيال، والمندوبِ، كالوقف وصدقة التّطوّع.

في المال حقٌّ سوى الزّكاة، يتحقّق بالإنفاق في سُبُل الخيرات

دلالة التّعبير بالماضي في ﴿وَأَنفَقُواْ﴾:

دلّ التّعبير بالماضي في قوله: ﴿وَأَنفَقُواْ﴾ دون المضارع، على ما دلّ عليه إيثارُ الماضي على المضارع في ﴿صَبَرُواْ﴾ و﴿وَأَقَامُواْ﴾، وهو التّنويه بشأن صفة الإنفاق، والدّلالة على تحقُّقها فيهم، وتمكُّنها مِن نفوسهم وقلوبهم.

مِنَ الوفاء بعهد الله تحقُّق الإنفاقِ في سبيل الله

دلالة الجمع بين إقامة الصّلاة والإنفاق:

للجمع بين إقامة الصّلاة والإنفاق في الآية عهدٌ قرآنيّ، يدلُّ

معهود القرآن في الجمع بين الصّلاة والإنفاق

على اشتراكهما في قَدْر الأهميّة، وإن تقدّمت الصّلاةُ في هذا، كما يدلُّ على وثاقةِ الارتباط وقوّة العلاقةِ بينَهما، وتكاملِ دورهما في إبراز الصّورة التَّعبديَّة في الإسلام؛ فالصّلاةُ عبادةٌ روحيّةٌ بدنيّة، والإنفاق بالزّكاة وغيرِها عبادةٌ ماليَّة، وبهما تكتمل الصّورةُ، ولذا أخذ الصَّديق ﷺ من هذا الارتباط حُجَّةً ودليلًا على قتال مانعي الزّكاة، فقال: "واللّه، لأُقاتِلَنَّ مَنْ فَرَّقَ بَيْنَ الصَّلاةِ والزَّكاةِ، فَإِنَّ الزَّكاةَ حَقُّ الْمالِ"[1].

سرّ التّعبير بـ (مِنْ) التّبعيضيّة في الزّكاة:

الإنفاق المطلوبُ، يكون ببعض ما تملك لا بجميعه

دلّ التّعبير بـ (مِنْ) في قوله تعالى: ﴿وَأَنفَقُواْ مِمَّا﴾: على أنّ الإنفاق المطلوبَ إنّما يتحقّق بإخراج جُزء مِنَ المال المملوك، وليس كلّ المال، وهذا الجزءُ مُقدَّر معلومٌ في الزّكاة المفروضة، ونصيبٌ لا ينبغي أن يوقِع الضَّررَ بالمُنفِق، ولا بالمُنفَق عليهم في الإنفاق التّطوّعي، ولذا نُصّ على ألّا يتجاوزَ الثّلثَ فيما يتعلّق بالوصيّة[2]، وفي هذا دليلٌ على وسطيّة الإسلام وسماحته؛ لأنّه احترم الملكيّة الخاصّة للإنسان وحافظ على جهده وكسبه، ولم يجعله مشاعًا للكُسالى والمُتسوّلين.

دلالة الإتيان بـ (ما) دون (الّذي) في قوله: ﴿مِمَّا﴾:

تزكية المَحيز مِنَ المال، تتحقّق بالإنفاق منه

أوثِر التّعبير بـ (ما) الموصولة، دون (الّذي) في قوله: ﴿مِمَّا﴾؛ للدّلالة على عدم تعيين نوعٍ معيّن مِنَ المال المطلوب الإنفاق منه، فيشمل ما كان مالًا عينيًّا؛ كالذّهب والفضّة والنّقود المتداولة، ويَشْمَل غيرَها مما كان مِنَ الزّروع أو الماشية أو التّجارة ونحوها.

---

(1) أخرجه البخاري في صحيحه، برقم: (1335)، ومسلم في صحيحه، برقم: (20).

(2) لحديث سعد بن أبي وقاص ﷺ قال: كان رسُولُ اللهِ ﷺ يعُودُني عام حجّةِ الوداعِ مِن وجعٍ اشتدّ بي، فقُلتُ: إنّي قد بلغ بي مِن الوجعِ، وأنا ذُو مالٍ، ولا يرِثُني إلّا ابنةٌ، أفأتصدّقُ بِثُلُثي مالي؟ قال: «لا»، فقُلتُ: بِالشّطرِ؟ فقال: «لا». ثُمّ قال: «الثُّلُثُ، والثُّلُثُ كبيرٌ، أو كثيرٌ، إنّك أن تذر ورثتك أغنياء، خيرٌ مِن أن تذرهُم عالةً يتكفّفُون النّاس». أخرجه البخاري في صحيحه، برقم: (1233).

سرّ التّعبير بالفعل ﴿رَزَقْنَٰهُمْ﴾ دون غيره:

المالُ لله والعبد أمين عليه

في التّعبير بالرّزق في الآية منسوبًا إلى اللّه تعالى - بضمير العظمة (نا) - على أنّه فاعلُه في قوله: ﴿مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ﴾، تنبيهٌ للإنسان إلى أنّ ما في حَوْزته مِن مالٍ مملوكٍ له، إنّما هو مِن رزق اللّه إيّاه، وهو الذي وهَبَه له، وأنّه لم يَنَلْه بفرط ذكائِه، ولا لعلم عندَه قد حُرِمَه الخَلْقُ كافّةً، وأنّ اللّه تعالى قد جعله على هذا المالِ مُستَخلَفًا، فلينفقه في محلّه، فهو عنده أمانة. وعلى هذا دأبَ القرآنُ على تذكير الإنسان، بأنّ اللّه هو رازقه، ومنه قولُه سبحانه: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [يونس: 31]، وقولُه: ﴿أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [النمل: 64]، وغيرُها مِنَ الآيات الكثيرة في هذا السياق.

دلالة التّعبير بالماضي ﴿رَزَقْنَٰهُمْ﴾:

ما كان لك من رزق الله، حتمًا سيأتيك ولا يخطئك

دلّ التّعبير بالماضي في قوله: ﴿رَزَقْنَٰهُمْ﴾ دون المضارع، على تحقّق وصولِ كلّ رزقٍ مقدَّر إلى صاحبه؛ فهو له مضمون، وما عليه إلّا السَّعيُ والأخذُ بالأسباب في سبيل تحصيله، مع توكّلٍ صادقٍ على مُسَبِّب الأسباب، كما قال سبحانه: ﴿وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [الذاريات: 22].

سرُّ التّعبير بـ (نا) العظمة:

تنويع الصّيغ تنشيطٌ للسّامعين، وتنبيهٌ للغافلين

في العدول إلى التّعبير بـ (نا) العظمة دون لفظ الجلالة (اللّه) في قوله تعالى: ﴿رَزَقْنَٰهُمْ﴾، التفاتٌ مِنَ الغَيبة إلى التَّكلم، وسببُه التّنويه بشأنهم، مِن حيث إنّهم يُقرّون بأنّ ما لديهم مِن رزق إنّما هو مِنَ اللّه، وفيه أيضًا تنبيهٌ للغافلين الذين يظنّون أنّهم حازوا ما حازوه مِن رزق، لا لسببٍ غيرِ ذكائِهم وفطنتِهم وخبرتِهم، فشابهوا بذلك قارون حينَ قال: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾ [القصص: 78]، وفيه إشارةٌ إلى أنّ الإنفاق ينبغي أن يكون مِنَ الحلال المُطلق الّذي لا تشوبه شائبةٌ، حتّى يستحقَ هذه الإضافة.

دلالة ذكر ﴿مِمَّا﴾ بعد الفعل ﴿وَأَنفَقُواْ﴾:

الاهتمام بالمقدَّم، من أسباب التّقديم

في قوله تعالى: ﴿وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ﴾، قُدّم الفعل على ﴿مِمَّا﴾؛ لأنَّ الغرضَ الإخبارُ عن إنفاق المنفقين ومدحهم به، ولكن لمّا كان الاهتمام بالرّزق المنفَق منه تغلُّبا على شُحّ النّفس التي جبلت على الضَّنّ به، قال: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [البقرة: 3، الأنفال: 3، الحجّ: 35، القصص: 54، السّجدة: 16، الشّورى: 38]، وسِرّ ذلك أنّه حيثما تكون دائرةُ الاهتمام؛ فثَمّ التَّقديم.

سرّ التّعبير بالسّرّ في قوله ﴿سِرًّا﴾ دون (خفاءً):

شرف المقصد وتحقيق الغايات، محدّد الإسرار أو الإعلان بالصّدقات

الملحوظ في تركيب الآيات التي تتكلّم عنَ الإنفاق في القرآن الكريم، وتحثُّ عليه وترشد إلى طريقته؛ أنَّها تُقابل السّرّ فيه بالعلانية: ﴿سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ [البقرة: 274 ، الرّعد: 22 ، إبراهيم: 31 ، فاطر: 29]؛ وذلك لأنّ السّرّ معناه: كتمانُ الحديثِ عنِ النَّفقة في النَّفس[1]، وذلك حيث يكون هذا السّرّ أفضلَ مِن مقابله وهو العلانيَةُ، أي: الإعلان بها والتَّحَدّث عنها، والعبرة في الإسرار بالإنفاق أو الإعلان راجعٌ إلى تحقيق الغاية وشرفِ المَقْصِد، فقد يكون الإسرارُ بها أفضلَ وهو الأصل، وقد يكون الإعلانُ بها هو الأفضل، إن وجد هنالك مسوّغ مشروعٌ، ومقصدٌ شريفٌ منشود.

أمّا الخفاء، فلا يناسب هنا إلّا مِن حيثُ المعنى العامّ، وليس هو المعنى الأدقّ للتّعبير عمّا جاء في هذا السّياق، وذلك أنَّ الآياتِ الّتي استخدمت صيغة الإخفاء يظهر عليها أنّها متّجهة إلى ذات الصّدقة أو النّفقة، وليس إلى الحديث عنها، وهو معنى متحصّل من معنى الخفاء، إذ هو: ما يستر به كالغطاء[2] ومُتَحصّل أيضًا من مقابلتها بالإبداء - وهو الكشف والإعلان - في قوله تعالى:

(1) الرّاغب، المفردات: (سرر).
(2) الرّاغب، المفردات: (خفي).

﴿إِن تُبۡدُواْ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِيَۖ وَإِن تُخۡفُوهَا وَتُؤۡتُوهَا ٱلۡفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۚ﴾ [البقرة: 271].

سرُّ اختيار ﴿وَعَلَانِيَةً﴾ دون ظاهرة:

في القرآن مقابَلٌ بالعلانيّة، والظّاهر مقابَلٌ بالباطن

عادة القرآن الكريم في الحديث عن الإنفاق: مقابلة السّر بالعلانية كما مضى؛ لأنّ المراد بهما كتمانُ الحديث عنه أو إعلانُه، وأمّا الظّاهر في القرآن فهو مقابَلٌ بالباطن، وليس بالسّرّ، ومنه قوله سبحانه: ﴿وَأَسۡبَغَ عَلَيۡكُمۡ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةٗ وَبَاطِنَةٗۗ﴾ [لقمان: 20].

بديع الطّباق:

المقابلة بين السّر والعَلَن، وأثرُها في الإيضاح والبيان

في المقابلة بينَ السّر والعَلَن في قوله تعالى: ﴿وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ﴾، طباقٌ لفظيٌّ، "والمقصودُ تعميم الأحوالِ في طلب الإنفاق، لكيلا يظنّوا أنّ الإعلانَ يَجُرّ إلى الرّياء، كما كان حال الجاهليّة، أو أنّ الإنفاق سَرًّا يُفضي إلى إخفاء الغنيّ نعمةَ الله، فيَجُرُّ إلى كُفران النّعمة، فربّما توخّى المَرءُ أحدَ الحالين، فأفضى إلى تَرْك الإنفاق في الحال الآخر، فتعَطّل نفعٌ كثيرٌ، وثوابٌ جزيل، فبيّن الله للنّاس أنّ الإنفاق بِرٌّ لا يُكَدّرُه ما يَحُفّ به مِنَ الأحوال"[1]، فالسّرُّ حيثُ يَحْسُن السّرّ، كما في إنفاق مَن لا يُعْرَف بالمال، إذا خشيَ التُّهمَة في الإظهار، أو مَن عُرِف به لكن لو أظهره ربّما دخلَه الرّياء والخُيلاءُ، وكما في الإعطاء بمن تمنعُه المروءةُ مِنَ الأخذ ظاهرًا، وتَحْسُن العلانيةُ إذا كان الأمرُ على خِلاف ما سبق ذكره، ولذلك قال بعضُ العلماء: "إنَّ السّرّ مخصوصٌ بالتَّطوع، وإنّ العلانيَةَ بأداء الواجب"، وقيل لبيان ذلك: إنّ السّرّ ما يؤدّيه بنفسه، والعلانيَة: ما يُؤدّيه إلى بيت المال، أو بيتِ الزّكاة في أيّامنا[2].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/233.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 13/141.

دلالة التّنكير:

الإنفاق يكون في السّر والعلن، وفي كلِّ خير

دلَّ التَّنكير في لفظي: ﴿سِرًّا﴾ و﴿وَعَلَانِيَةً﴾ على شُيوع خيريَّة الإنفاقِ في الحالتين، طالما كان القصدُ شريفًا؛ كما دلَّ على مشروعّيته في عموم الحالتين.

دلالة البَدء بالسّر:

الإنفاق في السّر هو الأصل، ما لم يكن الإعلانُ به أفضل

في قوله تعالى: ﴿وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾، قُدّم السّرُّ على العلانيّة في الآية؛ للدّلالة على أنّه الأصل في الإنفاق؛ لما فيه مِن بُعْدٍ عن تهمة الرّياء والتَّصنُّع، وأنَّ الإعلان بها هو الطّارئ عندما يبدو أنّه الأفضلُ لمقصدٍ شرعيّ.

دلالة عطف ﴿وَيَدْرَءُونَ﴾:

مِن صفات أولي الألباب دَفْعُ السّيّئات بالحسنات

هذه الصّفة عُطِفت على ما سبق، عطفَ الخاصّ على العامِّ؛ تنويهًا بشأنها؛ وذلك أنّهم لا يستمرئون السّيّئة ولا يَفْرَحون بها، ولذلك فهم لا يُشْفِعونها بسواها، وإنّما يدفعونها بالحسنة، كإزاحة الهَمّ بها والعُدولِ عنها إن لم تقع، والإقلاعِ عنها، والاستغفارِ منها إن وقعت، وقد قال اللّه تعالى في ذلك: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ ۚ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾﴾، [المؤمنون: 96]، وقال: ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾ [فصلت: 34].

ومن أسرار ذكرِ هذه الصّفة بعد الصّفات السّابقة مع كونها داخلةً فيها ومتضمّنة، الدّلالةُ على أهميّتها في تكفير السّيّئات التي يقع فيها الإنسان، وهو عُرضة لهذا بمقتضى تكوينه البشريّ، وبمقتضى أحوال الحياة التي توجب على الإنسان الاحتكاكَ والالتحامَ ببني جِنسه، فيُعَرّضُه هذا للوقوع في السّيّئات واللَّمَم.

سرّ اصطفاء ﴿وَيَدْرَءُونَ﴾ دون (يدفعون):

السِّرُّ في اختيار كلمة ﴿وَيَدْرَءُونَ﴾ دون (يدفعون)؛ لشمولها كافّةَ المعاني المحتملة في معنى مدافعة الحسنة للسّيّئة وتكفيرِها،

كالعُدول عنِ السّيّئة بعد العزم عليها، والاستغفارِ منها، وأيضًا مقابلة الإساءة بالإحسان، بأن يصل مَن قَطَعَه، ويعطيَ مَن حَرَمه، ويعفوَ عمّن ظَلَمَه، وذلك فيما بينَ الأفراد، وكذلك بين الجماعات، بخلاف ما لو عُبّر بالدَّفع، فقد لا ينصرف معناه إلّا إلى هذا المعنى الأخير، وهو مقابلة الإساءة بالإحسان، وهو مفهوم قوله تعالى: ﴿ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ ٱلسَّيِّئَةَۚ نَحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ٩٦﴾ [المؤمنون: 96]، وقولِه: ﴿وَلَا تَسۡتَوِي ٱلۡحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُۚ ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٞ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٞ ٣٤﴾ [فصلت: 34][1].

كلمة (يدرءون) مِنَ الألفاظ الجامعة لكلّ معاني المُدافعة

سرّ العدول عن الماضي إلى المضارع:

عدل عنِ الماضي إلى المضارع في قوله: ﴿وَيَدۡرَءُونَ﴾؛ لإفادة تجدّد النّشاط نحو مدافعةِ كلّ ما يعرض لهم مِن سيّئات، وهو أمرٌ لا شكّ مُتكرّر، لما مضى تعليلُه مِن كونه مِن مقتضى الطّبيعة البشريّة، ولما تُلجِىء إليه ظروفُ الحياة ومعاملةُ الخَلْق، وكلّ ذلك يحتاج إلى دواءٍ لعلاج هذه الأمراض المجتمعيّة؛ فكان قوله: ﴿وَيَدۡرَءُونَ بِٱلۡحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ﴾ هو الدّواء النّاجع الجامع لعلاجها.

المداومة على صفة المدافعة، من مقتضى الطّبيعة البشريّة

بلاغة الاستعارة:

في قوله تعالى: ﴿وَيَدۡرَءُونَ﴾ استعار الدَّرء، ومعناه: الدّفع والطّرد؛ لإزالة أثرِ السّيّئة ومحوِها حتّى لكأنها لم تقع. ووسائل هذا الدّفع لتحقيق إزالة الأثر ظاهرةٌ فيما يلي[2]:

الدّرء هو الدّفع والطّرد؛ لإزالة أثر السّيّئة ومحوِها

أولًا: أن تُتبِع السّيّئة إذا صدرت بفعل الحسنات؛ فإنّ ذلك كطَرْد السّيّئة، قال ﷺ: «يا أبا ذَرّ، اتّق اللّه حيثما كنت، وأتبِعِ السّيّئةَ الحسنةَ تمحها»[3]، وخاصّة فيما بينَه وبينَ ربّه.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/130.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/130.
(3) أخرجه الترمذي في سننه، برقم: (1987) وقال: حسن صحيح، والحاكم في المستدرك، برقم: (178)، وقال: صحيح على شرطهما، ووافقه الذهبي.

ثانيًا: ألّا يقابل مَن فعل معه سيّئةً بمثلها؛ بل يقابل ذلك بالإحسان، قال تعالى: ﴿ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٞ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٞ ٣٤﴾ [فصلت: 34]، وهذا يكون بين الأفراد وبين الجماعات.

ثالثًا: العدول عن فعل السّيّئة بعد العزم عليها؛ فإنَّ ذلك العدولَ حسنةٌ، قال ﷺ: «ومَن هَمّ بسيّئة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة»[1].

بلاغة الطّباق:

استخدام المقابلة لتبشيع صورة السّيّئة

بينَ الحسنة والسّيّئة طباقٌ لفظيٌّ إيجابيٌّ، حيث قوبلت كلٌّ مِنَ الحسنة والسّيّئة بالأُخْرَى، وهي ضِدُّها، والغرض: هو تبشيع صورة السّيّئة في الأذهان، - بمقابلتها بالحسنة - ؛ تنفيرًا منها، وحضًّا على ضِدِّها، وهي الحسنة.

دلالة الإفراد في الحسنة والسّيّئة:

الموفون بعهد الله، لا تتكاثر سيّئاتهم

دلّ الإفرادُ دون الجمع في لفظي السّيّئة والحسنة، في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ﴾ [هود: 114] على سرعة سعي الممدوحين في تكفير ما يصدر عنهم من مخالفة، بإتباعها بحسنةٍ تمحو أثرَها، وأنّهم لا ينتظرون حتّى تتراكمَ عليهم السّيّئاتُ؛ فيَألَفَها القلبُ، وتعتادَها النَّفسُ، فيُجَدّدون لكلّ سيّئة توبةً واستغفارًا وعملًا صالحًا، حتّى تُمْحَى ولا يكون لها أثرٌ، وقد تتبدّل بصدق التّوبة إلى حسنة، كما قال سبحانه: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلٗا صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمۡ حَسَنَٰتٖۗ﴾ [الفرقان: 70].

دلالة موقع ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عُقۡبَى ٱلدَّارِ﴾:

عند الله جزاء الإحسان بالأحسن، ولهم الحسنى وزيادة

وهذه الجملة الخبريّة تحمل نتيجة الاتّصاف بما سبق من صفات، بأنّ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الموفون بعهد الله، الموصوفون بما ذُكِر ﴿لَهُمۡ

(1) أخرجه البخاري في صحيحه، برقم: (6126)، ومسلم في صحيحه، برقم: (131)، عن ابن عباس رضي الله عنهما.

﴿عُقۡبَى ٱلدَّارِ﴾، فهو جزاؤهم الّذي يستحقّونه، بما سلف منهم مِن أعمال صالحة.

دلالة فصل ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عُقۡبَى ٱلدَّارِ﴾ عمّا قبلها:

شبهُ كمالِ الاتّصال مُعبرًا عن بلوغ الآمال

قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عُقۡبَى ٱلدَّارِ﴾ استئناف مسوق لبيان جزائهم؛ فكأنَّ سائلًا سأل: بعد ذكر صفاتهم الحسنة: ما جزاؤهم؟ فجاءت الإجابة: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عُقۡبَى ٱلدَّارِ﴾، وهذا المعنى لا يتأتّى بإثبات حرف العطف؛ لذلك كان الفصلُ أبلغَ.

دلالة التّعبير باسم الإشارة:

المنزلة السّامية حقّ للمتّصفين بالصّفات العالية

دلّ التّعبيرُ باسم الإشارة للبعيد ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾، على بُعْد منزلتهم في الخير بما اتّصفوا به مِن أوصاف، وعلى بُعْد منزلتهم في الجنّة، وأنّهم في مكان منها شريفٍ منيفٍ، وللإشارة إلى تميّزهم عن غيرهم مِنَ المؤمنين أكملَ تمييز.

دلالة تقديم الجارّ والمجرور على المبتدأ:

من دلالات تقديم المؤخّر إفادة القصر

أفاد تقديمُ الجارّ والمجرور ﴿لَهُمۡ﴾ على المبتدأ ﴿عُقۡبَى ٱلدَّارِ﴾ القصرَ والحَصْرَ، على معنى: أنَّ هؤلاء وحْدَهم هم الحَقيْقون بـ ﴿عُقۡبَى ٱلدَّارِ﴾. "أي: هي لهم، لا للمُتّصفين بأضداد صفاتهم، فهو قصرٌ إضافيٌّ"[1].

سرّ التّعبير عن الجزاء، بقوله: ﴿عُقۡبَى ٱلدَّارِ﴾:

دلالة كلمة (عقبى) على خير الجزاء

عَبَّر عنِ الجزاء المُعَدّ لهم في الجنّة بقوله: ﴿عُقۡبَى ٱلدَّارِ﴾؛ لما فيه مِنَ الدّلالة على الخير، فالعُقبى والعاقبة قدِ اشتهر استعمالُهما في آخرة الخير، وعلى هذا جرى الاستعمال القرآنيّ، ومنه قوله تعالى: ﴿تِلۡكَ ٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ نَجۡعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فَسَادٗاۚ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ ٨٣﴾ [القصص: 83].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/130.

سرّ اختيار ﴿عُقۡبَى﴾ دون العاقبة:

المقابلة هي سرّ تغليب عقبى على العاقبة

و(العُقبى) و(العاقبة) وإن كانت بمعنًى، إلّا أنّه آثَرَ ﴿عُقۡبَى﴾ دون العاقبة، كما في قوله: ﴿وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ ١٢٨﴾ [الأعراف: 128]؛ لمقابلته بقوله في الآية الآتية: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعۡنَةُ وَلَهُمۡ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾.

سرّ التّعبير بلفظ ﴿ٱلدَّارِ﴾:

الرّاجح في المراد بالدّار، أنّها الجنّة؛ لأنّها سكنٌ دائمٌ وقرار

عبّر بالدّار دون غيرها؛ لأنّها تحتمل معنيين؛ فتُطلق على دار الدّنيا، ويكون المرادُ بقوله: ﴿عُقۡبَى ٱلدَّارِ﴾ الخاتمةَ الّتي خُتِمت بها هذه الدّار، وهي عمل كلّ عاملٍ فيها؛ فمن عمل خيرًا كانت عاقبتُه خيرًا، ومَن عمل سوءًا كانت عاقبتُه بلاءً ونَكالاً، وهذا المعنى مبنيٌّ على أنّ معنى (العاقبة): خاتمةُ كلِّ أمرٍ وغايتُه، ويؤكّد هذا قولُه تعالى: ﴿لَهُمۡ عُقۡبَى ٱلدَّارِ﴾ بإضافة العاقبة لهم، ولم يجعلها عليهم، بمعنى: أنّ هذه العاقبةَ ممّا يملكها الإنسانُ ويحرِصُ على اقتنائها إذا كانت خيرًا، ويَنفُر منها ويولّيها ظَهْرَه إذا كانت شَرًّا، ولكنّها تُحمَل عليه حملًا، قال تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَعَلَيۡهَا مَا ٱكۡتَسَبَتۡۗ﴾ [البقرة: 286][1]. وتُطلق ﴿ٱلدَّارِ﴾ على الجنّة، ويكون التّعبير بها لما في لفظها من إفادة القرار؛ لأنّ ﴿ٱلدَّارِ﴾ سكنٌ وقرارٌ لا خُروجَ بعدَه، قال تعالى: ﴿وَمَا هُم مِّنۡهَا بِمُخۡرَجِينَ ٤٨﴾ [الحجر: 48]، وهذا المعنى هو الرّاجح في المراد بـ ﴿ٱلدَّارِ﴾، يُؤكّد ذلك قولُه تعالى: ﴿جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۖ﴾، فهي بمثابة البيان لهذه الدّار.

دلالة الإضافة في: ﴿عُقۡبَى ٱلدَّارِ﴾:

الجنّة هي عقبى الدّار، للصّالحين الأبرار

الإضافة في قوله: ﴿عُقۡبَى ٱلدَّارِ﴾، هي مِن إضافة الصّفة إلى الموصوف، وهي دالّة على تمكّن الصّفة مِن موصوفها تمكّنًا تامًّا، فالعقبى الخيرُ أو الحسنةُ، هي الوصفُ الثّابت للجنّة، فكلّها خيرٌ

(1) عبد الكريم الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 5/104.

بلا شَرٍّ، وصَفْوٌ بلا كَدَرٍ. والدّار هي الآخِرةُ، ويمكن أن تكون دارَ الدّنيا، وعقباها على كلٍّ هي الجنّة؛ لأنّها مستَقَرُّ الصّالحين، وآخِرُ ما يَؤوبون إليه، ليبدأ فيها نعيمُهم.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيّةُ:

الابتغاء والطّلب:

إذا جدّ الطّلب كان ابتغاءً، وبينَ اللّفظين تقاربٌ دلاليّ شديد

في المعاجم اللُّغويَّة يُعَرّف كلٌّ منهما بما يُعَرّف به الآخرُ، وذلك لتقاربهما الدّلاليِّ الشّديد، قال ابن فارس في بيان معنى الطلب: "(الطّاءُ واللّامُ والباءُ) أصْلٌ واحِدٌ يَدُلُّ على ابْتِغاءِ الشَّيْءِ"[1]، وكذلك في بيان معنى الابتغاء قيل: هو الطلب. يقال: "بَغَى الشَّيءَ يَبْغيه: طَلَبَه"[2]، لكن يُفَرّق بينَهما بأنّ الابتغاء هو نوع مخصوص مِنَ الطّلب، فهو الطّلب الذي بُذِلَ في سبيل تحصيله جهدٌ مميَّزٌ، وليس كذلك كلّ طلبٍ، "فالابتغاء افتعال مِنَ البغي. وقد غلب اختصاصُ هذه الكلمة للدّلالة على الاجتهاد في الطّلب، سواءٌ كان الطّلب محمودًا أو مذمومًا. ثمّ إنّه يُحْمَد بحمده، ويُذَمّ بذمّه؛ أي: إنّ الطّلب متى كان لشيء محمود فالابتغاء فيه محمود، ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ۝٢٨﴾ [الإسراء: 28]، ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: 265]، ومنه أيضًا الآية التي معنا: ﴿وَٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ﴾، ومتى كان الطّلَبُ مذمومًا، كان الابتغاء فيه مذمومًا، كما في قوله سبحانه: ﴿لَقَدِ ٱبْتَغَوُاْ ٱلْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ﴾ [التوبة: 48][3]، وعلى هذا يكون بينَ الطّلب والابتغاء عمومٌ وخصوصٌ مُطلَق، فكلُّ ابتغاءٍ طلبٌ، وليس كلُّ طلبٍ ابتغاء.

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (طلب).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (بغو).
(3) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحفّاظ: (بغي).

السّر والإخفاء:

السّرُّ خِلافُ الإعلان، وهو يعني: إخفاء الشّيء. يعني: السّرُّ والإخفاء مِن جنسٍ واحد، لكنّ القرآن عادةً يَذْكُر السّرَّ مُقابَلًا بالإعلان، ومنه قوله: أي: يُخرجون صدقاتِهم في السّرّ والعلن حسبما يكون الخير، أي: إنّهم قد يتحدّثون بها، وقد لا يتحدّثون، على ما مضى في الإيضاح البلاغيّ، كما أنّ مِن خصائص السّرّ أيضًا أنّه يُستَعمل في الأعيان والمعاني، ولذلك يُطْلَق على الحديث المُنكَتم في النّفس[1]، وأكثرُ استعمالِه في القرآن في المعاني، بخلاف الإخفاء، فاستعمالُه في المحسوسات ملحوظٌ، كما تقول: "أخفيتُ الدِّرْهَمَ في الثَّوْب"[2]، ولا تقول: أسررتُه، وتقول: ساررتُه الخبرَ، لا خافيتُه. فمِثلُ هذا يقال له: سِرٌّ أو إسرار، ولا يقال له: خَفاء أو إخفاء، ومِن هذا الضّرب قولُه تعالى: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ سِرَّهُمۡ وَنَجۡوَىٰهُمۡ﴾ [التوبة: 78]، وقولُه: ﴿وَأَسِرُّواْ قَوۡلَكُمۡ أَوِ ٱجۡهَرُواْ بِهِۦٓۖ﴾ [الملك: 13]، والإخفاء وإن كان هو والسّر مِن باب واحد، غيرَ أنَّ السِّرَّ أخصُّ منه؛ لأنّه يدلّ على الانكتام، وأمّا الخفاء فهو أقلّ مِنَ السّرّ دلالةً، ويُعَبِّرُ عن هذا الفرق قولُه تعالى: ﴿فَإِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخۡفَى ٧﴾ [طه: 7]، فلمّا كان الخفيّ أقلَّ معنًى مِنَ السّرّ، قارن السّرّ في المقايسة، بما هو أرقى، فكان الأرقى هو (الأخفى)، وليس الخفيّ. وقد لخّصَ الكَفَويُّ الفرقَ بينَهما بقوله: "السِّرُّ: هوَ ما يُكْتَم؛ كالسّريرة والجِماع والذِّكر والنِّكاح والإفصاح بِهِ، والزِّنا ... ، وما يُسِرُّه المَرْءُ في نَفسه مِن الْأُمور الَّتي عزم عليها هو السِّرّ، وأمّا الْإِخْفاء، فَهوَ الَّذي لم يبلغْ حَدّ العزيمة[3].

السّرُّ يقوم بالإرادة، والخفاء بالعادة، وكلّ إعلان ظهور، وليس كلّ ظهور إعلانًا

(1) الرّاغب المفردات: (سرر).
(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 287.
(3) الكفويّ، الكلّيّات، ص: 514.

العلانية والظّهور:

الظُّهور يكون بِقصد وبِغير قصدٍ، تَقول: استتر فلانٌ ثمَّ ظهر، ويدلّ هَذا على قصدٍ للظّهور، ويُقال: ظهرَ أمرُ فلانٍ، وإن لم يقْصد لذَلِك، فَأمّا قَوْلُه تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ [الرّوم: 41]، فَمَعْنَى ذَلِك: الْحُدوث، وكذلكَ قَوْلك: ظَهرت في وجهه حمرَةٌ، أي: حدثت، ولم يَعْنِ أنَّها كانَت فيهِ فظهرت[1]. ويأتي (ظهر) في القرآن مقابلًا لـ (بطن)، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ [الأنعام: 151]، وقولِه: ﴿وَذَرُوا۟ ظَٰهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓ﴾ [الأنعام: 120].

الظُّهور بقصدٍ وبغير قصدٍ في الأعيان والمعاني، الإعلانُ بقصد وأكثرُه في المعاني

وأمّا العلانيةُ، فهي ضِدّ الإسرار، وتأتي مقابلةً لها في القرآن كما مضى ذكرُه، وهو يدلُّ "على إظْهارِ الشَّيْءِ"[2]، أي: بقصد، كما أنَّ أكثره يكون في المعاني دون الأعيان[3]، كما في قوله تعالى: ﴿أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ۝٩﴾ [نوح: 9]. وعلى هذا: فالفرق بينهما، أنَّ الظُّهور يكون بقصدٍ وبغير قصدٍ، والإعلانُ يكون بقصد، كما أنَّ الظُّهور يكون في الأعيان والمعاني، والإعلانُ يكون أكثرُه في المعاني.

متشابه النّظم بين آية [الرّعد: 22]، و[القصص: 54]:

قوله تعالى: ﴿وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾، تشابهت هذه الآية مع قوله تعالى من سورة القصص: ﴿وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٥٤﴾ [القصص: 54]. والنّاظر في هاتين الآيتين يجد اختلافًا بينهما مع وجود التّشابه، وذلك مِن ناحية التّقديم والتّأخير، والتّعبير عنَ الإنفاق بالماضي في سورة الرّعد، وبالمضارع في سورة القصص،

الآيتان تتشابهان، مع اختلاف في التقديم والتأخير، والذّكر والحذف

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 287.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (علن).
(3) الرّاغب، المفردات: (علن).

ومِن ناحية الذِّكْر والحَذف، حيثُ ذُكِر ﴿سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ في سورة الرّعد، ولم تُذْكَر في سورة القصص.

أمّا عن سرّ التقديم والتأخير بين الآيتين؛ فالنّاظرُ في موضع القصص يجد أنّ السّياق فيها أكثرُ تعلُّقًا بالمستقبل، وكان دَرءُ الحسنة والسّيّئة أكثرَ تعلّقًا بالصّبر، لذلك ناسبه التّقديم، بخلاف سورة الرّعد؛ فالأمر مبني فيها على ترتيب الأوصاف دون النّظر إلى تعلّقها بالزّمن.

وأمّا عن سِرّ التّعبير بالماضي في قوله: ﴿وَأَنفَقُواْ﴾ في سورة الرّعد، فجاء موافقًا لسياق الآية، حيث بُنيَت على التَّعبير بالماضي في قوله: ﴿صَبَرُواْ﴾ و﴿وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾، ومِنَ المعلوم أنَّ الإنفاق أكثرُ تعلّقًا بإقامة الصّلاة؛ لذلك جاء التّعبير ماضيًا، مِن باب التّناسق مع سياق الآية، بخلاف موضع القصص فهو مبنيٌّ على المستقبل، بدليل قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ﴾ [القصص: 54]؛ فالتّعبير هنا يُشير إلى المستقبل، لذلك جاء بالمضارع من قوله: ﴿يُنفِقُونَ﴾ [القصص: 54].

وأمّا عن ذِكْره لقوله: ﴿سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ في سورة الرّعد دونَ القصص؛ فذلك لأنّ سورة الرّعد ذَكَرت صفةَ الإخلاص في أعمالهم بقوله: ﴿ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ﴾، والإخلاصُ يقتضي أن يكون الإنفاق سِرًّا كالإنفاق علانية، بخلاف موضع سورة القصص، فَخَلا منه الحديثُ عن ذِكْر هذه الصّفة صراحةً؛ لأنّها سَرت في سياق الآيات قبلَها، بدليل قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُواْ﴾ [القصص: 54].

﴿جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَدۡخُلُونَ عَلَيۡهِم مِّن كُلِّ بَابٖ ٢٣﴾ [الرعد: 23]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

العلاقة بين عقبى الدّار، وبين جنّة القرار، حيث الأنس بالأخيار

لمّا أخبر اللّه تعالى في الآيات السّابقة أنّ المُتّصفين بما مضى تفصيلُه مِن صفاتٍ لهم عقبى الدّار، وهو لفظٌ مجمل، أتى بعد ذلك بما يفصّله ويُبيّنُه في هذه الآية، فقال: ﴿جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا﴾.

ولمّا كان التَّنَعُّم بعقبى الدّار لا يكمُل إلّا بوجود الأحباب والأُنس بصالحيهم وبالقائمين على المكان، قال: ﴿يَدۡخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَدۡخُلُونَ عَلَيۡهِم مِّن كُلِّ بَابٖ﴾.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿صَلَحَ﴾: أصلُ (صلح) يدلُّ على خِلاف الفساد، والصَّلاحُ: ضِدّ الفساد، وهما مختصّان بالأفعال في أكثر الاستعمال، وقوبل الصّلاح في القرآن تارةً بالفساد، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَاۚ﴾ [الأعراف: 85] وتارةً بالسّيّئة، كما في قوله تعالى: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعۡتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمۡ خَلَطُواْ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَءَاخَرَ سَيِّئًا﴾ [التّوبة: 102][1]. والمراد في الآية: الصّالحون الّذين يعملون الصّالحات ولا يفسدون، مِن آبائهم وأزواجهم وأبنائهم.

2) ﴿وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۖ﴾: الذَّرْءُ: إظهارُ اللّه تعالى ما أبداه، يقال: ذَرَأ اللّه الخَلْقَ، أي: أوجدَ أشخاصَهم، و"(الذّالُ والرّاءُ والهَمْزَةُ) أصْلانِ؛ أحَدُهُما: لَوْنٌ إلى الْبَياضِ، والآخَرُ كالشَّيْءِ يُبْذَرُ ويُزْرَعُ"[2]. وفي اشتقاقها ثلاثة أقوال: قيل هو من: ذرأ اللّه الخلق، فتُرِك هَمْزُه،

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (صلح).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ذرأ).

نحو: رَويّة وبَريّة. وقيل: أصلُه ذرويّة. وقيل: هو فعليّة مِنَ الذّرّ، نحو: قمريّة، ويُطلَق لفظُ الذُّرّية في الأصل على: الصّغار مِنَ الأولاد، وإن كان قد يقع على الصّغار والكبار معًا في التّعارف، كما في قوله تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾﴾ [يس: 41]، ويستعمل للواحد والجمع، وأصلُه الجمع[1]. والمقصود به في الآية: الأبناء لا غير؛ لقرينة النّص على الآباء في الآية.

❁ المَعْنى الإجْماليّ:

التّنويع في مظاهر التّنعيم، في جنّات النّعيم

بيّنتْ هذه الآيةُ الجزاءَ المُعدَّ في الآخرة لأولي الألباب، الّذين سبقت صفاتهم بحسن عاقبة الدّارِ، الّتي هي الجنّةُ العاليةُ ذاتُ القطوف الدّانية، الّتي يستقرّون فيها بلا انقطاع، ومعهم - زيادةً في تنعيمهم وأُنسهم - الصّالحون مِن أهلهم المُقرّبين، وهم آباؤهم وأمّهاتُهم وأزواجُهم وأولادُهم، وفوقَ هذا يدخل الملائكةُ عليهم مِن كلّ جهة ومنزلٍ لهم في الجنّة؛ للسّلام والتَّحية، والتّهنئة بدخول الجنّة.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيّ:

دلالة فصل قوله: ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ﴾ عمّا قبله:

كمال الاتّصال بين هذه الجملة وما قبلها، وأثره في المعنى

دلّ الفصل في قوله: ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ﴾، عمّا قبلَه على كمال الاتّصال بينهما؛ لأنّه إمّا أن يكون بدلًا مِن قوله: ﴿عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾، أو بيانًا له، فعقبى الدّار هي ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ﴾.

سرّ التّعبير بالجمع دون الإفراد:

جمع الجنّات بسبب تعدُّدها، توازيًا أو ترقّيًا

التّعبير بالجمع في ﴿جَنَّٰتُ﴾ دون الإفراد (جنّة)؛ مُشْعِرٌ بأنّهم يتنقّلون في عقبى الدّار بينَ عددٍ مِنَ الجنّات؛ إمّا على سبيل التّرقّي، أو بالتّوازي في نفس الوقت، ويساعدُه قولُه تعالى بَعْدُ: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾.

(1) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (ذرو).

ويحتمل أن يكون الجمعُ بسبب تَعَدّد الدّاخلين فيها مِن أهل الصّلاح من أهلهم؛ سواء بالأصالة أو بالشّفاعة، إذ هم عدد كما يُنبئ عنه قولُه: ﴿وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ﴾، وقد لا يكونون في مستوى واحد مِنَ الصّلاح يُؤهِّلُهم لأن يكونوا جميعًا في جنّة واحدة، ولكن في جنّات متفاوتةِ الدّرجات، ويكون الأنسُ بينَهم بالتّزاور في الجنّات. وممّا يؤكّد ذلك أنّ الجنّات سبعٌ، وفى كلّ واحدة منها مراتبُ ودرجاتٌ متفاوتةٌ، على حسب تفاوت الأعمال وأصحابِها، فَلِكُلّ طبقةٍ منهم جَنّة مِن تلك الجنّات.

دلالة وصفها بـ ﴿عَدْنٍ﴾:

جنّة عدن للمتّقين، خلودٌ ونعيمٌ واستقرارٌ للمؤمنين

دلّ وصفُ الجنّات بـ ﴿عَدْنٍ﴾ على استقرارهم فيها منعّمين، بحيث لا يعتريهم فيها ما ينغّصُهم ولو كان قليلًا، وأيضًا لمناسبة معنى ﴿عَدْنٍ﴾ للمقام؛ فالعَدْنُ هو الإقامة والاستقرار، يقال: عَدَن بمكان كذا، إذا استقرّ، ومنه المَعْدِن لمُسْتَقَرّ الجواهر، أي: جنّات يُقيمون فيها، فهذا الوصف يَدُلّ على الاستقرار المُطْمَئِنّ لأهل الجنّة.

سرّ التعبير بالفعل ﴿يَدْخُلُونَهَا﴾ دون (يسكنونها):

أوّل مطالعة الخير، أقوى لحظات السّعادة

أوثِرَ التّعبير بـ ﴿يَدْخُلُونَهَا﴾ دون (يسكنونها)؛ لأنّ أبهجَ حالاتِ الإنسان تكون عند مطالعة ما يُسْعِدُه أوّلَ مَرّة؛ فتلك لحظةٌ لا تُنسَى، فإذا طال العَهْدُ بالسّكنى توطّنتِ النّفسُ على ما أَلِفَتْهُ، فتُصبِحُ السّعادةُ والبَهْجَةُ عادةً وطبيعةً، ولا تكون على درجتها في الحالة الأولى، ولأنّ السُّكنى لا تكون إلّا بعد الدّخول، فهي مرحلة تاليَة بعدَ الدّخول.

دلالة التّعبير بالمضارع:

ميزَةُ الجنّة أنّ نعيمَها مُتَجدّد، غيرُ مقطوع ولا ممنوع

في قوله تعالى: ﴿يَدْخُلُونَهَا﴾ عبَّر بالمضارع لاستحضار حالةِ البَهْجَة المُتَجدّدة، وهذا في حَدّ ذاته مِن مظاهر التّنعّم.

دلالة الواو في ﴿وَمَن صَلَحَ﴾:

إكرام أهل الجنّة بمعيّة مَن يُحبّونهم ويُؤنِسونهم مِنَ الصّالحين

الواو في قوله: ﴿وَمَن صَلَحَ﴾ واو المَعيّة، وفي التّعبير بها دلالةٌ على "زيادة الإكرام، بأن جعل أصولَهم وفروعَهم وأزواجَهم المُتأهِّلين لدخول الجنّة لصلاحهم، في نفس الدّرجة الّتي هم فيها؛ فمَن كانت مَرتبتُه دونَ مراتبهم لَحِقَ بهم، ومَن كانت مرتبتُه فوقَ مراتبهم لَحِقوا هم به، فلهُمُ الفضل في الحالَين"[1]، وقد تكون دلالةُ المَعيّة في أصل دخول الجنّة، وإن تفاوتت الدّرجات.

سِرّ التّعبير بـ ﴿وَمَن﴾ دونَ (الّذي):

يلحق بأهل الجنّة كلّ الصّالحين مِن أهلهم

أوثِرَ التّعبيرُ بـ ﴿وَمَن﴾ دون (الّذي) في قوله: ﴿وَمَن صَلَحَ﴾؛ لإفادته العموم، حيثُ يَلْحَق بهم كلُّ مَن صَلَح مِن أهلهم، ولا يتأتّى ذلك مِنَ التّعبير بـ (الّذي)؛ لأنّه يُلْمَح منه التّخصيصُ.

سِرُّ اختيار فعل ﴿صَلَحَ﴾:

الصّلاح مَطلَبٌ نبيلٌ، ويكون اقترانُه دائمًا بالإيمان

اختيرَ التّعبيرُ بالصّلاح دون غيره؛ لأنّ الصّلاح اسمٌ عامٌّ يُطلَق على ما يُضادّ الفسادَ، وعلى سلوك طريق الهدى، وهو مُختصّ بالأعمال[2]، ولذلك يقترن عادةً في القرآن الكريم ﴿ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [البقرة: 25]، فكان في التّعبير به دلالةُ ما يتضمَّنُه مِن عموم عملِ الصّالحات، والبُعْدِ عمّا يُضادُّها مِنَ المُفسِدات والمُنكرات. كما أنّ النّص على الصّلاح والتّقيّدَ به، فيه "قطعٌ للأطماع الفارغة، لِمَن يتمسّك بمُجَرّد حَبلِ الأنساب"[3]؛ لأنّ مجرّد القرابة دون عملٍ صالح يُسوِّغ الدّخولَ في أصل الجنّة، غيرُ كافٍ في الإلحاق، لكنّها تُفيدُ في التّرقّي بشفاعة أقاربهم مِن أهل الجنّة، حيثُ يُراد إكرامُ الشّافعين.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/131.
(2) الرّاغب، المفردات: (صلح)، الكفويّ، الكلّيّات، ص: 561.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/18.

سِرُّ التّعبير بالماضي ﴿صَلَحَ﴾:

رسوخ صفةِ الصّلاح، مِن دلائل المَبرّة والفلاح

في التّعبير بالماضي ﴿صَلَحَ﴾، دلالةٌ على تحقّقهم بالعمل الصّالح، وتَمَكُّنِهم منه، ورسوخِ صفة الصّلاح في كلّ ما يصدر عنهم، مِن قول أو فعل.

دلالة عطف الآباء والأزواج والذّرّيّة على أهل الجنّة:

بيان علوّ شأن أهل الجنّة، وكرامتهم على ربّهم

دلّ عطفُ الآباء والأزواج والذُّرّية على أهل الجنّة في قوله: ﴿جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۖ﴾، على عُلوّ شأن أهلِ الجنّة وكرامتِهم على رَبّهم، مِن حيثُ إنّ اللّه تعالى يُلْحِق بهم الصّالحين مِن أهليهم الّذين كانوا يَحْتَفونَ بهم في الدّين، وكانوا يُؤْنِسونَهُم، وبهم يعتزّون ويَتَقوّون، وإن لم يكونوا - أي: الأتباع - في نفس رُتبتِهم مِنَ الفضل؛ لكنّهم يُلْحَقون بهم إكرامًا لهم وتفضُّلًا، كما قال سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلۡحَقۡنَا بِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ﴾ [الطور: 21].

سرّ التّرتيب في الآية:

مراعاة التّرتيب الوجوديّ، في سياق الآية الكريمة

النّاظر في ترتيب هذه الأصناف: ﴿ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۖ﴾، يَجدُ أنّه قدَّم الأقدمَ وجودًا، ومَن كان السّببُ في غيره، فالآباءُ أوّلًا؛ لأنّهم السّببُ في وجودهم، ثمّ ذَكر أزواجَهم؛ لأنّهم معهم السّببُ في وجود ذُريّاتهم، ثمّ تأتي الذُّرّيّة أخيرًا باعتبارهم مُسَبَّبينَ عنهم.

دلالة التّعبير بالجمع:

الجمع في الأصناف لشُمول كلّ مَن حقّقوا الأوصافَ

الجمعُ في الآباء ليَشْمَلَ الأمّهاتِ، وفي الأزواج ليَشْملَ الزّوجاتِ المُتعدّدات، دونَ تمييزٍ بينهنّ إلّا مِن حيثُ وجودُ الصّلاح أو عدمُه، ثمّ الجمعُ في الذّرّيّة؛ ليَشْمَلَ كلَّ مَن صَلَحَ منهم، ذكورًا وإناثًا، وفيه إشارةٌ إلى سعة كرم اللّه تعالى على عباده، بتوسيع دائرة القرابة الصّالحة في الجنّة، وفيها بشارةٌ للمُطيع بكلِّ ما يزيدُه سرورًا

وبهجة؛ فإذا بشّر اللّه المُكَلفَ بأنّه إذا دخل الجنّة يحضر معه أهلُه، يعظُم سرورُه، وتَقْوَى بهجتُه، ولبيان أنّ مِن أعظم سرورِهم أن يجتمعوا، فيتذاكروا أحوالَهم في الدّنيا، ثمّ يشكرونَ اللّه تعالى على الخَلاص منها[1].

سرّ التّعبير عن النّساء بالأزواج:

الرّجل والمرأة زوجان، لا فردان، لما في الزّوجيّة مِن معنى التّكامل

يعبّر عنِ امرأة الرّجل بالزّوج، كما يُعبّر عنِ الرّجل أيضًا بالزّوج، فالمرأة زوج الرّجل، والرّجل زوج المرأة، مِن حيثُ إنّ كلّ واحد منهما كان فردًا قبلَ أن ينضمّ إليه الآخرُ ويقترنَ به، ثمّ صارَ زوجًا بهذا الاقتران. وهذا هو الأصل كما ورد في قوله تعالى: ﴿وَقُلْنَا يَـٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ﴾ [البقرة: 35]، وقوله: ﴿وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ﴾ [الأنبياء: 90]، ولا يقال: زوجة بالتّاء إلّا عند وجود اللّبس، ولم يذكر في القرآن بالتّاء مطلقًا. وفيه إشارةٌ إلى حَثّ النّساء على الزّواج؛ لتنالَ وصْفَ الزّوجيّة، الّذي لا يتأتّى إلّا بالزّواج، ويكون سببًا مع الصّلاح في نعيم الجنّة.

سرّ التّعبير عنِ الأبناء بلفظ ﴿وَذُرِّيَّـٰتِهِمْ﴾:

دلالة الذّرّيّة على الانتشار في البَرية

عبَّر عنِ الأبناء بالذّرّيَّة للدّلالة على انتشارهم وتَفرُّقِهم، كما ينتشرُ الذَّرُّ، فهو مأخوذ منه على قول[2].

دلالة ذكر هذه الأصناف دون التّعبير عنهم بالأهل:

التّفصيل دلالةٌ على الاستقلال في التّفضيل

لفظُ (الأهل) يشمل كلّ مَن يجمعُهُم نَسَبٌ، ومعهم الزَّوجاتُ أيضًا[3]، غيرَ أنّ القرآن الكريم آثَر التّفصيلَ؛ للدّلالة على أهميّة كلِّ فئةٍ، أهميّةً مستقلّةً، بحيثُ لا تَسُدّ فئةٌ منها مَسَدّ فئةٍ أُخْرى، فكلُّهم مطلوبون مَحْبوبون، وكلُّهم مِن وسائل نعيم أهل الجنّة، فلا تطيبُ الجنّة، ولا تحلو ببعضهم دونَ بعضٍ.

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 13/143.
(2) الزّمخشريّ، الفائق في غريب الحديث: (ذرو).
(3) الرّاغب، المفردات: (أهل).

سرّ عدم إعادة الفعل (يدخُلوُن):

ذِكْرُ الآباءِ والأزواجِ والذّرّيّات لا بالقَصْد، ولكن للتّبعيّة لأهل الجنّة

قوله: ﴿وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ﴾ الآية، معطوف على ضمير فاعل ﴿يَدْخُلُونَهَا﴾، والمعطوف مشترك مع المعطوف عليه في الحُكم، وتابعٌ له، ولأنّه كذلك لم يُعِدْ معه الفعلَ (يدخُلوُن)، وهذا من جهة الصّناعة النّحويّة، وأمّا مِن جهة البلاغة والتّركيب؛ فَعَدمُ إعادتِه راجعٌ إلى كون الآباء والأزواجِ والذّرّيّاتِ، ليسوا مقصودين في الخطاب، وذِكْرُهم إنّما ورد للتّبعيّة لأهل الجنّة، من حيثُ كونُ إلحاقِهم بهم مِن مُكَمّلاتِ نعيمِهم، وطيبِ عيشِهم في الجنّة، وللتّفريق بينَ ما كان أصلًا، وما كان تبعًا.

دلالة الواو في: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ﴾:

من وسائل التّنعيم دخولُ الملائكة عليهم، للتّرحيب والتّكريم

الواو في قوله: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم﴾ واو الحال، والجملة دالّة على التّرقّي في تنعيمِ أهل الجنّة، على معنى: أنّه فوق إلحاقِ أهلِهم بهم؛ لإسعادهم بالأُنس بهم، فإنَّ الملائكة - الّذين هم عباد الرّحمن المقرّبون منه، الطّائعون له أبدًا - زيادةً في إكرامهم ﴿يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم﴾، ونظيرُ هذا في الدّنيا: أن يرسلَ الملكُ وفدًا مِن كبار حاشيتِه، وأعظمِ المُقرّبين لديه، لاستقبال بعضِ ضيوفِه، والتّرحيبِ بهم، وتبشيرِهم، فلا غَرْوَ أنّه وسيلةٌ مُعَبِّرة عن عُلوّ مكانتِهم لَديه.

دلالة التّعبير بالجملة الاسميّة:

ثبوت دخول الملائكة عليهم للتّحيّة والإكرام والتّبجيل

التّعبيرُ بالجملة الاسميّة: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ﴾ يَدلّ على ثُبوت دخولِ الملائكةِ عليهم؛ للتّرحيب والتّحيّة والإكرام، ومِن كلّ باب، واستدامته بلا تَقَيّد بزمن.

دلالة التّعبير بالمضارع ﴿يَدْخُلُونَ﴾:

دلّ التّعبير بالفعل المضارع ﴿يَدْخُلُونَ﴾، في قوله تعالى: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ﴾ على تجدّد هذا الدّخول، والظّاهر: أنّه

مُتَرتّب على تَجَدُّد وفودِ الملائكة المُرَحِّبين بالمسلمين، على معنى: أنّه كلّما انتهى وفدٌ مِنَ الملائكة مِن مُهِمّته، يتبعُه وفدٌ آخر. والظّاهرُ: أن يكون لكلّ وفدٍ منهم خصوصيّةٌ في التّرحيب وتقديم الهدايا، وإلّا كان تكرارًا يدعو إلى السّآمَة، وهو خِلاف المقصود بلا شَكّ.

تجدّدُ دخولِ الملائكةِ على أهل الجنّة، واستمرارُه باطّراد

سرّ التّعبير بالفعل ﴿يَدْخُلُونَ﴾:

يبدو أنّ السِّرّ في التّعبير بـ ﴿يَدْخُلُونَ﴾، دون (يزورون)؛ لكونِ هؤلاء الملائكةِ لا يُطيلون المَقام، كما يفعل الزّائرُ، ولكنّهم فقط يدخلون عليهم للتّرحيب والسّلام والبِشارة، وسؤالِهم عمّا إذا كانوا يحتاجون شيئًا، كما يَفْعَل عادةً المَلِكُ بضيوفه مِن أهل الصّفوة، فإنّه يُسَخّر لهم مَن يَتَفَقَّدُ أحوالَهم، وكذلك للإشارة إلى فضل أهل الجنّة على الملائكة، ولو عبَّر بالفعل (يزورون) لكانتِ الملائكة هي الأفضل؛ لأنّها كانت ستحتاج إلى مَن يقوم على ضيافتهم منهم.

سببُ دخول الملائكة، التّرحيبُ والسّلامُ، لا طولُ المَقام

دلالة التّقديم والتّأخير:

دلّ تقديمُ الجارّ والمجرور ﴿عَلَيْهِم﴾، على قوله: ﴿مِّن كُلِّ بَابٍ﴾، على اختصاصهم بهذا، وقَصْره عليهم، فالملائكةُ يدخلون عليهم هم، لا على غيرهم، ممّن لا يتّصفون بصفاتهم.

قَصْرُ دخولِ الملائكة على الموصوفين بالصّفات المذكورة

بلاغة الكناية:

التّعبير بقوله: ﴿مِّن كُلِّ بَابٍ﴾ هو كناية عن كَثْرة غَشَيان الملائكةِ إيّاهم، بحيث لا يخلو بابٌ مِن أبواب مساكنهم لا تدخل منه ملائكةٌ؛ لكونه جالبًا لمَسَرّتهم، فكان كثيرًا في الأمكنة. ويفهم منه أيضًا كثرتُه في الأزمنة، فهو مُتكَرّر؛ لأنّهم ما دخلوا مِن كلّ باب، إلّا لأنَّ كلّ بابٍ مشغولٌ بطائفة منهم، فكأنّه قيل: مِن كلّ بابٍ في كلِّ آن[1].

غرض دخول الملائكة على أهل الجنّة، توخّي مسرّتهم وأنسِهم

سرّ التّعبير بلفظ ﴿كُلِّ﴾ دون (جميع):

أوثِرَ التّعبيرُ بـ ﴿كُلِّ﴾ دون (جميع)، في قوله تعالى: ﴿مِّن كُلِّ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/132.

بَابٍ﴾؛ لكونه مُفيدًا للاستغراق والشّمول، أمّا التّعبير بـ (جميع) وإن كان مِن صيغ العُموم كذلك، إلّا أنّه قد يكون أغلبيًّا لا مُسْتَغرِقًا، ولذلك لمّا أراد الله تعالى الاستغراقَ في قوله: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾ [يونس: 99]، وقوله: ﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ۝٣٠﴾ [الحجر: 30]، نصّ على (كلّ) قبلَ ﴿جَمِيعًا﴾ [يونس: 99] و﴿أَجْمَعُونَ ۝٣٠﴾ [الحجر: 30].

الدّخول من كلّ الجهات، وعَبْرَ كلِّ الأبواب، يُفيدُ الاستغراقَ والشّمولَ

دلالة التّعبير بالإفراد ﴿بَابٍ﴾ دون الجمع (أبْوابٍ):

الّذي يظهر في هذا، أنّ المقصود كلُّ باب مُعَدٍّ لهم خصوصًا، وليس كلّ أبوابِ الجنّة، فلو قال: (أبوابها)، لأفهم أنّ المعنى: كلّ أبواب الجنّة، وهو غيرُ مقصود؛ إذِ المقصودُ أبوابُهم هُم في الجنّة. ويؤيّد هذا المعنى، الآثارُ الواردةُ في تحديد باب للصّائمين، لا يدخُل منه غيرُهم، وهو باب الرّيّان[1].

لكلّ فريق من أهل الجنّة أبوابٌ مخصوصة

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيّةُ:

الأبناء والذّرّيّة:

الأبناء والذّرّيّة مِن باب واحد، حيثُ يُطلقان على نسل الإنسان، مع فرقٍ سيذكر بَعدُ، قال ابن منظور: "الذّرّيةُ: اسْمٌ يَجْمَعُ نَسْلَ الإنسان مِنْ ذَكَرٍ وأُنثى، وأصلها الْهَمْزُ، لَكِنَّهُم حَذَفوهُ فَلَم يَسْتَعْمِلوها إلّا غَيْرَ مَهْموزَةٍ، وقيلَ: أصلها مِنَ الذَّرِّ، بِمَعْنَى: التَّفْريقِ؛ لأنّ الله تعالى ذَرَّهُم في الأرض"[2]. ويُفَرّق بينهما: بأنّ لفظ الذّرّيّة مِنَ الأضداد، بحيث يَجيء تارَةً بِمَعْنى الْأَبْناء، وتارَةً بِمَعْنى الْآباء، وليس كذلك لفظ الأبناء، وممّا جاء فيه لفظ الذّرّيّة بمعنى الآباء،

كلّ الأبناء مِنَ الذّرّيّة، وليس كلّ الذّرّيّة مِنَ الأبناء

(1) فعن سَهْلِ بن سعد ﷺ، عَنِ النَّبي ﷺ قَالَ: «إنّ في الجنّةِ بابًا، يُقالُ لهُ: الرّيّانُ، يدخُلُ مِنهُ الصّائِمُون يوم القيامةِ، لا يدخُلُ مِنهُ أحدٌ غيرُهُم، يُقالُ: أين الصّائِمُون، فيقُومُون، لا يدخُلُ مِنهُ أحدٌ غيرُهُم، فإذا دخلُوا أُغلِق، فلم يدخُل منه أحدٌ». أخرجه البخاريّ في صحيحه، برقم: (1797)، ومسلم في صحيحه، برقم: (1152).

(2) ابن منظور، لسان العرب: (ذرر).

قولُه تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾﴾ [يس: 41]، وممّا جاء فيه لفظُ الذّرّيّة بمعنى الأبناء، قولُ اللّه تعالى على لسان زكريّا عليه السلام: ﴿قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾ [آل عمران: 38]؛ كما أنّه أوسع مدًى، وأشمل مِنَ الأبناء؛ لأنّه يشمل أيضًا أولادَ البنات، ويُستَدلّ له بأنّ اللّه تعالى جعل سيّدنا عيسَى عليه السلام، مِن ذُرّية سيّدنا نوح وسَيِّدنا إبْراهيم عَلَيْهِما الصَّلاة والسَّلام، بِجِهَة الْأُمّ[1].

أمّا لفظ الأبناء فهو جمع ابن، وهو كلّ ما وُلِد ذكرًا، ولذلك قالوا: لا يتناول لغةً أبناءَ البنات، كما قالَ الشّاعِر[2]:

بَنونا بَنو أبْنائِنا وبَناتُنا *** بَنوهُنّ أبْناءُ الرِّجالِ الأباعِدِ

وعلى هذا فأولاد البنات مِنَ الذّرّيّة وليسوا مِنَ الأبناء.

ويُطلَق لفظُ الأبناء على كلّ ما ترتّب على غيره بالسّببيّة أو التّبعيّة أو المُلازَمة أو المشابهة، فيقال: ابنُ الصّحراء؛ لِمَن يداوم سلوكَها، وابنُ السُّرى؛ لِمَن يُكثِر مِنَ السّير ليلًا، وتقول: هو ابنُ فلان، بمعنى: أنّه منسوبٌ إليه، ولهذا يقال: النّاس بنو آدمَ؛ لأنّهم منسوبون إليه، وكذلك بنو إسرائيل؛ لأنّهم منسوبون إليه، وبناءً على ذلك: فالابن منظورٌ فيه إلى الاختصاص بالنّسب ومداومةِ المصاحبة، والذّرّيّة منظورٌ فيها إلى الخَلْق والكَثْرة والتّفرّق عن أصل واحد، وعلى هذا، فبين اللّفظين عمومٌ وخصوصٌ مُطْلَق، فكُلّ الأبناء مِنَ الذّرّيّة، وليس كلّ الذّرّيّة مِنَ الأبناء[3].

(1) الكفويّ، الكلّيّات، ص: 462.

(2) بيت مشهور، ذُكر في ديوان الحماسة، ولم ينسب إلى أحد، ينظر: المرزوقيّ الأصفهانيّ، شرح ديوان الحماسة، ص: 369.

(3) العسكري، الفروق اللّغوية، ص: 12، والرّاغب، المفردات: (ابن) و(ذرو).

﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ ٢٤﴾ [الرّعد: 24]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

تكملة مشهد المتّقين في الجنّة، وبيان التّبشير والإكرام مِنَ الملائكة الكرام

لمّا قال سبحانه في الآية السّابقة: ﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَدۡخُلُونَ عَلَيۡهِم مِّن كُلِّ بَابٖ﴾، بيّن في هذه الآية سببَ دخولهمُ الجنّة - بعد أن ذكر من قبلُ إلقاءَ التّحيّة عليهم، وتبشيرهم بسلامٍ دائم، يدوم بدوامهم في جنّات عدن - وهو صبرهم على طاعة اللّه، وعن معاصيه.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿صَبَرۡتُمۡۚ﴾: أصل (صبر) يدلُّ على الحبس والإمساك في ضيق، يقال: صَبَرْتُ الدّابّةَ: حبستُها بلا عَلَف، والصَّبْرُ لفظ عامّ، وهو حبسُ النّفسِ على ما يقتضيه العقلُ والشَّرع، وهو الصّبر على الطّاعة، أو حبسها عمّا يقتضيان حبسَها عنه[1]، وهو الصّبر عنِ المعصية. ومنه نوع ثالث: وهو الصّبر على البلايا والمصائب، وتعريفه: هو تركُ الشّكوى مِن ألم البلوى لغير اللّه، لا إلى اللّه[2]. وفي الآية: لفظ الصّبر يجمع المعانيَ الثّلاثةَ.

2) ﴿فَنِعۡمَ﴾: أصل (نعم) يَدُلُّ على تَرَفُّهٍ وطيبِ عَيْشٍ وصَلاحٍ، و(نِعْمَ) كلمةٌ تُسْتَعْمَلُ في المَدْحِ، كما تُستعمل (بِئْسَ) في الذَّمّ، يقال: إنْ فَعَلْتَ ذاكَ فَبِها ونِعْمَتْ، أي: نِعْمَتِ الْخَصْلَةُ هي. وقد وردت في القرآن الكريم في مقام المَدح، ومِن ذلك قولُه تعالى: ﴿نِعۡمَ ٱلۡعَبۡدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٞ ٣٠﴾ [ص: 30]، وقولُه تعالى: ﴿نِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ ٤٠﴾ [الأنفال: 40][3].

(1) الرّاغب، المفردات: (صبر).
(2) الجرجانيّ، التّعريفات، ص: 131.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (نعم).

❁ المَعْنى الإجْماليّ:

سلامُ الملائكة على أهل الجنّة، وتبشيرُهم بحُسْن العاقبة، كِفاءَ صبرهم

بيّنت هذه الآيةُ تحيّةَ طوائفِ الملائكة الّذين يتوافدون على أهل الجنّة، مِن أبوابهم الخاصّةِ بهم، المُعَدّة لهم، وبُشْراهُم لهم هي السّلامُ؛ ليطمئنوهم بأنّهم في عاقبتهم الحسنة في الجنّة سالمون، مِن كلّ آفة أو تنغيص، آمنون مِن كلّ خَوف، ويُعْلِن لهم الملائكةُ أنّ تلك المنزلةَ إنّما استحقّوها بصبرهم على طاعة الله، وبصبرهم على ترك المعاصي، وعلى ما ينزل بهم مِن بلاء، فَلْيَنعَموا في دار القرار، بالجنّة عقبى الدّار.

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيّ:

دلالة فصل هذه الجملة عمّا قبلها:

بلاغة شبه كمال الاتّصال في الجملة

هذه الجملة وقعت تعليلًا لدخول الملائكة على أهل الجنّة، أي: يدخل الملائكةُ عليهم؛ لأجل أن يُحيّوهم بالسّلام، ويُبشّروهم به أبدًا، ما داموا في عقبى الدّار. وعلى هذا ففي الجملة شبهُ كمالِ اتّصال.

دلالة حَذْفِ القول في: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم﴾:

حَذْفُ القول للعِلْم به، مِن فصيح البيان

جملة: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم﴾ مقولُ قولٍ محذوف للعِلْم به؛ لأنّ هذا لا يكون إلّا كلامًا مِنَ الدّاخلين الجنّةَ[1]، وفيه إشارة إلى أنّ دخول الملائكة عليهم، هو في حَدّ ذاته سلامٌ وأمنٌ، وتحيّةٌ حيّةٌ ولو لم ينطقوها، ولهذا لم يجئ: (يقولون سلام عليكم)، بل جاء هكذا ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم﴾[2].

سرّ التّعبير عن تحيّة الملائكة، بقوله: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم﴾:

تأنيس أهل الجنّة بالسّلام، مِن دواعي التّبجيل والاحترام

سِرّ التّعبير عن تحيّة الملائكة بقوله: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم﴾، القصد منه تأنيسُ أهل الجنّة، وتبشيرُهم بالسّلام والأمان في دار مقامهم.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/132.
(2) عبد الكريم الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 5/106.

دلالة التّنكير في ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم﴾:

التّلطّف بأهل الجنّة، في صيغة الخطاب

دلّ التّنكير بقوله: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم﴾ دون التّعريف: (السّلام عليكم)، على التّلطّف بهم[1]، وعلى عِظَم هذا السّلام، وفخامَةِ شأنه؛ لأنّه مِنَ اللّه تعالى، وبإلقاءِ خاصّةِ ملائكتِه، وهذا وفْقَ ما اعتاده العربُ في أنّ السّلام دعاءٌ وطلب، وهم في ألفاظ الدّعاء والطّلب إنّما يأتون بالنّكرة إمّا مرفوعةً على الابتداء، أو منصوبةً على المصدر[2].

دلالة تعدّي السّلام بـ(على) دون اللّام:

قول (سلامٌ عليكم) محمول على الحكاية أو التّضمين

إنّما عُدّي ﴿سَلَٰمٌ﴾ بـ ﴿عَلَيۡكُم﴾ دون (اللّام)، في قوله: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم﴾، أي: دون (سلامٌ لكم) لسببين؛ الأوّل: كونه تحيّةً، والتّحيّةُ واردة هكذا، ومَحْكيةٌ كما صدرت مِنَ الملائكة[3]. أمّا قول: (سلام لكم)، فقد يُحْمَل على الدّعاء وليس التّحيّة، فضلًا عن كونه خلافَ ما صدر عنِ الملائكة، إذا حُمِلَ على الحكاية. الثّاني: تَضَمَّن السّلامُ معنى الأمان، أي: أمان عليكم.

دلالة التّعبير بالجملة الاسميّة:

ثبوتُ السّلام لأهل الجنّة واستقرارُه؛ ليبقى لهم الرّغد الدّائم

دلّ التّعبير بالجملة الاسميّة: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم﴾ على ثبوت السّلام لهم واستقرارِه، دونَ تقييدٍ بحَدَثٍ ولا زَمَنٍ، فهو ثابتٌ لهم أبدًا.

دلالة الباء في قوله: ﴿بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ﴾:

صبرهم سبب نعيمهم، وأُسُّ فلاحِهم في العقبى

الباء في قوله: ﴿بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ﴾ هي باء السَّببيَّة، وقد دَلّت على السّبب الّذي مِن أجله حَظوا بعقبى الدّار، والمعنى: نالكم هذا التّكريم بالسّلام، بسبب صبركم، ويجوز أن تكون الباء بمعنى البدل، أي: بدلَ ما احتملتُم مِن مشاقّ الصّبر ومتاعبه، هذه المَلاذّ والنِّعَم[4].

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/103.

(2) ابن القيّم، بدائع الفوائد: 2/178.

(3) وحكى نحوه ابنُ عاشور عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَتَحِيَّتُهُمۡ فِيهَا سَلَٰمٌۚ﴾ [يونس: 10]، يُنظر: ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/103.

(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/387.

سرُّ اختيار الصّبر دون بقية الصّفات المذكورة لهم:

الصّبر مركز كلّ الصّفات، وسبيل الحماية والنّجاة

أوثِرت صفةُ الصّبر سببًا للمنزلة العظيمة الَّتي حَلّوا فيها؛ لأنّها الصّفةُ المَركزيَّة لكلّ الصّفات، فكلّ الصّفات تحتاجُها، فصفاتُ الطّاعة ومقاماتُها تحتاج الصّبرَ، وإلّا ما استطاع المُطيعُ المواصلةَ والاستمرارَ على مَشَقّة التَّكليف، وكذا البُعْد عنِ المعصية والصّفاتِ الدّالّةِ عليها تحتاج الصّبرَ، وإلّا ما استطاع المُكلّفُ مقاومةَ الإقبالِ على المعاصي والشّهوات والمنكرات؛ لأنّ الصّبر هو المَطيّة الذّلولُ الّتي بلغت بالمؤمنين هذا المبلغَ الكريم.

سرّ العدول إلى المصدر المؤوّل ﴿بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ﴾:

كمالُ الأجرِ في التّحقّق بالصّبر؛ لأنّه مفتاحُ ما يُرْجَى

عُدِلَ عنِ المصدر الصّريح (صبركم)، إلى المصدر المؤوّل ﴿بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ﴾، للدّلالة على تحقّقهم بصفة الصّبر، وأنّهم قد بلغوا منها رتبةَ الكمال، وأنّهم مع كلّ طاعة يفعلونها في زمنها، يتحقّق الصّبرُ معهم؛ فكأنّه يتجدّد في زمن الطّاعات، ولا يتأتّى ذلك مِنَ المصدر الصّريح.

دلالةُ حذفِ المخصوص بالمَدح:

المخصوص بالمَدح معلومٌ، ممّا سوّغ حذفَه اختصارًا

قوله: ﴿فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ﴾، فيه أنّ المخصوص بالمَدح محذوف؛ لدلالة مقام الخطاب عليه. والتّقدير: (فنعم عقبى الدّار دار عُقْباكم)[1].

سرّ اختلاف فاصلة هذه الآية عن سابقتها:

(عقبى الدّار) وعْدٌ وتحقيقٌ، لمَن هو به حقيق

الاختلاف بينَ الفاصلتين، سببُه التّرتيبُ الوجوديُّ، قبل دخول الجنّة وبعدَه؛ لأنّ قوله في الآية الأولى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عُقۡبَى ٱلدَّارِ﴾، كان مُجرّد وعْد لهم، بأنّه ستكون لهم عقبى الدّار، وذلك قبلَ أن يدخلوها، وأمّا قولُه تعالى: ﴿فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ﴾، فهو وصف للجنّة بعدَ أن دخلوها.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/132.

الفُروقُ المُعْجَمِيّةُ:

السّلام والتّحية:

كلّ سلامٍ تحيّةٌ، وليس كلّ تحيّة سلامًا

النّسبة بينَ التّحيّة والسّلام، هي نسبة عموم وخصوصٍ مُطلَق، فكلُّ سلامٍ تحيَّة، وليس كلّ تحيّة سلامًا؛ وذلك أنّ التَّحية أعمّ مِنَ السَّلام، حيثُ يدْخل في التَّحية قول: "حيّاكَ اللّه، ولَكَ الْبُشْرَى، ولَقيتَ الْخَيْر"، كما قال الْمُبَرّد. فهذا تحيّة، ولا يُقال له (سلام). قال أبو هلال: "إنَّما السَّلام قَوْلُكَ: سَلامٌ عَلَيْك"[1]. وممّا يؤكّد الفرق بينهما: استخدام القرآنِ للّفظين معًا في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةً﴾ [النور: 61] فاجتماعُهما في آية واحدة دليلٌ على التّفريق بينهما، وأيضًا على أنّ التّحيّة أعمّ مِنَ السّلام.

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 59.

﴿وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهۡدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقۡطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعۡنَةُ وَلَهُمۡ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ٢٥﴾ [الرّعد: 25]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

مقابلةُ نعيمِ أهلِ الجنّة، بمَن نقضوا عهدَ الله، فكانت عاقبتُهم إلى خسار

لمّا ذكر الله تعالى في الآيات السّابقة صفاتِ السُّعداء، وذَكَر ما يترتّب عليها مِنَ الأحوال الشّريفة العالية، أتبعَها في هذه الآية بذِكْر حالِ الأشقياء، وذِكْر ما يَترتّب عليها مِنَ الأحوال المُخزيَة لهم، بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهۡدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مِيثَٰقِهِۦ﴾ الآية، وعلى هذا تكون المناسبةُ بينهما مِن ذكر الوعيد بعد الوعد، والعقابِ بعدَ الثّواب[1].

وممّا يُذْكَر في المناسبة أيضًا: أنّه بعد أن ذَكَر الله تعالى فيما مضى مِنَ الآيات صفاتِ أولي الألباب، الموفين بعهد الله، الّذين استَحَقّوا به دخولَ جنّات عَدْن يُنَعّمون فيها، ذَكَر في هذه الآية صفاتِ مَن لم يُفيدوا من عقولهم التي مَنحَهم الله إيّاها، ما يُنَجّيهم يومَ القيامة، فاتّصفوا بضِدّ صفاتِ الأوّلين، مِن نقض عَهْد الله وما تَلاه، فكان جزاؤهم اللّعنةُ وسوءُ الدّار.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَقۡطَعُونَ﴾: القطع ضِدّ الوصل، وأصل (قطع) يَدُلُّ على صَرْم، وإبانَةِ شَيْءٍ مِنْ شَيْءٍ. ومعنى القطع: فَصْلُ الشّيء حِسًّا مُدركًا بالبصر كالأجسام، أو معنًى مدركًا بالبصيرة كالأشياء المعقولة. ومِنَ القطع بمعنى الفصل الحِسّي: قوله تعالى: ﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَرۡجُلَكُم مِّنۡ خِلَٰفٖ﴾ [الشعراء: 49]، وقولُه تعالى: ﴿وَٱلسَّارِقُ

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 10/45.

﴿وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقۡطَعُوٓاْ أَيۡدِيَهُمَا﴾ [المائدة: 38]. ومِنَ القطع بمعنى الفصل المعنويّ: قَطْعُ الوصل كالهجران، وقَطْع الرَّحِم، ومَنع البرّ. ومنه هذه الآية التي معنا: ﴿وَيَقۡطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾، وقولُه تعالى: ﴿وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرۡحَامَكُمۡ ٢٢﴾ [محمد: 22][1].

2) ﴿ٱللَّعۡنَةُ﴾: هي الإبعاد والطّرد على سبيل السّخط، وأصل (لَعَنَ) يَدُلُّ على إبْعادٍ وإطْرادٍ. ولَعَنَ اللّه الشَّيْطانَ: أبْعَدَهُ عَنِ الْخَيْرِ والجَنَّةِ. ثمّ إنّ اللّعنة قد تتعلّق بالدّنيا أو بالآخرة، وقد تكون مِنَ اللّه أو تكون مِنَ النّاس، فإذا كانت مِنَ اللّه تعالى في الآخرة فهي عقوبة، والمعنى: الطّرد مِن رحمة اللّه. أو كانت منه في الدّنيا، فهي انقطاعٌ مِن قَبول رحمته وتوفيقه. وإن كانت مِنَ الإنسان، فهي دعاءٌ على غيره. وأصل ذلك: أنَّ العرب كانت إذا تمرّد الرّجلُ أبعدوه منهم وطَرَدوه؛ لئِلّا تَلْحَقَهم جَرائِرُه، فيقال: هو لَعين بني فُلان[2].

المَعْنى الإجْماليّ:

استحقاق اللّعنِ، وسوءِ الدّار، بنقض العهدِ معَ العزيز الجبّار

الذين لا يلتزمون ما عَهَدَهُ اللّه إليهم مِنَ الإيمان به وإطاعةِ أوامرِه، ولا يَحْرِصون على صِلَة الأرحام؛ بل يقطعونها، ولا على المعاملة بالمعروف بينَهم وبين العباد، ويَسْعَون في الأرض بالفساد بدلَ الإصلاح، أولئك على النّقيض مِن فريق النّاجين أهلِ الجنّة، فَحَقَّت عليهم لعنةُ اللّه بالطّرد مِن رحمته، وحَقّت لهم العاقبةُ السّيّئةُ في النّار، فهي قرارُهم الّذي استحَقّوه بسوء أعمالِهم.

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيّ:

دلالة الواو، في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ﴾:

الوفاء والنّقض، ضِدّان لا يجتمعان

الواو هنا هي واو العطف، فقد عطفت جملة: ﴿وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ﴾،

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (قطع).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والهرويّ، الغريبين في القرآن والحديث، والرّاغب، المفردات: (لعن).

على جملة: ﴿ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ﴾، والجامع بينَهما: المضادّة التّامّة، فبينا الفريقُ الأوّل المعطوفُ عليه ﴿يُوفُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ﴾، فإنّ هذا الفريق الثّاني المعطوف ينقضونه ويُبطلونه، والغرضُ مِن ذلك: إظهارُ الفَرْق بينهما؛ ليكون ذلك أدْعَى لأهل الإيمان، للتّمسُّكِ بالأعمال الصّالحة.

سرّ ذكر الواو هنا وحذفها في سورة البقرة:

زيادة حرف معنى في السّياق، يفتح أفقًا آخرَ للدّلالة

أمّا ذِكْرُ الواوِ في سورة الرّعد: ﴿وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهۡدَ ٱللَّهِ﴾، فقد وردت في سياق المقابلة بين صفات مَن يعلمون الحَقّ - وهم أولو الألباب - وجزائهم، وصفاتِ مَن عَموا عنه وجزائهم؛ فلمّا ذَكَر صفاتِ الصّنف الأوّل وجزاءَهم، وأُريد بيانُ صفاتِ الصّنف الآخر وجزائهم، وكان بينهما جهةٌ جامعة مِن ناحية، وتضادٌّ مِن ناحية أُخرى؛ لذلك ناسب ذِكْرُ الواو.

وأمّا عدمُ ذِكْر الواوِ في آية سورة البقرة، في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ﴾، فلِما بين هذه الجملة وما قبلَها مِن كمال الاتّصال؛ لأنّها جاءت بيانًا لصفات الفاسقين في قوله تعالى: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلۡفَٰسِقِينَ ٢٦﴾ [البقرة: 26]، فكانت هذه الآيةُ بيانًا لصِفة الفاسقين، والصّفةُ والموصوفُ كالشّيء الواحد؛ لذلك ناسبَ عدمُ ذِكْر الواوِ.

دلالة التّعبير باسم الموصول ﴿وَٱلَّذِينَ﴾:

تنفير المُخاطَبين مِنَ الاقتداء بالنّاقضين

عبّر باسم الموصول هنا ذمًّا لهم، وللدّلالة على أنّهم طائفةٌ مستقلّةٌ، لا صِلَة لها بمَن سبق؛ بل هي على التّضادّ معهم في السّلوك وفي الصّفات وفي المعتقد. وفيه أيضًا ما فيه مِن تنفير المُخاطَبين مِنَ الاقتداء بهم.

سرّ التّعبير بالنّقض للعهد دون النّكث:

أوثِرَ التّعبيرُ بالنّقض دون النّكث، في قوله تعالى: ﴿يَنقُضُونَ عَهۡدَ

ٱللَّهِ﴾؛ لتعلُّقه بعهد اللّه، وعهدُ اللّه ميثاقٌ مُؤَكّد، يُلْزِم المَرءُ به نفسَه، سواء كان ذلك بينَه وبين اللّه، أو بينَه وبينَ النّاس، كالعُقود المُبرمَة مع بعضهم البعض، ولذا فالتّعبير بالنّقض أولى؛ لأنّه أقوى دلالةً مِنَ النّكث، فهو مأخوذ من قولك: نقضتُ الحبل: إذا حللتُه بعد فتله، ونقضت البناءَ: إذا هدمتُه بعد قيامه، فالنّقض إذًا يعني: الإفسادَ التّامّ للشّيء الذي كان قائمًا متماسكًا. وممّا يُؤكّد ذلك أنّ البُنيَة اللّغويّة للنّقض تدلّ على هذه الشّدة، وذلك من خلال صفات القاف والضّاد، بخلاف النّكث، فالكاف والثّاء لا يحملان هذه الشّدّة؛ لبُعْدِ صفاتهما عن ذلك.

التّعبير بالنّقض أقوى، وأدلّ على المراد مِنَ السّياق

دلالة الاستعارة المكنية:

الدّالّ على الاستعارة المَكْنيَّةِ هنا هو كلمة ﴿يَنقُضُونَ﴾، حيثُ إنّه مِن لوازم المُشَبَّهِ به المَحذوف، وهو الحبل، للمُشَبَّهِ، وهو العهد. وكلمة ﴿يَنقُضُونَ﴾ مجازٌ في إبطال العهد، "وهي استعارةٌ مِن مُبْتَكرات القرآن، بُنيت على ما شاع في كلام العرب في تشبيه العهد، وكلِّ ما فيه وصلٌ بالحبل، وهو تشبيهٌ شائع في كلامهم ... ووجه اختيار استعارة النّقض الذي هو حَلُّ طيّات الحَبل إلى إبطال العهد؛ أنّها تمثيلٌ لإبطال العهد رويدًا رويدًا، وفي أزمنة متكرّرة ومُعالَجة"[1].

النّاقضون للعهد، لا ينظرون إلى الأدلّة أصلًا

سرّ تكرار ﴿عَهْدَ ٱللَّهِ﴾:

ذِكْرُ قوله: ﴿عَهْدَ ٱللَّهِ﴾ هنا ليس تكرارًا؛ لاختلاف المقامين، حيث ذُكِر أولًا مع الموفين بعهد اللّه، وذُكِر ثانيًا معَ النّاقضين عهدَ اللّه، فلا تكرار. وبينَ التّركيبين طباقٌ لفظيٌّ، تُفَسِّره المضادّةُ بينَ جملتي: ﴿يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ﴾، و﴿يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ﴾، وذلك لتبشيع صورة النّاقضين، في مقابلة نصاعة صورةِ الموفين.

بشاعة صورة النّاقضين، مقابَلةً بنصاعة صورة المؤفين

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/368.

دلالة القيد: ﴿مِنۢ بَعۡدِ مِيثَٰقِهِۦ﴾:

أبشع صور نقض العهود، إذا كانت موثّقة

ذُكِر في الآية قوله: ﴿مِنۢ بَعۡدِ مِيثَٰقِهِۦ﴾، مع أنّ العهد لا يكون إلّا به؛ وذلك زيادةً في تشنيع النّقض، أي: من بعد توثيق العهد وتأكيده[1]، وليُفرّق به بينَ العهود المُؤكَّدة بأنواع المُؤكِّدات، كالقسَم والتّوثيق، وغيرِ المؤكّدة[2]. وممّا يُذْكَر في ذلك: أنّه لا مانعَ أن يكون المُرادُ بالعهد هو ما كلّف اللّه به العبدَ، والمُراد بالميثاق: الأدلّة المُؤَكّدة؛ لأنّه تعالى قد يُؤَكّد إليك العهدَ بدلائل أُخْرى، سواءٌ كانت تلك المُؤكّداتُ دلائلَ عقليَّةً، أو سمعيَّةً[3].

دلالة الإضافة في قوله: ﴿مِيثَٰقِهِۦ﴾:

نقض العهود جريمة، وخصوصًا إذا وُثّقت باسم الله

دلّتِ الإضافةُ في قوله: ﴿مِيثَٰقِهِۦ﴾، على زيادة النّعْي على المُخْبَر عنهم سلوكَهم في نقض عَهْدِ اللّه لهم بالإيمان به، وسائرِ ما يتبَعُه مِن أركان الإيمان، وشعائِر الإسلام؛ لأنّ الوفاء بالعهود أمرٌ لازم، فكيف إذا كانت موثقةً، ثُمّ كيف إذا كانت موثَّقةً باسم اللّه؟

سر ترتيب الصّفات في هذه الآية الكريمة:

مراعاةُ الخصوص والعموم، مُعينٌ على البيان

رتّب القرآنُ الكريم هذه الصّفات ترتيبًا بليغًا، حيثُ بدأها بالفعل ﴿يَنقُضُونَ﴾، وبعدَه ﴿وَيَقۡطَعُونَ﴾، وبعدَه ﴿وَيُفۡسِدُونَ﴾، والنّاظر فيه يجد أنّه جاء على أكمل وجهٍ وأحسنِ ترتيب؛ لأنّه قد بَدَأ أوّلًا بنقض العهد، وهو أخصّ هذه الأفعال، ثُمّ ثَنّى بقطع ما أمر اللّه بوصْلِه، وهو أعمّ مِن نقض العَهد وغيرِه، ثُمّ ذَكَر بعدَ ذلك الإفسادَ الذي هو أعمّ منهما، وأيضًا بُدِء بالنَّقض؛ لأنّه يدلُّ على فَكِّ ما وصَلَه المَرْءُ وركّبَه؛ لأنّ النّقض مأخوذٌ مِن نقض الحَبْل، والمراد: حَلُّ ما أُبْرِم، وقَطْعُ الحبلِ، يعني: جعله أجزاء، وبذلك

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/133.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/139.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 10/46.

يكون حَلّ العَهْدِ والتّخَلي عنه أبلغُ مِنَ القطع؛ لأنّ فيه إفسادًا لِما عَمِلَه الإنسانُ بنفسه[1].

سرّ اختيار التّعبير بالفعل ﴿وَيُفۡسِدُونَ﴾ دون غيره:

الفساد إتلاف كلّ ما خلقه الله صالحا في ذاته

وإنّما اختير التّعبير بالفساد في الأرض دون غيره؛ لأنّ الفساد على نوعين: ماديّ يقوم على إتلاف ما هو صالح في ذاته بإنشاء اللّه له صالحاً "فالفساد في الكون أن تأتي إلى صالح في ذاته فتفسده"[2] واللّه تعالى قد خلق لنا الحياة ومقوّماتها صالحة في ذاتها، فمن يتدخّل فيها بعد ذلك بتعطيل ما هو صالح في ذاته، إنّما يكون قد أفسده، ومعنويّ يكون بمعنى الدّعاء لغير دين اللّه، وقد يجمع بينهما بالظّلم في النّفوس والأموال وتخريب البلاد.

سرّ التّعبير بالمضارع:

حرصهم على الفساد مُتَجَدّد لا ينقطع

في التّعبير عنِ الإفساد بصيغة المضارع: ﴿وَيُفۡسِدُونَ﴾؛ دلالةٌ على استمرارهم عليه، وتجدُّد نشاطِهم نحوه، والواقعُ يُؤكّد ذلك في سلوك المشركين والمنافقين، حيثُ عبّر القرآنُ عنهم بقوله: ﴿وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا﴾ [المائدة: 33].

سرُّ تقييد الفساد بكونه في الأرض:

تبشيع حالهم بالنّصّ على محلّ إفسادهم

في قوله تعالى: ﴿وَيُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾، النّص على كون فسادهم في الأرض، مع أنّه لا يُتَصَوّر في غيرها، نحو ما في قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ٤٦﴾ [الحجّ: 46]؛ زيادةً في تبشيع حالهم لإفسادهم في الأرض، والنّصِ على مَحلّ فسادهم، خصوصًا أنّهم خالفوا حكمةَ اللّه في خلقهم، فاللّه تعالى خلق النّاس ليَعْمُروا الأرضَ، لا ليفسدوها، كما قال سبحانه: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 1/208.
(2) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 12/7305.

﴿وَٱسۡتَعۡمَرَكُمۡ فِيهَا﴾ [هود: 61]، أي: طلب منكم إعمارَها، لكنّكم خالفتم هذا فأفسدتم فيها، فحَقّ عليكم العقاب.

وممّا يُذكر في سِرّ ذلك: الإشارةُ إلى سَفَه عقولِ هؤلاء؛ لأنّهم لو كانوا يعقلون، ما أفسدوا المكانَ الّذي يعيشون فيه، فحياتُهم منه، ومنافعهم فيه، وهو جدير بالإصلاح لا بالفساد. وفيه دلالةٌ على أنّ فساد هؤلاء يتعدّاهم إلى غيرهم مِن فئات المجتمع، وهذا خطر عظيم.

سرُّ ذكر بعض المتناقضات للصّفات السّابقة:

التّرتيب تقابليٌّ مع الصّفات المذكورة في السّياق

في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهۡدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقۡطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾، ظاهرٌ أنّ التّرتيب في الآية جاء على نسق التّرتيب في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلۡمِيثَٰقَ ٢٠ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾، ولكن بطريق المقابلة، فإنّ كلّ صفة هنا تقابل ما يضادّها هناك، لكنّه لم يقابل صفتي (خشية الله وخوفِ يوم الحساب)؛ وذلك لكون المُخْبَر عنهم لا يؤمنون بالله أصلًا، ولا يؤمنون بيوم القيامة.

وقيل: هو لم يتعرّض لهما صراحةً، ولكن تعرّض لهما ضمنًا لدلالة النّقض والقطع على ذلك. وكذلك لم يتعرّض لنفي الصّبر، ليقابل به صبرَ الموفين بعهد الله؛ "لأنّه إنّما اعتبر تحقُّقَه في ضمن الحسنات المعهودة، ليَقَعْنَ معتدًّا بهنّ، فلا وجهَ لنفيه عمّن بينَه وبين الحسنات بُعْدَ المَشرقين، لا سيّما بعد تقييده بكونه ابتغاءَ وجهه تعالى، كما لا وجهَ لنفي الصّلاة والإنفاق بناءً على أنّ المراد منه إعطاءُ الزّكاة ممّن لا يحوم حولَ الإيمان بالله تعالى، فضلًا عن فروع الشّرائع، وأمّا دَرْءُ السّيّئة بالحسنة، فانتفاؤه عنهم ظاهر، ممّا سبق"[1].

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/139.

دلالة اسم الإشارة ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ﴾:

دلّتِ الإشارةُ إليهم باسم الإشارة الدّالّ على البُعد، على بُعْد منزلتِهم في الشّرّ، وأنّ ما سلف ذِكْرُه مِن صفاتهم، كان سببًا في ذلك.

بُعْدُ المنزلة، لكن في الشّرّ المُهْلِك، والضّلالِ المُرْدي

بلاغة القصر:

في تقديم الجارّ والمجرور ﴿لَهُمُ﴾، في قوله: ﴿لَهُمُ ٱللَّعۡنَةُ﴾، ولم يقل: (اللّعنة لهم)؛ إفادةُ الحصر والقصر، على معنى قَصْرهم على اللّعنة، فما إلى الفرار منها مِن سبيل.

مَن أصابته اللّعنةُ، طُرِد مِنَ الرّحمة

سرّ التّعبير بقوله: ﴿لَهُمُ ٱللَّعۡنَةُ﴾، ولم يقل: (عليهم اللّعنة):

في التّعبير عنهم بقوله: ﴿لَهُمُ ٱللَّعۡنَةُ﴾، ولم يقل: (عليهم اللَّعنة)؛ دلالةٌ على استحقاقهم اللّعنة، فكأنّهم استحقوا اللّعنةَ وتملّكوها، وأنّ "اللّعنة عشقَتْهم عِشْقَ المالِ للمُلوك"[1]. ودلالةٌ أيضًا على التَّهكُّم بهم، وكأنَّ اللَّعنة هي لهم وفي مصلحتهم، ومثلُه قولُه تعالى: ﴿وَإِنۡ أَسَأۡتُمۡ فَلَهَاۚ﴾ [الإسراء: 7] بدل (فعليها).

عشق اللّعنة لهم، عِشْق المال للملوك

دلالة التّعبير باللّعنة دون الطّرد والإبعاد:

أوثِرَ التّعبيرُ باللّعنة، لأنّه أشمل وأوسع، فهو لا يدلّ فقط على الطّرد والإبعاد، مع كونه أصلَ معناه في اللّغة؛ بل يدلّ أيضًا على إيقاع العقوبة في الآخرة[2]، ولو عبّر بالطّرد والإبعاد، لما أفاد إيقاعَ العقوبة.

التّعبير باللّعنة أشملُ وأوسعُ مِن غيره

بلاغة ختام الآية بقوله: ﴿وَلَهُمۡ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾:

يُلْحَظ أنّه لم يقل: (ولهم سوء عاقبة الدّار)، وقال: ﴿وَلَهُمۡ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾؛ "لأنّ العاقبة إذا أُطلقت يُراد بها الجنّة"[3].

ائتلافُ الفاصلة ومناسبتها لمحلّها، مِن فصيح البيان

(1) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 12/7306.
(2) الرّاغب، المفردات: (لعن).
(3) الشّهاب الخفاجيّ، عناية القاضي: 5/236.

دلالة تكرير ﴿لَهُمُ﴾ مرّتين:

هما جزاءان مُستحقّان، ولكلّ منهما خصوصيّته وأهوالُه

كرّر ﴿لَهُمُ﴾ في قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعۡنَةُ وَلَهُمۡ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾، ولم يقل: (لهم اللّعنة وسوء الدّار)؛ "للتّأكيد والإيذانِ باختلافهما واستقلالِ كلّ منهما في الثّبوت"[1].

بلاغة المقابلة:

مقابلة الجزاء للجزاء، والألفاظ للألفاظ

السّرُّ في التّعبير يكمن في تذييل الآية بقوله: ﴿وَلَهُمۡ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾، ليقابلَ به ختامَ الآيةِ السّابقة: ﴿لَهُمۡ عُقۡبَى ٱلدَّارِ﴾، مقابلةُ الجزاءِ للجزاء، والألفاظِ للألفاظ، فقوله: ﴿وَلَهُمۡ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾، هو جزاء هؤلاء النّاكثين عهدَهم مع اللّه، كما كان جزاءُ الموفين بعهد اللّه ﴿عُقۡبَى ٱلدَّارِ﴾، فالسّوء هنا هو النّار، مقابل العاقبة هناك، وهي الجنّة.

سرّ اختلاف الفاصلة بين آيتي البقرة والرّعد:

من أسرار المقابلة في فاصلتي الآيتين

الّذي يبدو أنّ سرّ اختلاف الفاصلتين راجع إلى وجه المقابلة في الموضعين، فلمّا كانت المقابلة في آية الرّعد هي مع قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عُقۡبَى ٱلدَّارِ﴾، قال هنا: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعۡنَةُ وَلَهُمۡ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾، أمّا في آية سورة البقرة فإنّ المقابلة فيها مع صفات المتقين، التي انتهت بذِكْر جزائهم في قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ۝٥﴾ [البقرة: 5]، فكانتِ المقابلة بعد سرد صفات الفاسقين بقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ۝٢٧﴾ [البقرة: 27].

وممّا يُذْكَر في سِرّ اختلافِ فاصلة الآيتين: أنّ آية سورةِ البقرة تتحدّث عن صفات الفاسقين، الذين خرجوا عنِ الإيمان إلى الكفر؛ بارتكابهم لهذه الصّفات الذّميمة، فحالُهم كحال مَن عنده رأسُ مالٍ مُهيّأ للتّجارة مِن أجل الزّيادة والنّماء؛ فنَقَصَهُ مِن سوء تدبيره، فكانتِ الخسارةُ الفادحةُ له، قال تعالى عنهم: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/19.

ٱلۡخَٰسِرُونَ ٢٧﴾ [البقرة: 27]، أمّا آية سورة الرّعد، فكانت في سياق المقابلة بينَ صفات مَن يعلمون الحقّ، وهم أولوا الألباب، وبينَ صفات مَن لم يُبصِروا الحَقّ وعَموا عنِ الهدى، فجعل اللّه جزاءَ الصّنفِ الأوّل في سورة الرّعد ﴿جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا﴾، وجعل عقوبةَ الصّنف الثّاني الإبعادَ عن هذه الجنّةِ، والطّردَ مِن رحمة اللّه، بقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعۡنَةُ وَلَهُمۡ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾.

﴿ٱللَّهُ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ وَفَرِحُواْ بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٞ ٢٦﴾ [الرّعد: 26]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

لا تأسَوا على ما فات، ولا تفرحوا بما هو آت، فكلٌّ بحكمة وقَدَر

لمّا كانت الحياةُ الدّنيا ومتاعُها ممّا يفتنُ النّاسَ ويُفسدُ عليهم فطرتهم، ويَحْجِبُ عنهم وجهَ الحَقّ، فيَضِلّ كثيرٌ منهم طريقَه إلى اللّه، جاء قولُه تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ﴾ مُنبّهًا هؤلاء الضّالّين المُتكالبين على الدّنيا، إلى أنّهم لا يملكون لأنفسهم شيئًا، وأنّ الأرزاق بيد اللّه سبحانَه، يبسطها لمن يشاء ويقبضها عن من يشاء[1].

ومِنَ المناسبة أيضًا: لمّا ذكرَ اللّه تعالى في الآية السّابقة صفاتِ النّاكثين عهدَهم مع اللّه بالكفر وما يتبعه مِن صفات سيّئة؛ كقطع كلّ ما أمر اللّه بوصله، والإفسادِ في الأرض، ثمّ ذَكَر جزاءَهم بأنّ لهم سوءَ الدّار، وكان الواقع أنّ كثيرًا مِن هؤلاء مُنَعّمون في الدّنيا برَغَد العيش وكَثْرة المال، ممّا قد التّساؤل عن حكمة ذلك: لماذا يرزقهم اللّه، مع ما هم فيه مِن كفر وفساد؟ تأتي هذه الآية لتنفيَ الرَّبط بينَ الجهتين، وتبيّنَ أنّ المسألة لا علاقة لها بالكفر والإيمان، وأنّ البسطَ في الرّزق والتّضييقَ فيه، راجعٌ إلى حكمةٍ عُليا تخفى علينا، ويعلمها اللّه، وتقرِّرُها مشيئتُه، وتنفِّذُها قُدرتُه.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَبۡسُطُ﴾: أصل بَسَطَ يدلّ على امْتِدادِ الشَّيْءِ، في عِرَضٍ أوْ غَيْرِ عِرَضٍ. فالْبِساطُ: ما يُبْسَطُ، والبَساطُ: الْأَرْضُ، والبَسْطُ: النّشرُ والتّوسيع، فتارةً يتصوّر منه الأمران، وتارةً يتصوّر منه

(1) عبد الكريم الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 5/107.

أحدهما، فمِنَ البَسْط بمعنى النَّشر أن يقال: بَسَطَ الثّوب: نشره، ومنه: البِساط. ومِنَ البَسط بمعنى التّوسعة كلمة: البَساطُ للأرض الواسعة، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ۝١٩﴾ [نوح: 19]، ومنه أيضًا بَسْطُ الرّزق، أي: توسعتُه، فقوله: ﴿ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ﴾ أي: يوَسِّعُه[1].

2) ﴿وَيَقْدِرُ﴾: ضِدّ يَبْسُط، ومعناه: يُضَيّق ويُشَدِّد، يقال: قَدَرْتُ عليه الشّيءَ: ضَيّقتُه، كأنّما جَعَلْتُه بِقَدَر، بخِلاف ما وُصِفَ بغير حساب. قال تعالى: ﴿وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ﴾ [الطلاق: 7] أي: ضُيّق عليه، ومنه أيضًا آية الرّعد: ﴿ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾، وآيةُ الأنبياء: ﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ [الأنبياء: 87] أي: نُضَيّق عليه[2].

3) ﴿وَفَرِحُواْ﴾: الْفَرَحُ: خِلافُ الحُزْن، وهو انشراح الصّدر بلَذّة عاجلة، وأكثر ما يكون ذلك في اللّذّات البَدنيّة الدّنيويّة، فلهذا قال تعالى: ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾ [الحديد: 23][3]، ويَرِد الفرحُ في القرآن الكريم أكثرَ ما يَرِد في مقام الذّمّ؛ لما يتبعه مِن أشَرٍ أو بَطَر، ومنه قولُه تعالى: ﴿لَا تَفْرَحْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ۝٧٦﴾ [القصص: 76][4]، لكنّه ذُكِر في مقام المَدْح في قوله تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ﴾ [يونس: 58].

4) ﴿مَتَٰعٌ﴾: المتاع: كلّ ما حصل التَّمَتُّع والانْتِفاع بِهِ على وجهٍ ما، وأصل (مَتَع) يَدُلُّ على مَنْفَعَةٍ وامْتِدادِ مُدَّةٍ في خَيْرٍ. وعَرّفَه الكَفَويُّ بأنّه: ما يُنْتَفَع بِهِ انتفاعًا قَليلًا غيرَ باقٍ؛ بل يَنْقَضي عَن قريب[5]، كالأشياء الّتي يستعملها الإنسانُ ثمّ تُسْتَهْلَك عن قريب؛ كالملابس والفُرُش ونحوِ هذا. ومُتْعَةُ الطَّلاق والحَجّ والنِّكاح كلُّها مِن ذَلِك؛ لأنّها تنقضي عمّا قريب، ولذلك يذكر القرآنُ متاعَ الدُّنيا مهما كان كثيرًا بوصف القليل، أي: في جانب متاع الآخِرة، كقولِه سبحانه: ﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾ [النساء: 77]، وقولِه: ﴿فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ۝٣٨﴾ [التوبة: 38] أي: هو في جنب الآخرة غيرُ مُعْتَدّ به[6]. وعلى هذا جاء التَّصريحُ في

(1) الرّاغب، المفردات: (بسط).
(2) الرّاغب، المفردات: (قدر).
(3) الرّاغب، المفردات: (فرح).
(4) الكفويّ، الكلّيّات، ص: 508.
(5) الكفويّ، الكلّيّات، ص: 804.
(6) الرّاغب، المفردات: (متع).

آية الرّعد: ﴿وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٞ﴾ أي: عَرَض زائلٌ سينتهي، فما قيمتُه بجانب متاع الآخرة الباقي أبدًا؟!.

❁ المَعْنى الإجْماليّ:

حكمة بَسْطِ الرّزق وقَبْضِه، وبيانُ أنّ الدّنيا متاع، والآخرةَ خيرٌ وأبقى

تُقَرِّرُ الآيةُ الكريمة أنّ مسألة بَسْطِ الرّزقِ أو تَضْييقِه، إنّما يكون بحسب ما تقتضيه الحكمةُ الإلهيّةُ، فبمقتضاها يوَسّعُ اللّه الرّزق لِمَن يشاء مِن عباده، ويُضَيّق على مَن يشاء، فاليقينُ في هذه الحكمة يجب أن يَسْتَقِرّ إجمالًا في قلب المؤمن، أمّا تفصيلًا؛ فالأغلبُ فيه خفاءُ الحِكْمة عن العِباد، وعليه فربّما يَبْسُط اللّه الرّزقَ للكافر إملاءً واستدراجًا، وربّما يُضَيّقُه على المؤمن زيادةً لأجره ورِفعةً لقَدْره ومَكانته. وإذا كان الأمرُ كذلك، فلا يَغْتَرّ أحدٌ بَبَسْط رزقِ الكافر، ولا يَقْنَط بقَدْرِه على المؤمنُ، وليَثِقْ في حكمة اللّه العليا في ذلك.

وأمّا مَن يَفْرَحون بمتاع الحياة الدُّنيا، وبِبَسْط اللّه لهم في الرّزق، بحيث يأخذون منه دليلًا على عُلوّ مكانتِهم عند اللّه، ورِفْعَةِ شأنهم عنده، وانعدامه للآخرين؛ فليعلموا أنّه متاعٌ قليلٌ، وعَرَضٌ زائل، وليُفيقوا مِن وهْمِهم هذا.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيّ:

سرّ فصل هذه الآية عمّا قبلها:

شبه كمال الاتّصال بينَ الجملة وسابقتها، وأثره في الدّلالة

قوله: ﴿ٱللَّهُ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ﴾، جملة استئنافيّة، جاءت للجواب عن سؤال الحكمة النّاشىء مِن بَسْط الرّزق للكافرين، المُتّصفين بالصّفات المذكورة في الآية السّابقة، ولِتَبيين حِكْمةِ اللّه تعالى في بَسْط الرّزق وقَبْضه، وإزالةِ الرّواسب الكائنة في بعض العقول المُعَطَّلة، التي تَربط بينَ الصّلاح وعَدَمِه، بِبَسْط الرّزق وعَدَمِه.

دلالة تقديم المسنَد إليه ﴿ٱللَّهُ﴾:

دلّ تقديمُ المسنَد إليه ﴿ٱللَّهُ﴾، على المُسْنَد ﴿يَبۡسُطُ﴾، على

الاهتمام به وتقويَةِ الحُكْم وتأكيده[1]، وعلى حَصْر الرّزق في كونه مِنَ اللّه وحْدَه[2] لا غير، ردًّا على مَن يعتقدونَ أنَّ أرزاقهم بيد الخَلْق، لا بيد اللّه، ورَدًّا على مَن يستعبِدون ذَوي الحاجة، بإيهامهم أنّ أرزاقهم بأيديهم، فلا أحدَ يَبْسُط الرّزق للخَلْق ويَمْنَعُه عنهم - لحكمة يعلمها - إلّا اللّه تعالى.

مَلْمَحُ التّقديم والتّأخير في الجملة، وأثرُه في المعنى

دلالة التّعبير بالجملة الاسميّة:

دلّ التّعبيرُ بالجملة الاسميّة: ﴿ٱللَّهُ يَبۡسُطُ﴾، على ثُبوت هذا الحكمِ، بأنّ اللّه تعالى هو الّذي: ﴿يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ﴾.

الحكم في البَسْط والقَبْض، ثابتٌ لله وحْدَه

بلاغة الاستعارة التّبعيّة:

في التّعبير بـ ﴿يَبۡسُطُ﴾ هنا استعارةٌ تصريحيّة تبعيَّة عنِ الكثرة والتّوسِعَة.

مَن بسطَ الله له العطاءَ، عاش في سعة وهناء

سرّ اختيار الفعل ﴿يَبۡسُطُ﴾ دون (يوسّع):

في اختيار الفعل: ﴿يَبۡسُطُ﴾ دون (يوسّع) سرٌّ يكشف عنه معنى البَسْط، إذ هو يعني: السّعة والانتشار، فهو إذًا يتضمّن السّعةَ، وأوسع منها في الدّلالة.

في التّعبير بالبَسْط دلالةٌ على التّوسعة والانتشار

سرّ اختيار التّعبير بلفظ ﴿ٱلرِّزۡقَ﴾ دون غيره:

في ترجيح اختيار التّعبير بالرّزق على غيره؛ لِما فيه مِن معنًى شموليٍّ لمطلق العطاء الجاري في الدّنيا والآخرة[3]، في السّماء كالمَطر، أوالأرض كالنّبات وسائرِ ما يتعيّش به الإنسانُ، وأيضًا لشموله لمُطلق العطاءِ الحِسّيّ، كإعطاء المالِ والوَلدِ، والمعنويّ كالعلم.

التّعبير بالرّزق شامل لكلّ العطايا، مِن رَبّ البرايا

دلالة التّعبير باسم الموصول (مَنْ):

دلّ التّعبيرُ باسم الموصول (مَنْ)، في قوله: ﴿لِمَن يَشَآءُ﴾ على العموم، وعدم التّعيين، مقيّدًا بالمشيئة.

دلالة الموصول على العموم، وعدمِ التّعيين

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/140. ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/134.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/528.
(3) الرّاغب، المفردات: (رزق).

دلالة التّعبير بالمشيئة دون الإرادة:

المشيئة أخصّ، والإرادة أعمّ

أوثِرَ التّعبيرُ بالمشيئة في قوله تعالى: ﴿لِمَن يَشَآءُ﴾ دون الإرادة؛ لأنّ المَشيئة مختصّة بالآنيِّ الحاضرِ دونَ غيره، والإرادةَ تتضمَّن ما تتضمنُه المشيئةُ وأوسعُ، فهي أعمُّ، والمَشيئةُ أخصُّ؛ مِن حيثُ إن الإرادة تشمل ما يتعلّق بالآن وغيره، أو بحسب تعبير العَسْكَريّ: "الإرادة تكون لما يتراخَى وقتُه ولما لا يتراخى، والمَشيئةُ لما لم يتراخَ"[1]، وعلى هذا، فمناسبة ترجيح اختيار المشيئة على الإرادة واضحة، وهي حَثّ الإنسان على المعاملة المناسبة مع مقدور الله الحالي، وعدمِ الرّكون إليه؛ لأنّه قد يَتغيّر، فالّذي بُسِطَ له في الرّزق عليه أن يسعى إلى المحافظة عليه بدوام الشُّكر، وأداءِ حقوق الله وحقوق العباد فيه، حَذَرًا مِن أن يتحوّل البَسْطُ إلى قَبْضٍ، والعطاءُ إلى مَنْع. والّذي قُدِرَ عليه رِزْقُه، يقابلُه بصبر ورِضًا، ودعاءٍ إلى الله تعالى، ورجاءٍ فيه، بأن يتحوّل هذا الضّيقُ إلى سعة، والمنعُ إلى عطاء ورخاء.

سرُّ التّعبير بقوله: ﴿وَيَقْدِرُ﴾ دونَ (يُضَيّق):

التّعبير بـ (يقدر) دالّ على الضّيق الشّديد، وهو أنسب للمقابلة

اختير التّعبير بـ ﴿وَيَقْدِرُ﴾ دونَ (يضيّق)؛ لأنّ المقصودَ الضّيقُ الشَّديدُ المَدلولُ عليه بـ ﴿وَيَقْدِرُ﴾؛ ليكون لافتًا للنّظر، وأوفقَ للمقابلة ببسط الرّزق، وليس المرادُ مطلقَ ما يُسَمّى ضيقًا، وإن لم يكن شديدًا، فهذا لا يلفت النّظرَ؛ لكونه ممّا يُطاق، ولِضَعْف مقابلتِه ببسط الرّزق، ولِكَثْرة المُتّصفين به مِنَ النّاس، فأكثرُ النّاسِ مِنَ الطّبقة المتوسّطة غيرِ الباذخة، وغيرِ شديدة الفقر.

دلالة حذف متعلّق ﴿وَيَقْدِرُ﴾:

حَذْفُ المتَعلّق اختصارًا للعِلْم به، مِن فصيح البيان

في قوله: ﴿وَيَقْدِرُ﴾ حُذِفَ المُتعلّق اختصارًا للعِلْم به، لأنّ المعنى: أنّه يَبْسُط الرّزقَ لمَن يشاء، ويَقْدِرُه ويُضَيّقُه على مَن يشاء،

(1) العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 124.

وهذا مِن لازم المعنى، "لأنّه إذا وسّعه إذا شاء، لِزَمَ منه تضييقُه إذا لم يشأ"[1].

دلالة التّعبير بضمير الغَيبة في: ﴿وَفَرِحُواْ﴾:

التّنَدُّرُ بالكافرين واستهجانُهم؛ لانعدام فهمِهم

أوثِرَ التّعبيرُ بضمير الغَيبة في قوله: ﴿وَفَرِحُواْ﴾، وهو في حَقّ الكافرين؛ استهجانًا لهم، وصَرفًا عن أن يوجّه لهم الخطابُ؛ لكونهم غيرَ مؤهّلين له. وفيه كذلك "إشارةٌ إلى أنّهم أقلّ مِن أن يفهموا هذه الدّقائقَ، لعنجَهية نفوسِهم، فَهُم فرحوا بما لهم في الحياة الدّنيا، وغَفِلوا عنِ الآخِرة"[2].

دلالة الواو، في: ﴿وَفَرِحُواْ﴾:

يقابلون النّعمةَ بكُفْرِها، وذلك مِن أقبح الكفر

الواو في قوله: ﴿وَفَرِحُواْ﴾ للاستئناف، والقَصْد بهذا الاستئناف: الإخبارُ عن سوء حالِهم بعدَ أن بَسَط اللّه لهم في الرّزق، حيثُ فَرِحوا به، وأشِروا، وبَطِروا، بَدلَ أن يشكروا ربّهم، ويُخْلِصوا له[3].

سرّ التّعبير بضمير الغائب، في: ﴿وَفَرِحُواْ﴾:

عدمُ أهليَّتِهم للخطاب، ولا لمعرفة الصّواب

في قوله تعالى: ﴿وَفَرِحُواْ﴾ عبّر عنهم بضمير الغائب؛ تحقيرًا لهم، لكونهم ليسوا أهلًا للخِطاب، وكونهم مِنَ الغباء بمكان، بحيث لا يفهمون حكمةَ اللّه في بَسْط الرّزق وقَبْضه، كما أنّهم لا يأخذون منه عبرةً تهديهم إلى اللّه وتَرُدُّهم إليه، لا ما تلبَّسوا به مِن كُفْرٍ وعنادٍ ومُكابَرةٍ.

بلاغة المجاز المُرسل:

الاحتراس وسِرّ تعلّق فرحهم بالحياة الدّنيا

في قوله تعالى: ﴿وَفَرِحُواْ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾، كونُ الفرحِ متّجهًا إلى

(1) الشّهاب الخفاجي، عناية القاضي: 5/236.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/134.

(3) قال السّمين في الدّر المصون: 7/46: "وقيل: بل هو عطفٌ على صلةِ (الذين) قبلَه، وفيه نظرٌ: مِن حيث الفصلُ بين أبعاضِ الصّلةِ بالخبر، وأيضًا فإنَّ هذا ماضٍ وما قبلَه مستقبلٌ، ولا بدّ مِنَ التَّوافق في الزّمان، إلّا أن يُقال: المقصودُ استمرارُهم بذلك، وإنَّ الماضي متى وقع صِلةً، صَلَحَ للمُضي والاستقبال".

الحياة الدّنيا مجازٌ مرسلٌ عن بَسْط الرّزق؛ لأنّ الفَرح ببسط الرّزق في الحياة الدّنيا، وليس بها، أي: أنّ (الحياة الدّنيا) مجازٌ مرسل، علاقتُه المَحَلّيّة، على اعتبار أنّ بَسْطَ الرّزق كائنٌ فيها، ودَلّ تعلّقُ فرحِهم بالحياة الدّنيا على الاحتراس، ودَفْعِ توهّمِ أنّ فرحَهم كان لغرض دينيّ أو أُخرويّ.

دلالة أسلوب القصر، في الاستثناء المُفَرّغ:

نعيم الحياة الدّنيا ليس إلّا متاعًا زائلًا، وسرابًا خُلّبًا

أسلوبُ القَصْر في قوله: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ﴾، دالٌّ على قَصْر نعيم الحياة الدّنيا، على كونه متاعًا، أي: قليلًا زائلًا. والهدفُ: قياس قيمةِ الحياة الدّنيا ونعيمِها، وسُرعةِ زوالِها وزوالِه، بنعيم الدّارِ الآخِرَة الدّائمِ أبدًا، لينْتُجَ أنّ الحياة الدّنيا بما فيها "كعُجالةِ الرّاكب، وزادِ الرّاعي، يُزَوِّدُه أهلُه الكَفَّ مِنَ التّمر، أو الشّيءَ مِنَ الدّقيق، أو نحوِ ذلك"[1]، وهذا المعنى قد جسّده النّبيُّ ﷺ، بقوله: «ما لي ولِلدُّنْيا، ما أنا في الدُّنْيا إلّا كَراكِبٍ اسْتَظَلَّ تَحْتَ شَجَرَةٍ، ثُمَّ راحَ وتَرَكَها»[2].

سرُّ التّعبير بـ ﴿فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾، ومقايستها بالدّنيا:

دلالة (في) على الظرفيّة المجازيّة، ودلالتها في السّياق

في قوله تعالى: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ﴾، دلّت ﴿فِى﴾ على الظّرفية المَجازيّة؛ لأنّها أفادت معنى المقايسة، وعندما يُقاس شيءٌ بشيء، إنّما يوضَع بجواره. والمعنى: ما الحياة الدّنيا جنبَ الآخِرة إذا قيست بها إلّا متاعٌ قليل، أو إذا نسبت أحوال الحياة الدّنيا بأحوال الآخرة، ظهر أنّ أحوالَ الدّنيا متاعٌ قليل[3].

سرُّ التّعبير بالإظهار دون الإضمار:

تحقير الحياةِ الدّنيا، وتهوينُ أمرِها ومصيرِها

السِّرّ في وضع المُظْهَر موضعَ المُضْمَر في قوله تعالى: ﴿وَفَرِحُوا۟

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/140.

(2) أخرجه الترمذيّ في سننه، برقم: (2377)، وقال: حَديثٌ حَسَنٌ صَحيحٌ، وابن ماجه في سننه، برقم: (4109).

(3) الشّهاب الخفاجيّ، عناية القاضي: 5/236، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/135.

﴿بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٞ﴾، ولم يقل: (وما هي في الآخرة إلّا متاع)؛ هو التّحقيرُ والإهانة، بإظهار اسم الحياة الدّنيا، في موضعٍ كان الأنسبُ فيه هو الإضمار؛ لقُرْبِ ذِكْرِ اسمِها، تمامًا كما في قوله تعالى: ﴿۞يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ وَمَن يَتَّبِعۡ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾ [النّور: 21].

سر اختيار التّعبير بقوله: ﴿مَتَٰعٞ﴾:

لفظ المتاع أدلّ على معنى القِلّة مِن غيره

أوثِرَ التّعبيرُ بالمتاع دونَ غيره لدلالته على معنى القلّة، وعلى الزّوال السّريع عَقِبَ التَّنعُّم به، فالمتاعُ: اسم لما يقع بهِ الانتفاعُ في العاجل. وأصله: التَّمتُّع، وهو التَّلذُّذ بالأمر الحاضر[1]، بخِلاف لفظِ النّعيم مثلًا، فهو دالّ فقط على حالة التّنعُّم دونما زيادةٍ على ذلك، يعني: قد يَطول وقد يَقْصُر، والأغلب أنّه دالّ على ما يكون طويلًا، ومِن ثَمّ أُطْلِق على ما يكون في الآخرة (نعيم)، وعلى ما يكون في الدّنيا (متاع).

سرّ تنكير ﴿مَتَٰعٞ﴾:

ورود التّنكير، بغرض التّقليل والتّحقير

دلّ تنكيرُ قوله: ﴿إِلَّا مَتَٰعٞ﴾ على التّقليل مِن متاع الحياة الدّنيا وتحقيره، كما في قوله تعالى: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ١٩٦ مَتَٰعٞ قَلِيلٞ﴾ [آل عمران: 196 - 197][2].

المتشابهُ اللّفظيّ:

اختلاف المباني، وأثره في اختلاف المعاني

تشابه قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ﴾، مع قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ﴾ [الإسراء: 30]، وقوله تعالى: ﴿وَيۡكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ وَيَقۡدِرُۖ﴾ [القصص: 82]، ومع قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ وَيَقۡدِرُ لَهُۥٓۚ﴾ [العنكبوت: 62]، ومع قوله تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّ رَبِّي يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/33.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/135.

لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [سبأ: 36]، وقوله: ﴿قُلۡ إِنَّ رَبِّي يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ وَيَقۡدِرُ لَهُۥۚ﴾ [سبأ: 39]، ومع قوله تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ﴾ [الرّوم: 37]، ومع قوله تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ﴾ [الزمر: 52]، وقوله تعالى: ﴿لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ﴾ [الشّورى: 12].

والنّاظر في هذه الآيات الكريمات يجد اتفاقًا واختلافًا بينها، ومن مواضع الاتفاق اختصاص هذه السّورة بلفظ الجلالة ومعها سورة القصص والعنكبوت والرّوم والزّمر، وذلك من باب التّوافق والتّناسق في سياق هذه السّور، حيث تَكَرّر لفظُ الجلالة ﴿ٱللَّهُ﴾ لتقدّم ذكره في هذه السّور، أما السّور التي ورد فيها لفظ الرَّب فجاء مناسبًا لتقدّم تَكَرّر ذِكْر لفظِ الرَّبّ فيها.

وممّا ورد في أمر الزّيادة، قوله تعالى: ﴿مِنۡ عِبَادِهِۦ﴾ و﴿لَهُۥ﴾ فجاءت في سورة العنكبوت موافقة لمقام بسط الكلام على الرّزق المذكور فيها صريحًا، وزاد في سورة القصص: ﴿مِنۡ عِبَادِهِۦ﴾ [القصص: 82] موافقة لذلك، وإن كان لفظ الرّزق فيها ضمنًا، وزاد ﴿لَهُۥۚ﴾ [سبأ: 39] في الموضع الثّاني مِن سورة سبأ؛ لأنّه نزل في المؤمنين، وما قبلَه في الكافرين.

وخلاصَةُ القولِ في أسرار التّشابه في هذا الموضع، تظهر في هذه الفروق:

الفرق الأوّل: اسم الجلالة: فقد ورد هكذا باسم ﴿ٱللَّهُ﴾ في السّوَر التي تكرّر فيها من بدايتها اسم الجلالة ﴿ٱللَّهُ﴾ مثل سور: [الرّعد: 26، القصص: 82، الرّوم: 37، الزّمر: 52]، وورد باسم الرّب في السّور التّي تكرّر فيها من بدايتها اسم (الرّب)، مثل سور [الإسراء: 30، سبأ: 36، 39][1].

الفرق الثّاني: قوله تعالى: ﴿يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ﴾ ورد التّركيب نفسه بصيَغ أخرى مثل: ﴿يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ وَيَقۡدِرُۖ﴾ [القصص: 82]، ومثل: ﴿يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ وَيَقۡدِرُ لَهُۥٓۚ﴾ [العنكبوت: 62].

وذلك لأنّ أحوال النّاس في الرّزق ثلاثة:

الأوّل: مَن يُبسَط رِزقُه تارةً ويضيَّق عليه أخرى، وهو يُفهَم مِن آية العنكبوت بقوله ﷻ:

(1) زكريا الأنصاريّ، فتح الرّحمن: 1/287.

﴿يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ وَيَقۡدِرُ لَهُۥٓۚ﴾ [العنكبوت: 62] بزيادة ﴿لَهُۥٓۚ﴾؛ لتقدّم قوله ﷻ: ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٖ لَّا تَحۡمِلُ رِزۡقَهَا ٱللَّهُ يَرۡزُقُهَا وَإِيَّاكُمۡۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ٦٠﴾ [العنكبوت: 60]، ثمّ فصَّل حالَهم في بسطه تارةً، وقبضه تارةً.

والثّاني: أن يوسَّع على قوم مطلقًا، ويُضيَّق على قوم مطلقًا، ويُفهَم من آية القصص: ﴿يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ وَيَقۡدِرُۖ﴾ [القصص: 82]، وذلك أنّه قد تقدّمها قِصةُ قارون؛ فناسبَه التّعبير بأنّه يبسط الرّزق لِمَن يشاء مطلقًا لا لكرامته، حتّى ولو كان قارون، ويقبضُه لِمَن يشاء لا لهوانه، كالفقراء من الأنبياء صلوات اللّه وسلامُه عليهم.

والثّالث: الإطلاق من غير تعيينِ بَسْطٍ ولا قَبْض، فأُطْلِقَ مِن غير ذِكْر (عباد)، وهذا القسم تناسبُه بقيّة الآياتِ، بما فيها مِن إطلاق من غير تعيين، وبما يشمل الآدميّين وغيرِهم[1].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيّةُ:

الفرح والحبور والسّرور:

يتقاربُ دلاليًّا كلٌّ مِنَ السُّرور والحُبور والفَرَح، فكُلّ لفظٍ منها دالٌّ على لَذَّةٍ تحصُل في القلب عِنْد حُصول نفعٍ، أو توقّعِه، أوِ اندفاع ضَرَر، ويُفَرّق بين ثلاثتها: بأنّ السُّرور هو الخالِص المُنكَتِم، والحُبور: هو ما يُرَى حِبْرُه - أي: أثره - في ظاهر البَشَرَة، وهما مستعملان في المَحْمود، ويكونانِ عَنِ القوَّة الفكريَّة. وأمّا الفَرَحُ فإنّه يكون عَنِ القوَّة الشّهوانيّة. ويُعَرّف بأنّه: انشراحُ الصّدر بلَذّة عاجلة، وأكثرُ ما يكون ذلك في اللّذّات البَدنيّة الدّنيويّة، ولذلك فإنّه كثيرًا ما يورث أشرًا أو بَطَرًا؛ ولذَلِك كثيرًا ما يُذَمّ في القرآن، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ

أكثر ذِكْر الفرح في القرآن في مقام الذّمّ، بخلاف غيره

(1) داود، معجم الفروق الدّلاليّة، ص: 540.

ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ [القصص: 76][1]، لكنّه ذُكِر في مقام المَدح في قوله تعالى: ﴿قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ﴾ [يونس: 58].

والنّاظر في آيات القرآن الكريم يجد استعمالَه لهذه الألفاظِ؛ فكلمةُ الحُبور جاءت في قوله تعالى: ﴿فَهُمۡ فِي رَوۡضَةٖ يُحۡبَرُونَ ﴿١٥﴾﴾ [الروم: 15]، وقوله تعالى: ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ أَنتُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ تُحۡبَرُونَ ﴿٧٠﴾﴾ [الزخرف: 70]، والمعنى: تُكْرَمون إكرامًا يُبالَغ فيه؛ فالحُبور إذًا يجمع المَسارَّ كلَّها، مِن حُسْن وجَمالٍ وسُرورٍ ولَذّةٍ ونِعْمَةٍ، مع ظهور آثارِ ذلك في الوجوه، وعلى هذا: فالقرآن الكريم جمع للمؤمنين في الجنّة كلَّ أنواع النّعيم.

وأمّا السّرور فاستُعْمِل في قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ﴿٧﴾ فَسَوۡفَ يُحَاسَبُ حِسَابٗا يَسِيرٗا ﴿٨﴾ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ مَسۡرُورٗا ﴿٩﴾﴾ [الانشقاق: 7 - 9]، فلفظُ السُّرور جاء في سياق وصْف حالِ المؤمنين يومَ القيامة، في مقابل حالِ الفُجّار، وعلى هذا: فالسُّرور يَخْتَصّ بالقلوب، فهو فَرَحٌ خالصٌ خَفي، يظهَرُ أثرُه بِشْرًا وحُبورًا.

وأمّا الفرحُ: فاستُعْمِل في مواضع عديدة مِنَ القرآن، كلُّها في مواضع الذَّمّ لارتباطه باللّذّة العاجلة، ولِمُصاحبتِه للبَطَر في الغالب؛ إلّا في مواضع عديدة، منها قولُه تعالى: ﴿فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ﴾ [آل عمران: 170] الآية، وقولُه: ﴿قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ هُوَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [يونس: 58]، وقولُه: ﴿وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ﴾ [الروم: 4 - 5]، ففي هذه المواضع الفَرَحُ فيها محمود؛ لأنّه مِن رحمة اللّه وفَضْله، ونَصْره للمؤمنين[2].

(1) الرّاغب، المفردات: (فرح)، والكفويّ، الكلّيّات، ص: 508.

(2) محمّد داود، معجم الفروق الدّلاليّة، ص: 133.

﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦۚ قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَنۡ أَنَابَ ٢٧﴾ [الرّعد: 27]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

العلاقة بين طعن الكافرين في الدّين، وطلبهم آيةً تُثبت صِدقَ آخِرِ المُرسلين

لمّا ذكر اللّه تعالى طعنَ المشركين في نُبوّة النَّبيِّ ﷺ، لقوله بالحَشْر والمَعاد، وإنذارِهم بحلول العذاب، وهذا واضح في سياق السّورة في الآيات السّابقة، ذَكَر هنا أنّهم طعنوا في نُبوّتِه ﷺ؛ لأنّه لم يأتِ لهم بمعجزةٍ بيّنةٍ، كما فعل الرّسل مِن قبلُ، قال تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦۚ﴾ الآية.

وممّا يُذْكَر في المناسبة أيضًا: أنّه سبحانَه بعد أن بيّن أمرَ الّذين فَرِحوا بالحياة الدّنيا، وما بَسَط اللّه لهم فيها مِن رزق، أظهرَ هنا أنّهم - وهم الّذين كفروا - بدلَ أن يَشْكروا اللّه على ما وهبَهم مِن نعمة بَسْطِ الرّزق، فيقودَهم هذا إلى الإيمان، تمادَوا في غَيِّهم، وبَدّلوا نعمةَ اللّه كُفْرًا، فلم يكتفوا بفرحهم واغترارهم بِبَسْط الرّزق؛ بل تَعنَّتوا معَ النّبيّ ﷺ، وتجاهلوا معجزتَه الكُبرى القرآنَ، الّذي لم يستطيعوا معارضتَه بمثل أقصرِ سورةٍ منه، وطلبوا مُعجزةً مادّيَّة، كعصا موسى عليه السلام، وإحياءِ الموتى لعيسى عليه السلام، وناقةِ صالح عليه السلام، فَسَجَّل اللّه عليهم هذا الموقفَ، وذمَّهم بما هم أهْلُه، وبيّن لهم أنّه ليس مِن سببٍ لكُفْرِهم إلّا ضلالُهم وتيههُم عنِ الآيات البيّنات، الّذي نتجَ عنه إضلالُهم مِنَ اللّه، فقال: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦۚ قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَنۡ أَنَابَ﴾.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَنَابَ﴾: الإنابةُ: الرّجوع عن مُنكرٍ بالتّوبة وإخلاصِ العمل،

وأصل (نوب) يَدُلُّ على اعتياد مكانٍ، ورجوعٍ إليه. وسُمّي النّحلُ نَوْبًا؛ لرجوعها إلى مقارّها[1]. ومعنى ﴿أَنَابَ﴾: تابَ ورَجَع.

❁ المَعْنى الإجْماليّ:

لا آيةَ أبلغُ مِنَ القرآن في ميدان التّحدّي والنّزال

تكشف الآيةُ عن أنّ الذين فرحوا فَرَحَ أشَرٍ وبَطَرٍ، بما بَسَطه اللّه لهم مِنَ الرّزق؛ هم الّذين كفروا، وتُبَيّن - كذلك - أنّهم لم يُفيدوا مِنَ الأدلّة النّاصعة مِنَ العقل والنّقل على صِحّة النّبوّة، وصِدقِ الرّسول ﷺ، وأنّهم كَذّبوا حين زعموا أنّ عدمَ إيمانِهم، هو لعدم كفاية القرآن كمعجزة، فطلبوا أن يأتيَهم الرّسولُ ﷺ بمعجزة ماديّة، كتلك الّتي كانت لسائر الأنبياءِ مِن قبلُ، فأجابهم القرآنُ عن طَلَبِهم هذا: بأنَّ عدمَ إيمانِهم ليس بسبب قصورٍ في المعجزة القرآنيّة، ولا غيرِها مِن معجزاتِه ﷺ، ولكن لأنّهم ضَلّوا وسَلَكوا طريقَ الغَيّ، فشاءَ اللّه إضلالَهم؛ فاللّه سبحانَه لا يهدي إليه إلّا مَن أقبل عليه، وتاب وأناب عن كلّ أسبابِ الكُفر والشّرك والبُعد عنِ اللّه.

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيّ:

دلالةُ عطف الآية على ما قبلَها:

يطلبون معجزةً حسيَّةً، والقرآنُ كافٍ عن كلّ معجزة ماديّة

العطف هنا في قوله: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦٓ﴾ على ما سبقَهُ، "عطفُ غَرضٍ على غَرضٍ، وقِصّة على قِصّة"[2]، أي: بعد أن فَرَغَ مِن قِصّة فَرَحِهم بالحياة الدُّنيا للدّلالة على تعلّقهم بها، دخل في قصّة أُخرى، هي طلبُهم معجزةً حسيّة بدلَ القرآن، للدّلالة على بَلادتهم.

السّرُّ في وضع المُظْهَر موضعَ المُضمَر:

ذَمُّهم والتّسجيلُ عليهم، توبيخٌ وتقريعٌ لهم

السِّرّ في وضع المُظهر موضعِ المُضْمَر، حيثُ لم يَقُل: (ويقولون)،

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وأبو حيّان، تحفة الأريب: (نوب).
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/135.

وإنّما قال: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾؛ للتّسجيل عليهم، وذَمِّهم[1] بالصّفة التي بسببها بَطِروا وأشِروا، وبَدّلوا نعمة اللّه كُفرًا، وهي صفةُ الكُفْر.

دلالة تكريرِ الآيةِ مع سَبْق نظيرتها:

التّكرارُ سببُهُ تَعَدُّد الأغراض

يبدو أنّ الموضوع مُتعدِّدُ الأغراضِ؛ بحيث اقتضى الحالُ أن يُعاد الكلامُ عنه لتحقيق غرضٍ آخر، بعد أن ذُكِرَ سابقًا لتحقيق غرضٍ سابق، ويظهر الغرضُ في كلتا الآيتين في اختلاف فاصلتيهما، وحاصلُ الاختلاف بينهما: جاء تحقيقًا لغرض الكلام في كلتيهما، فالخطاب في الآية الأولى كان موجّهًا للنّبيّ ﷺ؛ إشفاقًا عليه، وتقويةً لقلبه، وتثبيتًا له. وفي الآية الثّانية - وهي الّتي معنا - كان الكلامُ موجّهًا إلى الكافرين؛ ردًّا عليهم، وكشفًا لسوء نواياهم، وتعجيبًا مِن حالهم. فكان الكلامُ المعادُ أشبهَ بـ "إعادة الخطيب كلمةً مِن خُطبته؛ ليأتيَ بما بقي عليه في ذلك الغرض، بعد أن يفصلَ بما اقتضى المقامُ الفصلَ به، ثمّ يتفرّغ إلى ما تَرَكَه مِن قبل"[2].

دلالة التّعبير بالمضارع:

تكرُّر نفسِ الدّعوى في القرآن، وتعدُّدُ أغراضِها

دلّ التّعبير بالمضارع في قوله: ﴿وَيَقُولُ﴾، على تكرُّر هذا القولِ منهم مَرّات ومَرّات، ولذلك أعاده القرآنُ في الإخبار عنه مرّات ومرّات، وكان له في كلّ مَرّة غرضٌ، وفي كلّ مَحلّ رَدّ.

سرّ التّعبير باسم الموصول:

استهجانُهم والتّقليل مِن شأنهم

دلّ التّعبيرُ عنهم باسم الموصول: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾، على استهجانهم والتّقليلِ مِن شأنهم، لما تضمَّنَتْه الصّلةُ مِن وصفهم بالكُفر وعدمِ الإيمان، والتّغابي في الطّلب.

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/19، والآلوسيّ، روح المعاني: 7/140.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/135.

دلالة استخدام ﴿لَوْلَآ﴾:

إشارة التّحضيض إلى التّحدّي في مَكْرٍ ودهاءٍ

دلّ التّعبيرُ بـ ﴿لَوْلَآ﴾ التّحضيضيّة على أمور:

الأوّل: تعجيزُه ﷺ وإحراجُه بهذا الطّلبِ.

الثّاني: إيهامُ الرّسولِ ﷺ بأنّهم صادقون في إرادتهمُ الإيمانَ به، لو أنّه أجابَهم إلى ما طلبوا.

الثّالث: ويدلُّ أخيرًا على أنّهم قومٌ أصحاب مكرٍ ودهاءٍ؛ حيثُ بَدَوا بهذا التّحضيضِ وكأنّهم يستحثّونه ﷺ على تلبية طلبِهم، وأنّهم حريصون على ذلك، مترقّبون له، وهذا ما كشفه القرآنُ في التّعجيب منهم، والرَّدّ عليهم، كما مضى.

دلالةُ اقتراحِ الكفّارِ آيةً أُخرى، بعد نزول القرآن:

أرباب البيان يُسلِمون القياد للقرآن، إذ ما فوقَه معجزةٌ

دلّ اقتراحُ الكُفّار آيةً أُخرى بعد نزول القرآن، على هروبهم مِن مواجهته؛ لأنّ هذه المواجهةَ قد استعصت عليهم؛ بل أهانتهم وبالغَتْ في إحراجهم، خصوصًا أنّ القرآن قد مَدَّ لهم الحبلَ طويلًا جدًّا، عندما اكتفى في طلبه منهم بأن يأتوا بسورة مِن مثله، وبعد أنِ استفزّهم إلى قبول هذا التّحدّي، وقبولِ النِّزالِ، بإعلانه أنّهم لن يستطيعوا ولوِ استعانوا بمَن شاؤوا مِنَ الشّركاء والشّفعاء، ولو كانوا أهلَ الأرضِ جميعًا، قال تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [البقرة: 23 - 24]، وقال: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾ [الإسراء: 88].

أمّا المُعجزةُ الحِسّيّةُ، فمنِ السّهل عليهم ادّعاءُ أنّها مِن قبيل السّحرِ، كما فعل فرعون مع موسى عليه السلام، أوِ الانقضاض عليها

وإهلاكِها إن كانت قابلةً لهذا، كما فعل قومُ صالح ﷺ بالنّاقة، أو بإرجاع أمرِ المعجزة - ادّعاءً - إلى أيّ سبب آخَر، إلّا أن تكون معجزةً إلهيَّة، وهو ما توقّفت كلّ قرائِحهم عن تدبير مثلِه مع القرآن الكريم.

دلالة التّعبير بلفظ ﴿ءَايَةٌ﴾ عن (المعجزة):

التّعبير بلفظ ﴿ءَايَةٌ﴾ هو أحدُ التّعبيرات القرآنيّة عنِ المُعجزة، حيثُ إنّ القرآن لم يستخدم لفظَ المعجزة، كما أنّ السّنة النّبويّة لم يُسْتَخدم فيها لفظُ المعجزة بمعناه المعروف، فهو اصطلاح حادثٌ نشأ في ضوء عِلْم الكلام. وللآية في اللّغة وفي استعمال القرآن معانٍ، منها: العَلامَة والدّليل والعِبرة، وهذا كلّه ملحوظ في لفظ الآية حالَ دلالتِها على المعجزة الّتي يُؤيّدُ اللّه تعالى بها رُسُلَه، وتكون حُجّتَهم أمامَ المَدْعوّين.

لا يوجد في القرآن لفظ (معجزة)، بل لفظ (آية)

دلالة التّعبير بالإفراد في لفظ ﴿ءَايَةٌ﴾ دون الجمع:

لإيثار إفراد لفظ الآية أكثر مِن دلالة؛ منها: أنّه قد يُقْصَد الجِنسُ وليس المفرد. ومنها: إشعارُهمُ الرّسولَ ﷺ - ادّعاءً وكذبًا - بأنّهم صادقون في الإيمان به لو أنزلت عليه آيةٌ واحدة، حِسّيَّةٌ شبيهةٌ بآيات الأنبياء السّابقين، فآيةٌ واحدةٌ تكفيهم. ومنها: التّعريض بهم؛ لأنّهم طلبوا آيةً واحدة، في الوقت الّذي عَموا فيه عنِ الآيات الكثيرة، والمعجزات الوفيرة، الّتي تَأيَّدَ بها النّبيُّ ﷺ، ويكفيه القرآنُ، معجزةُ المعجزاتِ.

طلب الآية تعجيزٌ للرّسول، وتحايلٌ على الإيمان برسالته

سرّ التّعبير بالرّبوبيّة دونَ الألوهيّة:

أوثِرَ التّعبيرُ بالرّبوبيّة دون الأُلوهيّة، فقيل: ﴿ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦٓ﴾، ولم يقل: (آية مِنَ اللّه)؛ ربّما لأنّه حكايةٌ لقولهم، وقد نقله القرآنُ كما قالوه، وعليه يكون اختيارُهم له مِن قبيل الاستعطاف؛ لأنّ تأييدَ الرُّسل بالمعجزات مردودٌ إلى الرّبوبيّة، مِن جهة كونِها نعمةً على

قولٌ مَحْكي، أو مُشار به إلى وجه النّعمة في المعجزة

الرّسل؛ لكونها مُؤيّدةً لهم، نافيَةً لإحراجهم أمامَ المُخاطَبين، ثمّ إنّها نعمةٌ على المُرْسَل إليهم، مِن جهة أنّها تُعينُهم على الإيمان.

دلالة الإضافة في قوله: ﴿مِّن رَّبِّهِۦٓ﴾:

تعريضٌ به ﷺ، أو بُدوّ الحِقد عليه

في الإضافة إلى ضمير الغائب في قوله: ﴿مِّن رَّبِّهِۦٓ﴾، إعراضٌ عن التّكلّم، فلم يقولوا: (مِن ربّنا)؛ تعريضٌ وغَمْزٌ بالنّبيّ ﷺ، بأنّ له ربًّا مزعومًا، وأنّه ليس صادقًا، وأنّ ربّه هذا غيرُ ربِّهم. كما أنّهم أعرضوا عن الخطاب فلم يقولوا: (من ربّك)؛ تشديدًا في اللّوم والعِتاب.

بلاغةُ حَمْلِ الكلامِ على الحكاية أوِ الالتفات:

السّياق إمّا لتجديد نشاط السّامع، أو هو طعنٌ ماكِرٌ في صِدق الرّسالة

تتجلّى تلك البلاغةُ في صورتين؛ الأولى: إمّا أن يكون التفاتًا، وأصل الكلام: (لولا أُنزِلَ عليك)، وهو مِن حكاية القول بالمعنى، كقوله تعالى: ﴿قُل لِّعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [إبراهيم: 31]، أي: قل لهم أقيموا، ونُكْتَة ذلك هي نُكْتَة الالتفاتِ، أي: تجديدِ نشاطِ السّامع.

الثّانية: وإمّا أن يكون هذا القولُ صدرَ منهم فيما بينهم، ليُبَيّن بعضُهم لبعض شُبهةَ انتفاءِ رسالةِ محمّد ﷺ، أو أنّه صدر منهم للمسلمين، طمعًا في أن يَردّوهم إلى الكفر[1].

دلالة موقع جملة: ﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّـهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ﴾:

حملُ الكلامِ على التّعجيب والاستنكار

سأل الزّمخشريُّ وأجاب: "فإن قلتَ: كيف طابق قولُهم: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦٓ﴾، قولَه: ﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ﴾؟ قلتُ: هو كلامٌ يجرى مَجْرَى التّعجُّبِ مِن قولهم، وذلك أنّ الآياتِ الباهرةَ المُتكاثرةَ، الّتي أوتيها رسولُ الله ﷺ لم يُؤْتَها نَبيٌّ قبلَه، وكفى بالقرآن وحْدَه آيةً وراءَ كلِّ آية، فإذا جَحَدوها ولم يَعْتَدّوا بها، وجعلوه كأنّ آية لم تنزل عليه قطّ، كان موضعًا للتّعجّب والاستنكار، فكأنّه قيل لهم: ما أعظمَ عنادَكم، وما أشَدّ تصميمَكُم على كُفْركم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/130.

﴿مَن يَشَآءُ﴾، ممّن كان على صفتكم مِنَ التّصميم، وشِدّة الشّكيمة في الكُفر، فلا سبيلَ إلى اهتدائهم، وإن أُنزِلت كلُّ آيةٍ، ﴿وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَنۡ أَنَابَ﴾، كان على خِلاف صفتكم ﴿أَنَابَ﴾ أقبل إلى الحقّ"[1].

دلالة التّعبير بقوله: ﴿قُلۡ﴾:

مِن نعمة الله على رسوله تلقينُه الجوابَ على الدّعاوى المُغرِضة

في التّعبير بقوله: ﴿قُلۡ﴾ دلالةٌ على أنّ الله تعالى مِن كَثْرة اعتنائِه برسوله ﷺ لم يَدَعْ له عناءَ الرَّدّ على كلام الكُفّار ودعاواهم ومطالبِهم، الّتي ظنّوها تعجيزًا له ﷺ، فالله تعالى يُلَقّن رسولَه ﷺ الجوابَ المُناسبَ، في كلّ موضعٍ طلبوا فيه هذا الطّلبَ، بما يُحَقّق الغرضَ القُرآنيَّ المنشودَ مِن وراء رَدِّه وجوابِه.

ويمكن أن نَلْمَسَ هذا مِن خلال استعراضِ هذه الآيات، وكيف كان الجواب فيها. وهذه هي الآيات: قال تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦۚ قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةٗ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ٣٧﴾ [الأنعام: 37]، وقال: ﴿وَيَقُولُونَ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦۖ فَقُلۡ إِنَّمَا ٱلۡغَيۡبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُنتَظِرِينَ ٢٠﴾ [يونس: 20]، وقال: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦٓۗ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٞۖ وَلِكُلِّ قَوۡمٍ هَادٍ ٧﴾ [الرّعد: 7]، وقال: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦۚ قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَنۡ أَنَابَ﴾. فنرى للقرآن في كلّ سؤالٍ منها جوابًا مختلفًا مُلقَّنًا للنّبيّ ﷺ، مناسبًا للمقام، ومُحَقّقًا للغَرَض القُرآنيّ منه.

دلالة التّأكيد بـ ﴿إِنَّ﴾:

المُؤكّدات في الجملة وأغراضُها

في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ﴾، جاءت هذه العبارة ردًّا على الكافرين، وتعجيبًا من حالهم، وهم لا شَكّ منكرون جاحدون، وقد جاء التّأكيدُ بـ ﴿إِنَّ﴾ وبِمُؤكّدٍ آخَر، هو التّعبير باسم الجلالة

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/497.

﴿ٱللَّهَ﴾، والعُدولُ عنِ التّعبير بالضّمير عائدًا إلى ﴿رَّبِّهِۦ﴾، فلم يقل: (قل إنّه يضلّ من يشاء).

سرّ التّعبيرِ بالضّلال في قوله: ﴿يُضِلُّ﴾:

كلُّ ما في الكون مِن هداية أو ضلال، فهو مِنَ الله

في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ﴾، التّعبيرُ بـ ﴿يُضِلُّ﴾ وكذلك مقابله ﴿وَيَهْدِىٓ﴾، يدلُّ على أنّ الإضلال والهداية مِنَ الله تعالى، فهو يَخْذُل مَن يشاء، ويوفّق مَن يشاء، وأن لا علاقةَ لذلك بنزول الآيات أو عدمِ نزولها، "فلو حصلتِ الآياتُ الكثيرةُ، ولم تحصل الهدايةُ، فإنّه لم يَحْصُلِ الانتفاع بها، ولو حصلت آيةٌ واحدة فقط، وحصلتِ الهدايةُ مِنَ الله؛ فإنّه يحصُل الانتفاعُ بها، فلا تشتغلوا بطلب الآيات، ولكن تَضَرّعوا إلى الله في طَلَب الهدايات"[1]، والدّليلُ على أن لا علاقةَ للهداية بنزول الآيات، أنّ هنالك مِنِ انغمس في الهداية انغماسًا دونَ حاجةٍ إلى معجزةٍ، كأُمّ المؤمنين خديجةَ رضي الله عنها، والصّديق أبي بكرٍ رضي الله عنه، وعليٍّ رضي الله عنه، وغيرهم كثير.

فإيمانُ هؤلاء لم يكن بسبب المعجزات؛ بل لإرادةِ الله لهم الهدايةَ، ثُمّ ما هَيَّأه لهم مِن أسباب صحبتِهم للرّسول ﷺ، واطّلاعِهم منه على صِدْقِه، وأنّه أبعدُ عن موارد الكذب، ومَواطِن الرّيبةِ.

دلالةُ ذِكْرِ المَشيئة فِعْلًا مضارعًا:

الحَثّ على التّوبة، والتّحذيرُ مِنَ التّراخي فيها

مرّ بنا أنّ المَشيئة آنيةٌ، وليست مُتَراخيةً، كما أنّها لا تُفيد الأبَدية، كي لا يُفْهَم مِن هذه العبارة: ﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ﴾، أنّ مَن كان في وقته على ضلال، فسيبقى حتمًا كذلك، فالواقعُ لا يُساعِد أبدًا على هذا الفَهم، فكثيرٌ ممّن كانوا منغمسين في الضّلالة، قد فتح الله لهم بابًا في صَرْح الهدايةِ، فصاروا أكثرَ النّاسِ إيمانًا، بعد أن كانوا

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 19/39.

أكثرَهم كفرًا وعصيانًا. والسّرُّ في اختيار الصّلة بصيغة المضارع ﴿يَشَآءُ﴾؛ للدّلالة على استمرار المشيئة، حسبَ استمرارِ مُكابرتهم[1].

بلاغة المقابلة بين قوله: ﴿يُضِلُّ﴾، ﴿وَيَهْدِىٓ﴾:

بيانُ غرضِ الطّباق في الجملتين البَليغتَين

دلّ الطّباقُ في الجملتين على أنّ الإضلال والهدايةَ إنّما هما مِنَ اللّه تعالى، وفي ذلك حَثٌّ على تَرْك كلّ أسبابِ الضَّلال، وتَلَمُّس أسبابِ الهدايةِ، والفَزَع إلى اللّه تعالى لتحقيق هذا، "وإنّما يَسْتَحِقّ هذا الكلام - بحسب مقتضى الظّاهر - أن يقابَل بأن يقال: (ما أعظمَ كفرَكُم، وأشَدّ عنادَكم)، ونحوه، فَوُضِع هذا مَوْضِعَه، إشارةً إلى أنّ المُتَعَجِّب منه يقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ﴾"[2].

سرّ ذكر المشيئة مع الإضلال، وعدم ذكرها مع الهداية:

عدم تعليق الهداية على المشيئة، تكرمًا وتفضّلًا

لِذِكْر المشيئة في قوله: ﴿يُضِلُّ مَن يَشَآءُ﴾، وعدم ذِكْرها مع قوله: ﴿وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ﴾، سببٌ واضِحٌ؛ لأنّ الإضلال متعلّق بالمشيئة مِن حيث إنّ العبدَ قد يسعى في طريق الضّلال، ثمّ ينالُه توفيقٌ مِنَ اللّه، فيتحوَّلُ إلى الهداية، وقد يكون لِحِكْمةٍ يعلمُها اللّه، وتُخَصِّصُها المشيئةُ؛ بخلاف مَن أناب إلى اللّه، فتابَ وأقبلَ عليه، فإنّ قبولَه في باب الهداية والثّوابِ مُحَقَّقٌ بفضله تعالى، ولا يدخل في باب الاحتمال كالأوّل[3].

وفيه أيضًا تنبيهٌ إلى الهداية، وحَثٌّ للكَفَرة على الإقلاع عمّا هم عليه مِنَ العُتوّ والعِناد[4].

---

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/141.

(2) الشّهاب الخفاجيّ، عناية القاضي: 5/237.

(3) جعله البقاعيّ من باب الاحتباك، فقال في نظم الدّرر: 10/336: "ذِكْرُ المشيئة أولًا دَالٌّ على حذفها ثانيًا، وذِكْرُ الإنابة ثانيًا دَالٌّ على حَذْف ضِدّها أولًا". وما قاله لم يظهر أنّه الوجه، لأنّ تعلّق الإضلال بالمشيئة ظاهر، أمّا تعلّقُه بهداية مَن أناب فغير ظاهر، لأنّ الله تعالى يقبل من أناب - تفضُّلًا - دون تقييد بالمشيئة، حتّى إنّنا نرى أنّه سبحانه قد أنزل قبولَ توبةِ التّائب منزلةَ الواجبِ عليه تفضُّلًا، فقال: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ [النساء: 17].

(4) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/141.

دلالة تعدّي الفعل ﴿وَيَهۡدِيٓ﴾ بـ ﴿إِلَيۡهِ﴾:

تشريفُ المُنيبين بالتّعدي بالحرف (إلى)

في تعدّي الفعلِ ﴿وَيَهۡدِيٓ﴾ بـ ﴿إِلَيۡهِ﴾ في قوله: ﴿وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ﴾، تشريفٌ لهم[1]، أي: للمُنيبين المُقبلين على الله، والمعنى: يهديهم هدايةَ توفيقٍ واصطفاءٍ موصِلةً إليه، وليس مُجَرّد هدايةِ دلالةٍ، فهذه لكلّ النّاسِ، كما قال سبحانه مُخْبِرًا عن جِنْسِ الإنسان: ﴿وَهَدَيۡنَٰهُ ٱلنَّجۡدَيۡنِ ١٠﴾ [البلد: 10]، ولا تختصّ بمَن وُصِفوا بالمُهتدين.

دلالة تقديم الإضلال على الهداية:

التّعريض بضلال الكافرين، هو تقريعٌ لهم، وتهوينٌ مِن شأنهم

في تقديم الإضلال على الهداية في الآية، تعريضٌ بالّذين كفروا، القائلين: ﴿لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦۚ﴾، بأنّهم ممّن شاء الله إضلالَهم، هذا فضلًا عمّا هو معروف مِن تقديم ذِكْر المفاسدِ على المصالح؛ لأنّ دَرْءَ المفاسدِ مُقَدّمٌ على جَلْبِ المصالح، ولمّا أن كانتِ الثّانية مترتّبةً على الأولى، فلا حصولَ للهداية دونَ سَلْبٍ للضّلال.

دلالة تقديم الجارّ والمجرور ﴿إِلَيۡهِ﴾، على قوله: ﴿مَنۡ أَنَابَ﴾:

بلاغة الحصر والتّأكيد، في السّياق المجيد

دلّ تقديم الجارّ والمجرور ﴿إِلَيۡهِ﴾، على قوله: ﴿مَنۡ أَنَابَ﴾، على التّأكيد والتّقويَةِ، وعلى الحَصْر أيضًا.

سرّ التّعبير بالإنابة دون الرّجوع:

المُنيبُ مَن دخل في نَوبة الخير

عبّر بالإنابة في قوله: ﴿مَنۡ أَنَابَ﴾ دون الرّجوع؛ لأنّ الفعل ﴿أَنَابَ﴾ يدلُّ على خصوص الرُّجوع مِن شَرّ إلى خير، فحقيقةُ معناه: "دخل في نَوبَة الخير"[2].

سرّ التّعبير باسم الموصول ﴿مَنۡ﴾ دون (الّذي):

دلالة اسم الموصول على العموم، وأثره في السّياق

عبَّر باسم الموصول ﴿مَنۡ﴾، دون (الّذي) في قوله: ﴿مَنۡ أَنَابَ﴾، للدّلالة على عموم مَن تحقّقَت فيهمُ الصّلةُ، وليس على التّعيين، فكلُّ مَن أناب إلى الله تعالى، ورجعَ إليه، وأقبلَ عليه، فهو - بفضل الله - مقبولٌ.

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/19.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/528.

سرّ التّعبير بالماضي، دون المضارع:

استدعاء الهداية السّابقة للإنابة

عبّر بالماضي في قوله: ﴿وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ﴾، دون المضارع: (ينيب)؛ "للإيماء إلى استدعاء الهداية السّابقة للإنابة"[1]، والمراد قولُه: ﴿وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ﴾، أي: ليُساعِدَ استدعاؤُها على التّحَقّق بالإنابة والتّوبة، فإنّ الإنسان إذا عَلِم أنّ عاقبة الإنابة هي الهُدى وما يترتّب عليه مِن جزاءٍ عظيم، كَدُخول الجنّة والتّنَعّم فيها، ورؤيةِ المَلِك العَلّام، كان ذلك وسيلةً ناجعةً، وقوّةً دافعةً نحو الإقلاعِ عنِ الذّنوب، والإسراعِ بالتّوبة إلى غفّار الذّنوب، وسَتّار العيوب.

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/20، والآلوسيّ، روح المعاني: 7/141.

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ٢٨﴾ [الرّعد: 28]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

مقابل أهل الضّلالة، أهل القلوب المهتدية، والضّدُّ يُظْهِر حُسنَه الضّدّ

لمّا ذكرّ الله تعالى في الآية السّابقة حالَ مَن اختار الضّلال، فأضلّه الله، ثمّ ختمَها بقوله: ﴿وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَنۡ أَنَابَ﴾، بيّن بعدَ ذلك أحوالَ هؤلاء المَهْديّين فقال: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ﴾، مُراعيًا في المناسبة وجهَ "المُضادّة لحال الذين أضلّهم الله"[1]، وتعريضًا بكون هؤلاء الضّالّين ليسوا ممّن تطمئنّ قلوبُهم لذِكْر الله.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تَطۡمَئِنُّ﴾: الطُّمَأْنينَةُ والاطْمِئْنانُ: السّكونُ بعدَ الانزعاج. وأصل طَمَن: سَكَن[2]. ومعنى ﴿تَطۡمَئِنُّ﴾: تسكن قلوبُهم، وتستأنِسُ نفوسُهم وتركن واثقةً في معيّة الله، بسبب ذِكْره وعبادته.

2) ﴿ٱلۡقُلُوبُ﴾: (الْقافُ واللّامُ والباءُ) أصْلانِ صَحيحانِ؛ أحَدُهُما: يَدُلُّ على خالِصِ شَيْءٍ وشَريفِه، والآخَرُ: على رَدِّ شَيْءٍ مِنْ جِهَةٍ إلى جِهَةٍ. فالأوَّلُ: الْقَلْبُ، قَلْبُ الْإنْسانِ وغَيْرِه؛ سُمّي لأنّه أخْلَصُ شَيْءٍ فيهِ وأرْفَعُهُ، وخالِصُ كُلِّ شَيْءٍ وأشْرَفُهُ قَلْبُهُ[3]. وردّ بعضُهم القلبَ إلى الأصل الثّاني، فهو إذًا مِن قَلْبِ الشّيءِ، بمعنى: تصريفِه، وصَرْفِه عن وجهٍ إلى وجه، قيل: سُمّي قلبُ الإنسان بذلك لكثرة تَقَلُّبِهِ. ويُعَبّر بالقلب في القرآن، لا عنِ المُضغَة الكائنة في

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/137.
(2) الرّاغب، المفردات: (طمن).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (قلب).

تجويف الصّدر لِتَضُخّ الدّماءَ في سائر الجسم، ولكن عنِ المعاني التي تَخْتَصّ به، مِنَ الرّوح والعِلْم والشّجاعة وغيرِ ذلك، كما في قوله تعالى: ﴿وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ﴾ [الأحزاب: 10] أي: الأرواحُ، وقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾ [ق: 37] أي: عِلْم وفَهْم وعقل، وقوله: ﴿وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ﴾ [الأنفال: 10] أي: تَثْبُتَ به شجاعتُكم ويَزولَ خَوفُكم[1].

❁ المَعْنى الإجْماليّ:

بيّنت هذه الآيةُ، أنّه إذا كان اللّه تعالى يهدي إليه مَن أقبل عليه وأناب، فإنّ هؤلاءِ المَهديّين هم الذين آمنوا، وهم الّذين تسكنُ قلوبُهم، وتلينُ جلودُهم، وتَهْدأُ نفوسُهم لذِكْر اللّه وتلاوةِ كلامه، اللّذين هما أوْلى ما تَطمَئِنّ به القلوبُ الثّائرة، وتهدأ به النّفوسُ المُضْطربة. فيكون لهم بذلك خيرٌ وفَرَحٌ، وقُرّةُ عينٍ ومثوبةٌ، وحُسنُ مآبٍ ومستَقَرّ في جنّات النّعيم يوم القيامة.

كفى بالقرآن ذِكرًا، تطمئنّ به قلوبُ المؤمنين، وتأنسُ إلى الله

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيّ:

دلالة فصل الآية عمّا قبلَها:

قوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ بدلٌ مِن قوله: ﴿مَنْ أَنَابَ﴾، وهذه البدليّةُ هي سِرّ الفصل، وبذلك يكون بينَ الجملتين كمالُ اتّصال، فالّذين أنابوا إلى اللّه هم ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾.

كمال الاتّصال في الآية، مبينٌ عن معنى السّياق

دلالة التّعبير بجملة الصّلة: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾:

سِرّ التّعبيرِ بجملة الصّلة: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، مَدْحُهم وتشريفُهم بالإيمان، وبيانُ سببِ إنابتهم إلى اللّه، واطمئنان قلوبِهم لذِكْر اللّه، إنّه الإيمان الذي أضاء أفئِدَتَهم.

صدقُ اليقين، يُذَلّل صعوبةَ العمل

(1) الرّاغب، المفردات: (قلب).

التّعبير بالاطمئنان هنا، اختياره مُرْتَهِنٌ بالذّكر والعبوديّة لله

سِرّ التّعبير بقوله: ﴿وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم﴾:

أسباب حصول الاطمئنانِ في القلوب أخذًا مِنَ الآية، هي:

أوّلًا: الإنابة إلى الله، المُحَقِّقةُ للاهتداء إليه، ولها السّبق ذِكْرًا ووجودًا، حيثُ بها تَرِقُّ القلوبُ، وتهفو النّفوسُ إلى التّعَلّق بربّها.

ثانيًا: الإيمان المسبوق بالإنابة.

ثالثًا: ذِكْرُ الله، وأولى ما يدخل في ذِكْر الله قراءةُ القرآن والعملُ به؛ فهذه المُقوّمات على ترتيبها المذكور، هي التي تَمَخّضَ عنها الاطمئنان.

وفي موطن آخَر لم يسبق فيه ذِكْر الإنابة إلى الله، وإنّما دَلَف مباشرة إلى وصف الإيمان غيرِ المسبوق بتهيئة الإنابة، ثمّ إلى ذكر الله، نرى أنّه ذكر الوَجَل بدلَ الاطمئنان، وذلك في قوله سبحانه: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنفال: 2]، وقولِه: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ۝٣٤ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الحج: 34 - 35]، والوَجَل: مِن باب التّهيّب وتجليّاتِ صفاتِ الجلال، والاطمئنان: مِن باب السّكينة وتجليّات صفاتِ الجمال، وكأنّ ذِكر الله كي يُحَقّقَ الاطمئنان، يحتاج إلى التّهيئة المذكورة، المُترجَمَة فيما يُعْرَف بأنين المُذْنبين، الذي هو أحبُّ إلى الله مِن تسبيح المدلَّلين.

وإنّما عَبّر بالوَجَل في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنفال: 2]، والوَجَل ضِدّ الاطمئنان، لاختلاف المقام، ففي مقام الرّجاء والرّغبة وحُسن الظّن تطمئنّ القلوب، وفي مقام الرّهبة والخوف تَوْجَل.

وتفسيره: "أنّهم إذا ذَكَروا العقوباتِ، ولم يأمَنوا مِن أن يُقْدِموا على المعاصي، فهناك وصفَهم بالوَجَل، وإذا ذَكَروا وعْدَه بالثّواب والرّحمة، سكنت قلوبُهم إلى ذلك، وأحدُ الأمرين لا يُنافي الآخر؛

لأنّ الوَجَل هو بذِكْر العقاب، والطّمأنينةَ بذِكْر الثّواب، ويوجد الوَجَلُ في حال فِكْرِهم في المعاصي، وتوجد الطّمأنينة عند اشتغالهم بالطّاعات"[1].

سرّ التّعبير بالمضارع ﴿وَتَطۡمَئِنُّ﴾:

المُداومة على اطمئنان القلب، رَهْنُ المداومةِ على الذِّكر

في التّعبير بالمضارع ﴿وَتَطۡمَئِنُّ﴾ دون الماضي؛ دلالةٌ على حِرْصهم على ذِكْر الله بالمُداومة عليه، وتَجَدّد نشاطِهم نحوه، ليَسْتَمِرّ معه اطمئنانُ قلوبهم إليه، ولو كَلَّتِ القلوبُ لحظةً، عادت مِن جديد أكثرَ نشاطًا، وأشدَّ اطمئنانًا.

ويحتمل أن تكون الدّلالة هنا هي إفادة تجدّد الاطمئنان، "حسبَ تجدّدِ الآيات وتعدُّدِها"[2]، وهذا على القول بأنّ الذِّكر هو القرآن، وهو الرّاجح.

وعلى أنّ المُراد به ما هو أعمّ مِنَ القرآن، فالمراد: تجدّدُ الاطمئنان حسبَ التّرقّي في ذِكْر الله بأسمائه الحُسنى، وما ورد في المأثور مِنَ الأذكار؛ لأنّ لكلّ ذِكْرٍ منزلًا ومنزلةً، بحسب تجليّات كلّ ذِكْر منها، وبحسب حضورِ قلب الذّاكِر، وتَدَرُّجِه في منازل الذّاكرين.

دلالة الاستعارة التّبعيّة:

التّعريض بالكافرين، توبيخٌ وتقريع

في قوله تعالى: ﴿وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ﴾، تعريضٌ بالكافرين، بأنّهم ليست لهم قلوبٌ، لِخُلوّها مِن ذِكْر الله، وكما قال الله: ﴿وَأَفۡـِٔدَتُهُمۡ هَوَآءٞ ٤٣﴾ [إبراهيم: 43]، وعلى ذلك: فالاطمئنان مستعارٌ لليقين وعدمِ الشّكّ[3].

دلالة إسناد الاطمئنان إلى القلوب دون الصّدور:

القلوب هي الأصل والجوهر، والصّدورُ قوالبُها

في إسناد الاطمئنان إلى القلوب، مجازٌ عقليٌّ؛ لأنّ الذي يَطمَئِنّ حقيقةً هو الإنسان، وأُسْنِدَ الاطمئنانُ إلى القلوب دون الصّدور؛ لأنّه

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 19/40.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/20، والآلوسيّ، روح المعاني: 7/141.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/137.

أدَلّ وأقربُ وأمَسّ، مِن حيثُ إنّ ذكر الصّدور في غير هذه الآية، إنّما يكون باعتبارها حاضنة للقلوب لا غير، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ١١٩﴾ [آل عمران: 119] وقوله: ﴿قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ﴾ [يونس: 57]، وأوضحُ مِن هذا قولُه: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعۡمَى ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ٤٦﴾ [الحج: 46].

سرّ التّعبير عن القرآن بالذّكر:

تشريف القرآن باسم الذّكر، شرفٌ للذّاكرين

في قوله تعالى: ﴿بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ﴾ أي: بالقرآن، وإنّما سُمّي القرآنُ (ذِكْرًا) لما فيه مِنَ المواعظ، وأخبارِ الأمم الماضية، والذّكر أيضًا الشّرف، قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكۡرٞ لَّكَ وَلِقَوۡمِكَۖ﴾ [الزخرف: 44]، أي: شرف؛ لأنّه بلُغَتِهم[1].

دلالة الباء في قوله: ﴿بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ﴾:

ذكر الله سببٌ لسكون القلب، وراحةِ الرّوح

الباء هنا هي باء السّببيّة، والمعنى: أنّ قلوبهم تطمئنّ وتَسْكُن بسبب ذِكْر الله.

دلالة إضافة الذّكر، إلى لفظ الجلالة ﴿ٱللَّهِۗ﴾:

التّشريف والتّعظيم للذّكر والذّاكر، لشرفهما بالنّسبة إلى الله القادر

هي مِن إضافة المصدر إلى مفعوله، والمعنى: أنّهم تطمئنّ قلوبُهم بسبب أنّهم يَذْكرون الله، وهي إضافة تشريف للذّكر، وهو القرآن على أرجح الأقوال؛ لأنّه المُسَمّى ذِكْرًا في عدد مِنَ الآيات، ومنها قوله تعالى: ﴿وَهَٰذَا ذِكۡرٞ مُّبَارَكٌ﴾ [الأنبياء: 50]، وقولُه: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ٩﴾ [الحجر: 9]، وقولُه: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكۡرٞ لَّكَ وَلِقَوۡمِكَۖ﴾ [الزخرف: 44].

دلالة تكرار الفعل المضارع: ﴿وَتَطۡمَئِنُّ﴾:

كلّما تجدّد الذّكر تجدّد الاطمئنان

واختير المضارعُ في ﴿وَتَطۡمَئِنُّ﴾ مرّتين؛ لدلالته على تجدّد الاطمئنان واستمراره، وأنّه لا يتخلله شَكّ ولا تَردّد[2].

(1) السيوطيّ، الإتقان في علوم القرآن: 1/183.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/138.

دلالة افتتاح جملة التّذييل بـ ﴿أَلَا﴾:

تنبيهُ البشرِ لفضل الذِّكر

"وافتُتِحَت جملةُ ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ بحرف التّنبيه؛ اهتمامًا بمضمونها، وإغراءً بوعيه، وهي بمنزلة التّذييل لما في تعريف القلوب مِنَ التّعميم، وفيه إثارةُ الباقين على الكفر على أن يَتَّسِموا بِسِمَة المؤمنين، مِنَ التَّدبُّر في القرآن لتَطمئنّ قلوبُهم، كأنّه يقول: إذا علمتم راحةَ بالِ المؤمنين، فماذا يمنعكم بأن تكونوا مثلَهم، فإن تلك في متناولكم؛ لأنّ ذِكْر الله بمسامعكم"[1]. وفي جملة: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ دلالةٌ على القَصْر، أي: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ وحْدَه وهو القرآن ﴿تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾[2].

دلالة تكرار ﴿بِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾:

تكرار الذِّكر لتنبيه الغافلين، وتقريعِ المتُغافلين

إعادةُ قوله تعالى: ﴿بِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ مُظْهَرًا في مَحَلّ الإضمار؛ لأنّ الأصل فيه أن يأتي مضمرًا لقُرب ذِكْره، للتّركيز عليه، والحَثّ على المحافظة عليه، مِن قِبَل الذّاكرين، وأيضًا لتنبيه الغافلين عنه إلى حاجتهم إليه.

دلالة ﴿ٱلْقُلُوبُ﴾، مضافةً إلى الضّمير، أو معرّفةً بـ (أل):

اختلاف المراد في كلّ منهما، يدلّ على ثراء التّركيب وتنوّعه

كرّر لفظَ ﴿ٱلْقُلُوبُ﴾، مضافةً إلى الضّمير، في قوله: ﴿وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم﴾، حيث الكلامُ مُتّجهٌ إلى قلوب المُنيبين، الّذين آمنوا وعملوا الصّالحات، فالجملة مختصّةٌ بهم.

وأمّا ذِكْر ﴿ٱلْقُلُوبُ﴾ في الجملة الثّانية: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾، فقد ذُكِرت في إطار القاعدة العامّة، وهي تقرير أنّ بذِكْر الله وحْدَه - حصرًا - تطمئنّ كلُّ القلوب، فكانتِ الجملة الأولى بمثابة الحُكْم الفَرْعيّ المُسْتَلّ مِنَ القاعدة العامّة، والمُنَزَّل عليها، وهي الجملة الثّانية.

أو يقال: إنّ الثّانية هي الحُكْم العامّ، والأولى هي تنزيل الحُكم العامّ على حالة مخصوصة.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/138.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/141.

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمۡ وَحُسۡنُ مَـَٔابٖ ٢٩﴾

[الرّعد: 29]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

سَوقُ البُشرى لأهلِ الإيمانِ بعدَ ذِكرِ صفاتهم

الآيةُ السّابقة حديثٌ عن صفات المؤمنين، وأجلُّها الاطمئنان بذِكر اللّه وحده، فحال قلوبهم هادئةٌ ساكنة مُطمئنَّة، وهذه الآية تَحمل البشرى لهؤلاء المُطمئنّين بأنَّ لهم الجنَّة وما فيها من النَّعيم والهَناءة وحُسن المَرجع والمآب.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿طُوبَىٰ﴾: (طاب) يَطيب (طيبة) بِكَسْر الطّاء و(تَطْيابا) بفَتْح التّاء؛ أيْ: لَذَّ وزَكا، والمعنى: طيبُ العَيشِ لهم، أو: الخيرُ وأقصَى الأُمنيةِ، وطوبى مَصدرٌ مِنْ طابَ طيبًا إذا حَسُنَ، فُعْلى من الطّيب، قَلَبوا الياءَ واوًا للضَّمّة قبلها، والطَّيِّب ضدُّ الخبيث، وطوبى: شجرةٌ في الجنَّةِ، وقيل: بل هي إشارةٌ إلى كلِّ مُستطابٍ في الجنَّةِ[1]، والمعنى المِحوريُّ لهذه الكلمة لُطْفُ وقْعِ الشَّيء على الحِسّ، وصُلوحه في باب ما يُراد منه (مع خُلوِّه من الغِلَظ والحِدّة): كالطّيب بمَعناه المذكورِ (تُسْتَلَذّ رائحته).

2) ﴿مَـَٔابٖ﴾: المآبُ: المَرجِعُ والمُنقَلَبُ، مِن الأوبِ وهو الرُّجوع، يُقال: آبَ يَؤوبُ أوْبًا وإيابًا ومآبًا؛ إذا رَجَع؛ أيْ: ولهُم عِند ربِّهم مَرجِع حسَن، ومُنقَلب طيِّبٌ يَنقلبون ويَرجعون إليه في الآخرة وهو الجنَّة[2]؛ والمعنى المِحوريُّ لهذه المادَّة اللُّغويَّة هو: رجوع الشَّيْء إلى

(1) السّجستانيّ، غريب القرآن، ص: 322، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (طيب).
(2) السّجستانيّ، غريب القرآن، ص: 412، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والزّبيديّ، تاج العروس: (أوب).

مُستقرِّه: كما يؤوب النَّحْل إلى خلاياه مهْما ابتعد عنها في سُروحه إلى حقول الزُّهور ليَمتصَّ رحيقها، وكما يتجمَّع ماء البئر إلى أعمق مَوضع منها، كُلَّما نَقَص الماء أو نُزِحَ، ومنه: آب الغائب يَؤوبُ أوْبًا ومَآبًا وإيابًا وأوْبَةً وأيْبَةً: رَجَع[1].

المَعْنى الإجْماليّ:

ثواب المؤمنين تكريمٌ بحُسن المرجِع

تخبرنا الآية الكريمة أنَّ الّذين آمَنوا بكُلِّ ما يجِبُ عليهم الإيمانُ به، وعَمِلوا الأعمالَ الصّالِحةَ - تصديقًا لهذا الإيمانِ - أولئك لهم حالٌ طَيِّبةٌ، وحُسنُ مَرجِعٍ؛ وذلك بما يَنالونَ مِن رِضوانِ اللّه وكَرامتِه في الدُّنيا والآخرةِ، فلهم كَمالُ الخيرِ والطُّمَأنينةِ، والفَرَحِ والسُّرورِ، ولهم النَّعيمُ الدّائمُ[2].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيّ:

سِرُّ فصْل ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾:

المقارَنة والمغايَرة بين حالَتَي الاطمئنان والضَّلال

سِرُّ الفصْل بين قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ وبين ما قبلها هو مقارنةُ حالٍ بحالٍ، حال المُطمئنّين بذِكْرِ اللّه الّذين هَداهم اللّه، فآمَنوا وعملوا الصّالحات، وحال الكفّار الّذين أضلَّهم اللّه، مع التَّنبيه على أنَّ مثال الّذين ضَلُّوا هو عدم اطمئنان قلوبهم لِذِكْرِ اللّه وهو القرآن، لأنَّ قولهم: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ [الرّعد: 27] يتضمَّن أنَّهم لَم يَعُدُّوا القرآن آيةً من اللّه تعالى[3].

سِرُّ التَّعبير بـ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ دون (مَنْ):

عُلوّ شأن المؤمنين وبيان كرامتهم عند الله تعالى

للتَّعبير بِاسْم الموصول في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ دون قوله (من آمن) فائدتان: الأولى: المُناسَبة لِما قبلها في الآية

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (أيب).

(2) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/455، والسّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 417، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/138.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/137.

الكريمة ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم﴾ [الرّعد: 28]، والثّانية: الّذين: اسم مَوصول خاصٌّ، يختصُّ بالجَمْع العاقل، أمّا (من) فمُشتركة تُستعمل للمُفرد والمُثنَّى والجمْع والعاقل وغير العاقل[1]، فالاسم الموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾ نصٌّ في المُراد، وكونُه مُختصًّا من شأنه أن يكون معهودًا لدى السّامع مِمّا يدلُّ على عُلوِّ الشَّأن[2].

سِرُّ التَّعبير بـ ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾:

ثَبات الإيمان في نفوسهم، وظُهوره في سُلوكهم وطبائعهم

إيثار النَّظْم الكريمِ للاسْم الموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾ مع صِلَته فيه إيماءٌ إلى ثَبات ذلك الإيمان في نفوسهم، وظُهوره في سُلوكهم وطبائعهم، فالجُملة الموصوليَّة أفادَت المدْح والتَّقْريظ، وإتيانُ الموصول مع الصِّلة بالفعل الماضي قُصِدَ به الالتباس والاستصحاب[3]، إضافةً إلى ذلك، فالاسم الموصول مع الفعل الماضي دلَّ على زمان ماضٍ مُحدَّدٍ، عكْس اسم الفاعل الّذي لا يدلُّ على زمان مُحدَّد، كما أنَّ الضَّمير (واو الجماعة) في ﴿ءَامَنُواْ﴾ فيه قصْديَّة الإيمان والتَّوجُّه إليه بكلِّ حواسِّهم ومشاعرهم؛ فكان الأوْلى التَّعبير بالاسم الموصول، وذلك لِما فيه من إشارة إلى بيان سبب هذا الجزاء الّذي أعدَّه الله للمؤمنين من طيب المُقام في الجنَّة.

سِرُّ التَّعبير بـ ﴿ءَامَنُواْ﴾ دون (يؤمنون):

ثَبات الإيمان في نفوس المؤمنين حتَّى صار الإيمان علامةً لهم

التَّعبير بالفعل الماضي ﴿ءَامَنُواْ﴾ جاء "تحقيقًا للأمر، وتثبيتًا له"[4]، فالإيمان ثابت كالجبال الرَّواسي لا يتزحزح؛ لأنَّه ملَكَ عليهم نفوسهم، فصاروا معروفينَ به.

دلالة إيثار ﴿ءَامَنُواْ﴾ دون (أسلموا):

في اختيار وصْف الإيمان فائدتان: الأولى: مُناسَبة ما قبلها

(1) ابن هشام، شرح قطر النّدى وبلّ الصّدى، ص: 101.
(2) النّورسيّ، إشارات الإعجاز في مظانّ الإيجاز، ص: 34.
(3) عضيمة، دراسات لأسلوب القرآن الكريم: 1/186.
(4) ابن جِنّي، الخصائص: 3/334.

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ﴾ [الرّعد: 28]، فالّذين آمنوا هم الّذين اطمأنّتْ قلوبهم بذِكر اللّه، ولو جاء التّعبير بالفعل (أسلموا) لرُبَّما ظنَّ ظانٌّ أنَّ الّذين آمنوا وعملوا الصّالحات قوم غير الّذين وُصِفوا سابقًا بالاطمئنان. الثّانية: الإيمان تنزيه اللّه عن الشِّرك وتوحيده في العَظَمَةِ[1]، كما أنّ الإيمان صفة القلب؛ أيْ: آمنوا بقلوبهم[2]، وهذا مُناسب لقوله ﴿وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم﴾، فكان وصْف الإيمان هو الأنسَب.

الإيمان تنزيهٌ وتوحيدٌ وتوْصيف لعمل القلب المُطمئِنِّ بِذِكْرِ الله

وفيه إشارة إلى إخراج المُنافقين من نَعيم الجنَّة مع إعلانهم أنَّهم مُسلِمون، والحقيقة أنَّهم ليسوا بمؤمنين؛ فكان التَّعبير بالإيمان هو الحَدُّ الفاصِل لتمييز هؤلاء المُنافقين وإخراجهم من حظيرة الإيمان.

دلالة حذْف مُتعلِّق الفعل ﴿ءَامَنُواْ﴾:

حَذْفُ مُتعلِّق الفعل ﴿ءَامَنُواْ﴾ إمّا للعِلم به، وهو المَذكور في قوله ﷺ عندما سُئِلَ عن الإيمان؛ فقال: «أنْ تؤمنَ باللّه وملائكتهِ وكُتُبه ورُسُله»[3] إلى آخِر الحديث؛ فصار هذا القول بمثابة المُصطلح المعروف؛ فإذا قيل: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ فُهِمَ المَقصودون من تَعَلُّق الإيمان دون ترْكٍ لأيِّ فرْدٍ من أفراده.

شُمول مصطلح الإيمان لكلِّ فرْدٍ من أفراده

دلالة عطْف ﴿وَعَمِلُواْ﴾ على ﴿ءَامَنُواْ﴾:

في هذا العطْف فوائدُ؛ الأولى: الإيمان وإنْ كان يَدخل فيه جَميعُ الأعمال الصّالحة إلّا أنَّ قوله: ﴿ءَامَنُواْ﴾ لا يُفيد إلّا أنَّه فَعَل فِعلًا واحدًا من أفعال الإيمان، فلِذا حَسُنَ أن يقول: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾[4]، كي تتعدَّد الأعمال، الثّانية: العطْف هُنا فيه ترتيب

الإيمان هو الدّاعي الرَّئيس للعمل الصّالح

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 28/118.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 12/461.
(3) أخرجه البخاريّ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. البخاريّ، صحيح البخاريّ، كتاب: الإيمان، باب: سؤال جبريل النّبيّ ﷺ عن الإيمان والإسلام والإحسان وعِلم السّاعة، الحديث رقم: (50).
(4) الخازن، لباب التّأويل في معاني التّنزيل: 1/57.

بين الإيمان والعمل الصّالح، فالإيمان هو الدّاعي الرَّئيس للعمل الصّالح؛ فالعمل الصّالح هو التَّصديق الحقُّ للإيمان وهو بُرهان عليه، الثّالثة: قوله: ﴿ءَامَنُواْ﴾ يُفيد الماضي، فكأنَّه تعالى قال: آمَنوا أوَّلًا ثُمّ داوَموا عليه آخِرًا بالعمل الصّالح بِكُلِّ صوَرِهِ الّتي تدخل تحت مصطلح الأعمال الصّالحات[1]، ويجوز أن يكون من باب عطْف الخاصِّ على العامِّ؛ لأنَّ الإيمان أعمُّ والعمل الصّالح جزءٌ منه.

سِرُّ التّعبير بـ ﴿وَعَمِلُواْ﴾ دون (وفعلوا):

في العمل قصْديَّة ومُثابَرة وامتداد زمان ليست في الفعل

ورَدَ انتخاب (العمل) دون (الفعل) في قوله تعالى: ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، وسرُّ ذلك أنَّ العمل أخَصُّ من الفعل، فكلُّ عملٍ فِعلٌ، ولا يَنعكِس[2]، وهذا يَحمل قصْديَّة الفعل والتَّوجُّه إليه، فعملُ الصّالحات صارَ طبيعةً ودَيْدنًا، لأنَّ فيه امتداد زمان[3] غير الفعل، ومِن ثَمَّ عبَّر بهِ، فقال: ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، حيثُ كان المَقصود المُثابَرة عليها لا الإتيانَ بها مرَّةً أو بسُرعة[4].

عِلَّة حذْف المَوصوف في: ﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾:

لا يَصدر عن المؤمن إلّا العمل الصّالح

عِلَّة حذْف المَوصوف وإبقاء الصِّفة في قوله تعالى: ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ هي ذِكْرُ الفعل ﴿وَعَمِلُواْ﴾ قبْل الصِّفة ﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، فالفعل دالٌّ على تقدير مصدَرِه، كأنْ تقول في: قُمْت طَويلًا حَسنًا؛ أيْ: قيامًا طويلًا حَسنًا[5]، فالتَّعبير المُقدَّر (الأعمال)؛ أيْ: الأعمال الصّالحات، ثُمّ إنَّ إقامة الصِّفة ﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ مَقام المَوصوف تُشعِر بأنَّ الموصوف (الأعمال) حاضرٌ[6] لا غائب، فكأنّ عمَلَ الصّالحات هَمُّهم الآكَدُ الّذي لا يَتحوَّل ولا يَتغيَّر.

(1) الخازن، لباب التّأويل في معاني التّنزيل: 1/57.
(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 109 - 110.
(3) السّيوطيّ، معترك الأقران: 3/387.
(4) السّيوطيّ، معترك الأقران: 3/387.
(5) الشّهاب الخفاجي، عناية القاضي: 7/202.
(6) البغداديّ، خزانة الأدب: 8/377.

سِرُّ التَّعبير بـ ﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ لا المُفرَد:

كثرة الأعمال الصّالحة مع تَنَوُّعها وتعدُّدها

التَّعبير بالجمْع في قوله تعالى: ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ فيه فائدتان؛ الأولى: الإشارة إلى كثرة المجموع تفخيمًا في مَقام الثَّناء والمدْح؛ لِذا دَرَجَ القرآنُ على استخدام الجمْع في الثَّناء على المؤمنين بعَمَلهم الصّالِح، فلَم تَرِد ﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ مُفرَدةً أبدًا مع تَكرُّر وُرودها جمْعًا اثنتيْن وستّين مرَّة في الذِّكر الحكيم، وفي ذلك تكثير للأعمال الصّالحات تمهيدًا لمقابَلَتها بواسع مغفرته ورضوانه[1].

والفائدة الثّانية: الجمْع دالٌّ على التَّعدُّد والتَّنوُّع وشُمول كُلِّ ما تستطيعه النَّفْس من خير، فهم لا يُصرّون على عمل واحد فقط، وإنَّما يُحيطون أنفُسَهم بكلِّ ما يُقرِّبهم من ربِّهم، يَنشغلون به، ولا يَتركون فُرْصة من الدَّهْر إلّا وكانوا في مُقدِّمة مَن يَفعلون الصّالحات حتّى صار ذلك طبعًا وسَجيَّة، وكأنَّ الإيمان حتّى يَثْبت ويَقْوى يَلْزَمه كثرة الأعمال الصّالحة وتعدُّدها وتنوُّعها[2].

سِرُّ اختيار ﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ دون مرادفاتها:

الصّالحات خير مُطلَق، أمّا الخيرات فهي نِسبيَّة

آثر البيان القرآنيُّ التّعبير في قوله تعالى: ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ بلفظ ﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ لأنّ الأعمال الصّالحات تَضُمُّ في ثناياها الأعمال الخيِّرات، وتختصُّ بالأفعال[3]، أمّا الخيرات فهي مُقيَّدة، وهي أنَّ خير الواحد شَرُّ الآخَر كالمال الَّذى ربّما كان خيرًا لزَيدٍ وشرًّا لِعَمرٍو، ولذلك وصَفه الله تعالى بالأمريْن فقال في مَوضع: ﴿إِن تَرَكَ خَيۡرًا﴾ [البقرة: 180]، وقال في موضع آخَر: ﴿أَيَحۡسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٖ وَبَنِينَ ۝٥٥ نُسَارِعُ لَهُمۡ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ﴾ [المؤمنون: 55 - 56][4]، فكانت الصّالحات خيرًا مُطلَقًا، أمّا الخيرات فصالحات مُقَيَّدَة.

(1) الأمين الخضريّ، الإعجاز البيانيّ في صيغ الألفاظ: 130 - 131.
(2) الأمين الخضريّ، الإعجاز البيانيّ في صيغ الألفاظ: 130 - 131.
(3) الرَّاغب، المفردات: (صلح).
(4) الفيروزابادي، بصائر ذوي التّمييز: 2/572.

وفيه إشارة إلى أنَّ العمل الصّالح لا يكون صالحًا إلّا إذا كان موافقًا لكتاب اللّه وسُنَّة رسوله؛ بخِلاف الخير فقد يصدُرُ عن غير المُسْلم، نحو الإنفاق على المرضى وبناء المشاريعِ الخَيْريَّة؛ فيوصَف بالخيريَّة، ولا يوصَف بالعَمَل الصّالح.

سِرُّ اقتران الإيمان بالعمل الصّالح:

الإيمان مَدخل صالِحٌ للصّالحات وبيان ظاهِر المَرْء وباطنه

اقترَنَ العمل الصّالح بالإيمان في القرآن الكريم نحْو خمْسٍ وسبعين مرَّة، وفي هذا إيذانٌ صريحٌ بأنَّ عمل الصّالحات قَرين الإيمان، فالإيمان يَنبغي أن يَقترِنَ بعمل الصّالحات، لكي يَنجو الإنسان من الخُسران، فليس العَطْفُ تَكريرًا لِمُجرَّد التَّأكيد، وإنَّما هو مألوف في العربيَّة، وإنَّما يكون فيه تَنبيهٌ إلى قيمة عمل الصّالحات ومَوضِعها من الإيمان، فكأنّه من التَّخصيص بعد التَّعميم[1]، كما أنَّ الجمْع بيْنهما دالٌّ على بيان عمل الظّاهِر كأعمال الجوارِح مثل الصَّلاة ونحوها، والباطن كمَحَبَّة اللّه وخَشيَتِه ورَجائه[2].

سِرُّ تَنكير لفظة ﴿طُوبَىٰ﴾:

كلمة (طوبَى) في معنى الدُّعاء المُعَظِّمِ للأجْر

التَّنكير في ﴿طُوبَىٰ﴾ للتَّعظيم والتَّفخيم مع العُموم والشُّمول، وفي ذلك "إشارة إلى كُلِّ مُسْتَطابٍ في الجَنّة من بقاءٍ بلا فناءٍ، وعِزٍّ بلا زوالٍ، وغِنًى بلا فقرٍ"[3]، وسوَّغ التَّنكير هُنا كَون ﴿طُوبَىٰ﴾ في معنى الدُّعاء كـ(سلامٌ عَليك)[4].

سِرُّ التَّعبير بـ ﴿طُوبَىٰ﴾ دون غيرها:

كريمُ الطَّيّبات والملذّات عطاء اللّه لأهل الإيمان في الجَنَّة

آثَرَ النَّظْم الكريمُ التَّعبير عن الثَّواب المُعدِّ للّذين آمنوا بقوله تعالى: ﴿طُوبَىٰ﴾ لِما تحمِلُه من تَعدُّد الثَّواب وتَنَوُّعِه لتعدُّد معاني الكلمة، فكأنَّ كُلَّ معنًى تَحمله كلمة ﴿طُوبَىٰ﴾ هو ثواب للمؤمنين؛ فـ﴿طُوبَىٰ﴾

(1) عائشة عبد الرّحمن، التَّفسير البيانيّ: 2/86.
(2) السَّعديّ، تفسير السَّعديّ: 1/418.
(3) الرَّاغب، المُفردات، ص: 528.
(4) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/20.

فرَحٌ وقُرَّة عيْن لهم، وقيل: غِبْطة لهم، وقيل: حُسنى لهم، وقيل: خير وكرامة، وقيل: عَيْش طيِّب، والمعاني مُتقارِبة، واللَّفظ مُبالَغة في نَيْل الطَّيِّبات ويدخُل فيه جميع اللَّذات، وتفسيره أنَّ أطيَب الأشياء في كُلِّ الأمور حاصل لهم[1]، كما أنَّ ﴿طُوبَىٰ﴾ مُبالَغة الطّيب كالحُسنى مُبالَغة لِأحْسَن ويُعَبَّر عنها بالجنَّةِ أو شجرةٍ عظيمة فيها[2].

معنى اللّام في قوله تعالى: ﴿لَهُمْ﴾:

الدَّلالة المِلْك والاختصاص والاستحقاق

تَتعدَّد معاني اللّام في ﴿لَهُمْ﴾؛ فاللّام في ﴿لَهُمْ﴾ للملْكِ[3] وللبيان مثلها في: سُقْيا لك[4] ولامُ المِلْكِ هي لام الإضافة والاستحقاق[5]، واللّام أيضًا دالَّة على الاختصاص وهو معنًى لا يُفارقها، وكلُّ المعاني راجعة إليها هُنا[6].

دلالة الجارِّ والمجرور ﴿لَهُمْ﴾:

اختصاص المؤمنين بالتَّكريم واستحقاقهم له

في الجارِّ والمجرور ﴿لَهُمْ﴾ من قوله تعالى: ﴿طُوبَىٰ لَهُمْ﴾ إشارةٌ إلى أنَّ كُلَّ العطايا لهم دون غيرهم؛ كَون اللّام فيها معاني المِلْكِ والبيان والاستحقاق والإضافة، فكأنَّها ملْكُهم وهم المستحقّون لَها، المُهَيمِنون عليها جزاءً من ربِّك عطاءً حِسابًا، وفي هذا من التَّكريم والاحتفاء ما فيه؛ تقديرًا لثَباتهم على إيمانهم، وصبْرِهم على مَشاقِّ الأعمال.

سِرُّ اختيارِ الحُسْنِ: ﴿وَحُسْنُ مَـَٔابٍ﴾:

مُناسَبة الحُسْنِ لأصناف المؤمنين وأذواقهم ومُيولِهم المختلفة

اختار النَّظْم الكريمُ وصْف الحُسْنِ دون غيره لِما فيه من أسرارٍ؛ الأوَّل: الحُسنُ عِبارة عن كُلِّ مَرغوب فيه، وأضْرُبه مُختلفة، فهناك حُسن من جهة العقْل، وحُسن من جهة المَيل، وحسن من جهة

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 19/39.
(2) العانيّ، بيان المعاني: 6/47.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 13/138.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتّنوير: 13/138.
(5) سيبويه، الكتاب: 4/217.
(6) المُراديّ، الجنى الدَّاني، ص: 109.

الحِسِّ[1]، فجاءَتِ اللَّفظة جامعةً لأضرُبِهِ الثَّلاثة، ودَلالاتِه المختلفة؛ لتُناسِب كلَّ صِنف من أصناف المؤمنين، وأذواقهم وعُقولهم وقلوبهم، الثّاني: لفظة ﴿وَحُسۡنُ﴾ هو وعدُ المؤمنين بالجزاء الطَّيِّب، وتَعريض بالوَعيد القاسي للكُفّار أهل التَّصميم والعِناد؛ فالغرَض التَّرغيب والتَّرهيب، الثّالث: لفظة ﴿وَحُسۡنُ﴾ جاءَت لتَخصيص المَآب، فالمآب يَصلح للجنَّة والنّار، لَكن لمّا قال: ﴿وَحُسۡنُ﴾ دلَّ ذلك على تخصيص الحُسْنِ بالجنَّة لا بالنّار[2].

سِرُّ التَّعبير بـ ﴿مَـَٔابِ﴾:

التَّعبير بـ ﴿مَـَٔابِ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَحُسۡنُ مَـَٔابِ﴾ فيه فوائد[3]، الأولى: أنَّه آخِر أمرهم وقرارهم كما أنَّ قرار المرء بيتُه الّذي يَرجع إليه بعد الانتشار منه، الثّانية: يُناسِب ما تقرَّر أنَّ الأرواح من أمْر اللّه؛ أيْ: من عالَم المَلكوت وهو عالم الخُلْدِ فمصيرُها إلى الخُلد رجوع إلى عالَمها الأوَّلِ، الثّالثة: مُقابَلة قولِه تعالى في المشركين: ﴿وَلَهُمۡ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ٢٥﴾، والمُقابَلة دالَّة على البَوْنِ الكبير بيْن العاقِبَتَيْن، الرّابعة: ثَمَّ مَلحظٌ لفظيٌّ وهو موافقة رؤوس الآي، وهو مَبحث مُعتَبر عند العُلماء، فَقَبْلَ لفظة ﴿مَـَٔابِ﴾، لفْظةُ ﴿ٱلۡقُلُوبُ ٢٨﴾ [الرّعد: 28]، وبَعدها ﴿مَتَابِ﴾، وكلمة (الرُّجوع) تُهْدِرُ هذا المَلْحَظَ.

المآب آخِر أمرِ الإنسان في عالَم الخُلْدِ مع التَّعريض بعاقبة الكفّار

سِرُّ اختيار ﴿مَـَٔابِ﴾ دون (إياب):

في تَوظيف ﴿مَـَٔابِ﴾ إشارة إلى نهاية الأوْب، وأمّا الإياب فإنَّه الرُّجوع ولا يَعني مُنتهى الأوْب، قال تعالى: ﴿إِلَيۡهِ أَدۡعُواْ وَإِلَيۡهِ مَـَٔابِ ٣٦﴾ [الرّعد: 36][4] لِذا آثَرَ القرآنُ الكريم المَصْدر الميميَّ (المآب) دون المصْدر الأصليِّ (الإياب)؛ لأنَّ المصْدر الميميّ فيه من المُبالَغة ما

المُبالَغة في الرُّجوع والانتهاء مع الدَّلالة على التَّكريم في هذا المَوْضِعِ

(1) الرّاغب، المفردات: (حسن).
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 7/163.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 13/137.
(4) فاضل السّامرّائيّ، معاني الأبنية في العربيّة، ص: 31.

ليس في المصْدر الأصليّ[1]، فالمُراد هُنا الجَنَّة وهي المُنتهى، أمّا الإياب فليس نصًّا في المُنتهى، قُصاراهُ العَودة والرُّجوع دون المُنتهى، وقد يُراد به المُنتهى، وثَمَّ مَلحظٌ في عادات القرآن، فالقرآن لَم يوظِّف (إياب) إلّا في مَوطن العذاب كما في قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ۝٢٣ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ ۝٢٤ إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ۝٢٥ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ۝٢٦﴾ [الغاشية: 23 - 26]، أمّا ﴿مَـَٔابِ﴾ فالغالِب أن تأتيَ في مواطن الرَّحمة والتَّكريم[2] باستثناء مَوضع سورة ص في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ ۝٥٥﴾ [ص: 55]؛ فجاءت في العذاب.

سِرُّ اختلاف مَقطع الآيتيْن مع اتّفاق المَطْلع:

الإيمان بالله سِرُّ الاطمئنان بِذِكْرِهِ والعملُ الصّالحُ دليلٌ عليه

اتَّفق مَطلع الآيتَيْن في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، ثمَّ اختلَفَ المقْطع بعد ذلك؛ فجاءت الآية الأولى بإيراد صِفة الاطمئنان الّذي هو أثَرٌ من آثار الإيمان الرّاسخ يَتجدَّد حدوثُه كُلَّما تَجدَّد العامل فيه وهو ذِكر الله، يؤكِّد ذلك التَّعبير بالمُضارع ﴿تَطْمَئِنُّ﴾ [الرّعد: 28] الدّالّ على دوام الاطمئنان واستمراره بالذِّكر في جميع أزْمنته وأوقاتِه؛ لِوجود الطُّمأنينة بعد صِفة الإيمان إيجادًا مُستَمِرًّا دالًّا على ثَبات إيمانهم لتَرْك العِناد[3]، فصارَتِ الصِّلة بالله في أقوى الدَّرجات، وصار الأُنس والرّاحة والهدوءُ أسبابًا موصلةً إلى العمل الصّالح الّذي عبَّر عنه بالفعل الماضي ﴿وَعَمِلُواْ﴾ الدّالّ على الثَّبات والاستقرار في الآية الثّانية، فكأنَّ الاطمئنان بالمُضارع جِسْرٌ للعمل الصّالح.

كما أنَّ في الآية الثّانية جزاءً آخَر غير جزاء الاطمئنان والقرار الّذي يختصُّ به المؤمنون دائمًا، ﴿طُوبَىٰ لَهُمْ﴾ تحيَّةً من الله تعالى

(1) فاضل السّامرّائيّ، معاني الأبنية في العربيّة، ص: 31.
(2) من ذلك ما وَرَد في سورة الرّعد، ص: 36، وسورة ص: 25، 40، 49.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/336.

لعباده المؤمنين، وتكون هذه التَّحيَّة مقرّرةً لهم بأنَّ لهم السَّلام والاطمئنان والطّيبَ في إقامتهم في الجَنَّة[1].

نكتة ترتيب العمل الصّالح على اطمئنان القلوب:

العمل الصّالح نتيجة مُباشِرةٌ عن الاطمئنان وكلاهما مُنبئٌ عن الباطن والظّاهر

سِرُّ ترتيب العمل الصّالح في قوله ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ على اطمئنان القلوب بِذِكْرِ اللّه في الآية السّابقة ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ﴾ مع أنَّ العمل الصّالح أعَمُّ، هذا التّرتيب آتٍ من أمرَيْن؛ الأوَّل: التَّرقّي من مَرحلة إلى أُخرى للوصول إلى قِمَّة العمل، فالاطمئنان موصل إلى السَّكينة والتَّعلُّق باللّه، وثمرة ذلك هو الأعمال الصّالحة. الثّاني: مُناسَبة ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ لـ﴿طُوبَىٰ لَهُمۡ وَحُسۡنُ مَـَٔابٖ﴾، فمَجموع ما سَبَق موصل إلى الجنَّة، والأعمال الصّالحة بعد الإيمان يُناسبها دخول الجنَّة، وهذا ليس قائمًا في الطُّمأنينة وحْدها؛ لأنَّها ليست موصلة للجَنَّة بمُفردها، ومن ثَمَّ كان ترتيب العمل الصّالح في الذِّكر بعدَها مع أنَّه أعَمُّ.

سِرُّ الفصْل بين الثَّوابَيْن بـ ﴿لَهُمۡ﴾:

اختصاص المؤمنين بالثَّواب مع التَّعجيل ببِشارة الجَنَّة

لَم يَرِدِ النَّظْم الكريمُ هكذا (طوبى وحُسن مآب لهم)، وسِرُّ الفصْل بين الثَّوابَيْن هُنا التَّعجيل بالبُشرى واختصاصهم بها، فهي لهم وحْدهم، ممّا يُؤنِس النَّفْس ويُدخِلها في دائرة السُّرور والحُبور، ثُمَّ يَحدث التَّرقّي بـ ﴿وَحُسۡنُ مَـَٔابٖ﴾، وتَقدير الكلام: حُسن مآبٍ لهم. فدلَّ المَذكور ﴿لَهُمۡ﴾ على المحْذوف، كما أنَّ كلمة: ﴿طُوبَىٰ﴾، لا يكون خَبَرها إلّا الجارّ مع مَجرورِه، نحو: طوبى للصّالح[2]، وتأخير الخَبرِ ﴿لَهُمۡ﴾ لِما بعد المعطوف ﴿وَحُسۡنُ﴾ يُفهَم منه أنَّ الجارَّ والمجرور ﴿لَهُمۡ﴾ خبرٌ لـ ﴿وَحُسۡنُ﴾ لا خَبر لـ ﴿طُوبَىٰ﴾، وهذا غير المُرادِ.

(1) محمَّد أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 8/3947.
(2) عبّاس حسن، النّحو الوافي: 1/481.

سِرُّ العدول إلى المصدر في: ﴿وَحُسۡنُ﴾:

ثبات التّكريم واستقراره للمؤمنين مع عِظَمِه

في قوله تعالى: ﴿وَحُسۡنُ مَـَٔابٖ﴾ بيانُ اسْميَّة كلمة ﴿طُوبَىٰ﴾ المَرفوعة؛ لأنَّ الاسم مَقصورٌ ولا تَظهَر عليه حركة الإعراب، فجاء الاسم (حُسْن) بالرَّفع لبيان الاسْميَّة لا الفِعليَّة، وأنَّ الكلمة مرفوعة على الابتدائيَّة، يقول سيبويه: "ومَثَلُ الرَّفع: ﴿طُوبَىٰ لَهُمۡ وَحُسۡنُ مَـَٔابٖ﴾، يَدلُّك على رفْعِها رَفْعُ (حسْن مآب)"[1] وبهذا تكون الجملة اسميَّة، والجملة الاسميَّة أثْبَت وأدلُّ على عِظَم الثَّواب من الجملة الفعليَّة.

دلالة تَعدُّد الثَّواب ﴿طُوبَىٰ لَهُمۡ وَحُسۡنُ مَـَٔابٖ﴾:

كثرة الأعمال الصّالحة جِسْر إلى تعدُّد الثَّواب

في تعدُّد الثَّواب في ختام الآية إشارة إلى التَّرغيب في الطّاعة، والتَّحذير من المعصية[2]، وفيه دلالة على أنَّ كثرة الأعمال الصّالحة الظّاهرة والباطنة ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ موصلةٌ إلى أشَدِّ درجات التَّكريم والهَناءة، فكانت كثرة الأعمال مؤدّيةً إلى تعدُّد الثَّواب، كما أنَّ فيه تعريضًا بالكُفّار، فكان ذلك التَّعدُّد مُفهِمًا لحال القِسم الآخَر، فكأنَّه قيل: ومَن لَم يَطمئنَّ أو اطمأنَّ قلبُه ولَم يُذعِن، بُؤسى لهم وسوءُ مآب[3].

سِرُّ الجَمْع بين: ﴿طُوبَىٰ﴾ و﴿وَحُسۡنُ مَـَٔابٖ﴾:

المُبالَغة في التَّكريم بتَعدُّد الطَّيِّبات في الجَنَّة

في الجَمْعِ بين الطّيب والحُسْنِ إشارةٌ إلى لذَّة النَّفس والعَين والقلب، وإمعانٌ في التَّكريم ومُقابَلة الحَسَنِ بالأحْسن، وذلك بالجمْع بين الطَّيّب الّذي من سِماته سهولة المُعاشرة، والطُّهْرِ[4]، والمُمازَحة[5]، والخلاص من الشَّوائب، والحَسَن الّذي هو فَرَحٌ لهم وغبطة وقُرّة عين[6]، فيكون الجمْع مُقرِّرًا لهم السَّلام

(1) سيبويه، الكتاب: 1/331.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 19/41.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/337.
(4) الهرويّ، تهذيب اللّغة: 14/31.
(5) الجوهريّ، الصّحاح: 1/173.
(6) الماورديّ، النّكت والعيون: 3/110.

والاطمئنان وطيبَ الإقامة في الجَنَّة، لبيان اجتماع طيب الإقامة، وحُسن الثّواب[1].

سِرُّ عدَمِ ورود البشارة بصيغة: ﴿وَبَشِّرِ﴾:

حُضور ذِكر الرَّسول في سورة البقرة لا الرَّعد مع تَعدُّد أفعال الأمر

مع أنَّ سياق الآية يَحمل البِشارة، كما في قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [البقرة: 25] حيث ذُكِرَ فعل الأمر ﴿وَبَشِّرِ﴾ [البقرة: 25] هناك لأنَّ للنَّبيِّ ﷺ ذِكْرًا في السّياق، فاللّه تعالى يقول: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُواْ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٤﴾ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [البقرة: 23 - 25]، فكان المُناسِب أن يكونَ التَّبشير للرَّسول ﷺ زيادة في نِكاية الكفّار المُنكِرين الشّاكّين، إضافةً إلى احْتِواء السّياق على أفعال أمورٍ أخرى مثل: ﴿فَأْتُواْ﴾ [البقرة: 23]، ﴿وَٱدْعُواْ﴾ [البقرة: 23]، ﴿فَٱتَّقُواْ﴾ [البقرة: 24]، ﴿وَبَشِّرِ﴾ [البقرة: 25]، أمّا سياق سورة الرَّعد؛ فهو سياق خَبَريٌّ مَليءٌ بوصْف الَّذين يَنقضون العهْد، والَّذين آمنوا، فلا يُناسِبه فعل الأمر هُنا.

سِرُّ التَّعبير بـ (المآب) دون (الثَّواب):

مُراعاة السّياق في كلٍّ منهما

لَم يأت النَّظْم بذِكْرِ حُسن الثَّواب كما في قوله: ﴿وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾﴾ [آل عمران: 195]، وفي تَوجيه ذلك أمورٌ، الأوَّل: حُسْنُ الثَّواب في آية آل عمران مرتبطٌ بحُسْنِ العمل، فنتيجة العمل الإثابة والجزاء الحَسَنُ، فهُم قد ﴿هَاجَرُواْ وَأُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأُوذُواْ فِي سَبِيلِي وَقَٰتَلُواْ وَقُتِلُواْ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾﴾ [آل عمران: 195]، الثّاني: أنَّ كلمة ﴿ٱلثَّوَابِ﴾ [آل عمران: 195]

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 8/3947.

تقدَّمَتْها ﴿ثَوَابًا﴾ [آل عمران: 195]، فكان المُناسِب أن يكون ختام الآية مُتَعلِّقًا بحُسن الثَّواب لا المآب، الثّالث: حُسن المآب هو المُناسِب في سورة الرَّعد؛ لأنَّ قَبلَه حديثًا عن دار الكُفّار ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعۡنَةُ وَلَهُمۡ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ۝٢٥﴾ [الرّعد: 25] فجاء تركيب ﴿سُوٓءُ ٱلدَّارِ ۝٢٥﴾ [الرّعد: 25] للكُفّار، والدّار قرار ومآبٌ، فكان المُناسِب أن ينتهيَ السّياق بـ (حُسن المآب) مُضادًّا لقُبْح سوء الدّار، فَلِلمؤمن مكان، وللكافر مكان، الرّابع: المآب محلُّ الثَّواب الجليل، فبينهما علاقة، والقرآن كالكلمة الواحدة كما يقول العُلماء[1].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيّةُ:

الإيمان والتَّصديق:

هُناك فرْق بين الإيمان والتَّصديق من عدَّة أوْجُه:

الإيمان أخصُّ من التَّصديق

الوجه الأوَّل: أنّ بينَهما فرْقًا من جهَة التَّعدّي، وهو فرْقٌ في اللَّفظ، وذلك أنَّه يُقال للمُخْبَرِ: صدَّقَه، ولا يُقال: آمَنَه، بل آمنَ به أو آمَن له، كما قال تعالى: ﴿۞فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٞ﴾ [العنكبوت: 26]، وقال: ﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٞ مِّن قَوۡمِهِۦ﴾ [يونس: 83]، وقال فرعون: ﴿قَالَ ءَامَنتُمۡ لَهُۥ قَبۡلَ أَنۡ ءَاذَنَ لَكُمۡۖ﴾ [طه: 71] إلى غيرها من الآيات، فالصِّدق يتعدَّى بنفْسه بخِلاف الإيمان، فلا يُقال: آمَنْتُه، إلّا من الأمان الَّذي هو ضدُّ الإخافة. الوجه الثّاني: أنَّ لفظَ الإيمانِ ليس مُرادفًا لِلَفظ التَّصديق في المعنى، فإنَّ كلَّ مُخْبِرٍ عن مشاهدة أو غَيب يُقال له في اللُّغة: صَدَقْت، كما يُقال: كَذَبْت، وأمّا لفظ الإيمان فلا يُستعملُ إلّا في الخَبَر عن غائبٍ، وذلك أنَّه مُشتقٌّ من الأمْن، فإنَّما يستعمل في خبرٍ يُؤتَمَن عليه المُخبِرُ، كالأمر الغائب، ولهذا لَم يوجَد قطُّ في القرآن وغيره لفظ (آمَن له) إلّا في هذا النَّوع. الوجه الثّالث: أنَّ

(1) الزّركشيّ، البرهان في علوم القرآن: 1/39.

لفظ (الإيمان) في اللُّغة لَم يُقابَلْ بالتَّكذيب كلفْظ (التَّصديق)، بل المعروف في مُقابلة الإيمان لفظ (الكُفْر)، يُقال: هو مؤمن أو كافر، والكُفر لا يختصُّ بالتَّكذيب، بل لو قال: أنا أعلم أنَّكَ صادقٌ لكن لا أتَّبعك، بل أُعاديكَ وأُبْغِضُك وأُخالِفك ولا أوافقُك، لكان كُفرُهُ أعْظَمَ، فلمّا كان الكُفر المُقابِل للإيمان ليس هو التَّكذيب فقط، عُلم أنَّ الإيمان ليس هو التَّصديق فقط. الوجه الرّابع: أنَّ الإيمانَ في اللُّغة مُشتقٌّ من الأمن الَّذي هو ضِدُّ الخَوف، فهو متضمِّنٌ مع التَّصديق معنى الائتمان والأمانة كما يَدلُّ عليه الاستعمالُ والاشتقاق، أمّا التَّصديق فلا يتضمَّن شيئًا من ذلك[1].

وبناءً على ما سبَق؛ فالإيمان أخَصُّ من التَّصديق، وذلك لأنَّه يختصُّ بالغَيب دون المشاهَدة، ولأنَّه يَجمع معنى الانقياد والطّاعة؛ بخِلاف التَّصديق، ولأنَّ الإيمان يُقابله الكُفر، والتَّصديق يُقابله الكذب.

العمل والفعل:

الفعل تأثير في الشَّيء من جهة مُؤَثِّر، والعمل إيجاد الأثَر في الشَّيء

كلاهُما دالٌّ على الحَدث، ومع ذلك يوجَد بينهما فرْق في الاستعمال القرآنيِّ وإن كان يَجْمعهما معنى التَّأثير في الشَّيء؛ فالفعل هو التَّأثير في الشَّيء من جهة مُؤَثِّر، والعمل إيجاد الأثَر في الشَّيء، يُقال: فلان يَعمل الطّين خزَفًا، ويَعمل الخوصَ زمبيلًا. ولا يُقال يفعل ذلك؛ لأنَّ المُراد من ذلك الشَّيْء هو إيجادُه، ومن الفروق بينهما أنَّ في العمل امتدادًا زمنيًّا، قال تعالى: ﴿يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ﴾ [سبأ: 13] إذ كان فِعلُهم بزَمان، وقوله تعالى: ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾؛ أيْ: ثابروا على عَمَلها، وأمّا الفعل فيَتميَّز بالسُّرعة، قال تعالى: ﴿وَٱفْعَلُواْ ٱلْخَيْرَ﴾ [الحجّ: 77]؛ أيْ: استَبِقوا إليه بالمُسارَعة[2].

(1) ابن تيميّة، مجموع الفتاوى: 7/290.
(2) القيعيّ، الأصلان في علوم القرآن، ص: 387.

المآب والرُّجوع:

مآب النّاس آخِر أمْرِهم وقرارهم، كما أنَّ قرار المرْء بيتُه يرجع إليه بعد الانتشار منه، والمرجع: انقلاب الشَّيْء إلى حالٍ قد كان عليها[1].

المَرجِع انقلاب الشَّيْء إلى حالٍ كان عليها، والمآب آخِر الأمر وقرارُه

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 492.

﴿كَذَٰلِكَ أَرۡسَلۡنَٰكَ فِيٓ أُمَّةٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهَآ أُمَمٞ لِّتَتۡلُوَاْ عَلَيۡهِمُ ٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَهُمۡ يَكۡفُرُونَ بِٱلرَّحۡمَٰنِۚ قُلۡ هُوَ رَبِّي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ مَتَابِ ٣٠﴾ [الرّعد: 30]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الجواب الحاسم في الرَّدِّ على تعنُّت الكفّار بعد ذِكْرِ عِناد المُشركين

لمّا ذَكر الله تعالى في الآيات السّابقة عِناد الكافرين وتعنُّتَهم بطَلَب الآيات من رسول الله ﷺ بقولهم: ﴿لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦۚ﴾ [الرّعد: 27] كانت هذه الآية بمَثابة الجواب الحاسم في الرَّدِّ على تعنُّتهم؛ لأنَّ رسول الله ﷺ ليس بِدَعًا في أمْر الرِّسالة؛ فقال له: ﴿كَذَٰلِكَ أَرۡسَلۡنَٰكَ﴾ كما أرسلنا الرُّسل من قَبلك لأمر الهداية وليس لطَلَب المُعجِزات[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أُمَّةٖ﴾: الأُمَّة: كلُّ جماعة يَجمعهم أمرٌ ما، إمّا دين واحد، أو زمانٌ واحد، أو مكان واحد، سواء أكان ذلك الأمر الجامع تسخيرًا أم اختيارًا، وجمعُها (أُمَمٌ)، وتُطلَق (الأمَّة) على: جماعةٍ من النّاس أُرسلَ إليهم رسولٌ، سواء آمنوا أم كفروا، وتُطلَق كذلك على عالِمِ دَهره المُنفرد بعِلمه كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةٗ﴾ [النّحل: 120]؛ أيْ: قائمًا مقام جماعة في عبادة الله، ومن معانيها إطلاقُها على الحينِ، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱدَّكَرَ بَعۡدَ أُمَّةٍ﴾ [يوسف: 45]؛ أيْ: بعد حين[2]، ومن معانيها: الشِّرْعَة والدّين، قال تعالى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ﴾ [البقرة: 213]؛ يعني: مِلَّةً.

وممّا يُؤكِّد هذه المعاني أنَّ المعنى المِحوريَّ لهذه اللَّفظة يُطلَق على

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتّنوير: 139/13.
(2) الرّاغب، المفردات: (أمَّ).

تَضامٌّ شيءٍ أو أشياء مُتجانِسة؛ أيْ: لحاق بعضِها ببعض في حيِّزٍ يُحيطُ بظاهِرها بلُطْفٍ، كما تَضُمُّ تلك الجِلدةُ الرَّقيقة مادّةَ المُخِّ، وكما تَتضامُّ القامَة، وقد قال علماء اللُّغة: كلّ شيء يَنضمُّ إليه سائرُ ما يليه فإنَّ العرَب تُسَمّي ذلك الشّيْءَ أُمًّا، والأُمّ لِكُلِّ شيءٍ هو المَجمَعُ والمَضَمُّ[1].

2) ﴿خَلَتْ﴾: خَلا يَخْلو خَلاءً فهو خالٍ، والخَلاءُ من الأرضِ: قرارٌ خالٍ لا شيءَ فيه، وخَلَّى مكانَه؛ أيْ: ماتَ، وخَلا قَرْنٌ؛ أيْ: مَضى؛ فهو خالٍ، فالخُلُوُّ يُستعمل في الزَّمان والمكان، وأصلُه مِنَ التَّخلّي، وهو: تَعرّي الشَّيْءَ مِن الشَّيْء، ومعنى قوله تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ﴾: مَضَتْ وانقَرَضَتْ[2]، والمعنى المِحوريُّ: فَراغُ الحَيِّزِ أو الظَّرْف مِمّا كان أو شأنُه أن يَشغلَهُ مع بقائه هو مُتَماسِكًا، كالمكان والدّارِ الخاليَيْنِ، وكالخَلاء من الأرض، ومنه خَلا بصاحِبِه، وإليهِ، ومعهُ: اجتَمَعَ معه في خَلوة[3].

3) ﴿لِّتَتْلُوَاْ﴾: التِّلاوَةُ: القِراءَةُ المُتَتابِعة المُتَناسِقة في اللَّفظ والمعنى، يُقال: تَلا الخِطابَ: إذا قَرَأَهُ، وتَأْتي بِمعنى ذِكْرِ الشَّيْءِ، فيُقال: تَلا الشَّيْءَ، إذا ذَكَرَهُ، وأصْلُها: الاتِّباعُ، يُقال: تَلا، يَتْلو، تُلوًّا؛ أيْ: تَبِعَ، والتّالي: التّابِعُ والآتي بعد غَيْرِهِ، وتِلْوُ كُلِّ شَيْءٍ: ما يَتبعُهُ، ومنه سُمّيت قِراءَةُ القُرْآنِ تِلاوَةً؛ لأنَّ القارِئَ يُتْبِعُ آيَةً بعد آيَةٍ[4]، فالمعنى المِحوريُّ هو: اتّباع الشَّيء ما يَسْبِقُه لُحوقًا به من خَلْفِه، كالأعْجاز، وكوَلَد النّاقة يَتبعُ أُمَّه، ومنه تَلَوْتُه: تَبِعْتُهُ، وفلان يَتْلو فلانًا: يَحْكيه ويَتبعُ فِعْلَه: قال تعالى ﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ۝١ وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ۝٢﴾ [الشَّمس: 1 - 2]؛ أيْ: تَبِعها[5].

4) ﴿مَتَابِ﴾: أصْلُ (توب): يدلُّ على الرُّجوعِ، يُقال: تابَ إلى اللّه، يَتوبُ، تَوْبًا وتَوْبةً ومَتابًا؛ أيْ: أنابَ ورَجَعَ عن المَعْصيةِ إلى الطّاعَةِ، فقوله: ﴿مَتَابِ﴾؛ أيْ: تَوْبَتي ومَرْجعي وأوْبتي[6]، والمَتابُ: مَصْدَرٌ ميميٌّ على وزنِ مَفْعَل؛ أي: التَّوبةُ، يُفيدُ المُبالَغةَ؛ لأنَّ الأصلَ في المَصادِرِ الميميَّةِ أنَّها أسماءُ زَمانٍ جُعِلَتْ كنايةً عن المَصدَرِ، ثُمَّ شاعَ استعمالُها

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (أمم).
(2) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن سيدَه، المُحكَم، والرّاغب، المُفردات: (خلا)، و(خلو).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (خلو).
(4) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (تلو).
(5) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (تلو).
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (توب).

حتَّى صارتْ كالصَّريح، والمعنى المِحوريُّ لِلّفْظة: توقُّف الشَّخص وانقطاعُه عمّا كان يَعمله من الذُّنوب ونحْوِها لرِقّةٍ اعْتَرتْه؛ فالتَّوبة تَرْك التَّمادي في المعاصي: ﴿وَٱلَّذَانِ يَأۡتِيَٰنِهَا مِنكُمۡ فَـَٔاذُوهُمَاۖ فَإِن تَابَا وَأَصۡلَحَا فَأَعۡرِضُواْ عَنۡهُمَآۗ﴾ [النِّساء: 16][1].

❁ المَعْنى الإجْماليّ:

صبر الرُّسل على أقوامهم نماذج بشريَّة سامية

بيَّن اللّه تعالى في هذه الآية أنَّ مِثْلَ ذلك الإرسالِ الّذي كان للأنبياءِ السّابقينَ مع أُمَمِهم أرسَلْناك - أيُّها الرَّسولُ - بكتابٍ تُبلِّغُه للنّاسِ وتَقرَؤُه عليهم، كما أرسَلْنا رُسُلًا إلى أُمَمٍ مِن قَبلِك، وحالُ قَومِك الجُحودُ بوَحدانيَّة الرَّحمنِ المُنْعِم عليهم بِجَلائل الرَّحمة، ومنها رحمة إرسالِك إليهم من أنْفُسِهم، قلْ لهم يا مُحمَّدُ: إنَّ الَّذي كفَرْتُم به أنا مُؤمِنٌ به، وهو ربّي وحدَه، لا مَعبودَ بحَقٍّ سِواه، عليه تَوكَّلتُ، وإليه مَرجِعي[2].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيّ:

دلالة الفصْل في: ﴿كَذَٰلِكَ أَرۡسَلۡنَٰكَ﴾:

بيان عَظَمة الإرسال كأنَّه نَسيجُ وحْدِهِ في التَّفرُّد

فُصلَتْ هذه الآية الكريمةُ عمّا قَبلَها؛ لبيان عظَمة الإرسال، فهو إرسال لا يُشبهه إرسال، فكان المُشبَّه به هو عيْن المُشبَّه[3]، فيكون في أقصى البيان والبلاغة، يُضاف إلى ذلك أنَّ في افتتاحها بـ ﴿كَذَٰلِكَ﴾ تَأْكيدًا للمُشار إليه وهو التَّعجُّب من ضلالتهم إذ عَموا عن صِفة الرِّسالة[4].

سِرُّ إيثار الكاف في: ﴿كَذَٰلِكَ﴾:

تعدُّد دلالات (الكاف) وتَنوُّعها بخِلاف (مِثل) المُتَمحِّضَة للتَّشبيه

آثَرَ النَّظْم الكريمُ التَّعبيرَ بالكاف مع دلالتها على التَّشبيه

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (تلو).
(2) ابن جرير، جامع البيان: 13/530، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 19/41.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/140.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/140.

لِتَعدُّد معانيها، فتَأْتي للتَّوكيد والتَّحقيق؛ كما في قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ أَرۡسَلۡنَٰكَ فِيٓ أُمَّةٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهَآ أُمَمٞ لِّتَتۡلُوَاْ عَلَيۡهِمُ ٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ﴾، وقد جاءت إفادتها للتَّحقيق، من كثرة مجيئها لبيان التَّطابُق، واسْتُعملَتْ في لازِم معناها الأصليِّ الَّذي تُنوسي. واستعمال ﴿كَذَٰلِكَ﴾ للتَّحقيق والتَّوكيد لا يَقِلُّ عن استخدامها في التَّشبيه[1]، أمّا (مَثَل) فهي نَصٌّ في التَّشبيه، فاتِّساع المعنى هو المُناسب لِتَوْظيف (الكاف) لا (مثل)، إضافة إلى عادة القرآن في تَوظيف ذلك الأسلوب، فاللَّفْظة على مَدار القرآن وفي أغلَب آياته تأْتي ﴿كَذَٰلِكَ﴾ لا (مثل ذلك).

نكتة الإشارة للبعيد: ﴿كَذَٰلِكَ﴾:

إفادة التَّفخيم والتَّعظيم إيذانًا بعُلوِّ درجةِ المُشارِ إليه

في قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ إشارةٌ للبعيد للتَّفخيم[2]، وهذا دالٌّ على عظَمة العمليَّة الإرساليَّة من مرسِلٍ وهو الله ﷻ، ومرسَل وهو الرَّسول ﷺ، ورسالةٍ هاديَة إلى طريق الحقِّ، فالبُعْدُ بُعْدُ هَيْبة وجَلالٍ، وفيه إيذانٌ بعُلوِّ درجةِ المُشارِ إليه في الفضْلِ مع كمال تميُّزِه وانتظامِه بسببِ ذلكَ في سِلكِ الأمور المشاهَدة[3].

نُكتة استعمال ﴿كَذَٰلِكَ﴾ في القرآن بالمخاطب المفرد:

الإشارة إلى عمومِيَّة المُخاطَب مع اطِّراد تأكيد الأمر وتحقيقه

النّاظِر في هذا الأسلوب في آيات القرآن الكريم: ﴿كَذَٰلِكَ﴾، المُكوَّن من (كاف التَّشبيه) و(ذلك)، يجِدُ أنَّه جاء على صوَرٍ مُتعدِّدة في المُخاطَبَة، والأصْل فيها أن يكون مُناسِبًا للمُخاطَب، كقول يوسف عليه السلام: ﴿ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓۚ﴾ [يوسف: 37] مُخاطِبًا صاحبَيْه في السِّجن، وكما جاء على لسان امرأة العَزيز في خِطابها للنِّسوة: ﴿فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِي لُمۡتُنَّنِي فِيهِۖ﴾ [يوسف: 32]، وكما هو مَعَنا في هذه الآية

(1) أحمد البدويّ، من بلاغة القرآن، ص: 166.
(2) الشّهاب الخفاجي، عناية القاضي: 5/237.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 1/219.

في خِطاب المفرَد بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ أَرۡسَلۡنَٰكَ﴾، وقد يَرِدُ أيضًا بتَوجيه الخِطاب إلى جماعة المسلمين كما في قوله تعالى في سورة البقَرة: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا﴾ [البقرة: 143] وكان مُقتضى الكلام أن يُقال: (كذالِكم) لكنَّه وحَّد الخِطاب خُروجًا عن الأصْل؛ لأنَّ تَعيين المُخاطَب، وهو جمعٌ دلَّ عليه ما وردَ بعد اسم الإشارة ﴿أُمَّةٖ﴾، ولهذا الاستعمال نُكتة أشارَ إليها أبو السُّعود، ذلك أنَّ إفراد حرْف الخِطاب مع تَعدُّد المخاطَبينَ آتٍ باعتبار تَعَدُّد القَبيل أو الفريق أو لعدَم القصْد إلى تعيين المُخاطَب[1]، ففي تَوظيفِه عموميَّة وشُيوع لا خصوصيَّة، وإضافةً إلى ذلك فهذا الأسلوب: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ اطَّرد في تأكيد الأمر وتحقيقه حتّى كأنَّه سُلِب عنه معنى التَّشبيه[2].

سِرُّ التَّعبير بـ ﴿أَرۡسَلۡنَٰكَ﴾ لا (بَعَثْناك):

هَيْمنة جَوِّ الرَّحمة والهدوء دون جوِّ الإثارة والقوَّة

سِرُّ تَوظيف (أرسلَ) هُنا أنَّ فيه بَعثًا بِتُؤَدة، وفي الفعل معاني اليُسرِ والسُّهولة والرِّفق[3]، وهذا يُناسِب جوَّ الرَّحمة واللّين الَّذي أشاعه لفظ (الرَّحمن)؛ أيْ: البليغ في الرَّحمة، وكذا تلاوة ما أوْحاه اللّه إلى رسوله، أمّا (بعثَ) ففيها معنى الإثارة[4] والقوَّة وهذا لا يُناسِب التِّلاوة وما أوحي إليه، إضافة إلى أنَّ (انبعثَ) مُطاوِع (أرسلَ)[5]، فكأنَّ البَعث إحياء نتيجةَ الإرسال العظيم الفَخم.

سِرُّ التَّعبير بـ ﴿أَرۡسَلۡنَٰكَ﴾ دون (نرسلك):

إبراز قيمة الثَّبات مع بَثِّ الثِّقة في نفْس الرَّسول

الفعل الماضي بزمَنِه دالٌّ على تَحَقُّق الإرسال واستقراره؛ لأنَّ الإرسال قد تمَّ واكتمَل، وفائدة الثَّبات والإتمام بَثُّ الثِّقة في قلب الرَّسول ﷺ، والإيذان ببَدْء تبليغ التَّكاليف الَّتي أُمِرَ بتكليفها على الوجْه الأكمَل.

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 1/219.
(2) الشهاب الخفاجيّ، عناية القاضي: 2/224.
(3) الرّاغب، المفردات: (رسل).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (رسل).
(5) ابن منظور، لسان العرب: (بعث).

دلالة نون العَظَمة في: ﴿أَرْسَلْنَاكَ﴾:

إبراز القُدْرة المُطْلَقة والهَيمنة على عمليَّة الإرسال

قوله: ﴿أَرْسَلْنَاكَ﴾ يَدلُّ الإسناد بنون العظَمة على التَّعظيم والتَّشريف[1] لمُشتَمَلات الإرسال كُلِّه: المرسِل (الله ﷻ) والمرسَل (الرَّسول ﷺ) وموضوع الرِّسالة (الإسلام)، فالقِصَّة كُلُّها قِصَّةٌ عظيمة جليلة؛ لما تَضُمُّه من هداية ورشاد للبشريَّة، ثُمَّ إنَّ نون العظَمة تعني التَّأييد له ﷺ، وخِذلان مَن اتَّهموه وعادوهُ، وإيرادُها لتربيةِ المَهابةِ وإدخال الرَّوعة[2] في قلوب الكفّار، وللإعلام أنَّه هو المُتَحَكِّم والمُهيْمن على عمليَّة الإرسال.

دلالة توْجيه الخِطاب: ﴿أَرْسَلْنَاكَ﴾:

تعظيم قَدْرِ الرَّسول ﷺ وتقويَة نفْسِه بالتَّأييد المُطْلَقِ

في قوله تعالى: ﴿أَرْسَلْنَاكَ﴾ توجيه الخِطاب للرَّسول الأعظَم ﷺ، وفيهِ تَنويه وتشْريف له[3] وتفخيمٌ لشأْنِه الكريم؛ فالرَّسول ﷺ مُشارِك في هداية النّاس بإبلاغ ما أوحي إليه، وفي ذلك التَّنويه تأييدٌ وتقويَة وتسليَة بأنَّ مَن أرسلَكَ لن يَتركك وحْدَك، وإنَّما سيكون ناصِرَك ومؤيِّدَك.

وجْه التَّشبيه، والمُشَبَّه به: ﴿كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَاكَ﴾:

قَصْدُ المُبالَغة في بلوغ المُشَبَّه غاية ما يكون فيه وجْه الشَّبه

المُشبَّه به مُتعدِّدٌ، فيجوز أن يكون المُشَبَّه به هو الإرسال المَذكور المفهوم من الفعل (أرسل)؛ أيْ: إرسال الرُّسُل قَبلَك؛ فالمعنى: مِثْلَ ذلك الإرسال أرْسلناك؛ يعنى: أرسلناك إرسالًا له شأن وفضْل على سائر الإرسالات[4]، ويجوز أن يكون وجْه التَّشبيه: كما أرسلنا إلى أُمَم وأعطيناهم كُتُبًا تُتْلى عليهم؛ كذلك أعطيْناك هذا الكتاب وأنت تَتْلوه عليهم؛ وثَمَّ اتِّجاه آخَر في بيان المُشبَّه به، فالمشبَّه به هو عيْن المُشبَّه لِقصْد المُبالَغة في بلوغ المُشَبَّه غاية ما يكون فيه

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/695.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 1/93.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/405.
(4) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/529.

وجه الشَّبه، بحيث إذا أُريدَ تَشبيهُه لا يُلجأ إلّا إلى تَشبيهِه بنفْسِه، فيكون كناية عن بُلوغه أقصى مراتِب وجْه الشَّبه؛ أيْ: مثْل ذلك الإرسال أرْسلناك[1].

سِرُّ التَّعبير بالظَّرْفيَّة ﴿فِيٓ﴾ دون (إلى):

شرَف الرَّسول ﷺ وعُلوُّ مكانته والنَّعْي على عقول الكفّار

في التَّعبير بالظَّرْفيَّة في قوله تعالى: ﴿فِيٓ أُمَّةٖ﴾ فوائد: الأولى: الإشارة إلى أنَّ النَّبيَّ ﷺ هو من صَميم هذه الأمَّة حتّى لَكأنَّها أشْبَه بالظَّرْفِ الَّذي يَحتويه زمانًا ومكانًا ومجتمَعًا، فهو ليس طارِئًا على هذه الأمَّة، مُستَدْعًى إليها من خارج ذاتها، وإنَّما هو في الصَّميم منها[2]، الثّانية: حرْف الجرِّ ﴿فِيٓ﴾ أشَدُّ مُناسَبة؛ لأنَّ الفِعْلَ (أرسلَ) فيه معنى الامتداد[3]، والامتدادُ توغُّلٌ وتعَمُّق في الأمَّة، بما يعني التَّداخُل الشَّديد بين الرَّسول وقومِه، وكأنَّ الأمَّة جُعِلَتْ ظَرْفًا لهذا الإرسال، الثّالثة: توْظيف ﴿فِيٓ﴾ نَعْيٌ على عقول مَن كفروا بالمُرسَلين والتَّسجيل عليهم والمُناداة على جَحْدهم للحقِّ مع ظُهور أدلَّته، ويقينهم بصِدْق مَن أُرسِل إليهم؛ لأنَّه يَعيشُ بيْنَهم ويَتقلَّب في أظْهُرهم، وبأنَّ المبعوث واحدٌ من أوْساطهم وذَوي المَكانة فيهم وليس مجهولًا لهم، ولا نائيًا عنهم[4].

سِرُّ اختيار لفظ ﴿أُمَّةٖ﴾ دون غيرها:

مُراعاة المُناسَبة واتِّساع المعنى في لفظة (أمَّة)

لذلك فائدتان، الأولى: مُناسَبة الجمْع بعد (أُمم)، فلا يَصِحُّ (في قوم قد خلا من قبلهم أُمم)، الثّاني: لفْظة ﴿أُمَّةٖ﴾ فيها اتِّساع في المعنى، فقد يُراد بها القوم، وقد يُراد بها القَرْن؛ أيْ: في قرْنٍ من القُرون[5]، وهذا ما ليس في (قوم)؛ لأنَّ القوم نَصٌّ في جماعة الرِّجال[6].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/140.
(2) عبدالكريم الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 7/119، والشّهاب الخفاجي، عناية القاضي: 5/237.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (رسل).
(4) الأمين الخضريّ، من أسرار حروف الجرّ، ص: 161.
(5) الواحديّ، التّفسير الوسيط: 3/16.
(6) الجوهريّ، الصّحاح: (قوم).

ومِمّا يُذكر في سِرِّ اختيار لفظ ﴿أُمَّةٍ﴾ دون غيرها أنَّها تَحمل البِشارة لرسول الله ﷺ بأنَّ هذا الدّين سَيَنتشر في العالَمين، ويكون أتْباعُه أمَّة بَدَلًا من بعض هذه القبائل الَّتي تُعارِض دَعْوته.

سِرُّ تنكير لفظ ﴿أُمَّةٍ﴾:

التَّقليل مع الاتِّفاق الظّاهر على عقيدة الكُفر

لتَنكير لفْظة ﴿أُمَّةٍ﴾ فائدتان: الأولى: التَّقليل، فهُم أمَّة واحدة من مجموع أُمَم كثيرة أُرسِل إليها الأنبياء والرُّسل، يُؤكِّد هذا جمعُ كلمة (الأُمَم) بعدها، فالجمع أفاد الكثرة والتَّنوُّع والتَّعدُّد، الثّانية: دلَّ المُفرَدُ على الاتِّفاق والاتِّحاد على أمْرٍ واحدٍ وهو الكُفْرُ بدليل قوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ﴾.

سِرُّ تَرْك وصْف الوسَط للأمَّة في الآية:

تقبيح أمَّة الكُفرِ، وتعظيم أمَّة العدل والوسطيَّة

لَم يذْكر وصْف الوسَط هُنا كما في قوله تعالى: ﴿أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة: 143]؛ لأنّ السّياق يتحدَّث عن كُفّار قريش، أهل اللَّجاجة والصَّلف والعِناد مع ذِكْرِ كُفرهم بالرَّحمن: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ﴾، فلا يُناسِبه ذِكر ﴿وَسَطًا﴾ [البقرة: 143]؛ لأنَّ ﴿وَسَطًا﴾ [البقرة: 143] مدح وتكريم، والتَّكريم لا يُناسِب الكافر، أمّا آية سورة البقرة فلَفظة ﴿وَسَطًا﴾ [البقرة: 143] مُناسِبة أتمَّ مُناسَبة؛ لأنَّ ﴿وَسَطًا﴾ [البقرة: 143] تعني مدحًا وتكريمًا لأمَّةٍ ستكون شاهدة على النّاس، والشَّهادة تقتضي العدل والوسَطيَّة بلا إفراط ولا تفْريط، قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: 143]، فكانت اللَّفظة مُناسِبةً في هذا السّياق.

دلالة (قَدْ) في: ﴿قَدْ خَلَتْ﴾:

تَوبيخ الكفّار لإنكارهم ما حدث للأُمَمِّ السّابقة

من سِمات (قد) في اللُّغة الدَّلالة على التَّوكيد والتَّحقيق، وجَعْل الخبَر طلَبيًّا، وتوظيفها في هذا السّياق جاء توبيخًا للكُفّار أهل العِناد، لأنّهم أُنزِلوا منزلةَ مَن يُنْكِر[1] ما حدث للأُمم السّابقة من تعذيب

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/264.

ودمار، كأنَّ الأخبار تُنوسيتْ فلَم يَعتبروا بها، مع كون (قد) دالَّةٌ على تقريب الزَّمن، فكأنَّ الأحداث قريبةٌ منهم يَعرفونها، وفي هذا تهديدٌ بأنَّ ما نالَ الأمَّة الخالية سيَنالهم أيضًا، فَسُنَّة المُنكِرين واحدة.

سِرُّ التَّعبير بـ ﴿خَلَتْ﴾ دون (مَضَت):

إبراز صورة البُعد وطول العهد مع التَّحذير من العِقاب

الفعل ﴿خَلَتْ﴾ فيه إشارة إلى بُعْدٍ وانقراضٍ، فتفسير الخُلوِّ هُنا معناه الانقراض[1]، والانقراض طولُ عهْد، وهذا معنًى أصيل في ﴿خَلَتْ﴾ وهو غير موجود في (مضت)؛ لأنَّ المُضي يدلُّ على النَّفاذ والمرور، وفيه تحذير للكفّار بأنَّ مَن لَم يُؤمن سيموت مُتخَلّيا عمَّا كان من الأُنس بأهْله وقُرنائه في دُنياه، وأصله من قولهم: (خلا الرَّجل)، إذا صار بالمكان الَّذي لا أنيس له فيه وانفرَدَ من النّاس، فاستعْملَ ذلك في الَّذي يموت، على ذلك الوجْه[2].

بلاغة المَجاز في: ﴿فِيٓ أُمَّةٖ قَدۡ خَلَتۡ﴾:

المبالَغة في التَّهديد، وبيان قُبْح جزاء عدم الانتفاع بالأعمال الصّالحة

في قوله تعالى: ﴿فِيٓ أُمَّةٖ قَدۡ خَلَتۡ﴾ مَجازٌ عقليٌّ[3]؛ لأنَّ التَّعبير القُرآنيَّ أسندَ الخُلوَّ إلى المكان، والمقصود أهْلُه والنُّكتة هُنا المبالَغة في التَّهديد والوعيد، وفي الخبَر كناية عن الانقراض والزَّوال، وإلّا فكونها قد خلتْ مِمّا لا يحتاج إلى الإخبار به.

دلالة وصْف ﴿أُمَّةٖ﴾ بجملة ﴿قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهَآ أُمَمٞ﴾:

تحذير مُشرِكي مكَّة من العذاب والفناء الَّذي نالَ الأُمم السّابقة

في الوصْف تعريض بمُشركي مكَّة، وأنَّهم إذا ما استمَرّوا في طُغيانهم، فسيُصيبهم ما أصابَ الأُممَ الخالية[4] بسبب حُمْقهم وغَفلتِهم وشِدَّة عنادهم، مع تحذيرهم بالفناء والزَّوال؛ عِلْمًا بأنّ نعْتَ النَّكرة دالٌّ على التَّخصيص[5] وكأنّهم خُصّوا بزيادة النَّكال إن هم كفروا بعد ظُهور الأدلَّة.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 4/96.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 2/588.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/735.
(4) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 7/480.
(5) المراديّ، توضيح المقاصد: 2/947.

دلالة ﴿مِن﴾:

دلَّت ﴿مِن﴾ في قوله: ﴿مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ﴾ على ابتداء الغاية الزَّمانيَّة، والتَّوكيد[1] والاستغراق والعموم، وهذا أفاد أنَّ القوم الَّذين أُرسِل لهم الرَّسول ﷺ مَسبوقون مُباشرة بقوم قد هَلكوا، وأفادت ﴿مِن﴾ هُنا تحديد الزَّمن[2]، فهي تعني الزَّمن المُتقدِّم عليهم مُباشرة، وهذا تهديدٌ ووَعيدٌ؛ لأنَّ الزَّمن الَّذي يَسبقهم بعيد، لكن البَعيد مع الكُفر واللَّجاجة يصير قريبًا مُشاهَدًا؛ تهديدًا ووعيدًا، وفرْق بَيْنَ (قَبْل) و(مِن قَبْل)؛ إذ حَذْفُ الحرْف يَجعل الزَّمان مُحتَملًا للقُرب والبُعد[3]، أمّا ﴿مِن﴾ فتُحدِّدُ الزَّمان وكأنَّ المعنى: إذا كانت الأُمم قد خلتْ ومضَتْ من زمان سابق فإنّا قادرون على أن نَجعلهم ماثلينَ أمام أعْيُنكم.

القُدْرة المُطلَقة على إحضار الأُمم البعيدة كأنَّها مُشاهَدة

دلالة الإفراد في ﴿مِن قَبْلِهَآ﴾ والجَمْع في: ﴿عَلَيْهِمُ﴾ و﴿وَهُمْ﴾:

أُفرد الضَّمير في قوله تعالى: ﴿مِن قَبْلِهَآ﴾، وجُمِعَ في قوله: ﴿عَلَيْهِمُ﴾ و﴿وَهُمْ﴾ مُراعاةً لِلَّفظ والمعنى[4]، فاللَّفظ: ﴿أُمَّةٍ﴾، وقد عادَ عليها الضَّمير بالإفراد، أمّا المعنى فَعَلى أنَّهم أفراد وجماعات، فعادَتِ الضَّمائر على المعنى فجُمعَتْ، فقيل: ﴿عَلَيْهِمُ﴾ و﴿وَهُمْ﴾، ولو اعْتُني باللَّفظ وحده لقيل: (قبلها)، و(وهي تكفر)، و(وعليها)، و(هي)، لكن السّياق نَوَّع الأسلوب لتنشيط الذِّهن وإبرازِ الحدث، فدلَّ الإفراد على القِلَّةِ من حيث اللَّفظ، ودلَّ المعنى على الكثرة فناسَبه الجَمْع، وفي هذا تَنويع أسلوبيّ قرآنيّ فريدٌ.

مُراعاة اللَّفظ والمعنى مع التَّركيز على القِلَّة في اللَّفظ والكثرة في المعنى

سِرُّ التَّعبير بالجمْع: ﴿أُمَمٌ﴾:

في الجمع فوائد: الأولى: الإشارة إلى التَّعدُّد والتَّنوُّع والكثرة،

إبراز الكثرة والتَّكريم والقُدْرة والتَّحذير مع تسليَةٍ للرَّسول ﷺ

(1) ابن هشام، مُغني اللّبيب، ص: 325.
(2) الإسكافيّ، درّة التّنزيل، ص: 296.
(3) فاضل السّامرّائيّ، معاني النّحو: 2/621.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/387.

فليست الأمَّة واحدة؛ وإنَّما هُناك أُمم كُثُرٌ أُرسل إليها الأنبياء والمُرسلون؛ أيْ: "أرسلناك في أمَّة قد تقدَّمَتْها أُمم كثيرة، فهي آخِر الأُمم"[1]، الثّانية: أنّ الجمْع يُناسِب الواقع التّاريخيَّ لإرسال الأنبياء والمرسلين، الثّالثة: الإشارة إلى تكريم الله لِكُلِّ الأُمم؛ لأنَّ الغَرَضَ الهداية والرَّشادُ، فلا تختصُّ أُمَّة من دون أمَّة بهذا الفضل، الرّابعة: الإشارة إلى القُدْرة المُطْلَقةُ والهيمنة والتّحكُّم في شُؤون الخَلْق من قِبَل الله ﷻ، الخامسةُ: "تَسْليَته ﷺ وتَذكيرُه بالصَّبْرِ على قومه"[2]، السّادسة: تحذيرُ الكفّار وتخويفُهم، فَكَما أوْقَعنا بأْسنا ونِقمَتَنا بأولئك، فلْيَحذر هؤلاء من حُلول النِّقَم بهم، فإنَّ تكذيبهم لك أشَدُّ من تكذيب غيرك من المُرسَلين[3].

دلالة اللّام في قوله تعالى: ﴿لِّتَتْلُوَاْ﴾:

بيان مهمَّته ﷺ في بلاغ قومه

اللّام هُنا لامُ التَّعليل وقد ألْمَحَتْ إلى أنَّ المُهِمّةَ الرَّئيسة هي تبليغ قومه ما في الكتاب العزيز من الأوامر والنَّواهي والأخبار الَّتي أوْحاها الله إلى الرَّسول ﷺ، فكأنَّ علَّة الإرسال الإبلاغُ عن ربِّه ورَبْط هؤلاء بأعظَم نصٍّ، ليَنْجذِبوا نحْو الحقِّ.

سِرُّ اختيار التِّلاوة دون القراءة:

التِّلاوة أعَمُّ وأشمَل من القراءة

في التَّعبير بالتِّلاوة في قوله: ﴿لِّتَتْلُوَاْ﴾ سِرٌّ، وهو أنَّ القِراءة جزء من التِّلاوة، فالتِّلاوة قراءة وزيادة؛ فهي - أي التِّلاوة - تعني التَّتبُّع والموالاة والمُتابعة مع تناسقها في اللَّفظ والمعنى، ومنه تلاوة القرآن؛ لأنَّه يتْبعُ بعضهُ بعضًا[4]، فالتِّلاوة: جَعْلُ الثّاني يَلي الأوَّل بلا فصْل[5]، وهذا معنًى ليس موجودًا في القراءة، والنُّكتة الإشارة إلى مُتابَعة

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/529.
(2) الغرناطيّ، مِلاك التّأويل: 2/355.
(3) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/395.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (تلو).
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/338.

النَّبيِّ ﷺ قومَه في تبليغ أوامر الله ونواهيه، وذلك من باب حِرْصه عليهم؛ لأنَّه كما وصَفه ربُّه بقوله: ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُم﴾ [التّوبة: 128].

سِرُّ التَّعبير بالمُضارِع ﴿لِّتَتْلُوَاْ﴾:

ضرورة الاجتهاد في إيصال الدَّعوة

في تَوظيف الفعل المضارع إشارةٌ إلى ضرورة الاجتهاد ومواصَلة التِّلاوة، ليلَ نهارَ، تحفيزًا لِهمَّة الرَّسول ﷺ في إيصال مَهامِّ الدَّعوة، ففي المضارع دَوامٌ واستمرار، والقيام بما هو مُكلَّف به على الدَّوام لا الانقطاع، وفيه إلهاب وتهييج لأُمَّته بضرورة التِّلاوة والاتِّباع.

وممّا يُذكر في سِرِّ التَّعبير بالمُضارع تعليمُ الدُّعاة في الأمَّة الصَّبرَ ومواصلة الدَّعوة في تبليغ أمر الله إلى الأمَّة؛ تأسّيا برسول الله ﷺ.

سِرُّ تقديم الجارِّ والمجرور ﴿عَلَيْهِمُ﴾:

التَّحريض على الإنْصات والاستماع لِما فيه هدايتهم

سِرُّ تقديم الجارِّ والمجرور على المنصوب ﴿ٱلَّذِىٓ﴾ جاء من قَبيل الإبْهام في: ﴿عَلَيْهِمُ﴾ ثُمَّ البيان في: ﴿ٱلَّذِىٓ﴾، كما في قوله تعالى: ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝٢﴾ [الشّرح: 2]، وفيه ما لا يَخفى من ترقُّب النَّفْس إلى ما سيردُ، وحُسن قَبولها له عند وروده عليها[1]، ففي التَّقديم تحريضٌ على ضرورة الإنصات والاستماع لِما فيه هدايتهم.

دلالة تعدّي الفعل ﴿لِّتَتْلُوَاْ﴾ بـ (على):

لا عُلوَّ من دون مُتابَعة القرآن الكريم

حرْف الجَرِّ (على) من مَعانيه الاستعلاء المَعْنويُّ[2]، والاستعلاء رِفْعة وعلوٌّ، وكأنَّ هذا الكلام المَتْلوَّ يَعلوهم ويَفوقهم شَرَفًا ومكانة، لِما يَحويه من إشاعة النّور والهداية للبشريَّة، وفيه إشارة إلى ضرورة أن يَرتفعوا ليصِلوا إلى مكانته ومنزلته.

سِرُّ التَّعبير بالإضمار في: ﴿عَلَيْهِمُ﴾:

سِرُّ التَّعبير بالإضمار في قوله تعالى: ﴿عَلَيْهِمُ﴾؛ مُراعاة المعنى،

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/21.
(2) المراديّ، الجنى الدّاني، ص: 476.

مُراعاة المعنى، والبُعد عن التّكرار

فالأمَّة جماعة ناس يَعقلون، فجاء بـ (هم)؛ مُراعاة للمعنى، وفِرارًا من توظيف الاسم الظّاهر ﴿أُمَّةٍ﴾ حتّى لا يكون ثَمَّ تَكرارٌ للَّفْظ ثلاث مرّات من دون نُكتة، ثُمَّ إنَّ من القواعد المُقرَّرة أنَّ تَكرار النَّكِرة يعني أنَّ الكلمة الثّانية غيرُ الأولى[1]، فلو كُرِّرتْ لفظة ﴿أُمَّةٍ﴾ لَجازَ أن يُظَنَّ أنّ (أمَّة) هُنا غير (أمَّة) هُناك، فالتَّعبير بالضَّمير لدَفْع توَهُّم غير المُراد.

سِرُّ التَّعبير عن القرآن بـ ﴿ٱلَّذِىٓ أَوۡحَيۡنَآ﴾:

علوُّ الشّأن وكون القرآن من عند الله

السِّرُّ في ذلك وصْف القرآن بعظَمة الشَّأن في قوله: ﴿ٱلَّذِىٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ﴾، ويُشعِرُ بهذا الوصْف ذِكر المَوصول غير جارٍ على موصوف، إضافة إلى التَّعبير بالاسم الموصول ﴿ٱلَّذِىٓ﴾؛ لأنَّه أعرَف وأخَصُّ من (ما) الَّتي تَشترِك في المُفرَد والمُثنَّى والجمْع والمُذَكَّر والمُؤنَّث مع إبهامِها، وتُطلَق على كُلِّ شيءٍ[2]، وما ليس بِشَيء[3]، فكان الاسم الموصول ﴿ٱلَّذِىٓ﴾ نصًّا في الإفراد، وكونه مُختصًّا من شأنه أن يكون مَعْهودًا لدى السّامع ممّا يَدُلُّ على عُلوِّ الشَّأن[4]، مع دلالة صِلَةِ الموصول ﴿أَوۡحَيۡنَآ﴾ على أنَّ القُرآن ليس من عند محمَّد ﷺ، فهو وحْيٌ من ربِّه ﷻ.

دلالة التَّعبير بـ ﴿أَوۡحَيۡنَآ﴾ لا (أنزلنا):

إفادة اتِّساع المعنى في الفعل (أوحى)

في قوله: ﴿أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ﴾ توظيف للفعل ﴿أَوۡحَيۡنَآ﴾ لاتِّساع معانيها؛ فالوحْي يُطلَق على الإشارة والكِتابَة والرِّسالة والإلْهام والكلام الخَفي وكلِّ ما ألقيته إلى غَيْرِكَ، وكأنَّ الوحْي إنزالٌ وزيادة، إضافة إلى ما اختَصَّ به من الخَفاء والإسرار[5]، وفي الوحْي إلماحٌ إلى تعدُّد طَرائقِ الوحْي على رسول الله ﷺ.

(1) العُكبَريّ، اللّباب في علل البناء والإعراب: 2/137.
(2) سيبويه، الكتاب: 4/228.
(3) ابن قيّم الجوزيّة، بدائع الفوائد: 2/217.
(4) النّورسيّ، إشارات الإعجاز في مظانّ الإيجاز، ص: 34.
(5) ابن منظور، لسان العرب: (وحي).

دلالة نون العَظَمَة في: ﴿أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ﴾:

إظهار التَّشريف والاهتمام وكمال العِناية

في التَّعبير بنون العظَمة في قوله: ﴿أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ﴾ فوائد: الأولى: تربية المَهابة وإدخال الرَّوعة بإسناده إلى المولى ﷻ[1]، والثّانية: تشريف الموحى إليه وهو النبي ﷺ واستِعظام الإقدام على تكذيبه، الثّالثة: كمال العناية بالموحَى وهو القرآن الكريم، الرّابعة: الهَيمنة والقُدرة المُطلَقة للموحي وهو الله ﷻ، الخامسة: مُناسَبة نون العظَمة هُنا لِنون العظَمة في ﴿أَرۡسَلۡنَٰكَ﴾.

دلالة تعدّي الفعل ﴿أَوۡحَيۡنَآ﴾ بـ ﴿إِلَيۡكَ﴾:

تكريمه ﷺ بانتهاء الوحْي إليه

قوله تعالى: ﴿أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ﴾، من معاني (إلى) انتهاءُ الغايَة[2]، وفي هذا إشارة إلى أنَّ الرَّسول هو المُنتَهَى في الوحْي، فلا رسولَ بَعده، وفي (إلى) قصْديَّة وتكريمٌ للرَّسول ﷺ بأنَّه مُستحقٌّ لهذا الإيحاء، فكأنَّ (إلى) دلَّتْ على الاختصاص أيضًا، فضَمَّت معنى اللّام.

دلالة كاف الخِطاب في قوله: ﴿إِلَيۡكَ﴾:

بيان عُلوِّ المكانة مع الاختصاص والتَّشريف

الكاف تُشير إلى التَّكريم والتَّشريف والاختصاص، فمِثْلك يا مُحمَّد جَدير بأن يَحملَ الأمانة ويُبلِّغها بحيث تكون أنت المُنتَهى، فكاف الخِطابِ دليلٌ على عُلوِّ طبَقَته وسُموِّ رُتْبته[3] مع لذَّة الخِطاب بين الحبيب وحبيبِه.

دلالة العطْف في: ﴿وَهُمۡ يَكۡفُرُونَ﴾:

بيان استمرار أهل الكُفر على كفرهم وعِنادهم

جُملة ﴿وَهُمۡ يَكۡفُرُونَ بِٱلرَّحۡمَٰنِۚ﴾ عطْفٌ على جُملة ﴿كَذَٰلِكَ أَرۡسَلۡنَٰكَ﴾؛ أيْ: أرسلناك بأوْضَح الهداية وهم مُستمرُّون على الكُفْرِ لَم تَدخُل الهداية قلوبَهم، فالضَّمير عائد إلى المُشركين المَفْهومينَ من المقام لا إلى أمَّة لأنَّ الأمَّة منها مؤمنون[4]، وتحتمل الواو الحاليَّة؛ أيْ: حال هؤلاء أنَّهم يَكفرون بالرَّحمن[5].

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 5/334.
(2) المراديّ، الجَنى الدّاني، ص: 385.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/149.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/146.
(5) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/187.

سرُّ التَّعبير بالضَّمير ﴿وَهُمۡ﴾ عن الكُفّار:

تخصيص الكُفّار بالذِّكر مع كراهة التَّكرار

في الضَّمير من قوله: ﴿وَهُمۡ يَكۡفُرُونَ بِٱلرَّحۡمَٰنِۚ﴾، إشارة إلى قوم بأعْيُنهم وهم الكفّار، وفي الضَّمير تحديدٌ وتخصيص للكُفّار المَفهومينَ من السّياق، ولو عبّر بالاسم الظّاهر (وأمَّة تَكفُر) لكان المعنى غيْرَ دَقيق؛ لأنَّ الأمَّة فيها المؤمنون وغيرهم[1]، فكان الأدَقُّ توظيف الضَّمير ﴿وَهُمۡ﴾ لا الاسم الظّاهر ﴿أُمَّةٍ﴾، ويُضاف إلى ذلك مَلْحَظُ كراهة التَّكرار من دون فائدة (أمَّة - أُمم - أمَّة).

سِرُّ التَّعبير بالكُفر لا الشِّرك: ﴿وَهُمۡ يَكۡفُرُونَ﴾:

التّأكيد على أنَّ حالة الكفّار هي حالة الإنكار التّامّ واللَّجاجة وجُحود النِّعمة

إيثار القُرآن للكُفر دون الشِّرك آتٍ من أنَّ الكُفْرَ سَتْرٌ للنِّعمة، والسّياق هُنا سياق الجَحْدِ والإنكار وعدم الإيمان بالرِّسالة والرَّسول والقرآن، مع عِلمهم أنَّ القُرآن كلام اللّه، فكأنَّهم سَتَروا ضياء عقولهم[2] بالكُفر، أمّا الشِّرك فهو اعتراف بوجود الخالق لكنَّ معه خالقًا آخَر، فتَجْعل للّه شَريكًا في رُبوبيَّته[3]، فكأنّهم يَصرفون العبادة لغير اللّه، وهذا لا يُناسِب المقام هُنا، فحالَتُهم هي حالة الإنكار التّامِّ واللَّجاجة؛ فكان الفعل (كفر) أنسَبَ من (أشرك).

دلالة التَّعبير بالمُضارع ﴿يَكۡفُرُونَ﴾:

بيان الإصرار في مُعاداة اللّه ورسوله بالاستمرار على الكُفر

الفعل المُضارع ﴿يَكۡفُرُونَ﴾ دالٌّ على تَجدُّد الكُفر واستمراره، بل والإصرار في مُعاداة اللّه ورسوله بستْرِ النِّعم حالًا بعد حال ووَقتًا بعد وقت، مع استحضار صورة كُفرهم، فكأنَّ المَرءَ يراه ماثِلًا أمام عينيْه، وهذا تصميم على العِناد والعُتوِّ والمُضي فيهما.

دلالة التَّعبير بالجملة الاسميَّة ﴿وَهُمۡ يَكۡفُرُونَ﴾:

التَّعبير بالجملة الاسميَّة القائمة على الثَّبات لا الحدوث في

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/146.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/345.
(3) ابن منظور، لسان العرب: (شرك).

عَراقة أهل مكّة في الكُفْرِ بحيث صاروا معروفينَ به

قوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ﴾، دالٌّ على استقرار الكُفْرِ في نفوسهم ورسوخِهم فيه، وعراقة تمسُّكهم به بحيث لا ينفكّون عنه، فهم عُنوانٌ للكُفْرِ مَوصوفونَ به، يُؤَكِّدُ ذلك أنَّ الاسم موضوعٌ للدَّلالة على ثَبات المعنى من غير أن يَقتضيَ تجدُّدَه شيئًا بعد شيءٍ، وأمّا الفعل فمَوضوعه على أنَّه يَقتضي تجدُّدَ المعنى المُثبَت به شيئًا بعد شيءٍ[1].

سِرُّ الإظهار في: ﴿يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَٰنِ﴾:

تخصيص المعنى وعدَمُ إطلاقه لمَنْع اللَّبس

في قوله: ﴿يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَٰنِ﴾ نصَّ على الاسم (الرَّحْمَنْ) دون الضَّمير تحديدًا وتخصيصًا للمَكفور به، فالمكفور به هو الرَّحمن، في حين أنَّ التَّعبير لو جاء بالضَّمير فقيل: (يَكفرون به) لعاد الضَّمير على ﴿الَّذِي أَوْحَيْنَا﴾ وهو القرآن في قوله تعالى: ﴿لِتَتْلُوَا عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَٰنِ﴾، والضَّمير يعود على أقرَب مَذكور كما يقول النُّحاة[2]، وأقرب مَذكور يُناسِب الضَّمير الهاء في (به) هو الاسم الموصول (الَّذي)، وليس هذا مقصود النَّصِّ القرآنيِّ، ومن ثَمَّ كان التَّعبير بالاسم الظّاهر (الرَّحْمَنْ) دون الضَّمير (به) هو الأحْوَطَ والأنسَب لمُقتضيات المعنى.

سِرُّ تقييد كُفرِهم ﴿بِالرَّحْمَٰنِ﴾:

إنكار اسم الرَّحمن إنكارٌ لصِفَة الرَّحمانيَّة في الله

ذَكَرَ علماء التّفسير عدَّة رِوايات في سبب نزول الآية الكريمة ﴿لِتَتْلُوَا عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَٰنِ﴾، واستدلّوا منها على هذا التَّقييد: فقد نُقل عن قتادَة، وابن جُريج، ومقاتِل أنَّ الآية نزلَتْ في مُشركي مكَّة لمّا رَأوا كتاب الصُّلْحِ في الحُديبية، وقد كَتب فيه عليٌّ رضي الله عنه: (بسم اللّه الرَّحمن الرَّحيم)، فقال سُهيل بن عمرو: (ما نعرِف الرَّحمن إلّا مُسيلمة)، وقيل: سَمِعَ أبو جهْلٍ قولَ

(1) الجُرجانيّ، دلائل الإعجاز، ص: 181.
(2) الصبّان، حاشية الصبّان: 2/458.

رسول الله ﷺ: «يا الله يا رحمن»؛ فقال: (إنَّ مُحمَّدًا يَنهانا عن عبادة الآلِهة وهو يدعو إلَهيْن) فنزلَتْ[1].

ومنها ما رويَ عن الضَّحّاك، عن ابن عبّاسٍ قال: نزلَتْ في كفّار قريش حينَ قال لهم النَّبيُّ ﷺ: اسْجُدوا لِلرَّحْمنِ، فقالوا: وما الرَّحْمنُ؟ فأنزَل الله تعالى هذه الآية، وقال: قُلْ لهم يا محمَّد: إنّ الرَّحمن الَّذي أنكَرْتُم مَعرِفتَه ﴿هُوَ رَبِّي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ مَتَابِ﴾.

نكتة اختيار اسم (الرَّحمن):

في اختيار اسم الرَّحمن في قوله: ﴿وَهُمۡ يَكۡفُرُونَ بِٱلرَّحۡمَٰنِۚ﴾ دون اسم الجلالة (الله) فوائد، منها: إثبات أنَّ الرَّحمن من أسمائه الحُسنى ونُعوته العُليا، وقد كانوا يَتجافونَ هذا الاسم الكريم[2].

إبراز تَعدُّد مَظاهر كُفرهم بالله وبالقرآن مع قَباحَة ذلك

ومنها: الدَّلالة على أنَّ كُفرَهم بالرَّحمن تضمَّن كُفرَهم بالقُرآن ومَن أُنزِل عليه، وكان الكُفر بالمُنْعِم في غاية القَباحة[3].

ويفيد أيضًا الإشارة إلى كثرة حِلْمِه وطول أناته عليهم، وتقبيح حالهم في مُقابَلتهم الإحسان بالإساءة والنِّعمة بالكُفْرِ بأَوْضَح صورة، وهم يدَّعون أنَّهم أشْكَرُ النَّاس لِلإحسان وأبعَدُهم من الكُفران[4].

إضافة إلى الإشارة إلى أنَّ الإرسال ناشئٌ من الرَّحمة، كما قال تعالى ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾ [الأنبياء: 107][5]، ولِكُفرهم بالرَّحمن حُرموا هذه الرَّحمة.

السّادسة: بيان أنَّهم لَم يَشكروا نعمة هذا الوحْي الَّذي هو مَدار المَنافعِ الدّينيَّة والدُّنيويَّة[6].

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 13/153.
(2) الصّبّان، حاشية الصّبّان: 2/458.
(3) الصّبّان، حاشية الصّبّان: 10/339.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/339.
(5) القاسميّ، محاسن التّأويل: 6/283.
(6) القاسميّ، محاسن التّأويل: 6/283.

سِرُّ تقديم كُفرهم ﴿وَهُمۡ يَكۡفُرُونَ﴾:

بيان اللَّجاجة والتَّصميم على كُفران كُلِّ دعوة للوَحدانيَّة

مَجيءُ الآية على أصْل التَّرتيب اللُّغويِّ، فعل وفاعل ومُتعلّقاتهما، في قوله: ﴿وَهُمۡ يَكۡفُرُونَ بِٱلرَّحۡمَٰنِۚ﴾، حيث لَم يَقُل: (وهم بالرَّحمن يَكفرون) فيه إشارة إلى أنَّ كُفرَهم ليس واحدًا، وإنَّما الكُفْرُ متعدِّدٌ فكُفرهم بالرَّحمن يَلزمه كُفْرٌ بما أنزله من القرآن الكريم، وبمَن أرسله الرَّسول الكريم، أمّا أسلوب القصْر المُتمثِّل في تقديم الجارِّ والمجرور ﴿بِٱلرَّحۡمَٰنِۚ﴾ على الفعل ﴿يَكۡفُرُونَ﴾ فلا يُعطي هذا المعنى؛ وإنَّما يَقصر الكُفران على اسم الرَّحمن، وهذا ليس مُرادَ النَّصّ القرآنيِّ.

دلالة الأمر في: ﴿قُلۡ هُوَ رَبِّي﴾:

الإشعارُ بامتِثال رسول الله ﷺ تبليغ الدَّعوة وحِفْظِ الله له

في قوله: ﴿قُلۡ هُوَ رَبِّي﴾ أمْرٌ، وفي دلالته فوائد، الأولى: الإشارة إلى تنفيذ أمر الله بالمواجَهة الصَّريحة وتبليغ ما أُرسِل به، فَلِلوَحدانيَّة رسولٌ يَذودُ عنها بكلِّ قوَّة وشُموخ. الثّانية: التَّأكيد على إعلان نُبوَّته ورسالته ﷺ في مواجَهة إنكار المُشركين. الثّالثة: الدَّلالة على وقوف الله بجانب رسوله في تبليغ الدَّعوة كما قال لِموسى وهارون: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ ٤٦﴾ [طه: 46]، فكأنَّه يقول للرَّسول: بَلِّغ الدَّعوة وأنذِر عَشيرتك من دون خَوف فنحْنُ معك تأييدًا ونُصْرَةً.

دلالة الضّمير في قوله: ﴿هُوَ رَبِّي﴾:

التَّأكيد على وحدانيَّة الله وإن تعدَّدت أسماؤه

ضمير الفصْل ﴿هُوَ﴾ عائد إلى (الرَّحمن)؛ أيْ: "إنَّه إله واحدٌ وإن اختلَفَتْ أسماؤه"، وفيهِ الرَّدُّ على الكافرين المُنكرين لاسْم الرَّحمن، كَما أنَّ الإتيان به جاء على جهة المُبالَغة في تعظيم وصْف الرَّحمن، وفيه تشويق للنَّفس؛ لأنَّ الشَّيءَ إذا كان مُبهَمًا فالنُّفوس مُتطلِّعة إلى فَهْمه، ولأجْل ما فيه من الاختصاص بالإبهام لا يَكاد يَرِد إلّا في المَواضع البَليغة المُختصَّة بالفخامة[1].

(1) العلويّ، الطّراز: 2/76.

سِرُّ التَّعبير بالرُّبوبيَّة ﴿هُوَ رَبِّي﴾:

إقراره ﷺ بربوبيَّته ﷻ مع التَّعريض بالكُفّار في شِركهم

ورَدَ التَّعبير بالرُّبوبيَّة في قوله: ﴿هُوَ رَبِّي﴾ دون اسم الجلالة (اللّه)، والسِّرُّ في ذلك الاعتماد المُطلَقُ على مَن ربّاه وتَولّى أمره وتَوْجيهه، فهو سُبحانه المُتولّي شأنَه وحاله؛ لذلك أُمِرَ ﷺ أن يقول: "إنَّه هو المُربّي لي بالإيجاد وإدرار النِّعَم، والمحسِنُ إليَّ لا غيره، لا أكفُر إحسانَه كما كَفَرْتُموه أنتم"[1]؛ فلَفْظة (رَبّ) فيها مُبالَغةٌ في الوصْف[2] وإقراره بالرُّبوبيَّة تمسُّك بالعقيدة، وتصميمٌ على مُعاداة عادات الكفّار في اتِّخاذ الشَّريك، مع التَّعريض بكُفْرهم وعِنادهم، كما أنَّ الرَّبَّ سبب في وصول الرَّسول ﷺ إلى درجة الكمال؛ لأنَّ الرَّبَّ في الأصل بمعنى التَّربية، وهي تبليغُ الشَّيءِ إلى كَماله شيئًا فشيئًا[3].

دلالة الإضافة إلى المُتَكلِّم ﴿هُوَ رَبِّي﴾:

التَّشريف والتَّكريم لرسول الله ﷺ مع العناية به

في الإضافة إلى المُتَكلِّم من قوله تعالى: ﴿رَبِّي﴾ فائدتان؛ الأولى: إضافة (رَبّ) لياءِ المُتكلِّم إضافة تشريف وتكريم للرَّسول ﷺ، وهُم لا يستحقّون هذا التَّكريم والتَّشريف في موقف العِناد والمُكابرة، فالموقف موقف مواجهة ودفاع عن العقيدة ضدَّ المُنكِرين والجاحدين، ومن ثَمَّ كانت الإضافة للياء هي الأنجَع، الثّانية: إذا كان التَّعبير: (قُل هو ربّي وربُّكم)، فإنَّه لا يَحْسُنُ أن يكون تمهيدًا لِما يأتي وراءه من نَظْم، فبَعْده: (عليه توكَّلت)، ولو قال (ربُّكم) لكان التَّعبير: (عليه توكَّلوا)، أو: (توكَّلنا)، وهُم يَكفرون، فكَيف يتوكَّلون؟

دلالة التَّعبير بالجُملة الاسميَّة: ﴿هُوَ رَبِّي﴾:

شِدَّة اليقين مع عظَمة جوِّ التَّربية وأمانة التَّبليغ

التَّعبير بالجملة الاسميَّة فيه فوائد، الأولى: مَنْح الموقف الاستقرار والثَّبات والثِّقة في مَوعوده ﷻ، والتَّصميم على مُجاهَدة الكفّار بهَدْم

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/338.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/21.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/21.

مُعتَقداتهم، والثّانية: أنّ بناء الجُملة على الاسم ضَمير الشَّأن ﴿هُوَ﴾ يَرسم فخامة الموقف وعظَمة جوِّ التَّربية الَّذي تَلقّاه الرَّسول ﷺ، ويُظهِر شِدَّة تعلُّقه بربِّه، الثّالثة: أمانة الرَّسول ﷺ في التَّبليغ عن ربِّه، فربُّه مَن لقَّنه التَّعبير عن الرُّبوبيَّة بهذه الطَّريقة الفَذَّة.

سِرُّ الاحتراس بقوله: ﴿هُوَ رَبِّي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾:

التَّأكيد على الوحدانيَّة بعد الرُّبوبيَّة

في قوله: ﴿هُوَ رَبِّي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ إشارة إلى إبطال إشراكهم مع اللّه تعالى في الإلهيَّة غيرَه، فهو احتراسٌ لِرَدِّ قولهم: إنَّ مُحمَّدًا ﷺ يَنْهانا عن عبادة الآلهة وهو يدعو إلهَيْن؛ فكان قوله: (لا إله إلّا هوَ) دالًّا على أنَّ المَدعوّ بالرَّحمن هو المَدعوّ باللّه؛ إذْ لا إله إلّا إله واحد[1].

نُكتة العُدول عن التسمية بالرّحمن:

مُناسَبة سياق الهلاك في المُلْك للَفْظة (الرَّحمن)، وأثَر الرُّبوبيَّة في الرَّحمة في الرَّعد

العُدول عن ذِكْرِ الرَّحمن في قوله: ﴿قُلْ هُوَ رَبِّي﴾ مع مناسَبة ذِكْر الرَّحمن في الآية كما في سورة المُلك؛ للمُناسَبة وتَشاكل السّياقَيْن، ففي سورة المُلك قبْل الآية جوٌّ من الإهلاك أو توقُّعِه، قال تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٢٨ قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ [الملك: 28 - 29]، فكان الألْيَق بالمَقام ذِكْر صِفة الرَّحمة للخالق، فهو الَّذي يُنجّيهم من الهلاك، إضافة إلى أنَّ كلمة الرَّحمن تَكرَّرت وصْفًا للّه في آيات عديدة، فكان ذِكْرُ الصِّفة مُتابِعًا لجوِّ الرَّحمة المُنقِذ من الإهلاك، أمّا ذِكْرُ (الرَّحمن) في سياق سورة الرَّعد فيَنْبو عنه النَّظْم؛ لأنَّه تَكرار مُخِلٌّ، "وهم يَكفرون بالرَّحمن، قُلْ هو الرَّحمن" ولا معنى مُفيدًا في هذا السّياق، فالمُناسب تأكيد قيمة الرَّحمة كأنَّ الرُّبوبيَّة سببُها؛ لذا تلاها قوله ﴿قُلْ هُوَ رَبِّي﴾ فناسَب كلٌّ موضِعَهُ.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/141.

دلالة التَّعبير بجملة ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾:

الجمع بين توحيدَي الرُّبوبيَّة والأُلوهيَّة

في جملة ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ وحدانيَّة مُطلَقة، فلا شريك له ولا مُنازع، أمّا ﴿هُوَ رَبِّي﴾ فالمُراد بها الرُّبوبيَّة، فقد جَمعَت الجملتان "التَّوحيدَيْن: توحيدَ الألوهيّة، وتوحيدَ الرُّبوبيّة"[1]، ولا تُغني جُملةٌ عن جملة، فلكلٍّ دَوْر في تنزيه الخالق ﷻ.

سِرُّ التَّعبير عن الوحدانيَّة بـ ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾:

عدمُ التَّكرار مع النَّصّ على الإلهيَّة وعدمُ النَّظير

في ذلك فائدتان، الأولى: البُعد عن التَّكرار الَّذي يُثقل الأسلوب، فالتَّعبير المُحتمل (هو ربّي ربّي الواحد)، وهذا أسلوب يَنبو عنه نَظْم القرآن الكريم، والثّانية: (ربّي الواحد) جملة احتماليَّة الدَّلالة على الوحدانيَّة، أمّا جُملة ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ فنصٌّ في عدم وجود إله غير اللّه، والثّالثة: في العبارة القرآنيَّة "مَدُّ التَّعظيم في نحو: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾، ويُسمى مَدّ المُبالَغة، وإنَّما سُمِّي مَدّ المُبالَغة لأنَّه طَلَبٌ للمُبالَغة في نَفْي إلهيَّة سوى اللّه تعالى، وهذا مذهب معروفٌ عند العرَب لأنَّها تمدّ عند الدُّعاء وعند الاستغاثة وعند المُبالغَة في نفْي شيء"[2].

دلالة القصْر في جُملة ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾:

قصْر الإلهيَّة على الله وحدَه وإزالة الشَّكِّ والإنكار

قصر الصِّفة على الموصوف في قوله: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾، فصِفة الألوهيَّة مقصورةٌ على ذات اللّه سبحانه قصْرًا حقيقيًّا؛ أيْ: وما إلهٌ قطُّ في الوجود إلّا إله موصوف بالوحدانيَّة لا ثاني له، وهو اللّه وحدَه لا شريك له، والغرَض هُنا تقرير الكلام وتَمْكينُه في الذِّهن لدَفْع ما فيه من إنكار أو شكٍّ[3].

دلالة جَمْعِ وصْفَي الرُّبوبيَّة والوحدانيَّة:

الجمْع بين وصْفَي الرُّبوبيَّة والوحدانيَّة في قوله: ﴿قُلْ هُوَ رَبِّي لَآ

(1) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن: 1/418.
(2) السّيوطيّ، الإتقان: 1/336.
(3) القزوينيّ، الإيضاح: 3/5.

الإقرار بالوحدانيَّة والتَّمهيد للتَّوكُّل عليه

﴿إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ إقرار للوحدانيَّة ونفْيٌ لِما عسى أن يُتوَهَّم من أنَّ في الوجود إلهًا لكن لا يستحقُّ العبادة[1]، إضافة إلى أنَّ جُملة: ﴿عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ مَتَابِ﴾ نتيجة للألوهيَّة والوحدانيَّة، لأنَّه لمَّا توحَّد بالرُّبوبيَّة كان التَّوكُّل عليه، ولمَّا اتَّصَف بالرَّحمانيّة كان المَتاب إليه، لأنَّ رحمانيَّته مظِنَّةٌ لقَبوله تَوبةَ عبدِه[2].

دلالة العدول عن التَّعبير بـ(لا إله إلّا الله):

التَّفرُّد بالألوهيَّة ومَنْع الوهْم واللَّبس

عبَّر النَّظْم الكريمُ بالضَّمير ﴿هُوَ﴾ في قوله: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ للتَّأكيد على وحدانيَّته سبحانه، ولدَفْع تَوهُّم ما قد يكون محتملًا، فالإتيان بلفظ الجلالة (اللّه) هُنا قد يوهِمُ غير المُراد؛ وهو أنَّ هُناك إلهَيْن معبودَيْن، أوَّلهما الرَّبُّ، وثانيهما اللّه، فكان التَّعبير بالضَّمير هو المانِع من اللَّبس والتَّعدُّد.

نُكتة الاكتفاء بِذِكْرِ الوحدانيَّة:

التَّركيز على الوحدانيَّة ونَفْي تعدُّد الآلهة

في قوله: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ اكتفاء بذِكر الوحدانيَّة، مع وجود بعض الصِّفات الأخرى في نحو: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ١٦٣﴾ [البقرة: 163] و﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٦﴾ [آل عمران: 6] ونحو ذلك، والاكتفاء بالوحدانيَّة هُنا فيه إشارة إلى أنَّ الغرَض التَّركيزُ على التّوحيد وعدَم الشَّريك في المُلْك، ومَجيءُ صِفات أخرى في هذه الآية يُزاحِم الوحدانيَّة في هذا السّياق، وفائدة أخرى وهي أنَّ المُشركين عندما وُصِفَ اللّه بالرَّحمن قالوا: وما الرَّحمن؟ فظنّوا أنَّ للرَّسول إلَهيْن، وهذا مُحتَمل هُنا لضَعْف عقيدتهم الَّتي بَنَوْها على الشِّرك من خلال فَهمهم الخاطئ من لفظ الرَّحمن، فظنّوا وجودَ آلهة مع الإله الواحد الأحد، فاكْتَفى القرآن بِذِكْرِ الوحدانيَّة دون زيادة عليها، فكانت الوحدانيَّة مُغْنيَة عن ذِكْر وصْفٍ آخَر.

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 1/428.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 13/139.

بلاغة الاعتراض في قوله: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾:

اختصاص التَّوكُّل عليه مع بلاغة الانتقام

الاعتراض أكّد به اختصاص التّوكُّل عليه سُبحانه وتفويض الأمور عاجلًا وآجلًا إليه، ثُمَّ إذا كان وصْف الرَّحمن يُفيد المُبالَغة في الرَّحمة فقول: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ يدلُّ على شِدَّة الانتقام من الكافرين، وهو تمهيد أيضًا لقوله: ﴿عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ﴾، ثُمَّ هو اعتراضٌ لتَوكيد ﴿هُوَ رَبِّي﴾ فظهرَتْ بلاغة الاعتراض[1].

علاقة جُملة ﴿عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ﴾ بما قَبلَها:

التَّوكُّل لا يكون إلّا على الواحد الأحد

الفصْل هُنا جاء بالجملة الاعتراضيَّة: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ إشارة إلى أنَّ التَّوكُّل على الله أساسُه الوحدانيَّة الحقَّةُ، فالمُتَوكِّل معتمِدٌ على قويٍّ واحد لا شريك له؛ فبيْن الجُملتيْن تلاحُم قويٌّ؛ لأنَّهما سبَب ونتيجة.

بلاغة القصْر بتقديم: ﴿عَلَيۡهِ﴾:

قصْر التَّوكُّل على الله ﷻ والاستغناء عن نُصرة الكفّار

في قوله تعالى: ﴿عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ﴾ تقديم للجارِّ والمجرور، وذلك التَّقديم دالٌّ على الاختصاص[2] والقصْر، وهو قصر حقيقيٌّ لصِفةٍ على مَوصوف، فلا مُتوكَّلًا عليه إلّا الله، هو يَكفيني ويَحميني عند مُجاهدَتِكم ودَفْعكم، فكأنَّ النَّبيَّ ﷺ يقول: أخُصُّك وحدَك يا الله بالتَّوكُّل عليك؛ لأنَّك نِعْمَ الوكيل، وفيه رسالة للكُفّار بالاستغناء عنهم، فلا حاجة له إلى تأْييدهم؛ لأنَّهم لا يَملكون نفْعًا ولا ضَرًّا، ويُضاف إلى ذلك "المُطابقة اللَّفظيَّة في تَناسُب الآي وتشاكُلِها"[3] بمناسَبة ما بَعدها في تقدُّم الجارِّ والمَجْرور: ﴿وَإِلَيۡهِ مَتَابِ﴾.

نكتة اختيار صِفة التَّوكُّل:

المُناسَبة اللَّفظيَّة مع الاستسلام التّامّ للخالق

جاء النَّظْمُ الكريم بصِفة التَّوكُّل دون غيرها في قوله تعالى:

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/145.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/142.
(3) العلويّ، الطّراز: 2/40.

﴿عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ﴾، لمناسَبتها للرُّبوبيَّة في قوله تعالى: ﴿هُوَ رَبِّي﴾، فالتَّوكُّل عليه من عَطاءات الرُّبوبيَّة[1]، ويُضاف إلى ذلك ما يَحتمله لفْظ التَّوكُّل من المعاني اللُّغويَّة الَّتي تَدُلُّ على الاستسلام التّامِّ من العبد لربِّه، فهو حافظه وكافيه، وعليه الرُّكون والالتجاء إليه[2].

سِرُّ التَّعبير بالماضي لا المضارع في: ﴿تَوَكَّلۡتُ﴾:

إبراز ثبات التَّوكُّل ودوامِه والثِّقة بالله تعالى

في الفعل الماضي إيماءَةٌ إلى الثَّبات والاستقرار، فلا زَحْزحة ولا زَعْزعة، وهذا يُناسِبه الفعل الماضي، ثُمَّ إنَّ الفعل الماضي يَضُمُّ في جَوْفه الفعلَ المضارع الدّالَّ على دوام التَّوكُّل واستمرارِه، فمَن ثَبَتَ تَوكُّله في الزَّمن الماضي لزِمه استمرار التَّوكُّل ودوامه لِما رأى وسَيَرى من خيرات ونِعَم الرَّبِّ المُنْعِم والمُتفضِّل.

سِرُّ التَّعبير بـ ﴿تَوَكَّلۡتُ﴾ دون ﴿تَوَكَّلۡنَاۖ﴾:

مُناسبة ضمير المتكلّم لسياقه من الإفراد والجمْع

جاءت الإضافةُ إلى ضمير التَّكلُّم ﴿تَوَكَّلۡتُ﴾ دون ﴿تَوَكَّلۡنَاۖ﴾ [الملك: 29]؛ لأنَّه حديثٌ عن نفْسِه لا عن جماعة مُؤمنة؛ لذا كان الإفراد، إضافة لِما يَليه: ﴿وَإِلَيۡهِ مَتَابِ﴾؛ أيْ: مَتابي لا (مَتابُنا)، أمّا في سورة المُلْك فالسّياق يُناسِبه ﴿وَعَلَيۡهِ تَوَكَّلۡنَاۖ﴾ [الملك: 29]؛ لأنَّها تُناسِب الفعل الماضي المُسنَد إلى (نا) الفاعِلينَ قَبلَها: ﴿ءَامَنَّا﴾ [الملك: 29] في قوله: ﴿قُلۡ هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيۡهِ تَوَكَّلۡنَاۖ﴾ [الملك: 29]، فكان ﴿تَوَكَّلۡنَاۖ﴾ [الملك: 29] مُماثِلًا له في الضَّمير، وهذا من التَّشاكُل اللَّفْظيِّ في نظْم الآية الكريمة.

سِرُّ القصْر بالتّقديم في: ﴿وَإِلَيۡهِ مَتَابِ﴾:

المُشاكَلة اللَّفظيَّة وقصْر التَّوبة إليه وحدَه

في قوله: ﴿وَإِلَيۡهِ مَتَابِ﴾ تقديم للجارِّ والمجرور، وفي هذا التَّقديم فائدتان، الأولى: مُناسَبة المَعطوف للمعطوف عليه، فالجملة السّابقةُ عليها: ﴿عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ﴾ تقدَّم فيها الجارُّ والمجرور، لذا كان من المُناسِب تقديم الجارِّ والمجرور في: ﴿وَإِلَيۡهِ مَتَابِ﴾، فثَمَّ مُشاكَلةٌ بيْن

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 13/139.
(2) ابن منظور، لسان العرب: (وكل).

الجملتَيْن. الثّانية: ذلك التَّقديم دالٌّ على الاختصاص[1] والقصْر، قَصْر حقيقيّ لصِفةٍ على مَوصوف، فلا مَتاب إلّا إلى اللّه، هو وحدَه مَن نَتوب إليه ونستغفرُه؛ لأنَّه المعبودُ بحقٍّ، وله الحساب وحده، وله الثَّواب والعِقاب لا شريك له.

سِرُّ اختيار ﴿مَتَابِ﴾ دون (المَرجِع):

المَتاب أخَصُّ من المرجع

المَتاب في القرآن أخَصُّ من المرجع، فالمَرْجِعُ يكون لكلِّ إنسان سواء أكان مؤمنًا أم كافرًا؛ ففيه عموم، ودليل ذلك قوله: ﴿ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ۝٥٥﴾ [آل عمران: 55] للمؤمن والكافر، وكذا: ﴿فَٱسْتَبِقُواْ ٱلْخَيْرَٰتِۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ۝٤٨﴾ [المائدة: 48]، أمّا المَتاب فإنَّه يَختصُّ بالمؤمنين كما هُنا، وفي الآية الحاديَة والسَّبعين من سورة الفُرقان: ﴿وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ۝٧١﴾ [الفرقان: 71]، وكلاهما دالٌّ على انتهاء المَقْصدِ، لكن المَتاب فيه رجوعٌ مع تَوبة، أمّا المرجِع فلا يشترط فيه توبة.

دلالة تعدّي ﴿مَتَابِ﴾ بحرْف الجَرِّ (إلى):

الانتهاء والمَصير إليه ﷻ

في قوله: ﴿وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾، تَضَمَّن ﴿مَتَابِ﴾ معنى الرُّجوع إلى ما يأمر اللّه به فعُدّي المَتاب بحرْف الجَرِّ (إلى)[2]، إضافة إلى ذلك فحرْف الجَرِّ (إلى) يَدُلُّ على انتهاء الغاية المكانيَّة والزَّمانيَّة، بمعنى أنَّ المَصير إلى اللّه، فهو المُنتهى والمَرْجِعُ؛ فكان المُناسِب حرْفَ الجَرِّ (إلى).

سِرُّ التَّعبير بالمصْدَر الميميّ ﴿مَتَابِ﴾:

في المصْدر الميميّ فضْل مبالَغة غير موجودة في الصَّريح

سِرُّ التَّعبير بالمصْدر الميميّ ﴿مَتَابِ﴾ أنَّ المَتاب فيه فضْل مُبالَغة ليست في التَّوبة[3]، والمُبالَغة آتيَةٌ من الفرْق بين المَتاب والتَّوبة،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/142.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 13/142.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 13/142.

فالمتاب؛ أيْ: التَّوبة التّامَّة، وهو الجمع بين تَرْك القبيح وتَحرّي الجميل، ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾[1] فكان المَتاب توبةً وزيادة.

دلالة التَّعبير بـ ﴿مَتَابِ﴾ دون (مَتابي):

التَّخفيف اللَّفظيُّ مع التَّناسُب في نهايات الآيات

أوثِرَ التَّعبير بقوله تعالى: ﴿مَتَابِ﴾ دون (متابى) من باب التَّخفيف، ذلك أنَّ أصْل ﴿مَتَابِ﴾: مَتابي - بإضافة ياء المتكلِّم - فحُذفَت الياء تخفيفًا وأُبقيَت الكسرة دليلًا على المحذوف[2]، ويُضاف إلى ذلك ملاحظَة التَّناسُب بين نهاية الآية ﴿مَتَابِ﴾، ونهاية الآية الَّتي تَليها ﴿عِقَابِ﴾ بحذْف الياء هي الأخرى.

دلالة الأمر بشهادة التَّوكُّل والتَّوبة في الآية:

فضل التَّوبة، وأهميَّة الإقلاع عن الذَّنب مع أهميَّة السَّعي لتبليغ الدَّعوة

أمرت الآية الكريمة النبيّ عليه الصَّلاة والسَّلام بإظهار حال التَّوكُّل والتَّوبة في قوله: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾، وفي هذا الأمر فوائد[3]، الأولى: إبانةٌ لفضل التَّوبة ومِقْدارِها عند الله تعالى وأنَّها صِفَةُ الأنبياء. الثّانية: بَعْثٌ للكَفَرة على الرُّجوع عمّا هُم عليه بأبْلَغ وجْه وألطَفِه، فإنَّه عليه الصَّلاة والسَّلام أُمِر بها وهو مَعصومٌ مُنزَّهٌ عن شائبة اقتراف ما يُوجبها من الذَّنب، فتَوْبتهم وهم عاكفون على أنواع الكُفر والمعاصي ممّا لا بُدَّ منه أصْلًا، الثّالثة: بيان قيمة التَّوكُّل والاستسلام للخالق سُبحانه، الرّابعة: في الأمر بالتَّوكُّل إبرازٌ لقيمَة السَّعي والعمل للدَّعوة مع اتِّخاذ الأسباب لذلك.

سِرُّ الاكتفاء بـ ﴿مَتَابِ﴾ دون (متابكم):

رعاية الفاصِلة مع لُزوم (متابكم) لـ (متاب)

في الاكتفاء بقوله: ﴿مَتَابِ﴾ أسرارٌ لفظيَّة ودلاليَّة، أوَّلًا: عَدَمُ ذِكْرِ (متابكم) للمُحافظة على نهايات الآيات كما سَبَق في ﴿مَئَابِ﴾ وفيما يَأْتي في ﴿عِقَابِ﴾، ثانيًا: الكلام دالٌّ عليه التِزامًا، فإذا ذُكِر

(1) الرَّاغب، المُفردات: (توب).
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 13/142.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/21.

﴿مَتَابِ﴾ فإنَّ لازِمه (متابكم)[1]، ثالثًا: المَتاب عودة مع تَوبة، وتوبة الكُفّار المُجادِلين عن كُفرهم غير ظاهرة.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيّةُ:

الإرسال والبعث:

الإرسال فيه بعث بِتؤَدَة، وفي الفعل معاني اليُسر والسُّهولة والرِّفق[2]، أمّا (بعثَ) ففيها معنى الإثارة[3] والقوَّة، إضافة إلى أنَّ (انبعث) مُطاوِع (أرسل)[4]، فكأنَّ البعْث إحياءٌ نتيجة الإرسال العظيم الفخْم.

الإرسال بعثٌ بتُؤَدَة، والبعث فيه معنى الإثارة

الأمَّة والقوم:

القوم: الجماعة، فقوم كلِّ أحَدٍ رهْطُه الَّذين جماعَتهُم واحدة ويَتكلَّمون بِلُغة واحدة، وقوم كُلِّ رسول أُمَّتُه المَبعوث إليهم، إذ كان الرُّسل يُبعَثون إلى أقوامهم، وقوم محمَّدٍ ﷺ هُمُ العَرَب، وأمّا أُمَّتُه فهُم الأقوام المَبعوث إليهم وهُم النّاس كافَّةً.

القوم جماعة بينهم رابِطٌ من لُغةٍ أو جِنس والأُمَّة أعَمُّ

(خلَتْ) و(مضَتْ):

الفعل ﴿خَلَتْ﴾ فيه إشارة إلى بُعدٍ وانقراضٍ[5]، وهذا معنًى أصيل في ﴿خَلَتْ﴾، وهو غير موجود في (مضت)؛ لأنّ المُضي يدلُّ على النَّفاذ والمُرور، وفي ﴿خَلَتْ﴾ تحذير للكُفّار بأنَّ مَن لَم يُؤمن سيَموت مُتخلّيا عمّا كان فيه من الأُنْسِ بأهله وقُرنائه في دُنياه، وأصْله من قولهم: (خلا الرَّجُلُ)، إذا صار بالمكان الَّذي لا أنيس له فيه، وانفرَد من النَّاس. فاستعْملَ ذلك في الَّذي يموت، على ذلك الوجْه[6].

المُضي يدلُّ على النَّفاذ والمُرور، والخلوُّ فيه إشارة إلى البُعد والانقراض

(1) الشّهاب الخفاجي، عناية القاضي: 5/238.
(2) الرّاغب، المفردات: (رسل).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (رسل).
(4) ابن منظور، لسان العرب: (بعث).
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 4/96.
(6) ابن جرير، جامع البيان: 2/588.

التِّلاوة والقراءة:

القراءة جُزء من التِّلاوة، والتِّلاوة قراءة وزيادة

أصل التِّلاوة إتّباعُ الشّيءِ الشّيءَ، يُقال: تَلاه إذا تَبِعه، وتكون التِّلاوة في الكلمات يتّبعُ بعضها بعضًا؛ أمّا القراءة فأصلُها الجمْع، تقول: (قرأتُ الكتاب قراءةً)؛ أيْ: (جمعْتهُ) وضَمَمتُ بعضَهُ إلى بعض، والتِّلاوة في كتاب اللّه اختُصَّتْ بالتَّدبُّر والتَّفَكُّر لِما فيها، أمّا القراءة فتأتي لمُطلَق التَّلفُّظ[1].

وعلى ذلك فالقراءة جُزء من التِّلاوة الّتي هي قراءة وزيادة؛ فهي - أيِ التِّلاوة - تعني التَّتبُّع والموالاة والمُتابَعة مع تناسُقها في اللَّفظ والمعنى، ومنه تلاوة القرآن؛ لأنَّه يتّبعُ بعضهُ بعضًا[2]، فالتِّلاوة: جعْلُ الثّاني يَلي الأوَّل بلا فَصْلٍ[3]، وهذا معنًى ليس موجودًا في القراءة؛ لأنَّ القراءة ضَمُّ الحُروف والكلمات بعضها إلى بعض في التَّرتيل[4].

(1) الدُّوريّ، دقائق الفروق اللُّغويَّة، ص: 196.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (تلو).
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/338.
(4) الرّاغب، المفردات: (قرأ).

﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ ۗ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا ۗ أَفَلَمْ يَاْيْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۗ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٣١﴾﴾ [الرّعد: 31]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

ذِكْرُ تعظيم الوحي بعد ذِكْرِ عِلَّة إرسال الرَّسول ﷺ

لمّا ذَكَر اللّه تعالى في الآية السّابقة عِلَّة إرساله ﷺ بقوله تعالى: ﴿لِّتَتْلُوَاْ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾، ذَكَرَ في هذه الآية تَعظيم هذا الوحْي وأثَرَ هذه العظَمة القرآنيَّة في تَسْيير الجبال وتقطيع الأرض وتَكليم الموْتى، كما قال اللّه تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ﴾.

ومن المُناسبة أنَّه سُبحانه لمّا بَيّن لهُم في الآيات السّابقة عظيمَ ما أودعَ في السَّماواتِ والأرضِ وما بينهما من الآياتِ، وبَسَطَ ذلك وأوضَحَه، أردَفَ ذلك بآيةٍ أخرى جامعةٍ للآياتِ؛ فقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ﴾ فكان ما جاء قَبْلًا تمهيدًا للآية[1].

ومن المُناسَبة أيضًا في سياق السّورة ذاتها: أنَّ هذه الآيةَ ترتبط بما قبلَها ارتباطَ التَّفصيلِ والإجمالِ والتَّدليل على كذبهم وادّعائهم، فقد طَلَب الكفّارُ آيةً خارقةً تنزل على الرَّسول الكريم ﷺ تقودهم إلى الإيمان، لأنَّهم قلِقونَ، غيرُ مطمئنّين، وهذا واضحٌ من قولِه تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴿٢٧﴾﴾ [الرّعد: 27]، فتأتي الآيةُ مكذِّبةً لزَعمهم، مُفَصِّلةً، قائلةً: لو كان من شأن أيِّ قرآنٍ أن

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/267، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/139.

تسيَّرَ به الجبالُ أو تُقطَّع به الأرضُ، أو يُكلَّم به الموتى، لكان في هذا القرآنِ، لكنَّكم أهلُ لَجاجةٍ وكُفرٍ لن تؤمنوا بما جاء به الرَّسولُ ﷺ.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿سُيِّرَتْ﴾: السّين والياء والرّاء أصْلٌ يَدُلُّ على مُضي وجَرَيانٍ، والمعنى المِحوريُّ امتدادٌ طوليٌّ مُطَّردٌ مع دقَّةٍ ما، والانتقال من مكان إلى مكان وامتداد وانتشار من هذا إلى ذاك، ومن السَّيْر: الذَّهاب: ﴿قُلْ سِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [الأنعام: 11]، والتَّسْيير ضرْبان: أحدُهما بالأمْر والاختيار والإرادة من السّائر، نحْو: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ﴾ [يونس: 22]، والثّاني بالقَهْر والتَّسخير، كتَسخير الجبال[1]، قال تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ۝٣﴾ [التَّكوير: 3]، ومعنى التّسْيير في الآية النَّقْلُ عن أماكنِها[2].

2) ﴿ٱلْجِبَالُ﴾: الجَبَل وتِدٌ مِنْ أوْتاد الأرض إذا عَظُم وطالَ مِنَ الأعْلام والأطْواد، جَمْعُهُ: أجْبال وجِبال وأجْبُلٌ، وقال ﷻ: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ۝٦ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ۝٧﴾ [النَّبأ: 6-7]، واستُعيرَ منه واشتُقَّ بِحَسَبه، فقيل: فلانٌ جبَلٌ لا يَتَزحْزح؛ تَصوُّرًا لمَعنى الثَّبات فيه، والمَقصودُ بالجِبال هُنا جِبالُ مكَّة، والشّام[3].

3) ﴿قُطِّعَتْ﴾: القَطْعُ: فَصْل الشَّيء مُدْرَكًا بالبَصَر كالأجْسام، أو مُدْرَكًا بالبَصيرَةِ كالأشياء المَعقولة، يُقال: قَطَعْتُ الشَّيْءَ قَطْعًا، وقَطَعْتُ النَّهر قُطوعًا: عَبَرْتُه، وقَطَعَ ماءُ الرَّكيَّة قُطوعًا وقِطاعًا؛ أيْ: انْقَطَعَ وذهَبَ، والقافُ والطّاءُ والعيْنُ أصلٌ صَحيحٌ واحدٌ، يدُلُّ عَلى صَرْم وإبانةِ شَيءٍ مِنْ شيْءٍ، يُقالُ: قَطعْتُ الشَّيْءَ، أقْطعُه قَطعًا، والمعنى هُنا شُقِّقَتْ فجُعِلَتْ أنهارًا وعيونًا، ويُراد بـ ﴿قُطِّعَتْ﴾ أيضًا تَبْعيد القَريب أو تَقْريب البَعيد[4].

4) ﴿يَأْئَسِ﴾: اليَأْسُ: القُنوطُ، وقَطْعُ الأمَلِ، وقيلَ: اليَأْس نَقيضُ الرَّجاءِ، واليأْس: انتِفاءُ الطَّمَع، وقد يَئِسَ من الشّيْءِ يَيْأس، وفيه لُغة أخرى: يَئِسَ يَيْئَسُ، بالكَسْرِ فيهما، عَلى يَفْعَلُ ويَفْعِلُ، واليَأْس: العِلْمُ، وقوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَأْيَئَسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾؛ أيْ: أفَلَم يَعْلموا[5].

(1) الرّاغب، المفردات: (سار).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (سير).
(3) ابن جرير، جامع البيان: 13/531.
(4) الفيروزابادي، بصائر ذوي التّمييز، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (قطع).
(5) الجوهريّ، الصّحاح، والرّاغب، المفردات: (يئس).

5) ﴿يَزَالُ﴾: زال، ويُقالُ: زالَ الشَّيْءُ: إذا تُرِك عَن مَكانِه ولَم يَبْرَحْه؛ ويُقالُ: ما زالَ يَفعل كَذا وكَذا، ولا يَزال يَفعَل كَذا، كَقوْلِك: ما بَرِح، وما فَتِئَ، وما انْفَكَّ، ومُضارِعُه: لا يزال، ولا يُتكلَّم بِهِ إلّا بحرْفِ نَفيٍ، قالَ ابْن كيْسان: "لَيس يُراد بـ (ما زالَ) و(لا يَزالُ) الْفِعْل من (زالَ يَزولُ) إذا انْصَرف من حالٍ إلى حالٍ، وزالَ من مَكانِه، ولَكِن يُراد بهما مُلازَمَةُ الشَّيْءِ، والحالُ الدّائمَة"[1].

وقولهم: ما زالَ، ولا يَزالُ خُصَّ بالعبارة وأُجْرِيَ مجرى (كان) في رَفْع الاسم ونَصْبِ الخَبَر، وأصْلُه من الياء (زَيَّلت) ومعناه: معنى ما بَرِحت[2].

6) ﴿تُصِيبُهُم﴾: أصابَ يَصوبُ صَوْبًا؛ إذا نَزَلَ، وأصابَ: نالَ، والإصابة: الْموافَقَة، وأصْل ذلِك من قَوْلهم: صابَ السَّهْم، وأصاب جاء في الخَير والشَّرِّ، والإصابة في الخيْر اعتبارًا بالصَّوْب؛ أيْ: بالمَطَرِ، وفي الشَّرِّ اعتبارًا بإصابة السَّهْم[3].

7) ﴿صَنَعُواْ﴾: الصُّنْعُ: إجادةُ الفعل وحِذقُه، فكلّ صُنْعٍ فِعْلٌ، وليس كلُّ فِعل صُنْعًا، ولا يُنْسَب إلى الحيوانات والجمادات كما يُنْسَب إليها الفِعْل، قال تعالى: ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [النّمل: 88]، وقال: ﴿وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ﴾ [هود: 38]، وقال: ﴿وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ﴾ [هود: 37][4].

8) ﴿قَارِعَةٌ﴾: (قرع)، مُعْظَم البابِ: ضَرْبُ الشَّيءِ، يُقال: قَرَعْتُ الشَّيءَ أَقْرَعُهُ: ضَرَبْتَهُ، والقارِعة: الشَّديدة من شدائدِ الدَّهْر، وسُمِّيَت بذلك؛ لأنَّها تَقْرَع النَّاس؛ أيْ: تَضْرِبهم بشِدَّتها، والقارِعة: القيامة، لأنَّها تَضْرِب وتُصيب النَّاس بإقراعها[5].

9) ﴿تَحُلُّ﴾: "حَلَّ بالمكان وحَلَّه (يَحلُّهُ) بِضَمِّ الحاء وكَسْرِها حُلولًا: نَزَلَ"، فهو من حَلّ المُسافِر عُقَدَ أحْمالِه ليَنزِل بالمكان، ثُمّ جُرِّد استعمالُه للنّزول وهو نَقيض الارتِحالِ، والحَلُّ: الحُلولُ والنُّزول[6].

10) ﴿دَارِهِمْ﴾: الدّارُ: المَحَلّ الَّذي يَجمَع البناءَ والسّاحة، والمنزلُ المَسكون الَّذي يُحيط

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (زيل).
(2) الرّاغب، المفردات في غريب القرآن: (زال).
(3) الرّاغب، المفردات في غريب القرآن: (صوب).
(4) الرّاغب، المفردات، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (صنع).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (قرع).
(6) ابن منظور، لسان العرب، والرّاغب المفردات: (حلل).

بساكِنيهِ، وكلُّ مَوْضعٍ حَلَّ به قوم فهو دارُهم، وكلّ موضعِ حُلولٍ له حَرَم يُحيط به وإن لَم يَكُن جِدارًا، قالَ تعالى: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ﴾ [القصص: 81]، وقال: ﴿فَجَاسُواْ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِۚ﴾ [الإسرَاء: 5]، وكلُّ ما جاء في القرآن بلَفْظ (دار) أو (ديار) مُضافًا فهو من دورِ هذه الدُّنيا[1].

11) ﴿لَا يُخْلِفُ﴾: الإخلافُ أن لا يَفيَ بالعَهْد، وأن يَعِدَ الرَّجلُ الرَّجلَ العِدّة فلا يُنجِزها، ورجل مُخلِفٌ؛ أي: كثير الإخلاف لوَعْدِه، والإخلاف: أن يَطلبَ الرَّجل الحاجَة أو الماءَ فلا يَجِد ما طَلَب، ويُقال: للَّذي لا يَكاد يَفي إذا وَعَد: إنَّه لمِخْلافٌ[2].

12) ﴿ٱلْمِيعَادَ﴾: أصْله من الوَعْد، والميعاد لا يكون إلّا وَقتًا أو مَوْضِعًا، والوَعْد مصْدَر حقيقيٌّ، والعِدَةُ: اسمٌ يوضَعُ مَوْضع المَصْدر، وكذلك المَوْعِدة، قال الله ﷻ: ﴿إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ﴾ [التَّوبة: 114][3].

المَعْنى الإجْماليّ:

بيان عظمة القرآن وبعض مَظاهر إعجازِه

بيَّن الله تعالى في هذه الآية عظَمة القرآن بَعدما بيَّن ما صرَّفه للنّاس من حُجَج وبراهين، بأنَّه لو كان ثَمَّ كتابٌ من الكُتب السَّماويَّة تُزال به الجبالُ عن أماكنها، أو تُشقّق به الأرض فتَسْتحيل أنهارًا وعيونًا، أو يُقرأ على الموتى فيَصيروا من الأحياء؛ لكان في هذا القرآن من الخصائص والمُؤَثِّرات، ما تَتمُّ معه هذه الخوارقُ والمعجزاتُ، ثُمّ أبانَ القرآن أنَّ الله تعالى قادرٌ على الإتيان بما اقتَرَحوه، لكنَّه لَم يُرِدْ ذلك، ثُمَّ أتْبَع ذلك بالتَّيْئيس، فكان على المؤمنين أن يَعلَموا أنَّ هؤلاء لن يؤمنوا لاستكبارهم وعُتوِّهم، ومشيئة الله هي النّافِذة في إيمان مَن يُؤمن وكُفر مَن يَكفر، ثُمَّ كان التَّهديد بالابتلاءات والقَوارِع الَّتي تُصيبهم، أو تَنزِلُ قريبة منهم،

(1) الفيروزابادي، بصائر ذوي التّمييز، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (دور).
(2) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (خلف).
(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (وعد).

وبعد الابتلاءات والقوارِع، كانت التَّسليَة لرَسول الله ﷺ بأنَّ النَّصر آتٍ لا مَحالة بفَتْح مكَّة وعذابِهم وغير ذلك من أنواع النَّصر، فهذا موعود الله تعالى ولا مِريَة فيه، والله ﷻ لا يَترُك إنجازَ ما وعَدَ عندما يَحين وقتُه[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيّ:

دلالة الواو في قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا﴾:

بيان أنَّ رسالته ﷺ ليست بِدَعًا من رِسالات الرُّسل عليهم السلام

جاءت الواو هُنا لرَبْط أوْصال قِصَّة تحدّي الكفّار للرَّسول ﷺ؛ لأنَّ الواو لمُطلَق الجمْع[2] في القصَّة، والعطْف بالواو جاء على قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَٰكَ فِىٓ أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ لِّتَتْلُوَاْ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ ۚ قُلْ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾؛ لأنّ المقصود من الجُملة المعطوف عليها أنَّ رسالته لَم تَكُن إلّا مثل رسالة غيره من الرُّسل عليهم السَّلام.

سِرُّ التَّعبير بـ ﴿وَلَوْ﴾ دون غيرها:

بيان أنَّ القرآن كتاب هداية ورَشاد

الحرف (لو) في عُرف النُّحاة حرْف يُفيد امْتِناع الجواب لامتِناع الشَّرْط، وقد آثَرَ القرآن تَوْظيف ﴿وَلَوْ﴾ لبيان أنَّه كتاب هداية ورشاد لا كتاب مُعْجزات حسّية؛ أيْ إنَّ أيّ كتابٍ لو اشتمَل على المُعجزات الحِسّية من تَسْيير الجبال وغيرها، لَكان القرآنُ الكتابَ الأجدرَ بهذه المُعجزات، لكن هذا لا يكون.

علاقة ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا﴾ بـ ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ﴾:

التَّفسير بَعد الإبهام ببيان مَطالِبهم المتَعدِّدة

تعلَّقت جملة ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا﴾ بقوله تعالى: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ [الرّعد: 27]، عن طريق التَّتْميم؛ فتكون جملة ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا﴾ تَتِمّة للجواب عن قولهم: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ [الرّعد: 27]،

(1) مكّيّ بن أبي طالب، الهداية إلى بلوغ النّهاية: 5/3739، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/145 وما بعدها.

(2) المراديّ، توضيح المقاصد: 1/132.

وتَظهر العَلاقة أيضًا من التَّعريف بعد الإبهام، ذلك أنَّ آية: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦٓ﴾ [الرّعد: 27] عامّة غيرُ مُحَدَّدة، فجاءت آية ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا﴾ لتُحَدِّدَ مَطالِبَهم المُتعدِّدة وتُعرِّفها فيكون أوْقَعَ في النَّفس، لِما اشتمل عليه من التَّفسير بعد الإبهام، والنَّفس لِمِثْله أشْوَق، ولِما فيه من الإجمال والتّفصيل، فيكون أبْلَغ دلالة وأوْكَد[1].

نُكتة التَّعبير بالقُرآن: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا﴾:

بيان عُلوِّ شأن القرآن ورِفعتِه وشُموله واتّساعِه

يكمن سِرُّ تسميَة هذا الكتاب قُرآنًا من بيْن كُتُبِ اللّه لكونه جامعًا لثَمرة كُتُبِه، بل لِجمْعه ثمرة جميع العُلوم، لذا كان التَّعبير عن الكُتُبِ السّابقة بالقرآن[2]، وبعبارة أخرى فهو يَضمُّ كمالاتِ غيره من الكُتُبِ[3]، وفي هذا بيانٌ لعُلوِّ شأن القرآن ورِفْعته وشُموله واتِّساعه بحيث ضَمَّ ما حَوَتْه الكتبُ السّابقة عليه من ثمرات العُلوم والمعارف.

دلالة التَّنكير وتَنوينه: ﴿قُرْءَانًا﴾:

بيان عظمة القرآن وكونه غاية في التَّذكير، ونهاية في الإنذار والتَّخويف

جاء لفظ ﴿قُرْءَانًا﴾ مُنكَّرًا للتَّعظيم، فتعظيم هذا المُوحَى وأنَّه لو كان ثَمَّ قُرآنًا تُسيَّر به الجبال عن مقارِّها، أو تُقطَّع به الأرض حتّى تَتزايَل قِطَعًا قطعًا، أو تُكلَّم به الموتى فتَسمَع وتُجيب، لكان هذا القرآن؛ لكونه غايةً في التَّذكير، ونهايةً في الإنذار والتَّخويف[4].

سِرُّ حذْف جواب ﴿وَلَوْ﴾:

إفادة العموم والشُّمول

الحذْف من شجاعة العربيَّة[5]، وحذْف جواب (لو) في القرآن شائع مُستفيض[6]، وحذْف الجواب أبلَغُ من ذِكْرِه، لأنَّ النَّفس تذهب كلَّ مَذْهب في القصْد من الجواب، فهو شيء لا يحيط به الوصْف،

(1) الخفاجيّ، عناية القاضي: 6/74.
(2) الرّاغب، المفردات: (قرأ).
(3) إسماعيل حقّي، روح البيان: 6/318.
(4) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/529، والنّسفيّ، مدارك التّنزيل وحقائق التّأويل: 2/155.
(5) ابن جنّي، الخصائص: 2/362.
(6) الثّعالبيّ، الجواهر الحسان: 2/353.

فلا يتصوّر مطلوبًا أو مكروهًا إلّا ويجوز أن يكون الأمرُ أعظمَ منه، وهو مَبنيٌّ على عِلْمِ المُخاطَب، وتخفيفٌ من ذِكر ما لا فائدة منه، ولو عُيِّن شيءٌ اقتُصر عليه لَخَفَّ أمرُه[1]، بمعنى أنَّ التَّعبيرَ يكون قاصرًا عن إدراك الحقيقة، وقد قَدَّره العُلماء بـ: (لكان هذا القرآن)، أو (ما آمنوا)، وحذْف جواب ﴿وَلَوْ﴾ في الآية الكريمة دالٌّ على أنَّ القرآن الكريم في غاية ما يكون من الصِّحَّة، فاكتفى بمعرفة السّامعين من مُرادِه[2].

سِرُّ تخصيص الأمور الثَّلاثة في الآية:

تعنُّت كفّار مكّة بطلَب هذه الخوارق

يظهر سِرُّ التَّخصيص في قوله ﷻ: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰۗ﴾ أنَّ هذه الأشياء الثَّلاثة من بين الخوارق المفروضة هي الَّتي سأل عنها الكفّار، ذلك أنَّ كفّار قريش، أبا جهل وابن أبي أُميَّة وغيرَهما جَلَسوا خلْف الكعبة، ثُمَّ أرسلوا إلى النَّبيِّ ﷺ، فقالوا: (لو وَسّعْت لنا جبال مكّة فسيّرْتها حتّى تتّسع أرضُنا فنحترثَها فإنَّها ضيّقة، أو: قرِّب إلينا الشَّام فإنّا نتَّجِر إليها، أو: أخرج قُصيًّا نكلّمه). ويؤيِّد هذه الرِّواية أنَّه تكرَّر فرْض تكليم الموتى بقوله في سورة الأنعام: ﴿۞وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [سورة الأنعام: 111][3]. فكان في ذِكْرِ هذه الأشياء إشارة إلى تهكُّمهم.

سِرُّ التَّعبير بـ ﴿سُيِّرَتْ﴾ دون غيره:

بيان حركة التّسيير والاستمرار فيها، وكونها موازية لحركة الجبال يوم القيامة

التَّعبير بالفعل ﴿سُيِّرَتْ﴾ دون (زُحزحت) أو (حُرِّكت) في قوله: ﴿سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ﴾ له كبيرُ دلالةٍ؛ لأنَّ أصل الفعل (السّين والياء والرّاء)، وهي أصول تَدُلُّ على مُضِيٍّ وجَرَيانٍ، يُقال: سارَ

(1) القزوينيّ، الإيضاح في علوم البلاغة: 3/188.
(2) ابن عادل الدّمشقيّ، اللّباب في علوم الكتاب: 11/203.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/143.

يَسيرُ سَيْرًا، وذلك يكون ليلًا ونهارًا[1]، فالفعل ﴿سُيِّرَتْ﴾ فيه مُضِيٌّ وجريانٌ واستمرارٌ.

وثَمَّ سِرٌّ آخَرُ يتعلَّق بأحداث يوم القيامة، وتخصيص الفعل ﴿سُيِّرَتْ﴾؛ فالجبال ستُسَيَّر يوم القيامة لتكون سرابًا، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ۝٢٠﴾ [النَّبأ: 20]، فإذا كان ذلك كائنًا يوم القيامة؛ فالقُرآن قادرٌ على أن يُحدِثَ ذلك في الدُّنيا لو كان كتابَ معجزاتٍ حِسّية لكن لن يكون؛ لأنّه كتاب هُدًى ونورٍ، وهذه المعاني لا تتأتَّى من (زُحزحت) أو (حُرِّكت)؛ لأنَّ أوْصاف الجبال في يوم القيامة لا تتأتَّى إلّا من التَّسْيير.

دلالة التَّعبير بالمبنيِّ للمَفعول: ﴿سُيِّرَتْ﴾:

في البناء للمَفعول تركيز للاهتمام بالحدث، بصرْف النَّظر عن مُحدِثِه[2]، وفي هذا إشارة إلى تركيزهم على حاجتهم في إحداث مَطلوبهم: (تَسْيير الجبال)، دون النَّظر إلى المُحدِث، وفيه إيجازٌ، وتمهيدٌ للمَطلوبات التّالية.

التَّركيز على الحدَث (تَسْيير الجبال)، بصرْف النَّظر عن مُحدِثه

دلالة التّعبير بحرف الجرِّ في ﴿بِهِ﴾:

دلَّ التَّعبير بـ (الباء) دون الظَّرْف (مع) في قوله تعالى: ﴿سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ﴾ على قوَّة التّسيير والمُضيِّ؛ لأنَّ الباء للسَّببيَّة، فدلَّت الباء على قوَّة القرآن، ومُحاولة الكُفّار تَعجيز الرَّسول ﷺ، و(مع) لا تُفيد هذا المعنى، قُصاراها الدَّلالة على المَعيَّة، فإذا سُيِّرت الجبالُ معه فلا تأثير له فيها، ومن ثَمَّ كانت (الباء) هُنا هي الأكثر مُناسَبةً للإعجاز.

الإشارة إلى قوَّة التَّسيير والمُضيِّ

دلالة تقديم ﴿بِهِ﴾ على ﴿ٱلْجِبَالُ﴾:

التّقديم هُنا للاهتمام[3] بذِكْرِ المُقَدَّم ﴿قُرْءَانًا﴾، والتَّركيز على

الاهتمام بذِكْر المُقَدَّم (قرآنًا)، والتَّركيز على عمَله

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سير).
(2) عائشة عبد الرّحمن، التَّفسير البيانيّ للقرآن الكريم: 1/81.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/363.

عمله؛ وهو تَسيير الجبال؛ لأنَّ المعنى في حرْف الجَرِّ هو السَّببيَّة، والسَّببيَّة فيها الْتِصاق كبيرٌ بالحدَث فكان معنى الحرْف وتقدُّمه عاملَيْن مُهمّيْن في الاهتمام والاختصاص.

سِرُّ التَّعبير بالجمْع ﴿ٱلۡجِبَالُ﴾:

الدَّلالة على الكثرة والتَّعدُّد وبيان أنَّ الجمْع هو الأوفَق بمُرادات النّصِّ والتَّركيب

سرّ التّعبير بالجمْع ﴿ٱلۡجِبَالُ﴾ دون المفرَد له ثلاث فوائد، الأولى: الجمْع دالٌّ على الكثرة والتَّعدُّد، الثّانية: المُفرَد هُنا (الجبَل) لو قيل به لَدلَّ على عهْد ذهنيٍّ بجبَل بعَيْنه، والقرآن لا يَقصد جبلًا بعيْنه؛ وإنَّما يقصد أيَّ جبل، الثّالثة: التّناسُب الحاصل بين الجمْع ﴿ٱلۡجِبَالُ﴾ والتَّشديد في الفعل ﴿سُيِّرَتۡ﴾، فالتَّشديد دالٌّ على التَّكثير، والتّكثير يُقابل الجمع ﴿ٱلۡجِبَالُ﴾؛ فكان الجمْع هو الأوْفق هنا بمُرادات النّصِّ والتَّركيب.

دلالة ترتيب الأمور الثَّلاثة في الآية:

الأسبقيَّة في الزَّمن سِرُّ ترتيب هذه الأشياء الثَّلاثة الواردة في الآية

يَتعلَّق سِرُّ التَّرتيب في قوله تعالى: ﴿سُيِّرَتۡ بِهِ ٱلۡجِبَالُ أَوۡ قُطِّعَتۡ بِهِ ٱلۡأَرۡضُ أَوۡ كُلِّمَ بِهِ ٱلۡمَوۡتَىٰۗ﴾ بفوائد؛ الأولى: حكاية كلامِهم، فقد بَدَؤوا بتَسْيير الجبال، ثُمَّ تَقْطيع الأرض، ثُمَّ تَكْليم الموتى، فعَرَض القرآن مقالتهم كما هي من دون تغيير أو تبديل، الثّانية: يتعلَّق بالزَّمن والتّاريخ، فقد قال الكفّار فيما قيل من أسباب النُّزول: سَيِّر لنا الجبال كما سُيِّرَتْ لداود (عليه السلام)، واقطَع لنا الأرض كما قُطِّعت لسليمان (عليه السلام)، وكلِّم لنا الموتى، كما كان عيسى يُكلِّمهم، فنزلت هذه الآية[1]، فداود أسبَقُ من سليمان ومعه تَسيير الجبال، وبعده سليمان ومعه تقْطيع الأرض، وأخيرًا عيسى ومعجزتُه تكْليم الموتى، فكان التَّرتيب الزَّمنيُّ عاملًا رئيسًا في ترتيب هذه الأشياء الثَّلاثة الواردة في الآية دون تقديم أحَدها على الآخَر، الثّالثة: تَسيير الجبال أقرَبُ وأعجَبُ لعِظَم جِرْمها وكونها جَمادًا لا يَقبل الاتِّصاف

(1) مكيّ بن أبي طالب، الهداية إلى بلوغ النّهاية: 5/3739.

بصِفَة الحيوان، والسَّيْر من صِفة الحيوان، ولَم يَقع ذلك فيها بوجْه، ثُمَّ يَليه تقطيع الأرض لكثرة وقوعه، ويَليه تكليم الموتى؛ لأنَّه قد وَقَع لعيسى عليه السلام وغيره[1].

وممّا يُذكر أيضًا في سِرِّ التَّرتيب أنَّ تَسْيير الجبال له أهمّية في حياتهم نظرًا لطبيعة مكَّة الجبليَّة؛ فَقُدِّم لأهمّيته، وأمّا تقطيع الأرض وتكليم الموتى فهو من باب تعنُّتِهم ولَجاجهم في الإعراض عن دعوة الرَّسول ﷺ.

دلالة ﴿أَوۡ﴾ في: ﴿أَوۡ قُطِّعَتۡ﴾:

تَنوُّع مَطالبهم بين مُشاهَد وغائب

جاء التَّعبير بـ ﴿أَوۡ﴾ لأنَّها تَدُلُّ على منْع الخُلوِّ لا لمَنْع الجمْع، ولها معانٍ عِدَّة منها: الدَّلالة على التَّفصيل والتَّقسيم والتَّفريق المُجرَّد[2]، فدلَّ هذا على كثرة مَطلوباتهم وتنوُّعِها بين مُشاهَدٍ (تسيير الجبال، وتَشْقيق الأرض) وغائبٍ (تكليم الموتى)، وتدلُّ ﴿أَوۡ﴾ على تأخُّرهم في السُّؤال لطَرْح مَطلوبات إعجازيَّة يَصعب تحقُّقها في الواقع المُشاهَد.

دلالة التَّعبير عن التَّشْقيق بـ ﴿قُطِّعَتۡ﴾:

إرادتهم رؤية التَّقطيع أمام أعْيُنهم

جاء الفعل المُتَعلِّق بالأرض ﴿قُطِّعَتۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَوۡ قُطِّعَتۡ﴾؛ لأنَّ التَّقطيع فصْل الشَّيْء عن الشَّيْء مُدْرَكًا بالأبصار أو مُدْرَكًا بالبصيرة[3]؛ فكأنَّهم يُريدون أن يَروا بأعيُنِهم عمليَّة التَّقطيع والتَّشقيق مع دلالة التَّشديد في الفعل ﴿قُطِّعَتۡ﴾ على كثرة التَّقطيع وتَتابُعه، بخِلاف التَّشقُّق فقد يكون ظاهرًا وقد يكون غير ظاهرٍ، وأيضًا لأنَّ التَّقطيع يَسبِقه التَّشقُّق؛ فَكُلُّ تقطيع يَشمَل التَّشقُّق لذا عُبِّرَ به.

معنى الباء في: ﴿أَوۡ قُطِّعَتۡ بِهِ ٱلۡأَرۡضُ﴾:

الباء هُنا دالَّة على معنى السَّببيَّة؛ والمعنى: قُطِّعت بسبَبِه الأرضُ،

(1) السّيوطيّ، معترك الأقران: 3/305.
(2) المراديّ، الجنى الدّاني، ص: 228، وابن هشام، أوضح المسالك: 3/341.
(3) الرّاغب، المفردات: (قطع).

بيان التِصاق التَّقطيع بالأرض وبيان سَبَبِهِ

وتَحتمل الإلصاق بمعنى أنَّ التَّقطيعَ مُلتَصِق تَمامًا بالأرض، مُختلِط بها، والإلصاق أو الإلزاق بتعبير سيبويْه[1] هو المعنى الرَّئيس للباء، فما اتّسع من هذا في الكلام فهذا أصله، وكِلا المَعنيَيْن مُراد في هذا السّياق، فالباء دالَّة على قوَّة العمل وشِدَّته.

دلالة تقديم ﴿بِهِ﴾ على ﴿ٱلۡأَرۡضُ﴾:

بيان التَّركيز على العمل والتَّناسُب بين ثلاثة المَطلوبات

التَّقديم هُنا للاهتمام بِذِكْرِ المُقدَّم وهو القرآن، والتَّركيز على عمله وهو تقطيع الأرض؛ لأنَّ المعنى في الجارِّ هو السَّببيَّة أو الإلصاق، إضافة إلى المُناسبة بين ثلاثة الأشياء: (تسْيير الجبال، وتقْطيع الأرض، وتكْليم الموتى) في تقديم الجارِّ والمجرور على نائب الفاعل دوْمًا (الجبال، الأرض، الموتى)، ثُمَّ في تقديم الجارِّ والمجرور إبهام، وكان الإفهام بَعْد الإبهام أوْقَعَ في النَّفس[2].

دلالة (أل) في ﴿ٱلۡأَرۡضُ﴾:

إفادة العَهْديَّة والجِنسيَّة

نوع (أل) في كلِمة ﴿ٱلۡأَرۡضُ﴾ عهْديَّة؛ فهُم يُريدون أرضَ مكَّة أو أرض الشّام[3] كما في أسباب النُّزول، وإذا جازَ أن تكون (أل) جنسيَّة، فأرضهم هي كلُّ الأرض، فلا أرض إلّا هي؛ كرامةً ومَهابة لها، وعادة القرآن أن يأْتيَ بالأرض مُفرَدةً دوْمًا في كلّ آياته؛ لأنَّ المُفرَد أخَفُ وزنًا ونُطْقًا من الجمْعيْن: (الأراضي) أو (الأراضين).

فائدة ذِكْرِ التّقطيع بعد التّسيير:

بيان قوَّة التَّأْثير والتَّأثُّر بين الأرض والجبال

هذا من قبيل عطْف العامِّ ﴿ٱلۡأَرۡضُ﴾ على الخاصِّ ﴿ٱلۡجِبَالُ﴾، وهو من المعاني الّتي أثبَتَها النُّحاة[4] للواو، وذلك لبيان أنَّ الأرض هي سبب وجود الجبال، فلولا الأرض ما كانت جبال، والجبال هي سبَبُ ثَبات الأرض، فالجبال كالأوْتاد بالنِّسبة للأرض كما قال تعالى:

(1) الكتاب، سيبويه: 4/217.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 6/183.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 16/447.
(4) ابن هشام، مغني اللّبيب، ص: 466.

﴿وَٱلۡجِبَالَ أَوۡتَادٗا ٧﴾ [النّبأ: 7]، فالعلاقة بينهما تأثير وتأثُّر، كلٌّ يفيد الآخَر، فإذا كان العامُّ ﴿ٱلۡأَرۡضُ﴾ سببًا لعمل ﴿ٱلۡجِبَالُ﴾، فالخاصُّ ﴿ٱلۡجِبَالُ﴾ أهمُّ جُزء من أجزاء الأرض؛ لأنَّ بالجبال الثَّباتَ والقوَّةَ.

دلالة اختيار ﴿أَوۡ﴾:

بيان كثرة المطلوبات وتعدُّد القائلين

تَدلُّ ﴿أَوۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَوۡ كُلِّمَ بِهِ ٱلۡمَوۡتَىٰۗ﴾ على التَّفصيل والتَّفريق[1]، فدلَّ هذا على كثرة مَطلوباتهم، وفي ﴿أَوۡ﴾ الدّالَّة على التَّفصيل معنًى سياقيٌّ وهو جواز تعدُّد القائلين في المسألة؛ فبعضهم قال بتَسيير الجبال، وبعضٌ آخَر قال بتشْقيق الأرض، وبعضٌ ثالثٌ قال بتَكْليم الموتى، فجمَعَ القرآن كُلَّ هذه الأقوال، ونظمَها في سِلك واحد بتَوظيف ﴿أَوۡ﴾ في السّياق، إضافة إلى التَّناسُق بين تَوظيف الحرْف ﴿أَوۡ﴾ مع سابِقِه بالعطْف بين تقطيع الأرض، وتسيير الجبال ﴿سُيِّرَتۡ بِهِ ٱلۡجِبَالُ أَوۡ قُطِّعَتۡ بِهِ ٱلۡأَرۡضُ﴾.

نُكتة التَّعبير بـ ﴿أَوۡ كُلِّمَ﴾ دون (أحيا):

التَّكليم فيه إحياء وزيادة

إيثار التَّعبير بقوله: ﴿أَوۡ كُلِّمَ﴾ دون (أحيا) يُشير إلى أنَّ التَّكليم إحياء وزيادة، فيُمكِن الإحياء من دون تكليم، وهذا يعني أنَّ التَّكليم فيه فضلُ قوَّة وقُدْرة على الإحياء، فيُستطاعُ الإحياءُ، ولا يُستطاع التَّكليم، فتضمَّن ﴿كُلِّمَ﴾ معنى الإحياء؛ لأنَّه لازِمُه، أمّا الإحياء فلا يتضمَّن الكلام، فعبَّر القرآن عن الموتى بالتَّكليم لا الإحياء.

سِرُّ بناء الفِعْلِ لِما لَم يُسمّ فاعلُه ﴿أَوۡ كُلِّمَ﴾:

الاهتمام بالحدث بِصَرْفِ النَّظر عن مُحدِثه

البناء للمفعول تركيز للاهتمام بالحدَث، بصرْف النَّظر عن مُحدِثه، وفي هذا إشارة إلى تركيزهم على إحداث مَطلوبهم: (تكليم الموتى)، دون النَّظر إلى المُحدِث، وفيه إيجاز، إضافة إلى مُناسَبة البناء للمَفعول مع المَطلوبيْن الأوَّلَيْن، فالمطلوب الأوَّل ﴿سُيِّرَتۡ﴾ ببناء

(1) خالد الأزهريّ، شرح التّصريح على التّوضيح: 2/173.

الفعل لِما لَم يُسمَّ فاعله، والمطلوب الثّاني: ﴿قُطِّعَتۡ﴾، فجاء المطلوب الثّالث مُناسِبًا للمطلوبَيْن السّابقيْن عليه.

دلالة تقديم ﴿بِهِ﴾ على ﴿ٱلۡمَوۡتَىٰۗ﴾:

التّناسُب بين المُتعاطِفات والاهتمام بالتَّكليم

تقديم الجارِّ والمجرور للاهتمام بعمليَّة التَّكليم، إضافة لِما في التَّقديم من مُناسَبة بين المطلوبات الثَّلاثة، فَكُلُّ جارٍّ ومجرور ﴿بِهِ﴾ جاء مُتقدِّمًا على نائب الفاعل، وهذا من التَّناسُب بين المُتعاطِفات، وفي التَّقديم تشويق لِما بَعده حتّى تَنتظره النَّفس بشَوق وشغَف كالشَّوق للمتأخِّر، فيتمكَّن عند وُروده عليها أفضَلَ تمكُّن.

وممّا يُذكر أيضًا أنَّه قُدِّم الجارُّ والمجرور لقصْد الإبهام ثُمَّ التَّفسير لزيادة التَّقرير[1].

فائدة إيثار التَّعبير بـ ﴿ٱلۡمَوۡتَىٰۗ﴾:

كون لفظة الموتى دالَّة على مَن مات حقيقةً بسَلبٍ للحياة ونَزْعٍ للرّوح

في إيثار التَّعبير بـ ﴿ٱلۡمَوۡتَىٰۗ﴾ في هذا السّياق ثلاثُ فوائد، الأولى: قُدْرة القرآن على تكليم كلِّ المَوْتى مَن قَرُبَ موتُه ومَن بَعُد إنْ فعل ذلك؛ فلفظة ﴿ٱلۡمَوۡتَىٰۗ﴾ فيها طول زمن الموت، وإغراق في الفناء، فلَم يبْق منها أثر[2]، ذلك أنَّ الكُفّار قالوا للنَّبيِّ ﷺ أحْيِ لنا آباءَنا وأجدادنا وفلانًا وفلانًا؛ فنزلَتِ الآية[3]، الثّانية: أنَّ (الموْتى) جَمْعُ كثرة، مُقارنَة بـ (الأموات) الَّذي يُعَدُّ جمعَ قِلَّةٍ بوزن (أفعال)[4]، فالقرآن يستطيع أن يُكَلِّم كُلَّ الموتى لا الأموات فقط، فالأموات بعض الموتى فكانت لفظة (الموتى) ضامَّةً للأموات وزيادة، الثّالثة: الموتى نصٌّ في مَن ماتوا حقيقةً، وقد وردَتْ سبْعَ عشرةَ مرَّة في القرآن بمعنى الموت الحقيقيِّ، أمّا الأموات فتُستخدم لِمَن ماتوا حقيقة،

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/22.
(2) الأمين الخضريّ، الإعجاز البيانيّ في صيغ الألفاظ، ص: 160.
(3) ابن عطيّة، المُحرّر الوجيز: 3/313.
(4) العُكبَريّ، اللُّباب في علل البناء والإعراب: 1/321.

وكذا للموت المَعنويِّ بكُفرهم[1]، فكان المُناسِب هُنا توظيف ﴿ٱلۡمَوۡتَىٰۗ﴾ لا (الأموات)؛ لأنّهم يريدون نصًّا مَن مات حقيقة.

وفي التّعبير بـ ﴿ٱلۡمَوۡتَىٰۗ﴾ مُبالَغة أكثر ممّا في (الأموات)؛ لأنَّ هذا الجمع (أموات) يأتي مُقابِلًا مع لفظ (أحياء)، قال تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَن يُقۡتَلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمۡوَٰتُۢۚ بَلۡ أَحۡيَآءٞ وَلَٰكِن لَّا تَشۡعُرُونَ ١٥٤﴾ [البقرة: 154]، والآيات في هذا المقام عديدة، أمّا ﴿ٱلۡمَوۡتَىٰۗ﴾ فلَم يَرِد في هذا التَّقابُل.

نكتة التَّذكير في: ﴿كُلِّمَ﴾ بعد ﴿سُيِّرَتۡ﴾ و﴿قُطِّعَتۡ﴾:

تغليب المُذكَّر على المؤنَّث

من قواعد النَّحو المقرَّرة أنَّ الفاعل إذا كان جمْع تَكسير، فإنَّه يجوز فيه إثبات التّاء وحذْفُها[2]، والوجْه هُنا في حذْف التَّاء من هذا الفعل مع إثباتها في الفعلَين قَبلَه على أنَّ الموتى يَشتمل على المُذَكَّر الحقيقيِّ والتَّغليب له؛ فكان حذْف التَّاء أحسَنَ[3].

وجْه ارتباط المقتَرحات الثَّلاثة بالقرآن:

محاولَة المُشركين المُستَميتة للتَّشكيك في القرآن الكريم

في قوله تعالى: ﴿سُيِّرَتۡ بِهِ ٱلۡجِبَالُ أَوۡ قُطِّعَتۡ بِهِ ٱلۡأَرۡضُ أَوۡ كُلِّمَ بِهِ ٱلۡمَوۡتَىٰۗ﴾ ارتبطَتْ هذه المطلوبات بالقرآن دون الرَّسول ﷺ للمحاولة المُستميتة للتَّشكيك في القرآن الكريم؛ لأنَّ الكُفّار يَعلمون عِلْمَ اليقين أنَّ القرآن معجزة الرَّسول الكُبرى فكأنَّهم يقولون: نحن لا نُصدِّقك ولا نُصدّق ما أتَيْت به، فالقرآن في زعمهم كان مبنيًّا على عدم اشتمالِه على الخوارق، فنيطَ ظهورُها به؛ مُبالَغةً في بيان اشتمالِه عليها، وأنَّه حقيقٌ بأن يكون مصْدرًا لكلِّ خارقٍ، وإبانةً لرَكاكة رأيهم في شأنه الرَّفيع، كأنَّه قيل لو أنَّ ظهورَ أمثالِ ما اقترحوه من مقتَضيات الحِكمة لكان مُظهرُها هذا القرآنَ الَّذي

(1) فاضل السَّامرّائيّ، معاني الأبنية في العربيّة، ص: 115.
(2) ابن هشام، أوضح المسالك: 2/100.
(3) العُكبَريّ، التّبيان في إعراب القرآن، ص: 759.

لَم يَعدّوه آية، وفيه من تفخيم شأنه العزيزِ ووَصْفهم بركاكة العقل ما لا يَخفى[1].

دلالة تكليم ﴿ٱلۡمَوۡتَىٰۗ﴾ في سورتي الأنعام والرّعد:

التّناسُب بين تركيب الآيتَيْن

إيثار التَّعبير بالمبنيِّ للمَفعول في قوله تعالى: ﴿أَوۡ كُلِّمَ بِهِ ٱلۡمَوۡتَىٰۗ﴾ مُناسب لِما قبْله ﴿سُيِّرَتۡ﴾ و﴿قُطِّعَتۡ﴾، كما أنَّ فيه تركيزًا على الحدث الحاصل وهو عمل التَّكليم، أمّا في سورة الأنعام؛ فالسّياق كُلُّه مبنيٌّ على الفعل المبنيِّ للمعلوم ﴿نَزَّلۡنَآ﴾ [الأنعام: 111]، ﴿وَكَلَّمَهُمُ﴾ [الأنعام: 111]، ﴿وَحَشَرۡنَا﴾ [الأنعام: 111]، يقول تعالى: ﴿۞وَلَوۡ أَنَّنَا نَزَّلۡنَآ إِلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَحَشَرۡنَا عَلَيۡهِمۡ كُلَّ شَيۡءٖ قُبُلٗا مَّا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُوٓاْ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ يَجۡهَلُونَ ١١١﴾ [الأنعام: 111]، ثُمَّ في آية الأنعام كان التَّركيز كذلك على مُحدِث الفعل بدلالة الضَّمائر الموجودة في الأفعال (نا) الفاعلينَ، والفاعل الظّاهر ﴿ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾ [الأنعام: 111] فناسَبَ كُلُّ فعل سياقَه، وسابِقَه ولاحِقَه.

علاقة ﴿بَل لِّلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ جَمِيعٗاۗ﴾ بما قَبلَها:

بيان أنَّ قُدرة الله لا يُعجزها شيء وأنَّ إظهار المعجزات تابِع لِعِلْمه وحِكْمته

يتعلَّق قوله سبحانه ﴿بَل لِّلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ جَمِيعٗاۗ﴾ بما قبْله بعلاقة الإضراب عن طريق (بل)، وهو إضراب عن مَطالبهم المُتَعنِّتة إلى بيان أنَّ الأمور كُلَّها بيَدِ الله، وأنَّ قُدْرَته سُبحانه لا يُعجِزها شيء، فلله القُدْرة على كُلِّ شيء، وهو قادر على الآيات الَّتي اقترحوها، إلّا أنَّ عِلْمَهُ بأنَّ إظهارها لا يَزيدهم إلّا طُغيانًا كَبيرًا يمنعه[2] لنُفورِهم عن الحقِّ وتَمَسُّكهم بباطلهم.

التَّعبير بـ ﴿بَل﴾ في: ﴿بَل لِّلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ جَمِيعٗاۗ﴾ دون غيره:

تَرْك الأمر بالكلّيّة لله تعالى

سرُّ التَّعبير بـ ﴿بَل﴾ إضراب على جهة الإبطال، والانتقال إلى موضوع آخَر وهو تَرْك الأمر بالكلّية لله تعالى، فهو تنبيه على انتهاء

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/22.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/530.

غرَض، واستئناف غيرِه[1]، وعدَمُ وجود (بل) هُنا يُفكِّك أوْصال التَّركيب ويَقطع الرّابط بين الكلام، فلا يكون التَّركيب صحيحًا إلّا بوجود حرْف الإضراب (بل).

المقارنة بين تعبيرين:

تعدُّد المَطالب وكثرتها حيث جاءت (جميعًا)

وذلك في قوله تعالى: ﴿بَل لِّلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ جَمِيعًاۗ﴾ وفي قوله: ﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡأَمۡرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِۗ﴾ [آل عمران: 154]، حيث آثر التَّعبير القرآنيِّ هنا الحالَ ﴿جَمِيعًاۗ﴾ لأنَّه حيث ذكرَ الجميع ذكرَ جهات متعدِّدة[2]، ومَطالِب شتَّى من تسيير الجبال وتقطيع الأرض وتكليم الموتى، أمّا مَوْضع سورة آل عمران ﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡأَمۡرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِۗ﴾ [آل عمران: 154]، فالأمر لا يَتخلله مَطالبُ شتَّى، وإنَّما قُصِدَ بالأمر النَّصْر على الأعداء وهزيمتُهم، ثُمَّ إنَّ التَّوكيد المعنويَّ ﴿كُلَّهُۥ﴾ [آل عمران: 154] يَقطع تفكير بعض المنافقين بأنَّ لهم بعضَ الأمر، فَسَدَّ الطَّريق على تفكيرهم بالتَّوكيد ﴿كُلَّهُۥ﴾ [آل عمران: 154].

دلالة تقديم لفظ ﴿لِلَّـهِ﴾ على ﴿ٱلۡأَمۡرُ﴾:

قَصْرُ الأمر على الله وحده لا شريك له فيه

تقدُّم الخبَر شِبْه الجُملة ﴿لِلَّهِ﴾ على المبتدأ ﴿ٱلۡأَمۡرُ﴾ إشارةٌ إلى الاختصاص والتَّملُّك، ورَمزٌ إلى التَّخصيص والحَصْر[3] بأنَّ الأمر للّه وحده لا شريك له فيه؛ فدلَّ التَّقديم على القُدْرة المُطلَقة، والعظَمة الحَقَّة، وفي الحصْر تعريضٌ[4] بالكُفّار وآلهتِهم الَّتي لا تَملِك شيئًا.

دلالة اختيار لفظ ﴿ٱلۡأَمۡرُ﴾ دون غيره:

بيان أنَّ الأشياء كلّها بأمر الله تعالى

لمّا كان الحدث عظيمًا، وفيه صراع بين الحَقِّ والباطل، وثَمَّ أخْذٌ ورَدٌّ بين طائفة المُشركين، والرَّسول ﷺ، وظَّفَ التَّعبير القرآنيُّ لفظة

(1) المراديّ، الجنى الدّاني في حروف المعاني، ص: 236.
(2) فاضل السّامرّائيّ، على طريق التّفسير البيانيّ: 3/17.
(3) النّورسيّ، إشارات الإعجاز في مظانّ الإيجاز، ص: 146.
(4) النّورسيّ، إشارات الإعجاز في مظانّ الإيجاز، ص: 67.

﴿ٱلۡأَمۡرُ﴾ الدّالَّةَ على عِظَم المَوقِف وقوَّته، إضافة إلى سَعَةِ معناها وتعدُّد مَشاربِها، فالأمر يَدُلُّ على وجوه: الأمر؛ أي: القضاء، كقوله: ﴿يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَۖ﴾ [يونس: 3]؛ ويعني: يَقضي القضاء، وكَقوله: ﴿أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُۗ﴾ [الأعراف: 54]؛ أيْ: القضاء، والأمر: الدّينُ، كقوله: ﴿وَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡۖ﴾ [الأنبياء: 93]، وأصْل هذا كلِّه واحدٌ، لأنَّ الأشياء كلَّها بأمر اللّه تعالى، فسُمّيت الأشياء أمورًا[1].

فائدة إفراد ﴿ٱلۡأَمۡرُ﴾ دون الجمع:

وحدة الشَّيء وعدَمُ تعدُّده مع القوّة والهَيمنة

لمُفرَدَة ﴿ٱلۡأَمۡرُ﴾ سِرٌّ مَكين، وفيها فائدتان: أولاهما: وحدة الشَّيء وعدَم تعدُّده[2]، فالمَوقف هُنا واحد؛ لذا يُناسِبه الإفراد دون الجمع، وسبب النُّزول شيء رئيسٌ في الفَهم والتَّفسير، والسَّببُ تحدّي الكفّار للرَّسول، فالمَوقف واحدٌ، أمّا الجمع (الأمور) فلا يُناسِب الموقف، ثانيتُهما: أنَّ الأمر هُنا جاء على الإفراد؛ إلْماحًا إلى قوَّة الهَيمنة والسَّيطرة من المُهيمِن؛ فصارت كُلُّ الأمور بسبب قُدْرته وعظَمته أمرًا واحدًا.

سِرُّ الاكتفاء بالأمر في: ﴿بَلۡ لِّلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ﴾:

مُراعاة السّياق في كُلٍّ من السّورتَيْنِ

آثَرَ التَّعبير القُرآنيُّ هُنا توظيف لفظة ﴿ٱلۡأَمۡرُ﴾ فقط دون (الخلْق)؛ لأنَّه لا خَلْق هُنا، فالآية مبنيَّة على أسلوب الشَّرْط ﴿وَلَوۡ﴾ الَّذي يعني الامتناع، أمّا قوله تعالى ﴿أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُۗ﴾ [الأعراف: 54] فزيادةُ لفظة ﴿ٱلۡخَلۡقُ﴾ [الأعراف: 54] تُناسِب السّياق حقَّ المُناسَبة، يقول تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ يُغۡشِي ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَ يَطۡلُبُهُۥ حَثِيثٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتِۭ بِأَمۡرِهِۦٓۗ أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٥٤﴾ [الأعراف: 54]، فالمُتبادر أنَّ الآية واضحَةُ المَعالِم في الخَلْق:

(1) السّمرقنديّ، بحر العلوم: 3/465.
(2) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 12/7340.

خَلْق السَّماوات والأرض، واللَّيل والنَّهار، والشَّمس والقمر والنُّجوم فناسَب كُلُّ تعبير مَوقِفه وسياقَهُ، فزادَ لفظة ﴿ٱلۡخَلۡقُ﴾ [الأعراف: 54] حينَ كان السّياق مَشحونًا بعمليَّة الخلْق، واكتفى بالأمر وحدَه في الرَّعد حيث لا خَلْق ولا إيجادَ.

دلالة التَّعبير بـ ﴿جَمِيعًا﴾:

مُراعاةً لتَعدُّد الجِهات والمَطالِب

آثَرَ التَّعبير القرآنيُّ الحالَ ﴿جَمِيعًا﴾ لأنَّه حيث ذكرَ الجميع ذكرَ جِهات متعدِّدة[1]، ومَطالِب شتَّى من تسيير الجبال وتقطيع الأرض وتكليم الموتى، وهذا لا يدلُّ عليه التَّوكيد المعنويُّ (كُلّه)، وفي الكلمة تأكيد لاستغراق كُلِّ أمرٍ[2]، ثُمَّ كان توظيف ﴿جَمِيعًا﴾ أيضًا دالًّا على تعدُّد الرِّسالات والمعجزات، فكلُّ أمرٍ تلك الرِّسالات إنَّما صَدَرَ عن الحَقِّ سُبحانه؛ وهو الَّذي اختار كُلَّ مُعجِزة لتُناسِبَ القوم الَّذين يَنزل فيهم الرَّسول[3].

بلاغة أسلوب الحَكيم في الجواب:

ضرورة الاهتمام بما هو أوْلى

في قوله: ﴿بَل لِّلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ جَمِيعًا﴾ توظيفٌ لأسلوب الحكيم، وفيه إشارة إلى أنَّ الإيمان بالله وما أنزل أوْلى من اللَّجاجة ومُحاولة العِناد من دون فائدة مَرجوَّة، فللّه أمر كلِّ مُحَدَثٍ، فهو الَّذي أنزل الكتاب، وهو الَّذي يخلُقُ العجائب إن شاء، وليس ذلك للنّبيِّ ﷺ ولا عند سؤالِكم، فأمرَ الله نبيَّه بأن يقول هذا الكلام؛ إجراءً لكلامهم على خِلاف مُرادِهم على طريقة أسلوب الحكيم، لأنَّهم ما أرادوا بما قالوه إلّا التَّهكُّم، فحمل كلامهُم على خِلاف مُرادهم؛ تَنبيهًا على أنَّ الأوْلَى بهم أن يَنظروا هل كان في الكُتُب السّابقة قرآن يَتأتَّى به مثل ما سألوه[4].

(1) فاضل السّامرّائيّ، على طريق التّفسير البيانيّ: 3/17.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/144.
(3) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 12/7340.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/144.

دلالة الاستفهام في: ﴿أَفَلَمْ﴾:

مِنَ الحالِ يُعْرَفُ المآلُ

جاء الاستفهام في الآية الكريمة حاملًا علامات الإنكار[1] لطَمَع المؤمنين في إيمان الكفّار، والمعنى: أفَلَم يَيْئَسِ الَّذين آمنوا من إيمان الكفّار من قريش، وذلك أنَّهم لمّا سألوا هذه الآيات طَمِعوا في إيمانهم، وطَلَبوا نزولَ هذه الآيات ليؤمِنَ الكفّارُ، وعَلِم الله أنَّهم لا يؤمنون، فقال: أفَلَم يَيْئَسوا من إيمانهم، ويُراد من الاستفهام التَّقريرُ، ويُراد به أخْذ اعتراف المؤمنين باليأس من إيمان هؤلاء المشركين، وقَطْع الرَّجاء في أنْ يكونوا يومًا من المؤمنين.

دلالة الفاء في قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ﴾:

شِدَّة تَعَلُّق آمال المؤمنين بإسلام هؤلاء الكفّار

الفاء الواقِعَةُ بعد الهمزة حرْف عطْف[2]، ومن ثَمَّ فالمعطوف يُقَدَّر على حسب السّياق، وتقديره هُنا "أغَفَلوا عن كون الأمر جميعًا لله تعالى فَلَم يَعلموا؟"[3]، والفاء دالَّة على شِدَّة تعلُّق آمال المؤمنين بإسلام هؤلاء الكُفّار وسُرعة ذلك بعد تحقيق مَطالِبهم على الرَّغم من عِلْم المؤمنين بعِناد الكفّار ولَجاجتِهم.

سرُّ التَّعبير بـ (لَم) دون (لا) في: ﴿أَفَلَمْ﴾:

زَجْر المؤمنين لعدَمِ يأسهم من إيمان الكفّار

آثَرَ القرآن الكريم تَوظيف (لَم) لأنَّها أداةُ جَزْم وقلْبٍ، تَقلِب زمن المُضارع إلى الماضي[4]، وكأنَّ التَّعبير: أما يَئِسْتُم منهم؟ فهُناك شواهِدُ تَدعوكم إلى اليأس من إيمانهم. أمّا التَّعبير بـ (لا) فلا يَمنح التَّركيب القرآنيَّ هذا المعنى وهذا الزَّمن، وكان المؤمنون يَودّون أن يؤمنَ صناديدُ قريش كي يَخِفَّ الجهْد عن

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/22.

(2) وفيه أقوال أخرى كأن تكون الفاء استئنافيّة، أو زائدة، والزّيادة لا تكون في القرآن البتّة، أو هي الفصيحة الَّتي أفصحتْ عن شرط مقدَّر، وابن جرير، جامع البيان: 2/399، ومحمد أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 8/3951.

(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/22.

(4) الأشمونيّ، شرح الأشمونيّ على ابن مالك: 1/317.

الفِئة المُسلِمة؛ فلا يضطهدوهم، ولا يضايقوهم في أرزاقهم ولا في عيالهم[1].

بلاغة المَجاز في إطلاق لفظ اليأْس:

بيان رغبة المؤمنين في إسلام الكفّار مع اليأْس منهم

إيثار ﴿أَفَلَمْ يَأْيَـٔسِ﴾ هُنا آتٍ من حُسْنِ المُلازَمة في إطلاق لفظ اليأس، والمُراد به العِلم، مع الاستفهام والنَّفي لرَغبة المؤمنين في إسلام هؤلاء مع بُلوغهم العِلم في كون هؤلاء مَيْئوسًا من إيمانهم، والمُلازَمة توجِب حُسن المَجاز، فلهذا السّبب حسُن إطلاقُ لفظ اليأس لإرادة العِلْم بطَريق المَجاز المُرسَل بعلاقة اللُّزوم[2].

نُكتة اصطفاء ﴿يَأْيَـٔسِ﴾ دون (يَقنط):

اليأس أمرٌ قلبيٌّ والقنوط ظُهور آثارِه على ظاهر البدَن

آثَرَ التَّعبير القرآنيُّ الفعل ﴿يَأْيَـٔسِ﴾ دون (يَقنط) على الرَّغم من تقارُب المعنى بينهما، وذلك لفائدتَيْن، أمّا الأولى فهي التَّوسُّع في المعنى، ذلك أنَّ ﴿يَأْيَـٔسِ﴾ تَحتمل العِلم[3]، وتَحتمل قطْع الرَّجاء، أمّا (يَقنط) فلا تَحتمل إلّا معنًى واحدًا، وهو قَطْعُ الرَّجاء، أمّا الفائدة الثّانية فهُناك فرْق بين اليأس والقُنوط، فاليَأْس مَنبَعُه القلب، والقُنوط ظُهور آثارِه على ظاهر البدَن[4]، وهؤلاء مؤمنون لا يَليق بهم القُنوط؛ فلا يَقنط إلّا الضّالّون.

سرّ التّعبير بالمضارِع ﴿يَأْيَـٔسِ﴾:

الإيذان باستمرار الأمل عند المؤمنين في إيمان الكفّار

عبَّر النَّظْم الكريمُ بالفعل المُضارع للإيذان باستمرار الأمل في إيمان الكفّار، فالأمر ظَلَّ مُلازِمًا للمؤمنين بإسلام الكفّار؛ حتّى يَعيش الجميع في إسلام وسلام، فكان التَّفكير في الأمر مرَّة تِلْوَ مرَّة، لا يتوقَّف ولا يَتزحزح، فالفعل المُضارع فعل مُخَضَّبٌ بأمل

(1) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 12/7441.

(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 19/42.

(3) جاء في البرهان للزّركشيّ: 1/109: "وَكُلُّ شَيْءٍ فِي القُرْآنِ مِنْ يَأْسٍ فَهُوَ القُنُوطُ إلَّا الَّتي في الرَّعْدِ: ﴿أَفَلَمْ يَأْيَـٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾، أَيْ: أَلَم يَعْلَمُوا". وربما يكون الفعل ﴿يَأْيَـٔسِ﴾ من الأضداد، لأنّه أفاد العِلم وأفاد عدَم العِلم أيضًا بانقِطاع الرّجاء.

(4) الدّرويش، إعراب القرآن وبيانه: 6/9.

الإيمان ورجائِه، وفي هذا دليلٌ على سماحة المؤمنين وحِرْصهم على إيمان هؤلاء الكفّار.

دلالة التَّعبير بـ ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ دون (المؤمنون):

ثَبات ذلك الإيمان في نُفوسهم، وظُهوره في سُلوكهم وطَبائعهم

إيثار القرآن للاسم الموصول أو الاسم النّاقص ﴿ٱلَّذِينَ﴾ مع صِلَته - والصِّلَة هي المُبَيِّنة والمُكمِّلة - فيه إيماءَة إلى ثَبات ذلك الإيمان في نفوسهم، وظُهوره في سُلوكهم وطبائعهم، فالجُملة المَوصوليَّة أفادَتِ المَدْح والتَّقريظَ، إضافة إلى ذلك، فالاسم الموصول مع الفعل الماضي دلَّ على زمان ماضٍ مُحدَّد، عكْس اسمِ الفاعل الَّذي لا يدلُّ على زمان محدَّد، "وفي لفظ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ - بناءً على أنَّه موصول، ومن شأْنِ الموصول أن يكون معهودًا نُصْبَ العَيْن للسّامع - إشارةٌ إلى عُلوِّ شأنهم وتَلأْلُؤهم في ظُلُمات البشَر، كأنَّهم مَعهودون نُصْب العيْن لكلِّ سامِع وإن لَم يَتحرَّ ولَم يَطْلب"[1].

دلالة ﴿أَن﴾ المخفَّفة:

التَّأكيد على جَواز أن يكون (يَيأس) بمعنى يَعلم

دلالة ﴿أَن﴾ المُخفَّفة في قوله: ﴿أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ﴾ التَّحقيق والتَّأكيدُ، فيجِب أن تُسبَق بعِلم[2]، ووَجَب أن يكون الفعل الَّذي تُبنى عليه مُطابِقًا لها في المعنى، بأن يكون من أفعال العِلم واليقين ونحْوهما، وهذا يُقوّي معنى العِلم في الفعل ﴿يَأْيَـٔسِ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَأْيَـٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًاۗ﴾ فإنَّ ﴿أَن﴾ هُنا سُبِقت بما يدلُّ على العِلم وهو ﴿يَأْيَـٔسِ﴾؛ أيْ: مِن إيمان جميع الخَلْقِ ويَعلموا أو يَتبيَّنوا ﴿أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًاۗ﴾[3].

(1) النّورسيّ، إشارات الإعجاز في مظانّ الإيجاز، ص: 34.

(2) الحازميّ، فتح ربّ البريّة في شرح نظم الآجرّوميّة، ص: 263.

(3) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/461، جاء في المفردات للرّاغب: "ومتى قويَ (الظّن) أو تُصوِّر تَصوُّرَ القويِّ استُعمل معه (أنّ) المشدّدة، و(أن) المخفّفة منها"، ص: 539.

دلالة ﴿لَّوْ﴾:

الحكمة العظيمة في كُلِّ ما يَتعلَّق بأمور الهداية والضَّلالة

لهذا الحرْف دلالةُ القُدْرة المُطلَقة، والحِكمة العظيمة في كلِّ ما يتعلَّق بأمور الهداية والضَّلالة؛ لأنَّ الحرْف يدلُّ (على امتناع تالٍ يَلزَم لثُبوته ثبوتُ تاليهِ)[1]؛ ويؤدي في قوله تعالى: ﴿أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ﴾ معنى: (لو شاء الله هداية كلِّ النّاس لَهداهم، لكنَّه جعل ذلك وفْقَ حُكمِه وحِكْمته)، وكذا فـ"التَّصريح بلفظة ﴿ٱللَّهُ﴾ إشارة الى دَعوة الأذهان إلى رؤية يَدِ القُدْرة خَلْف كلِّ الأسباب"[2].

سرُّ التَّعبير بالمَشيئة دون الإرادة:

قوَّة الدَّلالة على أنَّ كُفرهم كان باختيارهم

آثَرَ التَّعبير القرآنيُّ لفظة ﴿يَشَآءُ﴾؛ لأنَّ المَشيئة لا تكون إلّا مع اختيار؛ لذا لا يُقال إلّا للعالِم أو المُتفكِّر، أمّا الإرادة فتَختصُّ بالعُقلاء وغيرهم؛ فتُستَعمل في الجمادات، قال تعالى: ﴿جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ﴾ [الكهف: 77][3] والجملة قويَّة الدَّلالة على أنَّ كُفرهم كان باختيارهم[4].

دلالة إسناد المَشيئة إلى ﴿ٱللَّهُ﴾:

تربية المَهابة في النُّفوس وإدخال العظَمة في القلوب

آثَرَ القرآنُ لفظةَ ﴿ٱللَّهُ﴾ الاسم الأعظَمَ؛ لتربية المَهابة في النُّفوس، وإدخال التَّعظيم في القلوب؛ فاللَّفظ أدْعى للقوَّة والجَبَروت، إضافة إلى أنَّ اسم الجلالة يدلُّ على القُدْرة التّامَّة الشّاملة الَّتي هي لازِمة للأُلوهيَّة[5] ولا يُؤدّي لفظ (الرَّبّ) هذا المعنى؛ لأنَّ فيه معنى التَّربية والحُنوِّ والشَّفقة المُستفادة من (الرَّبِّ) والمَوقف هُنا يَستدعي الصَّرامة في مواجهة هؤلاء الكفّار الَّذين يَلْتذّون بالكُفر، ويَستشْرِفون آفاقَ الطُّغيان واللَّجاجة، فكان الاسم الأعظم هو الأنسَبَ للسّياق، إضافةً لذلك فكلمة (الرَّبّ)

(1) المراديّ، توضيح المقاصد والمسالك: 3/1297.
(2) النّورسيّ، إشارات الإعجاز في مظانّ الإيجاز، ص: 145.
(3) الرّاغب، تفسير الرّاغب، ص: 152.
(4) الدّرويش، إعراب القرآن وبيانه: 5/543.
(5) النّورسيّ، إشارات الإعجاز، ص: 145.

لَم تَرِد في القرآن مُعرَّفة بالألف واللّام ألبتة، وإنَّما جاءت معرَّفة بالإضافة فحسب[1].

دلالة اللّام في قوله: ﴿لَهَدَى﴾:

الـقُـدْرة المُطْلَقة عـلى الـهـدايـة والرّشاد

وقوع اللّام في جواب ﴿لَّوْ﴾ يُقوّي الجُملة ويُؤكِّدها ويُزيل أدْنى شَكٍّ في نفْس المُتلقّي، فاللّام هُنا دالَّةٌ على القُدْرة المُطلَقة على الهداية والرَّشاد، فهو وحدَه المُتحكِّم في الأمر، يَحكم ما يُريد بعِزَّته وقُدْرته، عِلْمًا بأن جواب ﴿لَّوْ﴾ يجوز أن يَقترن باللّام، وهو الأكثر، وتَرْك اللّام في الجواب قليل[2]، فجاءت الآية على الأكثر لا الأقلّ.

سِرُّ حذْف مفعول ﴿يَشَآءُ﴾:

الـدَّلالـة على الاخـتـصـار والإيجاز

آثَرَ التَّعبير القرآنيُّ حَذْفَ المفعول، لدلالة جواب الشَّرْطِ عليه[3]، فجواب الشَّرْط ﴿لَهَدَى﴾، وهذا يعني أنَّ المفعول المحذوف تقديره (يشاء الهدايةَ)، ويَدخل في ذلك قيمة الاختصار والإيجاز[4] في العبارة، وفيه إيماءٌ إلى عدم تأثُّر المَشيئة والإرادة الإلهيَّة بأحوال الكائنات وعدم تأثير الأشياء في الصِّفات الإلهيَّة كما تتأثَّر إرادة البشَر بِحُسْنِ الأشياء وقُبحِها وعظَمتها وصِغرها[5].

لطيفة التَّعبير بـ ﴿لَهَدَى﴾ دون غيرها:

التَّنبيه على أنَّ المَقام مقامُ لَجاجة وضلال

عبَّر النَّظْم الكريمُ هُنا بالفعل ﴿لَهَدَى﴾؛ لأنَّ المَقام مقامُ لَجاجة وضلال، واستِعْذاب كُفْرٍ، فناسَب ذلك الضَّلالَ ضدُّه، وهو الهداية بلفظة (هدى)، فلفظة (هدى) تُبيِّن قُبْح الضَّلال وتُعرّيه من كلِّ خير، ومن ثَمَّ كان الأنسَبُ هُنا لفظة (هدى)، إضافة إلى أنّ لفظة (هدى) هي ثمرة الدَّعوة ولُبُّها، فكان التَّعبير بها في هذا السّياق هو الأوْلى.

(1) د السيّد خضر، التّشكيل الجماليّ في النّظم القرآنيّ، ص: 104.
(2) خالد الأزهريّ، شرح التّصريح على التّوضيح: 2/422.
(3) القزوينيّ، الإيضاح: 2/156.
(4) القزوينيّ، الإيضاح: 2/159.
(5) النّورسيّ، إشارات الإعجاز، ص: 145.

دلالة التَّعبير بالماضي: ﴿لَهَدَى﴾:

ثبات الهداية وتأكيد القُدرة على إحداثها حسب الإرادة الحَكيمة

لمّا كانت الهداية بيَدِ اللّه، فهو يهدي مَن يشاء ويُضِلُّ مَن يشاء، ناسَب ذلك أنْ يكون جواب الشَّرْط فعلًا ماضيًا مُقترنًا باللّام؛ لبيان السَّيطرة والهيمنة، فكأنَّ الهداية حادثةٌ وقْتما يُريد، وساعةَ يَشاء، لكنّ هؤلاء لَم يكونوا أهلًا لذلك، فلَم يهدهم مع قُدْرته على ذلك، يُؤكِّد هذا أنَّ الفعل الماضيَ جاء تحقيقًا للأمر، وتثبيتًا له[1].

دلالة التَّعبير عن (الكفّار) بلفظ ﴿ٱلنَّاسَ﴾:

أهميَّة إسلام كُفّار مكَّة لأنَّ إسلامهم نَواةٌ حقيقيَّة لنُصرة الدّين

في قوله تعالى: ﴿أَن لَّوۡ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعٗاۗ﴾ العِبرة ليست بخُصوص اللّفظ بل بعُموم السّبب، فليست الهداية مقصورةً على كفّار قريش وحدهم، وإنَّما هي للنّاس كافَّة، ثُمّ إنّ التّعبير هكذا قد يجري مجرى المثَل، فيُنطق وحدَه من دون سياق؛ فيُقال في معرض الكلام: (ولو يشاء اللّه لَهدى النّاس جميعًا)، وذلك التَّعبير من باب المَجاز المُرْسَلِ صاحَب علاقة الكلّية، حيث ذَكر الكُلَّ ﴿ٱلنَّاسَ﴾، وأراد الجُزء (كفّار مكَّة)، وعِلَّة ذلك أنَّ هؤلاء الصَّناديد هُم النّاس قوَّة ومَهابةً دنيويَّةً، فلو أسلموا لكانوا النَّواة الحقيقيَّة لإسلام كُثارِ النّاس غيرهم، وهُناك مَلْحظ آخَر يَتعلَّق بما بَعد هذا المقطع؛ فبعْدَه مُباشرة: ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾، فكان ما بعده ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ تخصيصًا لِما قبْله ﴿ٱلنَّاسَ﴾.

نُكتة التَّعبير بـ ﴿جَمِيعٗاۗ﴾ دون (كلَّهم):

بيان القُدْرة المُطْلَقة للهداية في وقتٍ واحد

للتَّعبير بـ ﴿جَمِيعٗاۗ﴾ دون (كلَّهم) فائدتان، الأولى: مُناسَبة اللَّفظة هُنا لِلَفظة ﴿جَمِيعٗاۗ﴾ في قوله تعالى: ﴿بَل لِّلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ جَمِيعًاۗ﴾، فإذا كان الأمر للّه جميعًا فهداية النّاس جميعًا من الأمر، الثّانية: لفظة ﴿جَمِيعٗاۗ﴾ تَدلُّ على اتِّحاد الزَّمن، وهذا يَرسِم صورةَ القُدْرة

(1) ابن جنّي، الخصائص: 3/334.

المُطلَقة على هداية كُلِّ النّاس في وقت واحد مَجموعينَ، فكأنَّ الحال ﴿جَمِيعًا﴾[1] جاء لرَفْع وهْم مَن يَتوهَّم أنَّ اللّه غير قادر على هداية النّاس في وقتٍ واحدٍ، وهذا لا يُفيده التَّوكيد المَعنويُّ (كلَّهم)، فـ"الكلُّ يُفيد الإحاطة دون الاجتماع"[2].

دلالة فصْل مَقاطِع الآية بعضها عن بعض:

تَعدُّد موضوعات المَقطَع وتَداخلُها

في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ ۗ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا ۗ أَفَلَمْ يَايْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۗ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا۟ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ وَعْدُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٣١﴾﴾ فصْل المَقاطِع له سببٌ مَكين، وهو تَعدُّد موضوعات الآية الكريمة، فالعُنوان العامُّ للآية الكُفر والإيمان لكنَّها ضمَّت عددًا كبيرًا من الموضوعات؛ مثل: الحوار، وقُدْرة اللّه، والهداية، وإصابة الكفّار بالقوارِع والمصائب، وذِكْرِ عذاب اللّه، موضوعات شتَّى في الآية لكن رابطها الأكبر الكُفر والإيمان، فحَوْل هذي المَقاطِع تَدور الآية الكريمة الّتي "عرضَتْ أكثر من مَوقف، ولأكثر من جماعة، فأوَّلًا: المُشركون، وعِنادهم، وضلالهم، وثانيًا: الَّذين يَعجبون لهذا الحُكْم الَّذي حكمَ به على المشركين سواء أكانوا من المؤمنين أم من المشركين، وثالثًا: المؤمنون الَّذين كانوا لا يزالون على طَمَعٍ في أنْ يَلْحق بهم آباؤهم أو أبناؤهم، ورابعًا: هذا اليأس الَّذي وقَعَ في نفوس كثير من المؤمنين الَّذين كانوا يطمعون في أنْ يَلحق بهم أهْلوهم، وهكذا أشرفَتْ كلِمات اللّه من عَلٍ على النّاس جميعًا مؤمنين، ومشركين، وخاطَبَتْ كُلَّ فريق منهم الخِطاب الملائمَ له، وكان من مُقتضى الحِكمة ألّا تجْمع بينهما في

(1) مفهوم من كلام ابن هشام عن (أجمعون)، يُنظر: شرح شذور الذّهب، ص: 553.
(2) إسماعيل حقّي، روح البيان: 7/391.

هذا الموقف جامِعةٌ، الأمر الَّذي أوجَبَ عزْلَ مَقاطع الآية بعضها عن بعض[1].

دلالة الواو في قوله: ﴿وَلَا يَزَالُ﴾:

تهديد الكفّار ووَعيدُهم على تَعنُّتهم وإصرارهم على الكُفْرِ

في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ جاءت الواو استئنافيَّة[2]؛ كي تَفتَتِح موضوعًا جديدًا خاصًّا بالَّذين كفروا وكأنَّها تقول لهم: (وإن لَم تؤمنوا فستظلُّ العُقوبات الدُّنيويَّة موجَّهة لكم صائدة، ففي الإيمان نجاة، وما تَفعلونه يُؤذيكم ويُخزيكم)، ويجوز أن تكون عاطفة؛ أيْ: إنَّ الجملة معطوفة على جُملة ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ﴾ على بعض الوجوه في تلك الجُملة، وهي تهديد بالوعيد على تعنُّتهم وإصرارهم على عدم الاعتراف بمعجزة القرآن، وتهكُّمِهم باسْتِعجال العذاب الَّذي تُوعِّدوا به، فهُدِّدوا بما سيحلُّ بهم من الخوف بحُلول الكتائب والسَّرايا"[3]، إضافة لذلك فإنَّه لمّا عُلم أنَّ بعضهم لا يُؤمن، ضاقَتْ صدور المؤمنين لذلك لِما يُعاينونَه من أذى الكفّار، فأتْبَعه ما يُسَلّيهم عاطفًا على ما قدَّرَه من نتيجة عدَمِ المَشيئة[4] من أنَّهم تُصيبهم قارِعةٌ.

نكتة اختيار التَّعبير بالفعل ﴿يَزَالُ﴾:

بيان عاقِبة الكُفّار إن هُم لَجّوا في طُغيانهم يَعمهون

في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ الفعل ﴿يَزَالُ﴾ في أصله (زال) يدلُّ بذاتِه على النَّفْي، وعدَم وجود الشَّيءِ؛ من غير أن يحتاج في هذه الدَّلالة للفظٍ آخَر، فكان الفعل بنفْسه من غير تقدُّم نَفْي أو شبهه تحذيرًا لهؤلاء بالزَّوال والاندثار إنْ هُم لجّوا في طغيانهم يعمهون، وثَمَّ مَلمحٌ آخَر وهو عادة القرآن هُنا، فالقرآن مع (يَزال) المضارع لا يستخدم سِوى (لا)، فكانت الآية تعزيزًا لعادة القرآن الكريم.

(1) الخطيب، التفسير القرآنيّ للقرآن: 3/125.
(2) الدّعّاس، إعراب القرآن، ص: 130.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/145.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/345.

دلالة التَّعبير بالمُضارِع ﴿وَلَا يَزَالُ﴾:

تنبيه الكفّار إلى استمرار الوَعيد حتّى يأتيَ وعْد الله

يَظهر سِرُّ التَّعبير بالمُضارع تنبيهًا لهم بأنَّ ذلك عِقاب من الله تعالى ووعيد بأنَّ ذلك دائمٌ فيهم حتَّى يأتيَ وعْد الله، ولعلَّها نَزَلَتْ في مُدَّة إصابتِهم بالسِّنين السَّبع المُشار إليها بقوله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ﴾ [البقرة: 155]، عِلْمًا بأنَّ بعض العلماء جَعلوا هذه السُّورة مدنيَّة، وكان التَّأويل عندهم أنَّ القارِعة السَّريَّةُ من سَرايا المُسلمين الَّتي تَخرج لتهديد قريش ومَن حَوْلهم[1].

نُكتة التَّعبير بـ ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ لا بعضهم:

العِبرة بعموم اللَّفظ لا بخصوص سَببِه

في العموم بخِطاب ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ فائدتان؛ الأولى: تَحقُّق وقوع العذاب على كلِّ الَّذين كفروا لا على فريق بعَيْنه، فالمسألة كائِنَة إلى أن تقومَ السّاعة، فهُنا "وَعيدٌ لِلكُفّارِ عَلى الْعموم"[2]، والثّانية: أنّ ما يَصْدق على بعضهم يَصْدُق على الجميع؛ لأنَّ الجميع يُؤيِّد البعْضَ، فصار الحُكْم عامًّا لرِضا البعض بعمل الكلِّ، يقول الرّازيُّ: "أراد به جميع الكفّار؛ لأنَّ الوقائعَ الشَّديدة الَّتي وقعَتْ لبعض الكفّار من القتل والسَّبْي، أوجَبَ حُصولَ الغمِّ في قلب الكُلِّ"[3].

سرّ التّعبير بـ ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ لا (الكافرون):

ثَبات الكُفْرِ في نفوسهم، واستِمساكهم به

إيثار القرآن للاسم الموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ مع صِلَته؛ فيه إيماءةٌ إلى ثبات الكُفر في نفوسهم، واستمساكهم به؛ فلا مَجال لتَغْيير عقيدتهم، فالجُملة الموصوليَّة أفادت الذَّمَّ؛ فإتيان الموصول الماضي قُصِد به الالتباس والاستصحاب[4]، إضافة إلى ذلك فالاسم الموصول مع صِلته يَدُلُّ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/145.
(2) الشّوكانيّ، فتح القدير: 3/101.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 19/43.
(4) عضيمة، دراسات لأسلوب القرآن الكريم: 1/187.

على اختيارهم الكُفر بإرادتهم من دون تَدَخُّلٍ في اختيارهم، فكان التَّعبير بالاسم الموصول وصِلَته دون اسم الفاعل هو الأنسب.

دلالة التَّعبير بالماضي ﴿كَفَرُواْ﴾:

بيان أنَّ كُفرهم صار صِفة لازِمة ثابتة في طِباعهم

في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ ثمَّة تَوظيف للفعل الماضي - مع أنَّ المُضارع مُناسِب للفعل ﴿وَلَا يَزَالُ﴾ - دَلَّ على أنَّ الكُفْرَ صار صفَة لازِمة لهم، لا ينفكّون عنه، والفعل الماضي هو الَّذي يَرسم صورة الكُفْرِ هُنا، أمّا توظيف المضارع فهو غير مُناسِب؛ لأنّه يُشْعِرُ أنَّ الكُفْرَ جديد حادِثٌ، ثُمَّ إنَّ العدالة الإلهيَّة تقتضي نزول العذاب والقوارِع على مَن ثَبَتَ كُفْرُه ولَجَّ فيه دون غيره من مُحدثي الكُفر، والفعل الماضي هو الَّذي يُترجم هذا التَّناسُب لا المضارع؛ لأنَّه حقيق بالثَّبات.

دلالة إيثار الفعل ﴿كَفَرُواْ﴾ على (أشركوا):

التّأكيد على أن حالة الكفّار هي حالة الإنكار التّامّ واللَّجاجة

في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ إيثار للقرآن الكريم لِذِكْرِ الكُفر دون الشِّرك، وهو إيثارٌ آتٍ من أنَّ الكُفر مُناسب للسّياق، وهو هُنا سياق الجحْد والإنكار وعدم الإيمان بالرِّسالة والرَّسول والقرآن مع عِلمهم بأنَّ القرآن كلام الله، فكأنَّهم سَتَروا ضياء عُقولهم[1] بالكُفْرِ، أمّا الشِّرك فهو صرْفُ نوْعٍ من أنواع العِبادة لغير الله تعالى، وهذا لا يُناسِب المقام هُنا فحالتهم هي حالة الإنكار التّامِّ واللَّجاجة؛ فكان الفعل ﴿كَفَرُواْ﴾ أنسَبَ من أشركوا، إضافة إلى ذلك فهو يتناسَب مع قوله تعالى ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ﴾.

لَطيفة التَّعبير ﴿تُصِيبُهُم﴾ دون (تَمَسُّهُم):

الإصابة أقوى تَمَكُّنًا من المَسِّ

آثَرَ التَّعبير القرآنيُّ التَّعبيرَ بـ ﴿تُصِيبُهُم﴾ دون (تمسُّهم)؛ لأنَّ في الإصابة قوَّة وشِدَّة في التَّأثير، عَكْسَ المَسِّ الَّذي قد يكون يَسيرًا سَهْلًا غير مُؤَثِّرٍ فيهم؛ فهو مُطلَق إصابةٍ من دون تقييد بشِدَّة أو ضَعْفٍ،

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/345.

وعليه يكون المَسُّ أقلَّ تَمكُّنًا من الإصابة[1]، وهو أقلُّ درجاتها[2]، ولِوجود فرْق بين المسّ والإصابة، هو أنَّ المَسَّ اتِّصال أحد شَيْئَيْن بآخَر على وجه الإحساس، والإصابة أصلُها من إصابة السَّهم، فالإصابة في الخير اعتبارًا بالصَّوب؛ أي: المطَر، وفي الشَّرِّ اعتبارًا بإصابة السَّهم، وكلاهما يرجعان إلى أصل (أصاب)، ومنه يُعلم أنَّ الإصابة أبلَغُ من المَسِّ لأنَّه وإن اعتُبِر فيه التَّأثير، لكن تأثير أصاب لمّا كان كالمطر أو السَّهم كان أقوى وأشدَّ[3]، والموقف هُنا موقف شِدَّةٍ وبأسٍ، فلا يُناسبه المَسُّ، يُضاف إلى ذلك أنَّ الفاعل هو ﴿قَارِعَةٌ﴾، وفيها من الهَوْلِ والشِّدّة ما فيها، فلا يُناسِبه الفعل (يمسُّهم) ألبتَّة.

دلالة التَّعبير بالمضارِع ﴿تُصِيبُهُم﴾:

الإيذان باستمرار الإصابة وتَجدُّدها

عبَّر القُرآن بالفعل المضارع ﴿تُصِيبُهُم﴾ للإيذان باستمرار الإصابة ودَوامها كأنَّها مُشاهَدة؛ وذلك لِعُتوِّهم وكُفرهم، وهذا يعني أنَّ القارِعة تُصيبهم مرَّةً بعد مرَّةٍ، لا تتوقَّف ولا تَهْدأ، يُضاف إلى ذلك التَّناسُب الحاصل بين المُضارع ﴿يَزَالُ﴾ الدّالِّ على استمرار ما هو واقِع، وبين المُضارع ﴿تُصِيبُهُم﴾ الدّالِّ على الأمر نفْسه، فالمُضارع يعني عمَلًا تِلْوَ عَمَلٍ.

دلالة الباء في قوله تعالى: ﴿بِمَا﴾:

الإيماء بأنَّ ما أصابهم كان بسبب ما قدَّمَتْه أيديهم جزاءً وِفاقًا

من معاني الباء السَّببيَّة[4]، فالباء في قوله تعالى: ﴿تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ﴾ أوْمأتْ إلى أنَّ إصابتهم المُميتة سببُها ما صَنعوا وما قدَّمتْه أيديهم، فالمعنى بسبب ما صنَعوا تُصيبهم القارعة، فالباء هُنا تَرْجمتْ عن الجزاء الوِفاق؛ فلا إصابة بدون اقتراف الكُفر، وفيه إشارة إلى العدالة الإلهيَّة تلك الَّتي لا تُعذِّب أحدًا

(1) النّيسابوريّ، غرائب القرآن: 2/245.
(2) السّيوطيّ، حاشية على تفسير البيضاويّ: 3/53.
(3) السّيوطيّ، حاشية على تفسير البيضاويّ: 2/190.
(4) المراديّ، الجنى الدّاني، ص: 39.

حتّى تَبعثَ رُسلًا تِلْو رُسُلٍ لإخراج النّاس من غياهِب الكُفر إلى سَعة الإيمان.

دلالة استعمال ﴿بِمَا﴾ دون (الّذي):

كثرة ما صَنعوه لمُحارَبة الدَّعوة

(ما) في قوله تعالى ﴿تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ﴾: اسم موصول، و(ما) أعَمُّ وأشمل من أخيه (الَّذي)، حتّى قال النُّحاة إنّه يَقع على كُلِّ شيء، ويقعُ على ما ليس بشيء، لأنّه اسم مُبهم شديدُ الإبهام[1]، وهو هُنا دالٌّ على كثرة ما صَنعوه لمُحارَبة الدَّعوة، ومُكافحَة صاحبها اتِّهامًا وتشكيكًا ومُحاربَة، وكأنَّهم ما وُجِدوا إلّا ليَصنعوا ما في وُسْعهم لوَأْد الدَّعوة الإسلاميَّة وصاحبها، فعموميَّة (ما) دالَّة على عموميَّة أفعالهم وصُنعهم؛ لذا كان أوْلى من (الّذي) الَّذي لا يَحمل هذا الإبهام.

نُكتة التَّعبير بالفعل ﴿صَنَعُواْ﴾ دون غيره:

بيان مُحارَبتهم الدَّعوة نتيجة تخطيط وترتيب

في قوله تعالى: ﴿بِمَا صَنَعُواْ﴾ آثَرَ القرآن الكريم التَّعبيرَ بالصُّنع دون العمل؛ لبيان القصْديَّة في مُحاربة الدَّعوة، فليست المُحارَبة عَفْوَ الخاطِر، وإنَّما هي تخطيط وترتيب وعمل دَؤوب لمواجهة الدَّعوة ووَأْدِها، فالصُّنع إجادة الفعل، فكلُّ صُنع فعلٌ، وليس كُلُّ فِعلٍ صُنعًا، ولا يُنسب إلى الحيوانات والجمادات كما يُنسَب إليها الفعل، وللإجادة يُقال للحاذِق المُجيد: صَنَعٌ، وللحاذِقة المُجيدة: صَناعٌ[2]؛ فكان التّعبير بـ (الصُّنع) أوْلى من التّعبير بـ (العمل) أو (الفعل)، ففي صيغة الصُّنع من الإيذان برُسوخهم في ذلك ما فيها[3].

دلالة التَّعبير بالماضي ﴿صَنَعُواْ﴾:

ثَبات صُنعهم وإيغالهم فيه حتّى صاروا من المُجيدين البارعينَ

إيثار الفعل الماضي ﴿صَنَعُواْ﴾ على المُضارع (يَصنعون) للإشارة إلى ثبات صُنعهم وإيغالهم فيه حتّى صاروا من المُجيدين البارعينَ؛

(1) السهيليّ، نتائج الفكر في النّحو، ص: 139.
(2) الرّاغب، المفردات: (صنع).
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/150.

أيْ: ممّا مُرِّنوا عليه من الشَّرِّ حتّى صار لهم طبْعًا[1]، وتوظيف الفعل الماضي ﴿صَنَعُواْ﴾ إشارة إلى العدالة الإلهيّة بإنزال البَلايا والمصائب، فكلُّ فعل له ردَّة فعل، فإذا صَنعوا عن إجادة فالقارِعة حاضِرة.

دلالة اختيار الفعليَّة ﴿صَنَعُواْ﴾ لا المَصْدَر:

الدَّلالة على تأكيد صَنيعهم في محارَبة الدَّعوة

آثَرَ النَّظْم الكريمُ التَّعبيرَ بالفعليَّة ﴿صَنَعُواْ﴾ دون المصْدريَّة؛ لوجود فرْق بينهما، فالفعل يدلُّ على حدث وزمن، أمّا المصْدَر فيدلُّ على حدث دون تعلُّقٍ بزمن[2]، وهذا الفارق هو السَّبب في توظيف الماضي دون المصْدر، فالفعل الماضي دلَّ دلالة قاطعة على أنَّهم صَنعوا ما صنَعوا في حقِّ الدَّعوة، فالفعل يَقينيُّ الثُّبوتِ، أمّا المصْدر فلا دلالة له على الزَّمن؛ لذا وُظِّفَ الفعل دون المصْدر، كما أنَّ الفاعل في ﴿صَنَعُواْ﴾ دالٌّ على قصْديَّة واجتهاد، وهذا غير واضح في المصْدر (صُنْعهم).

دلالة عدم ذِكْرِ مُتعلِّق ﴿صَنَعُواْ﴾:

إشارة إلى العموم والشُّمول

يدلُّ عدَمُ ذِكْرِ العائد في الاسم الموصول ﴿صَنَعُواْ﴾، على العموم في قوله تعالى: ﴿بِمَا صَنَعُواْ﴾، فلَم يَقُل القرآنُ: (صَنعوه) وحذَفَ المفعول[3]، للشُّمول وعدَمِ محدوديَّة الصُّنع، فكأنَّهم صَنعوا كلَّ شيء لإيقاف الدَّعوة وحصْرها أو إماتَتِها، ومِنْ ثَمَّ فالحذْف هُنا جاء حتّى تذهبَ النَّفْس كُلَّ مَذهب فيما صَنعوا، إضافة إلى الاختصار والتَّخفيف.

سِرُّ التَّعبير بـ ﴿قَارِعَةٌ﴾ دون مرادفاتها:

بيان أنَّ القارِعة شديدةٌ من شدائد الدَّهر مُفزِعة

إيثار لفظة ﴿قَارِعَةٌ﴾ هُنا؛ لأنَّها تَقرع القلوب بهَوْلها، ثُمَّ هي الشَّديدة من شدائد الدَّهر وهي الدّاهية[4]، فهي إذَن الَّتي تَقرع النَّاسَ بالأفزاع والأهوال، والسَّماءَ بالانشقاق والانفطار، والأرضَ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/345.
(2) عبّاس حسن، النّحو الوافي: 2/205.
(3) ابن جزيّ، التّسهيل لعلوم التّنزيل: 2/496.
(4) ابن عطيّة المحرّر الوجيز: 5/516.

والجبالَ بالدَّكِّ والنَّسْفِ، والنُّجومَ بالطَّمْس والانكدارِ[1]؛ لذا كانت الأكثرَ مُناسَبة بسبب عُتوِّهم ونُفورهم ومُحارَبتِهم للدَّعوة، ولفظة (النّازلة) لا تُعطي هذا السِّرَّ؛ فالنّازلة تَصْدق على ما عظُم من الحوادث - وهو الأصل - وما سَهُلَ، فالدَّهر هو النّازلة تقول: دَهَرَهُم أمر؛ أيْ: نَزَلَ بهم مَكروه[2]، أمّا القارعة فإنَّها تختَصُّ بالعظائم والحوادث الشَّديدة.

بلاغة الاستعارة في التَّعبير بـ ﴿قَارِعَةٌ﴾:

بيان قصديَّة القارعة وكأنَّها عدوٌّ يَقصد إهلاكَهم

في لفظة ﴿قَارِعَةٌ﴾ استعارة مَكنيَّة، حيث شبَّه القارعة بالعَدوِّ المُتوجِّه إليهم فكأنَّها جُند من جنود الله سُلِّط على هؤلاء المُكذِّبين المُعاندين، وحذفَ المُشبَّه به وذكرَ صِفة من صفاته وهي الإصابة، فهي تُصيبُهم بأشَدِّ البلايا والمصائب، في أنفُسهم وأموالهم، وتُبيدُ خَضْراءَهم، وقد أسْنَدَ إليها الإصابة تارةً والحلول أخرى؛ فهي مع كونها استعارة بالكناية فهي تَخييل وترشيحٌ أيضًا[3].

دلالة التَّعبير بالمُؤنَّث في ﴿قَارِعَةٌ﴾ وتنكيرها:

قصد التَّهويل والمُبالَغة والتَّعظيم

التّأنيث هُنا "تأنيث تَهويلٍ ومُبالَغة، ولهذا جاءتْ أسماء يوم الحشْر كُلُّها مؤنَّثة، كالقيامة والقارعة والحاقّة والطَّامّة والصَّاخَّة إلى غيرها"[4]، والتَّنكير يتعادل مع التَّأنيث، فالتَّنكير على التَّعظيم والمُبالَغة في اللَّفظة بإضافة التّاء.

دلالة الإفراد في: ﴿قَارِعَةٌ﴾:

وحدة هدف كُلِّ قارِعة في دَحْر الكُفْرِ

آثَرَ النَّظْم القرآنيُّ إفراد لفظة ﴿قَارِعَةٌ﴾ دون جمْعها، على الرَّغم من القوارِع الَّتي أصابَت الكفّار، كالهزيمة في غزوة بدْر، وما رَماهم الله ﷻ به من خِزي في غزوة الأحزاب، ثُمَّ ما كان في فتْح

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 30/621.
(2) الخليل، العين: (دهر).
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/150.
(4) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/150.

مكّة[1]؛ للتَّهويل والتَّخويف والزَّجر، فإذا كانت قارعة واحدة تَفعل فيكم الخسْفَ والدَّمار والخَراب، فما بالُكم إذا اجتمعَت القوارِع الكُثُرُ؟ وفي هذا إيذانٌ بالقوَّة المُفرِطة لقارعة واحدة، ويُمكن القول إنَّ الإفراد هُنا دالٌّ على وحدة هدَف كُلِّ قارعة من القوارع والهدف دَحْرُ الكُفر وهزيمة الكفّار.

دلالة إسناد الإصابة إلى القارعة:

التَّأكيد على كثرة جنود الحَقِّ

أُسندَت الإصابة لـ ﴿قَارِعَةٌ﴾ لبيان أنَّ للّه ﷻ جُندًا يَنصر به المؤمنين، ويُعذِّب به الكافرين، وفي هذا طمأنة لقلب رسول اللّه ﷺ، وتثبيت لأفْئدة المؤمنين، وشفاءٌ لِما في صُدورهم، وفي إسناد الإصابة إليها دلالةٌ على المُطاوَعة والاستجابة الفوريَّة، كأنَّها بمُجرَّد أخْذها الأمرَ فعَلَت الأفاعيل في هؤلاء الكفّار، ثُمَّ إنَّ القارعة تُحَوِّلُ المكان من هدوء وسُكون إلى صَخَبٍ وضَوضاء فـ "القارعة هي الشَّيْء الَّذي يَطرق بعُنف على هادئٍ ساكِن"[2] ليحوِّل سُكونَه.

نُكتة العدول عن القتل إلى القارعة:

بيان أنَّ القارعة أعَمُّ من القتل

في قوله: ﴿تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ﴾ عدَلَ النَّظْم الكريمُ عن التَّعبير بالقتل إلى القارعة لوجود فرْق بينهما؛ فالقتل إزهاق للأرواح، ولا يحمل معنى الشُّمول الَّذي تُفيده القارعة، لأنَّ القارعة إزهاق للنُّفوس والأموال والأرض والذُّرِّيَّة، وكُلِّ ما يَمتلكونه، وإن "كانت القوارع – في أصلها – الَّتي تَقرع حِسَّهُم ليست إبادَة، ولكنَّها مُغالَبة ودفْع الفساد"[3] فدلَّ ذلك على أنَّ لفظة القتل قاصرة عن تحقيق الهدف، أمّا القارعة فهي الَّتي ترسِم الموقفَ الرَّهيب الَّذي يواجهه الكفّار، إضافة إلى ما سبَق فإنَّ عادة القرآن أن يَستخدم

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/125.
(2) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 12/7348.
(3) محمّد أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 8/3951.

لفظة القارعة في الأحداث الكِبار والأحداث العاصفة، كإهلاك الأقوام، فهي شديدة الوَطْأة، وهذا ما ليس في كلِمة (القتْل) الَّتي توَظَّف في كبار الأحداث وصغارها، كما توظَّف على ما ليس بقتل وإنَّما هو الدُّعاء فقط[1]، لذا فالقتل جُزء مِنْ كُلٍّ؛ أيْ: جزء من ﴿قَارِعَةٌ﴾، فضَمَّت لفظة ﴿قَارِعَةٌ﴾ القتل في ثَناياها، فكان التَّعبير بـ ﴿قَارِعَةٌ﴾ أنسَب وأملأ للفائدة.

نُكتة تأخير ﴿قَارِعَةٌ﴾ عن قوله: ﴿بِمَا صَنَعُواْ﴾:

تقرير أثَرِ القارعة عليهم بسبب ما اقْتَرَفوه من كُفْرٍ وعِناد

تقديم ما حقُّه التَّأخيرُ إنَّما يكون لنُكتة، والنُّكتة هُنا بيان أنَّهم هُم الَّذين أساؤوا التَّصَرُّف، وكفروا وسَتَروا ولَجّوا في طغيانهم، بل وبالَغوا في التَّضييق على أهل الإيمان، فكان ما فعلوه سببًا لنُزول القارعة عليهم؛ وهذا مُطلَق العدل، ومن ناحية أخرى فتقديم المجرور على الفاعل جاء على إرادة "التَّفسير إثْر الإبهام لزيادة التَّقرير والإحكام مع ما فيه من بيان أنَّ مَدار الإصابة من جِهتهم آثِر ذي أثيرٍ"[2].

دلالة اختيار ﴿أَوْ﴾ دون الواو ونحْوها:

تنويع الأحوال، وبيان أصناف المَضارّ

جاءت ﴿أَوْ﴾ في قوله: ﴿أَوْ تَحُلُّ﴾ لتنويع الأحوال، أو لأصناف المَضارِّ[3]، وهي هُنا مُناسِبة أشدَّ مناسَبة؛ ذلك لأنَّ المَضارَّ هُنا مُتعدِّدة من إصابة مباشرة، أو تهديد بعذاب عندما تحلُّ قريبًا من دارهم، وفي هذا إنذار شديد، وقد يكون وعدًا بالتَّخفيف إن هُم آمَنوا وتراجعوا عن غيِّهم، فقد تَلينُ بعض القُلوب وترجع عن غيِّها.

سرّ التّعبير بالفعل ﴿تَحُلُّ﴾ دون غيره:

الدَّلالة على تَعدُّد معانيها وشُمولها للتَّنَزُّل ونحْوه

للفعل (حلَّ)[4] فروع كثيرة ومسائل، وأصلها كلُّها: فتْحُ الشَّيءِ، لا

(1) كقوله تعالى: ﴿قُتِلَ ٱلۡخَرَّٰصُونَ ۝١٠﴾ [الذاريات: 10]، فهو دُعاء وليس قتْلًا حقيقيًّا.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/150.
(3) ابن عجيبة، البحر المديد: 2/445.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حلل).

يَشذُّ عنه شيء، يؤكِّد هذا أنَّ المعنى المِحوريَّ للفعل (حَلَّ) يدور حَول فَكِّ ما كان مَشدودًا؛ أيْ: مربوطًا موثَقًا[1]، ويُناسِب الرَّسول إذا عاد الضَّمير عليه لأنَّه سيَحلُّ؛ أيْ: يَفْتح مكَّة وغيرَها من البلاد، ومن ثَمّ كان المناسِب الفعل (يحل) لا (يَنزل) ولا (يَحيق)، فكِلاهما لا يُؤدّيان هذا المعنى الخَفيَّ، ومن ناحية أخرى فإن (حلّ) يَترتَّب على (نَزل)، فهُما لَيْسا بمعنًى واحدٍ طِبْقًا، وهذا مفهوم من كَلام ابن فارس عندما يقول: "وحلّ: نَزلَ، وهو من هذا الباب؛ لأنَّ المسافر يَشُدُّ ويَعقِد، فإذا نزلَ حلَّ، يُقال: حَلَلتُ بالقوم"[2]، فصارت دار الكفّار محلًّا للقارعة؛ تهديدًا ووَعيدًا.

دلالة المضارِع ﴿تَحُلُّ﴾ دون الماضي:

استمرار الحُلول ودَوامه

عبَّر القرآن بالفعل المُضارع ﴿تَحُلُّ﴾ للإيذان باستمرار الحلول ودَوامه كأنَّه مُشاهَد؛ وذلك لعُتوِّهم وكُفرهم، وهذا يعني أنَّ القارعة تُصيبُهم مرَّة بعد مرَّة، لا تتوقَّف ولا تَهدأ، فالمُضارع يَدُلُّ على عمل مُتَتابِع، وفي هذا زَجْر وتخويفٌ؛ لأنَّ العمل المُتواصِل تدمير وخسْف وتخويفٌ أو دَفْع ومُغالَبةٌ، وفيه إشارةٌ إلى حَثِّهم على الدُّخول في الإسلام حتّى تُرفع عنهم هذه القوارِع.

سِرُّ الإضمار في: ﴿أَوْ تَحُلُّ﴾:

توسيع المعنى بإرادة القارعة أو الرَّسول مع جنوده

الإضمار دون الإظهار في قوله ﴿أَوْ تَحُلُّ﴾ في هذا السّياق يُحدِث اتِّساعًا في المعنى المفهوم، ذلك أنَّ الضَّمير هُنا يَصلح لأمرَيْن: الأوَّل أن يَعودَ على الرَّسول ﷺ، جاء في التّفسير: أوْ تَحُلُّ أنت يا مُحمَّد قَريبًا مِنْ دارِهِم، هذا تأويل فِرقة؛ منهم: الطّبريُّ وعَزاه إلى ابن عبّاس ومُجاهد وقَتادة[3]، الأمر الثّاني: يعود الضَّمير على

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (حلل).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (حلل).
(3) ابن عطيّة، المُحرّر الوجيز: 3/313.

القارعة، والمَعْنَيان مُرادان، فإذا أظهرنا الاسم ففي ذلك تحديد، وإذا أضمَرنا ففي ذلك توسيع، فكان الإضمار أنسَبَ للآية؛ لأنَّ العذاب سيكون عذابَين: قارعة الله، وقارعة الرّسول وجُنده.

دلالة التّعبير بقوله: ﴿قَرِيبًا﴾:

الإنذار والتّخويف إن لَم يَعودوا إلى رُشدهم ويَنتهوا عن غَيِّهم

جاءت لفظة ﴿قَرِيبًا﴾ هُنا للتّهديد والتّخويف، فالقارعة لن تَحُلَّ في دارهم، لكنَّها ستكون قريبة، وعلى قُربها "يَفزعون منها ويَتطاير إليهم شَرَرُها"[1]، فهي لن تصيبهم مباشرةً، فاللَّفظة هُنا فيها معنى الإنظار مع الإنذار إن لَم يعودوا إلى رُشْدهم وسَليم عقولهم.

سرّ اختيار لفظ ﴿قَرِيبًا﴾ دون (ناحيَتهم):

اتّساعٌ بحذْف المَوصوف وإبقاء الصِّفة

عبَّر القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿قَرِيبًا﴾ لِما فيها من اتِّساع المعنى بحذْف المَوصوف وإبقاء الصِّفة، فالتَّقدير مكانًا قريبًا[2] أو زمانًا قريبًا، وهذا يَخلو منه الظَّرْف (ناحية)، فليس له إلّا معنى الجانب، ومن ثَمَّ حَسُنَ توظيف ﴿قَرِيبًا﴾، ثُمَّ إنَّ ﴿قَرِيبًا﴾ من أنواع المُشتقّات فهو صِفة مُشَبَّهة تَدلُّ على ثَبات القُرْب، فإنْ لَم يؤمن هؤلاء فالقارعة قريبةُ الحُلول بهم؛ فهُم بين حَدَثَيْن جليلَيْن، كلاهِمُا مُخيفٌ، فإمّا الإصابة والألَمُ؛ وإمّا الفزَع، فكأنَّ اللَّفظة تَحمل في طيّاتها معاني الوَعيد والتَّهديد، وهذا لا يكون في لفظة (ناحيتهم).

دلالة ﴿مِّن﴾ في قوله: ﴿مِّن دَارِهِمْ﴾:

تَوافُق معنى حرْف الجَرِّ (مِن) مع (قريبًا) دون حرْف الجرِّ (في) الدّالِّ على الظَّرْفيَّة

توظيف ﴿مِّن﴾ هو الأنسَبُ للسّياق، ذلك أنَّ هذا الحَرْفَ دالٌّ على ابتداء الغاية في المكان[3]، وهذا يُناسِب القُربَ ﴿قَرِيبًا﴾، فالقُرب مَبدؤه (دارهم). أمّا (في) فتدلُّ على الظَّرْفيَّة، والظَّرفيَّة احتواءٌ وتَوغُّل وتَمَكُّنٌ[4]، وكأنَّ القارعة توغَّلَت في دارهم فصارت دارُهم

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/150.
(2) الدّرويش، إعراب القرآن وبيانه: 5/123.
(3) الزّمخشريّ، المُفصّل في صنعة الإعراب، ص: 379.
(4) الزّمخشريّ، المُفصّل في صنعة الإعراب، ص: 381.

محلًّا للقارعة، وهذا يُخالف لفظة ﴿قَرِيبًا﴾ الدّالَّة على أنَّ القارعة بجانبهم لا داخل دارهم، فكان الأوْلى توظيف ﴿مِّن﴾ الدّالَّةِ على الابتداء، لا (في) الدّالَّة على الظَّرْفيَّة.

دلالة التَّعبير بـ ﴿دَارِهِمْ﴾ عن (أرضهم):

بيان أنَّ البلدة صارت ملْكًا لِكُلِّ شخص يَسكن فيها، فهي داره

وظَّف القرآن الكريم لفظة ﴿دَارِهِمْ﴾ هُنا لعدَّة فوائد: الأولى: كَلِمة (دار) دالَّة على شِدَّة قُرْبِ العذاب، فهو ليس قريبًا من أرضهم؛ بل دارهم الَّتي يَسكُنون فيها ويستريحون، أمّا لفظة (أرضهم) فلا تَرْسُمُ صورة القُرب الشَّديد.

الثّانية: دلالة على (أرضهم) مكَّة، وكأنَّ البلدة صارت ملْكًا لكلِّ شخصٍ يسكن فيها، فهي داره، الَّتي تحميه وتَذود عنه.

الثّالثة: لفظة (دار) من الدَّوَران[1]، فاللَّفظة تشرح التَّحوُّل والدَّوران الَّذي سَيَلُفُّ الكون من ظُهور الرِّسالة وغياب الكُفر ودَحْره، فالحياة مُداوَلة.

نُكتة التَّعبير بـ ﴿دَارِهِمْ﴾ دون (ديارهم):

رَسْمُ صورة الضَّعف أمام ما سيحلُّ بهم من العذاب

أفادَ الإفراد في لفظة الدّار ثلاث فوائد؛ أوَّلها: قُدْرة القارعة على تدمير كُلِّ الدّيار، وكأنَّها دار واحدة، فليس في التَّدمير عُسْرٌ. ثانيها: أنَّ الإفراد هُنا يَرْسم صورة القِلَّة والضَّعف أمام ما سَيَحُلُّ بهم من ابتلاء ومصائب وخسْفٍ. ثالثها: أنَّ الإفراد هُنا كائن على أنَّ أئمَّة الكُفْرِ هُم مَن كانوا يُجادِلون الرَّسول ﷺ دون بقيَّةِ الكفّار، فكان الإفراد قائمًا بسبب قِلَّةِ المُتحدِّثين، وكأنَّ العذاب مُتّجه للكُبراء يَليهم العامَّة والدَّهماء لموافَقَتهم وسُكوتِهم.

ومن القراءة السّياقيّة للَّفظتَيْن نجِدُ ما يَلي:

(1) الرّاغب، مفردات القرآن: (دار).

أوَّلًا: قد يُراد بالواحد الجنس؛ فيدلُّ المفرَد على الجمْع، لأنَّ اللَّفظتَيْن جاءتا في سياق قصَّة واحدة[1].

ثانيًا: الإفراد دالٌّ على القِلَّة والهَشاشة؛ أمّا الجمْع فيدلُّ على الكثرة والتَّعدُّد في الغالِب.

ثالثًا: توحيد الدّار دليل على وحدة مَرجوَّة، وجمْعُها دليل التَّفرُّق والتَّشرْذُم[2].

رابعًا: الكلِمتان المُضافتان للضَّمير (هم) لا تأتيان إلّا في موضع العذاب في القرآن[3]، غير أنَّ ﴿دَارِهِمْ﴾ تزيد في الإجلال والخروج من الدّيار[4].

خامسًا: حيثُما كان الحديث مع كِبار القوم دون بقيَّة النّاس؛ فالكلِمة تأتي على الإفراد، وإذا كان الحوار مع المَلأ وعامَّة النّاس؛ فالكَلِمَة تأتي على الجمْع في بعض مواقف القرآن[5].

دلالة اختيار ﴿دَارِهِمْ﴾ دون مرادفاتها:

الدّار أعَمُّ وأشمل من البيوت والمساكن

إيثار لفظة (دار) لأنَّ فيها معنى التَّحوُّل وعدَم الاستقرار[6]، فكانت اللَّفظة مُناسِبة لقَسوة المَوْقِف وتحوُّلهم من عِزَّةٍ إلى ذِلَّةٍ ومَهانةٍ، إضافة إلى أنَّ كَلِمة (الدّار) أعَمُّ وأشمل من البيوت أو المساكن؛ فهي تؤدّي معنى القَبيلة[7]، كما قال الرَّسول ﷺ: «ألا أُخْبِرُكُم بِخَيْرِ دورِ الأنْصارِ؟»[8]، أرادَ بذلك القبيلة، ثُمّ إنَّ (دارَ

(1) الخضريّ، الإعجاز البيانيّ في صيغ الألفاظ، ص: 215.
(2) الخضريّ، الإعجاز البيانيّ في صيغ الألفاظ، ص: 215.
(3) وردت لفظة (دارهم) في القرآن أربع مرّات، وكلّها في مواطن العذاب، الأعراف، ص: 78، 91، الرّعد، ص: 31، العنكبوت، ص: 37.
(4) وردت كلمة (ديارهم) عشر مرّات، البقرة، ص: 85، البقرة، ص: 243، آل عمران، ص: 195، الأنفال، ص: 47، هود، ص: 67، هود، ص: 94، الحج، ص: 40، الأحزاب، ص: 27، الحشر: 2، 8.
(5) الخضريّ، الإعجاز البيانيّ في صيغ الألفاظ، ص: 215، وما بعدها.
(6) المعجم الوسيط: (دار).
(7) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (دور).
(8) البخاريّ، صحيح البخاريّ، كتاب الزَّكاة، بَابُ خَرْصِ الثَّمَرِ، الحديث رقم: (1481).

يَدورُ) تدلُّ على كَثْرةِ حرَكاتِ النّاسِ فيها[1]، وهذا دليل حَيَويَّة وحركةٍ، فكانت القارعة كي تَقطَع كلّ هذا، وهذه المعاني لا تَتأتّى من كلمة البيت أو المسكن.

سِرُّ التَّعبير بـ ﴿مِّن دَارِهِمْ﴾ لا (منهُم):

بيان قوّة العذاب وشموله للسّاكن والمَساكن

الإشارة إلى لفظة ﴿دَارِهِمْ﴾ دون (منهُم) معناها أنَّ العذاب لن يَلحق الكفّار والكبَراء والرّاضينَ بكُفرهم، وإنَّما سَيَلحق الأهْلَ والذَّراري ممَّن يَمتنعون به، ويحتفظون به، فكان (من دارهم) شاملًا المكان وأهلَه، أمّا (منهُم) فلا تشمل الدّار؛ بل تَشمل ذواتَ الكفّار وحدهم.

دلالة الإضافة في ﴿دَارِهِمْ﴾:

التَّخصيص مع شِدَّة تَمَسُّكهم بدارِهم

أفادَت إضافة لفظة (دار) إلى الضَّمير (هم) العائدِ على الكفّار من أهل مكَّة التَّخصيص، فالدّار مُختَصَّة بهم، لا يُشركون أحدًا فيها، وهذا دليل على شِدَّة تَمسُّكهم بدارِهم؛ لأنَّ الدّار جزء منهم، فكانت الإضافة، ثُمَّ إنَّ تعريف الدّار بالألِف واللّام لا يُعطي المعنى المُلائم، فلا يَحسُن أن يُقال: أو تَحُلُّ قريبًا من الدّار، فكانت الإضافة هي الأمْلأ للفائدة؛ وفيها إشارة إلى الاعتراف بالملكيَّة الخاصَّة، حيث نسبَ الدّارَ لهم.

دلالة مخاطبة النّبيّ ﷺ: ﴿تَحُلُّ﴾:

الخِطاب تقويَة له ﷺ وتبشير بالفتْح والانتصار على الكفّار

ذَكَرَ بعض المُفسِّرين أنَّ الضَّمير في ﴿تَحُلُّ﴾ يجوز أن يعود على الرَّسول ﷺ فقالوا: أوْ تَحُلُّ أنت يا مُحمَّد قَريبًا مِنْ دارِهِمْ[2]، ودلالة تَوجيه الخِطاب إليه ﷺ العناية والاهتمامُ بأمرِه، كما أنَّ في الخِطاب تقويةً له وتبشيرًا بالفتح والانتصار على الكفّار.

وفي هذا إشارةٌ إعجازيَّة غيْبيَّة بإخبار اللّه تعالى لرسوله ﷺ بفتْح مكَّة.

(1) الزّبيديّ، تاج العروس: (دور).
(2) ابن عطيّة، المُحرّر الوجيز: 3/313.

دلالة التَّعبير بـ ﴿حَتَّىٰ﴾ دون (إلى):

(حتّى) غاية لِما قبلها، وفيها زيادة معنى القوّة والتَّعظيم

جاء التَّعبير بـ ﴿حَتَّىٰ﴾ في قوله: ﴿حَتَّىٰ يَأۡتِيَ وَعۡدُ ٱللَّهِۚ﴾، لأنَّها غاية لِما قبْلها، وفيها زيادة معنى القوَّة والتَّعظيم[1]، والمَوْقِفُ هُنا مَوقف قوَّة وشِدَّة وتعظيم لهذا الوَعد، فكانت ﴿حَتَّىٰ﴾ هي الأنسَبَ لهذا الموقف وليس (إلى)؛ لأنَّها لا تحمل معنى التَّعظيم المُراد في هذا السّياق.

دلالة التَّعبير بالفعل ﴿يَأۡتِيَ﴾ دون غيره:

سهولة الإتيان مع دلالة المَجيء على المَشَقَّة والشِّدَّة

آثَرَ النَّظْم الكريمُ التَّعبيرَ بالفعل ﴿يَأۡتِيَ﴾ دون المَجيء؛ لوجود فَرْقٍ بينهما؛ "فالمجيء أعَمُّ من الإتيان، ولأنَّ الإتيان مجيء بسهولة، والإتيان قد يُقال باعتبار القصْد وإن لَم يَكُن منه الحصول، بخلاف المجيء فيُقال اعتبارًا بالحصول"[2]، فالقرآن الكريم، يستعملُ المجيء لِما فيه صعوبةٌ ومشقَّة، أو لِما هو صَعْبٌ وأشَقُّ ممّا تُستعمل له (أتى)، فهو يقول مثلًا: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ﴾ [المؤمنون: 27]، وذلك لأنَّ المجيء فيه مشقَّة وشِدَّة، وقال: ﴿وَجَآءَتۡ سَكۡرَةُ ٱلۡمَوۡتِ بِٱلۡحَقِّۖ﴾ [ق: 19]. وقال ﴿لَقَدۡ جِئۡتَ شَيۡـٔٗا إِمۡرٗا ٧١﴾ [الكهف: 71][3] وهذا يُؤَكِّدُ سهولة الأمر في الفعل ﴿يَأۡتِيَ﴾، ومن الفروق بين هاتَيْن اللَّفظتيْن ما يتعلَّق بالجانب الإيقاعيِّ في نُطْقهما، وذلك أنَّ لفظة (أتى) أخَفُّ في النُّطْق من (جاء) بما فيها من ثِقل المَدِّ وإطالة الصَّوت به ولعلَّ هذا السَّبب هو السِرُّ في أنَّ لفظة (جاء) لَم تأتِ في القرآن إلّا بهذه الصّيغة، بخلاف لفظة (أتى)، فقد جاء الماضي منها، والمُضارع، والأمر، وفي القرآن: (﴿أَتَىٰٓ﴾ ﴿يَأۡتِيَ﴾ ﴿ٱئۡتِ﴾ ﴿يَأۡتُونَ﴾ ﴿فَأۡتِنَا﴾ ﴿فَأۡتُواْ﴾)، بخلاف اللَّفظة الأخرى الَّتي لَم تأتِ في القرآن إلّا بصيغة المُضي، ولا مِراء في أنَّ لفظة ﴿يَأۡتِيَ﴾ أخَفُّ من لفظة (يجيء).

---

(1) المراديّ، الجنى الدّاني في حروف المعاني، ص: 549.

(2) الرّاغب، المُفردات: (أتى).

(3) فاضل السّامرّائيّ، لمسات بيانيّة في نصوص التّنزيل، ص: 97.

وعلى هذا فسِرُّ التَّعبير بالفعل ﴿يَأۡتِيَ﴾ هُنا هو سهولة حصوله للمسلمين، فإذا كان الوَعد المَأتيُّ مضافًا إلى اللّه فهو سَهْلُ التحقُّق يَسيرُهُ.

التّعبير بالمضارع ﴿يَأۡتِيَ﴾ دون الماضي:

الاستمرار واستحضار صورة الوَعد المأمول بفتْح مكَّة

في قوله تعالى: ﴿يَأۡتِيَ﴾ إيثار للتَّعبير بالمُضارع، للدَّلالة على الاستمرارِ واستحضار صورة الوَعد المأمول بفتْح مكَّة، فالفعل المُضارع حَمَلَ في جوْفه معاني البُشرى والفتح، إضافة إلى دلالته على المُستقبَل هُنا بقرينة أنَّه لمّا يأتِ بعدُ، ومن ثَمَّ كان الأنسَبَ هُنا لمُعطيات الآية الكريمة.

بلاغة المَجاز في ﴿حَتَّىٰ يَأۡتِيَ وَعۡدُ ٱللَّهِۚ﴾:

طَمْأنة قلوب المؤمنين المُنْهَكين من محارَبة الكفّار لهم

جاء الوَعد في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَأۡتِيَ وَعۡدُ ٱللَّهِۚ﴾ دالًّا على الفتح والنَّصر وظُهور رسول اللّه ﷺ ودينه على سبيل الاستعارة التَّصريحيَّة، وكأنَّ الوعد آتٍ برِضاه من دون إجبار، وفي تشبيه النّصر بالوَعد طمأنةٌ لقلوب المؤمنين المُنهكين من مُحاربة الكفّار لهم في أرزاقهم وأموالهم، ويمكن أن يكون الوعد على سبيل المَجاز المُرسَل على اعتبار ما سيكون تحقيقًا لا شكًّا وظنًّا.

دلالة التَّعبير بالمصدر ﴿وَعۡدُ﴾:

المُبالغة والقوَّة في المصدر أكثر منها في اسم المفعول

آثَرَ النَّظْم الكريمُ التَّعبيرَ بالمصْدر دون اسم المفعول؛ لوجود فرْقٍ بينهما؛ فالتَّعبير بالمصدر يُقصد به المُبالَغة، لذا جاء المصْدر هُنا (وعْد) دون اسم المفعول (موعود)؛ لأنَّ اسم المفعول يَقبل الشِّدَّة والضَّعف[1]، والمصْدر ليس له طريق إلّا المُبالَغة والقوَّة، فكان هو الأنسَبَ هُنا، لأنَّه وعْدٌ مَحتوم لا مَرَدَّ له، وفيه دلالة على أنَّ ما يُصيبهم حينئذٍ من العذاب أشَدُّ[2].

(1) ابن النّاظم، شرح الألفيّة، ص: 226، وفاضل السّامرّائيّ، معاني الأبنية في العربيّة، ص: 55.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/150.

دلالة التَّعبير عن إتيان العذاب بـ ﴿وَعۡدُ ٱللَّهِۚ﴾:

آثَر التَّعبير القرآنيُّ لفظة ﴿وَعۡدُ﴾ عن (العذاب) لنشْر التَّهكُّم والسُّخرية بهؤلاء؛ لأنَّ الوعْدَ بشارةٌ بخير، واستعمالُه هُنا على سبيل الاستعارة التَّصريحيَّة بِتَشبيه العذاب بالوعْد، انتظارًا منهم لخيرٍ قادِم، مع أنَّ مُستقبَلهم مُظلِمٌ.

التَّهكُّم والسُّخرية من هؤلاء الكفّار

دلالة إضافة الوعْد إلى الله: ﴿وَعۡدُ ٱللَّهِۚ﴾:

يَكتسب المُضاف قوَّته ممّا أُضيف إليه؛ لذا أُضيفت كلِمة ﴿وَعۡدُ﴾ إلى ﴿ٱللَّهِۚ﴾ إشعارًا بالعظَمة والجلال، وتفخيمًا لهذا الوعْد الَّذي سيتحقَّقُ حتْمًا؛ لأنَّ الله هو الَّذي قَدَّر ووَعَد بمَجيء الأمل بعد اليأس، كي لا يظلَّ اليأس مُسَيْطرًا على حركة المسلمين وعلى نُفوسِهم.

تفخيم وتعظيم هذا الوعْد

دلالة فصْل الجملة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ﴾:

فُصِلت هذه الجُملة عمّا قبْلها كي تكون كالمَثَل الَّذي لا يحتاج إلى سابِق أو لاحِق، فتُنطَق وحدَها، ففيها استقلاليَّة وكأنَّها حُكْمٌ عامٌّ بأنَّ الله لا يُخلِف وعْدَه، إذا حقَّقنا أسباب الوعد وصِرْنا أهلًا له.

بيان حُكْمٍ عامٍّ من أحكام الله مع خَلْقه

بلاغة التَّذييل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ﴾:

جاء التَّذييل هُنا مُصَدَّرًا بـ ﴿إِنَّ﴾ تقويةً لقلب الرَّسول ﷺ، ولإزالة الحُزن عنه[1] بسبب ما لاقاه المُسلمون من عَنَت ومَشقَّة على أيْدي الكُفّار، ثُمَّ هي وعيدٌ للكُفّار بأنَّ النَّصر حَليف المُسلمين، لكن النَّصر يحتاج صبْر ساعةٍ.

تقويَة قلب الرَّسول ﷺ وإزالة الحُزن عنه

دلالة التّأكيد في ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ﴾:

التَّأكيد بـ (إنَّ) في نهاية الآية: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ﴾ معناه حتميَّة تحقُّق الوعد تكرُّمًا منه سُبحانه، وإزالة الشَّكِّ في عدَم وقوعه، وقد يكون هذا تهديدًا لهم وتخويفًا من نزول ما وعَدهم الله

حتْميَّة تحقُّق الوعد تفضُّلًا منه سُبحانه

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 19/42.

به على كُفرهم وعِنادهم وظُلْمهم[1]، ويَحتمل التَّأكيد بـ ﴿إِنَّ﴾ هنا مُراعاة لإنكار المُشركين[2] بأنَّ النَّصر سيكون في جانب المسلمين، وقد يكون الدّاعي إلى التَّوكيد الرَّغبة في تقويَة مضمون الكلام عند المُخاطَب وتقريرِهِ في نفْسه، وإن كان غير مُنْكِرٍ له.

دلالة التَّعبير بلفظ الجلالة ﴿ٱللَّهَ﴾:

التَّخويف والزَّجْر للكافرين

آثَر النَّظْم الكريمُ التَّعبيرَ باسم الجلالة ﴿ٱللَّهَ﴾ دون اسم (ربّ)؛ لأنَّه يحمل معنى التَّخويف والزَّجر لهؤلاء المُعاندين، بخِلاف لفظ (ربِّ) ففيه إطماع للكفّار والظّالمين، لأنَّ الرَّبَّ من التَّربية والعطاء لا الزَّجر والتَّخويف، وهذا يُعطيهم إحساسًا بالتَّمادي في غيِّهم وضلالهم، فكان اسم الجلالة ﴿ٱللَّهَ﴾ هو الأخْوَف والأزْجَرَ لهؤلاء.

دلالة إيثار الإظهار في: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾:

تربية المَهابة والخوف في النُّفوس كافَّة

التَّعبير بالاسم الظّاهر ﴿ٱللَّهَ﴾ دون الضَّمير مع أنَّ ذِكر الضَّمير أخَفُّ[3] له فائدتان: الأولى: تربية المَهابة والخوف في النُّفوس كافَّة، فإنَّه المُتَحكِّم في المَصائر، ومحقِّقُ الوعد للمؤمنين والوعيد للكافرين، كما أنَّ إظهار الاسم الجليل للإشارة إلى تعظيم المَوعود وإجلاله[4]، وهذا يعني أنَّ تكرير الاسم في الجملة الواحدة يكون في مَوْضع التَّفخيم[5]. الثّانية: إعادة الاسم دون الضَّمير صورة من صوَر الخروج عن مُقتضى الظّاهر، وهو نَوْع من الإطناب[6]؛ لأنَّه يأتي لزيادة التَّقرير، وتأكيد معنًى من المعاني باللَّفظ نفْسِه، ويقوم

(1) السَّعديّ، تفسير السَّعديّ: 1/418.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/145.
(3) الرّضيّ، شرح الرّضيّ على الكافية: 2/226.
(4) الآلوسيّ، روح المعاني: 2/88.
(5) الرّضيّ، شرح الرّضيّ على الكافية: 2/226.
(6) الزّركشيّ، البرهان في علوم القرآن: 2/482.

على إعادة الكلِمة نفْسها مرَّتيْن أو ثلاثًا، لِما لها من دلالة قويَّة على المعنى المُراد؛ فهي أحَقُّ بالتَّكرير[1].

نُكتة العُدول عن التَّعبير بتَحقُّق الوعد إلى عدَمِ خُلْف الميعاد:

الألوهيَّة مُنافيةٌ لإخلاف الوعد

لَم يَقُل القُرآن الكريم: إنَّ اللّه يُحَقِّقُ الميعاد، وإنَّما قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ﴾ للإشعار بعلَّة الحُكْم، فإنَّ الألوهيَّة مُنافية للإخلاف[2]، كقولك: إنَّ الجوّاد لا يَخيب سائلُه، وكأنَّ النَّفي ردٌّ على مُنْكِرِ الميعاد.

دلالة التّعبير بـ ﴿ٱلۡمِيعَادَ﴾ دون الوعد:

المبالَغة والعموميّة والشّمول

للتَّعبير بالميعاد في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ﴾، دون الوعد فوائد، أوَّلها: كراهة التَّكرار للفظة ﴿وَعۡدُ﴾ باصطفاء ﴿ٱلۡمِيعَادَ﴾، ثانيها: الميعاد أشمَل معنًى من الوعد، فالوعد جزء من الميعاد، وفي الميعاد معنى الوعيد، فضمَّتْ لفظة ﴿ٱلۡمِيعَادَ﴾ المعنَيَيْن: معنى الوعد بخير، والوعيد بعِقاب، ومن ثَمَّ يَنتفي قول مَن يقول: "إنَّ اللّه لا يُخلِف وعْدَه، ويجوز أن يُخلفَ وعيدهُ"[3]، ثالثها: الميعاد مصْدر ميميٌّ، والمصْدر الميميُّ يَحمل معه عُنصر الذّات (النَّفس)[4]، فعندما يقول الحقُّ: ﴿ٱلۡمِيعَادَ﴾ فإنَّه يَحمل ذاتًا مُنتَظرة للميعاد وهي نفوس المؤمنين والكافرين، رابعها: الميعاد مصْدر ميميٌّ بمعنى الحدَث لا بمعنى الزَّمان والمكان وهو اللّائق بمفعوليَّة ﴿يُخۡلِفُ﴾[5]، وكونه ليس بمعنى الزَّمان والمكان دليل على إبهامه وعدَم تحديد وقت له فلا تَعْلمه نفسٌ، قَرُب أو بعد، خامسها: المَصادر الميميَّةُ فيها مُبالَغة وأصلُها أسماء الزَّمان جُعِلَت كناية عن المصْدر[6]، وإن كانت أشدَّ مُبالَغةً من المصْدر.

(1) عبدالرحمن بو درع، نحو قراءة نصّيّة في بلاغة القرآن والحديث، ص: 113.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 2/88.
(3) عبدالله الغنيمان، شرح فتح المجيد: 141/28.
(4) فاضل السّامرّائيّ، معاني الأبنية في العربيّة، ص: 31.
(5) الآلوسيّ، روح المعاني: 2/88.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/142.

سِرُّ إفراد لفظة ﴿ٱلۡمِيعَادَ﴾ لا جمْعها:

استواء كلِّ المَواعيد عند الله تعالى

إيثار إفراد لفظة ﴿ٱلۡمِيعَادَ﴾ لبيان استواء كُلِّ المواعيد عند الله تعالى في السُّهولة واليُسرِ، فليس شيء بصعب وإنَّما كُلُّه هيِّن على الله، وقد يكون ذلك لبيان شِدَّة العدل الَّذي سيكون في الميعاد بحيث يَأخذ كُلُّ فريق حقَّهُ ساعة الميعاد، ويَفترق الكافر والمؤمن ساعتَه.

سِرُّ تعريف ﴿ٱلۡمِيعَادَ﴾ لا تنكيره:

الثِّقة في تحقُّقه وعدالته

جاء تَعريف لفظة ﴿ٱلۡمِيعَادَ﴾ إشارة إلى الوَثاقة في تحقُّقه وحصول العدل فيه، حتّى يكون حاضرًا أمامكم غير غائب، فيَثِق المؤمن بعَطاء الله وعَدْله، ويَنالُ الكافر جزاء ما قدَّم من عملٍ.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيّةُ:

القرآن والكتاب:

الكتاب يشمل كُلَّ ما هو مكتوب من قرآن أو غيره

الكتاب يُطلَق على القرآن، وقد يُطلق على غيره من الكُتب السَّماويَّة كالتَّوراة؛ كما في قوله تعالى: ﴿قُلۡ مَنۡ أَنزَلَ ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِي جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورٗا وَهُدٗى لِّلنَّاسِ﴾ [الأنعام: 91]، وقد جاء الجمْع بينهما - أيْ بين القرآن والكتاب - والمقصود واحد، وهو القرآن، في قوله تعالى: ﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡقُرۡءَانِ وَكِتَابٖ مُّبِينٍ ۝١﴾ [النّمل: 1] فالكتاب هو القرآن، فجمع له بين الصِّفتَيْن: بأنَّه قرآن، وأنَّه كتاب لأنَّه ما يظهر بالكتابة ويظهر بالقراءة[1]؛ إذَن فالكتاب يُطلَق على القرآن لأنَّه مكتوب، ويُطلَق على غيره من الكتب، فالقرآن والكتاب اسْمان عَلَمان للمُنَزَّل على مُحمَّد ﷺ، ووَصْفان لأنَّه يُقرأ ويُكتب، فحيث جاء بلفظ التَّعريف فهو العَلَم، وحيث جاء بلفظ النَّكرة فهو الوصْف[2].

اليأس والقنوط:

القنوط شِدَّة اليأس واليأس أعَمُّ

في الفرْق بين اليأس والقنوط أقوال:

(1) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 13/154.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/207.

الأوَّل: القنوط شِدَّة اليأس، فهو يأس مُفرِط فيكون الفرْق بينهما مثل الفرق بين الدُّعاء والاستغاثة، فالاستغاثة دعاء خاصٌّ في حالة خاصَّة وهي داخِلة في الدُّعاء، فيكون القنوط يأسًا؛ ولكنَّه أعظَم اليأس وأشدُّه[1].

الثّاني: كِلاهما بمعنى قطْع الرَّجاء من رحمة الله، فإنَّ اليأس من مَنَعات القلب والقنوط ظهورُ آثارِه على ظاهر البدَن، جاء في الكشّاف: ﴿فَيَـُٔوسٞ قَنُوطٞ ١٩﴾ [فُصّلت: 49]، بولِغَ فيه من طريقَيْن: من طريق بناء (فَعول)، ومن طريق التَّكرير، والقنوط أن يظهر عليه أثَرُ اليأس فيَتضاءل ويَنكسر؛ أيْ: يَقطَع الرَّجاء من فضل الله ورَوحه، وهذه صِفة الكافر بدليل قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ٨٧﴾ [يوسف: 87][2].

الثّالث: اليأس قد يأتي بمعنى العِلم، وهذا ما ليس في (القنوط) الَّتي تدلُّ على معنًى واحد فقط، ودليل معنى العِلم في اليأس قوله تعالى: ﴿أَفَلَمۡ يَاْيۡـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾[3].

الحلول والنُّزول:

الحُلول نتيجة للنُّزول، ولا يكون الحلول إلّا بنزول

يرى جمعٌ من أهل اللُّغة[4] أنَّ الحُلول هو النُّزول، فلا فرْق بينهما، لكن ابن فارس ذَكر أنَّ (حلَّ) الحاء واللّام له فروع كثيرة ومسائل، وأصلُها كُلّها: فتْحُ الشَّيء، لا يشِذُّ عنه شيء، يُقال: حلَلتُ العُقدة أحُلُّها حلًّا، وتقول العرَب: (يا عاقِدُ اذْكُرْ حلّاً). وحلَّ: نزَلَ، وهو من هذا الباب لأنَّ المُسافر يَشُدُّ ويَعقِد، فإذا نزَلَ حلَّ، يُقال: حلَلتُ بالقوم، وحَليلُ المرأة: بَعْلُها، وحَليلَةُ المَرءِ: زوجُه، وسُمِّيا بذلك لأنَّ كُلَّ واحد منهما يَحلُّ عند صاحبه[5].

(1) العسكريّ، معجم الفروق اللّغويّة، ص: 245.
(2) محيي الدين الدّرويش، إعراب القرآن وبيانه: 6/9.
(3) الدّرويش، إعراب القرآن وبيانه: 6/9.
(4) الجوهريّ، الصّحاح، وابن منظور، لسان العرب: (حلّ).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حلّ).

فنخْلصُ من هذا النَّقل إلى أنَّ الفعلَيْن بينهما اشتراكٌ في أصل المعنى؛ لكن يختَصُّ الفعل (حلّ) بمعنًى زائد؛ وهو الفتح الَّذي ليس في (نزل)، وعبارة ابن فارس: وحلَّ: نزل، وهو من هذا الباب؛ لأنّ المُسافر يشُدُّ ويَعقِد، فإذا نزل حَلَّ، فكأنّ الحلول نتيجةٌ للنُّزول، ولا يكون الحلول إلّا بنزول.

جميع وكلّ:

لفظة (كُلٌّ) أقوى صيَغ العموم، وتختَصُّ لفظة (جميع) بالدَّلالة على اتِّحاد الزَّمن

اللَّفظان من ألفاظ العموم[1]، وإن كانت (كُلّ) "أقوى صيَغه، فمادَّتها تقتضي الاستغراق والشُّمولَ، كالإكليل لإحاطَتِه بالرَّأس، والكلالة لإحاطتها بالوالِد والوَلد"[2]؛ فلهذا كانت أصرَحَ صيَغ العموم لشمولها العاقِل وغيرَه، المُذكَّر والمؤنَّث، المفرَد والمثنّى والجمْع، وهُما "اسمان يَدخلانِ على ما يعقل وعَلى ما لا يعقل"[3].

وصيغة (كُلّ) تكثر إضافتُها[4]، فإنْ أُضيفت إلى نكِرة مُفرَدة فهي لشمول جزئيّاتها كقوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۗ﴾ [آل عمران: 185]، وإن أُضيفت إلى مَعرفة فالغالِب أن يكونَ جمْعًا أو ما في مَعْناه، وتكون لاستغراق جزئيّاته أيضًا، كقوله ﷺ: «كُلُّكم راعٍ وكلُّكم مسؤول عن رعيَّته»[5]، وإن أضيفَت إلى مفرَد مَعرِفة كانت لاستغراق أجزائه، كقولك كلُّ الطَّريق آمِنَة، وقد يُحذف المُضاف إليه فتُنوَّن كما في قوله تعالى: ﴿كُلٞ قَدۡ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسۡبِيحَهُۥۗ﴾ [النّور: 41]، ولفظ (كلّ) يُفيد العموم ابتداءً وتَبعًا، فمثال الأوَّل ما سبَق، ومثال الثّاني قوله تعالى: ﴿فَسَجَدَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمۡ أَجۡمَعُونَ ٣٠﴾ [الحِجْر: 30]، وأمّا لفظ (جميع) فلا يُضاف إلّا إلى مَعرفة، كقولك: (جميع علماء البلد

(1) الرّازيّ، المحصول: 2/394.
(2) أبو المنذر المنياويّ، الشّرح الكبير لمختصر الأصول من علم الأصول، ص: 235.
(3) أبو الحسين البصريّ، المُعتَمَد في أصول الفقه، ص: 191.
(4) عياض بن نامي السّلميّ، أصول الفقه الّذي لا يَسَعُ الفقيه جهله، ص: 299.
(5) رواه البخاريّ من حديث ابن عمر رضي الله عنهما، كتاب الجمعة، بَابُ الجُمُعَةِ في القُرَى وَالمُدُنِ، الحديث رقم: (893).

حاضرون) ويكثر فيها حذْف المُضاف إليه فتُنَوَّن كقوله تعالى: ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [يس: 53]، وإذا جاءت مؤكِّدةً فإنَّها تُنصَب على الحال غالبًا، وذلك كقوله تعالى: ﴿فَكِيدُونِي جَمِيعًا﴾ [هود: 55].

ومن الفروق بين اللَّفظتَيْن أن لفظة (جميع) تدلُّ على اتِّحاد الزَّمن[1]، فإذا قيل: قوم جميعٌ؛ أيْ: مُجتمعون[2]، وهذا لا يُفيده (كلّهم)، فـ(الكُلُّ يُفيد الإحاطة دون الاجتماع)[3].

الوعد والميعاد:

تُجمَل الفروق بين الوعد والميعاد في ما يَلي:

الوعد تَرْجيَةٌ ويكون في الخير والشَّرِّ والميعاد أشمَلُ منه

أوَّلًا: الوَعْد: أصله إنْشاءُ تَرْجية بالخير لإظْهار أمر في النَّفس يوجِب سرور المُخاطَب[4]، وقد يكون في الشَّرِّ، يُقال: وعَدْتُهُ بنفْع وضُرٍّ، وقال الله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ﴾ [إبراهيم: 22]، ﴿أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَٰقِيهِ﴾ [القصص: 61]، ﴿وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا﴾ [الفتح: 20]، ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [المائدة: 9] إلى غير ذلك. ومن الوَعْدِ بالشّرّ: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ﴾ [الحجّ: 47].

ثانيًا: الميعاد أشمل معنًى من الوعد، فالوعد جزء من الميعاد، وفي الميعاد معنى الوعيد، فضمَّت لفظة (الميعاد) المعنيَيْن: معنى الوعد بخير، والوعيد بعِقاب.

ثالثًا: الميعاد مصْدر ميميٌّ، والمصْدر الميميُّ يَحمل معه عُنصرَ الذّات (النَّفس)[5]، وليس (الوعد) هكذا.

(1) مفهوم من كلام ابن هشام عن (أجمعون)، شذور الذّهب، ص: 553.
(2) ابن منظور، لسان العرب: (جمع).
(3) إسماعيل حقّي، روح البيان: 7/391.
(4) الكفويّ، الكلّيّات، ص: 939.
(5) فاضل السّامرّائيّ، معاني الأبنية في العربيّة، ص: 31.

رابعًا: الميعاد مصدر ميميٌّ بمعنى الحدث لا بمعنى الزَّمان والمكان، وكونه ليس بمعنى الزَّمان والمكان دليل على إبهامه وعدَمِ تحديد وقت له فلا تعْلَمه نفْس، قرُب أو بعُدَ.
خامسًا: المَصادر الميميَّة فيها مُبالَغة ليست في المصْدر (الوعد)، وأصلها أسماء الزَّمان جُعلَت كناية عن المصْدر[1].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/142.

﴿وَلَقَدِ ٱسۡتُهۡزِئَ بِرُسُلٖ مِّن قَبۡلِكَ فَأَمۡلَيۡتُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ثُمَّ أَخَذۡتُهُمۡۖ فَكَيۡفَ كَانَ عِقَابِ ٣٢﴾ [الرّعد: 32]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

لمّا طَلَب المشركون في الآيات السّابقة من الرَّسول ﷺ بعض الآيات على سبيل الاستهزاء والسُّخرية وكان ذلك شاقًّا على الرَّسول ﷺ، جاءت هذه الآية تَسليَة له ﷺ وتصبيرًا له على سفاهة قومه[1].

ومنها ما ذُكر في الآية السّابقة على هذه الآية مِن طلَب الكفّار سُخريةً واستهزاء أن تُسيَّر الجبال وتُقطَّع الأرض وتُكلَّم الموتى، وهم يَعلمون أنَّ القرآن ليس لهذا، فلا يكون إلّا سَببًا لنَيْلهم الجزاء الأوْفى من العِقاب والدَّمار، فتأتي هذه الآية تأكيدًا وتَسليَة للرَّسول ﷺ بأنَّه مَسبوق في مسألة الاستهزاء، فهو ليس بأوَّل الرُّسل وإنَّما يَسيرُ عليه ما سارَ على الرُّسُل من قَبْله.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱسۡتُهۡزِئَ﴾: الهُزْءُ: السُّخْرية، يُقال: هَزِئَ بِهِ، يهزَأ بِهِ، واستهزَأ بِهِ؛ أيْ: عامَلَهُ فِعلًا أو قَولًا يحصُل بِهِ احتِقارُه ... سواء أشْعَره بذلك أم أخفاه عنه، وقوله: ﴿وَلَقَدِ ٱسۡتُهۡزِئَ بِرُسُلٖ مِّن قَبۡلِكَ﴾؛ أيْ: فقد سَخرَ الكُفّارُ برُسُلي الَّذين أرسَلْتُهم مِن قَبلِك[2]، والمعنى المحوريُّ: تحرُّكٌ وتحريكٌ قويٌّ بسبَبِ الخِفَّة؛ كما في تحريك الرّاحلة والإسراع، ومن ذلك: هَزِئَ به (كمنع وسمع): سَخِر، كتهزّأ واستهزأ. (وأصل هذا من استخفاف المُستهزِئ بالمستهزَأ به وذهاب قيمته عنده)[3].

2) ﴿فَأَمۡلَيۡتُ﴾: الإملاءُ: الإمهالُ على جِهةِ الاستدراجِ، وهو مِن الملاوَةِ مِن الزَّمَنِ، وأصلُ (ملو): يدلُّ على امتدادٍ في شَيءٍ؛ زَمانٍ أو غيرِه؛ أيْ: أمهلْتُ وأطلْتُ المُدَّةَ[4]، والمعنى

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 10/53.

(2) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (هزأ، هزؤ).

(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (هزأ).

(4) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 228، والسّجستانيّ، غريب القرآن، ص: 472، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (ملا)، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/314.

المحوريُّ: اتّساع ما يجوز شيئًا أو امتداده، كالمُتَّسعِ من الأرض لِما فيه، وكذلك الفلاة، والرَّماد مُمتدٌّ من غيره ويُخْبَز فيه، والفترة المُمتدَّةُ من الزَّمان لمَن يعيش فيها[1].

3) ﴿أَخَذْتُهُمْ﴾: الأخْذُ: حَوْزُ الشَّيء وتحصيله، وذلك تارةً بالتَّناول نحْو: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ﴾ [يوسف: 79]، وتارةً بالقهر نحو قوله تعالى: ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [البقرة: 255]، وهو خِلاف العطاء، ومعناه "تحصيل الشَّيء في الحوزة بسرعة"[2]، ويُقال: أخذَتْه الحُمَّى، وقال تعالى: ﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ﴾ [هود: 67]، ﴿فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْءَاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ ﴿٢٥﴾﴾ [النّازعات: 25]، وقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ﴾ [هود: 102].

4) ﴿عِقَابِ﴾: العِقابُ والمُعاقَبَةُ: مُجازاةُ الرَّجُلِ بالإيلام بما فَعَل مِن السّوءِ، وهي تختَصُّ بالعذاب، يُقال: عاقَبَهُ بذَنْبِه، مُعاقَبَةً، وعِقابًا: إذا أخَذَهُ بِهِ، وسُمّيت بذلك؛ لأنَّها تَتْلو الذَّنْبَ، من تَعَقَّبَهُ: إذا تَبِعَهُ، وتَعَقَّبْتُ الرَّجُلَ؛ أيْ: أخَذْتَه بذَنْبٍ كان مِنْهُ، والجمع: عُقوبات[3]، والمعنى المحوريُّ: لحاقُ غليظٍ بآخِر الشَّيء أو خَلْفه يَنْغَمِس فيه فيمتدُّ معه، كعَقِب القَدَم، وعَقَبُ المَثْنَيْن وما ذُكر معهما[4].

❁ المَعْنى الإجْماليّ:

تسليَة رسول الله ﷺ ببَيان سُنَّةِ الله في المُستهزِئين

تُخبِر الآية الكريمة أنَّ اللّه تعالى قال لرسوله ﷺ: لا يَحزنك أمرُهم ولا يؤلمك استهزاؤهم فقد استهزأ الكُفّارُ برُسُلي الَّذين أرسَلْتُهم مِن قَبلِك؛ فأمهلْتُ الَّذين كَفَروا، مُدَّةً، ثمَّ أحلَلْتُ عليهم عذابي، فلسْتَ أوَّلَ رَسولٍ كُذِّبَ وعوديَ، فاصبِرْ على أذاهم. وفي

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (ملو).
(2) الرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (أخذ).
(3) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (عقب).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (عقب).

هذا إرشاد للنَّبيِّ ﷺ ببيان سُنَّة الله في المكذِّبين، وتسليَةٌ له حتّى لا يَضيقَ قلبُه ذرْعًا، وتبشيرٌ له بالنَّصر وحُسن العاقبة[1].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيّ:

دلالة الواو في: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ﴾:

بيان سخريَة الكُفّار من صاحب الدَّعوة ﷺ

جاءت الواو لتُعطف جملة ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ﴾ على قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ﴾ لِما بينهما من تلازُم، لأنَّ المُثلَ الثَّلاثة (تَسيير الجبال، تكليم الموتي، تشقيق الأرض) الّتي فُرِضت؛ أُريد بها أمورٌ سألها المشركون النَّبيَّ ﷺ؛ استهزاءً وتعجيزًا لا لتَرَقّبِ حُصولها.

دلالة تعقيب الآية السّابقة بهذه الآية:

طبائع الأقوام الكافرة واحدة في الاستهزاء بالرُّسل

عُقِّبت الآية السّابقة ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا﴾ بهذه الآية ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ﴾ تسليّة لرسول الله ﷺ وأنَّه ليس بِدْعًا من الرُّسل في استهزاء قومه منه؛ فقد استهزأ قومُ نوح به عليه السلام: ﴿وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُواْ مِنْهُ﴾ [هود: 38]، واستهزأت عادٌ بهود عليه السلام: ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٨٧﴾﴾ [الشُّعراء: 187]، واستهزأت ثمودُ بصالح عليه السلام: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ﴾ [الأعراف: 66]، واستهزأوا بشُعيب عليه السلام: ﴿قَالُواْ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾﴾ [هود: 87]، واستهزأ فرعونُ بموسى عليه السلام: ﴿أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾﴾ [الزُّخرف: 52][2].

دلالة اللّام في قوله: ﴿وَلَقَدِ﴾:

تأكيد سُخرية الكُفّار من المُرسَلين

اللّام موطِّئة للقَسَم[3]، فهي تمكين للشَّيء في النَّفْس، وتقوية أمره، فكان ذلك تأكيدًا لما أُريد تأكيده وهو السُّخرية من الرُّسل

(1) ابن جرير، جامع البيان: 13/544، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 9/322.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 13/148.
(3) الدّرويش، إعراب القرآن وبيانه: 5/121.

صلوات الله عليهم، وتأنيسًا لرسول الله ﷺ وتعزية، وفي تصدير الجُملة بلام القَسَم وحرْفِ التَّحقيق من الاعتناء بها ما لا يَخفى[1] لزيادة تحقيقِ مضمونها[2].

سِرُّ التَّعبير بـ (قد) مع الفعل ﴿ٱسۡتُهۡزِئَ﴾:

التَّأكيد على وقوع الاستهزاء من الأقوام الكافرة لرُسُلهم

دلَّ التَّعبير بـ (قد) مع الفعل ﴿ٱسۡتُهۡزِئَ﴾ على وقوع الاستهزاء من الأقوام السّابقة، وأكّدَ ذلك بأكثر من مُؤَكِّد لمُجابَهة المُنكِر لِما حدث للرُّسُل الكرام من استهزاء وسُخرية؛ لأنَّ حال مُشركي مكَّة حال مَن يتردَّد في أنَّ سبب هلاك الأُمَم السّابقة هو الاستهزاء بالرُّسل؛ لأنَّهم لو لَم يَتردَّدوا لَأخذوا الحيطة لأنفُسهم ونَظروا في دلائل صِدْق نبوَّته[3].

وفيه زيادة تسليَة للرَّسول ﷺ، فكأنّ (قد) جاءت "لإزالة الشُّكوك وإماطة اللِّثام عمّا أنت بصَدَدِه"[4]، مع مُلاحظة أنَّ (قد) تدلُّ على زمن الحال، مع أنَّ الماضي بعيد عن زمن الحال، لكن الجملة جاءت تنزيلًا له منزلةَ القريب، ليَحصل كمال التَّخويف[5].

سِرُّ التَّعبير بالاستهزاء: ﴿وَلَقَدِ ٱسۡتُهۡزِئَ﴾:

قضيَّة الاستهزاء والمُبالَغة فيه

الفعل (استهزأ) فيه الألف والسّين والتّاء، و(استفعل) فيها الطَّلَب، وكأنَّهم يَطلبون الهُزْءَ بالرُّسل، فهُم مَن يتعمَّدون ذلك، قال الرّاغب: "الاستهزاء ارتياد الهُزء، وإن كان قد يُعَبَّر به عن تعاطي الهُزء، كالاستجابة في كونها ارتيادًا للإجابة، إضافة إلى معنى المُبالَغة"[6] في الفعل فكأنَّ هؤلاء يبالغون مُبالغة لا يَتزحزحون عنها،

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/114.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/68.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 7/147.
(4) العلويّ، الطّراز: 2/176.
(5) السّيوطيّ، معترك الأقران: 3/305.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/147.

ثُمَّ إنَّ الفعل (استهزئ) أخَفُّ من (يسخر) كما قال ابن عاشور[1]، فصار الاستهزاء أمرًا يَسيرًا لا صعوبة فيه، وقد أشار الزَّركشيُّ إلى الفرْق بين السُّخرية والاستهزاء، فقال: "الاستهزاء هو إسماع الإساءة، والسُّخرية قد تكون في النَّفس ولهذا يقولون: سَخِرْتُ منه، كما يقولون: عجِبتُ منه"[2].

ولذلك فالتَّعبير بالاستهزاء هو المُناسِب هُنا دون السُّخرية؛ لأنَّ كُفّار مكَّة يُريدون إلصاق التُّهَم برسول الله ﷺ من غير وجود لها، وكانوا يُعلنون ذلك في أنْديَتهم ومجالسهم.

دلالة بناء الفعل للمفعول ﴿ٱسۡتُهۡزِئَ﴾:

ذلك البناء للتَّحقير، فهُم ليسوا أهلًا للذِّكر، فهو تعريضٌ على نحْو قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلۡمَوۡءُۥدَةُ سُئِلَتۡ ۝٨ بِأَيِّ ذَنۢبٖ قُتِلَتۡ ۝٩﴾[3] [التَّكوير: 8-9] مع أنَّ الفاعل للاستهزاء معروف، وهم كُلُّ الأقوام الَّذين أرسلَ إليهم الرُّسل، مع التَّركيز على عمليَّة الاستهزاء دون المُستهزِئ، وبناء الفعل هنا واشٍ بأنَّ ذلك الاستهزاء صار طبيعة مُتمكِّنةً في الأقوام الَّذين يُرسل لهم الرُّسلُ المُصلحون؛ فلَم يَسلم رسولٌ من ذلك الاستهزاء، فلستَ ببِدْعٍ في ذلك، "والمقصود ممّا سبَق هو ترتّب أثَرِ الاستهزاء لا تعيين المُستهزئين"[4]، إضافة لذلك فالبناء للمفعول دالٌّ على أنَّهم يَطلبون من الآخرين أنْ يهزأ بشخص مُعَيَّن، وهذا عليه إثْمُه وإثم مَنْ أوعز له بالسُّخرية من هذا الشَّخص[5].

التَّركيز على عمليَّة الاستهزاء، وتحقير المُستهزِئ

دلالة إيثار ﴿بِرُسُلٖ﴾ على (بأنبياء):

التَّعبير بالرُّسل في قوله: ﴿وَلَقَدِ ٱسۡتُهۡزِئَ بِرُسُلٖ﴾ فيه فائدتان،

الرُّسل أخَصُّ من الأنبياء

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/147.
(2) الزّركشيّ، البرهان: 3/381.
(3) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 8/523.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/147.
(5) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 12/7350.

الأولى: المُناسَبة اللَّفظيَّة بين اللَّفظة والفعل ﴿أَرۡسَلۡنَٰكَ﴾ في الآية قبل السّابقة عليها، الثّانية: ثَمَّ فرْقٌ بين النَّبيِّ والرَّسول وهو أنَّ الرَّسول أخَصُّ، فكلُّ رسول نبيٌّ؛ وليس كلُّ نبيٍّ رسولًا، فإنَّ الرَّسول يختصُّ بمَن جعله واسطة بينه وبين عباده لتَبْيين أحكامٍ بوحْيٍ مسموع عن مَلَكٍ، والنَّبيُّ قد يُقال لمَن يُجدِّد على النّاس شريعة مَن تقدَّمه وإن كان يوحَى إليه بإلهام أو مَنام[1].

وفيه إشارة إلى أنَّهم إذا كانوا يَستهزئون بالرُّسل، فمن باب أوْلى يَستهزئون بالأنبياء.

دلالة التَّنكير في ﴿بِرُسُلٖ﴾ دون التَّعريف:

بيان عظمة الرُّسُل وكثرتهم

للتَّنكير دلالة التَّعظيم والتَّكثير[2]؛ أيْ: برُسل كثيرة؛ فهؤلاء المُرسَلون هُم قوم مُصطفَوْن من خيار النّاس وأفاضلِهم وأنفَسهم، ومَنبع التَّعظيم أنَّهم الصَّفوة، ومنبعُ الكثرة جمْع الكلمة، والجمع مُفيدٌ للتَّعدُّد، وفيه إشارة إلى أنَّه لَم يَسلم من استهزائهم رسول من الرُّسل عليهم الصَّلاة والسَّلام.

دلالة ﴿مِّن﴾ في قوله: ﴿مِّن قَبۡلِكَ﴾:

تعرُّض الرُّسُل للاستهزاء، وتعرُّضه ﷺ لِما تعرَّضوا له

في قوله: ﴿وَلَقَدِ ٱسۡتُهۡزِئَ بِرُسُلٖ مِّن قَبۡلِكَ﴾: (مِن) ابتدائيَّةٌ مُتعلِّقةٌ بمَحذوف وقَعَ صِفة لِـ(رُسُل)؛ أيْ: وباللّه لقد استُهزئ برُسل أولي شأنٍ خطيرٍ وذَوي عدد كبير كائنينَ من زمانٍ قبلَ زمانك، على حذْف المضاف وإقامةِ المُضاف إليه مقامَه[3]، ودلَّت (من) الابتدائيَّة أيضًا على أنَّ كُلَّ رسول تعرَّض لِما تعرَّضتَ له من بَدء الإرسال، وكأنَّ هؤلاء الأقوام صاروا أهل عَراقة في الاستهزاء والسُّخرية، إضافة إلى أن ﴿مِّن قَبۡلِكَ﴾ يَدُلُّ على جُمْلَةٍ مَطْويةٍ إيجازًا، تقديرها:

(1) الرّاغب، المُفردات: 3/1310.
(2) الخطيب الشّربينيّ، السّراج المنير: 2/505، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/114.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/114.

واستهزأوا بِكَ، ولقد استهزأت أُمَم برُسل من قبلك؛ لأنَّ قوله: ﴿مِّن قَبْلِكَ﴾ يؤذِن بأنَّه قد استُهزئ به هو أيضًا، وإلّا لَم تكُن فائدة في وصْف الرُّسُل بأنَّهم من قبْله؛ فإنَّ ذلك معلوم[1].

دلالة كافِ الخِطاب في: ﴿مِّن قَبْلِكَ﴾:

تكريم الرَّسول ﷺ وتسليَته

الكاف هُنا صورة من صوَر التَّكريم لرسول اللّه ﷺ، وتسلية وتعزية، ومعهما النُّصرة والظَّفَرُ على هؤلاء الكافرين المُعانِدين.

نكتة إيثار الفاء في قوله: ﴿فَأَمْلَيْتُ﴾:

وصْل زمن الاستهزاء بزمن الإملاء

الفاء هُنا دالَّة على مَطْلِ الزَّمن[2] ووَصْل زمن الاستهزاء بزمن الإملاء، فكأنَّها هُنا بمعنى (إلى)[3]؛ أي: استُهزئ بالرُّسل قبْلك من بداية الإرسال إلى الإملاء، وفي هذا التَّأكيد على استمرار الإملاء على الرَّغم من التَّمادي في الكُفر عسى أن يكون منهم المُؤمنون بعدُ، وتكون الفاء هُنا للسَّببيَّة أيضًا؛ فيكون الاستهزاء سببًا في الإملاء؛ والمعنى: "فتَسببَ عن استهزائهم ذلك أنّي أملَيْت"[4] رحمةً أو استدراجًا؛ كما قال ربُّنا ﷻ: ﴿إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًاۖ﴾ [آل عمران: 178]، وقد تكون "للتَّعْقيب دَلالَةً عَلى أنَّ تَقْديرَ هَلاكِهِم حاصِل من وقْتِ تَكْذيبِهِم وإنَّما أُخِّرَ لَهُمْ"[5].

سِرُّ التَّعبير بـ ﴿فَأَمْلَيْتُ﴾ لا (فأمهلتُ):

تَضاعُف العذاب في الإملاء عن الإمهال مع مُصاحَبة الاستدراج

الإملاء أشدُّ من الإمهال كثيرًا، لأنَّه يَتَضاعف به العذاب[6]، ويُصاحِبه استدراجٌ لزيادَة الإثم والخطأ؛ لأنَّ اللّه تعالى يقول: ﴿إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًاۖ﴾ [آل عمران: 178]، وفيه يَحسب المُتلبِّس بالإثم أنَّه قد نجا؛ فيؤخَذ بالعقوبة[7]؛ لذا أوثِرَ.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/147.
(2) الخضريّ، من أسرار حروف العطف في الذّكر الحكيم، ص: 70.
(3) ابن هشام، مغني اللّبيب: 1/162.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/364.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/284.
(6) السّيوطيّ، معترك الأقران: 3/305.
(7) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/284.

دلالة الإسناد في قوله: ﴿فَأَمْلَيْتُ﴾:

حضور صِفة القُدرة والهيمنة مع طمأنة الرَّسول ﷺ

التَّعبير بتاء الفاعل في قوله تعالى: ﴿فَأَمْلَيْتُ﴾ لمُناسَبة ما بعدَها، الفعل ﴿أَخَذْتُهُمْ﴾ بتاء الفاعل أيضًا، وفيه مُخاطَبة للرَّسول ﷺ: ﴿مِّن قَبْلِكَ﴾، فاستمرَّ الحوار بتاء الفاعل أيضًا، ويُصَوِّر الفعل بتاء الفاعل الحضورَ الفاعل لصِفَة القويّ المُقتَدِر، وفيه أيضًا طمأنةٌ للرَّسول ﷺ بأنَّه مَعهُ وناصِره في كُلِّ مراحِل دعْوَته.

دلالة التَّعبير بـ ﴿لِلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ دون (لهُم):

سبب هلاكهم الجمْعُ بين وصْفَي الاستهزاء والكُفر

العدولُ في الصِّلة إلى وصْف الكُفر ليس لأنَّ المُمْلَى لهم غيرُ المُستهزئين، بل لإرادة الجمعِ بين الوَصْفيْن؛ أيْ: فأمليْت للّذين كفروا مع استهزائهم[1]، والتَّعبير بـ (لهُم) يُفوِّت هذي النُّكتة، ثُمَّ إنَّ التَّعبير بالاسم الموصول مع الصِّلة دالٌّ على أنَّ ذلك لِكُلِّ كافر لا لهُم وحدَهم، إضافة إلى أنَّ "وضْع الظّاهر موضع الضَّمير؛ للإيماء إلى أنَّ عِلَّة الإملاء لهم ثُمَّ أخْذهم هو الكُفر بالرُّسل، تعريضًا بالنِّذارة لمُشركي قريش"[2].

سِرُّ التَّعبير بـ ﴿لِلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ دون (الكافرين):

ثبات الكُفر في نفوسهم، واستمساكُهم به

إيثار القرآن للاسم الموصول (الّذين) مع صِلته فيه إيماءة إلى ثبات الكُفْرِ في نفوسهم، واستمساكهم به؛ فلا مجال لتغيير عقيدتهم، فالجُملة الموصوليَّة أفادت الذَّمَّ، فإتْيان الموصول الماضي قُصِدَ به الالتباسُ والاسْتصحاب[3]، إضافة إلى ذلك فالاسم الموصول مع صِلَته يَدُلُّ على اختيارهم الكُفْرَ بإرادتهم من دون تَدَخُّلٍ في اختيارهم، وثَمَّ مَلحظٌ آخَر، وهو مُراعاة التَّناسُب، ذلك أنّ هذا السّياق بكامله وظَّف الاسم الموصول مع صِلته دون اسم الفاعل،

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/24.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/283.
(3) محمّد عبد الخالق عضيمة، دراسات لأسلوب القرآن الكريم: 187/1.

وهذا ظاهرٌ من الآية التّاسعة والعشرين ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، والحادية والثّلاثين ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾، وكذا الثّانية والثّلاثون.

سِرُّ التَّعبير بـ ﴿ثُمَّ﴾:

طول الإمهال رجاء إيمانهم

جاءت ﴿ثُمَّ﴾ في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ﴾ للدَّلالة على التَّراخي وإطالة الأمَد؛ وجاء التّعبير بها في قوله: ﴿ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ﴾ دون غيرها من حروف العطْف لبيانِ أنَّه أمدَّ لهم أمَدًا غيرَ قصير، حتّى ظَنّوا أنَّه لا مُؤاخَذة على ما يفعلون، وغرَّهم الغَرور، وحسبوا أنَّ الدُّنيا قد طابَتْ لهم بحذافيرها[1]، والتَّعبير بـ ﴿ثُمَّ﴾ فيه فرصة لِمَن راجَعَ نفْسَه وعقله ليُدرِك أنَّ ما جاء به الأنبياء حَقٌّ فيؤمِن ويَترُك الكُفر والصُّدود.

دلالة التَّعبير بالأخْذ ﴿ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ﴾:

قوَّة الأخْذ والإشعار بالسُّلطان وشِدَّة الهيمنة

توظيف الأخْذ، فيه فائدتان: الأولى: فيه من الدَّلالة على تَناهي كيفيَّته في الشِّدَّة والفظاعة ما لا يخفى[2]، الثّانية: إشعارهم بالسُّلطان؛ لأنَّ الأخْذ يتضمَّن أنَّهم صاروا غير خارجينَ عن سُلطانه؛ فالأخْذ أقصى ما يَدُلُّ على التَّمكُّن، وأن يكونوا في قبضته يُصرِّفهم كيف يشاء[3].

سِرُّ التَّعبير بتاء المُتكلِّم ﴿أَخَذْتُهُمْ﴾:

شِدَّة الغضب وتحقير الكُفّار مع المُشاكَلة اللَّفظيَّة

فائدة صرْف القول لتاء الفاعل، كما يقول البقاعيّ[4]، دفْعُ الإلباس، وإشارة إلى شِدَّة الغضب، وتوظيفُ تاء الفاعل بدلًا من (نون العظَمة) جاء استصغارًا لهم: ﴿أَخَذْتُهُمْ﴾؛ أيْ: أهلكْتُهم وهم صاغِرون؛ غضَبًا عليهم وإهانة لهم، إضافة إلى المُشاكَلة اللَّفظيَّة بتاء الفاعل بيْن الفِعليْن ﴿أَخَذْتُهُمْ﴾ و﴿فَأَمْلَيْتُ﴾، ثُمَّ ياء المُتكلِّم في ﴿عِقَابِ﴾؛ أيْ: عِقابي.

(1) محمّد أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 8/3955.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/24.
(3) محمّد أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 8/3955.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/10.

دلالة الفاء في قوله: ﴿فَكَيۡفَ﴾:

اتِّحاد وقت العِقاب مع الاستفهام

دلَّت الفاء العاطفة في قوله تعالى: ﴿فَكَيۡفَ﴾ على مَدى مُطابَقة الاستفهام لكيفيَّة الأخْذ؛ فكأنَّ حَقَّ ذلك الاستفهام أن يَحصل عند ذِكر الأخْذ[1]، كما دلَّت الفاءُ على السَّببيَّة؛ لبيان أنَّ الكُفْرَ سبب العِقاب بعد الإمهال الطَّويل لهؤلاء الكفّار الصّادّينَ عن دعوة الأنبياء.

سِرُّ الاستفهام بـ ﴿فَكَيۡفَ﴾ دون غيرها:

تشابُه الأحوال والأطْوار مع دلالات التَّعجُّب والوَعيد

في التَّعبير بـ ﴿فَكَيۡفَ﴾ تنبيه على أنَّ حال مَن استهزأ بك - وإن أُمهلَ - حال أولئك الأقوام الغابرين في أخْذِهم، وهذا وَعيد لهم، وأنَّ حالَكَ حال مَن تَقدَّمك من الرُّسل[2]، استهزاءً وسخريةً، والاستفهام معناه التَّعجُّب بما حَلَّ، وفي ضِمنه وعيدُ مُعاصِري الرَّسول ﷺ من الكفّار[3]، فهو سؤال لا يحتاج إلى جواب، فلقد كان عِقابًا تتحدَّث به الأجيال.

دلالة ﴿كَانَ﴾ في قوله: ﴿فَكَيۡفَ كَانَ﴾:

الدَّلالة على الاستمرار المُنذر بالتَّهديد والوعيد

في قوله تعالى: ﴿فَكَيۡفَ كَانَ﴾ آثر النّظم القرآنيُّ الإتيانَ بـ ﴿كَانَ﴾ للدَّلالة على الاستمرار[4]، فهي ماضٍ مع دلالته على الدَّوام، فضمَّت زمَنَيْن: الماضي والحاضر، فهي تُشير إلى اقتران مضمون الجملة بالزَّمان الماضي من غير تَعرُّض للانقطاع، كقوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ١٦﴾ [النّساء: 96]، ولذلك يُعبَّر عنها بأنَّها تُرادِف (لَم يَزَل)[5]؛ لمُحاوَلة التَّخويف والإيعاد بطول العِقاب وشِدَّته فحدوثه ماضيًا لا يعني انقطاعَه وتوقُّفَه في الحاضر.

دلالة التَّعبير بـ ﴿عِقَابِ﴾ دون غيره:

دخول العذاب في معنى العِقاب مع دلالة التَّهديد

في قوله: ﴿فَكَيۡفَ كَانَ عِقَابِ﴾ إشارة إلى أنَّ الجزاء من جنس

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/284.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 6/392.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 6/393.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/239.
(5) الدّرويش، إعراب القرآن وبيانه: 6/100.

العمل، لأنَّ مُسمَّى العِقاب إنَّما يُراد به في الغالب أخْذٌ بعذاب مُناسب لحال المُجرِم إثْرَ مَعصيته وعَقيبَ جريمته[1] مع اختصاص لفظة ﴿عِقَابِ﴾ بالعذاب في القرآن كما أشار الرّاغب[2]، فالعذاب داخل في مفهوم العقاب، مع دلالة العقاب على التَّهديد والوعيد لِكُلِّ مَن يَفعل ذلك؛ لأنَّ الاعْتِقاب معناه أن يَتَعاقب شيءٌ بعدَ آخَر كاعْتِقاب اللَّيل والنَّهار[3]، فدلَّ اللَّفظ على أنَّ مَن استهزأ بالرُّسل عوقِب، فكأنَّه ﷻ وعَده ﷻ بعقوبة مَن استهزأ به ﷺ إن أصَرَّ على ذلك[4].

دلالة حذْف الياء في قوله: ﴿عِقَابِ﴾:

الهيمنة والقُدْرة المُطلَقة، مع مُراعاة رؤوس الآي

حُذفت الياء في قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ لوجود ما يَدُلُّ عليها، والمحذوف مع وجود ما يدلُّ عليه يكون كالمذكور في دلالة المعنى، ولموافقة رؤوس الآي فكلُّها يَنتهي بالياء المكسورة، وكسر الباء دالٌّ عليها، وثَمَّ مَلْحظ ذكَرَه البقاعيُّ[5]، وهو أنَّ حذْف ياء المُتَكلِّم إشارة إلى أنَّ أدْنى شيء من عِقابه وبأدنى نِسْبَةِ كافٍ في المُراد، وإنْ كان المُعاقَبَ جميعُ العِباد، بدليل ما أصاب الأُمَم السّابقة من غرق وخسْف وصاعقة ونحْو ذلك.

توجيه المُتشابِه اللَّفظيّ في الآيات:

المَوضِع الأوَّل: بين قوله تعالى: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ﴾ [الأنعام: 10].

إنَّ النّاظر في الآيتَيْن يجِدُ اتِّفاقًا في صدْر كُلٍّ منهما مع اختلاف العَجُز؛ ففى سورة الأنعام جاء التَّعبير بقوله: ﴿فَحَاقَ﴾ [الأنعام: 10]،

(1) الغرناطيّ، ملاك التّأويل: 2/281.
(2) الرّاغب، المفردات: (عقب).
(3) الرّاغب، المُفردات: (عقب).
(4) الآلوسيّ، روح المعاني: 4/96.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/10.

لأنَّه سَبَقَهُ قوله تعالى: ﴿فَقَدْ كَذَّبُواْ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُاْ مَا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝٥﴾ [الأنعام: 5]؛ فالمُلاحظ أنَّه ﷺ أمهلَهم وأنذرهم بعاقبة أمرِهم؛ لذلك كان التَّعبير بالفعل ﴿فَحَاقَ﴾ [الأنعام: 10] هو المُناسب؛ لأنَّ الحَوْق إزالة؛ فكان العِقاب في الأنعام أشَدَّ؛ لأنَّ السُّخرية كُفر وزيادة، إضافة إلى أنَّ السّياق في سورة الأنعام سياق طويل استغرَقَ نحو السَّبعين آية حول الكُفّار وعِنادهم؛ لذا كان العذاب أشدَّ، أمّا سورة الرَّعد فالإمهال موجود؛ طَمَعًا من المسلمين في إيمانهم وتَكْثيرهم سوادَ المُسلمينَ؛ لذا عبَّر بـ ﴿فَأَمْلَيْتُ﴾ وفيها إنظار، والسّياق في سورة الرَّعد لَم يتطاول تطاولَ السّياق في الأنعام فاختلف الجزاءُ، وقد يكون التَّغاير من باب تعدُّد أنواع العذاب، وتعدُّد المواقف، فقوم يُعذبون ويُهلكون، وقوم يُمهَلون لمشيئةٍ ما، فتغايَر النَّظمُ.

الموضع الثّاني: ﴿فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾، وقوله: ﴿فَأَمْلَيْتُ لِلْكَٰفِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ۝٤٤﴾ [الحجّ: 44]:

العِقاب أشَدُّ مَوقعًا من النَّكير؛ لأنَّ الإنكار يَقَع على ما لا عِقاب فيه بالفعل وعلى ما فيه العقاب بالفعل، وأمّا مُسَمَّى العقاب، فإنَّما يُراد به في الغالب أخْذٌ بعذاب مُناسِب لحال المُجرم إثْر معصيته وعَقيب جريمتِه، وقد تقدَّم في آية الرَّعد قوله تعالى: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ﴾، والاستهزاء أمر مرتَكَب زائدٌ على التَّكذيب من التَّهاون، والاستخفاف بجريمة مرتكَبة أشنَعُ جريمة، فناسَبها الإفصاحُ بالعقاب. أمّا آية الحَجِّ فإنَّ الوعيد (بها) للمَذكورين بالتَّكذيب ولَم يُذْكر منهم استهزاء، قال تعالى: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ۝٤٢ وَقَوْمُ إِبْرَٰهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ۝٤٣ وَأَصْحَٰبُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ﴾ [الحجّ: 42 - 44]، فلَم يخبر عن هؤلاء بغير التَّكذيب ليس كالاستهزاء، فقد يُؤمن المُكذِّب ويَصلح حالُه، أمّا المُستهزئ فلا يصلح، وقد كفى اللّه نبيَّه إيّاهم، قال تعالى: ﴿إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ۝٩٥﴾ [الحِجر: 95]، فناسَب النَّظم تعقيب كلِّ آية بما يُناسب مرتَكب مَن قدّم، ولَم يكن عكس الوارد ليناسِب[1].

(1) الغرناطيّ، ملاك التّأويل: 2/281.

الفُروقُ المُعْجَمِيّةُ:

الاستهزاء والسُّخرية:

الاستهزاء استفعال في الطَّلب، فكأنَّ فاعلَه يَطلُب الهُزْء، فهو مَن يتعمَّد ذلك، قال الرّاغب: الاستهزاء ارتياد الهُزْء، وإن كان قد يُعبَّر به عن تعاطي الهُزْء، كالاستجابة في كونها ارتيادًا للإجابة، إضافة إلى معنى المُبالَغة[1] في الفعل فكأنَّ هؤلاء يبالِغون مُبالغة لا يتزحزحون هُنا عنها، ثُمَّ إنَّ الاستهزاء أخفُّ من السّخرية كما قال ابن عاشور[2]، فصار الاستهزاء أمرًا يسيرًا لا صعوبة فيه، وقد أشار الزَّركشيُّ إلى الفرْق بين السُّخرية والاستهزاء، فقال: "الاستهزاء هو إسماع الإساءة، والسُّخرية قد تكون في النَّفس، ولهذا يقولون: سخِرْتُ منه، كما يقولون: عجِبْتُ منه"[3].

الاستهزاء مُبالَغة في السُّخرية

وممّا يُذكر في الفرْق بينهما أنَّ بعض عُلماء اللُّغة فرَّقوا بينهما من ناحية التَّركيب؛ فيُقال: (سخر منه، وهزئ به)؛ فاقترن فعل السُّخرية بحرْف الجرِّ (من)، واقترن فعل (الاستهزاء) بحرْف (الباء)، وآيات القرآن تؤكِّد ذلك فغالب استعمال القرآن للفعل (سخر) جاء مُتعدّيا بحرْف (مِن) الدّالِّ على الاعتداء، وفعل الاستهزاء تعدّى بحرْف الباء الّذي يَدُلُّ على الإلصاق.

وممّا يُذكر في الفرْق أيضًا أنَّ السُّخرية توصَف بالشِّدّة ووجود سبب يَدعو إليها بينما الاستهزاء لا يقتضي وجود سبب يدعو إليه، وإنَّما هو إلصاقُ للعَيب والذَّمِّ بمَن لا يستحقُّه حَسَدًا أو حِقْدًا[4].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/147.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/147.
(3) الزّركشيّ، البرهان: 3/381.
(4) محمّد داوود، معجم الفروق الدّلاليّة، ص: 284.

الإملاء والإمهال:

الإملاء أشدُّ كثيرًا من الإمهال، لأنَّه يَتضاعف به العذاب[1]، ويُصاحِبه استدراج لزيادة الإثم والخطأ؛ لأنَّ اللّه تعالى يقول: ﴿إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًاۖ﴾ [آل عمران: 178]، وفيه يَحسب المُتلبِّس بالإثم أنَّه قد نجا؛ فيُؤخَذ بالعقوبة[2].

الإملاء أشَدُّ من الإمهال

العِقاب والعذاب:

مُسمَّى العقاب إنَّما يُراد به في الغالب أخْذٌ بعذاب مُناسب لحال المُجرم إثْر معصيته وعَقيب جريمته[3] مع اختصاص لفظة ﴿عِقَابِ﴾ بالعذاب في القرآن كما أشار الرّاغب[4]، فالعذاب داخل في مفهوم العقاب، مع دلالة العقاب على التَّهديد والوعيد لِكُلِّ مَن يفعل ذلك؛ لأنَّ الاعْتقابَ معناه أن يَتعاقب شيْء بعد آخَر كاعتقاب اللَّيل والنَّهار[5].

العذاب داخل في مفهوم العقاب، والعقاب فيه دلالة على التَّهديد والوَعيد

(1) السّيوطيّ، معترك الأقران: 3/305.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/284.
(3) الغرناطيّ، ملاك التّأويل: 2/281.
(4) الرّاغب، المُفردات: (عقب).
(5) الرّاغب، المُفردات: (عقب).

﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْۗ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلْ سَمُّوهُمْۚ أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي ٱلْأَرْضِ أَم بِظَٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِۗ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ مَكْرُهُمْ وَصُدُّواْ عَنِ ٱلسَّبِيلِۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ٣٣﴾ [الرّعد: 33]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

لمّا ذَكرت الآيات السّابقة قُدْرته ﷻ على رفْع السّموات وخفْض الأراضين ونصْب الأدلّة على وحدانيته بباهِر الآيات البيِّنات، وقُدْرتَه على الثّواب والعِقاب، وأنّ ذلك ليس لأحد سواه، ناسَب أن تأتيَ هذه الآية للتّأكيد على وحدانيّته ورفْض عبادة الأصنام والأوثان؛ فقال سبحانه: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْۗ﴾ الآية.

ومن المناسبة أيضًا: لمّا ذَكر اللّه الوعيدَ للكافرين والجوابَ عن اقتراحهم الآياتِ على رسول اللّه ﷺ، أوْرَدَ تعالى على المشركين في هذه الآية ما يَجري مجرى الحِجاج عليهم، وما فيه توبيخ لهم وتعجيب من عقولهم، وكيف أنّها وصلَتْ إلى حدٍّ لا ينبغي لعاقل أن يَقبلَه ولا يرضى به فقال: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْۗ﴾[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿قَآئِمٌ﴾: القائم: الحافظ لكلِّ شيءٍ، والمُعطي له ما به قِوامُهُ، وذلك هو المعنى المذكور في قوله، ﴿قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ﴾، فهو تعالى مُتولّيها ومُدبِّرُها في جميعِ شُؤونها في الخَلْقِ والأجَلِ والرِّزْقِ، والعالِم بأحوالها وأعمالها[2]، والمعنى المحوريُّ: انتصاب الشَّيْء إلى أعلى ثابتًا، كَقامَة الإنسان، وقيامِهِ، وثَبات الدّابَّة، والماء في مكانه[3].

2) ﴿بِمَا كَسَبَتْۗ﴾: الكَسْبُ: الجَمْعُ والتَّحصيلُ، تقول: كَسَبتُ مالًا، واكتسبتُه كسْبًا واكتسابًا؛ أيْ: جَمعْتُه وحصّلتُهُ، وأصلُه: الطَّلَب والسَّعي، ويأتي بمعنى الشَّيء المُكتَسَب،

(1) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 13/107.
(2) السّجستانيّ، غريب القرآن، ص: 373، والرّاغب، المفردات: (قوم).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (قوم).

وفِعل الشَّيْء بالجارحة، ومعنى ﴿بِمَا كَسَبَتْ﴾؛ أيْ: بما عَمِلَتْ مِنْ خَيرٍ أو شَرٍّ، فلا تَخفَى على اللّه تعالى خافيَةٌ، فيُثيبها إن أحسَنَت، ويُعاقبها إن أساءَتْ[1]. والمعنى المحوريُّ: جَمْع الشَّيء وتحصيلُه (شيئًا بعد شيء) بجُهْدٍ ما أخذًا من حيث كان: كما تأخذ الجوارحُ (الكلابُ والطّيورُ المُعلَّمة الصَّيدَ) فرائسَها (مرَّةً بعد أخرى)، وكما يُجمع المالُ من مظانّه (شيئًا بعد شيء)، ومنه: الكَسْب: طَلَبُ الرِّزق[2].

3) ﴿سَمُّوهُمْ﴾: الاسْمُ: اللَّفظ الدّالُّ على الشَّيء، ويأتي بمعنى اللَّفظ الدّالّ على معنى في نفْسه. وأصلُه مِن السُّموِّ، وهو: العُلوّ، أو مِن السِّمَة، وهي: العَلامَة. ومعنى ﴿سَمُّوهُمْ﴾؛ أيْ: سَمّوا مَن له صِفات يَستحِقُّ بها الأُلوهيَّة، وهذا على سبيل الإنكار عليهم؛ لأنَّه ليس للأصنام أسماء الخالِقين ولا صِفاتهم[3]، والمعنى المحوريُّ: ارتفاع الشَّيء أو شخوصه مُلتَئمًا ظاهره وأعلاه على ما تحْتَه: كالسَّماء المُلتئمة كالسَّقف فوقَنا، وكسَقْف البيت عليه، وأعلى الفرَس دونَه بدنُه وقوائمُه[4].

4) ﴿أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ﴾: النَّبَأُ: خبَر ذو فائدة عظيمة يحصل به عِلمٌ أو غلبة ظَنٍّ، ولا يُقال للخبر في الأصل نبأ حتّى يتضمَّنَ هذه الأشياء الثَّلاثة، تقول: نَبَأ ونَبَّأ؛ أيْ: أخْبَر، والمعنى: أتُخبرونَ اللّه بِشركاء لا وجودَ لهُم في الأرض؟[5]، والمعنى المحوريُّ: ظهور أو طُروء مَسبوق أو مكنوفٌ بخفاءٍ ما[6].

5) ﴿بِظَٰهِرٍ﴾: الأصل في (الظّاهِر): الواضِحُ البَيِّنُ، ويأْتي بِمعنى البارِزِ والمُنْكَشِف، غير أنَّ له هاهُنا تفسيرَيْن؛ أحدهما: أنَّه كلامٌ ظاهر، وليس له في الحقيقةِ باطِن ومعنى رُجوع إلى حقيقةٍ، والثّاني: أنَّ معناه الباطل الزّائل، من قولهم: ظهر عنّي هذا العَيب؛ أيْ: لَم يَعلق بي ونبا عنّي، ومنه قول أبي ذؤيْب[7]: (وتِلْكَ شَكاةٌ ظاهِرٌ عَنْكَ عارُها)؛ أيْ:

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن سيده، المحكم، وابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس: (كسب).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (كسب).
(3) الخليل، العين، وابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس: (سمو).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (سمو).
(5) الجوهريّ، الصّحاح، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (نبو).
(6) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (نبأ).
(7) البيت من بحر الطَّويل، في ديوان الهذليّين: 1/21، وصدْره: وَعَيَّرَهَا الوَاشُونَ أَنّي أُحِبُّهَا.

باطل وزائل[1]، والمعنى المحوريُّ: بُروزٌ من أثناءٍ أو باطنٍ إلى سَطْح، مع شِدَّة وغِلَظٍ أو قوَّة، كالظَّهر من الأرض، ومن الحيوان والإنسان وكظَواهر الأوديَة والجبل بالنِّسبة لِما دونها[2].

6) ﴿زُيِّنَ﴾: الزَّيْنُ نَقيضُ الشَّيْنِ، وزانَهُ وزَيَّنَهُ بمعنًى، وهو تَصْيير الشَّيْء زَينًا؛ أيْ: حَسَنًا؛ أيْ: زَيَّنَ لهم الشَّيطانُ جَعْلَ تلك الأصنام والأوثان والشُّركاء آلِهةً تُعبد من دون الله، وقيلَ: الَّذي زَيَّنَ للكافِرينَ مَكْرَهُمُ الله تَعالى[3]، والمعنى المحوريُّ: زيادةٌ محببةٌ تعلقُ بظاهر الشَّيء (ناشئة) عمّا يَزخر به باطنُه، كعُرف الدّيك ونبات الأرض عليها، وثمرة النَّخلة لها[4].

7) ﴿مَكْرُهُمْ﴾: المَكْرُ: صَرْفُ الغَير عمّا يقصِدُه بحيلةٍ، وذلك ضربان: مَكرٌ محمودٌ، وذلك أن يتحرَّى بذلك فِعل جميلٍ، وعلى ذلك قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ۝٥٤﴾ [آل عمران: 54]، ومذمومٌ، وهو أن يتحرَّى به فعل قبيح، وعلى ذلك قوله: ﴿بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ مَكْرُهُمْ﴾، والمُراد به هُنا: كفرُهم ومسالكُهم الخبيثة ضدَّ الإسلام والمسلمين[5]، والمعنى المحوريُّ: اختزانُ رقيقٍ أو لطيفٍ في الأثناء فتكْتَنز به ولا يَبرز متميِّزًا. كاختزان الحبوب في البيوت، والماء في أثناء الأرض، والشَّحم في السّاق المُلتفَّة، والنَّدى في الرّطبة الصُلْبة، ومنه المَكْرُ وهو (احتيال في خُفية)، فالمكر هو تدبير (يخْفى ويُخْتَزَن) لأحْداثٍ أو أُمور لِتَقَعَ في المُستقبَل على نحْوٍ ما، فاختزان هذه الخطوات المُعَدَّة للمُستقبل هو المكْر (ومَأْخذ هذا من الأصل واضح)، ويكون ذلك التَّدبُّر لخير أو لشرٍّ، وأقرب ألفاظِهم له هو الكيْدُ[6].

المَعْنى الإجْماليّ:

تُبيِّنُ لنا الآية الكريمةُ لَونًا مِن الحِجاجِ مع المُشركينَ، يتضَمَّنُ توبيخًا لهم، وتعجيبًا مِن عُقولِهم، فيقولُ سُبحانه: أفمَن هو قائِمٌ على شُؤونِ جَميعِ العِبادِ - مِن أرزاقٍ وغيرِها - رقيبٌ على ما يَكسِبونَه مِن أعمالٍ، حافِظٌ لها، ومُجازٍ عليها، كمَن ليس كذلك مِن

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (ظهر).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (ظهر).
(3) الجوهريّ، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (زين).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (زين).
(5) الرّاغب، المفردات: (مكر).
(6) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (مكر).

تَوبيخ المشركين وإثبات الوحدانيَّة

هذه الأصنام؟!، وجَعَلوا للّه شُرَكاءَ مِن خَلْقِه يَعبُدونَهم، قلْ لهم - يا مُحمَّدُ: سمّوهم بالأسماءِ الَّتي يَستحقّونَها ما دُمْتُم جعَلْتموهم شركاءَ للّه، ولن يَجِدوا ما يَجعَلُهم أهلًا للعبادةِ، أم تُخبِرونَ اللّه بشُرَكاءَ في أرضِه لا يعلَمُهم، أم تُسَمّونَهم شُرَكاءَ بظاهرٍ مِن اللَّفظِ مِن غيرِ أن يكونَ لهم حقيقة! بل حُسِّنَ للكُفّارِ قَولُهم الباطِل، وصُرِفوا عن سبيلِ اللّه، ومَن يُضِلّه اللّه فلا أحدَ يهديه، ويأخذُ بيدِه إلى الحَقِّ والرَّشادِ[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيّ:

استحقاقه للعبادة دون سواه وأدلَّة ذلك

دلالة فصْل ﴿أَفَمَنْ هُوَ﴾:

فُصِل قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْۗ﴾ عَمّا قبْله؛ لأنَّه يجري مجرى الحِجاج على الكفّار، وذلك بما تقرَّر من إثبات قُدْرته تعالى وقيّوميَّته على خَلْقه وأنَّ الأصنام والأوثان ليس لها وجود حتّى تُعبد من دون اللّه.

إنكار المُساواة بين الخالِق والمَخلوق

غرض الاستفهام في: ﴿أَفَمَنْ﴾:

غرض الاستفهام في قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ﴾ إنكارٌ تلك التَّسويَة المُفاد من لفظ شُركاء[2]، وفي ثنايا الإنكار يأتي التَّعجُّب والتَّهكُّم من هذا الفعل المُستغرَب، فالمُساواة بين الخالق والمخلوق أمر تتجنّبه العقول السَّليمة، فالاستفهام اتِّهام لعقول الكافرين؛ لأنَّها وصلتْ إلى حدٍّ لا ينبغي لعاقل أن يقبله ولا يرضى به.

إنكار تَوَهُّم المُماثَلة بين الله ومخلوقاته

سِرُّ التَّعبير بالفاء في: ﴿أَفَمَنْ﴾:

في قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ﴾ أُدخلت الفاء لتوّجيه الإنكارِ إلى تَوهُّم المُماثلة بعدما عُلم مِمّا فَعل تعالى بالمُستهزئين، من الإملاء المديدِ والأخذ الشَّديد، ومن كون الأمرِ كُلّه للّه تعالى وكونِ هداية

(1) ابن جرير، جامع البيان: 13/545، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 9/322.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/148.

النّاس جميعًا منوطةً بمشيئته تعالى، ومن تواتُر القوارعِ على الكَفَرة إلى أنْ يأتيَ وعدُ الله، كأنَّه قيل: آلأمْرُ كذلك؟ فمَن هذا شأنُه، كما ليس في عِداد الأشياء حتّى تُشرِكوه به[1].

دلالة حذْف خبَر ﴿أَفَمَنْ﴾:

التَّحقير وضَعف الإيمان

الخبر في قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ﴾ محذوفٌ دلّت عليه جملة ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ﴾. والتَّقدير: أمَن هو قائمٌ على كُلِّ نفس ومَن جعلوهم به شركاء سواء في استحقاق العبادة؟! ودَلَّ على هذا التَّقدير ما تقتضيه الشَّركة في العبادة من التَّسوية في الإلهيَّة واستحقاق العبادة[2]، والغرض من الحذْف الدَّلالة على تحقير الشَّريك المُدَّعَى، بحيث لا يليق أن يُذكَر مع صفات الله وقيّوميَّته، وإنَّما حسُن حذفه كون الخبَرِ مُقابِلًا للمبتدأ، وقد جاء مبيّنًا كقوله تعالى: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ﴾ [النَّحل: 17][3].

دلالة تفريعات الفاء في: ﴿أَفَمَنْ﴾:

تماسُك الآيات مع بيان كُفرهم وشِدَّة غبائهم

الفاء في قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ﴾ تفريع على جُملة ﴿قُلْ هُوَ رَبِّي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ المُجاب به حكاية كُفرهم المضمَّن في جُملة ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ﴾؛ فالتَّفريع في المعنى على مجموع الأمرَيْن: كفرهم بالله، وإيمان النَّبيِّ ﷺ بالله. ويجوز أن تكون تفريعًا على جملة ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ﴾، فيكون تَرَقّيًا في إنكار سؤالهم إتيان معجزة غير القرآن؛ أيْ: إن تعجَب من إنكارهم آيات القرآن فإنَّ أعجَب منه جَعْلهم القائم على كُلِّ نفْس بما كسبت مُماثلًا لمَن جعلوهم لله شركاء[4].

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/24.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/148.
(3) الخطيب الشّربينيّ، السّراج المنير: 2/161.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/148.

سِرُّ العدول عن اسم الجلالة في: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ﴾:

تخطِئة أهل الشِّرك وبيان غَباوتهم

العدول عن اسم الجلالة إلى الموصول في قوله: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ﴾ بسبب أنَّ في الصِّلة دليلًا على انتفاء المُساواة، وتخطِئةً لأهل الشِّرك في تشريك آلهتِهم لله تعالى في الإلهيَّة، ونداءً على غباوتهم، إذ هُم مُعترفون بأنَّ الله هو الخالق والمُقدِّر باعتقادهم ذلك هو أصل إقامة الدَّليل عليهم بإقرارهم، ولِما في هذه الصِّلة من التَّعريض[1].

دلالة الضَّمير في قوله: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ﴾:

اتِّساع المعنى وتَغايُره مع دلالة تعظيم كلٍّ

عبَّر البيان القرآني بالضَّمير دون غيره في قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ﴾ لاتِّساع المُراد به؛ فيجوز إطلاقه عليه سُبحانه؛ فإنَّه المتولّي لأمور خَلْقه المُدَبِّر لأحوالهم بالآجال والأرزاق، وإحصاء الأعمال على كُلِّ نفْس من الأنفُس كائنة ما كانت، وقد يَدُلُّ الضَّمير على الملائكة الموكَّلين ببني آدم[2] فالملائكة قائمة عليهم تُحصي أعمالَهم في كتاب، فكان توظيف الضَّمير مُفيدًا في اتِّساع المُراد به.

نكتة الاستغناء عن تقدير مُعادِلٍ للهمزة:

قوَّة الحذْف لانحصار تقدير المحذوف

في قوله: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ﴾ جاء سِرُّ الاستغناء استخفافًا به، وهوانًا له، وتنزيهًا لله سُبحانه أن يُقارَنَ به شيء من خَلْقه، أو من ضلالات خَلْقه، ولهذا جاء النَّظْم القرآنيُّ عارضًا قُدْرة الله، وأنَّه القاهر فوق عِباده، القائمُ على كُلِّ نفْس بما كسبَتْ، ضارِبًا عن ذِكْرِ الآلهة الَّتي افتراها المُفترون، وعبَدَها المُشركون الضّالّون[3]، وكذلك فقد استُغنيَ عن تقديرٍ مُعادلٍ للهمزة، لأنَّ هذا المُقدَّر المَدلول عليه بدليل خاصٍّ أقوى فائدة من تقدير المُعادل الَّذي حاصله أن يُقدَّر: أم مَن ليس كذلك[4].

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/148.
(2) الشّوكانيّ، فتح القدير: 3/99.
(3) عبد الكريم الخطيب، التّفسير القرآنيّ: 7/129.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/148.

دلالة التَّعبير بالوصْف ﴿قَآئِمٌ﴾:

بيان الرّعاية مع الإحاطة والمُراقَبة

في قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ﴾ تَعني كلمة (قائم على الأمر) أنَّه هو الَّذي يُدبِّره، ولا تَخْفَى عليه خافية، وجاء الحقُّ سُبحانه هُنا بصيغة القيام؛ كي نَعلَم أنَّ الحَقَّ سُبحانه لا يُدير الأمر من حالة قعود؛ بل يُديره وهو قائم عليه، فَكُلُّ أمر هو واضح عنده غير خَفيٍّ، وهو سُبحانه قائم على كُلِّ نفْس بما كسبتْ إنْ خيرًا فخيْر، وإنْ شرًّا فَشَرّ، ولكنَّكم أيُّها الكافرون المُشركون لا تَملِكون لأنفُسكم ضرًّا ولا نَفْعًا؛ فهل يمكن لعاقل أنْ يساويَ الَّذي يقوم على أمر كُلِّ نفْس بغيره مِمَّن ليس كذلك؟[1]، وعبارة أبي حيّان: "وعبَّر بـ (قائم) عن الإحاطة والمُراقَبة الَّتي لا يغفل عنها"[2]، وهذا دليل على قيّوميَّته سُبحانه على خَلْقه.

دلالة تَعدّي ﴿قَآئِمٌ﴾ بحرْف الجرِّ ﴿عَلَىٰ﴾:

بيان المتابَعة والملازَمة والعِلم

تَعدَّى لفظ ﴿قَآئِمٌ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ﴾ بحرْف الجَرِّ ﴿عَلَىٰ﴾ المُفيدِ للاستعلاء المَجازيِّ، وأصله من القيام وهو المُلازَمة كقوله: ﴿إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا﴾ [آل عمران: 75] لتَضمُّنه معنى الرَّقيب، وعلى ذلك فالمُراد بمعنى ﴿قَآئِمٌ﴾ القائم على الشَّيْء الرَّقيب، فيَشمل الحفظ والإبقاء والإمداد، ويَجيءُ من معنى القائم أنَّه العليم بحال كُلِّ شيء؛ لأنَّ تمام القيّوميَّة يتوقَّف على إحاطة العِلْم[3]، ولمّا كان القيام دالًّا على الاستعلاء أوضَحَهُ بقوله: ﴿عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ﴾[4].

سِرُّ التَّعبير بِاسْم الفاعل ﴿قَآئِمٌ﴾:

دلالة الثَّبات على الحفظ والقُدرة

يدلُّ اسم الفاعل ﴿قَآئِمٌ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ﴾ بصيغته على الثَّبات مُقارَنة بالفعل المضارع، فاسْم الفاعل أشَدُّ ثباتًا

(1) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 7356/12.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/392.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/148.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/347.

على الأمر من المُضارع (يقوم)[1]؛ وكذا قولنا: (قائم) أكثر مُراقَبة وحياطَةً مِن (هو يَقوم)، فدلَّ ذلك على فضْل القُدرة والكلاءَة مع الهيمنة والسَّيطرة.

دلالة التَّعبير بـ ﴿كُلِّ نَفْسٍ﴾ في هذا السّياق:

بيان العِلم بِكُلِّ الكُلّيات والجُزئيّات

دَلَّ التَّعبيرُ على أنَّ اللّه تعالى هو القادر على كُلِّ شيء، العالِم بجميع المعلومات من الجزئيّات والكُلّيات[2]، وفي هذا تَرهيب وتحذير للكافرين من مُعارَضة الرَّسول ﷺ سواءٌ أكانت هذه المُعارضة ظاهريَّة أم باطنيَّة.

سِرُّ اختيار ﴿نَفْسٍ﴾ دون (مَخلوق):

إبراز التَّكريم، وتعدُّد المعاني

في قوله: ﴿كُلِّ نَفْسٍ﴾ الأنفُس من مخلوقاته وهو قائم على الكُلِّ؛ أيْ: مُحيط به؛ لِتُقرِّب المَوعظة من حِسِّ السّامع[3]، إضافة إلى الإشارة إلى تَعدُّد استعمالات الكلمة، فهي بمعنى الذّات؛ أي: الفَرد من النّاس، وذلك في الجمهور الأعظم من مواضع وُرودها، مع لَمْح الحقيقة والباطن، لأنَّ هذه الحقيقة هي مَناط التَّعامل مع اللّه ﷻ، والبدَن تابع، وبمعنى باطن الذّات كما في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾ [يوسف: 53]، وقد تَدُلُّ على الغيْب كما في قوله تعالى: ﴿تَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِي وَلَآ أَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِكَۚ﴾ [المائدة: 116] كما أنَّ النَّفس حقيقةُ الحَيِّ وهو مِن دونها لا شيء، كما يُلمح من لفظة (النَّفس) التَّكريمُ والرِّعاية؛ لأنَّ الشَّيءَ إذا كان قَيِّمًا قيل: شيءٌ نفيس؛ أيْ: يُرغب فيه لخطَرِه[4]، فكان التَّعبير بـ (نفْس) أمْلأ للفائدة.

ومِمّا يُذكر في هذا المقام أنَّ التَّعبير بـ ﴿نَفْسٍ﴾ من باب التَّخصيص والتَّعيين؛ لأنَّه جزءٌ من المَخلوقات؛ لأنَّ المخلوقات أعَمُّ

(1) فاضل السّامرّائيّ، معاني الأبنية في العربيّة، ص: 41.
(2) الخطيب الشّربينيّ، السّراج المنير: 2/161.
(3) ابن عطيّة، المُحرّر الوجيز: 3/314.
(4) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (نفس).

والأنْفُس أخَصُّ، ولأنَّ المقام هُنا مقام المحاسَبةِ والمُساءَلة؛ فالمُراد هُنا أنْفُس البشَر؛ لأنَّ بعضَ المُخلوقات لا تدخل في مقام المُحاسَبة.

دلالة الإضافة في قوله تعالى: ﴿كُلِّ نَفْسٍ﴾:

استغراق كلِّ أفراد الجنس مع المراقَبة

في قوله تعالى: ﴿كُلِّ نَفْسٍ﴾ إضافة ﴿كُلِّ﴾ إلى كلمة ﴿نَفْسٍ﴾، وهي نكِرةٌ تُفيد استغراق كُلِّ فرْد من أفراد الجِنْسِ[1]، وهُنا تَظْهَر القُدْرة المُطلَقة على مراقَبة كُلِّ نفْس مهْما كانت، ففي الإضافة إحاطَةٌ.

دلالة الباء في قوله: ﴿بِمَا كَسَبَتْ﴾:

المعيَّة الإلهيَّة حاضرة على الدَّوام في كُلِّ عمل

دلَّت الباء في قوله: ﴿بِمَا كَسَبَتْ﴾ على المُلابَسة، وهي في موقع الحال من (نفْس) أو من (قائم) باعتبار ما يقتضيه القيام من العِلم؛ أيْ: قيامًا مُلابِسًا لِما عَمِلَته كُلُّ نفْس؛ أيْ: قيامًا وِفاقًا لأعمالها من عمل خير يقتضي القيام عليها باللُّطف، والرِّضى فتظهر آثار ذلك في الدُّنيا والآخرة، أو الغضب والبلايا[2].

سِرُّ التَّعبير بـ ﴿كَسَبَتْ﴾ دون غيرها:

الكسْب أخَصُّ من العمل والفعل

الكسْب فيه إصابة[3]، واجتهاد في التَّحصيل، وقصْديَّةٌ للعمل، فالمعنى المحوريُّ له: جمع الشَّيء وتحصيله شيئًا بعد شيء بِجهْدٍ ما أخْذًا من حيث كان[4]، أمّا الفعل فيخْلو من هذه المعاني، فقد يكون باجتهاد وبغير اجتهاد، فكان التَّعبير بالكسْب أخَصَّ من التَّعبير بالعمل أو الفعل، وفيه تنبيه على بعض حالاتها؛ أيْ: النَّفْس وهو الكسْب، ليتفكَّر الإنسان فيما يكسب من خير وشرٍّ، وما يترتَّب على الكَّسب في الجزاء[5]، ويُضاف إلى ذلك أنَّ مُعظَم مَواطن الكسْب جاءت في وصْف الكافرين أو الفاسقين الَّذين تجرَّأوا على المعصية

(1) ابن هشام، مغني اللّبيب: 1/99.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/148.
(3) سيبويه، الكتاب: 2/241.
(4) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (كسب).
(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/392.

فصاروا لا يُبالون بها[1]، وقد جاء هذا المَوْطن في سياق الحديث عن الكفّار والمُعانِدين.

سِرُّ اختيار ﴿كَسَبَتۡ﴾ دون (اكتَسبت):

عمومية الكَسْبِ، وخصوصيَّة الاكتساب

الكسْب أعمُّ من الاكتساب لأنَّ الكسب ينقسم إلى كسْبِ الإنسانِ لنِفْسه ولغيره، والاكتساب لا يكون إلّا ما يَكتسب الإنسانُ لنفْسه خاصَّة[2] فكان الاكتساب جزءًا من الكَسْبِ، وفي هذا إحاطة عِلْمِ اللّه بِكُلِّ كبيرة وصغيره يَكسبها العبْد، ومن ذلك أنَّ الكَسْبَ الأصل فيه أن يَكون في الخير، وقد يأتي في الشَّرِّ، كما في قوله تعالى: ﴿بَلَىٰۚ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً﴾ [البقرة: 81]، أمّا الاكتساب فلا يكون إلّا في فعل السّوء، قال تعالى: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَعَلَيۡهَا مَا ٱكۡتَسَبَتۡۗ﴾ [البقرة: 286].

دلالة التَّعبير بالماضي ﴿كَسَبَتۡ﴾:

الإشارة إلى تمام الوُقوع والانتهاء منه

سِرُّ التَّعبير بالفعل الماضي ﴿كَسَبَتۡ﴾ جاء تحقيقًا للأمر، وتَثبيتًا له[3]، فالكسب ثابت مُنْتهٍ أمْره، مع مُناسبة الفعل لِما قبْله، ولما بعدَه، فقَبلهُ الأفعال الماضية ﴿ٱسۡتُهۡزِئَ﴾، ﴿فَأَمۡلَيۡتُ﴾، وبعده ﴿وَجَعَلُواْ﴾، فالكسب حَصَلَ وثبتَ أمرُه.

دلالة تَعَدُّد معاني الواو في: ﴿وَجَعَلُواْ﴾:

تعدُّدُ قُبحهم وسوء صنيعهم في كلِّ معنى

لِلواو وظائف في هذا السّياق، فقد تكون عاطفة تعطف الفعل (جعل) على (كسبَت)، وقد تكون استئنافيّة، والاستئناف إخبار عن سوء صنيعهم، وكونهم أشركوا مع اللّه ما لا يَصلح للألوهيَّة، فَنَعى عليهم هذا الفعل القبيح، وقد تكون للحاليَّة، وتقديره: ﴿أَفَمَنۡ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفۡسِۭ﴾ موجود، وقد جعلوا للّه شركاء[4].

(1) هنداوي، الإعجاز الأسلوبيّ في القرآن، ص: 191.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 7/115.
(3) ابن جنّي، الخصائص: 3/334.
(4) الإيجيّ، تفسير الإيجيّ: 2/275، وأبو حيّان، البحر المحيط: 6/392.

سِرُّ اختيار الفعل ﴿وَجَعَلُواْ﴾ دون غيره:

بيان خِفَّة وسفاهة عقولهم وسيطرة العادات الباطلة عليهم

سِرُّ الجعل جاء في معرض بيان خفَّة عقولهم، كاشفًا عن وجه هذه المعبودات الَّتي يعبدونها، وأنَّها من صُنع أيديهم، أو من مواليد أوهامهم وضلالات عقولهم، فهى مجعولَة؛ أيْ: مصنوعة، أو مختلقة: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُۖ﴾ [النَّجم: 23][1]، فالجعل أصله حِسّي بمعنى الوضع والصِّناعة والتَّصيير[2]، فالفعل دالٌّ على سفاهة العقل وعراقة الجهل.

دلالة التَّعبير بالماضي ﴿وَجَعَلُواْ﴾:

بيان ثبات الجعل والتَّمهيد للسُّخرية بعدها

توظيف الماضي دالٌّ على تثبيت الجعل وتأكيده، فليس الأمر حادثًا أو مُستمرًّا وإنَّما هو ثابِت ثَبات اعتقادهم، وإضافة إلى هذا أنَّ المضارع لا يصلح هُنا؛ لأنَّ الماضي تمهيدٌ لِما بعدَه ﴿قُلْ سَمُّوهُمْۚ﴾، وهذا الأمر ﴿سَمُّوهُمْۚ﴾ لا يحسُن أن يُقال إلّا إذا انتهوا من عمليَّة الجَعل، فكان الماضي مُمَهِّدًا لجملة التَّبكيت والسُّخرية في الفعل ﴿سَمُّوهُمْۚ﴾.

دلالة إظهار اسم الجلالة ﴿لِلَّهِ﴾:

تخصيص الاسم لدفع اللَّبس والوَهم

إظهار اسم الجلالة إظهارٌ في مقام الإتيان بضمير ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ﴾، وفائدة هذا الإظهار التَّعبير عن المُسَمَّى بِاسْمه العَلَم الَّذي هو الأصل؛ إذ كان قد وقَع الإيفاء بِحَقِّ العُدول عنه إلى الموصول في الجملة السّابقة، فتهيَّأ المقام للاسم العَلَم، وليكون تصريحًا بأنَّه المُراد من الموصول السّابق زيادة في التَّصريح بالحُجَّة[3]، وللتَّنصيص على وحدانيَّته ذاتًا واسمًا وللتَّنبيه على اختصاصه باستحقاق العبادة[4].

(1) عبد الكريم الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 7/129.
(2) ابن منظور، لسان العرب: (جعل).
(3) عبد الكريم الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 7/129.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/24.

دلالة تقديم ﴿لِلَّهِ﴾ على ﴿شُرَكَآءَ﴾:

الإصرار على الإشراك وتعمُّده

جاء التَّقديم على إرادة التَّفسير إثْرَ الإبهام لزيادة التَّقرير والإحكام[1]، إصرارًا منهم على الكُفْرِ، مع ما فيه من التَّخصيص بالتَّقديم فالشَّريك للّه وحده، وفي هذا نداء منهم على الغباوة وعَراقة الإشراك.

سِرُّ التَّعبير بـ ﴿شُرَكَآءَ﴾ دون أنداد:

الاعتراف بالإله مع وجود آلهة أخرى تُعبد

تعبير البيان القرآنيِّ بالجمع ﴿شُرَكَآءَ﴾ يعني أنَّهم مُقِرّون بوجود الخالق، لكن مع الخالق آلهة أخرى تُعبَدُ، كي تقرِّبهم هذه العبادة إلى اللّه، أمّا (أنْداد): فجمع نِدٍّ، وهو المُضاهي والمُماثِل والمُعاند[2]، وهم لا يُريدون المُضاهاة والمُماثَلة، فكان التَّعبير بـ ﴿شُرَكَآءَ﴾ أنسَبَ.

نكتة الجمْع دون المُفْرَد: ﴿شُرَكَآءَ﴾:

وصْف لحالهم مع المُناداة عليهم بالغباوة والتَّناهي في ضَعف الجمْع

نكتة التعبير بالجمع ﴿شُرَكَآءَ﴾ هُنا هي توصيف الجمْع لحالتهم المُزرية، فهُم لَم يتَّخذوا شريكًا واحدًا يَعكفون عليه، وإنَّما كَثُرَ الشُّركاء، فصار لِكُلِّ طائفة شريك، كاللّات والعُزّى ومَناة، وفي الجمع نعيٌ على قباحة تفكيرهم، وسوء مُتَّجههم، وتنبيهٌ على غفلتهم، ثُمَّ إنَّ الجمع هُنا يُناسِب ما بعدَه ﴿سَمُّوهُمْۚ﴾، فكان الجمع مُمَهِّدًا لفعل الأمر ﴿سَمُّوهُمْۚ﴾، وفيه أنَّ الجمع مع ما فيه من الكَثرة هو جمْعٌ مُتَناهٍ في الضَّعف والقِلَّة تُجاه إله واحد عظيم لا شريك له.

دلالة فصْل جملة ﴿قُلْ سَمُّوهُمْۚ﴾:

عجز الشُّركاء وضَعف عقول المُشركين

فُصلت هذه الجُملة عمّا قبْلها؛ لأنَّها استئنافيَّة أُعيد معه الأمر بالقول لاسترْعاء الأفهام لِوَعْي ما سَيذْكرُ "فكأنَّه قيل: فماذا يُفعل بهم؟ فقيل: ﴿قُلْ سَمُّوهُمْۚ﴾ بأسمائهم الحقيقيَّة، فإنَّهم إذا سمَّوْهم وعُرفتْ حقائقُهم أنَّها حجارة أو غير ذلك

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/150.
(2) السّيوطيّ، معترك الأقران: 2/535.

مِمّا هو مَركز العجْز ومحلُّ الفَقر، عُرف ما هُم عليه من سخافة العقول ورَكاكة الآراء"[1].

نُكتة التَّعبير بالقول ﴿قُلْ﴾ دون غيره:

جَذْبُ الانتباه مع دلالة المَعيَّة

التَّعبير بـ ﴿قُلْ﴾ فيه فوائد، الأولى: استئنافٌ أُعيدَ معها الأمر بالقول لاستِرْعاء الأفهام لوَعْي ما سيُذكر[2]، الثّانية: إلماحَة إلى وقوف اللّه بجانب رسوله في تبليغ الدَّعوة.

دلالة الأمر في قوله: ﴿قُلْ﴾:

أمْرُ الله لرسوله بتبليغ الدَّعوة ومساندته له

في الفعل فائدتان، الأولى: بيان أثَرِ القول في تحطيم الفِكر الثّابت في نفوسهم، وهَزِّ الأرض من تحت أقدامهم بعد إطلاق لِسانه البليغ في حرْبه ضدَّهم، الثّانية: تقوية قلب الرَّسول ﷺ وإعلامُ المُشركين بأنَّ اللّه مُلَقِّنٌ رسولَه كلَّ حُجَّة لإبطال ادِّعائهم الكاذب في أصله.

سِرُّ التَّعبير بقوله: ﴿سَمُّوهُمْۚ﴾ دون غيره:

عدَمُ الاعتداد بالأصنام، وإبراز سخافة عقول الكفّار

قوله تعالى ﴿سَمُّوهُمْۚ﴾ إشارة إلى أنَّها كلمة جامعة، وقد تضمَّنَت ردًّا عليهم، فالمعنى: سمّوهم شركاء فليس لهم حظٌّ إلّا التَّسمية؛ أيْ: دون مُسمَّى الشَّريك، فالأمر مُستعمَل في معنى الإباحة، كناية عن قِلَّة المُبالاة بادِّعائهم أنَّهم شركاء، مثل: ﴿۞قُلْ كُونُواْ حِجَارَةً﴾ [الإسراء: 50]، وكما تقول للّذي يُخطئ في كلامه: قُلْ ما شئتَ، والمعنى: إنْ هي إلّا أسماء سمَّيْتموها لا مُسمَّيات لها بوصْف الإلهيَّة؛ لأنَّها حجارة لا صفات لها من صِفات التَّصرُّف، وهذا كقوله تعالى: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍۚ﴾ [يوسف: 40] وقوله: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ﴾ [النّجم: 23]، وهذا إفحام لهم وتَسْفيهٌ لأحلامهم بأنَّهم ألَّهوا ما لا حقائق لها،

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/347.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/149.

فلا شُبْهة لهم في ذلك، كقوله تعالى: ﴿أَمْ جَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُواْ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْۚ﴾ [الرّعد: 16][1]، وفيه أيضًا تَحَدٍّ لهؤلاء المُشركين أن يَكشفوا عن وجْه هذا الخِزي الَّذي في أيديهم، وأن يَضَعوا لهذه المواليد أسماءً تُعرف بها! فكَما استَوْلَدوا هذه الآلهة من ضلالاتهم، كان عليهم أن يَضَعوا لِكُلِّ مولودٍ اسمًا[2].

دلالة التَّعبير بالضَّمير (هُم) عن الشُّركاء:

الإهانة والاستهزاء بالآلهة المزعومة

عبَّر النَّظْم الكريمُ عنهم بضمير (هُم) الدّالِّ على العاقل على حسب زعْمهم وأوْهامهم، وإلّا فهي حجارة لا تَضُرُّ ولا تنفع، ولا تعقل ولا تُدرِك[3]، وفيه تبكيتٌ لهم إثْرَ تبكيتٍ؛ أيْ: سمّوهم مَن هُم وما أسماؤهم، أو صِفوهم وانظروا هل لهم ما يَستحقّون به العبادة ويستأْهِلون الشِّرْكة[4].

دلالة التَّعبير بـ ﴿أَمْ﴾ دون (أتنبّئونه):

بيان الإنكار والتَّوبيخ لأفعالهم القبيحة

﴿أَمْ﴾ المُنقطعة، جاءتْ للإضراب الانتقاليِّ، ودَلَّت على أنَّ ما بعدها في معنى الاستفهام، وهو استفهام يُفيد الإنكارَ والتَّوبيخ؛ أيْ: أتُنَبِّؤنه بشيء لا يَعلمه، والمعنى ما كان لكم أن تَفْتروا على الله فتَضَعوا له شركاء مُفترينَ على الله الكذب.

سِرُّ التَّعبير بالنَّبأ دون الخبَر ﴿تُنَبِّـُٔونَهُۥ﴾:

عظَمة النَّبأ وأهمّيته عن الخبر

النَّبأ خبر ذو فائدة عظيمة يحصل به عِلْم أو غلبة ظَنٍّ، وحقُّه أن يَتعرَّى عن الكذب[5]، ففي التَّعبير بالنَّبأ هُنا دلالة على عِظَم الموقف مع عظَم الكذب، فكأنَّه سُخرية ممّا قالوا بجَعْله نبأ في معتقدهم، وما قالوه ليس بشيء، فكان التَّعبير بالنَّبأ مُجاراةً لعقولهم القاصرة واستهزاءً بهم.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/148.
(2) عبد الكريم الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 7/129.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 8/3956.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/24.
(5) الرّاغب، المفردات: (نبأ).

دلالة التَّعبير بالمُضارع ﴿تُنَبِّـُٔونَهُۥ﴾ دون غيره:

استحضار صورة تنبيئهم والسَّعي المُتواصل لهم

المُضارع دالٌّ على الدَّوام والاستمرار، واستحضار صورة تنبيئهم، فكأنَّهم لا يَفترون عن التَّنبيءِ، ليلهم ونهارهم، وفي هذا دليل على شِدَّة تَمَسُّكهم بعبادتهم وأصنامهم الَّتي اتَّخذوها، فالتَّنبيء المُتواصِل دلالة سيْطرة الفِكرة على عقولهم، وتَنبيءُ "عالِم السِّرِّ والخَفيّات بما لا يَعلمه مُحالٌ على مُحال"[1].

نُكتة الإضمار في قوله: ﴿تُنَبِّـُٔونَهُۥ﴾:

الإيجاز والبُعد عن اللَّبس

يُؤتى بالضَّمائر كُلِّها لضرب من الإيجاز، والاحتراز من اللَّبس؛ لأنَّ الضَّمير يُستغنى به عن الاسم بكامله[2]، أمّا اللَّبْسُ فقد انتَفى عند ذِكْرِ ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ﴾، فكان الفعل ﴿تُنَبِّـُٔونَهُۥ﴾ بالضَّمير عائدًا على أقرب مَذكور وهو اللّه ﷻ.

دلالة التَّعبير بـ ﴿بِمَا﴾:

تحقير تلك الآلهة الباطلة

التَّعبير بـ ﴿بِمَا﴾ في قوله: ﴿بِمَا لَا يَعْلَمُ﴾ يحمل سُخرية واستهزاءً بالمُدَّعي؛ لأنَّ (ما) في الأصل اسم موصول لغير العاقل؛ وفي هذا اتهامٌ للآلهة المزعومة بأنَّها ليست جديرة بأن تُذكر ذِكر العُقلاء، لأنَّها في مصافٍّ غيرهم، إضافة إلى ذلك فإنَّ (ما) أكثرُ إبهامًا من غيرها كالاسْم الموصول (الَّذي)؛ فالاسم (ما) دالٌّ على تَحْقير ما اتَّخذوه من الشُّركاء.

بلاغة التَّعبير القرآنيّ في نفْي الشُّركاء:

تقرير سَعَة عِلم الله ونفْي وجود الآلهة

قوله: ﴿بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ هذه الجملة القرآنيَّة كناية عن غير الموجود؛ لأنَّ ما لا يَعلمه اللّه لا وجود له، إذ لو كان موجودًا لَم يَخْفَ على عِلْم العلّام بِكُلِّ شيء[3]، وفي ذلك إظهار لجَهلهم

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/152.
(2) ابن يعيش، شرح المفصّل: 2/21.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/148.

بصِفات الخالق ﷻ، وفيه نفْي الشَّيء بإيجابه أو عكس الظّاهر وهو من مُتطرّفات عِلم البيان، وحقيقة هذا النَّفي أنَّهم ليسوا بشُركاء وأنَّ اللّه لا يَعلمهم كذلك لأنَّهم - في الواقع - ليسوا كذلك، وإن كانت لهم ذوات ثابتة يعلمها اللّه، إلّا أنَّها مَربوبة حادثةٌ لا آلهة معبودة، ولكن مَجيء النَّفي على هذا السَّنن المتلوّ بديعٌ لا تكاد تُكْنَهُ بلاغتهُ[1].

سِرُّ التَّعبير بالعِلم لا المعرفة في: ﴿بِمَا لَا يَعۡلَمُ﴾:

هوان الآلهة المزعومة لعدَمِ استحقاق العِلْمِ بها

العِلم إدراك الشَّيء بحقيقته وجوهره[2]، أمّا المَعْرِفَةُ فلا يُشترط فيها هذا؛ فاللّه عالِم لا عارف، وهذا يعني أنَّ اللّه عالِمٌ بِكُلِّ الحقائق والجزئيّات والكلّيّات، لا عارف فقط فالتَّعبير بالعِلم يُراد به نفْي الآلهة "بنفي لازِمها على طريق الكناية؛ لأنَّه سُبحانه إذا كان لا يَعلمها وهو الَّذي لا يَعزُب عن عِلمه مثقال ذرَّة في الأرض ولا في السَّماء فهي لا حقيقة لها أصلًا"[3]، كما يجوز أن يكون نفي العِلم هُنا عن الآلهة الَّتي اتَّخذوها، وتقدير الكلام: أتنبِّئون اللّه تعالى بشركة الأصنام الَّتي لا تتَّصف بعِلمٍ ألبَتَّة[4]، فيكون نفي العِلم هُنا مُتَّجِهًا للأصنام لا للّه.

سِرُّ نفْي العِلم في ﴿ٱلۡأَرۡضِ﴾ دون السَّماوات:

بيان جهلهم والتَّعريض بغباوتهم

سِرُّ التَّقييد زيادة في تجهيلهم، والتَّعريض بغباوتهم؛ لأنَّه لو كان يَخفى عن عِلمه شيء لَخَفي عنه ما لا يُرى، ولَما خفيت عنه موجودات عظيمة بزَعْمكم، وفي سورة يونُس ﴿قُلۡ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعۡلَمُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ [يونس: 18]؛ زيادة في التَّعميم[5]،

(1) الدّرويش، إعراب القرآن وبيانه: 5/129.
(2) الرّاغب، المفردات: (علم).
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/152.
(4) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/152.
(5) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/152.

وفيه إشارة إلى أنَّ هذه الآلهة الَّتي أطلَقوا عليها تلك الأسماء، هي من العالَم الأرضيِّ، من أحجارِه، أو حيواناته[1]، كما أنَّ ذِكْرَ نفْي العِلم في الأرض، وهي مَقَرُّ تلك الأصنام، يَدُلُّ على انتفاء عِلمها في المقرِّ الَّتي هي فيه، فانتفاؤه في السَّماوات أحْرى[2]، إضافة إلى أنَّ تخصيص الأرض بالذِّكر لأنَّها المُشاهَدَة القريبةُ، وإلّا فقد عبدوا الشِّعْرَى والعَبور، وعَبدوا الشَّمس إلى غير ذلك[3].

دلالة ﴿أَمْ﴾ في: ﴿أَم بِظَٰهِرٖ مِّنَ ٱلۡقَوۡلِۖ﴾:

الإضراب عن الكلام السّابق مع التّوبيخ

دلَّت ﴿أَمْ﴾ على الإضراب عن الكلام السّابق عليها، مع دلالتها على الاستفهام التَّوبيخيّ الَّذي يُنبِّهُهُم إلى فساد قولهم[4] وادِّعاءاتهم وبيان كذبهم وبُهتانهم، فما دامَ قد ثبتَ أنَّه لا حقيقة لأصنامهم الَّتي يَعبدونها، فأوصافهم لا تُثبت ألوهيَّة - بل لا تثبِتُ وجودًا - لها نفْع وضَررٌ[5].

سِرُّ اختيار التَّعبير ﴿بِظَٰهِرٖ﴾:

سطحيَّة فِكْرِ المشركين وتفاهة عقولهم

في التّعبير بـ ﴿بِظَٰهِرٖ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَم بِظَٰهِرٖ مِّنَ ٱلۡقَوۡلِۖ﴾ إشارة إلى أنَّ هذه الأسماء الَّتي أطلَقوها على آلهَتهم هي كلمات لا معنى لها، وإنَّما هي أصوات، تَبدو في ظاهرها كأنَّها كلام، أمّا باطنها فأجْوَف لا شيء فيه، فليس له معنًى وحقيقةٌ، وهذا احتجاج بليغ على أسلوب عجيب يُنادي على نفْسِه بالإعجاز[6].

البلاغة في فنّ الاسْتِدراج:

الحثُّ على التَّفكير والمُراجَعة

في قوله: ﴿أَم بِظَٰهِرٖ مِّنَ ٱلۡقَوۡلِۖ﴾ يبرُزُ فنُّ الاستدارج، وذلك لحثِّهم

(1) عبد الكريم الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 7/129.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/392.
(3) السّيوطيّ، معترك الأقران: 3/306.
(4) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 8/3956.
(5) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 8/3958.
(6) الخطيب الشّربينيّ، السّراج المنير: 2/161.

على التَّفكير دون القول المجرَّد من الفِكْر، كقوله في مكان آخَر: ﴿ذَٰلِكَ قَوۡلُهُم بِأَفۡوَٰهِهِمۡۖ﴾ [التّوبة: 30] ﴿مَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسۡمَآءً سَمَّيۡتُمُوهَآ﴾ [يوسف: 40]، وهذا الاحتجاج من أعجَبِ الأساليب وأقْواها[1].

الاحتجاج على كُفرهم ومَكرهم

سِرُّ التَّعبير بـ ﴿بَلۡ﴾: ﴿بَلۡ زُيِّنَ﴾:

مجيء (بل) في قوله ﷻ: ﴿بَلۡ زُيِّنَ﴾ للإضراب والاحتجاج عن القول، والأمر أنَّهم زُيِّن لهم ما هُم عليه بوَهْمٍ توهَّموه وخيالٍ تخيَّلوه، وكان ذلك الخيال أساسَ مَكْرِهم وتدبيرهم ضِدّ الحَقِّ وأهل الإيمان، وبه صُدّوا عن السَّبيل، وصَدّوا غيرَهم عن الطَّريق السَّويِّ[2]، فهو إضراب عن الاحتجاج عليهم.

الإشارة إلى الخداع والإيهام

سِرُّ التَّعبير بالتَّزيين: ﴿بَلۡ زُيِّنَ﴾:

توظيف ﴿زُيِّنَ﴾ آتٍ من كون التَّزيين كُلِّه من الحِليَة الظّاهرة[3]، وكأنَّ التَّزيين خِداع ومواراةٌ حتّى يَحسبه المُزَيَّن له - بِاسْم المفعول - هو طريق النَّجاة فإذا هو الهلاك بعَيْنه، مع المكْر، وهو أشَدُّ الخِداع، فجاء الفعل (زيّن) مع الزّينة الظّاهرة وهي أيضًا خادعة موهِمة، فكانت المُناسَبة بين الفعل ونائب الفاعل حاضرةً.

التَّركيز على عمليَّة التَّزيين مع تعدُّد المُزيِّنين

سِرُّ التَّعبير بالبناء للمفعول: ﴿زُيِّنَ﴾:

يتجلّى سِرُّ التَّعبير بالبناء للمفعول في قوله: ﴿زُيِّنَ﴾ في أنَّ الكلام جرى بعدَه بتَرْك تَسْمية الْفاعِل ليَأْتلف الكلام على نِظام واحِد[4]؛ أيْ: إنَّ ما يَليه من كلام مبنيٌّ لِما لَم يُسَمَّ فاعلُه أيضًا ﴿وَصُدُّواْ﴾ فحصل التَّناسُب، ثُمَّ إنَّ البناء لِما لَم يُسَمَّ فاعلُه يُصوِّر المَكْرَ كأنَّه شيء مُحبَّب، فتَهافَتوا عليه تهافُتَ الفَراش على النّار وأعْرَضوا

(1) الدّرويش، إعراب القرآن وبيانه: 5/129.
(2) محمّد أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 8/3958.
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (زين).
(4) ابن زنجلة، حُجّة القراءات، ص: 373.

عمّا سواه كأنَّه حياتهم[1]، إضافة إلى جواز تعدُّد المُزيِّنين لهم ذلك، والمُراد هُنا أنَّ أئمَّة الكُفْرِ مثل عمرو بن لُحيّ وضَعوا للعرَب عبادة الأصنام وحسَّنوها إليهم مُظهِرين لهم أنَّها حَقٌّ ونفْع، وما أرادوا بذلك إلّا أن يكونوا قادة لهم ليسوِّدوهم ويعبدوهم، فلمّا كان الفعل المبنيُّ للمفعول يقتضي فاعلًا مَنْويًّا كان قوله: ﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ في قوَّة قولك: زَيَّن لهم مُزَيِّنٌ، والشَّيء المُزَيَّن هو عبادة الأصنام؛ فهي المفعول في المعنى لفعل التَّزيين المبنيِّ للمفعول[2].

دلالة وضع المَوصول ﴿لِلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ موضع المُضمَر:

ذَمُّ الكافرين وتسجيل الكُفْرِ منهم

وضْعُ الموصولِ موضِعَ المضمَرِ جاء ذمًّا لهم وتسجيلًا عليهم بالكُفر[3]، وأنَّهم قَصدوا واجتهدوا فيه حتّى يَصلوا إلى منزلة عظيمة في الكُفر؛ ليكون الجزاء وِفاقًا لهم. وتنبيهًا على الوصْف الَّذي قادَهم إلى اعتقاد الباطل، وهو سَتْر ما أدَّى إليه برهان العقل المُؤيَّد بدليل النَّقل[4].

دلالة التَّعبير بجُملة ﴿لِلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾:

ثبات الكُفّار على الكُفر، ومُناسبة السّياق

إيثار القرآن للاسم الموصول (الّذين) مع صِلته فيه إشارة إلى عُمق الكُفْرِ في نفوسهم، فالجملة الموصوليَّة أفادَت الذَّمَّ، فإتيان الموصول الماضي قُصِد به الالتباس والاستصحاب[5]، إضافة إلى ذلك فالاسم الموصول مع صِلته يَدُلُّ على اختيارهم الكُفْرَ بإرادتهم من دون تدخُّل في اختيارهم، فكان التَّعبير بالاسم الموصول وصِلَتِهِ دونَ اسم الفاعل هو الأنسَبَ، ويُضاف إلى ذلك مُناسَبة السّياق؛ أيْ: إنَّ التَّعبير عن الإيمان والكُفر جاء في السّياق بالاسم الموصول مع الفعل ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾.

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 1/494، في حديثه عن زينة الحياة الدّنيا.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/153.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/24.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/347.
(5) محمّد عبد الخالق عضيمة، دراسات لأسلوب القرآن الكريم: 187/1.

سِرُّ التَّعبير بـ ﴿مَكۡرُهُمۡ﴾ لا (كَيْدهم) ونحْوه:

بيان الخديعة والسَّتر دون الإظهار

مادَّة (مكر) تَدور على التَّغطية والسَّتر، فالمكْر: الخديعة، قالوا: وهو الاحتيال بما لا يَظهر، فإذا ظهر فذلك الكيْد، ويلزم منه الاجتهاد في ضَمِّ أشْتات الأمر لستْر ما يُراد[1]، ومن الأسرار أيضًا أنَّه يجوز أن يُسمَّى المكْرُ كُفرًا؛ لأنَّ مَكْرهم برسول الله ﷺ كان كُفْرًا[2]، ففي المكْر معانٍ ليست في الكيْد؛ فكانت الأنسَبَ.

سِرُّ تقديم جملة الصِّلة على ﴿مَكۡرُهُمۡ﴾:

عَوْدُ الضَّمير على مُتقدِّمٍ مع التَّفسير بعدَ الإبهام

السِّرُّ اللُّغويُّ قائم في أنَّ الضَّمير في لفظة ﴿مَكۡرُهُمۡ﴾ يعود على المُتَقدِّم ﴿ٱلَّذِينَ﴾، فتأخَّر نائب الفاعل ﴿مَكۡرُهُمۡ﴾؛ لأنَّ الضَّمير يعود على مُتَقَدِّم، فلو صارَ التَّعبير (زيّن كفرهم للّذين كفروا) لَفَسَدَ التَّركيب، ولصار خاليًا من المعنى، وقد يكون الكُفْرُ هُنا دالًّا على طائفة أُخرى غير الطّائفة الَّتي عادَتْ رسول الله ﷺ لو تَقَدَّم نائب الفاعل ﴿مَكۡرُهُمۡ﴾، ثُمَّ فيه تفسيرٌ بعد الإبهام، وهذا فيه من تشوُّف النَّفْس واستعدادها لِما بَعد، فكان تقديمُ جُملة الصِّلَة أنسَبَ.

سِرُّ التَّعبير عن عبادة الأصنام بـ ﴿مَكۡرُهُمۡ﴾:

بيان أنَّ المكْر إظهارُ شيءٍ وإبطانُ غيره

سِرُّ التَّعبير في قوله سبحانه: ﴿بَلۡ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ مَكۡرُهُمۡ﴾ أنَّ المَكر إظهار شيء وإبطان غيره، وذلك أنَّهم أظهَروا أنَّ شُركاءهم آلِهة حقًّا وهم يَعلمون بُطلان ذلك، وليس لهم همٌّ في الباطن إلّا تقليد الآباء، وأظهَروا أنَّهم يَعبدونها لتُقرِّبهم إلى الله زُلفى، ولتَشفَع لهم، وهم لا يعتقدون بعثًا ولا نشورًا، فصار كُلُّ ذلك من فعلهم فعل الماكِر[3]، ثُمَّ إنَّ مكْرهم كيْدُهم للإسلام بشِركهم أو تَمويهِهم الأباطيل، فتكلَّفوا إيقاعها في الخيال من غير حقيقة،

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/347.
(2) الشّوكاني، فتح القدير: 3/99.
(3) الخطيب الشّربينيّ، السّراج المنير: 2/161.

ثُمَّ بعد ذلك ظنّوها شيئًا لتَماديهم في الضَّلال، وعلى هذا المُراد مكْرهم بأنفُسِهم، وعلى الأوَّل مكرُهم بغيرهم[1].

دلالة إضافة المَكْر: ﴿مَكْرُهُمْ﴾:

قوّة تزيين المكْرِ مع تخصيصهم بالضَّمير

الدَّلالة هُنا أنَّ المَكر مُرادٌ به عِبادة الأصنام، وهذا يعني أنَّ إضافة (مكر) إلى ضمير الكفّار (هم) من إضافة المصْدر إلى ما هو في قوَّة المفعول وهو المجرور بباء التَّعْدية؛ أي: المكْر بهِم ممَّن زيَّنوا لهم[2].

سِرُّ التَّعبير بالمصْدر ﴿مَكْرُهُمْ﴾:

المصدر أعَمُّ من الفعل

التَّعبير بالمصْدر يُلائِم أن يكون نائب فاعل للفعل ﴿زُيِّنَ﴾ المبنيِّ لِما لَم يُسَمَّ فاعلُه، إضافة إلى ذلك فالمصْدر دالٌّ على حدث دون اقتران بزَمن[3]، فكان عامًّا لا خاصًّا، عكس الفعل الَّذي يرتبط الحدَثُ فيه بزمن، فَدَلَّ على تطاوُل المكْر ولحاقِهِ بِكُلِّ زمَن.

دلالة الواو في قوله: ﴿وَصُدُّواْ عَنِ ٱلسَّبِيلِۗ﴾:

الصَدُّ عن سبيل الله من تزيين الكافرين

عطف قوله تعالى: ﴿وَصُدُّواْ عَنِ ٱلسَّبِيلِۗ﴾ على جملة ﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ مَكْرُهُمْ﴾ على قراءة الجمهور - بفتح الصَّاد - فهو باعتبار كون مضمون كِلْتا الجملتَيْن من أحوال المُشركين: فالأولى باعتبار كونهم مَفعولين، والثّانية باعتبار كونهم فاعلين للصَّدِّ بعد أن انفعَلوا بالكُفر، وقَرَأه عاصِم، وحمزة، والكسائيُّ، وخَلَفٌ: ﴿وَصُدُّواْ﴾ - بضَمِّ الصَّاد - فهو كجملة زُيِّن للّذين كفروا في كون مضمون كِلْتَيهما جَعل الَّذين كفروا مَفعولًا للتَّزيين والصَّدِّ.

أثَر تعدُّد القراءات في: ﴿وَصُدُّواْ﴾:

تعدُّد طرائق الصَّدِّ

اختلف المعنى بناء على تغايُر القراءتَيْن، فمَن قَرَأها بفتْح الصّاد،

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/153.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/155.
(3) ابن عقيل، شرح ألفيّة ابن مالك: 2/169.

معناه: أنَّهم لمّا زُيِّنَ لهم ما هُم فيه وأنَّه حَقٌّ، دعَوا إليه وصَدّوا النّاس عن اتِّباع طَريق الرُّسل، ومَن قَرَأها ﴿وَصُدُّواْ﴾؛ أيْ: بما زُيِّنَ لهم من صحَّة ما هُم عليه، يكون المعنى: (مُنِعوا عن السَّبيل)، والصّادُّ هو المانِع، ويكون المُراد أنَّ اللّه تعالى صَدَّهم[1]، ولهذا قال: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ كما قال: ﴿وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ [المائدة: 41] وقال: ﴿إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٣٧﴾﴾ [النّحل: 37][2].

سِرُّ التَّعبير بـ ﴿وَصُدُّواْ﴾ دون (منعوا) وغيره:

في الصَّدِّ مَنعٌ وإعراضٌ؛ فهو منْعٌ وزيادةٌ

الصَّدُّ انصِراف عن الشَّيْء وامتناع عنه، وفيه إعراض وصُدوف، وفي الصَّدِّ هجْرٌ وتَرْك وسُخرية من الصّادِّ[3]، وكأنَّ الصَّدَّ منْع وزيادة، مع دلالة التَّشديد في الفعل (صدّ)، والتَّشديد تَكرار عمل تِلْو عمل.

دلالة (عن) في ﴿عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾:

البُعد والمجاوَزة والتَّراخي

من معاني (عن) في اللُّغة الدَّلالة على المُجاوَزة والتَّرْك والبُعد، مع التَّراخي[4]، فالحرْف دالٌّ على إعراضهم ونفورهم من الدَّعوة وصاحبها، بحيث ظلّوا في غيِّهم يتردَّدون تارِكين طريق الحقِّ مُتجاوِزين عنه، مُتراخينَ في الانضمام إلى طائفة الإيمان.

سِرُّ التَّعبير بـ ﴿ٱلسَّبِيلِ﴾ دون مرادفاته:

غباوة عقولهم وشِدَّة كراهيتهم للإسلام

السِرُّ في التَّعبير بـ ﴿ٱلسَّبِيلِ﴾ حمْل اللَّفظ معنى التَّهكُّم من ضَلالهم؛ لأنَّ السَّبيل هو ذلك الطَّريق الَّذي يَمتاز بالسُّهولة واليُسر والوضوح كما تقول المَعاجم[5]، فهذا يعني أنَّ ضلالهم عظيمٌ،

(1) الكبيسيّ، الموضّح في وجوه القراءات: 2/703.
(2) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 3/399.
(3) الرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (صدد).
(4) الزّمخشريّ، المفصّل في صنعة الإعراب، ص: 385.
(5) الرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (سبل).

مُسيْطر عليهم يغشاهم من فوقهم ومن تحت أرجُلِهم، وكان الأحْرى بهم اتِّباع الرَّسول لسُهولة طريقه ووضوحه، وليس هذا المعنى مَوجودًا في الطَّريق.

سِرُّ التَّعبير بلفظ ﴿ٱلسَّبِيلِ﴾ مُعرَّفًا:

عظمة هذا السَّبيل الحقّ

المُراد بـ ﴿ٱلسَّبِيلِ﴾ هُنا سبيل الحَقِّ فتعريفه للعَهد؛ أيْ: كأنَّكم تَعرفونه، ولكنَّكم اعتَدْتُم العِناد، والإصرارَ، كأنَّه قال: مَن تَرَك سبيل الله، وهي اتِّباع الفطرة، كان من سُنَّة الله أن يكون ضالًّا طولَ حياته، إذ لا تَجِد له سبيلًا أخرى يَسلكها فيَهتدي بها إلى الحقِّ[1]. والتَّعريف هُنا دالٌّ على تعظيم هذا السَّبيل، كأنَّ ما عَداه غير سبيل.

سِرُّ التَّعبير بفعل الشَّرْط: ﴿وَمَن يُضْلِلِ﴾:

الحرمانُ من إدراك التَّوفيق لتَوَغُّل الضّالِّ في غَيِّه

أوثِرَ التَّعبير بفعل الشَّرْط؛ كناية عن نفْي أسباب النَّجاة عن الضَّلالة وعَواقب العقوبة عليها[2]؛ لأنَّ الضَّلال جاء بعد خطوات وئيدَةٍ من الضّالِّ في طريق الضَّلال، فكأنَّ الضّالَّ غير سريع للاهتداء أو غير قابِل له، وحِرمانه من تَدارُكه إيّاه بالتَّوفيق كُلَمّا تَوغَّل في الضَّلالة[3].

سِرُّ التَّعبير بـ ﴿وَمَن﴾ دون غيرها:

الإشارة إلى عموميَّة الشَّرْط

تَحمل (مَن) في قوله تعالى: ﴿وَمَن يُضْلِلِ﴾ في دلالتها العُموم بالاتِّفاق[4]، فالضَّلال سبيل كلِّ إنسان لا يوفِّقه الله إلى الخير، مع كثرة طَرائقِ هذا الخير الَّذي لا يَخفى إلّا على مَطْموس البَصيرة، وقد قال النُّحاة: أسماء الشَّرْطِ في قوَّة كلمتَيْن[5].

(1) رشيد رضا، تفسير المنار: 5/264.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/123.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/123.
(4) ابن هشام، المباحث المرضيّة المتعلّقة بـ (من) الشّرطيّة، ص: 39.
(5) ابن هشام، المباحث المرضيّة المتعلّقة بـ (من) الشّرطيّة، ص: 33.

دلالة الإسناد في: ﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ﴾:

عِلمُ الله الأزليُّ بأن ضلالهم مَطْمور في جِبِلَّتهم

في قوله: ﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ﴾ إشارة إلى أنَّ ضلالهم داءٌ عَياءٌ؛ لأنَّه ضلال مُكَوَّن في نفوسهم وجِبلّتهم قد ثبَّتَته الأيام، ورسَّخه تعاقُبُ الأجيال، فرانَ بغشاوته على ألْبابهم، فلمّا صار ضلالهم كالمَجبول المطْبوع أُسند إيجاده إلى الله كناية عن تَعَسُّر أو تَعَذُّر اقْتِلاعه من نفوسهم[1].

دلالة فَكِّ الإدغام في الفعل: ﴿يُضۡلِلِ﴾:

إضلال الله لهم بعدَ ابتعادهم عن كُلِّ أسباب الهداية

التَّعبير بالفَكِّ هُنا فيه إشارة إلى أنَّ الإضلال لا يكون إلّا بعدَ حِرْص المَرْء نفْسه على أن يكون ضالًّا، بابتعاده عن كُلِّ أسباب الهداية الَّتي يَسَّرها الله له، لكنَّه أبى واستَكْبَر، وكأنَّ فَكَّ الإدغام دالٌّ على أنَّ الإضلال لا يكون مُباشرة، لكنَّه يكون بعدَ أن يُرسل الله الرُّسلَ للهداية فيَأْبى المَرْء الهداية، فيزيده الله ضلالًا على ضلال.

دلالة دخول الفاء في: ﴿فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٍ﴾:

بيان التَّوكيد مع ربْط أوْصال التَّركيب

الفاء في قوله: ﴿فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٍ﴾ رابطةٌ، تُفيد السَّبب في الشَّرط؛ لذا خُصَّت في هذا الموضِع، وأتوا بها لتُفيد الإتباع وتُؤذِن بأنَّ ما بعدَها مُسَبَّب عمّا قبلها[2]، إضافة إلى ذلك فإنَّ دخول الفاء يَدُلُّ على زيادة التَّوكيد؛ لأنَّ زيادة المبْنى دالَّةٌ على زيادة المعنى، ومن كُلِّ هذا يتبيَّن سَبَبُ نفْي هدايتهم (هو إضلال الله تعالى)، فالإضْلال قويّ شديدٌ لِذا انْتَفى الهادي.

سِرُّ النَّفْي بـ(ما): ﴿فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٍ﴾:

شموليَّة (ما) ودلالتها على التَّوكيد

في قوله: ﴿فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٍ﴾ (ما) آكَد من (ليس)؛ لأنَّها تَقَع جوابًا للقسَم، يُقال: (والله ما هو بمُنطلق) بخِلاف (ليس)، وأوْسَعُ استعمالًا منها لأنَّ (ليس) تختَصُّ بنفْي الجُملة الاسميَّة فقط، أمّا

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/14.
(2) ابن يعيش، شرح المُفصّل: 9/2.

(ما) فتختَصّ بنفْي الجملتَيْن الاسميَّة والفعليَّة، كما أنَّ ﴿فَمَا﴾ فيها معنى التَّوكيد[1]، فكأنَّ (ما) نَصٌّ في نفْي ما تَنْفيه، وهو هُنا ﴿هَادٍ﴾، وأُريد من نفْي الهادي من قوله: ﴿فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ نفْيُ حُصول الاهتداء، فَكَنَّي عن عدَمَ حصول الهُدى بانتفاء الهادي لأنَّ عدَمَ الاهتداء يَجعل هاديَهم كالمَنفيِّ[2].

سِرُّ التَّعبير بِاسْم الفاعل ﴿هَادٍ﴾:

دلالة الثَّبات في اسم الفاعل عنه في المُضارِع

في قوله تعالى: ﴿فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ اسم الفاعل (هاد) دالٌّ بصيغته على الثَّبات مُقارَنة بالفعل المُضارع، فاسْم الفاعل أشَدُّ ثباتًا على الأمْرِ من المُضارع (يهدي)؛ وكذا قولنا: ﴿هَادٍ﴾ أكثر هداية من (هو يهدي)، وكأنَّ الهداية صارَتْ شيئًا مُلازِمًا للهادي، يُضاف إلى ذلك أنَّ لفظة ﴿هَادٍ﴾ جاءت سَبَبًا في دخول ﴿مِنْ﴾ الاستغراقيَّة الَّتي تَنْفي جنس الهُداة، أمّا المُضارع (يهدي) فمُشير إلى حذْف حرْف الجَرِّ وتحويل الجُملة الاسميَّة الأشَدِّ ثباتًا إلى جملة فعليَّة (فما يهديه أحَد)، وهذا ضعيف في العِبارة.

سِرُّ حذْف الياء في: ﴿هَادٍ﴾:

موافَقة رؤوس الآي مع دلالة قِلَّة هؤلاء الهادينَ

أكثَرُ القُراء وقَفوا على الدّالِ من غير إثبات ياء؛ لأنَّنا نقول في الوَصْل: هذا هادٍ، فتحذفُ الياء لسُكونها والتِقائها مع التَّنوين، فإذا وقَفْنا حُذِفَ التَّنوين في الوَقف في الرَّفْع والجَرِّ، والياء كانت حُذِفت، فيُصادف الوَقف الحركة الَّتي هي كسرة في غير فاعل فنحْذفها كما تُحذف سائر الحركات الَّتي تَقِف عليها، فيصير ﴿هَادٍ﴾[3]، وقد يكون الحذْف إشارةً إلى القِلَّة[4]، قِلَّة الواقينَ لهؤلاء، وبخاصَّة أنَّ ﴿هَادٍ﴾ مَسبوقةٌ بـ (من) الاستغراقيَّة الدّالَّةِ على نفْي

(1) فاضل السّامرّائيّ، معاني النّحو: 4/225، وما بعدها.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/14.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 19/44.
(4) فاضل السّامرّائيّ، بلاغة الكلمة في التّعبير القرآنيّ، ص: 31.

جنس الهادين، يُضاف إلى ذلك مُناسبة رؤوس الآي ذلك أنَّ قبْلها ﴿عِقَابِ﴾ بدون الياء، وبعدَها ﴿وَاقٍ﴾.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيّةُ:

النَّبأ والخبَر:

النَّبأ خبر يَحمل الأوَّليَّة الزَّمانيَّة مع التَّعظيم

النَّبأ كما يقول أهل اللُّغة أهمُّ من الخبر وأعظَم منه، وفيه فائدة مُهمَّة، ومنه قوله تعالى: ﴿وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾﴾ [النَّمل: 22]، وفي القرآن النَّبأ أهمُّ من الخبَر كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ نَبَؤٌاْ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾﴾ [ص: 67] وقولِه: ﴿عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢﴾﴾ [النَّبأ: 2]، والنَّبأ في اللُّغة هو الظُّهور، وقد استعمل القرآن الكريم كلمة (خبَر) مُفرَدة في موطنَيْن في قصَّة موسى عليه السلام فقال تعالى: ﴿قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [القصص: 29]، وقال: ﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٧﴾﴾ [النَّمل: 7]، وهُناك فرْق بين الخبَر والنَّبأ العظيم، وفي أخبار الماضين والرُّسُل استعمل القرآن (نبأ)، ومنه قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبْلُ فَذَاقُواْ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٥﴾﴾ [التَّغابن: 5][1].

ومن هذا فالنَّبأ يختلف عن الخبر؛ فكلُّ نبأ خبر، وليس كلُّ خبر نبأً؛ لأنَّ النَّبأ يحمل الأوليَّة الزَّمانيّة مع التَّعظيم.

العِلم والمعرفة:

الْعلم يكون مُجملًا ومُفصَّلًا والمعرفَة أخَصُّ منه

المعرفَة أخَصُّ من الْعِلم؛ لِأنَّها عِلْمٌ بِعَين الشَّيْء مُفصَّلًا عَمّا سواهُ، والعِلم يكون مُجملًا ومُفَصَّلا، فَكلُّ معرفَةٍ عِلْمٌ ولَيْسَ كُلُّ عِلْمٍ مَعرِفَةً، وذلكَ أنَّ لفظ الْمعرفَة يُفيد تَمْييز الْمَعْلوم من

(1) مثنّى هبيان، من روائع البيان: 28/7.

غَيره، ولَفظ الْعِلم لا يُفيد ذلك إلّا بِضَرْب آخَر من التَّخْصيص في ذِكر الْمَعْلوم، والشّاهِد قَول أهل اللُّغَة: إنَّ الْعِلم يتَعَدَّى إلى مفعولَيْن لَيْسَ لك الاقْتِصار على أحدهما، إلّا أن يكون بِمَعْنى الْمعرفَة، كَقَوْلِه تَعالى: ﴿لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْۚ﴾ [الأنفال: 60]؛ أي: لا تعرفونهم الله يعرفهُم، وإنَّما كانَ ذلك كَذلِك لأنَّ لفظ العِلم مُبْهَم، فإذا قُلت: علِمتُ زيدًا، فَذَكرْتَه بِاسْمه الَّذي يَعرفهُ بِهِ الْمُخاطَب لَم يَفِ، فإذا قلت: قائمًا، أفدتَ؛ لأنَّك دللتَ بذلك على أنَّك علِمت زيدًا على صِفة جازَ ألا تعْلَمه عَلَيْها مَعَ عِلمك بِهِ في الْجُمْلَة، وإذا قُلت: عَرَفتُ زيدًا، أفدتَ أنَّه بِمَنْزِلَة قَوْلك: عَلِمتُه مُتميِّزًا من غَيره، فاستُغْنيَ عَن قَوْلك: (مُتميّزًا من غَيره)؛ لِما في لفظ الْمعرفَة من الدّلالَة على ذلِك[1].

المكْر والكيْد:

مادَّة (مكر) بأيِّ ترتيب كان: (مكر، ركم، رمك، كرم، كمر)؛ تدور على التَّغطية والسَّتر، فالمَكر: الخديعة، قالوا: وهو الاحتيال بما لا يَظهر، فإذا ظهر فذلك الكيد، ويلزم منه الاجتهاد في ضَمِّ أشْتات الأمر لستْر ما يُراد[2]، ومن الأسرار أيضًا أنَّه يجوز أن يُسمَّى المَكْرُ كُفرًا؛ لأنَّ مَكْرهم برسول الله ﷺ كان كُفرًا[3]، ففي المكْر مَعانٍ ليست في الكيْد.

المكر خَديعة تَدور على التَّغطية والسَّتر والكيْدُ فيه معنى الظُّهور

الصَّدّ والمَنْع:

الصَّدُّ انصرافٌ عن الشَّيْء وامتناع عنه، وفيه إعراض وصُدوف، وفي الصَّدِّ هجْر وتَرْك وسُخريةٌ من الصّادِّ[4]، وقد قال أبو هلال العسكريّ: "الصَّدُّ هو المَنْع عن قصْد الشَّيء خاصَّة، ولهذا قال الله

الصَّدُّ هو المنْع عن قَصْد الشَّيء خاصَّة والمنْع أشمَل

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 80.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/347.
(3) الشّوكانيّ، فتح القدير: 3/99.
(4) الرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (صدد).

تعالى: ﴿وَهُمۡ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ﴾ [الأنفال: 34]؛ أيْ: يَمنعون النّاس عن قصْدِه، والمنْع يكون في ذلك وغيره ألا تَرى أنَّه يُقال: منع الحائط عن المَيل، ولا يُقال: صَدّه عن المَيل؛ لأنَّ الحائط لا قصْد له، ويقولون: صَدَّني عن لقائك، يُريد عن قصْد لقائك وهذا بَيِّن"[1].

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 311.

﴿لَّهُمْ عَذَابٌ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَشَقُّ ۖ وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٣٤﴾﴾ [الرّعد: 34]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

تكملةُ الوعيد المُتَقدِّم بجمْع عذابَي الدُّنيا والآخرة

لمّا أخبرَ اللّه تعالى عن الكافرين بتلك الأمور المذكورة بالآية السّابقة، من جعْلِهم للّه شركاء وصَدِّهم عن السَّبيل، بَيَّن في هذه الآية أنَّه جَمَعَ لهم بين عذاب الدُّنيا وعذاب الآخرة الَّذي هو أشَقُّ، قال تعالى: ﴿لَّهُمْ عَذَابٌ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ الآية.

ومن المُناسبة أيضًا أنَّه لمّا خُتِمَت الآية السّابقة بقوله تعالى: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾، على اعتبار أنَّها وعيدٌ يَسأل عنه السّامع بسبب ما قدَّموا من كُفر ومن شِرك، جاءت هذه الآية تكملة للوعيد المُتَقدِّم في قوله: ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا۟ قَارِعَةٌ﴾ مع زيادة الوعيد بما بعدَ ذلك في الدّار الآخرة[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَشَقُّ﴾: المَشَقَّةُ: الشِّدَّةُ والثِقَلُ والجَهْدُ والعَناءُ والعُسْرُ، يُقال: شَقَّ عليَّ الأمرُ، يَشقُّ شَقًّا ومَشَقَّةً؛ أيْ: ثَقُلَ عَلَيَّ. وشَقَّ عليه الشَّيْءُ: إذا أتْعَبَهُ. والمشقَّة غِلْظُ الأمر على النَّفْس، بما يكادُ يَصْدع القَلْب، فهو من الشَّقِّ بمعنى الصَّدْع، فمعنى: ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَشَقُّ﴾؛ أيْ: ولَلْعذاب المُدَّخَرُ في الآخرة أشَدُّ وأنكَى مِن عذاب الدُّنيا؛ لِثقله وعنائه وعُسْره ودوامه[2]، والمعنى المحوريُّ: صَدْع الشَّيء الشَّديد صَدْعًا نافذًا إلى عُمْقِه، كصدْع العود والحائط والزُّجاجة، وكما يَصدع النَّبت والنّاب ما يُغطّيهما، ومنه: ﴿ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾﴾ [عبس: 26][3].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/154.
(2) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (شقق).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (شقق).

2) ﴿وَاقٍ﴾: الوِقايَةُ: الصيانَةُ والحِمايَةُ، وأصْلُ الوِقايَةِ: دَفْعُ شَيْءٍ عن شَيْءٍ بِغَيْرِهِ، يُقال: وقَى نَفْسَهُ مِن العَدوِّ بِسِلاحِهِ؛ أيْ: دَفَعَهُ بِهِ، وفُلانٌ ما له مِن واقٍ؛ أيْ: مِن دافِعٍ. فالمُراد من قوله: ﴿وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ﴾ وما لهُم ساتِرٌ يَعصِمهُم مِن عذابِ اللّه ويَحميهم، إذْ لا يَشفع أحدٌ عنده إلّا بإذنه، ولا يأْذَن لأحدٍ في الشَّفاعة لمَن كفَرَ به وماتَ على كُفره[1]. والمعنى المحوريُّ: حِفْظٌ من الأذى أو الضَّرر باتِّخاذ حاجِزٍ دونه، كالوقاية: الحاجِز ثَوْبًا أو حَشية أو ورَقًا ... إلخ، وقالوا: سَرْجٌ واقٍ: غَيْرُ مِعْقَرٍ؛ أيْ: هو مُبطّن بطبقة لَيِّنة تَقي؛ أيْ: تحفظ من العَقر[2].

❁ المَعْنى الإجْماليّ:

الشَّقاء المُسْتَمِرُّ في الدُّنيا والآخرة

بَيَّن اللّه تعالى في هذه الآية أنَّ هؤلاء الكُفّارِ الَّذين جَعَلوا للّه شُرَكاءَ مِن خَلْقِه يَعبُدونَهم لهم عذابٌ في الحياةِ الدُّنيا بالقتلِ والأسرِ والخِزي والمصائبِ والآفاتِ، ولَعذاب الآخرة الَّذي ينتظرهم أشَدُّ عليهم وأثْقَل من عذاب الدُّنيا؛ لِما فيه مِن الشِّدَّة والدَّوام الَّذي لا يَنقطع، وليس لهم مانع يَحميهم من عذاب اللّه يوم القيامة[3].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيّ:

دلالة فصْل: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّـهُ﴾:

الإيماءة إلى شِدَّة الوعيد واتِّصال العذاب

في الآية الكريمة استئناف بيانيٌّ نَشَأ عن قوله: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾؛ لأنَّ هذا التَّبديد يومئُ إلى وعيد يَسأل عنه السّامع، وفيه تكْملة للوعيد المُتَقدِّم في قوله: ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ﴾ مع زيادة الوعيد بما بَعد ذلك في الدّار الآخرة[4].

(1) ابن منظور، لسان العرب: (وقي).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (وقي).
(3) ابن جرير، جامع البيان: 13/551.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/154.

دلالة تقديم ﴿لَّهُمْ﴾ على المبتدأ ﴿عَذَابٌ﴾:

تخصيص العذاب بهم إهانةً وتحقيرًا

التَّقديم غرضُه التَّخصيص، مع وجود اللّام الدّالَّة على الاختصاص والاستحقاق، فصارَ العذاب مُختَصًّا بهم، مُعَدًّا لهم؛ إهانة وسُخرية مِمّا فَعَلوه، فالجزاء من جنس العمَل الَّذي عَمِلوه.

سِرُّ التَّعبير بالعذاب في: ﴿عَذَابٌ﴾ و﴿وَلَعَذَابُ﴾:

تأكيد العقاب بتَكرار اللَّفظ

سِرُّ التَّعبير أنَّ العذاب عقوبة وعقاب بسبب كُفرهم وتَماديهم في غَيِّهم، واتِّخاذهم الشُّركاء، ولذلك سَمّاه اللّه عذابًا[1]، وكانت لفظة ﴿عَذَابٌ﴾ الأولى مُمَهِّدَةً للَفظة ﴿وَلَعَذَابُ﴾ المُؤكِّدة؛ فكُرِّرت اللَّفظتان إشارةً إلى وعيد شديدٍ.

نُكتة التّنكير في: ﴿لَّهُمْ عَذَابٌ﴾:

بيان قسوة العذاب وشِدَّتِهِ

جاء تنكير ﴿عَذَابٌ﴾ في الآية الكريمة للتَّعظيم، وهو عذاب القتل والخِزي والأسْر[2]، مع المَذلَّة والهَوان والهزيمة في غَزَوات المُسلمين ضِدّ الكُفّار؛ فالتَّنكير يوحي بِالشِّدَّة والقسْوة والاستمرار فكأنَّه قال: عذاب مُستمرٌّ دائم اللُّصوق بهم.

سِرُّ تقديم عذابهم في الدُّنيا على عذاب الآخرة:

مُراعاة التَّرتيب الزَّمنيّ للعذاب

التَّقديم هُنا لمُراعاة التَّرتيب الزَّمنيِّ؛ فعذاب الدُّنيا المُتمثِّل في القتل والقَهْر والمَذَلَّة والهَوان مُتقدِّمٌ على عذاب الهون في الآخرة، فكان عذاب الدُّنيا جِسْرًا لعَذاب الآخرة، وقد يكون ذلك أيضًا لشفاء صدور قوم مؤمنين عندما يَرَون ما يَحُلُّ بالكُفّار المُستهزئين.

دلالة تَكرار لفظ ﴿عَذَابٌ﴾ في الآية:

تكرار العذاب ووَعيدهم باستمرار الإهانة

التَّكرير تقرير لقوَّة العذاب وشِدَّته، كما أنَّ التَّكرار يَدُلُّ على تَعدُّد الإهانات والخِزي في الدُّنيا والآخرة، فليس العذاب واحدًا

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/531.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/154.

قاصرًا على فترة زمانيَّة محدَّدة؛ وإنَّما هو مُمْتدٌّ يغشاهم حياة ومماتًا، بما يَعني الوعيد بالاستمرار.

سِرُّ التَّعبير بالظَّرْفيَّة: ﴿فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾:

الفارق العظيم بين عذابَي الدُّنيا والآخرة

السِرُّ أنَّ عذاب الدُّنيا مُحيط بهم شاملُهم، من قتل وتدمير وأسْرٍ وهلاك الحَرْث والنَّسل، فهو مُتَصوَّر معلوم له حدود، فكان حرْف الجَرِّ ﴿فِي﴾ الدّالّ على الظَّرْفيَّة من إحاطة الظَّرْف بالمَظروف، أمّا عذاب الآخرة فلا يَحُدُّه حَدٌّ، ولا يُحيط به وصْف فلَم يَقترن بحرْف ﴿فِي﴾ لأنَّه أشَقُّ وأبْقى.

دلالة دخول اللّام: ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ﴾ دون الدّنيا:

إزالةُ الشَّكِّ من نُفوس الشّاكّين

التَّوكيد باللّام يَدُلُّ على إنكارهم ذلك العذاب، فجاء التَّوكيد لتمكين العذاب، وإزالة شَكِّ مَن يَشُكُّ في وقوعه؛ لأنَّه غير مرئيٍّ لهم، أمّا عذاب الدُّنيا، فهو مُشاهَد لهم وسَيَرونَه بأعينهم، إضافة إلى نُبوِّ التَّركيب عن توكيد (عذاب)، فالتَّركيب القرآنيُّ: ﴿لَّهُمْ عَذَابٌ﴾، فلا مَوضع هُنا للتَّوكيد، وقد يكون توكيد لفظة (عذاب الآخرة) مُساويًا للتَّخصيص في لفظة ﴿عَذَابٌ﴾ الأولى.

دلالة التَّعبير بصيغة ﴿أَشَقُّ﴾:

تعدُّد أنواع العذاب وتتابُعه

الإشارة إلى أنَّ عذاب الآخرة أزْيَدُ "إنْ شئتَ بسبب القوَّة والشِدَّة، وإن شئت بسبب كثْرة الأنواع، وإنْ شئت بسبب أنَّه لا يَختلط بها شيء من موجِبات الرّاحة، وإن شئت بسبب الدَّوام وعدم الانقطاع"[1]، فاسْم التَّفضيل فيه قوَّة تِلْو قوَّة، وشِدَّةٌ تَتْبعها شِدَّة فهو "إحراق بالنّار دائمًا: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا﴾ [النساء: 56]"[2]، ويُفهَم منه أنَّ عذاب الدُّنيا أيضًا شاقٌّ؛ لأنَّه قتلٌ وأسْر وتنكيل، غير أنَّ الآخرة أكثر مَشَقَّةً.

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 19/44.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/392.

دلالة ﴿مِن﴾ في قوله: ﴿مِن وَاقٍ﴾:

انتفاء النّاصرين وشِدَّة المَوقف وهَوله

﴿مِن﴾ هُنا استغراقيَّة تَنفي جنس الواقينَ؛ لأنَّها نكِرة مَسبوقةٌ بنَفْي؛ فدلَّت على انتفاء الواقي؛ أيْ: ما لهم من عذاب اللّه واقٍ، ما لهم من شفيع ولا نَصير، بل إنَّهم يتقدَّمون إليه سُبحانه مُتناوِلين كتابَهم بشمالهم[1]، وفي هذا إشارة إلى شدَّة الموقف وصعوبته وانعدام السّاتر الحامي؛ لأنَّ الموقف موقفُ مسؤوليَّة ذاتيَّة، كُلُّ إنسان يقول: نَفْسي نَفْسي، فخَلا الموقف من أيِّ واقٍ.

دلالة ﴿مِّنَ﴾ في قوله: ﴿مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّـهِ﴾:

شدَّة العذاب لابتدائه من الله

﴿مِّنَ﴾ مُتعلِّقة بـ ﴿وَاقٍ﴾، ويجوز أن تكون ﴿مِّنَ﴾ للبَدَليَّة؛ أيْ: ما كان لهم بدَلٌ من المتَّصِف بصفات الكمال، وأن تكون ابتدائيَّة؛ تنبيهًا على أنَّ العذاب في غاية الشِّدَّة لأنَّه إذا لَم يَبتدئ من جهته سُبحانه واقية لَم يكُن لهم باقية[2].

سِرُّ التَّعبير بلفظ الجلالة ﴿ٱللَّهِ﴾ دون الرُّبوبيَّة:

تربية المَهابة والخوف في النُّفوس

سِرُّ التَّعبير أنَّ الموقف موقفُ شِدَّة وقوَّة، فيُناسبه الاسم الأعظَم الَّذي يُدخل المهابة في القلوب لجبروته وعظَمته وشِدَّة عقابه، أمّا لفظة (الرَّبِّ) أو (ربّي) فتُشعر بالتَّربية والعطاء والحماية، وهذي أشياء ليست في هذا السّياق، فكان الاسم الأعظَم ﴿ٱللَّهِ﴾ هو الأنسَبَ، مع مُناسبته أيضًا للآية الَّتي تَسْبِقه ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ﴾.

دلالة التَّعبير بِاسم الفاعل ﴿وَاقٍ﴾:

الدَّوام والاستمرار مع المُناسَبة وتعدُّد أزمنة اسم الفاعل

في قوله: ﴿وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ﴾ أسرارُ التَّعبير تتمثَّل في الآتي، أوَّلًا: أنَّ اسم الفاعل أكثر ثباتًا ودَيْمومة من الفعل المُضارع، وفي هذا انتفاء لجنس مَن يَقي، بِدلالة الجملة، ثانيًا: اسم الفاعل جَعَل دخول (مِن) الاستغراقيَّة مُناسِبًا، والتَّعبير بالفعل ليس مُناسِبًا

(1) محمّد أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 8/3959.

(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 12/315.

للحرْف؛ لأنَّ حرْف الجَرِّ من سمات الأسماء لا الأفعال، وتوظيف الفعل هُنا يَجعل حرْف الجَرِّ (من) اسم موصول، فيُقال (مَن يقي، وقى). ثالثًا: مُناسَبة الوزْن الصَّرفيِّ (واق) للوَزن الصَّرفيِّ في الآية السّابقة عليها (هاد)، رابعًا: اسم الفاعل زَمَنُه مُتعدِّد فهو دالٌّ على الماضي والحال والاستقبال بلفظ واحد، فهؤلاء لن يَقيهم من عذابه مانِع يَمنعهم إذا أراد بهم سوءًا لا في الدُّنيا ولا في الآخرة، أمّا الفعل فزمَنه مَحصور فهو ماضٍ أو حال ومستقبَلٌ بألفاظ مُختلِفة.

سِرُّ اختيار ﴿وَاقٍ﴾ دون (نَصير):

بيان احتياجهم إلى مَن يَسترهم لا مَن ينصرهم

الوقاية: حِفظ الشَّيءِ ممّا يُؤذيه ويضرُّه[1]، والواقي فاعل من الوقاية، وهي الحَجْز بما يَدْفع الأذيَّة، والواقي هو السّاتر الحامي من العذاب، ومن الأخْذ ومن النّكال، فهم مُعرّضون بلا وقاية لِما يُنزله بهم من عذاب، فهم في حاجة إلى واقٍ كي يكون الحائلَ دون الضُّرِّ، و"لا يشفع أحد عنده إلّا بإذنه، ولا يأذن لأحد في الشَّفاعة لِمَن كفر به ومات على كفره"[2].

تَوجيه المُتشابِه اللَّفظيِّ:

سِرُّ اختلاف وصْف عذاب الآخرة؛ حيث وصِف هُنا بالأشَقِّ في قوله: ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَشَقُّ﴾، ووُصف في سورة طه بقوله: ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ١٢٧﴾ [طه: 127]، وفى سورة القلم ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَكْبَرُ﴾ [القلم: 33]، وفى سورة فصّلت: ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَخْزَىٰ﴾ [فُصِّلت: 16].

تنوُّع الأوصاف لتنوُّع الأقوام وتعدُّد عذاباتهم

أمّا آية الرَّعد ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَشَقُّ﴾ فالإشارة إلى أنَّ عذاب الآخرة أزْيَد، بسبب القوَّة والشِّدَّة، أو بسبب كثرة الأنواع، أو بسبب أنَّه لا يختلط بها شيء من موجبات الرّاحة، أو بسبب الدَّوام وعدَم الانقطاع، فاسم التَّفضيل فيه قوَّة تِلْو قوة، وشدَّة تَتْبعها شِدَّة، فهو

(1) الرّاغب، المفردات: (وقى).
(2) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 13/109.

إحراق بالنّار دائمًا ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا﴾ [النساء: 56]، ويُفهم منه أنَّ عذاب الدُّنيا أيضًا شاقٌّ؛ لأنَّه قتلٌ وأسْرٌ وتنكيلٌ، غير أنَّ الآخرة أكثر مَشَقَّة، أمّا موضع سورة طه ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٢٧﴾﴾ [طه: 127] فلِموافَقة الفواصِل جاء العذاب موصوفًا بالشِّدَّة والبقاء، فقال تعالى: ﴿وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ۚ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٢٧﴾﴾ [طه: 124 - 127]؛ لأنَّه يحكي حادثًا مرئيًّا أمامهم. وأمّا في سورة القلم: ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ﴾ [القلم: 33] ففيه تشبيه بلاء قريش بِبَلاء أصحاب الجنَّة وهو أنَّ أصحاب الجنَّة عزموا على الانتفاع بثَمَرها وحِرمان المساكين، فقلَب اللّه تعالى عليهم وحرَمَهم، وأنَّ قريشًا حين خَرجوا إلى بدْر حَلفوا على قتل الرَّسول ﷺ وأصحابه، فإذا فعلوا ذلك رَجعوا إلى مكَّة وطافوا بالكعبة وشربوا الخمور، فقلَب اللّه عليهم بأن قُتلوا وأُسروا، ولمّا عذَّبهم بذلك في الدُّنيا قال: ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ﴾ [القلم: 33][1]، وكأنَّ ما رأيْتموه صغير قليل قياسًا بيوم القيامة، وأمّا آية فُصّلت فلِمُناسَبة لفظة الخِزي قبْلها، فكان المناسِب أن يوصَفَ العذاب بالخِزي كما قال ربُّنا: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَخْزَىٰ ۖ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾﴾ [فصلت: 15 - 16].

سِرُّ اختلاف التَّعبير بين: ﴿وَمَا لَهُم﴾ و﴿وَمَا كَانَ لَهُم﴾:

مناسَبة (كان) في غافر لا الرَّعد

أمّا سورة غافر فقد جاء التَّركيب مُحلًّى بـ (كان)؛ لأنَّ السّياق

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/244.

يغلِب عليه فعل الكَيْنونة، ويظهر ذلك في قوله تعالى: ﴿۞أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُواْ مِن قَبْلِهِمْۚ كَانُواْ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِي ٱلْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ٢١ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَكَفَرُواْ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُۚ إِنَّهُۥ قَوِيٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ٢٢﴾ [غافر: 21 - 22] فكان المُناسِب وجودَ (كان) لمُناسَبة ما قبْل وما بَعد، أمّا آية الرَّعد فتَخْلو من (كان)؛ فناسَب ذلك خُلوّ التَّركيب من (كان).

﴿۞مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا ۚ تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ ۖ وَّعُقْبَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ ﴿٣٥﴾﴾ [الرّعد: 35]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

التّرغيب بعد التّرهيب، بذِكر ما ادّخر الله للمتّقين، عقب ما أعدّ للكافرين

لمّا ذكر النّظم الكريم في الآية السّابقة عذاب الكفّار في الدّنيا والآخرة، أتبعه في هذه الآية بذكر ثواب المتّقين[1]، فقال سبحانه: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ﴾. ومن المناسبة أيضًا: أنَّ الله تعالى لمّا توعّد "الكافرين في الآيات السّابقة على تفريطهم في جانبِ الله واستهزائهم برُسُله؛ تشوّفتِ النّفس إلى الجزاء المُعدّ للّذين آمنوا، فكأنّه قيل: فما جزاء أهل الإيمان؟ فقيل: الجنّة"[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مَّثَلُ﴾: أصلُ كلمة (مثل): يَدُلُّ على مُناظَرَةِ الشَّيْءِ لِلشَّيْءِ، يُقال: هذا مِثْلُ هذا؛ أيْ: نَظيرُهُ، والمِثْلُ والمِثالُ بمَعْنًى واحِدٍ[3]، والمَثَلُ: عبارةٌ عن قَولٍ في شيءٍ يُشبِهُ قولًا في شيءٍ آخر بينهما مُشابهة، ليُبيّن أحدُهما الآخرَ ويُصوِّرَه. نحو قولهم: (الصَّيفَ ضَيَّعْتِ اللَّبَنَ)[4]، فإنَّ هذا القول يُشبه قولكَ: (أهْمَلْتَ وقْتَ الإمْكانِ أمْرَكَ)[5]، وعلى هذا الوجه ما ضَرب الله تعالى من الأمثال، فقال: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الحشر: 21]، والمِثْلُ يُقالُ على وجْهَيْنِ: أحَدُهُما: بِمَعْنَى المِثْلِ نحو شَبَهٍ وشِبْهٍ، قالَ بَعْضُهُم: وقَدْ يُعَبَّرُ بِهِما

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 19/46.
(2) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 10/353.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (مثل).
(4) ابن سلّام، الأمثال، ص: 247، والعسكريّ، جمهرة الأمثال: 1/324.
(5) نور الدّين اليوسيّ، زهر الأكم في الأمثال والحكم: 1/21.

عن وصْفِ الشَّيْءِ، نحوَ قوله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ﴾، والثّاني: عِبارَةٌ عَنِ المُشابَهَةِ لِغَيرِهِ في مَعْنًى من المَعاني أيَّ مَعْنًى كانَ، وهو أعَمُّ الألفاظِ المَوضوعَةِ لِلمُشابَهَةِ.

والمُثول: الانتصاب. والتَّمثال - بالفتح -: التَّمثيل، والتِّمثال - بالكسر -: الصّورة، ومثَّله له: صوَّرهُ، وتمثَّل: تصوَّر، قال تعالى: ﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ۝١٧﴾ [مريم: 17]، وتَمثَّل بالشَّيء: ضرَبَه مَثَلًا[1].

والمقصود بالمَثَلِ في الآية: الصِّفَةُ العَجيبَةُ، وهو مُسْتَعارٌ مِنَ المَثَلِ الّذي هو الشَّبيهُ في حالةٍ عَجيبَةٍ، أُطْلِقَ على الحالَةِ العَجيبَةِ غَيْرِ الشَّبيهَةِ؛ لأنَّها جَديرَةٌ بِالتَّشْبيهِ بِها[2].

2) ﴿أُكُلُهَا﴾: (أكل): كَلِمَةٌ واحِدَةٌ، ومعناها: التَّنَقُّصُ. قالَ الخَليلُ: الأَكْلُ معروفٌ، والأَكْلَةُ: المَرَّةُ الواحِدَةُ حتَّى يَشْبَع، والأُكْلَةُ اسْمٌ كاللُّقْمَةِ[3]، والأُكُلُ: بِضَمِّ الهَمْزَةِ والكافِ هو المأكولُ، والأَكَلَةُ: جَمْعُ آكِلٍ، والمأكَلُ: ما يُؤْكَلُ، كالمَطْعَم، والمُؤْكِلُ: المُطْعِمُ[4]، والأُكْلُ: طُعْمَةٌ كانَتِ المُلوكُ تُعْطيها الأشرافَ، والأُكْلُ أيضًا: الرِّزق، والجَمْعُ: آكالٌ[5]، والإِكْلَةُ: هَيْئَةُ الأَكْلِ، والإِكْلَةُ أيضًا: الحالُ الّتي يأْكُل عليها مُتَّكِئًا أو قاعِدًا[6]، والأكولَةُ: الشّاةُ تُرْعَى للأَكْلِ لا لِلبَيْعِ والنَّسْلِ[7]، والمقصود بالأُكُلِ في الآية: المَأْكول، مع اختِلافِ طعومِهِ وتَفاضُلِه.

3) ﴿دَآئِمٌ﴾: أصْلُ مادَّة (دوم): يَدُلُّ على السُّكونِ واللُّزومِ، يُقالُ: دامَ الشَّيءُ يَدومُ، إذا سَكَنَ، والماءُ الدّائِمُ: السّاكِنُ، يُقالُ: أدَمْتُ القِدْرَ إدامَةً؛ إذا سَكَّنْتَ غَلَيانَها بالماءِ، ومنه: دامَ الشَّيءُ: إذا امتدَّ عليه الزَّمان، قال تعالى: ﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ﴾ [المائدة: 117][8]، واستَدَمتُ الأمرَ: تأنَّيت فيه، والظِّلُّ الدَّوْم: الدّائم، والدَّوامُ على الشَّيءِ: عَدَمُ الانقطاع عنه، ومنه قوله تعالى: ﴿أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا﴾، وهو كِنايةٌ عَنِ التِفافِ الأشْجارِ

(1) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحُفّاظ: (مثل)، والفيروزابادي، بصائر ذوي التّمييز: 4/482.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/155.
(3) الخليل، العين، وابن عبّاد، المحيط في اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (أكل).
(4) ابن عبّاد، المحيط في اللّغة: (أكل).
(5) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (أكل).
(6) ابن منظور، لسان العرب: (أكل).
(7) ابن عبّاد، المحيط في اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (أكل).
(8) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (دوم).

بِحَيثُ لا فَراغَ بَينَها تَنفُذُ منهُ الشَّمسُ، وقوله: ﴿عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ دَآئِمُونَ ٢٣﴾ [المعارج: 23][1]، وهذا المعنى في كُلِّ عَمَلٍ بِحَسَبِ ما يُعتَبَرُ دَوامًا فيهِ، وهو المُراد هنا في الآية.

4) ﴿وَظِلُّهَاۚ﴾: أصلُ الظِّلِّ يَدُلُّ على سَتْرِ شَيءٍ لِشيءٍ، فالظِّلُّ: ظِلُّ الإنسانِ وغَيره، تَقولُ: أَظَلَّتْني الشَّجَرَةُ، وظِلٌّ ظَليلٌ: دائِمُ الظِّلِّ[2]، ولا تقولُ العرَبُ: ظَلَّ يَظَلُّ إلّا لكلِّ عَمَل بالنَّهار[3]، وظِلُّ النَّهارِ: لونُه إذا غَلَبَتْه الشَّمسُ، والظِّلُّ: نَقيضُ الضَّحِّ، وبَعْضُهُم يَجْعَلُ الظِّلَّ الفَيْء، وقالوا: ظِلُّ الجَنَّة، ولا يُقالُ: فَيْؤها؛ لأنَّ الشَّمْسَ لا تُعاقِب ظِلَّها فيكون هُنالِكَ فَيْءٌ، إنَّما هي أبدًا ظِلٌّ؛ ولذلكَ قالَ ﷻ: ﴿أُكُلُهَا دَآئِمٞ وَظِلُّهَاۚ﴾؛ أراد وظِلُّها دائِمٌ أيضًا[4]. ويُعبّر بِالظِّلِّ عن العِزَّة والمَنَعة، وعِن الرَّفاهة، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي ظِلَٰلٖ﴾ [المُرسَلات: 41]؛ أيْ: في عِزَّة ومَناع، والظُّلَل: جمعُ ظُلَّةٍ، كغُرْفَةٍ وغُرَفٍ: سحابةٌ تُظِلُّ، وأكثر ما يُقال فيما يُستوْخَم ويُكره، قال تعالى: ﴿كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٞ﴾ [الأعراف: 171][5]، والمقصود بالظِّلِّ في آية سورة الرّعد: الظِّلُّ الدّائم الحاصِل مِنَ التِفافِ الأشجارِ في الجَنَّةِ لكَثْرَةِ أوراقِها.

5) ﴿عُقۡبَى﴾: أصلُ مادَّة (عقب): يَدُلُّ على تَأْخيرِ شَيْءٍ وإتيانه بعدَ غيرِه، وكُلُّ شَيْءٍ يَعْقُبُ شَيئًا فهو عَقيبُهُ[6]، والعَقِبُ: مُؤخَّر الرِّجْل، والعاقِبَةُ: آخِرُ الأمرِ، وأثَرُ عَمَلِ العامِلِ، فعاقِبةُ كُلِّ شَيءٍ هي ما يَنجلي عنه الشَّيْء ويظهَرُ في آخِرِهِ مِنْ أثَرٍ ونَتيجةٍ[7]. قال الرّاغِبُ: العاقِبَةُ والعُقْبَى يَخْتَصّانِ بِالثَّواب، نحو: ﴿وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ ١٢٨﴾ [الأعراف: 128]، وبالإضافةِ قَدْ يُستَعمَلُ في العُقوبَةِ، نحو: ﴿ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ ٱلسُّوٓأَىٰٓ﴾ [الرّوم: 10]. والعُقوبَةُ والمعاقبةُ والعِقاب يختصُّ بالعذاب، قال: ﴿فَحَقَّ عِقَابِ ١٦﴾ [ص: 14]، ﴿شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ٤﴾ [الحشر: 4][8]، وسُمّيت العقوبةُ بِذلك؛ لأنَّها تَتْلو الذَّنْبَ، مِن تَعَقَّبَهُ: إذا تَبِعَهُ، وتَعَقَّبْتُ الرَّجلَ؛ أيْ: أخَذْتَه بذَنْبٍ كان مِنْهُ، والجمع: عُقوباتٌ[9]، والمقصود

(1) ابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المُؤصّل: (أكل)، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/155.
(2) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (ظل).
(3) الخليل، العين: (ظل).
(4) ابن منظور، لسان العرب: (ظلل).
(5) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحُفّاظ: (ظلل).
(6) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (عقب).
(7) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/أ92.
(8) الرّاغب، المفردات: (عقب).
(9) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (عقب).

بالعُقبى في الآية: العاقِبَةُ، وهي الشَّيءُ الَذي يعقبُ؛ أيْ: يَقَعُ عَقِبَ شيءٍ آخَرَ[1].

❁ المَعْنى الإجْماليّ:

بيانُ ما أعدَّه الله تعالى لأهل التَّقوى، من أصناف النَّعيم في جنّة المأوى

بيَّنت هذه الآية ما أعدّه الله تعالى للمُتَّقين من نعيم ذُكِرَتْ أوصافُه بقوله سُبحانَهَ: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ﴾ الآيةَ؛ والمَعنى: صِفةُ الجنَّةِ - الَتي وعدَ الله بها المتَّقينَ في الآخرةِ - أنَّ الأنهارَ تجري من تحتِ قُصورِها وأشجارِها، وما يُؤكَلُ في الجنَّةِ مِن ثمارِها دائِمٌ لأهلِها، لا ينفَدُ ولا ينقَطِعُ عنهم، وظِلُّها أيضًا دائِمٌ لا يزولُ، تلك الجنَّةُ العاليةُ الأوصافِ هي عاقِبةُ المُتَّقينَ الّذين امتَثَلوا ما أمَرَهم الله به، واجتَنَبوا ما نهاهم عنه، وعاقِبةُ الكافرينَ بالله هي النّارُ[2].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيّ:

دلالة فصل هذه الآية عمّا قبلها:

الجمع بين البشارة والنّذارة، منهج دعويٌّ مكرّسٌ بجدارة

لم تُعطف الجملة في قوله تبارك اسمه: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ﴾؛ لأنّها مستأنفة استئنافًا ابتدائيًّا، لقصْدِ الرّبط بينها وبين قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ﴾ [الرّعد: 29]، وقد ذكر هنا بمناسبة ذكر ضِدّه قبله في قوله: ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْأَخِرَةِ أَشَقُّ﴾ [الرعد: 34][3]، فلمّا ذُكِر العذابُ؛ حسُن أن يُتْبَعَ بنقيضه؛ لِما في الجمع بينهما من زيادة التّبشير والتّرهيب.

سرُّ التَّعبير بالمثل دون الشّبه في الآية:

المَثَل يشير إلى غرابة الوصف لا إلى التّشبيه

آثر النّظم الكريم التّعبير بالمَثَل دون الشّبَه في قوله جلّ شأنه: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ لأنّه لم يرد المشابهة، بل بيان أنّ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/130.

(2) ابن جرير، جامع البيان: 13/555، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 9/325، والسّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 419.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/155.

صفتها عجيبةٌ غريبة كغَرابة المَثَل، فهو وصف للتّقريب ابتغاء التّفهيم؛ إذِ المَثَل إنّما سار بين النّاس لغرابته ولكونه يُفهِّم الحالَ الموصوفة[1]، فوصف الجنّة من الغرابة والعجب بمكان أن يكون جديرًا بأن يكون مُشبّهًا بهِ، فإنّ وصفَها "في الجلال، وعلوّ الجمال، وكرم الخلال، ممّا تعالى عن المنال، إلّا بضرب الأمثال، فقيل: ما مثلها؟ فقيل: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي﴾"[2].

ولأنّ المثل يُباينُ الشّبه؛ فالمثل أعمُّ والشّبه أخصُّ، وذلك لأنَّ المِثليّة تقتضي الاتِّفاق في الذّات والصِّفة؛ فهي تُفيد المطابقة، بخلاف الشّبه فيدلُّ على المشابهة في بعض الصّوَرِ لا كلِّها، وعلى هذا جاء التَّعبير القرآني بالمَثل؛ للدِّلالة على أنَّ ما قصَّه القرآنُ عن الجنَّة - وهى غيبٌ عنا - حقيقةٌ واقعة؛ لأنَّ الّذي وصفها هو خالقها سُبحانه.

سرّ التّعبير بالمَثَل دون الوصف في الآية:

التَّعبير بالمَثَل مسلك يلحق غير المعلوم بالمعلوم؛ لتقريب المفهوم

جاء التّعبير القرآنيّ بالمَثَل في قوله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَۖ﴾، دون الوصف بأن يقول: (وصف الجنة)؛ للإشارة إلى عجز اللّغة عن التّعبير عمّا في الجنَّة؛ فإذا أراد اللّه سُبحانَهُ أن يُعبِّر عمّا فيها من النَّعيم، جاء ذلك عن طريق المَثَل لا الوصف؛ لأنَّ اللّه يعلم أنَّ لغتنا تضع الألفاظ لما هو موجودٌ في حياتنا؛ لأنَّ الألفاظ الّتي نتخاطب بها نحن، قد وُضعت لمعانٍ نعرفها، وإذا كان في الجنَّة أشياء لم ترها عينٌ، ولم تسمعها أذنٌ، ولم تخطر على قلب بشر؛ فلا توجد ألفاظ في لغتنا تُؤَدّي إلى وصف حقيقة الجنّة؛ لذلك يضرب اللّه لنا المَثَل بما نراه ونعرفه للتّقريب. ويؤكّد ذلك أنَّ التَّعبير القرآنيّ وردَ: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ﴾، ولم يقل: الجنّة مباشرة؛ لأنَّ

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/154.
(2) البقاعيّ، نَظْم الدّرر: 10/353.

المَثَل يُعطي المتلقّي صورةً سمعها عن واقعٍ لا يعلمه؛ فيأتي التَّعبير بالمَثَل ليلْحِقَ غيرَ المعلوم بالمعلوم؛ لنأخذ منه الحكمة[1].

سرُّ التّعبير بالمفرد ﴿ٱلْجَنَّةِ﴾:

لفظ الجنّة يُنبئ عن منازلها وطبقاتها، فهو أوعب في الدّلالة عن المُراد

آثر القرآن الكريم التَّعبير بالمفرد ﴿ٱلْجَنَّةِ﴾ دون الجمع (الجنّات)؛ لأنَّ اللّامَ تدلُّ على الجنس، والمُراد بها: الدّار الّتي أعدَّها الله للثَّواب، وهي مشتملة على جنّاتٍ كثيرة، تكون كلُّ جنَّةٍ منها على قدر الثَّواب المُعدِّ للعاملين، كلٌّ على قَدْرِ درجته، ويؤكِّد ذلك أنَّ الفردوس هو أعلى الجنّات، كما قال النَّبيُّ ﷺ: «إذا سَأَلْتُمُ الله فَسَلوهُ الْفِرْدَوْسَ، فَإِنَّهُ أَوْسَطُ الْجَنَّةِ، وأَعْلَى الْجَنَّةِ»[2].

دلالة التَّعبير باسم الموصول ﴿ٱلَّتِي﴾:

استدعاء صورة الجنّة المذكورة في السّياق، وعْدًا بالفحوى، لأهل التّقوى

آثر النّظم الكريم التّعبير بالاسم الموصول في قوله جلّ شأنه: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَۖ﴾ للإحالة على الصّورة الّتي سبق للنّظم الكريم أن بيّنها للجنّة في سابق التّنزيل؛ لأنّها معهودة في الذّكر والأذهان، فالتّعبير بالموصول في سياق التّمثيل للجنّة، يستدعي صورة الجنّة بما تتضمّنه صلة الموصول، وهي هنا كونها سبق أن ذُكرت وعدًا للمتّقين، فهذا أوان تمثيلها وبيان الخلاصةِ فيها.

سرّ التَّعبير بالوعد دون البشارة في الآية:

الوعد إخبار عن محقّق الخبر، والبشارة إخبار بسارٍّ منتظر

آثر النّظم الكريم التّعبير بالوعد دون البشارة في قوله جلّ شأنه: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَۖ﴾؛ لأنّ البشارة تعني: أوّل خبرٍ سارٍّ[3]، فهي إخبار بخبر سارّ، بخلاف الوعد؛ فلأنّه كلِمَةٌ تَدُلُّ على تَرْجيةٍ بِقَوْلٍ[4]؛ أيْ: إخبارٌ يُرجى وقوعه وتحقّقه مستقبلًا، فالبشارة دالّة

(1) الشّعراويّ، تفسير الشّعراوي: 12/7262.
(2) أخرجه البخاري من حديث أبي هريرة، الحديث رقم: (2790).
(3) السّمين الحلبيّ، عمدة الحُفّاظ: (بشر).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (وعد).

على المسرّة، والوعد دالٌّ على التّحقّق، فآثر النّظم الكريم التّعبير بالوعد إعلامًا بتحقُّق ذلك وتأكيد حصوله.

دلالة بناء الفعل ﴿وُعِدَ﴾:

صِدقُ الوعد، يُغني عن ذكر الواعد

آثر النّظم الكريم أن يُعبّر في قوله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ بالفعل المبنيّ للمفعول، فلم يُسمّ فاعلٌ للفعل ﴿وُعِدَ﴾؛ لأنّ المقصود هو حصول الوعد الصّادق، لا بيان مَن قام به، فالأهمُّ تحقّق الوعد بالإيفاء بالموعود، كما أنّ في ذلك إيجازًا؛ إذْ قد عُلم أنّ الواعدَ هو الله تعالى[1]؛ لأنَّه سبحانه هو صاحب الوعد، وقد بلَّغت عنه الرُّسُلُ عليهم السلام، وتلاهم العلماء المبلِّغون؛ فالملاحظ أنَّ إعلان الوعد تعدَّدت مصادره لعلوِّ قدره؛ لذلك بُني الفعلُ لما لم يُسَمَّ فاعله؛ ليكونَ ذلك أوْسَعَ لأهل الدَّعوة في كلِّ زمان ومكان أن يُرَغِّبوا النّاس في تقوى الله بما أعدَّه لهم من الجزاء، ويكون دَوْرُهُم من باب الإعلام.

دلالة التَّعبير بالاسم ﴿ٱلْمُتَّقُونَ﴾:

وعدُ الله للرّاسخين في التَّقوى، بحيازة النّعيم في جنّة المأوى

آثر النّظم الكريم في قوله تبارك اسمه: ﴿ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ التَّعبير بالاسم، دون الفعل فلم يَقل: (الّتي وعد الّذين اتّقوا)؛ لأنّ التّعبير بالاسم دالٌّ على أنّ الوصف قد ثبت فيهم وصار راسخًا، فالوعْدُ ليس لمجرّد إحداث التّقوى مرّةً أو مرّات، بل لا بدّ أن يكون قد رسخ فيه الوصف وصار ثابتًا لا يزول بمَرّ الزّمن وتقلُّب الأيّام.

سرُّ التَّعبير بلفظ ﴿ٱلْمُتَّقُونَ﴾:

التَّقوى اجتهاد في البعد عن المعاصي، والتَّرقّي في أسباب الوقاية منها

آثَر القرآن الكريم وصف التّقوى في قوله: ﴿وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ دون غيره من الأوصاف كالإيمان والإسلام؛ لِما يحمله هذا الوصف من الاجتهاد في البُعد عن المعاصي والتَّرقّي في أسباب الوقاية منها؛ لأنَّ الفعل (اتَّقى) بصيغته يدلُّ على الافتعال الّذي يلزم منه بذل الجهد

(1) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 10/353.

لتحقيق الفعل، بخلاف لفظ الإيمان والإسلام؛ فالأمر فيهما مبنيٌّ على الإعلان الظّاهريِّ والباطنيِّ، ولا يتطلَّب ذلك كبير اجتهاد.

سرُّ الفصْل بين الجنّة وأوصافها:

تنويه بما يناله المتّقون، في أخراهم من جنّات وعيون

فصل النّظم الكريم في قوله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ بين الجنّة وأوصافها بقوله تعالى: ﴿ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ﴾؛ للدَّلالة على الاهتمام بسُكّانها ولمزيد العناية بهم، فذكر هذه العبارة باعتبارها صفةً تعريفيّة بِسكّانها قبل أن يشرع بوصفها، فعرّفها بكونها الّتي وعد المتّقون؛ وذلك تنويهًا بشأن هؤلاء المُتّقين، بأن جعلهم عنوانًا للجنّة، كما أنّ فيه حثًّا للمسلمين للثّبات على ما هم عليه من التّقوى.

بلاغة الموقع الإعرابيّ في قوله: ﴿تَجْرِى﴾:

جَريان الأنهار، من أوصاف الجنّة دار القرار

الجملة في قوله تعالى: ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ في موضع الخبر للمبتدأ ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ﴾، باعتبار أنّ مضمون الجملة وهو جريان الأنهار فيها حالٌ من أحوال الجنّة الّتي هي مضاف إليه، فهي بذلك شديدة الملابسة للجنّة؛ لأنّ المتضايِفَيْن وثيقا المُلابسة والارتباط، لذلك جاءت خبرًا عن المثل، كما يُقال: صفة زيد أسمر[1]، فـ(أسمر) خبر عن المبتدأ الّذي هو (صفة)، وصحّ ذلك لأنّه حال وصفة من صفات زيد الّذي هو المضاف إليه. وممّا يُذكر في بلاغة التّعبير بجريان الأنهار في الجنة: التَّصوير الجماليُّ للجنَّة، وذلك من جهة بساتينها، فأفضلها وأكرمها منظرًا ما كانت أشجارُه مظلّلةً والأنهار فيها جارية، والحدائق مع جمالها لا تُبهج الأنفس إلّا بجريان الماء فيها.

سرُّ التَّعبير بالفعل ﴿تَجْرِى﴾:

جودة ماء الجنّة وجمالها، حاصلٌ بتدفّقها وجريانها

عبّر النّظم الجليل عن صفات الحُسن في الجنّة، وبدأها بصفة الجري فقال جلّ شأنه: ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾، فلم يكن الإنعام

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/155.

بالأنهار فحسبُ، بل بكونها جارية على الدّوام؛ لأنّ صفة الجري في الأنهار، من أهمّ صفات الجودة فيها، لدلالتها على التّجدّد والدّوام وانتفاء الانقطاع، كما أنَّ توقّف الماء يؤدّي إلى فساده وعفنه.

دلالة التَّعبير بالفعل المضارع ﴿تَجْرِى﴾:

عبّر النّظم الكريم بالفعل المضارع ﴿تَجْرِى﴾ في قوله جلّ شأنه: ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا ۚ﴾ للدّلالة على تجدّد جريان الأنهار وعدم انقطاعها، وذلك بانتفاء العوارض الّتي كانت تقع أمثالها في الدّنيا، وفيه تأكيد لمزيد الإنعام، فلم يكن الإنعام بوجود الأنهار في الجنّة وحسب، بل إنّ تلك السّواقي جارية على طول الزّمان، وهذا غاية الجودة في صفة الأنهار.

من تمام الإنعام تجدُّد جريان الأنهار، وتدفّقها بمشيئة الواحد القهّار

وفيه تصويرٌ لجمالها وحُسنها؛ لأنَّ أحسن المياه ما كان مُتجدِّدًا؛ فالتَّعبير بالفعلِ المضارع يُشير إلى أنَّ هذه المياه جديدة مُستجدّة.

دلالة ﴿مِن﴾ في قوله تعالى: ﴿مِن تَحْتِهَا﴾:

عبّر النّظم الكريم في قوله جلّ شأنه: ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ﴾ بإدخال ﴿مِن﴾ للدّلالة على ابتداء مكان الجري، وأنّ الماء ينبع من تحتها، ثم يجري من تحت أشجارها، وأنَّه كان بالجهة الّتي هي تحت الجنّة، وهذا يدلّ على تمكّن أهلها من هذه الأنهار؛ فهي تحتهم، وهذا يشعر بقدرتهم عليها لسهولتها. وذهب البقاعيّ إلى أنّ ﴿مِن﴾ دالّة على التّبعيض، فقال: "أدخَلَ الجارَّ للدّلالة على أنّه خاصّ ببعض أراضيها، فقال: ﴿مِن تَحْتِهَا﴾ أي: قصورها وأشجارها"[1].

منابع جري الأنهار، تنبثق من تحت الجنّة

سرُّ التَّعبير بالظّرفيَّة ﴿تَحْتِهَا﴾:

عبّر النّظم الكريم عن مكان الأنهار من الجنّة بالظّرف (تحت)، فقال تعالى: ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ﴾ وهو: إحْدى الجهاتِ

الأنهار تحت الجنّة لا فوقها، وهي دليلٌ على عظمة من شقّها

(1) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 10/354.

السِّتِّ المُحيطة بالجِرم[1]، وهو مقابل لـ(فوق)، ويُستعمل (تحت) في المنفصل، و(أسفل) في المُتّصل، يُقال: المال تحته، وأسفله أغلظ من أعلاه[2]، أمّا السُّفْلُ: فهو ضدّ العلو، قال تعالى: ﴿فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا﴾ [الحِجْر: 74]، وأسْفَل ضدّ أعلى، قال تعالى: ﴿وَٱلرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾ [الأنفال: 42][3]، وعليه فإنّ التّعبير بـ (تحت) الدّالّ على أنّ الأنهار تحت الجنّة لا فوقها هو الجاري على دلالة الظّرف، ولو قال: (أسفلها الأنهار)؛ لدلّ على أنّ الجنّة مرتفعة والأنهار أسفل منها.

دلالة تقديم الظَّرف ﴿تَحْتِهَا﴾:

مكان الجري أبلغ في الإنعام، من ذكر الجاري

قدّم النّظم الكريم شبه الجملة ﴿مِن تَحْتِهَا﴾ على الفاعل ﴿ٱلْأَنْهَٰرُ﴾، في قوله تبارك اسمه: ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾، ولم يَجْرِ هذا التَّعبيرُ على الأصل: (تجري الأنهار من تحتها)؛ لأنّ بيان كون صفة الجري حاصلة من تحتها أبلغ في إظهار الإنعام، فقُدِّم ما يُعبّر عن مكان الجري على الجاري، كما أنّ تأخير ما حقّه التّقديم فيه تشويق وتفخيم لشأنه.

سرّ التَّعبير بلفظ الأنهار مع الجنّة:

الأنهار موطن السُّكنى، ومنبع الغذاء، ومَعين الحياة

دأب النّظم الكريم في بيان النّعم في الجنّة على ذكر الأنهار، كما في قوله جلّ شأنه: ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾؛ لِما جرت عليه عادة النّاس من السّكن عند الأنهار ومصادر المياه، ولأنَّ الأنهار هي موطن الزّراعة ومَزادَة الغذاء، ولذا أعقبها بذِكْر الأكل، فقال ﷻ: ﴿أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا﴾.

سرُّ البدء بجريان الأنهار من تحت الجنة:

الماء سرّ الحياة والمُعتمد في اتّخاذ الأرض مسكنًا

بدأ النّظم الكريم وصفَ الجنَّة بذِكْرِ جريان الأنهار في قوله تعالى: ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا﴾؛ لأنَّ جريان

(1) ابن منظور، لسان العرب: (تحت).
(2) الرّاغب، المفردات: (تحت).
(3) الرّاغب، المفردات: (سفل).

الأنهار سببٌ للثّمار الّتي ينتج عنها الأكل، ولأنَّ الماء ووفرتَه هي الأصل في اتّخاذ المكان مسكنًا، وقد دأب النّاس على أن يكون جوارُ الماء هو الموطن والمسكن الّذي يَنْزِلون فيه، فإذا عُدمَ الماءُ؛ لَم يَصْلُح المكان لأنْ يُسْكَنَ فيه.

بلاغة المجاز المرسل في الآية:

إسناد الجري إلى الأنهار، لونٌ من التّصوير الجميل، للتّشويق الأثيل للنّعيم المُنْتَظر

أسنَد القرآن الكريم الجري إلى الأنهار في قوله: ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ مع أنَّ الّذي يجري في الحقيقة هو الماء الّذي فيها، ويكون ذلك من باب المجاز المُرسل؛ مِن إطلاق اسم المحلِّ وإرادة الحالِّ؛ لأنَّ النّاظر إلى الماء وهو يجري لا يرى النَّهر، لكِنْ يرى الماء، فكأنَّ النَّهر اختفى في الماء والنّاظر لا يرى غيره[1]. ويجوز أن يكون هذا المجاز عقليًّا؛ إذا نظرنا إلى أنَّ التّجوُّزَ واقِعٌ في الإسنادِ.

دلالة(ال) في لفظ ﴿ٱلْأَنْهَٰرُ﴾:

تلوّن معنى تعريف الأنهار، إيغالٌ في وصف الجمال، وتأكيدٌ للروعة

اللّامُ في ﴿ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ يجوز أن تكون للجنس، والمُراد أنّها تستغرق جميع أنهار الجنّة الواردة في قوله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ﴾ [مُحمَّد: 15]، ويجوز أن تكون للعهد، والمُراد بها: ما يستحضره السّامع عند ذِكر الجنّات؛ لأنّها من لوازمها وأساس من أُسسِ وجودها، فإذا انعدمت الأنهار؛ انعدمت الجنّات.

سرُّ ذِكر الأكل عقب جري الأنهار:

الأنهار مُستَقرّ الشّعوب، ومنبع الغذاء والتّواصل والتّشارك بين الأمم

أعقب النّظم البليغ جري الأنهار بذِكر الأُكل في قوله تبارك اسمه: ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا ۚ﴾؛ لأنّ الأنهار هي مستقرّ الشّعوب، فاتّخذها النّاس مواطن للسّكن، لِما كانت تزوّدهم

(1) محمّد أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 1/171.

به من مَشربٍ وسَقْيٍ لدوابّهم وزراعتهم، فكان ذِكر الأُكل مناسبًا بعد ذِكر الأنهار، أو كما قال البقاعيّ: "ولمّا كان هذا ريًّا حقيقيًّا في أرضٍ هي في غاية الخلوص والطّيب؛ كان سببًا لدوام ثمرها واستمساك ورقها، فلذلك أتبعه قولَه: ﴿أُكُلُهَا﴾"[1].

وممّا يُذكر في ذلك أنَّ متعة الأكل تأتي بعد متعة النَّظر، ولأنَّ الأنهار سبب في وجود الأكل، فقُدّم السّبب على النَّتيجة، وللإشارة إلى أنَّ وصف الجنَّة بجريان الأنهار وصف لذاتها، والأكل وصفٌ لمنفعتها[2].

سرُّ التَّعبير بالأكل في قوله: ﴿أُكُلُهَا﴾:

آثر النّظم الكريم التَّعبير بالأكل في قوله تبارك اسمه: ﴿أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا﴾ دون غيره إشارة إلى ثَمَرِها الّذي يُؤكل[3]، فذِكْرُ الأُكل دون الثّمار يتضمّن إشارة إلى صلاح أكلها على الدّوام.

ثمار الجنّة يانعة، تُجنى في كلّ زمان، وتتجدّد ولا تتبدّد

وفيه إشارة إلى العموم؛ لأنَّ لفظ الأكل اسمٌ لكلِّ ما يُطْعَم، سواءٌ أكان مِن الثِّمار أو من غيرها.

أثر تعدُّد القراءات في قوله: ﴿أُكُلُهَا﴾:

تعدَّدت القراءات في قوله تعالى: ﴿أُكُلُهَا﴾ بين ضَمِّ الكاف وإسكانها، حيث قرأ عاصم وابن عامر والكسائيُّ وحمزة بضمِّ الكاف، وقرأ الباقون بإسكانها؛ فذهب بعضُ أهلِ العربيَّةِ إلى أنَّ تغيُّر الحركات من باب تعدُّدِ اللُّغات، وذهب آخرون إلى وجود فرق بينهما بناءً على أثر التَّغيُّر الحركيّ فيهما، قال أبو علي الفارسيّ: "الأُكْل بالإسكان مصدر أكلتُ أكلا وأكَلَة؛ فأمّا الأُكل - بالضّمِّ - فهو المأكول، يدلُّ على ذلك قوله تعالى: ﴿تُؤْتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينِۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ [إبراهيم: 25]، والمُراد: ما يؤكل منها، وبذلك تكون القراءتان

في تنوّع القراءة القرآنيّة، سعة في الفهم، وتنوّع في التّأويل

(1) البقاعيّ، نَظْم الدّرر: 10/354.
(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/77.
(3) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 10/354.

جمعتا بين الأكل والمأكول؛ لأنَّ حركة الضَّمِّ تُدَلِّل على بذل الجهد في عمليَّة الأكل"[1].

سرُّ وصف الأكل بالدَّوام في الآية:

سعة الإكرام في الجنّة لا حدود له، والله يُعطي على قدر كماله

أفصح النّظم الكريم عن سعة الإكرام في الجنّة، بقوله تعالى: ﴿أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا﴾، فوصْفُ الأُكل بأنّه دائم لا يزول ولا ينقطع[2]، لأنَّ أكثر ما يسرُّ النّفوس دوام الخير والنّعيم، وأشدّ ما يُنغّص عليها التّنعّمَ في الدّنيا إدراكُها أنّ النّعمة زائلة، فبشّرهم الله تعالى أنّ من صفات الجنّة دوامَ نعيمها، كخلود أهلها.

دلالة التَّعبير بالظِّلِّ في الآية:

الظّلّ أعمّ من الفَيْء، لاستيعابه المعنى الأشمل

آثر النّظم الكريم التّعبير بالظّلّ دون الفيْء في قوله جلّ شأنه: ﴿أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا﴾؛ لأنّ الظّلّ يكون بلا شمس، فهو أعمُّ من الفَيْء، فإنّه يُقال: ظِلُّ اللّيلِ، وظِلُّ الجنّةِ، ويُقال لكلّ موضع لم تصل إليه الشّمس: ظِلٌّ، ولا يُقال الفيْءُ إلّا لما زالت عنه الشَّمس[3]، فكلُّ فيء ظلٌّ، وليس كلُّ ظلٍّ فيئًا، والفيْء لا يكون إلّا نهارًا بوجود الشَّمس، بخلاف الظّلّ فإنَّه يكون في اللّيل والنّهار معًا.

سرُّ حذف وصف الدَّوام مع الظِّلِّ دون الأُكُل:

الإيجاز من معالم الإعجاز، ومن مميّزات التّركيب القرآنيّ بامتياز

اكتفى النّظم الجليل بذكر ﴿دَآئِمٌ﴾ مرّة واحدة في قوله تعالى: ﴿أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا﴾، ولم يكرّره مع الظّلّ، والتّقدير: وظلّها كذلك[4]، وهذا من باب الإيجاز؛ فإبلاغ المعنى بأقلّ لفظ من معالم الإعجاز. وفي الحذف فائدة أخرى تجعل السّامع يُكمل العبارة بناء على ما سمع من قوله: ﴿أُكُلُهَا دَآئِمٌ﴾، وفيه إشارة إلى الاهتمام بالظِّلّ.

(1) الفارسيّ، الحُجَّة: 2/394.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/155.
(3) الرّاغب، المفردات: (ظلل).
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/25.

دلالة تأخير الظّلّ بعد الأكل في الآية:

الضّروريات قبل الكماليّات، منهج متوازن في الحياة

أخّر النّظم الكريم ذِكْرَ الظّلّ في قوله جلّ شأنه: ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا﴾، فجاء بعد ذِكْرِ الأنهار والأُكل، فرتّب ذِكر تلك النّعم حسب أهمّيتها للحياة، واهتمام النّاس بها، فالمشرب والمأكل هما الأصل في اعتبار صلاح الموضع للسّكن، وأمّا الظّلال فهي من صفات الجودة والكمال، فجاء التّرتيب على وفق نظام الإنسان في الحياة.

بلاغة الكناية في التّعبير بدوام الظّلّ:

دوام الظّلّ يُفصح عن وفرة الأشجار، ممّا يسحر القلوب والأنظار

عبّر النّظم الكريم بدوام الظّلّ في قوله جلّ شأنه: ﴿أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا﴾ كناية عن شدّة الْتِفاف الأشجار، بحيث لا فراغ بينها تنفذ منه الشّمس، كما قال تعالى: ﴿وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا ﴿١٦﴾﴾ [النّبأ: 16]، وقال: ﴿مُدْهَآمَّتَانِ ﴿٦٤﴾﴾ [الرحمن: 64]، وذلك من محامد الجنّات ومن صفاتها الحسان[1].

وفيه إشارة إلى جمال المتعة وكمال النّعمة، وذلك لأنَّ بلاد العرب – كما يقول الرّازيُّ في تفسيره – كانت في غاية الحرارة، فكان الظِّلُّ عندهم من أعظم أسباب الرّاحة[2].

دلالة التّعبير باسم الإشارة ﴿تِلْكَ﴾:

تحقّق وجود الجنّة، لأنّه أمر يُؤخذ باليقين لا بالظّنّ

نزّل النّظمُ الكريمُ الجنّةَ في قوله تعالى: ﴿تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟﴾ منزلة المُشاهَد، وذلك بالإشارة إليها، فاسم الإشارة أفاد أنّ الجنّة حاضرة مشاهدة، وذلك لتأكيد حقيقة وجودها في الغيب؛ والمعنى: "تلك الجنّة الموصوفة بصفتها، وهي الّتي سمعتم أنّها عقبى الدّار للّذين يوفون بعهد اللّه إلى قوله: ﴿وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ﴾ [الرعد: 22] إلى قوله: ﴿فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾﴾ [الرعد: 24] هي الجنّة الّتي وعد المتّقون"[3].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/155.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 10/108.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/156.

سرُّ التَّعبير بلفظ ﴿عُقۡبَى﴾ مع المُّتقين والكافرين دون (عاقبة):

إدراك نهاية المطاف، أبلغ في إيقاع الخبر، وإيصال البلاغ

آثر النّظم الكريم في قوله تبارك اسمه: ﴿تِلۡكَ عُقۡبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْۖ وَّعُقۡبَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ﴾ التّعبير بـ (العقبى) دون (العاقبة) للدّلالة على جزاء الأمر؛ أيْ: مآلهم ومنتهى أمرِهم: الجنّة أوالنّار[1]، ولو قال: (عاقبة) لدلّ على النّهاية دون الجزاء، فالعاقبة ما يأتي عقب الشّيء، فهي دالّةٌ على الختام، أمّا العقبى فهي الجزاء الّذي يكون في النّهاية، وهذا أبلغ في السّياق، فَتبشير المتّقين بأنّ هذا نهاية أمرهم أحسن ما تكون البِشارة، وتفجيع الكافرين بأنّ هذه نهايتهم بحيث تنقطع عنهم الأمانيّ، فهو أشدّ تأييسًا وتبكيتًا لهم.

وممّا يُذكر في سِرِّ التَّعبير بـ﴿عُقۡبَى﴾ في جزاء الأشرار والأبرار: الإشارة إلى أنّه جزاءٌ أعقب عملًا، إن خيرًا فخيرٌ، وإن شرًّا فشَرٌّ، والله لا يظلم العباد، وإذا كانت الأعمال غير مستوية فالعقبى غير مستوية، قال تعالى: ﴿لَا يَسۡتَوِيٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۚ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ٢٠﴾ [الحشر: 20][2].

سرُّ الموصول وصلته في: ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْۖ﴾:

تحقيق التّقوى سبيل الوصول للجنّة، وأداء حقوق الله في كلّ نعمة

عبّر النّظم الكريم في قوله جلّ شأنه: ﴿تِلۡكَ عُقۡبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْۖ﴾ عن المتّقين الموعودين بالجنّة باسم الموصول دون أن يقول: (عقبى المتّقين)؛ للإشارة إلى سبب تلك العقبى، وهو كونهم أنجزوا التّقوى واتّصفوا بها، فالجملة في حيّز الصّلة تتضمّن تعليلًا للحُكم ولِاسْتِحْقاقهم تلك العقبى بالجهد الّذي بذلوه من اتّقاء أسباب الكفر وأنواع الشِّرك حتّى وصلوا إلى الدَّرجة العالية في أمر التَّقوى.

دلالة التَّعبير بالفعل الماضي ﴿ٱتَّقَواْۖ﴾:

التّقوى للعبد مَعْقِد الفلاح، يوم يرجع إليه ويلقاه

آثَر القرآن الكريم التَّعبير بالماضي ﴿ٱتَّقَواْۖ﴾، في قوله: ﴿تِلۡكَ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/25.
(2) محمد أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 8/3961.

عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ﴾؛ لأنَّ الماضيَ يُدَلِّل على تحقُّق الوقوع وتمكُّن فاعله منه، وهذا ما يُشير إليه التَّعبير ﴿ٱتَّقَوْاْ﴾ الّذي يدلُّ على رسوخ التَّقوى في قلوبهم حتّى آتت أُكلها في سلوكهم.

دلالة الواو في: ﴿وَّعُقْبَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾:

دلّت الواو في قوله جلّ شأنه: ﴿تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ وَّعُقْبَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ﴾ على الاستئناف؛ فالجملة مستأنَفة[1] وفائدة الاستئناف هنا: بيان التّمايز بين الفريقيْن في الآخرة، فالمناسبة بين الكلام السّابق وهذه الجملة هي التّضادّ، فإنَّهُ لمّا ذَكر أنَّ عُقبى المتّقين هي الجنّة؛ أظهر حُسن هذه العُقبى بذِكر نَقيضِها وهي النّار.

التَّمايز بين الفريقيْن في الآخرة، إنصاف من الله وعدل

دلالة التَّعبير بـ ﴿ٱلْكَٰفِرِينَ﴾:

آثر النّظم الكريم التّعبير بـ ﴿ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ دون(المشركين) في قوله جلّ شأنه: ﴿وَّعُقْبَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ﴾؛ لأنّ لفظ (الكافرين) أعمُّ من(المشركين)، فكلّ مشرك كافرٌ، وليس كلّ كافرٍ مشركًا، فاليهود كفروا بالنّبيّ ﷺ ولم يكونوا مشركين، فالتّعبير بالكافرين في الآية ليعمّ الجميع.

فمَن أشرك بالله وجعل له شريكًا من خلقه فقد كفر، كما قال تعالى: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾﴾ [الأعراف: 191].

الكفر أعمّ من الشّرك، وكلاهما هلكة وسوء مصير

سرُّ التَّعبير بالاسم ﴿ٱلْكَٰفِرِينَ﴾:

آثر النّظم الكريم التّعبير عن الكافرين بالاسم دون الفعل في قوله تعالى: ﴿تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ وَّعُقْبَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ﴾، فلم يَقُلْ: (الّذين كفروا) كما قال: ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ﴾؛ وذلك للدّلالة على أنّهم نالوا تلك العقوبة بسبب ثباتهم على الكفر ورسوخهم به، وفيه إظهار لرحمة الله تعالى؛ إذ إنّه لم يحكم على كلّ مَن كفر بذلك؛

الدّلالة على رُسوخهم في الكفر، تبشيع لحالهم المناوئ لله ورُسُله

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/156.

لأنَّ بعضَهم قد أسلم كما هو الواقع مع كفّار قريش، وبذلك يكون الحُكم خاصًّا بمن اتّصفوا بالكفر على وجه الثّبوت والرّسوخ وماتوا على ذلك.

سِرُّ اختلاف أسلوب التَّعبير في الآية:

إعلاء شأن المتَّقين، وتوبيخ الكافرين، منهج قرآنيٌّ مبين

اختلف أسلوب التَّعبير القرآنيِّ في الحديث عن الجزاء المُعدِّ للمتَّقين والعقاب المُعدِّ للكافرين، فقال: ﴿تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْۖ﴾، والمُراد: الجنَّة ونعيمها، ومع الكافرين بقوله: ﴿وَّعُقْبَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ﴾، والمُراد: النّار وعذابها، فالملاحظ أنَّه عبَّر عن الجنّة بالإشارة إليها بقوله: ﴿تِلْكَ﴾ الدّالّة على البُعد تعظيمًا وتفخيمًا لشأنها، أمّا التّعبير عنِ النّار فجاء بصريحِ اسمها من غير وصف لتعيين العاقبة، فَذَكَرها باسمها المشهور وهو النّار فَحَسْبُ.

بلاغة القصر في: ﴿وَّعُقْبَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ﴾:

قطع سبل النّجاة، أبلغ في شدّة العذاب، وبالغ الأذاة

عبّر النّظم الكريم بأسلوب القصر في قوله تعالى: ﴿وَّعُقْبَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ﴾؛ أيْ: لا عقبى لهم غيرها، كما يُؤذِن به تعريف الخبر[1]. وهو قصرٌ حقيقيّ؛ إذ عقبى الكافرين كذلك لا بالنّسبة إلى غيرهم، وهو قصر صفة على موصوف، فَقصر الصِّفة – وهي عقبى الكافرين – على النّار، وفيه ما لا يخفى من إطماع للمتَّقين وإقناطٍ للكافرين[2].

سرُّ التَّعبير بالنّار في الآية:

أقسى العذاب في دركات النّار، والمنتهى إليها بئس القرار

جاء التَّعبير القرآني بذِكر الاسم الصَّريح ﴿ٱلنَّارُ﴾ الّذي يُطلَق على مكان العذاب للكافرين والمشركين؛ عَلَمًا بالغلبَةِ، ولم يذكر بعض دركاتها؛ لأنَّ المقام هنا يتناسب مع جريمة الكفر، فكأنَّ النّار بكُلِّ دركاتها موضعٌ لعذابهم.

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/156.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/25.

المُتشابه اللّفظيّ بين آيتي الرّعد (35)ومُحمّد (15):

تشابهت هذه الآية مع قوله تعالى في سورة سيِّدنا مُحمَّد ﷺ: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾ [مُحمّد: 15]، فلِمَ خُصّت كلّ آية بما فيها بعد قوله: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ﴾؟

السّياق في (الرّعد) للمقابلة بين جزاء المكذّبين والمتّقين، وفي (محمّد) بيانُ أنواع الأنهار

يُلاحظ أنّ الآية في سورة الرّعد يسبقها قوله: ﴿لَّهُمْ عَذَابٌ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٣٤﴾﴾ [الرّعد: 34]؛ فالسّياق قائم على المقابلة بين جزاء المكذّبين، وجزاء المتّقين، وكان جزاء المكذّبين ممّا يشقّ عليهم، ناسبه أن يكون جزاء المتّقين ممّا يطيب لهم بقوله: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا﴾. أمّا الآية في سورة مُحمّد ﷺ، فيسبقها قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [مُحمّد: 12]؛ فيُلاحظ أنّ ذِكر الأنهار سبق ذِكر تمثيل الجنّة، فأُريد بيانُ أنواعها، فناسبه قوله: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾ [مُحمّد: 15].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيّةُ:

الظّلّ والفَيء:

الظّلّ أعمّ من الفَيْء؛ لأنّ "الظِّلَّ يكون لَيْلًا ونَهارًا، ولا يكون الفَيْء إلا بِالنَّهارِ؛ وهوَ ما فاء من جانب؛ أيْ: رجع، والفَيْء: الرُّجوع، ويُقال: الفَيْء: التَّبع؛ لِأنَّهُ يتبع الشَّمْس"[1]، فآثر النّظم الكريم التّعبير بالظّلّ دون الفَيْء في قوله تعالى: ﴿أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا﴾؛ لأنّ ذلك أنسب للجنّة دار النّعيم والخلود.

الظّلّ أعمّ من الفَيْء، حيث أنّ الفَيْء مشروط بالشّمس دون الظّلّ

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة: 307 - 308.

العُقبى والعاقبة:

العُقبى الجزاء في نهاية الأمر، والعاقبة النّهاية

(العاقبة) من كلّ شيء: آخره، وأمّا العقبى فهي: جزاء الأمر[1]، فقوله تعالى: ﴿تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟﴾ المُراد منه: بيانُ جزاءِ الأمر؛ ولهذا آثر النّظمُ الكريمُ استعمالَ لفظ (العقبى) في قوله تعالى: ﴿تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّعُقْبَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ﴾ للدّلالة على الجزاء لا على آخر أمرهم، ولو قال: (تلك عاقبة الّذين اتّقوا) لدلّ على النّهاية، ولكن لا يدلّ على كون ذلك جزاءً لهم، أمّا (العقبى) فهي نصٌّ بكون ما نالوه إنمّا هو جزاءٌ استحقّوه استحقاقًا.

(1) الجوهري، الصّحاح: (عقب).

﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَفۡرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَۖ وَمِنَ ٱلۡأَحۡزَابِ مَن يُنكِرُ بَعۡضَهُۥۚ قُلۡ إِنَّمَآ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشۡرِكَ بِهِۦٓۚ إِلَيۡهِ أَدۡعُواْ وَإِلَيۡهِ مَـَٔابِ ٣٦﴾ [الرّعد: 36]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

بعد بيان انقسام المشركين في شأن القرآن؛ شرع في بيان انقسام أهل الكتاب فيه

لمّا بيّن النّظم الكريم في الآيات السّابقة أنّ الّذين أُرسل إليهم القرآنُ انقسموا في التّصديق به إلى فريقيْن: فريق آمن بالله وهم المؤمنون، وفريق كفر وهم المشركون؛ ذكر هنا موقف أهل الكتاب، وبيَّن انقسامَهم في تلقّي القرآن إلى فريقيْن؛ فريق صدّقوا بالقرآن وفرحوا به، وفريق آخر كفروا به وأعرضوا عنه[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَفۡرَحُونَ﴾: أصْلُ الفَرَحِ: انشراح الصَّدر بلذَّة عاجلة، وأكثر ما يكون ذلك في اللَّذّات البدنيّة الدّنيويّة[2]، ويَدُلُّ على خِلافِ الحُزْنِ، والفَرَحُ: السُّرورُ، يُقال: فَرِحَ، يَفْرَحُ، فَرَحًا: إذا سُرَّ، فهو فَرِحٌ وفَرْحانٌ، والفَرْحَةُ والفُرْحَةُ: المَسَرَّةُ، وضِدُّه: الحُزْنُ[3]. والمُفْرِحُ: الشَّيْء الَذي يُفْرِحُني[4]، ويأْتي بِمعنى الابْتِهاجِ والاسْتِبْشارِ، كقولكَ: فَرِحَ بِالعيدِ: إذا ابْتَهَجَ بِقُدومِهِ، ومِن مَعانيه أيضًا: الحُبورُ، والجَذَلُ، والغِبْطَة، والارتياح، والاغتباط[5]، والمُراد بالفَرَحِ في الآية: شِدَّةُ السُّرورِ والابتهاجِ.

2) ﴿ٱلۡأَحۡزَابِ﴾: أصلُ (حزب): أصْلٌ واحِدٌ، وهوَ تَجَمُّعُ الشَّيْءِ.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/156.
(2) الرّاغب، المُفردات: (فرح).
(3) ابن عبّاد، المحيط في اللّغة: (فرح).
(4) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (فرح).
(5) ابن مالك، الألفاظ المختلفة في المعاني المؤتلفة، ص: 118.

فَمِنْ ذلكَ: الحِزْبُ الجماعَةُ مِنَ النّاسِ، قالَ اللّه تعالى: ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ۝٥٣﴾ [المؤمنون: 53]، والطّائِفَةُ مِنْ كُلِّ شَيءٍ حِزْبٌ، يُقالُ: قَرَأَ حِزْبَهُ مِنَ القُرآنِ[1]، والأحْزابُ: كلُّ طائفةٍ هَواهُم واحدٌ، والحِزْبُ: النَّوْبةُ في وُرودِ الماء، والحِزْبُ: النَّصيبُ، يُقالُ: أعْطِني حِزْبي مِن المالِ؛ أيْ: حَظّي ونَصيبي[2]. والمقصود بالأحزاب في الآية: جَمْعُ حِزْبٍ، وهو اسْمٌ للجَماعَةِ الّذينَ هُم سَواءٌ في شَأْنٍ: مِن اعْتِقادٍ أو عَمَلٍ أو عادَةٍ، والمُرادُ بِهِم هنا الأحْزاب الّذين أوتوا الكتابَ[3].

3) ﴿يُنكِرُ﴾: النّون والكاف والرّاءُ أصْلٌ تدلُّ تصريفاتُها على خِلافِ المَعْرِفَةِ الّتي يَسْكُنُ إليها القَلْبُ، ونَكِرَ الشَّيءَ وأنكَرَهُ: لَم يَقْبَلْهُ قَلْبُهُ ولَم يَعترِفْ به لِسانُهُ، والبابُ كُلُّهُ راجِعٌ إلى هذا، فالنُّكْرُ: الدَّهْيُ، والنَّكراءُ: الأمرُ الصَّعْبُ الشَّديدُ، ونَكُرَ الأمرُ نَكارَةً[4]. والإنْكارُ: نَفْيُ الشَّيْءِ وجَحْدُهُ ورَدُّهُ، يُقالُ: أنْكَرْتُ حَقَّهُ؛ أيْ: جَحَدْتُهُ ونَفَيْتُهُ، وكُلُّ ما جَهِلَهُ النّاسُ وجَحَدوهُ فَهوَ مُنْكَرٌ، والتَّنَكُّرُ: التَّنَقُّلُ مِنْ حالٍ تَسُرُّ إلى أُخْرَى تُكْرَهُ. والنَّكيرُ: اسم للإنكار الّذي يُعنى به التَّغيّر[5]، ولا يسْتَعْمل نَكِرَ في غابرٍ ولا أمْرٍ ولا نهيٍ ولا مصدر[6]. والمقصود بالإنكار في الآية: نَفْيُ الشَّيْءِ وجَحْدُهُ ورَدُّهُ.

4) ﴿بَعْضَهُۥ﴾: الباءُ والعينُ والضّادُ تدور اشتقاقاتُها على تَجْزِئَةِ الشَّيْءِ، وبَعْضُ كُلِّ شَيْءٍ: طائِفَةٌ مِنْه، سَواءٌ قَلَّتْ أوْ كَثُرَتْ، يُقالُ: بَعْضُ الشَّرِّ أهْوَنُ مِنْ بَعْضٍ[7]، وضِدُّ التَّبْعيضِ: التَّجْميعُ والتَّوْحيدُ، والجَمْعُ: أبْعاضٌ[8]، يُقالُ: بَعَّضْتُ الشَّيْءَ أُبَعِّضُهُ تَبْعيضًا؛ أيْ: قَطَّعْتُهُ قِطَعًا، ويَأتي التَّبْعيضُ بِمَعْنى: التَّفْريقِ، ومِنْهُ قَوْلُهُمْ: أخَذوا مالَهُ فَبَعَّضوهُ؛ أيْ: فَرَّقوهُ[9]، والمقصود بلفظ (بعض) في الآية: القِطْعَةُ والجُزْءُ مِن الشَّيْءِ.

(1) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللغة: (حزب).
(2) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس: (حزب).
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/157.
(4) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (نكر).
(5) الخليل، العين: (نكر).
(6) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (نكر).
(7) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والزّبيديّ، تاج العروس: (بعض).
(8) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحُفّاظ: (بعض).
(9) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس: (بعض).

❁ المَعْنى الإجْماليّ:

مكانة القرآن عند أهل الكتاب، ممّن عرف الحقّ واعترف به

بيَّن الحقُّ ﷻ في هذه الآية مكانة القرآن بين أهل الكتاب، فبيَّن أنَّ الّذين أعطاهم التَّوراة والإنجيل من اليهود والنَّصارى، فآمنوا بما فيهما من بشارات تتعلق بك - أيَّها الرَّسول الكريم، ثُمَّ آمنوا بك عند إرسالك رحمةً للعالمين؛ هؤلاء - الّذين تلك صفاتهم - يفرحون بما أُنزل إليكَ من قُرآن؛ لِما في كتبهم من الشَّواهد على صِدقه والبِشارة به، ولأنَّ ما فيه مِن هدايات وبراهين على صِدْقِكَ؛ يزيدهم إيمانًا على إيمانهم، ويقينًا على يقينهم، قل - يا أيُّها النَّبيُّ -: إنَّما أمَرَني اللّه بعِبادتِه وحدَه، وألّا أُشرِكَ به شيئًا، أدعو النّاسَ إلى طاعة اللّه سُبحانَهَ مُخلِصينَ له العبادةَ، وإلى اللّه مَرجِعي في جميعِ أموري، وإليه مَصيري[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيّ:

دلالة الواو في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ﴾:

انتقالٌ من ذِكر المشركين، إلى بيان فضل المؤمنين من أهل الكتاب

افتتح النّظم الكريم قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَفۡرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَۖ﴾ بالواو الاستئنافيّة، فالجملة بعده مستأنفةٌ؛ حيث انتقل من ذِكر أحوال المشركين من قوله: ﴿كَذَٰلِكَ أَرۡسَلۡنَٰكَ فِيٓ أُمَّةٖ﴾ [الرعد: 30] إلى بيان فضل بعض أهل الكتاب في حسن تلقّيهم للقرآن الكريم[2].

دلالة التَّعبير بالموصول ﴿وَٱلَّذِينَ﴾:

تعدّد المُراد بالموصول، واحتماله الخصوص والعموم، بحسب التّأويل

آثر النّظم الكريم التّعبير عن الّذين آمنوا من أهل الكتاب بالاسم الموصول في قوله جلّ شأنه: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَفۡرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَۖ﴾؛ لأنّه أراد أُناسًا بأعيُنهم، فهم معهودون معروفون وهم

(1) ابن جرير، جامع البيان: 13/555، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/467، والسّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 419، طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 7/491.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/156.

"المسلمون من أهلِ الكتابِ، كعبدِ اللّه ابنِ سَلام وكعبٍ وأضرابِهما ومَنْ آمن من النّصارى، وهم ثمانون رجلًا: أربعون بنجرانَ، وثمانيةٌ باليمن، واثنانَ وثلاثون بالحبشة"[1]، ويجوز أن يكون المُراد: الّذين آمنوا بك، ويُحمل هذا على العموم، والمُراد بهم: الصَّحابة رضوان اللّه عليهم الّذين آمنوا بالرَّسول ﷺ[2].

سرُّ التَّعبير بالفعل ﴿ءَاتَيۡنَٰهُمُ﴾:

آثر النّظم الكريم التّعبير بالإيتاء دون الإعطاء، في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ﴾؛ لِما في الإيتاء من سهولة التّناول والمجيء؛ فهو أدلّ على الامتنانِ، والعطاء من العَطْو: وهو التّناول، والإعطاء: الإنالة، قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ﴾ [التّوبة: 29]، واختصّ العطيّة والعطاء بالصّلة[3]، ويعبَّرُ بـ (الإيتاء) عن الإعطاءِ، قال تعالى: ﴿وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا ١٦٣﴾ [النّساء: 163][4]، فعبّر بالإيتاء؛ لأنّه لا يدلّ على كونه عطيّةً أو صلة، بل هو محضُ تفضُّلٍ؛ لأنّه إيتاء بسهولة تفضّلًا من اللّه تعالى.

الإيتاء أدلّ على الامتنان من الإعطاء

دلالة نون العظمة في ﴿ءَاتَيۡنَٰهُمُ﴾:

أسند الفعل (آتى) إلى نون العظَمة في قوله تعالى: ﴿ءَاتَيۡنَٰهُمُ﴾؛ للدِّلالة على علوِّ هذا الإيتاء وعظيم أثره في استنقاذ أهل الكتاب من الضَّلال.

عظيم أثر ما أوتيَهُ أهل الكتاب، في استنقاذهم من الضَّلالِ

دلالة التَّعبير بقوله: ﴿ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ﴾:

عبَّر القرآن الكريم عن أهل الكتاب في هذه الآية بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَفۡرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَۖ﴾ للإشارة إلى أنّ الكتاب الّذي عندهم إنّما هو نعمة من اللّه تعالى حصلت لهم بسبب إيتاء

تخصيص العلماء من أهل الكتاب بالذِّكر الجليل، تعظيم لمقامهم الأثيل

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/25.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 13/164.
(3) الرّاغب، المفردات: (عطا).
(4) السّمين الحلبيّ، عمدة الحُفّاظ: (أتي).

اللّه تعالى لهم تفضُّلًا منه، وفيه دلالة على أنّ المُراد بهم العلماء، أمّا أهل الكتاب فيصدق على الجميع حيث يشمل العلماء وغيرهم، وفيه إشارة إلى مدحهم لفرحهم بما أنزل اللّه على رسوله من القرآن.

سِرُّ التخصيص في ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ﴾:

خَصَّص القرآنُ الكريم ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ من بني إسرائيل دون غيرهم؛ لأنهَّم هم المنتفعون بالكتاب، فكأنّه ما أُنزل إلّا إليهم.

انتفاع المُنزل عليهم الكتابُ، من بني إسرائيل، من أولي الألباب

دلالة التَّعبير بجملة: ﴿ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ﴾:

آثر القرآن الكريم التَّعبير بقوله: ﴿ءَاتَيۡنَٰهُمُ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ دون (أوتوا الكتاب)؛ لأنَّ ﴿ءَاتَيۡنَٰهُمُ﴾ في هذا السّياق أبلغ من (أوتوا)؛ فهو يُنْبِئ عنِ الإكرام، وذلك من دلالة نون العظمة، كما هو مُستعمل في مواطنَ مِن القرآن، تدُلُّ كلُّها على الإكرام، نحو: ﴿هَدَيۡنَا﴾ [الأنعام: 84]، و﴿وَٱجۡتَبَيۡنَٰهُمۡ﴾ [مريم: 58] و﴿ٱصۡطَفَيۡنَا﴾ [فاطر: 32]. ولأنَّ (أوتوا) قد يستعمل في مواطنَ يُذَمُّ فيها أهل الكتاب، كقول اللّه تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبٗا مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡجِبۡتِ وَٱلطَّٰغُوتِ﴾ [النّساء: 51] الآية، وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ ءَامِنُواْ بِمَا نَزَّلۡنَا مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبۡلِ أَن نَّطۡمِسَ وُجُوهٗا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدۡبَارِهَآ﴾ [النّساء: 47] الآية.

استعمال (آتَيْناهُمْ) يُنْبِئ عنِ الإكرام، و(أوتوا) قد تكون لذمّ اللّئام

فالمُلاحَظ أنَّها جاءت في موطن الذَّمِّ لهم، بخلاف الفعل (آتيناهم)، فهو في موطن العطاء والإكرام، كما قال اللّه تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحُكۡمَ وَٱلنُّبُوَّةَۚ﴾ [الأنعام: 89] في سياق حديثه عن الأنبياء عليهم السلام.

سرُّ التَّعبير بالكتاب ﴿ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ﴾:

عبّر النّظم الجليل بـ (الكتاب) في قوله جلّ شأنه: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَفۡرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَۖ﴾، وذلك للتّصريح بأنّ

العلم طريق للإيمان، ووسيلة للفهم والاطمئنان

معرفتهم الإيمانَ الحقّ وفرحهم بالمؤمنين إنّما هو بسبب ما لديهم من كتاب، وإشارة إلى أنّ ما صدر عنهم من فرح بسبب ما لديهم من علم تعلّموه من الكتاب. وفيه ترغيب لهم للإيمان بالنَّبيِّ ﷺ؛ لأنَّ مصدر التَّوراة والإنجيل والقرآن واحد؛ لذلك عبَّر عن كلٍّ واحد منهم بالكتاب.

سرُّ التَّعبير بـ: ﴿يَفۡرَحُونَ﴾:

دلالته على الإيمان مع السُّرور، والفرح بالمُنزل، دليل الإيمان الأكمل

عبّر النّظم الكريم في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَفۡرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَۖ﴾ بالفرح دون الإيمان، تعبيرًا عن استقبالهم الكتاب بفرح وسرور؛ لأنّه يوافق الموعود الّذي كانوا ينتظرونه[1]، مع تضمّنه الدّلالة على الإيمان، فلم يفرَحوا إلّا لأنَّهم آمنوا، فعبّر بالفرح دلالةً على الإيمان مع السّرور، وكان سرورهم وفرحهم لكونهم وافقوا الزّمان الّذي حلّ فيه المُنتَظَر، فهم قد وجدوه مُطابقًا مُصدّقًا للبشارة في التّوراة والإنجيل بالنّبيّ ﷺ.

وفيه إشارةٌ إلى إبراز الحالِ الّتي تظهر على وجوههم حبًّا وإيمانا بالمُنَزَّل، يؤكِّد ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعۡيُنَهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلۡحَقِّۖ﴾ [المائدة: 83] في حقِّ النَّصارى، ومع اليهود أيضًا ورد قوله تعالى: ﴿وَكَانُواْ مِن قَبۡلُ يَسۡتَفۡتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ [البقرة: 89]، وهذا يعني أنَّهم كانوا يتشوَّفون لبعثة الرَّسول ﷺ[2].

دلالة التَّعبير بالفعل المضارع ﴿يَفۡرَحُونَ﴾:

تجدّد الفرح بنزول القرآن، لأنّه وسيلة تجديد الوصل بالرّحمن

عبّر النّظم الكريم بالفعل المضارع ﴿يَفۡرَحُونَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَفۡرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَۖ﴾ تعبيرًا عن تجدّد فرحهم بنزول القرآن، واستمرار اغْتِباطهم بتصديق القرآن لِما بين أيديهم.

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/156.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/157.

دلالة التَّعبير بـ ﴿بِمَآ﴾، في قوله تعالى: ﴿بِمَآ أُنزِلَ﴾:

الثَّناء عليهم بعموم إيمانهم بالمُنزَل، على النّبيّ المرسل

آثر النّظم الكريم التّعبير بـ (بما) في قوله تعالى: ﴿يَفۡرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَۖ﴾ للدّلالة على أنّ فرحهم كان عامًّا بكلّ ما نزل، بناءً على أنَّ المُراد بالموصول ﴿وَٱلَّذِينَ﴾ أهل القرآن؛ فهم يفرحون بكل ما أُنزل على الرَّسول ﷺ فيما يتعلَّق بالتَّوحيد والنُّبوَّة والبعث والأحكام والقصص. وأمّا على القول بأنَّ المُراد بالموصول: الّذين آمنوا من أهل الكتاب، كعبد اللّه بن سلام، ونحوهِ، ومَن أسلم من النَّصارى وهم ثمانون رجلًا؛ فيكون المُراد بـ ﴿بِمَآ﴾ العموم أيضًا. ولو قال: (بالّذي أُنزل إليك)؛ لاحتملت دلالة العهد، ويكون المُراد إيمانَهم بالذي كان قد نزل؛ أيْ: بجزء معهود معروف من القرآن، لكنّ التَّعبير بـ (ما) الدّالة على العموم يفصح عن كون إيمانهم شاملًا لكلّ ما جاء في القرآن الكريم.

أمّا إذا حُمل اسم الموصول على مُطلق أهل الكتاب؛ فلا تدلُّ على العموم؛ لأنَّه معلومٌ أنَّهم لا يفرحون بكلِّ ما أُنزل إلى الرَّسول ﷺ؛ لأنَّه يحمل في بعض الأحيان ما لا يوافق هواهم، بل ويُبَكِّتُهم على ما وقعوا فيه من أخطاء شِركيَّة وعباديَّة[1].

دلالة التَّعبير بـ ﴿أُنزِلَ﴾:

الإيمان بمُطلق الإنزال للقرآن، من متين الإيقان

عبّر النّظم الكريم بالفعل ﴿أُنزِلَ﴾ دون (نزّل) في قوله تعالى: ﴿يَفۡرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَۖ﴾ لأنّ المُراد بيان إيمانهم بالقرآن من حيث هو قرآن أُنزِلَ على رسول ﷺ، من غير الحاجة إلى معنى التّكثير الّذي هو مدلول (نزّل) الّذي يُفسَّر بالتّدرّج وطول زمان التّنزّل، فكان التّعبير بـ (أُنزِل) أبلغ في هذا الموضع.

ويُضاف إلى ذلك أنَّ التَّعبير بالفعل ﴿أُنزِلَ﴾ يدلُّ على مطلق

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 10/58.

الإنزال فقط، ولذلك يَرِدُ استعماله غالبًا في نزول الكتب السَّماويّة على العموم، يؤكِّد ذلك قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ ۝٣﴾ [آل عمران: 3]، وقوله: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَا ٱلتَّوۡرَىٰةَ فِيهَا هُدٗى وَنُورٞۚ﴾ [المائدة: 44]، وقوله تعالى: ﴿وَلۡيَحۡكُمۡ أَهۡلُ ٱلۡإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِۚ﴾ [المائدة: 47]، أمّا التَّعبير بـ (نَزَّل) فإنَّه يأتي في سياق الرَّدِّ على الكافرين الّذين يُنكرون نزول الوحي على رسول الله ﷺ، قال تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّمَّا نَزَّلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّن مِّثۡلِهِۦ﴾ [البقرة: 23].

دلالة بناء الفعل ﴿أُنزِلَ﴾:

آثر النّظم الكريم التّعبير عن الإنزال بالفعل المَبنيِّ للمفعول في قوله تبارك اسمه: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَفۡرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَۖ﴾ اهتمامًا بالمُنَزَّل وتعظيمه، وفيه إشارةٌ إلى أنَّ حذف الفاعل المعلوم بالضّرورة آلة من آلات الإيجاز، وتأدية المعنى بأقلّ العبارات، "ولمّا كان المُنزَل دالًّا بإعجازه على المُنزِل؛ بُني للمفعول"[1].

العلم بالفاعل يُتيح الإيجاز في التّعبير عنه، بما يُفهم من السّياق

دلالة تَعَدّي الفعل ﴿أُنزِلَ﴾ بـ (إلى):

تَعَدّى الفعلُ ﴿أُنزِلَ﴾ بـ (إلى) في قوله تعالى: ﴿يَفۡرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَۖ﴾ دون (على) مع أنَّ النّاظر في القرآن الكريم يجد تنوُّع الاستعمال القرآنيّ بينهما في مواضع متعدّدة، واختير الحرف الّذي تعدّى به الفعل ﴿أُنزِلَ﴾ لمعنًى دقيقٍ يناسب السّياق، ومن ذلك ما ورد في هذه الآية؛ حيث تعدّى بـ (إلى)؛ لأنّها تدلُّ على انتهاء الغاية، والمُراد: انْتهاء التَّبليغ إلى أمَّة الدَّعوة، أمّا التَّعدّي بـ (على)؛ فإنَّه يُشير إلى النُّزول من جهة العُلوِّ، وهذا يدلُّ على التَّشريف والتَّكريم.

دقّة النّظم القرآنيّ في التّصرُّف في حروف المعاني، من رفيع البيان

دلالة الواو في قوله: ﴿وَمِنَ ٱلۡأَحۡزَابِ﴾:

صُدِّرت الجملة في قوله جلّ شأنه: ﴿وَمِنَ ٱلۡأَحۡزَابِ مَن يُنكِرُ بَعۡضَهُۥۚ﴾، بالواو العاطفة، عطفًا على الجملة في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ

عطف المُنكرين على المؤمنين من أهل الكتاب، وتخصيص كلٍّ بأوصافه

(1) البقاعيّ، نَظْم الدّرر: 10/355.

﴿ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ﴾[1]، فَهُمُ القسمُ الثّاني من أهل الكتاب الّذين ورد السّياق لبيان انقسامهم في شأن القرآن؛ أيْ: "ومن جماعتهم الّذين تحزّبوا وتألّبوا على رسول الله ﷺ بالعداوة، - ككَعْبِ بنِ الأشرف، والسّيد والعاقب أُسْقفَي نجران وأشياعهم - مَن أنكر بعضَ القرآن؛ وهو ما لم يوافق ما حرَّفوه من كتابهم وشرائعهم"[2].

إنكار بعض القرآن، ليس مقصورًا على أهل الكتاب، بل يعمّ كلّ مُعتقد بذلك

دلالة تقديم المُسنَد على المُسنَد إليه:

قدّم النّظم الجليل الجارَّ والمجرور على المُسند إليه في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلۡأَحۡزَابِ مَن يُنكِرُ بَعۡضَهُۥۚ﴾ ليستقيم المعنى؛ إذْ لو جاء على الأصل فقال: (ومَن يُنكر بعضَه مِن الأحزاب)؛ لدلّ على أنّ كلّ مَن أنكر بعضَ القرآن هو من الأحزاب فَحَسْبُ؛ لأنّ اسم الموصول (مَن) يدلّ على العموم، فقدّم حرف الجرّ الدّلّ على التّبعيض ليعلم أنّ العموم في الاسم الموصول باقٍ على عمومه.

دلالة اللّامِ في قوله: ﴿وَمِنَ ٱلۡأَحۡزَابِ﴾:

خلافات أهل الكتاب مزّقتهم فِرَقًا، وتحزّبهم أذهبهم أشتاتًا

عرّف النّظم الكريم لفظ ﴿ٱلۡأَحۡزَابِ﴾ في قوله جلّ شأنه: ﴿وَمِنَ ٱلۡأَحۡزَابِ مَن يُنكِرُ بَعۡضَهُۥۚ﴾، باللّامِ الدّالّة على العهد؛ لأنّه أراد جماعة معلومة مخصوصة منهم[3]، والأحزاب هنا تعني "أحزابَ الّذين أوتوا الكتاب، كما جاء في قوله تعالى: ﴿فَٱخۡتَلَفَ ٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَيۡنِهِمۡۖ﴾ [مريم: 37]؛ أيْ: ومن أحزابهم مَن يُنكر بعض القرآن، فاللّام عِوضٌ عن المضاف إليه"[4].

سرُّ التّعبير بالجمع ﴿ٱلۡأَحۡزَابِ﴾:

أهل الباطل فرقٌ وجماعات، اختلفوا فمُزّقوا كلّ مُمزّق

في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلۡأَحۡزَابِ مَن يُنكِرُ بَعۡضَهُۥۚ﴾، عبّر عن الأحزاب بالجمع؛ لأنّهم في الواقع أكثر من جماعة، فاليهود منهم

(1) محمود صافي، الجدول في إعراب القرآن: 7/141 - 142.
(2) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 13/112.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/156.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/157.

"يريدون أن يُنزل ما يوافق فروع التّوراة كما أُنزل ما وافق الأصولَ، ويُنكرون النّسخ، وأهل الإنجيل يريدون أن يُنزل في المسيح ما يَهْوَوْن، ونحو ذلك"[1]، فلمّا كان إنكارهم مُتعدّدًا صاروا أحزابًا كثيرة، فعبّر عنهم بالجمع لذلك، وفيه ذمٌّ لهم؛ إذْ إنّ اللّه تعالى أنزل ما يجعلهم أمّةً واحدةً، ولكنّهم تفرّقوا أحزابًا لمّا جاءهم العلم الّذي كان ينبغي أن يوحّدهم.

سرُّ التّعبير في لفظ ﴿ٱلْأَحْزَابِ﴾:

التّعصُّب للباطل أمرٌ مذموم، يُفضي إلى المساءة واللّوم

عبّر النّظم الكريم عن أهل الكتاب بـ ﴿ٱلْأَحْزَابِ﴾ في قوله جلّ شأنه: ﴿وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ﴾ دون غيره من الألفاظ؛ إيماءً إلى أنّهم كانوا مُتحزّبين مُتصلّبين لقومهم، ولِما كانوا عليه مِنْ عاداتٍ وعباداتٍ[2]، وهذا ذمٌّ لهم؛ إذْ لا يتحزّب المؤمنُ إلّا لِلحقّ.

دلالة التّعبير بـ ﴿مَن﴾ في قوله: ﴿مَن يُنكِرُ﴾:

عموم أهل الكتاب أنكروا القرآن، وتطاولوا عليه بالإفك

عبّر النّظم الجليل عن مُنكري القرآن من الأحزاب، في قوله تبارك اسمه: ﴿وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ﴾، بالاسم الموصول (مَن) الدّالّ على العموم؛ لأنّ أكثر أهل الكتاب فعلوا ذلك، فعبّر عنهم بلفظٍ دالٍّ على العموم، أمّا الّذين آمنوا فعبّر عنهم بـ ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَفْرَحُونَ﴾؛ لأنّهم قوم معروفون معدودون.

سرُّ العدول في الآية:

إنكار بعض القرآن يدلُّ على انتفاء الإيمان، وإنكار البعض كإنكار الكلّ

عدل النّظم الكريم عن التّعبير عن كفرهم إلى ذِكر الإنكار في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ﴾، فلم يَقُلْ: (ومن الأحزاب مَن لا يؤمن ببعضه)؛ تصريحًا بعلّة انتفاء إيمانهم، وهو كونهم ينكرون بعضَه، وهذا أكثر إيجازًا ممّا لو جاءَ النَّظْمُ القرآني: (لا يؤمنون ببعضه)؛ إذ لا يدلّ على سببِ كفرهم، وعليه فالتّعبير

(1) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 10/356.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/157.

بالإنكار عن انتفاء إيمانهم تعبير بليغ؛ لِما فيه من الإيجاز. ولأنَّ هذا التَّعبيرَ هو الأوفقُ بالمقام؛ لأنَّ إنكارَ بعضِهم هو مِن باب العناد والكِبْرِ؛ لِمُخالفَتِه ما هُم عليهِ مِنَ الأهواء.

دلالة التَّعبير بقوله تعالى: ﴿بَعۡضَهُۥۚ﴾:

إنصاف القرآن في عرض واقع المُنكِرين، وبيان افترائهم على الدّين

جاء التَّعبير القرآنيُّ مُشيرًا إلى أنَّهم يُنكرون بعضَه لا كُلَّه في قوله جلّ شأنه: ﴿وَمِنَ ٱلۡأَحۡزَابِ مَن يُنكِرُ بَعۡضَهُۥۚ﴾؛ لأنَّه ورد في القرآنِ إثباتُ وجودِ اللّه تعالى وعلمِهِ وقدرته وقصص أنبيائه، والأحزاب ما كانوا يُنكرون ذلك؛ لموافقة القرآن لكثير من أصولهم، وهذا من عدالة القرآن وإنصافه؛ إذْ لم يُحَمّلْهم جُرمًا أكثر من جُرمهم، فَهُم لم يُنكروا ما جاء في القرآن موافقًا لمعتقدهم، فكان إنكارهم موجّهًا لِما خالفهم بالاعتقاد، فهو إنكار لبعضه، فمن الإنصاف والعدالة ومن مطابقة الواقع أن يُعبّر عن إنكارهم بأنّه واقع على بعض القرآن، وهذا من دأب القرآن في الإنصاف.

دلالة التَّعبير بالمضارع ﴿يُنكِرُ﴾:

تجدُّد إنكار المعاندين لِما يخالف أهواءَهم، ممّا شاع في كلّ الرّسالات

دلَّ التَّعبير بالفعل المضارع ﴿يُنكِرُ﴾ على تجدُّد حالات الإنكار، عند هؤلاء الأحزاب، فكلَّما نزل أمرٌ في القرآن يوبِّخُهم على كفرهم وعنادهم وشركهم؛ أنكروه واتَّهموا رسول اللّه ﷺ فيما أُنزل عليه.

دلالة فَصْل قوله تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أُمِرۡتُ﴾:

تصدير الجملة بفعل القول للرّدّ عليهم، كافٍ في ترابط الجمل في السّياق

الجملة في قوله جلّ شأنه: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱللَّهَ﴾، جاءت بلا عاطف؛ لكونها مفتتحة بفعل القول، فهي مذكورة بعد ذِكر الأحزاب الّذين يُنكرون بعض القرآن أمرًا للنّبيّ ﷺ بأن يردّ إنكارهم[1]، فالتّرابط بين الجمل حاصل؛ لِما بين الكلامَيْن من صِلَةٍ.

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/25.

بلاغة الإيجاز في قوله: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أُمِرۡتُ﴾:

الآية جامعة لما يصلح به أمر المبدأ والمعاد، في التّشريع والاعتقاد

من أساليب التَّعبير القرآنيّ (الإيجاز)، وهو جمع المعاني الكثيرة في ألفاظٍ قليلة، وهذا ظاهرٌ في هذه الآية؛ حيث جمع كلّ ما يحتاج إليه المرء في معرفة المبدأ والمعاد وفي التَّكليفات والتَشريعات، فَكُلُّ لفظةٍ فيها تَحمِل من الدّلالات الكثيرة؛ فقوله: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشۡرِكَ بِهِۦٓۚ﴾ جامعٌ لكلِّ ما ورد التَّكليف به، وقوله تعالى: ﴿إِلَيۡهِ أَدۡعُواْ﴾ إشارةٌ إلى نبوَّته ﷺ، وقوله تعالى: ﴿وَإِلَيۡهِ مَـَٔابِ﴾ إشارةٌ إلى الحشر والبعث والقيامة[1].

بلاغة التَّعبير بالقصر في الآية:

حصرُ الأمر بالعبادة، دلالة على التّوحيد

عبّر النّظم الكريم بأسلوب القصر بـ ﴿إِنَّمَآ﴾ في قوله تبارك اسمه: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱللَّهَ﴾ تأكيدًا لمضمون الجملة، فقصر الأمر على عبادة الله تعالى وحده، "والمُراد: قصرُ الأمر بالعبادة على الله تعالى، لا قصرُ الأمرِ مُطلقًا على عبادته تعالى خاصَّةً؛ أيْ: قل إنّما أُمرتُ فيما أُنزل إليّ بعبادة الله وتوحيده"[2]؛ أيْ: إنّه قصرٌ إضافيٌّ؛ لأنّه لم يُؤمرْ بذلك فَحَسْبُ، بل أُمر بأوامرَ كثيرةٍ، ولكنْ قُصِرَ الأمرُ هنا بالنّظر إلى ظنّ المشركين، وهو قصر موصوفٍ على صفةٍ؛ لأنّه قصر كونه مأمورًا بصفة العبادة، والتّعبير بأسلوب القصر عن ذلك يُفيد تقويةَ المعنى والتَّأكيدَ عليهِ.

دلالة التَّعبير بفعل الأمر ﴿قُلۡ﴾:

الصّدع بالحقّ، ورفع العقيرة بالقول، من شأنه أن يُؤكّد صدق القائل

أمر الله تعالى رسوله بالرَّدِّ على المنكرين إنكارَهم، لبعض ما أنزل به القرآنُ، بقوله تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشۡرِكَ بِهِۦٓۚ﴾، وهو إعلانٌ منه ﷺ بعبادة الله وحده، ونفي الشِّرك، وفي هذا ردٌّ على المُنكِرين ما كانوا يعتقدونه من الشُّركاء مع الله تعالى، وفيه

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 10/58، والآلوسيّ، روح المعاني: 13/166.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/25.

إشارة إلى إعلان رسالته ﷺ، أمام هؤلاء المُنكِرين، صادِعًا بالحقِّ غير مُكْتَرِثٍ بإنكارهم لبعضِ ما أُنزل من القرآنِ[1].

دلالة التَّعبير بقوله تعالى: ﴿أُمِرْتُ﴾:

الأمر أدلُّ على الإلزام والإيجاب، لعبادة مَن له الأمر والمآب

آثَر النَّظم الكريم التَّعبيرَ بلفظ الأمر، في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ﴾، دون غيره، وذلك للدّلالة على أنّ المأمور به وهو العبادة جاء على الوجه اللّازم القاطع، الّذي لا يعتريه الشّكّ ولا التّغيُّر؛ لأنّه ممّن له الأمر كلّه، وهو الله تعالى[2].

سرُّ بناء الفعل ﴿أُمِرْتُ﴾:

تعظيم العبادة لله سُبحانَهُ، تحقيق بالعبوديّة، لما يستوفي عطاءَهُ وإحسانَهُ

جاء التَّعبير عن الأمر بالعبادة بالفعل المبنيِّ لِما لم يُسَمَّ فاعلُه ﴿أُمِرْتُ﴾، في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ﴾؛ تنويهًا بفخامة الآمر سبحانه، وفيه إيجازٌ في التّعبير، وذلك اعتمادًا على ما لا يُجهل العلمُ به، وهو كون الآمر إنّما هو الله تَعالى، فلم يُصرّح به إيجازًا لظهور المعنى؛ ولكَونه سَيُذْكَرُ في الجملة بعدها: ﴿أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ﴾.

دلالة التَّعبير بالمصدر المؤوَّل ﴿أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ﴾:

استمرار العبادة على الدّوام، تحقيق لأمر الله ذي العطاء والإنعام

آثر النّظم الكريم التّعبير بالمصدر المؤوّل ﴿أَنْ أَعْبُدَ﴾، دون المصدر الصَّريح في قوله جلّ شأنه: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ﴾ للدّلالة على أنّ المأمور به هو دوام العبادة وتجدّدها واستمرارها؛ أيْ: إنّ الأمر بالعبادة كائنٌ على وجه الدّوام.

سرُّ الأمر بالعبادة ﴿أَنْ أَعْبُدَ﴾:

الطّاعة لله تعالى ولغيره، أمّا العبادة فهي مخصوصة بالله تعالى

آثر النّظم الكريم التّعبير بلفظ العبادة دون الطّاعة في قوله جلّ شأنه: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ﴾؛ لأنّ الطّاعة تكون لله تعالى ولغيره، ولأنّ الشّركَ وقع بالعبادة، فجاء السّياق للرّدّ على الشّرك

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 13/165.
(2) البقاعيّ، نَظْم الدّرر: 10/356.

بأنْ جَعَلَ العبادةَ للّه تعالى على سبيل الفرض والأمر والحَتْم، فـ "المأمور به تخصيص العبادة بِه تعالى"[1]، وعلى هذا فالعِبادة أعمُّ من الطّاعة؛ لِما تحمله مِن معنى التَّعظيم، وللإشارة إلى أنَّ عبادة اللّه تَعالى لا تكون إلّا بِما شرعه، ولأنَّ العبادة للّه واجبة، بخلاف الطّاعة إذا كانت لغير اللّه؛ فقد تكون واجبةً وقد لا تكون كذلكَ.

دلالة التَّعبير بالاسْمِ الأعظم (الله):

آثَر النَّظم الكريم التّعبير بالاسْمِ الأحسنِ في قوله تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱللَّهَ﴾ دون لفظ (الرّب) في سياق العبادة؛ تفخيمًا لشَأن العبادة؛ أيْ: أُمرت أن أعبد اللّه الّذي لا شيءَ مثلُه وحده دون ما سواهُ[2]، وتعليقُ العبادة بالاسمِ الأحسنِ (اللّه) دون (الرّبّ) إشعارٌ بأنّ اللّه ﷻ مُستحِقّ للعبادة لا من حيث كونه رازقًا أو خالقًا أو مُنعمًا على عباده، بل إنّ العبادة واجبةٌ له لِذاتِه الجليلة.

العبادة استحقاق لجلال الله تَعالى، يختصّ بها دون سواه

دلالة الإتيان بنفي الشِّرك:

أعقب النّظم الكريم الأمر بالعبادة بالأمر بالامتناع عن الشّرك في قوله تعالى: ﴿وَلَآ أُشۡرِكَ بِهِۦٓۚ﴾، وذلك على طريقة الجدل القرآنيّ الّتي راعت التّدرّج، فلمّا ذكر شأن العبادة بأنّها للّه تعالى، ولا ينازع أحدٌ من أهل الكتاب في ذلك ولا المشركين، فتدرّج بأنْ ذَكَرَ بعد ذلك ﴿وَلَآ أُشۡرِكَ بِهِۦٓۚ﴾ إبطالًا لشرك المشركين وتعريضًا بالنّصارى[3].

التّدرّج في الجدال، منهج منطقيّ معلوم، يُؤتي أُكُله في إلجام الخصوم

دلالة الجمع بين الأمر بالعبادة:

جمع النّظم الكريم في قوله تعالى: ﴿أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشۡرِكَ بِهِۦٓۚ﴾ بين الأمر بالعبادة والامتناع عن الشّرك؛ للدّلالة على توحيد

عبادة الله سُبحانَهُ، ونبذ عبادة غيره هو عين التّوحيد

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/157.
(2) البقاعيّ، نَظْم الدّرر: 10/356.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/158.

اللّه سُبحانَهُ، فإنَّ المأمور به هو مجموع العبادة وعدم الإشراك، ومآل المعنى أنّي ما أُمِرْت إلّا بتوحيد اللّه تَعالى[1].

سرُّ نفي الشِّرك دون الكُفْرِ:

آثر النّظم الكريم التّعبير بنفي الشّرك دون نفي الكفر في قوله جلّ شأنه: ﴿وَلَآ أُشۡرِكَ بِهِۦٓۚ إِلَيۡهِ أَدۡعُواْ وَإِلَيۡهِ مَـَٔابِ﴾؛ لأنّه لمّا ثبت إيمانُه ﷺ بكونه مرسلًا من اللّه تعالى، فاقتضى ذلك أن يكون مؤمنًا إيمانًا يقينيًّا بحيث لا يمكن أن يتطرّق إليه وصف الكفر، ولمّا قد حدث عند النّصارى من أنّهم قد جمعوا بين الإيمان والشّرك؛ بادَرَ بنفي الشّرك عن الإسلام؛ ليصرّح بأنَّ دينَه بُني على التّوحيد.

الرَّدُّ على النّصارى، لجمعهم بين الإيمان والشّرك، في المعتقد والممارسة

دلالة التَّعبير بالمضارع في ﴿وَلَآ أُشۡرِكَ بِهِۦٓۚ﴾:

عبّر النّظم الكريم عن نفي الشّرك بنفي الفعل المضارع، في قوله تعالى: ﴿أَنۡ أَعۡبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشۡرِكَ بِهِۦٓۚ﴾؛ للدّلالة على تجدّد النّفي واستمراره، فانْتِفاء الشّرك ينبغي أن يكون ثابتًا راسخًا متجدّدًا، لا يزول بزمنٍ ما.

نفيُ الشِّرك على سبيل التّجدّد والدّوام، من مأمورات الله للأنام

سرُّ عدم ذكر فعل الأمر في ﴿وَلَآ أُشۡرِكَ بِهِۦٓۚ﴾:

لم يكرّر النّظم البليغ الفعل ﴿أُمِرۡتُ﴾، في قوله تعالى: ﴿وَلَآ أُشۡرِكَ بِهِۦٓۚ﴾، فلم يَقُلْ: (وأُمرتُ ألّا أشرك به)؛ إذ لو كُرِّر الفعلُ؛ لدلَّ على أنّ الأمرَ بالامتناع عن الشّرك أمرٌ مستقلٌّ، والسّياق لا يريد ذلك؛ إذ إنّ السّياقَ في الأمر بعبادة اللّه تعالى وحده، ولذا أتبعه بمزيد بيان؛ بأنّ العبادة كائنة للّه تعالى وحده، فالامتناع عن الشّرك في السّياق تابع للأمر بالعبادة، لا أمر على وجه الاستقلال.

السّياق في توحيد الله بالعبادة، تأكيد لنفي الإشراك

سرُّ فصل قوله تعالى: ﴿إِلَيۡهِ أَدۡعُواْ﴾:

الجملة في قوله جلّ شأنه: ﴿إِلَيۡهِ أَدۡعُواْ وَإِلَيۡهِ مَـَٔابِ﴾، استئناف بيانيّ للجملة، في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱللَّهَ﴾؛ "أيْ: أن

الدّلالة على رسالة التّمام، ودعوة الختام

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/158.

أعبده وأن أدعو النّاس إلى ذلك؛ لأنّه لمّا أُمر بذلك من قِبل اللّه، استُفيد أنّه مرسل من اللّه، فهو مأمور بالدّعوة إليه"[1].

دلالة تقديم الجارّ والمجرور ﴿إِلَيۡهِ﴾:

التّخصيص في السّياق، مُفصح عن المعنى المُراد

قدّم النّظم الكريم شبه الجملة من الجارِّ والمجرور ﴿إِلَيۡهِ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِلَيۡهِ أَدۡعُواْ وَإِلَيۡهِ مَـَٔابِ﴾؛ للدِّلالة على التّخصيص، فالدّعوة منحصرة في الدَّعوة إلى اللّه تعالى لا إلى سواه، والمرجع يوم القيامة ليس لأحد إلّا للّه تعالى؛ أيْ: "إلى اللّه تعالى خاصَّة على النَّهج المذكور من التَّوحيد، أو إلى ما أُمرت به منَ التَّوحيد أدْعو النّاسَ لا إلى غيره، ولا إلى شيءٍ آخرَ مما لا يطبق عليه الكتبُ الإلهيَّة والأنبياء عليهم السلام، فما وجه إنكاركم؟"[2].

سرُّ التَّعبير بقوله: ﴿أَدۡعُواْ﴾:

العبادة والتّوحيد منهج دعوة وسبيل إلى الله تعالى

ذَكَر النّظم الكريم الدّعوة إلى اللّه تعالى بعد الأمر بعبادته، فقال جلّ ذِكرُه: ﴿أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشۡرِكَ بِهِۦٓۚ إِلَيۡهِ أَدۡعُواْ﴾، والمُراد من ذلك: بيان أنّه كما "وجب عليه الإتيان بهذه العبادات؛ فكذلك يجب عليه الدّعوة إلى عبودية اللّه تعالى"[3]، كما يُشير ذلك إلى أنّه ﷺ يدعو إلى عبادة اللّه وتوحيده، وهذه مُهمَّة رسالتِهِ ﷺ الّتي تقدَّم ذِكْرُها في صدر الآية، وهي مُهمَّةُ الرُّسل عليهم السلام من قبله، فَقَدْ أُمِروا بهذه الدَّعوة، وفيه إشارة إلى حثِّ العلماء والدُّعاة على التَّخلُّق بهذا الخُلُقِ؛ لأنَّهُم ورثةُ الأنبياءِ.

دلالة التَّعبير بالمضارع ﴿أَدۡعُواْ﴾:

الدّعوة إلى الله تعالى هي وظيفة الرّسول الأكرم الأساسيّة

آثر النّظم البليغ التّعبير بالفعل المضارع ﴿أَدۡعُواْ﴾ في قوله تبارك اسمه: ﴿إِلَيۡهِ أَدۡعُواْ وَإِلَيۡهِ مَـَٔابِ﴾؛ للدّلالة على تجدّد الدّعوة

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/158.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/157.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 19/48.

واستمرارها، وفي ذلك إعلان بأنّ النّبيّ ﷺ لا يشغله شاغل عن هذه الدّعوة الّتي ينهجها كلّ زمان ومكان فلا ينفكّ عنها، وفي ذلك تَيْئيسٌ للمشركين بثباته على ذلك، وفيه تحذيرٌ لأهل الدَّعوة إذا هُم أهملوا الاستمرارَ في دعوة النّاس إلى توحيد اللّه وعبادته؛ لأنَّهم بذلك يتخلَّفون عن رَكْبِ الخيريَّة في الأمَّة.

دلالة الواو في: ﴿وَإِلَيۡهِ مَـَٔابِ﴾:

الجملة في قوله جلّ شأنه: ﴿وَإِلَيۡهِ مَـَٔابِ﴾ معطوفة بالواو على قوله تعالى: ﴿إِلَيۡهِ أَدۡعُواْ﴾؛ لكونهما مشتركتيْن بالمقول، فهما في حيّز فعل القول[1]، فكما صرّح بكونه مأمورًا بإعلان دعوته إلى اللّه تعالى؛ فكذلك يُعْلِنُ بأنّ مرجعَهُ إلى اللّه تعالى.

إعلان الرّجوع إلى الله تعالى، من تمام الدّعوة إليه

سرُّ التَّعبير بلفظ (المآب) في الآية:

آثر النّظم الجليل التّعبير بالمآب، في قوله جلّ شأنه: ﴿وَلَآ أُشۡرِكَ بِهِۦٓۚ إِلَيۡهِ أَدۡعُواْ وَإِلَيۡهِ مَـَٔابِ﴾ دون المرجع؛ لأنّ المآب مصدرٌ ميميٌّ على وزن (مَفْعَل)، وهو دالٌّ على الرّجوع على وجه المبالغة؛ لأنّ الأصلَ في المصادر الميميّة أنّها أسماءُ زمان جُعلت كنايةً عن المصدر، ثمّ شاع استعمالُها حتّى صارت بمنزلةِ المصدر الصّريح[2].

المآب إعلانٌ مؤكّد بالرّجوع إلى الله تعالى

وممّا يُذكر في سرِّ التّعبير به: أنَّ المآب لا يُراد منه الرُّجوع فحسبُ، وإنَّما يُراد المُنقلَب الّذي يَنْتَهي إليه ابنُ آدم؛ إمّا إلى جنّة وإمّا إلى نارٍ، فمثال منقلَب أهل الجنَّة قولُه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلۡمَـَٔابِ ١٤﴾ [آل عمران: 14]، ومثال منقلب أهل النّار قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٖ ٥٥﴾ [ص: 55][3].

(1) محمود صافي، الجدول في إعراب القرآن: 7/142.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/142.
(3) محمد ياس الدُّوري، دقائق الفروق اللّغويّة في البيان القرآني، ص: 232.

بلاغة الختام في ﴿وَإِلَيۡهِ مَـَٔابِ﴾:

عبّر النّظم الكريم في ختام الآية بقوله تبارك اسمه: ﴿وَإِلَيۡهِ مَـَٔابِ﴾ الدّالّ على أنّ المرجع إليه وحده يوم القيامة للجزاء[1]، فجاء قولهُ في الختام للدّلالة على أنّ ما وراء العملِ والعبادة والدّعوة إليه، وما وراء الشّرك به: راجعٌ إليه ﷻ؛ وهو سيحاسب العباد للجزاء، وفي ذلك تحذيرٌ للمشركين والنّصارى بتَذْكيرهم بيوم القيامة الّذي سَيُحاسبون فيه على ما اقترفوه من الشّرك.

التّذكير بيوم الحساب، أبلغ في التّنبيه والتّحذير للمُتمادينَ في الشّرك

سرُّ الاختلاف في فاصلة الآية:

اختلفت فاصلة هذه الآية عمّا قبلها؛ حيث خُتمت بقوله: ﴿وَإِلَيۡهِ مَـَٔابِ﴾، والسّابقة خُتمت بقوله: ﴿وَإِلَيۡهِ مَتَابِ ۝٣٠﴾، وذلك لاختلاف المُتَحدَّث عنهم في الآيتيْن، فالأولى كانت في شأن الكفّار الّذين قال اللّه فيهم: ﴿وَهُمۡ يَكۡفُرُونَ بِٱلرَّحۡمَٰنِۚ﴾ [الرعد: 30]، وكفر هؤلاء لا يُغفر إلّا بالتّوبة إلى اللّه تعالى، ولذلك كان مناسبًا أن يُرْشِدَهُم القرآنُ إلى وسيلة الخروج منَ الكُفْر، وذلك يكون بالتَّوبة إلى اللّه تَعالى، قال تعالى: ﴿وَإِلَيۡهِ مَتَابِ ۝٣٠﴾، أمّا الثّانية فهيَ في شأن أهل الكتاب، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ﴾، والمقام هنا يُناسبه المآبُ؛ لأنَّه يدلُّ على أنَّ رجوعهم إلى اللّه أمرٌ حتميٌّ للمجازاة على ما قُدِّم.

يختلف اللّفظ باختلاف الجهة المتكلّم عنها، ومقتضى الحال، في تعبير المقال

سِرُّ حذف ياء المتكلّم في ﴿مَـَٔابِ﴾:

أوْجَزَ بليغُ النّظم بحذف الياء في قوله تعالى: ﴿وَإِلَيۡهِ مَـَٔابِ﴾؛ إذْ أصلُ ﴿مَـَٔابِ﴾: مآبي بالإضافة إلى ياء المتكلّم، وقد حُذِفَت الياء تخفيفًا، وأُبقيتِ الكسرةُ دليلًا على المحذوف[2]، كما أنّ ذلك الحذفَ يحقّق التّماثل الصّوتيَّ في الفاصلة الّتي تَبْلُغُ في التّأثير المدى الأقصى بانْسِجامِها الصّوتيّ مع خواتيم الكلام السّابق واللّاحق.

الحذف أخفّ لفظًا، وأوجز عبارة، وأنسب فاصلةً

(1) القنّوجيّ، فتح البيان: 7/66.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/159.

دقّة البيان القرآنيّ، في استعمال كُلّ لفظة، في سياقها الملائم لها

المُتشابه اللّفظيّ في الآية:

تشابه قوله جلّ شأنه في هذه الآية: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشۡرِكَ بِهِۦٓۚ إِلَيۡهِ أَدۡعُواْ وَإِلَيۡهِ مَـَٔابِ﴾ مع قوله تعالى من سورة النّمل: ﴿إِنَّمَآ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلۡبَلۡدَةِ ٱلَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَيۡءٖۖ وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ٩١﴾ [النّمل: 91]، فيُلاحَظ أنّ الآية في سورة الرّعد بدأت بقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَفۡرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَۖ وَمِنَ ٱلۡأَحۡزَابِ مَن يُنكِرُ بَعۡضَهُۥۚ﴾، فلمّا كان السّياق مُتعلّقًا بالرّسول ﷺ، ناسبه ذِكر ﴿قُلۡ﴾، ولمّا كان مِن أبرز ما يُنكره هؤلاء توحيدُ اللّه تعالى؛ ناسبه قوله: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشۡرِكَ بِهِۦٓۚ﴾. أمّا الآية في سورة النّمل فيسبقها قوله: ﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيۡرٞ مِّنۡهَا وَهُم مِّن فَزَعٖ يَوۡمَئِذٍ ءَامِنُونَ ٨٩ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتۡ وُجُوهُهُمۡ فِي ٱلنَّارِ هَلۡ تُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٩٠﴾ [النّمل: 89 - 90]؛ فلمّا كان الإخبار من اللّه مباشرة، ناسبه عدم ذكر (قل)، ولمّا كانت هذه تربية من اللّه لعباده، وتقدّم قوله: ﴿۞وَإِذَا وَقَعَ ٱلۡقَوۡلُ عَلَيۡهِمۡ أَخۡرَجۡنَا لَهُمۡ دَآبَّةٗ مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ تُكَلِّمُهُمۡ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ٨٢﴾ [النّمل: 82]، وكانت هذه الدّابّة تخرج من مكّة بلد اللّه الحرام؛ ناسبه قوله: ﴿إِنَّمَآ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلۡبَلۡدَةِ ٱلَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَيۡءٖۖ﴾ [النمل: 91].

أمّا التّشابه مع سورة الزّمر في قوله تعالى: ﴿قُلۡ إِنِّيٓ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ ١١﴾ [الزّمر: 11]، فَلِمَ خُصّت الآية في سورة الرّعد بـ (إنّما)، وبقوله: ﴿وَلَآ أُشۡرِكَ بِهِۦٓۚ﴾، وآية الزّمر بـ ﴿إِنِّيٓ﴾ [الزّمر: 11] وبقوله: ﴿مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ ١١﴾ [الزّمر: 11]؟ والجواب عن هذا أن نقول: يُلاحظ أنّ الآية في سورة الرّعد بدأت بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَفۡرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَۖ وَمِنَ ٱلۡأَحۡزَابِ مَن يُنكِرُ بَعۡضَهُۥۚ﴾؛ فلمّا كان الأحزاب منكِرين لبعض الكتاب، وعلى الأخصّ توحيدَ اللّه تعالى، وأريد تأكيد الخبر بما يفيد التّعريض بما هم فيه من الشّركِ باللّه؛ ناسبه ذِكر

﴿إِنَّمَآ﴾ بقوله: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱللَّهَ﴾، ولمّا كان مَن يعبد اللّه تعالى قد يُشرك معه غيره؛ ناسَبَه قوله: ﴿وَلَآ أُشۡرِكَ بِهِۦٓۚ﴾. أمّا الآية في سورة الزّمر فيسبقها قوله: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝٢﴾ [الزّمر: 2]، فلمّا أراد اللّه تعالى أن يُعلّم رسوله ﷺ الامتثال لأمره، وأن يكونَ قدوةً صالحة للّذين آمنوا؛ ناسَبَه قوله: ﴿قُلۡ إِنِّيٓ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝١١﴾ [الزّمر: 11].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيّةُ:

الدّعاء والنّداء:

الفرق بينَهما: أنَّ "النِّداء هوَ رفع الصَّوْت بِما لَهُ معنًى، والعربيّ يَقول لصاحبه: نادِ معي؛ ليَكون ذَلِك أندى لصوتنا؛ أيْ: أبعد لَهُ، والدُّعاء يكون بِرَفْع الصَّوْت وخفضه، يُقال: دَعوته من بعيد، ودعوتُ اللّه في نَفْسي، ولا يُقال: ناديته في نَفسي، وأصل الدُّعاء طلب الفِعْل"[1]، وأوثِر التّعبيرُ بالدّعاء في قوله تعالى: ﴿إِلَيۡهِ أَدۡعُواْ وَإِلَيۡهِ مَـَٔابِ﴾؛ لأنّه لَم يُرَد أنّ ذلك برفع الصّوت، بل بالعمل والطّلب مِنَ النّاس عبادته.

النّداء مُختصّ برفع الصّوت، والدّعاء برفع الصّوت وخفضه وبالسّر

المآب والرّجوع:

الإياب يختصّ بالرّجوع إلى النّهاية، فهو "الرُّجوع إلى مُنْتَهى المَقْصد، والرُّجوع يكون لذَلِك ولغيره؛ ألا ترى أنّه يُقال: رَجَعَ إلَى بعض الطَّريق، ولا يُقال: آب إلَى بعض الطَّريق، ولِهَذا قالَ تَعالَى: ﴿إِنَّ إِلَيۡنَآ إِيَابَهُمۡ ۝٢٥﴾ [الغاشية: 25]، كَأنَّ القيامَة مُنْتَهى قَصْدِهم؛ لأنّها لا منزلَة بعْدها"[2]، وأوثِر التّعبير بالمآب في قوله تعالى: ﴿إِلَيۡهِ أَدۡعُواْ وَإِلَيۡهِ مَـَٔابِ﴾؛ لأنّ السّياق في بيان كون النّهاية إليه ﷻ.

الإياب أخصّ من الرّجوع؛ فهو رجوع إلى النّهاية

(1) العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 38.
(2) العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 303.

﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَٰهُ حُكۡمًا عَرَبِيّٗاۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعۡتَ أَهۡوَآءَهُم بَعۡدَمَا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا وَاقٖ ٣٧﴾ [الرّعد: 37]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

بيان حال العرب في تلقّي القرآن، بعد بيان حال أهل الكتابِ

لمّا ذكر النّظم الكريم في الآية السّابقة حال أهل الكتاب من نزول القرآن الكريم؛ عرَّج في هذه الآية على بيان حال العرب في ذلك، بأسلوب التّعريض بسوء تلقّي المشركين منهم له، مع أنّهم أوْلى النّاس بأن يستقبلوه الاستقبالَ الأحْسَن؛ إذْ نزل بلسانهم مُشتملًا على ما فيه صلاحُهم وتنويرُ عقولِهم[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿حُكۡمًا﴾: الحاء والكافُ والميمُ تدورُ اشتقاقاتُها على مَعْنى المَنْعِ، وأوَّلُ ذلكَ: الحُكْمُ، وهو المَنْعُ مِنَ الظُّلْم، وكُلُّ شَيْءٍ مَنَعْتَهُ مِن الفَسادِ؛ فقد حَكَمْتَهُ وأحْكَمْتَهُ[2]، والحُكمُ أيضًا: القَضاءُ والفَصْلُ، تَقولُ: حَكَمْتُ بَيْنَهُما؛ إذا قَضَيْتَ، ويأْتي بِمَعْنى: الشّيْءِ الحَسَنِ المُتْقَنِ، والجَمْعُ: أحْكامٌ، والإحْكامُ: الحُسْنُ والإتْقانُ، يُقال: أحْكَمْتُ صُنْعَ الشَّيءِ؛ أيْ: أتْقَنْتُهُ، والحَكيمُ: المُتْقِنُ للأُمورِ[3]، والحِكْمَةُ: إصابةُ الحقِّ بالعِلْم والعَقْلِ، فالحكمة مِنَ اللّه تَعالى: معرفةُ الأشياء وإيجادُها على غاية الإحكام، ومن الإنسانِ: معرفةُ الموجودات وفِعل الخيرات[4]، وسُمّيت بذلكَ لِأنَّها تَمْنَعُ صاحِبَها مِنَ الوُقوعِ في الغَلَطِ والضَّلالِ، قالَ تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ﴾ [هود: 1]، والمقصودُ بالحُكْمِ في الآية: الحِكْمةُ، والمُرادُ أنَّهُ ذو حُكْمٍ؛ أيْ: حِكْمَةٍ[5].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/159.
(2) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (حكم).
(3) ابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس: (حكم).
(4) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحُفّاظ: (حكم).
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/160.

2) ﴿عَرَبِيًّا﴾: أصْلُ الكَلِمَةِ مِن التَّعْريبِ؛ وهو: التَّبْيينُ والإيضاحُ والإفْصاحُ، يُقال: أعْرَبْتُ الشَّيْءَ، وأعْرَبْتُ عنه، وعَرَّبْتُهُ تَعْريبًا؛ أيْ: بَيَّنْتُهُ، وعَرِبَ، يَعْرَبُ: إذا فَصُحَ بعد لُكْنَةٍ في لِسانِهِ[1]، والعَرَبيةُ: اللُّغَةُ الّتي نَطَقَ بِها العَرَبُ، نِسْبَةً إلى العَرَبِ، وهم جيلٌ مِن النّاسِ، خِلافُ: العَجَمِ، يُقال: عَرُبَ لِسانُهُ عُروبَةً: إذا كان عَرَبيا فَصيحًا، ورَجُلٌ عَرَبي؛ أيْ: مِن نَسَبِ العَرَبِ، وإن كان غَيْرَ فَصيحٍ، والعَرَبُ العارِبَةُ: هم الخُلَّصُ مِنْهُم، والأعْرابُ مِنْهُم: سُكّانُ الباديةِ خاصَّةً[2]، والمَقْصودُ بـ ﴿عَرَبِيًّا﴾ في الآيةِ: أنَّهُ بِلُغَةِ العَرَبِ الّتي هي أفْصَحُ اللُّغاتِ وأجْمَلُها وأسْهَلُها، قال الرّاغب: عربيًّا: مُفصحًا يُحِقُّ الحقَّ ويُبْطِل الباطِلَ، وقيل: معناه شريفًا كريمًا[3].

3) ﴿أَهْوَآءَهُم﴾: الهاءُ والواوُ والحرفُ المعتلُّ تدُلُّ تصريفاتُها على خُلوٍّ وسُقوطٍ، يُقالُ: هَوَى الشَّيْءُ؛ أيْ: سَقَطَ، ومنه سُمّي هَوَى النَّفسِ بذلك؛ لأنَّهُ خالٍ مِن كُلِّ خَيْرٍ؛ ولأنَّهُ يَهْوي بِصاحِبِهِ في المَهالِكِ[4]، والهَوى: مَحَبَّةُ الإنسانِ لِلشَّيءِ، يُقالُ: هَوَى الطَّعامَ يَهْويهِ هَوًى؛ أيْ: أحَبَّهُ، ويأْتي بِمعنى الإرادَةِ والمَيْلِ لِلشَّيْءِ، سَواءً أكان حَقًّا أم باطِلًا، فيُقالُ: سارَ على هَواهُ: إذا فَعَلَ ما أرادَ[5]، والهَوَى أيضًا: الباطِلُ والضَّلالُ، ومِنْهُ سُمّي أهْلُ الباطِلِ بِأهْلِ الأهْواءِ[6]، ومِن مَعانيه أيضًا: العِشْقُ، والتَّعَلُّقُ، والشَّهْوَةُ، والجَمْعُ: أهْواءٌ[7]، والمقصود بالأهواء في الآية: الباطلُ والضَّلالُ، والمُرادُ: إجابة طلبهم في إنْزال آيةٍ غير القُرآنِ؛ تَحذيرًا مِنْ أنْ يَسألَ اللّه إجابَتَهُم لِما طَلَبوهُ، أو اتِّباع دينِهِم، فَإنَّ دينَهُم أهْواءٌ.

4) ﴿وَاقٍ﴾: أصْلُ الوِقايَةِ: دَفْعُ شَيْءٍ عن شَيْءٍ بِغَيْرِهِ، يُقال: وقَى نَفْسَهُ مِن العَدوِّ بِسِلاحِهِ؛ أيْ: دَفَعَهُ بِهِ، وفُلانٌ ما له مِن واقٍ؛ أيْ: مِن دافِعٍ، والوِقايَةُ: ما يَقي الشَّيْءَ، واتَّقِ اللّه: تَوَقَّهُ؛ أي: اجْعَلْ بَيْنَكَ وبَيْنَهُ كالوِقايَةِ، قالَ النَّبي ﷺ: «اتَّقوا النّارَ ولَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ»[8]،

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (عرب).
(2) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن عبّاد، المحيط في اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن سيده، المُحكَم، وابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس: (عرب).
(3) الرّاغب، المفردات: (عرب)، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/160.
(4) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (هوى).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحُفّاظ: (هوى).
(6) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (هوى).
(7) ابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس: (هوى).
(8) رواه البخاريّ في صحيحه، الحديث رقم: (1417)، ومسلم في صحيحه، الحديث رقم: (1016).

وكأنَّهُ أرادَ: اجْعَلوها وقايَةً بَيْنَكُم وبَيْنَها[1]، والمُتَّقي: المُفرِطُ في الصّيانة[2]، والتَّقوى: اتِّخاذُ الوِقايَةِ والحِمايَةِ مِن الشَّيءِ، والتَّوَقّي: الحَذَرُ، وتأْتي الوِقايَةُ بمعنى الحِفْظِ مِن الأذى والضَّرَرِ[3]، والمقصود بالوِقايَةِ في الآية: حفظُ الشَّيءِ ممّا يؤذيه ويضرّه، والمُراد: ليس لك حافظٌ مِن عذاب اللّه تعالى أيَّ حافظٍ كانَ.

❁ المَعْنى الإجْماليّ:

بيَّنَ اللّه ﷻ في هذه الآية أنَّه أرسَلَ رَسولَه بلُغةِ قَومِه كما أرسلَ مِن قَبلِه رُسُلًا بلُغاتِ أقوامِهم، فقال: وكما أنزَلْنا الكتُبَ على الرُّسُلِ السّابِقينَ بلُغاتِهم، كذلك أنزَلْنا عليك - يا أيُّها الرَّسولُ - القُرآنَ مُحكَمًا مُتقَنًا؛ لِتَحكُمَ به بين النّاسِ، بلسانِ العَرَبِ، ولَئن اتَّبَعتَ - يا أيُّها النَّبيُّ - أهواءَ تلك الأحزابِ الكافرةِ بعد ما جاءك مِن العِلمِ الّذي علَّمَك اللّه إيّاه، ما لك مِن اللّه مِن ناصرٍ ينصُرُك ويتولَّى أمورَك، ولا واقٍ يقيك عذابَ اللّه؛ فاحذَرْ مِن اتِّباعِ أهوائِهم.

وما أرسلنا من رسول إلّا بلسان قومه، ليبلّغهم ولا يتّبع أهواءهم

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيّ:

دلالة الواو في قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَٰهُ﴾:

الواو في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَٰهُ حُكۡمًا عَرَبِيّٗاۚ﴾ عاطفة لهذه الجملة على قوله ﷻ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَفۡرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَۖ﴾؛ لوجود اشتراكٍ بينهما في أمرِ تلقّي القرآن؛ حيث كانت الآية السّابقة في كيفيّة تلقّي أهل الكتاب للقرآن؛ فجاء هنا وعطف عليه كيفيّة تلقّي العرب لنزوله[4].

تلقّي العرب وأهل الكتاب للقرآن بالانقسام، وعدم الالتزام

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحُفّاظ: (وقى).
(2) السّمين الحلبيّ، عمدة الحُفّاظ: (وقى).
(3) السّمين الحلبيّ، عمدة الحُفّاظ، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المُؤصّل: (وقى)، والمناويّ، التّوقيف على مهمّات التّعاريف، ص: 340.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/159.

دلالة الكاف في ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾:

حرف التّشبيه، يوضّح الصّورة، ويُبين عن المعنى المتوخّى

عبّر النّظم الكريم بحرف الكاف الدّالّ على التّشبيه، في قوله جلّ شأنه: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَٰهُ حُكۡمًا عَرَبِيّٗاۚ﴾ وهو حرف جرّ، واسم الإشارة في محلِّ جرٍّ بِهِ، والجارّ والمجرور ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ في محلِّ نصبٍ نائب عن المفعول المُطلَق، والتّقدير: أنزلناه إنزالًا كذلك الإنزال[1].

دلالة اسم الإشارة (ذلك) في الآية:

الإشـــارة إلى التّنزيل بإشارة البعيد تعظيمٌ له

اسم الإشارة في قوله جلّ شأنه: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَٰهُ حُكۡمًا عَرَبِيّٗاۚ﴾ يشير إلى المصدر المتصيَّد من الفعل (أنزلنا)، وهو منصوب على المصدريّة؛ أيْ: "مثلَ ذلك الإنزالِ البديعِ المنتظم لأصول مُجمَع عليها وفروعٍ مُتشعبة إلى موافِقةٍ ومخالِفة حسبما تقتضيه قضيَّةُ الحكمةِ والمصلحة أنزلناه"[2]، وهو يدلُّ على التَّعظيم والتَّنويه بشأن هذا الإنزال.

بلاغة التَّشبيه في قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَٰهُ﴾:

يمتاز دين الله الرّائع، بوحدة المنهج، مع تعدّد الكتب والشّرائع

التّشبيه في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَٰهُ حُكۡمًا عَرَبِيّٗاۚ﴾ معقود للمشابهة بين إنزال الكتب السّابقة والقرآن، والمعنى: "وكما أنزلنا الكتب على الرّسل بلغاتهم ولسانهم؛ كذلك أنزلنا عليك القرآن بلسان العرب"[3]، ويدلُّ على ذلك قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ﴾؛ فهو يتضمَّن إنزالَهُ تعالى الكتُبَ السّابقةَ بلِسانِ مَن أُنزلت عليهم؛ فكذَلِكَ الّذي أنزلناه عليك بلسان العرب، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ﴾ [إبراهيم: 4][4]، وفيه ردٌّ على مُنكري تنزيل القرآن من المشركين ومن أهل الكتاب.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/160.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/158.
(3) القنّوجيّ، فتح البيان: 7/67.
(4) الآلوسيّ، روح المعاني: 13/167.

سرُّ التَّعبير بالإنزال ﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾:

نزول القرآن مُطلقًا مناسبٌ للسّياق، لا نزوله مفرّقًا

آثر النّظم الكريم التّعبير بالإنزال دون التّنزيل، في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا﴾؛ لأنّه يدلُّ على النُّزول للقرآن مطلقًا من غير وصفٍ لحالِ النُّزول، بخلاف التّنزيل المأخوذِ منَ الفعل المضعّف (نزّل)، فهو يدلّ على التّكثير، وهو مناسبٌ لمعنى نزول القرآن مفرّقًا، كما ورد في آيات أخرى؛ لأنَّ التّفريق يستغرق زمانًا طويلًا، وهذا المعنى ليس مرادًا في السّياق؛ لذا عُبِّرَ هنا بالفعل ﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾؛ للدّلالة على الإنزال مطلقًا، ولم يُعبِّر بالتّنزيل الدّالِ على التّدرّج في الإنزال.

دلالة نون العظمة في ﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾:

عظمة المُنزَّل من عظمة المُنْزِل سبحانه

عبر النَّظم الجليل بِالنّونِ الدّالّة على العَظَمَةِ في الإخبار عن الإنزال في قوله جلّ شأنه: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا﴾؛ أيْ: أنزلنا القرآنَ بما لنا مِنَ العظمة[1]، وذلك أنّ تنزيلًا عظيم الشّأن، لا بدّ أن يكون مِن جليلٍ عظيم، فالتّعبير عن فاعل الإنزال بالضّمير الدّالِّ على التّعظيم مناسبٌ مع مضمونِ الخطابِ عَلى التّمام.

سرُّ التَّعبير بقوله تعالى: ﴿حُكْمًا﴾:

القرآن يحكم حياة النّاس بأحكامه المُشعّة الرّائدة

أطلق النّظمُ الكريم على القرآن الكريم لفظَ الحُكْم، في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا﴾، للدّلالة على أنّه حاكمٌ يحكم في الحياة وفي واقِعِ النّاس بالحقّ، لأنّه ذو حكمة، كما في قوله: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ﴿١٢﴾﴾ [مريم: 12]، وإنّما جُعِل القرآنُ نفسَ الحُكْمِ؛ للمبالغة في الحكمة الّتي يتضمّنها القرآن[2]، مع أنّ بعضه ليس بحُكم، وذلك للتّنويه بمكانته؛ تربيَةً لمهابته ووجوبِ مراعاتِهِ

(1) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 10/357.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/160.

والمحافظة على تلك المكانة[1]. ولمّا كان القرآن مُشتملًا على جميع أنواع العبوديّاتِ، وكان سببًا للحُكم؛ جَعل نفسَ الحكمِ مبالغةً[2].

بلاغة التَّعبير بالحال في قوله: ﴿حُكْمًا﴾:

خطاب الأمّة يكون بلسانها، ليكون البلاغ أمكن وأوضح

أتبع النّظمُ الكريمُ التّعبيرَ عن حال كون القرآن حاكمًا بحالٍ أخرى وهي كونُه بلسان عربيّ في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا﴾، وإنّما كان ﴿عَرَبِيًّا﴾ حالًا ثانية وليس صفة لـ ﴿حُكْمًا﴾؛ لأنّ الحكمة لا تكون في أمّة دون غيرها، فالمعنى أنّه حكمة مُعَبَّرٌ عنها بالعربيَّة، والمقصود أنَّه بلغة العرب؛ لأنّ إعجازه جاء بلغتهم[3]؛ أيْ: جاء على وفْقِ مذاهب لسان العرب في كلامها، فهو كافٍ لبيان الدّعوة وإقامة الحُجّة، فلا يُلتفت إلى اقتراحاتهم على وفق أهوائهم[4]، فالمجيء بلفظ العربيّ هنا "للإشارة إلى أنَّ ذلك إحدى موادّ المخالفة للكتُبِ السّابقة مع أنّ ذلك مُقْتَضى الحكمة؛ إذْ بِذَلِكَ يَسْهُلُ فهمُه وإدراكُ إعجازِه، يعني بالنّسبة للعرب، وأمّا بالنّسبة إلى غيرهم فلعلّ الحكمة أنّ ذلك يكون داعيًا لتعلّم العلومِ الّتي يتوقّف عليها ما ذُكِر"[5].

بلاغة الجمع بين: ﴿حُكْمًا﴾ و﴿عَرَبِيًّا﴾:

القرآنُ جَمَعَ كُلَّ الكمالات اللّفظيَّة والمعنويَّة

جَمَعَ النّظمُ البليغُ في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا﴾ بين حالَيْن؛ لبيان نزول القرآن الكريم، فوُصف بأنّه جاء في حالِ كونِه حاكمًا وكونه بلسان العرب، فحصل بهذا الجمعِ كمالان: "كمالٌ من جهة معانيه ومقاصده؛ وهو كونه حكمًا، وكمالٌ من جهة ألفاظه؛ وهو المُكَنّى عنه بكونه عربيًّا، وذلك ما لم يبلغ إليه كتاب قبله؛ لأنّ

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/158.
(2) ابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 11/317.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/160.
(4) البقاعيّ، نَظْم الدّرر: 10/357.
(5) الآلوسيّ، روح المعّاني: 7/158.

الحكمة أشرف المعقولات فيُناسب شرفها أن يكون إبلاغها بأشرف لغة وأصلحها للتّعبير عن الحكمة"[1].

وعلى هذا نلحظ أنَّ الآية الكريمة قدِ اشتملت على فضيلتيْن للقرآن الكريم: فضيلةٍ مِن جهة معانيه ومقاصده وهداياته وحِكَمِه وأحكامه وتشريعاته؛ وهو المُعبّر عنها بكونه ﴿حُكۡمًا﴾، وفضيلةٍ من جهة ألفاظه ومفرداته وتراكيبه، وهي المُعبّر عنها بكونه ﴿عَرَبِيّٗا﴾؛ أيْ: نزل بلغة العرب الّتي هي أفصح اللُّغات وأغناها وأجملها[2].

بلاغة التَّعريض بمُشركي مكَّة في الآية:

كون القرآن بالعربيّة، يقتضي الشّكر لا الكفر، لأنّها وسِعت كتاب الله لفظًا وغايةً

وَصَفَ النّظمُ البليغُ القرآنَ الكريم بكونه عربيًّا في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَٰهُ حُكۡمًا عَرَبِيّٗاۚ﴾؛ لإرادة التّعريض بمُشركي العرب؛ إذْ "في كونه عربيًّا امتنانٌ على العرب المُخاطَبين به ابتداء بأنّه بلغتهم، وبأنّ في ذلك حُسْنَ سُمعتهم، ففيه تعريضٌ بأفَنِ رأي الكافرين منهم؛ إذْ لم يشكروا هذه النّعمة، كما قال تعالى: ﴿لَقَدۡ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ كِتَٰبٗا فِيهِ ذِكۡرُكُمۡۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ١٠﴾ [الأنبياء: 10]"[3].

دلالة موقع جملة ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعۡتَ أَهۡوَآءَهُم﴾:

المنّة بإنزال القرآن يعقبها التّحذير من اتّباع الأهواء

الجملة في قوله تعالى: ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعۡتَ أَهۡوَآءَهُم بَعۡدَمَا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ﴾ استئنافيّة[4]، جيء بها تحذيرًا من ترك العمل بالجملة السّابقة: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَٰهُ حُكۡمًا عَرَبِيّٗاۚ﴾، فهو اعتراض بعد ذِكر المنّة بإنزال القرآن الكريم؛ لبيان أنّ الإكرام بالوحي يقتضي مقاطعة الأهواء وحُرمة اتّباعها، وفيه إشارةٌ إلى تحذير العلماء والدّعاة من باب أوْلى.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/160.
(2) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/467، والشّوكانيّ، فتح القدير: 3/105، والسّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 419، وطنطاويّ، التّفسير الوسيط: 7/493.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/160.
(4) محمود صافي، الجدول في إعراب القرآن: 7/143.

دلالة اللّام في قوله: ﴿وَلَئِنِ﴾:

أدْخَلَ النّظمُ الكريم اللّام على الجملة الشّرطيّة في قوله تبارك اسمه: ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعۡتَ أَهۡوَآءَهُم﴾ وهي اللّام الموطِّئةُ، وهي لام مؤكّدة ممهّدة للقَسَم[1]، وفائدة ذلك تأكيد مضمون جملة الشّرط، فتَظافَر أسلوبان على المعنى؛ ليكون في الغاية مِنَ التّأكيد والقطعيّة.

التّوطئة للقَسَم، تأكيد للمضمون، وتجلية للإنكار العقديّ المأفون

دلالة التّعبير بـ (إنْ) الشّرطيّة في ﴿وَلَئِنِ﴾:

آثر النّظمُ الكريم التّعبيرَ بـ (إن) الشّرطيّة في قوله تعالى: ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعۡتَ أَهۡوَآءَهُم بَعۡدَمَا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ﴾، وهي دالّة على شرطٍ غير متوقّع الحصول؛ لأنّ اتّباع النّبيّ ﷺ لهم غير وارد من الأصل، فَسيقَ مساق الافتراض للتّحذير، و"الخطاب للنّبيّ ﷺ، وليس هناك احتمال لأنْ يتّبع النّبيّ ﷺ أهواءَهم، فما اتّبعها قبل أن يبعثه الله رسولًا، فكيف يتّبعها بعد أن شرّفه الله تعالى بالرّسالة العامَّة الخالدة؟ وإنّما الخطاب له ابتداءً؛ لتقتديَ به أمّته، وتَتَّبعه، أو يكون الخطاب لكلِّ قارئ للقرآن مُخاطَب بأحكامه وبيانه"[2]، فيكون الخطابُ في ﴿ٱتَّبَعۡتَ﴾ قد خرج عن أصلِهِ في إرادَةِ مُعيَّنٍ، إلى إرادَةِ العموم.

اتّباعه ﷺ أهواءَهم، غيرُ واردٍ من الأصل

سِرُّ التعبير عن مطالب المشركين بالأهواء:

آثرَ القرآنُ الكريم التّعبيرَ عن مطالبهم واقتراحاتهم بالأهواء في قوله تعالى: ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعۡتَ أَهۡوَآءَهُم بَعۡدَمَا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ﴾؛ إشارةً إلى أنّ تلك المطالبَ إنّما صدرت عن أهوائهم لا عن علمٍ ومَقْصد سليم، فهو تشنيع على تلك المطالب، وتضمين لعِلّة النّهي عن اتّباعها؛ لأنَّ الهوى رأيٌ ناشِئٌ عن هَوًى لا عن دليلٍ، وللتَّحذير مِنَ الاستجابة إلى مطالبهم؛ لأنَّها مبنيَّة على الهوى، وأنَّه لا يأتي مِنْهُ خيرٌ.

وَصْفُ مطالبِهم بأنّها أهواء، تشنيعٌ عليهم، وتأكيد لطيشهم وسفاهتهم

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 8/3964.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 8/3964.

دلالة التّعبير بالجمع ﴿أَهْوَآءَهُم﴾:

تعدّدت الأهواء بتعدُّد الأحزاب، وتلك آفة الآفات

آثر النّظمُ الكريم التّعبير بالجمع في قوله تعالى: ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم﴾؛ لأنّها أهواء عديدة مختلفة، فقد دعوا النّبيّ ﷺ إلى الصّلاة إلى بيت المقدس بعد تحويل القبلة إلى الكعبة، كما دَعَوْهُ إلى ترك الدّعوة إلى الإسلام[1]، كما أنّ الجمع يُناسب لفظ ﴿ٱلْأَحْزَابِ﴾ المجموع في قوله: ﴿وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ﴾، فلمّا كانت أحزابًا؛ كانت الأهواء متعدّدة، وكلّ حزبٍ بما لديهم فرحون.

دلالة التّعبير بالظّرفيّة ﴿بَعْدَ﴾:

من دان بالعلم تحقّق، ومن دان بلا علم تفسّق

في قوله تبارك اسمه: ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَمَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ﴾، قُيِّد الاتّباع المُحَذَّرَ منه بالظّرف وما أُضيف إليه؛ جريًا على أنّ التّحذير إنّما يكون بعد التّكليف، فلا عتاب لأحدٍ بلا وجود الحُجّة، فلمّا بلغ العلمُ المخاطَبين، واتّضح سبيلُ الحقّ؛ صلُح الحال لأن يأتي التَّحذير، وعليه فإنّ تقييدَ التّحذير في الآية بأنّه وقع بَعْدَ مجيءِ العِلْمِ قائمٌ عَلى منهج العدل.

سرُّ عدم ذكر (مِنْ) مع الظّرفيّة ﴿بَعْدَ﴾:

اتّباع أهوائهم، محذور مُستنكر، على طول الزّمان

استعمَل النّظم الكريم الظّرف ﴿بَعْدَ﴾ في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَمَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ﴾ بلا حرف الجرّ (مِن)؛ لأنّه "لمّا كان المُرادُ التّعميمَ في الزّمان؛ نزع الجارّ"[2]، فليس المُرادُ بيانَ أنّ حرمة الاتّباع بادئة مع مجيء العِلم، فلم يُجزّأ زمن البَعْديّة؛ لأنَّه لو جُزّئ الزّمن؛ فستكونُ درجة الحُرمة في بداية النّزول مختلفةً عن درجتها بعد مرّ الزّمان وكثرة نزول القرآن، فالمعنى أنّه قد حَرُمَ عليك اتّباع الأهواء بمجرّد مجيء العلم إليك وحدوثه، وهذا كما يظهر أشدّ في التّحذير من تقييده في بداية المجيء.

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/158.
(2) البقاعيّ، نَظْم الدّرر: 10/358.

دلالة التّعبير بـ ﴿مَا﴾ في الآية:

كلّ ما بلغ من العلم، يقضي بحُرمة اتّباع الأهواء وفسادها

آثر النّظم الكريم التّعبيرَ بالاسم الموصول ﴿مَا﴾ في قوله جلّ شأنه: ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَمَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ﴾ لأنّها تدلّ على العموم، فتشمل كلّ ما بلغه من العلم، سواء أُريد به القرآن، أو أُريد به العلمُ الجزئيُّ بحرمة الأهواء، بخلاف (الّذي) فإنَّها خالصةٌ في التَّعريف ولا تُفيد العموم الوارد من دلالة ﴿مَا﴾، فيحتمل "أن يُراد بالموصول القرآن تنويهًا به؛ أيْ: لئن شايَعْتَهُم؛ فسألتَنا آيةً غيرَ القرآن بعد أن نزل عليك القرآن، أو بعد أنْ أعلمناك أنّا غير مُتنازلين لإجابة مقترحاتهم"[1].

سرُّ التّعبير بالفعل ﴿جَآءَكَ﴾:

الدّلالة على عظمة العِلم، وأهمّيّته في الحياة والمصير

آثر النّظم الكريم التّعبير بلفظ المجيء، في قوله تبارك اسمه: ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَمَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ﴾ للدّلالة على تفخيم شأن القرآن وما يحمله من الهداية للعالمين، وفيه إشارة إلى عَظَمة العلم أيًّا كان نوعه، والمُراد به "العلمُ العظيمُ الشّأن، المأخوذ من ذلك الحُكم العربيّ، أو العلم بمضمونه"[2]، ولأنّ المجيء يدلّ على قوّة العلم الّذي علَّمه اللّه لرسوله ﷺ؛ بخلاف الإتيان فإنّه يَرِدُ في بعض السّياقات وهو يحمل معنى السُّهولة، ولذلك آثر القرآنُ التَّعبيرَ بالمجيء هنا مناسبةً لتعظيم العلمِ، وفيه تعريضٌ بضَلال المخالفين لرسول اللّه ﷺ.

دلالة التّعبير بـ ﴿مِنَ﴾ في ﴿مِنَ ٱلْعِلْمِ﴾:

التّبليغ والوحي من جنس العلم

أدخلَ النّظمُ الكريم ﴿مِنَ﴾ البيانيّة في قوله جلّ شأنه: ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَمَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ﴾ للدّلالة على أنّ الّذي جاء النّبيَّ ﷺ كائنٌ من جنس العلم؛ تفخيمًا لشأنه، وبيانًا لكونه حُجّةً قائمة.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/161.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/26.

سِرُّ التَّعبير بالعِلْم في الآية دون غيره:

العِلْم حاكم للأهواء، وضابط لحركة الحياة، ومُنظّم للعلاقات

آثر النّظمُ الكريم التّعبيرَ بلفظ العلم في قوله تعالى: ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَمَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ﴾، وذلك لاتِّساع دلالة لفظ العلم فيشمل كُلَّ ما هوَ معلومٌ بالأدلَّةِ والبراهين السّاطعة كالقرآن والوحي، وأُطلق عليهما[1] تفخيمًا لشأنه؛ لأنّه لا يأتي إلّا بخير، كما أنّ التّصريح بكونه عِلمًا مناسبٌ لسياق النّهي عن اتّباع الأهواء، فالصّادِر في دعوته عن علم، ليس كمَن يتّبعُ هواهُ، وشتّان بين الهوى والعلم، فذِكْرُ العِلْمِ هنا يتضمّن تعليلًا للتّحذير من اتّباع أهوائهم.

دلالة النَّفي في ﴿مَا لَكَ مِنَ ٱللَّـهِ﴾:

نفي الجملة الاسميّة، يدلّ على تأكيد النّفي

جاء التّعبير عن نفي الوَليِّ والواقي بالجملة الاسميّة في قوله تعالى: ﴿مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ﴾ وذلك لتأكيد النّفي، ليكون النّفي ثابتًا في جميع الأزمنة، ودالًّا على القطع؛ أي: انتفى وجود الوَليّ والواقي نفيًا قاطعًا، وفائدة النّفي حَسْمُ أطماعهم من اتّباع النّبيّ ﷺ لهم، وتهييج للمؤمنين على الثّبات في أمر دينهم[2].

دلالة حذف جواب الشّرط في الآية:

القَسَم على انتفاء النّصير، يدلّ على الجواب المحذوف

حُذف جواب الشَّرط في قولِه تعالى: ﴿مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ﴾ طِبْقًا للقاعدة النَّحويَّة عند اجتماع الشّرط والقَسَم، فإنّ المذكور يكون جوابَ القسم؛ لأنّه هو المُتقدّم، ويكون في الوقت ذاته دالًّا على جواب الشّرط[3]، ولذا لم تُصدَّر هذه الجملة بالفاء؛ لأنّها جواب القَسَم، وهو لا يقتضي لزوم ارتباطه بالفاء، وأمّا جواب الشّرط، فقد دلّ عليه جواب القَسَم[4]. وممّا يُذكر في علَّة حذف الشَّرط بلاغيًّا استحالة حصول ذلك الشَّيء من رسول الله ﷺ؛

(1) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 10/358.
(2) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/190.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 8/3964.
(4) محمود صافي، الجدول في إعراب القرآن: 7/143.

لذلك حُذف الجوابُ لاستحالةِ شَرْطِه ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ﴾؛ فهو في حُكم المعدوم، ولذلك كان حذفه من اللِّسان نُطقًا دليلًا على حذفه من القلبِ. وفيه إشارة إلى مزيدٍ مِنَ التَّبكيت والوعيد الشَّديد لِمَن تُسَوِّل له نَفْسُه إرضاءَ أهلِ الكفر.

دلالة التَّعبير بقوله: ﴿لَكَ﴾:

دلَّ التَّعبير القرآنيُّ بقوله: ﴿مَا لَكَ﴾ على أنَّ الولاية والنُّصرة لا تكون إلّا من اللّه وحده، ولا تكون إلّا لِمَن اتَّبع منهجه وترك أهواء الكافرين.

الولاية والنُّصرة لا تَكونُ إلّا من الله وحده

دلالة التَّعبير بـ ﴿مِنَ﴾ في ﴿مِنَ ٱللَّـهِ﴾:

جاء التَّعبير القرآني بالجارِّ والمجرورِّ في قوله: ﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾ المتعلِّق بقوله: ﴿وَلِيٍّ﴾، وقوله: ﴿وَلَا وَاقٍ﴾ لِتَضَمُّنِهما معنى المانع والحامي من العقاب، ويكون المعنى: ليس لك غيرُ اللّه تعالى وليٌّ ولا واقٍ، فهي متعلِّقة بـ ﴿وَلِيٍّ﴾ و﴿وَاقٍ﴾[1]، وفيه تحذير بِخطورة الميل إلى هوى الكافرين ومتابعتهم، ويُؤكِّد ذلك الاسم الأحسنُ ﴿ٱللَّهِ﴾ الّذي يدلُّ على جلال الألوهيَّة وهَيْبَتِها.

الولاية والوقاية، لا تكون إلّا من الله

بلاغة الالتفات في قوله: ﴿مِنَ ٱللَّـهِ﴾:

جاء الخطاب في قوله تعالى: ﴿مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ﴾ دالًّا على الغَيْبَةِ بالتّعبير بالاسم الظّاهر، فلم يقل: (ما لك منّا) بناءً على ما ذُكِرَ في صَدْرِ الآية ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ﴾، فأظهر الاسم الجليل بالعدول مِن التَّكلُّم إلى الغَيبة؛ تربيةً للمهابةِ وتعظيمًا للتّهديد[2]؛ لأنَّ التَّهديد بذِكر الاسم الجليل ﴿ٱللَّهِ﴾ أرهَبُ منهُ بذِكْرِ الضَّمير الرّاجِعِ إليهِ.

غرض ورود لفظ الجلالة، تربية المهابة وتعظيم شأن التَّهديد

سرُّ التَّعبير بـ ﴿مِن﴾، في ﴿مِن وَلِيٍّ﴾:

أدخل النّظم الكريم ﴿مِن﴾ – وهي صِلَةٌ – في قوله تعالى: ﴿مَا لَكَ

لا ناصر من أمر الله تعالى ولا عاصم

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/161.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/26.

﴿مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ﴾ للنَّصِّ على استغراق النّفي، فَدُخول حرف الجرّ على النّكرة في سياق النّفي يدلّ على النصِّ في الاستغراق؛ لأنَّ ﴿مِن﴾ لتأكيد النّفي، وللتّنصيص على العموم[1]، والمعنى: فلا يوجد ناصرٌ ما يتولّى نصرك أيُّ ناصر ممّا يصلح أن يُقال له ناصر بوجه من الوجوهِ، وفيه قطعٌ لأمل الكافرين والمنافقين من الشَّفاعة أو النُّصرة في الآخرة.

سرُّ تقديم لفظ (الولّي) على (الواقي):

التّدرّج بالنّفي من الأعمّ إلى الأخصّ، أدلّ على شمول النّفي

قدّم النّظمُ الكريم نفيَ الولاية على نفي الوقاية في قوله جلّ شأنه: ﴿مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ﴾؛ لأنّ الولاية أعمّ من الوقاية فقدّم الأعمّ، وأخّر الأخصّ[2]، لأنّه قد تكون الولاية بلا وقاية، فذكر الوصفيْن للتّنصيص على انتفائهما جميعًا، وقدّم الأعمّ للتّدرّج في النّفي.

سرُّ الجمع بين(الولّي) و(الواقي):

نفي النّصرة، لا يقتضي نفي الحماية

جَمَعَ النّظمُ الكريم نفيَ الولاية والوقاية في قوله جلّ شأنه: ﴿مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ﴾؛ لأنَّ نفي النّصرة لا يقتضي نفي الحماية، فالجمع بينهما لنفي الجميع؛ إذْ لا "يستلزم نفيُ النّاصرِ على العدو نفيَ الواقي من نكايته"[3]، فنفيُ الولاية الّتي تَقْتَضي النّصرة لا يدلُّ على نفي مَن يحميه ويقيه المهالك، فجمع بينهما للدّلالة على انقطاع كلِّ سبُلِ الحماية والوقاية دفعًا وطلبًا.

دلالة تَكرار النَّفي في الآية:

سُبل النّصرة والوقاية منتفية على وجه التّأكيد

تكرّر النّفي في قوله جلّ شأنه: ﴿مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ﴾، فلم يَرِدِ النَّظْمُ القرآني: (مِن وليٍّ وواقٍ)؛ للدّلالة على التّأكيد، كقولك: ما لي دينارٌ ولا درهمٌ، وتأكيدُ انتفاء النّصرة والوقاية إنّما

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/161.
(2) البقاعيّ، نَظْم الدّرر: 10/359.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/26.

هو لقطع أطماعِ الكفرة، وتهييجِ المؤمنين على الثّبات على ما هم عليه مِنَ الدّين[1].

التّشابه اللّفظيّ في الآية:

براعةُ البيانِ القرآني في التّصرُّف بالمفردات، بما يُناسب مَقاماتِها

تشابَهَ قوله تعالى في هذه الآية: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَٰهُ حُكۡمًا عَرَبِيّٗاۚ﴾ مع قوله تعالى في سورة الحجّ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَٰهُ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يُرِيدُ ١٦﴾ [الحج: 16]، فلِمَ خُصّت كلٌّ بما فيها بعد قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَٰهُ﴾؟ والجواب عن هذا أن يُقال: يُلاحظ أنّ الآية في سورة الرّعد مسبوقة بقوله جلّ شأنه: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَفۡرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَۖ وَمِنَ ٱلۡأَحۡزَابِ مَن يُنكِرُ بَعۡضَهُۥۚ قُلۡ إِنَّمَآ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشۡرِكَ بِهِۦٓۚ إِلَيۡهِ أَدۡعُواْ وَإِلَيۡهِ مَـَٔابِ﴾، فلمّا كان ذلك فصْلًا بين الرّسول ﷺ والمنكرين بما تدعو إليه الحكْمَةُ بلِسان العربِ؛ ناسبه قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَٰهُ حُكۡمًا عَرَبِيّٗاۚ﴾. أمّا الآية في سورة الحجّ؛ فهي مسبوقة بقوله جلّ شأنه: ﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ فَلۡيَمۡدُدۡ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لۡيَقۡطَعۡ فَلۡيَنظُرۡ هَلۡ يُذۡهِبَنَّ كَيۡدُهُۥ مَا يَغِيظُ ١٥﴾ [الحج: 15]، فلمّا كانت تلك آيةً بيّنةً دالّةً على الإعجاز في القرآن الكريم؛ ناسبَهُ قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَٰهُ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖ﴾ [الحج: 16].

سِرُّ اختلاف هذه الآية غيرها:

ذِكْرُ القضاء في السّياق، يناسبه كونه حكمًا، وذكر القصص يُناسبه كونه قرآنًا

جاء التّعبير في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَٰهُ حُكۡمًا عَرَبِيّٗاۚ﴾ بكون المنزل حكمًا، وقد جاء في موضع آخر قوله جلّ شأنه: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا﴾ [طه: 113]، والمُراد بالمُنْزَلِ في الموضعيْن واحدٌ وهو القرآن الكريم، فما وجه اختلاف التّعبير عن ذلك؟ والجواب عن هذا: أنّ "سورة الرّعد لم يتقدّم فيها شيء من القصص الإخباريّة، وإنّما المُتقدّم فيها تفاصيل أحكام مرجعها بجملتها إلى اختلاف

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/26.

أحوال المكلَّفين جريًا على ما سبق من قضائه فيهم، وتفصيل أحوالهم بحسب ما قدّره سبحانه في أزَلِه وما حَكَم به عليهم"[1].

أمّا الآية في سورة طه فقد تقدّم فيها ذِكر "قصص موسى عليه السلام، وما جرى من فتنة قومه بعدَهُ بفعل السّامريّ، وما كان من قول هارون عليه السلام وتذكيره إياهم، وقول بني إسرائيل: ﴿لَن نَّبۡرَحَ عَلَيۡهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرۡجِعَ إِلَيۡنَا مُوسَىٰ ٩١﴾ [طه: 91] إلى قوله: ﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ مَا قَدۡ سَبَقَۚ وَقَدۡ ءَاتَيۡنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكۡرٗا ٩٩﴾ [طه: 99]، والمُراد به: القرآن، ثمّ أتبع هذا بما يلائمه إلى قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا﴾ [طه: 113]؛ أيْ: قصصًا مقروءًا بلسانِ العرب. فناسب كلّ مِن العبارتينْ موضعَه أتمّ مناسبة"[2].

(1) الغرناطيّ، مِلاك التّأويل: 2/282.
(2) الغرناطيّ، مِلاك التّأويل: 2/283.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً ۚ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۗ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴿٣٨﴾﴾

[الرّعد: 38]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

بعد أن بيّن الله تعالى في الآية السّابقة الامتنان بنزول القرآن ذي الحكمة بلسانٍ عربيٍّ مُبين، وأنّه كافٍ في البيان، وحذّر من اتّباع أهوائهم؛ أتبعه في هذه الآية ببيان أنّ الرّسل على هذا السّبيل ساروا، فالآيَة "عَوْدٌ إلى الرّدّ على المشركين في إنكارهم آيةَ القرآن وتصميمهم على المطالبة بآيةٍ من مقترحاتهم تُماثِل ما يُؤثر من آيات موسى وآيات عيسى عليهما السلام ببيان أنّ الرّسولَ لا يأتي بآيات إلّا بإذن الله، وأنّ ذلك لا يكون على مقترحات الأقوام"[1].

بعد نزول القرآن، بيّن السّياق، أنّ نزول البراهين السّاطعة، كان بأمر الله تعالى وإذنه

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَزْوَاجًا﴾: الزّاي والواو والجيمُ تدورُ اشتقاقاتُها على مُقارَنَةِ شَيْءٍ لِشَيْءٍ، ومِن ذلكَ الزَّوْجُ: زَوْجُ المَرأةِ، والمَرأةُ زَوْجُ بَعْلِها، وهو الفَصيحُ. قالَ اللهُ جَلَّ ثَناؤُهُ: ﴿ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ﴾ [البقرة: 35][2]، فالزَّوْجُ: كُلُّ شَيْءٍ ثانٍ مَعَ شَيءٍ آخَرَ بَيْنَهُما تَقارُنٌ في حالٍ ما، وسُمّيتِ الأُنْثَى القَرينَةُ لِلرَّجُلِ بِنِكاحٍ: زَوْجًا؛ لِأَنَّها اقْتَرَنَتْ بِهِ وصَيَّرَتْهُ ثانيا، ويُسَمَّى الرَّجُلُ زَوْجًا لَها لِذَلِكَ بِلا فَرْقٍ، فَمِنْ ثَمَّ لا يُقالُ للمَرأةِ زَوْجَة بِهاءِ تَأْنيثٍ؛ لأَنَّهُ اسْم وليسَ بوصفٍ[3]، والمُراد بالزَّوج في الآية: اسمٌ لِذاتٍ مُنْضَمَّة إلى غيرها على وجه المُلازَمَةِ.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/161 - 162.

(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (زوج).

(3) الرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/428.

والمقصود بالأزواج هنا هوَ مِنْ مُقابَلَةِ الجَمْعِ بالجَمْعِ، فَقَدْ يَكونُ لبعضِ الرُّسُلِ زَوْجَةٌ واحِدَةٌ، وقد يَكونُ لآخرين عِدَّةُ زَوْجاتٍ[1].

2) ﴿وَذُرِّيَّةً﴾: مادَّة الذّالِ والرّاء تدُلُّ على لَطافَةٍ وانتشارٍ[2]، ومِنهُ: ذَرَرْتُ؛ وهو أخذُك الشَّيءَ بأطراف أصابعك تَذُرُّهُ ذَرَّ المِلْحِ المَسْحوقِ على الطَّعامِ[3]، والذُّرّيةُ: الخَلْقُ والنَّسْلُ، مَأْخوذَةٌ مِن الذَّرْءِ، تقول: ذَرَأ اللّه الخَلقَ؛ أيْ: خَلَقَهُم، وذُرّيَةُ الرَّجُلِ: ولَدُهُ[4]، وقيل: هو مأخوذٌ مِن الذَّرِّ، وهو: النَّشْرُ، فيُقال: ذَرَّ الشَّيءَ، يَذُرُّهُ؛ أيْ: نَشَرَهُ، أو مِنْ صِغارِ النَّمْلِ؛ لأنَّ اللّه أخْرَجَ الخَلْقَ مِن صُلْبِ آدَمَ كالذَّرِّ[5]، والجَمْعُ: الذَّراري والذُّرّياتُ، والمقصود بالذُّريَّة في الآيةِ: نَسْل الإنسانِ مِن ذُكورٍ وإناثٍ.

3) ﴿أَجَلٍ﴾: أصلُ الأجَلِ: غايَةُ الوقْتِ في مَحَلِّ الدَّيْنِ وغيرِه، وقَدْ صَرَّفَهُ الخَليلُ فقالَ: أجِلَ هذا الشَّيءُ وهو يأْجَلُ، والاسمُ الآجِلُ: نَقيضُ العاجِلِ، والأجيلُ المُرْجَأُ؛ أي: المُؤَخَّرُ إلى وقْتٍ، والآجِلَةُ: الآخِرَةُ[6]، يُقالُ: دَيْنُهُ مُؤَجَّلٌ، وقد أجَّلْتُهُ: جعلتُ لَه أجَلًا، ويُقالُ للمُدَّةِ المضروبة لحياة الإنسانِ أجَلٌ، فيُقال: دنا أجلُه، عِبارة عن دُنوِّ الموت[7]، وقَولُهُم: (أجَلْ) في الجوابِ، هو مِنْ هذا البابِ، كأنَّهُ يُريدُ انتهَى وبَلَغَ الغايَةَ[8]، والمقصود بالأجل في الآيَةِ: الوَقْتُ المَوَقَّتُ بِهِ عَمَلٌ مَعْزومٌ أو مَوْعودٌ، والمعنَى: لكُلِّ واقِعٍ أجَلٌ يَقَعُ عندهُ، ولكُلِّ أجَلٍ كِتابٌ؛ أيْ: تَعْيينٌ وتَحديدٌ لا يَتَقَدَّمُهُ ولا يَتأخَّرُ عنه[9].

المَعْنى الإجْماليّ:

في هذه الآية يرُدُّ اللّه تعالى على مَن كان يُنكِرُ على رسولِ اللّه ﷺ تزَوُّجَه بالنِّساءِ قائلًا: ولَقد بَعَثْنا إلى الأمَمِ الماضيةِ رُسُلًا مِن قَبلِك، فكانوا بشَرًا مِثلَهم، وجَعَلْنا لهم أزواجًا يَنكِحونَهنَّ، ورَزَقْناهم أولادًا، فلستَ أوَّلَ رَسولٍ بشَريٍّ أُرسِلَ إلى النّاسِ، حتّى

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/163.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ذرَّ).
(3) الخليل، العين، وابن منظور، لسان العرب: (ذرر).
(4) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (ذرَّ).
(5) الخليل، العين، والجوهريّ، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (ذرَّ - ذرر).
(6) الخليل، العين، وابن عبّاد، المحيط في اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (أجل).
(7) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحُفّاظ: (أجل).
(8) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (أجل).
(9) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/164.

يستغربَ قَومُك إرسالَك إليهم، ولا يَقدِرُ أيُّ رَسولٍ أرسَلَه الله تعالى إلى قوم أن يأتيَ قَومَه ببيِّنَةٍ وآيةٍ تدُلُّ على صِدقِه، إلّا بأمرِ الله؛ فهو الّذي يأتي بالبيِّنات والآياتِ ويُؤيِّدُ بها رسولَه متى شاء، لكلِّ أجلٍ قدَّره الله، ولكلِّ أمرٍ قضاه، كتابٌ أُثبِت فيه، ووقت معلومٌ يقعُ فيه، لا يتقدَّمُ عليه ولا يتأخَّرُ، فلا تكونُ آيةٌ إلّا بأجلٍ قد قضاه الله تعالى في كتابٍ[1].

الأنبياء والرُّسل تجري عليهم أحكامُ البَشَرية، رغم أنّهم مخصوصون بالوحي

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيّ:

دلالة الواو في قوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا﴾:

الواو في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً﴾ عاطفة؛ فقد عَطفت هذه الجملةَ على قولِه جلّ شأنه: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا﴾[2]، لبيان سُنّة الله تعالى في إرسال الرّسل، ومنهج إنزال الآيات، وأنّه ليس على وفق مُقترحاتِ المشركين والكافرين فيما يقترحونَ.

سُنّة الله تعالى في الإرسال، تَقضي بنزول الآيات على حِكْمَتِه

ويجوز أن تَكونَ الواوُ اسْتِئْنافيَّة، وتكون الآيةُ مِن باب تقريرِ حقيقَةٍ ربّانيَّةٍ: أنَّ الرُّسُلَ السّابقين لهم أزواجٌ وذريَّة، ولَسْتَ بِدْعًا مِن ذلك أيُّها الرَّسولُ الكريمُ.

دلالة اللّام في ﴿وَلَقَدْ﴾:

أدخَلَ النّظم الكريم اللّامَ الموطّئة للقسَمِ على (قد) في قوله جلّ شأنه: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ﴾ للدّلالة على القَسَم المحذوف[3]؛ تأكيدًا لمضمون الجملة، وتقويةً للمعنى؛ إذ إنَّ الإرسال معلوم وليس موضِعَ إنكارٍ.

إرسال الرّسل، أمرٌ قدّره الله أزلًا

(1) ابن جرير، جامع البيان: 13/558، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/468، والسّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 419.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/161 - 162.

(3) محمود صافي، الجدول في إعراب القرآن: 7/144.

ولأنَّ الآية ردٌّ على المشركين في إنكارِهم آيةَ القرآن وتصميمِهم على المطالبة بآيةٍ من مقترحاتهم تُماثل ما يُؤْثَرُ مِن آيات موسى وآيات عيسى عليهما السلام، فكان التَّأكيدُ على أنَّ الرَّسولَ ﷺ لا يأتي بآياتٍ إلّا بإذن الله؛ لأنَّ أمرها لا يكون وفق مقترحات الأقوامِ.

دلالة دخول (قد) على ﴿أَرْسَلْنَا﴾:

الأزواج والذُّرّية، لا تعارِضُ شأنَ الرِّسالةِ

أدخل النّظم الكريم (قد) على الفعل الماضي في قوله تبارك اسمه: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ﴾ للدّلالة على تحقيق الإرسال وتأكيد كونه واقعًا، وللرّدّ على مَن أنكر أن يكون للرّسول ﷺ أولادٌ وذرّيةٌ، أو أن يمشي في الأسواق، فأكّد أنّ هذا لا يخالف شأن الرّسل قبلَهُ.

سِرُّ التَّعبير بالفعل ﴿أَرْسَلْنَا﴾:

الإرسال أخصُّ من البعث، ولا يوصف بالرّسول إلّا من حمل رسالة للبلاغ

آثَر النَّظمُ الكريم التّعبيرَ بالإرسال دون البعثِ في قوله جلّ شأنه: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ﴾؛ لأنَّ الإرسالَ أخصُّ في الدّلالة من البعث؛ لأنَّهُ يتضمّن الدّلالة على كونه يحمِلُ رسالةً، أمّا البعث فلا يقتضي كونه مبعوثًا برسالة، فهذا اللّفظ أبلغ في الرّدّ على إنكارهم أن يكون للرّسول أولادٌ وذرّيّة، لأنّه تصريح بأنَّ إرسال البشر معهودٌ بين الأمم، وهذا يدلّ على أنّ الإرسال ليس مِن شروطِهِ أن يكون المُرْسَلُ من جنسِ الملائكة كما يتوهَّمُهُ المشركون. وممّا يُذكر في سِرِّ التَّعبير بالإرسالِ: أنَّ البعثَ يَحْمِلُ معنى الإثارة والتَّهيئة للنّاس مِن الواقع الّذي يعيشون فيهِ لاستقبال المبعوث من الأنبياء والرُّسل، وأنَّه ليسَ بِدْعًا منهم، فطبيعتُه لا تخالف طبيعتَهم، أمّا الإرسال فيدُلُّ على الانبعاث على تُؤَدَةٍ؛ أخْذًا من قولك: (عَلى رِسْلِكَ)، وعلى هذا فَتَعْبيرُ القرآن بـ: ﴿أَرْسَلْنَا رُسُلًا﴾ يحمل معنًى مفادُه أنَّ أمْرَ الرَّسولِ صادرٌ من الله سُبحانَهُ؛ فهو أمرٌ ربّاني لا دخْل له فيما أُرْسِلَ به من الآيات[1].

(1) عبد الجبار فتحي، الفروق اللّغويّة في القرآن الكريم، ص: 287.

دلالة التّعبير بالماضي ﴿أَرۡسَلۡنَا﴾:

الماضي أدلّ على وقوع الحدث، وتأكيد إنجازه

عبّر عن الإرسال بالفعل الماضي في قوله جلّ شأنه: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلٗا﴾ للدّلالة على حدوث الإرسال وتحقّقه، وأنّه قد وقَعَ في الواقع، فهو أمر مؤكّد، وتأكيده متعضّد باللّام و(قد)، كلّ ذلك لتأكيد مضمون الجملة؛ ردًّا على إنكار المشركين. وفيه إشارةٌ إلى أنَّ أمر الرِّسالة اجتباء واصطفاءٌ قدَّره الله سُبحانَهُ لِمَن اصطفاهُ، وليس مبنيًّا على الكَسْبِ والاجتهاد، قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ﴾ [الحجّ: 75].

دلالة نون العظمة في ﴿أَرۡسَلۡنَا﴾ و﴿وَجَعَلۡنَا﴾:

تعظيم الإرسال والجَعْل، يشير إلى عظيم الإنعام، وجليل الإحسان

أسنَد النّظمُ الكريم الإرسالَ إلى نون العظمة في قوله جلّ شأنه: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلٗا مِّن قَبۡلِكَ وَجَعَلۡنَا لَهُمۡ أَزۡوَٰجٗا وَذُرِّيَّةٗۚ﴾؛ أيْ: كان ذلك الإرسال بِما لنا من العَظَمة[1]، وتعظيم الإرسال لكونه إنّما صدَرَ من الله العظيم ﷻ، فهو إرسالٌ بالغُ العَظَمةِ، وفي ذلك تنويهٌ بعِظَمِ الإنعام بهذا الإرسال.

وفي التّعبير بالفعلِ ﴿وَجَعَلۡنَا﴾ مُسندًا إلى نون العَظَمة تفخيمٌ لشأن الجَعْل، وللإشارةِ إلى أنّ اختيارَ رسُلٍ من البشر يكون لهم أزواجٌ وذرّيةٌ إنما هو من فعل الله تعالى بأن يكون الرّسل من جنس المُرسَل إليهم؛ أيْ: "ولم نجعلهم ملائكة، بل جعلناهم بشرًا"[2]، وهذا فيه من الإنعام ما لا يخفى، فعظّم هذا الجَعْل لِما فيه من دقيق اللّطف وجميل الإحسان بكون المرسلين من جنس الإنسان، وفيه توبيخٌ وتحقير للمشركين في تطاولهم على رسولنا ﷺ.

سِرُّ التَّعبير بقوله: ﴿رُسُلٗا﴾:

مراعاة التّناسُبِ في الآية الكريمة، مِن البلاغةِ الأثيرة في السّياق

آثر النّظمُ الجليل التّعبيرَ بلفظ الرّسل دون الأنبياء في قوله تبارك

(1) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 10/359.
(2) البقاعي، نَظْم الدّرر: 10/359.

اسمه: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ﴾؛ لأنّ السّياق يتكلّم عن الرّسالة والإرسال، وقد ذُكِرَ الإرسالُ في صدر الجملة، فكان التّعبير بالرّسول هو الأنسبَ لسياق الآية. وفيه دلالة على علوِّ مكانة الرُّسُلِ عليهم أفضل الصَّلاة والتَّسليم؛ لأنَّ كُلَّ رسولٍ نبيٌّ، وليسَ كلُّ نبيٍّ رسولًا.

دلالة التَّنكير في قوله تعالى: ﴿رُسُلًا﴾:

كثرة المرسلين، دليل على العناية الرَّبّانيَّة، بإصلاح مجتمع المؤمنين

جاء التّعبير عن الرّسل بصيغة التّنكير في قوله جلّ شأنه: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا﴾ للدّلالة على كثرتهم[1]، وهذه الكثرة مناسبة لموضوع الآية وسياقها، فهي مَسوقةٌ لبيان أنّ الإرسال حصل بجنس البشر، فبيان أنّ أولئك الرّسل كثيرون يدلّ على أنّ الإرسال بتلك الصِّفَةِ أمرٌ معهود، فما وجه استغراب المشركين بأن يكون الرّسول ماشيًا في الأسواق أو له زوجة وأولاد؟!

وفيه دلالةٌ على علوِّ مكانة الرُّسُل، وأنَّ الزَّواج والإنجابَ لا يُقَلِّل من هذه المكانَةِ كَما يزعُم المشركون.

دلالة ﴿مِّن﴾ في قوله: ﴿مِّن قَبْلِكَ﴾:

زمَنُ الإرسالِ للرُّسُلِ، جزءٌ من الزَّمن العامّ

أدخل النّظم الكريمُ حرفَ الجرّ (من) على الظّرف في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ﴾؛ لأنّ زمن الإرسال لم يستغرق كلّ الزّمان الّذي كان قبل النّبيّ ﷺ؛ أيْ: "لمّا كانت أزمان الرّسل غير عامّة لزمان القَبْل؛ أدخل الجارّ فقال: ﴿مِّن قَبْلِكَ﴾"[2].

دلالة كاف الخطاب في قوله: ﴿مِّن قَبْلِكَ﴾:

تسلية النّبيّ الخاتم، بكون الأذى والإنكار عانى منهما كلّ الرّسل قبله

دلّ التَّعبير بكاف الخطاب في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً﴾ على أنّ المقصود بهذا الخطاب هو النّبيّ ﷺ؛ لأنَّ الإنكار إنّما وُجّه إليه، فكان الرّدّ بالإضافة إلى

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/26.
(2) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 10/359.

النّبيّ ﷺ، كما أنَّ فيه لطفًا به وطمأنة لقلبه إزاءَ ما يأتي به المُبطلون مِن شُبَه واقْتراحاتٍ.

دلالة التَّعبير بالواو في ﴿وَجَعَلْنَا﴾:

بيان مضمون الجملة، للرّدّ على إنكار المشركين

الواو في قوله جلّ شأنه: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً﴾ عاطفةٌ؛ لأنَّها عطفت هذه الجملة على قوله تعالى: ﴿أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ﴾[1]؛ لاشتراكهما بالتّأكيد المُعبّر عنه باللّام الموطّئة للقَسَم وأيضًا بـ (قد)، فكما أكّد النّظم أنّ الإرسال قد تحقّق في الأزمنة الماضية، فكذلك قد تحقّق كون المرسلين لهم أزواج وذرّيّة، وفي ذلك مزيد من التَّأكيد لردِّ إنكار المشركين.

سرُّ التَّعبير بالجَعْل ﴿وَجَعَلْنَا﴾:

الذّرّيّة والأزواج فيض رحمة من الله تعالى، لِمَن شاء من عباده

عبّر النّظم الكريم بالفعل (جعل) في قوله جلّ شأنه: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً﴾ الّذي يدلّ على الخَلْق والإحْداثِ، كقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ [الأنعام: 1] فيتعدّى لمفعول به واحد[2]، وذلك للدّلالة على إمكان أن يكون الرّسل بلا أزواج ولا ذرّيّة، ولكن الّذي قضى بأن يكون لهم ذلك هو اللّه تعالى؛ ليكون الرّسول من بني قومه وعلى وفق سَنَنِهِم ونظام عيشهم، فيكون أقرب إلى نفوسهم، بحيث يعقلون عنهُ ويقتدون به.

دلالة التَّعبير بالماضي ﴿وَجَعَلْنَا﴾:

الفعل الماضي دليل التّحقّق

عبّر النّظم عَنِ الجعلِ في قوله جلّ شأنه: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً﴾ بالفعل الماضي للدّلالة على حدوث ذلك الجَعْل، وأنّه مُحقَّق في الواقع، وذلك يدلّ على تأكيده، وفيه دلالة على أنَّ قدَرَ اللّه تَعالى لا يردُّه إنكارُ المشركين.

(1) محمود صافي، الجدول في إعراب القرآن: 7/144.
(2) السّمين الحلبيّ، عمدة الحُفّاظ: (جعل).

سِرُّ تقديم الجارِّ والمجرور ﴿لَهُمْ﴾:

الاهتمام بشأن الأنبياء، وذِكْر الأزواج تبع لهم

قدّم النّظم الكريم الجارَّ والمجرور ﴿لَهُمْ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً﴾ على خلاف الأصل، فلم يَقُل: (وجعلنا أزواجًا لهم)؛ اهتمامًا بشأنهم بتقديم ذِكْرِهِم على الأزواج؛ إذِ السّياق في الحديث عنهم، كما أنَّ تأخير الأزواج تشويقٌ للمَجْعولِ لهم، وليس المُرادُ تخصيصَ الأزواج بهم؛ لأنّ الأزواج والذُّرّيّة لا تختصّ بالرّسل عليهم السلام وحْدَهُم.

سرُّ التَّعبير بقوله تعالى: ﴿أَزْوَاجًا﴾:

الأزواج أخصّ من النّساء، والنّساء عامّ للجنس بلا استثناء، للزّوجات وغيرهنّ

آثر النّظم الكريم التّعبير بالأزواج دون النّساء في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً﴾، وذلك للتّصريح بكونهنَّ زوجاتهم؛ إذِ التّعبير بالنّساء يحتمل الزّوجيّةَ وغيرَها، فليس نصًّا في كونهنَّ زوجاتهم، فلمّا كان السّياق في بيان بشريّة الرّسُل؛ كان التّعبير بالأزواج أدلّ على البشريّة من النّساء، وذلك لِما يحمله هذا الوصف من الاقتران بين الذَّكر والأنثى في أمرِ المعاشرة الزَّوجيَّة الّتي تؤكِّد بشريَّة الرُّسلِ عليهم السلام.

سِرُّ اختيار ﴿أَزْوَاجًا﴾:

بيان صفة البشريّة، بمُطلق الزَّوجيَّة، لا بعدد الزّوجات

آثر النّظم الكريم، التّعبيرَ بالأزواج دون الزّوجات، في قوله جلّ شأنه: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً﴾؛ لأنّه قد سبق ذِكْرُ الرّسل بالجمع، فجمع الأزواج يُقابل جمع الرّسل، فاللّفظ لا يتعرّض لكون بعض الرّسل له زوجات كثيرة؛ إذ لمّا "كان المقصودُ من الرّدّ هو عدمَ منافاة اتّخاذ الزّوجة لصفة الرّسالة؛ لم يكن داعٍ إلى ذِكْر تَعداد الزَّوجات في هذا المقام"[1]، ولأنَّ النَّظم القرآني جاء على التَّعبير الأفصح، حيث ذَكر في كُلِّ القرآن صيغةَ الجمع (أزواج) ولم يذكر (زوجات).

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/163.

سِرُّ التَّعبير بالواو: ﴿وَذُرِّيَّةً﴾:

الجمع بين الذّرّيّة والأزواج، كلاهما نعمة، والتّرتيب والتّعقيب بينهما لا يخفى

جمع النّظم الكريمُ بين الذُّرّيّة والأزواجِ في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً﴾ عاطفًا بينهما بالواو الدّالّة على مُطلَق الجمع؛ إذ لا يُراد ترتيبٌ ولا تعقيب؛ لأنَّ الغرض الإخبار بأنّ الله جعل لهم الأزواج والذُّرّيّة لبيان ذلك الإنعام، وأنّ شأن الأزواج والذُّرّيّة مع الرُّسُل شأن معهود، كما أنّ التّرتيب والتّعقيب بين الأزواج والذُّرّيّة لا يُجْهَلُ، فهو معروف بداهةً، فلا فائدة من بيان ذلك بالفاء و(ثمّ).

سِرُّ التَّعبير بالذُّرِّيَّة في الآية:

حفظ نسل الأنبياء واستمراره، من نعمة الله عليهم

آثر النّظم الكريم التّعبير بالذّرّيّة في قوله تبارك اسمه: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً﴾ دون الأبناء؛ لأنّ الذّرّيّة تشمل كلّ مَن جاء في عقِبِه؛ إذ هي "الجماعة المُتفرّقة بالولادة عن أبٍ واحد في الجملة"[1]، فهو إخبار صريح بدوام ذرّيتهم، وبقاءِ نَسْلِهم، ولو قال: (وجعلنا لهم أبناءً أو أولادًا)؛ لاحْتَمَلَ أن يُراد به أولادهم المباشرون فحسبُ دونَ مَن خلَفَهم.

دلالة الواو في قوله: ﴿وَمَا كَانَ﴾:

نفي الإتيان بآية، تبيينٌ لِوظيفةِ الأنبياء، وإمكان قدرتهم

الواو في قوله جلّ شأنه: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ عاطفة لهذه الجملة على قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ﴾[2]؛ حيث عطفت انتفاءَ قدرةِ الإتيان بآية على الإرسالِ تقييدًا وبيانًا لحدودِ قُدرة الأنبياء بكونها لا تخرج عن قدرات البشَرِ، فإرْسالُهم لا ينفي بَشَريتهم.

بلاغة التَّعبير بـ ﴿وَمَا كَانَ﴾:

نفي فعل الكون، أدلّ على النّفي من الأصل نفيًا قاطعًا

جاء تركيب النّفي في قوله جلّ شأنه: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ﴾ بنفي فعل الكون (ما كان)؛ "أي: ما صحّ، وما استقام، ولم

(1) البقاعيّ، نَظْم الدّرر: 10/360.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/163.

يكن في وسعه"[1]، وهذا التّركيب دالٌّ على النّفي البليغ القاطع؛ لأنّ النّفي تسلّط على فعل الكون للدّلالة على نفي ما في حيّز جملة الكون نفيًا من الأصل، فهو نفيُ الوجود؛ أيْ: لا يوجد في الأصل مثل هذه الحالِ، وهي الإتيان بالآية، فالنّفي دالٌّ على المبالغة.

سرّ تنكير الرّسول في قوله: ﴿لِرَسُولٍ﴾:

جاء لفظ الرّسول بصيغة التّنكير، في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ﴾ للدّلالة على العموم؛ أيْ: ما كان لأيِّ رسولٍ كان[2]؛ لأنَّ النَّكرةَ في سياق النَّفْيِ تُفيد العمومَ، فانتفاء القدرة على المجيء بآية ليس خاصًّا برسولٍ دونَ آخرَ؛ لذلكَ جاءَ التّنكير ليُبيّن أنّ تلكَ حقيقةٌ راسخة عامّة في كلِّ أحدٍ.

إفادة النَّكرةِ العمومَ، في سياق النَّفْي، مفيد في الإبانة عن المعنى

سِرُّ التَّعبير بالإتيان ﴿أَن يَأْتِيَ﴾:

في قوله تبارك اسمه: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ﴾، عبّر النّظمُ الكريم بالإتيانِ دون غيره؛ لأنّ الإتيانَ يدلّ على المجيء بسهولة[3]، ولمّا كان السّياق في نفي قدرة الرُّسل على الإتيان بآية؛ عبّر بالفعل الدّالِّ على ذلك، ويلزم من نفي السَّهْلِ من الآيات نفي العظيم منها، فينتفي ذلكَ بطريقِ الأولويَّةِ الأخْرَوية.

نفي اليسير من الآيات، دليلٌ على نفي العظيم مِنْها، بطريق الأولويَّةِ

دلالة التَّعبير بالمصدر المؤول ﴿أَن يَأْتِيَ﴾:

آثرَ النّظمُ الكريمُ التّعبيرَ بالمصدر المُؤوّل ﴿أَن يَأْتِيَ﴾ دون المصدرِ الصَّريحِ (الإتيان) في قوله جلّ شأنه: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ﴾؛ لِما في المُؤوّل من دلالة على الزّمن، ولمّا جاء في سياق نفي القُدرة على الإتيان بآية؛ دلَّ على أنّ النَّفْيَ دائمٌ مستمرٌّ؛ أيْ: إنّ المجيء بآية ليس من شأن المرسلين، وأنّ ذلك لا يتغيَّر بمرّ الزّمن، بخلاف المَصْدَرِ الصَّريح؛ فإنَّه لا يُلْمَحُ فيه الدِّلالة على الزَّمن.

انتفاء قدرة الرُّسُل على الإتيان بآيةٍ، مُتجدّدٌ في كلّ الأزمان

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/27.
(2) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 10/360.
(3) الرّاغب، المفردات: (أتى).

سِرُّ التَّعبير بلفظ ﴿بِـَٔايَةٍ﴾:

الآيـة دليـلٌ على الصّدق، والتّعبير بها تعبير بالغايَةِ المُرادة

عبّر النّظم الجليل بـ ﴿بِـَٔايَةٍ﴾ دون المعجزة في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأۡتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ﴾، وإن كان المُراد بالآية المعجزة؛ لأنّ المُراد منها أن تكون دليلًا على الصّدق، فالتّعبير عن ذلك بالآية تعبير بالغايَةِ المُرادة وهي أنّها علامة وعنوان على الصّدق، أمّا لفظ المعجزة فلا يقتضي أن يكون دليلًا.

على أنَّ لفظ المعجزةِ لم يَرِدْ في الكتاب ولا في السُّنَّةِ، وإنَّما الوارِدُ فيهما ألفاظ: الآيةُ، والبيِّنَةُ، والسُّلْطانُ، والبرهان. وإنّما لفظُ المعجزةِ مِن اصطلاحاتِ أهلِ الاعتزالِ بعد القرونِ المفضَّلة لهذه الأمَّةِ[1].

دلالة التَّنكير في لفظ ﴿بِـَٔايَةٍ﴾:

الدّلالة على نفْيِ عموم الإتيان بالآيات، من فصيح البيان

آثرَ النّظمُ الكريمُ تنكيرَ لفظ ﴿بِـَٔايَةٍ﴾ في قوله جلّ شأنه: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأۡتِيَ بِـَٔايَةٍ﴾ للدّلالة على نَفْيِ عموم الإتيان بالآيات وشمولها كلَّ ما يمكن أن يُقال له إنّه آية؛ أيْ: "يأتي بآية مقترحة، أو آية ناسخة لحُكم من أحكام شريعته أو شريعة مَنْ قبلَه، أو غير ذلك"[2]، لذا جاء التّنكير للتّنويع والتّقليل في الشّأن، فساق النّظمُ هذا البيانَ بأسلوب يَقْطَعُ بانتفاء مَقدِرَةِ الأنبياء على الإتيان بآيةٍ ما من تلقاء أنفسهم.

دلالة التَّعبير بالاستثناء بالأداة ﴿إِلَّا﴾:

نفي القدرة على الإتيان بالآيات، ليس على إطلاقه

دلّ التَّعبير بأداة الاستثناء ﴿إِلَّا﴾ في قوله تبارك اسمه: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأۡتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ﴾ على أنَّ المجيء بآيةٍ ليس مُنْتَفيا على العموم، ولكنّ النّفْيَ متسلّط على قدرة الرّسولِ على المجيء بآية من تلقاء نفسِه، فجاءت ﴿إِلَّا﴾ للدّلالة على أنّ النّفي ليس مُطلقًا، فإذْنُ اللّه تعالى يُتيح الإتيانَ بالآية.

(1) ابن تيميّة، النّبوات: 1/215، والجواب الصّحيح لمن بدل دين المسيح: 5/412.
(2) البقاعيّ، نَظْم الدّرر: 10/360.

سِرُّ التَّعبير بـ ﴿بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ﴾:

الإذن إعلامٌ، والإعلام يدلُّ ضمنًا على أمرِ الله تعالى ومشيئته

آثر النّظمُ الكريمُ التّعبيرَ بلفظ الإذن في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأۡتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ﴾ دون غيره؛ لِما فيه من معنى الإعلام، فهو إعلام للرّسول ﷺ بأن سَتَكون آية[1]، ويدلُّ ضِمْنًا على أنَّ الآية لا تَكونُ إلّا بأمْرِ الله تعالى ومشيئته؛ لأنّ الرّسولَ إذا كان يتلقّى الإعلام بحدوث آيةٍ؛ فإنَّ ذلك يدلُّ على أنّ شأن الآيات ليس من نفسِه، بل هي بإذن الله تعالى وأمره ومشيئته.

سِرُّ الإضافةِ في قوله: ﴿بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ﴾:

لا يقع شيء في الوجود، إلّا بإذن الله ربّ كلّ موجود

أضاف النّظْمُ الكريمُ الإذنَ إلى الاسم الأحسَنِ ﴿ٱللَّهِۗ﴾ في قوله جلّ شأنه: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأۡتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ﴾، ولم يَقُلْ: (بإذن ربِّه)؛ للدّلالة على أنّ الإذن إنّما يكون من الله تعالى بما لَهُ من صفات العلم والإحاطة، فقوله: ﴿إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ﴾ يعني "المحيط بكلّ شيء علمًا وقُدرةً، فإنَّ الأمور عنده ليست على غيرِ نظام ولا مُفرِّطًا فيها، ولا ضائعًا شيءٌ منها"[2].

ويدلُّ أيْضًا على عَظمَةِ هذا الإذن؛ لأنَّهُ يدُلُّ على مُطلق قدرته سبحانه مع خلقه، فَمَتى شاء اختبارَهم اخْتَبَرَهم وفْقَ حِكْمَته، ومتى شاء إنزالَ الآياتِ أنزلها؛ فَلا مُعارِضَ لِحُكْمِه.

بلاغة الالتفاتِ في قوله: ﴿إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ﴾:

ذكر لفظ الجلالة، دليل على الفخامة وتربية المهابةِ

التفَتَ النّظمُ الكريمُ من التّكلُّم إلى الغَيبة في قوله جلّ شأنه: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأۡتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ﴾، ولم يَقُلْ: (إلّا بإذننا) تبعًا لِما قال في صدر الآية: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا﴾، فأظهر الاسم الأحسن (الله) ليبْني الحُكْمَ عليهِ، وفي ذلك "من الدِّلالة

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/163.
(2) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 10/360.

على الفخامَةِ وتربية المهابة وتحقيق مضمون الخبر بالإشارة إلى العلَّةِ ما لا يَخْفى"[1].

بلاغةُ التَّعْبير بلفظ ﴿لِكُلِّ﴾:

عمومُ الآجال، يَشْمَلُ كُلَّ التَّصرُّفات

عبّر النّظمُ الكريم بـ (كُلِّ) المفيدةِ للعُموم والشّمول، في قوله تعالى: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾؛ للدّلالة على عموم الآجال الّتي منها الأجلُ المتعلّق بالمجيء بآية، وفي هذا ردٌّ على المشركين بما ظنّوه من أنّ شأن الآية يَجِبُ أن يكون حاضرًا وقْتَ طلَبِهم، وغفلوا عن كَوْنِ الآجال مقدرّةً بعلم الله تعالى؛ فليست هناك آية مقترحة بنازلةٍ قبل أوانها، ولا عذابٌ استعجلوه بنازلٍ قبل أوانهِ.

سِرُّ التَّعبير بلفظ ﴿أَجَلٍ﴾:

الأجل مدّة وجود الشّيء، لا مُطلق الزّمن

آثر النّظم الكريمُ التّعبيرَ بلفظ الأجل دون غيرهِ في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾؛ لأنّه دالٌّ على زمان محدّد، فهو ليس مطلقَ الوقتِ والزّمن، بل يُطْلَقُ على المدّةِ المضروبة للشّيء[2]؛ أيْ: مدّة زمنية مُحدّدة، "والمُراد بالأجل هنا: أزمنة الموجوداتِ، فلكلّ موجودٍ زمانٌ يوجد فيه محدودٌ، لا يُزاد عليه، ولا يُنقص"[3]، فهو مدّةُ وجودِ الشّيءِ المحدّدة الّتي لا تتغيّر، وهو الأنسب في الآية؛ إذْ إنّها في سياق الحديثِ عن المجيء بالآيات وإنزال العذاب، فبيّن أنَّ كُلَّ فِعْلٍ من ذلك له أجلٌ محدّد، وزمان مضروبٌ.

سرُّ التّعبير بالنّكرة ﴿أَجَلٍ﴾:

طولُ الأجَلِ وقِصَرُه، مُقدّرٌ بعلم الله تَعالى الّذي قدّره

في قوله تعالى: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ جاء لفظ (الأجل) بصيغة التّنكير؛ وذلك للدّلالة على العموم والشّمول، فهو يشمل أزمنة كُلِّ الموجودات، فكلّ موجود له زمان محدّد لا يتغيّر زيادةً ونقصانًا[4]،

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/28.
(2) الرّاغب، المفردات: (أجل).
(3) القنّوجيّ، فتح البيان: 7/69.
(4) القنّوجيّ، فتح البيان: 7/69.

ويشمَلُ كذلك أيَّ أجلٍ كان قصيرًا أو مديدًا، فكلُّ تلك الآجال مكتوبةٌ مُقدَّرَةٌ.

سِرُّ التَّعبير بلفظ ﴿كِتَابٌ﴾:

الكتابةُ دليلُ ضبطٍ للمكتوب، وحفظٍ له من عوارض التّغيير

عبّر النّظمُ الكريمُ بلفظ ﴿كِتَابٌ﴾ في قوله تبارك اسمه: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾، والمُراد به: الكِنايَةُ عنِ التّحديد والضّبط؛ لأنّ الكتابة دليلُ أهميّة المكتوب، فالأشياء الّتي يُراد تحقّقها تُكْتَبُ لئلّا يُخالف عليها، والمُراد من ذلك التّعريضُ بالوعيد، والمعنى: لكلِّ واقعٍ أجلٌ يقَعُ عندَه؛ أيْ: كلّ شيء له تعيينٌ وتحديد، لا يقع فيه تقديم ولا تأخير[1]، فقد "أُثْبِت فيه أنّ أمرَ كذا يكون في وقت كذا مِنَ الثّواب والعقاب والأحكام والإتيان بالآيات وغيرها؛ إثباتًا ونَسْخًا على ما تقتضيه الحكمةُ، والحكمَةُ اقتضت أنّ النّبوَّة يَكْفي في إثباتها معجزةٌ واحدة"[2].

سِرُّ الختام بـ ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾:

تذييلٌ يبطل توهّم انتفاء الصّدق، تبعًا لتأخّر الآيات

خَتَمَ النّظمُ الكريمُ الآيةَ بقوله تعالى: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾؛ لإفادة العموم في الآجال، ومن تلك الآجالِ: الإتيانُ بآية: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ﴾، وأفاد هذا التّذييلُ إبطالَ أوهامِهم بأنَّ تأخُّر الوعيدِ يقتضي انتفاءَ صِدْقِه، ولذا قد "ناسب أن يُذْكَرَ هنا أنّ تأخير ذلك لا يدلّ على عدَم حُصولِه؛ فإنَّ لذلك آجالًا أرادها اللّه، واقتضتها حكمتُه، وهو أعلمُ بخلقه وشؤونهم، ولكنّ الجهلةَ يقيسونَ تصرُّفات اللّه بمثل ما تجري به تصرّفات الخلائق"[3].

المُتشابِه اللّفظيّ في الآية:

الكافرون في (الرّعد) يستعجلون العذاب؛ وفي (غافر) تبشيرٌ بخسارة الكافرين

تشابَهَ في هذه الآية قولُه تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ مع قوله جلّ شأنه في سورة غافر: ﴿وَلَقَدْ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/164.
(2) البقاعيّ، نَظْم الدّرر: 10/360.
(3) ابن عاشور: التّحرير والتّنوير: 13/164.

أَرۡسَلۡنَا رُسُلٗا مِّن قَبۡلِكَ مِنۡهُم مَّن قَصَصۡنَا عَلَيۡكَ وَمِنۡهُم مَّن لَّمۡ نَقۡصُصۡ عَلَيۡكَۗ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأۡتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ فَإِذَا جَآءَ أَمۡرُ ٱللَّهِ قُضِيَ بِٱلۡحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ ٧٨﴾ [غافر: 78]. فلِمَ خُصّت كلّ آية بما فيها بعد قوله: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأۡتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ﴾؟ والجواب عن ذلك أن يُقال: يُلاحظ أنّ الآية في سورة الرّعد مسبوقة بقوله جلّ شأنه: ﴿وَلَقَدِ ٱسۡتُهۡزِئَ بِرُسُلٖ مِّن قَبۡلِكَ فَأَمۡلَيۡتُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ثُمَّ أَخَذۡتُهُمۡۖ فَكَيۡفَ كَانَ عِقَابِ ٣٢﴾ [الرّعد: 32]، وبقوله عزّ ذِكره: ﴿لَّهُمۡ عَذَابٞ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَشَقُّۖ وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٖ ٣٤﴾ [الرّعد: 34]، فلمّا كان إملاءُ الله تعالى الّذين كفروا يَجْعَلُهم يستعجلون ما توعّدهم به الرّسولُ ﷺ من العذاب؛ ناسَبَهُ قوله: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأۡتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ لِكُلِّ أَجَلٖ كِتَابٞ﴾، أمّا الآية في سورة غافر؛ فقد تقدَّمها قوله تعالى: ﴿فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۚ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعۡضَ ٱلَّذِي نَعِدُهُمۡ أَوۡ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيۡنَا يُرۡجَعُونَ ٧٧﴾ [غافر: 77]، فلمّا كان السّياقُ أكثرَ تعلّقًا بالتَّسْريةِ عنِ الرّسول ﷺ ناسبه تبشيرُه بمجيء أمر الله وخسارة الكافرين بقوله: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلٗا مِّن قَبۡلِكَ مِنۡهُم مَّن قَصَصۡنَا عَلَيۡكَ وَمِنۡهُم مَّن لَّمۡ نَقۡصُصۡ عَلَيۡكَۗ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأۡتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ فَإِذَا جَآءَ أَمۡرُ ٱللَّهِ قُضِيَ بِٱلۡحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ ٧٨﴾ [غافر: 78].

الفُروقُ المُعْجَمِيّةُ:

(أرسلنا) و(بعثنا):

الإرسال يتضمّن رسالة، والبعث أعمّ فلا يشترط فيه الرّسالة

البعث أعّم من الإرسال؛ لأنّه "يجوز أن يبعث الرّجل إلى الآخر لحاجة تخصّه دونك ودون المبعوث إليه، كالصّبي تبعثه إلى المكتب، فتقول: بعثتُه، ولا تقول: أرسلته؛ لأنّ الإرسال لا يكون إلّا برسالة وما يجري مجراها"[1]. وفي قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلٗا مِّن

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 289.

﴿قَبْلِكَ﴾، أوثِر التّعبيرُ بالإرسال؛ لأنّه حديثٌ عن المرسلين الّذين أرسلوا برسالة.

(الذُّريَّة) و(الأولاد) و(الأبناء):

الأبْناء جمع (ابن)؛ وهو كلُّ ما وُلِدَ ذكرًا، ويُطْلَقُ على كُلِّ ما ترتَّب على غيره بالسَّبَبية أو التَّبعيَّة أو المُلازَمة أو المشابَهة، والابنُ: يُفيد الاختصاصَ ومداومة الصُّحبة.

الـوَلَـد مَـن وُلِـد للرّجل، والابـن يختصّ بالذّكر، والـذُّريّـة تشمل الجميع

أمّا الذُّرّية؛ فتُطْلَقُ على نَسْلِ الرَّجل وما توالدَ مِنْهُ ومِن أبنائه وبناتهِ؛ فَهي تَنْتَظِمُ الأولاد ذكورًا وإناثًا[1].

والوَلَدُ يَقْتَضي الولادَة، ولا يقتضيها الابْن، والابْنُ يَقْتَضي أبًا، ولا يُسمَّى الإنْسان والدًا إلّا إذا صار لَهُ ولد، ولَيْسَ هوَ مثل الأب؛ لأنّهم يَقولونَ في التّكنية: أبو فلان وإن لم يلِد فلانًا، ولا يَقولونَ في: هَذا والِد فلان، ويُقال: الابْن للذَّكر، والولد للذَّكر والأُنْثَى[2].

فالفَرْقُ بين الابن والولد: أنّ الأوّل للذَّكر خاصّة، والآخَرُ والثّاني يقع على الذَّكر والأنثى، أمّا النّسل والذّرّيّة فيقعان على الجميع.

وجاءَ التَّعبيرُ في الآية بالذّرّيّة دون غيرها؛ لأنّه أراد أن يشمل الجميع، فلا ميزة في السّياق للأبناء والبنات، فالمقصود من الإخبار بالذّرّيّة أنّهم بَشَرٌ يأكلون الطَّعام ويتزوَّجون وتكون لهم ذرّيّة.

وبناءً على ما سبق؛ نجد أن لفظ (الابن) منظورٌ فيه إلى الاختصاص بالنَّسَبِ ومداومة الصُّحبة، ويُطلق على الذَّكَر فقط، أمّا الولَدُ فمنظور فيه إلى الولادة والوالدِ، ويشمل الذَّكر والأنثى، وأمّا الذُّريَّة فمنظور فيهِ إلى الخَلْق والكثرة والتَّفرُّق عن أصلٍ واحدٍ، ويشمل الجميعَ[3].

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 283.
(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 281 - 282.
(3) زيدان، الفروق اللّغويّة في القرآن الكريم، ص: 44.

﴿يَمۡحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثۡبِتُۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ ٣٩﴾ [الرّعد: 39]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

لكلِّ أجلٍ قدَّره الله، من إرسال أو مصير، كتابٌ يمحو فيه ما يشاء ويُثْبِتُ

بعد أنّ بيّن النّظمُ الكريم في الآية السّابقة أنّ مجيء الآيات يكون بأمر الله تعالى وأنّ لكلِّ أجلٍ قدّره الله كتابًا أُثبِت فيه، ووقتًا معلومًا يقعُ فيه، لا يتقدَّمُ عليه ولا يتأخَّرُ، ولا تكونُ آيةٌ إلّا بأجلٍ قد قضاه الله تعالى في كتابٍ؛ أتبع ذلك في هذه الآية ببيان علّته بقوله جلّ شأنه: ﴿يَمۡحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثۡبِتُۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ﴾[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَمۡحُواْ﴾: الميم والحاءُ والواوُ تدور تصريفاتُها على الذَّهابِ بِالشَّيْءِ، يُقال: مَحا الشَّيءَ يَمْحوه ويَمْحاه مَحْوًا ومَحْيًا؛ إذا أذْهَبَ أثَرَه[2]، يُقالُ: مَحَتِ الرّيحُ السَّحابَ؛ أيْ: ذَهَبَتْ بِه، وتُسَمَّى الشَّمالُ مَحْوَةً؛ لأنَّها تَمْحو السَّحابَ، وامَّحَى الشَّيْءُ: ذَهَبَ أثَرُهُ، كذلكَ امْتَحَى[3]. والمَحْوُ: السَّوادُ الَذي في القَمَرِ، كأنَّ ذلكَ كانَ نَيِّرًا فمُحي، والمَحْوَة: المَطْرة تمحو الجَدْبَ[4]، وحقيقةُ المَحْوِ في الآية: إزالَةُ شَيءٍ، وأُطلق هنا على تَغْييرِ الأحْوالِ وتَبْديلِ المَعاني، كالتَّكاليفِ والوَعْدِ والوَعيدِ[5].

2) ﴿وَيُثۡبِتُۖ﴾: الثّاءُ والباء والتّاءُ تدلُّ على دَوامِ الشَّيءِ، يُقالُ: ثَبَتَ ثَباتًا وثُبوتًا[6]، ومنه: ثَبْتُ الجَنانِ؛ أيْ: هو ماضٍ في الأمْرِ والحَرْبِ، وأثْبَتَ حُجَّتَهُ: أقامَها، وثَبَتَ القَوْلُ والأمْرُ: وضَحَ، ورَجُلٌ

(1) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 10/360.
(2) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (محو - محا).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (محو).
(4) ابن منظور، لسان العرب: (محا).
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/164 - 165.
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ثبت).

ثَبْتٌ؛ أيْ: حُجَّةٌ، والثّابِتُ: اللّازِمُ الواقِفُ[1]، والثَّبْتُ: المُتَثَبِّتُ في الأُمورِ، والإثبات والتَّثبيت تارةً يُقالُ بالفِعل، فيُقال لِما يخرج من العَدَم إلى الوجود؛ نحو: أثبتَ اللّه كذا، وتارةً لِما يثبت بالحُكم، فيُقال: أثبت الحاكمُ عليه كذا أو ثَبَّته، وتارةً لِما يكون بالقَول، سواءٌ أكان صِدقًا أم كذبًا، فيُقال: أثبت التَّوحيد وصدَّق النُّبوَّة، وفلان أثبتَ مع اللّه إلهًا آخر[2]، وحَقيقَةُ الإثباتِ أو التَّثبيتِ في الآية: جَعْلُ الشَّيءِ ثابتًا قارًّا في مَكانٍ، ويُطْلَقُ مَجازًا على أضْدادِ مَعاني المَحْوِ.

3) ﴿أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ﴾: أصلُ الأمِّ: كُلُّ شَيْءٍ يُضَمُّ إليه ما سِواهُ مِمّا يليهِ، فَإنَّ العَرَبَ تُسَمّي ذلكَ الشَّيءَ أُمًّا، ومِنْ ذلكَ: أُمُّ الرَّأْسِ؛ وهو الدِّماغُ[3]، ويُقال لكلِّ ما كان أصلًا لوجود شيء أو تربيته أو إصلاحه أو مبدئه أمٌّ[4]، فَكَلِمَةُ (أُمٌّ) مُسْتَعْمَلَةٌ مَجازًا فيما يُشبِهُ الأُمَّ في كَونِها أصلًا لِما تُضافُ إليه أُمٌّ؛ لأنَّ الأُمَّ يَتَوَلَّدُ منها المَولودُ، فَكَثُرَ إطلاقُ أُمِّ الشَّيءِ على أصلِهِ، والأُمُّ في الآيةِ مُرادٌ به ما هو أصلٌ للمَحْوِ والإثْباتِ اللَّذَيْنِ هما مِن مَظاهِرَ قَوْلِهِ: ﴿لِكُلِّ أَجَلٖ كِتَابٞ﴾؛ أيْ: لِما مَحْوُ المشيئاتِ وإثْباتُها مَظاهِرُ له وصادِرَةٌ عنه، فأُمُّ الكِتابِ: هو عِلْمُ اللّه تعالى بِما سَيُريدُ مَحْوَهُ وما سَيُريدُ إثْباتَهُ[5].

❁ المَعْنى الإجْماليّ:

لكلّ أمرٍ قضاه اللّه وقدّره بمشيئته وقدرته، كتابٌ عنده تعالى

بيَّنَتْ هذه الآيةُ أنَّ اللّه يمحو ما يشاءُ مِن الأقدارِ المكتوبةِ، فَيَمْحو ما يشاءُ مَحوَه مِن شَقاوةٍ أو سعادةٍ، أو رِزقٍ أو عُمُرٍ، أو خيرٍ أو شَرٍّ، وغيرِ ذلك، ويُبقي منها ما يشاءُ، وذلك فيما يكونُ في أيدي الملائكةِ مِن صحفٍ. وعِندَه أمُّ الكتابِ، وهو: علم اللّه تعالى، أو: اللَّوح

(1) ابن عبّاد، المحيط في اللّغة: (ثبت).
(2) الفيروزابادي، بصائر ذوي التّمييز: 2/347.
(3) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (أم).
(4) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (أم).
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/168.

المحفوظ الّذي لا يُبَدَّل ولا يُغَيَّر، والّذي ترجِعُ إليهِ سائِرُ الأشياء، فهو أصلُها، وهي فروعٌ له وشُعَب.

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيّ:

دلالة فصل قوله تعالى: ﴿يَمۡحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾:

الجملة في قوله جلّ شأنه: ﴿يَمۡحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثۡبِتُۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ مستأنَفةٌ استئنافًا بيانيًّا للاحتراس؛ "لأنّ جملة ﴿لِكُلِّ أَجَلٖ كِتَابٞ﴾ تقتضي أنّ الوعيد كائن وتأخيره لا يمنع وقوعه، ولمّا كان في ذلك تيئيسٌ للنّاس عُقِّب بالإعلام بأنّ التّوبة مقبولة، وبإحلال الرّجاء محلّ اليأس، فجاءت جملةُ ﴿يَمۡحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثۡبِتُۖ﴾ احتراسًا"[1].

الآجال بيد الله تعالى؛ يمحو ويُثبت مِنها بمشيئته، ما شاء كما شاء

سِرُّ التَّعبير بلفظ ﴿يَمۡحُواْ﴾:

عبّر النّظم الكريمُ في قوله جلّ شأنه: ﴿يَمۡحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثۡبِتُۖ﴾، بالمحو للدّلالة على تغيير الأحوال، والتّكليف والأمر والنّهي والوعد والوعيد، وحقيقة المحو: إزالة الشّيء، بحيث يكون غيرَ مُشاهدٍ، كإزالة الخطّ أو الصّورة، قال تعالى: ﴿فَمَحَوۡنَآ ءَايَةَ ٱلَّيۡلِ وَجَعَلۡنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبۡصِرَةٗ﴾ [الإسراء: 12]، واستعمل في الآية للدّلالة على التّغيير، فإنّ تلك المفاهيم إذا صادفت ما في الواقع؛ كانت مطابقتها إثباتًا لها، وإذا لم تطابقه كان ذلك محوًا لها[2]، بخلاف الإزالة؛ فإنَّها تُقال في الشّيء الّذي كان ثابتًا، وعلى هذا يختلف المحو عن الإزالة؛ لأنَّها تدلُّ على تنحيةِ الشَّيء عن مَكانه، أمّا المحو فإنَّه يدلُّ على ذهابِ الشَّيءِ بالكُلّية وليس تَنْحيتَهُ، ويُؤَكِّد ذلك قوله تعالى: ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَاۚ﴾ [فاطر: 41] الآية[3].

الأحكامُ عند الله، تخضع لأمره بينَ الإزالةِ والمحوِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتنّوير: 13/164.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتنّوير: 13/164 - 165.
(3) الرّاغب، المُفردات: (زال).

سِرُّ التَّعبير بالمضارع ﴿يَمۡحُواْ﴾:

تجدُّد وقوع المحو، وفق المصالح، وبمشيئة الله وحكمته

عبّر النّظمُ الكريم بالفعل المضارع ﴿يَمۡحُواْ﴾ في قوله تعالى: ﴿يَمۡحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثۡبِتُۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ للدّلالة على تجدُّد ذلك واستمراره، فإنّ اللّه تعالى "ينسخ ما يشاء نَسْخَهُ مِنَ الأحكام؛ لِما تقتضيه الحكمةُ بحسَبِ الوقْتِ"[1].

دلالة إسناد المحو ﴿يَمۡحُواْ ٱللَّهُ﴾، إلى الاسم الأعظم:

الله يفعل ما يشاء ويختار، له الخَلْقُ والأمرُ

أسندَ النّظمُ البليغُ المحوَ إلى الاسْمِ الأحسنِ في قوله تعالى: ﴿يَمۡحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثۡبِتُۖ﴾؛ للدّلالة على أنّ النّسخ والمحو للّه تعالى، يوقِعُهُ متى يَشاءُ من أوقات الزّمان؛ لأنّه الملك الأعظم[2]، يتصَرَّف في كونه بما شاء وكيف شاء، ولبيان شرعيّة المحو والإثبات وكونهما بأمر اللّه تعالى لا بأمر أحَدٍ مِنَ الخلقِ، فإنَّ التّغييرَ في التّكاليف والوعد والوعيد وإيقاع العقاب وإرجائه إنّما هو بيد اللّه تعالى لا بأمر أحدٍ سواه.

دلالة ﴿مَا﴾ في قوله: ﴿مَا يَشَآءُ﴾:

بيان أنَّ مشيئتَهُ تعالى، تتناولُ عمومَ الأشياء

آثر النّظمُ الكريمُ التّعبيرَ بالاسْم الموصول ﴿مَا﴾ في قوله جلّ شأنه: ﴿يَمۡحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثۡبِتُۖ﴾؛ للدّلالة على تناوُلِ مشيئتِهِ عمومَ الأشياء، وذلك يشمل جميع الاحتمالات المُمكنة والصّور المتوقّعة؛ فهو "يَنْسَخُ ما يشاء نسخَه مِنَ الأحكام لِما تَقْتَضيهِ الحكمةُ بحسب الوقت، ﴿وَيُثۡبِتُۖ﴾ بَدَلَه ما فيه المصلحةُ، أو يُبْقيهِ على حالهِ غيرَ منسوخ، أو يُثبتُ ما شاء إثباتَه مطلقًا أعمَّ منهما ومن الإنشاء ابتداءً، أو يمحو من ديوان الحفَظةِ الّذين ديدنُهم كَتْبُ كلِّ قولٍ وعمل ما لا يتعلّق به الجزاءُ ويُثْبِتُ الباقيَ"[3]، فالتّعبير بذلك

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/159.
(2) البقاعيّ، نَظْم الدّرر: 10/360.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/27.

للدّلالة على كونه عامًّا يشمَلُ كلّ ما يمكن أن يُمْحى أو يُثْبَت، وفائدة التّعميم تُظهر أنّهُ يدلّ على الإبهام، وذلك يؤدّي إلى توجّه "الأفهام إلى تعرُّف ذلك والتّدبّر فيه؛ لأنّ تحت الموصولِ صورًا لا تُحْصى، وأسباب المشيئة لا تُحصى"[1].

سِرُّ التَّعبير بالمشيئة في الآية:

المشيئَةُ أخصُّ من الإرادة

آثر النّظمُ الكريم التّعبيرَ بلفظ المشيئة دون الإرادة في قوله تبارك اسمه: ﴿يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُۖ﴾؛ لكون المشيئةِ دالَّةً على إرادَةٍ كونيَّةٍ، وهو المُرادُ بيانُهُ في سياق الآيةِ، بخلاف الإرادَةِ فإنَّها نوعان: كونيَّةٌ وشرعيَّةٌ، فلو عُبِّر بها؛ لالتبسَ الأمرُ بينَ الإرادَتيْنِ أيُّهما المُرادُ، فيُحْتاجُ معه إلى تقييدٍ فيطولُ الكلامُ.

ولمّا كان الأمر هنا يتعلَّق بعموم الأشياء محوًا وإثباتًا؛ فقد كان المناسب التَّعبير بالمشيئة دون الإرادة.

دلالة الواو في قوله: ﴿وَيُثْبِتُۖ﴾:

الإثبات والمحو لله سبحانه دون غيره

عطفَ النّظمُ الكريم الإثباتَ على المحو في قوله تعالى: ﴿يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾؛ للمقابلة الّتي بينَهُما، وللدّلالة على أنّ قدرةَ الله تعالى وحكمتَه لا يحدُّها شيءٌ حتّى ما كان مكتوبًا، لأنّه هو الإله الحقّ ذو المشيئة المُطلَقة.

سِرُّ التَّعبير بالإثبات في قوله: ﴿وَيُثْبِتُۖ﴾:

الإثبات أعمّ من غيره، وهو خاصّ بالله، يمحو ويثبت كما يريد

آثر النّظم الكريم التَّعبيرَ بالإثبات دون الإبقاءِ في قوله جلّ شأنه: ﴿يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُۖ﴾ للدّلالة على القرار؛ أيْ: يُثبت بَدَلَهُ ما فيه الحكمةُ[2]، أو يُبْقيهِ على حالهِ غيرَ منسوخٍ؛ لأنَّه ﷻ إذا أزال شيئًا فإنّه قد يُثبت آخرَ بدَلهُ، مثل محوه بالتَّوبة جميعَ الذنوب وإثبات

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/165.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/160.

بدل ذلك حسنات[1]، ولم يعبّر بالفِعل (يُبقي) مثلًا؛ لأنّ الإبقاء دالٌّ على إبقاء شيءٍ موجود، بأنْ يُتْرَكَ على حاله، بخلاف الإثبات؛ فإنَّهُ يَحْتَمِلُ ذلكَ، كما يحتمل أن يُراد بهِ المجيء بغير الشّيء السّابق، فحقيقة الإثبات: جعل الشّيْء ثابتًا قارًّا في مكان، ويُطلق مجازًا على أضداد معاني المحو المذكورة آنفًا، فهو يعدم ما يشاء من الموجودات ويُبقي ما يشاء منها، ويعفو عمّا يشاء من الوعيد ويُقرّ غيره، وكما ينسخ ما يشاء من التّكاليف؛ فإنّه يُبقي ما يشاء منها[2].

دلالة التّعبير بالمضارع ﴿وَيُثۡبِتُۖ﴾:

آثر النّظمُ الكريم التّعبيرَ بالفعل المضارع ﴿وَيُثۡبِتُۖ﴾، في قوله جلّ شأنه: ﴿يَمۡحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثۡبِتُۖ﴾ للدّلالة على تجدّد ذلك الإثبات واستمراره، وذلك مصداقًا لقوله تعالى: ﴿كُلَّ يَوۡمٍ هُوَ فِي شَأۡنٖ ٢٩﴾ [الرحمن: 29]، فإنّ اللّه تعالى خَلَقَ الوجود ابتداءً، ثمَّ دام فيه فِعْلُهُ، ولم يتركه هَمَلًا.

اللـه يفعل ما يشاء ويختار، كلّ يومٍ هو في شأن

سِرُّ عدمِ ذِكْرِ متعلّق ﴿وَيُثۡبِتُۖ﴾:

اكتفى النّظم الكريم بذِكْر متعلِّق الفعل ﴿يَمۡحُواْ﴾ وهو عموم المشيئة، ولم يذكر ذلك المتعلِّق مع الفعل ﴿وَيُثۡبِتُۖ﴾ في قوله تبارك اسمه: ﴿يَمۡحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثۡبِتُۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ وذلك طلبًا للإيجاز؛ إذِ اكتفى بالمذكور دليلًا على المحذوف، كما أنّ ذلك يناسب سياق الآية؛ فإنَّه لمّا بُني مضمونُ الآية على التّعميم ﴿مَا يَشَآءُ﴾؛ ناسبه أن يُطْلِقَ الإثبات، فيَتعاضَد التّعميمُ والإطلاق للدّلالة على الإيجاز والشّمول.

الإيجاز بحذف المعلوم مِن دلالة السّياق، مفيد في الإبانة

أثر تعدُّد القراءات في ﴿وَيُثۡبِتُۖ﴾:

في قوله تعالى: ﴿يَمۡحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثۡبِتُۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ﴾

التّشديد أبلغُ مِنَ التّخفيف، في السّياق الشّريف

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/169.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/165.

اختلف القرّاء في تشديد الباء وتخفيفها من ﴿وَيُثۡبِتُۖ﴾، فقرأ ابن كثير وأبو عمرو وعاصم: ﴿وَيُثۡبِتُۖ﴾ بسكون الثاء وكسر الباء، وقرأ الآخرون: (ويثَبِّت) بفتح الثّاء وتشديد الباء المكسورة، وكلاهما من مادَّةٍ واحدةٍ وجذرٍ واحدٍ، وكلاهما بمعنًى واحدٍ، كـ(أفرحتُه وفرَّحته)، ويكون المعنى: يمحو اللّه ما يشاء ويُثبته، فاستغنى بتعدية الأوّل من الفِعلَيْن وهو قوله: ﴿يَمۡحُواْ﴾ عن تعدية الثّاني[1]، إلّا أنَّ البلاغة تقتضي ذِكْرَ فرقٍ بينهما، وذلك من ناحية الصّيغة فـ(ثبَّتَ) بالتَّشديد ومضارعه (يُثَبِّت) لا يخلو مِن معنى المبالغةِ والتَّكثير أينما وقع[2].

دلالة الواو في قوله: ﴿وَعِندَهُۥٓ﴾:

عطف النّظمُ الكريم الجملةَ في قوله جلّ شأنه: ﴿وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ بالواو على الجملة في قوله تعالى: ﴿يَمۡحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثۡبِتُۖ﴾[3]؛ لاشتراكهما بأنّهما من شأن اللّه تعالى وحده في أمر الحُكم والقضاء بإنزال الآيات والعقاب وغيره.

المحو والإثبات، من شأن الله ربّ الأرض والسّماوات

سِرُّ تقديم الخبر ﴿وَعِندَهُۥٓ﴾:

قدَّم النَّظْمُ الجليلُ شِبْهَ الجملة في قوله تبارك اسمه: ﴿وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ على المبتدأ؛ للدّلالة على أنّ الكتابَ كائن عنده وحده على وجه الحصْرِ والخصوصِ، وأنْ ليس لأحدٍ قدرةٌ أو إذْنٌ على أن يُبدّل أو يُنَزِّلَ شيئًا من نفسِه.

الكتابُ المحفوظ، من خَصائصِهِ سبحانهُ

دلالة التَّعبير بلفظ ﴿وَعِندَهُۥٓ﴾:

آثر النّظمُ الكريم التّعبيرَ بـ (عند) دون (لدى) في قوله جلّ شأنه: ﴿وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ﴾، فلم يَقُلْ: (ولديه أمّ الكتاب)؛ لأنّ (لدى)

(عند) في سياق هذه الآية، أعمّ من (لدى)، في الدّلالة

(1) أبو علي الفارسيّ، الحُجّة: 3/334 - 335.
(2) ابن أبي مريم، الموضّح في وجوه القراءات وعللها: 2/704.
(3) محمود صافي، الجدول في إعراب القرآن: 7/145.

تُستعمل عند الكلام عَن وجود الشّيء الحاضر بالحيازةِ، فتقول: لديّ شيْء، وتقصد أنّه حاضر بحوزتك، أمّا (عند)؛ فتُسْتَخْدَمُ لِما في الحوزة حاضرًا أو غائبًا، تقول: عندي شيء، فلا يدلّ ذلك على أنّه حاضر معك أم غير حاضر[1]، والعنديَّة في الآية "عنديَّة الاسْتِئْثارِ بالعِلْم وما يتصرّف عنه؛ أيْ: وفي ملكه وعلمه أمّ الكتاب لا يَطّلع عليها أحدٌ، ولكنّ النّاس يرون مظاهرها دون اطّلاع على مدى ثبات تلك المظاهر وزوالها؛ أيْ: إنَّ اللّه المُتصرّف بتعيين الآجال والمواقيت، فجعل لكلّ أجلٍ حدًّا مُعيّنًا"[2].

سِرُّ التَّعبير بلفظ ﴿أُمُّ﴾:

آثر النّظمُ الكريمُ التّعبيرَ بلفظ (الأمّ) في قوله جلّ شأنه: ﴿وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ دون الأصل، فلم يقل: (وعنده أصل الكتاب)؛ لأنّ الأصلَ أساسُ الشَّيْءِ، وهو أسفل كُلِّ شَيْءٍ[3]، بخلاف الأمّ؛ فإنَّه لفظٌ يُقال لكُلِّ ما كان أصلًا لوجود شيء أو تربيته أو إصلاحه أو مبدئه، وكلُّ شيء ضُمّ إليه سائرُ ما يليه يُسمَّى: أمًّا، و﴿أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ﴾: اللّوح المحفوظ؛ وذلك لكون العلوم كلّها منسوبةً إليه ومتولّدة منه[4]، فالأمّ: أبلغ في التّعبير عن اللّوحِ المحفوظ لِما تدلّ عليه مِن انْضِمامِ ما يُمْحى ويُثْبَتُ في الكتاب.

الأمّ أصل الشّيء لِما يتولّد عنها من فروع

سرّ التّعبير بلفظ ﴿ٱلۡكِتَٰبِ﴾ مُعرّفًا:

جاءَ لفظُ ﴿ٱلۡكِتَٰبِ﴾ في قوله جلّ شأنه: ﴿وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ﴾، مُعرّفًا باللّام، وكان قد ذُكر قبلَ ذلك مُنكّرًا في قوله تعالى: ﴿لِكُلِّ أَجَلٖ كِتَابٞ﴾، فاللّامُ دالّة على العهد؛ إذْ إعادةُ ذِكْرِ النّكرة مع حَرْفِ التَّعريف يدلُّ على أنَّ المعادة هي عينُ الأولى؛ أيْ: وعندَهُ أمّ ذلك الكتاب، وهو كتابُ الأجَلِ[5].

التعريف بعد التّنكير يُشير إلى أنّ الحديث مُنْصَبٌّ على النّكرة عينِها

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 298.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/168.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (أصل).
(4) الرّاغب، المفردات: (أمّ).
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/167 - 168.

سِرُّ التَّعبير بقوله: ﴿وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ﴾:

اختصاصُهُ سُبحانه بـ (أُمِّ الكِتابِ)، أبلغُ في بيانِ حُكْمِه وسُلْطانِه

آثر النّظمُ الكريمُ التَّعبير بقوله: ﴿وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ في قوله تعالى: ﴿يَمۡحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثۡبِتُۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ﴾، دون أن يقول: (يمحو اللّه ما يشاء ويُثْبت في أُمِّ الكتاب)؛ وذلك لأنَّ التّعبير بقوله: ﴿وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ أفاد أنّ ذلك الكتابَ لا يطَّلِعُ عليه أحدٌ غيرُ اللّه تعالى[1]، ولأنَّه يدلّ على معنًى آخَرَ غيرِ معنى الإثباتِ؛ وهو أنّ الكتابَ مقصور على اللّه تعالى، وهذا المعنى لا يدلّ عليه التّعبيرُ بـ (ويُثبت في أمّ الكتاب).

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيّةُ:

المحو والإزالة:

المَحْوُ ذهابٌ بالشّيء، والإزالة تنحيةٌ

المحوُ من (مَحَوَ)؛ وهو في الأصلِ يَدُلُّ على الذَّهابِ بِالشَّيْءِ، ومِنهُ: مَحَتِ الرّيحُ السَّحابَ؛ أيْ: ذَهَبَتْ بِهِ[2]، ومَحا الشّيءَ يَمْحوه: أذْهَبَ أثَرَه[3]، فالمَحْو: إزالة الأثر، قال تعالى: ﴿يَمۡحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثۡبِتُۖ﴾[4]، أمّا الإزالة فمن (زول)؛ وهو يَدُلُّ على تَنَحّي الشَّيْءِ عَنْ مَكانِه، وزالَتِ الشَّمْسُ عَنْ كَبِدِ السَّماءِ تَزولُ[5]، وزالَ الشّيء: فارق طريقته جانحًا عنه، قال: ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَاۚ﴾ [فاطر: 41][6]، فعبّر في قوله جلّ شأنه: ﴿يَمۡحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثۡبِتُۖ﴾ بالمحو؛ لأنَّ النّسخ والتّغيير يقتضيان الذّهابَ بالشّيء، وليس المُرادُ التّنحية.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/166.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (محو).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (محا).
(4) الرّاغب، المفردات: (محو).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (زول).
(6) الرّاغب، المفردات: (زال).

﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعۡضَ ٱلَّذِي نَعِدُهُمۡ أَوۡ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيۡكَ ٱلۡبَلَٰغُ وَعَلَيۡنَا ٱلۡحِسَابُ ٤٠﴾ [الرّعد: 40]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

العلاقة بين تثبيت الله ومحوه ما يشاء، وتذكيره بدلائل قدرته، التي يبلّغها الرّسول

لمّا ذكرت الآيةُ السّابقةُ أنّ أمّ الكتاب عنده ﷻ، وأنّه يمحو ما يشاء ويُثبت، وأنْ لا أحدَ يملك أن يُنزل العذابَ أو أن يَأْتي بالآيات؛ أتبعه بذِكْرِ نماذجَ مِن قُدرته على فِعْلِ ما يشاء، فقال ﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعۡضَ ٱلَّذِي نَعِدُهُمۡ﴾. ومنَ المناسبة أيضًا: أنَّه لمّا خُتمت الآية السّابقَةُ بأنّه سُبحانه يفعل ما يشاءُ مِن تقديمٍ وتأخيرٍ ومَحْوٍ وإثباتٍ، وكان مِن مقترحاتهم وطلباتهم استهزاءً استعجالُ السّيئةِ ممّا توعّدوا به، وكانت النّفسُ ربَّما تمنّت وقوعَ شيءٍ مِنْ ذلك وإثباته؛ جاءت هذه الآيَةُ لبيانِ وقوع ذلكَ في حياتهِ ﷺ في حياتهِ وبعد وفاته؛ فقالَ ﷻ: ﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ﴾[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿نُرِيَنَّكَ﴾: الرّاء والهمزةُ والحرف المعتلُّ تدورُ اشتقاقاتُها على نَظَرٍ وإبْصارٍ بعَيْنٍ أوْ بَصيرَةٍ، فالرَّأْيُ: ما يَراهُ الإنسانُ في الأمْرِ، وجَمْعُهُ الآراءُ[2]، والرُّؤْيَةُ: إدراكُ المَرْئي، وذلك أضرُبٌ بحسب قوى النَّفس، والأوَّلُ: بالحاسَّة وما يجري مجراها، نحو: ﴿لَتَرَوُنَّ ٱلۡجَحِيمَ ٦ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيۡنَ ٱلۡيَقِينِ ٧﴾ [التّكاثر: 6 - 7]، والثّاني: بالوَهْمِ والتَّخيُّل، نحو قوله: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ [الأنفال: 50]، والثّالث: بالتَّفكُّر، نحو: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوۡنَ﴾ [الأنفال: 48]، والرّابع: بالعَقل، وعلى ذلك قوله: ﴿مَا كَذَبَ ٱلۡفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ١١﴾ [النّجم: 11]، والرَّأْيُ:

(1) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 10/362 - 363.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (رأى).

اعتقاد النَّفس أحد النَّقيضيْن عن غلَبَة الظَّنِّ، وعلى هذا قوله: ﴿يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ﴾ [آل عمران: 13]، والرُّؤْيا: ما يُرى في المنام[1]، والرُّؤْيَةُ بِالعَيْنِ تَتَعَدَّى إلى مَفْعولٍ واحِدٍ، وبِمعنى العِلْم تَتَعَدَّى إلى مَفْعولَيْنِ، والمقصود بالإراءَةِ في الآية: إراءةٌ بصريَّة، والمُرادُ: رُؤيةُ آثارِ ذلكَ النَّقْصِ[2].

2) ﴿نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾: الواوُ والفاءُ والحرف المُعتلّ تَدُلُّ على إكْمالٍ وإتْمام، مِنْهُ الوَفاءُ: إتْمامُ العَهْدِ وإكْمالُ الشَّرْطِ، ووَفَى: أوْفَى، فهو وفٍي. ويَقولونَ: أوفَيتُكَ الشَّيءَ، إذا قَضَيْتَهُ إياهُ وافيا، وتَوَفَّيتُ الشَّيءَ واسْتَوْفَيْتُهُ؛ إذا أخَذْتَهُ كُلَّهُ حتَّى لم تَترُكْ منه شيئًا[3]، والوفاة: المَنية، وتُوُفّي فلان، وتوفّاه اللّه، إذا قَبض نَفْسَه[4]، وتَوَفّي الميتِ: اسْتيفاءُ مُدَّته الّتي وُفيتْ لَهُ وعَدَد أيامِه وشُهوره وأعْوامه في الدُّنْيا، وتَوَفَّيْتُ المالَ مِنْهُ واسْتَوْفَيته إذا أخذته كُلَّهُ[5]، والمقصود بالتَّوَفّي في الآية: الإماتَةُ؛ سُمّيتْ تَوفّيا؛ لأنَّها تُنهي حياةَ المَرْءِ أوْ تَستوفيها.

المَعْنى الإجْماليّ:

يقول اللّه ﷻ لنبيِّه ﷺ تطمينًا لخاطره وتهدئةً لنفسه: وإمّا نُرينَّك - يا نَبيَّنا - في حياتِك بعضَ العذابِ الّذي نعِدُ به المُشركينَ لكُفرِهم مِن الهلاكِ بالسَّيفِ يومَ بدرٍ، ويومَ الفتحِ، ويومَ حُنَين وغيرها من أيّام الإسلامِ في حياةِ النبيِّ ﷺ، أو تَوفَّيناكَ قبلَ أن نُريك عذابَهم، مثل عذابِ أهلِ الرِّدَّة؛ فإنَّ مُعظمَهم كان من المكذِّبينَ المُبطِنين الكُفرَ مثل: مُسيلِمة الكذاب[6]؛ فليس عليك سوى

الأعمـار تقصر عن إدراك جميع ما تأتي به الأقدار

(1) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحّفاظ، والزّبيديّ، تاج العروس: (رأى).
(2) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 7/496.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (وفى).
(4) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (وفى).
(5) ابن منظور، لسان العرب: (وفى).
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/170.

تبليغِهم رسالةَ اللّه في كِلا الحالَيْنِ، وعلينا نحنُ - لا عليك - محاسَبةُ العباد، ومُجازاتُهم على أعمالِهم؛ ثوابًا أو عِقابًا[1].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيّ:

دلالة الواو في قوله: ﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ﴾:

عطف الرّؤية، لإرادة البَيان على شُمول مشيئتهِ ﷻ

الجملة في قوله جلّ شأنه: ﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ معطوفة على قوله تعالى: ﴿يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ﴾؛ لأنَّ الأولى تفيد عمومَ ما يريده اللّه تعالى، والعموم فيه إبهامٌ، فجاءت الجملة الثّانيةُ المعطوفة لبيان مُهمَّة الرَّسول في بلاغ الدَّعوة دون تحقيق الهداية للمدعوّين؛ لأنّ النّبيّ ﷺ "ليس مأمورًا بالاشتغال بذلك، ولا بترقُّبه، وإنّما هو مبلِّغ عن اللّه لعباده، واللّه يعلم ما يحاسِب به عباده سواء شهد النّبيُّ ﷺ ذلك أم لم يشهدْه"[2].

دلالة التَّعبير بـ ﴿وَإِن مَّا﴾ في الشَّرط:

تأكيد مضمون الشّرط المَسوقِ على سبيل الافتراض

عبّر النّظمُ الكريم بأسلوب الشّرط في قوله جلّ شأنه: ﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾، وذلك بالأداة (إمّا) الّتي أصلها (إن)، وأُدْخِلَت عليها (ما) الّتي تُفيد تأكيدَ معنى الشّرط[3]، وتوكيدُ الشَّرط توكيد للتَّعليق كلِّه؛ أيْ: إنَّ الارتباط بين الشَّرط والجواب مؤكَّد.

أمّا (ما)؛ فجيء بها لتهيئة الفعل لدخول نونِ التّوكيد الّتي لا يصحّ اقتران فعل الشّرط بها إلّا في حال دخول (ما) بعد (إن). ولَمّا كان الشّرط على سبيل الافتراض لا اليقين؛ جيء بالأداة (إن) الدّالةِ على فرضيَّة الشّرط لا على إمكان تحقّقه، وليست زائدةً كما يُعبِّر بعضُ النَّحويّين، بَل إنَّما أُتي بها للدّلالة على توكيد التَّعليق[4].

---

(1) ابن جرير، جامع البيان: 13/574، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 9/333، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/472.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/169.

(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/27.

(4) محمّد أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 8/3968.

سِرُّ التَّعبير بالرُّؤية ﴿نُرِيَنَّكَ﴾:

رؤية النّبيّ ﷺ العذابَ، تقتضي وقوعَهُ عاجلًا في حياته

آثر النّظمُ الكريم التّعبيرَ بالرّؤية، في قوله تعالى: ﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعۡضَ ٱلَّذِي نَعِدُهُمۡ﴾ دون أن يقول: (نوقِع بهم العذاب) مثلًا؛ لأنّ الرّؤية تقتضي أنّ ذلك سيقع في حياة النّبيّ ﷺ، ليكون ذلك قرّة عينٍ له ولأصحابه ﷺ؛ أيْ: سيقع العذاب - وأنت حيٌّ - بمَن آذوك وعارضوا دعوتَك أو ما يريدُ أصحابُك الّذين أوذوا في سبيل الدَّعوة، فثبت وقوعُه إقرارًا لأعينِكُم قبلَ وفاتك وإقرارًا لأعينِ أصْحابِك[1].

ومن نِكاتِ إيثار التَّعبير بالرُّؤية عن البصر: أنَّ الرؤيةَ أعمُّ، فتشمل رؤية البصر وتأتي بمعنى العِلْم، وبمعنى الخبرِ، وبمعنى الرُّؤية القلبيَّة، ولمّا كانت الرُّؤية متعدِّدَةَ المعاني؛ ناسب التَّعبير بها؛ لأنَّ بعض ألوان العذاب الّذي حلَّ بالمشركين رآه رسولُ اللّه ﷺ في غزوة بدرٍ ونحوها، وثَمَّ ألوانٌ مِنَ العذاب للكافرين يعلَمُها رسولُ اللّه ﷺ بطريق الإخبار من جنوده، كما في بعضِ السَّرايا الّتي لم يَحْضُرْها رسولُ اللّه ﷺ.

سِرُّ التَّعبير بالمضارع ﴿نُرِيَنَّكَ﴾:

رؤية الرَّسول ﷺ عذابَ الكافرين، متجدّدةٌ ومتكرّرةٌ

آثر النّظمُ الجليل التَّعبيرَ بالفعلِ المضارع ﴿نُرِيَنَّكَ﴾ في قوله جلّ شأنه: ﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعۡضَ ٱلَّذِي نَعِدُهُمۡ﴾ للدّلالة على حدوثِ رُؤيته ﷺ لعذاب الكافرين، وأنّها متجدّدة متكرّرة.

دلالة التأكيد بنون التَّوكيد ﴿نُرِيَنَّكَ﴾:

تأكيد وقوع العذاب، يَنْفي أسبابَ الشَّفقة

أدخل النّظم البليغُ نونَ التّوكيد على الفعل في قوله تبارك اسمه: ﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعۡضَ ٱلَّذِي نَعِدُهُمۡ﴾؛ لتأكيد الخبر وتقوية مضمونه، فأكّد إعلامه "بأنّه لا حرج عليه في ضلالةِ مَن ضلّ بعد إبلاغه؛ نفيًا لِما يحمِلُه عليه ﷺ شدّةُ رحمته لهم وشفقتُه عليهم مِن ظنٍّ أنّه عليه

(1) البقاعيّ، نَظْم الدّرر: 10/363.

أن يَرُدّهم إلى الحقِّ حتمًا"[1]، فإبْلاغُهُ ﷺ بأنّ العذاب مؤكَّدٌ يَدْفَعُ عنهُ التّأسّي عليهم والشَّفقة عليهم بِأنْ لَم يُدْرِكوا الإيمانَ.

سِرُّ التَّعبير بقوله: ﴿بَعْضَ﴾:

مِنَ الإنذار ما يقَعُ في حياة النّبيّ ﷺ

عبَّرَ النّظم الكريم بلفظ (بَعْضَ) في قوله جلّ شأنه: ﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ﴾ للدّلالة على إراءة بعضِ الموعود من العذاب الدُّنيوي وتحقّقه لهم في حياة النّبيّ ﷺ، وفائدةُ ذلك: الإنذارُ "بأنّ الوعيد نازل بهم ولو تأخّر، وفيه دلالة إعجازيَّة بأنّ هذا الدّين يستمرّ بعد وفاة رسولِ الله ﷺ؛ لأنّه إذا كان الوعيد الّذي أُمِرَ بإبلاغه واقعًا ولو بعد وفاته؛ فبالأوْلى أن يكون شرعُه الّذي لأجله جاء وعيد الكافرين به شرعًا مستمرًّا بعده، ضرورةَ أنَّ الوسيلةَ لا تكون مِنَ الأهميَّة بأشدَّ مِن المَقصدِ المقصودةِ لأجله"[2].

دلالة التَّعبير بالاسْمِ الموصولِ ﴿ٱلَّذِى﴾:

ما وُعِدوا به، معلومٌ مشهور، والله لا يخلف وعده

آثر النّظم الكريم التّعبيرَ بالاسْم الموصول ﴿ٱلَّذِى﴾ في قوله جلّ شأنه: ﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ﴾؛ لأنّ ما وعدوا به معهود معروف، فأُريد الإحالة إلى ما وُعِدوا به، ولا يكون جزاء إلّا بما سبقَ الوعيد به.

سِرّ التَّعبير بقوله: ﴿نَعِدُهُمْ﴾:

تنزيل الوعيد منزلَةَ الوعْدِ، إذا كان مُنتظرًا بيقين

في قول الله تعالى: ﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ﴾، أطبق النّظمُ الكريم على الوعيد وعدًا؛ لأنّ الوَعْد يكون في الخير والشّرِّ، يُقال: وعَدْتُهُ بنفعٍ وضرٍّ، والوَعيدُ في الشّرّ خاصّةً[3]، وإنّما استعمل الوعد هنا دون الوعيد، وسمّاه وعدًا؛ لتنزيلهم إيّاه في طَلَبِ نُزوله منزلةَ الوعدِ، ولِكَوْنِهم سألوهُ وانْتَظَروه، فكان بمنزلةِ الوعْدِ[4].

(1) البقاعيّ، نَظْم الدّرر: 10/3631.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/169.
(3) الرّاغب، المفردات: (وعد).
(4) البقاعيّ، نَظْم الدّرر: 10/363.

دلالة التّعبير بالمضارع ﴿نَعِدُهُمْ﴾:

آثر النّظمُ الجليل التّعبيرَ بالفعل المضارع ﴿نَعِدُهُمْ﴾ في قوله جلّ شأنه: ﴿ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ﴾؛ للدّلالة على تجدّد الوعد؛ أيْ: "نعدهم وعدًا مُتجدّدًا حسبما تقتضيه الحكمةُ من إنذارٍ عَقِبَ إنذار"[1]، فلمّا كان ضلالُهم مُستمرًّا مُتجدّدًا كان الوعيد كذلك، وهذا من جَليل لُطْفِ اللّه تعالى بِهِمْ.

وعدُ الله تعالى عبادَه، دائمٌ متجدّدٌ، ووعده يقين لا ريب فيه

سِرُّ التّعبير بـ ﴿أَوْ﴾ في: ﴿أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾:

جاء العَطْفُ بحرف العطف ﴿أَوْ﴾ في قوله تعالى: ﴿نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ للتّسوية بين المذكورَيْن؛ لأنّ كِلَيْهِما ذُكِرَ في سياق الشّرط الافتراضيِّ بلا مرجّح لأحدهما، فكانا في مقامٍ واحد من حيث الاحتمالُ؛ أي: "الذي عليك والّذي إلينا مُسْتَوٍ بالنّسبة إلى كلتا الحالتيْن"[2].

المعطوف والمعطوف عليه في الشّرط، مستويان في الاحتمال

بلاغة التّعبير بالتّوفية ﴿نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾:

آثر النّظم الكريم التّعبير بالتّوفية دون الموت في قوله جلّ شأنه: ﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾؛ للدّلالة على أنّ الأجل سيأتي بعد استيفاء العُمُر الّذي كتبه اللّه تعالى، وهذا ما أكّده كثيرٌ من آيات القرآن من أنَّ الوفاة تعني استيفاءَ المدَّة المضروبة لحياة الإنسان، قال تعالى: ﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾ [الأنعام: 61]، وقال سُبحانه: ﴿۞قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ﴾ [السّجدة: 11] ونحو ذلك من الآيات الّتي يَظْهَرُ فيها استيفاء المدَّة المضروبة للإنسان في هذه الدُّنيا.

لن تموت نفسٌ إلّا بأجلها، ولكلّ أجل كتاب

سِرُّ التّعبير بـ (نون التّوكيد) في ﴿نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾:

أدخل النّظمُ الجليلُ نونَ التّوكيد على الفعل المضارع (نتوفّى) في قوله جلّ شأنه: ﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾؛

أُكِّد الفعلُ الثّاني، جريًا على تأكيد الفعل الأوّل

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/27.
(2) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 10/363.

لأنّه جاء بمقابل الفعل المؤكّد ﴿نُرِيَنَّكَ﴾[1]؛ ليجريَ ذِكْرُ الاحتمالات على نسَقٍ واحد، فلو أُكِّد الفعلُ الأوّل دون الثّاني؛ لأشار ذلك إلى أنّ وقوع الأوّل أرجحُ من الثّاني، ولمّا كان كلاهما واقعًا في فعل الجملة الشّرطيّة المبدوءة بـ (إن) الدّالّةِ على عدم الوقوع؛ دلَّ ذلك على أنّهما متساويان في كونهما مُفْتَرَضَيْنِ افتراضًا، فلا مُرجِّح يُرجّح أحدَهما على الآخر؛ لِذا كانَ نسَقُ التّعبيرِ فيهما واحِدًا. وفيه إشارة إلى أنَّ الرَّسول ﷺ تَجْري عليه أحكامُ البشريَّة من الموت، وفي ذلك دفعٌ لتوهُّم أنَّ الأنبياء لا يجري عليهم ذلكَ، وفيه تحذيرٌ للمشركين من سوء عاقبتهم في الآخرة بأنَّهم سيموتون ويُحاسَبون على ما قدَّموا.

دلالة الفاء في قوله: ﴿فَإِنَّمَا﴾:

افتَتَحَ النّظمُ الكريم الجملة، في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ﴾ بالفاء للدّلالة على التّعليل[2]، تعليلًا لمضمون الجملة في قوله تعالى: ﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾، فإنّ أمرَ العذابِ ليس من شأن أحد إلّا الله تعالى الّذي من خصائصهِ محاسبةُ عبادِه.

العقاب من الله تعالى عظيم، والبلاغ يكون من الرَّسول الكريم

دلالة حذف جوابِ الشَّرط في الآية:

قولُ الله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ﴾، ليسَ هو جوابَ الشَّرْطِ وإنَّما يدلُّ عليه، والجوابُ: محذوفٌ، تقديره: أنزلنا بهم ما وعدْنا وأرَيْناكَ مصارِعَهُم، وذلك لأنَّ الآية فيها شَرْطانِ؛ لأنَّ المعطوف على الشَّرْطِ شرطٌ، والمقصود قوله: ﴿أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾، والمعنى على جَعْلِ قوله: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ﴾، جوابًا للشَّرط الثّاني لا يكون صحيحًا؛ لأنَّه يُفْهَمُ منه وجوبُ التَّبليغ عليهِ ﷺ بعد وفاتهِ، ومِنَ المعلوم أنَّ التَّكليف يَنْقَطِعُ بعدَ الوفاةِ[3].

الآية فيها شَرْطانِ، والمعطوف على الشَّرْطِ شرطٌ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/169.
(2) محمود صافي، الجدول في إعراب القرآن: 7/147.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/399.

دلالة التَّعبير بلفظ ﴿فَإِنَّمَا﴾:

دلَّ التَّعبير بـ ﴿فَإِنَّمَا﴾ في قول الله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ﴾ على أنَّ وظيفة الرَّسول ﷺ هي التَّبليغ لا طلب الآيات وإنزال العقوبات؛ لأنَّ التَّعبير بـ (إنّما) يدلُّ على الحصر والقصر، والمعنى: ليس عليك غير البلاغ، وهو إمرارُ الشيءِ إلى منتهاه، والمُراد به: الرِّسالةُ، فليس عليك محاربتُهُم، ولا أن تُلبّيَ ما أرادوا من مقترحاتٍ[1].

وَظيفَةُ الرَّسول ﷺ، هي التَّبليغ المبين عن الله ﷻ

سرُّ تقديم الخبر على المبتدأ في الآية:

قدّم النَّظمُ الكريم الخبر ﴿عَلَيْكَ﴾ على المبتدأ في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ﴾، ولم يقل: (البلاغُ عليك)؛ لأنّ المُرادَ تعيينُ المحصور فيه؛ أيْ: تبليغ أحكام ما أنزلنا عليك وما تضمَّنه من الوعد والوعيد لا تحقيق مضمون الوعيد الّذي تضمَّنه ذلك، فالمقصور عليه البلاغ، ولهذا قُدِّم الخبرُ[2].

ما على الرَّسول إلّا البلاغ، والله عاصمُه من الأذى، وموفّقه للهدى

دلالة التَّعبير بقوله: ﴿عَلَيْكَ﴾:

عبّر النّظمُ الكريم بقوله: ﴿عَلَيْكَ﴾ في قوله جلّ شأنه: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ﴾ للدّلالة على الوجوب، فهي مستعملَةٌ في الإيجاب والإلزام، فالبلاغ واجب على النَّبيِّ ﷺ لله تعالى[3]، والوجوب يتأتّى من دلالة الاستعلاء في حرف الجرّ (على).

الاستعلاء دالٌّ على الإلزام

دلالة الواو في قوله: ﴿وَعَلَيْنَا﴾:

الجملة في قوله جلّ شأنه: ﴿وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ﴾، معطوفة على الجملة في قوله تعالى: ﴿عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ﴾، فهي مشتركة معها في الدّخول تحت القصرِ المدلول عليه بالحرف (إنّما)، والتّقدير: وإنّما علينا الحساب؛ أيْ: محاسبتهم على التّكذيب[4].

محاسبةُ العباد على الله سُبحانَهُ، ولا أحد غيره يفعل ذلك

(1) البقاعيّ، نَظْم الدّرر: 10/363.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 13/172.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/170.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/170.

دلالة تقديم الخبر في قوله: ﴿وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ﴾:

محاسبة الخلق، مخصوصة بالله دون سواه

قدّم النّظمُ الكريم الخبرَ شبهَ الجملة ﴿وَعَلَيْنَا﴾ على المبتدأ في قوله جلّ شأنه: ﴿وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ﴾ للدّلالة على القَصر؛ أيْ: علينا لا عليك محاسبةُ أعمالهم السّيِّئةِ والمؤاخذةُ بها، فعلينا ذلك وما عليك إلّا تبليغُ الرّسالة، فلا تهتمّ بما وراء ذلك، فنحن قد كفيناكَ ذلك، فلا يُضجِرْك تأخّرُه على ما تقتضيه المصالحُ الخفيَّةِ[1].

سرُّ التَّعبير بالحساب في الآية:

عدالة الله تعالى، تقتضي أن يكون الحسابَ قبل العقاب

عبّر النّظم الجليل بالحساب دون الجزاء أو العقاب في قوله تبارك اسمه: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ﴾؛ وهو يعني هنا: "جزاء كلّ عامل بما عمل في الدّنيا والآخرة"[2]، فعبّر بالحساب للدّلالة على أنّ الجزاء لم يكن إلّا بعد حساب، فيكون ما ينتج عنه واقعًا على ما يقتضيه العدلُ، ولم يُعبِّر بالعقاب؛ لأنَّه نتيجةُ الحسابِ؛ فالتَّعقيب أنْ يأتي بشيء بعد آخر؛ لذلك كان الحسابُ أوَّلًا، ثُمَّ يأتي العقابُ بعدُ.

ومِنْ نكاتِ التَّعبير بالحساب دون العقاب: أنَّ الحسابَ في ذاته عقابٌ لهم على ما آذوا المؤمنين، وهم مستمرّون في غلوائهم، وذلك كقوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾﴾[3] [الغاشية: 21 - 26].

بلاغة الاحتباك في الآيةِ الكريمة:

الذِّكر والحذف في السّياقيْن، غايته المسرّة بالوعد، وامتداد الوعيد

في هذه الآية أسلوبُ احتباكٍ؛ حيثُ ذُكِرَ أوَّلًا الإراءة دليلًا على حذفِها ثانيًا، والوفاة ثانيًا دليلًا على حذفها أوَّلا أو حذف ضدِّها[4]. فالمُلاحَظُ أنَّه صَرَّح في الأولى برؤية بعضِ ما يَعِدُهم؛ لأنَّ ذلك

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/27.
(2) البقاعيّ، نَظْم الدّرر: 10/363.
(3) محمّد أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 8/3969.
(4) البقاعيّ، نَظْم الدّرر: 3/449.

أبْعَثُ على الاطمئنانِ وإدخال السُّرور عليه ﷺ، وحَذَفَها من الثّاني لوضوحِ فَهْمِها من ذِكْرِ المقابل ﴿أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾، وصَرّح في الثّاني بالوفاة؛ لأنَّها تفيد امتدادَ الوعيد وتسلية النَّبيّ ﷺ، وحَذَفَها مِنَ الأوَّل لوُضوحِ فَهْمِها مِنَ الإراءة في قوله تعالى: ﴿نُرِيَنَّكَ﴾.

التّشابه اللّفظيّ في الآية:

بيان تخصيص كلّ آية بما فيها من حرفي العطف، ومن جواب الشّرط

تشابه قوله تعالى: ﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ﴾ مع قوله تعالى في سورة غافر: ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۚ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٧٧﴾﴾ [غافر: 77]، فلِم خُصّت كلّ آية بما فيها من حرفي العطف ومن جواب الشّرط؟ والجواب عن ذلك أن يُقال: يلاحظ أنّ الآية في سورة الرّعد مسبوقة بقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴿٣٨﴾ يَمْحُوا۟ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ ۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾، فلمّا كان الحديث موصولًا مع الرّسول ﷺ؛ ناسبه العطف بالواو بقوله: ﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾، ولمّا كان الرَّسول ﷺ يحزن لعدم قدرته على الإتيان بما يقترحونه من الآيات؛ لحرصه على إيمانهم؛ ناسبه أن يُسَرّي اللّه تعالى عنه بقوله: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ﴾.

أمّا الآية في سورة غافر؛ فهيَ تَبْدَأُ بقوله تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۚ﴾ [غافر: 77]؛ فلمّا كان ذلك سببًا لتَفْصيلِ الوعد؛ ناسبه العطفُ بالفاء بقوله: ﴿فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ [غافر: 77]، ولمّا كان السّياقُ أكثرَ تعلّقًا بترهيبِ الكافرين؛ ناسبَهُ قولُهُ جَلَّ شأنُه: ﴿فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٧٧﴾﴾ [غافر: 77].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيّةُ:

الوفاة والموت:

المـــوت ضـدّ الحياة، والوفاة استيفاء الأجل بتمامه

الموت من (مَوَتَ)؛ وهو دالٌّ على ذَهاب القوَّةِ مِنَ الشَّيْءِ[1]، وهو ضِدُّ الحَياةِ[2]، وأمّا الوَفاةُ فهي كَلِمَةٌ تَدُلُّ على إكْمالٍ وإتْمامٍ[3]، وهي المَنيةُ، والمَوْتُ، وتوُفي فُلانٌ وتَوَفّاه اللّه؛ إذا قَبَضَ نَفْسَه، وتَوَفّي الميتِ: اسْتيفاءُ مُدَّتِه الَّتي وُفيتْ لَهُ وعَدَد أيامِه وشُهوره وأعْوامه في الدُّنْيا[4]، وقد عبّر عنِ الموتِ بالتَّوَفّي، قال تعالى: ﴿ٱللَّـهُ يَتَوَفَّى ٱلۡأَنفُسَ حِينَ مَوۡتِهَا﴾ [الزُّمر: 42]، ﴿۞قُلۡ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلۡمَوۡتِ﴾ [السّجدة: 11][5]، فالإخبارُ في الآية بالوفاة ﴿أَوۡ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ دليل على أنّ الوفاة تكون في الأجلِ التّامّ.

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (موت).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (موت).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (وفى).
(4) ابن منظور، لسان العرب: (وفى).
(5) الرّاغب، المفردات: (وفى).

﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَأْتِي ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَاۚ وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦۚ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ٤١﴾ [الرّعد: 41]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

لمّا وعد الله تعالى نبيَّه ﷺ في الآية السّابقة بأن يُريهُ بعضَ ما وعده من رؤيته عذابَهم أو أن يتوفّاه قبل ذلك؛ بيَّن في هذه الآية أنَّ آثارَ حصولِ تلكَ المواعيد وعلاماتها قد ظهرت وقَويتْ بذِكْرِ تباشير إيقاع العذاب بهم، فطيّب نفسَ النّبيّ ﷺ بذِكْر تلك التّباشير[1].

بعد الإعلام بالمتوقّع الموعود به، يأتي الوقوع للعذاب بإرادة الله سريع الحساب

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿نَنقُصُهَا﴾: لفظةُ النَّقْصِ تدلُّ على خِلافِ الزّيادَةِ، يُقال: نَقَصَ الشَّيءُ، ونَقَصْتُهُ أنا، وهو مَنْقوصٌ، والنَّقْصُ أيضًا: الخُسْرانُ في الحَظِّ، والنُّقصانُ: المصدَرُ، والنَّقيصَةُ: العَيبُ؛ يُقالُ: ما به نَقيصَةٌ؛ أيْ: شَيءٌ يَنْقُصُ، ومَرجِعُ البابِ كُلِّهِ إلى هذا[2]. والمقصود بالنَّقص في الآية: إزالة بَعض الشَّيء، والمُراد بانتقاص الأرْضِ: موتُ أشرافِها وكبرائها وذهابُ العلماء منها[3]؛ لأنَّ النَّقْصَ لا يَكونُ في ذاتِ الأرضِ ولا يُرَى نَقْصٌ فيها، ولكنَّهُ يقعُ فيمَنْ عليها[4]، أو أنَّ معنى نقْصِ الأرضِ: أنْ يفتَحَ لأهل الإسلام ديارَ المُشركينَ أرضًا بعدَ أرضٍ، فتَنْقُص دارُ الكُفّارِ، وتزيد دارُ الإسلامِ.

2) ﴿أَطْرَافِهَاۚ﴾: الطّاءُ والرّاءُ والفاءُ تدُلُّ تصريفاتُها على حَدِّ الشَّيْءِ وحَرْفِهِ[5]، والأطْرافُ: جَمْعُ طَرَفٍ، وهو جانِبُ الشَّيءِ، يُقالُ:

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 10/64، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/27.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (نقص).
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/163، وطنطاويّ، التّفسير الوسيط: 7/497.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/171.
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (طرف).

أَصَبْتُ طَرَفًا مِن الشَّيءِ؛ أيْ: جانِبَهُ، وأطْرافُ الأرضِ: جَوانِبُها[1]، وطَرَفُ الشَّيْءِ: نِهايَتُهُ وآخِرُهُ؛ ومِنه سُمّيت الأصابِعُ ونَحْوُها مِن أعْضاءِ البَدَنِ أطْرافًا[2]؛ لأنَّها على جَوانِبِ الجَسَدِ، ويَأْتي الطَّرَفُ أيضًا بِمَعْنَى: النّاحية، تَقولُ: تَطَرَّفَ فُلانٌ: إذا تَباعَدَ إلى ناحيةٍ[3]، وطَرَفا الرَّجُلِ: لِسانُه وفَرْجُهُ، ويُطْلَقُ الطَّرَفُ على الطّائِفَةِ والمَجْموعَةِ، ومِنْهُ أطْرافُ الرَّجُلِ: وهم أقارِبُهُ[4]. والمقصود بالأطراف بالآية: جمع طرَف، وهو جانبُ الشَّيْء، والمُراد: أنَّ نقصَ الأطراف مِن الشَّيْء موصِّل إلى تَوْهينِه وإزالته[5].

3) ﴿لَا مُعَقِّبَ﴾: العَيْنُ والقافُ والباءُ تدور اشتقاقاتُها على مَعْنى تَأْخيرِ شَيءٍ وإتيانه بعدَ غيرِه، وكُلُّ شَيْءٍ يَعْقُبُ شَيئًا فهو عَقيبُهُ[6]، وعَقِبُ الرَّجُلِ: ولَدُه وولدُ ولَدِه الباقونَ من بَعْدِه، والتَّعْقيبُ: أن يُؤتى بشيْءٍ بعدَ آخرَ، ويُطْلَقُ على انصرافكَ راجعًا من أمْرٍ أرَدْتَه، والمُعقِّبُ من يَكُرُّ على الشَّيء فيُبطلُه، وحقيقته: الّذي يعقُب الشَّيء بالإبطال، ومنه يُسمَّى الّذي يطلبُ حقًّا من آخر مُعقِّبًا؛ لأنَّه يعقُب غريمَه ويتبعه للتَّقاضي[7]، والمُعقِّب: الَّذي أُغير عليه فحُرِبَ فأغارَ على الَذي كانَ أغارَ عليه فاسترجعَ مالَه. وأمّا قَوْله ﷻ: ﴿لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ﴾؛ فإنَّ الفرّاء قالَ: معناهُ لا رادّ لِحُكْمِهِ إذا حَكَم شيئًا، قالَ: والمُعقِّب: الَذي يكُرُّ على الشَّيء؛ ولا يكرُّ أحدٌ على ما أحكمه اللّه[8]، وهو المُراد بالآية.

4) ﴿لِحُكْمِهِۦ﴾: الحاءُ والكافُ والميمُ تدلُّ اشْتِقاقاتُها على مَعْنى المَنْعِ، وأوَّلُ ذلكَ: الحُكْمُ، وهو المَنْعُ مِنَ الظُّلْمِ، وكُلُّ شَيْءٍ مَنَعْتَهُ مِن الفَسادِ فقد حَكَمْتَهُ وأحْكَمْتَهُ[9]، والحُكْمُ أيضًا: القَضاءُ والفَصْلُ، تَقولُ: حَكَمْتُ بَيْنَهُما إذا قَضَيْتَ، ويأْتي بِمَعْنى: الشَّيْءِ الحَسَنِ المُتْقَنِ، والجَمْعُ: أحْكامٌ، والإحْكامُ: الحُسْنُ والإتْقانُ، يُقال: أحْكَمْتُ صُنْعَ الشَّيءِ؛ أيْ:

(1) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن عبّاد، المحيط في اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (طرف).
(2) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن عبّاد، المحيط في اللّغة: (طرف).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (طرف).
(4) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن عبّاد، المحيط في اللّغة: (طرف).
(5) الرّاغب، تفسير الرّاغب الأصفهانيّ: 3/846.
(6) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (عقب).
(7) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة: (عقب).
(8) الفرّاء، معاني القرآن: 2/66، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (عقب).
(9) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (حكم).

أَتْقَنْتَهُ، والحَكيمُ: المُتْقِنُ للأُمورِ[1]، والمُراد بالحُكم في الآية: القَضاءُ والفَصْلُ؛ أيْ: لا رادَّ لقضائه النّافذ الّذي لا يُردُّ، ولا يستطيع أحدٌ أن يُبطله[2].

المَعْنى الإجْماليّ:

الله سُبحانَه يحكُمُ ويقضي، في خَلقِه بما يشاءُ، لا نقضَ لحُكمِه، ولا تغيير لكلماته

في هذه الآية يقولُ اللّه تعالى لنَبيه ﷺ: أوَلم يَنظُرِ الكُفّارُ أنّا ننصُرُ المُسلِمينَ، ونفتَحُ لهم ديارَ المُشركينَ أرضًا بعدَ أرضٍ، فنَنقُصُ دارَ الكُفّارِ، ونَزيدُ في دارِ الإسلامِ؟ أفلا يعتَبِرونَ بذلك فيخافونَ ظُهورَهم على أرضِهم، وقَهْرَهُم إيّاهم؟ واللّه هو الّذي يقضي في خَلقِه بما يشاءُ، ويُعاقِبُ مَن يشاءُ، ولا يُبطِلُ أحدٌ حُكمَه بردٍّ أو نقضٍ أو تغييرٍ، فما حكَمَ اللّه به مِن العِقابِ لا يُبطِلُه أحدٌ، وهو واقِعٌ ولو تأخَّرَ، واللّه سريعٌ مجيءُ حسابِه، ومجازاتِه لعبادِه، وهو واقعٌ لا محالةَ، لا يدفعُه دافعٌ، فلا يَستعجل أحدٌ منهم بالعذابِ؛ فإنَّ كلَّ ما هو آتٍ قريبٌ[3].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيّ:

دلالة عطف هذه الآية على ما قبلها:

بشائر النّصر تلوح، بعد الإبلاغ والتّهديد

الجملة في قوله جلّ شأنه: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَأْتِي ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَاۚ﴾ معطوفة على الجملة في قوله تعالى: ﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ﴾، على تقديرٍ يقتضيهِ المقامُ؛ أيْ: أأنكروا نزولَ ما وعدناهم؟ أو: أشَكّوا؟ أو: ألم ينظروا في ذلك؟ أو: ألم يروا ﴿أَنَّا نَأْتِي ٱلْأَرْضَ﴾؟[4]، والغرض من عطف الجملة إنذار المكذّبين بأنّ ملامح نصر اللّه تعالى لنبيّه ﷺ قد لاحت وبانت، فكان تعقيب

(1) ابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس: (حكم).
(2) الغزنويّ، باهر البرهان في معاني مشكلات القرآن: 2/756، والمراغيّ، تفسير المراغيّ: 13/118.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 13/580، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن، والسّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 420.
(4) الآلوسيّ، روح المعاني: 13/173.

الجملة المعطوف عليها بهذه الجملة يُفيد الاحتراسَ من أن يتوهّموا أنّ العقابَ بطيءٌ وغيرُ واقعٍ بهم.

بلاغة تعقيب هذه الآية بما سبقها:

الاحتراسُ من استبطاءِ رُؤية نَصْرِ الله تعالى

عقّب النّظمُ الكريم الآيةَ السّابقة المُخبِرة عن الوعيدِ بقوله تبارك اسمه: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَأْتِي ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَاۚ﴾ احتراسًا من أن يتوهّموا أنّ العقابَ بطيءٌ وغيرُ واقعٍ بهم، وفيها كذلك بِشارة للنّبيّ ﷺ بأنّه سيُدرِكُ نصرَ اللّه تعالى له في حَياتِه؛ فقد جاءت أشْراطُه، كما أنَّ فيها احتراسًا مِنَ اليأسِ باسْتِبْطاءِ رُؤية نَصْرِ اللّه تعالى لِدينِهِ الحقِّ[1].

بلاغة الاستفهام في قوله: ﴿أَوَلَمْ﴾:

إنكارُ شكِّ الكفّار، في وقوع العذابِ بِهِمْ

جاءَ الاستفهامُ في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَأْتِي ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَاۚ﴾ لإنكار الوقوع بمعنى النَّفْي، ونَفْيُ النَّفي إثباتٌ؛ لأنَّ الاستفهامَ داخِلٌ على (لم)، ويكون الغرض منه الرَّدُّ على شكّهم في إيقاع العذاب بهم؛ أيْ: "أأنكروا نزول ما وعدناهُم؟ أو أشكّوا؟ أو: ألم يَنْظُروا في ذلك؟ أولم يرَوا أنّا نأتي الأرض؟"[2] ، فلمّا لم يكن ثَمّ تغيير في تَعَنُّتِهم ولُبْثِهم في الكُفْرِ؛ دلَّ ذلك على أنّهم لم يأخذوا الوعيد مَأْخَذًا جادًّا، فأنكر عليهم ذلك بِذِكْرِ ملامِحِ دُنوِّ العذابِ مِنْهُم.

سِرُّ التَّعبير بالرُّؤية في قولِهِ: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ﴾:

تأكيد تحقّق تباشير النّصر

في قوله جلّ شأنه: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَأْتِي ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَاۚ﴾ عبّر النَّظْمُ بالرُّؤْيَةِ، وهي محتملة أن تكون بصريّةً، والمعنى: أوَلَم يروا أنّا نُحْدِثُ في الدُّنيا مِنَ الاختلافاتِ الخرابَ بعدَ العَمار، والموتَ بعد الحياةِ، والنَّقْصَ بعدَ الكمالِ؟ وهذه تغيّرات مُدْرَكَةٌ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/170 - 171.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/27 - 28.

بالحِسِّ؛ أيْ: أنَّهم رأوا بأعينِهم آثار ذلك النَّقص[1]، ويجوز أن تكون عِلميّةً، والمعنى: ألَم يَعْمَلوا ما حلَّ بأرضِ الأمم السّابقة مِن نقص[2]، وبِأرْضِهم بما بَلَغَهُم مِن أخبارٍ؟ وقد عبّر بالرّؤية لبيان أنَّ نُقْصانَ الأرض قد حَدث وأنّهم عرفوه وبَلغَهُم، فهو بحيث أنْ يُرى ويُشاهَد ويُعلم، ففيه تأكيدٌ لوقوعِ تباشيرِ النَّصْرِ.

دِلالة التَّعبير بقوله تعالى: ﴿أَنَّا﴾:

في قوله جلّ شأنه: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَأْتِي ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَاۚ﴾ جاء المُسنَدُ إليه ضميرًا بصيغَةِ التَّعظيم؛ أيْ: أنّا نأتي الأرضَ بما لنا مِنَ العَظَمَةِ[3]، كما أنَّ التَّعبير بـ (أنّ) مفتوحةَ الهمزةِ دالٌّ على تأويلها بمصدرٍ تقديرُه: ألَم يَرَوْا إتْيانَنا الأرضَ نَنْقُصُها، وإنّما عبّر بالجُملة الاسميّةِ المُصدّرة بحرفِ التَّأكيدِ دونَ المصدرِ المُفرد للدّلالة على تأكيد مَضْمونِ الجملة وتقويةِ الخبَر، وهذا التّأكيدُ يُناسِبُ غرضَ الإنكار من الاستفهام.

تعظيمُ الإتيانِ وتأكيدُه، أنسَبُ في مقامِ الإنكارِ

سِرُّ التَّعبير بقوله: ﴿نَأْتِي ٱلْأَرْضَ﴾:

في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَأْتِي ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَاۚ﴾ عبّر النّظمُ عن أخْذِ أرض الكفّار وتحوّلها إلى دار الإيمان بالإتيان؛ لِما في ذلك من جمالٍ وقوّة في التَّعْبيرِ، فالإتْيانُ يدلُّ على الحضور، فعبّر به عن أخذ أرضهم وتحوّلها إلى دار الإسلام للدّلالة على قوّة الأخذ، ففي لفظ الإتيان المُؤذِن بالاستواء المحتوم والاستيلاءِ العظيم من الفخامة ما لا يخفى، كما في قوله ﷻ: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾﴾ [الفرقان: 23][4]، كما أنّ فيه دلالةً على سهولة أخْذِ تلك الأرض، فهي تحوّلت إلى دار إيمانٍ بمجرّد الإتيان،

تحوُّلُ الأرضِ إلى دار الإسلام، بالإتيان إليها فحسب

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 13/173.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/171.
(3) البقاعيّ، نَظْم الدّرر: 10/364.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/28.

ففيهِ تعبير عن القوّةِ ونفاذ الأمر، وأنْ لا منازعَ في نَشْرِ هذا الدّين، ولا تَحول دونَه قوّةٌ.

دِلالة التَّعبير بالمُضارِع ﴿نَأۡتِي﴾:

تـوسُّـع دائـرةِ الحقِّ لا تَتَوقّف، لأنّ الحقّ ظاهر لا محالة

عبّر النّظمُ الكريمُ بالفِعْلِ المضارع ﴿نَأۡتِي﴾ في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا نَأۡتِي ٱلۡأَرۡضَ﴾ تعبيرًا عن تجدُّد ذلك واستمرارِه، فإنَّ مجيء المؤمنين بالتّمكّن من أرض المشركين دائمٌ لا يتوقّف في وقت نزولِ الآيات، كما أنَّ فيه تصويرًا للحالِ باستجلابِ الصّورة، لا سيّما وأنّه قد ذكَر الرّؤيةَ، فَقال: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا نَأۡتِي ٱلۡأَرۡضَ﴾.

دِلالة التَّعريفِ بـ (ال) في ﴿ٱلۡأَرۡضَ﴾:

النّـقـصـانُ في أرضِ الأقـوامِ، سنّة ربّانية باقية على الدّوام

أدخل النّظمُ الكريم لامَ التعّريفِ على الأرضِ في قوله تبارك اسمه: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا نَأۡتِي ٱلۡأَرۡضَ نَنقُصُهَا مِنۡ أَطۡرَافِهَاۚ﴾؛ للدّلالة عَلى العَهْدِ، فالمُرادُ مِنَ الأرضِ أرضُ الكفرة[1]، وهي الأرض الّتي تحتَ سلطانهم ونفوذهم، ويكون ذلك إيقاظًا لهم لما اسْتَوْلى عليهِ المسلمون من أرض العدوِّ فخرجت عن سُلطانه، فتنقُص الأرضُ الّتي كانت في تَصَرُّفهم وتزيد أرض الإسلام[2]، ويَحْتَمِل أن تكون اللّامُ لامَ الجنس، والمعنى "نأتي أيّةَ أرضٍ مِن أرضِ الأُمَمِ"[3]، فيكون إتيان أراضيهم حقيقة راسخة سائرة في كلّ زمان، فليس الإتيان بذلك الوصف مقتصرًا على أرضهم.

بلاغة المجاز في لفظ ﴿ٱلۡأَرۡضَ﴾:

ذَكرَ المكان، وأراد أهـلـه، في إطـار التّصوير المجازيّ

أطلق النّظمُ الجليل لفظ ﴿ٱلۡأَرۡضَ﴾ في قوله جلّ شأنه: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا نَأۡتِي ٱلۡأَرۡضَ نَنقُصُهَا مِنۡ أَطۡرَافِهَاۚ﴾ على سكّانها وأهلها مجازًا، فذكر المحلّ وأراد الحالَّ به، كما في قوله تعالى: ﴿وَسۡـَٔلِ ٱلۡقَرۡيَةَ﴾

(1) البقاعيّ، نَظْم الدّرر: 10/364.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/171.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/171.

[يوسف: 82] "بقرينة تعلّق النّقص بها؛ لأنّ النّقص لا يكون في ذات الأرض، ولا يُرى نقصٌ فيها، ولكنّه يقع فيمَن عليها"[1].

دلالة الإسناد في قوله: ﴿أَنَّا نَأْتِي ٱلْأَرْضَ﴾:

أُسند إتيان الأرض إلى الله تعالى، في قوله تعالى: ﴿أَنَّا نَأْتِي ٱلْأَرْضَ﴾، للدّلالة على أنّ الله تعالى مع جيش المسلمين الّذي يأتي الأرضَ الّتي يلتقي المسلمون فيها أهلَ الشِّرك، فَيَنْقُصها ويأخذها جزءًا جُزءًا مِن دائرة الكفر إلى أرض الإسلام[2].

الله تعالى مع عباده المسلمين، يأتي الأرضَ معهم، بنصرهم وتمكينهم

سِرُّ التَّعبير في قوله: ﴿نَنقُصُهَا﴾:

في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَأْتِي ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَاۚ﴾ للدّلالة على الأخذ من أرضِ المشركين بحيث تكون أقلّ، وينقص من نفوسهم بالتّدريج، فالنّقص هو الأخذ من جملة الشّيء فيكون أقلّ[3]، وذلك "بأنْ نفتحَها على المسلمين شيئًا فشيئًا، ونُلحقَها بدار الإسلام، ونُذهب منها أهلها بالقتل والأسر والإجلاءِ. ومثلُه قوله عزَّ سلطانُه: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَاۚ أَفَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [الأنبياء: 44]"[4].

زوال الأرض من الكافرين، نقصانٌ في شأنهم، وتهوين من قدرهم

وممّا يُذْكَر في سِرِّ التَّعبير بالنَّقص أنَّ المُراد ما يطرأ عليها من تَغْيير وتبديلٍ، وما يُصيب النّاس في أرزاقِهم وأعمارهم، وإذا كان الّذي يَحْدُث في الأرض من نقصٍ عند أهلَ الكُفْرِ يحدث إزاءَه ما يقابله من زيادة؛ فَلِماذا آثر التَّعبير بالنَّقص؟ والجواب عن ذلك: أنَّه آثرَهُ لأنَّه أراد الإلْفاتَ إليه؛ لأنَّ النَّقصَ هو الّذي يهتَمُّ له الإنسان أكثر من اهتمامهِ بالزّيادة، ولأنَّ المقامَ هنا مقامُ تهديدٍ، فناسبه التَّعبير بالنَّقص.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/171.
(2) محمّد أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 8/3970.
(3) البقاعيّ، نَظْم الدّرر: 10/364.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/28.

دِلالة التَّعبير بالمضارعِ ﴿نَنقُصُهَا﴾:

نقصان أرض أهل الباطِلِ الزّاهق، وعدٌ من الله للمؤمنين، في كلّ حين

عبّر النّظم الكريم بالفعل المضارع ﴿نَنقُصُهَا﴾ في قوله تبارك اسمه: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَأْتِي ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَاۚ﴾ تعبيرًا عن تجدّد نقصان أطرافها من حولهم، واستمرار فَقْدِهم القرى الّتي توافقهم بالشّرك ومعاداة الإسلام؛ بأنْ آلَت إلى حكم المسلمين، وأنَّ ذلك ظاهرة مستمرّة، والمعنى "يفتح اللّه على المسلمين ممّا يَزيدُ به في أرضِ أهل الإسلامِ بِقَتْلِ بعضِ الكفّار، واستسلام البعض حتّى يبيد أهلُها، على حسب ما نعلمه حكمة من تَدْبيرِ الأمور وتقليبها حالًا إلى حالٍ حتّى تنتهيَ إلى مستقرّها بعد الحسابِ"[1].

دلالة ﴿مِنْ﴾ في ﴿مِنْ أَطْرَافِهَاۚ﴾:

الشّروع بالنّقصان، بدأ مِن تلك الأطراف

في قوله جلّ شأنه: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَأْتِي ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَاۚ﴾، جاء حرف الجرّ ﴿مِنْ﴾ الابتدائيّة؛ للدّلالة على أنّ الشّروعَ بالإتيان كان من بداية تلك الأطراف والحدود، وفي ذلك دِلالة على أنَّ النّقصان بدأ من هناك، ولكنّه لا يتوقّف، بما دلّ عليه الفعلُ المضارعُ (ننقص).

سِرُّ التَّعبير بلفظ (الأطرافِ):

الأطرافُ منتهى ما في حوزتهم مِنَ الأرض

آثَرَ النَّظمُ الكريم التّعبيرَ بالأطرافِ في قوله جلّ شأنه: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَأْتِي ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَاۚ﴾ دون النّواحي؛ لأنّ "الطّرف المنتهى، وهو موضعٌ مِنَ الشّيء ليس وراءه منه شيءٌ"[2]، فالمُرادُ بيانُ نقصانِ الأرض الّتي هي لَهُم؛ أيْ: حيثُ ينتهي وجودُهم، أمّا النّواحي فَهي تدلُّ على مختلف اتِّجاهاتها فيكون بلا تحديدٍ، أمّا الأطراف فَهي دليلٌ على الحدود الّتي عهدوها، فيكون الإخبار بنقصانها بهذا الوصف أوقعَ في أنفسهم ممّا لو أخبر بأنّ نقصانها كائنٌ مِنْ كُلِّ

(1) البقاعيّ، نَظْم الدّرر: 10/364.
(2) البقاعيّ، نَظْم الدّرر: 10/365.

النّواحي، إذِ النّواحي لا تقتضي القربَ والحدودَ. وممّا يُذكر في سِرِّ التَّعبير بالأطراف أنَّ نُقصانها يُتوَصَّل به إلى توهينها وإزالتها[1].

دلالة الواو في قوله: ﴿وَٱللَّـهُ يَحۡكُمُ﴾:

الواو في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَحۡكُمُ﴾ عاطفة، حيث عطفت هذه الجملة على قوله: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ﴾، والغرض من ذلك التَّأكيد على المقصود منها، وهو الاستدلالُ على أنَّ تأخيرَ الوعيدِ لا يدُلُّ على بطلانه[2].

تأخيرُ الوعيدِ لا يدُلُّ على بطلانه، فالله يُمهل ولا يُهمل

دلالة التَّعبير بالجملة الاسمية ﴿وَٱللَّـهُ يَحۡكُمُ﴾:

الجملة في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَحۡكُمُ﴾ اسميّة دالّة على تأكيد مضمونها لدِلالَتِها على ثبوت المعنى ورسوخِه، وقد جيء بها للاعتراضِ تأكيدًا لمضمون الكلام السّابِق[3]، فقوله تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا﴾ حُكمٌ وقضاء منه، فالتّعبير عن كون الله تعالى يَحۡكُمُ: يدلُّ على تأكيدِ ذَلِكَ.

حكمُ الله تعالى في خلقه وملكوته، ثابتٌ مؤكَّدٌ لا ريب فيه

سِرُّ التَّعبير بالإظهار دون الإضمار:

عبَّرَ النَّظمُ الكريمُ بالاسْمِ الظّاهر في قوله تبارك اسمه: ﴿وَٱللَّهُ يَحۡكُمُ﴾ دون الضّمير الّذي جاء في صَدْرِ الآية؛ لتربيةِ المهابة والتَّذكير بِما يَحْتَوي عليهِ الاسْمُ العظيمُ مِن معنى الإلهيَّة والوحدانيَّة المقتضية عدمَ المنازع، ولتكون الجملة مستقلَّة بنفسها؛ لأنَّها بمنزلة الحكمة والمثل[4].

ورود اسم الجلالة، غرضه خَلْعُ المهابةِ والجلالة، على حُكْمِهِ تَعالى

بلاغة الالتفات في الآية:

في الآية التفاتٌ مِنَ التّكلّم إلى الغَيبة، وذلك بحسَبِ ما يقتضيه الاسمُ الظّاهرُ مِنَ الدّلالة على الغَيبة لتعظيم إثباتِ الحُكم لنفسه ﷻ، فقد "أثبت لنفسِهِ تعالى أمْرًا كُليًّا يندرجُ ذلك فيه، فقال لافتًا الكلامَ

أعظم العظمة ما عبّر عنه بالاسم الأعظم (الله)

(1) الرّاغب، المُفردات: (طرف).
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/172.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/28.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/172.

مِن أسلوبِ التَّكلُّم بالعظمةِ إلى الغَيبة هي أعظَمُ العظَمَةِ بالاسْم الأعظم: ﴿وَٱللَّهُ﴾"[1]، كما أنَّ في ذلك مِنَ الفَخامةِ أعلاها بافْتتاح الجُمْلَةِ بالاسْمِ الأحسَنِ الدّالّ على الإلهيَّة المناسبة للإخْبارِ عَنِ الحُكْم.

دلالة كون المُسنَد فِعْلًا في ﴿وَٱللَّهُ يَحْكُمُ﴾:

جاء المُسنَدُ فعلًا مضارعًا ﴿يَحْكُمُ﴾ ضِمْنَ الجملة الاسميّة مُخبرًا به عن المبتدأ وهو الاسمُ الأحسن (اللّه) للدّلالة على تجدُّدِ الحكم ودوامه، وأنّه لا ينقَطِعُ بمرّ الزّمان، فيكون الثّبوت في الجملة الاسميّةِ دائمًا متجدّدًا.

حكمُ الله تعالى دائمٌ مُتجدّد، لا يجري عليه الزّمانُ

دلالة حذف متعلّق الحكم في الآية:

حُذف متعلّق الحُكم في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَحْكُمُ﴾؛ لإفادَةِ العموم وتَشْويقِ النُّفوسِ، والمُرادُ: يَحْكُمُ ما يشاءُ كَما يشاء؛ فقد حكم لأتباعِكَ بالعِزِّ والسّيادة وعلى أعدائك بالقَهْرِ والإذلالِ، وهذا ما تَحَقَّق في عَهْدِ النَّبي ﷺ والخلفاء من بعدِه لِحُسْنِ علاقَتِهم باللّه ربِّ العالمين.

حُكم اللّه بالعزّة لأتباع النّبيّ الخاتم، وبالدّحر لأعدائه

بلاغة موقع جملة ﴿لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ﴾:

الجملة في قوله تعالى: ﴿لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ﴾ تعليليّة؛ بيّنت علّةَ الحكم السّابق، فاللّه تعالى يَحْكُمُ ما يُريد؛ لأنَّهُ لا رادَّ لِحُكْمِه ولا مُعَقِّب[2]، فَهي اعتراضٌ "لبيانِ عُلوِّ شأن حُكمِه ﷻ، وقيل: نصبٌ على الحاليّة؛ كأنّه قيل: واللّه يحكمُ نافذًا حُكمُه، كما تقول: جاء زيدٌ لا عمامةٌ على رأسِه؛ أيْ: حاسِرًا"[3]، وأفاد الحالُ تقييدَ الحُكم بِكَوْنِه لا معقّب لحُكمِه؛ إذْ لا يَخْفى أنَّ اللّه تعالى هو الحاكمُ ﷻ، فجيء بالحالِ لِبَيانِ انْتِفاءِ عوارضِ نفاذ حُكْمِه.

حكمُ الله تعالى نافِذٌ لا يُرَدّ

(1) البقاعيّ، نَظْم الدّرر: 10/365.
(2) البقاعيّ، نَظْم الدّرر: 10/365.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/28.

دلالة نفي التَّعقيب في الآية:

نفى النَّظْمُ الكريم وجود المُعقّب في قوله جلّ شأنه: ﴿وَٱللَّهُ يَحۡكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكۡمِهِۦۚ﴾ لأنّ المُعقِّب هو "مَن يَكُرُّ على الشّيء فيُبطله، وحقيقتُه: مَن يعقّبه ويُقَفّيه بالرَّدِّ والإبطال"[1]، فليس لأفعالِ الله تعالى وأحكامه من معقّب يُبطلها أو يردّ عليها؛ فهو الإلهُ الحقّ الواحِدُ. فجملةُ لا معقِّب لِحُكْمِه في موضع الحال، وهي المقيِّدة للفعل المُراد؛ إذْ هي مصَبّ الكلام؛ فليسَ الغرضُ الإعلامَ بأنَّ الله يَحْكُمُ، بلِ التَّنبيه على أنَّه لا معقِّب لحُكمه.

لا رادّ لحكم الله سُبحانه، ولا مُعقّب لحُكمه

دلالة النَّفي بالحرف ﴿لَا﴾ في الآية:

جاء التَّعبير القرآني باستعمال ﴿لَا﴾ النّافية للجنس في قوله: ﴿لَا مُعَقِّبَ لِحُكۡمِهِۦۚ﴾ للدّلالة على نفي جنس المعقِّب انتفاء كُلِّ ما من شأنه أن يكون معقِّبًا من شريكٍ أو شفيعٍ أو داعٍ أو راغبٍ؛ فالغرَضُ هو نفيُ المُعقّب على حُكْمِ الله مُطلقًا[2].

عرض السّياق، نفي مطلق، لأيّ معقّب على الله

دِلالةُ عطفِ قوله: ﴿وَهُوَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾:

الجملة في قوله تبارك اسمه: ﴿وَهُوَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾ معطوفة على الجملة في قولهِ جلّ شأنه: ﴿وَٱللَّهُ يَحۡكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكۡمِهِۦۚ﴾ فهي دليلٌ آخَرُ "على أنَّ وعدَهُ واقع، وأنَّ تأخّره وإن طالَ، فما هو إلّا سريعٌ باعتبار تحقّق وقوعه"[3]، فعطف السّرعة في الحسابِ على الإخبار بكونه حاكمًا ﷻ للدّلالة على سُرعة نفاذ حُكمه؛ فهوَ سُبحانَهُ لا يشغله شأن عَن شأن، ولا حساب أحدٍ عن أحدٍ؛ لأنَّه بِقُدْرَتِه قيّومٌ على كل شيء.

سُرعة الحسابِ، دليلٌ على نفاذِ الحكم

دلالة ختام الآية:

جاءَ في خِتام الآية قوله تعالى: ﴿وَهُوَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾، وهي عبارةٌ

حُكمُ الله تعالى، يقعُ بلا تأخيرٍ، على قاعدة (كُنْ فيكون)

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/28.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/172.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/173.

عن سُرعة الجزاء، وأنّه يقَعُ بلا تأخيرٍ، والإخبارُ عَن ذلك بعدَ ذِكْرِ نُقصان الأرض الدّالّ على الشّروع بإنزال العذاب بهم؛ للدّلالة على أنَّ وعْدَ اللّه تعالى مُنْجَزٌ لا يتأخّر وإن ظنّوه كذلك، فهو "يُعدُّ لكلِّ عملٍ جزاءَه على ما تقتضيهِ الحكمةُ من عَدْلٍ أو فضل حين صدورِه، لا يحتاج إلى زمان ينظر فيه ما جزاؤُه؟ ولا: هل عمل أو لا؟ لأنّه لا تخفى عليه خافية"[1]، فالعبارة تدلّ على سُنّة من سُننِ اللّه تعالى، وقاعدة كلّيّة في حسابهِ وجزائه، بأنّه واقع لا محالةَ مع سُرعة نفاذه.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيّةُ:

الحكم والقضاء:

القضاء الفصل بين النّاس، والحكم إقامة العدل

القضاء: إحْكامُ الأمْر وإتْقانه وإنْفاذه لِجِهَتِه، قالَ تَعالى: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ﴾ [فُصّلت: 12]؛ أي: أحْكَمَ خَلْقَهُنَّ، والقَضاءُ: الحُكْمُ، قالَ جلَّ شأنُه: ﴿فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ﴾ [طه: 72]؛ أي: اصْنَعْ واحْكُم، ولِذَلِكَ سُمّي القاضي قاضيا؛ لِأَنَّهُ يُحْكِمُ الأحْكامَ ويُنْفِذُها[2]، وهو فصلُ الأمر قولًا كان ذلك أو فعلًا، كقوله تعالى: ﴿۞وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: 23]؛ أيْ: أمَرَ بذلك، وقال: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِي ٱلْكِتَٰبِ﴾ [الإسراء: 4]، فهذا قَضاءٌ بالإعلام والفصل في الحكم؛ أيْ: أعْلَمْناهُم وأوحينا إليهم[3]، والحُكم: المَنْعُ، وهوَ المَنْعُ مِنَ الظُّلْم[4]، والحُكْم بالشَّيء: أن تَقْضي بأنّه كذا، أو ليس بكذا[5]، وعلى هذا فالحُكم أعمُّ مِنَ القضاء؛ لأنَّه يَحْمِل معنى الإلزام ويدُلُّ على فَصْلِ الأمر قولًا كان أو فعلًا؛ بخلاف القضاء؛ فلا يوجِبُ الإلزامَ.

(1) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 10/365.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حكم).
(3) الرّاغب، المفردات: (قضى).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حكم).
(5) الرّاغب، المفردات: (حكم).

﴿وَقَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا ۖ يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّٰرُ لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٤٢﴾﴾ [الرّعد: 42]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

ربط التّهديد بالتّضييق على الكافرين، وذلك بالفتح للمؤمنين، ليعلم الكّفار لِمَن عقبى الدّار

لمّا تقدّم التّهديدُ والإنذار في قوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾، وهو إنذارٌ لأنّهم يطلبون الآيات مع إضْمارِهم التّصميم على التّكذيب والاستمرار عليه، فشبّه عملهم ذلك بالمكر، ويكون نَقص أرضِهم من أطرافها من مكر اللّه تَعالى بهم جزاءً على مكرهم، فَلذلك أعقبه بقوله تعالى: ﴿وَقَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾؛ أيْ: كما يمكر هؤلاء[1]، فلمّا ذكر أنّ أرضهم في نقصان وأنّهم إلى زوال؛ بيّن أنّ ذلك أمرٌ معهودٌ، فَمَكْرُ الأممِ سابِقٌ مسطور في التّاريخ، فهو تمثيلٌ على التّهديد والإنذارِ.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مَكَرَ﴾: الميمُ والكافُ والرّاءُ تدلُّ على الاِحْتيالِ والخِداعِ[2]، وقد مكَرَ به يمكُرُ، فهو ماكِرٌ ومكّارٌ، ومَكَر به: كادَه[3]، قال الجُرجانيُّ: المكرُ: هو إيصالُ المَكْروهِ إلى الإنسانِ مِن حيثُ لا يَشعُرُ[4]، وأمّا السُّيوطيُّ فقال: ما يَقصِدُ فاعِلُه في باطِنِه خِلافَ ما يقتضيه ظاهِرُه[5]، وهو على ضِربيْن:

أحدهما: مَكْرٌ محمودٌ، وذلك أن يُتحرَّى بذلك فِعلٌ جميل، وعلى ذلك قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [آل عمران: 54].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/173.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (مكر).
(3) الجوهريّ، الصّحاح، والزّبيديّ، تاج العروس: (مكر).
(4) الجرجانيّ، التّعريفات، ص: 227.
(5) السّيوطيّ، معجم مقاليد العلوم في الحدود والرّسوم، ص: 207.

والآخر: مذمومٌ؛ وهو أن يتحرَّى به فِعل قبيحٌ، قال تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ [فاطر: 43]، وقال بعضُهم: مِنْ مَكْرِ اللّه إمهالُ العَبد وتمكينه من أعراض الدُّنيا؛ ولذلك قال عليٌّ رضي الله عنه: مَن وُسّع عليه في دنياه ولم يعلم أنّه مُكِرَ به؛ فهو مخدوعٌ عن عقله[1]، والمقصود بالمَكْر في الآية: صَرفُ الغيرِ عمّا يقصِدُه بحيلةٍ.

والمُراد: أنَّ اللّه تعالى أقْوَى منهم عند إرادةِ مُقابلةِ مَكْرِهم بِخِذْلانه تعالى إياهُم[2].

2) ﴿تَكْسِبُ﴾: أصلُ الكَسْبِ: يَدُلُّ على ابْتِغاءٍ وطَلَبٍ وإصابَةٍ، يُقالُ: كَسبتُ الشَّيءَ: أي: طَلبتُهُ، ومنه سُمّي طلبُ الرِّزق كَسْبًا واكتسابًا[3]، والكَسْبُ يُقال فيما أخَذه لنفسه ولغيره؛ ولهذا قد يتعدّى إلى مفعولَيْن، فيُقال: كَسَبْتُ فلانًا كذا، والاكْتِسابُ لا يُقال إلّا فيما استفدتَه لنفسك، فكلُّ اكْتِسابٍ كَسْبٌ، وليس كلُّ كَسْبٍ اكتسابًا[4]، ويأتي الكَسْبُ بمعنى الشَّيء المكتسب، وجمعه: مكاسب. ويُطلَق أيضًا على الجَرْح؛ أيْ: فِعل الشَّيء بالجارحة، والكواسِبُ: الجوارحُ مِن الإنسان والطَّير[5]، والمقصود بالكَسْبِ في الآية: ما يعمله الإنسانُ باختياره لجلبِ نفعٍ أو دَفْعِ ضرٍّ.

3) ﴿نَفْسٍ﴾: النّون والفاءُ والسّينُ تدلُّ تصريفاتُها على خُروجِ النَّسيم كَيْفَ كانَ، مِنْ ريحٍ أوْ غَيْرِها، وإليه يَرْجِعُ فُروعُهُ، مِنْهُ التَّنَفُّسُ؛ وهو خُروجُ النَّسيم مِنَ الجَوْفِ، ونَفَّسَ اللّه كُرْبَتَهُ؛ وذلكَ أنَّ في خُروجِ النَّسيم رَوْحًا وراحَةً، والنَّفَسُ: كُلُّ شَيْءٍ يُفَرَّجُ بِهِ عَنْ مَكْروبٍ[6]، والنَّفْسُ في كلام العرب على وجهَيْن: أحدهما قولك: خرَجتْ نفسُ فلانٍ؛ أيْ: روحه. والآخرُ: أنَّ معنى النَّفْسِ حقيقةُ الشَّيء وجملته؛ يُقالُ: قتَلَ فلانٌ نفسَه[7]، ويُطْلَقُ النَّفْسُ على الدَّم؛ لأنَّهُ أساسُ الحَياةِ، أو لأنَّ الرُّوحَ تَخْرُجُ بِخُروجِهِ، يُقالُ: سالَتْ نَفْسُهُ؛ أيْ: دَمُهُ[8]، وتأْتي بِمعنى العَيْنِ، فيُقال: أصابَتْ فُلانًا نَفْسٌ؛ أيْ: عَيْنٌ، ونَفْسُ الشَّيْءِ: عَيْنُهُ[9]، والمقصود بالنَّفس في الآية: الذّاتُ والشَّخْصُ.

(1) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحُفّاظ: (مكر).
(2) الرّاغب، المفردات: (مكر)، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/256.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (كسب).
(4) الرّاغب، المفردات: (كسب).
(5) الجوهريّ، الصّحاح، وابن منظور، لسان العرب: (كسب).
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نفس).
(7) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحُفّاظ: (نفس).
(8) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (نفس).
(9) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نفس).

المَعْنى الإجْماليّ:

تهديد المشركين، وتقوية عزيمة رسول الله ﷺ

لقد زادَ اللّه ﷻ في تسلية رسوله ﷺ وفي تثبيت فؤاده، فذكر أنَّهُ قَد مكرَ الّذين مِن قَبلِ مُشرِكي العرَبِ؛ كقوم عادٍ وثمود وقوم شعيب وإخوان لوطٍ برُسُلِهم، وكفروا بهم وكادوا لهم، وأرادوا إخراجَهم مِن بلادِهم، فمكَرَ اللّه بهم، وانتَقم منهم، وجعَل العاقبةَ لعِبادِه المتَّقينَ،فللّه المكرُ كُلُّه؛ لأنَّ أسبابَ المَكرِ بيدِه، ومكْرُ الكفّارِ مخلوقٌ لا يضُرُّ إلّا بعد إذنِه، فكذلك هؤلاء المُشرِكونَ مِن قُريشٍ يمكُرونَ بك يا نبيَّنا، واللّه مُنَجّيك مِن مَكرِهم، ومُلحِقٌ ضرَّ مَكرِهم بهم دونَك، يعلَمُ اللّه ما تعمَلُ كُلُّ نَفسٍ مِن خيرٍ أو شَرٍّ، وسيُجازيها على جميعِ أعمالِها؛ الظّاهرةِ والباطنةِ، ومِن ذلك عِلمُه بما يعمَلُ هؤلاء المُشرِكونَ مِن قَومِك - يا أيُّها الرَّسولُ - وما يَسْعَون فيه مِن المَكرِ بك، وسيَعلمُ الكُفّارُ يومَ القيامةِ لِمن تكونُ عاقبةُ الدّارِ الآخرةِ حينَ يَدْخلون النّارَ، ويدخلُ المؤمنونَ الجنّةَ[1].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيّ:

دلالة الواو في قوله: ﴿وَقَدْ مَكَرَ﴾:

طبيعة المكذّبين واحـــدة، على اختلاف المواقف والأزمنة

افتتح النّظمُ الكريم قوله جلّ شأنه: ﴿وَقَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ بالواو الدّالّة على الاستئناف[2]؛ لبيان أنّ شأنهم ليس إلّا كشأن مَن قبلهم، وأنّه كما انتفت فائدةُ مَكْرِ السّابقين؛ فإنَّ مَكْرَ هؤلاء ليس بِنافِعِهم، وقد ذكَرَ القرآنُ الكريم هذا الخبر للمشركين؛ لبَيانِ أنّهم لن يضيروا النّبيَّ ﷺ وأصحابه، بدليل أنّ مكر السّابقين ومحاولتهم فتنة المؤمنين لم تُؤثِّر في تحويلهم عن دينهم الّذي ارتضوه، وفيه دِلالة على بطلان مكرهم، فهو كالهباء المنثور.

(1) ابن أبي زَمَنين، تفسير القرآن العزيز: 2/360، والواحديّ، الوجيز، ص: 576، والبغويّ، معالم التّنزيل: 3/29.

(2) محمود صافي، الجدول في إعراب القرآن: 7/149.

دلالة ﴿وَقَدۡ﴾، مع الماضي ﴿مَكَرَ﴾:

مكر الكفّار مع الأنبياء، مؤكّد الوقوع، محقّق التّكرار

أدخل النّظمُ الكريم حرفَ التّحقيق (قد) على الفعل الماضي في قوله تعالى: ﴿وَقَدۡ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ تأكيدًا لتحقيق المكر؛ لأنّه قد يُنكِر سليمُ الدّين والاعتقاد أن يتجرّأ أحدٌ ما على المكر على الأنبياء المؤيَّدين بالبرهان، فأكّد أنّ المكر قد وقع من الأقوام الّذين قبلهم وماثَلوهم بالكفر؛ فكان مكرهم وبالًا عليهم، وطوى القرآنُ في هذه الجملة مكرَ الكافرين الّذي ألفوه في الكيد لرسول الله ﷺ ولأصحابه؛ لأنّه كان سببًا لرفعة الإسلام وأهله، بنصرة الله لنبيّه وللمؤمنين.

سرّ التّعبير بلفظ ﴿ٱلۡمَكۡرُ﴾:

الاحتيال للصّرف عن المقصد، يُعبّر عنه بالمكر

في قوله جلّ شأنه: ﴿وَقَدۡ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ فَلِلَّهِ ٱلۡمَكۡرُ جَمِيعًاۖ﴾، عبّر بالمكر وهو: الصّرفُ عن المقصد بحيلة[1]، فكأنّهم يصرفون أنفسهم وغيرهم بحيلة الجدل والكذب، فشبّه تصميمهم على التّكذيب رغم الوعيد بالمكر، فمكروا كما مكر مَن كان مِن قبلهم "وفي هذا التشبيه رمز إلى أنّ عاقبتهم كعاقبة الأمم الّتي عرفوها. فنقص أرض هؤلاء من أطرافها من مكر الله بهم جزاء مكرهم"[2].

سرّ التّعبير في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾:

عهد السّابقين قريب نسبيًّا، وليس متوغّلًا في القِدم

عبّر النّظمُ الكريم عن الأمم السّابقة بقوله جلّ شأنه: ﴿وَقَدۡ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ ولم يَقُل: (وقد مكر السّابقون)؛ لأنّه أراد أن يُبيّن أنّ الّذين فعلوا ذلك كانوا على عهد قريب من نبوّته ﷺ؛ كما فعل اليهودُ في المدينة النَّبويَّةِ من المكرِ برسول الله ﷺ والمسلمين، وصور ذلك واضحة لا تحتاج إلى تفصيل، ويكفي أن نذكر منها ما فعله بنو النَّضير وبنو قَيْنُقاع، وكان العقاب لهم بمكر الله تعالى أن

(1) الرّاغب، المفردات: (مكر).
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/173.

أجْلاهُم عنِ المدينة وطردهم منها، وكما فعل النَّصارى في أطراف الجزيرة العربيَّة، وحروب الرّوم ليست ببعيدة عنّا.

بلاغة الإيجاز في قوله: ﴿مَكَرَ ٱلَّذِينَ﴾:

كلُّ مَن مكروا، لم ينفعهم مكرهم شيئًا

أوجز النّظمُ الكريم العبارة في قوله جلّ شأنه: ﴿وَقَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا﴾ فحذف ما تقديره: (فلا عبرة بمكرهم)؛ لأنّ المكر لله تعالى جميعًا، والمعنى: قد مكر الكفّار الّذين خَلَوا من قبلِ كفّارِ مكَّةَ بأنبيائهم والمؤمنين، كما مكر هؤلاءِ، فَطوى في هذه الجملة بيانَ مكرِهم الّذي اجتمعوا عليه[1]، ومآل ذلك المَكْر، وهذا الخبر "تسليةٌ لرسول الله ﷺ، بأنّه لا عبرةَ بمَكْرهم ولا تأثير، بل لا وجود له في الحقيقةِ ولم يصرّح بذلك؛ اكتفاءً بدلالة القصرِ المُستفادِ من تعليله أعني قوله تعالى: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ﴾"[2].

دلالة (الفاء) في قوله: ﴿فَلِلَّهِ﴾:

التّدبير كلّه بيد الله تعالى، ومَن أسلم له أمره كفاه

افتتح النّظم الكريمُ الجملةَ في قوله تبارك اسمه: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا﴾ بالفاء الدّالّة على التّعليل؛ لبيان علّة انتفاءِ تأثير مكرهم بدعوة الحقّ، وذلك أنّ التّدبير كلّه بيدِ الله تعالى، فلمّا "كان ذلك كذلك، تسبَّب عنه أن يُقال: ﴿فَلِلَّهِ﴾؛ أي: الملكِ الأعظم المحيط علمُه وقُدرته خاصّةً"[3].

سِرُّ التقديم في قوله: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا﴾:

اختصاص المَكْر به جلّ شأنه، بما يليق بكماله وقهره

قدّم النّظمُ الجليل المُسنَدَ مِن الجارِّ والمجرور ﴿فَلِلَّهِ﴾ على المُسنَد إليه في قوله جلّ شأنه: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا﴾ للدّلالة على اختصاص المَكر به جلّ شأنه، فجِنْسُ المكرِ جميعُه لله تَعالى، و"لا وجودَ لمكرهم أصلًا؛ إذْ هو عبارةٌ عن إيصال المكروهِ إلى الغير من حيث لا يشعُر

(1) البقاعيّ، نَظْم الدّرر: 10/366.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/28.
(3) البقاعيّ، نَظْم الدّرر: 10/366.

به، ولمّا كان جميعُ ما يأتون وما يذرون بعلم اللّه تعالى وقُدرتِه، وإنّما لهم مجرّدُ الكسب من غير فعلٍ ولا تأثير"[1]؛ لذلك كان مَكْرُ جميع الكافرين لا وزن له؛ لأنّه حاصلٌ بتخليق اللّه لَهُ وإرادته؛ فلا يضُرُّ إلّا بإذنه ولا يُؤثِّر إلّا بتقديره، وفيه إشارةٌ لتسليَةِ النبيِّ ﷺ وتثبيت فؤاده بأنَّ مكرَهم لا أثر له؛ لذلكَ لا يكون الخوفُ إلّا مِنَ اللّه تعالى.

دلالة التَّعبير باسمِ الجلالة ﴿فَلِلَّهِ﴾:

لفظ الجلالة يجمع كلّ صفات الجمال والجلال والكمال

عبَّر القرآنُ الكريم بالاسْمِ الأحسَنِ في قوله تعالى: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا﴾؛ لتربيةِ المهابة في القلوب، ولزيادة التّعظيم؛ لأنّ الاسمَ الأحسَنَ يجمع كلَّ صفاتِ الجمال والجلال والكمال؛ فأمْرُ المكرِ مندرجٌ تحت هذه الصّفات؛ لذلكَ كان التّعبيرُ يحمِلُ طَمْأنَةَ رسولِ اللّه ﷺ مِن مكر الماكرين مِنَ المشركينَ.

سِرُّ الإسناد في قوله: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا﴾:

المكر بين الحقيقة والمجاز، مفصحٌ عن المعنى في السّياق

إنَّ إسنادَ المكرِ إلى اللّه تعالى يجوز أن يكون على الحقيقة، والمُراد به تدبيرُ اللّه تعالى ما يسوء به الكافرين باستدراجهم بنعَمِه وما أعدَّ لهم من نقمة بعدها، قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً﴾ [الأنعام: 44].

ويحْتَمِلُ لغويًّا أن يكون على المجاز من باب ذِكْر السّبب، وأراد ما يتسبَّب عنه من العقوبة، ويكون المعنى: فللّه جزاء المكر جميعًا، ويكون هذا الإطلاق من باب الاستعارة أو المشاكلة؛ لأنّ فعله جاء بمقابل فعلهم وردًّا عليهم، فلمّا كان فعلهم مكرًا سُمّي فعله الموضوع إزاءه مكرًا؛ "لأنّه ناشئ عن مكرهم جزاءً لهم"[2]، وعلى هذا يكون إسناد المَكْر إلى اللّه تعالى من باب تسمية العقوبة باسم الذّنب الّذي وقعت عليه، كقوله تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ [الشّورى:

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/28.
(2) البقاعيّ، نَظْم الدّرر: 10/367.

40]. والمُتعيِّنُ هوَ الأوَّلُ وهو أنَّ إسنادَ المَكرِ للّه تعالى حقيقةٌ، والقولُ بالاستعارَةِ أوِ المشاكلَةِ لا يجري على عقيدةِ أهلِ السُّنَّةِ أصحابِ الحديثِ، بل هو مصادِمٌ لَها، مخالفٌ لإجماعِ أهلها.

بلاغة القصر في الآية الكريمة:

في قوله جلّ شأنه: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا﴾ قَصْرٌ بالتّقديم والتّأخير، فقدّم الخبر على المبتدأ، فجعل المَكْرَ مقصورًا على اللّه تعالى، والغرض من ذلك تقوية مضمون الجملة، فلا مكرَ على وجه الحقيقة إلّا للّه تعالى؛ لأنّ مكرَ غيرِه كالمعدوم، لِعَدَمِ قُدْرَتِهم على تنفيذه إلّا أن يشاء اللّه تَعالى وقوعَه، وهو قصرٌ إضافي؛ إذ إنّ المكر يزاوله النّاسُ أيضًا، و"إنّما جعل جميع المكر للّه بتنزيلِ مكر غيره منزلةَ العَدَم"[1]، وهو قصر صفة على موصوف، فصفة المَكْر مقصورة على اللّه تعالى، وقد دلّ هذا القصر على أنّ مَكْر الكافرين لا اعتداد به ولا ثمرة له في تحقيق غايتهم؛ لأنّ اللّه مُذهبٌ كيدهم وجاعله هباءً منثورًا[2].

قصْرُ المَكْر على اللّه تعالى، لتنزيل مَكْر غيره منزلة العدم

دلالة (أل) في لفظ ﴿ٱلْمَكْرُ﴾:

اللّامُ في قوله تَعالى: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ﴾، تدلّ على الجنس والاستغراق، لكلّ أفراد المكر، وفي هذا دليلٌ، على أنّ مكرَ البشرِ مخلوقٌ، ويؤيّد ذلك التّعبير بقوله: ﴿جَمِيعًا﴾.

مكر البشر ضعيفٌ محدودٌ، ومَكرُ اللّه لا تُعيقه قوّةٌ ولا حدود

سرّ فصل قوله: ﴿يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ﴾:

فُصِلت الجملةُ في قوله تبارك اسمه: ﴿يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ﴾ عمّا قبلها؛ لأنَّها بيانٌ تعليليٌّ لمضمون الكلام الآنف؛ "لأنّه لمّا كان يعلم ما تكسب كلّ نفسٍ من ظاهر الكسب وباطنه كان مكرُه أشدّ من مكرِ كلّ نفسٍ؛ لأنّه لا يفوته شيء ممّا تُضمره النّفوس من المكر ... فإنّ القويّ الشّديد الّذي لا يعلم الغيوب قد يكون عقابه

علمه تعالى بالكسب، في الظّاهر والباطن

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/174.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 8/3973.

أشدّ، ولكنّه قد يفوقه الضّعيف بحيلته"[1]، ففيه تأكيدٌ لغَلَبة مَكْرِهِ تعالى لمكرهم؛ إذْ إنّه بالإضافةِ إلى حصر المكر به فإنّه كذلك يعلم كلّ شيء، ومن جملة ذلك شأن مَكْرِهِم، فالعذابُ نازِلٌ بهم لا محالةَ، فاللّه تعالى أحاط بكلّ شيءٍ مكرًا وعلمًا.

دلالة التّعبير بـ ﴿مَا﴾ في الآية:

عِلْم الله تعالى شاملٌ لكلّ شيء

عبّر النّظم الكريم في قوله جلّ شأنه: ﴿يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ﴾ بـ ﴿مَا﴾؛ للدّلالة على العموم، فهو يعلم كلَّ مكرهِم وكَسْبِهِم، فعِلْمُهُ شامِلٌ لكلّ فعلٍ يقومون له، وهذا تأكيد لقدرته ﷻ، فإنّ القديرَ لا بدّ أن يكون عليمًا، وأن يكون علمُه شاملًا.

سرُّ التَّعبير بالكسب دون المكر:

الكسب أعمّ من المكر

عبّر النّظم الكريم بالكسب في قوله جلّ شأنه: ﴿يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ﴾ دون المكر؛ لأنّ الكسب أعمّ من المكر؛ فهو "الفعل لاجتلاب النّفع أو دفع الضّرّ"[2]، فهو جَلّ شأنه يعلم ما يُدَبّرون لاجتلاب النّفع لأنفسهم على وفق ظنّهم، ولم يُعبّر بالمكر؛ لأنّ التّعبيرَ بالكَسْبِ يُشْعِرُ بأنّهم يبتغون جلبَ المنفعة لأنفسِهِم بذلك المكْرِ.

دلالة التّعبير بالمضارع ﴿تَكْسِبُ﴾:

كلّ كسب يصدر من العبد، فالله يعلمه

لمّا كان أمرُ الكسب من الإنسان مُتجدّدًا، سواءٌ أكان في الظّاهر أم في الباطن؛ عبّر عنه بالفعل المضارع ﴿تَكْسِبُ﴾، وناسب ذلك التّعبير عن العِلْمِ بالمضارع بقوله: ﴿يَعْلَمُ﴾ ليُدلّل على أنّ كلّ كسبٍ يصدر مِنَ العبد، فاللّه يعلمه، وفي هذا تحذيرٌ مِن ارتكاب المعاصي، وعلى رأسِها المكر السَّيِّئُ.

بلاغة التَّعبير بقوله: ﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾:

علم الله تعالى كلّيٌّ وجزئيٌّ، يتعلّق بعموم كلّ نفس

في قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ﴾ مِنَ المعلوم أنّ اللّه

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/174.
(2) البقاعيّ، نَظْم الدّرر: 10/367.

تعالى يعلم ما تَفْعَلُ النّفوس وما تكسب، ولم يَقُلْ: (يعلم ما تكسب النّفوس)؛ لأنّه ليس نصًّا في الشّمول، فعبّر عن تأكيد إحاطة علمه بكلّ نفسٍ بإسناد الكسب إلى ﴿كُلُّ﴾، فيكون ذلك تأكيدًا لعلمه الشّامل بكسب كلِّ نفس على وجه الاستقلال؛ أيْ: أنّه ﷻ ليس علمه كلّيًّا وحسب، بل يتعلّق بالجزئيّات أيضًا.

دلالة العطف في قوله: ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّٰرُ﴾:

الجملةُ في قوله تعالى: ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّٰرُ لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ معطوفةٌ على الجملة في قوله تبارك اسمه: ﴿وَقَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾[1]، فلمّا بيّنَ أنّهم في شأن المكر كالّذين من قبلهم مكروا دون أن ينالوا مأرَبَهم؛ أخبرَ عن سوءِ عاقبتهم وعلمهم الّذي سيتحقّق بخيبة مَكْرِهِم.

خيبة المكر في الدّنيا، يتبعها سوء العاقبة في الآخرة

دلالة السّين في قوله: ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّٰرُ﴾:

أدخل النّظمُ البليغُ سينَ الاستقبال في قوله تبارك اسمه: ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّٰرُ لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾؛ لأنّها تدلّ على وقوع الخبرِ في المستقبل؛ فالعلم بذلك كائنٌ في المستقبل، وهو حين توضع موازين العدل ليقضي بين العباد؛ ولمّا كان هذا معلومًا بأنّه واقع في المستقبل، فإنّ السّين هنا "لتأكيد وقوعِ ذلك وعلمِهم به حينئذٍ"[2].

الوعد المستقبل من الله تعالى، قطعيّ الوقوع، مُؤكَّد التّحقّق

سرُّ التّعبير بالعلم في قوله: ﴿وَسَيَعْلَمُ﴾:

آثرَ القرآنُ الكريم التّعبيرَ بالعلم في قوله تعالى: ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّٰرُ لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾؛ لأنّ المُراد به علم المعاينة، لا علم الإخبار، والكفّار قد عاينوا توالي الهزائم لهم معركةً بعد معركةٍ حتّى أصبحت أرض الجزيرة العربيّة أرض إسلام، ولا مكان للكُفر فيها، واندحر الشّرك وأهله من المنافقين واليهود الّذين كانوا يكيدون للإسلام، وأصبحت الكلمة العليا في هذه الأرض للمسلمينَ.

العاقبة للمتّقين، ولو كاد لهم أهل الأرض أجمعين

(1) محمود صافي، الجدول في إعراب القرآن: 7/149.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/28.

سرّ اختيار جمع ﴿ٱلۡكُفَّرُ﴾ بهذه الصيغة:

المُخبَر عنهم جنس الكفّار، لا مجموعة منهم

اختار النّظمُ الكريم التّعبيرَ بصيغة الجَمْعِ ﴿ٱلۡكُفَّرُ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَسَيَعۡلَمُ ٱلۡكُفَّرُ لِمَنۡ عُقۡبَى ٱلدَّارِ﴾ دون (الكافرين) كما سبق في قوله تعالى: ﴿وَّعُقۡبَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ﴾ (الكفّار) صيغة جمع تكسير؛ لأنّ جمعَ التّكسير يُقَرِّبُ الصّفات من الاسميّة و(الكافرون) صيغة جمع مُذكر سالم، والجمع السّالم يُقرِّب الصّفات من الفعليّة، ويُراد به الحَدَث في الغالب، أمّا جمع التّكسير فهو دالٌّ على الذّوات، كما أنّ الكفّار فيه شيء من المبالغة لما في التّضعيف والتّثقيل من أثر صوتيّ، فهو يدلّ على التّكثير، كما أنَّ فيه دلالة على جنس الكفّار، فهو يشمل كلّ كافر "أي: كلّ كافر بوعد لا خُلْف فيه، إن كان من الجهل بحيث لا يعلم الأشياء إلّا بالتّصريح أو الحسّ"[1].

دلالة تعدّد القراءات في لفظ ﴿ٱلۡكُفَّرُ﴾:

للقراءات القرآنيّة دور في توجيه المعنى بتنوّع وبيان

قرأ نافع وابنُ كثير وأبو عمرو هذا اللّفظ بالإفراد (الكافر)، ووجه ذلك أنَّ اللّامَ فيه للجنس يستغرق كلّ أفراد الكفّار؛ كالإنسان في قوله: ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ۝٢﴾، وقرأ الباقون بالجمع في قوله: ﴿وَسَيَعۡلَمُ ٱلۡكُفَّرُ﴾؛ والمُراد: جميع أهل الكفر[2].

دلالة التّعبير بقوله: ﴿عُقۡبَى ٱلدَّارِ﴾:

عاقبة الحياة الدّنيا، لأهل الإيمان، ممّا سيتيقّنه آنئذٍ أهل الكفران

عبّر القرآنُ الكريمُ بقوله: ﴿عُقۡبَى ٱلدَّارِ﴾؛ لِما تَحْمِلُه مِن تحذير الكافرين، ودعوة المؤمنين إلى العمل؛ لأنّ المعنى عاقبة هذه الحياة الدّنيا الّتي تكون فيها المغالبة بين الحقّ والباطل، والكفر والإيمان، لَمن تكون العاقبة؟ تكون لأهل الإيمان بما أعدّه الله لهم من النَّعيم، والنّار لِمَن عصى وتكبّر، وفي ذلك خسران مبينٌ لهم.

(1) البقاعيّ، نَظْم الدّرر: 10/367.
(2) ابن أبي مريم، الموضّح: 2/705.

سرّ تَكرار الألفاظ من الجَذر (عقب):

تَكرار المُهمّ، تأكيدٌ له وترسيخٌ لذِكره

تكرّرت في السّورة ألفاظ العاقبة كما في قوله جلّ شأنه: ﴿وَسَيَعۡلَمُ ٱلۡكُفَّٰرُ لِمَنۡ عُقۡبَى ٱلدَّارِ﴾، وقوله تعالى: ﴿تِلۡكَ عُقۡبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْۚ وَّعُقۡبَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَحۡكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكۡمِهِۦۚ﴾، وقوله جلّ ذكره: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٞ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ﴾ [الرعد: 11]؛ وذلك لبناء السّورة على أمْرِ بيان العاقبة ومآل النّاس إلى مصيرهم، فأكثرت السّورة من لفظ العُقْبى للتّذكير والتّنويه به، بحيث يكون حاضرًا في السّمع، وتألفه الأذن، فيرسخ في الفؤاد.

﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَسۡتَ مُرۡسَلٗاۚ قُلۡ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدَۢا بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡ وَمَنۡ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلۡكِتَٰبِ ٤٣﴾ [الرعد: 43]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

ذكْرُ الأقوالِ بعدَ الأفعالِ تعضيدٌ للحُجَّةِ وتَقويةٌ للبيانِ

لمّا تقدَّمَ في الآيةِ السّابقةِ بيانُ غفْلةِ الماكرين عن مكرِ اللّه تعالى، وأنَّه واقعٌ بهم عذابُه، وبالمؤمنين رضوانُه، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَقَدۡ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ فَلِلَّهِ ٱلۡمَكۡرُ جَمِيعٗاۖ يَعۡلَمُ مَا تَكۡسِبُ كُلُّ نَفۡسٖۗ وَسَيَعۡلَمُ ٱلۡكُفَّٰرُ لِمَنۡ عُقۡبَى ٱلدَّارِ ٤٢﴾ [الرعد: 42] ناسبَ أن يَذكُرَ في هذه الآية قيلَهم الذي يُؤكِّدُ تلك الغفلةَ، بتَكرارِ نفْيِ الرِّسالة عنِ النَّبيِّ ﷺ، فالمناسبةُ بين الآيتَين بيانُ غفلةِ الماكرين في أفعالهم وأقوالِهم، فهي من عطْفِ الأقوال على الأفعالِ التي تشتركُ في وحدةِ الهدفِ وهو الصَّدُّ عن سبيلِ اللّه تعالى.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿كَفَىٰ﴾: الكاف والفاء والحرف المعتلُّ أصلٌ صحيحٌ يدلُّ على الحَسْبِ الذي لا مُستزادَ فيه، يُقال: كفاك الشَّيءَ يكفيك، وقد كفى كفايةً، إذا قام بالأمر، والكُفية: القوتُ الكافي، والجمع كُفًى، ويقال حَسْبُك زيدٌ من رجلٍ، وكافيك[1]، و"كفى اللّه، أي: أغنى عن غيره"[2]، و"الكِفايَةُ: ما فيه سدُّ الخُلّة، وبلوغُ المراد في الأمر. قال اللّه تعالى: ﴿وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلۡقِتَالَۚ﴾ [الأحزاب: 25]"[3]. والمقصودُ بـ ﴿كَفَىٰ﴾ في الآية: حسْبيَ اللّه[4].

2) ﴿ٱلۡكِتَٰبِ﴾: الكاف والتّاء والباء أصلٌ صحيحٌ واحدٌ يدلُّ على

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (كفا).
(2) الصُّحاري، الإبانة في اللغة العربية: (حرف الباء): 2/209.
(3) الراغب، المفردات: (كفى).
(4) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/473.

جمع شيءٍ إلى شيءٍ[1]، و"الكتْبُ: ضَمُّ أديمٍ إلى أديمٍ بالخياطة"[2]، "وفي التّعارف: ضمُّ الحروف بعضِها إلى بعضٍ بالخطّ، وقد يقال ذلك للمضموم بعضُها إلى بعضٍ باللّفظ، فالأصلُ في الْكِتابَةِ: النّظمُ بالخطّ لكنْ يُستعارُ كلُّ واحدٍ للآخر، ولهذا سُمّي كلامُ اللّه – وإن لم يُكْتَبْ – كِتابًا كقوله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ [البقرة: 1 - 2]، وقوله: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ [مريم: 30].

والكِتابُ في الأصل مصدرٌ، ثم سُمّي المكتوبُ فيه كتابًا، والكِتابُ في الأصل اسمٌ للصّحيفة مع المكتوب فيه، وفي قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [النساء: 153] فإنّه يعني صحيفةً فيها كِتابَةٌ؛ ولهذا قال: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِي قِرْطَاسٍ﴾ [الأنعام: 7]"[3]. والمرادُ بـ ﴿ٱلْكِتَٰبِ﴾ في الآيةِ الكتبُ السّابقةُ كالتَّوراة والإنجيلِ على قولٍ[4]، والقرآنِ على قولٍ آخرَ[5].

المَعْنى الإجْماليّ:

قليلُ الحقِّ كفيلٌ بصدِّ كثيرِ الباطلِ

تذكرُ الآيةُ قيلَ المشركين الذي يُصرّون عليه وهو نفيُ الرِّسالة عن رسول اللّه ﷺ، قصدًا منهم في الصَّدِّ عن دين اللّه تعالى الذي جابهَ معتقداتِهم وسلوكيّاتِهم، وقد جاء قولُ المشركين هذا بعد إثبات النُّبوّةِ وتحدّي المشركين أن يأتوا بمثْلِ القرآن، وقد جاء التَّعليمُ الرَّبانيُّ بالرَّدِّ عليهم بأنَّ اللّه كافيه إيّاهم بشهادتِه على ما كان بينَهم، وشهادةِ أهل الكتابِ، ليبرهنَ على أنَّ الرَّسولَ المبعوثَ من عند اللّه تعالى يَكتفي بقليل الكلامِ الحقِّ، لصَدْعِ الباطل الكثيرِ الصّادرِ عمَّن يريدُ المكرَ والشَّرَّ.

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (كتب).
(2) الراغب، المفردات: (كتب).
(3) الراغب، المفردات: (كتب).
(4) ابن جرير، جامع البيان: 16/502، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/473، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/176.
(5) ابن عادل، اللباب: 11/326، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/29.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيّ:

معنى الواوِ في قوله: ﴿وَيَقُولُ﴾:

اغتِناءُ القرآنِ بالنَّبيِّ ﷺ تسليةً وتثبيتًا كرامةٌ وتشريفٌ

الواوُ في قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ تحتملُ أن تكونَ للعطفِ، أوِ الاستئنافِ؛ فإذا جعلنا الواوَ عاطفةً تكونُ الجملةُ معطوفةً على الجملة التي قبلَها، فهما خبرانِ خارجان إلى معنًى بلاغيٍّ وهو تسليةُ النَّبيِّ، وتهوينُ تكذيبِهم على قلبِه ﷺ، ومواساتُه وشدُّ أزرِه، وتوجيهُه نحوَ الردّ المناسبِ؛ فعزيمةُ العبدِ في حاجةٍ إلى تقويةِ اللّه سبحانه ومساندتِه[1].

وتحتملُ أن تكونَ الواوُ للاستئنافِ، أي: بعد أن ذكرَ أفعالَ الماكرين في الآية السّابقة، اسْتأنفَ ليذكرَ أقوالَهم، فالواو مستأنَفةٌ مسوقةٌ لإجمالِ الشّبهاتِ الستِّ التي أوردوها، والتي تنتهي في اعتقادِهم إلى هذه النّتيجةِ وهي إبطالُ رسالتِه ﷺ[2].

وعلى الاحتِمالَين فإنَّ النَّتيجةَ لا تختلفُ كثيرًا، إذ جاءتِ الآيةُ لتسليةِ النَّبيِّ ﷺ، فعلى القول بالعطْفِ هي من باب عطْفِ قيلِهم على مضمون الآيةِ السّابقة المُخبرةِ عن أفعال المكرِ، وإن كانت استئنافيَّةً فإنَّها كذلك خطابٌ واضحٌ شأنُه تسليةُ النبيِّ ﷺ في الموقفِ من كلامِ المشركين.

وقد ذهب البقاعيُّ إلى أنَّ هذه الآية معطوفةٌ على قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦٓۗ﴾ [الرعد: 27]، والعطفُ غيرُ مُستساغٍ لتباعُدِ ما بين الجُملتَين، إلا أن يُحملَ على عطف القولِ على القولِ الشّبيهِ بعطف القصّة على القصّة، فهو من عطفِ القصصِ لا عطفِ الجُملِ.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/175.
(2) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 5/136.

نُكتةُ التَّعبيرِ بفعلِ القولِ مضارعًا:

كلامُ الباطلِ عندما يتجدَّدُ يكونُ عجيبًا في مَنبعِه ومَبْعثِه

للمضارعةِ في قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ وهم قد قالوا ذلك؛ إيحاءٌ دقيقٌ منبثقٌ من دلالة التّجدّدِ، وهي أنَّهم غيرُ مؤمنين بما يقولون، وأنّه قولٌ صادرٌ منَ اللّسان لمجرّد الحسدِ والحقدِ والجحودِ لا عن يقين وقناعةٍ، ونظيرُ ذلك قولُه ﷺ في موضعٍ آخرَ: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأنعام: 33]، فهو قولٌ لا رصيدَ له من اعتقادٍ قلبيٍّ، وكيف وهم ﴿يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ﴾ [البقرة: 146].

عجيبٌ حالُهم يستحقُّ تصويرَه وكأنّه مُشاهَدٌ الآن، ومستقبلًا ليشملَ مَن قالها ومن سيقولُها

وأفادَ التّعبيرُ بصيغةِ المضارع هنا ثلاثةَ أوجُهٍ، الأول: التّعجّبُ كقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ۚ﴾ [الحج: 63]، ولم يقل: فأصبحتْ، الثّاني: التَّصويرُ كأنّها لم تزلْ واقعةً مُشاهَدةً، الثّالث: ليتناولَ اللّفظُ مَن قالها ومَن سيقولُ مثلَها في المستقبل[1]. ففي المضارعيّة "استحضارُ صورةِ كلمتِهم الشّنعاءِ؛ تعجيبًا منها، أو للدّلالةِ على تجدُّدِ ذلك واستمرارِه منهم"[2]، فبرغْمِ يقينِهم بأنَّ محمّدًا ﷺ الصّادقُ الذي لا يَكذبُ، الأمينُ الذي لا يَخون، فإنّهم يُجدّدون هذا القولَ، ولا يَفْتؤون عن قوله له كلَّما رأوه، وهذا من عجيبِ حالِهم.

فكانت دلالةُ المضارعةِ هنا بارعةً في ترجمة الدّلالتَين معًا: أنّهم غيرُ مؤمنين بما يقولونَه له، وأنّهم لا يزالون يُجدّدون هذا القولَ بأنّه ﷺ ليس مُرسلاً بعد ثُبوتِ حُجج النُّبوّةِ وقيامِ أدلَّة الحقِّ ورُؤيةِ دلائلِ الصِّدقِ.

بَلاغةُ حذْفِ مَنْ وُجِّه إليه الكلامُ:

تَكرارُ الباطلِ دليلُ قوَّةِ صاحبِ الحقِّ

مُقتضى النّظمِ في قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَسْتَ

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/436.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/29، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/175.

مُرۡسَلٗاۚ﴾ أن يُذكرَ المقولُ له ﴿لَسۡتَ مُرۡسَلٗاۚ﴾، وهو الرّسولُ ﷺ، أي: ويقول الذين كفروا للنّبيِّ ﷺ أو لك: لستَ مرسلًا، فحُذف اسمُه ﷺ للعلم به؛ لأنّه لم يقل بالرسالة أحدٌ غيرُه، وقد دلّتْ تاءُ الخطاب في قوله تعالى: ﴿لَسۡتَ﴾ على تعْيينه بالخطاب، وبلاغةُ ذلك تظهرُ في كونِ النَّظم يُبرزُ عنصرَ الحوار بين الكافرين والنَّبيِّ ﷺ في توجيه الاتِّهامِ له بنفيِ الرِّسالة عنه، فأُضمرَ من قيل له ذلك اتِّكاءً على تاء الخطابِ، واستحضارًا للقولِ ساعةَ أنْ قيلَ.

نُكتةُ التَّعبيرِ بالاسمِ الموصولِ:

لا يصدرُ عنِ الكافرين في مواجهةِ الحقِّ إلا مَحضُ الشَّرِّ

الاسمُ الموصولُ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ يتّسِمُ بإبهام الدّلالةِ وخفائِها؛ لذلك وُصفَ الموصولُ بأنّه فقيرُ الدّلالة؛ فيحتاجُ إلى ما يَسُدُّ فقرَ دلالتِه، فإذا جاءت صِلةُ الموصول توجّهَ الموصولُ وتحدّدتْ دلالتُه، وهنا جاءت صلةُ الموصول ﴿كَفَرُواْ﴾، وبها تحدّدت وجهةُ الكلام، وعرفَ المُتلقّي طبيعةَ الخبرِ الذي يصدرُ عن ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾، وهذه الدّلالةُ هي التي يعبّرُ عنها البلاغيّون في مهامِّ التّعريف بالموصول: الإيماءُ إلى وجهِ بناء الخبرِ[1]، ويأتي خبرُ مقولِهم هنا من وادي ﴿لَسۡتَ مُرۡسَلٗاۚ﴾ - والعياذُ باللّه ﷻ - من التّكذيب بالحُسنى.

دَلالةُ التَّعبيرِ بعُنوانِ الكفرِ:

الكُفرُ وراءَ كلِّ تصدٍّ للرَّسول والرسالةِ في كلِّ زمانٍ

جاء التَّعبيرُ بالكفرِ دونَ الشِّركِ في قولِه تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾؛ لأنَّ وصفَ الكفرِ أعمُّ منَ الشِّرك، كما أنَّ الكفرَ هو عنوانُ التَّصدّي الجامعِ للرسالةِ والرَّسول والمُرسِلِ، فإنَّ هذه الكلمةَ بما تحملُه من معنًى لُغويٍّ وهو التّغطيةُ، وما تحملُه من معنًى اصطلاحيٍّ وهو تغطيةُ الحقِّ وإعلانُ الحرب عليه، كانت هي الأنسبُ في هذا

(1) التفتازاني، عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح: 1/172.

السّياقِ، كما أنَّ فيها إيماءً إلى أنَّ الكفرَ ثابتٌ في تصدّيه لدعوة الإسلامِ في كلِّ زمان، بأشكالٍ متباينةٍ، وألوانٍ مختلفةٍ.

دَلالةُ صيغةِ الماضي ﴿كَفَرُواْ﴾:

زعامةُ الكُفرِ خِصّيصةُ أكابِرِ المُجرمين

عُبِّرَ عن كفرِ الكافرين بصيغة الماضي في قوله تعالى: ﴿كَفَرُواْ﴾، ولم يُعبَّرْ بالمضارعِ كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: 21]، وذلك لبيانِ تحقّقِ فعلِ الكفرِ وصدّقِ وقوعِه من ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ وترسُّخِه في قلوبِهم، وتشرّبِه في نفوسهم، بلحاظِ الاسْم الموصول؛ فالذين يَتصدَّون لدعوةِ النَّبيِّ ﷺ همُ الكافرون الرّاسِخون في الكفرِ، والمعانِدون على أصوله.

دَلالةُ الجملةِ الفعليَّةِ المنفيَّةِ:

النَّظمُ يُظهرُ خَفيّاتِ النُّفوسِ وبَواطنَ القلوبِ

ينتقلُ التّعبيرُ منَ المضارع إلى الماضي إلى الجملةِ الفعليَّةِ المنفيَّةِ ﴿لَسۡتَ مُرۡسَلٗاۚ﴾، في تنويعٍ بارعٍ يفيضُ على الأسلوب حيويّةً، ويَنفي عنه الرّتابةَ والفتورَ؛ إذ أتى مقولُ ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ ﴿لَسۡتَ مُرۡسَلٗاۚ﴾. مضمونُها نفيُ الرّسالةِ عنِ الرّسول ﷺ جملةً وتفصيلًا، وبهذا اللّفظ القاطعِ ﴿لَسۡتَ مُرۡسَلٗاۚ﴾، أي: "إنَّما أنت مُدَّعٍ ما ليس لك"[1]. فأنت يا محمّد ﴿لَسۡتَ مُرۡسَلٗاۚ﴾ في الماضي و﴿لَسۡتَ مُرۡسَلٗاۚ﴾ في الحال و﴿لَسۡتَ مُرۡسَلٗاۚ﴾ في المستقبل، أي لست عندنا بمنزلة أن تكون رسولًا أصلًا، ولو جاء التّعبيرُ بالفعل الماضي: (وقال الذين كفروا لم يرسلك الله، أو لن يرسلك)؛ لبقي احتمالُ أن يرسلَك مستقبلاً، وهم يريدون نفيَ الرّسالة عنه بالكلّيّة، وفي الأزمان كلِّها، والإخبارَ بأنَّه ليس هنالك رسولٌ أصلاً؛ فاختصارُ الكلام في كلمتين يكشفُ عن خُبثِهم، ودهائِهم في محاولة إخفاءِ هذه الحقيقةِ، وعدَمِ الإكثارِ منَ الكلام حولَها.

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 6/403.

نُكتةُ التَّعبيرِ بنفْيِ الرِّسالةِ لا النُّبوّةِ:

مَضامينُ المَعاني كامِنةٌ في دقائقِ الألفاظِ

إيثارُ وصْفِ الرّسالةِ لا النّبوّةِ في جملة النّفي ﴿لَسْتَ مُرْسَلًا﴾ يشيرُ إلى حسَدِ القوم، ويقرّرُ أنَّ الذي أغاظَهم هو إرسالُ اللّه تعالى له، فالإرسالُ يتضمّنُ النّبوّةَ لُزومًا، وتشريفَ المُرسَلِ، وتعظيمَ شأنِه عند منْ أرسلَه، ففيه إشارةٌ إلى ما تُكِنُّه صدورُهم منَ الحسدِ، وربّما لوِ اقتَصر أمرُه ﷺ على نبوَّةٍ فيها تكاليفُ لم يُؤمَر بتبليغِها لهانَ عليهمُ الأمرُ.

نُكتةُ حذْفِ مُتعلَّقِ الإرْسالِ:

مُبالغةُ الحاسِدِ في نفْيِ النِّعَمِ عن أهلِها شأنُ الحاقِدِ المُفلِسِ

إنَّ حقْدَ القومِ الدّفينَ هو الذي حملَهم على إطلاقِ نفْيِ الإرسالِ عنه ﷺ وعدمِ تقييدِه بقولهم مثلا: لستَ مُرسلًا منَ اللّه؛ حتى لم تُطِقْ نفوسُهم أن تنطقِ ألسنتُهم بإرسالِه ﷺ من قِبَلِ اللّه تعالى ولو كان النّطقُ به على سبيل النّفي؛ لذلك أطلَقوا: ﴿لَسْتَ مُرْسَلًا﴾، أي: لستَ مُرسلًا مطلقًا ومن أيِّ جهةٍ كان الإرسالُ، فهم بهذا النَّفي المُقترنِ بالإطلاقِ دون التَّقييدِ يُشيرون بطرْفٍ خفيٍّ إلى أنَّه ليس أهلًا للإرسالِ أصلًا لا منَ اللّه تعالى ولا من غيره، وهذا في غاية بُؤسِ الحقدِ، وصميمِ رذالةِ الحسدِ.

بَلاغةُ الفصْلِ في جملةِ القولِ:

إرشادُ الوحْيِ خيرُ نجاةٍ عند نزولِ المِحَنِ، وأعظمُ انتصارٍ عند وقوعِ الفتنِ

لمّا كان قولُ الكافرين: ﴿لَسْتَ مُرْسَلًا﴾ صريحًا في عُنوانه ومضمونِه "أُمِرَ الرَّسولُ ﷺ بجوابٍ لا جدالَ فيه، وهو تحكيمُ اللّه بينه وبينَهم، وقد أُمرَ الرّسولُ ﷺ بأن يجيبَهم جوابَ الواثقِ بصدْقِه المُستشهدِ على ذلك بشهادة الصّدْقِ من إشهادِ اللّه تعالى وإشهادِ العالِمين بالكتبِ والشّرائع"[1].

فجُملةُ ﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ توجيهٌ منَ اللّه تعالى لرسولِه ﷺ في الرَّدِّ على كلام الكفّارِ، ومُقتضى جملةِ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/175.

المحاوَرة الفصلُ لا الوصلُ، ونُكتتُه بيانُ المسارعةِ في الرَّدِّ على عُدوان الكافرين، وعدمُ التزامِ الصَّمتِ بما فيه تثبيتٌ للباطلِ، وتدلُّ هذه الجملةُ ﴿قُلۡ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدَۢا﴾ على أنَّ اللّٰه تعالى لا يتخلَّى عن أوليائِه، بل يُرشدُهم لِما فيه الصَّلاحُ، فإرشاداتُ الوحْيِ هي خيرُ نجاةٍ عند المحنِ، وأفضلُ انتصارٍ عند وقوعِ الفتنِ.

بَلاغةُ حَذْفِ المقولِ لهم:

جاء النَّظمُ بقولِه تعالى: ﴿قُلۡ كَفَىٰ﴾ دونَ أن يُقال: (قل لهم كفى)؛ ودليلُ الحذفِ هنا ضميرُ الخطابِ في قوله تعالى: ﴿وَبَيۡنَكُمۡ﴾، وكأن في ذلك إهمالًا لذكرِهم جزاءَ إهمالِهم ذكْرَه ﷺ في قولِهم المطلقِ دونَ التَّقييد بذكرِه ﷺ إلا بضميرِ الخطاب: ﴿لَسۡتَ مُرۡسَلٗاۚ﴾؛ وبهذا حصلَ التَّناظرُ والتَّوازي بين هذه الجملةِ والتي قبلَها في حذْفِ مَن وُجِّه له الخطابُ بِنَفْيِ الإرسالِ عنه.

التَّناظُرُ بين الجُملِ مُلحقٌ بتناظُرِ المتُحاوِرين

نُكتةُ التَّعبيرِ بـ ﴿كَفَىٰ بِٱللَّهِ﴾:

جاء التَّعبيرُ بقوله تعالى: ﴿كَفَىٰ بِٱللَّهِ﴾ دون أن يقول: (حسبيَ اللّٰه) كما في قوله تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُلۡ حَسۡبِيَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ﴾ [التوبة: 129]؛ وذلك بقصْدِ إحالةِ "الكافرين على موقف الحسابِ والمُساءلةِ بين يدي اللّٰه، وهو سُبحانه حَكَمٌ عَدْلٌ بينهم وبين النّبيّ ﷺ، عالمٌ بما كان منه من أمانةٍ في تبليغ ما أُمِر بتبليغه من ربّه، وما كان منهم من تكذيبٍ وبَهْتٍ وكُفْر"[1]، وفي هذا الردّ تقويةٌ للمؤمنِ، وتعزيزٌ لجانبِ الثِّقةِ باللّٰه تعالى، فهو مُتَّكَؤُهُ في محنتِه، فيكفيه اللّٰه تعالى ناصرًا ومعينًا، ويكفيه حَكَمًا وعَدْلًا، ويكفيه في الدّنيا والآخرة، ويكفيه على كلّ حالٍ، ولا يوجدُ في اللغة مادَّةٌ لغويّةٌ تعادلُ هذه المادّةَ ﴿كَفَىٰ﴾ وتسدُّ مَسدَّها في

شَهادةُ اللّٰه كِفايةٌ تسدُّ كلَّ احتياجٍ وتدفعُ كلَّ ابتلاءٍ

(1) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 7/145.

باب الطّمأنةِ، إنّها الكفايةُ والاكتفاءُ به ﷻ وأنعِم بها من كفاية! فهذا من كمال الاتّصاف[1].

دَلالةُ اسْتِعمالِ الباء:

اخْتِصاصُ الله تعالى بالشّهادةِ غايةُ الإيمانِ، والانقيادِ، والتّسليمِ

للباء في قوله تعالى: ﴿كَفَىٰ بِٱللَّهِ﴾ إشاراتٌ تَنفي عنها القولَ بزيادتِها؛ لأنّها تنشرُ معانيَ الاعتصامِ والاكتفاءِ واللِّواذ والإيمانِ والاستمساكِ به ﷻ، فليست هذه الباء - كما يقولون - حرفًا زائدًا بل هو أحدُ عُمُدِ الدّلالةِ، يَضيعُ بغيابها معانٍ مُتكاثرةٌ بوجودها.

وقولُ النُّحاة: إنّها الباءُ الزّائدةُ المؤكِّدةُ، وإنّها تُزادُ في الفاعل، فيكونُ تقديرُ قوله تعالى: ﴿كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ بدونها: (كفى الله شهيدًا)، لا يوَفّيها حقَّها المنوطَ بها في هذا التركيب وأشباهِه، فقولُنا: كفى الله شهيدًا؛ لا يوازي قولَ الحقِّ سُبحانه: ﴿كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾، وذلك أنَّ النَّظمَ القرآنيَّ أعطى سِمةً دلاليَّةً وهي الاختصاصُ، فكأنَّه قال: كفى بالله وحدَه شهيدًا، في حينِ أنّ قولَنا: كفى الله شهيدًا، هو إخبارٌ محضٌ، ومن هنا افترق التَّعبيرُ بين الجُملتَين.

سِرُّ التَّعبيرِ باسمِ الجلالةِ (الله):

تَوْريثُ الأمانِ في قلوبِ المؤمنين والهَيْبةِ في صدورِ الجاحِدين

اسمُ الجلالة هو العَلَمُ الذي يتضمَّنُ بقيَّةَ الأسماء الحسنى والصّفات العُلا لله الواحدِ الخالق الرّازقِ الوارثِ ﷻ، فهو يُغني عنها إذ يجمعُها جميعًا، ولا يُغني عنه غيرُه منفردًا؛ لذلك كان ذكرُه ﷻ بهذا الاسمِ الشّريفِ (الله) ﷻ مكمنَ الأمان ومصدرَ الطّمأنينةِ، ويظلّ اسْمُه العظيمُ (الله) ﷻ ملاذَ المؤمنين في مواجهة الكافرين، وهو ينشرُ معانيَ الجلالِ الذي قد يردعُ الكافرين ويَكبحُهم عن ظلمِهم، ويردُّ سوءَ أدبِهم عن رسولِه ﷺ والمؤمنين، فكيف بمن هذا شأنُه إذا شهدَ على العبادِ.

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/437.

دَلالةُ صيغةِ المُبالغةِ (شهيد):

شَهادةُ الباري سُبحانه مُستوفيةٌ لشرائطِها، شاملةٌ جميعَ أفعالِهم وأقوالِهم

قولُه تعالى: ﴿شَهِيدًا﴾، أي: بليغُ العلْمِ في شهادتِه[1]، فهو من باب المبالغةِ، والمبالغةُ في نفس الشّهادةِ باعتبار اسْتيفاءِ وجوهِها وجميعِ شرائطِها حتى لا يَشذَّ عنه من حال المشهودِ عليه في نفس الشّهادةِ شيءٌ[2]، وبذا ستكونُ الشَّهادةُ شاملةً على جميعِ أفعالِهم وأقوالِهم، وهو ما يتَّسقُ مع السّياق، ﴿وَقَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا ۖ يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّٰرُ لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٤٢﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَسْتَ مُرْسَلًا ۚ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [الرعد: 42 - 43] وهذا أقوَى في إبراز عُنصرِ المحاسبةِ والمُساءلةِ يومَ القيامةِ.

شَهادتُه تعالى في الدّنيا على ظُهورِ المُعجِزاتِ، وفي الآخرةِ بالمُجازاةِ

وقولُه تعالى: ﴿شَهِيدًا﴾ يعمُّ الدّنيا والآخرةَ فالدّنيا باعتبار ظُهورِ المُعجزاتِ على يديْ رسولِ اللّه ﷺ وهي تُنزّلُ منزلةَ قوله: صدقَ عبدي؛ فصار كالشّهادة لأحدِ الخَصمين بالصّدقِ في دَعواه باعتبار آيِ القرآن. قال تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾ [آل عمران: 144] وأمّا الآخرةُ فباعتبارِ مُجازاتِه إياهم وعقابِهم على تكذيبِهم[3].

نُكتةُ إيثارِ صيغةِ (شهيد) دون (شاهد):

تُستعملُ (شهيدٌ) في الشَّهادةِ الكليَّةِ الشّاملةِ، أمّا (شاهدٌ) ففي إقامةِ الحُجَّةِ

اشتقاقُ الشّاهدِ والشّهيد منَ الجَذرِ الثلاثيّ (شهد)، لكنْ هناك فرقٌ دقيقٌ بينهما من حيث المعنى في الاستعمالِ، فالشّهيدُ على وزن فَعيل وهي من صيغِ المبالغةِ، فالشَّهيدُ هو الذي يشهدُ شهادةً شُموليَّةً عامَّةً كما في الشَّهادةِ يومَ القيامةِ، كما قال سبحانه: ﴿وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ﴾ [البقرة: 143]، وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 4/163.
(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/437.
(3) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/437.

كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ﴿٣٣﴾﴾ [النساء: 33]، وقال: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾﴾ [النساء: 41]، وتستعملُ صيغةُ (شهيد) في مواضعَ يُراد بها المبالغةُ بقصْدِ الاحترازِ من مثْلِ قولِه تعالى: ﴿وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ﴾ [البقرة: 282]، فإنَّ مُقتضى المقابلةِ الإتيانُ بشاهدٍ، لكنَّ النّظمَ أتى بشهيدٍ بقصْدِ المبالغةِ، لبيانِ أنَّ هذا الشَّهيدَ قد عمَّت شهادتُه ورَسخت، ومثلُه قولُه تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾﴾ [ق: 37].

وهذا بخلافِ الشّاهدِ فهو على وزن اسْمِ الفاعلِ، ففيه معنى الشَّهادةِ بغرَضِ إقامةِ الحُجّةِ، دون معنى الشُّمولِ الكلّيِّ، وذلك مثلُ قولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾﴾ [الأحزاب: 45]، وقولِه تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾﴾ [المزمل: 15]، وقولِه تعالى: ﴿قَالَ هِيَ رَٰوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي ۚ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ﴾ [يوسف: 26].

بَلاغةُ الاستعارةِ في لفظِ (شهيد):

شَهادةُ اللهِ تعالى أقْوَى وأكبرُ

الشَّهادَةُ مُستعارةٌ لإظهارِ المعجزة الدّالَّةِ على رسالته، والجامعُ بينَهما مطلقُ الدّلالةِ، لكنَّ دلالةَ الشّهادةِ وضعيّةٌ، يحتملُ تخلّفُ مدلولِها عنها ودلالةَ الأدلّةِ العَقْليَّة دلالةٌ عَقْليَّةٌ لا يمكنُ تخلّفُ مدلولِها عنها، فشهادةُ اللّه تعالى أكبرُ وأقوَى شهادةٍ[1]. فجعلَ هذا شهادةً مع أنّه فعل، والشّهادةُ قولٌ؛ على سبيل الاستعارةِ؛ لأنه يُغني عنِ الشّهادة بل هو أقوَى[2].

دَلالة تَكرارِ الظّرْفِ (بين):

أهلُ الحقِّ يُباينون أهلَ الباطلِ، ولا يُخالطونَهم في باطلِهم

جاءَ النَّظمُ بتَكرار الظَّرفِ (بين) في قولِه تعالى: ﴿بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ دون أن يقول: (فكفى باللّه شهيدًا بيننا)، وذلك لإيقاع

(1) القونوي وابن التمجيد، حاشية على تفسير البيضاويّ: 10/532.
(2) القاسمي، محاسن التأويل: 6/294.

الفصْلِ بين طرفَي الحقِّ والباطلِ لفظًا كما هو واقعًا، فإنَّ الجملةَ تومئُ إلى الحسابِ والحكمِ بين المُتخاصِمين، فكان الفصلُ بينهم هو الأليقُ بالمقام، والأنسبُ بالسّياقِ.

سِرُّ استِعمالِ حرفِ الظَّرفيّةِ:

الجمْعُ بين الشَّهادةِ على العبادِ والحُكمِ عليهم

غالبُ تعْديةِ فعلِ الشّهادةِ بحرف الجرّ (على)، فيُقال: شهدَ على كذا، لكنْ في قوله تعالى: ﴿بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ لم يتعدَّ الفعلُ بحرفِ الاستعلاءِ، بل استُعملَ الظَّرفُ مُتعلِّقًا بقولِه تعالى: ﴿شَهِيدًا﴾، أي: أنَّ اللّه سيشهدُ بيني وبينَكم، وهذا الاستعمالُ الفريدُ يُنبئُ عنِ الجمعِ بين أمرَين، وهما الشَّهادةُ الشّاملةُ، والحُكمُ بين المتخاصِمين، فأشبَه هذا أسلوبَ التَّضمينِ، وهذا في غايةِ الوَجازةِ الجامعةِ بين الأداةِ والغاية، أمّا الأداةُ فهي الشَّهادةُ، وأمّا الغايةُ فهي الحكمُ الفصلُ، وبذلك يمتلئُ الأسلوبُ ويُعْمَرُ بالدّلالتَين معًا: دلالةِ الشّهادة، ودلالةِ الفصلِ والحُكمِ.

بَلاغةُ التَّعبيرِ بالظّرفِ (بين):

ما يُريدُه المُبطِلون تشخيصُ الخِلافِ وهذا ما يأباه القرآنُ

معنى شهادةِ اللّه تعالى بين الرّسولِ ﷺ وبين الكفّارِ لا محالةَ أنّه شهيد "عليَّ وعليكم بصدْقي وكذبِكم"[1]. بأنْ "يشهدَ بتأْييدِ رسالتي وتصحيحِ مقالتي بما أظهرَ لي منَ الآية وأوضحَ منَ الدّلالة بهذا الكتاب، ويشهدُ بتكذيبِكم بادّعائِكمُ القُدرةَ على المعارضةِ وترْكِكم لها عجزًا، وهذا أعلى مراتبِ الشّهادةِ"[2]؛ لكنْ لو جاءتِ الشّهادةُ على هذا الظّاهرِ فقيل: كفى باللّه شهيدًا عليكم، أو شهيدًا لي؛ لأوْغِرَتِ الصُّدورُ، واستُفِزَّ في القوم الجهلُ والحميّةُ، ولأصبحتِ القضيّةُ شخصيَّةً، وهذا ما يُريده المُبطلون، ويأباه القرآن، فضلًا عن ضياع معنى الفصلِ والحُكم المُستفادَين من ذِكر الظّرفِ

(1) ابن جرير، جامع البيان: 13/581.
(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 4/164.

(بين)، فما أدقَّه من تعبيرٍ قرآنيٍّ كريمٍ، وما أعظمَه من إعجازٍ بيانيٍّ دقيقٍ!

دَلالةُ العطْفِ في قولِه: ﴿وَمَنْ﴾:

مَن عنده علمُ الكتابِ شهيدٌ على العبادِ

اختلفَ المُفسِّرون في المقصودِ بـ ﴿ٱلْكِتَٰبِ﴾ وبمن ﴿عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ اختلافًا كبيرًا، فمنهم من ذهب إلى أنَّ المقصودَ به اللّه تعالى، ومن قال إنَّ المقصودَ به جبريلُ عليه السلام، ومنهم من قال: إنّ المقصودَ به علماءُ أهلِ الكتاب، وهؤلاءِ قالوا بأنَّ المقصودَ به معيَّنٌ، ومنهم من ذهب إلى أنَّه جنسُ علماءِ أهلِ الكتاب[1]، ومُقتضى العطفِ أن يكون هناك اختلافٌ بين المعطوفِ والمعطوفِ عليه، فالصَّحيحُ في هذا أنَّ ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ﴾ "اسمُ جنسٍ يشملُ علماءَ أهلِ الكتابِ الذينَ يجدونَ صفةَ مُحَمَّدٍ ﷺ ونَعْتَهُ في كُتُبِهِمُ المُتَقَدِّمَةِ مِنْ بِشاراتِ الأنْبياءِ بِهِ، كما قال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ﴾ [الأعراف: 156 - 157]"[2].

وهذا ما يشيرُ إليه قولُه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ﴾ [الأنعام: 20]، وقولُه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ [الرعد: 36]، وقولُه سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [القصص: 52]، وقولُه جلّ شأنُه: ﴿أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٩٧﴾﴾ [الشعراء: 197].

دَلالةُ التَّعبيرِ بالاسْمِ الموصولِ:

إقامةُ الحُجَّةِ ببيانِ المَقْصودِ وشَرْحِ المَطْلوبِ

جاء التَّعبيرُ بالاسمِ الموصولِ (مَنْ) في قولِه تعالى: ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ دونَ الاسْمِ الظّاهرِ لِما يأتي:

(1) الماوردي، النكت والعيون: 3/119، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 9/337، والشوكاني، فتح القدير: 3/108، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/176.

(2) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/474.

أوّلاً: إفادةُ العموم وإقامةُ الحجَّة ببيانِ أنَّ المذكورَ هو الحقيقُ بعلمِ ما جاءَ به محمَّدٌ ﷺ.

ثانيًا: التَّعبيرُ بالاسمِ الموصولِ يقومُ مقامَ الموصوفِ، والتّقديرُ: واللّه الذي عنده علمُ الكتاب، على القولِ الأوَّل، أو: وأهلُ الكتابِ الذين عندهم علمُ الكتابِ.

ثالثًا: جاء التَّعبيرُ بلفظِ ﴿وَمَنْ﴾ دون (الذي) ليدخلَ تحتها الإفرادُ والتّثنيةُ والجمعُ، وبه يصحُّ الاحتمالُ المتعدِّدُ في الآيةِ.

رابعًا: العنايةُ بصلةِ الموصولِ، وهو ثباتُ علمِ الكتابِ، فإنَّ التّعبيرَ بصلةِ الموصولِ أقوَى منَ التَّعبيرِ بالاسمِ الظّاهر في بيانِ المرادِ، وهي أوجزُ في شرحِ المطلوبِ.

خامسًا: وفي سَوقِه هكذا على طريق الإبهام من ترويعِ النّفس بهزِّها إلى تَطلُّبِ المُتّصفِ بهذا الوصفِ ما ليس في التّعيين، فهو إذًا كدَعوَى الشّيءِ مقرونًا بدليلِه[1].

نُكتةُ تقديمِ الظَّرفِ:

إفادةُ اختصاصِ علمِ اللهِ بالكتابِ أو الاهتمام بعلم أهل الكتابِ

تقديم الظَّرفِ في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ إن حملناه على أنَّ المقصودَ بالذي عنده علمُ الكتاب اللّه ﷻ فإنَّه يفيدُ الاختصاصَ، وهو الشّائعُ استعمالًا في القرآنِ، في مثلِ قولِ اللّه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾﴾ [آل عمران: 14]، وقولِ اللّه تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾ [الأنفال: 28]، وقولِ اللّه تعالى: ﴿وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾﴾ [الرعد: 8].

وذلك ما يُغري بترجيحِ كوْنِ المقصود بـ ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ هو اللّه ﷻ، ويرجّحُ ذلك القولَ أيضًا أنّه لا اعتدادَ بشهادةِ غيرِ اللّه تعالى مع شهادتِه عزَّ وعلا. وإن حملناه على أنَّ المقصودَ

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 4/164.

بالذي عنده علمُ الكتاب أهلُ الكتاب، فإنَّ التَّقديمَ يُفيدَ الاهتمامَ، يقول الآلوسي: "والحصرُ إمّا منَ الخارج لأنَّ علمَ ذلك مخصوصٌ به تعالى، أو للذّهاب إلى أنَّ الظّرفَ خبرٌ مقدّمٌ فيفيدُ الحصْرَ"[1].

نُكتةُ إفرادِ الضَّميرِ في ﴿عِندَهُۥ﴾:

تنزيلُ أهلِ الكتابِ منزلةَ الرَّجلِ الواحدِ في علمِهم بصدقِ النَّبيِّ ﷺ

جاءَ الضَّميرُ في قولِه تعالى: ﴿عِندَهُۥ﴾ مُفردًا، ونُكتةُ ذلك على القول بأنَّ المقصودَ بالموصول أهلُ الكتابِ هو مراعاةُ لفظِ ﴿وَمَنۡ﴾[2]، وتنزيلُ أهلِ الكتاب منزلةَ الرَّجلِ الواحدِ؛ لاتِّفاقِهم على صدْقِ النَّبيِّ ﷺ، وعلى القول بأنَّ المقصودَ بالموصولِ اللّه تعالى، فإنَّ الإفرادَ مُناسبٌ للّفْظِ والمعنى.

نُكتةُ تعريفِ العلْمِ بالإضافة:

ما كان مُدوَّنًا فإنَّه أقوَى حُجَّةً وأرسخُ بُرهانًا

كان بالإمكان تحقيقُ الإيجاز بتعريف العلْم بأل؛ فيُقال: (ومن عنده العلمُ)، غير أنَّ التّعريفَ بالإضافة في قوله تعالى: ﴿عِلۡمُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ يُشعِرُ بأنَّ العلمَ مُدوَّنٌ مكتوبٌ حُجَّةٌ على الجميع المكذِّبِ والمكذَّبِ جميعًا، وذلك من شأنه إحياءُ شعورِ المُحاسبةِ، والخوفِ من شهادةِ المَسطورِ المدوَّنِ الذي لا يُنسى ولا يضيعُ، وهذا على القولِ بأنَّ من عنده علمُ الكتاب هو اللّه تعالى، وأمّا على القولِ الآخر، فإنَّ نُكتةَ ذلك هو الإشعارُ بأنَّ علْمَهم قائمٌ على أساسٍ متينٍ، وشهادتَهم متينةٌ وهي حقيقةٌ بالقَبولِ.

بَلاغةُ الكنايةِ في ﴿عِلۡمُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾:

اللّه تعالى عليمٌ بجميعِ الأشياءِ

المُراد بـ ﴿ٱلۡكِتَٰبِ﴾: "اللّوحُ كما في قوله: ﴿وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ ٣٩﴾ [الرعد: 39] وعلْمُه كنايةٌ عن علْمِه تعالى بجميع الأشياء؛ إذ ما من كائنٍ إلّا وهو مكتوبٌ فيه وليس المُرادُ العلمَ بنفس اللّوح بل بما فيه منَ الكائناتِ والفاسداتِ"[3].

(1) الألوسي، روح المعاني: 7/165.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/65.
(3) القونوي وابن التمجيد، حاشية على تفسير البيضاويّ: 10/532.

بَلاغةُ تعريفِ ﴿ٱلۡكِتَٰبِ﴾:

الكتابُ هو الكامِلُ في الصِّفاتِ والعَجيبُ في اشْتِمالِ الحقائقِ والدَّلالاتِ

تعريفُ ﴿ٱلۡكِتَٰبِ﴾ يدلُّ على أنَّه ليس كتابًا مثلَ كُتبِكم التي تتداولونَها وما تتّسمُ بها من تصحيفٍ وتحريفٍ وتضييعٍ، وما تؤولُ إليه من بِلى وضياعٍ وما إلى ذلك، فهو الكتابُ الكاملُ المبرَّأُ من كلِّ هذه العيوبِ محفوظٌ مَصونٌ إلى يوم الدين، فقيل إنَّ علمَ الكتاب هو "علمُ القرآنِ، وما عليه منَ النَّظمِ المُعجزِ"[1]، وقيل: "هو التَّوراةُ، أي وشهادةُ علماءِ الكتابِ وذلك أنَّ اليهودَ كانوا قبلَ هجرةِ النَّبي ﷺ إلى المدينةِ يستَظهرونَ على المشركينَ بِمَجيءِ النَّبي المُصدِّقِ للتَّوراةِ"[2].

لَطيفَةٌ في موقعِ الآيةِ الكريمةِ:

الذِّكرُ الحكيمُ مُتَّسِقٌ اتِّساقًا دقيقًا من أوَّلِه إلى آخرِه

يقول صاحبُ التَّفسير القرآني للقرآن: "بهذه الآية الكريمة تُختمُ سورةُ الرعد؛ فيلتقي خِتامُها مع بدئها: ﴿الٓمٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِۗ وَٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ ١﴾ [الرعد: 1]، ثم يصافحُ هذا الختامُ بدْءَ السّورة التي بعدها - إبراهيم -: ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ١ ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَوَيۡلٞ لِّلۡكَٰفِرِينَ مِنۡ عَذَابٖ شَدِيدٍ﴾".

فقولُه تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَسۡتَ مُرۡسَلٗاۚ﴾ جوابُ الكافرين على هذا الكتابِ الذي جاءهم النّبيُّ ﷺ به، والذي هو الحقُّ الذي أُنزلَ إليه من ربّه، وقولُه تعالى في أول سورة إبراهيم - بعد هذه السورة -: ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ﴾ ردٌّ على

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/29.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/65.

جواب هؤلاء الكافرين، وردْعٌ لهم، وأنّهم لم يَخرجوا منَ الظّلماتِ إلى النّور، ولم يأذنِ اللّه لهم بالخروج من تلك الظّلماتِ"[1].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيّةُ:

البعثُ، والإرسالُ:

مُهمّةُ الرُّسلِ إنذارُ العبادِ واقتضى ذلك رسالةً، والبعثُ إرسالٌ وزيادةٌ

البعثُ: الإثارةُ، والتّوجيهُ، والتّنبيهُ[2]. لذا قد يكونُ فيه إرسالٌ وفيه معانٍ أخرى غيرُ الإرسال، أي: فيه إرسالٌ وزيادةٌ. كبعثِ الموتى. و"الإرسالُ لا يكونُ إلّا برسالةٍ وما يَجري مَجراها"[3]. وتستلزمُه أطرافٌ ثلاثةٌ: (المُرسِلُ، والمُرسَلُ، والمرسَلُ اليه) من (رسالة) لفظيّةً كانت أو معنويّةً، في حين أنّ البعثَ قد يَستغني عنها ولا يَتطلّبُها، ويَستدْعي التّفريقَ بين الإرسال والبعثِ لحاظُ البَوْنِ بين إرسال اللّه ﷻ الأنبياءَ (عليهم السلام)، وإرسالِه الشّياطينَ. فـ"إرسالُه الأنبياءَ إنّما هو وحيُه إليهم أن أنذروا عبادي، وإرسالُه الشّياطينَ على الكافرين: تَخْليتُهم وإيّاهم. كما تقول: كان في يدي طائر فأرسلتُه، أي: خلّيتُه، وأطلقتُه"[4]، ولمّا كان لفظُ الرّسولِ واضحًا مكرّرًا في أكثرَ من موضعٍ في السّورة مع ذكر الرّسالة (إنذارِ العباد) المُعبَّرِ عنه بقوله تعالى: ﴿لِّتَتْلُوَاْ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ [الرعد: 30] ناسبَ اصْطفاءُ لفظِ ﴿مُرْسَلًاۚ﴾ في الآيةِ.

(1) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 7/144.
(2) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة: (بعث).
(3) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 268.
(4) الأزهري، تهذيب اللغة: (رسل).

سُورَةُ إِبْرَاهِيمَ

سُورَةُ إِبْرَاهِيمَ

التَّعريف العامّ بالسّورة:

سورةُ إبراهيمَ مكيَّةٌ بالإجماعِ، مع وجود بعض أقوال في مكية الآيتين (28- 29)[1].

وسورةُ إبراهيمَ هي السّورةُ الرّابعةَ عشرةَ من حيث ترتيبُها في المصحفِ الشّريفِ بعد سورة الرّعدِ وقبْلَ سورةِ الحِجر، وأمّا ترتيبها النُّزولي فقد عدَّ السّيوطيُّ قبلَها سبعين سورةً[2]، وعدَّها بعضهم نازلةً بَعْدَ سورَةِ نوحٍ وقبلَ سورَة الأنبياء الثّانية والسّبعين في عِدادِ النُّزولِ[3].

وأمّا عددُ آياتها فاثنتان وخمسون آيةً في العدد الكوفيّ، وإحدى وخمسون في البصْريّ، وأربع وخمسون في المدنيّ والمكّيّ، وخمس وخمسون في الشّاميّ[4].

أسماءُ السّورةِ ومناسبة التّسمية:

لم يُعرف لسورةِ إبراهيمَ غيرُ هذا الاسْمِ التّوقيفيِّ، وقد حاول أن يُقدِّمَ المَهايميّ تعليلًا لهذه التَّسميةِ، فقال: "سُمّيت به لاشتمالها على دعواتٍ لإبراهيمَ عليه السلام تمتُّ بهذه الملّةِ كالحُجج، وجعْلِ الكعبةِ قبلةَ الصّلاة مع الدّلالة على عظمتِها بحيث صارت منَ المطالب المهمّةِ للمتّفقِ على غاية كمالِ إبراهيم عليه السلام، وعلى نبوّة نبيِّنا عليه أكملُ التّحيّات وأفضلُ التّسليمات مع غاية كمالِه"[5]، وهذا ظاهرٌ في التّسميةِ، ولكنّه لا ينهضُ أن يكونَ السّببَ القطعيَّ لذلك، فقد ورد اسمُ إبراهيمَ عليه السلام في سورة البقرة نحو خمس عشرة مرّة ولم تُسمّ باسْمِه!.

والذي يظهرُ أنّ تسميةَ هذه السّورة باسم إبراهيمَ عليه السلام إنّما جاء لارتباطه بمحورِها

(1) ابن الجوزي، زاد المسير: 2/503، والشوكاني، فتح القدير: 3/111، ودروزة، التفسير الحديث: 5/213، وطنطاوي، التّفسير الوسيط: 7/505.

(2) السيوطي، الاتقان: 1/43.

(3) دروزة، التّفسير الحديث: 5/213.

(4) الداني، البيان في عدّ الآي، ص: 177.

(5) المهايمي، تبصير الرّحمن وتيسير المنّان: 1/386.

العامِّ المتعلّقِ بدور دعوةِ إبراهيم عليه السلام إلى الله في تحقيق الأمنِ الذي هو أصلُ النِّعَم المحسوسةِ، والتَّوحيدِ الذي هو أصلُ النِّعَم المعنويّةِ، فإبراهيمُ عليه السلام قد ربطَ في دعائه بين هذين الأمرَين، الأمنِ والتَّوحيدِ، فقال: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾﴾ [إبراهيم: 35].

وإذا كانت هذه السّورةُ قد تناولت في محورِها العامِّ الحديثَ عن شُكرِ النِّعم وجحودِها؛ فإنّ إبراهيمَ عليه السلام هو رائدُ هذا الشّكرِ، فقد ربطَ في دعائه بين طلبِ الرّزق مِنَ الثّمرات للبلد الحرامِ وبين الغايةِ من ذلك فقال: ﴿وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [إبراهيم: 37]، وقال تعالى في وصفه: ﴿شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ۚ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾﴾ [النحل: 121].

وخلاصةُ الأمرِ أنَّ تسميةَ السّورةِ باسم إبراهيمَ عليه السلام إنَّما كان لربْطِ موضوعِ السّورةِ بأبرزِ خصائصِ أبي الأنبياء وهو الدُّعاءُ للنّاس بإنزال الأمنِ، واجتنابِ الشِّرك، وشُكْرِ الله على نِعمه وآلائه، فالتَّسميةُ لم تكن بالاسم العلَمِ، بل بما ارتبطَ به هذا النّبيُّ من معانٍ نبَّهت عليها السّورةُ، فهي تسميةٌ متعلِّقةٌ بخصائصِ صاحبِ الاسمِ لا بالاسمِ المجرَّدِ.

المِحورُ الذي تدور حولَه موضوعاتُ السّورةِ:

يقول البقاعيُّ: "مقصودُ السّورةِ التّوحيدُ، وبيانُ أنّ هذا الكتابَ غايةُ البلاغِ إلى الله؛ لأنّه كافلٌ ببيانِ الصّراط الدّالِّ عليه المُؤدّي إليه، ناقلٌ - بما فيه منَ الأسرار - للخلْقِ من طورٍ إلى طورٍ بما يشيرُ إليه حرف الرّاء، وأدلُّ ما فيها على هذا المرام قصّةُ إبراهيمَ عليه السلام، أمّا التّوحيدُ فواضحٌ، وأمّا أمرُ الكتاب فلأنّه من جملة دعائه لذرّيته الذين أسكنَهم عند البيت المحرّم من ذرّية إسماعيلَ عليه السلام: ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ﴾ [البقرة: 129]"[1].

إنّ النّاظرَ في موضوعات السّورةِ وعلاقاتِها الدّاخليّةِ والخارجيّةِ مع السّور المُجاورةِ يجدُ أنّ محورَ هذه السّورة الذي يُميّزها عَنْ غيرها منَ السّورِ المكّيّةِ تناولها دورَ الدّعوةِ إلى الله في تحقيق الأمنِ والتّوحيدِ، ودورَ الصّراعِ الأزليِّ بين الحقِّ والباطلِ الّذي يواجهُها في سبيل تحقيقِ ذلك، مُتناولةً المنهجَ التّربويَّ السّليمَ في مواجهة هذا

(1) البقاعي، نظم الدرر: 10/369.

الصّراعِ، و"في السورة تقريرٌ لمهمّةِ النّبيّ، وحمْلةٌ على كفّار العربِ وخاصّة زعماءهم، وتذكيرٌ ببعض الرّسلِ السّابقين ومواقفِ أُمَمِهم منهم، وإنذارٌ بالمصائرِ السّيّئة التي صاروا إليها وتقريرُ كوْنِ الإيمان هو أساسُ كلِّ عملٍ صالحٍ وطريقٍ قويمٍ وكونِ الكفر هو مُحبطٌ لكلّ عملٍ وموردٌ للهلاك، وتنديدٌ بما انطبعَ عليه النّاسُ منَ الكفرِ والجحودِ لنعمِ الله وحكايةٌ لمناجاةِ إبراهيمَ ربَّه وحملتِه على الأصنام وتقريعٌ صارمٌ للظالمين في معرضِ تثبيتِ النّبيّ وتطْمينِه"[1].

فقد تقرّرَ ذلك بكلّ وضوحٍ في الآيتيْن الأولى والأخيرة منَ السّورة في قوله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝١﴾ [إبراهيم: 1]، وقولِه: ﴿هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُواْ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ۝٥٢﴾ [إبراهيم: 52]، فقد تناولتْ هاتان الآيتان أركانَ الدّعوة الرّئيسةَ وهي: الدّاعي، متمثّلا في حالة الرّسل ﷺ، وهم مُمثَّلين بشخصِ النّبيّ محمّدٍ ﷺ، والمدعوّ؛ وهمُ النّاس جميعًا، والمَدْعو إليه وهو صراطُ العزيز الحميدِ، ومادّةُ الدّعوة أو مقصودُها وهو إخراجُ النّاس منَ الظّلمات إلى النّور ليوحّدوا الله ﷻ، ووسائلُ الدّعوةِ من هداية النّاسِ، واستعمالُ التّرغيب والتّرهيب والتّذكيرِ، وتناولت هاتان الآيتان الإشارةَ إلى الصّراع الذي يرافق ذلك والذي يُعوزُ الرّسلَ فيه إلى الإنذار أوِ التّبشير.

الخصائصُ الموضوعيّةُ:

وتناولتِ السّورةُ الكريمةُ في سبيل تحقيق محورِها مواقفَ النّاس من هذه الدّعوة وانقسامَهم في شأنها إلى مؤمنين وكافرين، ظالمين ومُستكبرين ومستضعَفين، وأتباعًا ومُتّبعين.

وفصّلتِ السّورةُ كذلك وسائلَ الدّعوة في كتابَي الله: الكونِ المنظورِ، والكتابِ المسطورِ، فعرضت آياتُ الله في الأنفس والآفاقِ، وعرضت هداياتِ الرّسلِ وكُتبَهم إلى أقوامِهم، متناولةً صفاتِ هؤلاء الرّسلِ ومهمّاتِهم، ووسائلَهم العقليّةَ والعاطفيّةَ في إثبات الحقّ ونفْيِ الشّبهات بما يلائمُ حالَ المَدعوّين: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ﴾، وقولُه: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ﴾،

(1) دروزة، التفسير الحديث: 5/213.

وقولُه: ﴿۞قَالَتۡ رُسُلُهُمۡ أَفِي ٱللَّهِ شَكّٞ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ يَدۡعُوكُمۡ لِيَغۡفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ وَيُؤَخِّرَكُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ﴾ [إبراهيم: 10]، وقولُه على لسانهم: ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدۡ هَدَىٰنَا سُبُلَنَاۚ وَلَنَصۡبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيۡتُمُونَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ ١٢﴾ [إبراهيم: 12].

واستعملتِ السّورةُ في سبيل تحقيقِ الدّعوةِ أساليبَ متنوّعةً منها: التّرغيبُ والتّرهيبُ، والخبرُ والإنشاءُ، والقصصُ، وضربُ الأمثال، وركّزت كثيرًا على التّذكير بالنّعم وشُكرِها، والتّحذيرِ من جحود هذه النّعمِ ونُكرانِها.

وتحدّثتِ السّورةُ عنِ الدّعوة من خلال بيان العقبات التي تقفُ في طريقها، أو أسبابِ إعراض النّاسِ عنها: من إيثارٍ للدّنيا، واختلالٍ في الموازين، وتبعيّةٍ عمياءَ، وبيّنتِ السّورةُ كذلك بعضَ أساليب المُنكرين للدّعوة من تشكيكٍ وصدٍّ وسُخريةٍ وتهديدٍ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمۡ لَنُخۡرِجَنَّكُم مِّنۡ أَرۡضِنَآ أَوۡ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَاۖ﴾ [إبراهيم: 13].

وعرضتِ السّورةُ في أثناء ذلك كلِّه نماذجَ منَ دعوة الأنبياء ﷺ، من خلال قِصّتَيْ موسى وإبراهيم ﷺ والإشارةِ إلى بقيّة الأنبياء، وهو ما ورد في الآية رقم 9.

وبيّنتِ السّورةُ في تقريرها لمَحورِها الذي قامت عليه أثرُ الاستجابةِ لدعوةِ الأنبياء في تحقيقِ الأمن والتّوحيدِ من خلال دعوةِ أبي الأنبياءِ إبراهيمَ ﷺ، والواردة في أواخر السورة في الآيات (35–41).

وأخيرًا عرضتِ السّورةُ ثمرةَ هذه الدّعوةِ، فبيّنت جزاءَ الفريقيْن: المؤمنِ والكافرِ في الدّنيا والآخرة، وبيّنت جزاءَ الشيطان وأتباعِه منَ المُستكبرين والمُستضعَفين، فالمُستجيبون للدّعوة يَجدون في الدّنيا رغدَ العيشِ وديمومةَ النِّعم، وأمّا المُعرضون عنها فيقاسون مرارةَ زوالِ النّعم وسنّةِ الاستبدالِ وتغيّرِ الأحوالِ، وأمّا في الآخرة فقد بيّنتِ السّورةُ حالَ الفريقَيْن، وهو ما ورد في الآيات (49 – 51) والآية (23).

وتناولتِ الحديثَ عن نِعم اللّه في الإرشاد، والإيجادِ، والإمدادِ في إزاء المُنكرين لها، إذ كثرت في السّورة ألفاظُ النِّعم والشّكرِ ومقارباتُها، وأضدادُها كالكفر وغيره، وكثرت فيها الآياتُ الّتي تذكّرُ بهذه النّعم في الأنفسِ والآفاق، كما في الآيات (5– 7)، والآيات (28– 29)، والآيات (32– 34، 37).

وتفرّدتِ السّورةُ بحديثها عن أنّ إرسالَ الرّسلِ كان بلُغاتِ أقوامهم، فقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ﴾، وهذه إشارةٌ تاريخيَّةٌ مُنسابةٌ في سورةٍ حملت اسمَ إبراهيمَ عليه السلام، وفيها تَسليةُ الرّسولِ ﷺ عمّا لقيه من مُشركي قريش، تارةً عن طريق ما لقيه الأنبياءُ السّابقون من أقوامهم، وتارةً عن طريق بيانِ أنّ العاقبةَ للمتّقين.

وتفرّدتِ السّورةُ بمشاهدَ حِواريّةٍ بين المُستكبرين والمُستضعَفين في الآخرة، وفي خطبة إبليسَ في أتباعه في ذلك الموقف العظيم، وذلك في الآيات (21- 22).

وتفرّدتِ السّورةُ بالحديث عنِ الاستبدال بأنواعِه كافّةً، سواءٌ أكان إيجابيًّا أم سلبيًّا، للأفضلِ أم للأسوأ كما في الآيات: (1، 7، 13، 14، 28، 48).

الخصائصُ الأسلوبية:

هناك العديدُ منَ الأساليب والقضايا اللّغويّةِ التي ميّزت هذه السّورةَ عن غيرها منَ السّور وإن شاركتْها في بعض السّماتِ ومنها:

أوّلاً: بروزُ ظاهرةِ التّقابلِ والتّضادِّ الثّنائيّةُ التي حفلت بها السّورةُ من أوّلها إلى آخرها، في كلّ مقطعٍ، بل في كلّ آية منها تجدُ الثّنائيّاتِ الضّديّةَ المتقابلةَ في جنباتِها، من مثلِ تقابلِ الهداية مع الضّلالِ، والشّكرِ مع الكفرِ، والوعدِ مع الوعيد، والمُستكبرين مع المستضعَفين، والكلمةِ الطّيبة مع الخبيثةِ، والتّثبيتِ مع الإبدال، والسّرِّ مع العلانيّة، والاتّباعِ مع العصيان، والإيمانِ مع الشكّ، و﴿صِرَاطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ﴾ مع ﴿وَيَبۡغُونَهَا عِوَجًاۚ﴾، و﴿لَنُخۡرِجَنَّكُم﴾ [إبراهيم: 13] مع ﴿وَلَنُسۡكِنَنَّكُمُ﴾ [إبراهيم: 14]، و﴿وَيُذَبِّحُونَ﴾ [إبراهيم: 6] مع ﴿وَيَسۡتَحۡيُونَ﴾ [إبراهيم: 6]، و﴿وَيَأۡتِيهِ ٱلۡمَوۡتُ﴾ [إبراهيم: 17] مع ﴿وَمَا هُوَ بِمَيِّتٖۖ﴾ [إبراهيم: 17]، و﴿يَتَجَرَّعُهُۥ﴾ [إبراهيم: 17] مع ﴿وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ﴾ [إبراهيم: 17]، و﴿وَعَدَكُمۡ وَعۡدَ ٱلۡحَقِّ﴾ [إبراهيم: 22] مع ﴿وَوَعَدتُّكُمۡ فَأَخۡلَفۡتُكُمۡۖ﴾ [إبراهيم: 22]، و﴿فَلَا تَلُومُونِي﴾ [إبراهيم: 22] مع ﴿وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُمۖ﴾ [إبراهيم: 22]، فضلًا عنِ التّقابلاتِ المشهورةِ في القرآنِ من مثلِ التّقابلِ بين السّماء والأرض، واللّيل والنّهارِ، والإخفاءِ والعلنِ، والظّلماتِ والنّورِ، والجزعِ والصّبر، وغيرِها.

ثانيًا: تفرّدتِ السّورةُ بأمثلةٍ وتشبيهاتٍ وصورٍ بيانيّةٍ لم تردْ في غيرها من السّور، مثلَ تشبيه أعمال الكافرين بالرّمادِ، وتشبيه الكلمة الطّيبةِ بالشّجرة الطّيبةِ، والكلمة الخبيثةِ بالشّجرة الخبيثةِ.

ثالثًا: تفرّدت سورةُ إبراهيم عن غيرها منَ السّورِ باشتقاقاتٍ وصيغٍ لم تردْ إلّا في هذه السّورة، ومن تلك الألفاظ: ﴿ثَابِتٌ﴾ [إبراهيم: 24]، و﴿دَآبِبَيْنِ﴾ [إبراهيم: 33]، و﴿ٱلْبَوَارِ ۝٢٨﴾ [إبراهيم: 28]، و﴿أَضْلَلْنَ﴾ [إبراهيم: 36]، و﴿تَشْخَصُ﴾ [إبراهيم: 42]، و﴿خَبِيثَةٍ﴾ [إبراهيم: 26]، و﴿زَوَالٍ ۝٤٤﴾ [إبراهيم: 44]، و﴿قَطِرَانٍ﴾ [إبراهيم: 50]، و﴿مُقْنِعِي﴾ [إبراهيم: 43]، و﴿بِمُصْرِخِكُمْ﴾ [إبراهيم: 22]، و﴿بِمُصْرِخِيَّ﴾ [إبراهيم: 22]، وغيرُها كثيرٌ، وحظيتِ السّورةُ الكريمةُ كذلك بألفاظٍ تفرّدت بها عن غيرها منَ السّور من جهة الجَذرِ والمادّة؛ وهذه الألفاظُ هي: ﴿يَتَجَرَّعُهُۥ﴾ [إبراهيم: 17] و﴿كَرَمَادٍ﴾ [إبراهيم: 18] و﴿وَفَرْعُهَا﴾ [إبراهيم: 24] و﴿ٱجْتُثَّتْ﴾ [إبراهيم: 26]، وإنّ الجامعَ لهذه الألفاظِ التي تفرّدت بها السّورةُ أنّها ذاتُ اتّصال مباشرٍ بمحورِ السّورة القائم على بيان أثرِ الدّعوة في تحقيقِ الأمن والتّوحيدِ، وأنّ الكفرَ بهذه الدّعوةِ مُؤذنٌ بزوال الأمنِ وخرابِ العُمران.

المناسبةُ بين سورتي الرّعدِ وإبراهيمَ:

أوّلاً: ذكرَ سُبحانه في السّورتَين أنّه أنزل القرآنُ حُكمًا عربيًّا، ولم يُصرّحْ بحِكمةِ ذلك في الرّعد وصرّح بها في سورة إبراهيمَ.

ثانيًا: اتّفقتِ السّورتان على أنَّ أمرَ المُعجزاتِ متوقّفٌ على إذن اللّه تعالى، ففي سورة الرّعد ذكرَ قولَه: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [الرعد: 38]، وفي سورة إبراهيم ذكرَ أنّ الرّسل قالوا: ﴿وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [إبراهيم: 11].

ثالثًا: ذكرَ في سورة الرّعد أمرَه عليه السلام بالتّوكّل على اللّه، وفي إبراهيم حكى عن إخوانه المُرسلين أمْرَهم بالتّوكّل عليه جلَّ شأنُه.

رابعًا: اشتملت سورةُ الرّعد على تمثيل الحقّ والباطلِ، واشتملت سورة إبراهيمَ على ذلك أيضًا.

خامسًا: ذكرَ في سورة الرّعد رفْعَ السماء بغير عمد ومدَّ الأرضِ، وتسخيرَ الشّمس والقمرِ، وذكرَ في إبراهيم نحوَ ذلك.

سادسًا: ذكرَ في الرّعد مكرَ الكفّار وذكرَ مثلَه في إبراهيمَ، وذكر مِن وصْفِه ما لم يذكرْ هناك[1].

(1) المراغي، تفسير المراغي: 13/122.

سابعًا: قولُه تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَسْتَ مُرْسَلًاۚ﴾ جوابُ الكافرين على هذا الكتابِ الذي جاءهمُ النّبيّ ﷺ به، والذي هو الحقُّ الذي أُنزل إليه من ربّه، وقولُه تعالى في أول سورة إبراهيم - بعد هذه السورة -: ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ ردٌّ على جواب هؤلاء الكافرين، وردعٌ لهم، وأنّهم لم يخرجوا منَ الظلمات إلى النّور، ولم يأذنِ اللّه لهم بالخروج من تلك الظّلماتِ[1].

والحقُّ أنّ سورةَ إبراهيم قد أكملتْ صراعَ الحقّ مع الباطل الّذي شرعَتْه سورةُ الرّعد، من خلال بيانِ كفاحِ الأنبياء مع أقوامهم، وما آلَ إليه حالُ تلك الأقوام، وعرضتِ السّورةُ الكريمةُ مشاهدَ من أحداث اليومِ الآخرِ تبيّنُ عاقبةَ هذا الصّراع الطّويلِ بين الحقّ وأهلِ الباطل، وكيف يتبرّأُ الباطلُ من نفسه وأعوانِه، فكأنّ السّورةَ الكريمةَ قد أجملت موجزَ هذه الرّحلةِ الطّويلةِ للأنبياء عليهم السلام مُمثَّلين بإبراهيمَ عليه السلام جدِّ الأنبياء جميعًا وانتهاءً بخاتمِ النّبيّين ﷺ، فهي رحلةُ التّدافعِ الكونيِّ والصّراعِ الأزليِّ بين الحقّ والباطلِ، حتّى يُزهقَ الحقُّ الباطلَ ويظهرَ أمرُ اللّه.

المناسبةُ بين سورتَيْ إبراهيمَ والحجرِ:

أوّلاً: جاء في آخر سورةِ إبراهيمَ قولُه تعالى: ﴿هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُواْ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ۝٥٢﴾ [إبراهيم: 52] وجاء في أوّل سورة الحِجر ما يبيّنُ طبيعةَ هذا الإنذار: ﴿الٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ ۝١﴾ [الحجر: 1]، فكأنَّ الإشارةَ عادت على البلاغ المذكورِ في آخر سورةِ إبراهيم.

ثانيًا: ذكر تعالى في خواتيم سورة إبراهيمَ عاقبةَ الظالمين فقال: ﴿وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي ٱلْأَصْفَادِ ۝٤٩ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ۝٥٠﴾ [إبراهيم: 49 - 50]، وقال في بداية سورة الحِجر: ﴿رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ كَانُواْ مُسْلِمِينَ ۝٢﴾ [الحجر: 2]، فهذه الودادةُ إنّما تكونُ يومَ القيامة عندما يَرون العذابَ ويرون نجاةَ المسلمين وفوزَهم بالجنّة.

ثالثًا: قال ﷻ في خواتيم سورة إبراهيمَ في شأن الظّالمين: ﴿وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَۗ أَوَلَمْ تَكُونُوٓاْ

(1) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 7/144.

أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾﴾ [إبراهيم: 44]، وقال في بداية سورة الحِجر: ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾﴾ [الحجر: 3]، فالذين في سورة إبراهيمَ ألهاهمُ الأملُ حتى ظنّوا أنّهم لا يزولون عن هذه الدنيا وإنّما هم خالدون فيها.

وجاء في تفسير البحر المحيط في أوّل سورة الحِجر: "ومُناسبَتُها لِما قبْلَها: أنَّهُ تعالى لَمّا ذَكَرَ في آخِرِ السّورَةِ قبلَها أشْياء مِنْ أحْوالِ القيامَةِ مِنْ تبديلِ السّماوات والأرْضِ، وأحْوالِ الكُفّارِ في ذلك اليَوْمِ، وأنَّ ما أتَى به هو على حَسَبِ التَّبْليغِ والإنْذارِ، ابْتَدَأ في هذه السّورَةِ بِذِكْرِ القُرْآنِ الذي هو بَلاغٌ لِلنّاسِ، وأحْوالِ الكَفَرَةِ، ووِدادَتِهم لَوْ كانوا مُسْلِمينَ"[1].

والحقُّ أنّ كلتا السّورتَيْن يكمّلُ بعضُها بعضًا؛ فسورةُ الحِجر بيّنت أيضًا انقسامَ النّاسِ في شأن هذه الدّعوةِ، وبيّنت حالَ كلِّ فريقٍ، وعرضت لبعضِ آياتِ الله في الكونِ الدّالّة على وحدانيّته وكمالِه، وتناولت جانبًا قصَصيًّا من حياة بعضِ الأنبياء بدْءًا من آدمَ أبي الأنبياءِ عليه السلام، ومرورًا بإبراهيمَ عليه السلام وما جرى مع ضيوفِه وبُشراه بالولدِ، وكذلك جانبًا من قصّةِ لوطٍ عليه السلام، وكذلك قصّتَيْ أصحابِ الأيكةِ وأصحابِ الحِجر، فقد فصّلت سورةُ الحِجر ما أوجزَ في سورة إبراهيمَ من وسائلِ غوايةِ إبليسَ لآدم وذرّيتِه، وحوت في آخرها وصايا للنّبيّ ﷺ تَصلحُ أن تكونَ قواعدَ للدّعوة في كلّ زمان ومكانٍ، فقال تعالى: ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴿٩٥﴾ ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۚ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾﴾ [الحجر: 94 - 99].

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 6/463 - 464.

﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ١ ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَوَيۡلٞ لِّلۡكَٰفِرِينَ مِنۡ عَذَابٖ شَدِيدٍ ٢﴾

[إبراهيم: 1 - 2]

مُناسَبَةُ بدايةِ السّورةِ لِما قَبْلَها:

أُنزل القرآنُ على النّبيّ ﷺ لهداية النّاسِ بإذنِ الله

"ارْتِباطُ أوَّلِ هذه السّورَةِ بِالسّورَةِ التي قَبْلَها واضِحٌ جِدًّا؛ لأنّه ذَكَرَ فيها: ﴿وَلَوۡ أَنَّ قُرۡءَانٗا﴾ ثُمَّ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَٰهُ حُكۡمًا عَرَبِيّٗاۚ﴾ [الرعد: 37] ثُمَّ: ﴿وَمَنۡ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ فَناسَبَ هذا قَوْلَهُ ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ﴾، وأيْضًا فَإنَّهُم لَمّا قالوا على سَبيلِ الاقْتِراحِ ﴿لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦۚ﴾ [الرعد: 27] وقيلَ لَهُ: ﴿قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَنۡ أَنَابَ ٢٧﴾ [الرعد: 27] أنْزَلَ: ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ﴾ كأنه قيل: أو لم يَكْفِهِم مِنَ الْآياتِ ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ هي الضَّلالُ، إلى ﴿ٱلنُّورِ﴾ وهو الهُدَى"[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿صِرَٰطِ﴾: الصّادُ في صرط مبدلةٌ منَ السّين، والسّين والراء والطاء أصلٌ صحيحٌ واحدٌ، يدلُّ على غيبةٍ في مرٍّ وذهابٍ. من ذلك: سرطتُ الطّعامَ، إذا بلعتُه؛ لأنَّه إذا سرط غاب[2]، وخصَّه اللّغويون بالطّريق المستقيم؛ لأنَّه يَسترطُ المارَّةَ[3]. والمرادُ بالصّراط في الآيةِ هو طريقُ الإسلام الموصِلِ إلى النَّجاة عند الله تعالى؛ لأنَّه يجعلُ السّالكين فيه على استقامةٍ وقوامةٍ.

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 6/405.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سرط).
(3) الفيروزابادي، بصائر ذوي التمييز: (صرط): 3/411.

2) ﴿وَوَيْلٌ﴾: "أصلُ (الوَيل) في اللُّغَة: الهَلاك والعَذاب"[1]، و"الوَيْلُ حُلولُ الشَّرِّ. والوَيْلَةُ: الفضيحةُ، وقيل: هو تَفَجُّعٌ. ووَيَّلَه ووَيَّلَ له: أكثر له من ذكر الويلِ، وتويَّل هو: دعا بالويل لما نزل به"[2]، والويلُ "كلمةُ دُعاء بالهَلاكِ والعَذاب، وهي في الأصْل مصدرٌ لم يسْتَعْمِلْ لَهُ فعلٌ، يُقال: ويلٌ لزيد، وويلاً لَهُ، بالرَّفْع على الابْتِداء والنّصب بإضمار الفِعْل، وأما إذا أضيف فلَيْسَ لَهُ إلّا النّصبُ، يُقال: ويلاً لمن وقع فيه، وويل فلان أي: الخزيُ لَهُ"[3]. والمقصودُ بالويلِ في الآيةِ الوعيدُ للكافرين، بإنزال الهلاكِ والعقوبةِ فيهم يومَ القيامةِ.

المَعْنى الإجْماليّ:

"هذا ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ﴾ يا مُحَمَّدُ، وهو القُرْآنُ العَظيمُ، الذي هو أشْرَفُ كِتابٍ أنْزَلَهُ اللّه ﷻ مِنَ السَّماءِ، على أشْرَفِ رَسولٍ بَعَثَهُ اللّه في الأرْضِ، إلى جَميعِ أهْلِها عَرَبِهِم وعَجَمِهِم، وإنَّما بَعَثْناكَ يا مُحَمَّدُ بهذا الْكِتابِ لِتُخْرِجَ النّاسَ مِمّا هُم فيهِ مِنَ الضَّلالِ والغَيِّ إلى الهُدَى والرُّشْدِ، وهو سبحانه العَزيزُ الذي لا يُمانَعُ ولا يُغالَبُ، بَلْ هو القاهِرُ لِكُلِّ ما سِواهُ، المَحْمودُ في جَميعِ أفْعالِهِ وأقْوالِهِ، وشَرْعِهِ وأمْرِهِ ونَهْيِهِ، الصّادِقُ في خَبَرِهِ المالك لكلّ شيءٍ في الكون، ووَيْلٌ لهؤلاء النّاس يَوْمَ القيامَةِ إذْ خالَفوكَ يا مُحَمَّدُ وكَذَّبوكَ"[4].

بالقرآن الكريمِ يَخرجُ النّاسُ من ظُلماتِ الكفرِ إلى نورِ الإيمانِ

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيّ:

بَراعةُ الاسْتِهلالِ بالأحرُفِ المُقطّعةِ:

إنّ اصْطفاءَ هذه الأحرفِ المقطَّعةِ، المُفْتَتَحِ بها بعضُ سورِ الذّكر الحكيم، واصطفاءَ مواضعِها، وأعدادِها يَبقى سرُّه عند اللّه تعالى

التّنويهُ بشأْنِ القُرآنِ الكريمِ النّازلِ بالنّورِ لإخراجِ النّاسِ إلى النّورِ

(1) الأزهري، تهذيب اللغة: (ويل).
(2) ابن سيده، المحكم: (ويل).
(3) أبو البقاء، الكليات: (ويل).
(4) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/476.

منزِّلِ الكتاب، وأنّ ما قيل ويُقال في تأويلها: إنما هي آراءُ علماءَ مُحبّين لكلام الله تعالى، مُجتهدين في فهم أسراره بحسب طاقةِ عقولِهم البشريّةِ.

وهذه الأحرفُ وجْهٌ من وجوه إعجازِ القرآن الكريم، ودليلُ تحدٍّ للإنس والجانِّ بأن يأتوا بمثلِ هذا القرآنِ المركَّبِ من هذه الأحرفِ، التي بَهَرَتْهُم[1] على اختلافِ أعدادِها، وموضعِ كلٍّ منها من سورِ الذّكرِ الحكيم، وقد "قال بعضُهم: لكلِّ كتابٍ سِرٌّ، وسِرُّ القرآن فواتِحُه"[2].

ولعلَّ من أسرارِ وضْعِها في أوائل السّورةِ هنا ومطالعِ السّوَرِ عمومًا أنَّ الله تعالى "أسمعَهم هذه الحروفَ مقطّعةً على خلاف ما كانوا يَسمعون الحروفَ المنظومةَ في الخطاب؛ فأعرضوا عن كلِّ شيءٍ وسمعوا لها، ونبَّهَهُم القرآنُ إلى أنَّ هذه التي يسمعونها آياتُ الكتاب، فقال لهم لمّا حضرتْ ألبابُهم، واستعدَّتْ لسماعِ ما يقولُ آذانُهم"[3]: ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾.

فهذه الأحرفُ ابتُدئَ بها في هذه السّورةِ لِما فيها من نصرةٍ لدين الإسلام، وما اشتملتْ عليه من رفعِ عقيدةِ التَّوحيدِ، وبيانِ ما استهلَّت به منَ التَّنويه بشأنِ القرآنِ الكريم، المنعوتِ بالكتابِ المُنزَلِ إلى الأرضِ منَ السَّماءِ، بقصْدِ الإخراجِ منَ الظلماتِ إلى النّور.

موقعُ جملةِ ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ﴾:

الكتابُ المنزَّلُ مُؤلَّفٌ منَ الأحرُفِ المقطَّعةِ

اختُلفَ في إعرابِ ﴿الٓرۚ﴾ فقيل: إنَّها مبتدأٌ وخبرُها كتابٌ، وقيل: إنَّها خبرٌ والمبتدأ محذوفٌ، "تقديرُه: هذه ﴿الٓرۚ﴾، وفي مَوضعِ نَصْبٍ على تَقْديرِ: الْزَم أوِ اقْرَأْ ﴿الٓرۚ﴾، و﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ﴾ جُمْلَةٌ مُفَسِّرَةٌ في هذين الإعرابين"[4].

(1) "بهَرهُ الشَّيءُ: أدهشه وحيَّره، جذب انتباهه "بهرتني فطنته وذكاؤه في المناقشة - بَهَرَ المغني الجمهورَ بصوته". يُنظر: مختار، معجم اللغة العربية المعاصرة: (بهر).

(2) ابن جرير، جامع البيان: 1/210.

(3) القشيري، لطائف الإشارات: 2/262.

(4) أبو حيان، البحر المحيط: 6/405.

فإذا كانت ﴿الٓرۚ﴾ خبرًا لمبتدأٍ محذوفٍ، فإنَّ قولَه تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ﴾ جملةٌ مبيِّنةٌ للتي قبلَها، أي: هذه الر، كتابٌ أنزلناه إليك؛ أي: أنَّ الكتابَ مؤلَّفٌ من هذه الأحرفِ المقطَّعة التي ذُكِر في مطلعِ هذه السّورة بعضٌ منها.

غرَضُ تنكير ﴿كِتَٰبٌ﴾:

تعظيمُ القرآنِ العظيمِ والتَّنويهُ بشأنِه غايةً وقصْدًا

تنكيرُ ﴿كِتَٰبٌ﴾ في قوله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ﴾ يُضْفي عليه الفخامةَ والجلالَ، ويوحي بأنه ﴿كِتَٰبٌ﴾ لا يُقادَرُ قدْرُه، ولا يُحاطُ بفضله، وذلك على عادة التّنكيرِ منَ التّلوُّنِ مع المقاماتِ بين التّفخيمِ والتّحقيرِ، والتّهويلِ والتّهوينِ، والمقامُ هنا للتّفخيم والتّعظيم، فما أعظَمَه من ﴿كِتَٰبٌ﴾! وما أفخْمَه من ﴿كِتَٰبٌ﴾ قال اللّه تعالى فيه: ﴿مَّا فَرَّطۡنَا فِي ٱلۡكِتَٰبِ مِن شَيۡءٖۚ﴾ [الأنعام: 38]! وفي تنكيره "تنويهٌ بشأن القرآن الكريمِ، وبيانٌ للغرَضِ السّامي الذي أنزلَه اللّه تعالى من أجلِه"[1].

سِرُّ إيثارِ لفْظِ كتابٍ:

القرآنُ راسخٌ في معناه، ثابتٌ في مَبناه، باقٍ في أثرِه

في بدْءِ السّورة الكريمةِ يُذكر الكتابُ في قوله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ﴾ إثْرَ خَتْم السّورة السّابقةِ (الرعد) بذكر الكتابِ في قوله تعالى: ﴿وَمَنۡ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ فيتحقّقُ الاتّساقُ الدقيقُ، بين اللَّفظَين، ففي آية الرَّعد يحتملُ لفظُ الكتاب معانيَ عدّةً، أمّا هنا فمحمولٌ على القرآن الكريم وحدَه، وفي ذلك إشارةٌ خفيَّةٌ إلى نوعِ مَيْلٍ لأنْ يكونَ المقصودُ بالكتابِ القرآنَ، وفائدةُ البدءِ بالكتابِ الإشارةُ إلى أنَّه كتابٌ ثابتٌ باقٍ راسخٌ، لا يتغيَّرُ ولا يتحوَّلُ ولا يتبدَّلُ، إلّا بأمرِ المُنزِلِ القهّارِ.

نُكتةُ الوصْفِ بالفعلِ الماضي:

يُتيح الوصفُ بجملةِ: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ﴾ ذِكرَ عناصرَ تُغني

(1) طنطاوي، التفسير الوسيط: 7/510.

الإخبارُ عن اكتمالِ نُزولِ القرآنِ الكريمِ إشارةٌ إلى إعْجازٍ غيبيٍّ مستقبليٍّ

الدّلالاتِ، وتمنحُها غزارةَ الإشارات، من ذلك الفعلُ (أنزل) مادّةً وصيغةً، إذِ المادّةُ تُضفي على الـ ﴿كِتَٰبٌ﴾ صفةَ التَّجسيد، وكأنّه شيءٌ محسوسٌ مُجسَّمٌ أُنزلَ منَ السّماء؛ كنايةً عن وضوحِه، وتميُّزِه، واكتمالِ فوائدِه، والصّيغةُ الماضيةُ تُفصِحُ عن تحقُّقِ نزولِه من عُلوٍّ، منَ السّماء على رسول الله ﷺ، وأنَّ هذا الإنزالَ سيكتملُ، فهي إشارةٌ إلى اكتمالِ النّزولِ، وهذا من باب الإعجازِ الغيبيِّ.

غرَضُ إسنادِ فعْلِ أنزلَ:

اشتملَ القرآنُ ضَماناتِ الفوزِ وأسبابَ الشَّرفِ المُعلَّى لأهلِه المؤمنين

ضميرُ العظمةِ (نا) في قولِه تعالى: ﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾ يفيدُ التّعظيمَ، ويدلُّ دلالةً قاطعةً على أنّ الـ ﴿كِتَٰبٌ﴾ من عندِ الله تعالى، وأنه لذلك ﴿كِتَٰبٌ﴾ عظيمٌ مباركٌ، نافعٌ لكلِّ مَن يأخذُ به، ويتشبَّثُ بعقائدِه وشرائعِه، وأنّه ذِكرٌ له وشرفٌ؛ لأنّه عُلويُّ النَّسَب، علويُّ التّوجيهاتِ ساميها؛ فأكرم به من ﴿كِتَٰبٌ﴾! وما دام القرآنُ الكريم كتابًا أنزلَه الله تعالى فجديرٌ بالنّاسِ أن يحتضِنوا أنوارَه، وأن يلتزِموا تكاليفَه، وأن يستثْمِروا تعاليمَه؛ ليَضمَنوا السّلامةَ ويَهنَؤوا بالطّمأنينةِ والرّخاءِ.

بَلاغةُ التَّصريحِ بقولِه: ﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾ و﴿إِلَيْكَ﴾:

تشريفُ النَّبيِّ بأن جُعلَ مُنتهَى الإنزالِ إليه

القيدُ ﴿إِلَيْكَ﴾ قيدٌ ضروريٌّ في بيان مغزى الكلام وتقريرِه؛ فإنَّ الكفّارَ لا يُنكرون إنزالَ القرآن، وإنّما يُنكرون أن ينزَّلَ عليه ﷺ، وقد قالوها صريحةً: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾﴾ [الزخرف: 31]! فكونُ الإنزالِ ﴿إِلَيْكَ﴾ يا محمّد صلى الله عليك وسلم قضيّةُ القضايا في هذا السّياقِ المربوطِ بآخر السّورة السّابقةِ، فيهدمُ قولَهم هناك: ﴿لَسْتَ مُرْسَلًا﴾، ويُبوِّئُك منزلتَك التي أكرمَك الله تعالى بها منَ التّشريف، ويُقرِّرُ أنّك رسولٌ مُرسلٌ من قِبَلِ الحقّ ﷻ، وأنّك مقوًّى بالكتاب، وأنَّ إنزالَ الكتاب قبل ذِكر

عِلَّتِه وسببِه إنّما كان ﴿إِلَيۡكَ﴾، وفي ذلك ردّ فخيمٌ لاعتبارِه ﷺ إزاءَ تكذيبِهمُ الآثم، وفيه من تشريفِ المُنزلِ إليه وتكريمِه ما تعجزُ الأقلامُ عن وصْفِه، وفيه رِفعةٌ للنّبيّ ﷺ بأن جُعل مُنتهى الإنزالِ منَ اللّه تعالى إليه.

بَلاغةُ تقْييدِ الإنزالِ بغايتِه:

عِلَّةُ إنزالِ الكتابِ تَنْويرُ النّاسِ بعدَ ظُلْمَتِهم

تُحدِّدُ الآيةُ الكريمةُ في قوله تعالى: ﴿لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ من خلال هذا القيْدِ غايةَ إنزالِ الكتابِ الأولَى على الرّسولِ ﷺ، وأنَّها إخراجُ ﴿ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾، وأنّها "لتهديَهم به من ظلماتِ الضّلالة والكفرِ إلى نور الإيمانِ وضيائِه، وتُبصّرُ به أهلَ الجهلِ والعَمى سُبلَ الرّشاد والهدى"[1]. وما أجملَها من غاية! لكتابٍ ما أجملَه من كتاب! على رسولٍ ما أجمله من رسولٍ! وهل توجد غايةٌ لكتابٍ أفضلُ ولا أطيبُ ولا أهدى من هذه الغاية؟ إنّها غايةٌ تؤدّي إلى أشرف نهايةٍ لأشرف كائنٍ يعيش على هذا الكوكب، إنّها ترمي إلى إخراج الناس - كلِّ النّاس - منَ الظّلمات - كلِّ الظّلمات - إلى النّورِ الواحدِ.

فمدارُ إنزالِ الكتابِ على قلبِ النَّبيِّ ﷺ هو إخراجُ النّاسِ من الظُّلمات إلى النّور، فاللّامُ تعليليَّةٌ من حيث الوظيفةُ التَّبليغيَّةُ، وللعاقبة من حيثُ الإخبارُ، و"تَعْليلُ الإنْزالِ بالإخْراجِ مِنَ الظُّلُماتِ دَلَّ على أنَّ الهِدايَةَ هي مُرادُ اللّه تعالى مِنَ النّاسِ، وأنَّهُ لَم يَتْرُكْهُم في ضَلالِهِم، فمَنِ اهْتَدَى فَبِإرْشادِ اللّه ومَنْ ضَلَّ فَبِإيثارِ الضّالّ هوى نَفسِه على دَلائِلِ الإرْشادِ، وأمْرُ اللّه لا يَكونُ إلّا لِحِكَمٍ ومَصالِحَ بَعْضُها أكْبَرُ مِنْ بَعْضٍ"[2].

(1) ابن جرير، جامع البيان: 13/588.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/180.

بَلاغةُ الاسْتِعارةِ في لفْظِ: ﴿لِتُخْرِجَ﴾:

تصويرُ المعقولِ أدعى لاجْتِنابِ الغَوايةِ وتحقيقِ الهِدايةِ

شُبِّهتِ الهدايةُ بالإخراج، وصُرِّح بالإخراجِ على سبيل الاستعارةِ التَّصريحيَّةِ التَّبعيَّةِ، والتَّعبيرُ بالاستعارةِ أبلغُ منَ الحقيقةِ، إذِ الاستعارةُ فيها تصويرُ المعنى المعقولِ بصورةِ المحسوسِ، وذلك أدعى للتَّرغيبِ بالهدايةِ، واجتنابِ الغَوايةِ.

بَلاغةُ إسنادِ الإخراجِ إلى الرَّسولِ:

هِدايةُ الرَّسولِ هدايةُ إرشادٍ وتعليمٍ

جاء إسنادُ إخراجِ النّاسِ منَ الظّلمات إلى النّور إلى رسول اللّه ﷺ، لا إلى الفاعل الحقيقيِّ وهو اللّه تعالى؛ لقولِه تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ۝٥٦﴾ [القصص: 56]، فهو إسنادٌ مَجازيٌّ، وفي إسنادِ الإخراج إليه ﷺ تَنْويهٌ عظيمٌ وتشريفٌ لَهُ ﷺ مِنْ حَيْثُ المُشارَكَةُ في تَحْصيلِ الهدايَةِ بإنْزالِه تعالى، وبإخْراجِه ﷺ، إذْ هو الدّاعي والمُنْذِرُ[1]؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٥٢﴾ [الشورى: 52]، وهو بذلك يجبُرُ بخاطرِه إزاءَ إنكارِ قومه له ﴿لَسْتَ مُرْسَلًا ۚ﴾، في الوقت ذاتِه الذي يحتفظُ بإذن الإخراجِ إلى صاحب الإذنِ ﷻ؛ فسُبحانَ مَن هذا كلامُه!.

بَلاغةُ الاخْتِراسِ في لفظِ النّاسِ:

دفعُ أوهامِ الأفهامِ أنَّ المُرادَ بالنّاسِ العربُ دونَ سِواهم

آثرَ النَّظمُ التَّعبيرَ بلفظِ ﴿ٱلنَّاسَ﴾ دون الكافرين في جملةِ ﴿لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ والإخراجُ إنّما يكونُ للكافرين، فلفظُ النّاسِ لفظٌ عامٌّ، فتعريفُ ﴿ٱلنَّاسَ﴾ يتَّسعُ ليَستقصي كلَّ ﴿ٱلنَّاسَ﴾ في كلِّ زمانٍ ومكان، فلا أحدَ منَ ﴿ٱلنَّاسَ﴾ أحقُّ باعتناق هذا الدين من أحدٍ منهم، وذلك يَلتقي مع قوله ﷺ: «وكان النّبيُّ يُبعثُ في قومه خاصّةً وبُعثتُ إلى النّاسِ عامَّةً»[2].

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 6/406.

(2) البخاري، الجامع الصحيح، الحديث رقم: (335)، وأحمد، المسند، الحديث رقم: (14264) بزيادة لفظ (إنّما).

وكذلك لأنَّ التَّعبيرَ بالنّاس أحقُّ بجميعِ النّاسِ كأهل الكتابِ وأصحابِ الدّياناتِ غيرِ الغيبيّةِ وجميع الملل، وهم وإن كانوا كافرين، إلّا أنَّه قد يُظنُّ بأنَّ المرادَ بالكافرين العربُ لا سِواهم، فهذا تعبيرٌ احتراسيٌّ كي لا يُظنَّ بأنَّ المرادَ خصوصُ العربِ لا عمومُ النّاسِ، فالنّاس كلُّهم مخلوقون مربوبون مُتعبَّدون للّه ﷻ، وهذا ﴿كِتَٰبٌ﴾ اللّه ﷻ للجميع بركةً وهدايةً، وعلى الجميع التزامُ تعاليمِه، لينجوَ الجميعُ من تخبُّطِ الشّركِ، ويَهتدوا بأنوار الذِّكرِ، في الوصول إلى اللّه تعالى، ويَسعدوا بالفوز والرّضوانِ.

بَراعةُ اسْتِعمالِ حرفي ﴿مِنَ﴾ و﴿إِلَى﴾:

استعمالُ حرفِ الجرِّ ﴿مِنَ﴾ في قوله تعالى: ﴿لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ جاء على غاية البراعةِ، فهو تنبيهٌ على مبدأ الإخراجِ، وهو يُقابلُ حرفَ ﴿إِلَى﴾ الذي يُنبِّهُ على غاية الإخراجِ، وهي تَوطئةٌ لِما بعدَها من ذكْرِ الطّريق المُنْجي في قولِه تعالى: ﴿إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ﴾، فهو انتقالٌ من مكانٍ غائرٍ مظلمٍ إلى مكانٍ منكشفٍ واضحٍ، للمُضيِّ في طريقٍ نيِّرٍ.

التَّنبيهُ على البداياتِ المُظلمةِ توطئةٌ للكَشْفِ عنِ النِّهاياتِ المُشرقةِ

بَلاغةُ الاستعارةِ في كلمتَي (الظلمات والنّور):

شَبَّهتِ الآيةُ الكفرَ بالظّلمات، والإسلامَ بالنّور[1]، ثم حَذَفتِ المُشبَّهَ وصرَّحت بالمشبَّهِ به على سبيل الاستعارةِ التَّصريحيَّةِ الأصليَّةِ في الكلمتَين، وهاتان الصّورتان البيانيتان عَلَمانِ من أعلام البيانِ العربيِّ الأصيلِ على الإطلاقِ، ولا يوجدُ في اللّغة غالبًا أشهرُ ولا أبينُ عنِ المقصودِ هنا منهما. فالظّلماتُ هي جميعُ الضَّلالاتِ الصّادَّةِ عن دين اللّه تعالى، والنّورُ هو الهُدى الدّالُّ على الحقِّ، فالرّسول ﷺ يُخرجُ النّاسَ بهذا الكتاب المبينِ "من ظلماتِ الجهل إلى نور العلم، ومن ظلماتِ الشّكّ إلى نور اليقينِ، ومن ظُلمات التّدبيرِ إلى فضاء شهودِ

الإخراجُ من ظُلماتِ الجهْلِ والشّكِّ إلى نورِ العلْمِ واليقينِ

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/405.

التّقدير، ومن ظلماتِ الابتداعِ إلى نور الاتِّباعِ، ومن ظُلمات دعاوَى النّفسِ إلى نورِ معارفِ القلبِ، ومن ظلمات التّفرقةِ إلى نور الجمْعِ"[1].

الكفرُ والضّلالُ ظُلمَتان روحيتان وعَقْليتان

على أنَّ أدقَّ المعاني المقصودةِ بـ ﴿ٱلظُّلُمَٰتِ﴾: الكفرُ والضّلالُ، والكفرُ والضّلالُ ظلمةٌ روحيةٌ وعقليةٌ، يجعلان صاحبَهما الكافرَ الضّالَّ يَتخبَّطُ في حياته الرّوحيّةِ والفكريّةِ كما يتخبّطُ الماشي في ظلمةٍ محسوساتٍ؛ تحطِمُه أو يحطمُها.

فـ ﴿ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ و﴿ٱلنُّورِ﴾ منَ البيانِ الكاشفِ في أعالي درجاتِ الإبانةِ، ولن يَبلغَ المعنى المقصودُ وضوحًا لو صُرِّحَ بالكفر والإيمانِ مباشرةً بدون تصويرٍ، وكأنّه ﷺ بهاتين الاستعارتَيْن يُخرجُ النّاس منَ ﴿ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ الحقيقيّةِ إلى ﴿ٱلنُّورِ﴾ الحقيقيِّ بهذا الكتاب العظيمِ؛ إذِ الاستعارةُ مرحلةٌ أدْخلُ في المبالغة منَ التّشبيه القائلِ بالمُغايرةِ.

ولا أكشَفَ عن خطورةِ الضّلال والكفرِ من صورة ﴿ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ الصّريحةِ، كما أنه لا أكشَفَ عن بركاتِ الهُدى والإيمانِ على صاحبِهما من صورة ﴿ٱلنُّورِ﴾ الذي يكشفُ لصاحبِه مساربَ الحياةِ، ويُريه ما فيها من عقباتٍ؛ فيتَحاشاها فلا تحطمُه ويَنجو هو، ولا يحطمُها فتنجو هي.

بَلاغةُ تنوُّعِ الاستعارةِ في ﴿ٱلظُّلُمَٰتِ﴾:

الخارجُ منَ الظّلماتِ ناجٍ من دَرَكِ الموتِ إلى رِفْعةِ الحقِّ

للفْظِ الظّلمات استعارةٌ أخرى، وهي أنَّه شبَّهَ الظّلماتِ بالبئر الذي يخرجُ منه النّاس، وحذفَ المشبّهَ به وذكر لازمًا من لوازمه وهو الإخراجُ، فعلى هذا الوجهِ هي استعارةٌ مكنيَّةٌ أصليّةٌ، وهي كذلك تخييليَّةٌ؛ لأنَّها تُخيِّلُ هيئةَ الخارجِ منَ الظّلمات بهيئةِ النّاجي من بئرِ الموتِ إلى نور الحقِّ.

(1) القشيري، لطائف الإشارات: 2/238.

نُكتةُ جمْعِ الظّلماتِ وإفرادِ النّورِ:

طريقُ الحقِّ واحدٌ، وطُرُقُ الضَّلالِ كثيرةٌ

في قوله تعالى: ﴿لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ جمعَ النّظمُ الكريمُ لفظَ ﴿ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ لِتنوُّعِ مصادرِ الضّلال، وتعدُّدِ مظاهرِ الكفر، التي تتكاثفُ على الكافر الضّالِّ فتُفسدُ عليه الحياةَ الدنيا، وتُسعِّرُ عليه الحياةَ الأُخرى، في حين أفردَ لفظَ ﴿ٱلنُّورِ﴾؛ لأنَّه لا نورَ إلا من قِبَل الله تعالى، فـ ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ [النور: 35]، ولبيانِ أنَّه مَنِ ابتغى النّورَ في غير شِرعتِه ومنهاجِه ضلَّ سَواءَ السّبيلِ، وتاهَ في ظُلمات الضّلال، فمصدرُ النّورِ الرّوحيّ والعقليّ هو نورُ الله تعالى ودينُ الله ﷻ ومنهجُ الله وحدَه.

بَلاغةُ الاحْتِراس بقيدِ ﴿بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ﴾:

وظيفةُ الرّسولِ ﷺ الدّعوةُ للإخراجِ وحقيقةُ الأمْرِ لصاحبِ الأمرِ

هذا القيدُ ﴿بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ﴾؛ قيْدٌ للفعل ﴿لِتُخۡرِجَ﴾، أي أنّه ﷺ لا يُخرِج مَن لم يأذنْ له الله تعالى بالخروج منَ الظّلمات إلى النّور؛ فلا تَظُنَنَّ أنَّ أحدًا حتى رسولَ الله ﷺ قادرٌ على أن يُخرج النّاسَ منَ الظّلمات إلى النّور بقُدرته، ولكنْ بتوفيق الله ﷻ وإذنه، وإرادته، وتوفيقِ ربّهم لهم بذلك، ولطفه بهم، وبأمر ربِّهم، وبعلم ربِّهم، وقضائه به، وتمكينه لهم[1]؛ "وذلك يدُلُّ على أنَّ الرَّسولَ ﷺ لا يُمكِنُهُ إخراجُ النّاسِ من الظّلُماتِ إلى النّورِ إلّا بمشيئةِ الله"[2]؛ فإنّه ﷻ: ﴿إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ٨٢﴾ [يس: 82].

ففي هذا القيدِ ﴿بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ﴾ "احتراسٌ؛ لبيانِ أنّ نقلَ النّاس من حال إلى حالٍ إنّما هو بإرادةِ الله تعالى ومشيئتِه، وأنّ الرّسولَ ﷺ ما هو إلّا مُبلِّغٌ فقط، أمّا الهدايةُ فمنَ الله ﷻ وحدَه"[3]، فاستعملتِ "الباءُ في ﴿بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ﴾ للسَّببيَّةِ"[4].

(1) ابن جرير، جامع البيان: 13/588، وابن عطية، المحرر الوجيز: 3/321، والماوردي، النكت والعيون: 3/120.

(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 19/57.

(3) طنطاوي، التفسير الوسيط: 7/511.

(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/181.

بَلاغةُ الاستعارةِ في لفْظِ الإذنِ:

إذنُ الله تعالى إن جاءَ خرجَ العبدُ من بئْرِ الظُّلمات إلى طريقِ الأنوارِ

في قوله تعالى: ﴿بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ﴾ شبَّهتِ الآيةُ توقُّفَ الإخراجِ من بئر الظّلماتِ إلى نور الطّريقِ بالإذن؛ فـ﴿بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ﴾، "أي: بتسهيلِه وتيسيرِه، مُستعارٌ منَ الإذن الذي هو تسهيلُ الحجابِ، وذلك ما يَمنحُهم منَ اللّطفِ والتّوفيقِ"[1]، أي: بعدَ صدورِ إذن اللّه يكونُ إخراجُ النّاس منَ الظُّلمات إلى النّور، فالإخراجُ مُتوقّفٌ على الإذنِ الربّانيِّ، فهو تشبيهُ الإذن بشيءٍ مانعٍ منَ الإخراج، فإن أذِنَ اللّه أُخرِجوا، ففيه بيان أنَّ فضلَ الهداية هو للّه تعالى وحدَه، وأنَّ النَّبيَّ ﷺ هو وسيلةُ تلك الهدايةِ، وهذا يُقوّي جعْلَ الباءِ للسَّببيَّةِ، أي: بسببِ إذنِ اللّه تعالى يخرجُ العبادُ من سجنِ الظّلماتِ إلى أنوارِ الطّريقِ المستقيمِ.

نُكتةُ ذكْرِ عُنوانِ الرُّبوبيّةِ دونَ الأُلوهيّةِ:

التَّربيةُ الرّوحيَّةُ من مَظاهرِ الرُّبوبيَّةِ ورِعايةِ العبادِ

دَرَجَ الذِّكْرُ الحكيمُ على ذِكر صفةِ الـ (رَّبِّ) في مواضعِ ذكْرِ إنعامِه ﷻ على عباده، ومن أعظم نَعمائِه ﷻ على عباده أن يَأْذنَ لهم ويوفّقَهم إلى الخروج منَ ﴿ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ للنَّجاةِ إلى نورِ الإيمان ونورِ اليقينِ؛ لذلك آثرَ السّياقُ الكريمُ في قوله تعالى: ﴿بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ﴾ وصْفَ ﴿رَبِّهِمۡ﴾ دونَ (اللّه)؛ فالهدايةُ من آثار الرُّبوبيَّةِ، وهي مُشعرةٌ بالتّربيةِ لاسيَّما التَّربيةُ الرّوحيّةُ.

و"لَمّا ذكرَ علَّةَ إنزالِ الكتابِ وهي قولُه: ﴿لِتُخۡرِجَ﴾ قال: ﴿بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ﴾، أيْ: ذلك الْإِخْراجُ بتسهيلِ مالكِهم النّاظرِ في مصالحِهم، إذ هم عبيدُه، فناسبَ ذكرُ الرَّبِّ هُنا تَنْبيهًا على منَّةِ المالِكِ، وكونُهُ ناظرًا في حال عبيدِه"[2].

(1) الزمخشري، الكشاف: 2/537، وأبو حيّان، البحر المحيط: 6/405.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 6/406.

دَلالةُ الإضافةِ في ﴿رَبِّهِمْ﴾:

رِعايةُ اللهِ ورحمتُه تَلحقُ جميعَ النّاسِ مُؤمنِهم وضالِّهم

في إضافة (الرّبّ) سُبحانه إلى ضميرِ ﴿ٱلنَّاسَ﴾ في ﴿رَبِّهِمْ﴾ من معاني التّلطُّفِ بهم، والتَّحَنُّنِ عليهم، والعنايةِ بهم ما فيه، كما فيه من وجوب طاعتِه، ووجوبِ الإحساسِ بالانتماءِ إليه، والولاءِ له؛ فلا (ربّ) لهم سِواه ﷻ، ولا يُرَبّيهم ولا يقومُ على كلِّ نفسٍ منهم إلّا هو عزَّ في عُلاه؛ ولا (نور) إلّا في الدّين الحقِّ ﴿صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾، المذكورِ في أوّلِ القرآنِ الكريم ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة: 7]. فهو (صراطٌ) واحدٌ، وهو (إيمانٌ واحدٌ)، وهو هدًى واحدٌ، و«مَنِ ابتغى الهُدى في غيرِه أضَلَّهُ اللّه»[1].

بَراعةُ جُملةِ ﴿إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾:

النّورُ الحقُّ هو صِراطُ الحقِّ

قولُه تعالى: ﴿إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ بدلٌ من قولِه تعالى: ﴿إِلَى ٱلنُّورِ﴾ لزيادةِ بيانِ المُبدَلِ منه اهتمامًا به، وتأكيدًا للعاملِ[2]، وهو قرينةُ صرْفِ ﴿ٱلنُّورِ﴾ عن ظاهرِ معناه إلى المعنى المجازيِّ المقصودِ وهو كونُ الإخراج ﴿إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ لا إلى نورٍ حِسّي حقيقيٍّ، ولا إلى نورٍ هُلاميٍّ فضفاضٍ، وفي ذلك قَطْعٌ للطّريقِ على أصحاب الفَلسفاتِ الرّوحيَّةِ والنّظريّاتِ المُتعاقِبةِ على صفحة الزّمان، الذين يَدعون لِفلسفاتِهم ونظريّاتِهم، دونَ ضابطٍ شرعيٍّ.

ويجوزُ أن يكونَ ﴿صِرَٰطِ﴾ بُدِئَ به على وجه الاستئنافِ، كأنَّه قيل: إلى أيِّ نورٍ؟ فقيل: إلى صراط العزيز الحميد[3]. والإعرابان يَجتمعان في بيانِ المقصودِ بالنّورِ، وتعيينِ الطَّريقِ الموصِلِ إلى الحقِّ ﷻ.

مُناسبةُ الاستِعارة في ﴿صِرَٰطِ﴾:

الخارجُ من بِئْرِ الظُّلماتِ يَبحثُ عن نورِ الطَّريقِ وضياءِ السَّبيلِ

معنى (الصّراط) في اللّغة: "الجادَّةُ، والطريقُ، من سَرَطَ

(1) الترمذي، سنن الترمذي، الحديث رقم: (2906).
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/181.
(3) الزمخشري، الكشاف: 2/537.

الشّيءَ إذا ابتلعَه، وسُمّي الطريقُ بذلك؛ لأنه يبتلعُ المارّين فيه، وأُبدِلتْ سينُهُ صادًا على لغةِ قُريشٍ"[1]، وعلى ذلك فلفظُ الصّراطِ مُستعارٌ لدين الله ﷻ الإسلام، من باب الاستعارةِ التَّصريحيّةِ الأصليَّةِ؛ ليُضفي عليه معانيَ الوضوحِ والاستقامةِ، والتّوصيلِ إلى السّلامةِ، وما إلى ذلك من خصائصِ الطّريقِ المُستقيم، ومن هنا فمناسبةُ ذكْرِ الصّراطِ مع لفظِ الإخراجِ في كوْنِ الذي يخرجُ من بئْرِ الظّلمات يحسُنُ به أن يُحتضنَ بصراطِ الحقِّ، فهو خروجٌ من مكانٍ واستقرارٌ في آخرَ.

مُناسبةُ تلازُمِ صفتَي ﴿ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾:

في صفة ﴿ٱلْعَزِيزِ﴾ نَشْرٌ للطّمأنينةِ في نفوس النّاس، إذ إنّ ﴿رَبِّهِمْ﴾ (عزيز) غالبٌ قويٌّ قادرٌ، ومنه عِزُّهم وعِزَّتُهم، وبدونِه لا ربَّ ولا عِزَّ ولا عِزّةَ لهم؛ ففي صيغة ﴿ٱلْعَزِيزِ﴾ معنى (المُعِزّ)، فهو (عزيز) في نفسه، ويُعِزُّ غيرَه كما قال تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾﴾ [آل عمران: 26].

ما أنْزلَ الكتابَ إلّا عزيزٌ لا يُغالَبُ وحميدٌ يَستحقُّ عَظيمَ الشُّكرِ وكبيرَ الحمْدِ

فهاتان الصِّفتان ﴿ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ "لائقتانِ بهذا الموضعِ؛ فالعزَّةُ مِن حيثُ الإنزالُ للكتابِ، وما في ضمْنِ ذلك منَ القدرة، واسْتيجابِ الحمْدِ من جهةِ بَثِّ هذه النِّعَم على العالَم في نَصْبِ هدايتِهم"[2]، وقدِ اخْتيرت هاتان الصِّفتان "لمزيدِ مُناسبتِها للمَقام؛ لأنَّ ﴿ٱلْعَزِيزِ﴾ الذي لا يُغْلَبُ، وإنزالُ الكتابِ برهانٌ على أحقيَّةِ ما أرادَهُ اللهُ منَ النّاسِ فهو به غالبٌ للمُخالِفينَ مُقيمٌ الحُجَّةَ عليهم، و﴿ٱلْحَمِيدِ﴾: بِمَعْنَى المَحْمودِ؛ لأنَّ في إنْزالِ هذا الكِتابِ نِعْمَةً عظيمَةً تُرشدُ إلى حَمْدِهِ عليهِ، وبذلك استوعبَ الوَصْفانِ الإشارَةَ إلى الفَريقَيْنِ مِنْ كُلٍّ

(1) طنطاوي، التفسير الوسيط: 7/510.
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 3/322.

مُنْساقٍ إلى الاهْتِداءِ مِنْ أوَّلِ وهْلَةٍ، ومِنْ مُجادِلٍ صائِرٍ إلى الاهْتِداءِ بَعْدَ قيامِ الْحُجَّةِ ونفادِ الحيلَةِ"[1]، كذلك لمّا "تَقَدَّمَ شَيْئَانِ: أحَدُهُما: إسْنادُ إنْزالِ هذا الكِتابِ إليه سُبحانه، والثّاني: إخْراجُ النّاسِ مِنَ الظُّلُماتِ إلى النّورِ بإذْنِ رَبِّهِم ناسَبَ ذِكْرُ هاتَيْنِ الصِّفَتَيْنِ صِفَةَ العِزَّةِ المُتَضَمِّنَةِ لِلْقُدْرَةِ والغَلَبَةِ؛ وذلك مِنْ حَيْثُ إنْزالُ الْكِتابِ، وصِفَةَ الحَمْدِ المُتَضَمِّنَةِ اسْتِحْقاقِهِ الحَمْدَ مِنْ حَيْثُ الإخْراجُ مِنَ الظُّلُماتِ إلى النّورِ، إذِ الهِدايَةُ إلى الإيمانِ هي النِّعْمَةُ التي يَجِبُ على العَبْدِ الحَمْدُ عليها والشُّكْرُ"[2].

كذلك "في وصْفِ اللّه سُبحانه بهاتين الصّفتَين الكريمتَين: ﴿ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ تهديدٌ للكافرين بعزّة اللّه، وسُلطانِه الغالبِ، وتذكيرٌ للمؤمنين بنعمةِ اللّه عليهم بالإيمان، وأنّه المُستحقُّ للحمدِ، والحامدُ لعبادِه المؤمنين ما يُقدّمون له من طاعاتٍ وقُرُباتٍ"[3].

غرَضُ تَقْديمِ ﴿ٱلْعَزِيزِ﴾ على ﴿ٱلْحَمِيدِ﴾:

صفةُ الحميدِ كالثَّمَرةِ لصِفةِ العزيزِ

قَدَّمَ النّظمُ الكريمُ ذِكْرَ صفة ﴿ٱلْعَزِيزِ﴾ على ذِكْرِ صفة ﴿ٱلْحَمِيدِ﴾ لأمورٍ:

الأوَّلُ: "أوَّلُ العِلْمِ باللّه العِلْمُ بِكَوْنِهِ تعالى قادِرًا، ثُمَّ بَعْدَ ذلك العِلْمُ بِكَوْنِهِ عالِمًا، ثُمَّ بَعْدَ ذلك العِلْمُ بِكَوْنِهِ غَنيا عَنِ الْحاجاتِ، و﴿ٱلْعَزِيزِ﴾ هو القادِرُ و﴿ٱلْحَمِيدِ﴾ هو العالِمُ الغَني، فَلَمّا كانَ العِلْمُ بِكَوْنِهِ تعالى قادِرًا مُتَقَدِّمًا على العِلْمِ بِكَوْنِهِ عالِمًا بالكُلِّ غَنيا عَنِ الكُلِّ لا جَرَمَ قَدَّمَ اللّه ذِكْرَ ﴿ٱلْعَزِيزِ﴾ على ذكر ﴿ٱلْحَمِيدِ﴾"[4].

الثّاني: مناسبةُ تقديمِ العَزيزِ على الحميدِ للسّياقِ؛ إذ تَقَدَّمَتْ صِفَةُ العَزيزِ، لِتَقَدُّمِ ما دَلَّ عليها مِنَ العِزَّةِ المُتَضَمِّنَةِ لِقُدرته تعالى

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/181.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 6/406.
(3) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 7/147.
(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 19/58.

المُتحقّقةِ بإسنادِ إنْزالِ هذا الكِتابِ إليه سُبحانه، وتَليها صِفَةُ الحَميدِ لِتُلوِّ ما دَلَّ عليها مِن اسْتِحْقاقِهِ الحَمْدَ مِنْ حَيْثُ إخْراجُه النّاسَ مِنَ الظُّلُماتِ إلى النّورِ[1].

الثّالث: تأخيرُ ﴿ٱلْحَمِيدِ﴾؛ لأنَّه كالخاتمِ على الكلامِ السّابقِ؛ فهو "المحمودُ في أمرِه ونهْيِه لإنعامِه فيهما بأعظَمِ النِّعمِ"[2].

الرّابع: جاءت صفةُ ﴿ٱلْحَمِيدِ﴾ كالثّمرةِ لصفةِ ﴿ٱلْعَزِيزِ﴾؛ فمِن حقِّ ﴿ٱلْعَزِيزِ﴾ أنْ يُحمدَ، وأن يُديمَ هؤلاء ﴿ٱلنَّاسَ﴾ له الحمدَ؛ فما دام يَرُبُّهُم ويُرَبّيهم ويُعِزُّهم ويَحفَظُهم ويَحوطُهم بعزَّتِه فهو صاحبُ الحمْدِ، المستحقُّ له، الجديرُ بجميعِ أنواعِ المحامدِ.

تَوجيهُ القراءاتِ في لفْظِ الجلالة ﴿ٱللَّهِ﴾:

اسْمُ اللهِ مُتّصفٌ بالعِزَّةِ والحمْدِ ومُلكِ السَّماواتِ والأرضِ

اختلف القرّاءُ في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ فقرأ المَدنيّان والشّامي برفعِ اسْمِ (اللّه) على الابتداءِ، وتصْييرِ قولِه: ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ خبرَه، وقرأ الجمهورُ[3] بخفضِ اسمِ الجلالةِ: ﴿ٱللَّهِ ٱلَّذِى﴾ وجعْلِ ﴿ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ بدلًا من لفظِ الجلالةِ، والقراءتان متآيِلَتان في المعنى العامّ[4]، فلفظُ الجلالةِ سواءٌ أكان بدلًا أم مبتدأً فإنَّه مُتَّصفٌ بالعزَّةِ والحمْدِ ومُلكِ السّماواتِ والأرضِ.

بَلاغةُ مَوقعِ اسْمِ الجلالةِ:

دفعُ الأوْهامِ بتعْيينِ المُسْتحِقِّ لصِفاتِ الكَمالِ والجَمالِ والجَلالِ

اسْمُ الجلالةِ هو العلَمُ الذي يختصُّ بالذّاتِ المُقدّسةِ، وهو الذي يتضمّنُ جميعَ الأسماءِ الحُسنى والصّفاتِ العُلى، وقد ذُكر في قولِه تعالى: ﴿ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ بعد صِفَتَي ﴿ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ لتحديدِ الموصوفِ بدقّةٍ، ولِفَتْحِ آفاقٍ معنويّةٍ جديدةٍ بعد ذكر صفةِ الـ (ربّ) في قوله تعالى: ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾. وفي

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 6/406.
(2) القاسمي، محاسن التأويل: 6/297.
(3) ابن الجزري، النشر: 2/298.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/182.

ذلك توجيهٌ دَلاليٌّ إلى أنَّ صفتَي ﴿ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ إذا أُطلقتا لا تنصرفان إلّا إلى ﴿ٱللَّهِ﴾ الخالقِ المالكِ ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾، ففي ذكرِه في هذا الموقعِ إشارةٌ إلى أنَّ ما قد يُفهمُ منَ السّياق أنَّ "الكفّارَ ربَّما وصَفوا الوثنَ بكونهِ عَزيزًا حميدًا فلمّا قالَ: ﴿لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ بقي في خاطرِ عبدةِ الأوثانِ أنَّهُ رُبَّما كانَ ذلك العَزيزُ الحَميدُ هو الوثَنُ، فأزالَ اللّه تعالى هذه الشُّبْهَةَ وقالَ: ﴿ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾، أي: المرادُ من ذلك العزيزِ الحَميدِ هو اللّه الذي له ما في السَّماواتِ وما في الأرْضِ"[1].

لفظُ الجلالةِ يُربّي المَهابةَ في النّفسِ

وصدّرَ سُبحانه الجملةَ التي فيها كمالُ سلطانِ اللّه تعالى في الوجودِ بلفظِ الجلالةِ؛ لتربيةِ المهابةِ في نفسِ القارئِ، ولأنَّ ذلك يتلاقى مع سُلطانِ اللّه الكاملِ[2].

بَلاغةُ التَّعبيرِ بالموصولِ:

غرَضُ المَوصولِ تعظيمُ المَوصوفِ وتفخيمُه لا تعريفُه وتعْيينُه

الموصولُ وحدَه فقيرُ الدّلالةِ، يحتاجُ إلى جملةٍ تُخَصِّصُه، وتحدّدُ معناه، وقد جاءتْ في قولِه تعالى: ﴿ٱللَّهِ ٱلَّذِى﴾ جملةً اسْميةً، والغرَضُ من "إجراء الوَصْفِ بالموصولِ على اسم الجلالةِ لزيادةِ التَّفْخيمِ لا للتَّعْريفِ؛ لأنَّ ملكَ سائرِ الموجوداتِ صفةٌ عظيمةٌ واللّه معروفٌ بها عندَ المُخاطَبينَ"[3].

بَلاغةُ التَّعريضِ بالمشركين:

ملكُ السَّماواتِ والأرضِ للّه وحدَه مُقدِّمةٌ موصِلةٌ إلى الحقِّ وحدَه

في ذكرِ الاسْمِ الموصولِ في قولِه تعالى: ﴿ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ تعريضٌ بالمشركين، وذلك ببيانِ "أنَّ صراطَ غيرِ اللّه من طُرُقِ آلِهَتِهم ليس بواصلٍ إلى المقصودِ لنُقصانِ ذويهِ، وفي

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 19/60.
(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 8/3982.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/182.

ذكرِ هذه الصِّلَةِ إدماجُ تعريضٍ بالمشركينَ الذينَ عبدوا ما ليسَ لهُ السَّماواتُ والأرْضُ"[1].

غرَضُ تقْديمِ شبْهِ الجملةِ ﴿لَهُۥ﴾:

قـضـرُ المـلـكِ المُطلقِ لصاحِبِ الحقِّ المُطلقِ

تقديم الجارِّ والمجرورِ ﴿لَهُۥ﴾ في قولِه تعالى: ﴿ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ يفيدُ القصْرَ الحقيقيَّ التَّحقيقيَّ، ومن يَظنُّ منَ الخلائق أنّه يمتلكُ شيئًا ممّا في الأرض بموجبِ عقودِ تَمَلُّكٍ فهو واهمٌ؛ لأنَّه هو وما مَلَك مِلْكٌ للّه ﷻ، وإلّا فأين يخرجُ من سُلطانِ اللّه تعالى وملكوتِه؟ وإنّما هو مستخلَفٌ في بعض ملكوتِه إلى حين، كما قال تعالى: ﴿ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِۖ﴾ [الحديد: 7]. فتقديمُ ﴿لَهُۥ﴾ يَقطعُ بِقَصْرِ مِلكيّةِ ما في السّماوات وما في الأرض عليه ﷻ بلا شريكٍ، و"المعنى: أنَّ ﴿مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِۗ﴾ لَهُ لا لِغَيْرِهِ وذلك يَدُلُّ على أنَّهُ لا مالِكَ إلّا اللّه ولا حاكِمَ إلّا اللّه"[2]، كما أنَّه "لا يشاركُه في ذلك مشاركٌ، ولا ينازعُه منازعٌ"[3].

نُكتةُ اسْتِعمالِ ﴿مَا﴾ وتَكرارِها:

غـرَضُ السّياقِ اسْتيعابُ كلِّ ما يخطرُ بالبالِ منَ الأملاكِ

الاسمُ الموصولُ ﴿مَا﴾ أكثرُ استيعابًا وأرحبُ دلالةً منَ الموصول (مَنْ)، إذ إنّ ﴿مَا﴾ يشملُ العاقلَ وغيرَه، أمّا (مَنْ) فيختصُّ بالعقلاء، وهذا المقامُ مقامُ استقصاءٍ وإحاطةٍ بجميع ما في السّماوات وجميعِ ما في الأرض؛ لذلك أوثِرَ الموصولُ ﴿مَا﴾، وكأنّي بالمدِّ في ﴿مَا﴾ يدعمُ ذلك الاستقصاءَ وتلك الإحاطةَ، أمّا (مَنْ) فمقصورةُ اللّفظ مقصورةُ الدّلالة على صنْفِ العقلاء.

فجاء الموصولُ: ﴿مَا﴾ مُكرَّرًا، في قوله تعالى: ﴿مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِۗ﴾ مستوعِبًا جميعَ ما يخطرُ للإنسان على بالٍ، ممّا

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/182.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 19/60.
(3) طنطاوي، التفسير الوسيط: 7/511.

يوجدُ في السماوات على تعدُّدها وضخامتِها، ويوجدُ في الأرض على امتدادِها ورحابتِها، فتَكرارُ ﴿مَا﴾ للدّلالةِ على كمالِ استغراقِ الملكيّةِ له ﷻ، وهو على كلّ شيءٍ قديرٌ، مالكُ كلِّ شيءٍ[1].

وذكْرُ الموصولِ هنا أنسَبُ للسّياقِ والمقام من لفْظِ (مُلْك) كأن يُقال: (له ملك السّماوات والأرض)؛ وذلك لأنَّ ﴿مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۗ﴾ أقربُ إلى اختصاصِه ﷻ بالخلْقِ وبالأمر في هذا الخلْق، أما (مُلك) فخاصٌّ بالامتلاك دونَ التّصريح بالتّصرُّفِ، فقد يملكُ مالكٌ ويتصرّفُ غيرُه.

والسّياقُ هنا يقتضي ذلك من حيث معالجتُه لعقائدِ ﴿ٱلنَّاسَ﴾ الذين أُنزِل الكتابُ عليه ﷺ لهدايتِهم، وإخراجِهم منَ الظّلمات إلى النّور بإذن ربّهم، ﴿ٱلنَّاسَ﴾ الذين يَنفون عنِ الرّسول ﷺ أن يكونَ مُرسلًا ويُخبرُهم بأنّ الذي ﴿لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۗ﴾ قضَى في مُلكِه بذلك، فلا رادَّ لقضائِه ولا معقِّبَ لحُكمِه.

دَلالةُ تَقْديمِ ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ على ﴿ٱلْأَرْضِۗ﴾:

ناسبَ ذكْرُ إنزالِ الكتابِ منَ السَّماءِ تقديمَ ذكْرِ السَّماءِ على الأرضِ

غالبًا ما يُقدَّمُ في القرآن الكريم ذِكرُ السّماء على ذكر الأرض؛ لشرفِ السّماء وما فيها، وأحيانًا يقدّمُ ذكْرُ الأرض على ذكر السّماءِ لاعتباراتٍ سياقيّةٍ ووفاءً بمقتضياتِ الأحوالِ.

وهنا قُدِّم ذكرُ ﴿مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾؛ لأنه أشرفُ وأثمنُ وأغلى وأعجَبُ، ثمّ لأنَّ السّماواتِ سقفٌ مرفوعٌ تحيطُ بالأرض كان يمكنُ الاكتفاءُ بذكرِ ما فيها مُلكًا لله تعالى عمّا في الأرض، وهذا كلامٌ يصلُحُ توجيهًا في غالب الآياتِ التي تَقدّمَ فيها ذكرُ السَّماواتِ على ذكرِ الأرض، لكنّ لهذه الآية موقعٌ خاصٌّ، وهو ذكرُ إنزالِ الكتابِ منَ السَّماءِ إلى الأرض، فلمّا بدأ بذكر إنزالِ الكتابِ منَ السَّماءِ، ناسبَ

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 8/3982.

أنْ يبدأ بذكْرِ السَّماءِ، ولمّا ذكرَ غايةَ الإنزالِ إلى الأرض ناسبَ التَّثنيةُ بذكْرِ الأرض.

دَلالةُ حرْفِ الظّرفيّةِ ﴿فِي﴾:

أفادَ حرْفُ الظَّرفيَّةِ دخولَ كلِّ معلومٍ ومجْهولٍ في السَّماوات والأرضِ

استعمالُ حرْفِ الظَّرفيَّةِ في قولِه تعالى: ﴿ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ له لطفُه وبراعتُه في سياقِه، ذلك أنَّه يشتملُ كلَّ ما في السَّماوات والأرض، فهو متَّسقٌ مع استعمالِ ﴿مَا﴾ الموصوليَّةِ الدّالّةِ على الاتِّساعِ والشُّمولِ، فهو يتغلغلُ ليشملَ كلَّ مملوكٍ للّه تعالى، ممّا يعرفُه الإنسانُ وما لا يعرفُه.

نُكتةُ جمْعِ السَّماوات وإفرادِ الأرض:

الجمْعُ باعْتِبارِ ما يُشاهدُه الإنْسانُ مِن تَعدادِ السَّماواتِ وانْفرادِ الأرضِ

جُمعتِ السَّماواتُ وأُفردَ ذكرُ الأرض في قولِه تعالى: ﴿ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ باعتبارِ الحقائقِ التي يُشاهدُها الإنسانُ، فالسّياقُ سياقُ بيانِ ملكِ السّماواتِ والأرضِ للّه تعالى، فكان ذكْرُ الظّاهرِ منها هو الأنسبُ، ثم إنَّ الأرض لم تُجمعْ في القرآن الكريمِ، فجرَى ذكرُها هنا على الاستعمالِ الكلّيِّ، والأرضُ تشملُ جميعَ ما في الأرضين السَّبعِ، فإنَّها اسمُ جنْسٍ يدخلُ فيها جميعُ الأرضين.

معنَى الواوِ في قولِه: ﴿وَوَيْلٌ﴾:

نَتيجةُ الكُفرِ ويلٌ يَلحَقُ أصْحابَه في الآخرةِ

عُطف قولُه تعالى: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ على مضمونِ الكلامِ السّابقِ، فلمّا "أفاد قولُه: ﴿إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝١ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ تعريضًا بالمُشركين الذين اتّبعوا صراطَ غيرِ اللّه الذي له ما في السماوات وما في الأرض؛ عطفَ الكلامَ إلى تهديدِهم وإنذارِهم بقوله: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾، أي: للمشركين به آلهةً أخرى، وجملةُ ﴿وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ إنشاءُ دعاءٍ عليهم في مقام الغضبِ والذّمِّ، مثلَ

قولِهم: ويحكَ، فعطْفُهُ من عطْفِ الإنشاءِ على الخبرِ"[1]. وتحتملُ أن تكونَ الواوُ للاستئنافِ، أي: استئنافُ الكلامِ دعاءً على الكافرين.

تَوجيهُ تَخْصيص الويلِ بالذِّكرِ:

الويلُ كلمةُ وعيدٍ تُقالُ لإثباتِ شديدِ العَذابِ وعظيمِ العِقابِ

الويلُ مصدَرٌ لا يُعرفُ له فعلٌ، ومعناهُ: شدّةُ الشّرّ، والتّقبيحِ، وقد يُستعملُ على سبيل التّحسّرِ[2]، والهلاكُ وما يقرُبُ منهُ من سوءِ الحالةِ، ولأنَّهُ لا يُعْرَفُ لَهُ فِعْلٌ كانَ اسْمَ مَصْدَرٍ، وعومِلَ مُعامَلَةَ المَصادِرِ، يُنْصَبُ على المَفْعولِيةِ المُطْلَقَةِ ويُرْفَعُ لإفادَةِ معنى الثَّباتِ؛ فيقال: ويلٌ له، كقوله سلامٌ عليك، وفي قوله تعالى: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ "خُصَّ هَؤُلاءِ بالوَيْلِ؛ لِأَنَّ المَعْنَى: أنّهم يوَلْولونَ مِنْ عَذابٍ شَديدٍ، ويَصيحونَ مِنْهُ، ويَقولونَ: يا ويْلاهُ"[3]، فهي "كَلِمَةٌ تُقالُ لِلْعَذابِ والهَلَكَةِ"[4]، وفيها "تهديدٌ للكافرين، ووعيدٌ لهم بالعذاب الشّديدِ، الذي يَنتظرُهم يومَ القيامة، مِن مالك المُلك، الذي إليه كلُّ شيء، وبيده كلُّ شيءٍ"[5].

غرَضُ تنكيرِ الوَيلِ:

جهلُ تفاصيلِ بعضِ الحَقائقِ يُكسِبُها تهويلًا وتعظيمًا

تنكيرُ الوَيلِ في قوله تعالى: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ أفادَ النَّوعَ، فهو نوعٌ خاصٌّ منَ الويلِ لا يعرفُه النّاسُ في الدُّنيا، وبه يكونُ الويلُ المذكورُ ذا تهويلٍ عظيم، وتفخيم لشأنِه، فهو ويلٌ غيرُ مسبوقٍ، وويلٌ غيرُ مدفوعٍ، وويلٌ غيرُ مهروبٍ منه، بتنكيرِه اكتسبَ جهالةً تُكسِبُه مزيدًا منَ التَّهويلِ والوَعيدِ.

غرَضُ تقْديمِ المُسنَدِ إليه:

للتَّشويقِ شأنٌ في ردْعِ المُتردِّدِ وكبْحِ جِماحِ المُتمرِّدِ

قُدِّمَ المُسنَدُ إليه في قوله تعالى: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ على المُسنَدِ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/183.
(2) الراغب، تفسير الراغب الأصفهاني: 1/240، وابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/136.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 19/60، وأبو حيّان، البحر المحيط: 6/407.
(4) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 9/339.
(5) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 7/148.

للتَّشويقِ، فإنَّ ذكرَ الويلِ نكرةً يُرادُ منه تشويقُ السّامعِ لمعرفةِ ما بعدَه من خبرٍ، وهو ما يجعلُ ذكرَ الخبرِ واقعًا موقعَ التَّرهيبِ والوعيدِ لِما يُكسبُه السّياقُ من جلالِ الموقفِ وعظيمِ المآلِ.

بَلاغةُ التَّعبيرِ باسْمِ الفاعلِ:

رُسوخُ الكفْرِ بالقلوبِ مَدْعاةٌ لرُسوِّ الويلِ فيها

تدلُّ صيغةُ اسْمِ الفاعلِ ﴿لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ على رُسوِّ الكفْرِ في قلوبِهم، وثباتِه، وديمومتِه، وعلى استمساكِهم به، وعدمِ تَخلّيهم عنه، واسمُ الفاعلِ (الكافر) دليلٌ على أنّه ثابتٌ لا يَتزحزحُ عن تلك العقيدةِ، فكان لذلك وبذلك جديرًا بالويلِ الثّابتِ المقيمِ عليه، والعياذُ باللّه من حال أهلِ النّارِ.

دَلالةُ (أل) في ﴿لِّلْكَٰفِرِينَ﴾:

الكافرون همُ الذين بَقَوا في الظّلماتِ ليسوا بِخارجين منها

(أل) في ﴿لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ عهديّةٌ فـ"الكافِرونَ هُمُ المَعْهودونَ، وهم الَّذينَ لَم يَخْرُجوا مِنَ الظُّلُماتِ إلى النّورِ، ولا اتَّبَعوا صِراطَ العَزيزِ الحَميدِ، ولا انْتَفَعوا بِالكِتابِ الذي أُنْزِلَ لِإخْراجِهِم مِنَ الظُّلُماتِ إلى النّورِ"[1]، فهؤلاء لهم "عذابٌ شديدٌ سينزلُ بهم، فيَجعلُهم يَستغيثون دونَ أن يَجدوا من يُغيثُهم"[2].

معنَى حرْفِ الجرِّ ﴿مِنْ﴾:

بدءُ الويلِ عذابٌ شديدٌ يُهلِكُهم

دلَّ حرفُ الجرّ ﴿مِنْ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ على معنى الابتداءِ، فالويل يبدأُ من عذابٍ شديدٍ، فكيف بما بعدَه من أصنافِ العذابِ التي ستُلاقيهم، وفيه منَ التَّهويلِ ما لا يخفى، أي: هلاكًا ينجرُّ لهم منَ العذاب الشّديدِ الذي يلاقونَه وهو عذابُ النّارِ[3].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/183.
(2) طنطاوي، التفسير الوسيط: 7/511.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/183.

وجْهُ تخْصيص العَذابِ بشديدٍ:

يقال: "شَيْءٌ شَديدٌ: بَيِّنُ الشِّدَّةِ بِالكَسْرِ، وشَدَّهُ: أَوْثَقَهُ يَشُدُّهُ، ويَشِدُّهُ بِالضَّمِّ والكَسْرِ"[1]، وشديدٌ صيغةُ مبالغةٍ على وزن فعيلٍ بمعنى فاعل، أي أنّ عذابَهم عذابٌ واثقٌ إيّاهم، يوثِقهم فلا يُفلتون، فتخْصيصُ وصْفِ العذابِ في قوله تعالى: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ بالشِّدَّة دون (أليم) أو (عظيم) أو (كبير) أكسبَ العذابَ معنًى ملائمًا للكفرةِ، فكما أنَّهم كانوا أشدّاءَ في كُفرِهم، فالعذابُ كذلك كان شديدًا عليهم من جنْسِ أعمالِهم، جزاءً وِفاقًا.

عذابُ الكافرِ يومَ القيامةِ يَشدُّه ويوثِقُه؛ فلا يُمكنُه الفكاكُ

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيّةُ:

الصّراطُ والطّريقُ والسّبيلُ:

"الصّراطُ هو الطّريقُ السّهلُ، قال الشّاعرُ:

خَشْوْنا أرضَهم بالخيلِ حتى *** تركناهُم أذلَّ منَ الصّراطِ

وهو منَ الذَّلِّ خلافَ الصّعوبةِ، وليس منَ الذُّلِّ خلافَ العِزّ، والطّريقُ لا يقْتضي السّهولةَ، والسّبيلُ اسمٌ يقعُ على ما يقعُ عليه الطّريقُ وعلى ما لا يقعُ عليه الطّريقُ، تقول: سبيلُ اللّه وطريقُ اللّه، وتقول: سبيلُك أن تفعلَ كذا، ولا تقول: طريقُك أن تفعلَ به. ويُرادُ به سبيلُ ما يقصدُه؛ فيُضافُ إلى القاصدِ ويُرادُ به القصْدُ، وهو كالمحبّةِ في بابِه، والطّريقُ كالإرادةِ"[2].

الصّراطُ الطّريقُ الطويلُ الواضحُ، والسّبيلُ يُستعملُ في المادّيات والمَعنويّاتِ، والطّريقُ يُستعملُ في المادّياتِ، وإذا أنّثَ ففي المَعنويّاتِ

ويُستعملُ السّبيلُ مع المعنويّات كابنِ السَّبيلِ، وسبيلِ اللّه، وسبيلِ الرّشد، ومع المادّياتِ، فيكونُ بمعنى الطّريقِ، بينما الطَّريقُ فالغالبُ عليه أنَّه يُستعملُ في المادّيات، إلّا إذا لحقَه التَّأنيثُ فيُستعملُ في المعنويّاتِ كالطّريقة المُثلى، وأمّا الصّراطُ فهو الطّريقُ الطّويلُ المُتّسعُ السّهلُ الواضحُ الذي يتبيّنُ فيه الإنسانُ معالمَ الهدايةِ والخيرِ

(1) الرازي، مختار الصحاح: (شدد).
(2) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 313.

والشّرِّ، وليس كلُّ طريقٍ طويلًا، وليس كلُّ طريقٍ واضحًا، ومن هنا اخْتيرَ في الآيةِ فإنَّ صراطَ اللّه واضحٌ يسيرٌ.

العذابُ والعقوبةُ:

العذابُ هو (الإيجاعُ الشّديدُ)[1]، وعقابٌ ونكالٌ، والعذابان: عذابُ القبرِ وعذابُ جَهنَّمَ"[2].

العذابُ مُطلقُ الإيجاعِ أمّا العقوبةُ فمجازاةٌ على إثرِ تَجاوُزٍ

و"أُعذِبَ الحوضُ: نُزِعَ ما فيه منَ العذَب؛ أي: الكَدَر، وبذلك عذُب الحوضُ - كَكَرُم - صار مستساغًا، والعذْبُ منَ الشّراب والطّعام: كلُّ مُستساغٍ، ومنه: عَذْبٌ: ﴿هَٰذَا عَذۡبٞ فُرَاتٞ﴾ [الفرقان: 53]، أي: حُلوٌ شديدُ العذوبةِ.

والتّعذيبُ من معنى الإزالةِ في التّفعيل، فيكونُ: عذَّبه: أزالَ عَذْبَ حياتِه، كمرّضَهُ: أزال مرضَه. عذابَها: ﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ٦٥﴾ [الفرقان: 65] أي: لازمًا أو مُمتدًّا كلزومِ الغريمِ، عَذَّبْناها ﴿وَعَذَّبۡنَٰهَا عَذَابٗا نُّكۡرٗا ٨﴾ [الطلاق: 8] أي: منكَرًا شنيعًا في الآخرة"[3].

أمّا العقوبةُ فمُجازاةٌ على إثْرِ تجاوُزٍ، فهي: "ما يَلحقُ الإنسانَ منَ المحنةِ بعد الذَّنْبِ في الدُّنيا، ولكلّ ذنْبٍ عقوبةٌ بدنيّةٌ، جنائيّةٌ"[4]، و"العقابُ الذي ينالُ فاعلَ الفعل في القلب إنّما هو أثرٌ أعقَبَ الفعلَ، والاسمُ: العقوبةُ"[5].

وعليه فإنّ العذابَ قد يكونُ مَسبوقًا بذنْبٍ، وقد لا يكونُ، والعذابُ يتضمَّنُ دائمًا ملمحَ الشّدّةِ، حتى وإنْ لم يوصَفْ بالشّديدِ أوِ الأليم ونحوِ ذلك، أمّا العقابُ فقد يكونُ يسيرًا؛ لارتباطِ العقوبةِ بالذّنْب، فإذا عَظُم الذّنْبُ عظُمتِ العقوبةُ، وإذا صَغُر كان العقابُ على قدْرِه،

(1) السمين الحلبي، عمدة الحفاظ: 3/42.
(2) مختار، معجم اللغة العربية المعاصرة: (عذب).
(3) الجمل، معجم وتفسير لغوي لكلمات القرآن: (عذب).
(4) مختار، معجم اللغة العربية المعاصرة: (عقب).
(5) الجمل، معجم وتفسير لغوي لكلمات القرآن: (عقب).

ويوضّحُ ذلك بجلاءٍ قولُ اللّه: ﴿وَإِنۡ عَاقَبۡتُمۡ فَعَاقِبُواْ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبۡتُم بِهِۦۖ﴾ [النحل: 126] ولشدّةِ عذابِ الكافرين استحقاقًا وأهليّةً ناسبَ التَّعبيرُ بلفْظِ العذابِ دونَ العقابِ.

الويلُ والويحُ:

خَسروا رحمةَ اللّه تعالى باستِحقاقِهمُ العذابَ

لفظا (الويح)، و(الويل) كلاهما للتّعجّبِ والتّوجُّع، لكنّ (ويح) تُستعملُ لمن وقعَ في مَهْلكةٍ لا يَستحقُّها؛ فيُرثَى له ويُترحّمُ عليه، أمّا (ويل) فتستعملُ للذي يستحقُّها ولا يُترحّمُ عليه[1]. والكافرُ مُستحقٌّ للعذابِ ولا يُترحّمُ عليه ولذلك اخْتير في الآية الكريمةِ تهديدًا بشدّةِ العذاب الذي سَيُلاقونَه.

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/136.

﴿ٱلَّذِينَ يَسۡتَحِبُّونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا عَلَى ٱلۡأٓخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلِۭ بَعِيدٖ ٣﴾ [إبراهيم: 3]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

بعْدَ ذكْرِ العَذابِ الشَّديدِ يَحسُنُ ذِكْـــرُ أسبـابِـه لاجْتِنابِها

بعدَ أن تَوَعَّد اللّه ﷻ مَن كفرَ منَ المَدْعوّين إلى الدّين بالويلِ الشّديدِ فصّلَ هنا مظاهرَ ذلك الكُفرِ التي أدّت بهم إلى ذلك الويلِ والعذابِ الشّديدِ، فعدَّد ﷻ في هذه الآية ثلاثةَ أسبابٍ، كلٌّ منها أشنعُ منَ الآخَرَيْن، هي إيثارُهمُ الكفرَ على الإيمانِ. وعُزوفُهم عن دين اللّه ﷻ، وتصَدّيهم للمؤمنين به، ومحاولةُ صرْفِهم عنه، ومحاولتُهم تشويهَ الدّين، وإبرازُه في صورة المختلِّ الأعوجِ، أي: "لمّا أشارَ إلى ما للكافرين، وصَفَهم بما عاقَهُم عن قَبولِ الخيرِ وتركَهم في أودية الشّرِّ؛ فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يَسۡتَحِبُّونَ﴾"[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَسۡتَحِبُّونَ﴾: "أحبَبْته نَقيضُ أبغضتُه، والحِبُّ والحِبّةُ بمنزلة الحبيبِ والحبيبةِ"[2]، و"﴿يَسۡتَحِبُّونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا﴾ أي: يُؤثِرونَها، ومنه قولُه تعالى: ﴿فَٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡعَمَىٰ عَلَى ٱلۡهُدَىٰ﴾"[3]، و"استحبَّ يَستحِبُّ، اسْتَحْبِبْ، اسْتَحِبَّ، استحبابًا، فهو مُسْتَحِبٌّ، والمفعول مُسْتَحَبٌّ، استحبَّ الشَّيءَ: قبِله، وفضَّله واستحْسَنه، وآثره، استحبَّ الشِّعْرَ على القصَّة: واختاره، أحبَّه أكثرَ منها وفضّلَه عليها ... وهو ما رغَّب فيه الشّارع ولم يوجبْه، عكسُ مكروه: أمرٌ مُستحبّ"[4].

ومن معاني ﴿يَسۡتَحِبُّونَ﴾ في الآية: "يَعتاضون ويَستبدلون، وقيل:

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 10/373.
(2) الخليل، العين: (حبب).
(3) الهروي، الغريبين في القرآن والحديث: (حبب).
(4) مختار، معجم اللغة العربية المعاصرة: (حبب).

يَختارون"[1]، و"يؤثرون شهواتِ الدّنيا على الآخرة ونعيمِها"[2]. فمادّةُ الاستحبابِ تدورُ حول معاني الاستحسانِ، والإيثارِ، والقَبولِ، والتَّفضيلِ، والاختيارِ، وذلك كلُّه واقعٌ منَ الكفّار بالنّسبة للكفرِ دونَ الإيمان.

2) ﴿وَيَصُدُّونَ﴾: "صَدَّ عنه يَصِدُّ صُدوداً: أعرضَ، وصدَّه عنِ الأمر صَدًّا: مَنَعَهُ وصَرَفَه عنه، وأصَدَّهُ لغةٌ"[3] و"الصَّدّ: الصَّرفُ والمنْعُ، يُقالُ صَدَّهُ، وأصَدَّهُ، وصَدَّ عَنْهُ. والصَّدّ: الهجْران، ومِنْهُ الحَديثُ «فيَصُدُّ هَذا ويَصُدُّ هَذا»[4]، أيْ: يُعْرِض بِوَجْهِهِ عَنْهُ. والصَّدُّ: الجانِبُ"[5]، فمادّة (صدَّ) تدور حول معاني الإعراضِ، والمنعِ، والصّرفِ، والهجرانِ، والضَّجيجِ، والجلبةِ، والصّياحِ، وكلُّ ذلك يقعُ منَ الكفّار الذين يَستحبّون الكفرَ على الإيمانِ، والعياذُ باللّه من حال أهلِ النّارِ.

3) ﴿وَيَبْغُونَهَا﴾: البِغْيةُ: نقيضُ الرِّشْدة، وبَغَيْتُ الشّيء أبغيه بُغاء، وابتغيتُه: طلبتُه[6]. فـ"الباء والغين والياء أصلان: أحدُهما طلبُ الشّيء، والثّاني جنْسٌ منَ الفسادِ، فمنَ الأوّلِ بغيتُ الشّيء أبغيه: إذا طلبتُه"[7]. وهو: طلبُ تجاوزِ الاقتصادِ فيما يتحرّى، تجاوزَه أم لم يتجاوزْه، فتارةً يعتبرُ في القدر الذي هو الكمّيةُ، وتارةً يُعتبرُ في الوصف الذي هو الكيفيّةُ، يقال: بَغَيْتُ الشّيء: إذا طلبتَ أكثرَ ما يجبُ، وابْتَغَيْتُ كذلك، قال اللّه ﷻ: ﴿لَقَدِ ٱبْتَغَوُاْ ٱلْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ﴾ [التوبة: 48]، وقال تعالى: ﴿يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ﴾ [التوبة: 47]. والبَغْيُ على ضَربين: أحدُهما محمودٌ، وهو تجاوزُ العدل إلى الإحسانِ، والفرضِ إلى التّطوّع، والثّاني مذمومٌ، وهو تجاوزُ الحقِّ إلى الباطل[8]. ومعنى ﴿وَيَبْغُونَهَا﴾ في الآية: يَطلبون لها، ويطلبونَها راغِبين مُلحِفين[9].

(1) الغزنوي، باهر البرهان في معاني مشكلات القرآن: 2/758.
(2) طنطاوي، التفسير الوسيط: 7/512.
(3) الجوهري، الصحاح: (صدد).
(4) البخاري، الجامع الصحيح، الحديث رقم: (6237).
(5) ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث والأثر: (صدد).
(6) الخليل، العين: (بغي).
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بغي).
(8) الراغب، المفردات: (بغي).
(9) الزمخشري، الكشاف: 1/392، أبو زهرة، زهرة التفاسير: 8/3984.

4) ﴿عِوَجًا﴾: العين والواو والجيم أصلٌ صحيحٌ يدلُّ على ميْلٍ في الشّيء[1]، و"العَوَج والعِوَج: خلافُ الاسْتقامَة، وهي بِكَسْر العين فيما لا شخصَ له منَ الدّين والأمرِ والأرْض ونَحْوها. وهو بِفَتْح العين في كلّ مُنتصِبٍ كالحائطِ والعودِ والشَّجر، والعَوْجاء: تَأْنيث أعْوَج، والملَّةُ العوجاء: ما كانَ أهلُ الجاهِلية عليه من عبادَةِ الأصْنام وجحْدِ التَّوْحيد، ولا عِوَجَ أشدُّ من هذا"[2]. ومعنى ﴿عِوَجًا﴾ في الآية: مُعْوجّةً غيرَ مُستقيمةٍ، وناكبةً عنِ الطّريق غيرَ سالكةٍ سواءَ السّبيلِ، ويبغونها زيغًا[3].

فالذين يَستَحِبّون الكفرَ على الإيمانِ يُحاولون تحريفَ الدّين، ويَطلُبون اعوجاجَه، ويَتطلّعون إلى إخراجِه عنِ استقامتِه ومزاياه وفضائلِه التي لا حدودَ لها.

❁ المَعْنى الإجْماليّ:

رُؤوسُ الكُفْرِ هم من قَدَّموا الفانيةَ على الباقيةِ وصَدّوا عن سَبيلِ الله بإرادَتِها مُعْوجَّةً

كشفَتِ الآيةُ صِفاتِ الكافرين الذين استحَقّوا العذابَ الشَّديدَ، وهي استحبابُ الحياة الدُّنيا الفانيةِ وتقديمُها على الآخرةِ الباقيةِ، وصدُّ النّاسِ عن سبيل الله تعالى، وإرادةُ السّبيلِ مُعوجَّةً عنِ الحقِّ لموافقةِ أهوائِهم ومُتابعةِ شهواتِهم، وهذه الصِّفاتُ هي التي ثبّتتِ الكفرَ في قلوبِهم وزرعتِ الباطلَ في صدورِهم، فإذا استجمعَ شخصٌ هذه الصّفاتِ في قلبِه وعقلِه فإنَّه رأسٌ من رؤوس الباطلِ، وسهمٌ من سهام إبليسَ، ولذلك أخبر الله عنهم أنَّهم في ضلالٍ بعيدٍ، أي أنَّهم في بعدٍ عنِ الحقِّ لا يستطيعون معه الاقترابَ من نورِ الإيمانِ، ولا ضياءِ الإسلام.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيّ:

الضَّلالُ البعيدُ نتيجةٌ طبيعيَّةٌ لصِفاتِ الكافرين الرّاسخةِ فيهم

إعراب الاسْمِ الموصول:

قولُه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ﴾ بالنَّظَرِ للسّابقِ إمّا أن يكونَ

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عوج).
(2) الحميدي، تفسير غريب ما في الصحيحين البخاري ومسلم، الحديث رقم: (431).
(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 8/3984.

بدلًا من ﴿لِّلْكَٰفِرِينَ﴾، أي: "الذين يختارون الحياةَ الدّنيا ومتاعَها ومعاصيَ اللّه فيها، على طاعةِ اللّه وما يُقَرِّبُهم إلى رضاه منَ الأعمال النّافعةِ في الآخرة"[1]، وإمّا أن "يكونَ مجرورًا صفةً للكافرين، أو منصوبًا على الذّمّ، أو مرفوعًا على: أعني الذين يَستحبّون، أو: هم الذين يستحبّون"[2].

وبالنَّظر إلى ما بعدَه فهو مبتدأ خبرُه ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلِۭ بَعِيدٍ﴾، ولا تُعارِضُ هذه الأعاريبُ كوْنَ الذين كفروا هذه صفاتُهم، فهي أوجهٌ صناعيَّةٌ، ومآلُها إلى أنَّ الكافرين اتَّصفوا بهذه الصّفات، سواءٌ على القول بالبدلِ أم النّعتِ أم تقديرِ محذوفٍ، أو بإعرابِها مبتدأً فإنَّ الخبرَ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلِۭ بَعِيدٍ﴾ لا يَخلو من عودتِه إلى الكافرين، فالمعنى الجامعُ لهؤلاءِ هو أنَّ الكافرين قدِ اتَّصفوا بهذه الصّفاتِ، ولذلك فهم في ضلالٍ بعيدٍ.

بَلاغةُ اسْتِعمالِ المَوصولِ الجَمْعيِّ:

أومأ المَوصولُ إلى ذمٍّ خاصٍّ لَحِقَ الكافرين

الاسْمُ الموصولُ عنصرٌ من عناصر التّشويق؛ بوصْفِه مُبهَمًا فقيرَ الدّلالةِ، ثمّ هو إلى ذلك يومئُ إلى وجه بناءِ الخبر، ثم هو مِن بين عناصرِ التَّعريفِ يُفسِحُ الأسلوبَ لِذكرِ دلالاتٍ متكاثفةٍ تتآزرُ على خدمةِ المعنى، وتُسْهِمُ في تحقيق الغرَضِ، وقد هيّأ الموصولُ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ﴾ لِذكْرِ المضارع ﴿يَسْتَحِبُّونَ﴾، ولذكرِ ﴿ٱلْحَيَوٰةَ﴾ وتعريفِها ووصْفِها بـ ﴿ٱلدُّنْيَا﴾، وما وراء ذلك من حشْدِ القيودِ المُتَمِّمَةِ، فكلُّ ذلك تَوَفَّرَ بسببٍ منَ المَوصول، ثمّ إنَّ المعنى هنا يأبى أن تُذكَرَ الأعلامُ المحدِّدَةُ لآحاد الكافرين؛ فكان التَّعبيرُ بالموصول هو السّبيلُ الأنسَبُ.

كما أنَّ التَّعبيرَ بالمَوصولِ يومئُ إلى نوعِ اختصاصٍ، فالكافرون

(1) ابن جرير، جامع البيان: 16/514.
(2) الزمخشري، الكشاف: 2/537.

الذين يَستحبّون الحياةَ الدُّنيا على الآخرة، ويَصدّون عن سبيلِ الله ويبغونَها عوجًا همُ المَذمومون بخالصِ الذَّمِّ، وهو اختصاصٌ إضافيٌّ لا حقيقيٌّ، قُصِدَ منه المُبالغةُ في التَّشنيعِ عليهم، وهذا التَّوجيهُ أبينُ على إعرابِ المَوصولِ تابعًا للكافرين.

غرَضُ صيغةِ المضارعِ ﴿يَسْتَحِبُّونَ﴾:

المضارعةُ في قوله تعالى: ﴿يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ تُترجمُ متابعةَ الكفّار حُبَّ الدّنيا، وتَجديدَهم التّعلُّقَ بها، والاستحبابَ لها، وإيثارَها، واختيارَها على الآخرة، والتّزوُّدَ منها حِلًّا كانت أو حُرمةً؛ فلا يَشبعون منها مهما اغترفوا، ولا يُراجعون أنفسَهم مهما طالت بهمُ الحياةُ فيَعترفوا بفسادِ عقائدِهم، وخطورةِ وجهتِهم التي يَؤُمّون طريقَها، وفي الحديث الشريف: «إنَّ هذا المالَ خَضِرٌ حُلْوٌ، فَمَنْ أَخَذَهُ بِسَخاوَةِ نَفْسٍ، بورِكَ له فيه ومَنْ أَخَذَهُ بإِشْرافِ نَفْسٍ، لَم يُبارَكْ له فيه، وكانَ كالَّذي يَأْكُلُ ولا يَشْبَعُ»[1].

اسْتِحْبابُ الدُّنيا حالةٌ لازِمةٌ لمن غَرِقَ في بئْرِ الشَّهَواتِ

معنَى السّين والتّاء في قولِه: ﴿يَسْتَحِبُّونَ﴾:

فعْلُ الحُبِّ المعتادِ هو (يُحبّون)، وهذا حينما يكونُ في حدودِ المعقولِ، أوِ المُتَصَوَّرِ المُمكنِ، أمّا الفعلُ ﴿يَسْتَحِبُّونَ﴾ فيُترجمُ عن تكلّفِ الحبِّ الشّديدِ، والتّعلُّقِ الذي يزيدُ عنِ الحدِّ المُنضبطِ، والمعيارِ المُتَّفقِ، فالسّين والتّاء من حروف الطّلبِ كما في قولنا: نَستغفرُ الله العظيمَ أي نطلبُ غفرانَه، وعلى ذلك فالسّين والتّاء في ﴿يَسْتَحِبُّونَ﴾ يَحكيان شدّةَ كَلَفِ الكافرين بالدّنيا، إلى درجةِ إيثارِها على ما عندَ الله تعالى منَ النّعيم المقيم في الآخرة، وذلك من علّةِ الوَيلِ، فالاستحبابُ "استفعالٌ منَ المحبّة؛ لأنّ المُؤْثِرَ للشّيء على غيره كأنّه يطلبُ من نفسه أن يكونَ أحبَّ إليها وأفضلَ عندها منَ الآخر"[2].

الحُبُّ الطبيعيُّ فِطرةٌ، والاستِحْبابُ تَكلُّفٌ

(1) البخاري، الجامع الصحيح، الحديث رقم: (2750).
(2) الزمخشري، الكشاف: 2/537.

وهذا يُستفادُ منه أوّلًا الرّغبةُ الشّديدةُ في الحياة بمعنى اللّجاجةِ في طلبِها، ويُستفادُ منه أنّه يختارُها على الحياة الدّنيا، ويتركُ الآخرة تركًا، كما يُتركُ كلُّ مهجورٍ[1]. ويجوزُ أن يكونَ استفعلَ بمعنى أفعل، أي: أحِبّوا، كاسْتَجاب وأجابَ[2].

والإنسانُ قد يحبُّ الشّيءَ ولكنه لا يحبُّ كونَه مُحبًّا لذلك الشّيءِ، مثلُ من يميلُ طبعُه إلى الفسقِ والفجورِ ولكنّه يكرهُ كونَه مُحبًّا لهما، أمّا إذا أحبَّ الشّيءَ وطلبَ كونَه مُحبًّا له، وأحبَّ تلك المحبّةَ فهذا هو نهايةُ المحبّةِ، فقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَسۡتَحِبُّونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا﴾ يدلُّ على كونِهم في نهاية المحبّةِ للحياة الدّنيويّةِ، ولا يكونُ الإنسانُ كذلك إلّا إذا كان غافلًا عنِ الحياةِ الأخرويّةِ، وعن معايبِ هذه الحياةِ العاجلةِ، ومن كان كذلك كان في نهاية الصّفاتِ المذمومةِ، وذلك لأنَّ هذه الحياةَ موصوفةٌ بأنواعٍ كثيرةٍ منَ العيوب[3].

المعنَى المجازيُّ في اسْتِعمالِ (المحبّةِ):

يَلزمُ عنِ المَحبّةِ اختيارُ المَحبوبِ وإيثارُه على نقائِضِه

"المحبّةُ مجازٌ مرسَلٌ عنِ الاختيار والإيثارِ بعلاقة اللّزومِ في الجملةِ، فلا يضُرُّ وجودُ أحدِهما بدون الآخرِ كاختيارِ المريض الدّواءَ المُرَّ لِنَفْعِه، وترْكِ ما يُحبُّه ويَشتهيه منَ الأطعمةِ اللّذيذةِ لِضَرَرِه"[4]، ومن معاني ﴿يَسۡتَحِبُّونَ﴾ كذلك "يَعْتاضون ويَسْتَبدلون، وقيل: يَخْتارون"[5]، و"يُؤثرون شَهواتِ الدّنيا على الآخرة ونعيمِها"[6].

بَلاغةُ التَّضْمينِ في الفعلِ ﴿يَسۡتَحِبُّونَ﴾:

اخْتيارُ حُروفٍ لأفعالٍ غيرِ مَخْصوصةٍ بها دَليلُ البلاغةِ ومِعيارُ البَراعةِ

إيثارُ النّظم الكريم حرفَ الاستعلاءِ ﴿عَلَى﴾ في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَسۡتَحِبُّونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا عَلَى ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ يتيحُ للفعلِ ﴿يَسۡتَحِبُّونَ﴾

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 8/3983 - 3984.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/407.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 19/60.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 7/174.
(5) الغزنوي، باهر البرهان في معاني مشكلات القرآن: 2/758.
(6) طنطاوي، التفسير الوسيط: 7/512.

أن يتضَّمنَ معانيَ أفعالٍ أخرى فضلًا عن معناه الأصليِّ، من تلك الأفعال: (يُفضِّلون، ويُؤْثرون، ويَختارون، ويَرفعون، ونحوُها)، فالكافرون يَستحبّون الحياةَ الدّنيا مُفضّلينَها ومُؤْثرينَها على الحياةِ الآخرةِ، ولا يُعطي هذه الدّلالةَ التَّعبيرُ بكلمةٍ أخرى كأنْ يُقال: يَستحبّون الحياةَ الدنيا دونَ الآخرةِ.

والذي حقَّقَ التَّضمينَ وهيّأ له تَعْديةُ فعْلِ الاستحبابِ بحرفِ الجرِّ ﴿عَلَى﴾؛ لأنَّ الاستحبابَ يَتعدَّى بنفسِه؛ فلمّا جاءت ﴿عَلَى﴾ دلَّ مَجيئُها على إرادة التَّضمين، والتّقديرُ: "يَستحبّون الحياةَ الدنيا ويُؤثرونَها على الآخرة، فجمعَ تعالى بين هذين الوصْفَين ليتبيّن بذلك أنَّ الاسْتِحبابَ للدّنيا وحدَه لا يكونُ مذمومًا إلّا بعد أن يُضافَ إليه إيثارُها على الآخرةِ، فأمّا من أحبَّها ليصلَ بها إلى منافعِ النّفسِ وإلى خيرات الآخرةِ فإنَّ ذلك لا يكونُ مذمومًا حتى إذا آثرَها على آخرته بأنِ اختار منها ما يضرُّه في آخرته فهذه المحبّةُ هي المحبّةُ المذمومةُ"[1].

بَلاغةُ تعريفِ ﴿ٱلْحَيَوٰةَ﴾:

تعريفُ ﴿ٱلْحَيَوٰةَ﴾ في قوله تعالى: ﴿يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ بأداة الاستغراقِ والاستيعابِ (أل) يوحي بجشَعِ الكافرين، وتطلُّعِهم واسْتِمْساكِهم بكلِّ ما يُمكنُ أن يجمَعوه منها من مالٍ وولدٍ وجاهٍ وغيرِها، ويُقرّرُ إيثارَهم إيّاها على رضوانِ اللّه تعالى. وفي تعريف ﴿ٱلْحَيَوٰةَ﴾ في هذا السّياقِ إشارةٌ إلى حقارتِها، وإلى مضرَّتِها على مُتعَشِّقيها، ويُترجمُ عن نَهَم طموحِهم فيها، وكأنّها كلُّ شيءٍ، وكأنّها نهايةُ كلِّ طموحٍ على الإجمال، حتى صاروا لا يُشبعُهم شيءٌ مهما تزوّدوا منها، وفي الحديث الشريف: «لَوْ كانَ لِابْنِ آدَمَ واديانِ مِنْ مالٍ لابْتَغَى ثالِثًا، ولا يَمْلَأُ جَوْفَ ابْنِ آدَمَ إلّا التُّرابُ، ويَتوبُ اللّه على مَنْ تابَ»[2].

الحَياةُ قبْرٌ عَميقٌ من رتعَ فيه وقَعَ فيه

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 19/61.

(2) البخاري، الجامع الصحيح، الحديث رقم: (6436).

دَلالةُ تَركيبِ ﴿ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا﴾:

الكافِرُ مُستغرِقٌ في مَلذّاتِ الحَياة الدُّنيا

يردُ هذا التّركيبُ في القرآن الكريم عندما يريدُ اللّه تعالى أنْ يصوّرَ اسْتغراقَ الإنسان في هذه الحياة، وعدمَ عنايتِه بما بعدَها، واغترارَه بأهوائِها وشهواتِها، وكأنّها هي الحياةُ الأبديّةُ[1].

بَلاغةُ الاكتفاءِ في ذكْرِ الموصوفِ:

خوطِبَ الكافِرون بما يَستحِبّون منَ الحياةِ الدُّنيا وطَيِّ ما يَكرَهون منَ الحياةِ الآخرةِ

وصَفَ النّظمُ الكريمُ ﴿ٱلۡحَيَوٰةَ﴾ بـ ﴿ٱلدُّنۡيَا﴾ فكشفَ عن أنّها منَ القِصَر والدُّنوِّ والدّناءةِ والحَقارةِ - إذا أُخِذتْ مِن غير حلِّها، وأُنْفِقَتْ في غير حقِّها - بمكانٍ، وبهذا الوصْفِ تبدو المفارقةُ الكبيرةُ والعجيبةُ بين حقارةِ ما يُؤثِرون، وبين عظمةِ ما يدْعوهم إليه الرّسولُ ﷺ من توحيدِ الرّبِّ العظيمِ الذي أنزلَ لهدايتِهم الكتابَ ﷻ، وما يَستلزمُه ذلك من حياةٍ هانئةٍ راقيةٍ سعيدةٍ، وآخرةٍ باقيةٍ أبديّةٍ سعيدةٍ.

ومُقتضى الجمْعِ بين الحياة الدّنيا والآخرةِ تحقيقُ الطِّباقِ على الوجْهِ الآتي: (الذين يَستحبّون الحياةَ الدّنيا على الحياةِ الآخرةِ)، لكنَّ النّظمَ الكريمَ اكتفَى في الطرف الثاني بالوصْفِ ﴿ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ دونَ الموصوفِ (الحياة)؛ وذلك لأنَّ الكفّارَ لا يَعتقدون أصلًا في وجود حياةٍ آخرةٍ؛ فطواها الذّكرُ الحكيمُ في تعبيرٍ دقيقٍ عن مُعتقدِهم الضّالِّ؛ فتآزرتْ خصائصُ التّراكيبِ على بيانِ ضلالِهم البعيدِ.

ثمّ إنَّ ذكرَ الحياةِ وحذفَها في المقابلِ يوحي بأنَّ القومَ حريصون على الحياةِ بمفهومِها البهيميِّ الحيوانيِّ، أمّا الآخرةُ فهي ليست حياةً بهيميَّةً، بل هي دارُ رضوانٍ وكرامةٍ وتشريفٍ للمؤمنين.

معنَى التَّعريفِ في ﴿ٱلۡأٓخِرَةِ﴾:

المُرادُ بالآخرةِ هنا نعيمُ الجنَّةِ دونَ النّارِ

تعريفُ ﴿ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ وإن كان قد حُذِف موصوفُه اتِّساقًا مع مُعْتقَدِ

(1) أبو عودة، التطور الدلالي بين لغة الشعر الجاهلي ولغة القرآن الكريم: 349 - 350.

الكفّارِ المنكِرِ لوجودِه أصلًا، لمِّح إلى أنَّ الدّارَ الآخرةَ هي الحياةُ الحقيقيّةُ، بل هي الدّارُ الحيوانُ، دارُ النّعيم الكاملِ الذي لا ينفدُ ولا يزولُ ولا يحولُ، والآخرةُ يدخلُ فيها الجنَّةُ والنّارُ، لكنَّ دلالةَ النَّظمِ أومأت إلى أنَّ المرادَ بالآخرةِ هنا خصوصُ الجنَّة بدليلِ المقابلةِ، فلا يدخلُ فيها إلّا نعيمُ الجنَّةِ.

دَلالةُ العطْفِ في ﴿وَيَصُدُّونَ﴾:

جملةُ ﴿وَيَصُدُّونَ﴾ معطوفةٌ على جملةِ ﴿يَسْتَحِبُّونَ﴾ وكلتاهما داخلتان في حيِّزِ صِلَة الموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾، فبينَهما توسُّطٌ بين الكمالَين؛ لاتِّحادِهما في الخبريّةِ، فقد جمعَ الكفّارُ بين استحبابِهم الكفرَ وعزوفِهم عنِ الإيمان، وبين دعوةِ غيرِهم إلى الكفرِ ودفعِهم عنِ الإيمان، و"محاولةُ إرجاعِ المؤمنينَ إلى الكفرِ بإلقاءِ التَّشكيكِ عليهم"[1]. فهم لم يَكتفوا بكونِهم أشرارًا فاسدين حتى منعوا غيرَهم، وتعدَّى إليهم شرُّهم، ووقَفوا حائلًا بينهم وبين سلوكِهم سبيلَ الخيرِ والهُدى والفلاحِ ﴿سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ المستقيمِ المُؤدّي إلى النّهايةِ السّعيدةِ والنّجاةِ الأكيدةِ، وترتيبُ الصدِّ بعد الاستحبابِ دالٌّ على أنَّ صدَّهم هو نتيجةٌ فعليَّةٌ للاستحبابِ، فإنَّ من أحبَّ شيئًا وآثره على غيرِه، صدَّ نفسَه والآخرين عن مخالفتِه، و"من كان موصوفًا باستحباب الدّنيا فهو ضالٌّ، ومن منعَ الغيرَ من الوصولِ إلى سبيل اللّه ودينِه فهو مُضلٌّ، فالمرتبةُ الأولى إشارةٌ إلى كونِهم ضالّين، وهذه المرتبةُ الثّانيةُ وهي كونُهم صادّين عن سبيل اللّه إشارةٌ إلى كونِهم مُضلّين"[2].

من أحبَّ شيئًا صدَّ نفسَه والآخرين عن مُخالَفَتِه

بَلاغةُ الاسْتِعارةِ في الآية:

في قوله تعالى: ﴿وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، تكشفُ مادّةُ

الصَّدُّ عن سَبيلِ اللّه تعالى يَشْملُ الوسائلَ المادّيّةَ والمَعنويَّةَ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/26.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 19/61.

(الصّدّ) عن قوّة تعطيلِ الكافرين إقامةَ دينِ اللّه تعالى، وكأنَّهم أقاموا حائطًا صادًّا مَتينًا ليس منَ المُمكن هدْمُه وتَخطّيه؛ ففي مادّة (الصّد) تصويرٌ لُغويٌّ مجرَّدٌ منَ التّصويرِ البيانيِّ، وتعبيرٌ لُغويّ كاشفٌ عنِ استقوائِهم على تعطيلِ دينِ اللّه تعالى، وعن جسارتِهم على عبادِ اللّه جلَّ في عُلاه، وهذا ضلالٌ ما بعدَه ضلالٌ؛ ولهذا خُتمتِ الآية بِوَصْمِهم بالضّلالِ البعيدِ.

ففي استعمالِ مُفردةِ الصَّدِّ تشبيهُ منْعِ النّاسِ من دخول الإسلام بمن يصدُّ الآخرين عنِ الطريق، فهي استعارةٌ تصريحيَّةٌ تبعيَّةٌ، ويُرشِّحُ ذلك كونُ الصَّدِّ عن سبيل اللّه تعالى، فهم يَمنعون النّاسَ من دخول سبيلِ اللّه تعالى، أو يمنعون أنفسَهم، وبلاغةُ الاستعارةِ في كونِ الصَّدِّ أقوى من مجرَّد المنْعِ؛ لأنَّه يشملُ الصَّدَّ المادّيَّ والمعنويَّ بالوسائل كلِّها.

نُكتةُ الفعلِ المضارعِ في ﴿وَيَصُدُّونَ﴾:

عُبِّرَ بالفعل المضارعِ في قوله تعالى: ﴿وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾؛ لبيانِ أنَّ صدَّ الكافرين عن دين اللّه تعالى مستمرٌّ متجدِّدٌ في حركاتِهم وأفعالِهم وأقوالِهم ووِجدانِهم، لا يَفتُرون عن ذلك، ولا تبردُ دماؤهم عنِ الصَّدِّ في كلِّ محفلٍ ومكانٍ، وهي إشارةٌ إلى المؤمنين إلى أنَّهمُ الأحقّاءُ بهذا السُّلوك الدّائم المقابلِ للصَّدِّ، وهو الدَّعوةُ إلى سبيل اللّه تعالى في كلِّ مكانٍ وزمانٍ.

المُؤمنُ أوْلَى بالاستِمرارِ على الدَّعْوةِ إلى سَبيلِ الله تعالى

سِرُّ استِعمالِ لفْظِ ﴿سَبِيلِ﴾:

استعمالُ سبيل اللّه في الآيةِ هو استعمالٌ مَجازيٌّ في الأقوالِ والأدلَّةِ الموصِّلةِ إلى الدّينِ الحقِّ[1]، والسَّبيلُ تُستعملُ في المعاني المادّيَّةِ والمعنويّةِ، وهنا قد استُعمل السَّبيلُ دونَ الصِّراط كما في الآيةِ السّابقة، وسرُّ ذلك أنَّ الصِّراط يُستعملُ في الطّريق الطّويلِ

سَبيلُ اللهِ يَدخلُ فيه فرعيّاتُ الدّين وأصولُه

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/26.

الواضحِ، وهو الإسلامُ، أمّا هنا فالمقصودُ بالسّبيلِ أيُّ سبيلٍ موصِلٍ إلى الإسلام، فيُرادُ به السُّبُلُ الفرعيَّةُ والصّراطُ المستقيمُ، ونكتةُ ذلك بيانُ أنَّ من صدَّ عن دين الله تعالى بأدنى صدٍّ فداخلٌ في الذَّمِّ، ولو قال: (ويصُدّون عن صراط الله) لما دخل في الذَّمِّ إلّا الصّادُّ عن الإسلام كلِّه.

دَلالةُ الإضافةِ في ﴿سَبِيلِ ٱللَّـهِ﴾:

تركيبُ (سبيل الله) سائرٌ في الأذهانِ كَسَيْرِ الحَياةِ في الأبدانِ

ذَكرتِ الآيةُ السّابقةُ أوصافًا أخرى للفْظِ الجلالةِ، فلم تقتصرْ على (صراط الله) وفي قوله تعالى: ﴿وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ اقتُصرَ على الاسْمِ الجليلِ، وسِرُّ "الاقتصارِ على الإضافة إلى الاسم الجليلِ المُنطَوي على كلّ وصْفٍ جميلٍ لِرَوْمِ الاختصار"[1]، ولجعْلِ هذا التَّركيبِ ﴿سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ سائرًا في الأذهانِ لِما يتعلَّقُ بهذا الدّين القويم الذي ارتضاه الله لعبادِه.

دَلالةُ العطْفِ وترتيبِه في ﴿وَيَبْغُونَهَا﴾:

أعْتَى الكُفْرِ الزَّعْمُ بأنَّ سبيلَ الله ناكبةٌ عنِ الحَقِّ

عُطفت هذه الجملةُ ﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ على الجملتَين اللّتين قبلها لتدخلَ ثلاثتُها في حَيِّزِ صلةِ الموصول، فبين الثّلاثِ توسّطٌ بين الكمالَين؛ لاتّحادها كلِّها في الخبرية مع توفّرِ الجامعِ، وهي جملةٌ كاشفةٌ عن سوءِ القصْدِ وفسادِ النّيّةِ، ومقرّرةٌ يقظةَ القوم الكافرين وتعمُّدَهم تخريبَ دينِ النّاس، وصرفَهم عن ربّهم ﷻ، ووضْعَهم على طريق مُعْوَجٍّ لا يُؤدّي بهم إلى خيرٍ قط، بل يَطلبون الزَّيْغَ والاعوجاجَ لتكونَ في هذه السَّبيلِ، ثم بعد ذلك يَزعمون أنَّها "سبيلٌ ناكبةٌ عنِ الحقّ، غيرُ مُستويةٍ"[2]، وذلك بسَعْيِهم "في إلقاء الشّكوكِ والشّبهاتِ في المذهب الحقِّ ويحاولُ تقبيحَ صفتِه بكلِّ ما يقدرُ عليه منَ الحيلِ، وهذا هو النّهايةُ في الضّلال والإضلالِ، وإليه الإشارةُ بقوله تعالى: ﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾"[3].

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/31.
(2) الزمخشري، الكشاف: 2/538.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 19/61.

سِرُّ اسْتِعمالِ ﴿وَيَبْغُونَهَا﴾:

معنَى البَغي حاضرٌ باللّفظِ والسّياقِ

مُفردةُ (البغي) مادّتُها ثريّةُ الدّلالاتِ المَقيتةِ، التي يتحلَّى بها هؤلاء الكفّارُ، فهي تَنِمُّ عمّا يتَّصِفون به من قبائحَ تَحتملُها هذه المادّةُ اللّغويّةُ، من ذلك أنّها تصِمُهم بالفجور، والظّلم، والاستطالةِ، والإفراطِ، والتَّعدّي، ومجاوزةِ الحدّ، والتَّرامي إلى الفساد ... إلى آخر تلك الفظائعِ المُتحقّقةِ في هؤلاء الكفّارِ الذين يَستحبّون الكفرَ على الإيمان، فجمعت هذه المفردةُ تلك المعانيَ، وأشارت إلى أنَّ ابتغاءَهم الذي فُسِّر بالطّلبِ والإرادةِ، أي: يَطلبونها عِوجًا، ويريدونها عِوجًا، هو بغيٌ حقيقيٌّ، فنبَّه على البغيِ باللَّفظِ والمعنى السّياقيِّ، وهذا من بديعِ التّركيبِ القرآنيِّ. جاء في نظم الدّرر: "﴿وَيَبْغُونَهَا﴾، أي: يَطلبون لها، حذفَ الجارَّ وأوصلَ الفعلَ تأكيدًا له"[1].

دَلالةُ صيغةِ المُضارعة في ﴿وَيَبْغُونَهَا﴾:

الكفرُ نارٌ مُتجدِّدةٌ مَطلبُه إطفاءُ نورِ الإيمانِ

عُبِّر بصيغةِ المضارعة في قوله تعالى: ﴿وَيَبْغُونَهَا﴾ لتتآزرَ مع المضارعة في الجُملتَين السابقتَين المعطوفِ عليهما ﴿يَسْتَحِبُّونَ﴾، ﴿وَيَصُدُّونَ﴾ وذلك يومئُ إلى إصرارِهم المستمرِّ في بيانِ نشاطِهم في طلبِ التّخريب والإفسادِ، وتجديدِهم (الاستحبابَ، والصّدَّ، والبغيَ)، وعدمِ التّواني في شيء منها، فما أعجبَ همَّةَ الكافرين في دعم كفرِهم على باطلِه!.

بَلاغةُ التَّعبيرِ بـ ﴿عِوَجًا﴾:

استعمالُ العِوَجِ إشارةٌ إلى أنَّ الدّينَ مُستقيمٌ وهم يطلُبون اعْوِجاجَه

إيثارُ النَّظمِ الكريمِ مادّةَ (العِوَج) دليلٌ على بلوغ الكافرين في الضّلال إلى منتهاه، ذلك أنّ غايتَهم تحريفُ الدّين وتشويهُ الحقِّ، ووصْمُه بالاعوجاج، تبغيضًا للنّاسِ فيه؛ فيَجتنِبوه ويُعادوه، وهذا واضحٌ في مناهج الكفرِ على كلِّ المُستوياتِ الاجتماعيّةِ والفكريّةِ

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 10/374.

والعلميّةِ والعقليّةِ والسّياسيّةِ في جميع الأزمان، وغايتُهم أن يعبَثوا في الدّين ليُخرجوه في قلوب النّاسِ وسلوكِهم عنِ استقامتِه، وذلك بنشْرِ ما يقدحُ في سبيل اللّه تعالى ودينِه القويمِ، فيَدْعون أوّلًا إلى تحريفِه، ثمّ يعودون ليتّهموه بالعِوج.

وصيغةُ (عِوَج) مصدرٌ؛ فكأنّهم يريدون ﴿سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ التي يَصدّون عنها قطعةً منَ الاعوجاج، بحيث لا يُرى فيها خيرٌ، ولا يبقى فيها عند النّاس استقامةٌ، ولو قيل (ويبغونها مُعْوَجَّة) فَلَرُبما فُهِمَ أنّهم يَبغون أيَّ اعْوجاج، وأنَّ أقلَّ اعْوجاجٍ في ظاهرِ دين اللّه تعالى يُسعدُهم ويَكفيهم ويكُفُّهم عنِ المزيد منَ التَّخريب والصّدِّ، وهذا غيرُ دقيقٍ؛ إذ لا يُشبعُ فجورَهم إلّا ما تفوحُ به صيغةُ المصدر للمبالغةِ، التي تقطع ببُلوغ نياتهم في السّوء مبْلغًا لا مزيدَ عليه[1].

وتُشيرُ المفردةُ إلى أنَّ ابتغاءَ الكافرين العِوَجَ هو دليلُ الاستقامةِ التي أشار إليها السّياقُ في قوله تعالى: ﴿صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾.

بَلاغةُ الفصْلِ في جُملةِ الفاصلةِ:

قولُه تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلِۭ بَعِيدٍ﴾ جملةُ الفاصلةِ المتَّسقةِ تمامَ الاتِّساق مع مضمون آيتِها، جاءت مفصولةً عمّا قبلها، إمّا لأنَّها خبرٌ عنِ الموصول، أو مستأنفةٌ وقعت جوابًا لسُؤالٍ مقدَّرٍ؛ إذ "وقعت معلّلةً لِما سبق من لُحوق الويل بهم؛ تأكيدًا لما أشْعرَ به بِناءُ الحُكم على الموصول، أي: أولئك الموصوفون بالقبائحِ المذكورةِ مِن استحباب الحياةِ الدّنيا على الآخرة، وصَدِّ النّاس عن سبيل اللّه المستقيمةِ، ووصْفِها بالاعوجاج وهي منه براءٌ في ضلال عن طريق الحقّ بعيدٍ بالغٍ في ذلك غايةَ الغايات القاصيةِ"[2].

فهي كلامُ اللّه تعالى وتوصيفُه حالتَهم، وحكمُه على هؤلاء

إيثارُ الدّنيا، والصَّدُّ عنِ الدّينِ، سبيلُ الكافِرين

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 8/139.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/31.

الضّالين، الذين بلغ بهمُ الضّلالُ أنِ استجمعوا أقبحَ الأفعال، فاستحبّوا الحياةَ الدّنيا على الآخرة، وتفاقم ضلالُهم فصدّوا غيرَهم، ولم يكتَفوا بما اقترفوه من ظلم لأنفسِهم وظلم للعباد، حتى بالغوا في الفسادِ والإفسادِ فعقدوا النيّةَ على تعطيلِ شرْعِ اللّه تعالى، والعملِ على تشويهِه، وتركِه عند الناس قطعةً منَ العِوَج والاختلالِ.

نُكتةُ اسْتِعمالِ اسْمِ الإشارةِ للبعيدِ:

أقوَى الأخبارِ ما زاحـمَ المبتدأ في معناه ومَبْناه

آثرَ الذّكرُ الحكيمُ تعريفَ المُسنَد إليه في جملة ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلِۭ بَعِيدٖ﴾ باسْمِ الإشارةِ الموضوعِ للبعيد ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾، أي: (البُعداء البُغضاء)[1]؛ إبعادًا للقوم الكافرين عن ساحة الطُّهر، والتّطويحِ بهم بعيدًا في مجاهل الضّلالِ البعيدِ؛ حيث لن ينالوا من كتاب اللّه تعالى الذي تكفَّل سُبحانه بحفْظِه حيث يقول: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ٩﴾ [الحجر: 9]، ولن ينالوا من دينِ اللّه ﷻ؛ لأنَّه الدّينُ الحقُّ، الذي إن تركوه امتدَّ وإن حاربوه اشتدَّ، فاللّه تعالى يُقيّضُ له مَن يحفظونَه في أنفسهم، ويُفسِدون على الكافرين خُطَطهم أوّلًا بأوّل.

وما أجملَ أن يُردَّ الخبرُ على المبتدأ، فاسمُ الإشارةِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ اشتملَ على البُعدِ المعنويِّ، ووصْفُ الضّلالِ بالبعيدِ قام مقامَ التّأكيد على هذا المعنى، فهو خبرٌ يُزاحمُ المبتدأ في معناه ومبْناه.

بَلاغةُ اسْتِعمالِ حرْفِ الظَّرفيّةِ ﴿فِي﴾:

تَصْويرُ انْغِماسِ الـكـافـريـن في الضَّلال دالٌّ على ضياعِهم

دلَّ حرفُ الظّرفيَّةِ ﴿فِي﴾ في قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلِۭ بَعِيدٖ﴾ على أنَّ الكافرين قدِ انغمَسوا في الضَّلال، وغطّوا فيه غطًّا، وكأنَّ ضَلالَهم قد صار قاعًا آسِنًا ووَحْلًا عميقًا غرِقوا فيه، وضاعوا إلى غير نجاةٍ، وحُقَّ عليهم ذلك فقد استَجْمعوا أقبحَ أنواعِ الضَّلال

(1) البقاعي، نظم الدرر: 10/374.

في أنفسهم، وحضّوا عليه وحثّوا إليه غيرَهم، بنوايا السّوء المُدبَّرةِ، ومقاصدِ التّخريب المُؤصَّلةِ.

ففي استعمال هذا الحرفِ في هذه الآية تزاحمٌ للمعاني البيانيَّة، ففي "جَعْل الضَّلال ظرفًا ﴿فِي ضَلَٰلٍ﴾ مجازٌ، كأنه قد أحاط بهم، وجلْبَبَهم بسواده، فَهُم منغمسون فيه إلى الأذقان، يتخبَّطون في متاهاتِه، ويتعسَّفون في ظلماتِه"[1]، وفيه مبالغةٌ فإنَّ جعلَ "الضّلال محيطًا بهم إحاطةَ الظّرفِ بما فيه ما لا يَخفَى من المبالغة"[2]، وهو دالٌّ "على تمكُّنِهم فيه تمكّنَ المظروفِ في الظّرف، وتصويرِ اشْتمال الضّلال عليهم اشتمالَ المُحيط على المُحاط وليكونَ كنايةً بالغةً في إثبات الوصْفِ أعني الضّلالَ على الأوجهِ"[3].

غرَضُ تَنكيرِ لفْظِ ﴿ضَلَٰلٍ﴾:

طَريقُ الضَّلالِ قُبْحٌ منكورٌ وبُعدٌ موزورٌ

تنكيرُ ﴿ضَلَٰلٍ﴾ في قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٍ بَعِيدٍ﴾ يتناغمُ مع وصْفِه الضَّلالَ بكونه ضلالًا؛ فالمادّةُ اللّغويّةُ تعني المتاهةَ الخَربةَ التي يضلُّ فيها مَن بداخلِها، كما يضلُّ فيه ويغيبُ الضّالُّ، فيصيرُ نكرةً منكورًا؛ فمفردةُ ﴿ضَلَٰلٍ﴾ تتآزرُ مع تنكيره ونُكرانِه وإنكارِه وجميعِ اشتقاقات المُنكر التي يُضْفيها عليه تنكيرُه، ويَصبغُها به، كما أنَّ التَّنكيرَ أفادَ تحقيرَ الضَّلالِ، فهو ضلالٌ لا وجهةَ له ولا مقصدَ فهو أدنى أن يُطلبَ وأحقرُ أن يُبحثَ عنه.

سِرُّ وصْفِ لفْظِ ﴿ضَلَٰلٍ﴾ بالبعيدِ:

بعدُ الضَّلالِ عنِ الحقِّ يوازي قُربَ الصّراطِ المستقيمِ منه

وُصِف ضلالُ الكافرين والمنافقين في الذكر الحكيم بأوصافٍ كثيرةٍ، مثل: ﴿مُّبِينٍ ١٦٤﴾ [آل عمران: 164]، و﴿بَعِيدٍ﴾، و﴿كَبِيرٍ ٩﴾ [الملك: 9]، وأكثرُها ورودًا هو وصفُ الضّلال بالمبين؛ حيث ورد في أربعة وعشرين

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 5/143.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/31.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 7/176.

موضعًا، وذلك أنَّ كلَّ ضلالٍ واضحٌ مكشوفٌ مُبين عن نفسه، ثم وُصفَ الضّلالُ بالبعيد، وقد ورد في ستَّة مواضعَ، ثم وُصف الضّلالُ بالكبيرِ، ولم يردْ إلّا في موضع واحد من سورة تبارك، ووصْفُ الضّلالِ في سورة إبراهيم بالبعيد صريحٌ في أنَّ الضّالّين في هذين الموضعَين قد أبعدوا الشُّقَّة في الضّلالِ، وبالغوا في النّزعِ الآثم.

وإنَّ أقصى مراتبِ الضّلال هو الذي وصفَه اللّه تعالى في هذه المرتبة فهذه المرتبةُ في غاية البُعدِ عن طريقِ الحقِّ، فإنَّ شرطَ الضّدّين أن يكونا في غاية التّباعُد، مثل السّوادِ والبياضِ، فكذا هاهنا الضّلالُ الذي يكون واقعًا على هذا الوجه في البعدِ عنِ الصّراطِ المستقيم الذي هو أقربُ ما يكونُ للحقِّ؛ يكونُ في غاية البعدِ عنِ الحقِّ، فإنّه لا يُعقلُ ضلالٌ أقوى وأكملُ من هذا الضّلال[1]، وعليه فوصفُ البعدِ "مستفادٌ منَ البُعد المَسافي إلى تفاوُت ما بين الحقِّ والباطل، أو ما بين أهلِهما"[2]، أو ما بينهما وما بين أهلِهما معًا.

بَلاغةُ المجازِ في وصْفِ الـ ﴿ضَلَٰلٍ﴾:

إسنادُ البعدِ الى الضّلال مجازٌ عقليٌّ، وهو من إسنادِ البعدِ إلى سببِه؛ لأنَّ البعدَ في الحقيقة للضّالِّ؛ لأنَّه هو الذي يتباعدُ عنِ الطّريق فوُصِف به فِعلُه، كما تقول: جدَّ جدّه وداهية دهياء[3]، وهو عبارةٌ عن تعمّقِهم في غورِه، وصعوبةِ خروجهم منه[4]، ويجوزُ أن يكون تشبيهُ الضَّلال بالبعيد على طريق تشبيهِه بالطَّريقِ الشّاسعةِ التي يتعذّر رجوعُ سالكِها عنها، فهو ضلالٌ قويٌّ يعسُرُ إقلاعُ صاحبه عنه، فيكونُ فيه إشارةٌ إلى استبعادِ اهتداءِ أمثالِهم كقوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِي ٱلسَّاعَةِ لَفِي ضَلَٰلٍ بَعِيدٍ ١٨﴾ [الشورى: 18][5].

من بعُدَ عنِ الحقِّ في مَسيرِه بعُدَ عنِ الحقِّ في مَصيرِه

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 19/61.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 7/175.
(3) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 5/143.
(4) ابن عطية، المحرر الوجيز: 3/323.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/184.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيّةُ:

الصدُّ والمنعُ:

"الصّدُّ: هو المنعُ عن قصْدِ الشّيء خاصّةً، ولهذا قال اللّه تعالى ﴿وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ [الأنفال: 34]، أي يمنعون النّاسَ عن قصْدِه، والمنعُ: يكون في ذلك، وغيره ألا ترى أنّه يقال: منعَ الحائطَ عنِ الميل، ولا يقال صدّه عنِ الميل؟ لأنَّ الحائطَ لا قصْدَ له، ويقولون: صدّني عن لقائك يريدُ عن قصْدِ لقائك وهذا بيّنٌ"[1]. ولمّا كان القصدُ في الآية مُحدّدًا في ﴿سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ اختيرَ لفظُ ﴿وَيَصُدُّونَ﴾.

المَنعُ عامٌّ، بينما الصَّدُّ فهو فيما فيه قصدُ الشَّيءِ خاصَّة

العِوجُ والميلُ:

العِوجُ: ميلٌ مضطربٌ قلَّ أو كثر، أمّا الميلُ: فيكون بعد استقامةٍ مثل قولِه تعالى: ﴿وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُواْ مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾﴾ [النساء: 27]، أو عن استعلاءٍ معنويٍّ مثل قوله تعالى: ﴿فَلَا تَمِيلُواْ كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ﴾ [النساء: 129]، أو ماديٍّ مثل قوله تعالى: ﴿وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَٰحِدَةً﴾ [النساء: 102]. ولكوْنِ ابْتِغائِهم العوجَ لم يأتِ بعد استقامةٍ، بل كانَ ميلا مُضطربًا، وزيغًا، وزيغًا عن سلوك سواءِ السّبيل مُتجذّرًا فيهم؛ ناسبَ سياقُ الآية اختيارَ لفظِ ﴿عِوَجًا﴾ دون (ميلا).

العِوجُ اضطرابٌ قليلٌ أو كثيرٌ، والميلُ ما كان بعد استقامةٍ أو عن قوّةٍ

البعيدُ والعميقُ:

العميقُ ما يكونُ في جوفِ الأرضِ، أمّا البعيدُ فما يكون في جوفِها وما يكونُ في ظاهرِها، فالعمقُ: البُعْدُ إلى أسفلَ، سواءٌ أكان بئرًا أم واديًا[2]. ومن هنا اخْتيرَ (البعيد) وصْفًا للضّلال بوصْفِه طريقًا طويلةً، شاسعةً يتعذّر رجوعُ سالكِها عنها.

العُمْقُ ما يتَّجِهُ إلى أسفلَ، والبعيدُ ما يتَّجهُ إلى مُساوٍ

(1) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 311.
(2) ابن منظور، لسان العرب: (عمق).

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٤﴾ [إبراهيم: 4]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الانْتِقالُ من بيانِ نِعْمةِ الرِّسالةِ إلى نِعمةِ الرَّسولِ

"لَمّا ذَكَرَ في أوَّلِ السّورَةِ: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ كانَ هذا إنْعامًا على الرَّسولِ مِنْ حَيْثُ إنَّهُ فَوَّضَ إليه هذا المَنْصِبَ العَظيمَ، وإنْعامًا أيْضًا على الخَلْقِ مِنْ حَيْثُ إنَّهُ أرْسَلَ إلَيْهِم مَنْ خَلَّصَهُم مِنْ ظُلُماتِ الكُفْرِ وأرْشَدَهُم إلَى نورِ الإيمانِ، فذَكَرَ في هذه الآيَةِ ما يَجْري مَجْرَى تَكْميلِ النِّعْمَةِ والإحْسانِ في الوجهَين.

أمّا فيما يخصّ الرَّسولَ ﷺ فَلأنّه تعالى بَيَّنَ أنَّ سائِرَ الأنْبياءِ كانوا مَبْعوثينَ إلى قَوْمِهِم خاصَّةً، وأمّا أنْتَ يا مُحَمَّدُ فمَبْعوثٌ إلَى عامَّةِ الخَلْقِ، فكانَ هذا الإنْعامُ في حَقِّكَ أفْضَلَ وأكْمَلَ.

وأمّا فيما يخصُّ عامَّةَ الخَلْقِ فهو أنَّهُ تعالى ذَكَرَ أنَّهُ ما بَعَثَ رَسولًا إلى قَوْمٍ إلّا بِلِسانِ أولَئِكَ القَوْمِ، فَإنَّهُ مَتَى كانَ الأمْرُ كَذَلِكَ، كانَ فَهْمُهُم لِأسْرارِ تلك الشَّريعَةِ ووُقوفُهُم على حَقائِقِها أسْهَلَ، وعَنِ الغَلَطِ والخَطَأِ أبْعَدَ، فهذا هو وجْهُ النَّظْمِ"[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿بِلِسَانِ﴾: "اللِّسانُ: ما ينطق، يُذَكَّر ويُؤَنَّث، والألسُن بيانُ التّأنيث في عددِه، والألسِنةُ في التّذكير، ولَسَنَ فلانٌ فلانًا يَلسُنُه، أي: أخَذَه بلسانه، وقال طَرَفة:

وإذا تَلْسُنُني ألْسُنُها *** إنَّني لستُ بمَوْهونٍ فَقِرْ[2]

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 19/63.

(2) ديوان طرفة بن العبد، ص: 42.

ورجلٌ لَسِنٌ: بَيِّنُ اللَّسَنِ، وشيءٌ مُلَسَّنٌ: جَعَلَ طَرَفَه كطَرَف اللِّسان، ولُسِنَ الرجُلُ أي قُطِعَ طَرَفُ لسانِه فهو مَلْسونٌ. واللِّسانُ: الكلامُ من قوله ﷻ: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ﴾"[1]، "أي: بلُغَة قومِه"[2]، و"رجُلٌ لَسِنٌ: بَيِّنُ اللَّسَنِ"[3]، "ومنه قوْلُه تعالى: ﴿وَٱخۡتِلَٰفُ أَلۡسِنَتِكُمۡ﴾ [الروم: 22]، أي لُغاتِكُم؛ ومِنْه قوْلُهم: لِسانُ العَرَبِ أفْصَحُ لِسانٍ"[4]، والمقصودُ باللّسان في الآيةِ: اللّغة، أي: أرسل اللّه الرّسلَ بلغاتِ أقوامِهم ليتحقَّقَ المقصودُ.

2) ﴿لِيُبَيِّنَ﴾: "البَيان: في الأصْل مصدرُ (بان الشَّيْء) بِمَعْنى: تبيّن وظهر، أو اسْمٌ من (بَيَّن) كالسّلام والكَلام، من (كلَّم) و(سلَّم) ثمَّ نَقله العُرفُ إلى ما يتَبَيَّنُ به من الدّلالَة وغَيرها؛ ونَقله الاصْطِلاح إلى الفصاحة، وإلى مَلَكة أو أصولٍ يُعرف بها إيراد المَعْنى الواحِد في صور مُخْتَلفَة ... والبَيان أيْضا: هو التَّعْبير عَمّا في الضَّمير، وإفهامِ الغَيْر، وقيل: هو الكَشْف عن شَيْء، وهو أعمُّ منَ النُّطْق؛ وقد يُطلق على نفس التَّبْليغ، كما في قَوْله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ﴾، والبَيانُ قد يكونُ بالفعل كما يكونُ بالقَوْل"[5].

❁ المَعْنى الإجْماليّ:

تَنفي الآيةُ أن يكونَ هناك أيُّ إرسالٍ بلُغةٍ منَ اللُّغات إلّا بلُغة قوم الرّسولِ الذي أُرسلَ فيهم، ومقصودُ ذلك؛ "ليفْهِمَهُم ما أرسلَه اللّه تعالى به إليهم مِن أمرِه ونَهْيه؛ ليثْبِتَ حُجَّةَ اللّه تعالى عليهم، ثمّ التّوفيقُ والخِذلانُ بيدِ اللّه ﷻ، فيخذُلُ عن قَبولِ ما أتاه به رسولُه

إذا اتَّضحَ الكلامُ قامتِ الحُجَّةُ ونهضَ البُرهانُ ولم يَبْقَ لمُعترِضٍ لسانٌ

(1) الخليل، العين: (لسن).
(2) الأزهري، تهذيب اللغة: (لسن).
(3) ابن عبّاد، المحيط في اللغة: (لسن).
(4) الزبيدي، تاج العروس: (لسن).
(5) أبو البقاء، الكليات: (بين).

مِن عنده مَن شاء منهم، ويوفِّقُ لِقَبوله مَن شاء ... وهو العزيزُ الذي لا يَمتنعُ ممّا أراده مِن ضلالٍ أو هدايةٍ مَن أرادَ ذلك به، الحكيمُ في توفيقِه للإيمان مَن وفَّقه له، وهدايتِه له مَن هداه إليه، وفي إضلالِه مَن أضلّ عنه، وفي غير ذلك من تدبيره"[1].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيّ:

معنَى الواوِ في المَطْلعِ:

الاسْتِئْنافُ جاء لبيانِ لُغةِ الكتابِ النّازلِ ووظيفةِ اللّغةِ النّازلِ بها

الواوُ في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ﴾ للاستئنافِ، والجملةُ مُستأنَفةٌ، تكشفُ عن أنّ الرّسولَ ﷺ من بني جِلدتِهم، وأنَّ الكتابَ الذي أُنزلَ إليه ليخرجَ النّاسَ منَ الظّلمات إلى النّور بلسانِهم، ليس غريبًا عليهم؛ فلا وجهَ لعدمِ فهمِهم عنه، ولا حُجّةَ في ادّعائِهم عدمَ فِقْهِ ما جاء به، وجاءت هذه الجملةُ بعد ذكر إنزالِ الكتابِ، فحسُنَ بيانُ لغةِ الكتابِ النّازلِ، فكأنَّه قال: كتابٌ عربيٌّ أُنزل إليك؛ "ليقعَ البيانُ والعبارةُ المتمكّنةُ، ثم يكونَ سائرُ النّاسِ من غير أهل اللّسانِ عيالًا في التَّبْيين على أهل اللِّسانِ الذي يكونُ للنّبيّ"[2].

بَلاغةُ القصْرِ في الآية:

إرسالُ كلِّ رسولٍ بلُغةِ قومِه ضرورةٌ حَتْميّةٌ لتَحْقيقِ الثَّمرةِ المَرْجوَّةِ

القصرُ في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ﴾ حقيقيٌّ تحقيقيٌّ، يقرّرُ أنّ رسول كلِّ أمةٍ يُخاطبُها بلغتِها؛ فذلك بيانُه جليًّا، وأثرُه فيهم مرجَّحًا، ولم تقفِ اللّغةُ حائلًا بين وضوح الرّسالةِ وتعاليمِها وبين أفهام قومِه.

وقد آثرَ النّظمُ الكريمُ أسلوبَ النّفي والاستثناءِ الذي من شأنِه تأكيدُ القضايا المشكوكِ في صحّتِها وفي صدقِها، حيثُ دَعَتِ الحاجةُ إلى تقرير رسالتِه ﷺ وصدْقِ كتابه الذي أتى به من عندِ اللّه تعالى.

(1) ابن جرير، جامع البيان: 16/516.
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 3/323.

و"تقديرُ الآية: وما أرسلنا قبلَك رسولًا إلا بلسان قومِه، وأنت مبعوثٌ بلسان قومِك إلى الخلْقِ جميعًا"[1]، "فما لِقومكَ لم يهتدوا بهذا القرآنِ وهو بلسانِهم!"[2].

وجاء القصرُ بأقوى صيغِه، وكأنَّ منكِرًا يُنكرُ تلك القضيَّةَ؛ فأكَّد له الخبرَ بالنّفي والاستثناء، وفيه إشارةٌ إلى يُسْر اللّغةِ التي يخاطبُ المرسَل إليهم بالنّسبةِ لهم، وأنَّ كفرَهم بعد ذلك يكون عنادًا وجحودًا، ويكونُ وبالُه عليهم في الدّنيا والآخرة، و"إذا كانت صيغةُ القصرِ مُستعملةً في ظاهرها ومُسلّطةً على مُتعلّقي الفعلِ المقصورِ كان قصرًا إضافيًّا لقلبِ اعتقادِ المخاطَبين، فيتعيَّنُ أن يكون ردًّا على فريقٍ منَ المشركين قالوا: (هلا أُنزلُ القرآنُ بلغة العجم)"[3].

فائدةُ الإسْنادِ في ﴿أَرْسَلْنَا﴾:

تعظيمُ الرُّسلِ والرِّسالاتِ النّازلةِ تابعٌ لعظَمةِ المُرسِلِ جلَّ في علاه

أسندَ النّظمُ الكريمُ الفعلَ (أرسل) إلى ضمير العظمةِ (نا) في جملة ﴿أَرْسَلْنَا﴾ إجراءً للخبرِ على مُقتضى الحقيقةِ، فالمُرسِلُ هو اللّه ﷻ، العظيمُ الجليلُ، مالكُ الملك وملكُ الملكوتِ، وهو العظيمُ في ذاته وصفاتِه وأسمائِه، وما دام بهذه العظمةِ فقد وجبَ على المُرسَلِ إليهم احترامُ رسلِه، وتقديرُهم، وعدمُ التّعرُّض لهم بسوء، وفيه تعظيمُ الرُّسل، والرّسالاتِ، وتشريفُ من أقبلَ مؤمنًا على أولئك الرُّسلِ، راضيًا بكلامِ اللّه تعالى، مُطْمئنًّا بما جاءه من عنده.

فائدةُ دُخولِ ﴿مِن﴾ على النّكرةِ:

إرسالُ الرُّسلِ بلُغاتِ أقوامِهم عامٌّ لم يَتخلَّفْ

أفاد دخولُ حرفِ ﴿مِنَ﴾ في قوله تعالى: ﴿مِن رَّسُولٍ﴾ العمومَ، فالمقصودُ برسولٍ جنسُ الرُّسل، فهي بيانيّةٌ تفيدُ تأكيدَ العمومِ المستفادِ من جملة القصرِ ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا﴾ ﴿إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ﴾، وهي

(1) الكرماني، غرائب التفسير وعجائب التأويل: 1/574.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/186.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/185.

كذلك تفيدُ "استغراقَ النّفيِ ثمّ الإثباتَ، أي ما أرسلنا أيَّ رسولٍ إلا بلسان قومِه ليبيّنَ لهم"[1].

معنَى الباءِ في قوله: ﴿بِلِسَانِ﴾:

الباءُ في قوله تعالى: ﴿بِلِسَانِ﴾ تفيدُ معنَى "الملابسة، فلُغةُ قومِه مُلابِسَةٌ لكلامِه"[2]، فالرُّسُلُ علماءُ بلُغاتِ أقوامِهم التي أُرسلوا بها، فهم يعلمون مضامينَ الكلام، وهم من يُبيِّنُ للنّاس المقصودَ بالكلامِ على وجهِه، و"يجوزُ أن يكونَ حالًا، أي: إلا متكلِّمًا بلغةِ قومِه"[3].

الرُّسُلُ علماءُ بلُغاتِ أقوامِهم

بَلاغةُ المجازِ في قوله: ﴿بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ﴾:

المقصودُ باللّسان هنا اللّغةُ، أي: ما أرسلْنا من رسولٍ إلّا بلُغةِ قومِه، ولأنَّ اللّسانَ أداةُ اللّغةِ وآلتُها سُمّيت باسْمِه، "وإطلاقُ اللِّسانِ وهو اسمُ الجارحةِ المعروفةِ في الفمِ على اللُّغةِ مجازٌ شائعٌ"[4].

اللّسانُ في القرآنِ الكريمِ هو اللُّغةُ

وفي تحاشي النَّظمِ الكريمِ ذِكْرُ مفردة اللّغةِ تجنُّبٌ لما يوهمُ بعضَ اشتقاقِها منَ (اللغو)، فليس في كلام اللّه تعالى لَغوٌ، وليس في كلام رُسلِه الكرام لَغوٌ؛ لذلك آثرَ الذّكرُ الحكيمُ تركَ مادّةِ اللّغوِ فلم تَرِد فيه نهائيًا، لكنه عبّرَ عنِ اللّغة باسمِ آلتِها الخاصَّةِ بها وهي اللّسانُ مجازًا لغويًّا مرسَلًا، وذلك بجعلِ العلاقةِ آليَّةً بإطلاقِ الآلةِ وهي اللِّسانُ، وإرادةِ اللّغةِ، أو محليَّةً بإطلاقِ محلِّ اللّغة وهو اللِّسان، وإرادةِ ما يحلُّ به، ونُكتةُ استعمالِ اللِّسان بإرادةِ اللّغةِ، باعتبارِ أنّ أشرفَ ما يُستعملُ فيه هو الكلامُ[5].

وجْهُ إفرادِ الـ ﴿بِلِسَانِ﴾:

في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ﴾ "وَحَّدَ

اللُّغةُ تقعُ على القَليلِ والكثيرِ فأغْنَى إفرادُها عن جمْعِها

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 8/3985.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/186.
(3) السمين الحلبي، الدر المصون: 7/69.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/321.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/25.

اللِّسانَ وإنْ أضافَهُ إلى القَوْم؛ لِأنَّ المُرادَ اللُّغَةُ، فهي اسْمُ جِنْسٍ يَقَعُ على القَليلِ والكَثيرِ"[1]، و"يقالُ: فلانٌ يتكلّمُ بلسان العربِ، أي: بلُغتِهم، قال أبو بكر: ولهذا المعنى وحّدَ اللّسانَ، وإن أُضيفَ إلى القوم؛ لأنه أريدَ باللّسان اللّغةُ، واللّغةُ تقعُ على قليلِ المنطق وكثيرِه"[2].

نُكتةُ إيثارِ لفْظِ (قوم):

المرادُ بلفْظِ (القوم) في قوله تعالى: ﴿بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ﴾ " قومُه الذي ولد محمد ﷺ فيهم، لا قومُه الذي بعث إليهم؛ لأنه مبعوثٌ إلى الخلق كافّةً"[3]، ولذلك عبَّر بالقوم لا بالأمَّة، فإنَّ الأمَّةَ عامَّةٌ يدخل فيها ألسنٌ كثيرةٌ، والمرادُ اللِّسانُ العربيُّ لا غيرُه، فاستقام بذلك قوَّةُ التَّعبيرِ بالقوم لا بالأمَّة.

الأمَّةُ تَشتملُ لُغاتٍ عديدةً والمقصودُ لغةُ العربِ لا سِواها

فالأمَّةُ أوسعُ وأشملُ منَ القوم "كما في حقّ نبيِّنا ﷺ؛ فقد بُعث إلى العرب والعجم، والجنّ والإنسِ، فقومُه الذين يفهمون عنه: يُتَرْجُمونَ إلى مَن لا يفهمُ، فتقومُ الحجّةُ عليهم، وكذلك إعجازُ القرآن يُدركُه أهلُ الفصاحة والبلاغةِ، فإذا وقع العجزُ عن معارضتِه منهم قامتِ الحُجّةُ على غيرِهم"[4].

سِرُّ إضافةِ القومِ إلى الضّمير:

في إضافة القوم إلى ضمير الرّسول ﷺ في قوله تعالى: ﴿بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ﴾ إشارةٌ مطويّةٌ إلى قوّة الرّابطةِ التي تربطُ بين الرّسول وقومِه؛ الذين يُفترضُ أنّه بهم يقومُ أمرُه، وبه يقومُ أمرُهم، وأنّهم أولَى النّاس به، وذلك أدْعى إلى احتفائِهم به لا محاربتِه، والتّشرّفِ به لا معاداتِه ومناوأتِه، وبناءً على ذلك فمنَ العَجب أن يتصدّى الأقوامُ لرُسلِهم الذين هم من بني جِلدتِهم، ويَنطقون بألسنتِهم.

أولَى النّاسِ بالرُّسلِ أقوامُهم؛ فبهم يقومُ أمرُه، وبه يقومُ أمرُهم

(1) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 9/340.
(2) الواحدي، التفسير البسيط: 12/399.
(3) الكرماني، غرائب التفسير وعجائب التأويل: 1/573.
(4) ابن عجيبة، البحر المديد في تفسير القرآن المجيد: 3/43.

معنَى اللّامِ في قوله: ﴿لِيُبَيِّنَ﴾:

اللّامُ في قولِه تعالى: ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ هي لامُ التَّعليل، وهي قيدٌ لبيانِ غرَضِ إرسالِ الرُّسُل بلسانِ أقوامِهم، الذي لولاه لَما صحَّ التّكليفُ؛ فيدْعوهم بلُغتِهم "ليَعْقِلَ عنه قومُه"[1]، و"ليتّخذَ بذلك الحُجّةَ"[2] عليهم، و"لا يكونُ لهم حُجّةٌ على اللّه تعالى، ولا يقولون له لم نفهم ما خوطِبْنا به"[3]. و"ليكونَ آكدَ في إلزام الحُجّةِ، وأنّى ينفعُ ذلك إذا لم يوفّقوا لسلوكِ المحجّةِ؟ فأهلُ الهدايةِ فازوا بالعنايةِ السّابقةِ، وأصحابُ الغَوايةِ وقعوا في ذلِّ العَداوةِ، فلا اعتراضَ عليه فيما يصنعُ، ولا يُسألُ عمّا يفعلُ أو لم يفعل"[4]. و"إنِ اعتَرَض أعجميٌّ بأنْ يقول: من أين يُبَيِّنُ لي هذا الرّسولُ الشّريعةَ وأنا لا أفهمُه؟ قيل له: أهلُ المعرفةِ باللّسان يُعبِّرون ذلك، وفي ذلك كفايتُك، فإن قال: ومن أين تَتَبَيّنُ لي المعجزةُ وأفهمُ الإعجازَ وأنا لا أفقهُ اللّغةَ؟ قيل له: الحجَّةُ عليك إذعانُ أهلِ الفصاحةِ، والذين كانوا يُظَنُّ بهم أنّهم قادرون على المعارضةِ، وبإذعانِهم قامتِ الحُجّةُ على البشرِ، كما قامتِ الحُجّةُ في معجزة موسَى بإذعانِ السَّحرةِ، وفي مُعجزة عيسى بإذعانِ الأطبّاءِ"[5].

لغةُ الكتابِ الخاتمِ هي العربيّةُ، وأهلُها حُجّةٌ على مَن وراءَهم مِنَ الأُممِ

غَرَضُ حذْفِ المفعولِ في ﴿لِيُبَيِّنَ﴾:

مفعولُ "﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾: ما هو مبعوثٌ به وله، ومحمّدٌ ﷺ مبعوثٌ إلى الخلق كافّةً بلسان قومِه الذي وُلِد فيهم، وتربّى بينَهم"[6]، فهو يُبيِّنُ الكتابَ النّازلَ للنّاسِ، ونكتةُ حذْفِ المفعولِ اتِّساعُ دائرةِ البيانِ؛ لتشملَ الكتابَ وما يتعلَّقُ بالكتابِ، ولو قال: (ليبيّنَ لهمُ الكتابَ)؛

الوحيُ المُبيَّنُ هو عمومُ وحْيِ الكتابِ والسُّنَّةِ

(1) الزجاج، معاني القرآن وإعرابه: 3/154.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 16/517.
(3) النسفي، مدارك التنزيل وحقائق التأويل: 2/162.
(4) القشيري، لطائف الإشارات: 2/239.
(5) ابن عطية، المحرر الوجيز: 13/323.
(6) الكرماني، لباب التفاسير، ص: 937.

لظُنَّ اقتصارُ البيانِ على الكتابِ، ولاختلف النّاسُ في ذلك، وقد جاء في قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلذِّكۡرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ﴾ [النحل: 44] ما يُفيدُ عمومَ البيان، فإنَّ ما نُزِّلَ إلى النّاس هو وحيُ الكتابِ والسُّنَّة؛ فليُتأمَّلْ.

دَلالةُ صيغةِ المضارعةِ في ﴿لِيُبَيِّنَ﴾:

من مُهمّةِ حامِلي لواءِ الدَّعوةِ تجديدُ البيانِ، وتحديثُ الوسائلِ

جاءَ التَّعبيرُ بصيغةِ المضارعِ في قوله تعالى: ﴿لِيُبَيِّنَ﴾؛ للدّلالةِ على التَّجدّدِ والاستمرارِ، كما أنَّ صيغةَ المضارعةِ تومئُ إلى أنَّ مهمّةَ الرُّسُل، ومن يتّبعونَهم من حملةِ لواءِ دعوتِهم، هو تجديدُ البيانِ للنّاس، وتحديثُ الدّعوة، حتى يؤتيَ البيانُ ثمارَه في القوم ما أمكنَ، وأنَّ القومَ الذين لا يَستجيبون يَتحمّلون مَسؤوليةَ تأبّيهم، إذ يكونُ البيانُ تامًّا ولا عُذرَ لهم.

بَلاغةُ تَقْييدِ البيانِ بـ ﴿لَهُمۡ﴾:

غايةُ البيانِ رِعايةُ الأقوامِ والعِنايةُ بمَصالحِهم

الجارُّ والمجرورُ ﴿لَهُمۡ﴾ صريحٌ في أنّ غايةَ بيانِ الرّسولِ هي منفعةُ قومه، وأنّه أُرسلَ إليهم لمصلحتِهم، ويُبيّنَ ﴿لَهُمۡ﴾ لمنفعتِهم، فالجديرُ بهم حينئذ إسداءُ الشُّكرِ لرسولِهم، والإقرارُ له بالفضلِ عليهم، لا منازعتُه وتصعيدُ الاختلافِ معه إلى درجة مقارعتِه بالسّيف وربما قتلِه قتلًا، واستعمالُ هذا الحرفِ دالٌّ على أنَّ البيانَ كان لهم دونَ غيرِهم، ففيه الاختصاصُ الدّالُّ على الرِّعاية والعنايةِ بالأقوامِ الذين أُرسل إليهمُ الرُّسُلُ.

معنَى الفاءِ:

الفاءُ فصيحةٌ تومئُ إلى محذوفٍ

الفاءُ في قوله سبحانه: ﴿فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ﴾ "استئنافُ إخبارٍ"[1]، ولذلك جاء الفعلُ مرفوعًا بعد فعل ﴿لِيُبَيِّنَ﴾ المنصوبِ، وهذا معنى قولِ الفرّاء: "وإذا رأيتَ الفعلَ منصوبًا وبعده فعلٌ قد نُسِقَ عليه؛ فإنْ كان يُشاكلُ معنى الفعل الذي قبله نَسَقْتَه عليه، وإن

(1) السمين الحلبي، الدر المصون: 7/70.

رأيتَه غيرَ مُشاكلٍ لمعناه استأنفتَه فرفعتَه"[1]، فالفاءُ للاستئنافِ في العمل النَّحويِّ، وهي فصيحةٌ في البيانِ، "كأنه قيل: فبيَّنوه لهم، فأضلَّ اللّه منهم مَن شاء إضلالَه لِما لا يليقُ إلّا به، وهدى مَن شاء هدايتَه لاستحقاقِه لها"[2].

غرضُ تقديمِ الإضلالِ على الهُدى:

في تقديمِ إضلال اللّه تعالى من يشاءُ على هدايتِه سُبحانه من يشاء في قوله: ﴿فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ﴾ اتِّساقٌ مع واقع الأقوامِ المَدعوّين إليه ﷺ؛ وهذا كقوله تعالى: ﴿وَإِن تُطِعۡ أَكۡثَرَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾ [الأنعام: 116] وقولِه تعالى: ﴿وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ ١٠٣﴾ [يوسف: 103]، وقولِه تعالى: ﴿وَقَلِيلٞ مِّنۡ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ١٣﴾ [سبأ: 13]، "وتقديمُ الإضلالِ على الهدايةِ إمّا لأنَّه إبقاءُ ما كان على مَن كان والهدايةُ إنشاءُ ما لم يكن، أو للمبالغةِ في بيانِ أنْ لا تأثيرَ للتّبيينِ والتّذكيرِ من قِبَل الرُّسلِ، وأنَّ مدارَ الأمر إنّما هو مشيئتُه تعالى بإيهام أنَّ ترتُّبَ الضّلالةِ على ذلك أسرعُ من ترتُّب الاهتداءِ، وهذا محقِّقٌ لِما سلفَ من تقييد الإخراجِ مِنَ الظّلمات إلى النّور بإذن اللّه تعالى"[3].

الغالبُ أنّ لِأهل الضّلالِ في الدّنيا مَرتبةَ الظُّهورِ، فلا يَنزعجُ لذلك أهلُ الهُدى

دَلالةُ المُضارعةِ في ﴿فَيُضِلُّ﴾، ﴿وَيَهۡدِي﴾:

صيغةُ المضارعةِ في قوله تعالى: ﴿فَيُضِلُّ﴾ و﴿وَيَهۡدِي﴾ تُترجمُ بواقعيةٍ دقيقةٍ ما يجري في كونِ اللّه تعالى مِنَ الإضلال والهداية ليلَ نهارَ، إذ لا يتوقّفُ هذا ولا ذاك لحظةً منَ الزّمنِ، وفي الحديثِ الشّريفِ: «بادِروا بِالْأَعْمالِ فِتَنًا كَقِطَعِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ، يُصْبِحُ الرَّجُلُ مُؤْمِنًا ويُمْسي كافِرًا، أوْ يُمْسي مُؤْمِنًا ويُصْبِحُ كافِرًا، يَبيعُ دينَهُ

البَشرُ يتقلّبون بين المَعاصي والطّاعاتِ لا يَفتُرون

(1) الواحدي، التفسير البسيط: 12/400.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/32.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/32.

بِعَرَضٍ مِنَ الدُّنْيا»[1]. فأحوالُ العبيدِ بين الهدى والضّلال دائرةٌ، وأهلُ الضّلال بهذه الكثرةِ الكاثرةِ، ومعهم أهلُ التّوحيد يتقلّبون جميعًا بين المعاصي والطّاعات.

بَلاغةُ حذْفِ مفعولِ المشيئةِ:

مُجرياتُ الأمورِ بالمشيئةِ لا يندُّ عنها شيءٌ

شاع في الذّكرِ الحكيم حذْفُ مفعولِ المشيئةِ الإلهيّةِ؛ لأنّ مشيئتَه ﷻ نافذةٌ لا يَعوقُها عائقٌ، والمعنى في قوله تعالى: ﴿فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾: فيضلُّ اللّه ﷻ من يشاءُ إضلالَه ويهدي من يشاءُ هدايتَه، فدلَّ الحذفُ على مطلق القُدرةِ الإلهيّةِ، وأفاد أنّ كلَّ شيءٍ يجري في كونِه ﷻ على وفْق مشيئتِه، لا يَندُّ عنها شيءٌ.

دَلالةُ الواوِ في جملةِ الفاصلةِ:

إضلالُ اللهِ تعالى وهدايتُه يَجْريان على وفْقِ عزّتِه وحِكمتِه المُطْلقتَين

الواوُ في جملةِ ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ استئنافيّةٌ؛ إذ تقرّرَ مضمونُ الآيةِ الكريمةِ؛ وأنه ﷻ "العَزيزُ في ملكِه، الحَكيمُ في أمرِه وقضائِه"[2]؛ فردَّ ﷻ "المشيئةَ إلى نفسه فقال: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ في مُلكِه ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾"[3] باختيارِه، وبعزّتِه حكمتُه المطلقةُ، التي تضعُ الأمورَ في نصابِها، ولا تضعُ شيئًا في غير موضعِه.

بَلاغةُ القصْرِ في جملةِ الفاصلةِ:

لا تجتمعُ العزّةُ المُطلقةُ والحِكمةُ الكاملةُ إلّا لصاحبِ الخلْقِ والأمْرِ

بناءُ جملةِ ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ على تقديمِ الضّميرِ ﴿وَهُوَ﴾ أسلوبٌ يفيدُ القصْرَ، فيَقصرُ هنا العزّةَ والحكمةَ المطلقتَين على اللّه ﷻ، فلا عزيزَ بالمعنى الحقيقيِّ لهذا الوصفِ إلّا هو ﷻ، ولا حكيمَ بالمعنى الدّقيقِ لهذا الوصف إلّا هو ﷻ.

والقصرُ هنا قصرٌ حقيقيٌّ تحقيقيٌّ، أسهمت (أل) التّعريفيّةُ في إفادتِه، ودعمتْ تحقُّقَه في الصّفتَين ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾، ولو

(1) مسلم، صحيح مسلم، الحديث رقم: (118).
(2) السمرقندي، بحر العلوم: 2/35.
(3) مقاتل بن سليمان، تفسير مقاتل بن سليمان: 2/397.

جاء التّعبيرُ (وهو عزيز حكيم) لَما أفاد معنَى القصرِ الحقيقيِّ التّحقيقيِّ، ولَما كانتِ الصّفتان ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ مختصتَين به ﷻ، ومن هذا الذي "لا يغالبُ في مشيئتِه ولا يفعلُ شيئًا إلّا لحكمةٍ"[1] سِواه عزَّ في عُلاه.

بَلاغةُ التَّذْييلِ في جملةِ الفاصلةِ:

وضعُ الأشياءِ في مواضِعِها فعْلُ العَزيزِ الحَكيمِ

قولُه تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ "تذييلٌ؛ لأنَّ ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ قوي لا ينفلتُ شيءٌ من قُدرتِه، ولا يخرُجُ عمّا خُلِقَ له، و﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ يضعُ الأشياءَ مواضعَها، فمَوْضِعُ الإرْسال والتّبْيين أُتي على أكْمَلِ وجْهٍ مِنَ الإرْشادِ، ومَوْقِعُ الإضْلالِ والهُدَى هو التَّكْوينُ الجاري على أنْسَبِ حالٍ بأحْوالِ المُرْسَلِ إليهم، فالتَّبْيينُ مِنْ مُقْتَضَى أمْرِ التَّشْريعِ، والإضْلالُ مِنْ مُقْتَضَى أمر التّكوينِ"[2].

والذي يُضلُّ مَن يشاء ويَهدي مَن يشاءُ بلا عائق يَعوقه ولا متأبٍّ يتأبَّى عليه لا يكون إلّا عزيزًا بل ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ القويُّ القادرُ القاهرُ فوق عباده، الذي لا يُغلَب ولا يُقهرُ، الذي ﴿أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾ [يس: 82]، ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ الذي عزَّ فحكمَ في ملكه، الحكيمُ الذي "لم يؤخذْ عليه في فعلِه خطأٌ قط، مصيبٌ وضعَ كلَّ شيء موضِعَه"[3].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيّةُ:

البيانُ والتّفصيلُ:

البيانُ توضيحٌ عامٌّ والتَّفصيلُ إيضاحٌ زائدٌ

يختصُّ البيانُ بإخراجِ الشّيء من حيِّزِ الإشكال إلى حدِّ التّجلّي، وإظهارِ المعنى للنّفس كائنًا ما كان، وما ذُكرَ ليُعرفَ به غيرُه فهو البيانُ، وإظهارُ المعنى للنّفس كإظهارِ نقيضِه، والتّفصيلُ هو ذكرُ

(1) الجاوي، مراح لبيد لكشف معنى القرآن المجيد: 1/566.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/188.
(3) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 6/363.

ما تضمّنتْه الجملةُ على سبيل الإفراد؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۝١﴾ [هود: 1]، ولم يَقُل: شُرحت، والتّفصيلُ هو وصْفُ آحادِ الجنس، وفي التّفصيل معنى البيانِ عن كلّ قسم بما يزيدُ على ذكرِه فقط[1]. ومُقتضى الأحكامِ الشّرعيّةِ، والسُنَنِ إخراجُ مضامينِها من حيِّزِ الإشكال إلى حدِّ التّجلّي؛ لتَيْسيرِ تطبيقِها، واعتمادِها منهجَ حياةٍ، وطُرقَ نجاةٍ، وسُبلَ هدايةٍ، وهو معنى يناسبُه لفظُ (البيان) لِما ظهرَ من دلالتِه.

(1) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 108، 134، 298.

﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنۡ أَخۡرِجۡ قَوۡمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرۡهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٖ ٥﴾ [إبراهيم: 5]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

"لَمّا بَيَّنَ أنَّهُ إنَّما أرْسَلَ مُحَمَّدًا ﷺ إلى النّاسِ ليخْرِجَهُم مِنَ الظُّلُماتِ إلى النّورِ، وذَكَرَ كمالَ إنْعامِهِ عليه وعلى قَوْمِهِ في ذلك الإرْسالِ وفي تلك البَعْثَةِ، أتْبَعَ ذلك بِشَرْحِ بِعْثَةِ سائِرِ الأنْبياءِ إلى أقْوامِهِم، وكَيْفيةِ مُعامَلَةِ أقْوامِهِم معهم؛ تَصْبيرًا لِلرَّسولِ ﷺ على أذَى قَوْمِهِ، وإرْشادًا له إلى كَيْفيةِ مُكالَمَتِهِم ومُعامَلَتِهِم، فَذَكَرَ تعالى على العادَةِ المألُوفَةِ قَصَصَ بَعْضِ الأنْبياءِ ﷺ فَبَدَأ بِذِكْرِ قِصَّةِ موسَى ﷺ"[1]، وإرسالِه "إلى قَوْمِه بِمِثْلِ ما أُرْسِلَ به مُحَمَّدٌ ﷺ وبِمِثْلِ الغايَةِ التي أُرْسِلَ لَها مُحَمَّدٌ ﷺ ليخْرِجَ قَوْمَهُ مِنَ الظُّلُماتِ إلَى النّورِ"[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَخۡرِجۡ﴾: الخاءُ والرّاء والجيم أصلٌ يدورُ حول النَّفاذِ عنِ الشَّيءِ[3]، يُقال: "خَرَجَ خُروجاً: برزَ من مَقَرِّه أو حالِه، سواءٌ كان مَقَرُّه دارًا، أو بلدًا، أو ثوبًا، وسواءٌ كان حالُه حالةً في نفسِه، أو في أسبابِه الخارجةِ، قال الله تعالى: ﴿فَخَرَجَ مِنۡهَا خَآئِفٗا يَتَرَقَّبُۖ﴾ [القصص: 21]. والإخْراجُ أكثرُ ما يقالُ في الأعيان، نحوَ: ﴿أَنَّكُم مُّخۡرَجُونَ ٣٥﴾ [المؤمنون: 35]"[4]، و"الخُروجُ: نَقيضُ الدُّخولِ. خَرَجَ يَخْرُجُ خُروجًا ومَخْرَجًا، فهو خارِجٌ وخَروجٌ وخَرّاجٌ، وقَدْ أخْرَجَهُ وخَرَجَ بِهِ"[5]، والمقصودُ بالإخراجِ في الآيةِ هو هدايةُ بني إسرائيلَ، وإخراجُهم ممّا هم فيه إلى نورِ الأخلاقِ الحميدةِ والفضائلِ الجميلةِ.

2) ﴿ٱلظُّلُمَٰتِ﴾: الظّاءُ واللام والميم أصلان صحيحان، أحدُهما خلافُ الضّياء

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 19/64.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/188.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (خرج).
(4) الراغب، المفردات: (خرج).
(5) ابن منظور، لسان العرب: (خرج).

والنّورِ، والآخرُ وضعُ الشّيء غيرَ موضعِه تَعدّيًا[1]، و"الظُّلمات: جمع ظُلمة، ويعبّرُ بها عن الجهل، والشّركِ، والفسقِ، كما يعبّرُ بالنّور عن أضدادِها، قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ﴾ [البقرة: 257]. وقولُه: ﴿كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ [الأنعام: 122] هو كقولِه: ﴿كَمَنۡ هُوَ أَعۡمَىٰٓۚ﴾ [الرعد: 19]، وقولِه: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا صُمّٞ وَبُكۡمٞ فِي ٱلظُّلُمَٰتِۗ﴾ [الأنعام: 39]. وقولِه: ﴿فِي ظُلُمَٰتٖ ثَلَٰثٖۚ﴾ [الزمر: 6]، أي: البطنِ، والرّحِم، والمَشيمَةِ، ويُجمعُ على ظُلَم أيضًا"[2]. ومعنى الظُّلماتِ في الآية: الجهلُ والمعصيةُ والفِسقُ.

3) ﴿ٱلنُّورِ﴾: النّونُ والواو والرّاء أصلٌ صحيحٌ يدلُّ على إضاءةٍ[3]، و"النّورُ: الضّوءُ المُنتشرُ الذي يُعينُ على الإبصارِ، وذلك ضربان: دنيويٌّ، وأخرويٌّ، فالدّنيويُّ ضربان: ضربٌ معقولٌ بعَيْن البصيرةِ، وهو ما انتشرَ منَ الأمور الإلهيةِ كَنورِ العقل ونورِ القرآن، ومحسوسٌ بعَيْن البَصَر، وهو ما انتشر منَ الأجسام النّيّرةِ كالقمرَين والنّجوم والنّيّراتِ، فمنَ النّورِ الإلهيِّ قولُه تعالى: ﴿قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ ١٥﴾ [المائدة: 15]، ومنَ المحسوس الذي بعين البصر نحوُ قولِه تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلشَّمۡسَ ضِيَآءٗ وَٱلۡقَمَرَ نُورٗا﴾ [يونس: 5]، ومعنى النّورِ في قوله تعالى: ﴿أَخۡرِجۡ قَوۡمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ أي: نورِ الحقِّ والطّاعةِ.

4) ﴿بِأَيَّىٰمِ﴾: الياءُ والواو والميم: كلمةٌ واحدةٌ، هي اليومُ: الواحدُ منَ الأيّام، ثم يَستعيرونَه في الأمر العظيم ويقولون نعمَ فلانٌ في اليومِ إذا نزل[4]، واليَوْمُ يُعبّرُ به عن وقتِ طلوعِ الشّمس إلى غروبِها، وقد يُعبّرُ به عن مدّةٍ منَ الزّمان - أيّ مدّةٍ كانت - قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوۡاْ مِنكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ﴾ [آل عمران: 155]. وقولُه ﷻ: ﴿وَذَكِّرۡهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِۚ﴾، واليَوْم "في الفَلَك مِقْدارُ دورانِ الأرْض حول محورِها، ومدّتُه أربعٌ وعِشْرونَ ساعَةً"[5]، و"العَرَب تَقول: الأيّام، في معنى الوقائعِ[6] "، "ومنَ المجاز: ذكرُ في أيّام العربِ كذا أي في وقائعِها، ﴿وَذَكِّرۡهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِۚ﴾ بدمادِمِه على الكفرةِ"[7].

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ظلم).
(2) الفيروزابادي، بصائر ذوي التمييز: 3/540.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نور).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (يوم).
(5) مجموعة من المؤلفين، المعجم الوسيط: (يوم).
(6) الأزهري، تهذيب اللغة: (يوم).
(7) الزمخشري، أساس البلاغة: (يوم).

ومعنى ﴿بِأَيَّٰمِ ٱللَّهِۚ﴾ في الآية أخذُهم بالشّدّةِ واللّين؛ بتخويفِهم بأيّام عادٍ وثَمودَ وأشباهِهم بالعذاب وبالعفوِ عَن آخرين[1]، أي: بنَقماتِه وشدائدِه، فالأيّامُ يُعبّرُ بها عنِ الشّدائد والوقائعِ[2]. وكذلك بِنِعَمِه[3].

❁ المَعْنى الإجْماليّ:

تُخبرُ الآيةُ أنَّ اللّه تعالى قد أرسلَ رسولَه موسى ﷺ إلى قومِه ليُخرجَهم منَ الظّلمات إلى النّور، "مؤيَّدًا بآياتنا التّسعِ التي مرّت في سورة الأعراف، وقلنا له: أخرج قومَك يا موسى منَ الظّلمات إلى النّور، والمعنى: أمرْهم بالتّوحيد الخالصِ والإيمان باللّه إيمانًا كاملًا ليَخرجوا من ظلمات الجهلِ والضّلالِ والمعصيةِ إلى نورِ الهُدى والإيمانِ، وذكّرْهم بأيّام اللّه التي مرّت على أُمم الأنبياءِ السّابقةِ، وكيف نجا المؤمنون وهلك الكافرون؟! وذكّرْهم بأسَ اللّه وشدائدَه وانتقاماتِه ممن كذّبَ رسالتَه كقوم عادٍ وثمودَ وقومِ هودٍ وإخوانِ لوطٍ، ففي التّذكيرِ بأيّام اللّه ترغيبٌ وترهيبٌ، ولقد كان لموسى مع قومه أيّامٌ فيها محنةٌ وبلاءٌ وأيّامٌ فيها نِعمٌ ونجاةٌ وكلُّها من أيّامِ اللّه، إنّ في ذلك التّنبيه والتّذكيرِ لَدلائلَ على وحدانيّةِ اللّه وقُدرتِه لكلّ صبّارٍ في المحنةِ والشّدّةِ، شَكورٌ في المِنحةِ والعطيّةِ"[4].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيّ:

معنَى الواوِ في المَطْلعِ:

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ "جملةٌ مستأنفةٌ، مسوقةٌ للشّروع في تفصيل ما أجْملَه عنِ الرّسل في قوله تعالى: ﴿وَمَآ

إذا أدّى الدّاعيةُ مهامَّه فلا عليه مـن كُـفْـرِ من كَفَرَ، واسْتَحبَّ الحياةَ الدّنيا

(1) الفراء، معاني القرآن: 2/68، وابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم: (يوم).
(2) السمين الحلبي، عمدة الحفاظ: 4/359.
(3) الأزهري، تهذيب اللغة: (يوم)، وابن الجوزي، نزهة الأعين النواظر، ص: 641.
(4) حجازي، التفسير الواضح: 2/247.

أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ﴾"[1]، كذلك سيقتْ إلى رسولِ الله ﷺ تسليةً وتهوينًا لتكذيبِ قومِه إيّاه في كونِه رسولًا مُرسلًا إليهم منَ الله تعالى، وتهوينًا من أمر استحبابِهمُ الحياةَ الدّنيا على الآخرة، وصدِّهم عن سبيل الله ﷻ وبُغائِهم دينَ الله ﷻ عِوجًا وذلك ما سبق في أوّل هذه السّورة ونهايةِ السّورةِ السّابقةِ.

غرَضُ التّأكيدِ بالقسَمِ و(قد):

إنكارُ رسالةٍ لاحقةٍ كإنكارِ رسالةٍ سابقةٍ

خبرُ إرسالِ موسى عليه السلام معلومٌ ضرورةً لدى المخاطَبين، وهو ممّا لا يُجهلُ ليُؤكَّد وجودُه، وغرضُ ذلك التَّأكيدُ "بلام القسَم وحرفِ التّحقيق لتنزيل المُنكِرين رسالةَ محمّدٍ ﷺ منزلةَ مَنْ يُنكرُ رسالةَ موسى عليه السلام؛ لأنَّ حالَهم في التّكذيبِ برسالة محمّدٍ ﷺ يقتضي ذلك التّنزيلَ؛ لأنَّ ما جازَ على المثلِ يجوزُ على المُماثل، على أنَّ منهم من قال: ﴿مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٖ مِّن شَيۡءٖۗ﴾ [الأنعام: 91]"[2].

فائدةُ الإسنادِ في ﴿أَرۡسَلۡنَا﴾:

رُسلُ اللهِ عظماءُ باختيارِ اللهِ لهم لوظيفةِ الرِّسالةِ

الضّميرُ (نا) في قوله تعالى: ﴿أَرۡسَلۡنَا﴾ يُفيدُ تعظيمَ من أرسلَه الله تعالى إلى قومِه، فالمُرسَلون هم عظماءُ عند الله تعالى، باختيارِهم أنْ يكونوا حملةَ الرِّسالةِ، وبأفعالِهم التي يقومون بها تحقيقًا للحقِّ، وبشارةً ونذارةً للمَدعوّين.

معنَى (الباء) في قوله ﴿بِـَٔايَٰتِنَآ﴾:

الرُّسلُ مُلتَصقون بالآياتِ التِصاقَ الرّوحِ بالجسدِ

تفيدُ (الباء) في القيدِ بالجارِّ والمجرور ﴿بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ المصاحبةَ، أي أرسلنا موسى عليه السلام بمعيَّة آياتِنا "إرسالًا مُصاحِبًا للآيات الدّالّةِ على صدقِه في رسالتِه، كما أُرسل محمّدٌ ﷺ مصاحِبًا لآية القرآن الدّالِّ على أنّه من عند الله، فقد تمّ التَّنظيرُ وانتهض الدّليلُ على

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 5/159.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/188 - 189.

المُنكرين"[1]، فإرسالُ الآيات كان مُصاحبًا لإرسال الرَّسولِ، فهو عليه السلام لِقوَّة تعلُّقه بالآيات، ووعْيِه بقيمتِها، وحرْصِه على إيصالها بكلِّ دقّةٍ وأمانةٍ متعلِّقٌ بها، ملتصقٌ بها التصاقًا مَعنويًّا، ومُلتبسًا بها.

دَلالةُ جمْعِ الآيات في قوله: ﴿بِـَٔايَٰتِنَآ﴾:

يفيدُ جَمْعُ الآيات كثرتَها وتَنَوُّعَها؛ بحيث إنّه كان يتوجّبُ على المُرسَل إليهم التّصديقُ بها، وببعثتِه عليه السلام من عند الله ﷻ، وقد تنوَّعتِ الآياتُ كما قال الله تعالى في آية أخرى ﴿فِي تِسۡعِ ءَايَٰتٍ﴾، وكانت كلُّها معجزاتٍ كبيرةً، فكانت كفيلةَ الإقناع، وبرغم كثرتِها وتنوُّعِها[2] وكوْنِ الدّعوةِ بلسانِهم ولُغتِهم عادَوْه، ولم يوقِفْهم إلّا الغرقُ في اليمِّ.

مُعجزاتُ الرّسلِ مِنَ العظَمةِ والجلالِ ما يوجِبُ الإيمانَ بصدْقِ الرُّسل

دَلالةُ إضافةِ الـ (آيات):

إضافةُ الـ (آيات) إلى ضمير العظَمةِ في القيدِ ﴿بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ يدلُّ على عظمتِها، وتميُّزِها عمّا ألفَه القومُ منَ السِّحر الخادعِ، وأنّها (آيات) تليقُ بجلال الله ﷻ، وأنّها من وادٍ آخرَ لا عهْدَ للبشر به، فهذه يدٌ بيضاءُ مثلُ الشّمس، وهذه عصا تنقلبُ حيّةً ضخمةً عظيمةً، تتّصفُ بالخطورة، وتلتهمُ ما حولها.

عظَمةُ الآياتِ كامنةٌ في خَفيّاتِها وحاضرةٌ في تَجلّياتِها

ومن آيةِ العصا أنّها لم تلتهم أحدًا منَ الأناسيّ الحاضرين، ولو هاجمتْهم لفتكت بهم جميعًا في لحظات، ولَما أفلتَ منها أحدٌ منهم، إلى آخر الآيات العظيمةِ الجديرةِ بِلَيّ أعناقِ القلوبِ، وعطْفِ النّفوس إلى احتضانِ أنوارِ تلك الآياتِ البيِّنات.

معنَى ﴿أَنۡ﴾ في قوله: ﴿أَنۡ أَخۡرِجۡ﴾:

﴿أَنۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَنۡ أَخۡرِجۡ قَوۡمَكَ﴾ تفسيريّةٌ لمقولِ قولٍ

(أنْ) تحتملُ التّفسيريّةَ والمصدريّةَ على تقديرِ حرفِ الباءِ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/189.

(2) "قال الأصمُّ: آياتُ مُوسى عليه السلام هي العصا، واليدُ، والجرادُ، والقُمّلُ، والضّفادِعُ، والدّمُ، وفلقُ البحرِ، وانفِجارُ العُيُونِ مِن الحجرِ، وإظلالُ الجبلِ، وإنزالُ المنِّ والسّلوى"، ينظر: الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 19/64.

محذوفٍ، أي: وقلنا له: أخرج قومَك، "والضّابطُ لها موجودٌ وهو أن يتقدَّمها جملةٌ فيها معنى القولِ دون حروفِه، و﴿أَرْسَلْنَا﴾ فيه معنى قلنا"[1]، "كأنّ المعنى: قلنا له: أخْرِجْ قومَكَ"[2]، ويجوزُ أن تكون ﴿أَنْ﴾ المصدريّةَ النّاصبةَ للفعل، وإنَّما صلُحَ أن توصَلَ بفعل الأمر؛ لأنَّ الغرضَ وصلُها بما تكونُ معه في تأويل المصدرِ وهو الفعلُ، والتّقدير: بأن أخرج قومك[3].

فأنِ المفتوحةُ الألفِ مع ما بعدها بتأويل المصدرِ، تجعلُ الكلامَ شأنا وقصّة وحديثًا، وتقلبُ معنى الجملة إلى الإفراد، وتصيرُ في مذهب المصدرِ المؤكّدِ، ولولا إرادةُ التأكيد لكان المصدرُ أحَقَّ بالموضع، وكنتَ تقول: (بلغني قيامُ زيدٍ) مكان (بلغني أنَّ زيدًا قائمٌ)[4]. فالتّوكيدُ هنا يَستدْعيه شدّةُ ضلالِ القوم الذين أُرْسِلَ إليهم موسى عليه السلام؛ ممّا تطلّب توكيدَ (الإخراج) بالحرف المصدريِّ بوصفِه علّةَ الإرسال.

بَلاغةُ الاستعارةِ في قوله: ﴿أَخْرِجْ﴾:

الإخراجُ بمعنى إبرازِ المخرَج، ونقْلِه إلى خارجٍ: معنًى حسّي، وهو غيرُ مقصود هنا؛ لأنَّ موسى عليه السلام لن ينقلَ قومَه ويخرجَهم من مكان مظلمٍ إلى مكان مُنير، بل سيُخلِّصُهم منَ الظُّلمات الرّوحيَّةِ، والتّخبُّطاتِ الفكريَّةِ، والفواحشِ الأخلاقيَّةِ إلى أنوار الإيمانِ والهُدى والصّلاحِ؛ فتَنْجو أرواحُهم، وتَرتقي عقولُهم، وتطهرُ نفوسُهم من كلّ ضلالٍ في العقيدة والفكرِ والسّلوكِ؛ "ليَخرجوا من ظُلُماتِ ما كانوا فيه منَ الجَهْلِ والضَّلالِ إلى نورِ الهُدَى وبصيرَةِ الإيمانِ"[5]،

تَغْييرُ قناعاتِ العقولِ ومَتاعِ النّفوسِ أشدُّ من نقْلِ الأجسامِ وتَحْريكِ الأجْسادِ

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 5/159.
(2) الزجاج، معاني القرآن وإعرابه: 3/155.
(3) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 5/159.
(4) السامرائي، معاني النحو: 1/293 - 296.
(5) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/478.

فكان تهذيبُ ذلك فيهم مثلَ الإخراجِ الحقيقيِّ، وعليه فالآيةُ شبَّهت التَّخليصَ منَ المعنويّاتِ القبيحةِ بالإخراجِ منَ الظُّلماتِ، وصرَّحت بالمُشبَّه به وهو الإخراجُ على سبيل الاستعارةِ التَّصريحيَّةِ التَّبعيَّةِ.

تَوجيهُ إيثارِ لفْظِ (قوم):

الـقـومُ يـقـومُ بهم صاحبُهم صَلاحًا أو فَسادًا

سبق القولُ: إنّ المقصودَ بالقوم في قوله تعالى: ﴿إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ﴾ أمّتُه التي يدعوهم إلى اللّه ﷻ لا قومَه الأقربين وبخاصّةٍ، وأمّةُ موسى فريقان: فرعونُ وملؤه، وبنو إسرائيلَ، "أمّا فرعونُ وملؤه فظاهرٌ، وأمّا بنو إسرائيلَ فقد كان فرعونُ فَتَنَ جُلّهم، وأضلَّهم مع القِبطِ، فكانوا أشياعًا متفرّقين، لم يبقَ لهم دينٌ"[1]. وعلى ذلك يكونُ إيثارُ التَّعبير بـ ﴿قَوْمَكَ﴾ دون (بني إسرائيل) في قوله تعالى: ﴿أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ﴾؛ لِبَثِّ إيحاءاتٍ خاصّةٍ، منها إشعارُهُ عليه السلام بمسؤوليتِه الدَّعويّةِ للفريقَين كلَيْهما؛ لأنّهم جميعًا بمثابة قومِه، وعلى جعْلِ المقصودِ بالقومِ هنا بني إسرائيل[2] بخاصّةٍ، فالمقصودُ تحريكُ عنصرِ المسؤوليَّة كذلك تُجاهَهم.

نُكتةُ الإضافةِ في ﴿قَوْمَكَ﴾:

قَـوْمُ الإنـسـانِ مَـسـؤوليـتُـه ما دامَ قائِدًا لهم

من شأن الإضافةِ في قوله تعالى: ﴿أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ﴾ إثارةُ الرَّحمة في قلب موسى عليه السلام وإشعارُه بعظَمِ المسؤوليةِ، وأنّ نجاة قومِه منَ الظّلمات إلى النّور منوطةٌ بجهوده في حسنِ التّبليغ، والصّبرِ عليهم، واحتمالِ ما قد يكونُ منهم.

وفي تلك تذكيرُ موسى عليه السلام برابطة الرَّحم، وأنّهم (قومك) الذين يعود أصلُك إليهم برغم غربتَك عنهم في مدين عشرَ سنين مدّةَ استئجارك لدى والدِ زوجتِك، وأنّهم قومُك الذين يُفترضُ فيهم توفُّرُ الثّقةِ فيك، والاحتفاءِ بدعوتِك، واحتضانِ أنوارِها أنْوارِ شريعتِك.

(1) ابن عجيبة، البحر المديد في تفسير القرآن المجيد: 3/44.
(2) مقاتل بن سليمان، تفسير مقاتل بن سليمان: 2/398.

تَوجيهُ المُتشابِهِ اللّفظي:

رسالةُ الإسلامِ هدايةُ النّاسِ كافّةً في كلِّ زمانٍ ومكانٍ إلى الحقِّ

بين الآية الأولى ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ في هذه السورة، وهذه الآيةِ ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنۡ أَخۡرِجۡ قَوۡمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ وجهُ تشابهٍ وافتراقٍ، فالتّشابُه في أنّ الإخراجَ في كلتا الرّسالتَين: رسالةِ نبيّنا محمّدٍ ﷺ، ورسالةِ موسى عليه السلام هو منَ الظّلماتِ إلى النّور، أمّا وجهُ المبايَنةِ بين الآيتَين ففي التّعبير بصيغةِ الإخراج؛ إذ عبّرَ عنه في الآية الأولى التي خوطب فيها نبيُّنا ﷺ بصيغة المضارع ﴿لِتُخۡرِجَ﴾ الدّالِّ على الحال والاستقبال، والاستمرارِ والدّوام، وأردفَها بلفْظِ ﴿ٱلنَّاسَ﴾ اللفظِ العامِّ، الذي يتَّسعُ ليسْتقصي كلَّ النّاس في كلِّ زمانٍ ومكان، ليثبتَ عالَميّةَ هذا الدّين، وكونَه الرّسالةَ الخاتمَ فالإخراجُ منَ الظّلمات إلى النّور مُتجدّدٌ لكلّ النّاس حتى يأذنَ اللّه تعالى، أمّا لفظُ الإخراج في هذه الآية التي خوطبَ فيها موسى عليه السلام فصيغَ بالأمر ﴿أَخۡرِجۡ﴾ المسندِ إلى ﴿قَوۡمَكَ﴾ ممّا يعني الدّلالةَ على الأمرِ في الحال واقْتِصارِه على قومِه فقط.

معنَى حرْفِ الجرِّ ﴿مِنَ﴾:

مُهمّةُ الرُّسلِ ثَقيلةٌ؛ لأنَّها تَبدأُ بأعمالٍ جسيمةٍ ومخاطِرَ عظيمةٍ

تفيدُ ﴿مِنَ﴾ الجارّةُ في قوله تعالى: ﴿مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ ابتداءَ الغاية، أي: تبدأ غايةُ إخراجهم من هذا الوضعِ المُزري إلى أن تنتهيَ المهمّةُ إلى وضعِهم على الطَّريق الصَّحيح، وإيصالِهم إلى حالة النّور الرّوحيّ، والهُدى القلبيّ، والطّمأنينةِ النّفسيّةِ، إلى دين الفطرةِ النّقيّةِ التي فطرَ اللّه تعالى النّاسَ عليها، وفي ذلك إشعارٌ له عليه السلام بجسامةِ المَهمّةِ، وثِقلِ التّكليفِ، ووجوبِ الاستعدادِ لحمل العبءِ الثّقيلِ.

بَلاغةُ الاسْتِعارة في الآية:

تَجْسيدُ المعاني أنْـورُ للعقلِ وأرْسَـخُ في الذِّهنِ

إخراجُ قومِ موسى عليه السلام ﴿مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ أي: "منَ الشّرك إلى الإيمانِ"[1]، و"منَ الضّلالة إلى الهُدى، أو من ذُلِّ الاستعباد إلى

(1) مقاتل بن سليمان، تفسير مقاتل بن سليمان: 2/398.

عِزِّ المملكةِ"[1]، و"من ظلماتِ شكِّهم إلى نور اليقين، ومن إشكالِ الجهلِ إلى روح العلم"[2]. فـ"الظُّلُماتُ مُسْتَعارٌ لِلشِّرْكِ والمَعاصي، والنّور مُسْتَعارٌ لِلإيمانِ الحَقِّ والتَّقْوَى، وذلك أنَّ بَني إسْرائيلَ لَمّا طالَ عَلَيْهِمُ الأمَدُ في مِصْرَ بَعْدَ وفاةِ يوسُفَ عليه السلام سَرَى إليهمُ الشِّرْكُ واتَّبَعوا دينَ القِبْطِ، فكانَتْ رِسالَةُ موسَى عليه السلام لإصْلاحِ اعْتِقادِهِم مع دَعْوَةِ فِرْعَوْنَ وقومِهِ لِلإيمانِ باللّه الواحِد، وكانَت آيلةً إلى إخْراجِ بَني إسْرائيلَ مِنَ الشِّرْكِ والفَسادِ وإدْخالِهِم في حَظيرَةِ الإيمانِ والصَّلاحِ"[3].

نُكتتا جمْعِ الظُّلماتِ وإفرادِ النّورِ:

جمعَ النّظمُ الكريمُ ﴿ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ في قوله: ﴿مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ لِتنوُّعِ مصادرِ الضّلال وتكاثرِها على العبد، وتعدُّدِ مظاهر الكفرِ الصّريحِ وغيرِ الصّريح، التي تُفسدُ على الكافرِ الضّالِّ حياتَه الدّنيا، وتُسعِّرُ عليه الحياةَ الأُخرى.

طريقُ الحقِّ واحدٌ فلذلك هو واضحٌ، وطُرُقُ الباطلِ كثيرةٌ ولذلك فهي غَويَّةٌ

أمّا إفرادُه ﴿ٱلنُّورِ﴾ فلأنّه لا نورَ إلّا من قِبَلِ اللّه تعالى، فـ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [النور: 35]، ففي إفرادِ ﴿ٱلنُّورِ﴾ إيحاءٌ بأنَّ مَنِ ابتغى النّورَ في غير شِرعتِه ومنهاجِه ﷺ ضلَّ سواءَ السّبيلِ، وتاهَ في ظُلمات الضَّلال، فمصدرُ النّور الرّوحيِّ والعقليِّ هو نورُ اللّه تعالى ودينُ اللّه عز وجل، ومنهجُ اللّه وحدَه، فالآيةُ "دالَّةٌ على أنَّ طُرقَ الكفرِ والبدعةِ كثيرَةٌ وأنَّ طريقَ الخيرِ ليس إلّا الواحدَ"[4].

معنَى الواوِ في ﴿وَذَكِّرْهُم﴾:

الواوُ في قوله تعالى: ﴿وَذَكِّرْهُم﴾ هي واوُ العطفِ، والأمرُ بالتَّذكير معطوفٌ على الأمر بالإخراج ﴿أَخْرِجْ﴾، فالتَّذكيرُ هو أداةٌ مساعِدةٌ للإخراج منَ الظُّلمات إلى النّور، والمقصودُ بالتَّذكير بأيّام اللّه

التَّذكيرُ بأيّامِ اللّه وسيلةٌ مُعينَةٌ للإخراجِ مِنَ الظّلماتِ إلى النّورِ

(1) الماوردي، النكت والعيون: 3/122.
(2) القشيري، لطائف الإشارات: 2/239.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/189.
(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 19/58.

تعالى، هو التَّذكيرُ بعموم النِّعم والنِّقم، "أي: ذكِّرهم بالأيّام التي سَلَفَتْ لمن كفرَ وما نزلَ بهم فيها، والدّليلُ على أنّ التّذكير مُشتملٌ على الإنْذار والتَّحْذير ممّا نزَل بِمَنْ قبلَهم قولُه ﷻ بعدَ هذه الآية: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ [إبراهيم: 9]"[1].

فهذه الواوُ عاطفةٌ، ولأنّ كلًّا منَ الفعلَين ﴿وَذَكِّرْهُم﴾، ﴿أَخْرِجْ﴾ إنشائيّان كان العطفُ للتّوسّطِ بين الكمالَين، ولزمَ التّعاطفُ بينَهما، ويجوزُ أن تكونَ الواوُ في قوله سبحانه ﴿وَذَكِّرْهُم﴾ حاليةً، أي: أخرج قومَك منَ الظّلمات إلى النّور مذكِّرًا لهم بأيّام الله؛ ليتّعِظوا بمصير المكذِّبين، ونجاةِ الموحِّدين الذين وفّقَهمُ الله ﷻ.

التّرهيبُ بعواقبِ الظّالمين، والتّرغيبُ بنجاةِ المؤمنين مَنهجٌ قرآنيٌّ للدّعاةِ

غرَضُ الأمْرِ في ﴿وَذَكِّرْهُم﴾:

"أمرَ الله ﷻ موسى عليه السلام أن يعظَ قومَه بالتّهديدِ بنقَمِ الله تعالى التي أحلَّها بالأممِ الكافرةِ قبْلَهم، وبالتّعديدِ لنِعمِه ﷻ عليهم في المواطنِ المُتقدِّمةِ، وعلى غيرِهم من أهل طاعتِه ليكونَ جريُهم على منهاجِ الذين أنعمَ عليهم وهربُهم من طريق الذين حلَّتْ بهمُ النّقماتِ"[2].

والأمرُ في قوله تعالى: ﴿وَذَكِّرْهُم﴾ يحتملُ معنى الوجوبِ، وأنَّ الدّعوةَ إلى الله تعالى بدون تذكيرٍ وتحذيرٍ بنِقَمِ الله تعالى على الكافرين، وبنِعَمِه على المؤمنين تبقى دعوةً ناقصةً، وأنّ التّذكيرَ والتّحذيرَ تكليفٌ واجبُ التّنفيذ، وأنّه ضمْنَ تكاليفِ الإرسالِ، كما يحتملُ الأمرُ في قوله تعالى: ﴿وَذَكِّرْهُم﴾ أن يكونَ نُصحًا وإرشادًا وتوجيهًا لموسى عليه السلام؛ بحيث يَسترشدُ بأيّام الله تعالى، ويذكّرُ قومَه ويحذّرُهم بأنّ سُنّةَ الله تعالى في خلْقِه إهلاكُ الكافرين، وأنّ العاقبةَ للمتقين.

(1) الزجاج، معاني القرآن وإعرابه: 3/155.
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 3/324.

فـ"التّذكيرُ: هو العِظةُ؛ أي: عِظْهم بأيّام اللّه"[1]، "وخوِّفْهم بمثلِ عذابِ الأممِ الخاليةِ فيحذَروا فيؤمِنوا"[2]، وقد وافقَ الذّكرُ الحكيمُ بين التّذْكيرَين، أي: تذكيرِ هذه الأمّةِ بالأنبياء والأُمم في قوله تعالى: ﴿لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾، وتذكيرِ أمّةِ موسى عليهم السلام في قوله تعالى: ﴿أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ بقوله تعالى: ﴿وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ﴾[3].

وفيه تذكيرُهم "بالأيّام التي انتقمَ اللّه ﷻ فيها منَ الأممِ الماضيةِ، فيتّعِظوا، ويزدجِروا، ويخافوا أنْ يصيبَهم مثلُ ما أصابَ مَنْ كان قبْلَهم، ودلَّ على ذلك قولُه بعد الآية: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ﴾ [إبراهيم: 9]"[4].

بَلاغةُ اسْتِعمالِ حرفِ (الباء):

الباءُ في قوله تعالى: ﴿بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ﴾ للاستعانةِ، أي: ذكّرْهم مُستعينًا بترغيبِهم وترهيبِهم بالأحداثِ التي وقعت في تلك الأيّام؛ لعلّها تكونُ نِبراسًا يَسْتضيئون به في حياتِهم فيؤمِنوا ويوحِّدوا اللّه ﷻ؛ فيفوزوا بالرّضوان والجِنانِ، وقد "دَلَّ هذا على جوازِ الوعْظ المُرقِّقِ لِلْقُلوبِ، المُقَوّي لِلْيَقينِ، الخالي مِنْ كُلِّ بِدْعَةٍ، والمُنَزَّهِ عَنْ كُلِّ ضَلالَةٍ وشُبْهَةٍ"[5].

التَّذكيرُ مقصودُه الرَّحمةُ لا مَحْضُ التَّخويفِ

ويصحُّ أن تكونَ الباءُ في قول اللّه تعالى ﴿وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ﴾ مُؤذِنةً بِتَضَمُّن الفعلِ ﴿وَذَكِّرْهُم﴾ معنى الفعلِ (خوِّف)؛ فلمّا "ضُمِّنَ التَّذكيرُ معنى الإنذارِ والوعظِ عُدّي بالباء، أي: ذكِّرهم تذكيرَ عظةٍ بأيّام اللّه تعالى"[6].

تَضمينُ فعلِ التَّذكيرِ معنَى الوَعْظِ

(1) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 6/363.
(2) مقاتل بن سليمان، تفسير مقاتل بن سليمان: 2/398.
(3) الطيبي، فتوح الغيب: 8/573.
(4) مكي، الهداية الى بلوغ النهاية: 5/3774.
(5) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 9/342.
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/189.

بَلاغةُ المجاز في قوله: ﴿بِأَيَّٰمِ ٱللَّهِۚ﴾:

الكِنايةُ في استِحْضارِ زمَنِ الأحداثِ لا الأحداثِ نفسِها

التَّعبيرُ بقوله تعالى: ﴿بِأَيَّٰمِ ٱللَّهِۚ﴾ كنايةٌ عمّا وقعَ فيها من أحداثٍ عظيمةٍ، سواءٌ منها ما كان غلبةً للموحِّدين ونُصرةً منَ اللّه تعالى للمؤمنين، أو ما كان من دَمارٍ على الكافرين، وهزيمتِهم على أيدي المؤمنين؛ وذلك "لأنّها أيّامٌ كانت معلومةً عندهم، أنعمَ اللّه عليهم فيها نعمًا جليلةً، أنقذَهم فيها من آل فرعون بعدَ ما كانوا فيما كانوا فيه منَ العذاب المُهين، وغرَّقَ عدوَّهم فرعونَ وقومَه، وأوْرَثهم أرضَهم وديارَهم وأموالَهم"[1]؛ فإذا ذُكِرتْ تلك الأيّامُ استُدعيتْ إلى الأذهان أحداثُها بطريق اللّزوم؛ فتحقّقتِ الكنايةُ.

(أيّامُ الله) مجازٌ مُرسلٌ والمقصودُ الأحداثُ

التَّعبيرُ بقوله تعالى: ﴿بِأَيَّٰمِ ٱللَّهِۚ﴾ مجازٌ مرسلٌ أيضًا علاقتُه الزَّمانيَّةُ، إذِ المقصودُ أحداثُها؛ إذ "الأيّامُ يُعبَّر بها عن النِّعم والنّقم؛ لأنَّها كلَّها تقعُ فيها"[2]؛ فصار الزّمانُ بمثابةِ أن يُذكَّرَ به لذاتِه، فكأنَّ أحداثَه فاضتْ عليه من جلالِها وعِبَرِها ودروسِها؛ حتى صارت تلك الأيّامُ بهذه المثابةِ بين عامّةِ أيّام الدّهرِ. و"في هذه العبارةِ تعظيمُ هذه الكوائنِ المذكَّرِ بها، ومِن هذا المعنى قولُهم: يومٌ عصيبٌ، ويومٌ عبوسٌ، ويومٌ بسّامٌ، وإنّما الحقيقةُ وصفُ ما وقعَ فيه من شدّةٍ أو سرورٍ"[3].

حَمْلُ الأيّامِ على حقيقتِها يُرادُ به ما يكونُ فيها من أرزاقٍ وآجالٍ

ويجوزُ أنْ يكونَ المقصودُ بقوله تعالى: ﴿بِأَيَّٰمِ ٱللَّهِۚ﴾: "الأيّامَ المعروفةَ نفسَها، أمَرَه أنْ يذكّرَهم بها؛ لأنّ الأيّامَ تأتي بأرزاقِهم؛ وتمضي بأعمالِهم وأعمارِهم؛ إنْ كان خيرًا فخيرٌ وإن كان شرًّا فشرٌّ، وتُفني أعمارَهم وآجالَهم، وفيما تأتي بأرزاقِهم نعمةً منَ اللّه عليهم، وفي ذهاب أعمارِهم وآجالِهم إظهارُ سلطان اللّه وقُدرتِه،

(1) ابن جرير، جامع البيان: 16/517.
(2) الواحدي، التفسير الوسيط: 3/23.
(3) ابن عطية، المحرر الوجيز: 3/324.

فأمرَه أن يذكّرَهم بذلك. واللّه أعلم. وهذا يُشبهُ أن يكونَ أمرَ موسى عليه السلام أنْ يذكِّرَ بني إسرائيلَ ما كان عليهم من فرعونَ؛ من أنواع التّعذيبِ، ثمّ الإنجاءَ من بعدُ، يقول - واللّه أعلم - ذكّرْهمُ الأيّامَ الماضيةَ وما يَتلوها، وهذا أشبهُ وأقربُ"[1].

نُكتةُ الإضافةِ في قوله: ﴿بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِۚ﴾:

ما كانَ لله تعالى فمَرَدُّه إليه ومآلُه بين يدَيْه

إضافةُ (الأيّامِ) إلى لفظِ الجلالة (اللّه) تعالى تشريفٌ لأمرِها لما أفاضَ اللّه تعالى عليهم من نِعَمِه فيها[2]، وزادها تميُّزًا بين سائر الأيّام، على الرّغم من أنَّ الأيّامَ كلَّها أيّامُ اللّه سبحانه وتعالى، وأنّ الزّمان كان مِلكًا للّه تعالى، غيرَ أنَّ تخصيصَ هذه الأيّامِ بتلك الإضافةِ الشّريفةِ يمنحُها تعظيمًا ويُبوّئها منزلةَ الإجلال، ويزيدُ أحداثَها تقديرًا، ومهابةً، وعبرةً.

بَلاغةُ الالتفاتِ في الآية:

الأيّامُ ضمْنَ سُننِ الله تعالى في الأحْداثِ كلِّها

"الالتفاتُ منَ التّكلّمِ إلى الغَيبةِ بإضافةِ الأيّامِ إلى الاسمِ الجليلِ ﴿بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِۚ﴾ للإيذان بفخامةِ شأنِها، والإشعارِ بعدم اختصاصِ ما فيها منَ المعاملةِ بالمخاطَبِ وقومِه"[3]، ومقتضى الظّاهرِ أن يكونَ النَّظمُ: (وذكِّرْهم بأيامي) أو (بأيامنا)؛ لأنّ المتكلّمَ هو اللّه سبحانه وتعالى، غيرَ أنّ الإضافةَ إلى الضّميرِ ليست في جلال الإضافةِ إلى الاسْمِ العظيمِ ﴿ٱللَّهِۚ﴾ سبحانه وتعالى، كما أنَّ إضافةَ الأيّامِ إلى لفظِ الجلالةِ على طريق الغيبةِ؛ لإكسابِ الأيّامِ قانونَ السُّنن الذي يجري على جميعِ النّاس، ولو جاء على طريقة التَّكلُّمِ لأفادَ التَّخصيصَ بأيّامٍ معيَّنةٍ.

عِلّة التَّعبيرِ بـ (التّذكير بأيّام الله):

دينُ الإسلامِ أسْهلُ الشّرائعِ، وأيْسَرُها

في خطاب موسى عليه السلام لم يذكرْ قيْدَ (بإذن اللّه) فلم يقل: (أخرج قومك منَ الظّلمات إلى النّور بإذن اللّه) كما قال في الآية الأولى من

(1) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 6/363.
(2) الراغب، المفردات: (يوم).
(3) الآلوسي، روح المعاني: 7/178.

السورة: ﴿لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ﴾ وذلك لأنّ الأوّلَ خطابٌ للنّبيّ ﷺ وشريعتُه من أسهلِ الشّرائعِ فناسبَ فيها ذكرُ الإذن ليفيدَ معنى السّهولةِ واللّينِ المأذونِ فيهما، والآيةُ ههنا خطابٌ لموسى عليه السلام وقد كانت شريعتُه صعبةً ودليلُ ذلك قولُه تعالى: ﴿فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمۡ فَٱقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ﴾ [البقرة: 54][1].

عِلَّةُ فصْلِ قولِه: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾:

فُصلتْ جملةُ ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ﴾ عن جملةِ ﴿وَذَكِّرۡهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِۚ﴾؛ لأنَّ الأولى إنشائيةٌ نوعُها أمرٌ، والثّانيةَ خبريةٌ؛ فبينهما كمالُ انقطاعٍ، ولا يتعاطفان؛ لذلك وقع الفصلُ بينهما، وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٖ﴾ معنى التَّعليلِ، أي: ذكّرْهم بأيّام الله؛ لأنَّ في التَّذكيرِ آياتٍ لكلٍّ من يَرجو ثوابَ الله فيَصبرُ على بلائِه ويشكرُ نَعماءَه.

في التَّذكيرِ ثوابٌ لمن يَصبرُ على البلاءِ ويَشكرُ النَّعماءَ

غرَضُ تقديمِ ﴿فِي ذَٰلِكَ﴾ على ﴿لَأٓيَٰتٖ﴾:

﴿بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِۚ﴾ وما وقعَ فيها من أحداثٍ جسامٍ تُعدّ آياتٍ من آيات الله تعالى، فكان تقديمُ المسنَدِ إليه ﴿فِي ذَٰلِكَ﴾ للتَّنبيه على ما في الإخراج والتَّذكير من آياتٍ، وأنَّ الاهتمامَ بها والعنايةَ بأمرِها يحتاجُ إلى مزيد رعايةٍ منَ الدّاعي والمَدْعو، ولا يجوزُ اعتبارُ هذا التّقديم للقصرِ والتّخْصيص؛ لأنّ آياتِ الله تعالى لا آخرَ لها، و﴿بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِۚ﴾ تعالى المذكورةُ جزءٌ منها، ولا يُحيطُ بها علْمًا إلا هو ﷻ.

آياتُ الله تعالى تَحتاجُ إلى عنايةِ الأذهانِ ورعايةِ الجِنان

بَلاغةُ التَّعبيرِ بحرفِ الظَّرفيَّةِ ﴿فِي﴾:

قال العلّامةُ الطّاهرُ بنُ عاشور: "التَّذْكيرُ بأيّام الله يَشْتَمِلُ على آياتِ قُدْرَةِ الله ﷻ وعِزَّتِه، وتأْييدِ مَنْ أطاعَهُ، وكُلُّ ذلك آياتٌ كائِنَةٌ في الإخْراجِ والتَّذْكيرِ على اخْتِلافِ أحْوالِه، وقد أحاطَ بمعنَى هذا

اشْتِمالُ الحرفِ على المعاني أمارةُ السَّعةِ وبُرهانُ التَّنوّعِ

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/440.

الشُّمولِ حَرْفُ الظَّرْفيةِ مِنْ قولِه: ﴿فِي ذَٰلِكَ﴾؛ لِأنَّ الظَّرْفيةَ تَجْمَعُ أشْياءَ مُخْتَلِفَةً يَحْتَويها الظَّرْفُ، ولذلك كانَ لِحَرْفِ الظَّرْفيةِ هُنا مَوْقِعٌ بَليغٌ"[1].

نُكتةُ اسْتِعمال اسْمِ الإشارةِ ﴿ذَٰلِكَ﴾:

اسمُ الإشارةِ في ﴿ذَٰلِكَ﴾ يَستدْعي تذكُّرَ ﴿بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِۚ﴾ تعالى وأحداثِها لتكونَ حاضرةً في الأذهان كأنها مشاهَدة للعَيان؛ وذلك يُسهمُ في إحياء ذكراها، والإفادةِ من دروسِها، والتماسِ عِبرِها؛ عَلَّها تؤثِّرُ في نفوس القوم فيُقبلوا على دعوة موسى عليه السلام بيقينٍ واستبشارٍ.

وجاءتِ الإشارةُ ﴿ذَٰلِكَ﴾ بلام البُعدِ دلالةً على بُعد منزلةِ تلك الآياتِ في التّأثير على من يتّصفُ بصفتَي ﴿صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾، وهو كلُّ مؤمن منَ المُتَّعِظين بما في تلك الآياتِ من نِعمِ اللّه تعالى ونِقمِه؛ "لأنّ الشّكرَ والصّبرَ عنوانُ المؤمن"[2].

آياتُ الله تعالى جليلةُ القدْرِ، بَعيدةُ المَنزلةِ؛ لذلك لا يفقَهُها إلّا عالِمٌ مُتدبِّرٌ

بَلاغةُ التّوكيدِ في قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٍ﴾:

اقتضى جلالُ الدّعوةِ إلى اللّه تعالى، والعنايةُ بإنْجاءِ القوم منَ الضّلال، وإخراجِهم إلى نور الهدى والرّشادِ التّأكيدَ على أنَّ من شأنِ ﴿بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِۚ﴾ تعالى ومن شأنِ ما فيها مِن عِبَر ودروسٍ نفعَ مَن يُنْعِمُ النّظرَ فيها، وتوكيدَ كونِها من جليلِ العِبرِ وباهرِ الآيات والدّلائلِ على وحدانيّةِ اللّه تعالى وعظيمِ قُدرتِه ﷻ على رفعِ أوليائِه ونُصرتِهم، وخَفْضِ أعداءِ دينِه وأوليائِهم وخذلانِهم، بل إهلاكِهم بالكلّيةِ، والتّأكيدُ لتحريك هِممٍ من تقعدُ بهم الخواطرُ عن تدبّرِ الأمرِ على حقيقتِه، وتأمّلِ الحالِ على أحقّيتِه.

من شأنِ التّدبُّرِ في (أيامِ اللهِ) تعالى نفْعُ المُتدبِّرِ وإنْجاؤه منَ الشُّرورِ

نُكتةُ جمْعِ (الآيات) وتَنكيرِها:

جمعُ الآيات في قوله تعالى: ﴿لَأٓيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ يفيدُ

آياتُ الله تعالى جليلةُ العِبَرِ، وإنّما يَقْبِسُ منها كلُّ مُؤمنٍ بحسَبِ تدبُّرِه

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/190.
(2) القاسمي، محاسن التأويل: 6/300.

كثرتَها، وتكاثرَ عِبَرها ودروسِها الجليّةِ المُستفادةِ من ﴿بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِۚ﴾، وأنّها لا تكادُ تتناهى، وإنّما يَقْبِسُ مِن أنوارها كلُّ موحِّدٍ على قدْرِ طاقتِه ووفرةِ إمكاناتِه الإيمانيّةِ، وهذه الكثرةُ الكاثرةُ ضِمْنَ إطار التّوكيدِ ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ فهي (آيات) والآياتُ بحدّ ذاتها قِمَّةُ البهاء، ودليلُ البراعةِ في بابِها، وتنكيرُها يُضْفي عليها العَظَمةَ والفخامةَ والتَّبجيلَ.

معنَى اللّامِ الدّاخلةِ على (كلّ):

الانْتِفاعُ بآياتِ اللهِ تعالى مَخْصوصٌ بكلِّ مُؤمنٍ صَبّارٍ شَكورٍ

اللّامُ الدّاخلةُ على (كلّ) في قولِه تعالى: ﴿لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ هي "اللّامُ المُزحلقةُ للتّوكيدِ"[1]، وتفيدُ الاختصاصَ، وتقرّرُ أنّ آياتِ أيّامِ اللّه تعالى لا يَنتفعُ بها، ولا يراها، ولا يَنفعلُ لها، ولا يتأثّرُ بها إلّا هذا الصّنْفُ منَ النّاس، الصّنفُ الموصوفُ بصفتَي (الصّبر والشّكر) في أرقى صورِها، أمّا غيرُ هذه الطّبقةِ منَ العباد فلا يَقِف على أسرارِها، ولا يتأثّرُ بعِبرِها، "وقيل المرادُ لكلِّ مؤمنٍ وإنّما عبّرَ عنه بذلك تنبيهًا على أنّ الصّبرَ والشُّكرَ عنوانُ المؤمن"[2]، وعلى ذلك ففيها كنايةٌ بطريقِ هذا الاسْتِلزامِ.

بَلاغةُ اسْتِعمالِ لفْظِ العمومِ (كلّ):

عُنوانُ المؤمنِ تَعانُقُ الصَّبرِ بالشُّكرِ

لفظُ العمومِ (كلّ) في قولِه تعالى: ﴿لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ يَضْمَنُ لِمن يَتَّصفُ بهاتين الصفتَين ﴿صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾، ولمن يَسْتَجْمِعُهما معًا تمامَ الانتفاعِ بتلك الآياتِ، والتّوفيقَ إلى اقتباسِ أنوارِها، واتخاذِها كشّافاتِ هُدًى توصِلُه إلى سبيل اللّه المستقيم، ودينِه القويم، وأنّ مَن لم ينتفعْ بها ولم يتأثّرْ بها قد خلا قلبُه من صفتَي (الصّبرِ والشّكرِ) بتلك النّسبةِ المُؤهّلةِ لهذا التّأثّرِ والانتفاعِ.

والتّعبيرُ بكلمةِ العمومِ في قوله سُبحانه: ﴿لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 5/159.

(2) البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل: 3/193.

باعتبارِ أنَّ "المؤمنَ صَبورٌ على أمرِ اللّه ﷻ عند البلاءِ الشّديدِ، شَكورٌ للّه تعالى في نِعمِه"[1].

تَوجيهُ تَخْصيصِ ﴿صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ بالذِّكرِ:

الانْتِفاعُ بالآياتِ على وجْهِها لا يكونُ إلّا من صَبّارٍ شَكورٍ

خصَّ النَّظمُ صفتَي الصَّبّارِ والشَّكورِ بالذِّكر، وذلك لأنَّهم لَمّا كانوا هُمُ المُنْتَفِعينَ بتلك الآياتِ صارَتْ كَأنَّها لَيْسَتْ آياتٍ إلّا لهم كما في قولِه: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢﴾ [البَقَرَة: 2] وقولُه: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا ۝٤٥﴾ [النّازِعات: 45]، ولا يَبْعُدُ أنْ يُقال: الانْتِفاعُ بِهذا النَّوعِ مِنَ التَّذْكيرِ لا يُمْكِنُ حُصولُهُ إلّا لِمَنْ كانَ صابِرًا أوْ شاكِرًا، أمّا الَّذي لا يَكونُ كذلك لَم ينتفعْ بهذه الآيات[2]، وقد "أخذ الشَّعْبي من هذه الآية أنَّ الصّبرَ نصفُ الإيمان والشّكرَ نصْفُه"[3].

سِرُّ اقْتِرانِ وصْفَيْ: ﴿صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾:

المُؤْمِنُ إنْ أصابَتْهُ ضَرّاءُ صَبَرَ، وإنْ أصابَتْهُ سَرّاءُ شَكَرَ

في ذكْرِ هاتين الصّفتَين "تنبيهٌ على أنّ المؤمنَ يجبُ ألّا يَخلوَ زمانُه عن أحد الأمرين: الصّبرِ والشّكرِ؛ لأنَّ الحالَ إمّا أن يكون حالَ بَلية أو حالَ عَطية، فإن جرى الوقتُ على ما يُلائمُ طَبْعَه كان شَكورًا، وإن جرى بما لا يلائمُ طبْعَه كان صَبورًا؛ فالانتفاعُ بهذا التّذكيرِ لا يكونُ إلا لمن كان صابرًا أو شاكرًا"[4].

"ولكَوْنِ الآياتِ مُخْتَلِفَةً، بعضُها آياتُ مَوْعظَةٍ وزَجْرٍ وبعضُها آياتُ مِنَّةٍ وتَرْغيبٍ، جُعِلَتْ مُتَعَلّقَةً بـ ﴿لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾؛ إذِ الصَّبْرُ مُناسِبٌ لِلزَّجْرِ"[5]؛ و"لأنَّ التَّخْويفَ يَبْعَثُ النَّفْسَ على تَحَمُّلِ مُعاكسَةِ هَواها خيفَةَ الوُقوعِ في سوءِ العاقِبَةِ، والإنْعامَ يَبْعَثُ النَّفْسَ على

(1) مقاتل بن سليمان، تفسير مقاتل بن سليمان: 2/398.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 19/65.
(3) العز بن عبد السلام، تفسير القرآن: 2/159.
(4) البنتني الجاوي، مراح لبيد لكشف معنى القرآن المجيد: 1/566.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/190.

الشُّكْرِ، فكانَ ذِكْرُ الصِّفَتَيْنِ ﴿صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ تَوْزيعًا لِما أجْمَلَهُ ذِكْرُ أيّامِ اللّه مِنْ أيّامِ بُؤْسٍ وأيّام نعيمٍ"[1].

عِلّةُ العُدولِ عنِ العطْفِ بين الوصْفَين:

الصّبرُ، والشُّكرُ صِفَتان يُحَثُّ بشِدَّةٍ على الاتّصافِ بهما

ذكْرُ وصْفَي (الصّبرِ)، و(الشّكرِ) مُتتالَين، مُتلازمَين من غير عاطفٍ (الواو)؛ للإيذانِ بأنّهما في تلازُمِهما كالصّفةِ الواحدةِ، وإنّه يمكنُ الجمعُ بينَهما في وقتٍ واحدٍ، وفيه إشارةٌ إلى التّهْييجِ والإلهابِ على الاتّصافِ بهما معًا[2]، على وجه الكمالِ في الموصوفِ لِما فيهما من مشقّةٍ عند ترويضِ النّفس عليهما، ومن هنا استَوجَبا المدحَ والثّناءَ.

سِرّ تَقْديم الصَّبرِ على الشّكرِ:

الشّكرُ ثَمرةٌ من ثَمراتِ الصَّبرِ

يقول رَسولُ اللّه ﷺ: «والصَّبْرُ ضياءٌ»[3]، وذلك الضّياءُ الرّوحيّ يكشفُ للعبدِ الخيرَ منَ الشّرّ، ويضمنُ له النّجاةَ منَ الرُّعونةِ والخِفَّةِ والجَهالةِ؛ فإذا تحقّقَ للعبد ذلك الشُّعاعُ الكاشفُ - أي الصّبرُ - أمكنَه منَ الوصولِ إلى مَرتبةِ الشّاكرين؛ لأنّه سيقفُ على حقائقِ الأمورِ، ويَعرِفُ صِدْقَ الرّسولِ ﷺ، ويدركُ حقيقةَ وجودِ اللّه تعالى، ووَحْدانيّتِه في ذاتِه وصفاتِه، وأنّه المُستحقُّ للحمدِ والشّكرِ على نعمةِ الصّبرِ؛ فالشّكرُ إذن ثمرةٌ من ثمرات الصّبرِ، ولكونِه عاقبةَ الصَّبرِ[4].

بَلاغةُ صيغِ المُبالغةِ في قوله: ﴿صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾:

الصَّبّارُ الشَّكورُ وصْفانِ يَلْتَصِقان بمن بالغَ في العملِ وضبْطِ النَّفسِ

وردت صيغَتا ﴿صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ على صيغةِ المُبالغةِ، ممّا يُفصحُ عن كثافةِ الصّبر الذي تُراكمُه آياتُ ﴿بِأَيَّٰمِ ٱللَّهِۚ﴾ تعالى في نفس الصّابرِ حتى يصيرَ (صبّارًا)، ولا شكَّ أنّ بلوغَه مرتبةَ الـ ﴿صَبَّارٍ﴾ لا تتأتّى إلّا لِخُلَّصِ النّاسِ، وأنّها كلّما اكتملتْ واستتبَّتْ بلغتْ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/191.
(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/440.
(3) مسلم، صحيح مسلم، الحديث رقم: (454).
(4) القنوجي، فتح البيان في مقاصد القرآن: 7/85.

بصاحبِها مرتبةَ الـ ﴿شَكُورٍ﴾؛ لأنّها مرتبةٌ عُليا كذلك، وهي إشارةٌ إلى أنَّ الخروجَ منَ الظّلمات إلى النّور على جميع مراتبِها يحتاجُ إلى صبرٍ وشكرٍ دائبَيْن، كما أنَّ التَّذكيرَ والتَّذكُّرَ يحتاجان إلى هاتين الصّفتَين العظيمتَين.

الفُروقُ المُعْجَمِيّةُ:

الشّكرُ والمدحُ والحمدُ:

الشُّكرُ يكونُ باللّسانِ والجوارحِ، والحمدُ يكونُ باللّسانِ

الفرق بينَهما أنَّ الشّكرَ أعمُّ من جهة أنواعِه وأسبابِه، وأخصُّ من جهة متعلَّقاتِه فيه. والحمدُ أعمُّ من جهة المُتعلَّقاتِ، وأخصُّ من جهة الأسبابِ. ومعنى هذا أنَّ: الحمد: الثّناءُ الجميلُ على من يعملُ أعمالًا اختياريّةً عامّةَ النّفعِ، ودافعةً للضّررِ للوجودِ كلِّه بحكمةِ من يفعلُها، والمدحُ: الثّناءُ على الصّفاتِ الذّاتيةِ، والشّخصيّةِ الطيّبةِ، فيقال: مدحتُ الصّفاتِ الطّيّبةَ في فلانٍ، ولا يقال: حمدْتُها، إنّما يقالُ: حمدتُ اللّه تعالى ومدحتُ خصالَ فلانٍ، فالباعثُ في الحمدِ أعمالُ الإنعامِ والخيرِ، والباعثُ على المدحِ الشّخصُ والذّاتُ، فيقال: مدحتُ الجميلَ في صفاتِه الحسنةِ، وخلالِه الكريمةِ، ولا يقال حمدْتُه.

والشّكرُ: امتلاءُ النّفس بالإحساسِ بالنّعمةِ، واندفاعُ النّفس إلى الطّاعةِ والخضوعِ، والقيامِ بحقّ المُنعمِ ومقابلةِ الفضل والنّعمةِ بالإحسانِ في الطّاعةِ والواجباتِ[1]، فـ"الشُّكرُ يكونُ بالقلب خُضوعًا واستكانةً، وباللّسان ثناءً واعترافًا، وبالجوارحِ طاعةً وانقيادًا؛ ومُتعلَّقُهُ النِعَمُ دونَ الأوصافِ الذّاتيّةِ، فلا يقال: شكرْنا اللّه على حياتِه وسمْعِه وبصَرِه وعلْمِه، وهو المحمودُ بها، كما هو محمودٌ على إحسانِه وعدْلِه، والشّكرُ يكونُ على الإحسان والنِّعَم، فكلُّ ما يتعلّقُ به الشّكرُ يتعلّقُ به الحمدُ من غير عكس، وكلُّ ما يقعُ

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 1/55 - 56.

به الحمدُ يقعُ به الشّكرُ من غير عكْسٍ، فإنَّ الشّكرَ يقعُ بالجوارحِ، والحمدَ باللّسانِ"[1].

الشُّكْرُ لا يكونُ إلّا عَن يَدٍ، والحَمْدُ يكونُ عَن يَدٍ وعَن غيرِ يَدٍ

فالحمدُ والشّكرُ يَتلاقَيان ويَختلِفان، فيَتلاقَيان في معنى الإحساسِ بالنّعمةِ والقيامِ بحقِّها، وما يجبُ بالنّسبةِ للمُنعمِ، ولكنّهما يَختلِفان في القيامِ بحقِّ المُنعم، فالقيامُ بحقّ المُنعمِ في الشّكرِ: الطّاعةُ والعملُ وجعلُ الجوارحِ كلِّها في طاعة الله تعالى، والخضوعُ المطلقُ لله تعالى في كلّ شأن من شؤونِه، وحالٍ من أحوالِه، والقيامُ بحقّ المُنعم في الحمد: الثّناءُ على الله تعالى ثناءً مُطلقًا كاملًا مع تذكّرِ نَعمائِه، وتذكّرِ ما يُحيطُه منَ الوجودِ كلِّه، لا في ناحيةٍ من نواحي شخْصِه[2].

والشُّكْرُ لا يكون إلّا ثَناءً ليدٍ أوليتَها، والحمدُ قدْ يكونُ شُكْرًا للصَّنيعة ويكونُ ابْتِداءً للثّناء على الرَّجُل، فحمدُ الله الثَّناءُ عليه، ويكونُ شُكرًا لِنِعَمِه الَّتي شَمِلَت الكُلَّ[3]. فالشُّكْرُ لا يكونُ إلّا عَن يَدٍ، والحَمدُ يكونُ عَن يَدٍ وعَن غير يَدٍ[4]. وممّا تقدّمَ يتبيّنُ علّةُ اخْتيارِ لفظِ (الشّكور) بعد ذكر الآيات التي أنزلَها الله تعالى بوصْفِها عطايا تَستحقُّ الشّكرَ بالطّاعة، والعملِ وإخضاعِ الجوارحِ والخضوعِ المُطلقِ لله تعالى.

(1) الفِيروزابادي، بصائر ذوي التمييز: 3/340.
(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 1/56.
(3) الأزهري، تهذيب اللغة: (حمد).
(4) ابن سيده، المحكم: (حمد)، و(شكر).

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٦﴾﴾

[إبراهيم: 6]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الانتقال من ذِكر الغاية الكلّيّة إلى صورةٍ من صوَرها

لمّا ذكرتِ الآيةُ السّابقة إرسال موسى عليه السلام إلى قومه؛ لإخراجهم من الظّلمات إلى النّور، وتذكيرهم بأيّام الله تعالى، ناسَبَ أنْ يذْكرَ صورةً من تلك الصّوَر الّتي أعانت بني إسرائيل على الخروج من الظّلمات إلى النّور، وهي إخراجهم من ظُلْم آل فرعون واستعبادهم لبني إسرائيل، فالمناسَبَة بيْن الآيتَين هو الانتقال من ذِكر الغاية الكلّيّة، إلى ذِكر صورةٍ من صوَرها.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَنجَىٰكُم﴾: نجو، أصل النَّجاء: الانفصالُ من الشّيء، ومنه: نَجا فُلانٌ مِن فلانٍ، وأنْجَيْتُهُ ونَجَّيْتُهُ. قال تعالى: ﴿وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [النمل: 53] وقال: ﴿إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ﴾ [العنكبوت: 33]، والنَّجْوَةُ والنَّجاةُ: المكان المُرتفِع المُنفَصِل بِارْتفاعه عمّا حَوْله، وقيل: سمّي بذلكَ لِكوْنه ناجيًا مِن السَّيْل، ونَجَّيْتُهُ: تَرَكْتُهُ بنَجْوَةٍ، وعلى هذا: ﴿فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ﴾ [يونس: 92][1]، وكلُّ ما في القرآن من التركيب فهو بمعنى الخُلوص مِن خَطَرٍ مُحْدِق أو عذاب أو غرَقٍ أو كَرْب، ما عَدا صيغَتَي (ناجَى)، (تَناجى)[2]، والمعنى المِحْوَريُّ: خُلوص الجِرْم - أو نفاذُه مُرْتفِعًا من بيْن ما يُحيط به أو يجاوِرُهُ. كالأرض المُرتفِعة

(1) الرّاغب، المفردات، والزّبيديّ، تاج العروس: (نجو).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (نجو).

وسَنَدَي الوادي. وكالأغْصان تمْتَدُّ مِن ساق الشَّجر[1]، ومعنى الإنجاء في الآية الإنقاذُ من عذاب فرعون الدّائم.

2) ﴿يَسُومُونَكُمْ﴾: أصلُ السَّوْم الذَّهابُ في ابْتِغاء الشَّيء، فَهوَ مَعْنًى مُركَّبٌ من الذَّهاب والابْتِغاء، فأُجْرِي مجْرَى الذَّهاب في قَوْلهم: سامَ الإبِل؛ فَهِيَ سائِمةٌ، ومجْرى الابْتِغاء في قَوْلِه تَعالى: ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾[2]، وسامَهُ الأمْرَ سَوْمًا: كلَّفَه إيّاه، أوْ أوْلاهُ إيّاه، وأكثر ما يُستعمَل في العذاب والشَّرِّ والظُّلْم. وفي التَّنْزيل: ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾؛ أي: يولونَكُم، والسَّوْم أنْ تُجَشِّم إنسانًا مَشقَّة أو سوءًا أو ظُلْمًا، وسُمْتُه خَسْفًا، أيْ: أوْلَيْتُه إيّاه وأرَدْتُه عليه. ويقال: سُمْتُه حاجَةً، أيْ: كَلَّفْتُه إيّاها، وفي حَديث عليٍّ: "مَن تَرَكَ الجهاد ألْبَسَه اللّه الذِّلَّة وسيمَ الخَسْفَ"، أي: كُلِّفَ وأُلْزِمَ. والمعنى المِحْوريُّ امتدادُ بَقاءٍ، أو مرورٍ وذَهابٍ في حيّزٍ بلا حَدٍّ[3].

3) ﴿سُوٓءَ﴾: السّوءُ: كلُّ ما يَغُمّ الإنسانَ مِن الأمور الدُّنيويّة، والأُخْرَويّة، ومِن الأحوال النّفسيّة، والبَدَنيّة، والخارِجَة، مِن فواتِ مالٍ، وجاهٍ، وفَقْدِ حَميم، وقوله تعالى: ﴿بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾ [طه: 22]، أي: من غير آفَةٍ بها، وقال: ﴿إِنَّ ٱلْخِزْىَ ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٢٧﴾ [النحل: 27]، وعبّر عن كلّ ما يَقْبُحُ بِالسّوأى، ولذلك قوبِلَ بالحُسْنى، قال: ﴿ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ ٱلسُّوٓأَىٰٓ﴾ [الروم: 10]، كما قال: ﴿۞لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [يونس: 26][4]، والسّين والواو والهَمْزة، إنّما هي مِن باب القُبْح. تَقولُ: رَجُل أسْوَأ؛ أيْ: قَبيح، وامْرَأةٌ سَوْآء؛ أيْ: قَبيحَةٌ. وسُمّيَت النّارُ سوأى، لِقُبْح مَنْظَرِها[5]. والمعنى المِحْوريُّ: عَيْبٌ أو نَقْصٌ (قُبْحٌ أو فسادٌ أو مَرَض) يُخالِط ظاهرَ الشّيء أو باطِنَه: كالبَرَص والمرَض، وفسادِ العمل.

4) ﴿وَيَسْتَحْيُونَ﴾: حيا: (الحياة) ضِدُّ المَوْت، والحيُّ ضدُّ الميِّت، واسْتَحْياه واسْتَحيا منه، بمعنى مِن الحياء، وقوله تعالى: ﴿وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ﴾ [البقرة: 49]،

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (نجو).
(2) الزبيدي، تاج العروس: (سوم).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (سوم).
(4) الرّاغب، المفردات: (سوأ).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سوأ).

وقوله تعالى: ﴿*إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسۡتَحۡيِۦٓ أَن يَضۡرِبَ مَثَلٗا﴾ [البقرة: 26]، أيْ: لا يَسْتَبْقي[1]، والمعنى المِحوريُّ: امْتِلاءٌ بالطَّراءَةِ الّتي لها حِدّةٌ ما أو فاعليَّة تتمثَّل في رَهافَة الحِسّ وفي النّموِّ حَرَكةً أو امتدادًا: كجِرْم الحيَّةِ مُمتدّا يتحرَّك (والامتداد يُصوِّر النُّموَّ)، وتتجلّى طَراءَتُه في مُرونَتِه وتَلَوّيهِ دونَ أنْ ينقطعَ، وكلّ ما في القرآن مِن التّركيب هو مِن الحياة ضدِّ الموت، عَدا التّحيَّة والحياء. ومنه الاستحياء: إبْقاءُ الشَّخْص حيًّا، أيْ: عدَمُ قَتْلِه، قال تعالى: ﴿وَيَسۡتَحۡيُونَ نِسَآءَكُمۡۚ﴾ [البقرة: 49، الأعراف: 141، إبراهيم: 6]، وكذلك ما في [الأعراف: 127، والقصَص: 4، وغافر: 25][2].

5) ﴿بَلَآءٞ﴾: الباء واللّام والواو، والياء، أصْلان: أحدُهما إخلاقُ الشّيءِ، والثّاني نَوْعٌ مِن الاخْتِبار، ويُحمَل عليه الإخبارُ أيْضًا[3]. والبَلاءُ: الاختبارُ، ويكون بالخير والشَّرِّ. يقال: أبْلاهُ اللّه بَلاءً حَسنًا. وأبْلَيْتُهُ معروفًا. قال زُهَيْر:

جَزى اللّهُ بالإحسانِ ما فَعَلا بِكُمْ *** وأبْلاهُما خيرَ البَلاءِ الّذي يَبْلو

أيْ: خيرَ الصَّنيع الّذي يَختبِر به عبادَه[4]. والمعنى المحوريُّ هو: شِدَّةُ تحوُّز الشّيءِ - أو حَوْز الشّيءِ بشِدَّةٍ - لِمَدًى طويلٍ، ويَلْزمُه بيانُ حال الشّيءِ الّذي حِيزَ في شِدَّةٍ، كالنّاقَة المُبْلاة لِلمَنونِ؛ أي: المَحْبوسَة لَهُ بِتِلك الصّورة، والدّائمَةُ السَّفَر، كما يُفْهَم مِن قَوْلهم: ناقَةٌ بِلْوُ سَفَرٍ[5]. ومنه مع بيان الحال: "ابْتلاهُ اللّهُ: اخْتَبَرَه، كأنَّما اختَبَر صبْرهُ وتحمُّلَه الاحْتباسَ والبقاءَ على وَضْعٍ شديدٍ، ويقال أيضًا: بَلَوْتُه: امْتَحَنْته". ومِن هذا "البلاء: الاختبارُ والمِحنَة والغَمُّ"[6].

المَعْنى الإجْماليُّ:

تذكر الآية قولَ موسى عليه السلام لِبَني إسرائيل، موصيًا إيّاهم أنْ يَذْكروا نعمةَ اللّه تعالى عليهم، أنْ أنْجاهم من عذاب آل فرعون المُتمثِّل في صوَرٍ عظيمة وبلاءات جَسيمة من

(1) الرّازيّ، مختار الصّحاح: (حيا).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (حيو).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (بلو).
(4) الجوهريّ، الصّحاح: (بلا).
(5) ابن جنّي، سرّ صناعة الإعراب: 2/367.
(6) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (بلو).

تذْبيح الأبناء، واستحياء النّساء للخِدْمة، وقد وَصَفت الآية ذلك البلاءَ بالعظيم، لأنَّ فيه زَهْقًا لأرواح الرِّجال الّذين مِن شأنهم القيام بأمور بني إسرائيل مُكنةً وقوَّة، وإبقاءً لأرواح النّساء اللّواتي يّحْتَجْن إلى مَن يقوم عليهنَّ بالرِّعاية والعناية، فالبلاء باعتباره شاملًا للجميعِ، مُنزلًا حالَ بني إسرائيل في الحَضيض والذِّلة والمَهانةِ.

أعظمُ البلاء في ذهابِ مَن به قِوامُ الأمر وبقاء المَعاويز بغير وَليِّ أمْرٍ

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

نَوعُ الواو ودلالتها:

جاءت الواو في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ﴾ لعطْفِ هذه الجملة على جملة ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا﴾ [إبراهيم: 5] باعتبار أنَّ غرَض الجملتين هو التّنظير بسنَنِ ما جاء به الرُّسل السّابقون من إرشاد الأُمم وتذكيرها، كما أنَّ القرآن قد أُنزل لذلك[1]، فهي من عطْفِ الخبَرِ على الخبَر، ومن باب عطْفِ الفرْع على الأصل، فإنَّ الإرسالَ أصلٌ، وهذا الخبَر صورةٌ من صوَر إرسال موسى عليه السلام لِبَني إسرائيل لإخراجهم من الظّلمات إلى النّور.

إنجاء بني إسرائيل من الظُّلم صورةٌ من صوَر الإخراج من الظُّلمات إلى النّور

غرَضُ استعمال ﴿وَإِذْ﴾ البَلاغيُّ:

(إذ) في اللّغة ظَرْفٌ موضوعٌ لِزمان نِسْبةٍ ماضيَة، فالظّرْف (إذ) دلَّ على فعل أمْر مُقدَّرٍ تقديره (اذْكُر)، وتوجيه الأمْر بالذِّكر إلى الوقت الدّالِّ عليه الظّرْف (إذ) دون ما وَقَع فيه مِن الحوادث مع أنَّ الحوادث هي المقصودة بالذّات؛ هو المبالَغةُ في إيجاب ذِكرها؛ لأنَّ إيجاب ذكْر الوقت إيجابٌ لِذِكر ما وقَعَ فيه بالطَّريق البرهانيِّ، ولأنَّ الوقت مُشتملٌ عليها، فإذا استُحضر كانت حاضرةً بتفاصيلها كأنَّها مشاهَدةٌ عيانًا[2].

استحضار الزّمن بَريدُ استحضارِ ما فيه من أحداث

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/191.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 1/79.

نكتةُ إظهارِ ما حقُّه الإضمار:

تَوجيه الأنظار لِما فيه من الكنوز والأسرار

آثَر النَّظم ذِكر القائل في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ﴾، مع تقدُّم ذِكره في الآية السّابقة، فلَم يَقُل: (وإذ قال لهم)، فهذا من وضعِ المُظهَر مَوضِعَ المُضمَر، وفي إعادة اللّفظ بنَصّه وفَصّه معنى التّقدير والتّبجيل، ويُضاف إلى ذلك أنّ ذكْر القوم مناسبٌ للغاية الّتي أرادها النّظْم القرآنيُّ، وهي بيان حِرصه ورجائه في صلاحهم وهدايتهم، فهُم قومه وهو منسوبٌ إليهم، ولإنزال الخبَرَين بمنزلة انفرادِ كلٍّ منهما عن الآخَر، فكأنَّهما خبَران مُنْفصلان لا تعلُّقَ لأحدهما بالآخَر، ففيه إشعارٌ بضرورة توجيه الأنظار لِما فيه من الكنوز والأسرار.

توجيه المُتشابه اللَّفْظيّ في الحذْف والذِّكر:

كثرةُ النِّعم توجبُ مزيدَ تشريفٍ وتقريبٍ

جاء قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ محذوفًا منه أداة النّداء والمنادى، بخلاف ما جاء في آياتٍ أُخرى من مثل قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ﴾ [المائدة: 20]، وذلك أنّه لمّا ذكَّرهم في آية المائدة بضُروبٍ من الآلاء والنّعم الجِسام، من جعل الأنبياء فيهم، وجعلِهم ملوكًا وإعطائهم ما لَم يُعْط غيرهم؛ كان ذلك تعريفًا باعتنائه سبحانه بهم وتفضيلهم على مَن عاصرَهم وتَقدَّمَهُم من أُمم الأنبياء قبلهم، فناسَبَ ذلك نداء موسى عليه السلام بقول: ﴿يَٰقَوْمِ﴾ [المائدة: 20]، بالإضافة إلى ضميره؛ إنباءً بالقُرْب والمَزيَّة، وناسَبَ هذا النّداء المُنبئُ بالاعتناء ما تقدَّم من تخصيصهم بالتّشريف بما مَنَحَهم من الآلاء والنّعم الجِسام. ولمّا قَصَد في آية سورة إبراهيم تذكيرَهم بنجاتهم من آل فرعون وما كان يَسومهم به، من ذَبْح ذُكورِ أبنائهم واستحياء نسائهم للمِهْنة، ولَم يُذكر هنا شيءٌ ممّا في آية المائدة؛ لِما اقْتصرَ عليه هنا من التّذكير بمُجرَّد الإنجاء، فناسَبَ ذلك الاقتصار على خِطابهم دون النّداء، رَعْيًا للمُناسَبة[1].

(1) الغرناطيّ، ملاك التّأويل: 1/126.

غرضُ الأمر ودلالتُه:

يَحسُن الامتنانُ عند غلبةِ النِّسيان وقُبْح الكفران

يُشير فعل الأمر الطّلَبيُّ ﴿ٱذۡكُرُواْ﴾ إلى قُبح نسيان النِّعم، كأنَّه يقول لهم: حريٌّ بمِثلكم أن يَذكرَ دومًا دون نسيانٍ لِما كان فيكم من بلاءٍ وما صِرْتم إليه من نعيم؛ فالنِّعم تَتْرى والآلاءُ مُتواصِلة، فالنّسيان يكون حينئذٍ مَثلبةً، وكأنَّ النِّعمَ "لكثرتها وتعاقبها صارت كالأمر المعتاد، فصارت غَلَبة ظهورها وكثرتها سببًا لوقوعها في محلّ النّسيان"[1]، فحسُن التَّذكير ووجَب لِمَحْو كُفران النّعم الّذي يغشاهم، كما أنَّ الذِّكر يوجب المزيد من الاعتزاز بالنّعم والمُنعِم، وتَرْكه يوجب المؤاخَذة والعذاب الشّديد[2].

فائدة الإضافةِ:

نعمةُ الله لا تنحصرُ في بابٍ ولا تَسَعُها جميعُ الأبواب

يكتسب المضاف ﴿نِعۡمَةَ﴾ دلالته من دلالةِ ما أضيف إليه، وهو هنا لفْظ الجلالة ﴿ٱللَّهِ﴾، وقد اكتسبت النِّعمة قيمتها وشَرَفها من إضافتها إلى خالقها؛ فالإضافة إضافةُ تشريف وتعظيم، ثُمّ هي منَّةٌ بعدَ منَّة لَكُم كيْ يغشاكم الإيمان، كما أنَّ لفْظ ﴿نِعۡمَةَ﴾ اكتسب معنى العموم بإضافته إلى اسم الله تعالى[3]؛ لأنَّ نعمة الله لا تنحصر في بابٍ، بل لا تَتَّسع لها جميع الأبواب.

نكتةُ إفراد النِّعمة:

النِّعمةُ بعظمتِها وتفرُّدِها وكثرةِ ما فيها من لُطفٍ وجمال

إفراد النّعمة في قوله تعالى: ﴿ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ﴾ يَشي بأنّه ليس المقصود منه التّأمُّل في أعداد نِعَم الله تعالى، بل المقصود منه التّأمّل في جنس نِعَمه؛ لأنَّ هذا الجنس جِنسٌ لا يَقْدر غيرُ الله عليه، فمَن الّذي يَقْدر على إعطاء نِعمة الحياة والصّحَّة والعقل والهداية والصَّون عن الآفات والإيصال إلى جميع الخيرات في الدُّنيا والآخرة، فقوله تعالى: ﴿ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ﴾ المراد منه التّأمّل في هذا

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 11/319.
(2) رشيد رضا، تفسير المنار: 6/266.
(3) رشيد رضا، تفسير المنار: 6/266.

النَّوع من حيْث إنّه ممتازٌ عن نِعْمة غيرِه، ومعلومٌ أنّ النِّعمة متى كانت على هذا الوَجْه كان وجوب الاشتغال بشُكْرها أتمّ وأكمَلَ[1].

ثُمّ إنّ بناء النِّعمة على اسْم الهَيْئة، ومعلومٌ أنّ الهيْئة يدخل فيها أفراده الّتي ترَكَّب منها، والنَّظر إلى دِقَّة صُنعها وما فيها من جمالٍ وإبداع ولُطْف، فكأنّ المراد تفاصيل كلِّ نِعمة بمفردها وما اشتملَتْ عليه من نِعَم لا تُعَدّ ولا تُحصى[2]، وبذلك يجتمع في إفراد النِّعمة نُكْتتان؛ الأولى النّظَر إلى جنس النّعمة، والأُخرى النّظَر إلى تفاصيل النّعمة الواحدة.

بلاغةُ استعمال حرْف الاستعلاء:

نعمةُ الله تعالى إذا تمكَّنَتْ من قومٍ حلَّت فيهم

الأصل في (على) الاستعلاء الحقيقيُّ، وقد ذكرَتِ الآيَةُ استعلاء النِّعمة على بني إسرائيل: ﴿ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ﴾، وهو ما يُشير إلى أنَّهم خاضعون لمنَّتها، راضونَ بِالانطِواء تحت لوائها، ومَن كان هذا حاله فعلَيه أن تستقيم حاله، كما أنَّ الاستعلاء جاء مُشيرًا إلى معنى (في) الخاصّة بالوعاء والاشتمال، فكأنَّ مكانهم صار مَحلًّا للنِّعمة بعد استعلائها وتَمكُّنِها، وفي هذا مزيد امتنانٍ عليهم، فإذا حلَّت النِّعمة عليهم فهي فيهم، وهذا من بديع الإيجاز والاختزال في استعمال الحُروف، وهو أوْلى من القوْل بالتَّناوب.

نكتة الأمْر بذِكر النِّعمة لا المُنْعِم:

تقليدُ بني إسرائيل نزولٌ عن الرُّتبة العليَّة وانخفاضٌ عن المَنزلة البهيَّة

بنو إسرائيل عادَتُهم الانشغال بالنِّعمة عن المُنْعِم؛ لذا أمرتْهُم الآية بذِكر النِّعمة: ﴿ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ﴾ ولَم يأمرهم بأن يذكروا اللّه تعالى مباشرة، وذلك بناءً على طبيعتهم المُتلهِّفة للنِّعَم لا للمُنعِم، فهم مُرتَهنونَ بها، بخِلاف أمّة النَّبيِّ ﷺ الّذين انشغلوا بالمُنعِم لا النِّعمة، كما في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 11/319.
(2) هنداوي، الإعجاز الصرفيّ، ص: 196.

ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا ﴿٤١﴾ [الأحزاب: 41]، وفي الانشغال بالمُنعم رعايةٌ لِما أنْعَم به وأعطى، فكان الاشتغال بذاته أوْلى من الاشتغال بنعمته، وفي هذا المَلْحظ البيانيِّ دعوةٌ إلى الإنشغال بالذِّكر الحقيقيِّ، وهو أن يكون للّه وحْدَه، وتَرْك تقليد بني إسرائيل في كونهم لا يستجيبون لأمر اللّه تعالى إلّا بالنِّعم والتّذكير بدَفْع النِّقم.

نوع ﴿إِذۡ﴾ ومعناها:

استحضارُ الأوقاتِ العجيبةِ داعٍ للمِنن الجليلة

﴿إِذۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِذۡ أَنجَىٰكُم﴾ ظَرْف للنِّعمة بمعنى الإنعام، أي: إنعامهُ عليكم ذلك الوقت، ويجوز أن يكون ﴿إِذۡ﴾ بَدَلًا من نعمة اللّه، أي: اذكروا وقت إنجائكم، وهو من بَدَلِ الاشتمال[1]، وفي الإتيان بـ(إذ) المُقتضيَة للجملة استحضارٌ للتَّكوين العجيبِ المُستفاد من هيئة الفعل؛ لأنَّ الذِّهن إذا تصوَّر المصْدَر لَم يَتصوَّر إلّا معنى الحدَث، وإذا سمع الجملة الدّالَّة عليه تصوَّر حدوث الفعل وفاعله ومفعوله ومتعلّقاتِه دفعةً واحدة؛ فنشأت من ذلك صورةٌ عجيبةٌ[2].

نكتةُ التَّعبير بمُفرَدة الإنجاء:

تمامُ المنَّة في الانفصال التّامِّ مع نصْرِ المؤمنين ودَحْض الظّالمين

آثَر النَّظْم التّعبيرَ بلفظ الإنجاء في قوله تعالى: ﴿إِذۡ أَنجَىٰكُم﴾ لِلَمْح ما في اللّفظ من معنى الانفصالِ من الشّيء والبُعدِ عنه، وهذا ما حدث مع بني إسرائيل إذ ابتَعَدوا عنه مُنفصلينَ في ناحيَتَين؛ البرِّ والبحر، ثُمّ إنَّ في لفظة النّجاة تبشيرًا من طَرْف خفيٍّ؛ لأنَّها تعني المكان المرتفِع عمّا حَولَه[3]؛ فكأنَّ في الآية بشارةً بارتفاع شأنهم وعلوِّ مكانتهم، ثمَّ إنَّ الإنجاء ليس مُجرَّد التَّخْليص من أيديهم وهُمْ على حالهم في المُكْنَة والقُدْرَة بل بإهلاكهم[4]، وهذا أعظَمُ في الامتنان.

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/540.
(2) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 11/319.
(3) الرّاغب، المفردات: (نجو).
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 1/80.

بلاغةُ استعمال الصيَغ:

سرعةُ الإنجاء منَّةٌ أُخرى في الإنجاءِ

استعمل النَّظْم صيغة الفعل (أنجى) دون (نجَّى)؛ وذلك لدلالتها على السُّرعةِ في الإنجاء، فصيغة (أفعل) أشَدُّ سرعةً في التَّخلُّص من الشِّدَّة والكَربِ؛ ذلك لأنّه لمّا كانت النّجاة من البحر لَم تستغرق وقتًا طويلًا ولا مُكثًا استعْملَ (أنجى)[1]، فاللَّفظ مناسِبٌ للنِّعمة الّتي أنعمها اللّه عليهم، إضافةً إلى ذلك كلمة (نَجَّى) تكون وقت نزول العذاب. وكلمة (أنجى) بمعنى يمنَعُ عنهم العذاب، فالأولى للتَّخليص من العذاب، والثّانية يبْعدُ عنهم عذاب فرعون نهائيًّا، ففَضْل اللّه عليهم كان على مرحلتَين: مرحلة أنّه خلَّصَهم من عذاب واقِعٍ عليهم، والمرحلة الثّانية أنّه أبْعَدَهم عن آل فرعون فمَنَعَ عنهم العذاب[2].

سرُّ اختيار ﴿ءَالِ﴾:

تعظيم نعمة الإنجاء لعظيم شأن المنَجيِّ منه

الآل يُراد به الأقاربُ والعشيرة والموالي وخاصَّةُ الإنسانِ وأتباعُه، والمراد من آل فرعون وَزَعَتهُ ووُكلاؤه، ويختصُّ الآل بالإضافة إلى ذي شأنٍ وشرَفٍ دُنيويٍّ ممّن يعقل، ولمّا كان فرعون في الدُّنيا عظيمًا، وكان الخِطاب متعلّقًا بنجاةٍ دُنيويَّة من عظيم في الدُّنيا أطْلقَ على أتباعه (آل)، وخصوصيَّة لفظ ﴿ءَالِ﴾ هنا أنّ المقام لتعظيم النِّعمة وتوفير حقِّ الشُّكر بما يَحُفُّ بها؛ فالنجاة من العذاب وإن كان نعمةً مُطلَقًا إلّا أنّ كون النّجاة من عذاب ذي قُدْرَةٍ ومكانةٍ أعظَم؛ لأنّه لا يكاد يَنْفلِت منه أحَدٌ[3].

فائدة ذِكر المضافِ إليه:

لَولا الآل لَما ثبت الأمر لفرعون وآلَ

التّقييد بقوله تعالى: ﴿مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ مع ذِكر المضاف ﴿ءَالِ﴾ دون الاكتفاء بالمضاف إليه ﴿فِرْعَوْنَ﴾ يَحمل واقعًا تاريخيًّا، وهو

(1) السّامرّائيّ، بلاغة الكلمة في التّعبير القرآنيّ، ص: 66.
(2) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 1/323.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/489.

إنجاؤهم من آل فرعون لا من شخص فرعون، إضافةً إلى أنّ ذِكرَ آل فرعون يَحمل في طيّاته معاني التّجبُّر والتّعاظم والخُيَلاء والجهل؛ فكأنَّ القرآن عبَّر عنه بالمُرَكّب الإضافيِّ ﴿ءَالِ فِرۡعَوۡنَ﴾، وهذا فيه ما فيه من الإيجاز والاختصار، "وإنما جُعلتِ النّجاة من آل فرعون ولَم تُجعل من فرعون مع أنّه الآمِرُ بتعذيب بني إسرائيل؛ تعليقًا للفعل بمَن هو من مُتَعلّقاته، وتنبيهًا على أنَّ هؤلاء الوَزَعة والمُكلَّفين ببني إسرائيل كانوا يَتجاوزون الحَدَّ المأمورَ به في الإعْنات على عادة المُنفِّذينَ، فإنّهم أقلُّ رحمةً وأضْيَقُ نفوسًا من وُلاةِ الأمور"[1]؛ فهو لَم يَستمْكن وحدَهُ من الظُّلم وإنّما بمساعدة الآل والوكلاء، ولَولا الآل لَما صار الأمر إلى فرعون وآلَ.

بلاغةُ الاستعارةِ في لفظ السَّوْم:

عامل آلُ فرعون بني إسرائيل معامَلةَ الأنعام في الإذلال والتَّحقير

في قوله تعالى: ﴿يَسُومُونَكُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ﴾ ورد لفظ السَّوْم، وفيه من بديع الاستعارة، حيث شبَّه إذلال بني إسرائيل بسوْم الأنعام، على سبيل الاستعارة التصريحيَّة التَّبعيَّة، والاستعارةُ أبلَغُ من الحقيقة، إذ تشبيه بني إسرائيل بالأنعام من جِهَةٍ، وإذلالُهم بإطعام الأنعام، تقبيحٌ لذُلِّهم، وبيان صَغارِ حالهم، ووَضاعة شأنهم، وهو ما يكشف عن عَظيم شأن الإنجاء، وكبير أمْرِ الامتنان.

نكتةُ التَّعبير بصيغة المضارِع:

استمرار المَذلَّة وتتابع العذاب كنايةٌ عن دَيْمومَتِهِ

فعل السّوْم المستعمل في قوله تعالى: ﴿يَسُومُونَكُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ﴾ فيه معنى الإذلال والاحتقار والإرهاق، مع الدَّوام والاستحضار الّذي تمثِّلُهُ صيغة الفعل المضارع، فليس السّوْم حينًا ما ويَنقطع، وإنَّما فيه من الاستمرار والتَّتابُعِ ما فيه؛ لبيان عَراقة آل فرعون في التَّنْكيل بأعدائهم، بحيث صار عادتهم ودَيْدَنهم تعذيبَ بني إسرائيل.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/489.

علّة فصْل جملة ﴿يَسُومُونَكُمْ﴾:

فُصلَتْ جملة ﴿يَسُومُونَكُمْ﴾ إمّا لأنَّها حالٌ من آل فرعون، يحصل بها بيان ما وَقَعَ الإنجاء منه، وهو العذاب الشّديد الّذي كان الإسرائيليّون يُلاقونه من معامَلَة القِبْط لهم[1]، وإمّا أنْ تكون استئنافًا بيانيًّا، كأنّه قيل: ما فعل بهِمْ أو ممَّ أُنْجوا؟ فأجيب بما ذُكِر[2].

مناسَبة الألفاظ:

اجتماعُ الإذلالِ مع كثرةِ ألوان العذاب مضاعَفةٌ في الهوان

جاء لفظ ﴿سُوٓءَ﴾ في قوله تعالى: ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ متناسِبًا مع لفظ (السّوْم)، ويشتمل السّوء ألوانًا شَتّى من العذاب؛ كالجَلْد والسُّخْرَة والعمل بالأشغال الشّاقَّة، فكأنَّ كلَّ حياتهم ذلٌّ وعذابٌ، وهذا يناسِب المعنى اللُّغويَّ للفعل (سام) الّذي يدلُّ على التَّرْك، فالسّوامُ من الحيوانات هي المَتروكة[3]، وفي هذا إيذانٌ بترْكِهم لأذى فرعون، واستباحته لهم ولكلِّ مَن يتبَعهم مع شِدَّة الاستهانة، وفيه تصويرٌ بأنَّهم كالسّائمة من الأنعام الّتي ترعى كلَّ ألوان العذاب، فهي دلالةٌ على العموم، وشديدِ الإهانة.

توجيه المتشابِه اللَّفظيّ في الفصْل والوَصْل:

الحرْف القرآنيُّ يكشف عن حالةٍ نفسيَّةٍ عاشها موسى عليه السلام بعد نجاتِه من الذَّبْح

لسائلٍ أنْ يَسألَ عن سرِّ ذِكر الواو في سورة إبراهيم وحذْفها من البقرة والأعراف؟ والجواب أنَّ ذلك مُقترنٌ مُرتبط بالسّياق، فجاء تَعداد النِّعم في سورة إبراهيم على لسان موسى عليه السلام فقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ بخلاف ما جاء في سورتي البقرة والأعراف؛ فإنَّ تعداد النّعم كان من الله سبحانه وتعالى، فقال سبحانه في سورة البقرة: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ [البقرة: 49] وقال في سورة الأعراف: ﴿وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/489.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 5/41.
(3) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 1/323.

﴿فِرْعَوْنَ﴾ [الأعراف: 141] فعندما تَكلّم ﷺ كان هناك بُعدٌ ذاتيٌّ، بمعنى أنّ كَليم الله عندما خاطب قومه مُذكِّرًا بنِعَم الله ذكَّر نفْسَه قبل أن يذكِّرَهم بها، إذ كان ﷺ أوَّل المُنعَم عليهم، فلولا رحمة الله بموسى ﷺ لكان في عداد المَذبوحين، فقد تَجلّى فضْل الله على نبيِّه الكليم بإنقاذه من التَّذبيح الّذي كان وقت ولادته؛ فإنه قد وجب عليه شُكر ربّه، وهذا ما كشفَتْ عنه الواو، فهو يعدِّد نِعَم الله على بني إسرائيل من جهةٍ، وفي الوقت نفْسِه يَشكر ربّه على ما أوْلاه من نعمة الحياة؛ فكأنّه يقول لبني إسرائيل: اذكروا نِعَم الله عليكم، واذكروا نعمة النّجاة من التّذبيح، الّتي لولاها لكنتم وكنت أنا كذلك ممّن هَلك على أيدي آل فرعون.

وبيان ذلك أنّ مقتضى حرْف العطف أن يَجعلَ تَغايرًا بيْن المعطوف والمعطوف عليه، أي أنّ التّذبيح غيرُ سَوْمِهم سوء العذاب، ولكنَّ الأمر على خِلاف ذلك إذ إنّ التّذبيح جُزءٌ من العذاب العامّ الّذي حلَّ ببني إسرائيل، وإلّا لَلَجأْنا إلى جعل العذاب عذابًا معنويًّا كالاستعباد؛ وهو أحَد الوجهَين اللّذين ذَكرهما الآلوسيّ رحمه الله، وهو مرفوضٌ؛ لدلالة الآيتَين على أنّ العذاب ليس عذابًا معنويًّا بجعْل التّذبيح والتَّقْتيل بيانًا وتفسيرًا للعذاب، والقِصّةُ؛ واحدة فسَقَط هذا الوجْه.

فقد استحضَر موسى ﷺ معنًى قائمًا في نفْسه لا يكاد يغيب عن ناظرِه، وهو أنّه كان في عداد المذبوحين ولكنَّ رحمة الله اقتضَتْ شيئًا آخَر، فهو يَستحضر في لحظة تَعداد النِّعم أمْرَ التّذبيح، فعندما قال: ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ﴾ استحضَر في هذه اللّحظة فظاعة التّذبيح فجعله أمرًا آخَر غير العذاب؛ فكأنّ التّذبيح شيءٌ والعذابَ شيءٌ آخَر، فقال ﷺ: ﴿وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ﴾ وهو من الأبناء الّذين كانوا يُذبحون ولكن الله استثناه أن يكون في عداد هؤلاء الأبناء، فاعْلَم تلك الحالة النفْسيَّة الّتي يعيش فيها كليمُ الله تَعْلَم لماذا عَطَف بالواو، ولماذا جعَل التّذبيح شيئًا غيْر العذاب، وبالفعْل فإنَّ التّذبيح كان أشدَّ أنواع العذاب على بني إسرائيل، يقول ابن الزّبير الغرناطيّ عن سرِّ عطْف التّذبيح على العذاب: "عيّن بالذِّكر أشَدّها وأعظمها امتحانًا، فجيءَ به معطوفًا لأنّه مُغايرٌ لِما تقدَّمَه؛ فقيل: ﴿وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ﴾ فعيّن من الجملة هذا، وخصَّ بالذِّكر تعريفًا بمكانه وشِدَّة الأمر فيه"[1].

(1) الغرناطيّ، ملاك التأويل: 1/57.

ممّا تقدَّم يتبَيَّن لنا أنّ الواو قد كشفَتْ عمّا في أعماق نفْس موسى عليه السلام، من شُكرٍ لـربِّه ﷻ، وشعور بالنّجاة من عذاب التّذبيح الّذي كان سائدًا في بني إسـرائيل على أيدي آل فـرعون، وهي دعوةٌ كذلك لهؤلاء الّذين نالوا من فضْل اللّه ﷻ، أنْ يَستشعِـروا فضْل ربِّهم عليهم في كلِّ وقْت وحينٍ، فهذه بعض أسـرار هذا الحـرْف القـرآنيِّ المُعجِز في هذا السّياق، تبيّن لنا ذلك كُلّه من خلال تَدبُّر السّياق الّذي وقعَتْ فيه الآيات[1].

توجيه المتشابِه اللَّفظيِّ باختيار المُفرَدة:

تعدُّد مِحَن بني إسرائيل

التَّقْتيل أعمُّ من التّذبيح؛ فبيْنهما عمومٌ وخصوصٌ مُطلَق، فكلُّ تذبيحٍ تقتيلٌ، وليس كلُّ تقتيلٍ تذبيحًا، فلِلتّقتيل عدَّة صوَرٍ؛ منها: صورة الذَّبْح وهي أشَدُّها؛ وذلك لمساواة الإنسان بالذّبيحة الّتي أصبحَت اسمًا لِما يُذْبح من الشّاءِ، وصورة الإلقاء من شاهِقٍ، وصورة الصَّلْب، وصورة الشَّنْق، وما إلى ذلك من صوَر يَتفنَّن فيها المجرمون.

أمّا الذَّبْح فلا يوجد له سوى صورةٍ واحدة، وهي قطْعُ الحُلقوم من باطنٍ عند النَّصيلِ؛ وهو مفْصل ما بين الـرّأس والعُنُق، أي: مَوْضع الذَّبح من الحَلْق[2]، وقد ذكرَتْ آية البقرة وإبراهيم التَّذبيح: ﴿وَيُذَبِّحُونَ﴾، وآية الأعراف التّقتيل: ﴿يُقَتِّلُونَ﴾ [الأعراف: 141]، والحقُّ ﷻ يُريد أن يلْفِتَنا إلى أنّ فرعون حينما أراد أن يَنتقم من ذرّيّة بني إسرائيل انتَقَم منهم انتقامَين؛ مرّةً بالذّبح ومرّةً بالقتْل[3].

سرُّ التَّعبير بالمضارع المضعَّف:

تـصـويـرُ كـثرةِ الذَّبح وتجدُّده

جاء فعلُ التَّذبيح في قوله تعالى: ﴿وَيُذَبِّحُونَ﴾ دالًّا على التّضْعيف وعلى الكثرة والقَصْديَّة المُطْلَقة في إيقاع التّذبيح؛ لأنَّ المعنى

(1) المثنّى عبد الفتّاح، نظريّة السّياق القرآنيّ، ص: 220 فما بعدها.
(2) المثنّى عبد الفتّاح، نظريّة السّياق القرآنيّ، ص: 225.
(3) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 1/324.

الرّئيس لصيغَة (فعّل) هو الدّلالة على التّكْثير، وقد جاء في كتاب سيبويه أنَّه إذا أردْتَ كثرة العمل قلتَ: كسّرْته وقطّعْته ومزَّقْته، وفعّلت إدخالها لِتَبْيين التّكثير[1]، والتّكثير يُشير إلى اشتراك آل فرعون في تعذيب هؤلاء، فكلُّهم يَدٌ واحدةٌ متَّفقون على إيقاع الضَّرر بِبَني إسرائيل، وممّا يُقوّي هذا التّعبيرُ بالمضارع؛ فإنَّه يُصوِّر كثرةَ التَّذبيحِ واستمراريَّته فيهم.

فائدةُ التَّعبير بالأبناء دون الأوْلاد:

تخصيص المَذبوحينَ بالذُّكورِ فيه زيادةُ امتنانٍ على الذّكور

المقصود بالأبناء في قوله تعالى: ﴿وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ﴾ الذّكور دون الإناث، وذَبْح الذّكور دون الإناث مَضرّة من وجوه: **أحدها**: أنّ ذبْح الأبناء يقتضي فناء الرِّجال، وذلك يقتضي انقطاعَ النَّسْل؛ لأنَّ النِّساء إذا انفردْنَ فلا تأثير لهُنَّ البَتَّة في ذلك، وذلك يُفْضي آخِر الأمر إلى هلاك الرّجال والنّساء، و**ثانيها**: أنّ هلاك الرّجال يقتضي فساد مصالِح النّساء في أمْر المَعيشة، فإنَّ المرأة لَتَتمنّى الموت، لِما قد يَقَع عليها من نَكَد العَيْشِ بالانفراد فصارَتْ هذه الخَصْلَةُ عظيمةً في المِحَن.

و**ثالثها**: أنّ قتل الولد عَقيبَ الحمْل الطّويل وتَحمُّل الكَدّ والرّجاء القويِّ في الانتفاع بالمَولود من أعظَم العذاب؛ لأنَّ قتله - والحالة هذه - أشدُّ من قتْل مَن بَقيَ المدَّةَ الطّويلة مُستمتِعًا به مسرورًا بأحواله، و**رابعها**: أنّ الأبناء أحبُّ إلى الوالدين من البنات، ولذلك فإنَّ أكثر النّاس يَستثقِلون البنات ويَكرهونهن وإنْ كثُرَ ذُكْرانهم[2].

فلهذه الأوْجُه وغيرِها كان قتْلُ الأبناء أشدَّ من قتْل البنات، ممّا يزيد من اللّوْعة، ويَرفع من شأن الامتنان بالإنجاء من هذا البلاء، فلولا إنجاءُ الله تعالى لاسْتَمرَّ القتل في الذُّكور، فهذه نِعمةٌ مستصحبةٌ، ومِنَّةٌ دائمة.

(1) سيبويه، الكتاب: 4/64.

(2) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 3/504.

نكتةُ الإضافة إلى ضمير المخاطَبين:

مَن اعتبرَ الماضيَ الأليم بالواقع الرَّحيم عظُم شُكرُه

أُضيف الأبناء إلى ضمير المخاطَبينَ في قوله تعالى: ﴿أَبۡنَآءَكُمۡ﴾ ليتناسبَ النَّظْم القرآنيُّ مع ما قبله من ضمائر المخاطبينَ ﴿أَنجَىٰكُم﴾، و﴿يَسُومُونَكُمۡ﴾، فجاءت ﴿أَبۡنَآءَكُمۡ﴾؛ لتُناسِب ما قبلها، مع ما في هذه الإضافة من إبراز عاطفة المخاطَبين، فهُمْ أبناؤكم الّذين ذهبوا، لا أبناء غيركم؛ فاعتَبِروا ذلك بما أنتم عليه تَشكروه سبحانه.

نكتة استعمال لفظ الاستحياء بصيغَة المضارِع:

الإذلال الخاصُّ بالأعراض أشدُّ ما يكون على الأشراف

اختار النَّظْم مُفردةَ الاستحياء في قوله تعالى: ﴿وَيَسۡتَحۡيُونَ﴾ وهي استفعالٌ يدلُّ على الطَّلَب للحياة، أي: يُبقونهنَّ أحياء أو يَطلبون حياتَهُن، ووَجْه ذِكرِه التَّذكيرُ بأنَّ ما نالهم من مصائب الاستحياء للإناث كان المَقصد منه خبيثًا، وهو أنْ يَعتدوا على أعراضهنَّ ولا يَجِدن بُدًّا من الإجابة بحُكْم الأسْرِ والاسْترقاق، فيكون قوله تعالى: ﴿وَيَسۡتَحۡيُونَ نِسَآءَكُمۡۚ﴾ كنايةً عن استحياءٍ خاصٍّ[1]، والفعل المضارع ﴿وَيَسۡتَحۡيُونَ﴾، دالٌّ على تَجدُّد الاستحياء واستمراره، بل الاجتهادِ فيه حالًا بعدَ حالٍ، ووَقتًا بعد وقتٍ مع استحضار صورة استحيائهم، وفي هذا إصرارٌ على الإذلال والمُضِيِّ فيه.

نكتةُ استعمال لفظ ﴿نِسَآءَكُمۡۚ﴾:

المِحنةُ في النِّساء أشدُّ بلاءً عند طائفةٍ من قتْلِ الأبناء

آثَر النَّظم الكريم لفظةَ النِّساء في قوله تعالى: ﴿وَيَسۡتَحۡيُونَ نِسَآءَكُمۡۚ﴾ لأنَّه قائمٌ على إبقاء عُنصر الأنوثة بحيث يَتمتَّع بهنَّ آل فرعون؛ لذلك لَم يَقُل: أزواجكم، أي أنَّهم يريدونهنَّ للمُتعة، وذلك للتَّنكيل ببَني إسرائيل[2] تنكيلًا خاصًّا، ثُمّ إنَّ لفظة نِساء أعمُّ من لفظة أزواج؛ فالنّساء عامّةً تُطلَق على المتزوِّجة وغير المتزوِّجة،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/489.
(2) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 1/423.

فكانت المِحنة شديدةً، والخَطْبُ عميمًا، وأضيف لفظُ النّساء إلى ضمير المخاطَبينَ كي يتناسَب النّظْم القرآنيُّ مع ما قبله من ضمائر المخاطبينَ، ولِما فيها مِن مَزيد إشعال فَتيل الغَيْرة بأنَّ الّذي وقعَ يُدمي القُلوب؛ فالاستحياء بغرض الابتذال كان لنسائكم لا لغيْرهنَّ.

توجيهُ تخصيصِ هذه المِحن بالذِّكر:

إلـزامُ الحجَّة ببَني إسرائيل بإنجائهم من أعظمِ المِحنِ

خصَّتِ الآية هذه المِحن بالذِّكر دون غيرها؛ لأنَّها كانت من أعظَم ما يُمتحن به النّاس من جهة المُلوك والظَّلَمة، وصار تخليص اللّه إيّاهم من هذه المِحن من أعظَم النِّعم؛ وذلك لأنّهم عايَنوا هلاك مَن حاول إهلاكهم، وشاهَدوا ذُلَّ مَن بالَغ في إذلالهم، ولا شكَّ في أنّ ذلك من أعظَم النِّعم، وتعظيمُ النِّعمة يوجب الانقيادَ والطّاعة، ويقتضي نهاية قبْح المخالَفة والمعانَدة، فلهذا السّبب ذَكَر اللّه تعالى هذه النِّعمة العظيمة، مبالَغةً في إلزام الحُجَّة عليهم وقَطْعًا لِعُذْرهم[1].

سرُّ تقديم الذَّبْح على الاستحياء:

إزهاق النُّفوس أشدُّ من استحياء النِّساء في الجُملة

قُدِّم ذِكر ذبْح الأبناء على استحياء النّساء؛ لأنّه أصعَبُ في الجملة عند النّاس، وإن كان الاستحياء أعظَمَ من القتْل لدى الغَيور[2]؛ فالبَشاعة مُتمثِّلةٌ في مَنظَر الدّماء وهي تُسْفك بغير حقٍّ، وإزهاق النُّفوس بالباطل وبدَم باردٍ ممّا يُشعل فَتيل الدَّم البارد! فكان التَّقديم لبيان قسْوة العذاب وشِدَّته.

بلاغة استعمال اسم الإشارة:

بلاء المِنحِ أشدُّ في الآخرةِ من بلاء المِحن

في عَوْد اسم الإشارة في قوله تعالى: ﴿وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٌ﴾ بلاغةٌ نادرةٌ؛ لأنّه يجوز أن يعود على المحنة والمنحة، فيجوز عَوده إلى الإنجاء في قوله تعالى: ﴿إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ وهذه منحة، ويجوز كونها محنة عظيمة، إن جُعلت الإشارة راجعةً إلى قتْل الأبناء

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 3/504.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 1/255.

واستحياءِ النِّساء في قوله تعالى: ﴿وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْۚ﴾، إذِ البلاءُ يتردَّد بيْن النِّعمة والمِحنة، قال تعالى: ﴿وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [الأعراف: 168]، فالبلاء يكون بالمسارِّ ليَشكروا، وتارةً بالمضارِّ ليَصبروا، وتارةً بهما ليرغبوا ويرهبوا[1]، فإن سَأل سائل: فكيف يكون الإنجاء في حقِّ بني إسرائيل بلاءً؟ فالجواب ما وَقَعَ منهم بعد ذلك دليلٌ على أنَّهم وَقَعوا في بلاءٍ عظيم، إذ لَم يَشكروا، ولَم يَتذكَّروا حقَّ المُنْعِم سبحانه عليهم، وعاقبة ذلك في الآخرة أشدُّ ما كان لهم من سَوْم العذاب في الدُّنيا.

نكتةُ إيثار لفظ الرُّبوبيَّة المضاف إلى الضَّمير:

تربيةُ الله لعبادِه بالإنعام والتَّسليط بالعِقاب

في التَّربية إنعام وتأديبٌ لِما يُقترَف من حسنات وسيِّئات، وقد آثَر النَّظْم ذِكرَ الرُّبوبيَّة دون ذِكر لفظ الجلالة في قوله تعالى: ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾، وقد جاءت اللَّفظة دالَّة على تسليط آل فرعون عليهم لجرائمهم وعِصيانهم، أو ببَعْث موسى عليه السلام وتَوفيقِه لتَخْليصِكم أو بهما جميعًا[2]، وقد يُقال: نسبَ البلاء إلى الله تعالى، وهو الربّ الخالق، للإشارة إلى أنَّ تمكين فرعون من ذلك كان اختبارًا من الله تعالى حتّى يُمْتَحنوا بالنِّقمة، وتُصْقَل نفوسهم بها[3]، والخِطاب للجميع؛ لبيان امتنانه على كلِّ مَن يَنتسب إلى بني إسرائيل لا لجماعةٍ منهم.

غرضُ التَّنكير معيَّن بالوَصف:

تعظيمُ البلاء باعتبارِ مَن وقع عليهم

جاء تنكير لفظ ﴿بَلَآءٌ﴾ في هذا السّياق للدّلالةِ على التَّفخيم والتَّعظيم، فالبلاء إنْ منحةً أو محنة خارجٌ عن مَقدور البشَر؛ لذا وصفَ بقوله: ﴿عَظِيمٌ﴾، والعِظَمُ بالنِّسبة للمخاطَب السّامع لا بالنِّسبة إليه تعالى؛ لأنّه العظيم الّذي لا يَستعظم شيئًا، وغَرَض التّنكير مأخوذ من الوَصْف.

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 1/255.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 1/255.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 8/3998.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الذَّبح والقتل:

الذَّبح عمل معلومٌ، والقتل ضُروبٌ مختلفة[1]. وقيلَ في الفرْق بينهما: إنّ الذّبح بقَطْع الأوْداج، والقتْلَ بإيقاع الفعل في المَحلّ مع التَّجافي، ويَعني أنَّ القاتل يَضرِب من بعيد مُتجافيًا كالنّائي عن الشّيء لا يَدري أيُصيب المَحلَّ أم لا[2]؟ ثُمّ إنَّ القتل قد يكون بمعنى اللَّعْن، قال اللّه: ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾﴾ [عبس: 17] ومثلهُ: ﴿فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾﴾ [المدثر: 19]، أي: لُعِن كيف قدَّر الباطل على النَّبيِّ ﷺ، فقال: إنّه ساحِر[3]، وهذا لَيس موجودًا في الذّبح.

البلاء والابتلاء والمصيبة:

الابتلاء: يكون في الخير وفي الشَّرِّ، وإذا أُطلِق كان في الشّرّ غالبًا، فإذا أُريدَ به الخير قيِّد به، والبلاء والابتلاء أعمُّ من المصيبة من وَجْهٍ وأخَصّ من وَجْه آخَر، فالبلاء والابتلاء أعمُّ من المصيبة من وجْه؛ لأنَّهما يكونان في السَّرّاء والضَّرّاء، وأمّا المصيبة فلا تكون إلّا في الضّرّاء، ولكن في الوقت نفْسه البلاء والابتلاء أخَصّ من المصيبة من وجْه آخَر؛ لأنّ المصيبة تُصيب المكلَّفين وغيرَهم، كالأطفال، بينما البلاء والابتلاء لا يكون إلّا في حقِّ المكلَّفين، وعلى هذا فالمَرْء إذا اخْتُبِر بنِعمة أنعَم اللّه عليه بها لِتَبَيُّنِ ما سيكون حاله من شُكرٍ لتلك النِّعمة أو كُفرانٍ لها، فهذا إنّما يوصَف بأنّه بلاءٌ وابتلاء، ولا يمكن وَصْفه بأنّه مصيبةٌ، وأمّا إذا اختُبِر ببعض الفواجِع والدَّواهي لِتَبَيُّنِ ما سيكون عليه حاله من الصَّبر أو الجزَع، فهذا يوصَف بأنّه مصيبةٌ وبلاءٌ واختبار[4]، وقد يُقال: إنّ زيادة المَبنى دالَّةٌ على زيادة المعنى، والابتلاء أكثر مبنًى من البلاء، فالابتلاء فيه معنى الافتعال، فَفيه المَشقَّةُ والقَصْديَّة.

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 241.
(2) المطرزي، المغرب، ص: 86.
(3) العسكريّ، الوجوه والنظائر، ص: 402.
(4) أبو فيصل البدرانيّ، فقه الابتلاء، ص: 16.

﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ۝٧﴾ [إبراهيم: 7]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

بعد أنْ بيَّنتِ الآية السّابقة نعمةَ اللّه على بني إسرائيل بإنجائهم من آل فرعون، ناسَبَ أنْ يذْكرَ في هذه الآية الواجب عليهم بعد ذلك الإنجاء، والتَّحذير من كُفْره، فارتبطَتِ الآية بما قبلها ارتباط السَّبب بالنَّتيجة، فاللّه ﷻ قد أنعَم عليهم بنِعَم كثيرةٍ، وهذه النِّعم تحتاج من العَبْد أن يُجدِّد شُكرَه؛ لأنّ في تجديد الشّكر زيادة وأمْدادًا أُخرى، وفي مقابل ذلك، فالكُفر وَخيمُ العاقبة؛ لأنّ تاليَه هو العذابُ الشّديد الّذي لا يستطيع بَشَرٌ تَحمُّله.

بعد معرفةِ النِّعم يحسُن شكرُها ويقبُحُ كفرُها

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تَأَذَّنَ﴾: أعْلَمَ، وهوَ واقِعٌ مثْل تَوَعَّد. ويجوز أنْ يكونَ (تَفَعّلَ) من قَوْلِك (تأذَّن)، كَما يُقال: تَعَلَّمَ، بمَعْنى: اعْلَمْ، والفِعل: أذِنَ، والتّأذُّن من قولك: تأذَّنْتُ لأفْعَلَنَّ كذا، يُراد به إيجابُ الفعل في ذلك، أي: سأفعَلُ لا مَحالة[1] ومنه: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ﴾، آذَن وتَأذَّنَ بمعنًى، كما يُقال: أيْقَنَ وتَيَقَّنَ. ويقال: تَأذَّن الأميرُ في النّاس، إذا نادى فيهم، يكون في التّهديد والنَّهْي، أي: تَقَدَّم وأعْلَم[2]، وكلُّ (تأذّن) فهي بمعنى الإعلام[3]، والمعنى المِحوريُّ: مُرورٌ لَطيفٌ من منْفذ، مرورًا له أثَر قويٌّ كمُرور الأصوات خلال الأُذُن فيُسمعُ الصَّوتُ ويَتأدّى منه معنى ما يُسمع، وعُمِّم في المُرور فقالوا: لِكُلِّ جابِهٍ جَوْزَةٌ ثُمَّ يُؤَذَّن، أيْ: يُمَرَّر، أيْ: يُؤْمَرُ بالرَّحيل[4].

(1) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة: (أذن).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (أذن).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (أذن).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (أذن).

2) ﴿شَكَرْتُمْ﴾: الشُّكْرُ: الثَّناءُ على المُحْسِن بما أَوْلاكَهُ من المعروف. يُقال: شَكَرْتُهُ وشَكَرْتُ له، وباللّام أفصَح[1]، والشُّكْرُ: تصوُّر النِّعمة وإظهارها، قيل: وهو مقلوبٌ عن الكشْرِ، أي: الكشف. ويُضادّهُ الكُفر، وهو: نسيان النّعمة وسترُها، ودابّةٌ شَكور: مظهِرةٌ بسِمَنها إسداءَ صاحبها إليها، وقيل: أصله من عيْنٌ شَكْرى، أي: ممتلئة، فالشُّكْرُ على هذا هو الامتلاء من ذِكر المُنعم عليه. والشُّكْرُ ثلاثة أضرُب: شُكْرُ القلب، وهو تصوّر النّعمة. وشُكْرُ اللّسان، وهو الثّناء على المُنعِم. وشُكْرُ سائر الجَوارِح، وهو مكافأة النّعمة بقَدْرِ استحقاقه[2]، والمعنى المِحوريُّ امتلاء جَوْف الشّيء برِخْوٍ طيِّبٍ وظهورُه عليه ولو كان رافِده قليلًا، كما تسْمَن الدّابَّة بالعَلف القليل، ومن معنويّ الأصل: عِرفانُ الإحسانِ لصاحبه ونَشْرُه وإظهاره؛ إذ هو تعبيرٌ عن امتلاء النّفْس ورِضاها بما قُدّم لها من خير، ونُجوع هذا الخير فيها[3].

3) ﴿لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾: الزّاء والياءُ والدّال أصْلٌ يدلُّ على الفضْل. يقولون: زاد الشّيء، يَزيد، فهو زائد. وهؤلاء قومٌ زَيدٌ على كذا، أي يَزيدون[4]، والزّيادة النّموُّ وهي خِلاف النُّقصان، يُقال: زادَ زيدًا وزيادةً ومزيدًا[5]، والزّيادَةُ: أن يَنضمَّ إلى ما عليه الشّيء في نفْسه شيءٌ آخَر، يُقال: زِدْتُهُ فازْدادَ، وقوله: ﴿وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ﴾ [يوسف: 65]، نحْو: ازْدَدْتُ فضلًا، أي: ازدادَ فضْلي، وهو من باب: ﴿سَفِهَ نَفْسَهُۥ﴾ [البقرة: 130]، وذلك قد يكون زيادة مَذمومة كالزّيادة على الكفاية، مثل زيادة الأصابع، والزّوائد في قوائم الدّابّة، وقد تكون زيادة مَحمودة، نحْو قوله: ﴿۞لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: 26]، ورويَ من طُرُقٍ مختلفة أنّ هذه الزّيادة النّظَرُ إلى وجْه اللّه، إشارة إلى إنعامٍ وأحوال لا يُمكن تصوّرُها في الدّنيا. ﴿وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِي ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ﴾ [البقرة: 247]، أي: أعطاه من العِلْم والجِسْم قَدْرًا يزيد على ما أعطى أهل زمانه، وقوله: ﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ هُدًى﴾ [مريم: 76]، ومن الزّيادة المكروهة قوله: ﴿مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾﴾ [فاطر: 42]، وقوله: ﴿زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ﴾ [النحل: 88][6].

(1) الجوهريّ، الصّحاح: (شكر).
(2) الرّاغب، المفردات: (شكر).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (شكر).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (زيد).
(5) ابن منظور، لسان العرب: (زيد).
(6) الرّاغب، المفردات: (زاد).

المَعْنى الإجْماليُّ:

النِّعَم صيْدٌ وشُكرُها قيْد

في الآية وعدٌ عظيمٌ ووَعيدٌ شديد، وإعلامٌ منه سبحانه باعتباره ربًّا خالقًا رازقًا بأنَّ للشّاكرين زيادةً لا يَعتريها النُّقصان، وأنَّ للكافرين الجاحدين عذابًا شديدًا، وهذه الآية بمثابةِ قاعدةٍ كليّةٍ لا تتَخلَّف في عقول المؤمنين، وفي قلوب المحسنين، وفي مشاعِر المُقرَّبين، وفي سلوك العارفين، وهي في الدُّنيا إشاراتٌ عابِرةٌ، وفي الآخرة حقائقُ خالدة.

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

معنى الواو ودلالتها:

إعلامُ الله بجزاء الشّاكرين لا يَخفى، وبعذاب الجاحدين لا يُنسى

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ﴾ من جملة ما قالَهُ موسى لقومه، وهو معطوفٌ على قوله: ﴿نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾؛ كأنَّه قيل: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾، واذْكروا حين تأذَّن ربُّكم[1]، فالواو وَصلَت الكلام بضرورة تذَكُّر كلِّ ما أنعَم الله على بني إسرائيل؛ فلا مجال لنِسْيان نِعمة؛ فكأنّ الواو جاءت للتَّفصيل والتَّقسيم وتَكرير التّذكُّر، والتَّكرير تَقرير.

نكتةُ إيثار صيغة ﴿تَأَذَّنَ﴾:

الإيذان البليغ ونفْي الشُّكوك

الفعل في قوله تعالى: ﴿تَأَذَّنَ﴾ على وَزْن (تفَعّل)، أي: أذّنَ ربّك، ونظيره: توعّد وأوْعَد، وتفضل وأفْضَل، غير أنَّ في (تفَعّل) زيادة معنًى ليس في (فعّل)، أي: وإذ تأذَّن ربّكم إيذانًا بليغًا يَنْفي عنه الشُّكوك ويُبعدُ التُّهَمَ، فتأذَّن للتَّضعيف والتَّأكيد والمبالَغة في الإذْن[2]، ولا يَليق أن نقول إنّه دالٌّ على المَشقَّة والتّكلُّف؛ لأنّه في حقّ الله ﷻ.

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/541.
(2) السّيوطيّ، معترك الأقران: 3/310.

نكتةُ اختيار لفظ الرُّبوبيَّة:

مقتضى الرُّبوبيَّة إكرامُ الأولياء ومعاقبةُ الأشقياء

اختار النَّظْم القرآنيُّ لفْظ الرُّبوبيّة في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ﴾ دون أن يقول: (وإذ تأذّن اللّه)، وذلك لمجموعةٍ من النِّكات:

الأولى: مناسَبة ذِكر الرُّبوبيّةِ مع الآية السّابقة في قوله تعالى: ﴿وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾.

الثّانية: زيادةُ النِّعم من مقتضَيات الرُّبوبيَّة، فذِكر الرّبِّ يَشي بضرورة تلقّي الأمر باهتمام وعنايةٍ، فالرّبّ سبحانه هو الّذي سيُجازي بالشُّكر وعاقبةِ الكُفْر.

الثّالثة: في ذِكر الرَّبِّ إشعارٌ بتكريم هؤلاء والعناية بهم، وإدْلالهم على طرائق النَّجاة والخيرِ.

فائدةُ إضافة لفْظ الرُّبوبيَّة إلى ضمير المخاطَبين:

رِفقُ الله بالعبادِ ظاهرٌ لمَن تدبَّر الأمر وأعادَ

إضافة لفظ الرُّبوبيَّة إلى ضمير المخاطَبين في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ﴾ لها فوائد؛ منها: الإعلام بأنَّه مُرَبٍّ للجميع حريصٌ عليهم كلِّهم، وترقيقُ القلوب، وإبعادُها عن اللَّجاجة واختلاق المَعاذير من قِبَلهم، ولتكونَ آكَدَ في الشُّكر؛ وأمّا هو فشُكْره حاصِلٌ، ومَعرفته بذلك مُستقرَّةٌ ثابتة[1].

نوعُ اللّام ودلالتها:

عِدَةٌ كريمةٌ من ربٍّ كريمٍ على فعل الكريم

اللّام في قوله تعالى: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ﴾ هي الموطِّئة للقَسَم، وقد مهَّدَت لِعَهْد اللّه بمقابَلَة الشّاكرين لنِعَمه بالزّيادة والرّعايةِ، وفيه من البُشرى والرّحمة وحثٌّ على الشُّكر ما يستوجبُ دوامَ نِعَم اللّه تعالى، والمزيدَ منها، ويستوجب إلى ذلك ذِكر اللّه وتَقواه وابتغاءَ رِضاه، وفي ذلك تَلْقينٌ جليلٌ مُستمرُّ المَدى يُضاف إلى ما في الشُّكر مُطلَقًا من تلقينٍ وعلاجٍ روحيٍّ[2].

(1) السّيوطيّ، معترك الأقران: 3/312.
(2) دروزة، التّفسير الحديث: 5/222.

فائدةُ استعمال (إن):

التَّنبيهُ على ضَعفِ البشَرِ في الشُّكر ليَرْتقبوا المطلوب

استُعملت أداة (إن) دون (إذا) في قوله تعالى: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ للإيماءِ إلى أنَّ حظَّ النُّفوس من الشُّكر لا يتحقَّق على الدَّوام، ففيها حكاية قِلَّة الشُّكر وعدَم الانتباه إلى كثرة النِّعم والمنَح الّتي أعطاها الله عبادَه، فمن خصائص (إن) دلالتها على عدَم تحقُّق الوقوع وقِلّة الحصول، فكان ذِكرها مناسبًا للسِّياق الواردة فيه، وفائدتها التَّنبيه على حال الضَّعف لَدى البشَر في الشُّكر ليَنتبهوا فيَرْتقبوا المطلوب.

دلالةُ استعمال صيغة الماضي:

ثباتُ الشُّكر مطلبٌ عزيزٌ ودرٌّ نَفيس

عبَّرتِ الآيةُ بصيغة الماضي ﴿شَكَرْتُمْ﴾ "تحقيقًا للأمر، وتثبيتًا له"[1]، فالشُّكر ينبغي أن يكون ثابتًا ثَبات الجبال الرَّواسي لا يتزحزح، يَملك عليكم نفوسكم؛ حتّى تَصيروا معروفين به، فالفعل الماضي عامِلٌ رئيسٌ في الحَضِّ على ضرورة العَضِّ بالنَّواجذ على قيمة الشُّكر، وهو ما يؤكِّد ما قاله النُّحاة: "إذا كان الكلام مُعتمِدًا على غيره، وكان هو في حُكم التّبَعيَّة له، إذ الشَّرْط تابعٌ للمَشروط، كان لفْظ الماضي بعد حرْف الجزاء أوْلى به"[2].

دلالة حذْف المَفعول:

كثرةُ النِّعم قرينُ القُصور عن شُكْرها

حُذِف المفعولُ في قوله تعالى: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ﴾ فلَم يُقيَّد الشّكرُ بنِعم مُسمّاة، والمفهوم من السّياق هو شكرُ نعمة الإنجاء؛ وذلك لحَمْل الأمر على العموم، فتُشكر جميع النِّعم، وتَدْخل فيها دخولًا أوّليًّا نعمةُ الإنجاء، والنِّعم تَتْرى، مثل: نعمة الإنجاء من آل فرعون، ونعمة التّفضيل، ونعمة إرسال الرُّسل، فالحذْف هنا دالٌّ على أنَّهم لا يستطيعون عدًّا وإحصاءً للنِّعم الكثيرة، ومَهْما شَكروا فلَنْ يوَفّوا المَشكورَ حقَّه.

(1) ابن جنّي، الخصائص: 3/334.
(2) السّهيليّ، نتائج الفكر في النّحو، ص: 115.

نكتةُ اختيارِ مُفردَة الزّيادة في جوابِ القَسَم:

إنعامُ الله تعالى على عبادِه زيادةٌ وإفْضال

جاء جوابُ القسَم ﴿لَأَزِيدَنَّكُمۡۖ﴾ بهذه المُفردة، لنُكتةٍ وهي؛ أنَّ الجزاء عن شكرِ النِّعمة بالزّيادة منْها نِعمةٌ وفضْلٌ من اللّه؛ لأنّ شُكر المُنعِم واجبٌ فلا يَستحق جزاءً لولا سَعَة فضْل اللّه[1]، فجاء الفعل هنا لبيان التّفضُّل ومَزيد التَّكريم، والاعتناء بأيّ شكرٍ ولو كان قليلًا، مع دلالة المضارِع المراد به الاستقبال على استمرار الزّيادة وتَتابُعها، وعدَمِ خُلوِّ زمان منها.

فائدة التّأكيد:

تَمكين معنى المُجازاة بالزّيادة وإزالة الشُّكوك من النُّفوس المريضة

اجتمع قبل جملة ﴿لَأَزِيدَنَّكُمۡۖ﴾ الشَّرط والقسَم؛ فاللّام في ﴿لَئِن﴾ موطِّئةٌ للقسَم، و(إن) شَرطيَّةٌ، و﴿شَكَرۡتُمۡ﴾ فعل الشَّرط، واللّام في ﴿لَأَزِيدَنَّكُمۡۖ﴾ جواب القسَم، وجملة ﴿لَأَزِيدَنَّكُمۡۖ﴾ لا مَحلَّ لها؛ لأنَّها جوابُ القسَم، وجواب الشَّرط محذوف دلَّ عليه جوابُ القسَم[2]، وفي هذه الجملة تَوكيداتٌ متعدِّدة، وكَثْرتها دالَّةٌ على تمكين معنى الزّيادة وإزالة الشَّكِّ في كوْن الزيادة حاصلةً بتوفيق اللّه تعالى، ومن ناحية أخرى فلِما "للأنْفُس من التّكذيب بمثل ذلك لاعتقادها أنَّ الزّيادةَ بالسَّعي في الرّزق، والنَّقصَ بالتَّهاون فيه"[3]، فحسُن التَّأكيد لإقامةِ الحُجّة، وإزالة تَراكمات النُّفوس المريضة.

نكتة حذْف المفعول:

نِعَمُ الله تعالى خَبيئةٌ لا يَعلمها إلّا هو

حذف المفعول في قوله تعالى: ﴿لَأَزِيدَنَّكُمۡۖ﴾ للعموم[4]، فهو على إثبات المعنى في نفْسِه لِلشَّيء على الإطلاق مِن دون تعرُّضٍ للمفعول، لأنَّ الزّيادة يَدخل فيها ما يَخْطر في الأذهان وما لا يَخطر، وأسباب الزّيادة المجهولة أكثَرُ من المعلومة، وهذا على

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/193.
(2) الدّرويش، إعراب القرآن وبيانه: 5/162.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/385.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/193.

اعتبار أنَّ الزّيادة في الدُّنيا، ويُحتمَل أن يكون محلُّ الزّيادة في الدُّنيا أو في الآخرة، أو فيهما[1].

أغراضُ عطْف الجُمل على ما قبْلها:

التَّرابط والتّلاؤم بين المعاني يتمثَّل بإيضاح السّابق والتَّوطئة للّاحق

عُطفت جملة ﴿وَلَئِن كَفَرْتُمْ﴾ على السّابقة لأغراض عديدةٍ، منها:

أوَّلًا: بيانُ التَّناسُب بيْن الجملتين ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ﴾ و﴿وَلَئِن كَفَرْتُمْ﴾ بالصّورة التَّركيبيَّة وهَيئته (اللّام مع إن).

ثانيًا: الجمْع بين الحالتين المُتضادَّتين، حالة الشُّكر وحالة الكُفر؛ لبيان البَوْن الشَّديد بينهما، فالعَطْف دالٌّ على المُغايَرة بين الشُّكر والكُفر؛ إعلامًا وتذكيرًا بفائدة الشّكر ومضارِّ الكُفران.

ثالثًا: التَّلميح إلى كُفرهم وقِلّة اعتنائهم بالآلاء الّتي خَصَّهم اللّهُ بها.

رابعًا: التّمهيد للجملة الخَبريَّة ﴿إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾، ولولا العطْف بقوله تعالى: ﴿وَلَئِن كَفَرْتُمْ﴾ ما كان يَظْهر معنى ﴿إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾.

خامسًا: التّمهيد للآية الّتي سَتَليها البادئة بالفعل ﴿إِن تَكْفُرُوٓاْ﴾؛ فكان العطْف هنا حَتْمًا مَقضيًّا لرَبْط السّابق باللّاحق.

سرُّ اختيار مُفرَدة الكُفْر لا الجحود:

النَّظْم القرآنيُّ يختار ألفاظَه لمناسَبة السّياق

آثَر النَّظْم الكريمُ استعمال مُفردة ﴿كَفَرْتُمْ﴾ لا (جحَدْتم)؛ وذلك لمناسَبة الفاصِلة من ذِكر العذاب الشّديد، ولِذِكر الكُفر في الآية التّالية لهذه الآية: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓاْ أَنتُمْ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ فكان التَّناسُب حاصلًا بذِكر الكُفر لا الجَحْد، كما أنّ بيْن الكُفر وعدَم الشُّكر شَبَهًا؛ "فالكافر مُنكِرٌ للإله، وهذا مُنكِر لِنِعم الإله؛ فكلاهما في الكُفر سواءٌ، وحقًّا إنَّ مَن يَعرف الإله ويُنكِر نِعمَه لأشَدُّ كُفرًا ممَّن لا يَعرفه أصلًا"[2].

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/411.

(2) عبد اللّطيف الخطيب، أوضح التّفاسير: 1/305.

بلاغةُ اختلاف التَّعبير في المقابَلات القرآنيَّة:

شأنُ الخِطاب الإلهيِّ الرِّفقُ بالمخاطَبينَ والإيماءُ لِما فيه مصالحهم

آثَر النَّظْم ذِكرَ دليلَ الجواب وهو قوله تعالى: ﴿إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ دون النَّصِّ على الجواب بأن يُقال: (لأعذبنَّكم) كما قال في شأنِ الشُّكر: ﴿لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾، وهذا اختلافٌ في المقابَلات القرآنيَّة؛ فلَم يَلتزم النَّظْم طريقةً واحدةً في التَّعبير؛ وذلك لأنَّه في مقام الشُّكران تُنسب الزّيادة للّه تعالى؛ لأنَّه مقام وعْدٍ؛ فمن عادة اللّه وهو الكريم أن يُصرِّحَ بالوَعد ويُعَرِّض بالوعيد[1]، وهنا وَعيدٌ، فعدلَ عن التَّصريح إلى التَّلميح، وكون إفادة الوعيد بضَرْب من التَّعريض أوْقَعَ في النَّفْس.

هذا أمرٌ، وآخَر أنَّ الجملة القرآنيَّة: ﴿إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ أعمُّ وأشمَلُ من أن تأتيَ خِطابًا؛ ففيه رفقٌ بالمخاطَبينَ من جهةٍ، ففيه حضٌّ على التزامِ الشُّكر، وإرادته سبحانه منهم، وإيماءٌ إلى أنَّه يَكره إيقاع العذاب عليهم.

نكتةُ وصْف العذاب بالشِّدَّة:

كُفرُ النِّعم كلِّها يُناسبه عذابٌ يشدُّ أركان المُنْعَم عليه

وُصف العذاب بالشَّديد في قوله تعالى: ﴿إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ دون أن يُقال: (لَقويٌّ) أو (لعظيمٌ) ونحوهما، وذلك لأنَّ الشَّديد هو وصْفٌ لِما يُحيط بالشَّيء من جميع جوانبه، فالعذاب الشَّديد هو الّذي يُحيط بالمعذَّبين من جوانبِهم جميعًا، ومنه قوله تعالى: ﴿وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ﴾ [الإنسان: 28]، وقوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّواْ ٱلْوَثَاقَ﴾ [محمد: 4]، فالشَّدُّ هو الإتيان على الشَّيء من جميع جوانبه بإحكام دون أن تَنْفلت إحدى جوانبه، وهو ما يُناسب السّياق، فالكُفر بنِعَم اللّه تعالى يَسْتحقُّ هذا العذاب، فكَما أنَّ النِّعم أحاطَتْ بالمنعَم عليه من كلِّ الجوانب، وكَفَرها كلَّها، فكان جزاؤه أن يُعذَّب عذابًا شديدًا يُحيط بالمعذَّبِ من كلِّ الجوانب.

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 5/162، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/193.

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الشُّكر والحمْد:

كلُّ ما يتعلّق به الشّكر يتعلّق به الحمْد من غير عَكْس، وكل ما يقعُ به الحمد يَقع به الشّكر من غير عكْس

الحمدُ أعمُّ من الشُّكر، باعتبار وقوعه على الثّناء وعلى التَّحميد وعلى الشّكر والجزاء، والشّكر مَخصوصٌ بما يكون مكافأةً لمَن أوْلاك معروفًا؛ فصار الحمْدُ أثبتَ؛ لأنَّه يزيد على الشّكر[1]، والشّكر أعمُّ من جهة أنواعه وأسبابِه، وأخَصّ من جهة متعلّقاته فيه، والحمْد أعمّ من جهة المتعلّقات، وأخَصّ من جهة الأسباب. ومعنى هذا أنَّ الشّكر يكون بالقلب خُضوعًا واستكانةً، وباللّسان ثناءً واعترافًا، وبالجوارح طاعةً وانقيادًا؛ ومتعلّقهُ النِّعَم دون الأوصاف الذّاتيّة، فلا يُقال: شَكَرْنا اللّه على حياته وسمْعه وبصَره وعِلمه، وهو المحمود بها، كما هو محمودٌ على إحسانه وعدْله. والشّكر يكون على الإحسان والنِّعَم. فكلّ ما يتعلّق به الشّكر يتعلّق به الحمْد من غير عكْس. وكلّ ما يَقع به الحمْد يقعُ به الشّكر من غير عكْس، فإنَّ الشّكر يقعُ بالجوارح، والحمْد باللّسان[2].

(1) النّحاس، معاني القرآن: 1/57.

(2) الفيروزاباديّ، بصائر ذوي التّمييز: 3/340.

﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكۡفُرُوٓاْ أَنتُمۡ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ٨﴾ [إبراهيم: 8]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الانتقالُ من تقرير القواعد إلى تتمَّةٍ احترازيَّةٍ لدفْعِ أوهام الأفهام

بعد أن بيَّنَتِ الآية السّابقةُ قاعدةً عامَّةً في الشُّكر والكُفر، انتقل السّياق لذِكر تَتمَّةٍ لهذه القاعدة، على لسانِ موسى عليه السلام ليَقَع التَّناسُب والتَّرابطُ بين الآيات، ذلك أنَّ الاشتغال بالشّكر يوجب تَزايُدَ الخيرات في الدُّنيا وفي الآخرة، والاشتغال بكُفران النِّعَم يوجب العذابَ الشَّديد وحصولَ الآفات في الدُّنيا والآخرة، وبيَّن بعدَه أنَّ منافع الشُّكر ومضارَّ الكُفران لا تَعود إلّا إلى صاحب الشُّكر وصاحِب الكُفران، أمّا المعبود والمشكور فإنّه مُتعالٍ عن أن يَنتفع بالشّكر أو يَستضرَّ بالكفران، فلا جرَم قالَ تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكۡفُرُوٓاْ أَنتُمۡ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾[1]، فالانتقال هو من ذِكرِ القاعدة العامَّة إلى ذِكر تَتمَّةٍ احترازيَّةٍ ببيان أنَّ الله غنيٌّ عن شُكر الشّاكرين، ولا يضرُّه كُفر الكافرين.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿لَغَنِيٌّ﴾: الغِنَى يُقال على ضُروب: أحدها: عدَمُ الحاجات، وليس ذلك إلّا لله تعالى، وهو المذكور في قوله: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ٦٤﴾ [الحج: 64]، وقولِه: ﴿أَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ١٥﴾ [فاطر: 15]، الثّاني: قِلّة الحاجات، وهو المُشار إليه بقوله: ﴿وَوَجَدَكَ عَآئِلٗا فَأَغۡنَىٰ ٨﴾ [الضحى: 8][2]، وصِفَة (غَنِيّ) إذا كانت لله ﷻ فهو المالِك لكلِّ شيءٍ، والغنيُّ عن كلِّ شيءٍ، أي أنّها بمعنًى يَشمل

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 19/67.
(2) الرّاغب، المفردات: (غنى).

ما يَرزق به خلْقَه في الدُّنيا والآخرة، فيما يَشمل الاستغناءَ والكفاية بكيفيَّةٍ لا يَعلمها إلّا هو سبحانه[1]، والمعنى المِحوريُّ للكلمة يَدور حوْل الكفاية والاستغناءِ.

2) ﴿حَمِيدٌ﴾: الحمْدُ: خِلاف الذَّمِّ، حَمَدْتُ الرَّجُلَ، أحْمَدُهُ حَمْدًا؛ إذا رَأيْت منه فِعْلًا مَحمودًا، واصْطنعَ إليكَ يَدًا تَحْمدهُ عليها[2]. ورَجُلٌ محمودٌ ومُحمَّدٌ، إذا كَثُرتْ خِصالهُ المحمودةُ، والحَميدُ: مِن صفات اللّه تعالى وتَقدَّس؛ بمعنى المحمود على كلِّ حالٍ، وهذه اللَّفظة في الأصول (فعيل) بمعنى مفعول، ولفظة (مفعول) في هذا المكان يَنْبو عنها طبْعُ الإيمان، فَعَدلت عنها إلى حميد بمعنى محمود، وإن كان المعنى واحدًا[3].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

اللـه غـنـيٌّ عن عبادِه ولا يَرضى لهم الكُفر

نَفَتِ الآية الكريمةُ على لسان موسى عليه السلام في خِطابه لبَني إسرائيل ما قد يظنُّه ظانّون بأنَّهم يُحسنون إلى اللّه بإيمانهم، وأنَّ أنبياءهم حين يُلحّون عليهم بالإيمان إنَّما يَبتغون بذلك تَعزيز جانِبهم والحرْصَ على مَصلحتهم، فنَبَّهَهم على هذا الخاطر الشَّيطاني حتّى لا يَسْريَ إلى نُفوسِهم فيُكْسِبهم إدْلالًا بالإيمان، فكان الأمر أن كُفْركم يا قوم، وكُفْر مَن في الأرض جميعًا لا ينفع ولا يضرّ؛ لأنَّ اللّه هو الغَنيُّ: الّذي لا حاجة له في شّيء، فدَخَل في عموم غِناه أنَّه غنيٌّ عن الّذين يَكفرون به، والحَميدُ: المحمود من غَيْركم مُسْتغنٍ عن حَمْدِكم.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

معنى الواو ودلالتها:

الواو في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ﴾ لرَبْط الآيةِ بأوَّلِ الكلام،

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (غنى).
(2) ابن دريد، جمهرة اللّغة: (حمد).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (حمد).

وبيان التَّلاحُم مع قوله: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ﴾ بما بعْدَه من الآيات؛ تِبْيانًا لكون هذه المعطوفات من الإعلام البليغِ النّافي للشُّكوك والتُّهم، مع بيان تَتابُع السّياق في ذِكر التّرهيب والتّرغيب.

فائدةُ ذِكر القائل:

تعيينُ القائلِ مراعاةٌ للواقِعِ وإتيانٌ على المقصود

صرَّحتِ الآية بالقائل وهو موسى عليه السلام: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓاْ أَنتُمْ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾، بخِلاف الآية السّابقة: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ﴾ وفائدةُ ذلك "لئلّا يُتوَهَّم أنَّ هذا ممّا تأذَّن به الرَّبُّ، وإنَّما هو تنبيهٌ على كلام الله، وفي إعادة فعل القول اهتمامٌ بهذه الجملة وتَنْويهٌ بها حتّى تَبرُزَ مستقلّةً، وحتّى يَصغيَ إليها السّامعون للقرآن"[1].

دلالة ﴿إِن﴾ الشَّرْطيَّة:

إلْهابُ المؤمنين على الثَّبات وتحذير الضَّعَفَة من الانحراف

استُعملت أداةُ ﴿إِن﴾ الشّرْطية في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓاْ﴾ للإلْهاب والتَّهييج الباعث على الثَّبات والإيمان والتَّصلُّب فيه، وتَجنُّب الكُفر وسَتْر النِّعَم الّتي أسْبَغَها الله عليهم ظاهرة وباطنة، وقد يكون من باب الشَّكِّ في إيمانهم، وتحذيرهم منه دَومًا، باعتبارِ ما يكون من الأتباعِ في قابِل الأيّام، وقد يكون للاعتبارَين، وهذا هو الأوْلى، فهو إلهابٌ وتهييجٌ للمؤمنين، وتحذيرٌ لضَعَفَتِهم.

سرُّ استعمالِ صيغةِ المضارِع:

التَّحذيرُ من الكُفرِ أمارةُ وجودِ بوادِره

دلَّ الفعل المضارع ﴿تَكْفُرُوٓاْ﴾ على التَّحذير من وقوع الكُفر في المستقبَل؛ فإنَّ الشَّرْط مُرتهنٌ بوقوعه، وما يُناسِب هذا المعنى هو صيغة المضارع، "ولعلَّه عليه السلام إنّما قالهُ عندما عايَنَ منهم دلائلَ العِناد، ومخايلَ الإصرار على الكُفر والفساد، وتيقَّنَ أنَّه لا يَنفعهم التّرغيبُ ولا التّعريضُ بالتّرهيب"[2].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/194.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/35.

فائدة الضّمير المُنفصِل:

التّلويح بالإنذار والتّخويف مُعينٌ على الطّاعةِ والتّشريف

أتى الضّمير المنفصِل ﴿أَنتُمْ﴾ لتوكيد الضّمير المتَّصِل (واو الجماعة) في الفعل ﴿تَكْفُرُوٓاْ﴾، ووُجوده تَوْطئَة للعطْف بعدَه ﴿وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ﴾، فلا يجوز العطْف على الضّمير المتّصِل إلّا بذِكر الضّمير المُنفصِل المؤكِّد لماهيَّة الكلام، وكأنَّ ذِكره إضافة إلى وظيفته النَّحوية حاكِمٌ بنهاية الزّجر والتّحذير لبَني إسرائيل؛ لِما ظهَر منهم من علائم الكُفر والعصيان[1]، ففيه تلويحٌ بتحذير خاصٍّ للمخاطَبينَ.

نكتةُ استعمال ﴿وَمَن﴾ اسمًا موصولًا:

بيان عموم استغناء الله تعالى عن كلِّ الخَلقِ

استُعمل الاسم الموصول ﴿وَمَن﴾ ليُمهِّد للجارِّ والمجرور في قوله تعالى: ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾، ولو عبَّر القرآن بلفْظ (أهل) فقال: (أنتم وأهل الأرض)؛ لَما كان للجارِّ مَوضع في هذا السّياق، ثُمّ إنَّ (مَن) قد تَصلح للعاقل ولِغيْر العاقل[2] احتمالًا، فهي تَعمُّ جميعَ الكائنات الموجودة في الأرض، أمّا لو أتى بلفْظةِ (أهل) فهي للعاقل وحدَه نصًّا، فكان التَّعبير بهذا الاسم الموصول دالًّا على عمومِ كلِّ الخَلْقِ، وعلى استغناء الخالق عن كلِّ الخلْقِ.

فائدةُ استعمال ألفاظِ العموم:

استغناء الله تعالى التّامُّ عن إيمان جميع البشَر وكُفرِهم

لفْظ ﴿جَمِيعًا﴾ منصوب على الحاليَّة، وفائدته التَّأكيد لـ(مَن في الأرض) جميعًا للتّنصيص على العموم[3] والاستغراق، بأنّ إيمان البشر وكُفرهم جميعهم لن يَنفعه ولن يَضرَّه، كما أنَّ الحال ﴿جَمِيعًا﴾ حيث ذَكَرَ جهاتٍ متعدِّدةً[4]، فكلُّ نواحي الأرض بمَن عليها لا نفْع لها ولا ضرَّ عنده، فالكلمة دالَّة على الاستغناء التّامِّ وانعدامِ الحاجة إلى إيمانٍ أو كُفر.

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/35.
(2) الغلاييني، جامع الدّروس العربيّة، ص: 133.
(3) الغلاييني، جامع الدّروس العربيّة، ص: 133.
(4) السّامرّائيّ، على طريق التّفسير البيانيّ: 3/17.

علّة حذْف جواب الشّرْط:

بيان عموم الضّرر الواقع على الكافر، واستغناء الخالق

حُذف جواب الشّرْط ﴿إِن تَكۡفُرُوٓاْ﴾ لبيان عموم الضّرر والحِرمان الّذي سَيَصير إليه مَن كفَر وجحَد نِعمة اللّه تعالى، فبَنو إسرائيل - والبشَر عمومًا - هم المَحاويجُ، واللّه غنيٌّ عن العالمين، فما أضْرَرتم يا بني إسرائيل بالكُفر إلّا أنفُسَكم حيث حَرَمْتموها من مزيد الإنعام، وعَرَّضْتموها للعذاب الشّديد إن أنتم كَفرتم.

نكتةُ حذْف متعلّق فعل الكُفر:

تنبيهُ الجميع على أنواع الكُفرِ كلِّها أوْلى من تعليقِها بأعظَمِها

حُذف متعلّق ﴿تَكۡفُرُوٓاْ﴾ ولَم يُعيَّن فيقول: (إن تكفروا باللّه)؛ لأنّ الكُفر كُفر عامٌّ متعدِّد المعاني، فالكُفر باللّه، والكُفران بنِعَمه وآلائه، فالكُفر ليس إذَن متعلّقًا باللّه وحده، وإنَّما هو متعلّقٌ بكُفران النِّعَم، فالكفر كُفرانٌ لا كفرٌ واحد، ومن ثَمّ كان الحذْف للعموم، وهو أوْقعُ في جميعِ النُّفوس، فتعليقُه باللّه تعالى قد يجعل الكُفر اليسيرَ مقبولًا بادِئَ بَدْءٍ، ثمّ هو يَكبر حتّى يَصل بالكفر الأعظَم، فكان الحذْف ليَشمل جميعَ أنواع الكُفر، فيَقع الحذَر منها كلِّها.

دلالة التَّوكيد:

استمرارُ الكُفر وعمومُه يناسِبه تمامُ الاستغناء وشمولُه

أُكِّدت الفاصلة بحرْف (إنَّ) في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ لأنَّ ما سبَق من احتمال كفرِ مَن في الأرض جميعًا مع استغناء اللّه عنهم ممّا يَحتاج إلى التَّوكيد؛ فكان التّوكيد مناسبًا في هذا السّياق[1]، إضافةً إلى أنَّ التّأكيد بـ(إنَّ) معناه حتْميَّة الاستغناء عمَّن في الأرض، وإزالةُ الشَّكِّ فيه، وقد يكون الدّاعي إلى التّوكيد الرّغبة في تَقْوية مضمون الكلام عند المخاطَب وتقريره في نفْسه، وإن كان غير منكِرٍ له.

فائدةُ التّعبير بلفْظ الجلالة:

تربية المَهابة والخوف في النُّفوس

إظهار اسم الجلالة ﴿ٱللَّهَ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ دون ذكرِ الضَّمير له فائدتان: الأولى: تربية المَهابة والخوف

(1) فاضل السّامرّائيّ، لمسات بيانيّة، ص: 460.

في النُّفوس كافَّة، فإنه الغنيُّ عن كلِّ عِباده، المحمودُ، كما أنّ إظهار الاسم الجليل للإشارة إلى التّعظيم[1]. الأُخرى: إعادة الاسم دون الضّمير صورةٌ من صوَر الخروج عن مقتضى الظّاهر وهو نوعٌ من الإطناب[2]؛ لأنّه يأتي لزيادة التّقرير، وتأكيدِ معنًى من المعاني باللَّفْظ نفْسه[3]، والتَّعبير بلفظ الجلالة أدلُّ على الخوف والزَّجر لهؤلاء حتّى لا يَتمادوا في غَيِّهم.

نكتةُ الختْم بصِفَتَي ﴿لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾:

الاستغناءُ عن الخَلقِ حمْدٌ للخالقِ

اختيرَتْ صِفَتا الغنيّ والحَميد في فاصلةِ الآية، فصِفَة (غنيّ) تَتضمَّن "تحقيرهم وعظَمَتَه، إذ له الكمال التّامُّ على الإطلاق، وقوله: ﴿حَمِيدٌ﴾ يَتضمَّن تَوبيخهم، وذلك أنّه بِصِفَةٍ توجب المَحامد كلَّها، دائمًا كذلك في ذاتِه لَمْ يزَل ولا يَزال، فكُفركم أنتم بإلهٍ هذه حاله غاية التَّخلُّف والخِذلان، وفي قوله أيضًا: ﴿حَمِيدٌ﴾ ما يَتضمَّن أنّه ذو آلاءٍ عليكم أيّها الكافرون به كان يَستوجب بها حَمْدَكم، فكُفركم به مع ذلك أذْهبُ في الضَّلال، وهذا توبيخٌ بيِّن"[4].

نكتةُ إيثار صيغة (فعيل) على مفعول:

حمْدُ الله ثابت ودائم ومقترنٌ بقوّته وعظَمته

اختيرَتْ صيغة (فعيل) في صِفَة ﴿حَمِيدٌ﴾ دون محمود؛ "لأنَّ حَميدًا يدلُّ على أنَّ صِفَة الحمد له ثابتة"[5]، إضافةً إلى أنّ صيغة فعيل ﴿حَمِيدٌ﴾ لا تُطلَق إلّا إذا اتَّصَف بها صاحبُها؛ عكْس صيغة مفعول (محمود) الّتي لا تدلُّ على ما تَدلّ عليه ﴿حَمِيدٌ﴾، فكان التَّعبير القرآنيُّ هنا مُناسبًا للقوَّة والعظَمة والاستغناءِ، وقد يُقال بعد هذا: إنّ صفَة ﴿حَمِيدٌ﴾ تَضُمّ ما تضمُّه صيغة (محمود) وليس العكْس.

---

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 2/88.
(2) الزّركشيّ، البرهان في علوم القرآن: 2/482.
(3) عبد الرّحمن بو درع، نحو قراءة نصّيّة في بلاغة القرآن والحديث، ص: 113.
(4) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/325.
(5) السّامرّائيّ، معاني الأبنية في العربيّة، ص: 53.

﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓاْ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓاْ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ۝٩﴾ [إبراهيم: 9]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

التَّذكيرُ بعاقبة السّابقين تحذيرٌ للمخاطَبين

لمّا بيَّن في الآية السّابقة تحذير موسى عليه السلام لقومه من الكُفر، وأنَّ اللّه غنيٌّ حميدٌ، وأنَّ الكفرَ مآله عاقبة السّوء، ناسَب أن يذكرَ في هذه الآية نَبَأ الّذين من قبلهم، تهديدًا للمخاطَبين، وإنذارًا لهم بأن يَصيروا إلى مثل مصير هؤلاء الأقوام، الّذين كذَّبوا رُسلهم، ومَكروا بهم، إذا لَم يُبادِر هؤلاء المخاطَبون فيُصدِّقوا برسول اللّه، ويستجيبوا لِما يدعوهم إليه، ممّا فيه رشدُهم وخيرهم[1]، فالمناسَبة بين الآيات هو ذِكر أمثلةٍ من عاقِبة السّابقين، لتَنبيه الغافلين من الحاضرين.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَرَدُّوٓاْ﴾: رَدّهُ عن وَجْهه، يَرُدُّهُ رَدًّا ومَرَدًّا: صَرَفهُ، وقال اللّه تعالى: ﴿فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ﴾، ورَدَّ عليه الشَّيءَ، إذا لَم يَقْبلْه، وتقول: رَدَّهُ إلى منزلِه، ورَدَّ إليه جوابًا، أي: رَجَع[2]، وللفعل هنا مَعانٍ مُتعدِّدةٌ في سياقه، ﴿فَرَدُّوٓاْ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ﴾ أي: فعَضّوها غيظًا وضَجَرًا ممّا جاءتْ به الرُّسل، أو ضحِكًا واستهزاءً كمَن غَلَبه الضَّحك فوَضَع يَدَه على فيهِ، وقد يكون بمعنى أشاروا بأيديهم إلى ألسِنَتهم وما نطقَتْ به من قولهم: ﴿إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ﴾، أي: هذا

(1) عبد الكريم الخطابيّ، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 7/152.
(2) الجوهريّ، الصّحاح: (ردد).

جوابنا لكم ليس عندنا غيره، إقْناطًا لهم من التَّصديق، أو وَضَعوها على أفواههم يقولون للأنبياء: أطْبِقوا أفواهكم واسْكُتوا، أو رَدّوها في أفواه الأنبياء يُشيرون لهم إلى السُّكوت، أو وَضَعوها على أفواههم يُسكِتونهم ولا يَذَرونهم يَتكلَّمون[1].

2) ﴿شَكٍّ﴾: الشَّكُّ: اعتدال النّقيضَين عند الإنسان وتَساويهُما، وذلك قد يكون لوجود أمارَتَين مُتساويَتَين عند النَّقيضَين، أو لعدَمِ الأمارة فيهما، والشَّكُّ ربّما كان في الشَّيء هل هو موجود أو غير موجود؟ وربّما كان في جِنسه، من أيّ جنْس هو؟ وربّما كان في بعض صفاته، وربّما كان في الغرَض الَّذي لأجْله أوجِد. والشَّكُّ: ضرْبٌ من الجَهل، وهو أخَصُّ منه، لأنّ الجهل قد يكون عدَمَ العِلْم بالنَّقيضَين رأْسًا، فكلُّ شَكٍّ جهلٌ، وليس كلُّ جهلٍ شَكًّا، قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١١٠﴾﴾ [هود: 110]، وقال: ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ ﴿٩﴾﴾ [الدخان: 9]، وقال: ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ﴾ [يونس: 94][2].

3) ﴿مُرِيبٍ﴾: (ريب) يُقال: رابَني كذا، وأرابَني، فالرَّيْبُ: أن تَتوَهَّمَ بالشَّيء أمْرًا ما، فينكشف عمّا تَتوَهّمه، قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ﴾ [الحج: 5]، وقال: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ [البقرة: 23]، تنبيهًا أن لا رَيْب فيه، وقوله: ﴿رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴿٣٠﴾﴾ [الطور: 30]، سمّاه ريْبًا لا أنّه مُشكِّكٌ في كَوْنه، بل من حيْث تُشُكِّكَ في وقت حُصوله، فالإنسان أبدًا في رَيْب المَنون من جهَة وقتِه، لا من جِهة كونه، وقال تعالى: ﴿لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١١٠﴾﴾ [هود: 110]، وقال: ﴿مُّعْتَدٍ مُّرِيبٍ ﴿٢٥﴾﴾ [ق: 25]، والارْتِيابُ يَجري مجْرى الإرابَةِ، قال: ﴿أَمِ ٱرْتَابُوٓاْ أَمْ يَخَافُونَ﴾ [النور: 50]، ﴿وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ﴾ [الحديد: 14]، ورَيْبُ الدّهر صُروفُه، وإنّما قيلَ رَيْبٌ لِما يُتوَهّم فيه من المَكر، والرّيبَةُ اسم من الرَّيب قال: ﴿رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ﴾ [التوبة: 110]، أي: تَدلُّ على دَغَلٍ وقِلَّة يقين[3]، والمعنى المحوريُّ هو أن يَنزل بالقارّ السّاكن ما يُزْعِجه، ويَسوءهُ. ومنه: "الرَّيْب والرّيبَة: الشَّكُّ والظِّنّة والتُّهمة" يَنزِل بالنَّفْس السّاكنة أمْرٌ غيرُ مُتَبيَّن الوَجْه أو غير مُبرَّرٍ فيُثيرها؛ أحقّ هو أم باطلٌ[4].

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/442.
(2) الرّاغب، المفردات: (شكك).
(3) الرّاغب، المفردات: (ريب).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (ريب).

❁ المَعْنى الإجْمالِيُّ:

غالبُ الأقوام كافرون بدعَوات المرسَلين

تُبيِّن الآيةُ ما ذَكَره موسى عليه السلام لقومه، مُحذِّرًا أن يُصيبَهم ما أصاب الأقوامَ السّابقين: ألَمْ يَصِلْكم خبَرُ الأقوام الماضينَ من قَبلِكم، مثل قوم نوح وعادٍ وثمودَ، والأُمَم الّذين جاؤوا من بعدِهم، أُمَمٌ كثيرةٌ لا يَعلمها إلّا اللّه، وقد جاءتْهم رسُلهم بالحُجَج الظّاهرة والمعجزات، فوَضعوا أيديَهم على أفواهِهم استغرابًا واستنكارًا، وقالوا للرُّسل: إنّا كفرنا بما جئتم به من أدْيانٍ جديدة، وإنّا لَنَشُكُّ في كلِّ ما تدعونَنا إليه من الإيمان والتَّوحيد، أو أنْ يُجعل الخِطابُ لكُفّار قريش، وعلى الاحتمالَين فالخِطاب لجميع النّاس، فما سيقَ هذا الكلام إن كان خِطابًا لبني إسرائيل إلّا ليَعتبرَ منه المشركون.

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالة الاستئناف الابتدائِّي في مَطْلع الآية الكريمة:

قيمة التّذكير بأحوال السّابقين الهالكين

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ كلامٌ استئنافيٌّ ابتدائيٌّ رَجَع به الخِطاب إلى المشركين من العرَب على طريقة الالتفات في قوله: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ﴾؛ لأنَّ الموَجَّهَ إليه الخِطاب هنا هم الكافرون المَعْنيّون بقوله: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ۝٢﴾ [إبراهيم: 2]، وهم مُعظَم المَعْنيِّ من النّاس في قوله: ﴿لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [إبراهيم: 1][1]، وهذا الاستئناف الابتدائيُّ يَحكي سُنَّةً واحدةً وسيرة واحدة لكلِّ الأنبياء وأقوامهم وهي: مُعاناة الأنبياء من تكذيب أقوامهم وهلاك المُكذِّبين، وهذا على القول أنَّ الخِطاب موجَّهٌ للمشركين.

غرَضُ الالتفات من الغَيْبة إلى الخِطاب:

بيان تشابُه الأُمَم في المواقف من النّبوّات، وتَشابهها في المآلات

على القولِ بأنَّ قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ موجَّه للعرَب، ففيه التفاتٌ من الغَيْبة في قوله تعالى: ﴿وَوَيْلٌ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/195.

لِّلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٢﴾ [إبراهيم: 2] إلى الخِطاب هنا، لبيانِ التَّشابه القائم بيْن حال الكافرين على عهْد رسول الله ﷺ بحال الأُمَم السّالفة؛ بتَشابه عقليّاتهم في حُجَجهم الباطلة ورَدِّ الرُّسلِ عليهم بمثل ما رَدَّ به القرآن على المشركين في مَواضع[1]، فكأنَّ طريق الدّعوة واحدٌ، كلهم يقولون الكلمة ذاتها، ويُلقون الرَّدَّ ذاته وما يُذكر من سِيَرٍ هدفُه تذكير الرَّسول وقومه بما حدَث للسّابقين.

غرَض الاستفهام:

غرَض الاستفهام في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ إنكاريٌّ، وهو للتّقرير والتّوبيخ؛ لأنّهم قد بَلَغَتهم أخبارهم، فأمّا قوم نوح فقد تواتَرَ خبَرُهم بين الأُمَم بسبب خبَرِ الطّوفان، وأمّا عادٌ وثمودُ فهُم من العرَب ومساكنُهم في بلادهم، وهم يَمرّون عليها ويخبِرُ بعضُهم بعضًا بها، قال تعالى: ﴿وَسَكَنتُمْ فِي مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ﴾ [إبراهيم: 45] وقال: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيْلِ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾﴾ [الصّافات: 137- 138][2].

عـدَمُ الاتّعـاظ قبيحٌ، والعناد أقْبَحُ

سرّ إيثار لفْظ ﴿نَبَؤُاْ﴾:

آثَر النَّظْم الكريمُ لفظ النَّبأ دون الخبَر في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾، لأنَّ النّبأ خبَرٌ ذو شأنٍ، وما كان فيه فائدةٌ مهمّة، كما قال تعالى: ﴿وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾﴾ [النمل: 22]، ومن ثمَّ كان إيثار لفْظة ﴿نَبَؤُاْ﴾ على (خبَر) في هذا السّياق هو الأوْلى، ولو تَدبّرنا الّذي أتاهم فهو نَبأٌ لا خبَر، لأنَّ الخبَر يأتي بمعنًى خاصٍّ للمُخبَر، وهنا المقصود النَّبأ العامُّ الّذي يَعمُّ مضمونُه الجميع، ويكون له شأنٌ يتعلَّق بالجميع.

النَّبأ خبرٌ يعمُّ، ولـه شـأنٌ لا يَخصّ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/196.

(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/411، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/196، وطنطاويّ، التّفسير الوسيط: 7/526.

بلاغة الاستعارة المَكنيَّة:

تصوير النّبأ وتشخيصه أبلَغُ من مجرَّد الإخبار

جاءت جملة ﴿يَأۡتِكُمۡ نَبَؤُاْ﴾ على سبيل الاستعارة المَكنيَّة الأصليَّة، بحذْف المُشبَّه به وهو شخص يأتي، وذِكرِ ما يدلُّ عليه وهو الإتيان، لتصوير النَّبأ بصورةِ رجُلٍ يأتي، فكأنَّ النَّبأ هو الَّذي أتى إلى المخاطَبين؛ لأخْذ العِبرة والعِظَة ممّا حدث للأقوام السّابقين.

دلالة الاسم الموصول وصِلَتِه:

التمهيد لذِكر الأقوام مع بيان معرفة الكفار بِقصَصِهم

عبر البيان القرانيُّ في: ﴿أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ قَوۡمِ﴾ بِالاسْم المَوصول الظّاهر (الّذين) مُمهِّدًا لذِكر الأقوام بعدُ، وذلك للإيماء إلى أنَّهم مَقصودون بهذا الإيراد، فهُم الَّذين من قَبلِكم ممَّن تَعرِفونهم، ويُرشِّح ذلك استعمال ﴿مِن﴾ الدّالَّة على ابتداء الغاية الزَّمانيَّة، فكأنَّهم يَعرِفونهم حقَّ المعرفة من مُبتدَأ ما حصَل لهم إلى خاتِمَتهم.

نكتة ذِكر الخاصِّ بعد العامِّ:

التَّنويه بالأقوام والاعتبار بهم والتَّشنيعُ عليهم

بعدَ أن جاء قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ﴾ إجمالًا، جاء تفْصيلُه في جملة ﴿قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ﴾ وهذا من بلاغة الإطناب، ولو اكتَفى بالاسمِ المَوصول لكَفى؛ تشويقًا للمُتلقّي، وتحريضًا له على متابَعة القراءة ومواصلة تَتَبُّع الأخبار والأنباء والآثار. والإطنابُ بالتَّفصيل والخاصِّ فيه فَضْلُ اهتمامٍ بهؤلاء وأخبارهم، وتَنويهٌ بشأنهم وتشنيعٌ عليهم، وما حصَل لهم لِيَتَّعِظ الجميع بنهاياتهم، مع الشُّمول لكلِّ الأقوام والتَّقرير والبيانِ.

تَوجيه المخصوص بالذِّكر:

ما كان في الأبعَدِ عقوبةً يتحقَّق في الأقرب

وجْهُ تخصيصِ بعضِ الأقوام بالذِّكر ﴿قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَ﴾ بقَصْد تذكير الكُفّار بما أصاب أولئك المَعدودينَ مع قُرْب غيرهم إليهم؛ للإشارة إلى أنَّ إهلاكَهُ تعالى الظّالمين ونَصْرَهُ المؤمنين

عادةٌ قديمةٌ له ﷻ[1]؛ فالنَّصر نهاية المؤمنين، والهلاك نهاية الكُفّار المجرمين، في كلِّ وقتٍ وحين.

نوع الواو ودلالتها:

سُنَّة الله في الإهلاك والنَّصْرِ عريقةٌ

الواو في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ﴾ إمّا أن تكون للعطْفِ على ما قبله، فيفيد مُطلَقَ الجمْع بين الأقوام؛ ليَشمل الأقوام جميعًا ما قبْل قومِ نوح وعاد وثمود وما بعدَهم، وإمّا أن تكون استئنافيَّةً لا عاطفةً، وتكون ﴿ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ﴾ مُبتدَأ، وجملة ﴿لَا يَعۡلَمُهُمۡ إِلَّا ٱللَّهُۚ﴾ هي الخبَر؛ لبيان أنَّ هناك أُممًا كثيرةً أتَتْ وانْدثرتْ لَم يَعلم بهم إلّا الله ﷻ.

أثَر الإعراب في بيان المعاني:

جهْل البشريَّة بالأُمَمِ المُندثرة دليلُ غفْلتها عن السُّننِ المُنتشرة

سبَقَ بيان أنَّ جملة ﴿لَا يَعۡلَمُهُمۡ إِلَّا ٱللَّهُۚ﴾ خبَرٌ، فهي بيانٌ للأقوام الّذين بعدَ قوم نوحٍ وعاد وثمود في كونهم مجهولين للخَلْقِ، ويَصحُّ أن نجعلها اعتراضًا، والمعنى: "أنَّهم من الكَثْرة بحيث لا يَعلم عَددَهم إلّا الله. وعن ابن عبّاسٍ ﷺ: (بيْن عَدنان وإسماعيل ثلاثون أبًا لا يُعرفون)، وكان ابن مَسعودٍ إذا قَرَأ هذه الآية قال: (كَذَب النَّسّابون)، يعني أنَّهم يَدّعون عِلم الأنساب، وقد نَفى اللّهُ عِلمها عن العِباد"[2].

وفي تفسير عدَمِ العِلم قولان: القول الأوَّل: أن يكون المراد لا يَعلَم كُنْهَ مقاديرهم وأعمارهم وعَددِهم إلّا الله تعالى، والقول الثّاني: أنّ المراد ذِكرُ أقوامٍ ما بَلَغَتْنا أخبارهم أصلًا، كذَّبوا رُسلًا لَم نَعرِفهم أصلًا، ولا يَعلمهم إلّا الله.

فنُّ الطِّباق:

من أغراض الطِّباق الإحاطة والشُّمول

دلَّتِ المقابَلة بيْن ﴿مِن قَبۡلِكُمۡ﴾ و﴿مِنۢ بَعۡدِهِمۡ﴾ في الآية على

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/183.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/541.

بيان الإحاطة بكلِّ الأزمان والأقوام، فالمعرِفة هنا مَعرفةٌ شاملة لا قاصِرة بزَمنٍ دون آخَر، وفي هذا تحريضٌ على ضرورة الإيمان واتِّباع الرُّسل وعدَم مُخالَفتهم؛ لأنَّ العاصين نهايَتهُم واحدة: الهلاك والإهلاك، أمّا المؤمنون بالرُّسل فنهايَتُهم النّجاة والنُّصْرة؛ فغرَض الطِّباق التَّدبُّر والفَهم والاعتبارُ.

نكتةُ التَّعبير بالفعل جاء:

التَّعبيرات رهينة السِّياق والنَّظْم

جاء التَّعبير بالفعل ﴿جَآءَتۡهُمۡ﴾، بخلاف آياتٍ أُخرى فقد جاء بالفعل ﴿أَتَتۡهُمۡ﴾ كما في التَّوبة، وذلك أنَّ السِّياق الّذي جاء فيه الفعل ﴿جَآءَتۡهُمۡ﴾ فيه معانٍ أشَقُّ وأصْعَب من السّياق الّذي جاء فيه الفعل ﴿أَتَتۡهُمۡ﴾؛ ففي آية التّوبة: ﴿أَتَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ٧٠﴾ [التّوبة: 70] فلَم يَذْكرْ أنّهم كفروا أو عوقبوا، في حين قال في آيات الأعراف: ﴿فَمَا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ مِن قَبۡلُۚ﴾ [الأعراف: 101] فذَكر عدَمَ إيمانهم، وأنّهم طُبِع على قلوبهم: ﴿كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ١٠١﴾ [الأعراف: 101]، وذَكر أنَّه وَجَد أكثرَهم فاسقين، وأنَّه لَم يَجِد لأكثرهم عهْدًا، وذَكر بعدَ ذلك ظُلمَ فرعون وقومِه لموسى وتكذيبَهم بآيات اللّه وعاقبتَهم، ولعلَّ من أسباب ذلك أنّ الفعل (جاء) أثْقَلُ من الفعل (أتى) لفْظًا، فلَم يَرِد في القرآن فعل مضارعٌ لـ (جاء) ولا أمْرٌ ولا اسم فاعلٍ أو مفعول، ولَم يَرِد إلّا الماضي وحدَه بخِلاف (أتى) الَذي وَرَدتْ كلُّ تَصْريفاتِه، فقد وَرَدَ منه الماضي والمضارع والأمر واسم الفاعل والمفعول، فناسَبَ بيْن ثِقَل اللّفْظ وثِقَل المَوْقف في (جاء)، وخِفَّة اللَّفظ وخِفّة المَوْقفِ في (أتى)[1].

(1) فاضل السّامرّائيّ، لمسات بيانيّة: 1/80.

بلاغةُ الاستئناف البيانِّي:

تفسير النَّبأ مع بيان الاهتمام بالمَعلومينَ والمجهولين

جملة ﴿جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ إمّا أن تكون استئنافيَّة، أو أن تكون خبَرًا ثانيًا لجملة ﴿وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ﴾ على جعْل الخبَرِ الأوَّل ﴿لَا يَعۡلَمُهُمۡ إِلَّا ٱللَّهُۚ﴾، ويصحُّ أن تكون استئنافًا بيانيًّا على اعتبار أنَّ هناك استفهامًا عن الخبَر الواقع؟ فقيل: ﴿جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ فجاء كلُّ رسولٍ إلى قومه بالحُجَج الواضحات، وبالمعجزات الظّاهرات، الدّالَّةِ على صِدْقِه فيما يُبلِّغُه عن ربِّه[1].

دلالة التَّعبير بالرُّسل:

رعايةُ المناسَبة اللَّفظيَّة والمقاميَّة

جاء التَّعبير بالرُّسل في قوله تعالى: ﴿قَالَتۡ رُسُلُهُمۡ﴾ لفائدتَين؛ الأولى: المناسَبة اللَّفظيَّة بيْن اللَّفظة وبيْن الفعل (أرسلتم). الثّاني: دلالةُ الرُّسل أخَصّ، فكلُّ رسولٍ نبيٌّ وليس كلُّ نبيٍّ رسولًا، فإنّ الرَّسول يَختصُّ بمَن جَعَله واسطةً بيْنه وبين عِباده لتَبْيين أحكام بوَحْيٍ مسموع عن مَلَكٍ، والنَّبيّ قد يُقال لمَن يُجدِّد علىَ النّاس شريعةً مَن تَقدَّمه وإن كان يوحَى إليه بإلهام أو منام[2]، فذِكرُ الرُّسل فيه إشارة إلى رسول الله تعالى ﷺ، فكَما جاءتْ لأولئك رسلٌ جاءكم أيّها المخاطَبون كذلك رسول، فاحذَروا واتّعِظوا.

معنى الباء ودلالتُها:

عنوان الرِّسالة النَّبويَّة البيِّنات الإلهيَّةُ

الباء في قوله تعالى: ﴿بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ متعلّقةٌ إمّا بالفعل المَذكور ﴿جَآءَتۡهُمۡ﴾ على أنَّها للتَّعديَة، وإمّا بمَحذوفٍ وقَعَ حالًا من فاعله ﴿رُسُلُهُم﴾، أي: مُتلبِّسين بالبيِّنات، وفي هذا شِدَّةُ التِصاقٍ واتِّصالٍ بيْن الرَّسول والبيِّنة الّتي تَلبَّستْ به؛ تأكيدًا على قوّة حُجَجهم وبراهينهم.

نكتةُ الجَمع المحلَّى بأل:

البيِّنات لفظٌ يعمُّ المعجزات والرِّسالات

جُمِعت البيِّناتُ في قوله تعالى: ﴿بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ للدّلالةِ على

(1) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 7/523.
(2) الرّاغب، المفردات: 3/1310.

الكَثْرة والتَّعدُّد، وذلك لمناسبة الجمْع لِجَمْع الرّسل، فكلّ رسولٍ له بيِّنة، فتَعدُّد الرّسل يَؤول إلى تعدُّد البيِّنات، والأوْلى أن يكون لكلِّ رسولٍ بيِّناتٌ كثيرةٌ خاصةٌ به مُعينةٌ له حسب اقتضاءِ الحِكمة؛ فإنَّ مُراعاة انقسام الآحاد إلى الآحاد إنّما هي فيما بيْن الرّسل وضميرِ الأُمم، ومعنى ﴿بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ إمّا أن تكون المعجزات الدّالَّة على صدْق الرّسل، وإمّا أن تكون الآيات المُشْتملة على الأحكام الواضحة الّتي تُنظِّم حركة حياتهم لِتُسْعدهم[1]، والصَّحيح أنَّها تَعمّ، وقرينة ذلك الجمْع المحلّى بأل، وصِدق البيِّنة على الأمرين، كما هو المشهور في الاستعمال القرآنيِّ؛ وقرائنُ السِّياق تُعين على المَعْنيَين.

نكتةُ الإضافة إلى ضمير الجمْع:

كثرةُ الرُّسل باعتبارِ كثرة الأُمَم

أفادت إضافة الرّسل إلى ضمير الجمْع في قوله تعالى: ﴿رُسُلُهُم﴾ الكثرة، أي: كَثرة الرّسل، وكثرة الأقوام، وفي الضّمير إلْماحةٌ إلى القصْديَّة والتّكريم؛ فكلُّ رسولٍ يقصِد قومَه الّذين أُرسل إليهم قصْدًا؛ ضَبطًا لحياتهم؛ وهدايةً لهُم، فهم رُسلهم الّذين أُرسلوا إليهم على وَجه الخُصوص.

معنى الفاءِ ودلالتُها:

الاستمرار في الغَيِّ دَيْدن المكذِّبين ومَسلكُ الضّالّين

أفاد قولُه تعالى: ﴿فَرَدُّوٓاْ أَيۡدِيَهُمۡ فِيٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ﴾ استمرارَ عدمِ إيمانهم في الزّمان الماضي؛ لِما أنَّ الاستمرارَ على فعلٍ من الأفعال بعد وُرود ما يوجبُ الإقلاعَ عنه، وإن كان استمرارًا عليه في الحقيقة، لكنَّه بحسَب العنوان فعلٌ جديد وصُنعٌ حادثٌ نحوُ: وعَظْتُه فلَم يَنزجِرْ، ودَعَوتُه فلَم يُجِب، ثمّ إنّ الفاء من طبيعتها السُّرعة والتّتابُع، فكأنّهم لَم يَنتظروا زمنًا ليردّوا أيديَهم، وهذا ما يقتضيه فعل الرَّدِّ إن أُريدَ به الرّاجح، وهو رَدُّ الأيدي في الأفواه حسدًا وغيْظًا، فيُفيد تصوير

(1) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 12/7450.

المَشهد. وعِبارة الآلوسيِّ: "أتى بالفاء تنبيهًا على أنَّهم لَم يُمهِلوا بل عَقَّبوا دَعْوتَهم بالتّكذيب"[1].

براعةُ اختيار لفظ الرَّدّ:

الكشفُ عن الحالةِ النَّفسيَّة والمَكيدة الشَّيطانيَّة

اختير قولُه تعالى: ﴿فَرَدُّوٓاْ﴾ دون ألفاظٍ أُخرى قد يُظنُّ أنَّها توفِّي المقصودَ، وتُبيِّن المراد، والحقُّ أنَّ لهذه الكلمة رَونقًا أفاد تصويرًا، ودقَّةً أجادَت دلالةً، ذلك أنَّ الرَّدَّ هو رجْعُ الشّيء[2]، فمن ذلك قولُه تعالى: ﴿فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ﴾ [القصص: 13]، وأفاد الرّاغِب معنًى آخَر فقال: "استعمال الرَّدِّ في ذلك تنبيهًا أنَّهم فَعلوا ذلك مرَّةً بعد أخرى"[3]، وعليه فالآية تبيِّن معنًى لا تؤدِّيه ألفاظٌ أخرى، وهنا يرِد السّؤال الآتي: لماذا ذُكِرَ هذا اللَّفظ دون غيره؟ وماذا أفاد؟

علينا أن نتدبَّر أمرًا وهو أنَّ تلك الأقوام الّتي جابهَت بالباطلِ رُسلَها، لمّا رأوا البيِّنات ماثلةً أمامهم، لا يستطيعون معها الإنكارَ، أصابَهم من الغيْظ والحقدِ والحَنَق ما أصابهم، فرَدّوا حينئذٍ أيديَهم في أفواههم، نتيجةً للحسَد والحقدِ. وما بدَرَ منهم من ردِّ الأيدي جهارًا، كان قبل ذلك خفاءً، فردُّ الأيدي حركةٌ لا شُعوريَّةٌ صدرَت عنهم أمام الرّسل بعد أن صَنَعوها في الخفاء، فما كان خفاءً أصبح جهارًا، وهذا ما عَناهُ الرّاغِب حين قال: (تنبيهًا أنَّهم فعلوا ذلك مرَّةً بعد أخرى)[4].

نكتةُ جمْع الأيدي والأفْواه:

دلَّ جمعُ الأيدي على أنَّ ردَّة فِعْل الأقوام من المرسَلين واحدةٌ، وهي الحسد والرَّفض والتَّكذيب، فهم متَّفقون على الكُفر والعصيان، لَم يَتخلَّف واحد منهم، وأنَّهم قاموا بهذه الحركة بصوَرٍ مُتقارِبة.

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/183.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (ردّ).
(3) الرّاغب، المفردات: (ردّ).
(4) المثنّى عبد الفتّاح، الإيضاح والتّقييد في إعجاز القرآن المجيد، ص: 229 - 230.

بلاغةُ استعمال حرْف الظَّرفيّة:

تصوير شِدَّة الغيظ والرَّفض للحقِّ

استعمل النَّظْم حرْف الظَّرفيّة في قوله تعالى: ﴿فَرَدُّوٓاْ أَيۡدِيَهُمۡ فِيٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ﴾ وذلك لغرَض بلاغيٍّ فريدٍ، وهو تصوير شدَّة الغيظِ، وكأنَّهم من فَرْط الإصرار على إنهاء الحِوار معهم أدْخلوا أيديَهم في أفواههم؛ لتُعطِّل جهاز النُّطْق وتَمْنعَ اللِّسان عن الحركة، حتّى لو كانت أصواتًا محبوسة داخِل الفم، وهو ما يؤكد إقناط الرّسل من إجابتهم والاسترسال في الحوار معهم، إحساسًا منهم بأنهم لا يستطيعون مُجاراتهم في الحِجاج ولا غَلَبَتَهم في الإقناع[1].

دلالة عطْف القول على الفعل:

العِبرةُ في الكلامِ متابعتُه للأفعالِ

في عطْف فعل ﴿وَقَالُوٓاْ﴾ بيانٌ لإصرار الأقوام على الكُفر والعناد؛ لأنّهم لَم يَكتفوا بحركاتهم برَدِّ الأيدي في الأفواه، بل باشروا بالقول أيضًا؛ ليُحاوِلوا إقناط الرّسل من إيمانهم، وفي قولهم إظهارٌ لتَمسُّكهم بعقيدتهم الفاسدة، وقد يَحكي الفعل ﴿وَقَالُوٓاْ﴾ شدَّةَ جرْأتِهم على الرّسل، وعدَمَ إخفاء ما في قلوبهم، مع دلالة الفعل الماضي الدّالِّ على التّأكيد وإضافة الفعل ﴿وَقَالُوٓاْ﴾ إلى واو الجماعة، تلك الواو الّتي تَرْسم اتّفاقَهم على الكُفر، والإصرار وعدَم التّراجع.

تَوجيه المتشابِه اللَّفظيّ:

أثرُ الخفَّة والتَّوكيد المعنويِّ في الخفَّة والتَّوكيد اللَّفظيّ

حذْف النّون في هذه الآية؛ لمناسَبة ما بعدها، فما بعدها الجملة ﴿وَإِنَّا لَفِي شَكّٖ﴾، فكان حذْف النّونَين في ﴿وَإِنَّا﴾ هو الأنسَب، والّذي يبدو أيضًا أنّه عندما يأتي (إنَّنا) فهو آكَدُ، و﴿إِنَّا﴾ تأتي للتّوكيد سواء كانت النّون مشدَّدة أو مخفَّفة، وعندما نقول: (إنَّنا)، فإنّها تحتَمِل معنيَين: في مقام التّفْصيل (إنَّنا)، وفي مقام التَّوكيد (إنَّنا)، فلو قرَأْنا القِصَّتَين في السّورَتين لَوَجدنا أنّ قِصَّة صالِح فصّل تعالى فيها كثيرًا فاقتضى التّفصيل استخدام ﴿وَإِنَّنَا﴾، وكذلك التّكذيب

(1) محمد الأمين الخضريّ، من أسرار حروف الجرّ في الذّكر الحكيم، ص: 159، وما بعدها.

في قوم صالح كان أشَدَّ فجاء التَّوكيد بلفظ ﴿وَإِنَّنَا﴾؛ إذَن القِصّة في قِصّة صالحٍ أطوَل والتّكذيب أشَدُّ في سورة هود، بينما الكلام في سورة إبراهيم موجَز فاقتضى التّوكيد في سورة هود بـ ﴿وَإِنَّنَا﴾، ولَم يَقْتض التّوكيد في سورة إبراهيم بـ (إنّنا)[1]، وقد يُقال: فلَمّا لَزِمَت النّونان في ﴿تَدْعُونَنَآ﴾ جيءَ معهما بـ(إنَّ) المحذوفةِ النّون لتقارُب اللّفظ، أعني قُرب (إنّ) من ﴿تَدْعُونَنَآ﴾، فكان في مَظِنّة الاستِثْقال فحسُن الحذْف حيث يَجوزُ، فقيل: ﴿وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾، ولَمّا لَم يكُن في ﴿تَدْعُونَآ﴾ في سورة هود إلّا نونٌ واحدةٌ، وهي نون الضّمير لَم يُستثقل، فجيء بـ(إننا) على الأصل فجاء كلٌّ على ما يَجِب[2].

التَّنبيه على خِطابِ المُفرَد والجمْع

جاء فعل ﴿تَدْعُونَنَآ﴾ في هذه الآية بنونَين، أمّا في سورة هود فبِنونٍ واحدة، وذلك أنَّ الحديث في سورة هود جاء خِطابًا لمُفردٍ وهو سيّدنا صالح عليه السلام، يقول تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآۖ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾﴾ [هود: 62]، وتقديرها على التَّفكيك: (تدعو أنت إيّانا)، بينما في سورة إبراهيم فالخِطاب لجمْعٍ من الرُّسل، وتقديرها على التَّفكيك: (تدعونَ أنتم إيّانا).

بلاغةُ استعمال (ما) المَوصوليَّة:

الكافر شديدُ الرَّفضِ للحقِّ كلِّه؛ لا يَستثني ولا يَلوي

اسم الموصول (ما) أعمّ وأشملُ من أخيه (الّذي)، حتّى قال النُّحاة: إنّه يَقَع على كلِّ شَيء، ويَقع على ما ليس بِشَيء؛ لأنَّه اسمٌ مُبْهَم شديد الإبهام[3]، وقد في قوله تعالى: ﴿إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ﴾، وقوله تعالى: ﴿مِّمَّا تَدْعُونَنَآ﴾، وهذا يعني تَمرُّدهم وعُتوَّهم

(1) فاضل السّامرّائيّ، لمسات بيانيّة في نصوص التّنزيل، ص: 597.
(2) الغرناطيّ، ملاك التّأويل: 2/259.
(3) السّهيليّ، نتائج الفكر في النّحو، ص: 139.

ورفْضَهم التّامَّ لكلِّ ما أُرسل به المرسَلون، ثُمّ إنَّ (ما) الأولى هي الّتي مهَّدَت للفعل ﴿أُرۡسِلۡتُم﴾ الماضي، الدّالِّ على أنّ الإرسال قد تمَّ وانتهى أمرُه، إضافةً إلى أنَّ (ما) الثّانية مهَّدت للفعل المضارِع ﴿تَدۡعُونَنَآ﴾، الدّالِّ على استمرار الرُّسل في الدَّعوة ليلَ نهار؛ ففي الفعل استحضار الصورة، واستعمال (ما) يُعين عليها.

دلالاتُ التَّعبير بالإرسال على لسانِ الأقوام:

ما يَجولُ في بواطنِ النُّفوسِ يَظهر في فَلَتات اللِّسان

أشار استعمال لفْظ الإرسالِ فيما قاله الأقوام: ﴿إِنَّا كَفَرۡنَا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ﴾، إلى أنَّهم مُعترِفون بإرسال الرُّسل ضِمنًا، لكنَّهم كافرون بدلالتها على صحَّةِ رسالتهم أو الكُتب والشَّرائع[1]، فزَلّاتُ اللِّسان تَقَع في لَحنِ القول، فهُم يحدِّثون أنفُسَهم بصحَّة ما جاء به الرُّسل، لكنَّهم كِبْرًا وتعاليًا وغباءً يُنكرونها، ولكنَّ الحقّ يَظهر من خلال فَلَتات الألسُن، ويحتمل أن يكون المعنى: إمّا أن نكون كافرين برسالتكم، أو أن نَدَع هذا الجزْم واليقين، فلا أقلَّ من أن نكون شاكِّين مُرتابينَ في صحَّة نبوّتكم، وعلى التَّقديرين فلا سبيل إلى الاعتراف بنُبوَّتكم[2]، أو أن يُحمل على التَّهكُّم والسُّخرية[3]، فيكون المعنى: "إنّا كفرنا بما زَعَمتم أنّ الله أرسلكم فيه؛ لأنّهم ما أقَرّوا بأنّهم أُرسلوا"[4]، فالرّسل مكذَّبون، ورسالاتهم كاذبةٌ في عُرْف الكُفّار، وقد يكون الأمر على أنّهما قولان من طائفتَين: طائفةٍ بادرَتْ بالتّكذيب والكُفر، وطائفةٍ شكَّتْ، والشَّكّ في مثل ما جاءَتْ به الرّسل كُفر[5].

سرُّ تَتابُعِ المؤكِّدات:

التَّوكيدُ إيجازٌ لفظيٌّ واختزالٌ دلاليٌّ

تتابَعَت المؤكِّدات في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّا لَفِي شَكّٖ مِّمَّا تَدۡعُونَنَآ إِلَيۡهِ مُرِيبٖ﴾ للدّلالة على أمورٍ، منها:

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/183.
(2) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 19/67.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/195.
(4) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 19/69.
(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/411.

أوَّلًا: جملة ﴿وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ﴾ نابَتْ مَناب تَكرير الجملة مرَّتَين، كأنَّه قيل: (نحن في شكّ، نحن في شكّ) مع حصول الغرَض من التّأكيد، فإذا دَخلَت اللّام ازدادَ معنى التّوكيد وكأنّه بمنزلة تَكرار اللَّفظ ثلاث مرّات[1]، وعليه فالتَّوكيد يُفيد الإيجاز والاختصارَ.

ثانيًا: تَتابُع التَّكرار دالٌّ على قوّة الشَّكِّ في نفوسهم، وسَدِّ باب الاعتراف بنبوَّة الأنبياء.

فائدة التَّعبير بالظَّرْفيَّة:

تصويرُ سقوطِهم في بئر الشَّكِّ

من خصائص حرْف الظَّرفيَّة الإحاطة والشُّمول، وقول الأقوام: ﴿لَفِي شَكٍّ﴾ يُصوِّر الشَّكَّ يَغشاهم ويُحيط بهم، أو يُحيط بطائفةٍ منهم، فالشَّكُّ شاغِلٌ ومسيطر ومحيطٌ بهم لا يفارقهم، فهم متمكِّنون غير مُنفكِّين عنه[2]، كأنّه اشتمل عليهم اشتمال الظَّرْف على المَظروف[3]، ففيه رسوخٌ وتَمكُّن منهم.

علَّة وَصْف الشَّكّ بالمُريب:

الشّكُّ يغلبُ في المعقولاتِ والرّيبة في القلبيّات

وُصف الشَّكُّ بالمُريب في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾، والرّيب والشّكُّ مُتقارِبا الدّلالة، ولهذا الوصْف فائدةٌ وهي توكيد الشّكِّ بالرّيبة، فجاء الوصْفُ زائدًا عن أصل معنى الشّكِّ الّذي هو التّردُّدُ والحَيْرة واضطراب النّفْس والوهْم، وهو صريحٌ في أنَّ الشّكَّ مَثارٌ للرّيب، لا أنَّ الرّيب بمعنى الشَّكِّ[4]، بالإضافة إلى أنَّ لفظ ﴿مُرِيبٍ﴾ اسم فاعل من (أرابَ)، فيجوز أن يكون متعدِّيًا من (أرابَهُ)، أي: أوْقَعَه في الرّيبة، أو قاصرًا من "أرابَ الرَّجلُ" أي: صار ذا ريبَة، فاجتمَع المَعنَيان في اللّفْظة فوُصف الشّكُّ بها[5]، ولعلَّ مِن

(1) ابن يعيش، شرح المفصّل: 4/526.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/87.
(3) الرّضيّ، شرح الكافية: 2/304.
(4) رشيد رضا، تفسير المنار: 11/38.
(5) ابن عجيبة، اللّباب: 10/513.

أوْضَح ما يُقال في هذا المقام: إنَّ الشَّكَّ يغلِب في العقليّات، والرّيبة في الأمور النَّفسيَّة، فهم أرادوا أن يُبالِغوا في شكِّهم، فجعلوه فيما يتعلّق بالمعقول وبما تُضمرُه النُّفوس، وهذا يُؤكِّد على أنَّهم كاذبون مبالِغون في الفِرْية، دافعُهم الحسدُ، ومِهْمازُهم الحِقد.

سرّ الفصْل بين الصِّفة والموصوف:

الكشفُ عن علل التَّكذيب ومَواطن التَّدليس

الصِّفة والموصوف كشَيءٍ واحد، وقد فُصل بين الصّفة والموصوف في قوله تعالى: ﴿شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ بقوله: ﴿مِّمَّا تَدْعُونَنَآ﴾، على جعْله متعلِّقًا بالشَّكِّ، أو جعْله صِفَةً لـ﴿شَكٍّ﴾، وذلك لبيانِ مسارَعتهم إلى الشّكِّ في الدّعوة، بتقديم شِبْه الجملة ﴿مِّمَّا تَدْعُونَنَآ﴾، فما يدعو إليه الأنبياء هو المُسيطر على عقولهم، وهو المُحدِث لهم ريبةً، فنزّل تأخير النَّعت المفرَد مَنزلة النّتيجة للشّكِّ في الدّعوة، بالإضافة إلى العناية بالجانب الصَّوتيِّ بتأخير ﴿مُرِيبٍ﴾.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

النّبأ والخبَر:

الخبَرُ أعمُّ من النَّبأ، والنَّبأ يُستعمل في الأمور المهمَّة ذات الشَّأن

النّبأ خبَرٌ ذو شأنٍ، وأصله يدلُّ على الظّهور، ويُستعمل في سياقِ إبراز الأخبار المهمَّة والعظيمة، ويكون ذا فائدة مهمّة، كقوله تعالى: ﴿وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾﴾ [النمل: 22]، وفي القرآن قد وُصف النّبأ بالعظيم، ﴿قُلْ هُوَ نَبَؤٌاْ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾﴾ [ص: 67]، والخبَر أعمُّ منه، وقد يُستعمل في الأمور المهمَّة وغير المهمَّة، قال تعالى: ﴿قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [القصص: 29]، وقال: ﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٧﴾﴾ [النمل: 7]، بينما استعمال النّبأ في القرآن يكون في شأن الوَحي والرِّسالة وأخبارِ الأُمم السّابقة، ونحْو ذلك من المُهمّات.

الرّدّ والرّجوع:

الرّدُّ مُتعدٍّ، والرُّجوع لازِمٌ[1]، وقد يَتعدَّى؛ والرُّجوع يكون لمُنتهى القصْد ولغيره، ألا ترى أنّه يُقال: رَجَعَ إلى بعض الطَّريق، والرُّجوع هوَ المَصير إلى المَوضع الَّذي قد كانَ فيهِ قَبْلُ[2]، وقد يُقال: الرُّجوع: حرَكَةٌ واحدة في سَمْتٍ واحِدٍ لكن على مسافة حرَكة هي مثل الأولى بعَيْنها[3].

الرُّجوعُ للأصل، ولا يُشترط ذلك في الرَّدِّ

الشّكّ والرّيب:

الشّكُّ تردُّدٌ بيْن أمْرَين مع رُجحان أحَدِهما، أمّا الرّيب ففيه شكٌّ بتُهْمَة[4]، وقد يعني الرّيبُ صُروفَ الدّهر ونوائبَه[5]، ويغلِب الشَّكُّ في العقليّات، ويغلب الرّيب في القلبيّات.

الشّكُّ فيما لا يُعقل، والرّيبة فيما لا طمأنينة فيه

(1) النّيسابوريّ، تفسير النّيسابوري: 3/512.
(2) العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 303.
(3) الجرجانيّ، التّعريفات، ص: 109.
(4) ابن منظور، لسان العرب: (ريب).
(5) ابن منظور، لسان العرب: (ريب).

﴿۞قَالَتۡ رُسُلُهُمۡ أَفِي ٱللَّهِ شَكّٞ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ يَدۡعُوكُمۡ لِيَغۡفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ وَيُؤَخِّرَكُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ قَالُوٓاْ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأۡتُونَا بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ ١٠﴾ [إبراهيم: 10]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

ردُّ أهل الحقِّ هو بالقَبولِ أحقّ

لمّا ذَكرتِ الآية السّابقة ارتيابَ الشّاكّين المكَذِّبين، وأشارَت إلى ما يُكِنّونه من حقدٍ وحسدٍ تُجاه الرُّسل الكرام، ناسَب أن يُذْكرَ في هذه الآية ردُّ الرُّسل عليهم، المشتمل على أصْل توحيد الرُّبوبيَّة والألوهيَّة والأسماء والصِّفات، فهو ردٌّ شاملٌ قائمٌ على أصولٍ اعتقاديَّة، وماحٍ لكلِّ ما قد يَتبادر من الأذهان الغَبيَّة، والأقوال الكَيْديَّة.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَاطِرِ﴾: أصْل الفَطْرِ: الشّقُّ طولًا، يقال: فَطَرَ فلان كذا فَطْرًا، وأفْطَرَ هو فُطورًا، وانْفَطَرَ انْفِطارًا. قال تعالى: ﴿هَلۡ تَرَىٰ مِن فُطُورٖ ٣﴾ [الملك: 3]، أي: اختِلال ووَهْي فيه، وذلك قد يكون على سبيل الفساد، وقد يكون على سبيل الصّلاح، وقال: ﴿ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرُۢ بِهِۦۚ كَانَ وَعۡدُهُۥ مَفۡعُولًا ١٨﴾ [المزمل: 18]، وفَطْر اللّه الخَلْق؛ إيجادُه الشَّيء وإبداعه على هَيئةٍ مُتَرشّحة لفعل من الأفعال، فقوله: ﴿فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَاۚ﴾ [الروم: 30]، إشارةٌ منه تعالى إلى ما فَطَرَ. أي: أبدَع وركزَ في النّاس من معرفته تعالى، وفِطْرَةُ اللّه: هي ما رَكزَ فيه من قوّته على معرفة الإيمان، وهو المشار إليه بقوله: ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَهُمۡ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۖ﴾ [الزخرف: 87]، وقال: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [فاطر: 1]، وقال: ﴿ٱلَّذِي فَطَرَهُنَّ﴾ [الأنبياء: 56]، ﴿وَٱلَّذِي فَطَرَنَاۖ﴾

[طه: 72]، أي: أبدَعَنا وأوْجَدَنا[1]، فاتّصاف اللّه تعالى بالفاطِر، أي الاعتراف بأنَّه الخالق ﷻ دون سِواه.

2) ﴿يَدْعُوكُمْ﴾: الدّالُ والعيْنُ والحرْفُ المعتلُّ أصْلٌ واحدٌ، وهو أن تُميلَ الشّيءَ إليك بصَوْت وكلام يكون منك. تَقول: دَعَوْتُ، أدْعو دُعاءً[2]، والمعنى المِحوريُّ جَذْبُ الشّيءِ أو محاوَلة ضمِّه إلى حيِّزٍ أو أمْرٍ: كجَذْب اللَّبَن إلى حيِّزه أو حيِّز الحالِب، وجَذْب النّاس إلى الوَليمة والاجتماع[3]، والمُراد بالدَّعوَة في الآية هو دعوةُ النّاس إلى دين التّوحيد والإيمان به، وترْك ما يُناقضُه.

3) ﴿أَجَلٍ﴾: الأجَل هو المُدَّة المَضْروبة للشَّيء، قال تعالى: ﴿وَلِتَبْلُغُوٓاْ أَجَلًا مُّسَمًّى﴾ [غافر: 67]، وقال: ﴿أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ﴾ [القصص: 28]. ويُقال: دَيْنُهُ مُؤَجَّلٌ، وقد أجَّلْتُهُ: جَعَلْت له أجَلًا، ويُقال للمُدّة المضروبة لحياة الإنسان: أجَل؛ فيُقال: دَنا أجَلُه، عبارةٌ عن دُنوِّ الموت، وأصْله: استيفاء الأجَل أي: مُدّة الحياة، وقوله تعالى: ﴿وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا﴾ [الأنعام: 128]، أي: حدّ الموت، وقيل: حدّ الهَرَم، وهما واحدٌ في التّحقيق[4].

4) ﴿تَصُدُّونَا﴾: الصَّدُّ قد يكون انصرافًا عن الشّيء وامتِناعًا، نحْو: ﴿يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾﴾، [النساء: 61]، وقد يكون صرفًا ومَنْعًا نحْو: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [النمل: 24]، ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [محمد: 1][5]، والمراد به في الآية الصَّدُّ عن دين الآباء الباطل، وتَرْك ما هُم عليه من عبادة الأوثان والأباطيل.

5) ﴿بِسُلْطَٰنٍ﴾: (سلط)، السَّلاطَةُ: التَّمكُّن من القَهْر، يقال: سَلَّطْتُهُ فَتَسَلَّطَ، قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ﴾ [النساء: 90]، ومنه سُمّي السُّلْطانُ، والسُّلْطانُ يُقال في السَّلاطَة، نحْو: ﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا﴾ [الإسراء: 33]، وقد يُقال لذي السَّلاطَة، وهو الأكثر، وسمّي الحُجّة: سُلطانًا، وذلك لِما يلْحقُ من الهجوم على القلوب، لكن أكثر تَسَلُّطه على أهل العِلم والحكْمة من المؤمنين، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ

(1) الرّاغب، المفردات: (فطر).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (دعو).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (دعو).
(4) الرّاغب، المفردات: (أجل).
(5) الرّاغب، المفردات: (صدد).

ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ﴾ [غافر: 35]، وقال: ﴿فَأۡتُونَا بِسُلۡطَٰنٍ مُّبِينٖ﴾[1]، والمراد في الآية هو الحُجَّة والبرهانُ.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

اعتماد الفِطْرة والعقل في إقناع المخالِفين منهَجُ الرُّسل مع أقوامِهم

في الآية الكريمة رَدٌّ على الكُفّار الشّاكّين بالله تعالى، وقد ساقَ الرُّسلُ أدلَّة عقليَّةً وفِطريَّة في إثبات أحَقّيَّة الله تعالى بأن يكون المُنفرِد بالعبادة دون سِواه، إذ كيف يكون في توحيد الله شكّ وهو فاطر السّماوات والأرض؟! فخالِق السّموات والأرض وحدَه لا يُعقل أن يكون له شريكٌ في عبادته، يدعوكم إلى الإيمان والعمل الصّالِح الخالي من الشِّرْك، لمَحَبَّته غُفران ذُنوب عِباده مع تأخير العذاب عنكم لتَموتوا بآجالكم المُقدَّرَة لكم، لكن الكُفّار ظَلّوا مُتَّهِمينَ الأنبياء بأنَّهم بَشَر، كلُّ أهدافهم إبعادهُم عمّا ألِفوهُ واعتادوه، فحاوَلوا تعجيزَهم بأن طَلَبوا حُجَّة ظاهرةً تدلُّ على صِدْقهم.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

عِلّة الفصْل:

خيرُ الرَّدِّ ردُّ الأمور إلى أُصولِها

فُصِلت جملة ﴿قَالَتۡ رُسُلُهُمۡ﴾ عمّا قَبلَها لأنَّها استئناف بيانيٌّ قامَتْ على سؤال يَنْساق إليه المَقالُ على طريقة المحاوَرات، كأنَّه قيلَ: فماذا قالتْ لهُم رُسلُهم؟ فأُجيب بأنَّهم قالوا منكِرين عليهم ومُتعجِّبينَ من مَقالَتِهم الحَمقاء: ﴿أَفِي ٱللَّهِ شَكّٞ﴾[2]، وفيها أنَّ أصْل الدّعوة في كلِّ ملَّةٍ التّوحيدُ، وكان الشّاكُّ فيه شاكًّا في الله[3].

عِلّة تأنيث الفعل:

الرُّسلُ جماعةٌ واحدة وقولُهم كلمةٌ واحدة

جاء فعل ﴿قَالَتۡ رُسُلُهُمۡ﴾ مؤنَّثًا على إرادة جماعة الرُّسل، يقول السُّهيليُّ: "فإن كان الفاعلُ جمْعًا مُكسَّرًا أُدخلَتِ التّاء لتأنيث

(1) الرّاغب، المفردات: (سلط).
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/36.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/391.

الجماعة، وحُذفَت لتَذْكير اللّف؛ لأنَّه بمنزلة الواحد في أنَّ إعرابَه كإعرابِه، ومجْراه في كثيرٍ من الكلام مجرى اسم الجنس"[1]، وقد يُراد بالتأنيث الجمْع، أي: جماعات الرُّسل، باعتبارِ كثْرة الأقوام، لا سيَّما مَن لَم نَعْلَمْهم.

بلاغةُ الاختزال:

دعوةُ الرُّسل واحدة، وملَّة الكُفرِ واحدة

جمَع اللّه تعالى أقوال الرُّسل في قولٍ واحدٍ، وهم كانوا في أجيالٍ مختلفةٍ، وجمَع أقوال المشركين في قولٍ واحدٍ؛ لأنّهم جميعًا على قولٍ واحدٍ، وفي هذا إيجازٌ واختزالٌ لجميع ما نطقَتْ به الرُّسل الكِرام، كما أنَّ فيه اختزالًا لِما قالَتْه الأقوام بالألفاظ المباشِرة والضّمْنيَّة، فإنَّ المؤدّى واحدٌ، إذ لا خِلاف بينهم في الموقف من دَعوةِ الرُّسل، وفيه أنَّ ملَّة الكُفر واحدةٌ.

غرَضُ الاستفهام:

العقول الصّحيحة لا تَقبل الدَّعاوى الباطلة

الاستفهام في قوله: ﴿أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ﴾ للتَّقريع والتَّوبيخ والإنكار، أي: أفي وَحدانيَّتِه سبحانه شَكٌّ، وهي في غاية الوضوح والجلاء[2] لا تحتاج إلى دليلٍ وبرهان على وُجوده وعظَمته، فكيف تشُكّون؟ والاستفهام وصْفٌ لِحَيرة أهل الظّلام إذا رَأوا النّور تَحَيَّروا بين باطلٍ ألِفوه، وحقٍّ جاء إليهم هاديًا فارْتابوا[3]، وقد يكون الاستفهام بِمَعْنى نَفْي ما اعْتَقَدوه.

سرُّ ذِكر الاسم الأعظَم:

التّوحيد هو القضيَّة المركزيَّة الّتي ضلَّت فيها البشريَّة

علّق اسم الجلالة بالشّكِّ في قوله تعالى: ﴿أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ﴾، والاسم العَلَم يدلُّ على الذّات، والمراد إنكار وقوع الشّكِّ في أهَمِّ الصِّفات الإلهيَّة وهي صِفة التَّفرُّدِ بالإلهيَّة، أي صِفة الوحدانيَّة[4]،

(1) السّهيليّ، نتائج الفكر في النّحو، ص: 131.
(2) الشّوكانيّ، فتح القدير: 3/117.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 8/3999.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/198.

وهي القضيَّة الّتي وَقَع فيها التَّنازع العَريض في البشريَّة، الّتي أرادَتْ أن تَخرجَ عن منهج الله تعالى بعدَم توحيده، وترْكِ إفرادِه بالعبادة الحَقَّة، قصْدًا في اتِّباع الشَّهوات، وذَهابًا في التَّمويه، فأصْلُ الباطل الشِّركُ بالله تعالى، وسَبَبه الحقيقيُّ اتِّباع الشَّهوات، والتَّمسُّكُ بشهوات الحياة الدُّنيا.

بلاغةُ جواب الرُّسُل:

مَن شكَّ في تنزيه الله تعالى وَقَع في قُبح الفَهم وسوء الطَّويَّة

عدل جوابُ الرُّسل عن إجابة أقوامِهم بأن يقولوا: (أأنتم في شكٍّ مُريب من الله)؟ إلى ما جاء عليه النَّظْم: ﴿أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ﴾؟ وذلك للمبالَغة في تنزيه ساحة الجلال عن شائبة الشَّكِّ، وتسجيلًا عليهم بسخافة العقول، أي: أفي شأنه تعالى من وُجوده ووَحدته ووجوب الإيمان به وحده شكٌّ ما؟! وهو أظْهَر من كلِّ ظاهرٍ، وأجلى من كلِّ جليٍّ، حتّى تكونوا من قبَله سبحانه في شكٍّ عظيم مُريب[1].

نكتةُ تقديم الجارّ والمجرور:

تعيينُ المختلَف فيه هو مِحور الاهتمام في أيِّ قضيَّة

أُدخلَتْ همزة الإنكار على الجارّ والمجرور في قوله تعالى: ﴿أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ﴾، دون أن يُقال: (أشكٌّ في الله)؛ لأنَّ الكلام والخِلاف ليس مُتسلّطًا على الشّكِّ، إنَّما هو في المَشكوك فيه، وأنّه لا يحتَمِل الشّكَّ لظُهور الأدلّة وشهادَتها عليه[2]، فقدَّم متعلّق الشّكِّ للاهتمام به، وكون لفظ ﴿شَكٌّ﴾ نَكِرةً يقتضي نفْيَ أيِّ شكٍّ في الله ولو صغُر؛ لبيان الأدلّة الدّالّة عليه.

فائدةُ إيثار اسم ﴿فَاطِرِ﴾:

مخالَفةُ الفِطرة منكَرٌ بشريٌّ لا يردُّه إلّا فاطرُها

الفَطْر بمعنى الخَلْق والإبداع من غير سَبْقِ مِثال، وأصله: الشَّقُّ وفصْل شيءٍ عن شيء، ومنه فطرَ ناب البَعير أي: طَلَع وظَهَر، واستُعمل في الإيجاد والإبداع والخلْق لاقتضائه التّركيب الّذي سبيله

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/185.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/542.

الشّقّ والتّأليفُ، أو لِما فيه من الإخراج من العدَم إلى الوجود[1]، واستعماله أنسَب في هذه الآية؛ لأنَّ فيه إشارةً إلى الفِطْرة وهي قوَّة الإيمان المَرْكوزة في النّفْس البشريَّة[2]، وهم قد خالَفوا الفطْرة، وقد يُقال: إيثار ﴿فَاطِرِ﴾؛ لأنَّه المُخترِع المُبْتدي، وسَوق هذه الصِّفة احْتِجاجٌ على الشّاكّين يُبيّن التّوبيخ، أي: أيُشكُّ فيمَن هذه صِفَته؟ فساقَ الصِّفة الّتي هي منصوبةٌ لرَفْع الشّكِّ[3].

تَوجيه المخصوصِ بالذِّكر:

عظَمةُ خلْقِ السَّماوات والأرض لا تُنكَر

خصَّت الآية السّماوات والأرضَ بالذِّكر دون بقيَّة المخلوقات؛ لأنَّهما آيَتان عظيمتان، فالإشارة إليهما كافيةٌ، وتردُّ الشّارِد إلى الرّشدِ سريعًا، كما أنَّ وجود السّماوات والأرضِ دالٌّ على أنَّ لهما خالقًا حكيمًا؛ لاستحالة صُدور تلك المخلوقات العجيبة المُنظَّمة عن غير فاعلٍ مختار، وذلك معلومٌ بأدنى تأمُّلٍ، وذلك تأييدٌ لإنكار وقوع الشّكِّ في انفراده بالإلهيَّة؛ لأنَّ انفرادَه بالخلْق يَقتضي انفراده باستحقاقه عِبادة مخلوقاته[4]، إضافةً إلى أنَّ أحدًا لَم يدّعِ خَلقَ السَّماوات والأرض، فكان في ذِكرهما تفرُّد الخالِق وعجْز البشَر؛ ورَدّ أيديهم في أفواههم سُكوتًا وعجْزًا.

نكتةُ الجمْع والإفراد:

جمْعُ السّماوات لشَرفِها وأُفردَت الأرض لخفّة لفْظها

جُمعت السَّماوات وأُفْرد ذِكرُ الأرض للإشارة إلى تفاوتِهما في الشَّرف، فجُمع الأشْرَف اعتناءً بسائر أفراده، وأشرفيَّة السّماء؛ لأنّها محلُّ الملائكة المُقيمين على تَفاوتِ مراتبهم[5]، ولِما تميَّزَت به من كونها موضعًا للعبادة، والتّقديس، والتّمجيد، وأنواع العبادات

(1) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 7/528.
(2) الرّاغب، المفردات: (فطر).
(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/327.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/198.
(5) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/80.

كلِّها، ولكونها مَحطًّا للرّحمة ونُفوذ الأوامر والأقضيَة، والتّدبيرات، ثمَّ عقَّبَها بذِكر الأرض مشيرًا إلى عِظَم منافعها وكونها مُتصرَّفًا للخَلْق، وبِساطًا مُمهّدًا للتّصرُّفات، واستصلاح الأقوات من الزّروع والثّمار، والفواكه وأنواع المعادن[1]، كما أنَّ القرآن آثَرَ إفرادَ الأرض لخِفَّته؛ لأنَّ الجمْع ثقيلٌ، وليس ذلك الثّقل في لفظة السّماوات فجاء جمْعًا، عِلمًا بأنَّ لفظة الأرض ورَدَت في القرآن (361) مرَّةً، وكلّها على الإفراد[2].

بديعُ فنِّ الطِّباق:

عَظيم القُدرة في كمال المتقابِلات وتمام المختلِفات

تتأتَّى قيمةُ الطِّباق في بيان عظيم القُدرة المُطلَقة لِفاطِر السّماوات والأرض من غير مثالٍ سابِق، لِما فيهما من باهِرِ القُدرة، وعِظَم المَلكوت، وعلى تباعُدِهما، إلّا أنَّ السّماوات والأرض خاضعةٌ لسُلطان رَبٍّ واحد.

بلاغةُ المَجاز في لفظ الدُّعاء:

الرِّفقُ بالعِبادِ والتّلطُّف بخِطابِهم عنوانُ الدَّعوة

الدُّعاء في قوله تعالى: ﴿يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم﴾ محمولٌ على الأمْر والإرشاد مَجازًا؛ لأنَّ الآمرَ يُنادي المأمور[3]، فالمعنى يَدعوكم آمِرًا ومُرشدًا أن تؤمنوا به وحدَه وتعبدوه دون سِواه، ففي الدَّعوة اهتمام الخالِق سبحانه بعبادِه، فهو يدعوهم لِما فيه مَصلحتهم، وفي استعمال هذا اللَّفظ مع إرادة أمْرِ العِباد بالإيمان والعبادة تمامُ اللُّطفِ، وكمال الرّحمة بهم.

نكتةُ إسناد فعل الدّعاء بصيغةِ المضارِع إلى الله تعالى:

بيان الاهتمام ودَيمومة الدّعوة لكلّ قوم

أُسند فعل الدّعاء إلَيه ﷻ في قوله: ﴿يَدْعُوكُمْ﴾ لمَزيد الحِرص على الهداية وجَلْب المغفرة، ولتربية المَهابة في نفوسهم، ولتكون النِّسبة إليه سبحانه بيانًا لِوجوده، ورَقابَتِه لهم ولأعمالهم، وإشعارًا لهُم

(1) العلويّ، الطّراز: 1/76.
(2) الأمين الخضريّ، الإعجاز البيانيّ في صيغ الألفاظ، ص: 81.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/199.

بالهَيْمنة عليهم[1]، والمضارِع هنا دالٌّ على دَوام الدّعوة واسْتمرارِها واستحضار صورتها، كأنّها ماثِلةٌ أمام أعْيُن المَدعوّين لتَجذِبهم وتُرقِّقَ قلوبهم.

دلالة تعدّي الفعل باللّام:

التَّعليلُ المُقنعُ وسيلةٌ ناجِعةٌ وهدايةٌ راسخة

عُدِّي فعل الدّعاء في قوله تعالى: ﴿يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم﴾ باللّام لتعليل ما جُعل سببًا للدّعوة؛ فإنّ العلَّة تدلُّ على المَعلول، كقوله تعالى: ﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ﴾ [نوح: 7]، أي: دعوتُهم إلى سَببِ المغفرة لِتَغفرَ، أي: دعوتُهم إلى الإيمان لِتَغفرَ لهم، أي: يَدعوكم إلى التّوحيد ليَغفرَ لكم من ذنوبكم[2]، وفي اللّام تَزيينٌ للدّعوة إلى الإيمان والرّغبة في دخولكم فيه، وهذا يَستدعي اللّام الدّالَّةَ على اختصاصكم بهذا الفضْل مع التّعليل.

سرُّ جمْع لفظ الذُّنوب:

تصوير كثرةِ الذُّنوب مُشيرٌ إلى كبيرِ الرّحمة

جُمع لفْظ الذُّنوب في قوله تعالى: ﴿مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ إشارةً إلى أنَّ هؤلاء المَدعوّين، هم كُتَلٌ مُتضخِّمةٌ من الذّنوب[3]، فالجمْع للكَثرة، وكأنَّ كلَّ واحِد ارتَكب ما لا يُحصى من الذّنوب والآثام، على أنَّ أكبر ذَنْبٍ هو الكُفر والإعراضُ، ومن ثمّ فدعوَتُهم للمغفرة إغراءٌ وتَحفيز، وقد يُقال: إنَّ الكُفر عبَّر عنه بالجمْع لِبشاعته وفظاعته في جانب نِعَم اللّه وآلائه.

تَوجيه المتشابِه اللَّفظيّ في الحذْف والذِّكر:

إثبات (من) في سياق خِطاب الكافرين، وحذْفها عند خِطاب المؤمنين

تعدَّى فعلُ المغفرة إلى المفعول به وهو (الذّنوب) بنفْسه في القرآن الكريم مرّات عدّة، وهي: [آل عمران: 16 - 31 - 147 - 193]، و[الأحزاب: 71]، و[الصف: 12]، وفي كلّ مرَّةٍ كان الخِطاب فيها للمؤمنين، وما عُدِّي منها بحرْف

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 8/3999.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/198.
(3) عبد الكريم الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 7/157.

الجرِّ (من) جاء في ثلاثة مَواضع، وهي: [إبراهيم: 10]، و[الأحقاف: 31]، و[نوح: 31]، وفي كلّ مرَّة كان الخِطاب فيها للكافرين، وسرُّ ذلك التّفرقةُ بين الخِطابين لئلّا يُسَوّى بين الفريقَين في الوعْد، فالكُفّار تُغفر بعضُ ذنوبهم بشَرْط الإيمان، وهو غفران ما بينَه وبينهم لا مَظالم العِباد؛ لأنَّ مقام الكُفر مقامُ قبْضٍ لا بسْطٍ، بخِلاف المؤمن فهو مقام البسْط والفُيوضات والرّحمة والمغفرة[1]، وهذا تفريقٌ مرتبِطٌ مَلحوظٌ في السّياق، ويُضاف عليه أنَّ الذُّنوب للكافرين كذلك تُغفر، وتكون ﴿مِّن﴾ بيانيَّة؛ لأنَّ الإسلام يجُبُّ ما قبلَه.

فائدة عطْف الجُمل على ما قبلها:

أعظَمُ عطاءٍ استثنائيٍّ عرَفَته البشريَّة عطاء المُقبِلين على الإيمان

تعدُّدُ العطاءات الرّبّانيَّة وأبواب الرّحمات؛ من مغفرة الذّنوب، والتّأخير إلى أجل مُسمًّى، وعدَمُ المُعاجَلة بالعذاب فالعطْف هنا فيه الكَرَم والإكرامُ، لإمالة القلب إلى الله، والاعتراف بآلائه ونِعَمه، وفي عطْف الوعْد: ﴿وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ بتأخير الأجَل على الوعْد بمغفرة الذّنوب: ﴿لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ دليلٌ على أنَّ التّأخير يُعدُّ حقيقةً كمَغفرة الذّنوب؛ إذ لو كان العُمر لا يَزيد حقيقةً بفعل الطّاعة لَما عطَفَه على مغفرة الذّنوب؛ لأنَّ المغفرة حقيقيَّةٌ، فكذلك فلْيَكُن التّأخير في الأجَل[2].

نكتةُ إيثار استعمال لفْظ التّأخير دون الإمهال:

يغلِب استعمال التّأخير في الوعْد، والإمهال في الوَعيد

آثَر النَّظْم استعمال لفْظ التّأخير دون غيره من الألفاظ؛ لأنَّه وعْدٌ بخيرٍ، والسّياق سياقُ سَعَةٍ وبسْطٍ ومغفرةٍ، وهذا اللَّفظ هو ما يَتوارَد على ألسِنَة الأنبياء والدُّعاة، أمّا الإمهال فغالِب مجيئه في سياق الوعيد والتّخويف والزّجر، وهذا يُلحظ من لفظة (أمهل، مهّل) في القرآن، فقد ورَدَت اللّفظة ثلاث مرّات، كلّها في الكافرين؛

(1) محمد الأمين الخضريّ، من أسرار حروف الجرّ، ص: 377 وما بعدها.
(2) المقرن، الأحاديثُ المُشكِلةُ الواردةُ في تفسير القرآنِ الكريم، ص: 88.

مثل قوله تعالى: ﴿فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا ﴿١٧﴾﴾ [الطارق: 17]، وقوله: ﴿وَذَرْنِي وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُوْلِي ٱلنَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ﴿١١﴾﴾ [المزمل: 11][1]، فكان لفظُ التَّأخير أنسَبَ من لفظ الإمهال.

فائدة استعمال حرْف انتهاء الغاية:

البركة الزّمانيَّة مَدْعاة للطّاعة عند المؤمنين

استُعمل حرفُ الجرِّ في قوله تعالى: ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّىۚ﴾ للدّلالةِ على انتهاء الغاية الزّمانيّة، وفيه دلالةٌ على القُدرة الإلهيّة المُطلَقة، قُدْرة الخلْق والإعادة، والتَّعبيرُ بالحرف ﴿إِلَىٰٓ﴾ فيه تَوسيعٌ للزَّمان وإفساحٌ له؛ لمَنْح الوقت للطّاعة والمغفرة، وبخاصّة أنَّ اللّه هو الدّاعي، مع دلالة كلمة ﴿أَجَلٍ﴾ على الاستيفاء، أي استيفاء مُدّة الحياة[2] وعدَم المعاجَلة.

فائدة النَّعت ودلالته:

عِلْم الله محيطٌ بالزَّمان والمكان

في نَعْت الأجَل بلفظِ ﴿مُّسَمًّىۚ﴾ دليلٌ على العِلم المُطلَق للّه تعالى، دون أن يُشارِكَه أحد فيه، فلا يَعلم الأجَل ومقدارَه إلّا اللّه، يبلِّغكُموه إنْ آمنتم، وإلّا عاجَلَكم بالهلاك قبل ذلك الوقت[3]، وقد يُقال: إنَّ فائدة نعتِ ﴿مُّسَمًّىۚ﴾ الدّلالة على استيفاء الآجال، فلا يَستعجل ﷻ بالعقوبة، فإنَّ الطّاعة وصِلَة الرّحم يُزاد بهما في العُمر[4].

بلاغةُ التَّعبير بالضَّمير بدل الاسم الظّاهر:

اختزالُ الزَّمان في ألفاظ البيان لا يكون إلّا بنَظْم القرآن

يؤتى بالضَّمائر كلِّها لضرْبٍ من الإيجاز؛ لأنَّ الضّمير يُستغنى به عن الاسم بكامله[5]، والتّعبير بالضّمير في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوٓاْ﴾ يوافق التّعبير بالضّمير في ﴿وَقَالُوٓاْ إِنَّا كَفَرْنَا﴾، فحصل التّناسُب بين القولَين، كما أنَّ الآية مبنيَّةٌ على الضّمير المخاطِب لهم

(1) قيس دوكس، فهرس جذور كلمات القرآن: (مهل).
(2) الرّاغب، المفردات: (أجل).
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/543.
(4) الإيجيّ، جامع البيان في تفسير القرآن: 4/378.
(5) ابن يعيش، شرح المفصّل: 2/21.

﴿يَدۡعُوكُمۡ﴾ ﴿وَيُؤَخِّرَكُمۡ﴾، والتّعبير بالضّمير يدلُّ على اتّحاد القول واتّفاقِه الصّادِر عن الأقوام، كأنَّها قولةٌ واحدةٌ تلقّاها القوم خلَفًا عن سَلَف، وهذا لا يكون في التّعبير بأن يُقال: (قال قومهم)؛ لأنَّ القائل في الغالب يكون من المَلأ الكبار فيُعبَّر عنه بالقوم لمنزلته وعلوِّ شأنه وكأنَّه كلُّ القوم، كما أنَّ واو الجماعة قد يُراد بها كلّ أُمّةٍ من الأُمم[1]، فجاء بالضّمير الّذي هو أخصَرُ، والواو في ﴿وَقَالُوٓاْ﴾ تمهيدٌ لقولهم: ﴿تَصُدُّونَا﴾ فربّما كان يُمكن أن يُقال: (تصدّوا قومنا)؛ فيكونوا هم بُرَآء من الكُفر، وهذا ليس بواقِعٍ، فالجميع منكِرٌ شاكٌّ كافرٌ.

بلاغة القصْر:

جاءت جملة: ﴿إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا﴾ قصْرًا بليغًا، فمَردُّ هذه الجملة إفحامُ الرُّسل بقطْع المجادَلة النَّظريّة، فنفَوا اختصاصَ الرُّسل بشَيءٍ زائدٍ في صورتهم البشريّة يُعلَم به أنَّ اللّه اصطفاهم دون غيرهم بأن جَعَلهم رسلًا عنه، وهؤلاء الأقوام يَحسبون أنَّ هذا أقطَعُ لحُجَّة الرُّسل؛ لأنَّ المماثَلة بينَهم وبين قومهم مَحسوسَةٌ لا تحتاج إلى تطويلٍ في الاحتجاج[2]، وأسلوب القصْر هنا يَحكي تَعنُّتَهم وغباءهم المَكينَ، فبدَلًا من أن يعتزَّ البشَر باختيار اللّه رسلًا من أقوامهم، فإنّهم لجهالتهم ينكرون هذا الاختيار، ويجعلونه مَثار ريبةٍ في الرُّسل المختارين.

التَّعنُّت رائدُ المكابَرة وقائد المجاهَرة

موقعُ الجملةِ في البيان:

جملة: ﴿تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾ في موضع الحال، أو صِفةٌ ثانيةٌ لـ﴿بَشَرٞ﴾ أو مستأنفَة، وهي قيْدٌ لِما دلَّ عليه الحصْر في جملة ﴿إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا﴾، من جحد كونهم رسلًا

الأُمَمُ السّابقة تَمتدحُ نفسَها من حيث هي مذمومةٌ

(1) الخازن، لباب التّأويل: 3/30.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/200.

من اللّه بالدّين الّذي جاءوهم به مخالِفًا لِدينهم القديم[1]، والجملة تحكي طبيعة الجُمود العقليِّ الّذي تَطْبعه الوَثنيّاتُ في عقول أصحابها، فلا يُفكِّرون فيما كان يعبده آباؤهم، وإن كان قصْدُهم المَدْح لحالهم الّتي أصرّوا على عدَم تغييرها، فيكونون قد أرادوا أنّها خُلُقُ أسلافهم وأُسوَتهم فلا يَقبَلون فيها عَذلًا ولا ملامًا[2].

نكتةُ التَّعبير بالصَّدِّ دون المنْع:

صدُّ الرُّسل قومَهُم عن عبادةِ الأوثان يختصُّ بالحجَّة والبرهان

جاء التَّعبير بمُفرَدة الصّدِّ في قوله تعالى: ﴿تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا﴾، والصّدُّ انصرافٌ عن الشّيء وامتناعٌ عنه، وفيه إعراضٌ وصدوفٌ، وفي الصّدِّ هجْرٌ وترْكٌ وسُخريةٌ من الصّادِّ، فالصّدُّ منْعٌ وزيادة، مع دلالة التَّشديد في الفعل (صدَّ)، والتّشديد تَكرارُ عملٍ تِلْو عمل، كما أنَّ الصّدَّ هو منْعُ السّالك من إكمال طريقِه فيما يَراه حقًّا، فيدخل فيه الصَّدُّ المَعنويّ والمادّيّ، وصدُّ الرّسلِ الأقوامَ عن عبادة الأوثان هو صدٌّ معنويٌّ؛ لأنَّه بالحُجَّة والبرهان، بخِلاف صدِّ المشركين عن سبيل اللّه تعالى فهو خليطٌ من الصّدِّ المعنويِّ والمادّيِّ.

نكتةُ استعمالِ المصدَر المؤوَّل دون الصَّريح:

الكافر يَرى عقائدَه في خطرٍ عند رؤية أهلِ الحقِّ

آثَر النَّظْم استعمال المصدر المؤوَّلَ دون الصّريح في قوله تعالى: ﴿تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا﴾، وهو يدلُّ على الحدث وزمانِه، فالفعل ﴿تَصُدُّونَا﴾ مع ﴿أَن﴾ بمعنى (صدَّنا)، وهو يدلُّ على حدثِ الصُّدود دون زمانه؛ لوجود الفعل المضارِع الدّالِّ على الحال والاستمرار، فالّذي كرهَتْه الأقوام من الرُّسل هو ثباتُهم على الدَّعوة إلى دين التَّوحيد والاستمرار على ذلك، الّذي عدّوه صُدودًا عمّا كان يعبد آباؤهم، ثمّ إنَّ من سِمات المصدَر المؤوَّل أنَّه لا يوصَف، فهو يُبْرِز الحدث باعتباره الذّاتيِّ أكثر من أيِّ اعتبارٍ آخَر.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/200.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/172.

دلالة حذفِ المفعول:

دعوةُ التَّوحيد تَستأصل كلَّ باطلٍ وتأتي على كلِّ وهْمٍ

حُذف مفعول الفعل ﴿يَعْبُدُ﴾ في قوله تعالى: ﴿عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾، فلَم يَقُل: (يعبده آباؤنا)، وذلك للدّلالةِ على العموم[1] والشمول، بحيث يدخل في الدّلالة كلُّ ما يَعبدُه الآباءُ، فهُم يرَون أنَّ دعوةَ الرّسل قاضيةٌ على كلِّ متعلّقات الآباء ممّا له مَسيس صِلَةٍ بمفهوم العبادة الباطلة، وهذا إيذانٌ منهم بالمفاصَلة بين عبادة آبائهم الباطلة، وعبادة فاطِر السَّماوات والأرض.

فائدة ذِكر ﴿كَانَ﴾:

خلْعُ الباطلِ القديمِ أشقُّ في دعوةِ الرُّسل

ضمّن النَّظْم الكريمُ فعل ﴿كَانَ﴾ في قوله: ﴿تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾ دون أن يقول: (عما يعبد آباؤنا)، لبيان أنَّ هذا شأنهم ودَيْدنُهم الّذي كانوا وما زالوا عليه، فهم يُشيرون إلى عَراقة عبادةِ آبائهم، وأنَّها عِبادة قديمةٌ وما زالت مستمرّةً، وهذا أشَدُّ في رَفْض الأقوام، وأشَقُّ في دعوةِ الرُّسل.

غرضُ التَّعبير عن الدّينِ بالموصوليَّة:

أهل الباطلِ يُعظّمون الباطل تقليدًا لا تحقيقًا

في التَّعبير عن الدّين بالمَوصوليّة في قوله تعالى: ﴿عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ﴾ إشارةٌ إلى تعظيم ما يعبدون وتوقيرِه، فقد يُتَّخَذُ اسم الموصول مع صِلَته ذَريعةً لتعظيم الموصوف به، إذ اتّصافُه بما تضمَّنَته صِلة الموصول من وصْفٍ عظيم، إضافةً إلى أنّ الصِّلة جاءت بالفعل المضارِع ﴿يَعْبُدُ﴾؛ لبيانِ أنَّ العبادة لَم تَنْقطع البَتَّة، فإذا عَبَد آباؤنا؛ فإنّا مثلهم عابدون، فالعبادة مستمرَّةٌ حاضرةٌ.

فائدةُ صيغة جمْع الآباء:

الآباء في الحقيقةِ هم من يُزيّنون باطلَ المعتقدات

آثَر النَّظم صيغةَ الجمْع في قوله: ﴿ءَابَآؤُنَا﴾ الدّالّ على الكَثرة، وتقادُم الزّمن، فالأمر متوارَثٌ قديمٌ، وليس بحادث، وهذا سرُّ تمسُّكِهم بما كان يَفعله آباؤهم؛ فإنَّ سيطرة العادة على المَرْء أشدُّ

(1) ابن جزيّ، التّسهيل لعلوم التّنزيل: 2/496.

وأقوى من القوانين المفروضة، ويدلُّ هذا اللَّفظ على دخولِ المُعَلِّم والعالِم؛ فإنَّ الآباء يَسلكون مسالك من يُعلِّمونهم الباطل، فذِكر الآباء لبيان الانتساب إلى القبيلة، وإلّا فالآباء على التَّحقيق هم من نَقَل عِلم مُعَلِّمي الشَّرِّ من خُدّام الأوثان، وفي هذا إلماحةٌ إلى قوَّة أثَر المُعَلِّم في تلميذه.

معنى الفاء ودلالتها:

لَجاجة الخصْم وقاحةٌ في المُطالَبة

الفاء في قوله تعالى: ﴿فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ هي الفصيحة[1]، وهي الّتي تُفصِح عن شرْطٍ مُقدَّر، فكأنهم يقولون: فإن كنتم صادقين في دَعْواكم هذه فأْتوا بسلطانٍ مُبين، والحذْف هنا واشٍ بشِدَّة اللَّجاجة والعِناد، فهم يُطالِبون بسلطان مبينٍ وحُجّة باهرة قاهرة، مع ظُهورِها للعيان.

غرضُ الأمر:

تعجيز الرُّسل ظنَّ الجهلةِ ومنتهى طموح المكذِّبين

الأمر في قوله: ﴿فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ مشيرٌ إلى تعجيز الرُّسل في ظنِّ الأقوام، أو التَّعنُّت والاقتراح، وإلّا فما أتَوا به من الدّلائل والآيات كافٍ لمَن استبْصَر، ولكنّهم قَلَّدوا آباءهم فيما كانوا عليه من الضّلال، وكأنّ ما أتاهم به الرُّسل من حُجَجٍ باهرة تدلُّ على صِدْقهم ليس كافيًا في زَعْم هؤلاء المكذِّبين، بل عليهم أن يأتوهم بحُجَج مَحسوسةٍ أخرى، وهكذا الجحود العقليُّ، والانطماس النّفْسي يحمل أصحابَه على قلب الحقائق، وإيثار طريق الضّلالة على طريق الهداية[2].

نكتةُ إيثار لفظ ﴿بِسُلْطَٰنٍ﴾:

بيانُ الرُّسل باهِرٌ، وسلطان إقناعِهم قاهر

آثَر النَّظْم استعمال لفْظ السّلطان وهو من الفعل (سلط) بمعنى: التَّمكُّن من القَهْر، والسّلطانُ هنا الحُجَّة، وسمّيَت الحُجّة سُلطانًا،

(1) دوريش، إعراب القرآن وبيانه: 5/164.
(2) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 7/530.

وذلك لِما يلْحقُ من الهجوم على القلوب، وكأنَّ السّلطان هو الّذي سَيُصَيّرُهم إلى أهل قَهْر وخُضوعٍ، ولقد كانوا آتَوهم من الآيات الظّاهرةِ والبيّنات الباهرة ما تَخِرّ له صُمُّ الجبال، ولكنّهم إنما يقولونَ ما يقولونَ من العَظائم مكابَرةً وعِنادًا وإراءَةً لمَن وراءهم أنّ ذلك ليس من جِنس ما يُطلَق عليه السّلطانُ المبين[1].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الفَطْر والخَلْق:

الفطر إيجادٌ من عَـدَمٍ، والخلق تـقـديـرُ الـشَّيءِ بعد إيجادِه

الفاءُ والطّاءُ والرّاءُ أصْلٌ صَحيحٌ يَدُلُّ على فتْحِ شَيْءٍ وإبْرازِه، من ذلِكَ الفِطْرُ مِنَ الصَّوْم[2]، وأصله: الشّقُّ طولًا، يُقال: فطَرَ فلانٌ كذا فطْرًا، وأفْطَرَ هو فُطورًا، وانْفَطَرَ انْفِطارًا، وفَطَرْتُ الشّاة: حَلَبْتها بإصْبعَين، وقيل للكَمْأة: فُطرٌ، من حيث إنّها تَفْطِرُ الأرض فتَخرج منها[3]، فالفَطْر هو الشَّقُّ والحَفْر بقصْد استخراجِ شيءٍ، هذا أصله، وقد استُعمِل في فَطْر السّماوات والأرض في إخراجها من العدَم على غير مثالٍ سابِق.

وأمّا الخَلْق فهو يدلُّ على تَقْديرِ الشَّيْءِ، ومنه: خَلَقْتُ الأديمَ للسِّقاء، إذا قَدَرْتَهُ، ومن ذلِكَ الخُلُق، وهيَ السَّجيَّةُ؛ لأنَّ صاحِبَهُ قَدْ قُدِّرُ عَلَيْه[4]، وأصل الخَلْق: التَّقدير المستقيم، ويُستعمل في إبداع الشّيء من غير أصْلٍ ولا احْتِذاء، قال: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [الأنعام: 1]، أي: أبدَعَهما، ويُستعمل في إيجاد الشّيء من الشّيء نحْو: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ [النساء: 1]، وليس الخَلْقُ الّذي هو الإبداع إلّا للّه تعالى، وأمّا الّذي يكون بالاستحالة، فقد جعله اللّه تعالى لغيره في بعض الأحوال، كعيسى حيْث قال: ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى﴾ [المائدة: 110][5].

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/37.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (فطر).
(3) الرّاغب، المفردات: (فطر).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (خلق).
(5) الرّاغب، المفردات: (خلق).

فالخَلْق يَغلِب في التَّقدير، هذا أصله، واستعمالُه في خَلْق السّماوات والأرض باعتبارِ إيجادهما مُقدَّرَتَين، فالفرْق بين فاطِر وخالِق، أنَّ الفَطْر مَلحوظٌ فيه الشَّقّ والإخراج من عَدَمٍ، وأمّا الخَلْق فملحوظٌ فيه التَّقدير.

التّأجيل والإرْجاء والإمْهال:

التّأجيل: تأخيرٌ مع ضرْب مُدّة محدَّدةٍ للشّيء، وأصله استيفاءُ الأجَل[1]، والإرجاء تأخيرٌ وقد يكون معه الحَبْس كما في قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَرۡجِهۡ وَأَخَاهُ وَٱبۡعَثۡ فِي ٱلۡمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ٣٦﴾ [الشعراء: 36][2]، أمّا الإملاء فأشَدُّ من الإمهال بكثير، لأنَّه يَتَضاعَف به العذاب[3]، ويصاحبه استدراج لزيادة الإثم والخطأ؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا نُمۡلِي لَهُمۡ لِيَزۡدَادُوٓاْ إِثۡمٗاۖ﴾ [آل عمران: 178]، وفيه يَحسب المُتلبِّس بالإثم أنّه قد نجا فيؤخَذ بالعقوبة[4].

التّأجيل تأخيرٌ مع تعيين أجَل، والإرجاء مُطلَق التّأخير

الصّدّ والمنْع والصّرف:

الصّدُّ هو المنْع عن قصْد الشّيء خاصّة، ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَهُمۡ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ﴾ [الأنفال: 34] أي: يَمنعون النّاسَ عن قصْده، والمنْع يكون في ذلك وغيره، ألا تَرى أنّه يقال: مَنَع الحائطَ عن المَيل، ولا يُقال: صَدَّه عن المَيل؛ لأنَّ الحائطَ لا قصْد له، ويقولون: صدَّني عن لقائك، يريد عن قصْد لقائك[5]، وقد يُراد بالمنْع أن يُمنَعَ الشّخص وحدَه، وبالصّدِّ المنْع العامُّ له ولغيره[6]، أمّا الصّرْف فمنْعٌ وصَدٌّ، لكنّه يَزيد بأنّه تغيُّرٌ من حالةٍ إلى حالة، ومن أمْرٍ إلى أمرٍ؛ كتصريف الرّياح: هو صَرْفها من حالٍ لِحال[7].

الصّدُّ منْعٌ مقصود، والمنْع أعمُّ، والصَّرف تحوّلٌ عن حالةٍ إلى أخرى

(1) الرّاغب، المفردات: (أجل).
(2) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/332.
(3) السّيوطيّ، معترك الأقران: 3/305.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/284.
(5) العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 311.
(6) قليوبيّ وعميرة، حاشيتا القليوبيّ وعميرة: 4/294.
(7) الرّاغب، المفردات: (صرف).

السّلطان والحجّة:

السُّلطان حجَّةٌ قـاهـرةٌ بـاهـرة، والـحُـجّـةُ دليلٌ مقنِع

الحُجّة سلطان، وقد سمّيَت بذلك؛ لأنّ صاحب الحُجّة يَقهَر مَن لا حُجّة معه عند النَّظَر؛ كما يَقهر السُّلطان غيرَهُ، فلهذا توصَف الحُجّة بأنّها سلطان، قال الزّجّاج: السّلطان هو الحُجّة، والسّلطان سمّي سلطانًا لأنّه حُجّة اللّه في أرضهِ، والسّلطان لا يُجمَع لأنّ مجراه مجرى المصدَر[1]، أمّا الحُجّة فتُجمع فيُقال: حُجَجٌ، والسّلطان يُذكَّر ويؤنَّث، أمّا الحُجّة فهي على التّأنيث دَومًا، وكلُّ سلطانٍ في القرآن حُجّةٌ[2]، وليسَتْ كلُّ حُجّةٍ سلطانًا، فالسّلطان يُفسَّر بالحُجّة، وليس شَرْطًا أن تُفسَّرَ الحُجّة بالسّلطان.

(1) الجوهريّ، الصّحاح: (سلط)، وابن منظور، لسان العرب: (سلط).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (سلط).

﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾﴾ [إبراهيم: 11]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

مُتّكأ الكافرين في إنكار الرّسالات السّماويّة اجتماع الرّسالة مع وصف البشريّة

بعدما رصد القرآن الكريم ذلك التّكذيب الجماعيّ لإنكار اجتماع البشريّة مع الرّسالة في قوله: ﴿قَالُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾﴾ [إبراهيم: 10]، فجاءت الآية الكريمة هنا ردًّا على هذا الاستغراب، كأنّها جواب عن سؤال: فما كان جواب الرُّسل؟ فقيل: ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَمُنُّ﴾: جذر الكلمة هو (منّ)؛ والمِنّة النّعمة الثّقيلة، فيُقال: مَنَّ فلان على فلان: إذا أثقله بالنّعمة، والمِنّة في هذه الآية هي ما يَمُنّ الله به على أنبيائه ورُسله، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١١٤﴾﴾ [الصّافات: 114]، أو ما يمُنّ الله به على المؤمنين من نعمة الإيمان، وعلى ذلك قوله: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: 164]، و﴿كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ [النّساء: 94]، و﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ﴾ [القَصَص: 5]، وذلك على الحقيقة لا يكون إلّا لله تعالى. فالمَنّ إشارة إلى الإطلاق بلا عِوَض. وقوله: ﴿هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾﴾ [ص: 39]؛ أيْ: أنفقه[1].

2) ﴿بِسُلْطَٰنٍ﴾: جذر الكلمة هو (سلط)؛ السُّلْطانُ: الحُجّة[2]، قال

(1) الرّاغب، المفردات: (منن).
(2) الخليل، العين، وابن سِيده، المُحكم: (سلط).

تعالى: ﴿هَلَكَ عَنِّي سُلۡطَٰنِيَهۡ ٢٩﴾ [الحاقّة: 29]؛ أيْ: حُجّتِيَه. والسُّلْطان: قُدرةُ الملكِ، وقُدرة مَن جُعِلَ ذلك له وإنْ لم يكن مَلِكًا، كقولك: قد جَعَلْتُ له سُلطانًا على أخذِ حقّي من فلان[1]. والمعنى في الآية: وما كان لنا أن نأتيَكم بسلطان إلّا بإذن الله؛ أيْ: ولسنا مالكين لسلطان الله؛ فهو وحده سبحانه مالك سلطان هذا الكون.

3) ﴿فَلۡيَتَوَكَّلِ﴾: جذر الكلمة هو: (وكل)؛ والتَّوَكُّلُ: إظهار العجز والاعتماد على غيرك، واتَّكَلَ على فلان في أمره إذا اعتمده[2]. وهو الاعتماد، وتفويض التَّدبير إلى الغير، ثقة بأنَّه أعلم بما يصلح، فالتَّوكّل على الله تحقُّق أنَّه أعلم بما ينفع أولياءَه من خير الدُّنيا والآخرة[3]. والتّوكّل: أن تعتمد على غيرك وتجعله نائبًا عنك، والوَكِيلُ فعيلٌ بمعنى المفعول. قال تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ٨١﴾ [النّساء: 81]؛ أيْ: اكتف به أن يتولّى أمرك، ويَتَوَكَّلَ لك، وعلى هذا: ﴿حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ ١٧٣﴾ [آل عمران: 173][4].

❁ المَعْنى الإجْمالِيُّ:

الآية الكريمة تُبيّن ردّ الرُّسل مقالة الكافرين الّتي أجملتها الآية السّابقة ﴿قَالُوٓاْ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا﴾ [إبراهيم: 10]، والمعنى: أنّ الله فضّلنا على سائر البشر بالرّسالة، وهذه مِنّة من الله على مَن يشاء من عباده، أن جعلنا أنبياء وكلّفنا بالرّسالة. ولا سبيل لنا أن نأتيَكم بِسُلۡطَانٍ إلّا بِإِذۡنِ الله؛ لأنَّ الأمر بيد الله تعالى وحده، وعلى المؤمنين أن يتوكّلوا على الله في جميع أمورهم وأحوالهم، ونحن أحوج إلى التّوكّل على الله في نُصرة دعوتنا طلبًا لهداية النّاس.

تفضيل الرُّسل على جنسهم من البشر مِنّة كبرى من الله، والإيثار بالمِنن شأن الله في خَلقه

(1) الخليل، العين: (سلط).
(2) الرّازيّ، مختار الصّحاح: (وكل).
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/202.
(4) الرّاغب، المفردات: (وكل).

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

غرض التّعبير بأسلوب شبه كمال الاتّصال:

في الجواب عن التّساؤلات إزالة للوهم الحاصل

فُصِلَت الآية ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ﴾ عن سابقتها لأنّ بينهما شبه كمال اتّصال؛ فهذه الآية جاءت ردًّا على اتّهام أقوامهم لهم بأنّهم بشر، فهي جواب عن سؤال مُقدّر: بماذا ردّ الرّسل عليهم؟ فبيّنت أنّ الرّسل بشرٌ مثل أقوامهم؛ بل هم مبعوثون من أقوامهم طلبًا لهدايتهم، والله يمنّ بالرّسالة على مَن يشاء من عباده، ليكونوا رُسلًا من عنده سبحانه إلى أقوامهم وأُممهم.

دلالة اللّام في قوله: ﴿لَهُمْ﴾:

الرّسالات السّماويّة خطابٌ لأصحاب العُقول

(اللّام) في قوله: ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ﴾ حرف جرٍّ للتّعليل، وتُفيد معنى الاختصاص؛ أيْ: إنّ الاسم الّذي يأتي بعد حرف الجرّ (اللّام) يكونُ مُختصًّا بالحَدَث، مثل قوله تعالى: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [ق: 31]. وذكر ابن عاشور: (اللّامُ) الدّاخلة بعد فعل القول في نحو: أقول لك، لام تعليل؛ أيْ: أقول قولي لأجلك[1]. فاختصَّت تلك الأقوام بأقوال رسلهم طلبًا لهدايتهم، كي لا يكون للنّاس على الله حُجّة بعد الرّسل.

نكتة تقديم شِبه الجملة: ﴿لَهُمْ﴾:

كلّ رسول يكون نذيرًا لقومه خاصّةً؛ فهو أعرف النّاس بهم

وتقديم شبه الجملة ﴿لَهُمْ﴾ للاختصاص؛ وفائدته قصر الفعل على المُتقدّم ﴿لَهُمْ﴾، فبيّن هنا اختصاص الأقوام بما قالته الرّسل ردًّا على تعلّاتهم، وإنكارهم على الرّسل بشريّتهم، وتركوا الرّسالة الّتي هي محور المُحاججة والخطاب، فقوله: ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ﴾ مجاراة معهم في أوّل مقالتِهم، وإنّما قيل: ﴿لَهُمْ﴾ لاختصاص الكلام بهم؛ إذْ أُريد إلزامُهم، بخلاف ما سلف من إنكار وقوعِ الشّكِّ في الله سبحانه؛ فإنّ ذلك عامٌّ وإن اختصّ بهم ما يعقُبه[2].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/202.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/37.

غرض عود الضّمير في: ﴿لَهُمْ﴾:

المُخاطَب الأوّل بالرّسالة هم الّذين عاصروا الرّسول

الضَّمير في قوله: ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ﴾ عائد على أهل القُرى الّتي كذّبت الرّسل وهم: ﴿قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [إبراهيم: 9]، فقد جمعتهم قضيّة واحدة هي أساليب تكذيبهم، وطريقة الإنكار على الرّسل، فهم لم يُنكروا عليهم الرّسالة، وإنّما أنكروا أحقيّة الرّسول بالرّسالة، فقد أنكروا عليهم بشريّتهم.

الفرق بين نظم آية ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ﴾ وسابقتها:

الخطاب للمُكذِّبين من النّاس والخطاب لعمومهم

وقف ابن عرفة على الفرق بين نظم الآيتيْن: ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ﴾، والّتي سبقتها: ﴿۞قَالَتْ رُسُلُهُمْ﴾ [إبراهيم: 10]؛ إذ ذَكَرَ وجهًا للتَّفرقة بينهما: هو زيادة ﴿لَهُمْ﴾ في قوله: ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ﴾، فهذه قيلت خاصّةً بالمُكذّبين من أقوامهم؛ فهي جواب عن كلامٍ صدر منهم، والمقالة الأولى يقولونها لهم ولغيرهم؛ أيْ: للمُصدِّقين والمكذِّبين. فهو خطاب لعموم الأقوام، كما أنّ وجود الله أمر نظريٌّ لِمَن خوطب أوّل مرّةٍ بالرّسالة والإيمان، فكان كلام الرُّسل في شأنه خطابًا لعموم أقوامهم، وأمّا بعْثة الرّسل فهي أمرٌ ضروريّ ظاهرٌ بيّنٌ أمامهم، لا يحتاج إلى نظرٍ وتفكّر، فكأنّه قال: ما قالوا هذا إلّا للمكذِّبين لغباوتهم، وجهلهم لا لغيرهم[1].

سرّ إضافة الرّسل إلى ضمير أقوام:

الرّسل من جنس أقوامهم فذلك أدعى لتصديقهم

في قوله: ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ﴾ أضاف (الرسل) إلى ضمير أقوامهم لبيان قُربهم إليهم، وأنّ أولئك الرّسل قد نشأوا مع أقوامهم، ويعرفونهم ويعلمون صدقهم ويعلمون صلاحهم، فيكون ذلك حجّة دامغة على الأقوام، وهذا من مقاصد القرآن في بيان أنّ الله يرسل الرّسل من الأقوام نفسها؛ ليكون الرّسول عالِمًا بلسان قومه، فيكون ذلك أنسب للبلاغ.

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/444، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/201 - 202.

نكتة التّعبير بالقصر ﴿إِن نَّحۡنُ إِلَّا بَشَرٞ﴾:

جاء القصر بطريق النّفي والاستثناء تناسبًا مع ما جاء في قوله: ﴿قَالُوٓاْ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا﴾ [إبراهيم: 10] في الآية السّابقة، والقصر بطريق النّفي والاستثناء يكون فيما يُنكره المخاطَب، أو ما يُنزّل منزلته، والّذين كفروا نزّلوا المرسلين منزلةَ المُنكِرين؛ لاستعظام أن يأتي بشرٌ مثلهم برسالة من عند اللّه. فجاء ردّ الرّسل مقالتهم بالأسلوب نفسه، فالأنبياء بيّنوا أنّ التّماثل في البشريّة والإنسانيّة لا يمنع من اختصاص بعض البشر بالنّبوة؛ لأنّ النّبوّة من أعظم ما يَمُنُّ اللّه به على مَن يشاء من عباده[1].

المُنكِرون يخاطَبون بأقوى الأساليب في حمل المعاني للمُخاطب

نكتة الاقتصار في الخبر ﴿إِن نَّحۡنُ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ﴾:

قوله: ﴿إِن نَّحۡنُ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ﴾ تسليم لقولهم ومسايرة لهم، وأنّهم بشر مثلهم، يعنون أنّهم مثلهم في البشريّة وحدها، فأمّا ما وراء ذلك فليس كذلك، فهم أنبياء مصطَفَون، ولكنّهم لم يذكروا فضلهم تواضعًا منهم، واقتصروا على قولهم: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۖ﴾ بالنّبوّة؛ لأنّه قد علم أنَّه لا يختصّهم بتلك الكرامة إلّا وهم أهل لاختصاصهم بها، لخصائص فيهم قد أوثروا بها على أبناء جنسهم[2].

البشريّة هي المشترك بين الرّسل وأقوامهم

غرض تنكير الخبر ﴿بَشَرٞ﴾:

وردت ﴿بَشَرٞ﴾ هنا مُنكّرةً، وقد خرج التّنكير إلى معنى التّهوين والتّحقير؛ إذ ليس من شأن البشر أن يدّعوا خبر السّماء، فردّ عليهم أنبياؤهم بأنّهم بشرٌ من باب المُجاراة، ولكنّهم اختُصّوا بالوحي.

العبرة تكون بالرّسالة لا بأشكال الرّسل وبَشريّتهم

سرُّ تقييد الخبر ﴿بَشَرٞ﴾ بوصف ﴿مِّثۡلُكُمۡ﴾:

جاء القيد في الآية ﴿إِن نَّحۡنُ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ﴾ مُطابقًا للقيد في

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 19/74.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/511.

مطابقة الرّدّ للاعتراض من أبلغ المناسبة

﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ [إبراهيم: 10]، لتمام الجواب والإحاطة بما جاء في الاعتراض والتّكذيب استيفاءً للحُجّة، وإفحامًا للخَصْم، ببيان أنّ ما يرونه علّةً مانعةً هو وصف محقّق للبلاغ، وفي ذلك تأكيدٌ لنفي كون البشريّة مانعًا من الرّسالة، بل التّماثل أوْلى بالبلاغ وأنفى للالتباس، لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ۝٩﴾ [الأنعام: 9].

دلالة الواو في قوله: ﴿وَلَٰكِنَّ﴾:

النّعمة كلّها في اصطفاء الرّسل من البشر للبشر

في قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ نجد أنّ الواو عاطفة، للجمع بين المعطوف والمعطوف عليه في حُكمٍ واحدٍ، فلمّا ذكر المماثلة في البشريّة جمع معها المِنّة من الله، وهي مخالفة الآخرين بمزايا كثيرة، فمنهم مَنْ مَنَّ الله عليهم بالرّسالة والنّبوّة، ومنهم مَنْ مَنَّ اللهُ عليهم بصُحبة الرُّسل والإيمان بهم، ومنهم مَنْ مَنَّ الله عليهم بالإيمان الصّادق واليقين دون الصّحبة، والمِنّةُ المخصوصة في الآية هي منّة الرّسالة والنّبوّة، وهي أعظم مِنن الله على عباده، فجَعَلت منهم أنبياء ورُسلًا.

غرض الاستدراك بالجملة الاسميّة ﴿ٱللَّهَ يَمُنُّ﴾:

المِنّة بالرّسالة من الله وحده لأمورٍ هو بها عليم

في قوله ﷻ: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ جاءت أداة الاستدراك من بعدها جملةً اسميّةً، قدّم المُسند إليه على خبره الفعليّ، والمُسند إليه هو الاسم الجليل لتربية المهابة، وإشعارًا بعِظَم المِنّة، وجاء الخبر بالجملة الفعليّة لإفادة الاختصاص وتأكيده، وتقويةً للمعنى، وذلك يأتي من تكرار الإسناد؛ فالجملة الفعليّة أُسندت للمُسنَد إليه، والفعل فاعله ضمير مستتر يعود على الاسم الجليل، فكأنّه قيل: اللهُ يمُنّ اللهُ يمُنّ، وفي كلّ ذلك تعظيم لقدر هذه المِنّة.

دلالة التّعبير بالمضارع ﴿يَمُنُّ﴾:

من شُكر المِنّة استحضارُها دائمًا وتجدُّد ذِكرها حالًا ومقالًا

التّعبير بالمضارع في موضع الماضي دلالة على تجدُّد النّعمة، وإيماء إلى امتداد آثارها، ومعاملة الآثار معاملة المؤثّر في الحضور الدّائم والتّأثير البالغ الّذي يظهر في الأجيال المتتابعة، فليست المنّة بالنّبوّة، والرّسالة مقتصرة على أزمنة الرُّسل لكنّها سارية ممتدة، وهذا ما يهدي إليه استخدام المضارع عكس الماضي الّذي يدلّ على مُضيّ الوقت وانتهاء الحدَث، وهو ممّا لا يليق بسياق السّباق ولا اللّحاق، فالفعل المضارع يفيد الاستمرار والتّجدّد، فمِنَّة الله تعالى على عباده مُستمرّة إلى يوم القيامة، فالمضارع يدلُّ على الحال والاستقبال[1]، إذ يشترك فيه الحاضر والمستقبل[2].

سرُّ التّعبير بحرف الاستعلاء ﴿يَمُنُّ عَلَىٰ﴾:

المِنّة مظلّة رحمةٍ عالية من الله لعباده المؤمنين

يدلّ الحرف ﴿عَلَىٰ﴾ على الاستعلاء حقيقة كان أم مجازًا، وهو هنا في قوله: ﴿يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾ كاشف لفضل الله ومُفسّرٌ لمنّته التّامّة على عباده؛ إذ هو فضل الله في ذلك كلّه، ولا فضل لأحدٍ في ذلك غير فضل الله ومنّته على خلقه. والآية من قبيل الاستعلاء المجازيّ، فكأنّ المنّة عَلَت على مَن يشاء الله من عباده، فهي كالظُّلّة لهم، تصاحبهم بفضل الله ومِنّته.

نكتة التّعبير بالاسم الموصول ﴿مَن﴾:

المِنَنُ الإلهيّة شاملةٌ لعموم أهل الإيمان

أفاد الموصول في قوله: ﴿مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ﴾ التّعميمَ؛ مثل قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُواْ﴾ [فُصّلت: 30]، و﴿مَن﴾ اسم موصول يختصّ بأولي العلم، وهو للمُفرد والمُثنّى والجمع والمُذكَّر والمُؤنّث، فيكون في إيراده في هذا المقام دلالة شمول مِنّة الله على جميع عباده المؤمنين.

(1) المُبرِّد، المُقتضب: 2/2.
(2) الزّمخشريّ، المُفصّل: 2/137.

دلالة التّعبير بالمضارع ﴿يَشَآءُ﴾:

منّة الله على عباده المؤمنين لا تنقطع إلى قيام السّاعة

فائدة الفعل المضارع التّجدُّد والاستمرار، وفائدة الفعل ﴿يَشَآءُ﴾ بيان شمول المشيئة الإلهيّة لجميع الأزمنة في المِنّة والاختيار، والتّقدير: فلا يكون شيء إلّا بمشيئته واختياره سبحانه، قال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخۡتَارُۗ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلۡخِيَرَةُۚ﴾ [القصص: 68]، وفائدة الفعل المضارع ﴿يَشَآءُ﴾ في هذا الخطاب إطماعُ المُخاطَبين بفضل الله تعالى ومِنّته؛ وفيه ردّ الأسباب إلى الله، وليس كلّ أمر تتبيّن أسبابه.

دلالة حرف الجرّ في: ﴿مِنۡ عِبَادِهِۦۖ﴾:

اصطفاء الرُّسل خاضع لمشيئة الله لبعض عباده

الرّاجح أنّ ﴿مِنۡ﴾ هنا للتَّبعيض، فالله تعالى يختصّ بعضًا من عباده ليمُنّ عليهم بالهداية والعلم والرّسالة والنّبوّة، وذُكر في (المُقتَضَب) أنّ كونها للتّبعيض راجع إلى ابتداء الغاية[1].

سرُّ إضافة (عباد) إلى ضمير العظمة: ﴿عِبَادِهِۦۖ﴾:

إضافة العبوديّة للضّمير العائد على الاسم الجليل تشريف

أضاف لفظ (عباد) إلى ضمير العظمة لفائدة قرب النّاس من الله سبحانه فهو خالقهم وهم عباده؛ فإمّا أن يكونوا عبادًا طائعين، وإمّا أن يكونوا عبادًا عاصين. و(عباده) هنا بمعنى خلْقه الّذين خَلَق؛ فيُنعم على مَن يَشاء من عباده بالنُّبوَّة، وَقيل: بالتّوفيق والهدايَة[2]، وفي الإضافة تشريف وتعظيم لشأن العبوديّة لله.

معنى الواو في قوله: ﴿وَمَا كَانَ﴾:

الحُجج وحيٌ من الله وليست اجتهادًا فرديًّا

الواو في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ﴾ عاطفة للجمع؛ إذْ جمعت بين منّة الله تعالى على عباده من الأنبياء بإرسال الرّسالات وفضله عليهم، فعطف عليها ما يؤكّد هذه المنّة من كون حُجج الرّسالات وحيًا من الله لا اجتهادًا فرديًّا منهم، فهم مُبلِّغون.

(1) المُبرِّد، المُقتضب: 1/44.
(2) السّمعانيّ، تفسير القرآن: 3/107.

سرُّ التّعبير بالكون المنفيّ ﴿وَمَا كَانَ﴾:

التّركيب في قوله: ﴿وَمَا كَانَ﴾ أفاد نفي الماضي والحال والاستقبال، وقوله: ﴿وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأۡتِيَكُم بِسُلۡطَٰنٍ﴾، هذه العبارة إذا قالها الإنسان عن نفسه، أو قيلت له فيما يقع تحت مقدوره؛ فمعناها: النّهي والحظر، وإن كان ذلك فيما لا قدرة له عليه، فمعناها نفي ذلك الأمر جملةً، وكذا هي في الآية، قال المهدويّ: "لفظها لفظ الحظر، ومعناها النّفي"[1]؛ والمعنى: لم يكن في أصل خلقتنا أن تكون لنا قدرة على أن نأتيَكم بمعجزات تقترحونها، فما نحن إلّا بشرٌ مثلكم، فاللّه تعالى خلقنا بشرًا كما خلقكم بشرًا، وإنّما المعجزات هي أفعال للّه تعالى، فلن تجدوا منّا من خوارق الأمور إلّا بإذنه سبحانه.

خلق الله الرّسل بشرًا كما خلق أقوامهم، والمعجزات هي أفعال لله وحده

معنى اللّام في قوله: ﴿لَنَآ﴾:

في قوله ﷻ: ﴿وَمَا كَانَ لَنَآ﴾ (اللّام) لام الملك، وفائدتها التّأكيد على عدم امتلاك القدرة على الإتيان بالحُجج والمعجزات من غير إذن، وليس بمقدور المُرسَلين أن يأتوا بالمعجزات من تلقاء أنفسهم.

المعجزات أفعال لله يختصُّ بها وحده دون غيره

نكتة تقديم شبه الجملة ﴿لَنَآ﴾:

وتقديم شبه الجملة ﴿لَنَآ﴾ للاختصاص؛ أيْ إنّه قصر المُسنَد إليه على المُسنَد المُتقدّم، ونفيُ العبارة أفاد أنّهم اختصّوا أنفسهم بالعجز عن الإتيان بالمُعجزات، فجعلوا من أنفسهم أنموذجًا وقدوة لعجز البشر؛ وهم رسُلٌ من عند اللّه فكيف بغيرهم؟

نَفيُ الرّسل عن أنفسهم أفعال الله فهو وحده القادر

دلالة (أنْ) في قوله: ﴿أَن نَّأۡتِيَكُم﴾:

تدخل (أنْ) على الفعل المضارع فتصرفه إلى الاستقبال؛ والمعنى هنا: وما كان لنا لنأتيكم؛ فـ ﴿أَن﴾ هُنا أفادت التّعليل، وتُعرَب مع ما بعدها على أنّها مصدر مؤوّل اسم كان، وهي كثيرة في القرآن الكريم،

لم يودِع اللهُ في البشر قدرة الإتيان بالمعجزات؛ بل اختصّ نفسه بها

(1) ابن عطيّة، المُحرّر الوجيز: 3/329.

وجاء في (المُقتَضَب) أنّها تكون علّة لوقوع الشَّيء[1]؛ أي إنّ علّة عدم إتياننا بما اقترحتموه من المعجزات أنّ اللّه لم يودِع فينا تلك القدرة، فما نحن إلّا بشر مثلكم، قد مَنّ اللّه علينا بالرّسالة والهداية.

دلالة التّعبير بالمضارع ﴿نَّأۡتِيَكُم﴾:

التّعبير بصيغة المضارع ﴿نَّأۡتِيَكُم﴾ لإفادةِ التّجدّد في إمكان حدوث الحدَث، فلمّا سُبق بالتّركيب: ﴿وَمَا كَانَ لَنَآ﴾ دلّ على نفي تجدّد واحتمال أن نأتيَكم مستقبلًا؛ فلن يكون منّا، ولا من رسول بعدنا أن يأتيَ قومه بآية من عند نفسه؛ إنّما هي أفعال اللّه تعالى يقدّرها متى شاء وأين شاء.

نفي الرّسل قدرتهم على الإتيان بالمقترحات المُعجزة حاضرًا ومستقبلًا

معنى الباء في قوله: ﴿بِسُلۡطَٰنٍ﴾:

(الباء) في جميع أحوالها تُفيد الإلصاق، قال سيبويْه: "وباء الجرِّ إنّما هي للإلزاق والاختلاط"[2]، وجاء في المُقتَضَب: "وأمّا الباء فمعناه: الإلصاق بالشَّيء"[3]، فقوله: ﴿بِسُلۡطَٰنٍ﴾ من الإلصاق المجازيّ؛ إذِ المعنى التصاق السُّلطان أوِ المعجزة بالقائلين، وفائدة ذلك، أنّ المعجزات إنْ أذن بها اللّه فهي قريبة جدًّا منهم ملتصقة بهم، وسائرة على أيديهم، وأمّا إن لم يأذن بها اللّه فلا يكون شيء من ذلك قطعًا.

معجزةُ الله جاريةٌ على يد مَن يُكلّفه بتبليغ الرّسالة

غرض تنكير ﴿بِسُلۡطَٰنٍ﴾:

فائدة التّنكير لكلمة (سلطان) في قوله ﴿بِسُلۡطَٰنٍ﴾ هو التّعظيم لشأن المعجزة وما طلبوه واقترحوه منها؛ إذ لا يكون ذلك إلّا بإذنه سبحانه، والسّلطان يقتضي الهيمنة والقُدرة على تغيير نواميس الكون بحسب مشيئة الخالق لها؛ ولا أحد يملك مفاتيح

السُّلطان الهيمنة والقدرة على تغيير نواميس الكون

(1) المُبرِّد، المُقتضب: 3/214.
(2) سيبويه، الكتاب: 2/304.
(3) المبرِّد، المُقتضب: 4/142.

الخَلْق ولا مقاليد السّموات والأرض إلّا اللّه ﷻ، وهذا هو السّلطان الّذي معناه تغييرٌ لبعض نواميس الكون، فيظهر شيئًا خارقًا للعادة وللسُّنن الكونيّة.

معنى الباء في قوله: ﴿بِإِذۡنِ﴾:

(الباء) في جميع أحوالها تُفيد الإلصاق، فقوله: ﴿بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ﴾ من الإلصاق المجازيّ، والمعنى بأمر اللّه؛ فلا يكون شيءٌ ممّا اقترحتموه إلّا بأمر اللّه، فحدوث ذلك ملتصق بإذن اللّه تعالى في ذلك؛ و﴿بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ﴾ تعني: بإرادته سبحانه في تغيير بعض نواميس الكون، يراه بعض النّاس في آية ماديّة، ثمّ تتناقلها الأخبار، وتحتفظ بذِكْرها الكتب السّماويّة؛ كدلالة على صدق الرّسل في رسالاتهم، وتأييد اللّه لهم.

الإتيان بالمعجزات ملتصق بإرادة الله سبحانه

سرُّ الإضافة إلى لفظ الجلالة في: ﴿بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ﴾:

الإضافة نسبة اسم إلى اسم آخر، فقوله: ﴿بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ﴾ نسبَ الإذن إلى اسم اللّه الأعظم، فتعرّف المضاف بالمُضاف إليه، فقوله: ﴿بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ﴾ عمومًا تعني مشيئته سبحانه؛ والمشيئة تقتضي القُدرة، والقُدرة تقتضي القيّوميّة، وهكذا تتواصل أسماء اللّه وصفاته جميعها لتضمن إظهار عظمة قوله: ﴿بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ﴾ في إقامة سلطانه وإظهار وبيان معجزاته وآياته، لتكون أدلّة على وحدانيّته سبحانه.

معنى (بإذن الله) تقتضي قدرة خارجة عن قدرات البشر

غرض القصرِ ﴿وَمَا كَانَ لَنَآ﴾:

عبّر بالقصر بطريق النّفي والاستثناء - وهو أقوى طرق القصر - للرّدّ على مُنكري اجتماع البشريّة مع الرّسالة، واصطفى أقوى الطّرق لكونها تأتي فيما يُنكره المخاطَب، فالغرض من التّعبير تمكين المعنى وتقويته، للتّأكيد على أنّه مع التّماثل في البشريّة ميّزتهم المنّة بهذه الخصوصيّة، فكما خصّهم اللّه بالرّسالة خصّهم بالحُجّة بإذنه.

لا حُجّة لأحدٍ من الرّسل المُكلّفين إلّا بإذن الله

معنى الواو في قوله: ﴿وَعَلَى ٱللَّـهِ﴾:

بيان عظيم التّوكّل على الله ﷻ

عُطف قوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ وذلك تبيّنًا لمّا سأله القوم من الإتيان بسلطان مبين؛ أنّه ليس ذلك إليهم، ولكنَّه بمشيئة اللّه، وليس اللّه بمُكرَه على إجابة مَن يتحدّاه[1]، فإنْ أيَّدَنا اللّه بالسّلطان فذلك حجّة على النّاس، وإلّا فإنّ اللّه قد مَنّ علينا بالإيمان، وفضّلنا على غير المؤمنين.

فائدة تقديم شبه الجملة ﴿وَعَلَى ٱللَّـهِ﴾:

الله وحده ناصر عباده المؤمنين على أعدائهم

وتقديم المجرور في قوله: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ مُؤذِن بالحصر؛ وأنّهم لا يرجون نصرًا من غير اللّه تعالى فهو ناصر المؤمنين سبحانه، وفيه إيماء إلى أنّهم واثقون بنصر اللّه. والجملة معطوفة بالواو عطفَ الإنشاء على الخبر[2].

نكتة إظهار لفظ الجلالة في موضع الإضمار:

لفت النّظر إلى عظيم شأن التّوكّل على الله

في قوله: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ أظهر البيان القرآنيّ لفظ الجلالة في موضع الإضمار؛ فلم يَقُل: (وعليه فليتوكل المؤمنون)، وفائدة ذلك الاهتمام ولفت النّظر إلى عظيم شأن التّوكّل على اللّه سبحانه، ولذلك فإنّ الرّسل هم أكثر النّاس وأصدقهم توكّلًا على اللّه تعالى؛ لأنّهم المَثَل الأعلى للنّاس في ذلك؛ وهذه واحدة من المِنَن الإلهية عليهم، فالتّوكّل على اللّه هو دأب المؤمنين، وهو السّبيل إلى فوزهم ونجاتهم.

معنى الفاء في قوله: ﴿فَلۡيَتَوَكَّلِ﴾:

التّوكّل على الله مفتاح النّصر والتّمكين لعباده المؤمنين

والفاء في قوله ﷻ: ﴿فَلۡيَتَوَكَّلِ﴾ رابطة لجملة (لۡيَتَوَكَّلِ الۡمُؤۡمِنونَ) بما أفادهُ تقديم المجرور من معنى الشّرط الّذي يدلّ عليه المقام. والتَّقدير: إنْ عجبتم من قلّة اكتراثنا بتكذيبكم أيّها الكافرون، وإن خشيتم هؤلاء المُكذّبين أيّها المؤمنون؛ فليتوكل المؤمنون على اللّه،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/202.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/202.

فإنّهم لن يضيرهم عدوّهم، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ٢٣﴾ [المائدة: 23][1].

معنى اللّام في: ﴿فَلۡيَتَوَكَّلِ﴾:

الأمر أفاد تثبيت النّفوس المؤمنة بمعية الله وعنايته

و(اللّام) في قوله تعالى: ﴿فَلۡيَتَوَكَّلِ﴾ لام الأمر. وقرأها الجُمهور ساكنةً، وقرأها الحسَن مكسورة، وتحريكها بالكسر هو أصلها. وتسكينها طلب التّخفيف؛ ولكثرة استعمالها وللفرق بينها وبين (لام كي) الّتي ألزمت الحركة إجماعًا[2]. فجاء الأمر بالتّوكّل على الله سبحانه؛ لأنّه لا ملجأ إليهم إلّا الله سبحانه والتّوكّل عليه، والتّعبير بالمضارع المُقترن الأمر لإفادة التّنفيذ العاجل وجعله حاضرًا، فاللّام جعلت للأمر سبيلًا وشبحُ الفعل المضارع بدلالته الحاليّة ماثل فيها أيضًا، وهذا فضل التّعبير بالمضارع المُقترن بلام الأمر على التّعبير بالأمر مباشرة، والمعنى: اجعلوا التّوكُّل حاضرًا.

الغرض من التّعبير بالجملة الإنشائيّة:

التّوكّل على الله استعدادًا للثّبات واليقين والمواجهة

الواو في قوله: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ﴾ للاستئناف، لا للعطف كما زعم بعضهم، وفائدة الاستئناف هنا أنّ هذا المعنى جدير بالتأسيس؛ فهو معنى مستقلّ جارٍ في كل شئون الحياة، وهو هنا كأنّه جار مجرى المثل، لبيان أنّ حياة المؤمن على التّوكّل على الله تعالى.

معنى (ال) في قوله: ﴿ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾:

التّوكّل على الله توفيقٌ ومِنّة منه ﷻ

في قوله: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ تفيد (ال) التّعريف الاستغراقَ لكلّ مَن اتّصف بالإيمان؛ لأنّ غير المؤمنين لا يتوكّلون على الله، فهم غير مؤمنين بقدرته سبحانه، فخصّ جماعة المؤمنين بالتّوكّل عليه، وتلك مِنّةٌ عُظمى منه سبحانه أن وفّقهم إلى التّوكّل عليه، والاستعانة به سبحانه.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/202.
(2) ابن عطيّة، المُحرّرُ الوجيز: 3/329.

غرض تقديم ﴿وَعَلَى ٱللَّـهِ﴾:

التّوكّل الحقّ ما كان على الله وحده دون غيره

قدّم البيان القرآنيُّ الجار والمجرور ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ﴾ للاختصاص، تأكيدًا على أنّ الجدير بوصف التّوكّل، هو مَن كان توكّله على الله وحده لا غيره، فهو الفرد الصّمد المقصود بقضاء الحوائج.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الآية والسّلطان والبرهان:

السّلطان هو عظيم شأن الله وقدرته بأن يأتي بالمعجزات والآيات والبراهين

السُّلطان قوّة اليد في القهر للجمهور الأعظم، وللجماعة اليسيرة أيضًا، يُقال: الخليفة سلطان الدُّنيا، يُقال لأمير البلد: سلطان البلد، ولا يُقال له: ملك البلد؛ لأنَّ المَلك هو من اتسعت مقدرته على ما ذكرنا، فالمُلك هو القدرة على أشياء كثيرة، وقيل: السُّلطان المانع المُسلّط على غيره من أنْ يتصرَّف عن مراده، ولهذا يُقال: ليس لك على فلانٍ سلطانٌ فتمنعه من كذا[1]. والسّلطان في سياق الآية بمعنى القادر على التّحكّم بنواميس الكون وسُننه. فيأتي بالآيات الّتي يطلبونها، أو يقترحونها. وهو عظيم شأن الله تعالى وقدرته بأن يأتي بالمعجزات والآيات والبراهين، فعبّر بلفظ (سلطان) وأراد قدرته في تغيير نواميس الكون وإظهار الآيات، أمّا الآية فهي المعجزة نفسها، قال تعالى: ﴿وَمَا نُرۡسِلُ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّا تَخۡوِيفٗا ۝٥٩﴾ [الإسراء: 59]. أمّا البرهان فلا يكون إلّا قولًا يشهد بصحّة الشّيء، والبرهان ما يقصد به قطع حُجّة الخصم، ومنه البُرهة؛ وهي القطعة من الدّلالة، ولا يُعرف صحة ذلك[2].

نكتة التّعبير في: ﴿بِإِذۡنِ ٱللَّـهِ﴾:

القول (إن شاءَ الله) يكون لطلب إنجاز عمل بأنفسنا

استخدام كلمة ﴿إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: 70] تكون عندما نقوم بأنفسنا بعمل حاجةٍ ما، أو نتدخَّل بإنجازها بأنفسنا، قال تعالى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ

(1) العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 282.
(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 97.

لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ [الكهف: 23 - 24]، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيۡنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهۡتَدُونَ ﴿٧٠﴾﴾ [البقرة: 70]، فقالوا: ﴿إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: 70]؛ لأنّهم هم الفاعلون، وكقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱدۡخُلُواْ مِصۡرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾﴾ [يوسف: 99]، وكقوله تعالى: ﴿قَالَ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرٗا﴾ [الكهف: 69]، وغيرها كثير في القرآن.

القول (بإذن الله) يكون لعملٍ بتدبير الله تعالى

أمّا كلمة ﴿بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ﴾ فتكون لعمل ليس لنا أيُّ تدخُّلٍ أو يَدٍ فيهِ؛ بل هو بتدبيرٍ خارجٍ عن إرادتنا كقوله تعالى: ﴿قُلۡ مَن كَانَ عَدُوّٗا لِّجِبۡرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلۡبِكَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: 97]، فإنزال القرآن على رسول الله ﷺ ليس له دخلٌ أو يدٌ فيه؛ بل هو فعلٌ من أفعال الله، وكقوله تعالى: ﴿كَم مِّن فِئَةٖ قَلِيلَةٍ غَلَبَتۡ فِئَةٗ كَثِيرَةَۢ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ﴾ [البقرة: 249]، فيظهر هنا انتصار القلّة على الكثرة بتدبير إلهيّ، وإلّا فالمنطق يقول: إنّهم يهزمون. وكقوله تعالى: ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنۡ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ﴾ [البقرة: 102]، فالسّحر لا يضرّ النّاس إلّا بقضاء الله وإذنه.

﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدۡ هَدَىٰنَا سُبُلَنَاۚ وَلَنَصۡبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيۡتُمُونَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ ١٢﴾ [إبراهيم: 12]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الآية الكريمة استكمالٌ لجواب الرّسل المذكور في الآية السّابقة فـ(ما) هنا تتميم للمعنى السّابق "لمّا بيّنوا وجه المفارقة، عطفوا عليه بيان العُذر فيما طلبوه منهم؛ فقالوا: ﴿وَمَا لَنَآ﴾"[1].

من نعم الله الكبرى توفيقُ الله عباده للتوكّل عليه

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿سُبُلَنَاۚ﴾: جَذْر الكلمة (سبل)؛ السّبيل: الطّريق، وما وضح منه، يُذكَّر ويُؤنَّث، وسبيل الله طريق الهدى الّذي دعا إليه، قال تعالى: ﴿وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلرُّشۡدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗاۖ وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلۡغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗاۚ﴾ [الأعراف: 146]، وقوله تعالى: ﴿وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: 195]؛ أيْ: في الجهاد وكلّ ما أمر الله به من الخير فهو من سبيل الله؛ أيْ: من الطُّرق إلى الله واستعمال السّبيل في الجهاد أكثر؛ لأنّه السّبيل الّذي يقاتل فيه على عقد الدِّين، وقوله: ﴿وَقَدۡ هَدَىٰنَا سُبُلَنَاۚ﴾؛ أيْ: هدانا الشّرائع الّتي أنزلها الله إلينا مُضمّنة في الرّسالات السّماويّة.

2) ﴿ءَاذَيۡتُمُونَاۚ﴾: جَذْر الكلمة هو (أذى)؛ وآذاه يؤذيه أذًى وأذاةً وأذِيَّة[2]، وهو ما يصل إلى الكائن الحيّ من الضّرر، إمّا في نفسه، أو جسمه، أو تبعاته للإنسان دنيويًّا كان أو أُخرويًّا، قال تعالى: ﴿لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ﴾ [البقرة: 264]، وقوله تعالى: ﴿فَـَٔاذُوهُمَاۖ﴾ [النّساء: 16]؛ إشارة إلى الضَّرب[3].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 4/176.
(2) الرّازيّ، مختار الصّحاح: (أذى).
(3) الرّاغب، المفردات: (أذى).

المَعْنى الإجْماليُّ:

يُقرّ الرّسل عليهم السلام بأنّ اللّه سبحانه قد تفضّل عليهم وهداهم للإيمان، وأنّ التّوكّل على اللّه يقتضي الصّبر والمرابطة على كلِّ أذى يمكن أن يواجههم، وتُختم الآية بأنّ التّوكّل على اللّه مطلوب من كلّ المؤمنين به.

التّوكّل على اللّه عقيدة وهي دعوة إليه سبحانه

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

معنى الواو في قوله: ﴿وَمَا لَنَآ﴾:

الواو هنا عاطفة، والوصل بين الجملتيْن من قبيل عطف الجملة الإنشائيّة على الإنشائيّة، فعطف الجملة الاستفهاميّة: ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ﴾ على جملة الأمر: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾، فبعد أن دعت الأولى إلى التّوكّل على اللّه، جاءت الثّانية مُنكِرةً على مَن لا يتوكّل على اللّه، ليُعلم أنّ التّوكّل على اللّه عقيدة دينيّة، وهي مطلب للرّسل والمؤمنين من بعدهم.

التّوكّل على اللّه والدّعوة إليه مطلب المؤمنين جميعًا

غرض الاستفهام ﴿وَمَا لَنَآ﴾:

في قوله: ﴿وَمَا لَنَآ﴾ استفهام إنكاريّ على مَنْ تَرَكَ التّوكّل على اللّه من المؤمنين، وجاء الأسلوب عن نفي الصّارف بطريق الكناية، وهي قولهم: ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدۡ هَدَىٰنَا سُبُلَنَاۚ﴾ وهي أبلغ من التّصريح، و(ما) للسُّؤال عن السَّبب والعُذر، و(أنْ) على تقدير حرف الجرِّ؛ والمعنى: أيُّ عذرٍ لنا في عدم التّوكّل عليه سبحانه؟[1] فالاستفهام إنكارٌ لترك التّوكّل على اللّه؛ إذْ أوقفتهم الرُّسل على جهة التّعجيب والتَّوبيخ، وبيان سبب عدم التّوكّل على اللّه سبحانه، وهو المُنعم عليهم الهادي لهم إلى طريق النّجاة، الّذي فضّلهم على خلقه بأعظم نعمة، وهي نعمة الإيمان، وطريق هذا الإنكار هو نفي

ترك التّوكّل على اللّه مثار للعجب، ومدعاة للإنكار

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/187.

الصّارف عنه بطريق الكناية، فهو أبلغ من التّصريح بالأمر بالتّوكّل، ثمّ أقسموا أن يقع منهم الصَّبر على الإذاية في ذات اللّه تعالى[1].

معنى اللّام في قوله: ﴿لَنَآ﴾:

التّعجيب من حال مَن لا يتوكّل على الله

في قوله تعالى: ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ﴾ هي لام التّعجيب، وهي تدخل على المُتعجَّب منه صلة لفعل مُقدَّرٍ قبله، والمعنى هنا: اعجَبوا إن لم نتوكّل على اللّه. فلن يكون من المؤمنين إلّا التّوكّل على اللّه سبحانه؛ فهذا دأبهم، وفيه تنشيط هممهم، ففي التّوكّل عليه سبحانه أسباب النّصر والنّجاح، وسكينة النّفوس، وهو دليل الهداية، لذلك أردفها قوله: ﴿وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَاۚ﴾.

نكتة إضمار فاعل ﴿نَتَوَكَّلَ﴾:

التّوكّل على الله وحده نتاج الإيمان وعلامته

أفاد إضمار فاعل ﴿نَتَوَكَّلَ﴾ جمع المؤمنين، فلو قال: (نتوكّل نحن) لأفاد تخصيص أنفسهم، لكنّه أضمر لفائدة شمول المؤمنين جميعًا بقضيّة التّوكّل على اللّه سبحانه، فأصبحت قضيّة التّوكيد جزءًا من رواسخ الإيمان، وهو نتاجه وعلامته.

بلاغة إظهار لفظ الجلالة في موضع الإضمار:

بيان النّشاط بالتّوكّل على الله سبحانه

والإظهار لبيان النّشاط بالتّوكّل عليه سبحانه والاستلذاذ باسمه تعالى وتعليل التّوكّل ﴿وَقَدْ هَدَىٰنَا﴾؛ أيْ: والحال أنّه سبحانه قد فعل بنا ما يوجب ذلك، ويستدعيه حيث هدانا سُبُلَنا؛ أيْ: أرشد كلًّا منّا سبيله، ومنهاجَه الّذي شرَعَ له، وأوجب عليه سلوكه في الدّين[2]. فأيّ عذر لنا في ألّا نتوكّل عليه؟ وحيث كانت أذيّة الكفّار ممّا يوجب القلق والاضطراب القادح في التّوكّل[3].

(1) ابن عطيّة، المُحرّرُ الوجيز: 3/329.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/187.
(3) القاسميّ، محاسن التّأويل: 6/306.

معنى الواو في قوله: ﴿وَقَدْ هَدَىٰنَا﴾:

المؤمنون بتوكّلهم في أجَلِّ حالٍ وأحسنِهِ

في قوله عزَّ من قائل: ﴿وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَاۚ﴾ (الواو) عاطفة؛ أو هي واو الحال الّتي تدخل على جملة سواء أكانت فعليّة أم اسميّة، وبشرط أن تكون هذه الجملة مسبوقة في الكلام باسم معرفة، وواو الحال تتضمَّن معنًى ظرفًا زمانيًّا. فالمعنى في الآية: وما لنا ألّا نتوكّل على اللّه في الوقت الّذي قد هدانا سبلنا، فهي تُبيّن حال المؤمنين وهم في أجلِّ وأحسن حال من الهداية وطاعة اللّه؛ إذ تجسّد رضاء اللّه عنهم، وعن مسلكهم في هذا التّوكّل عليه سبحانه والهداية إلى السُّبُل باتّباع شرائعهم الّتي ارتضاها لهم.

دلالة دخول (قد) على الماضي ﴿وَقَدْ هَدَىٰنَا﴾:

تحقّق هداية اللّه تعالى لعباده المؤمنين

تفيد (قد) التَّحقيق والتَّوكيد إذا دخلت على الفعل الماضي المثبت، فالهداية قائمة مُحقّقة، وذلك بمَنِّه عليهم سبحانه بالشّرائع والتزام الهدى باتّباع تلك الشّرائع.

نكتة الإضافة إلى الضّمير في ﴿سُبُلَنَاۚ﴾:

سبيل الهداية هو قرار الإنسان ومستوعب طموحه

إضافة السُّبل إلى ضمير المتكلّمين (الرّسل) أفاد معنى أنّ سبيل الهداية هو السَّبيل الّذي يتحقّق معه الانسجام والقرار، فمثله كمثل القرار للإنسان، والمستوعب له ولطموحاته، فهو الشّريعة وأساليب تطبيقها بما يحقّق رضا الإله سبحانه وفائدة الإضافة أنّ المُتكلّمين - وهم الرّسل - أهل الشّرائع والرّسالات السّماويّة، الّتي لا يكون تطبيقها إلّا من خلالهم، فهم أهل هذا السّبيل وتلك الشّريعة، وهم القدوات في المسلك.

سبب جمع (سبيل) في: ﴿وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَاۚ﴾:

لكلِّ رسولٍ من رسل اللّه شريعته ومنهاجه

في قوله تعالى: ﴿وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَاۚ﴾؛ جَمَع البيان القرآنيُّ السُّبُل، بينما تقرّر في أكثر من موضع أنّ طريق الهدى واحدة؛ قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن

سَبِيلِهِۦۚ﴾ [الأنعام: 153]؛ وقال تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلۡنَا مِنكُمۡ شِرۡعَةٗ وَمِنۡهَاجٗاۚ﴾ [المائدة: 48]؛ فلكلِّ رسولٍ طريقٌ باعتبار شريعته وأحكامه[1]. فالآية جمعت (السُّبُل) باعتبارها الشّرائع، فلكلِّ رسولٍ شريعة سمّاها بالسّبيل، على طريق الاستعارة.

غرض الاستعارة في ﴿سُبُلَنَاۚ﴾:

تنزَّلت الشَّرائع الإلهية لهداية النّاس وفلاحهم

معنى السُّبل في قوله: ﴿وَقَدۡ هَدَىٰنَا سُبُلَنَاۚ﴾؛ الشّرائع الّتي توزّعت على الرّسل عليهم السلام، فالمعنى: وقد هدانا شرائعنا الّتي هي كالسُّبل للنّاس يهتدون إلى مطلبهم ومُبتغاهم، فحَذف المشبّه وهي الشّرائع، وذَكَر المُشبّه به، وهي السُّبل فالاستعارة تصريحيّة، والاستعارة أصليّة لأنَّها حصلت في اسم جامد.

معنى الواو في ﴿وَلَنَصۡبِرَنَّ﴾:

النّصر والتّمكين مطلبٌ صعبٌ يقتضي الصّبر على الأذى

(الواو) استئنافيّة؛ إذ تدلّ على بدء فصل طويل من المجاهدة والصّبر والثّبات، لأنّ النَّصر لا يكون بالأماني، وراحة المُقام، والتّشبّث بالدّنيا، فالنّصر لا يكون إلّا بالجهاد والصَّبر والثّبات، والتّوكّل بعد الإيمان بأنّ النّصر آتٍ لا محالة، وأنّ النَّصر بيد الله سبحانه.

دلالة اللّام في ﴿وَلَنَصۡبِرَنَّ﴾:

إصرار الرّسل على التّوكّل والصّبر وكمال العزيمة

في قوله سبحانه: ﴿وَلَنَصۡبِرَنَّ﴾ دخلت لام القَسَم على الفعل المضارع المؤكّد (نصبرنَّ)، وهي تفيد التَّوكيد والإصرار على التّوكّل والصّبر على ما سيُلاقون جرّاء ذلك من الإيذاء، فقالت الرّسل على سبيل التّوكيد القسميّ، مُظهرين كمال العزيمة: ﴿وَلَنَصۡبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيۡتُمُونَاۚ﴾؛ أيْ: من الكلام السّيّئ والأفعال المؤذية.

نكتة توالي المؤكّدات في ﴿وَلَنَصۡبِرَنَّ﴾:

توالت المؤكِّدات وهي: (لام القسم) و(نون التّوكيد الثَّقيلة)

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/444.

مضافًا إليها الفعلُ المضارع الّذي يُفيد التّجدّد فيظهر كمال العزيمة وينسجم ذلك مع قوله: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ﴾ بما فيه من اهتمام بالتّوكّل عليه سبحانه لأنّ مقام الدّعوة يقتضيه، ولذا أعيد ذِكْره[1]، فتوالي المُؤكِّدات يكشف عن حالات النّفوس الصّادقة المؤمنة العازمة على نصرة الدّين والشّريعة.

وصف حالات النّفوس المؤمنة الصّادقة في نصر دين الله تعالى

دلالة التّعبير بالمضارع ﴿وَلَنَصۡبِرَنَّ﴾:

يفيد التّعبير بالمضارع التّجدّد والاستمرار، فمهما تنوّعت صنوف إعراض الأقوام وأساليب الإيذاء فلن يُثني الرّسل عن صبرهم على دعوتهم للنّاس، وجاءت نون التّوكيد لتحقّق ذلك الصّبر فيهم، وفيمَن اتّبعوهم؛ فالمضارع أفاد التّجدّد والتّنوّع في حالات الصّبر، وأفاد التّجدّد والتّنوّع في العزيمة والإصرار على المواقف الصّادقة الّتي يحبّها الله تعالى.

التّجدّد والاستمرار على المواقف الصّادقة

معنى ﴿مَآ﴾ والجملة بعدها:

و﴿مَآ﴾ في قوله: ﴿مَآ ءَاذَيۡتُمُونَاۚ﴾ مصدريّة، وهي اسم مع ما اتّصل بها من المصدر، أو أنّها موصولة اسميّة بمعنى: الّذي، والعائد محذوف على التّدرّج؛ إذ الأصل: آذيتمونا به، ثمّ حذف الباء فوصل الفعل إليه بنفسه[2]، تقديره: آذيتموناه، وهو يدلّ على عظيم إيذاء الكفّار للمؤمنين[3].

إيذاء الكُفار للمؤمنين كبير وليس بمُستغرَب منهم

نكتة حذف متعلّق الإيذاء ﴿ءَاذَيۡتُمُونَاۚ﴾:

وحيث كانت أذيّة الكفّار ممّا يوجب القلق والاضطراب القادح في التّوكّل، قالوا على سبيل التّوكيد القَسَميّ؛ مُظهرين لكمال العزيمة: ﴿وَلَنَصۡبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيۡتُمُونَاۚ﴾؛ أيْ: على إيذائكم إيّانا بالعناد واقتراح الآيات... وغير ذلك ممّا لا خير فيه. وحذف مُتعلِّق

تنوّع الإيذاء على المؤمنين

(1) القاسميّ، محاسن التّأويل: 6/306.
(2) ابن عادل، تفسير اللّباب: 1/3103.
(3) ابن عطيّة، المُحرّرُ الوجيز: 3/329.

الإيذاء لفائدة تنوّعه وشمول جميع أصناف الإيذاء على المؤمنين؛ إذْ لا تنتهي اجتهاداتهم في إيذاء المؤمنين إلى قيام السّاعة.

معنى الواو في قوله: ﴿وَعَلَى ٱللَّـهِ﴾:

التّوكّل على الله في الدّعوة وفي الصّبر على أذيّة الكافرين

عطف قوله: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ﴾؛ أيْ: فليَثْبُت المتوكّلون على ما أحدثوه من التّوكّل، والمُراد بهم المؤمنون، والتّعبير عنهم بذلك لسبق اتّصافهم به؛ أيْ: بالمؤمنين، وغرض المُرسَلين من ذلك نحو غرضهم ممّا تقدّم[1]. فأفاد العطف الوصل بين الجملتيْن الإنشائيّتيْن، والتّغاير في المعنى؛ لأنّ الأولى دلّت على التّوكّل على اللّه في الدّعوة إلى اللّه والتّحرّك في نشر الإيمان على سبيل الهداية، والثّانية دلّت على التّوكّل على اللّه في الصّبر على الإيذاء من الكفّار المعاندين.

فائدة تقديم شبه الجملة ﴿وَعَلَى ٱللَّـهِ﴾:

المتوكّلون الصّادقون يتوكّلون على الله وحده

تقديم شبه الجملة في قوله ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ﴾ أفاد الاختصاص، فينبغي على المؤمنين ألّا يتوكّلوا على أحدٍ سوى اللّه تعالى، فوصفهم في الآية السّابقة بالمؤمنين، ووصفهم هُنا بالمُتوكّلين، وربما يُتجوّز في المُسنَد إليه؛ فالمعنى: وعليه سبحانه فليتوكّل مريدو التّوكّل. لكنّ الأوّل أوْلى[2].

بلاغة إظهار لفظ الجلالة في موضع الإضمار:

توكيد قضيّة التّوكّل وتمكين المتوكّلين عليه سبحانه

وهو أسلوب يكثر وروده في القرآن الكريم، وأكثر ما يكون بإظهار الأسماء الحسنى - لا سيما الاسم الأجلّ واسم الرّبّ - في مقامات إضمارها. وأوثر المُظهَر على الضّمير؛ لأنَّ لفظ الجلالة وقعُهُ عظيمٌ في القلوب، ونجد في عموم النّصّ أنَّه يدور حول قضيّة الألوهيّة، والدّعوة إلى التّوكّل على اللّه وحده. فوضعُ المُظهَر موضع المُضمَر أفاد توكيد قضيّة التّوكّل على اللّه، وتمكين المُتوكّلين عليه سبحانه.

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/188.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/188.

كما يُفيد هذا الإظهار الاستلذاذ بذِكْر المُظهَر ﴿ٱللَّهِ﴾، وبيان حاجة النّفوس في ساعات الشّدّة إلى ذكر الله لِما يُحدثه الذِّكر من راحة النّفوس واطمئنانها.

معنى الفاء في قوله: ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ﴾:

التّوكّل من أهم أركان نجاح الدّعوة إلى الله سبحانه

الفاء في قوله: ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ﴾ رابطة لجملة (لْيَتَوَكَّلِ الْمُتوكلونَ) بما أفادهُ تقديم المجرور من معنى الشّرط الّذي يدلّ عليه المقام. والتَّقدير: إنْ عجبتم من قلّة اكتراثنا بتكذيبكم أيّها الكافرون، وإن خشيتم هؤلاء المُكذّبين أيّها المؤمنون؛ فليتوكّل المؤمنون على الله، فإنّهم لن يضيرهم عدوُّهم، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ٢٣﴾ [المائدة: 23][1].

معنى اللّام في: ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ﴾:

الطّلب من المؤمنين التزام التّوكّل على الله

دخلت لام الأمر في قوله ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ﴾ على الفعل المضارع لتُفيد الطّلب والأمر، وقرأ الجمهور اللّام في قوله: ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ﴾ ساكنةً، وقرأها الحسَن مكسورةً، وتحريكها بالكسر هو أصلها، وتسكينها طلب التّخفيف[2]، والمُراد بهذا التّوكّل على الله دفع شرّ الكفّار، فمن ثَمّ لا يلزم التّكرار، أو أن يكون الأوّل لاستحداث التّوكّل، والثّاني طلب دوامِه[3]. فهو طلب التزام التّوكّل على الله ﷻ؛ وبهذا الالتزام يكونون مُتوكّلين على الله حقّ التّوكّل، فوصَفَهم بالمُتوكّلين بعد أنْ وصفهم في الأولى بالمؤمنين.

دلالة الأمر ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ﴾:

الوصيّة الواجبة على أهل الإيمان بالتّوكّل عليه سبحانه

وجملة ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ﴾ أمرٌ لِمَن آمن من قومهم بالتَّوكّل على الله، وقصدوا به أنفسهم قصدًا أوليًّا؛ لأنَّهم أوّل

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/202.
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/329.
(3) ابن عادل، تفسير اللُّباب: 1/3103.

المؤمنين بقرينة قولهم: ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدۡ هَدَىٰنَا سُبُلَنَاۚ﴾[1].

وفي هذا الخطاب تحريكٌ للمشاعر، وتثبيتٌ للنّفوس المؤمنة، وهم يواجهون عتوَّ الّذين كفروا وإصرارهم على إيذاء المؤمنين؛ فكانت هذه العبارة وصيّة الرّسل كلّهم - لمَن أقنعوهم من المؤمنين - جاءت بصيغة الأمر لبيان أهمّيّتها، والوقوف على ضرورتها باعتبار التّوكّل على اللّه؛ فالتّوكّل هو جوهر قضيّة الإيمان.

والفرق بين الأمر المباشر والتّعبير بالمضارع المُقترن بلام الأمر أنّ الأخير يُراد منه التّنفيذ على الفور، بحيث يتحوّل المطلوب حاضرًا.

معنى (ال) في ﴿ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ﴾:

تخصيص المتّصفين بالتّوكّل على الله وحده

(ال) التّعريف في قوله: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ﴾ تفيدُ الاستغراق، وقد وصَفَهم بالمتوكِّلين؛ لأنَّهم أكثر توكّلًا من غيرهم، فمَنْ كانت صفتُه التّوكّلَ على عظيم؛ فلا يكون له إلّا أن يتوكّل على اللّه سبحانه، فخصّ جماعة المتوكّلين بالتّوكّل عليه سبحانه، كأنّ اللّام لام الكمال في الصّفة.

نكتة تعدّد احتمالات القائل: ﴿وَعَلَى ٱللَّـهِ﴾:

العبارة بمثابة مثل قرآنيٍّ يُقال في كلّ موقف مُشابه

تتعدّد احتمالات القائل لعبارة: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ﴾؛ فإمّا يكون قد قالها الرّسل أو الّذين آمنوا، وإمّا أنّها من سياق كلام اللّه، فإن كان قد قالها الرّسل؛ فهي من قبيل الإفصاح عمّا جاءوا به في رسالاتهم السّماويّة؛ أنها كلّها تجتمع على محور التّوكّل على اللّه سبحانه فهم قد وصفوا أنفسهم بالمُتوكّلين. وإن كان قول المؤمنين من أتباعهم، فهو نتاج ما قدّمته الرّسل من صحة العقيدة ورسوخ الإيمان، والمؤمنون هم أهل التّوكّل على اللّه والدّاعون إليه، وأمّا إن كان من سياق كلام اللّه سبحانه، فهو من قبيل استجابة اللّه

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/202.

للمؤمنين المتوكّلين حال توكّلهم عليه، وأنّه سبحانه سيمدّهم من عنده بسلطان ينصرهم به على أعدائهم. والعبارة عمومًا بمثابة مثل قرآنيّ؛ فهي تصلح أن تكون استعارة تمثيليّة؛ إذ إنّ هذه العبارة القرآنيّة يقولها كلُّ مؤمن متوكّل قد أسلم أمره إلى الله سبحانه، يقف في موقف تعجز عنه قدرات البشر، وهو يستدعي تنشيط الإيمان في النّفوس والثّبات على المواقف.

فائدة التّغاير في فواصل الآيتيْن السّابقتيْن:

التّغيير الإيجابي في حياة المؤمنين المتوكّلين

تغاير الفاصلة القرآنيّة[1] من المظاهر الصّوتيّة الّتي شكّلت لوحة الجمال والإعجاز للنَّصِّ الكريم؛ لأنَّها لا تقف عند المستوى الصَّوتيّ والدّلاليّ فحسب؛ بل تتّصل بالمستوى النَّحويِّ والبلاغيِّ.

وسميت (فاصلة) لأنّها تفصل بين الآية الّتي قبلها والآية الّتي بعدها. وأنّ تلك الفواصل كلَّها منتهى آياتٍ، ولو كان الكلام الّذي تقع فيه لم يتمَّ فيه الغرض المَسوقُ إليه، وأنّه إذا انتهى الغرض المقصود من الكلام، ولم تقع عند انتهائه فاصلة لا يكون منتهى الكلام إلّا نادرًا[2]. فقد أقيمت فواصل تلك الآيات الواقعة في أوّل السّورة على حرف مكسور بعده ياءُ مدٍّ بعدها حرف، مثل: ﴿عَظِيمٌ ۝٦﴾ [إبراهيم: 6]، ﴿شَدِيدٍ ۝٢﴾ [إبراهيم: 2]، ﴿حَمِيدٌ ۝٨﴾ [إبراهيم: 8]، ﴿مُرِيبٍ ۝٩﴾ [إبراهيم: 9]. وهذه وقعت في ﴿ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾، ﴿ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ على حرفٍ مضموم بعده واو مدٍّ، بعدها حرف النّون، وقد اختُصّت هاتان الآيتان بكلام الرُّسل، وخُتمت بصفتي الإيمان والتّوكّل. وتكمن فائدة هذا التّغاير في الإشارة إلى ما سيُحدثه التّوكّل على الله من التّغيير في حياة المؤمنين المتوكّلين عليه سبحانه. فالفاصلة القرآنيّة مهمّتها توضيح المعنى، وتوفير الرّونق اللّفظي.

(1) وقد عرّفها ابن عاشور في تفسيره بأنّها: "الكلمات الّتي تتماثل في أواخر حروفها أو تتقارب، مع تماثل أو تقارب صيغ النّطق بها، وتتكرّر في السّورة تكررا يُؤذِن بأن تماثلها أو تقاربها مقصود من النّظم في آيات كثيرة متماثلة، يُنظر: ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/75.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/75.

جناس الاشتقاق ﴿فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ﴾:

الرّسل والذين آمنوا معهم سائرون بكُلّيتهم على نهج التّوكّل

هو من المحسّنات اللّفظيّة؛ إذ يعتمد على التّحسين في الكلمات من ناحية اللّفظ. واللّفظان في قوله: ﴿فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ﴾ مشتقّان من مادّة لغويّة واحدة، وأطلق عليه علماء البلاغة اسم (الجناس المُطلق) لتلاقي اللّفظيْن في الاشتقاق، وفائدته إطلاق صفة التّوكّل على المؤمنين؛ فجعلهم يتّصفون بالتّوكّل، وكأنّهم بكُلِّيَّتهم سائرون على نهج التّوكُّل عاملون به.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

السّبيل والطّريق والصّراط:

الصِّراطُ والسَّبيلُ كلاهما يعنيانِ النَّهجَ المسلوكَ إلى الله

في قوله تعالى: ﴿وَقَدۡ هَدَىٰنَا سُبُلَنَاۚ﴾ حثٌّ على العمل بمقتضى ما يريده الله واتّباع سُنن الأنبياء والرّسل وما جاءوا به من البيّنات والهُدى والرّسالات، فلكلِّ نبيٍّ سبيل وشريعة، واتّباع الشّريعة هو الهداية، وهو السَّبيلُ المُيَسّرُ الّذي لا غموض فيه؛ وتكون طاقة الإيمان من بعد ذلك هي الضّامن لديمومة المسير في هذا السّبيل، ومنهج التّوكّل على الله هو المنهج الحقّ، قال تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾؛ فحتمًا سينتهي السَّير في هذا السّبيل إلى رضوان الله تعالى وإلى جنّاته. وإنّما قيل للطَّريق الواضح سراط؛ لأنّه كأنّه يسترط المارّة لكثرة سلوكهم[1]، والصِّراط هو الطَّريق المُستَسهَل، أصله من: سَرَطْتُ الطَّعامَ: ابتَلَعتُه، فقيل: سراط تصوّرًا أنّه يبتلعه سالكُهُ، أو يبتلعُ سالكَهُ[2]، والصّراط: الطَّريق المُستقيم[3]، والصِّراط: طريق عُلمت للسّالك جميعُ معالمه، فهو يعلم جميع ما يلقاه أثناء الطَّريق من بدايته الى نهايته، فالله تعالى قد بيّن دينه

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (سرط).
(2) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (سرط).
(3) الرّاغب، المفردات: (صرط).

ووضّحه، ولا يخفى شيءٌ على مَن أراد أن يسلك صراط اللّه. وجاء الصّراط في القرآن الكريم في أغلب المواضع منسوبًا إلى اللّه تعالى؛ مثل قوله: ﴿وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا﴾ [الأنعام: 126]. بينما خصّ السَّبيل للدّلالة على طريق أهل الضّلال. إلّا في المواضع الّتي جاءت معه القرينة المانعة من ذلك، مثل قوله تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ﴾ [يوسف: 108]. وقوله هنا: ﴿وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ۚ﴾.

وأمّا السّبيل فمنها طريقٌ سالك ومنها غير ذلك؛ فالسَّبيل منها الطّريق الّذي لم يَطرقْه طارق، أو أنّ المُخاطَب به لم يسبق له أن سلكه، فهو مجهولٌ عنده، وقد يكون معلومًا عند غيره. ومنها طريق سابِل، ونخلص بأنّ الصّراط يدلّ على الوضوح والاستقامة، والسَّبيل منها ما هو سالك ومنها غير ذلك.

الطَّريق يكون في الخير والشّر

أمّا الطّريق فيكون في الخير والشّرّ، ولكنّ السَّبيل أغلب وقوعًا في الخير من الطّريق، ولا يكاد اسم الطّريق يُراد به الخير إلّا مُقترنًا بوصفٍ، أو إضافة تخلصُه لذلك. كقوله تعالى: ﴿يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٣٠﴾ [الأحقاف: 30][1].

(1) العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 313.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمۡ لَنُخۡرِجَنَّكُم مِّنۡ أَرۡضِنَآ أَوۡ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَاۖ فَأَوۡحَىٰٓ إِلَيۡهِمۡ رَبُّهُمۡ لَنُهۡلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٣﴾

[إبراهيم: 13]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

اتّفقت الأقوام على إخراج رُسلها كلٌّ في زمانه ومكانه

لمّا انقضت هذه المحاورة، وقد علم منها كل مُنصف ما عليه الرّسل من الحلم والعلم والحكمة، وما عليه مخالفُهم من الضّلال والجهل والعناد، ولمّا كان في الكلام ما قد يُشعر بانقضائه ابتدأ ﷻ عنهم محاورة أخرى، عاطفًا على ما مضى فقال: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمۡ﴾"[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿لَتَعُودُنَّ﴾: جَذر الكلمة (عود) يعودُ عوْدًا وعَوْدةً، والعَوْدُ: الرُّجوع إلى الشَّيء بعد الانصراف عنه، إمّا انصرافًا بالذّات، أو بالقول والعزيمة[2]. قال تعالى: ﴿رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا مِنۡهَا فَإِنۡ عُدۡنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ١٠٧﴾ [المؤمنون: 107]، ﴿وَلَوۡ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنۡهُ﴾ [الأنعام: 28]، وسُميَّت العادة عادةً؛ لأنّ صاحبها لا يزال معاودًا لها[3]. والعَوْدُ: الطّريقُ القديم[4]. ورَجَعَ فلانٌ عَوْدَه على بَدْئه. وفعلتُ ذَلِك عَوْدًا على بَدْء[5]. والعَوْدُ هنا في الآية بمعنى أن تسيروا على طريقة ملّتنا.

2) ﴿مِلَّتِنَاۖ﴾: جَذر الكلمة هو (ملل)؛ سميت مِلَّة لاستمرار أهلها عليها، وقيل: أصْلها التّكْرار من قَوْلك: (طَرِيق مَلِيل) إذا تكرّر

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 177/4.
(2) الرّاغب، المفردات: (عود).
(3) ابن فارس، مجمل اللّغة: (عود).
(4) الخليل، العين: (عود).
(5) ابن دريد، جمهرة اللّغة: (عود).

سلوكه حَتَّى توطأ، وَمِنْه: الْمَلَل، وَهوَ تكْرار الشَّيْء على النّفس حَتَّى تضجر، والْمِلَّة: مَذْهَب جماعَة يحمي بعضهم لبَعض عِنْد الأمور الْحادِثَة[1]. ومنه: المِلّة: الطّريقة المسلوكة، ومنها: ملّة إبراهيم خير المِلَل، وامتلّ فلانٌ ملّة الإسلام، ومنه: أملّ عليه الكتاب، ومنه: مَلملَه المرض فتململ. وكحله بالملمول: بالمكحال[2].

3) ﴿لَنُهۡلِكَنَّ﴾: جذر الكلمة هو (هلك)؛ وهلك يهلك: مات[3]؛ وكلُّ شيءٍ يصيرُ عاقبتُه إلى الهَلاكِ[4]. وأهلكَ الشَّيء واستهلَكَه. وهوى في هلكٍ[5]. وفي الآية توكيدٌ معناه: إنزال عذاب اللّه على الكافرين، فأهلكهم واستبدل بهم المؤمنين.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

الخطاب بجملته مواساة للرّسول ﷺ

توعّد الكافرون رُسلهم الّذين أُرسلوا إليهم بإخراجهم من أرضهم، أو عودتهم إلى ملّتهم زعمًا منهم أنّ رسلهم كانوا على ملّتهم، فجاء الوحي الإلهيُّ للرّسل بأنّ هؤلاء المتوعّدين هم الهالكون لظلمهم، وجاء الوعيد الإلهيُّ مؤكَّدًا بالقسم تنبيهًا على تحقّق وقوعه.

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالة الواو في: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾:

التّهديد للرّسل بسبب إصرارهم على الإيمان

(الواو) استئنافيّة؛ وقد استؤنف هنا تهديد الّذين كفروا لرسلهم بعد ما ظهر منهم من الثّبات على الإيمان، وما أظهروا من الجَلَد والتّمسّك بمبدأ التّوكّل على اللّه مهما واجهوا من الأذى والخِذلان من أقوامهم؛ فهم رُسُلُ اللّه، العالمون بعظيم شأن الرّسالة،

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة: 220 - 221.
(2) الزّمخشريّ، أساس البلاغة: (ملل).
(3) ابن سِيده، المُحكم: (هلك).
(4) الخليل، العين: (هلك).
(5) الزّمخشريّ، أساس البلاغة: (هلك).

المتّصلون بالوحي، ويمكن أن تكون الواو عاطفةً على ما تقدّمها من عطف القصّة على القصّة.

دلالة ذِكر الكافرين دون تعيين: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾:

من الّذين كفروا أهل حلّ وعقد يتضاعف جُرمهم بتضاعف مكانتهم

يمكن أن يكون هؤلاء القائلون هم بعض المتمرّدين في الكفر من أولئك الأمم الكافرة الّتي نقلت مقالاتِهم الشّنيعة دون جميعهم كقوم شُعيَب؛ ولذلك لم يقل: (وقالوا لرُسُلهم لَنُخرجنَّكم من أرضنا أو لَتعودُنَّ في مِلَّتنا)، ويجوز أن يكون المُراد بهم أهل الحلّ والعقد الّذين لهم قدرة على الإخراج والإدخال، ويكون ذلك علّةً للعدول عن (قالوا أيضًا)[1].

نكتة التّعبير بالاسم الموصول وصلته الفعليّة:

رسوخ قضيّة الكفر عند المُعاندين للرّسول والرّسالة

قوله: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ تعبير بالاسم الموصول؛ غايته التّعريض بذِكْر الصّلة، وأفاد هذا التّعبير كذلك شمول عموم الكافرين، ودلّ بالصّلة الفعليّة على رسوخ قضيّة الكفر لديهم؛ لأنّ الموضع موضع تعميم للمنطق الّذي تبنَّته الأقوام في الرّد على الرّسل الّتي دعت إلى عبادة اللّه وحده، والاستعانة به والتّوكّل عليه. والاسم الموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾ للذُّكور؛ وإنّما كان التّغليب من باب المجاز؛ لأنَّ اللّفظ لم يستعمل فيما وُضِع له[2]، كما أنّ الاسم الموصول يتطلّب جملة صلة هي عنوان المُتَحدّث عنهم.

دلالة اللّام في: ﴿لِرُسُلِهِمْ﴾:

تعيين المخاطَبين بخطاب مباشر واختصاصهم به

بالنّظر في قوله تعالى: ﴿لِرُسُلِهِمْ﴾ نجد أنَّ (اللّام) هنا للتَّبليغ، وهي الجارّة لاسم السّامع لقولٍ أو ما في معناه، كما ورد هنا: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمْ﴾، وهي للاختصاص أيضًا، فقد اختصّ الّذين كفروا رسلهم بهذا الخطاب، وهو قولهم: ﴿لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/189.
(2) السّيوطيّ، الإتقان: 3/135.

أَوۡ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَاۖ﴾، وفائدة ذلك كلِّه تعيين المُخاطَبين بخطابٍ مُباشرٍ، واختصاصهم به. وفائدة ذلك أيضًا ثبوتُ الحُجّة على الّذين كفروا، وإقامةُ الدّليل عليهم ورسوخه.

دلالة الجمع ﴿لِرُسُلِهِمۡ﴾:

جُمعت لفظة (رسل) في قوله تعالى: ﴿لِرُسُلِهِمۡ﴾ للدّلالة على أنّ مقالة الكافرين في كلّ زمنٍ واحدة، وهذا من الإيجاز لرحلة الرّسالات السّماويّة.

سُنّة الكافرين مع كلّ المرسلين واحدة

معنى اللّام في ﴿لَنُخۡرِجَنَّكُم﴾:

قوله: ﴿لَنُخۡرِجَنَّكُم﴾ جواب قَسَم مُقدَّر، فائدته التّوكيد، فقد دخلت (اللّام) هنا على الفعل المضارع المُؤكّد (نُخرجنَّ)، ويكون ذلك في الأمر العظيم المُتعجَّبِ منه؛ إذ كيف يُطْرَدُ مَن يدعو إلى الخير، ومَن يدعو إلى عبادة الله وحده؟

إخراج الرّسل من أرضهم أمرٌ جَلَل مُتعجّب منه

نكتة توالي المؤكّدات: ﴿لَنُخۡرِجَنَّكُم﴾:

توالتِ المؤكِّدات في قوله: ﴿لَنُخۡرِجَنَّكُم﴾ وهي: لام القَسَم ونون التّوكيد الثّقيلة المتّصلة بالفعل المضارع الّذي يُفيد التّجدّد، فيظهر كمال العزيمة على إخراج المؤمنين، ويتّسق ذلك مع كمال العزيمة على الصّمود والبقاء على ما أمر الله به الرُّسُل والمؤمنين فقالوا: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ﴾.

إصرار أهل الحقّ على موقفهم، وإصرار أهل الباطل على موقفهم

دلالة ﴿مِّنۡ﴾ في: ﴿مِّنۡ أَرۡضِنَآ﴾:

ورد حرف الجرِّ ﴿مِّنۡ﴾ لابتداء الغاية في قوله: ﴿مِّنۡ أَرۡضِنَآ﴾ فأفاد معنى أنّنا سنُخرجكم من هذه البقعة من الأرض الّتي أنتم فيها إلى آخر حدود ما نملك منها، أو لنخرجنّكم من قريتنا أو مدينتنا. كما أنّ (مِنْ) تستعمل للابتداء عمومًا سواء أكان الحدَث ممتدًّا أم لا. فهي تفيد ابتداء وقوع الحدَث. فيكون تهجيركم ابتداءً من أرضنا إلى أيّ بقعة تصل قوّتنا وأيدينا إليها، فنُخرجكم ونُطارِدكم.

مطاردة الرّسل وتهجيرهم من الأرض

سرّ الإضافة في قولهم: ﴿أَرۡضِنَآ﴾:

دأبُ المكذبين أن يدّعوا ملكيتهم للأرض دون مخالفيهم وهذا تدليسٌ ظاهرٌ

الإضافة في قوله: ﴿أَرۡضِنَآ﴾ بمعنى اللّام؛ أيْ: يكون المعنى (من أرضٍ لنا)، ويرى آخرون أنّ الإضافة ليست على تقدير حرف أصلًا، وتُفيد هذه الإضافة ﴿أَرۡضِنَآ﴾ تعريفًا، لأنّ المضاف إليه معرفة، فقد عُلم أنّ الأرض الّتي تعود إلى الّذين كفروا ستكون محرّمة على رسلهم. وهو من قبيل التّعريف بالعهد؛ لأنّه يدلّ على واحد بعينه؛ وهي أرضهم الّتي يملكون، وهي معلومة لدى الرّسل المخاطبين. وهي هُنا بمعنى قريتهم أو مدينتهم الّتي يملكون أرضها، ويستثمرون مواردها، فيكون لهم التّأثير فيها، ويكون معنى ﴿لَنُخۡرِجَنَّكُم مِّنۡ أَرۡضِنَآ﴾؛ أيْ: فلا نسمح أنْ يكون لدعوتكم أثرٌ فينا وفي ذرّيّاتنا.

معنى (أو) في قوله: ﴿أَوۡ لَتَعُودُنَّ﴾:

الإخراج من الأرض أو العَوْد عن المِلّة خياران للرّسل وللمؤمنين لا ثالث لهما

في ﴿أَوۡ﴾ ثلاثة أوجه: أحدها: أنّها على بابها من كونها لأحد الشَّيئَيْن، وهو الأظهر. والثّاني: أنّها بمعنى (حتّى)؛ أي: إلى حتّى تعودنّ في ملّتنا، فنسمح لكم بالبقاء والعَودِ إلى أرضنا، والثّالث: أنّها بمعنى (إلّا)؛ كقولهم: لألزمَنَّكَ أوْ تَقْضِينِي حَقِّي. ويرى ابن عادل في تفسيره أنّ: القول بمعنى (حتّى) أو (إلّا) مردودان بخلاف المثال المُتقدّم[1]. ونُقل عن ابن هشام شارح (الإيضاح) أنَّ (أو) لا تكون بمعنى (إلّا) إذا لم تدخل على الفعل[2].

دلالة اللّام في: ﴿لَتَعُودُنَّ﴾:

أمر بعيد المنال فلا يمكن أن يُستجاب للكافرين

في قوله عزَّ من قائل: ﴿لَتَعُودُنَّ﴾ (اللّام) لام القَسَم؛ وهي مختصّة بلفظ اللّه تعالى، فقد دخلت على الفعل المضارع المُؤكّد (تعودُنَّ)[3].

(1) ابن عادل، تفسير اللّباب: 1/3104، والآلوسيّ، روح المعاني: 7/189.
(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/445.
(3) سِيبويه، الكتاب: 2/144.

فاللّام دالّة على المُقسَم به المحذوف، وتقدير المعنى: واللّه لَتعودنّ في ملّتنا، وهو تأكيدٌ لعزم الكفّار على حصول أحد الأمرَيْن، وللّام والمضارع المؤكّد بالنّون دلالة اتّخاذ القرار فيما ذكروه. وإصرارهم على إيذاء رسلهم إن لم يرجعوا عن رسالتهم الّتي جاءوا بها. فموقفهم هو موقف الإصرار على الكُفر، وإيذاء الرّسل إن استدعى الأمر ذلك، ولا يصدّهم عن ذلك شيء.

نكتة التّعبير بالعَوْدِ رغم أنّهم لم يكونوا على دينهم:

يستحيل تصوّر أن الرُّسل كانوا على ملّة الكفر قبل الرّسالة

العَوْدُ في قوله تعالى: ﴿أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ بمعنى الصَّيرورة؛ إذ ليس المُراد حقيقة العَوْد؛ لأنَّ الرُّسل لم يكونوا من ملّة قومهم قبل الرّسالة[1]، وهو كثير في كلام العرب، أو أنّ الخطاب، وإن كان في الظّاهر مع الرّسل إلّا أنَّ المقصود بهذا الخطاب أتباعهم وأصحابهم، فغلَّبوا في الخطاب الجماعة[2]، فيكون ذلك بحكم التّغليب؛ إذ لم يكونوا في مِلّتهم أصلًا حتّى يعودوا إليها، ومثله قوله: ﴿إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم﴾ [الأعراف: 89][3]، أو المعنى: لَتعودنّ في سكوتكم عنّا إغفالًا، وذلك عند الكفّار كونٌ في ملَّتهم[4].

نكتة تقديم ﴿لَنُخْرِجَنَّكُم﴾ على ﴿لَتَعُودُنَّ﴾:

المقامُ مقامُ تخويفٍ وتهديد وإصرار على الإيذاء

في الآية ﴿لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ قدّم البيان القرآنيُّ الإخراج على العَود؛ وسبب ذلك أنّ المقام مقام تخويف، فلذلك بدءوا بالإخراج[5] ولربّما كانوا قد علموا في دواخلهم أنّ الرّسل لن تعود عن دعوتها، فقدّموا الإخراج؛ لأنّهم قد همّوا به فعلًا، فقُدِّم الممكنُ على المستحيل.

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/445.
(2) النّحّاس، معاني القرآن: 3/54، وابن عادل، تفسير اللّباب: 1/3104.
(3) الزّركشيّ، البرهان: 3/309.
(4) ابن عطيّة، المُحرّرُ الوجيز: 3/329.
(5) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/445.

تهديدُ الرّسل بإخراجهم من ديارهم أو التّخلّي عن دعوتهم

دلالة (في) المجازيّة: ﴿فِي مِلَّتِنَا﴾:

في قوله تعالى: ﴿لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾، نجد أنّ ﴿فِي﴾ ظرفيّة مجازيّة، فلم يَقُلْ لتعودنّ إلى ملّتنا أو مع ملّتنا، وفائدة ذلك معنى العَود إلى ما كنتم عليه قبل دعوتكم؛ إذ كان الأنبياء يعيشون بين أقوامهم قبل أن تأتيَهم الرّسالة. ووجه الاستشهاد: مجيء ﴿فِي﴾ مفيدة معنى المصاحبة؛ لأنّ المعنى: ادخلوا مع ملّتنا أو أمّتنا؛ و﴿فِي﴾ الّتي تفيد المصاحبة؛ هي الّتي نستطيع أن نضع مكانها (مع)[1]. فتكونون مُسالمين لأهل ملّتنا مصاحبين لهم، لا تدعونهم بدعوتكم، ولا تُنكرون عليهم ما هم عليه من العبادة والتّديّن، والاستسلام التّخلّي عن دعوتكم، فقوله تعالى: ﴿أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾؛ أيْ: في ديننا وأهل ملّتنا[2]، وهو مجاز مُرسَل علاقته الحاليّة. فقُصد منه العوْدُ إلى العيش في مجتمعنا كما كنتم قبل رسالتكم، وتَذَرون ما تدعوننا إليه من الدّين الجديد.

المِلَلُ الأرضيّة تُنسبُ إلى الأقوام، والرّسالات السّماويّة تُنسب إلى الله

سرُّ الإضافة في قولهم: ﴿مِلَّتِنَا﴾:

أُضيفتِ الملّة إلى الضّمير (نا) في قوله: ﴿مِلَّتِنَا﴾، وتعريف الملّة أنّها عائدة إليهم، فتعرّفت بهم، لتدلّ على أنّها ملّة أرضيّة، ولهذا ربط شرط العَود إلى الملّة بالإخراج من الأرض، وكلاهما كانا مضافيْن إلى ضميرهم (نا)، فهذه أرضهم تحتكم إلى ملّتهم وملّة آبائهم، فمَن أراد تغيير ملّتهم فعليه أن يخرج من أرضهم.

اشتملت ردود الكُفّار على التّهديد والتّعجيز

دلالة القسَم في ﴿لَنُخْرِجَنَّكُم﴾ و﴿لَتَعُودُنَّ﴾:

في قوله: ﴿لَنُخْرِجَنَّكُم﴾، وقوله: ﴿أَوْ لَتَعُودُنَّ﴾ جاء تأكيد الوعيد بلام القسَم، أيْ: ليكوننّ أحد الأمريْن لا محالة، إمّا إخراجكم وإمّا

(1) ابن هشام، أوضح المسالك: 3/35.
(2) أبو عبيدة، مجاز القرآن، ص: 336.

عودكم حالفين على ذلك[1]، وقد دلّ ذلك على تأكيد الوعيد تهديدًا للرّسل، وبدأوا بالأيسر وهو الإخراج، وأتبعوه الأصعب، وغرضهم من كلّ ذلك أن يتراجعوا عمّا يدعون إليه.

معنى الفاء في قوله: ﴿فَأَوۡحَىٰٓ﴾:

جاء الوحيُ للرُّسُل ببُشرى النّصر والتّمكين عقب تبجّح الكافرين وتوعّدهم

الفاء العاطفة في قوله تعالى: ﴿فَأَوۡحَىٰٓ﴾ أفادت التّرتيب والتّعقيب دون التّراخي؛ فهي توجب أنّ الثّاني بعد الأوّل، وأنّ الأمر بينهما قريب[2]، ففي الوقت الّذي قال فيه الّذين كفروا لرسلهم ما قالوا، وما توعّدوا وتبجّحوا به، جاء الوحي إلى الرّسل أنّ اللّه سيهلك الظّالمين، وأتاهم وعد اللّه بقوله: ﴿وَلَنُسۡكِنَنَّكُمُ ٱلۡأَرۡضَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۚ﴾. فالتّعقيب معناه: وقوع المعطوف بعد المعطوف عليه بغير مُهلة أو بمدّة قريبة، فتجعل ذلك متّسقًا بعضه في إثْر بعض[3]. فلمّا توكّلوا على اللّه حقّ التّوكّل جاءهم وعد اللّه بالنّصر والتّمكين.

نكتة تقديم شبه الجملة ﴿إِلَيۡهِمۡ﴾:

اختصّ اللّه تعالى رسُلَهُ بالنّصر والتّمكين

تقديم شبه الجملة ﴿إِلَيۡهِمۡ﴾ يُفيد الاختصاص، وتدلّ على معيّة اللّه لرسله، وللمؤمنين وتأييدهم بالرّسالات السّماويّة، فهم المؤمنون به المتوكّلون عليه، الدّاعون إلى رسالاته، فاختصّهم اللّه تعالى بالقُربى منه وبالنّصر على أعدائهم، فكان وحيه إليهم: ﴿لَنُهۡلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٣ وَلَنُسۡكِنَنَّكُمُ ٱلۡأَرۡضَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۚ﴾، وكان وعدًا مفعولًا مُحقّقًا، فضلًا عن أنّ هذا التّقديم يفيد تعجيل المسرّة.

نكتة الإتيان بلفظ (الرّبّ) دون لفظ الجلالة:

الآية مقام تغيير لنواميس الكون وقوانينه

يناسب لفظ (الرّب) الدّلالة على تغيير نواميس الكون وسُننه بـ(كُنْ فيكون)، وبما يؤدّي إلى إهلاك الظّالمين ونصر المؤمنين، أمّا

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/512.
(2) المُبرّد، المُقتضب: 1/10.
(3) سِيبويه، الكتاب: 2/304.

لفظ (اللّه) فهو الدّالّ على معنى الإله المعبود وحده، والمقام هنا هو مقام تغيير لقوانين الكون ونواميسه؛ إذ إنّ اللّه ينصر الضّعيف على القويّ، ويكون ذلك في الوقت الّذي يختاره تعالى، ﴿وَرَبُّكَ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخۡتَارُۗ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلۡخِيَرَةُۚ﴾ [القصص: 68].

نكتة إضافة الرّبّ إلى ضمير الرّسل:

التّشريف بالإضافة تحقيقٌ للتّأييد الإلهيّ

الإضافة في قوله ﷻ: ﴿فَأَوۡحَىٰٓ إِلَيۡهِمۡ رَبُّهُمۡ لَنُهۡلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ إضافة تشريفٍ وآية تأييد من اللّه لمَن انتسب إليه من الرّسل الّذين حملوا رسالة اللّه تعالى ليُبلّغوها للخلق، مُتحمّلين صنوف الأذى وأنواع العنت في سبيل ذلك.

سرُّ التّقييد بالبدل في قوله: ﴿لَنُهۡلِكَنَّ﴾:

ما كان وحيًا لا يتخلّف وقوعه ولا حصول وعيده

قوله: ﴿لَنُهۡلِكَنَّ﴾ جواب قَسَم مُضمَر، وفي ذلك القسم وجوابه وجهان: أحدهما: أنَّه على إضمار القول؛ أيْ: قال: ﴿لَنُهۡلِكَنَّ﴾. فيكون في العبارة إيجاز حذف كلمة، والثّاني: أنّه أجرى الإيحاء مجرى القول؛ لأنّه ضَرْبٌ منه[1]. والجملة بدلٌ من ﴿فَأَوۡحَىٰٓ﴾، وسرّ وقوعها هذا الموقع بيان أنّ إهلاكهم خبرُ وحيٍ، فهو لا يتخلّف وقوعُه، وفي كلمة ﴿لَنُهۡلِكَنَّ﴾ ما فيها من قوّة الخطاب، إضافة إلى اقترانها بنون التّوكيد الثّقيلة، فقد تعدّدت فيها المؤكّدات، وجاء الخطاب للمُتكلّم بصيغة المضارع الّذي يُفيد التّجدّد والإصرار على تحقيق معنى الإهلاك للظّالمين.

نكتة توالي المُؤكّدات في ﴿لَنُهۡلِكَنَّ﴾:

القَسَم الإلهيّ عظيمٌ مُحقَّقٌ فهو من الجليل ﷻ

توالتِ المُؤكّدات في قوله: ﴿لَنُهۡلِكَنَّ﴾ وهي: لام القَسَم والفعل المضارع المُتّصل بنون التّوكيد الثّقيلة، فيظهر عظيم إرادة اللّه، وقسَمه سبحانه على إهلاك الظّالمين، فهنا هو مضمون الوحي

(1) ابن عادل، تفسير اللّباب: 1/3104.

الإلهيّ للرّسل تطمينًا لهم، ونصرًا لهم ولدينهم ورسالتهم، ولأنّ عظيم المقام يقتضي تلك التّوكيدات.

الالتفات في ﴿لَنُهۡلِكَنَّ﴾:

حضور المُهلِك يدلّ على شدّة الإهلاك

قال: ﴿فَأَوۡحَىٰٓ إِلَيۡهِمۡ رَبُّهُمۡ﴾ على الغيبة، ثمَّ قال: ﴿لَنُهۡلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ على التّكلّم فيكون في العبارة التفاتٌ فائدته أنّ حضور المُهلِك الّذي بيده آلة الإهلاك، يدلّ على شدّة الإهلاك للظّالمين، وعلى وقوع الإهلاك حتمًا. ونُقل عن أبي حيوة في قراءة شاذّة: (لَيُهلكنّ الظّالمين ولَيُسكننّكمُ الأرضَ) بياء الغيبة اعتبارًا لـ ﴿فَأَوۡحَىٰٓ﴾[1]، أو مناسبة لقوله ﴿رَبُّهُمۡ﴾ فلا يكون فيها التفات.

دلالة التّعبير بالمضارع ﴿لَنُهۡلِكَنَّ﴾:

يتجدّد وعد الله ووعيده مع كلّ جيل يستحقّه

يكون وعيد الله على أولئك الكفّار الظّالمين متجدّدًا منه سبحانه بإهلاكهم؛ إذ يتجدّد المشهد مع كلِّ رسول أو نبيٍّ، ويتجدّد المشهد بعد الأنبياء والرّسل مع كلّ جيل. ويكون ذلك وعدًا من الله للأنبياء والمُرسَلين والمؤمنين نصرًا وتمكينًا. فإنّ أهلك أعداءهم فقد تحقّق نصرهم وتمكينهم.

سرُّ التّعبير بلام الجنس في ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾:

هلاكُ الظّالمين مؤكّدٌ مهما بلغوا مع العَنَتِ والجبروت

في قوله تعالى ﴿لَنُهۡلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ ورد لفظ ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ مُعرّفًا بـ(لام الجنس) الّتي تستغرق أصناف الظّالمين؛ لبيان هوان شأنهم، مهما بلغوا من القوّة والجبروت، وخافت من سطوتهم الدّنيا؛ لكنّ قدَرَ الله فيهم نازلٌ، ووعيدَه عليهم آتٍ، فقوله: ﴿لَنُهۡلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ وحيٌ إلى الرّسل عليهم السلام، ووعدٌ لهم بنصرهم؛ بإهلاك الظّالمين، والتّعبير بالجمع بلام الجنس، بيان لسبب استحقاق الهلاك؛ فالظُّلم سببٌ كافٍ للهلاك، وهذا سرُّ العدول عن التّعبير

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/512.

بالكافرين إلى التّعبير بالظّالمين؛ لأنَّ الظّلم مُستبشَع عقلًا عند كلّ إنسان سويّ الفطرة.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

المِلّة والدّين والشّريعة:

المِلَّة اسْمٌ لجملة الشَّرِيعَة، والدّين اسْمٌ لما عَلَيْهِ كلّ واحِد من أهلها، فيُقال: فلان حسن الدّين، وَلا يُقال: حسَن المِلَّة، لِأن المِلَّة اسْم للشرائع مَعَ الْإِقْرار بِاللّه، والدّين ما يذهب إليه الإنسان ويعتقد أنّه يُقرّبهُ إلَى اللّه، وَإن لم يكن فِيهِ شرائع مثل دين أهل الشّرك، وكلّ مِلَّة دين؛ وَلَيْسَ كلّ دين مِلَّة، فاليهوديّةُ مِلَّة؛ لِأنَّ فِيها شرائع، وَلَيْسَ الشّرك مِلَّة، وَإذا أُطلق الدّين فَهوَ الطّاعَة الْعامَّة الَّتِي يُجازَى عليها بالثّواب مثل قَوْله تَعالَى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ﴾ [آل عمران: 19].

الدّين والشّريعة:

الشَّرِيعَة هِيَ الطَّرِيقَة المَأْخوذ فِيها إلَى الشَّيْء، وَمن ثَمَّ سُمِّي الطَّرِيق إلَى الماء شَرِيعَة ومشرعة، وَقيل: الشّارِع؛ لِكَثْرَة الْأَخْذ فِيهِ، والدّين ما يُطاع بِهِ المعبود، وَلكُلّ واحِد منّا دين، وَلَيْسَ لكلّ واحِد منّا شَرِيعَة، والشّريعة في هَذا المَعْنى نَظِير المِلَّة، إلّا أنَّها تُفيد ما يُفِيدهُ الطَّرِيق المَأْخوذ ممّا لا تُفيده المِلَّة، وَيُقال: شرع في الدّين شَرِيعَة، كَما يُقال طرق فِيهِ طَرِيقًا، والمِلَّة تُفيد اسْتِمْرارَ أهلها عَلَيْها[1].

الشّريعة نَظِيرُ المِلَّة، إلّا أنَّها تُفيد ما يُفِيدهُ الطَّرِيق المَأْخوذ، والمِلَّة تُفيد اسْتِمْرار أهلِها عَلَيْها

(1) العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 222.

﴿وَلَنُسۡكِنَنَّكُمُ ٱلۡأَرۡضَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۚ ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ١٤﴾ [إبراهيم: 14]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

ذكرُ الوعد للمؤمنين المتوكّلين، بعد الوعيد بإهلاك الكافرين

وَعَدَ اللّه تعالى في الآية السّابقة الرّسل، ومَن آمن معهم بالنّصرِ على أعدائهم، وإهلاكِ الظّالمين، وأكمل وعده للمؤمنين بأنّه سبحانه سيُمكّن لهم في الأرض، ويسكنهم الأرض الّتي توعّد الأعداء بإخراجهم منها. ولا يكون ذلك إلّا لِمَن خاف اللّه وخشي وعيده الّذي توعّد به الكافرين، وعذابه لهم بما يستحقّون.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَلَنُسۡكِنَنَّكُمُ﴾: جَذر الكلمة (سكن)؛ السَّكَنُ: المنزل، وهو المَسْكَنُ أيضًا. والسَّكَنُ: سكونُ البيت من غير مِلْك. والسَّكَنَ: السّكّان، والسُّكْنَى: إنزالُك إنسانًا منزلًا بلا كراء[1]. وسكنوا الدّار وسكنوا فيها، وأسكنتهم الدّار وأسكنتهم فيها[2]. وهذا معنى وعد اللّه ﴿وَلَنُسۡكِنَنَّكُمُ ٱلۡأَرۡضَ﴾ الّذي ورد في الآية دون تكلُّفٍ ولا كِراء.

2) ﴿مَقَامِي﴾: جذر الكلمة (قوم)؛ المَقامُ والمُقامُ؛ بمعنى الإقامة، وقد يكون بمعنى موضع القيام؛ لأنّك إذا جعلته من قام يقوم فمفتوح، وإن جعلته من أقام يقيم فمضمومٌ، وقوله تعالى: ﴿لَا مُقَامَ لَكُمۡ﴾ [الأحزاب: 13]؛ أيْ: لا موضعَ لكم وقُرِئَ: ﴿لَا مُقَامَ لَكُمۡ﴾ بالضّم؛ أيْ: لا إقامة لكم، وقوله تعالى: ﴿حَسُنَتۡ مُسۡتَقَرًّا وَمُقَامًا ٧٦﴾ [الفرقان: 76]؛ أيْ: موضعًا أو إقامة[3]. وقوله: ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبۡرَٰهِـۧمَ مُصَلًّىۖ﴾ [البقرة:

(1) الخليل، العين: (سكن).
(2) الزّمخشريّ، أساس البلاغة: (سكن).
(3) الرّازيّ، مختار الصّحاح: (قوم).

125]، وقوله: ﴿دِينًا قِيَمًا﴾ [الأنعام: 161]، أيْ: ثابتًا مُقَوِّمًا لأمور معاشهم ومعادهم. وقوله: ﴿وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ۝٥﴾ [البيّنة: 5]؛ فالْقَيِّمَةُ هاهنا اسم للأمّة القائمة بالقسط[1].

3) ﴿وَعِيدِ﴾: جذر الكلمة (وعد)؛ الوَعْدُ يكون في الخَير والشّرّ. يُقال: وَعَدْتُهُ بنفع وضرّ وَعْدًا ومَوْعِدًا ومِيعادًا، والوَعِيدُ في الشّرّ خاصّة[2]. قال تعالى: ﴿وَخَافَ وَعِيدِ﴾، قال ابن عبّاس: خاف ما أوعدت من العذاب، وقال الواحديّ: الوعيد اسم من أوعد إيعادًا؛ وهو التَّهديد[3].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

الآية تتميمٌ لوعد الله للمؤمنين المتوكّلين عليه

وعد اللّه تعالى رُسله: لَنُسكننَّكُمُ الأرض الّتي توعّدكم الكفّار بإخراجكم منها، ويكون ذلك بعد إهلاكهم. ولا يكون ذلك إلّا للمؤمنين، العارفين بمقام التّوكّل على اللّه، ولا يكون ذلك إلّا لِمَن آمن إيمانًا صادقًا لا يهتزّ، وخاف اللّه ووعيده، أيْ: مقامه يوم القيامة بين يدي ربِّ العالمين، وخاف عذاب اللّه للكافرين المُنكرين للدّين الحقِّ.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالة العطف في: ﴿وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ﴾:

إفادة السّرعةُ في تحقّق نصر الله تعالى لعباده المؤمنين

الواو حرف عطف لمُطلق الجمع، فيحتمل أن يكون قد حصل الفعلان في زمان واحد؛ وهما الإهلاك والسُّكنى، إلّا أنّ السُّكنى قُيّدت بقوله: ﴿مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾، ويدلّ حرف الواو على السّرعة في الإهلاك والسُّكنى وكأنّهما حدَث واحد. وفي ذلك معنى السّرعة في تحقّق وعد اللّه ونصره، ويمكن أن يُلحظ فيه التّرتيب المُراد منه عدم حضورهم مشاهد الإهلاك.

(1) الرّاغب، المفردات: (قوم).
(2) الرّاغب، المفردات: (وعد).
(3) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 19/77.

معنى اللّام في ﴿وَلَنُسۡكِنَنَّكُمُ﴾:

في قوله: ﴿وَلَنُسۡكِنَنَّكُمُ﴾؛ (اللّام) لام القَسَم، فائدتها التّوكيد، فلمّا توعّد الكافرون الرّسل والمؤمنين بإخراجهم من الأرض والدّيار، جاء القَسَم من الرّبّ العظيم بإهلاك الكافرين، وإسكان الرُّسل والمؤمنين في الأرض نفسها الّتي أُخرجوا منها.

وعدُ اللهِ عباده إسكانَهم الأرضَ الّتي رام الكفّار إخراجهم منها

فائدة توالي المؤكّدات ﴿وَلَنُسۡكِنَنَّكُمُ﴾:

توالتِ المؤكّداتُ وهي (لام القسَم) و(نون التّوكيد الثّقيلة) مضافًا إليها الفعل المضارع (نسكن) الّذي يُفيد التّجدّد بأسلوب المُتكلّم، فيظهر كمال الوعد للمؤمنين في إسكانهم أرضهم الّتي نشأوا فيها، ويتّسق ذلك كلّه مع قوله: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ﴾، إذ لا يستحقّ ذلك الوعدَ والإنجاز إلّا مَنۡ خافَ مقام اللّه سبحانه فلا أصدَق من وعد اللّه للمؤمنين في نصرهم على عدوّهم.

لا أصدق من وعد الله للمؤمنين وتحقيق وعدهم بالنّصر

دلالة التّعبير بالمضارع ﴿وَلَنُسۡكِنَنَّكُمُ﴾:

يكون الوعد متجدّدًا من اللّه للأنبياء والرّسل، والّذين آمنوا معهمبسُكْناهم لتلك الأرض، وميراثها من الّذين كفروا بعد إهلاكهم، وما ذاك إلّا بصبرِ المؤمنين، وتوكّل المتوكّلين. وأنّ الوعد بإسكانهم مُتجدّدٌ إلى أن يرث اللّه الأرض ومَنۡ عليها. فقد بات ذلك سنّةً كونيّةً أمميّةً ومجتمعيّةً.

وعدُ اللهِ للمؤمنين دائمٌ إلى قيام السّاعة

تكرار ذِكْر ﴿ٱلۡأَرۡضَ﴾:

كرّر ذكر الأرض وأكّد بمؤكّدات متوالية على أنّه سبحانه سيُسكّن الرّسل ومَن تبعهم من المؤمنين الأرضَ الّتي هي أرضه تعالى، إنكارًا على ما قاله الّذين كفروا للرّسل ﴿لَنُخۡرِجَنَّكُم مِّنۡ أَرۡضِنَآ﴾، فكرّر الأرض توكيدًا على أنّ الأرض للّه يورثها مَن يشاء من عباده، وأنّ سُنّة اللّه في خلقه قد اقتضت أن يسكنها المؤمنون المتوكّلون على اللّه حقّ توكّله.

وعدُ اللهِ للمؤمنين بخلافة الأرض وعدٌ صادق غير مكذوب

معنى (اللّام) في (الأرض):

الأرضُ هي ديار قوم النبيّ المُرسَل من عند الله لهدايتهم

في قوله تعالى: ﴿وَلَنُسۡكِنَنَّكُمُ ٱلۡأَرۡضَ﴾ (ال) عهديّة لفائدة معنى (الأرض) ذاتها الّتي قصدها الّذين كفروا حين قالوا للرّسل: ﴿لَنُخۡرِجَنَّكُم مِّنۡ أَرۡضِنَآ﴾، فهي الأرض الّتي كانت لهم سيادة عليها، وهم ينعمون بثمارها ومواردها، ويفرضون سلطانهم عليها، ويتّبعون ملّتهم فيها، دون أن ينازعهم فيها أحد، فوعدهم اللّه تعالى باستخلافهم على ذلك كلّه بعد إهلاك الكافرين، ونحوه ﴿وَأَوۡرَثۡنَا ٱلۡقَوۡمَ ٱلَّذِينَ كَانُواْ يُسۡتَضۡعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلۡأَرۡضِ وَمَغَٰرِبَهَا﴾ [الأعراف: 137]، ﴿وَأَوۡرَثَكُمۡ أَرۡضَهُمۡ وَدِيَٰرَهُمۡ﴾ [الأحزاب: 27][1].

معنى ﴿مِنۢ﴾ في قوله ﴿مِنۢ بَعۡدِهِمۡۚ﴾:

إهلاكُ الكافرين ضرورة لإسكان المؤمنين وإقامة دين الله

في قوله ﷻ: ﴿وَلَنُسۡكِنَنَّكُمُ ٱلۡأَرۡضَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۚ﴾، ﴿مِنۢ﴾ هنا لابتداء الغاية، وقد أفادت أنّ سُكناهم في هذه الأرض ستكون ابتداءً بعد هلاك الّذين كفروا؛ لأنّهم توعّدوا الرُّسل، والّذين آمنوا بالإخراج والإيذاء، فلا ينعم المؤمنون بالسُّكنى إلّا بعد هلاكهم، ولن يسكن الأرض أحدٌ بعد إهلاكهم إلّا المؤمنين.

عَوْد الضّمير في ﴿بَعۡدِهِمۡۚ﴾:

الكُفّار هم المقصودون بالإهلاك والإذهاب

يعود الضّمير في قوله تعالى: ﴿مِنۢ بَعۡدِهِمۡۚ﴾ على الّذين كفروا، فيكون معنى ﴿مِنۢ بَعۡدِهِمۡۚ﴾؛ أيْ: من بعد إهلاك الّذين كفروا، وزوال مُلكهم، وقال: ﴿مِنۢ بَعۡدِهِمۡۚ﴾؛ لأنّهم كانوا المُتحكّمين بهذه الأرض وخيراتها.

سرُّ فصل قوله ﴿ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَافَ﴾:

مَن خاف مقام الله ووعيده يستحقّ ميراث الأرض

فقوله: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ﴾؛ ﴿ذَٰلِكَ﴾ مبتدأ، وهو مُشارٌ به إلى توريث الأرض[2]. وفصل الجملة عن سابقتها للاتّصال التّامّ بين الجملتيْن، وسبب الفصل الاستئنافُ البيانيّ

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/512.
(2) ابن عادل، تفسير اللّباب: 1/3104.

جوابًا عن سؤالٍ مُقدّر: لماذا سيُسْكنهم الأرضَ من بعدهم؟ فكان الجواب: لأنّهم يخافون مقام اللّه ووعيده.

فائدة الإشارة للبعيد ﴿ذَٰلِكَ﴾:

في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ﴾ إشارةٌ بـ ﴿ذَٰلِكَ﴾ إلى البعيد؛ يعني إلى الموحَى به، وهو إهلاك الظّالمين وإسكان المخاطبين ديارهم، وبذلك الاعتبار وحّد اسم الإشارة مع أنّ المُشار إليه اثنان[1]. فيتحقّق الاثنان معًا كأنّهما أمر واحدٌ؛ أمّا كونه للبعيد فلإنزال البُعْد المعنويّ منزلة البُعْد الحِسّيّ؛ لأنّه وعد اللّه عزّ شأنه.

قد تأخذ المواجهة بين الحقِّ والباطل زمنًا طويلًا

معنى اللّام في ﴿لِمَنْ﴾:

في قوله: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ﴾ هي لام الجرِّ؛ وتكون مكسورة أو مفتوحة تدخل على الاسم الظّاهر، أو الضّمير فتجرُّه، ولها عدّة استخدامات منها: المِلكيّة والاستحقاق والتّخصيص، وكلّها محتمَلَةٌ هنا؛ فنصر اللّه تعالى يستحقّه مَن خاف مقامه ووعيده، وهو مُخصّصٌ لهم.

وعدُ الله بتمليك حقِّ النَّصر للمؤمنين

دلالة (مَن) في ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ﴾:

(مَنْ) في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ﴾ اسم موصول بمعنى (الّذي)؛ أي: الّذي خاف مقامي، وفائدة الاسم الموصول هنا إرادة التّعظيم والتّعميم، فيشمل كلّ مَن خاف مقام اللّه تعالى من المؤمنين الّذين هم على الدّين الحقّ، ممّا أنزل اللّه من الرّسالات السّماويّة على الرّسل.

شمول عموم المؤمنين في هذا الخطاب

دلالة جملة الصّلة ﴿خَافَ﴾:

تدلُّ جملة صلة الموصول ﴿خَافَ﴾ على رسوخ صفة الخوف عند ذلك المقصود بمكرُمة اللّه تعالى، و(المقام) إمّا موقف الحساب، فهو اسم مكان، وإضافته إليه سبحانه لكونه بين يديه، وإمّا مصدر ميميّ، بمعنى: حفظي وقيامي لأعمالهم ليُجازوا عليها، أو مُقحَم

الخوف لا يُحمد إلّا من الله ومن مقامه سبحانه

(1) القاسميّ، محاسن التّأويل: 6/307، والآلوسيّ، روح المعاني: 7/189.

للتّفخيم والتّعظيم كما يُقال: المقام العالي[1]. وخوف اللّه عقيدةٌ راسخة، والخوف لا يكون محمودًا إلّا من الذّات الإلهيّة، ومقامه العظيم سبحانه وقد ذكر ابن عادل في تفسيره ثلاثة أوجه في قوله: ﴿مَقَامِي﴾[2]: أحدها: أنّه مُقحم، وهو بعيدٌ؛ إذ الأسماء لا تُقحم. الثّاني: أنّه مصدرٌ مُضافٌ للفاعل. قال الفرّاء: ﴿مَقَامِي﴾ مصدر مُضاف لفاعله؛ أيْ: مقامي عليه بالحفظ. الثّالث: أنّه اسم مكان، قال الزَّجّاج: مكان وقوفه بين يدي الحساب، كقوله تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ﴾ [الرّحمن: 46]، فأضاف قيام العبد إلى نفسه.

سرُّ الإضافة إلى ضمير العظَمة ﴿مَقَامِي﴾:

لا أجَلَّ ولا أعظم من مقام الله ﷻ

في إضافة المقام إلى ضمير العظَمة تعريف للمقام وجلالة شأنه هذا المقام، فلا أجَلّ من هذا المقام، وهو ممّا يقتضي التّفكّر فيه، والحرص على أن تكون الأعمال اليوميّة للفرد حائزةً على رضى اللّه تعالى لتكون مُنسجمةً مع خوف مقامه سبحانه. و﴿مَقَامِي﴾: موقفي، وهو الموقفُ الّذي يقفُ فيه العبادُ يوم يقوم النّاس لربّ العالمين، أو قيامي عليه، وحفظي لأعماله[3]. وقيل: لفظ (مقام) مُقْحَمٌ؛ لأنَّ الخوفَ من اللّه تعالى؛ أيْ: لمَن خافني[4].

نكتة عطف ﴿وَخَافَ وَعِيدِ﴾:

مقام الله مختلف عن وعيد الله تعالى

قوله: ﴿وَخَافَ وَعِيدِ﴾ قال الواحديّ: الوعيد اسمٌ من أوْعَد إيعادًا وهو التَّهديد، قال ابن عبّاس: خاف ما أوعدتُ من العذاب[5]. وقوله: ﴿وَخَافَ وَعِيدِ﴾ وعيدي بالعذاب، أو عذابيَ الموعودَ للكفّار[6]. وذكر أولًا قوله: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي﴾، ثمّ عطف عليه قوله: ﴿وَخَافَ وَعِيدِ﴾

(1) القاسميّ، محاسن التّأويل: 6/307.
(2) ابن عادل، تفسير اللّباب: 1/3104.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/39.
(4) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/190.
(5) ابن عادل، تفسير اللّباب: 1/3104.
(6) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/39.

فهذا يقتضي أن يكون الخوف من اللّه تعالى مُغايرًا للخوف من وعيد اللّه، ونظيره: أنّ حُبَّ اللّه تعالى مغاير لحُبِّ ثواب اللّه، وهذا مقامٌ شريفٌ عالٍ في أسرار الحكمة والتّصديق[1]. لأنّ العطف يقتضي المغايرة، فكلتا الجملتيْن خبرٌ، وعطفُ الخبر على الخبر يقتضي المُغايرة في المعنى.

فائدة تكرار التّعبير بالخوف:

الخوفُ من الله قضيّة عقائديّة جوهريّة راسخة

تكرَّر التَّعبير بالخوف في قوله تعالي: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ﴾ بغرض التّعظيم والتّخويف، والتّكرار أحدُ عَلامات الجمال البارزة، وهو مصدر دالٌّ على المبالغة، ويستدعي التّكرارُ كذلك التّأكيد، والتّذكير، فحدث من تكرار كلمة (الخوف) ترسيخ هذه المسألة العقائديّة؛ إذ إنّ الّذين كفروا لم يخافوا مقام اللّه، ولذلك فإنّهم أيضًا لم يخافوا وعيده، فتجرّأوا على رسل اللّه، وتوعّدوهم بالطَّرد، أو الإكراه على ترك دينهم.

نكتة تقديم خوف المقام على الوعيد:

خوفُ مقام الله يؤدّي إلى خوف وعيده سبحانه

في الآية الكريمة ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ﴾ سبق خوفُ مقامِ اللّه وعيدَه لأنّه هو الّذي يُنْتج عنه خوف وعيد اللّه، فلولا خوفُ اللّه، وخوفُ مَقامه سبحانه ما كان شيءٌ يقتضي خوفَ وعيده سبحانه وهذا من قبيل ما يُسمّى بفنّ التّدلّي.

معنى الاستعارة في ﴿وَعِيدِ﴾:

الكفّارُ موعودون بعذابٍ أليمٍ يوم القيامة

في قوله تعالى: ﴿وَخَافَ وَعِيدِ﴾ جاء لفظ ﴿وَعِيدِ﴾ على ظاهره ومتعلّقه محذوف، وجوّزَ أن يكون مصدرًا من الوعد على وزن (فعيل)، وهو بمعنى اسم المفعول؛ أيْ: عذابي الموعود للكفّار، وفيه استعارة الوعد للإيعاد[2]، فيكون المعنى: خاف ما وعدتُ به الكفّارَ من العذاب الشّديد.

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 19/78.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/190.

بلاغة القراءات في قوله: ﴿وَعِيدِ﴾:

إثبات الياء وحذفها بين الوقف والوصل

ياء المتكلّم في قوله سبحانه: ﴿وَعِيدِ﴾ محذوفة للاكتفاء بالكسرة عنها في غير الوقف[1]، فوصل بياءٍ قَوله: ﴿وَخَافَ وَعِيدِ﴾ ورشٌ عن نافِع، وحذفها جَمِيع الرّواة في الْوَصْل والْوَقْف[2]، فقرأها ورش ﴿وَعِيدِ﴾ وقفًا و(وَعِيدِي) وصلًا؛ ففي الحذف وقفًا الدّلالة على معنى الحُكم القاطع الّذي لا يتبدّل، فلَنْ يتبدّل ذلك الوعيد، وسوف يُلاقونه حقًّا. وفي قراءة (وَعِيدِي) وصلًا معنى استدامة العذاب الّذي سيصيب الّذين كفروا.

(1) القاسميّ، محاسن التّأويل: 6/307.

(2) ابن مجاهد، كتاب السّبعة في القراءات، ص: 364، والدّاني، التّيسير في القراءات السّبع، ص: 135.

﴿وَٱسۡتَفۡتَحُواْ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٖ ١٥﴾ [إبراهيم: 15]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

يبدأ النّصر باستفتاح الرّسول والّذين آمنوا

بعد أن جاء وعد الله للمؤمنين بالنّصر والتّمكين، وما أحدثه الصّبر والتّوكّل على الله من الاستعداد النّفسيّ للنّصر والتّمكين، جاءت الآية لتُظهر أوّل بوادر النّصر باستفتاح الرّسل، والّذين آمنوا معهم؛ إذ طلبوا النّصر والفتح من الله تعالى فهم المؤمنون بقدرته سبحانه المُتوكّلون عليه وحده، فجاءهم النّصر وخاب الجبّارون المتكبّرون.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَٱسۡتَفۡتَحُواْ﴾: جذرُ الكلمة هو (فتح)؛ والفَتْح: النُّصْرةُ، قال تعالى: ﴿إِن تَسۡتَفۡتِحُواْ فَقَدۡ جَآءَكُمُ ٱلۡفَتۡحُۖ﴾ [الأنفال: 19]. واستَفْتَحْتُ اللّهَ على فُلانٍ؛ أيْ: سَأَلْتُه النَّصْرَ عليه. ونحو ذلك، والفَتّاح: الحاكم، وقوله تعالى: ﴿مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلۡعُصۡبَةِ﴾ [القصص: 76]؛ يعني: الكُنوز وصنوُف أمواله، فأمّا المَفاتيح فجَمْع المِفتاح الّذي يُفتَحُ به المِغلاقُ، وفَواتِح القُرآن: أوائل السّوَر[1].

ويحتمل الاستفتاح الوارد في الآية معنيَيْن: **أحدهما**: طلب الفتح بالنُّصرة، أيْ: (واستنصروا اللّهَ على أعدائهم)، **والثّاني**: الحكم والقضاء، أيْ: (واستحكموا الله، وسألوه القضاء بينهم)، وهو مأخوذ من الفتاحة؛ وهي الحُكومة كقوله: ﴿رَبَّنَا ٱفۡتَحۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ قَوۡمِنَا بِٱلۡحَقِّ﴾ [الأعراف: 89][2].

2) ﴿وَخَابَ﴾: جذر الكلمة هو (خيب)؛ الخَيْبَة: فوت الطَّلب، وهو المُراد في قوله تعالى: ﴿وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٖ﴾، ومنها، قوله تعالى:

(1) الخليل، العين: (فتح).
(2) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 19/78.

﴿وَقَدۡ خَابَ مَنِ ٱفۡتَرَىٰ ٦١﴾ [طه: 61]، ﴿وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ١٠﴾ [الشّمس: 10][1]، خيب: الخَيْبَةُ: حرمان الجدّ[2]. والآية ﴿وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾؛ أيْ: خسر وكُسِرت شوكتُه، وذهبتْ ريحهُ، وانتصرَ الحقّ على الباطل.

3) ﴿جَبَّارٍ﴾: جَذر الكلمة هو (جبر)؛ أصل الجَبرِ إصلاح الشَّيء بضربٍ من القهرِ، يُقال: جبرته فانجبر، والجبّار في صفة الإنسان، يُقال لمَن يَجبر نقيصته بادِّعاء منزلةٍ من التَّعالي لا يستحقّها، وهذا لا يُقال إلّا على طريق الذَّمِّ؛ وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلۡبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ٣٥﴾ [غافر: 35]؛ أي: متعالٍ عن قَبول الحقّ والإيمان له[3]، ورجل جبّار: مُتكبِّر[4]. والمعنى المُراد هُنا في قوله: ﴿وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾؛ أيْ: هُزم الكفّار المُعاندون الّذين آذوا النّبيّ والّذين آمنوا، وأخرجوهم من ديارهم وأموالهم.

4) ﴿عَنِيدٍ﴾: جذر الكلمة هو (عند)؛ عَنَدَ الرّجل يَعْنُدُ عَنْدًا وعُنودًا فهو عاند وعنيد، إذا طغى وعتا، وجاوز قدره، ومنه: المعاندة، وهو أن يعرف الرّجلُ الشَّيءَ ويأبى أن يقبلَه، أو يُقِرَّ به[5]، فلانٌ عنيدٌ ومُعاند: يعرف الحقّ فيأباه ويكون منه في شقّ[6]، والعَنِيدُ: المُعجَبُ بما عنده، والمُعانِدُ: المُباهي بما عنده. قال: ﴿كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ٢٤﴾ [ق: 24]، ﴿إِنَّهُۥ كَانَ لِأٓيَٰتِنَا عَنِيدًا ١٦﴾ [المدّثر: 16]، والعَنودُ قيل مِثلُه، قال: لكن بينهما فرقًا؛ لأنَّ العَنِيدَ الّذي يُعانِدُ ويخالف، والعَنودُ الّذي يَعْنُدُ عن القصْد، وعَنَدَ عنِ الطريق: عَدَل عنه، وعانَدَ: فارَقَ[7].

المَعْنى الإجْماليُّ:

طلب الرّسل والمؤمنون معهم الفتح من اللّه، وإنزال العذاب

الاستفتاحُ طلبُ الفتح من الله تعالى، ولا يكون ذلك إلّا للمؤمنين

(1) الرّاغب، المفردات: (خيب).
(2) الخليل، العين: (خيب).
(3) الرّاغب، المفردات: (جبر).
(4) ابن سِيده، المُحكم: (جبر).
(5) الخليل، العين: (عند).
(6) الزّمخشريّ، أساس البلاغة: (عند).
(7) الرّاغب، المفردات: (عند).

عليهم بعد يئسهم من إيمانهم، فجاءهم النّصر، وأصاب أعداءهم ما أصابهم من خيبة العتوّ والتّكبّر على الحقّ وأهله.

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

معنى الواو ودلالتها في ﴿وَٱسۡتَفۡتَحُواْ﴾:

(الاستفتاح): طلب الحُكم، وإنفاذه بالنّصر والتّمكين

في قوله سبحانه: ﴿وَٱسۡتَفۡتَحُواْ﴾ إمّا أن تكون الواو للاستئناف، وإمّا أن تكون للعطف، ويترتّب على ذلك توجيه الضّمير في ﴿وَٱسۡتَفۡتَحُواْ﴾، فعن مجاهد قال: ﴿وَٱسۡتَفۡتَحُواْ﴾؛ يعني: الرّسل كلّهم[1]. ويجوز أن يَكون قوله تعالى: ﴿وَٱسۡتَفۡتَحُواْ﴾ مُنقطعًا عن قصّة الرّسل عليهم السلام فتكون نازلة في أهل مكة؛ طلبوا الفتح الّذي هو المطرُ في سِنِيهم الّتي أُرسلت عليهم، بدعوة رسول الله ﷺ فخيّب سبحانه رجاءهم، ولم يَسْقِهم، ووعدَهم أن يسقيَهم في جهنّم - بدل سُقياهم - صديدَ أهل النّار، و(الواو) على هذا للاستئناف[2]. أو هي للعطف؛ إمّا على قوله تعالى: ﴿وَوَيۡلٞ لِّلۡكَٰفِرِينَ مِنۡ عَذَابٖ شَدِيدٍ ٢﴾ [إبراهيم: 2]، أو على خبر ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلِۭ بَعِيدٖ ٣﴾ [إبراهيم: 3] لقربه لفظًا ومعنًى، والوجه الأوّلُ أوجَهُ؛ وذلك لبُعد العهد، وعدم قرينة تخصيص الاستفتاح بالاستمطار؛ ولأنّ الكلام على ذلك التَّقدير يتناول أهل مكّة تناولًا أوليًّا، فإنّ المقصود من ضرب القصّة أن يعتبروا[3].

والضّمير في قوله: ﴿وَٱسۡتَفۡتَحُواْ﴾ للكفّار والعطف حينئذٍ على ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾؛ أيْ: قالوا ذلك واستفتحوا على نحو ما قالت قريش: ﴿عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا﴾ [ص: 16]، وكأنّهم لمّا قوي تكذيبهم، وأذاهم ولم يعاجَلوا بالعقوبة؛ ظنّوا أنّ ما قيل لهم باطل؛ فاستفتحوا على

(1) مجاهد، تفسير مجاهد، ص: 410.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/512.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/190.

سبيل التَّهَكُّم والاستهزاء كقول قوم نوح عليه السلام: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾ [هود: 32]، وقوم شعيب عليه السلام: ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا﴾ [الشّعراء: 187] إلى غير ذلك. ويمكن أن يكون الاستفتاح للرّسل وللمؤمنين فيكون العطف على ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ على هذا أيضًا؛ بل ظاهر كلام بعضِهم أنّ العطف عليه على القراءة المشهورة مُطلق[1]. فيكون الاستفتاح للرُّسُل وللمؤمنين طلبًا للنُّصرة على الكافرين.

دلالة القراءة بالأمر في ﴿وَٱسْتَفْتَحُواْ﴾:

الأمر بالاستفتاح وطلب النّصر من الله وتعذيب الكفَرة

قرئ شاذًّا (واستَفتِحوا) بلفظ الأمر[2]، على معنى الأمر للرّسل، قرأها ابن عبّاس ومجاهد وابن محيصن[3]. وعطفه على قوله: ﴿لَنُهْلِكَنَّ﴾؛ أيْ: أوحى إليهم ربُّهم، وقال لهم: لَنُهلكنّ، وقال لهم: استفتحوا[4].

نكتة زيادة المبنى في ﴿وَٱسْتَفْتَحُواْ﴾:

دلالة حروف الزّيادة على عظيم شأن طلب الفتح من الله سبحانه

تدلّ زيادة المبنى على زيادة المعنى، فكلّما كانت الحروف المُضافة إلى مادّة من الموادّ أكثر، كلّما كان المعنى ذا دلالة أكبر، فدلّت زيادة الألف والسّين والتّاء على الفعل (فتح) على الصّعوبة والمُعاناة الّتي كانت قد واجهت المُستفتِحين، وما آلت إليه أمورُهم، وما واجههم من القتل والتّهجير، وهم يستفتحون من الله النّصر والتّمكين.

غرض الحذف في ﴿وَٱسْتَفْتَحُواْ﴾:

عدم ذِكر نُصرة المؤمنين باعتباره أمرًا مُسلَّمًا به

في الكلام إيجاز بحذف الفاء الفصيحة والمعطوف عليه؛ أي: استفتحوا ففُتح لهم، وظفروا بما سألوا، وأفلحوا، وخاب كلُّ جبّار عنيد، وهم قومهم المعاندون[5]. أو استفتح الكفّار على الرُّسل وخابوا

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/190.
(2) الدّمياطيّ، إتحاف فضلاء البشر: 342.
(3) ابن عطيّة، المُحرّرُ الوجيز: 3/330.
(4) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 19/78.
(5) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/190.

ولم يفلحوا؛ وإنَّما قيل: ﴿وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ ذمًّا لهم وتسجيلًا عليهم بالتَّجبّر والعناد، أو استفتحوا جميعًا فنُصر الرُّسل، وأنجز لهم الوعد، وخاب أعداؤهم. والجبّار: المُتكبِّر على طاعة اللّه تعالى وعبادته، والعنيد: المُعاند للحقّ[1]، والحذف يُتيح تقديراتٍ للمحذوف يُرشد إليها السّياق، والذِّكر يمنع ذلك، فوراء الحذف تغزيرٌ للمعاني كما مضى بيانه.

دلالة الواو في: ﴿وَخَابَ﴾:

الخَيْبةُ لاحقةٌ بالكافرين جَرّاء تجبُّرهم وعنادهم

في قوله: ﴿وَٱسْتَفْتَحُواْ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾، ﴿وَخَابَ﴾؛ (الواو) حرف عطف، (خاب) معطوف على محذوف، وتقديره: استفتَحوا، فنُصِروا، وخاب، ويجوز أن يكون عطفًا على ﴿وَٱسْتَفْتَحُواْ﴾ على أنَّ الضَّمير فيه للكافرين[2]؛ بمعنى أن يكون الكافرون هم الّذين استفتحوا ذلك باعتبار أنَّهم كانوا يزعمون أنَّهم على الحقِّ؛ أي: استفتح الكفّار على الرّسل عليهم السلام، وخابوا، ولم يفلحوا.

سرُّ التّعبير بالفاعل شاملًا مُضافًا ﴿كُلُّ جَبَّارٍ﴾:

الجَبَروت والعناد صفتان مُتلازمتان عند الطّغاة

آثر البيان القرآنيُّ في قوله تعالى: ﴿وَٱسْتَفْتَحُواْ وَخَابَ﴾ ألّا يكون التّعبير على نحو: (وخابوا)؛ وإنّما جاء بالفاعل شاملًا كلَّ موصوف بالصّفتيْن المُضافتيْن تضمينًا لسبب الخَيبة، فقد أبرز صفتيْن لهؤلاء المُستحقّين للإهلاك في الدّنيا ولعذابٍ عظيم في الآخرة، فوصفهم بالجَبَروت والعناد، وسوف يُحاسب كلّ واحدٍ منهم على ما في نفسه من الجَبَروت والعناد، فكلٌّ يأخذ ما يستحقّ على قدْرِ تعاظم هاتيْن الصّفتيْن في قلبه ونفسه وأفعاله وأقواله؛ وهما صفتان متلازمتان عند رؤساء الكُفر من الطّغاة، وهو دالٌّ أيضًا على أنّ هاتيْن الصّفتيْن من صفات الكافرين المُستفتح عليهم فيما سبق،

(1) القاسميّ، محاسن التّأويل: 6/307 - 308.
(2) ابن عادل، تفسير اللّباب: 1/3104.

ولو عبّر بالضّمير بدل ذلك لما ظهرت هاتيك المعاني، فكأنّها وصفٌ لجرائمهم والدّوافع إليها من الجبروت والعناد.

نكتة الجمع بين ﴿جَبَّارٍ﴾ و﴿عَنِيدٍ﴾:

تجتمع الصّفتان لأنّهما من الطّبائع النّفسيّة المتقاربة

المُراد بالجبّار في قوله تعالى: ﴿وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ المتكبّر على طاعة اللّه تعالى وعبادته، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٤﴾﴾ [مريم: 14]. أمّا العنيد فقد اختلف أهل اللّغة في اشتقاقه، قال النّضر بن شُميل: العُنود: الخلاف والتَّباعدُ والتَّركُ، وقال غيره: أصلُه من العند وهو النّاحية، وعاند فلانٌ فلانًا إذا جانبه وكان منه على ناحية. وكونه جبّارًا مُتكبّرًا إشارة إلى الطّبائع النّفسيّة، وكونه عنيدًا إشارة إلى الأثر الصّادر عن تلك الطّبائع وذلك الخُلُق، وهو كونه مُجانبًا للحقّ مُنحرفًا عن الاستقامة، ولا شكّ أنَّ الإنسان الّذي يكون خُلُقه هو التَّجبُّر والتَّكبُّر، وفعله هو العنود، وهو الانحراف عن الحقّ والصِّدق، كان خائبًا عن كلّ الخيرات خاسرًا عن جميع أقسام السَّعادات[1]، وهاتان الصّفتان متلازمتان أبدًا لا توجد إحداهما دون الأخرى.

بلاغةُ الجناس النّاقص في قوله: ﴿وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ مع قوله: ﴿وَخَافَ وَعِيدِ﴾:

بيان الحالة القلبيّة بين المؤمن والكافر

ثمّة جناس ناقص بين (خاف) و(خاب)، فالشَّطر الأوّل من الجناس لِمَن خاف وعيدَ اللّه تعالى، بينما تكون الخَيبة للجبّار العنيد، فأفاد الجناس أنَّ الجامع بين الاثنيْن حالةٌ قلبيّة؛ لكنّها معكوسة بين الفريقيْن، فذكَر الفريقيْن على سبيل المقابلة، ليكشف عن حالتيِ النَّفس المتناقضتيْن فيهما.

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 19/78 - 79.

نكتة تنكير ﴿جَبَّارٍ﴾ و﴿عَنِيدٍ﴾:

تحقير وتهوين صفتي التّجبّر والعناد

أفاد تنكير صفتي ﴿جَبَّارٍ﴾ و﴿عَنِيدٍ﴾ التَّهوين والتّحقير، فمهما كان ذلك الجبّار مُتغطرسًا عنيدًا في الدّنيا؛ فإنّه في الآخرة هيّنٌ حقير، وتصيبه الخَيبة والخِذلان لا محالة.

﴿مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسۡقَىٰ مِن مَّآءٖ صَدِيدٖ ١٦﴾ [إبراهيم: 16]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

بيانُ جانبٍ من جوانب الخَيبة للجَبّار العنيد

بعد أن بيّن ﷻ في الآية السّابقة خَيبةَ كلِّ جبّار عنيد؛ وما تلك الخَيبة إلّا لتوكُّله على ما يملك من قوّة أو سلطة من زخرف الدّنيا الزّائف، فتراه مُتكبّرًا متجبّرًا، جاءته نقمة اللّه، وجاءه من الخسران في الدّنيا، وجهنّم تلاحقه وتحيط به في الآخرة، وإذا بمشهد وحيد يتصدّر؛ وهو: ﴿وَيُسۡقَىٰ مِن مَّآءٖ صَدِيدٖ﴾؛ فلعلّه أبشع ما يمكن أن يتصوّره أولئك المتكبّرون المُتنعّمون بالدّنيا وزينتها أن يُسقَوْا يوم القيامة بماءٍ عفِنٍ خارج من أجساد الكافرين أمثالهم.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَرَآئِهِۦ﴾: جذر الكلمة (وري)؛ أوْراه غيره، ووَرّاه تَوْرِيَةً: أخفاه، وتَوارَى: استتر، ووَراء بمعنى: خَلْف، وقد يكون بمعنى قُدّام، وهو من الأضداد، وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٞ﴾ [الكهف: 79]؛ أيْ: أمامهم، وتقول: وَرَّى الخبر تَوْرِيةً؛ أي: ستره، كأنّه مأخوذ من وراء الإنسان، كأنَّه يجعله وراءه حيث لا يظهر[1]. يُقال: وارَيْتُ كذا: إذا سترته، قال تعالى: ﴿قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ﴾ [الأعراف: 26]، نحو قوله تعالى: ﴿وَمِن وَرَآءِ إِسۡحَٰقَ يَعۡقُوبَ ٧١﴾ [هود: 71]، ﴿ٱرۡجِعُواْ وَرَآءَكُمۡ﴾ [الحديد: 13]، ﴿فَلۡيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمۡ﴾ [النّساء: 102]، وقوله: ﴿أَوۡ مِن وَرَآءِ جُدُرٖ﴾ [الحشر: 14]، فإنَّ ذلك يُقال في أيّ جانب من الجدار، فهو وَراءَهُ باعتبار الّذي في الجانب الآخر[2].

2) ﴿صَدِيدٖ﴾: جذر الكلمة (صدد)، والصَّديد: ما يسيلُ من

(1) الرّازيّ، مختار الصّحاح: (ورى).
(2) الرّاغب، المفردات: (ورى).

أجساد أهلِ النّار. وقيل: ما حالَ بين الجلدِ واللَّحمِ من القَيْحِ[1]. الصُّدودُ والصَّدُّ قد يكون انصرافًا عن الشّيء وامتناعًا، نحو: ﴿يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ۝٦١﴾ [النّساء: 61]، وقد يكون صرفًا ومنعًا نحو: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَصَدَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [النّمل: 24]، ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [مُحمّد: 1].. إلى غير ذلك من الآيات[2].

المَعْنى الإجْماليُّ:

جانبٌ من جوانب الخَيْبة في الآخرة، هي الخَيْبة الكبرى

بيّنت الآية الكريمة جانبًا من جوانب الخَيْبة الّتي مُنِيَ بها الكافرون الّذين قد استفتحوا فخابوا، فأظهرت الآية صورة الخَيْبة الكبرى في نار جهنّم قد أحاط بهم العذاب من كلّ جانب، وإن طلب السُّقيا؛ سُقيَ من ماءٍ صديد؛ هو عُصارة ما يخرج من أجساد المُعذَّبين في النّار، وما أفظع ذلك العذاب.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

موقع قوله: ﴿مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ﴾ ودلالته:

الدُّنيا جسر الآخرة، ومَن خاب في الدّنيا فإنّ خيبة الآخرة أعظم

قوله ﷻ: ﴿مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ﴾ جملة في محلّ جرٍّ صفة لـ ﴿جَبَّارٍ﴾؛ وهي كناية عن طلبها له وترصُّدِها إياه، فهي مُدرِكةٌ له لا مَحالة. وقيل: على تقدير مُضاف؛ أيْ: من وراء حياته وانقضاء عمره[3]. فتكون العبارة قد ذكرت الدّنيا والآخرة؛ لأنّ الدُّنيا ومواقفها هي جسر الآخرة، ومَن كُتبت عليه خَيْبة الدّنيا بالكفر والإصرار عليه، فقد خاب وخسر في الآخرة خسرانًا مبينًا.

غرض الكناية في ﴿مِّن وَرَآئِهِۦ﴾:

تهديدُ الجبّارين المعاندين كسرٌ لشوكة عنادهم وهزيمةٌ لاستعلائهم

(وراء) من الأضداد، فهي تدلّ على الخلف المستور والأمام غير المنظور، وأصل المعنى من الوري والاستتار، والسّياق يمحّضها لمعنى

(1) ابن عادل، تفسير اللّباب: 1/3106.
(2) الرّاغب، المفردات: (وري).
(3) القاسميّ، محاسن التّأويل: 6/308.

الأمام المستور، والغرض تهديد المُعاندين الجبّارين بما هو مُستتر عنهم وقادمون إليه لا محالة، وفي التّهديد كسرٌ لكبريائهم، فـ﴿مِّن وَرَآئِهِۦ﴾؛ بمعنى: من بين يديْه، وهذا وصف حاله وهو في الدُّنيا، لأنّه مرصدٌ لجهنّم، فكأنّها بين يديْه وهو على شفيرها، أو وصف حاله في الآخرة حين يبعث ويوقف.

سرُّ تخصيص نوعٍ واحد من العذاب بالذّكر:

خصّصتِ الآية نوعًا واحدًا من العذاب بالذّكر، لبيان أنه هو النّوع الأفظع والأدْعى للاعتبار والكفّ في الدّنيا عمّا يؤدّي إليه من الكفر والإصرار، فجعل قولَه: ﴿وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ﴾ كافيًا عن ذِكْر ما سواه.

الماءُ مطلبٌ لاستمرار الحياة وهو في جهنّم سبب للعذاب

معنى حرف الجرّ في قوله: ﴿مِّن وَرَآئِهِۦ﴾:

أفاد حرف الجرِّ ﴿مِّن﴾ ابتداء الغاية، فيكون الوراء وهو ما خفي عن الإنسان وغفل عنه هو الموضع الّذي يأتيه منه العذاب، بمعنى أنّه من المفترض أن يصيبه العذاب حتمًا، ثم إنّه يُسقَى مقابل ذلك، والسَّقْيُ يكون من أمامه ماء، هو ليس كالماء إنّما هو ماءٌ صديد.

العذاب يأتي المُتجبِّر العنيد من ورائه ومن أمامه

بلاغة الاستعارة في: ﴿مِّن وَرَآئِهِۦ﴾:

قوله عزَّ من قائل: ﴿مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ﴾؛ أيْ: من قُدّامه وبين يديْه، واستعمال (وراء) في هذا وذاك بناء على أنّها من الأضداد عند بعضهم، ويمكن أن تكون من المشتركات المعنويّة؛ فهي موضوعةٌ لأمرٍ عامٍّ صادق على القُدّام والخلف، وهو ما توارى عنك، وقد تفسّر بالزّمان مجازًا فيُقال: الأمر من ورائك على معنى أنّه سيأتيك في المستقبل من أوقاتك[1]، فالوراءُ مُستعمَلٌ في معنى ما ينتظره ويحِلّ به من بعد، فاستُعيرَ لذلك بجامع الغفلة عن الحصول، كالشّيء الّذي يكون من وراء المرء لا يشعر به؛ لأنّه لا يراه[2].

تنوّعُ دلالة (الوراء) في الآية الكريمة دليل ثراءٍ لغويٍّ

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/191.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/210.

غرض تقديم شبه الجملة ﴿مِّن وَرَآئِهِۦ﴾:

تقوية معنى الخفاء عن نظر الإنسان

في قوله ﷻ: ﴿مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسۡقَىٰ مِن مَّآءٖ صَدِيدٖ﴾ قدّم شبه الجملة الجار والمجرور ﴿مِّن وَرَآئِهِۦ﴾، تشويقًا للمُسنَد إليه من باب التّهكّم بهم، والتّشنيع عليهم، وذلك متناسب مع جُرم عملهم وتجاوزهم.

غرض تنكير ﴿جَهَنَّمُ﴾:

الإشعار بأنّ المخبّأ في الآخرة عظيمٌ

جاء تنكير جهنّم للتّهويل في قوله جلّ ثناؤه: ﴿مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ﴾ بيانًا لما يلحق بهم من خطرها، كما أنّ في تنكير (جهنّم) إشعارًا بما هو مُخبّأ لهم فيها من أصناف العذاب والأهوال ممّا لا يُعرف ولا يُدرك، ثمّ أبرز نوعًا واحدًا من أصناف العذاب الّذي لا يُطيقه أحدٌ قط؛ فقال: ﴿وَيُسۡقَىٰ مِن مَّآءٖ صَدِيدٖ﴾.

فائدة عطف ﴿وَيُسۡقَىٰ﴾ على ما قبلها:

تنوّع العذاب في الآخرة بتنوع جُرم المُعذّبين، ولكلٍّ نصيبه المُقدَّر

عُطف قوله: ﴿وَيُسۡقَىٰ﴾ على محذوفٍ تقديره: من ورائه جهنّم يُلقَى فيها، ويُسقَى من ماءٍ صديد[1]، وفيه بيان لتنوّع العذاب في الآخرة، ولعلّه من قبيل عطف الخاصّ على العامّ للإشادة بالخاصّ، لأنّه خصّص سُقيا الماء الصَّديد من بين أصناف العذاب الكثيرة.

نكتة التّعبير بالفعل المبنيّ للمفعول: ﴿وَيُسۡقَىٰ﴾:

تصوير الحال المَهين لأهل النّار يوم القيامة

في قوله: ﴿وَيُسۡقَىٰ مِن مَّآءٖ صَدِيدٖ﴾ أُسند فعل السُّقيا إلى المفعول، لعدم تعلّق غرضٍ بذكر الفاعل، أو يأتي البناء للمفعول للتّهوين، وعدم الاكتراث بحالهم، على الرّغم من سوء العذاب وشديده، ولتعظيم شأن الفاعل، فلا يُذكر صراحةً لما هم فيه من المهانة، حتّى ينشغلوا بالفعل عن الفاعل، وذلك على خلاف ذِكر الفاعل في وصف سُقيا أهل الجنّة قال تعالى: ﴿وَسَقَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡ شَرَابٗا طَهُورًا ٢١﴾ [الإنسان: 21].

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/513، وابن عادل، تفسير اللّباب: 1/3104.

دلالة (مِن) في: ﴿مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ﴾:

بيان جنس الماء الّذي يُسقَوْنَ منه وتصوير مهانتهم

في قوله: ﴿وَيُسۡقَىٰ مِن مَّآءٖ صَدِيدٖ﴾ تتجلّى فائدة (من)، وهي بيان جنس الماء الّذي يُسقَوْنَ منه، فخصّ هذا الوجه من عذاب أهل النّار دون غيره مع كثرتها، وسبب ذلك أنّه قد تكون هذه الحال أشدّ أنواع العذاب، فخُصِّصَ بالذِّكر مع قوله: ﴿وَيَأۡتِيهِ ٱلۡمَوۡتُ مِن كُلِّ مَكَانٖ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٖۖ﴾[1]، وتخصيصُه بالذّكر من بين عذابها يدلّ على أنَّه من أشدّ أنواعِه[2]، وقد تكون ﴿مِن﴾ ابتدائيّةً على معنى أنّ أوّل ما يُبدأ فيه من السُقيا هو الماء الصّديد.

نكتة تنكير ﴿مَّآءٖ﴾:

بيان طبيعة الماء الّذي يُغاث به الذين كفروا عند طلبهم السّقيا

جرى تنكير ﴿مَّآءٖ﴾ في قوله ﷻ: ﴿مِن مَّآءٖ صَدِيدٖ﴾ للتّنويع، ويدلّ على أنّه ماءٌ لا يمتلك صفات الماء المعهود لدى المُخاطَبين، وإنّما سُمّي بالماء تماشيًا مع ما يجول في نفوس المُعذّبين من أمنيات، من طلب الماء والاستغاثة؛ فتكون إغاثتهم بما هو أبعد شيء عن صفات الماء وفائدة شربه؛ وهو الصّديد أو القَيْح النّازل من جلود أهل النّار، والعياذ بالله، فيطلبون الماء للرّيّ والتّبريد؛ فيأتيهم عذابٌ بما سُمّي بالماء الصّديد.

نكتة التّعبير بـ﴿صَدِيدٖ﴾:

الصّدُّ والصّديد من مادّة لغويّة واحدة

الصّديد: جذر الكلمة هو (صدد)؛ والصُّدودُ والصَّدُّ انصرافٌ وامتناعٌ عن الشّيء، نحو: ﴿يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودٗا ٦١﴾ [النّساء: 61][3]، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [مُحمّد: 1]، ﴿وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [الحجّ: 25]، إلى غير ذلك من الآيات. وعلى مذهب البصريّين هو بدلٌ من ماءٍ؛ إن اعتُبِرَ جامدًا، أو نعتٌ

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 19/79.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/513، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/39.
(3) الرّاغب، المفردات، ص: 309.

إن اعتُبِرَ فيه الاشتقاق من الصَّدِّ؛ أي: المنع من الشُّرب كأنَّ ذلك الماء لمزيد قُبحه مانعٌ عن شربه، أو هو بمعنى مصدودٌ عنه؛ أيْ: لكراهته، وإطلاق الماء على ذلك ليس بحقيقة، وإنّما أُطلِقَ عليه باعتبار أنَّه بدله[1]. ونكتة اختيار لفظ صديد في عذاب هؤلاء الّذين كفروا بالرّسالات، وصدّوا النّاس عن الإيمان بها، أنّ المادّة اللّغويّة للصدّ والصّديد هي واحدة.

نكتة الإيضاح بعد الإبهام:

وصفٌ لطبيعة الماء الّذي يشربه الكفّار في جهنّم

في قوله تعالى: ﴿وَيُسۡقَىٰ مِن مَّآءٖ صَدِيدٖ﴾؛ الصّديد؛ هو الدَّمُ والقَيْحُ، وأعربه الزّمخشريّ عطف بيان لـ ﴿مَّآءٖ﴾، وفي إبهامه أولًا ثم بيانه من التَّهويل ما لا يخفى، وجواز عطف البيان في النّكرات مذهبُ الكوفيّين[2]. فلمّا قال: ﴿وَيُسۡقَىٰ مِن مَّآءٖ﴾، ناسب إيراد السُّقيا مع الماء، فالسّقيُ يكون بشرب الماء باسْتساغةٍ وراحة، لكنّه لمّا وضّح طبيعة الماء ظهرت شناعة صفاته وقبحُ حال مَن يشربه، فقال: ﴿يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ﴾.

سرُّ تخصيص نوع واحد من العذاب بالذّكر:

الماء مطلبٌ لاستمرار الحياة وهو في جهنّم سبب للعذاب

خصّصتِ الآية ﴿وَيُسۡقَىٰ مِن مَّآءٖ صَدِيدٖ﴾ نوعًا واحدًا من العذاب بالذّكر، لبيان أنّه هو النّوع الأفظع والأدْعَى للاعتبار والكفّ في الدّنيا عمّا يؤدّي إليه من الكفر والإصرار، فجُعل قوله: ﴿وَيُسۡقَىٰ مِن مَّآءٖ صَدِيدٖ﴾ كافيًا عن ذِكر سواه.

التَّشبيه البليغ في قوله: ﴿مَّآءٖ صَدِيدٖ﴾:

يشرب الكافرون ماءً يشبه الصّديد

جاء الوصف ﴿مَّآءٖ صَدِيدٖ﴾ على طريقة التَّشبيه البليغ في حذف أداة التَّشبيه ووجهه، أيْ: ماء مثل صديد، وعلى هذا فليس الماء الّذي تشربونه صديدًا، بل مثله في النَّتنِ والغِلَظ والقذارة، كقوله تعالى:

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/191.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/191.

﴿وَإِن يَسۡتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٖ كَٱلۡمُهۡلِ﴾ [الكهف: 29]. ولمّا كان الصّديد يشبه الماء في سيلانه، فقد أُطلق عليه ماءً، وهو ليس بماء حقيقةً، وعلى هذا فيكون: (يشربون الصَّديد نفسه) المشبَّه للماء[1]. وقيل: بأنْ يخلق اللّه تعالى في جهنّم ما يشبه الصَّديد في النَّتن والغِلَظ والقذارة، وهو أيضًا يكون في نفسه صديدًا، لأنَّ كراهته تصدُّ عن تناوله، وهو كقوله: ﴿وَسُقُواْ مَآءً حَمِيمٗا فَقَطَّعَ أَمۡعَآءَهُمۡ ١٥﴾ [محمد: 15]، وقوله: ﴿وَإِن يَسۡتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٖ كَٱلۡمُهۡلِ يَشۡوِي ٱلۡوُجُوهَۚ بِئۡسَ ٱلشَّرَابُ﴾ [الكهف: 29][2].

(1) ابن عادل، تفسير اللّباب: 1/3104.

(2) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 19/80.

﴿يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأۡتِيهِ ٱلۡمَوۡتُ مِن كُلِّ مَكَانٖ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٖۖ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٞ ١٧﴾ [إبراهيم: 17]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

تصوير مشهد من مشاهد العذاب في النّار يوم القيامة

الآية الكريمة استكمال لما ذُكر من العذاب الأليم المُعدّ للكافرين في النّار في الآية السّابقة؛ لأنّها صفةٌ له أو حالٌ منه، أو استئنافٌ بيانيٌّ فالعلاقة وثيقة.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَتَجَرَّعُهُۥ﴾: جَذر الكلمة هو (جرع)؛ جرعَ الماءَ يجرَعه جرعًا، والجُرعة الْواحِدَة، والْجمع: جُرَعٌ[1]. والجُرْعَة: قدْر ما يتجرّع، بقدر جُرعة من النَّفَس[2]. وجَرِعْتُ الماءَ أجْرَعُهُ جَرْعًا، واجترعته، وكلّ شيءٍ يبلعه الحلق فهو اجتراع. وإذا جَرَعه بِمَرّة قيل: اجترعه. والاجتراع بالماء كالابتلاع بالطّعام[3]، وتجرَّعه إذا تكلّف جرعه[4]، والتَّجَرُّع: تتابعُ الجرعِ مَرَّة بعد مَرَّة[5]. وفي الآية: ﴿يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ﴾؛ تصوير لطلب شُربه، لكنّه لا يستسيغه ولا يطيق شربه إلّا بدفعات متوالية.

2) ﴿يُسِيغُهُۥ﴾: جِذرُ الكلمة هو (سوغ)؛ ساغَ الشّراب في الحلق: سهُل انحدارُه في الحلق[6]، وأساغَهُ كذا، قال: ﴿سَآئِغٗا لِّلشَّٰرِبِينَ ٦٦﴾ [النّحل: 66]، ﴿وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ﴾، وفلان سوّغ أخيه: إذا ولد إثره عاجلًا تشبيهًا بذلك[7]؛ ساغَ الشَّراب سهُل مدخلُه في الحلق.

(1) الرّاغب، المفردات، وابن دُريد، جمهرة اللّغة، وابن سِيده، المُحكم: (جرع).
(2) الرّاغب، المفردات: (جرع).
(3) الخليل، العين: (جرع).
(4) الرّاغب، المفردات، والزّمخشريّ، أساس البلاغة: (جرع).
(5) الخليل، العين: (جرع).
(6) الرّاغب، المفردات، والرّازيّ، الصّحاح: (سوغ).
(7) الرّاغب، المفردات: (سوغ).

3) ﴿غَلِيظٌ﴾: جذر الكلمة (غلظ)؛ والغِلْظَةُ ضدّ الرّقّة، وأصله أن يُستعمل في الأجسام؛ لكنْ قد يُستعار للمعاني كالكبير والكثير، قال تعالى: ﴿وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ [التّوبة: 123]؛ أيْ: خشونة. وقال تعالى: ﴿ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ۝٢٤﴾ [لقمان: 24]، وقال: ﴿مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ۝٥٨﴾ [هود: 58]، وقوله: ﴿جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ [التّوبة: 73][1]، واسْتَغْلَظَ: تهيّأ لذلك، وقد يُقال إذا غَلُظَ. واستَغْلَظَ النَّباتُ والشَّجَرُ. قال: ﴿فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ﴾ [الفتح: 29][2]. وأغْلَظْتُ الثَّوبَ: وجَدْتُه غَليظًا، واستَغْلَظْتُه: تركتُ شراءه لغِلَظِه. وغَلَّظْتُ عليه، وأغْلَظْتُ له في المنطق. وأمر غَليظٌ[3].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

مشهد من مشاهد القيامة لحال المشركين وعذابهم

في قوله ﷻ: ﴿يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ ۝١٧﴾ تَصويرٌ لِما سَيؤولُ إليه حالُ المُعاندِ الجبّار من الّذين جابهوا الرُّسُل وهدّدوهُم وآذَوهم، فبيّنت الآية صورةً واحدة من صور عذابهم يوم القيامة وهم يتجرّعون الماء الّذي ليس كالماء؛ بل صديدٌ خارج من أجساد المُعذّبين، فأنّى يقدرون على سوغه وشربه، فهم يتجرّعونه فيشربونه على دفعات، فيكون الموت محيطًا بهم من كلّ جانبٍ، لكنّه لا يأخذهم فيستريحوا، ولا يُخفّف عنهم من العذاب؛ بل ينتظرهم عذابٌ غليظ عظيم والعياذ بالله.

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

موقع قوله: ﴿يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ﴾ ممّا قبله ودلالته:

يكون سُقيا الكافر من ماء لا يكاد يسيغه في جميع أحواله

قوله جلّ ثناؤه: ﴿يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ﴾، إمّا أن يكون صفةً

(1) الرّاغب، المفردات: (غلظ).
(2) الخليل، العين، والرّاغب، المفردات: (غلظ).
(3) الخليل، العين: (غلظ).

لماء، وإمّا أن يكون حالًا من نائب الفاعل (يُسقَى)، والأظهر أنَّه استئنافٌ بيانيّ مبنيٌّ على السّؤالِ؛ كأنَّه قيلَ فماذا يفعلُ به؟ فقيل: يَتَجَرَّعُهُ؛ أيْ: يتكلَّفُ جَرْعه مرّةً بعد أخرى لغلبة العطشِ واستيلاء الحرارة عليه، ﴿وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ﴾؛ أيْ: لا يقارب أن يسيغه، ناهيك عن الإساغة؛ بل يغَصّ به فيشربُه جرعةً بعد جرعةً فيطول عذابُه[1].

دلالة التّعبير بـ﴿يَتَجَرَّعُهُۥ﴾:

يشرب الكافر جُرعةً بعد جُرعةٍ في عذاب دائم

قوله ﷻ: ﴿يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ﴾، يصور كيفية شرب الكافر للماء الصّديد، وتجرَّع: (تَفعَّل)، فيكون للتّكلف؛ أيْ: يتكلَّف جرعهُ، أو أنَّه دالٌّ على المُهلة، نحو تفهَّمتهُ؛ أيْ: يتناوله شيئًا فشيئًا بالجرع كما يفهم شيئًا فشيئًا بالتّفهيم، أو أنّه بمعنى (جرع) المجرّد، والمعنى: يتحسّاه ويشربه لا بمرّة واحدة[2]. ودلالة المُضارع فيها على الاستمرار والتّجدّد لعدم ارتواء الكافر بشربه فهو يحتاج إلى هذا التّجرّع في كلّ وقت ولا ينتهي منه.

معنى ﴿يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ﴾:

بيان حالات العذاب الّتي تحيط بالكافر وهو يتجرّع الماء

أورد الفخر الرّازيّ في تفسيره معنيَيْن لقوله ﴿يَكَادُ﴾[3]: الأوّل: (يكاد) نفيه إثبات، وإثباته نفي، فقوله: ﴿وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ﴾؛ أيْ: ويسيغه بعد إبطاء، والدَّليل على حصول الإساغة قوله تعالى: ﴿يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ۝٢٠﴾ [الحجّ: 20]، ولا يحصل الصَّهر إلّا بعد الإساغة، وأيضًا فإنّ قوله: ﴿يَتَجَرَّعُهُۥ﴾ يدلّ على أنّهم أساغوا الشّيْء بعد الشّيْء. والثّاني: يمكن أن يفهم معنًى آخر باعتبار أنّ (كاد) للمقاربة؛ فيكون: ﴿وَلَا يَكَادُ﴾ لنفي المقاربة؛ يعني: ولم يقارب أن يسيغه؛ بمعنى: لا تحصل الإساغة، ومثلها قوله تعالى: ﴿لَمْ يَكَدْ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/37.
(2) ابن عادل، تفسير اللّباب: 1/3106.
(3) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 19/80.

﴿يَرَىٰهَاۗ﴾ [النّور: 40]؛ أيْ: لم يقرب من رؤيتها فلا يراها، فيكون المعنى: ولا يسيغ جميعه؛ كأنَّه يجرع البعض وما ساغ الجميع. فمع وصول بعض ذلك الشَّراب إلى جوف الكافر، إلّا أنَّ ذلك ليس بإساغة، لأنَّ الإساغة في اللّغة إجراء الشّراب في الحلق بقبول النّفس واستطابة المشروب، والكافر يتجرّع ذلك الشَّراب على كراهية ولا يُسيغه؛ أيْ: لا يستطيبه ولا يشربه شربًا بمرّة واحدة، وعلى هذيْن الوجهيْن يصحّ حمل ﴿وَلَا يَكَادُ﴾ على نفي المقاربة.

معنى الواو في قوله: ﴿وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ﴾:

وصف حال الكافر وهو يتجرّع الصّديد

في قوله: ﴿وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ﴾، واو الحال، هي الواو الدّاخلة على جملة اسميّة أو فعليّة تكون في موضع الحال، فجملة ﴿وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ﴾ في موضع الحال من فاعل ﴿يَتَجَرَّعُهُۥ﴾، أو من مفعوله، أو منهما جميعًا[1]. وفائدتها هُنا بيان حال الكافر وهو يشرب من الماء الصّديد، وما في ذلك من الكراهة والاختناق وتعسُّر البلع، وإرجاعه بعد شربه، وقُلْ ما شئت من حال صعوبة استساغة هذا الماء القَذر الكَريه.

دلالة التّعبير بـ ﴿يُسِيغُهُۥ﴾:

المعذَّبُ مكرَهٌ على ما يقبل ولا يسوغ جزاء عناده وتجبرّه

السّواغ هو انحدارُ الشّراب في الحَلق بسهولَةٍ وقَبولِ نفسٍ، ونفيُه لا يوجب نفيَ ما ذَكَرَ جَميعًا، وقيل: لا يكاد يدخُله في جوفه، وعبّر عنه بالإساغة لأنّها المعهودةُ في الأشربة، وهو حالٌ من فاعلِ يتجرّعه، أو من مفعوله، أو منهما جميعًا[2]. و﴿يُسِيغُهُۥ﴾ مضارع يفيد التّجدّد، فدلّ على المحاولات المُتجدّدة الّتي يبذلها المُعذَّب بُغية تقبّله وإساغته.

معنى الواو في: ﴿وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ﴾:

تنوّعُ حالات العذاب على الكافر واجتماعها قهرٌ لكبريائه

الواو في قوله تعالى: ﴿وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ﴾ عاطفة للجمع، فقد

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/192.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/37.

جُمعت على الكافر أصنافُ العذابِ، وأتته من كلّ مكان، وأحاطت به مجتمعة عليه. كما أفادت تنوّع العذاب على الكافر، فالموت الّذي يأتيه من كلّ مكان لا يكون بسبب ما يتجرّعه من الصّديد، وإنّما من أسباب أخرى من العذاب.

بلاغة التّتميم في: ﴿يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ﴾:

بيانُ سوء حال الكافر وهو يتجرّع الصّديد

التَّتميم في الآية أنواعٌ ثلاثة: تتميمُ النَّقص، وتَتْميمُ الاحتياط، وتتميمُ المبالغة، فقد قال: يتجرَّعه، ولو قال: يجرعه، لما أفاد المعنى الّذي أراده؛ لأنّ جرع الماء لا يُشير إلى معنى الكراهية، ولكنّه عندما أتى بالتّاء على صيغة التّفعُّل أفهم أنّه يتكلّف شربه تكلّفًا، وأنّه يعاني من جرّاء شربه ما لا يأتي الوصف عليه من تقزُّزٍ وكراهيّة، ثمّ احتاط للأمر؛ لأنّه قد يوهم بأنّه تكلّف شربه، ثم هان عليه الأمر بعد ذلك، فأتى بالكيدودة؛ أيْ إنّه تكلّف شربه وهو لا يكاد يشربه، ولو اكتفى بالكيدودة لصلح المعنى دون مبالغة، ولكن عندما جاءت ﴿يُسِيغُهُۥ﴾ أفهم أنّه لا يسيغه؛ بل يغصُّ به فيشربه بعد المحاولات والدّفع النّفسيّ، جرعةً بعد جرعة، فيطول عذابه تارةً بالحرارة ومرّةً بالعطش[1].

نكتة الكناية في ﴿وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ﴾:

الشدَّةُ المحيطة بالمعذَّب زيادة في تعذيبه وقهره

في قوله: ﴿وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ﴾؛ كأنّ أسبابَ الموت وأصنافَه كلَّها قد تألَّبَت عليه، وأحاطت به من جميع جهاته، تفظيعًا لما يُصيبه من الآلام؛ الّتي هي آلام الموت، وفي العبارة ما فيها من التّشخيص، فجعل الموت كرجلٍ مطارِدٍ له يطلب قتله، فيعيش المُعذّب في فَزَعٍ دائم من أهوال الموت وعذابه، لكنّه ليس بميّت، وفي قوله: ﴿مِن كُلِّ مَكَانٍ﴾؛ أي: من جسده كلّه، حتّى من إبهام رِجْلِه[2].

(1) القِنّوجيّ، فتح البيان: 7/98.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/513.

فجعل الموت شاخصًا أمامه ومن ورائه مُحيطًا به، يتجرّع آلامه دون أن يموت.

نكتة الاستعارة: ﴿وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ﴾:

موجباتُ الموت متحقّقةٌ فيه من كلّ جهاته

يظهر المجاز اللّغويّ في قوله تعالى ﴿وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ﴾؛ أيْ: أسبابه من الشّدائد وأنواع العذاب، فالكلام على المجاز المرسل[1]، ويمكن أن يكون استعارةً مَكنيّة، فالموت كإنسان يطلبُ قتلَ المُعذَّب من الكفَرة المارقين، فحذف الإنسان وهو المُشبّه به، وذكر شيئًا من لوازمه وهو الإتيان، وصرّح بالمُشبّه، فالموت لا يأتي، فأسند الإتيان إلى الموت على طريقة الاسْتعارة المكنيّة وهي تبعيّة؛ لأنّها وقعت في مشتقّ. والمعنى: أنّ موجبات الموت أحاطت به من جميع الجهات، ومع ذلك فإنّه لا يموت[2]. فتأتيه أسباب الموت من الشَّدائد وأنواع العذاب[3].

دلالة (اللّام) في: ﴿ٱلْمَوْتُ﴾:

عذابٌ عظيم بتحقُّق موجبات الموت دون أن يموت

الموتُ معرّفٌ هُنا بـ(اللّام) العهديّة لبيان عظيم شأنه، فالموت يأخذ الأرواح، يفْصلها عن أجسادها، فلا يبقى للجسد إحساسٌ بشيءٍ، لكنّه هُنا يكون إتيانُ الموت من كلّ مكانٍ، وفي كلِّ لحظة، لكنّه لا يموت أحدٌ منهم، ولا يُخفّف عن أحدهم شيءٌ: ﴿وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ﴾[4].

دلالة ﴿مِن﴾:

كلُّ مكان من جسد الكافر هو مبتدأ للموت

في قوله تعالى: ﴿مِن كُلِّ مَكَانٍ﴾ جاءت ﴿مِن﴾ لابتداء الغاية، فيكون كلّ مكانٍ من حوله هو مبتدأ الموت إليه، ويكون هو منتهى الغاية؛ بمعنى أنّه كان من المُفترض أن يصيبه الموت حتمًا، إصابات لا حصرَ لها، فلا محالة أنّه ميّت، لكنْ يستدرك السّياق بقوله: ﴿وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ﴾.

(1) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 13/140.
(2) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 19/80.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/192.
(4) ابن عادل، تفسير اللّباب: 1/3107.

الغرض البلاغي لتنكير ﴿مَكَانٍ﴾:

تنكيرُ المكان لفائدة العموم، فالمعنى المُراد من ذلك أنّ الموت يحيط به من جميع الجهات، من كلّ مكان من جسده، وإطلاق المكان على الأعضاء مجاز، وهذا الإتيان في الآخرة، والحال أنّه ليس بميّت حقيقة كما هو الظّاهر من مجيء أسبابه على أتمّ وجه، فيستريح ممّا غشيَه من أصناف الموبقات[1].

أهوال الموت تأتي من الأمكنة حول جسده كلّه

معنى الواو في قوله ﴿وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍۖ﴾:

قوله تعالى: ﴿وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍۖ﴾؛ (الواو) فيه حاليّة، وحال الكافر الموصوف في الآية أنّه لن يموت مع تحقُّق أسباب الموت من كلّ جانب، فيبقى خالدًا على هذا الحال فلا موت في الآخرة، على الرّغم من أنّ الموت قد أحاط به من كلّ مكان وجانب، وأسبابه قائمة، ومظاهره على أشدّها، إلّا أنّه لا يموت أبدًا.

حالُ الكافر بالله ورسالاته الخلودُ في العذاب فلا يموت

نكتة تقديم النّفي ﴿وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍۖ﴾:

فائدة تقديم النّفي بـ ﴿وَمَا﴾ على المُسنَد إليه ﴿هُوَ﴾ والمُسنَد الفعليّ ﴿بِمَيِّتٍۖ﴾ يُفيد التّخصيص، كما هو مُقرَّرٌ في علم المعاني، على معنى أنّ غيره يموت، أمّا هو فلا، وفي هذا ما فيه من العذاب المعنويّ، والقهر النّفسيّ بتخصيصه بهذا النّوع من العذاب.

يخلد أهل النار فيها فلا يخرجون مهما استغاثوا من عذابها

فائدة التّعبير بالجملة الاسميّة ﴿وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍۖ﴾:

تُفيد الجملةُ الاسْميّةُ دلالة الثّبوت؛ إذ يبقى هذا المُعذّب على هذا النَّحوِ حِقَبًا ﴿وَيَأۡتِيهِ ٱلۡمَوۡتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍۖ﴾؛ فتكون حياتُه حياةَ مَن يُنازع الموت، دون أن يموت، ودون أن يخفّف عنه بشيء.

دَيْمومةُ هذه الحالة من العذاب للكافر حِقَبًا طويلة

معنى الباء في قوله ﴿بِمَيِّتٍۖ﴾:

في قوله: ﴿وَيَأۡتِيهِ ٱلۡمَوۡتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍۖ﴾، جاءت

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/192.

لا يموت الكافر في النّار وإن طلبَ الموت ليستريح

(الباء) ﴿بِمَيِّتٍۖ﴾ لتوكيد النّفي، فهو لن يموت أبدًا مهما بلغ به العذاب، وأحاط به الموت وعاش أسبابَه، وذاقَ أشدّ العذاب، ويكون الموت حينذاك مطلبًا عزيزًا لكنّه لا يُدركُه أبدًا. و(الباء) للإلصاق عمومًا، فقد أفادت (الباء) إلصاقَ الموت به وبجسده، وما هو بميّت، تهويلًا لما يلاقيه من العذاب.

معنى الواو في قوله ﴿وَمِن وَرَآئِهِۦ﴾:

اجتماعُ أصناف العذاب الشّديد مع دَيْمومتِه

في قوله تعالى: ﴿وَمِن وَرَآئِهِۦ﴾ (الواو) عاطفة، وهي للجمع، وأفادت وصل جملة: ﴿وَمِن وَرَآئِهِۦ﴾ بجملة: ﴿وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍۖ﴾؛ وذلك لإفادة حيثيّات العذاب وتنوّعه في الوقت ذاته؛ إذ تجتمع كلّها على الكافر، وفي الصّورة ما فيها من التّرهيب من عذاب اللّه وغضبه.

عَوْدُ الضّمير في: ﴿وَمِن وَرَآئِهِۦ﴾:

العذابُ الغليظ المصير الطبيعيّ المُعدّ لكلِّ جبّار عنيد

قوله: ﴿وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾، في الضَّمير وجهان: أظهرُهُما: أنّه عائد على ﴿كُلُّ جَبَّارٍ﴾ ليناسب جبروتَه في الدّنيا، والثّاني: أنَّه عائدٌ على العذاب المُتقدِّم؛ أيْ: من ورائه جهنّم، ومن ورائه عذاب غليظ، فيكون من وراء هذا العذاب عذابٌ آخر؛ وُصِفَ بالغليظ، لتميّزه عن سابقه، فكأنّه أشدُّ وأقوى منه، فأفاد تعداد أنواع العذاب وتنوّع أشكاله وصوره[1].

معنى (من) في قوله: ﴿وَمِن وَرَآئِهِۦ﴾:

أشد المباغتة تكون من الخلف لغفلة صاحبها عنها

في قوله: ﴿وَمِن وَرَآئِهِۦ﴾: (من) للابتداء؛ وفائدتها تحقيق معنى أنّ أشدّ العذاب مُبتدئٌ من ورائه ومتّجهٌ نحوه، والوراء يكون الإنسان عادةً في غفلة عنه، وهذا سبب تخصيص جهة الوراء بعد أن بيّن أنّ الموت يأتيه من كلِّ مكان.

(1) ابن عادل، تفسير اللّباب: 1/3107.

غرض تقديم شبه الجملة ﴿وَمِن وَرَآئِهِۦ﴾:

الاهتمام بالوراء كونه جهة غفلة المقصود

في تقديم شبه الجملة ﴿وَمِن وَرَآئِهِۦ﴾ اهتمامٌ بهذه الجهة، باعتبارها جهة غفلة المقصود بهذا الوصف؛ وهم الّذين جحدوا بما جاءتهم به الرّسل من الرّسالة، فقدّم ﴿وَمِن وَرَآئِهِۦ﴾ ليُعلم أنّه قد أُحيط به من كلّ مكانٍ وأكّد بإتيانه من الوراء، لأنَّها جهة الهروب فيُفجأ بعذابٍ غليظ.

نكتة تكرار ﴿وَمِن وَرَآئِهِۦ﴾:

الاهتمام بجهة الوراء لتواريها عن الأنظار

في تكرار شبه الجملة ﴿وَمِن وَرَآئِهِۦ﴾ للاهتمام بهذه الجهة لما فيها من الخفاء عن النّظر، وما تحتمله من غفلة الإنسان عنها، فيأتيه العذاب من حيث هو غافلٌ عن جهته، وما في ذلك من المبالغة في شدّة العذاب وقوّة مباغتته.

الغرض من تنكير ﴿عَذَابٌ﴾:

تعدُّد أصناف العذاب الغليظ المُعدّ للكافرين

تنكيرُ ﴿عَذَابٌ﴾ أفاد تهويل ما يقع عليهم من عذاب اللّه باعتبار أنّه موصوفٌ بالعذاب الغليظ؛ فلمّا نكَّرَهُ أفاد تعدّد أنواعه، وأخفى ما ينتظر الكافر من ذلك العذاب المُهين، ويمكن أن يفيد التّنكير التّنويع على أنّه عذاب ليس كأيّ عذاب.

نكتة التّعبير بالاستعارة ﴿عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾:

العذابُ الغليظُ هو الشّديد أو المستمرُّ بلا انقطاع

يقصد بالعذاب الغليظ في قوله: ﴿وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾: الخلود في النّار، أو أنَّهُ في كلّ وقت يستقبله يتلقّى عذابًا أشدّ ممّا قبله[1]. وفي الجملة استعارة؛ فقد ورد في تفسير قوله عزّ من قائلٍ: ﴿وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ أنّ المُراد أنّه العذاب الدّائم غير المنقطع[2]. وهو العذاب الشَّديد، أو الموثوق الّذي لا يمكن للمُعذَّب أن يُفلت منه، فوجه الشّبه أنّ الشّديد كقوّة الحبل الغليظ الشّديد

(1) ابن عادل، تفسير اللّباب: 1/3107.

(2) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 19/80.

الوَثاق، فلا ينفكّ عنه المُقيّد لموثوقيّته، فيكون ﴿غَلِيظٌ﴾ استعارةً تصريحيّةً أصليّة.

الكناية في قوله: ﴿عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾:

الغِلَظةُ تقتضي دَيْمومة العذاب وخلودَهم فيه

في قوله تعالى: ﴿وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ يمكن أن تكون الجملة كنايةً عن الإحاطة والشّدّة، فوصف العذاب بالغلظة، كناية عن قوّته واتّصاله، ثمَّ إنّه قد أحاط بالمُعذّب؛ لأنّ الغلظة تستوجب القوّةَ وتستدعي أن يكون متّصلًا، تتّصل به الأزمنة كلّها فلا انفصالَ بينها[1].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

البلْع والتّجرّع:

في التّجرّعُ شدَّةٌ وتألُّمٌ، وفي البلْع سلاسةٌ واستمرارٌ

﴿يَتَجَرَّعُهُۥ﴾؛ أيْ: يتكلّف تجرُّعَه لقهره عليه ﴿وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ﴾ ولخُبثه[2]. والجَرْعَةُ قدْر ما يتجرّع، وهو المقدار المُحدّد من السّائل أو الماء، ونوقٌ مجاريع إذا لم يبقَ في ضروعها من اللّبن إلّا جُرَعٌ[3]، وفيها الدّلالة على القلّة، فقوله: يتجرّعه ولا يكاد يُسيغه، أيْ: مع قلّته فإنّه غير سائغ في حَلْقه، ويُقاسي العذاب في جَرْعه.

أمّا البلعُ ففيه إساغة، وليس فيه تكلّف، قال تعالى: ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ﴾ [هود: 44]؛ إذ يدلّ البلع على الكثرة في ابْتلاع السّائل أو الماء، ويدلّ كذلك على الاستمرار دون التّقطّع كما في حالة التّجرّع؛ فإنّه يبلعه متقطّعًا غير مستساغٍ.

الغليظ والشّديد والأليم والعظيم:

عذاب غليظ يدلّ على استمراره أو تنوّعه أو شدّته

الغليظ: الغِلْظَةُ ضدّ الرّقّة، واستُعيرَ هنا للدّلالة على العذاب الشّديد أو المستمرّ الّذي لا ينقطع، قال تعالى: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ۝٥٠﴾ [فُصّلت: 50]، وقوله: ﴿جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ

(1) الرّازيّ، الجدول في إعراب القرآن: 13/173.
(2) العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 525.
(3) الرّاغب، المفردات: (جرع).

عَلَيۡهِمۡۚ﴾ [التّوبة: 73][1]، واستَغْلَظَ النَّباتُ والشَّجَرُ. قال: ﴿فَٱسۡتَغۡلَظَ فَٱسۡتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ﴾ [الفتح: 29][2]. وأغْلَظْتُ الثَّوبَ: وجَدْتُه غَليظًا، واستَغْلَظْتُه: تركتُ شراءه لغِلَظِه. وغَلَّظْتُ عليه، وأغْلَظْتُ له في المنطق. وأمرٌ غَليظٌ[3].

وأمّا الشَّديد: الشّدّ: العقد القويّ، والشّدّة تستعمل في العقد، وفي البدن، وفي قوى النّفس، وفي العذاب، ومن الأخير قوله: ﴿فِي ٱلۡعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ ٢٦﴾ [ق: 26]، وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرۡبَعِينَ سَنَةً﴾ [الأحقاف: 15]؛ ففيه تنبيه على أنّ الإنسان إذا بلغ هذا القدْرَ يتقوّى خَلْقه الّذي هو عليه، فلا يكاد يُزايله بعد ذلك[4].

العذابُ الشّديد الّذي يدلّ أثره على الإنسان وعلى الجسد

والأليم: الألم: الوجع الشّديد، قال تعالى: ﴿فَإِنَّهُمۡ يَأۡلَمُونَ كَمَا تَأۡلَمُونَۖ﴾ [النّساء: 104]، وقد آلمتُ فلانًا، وعذابٌ أليمٌ؛ أيْ: مُؤلِم[5]. والأليم أقلّ من الشّديد، والعذاب الأليم: عذابٌ حِسّيٌّ شديدٌ موجِع، ولعلّ أكثر ما يكون في آلام الجلد واحتراقه.

العذاب الأليم يدلّ على أثره في الجلد والألم الّذي هو أحد آثار العذاب

والعظيم: وعَظُمَ الشّيء أصله: كَبُرَ عظمُه، ثمّ استُعيرَ لكلّ كبير، فأُجريَ مجراه محسوسًا كان أو معقولًا، عينًا كان أو معنًى. قال: ﴿عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٍ ١٣﴾ [الزّمر: 13]. ويُقال: جيشٌ عظيم، ومالٌ عظيم، وذلك في معنى الكثير، والعظيمة: النّازلة[6].

العذاب العظيم الّذي يدلّ على قوّته وهيبة ما فيه من الأهوال

المَيْت والمَيِّت:

يُطلق (الميِّتُ) على مَنْ مات، وعلى الحيّ الّذي لم يمُت بعد، قال تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ٣٠﴾ [الزّمر: 30]، وبالتّخفيف (مَيْت)

المَيْتُ مَنْ فارقتْ روحُه جسدَه

(1) الرّاغب، المفردات: (غلظ).
(2) الخليل، العين، والرّاغب، المفردات: (غلظ).
(3) الخليل، العين: (غلظ).
(4) الرّاغب، المفردات: (شد).
(5) الرّاغب، المفردات: (ألم).
(6) الرّاغب، المفردات: (عظم).

لا يُطلق إلّا على مَن مات، وفارقت روحُه جسدَه[1]، ولعلّنا من جمال الضّبط بالشّكل وانسجامه مع معاني الكلمات أنّ (الـميِّت) تكون ياؤه مشدّدةً مكسورة، فتشير إلى الحركة والشّدة والتزام الحياة والإقبال عليها. أمّا الميْت: فتدلّ على الّذي خرجت روحُه، فينسجم سكون جسده مع سكون الياء هنا، ومن جميل ما قيل في التّفريق بينهما:

وَتَسْأَلُـني تَفْسيرَ مَيْتٍ وَمَيِّتٍ *** فَدونَكَ ذا التّفسيرُ إنْ كنتَ تَعْقِلُ

فَمَنْ كانَ ذا روحٍ فَذلِكَ مَيِّتٌ *** وَما الـمَيْتُ إلّا مَنْ إلى القَبْرِ يُحْمَلُ

(1) القاسميّ، محاسن التّأويل: 6/308.

﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡۖ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَرَمَادٍ ٱشۡتَدَّتۡ بِهِ ٱلرِّيحُ فِي يَوۡمٍ عَاصِفٖۖ لَّا يَقۡدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَيۡءٖۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلۡبَعِيدُ ١٨﴾ [إبراهيم: 18]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

أعمال الكفّار ستكون يوم القيامة هباءً لا قيمة لها

لمّا ذكرَ تعالى أنواعَ عذابِهم في الآية السّابقة بيّن في هذه الآية أنَّ أعمالهم بأسرِها تصيرُ ضائعةً باطلة، لا ينتفعون بشيءٍ منها، وعند هذا يظهر كمالُ خسرانهم؛ لأنّهم لا يجدون في القيامة إلّا العقاب الشَّديد، ووجدوا كلّ أعمال الدّنيا قد بطَلت وضاعت، وذلك هو الخُسرانُ الشَّديد، والضّلالُ البعيد[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿كَرَمَادٍ﴾: جذر الكلمة هو (رمد)؛ يُقال: رَمادٌ؛ والرَّماد: دُقاق الفحم، وما هبا من الجَمْر فصار دُقاقًا[2]، قال تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡۖ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَرَمَادٍ﴾، ورَمِدَتِ النّارُ: صارت رَمادًا، وعبّر بِالرَّمَدِ عن الهلاك كما عبّر عنه بالهُمود، ورَمِدَ الماء: صار كأنّه فيه رماد لأُجونِه، والأَرْمَدُ ما كان على لون الرّماد[3].

2) ﴿عَاصِفٖۖ﴾: جَذر الكلمة هو (عصف)؛ العَصْفُ الّذي يُعْصَفُ من الزّرعِ، والعَصْفُ: ما على ساق الزّرع من الورق الّذي يبس فتفتّت[4]. أو هو عندنا دقاق التّبن الّذي إذا ذرّي البَيدر صار مع الرّيح كأنّه غبار[5]. قال تعالى: ﴿وَٱلۡحَبُّ ذُو ٱلۡعَصۡفِ﴾ [الرّحمن: 12]،

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 19/80 - 81.
(2) ابن سِيده، المُحكم: (رمد).
(3) الرّاغب، المفردات: (رمد).
(4) الخليل، العين، والرّاغب، المفردات: (عصف).
(5) الخليل، العين: (عصف).

﴿كَعَصۡفٖ مَّأۡكُولِۭ ۝٥﴾ [الفيل: 5]، و﴿رِيحٌ عَاصِفٞ﴾ [يونس: 22]، وعاصِفَةٌ ومُعْصِفَةٌ: تَكْسِرُ الشَّيءَ فتجعله كَعَصْفٍ، وعَصَفَتْ بهم الرّيحُ تشبيهًا بذلك[1].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

بيانُ مصير أعمال الخير الّتي قدّمها الكافر المعاند

قد يتبادر إلى الذِّهن سؤالٌ عن أعمال الخير الَّتي كانوا يعملونها كصلة الأرحام وعتق الرِّقاب، وفداء الأسارى، وعقر الإبل للأضياف، وإغاثة الملهوفين، والإجارة، وغير ذلك من صنائعهم، ألا تشفعُ لهم يوم القيامة فتخفّف عنهم من عذاب النّار؟ فجاءت هذه الآية لبيان حبوطها وذهابها هباءً منثورًا؛ لأنّها لم تأتِ على أساسٍ سليم من معرفة اللّه، والإيمان به، إذ لم تكن لوجهه سبحانه فشبّهت في الآية برماد طيّرته الرِّيح العاصف ﴿لَّا يَقۡدِرُونَ﴾ يوم القيامة ﴿مِمَّا كَسَبُواْ﴾ من أعمالهم ﴿عَلَىٰ شَيۡءٖۚ﴾؛ أيْ: لا يرون له أثرًا من ثواب، كما لا يقدر من الرَّماد المطيّر في الرّيح على شيء ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلۡبَعِيدُ﴾ إشارةً إلى بُعد ضلالهم عن طريق الحقِّ[2].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

نكتة فصل الآية عن سابقتها:

لا تنفع أعمالُ أهل الكفر يومَ القيامة؛ لأنّها ليست لله

الجملةُ من قوله: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡۖ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَرَمَادٍ﴾ مستأنفَة بيانيًّا جوابًا لسؤالٍ مُقدَّر، كأنّه قيل: كيف مَثَلُهم؟ فقيل: كَيْتَ وكَيْتَ[3]، فالأولى تناولت حالَ الّذين كفروا في النّار، والثّانية تناولت مثَلَ أعمال الخير الّتي عملوها في الدّنيا كصلة الرّحم، وقِرى الضّيف وغيرها.

(1) الرّاغب، المفردات: (عصف).
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/514.
(3) ابن عادل، تفسير اللّباب: 1/3107.

بلاغةُ التّشبيه التّمثيلّي في الآية:

تحتاجُ الأعمالُ إلى نيّة حُبِّ الله ورسوله لتأخذَ قيمتَها ووزنَها

وقوله: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡۖ﴾ مبتدأ خبره محذوف؛ أيْ: فيما يُتلَى عليكم صفتهم الّتي هي في الغرابة كالمَثَل كما ذهب إليه سيبويْه[1]. والتّشبيهُ التَّمثيليُّ هو ما كان وجه الشّبه فيه صورةً منتزَعةً من مُتعدِّد، ولا يشترط فيه تركيب الوجه سواء أكان الوجه فيه حسِّيًّا أم عقليًّا، حقيقيًّا أم غير حقيقيّ، فيكون المُشبّه هو (مثَلُ أعمال الّذين كفروا) والمُشبَّه به: (رمادٌ اشتدّت به الرّيحُ في يوم عاصف). فأعمالُهم الحسنةُ في الخير مهما كثُرت فإنّها فاقدةٌ لوزنها ولأهمّيّتها، وتكون كتلتها مثل رماد متطاير بأدنى ريح، فكيف إنِ اشتدّت به الرّيح؟ إنّها حتمًا ستكون هباءً منثورًا.

وعلى هذا يكون حاصلُ التّمثيل تشبيهَ أعمالهم في حُبوطها وذهابها هباءً منثورًا؛ لابتنائها على غير أساسٍ من معرفة اللّه تعالى، والإيمان به، فجاء تمثيلها برمادٍ طيّرته الرّيحُ العاصف وفرّقته، وهذه الجملة فَذْلَكَةُ ذلك، والمقصود منه بيان عدم رؤية الأثر لتلك الأعمال، وفيه تهكُّمٌ بهم، ذلك - أيْ: ما دلّ عليه التّمثيلُ دلالةً واضحةً من ضلالهم مع حسبانهم أنّهم على شيء - هوَ الضَّلالُ البَعِيدُ عن طريق الحقّ والصّواب، وقد تقدّم تمامُ الكلام في ذلك غير بعيد[2].

المُراد بقوله: ﴿أَعۡمَٰلُهُمۡ﴾:

تتمايز الأعمال بنيّات أصحابها

"المُراد بأعمالهم ما هو من باب المكارم كصلة الأرحام وعتق الرِّقاب، وفداء الأُسارى، وقِرى الأضياف، وإغاثة الملهوفين، وغير ذلك. وقيل: ما فعلوه لأصنامهم من القُرَب بزعمهم. وقيل: ما يعمُّ

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/192.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/192.

هذا وذاك؛ ولعلّه الأوْلى"[1]. فما كان للّه دام واتّصل، وما كان لغيره ضرب اللّه فيه مثَلًا عظيمًا، فما تلك الأعمال لا كرمادٍ اشتدّت به الرّيح في يومٍ عاصف.

نكتة تنوُّعُ أوجه إعراب ﴿مَّثَلُ﴾:

تنوّعُ آراء المفسّرين في أوجه الإعراب

ذهب الكِسائيُّ والفرّاء إلى أنّ ﴿مَّثَلُ﴾ مُقحَم، وقال الحوفيّ: هو مبتدأ و﴿كَرَمَادٍ﴾ خبره، و﴿أَعۡمَٰلُهُمۡ﴾ بدل اشتمال من المبتدأ؛ وجوّز الزّمخشريّ أن يكون بدلًا من ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾؛ لكنْ على تقدير: (مثَلُ أعمالهم)؛ فيكون التّقدير: مثَلُ الّذين كفروا مَثَلُ أعمالهم كرماد[2]، بينما ذهب الثّعلبيّ إلى أنّه[3] بدل الكلّ من الكلّ، وذلك لأنّ مثَلَهم، ومَثَل أعمالهم متّحدان بالذّات؛ فيكون بدل اشتمال أيضًا كما أشرنا آنفًا؛ لأنَّ مَثَل أعمالهم كونها كرمادٍ ومثلهم كون أعمالهم كرمادٍ، فلا اتّحاد لكنَّ الأوّل سببٌ للثّاني، والرَّماد معروف[4]. وذكر صاحب الكشّاف أنّ قوله: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ مبتدأ محذوف الخبر عند سيبويْه، وتقديره: وفيما يُقصُّ عليك ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡۖ﴾، ويجوز أن يكون المعنى: مثَلُ أعمال الّذين كفروا بربّهم، أو تكون هذه الجملة خبرًا للمبتدأ؛ أيْ: صفةُ الّذين كفروا أعمالُهم كرماد، أوتكون ﴿أَعۡمَٰلُهُمۡ﴾ بدلًا من جملة ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾[5].

سِرُّ مجيء جملة الصّلة بوصف الكفر ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾:

الكافر هو الّذي يطمس الحقيقة ويأباها

ضُرِبَ هذا المثَلُ لبيان حال الكفّار الّذين أنكروا الرّسالات وتوجّهوا بالتَّهديد لرسلهم بإخراجهم من أرضهم أو العَوْد إلى

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/192.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/513.
(3) الثّعلبيّ، الكشف: 5/311.
(4) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/192.
(5) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/514.

ملّتهم، فأهلكهم الله بأعمالهم وما يستحقّون، وقد أطلق صفة الكفر عليهم؛ لأنّ أعمالهم كانت تروم طمس الحقّ ممّا جاءت به الرّسل، فكان هذا الموضع تكرارًا لصفة الكفر عن موضع سابق، قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمۡ لَنُخۡرِجَنَّكُم مِّنۡ أَرۡضِنَآ أَوۡ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَاۖ﴾ فكرّر وصف الكفر عليهم لتوكيدِ هذه الصّفة، وانطباقها على أقوالهم وأفعالهم، وتلازمها فيهم.

غرضُ التّعبير عن الكفّار بالاسم الموصول ﴿بِرَبِّهِمۡۖ﴾:

تكرارُ الاسْم الموصول بعد أن بيّن أقوالَهم وأفعالَهم بقوله: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡۖ﴾، فجاء وصفُ حال هؤلاء بالكفر، وفائدةُ الاسْم الموصول التّعريضُ بأفعالهم وأقوالهم؛ لأنّهمُ اعتمدوا أسلوبَ التّكذيب القائم على التّهديد والوعيد، وقصدُهم من ذلك طمسُ الحقِّ الّذي جاءت به الرّسل عليهم السلام.

التّعريضُ بالأفعال الشّائنة الّتي تؤدّي إلى تزييف الأمور

دلالة الباء في قوله: ﴿بِرَبِّهِمۡۖ﴾:

أتت باء الجرّ في قول المولى ﷻ: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡۖ﴾ للإلصاق والاختلاط[1]، والإلصاق هُنا مجازيٌّ، فإنّ كُفر أولئك لا يكون إلّا بالله سبحانه، وهم يُنكرون كلّ ما يأتيهم من الله بالرّسالات والرّسل، وهي قضيّة عَقَديّةٌ عُظْمَى، فمن شروط الإيمان التّوحيد، فمَن كفر بالتّوحيد، وأشرك بالله غيره فلا إيمان له قطعًا، فانتفاءُ الإيمان يكون بسبب الشّرك بالله، فيكون السَّبَبُ الأوّل لكفرهم هو إنكارهم ألوهيّة الله سبحانه.

يكفر المُكذّبون بجميع ما أتى من جهة الرّسول

نكتة التّعبير بلفظ (رَبّ):

يُشعِر التَّعبير بالرّبوبيّة في الآية الكريمة ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡۖ﴾ بالعناية والرّعاية، وأنّ من شأن هذا اللّفظ أن يستوجب طاعةَ وحبَّ هذا الرّبّ الّذي يُصلِحُ رعيّته، ويعتني بهم، تمامًا كما

الكافرون يؤمنون بالرّبوبيّة، ولا يؤمنون بأحقيّة الله بالعبادة

(1) سيبويه، الكتاب: 2/304.

يقوم ربّ الأسرة بالعناية بأُسرته؛ لذا فإنّ تذكيرهم بالرّبوبيّة في هذا الموضع فيه امتنانٌ وتذكيرٌ لهم بأنّه حريٌّ بأن يُطاع مثلُ هذا الرّبّ وألّا يُعصَى، فكيف يكفرون به؟!

نكتةُ فصل قوله ﴿أَعۡمَٰلُهُمۡ﴾ وإعرابه:

أعمالُ الكافرين تزول وأجسادُهم خالدة في النّار

لو جاء البيان القرآنيُّ على نحو: (مثَلُ الّذين كفروا وأعمالُهم) لأفاد ضمّ الأعمال إلى الّذين كفروا أنفسهم، ولكان المصيرُ للكفّار والأعمال واحدًا، ولكنّ هذا لا يُراد في الآية؛ لأنّ أعمالهم ذهبت وتلاشت، بينما الكفّارُ أنفسُهم سيكونون خالدين في النّار يوم القيامة، فلن تتلاشى أجسادُهم، وسيُحيط بهم الموتُ من كلّ مكان، ولا يموتون، ليذوقوا العذاب، فقوله سبحانه: ﴿أَعۡمَٰلُهُمۡ كَرَمَادٍ﴾ جملةٌ مستأنَفةٌ لبيان مثَلِهم ومثَلِ أعمالهم، ورجّح ابن عطيّة كون ﴿مَّثَلُ﴾ مبتدأ وهذه الجملة خبره[1].

معنى الكاف في قوله ﴿كَرَمَادٍ﴾:

أعمالُ الكفّار لا وزنَ لها ولا قيمة

الكافُ تُفيد التّشبيه، وما ذُكر لها من معانٍ أخرى ترجع في حقيقتِها إلى معنى التّشبيه، فقوله: ﴿أَعۡمَٰلُهُمۡ كَرَمَادٍ﴾؛ أيْ: إنّه شبّه أعمالَهم برماد، ووجهُ الشّبَه فيه خفّتُه وتطايرُه بأدنَى نَسمة هواء، أمّا إن تعرّضَ لريحٍ عاصف، فإنّه لن يبقى له أثرٌ حتمًا.

الغرضُ من تنكير ﴿كَرَمَادٍ﴾:

تشبيهُ الأعمال بأهون الموجودات

تنكيرُ ﴿كَرَمَادٍ﴾ هنا للتّحقير من شأن ما توصف به أعمالُهم أو ما تُشبّه به، فهي مثل رمادٍ لا قيمةَ له في هذه الدّنيا تُفرّقه الرّيح فلا يكون له شأن. ولعلّ الرّماد هو أهون الموجودات ممّا عرفه الإنسان، فكذلك ستكون أعمالُهم في الآخرة.

بلاغةُ التّشبيه التّمثيليّ ﴿كَرَمَادٍ﴾:

في قوله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡۖ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَرَمَادٍ ٱشۡتَدَّتۡ

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/331.

الكافرون يخلدون في النّار وأعمالهم تزول وتتلاشى

بِهِ ٱلرِّيحُ﴾. وحاصلُ التّمثيل: تشبيهُ أعمالهم في حُبوطها وذهابها هباءً منثورًا لابتغائها على غير أساسٍ من معرفة الله تعالى والإيمان به وكونها لوجهه برمادٍ طيّرته الرّيحُ العاصفُ وفرّقته، فالمُشبّه مُركّب، وهم الّذين كفروا وأعمالُهم، والمشبَّه به الرّماد، ووجه الشَّبه أنّ الرّيح العاصفَ تُطيِّرُ الرّمادَ وتُفرِّقُ أجزاءه، كما أنّ الكفر يُحبط الأعمال[1]. وتأتي بلاغةُ التّشبيه التّمثيليّ المُضمّن في التّشبيه الأوّل، أنّه جعل الأعمال في تشبيه داخليّ، وجعل مثَلَ حال الكافرين في تشبيهٍ تمثيليّ أوسعَ وأعمّ، وذلك لتُفصلَ الأعمالُ عن الأشخاص، فلكلٍّ مصيرٌ خاصٌّ به، فالأعمالُ تفقد قيمتَها وتتحوّل إلى الشّيء المعدوم، بينما يبقى الكافرون في عذابٍ وخلود.

أوجُهُ الشّبَه بين أعمال الكفّار وبين الرّماد:

تتعدَّد أوجُهِ الشّبَه بين الكُفّار وبين الرّماد المتطاير

في قول المولى ﷻ: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡۖ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَرَمَادٍ ٱشۡتَدَّتۡ بِهِ ٱلرِّيحُ﴾ شُبّهت أعمالُهم بالرّماد؛ لأنّ الرّمادَ يتطاير بأدنى ريح، فكيف بريحٍ عاصف؟!، فلا تُبقي له أثرًا، وكذلك أعمالهم لا يبقى منها أثرٌ نافعٌ لهم يوم القيامة؛ لأنّها لا قيمةَ لها، ومن ثَمّ ستذهب وتتلاشى، وسوف يأتيها أمر الله فتتناثر فلا يُعرَف لها قيمةٌ ولا قرار ولا أثَر، ثمّ إنّ اختيار الرّماد دون غيره من الموادّ كالرّمل مثلًا؛ لأنّ ذرّاتِ الرّماد نتجت عن حطام الشَّيء واحتراقه، فنتاج أعمالهم هي الرّماد؛ لأنّ أعمالهم تحترق فلا يبقى من أثرها إلّا الرّماد. والرّماد فاقدٌ للكتلة فلا وزنَ له، وهو كأعمالهم الفاقدة لقيمتها قد أحرقها شِركُهم وكفرُهم، فهو تشبيهٌ مركّبٌ لتعدّد أوجه الشّبه فيه.

(1) صافي، الجدول في إعراب القرآن: 13/174.

دلالة الباء في قوله ﴿ٱشۡتَدَّتۡ بِهِ ٱلرِّيحُ﴾:

إذا بلغت الرّيح ذروتها لم تَذَرِ الرّماد على حاله بل تبدّده

الباء في قوله تعالى: ﴿ٱشۡتَدَّتۡ بِهِ ٱلرِّيحُ﴾ للإلصاق؛ والمعنى أنّ الرّيح لمّا وصلته بلغت ذروة شدّتها، ومعلومٌ أنَ ذرّاتِ الرّماد دقيقةٌ غاية الدّقّة، خفيفةٌ غاية الخفّة، فلمّا اشتدّت الرّيح بها، لم تُبق لها أثرًا. وذكر الآلوسيّ أنّ الباء للتّعدية أو للمُلابسة، وجوَّزَ أن يكون من الشّدّة بمعنى القوّة؛ أيْ: قويت بمُلابسة حمله[1].

نكتة تقديم شِبه الجملة ﴿بِهِ﴾:

الرّيحُ تختصُّ الرّماد بشدّة عصفها وقوتها الّتي وهبها الله إيّاها

أصل الجملة: (اشتدّت الرّيح به) لكنّه قدّم الجارَّ والمجرور ﴿بِهِ﴾ للتَّخصيص، فكأنّ شدّة الرّيح قد اختصّت ذلك الرّماد بعصفها وقوّتها. فلم تُبقِ منه ومن آثاره شيئًا، فكذلك أعمالهم تذهب أدراج الرّياح، فلا يبقَى من آثارها شيء ولا يكون لهم في الآخرة منها نفع.

دلالة تنوع القراءات في ﴿ٱلرِّيحُ﴾:

الأصل في التعبير القرآنيّ أن تأتي (الرِّيح) في معرض الشّرّ و(الرِّياح) في الخير

قرأ نافع وأبو جعفر (الرِّياح) على الجمع، فجُعل العصفُ لليوم، وهو لما فيه، وهو الرّيح أو الرّياح[2]. وتفسير قراءة الرّياح هنا مع أنّ الموضع للعذاب؛ هو أنّ الرّياح هنا تكون في أجواء الحياة الطّيّبة؛ لكنّها اشتدّت بذلك الرّماد واختصّته بذلك، فأزاحتْه عن الأماكن الطّيّبة، فلا يبقى منه إلّا ما يستحقّ البقاء من الجمال والحيويّة، فهي تمثيلٌ أيضًا لقوله: ﴿فَأَوۡحَىٰٓ إِلَيۡهِمۡ رَبُّهُمۡ لَنُهۡلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٣ وَلَنُسۡكِنَنَّكُمُ ٱلۡأَرۡضَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۚ﴾ ومناسبةٌ له. بينما قوله: ﴿ٱشۡتَدَّتۡ بِهِ ٱلرِّيحُ﴾ فهي على الإفراد، ولفظ الرّيح ناسب حالة العقوبة والعذاب، وما تؤدّيه هذه الرّيح من إذهاب الرّماد المُشبّه بأعمالهم.

معنى (اللّام) في ﴿ٱلرِّيحُ﴾ و(الرّياح):

اشتدادُ الرّيح لا يُستهانُ به لما تُحدثُه من الضّرر والإيذاء

التّعريف في: ﴿ٱلرِّيحُ﴾ عهديٌّ على الرّيح الّتي نعرفها، وأفادَ

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/192.
(2) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 19/81.

التّهويلَ من شأن هذه الرّيح الّتي قد أُرسِلَتْ بأمر اللّه لتشتدّ في موضع الرّماد الّذي يتطاير بأهون الرّياح، فإنْ أصاب الرّماد فلن يبقى منه شيء، فكذلك أعمالهم.

بلاغة التّعبير بالمجاز في ﴿ٱشۡتَدَّتۡ بِهِ ٱلرِّيحُ فِي يَوۡمٍ عَاصِفٖۖ﴾:

شدّةُ الرّيح قوّتها وهي دليلُ تأثيرها

إسناد العصف لليوم في قوله تعالى: ﴿فِي يَوۡمٍ عَاصِفٖۖ﴾ هو من قبيل المجاز العقليّ، فالعصفُ اشتداد الرّيح، وصف به زمان هبوبها على الإسناد المجازيّ العقليّ للمبالغة لعلاقة الزّمانيّة. و(اشتدّ به) من (شدّ) أو من (الشّدّة) بمعنى القوّة؛ أيْ: قويت بمُلابسة حمْلِه. وإسناد الشّدّة إلى الرّيح ليُعلم أنّها ريحٌ قد أُرسلت خاصّةً لتفعل فعلها في هذا الرّماد المتناثر[1].

الغرض من تنكير ﴿يَوۡمٍ﴾:

احتمالاتُ ما يقع ويحدث في ذلك اليوم

التّنكيرُ في قوله ﴿يَوۡمٍ عَاصِفٖۖ﴾ تعظيمٌ لشأن ذلك اليوم، وتخويفٌ من مآله، لجهالة ما قد يقع فيه من الأحداث، فأفاد التّنكيرُ زيادةَ تصوّرات المُتأمِّل فيه من عظيم تلك الأحداث، وآثارها وأضرارها.

بلاغة فصل قوله ﴿لَّا يَقۡدِرُونَ﴾:

التّأكيدُ على أنّ الكافر لن يكسب شيئًا ممّا عمل في الدّنيا

قوله تعالى: ﴿لَّا يَقۡدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَيۡءٖۚ﴾؛ فيه إجمالٌ بعد تفصيل، فبعد أن ضرب المثَل وعُلم منه أنّهم لن يكسبوا من أعمالهم شيئًا؛ لأنّها أصبحت متناثرةً، فقد أخذتها الرّيح العاصف، تمَّمَ التَّعبير بقوله: ﴿لَّا يَقۡدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَيۡءٖۚ﴾ توكيدًا لما عُلم سابقًا، فأجمَلَ بعد أن كان قد فصّل، فيكون بين الجملتيْن كمال اتّصال، ويمكن حملها على الاستئناف البيانيّ على أنّها جاءت جوابًا عن سؤالٍ مقدّرٍ عن حالهم.

المُتشابه اللّفظي بين آيتي البقرة وإبراهيم:

اختلافُ خطاب المؤمن والكافر نابعٌ من عقيدتهما

في سورة إبراهيم نجد أنّ السّياق يتحدّث عن أعمال الّذين

(1) القاسميّ، محاسن التّأويل: 6/309.

كفروا: ﴿لَّا يَقۡدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَيۡءٖۚ﴾؛ لأنّهم كانوا قد كسبوا بأعمالهم ثناءَ النّاس وقَبولهم، فقدّم الكسب، أمّا في سورة البقرة، فالحديث عن الّذين يُبطِلون أعمالهم بالمَنّ والأذى ومن ثَمّ قال: ﴿لَّا يَقۡدِرُونَ عَلَىٰ شَيۡءٖ مِّمَّا كَسَبُواْۗ﴾ [البقرة: 264]؛ فأخّر الكسب؛ لأنّهم أنفقوا ولم يكسبوا حتّى مدح النّاس فهم أعطوا أموالهم مع المَنّ والأذى، فإن أخذ منها المحتاج والفقير فلن يذكر صاحبها بخير، وذلك على خلاف موضع سورة إبراهيم، لذلك فقد أخّر الكسب هنا.

دلالة التّعبير بالمضارع: ﴿يَقۡدِرُونَ﴾:

التّعبير بالمضارع في قوله تعالى: ﴿لَّا يَقۡدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَيۡءٖۚ﴾، أفاد دلالةَ الفعل على الحال والاستقبال، فإذا جاءهم عذاب يوم القيامة، فإنّهم لن يكسبوا من أعمالهم شيئًا، فتنتفي القدرة لديهم على الكسب من أعمالهم الّتي ربّما سيذكرونها وهم في أشدّ الحاجة إليها فيحاولون الكسب منها فلا يستطيعون، وهي ما عملوه من أعمال البرِّ كالصّدقة، وصلة الرَّحم، وبرّ الوالدين، وإطعام الجائع، فتُبطَل وتُحبَط بسبب كفرهم بالله، ولولا كفرهم لانتفعوا بها[1]. فتكون قد مُحيت وتطايرت من موازينهم كما تطاير الرّماد في اليوم العاصف.

يحاولون التكسُّب من أعمالهم لكنّها قد مُحيت من موازينهم

معنى (من) في قوله ﴿مِمَّا كَسَبُواْ﴾:

(من) تفيد التّبعيض؛ فهم لا يقدرون على تحصيل بعض ما فعلوه مهما قلّ ذلك الشَّيء، ولعلّه يريد الأعمال الصّالحة وفضائل الأعمال، فقد ذهب بها كفرهم، وإنكارهم على الأنبياء والرّسل.

يستحيل عليهم تحصيل بعض ما فعلوه

دلالة (ما) وموقع الجملة بعدها، ونكتةُ تقديم ﴿مِمَّا كَسَبُواْ﴾:

الاسم الموصول (ما) بمعنى (الّذي)، ويقع على ذوات ما لا يعقل،

(1) ابن عادل، تفسير اللّباب: 1/3107.

وعلى صفات مَن يعقل، كما ورد في الآية الكريمة ﴿مِمَّا كَسَبُواْ﴾، وفي تقديم جملة: ﴿مِمَّا كَسَبُواْ﴾ الاهتمام بقضيّة الكسب، والدّلالة على أنّهم كانوا يظنّون أنّهم سيكسبون جرّاء هذه الأعمال، وتُحقّق لهم مجدًا ومكانة، لكنّهم يُفاجَؤون بأنّهم لا يُحقّقون منها كسبًا مهما كان قليلًا.

لا يحقّقُ الكُفّارُ مكسبًا يوم القيامة مَهْما كان قليلًا

الغرضُ من تنكير ﴿شَيۡءٖ﴾:

تنكيرُ ﴿شَيۡءٖ﴾ لفائدة التّهوين والتّحقير؛ فهم لا يقدرون على أدنى ما يمكن أن يحصل عليه إنسانٌ في الآخرة أجرًا لعمله في الحياة الدّنيا؛ فيجدون ما عملوه قد صار هباءً منثورًا، ويخرجون من هذه الحياة صفر اليدَيْن، والشّيءُ هو أقلّ القليل من القول أو الفعل.

التّعبيرُ عن أهون ما يوصَف من أعمالهم

بلاغة فصل ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلۡبَعِيدُ﴾:

الفصل هنا؛ لأنَّ جملة ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلۡبَعِيدُ﴾ والّتي قبلها وهي قوله: ﴿لَّا يَقۡدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَيۡءٖۚ﴾؛ هو أنَّ الجملة الثّانية بيان لما قبلها، فيكون بين الجملتيْن كمال الاتصال، ولذلك كان الفصل، ويمكن أيضًا أن يكون سبب الفصل شِبه كمال الاتّصال (الاستئناف البيانيّ) بأن كانت الجملة الأخيرة جوابًا عن سؤالٍ مقدّر بعد الجملة الأولى مفاده: ما حالهم عند ذلك؟ أو ما مصيرهم؟

الضّلالُ كلُّ الضّلال في السّير في طريقٍ ينتهي بصاحبه إلى الهلاك

الغرض من التّعبير باسم الإشارة للبعيد ﴿ذَٰلِكَ﴾:

أفاد التَّعبيرُ باسم الإشارة تنزيلَ الأشياء المعقولة أو غير المُشاهَدَة منزلة الأشياء المحسوسة المُشاهَدة، كما أفاد التَّعبيرُ باسم الإشارة ﴿ذَٰلِكَ﴾ للبعيد للتَّحقير، فالإشارة للبعيد يُقصَدُ منه الدّونيّة والانحطاط، وهو ما يناسب قوله تعالى: ﴿ٱلضَّلَٰلُ ٱلۡبَعِيدُ﴾.

الإشارةُ إلى ما سيحصل للكافرين يوم القيامة

بلاغةُ القصر في: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ﴾:

في قوله ﷻ: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلۡبَعِيدُ﴾ قصرٌ موصوف على صفة،

تصوّراتُ الكافرين عن حالهم، ثمَّ انقلاب ذلك التَّصور

وهو من قبيل قصر القلب؛ إذ لم يكن مُتصوّرًا لدى الّذين كفروا ما سيصيبهم يوم القيامة من العذاب المهين؛ وأنَّهم لن يقدروا على شيءٍ ممّا كسبوا، فذلك الحال هو الضّلال المبين.

معنى (اللّام) في قوله ﴿ٱلضَّلَٰلُ﴾:

المبالغةُ في وصف ضلال الكافرين يوم القيامة

من فوائد التّعريف بـ (ال) القصرُ حقيقة أو تجوّزًا بقصد المبالغة؛ وفي قوله: ﴿ٱلضَّلَٰلُ ٱلۡبَعِيدُ﴾ هو من قبيل التّجوّز، ويمكن أن يكون على الحقيقة، فلا يستحقّ أن يوصَفَ حالٌ بأنّه ضلالٌ بعيد أكثر من حال هؤلاء.

نكتةُ وصف الضّلال بالبُعد:

الضّلالُ البعيدُ يكون للكافرين بعد الموت فلا يمكن لصاحبه أن يعود عنه

وصف الضّلال بالبُعد استعارةً مَكنيّة على تشبيه الضّلال بشيٍ من شأنه أن يبتعد؛ لأنّ الضّلال لا يكون قريبًا أو بعيدًا، ولكنّه ضلال يذهب بصاحبه إلى ساحة البُعد عن اللّه وعن رضاء اللّه سبحانه، وفائدته تهويل ما آل إليه حال هؤلاء الكافرين الّذين تجرّأوا على الرّسالات السَّماويّة والرّسل، وأنكروا عليهم دعوتهم، فآل حالهم إلى ما وصفته الآية، فهم في ضلالٍ بعيدٍ لا ينتهي؛ لأنّهم قد هلكوا على الكفر.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الرّيح والرّياح:

وردت الرّيح والرّياح في القرآن الكريم بما يناسب المقام

الرّياح جمع ريح، والرّيح نسيم الهواء، ونسيم كلّ شيءٍ[1]، واستقراء أساليب القرآن يُظهر لنا أنّ لفظ الرّيح والرّياح؛ كلٌّ منها يرد في موضعه اللّائق، في مقامها، فالمواضع الّتي وردت فيها لفظة الرّياح نجدها تدلّ على معاني الخير والرّحمة[2]، وإظهار فضل اللّه على خلْقه. وما كان من عذابٍ فقد جاء على المفرد (ريح)، ومردّ ذلك أنّ رياحَ الرَّحمة مختلفةُ المنافع، على عكس ريح العذاب.

(1) ابن منظور، لسان العرب: (روح).
(2) الجاحظ، البيان والتّبيين: 1/20.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾﴾

[إبراهيم: 19 - 20]

مُناسَبَةُ الآيَتينِ لِما قَبْلَهُما:

الرّبط بين مصير الكافرين، وقدرة الله على إهلاك الإنسان واستبداله

لمّا ذكر في الآية السّابقة "مَثَلَ أعمال الكفّار في الآخرة أَتْبعَ ذلك الدّليلَ عليه، وعلى أنَّه لا يَسوغ في الحكمة في أعمال الضَّلال إلّا الإبطال فقال: ألم تر أنَّ اللّه الذي أحاط بكلِّ شيء علمًا وقُدرةً، خلق السَّماوات على عِظَمِها وارتفاعها، والأرض على تباعُد أقطارها واتّساعها بالحقِّ الثابت من وضْع كلِّ شيء منها في موضعه على ما تدعو إليه الحكمة لا بالخيال والتمويه كالسِّحر"[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿بِٱلْحَقِّ﴾: أصلُ (حقّ): يدلُّ على إحكام الشَّيءِ وصِحَّتِه[2]، يُقال: حُقَّ لَهُ أن يَفْعَلَ كذا، يَحِقُّ، حَقّاً، أيْ: ثَبَتَ[3]. وضِدُّه: الباطِلُ، والحقُّ يقال على أوجه: الأول: يُقال لموجِد الشيء بسبب ما تقتضيه الحكمة، ولهذا قيل في اللّه تعالى: هو الحقُّ، قال اللّه تعالى: ﴿وَرُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ﴾، وقيل بُعَيد ذلك: ﴿فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [يونس: 32]، والثاني: يقال للموجِد بحسب مقتضى الحكمة، ولهذا يقال: فِعل اللّه تعالى كلّه حَقٌّ[4]. والمرادُ بالحقِّ في الآية: الحِكْمَةُ، أيْ ضِدُّ العَبَثِ[5].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر في تناسب الآيات والسّور: 10/401.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حق).
(3) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة: (حق).
(4) الراغب، المفردات: (حق).
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/214.

2) ﴿جَدِيدٍ﴾: أصلُ (جدّ): يَدُلُّ على القَطْعِ، يُقالُ جَدَدْتُ الشَّيْءَ جَدًّا، وَهوَ مَجْدودٌ وَجَديدٌ، أيْ مَقْطوعٌ، وَقَوْلُهُم: ثَوْبٌ جَديدٌ، كَأنَّ ناسِجَهُ قَطَعَهُ الآنَ، هذا هو الأصلُ، ثُمَّ سُمِّيَ كُلُّ شَيْءٍ لَمْ تَأْتِ عليهِ الأيّامُ جَديدًا؛ ولذلكَ يُسَمَّى اللَّيْلُ والنَّهارُ الجَديدَيْنِ والأجَدَّيْنِ؛ لِأنَّ كُلَّ واحِدٍ مِنْهُما إذا جاءَ فَهوَ جَديدٌ[1]، والجِدَّةُ: نَقيضُ البِلى، والجَمْعُ أجِدَّةٌ وجُدُدٌ وجُدَدٌ[2]، والجديد: ما لا عهد لَك بِهِ؛ وَلذَلِك وُصِفَ المَوْتُ بالجديد[3]. والمقصودُ بالجَديد في الآية: الشَّيْءُ الَّذي فِي أوَّلِ أزْمانِ وُجودِهِ.

3) ﴿بِعَزِيزٍ﴾: العِزُّ في الأصْلِ: القوَّة والشِّدَّة والغَلَبَة والرِّفعة والامْتِناع، خِلاف الذُّلِّ[4]. يقال: عَزَّ يَعَزُّ - بالفتح للمُضارع - إذا اشتَدَّ وقَوِيَ، وبالكسر للمُضارع: إذا قَوِيَ وامتَنَع، وبالضَّم: إذا غَلَب وقَهَر[5]. ويقال: عَزَّ فلانٌ، أي: صار عَزيزًا، أي: قَوِيَ بعد ذِلَّة. وأعَزَّهُ اللّه، وهو يَعْتَزُّ بفلان[6]، ورَجُلٌ عَزيزٌ: مَنيعٌ، لا يُغْلب، وَلا يُقْهر. وعَزَّ الشَّيء: إذا لم يُقْدَر عليه، وعَزَّ الشَّخص: قَوِيَ وبَرِئَ من الذُّل[7]. والمقصود بالعزيز في الآيةِ: القويُّ المُمْتَنِعُ، والمُرادُ بهِ: المُتَعاصِي عليهِ المُمْتَنِعُ بقوَّتِهِ وأنْصارِهِ.

❁ المَعْنى الإجْمالِيُّ:

يخاطب اللّه تعالى نبيَّه، ﷺ، مذكِّرًا له بعظيم خَلْقِ اللّه تعالى، وجليل صُنْعِه، قائلاً له: ألمْ تعلم أيّها الرسول أن اللّه تعالى أنشأ السماوات والأرض من العدمِ؟ وخلق فيهما بالحقِّ والحكمة؟

القرآن الكريم يعتمد التّدليل المنطقيّ المفحِم، في القضايا العقديّة الكبرى

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (جدّ، جدد).
(2) ابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (جدد).
(3) ابن سيده، المحكم: (جدد).
(4) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب، والزَّبيدي، تاج العروس: (عزز).
(5) النحاس، معاني القرآن: 1/379.
(6) الجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب: (عزز).
(7) أحمد مختار، معجم اللغة العربية المعاصرة، وإبراهيم مصطفى وآخرون، المعجم الوسيط: (عزز).

وخلقهما على الوجه الصحيح الذي يحقُّ أن يخلقهما عليه لِيستدلَّ الخَلْقُ بهما على كمال قدرة الله تعالى، وعدم حاجته إلى أحد من خلقه، بل إنْ يشأ الله يُذْهِب الخلْقَ هذا كُلَّهُ ويأتِ بخلق جديد على شكلٍ جديد، وما ذلك على الله تعالى بعزيز، ولا صعب، بل هو هيِّن عليه، يسير لديه؛ إذ هو القادر على كل شيء قُدرةً ذاتية مطلقةً، وإذا أراد شيئًا قال له: كن فيكون[1].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالة الاستئناف في قوله ﴿أَلَمْ تَرَ﴾:

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ "استئناف بيانيٌّ ناشئٌ عن جُملة ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٣﴾ [إبراهيم: 13]؛ فإنَّ هلاك فئة كاملة شديدة القوَّة والمِرَّة أمرٌ عجيب يثير في النّفوس سؤالًا: كيف تهلك فئة مثل هؤلاء؟ فيجاب بأن الله الذي قَدَرَ على خلق السماوات والأرض في عظمتها قادر على إهلاك ما هو دونَها، فمبدأ الاستئناف هو قوله: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾"[2]. و"هذا التّعبير قد يُذكَر لِمَن تَقَدَّمَ عِلْمُه فيكون للتعجُّب، وقد يُذكر لِمن لا يكون كذلك، فيكون لتعريفه وتعجيبه. وقد اشتهر في ذلك حتى أُجْرِيَ مجرى المثل في هذا الباب، بأنْ شُبِّه مَن لم يَرَ الشيء بحالِ مَن رآه في أنَّه لا ينبغي أن يَخفى عليه، وأنه ينبغي أن يَتعجّب منه، ثم أُجْرِي الكلام معه كما يُجرى مع مَن رأى؛ قصدًا إلى المبالغة في شُهرته، وعراقته في التعجّب"[3].

إنعام النّظر في خلق السّماوات والأرض، مسلك للتّفكر والعبر

دلالة التّعبير بضمير الخطاب في قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾:

"﴿أَلَمْ تَرَ﴾ خطابٌ للرّسول ﷺ، والمرادُ به أمّتُه، وقيل لكلِّ أحد من الكفرة، لقوله تعالى: ﴿يُذْهِبْكُمْ﴾"[4]، فهو "خطابٌ عامّ لكلّ

الدّعوة إلى التّدبّر في خلق السّماوات والأرض، تطال المؤمن وغير المؤمن

(1) حجازيّ، التّفسير الواضح: 2/255.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/213.
(3) طنطاوي، التفسير الوسيط: 7/541.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السليم: 5/40.

إنسان من شأنه أن يخاطَب في هذه الصّورة، التي تعرضها الآية الكريمة لقدرة اللّه تعالى، وأنَّ اللّه سبحانه خلق السّماوات والأرض خلقًا مقصودًا لحكمة يعلمها اللّه ﷻ، وليس عبثًا ولهوًا"[1].

الغرض من الاستفهام في قوله ﴿أَلَمْ تَرَ﴾:

المتبصّرُ في خلق السّماوات والأرض، يُقرُّ لله بطلاقة قدرته

المراد بالاستفهام في قوله تعالى ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ "التّقرير. أي: لقد علمت أيُّها المخاطَب فاشهد بما تعلم"[2]، و"إنْ كان الخطاب به لرسول اللّه ﷺ فيصير كأنَّه قال: قد رأيتَ وعلمتَ أنَّ اللّه خالقُ السماوات والأرض بالحقِّ، وإنْ كان الخطاب به لغيره من أولئك يقول: اعلموا أنَّ اللّه خلق السماوات والأرض بالحقِّ؛ لم يخلقهما عبثًا باطلًا"[3].

بلاغة المجاز في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾:

ليس من رأى كمن سمع

عبّر عن العلم بالرّؤية؛ لأنّ الرّؤية من أقوى وسائل العلم، فليس من رأى كمَنْ سمع، فهو مجاز مرسل علاقته المسببيّة، والتّعبير عن العلم بالرّؤية، من فصيح البيان في السّياق.

دلالة التّعبير بالفعل المضارع ﴿أَلَمْ تَرَ﴾، في السّياق:

النّاظر بِتَجَرُّدٍ في كون الله، يتبيّن أسرارًا وعجائب لا نهاية لها

التّعبير بصيغة المضارعة، في قول اللّه تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ يدعو كلَّ مخاطَبٍ - يتأتّى منه وَعْيُ هذا الخطاب - أنْ يُجدِّدَ إمعان النّظر في خلق السماوات والأرض؛ ليرى بديع صنع اللّه تعالى في خلقهما، كما قال اللّه تعالى: ﴿فَٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ هَلۡ تَرَىٰ مِن فُطُورٖ ۝٣ ثُمَّ ٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ كَرَّتَيۡنِ﴾ [الملك: 3 - 4]، كما أنَّ في المضارعة إيحاءً بأنَّ النّاظر بِتَجَرُّدٍ في خلق السّماوات والأرض، لا يزال يتبيّن أسرارًا وعجائب لا تنتهي، وأنَّه تَتَجَدَّدُ له الأسرار بِحسب تجديده الرّؤية وإمعان النّظر

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/214، والخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 7/165.
(2) مجمع البحوث، التفسير الوسيط: 5/482.
(3) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنة: 6/381.

والتّأمُّل، والمقصود بالرّؤية في قول الله تعالى: "﴿أَلَمْ تَرَ﴾ رؤيةُ القلب"[1]؛ "لأنّ المعنى: ألم ينته علمك إليه؟"[2]، وهي "مستعملةٌ في العِلم النّاشئ عن النّظر والتّأمُّل؛ لأنَّ السّماواتِ والأرض مشاهَدة لكلِّ ناظر، وأمّا كونها مخلوقةً لله فمحتاجٌ إلى أقلِّ تأمُّل؛ لسهولةِ الانتقال من المشاهدة إلى العلم، وأمّا كون ذلك ملتبسًا بالحقِّ فمحتاجٌ إلى تأمُّل عميق؛ فلمّا كان أصلُ ذلك كلِّه رؤية المخلوقات المذكورة علَّق الاستدلال على الرّؤية، كقوله تعالى: ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ [يونس: 101]"[3].

دلالة التّعبير باسم الجلالة اسمًا لـ ﴿أَنَّ﴾:

نسبة الخلق إلى الاسم الأعظم، تكسوها هيبة وعظمة

في التّعبير بالاسم الجليل ﴿ٱللَّهَ﴾، اسمًا لـ ﴿أَنَّ﴾ التّوكيدية في نسبة خلق السّماوات والأرض إلى ﴿ٱللَّهَ﴾ ﷻ إيذانٌ بِفخامة شأنِ خلقِهما، وجليلِ إبداعه فيهما.

سرُّ التّعبير بالمفعول به ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾:

خلق السّماوات والأرض أعظم من خلق النّاس

آثر الذّكر الحكيم في هذا المقام، التّنبيهَ إلى عظيم خلق الله تعالى، ووفْرة قدرته على إهلاكهم، واستبدالهم بخير منهم، فوجَّه انتباههم إلى خلق السّماوات والأرض بخاصّة؛ لأنّهما أعظم ما يرى الإنسان في هذه الحياة الدّنيا من خلق الله تعالى فالسّماواتُ ببروجها، وكثرة كواكبها ونجومها، واتّساع أفلاكها... والأرضُ بواسع بحارها، وملوحة مياهها، وعذوبة أنهارها، وعظيم جبالها، وتنوّع ثمارها... كلّ ذلك جدير بأن يستوقف العبد، ويستثير فيه البصر والبصيرة، ليلتمس الحِكَم، وينتهي إلى الإيمان بالخالق العظيم ﴿ٱللَّهَ﴾ ﷻ.

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السليم: 5/40.
(2) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 9/354.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/214.

نكتة تقديم السّماوات على الأرض، في السّياق:

خلق السّماوات هو الأعظم والأعجب

يقدّم القرآن الكريم في الغالب المعتاد ذكر السّماوات على الأرض، وفي ذلك للعلماء أقوال، لعلّ من أقواها أنّ خلق السّماوات وما فيهنّ أعظم من خلق الأرض؛ وقيل لأنّ السّماوات لم يُعص الله تعالى فيها إلّا مرّة واحدة بخلاف الأرض.

نكتة جمع ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ وإفراد ﴿وَٱلۡأَرۡضَ﴾:

القرآن أخبر عن تعدّد السّموات، ولم يخبر عن تعدّد الأرض

ذكر القرآن الكريم أنّ السّماوات سبع، ولكنّه كان يفرد ذكر الأرض، فقيل لأنّها أرض واحدة وليست متعدّدة، وقيل: لأنّ الإنسان يعيش عليها، ولا يعرف غيرها فناسب أن يُخاطب بها دون غيرها.

دلالة (ال) في لفظي: ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ و﴿وَٱلۡأَرۡضَ﴾:

السّموات والأرض، دلالة مرئيّة، على بديع الصّنعة الإلهيّة

التّعريف هنا للعهد فهي السّماوات والأرض التّي يعرفونها، والمعهود في مظاهر الكون المتجلّية، استيعابها لحركة الحياة، ودلالتها على عظمة التّسخير، وقدرة التّدبير، من المسيّر القدير، الّذي أحسن كلّ شيء صنعًا.

الغرض من التّعبير بالقيد ﴿بِٱلۡحَقِّۚ﴾:

من حكمة الله في خَلْقِ السّماوات والأرض، الاستدلال بها على قيّوميّته

المعنى: للحقِّ الّذي وجب له عليهم بالامتحان والابتلاء، خلقهما للشّهادة له على المُمْتَحَن، أو يقول: خلقهما ﴿بِٱلۡحَقِّۚ﴾: أي: بالحكمة. وقوله: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۚ﴾"[1]، "أي: لم يخلقهنَّ عبثًا، وإنَّما خلقهنَّ لأمر عظيم"[2]؛ "بدليل مقابلته به، في قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا لَٰعِبِينَ ٣٨ مَا خَلَقۡنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ٣٩﴾ [سورة الدخان: 38 - 39]"[3]. وكذلك يفيد القيد ﴿بِٱلۡحَقِّۚ﴾ أنَّ الله تعالى خلقهما "لِيُتَفَكَّرَ

(1) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنة: 6/380.
(2) ابن الجوزيّ، زاد المسير في علم التفسير: 2/509.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/214.

في خلقِها، ويُسْتَدَلَّ بها على وجود بارئها، وقدرته، ووحدته"[1]، "لا بالخيال والتمويه كالسِّحر"[2].

معنى الباء ودلالتها في شبه الجملة: ﴿بِٱلۡحَقِّۚ﴾:

الجارّ والمجرور "﴿بِٱلۡحَقِّۚ﴾ متعلّقان بـ ﴿خَلَقَ﴾، أو بِمحذوفٍ حال؛ فالباء لِلسّببية على الأوَّل، ولِلمصاحبة على الثّاني"[3]، أي بسبب الحقِّ وإحقاقًا له، ومصاحبةً للحقِّ واختلاطًا به؛ واللّه تعالى أعلم.

ما خلق الله الخلق، إلّا بالحقّ المفضي إلى اليقين

بلاغة توجيه القراءات القرآنيّة في السّياق:

قوله: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾، وفيه وبه "قرأ الجمهور ﴿خَلَقَ﴾ بِصيغة الفِعل؛ على أنَّ ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ مفعوله ﴿وَٱلۡأَرۡضَ﴾ عطف على المفعول بالنصب، وقرأه حمزة، والكسائي، وخلف (خالق السّماوات والأرض) بصيغة اسم الفاعل مضافًا إلى ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ وبِخفض ﴿ٱلۡأَرۡضَ﴾"[4] معطوفًا عليها، ولكلٍّ من الماضي ﴿خَلَقَ﴾، واسم الفاعل (خالق) دلالتُه المتناغمة مع مفردة (الخلق)؛ فالفعل الماضي ﴿خَلَقَ﴾ يفيد تحقُّقَ أمر الخلق له، واستقراره على أدقِّ ما يكون؛ إذ (الخلق) هو التّقديرُ الدّقيق، واسم الفاعل (خالق) صريحٌ في أنَّه ﷻ لا يزال خالقًا، فكلُّ لحظةٍ من الزمن يخْرِجُ إلى الوجود خلقًا جديدًا، ممّا قضى أزلًا أنَّه كائنٌ، واسم الفاعل يدلّ على تمكّن الفعل في صاحبه حتّى بات اسمًا له، كما قال اللّه تعالى: ﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ۝٤٧﴾ [الذاريات: 47]، فهو لا يزال قائمًا على خلقه لا يَكِلُهُم إلى سواه، ﴿أَفَمَنۡ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡۗ﴾ [الرعد: 33].

الله تعالى خَلَقَ خلقَه، ولا يزال خالقا قيّومًا على الدّوام

موقع جملة الشّرط ممّا قبلها، ودلالته في سياق الآية:

فُصِلت جملة الشّرط ﴿إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ﴾، عن جملة الاستفهام

ورود السّياق بملمح التّهديد، من قادر على التّنفيذ، أوقع في النّفوس

(1) القاسميّ، محاسن التّأويل: 6/310.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر في تناسب الآيات والسّور: 10/402.
(3) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 5/179.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/214.

التّقريري ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾، لكمال الانقطاع؛ إذ الثانية خبرية لفظًا ومعنى، والأولى إنشائية لفظًا ومعنى.

والمراد بها ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾ التّهديدية؛ ووقعت من الجملة السّابقة ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾، موقع المعلول من العلّة وموقع المدلول عليه من الدّليل، تحقيقًا للتّهديد، فمن رأى رؤيا عينٍ ورؤيا تفكُّرٍ وتدبُّرٍ عِظَم خلق السّماوات والأرض وما فيهما؛ تقرَّر لديه يُسْرُ إهلاك اللّه تعالى إيّاه واستبداله بخيرٍ منه؛ وذلك أوقع في النّفس، وأشدّ عليها، فقد جاءت جملة الشّرط ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾ "تقريرًا لاستغنائه ﷻ"[1]، وتنديدًا بكفرِهم مع كمال قدرته ﷻ على إبادتهم بالكلّيّة، واستبدالهم بمن هم خيرٌ منهم خلْقًا ودينًا؛ وفي ذلك تهديد وترهيب ما بعده تهديد وترهيب؛ لأنَّه إهلاكٌ بالكلّيّةِ، واجتثاث أصلٍ ليغرس مكانَه غرسًا أنقى وأطهر، كما أنَّ في جملة الشّرط - بتفاصيل دقائق نظْمها - ترغيبًا باغتنام الفرصة قبل فواتها، وتنفيذ ذلك التّهديد فيهم.

دلالة استعمال ﴿إِن﴾:

في تقييد فعل الشّرط بـ ﴿إِن﴾ في قوله تعالى: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾ إشارةٌ إلى عظيم حِلْم اللّه سبحانه عليهم، وكريم مِنَحِه تعالى إياهم؛ وذلك بِمَنْحِهِمْ فرص التوبة الفرصة بعد الفرصة؛ فينبغي للعبد اقتناصها، وعدم الاغترار بحلم اللّه تعالى وذلك لما فيها من الدلالة على تقليل حصول مدخولها.

الاغترار بحِلم اللّه تعالى، لا يركن إليه الكيّس اللّبيب

وعلى هذا فلا يناسب المقام - مِن أدوات تقييد الشرط الثلاثة - إلا ﴿إِن﴾؛ لأنّ النظم الكريم لو قيّد المشيئة بـ (إذا) لَرَجَّحَتْ إهلاكهم، وقطعتْ بالإتيان بخيرٍ منهم، ولو جاء التقييدُ بـ (لو)

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 11/356.

لَقالَتْ (لو) باستحالة ذلك الإهلاك والاستبدال، ولكان ذلك باعثًا على تزهيد الكفار في التوبة والإنابة - كلٍّ بحسبها -، أما ﴿إن﴾ فتُلَوِّح بالتهديد ولا تنفِّذُه، كما أنَّها لا تُحيله، والله تعالى أعلم.

دلالة التّعبير بالفعل المضارع ﴿يَشَأْ﴾:

التّهديد بإهلاك الله تعالى للكافرين، مستمرٌّ متجدِّدٌ في كلّ حين

صيغة المضارعة في قوله تعالى: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾ تُلَوِّح بالتهديد ولا تقطع بوقوعه، وتظلُّ عنصرَ تهديدٍ قائمًا يثير الفَرَق في نفوسهم؛ ويتناغم عطاءُ المضارعة في ﴿يَشَأْ﴾ مع دليلِ يُسر حصول المفعول المحذوف المفسَّرِ بالمذكور - إذ التقدير: "إن يشأ أن يذهبَكم يذهبْكم، أي: يفنيكم"[1]، ويأت بخلق جديدٍ يُذهبكم ويأت بخلق جديد -، ودليل يُسر ذلك خلْقُه ﷻ السماوات والأرض - المذكور في مطلع الآية الكريمة - كما أنَّ في هذه المشيئة إشارة إلى "غناه وقدرته، وأنَّه لو شاء أذهبكم لِتَعْلَموا أنَّه لم ينشئكم، ولا أمركم، ولا نهاكم لحاجةِ نفسه ولا لِمنفعةٍ له، ولكنْ لحاجةِ أنفسكم"[2]؛ "فلا تَعصوه؛ فإنكم إن عصيتموه ﴿يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ أفضلَ وأطوعَ منكم؛ إذ لو كانوا مثل الأوَّلِين فلا فائدة في الإبدال"[3]، كما أنَّ فيه تنبيهًا على أنْ ليس "إذهابكم موقوفًا إلا على مشيئته، بخلاف الشيء المحتاج إليه؛ فإنّ المحتاج لا يقول فيه: إن يشأ فلان هَدَمَ داره وأعدم عقاره، وإنما يقول: لولا حاجة السُّكنى إلى الدار لَبِعتُها، أو: لولا الافتقار إلى العقار لتركتها"[4] وفي تعليق إهلاكهم على مشيئته ﷻ إيحاءٌ برحمته تعالى بهم؛ إذ لم يعاجلْهم بالإهلاك والاستبدال، وهذا من شأنه إغراؤهم على التوبة، وسرعة الأوبة إلى الإيمان الصادق بالله ﷻ.

(1) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 14/337.
(2) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 8/380.
(3) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 9/354.
(4) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 26/230.

الغرض من حذف المفعول به في السّياق:

مجردُ انعقاد مشيئة الله تعالى إيذانٌ بوقوع الأمر

في قوله تعالى: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾ "مفعول فعل المشيئة محذوف استغناءً بما دلَّ عليه جوابُ الشرط - وهو ﴿يُذْهِبْكُمْ﴾ - أي: إن يشأ إذهابكم، ومثلُ هذا الحذف لِمفعول المشيئة كثيرٌ في الكلام"[1] وفي الذكر الحكيم بخاصّة؛ لأن الله ﷻ هو القادر على كلّ شيء؛ فمجرّد مشيئته الأمرَ إيذانٌ بوقوعه، كما أنَّ فيه اكتفاءً بالدليل عليه في الجواب.

دلالة جواب الشّرط فعلًا مضارعًا:

الله تعالى يمهل الكفّار، لعلّهم يرجعون إلى الجادّة

جاء جواب الشرط ﴿يُذْهِبْكُمْ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ مُتَّسِقًا مع شرطه ﴿يَشَأْ﴾ المضارع، فكلاهما يتهدَّدُ الكافرين، وفي المضارع تلميحٌ بالمعاجلة بالوقوع، لما في المضارع من الدلالة على الحضور وهو أعلى في التهديد.

دلالة التّعبير بضمير الخطاب في: ﴿يُذْهِبْكُمْ﴾:

النّاس رهن مشيئة الله تعالى، في إرادة استبدالهم عوض استعمالهم

قال العلماء: هذه المخاطبة يخاطِب بها أهل مكة؛ يذكّرهم قدرته وسلطانه على بعثهم بعد الموت والهلاك؛ وأنَّهُ يقدر على إذهابهم وإهلاكهم، ويقدر أيضًا أن يأتي بغيرهم، فعلى ذلك: يقدر على بعثهم بعد مماتهم[2]، يريد: أميتكم يا معشر الكفّار، وأخلق قومًا غيركم خيرًا منكم وأطوع[3] "أو إنّه خطاب عامٌّ للناس... ويَحْتَمِل أن يكون المعنى: إن يشأ يذهبْكم أيُّها الناس ويأت بناس آخرين من جنسكم آدميين، ويحتمل من غير جنسكم"[4]، وكلاهما مرادٌ، وفي التّعبير بضمير الحضور مواجهة بالتهديد لكلِّ المعاندين في كلِّ زمان.

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/287.
(2) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 6/381.
(3) الواحدي، التفسير الوسيط: 3/28.
(4) أبو حيان، البحر المحيط في التفسير: 6/424.

بلاغة الاستعارة في: ﴿يُذْهِبْكُمْ﴾:

في قول الله تعالى: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾ استعارةٌ تصويرًا للإهلاك بالإذهاب "فالإذهاب مستعمل في الإهلاك، أي: الإعدام من هذا العالم، أي إن يشأ يسلِّط عليهم موتًا يعمُّهم، فكأنَّه أذهبهم من مكانٍ إلى مكانٍ؛ لأنَّه يأتي بهم إلى الدّار الآخرة"[1]؛ وفي التعبير عن الإهلاك بالإذهاب إيحاءٌ بِيُسره عليه ﷻ وهذا اليُسر في حقِّ الله تعالى حقيقةٌ لا مبالغة فيها، فَيوقفهم من حاله على قدرته المطلقة.

ما أيسر على الله، أن يفني العُصاة، ويستبدلهم بتقاة

بلاغة الطّباق بين (يُذْهِبْ) و﴿وَيَأْتِ﴾:

الجمع بين المعنى (يُذهِب) وضدِّه ﴿وَيَأْتِ﴾ يُجَلِّي عظيم القدرة الإلهية، التي لا يُعجزها شيء؛ فهو ﷻ القادر على "أن يُعدِم الناس ويَخلق مكانهم خلقًا آخر - على شكلِهم أو على خلافِ شكلِهم -، إعلامًا منه باقتداره على إعدام الموجود وإيجاد المعدوم، فهو يقدر على الشيء وجنس ضدِّه، ﴿وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ بمتعذّر، بل هو هيِّنٌ عليه يسير"[2]، ففيه "مبالغةٌ في الاقتدار، يعني: أنَّه ليس بقادر على الضدِّ فقط، بل هو قادر على الضدِّ وأمثالِه، كالتباين والتماثل والتقابل والنظير والنِّدِ وغيرها"[3]، "قال بعض السلف: ما أهونَ العبادَ على الله تعالى إذا أضاعوا أمره!"[4].

لا يقدر على الفعل وضدِّه في الآن، إلّا العزيز المنّان

دلالة عطف ﴿وَيَأْتِ﴾، على جواب الشّرط:

في عطف الجملة الخبرية ﴿وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ على جملة الشرط ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾ إمعانٌ في بيان طَلاقة القدرة الإلهية؛ إذ إنَّ الجمع بينهما بالعاطف (الواو) يؤكّد تفرُّد قدرته وقوّته ﷻ

إهلاك العُصاة جملةً، لا يعجز قدرة الله وأمره

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/286.
(2) الزمخشري، الكشّاف: 2/547.
(3) الطيبي، فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب: 8/576.
(4) القاسمي، محاسن التأويل: 6/367.

دون سواه في تنفيذ هذا التهديد الكبير، كما "يعني إن كان يَتوهّم مُتوهِّم أنّ هذا المُلك له كمال وعظمة فلو أذهبه لزال مُلكه وعظمته فهو قادر بأن يخلق خلقًا جديدًا أحسن من هذا وأجمل وأتمَّ وأكمل"[1] "والإتيان بخلق جديد مستعملٌ في إحداث ناسٍ لم يكونوا موجودين، ولا مترقَّبًا وجودُهم، أي: يوجد خلقًا من الناس يُؤمنون بالله ﷻ"[2].

سِرُّ تقييد الفعل بالمجرور ﴿بِخَلۡقٖ﴾:

"الخَلْق هنا بمعنى المخلوق، مثل قوله تعالى: ﴿هَٰذَا خَلۡقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦۚ﴾ [لقمان: 11]، وهذا في معنى قوله: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوۡاْ يَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمۡثَٰلَكُم ٣٨﴾ [محمد: 38]"[3]. ولفظ ﴿بِخَلۡقٖ﴾ منكّرٌ للنّوعيّة والتّعميم، فهو مبهمُ النّوع ليس كخلقكم، فقد يكونون ملائكة، وقد يكونون أجناسًا أخرى لا يعرفها البشر، وتقييد الفعل بالمجرور بيانٌ للقدرة المتجلّيّة في استعمال المصدر في معنى اسم المفعول، حيث إنّ النظم قد "رَتَّب قدرتَه تعالى على ذلك - قدرتِهِ على خلقِ السمواتِ والأرضِ - على هذا النمط البديعِ -؛ إرشادًا إلى طريق الاستدلالِ؛ فإنَّ مَن قدَر على خَلق مثلِ هاتيك الأجرامِ العظيمةِ كان على تبديلِ خلقٍ آخرَ بهم أقدرَ"[4].

إن استبدل الله الكفّار، فقد يستبدلهم بأجناسٍ أبرار

دلالة تقييد الخلق بصفة ﴿جَدِيدٍ﴾:

يدعم عطاء الوصف ﴿جَدِيدٍ﴾ هنا غرض التهديد دعما كبيرًا، إذ يفيد تمام إفنائهم - حينئذ -، ويؤكّد في صراحةٍ لا تقبل الشكَّ عدمَ إبقاء بَقِيَّةٍ منهم، ويقرِّر أنَّ الخلق البديل لن يكون فيه من المهلَكين أثر، حتى ولو كان مِن ذرّيّتهم - كما جاء في تأويل بعض

الله ﷻ قادر على استبدال العُصاة، استبدالًا جذريّا

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 26/230.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/286.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/286.
(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/41.

العلماء – وهذا المعنى يتآزر مع القول بطلاقة القدرة الإلهية، المعزِّز بيانُها بِخَلْق تلك الأجرام العِظام ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾.

دلالة العطف في قوله ﴿وَمَا ذَٰلِكَ﴾ في السّياق:

لا يعزّ على العزيز ﷻ عزيز

الواو في جملة ﴿وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ "عاطفةٌ أو حاليّة"[1]، أو "حرف استئناف"[2]، والمقصودُ "أنه سبحانه كما خلق هذا الوجود قادرٌ على أن يُهلك الناس جميعًا، وأن يأتي بِخلق جديد غيرِهم، مِن جنسهم أو من غير جنسهم، وأنَّ ذلك ليس بالعزيز على الله تعالى"[3]، وهو "عطفٌ على جملةِ ﴿إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ﴾ مؤكِّدٌ لمضمونها، وإنَّما سلك بهذا التأكيد مسلك العطف لِما فيه مِن المغايرة للمؤكّد في الجملة بأنَّه يفيد أنَّ هذا المشيء سهلٌ عليه هيِّن، كقوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهۡوَنُ عَلَيۡهِۚ﴾ [سورة الروم: 27]"[4].

سرُّ التّعبير بالجملة الاسميّة ﴿وَمَا ذَٰلِكَ﴾:

قدرة الله تعالى على إفناء الكفور، دائمة لا تعمل فيها الدّهور

التعبير بالجملة الاسميّة في قوله تعالى: ﴿وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ يُقَرّر دوامَ القدرة الإلهيّة على إفنائهم واستبدالهم بغيرهم متى شاءه ﷻ، وأنه لا يطرأ على ذلك الثبات تغيير، لا من حيث المبدأ، ولا من حيث القدرة.

دلالة التّعبير باسم الإشارة ﴿ذَٰلِكَ﴾:

عمليّةُ الاستبدال، لا يقدرُ عليها إلّا اللهُ ذو الجلال

إشارة البعيد في قول الله تعالى: ﴿وَمَا ذَٰلِكَ﴾ تنويه بخطورة الأمر؛ وبيان لعظيم القدرة، لأنّه استبدال كامل بإفناء أناس وإحلال بديل أفضل، وهو ما لا عهد لأحد من الخلق به؛ فلا يكون إلا من الذي هو "قادر لذاته على جميع الممكِنات، لا اختصاصَ له

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 5/180.
(2) الدعاس، إعراب القرآن: 2/129.
(3) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 7/165.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/215.

بمقدور دون مقدورٍ؛ ومَنْ هذا شأنُه حقيقٌ بأن يؤمَنَ به ويرجى ثوابُه ويخشى عقابه"[1].

سرُّ تقديم ﴿عَلَى ٱللَّـهِ﴾، على ﴿بِعَزِيزٍ﴾:

تقديم القيد بالجارّ والمجرور ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾ على الخبر المؤكّد ﴿بِعَزِيزٍ﴾، يفيد اختصاص اللّه تعالى بنفي العجز عن إهلاكهم واستبدالهم بخلق جديد، يَعبد اللّه تعالى، ويَسعد بعبادته، ويَشرُف.

اللـه تعالى، قادر على إفناء من كفر، في لمح بالبصر

دلالة التّعبير بحرف الاستعلاء ﴿عَلَى﴾:

قوله تعالى: ﴿وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾: وفيه قرّر علماء البيان أنَّ تقديم النّفي على المسند إليه والمسند الفعليّ يفيد التّخصيص إلّا إذا قامت القرائن على غير ذلك، على معنى أنّ غير هذا عزيزٌ عليه، ولذا فإنّ الأفضل حمل هذا الأسلوب على التّأكيد وتقوية الحكم لأنّنا لا نعلم شيئًا عزيزًا عليه ﷻ. وحرف الجرّ ﴿عَلَى﴾ في سياق نَفْيِ استعصاء المشار إليه ﴿يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ وتَصَعُّبِه على قدرة اللّه تعالى يفيد سهولة هذين الحدثين؛ إهلاكهم واستبدالهم بغيرهم - على عِظَمه - عليه ﷻ وفيه إشارة أخرى جليلة، هي هوانُهم على اللّه تعالى، وضياع كرامتهم بالمرّة؛ فـ "ذهابكم وفناؤكم وبقاؤكم عليه واحد"[2]؛ فلا وزن لكم في ملكه، ولا إضافة بكم، وذلك لما في ﴿عَلَى﴾ من معنى الاستعلاء.

تقديم النّفي على المسند إليه والمسند الفعليّ، مُفصح في البيان

دلالة التّعبير بالاسم الجليل ﴿ٱللَّـهِ﴾:

الاسم الجليل ﴿ٱللَّهِ﴾ العَلَمُ الدّالُّ على الذات المقدَّسة يشتمل على جميع الأسماء الحسنى، والصفات العُلى، بما فيهما من صفات الجلال والجمال، ولذلك كان إيثار التعبير به في هذا السياق الخطير أنسبَ؛ من حيث إنه سياقٌ يفتقرُ إلى القدرة المطلقة،

التّعبير باسم الجلالة الأعظم، يناسب المقامات الأفخم

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/41.
(2) الواحدي، التفسير الوسيط: 3/28.

والجبروت القاهر في إهلاك الكافرين بأدنى كُلفة، كما أنَّه سياقٌ يفتقر إلى الرحمة المطلقة، واللُّطف العظيم في اصطفاء أجيالٍ أطهرَ يستبدلهم بهم ولا يبالي.

دلالة الباء في قوله: ﴿بِعَزِيزٍ﴾:

عزّة الله تعالى، كمال واقتدار ومكنة

الباء في قوله تعالى: ﴿بِعَزِيزٍ﴾ "حرفُ جرٍّ زائدٌ... تُفيد التّوكيد"[1]، ويُسهم في تقرير يُسْرِ إفنائهم، والإتيان بعُبّادٍ يَلِيقون بعبادته ﷻ ويستأهلون عطاءاته وفيوضاته التي لم يَرْقَ لاستقبالها هؤلاء المشؤومون.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الإرادة والمشيئة:

بين اللّفظتيْن عموم وخصوص من جهتيْن

الإرادة تكون لِما يتراخى وقتُه، ولِما لا يتراخى، والمشيئة لِما لَمْ يتراخ وقتُه، والشاهد أنَّك تقول فعلت كذا شاء زيد أو أبى، فيقابل بها إياه، وذلك إنَّما يكون عند محاولة الفعل، وكذلك مشيئته إنَّما تكون بدلًا من ذلك في حاله، وقيل: الإرادة هي العزم على الفعل، أو الترك بعد تصوّر الغاية المترتّبة عليه من خير أو نفع، أو لذّة ونحو ذلك، وهي أخصُّ من المشيئة؛ لأنّ المشيئة ابتداءُ العزم على الفعل، فنِسْبتها إلى الإرادة نسبةُ الضعف إلى القوة، والظنِّ إلى الجزم، فإنَّك ربَّما شئت شيئًا ولا تريده، لِمانعٍ عقلي أو شرعي، وأما الإرادة فمتى حصلت صدر الفعل لا محالة، وقد يطلق كلٌّ منهما على الآخر توسّعًا، وإرادته ﷻ للشيء نفس إيجاده له، ويشهد لذلك الأخبار[2].

(يذهب) و(يهلك):

الذّهاب يعمّ الإهلاك وغيره

يقال: ذَهَبَ بالشيء وأذْهَبَهُ، ويستعمل ذلك في الأعيان والمعاني، قال الله تعالى: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍۚ﴾ [فاطر: 8] كنايةً

(1) صافي، الجدول في إعراب القرآن: 13/176.

(2) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 35، 36.

عن الموت، وقال: ﴿إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ وَيَأۡتِ بِخَلۡقٖ جَدِيدٖ﴾[1]، وأهلكَ يُهلك، إهلاكًا، فهو (مُهلِك)، والمفعول (مُهلَك) للمتعدِّي، أهلك فلانٌ: ارتكب أمرًا عظيمًا، وأهلَك اللّهُ الظّالمين: جعلهم يهلكون أو يموتون، أبادهم ولم يترك لهم أثرًا"[2].

(يأت) و(يجيء):

"المَجِيء: أعمُّ لِأنَّ الْإِتْيان مَجِيء بسهولة، وَيُقال: جاءَ: في الْأَعْيان والمعاني، وما يكون مَجِيئه بِذاتِهِ وبأمر، وَلمن قصد مَكانًا وزمانًا، وَذكر الزَّمَخْشَرِيّ أنَّ أتَى: يَجِيء بِمَعْنى صار... ﴿وَلَا يُفۡلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيۡثُ أَتَىٰ ٦٩﴾ [طه: 69]: أي كانَ. وأتَى وَجاء: يطلقان بِمَعْنى فعل فيتعدَّيان تعديته؛ وَيُقال: أتَى زيد أتْيًا وإتيانًا، إذا كانَ جائيًا، وأتَى بزيد وبمال مثلًا: إذا أجاءه، أي: جعله جائيًا، وأتى المَكان: حَضَره"[3].

المجيء أعمّ من الإتيان، في الاستعمال والبيان

(1) الراغب، المفردات: (ذهب).
(2) مختار، معجم اللغة العربية المعاصرة: (هلك).
(3) الكفوي، الكليات، ص: 34.

﴿وَبَرَزُواْ لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمۡ تَبَعٗا فَهَلۡ أَنتُم مُّغۡنُونَ عَنَّا مِنۡ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖۚ قَالُواْ لَوۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيۡنَٰكُمۡۖ سَوَآءٌ عَلَيۡنَآ أَجَزِعۡنَآ أَمۡ صَبَرۡنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٖ ٢١﴾ [إبراهيم: 21]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

ربط ذكر قدرة الله على الكفّار في الدّنيا، بما يصيرون إليه في الآخرة

"لمّا ذَكر تعالى أصناف عذاب هؤلاء الكفّار، ثم ذكر عقيبه أنَّ أعمالهم تصير محبَطةً باطلة ذَكر في هذه الآية كيفية خَجالَتِهم[1] عند تمسُّك أتْباعهم وكيفية افتضاحهم عندهم، وهذا إشارة إلى العذاب الروحاني، الحاصل بسبب الفضيحة والخَجالَة"[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَبَرَزُواْ﴾: أصْلُ الكَلِمَةِ يدلُّ على ظُهورِ الشَّيْءِ وبُدوِّهِ. فالبَرازُ: المَكانُ البَعيدُ الواسِعُ الخالي مِن الشَّجَرِ ونحْوِه، يُقالُ: بَرَزَ الرَّجلُ، يَبْرُزُ، بُروزاً: إذا خَرَجَ إلى الفَضاءِ الواسِعِ لِحاجَةٍ، ويُطْلَقُ البَرازُ على الصَّحْراءِ البَعيدَةِ. والبَرازُ: الغائِطُ، سُمِّيَ بذلك؛ لأنّهم كانوا يَقْضونَ حاجَتَهُم في الأمْكِنَةِ الخالِيَةِ البَعيدَةِ عن النّاسِ[3]. ومن الباب: المُبارزة للقتال، وهي الظُّهور مِن الصَّفِّ[4]. والمرادُ بالبُروزِ في الآية: الخُروجُ مِنْ مَكانٍ حاجِبٍ. والمَعْنَى: حُشِروا مِنَ القُبورِ.

2) ﴿ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ﴾: أصْلُ الضَّعْفِ: الوَهَنُ، وَضِدُّهُ القوَّةُ، يُقالُ:

(1) "خجالة: حياء خجل، كدر يسببه الخزي والعار - وارتباك يسببه التواضع والحياء". يُنظر: آن دوزي، رينهارت بيتر، تكملة المعاجم العربية: (خجل).

(2) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 19/82.

(3) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (برز).

(4) الهروي، الغريبين في القرآن والحديث: (برز).

ضَعُفَ الرَّجُلُ يَضْعُفُ ضَعْفًا وَضُعْفًا، أيْ: وَهَنَ، فَهوَ ضَعِيفٌ. والضَّعيفُ: اسْمُ فاعِلٍ مِنَ الضَّعْفِ، وهو المَرَضُ والهُزالُ، تَقولُ: ضَعُفَ إذا مَرِضَ، والجَمْعُ: ضُعَفاءُ وَضِعافٌ. والمَقصودُ بالضَّعْفِ في الآية: الوَهْنُ والذُّلُّ[1]. والمُرادُ بالضُّعَفاءِ هنا: عَوامُّ النّاسِ والأتْباعُ الذين فقدوا نِعمةَ التَّفكير، ونِعمَةَ حريَّة الإرادة، فهانوا وذلّوا[2].

3) ﴿تَبَعًا﴾: أصْلُ (تبع): التُّلُوُّ والقَفْوُ، يُقالُ تَبِعتُ فُلانًا إذا تَلوتَهُ واتَّبَعْتَهُ، وَأتْبَعْتُهُ إذا لَحِقْتَهُ[3] كأنَّما لَحِق أو التصق به وتَطَلَّبه مُتبعًا له[4]. والاتِّباعُ: اقْتِفاءُ أثَرِ الماشِي، ثُمَّ اسْتُعْمِلَ في العَمَلِ بِمِثْلِ عَمَلِ الغَيْرِ[5]. يُقال: تَبِعتُ الرَّجُلَ إذا مشيتَ مَعَه، واتَّبعتُه إذا مشيتَ خَلفَه لتلحقه[6]. والتَّبيعُ: النَّصير. والتُّبَّعُ والتُّبُّعُ: الظِّلّ؛ لأنَّه مُتَّبَعٌ حيثما زال[7]. والتَّبَعُ: اسْمٌ لِمَنْ يَتْبَعُ غَيْرَهُ، يَسْتَوِي فِيهِ الواحِدُ والجَمْعُ، وهو مِثْلُ خَدَمٍ وَحَشَمٍ؛ لِأنَّ أصْلَهُ مَصْدَرٌ؛ فَلِذَلِكَ اسْتَوَى فِيهِ الواحِدُ والجَمْعُ، وقِيلَ التَّبَعُ: جَمْعٌ لا يَجْرِي على الواحِدِ، فهو مِنَ الجُموعِ النّادِرَةِ. وعليه فالمُرادُ بالتَّبَعِ في الآية: اسْمُ جَمْعِ التّابِعُ، وهو الَّذي يَتْبَعُ غَيرَهُ[8].

4) ﴿مُّغْنُونَ﴾: أصلُ (غني): يَدُلُّ على الكِفايَةِ. الغِنَى في المالِ. يُقالُ: غَنِيَ يَغْنَى غِنًى. والغَناءُ: الكِفايَةُ. يُقالُ: لا يُغْنِي فُلانٌ غَناءَ فُلانٍ، أيْ: لا يَكْفِي كِفايَتَهُ[9]. والإغناءُ: مُرادِفُ الغِنَى، وهُما مَعًا ضِدُّ الفَقْرِ، وَكَثُرَ اسْتِعْمالُ الغَناءِ في الإجْزاءِ والكِفايَةِ؛ لِأنَّ مَنْ أجْزَأ وَكَفَى فَقَدْ أذْهَبَ عَنْ نَفْسِهِ الحاجَةَ إلى المُغْنِينَ وأذْهَبَ عَمَّنْ أجْزَأ عَنْهُ الاحْتِياجَ أيضًا. وَتَخْصِيصُ الغِنَى في مَعْنَى ضِدِّ الفَقْرِ وَنَحْوِهِ حَتَّى صارَ الغَناءُ لا يَكادُ يُسْمَعُ في مَعْنَى ضِدِّ الفَقْرِ[10]. والغُنْيَةُ: اسْمٌ من الاسْتِغْناءِ عن الشَّيْءِ[11]، والغانِيَةُ: المُسْتَغْنِيَةُ بزوجها عن

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (ضعف).
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/216، وطنطاوي، التفسير الوسيط: 7/543.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (تبع).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (تبع).
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 7/423.
(6) ابن دريد، جمهرة اللغة: (تبع).
(7) الخليل، العين: (تبع).
(8) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/216، و24/161.
(9) ابن فارس، مقاييس اللغة: (غني).
(10) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/22.
(11) ابن عباد، المحيط في اللغة: (غني).

الزِّينة، وقيل: المُسْتَغْنِيَةُ بحسنها عن التّزيّن[1]. والمرادُ بالإغناءِ في الآية: حُصولُ النّافِعِ المُحتاجِ إليهِ.

5) ﴿أَجَزِعْنَآ﴾: أصلُ (جزع): يدلُّ على الانْقِطاعِ، يُقالُ: جَزَعَ الأرْضَ والوادِي: قَطَعَهُ[2]، والجَزَعُ: أشدُّ الحُزْنِ الَّذي يَمنَعُ الإنسانَ ويصرفُه عمّا هو بِصَدَدِه، ويَقطَعهُ عَنْهُ قَهْرًا[3]. وهو نَقيضُ الصَّبرِ، يُقالُ: جَزِعَ وجَزَعَ، يَجْزَعُ، جَزَعًا، فهو جازِعٌ وجَزِعٌ: إذا لَمْ يَصْبرْ على ما أصابَهُ. والجَزوعُ: الشَّديدُ الجَزَعِ[4]. والمُرادُ بالجَزَعِ في الآيةِ: حُزْنٌ مَشوبٌ بِاضْطِرابٍ[5].

6) ﴿مَّحِيصٍ﴾: أصلُ (حيص): أصْلٌ واحِدٌ، وهو المَيْلُ في جَوْرٍ وَتَلَدُّدٍ. يُقالُ: حاصَ عَنِ الحَقِّ يَحِيصُ حَيْصًا، إذا جارَ[6]. والحَيْصُ: الحَيْدُ عَنِ الشَّيءِ. حاصَ عَنْهُ يَحِيصُ حَيْصاً: رَجَعَ. وَيُقالُ: ما عَنْهُ مَحيصٌ، أي: مَحيدٌ ومَهْرَبٌ[7]. والمَحِيصُ: مَصْدَرٌ مِيمِيٌّ كالمَغِيبِ والمَشِيبِ، وَهوَ النَّجاةُ. يُقال: حاصَ عَنْهُ، أيْ نَجا مِنْهُ. وَيَجوزُ أنْ يَكونَ اسْمَ مَكانٍ مِنْ حاصَ أيْضًا، أيْ ما لَنا مَلْجَأٌ وَمَكانٌ ننجو فِيهِ[8]. وهو المُرادُ في الآية.

المَعْنى الإجْماليُّ:

"في هذه الآيات صورة شاخصة تمثِّل المستضعفين، والمستكبرين وثالثهم الشيطان، وقد قاموا يتحاورون بين يدي الله، وكلٌّ يلقي اللوم على الآخر، ولكن ذلك لم يغن عنهم أمام الله شيئًا"[9]، "والمقصود

معاتبة الضعفاء للمستكبرين، حيث لا يغني متبوع عن تابع يوم الدّين

(1) الراغب، المفردات: (غني).
(2) الخليل، العين، وابن دريد، جمهرة اللغة، والأزهري، تهذيب اللغة: (جزع).
(3) الرّاغب، المفردات: (جزع).
(4) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (جزع).
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/217.
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حيص).
(7) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (حيص).
(8) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 13/217.
(9) صافي، الجدول في إعراب القرآن: 13/182.

مِن وصف هذا الموقف إثارة بغض الشيطان في نفوس أهل الكفر ليأخذوا حذرهم بدفاع وسواسه، لأنَّ هذا الخطاب الذي يخاطبهم به الشيطان مليء بإضمار الشرِّ لهم فيما وعدهم في الدنيا ممّا شأنه أن يستفزّ غضبهم من كيده لهم وسخريّته بهم، فيورثهم ذلك كراهية له، وسوء ظنِّهم بما يتوقّعون إتيانه إليهم من قبله، وذلك أصل عظيم في الموعظة والتّربية"[1].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالة الواو في قوله ﴿وَبَرَزُواْ﴾:

جاءت (الواو) في قوله تعالى: ﴿وَبَرَزُواْ لِلَّهِ﴾ "حرف استئناف"[2]، أو "عطف على جملة ﴿إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ﴾ باعتبار جواب الشرط - وهو الإذهاب - وفي الكلام محذوف، إذ التقدير: فأذهبهم، وبرزوا لله جميعًا، أي: يوم القيامة"[3].

بروز العباد للمحاسبة العامّة، في ميدان الحشر يوم القيامة

دلالة العدول إلى التّعبير بالماضي في ﴿وَبَرَزُواْ﴾:

قال العلماء في معنى الماضي ﴿وَبَرَزُواْ﴾: "أي: يبرزون يوم القيامة، وإيثار الماضي لتحقّق الوقوع، أو لأنَّه لا مُضِيَّ ولا استقبال بالنّسبة إليه سبحانه "[4]؛ فجِيء به بلفظ الماضي لأنّ ما أخبر به ﷻ لِصدقه كأنَّه قد كان ووجد، ونحوه ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ﴾ [الأعراف: 44]، ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ [الأعراف: 50][5]؛ فلمّا كان هذا البروز أمرًا متحقّقًا كائنًا لا محالة، عبَّر عنه بصيغة الماضي، كأنَّه وقع فعلاً ودخل في دائرة الوجود، وإنْ كان لا يزال مستقبَلًا واقعًا بعد الموت[6]

الخبر عن الله تعالى متحقّقٌ، وكأنَّه وقع بالفعل

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/218.
(2) الدعاس، إعراب القرآن: 2/129.
(3) الواحدي، التفسير البسيط: 12/447، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/215.
(4) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/194.
(5) الزمخشري، الكشّاف: 2/548.
(6) مجمع البحوث، التفسير الوسيط: 5/484.

وبَرَزَ معناه في اللغة: ظَهَرَ بعد الخفاء[1] وهم لم يكونوا بمختفين عنه ﷻ قبل ذلك؛ بل كانوا له في كلِّ وقت بارزين، ولكن مَن أنكر ادِّعاء الإخفاء في الدنيا يُدَّعَ في ذلك اليوم، ويُقرّ بالبروز[2]؛ فالكلام خارج على ما يعتقدونه[3] في الدنيا في كونهم فائتين غائبين عن اللّه تعالى؛ فيومئذ يعلمون أنَّه كان لا يخفى عليه شيء من أفعالهم وأحوالهم[4] أو خرجوا من قبورهم فبرزوا لحساب اللّه وحُكمه[5].

دلالة اللّام في شبه الجملة ﴿لِلَّـهِ﴾:

اللّام الدّاخلة على لفظ الجلالة في قول اللّه تعالى: ﴿وَبَرَزُواْ لِلَّهِ﴾ "مُعَدِّية فعل ﴿وَبَرَزُواْ﴾ إلى المجرور اسم الجلالة"[6]، وهي للتّعليل[7]، "أي: برزوا لأمر اللّه تعالى أو لوعده الذي وعد أنَّهم يبعثون. أو يريد الحكم، اللّه سبحانه يحكم في بعثهم"[8] "وفي الكلام حذفُ مضاف، وجوَّز أن تكون اللام صلة البروز وليس هناك حذفُ مضاف، ويراد أنَّهم ظهروا له - عزَّ شأنه - عند أنفسهم وعلى زعمهم"[9].

يوم القيامة تظهر البواطن، وتنكشف الكوامن

كذلك من إشارات اللّام أنّه "لا يُنازِع أحدٌ في البروز في ذلك اليوم؛ وقد ينازعونه في الدّنيا. أو خُصَّ ذلك البروز بالإضافة إليه لِما هو المقصود من إنشائه إياهم وخلقهم. ليس المقصود في خلقهم وإنشائهم الأول، ولكن خلقهم الآخر؛ فخصّ ذلك بالإضافة إليه... فيومئذ يعلمون أنَّه كان لا يخفى عليه شيء؛ وكأنَّهم لم يكونوا

(1) الواحدي، التفسير البسيط: 12/446.
(2) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 10/178.
(3) الشوكاني، فتح القدير: 3/123.
(4) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 6/382.
(5) الزمخشري، الكشّاف: 2/548.
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/216.
(7) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/194.
(8) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 6/382.
(9) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/194.

يعلمون؛ قبل ذلك"[1]؛ فـ "اللام هاهنا لام أجل، لأجلِ أمر الله إيّاهم بالبروز"[2]، فإن كانوا من السّعداء برزوا للحاكم الحكيم بصفاتهم القدسيّة وأحوالهم العلوية، ووجوههم المشرقة وأرواحهم الصافية المستنيرة؛ فيتجلَّى لها نور الجلال، ويعظم فيها إشراق عالم القدس، فما أجلَّ تلك الأحوال، وإن كانوا من الأشقياء برزوا لموقف العظمة ومنازل الكبرياء ذليلين مَهِينين خاضعين خاشعين، واقعين في خِزْيِ الخَجالة ومَذَلَّة الفضيحة، وموقف المهانة والفزع"[3].

دلالة التّعبير بالاسم الجليل ﴿لِلَّـهِ﴾:

التّعبير باسم الجلالة، أنسب لسياقات التّهديد

سبق القول بأن الاسم الجليل (الله) العلمَ الدالَّ على الذات المقدّسة يشتمل على معاني الأسماء الحسنى والصفات العلى جميعها، بما فيهما من صفات الجلال والجمال، ولذلك كان إيثار التعبير به هنا في مقام التهديد والتخويف بذكر مشهد خطير من مقام الحشر والنشر والحساب أمْلَأ لسياق التهديد.

سرُّ التّعبير بالمسند إليه، الضّمير في ﴿وَبَرَزُواْ﴾:

الضّميرُ عنصرٌ للإيجازِ؛ يضمن بلاغة المؤدّى، وروعة الإعجاز

التّعبير بضمير الغَيْبَة في ﴿وَبَرَزُواْ﴾ يتَّسع ليستوعب صنوف الناس جميعًا - مؤمنهم وكافرهم -، بخلاف التعبير بالاسم الظاهر، الذي كان سيتعدَّد تَعدُّدًا يخرج عن حَدّ الإيجاز، بل عن حدِّ الإطناب البليغ إلى التطويل المعيب؛ إذ لو لم يُعبَّر بهذا الضمير (واو الجماعة) لتحتَّم ذكر الصنفين (الضعفاء، والذين استكبروا) على الأقلّ - دون المؤمنين - وحينئذ يقع التكرار الذي يخرج عن حدّ البلاغة والإعجاز.

سرُّ القيد بالحال، في لفظ ﴿جَمِيعًا﴾:

الحشر لا يُغادِر أحدًا من مؤمن أو كافر، سادةً أو سَوادًا

عَمَّمَتِ الآية الكريمة حكم الحشر والنشر بالتوكيد المعنوي

(1) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 6/382.
(2) الواحدي، التفسير البسيط: 12/447.
(3) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 19/83.

﴿جَمِيعًا﴾ "لأنه لا يُغادَر أحدٌ إلا بُعث"[1]، "قال أبو إسحاق: أي: جمعهم الله في حشرهم فاجتمع التابع والمتبوع"[2]. "و﴿جَمِيعًا﴾ تأكيد ليشمل جميعهم مِن سادة ولفيف، وقد جيء في هذه الآية بوصف حال الفِرق يوم القيامة، ومجادلة أهل الضلالة مع قادتهم، ومجادلة الجميع للشّيطان، وكون المؤمنين في شغل عن ذلك بِنُزُلِ الكرامة. والغرض من ذلك تنبيه الناس إلى تدارُك شأنهم قبل الفوات. فالمقصود: التحذير ممّا يُفضي إلى سوء المصير"[3].

دلالة الفاء في جملة ﴿فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ﴾:

في قول الله تعالى: ﴿فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ﴾ جاءت "الفاء عاطفة"[4]، تَعطف جملة ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمۡ تَبَعًا﴾ على جملة البروز ﴿وَبَرَزُواْ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾؛ وذلك يعكس تجرُّد الضعفاء مِن تحمُّل مسؤولية أنفسهم؛ لأنَّهم هكذا كانوا في الدنيا، وهكذا انتقلوا إلى الآخرة، إمَّعةً لا يَستقلّون بقرار، ولا يجرؤون على احتمال تبِعة. فالفاء لتفريع الاستكبار على التبعية؛ لأنَّها سببٌ يَقتضي الشفاعة لهم[5].

كلُّ ضالٍّ في دنيا الغرور، ضعيفُ الحجّة في يوم النّشور

دلالة (الْ) التّعريف في لفظ ﴿ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ﴾:

﴿ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ﴾ في قول الله تعالى: ﴿فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ﴾ "همُ الأتباعُ"[6]، "ضِعاف الرأي"[7]، "الذين فقدوا نعمة التفكير، ونعمة حرية الإرادة، فهانوا وذلّوا"[8].. و"الآية الكريمة تحكى أقوال الضعفاء يوم القيامة، وهي أقوال يبدو فيها طابع الذلّة والمهانة كما

سبيل نجاة الأتباع الأذلّة، التّأبّي على التّبعيّة المذلّة

(1) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 6/382.
(2) الواحدي، التفسير البسيط: 12/448.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/216.
(4) الدعاس، إعراب القرآن: 2/129.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/216.
(6) الزجاج، معاني القرآن وإعرابه: 3/158.
(7) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/194.
(8) طنطاوي، التفسير الوسيط: 7/543.

هو شأنهم في الدنيا"[1]، ففي وصْفهم بهذا الوصف ﴿ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ﴾ وتعريفهم بـ (ال) إزراءٌ عليهم، وتحذير لهم، وتنبيههم إلى ضرورة الخروج من عباءة المستكبرين الواهية، فإن فعلوا فقد خرجوا إلى سبيل النّجاة، وإلا فطريقهم إلى دركات النيران وبئس القرار، أو أنَّ اللّام تدلُّ على كمالهم في الصّفة القبيحة وانطباق معانيها كلِّها عليهم، وفي الاصطفاء بيان لعلَّة التبعيّة الممقوتة.

دلالة حروف الطلب في ﴿ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ﴾:

"الذين استكبروا: ساداتهم وكبراؤهم، الّذين استتبعوهم واستغووهم وَصَدّوهُمْ عن الاستماع إلى الأنبياء وأتباعهم"[2]، والسين والتاء للمبالغة في الكبر[3].

يوم القيامة تتهاوى الكبرياء، ويتساوى النّاس في العقاب والجزاء

وقد آثر النظم الكريم زيادة حروف الطلب في كلمة ﴿ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ﴾ ولم يكتفِ بـ (تكبَّروا) ليكشف عن طلبهم ما ليسوا له أهلًا؛ فهم ليسوا بِكِبار ولن يكونوا، ولا يمتلكون من أسباب ما ادَّعوه من العظمة شيئًا.

سرّ تقديم المقول على القول، في السّياق:

قدَّم النظمُ الكريم المقولَ لهم ﴿لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ﴾ على القول: ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمۡ تَبَعٗا﴾ لأنهَّم المَتْبوعونَ[4]، والسّادة للأتباع الضعفاء، المأمونون عندهم، وقد اعتادوا أن يرجعوا إليهم في أمرهم كُلِّه؛ فمن المؤكَّد - الذي يُعَبِّر عنه تقديمُ ذكرهم هنا - أن يفزعوا إليهم في هذا الموقف العصيب؛ فهم "أكابرهم الذين استكبروا عن عبادة اللّه"[5] في الدُّنيا فأضلّوهم عن سواء السبيل، وفي ذلك التقديم - الذي لا يؤدّي بالضعفاء إلى شيء من النجاة، وما يترتّب عليه من

استنجاد التّابعين بالمتبوعين يوم الدّين، خيبة ومذلّة

(1) طنطاوي، التفسير الوسيط: 7/544.
(2) الزمخشري، الكشّاف: 2/548.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/216.
(4) الزجاج، معاني القرآن وإعرابه: 3/158.
(5) الواحدي، التفسير البسيط: 12/448.

خيبة أمل - تتحقَّقُ فجيعتهم في كبرائهم الموهوم عظمتهم؛ وما أشدَّها حينئذ من حسرة!

سرُّ الاسم الموصول ﴿لِلَّذِينَ﴾، مقابل لفظ ﴿ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ﴾:

قابَل النظمُ الكريم المقولَ لهم اسمَ موصولٍ ﴿لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ﴾ بالقائلين معرَّفًا بـ (ال) ﴿ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ﴾ لِما يُلمِح إليه الأوَّلُ من أن صِفة الاستكبار المزعوم قد فاتت وتلاشت وانتهت بانتهاء دنياهم، وذلك ما تُفْصِح عنه صيغةُ الماضي التي أتاحها الموصول في صلته، ولن تتجلّى بهذه الدقة لو جاء معرَّفا بـ (ال) كالثاني هكذا (فقال الضعفاء للمستكبرين)؛ فقد ذهب الاستكبار الموهوم، ولم يَبْقَ مِن آثاره إلا خِزْيُه وآثامه.

الاستكبار يذهب بموت المستكبرين، والذّلّ يبقى إلى يوم الدّين

أما تعريف الثاني بـ (ال): ﴿ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ﴾ فَلِلُزوم الضعف لهم، وثبوته فيهم، ودوامه عليهم حتى هنالك في العذاب؛ لأنهم تشبَّعوا بالانكسار والذُّلِّ والتبعيّة، وصار من الصعب عليهم الفكاك منها، إلا بعد تَبَيُّنِهم الحقيقةَ المُرَّة، وهنالك يفيقون من غفلتهم، ويَنتفضون من سكرَتِهم: ﴿رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيۡنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ نَجۡعَلۡهُمَا تَحۡتَ أَقۡدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلۡأَسۡفَلِينَ ٢٩﴾ [فصلت: 29]. ولكن هيهات هيهات أن ينفع النّدم!

سرُّ التّعبير بمقول القول جملة اسميّة:

في قوله تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمۡ تَبَعٗا﴾، آثر النظم الكريم صياغة مقولِ القول جملةً اسميَّة لِما سَبقَتِ الإشارة إليه من ديمومة انكسار الأتْباع المخزِي، وتبعيَّتهم المقيتة مدّة حياتهم الدنيوية، خانعين أذلّاء، غير متحرِّرين من قيد التبعية؛ حتى صارت ملازمة لهم مختلِطة في كيانهم؛ ودليل ذلك نُطْقُهم بِمقول قولهم: ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمۡ تَبَعٗا﴾ في الآخرة، بل في العذاب المهين والأليم.

التَّبَعِيَّةُ المقيتة في الحياة، يتواصل شؤمها بعد الممات

دلالة التّوكيد بـ ﴿إِنَّا﴾ والجملة الاسميّة:

أكَّد ﴿ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ﴾ تَبَعِيَّتَهُم ﴿لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ﴾ بـ ﴿إِنَّا﴾ في قولهم

يأمل الأتباع في الآخرة الخلاص، ولات حين مناص

لهم: ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا﴾ إمعانًا في الحسرة على ضياع أعمارهم في تبعيَّةٍ خاسرة، وتعلُّقهم بأسباب واهية لم تُغن عنهم شيئًا، كذلك أكَّدوا هذا الخبر المتحسِّر ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا﴾ محاوَلةً منهم لاستدرار أي نفْعٍ يُمكن أن يُحصِّلوه من هؤلاء (الذين استكبروا) عليهم وخدعوهم.

مرارةُ التَّبَعِيَّة، تلاحق الأتباع الأذلّاء إلى الآخرة

دلالة ﴿كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا﴾ دون (تَبِعْناكم):

آثر الأتْباعُ ﴿ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ﴾ التعبيرَ بفعل الكينونة ﴿كُنَّا﴾ - أي: في الدُّنيا[1] - مع ما فيه مِن نقصِ عُنْصر الحَدَث - على التعبير بِفِعْلِ الحَدَث (تَبِعْناكم) مباشَرَةً لِما لِلجملة الاسمية مِن دَعْمِ فكرة المُلازَمة لِلخبر ﴿تَبَعًا﴾ بمصدريته الثابتة، وعطائه البالغ في وصف التبعيّة مبلغا لا يُعطيه غيره من عناصر.

التّبعيّة حبسٌ للحريّات، وهدر للكرامات

معنى اللّام في ﴿لَكُمْ﴾، وأثرها في المعنى:

اللّام هنا إمّا أن تكون للتّخصيص على معنى: كنّا مخصّصين لكم، أو للتّمليك على اعتبار أنّهم تنازلوا عن أخصّ خصائصهم لأولئك المستكبرين.

الأتْباع يُخْلِصون حياتَهم خانعين؛ فيخذلهم سادتهم يوم الدّين

الغرض من تقديم المجرور على خبر كان:

قُدّم الجارّ والمجرور ﴿لَكُمْ﴾ في مقول الأتباع للّذين استكبروا: ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا﴾ لقصد إفادة الحصر، "أي: تبعًا لكم لا لغيركم. وقيل: المعنى إنّا تبع لكم لا لرأينا؛ ولذا سمّاهم اللّه تعالى ﴿ضُعَفَٰٓؤُاْ﴾ ولا يلزم منه كون الرّؤساء أقوياء الرّأي؛ حيث ضلّوا وأضلّوا، ولو حُمل الضّعف على كونهم تحت أيديهم وتابعين لهم كان أحسن"[2].

(1) الواحدي، التفسير البسيط: 12/448.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/194.

نكتة تنكير لفظ ﴿تَبَعًا﴾:

التّنكير هنا يفيد التّحقير، أو للتّعميم ليشمل كلّ أنواع التّبعيّة فكل التّبعيّات العمياء تعيس بئيس.

دلالة التّعبير بلفظ ﴿تَبَعًا﴾، دون (تابعين):

قال العلماء: "﴿تَبَعًا﴾ جمعُ تابع. يقال: تابع وتَبَعٌ، مثل: غائب وغَيَبٌ. وجائز أن يكون تَبَعٌ مَصْدَرًا سُمِّيَ به، أي كنّا ذوي تبع"[1]، فإذا أُرِيد به الجمع فقد حصل التناسب بينه وبين اسم كان في ﴿كُنَّا﴾ وإن كان ﴿تَبَعًا﴾ مصدرًا ففيه الدلالة على خلوصهم لتبعيّتهم، حتى كأنهم قطعة منحوتة من مادّة التبعية الخالصة التي لا يشوبها شيء آخر، وذلك لما في التعبير بالمصدر من دلالةٍ على اسم الفاعل من المبالغة كقولنا: رَجُلٌ عَدْلٌ.

شعور الضّعفاء يتفاقم في الآخرة لتعاظم خيبة الأمل

الغرض من حذف متعلّق لفظ ﴿تَبَعًا﴾:

في قول الأتْباع ﴿ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ﴾: ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمۡ تَبَعًا﴾ لم يُحدِّدوا ما كان الأتْباع يتبعونهم فيه، وقد قدَّره المفسرون بقولهم: "اتبَعناكم فيما دعوتمونا إليه"[2]، و"في الكفر بالإجابة لكم"[3]، وفي "أحوال الدنيا"[4]، و"تكذيب الرّسل ﷺ، والإعراض عن نصائحهم"[5]، ومِن لطائف تركهم تحديد جهة الاتِّباع إفادةُ التعميم، أي: أنَّ تبعيتهم لهم كانت تبعيَّة مطلقة، واستسلامًا أعمى، وذلك أدْعى لتمام حسرتهم.

اتّباع المستكبرين، يُفْعِمُ الضّعفاء حسرةً يوم الدّين

دلالة الفاء مع أداة الاستفهام ﴿فَهَلۡ﴾:

جاءت (الفاء) في قول الأتباع للذين استكبروا: ﴿فَهَلۡ أَنتُم مُّغۡنُونَ

التماس (الضّعفاء) ما أوهمهم السّادة أنّهم يمتلكونه

(1) الزجاج، معاني القرآن وإعرابه: 3/158.
(2) الزجاج، معاني القرآن وإعرابه: 3/158.
(3) الماوردي، النكت والعيون: 3/129.
(4) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 19/83.
(5) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/194.

عَنَّا﴾ "حرف استئنافٍ"[1]؛ "للدّلالة على سببيَّة الاتِّباع للأغنياء، وهو مِن الغَناء بمعنى الفائدة"[2]. فقد فرَّعوا طلبهم منهم أن يُغنوا عنهم بعض هذا العذاب على تبعيَّتهم لهم في الدنيا، ثمرةً طبيعيّةً لِما أفهموهم إياه مِن قوَّة السلطان، ووفرة الإمكانات: ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا﴾.

الغرض من الاستفهام بالأداة ﴿فَهَلْ﴾:

الضّعفاء في الآخرة، يأملون غوث الّذين استكبروا دون جدوى

"إيلاء المسند إليه حرف الاستفهام قرينةٌ على أنه استفهام غير حقيقي، وبَيَّنه ما في نظيره: ﴿وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِى ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَـٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ ﴿٤٨﴾﴾ [غافر: 47 - 48]"[3] وعلى ذلك فقد خرج الاستفهام في قولهم: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا﴾ عن قصد طلب الفهم إلى جملة من الدلالات، منها "التوبيخ والتقريع"[4]، ومنها طلب دفع بعض العذاب عنهم، قال الماتريدي: "الأشبه أنَّهم يطلبون عنهم رفع بعض العذاب عنهم، وتحمُّل بعضٍ؛ لأن مؤنة الأتباع في العرف يتحمّلها المتبوع؛ فيطلبون منهم رفع شيء وتحمُّل بعض ما حلَّ بهم؛ وهو ما ذُكر في آية أخرى: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴿٤٧﴾﴾ [غافر: 47]، طلبوا منهم تحمّل بعض ما حلَّ بهم"[5].

دلالة الجملة الاسميّة المصدّرة بالضّمير ﴿أَنتُم﴾:

صار الضّعفاء منتظرين من الذين استكبروا نفعًا بدفع ضُرٍّ

جاء سؤال الأتْباع، وهم: ﴿ٱلضُّعَفَـٰٓؤُا۟﴾ ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟﴾: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا﴾ جملةً اسميّة تشبُّثًا بدوام حالة النَّجاة

(1) الدعاس، إعراب القرآن: 2/130.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/195.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/216.
(4) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/195.
(5) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 6/383.

والدفاع والنُّصرة التي يطمحون إليها، والمسند ﴿مُّغۡنُونَ﴾ "من الإغناء بمعنى الدفاع والنصرة"[1]، و"يقال: أغنى عنه إذا دَفع عنه الأذى، وأغناه إذا أوصل إليه النفع"[2] كذلك يكمن في صياغة الاسميَّةِ هذه مع تقديم المسند إليه ﴿أَنتُم﴾ مزيدُ تبكيت وإهانة ﴿لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ﴾؛ إذ كانوا يزعمون لأنفسهم مكانةً عند الله تعالى كما سيأتي قريبًا.

الغرض من التّعبير بالمسند إليه ﴿أَنتُم﴾:

في التعبير عن المسند إليه بضمير خطاب الجمع ﴿أَنتُم﴾ بيانٌ لفجيعة الأتْباع ﴿ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ﴾ في ﴿لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ﴾ إذ كانوا يُمارسون عليهم دَوْرَ السّادة المتميِّزين بمزايا الاصطفاء الإلهي المتمثِّل في الإمكانات الموهومة فيهم، فَعَبَّؤوا خطابهم إياهم بـ ﴿أَنتُم﴾ مزيج الدلالات المتكاثرة في نفوسهم، من الفجيعة، والحسرة، والندامة، والتوبيخ، والتقريع، وغيرها.

(الضعفاء سيندمون، ولات ساعة مندم

نكتة تقديم المسند إليه على المسند:

قال ابن عاشور: "وموجب تقديم المسند إليه ﴿أَنتُم﴾ على المسند ﴿مُّغۡنُونَ﴾ في جملة ﴿فَهَلۡ أَنتُم مُّغۡنُونَ عَنَّا﴾ أنَّ المستفهَم عنه كونُ المستكبرين يُغنون عنهم لا أصل الغناء عنهم؛ لأنهم آيسون منه لِما رأوْا من آثار الغضب الإلهي عليهم وعلى سادتهم. كما تدلُّ عليه حكاية قول المستكبرين ﴿سَوَآءٌ عَلَيۡنَآ أَجَزِعۡنَآ أَمۡ صَبَرۡنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٖ﴾، فعلموا أنهم قد غَرّوهم في الدنيا، فتعيّن أنَّ الاستفهام مستعمَلٌ في التورُّك والتوبيخ والتبكيت، أي: فأظهروا مكانتكم عند الله تعالى التي كنتم تدّعونها وتُغْرونَنا بها في الدنيا"[3].

الضّعفاء سيوبِّخون متبوعيهم الّذين استكبروا بمرارة وحسرة

(1) طنطاوي، التفسير الوسيط: 7/543.
(2) الشوكاني، فتح القدير: 3/123.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/216.

دلالة التّعبير بحرف الجرّ (عن):

الأتباعُ يَطلبون دفْعَ بعض العذاب عنهم، وهو سراب الأماني

عُدِّي الاسمُ ﴿مُّغْنُونَ﴾ بـ ﴿عَنَّا﴾ لأنه "ضُمِّنَ معنى الدفع... أي: إنا اتبعناكم فيما كنتم فيه مِن الضّلال؛ فهل أنتم اليوم دافعون عنا مِن عذاب الله من شيء؟"[1]، يودّون لو دفع (الذين استكبروا) عنهم شيئًا ﴿مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ﴾ تعالى، مع كمال علمهم بأنَّه لا يكون، وإنَّما هو الأمل الذي يمنّون به أنفسهم، ويقرِّعون متبوعيهم، الذين تجلَّى عجزهم عن الدفع عن أنفسهم.

دلالة حرف الجر ﴿مِنْ﴾ في السّياق:

العاجز عن دفع بعض العذاب، عاجز عن دفع العذاب كلّه

﴿مِنْ﴾ في قوله: ﴿مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ﴾ "بدلِيَّة، أي: غَناءً بدلًا عن عذاب الله"[2]، أو تبعيضيّة، يقول الزمخشري: "إن قلتَ: أيُّ فرق بين ﴿مِنْ﴾ في ﴿مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ﴾ وبينه في ﴿مِن شَيْءٍ﴾؟ قلتُ: الأولى للتبيين، والثانية للتبعيض، كأنَّه قيل: هل أنتم مغنون عنا بعض الشيء الذي هو عذاب الله. ويجوز أن تكونا للتبعيض معًا، بمعنى: هل أنتم مغنون عنّا بعض شيء هو بعض عذاب الله؟ أي: بعض بعض عذاب الله"[3].

سرُّ إضافة ﴿عَذَابِ﴾ إلى لفظ الجلالة ﴿ٱللَّـهِ﴾:

عذاب الضعفاء لا يُحتمل، فكيف بعذاب المستكبرين؟

في إضافة ﴿عَذَابِ﴾ إلى الاسم الجليل ﴿ٱللَّهِ﴾ إيحاءٌ بخطورته؛ وترهيب من استحقاقه بمخالفة دينه وشريعته ﷺ، بالاستكانة والاستسلام والخنوع للمستكبرين، وقد أوضح الله تعالى سبيل النجاة: ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾﴾ [النساء: 97]. وقد ساق الله ﷻ هذا الوعيد ليحذره العباد مُجانبينَ أسبابه.

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/195.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/216.
(3) الزمخشري، الكشّاف: 2/548.

دلالة حرف الجرّ ﴿مِن﴾ في السّياق:

﴿مِن﴾ في قولهم: ﴿مِن شَيۡءٍۚ﴾ "مزيدةٌ لِوقوع مدخولها في سياق الاستفهام بحرف هل"[1]، وقد سبق في كلام الزمخشري "أنها للتبعيض... والمعنى: هل أنتم مغنون عنّا بعض شيءٍ هو بعض عذابِ اللّه؟ أي: بعضَ بعضِ عذاب اللّه؟"[2].

التّعبير عن عذاب الله بالبعضيّة، تقريب للصّورة الحسّيّة

الغرض من تقديم القيد ﴿مِنۡ عَذَابِ ٱللَّـهِ﴾:

أصل ترتيب عناصر الجملة: فهل تغنون عنّا شيئًا من عذاب اللّه؟ غير أنَّ القيد بالحال ﴿مِنۡ عَذَابِ ٱللَّهِ﴾ "قُدِّمَتْ لأنَّ ذا الحال نكرة، والحال وصاحبها في الحقيقة صفة وموصوف"[3].. ومن أسرار ذلك التقديم البوحُ بشدّة ﴿عَذَابِ ٱللَّهِ﴾ تعالى وقوّة إيلامه الذي لا يُحتمل؛ ففي تقديم ذكره صرخةُ ألم من هؤلاء الأتْباع ﴿ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ﴾ لا تُتصوَّر، فكيف بعذاب اللّه ﷻ للذين استكبروا ومنحوا أنفسهم بعض اختصاصات اللّه تعالى ومنها استعباد العباد؟

دفع العذاب في الآخرة شغلُ أهل العذاب الشّاغل

دلالة التّنكير في لفظ ﴿شَيۡءٍۚ﴾ في السّياق:

آثر النظم الكريم تنكير المفعول ﴿شَيۡءٍۚ﴾ لإفادة "التقليل"[4]؛ فأيُّ ﴿شَيۡءٍۚ﴾ وأيُّ قدْر مِن غَناء عنهم، ومن دفْع لـ ﴿عَذَابِ ٱللَّهِ﴾ فيخفِّف عنهم ولو القليل من ذلك العذاب هو مَحَلٌّ رِضًا واعتبارٍ لَوْ حَصَّلوه هنالك، وذلك القليل الذي يطلبونه في الآخرة من سادتهم الذين استكبروا يُرضيهم اطِّرادًا على طبيعتهم غير الطموحة؛ إذ كان يُرضيهم منهم القليل في الدنيا.

الأتْباع الأذلّاء يَرضَون من سادتهم بالقليل، في الدّنيا والآخرة

الغرض من شبه كمال الاتّصال في سياق المقال:

جاء ردُّ الذين استكبروا بأنْ ﴿قَالُواْ لَوۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيۡنَٰكُمۡۖ﴾،

جواب الذين استكبروا، لا يغني عن الضّعفاء شيئًا

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/217.
(2) الزمخشري، الكشّاف: 2/548.
(3) الطيبي، فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب: 8/577.
(4) الطيبي، فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب: 8/577.

وهو "جملة مستأنفة، بتقدير سؤال، كأنَّه قيل: كيف أجابوا؟"[1]، و"فيه ثلاثة أوجه أحدها: لو هدانا الله إلى الإيمان لهديناكم إليه. الثاني: لو هدانا الله إلى طريق الجنة لهديناكم إليها. الثالث: لو نجّانا الله من العذاب لنجّيناكم منه"[2]"وجواب المستكبرين اعتذارٌ عن تغريرهم بأنَّهم ما قصدوا به توريط أتباعهم، كيف وقد ورَّطوا أنفسهم أيضا؟ أي: لو كنا نافعين لَنَفَعْنا أنفسنا، وهذا الجواب جارٍ على معنى الاستفهام التوبيخي العِتابي؛ إذ لم يُجيبوهم بأنّا لا نملك لكم غَناء، ولكن ابتدؤوا بالاعتذار عمّا صدر منهم نحوهم في الدنيا، علمًا بأنَّ الضعفاء عالمون بأنهَّم لا يملكون لهم غَناء من العذاب"[3].

سرُّ التّعبير بمقول القول جملة شرط:

ردود المستكبرين مغالطة، بتنصّلهم من مسؤوليتهم الآثمة

جاء ردّ الذين استكبروا ﴿لَوۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ مراوغًا؛ لا يغني عن الأتْباع شيئًا، "أي: لو رزقنا الله الهدى، وأكرمنا به لهديناكم؛ ولكن لم يرزقنا ذلك، ولم يكرمنا"[4]. وجاء الرَّدُّ في صورة شرط وجوابه تنصُّلًا من المسؤولية، وإحالةً لسبب العذاب على غيرهم، وكأنهم أبرياء بل كأنَّهم مظلومون، وتلك مغالطةٌ يتَّخذها الكَذَبَةُ في كلِّ زمان ومكان، نعم، هم جميعًا حينئذ في العذاب مشتركون، لكنّ وعود الذين استكبروا الدنيويّة ذهبت بلا طائل يعود بالنفع على أتْباعهم الضعفاء.

الغرض من التّعبير بـ ﴿لَوۡ﴾ في السّياق:

يوم القيامة تنكشف الحقيقة المؤيّسة من النّجاة

علَّق الذين استكبروا هدايتَهم الأتْباعَ سبيلَ النجاةِ على هداية الله تعالى إيّاهم، وجاء تعليق تلك السبيلِ بأداةِ الشرط ﴿لَوۡ﴾ في قولهم: ﴿لَوۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ لإغلاق باب الأمل في الخلاص من

(1) الشوكاني، فتح القدير: 3/123.
(2) الماوردي، النكت والعيون: 3/130.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/217.
(4) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 6/383.

العذاب؛ لأنَّهم عاينوا الحقيقة، وانكشفت لهم بما لا رجاء معه في النّجاة، أي: "لو أرشدنا الله لأرشدناكم، يريدون أنَّهم إنما دعوهم إلى الضلال لأنَّ الله تعالى أضلَّهم ولم يهدهم، فَدَعَوْا أتباعَهم إلى ما كانوا عليه من الضلال، ولو هداهم الله ﷻ لَدَعوْهم إلى الهدى"[1].

دلالة التّعبير بالماضي ﴿قَالُواْ﴾:

هذا المشهد بما يشتمل عليه من مجاذبة الحوار سيكون كلُّه في الآخرة، ومع ذلك حكاه الذِّكر الحكيم بصيغة الماضي؛ وذلك لِما تقدَّم من الإشارة إلى القطع بوقوعه، وأنَّه كائنٌ لا محالة؛ فإن الزَّمن كلَّه لله تعالى فلا ماضٍ ولا حاضرَ ولا مستقبلَ بالنسبة لله ﷻ؛ لأنَّه مالك الزمان والمكان، "إنَّ الرؤساء يعترفون بالخزي والعجز والذُّلِّ. ﴿قَالُواْ لَوۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيۡنَٰكُمۡۖ سَوَآءٌ عَلَيۡنَآ أَجَزِعۡنَآ أَمۡ صَبَرۡنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٖ﴾ ومن المعلوم أنَّ اعتراف الرؤساء والسادة والمتبوعين بمثل هذا العجز والخزي والنكال يوجب الخجالة العظيمة، والخزي الكامل التامّ، فكان المقصود من ذكر هذه الآية: استيلاء عذاب الفضيحة والخجالة والخزي عليهم مع ما تقدَّم ذكرُه من سائر وجوه أنواع العذاب والعقاب"[2].

القرآن الكريم يحكي ما سيكون بصيغة ما كان؛ إشارة إلى تحقُّقِ وقوعه

دلالة التّعبير بالاسم الجليل مسندًا إليه:

في قوله تعالى: ﴿لَوۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾، نجد في إسناد الّذين استكبروا الهدايةَ - الّتي لم تحصل لهم -إلى الاسم الجليل ﴿ٱللَّهُ﴾ في جوابهم الأتْباع ﴿لَوۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ رجوعًا إلى الحقِّ، واعْترافاً بما كانوا في الدُّنيا ينكرونه، ويردّونه على رُسُل الله تعالى عليهم السلام جميعا، ولا يؤمنون به.

سيلجِئُ العذاب الّذين استكبروا إلى الاعـــتراف بالحقِّ

(1) الواحدي، الوسيط للواحدي: 3/28.

(2) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 19/83.

دلالة اللّام في جملة ﴿لَهَدَيۡنَٰكُمۡۖ﴾:

عذاب الآخرة يجبر المستكبرين على الذِّلَّة

أكَّد الذين استكبروا في ردِّهم ﴿لَوۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيۡنَٰكُمۡۖ﴾ على طلب الضعفاء بأنَّ الأمر كلَّه للّه ﷻ بـ "(اللام) واقعة في جواب ﴿لَوۡ﴾"[1]، وذلك يَنِمُّ عما في سريرة نفوسهم بأنَّهم لا حولَ لهم ولا قوة، وأنَّهم ما كانوا سوى أسباب لهدايتهم أو لضلالهم، وذلك من الاعتراف بالذِّلَّة والصَّغار بحيث يجرِّدهم من كلِّ استكبار كانوا يدَّعونه لأنفسهم.

نكتة ﴿لَهَدَيۡنَٰكُمۡۖ﴾، بدل إسنادها لله تعالى (لَهَداكُمْ):

طغيانُ نزعة التَّسَيُّد على الضّعفاء، حدّدت صيغة الخطاب

معنى قول الذين استكبروا: ﴿لَوۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيۡنَٰكُمۡۖ﴾ "لو خلَّصنا اللّه من العقاب وهدانا إلى طريق الجنة لهديناكم، والدَّليل على أنَّ المراد من الهُدَى هذا الذي ذكرناه أنَّ هذا هو الذي التمسوه وطلبوه؛ فوجب أن يكون المراد من الهداية هذا المعنى"[2].

ونكتة تحويل الذين استكبروا إسنادَ هدايةِ اللّه تعالى إيّاهم في قولهم: ﴿لَوۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ إلى إسناد هداية الضعفاء إليهم هم: ﴿لَهَدَيۡنَٰكُمۡۖ﴾ بَدل إسنادها إلى اللّه تعالى (لهداكم) طغيانُ نزعة التَّسَيُّد عليهم وبقاء بقيَّة منها فيهم، وأنَّهم كما كانوا أسباب ضلالهم حين أضلّهم اللّه تعالى كانوا سيكونون هُداة لهم لو هداهم اللّه ﷻ.

دلالة الاستئناف في قوله ﴿سَوَآءٌ عَلَيۡنَآ﴾:

صبرُ أهل العذاب في الآخرة، وجزعهم سيّان

"جملة ﴿سَوَآءٌ عَلَيۡنَآ أَجَزِعۡنَآ أَمۡ صَبَرۡنَا﴾ من كلام الذين استكبروا، وهي مستأنَفةٌ تَبْيِينٌ عن سؤالٍ مِن الضعفاء يستفتون المستكبرين: أيصبرون أم يجزعون تَطَلُّبًا للخلاص من العذاب، فأرادوا تأييسهم من ذلك، يقولون: لا يفيدنا جزع ولا صبر، فلا نجاة من العذاب،

(1) صافي، الجدول في إعراب القرآن: 13/177.
(2) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 19/84.

فضمير المتكلّم المشارِك شامل للمتكلّمين والمجابين، جمعوا أنفسهم إتمامًا للاعتذار عن توريطهم"[1]" وقد ورد: إنَّ أهل النار يقولون: يا أهل النار إنَّ قومًا جزعوا في الدُّنيا وبكوا ففازوا، فيجزعون ويبكون. ثم يقولون: يا أهل النار إنَّ قومًا صبروا في الدنيا ففازوا، فيصبرون. فعند ذلك يقولون ﴿سَوَآءٌ عَلَيۡنَآ أَجَزِعۡنَآ أَمۡ صَبَرۡنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾"[2]، "قال زيد بن أسلم: جزعوا مئة سنة، وصبروا مئة سنة، فلم ينفعهم أحدهما، فقالوا هذا"[3].

الغرض من تقديم الخبر ﴿سَوَآءٌ﴾ في السّياق:

عند التّيئيس من النّجاة، يكون الجزع والصَّبْرُ سيّان

تقَدَّم الخبرُ ﴿سَوَآءٌ﴾ على المبتدأ المؤوَّل لِيَبينَ أنّ جزعهم وصبرهم لتأكيد التيْئيس في نفوس الضّعفاء، وحسمًا لصبِّ الضّعفاء التقريع عليهم؛ وتخلُّصًا من مرارة العتاب والتوبيخ، التي الذي غلَّفه الضعفاءُ في سؤالهم: ﴿فَهَلۡ أَنتُم مُّغۡنُونَ عَنَّا﴾، و"المقصود من قول المستكبرين للمستضعفين: ﴿سَوَآءٌ عَلَيۡنَآ أَجَزِعۡنَآ أَمۡ صَبَرۡنَا﴾ مُبالغتهم في النهي عن التوبيخ، بإعلامهم أنَّهم شركاءُ لهم فيما ابتُلوا به؛ وتسلية لهم"[4] و"الهمزة و﴿أَمۡ﴾ قد جُرِّدَتا عن الاستفهام لِمجرّد التسوية؛ ولذا صارت الجملة خبريةً، فكأنَّه قيل: جزعُنا وصبرُنا سواء علينا، أي: سِيّان، وإنما أفرد الخبر ﴿سَوَآءٌ﴾ لأنه مصدرٌ في الأصل"[5].

دلالة التّعبير بحرف الجرّ على في ﴿عَلَيۡنَآ﴾:

يحاول الذين استكبروا تقرير ما يعتقدون فيه براءتهم من التّبعة

في تعدية التسوية إلى الجزع والصبر بالجارِّ والمجرور ﴿عَلَيۡنَآ﴾ في جملة: ﴿سَوَآءٌ عَلَيۡنَآ أَجَزِعۡنَآ أَمۡ صَبَرۡنَا﴾ تضمين لمعنى القضاء والحُكم، أي: قضى الله تعالى علينا، وحكم باستواء الأمرين؛ فلا

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/217.
(2) الماوردي، النكت والعيون: 3/130.
(3) الواحدي، الوسيط: 3/28.
(4) مجمع البحوث، التفسير الوسيط: 5/485.
(5) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/196.

مَخْلَص لنا ولا منجى من هذا العذاب الذي نُعانيه، وكأنَّ الذين استكبروا يُلْمحون بهذا المعنى التضمينيّ إلى براءتهم من التبعة، وهذا يتآزر مع عناصر إحالتهم عدم الهداية إلى الله تعالى مغالَطَةً، كما سبق في مَظِنَّته.

الغرض من التّعبير بالضّمير الجامع لطرفي الحوار (نا):

أهل الباطل بعضُهم من بعض في باطلهم الدنيويّ، وفي عذابهم الأخرويّ

"إنّما أسندوا كُلًّا مِن الجزع والصبر واستوائهما إلى ضمير المتكلم (نا) المنتظم للمخاطبين أيضا؛ مبالغةً في النهي عن التوبيخ بإعلامهم أنَّهم شركاء لهم فيما ابتُلوا به وتسليةً لهم.

وجوّز أن يكون هذا من كلام الفريقين فهو مردودٌ إلى ما سيق له الكلام وهم الفريقان، ولا نظر إلى القرب كما قيل في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعۡلَمَ أَنِّي لَمۡ أَخُنۡهُ بِٱلۡغَيۡبِ﴾ [يوسف: 52] وأيّد ذلك ما ورد في الأثر: "يقول أهل النار: هَلُمّوا فَلْنَصْبِرْ فيصبرونَ خَمْسَمئةِ عام؛ فلمّا رأوا ذلك لا ينفعهم قالوا: هَلُمّوا فَلْنَجْزَعْ فيبكون خمسمئة عام؛ فلمّا رأوا ذلك لا ينفعهم قالوا: ﴿سَوَآءٌ عَلَيۡنَآ أَجَزِعۡنَآ أَمۡ صَبَرۡنَا﴾ الآية"[1].

"وإلى كون هذه المحاورة بين الضعفاء والمستكبرين في النار ذهب بعضهم؛ ميلًا لظواهر الأخبار. واستظهر أبو حيان أنَّها في موضع العَرْض وقت البروز بين يدي الله تعالى وقول الأتباع: ﴿فَهَلۡ أَنتُم مُّغۡنُونَ عَنَّا﴾ جزع منهم، وكذا جواب الرؤساء باعترافهم بالضلال، واحتمال أنَّه من كلام الأوّلين فقط خلافُ الظاهر جدًا، وقوله تعالى: ﴿مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾ جملة مفسّرة لإجمال ما فيه الاستواء؛ فلا محلَّ لها مِن الإعراب، أو حال مؤكِّدة أو بدل منه"[2].

(1) أورده السيوطي في الدر المنثور: 5/17، وجمع الجوامع: 13/313 برقم: (1570/28197)، والمتّقي الهندي، كنز العمال: 2/28، رقم الحديث: (3003).

(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/194.

دلالة التّعبير بالهمزة ﴿أَجَزِعْنَآ﴾:

في قول الذين استكبروا: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا﴾ جاءت "الهمزة وأم للتسوية"[1]، و"ليست الهمزة للاستفهام، بل هي كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٦﴾ [البقرة: 6]"[2].

إذا استوى المتناقضان عند المرء، دلّ قوّة القلب، وعلوّ الهِمَّةِ

دلالة ﴿أَمْ﴾ في قول الذين استكبروا:

جاءت ﴿أَمْ﴾ في قول الذين استكبروا: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا﴾ عاطفة[3]، عطف تسوية بين المعطوف عليه والمعطوف، فيقول أهل النار: "إنَّما نال أهلُ الجنة الرحمة بالصبر على طاعة اللّه، فَتَعالَوا فَلْنَصْبِرْ، فيصبرون خمسمئة سنة، فلا ينتفعون، فيقولون هلمَّ فلنجزع فيَضِجّون ويصيحون ويبكون خمسمئة سنة أخرى فلا ينتفعون، فحينئذ يقولون هذا القول الذي في الآية، وظاهر الآية أنَّهم إنما يقولونها في موقف العرض وقت البروز بين يدي اللّه تعالى"[4].

عند البروز بين يدي الله يوم الحساب، لا ينفع فخر ولا ذكر ولا شعار

الغرض من الطباق بين ﴿أَجَزِعْنَآ﴾ و﴿صَبَرْنَا﴾:

الطباق بين (الجزع) و(الصبر) في قول الذين استكبروا: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا﴾ يستوعب الحالتين المكنتين لحسم قضية التقريع؛ فلا يَتْرك للضعفاء مأمَلًا يُؤمِّلونه، كما أنَّ إثبات الذين استكبروا كلا الوصفين لهم جامعين معهم الضعفاء قد يَصْرِف عنهم توبيخهم بتوحيد فريقَيْهِم، ويوهم الضعفاء باستوائهم مع الذين استكبروا في شيء، وإن كان ذلك الشيء ﴿عَذَابِ ٱللَّهِ﴾ تعالى.

لا يسوِّي السّادةُ أتْباعَهم الضعفاءَ بأنفسهم إلا في عذاب الآخرة

(1) الزمخشري، الكشاف: 2/549.
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 3/332.
(3) الدعاس، إعراب القرآن: 2/130.
(4) ابن عطية، المحرر الوجيز: 3/332.

الغرض من تقديم الجَزَعِ على الصَّبْر:

الموقف يناسب الجزع، ولكلّ مقام مقال

"الجزعُ حزنٌ يَصرِف عمّا يُراد؛ فهو حزنٌ شديد"[1]، "مشوبٌ باضطراب"[2].. وقد قدَّم الذين استكبروا ذِكرَه على ذكر الصّبر لأنَّ المقام للجزع والتَّألُّم وتجرُّعِ المعاناة التي لا تُحتمَل.

دلالة جملة ﴿مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾ في السّياق:

لا مناص في الآخرة، من المصير المحتوم، للظّالم والمظلوم

"جملة ﴿مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾ واقعةٌ موقعَ التّعليلِ لِمعنى الاستواء، أي: حيث لا محيصَ ولا نجاةَ فسواءٌ الجزعُ والصبر، والمحيصُ: مصدر ميمي كالمغيب والمشيب، وهو النّجاة. يقال: حاص عنه، أي نجا منه. ويجوز أن يكون اسم مكان من حاص أيضًا، أي: ما لنا مَلجأ ومكان ننجو فيه"[3]، "وحاص فلان عن كذا، أي: فرّ وزاغ"[4]، وكذلك في جملة ﴿مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾ تقرير ما قالوه وتأكيده، أي أنَّهم لا مناص لهم ألبتّة بما هم فيه. ويجوز أن يكون هذا من قول المستكبرين والمستضعفين جميعًا، يُسَلِّي بعضُهم بعضًا، ويتأسَّى بعضهم ببعض. ولكنَّ الأمر كما قال الله تعالى: ﴿وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [الزخرف: 39].

والظاهر أن تكون محاورتهم هذه في النّار بعد دخولهم فيها، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِى ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ ﴿٤٨﴾﴾ [غافر: 47 - 48]"[5].

دلالة التّعبير بـ ﴿مَا﴾، في السّياق المحكم:

الإخبارُ بِنفي زوال العذاب عن أهل النّار، يُضاعف الألم والحسرة

تَدُلُّ ﴿مَا﴾ في قول الذين استكبروا: ﴿مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾ على

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/196.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/217.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/217.
(4) الشوكاني، فتح القدير: 3/123.
(5) مجمع البحوث، التفسير الوسيط: 5/485.

ثبوت يقينهم بانتفاء المَخْلَص من ﴿عَذَابِ ٱللَّهِ﴾ تعالى، وعلى تأكُّدهم مِن البقاء فيه إلى ما لا نهاية؛ وذلك مما يضاعف عليهم الألم والحسرة.

نكتة تقديم خبر ﴿مَا﴾، على اسمها ﴿مَّحِيصٍ﴾:

تقَدَّم الخبر - الجارَّ والمجرور ﴿لَنَا﴾ - في قولهم: ﴿مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾ على اسم ﴿مَا﴾ وهو ﴿مَّحِيصٍ﴾ لِما تأكَّد لدى المستكبرين أنَّ المؤمنين إلى الجنان جميعًا، بِمَن فيهم مقارفو ذنوب قد تقتضي تطهيرًا في النار إلى أجلٍ مسمًّى محدَّد عند الله تعالى، لذلك قصر الذين استكبروا انتفاء المحيص عليهم هم بخاصّة دون سواهم؛ فهم الخالدون المخلَّدون في النار، لا إلى نهاية يؤمِّلونها.

الّذين ديدنهم في الدّنيا الاستكبار، يجازون في الآخرة، بالخلود في النّار

دلالة حرف الجرّ ﴿مِن﴾ في السّياق:

حرف ﴿مِن﴾ في قول الذين استكبروا: ﴿مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾ "حرفُ جرٍّ زائدٌ"[1]، يعنون ما لنا من "منجى أو ملجأ، "[2]، أو معدل عن العذاب[3]، ومَخْلَصٍ[4]، ومَفَرٍّ، مأخوذ من حاص، يَحِيص: إذا نَفَرَ وفَرَّ[5]، وزيادة ﴿مِن﴾ التبعيضية قبل الـ ﴿مَّحِيصٍ﴾ يُفصح بتمام يأسهم مِن الظَّفر ببعضِ مهربٍ؛ مما يقطع على الأتْباع ﴿ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ﴾ الرجاء في النجاة، ويُعجِّل باستسلامهم للحال الراهنة؛ وكفِّهم عن لومهم الذين استكبروا وتوبيخهم.

الكفّار في الآخرة ييأسون من الخلاص، ويُيَئِّسون أتباعهم منه

دلالة التّنكير في ﴿مَّحِيصٍ﴾:

"المحيص قد يكون مصدرًا كالمغيب والمشيب، وقد يكون مكانًا كالمبيت والمَضِيق"[6]، وتنكيرُه في قول الذين استكبروا: ﴿مَا لَنَا

لا مفرّ في الآخرة من العذاب، للأتْباع والمتبوعين، من الضّالين والمضلّين

(1) الدعاس، إعراب القرآن: 2/130.
(2) الماوردي، النكت والعيون: 3/130.
(3) الواحدي، الوسيط: 3/28.
(4) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 6/384.
(5) ابن عطية، المحرر الوجيز: 3/332.
(6) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 19/84.

مِن مَّحِيصٍ﴾ يؤكِّد تمام يأْسهم مِن الظَّفَرِ بأيِّ مَهْرَبٍ يمكن أن يَهربوا إليه.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الجزع واليأس:

"الجزعُ: إظْهار ما يلحق المُصاب من المضض والغَمّ"[1]، و"اليأس: انقطاع الطمع من الشّيء"[2].

كلا اللّفظين، معبّر عن لون من الحالات النّفسيّة المدمّرة

المحيص والمناص:

"المَحِيصُ: المَحِيدُ، والمَعْدِلُ، والمَمِيلُ، والمَهْرَبُ"[3] قال الله تعالى: ﴿مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ۝٣٥﴾ [الشورى: 35] و"المَناصُ: المَنْجاةُ والفَوْتُ، قال الله تعالى: ﴿فَنَادَوا۟ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ۝٣﴾ [ص: 3]"[4].

المحيص المحيد، والمناص المنجاة، وكلاهما يعني أن لا مفرّ

(1) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 201.
(2) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 436.
(3) الزبيدي، تاج العروس: (حيص).
(4) الحربي، غريب الحديث: (منص).

﴿وَقَالَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمۡ وَعۡدَ ٱلۡحَقِّ وَوَعَدتُّكُمۡ فَأَخۡلَفۡتُكُمۡۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيۡكُم مِّن سُلۡطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوۡتُكُمۡ فَٱسۡتَجَبۡتُمۡ لِيۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُمۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصۡرِخِكُمۡ وَمَآ أَنتُم بِمُصۡرِخِيَّۖ إِنِّي كَفَرۡتُ بِمَآ أَشۡرَكۡتُمُونِ مِن قَبۡلُۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ٢٢﴾ [إبراهيم: 22]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

"لـمّا ذكر الله تعالى المناظرة التي وقعت بين الرؤساء والأتْباع من كَفَرَةِ الإنس، أردفها بالمناظرة التي وقعت بين الشيطان وبين أتباعه من الإنس، فقال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ﴾"[1]؛ "وذلك لاشتراك الرؤساء والشياطين في التلبُّس بالإضلال"[2]، فـ "أفضت مجادلة الضعفاء وسادتهم في تغريرهم بالضلالة إلى نطق مصدر الضلالة - وهو الشيطان - إما لأنَّهم بعد أن اعتذر إليهم كبراؤهم بالحرمان من الهدى علموا أنَّ سبب إضلالهم هو الشيطان؛ لأنَّ نفي الاهتداء يرادفه الضلال، وإما لأنَّ المستكبرين انتقلوا من الاعتذار للضعفاء إلى ملامة الشيطان الموسوس لهم ما أوجب ضلالهم، وكلُّ ذلك بعلم يقع في نفوسهم كالوجدان"[3].

أهل الضّلال بعضهم من بعض، وكلُّهم يَلوم يوم القيامة

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿قُضِيَ﴾: أصْلُ (قضي) يدُلُّ على إحْكامِ أمرٍ وإتقانه وإنفاذِهِ لِجِهَتِهِ[4]. القَضاءُ: الحُكْمُ والفَصْلُ، يُقالُ: قَضَى في الأمْرِ، أيْ: حَكَمَ

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 19/84.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/427.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/218.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قضي).

وفَصَلَ فيه[1]. ويأْتي بِمعنى: الأداء، تقول: قَضَى دَيْنَهُ، أيْ: أدّاهُ، والقضاءُ أيضًا: الإنْهاءُ والإتْمامُ، يُقالُ: قَضَيْتُ عَمَلِي، أيْ: أنْهَيْتُهُ وأتْمَمْتُهُ، وسُمِّيَ القاضِي قاضِياً؛ لأنّه يَحْكُمُ في الأشْياءِ ويُنْهِي الخِلافَ فيها[2]. والقَضاء كذلك: الأمر. قالَ اللّه تَعالَى: ﴿۞وَقَضَىٰ رَبُّكَ﴾ [الإسراء: 23]، أي: أمر رَبك. والانقضاءُ: ذَهابُ الشَّيْء وفَناؤه، وَكَذَلِكَ التَقضِّي[3]. والمقصود بالقضاء في الآية: الفَراغُ والإتْمامُ.

2) ﴿ٱلْأَمْرُ﴾: أصلُ (أمر): الأمْرُ مِنَ الْأُمورِ[4]. يُقالُ: أمْرُ فلانٍ مستقيمٌ وأُمورُهُ مستقيمةٌ. والأمْرُ: الحادِثَةُ، والجَمْعُ أُمورٌ، لا يُكَسَّرُ على غَيْرِ ذَلِكَ[5]. وَيُذكَر الأمرُ وَيُراد بِهِ الدِّين، نَحْو: ﴿حَتَّىٰ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: 48]، يَعْنِي: دين اللّه[6]. والأمر: المجازاةُ والعِقابُ، ومنه قولُه تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُۚ﴾ [النَّحل: 1]، قالَ الزَّجّاج: أمْرُ اللّهِ ما وَعَدَهم بِهِ مِن المُجازاةِ على كُفْرِهم مِن أصنافِ العَذاب[7]. والمقصود بالأمْرِ في الآية: الشَّأْنُ والفِعْلُ. والمُرادُ بـ ﴿قُضِيَ ٱلْأَمْرُ﴾: تُمِّمَ الشَّأْنُ، أيْ: إذْنُ اللّه وَحُكْمُهُ[8].

3) ﴿وَعْدَ ٱلْحَقِّ﴾: أصلُ (وعد): كَلِمَةٌ صَحِيحَةٌ تَدُلُّ عَلَى تَرْجِيَةٍ بِقَوْلٍ. يُقالُ: وَعَدْتُهُ أعِدُهُ وَعْدًا. وَيَكونُ ذَلِكَ بِخَيْرٍ وَشَرٍّ. فأمّا الوَعِيدُ فَلا يكونُ إلّا بِشَرٍّ[9]. والوَعْد: مَعْروف، وعدتُ الرجلَ أعِده وَعْداً حسنا من مال وَغَيره. وَفُلان وَفيّ الوَعْد والموعود[10]. والموعِدُ: مَوضِعُ التَّواعُدِ، وهو الميعادُ[11]. والحَقُّ: هُنا بِمَعْنَى الصِّدْقِ والوَفاءِ بِالْمَوْعودِ بِهِ. وَضِدُّهُ: الْإِخْلافُ. أي: الوَعْدُ الحَقُّ الَّذي لا نَقْضَ لَهُ[12].

4) ﴿سُلْطَٰنٍ﴾: أصلُ (سلط): أصلٌ واحدٌ، وهو القوَّةُ والقَهْرُ[13]. السُّلْطانُ: الحاكِمُ

(1) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (قضي).
(2) ابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (قضي).
(3) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن عباد، المحيط في اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (قضي).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أمر).
(5) الجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب: (قضي).
(6) الكفويّ، الكليات، ص: 176.
(7) الزجاج، معاني القرآن: 3/189، والزبيدي، تاج العروس: (أمر).
(8) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/218.
(9) ابن فارس، مقاييس اللغة: (وعد).
(10) ابن دريد، جمهرة اللغة: (وعد).
(11) الأزهري، تهذيب اللغة: (وعد).
(12) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/219.
(13) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سلط).

والوالي، وأصْلُ الكَلِمَةِ مِن السَّلاطَةِ، يُقالُ: سَلَّطَهُ عليْهِ، أيْ: مَكَّنَهُ مِنْهُ وحَكَّمَهُ فِيهِ، ويأْتي بِمعنى الخَلِيفَةِ، والإمامِ، والقاضِي[1]. والسُّلْطانُ أيضاً: الوِلايَةُ والحُجَّةُ والبُرْهانُ[2]. والسُّلْطان كذلك: قُدرةُ المُلْكِ، وقُدرةُ من جُعِلَ ذلك له وإنْ لم يكن مَلِكاً[3]؛ سُمِّيَ سُلطانًا لأنَّهُ يُكسِبُ المُستدِلَّ به سُلطةً على مُخالفهِ ومُجادِله[4]، والسَّلِيطُ مِنَ الرِّجالِ: الفَصِيحُ اللِّسانِ الذَّرِبُ، وامرأةٌ سَلِيطة: طويلة اللِّسان صخّابة[5]. والمَقصودُ بالسُّلطانِ في الآية: اسْمُ مَصْدَرِ تَسَلَّطَ عَلَيْهِ، أيْ: غَلَبَهُ وَقَهَرَهُ، والمُرادُ: لَمْ أكُنْ مُجْبِرًا لَكُمْ على اتِّباعِي فِيما أمَرْتُكُم[6].

5) ﴿تَلُومُونِي﴾: أصلُ (لوم): يَدُلُّ على العَتْبِ والعَذْلِ، فاللَّوْمُ: العَذْلُ، تقولُ: لامَهُ على كذا لَوْماً ولَوْمَةً، فهو مَلومٌ ومليم؛ إذا أتى ذَنْباً يُلامُ عليهِ[7]. واللوم أيضًا: "تعنيفٌ يردعُ عن التَّجاوز"[8]، والتَّلاوُمُ: أن يلوم بعضُهم بعضًا، قال تعالى: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ ۝٣٠﴾ [القلم: 30][9]، واللّائِمَةُ: الأمر الَّذي يُلامُ عليه الإنسان[10]، والمُرادُ باللَّوم في الآية: إنْكارٌ مُتَوَسِّطٌ على فِعْلٍ أوْ قَوْلٍ، وهو دونَ التَّوْبِيخِ وَفَوْقَ العِتابِ.

6) ﴿بِمُصْرِخِكُمْ﴾: أصلُ (صرخ): أُصَيْلٌ يَدُلُّ على صَوْتٍ رَفِيعٍ، مِنْ ذلكَ الصُّراخُ، يُقالُ: صَرَخَ يَصْرُخُ، وهو إذا صَوَّتَ. ويُقالُ: الصّارِخُ: المُسْتَغِيثُ، والصّارِخُ: المُغِيثُ، وَيُقالُ: بَلِ المُغِيثُ مُصْرِخٌ[11]. والصَّرِيخُ يكون فَعِيلاً بِمَعْنى مُصْرِخ، مثلُ نذيرٍ بِمَعْنى مُنْذِرٍ، وسميعٍ بِمَعْنى مُسْمِعٍ[12]. والاصْطِراخُ: التَّصارُخُ[13]، والمُرادُ بالإصْراخِ في الآية: الإغاثَةُ، اشْتُقَّ مِنَ الصُّراخِ؛ لِأنَّ المُسْتَغِيثَ يَصْرُخُ بِأعْلَى صَوْتِهِ[14].

---

(1) الجوهري، الصحاح، وابن سيده، المحكم، والفيومي، المصباح المنير: (سلط).
(2) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (سلط).
(3) الخليل، العين: (سلط).
(4) الخليل، العين: (سلط)، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/232.
(5) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (سلط).
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/219.
(7) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/219.
(8) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (لوم).
(9) الجوهري، الصحاح، والراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (لوم).
(10) الجوهري، الصحاح، والراغب، المفردات: (لوم).
(11) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة: (صرخ).
(12) الأزهري، تهذيب اللغة: (صرخ).
(13) الخليل، العين: (صرخ).
(14) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/220.

7) ﴿كَفَرْتُ﴾: أصْلُ الكُفْرِ: السَّتْرُ والتَّغْطِيَةُ، يُقالُ: كَفَرَ الشَّيْءَ، أيْ: سَتَرَهُ وغَطّاهُ، ومِنْهُ سُمِّيَ الزّارِعُ كافِراً؛ لأنَّهُ يُغَطِّي البَذْرَ بِالتُّرابِ. ومنه سُمِّيَ غَيْرُ المُؤْمِنِ كافِراً؛ لأنَّهُ غَطَّى الحَقَّ والإيمانَ[1]، والكُفْرُ: نَقِيضُ الإيمانِ، يُقال: كَفَرَ بِالشَّيْءِ، يَكْفُرُ، كُفْراً وكُفوراً وكُفْراناً: إذا أشْرَكَ بِاللّهِ ولم يُؤْمِنْ به، ويأْتي الكُفْرُ بِمعنى الإنكارِ والجُحودِ، فيُقال: كَفَرَ بِالنِّعْمَةِ، أيْ: أنْكَرَها وجَحَدَها[2]. والمُرادُ بالكُفْرِ في الآيةِ: الجَحْدُ والإنكار. والمَقصودُ منه: شدَّة التَّبرّي مِنْ إشْراكِهِم إيّاهُ في العِبادَةِ.

❁ المَعْنى الإجْمالِيُّ:

الشّيطان يخذل أولياءه، ويعنّفهم على اتّباعه، وعصيان الله تعالى

"وقال الشّيطان لأتْباعه بعد أن قَضَى اللّه تعالى بين عباده فأدخل المؤمنين الجنة وأسكن الكافرين النار - قال الشيطان لأتباعه - لِيَزيدهم حُزنًا إلى حزنهم وحسرة إلى حسرتهم - ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ﴾ على ألسنة رُسُله أنْ يبعثكم ويحاسبكم ويجازيكم على أعمالكم إن خيرًا فخير وإن شرًّا فشر، ووعْد اللّه تعالى حقٌّ، وخبرُه صدق، وقد أنجز اللّه ما وعد، ووعدتكم ألّا بَعْثَ ولا جزاءَ، ولو صحَّ أنَّكم تُبعثون فلِأصنامكم شفاعةٌ عند ربكم، وقد أخلفتكم فيما وعدتُكم، فحَقَّ عليكم وعيد ربكم، وقد كان عليكم ألّا تنخدعوا بما زخرفتُه لكم من القول، وأن تعصوني فيما أمرتكم به، وما كان لي عليكم من جبروت وسلطان يقهركم على اتِّباعي؛ فلا قوّة لي ولا حجّة معي، حتى تستجيبوا إلى ما دعوتكم إليه، لكنكم أسرعتم إلى إجابتي تلبية لشهواتكم وإشباعِ نزواتكم؛ فلا تلوموني اليوم على ما انتهى أمْرُكم إليه من عذاب النار، ولوموا أنفسكم، فإنَّ لكم النصيب الأوْفى من اختيار السبيل الموصل إليه، لسْتُ اليوم

(1) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، وابن سيده، المحكم: (كفر).
(2) الجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب: (كفر).

بمغيثكُم ممّا أنتم فيه من عذاب الضَّلال ووباله، ولستم بمُغيثيَّ ممّا أنا فيه من عذاب الإضلال ونكاله، إنِّي برئت من إشراككم إيّاي مع اللّه في الدنيا، حيث أطعتموني في الشرِّ كما يطاع اللّه في الخير كأنّي معبود معه، إنَّ الظّالِمِينَ لهمْ عَذابٌ أَلِيمٌ"[1].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالة الواو في ﴿وَقَالَ ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾:

قول الشّيطان حجّة، على كلّ من اتّبع الشّيطان، وعصى الرّحمن

"قول الشّيطان ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمۡ وَعۡدَ ٱلۡحَقِّ﴾، معطوف على قول الضعفاء ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمۡ تَبَعٗا﴾، فكلتا القضيّتين حكايةٌ لقول الفريقين، ومخاصمةٌ جَرَتْ بين الحِزبين، وهما تفصيلان لِما أُجمل في قوله: ﴿وَبَرَزُواْ لِلَّهِ جَمِيعٗا﴾، ذكر في الآية الأولى احتجاج المستكبرين على المستضعفين - وهو قولهم: ﴿لَوۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيۡنَٰكُمۡۖ﴾ - فكما دلّ قول الشيطان على ظاهر مذهبكم، دلّ قول المستكبرين على خلافه"[2]، والمقصود بالشَّيْطان هنا إبليس الأقدم نفسه[3]؛ فيا حسرة على أتباع الشّيطان ويا خيبتهم![4].

الغرض من العدول إلى الماضي ﴿وَقَالَ﴾:

المستقبل عند الله تعالى كالماضي، متحقّق لا محالة

دَرَجَ الذكر الحكيم على التعبير عن المستقبل بلفظ الماضي في كثير من مواضع ذكر الأحداث المستقبلة التي لمّا تقع بعد؛ ووراء ذلك العدول تنبيه للناس إلى تحقُّق وقوع تلك الأحداث وحصولها قطعًا لا محالة، ذلك أنَّ المتكلِّم هو اللّه ﷻ؛ والزمان ملكه كما المكان ملكه، فإذا أخبر بوقوع أمر وقع على الوجه الذي أخبر، فالمستقبل عنده كالماضي سواء بسواء.

(1) مجمع البحوث، التفسير الوسيط: 5/486.
(2) الطيبي، فتوح الغيب: 8/581.
(3) ابن عطية، المحرر الوجيز: 3/333.
(4) حجازي، التفسير الواضح: 2/256.

دلالة التّعبير بلفظ ﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾ معرفًا بـ (الْ):

خطيب الشّياطين في النّار، هو إبليس الأوّل الغرّار

تعريف ﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾ في الآية الكريمة "يعني إبليس. قال الحسن: يقف إبليس يوم القيامة خطيبًا في جهنّم على منبرٍ من نارٍ يسمعه الخلائق جميعًا"[1]، و"لِأنَّ لفظ ﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾ لفظٌ مفرد فيتناول الواحدَ، وإبليسُ رأس الشياطين ورئيسُهم؛ فحَمْل اللفظ عليه أولى"[2].

دلالة القيد بالظّرف ﴿لَمَّا﴾ دون (حين):

خطبة الشّيطان تكون فور قضاء الله تعالى الأمر بين الخلائق

﴿لَمَّا﴾ في قول الله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ﴾ "ظرف بمعنى حين"[3]، "متضمّن معنى الشرط، بمعنى (حين)، مبني في محلّ نصب، متعلّق بمضمون الجواب"[4]، وهي تُفيد تقليص الزمن بين جزائها وشرطها؛ وذلك يعني أنَّ خطبة إبليس كانت فور قضاء الأمر، وانقطاع الرجاء في الخلاص مما سقطوا فيه من غضب الله تعالى وعذابه.

أما كلمة (حين) فلا تفي بترجمة هذه السرعة الخاطفة، وطَيِّ الزمن بين الحَدَثَيْنِ، فلو وُضِعتْ (حين) موضع ﴿لَمَّا﴾ - في غير القرآن الكريم طبعًا - هكذا: وقال الشيطان حين قُضي الأمر، لما أوحتْ (حين) بتلك السرعة المؤيسة من كلِّ رجاء وتعلُّق بالنجاة، ولاحتمل السياق بعض الفتور الذي لا يلائم معالجة اللحظة.

الغرض من تقديم الظّرف وشرطه:

خُطبة الشّيطان، تُزلزل مِنْ أتباعه الأركان

أصلُ تركيب الجُملة الشريفة أن يقال: ولَمّا قُضِي الأمر قال الشيطان... ، فَتُقَدَّم ﴿لَمَّا﴾ الشرطيّة مع شَرطِها ﴿لَمَّا قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ﴾ على جوابها ﴿وَقَالَ ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾، غير أنَّ النظم الكريم قَدَّم جواب ﴿لَمَّا﴾ فقال: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمۡ﴾؛ وذلك

(1) الماوردي، النكت والعيون: 3/130.
(2) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 19/84.
(3) الدعاس، إعراب القرآن: 2/130.
(4) صافي، الجدول في إعراب القرآن: 13/179.

مراعاةً لمقتضى حالٍ كان فيها "لأهل الكفر لَجاجاتٌ ومُنازَعاتٌ فيما بينهم يوم القيامة؛ كقوله: ﴿ثُمَّ لَمۡ تَكُن فِتۡنَتُهُمۡ إِلَّآ أَن قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشۡرِكِينَ ٢٣﴾ [الأنعام: 23]؛ وكقوله: ﴿فَيَحۡلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحۡلِفُونَ لَكُمۡ﴾ [المجادلة: 18] الآية يكذبون في الآخرة، ويكون لهم لجاجة على ما كان منهم في الدنيا، أو يحتجّون فيقولون: إنَّ إبليس هو كان غَلَبَنا وقَهَرَنا؛ لأنه كان يرانا ونحن لم نكن نراه؛ فالمغلوب المقهورُ غير مأخوذ بما كان منه في حكمك، يحتجّون بمثل هذه الخرافات واللجاجات، ويقولون: هو الذي أضلّنا، فيقوم عند ذلك إبليس خطيبًا بينهم"[1].

دلالة التّعبير بالفعل المبنيّ للمفعول ﴿قُضِيَ﴾:

معنى ﴿قُضِيَ﴾ هنا: "فُرغ من الأمر"[2]، وقد آثر النظم الكريمُ التعبيرَ عن فِعل القضاء الأخرويِّ بصيغة الماضي ﴿قُضِيَ﴾، ليؤكّد للعباد أنَّه أمرٌ قَطْعيٌّ محكومٌ بوقوعه، مجزوم بحصوله؛ إذ إنَّ الزمان مِلك للّه تعالى يتصرَّف فيه كيف يشاء، ولا يتخلَّف أمرٌ يقول له: ﴿كُن﴾ [البقرة: 117]، وكذلك تُنَبِّه صيغة الماضي إلى أنَّ كلَّ ما هو آتٍ قريبٌ، وواقعٌ حتمًا.

ما أخبر الله تعالى أنَّه سيكون، فهو كائنٌ لا محالة

وسرُّ حذف فاعل ﴿قُضِيَ﴾ وبنائه للمفعول تَعَيُّنُه، وتَفَرُّدُه؛ لأنَّه لا شريك للقاضي الأوحد في ذلك اليوم؛ يوم يفرض ﷻ وحدانيّته على رؤوس الأشهاد: ﴿لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَۖ﴾ [غافر: 16]؟ فلا يجرؤ أحدٌ على مجرَّدِ أن يجيب، ويعمُّ الصمت والرعب ﴿فَلَا تَسۡمَعُ إِلَّا هَمۡسٗا ١٠٨﴾ [طه: 108].

دلالة تعريف لفظ ﴿ٱلۡأَمۡرُ﴾ بـ (ال):

﴿ٱلۡأَمۡرُ﴾ هنا هو حساب الخلائق يوم القيامة، وإدخال أهل الجنةِ الجنةَ، وإدخال أهلِ النارِ النارَ، ولا أمرَ أعرفُ من ذلك يوم

الأمر المراد، هو فصلُ الله يومَ القيامة بين العباد

(1) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 6/384.
(2) الواحدي، التفسير البسيط: 12/450.

القيامة؛ فـ (ال) عهديّة لأنَّه الوعدُ الحقّ، الذي تنتهي إليه مسيرة العباد في الدنيا وما بعدها حتى بلوغ لحظة التخليد - تخليد المؤمنين في الجنان، وتخليد الكافرين في أودية النيران - لذلك جاء معرَّفًا في النظم الكريم.

سرُّ حذف مقول الشّيطان لهم:

لا يلوم الشّيطان يوم القيامة، إلّا من كانوا أولياءه في الدّنيا

سكت النظمُ الكريم عن ذِكر الفِئَة التي يوجِّه إليها الشيطان قوله لتعيُّنهم والعلم بهم؛ فهم أولياؤه الذين تولَّوْه في الدنيا، الذين استمعوا له، وصدَّقوه ووثِقوا في وعده بالنجاة في الآخرة، ويتطلَّعون في الآخرة إلى تنفيذِهِ وعْدَه الذي وعدهم "وقريب من هذا مَن يقتدي بآراء الرجال المخالفة لِما في كتاب الله سبحانه ولِما سنَّهُ رسوله ﷺ، ويؤثرها على ما فيهما، فإنَّه قد استجاب للباطل الذي لم تقم عليه حُجَّةٌ ولا دلّ عليه برهانٌ، وترك الحجة والبرهان خلف ظهره كما يفعله كثير من المقتَدين بالرجال المتنكّبين طريق الحق بسوء اختيارهم"[1].

أما المؤمنون فما استمعوا إلى الشيطان، ولا تبعوا شياطين الإنس، ولا وثقوا فيه قط، بل كانوا يحذرونهم، ويتعوَّذون بالله تعالى منهم إنْ حاولوا التأثير على عقيدتهم؛ فهم في الآخرة آمنون في مأمنهم، لا ينالون منهم شماتةً.

سرُّ التّعبير بجملة القول الاسميّة:

الشّيطان يُضلُّ أتباعه في الدّنيا، ثم يَتشفّى منهم في الآخرة

جاء قول الشيطان في خطبته لأتْباعه يوم القيامة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمۡ وَعۡدَ ٱلۡحَقِّ وَوَعَدتُّكُمۡ فَأَخۡلَفۡتُكُمۡۖ﴾ جملةً اسميّة لِما تتَّسم بها من الدلالة على توكيد الخبر، إلى أن هيَّأت من دخول أداة الناسخ المؤكِّد ﴿إِنَّ﴾؛ فتكاثف التوكيد حسْمًا للموقف، وقطعًا

(1) الشوكاني، فتح القدير: 3/124.

للرجاء، وتحزينًا للأتْباع، وتشفِّيًا منهم، وبذلك يجمع عليهم الإضلال في الدنيا والشماتة في الآخرة، وتحذيرًا من ذلك يسوقه اللّه تعالى برحمته إلى عباده في الدنيا صريحًا فصيحًا، فمن انتبه واحترس، وإلّا فلا يلومنَّ امرؤٌ إلا نفسه.

الغرض من تقديم المسند إليه، على خبره:

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمۡ﴾، نجد في خطبة الشّيطان، أنّه لم يُقَدِّم المسندَ - الفعلَ - فيقول: وعدكم اللّه.. ليوازي به قوله: ووعدتكم، بل قدَّم المسند إليه اسم الجلالة ﴿ٱللَّهَ﴾ على المسند في ﴿وَعَدَكُمۡ﴾ لِيُقرر أنَّ وعد اللّه تعالى هو الوعدُ، الوعد الذي ينبغي ألّا يكون إلا صدقًا - لا وعده هو الكاذب؛ لأنَّه مجرَّد وهم وسراب خادع، فتقديم اسم الجلالة على الخبر الفعلي أفاد قصر الوعد الحقِّ على اللّه تعالى وهذا ما يتَّسق مع عطاء الجملة ومعناها العامّ: إنَّ اللّه وعدكم وعدَ الحقّ فوفَّى لكم بوعده، ووعدتكم وعد الباطل فكذبتُكم وأخلفتُكم، والقصر بناءً على ذلك قصرُ إفراد؛ حيث كانوا يعتقدون الشركة بين وعد اللّه تعالى ووعد اللعين كما قالوا: ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ [الزمر: 3].

وعد الله تعالى هو الوعد الكريم، لا وعد الشّيطان الرّجيم

سرُّ التّعبير باسم الجلالة ﴿ٱللَّـهَ﴾ مسندًا إليه:

آثر الشيطان الرجيم التعبيرَ باسم الجلالة في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمۡ وَعۡدَ ٱلۡحَقِّ﴾، دون غيره من الأسماء الحسنى والصفات العُلى - مثل اسم الربّ لأنّ المقام للمجازاة، والألوهية هي المنوط بها التكليف، والمحاسبة به وعليه.

(اللـه) تعالى، هو المنوط به التّكليف في الدّنيا، والمجازاة في الآخرة

سرُّ التّعبير بالفعل الماضي ﴿وَعَدَكُمۡ﴾:

الفعل الماضي هنا على بابه من الدلالة على حدثٍ حصلَ وتمَّ وانقضى، "الوعد في هذه الآية على بابه في الخير، أي: إنَّ اللّه وعدهم النعيم إنْ آمنوا، ووعدهم إبليس الظفر والأمل إنْ

وعد الله تعالى حقٌّ واقعٌ، وحتْمٌ لازمٌ

كذَّبوا، ومعلومٌ اقترانُ وعد الله تعالى بوعيده، واتفق أن لم يتبعوا طلب وعد الله تعالى فوقعوا في وعيده، وجاء مِن ذلك كأنَّ إبليس أخلفهم"[1].

مرجع ضمير الخطاب في ﴿وَعَدَكُمْ﴾:

الكفّار يُفجَعون في الشّيطان، حين يتبرّأ من كفرهم بخسَّةٍ ونذالة

المخاطبون بضمير الخطاب في قول الشّيطان: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ﴾ الكفّار، الّذين خدعهم الشّيطان في الدّنيا، ثم خذلهم في هذا المقام في الآخرة، وهو ليس بمقدوره إلّا أن يخذلهم، بل ليس بمقدوره إنجاء نفسه ممّا يعانيه من العذاب في ذلك اليوم العصيب، وإنَّما تكون الفجيعة عند أتْباعه يومئذٍ من تَبرِّيه منهم صراحة، ومِن كُفْرهم الذي دعاهم إليه ودلَّهم عليه في الدنيا، وتزداد الفجيعة مرارةً عليهم أن يكون تبرِّيه منهم ومن كفرهم بصيغة مَنْ يتشفَّى فيهم بتلك الصفاقة والخسَّة والنذالة.

سرُّ التّعبير بالقيد ﴿وَعْدَ ٱلْحَقِّ﴾:

الوعد الحقّ ما وعد الله، والزّيف ما وعد الشّيطان

جاءَ المفعول الثّاني في قول الشّيطان الرّجيم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ﴾ بهذا الوصف ﴿وَعْدَ ٱلْحَقِّ﴾ إذعانًا منه بحقّ الله ﷻ، وأنَّ وعده هو الوعد، "والحقُّ: هنا بمعنى الصدق والوفاء بالموعود به. وضدُّه: الإخلاف؛ ولذلك قال: ﴿وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ﴾، أي: كذبت موعدي"[2]﴿وَعْدَ ٱلْحَقِّ﴾ هو ما "وعد الله تعالى على ألسن الرُّسُل: أنَّ البعث، والجنة، والنار، والحساب، والعذاب - كائن لا محالة. أو جميع ما أوعد من مواعيده - فذلك كلُّه حقٌّ، أي: كائنٌ لا محالة"[3] فقد "وَعَدَ مَن أطاعه الجنة ووعد مَن عَصاه النّارَ"[4]، "وشمل وعد الحقِّ جميع ما وعدهم الله بالقرآن على لسان رسوله

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 3/333.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/219.
(3) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 6/385.
(4) الزجاج، معاني القرآن وإعرابه: 3/158.

ﷺ، وشمل الخُلْفُ جميعَ ما كان يعدهم الشيطان على لسان أوليائه وما يعدهم إلا غرورًا"[1].

سرُّ إضافة الوعد إلى الحقّ ﴿وَعۡدَ ٱلۡحَقِّ﴾:

وعد الله تعالى لا يكون إلّا حقًا، لأنّه لا يخلف الميعاد

﴿وَعۡدَ ٱلۡحَقِّ﴾ في قول الشيطان الرجيم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمۡ وَعۡدَ ٱلۡحَقِّ﴾ "من باب إضافة الشيء إلى نَعْته، كقوله: ﴿وَحَبَّ ٱلۡحَصِيدِ ۝٩﴾ [ق: 9]، ومسجد الجامع... أو وعْدَ اليومِ الحقِّ، أو: الأمرُ الحقُّ، أو يكون التقدير: وعدكم الحقَّ، ثم ذكر المصدر تأكيدًا، وفيه إضمار لأنَّ تلخيصه: وعدكم وعدَ الحقِّ فَصَدَقَكُم"[2] وفي تلك الإضافة إلماحٌ إلى أنَّ وعد الله تعالى لا يكون إلا حقًّا، وفيه أيضًا "مبالغةٌ في الاتِّصاف، أي: الوعد الحقُّ الذي لا نقض له"[3].

معنى (ال) في لفظ ﴿ٱلۡحَقِّ﴾:

الحقّ عدل وإنصاف، تحمى به العلاقات

(ال) هنا جنسيَّة لتعمّ اليومَ والأمرَ وكلَّ ما من شأنه أن يوسم بأنّه حقٌّ.

بلاغة تتابع المؤكِّدات، في السّياق المحكم:

كلّ ما أكّده الله فهو واقع، ولن يكون له من دافع

في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمۡ وَعۡدَ ٱلۡحَقِّ﴾ جاء التّأكيد بـ ﴿إِنَّ﴾ والجملة الاسميّة وتكرار ذكر المسند إليه، تارة بكونه اسم ﴿إِنَّ﴾ وتارة بذكره مضمرًا فاعلًا للفعل ﴿وَعَدَكُمۡ﴾ وذلك لأنّها جاءت في موضع الإقرار وتبرئة نفسه في ذلك المشهد العظيم.

بلاغة حذف المعطوف في سياق الآية:

صِدق وعدِ الله تعالى لا يحتاج إلى بيان

قوله: ﴿وَعَدَكُمۡ وَعۡدَ ٱلۡحَقِّ﴾، تقدير الكلام إنَّ الله "وعدكم وعد الحقِّ فصدقكم، وحُذف ذلك المعطوف لدلالة تلك الحالة على صدق ذلك الوعد والوفاء به، ولأنه ذُكر في وعد الشيطان

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/219.
(2) الواحدي، التفسير البسيط: 12/450.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/219.

الإخلافُ، فدلَّ ذلك على الصدق في وعد اللّه"[1]. و"في الآية إضمارٌ مِن وجهين: **الأول**: أنَّ التقدير: إنَّ اللّه وعدكم وعد الحقِّ فصدقكم، ووعدتكم فأخلفتكم، وحذف ذلك لدلالة تلك الحالة على صِدق ذلك الوعد، لأنهم كانوا يشاهدونها، وليس وراء العيان بيان؛ ولأنَّه ذكر في وعد الشيطان الإخلاف فدلَّ ذلك على الصدق في وعد اللّه تعالى، **الثاني**: أن في قوله: ﴿وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ﴾ الوعد يقتضي مفعولًا ثانيًا، وحذف هاهنا للعِلم به، والتقدير: ووعدتكم أن لا جنَّةَ ولا نارَ ولا حشرَ ولا حسابَ"[2].

دلالة العطف في ﴿وَوَعَدتُّكُمْ﴾:

الواو في قول الشيطان: ﴿وَوَعَدتُّكُمْ﴾ عاطفة على قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ﴾؛ فكلاهما من كلام الشيطان، وذلك مِن جوامع العطف المصحِّحة، وكذلك توفُّر عنصر التَّضادِّ المتحقِّق في تراكيب الجملتين - مذكورِهما ومحذوفِهما - مِن جوامع العطف المصحِّحة له هنا، وفي هذا العطف يتحقّق الجمع بين النقيضين؛ فيبدو وعد اللّه تعالى في غاية الشرف والعزّة القادرة على الإنجاز، ويُفتَضَح وعد الشيطان الكاذب بعجزه وتخلُّفِه عن أن يتحقَّق.

وعد الله شريف صادق، ووعد الشّيطان لئيمٌ كاذب

سرُّ توكيد جملة وعد الله دون سواه:

في توكيد جملة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ﴾ إيحاء بقوَّة وعده ﷻ وصدقه، وتنبيهٌ إلى ما جاء فيه من تواكيد لا نهاية لها، ومع ذلك لم يصدِّقوه، ولم يستجيبوا له، بخلاف وَعْدِه فهو الهشُّ الضعيف الكاذب، الخالي من التوكيد، ومع ذلك استجابوا له، وسارعوا فيه؛ لذلك ساقها لهم في الآخرة جُملة خالية من التوكيد: ﴿وَوَعَدتُّكُمْ﴾ "حيث قال: ﴿لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ﴾ [الأنفال: 48]، وأمثاله من

وعدُ الله تعالى حقٌّ منجَزٌ، ووعد الشيطان كَذِبٌ وغرور

(1) الواحدي، التفسير البسيط: 12/450.
(2) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 19/85.

عداته؛ كانت كلُّها أمانيَّ وغرورًا وكذبًا"[1]؛ ذلك لم يجرؤوا على تعنيفه حينئذ، بل علاهم الانكسار والذّلُّ.

مرجع الضّمير في ﴿وَوَعَدتُّكُمْ﴾ ودلالته:

ضمير الخطاب في قول الشيطان: ﴿وَوَعَدتُّكُمْ﴾ يعود إلى الكفار من الذين استكبروا ومن الضعفاء المذكورين جميعًا في الآيات السابقة، الداخلين جميعًا تحت قول الله تعالى: ﴿وَبَرَزُواْ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ وقد "أفضتْ مجادلةُ الضعفاء وسادتهم في تغريرهم بالضلالة إلى نُطق مصدر الضلالة وهو الشيطان: إمّا لأنَّهم بَعد أن اعتذر إليهم كبراؤهم بالحرمان مِن الهدى عَلِموا أنّ سبب إضلالهم هو الشيطان؛ لأنّ نفيَ الاهتداء يرادفه الضلال. وإمّا لأنَّ المستكبرين انتقلوا من الاعتذار للضعفاء إلى مَلامة الشيطان الموسوس لهم ما أوجب ضلالهم، وكلُّ ذلك بعلمٍ يقع في نفوسهم كالوجدان"[2].

مِنْ أتباع الشّيطان، مستكبرون طغاة، وضعفاء منكسرون

دلالة الفاء في ﴿فَأَخْلَفْتُكُمْ﴾:

"المفعول الثاني محذوف، أي: أخلفتكم الوعد"[3]، "أي: نقضتُه، جعل وَعْدَه كالإخلاف منه، كأنَّه كان قادرًا على إنجازه وأنَّى له ذلك"[4]، والفاء في القول المحكيّ عن الشيطان الرجيم ﴿وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ﴾ تنبئُ عن أنَّ كلَّ وعود الشيطان كاذبةٌ، متحقّقة الكذب فور صدورها مهما تأخَّر وقتُ الإخلاف، وهو أعرف الخلق بكذبه منذ لحظة الوعد؛ إذ إنّ وعودَه تنطلِي على أتْباعه، أما على نفسه فلا، "والمراد بالإخلاف في قوله: ﴿وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ﴾ الكذبُ، والغدر، وعدم الوفاء بما منّاهم به من أمانٍ باطلة"[5].

وعود الشّيطان كاذبة مُخْلَفَةٌ، منذ لحظة صدورها

(1) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 6/385.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/218.
(3) صافي، الجدول في إعراب القرآن: 13/179.
(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/42.
(5) طنطاوي، التفسير الوسيط: 7/545.

بلاغة الاحتباك في السّياق المحكم:

الشّيطان يقرُّ بصدق وعد الله تعالى، وبخُلْف وعده هو

في خطبة الشيطان جاء التعبير في: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمۡ وَعۡدَ ٱلۡحَقِّ وَوَعَدتُّكُمۡ فَأَخۡلَفۡتُكُمۡۖ﴾ على تقدير الاحتباك؛ إذ التقدير: (إنَّ اللّه وعدكم وعد الحقِّ فوفَّى لكم به)، و"هو وعده سبحانه بالبعث والحساب، ومجازاة المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته"[1]. (ووعدتُّكم وعْد الباطل فأخلفتكم إياه)، وهو "أنَّه لا بعث ولا حساب ولا جنة ولا نار فأخلفتكم ما وعدتكم به من ذلك"[2]؛ فحُذف من كلّ جملة مقابلَ ما ذُكر في الأخرى، لكنَّ الحذف جاء من كلٍّ ما يعبّر عن معتقد إبليس بما يناسب الحال.

فالمحذوفة الأُولى: (إنَّ اللّه وعدكم وعد الحقَّ فوفَّى لكم به)، حذف منه وفاء اللّه تعالى بوعده الحقِّ؛ لأنَّهم قد عاينوه واقعًا.

والثانية: (وعدتُّكم وعْد الباطل فأخلفتكم إياه)، حذف منها وصف وعده الباطل؛ ليتحاشى وصف وعده الباطل، وكأنه يقول لهم: "فذلك هو أنا، وهذا هو شأني مع أتْباعي. وإذن فموتوا بغيظكم"[3].

دلالة الواو في ﴿وَمَا كَانَ﴾:

الشيطان الرجيم يعترف لأتباعه بتجرُّده من كلّ سلطة

الواو في قول الشيطان ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيۡكُم مِّن سُلۡطَٰنٍ﴾ واو الحال؛ أي: إنَّكم استجبتم لي وذَعِنْتُم حالَ تجرُّدي من كل سُلطة يمكنني أن أجبركم بها على ترك دينكم واتِّباعي؛ فكان انجرافكم إلى الضلال بِتَهَيُّؤٍ منكم واستعداد ورِضًا. مما ترتّب عليه نهيُه إيّاهم عن لومه، وأمرُه إيّاهم بلَوْمِ أنفسهم هم.

سرُّ التّعبير بـ ﴿كَانَ﴾ المنفيّة في السّياق:

الماضي المعبَّر به عن المستقبل، خاصٌّ بمالك الزّمان

يُلقي الشيطان تلك خطبته في أتباعه يوم القيامة، ويُذكِّرهم

(1) الشوكاني، فتح القدير: 3/124.
(2) الشوكاني، فتح القدير: 3/124.
(3) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 7/168.

بما كان منهم من استسلامهم الذّليل له في الدنيا؛ فمجيئه بصيغة الماضي باعتبار ذلك اليوم، فيقول: ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم﴾، فالماضي المنفي ﴿كَانَ﴾ هنا على بابه، وليس من الماضي المعبَّر به عن المستقبل لتحقُّقِ الوقوع. والماضي المعبَّر به عن المستقبل خصيصة للّه تعالى مالك الزمان والمكان، واللّه تعالى أعلم. أمّا هنا فالكلام للشيطان الرجيم نعوذ باللّه العظيم من شرِّه.

الغرض من تقديم الجارّ والمجرور ﴿لِيَ﴾:

الشّيطان يُمعن في تحسير أتباعه، بصيغة التبرّي منهم في الآخرة

في تقديم القيد بالجارّ والمجرور ﴿لِيَ﴾ في قول الشيطان: ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ﴾ إمعان في تحميلهم مسؤولية الضَّلال، وإلقاء التبِعة عن كاهله - لعنه اللّه - إذْ نَفَى امتلاكه، واختصاصه بِأيِّ قوةٍ يكون قد مارس بها الضغط عليهم ليكفروا باللّه تعالى ويتبعوه هو، وهكذا يُمعن الشيطان في تحسيرهم وتحزينهم في هذا الموقف الشديد؛ فهلّا انتفعوا بهذا البيان القرآني المحذِّر لهم منه ومن كيده وتربُّصه هنا في الدنيا قبل فوات الأوان!

دلالة (على) في قوله ﴿عَلَيْكُم﴾:

ليس للشّيطان سلطان على الكفّار، بل هم الّذين يملّكونه أمرهم

ومن إمعان الشيطان في تحسير أتباعه وتحزينهم في الآخرة تقييدُه بالجارِّ والمجرور ﴿عَلَيْكُم﴾ في قوله: ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم﴾؛ إذ أقام به جناحَيْ مقابلة المتجاورَيْن: ﴿لِيَ﴾، ﴿عَلَيْكُم﴾؛ فأفصح عن أنَّه في الحال التي لم يكن يمتلك فيها سلطانًا لم يكن له عليهم أيّ استحقاق يستوجبه عليهم، وبهذا يصبُّ عليهم اللوم كلَّه، ويتبرَّأ من اللوم كلِّه؛ فما أشدَّها من حسرة يُجَرِّعُهم إياها!

معنى حرف الجرّ ﴿مِّن﴾ في السّياق:

في نفي أيّ لون من السّلطان، تحسيرٌ لأتباعه وهوان

قوله: ﴿مِّن سُلْطَانٍ﴾، كان يمكن أن تكون العبارة بدون حرف الجرّ ﴿مِّن﴾ فيقال: وما كان لي عليكم سلطان. لكنّ النظم جاء على هذه الهيئة للكشف عنْ خُبثه وقصده التبرُّؤ التامَّ من ضلال أتباعه

وإضلالهم فجاء حرف الجرِّ ﴿مِّن﴾ في قول الشيطان: ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ﴾ لنَفْي امتلاكه أيَّ قدْرٍ من سلطان، فـ ﴿مِّن﴾ في سياق النَّفْيِ تزيد إذلالَه أتباعَه وتحسيرَه إياهم إذلالًا وتحسيرًا، ومن شأن ذلك البيان القرآني الواضح أن يوقظ الناس من غفلتهم؛ فيحترسوا من إغوائه وتزيينه في الدنيا، وألّا يغفلوا عن دفعه كلَّما اقترب منهم أو حاول.

الغرض من تنكير ﴿سُلْطَانٍ﴾ اسم كان:

من أهمّ وُجوه التناسُب بين تراكيب قوله: ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ﴾ تنكير المسند إليه ﴿سُلْطَانٍ﴾ "أي: ما أظهرتُ لكم مِنْ حُجّةٍ"[1]؛ "حتى أقهركم وأغلبكم إلا الدّعاء؛ فاستجبتم لي طائعين؛ غير مقهورين ولا مضطرين"[2]، و"ما اضطررتكم ولا خوّفتكم بقوة مني، بل عرضت عليكم شيئًا، فأتى رأيكم عليه"[3] فبِتَنْكير كلمة ﴿سُلْطَانٍ﴾ تكون عناصر الجملة كلُّها قد التقتْ وتناغمت في التآزر على بيان ضعف أتْباعه، وتأكيد أنَّ ارتماءهم في أحضانه كان رغبةً لا رهبة؛ إذ لم يكن لديه أيّ سلطان أو قهْر من أي نوع يمكنه السّيطرة عليهم به، ومع ذلك أجابوه إلى طلبه، بل استجابوا له، واستحبّوا ما دعاهم إليه، وآثروه، فالتّنكير للتّعميم أو للتّعظيم، أي ما كان لي عليكم من سلطانٍ عظيمٍ.

لا سلطان للشّيطان، ولخوفه وهروبه من الاستعاذة بالرّحمن

دلالة التعبير بالاستثناء ﴿إِلَّآ أَن﴾:

قال بعض المفسّرين بأنَّ "هذا من الاستثناء المنقطع؛ أي: لكن دعوتكم"[4]، وقد رجّح الفخر الرازي كونه استثناء مُتَّصِلًا، فقال: "وعندي أنَّه يمكن أن يقال: كلمة ﴿إِلَّآ﴾ هاهنا استثناءٌ حقيقيٌّ؛ لأنَّ قدرة الإنسان على حمل الغير على عملٍ من الأعمال تارة يكون

لا يُستهان بتزيين الشّيطان؛ فقد يبلغ ببعضٍ مبلغ السّلطان

(1) الزجاج، معاني القرآن وإعرابه: 3/158.
(2) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 6/385.
(3) ابن عطية، المحرر الوجيز: 3/334.
(4) الواحدي، التفسير البسيط: 12/452.

بالقهر والقسر، وتارة يكون بتقوية الداعية في قلبه بإلقاء الوساوس إليه، فهذا نوع من أنواع التسلُّط. ثم إنَّ ظاهر هذه الآية يدلُّ على أنَّ الشيطان لا قدرة له على تصريع الإنسان، وعلى تعويج أعضائه وجوارحه، وعلى إزالة العقل عنه "[1].

بلاغة القصر على كون الاستثناء متّصلًا:

أهمّ أسلحة الشّيطان الإغواء، وهو سلاح فتّاك

إذا كان الاستثناء متّصلًا كان هناك قصرٌ، أي: قصر صفة على موصوف، حيثُ قصر سُلطته عليهم بصفة الإغواء، وهو قصر إضافيّ، لأنّ وسائله في الإضلال كثيرة متنوّعة.

دلالة التّعبير بالماضي في قوله ﴿دَعَوْتُكُمْ﴾:

أتباع الشّيطان يتّبعونه لأيسر إغواء، وأتفه تزيين

لا زال الشيطان الرجيم يتنصَّل من التَّبِعة، ويُذَكِّر أتْباعه بما كان فيقول: ما كان مني إلّا أنْ دعوتُكم "أي: أغويتُكم وأضللتُكمْ"[2] و"إلّا دعائي إيّاكم إلى الضلالة بوسوستي وتزييني"[3].. ومن إشارات التعبير بالماضي إلى ذلك الإيحاء بأنَّ طلبه منهم اتِّباعه كان خاطفًا ليس فيه إلحاح؛ كناية عن كمال وثوقهم فيه لأوّل وهلة، وأنَّه لم يجدِّد عليهم بصيغة المضارع الدعوة ولم يُلحَّ عليهم بالإغواء.

سرُّ التّعبير بالمفعول به الضّمير ﴿دَعَوْتُكُمْ﴾:

كثرة أهل الكفر، أعمت البصائر، ولم تكشف لهم خداع الشّيطان

في تعبير الشّيطان عن المفعول به المخاطب بضمير الجمعِ في قوله: ﴿دَعَوْتُكُمْ﴾ إشارةٌ إضافيّةٌ إلى هشاشةِ عزيمتهم وضعف قَرارِهم إزاء إغواء الشيطان، وبيان أنَّهم على كثرتهم واجتماعهم كانوا فاقدي الصلابة والاستعصاء على اتِّباعه، وأنَّهم لم يكتشفوا كَذِبَه وخِداعه بل انطلى عليهم زورُه فصدَّقوه، ولم تنفعهم كثرتهم أمام عَرْضه الضعيف ووعدِه الخادع الكاذبِ؛ مما يهيِّئ لتوجيه اللوم إليهم وصَبِّ التقريع عليهم.

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 19/85.
(2) الزجاج، معاني القرآن وإعرابه: 3/158.
(3) الزمخشري، الكشاف: 2/550.

دلالة الفاء في ﴿فَٱسۡتَجَبۡتُمۡ لِيۖ﴾:

أتْباع الشّيطان انساقوا لاتِّباعه، ولم يحتاطوا لإغوائه

معنى: ﴿فَٱسۡتَجَبۡتُمۡ لِيۖ﴾: (فاتبعتموني)[1]، "طائعين؛ غير مقهورين ولا مضطرين"[2].. وقد عطف استجابة أتباعه له على دعوته إيّاهم بفاء التعقيب، التي تترجم سرعة استجابتهم له، وعدم تردُّدهم وعدم مقاومتهم وجهادهم إيّاه، وتقرّر تمام قناعتهم بما دعاهم إليه من الكفر بالله تعالى وباليوم الآخر بما فيه من حسن جزاء لمن آمن وعمل صالحًا، وسوء عقاب لمن كفر وعمل السيئات.

دلالةُ التّعبير بالفعل ﴿فَٱسۡتَجَبۡتُمۡ﴾ بدلًا من (أجَبْتُمْ):

طبائع أهل الضَّلال توافق طبيعة الشّيطان الضالّ

تَدلُّ حروف الطلب في قول الشيطان الرجيم: ﴿فَٱسۡتَجَبۡتُمۡ﴾ على أنَّ طبائعهم كانت مهيَّأة للانحراف عن الدين الحقِّ قبل أن يدعوهم، وكأنَّهم هم الذين طلبوا هذا الطريق - طريق الكفر والضلال -، وإلا لَقال: (فأجبتم دعوتي)، ويتَّسق مع ذلك قول الله تعالى في قوم فرعون: ﴿فَٱسۡتَخَفَّ قَوۡمَهُۥ فَأَطَاعُوهُۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ ٥٤﴾ [الزخرف: 54].

سرّ التعبير بالخطاب في قوله: ﴿فَٱسۡتَجَبۡتُمۡ﴾:

الفاسقون مؤهَّلون نفسيًا للوقوع في شَرَك الشّيطان

لا يزال الخطاب الصادر من الشيطان الرجيم في قوله ﴿فَٱسۡتَجَبۡتُمۡ لِيۖ﴾ موجَّها إلى أتباعه من أهل الكفر والضلال، الذين سبق القول بأنَّهم الضعفاء المذكورون في الآيات السابقة، والذين استكبروا عليهم في الدنيا، وأهل المعاصي على الإجمال، حيث يقوم الشيطان فيهم خطيبًا يبكِّتهم، ويصبُّ عليهم الحسرات، بعد أن منّاهم الأماني الكاذبة في الدنيا.

معنى اللّام في شبه الجملة ﴿لِيَ﴾:

المخذول الشّقيّ، يستجيب لوساوس الشّيطان الغويّ

ومن تمام التّبكيت الذي يَصُبُّه الشيطان الرجيم على أتْباعه في

(1) الزجاج، معاني القرآن وإعرابه: 3/158.
(2) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 6/385.

الآخرة تقييدُه استجابتَهم بكونها له هو، حيث يُفصح بذلك فيقول: ﴿فَٱسۡتَجَبۡتُمۡ لِيۖ﴾، وفي ذلك دليلُ خِذلانهم، وفيه تعريضٌ بغبائهم وفسادِ جِبلَّتهم؛ حيث دعاهم الله تعالى على ألسنة رُسله عليهم السلام إلى توحيده ﷻ، فأبَوْا، واستجابوا لمجرَّد وساوس من هذا الكاذب اللعين.

دلالة الفاء في جملة: ﴿فَلَا تَلُومُونِي﴾:

الفاء في قول الشيطان الرجيم: ﴿فَلَا تَلُومُونِي﴾ تفريعيَّةٌ؛ حيث "تفرع نهيُهم عن لومه وتوجيهُه إلى أنفسهم على قوله: ﴿فَٱسۡتَجَبۡتُمۡ لِيۖ﴾ قوله: ﴿فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُمۖ﴾. والمقصود: لوموا أنفسكم أي: إذ قبلتم إشارتي ودعوتي"[1]. و"ليس مراده - لعنه الله - أنَّه لا يُلام؛ ولكن مراده: أن ارجعوا إلى لائمة أنفسكم واشتغلوا بها؛ فإنَّ ذلك كان منكم، لم يكن مني إلّا الدعاء"[2].

صدَق الشّيطان - وهو الكذوب - في أنَّ الأوْلى باللّوم هم الأتْباع

الغرض من أسلوب النّهي في ﴿فَلَا تَلُومُونِي﴾:

في التّعبير بالنّهي في قوله: ﴿فَلَا تَلُومُونِي﴾، إظهار التبرُّؤ من ضلالهم؛ "أراد بذلك: فلا تلوموني على ما فعلتم، ولوموا أنفسكم عليه، لأنَّكم عدلتم عما توجبُه هداية الله تعالى لكم"[3]، "ومجموع الجملتين يفيد معنى القصر، كأنَّه قال: فلا تلوموا إلّا أنفسكم، وهو في معنى قصر قلب بالنسبة إلى إفراده باللوم وحقهم التشريك فقلب اعتقادهم إفراده دون اعتبار الشركة، وهذا من نادر معاني القصر الإضافي، وهو مبنيٌّ على اعتبار أجدر الطرفين بالرَّدِّ، وهو طرف اعتقاد العكس"[4].

انهزام الأتباع أمام الشيطان، يلاحقهم إلى الآخرة

دلالة العطف بالواو ﴿وَلُومُوٓاْ﴾:

عطف الأمر على النهي فيه بيان لسبب النّهي، أي: ﴿وَلُومُوٓاْ

ترجيح قول الشّيطان، علَى هداية الرّحمن، جعل اللّوم عليهم لا عليه

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/219.
(2) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 6/385.
(3) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 19/88.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/220.

﴿أَنفُسَكُمۖ﴾ بسبب "سوء نظركم وقلة تثبّتكم؛ فإنَّكم إنَّما أتيتم اتّباعي عن بصيرة منكم وتكسُّب"[1]، "حيث اغتررتم بي وأطعتموني إذ دعوتكم، ولم تطيعوا ربَّكم إذ دعاكم"[2]، "يعني: ما كان مني إلّا الدُّعاء والوسوسة، وكنتم سمعتم دلائل الله تعالى وشاهدتم مجيء أنبياء الله تعالى فكان من الواجب عليكم أن لا تغترّوا بقولي، ولا تلتفتوا إليَّ، فلمّا رجَّحتُم قولي علَى الدلائل الظاهرة كان اللوم عليكم لا عليَّ في هذا الباب"[3].

الغرض من التّعبير بفعل الأمر ﴿وَلُومُوٓاْ﴾:

اللوم "تعنيفٌ يردع عن التجاوز"[4] ففعل الأمر يَردُّهم إلى الجهة الجديرة بالتعنيف، وهي أنفسهم لا هو؛ وفي ذلك "زيادةٌ في تأنيبهم وفي حسراتهم على انقيادهم له"[5]، وهو في ذلك "أشبه بالصائد الذي ينصب شباكه للطير، ويضع فيها الحَبّ فتسقط عليها، وتَعْلَق بها، وتصبح صيدًا في يده"[6]، فقد أفرغ النظم عليهم الحسرة إفراغًا؛ فالمعنى: "أنتم الذين فعلتم، واخترتم، واتجهتم ناحية الشر، وتركتم ناحية الخير، رغم دعاء الله تعالى لكم، وتحذيره الشديد من سلوك سبل الشّيطان"[7]، لكنَّكم "أجبتموني وصدَّقتموني من غير برهان"[8].

الشيطان يُعنِّف أتْباعه في الآخرة، بعدما أرهقهم باتِّباعه في الدّنيا

دلالة التّعبير بصيغة القِلَّة مفعولًا به:

قوله: ﴿وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُمۖ﴾، استنبط الإمام الرازي من قوله: ﴿أَنفُسَكُمۖ﴾ أنَّ "هذه الآية تدلُّ على أنَّ الشيطان الأصلي هو

الجاني الأكبر على العبد، نفسُه الّتي بين جنبيه، لا الشّيطان

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 3/334.
(2) الزمخشري، الكشاف: 2/550.
(3) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 19/85.
(4) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (لوم).
(5) طنطاوي، التفسير الوسيط: 7/546.
(6) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 7/168.
(7) حجازي، التفسير الواضح: 2/257.
(8) الواحدي، التفسير الوسيط: 3/29.

النفس، وذلك لأنَّ الشيطان بيَّن أنَّه ما أتى إلّا بالوسوسة؛ فلولا الميل الحاصل بسبب الشهوة والغضب والوهم والخيال لم يكن لوسوسته تأثير ألبتّة؛ فدلَّ هذا على أنَّ الشيطان الأصلي هو النفس"[1] وقد قرَّر الرازي ذلك بقوله: "صُدورُ الفعلِ عن مجموع القُدرة والداعي الحاصل أمرٌ واجبٌ؛ فلا يكون للشيطان مدخل فيه. وصدورُ الميلِ عن تصوُّر كونه خيرًا أو تصوُّر كونه شرًّا أمرٌ واجب؛ فلا يكون للشيطان فيه مدخل، وحصولُ كونه خيرًا أو تصوّر كونه شرًّا عن مطلق الشعور بذاته أمرٌ لازمٌ فلا مدخل للشيطان فيه، فلم يبق للشيطان مدخل في شيء من هذه المقامات إلّا في أنْ يُذَكِّرَه شيئًا بِأنْ يُلقِي إليه حديثَه، مثل أنَّ الإنسان كان غافلًا عن صورةِ امرأةٍ فيُلقي الشيطانُ حديثها في خاطره، فالشيطان لا قدرة له إلّا في هذا المقام، وهو عينُ ما حكى اللّه تعالى عنه أنَّه حيث قال: ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيۡكُم مِّن سُلۡطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوۡتُكُمۡ فَٱسۡتَجَبۡتُمۡ لِيۖ فَلَا تَلُومُونِي﴾ يعني: ما كان مني إلّا مجرد هذه الدعوة، فأما بقية المراتب فما صدرت منّي وما كان لي فيها أثر البتّة"[2].

دلالة جملة ﴿مَّآ أَنَا۠ بِمُصۡرِخِكُمۡ﴾ ممّا قبلها ودلالته:

الشّيطان يقرُّ أنَّ عَجزه مثل عجز أتباعه، وهو فجيعة لهم

معنى قول الشّيطان الرجيم ﴿مَّآ أَنَا۠ بِمُصۡرِخِكُمۡ﴾ "بمغيثكم ولا منقذكم"[3]، وهو "بيان لجملة النهي عن لومه؛ لأنَّ لومه فيه تعريضٌ بأنَّهم يَتَطَلَّبون منه حِيلةً لِنَجاتهم، فنفَى ذلك عن نفسه بعد أنْ نهاهم عنْ أن يَلوموه"[4]، كذلك بين جُملة ﴿مَّآ أَنَا۠ بِمُصۡرِخِكُمۡ﴾ وبين قوله – قبلها –: ﴿وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُمۖ﴾ كمالُ انقطاع؛ حيث إنَّ الأولى إنشائيةٌ نوعُها نهيٌ، والثانية خبرية؛ فلا تتعاطفان.

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 19/86.
(2) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 19/86.
(3) الواحدي، التفسير البسيط: 12/453.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/220.

الغرض من الاستعارة التّمثيليّة في السّياق:

استصراخ الضّعيف لا يُجدي، وفاقدُ الشّيء لا يُعطيه

قوله تعالى: ﴿مَّآ أَنَا۠ بِمُصۡرِخِكُمۡ وَمَآ أَنتُم بِمُصۡرِخِيَّ﴾: تمثيل لحالتهم جميعًا في استصراخهم من يُغيثهم ويستنقذهم مما يعالجونه من عذاب الآخرة بحالة من يستصرخ أحدًا واغَوْثاه، واصَرْخَتاه[1]، أُغيث أم لم يَغثْهُ أحدٌ، والمعنى: "ما أنا بمنجيكم، وما أنتم بمنجيَّ، أو: ما أنا بمغيثكم وما أنتم بمغيثي، والمصرخ: المغيث. والصارخ: المستغيث"[2]، فلا ينجي بعضنا بعضًا من عذاب اللّه ولا يغيثه[3] وقد عبّر بالاستعارة التّمثيلية استحضارًا للهيئة التي يكون عليها الشيطان ومن أطاعه، تقبيحًا لتلك الحالة ودعوة للإقلاع عن اتباعه ومتابعته في الدنيا، وذلك لما في تحويل المعاني إلى هيئات من التجسيد والاستحضار.

دلالة التّعبير بـ ﴿مَّآ﴾ النّافية:

الشّيطان عاجز تماما، فلا يغني عن نفسه، ولا عمّن استصرخه شيئًا

تدُلّ ﴿مَّآ﴾ النّافية في: ﴿مَّآ أَنَا۠ بِمُصۡرِخِكُمۡ وَمَآ أَنتُم بِمُصۡرِخِيَّ﴾ على تمام عجزه وعجزهم عن نفع بعضهم بعضًا في ذلك المقام الشديد؛ مما يفاقم اليأس في هذه النفوس المأزومة، ويضاعف عليها الحسرات بفوات وعود الشيطان الرجيم الكاذبة، التي طالما وعدهم بها في الدنيا.

الغرض من التّعبير بضمير المتكلّم ﴿أَنَا۠﴾:

الشّيطان أضعف ما يكون، وكيده كان وسيبقى ضعيفًا

في التّصريح بالضّمير العائد على مقدَّم مسبوق بالنفْي، في قوله: ﴿مَّآ أَنَا۠﴾ دليلُ ضعفه وهوانه في ذلك المقام، وكأنَّه يُلْمح إلى أنَّ القادر على الإنجاء والإغاثة في ذلك المقام إنَّما هو اللّه ﷻ لا أنا؛ فايْأسوا منِّي؛ فلست هُنالك. كما أنَّ في قوله تعالى: ﴿مَّآ أَنَا۠﴾

(1) الأزهري، تهذيب اللغة: (صرخ).
(2) الماوردي، النكت والعيون: 3/131.
(3) الزمخشري، الكشاف: 2/551.

"إرشادٌ لهم إلى أنَّ الشيطان في تلك الحالة مُبتلى بما ابتُلوا به من العذاب؛ محتاج إلى مَن يُغيثه ويخلّصه مما هو فيه، فكيف يطمعون في إغاثةِ مَن هو محتاج إلى من يغيثه؟"[1].

دلالة تقدّم النّفي على القصر في السّياق:

إقرار الشّيطان، بأنّه لا نفع من تابع لمتبوع، ولا من متبوع لتابع

في قوله ﴿مَّآ أَنَا۠ بِمُصۡرِخِكُمۡ﴾، و﴿وَمَآ أَنتُم بِمُصۡرِخِيَّ﴾، يفيد هذا التّقديم عند البلاغيّين من علماء المعاني القصر والتّخصيص، حيث نفى عن نفسه وعنهم وأثبت لغيره القدرة على ذلك، فاللّه هو المغيث لي ولكم.

معنى حرف الباء في شبه الجملة ﴿بِمُصۡرِخِكُمۡ﴾:

تأكيد الشّيطان، أن لا نصرة له ولا أمان

زِيد حرف الباء لتأكيد الخبر، في قول الشيطان: ﴿بِمُصۡرِخِكُمۡ﴾ أي: "ما أنا بناصركم... وما أنا بمانعكم"[2] فالباء داعمة لمضمون الخبر؛ مما يحسم الأمر هنا، ويقضي عليهم باليأس، ويفقدهم الأمل في قدرته على تنفيذ شيء مما يأملون.

دلالة العطف في قوله ﴿وَمَآ أَنتُم﴾:

التّأكيد على عجز الشّيطان عن نصرتهم، وعجزهم عن نصرته

في عطف جملة ﴿وَمَآ أَنتُم﴾ على جملة ﴿مَّآ أَنَا۠ بِمُصۡرِخِكُمۡ﴾ إيغال في المعنى؛ إذ المنتظَر منه أن يغيثهم هو، وليس مطلوبًا منهم أن يغيثوه هم؛ كيف وهو زعيمهم الذي منّاهم الأمانيّ، وهم مجرّد أتْباع؟ فقد "تعرّض لذلك مع أنَّه لم يكن في حيّز الاحتمالِ مبالغةً في بيان عدمِ إصراخِه إياهم، وإيذانًا بأنَّه أيضًا مبتلى بمثل ما ابتُلوا به ومحتاجٌ إلى الإصراخ فكيف من إصراخِ غيره؟"[3].

الغرض من أسلوب المقابلة في السّياق:

الشّيطان يقرّ أمام أتباعه في الآخرة، بالتّساوي بينه وبينهم

في المقابلة المعبّرة عن المشهد الحواريّ الدائر في خطبة إبليس

(1) الشوكاني، فتح القدير: 3/124.
(2) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 6/385.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/42.

بين جملتي: ﴿مَّآ أَنَا۠ بِمُصۡرِخِكُمۡ وَمَآ أَنتُم بِمُصۡرِخِيَّ﴾ يتجلَّى العجز، ويتأكّد المصير المحتوم بخلودهم جميعًا في ذلك العذاب؛ إذ أغلقت الأبواب المحتملة، وفاتت الأسباب المأمولة من كلِّ جانب، وبخاصّة أنَّ الذي يُقرّه إمامهم الذي كانوا إليه يأْوونَ، وملجؤهم الذي كانوا إليه يلتجئون.

نكتة تقديم نفي إغاثته، على نفي إغاثتهم:

ولا شكّ أنَّ طلب الأتْباع من الشيطان أن يُغيثهم كان هو الأصل؛ لأنَّه أملُهم الذي ركنوا إلى قدرته - بحسب إغوائه وتزيينه لهم - لذلك تقدَّمت جملة: ﴿مَّآ أَنَا۠ بِمُصۡرِخِكُمۡ﴾، وتأخَّرت جملة: ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُصۡرِخِيَّ﴾؛ إذ ليست إغاثتهم إياه في الحسبان أصلا.

الشّيطان يتشبّث في الآخرة بالصّدارة بين أتباعه رغم عجزه

موقع جملة ﴿إِنِّي كَفَرۡتُ﴾ ممّا قبلها ودلالته:

"جملة ﴿إِنِّي كَفَرۡتُ بِمَآ أَشۡرَكۡتُمُونِ مِن قَبۡلُۗ﴾ مستأنَفةٌ؛ لإظهار المزيد من التَّنَصُّلِ والتَّبَرِّي مِن كُلِّ عَلاقةٍ بينه وبينهم"[1]، ومعناها: إني "جَحَدْتُ أنْ أكون شريكًا للّه تعالى فيما أشركتموني"[2]. فهي "استئنافُ تَنَصُّلٍ آخرُ من تبِعات عبادتهم إيّاه، قُصِد منه دفعُ زيادة العذاب عنه بإظهار الخضوع للّه تعالى . وأراد بقوله: ﴿كَفَرۡتُ﴾ شدّة التبرّي من إشراكهم إياه في العبادة فإنْ أراد مِن مُضِيِّ ﴿كَفَرۡتُ﴾ مُضِيَّ الأزمنة كلِّها - أي: كنت غيرَ راض بإشراككم إيّاي - فهو كَذِبٌ منه أظهرَ به التذلُّل، وإن كان مرادُه من المُضِيِّ إنشاءَ عدم الرِّضى بإشراكهم إيّاه فهو نَدامةٌ بمنزلة التوبةِ حيث لا يُقبلُ مَتابٌ"[3]، ويمكن أن يكون الاستئناف هنا بيانيًّا جوابًا عن سؤالٍ مقدّر: وماذا يترتّب على ذلك؟

الشّيطان يوهم في الآخرة، أنّه كفر بِشِرك أتباعه

(1) طنطاوي، التفسير الوسيط: 7/546.
(2) الواحدي، التفسير البسيط: 12/461.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/221.

سرّ التّعبير بالجملة الاسمية المؤكّدة ﴿إِنِّي كَفَرْتُ﴾:

جاءت الجملة اسميّة مؤكّدة لكل ما مضى فـ "كأن ما مضى كان جوابًا منه عن توبيخهم وتقريعِهم، وهذا جوابٌ عن استغاثتهم واستعانتِهم به في استدفاع ما دَهَمهم من العذاب"[1].

لا مجال للشّيطان يوم القيامة، إلا البراءة صراحة من الكفر

سرُّ تقديم ياء المتكلّم، في قوله ﴿إِنِّي كَفَرْتُ﴾:

تقديم المسند إليه (ياء المتكلم) على الخبر الفعلي ﴿كَفَرْتُ﴾ يفيد توكيد نسبة كفره بِشِركهم، وأنَّه لا يوارب في ذلك ولا يتردّد. وإنَّما يقول لهم ذلك بعد فوات فُرَص التوبة سواء منه أو منهم، ولا قيمة لهذا التبرُّؤ في ذلك اليوم العصيب؛ مما يُضاعف على أتْباعه الحسرة، ويُفعمهم ندامة.

الشّيطان يبدي تبرُّؤه مِن كفر أتْباعه، فتزداد الحسرة

معنى التّعبير بقوله ﴿بِمَآ﴾ في السّياق:

في الجملة ﴿إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ﴾، الباء هنا سببيّة، على معنى: بسبب شرككم، ولا يخلو معنى الإلصاق والملابسة عن الباء. وقد تكون (ما) هنا موصولة على معنى: (بالّذي أشركتُموهُ)، وتكون الجملة بعدها صلة الموصول، لا محلّ لها من الإعراب، أو مصدريّة على معنى: بشرككم.

كُفر الشّيطان ادّعاء للتّخلّص من تبعة أتباعه

سرُّ تقييد كفر الشّيطان، بالجارّ والمجرور:

قوله تعالى: ﴿إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ﴾، قيَّد النّظم الكريم كُفْرَ الشّيطان بشيءٍ واحد، هو ما أشرَكَه أتْباعُه فيه مع الله ﷻ؛ وذلك أنَّ المقام أكبر مِن أن يكابر - لعنه الله - أو يُغالط؛ ولا شكَّ أنَّه يبتغي بذلك تخفيفَ عقوبات ضلاله وإضلاله، ولكن هيهات! برغم أن يصرّح بها: إني "جَحَدْتُ أن أكون شريكًا لله تعالى فيما أشركتموني"[2]، وذلك تصديق قول الله ﷻ: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾ [فاطر: 14].

إعلان الشّيطان كفره بمعبودات المشركين، ليس بنافعه

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/42.

(2) الواحدي، التفسير الوسيط: 3/29.

بلاغة الاستعارة في كلمة ﴿أَشْرَكْتُمُونِ﴾:

إطلاق الإشراك على التّبعيّة، تقبيح لها

في قوله تعالى حكاية لمعنى مقولة الشّيطان الرّجيم: ﴿إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ﴾ استعارة تصريحيّة؛ إذ "الإشراك استعارةٌ بتشبيه الطاعةِ به، وتنزيلها منزلته، أو لأنَّهم لمّا أشركوا الأصنامَ ونحوها بإيقاعه لهم في ذلك فكأنَّهم أشركوه، والكفر مجاز عن التبرِّي، كما في قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾ [فاطر: 14].

والمراد: إنْ كان إشراككم لي بالله تعالى هو الذي أطمعكم في نُصرتي لكم، وخيَّل إليكم أنَّ لكم حقًا عليَّ، فإني تبرَّأتُ من ذلك ولم أحمده، فلم يبق بيني وبينكم علاقة، وقد حَذف المشبّه وأبقى المشبّه به على طريق الاستعارة التصريحية التبعية"[1].

سرُّ حذف متعلّق الشّرك في السّياق:

الشّرك قبيح، بغضّ النّظر عمّا يشرك به

متعلَّق الإشراك في قوله: ﴿بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ﴾، أي: "في العبادة بأنْ عبدوه مع الله تعالى؛ لأنَّ من المشركين مَن يعبدون الشياطين والجنَّ فهؤلاء يعبدون جنس الشيطان مباشرةً، ومنهم مَن يعبدون الأصنام، فهم يعبدون الشياطين بواسطة عبادة آلهته"[2]، و"في الطاعة، التي ينبغي أن يُفْرَدَ الله تعالى بها"[3]، و"﴿بِمَآ﴾ في قوله: ﴿بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ﴾ مصدرية، و﴿مِن قَبْلُ﴾ متعلقة بـ ﴿أَشْرَكْتُمُونِ﴾ يعنى: كفرت اليوم بإشراككم إيّاي مِن قبل هذا اليوم"[4]، "وقيل: موصولة بمعنى الذي، والتقدير: كفرت بالصنم الذي أشركتمونيه، فحذف العائد"[5] فالمقصود من حذف المتعلِّق توفير العناية على ذمّ الشرك في حدِّ ذاته، ويؤيّده استخدام (ما) وهي أعمُّ الموصولات

(1) صافي، الجدول في إعراب القرآن: 13/182.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/221.
(3) ابن عطية، المحرر الوجيز: 3/334.
(4) الزمخشري، الكشاف: 2/551.
(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/429.

وأدخلها في الإبهام ليشمل كلَّ معبود من غير اللّه بشرًا أوحجرًا أو شجرًا أو أيَّ شئٍ.

سرُّ تقييده عبادة الشّيطان، بالظّرف ﴿مِن قَبۡلُۖ﴾:

تقييدُ الشّيطان الرّجيم كُفْرَه بقبليَّةٍ محذوفة المضاف إليه فتح أوجهًا تأويلها: أيقصد: أنَّه كفر في الدنيا مِن قبل أن يكفروا؟ أم يقصد: أنَّه كفر بعد البعث لكن من قبل تلك اللّحظات التّي يخطب فيها؟ فيكون معنى "﴿بِمَآ أَشۡرَكۡتُمُونِ مِن قَبۡلُۖ﴾ أنَّه قد كان مشركًا قبلَهم، وقيل: مِن قبل الأمر"[1]، "ويحتمل أن يكون اللفظ إقرارًا على نفسه بكفره الأقدم، فتكون ﴿بِمَآ﴾ بمعنى الذي، يريد اللّهَ تعالى أي: خطيئتي قبل خطيئتِكم؛ فلا إصراخ عندي"[2]. "ويجوز أن يكون هذا إقرارًا منه بالكفر باللّه تعالى من قبل. أي: مِن قبلهم، وذلك حين دعاه اللّه سبحانه مع الملائكة للسُّجودِ لآدمَ، فسجد الملائكة وامتنع هو، فطرده اللّه سبحانه، ولعنه وأصبحَ من الكافرين. فكأنَّه بهذا يقول لهم: إنَّكم تعلمون أنِّي على الكفر، وقد دعوتكم فأطعتموني، فلا تلوموا إلّا أنفسكم، فأنا - كما تعلمون - قد كفرت باللّه الذي أشركتموني معه في عبادتِكم له"[3]؛ فتكون جريمتهم كبيرة إذ أطاعوه وقت عِلْمِهم بأنَّه كافرٌ مطرود.

أتْباع الشّيطان أطاعوه، مع عِلمهم أنَّه مطرودٌ مِن الرّحمة

موقع جملة ﴿إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ ممّا قبلها:

المقصود بالظالمين في جملة ﴿إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ كما "قال ابن عباس: يريد المشركين... فهم الذين وضعوا العبادة والطاعة في غير موضعها"[4] الجملة إمّا أن تكون من تمام معنى ما يقوله إبليس: ﴿إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، قال صاحب

إبليس يعترف بظلمه، ليخفّف وطأة العذاب عنه، ولكن هيهات

(1) النحّاس، إعراب القرآن: 2/231.
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 3/334.
(3) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 7/169.
(4) الواحدي، التفسير البسيط: 12/461.

البحر وغيره: "الظاهر أنَّه من تمام كلام إبليس، حَكى اللّه تعالى عنه ما سيقوله في ذلك الوقت ليكون تنبيهًا للسامعين على النظر في عاقبتهم، والاستعداد لِما لا بُدّ منه، وأن يَتصوَّروا في أنفسهم ذلك المقام الذي يقول فيه الشيطان ما يقول، ليخافوا ويعلموا ما مايُخَلِّصُهم منه ويُنْجِيهم، وعلى ذلك تكون استئنافيّة تعليليّة فهي "في موقع التعليل لما تقدّم من قوله: ﴿مَّآ أَنَا۠ بِمُصۡرِخِكُمۡ﴾"[1].

فتكون قد جاءت "قطعًا لأطماع أولئك الكفّار عن الإعانة والإغاثة"[2]، فبهذا التذييل سجَّل الشيطان اعترافه على نفسه وعلى أتباعه بأنَّهم ظالمون فيما أحدثوه من الضَّلال والإضلال، وأنهم مستحِقّون بسبب ذلك العذابَ الأليمَ. وإما أن تكون من كلام الخَزَنَةِ يوم ذاك"[3]، ويأباه السياق حيث لم يسبق لهم ذكر.

وإما أنَّها "حكم من اللّه ﷻ على هؤلاء المتخاصِمين جميعًا من مستكبرين، ومستضعفين، وشياطين إنهم جميعًا ظالمون، وليس للظالمين إلّا أن يصلوا هذا العذاب الأليم، الذي هم مساقون إليه"[4] ويكون ذلك إقناطًا لهم من رحمة اللّه تعالى تابعين كانوا أو متبوعين؛ أي: إن الظالمين لهم منّا عذاب أليم؛ فلا ينفعهم في ذلك اليوم الندمُ، ولا إلقاءُ بعضهم التَّبِعة على بعض"[5].

سرُّ التّوكيد بـ ﴿إِنَّ﴾، واسميَّة الجملة في السّياق:

قوله: ﴿إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، وفيه أكَّد النّظمُ الكريم الحكمَ للظالمين بالعذاب الأليم بِمُؤَكِّدَين كبيرين هما: ﴿إِنَّ﴾ واسميَّة الجملة؛ وذلك بغرض "قطعِ أطماعهم في الإغاثة أو النصر، وتنبيهِ

العذاب الأليم محقّق للظّالمين لا محالة

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/222.
(2) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 19/89.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/430.
(4) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 7/169.
(5) مجمع البحوث، التفسير الوسيط: 5/488.

المؤمنين في كلِّ زمانٍ ومكانٍ إلى عداوة الشيطان لهم، وتحذيرهم من اتِّباع خطواته"[1]. وكذلك في تأكيد هذا الخبر وفاءٌ بالمقام؛ لأنَّه يعالج لحظات خطيرة، حيث أتى في نهاية كلام الشيطان العجيب، الذي صدمهم بوجهٍ غير الوجه الذي أَلِفوهُ منه طوال أعمارهم.

دلالة التّعبير بخبر ﴿إِنَّ﴾ جملة اسميّة:

إيثار خبر ﴿إِنَّ﴾ في قوله: ﴿إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ جملةً اسمية: ﴿لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ يدُلُّ على تأكُّد هذا الحكم، والقطع بوقوعه، حكمًا ثابتًا، وقضاء نافذًا، لا يتخلّف، ولا يتبدَّل.

معنى (ال) في لفظ ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾:

التّعريف هنا للجنس والاستغراق، ليعمّ سائر أصناف الظّلمة.

معنى اللّام في ﴿لَهُمۡ﴾، في السّياق الكريم:

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾، اللّام في ﴿لَهُمۡ﴾ هنا، إمّا أن تكون للتّخصيص، على اعتبار أنّ العذاب محصورٌ في الظّلمة؛ لأنّ الظّلم يعمّ سائر الذّنوب: صغيرها وكبيرها، وإمّا أن تكون للتّمليك استهزاء بهم، على اعتبار أنّهم أصحاب النّار.

سرُّ تقديم الخبر ﴿لَهُمۡ﴾ على المبتدأ ﴿عَذَابٌ﴾:

تقديم المسند ﴿لَهُمۡ﴾ على المسند إليه ﴿عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ في جملة التذييل: ﴿إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾، يختصّ هؤلاء بنوع عذاب لا يراه غيرهم من أهل الضلال والمعاصي، ويقرِّره في حقِّهم، ويقضي بأنّهم حقًّا ملاقوه، فالتّقديم إمّا للتّخصيص وإمّا لتعجيل ما يضرّهم.

نكتة تنكير ﴿عَذَابٌ﴾ في السّياق الكريم:

تنكير العذاب قد يكون للتّعظيم أو للنوعيّة، على معنى نوع مختلف من العذاب.

الحُكم على الظّالمين بالعذاب الأليم، حُكمٌ نافذ، لا يتخلّف

الظّلم ظلمات يوم القيامة، وكلّ ظلم آيل إلى سوء عاقبة

بقدر بشاعة الظّلم، تكون فداحة العذاب

للظّالمين في الآخرة عذابٌ خاصٌّ، يناسب جُرمهم

كلّ أنواع العذاب مرهقة، ولكنّ عذاب الظّلم أقسى وأبشع

(1) طنطاوي، التفسير الوسيط: 7/547.

بلاغة المجاز العقلّي في السّياق:

عذاب الظّالمين في الآخرة (أَلِيمٌ)، لأنّه بلغ الغاية في بابه

العذاب في الحقيقة مؤلمٌ، غير أن إيلامه حين يبلغ الغاية التي لا غاية وراءها يترقّى في الإيلام إلى درجة أن يكون هو نفسه أليمًا، وفي ذلك مجاز عقلي علاقته الفاعلية؛ وهذا ما يستحقه الظّالمون الّذين وثقوا في الشّيطان واتَّبَعوه، ودابروا طريق الرّحمن وعادَوْه، لذلك وُصف العذاب هنا بالـ ﴿أَلِيمٌ﴾.

سرُّ وصف العذاب بلفظ ﴿أَلِيمٌ﴾:

العذاب في الآخرة، ينتهي ألمُه إلى القلوب حِسِّيًّا ومعنويًّا

العذاب الأليم هو الوجيعُ المُؤلمُ[1]، ووصْف العذاب بالأليم لمناسبة المقام هنا؛ إذ المقام مقامَ عقوباتٍ تُؤلم، ويتغلغل إيلامها إلى القلب، كما عرَّف ابنُ عباسٍ ﵄ الأليمَ بأنه "الوجيع الذي يخلص ألمه وينتهي إلى القلب"[2]، حسِّيًّا كان أو معنويًّا، والعياذ بالله تعالى من حال أهل النّار.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الشّيطان وإبليس:

إبليس هو أبٌ للشّياطين جميعهم، والكلمتان تعبّران عن المخلوق نفسه

"الشَّيطانُ: فيعال من شطن، أي: بعُد. ويقال: شيطن الرَّجلُ، وتشيطن، إذا صار كالشَّيطان"[3]، والشّيطان "من شاط يَشيط وتشيّط، إذا لفحته النارُ فأثّرت فِيهِ، والنّون فِيهِ زائِدَة... وَمن قالَ إن النّون فِيهِ أصْلِيَّة فَهوَ من **شَطَنَ** فَهوَ شاطن، أي بعُد عَن الْخَيْر. وَقَرَأ الْحسن: (وَما تنزّلتْ بِهِ الشّياطون)، قالَ أبو بكر: هَذا خلاف الخطّ"[4].

إبليس من "أبْلَسَ، أي: يئس من رحمة الله، وأبلس الرجل: سكت، وأيضًا: يَئِسَ من كل خير"[5]، و"المُبْلِسُ: الكئيبُ الحزين

(1) الزجاج، معاني القرآن وإعرابه: 3/160.
(2) الفيروزابادي، تنوير المقباس من تفسير ابن عباس: 1/4.
(3) جمهرة اللغة، وابن دريد: (شطن).
(4) ابن دريد، جمهرة اللغة: (شطن)، وقراءة (الشياطون) ذكرها ابن جني في المحتسب: 2/133.
(5) ابن القوطيّة، كتاب الأفعال: (أبلس).

المُتَنَدِّم. وسُمِّي إبليسَ لأنَّه أُبلسَ من الخَيْر أي أوِيسَ، وقيل: لُعِن. والمُبلِسُ: البائِسُ"[1].

اللّوم والذّمّ والعتب:

"أنّ اللّوم هو تنبيهُ الفاعل على موقع الضّرر في فعله، وتهجين طريقته فيه، وقد يكون اللّوم على الفعل الحسن كاللَّوم على السخاء والذمّ لا يكون إلا على القبيح واللّوم أيضًا يواجَهُ به الملوم، والذمّ قد يواجه به المذموم ويكون دونه، وتقول حمدت هذا الطعام أو ذممته وهو استعارة ولا يستعار اللّوم في ذلك"[2]. و"العتاب: هو الخطاب على تضييع حقوق المودّة والصداقة في الإخلال بالزيارة وترك المعونة وما يشاكل ذلك، ولا يكون العتاب إلا ممن له موات يمتّ بها، فهو مفارق للوم مفارقة"[3].

يكون اللّوم للفعل الحسن والقبيح، والعتاب على تضييع الحقوق

(1) الخليل، العين: (بلس).
(2) العسكري، معجم الفروق اللغوية، ص: 471.
(3) العسكري، معجم الفروق اللغوية، ص: 350.

﴿وَأُدۡخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡۖ تَحِيَّتُهُمۡ فِيهَا سَلَٰمٌ ٢٣﴾

[إبراهيم: 23]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

المؤمنون في الآخرة آمنون من مشاهد الجدال الدّائر بين الشّيطان وأتْباعه

"لما ذكر ﷻ جزاءَ الأشقياءِ بما صاروا إليه من الخزي والعذاب الأليم - أتبع ذلك جزاءَ السعداءِ بما أعدَّ لهم من النعيم المقيم؛ فقال جلّ ثناؤُه: ﴿وَأُدۡخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ﴾"[1]، "فكما قضتْ سُنَّةُ الله الشرعيةُ أن يعاقَب المتمرِّد على أمر ربه فقد قضت السنة الشرعية أن يُكافأ المحسن على إحسانه بفضلٍ وكرمٍ من الله تعالى وكان من تمام التوجيه أن يستكمل عرض مشهد الجزاء ببيان عاقبة المحسن والمسيء؛ لئلا يبقى لأحدٍ على الله تعالى حجّة"[2]، و"لم يدخل المؤمنون يومئذ في المنازعة والمجادلة تنزيهًا لهم عن الخوض في تلك الغمرة، مع التنبيه على أنهم حينئذ في سلامة ودعة"[3].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿بِإِذۡنِ﴾: الإذْنُ: مَصْدَرُ أذِنَ، يَأْذَنُ، وأصْلُه: رَفْعُ المَنْعِ، وإطلاقُ الفِعْلِ، والإباحَةُ، يُقالُ: أذِنْتُ لَهُ في شَيْءٍ، أيْ: أطْلَقْتُ له فِعْلَهُ[4]. ويُطْلَقُ الإذْنُ على الإعْلام، ومِنه الأذان: وهو الإعْلامُ بدخولِ الوقتِ[5]. وتَقولُ العَرَبُ: قَدْ أذِنْتُ بِهَذا الأمْرِ، أيْ: عَلِمْتُ. وآذَنَني

(1) مجمع البحوث، التفسير الوسيط: 5/488.
(2) فتح الله، أساليب التربية والدعوة والتوجيه من خلال سورة إبراهيم، ص: 65.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/222.
(4) المناوي، التوقيف على أمهات التعاريف، ص: 44، والزبيدي، تاج العروس: (أذن).
(5) ابن منظور، لسان العرب: (أذن).

فُلانٌ أعْلَمَني. وَفَعَلَهُ بإذْني، أيْ: بعِلْمي، وَيَجوزُ بأمْري، وَهوَ قَريبٌ مِنْ ذَلِكَ[1]. والإسْتِئْذانُ: طَلَبُ الإذْنِ. والمقصود بالإذْنِ في الآية: الأمْرُ، والمُرادُ بِهِ: أمْرُ العِنايَةِ بالمُؤمِنين[2].

2) ﴿تَحِيَّتُهُمْ﴾: أصْلُ التَّحِيَّةِ: الدُّعاءُ بالحَياةِ، يُقال: حَيّاهُ، يُحَيِّيه، تَحِيَّةً، أيْ: دَعا له بالحَياةِ. والتَّحِيَّةُ: قَوْلُ: حَيّاكَ اللّهُ، أيْ: أبْقاكَ وأدامَكَ، والرَّجُلُ: مُحَيِّي، والمَرْأةُ: مُحَيِّيَةٌ[3]. وقيل أصْلُها: اسْتِقْبالُ المُحَيّا وهو الوَجْهُ[4]. وتأْتي التَّحِيَّةُ بمعنى المُلْكِ، وحَيّاكَ اللّهُ، أيْ: مَلَّكَكَ. والتَّحِيّاتُ لِلّه، أي: البَقاءُ والمُلْكُ لِلّهِ. والتَّحِيَّةُ أيضاً: الدُّنوُّ[5]. وتُطْلَق على كُلِّ قَوْلٍ أو فِعْلٍ يُؤْتَى بِهِ عند اللِّقاءِ بِقَصْدِ التَّكْريم. والمراد بالتَّحية في الآيةِ: الكَلامُ الَّذي يُخاطَبُ بِهِ عِنْدَ ابْتِداءِ المُلاقاةِ إعْرابًا عَنِ السُّرورِ باللِّقاءِ مِنْ دُعاءٍ وَنَحْوِهِ.

3) ﴿سَلَمٌ﴾: أصْلُ السَّلامِ: السَّلامَةُ. فاسْتُعْمِلَ عِنْدَ اللِّقاءِ إيذانًا بِتَأْمينِ المَرْءِ مُلاقِيَهُ وَأنَّهُ لا يُضْمِرُ لَهُ سوءًا، ثُمَّ شاعَ فَصارَ قَوْلًا عِنْدَ اللِّقاءِ لِلْإكْرام. والسَّلامَةُ: أنْ يَسْلَمَ الإنسانُ مِنَ العاهَةِ والأذَى، واللّه جَلَّ ثَناؤُهُ هو السَّلامُ؛ لِسَلامَتِهِ مِمّا يَلْحَقُ المَخْلوقِينَ مِنَ العَيْبِ والنَّقْصِ والفَناءِ[6]. وَمِنْهُ قِيلَ لِلْجَنَّةِ: دار السَّلامِ؛ لأنها دارُ السَّلامةِ مِنَ الآفاتِ[7].

والمُرادُ بالسَّلام في الآية: اسْم للْكَلام الَّذي يُفاتِحُ بِهِ الزّائِرُ والرّاحِلُ فِيهِ ثَناءٌ أوْ دُعاءٌ.

المَعْنى الإجْمالِيُّ:

أي: "أُدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناتٍ أُعدَّت لهم، تجرى من تحت أشجارها وقصورها الأنهار، ماكثين فيها أبدًا، لا يَخرجون منها، ولا يُخْرجهم منها أحدٌ؛ فنعيمهم دائم، وسعادتهم لا نهاية لها. وكلُّ ذلك بإذْنِ رَبِّهِمْ وأمره وفضله لا بِعملهم فحسب، ومصداق ذلك قوله ﷺ: "لَنْ يُدْخِلَ أحدًا عملُهُ الجنَّةَ، قالوا ولا أنت يا رسول

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أذن).
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/222.
(3) الراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (حيا، حيي).
(4) ابن منظور، لسان العرب: (حيا).
(5) ابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (حيا).
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (سلم).
(7) ابن منظور، لسان العرب: (سلم).

مآل المؤمنين يوم القيامة الخلود في الجنّة، وتحيّات السّلام

اللّه؟ قال: ولا أنا إلا أن يتغمدني اللّه بفضل ورحمة"[1]. يُحَيِّي بعضُهم بعضًا بالسلام، والسلامُ هو تحيةُ اللّه تعالى وملائكته - الأبرار -، اختارها اللّه تعالى لعباده المؤمنين في الدُّنيا وفي الجنة دار السَّلام"[2].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالة الواو في ﴿وَأُدۡخِلَ﴾:

حروف المعاني تتعانق دلالاتها، للإبانة عن المراد في السّياق

الواو إمّا أن تكون استئنافية، وإمّا أن تكون عاطفةً، وإمّا أن تكون للحال، وكلُّ اعتبار يضيف معنى، والعجيب أنَّ المعاني كلَّها تتعانق فقد "جاء هذا الوعد الحسن ترغيبًا بعد بيان مآل الأشقياء وما صاروا إليه من الخزي والنَّكال"[3]، وجملة ﴿وَأُدۡخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ مستأنِفَةٌ خبرًا جديدًا من نوعٍ جديد، يَخصُّ الفِئة المؤمنة الصالحة الناجية، يقول ابن جِنّي: "قوله: ﴿وَأُدۡخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ على فِعل المتكلم؛ قَطْعٌ للكلام واستئنافٌ، فقال اللّه تعالى: ﴿وَأُدۡخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، أي: أنا أُدخلهم جناتٍ تجري من تحتها الأنهار بإذْن ربِّهم، أي: بإذني"[4].

أو أنَّ قوله تعالى: ﴿وَأُدۡخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ "عطفٌ على جملة ﴿وَبَرَزُواْ لِلَّهِ جَمِيعٗا﴾، وهو انتقال لوصف حال المؤمنين يومئذ بمناسبة ذكر حال المشركين؛ لأنَّ حال المؤمنين يومئذ مِن جملة الأحوال المقصودة بالوصف إظهارًا لتفاوُت الأحوال"[5].

"ويجوز جعل الواو للحال، أي: برزوا، وقال الضعفاء وقال الكبراء وقال الشيطان - إلخ - وقد أدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات، فيكون إشارة إلى أنَّهم فازوا بنزل الكرامة من أول وهلة"[6].

(1) الألباني، مختصر صحِيحُ الإمامِ البُخارِي برقم: 2474.
(2) مجمع البحوث، التفسير الوسيط: 5/488.
(3) فتح الله، أساليب التربية والدعوة والتوجيه من خلال سورة إبراهيم، ص: 65.
(4) الطيبي، فتوح الغيب: 8/589.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 13/222.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 13/222.

دلالة بناء الفعل الماضي للمفعول، ﴿وَأُدۡخِلَ﴾:

كلُّ مستقبل بالنّسبة لله تعالى واقع لا ريب فيه

آثر النّظمُ الكريم التّعبيرَ بصيغة الماضي، في قوله تعالى: ﴿وَأُدۡخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ "لتحقيق الوقوع، وتعجيل البشارة"[1]، فاللّه تعالى مالك الزّمان والمكان والمكين؛ فما أخبرَ أنَّه واقع في المستقبل، كأنَّه وقع وتمَّ وتحقَّق في الماضي، قال أبو السّعود: "والمُدۡخِلون هم الملائكةُ - عليهم السلام"[2] وبُنِيَ الفعل للمفعول لتعيّن الفاعل وهم الملائكة بأمر اللّه. وفي البناء للمفعول إشغالٌ بالفعل عن فاعله.

سرُّ ورود نائب الفاعل ﴿ٱلَّذِينَ﴾ اسمًا موصولًا:

من أسباب دخول الجنّات، ضَمُّ الإيمان إلى عمل الصّالحات

إيثار النظم الكريم تعريف نائب الفاعل بالاسم الموصول في قوله تعالى: ﴿وَأُدۡخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ دون الاسم (المؤمنون) يُتيح جملة من الدلالات الشريفة بالنسبة لهؤلاء المؤمنين، من تلك الدلالات الإيماء إلى وجه بناء الكلام؛ فالمترقَّب بالنسبة لمن آمن وعمل صالحًا سيكون من جنس الجنات التي تجري من تحتها الأنهار، كذلك أتاح الاسم الموصول ذكر أسباب فوزهم بذلك الأجر العظيم، والسّبب الجالب فضل اللّه هو إيمانهم، وعملهم الصّالحات. وفي التّعبير بالاسم الموصول وصلته مدحٌ وثناء على المؤمنين.

دلالة العطف بالواو في ﴿وَعَمِلُواْ﴾:

دليل كمال الإيمان، ترجمته إلى عمل الصّالحات

يَدلُّ عطفُ عمل الصّالحات على الإيمان - في سبب استحقاق هؤلاء تلك الجنّات الكريمات - على التّنويه بقيادة الإيمان أصحابَه إلى عمل الصّالحات، التي يَعْمُرُ بها الكون، وترتقي بها أحوال العباد والبلاد، كذلك يَدلُّ عطفُ جملة ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ على جملة ﴿ءَامَنُواْ﴾ على أنَّ من كمال الإيمان العمل الصالح.

(1) طنطاوي، التفسير الوسيط: 7/548.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/43.

سرُّ تعريف المفعول به ﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ بـ (ال):

العمل الصّالح ما أقرَّه الدِّين الحنيف، من كلّ خلق رضيّ منيف

تعريف ﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ باللّام تعريفُ عهدٍ؛ يقول بأنَّها ﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ المعلومة المعهودة لدى المؤمنين. وهي التي شرحها الدين الحنيف، ولخَّصها الذكر الحكيم، وفصَّلتْها السنة الشريفة، وأقرَّتْها الطِّباع القويمة والنفوس المستقيمة، وليس من ﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ ما تستحسنها النفوس الضالة، ولا كلُّ التي تُقرُّها القوانين الوضعية الضّارّة؛ فتلك لا ترقى في مجموعها إلى الإحاطة بكل حيثيات الخير التي راعاها الدين القويم في ﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ المطلوبة، وقد يكون التّعريف بها تعريف جنس لتعمّ كلّ الأعمال الصّالحة.

الغرض من تنكير لفظ ﴿جَنَّٰتٍ﴾:

جنـاتُ الخُلد مِـن الفخامة والعـظـمـةِ، بحيث لا يحيط بها التّصوّر

تنكيرُ ﴿جَنَّٰتٍ﴾ في قول الله تعالى: ﴿وَأُدۡخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ﴾ يُضفي عليها الفخامة والعظمة، وكذلك يوحي بأنَّ أحدًا من المؤمنين ولا غيرهم، يمكنه أن يصل بخياله مهما اجتهد في التّخيُّل إلى ما فيها من عظمة وفخامة ومتاع، وفي هذا الصَّدَد يقول الحبيب ﷺ: "قالَ اللّهُ ﷻ: أعْدَدْتُ لِعِبادِيَ الصّالِحِينَ ما لا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ، مِصْداقُ ذَلِكَ في كِتابِ اللّهِ: ﴿فَلَا تَعۡلَمُ نَفۡسٞ مَّآ أُخۡفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعۡيُنٖ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٧﴾ [السّجدة: 17]"[1].

سرُّ التّعبير بجملة ﴿تَجۡرِي﴾:

جنـان الخلد متجدِّدٌ نعيمها أبدًا

وصف الـ ﴿جَنَّٰتٍ﴾ بالجملة الفعليّة ﴿تَجۡرِي﴾ يُترجم تَجَدُّدَها الدّائم، ويكشف عن عدم رتابة مُتَعها المتعدّدة من صنوف نعيمها المذكورة في سورة الرحمن، من مأكل ومشرب، ومن أزواج ومتَّكأ، وغير ذلك، وقد ورد كثير من ذلك مفصَّلًا في الحديث النبوي الشريف، في أبواب ذكر الجنة ونعيمها.

(1) مسلم، صحيح مسلم، الحديث رقم: (2824)، كتاب الجنّةِ وصِفة نعِيمِها وأهلِها: 4/2174.

معنى ﴿مِن﴾ في قوله ﴿مِن تَحۡتِهَا﴾:

﴿مِن﴾ هنا ابتدائيّة، فالأنهار تبدأ من تحتهم.

متع الجنّة في جمال مناظرها، وجريان أنهارها

سرّ تقديم شبه الجملة ﴿مِن تَحۡتِهَا﴾:

الجارّ والمجرور ﴿مِن تَحۡتِهَا﴾ في قوله تعالى: ﴿وَأُدۡخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ "متعلّق بـ ﴿تَجۡرِي﴾، وهو على حذف مضافٍ، أي: تحتَ أشجارها أو بيوتها"[1]، و"من تحتِ ما علا منها"[2]، وتقديم هذا القيد ﴿مِن تَحۡتِهَا﴾ على المسند إليه ﴿ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ إشارة إلى أثر تلك الخصيصة في تتمَّة جمال الجنة؛ حيث إنّ لارتفاع نسبة العذوبة وتجدّد المياه ووفرتها أثرًا مباشرًا في غَناء الجنات، ووفرة جمالها، وتنوّع ثمارها، وكثرة عطائها.

جنان الخلد وفيرة الخيرات، تامّة أسباب الجمال

سرُّ التّعبير بلفظ ﴿ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ معرفا بـ (ال):

جاء المسند إليه ﴿ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ جمعًا، وذلك قائل بكثرتها، وتَنوُّع ما يجري فيها – من ماء غير آسن، ومن لبنٍ لم يتغيّر طعمه، ومن عسل مصفًّى – كما جاء بيانه في قوله ﷻ: ﴿مَّثَلُ ٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلۡمُتَّقُونَۖ فِيهَآ أَنۡهَٰرٞ مِّن مَّآءٍ غَيۡرِ ءَاسِنٖ وَأَنۡهَٰرٞ مِّن لَّبَنٖ لَّمۡ يَتَغَيَّرۡ طَعۡمُهُۥ وَأَنۡهَٰرٞ مِّنۡ خَمۡرٖ لَّذَّةٖ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنۡهَٰرٞ مِّنۡ عَسَلٖ مُّصَفّٗىۖ وَلَهُمۡ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغۡفِرَةٞ مِّن رَّبِّهِمۡۖ﴾ [محمد ﷺ: 15] وتعريف المسند إليه ﴿ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ بـ (ال) يقرِّر أنها وفيرة خصائص النهريّة من عذوبة وخضرة وجمال، وأسماكٍ، وغيرها مما تحويها ﴿ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ الكاملة في أوصافها، فالتّعريف للاستغراق.

أنهار الجنّة متنوّعة الجريان، وفيرة الخيرات

سرُّ التّعبير بالحال، في ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾:

تقييد إدخال ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ بالحال ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ يتمِّم فرحتهم، ويكمِّل

إخبار أهل الجنّة بالخلود، يُسَكِّن النّفوس، ويُتَمِّم الفرحة

(1) صافي، الجدول في إعراب القرآن: 13/183.
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 3/334.

سعادتهم؛ إذ دخول الجنة ثم الإخراج منها ينغِّص على الداخل، أما ضمان عدم خروجه منها فيطمِّئنه، ويسكِّن نفسه، لذلك كان "(الخلود) في هذه الآية على بابه في الدوام"[1] الذي لا ينقطع، ولا يحول، ولا يزول.

معنى الباء في قوله ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾:

لا حركة ولا سكون في الكون، إلّا بإذن الله

الباء هنا للملابسة والملاصقة، ويمكن حملها على السّببيّة، على معنى: بسبب إذنٍ من ربّهم.

سرُّ التّعبير بالقيد ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾:

المؤمنون بإذن ربهم، يُدخَلون الجنة، ويُحَيَّوْن فيها بالسّلام

في القيد ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ إشارة إلى العناية والاهتمام، فهو إذن أخصُّ من أمر القضاء العامّ[2]، والإذْن هاهنا كأنهُّ الرحمة؛ أي: خالدين فيها برحمة ربهم[3]، أو بأمره سبحانه، أو بتوفيقه وهدايته جلَّ شأنه[4]، أو بالقضاء والإمضاء[5]، وهذا القيد بالجارّ والمجرور والمضاف إليه: ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ "متعلّق بـ ﴿وَأُدْخِلَ﴾، أي: أدخلتهم الملائكة الجنة بإذْن الله تعالى وأمرِه. "فالإيمان بالله تعالى، والعمل الصالح طريق إلى جنّة الله ورضوانه، ولكنهما لا يوصِّلان إليها إلّا بإذن الله تعالى، وعونه، وتوفيقه، إنَّهما أشبه بالطّرقات التي يستأذن بها على ربّ الدار لدخول داره، وإنه لا يأذن إلا لمن يشاء ويرضى"[6].

سرّ إضافة الضّمير، إلى الربّ القدير:

إدخال المؤمن الجنّةَ بكرم الله تعالى ورحمته، لا بسعيه وعمله

"في التعرُّض لوصفِ الربوبيّةِ مع الإضافةِ إلى ضميرِهم إظهارُ مزيدٍ مِن اللطفِ بهم"[7]، كذلك فيه "إشارة إلى أنَّ هذا الرضوان،

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 3/334.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/222.
(3) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 6/386.
(4) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/200.
(5) ابن عطية، المحرر الوجيز: 3/334.
(6) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 7/170.
(7) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/43.

وذلك النعيم الذي صار إليه ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ إنما هو من فضل الله تعالى عليهم ومشيئته فيهم، وليس ذلك لِما كان منهم مِن إيمان وعمل صالح وحسب؛ إذ إنَّ هذا النعيم لا يَعدِله عملٌ ولا يؤدّي حقَّه إنسان."[1] و"أعاد ذكر (الربّ) ليضيفه إليهم؛ فتَقْوَى الملابسة باللفظ؛ فيكون أحنى عليهم، وأذهبَ في الإكرام والتقريب منه تعالى ومثلُه قوله تعالى: ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَىۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ۝٥٠﴾ [طه: 50]، وقال: ﴿إِنَّ وَلِـِّۧىَ ٱللَّهُ﴾ [الأعراف: 96]، هذا كله تقرّب منه وانتساب"[2].

دلالة جملة ﴿تَحِيَّتُهُمۡ فِيهَا سَلَٰمٌ﴾:

موقع جملة ﴿تَحِيَّتُهُمۡ فِيهَا سَلَٰمٌ﴾ "النصبُ على الحال، إمّا من ﴿ٱلَّذِينَ﴾، أو من الضّمير المستكِنِّ في ﴿خَٰلِدِينَ﴾. وقد جوِّز أن تكون في موضع الصفة لـ ﴿جَنَّٰتِ﴾ كـ ﴿تَجۡرِى﴾"[3]، و"يحتمل السلامُ الثناءَ، أي: يثنون على ربهم، كقوله: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذۡهَبَ عَنَّا ٱلۡحَزَنَۖ﴾ [فاطر: 34] الآية... وقال بعضهم: يُسَلِّم بعضُهم على بعض، ويُحَيِّي بعضُهم بعضًا بالسلام، وقال بعضهم: السلام هو اسمُ كلِّ خيرٍ ويُمْنٍ وبركة؛ كما قال تعالى: ﴿لَّا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوًا إِلَّا سَلَٰمٗاۖ﴾ [مريم: 62] الآية، والله أعلم"[4]، و﴿تَحِيَّتُهُمۡ فِيهَا﴾ أي: "تحيّتهم في الجنة سلامٌ لهم مِن خالقهم ﷻ ومِن الملائكة، ومِن بعضهم لبعض"[5].

أهل الجنّة يتلقّون التّحايا من الله وملائكته والمؤمنين

نكتة تعريف ﴿تَحِيَّتُهُمۡ﴾ بالإضافة:

التعريف بالإضافة في ﴿تَحِيَّتُهُمۡ﴾ يوحي بأنها تحيّةٌ خاصّة بهم، معروفة لهم، لا ينالها غيرهم من بقية أهل المشهد الذين ﴿وَبَرَزُواْ

لأهل الجنّة تحيّة مخصوصة، لا يهنأ بها غيرهم

(1) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 7/169.
(2) الطيبي، فتوح الغيب: 8/589.
(3) الهمذاني، الكتاب الفريد في إعراب القرآن المجيد: 4/27.
(4) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 6/386.
(5) طنطاوي، التفسير الوسيط: 7/548.

﴿لِلَّهِ جَمِيعًا﴾، وفي قوله تعالى: ﴿تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ﴾ "وجهان: أحدهما: أنَّ تحيّة أهل الجنة إذا تلاقَوْا فيها السلامةُ... الثاني: أنَّ التحيّة ها هنا المُلك، ومعناه أنَّ ملكهم فيها دائم السلام، مأخوذ مِن قولهم في التشهُّد: التحيّاتُ لله، أي المُلك لله"[1] و"جائز أن يكون الضمير للمفعول أي: تُحَيِّيهم الملائكة، وجائز أن يكون الضمير للفاعل، أي يُحَيِّي بعضُهم بعضًا. و﴿تَحِيَّتُهُمْ﴾ رفع بالابتداء، و﴿سَلَٰمٌ﴾ ابتداء ثان، وخبره محذوف تقديره (عليكم)، والجملة خبرُ الأول، والجميع في موضع الحال من المضمرين في ﴿خَٰلِدِينَ﴾ أو يكون صفة لـ ﴿جَنَّٰتِ﴾"[2] و"منهم مَن يحيِّيهم ربُّهم وهم أهل الصفوة والقُرْبة، ومنهم مَن تُحيِّيهم الملائكة وهم أهل الطاعات والدرجات، وما أطيبَ سلامَ المحبوب على مُحبِّه، وما ألذَّه على قلبه:

أشاروا بتسليمٍ فَجُدْنا بأنفسٍ *** تسيلُ مِنَ الآماقِ والاسمُ أدمع"[3]

سرّ تقديم ﴿فِيهَا﴾، على خبر المبتدأ:

في جنة الخُلد، سلامٌ مخصوص لأهلها المنعّمين

تقديم القيد بالجارّ والمجرور ﴿فِيهَا﴾ على المسند ﴿سَلَٰمٌ﴾ في قوله تعالى: ﴿تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ﴾ يُنَوِّه بما تشتمل عليه تلك الجنة مِن ﴿سَلَٰمٌ﴾ مُتَفرِّد النوع والكَمّ، وأنَّ هذا الخير لا يوجد إلا فيها، ففي هذا التقديم قَصْرٌ لهذا الـ ﴿سَلَٰمٌ﴾ العظيم على جنة الخُلد التي يُدخَلُها ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾.

غرض تنكير المسند في ﴿سَلَٰمٌ﴾:

سلام الجنّة متفرِّدٌ في السّلامة والأمن والنّعيم

تنكير المسند ﴿سَلَٰمٌ﴾ في قوله تعالى: ﴿تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ﴾ يفيد تَفَرُّدَه في باب السلامة والأمن والأمان، ويقرِّر أنَّه سلام تامٌّ شامل جميع نواحي الجنة، وجميع مناحي الحيوان فيها، والسّلام: "مشتقٌّ

(1) الماوردي، النكت والعيون: 3/131.
(2) ابن عطية، المحرّر الوجيز: 3/334.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/218.

مِن السلامة. والأظهرُ أنَّ المراد أنَّهم سَلِموا من آفات الدنيا وحَسراتها، أو فنون آلامها وأسقامها، وأنواع غمومها وهمومها، وما أصدق ما قالوا، فإنَّ السلامة مِن محن عالَم الأجسام الكائنة الفاسدة مِن أعظم النِّعم، سيّما إذا حصل بعد الخلاص منها الفوزُ بالبهجة الرّوحانية والسعادة الملَكِيّة"[1].

والسّلامُ يأتِي فِي استعمال التّحيّة مُنكّرًا مرفوعًا ومنصوبًا، ومُعرّفًا بِاللّام مرفوعًا لا غير؛ فأمّا تنكِيرُهُ مع الرّفعِ، فهو على اعتِبارِهِ اسمًا بِمعنى الأمانِ، وأمّا تعرِيفُهُ مع الرّفعِ فلِدُخولِ لام تعرِيفِ الجِنسِ عليهِ، وكلِمةُ (على) فِي الحالتينِ لِلدّلالةِ على تمكُّنِ التّلبُّسِ بِالأمانِ، وأمّا إن نصبوا مع التّنكِيرِ فعلى اعتِبارِهِ كمصدرِ (سَلّم)، فهو مفعول مُطلق أتى بدلًا مِن فِعلِهِ. تقدِيرُهُ: سلّمتُ سلامًا[2].

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 19/89.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 7/257 - 258.

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾﴾ [إبراهيم: 24]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

أمثال القرآن توضِّحُ المعاني، وتُقَرِّرُ منها السّابق واللّاحق

"لمّا شرح الله تعالى أحوال الأشقياء وأحوال السعداء ذَكَر مثالًا يُبَيِّن الحال في حكم هذين القسمين، وهو هذا المثل"[1]؛ وساقه بإثْر ذكر أحوالهما "زيادة في التوضيح والتقرير"[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ضَرَبَ﴾: أصلُ الضّربِ: إيقاعُ شيء على شيء وإصابتُهُ بِهِ، يُقالُ: ضربهُ بِالعصا، يضرِبُهُ، ضرباً، أي: أوقعها عليه[3]. والضّربُ الصِّنف من الأشياء؛ يُقال: هذا من ضربِ ذاك، أي: من نحوه، وجمعُه ضروب[4]، وضربُ الأمثالِ: اعتِبارُ الشّيءِ بِالشّيءِ وتمثِيلُه بِهِ، يُقال: ضرب الله مثلاً، أي: وصف وبيّن، قِيل مأخوذ: من ضربِ الدِّرهم صوغُه لإيقاعِ المطارِق، سُمِّي بِهِ لتأثِيرِه فِي النُّفوسِ، وقِيل: إنّه مأخوذ من الضّرِيبِ أي المثِيلِ. تقولُ: هو ضرِيبُه، وهُما مِن ضرِيب واحِد؛ لأنّه يجعلُ الأوّل مِثل الثّاني[5]. والمقصودُ بضربِ المثلِ في الآية: نظمُ تركِيبِهِ الدّالِّ على تشبِيهِ الحالةِ[6].

2) ﴿كَلِمَةً﴾: أصلُ الكلامِ: النُّطقُ المفهومُ، يُقالُ: كلّم يُكلِّمُ تكلِيمًا وكلامًا، أي: نطق نُطقًا مفهومًا. وقِيلُ: أصلُ الكلامِ مِن الكلم وهو الجرحُ والشقُّ؛ لِأنّهُ يشُقُّ الأسماع بِوُصولِهِ إليها، وقِيل: لِأنّهُ يشُقُّ

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 19/89.
(2) طنطاوي، التفسير الوسيط: 7/549.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ضرب).
(4) الأزهري، تهذيب اللغة: (ضرب).
(5) الزبيدي، تاج العروس: (ضرب).
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/223.

المعاني[1]. والكلِمةُ تقعُ على الحرفِ الواحِدِ مِن حُروفِ الهجاءِ، وتقعُ على لفظة مُؤلّفة مِن جماعةِ حُروف ذاتِ معنىً، وتقعُ على قصيدة بكمالها وخُطبة بأسرها[2]، والمُتكلِّمُ: النّاطِقُ، والكلِمُ أيضًا: القولُ واللّفظُ، وقِيل: الكلِمُ لا يقِلُّ عن ثلاثِ كلِمات، والكلامُ يشملُ القليل والكثِير[3]. والمرادُ بالكلِمةِ الطّيِّبةِ في الآية: كلِمةُ الإسلامِ، وهي: شهادةُ أن لا إله إلّا اللّه وأنّ مُحمّدًا رسولُ اللّه[4].

3) ﴿طَيِّبَةً﴾: أصلُ (طيب): يَدُلُّ على خِلافِ الخَبِيثِ. مِنْ ذلكَ الطَّيِّبُ: ضِدُ الخَبِيثِ[5]، وهو ما تستلذُّه الحواسّ، وما تستلذُّه النّفس[6]، يُقالُ: طابَ الشَّيءُ، يَطِيبُ، طِيبًا وطابًا، أي: لَذَّ أو زَكا، وطابَتِ الأرْضُ طِيباً: إذا أخْصَبَت[7]. والطَّيِّبُ: الأفضَلُ والنّافِعُ مِن كلِّ شَيْءٍ[8]. ويأتي بِمعنى الحلالِ[9]. والمُرادُ بالطَّيِّبَةِ في الآيةِ: النّافِعَةُ.

4) ﴿كَشَجَرَةٍ﴾: أصلُ (شجر): يدلُّ على تداخُلِ الشّيءِ بعضِهِ في بعض، وعلى عُلوّ في شيء وارتِفاع. فالشّجرُ معروف، الواحِدةُ شجرة، وهِي لا تخلو مِن ارتِفاع وتداخُلِ أغصان. وواد شجِر: كثِيرُ الشّجرِ[10]. والشّجرُ: أصناف، فأمّا جِلُّ الشّجرِ فعِظامُه الّتي تبقى على الشِّتاءِ، وأمّا دِقُّ الشجرِ فصِنفانِ: أحدُهُما تبقى لهُ أرومة في الأرضِ في الشِّتاءِ، وينبُتُ في الرّبيعِ، ومِنه ما ينبُتُ مِن الحِبّةِ كما تنبُتُ البُقولُ، وفرقُ ما بين دِقِّ الشّجرِ والبقلِ، أنّ الشّجر تبقى لهُ أرومة على الشِّتاءِ، ولا يبقى لِلبقلِ شيء[11]. ويُقال: شجر بين القومِ الأمرُ، إذا اختلف أوِ اختلفوا وتشاجروا فِيهِ، وسُمِّيت مُشاجرةً لِتداخُلِ كلامِهِم بعضِهِ في بعض[12]. والمقصودُ بالشّجرةِ في الآية: الأصلُ الّذي تخرُجُ فِيهِ الأغصانُ.

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (كلم)، وابن الجوزي، نزهة الأعين النواظر، ص: 523.
(2) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب، والزّبيدي، تاج العروس: (كلم)، والنّووي، تهذيب الأسماء: 4/118.
(3) ابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (كلم).
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/224.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (طيب).
(6) الراغب، المفردات: (طيب).
(7) ابن سيده، المحكم، وابن منظور، لسان العرب: (طيب).
(8) الزبيدي، تاج العروس: (طيب).
(9) ابن عباد، المحيط في اللغة: (طيب).
(10) ابن فارس، مقاييس اللغة: (شجر).
(11) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (شجر).
(12) ابن دريد، جمهرة اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، وابن سيده، المحكم: (شجر).

5) ﴿أَصۡلُهَا﴾: أصلُ الشّيءِ: أساسُهُ، وكُلُّ ما يستنِدُ إليه غيرُهُ، ويبتنِي عليه، ويتفرّعُ عنه فهو أصل، وخِلافُه: الفرعُ، فالأبُ أصل لِلولدِ، وأصلُ الشّجرةِ: جِذرُها[1]. وجمعُهُ: أُصول.

6) ﴿ثَابِتٌ﴾: أصلُ (ثبت): كلِمة واحِدة، تدلُّ على دوامِ الشّيءِ، يُقالُ: ثبت الشّيءُ، يثبتُ، ثباتًا وثُبوتًا: إذا دام واستمرّ، فهو ثابت[2]. ورجُل ثبت: أي حُجّة. والثّابِتُ: اللّازِمُ الواقِفُ[3]. والثّابتُ أيضًا: الصّحيحُ، يُقالُ: ثبت الأمرُ، أي: صحّ[4]، والمُرادُ بالثّابت في الآية: الشّيء الدّائم المُستقِرُّ.

7) ﴿وَفَرۡعُهَا﴾: أصلُ الفرعِ: أعلى كُلِّ شيءٍ، يُقالُ: فرع الرّجُلُ في الجبلِ، أي: صعِد وعلا[5]. والفرعةُ: رأسُ الجبلِ وأعلاهُ[6]. والفارِعُ: المُرتفعُ العالِي[7]. والجمعُ: فُروع. وفُروعُ الشّجرةِ: أغصانُها، وفُروعُ الرّجُلِ: أولادُهُ، وفرع المرأة: شعرها[8]. والمقصودُ بالفرعِ في الآيةِ: ما امتدّ مِن الشّيءِ وعلا. والمُرادُ بفرعِ الشّجرةِ: غُصنُها[9].

8) ﴿ٱلسَّمَآءِ﴾: أصلُ (سمو): أصْلٌ يَدُلُّ على العُلوِّ. يُقالُ سَمَوْتُ، إذا عَلَوْتَ. وَسَما بَصَرُهُ: عَلا. وَسَما لِي شَخْصٌ: ارْتَفَعَ حَتَّى اسْتَثْبَتُّهُ[10]. والسَّماءُ: كلّ ما ارتفعَ وعَلا قد سَما يَسمو، وكلُّ سَقْف فَهوَ سَماء، وَمن هَذا قيل للسَّحابِ: السَّماءُ؛ لِأنَّها عاليَة[11]. والسَّماء عِنْد العَرَبِ مُؤَنَّثة؛ لأنَّها جمعُ سَماءَة، وَإذا ذَكَّرَت العَرَبُ السَّماءَ عَنَوْا بها السَّقْف[12]، ويُسَمَّى العشبُ أيضاً سَماءً؛ لأنَّه يَكونُ عَنِ السَّماء الَّذِي هوَ المَطَرُ، كَما سَمَّوا النَّباتَ نَدًى؛ لأنه

(1) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة: (أصل)، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/224.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ثبت).
(3) ابن عباد، المحيط في اللغة: (ثبت).
(4) الأزهري، تهذيب اللغة، والزبيدي، تاج العروس: (ثبت).
(5) الخليل، العين، وابن دريد، جمهرة اللغة، وابن عباد، المحيط في اللغة: (فرع).
(6) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن سيده، المحكم: (فرع).
(7) الخليل، العين، وابن منظور، لسان العرب: (فرع).
(8) الخليل، العين، وابن دريد، جمهرة اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (فرع).
(9) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/224.
(10) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سمو).
(11) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (سمو).
(12) الأزهري، تهذيب اللغة: (سمو).

يَكونُ عَنِ النَّدى الَّذِي هوَ المَطَرُ[1]. وحقيقةُ السَّماءِ في الآية مُسْتَعْمَلَةٌ فِي الارْتِفاعِ؛ وَذلكَ مِمّا يَزِيدُ الشَّجَرَةَ بَهْجَةً وَحُسْنَ مَنْظَرٍ[2].

المَعْنى الإجْمالِيُّ:

الكلمة الطيّبة تثمر لصاحبها وللناس الخير والمبرّة والسّلام

"ألم تر - أيها المخاطب - كيف اختار الله تعالى مثلاً، ووضعه في موضعه اللائق به، والمناسب له، وهذا المثل لِكلمتي الإيمان والكفر، حيث شبَّه سبحانه الكلمة الطيّبة وهي كلمة الإسلام، بالشجرة الطيّبة، أي النافعة في جميع أحوالها، وهي النخلة، ثم وصف سبحانه هذه الشجرة بصفات حسنة فقال: أصْلُها ثابِتٌ ضارب بعروقه في باطن الأرض فصارت بذلك راسخة الأركان ثابتة البنيان، أعلاها... في جهة السماء من حيث العلوُّ والارتفاع، وهذا مما يزيد الشجرة جمالًا وحُسْنَ منظر"[3].

الإيضاحُ اللُّغَوِيُّ والبَلاغِيُّ:

دلالة الاستئناف في جملة ﴿أَلَمْ تَرَ﴾:

كلّ ما خلق الله في وجوده، يستحقّ أن ينبّه عن عجيب صنعه

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا﴾، "استئنافٌ ابتدائيٌّ اقتضتْه مناسبةُ ما حُكِي عن أحوال أهل الضّلالة، وأحوال أهل الهداية، ابتداءً من قوله تعالى: ﴿وَبَرَزُواْ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ إلى قوله تعالى: ﴿تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ﴾"[4]، قال صاحب تأويلات أهل السُّنَّة: "﴿أَلَمْ تَرَ﴾ حرفُ تنبيهٍ عن عجيبٍ كان بَلَغَهُ فغفل عنه، أو تنبيهٍ عن عجيبٍ لَمْ يَبلُغه"[5].

الغرض من الاستفهام في ﴿أَلَمْ تَرَ﴾:

مَثَلُ الكلمة الطيبة وأثرها في حياة الأُمّة

المراد بالاستفهام في قول الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً﴾ "الإنكارُ؛ حيث نُزِّل المخاطَبُ منزلة مَن لم يَعْلم؛

(1) ابن منظور، لسان العرب: (سمو).
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/224.
(3) طنطاوي، التفسير الوسيط: 7/550.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/223.
(5) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 6/387.

فأنكر عليه عدمَ العلم، أو هو مستعمل في التعجِيب من عدمِ العلم بذلك مع أنَّه مِمّا تتوفَّر الدواعي على عِلمه، أو هو للتقرير، ومثله في التقرير كثير، وهو كناية عن التحريض على العلم بذلك"[1]، ومعنى ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ "ألم تعلم"[2]، وفيه "شُبِّه حال مَن لم يَر الشيء بِحال مَن رآه، في أنَّه لا ينبغي أن يَخفى عليه، ثم أُجري الكلام معه كما يُجرى مع مَن رأى، قَصْدًا إلى المبالغة في شُهرته وعَراقته في التعجُّب"[3].

التّعبير بالمضارع المجزوم ﴿أَلَمْ تَرَ﴾:

يحسُن التّبصّر بآثار الكلمة الطيّبة؛ وتمثّلها على الدّوام

مِن شأن التعبير بالمضارع في قولِ اللّه تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ أنْ يَحُضَّ على تجدُّد الرؤية واستمرار التبصُّر في مَثَل الكلمة الطيّبة - وهو الشّجرة الطيبة بكلِّ منافعها - الّذي ساقه اللّه تعالى لعباده لينتفعوا به ويتمثَّلوا الكلمة الطيّبة في معاملاتهم؛ فبها تسمو الأرواح، وتنشرح الصدور، وتنزاح الهموم، وتهدأ النفوس، وترتقي الطباع... إلى آخر تلك الآثار الطيبة التي لا تُحدّ بِحَدّ.

دلالة الخطاب في الفعِل: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾:

المخاطبون مدعوون لتدبُّر مَثَل الكلمة الطّيبة في الفرد والمجتمع

"الخطاب في قوله ﴿أَلَمْ تَرَ﴾... للرسول ﷺ أو لِكل مَن يَصلح للخطاب"[4]؛ لأن المخاطب الأوَّل بالقرآن الكريم هو الرسول ﷺ، وأُمَّتُه مخاطبة به مِن بعده، ويُفترَض أنَّ الناسَّ كلَّهم من أُمَّتِه بناءً على عموم دعوته الزمان والمكان؛ وعليه فالخطاب في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ موجَّهٌ إلى كلِّ مَن هو بمثابة أن يَتلقّاه وينتفع به.

بلاغة المجاز في التّعبير عن العلم بالرّؤية:

من علم فقد رأى الحقائق، وما راءٍ كمن سمعا

عبّر عن العلم بالرّؤية، لأنّ الرّؤية هي أقوى وسائل العلم؛ فهو مجاز مرسل علاقته السّببيّة والمسبّبيّة.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/223.
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 3/334.
(3) طنطاوي، التفسير الوسيط: 7/549.
(4) طنطاوي، التفسير الوسيط: 7/549.

سرّ الاستفهام بالأداة ﴿كَيْفَ﴾:

أمثال القرآن الكريم عجيبة، ورائقة شائقة

غرض الاستفهام في قول الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا﴾ "الإلفات إلى هذا المَثل، والوقوفِ عنده وَقفة تدبّر وتَذكُّر واعتبار؛ فالمراد بالاستفهام الأمرُ، أي: انظر كيف ضرب الله تعالى مثلًا..."[1]، و"إيثار أداة الاستفهام ﴿كَيْفَ﴾ هنا للدلالة على أنَّ حالةَ ضَرْب هذا المثلِ ذاتُ كيفيَّةٍ عجيبة مِن بلاغته وانطباقه"[2].

المقصود بالخطاب في جملة ﴿أَلَمْ تَرَ﴾:

لا يسلس العلم لأهله، حتى يبلُغوا فيه مبلغ الرّؤية البصريّة

المقصود بالخطاب كلّ ذي عقل فالرّؤية المطلوبة في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ تَرَ "رؤيةٌ عِلْمِيَّة، معلَّقٌ فِعلُها عن العمل بِما وَلِيَها من الاستفهام بـ ﴿كَيْفَ﴾"[3]، فهي "مستعملة في العِلم الناشئ عن التَّأمل والتفكُّر في ملكوت السماوات والأرض"[4]، وكأنَّ فيها دعوة لأهل العلم أن يُخلصوا له حتى يبلُغ فيهم مبلغ الرؤية البصريّة، لا العلم العقليّ المجرَّد فقط.

دلالة التّعبير بالماضي في ﴿ضَرَبَ﴾:

قد يُصاغ المعنى صياغة الماضي للتّشويق

التعبير بالماضي فيه إشارة إلى استقرار معنى هذا المثل عند ذوي العقول فأُخْرِجَ مخرج المخبَرِ به عمّا كان واستقرَّ وقوعه وتحقُّقه، وغرضُ سَوْقِ هذا المثل "إيقاظ الذهن؛ ليترقَّب ما يَرِد بعدَ هذا الكلام، وذلك مِثْلُ قولهم: ألم تعلم، ولم يكن هذا المثل مما سَبق ضربُه قبل نزول الآية، بل الآية هي التي جاءت به، فالكلام تشويق إلى عِلم هذا المثل، وصوغ التشويق إليه في صيغة الزمن الماضي الدّالِّ عليها حرف ﴿أَلَمْ﴾ التي هي لِنَفْيِ الفعل في الزمن

(1) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 7/170.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/223.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/223.
(4) طنطاوي، التفسير الوسيط: 7/549.

الماضي، والدّال عليها فعل ﴿ضَرَبَ﴾ بصيغة الماضي لِقصد الزيادة في التَّشويق؛ لمعرفة هذا المثل، وما مُثِّل به"[1].

ومعنى ﴿ضَرَبَ﴾ في قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً﴾ أي: "بيَّن الله مثلًا وأظهر"[2]، و"بيَّن شَبَهًا"[3]، و"اعتمد مثلًا ووضعه"[4].. وكذلك "ضَرْبُ المثل: سَوْقُه وعَرْضه، والأصل فيه ضرْب الشيء بالشيء لِيَخْرُج منهما شيءٌ آخر، كضرْب اللَّبن بالمَخْض ليَخرج منه الزُّبد، ومنه الضّرب وهو عسَل النَّحْل الذي يكون مِن ضرْب أخلاطِ رحيقِ الزَّهْر بعضها ببعض"[5].

سرّ التّعبير باسم الجلالة ﴿ٱللَّهُ﴾ مسندا إليه:

في قول الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا﴾ أُسْنِد الفعل ﴿ضَرَبَ﴾ إلى اسم الجلالة ﴿ٱللَّهُ﴾ ﷻ "لأنَّ الله تعالى أوحى به إلى رسوله - ﷺ -"[6]، ولأنَّ اسم الجلالة هو العَلَم الدّالُّ على الذات المقدَّسة؛ ففيه تجتمع كلُّ صفات الجلال، كما فيه تجتمع كلُّ صفات الجمال، والمقام لإنكار عدم العِلْم بما ينبغي أنْ يكون معلومًا، وحَثٌّ على العِلم الذي يبلغ مبلغ الرؤية البصريّة؛ ففي إسناد ضرْب المثل إليه ﷻ حثٌّ وحضٌّ، وفيه كذلك شِبْهُ عِتاب ولَوم لمن لم يرْقَ إلى ذلك.

هيبةُ لفظ الجلالة (الله)، تعكس سوانح العظمة والكمال

الغرض من تنكير المفعول به ﴿مَثَلًا﴾:

جاء المفعول به ﴿مَثَلًا﴾ نكرةً في جملة ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا﴾ للتشويق إلى تفسيرِه التالي: ﴿كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾؛ فإذا بلغَ المتلقِّي إلى المَثَل المفسّر تَمَكَّنَ في نفسه خيرَ تَمَكُّنٍ، وسعدتْ به أتمّ سعادة، و"المثل في كلامهم قولٌ موجَزٌ سائرٌ، يَملك الألباب

التشويق إلى الشّيء، إسعادٌ للنّفوس، بِتَحْصِيله بعد تَرقُّب

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/223.
(2) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 6/387.
(3) الواحدي، التفسير الوسيط: 3/29.
(4) الزّمخشري، الكشّاف: 2/552.
(5) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 7/171.
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/224.

ويأسر العقول؛ لِما فيه من تصويرٍ رائع ودِقَّة مُحكَمة"[1]، وكذلك "المثلُ الصفةُ العجيبة"[2]، و"يطلق على القول السائر المعروف؛ لِمُماثَلة مَضربِه لِموردِه"[3]"والمثل لَمّا كان معنًى مُتضمِّنًا عِدَّةَ أشياء صحّ الاقتصارُ في تعليقِ فِعْل ﴿ضَرَبَ﴾ به على وجه إجمالٍ يفسّره قوله تعالى: ﴿كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ﴾ إلى آخره"[4].

سرُّ التّعبير بالبدل ﴿كَلِمَةً﴾ نكرةً موصوفةً:

الكلمة الطيّبة، تُفعم العبدَ والكونَ، مِن حوله بِرًّا وبركة

جاء تفسير المثل ﴿كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾ تنويهًا بعظمتها، وتنبيهًا على يُسرها على من يسَّرها الله تعالى عليه من عباده؛ فإنّها ﴿كَلِمَةً﴾، وصورتها ﴿كَشَجَرَةٍ﴾، وكلاهما ﴿طَيِّبَةً﴾، ولا مشقّة في تلك الـ ﴿كَلِمَةً﴾ التي ستفعم الدنيا خيرًا وبِرًا وبركة حين تنفصل من صاحبها، بَدْءًا بكلمة التوحيد، ولوازمها من شُعَب الإيمان، وانتهاءً بالعبد الذي يُثري بها نفسه والكون من حوله، وقد قالوا: "في الكلمة الطيّبة قولان: أحدهما: أنَّها الإيمان... الثاني: أنَّه عنى بها المؤمن نفسه"[5] فـ "ضرب الله تعالى مَثَلَ (الشجرة الطيبة) مثلًا للمؤمن؛ فهو في الأرض وعمله يصعد إلى السماء كلَّ يوم؛ فكما تؤتي الشجرة أكلها كلَّ حين كذلك المؤمن يعمل لله في ساعات الليل والنهار"[6]، وقوله تعالى: ﴿كَلِمَةً طَيِّبَةً﴾ "نُصِبَ بِمُضْمَر، أي: جَعل كلمة طيّبة كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ، وهو تفسيرٌ لقوله تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا﴾ كقولك: شرّفَ الأميرُ زيدًا، كَساهُ حُلَّةً، وحَمَلَه على فرسٍ، ويجوز أن ينتصب ﴿مَثَلًا﴾ و﴿كَلِمَةً﴾ بـ ﴿ضَرَبَ﴾، أي: ضرب كلمة طيبة مثلًا، بمعنى: جعلها

(1) حجازي، التفسير الواضح: 2/285.
(2) مجمع البحوث، التفسير الوسيط: 5/489.
(3) طنطاوي، التفسير الوسيط: 7/549.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/224.
(5) الماوردي، النكت والعيون: 3/132.
(6) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 6/388.

مثلًا، ثم قال ﴿كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾ على أنَّها خبرُ مبتدأ محذوف، بمعنى هي كشجرة طيبة"[1].

الغرض من وصف الكلمة بوصف ﴿طَيِّبَةً﴾:

وراء الكلمة الطيّبة إيمانٌ راسخ، ونفسٌ تَنْشُر الطِّيب في الخَلْق

في وصف الكلمة بالطيّبة "دليلُ الإيمان الثابت في قلب المؤمن، الذي يرفع به عمله إلى السماء"[2]، "وتشبيهُ الكلمة الطيّبة بِالشجرة الطيّبة لأنها ثابتة في القلب كثبوت أصل النخلة في الأرض، فإذا ظهرت عَرَجَتْ إلى السماء كما يعلو فرع النخلة نحو السماء؛ فكلَّما ذُكرت نفعت كما أنَّ النخلة إذا أثمرت نفعت"[3]. وفي وصف ﴿طَيِّبَةً﴾ "استُعِير الطِّيب للنفع؛ لِحُسن وقْعه في النفوس كوقع الروائح الزَّكِيَّة"[4].

وفي المقصود بـ ﴿كَلِمَةً طَيِّبَةً﴾ تآويل غزيرة ثريّة، منها أنَّها "هذا القرآن... شبَّه القرآن بالشجرة الطيّبة؛ وهي النخلة على ما ذكر إن ثبت، أو كلّ شجرة مثمرة"[5]، "وقال بعضهم: الكلمة الطيّبة: هي الإيمان والتوحيد؛ شَبَّهَها بالشجرة الطيّبة؛ وهي التي تُثمر، وتنمو، وتَزكو، هي على ما وصفها ﷻ في قوله: ﴿تُؤْتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينِۭ بِإِذْنِ رَبِّهَاۗ﴾؛ فعلى ذلك الإيمانُ والتوحيدُ لا يزال يُثمر لأهله الخيراتِ والأعمالَ الصالحات، كالشّجرة التي وَصَفَها أنَّها تؤتي أهلَها أُكُلَها في كلِّ حين وكلِّ وقت، أصْلُها ثابتٌ بالحُجَج والبراهين، وفرعها في السماء، في كلِّ وقتٍ يرتفع، ويصعد به العمل إلى السماء"[6]. و"قال ابن عباس: يريد لا إله إلا اللّه، وهو قول الجميع"[7]، وعلى الجملة فـ (الكلمة الطيّبة) "هي كلُّ كلمة جاءت من واردات الحقّ، والخير...

(1) الزمخشري، الكشاف: 2/552.
(2) حجازي، التفسير الواضح: 2/259.
(3) الماوردي، النكت والعيون: 3/131.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/224.
(5) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 6/387.
(6) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 6/387.
(7) الواحدي، التفسير الوسيط: 3/29.

وكلمة (لا إله إلا الله) هي مَجْمَعُ كلِّ كلمةٍ طيّبة، فمن لم تَسكن نفسه إلى هذه الكلمةُ، لا يجيءُ منه طِيبٌ أبدًا"[1].

الغرض من حذف المسند إليه المقدّر (هي):

البيان القرآنيّ يُركِّز على ذِكر المعاني الأهمّ، ويبكِّر إليها

حُذِف المسند إليه في عبارة التّمثيل ﴿كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾ إذ التّقدير: كلمة طيّبة هي كشجرة طيّبة؛ وذلك طيًّا للعبارة ومبادرةً إلى المشبّه به العامر بالخير ﴿كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾، وما دامت القرينة متوفِّرة والمعنى جليًّا فلا حاجة إلى ذِكر الضمير المشبَّه (هي)، فعجَّل إلى ذِكر المشبَّه به (الشجرة الطيبة) التي "ينتفع بها الناس بجميع أنواع المنافع، ولا يقطعونها؛ فهي تدوم وتبقى دهرًا، فعلى ذلك القرآنُ ينتفع به الناس وهو دائم أبدًا"[2].

دلالة التّشبيه بالكاف في لفظ: ﴿كَشَجَرَةٍ﴾:

الكلمة الطيّبة يسيرة، لا كُلفة فيها، ولا عناء في التزامها

مع أنَّ النّظم الكريم يصرِّح بأنَّ هذا مَثَلٌ، وحقُّ المَثَل أن يُعقَد بين طرفيه بالاسم (مِثْل)، وقد آثر أداة التشبيه الخاطفة (الكاف) فقال: ﴿كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾؛ وفي ذلك إلماحٌ إلى يُسْر القضيّة، وسهولة الأمر على العباد، "والكاف في قوله: كَشَجَرَةٍ في موضع الحال، أي: حالةَ كونها مشبهة شجرة..."[3].

الغرض من تنكير المسند ﴿كَشَجَرَةٍ﴾:

النّوع ليس غاية في ذاته، وإنّما المهمّ في الصّفة الّتي يوصف بها

تنكير المشبَّه به ﴿كَشَجَرَةٍ﴾ يفيد عموم الأشجار الطيّبة؛ فكلُّ شجرة طيّبة مثالٌ للكلمة الطيّبة في النفع بالظلّ، والثَّمَر، والخُضْرَة، والجمال، وما إلى ذلك، و"كلُّ شجرة مثمرة طيّبة الثمار، كالنخلة وشجرة التين والعنب والرمّان وغير ذلك، وعن ابن عمر أنّ رسول الله ﷺ قال ذات يوم: "إن الله ضرب مثل المؤمن شجرة فأخبروني ما هي" فوقع الناس في شجر البوادي، وكنت صبيًّا، فوقع في قلبي

(1) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 7/171.
(2) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 6/387.
(3) ابن عطية، المحرر الوجيز: 3/335.

أنَّها النخلة، فَهِبْتُ رسول الله ﷺ أن أقولها وأنا أصغر القوم... فقال لي عمر: (يا بُنَيَّ لو كنت قلتها لكانت أحبّ إليَّ من حُمْرِ النَّعِم)، ثم قال رسول الله ﷺ "ألا إنَّها النخلة" وعن ابن عباس رضي الله عنهما: (شجرة في الجنة)"[1].

الغرض من وصف الشّجرة بـ ﴿طَيِّبَةٍ﴾:

لا يوَفِّي الكلمةَ الطّيبةَ حقَّها، إلّا الشّجرة الطّيبة

التّشبيه بالـ ﴿كَشَجَرَةٍ﴾ بلا وصفٍ دليل خيريَّتها، وعِظمها، وجمالها، وخضرتها، وروائها... إلخ. ومع ذلك وصفها البيان القرآنيّ بالطّيّبة لِتوَفِّي الكلمة الطّيّبة حقَّها تمام الوفاء؛ لأنَّ المشبّه هنا عظيم الثَّراء في كلِّ الجوانب؛ فاحتاط التشبيه هنا بذكر الوصف ﴿طَيِّبَةٍ﴾ من أيّ وَهْم يَحتمله العقل لـ ﴿كَشَجَرَةٍ﴾؛ لأنَّه قطعًا سينعكس على المشبَّه به الـ ﴿كَلِمَةً﴾ الـ ﴿طَيِّبَةً﴾ وقد اجتهد العلماء في تحديد الشجرة الطيِّبة التي ستمثِّل الكلمة الطيِّبة، فتنوَّعت تآويلهم إلى: "أنها النخلة... وأنَّها شجرة في الجنة"[2]، وأنَّها "المؤمن"[3].. وقالوا إنّ "أكثر الشجر الطيِّب طِيبًا هو ما كثُر خيرُه، واتَّصل عطاؤه، وقلّ الجهد المبذول في تنميّته وتثميره، ولعلَّ (النخلة) أطيب شجرة وأكرمها، وأقربها وفاءً بهذه الصفات التي وصف الله ﷻ بها تلك الشجرة الطيِّبة"[4].

بلاغة التّشبيه التّمثيلّي، في السّياق:

تحقيق التّصوير البيانيّ، كأنّما يشخّص أمام المخاطب بالسّياق القرآنيّ

في تشبيه الكلمة الطّيّبة بالشّجرة الطّيبة الّتي أصلها ثابت وفرعها في السّماء...تشبيه تمثيليّ لحالة منتزعة من عدّة أوصاف وأحوال، ومن شأن هذا التّشبيه أن يحقّق التّصوير البيانيّ له كأنّه يجري أمام القارئ المتدبّر.

(1) الزمخشري، الكشاف: 2/553.
(2) الماوردي، النكت والعيون: 3/132.
(3) الماوردي، النكت والعيون: 3/132.
(4) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 7/171.

دلالة فصل ﴿أَصۡلُهَا ثَابِتٞ﴾ ممّا قبلها:

بسط صفات الموصوف، بيان لقدره

"قوله: ﴿أَصۡلُهَا ثَابِتٞ﴾: هذه الجملة صفة ﴿كَشَجَرَةٖ﴾"[1] "أصلها ثابت لها قرار، فالفصل لكمال الاتّصال، فعلى ذلك: القرآن هو ثابت بالحجج والبراهين"[2] وفي بسط صفات الموصوف بيان لعظمته وكشف عن جماله ومقداره.

سرُّ التّعبير بالجمل الاسميّة في الآية:

الكلمة الطّيبة، لا يتغيّر خيرها إلى شرٍّ مطلق، ولا يتحوّل

قوله تعالى: ﴿أَصۡلُهَا ثَابِتٞ﴾: فيه إيثارُ التّعبير في الصفة بالجُمَل الاسميّة: ﴿أَصۡلُهَا ثَابِتٞ﴾، ﴿وَفَرۡعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ دليل على ملازمة تلك الصفات للشجرة، وذلك يعود على الكلمة الطّيبة ببيان المقصود؛ فصفاتها الطيِّبة ليست طارئةً عليها، ولا قابلة للتّغيُّر إلى الخُبْث، ولا إلى الزّوال عنها بالكلِّية، واللّه تعالى أعلم.

سرُّ تعريف المسند إليه بالإضافة:

الكلمة الطيّبة راسخة لا تتزلزل في قلب المؤمن

أصل الشّجرة هو جذرها[3]، وقاعدتها التي تَشُدُّها، وتثبِّتها في الأرض، وعليها تتَّكِئ الشجرة، ولولاه لاهتزَّت وزالت بالمَرَّة، ولكي تُناسبَ الشجرةُ - (المشبَّه بها) - الكلمةَ الطيِّبةَ (المشبَّهة) - يُشتَرَط أن يكونَ أصلها الضارب في أعماق الأرض نفسُه ثابتًا راسخًا؛ وفي ذلك كنايةٌ عن ثبات الشجرة وعدم اهتزازها؛ وكلُّ ذلك يكشف عن تغلغل الكلمة الطيِّبة (المشبَّهةِ) في نفس المؤمن، وعدم اهتزاز يقينه بها.

دلالة المسند ﴿ثَابِتٞ﴾ اسم فاعل:

في الإخبار بثبات الأصل المحبوب، تَتِمَّةُ إسعاد صاحبه

صياغة الخبر ﴿ثَابِتٞ﴾ اسمَ فاعلٍ يناسب معناه، فصيغة اسم الفاعل تَدلُّ على الثبوت والدوام، ومادّته ﴿ثَابِتٞ﴾ صريحة كذلك

(1) الأنصاري، إعراب القرآن العظيم المنسوب لزكريا، ص: 354.
(2) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 6/387.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/224.

في الثبات والدوام، فناسبتْ صيغة اللفظ معنى مادته اللغوية، ولا أدقّ من هذا فصاحةً وبيانًا، ولعلّ في ذلك للمؤمنين بشارة بأنَّ كلمة التوحيد (لا إله إلا الله) الراسخة في قلوبهم لن يُزلزلها شيء - إن شاء الله تعالى -، وأنها ستَجْنِيهم الخيرَ كلَّه، عاجلًا وآجلًا.

وثبات أصل الشّجرة يعني في الأرض[1]، وثبات الكلمة الطيِّبة يعني في القلب، فهو "راسخٌ باقٍ آمنُ الانقلاع، والانقطاع، والزوال، والفناء؛ وذلك لأنَّ الشيء الطيِّب إذا كان في معرض الانقراض والانقضاء فهو وإن كان يَحصُل الفرح بسبب وُجْدانه إلّا أنَّه يعظُم الحُزن بسبب الخوف مِن زواله وانقضائه، أما إذا عُلم مِن حاله أنه باقٍ دائمٌ، لا يزول ولا ينقضي فإنَّه يعظُم الفرح بِوُجْدانه، ويكمُل السرورُ بِسبب الفوز به"[2].

سرُّ تقديم جملة ﴿أَصۡلُهَا ثَابِتٞ﴾ على ﴿وَفَرۡعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾:

لكل فرعٍ سامق، ممتدّ الأواخي والأفنان، أصل راسخ الجذور في الأعماق

في ترتيب المعاني القرآنيّة أسرار ولطائف، منها تقديم السبب على المسبَّب كما هنا؛ فجملة الصّفة ﴿أَصۡلُهَا ثَابِتٞ﴾، سببٌ في افتراع الفروع وشموخها، فكلَّما كان أصل الشجرة راسخًا ضاربًا بجذوره في أعماق الأرض كلَّما كانت فروعها باسقة شامخة في جوّ السماء؛ لذلك بَنى النظم الكريمُ على ثبات الأصل وسموِّ الفرع، فقال تعالى: ﴿أَصۡلُهَا ثَابِتٞ وَفَرۡعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾، ولن يكون فرعها باسقًا في السماء من غير أن يكون له سَنَدٌ ثابت في الأرض، وجاء النّسق على هذا الحال بدءًا بالأصول وانتهاءً بالفروع، مراعاة للترتيب في الممثَّل به.

دلالة الواو العاطفة في جملة: ﴿وَفَرۡعُهَا﴾:

فرع الشّيء يَحمِل خصائصه في المعتاد

الواو في جملة: ﴿وَفَرۡعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ عاطفة على جملة ﴿أَصۡلُهَا ثَابِتٞ﴾؛ فكلتاهما صفةٌ لـ ﴿كَشَجَرَةٖ﴾، وبهما اتَّضح الرسوخ والشموخ، وتكاملا على بيان غَناء الشجرة بالخيرات المطلوبة من

(1) الماوردي، النكت والعيون: 3/132.
(2) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 19/89.

الشجرة الطيِّبة، فقوله تعالى: ﴿وَفَرْعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ "يدلُّ على كمال حال تلك الشجرة من وجهين: الأول: أنَّ ارتفاع الأغصان وقوَّتها في التّصاعد يدلُّ على ثبات الأصل ورسوخ العروق. والثاني: أنَّها متى كانت متصاعدة مرتفعة كانت بعيدة عن عُفونات الأرض وقاذورات الأبنيّة؛ فكانت ثمراتُها نقيَّةً ظاهرةً طيِّبة عن جميع الشوائب"[1].

سرُّ التّعريف بالإضافة في الجملة المعطوفة:

"الفرع: ما امتدَّ من الشّيء وعَلا، مشتقٌّ مِن الافتراع - وهو الاعتلاء - وفرعُ الشجرة غصنُها"[2]، و"فرعُ كلِّ شيءٍ: أعلاه، وتفرَّعت أغصانُ الشجرة: كبرت"[3]؛ و"يَجوز أن يُريد: وفروعها؛ على الاكتفاء بلفظ الجنس"[4] فكما عرَّف الذِّكرُ الحكيم ﴿أَصْلُهَا﴾ بالإضافة لتمييزه بمزايا الشجرة الطيِّبة، ولإضفاء خَصيصَة الشجرة الطيِّبة عليه - كذلك عرَّف ﴿وَفَرْعُهَا﴾ بالإضافة تمييزًا له بمزاياها، وإضفاءً لخصائصها عليه؛ إذ المضاف يكتسب من المضاف إليه؛ فتعريف الفرع بالإضافة يمنحه طِيبًا من طيبها، ويُضفي عليه خصوصيّتها المباركة، فهو فرع محمَّل بالخيرات، باسقٌ نحو الأعالي.

الكلمة الطيّبة في قلب المؤمن، فارعة الامتداد، عميقة التّجذّر

دلالة حرف الجرّ ﴿فِي﴾ على الظّرفيّة:

معنى حرفِ الظرفيّة في المسند ﴿فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: "في جهة العُلوّ والصعود، ولم يُرِدِ المظلَّة، كقولك في الجبل: طويلٌ في السماء تُريد ارتفاعَه وشموخه"[5]؛ فليس المقصود به الظرفية، بل الجهة والناحية "أي: نحو السماء"[6]، و"في الهواء..."[7].

فضائل الكلمة الطّيبة تسمو بصاحبها، كالشّجرة نحو السّماء

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 19/90.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/224.
(3) الطيبي، فتوح الغيب: 8/591.
(4) الطيبي، فتوح الغيب: 8/590.
(5) الزمخشري، الكشاف: 2/553.
(6) الماوردي، النكت والعيون: 3/132.
(7) ابن عطية، المحرر الوجيز: 3/335.

سرُّ تعريف لفظ ﴿ٱلسَّمَآءِ﴾:

الكلمة الطيّبة فيها معاني الشّموخ والرّفعة

المقصود بتعريف السّماء في مسندِ جملةِ ﴿وَفَرۡعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾: السماءُ الحقيقيّة، لا السماءُ بمعناها اللغوي كما قالوا: "السماء: كلُّ ما علاك فأظلّك"[1]؛ لأنَّ المقصود في الآية شموخُ الفرع نحو السماء العالية لا الأسقف الدانية. و"ذلك مما يزيد الشجرة بَهْجَةً وحُسْنَ منظر"[2]، وينعكس على الكلمة بالإبانة عن المقصود من شرافتها، وسموّها، ووفرة خيراتها، والله تعالى أعلم.

دلالة التّشبيه في الآية الكريمة:

الكلمة الطيّبة تنضح على اللّسان، وتثمر في عمل الأبدان

آثر البيان القرآنيّ "التّشبيه التّمثيلي في قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصۡلُهَا ثَابِتٞ وَفَرۡعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾؛ فقد ذكر تعالى في هذا التشبيه شجرةً موصوفة بأربع صفات، ثم شبَّه الكلمة الطيبة بها: الصفة الأولى: ﴿طَيِّبَةٍ﴾ والثانية: ﴿أَصۡلُهَا ثَابِتٞ﴾ والثالثة: ﴿وَفَرۡعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ والرابعة: (دائمة الثمر) ووجه الشبه في تمثيل الإيمان بالشجرة أنَّ الشجرة لا تكون شجرة إلا بثلاثة أشياء: عرق راسخ وأصل قائم وفرع عالٍ. كذلك الإيمان لا يتمّ إلا بثلاثة أشياء: تصديق بالقلب وقول باللسان وعمل بالأبدان، فوجود الصفات الثلاث في جانب المشبَّه به حِسِّيَّةٌ بينما هي في جانب المشبَّه معنويّة"[3]؛ وبذلك أحال النّظمُ الكريم المعنى إلى حِسٍّ؛ فتمَّ البيان.

الغرض من التّشبيه في سياق الآية الكريمة:

تشبيه الكلمة الطّيبة بالشّجرة الطيّبة، تشويق إليها، وإغراءٌ بها

في الأمثال القرآنية "زيادةُ فَهْمٍ وتذكير؛ لأنَّها تُخرِجهم مِن دائرة المعقول إلى المحسوس، ومن دائرة المعنى الجَلِيِّ الذي لا يَشكُّ فيه أحدٌ، كلُّ ذلك لَعَلَّهم يتذكَّرون ويتَّعظون"[4]، وفي هذه

(1) الجوهري، الصحاح: (سمو).
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/224.
(3) صافي، الجدول في إعراب القرآن: 13/185.
(4) حجازي، التفسير الواضح: 2/259.

الآية الكريمة صورة تشبيهية مبينة؛ حيث اشترطت في المشبَّه به أوصافًا دقيقة تنعكس على المشبّه بالتحرير والإبانة، "ضرب الله ﷻ للإيمان به مثلًا... فجعل مَثل المؤمِن في نُطْقِه بِتَوْحِيده والإيمان بِنَبِيِّه واتِّباع شريعته - كالشجرَة الطيِّبة؛ فجعل نَفْع الإقامة على توحيده كنَفْع الشجرة الطيِّبة التي لا ينقطعُ نفعُها وثمرها، وجاء في التفسير أنَّ الشجرةَ الطيِّبةَ النخلةُ، والدّليلُ على أنَّ هذا المثلَ يُراد به توحيدُ الله تعالى، والإيمانُ بنَبِيِّهِ وشرِيعَتِه قوله ﷻ: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ [إبراهيم: 27]"[1] وقد "جعل الله تعالى هذه المحسوسات والأشياء الظّاهرة دليلًا وشاهدًا لِما غاب عنهم ولا يقع عليه الحِسُّ"[2].

(1) الزجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 3/160.

(2) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 6/388.

﴿تُؤۡتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينِۭ بِإِذۡنِ رَبِّهَاۗ وَيَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ ٢٥﴾ [إبراهيم: 25]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

بعد تمثيل الكلام الطَّيب بالأشجار؛ أعقبه ببيان إتيانها بالثِّمار

لمّا بيَّن النَّظم الجليل في الآية السّابقة مَثَلَ الكلمة الطَّيبة؛ أتمَّ بيان ذلك التَّمثيل، فلمّا ذكر هناك حالها؛ ذكر هنا ثمرتها[1]، فبعد أن بيَّن هناك كونها ثابتةَ الأصل، وفرعها شامخ في السَّماء؛ أتبع ذلك ببيان أنَّها مثمرة؛ ليتمَّ التَّمثيل على أتمِّ تَصويرٍ، فأكمل هنا بيانَ المشبَّه به.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أُكُلَهَا﴾: أصلُ (أكل): كَلِمَةٌ واحِدَةٌ، ومعناها: التَّنَقُّصُ، قالَ الخَليلُ: الأَكْلُ معروفٌ، والأَكْلَةُ: المَرَّةُ الواحِدَةُ حتَّى يَشْبَعَ، والأُكْلَةُ اسْمٌ كاللُّقْمَةِ[2]. والأُكُلُ: بِضَمِّ الهَمْزَةِ والكافِ هو المأكولُ، والأُكْلُ أيضًا: طُعْمَةٌ كانَتِ المُلوكُ تُعْطيها الأشرافَ، وهو كذلك: الرِّزق، والجَمْعُ آكالٌ[3]. والإِكْلَةُ: هَيْئَةُ الأَكْلِ[4]، والأكولَةُ: الشّاةُ تُرْعَى للأَكْلِ لا لِلبَيْعِ والنَّسْلِ[5]. والمقصود بالأُكُلِ في الآية: المَأْكول، مع اختلاف طعومه وتفاضله.

2) ﴿حِينٍ﴾: أصْلُ الحيْن يدلُّ على الزَّمانِ، فالحينُ الزَّمانُ قليلُهُ وكَثيرُهُ[6]. قالَ الرّاغِبُ: الحينُ وقْتُ بلوغِ الشَّيءِ وحصولِه، وهو

(1) البقاعي، نظم الدرر: 10/411.
(2) الخليل، العين، وابن عباد، المحيط في اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (أكل).
(3) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (أكل).
(4) ابن منظور، لسان العرب: (أكل).
(5) ابن عباد، المحيط في اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة: (أكل).
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة، والزبيدي، تاج العروس: (حين).

مُبهَمُ المعْنَى، ويَتَخَصَّصُ بالمُضافِ إلَيْهِ، ومَنْ قالَ: (حيْن) تأْتي على أوْجُهٍ: للأجَلِ، والسَّنَة، وللسّاعَةِ، وللزَّمان المُطْلَق؛ فإنَّما فسَّرَ ذلِكَ بحَسَبِ ما وجدَ وعلقَ بِهِ[1]، وقالَ الفَرّاءُ: الحينُ حينانِ، حينٌ لا يوقَفُ عَلَى حَدِّهِ، وهو الأكْثَرُ، وَحينٌ ذَكَرَهُ اللّه تَعالَى: ﴿تُؤْتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ﴾. وهذا مَحْدودٌ؛ لِأنَّهُ سِتَّةُ أشْهُرٍ[2]، وأمّا المَحْمولُ على هذا؛ فَقَولُهُم للهَلاكِ: حَيْنٌ، وهو مِنَ القياسِ؛ لأنَّهُ إذا أتَى؛ فلا بُدَّ لَهُ مِنْ حينٍ، فكأنَّهُ مُسَمًّى بِاسْمِ المَصْدَرِ[3]. والمقصود بـ ﴿حِينٍ﴾ في الآية: المُدَّةُ مِنَ الزَّمَنِ.

3) ﴿ٱلْأَمْثَالَ﴾: أصلُ (مثل): يَدُلُّ على مُناظَرَةِ الشَّيْءِ لِلشَّيْءِ[4]. ويُستَعمَلُ للتَّسويَةِ بين شَيئَيْنِ، يُقال: هذا مِثْلُهُ ومَثيلُهُ، كما يُقال: شِبْهُهُ وشَبيهُهُ، ويأتي بِمعنى نَفْسِ الشَّيْءِ وذاتِهِ[5]. وَضَرْبُ المَثَلِ: نَظْمُ تَرْكيبِهِ الدّالِّ عَلَى تَشْبيهِ الحالَةِ[6]. والمقصودُ بـ﴿ٱلْأَمْثَالَ﴾ في الآية: جَمْعُ مِثْلٍ، وهو المُماثِلُ المُساوي.

المَعْنى الإجْماليُّ:

ضرب اللّه مثلًا للكلمة الطَّيبة - وهي كلمة التَّوحيد والإسلام ودعوة القرآن - بالشَّجرة الطَّيبة، وهي النَّخلَة، فقال سبحانه: تُخرِجُ هذه الشَّجرةُ الطَّيِّبةُ ثَمَرَها كامِلًا كثيرًا طَيِّبًا في كلِّ وقتٍ وساعةٍ مِن ليلٍ ونهارٍ، وصيفٍ وشِتاءٍ، بمَشيئةِ خالِقِها وأمْرِه وتيسيرِه، وكذلك كَلِمةُ التَّوحيدِ؛ لا تزالُ تُثمِرُ الأعمالَ الصّالحةَ للمُؤمِنِ في كُلِّ وَقتٍ، ولا يزالُ يُرفَعُ له عمَلٌ صالِحٌ آناءَ اللَّيلِ وأطرافَ النَّهارِ، في كلِّ

ضَرْبُ الأمثال تقريبٌ للبعيد، وتقريرٌ للقريب، وتصويرٌ للمعاني المعقولة بالصّور المحسوسة

(1) الرّاغب، المفردات: (حين).
(2) الفرّاء، معاني القرآن: 2/45.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حين).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (مثل).
(5) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، وابن سيده، المحكم، والزّبيدي، تاج العروس: (مثل).
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/223.

حين، ويمثِّلُ اللّهُ الأمثالَ للنّاسِ، ويُشبِّهُ لهم الأشْباهَ، ويُبيِّنُها لهم؛ ليتذَكَّروا حُجَّةَ اللّه عليهم، ويَفهَموا ما أراد اللّهُ منهم، فيتَّعِظوا، ويفعَلوا ما أمَرَهم به، ويجتَنِبوا ما نهاهم عنه[1].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

موقع الجملة مما قبلها ودلالتُهُ:

تمام أوصاف الشَّجرة لا يتمُّ إلّا بذكر الإثمار

تنتظم الجملة في قوله تعالى: ﴿تُؤْتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينِۭ بِإِذْنِ رَبِّهَاۗ﴾ مع الجمل السّابقة بكونها سيقت لبيان صفات الشَّجرة التي شُبِّهَت بها الكلمةُ الطَّيِّبة، "فقد ذكر تعالى في هذا التشبيه شجرة موصوفة بأربع صفات، ثمَّ شبَّه الكلمة الطيِّبة بها، الصِّفة الأولى: كونها طيِّبة، والثّانية: كون أصلها ثابتًا، والثّالثة: كون فرعها في السَّماء، والرّابعة: كونها دائمة الثَّمر"[2]. وذلك لأنَّ الشجرة لا تكون إلّا بثلاثة أركان: جذور راسخة، وأصل قائم، وثمر دائم، وكذلك حال المشبَّه، وهو الإيمان؛ فإنَّه لا يتمُّ إلّا بثلاثة أركان: التَّصديق بالقلب، والقول باللِّسان، وثمرة ذلك الأعمال، فذكر هذه الصِّفات من تمام التشبيه، فأعقب ذلك بجملة بيان الإثمار في تلك الأشجار.

بلاغة المجاز في إسناد الإيتاء إلى الشَّجرة:

إسناد الفعل إلى غير الفاعل مجاز عقليٌّ اعتبارًا بمشاهدة العين

أسند النَّظم الجليل فعل الإيتاء إلى الأشجار في قوله تعالى: ﴿تُؤْتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينِۭ بِإِذْنِ رَبِّهَاۗ﴾، فهو من المجاز العقليِّ؛ إذ إنَّ الأشجار لا تؤتي الأُكُل، فأسند فعل الإيتاء إلى غير فاعله الحقيقيِّ؛ وإنَّما الفاعل هو اللّه تعالى[3]، وإنَّما أسند الفعل إلى الأشجار لما جرت عليه العادة من رؤية ذلك يظهر من فروعها.

---

(1) ابن جرير، جامع البيان: 13/635، والواحدي، التفسير البسيط: 12/468، والزمخشري، الكشاف: 2/553، والسّعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 425.

(2) صافي، الجدول في إعراب القرآن: 7/185.

(3) صافي، الجدول في إعراب القرآن: 7/187.

دلالة التَّعبير بالمضارع ﴿تُؤْتِيٓ﴾:

إعطاء الأثمار دائمٌ غير منقطع تعبيرًا عن دوام فوائد الكلمة الطَّيِّبة

آثر النَّظم الكريم التَّعبير بالفعل المضارع في قوله تعالى: ﴿تُؤْتِيٓ أُكُلَهَا﴾ تعبيرًا عن الإتيان بالإثمار، لما في الفعل المضارع من دلالة على التَّجدُّد والدَّوام، فالصِّفة في الشَّجرة المشبَّه بها أنَّها دائمة الإتيان بثمارها لا تتخلَّف عمّا عوَّدت النّاس عليه، وهذا من حسن الأوصاف، وكذلك الكلمة الطَّيبة دائمة الفائدة.

سرُّ الإضافة في ﴿أُكُلَهَا﴾:

من حسن صفات الأشجار دوام حسن ثمارها

أورد النَّظم الكريم لفظ الأكل في قوله تعالى: ﴿تُؤْتِيٓ أُكُلَهَا﴾ مُضافًا إلى الضَّمير العائد إلى الشَّجرة، فهو أكل خاصٌّ بها، وفي هذه الإضافة مدح وثناء على الشَّجرة؛ فهي تأتي بالأكل المعهود منها لا يتغيَّر، ولا يوصف بغير ما يوصف به على الدَّوام، ومن حسن أوصاف الأشجار أنَّها تأتي بالثَّمر على وفق ما يراد منها، وما تعوَّد النّاس عليه.

غرض تقييد الفعل بالزّمن المستمر ﴿كُلَّ حِينٍ﴾:

دوام البركة وجودة الثَّمرة بمجيئها في وقتها

قيَّد النَّظم الجليل إتيان الشَّجرة بثمرها بأنَّه كائنٌ في كلِّ وقت في قوله تعالى: ﴿تُؤْتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ﴾ تعبيرًا عن إيفائها بثمرها في الوقت الذي وقَّته الله تعالى لإثمارها[1]، وليس المراد أنَّها تؤتي ذلك في زمان، فهي إنَّما تؤتي في وقت دون وقت، فيكون المعنى: أنَّها كشجرة لا تنقطع عن الإتيان بالأكل في الأوقات المعلومة[2]، وهذا يدلُّ على الثَّبات في العطاء، فهو تشبيه لبيان جودة تلك الكلمة الطَّيِّبة، فهي مثل شجرةٍ بالغة الجودة لا تقصر في الإيفاء بثمرها، فهو يجتنى في كلِّ وقت، فلا تنقطع بركاتها وخيراتها[3].

(1) الزمخشري، الكشاف: 2/553.
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 3/336.
(3) القاسمي، محاسن التأويل: 6/314.

دلالة القيد بشبه الجملة ﴿بِإِذۡنِ﴾:

من كمال الجودة ثباتُها على ما خُلقت له متابعة سنَّة ربِّها

أتمَّ النَّظم الجليل وصف الشَّجرة بصفات الكمال والجودة بأن جعل إثمارها مقيَّدًا بإذن الله تعالى في قوله تعالى: ﴿تُؤۡتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينِۭ بِإِذۡنِ رَبِّهَاۗ﴾؛ إذ إنَّ الشَّيء يكون بالغًا بصفات الجودة على وفق ما في صاحبه من كمال، فلمّا "كان الشَّيء لا يكمل إلّا بكمال مربيه؛ قال: ﴿بِإِذۡنِ رَبِّهَاۗ﴾، فهي بحيث لا يستجيز عاقل أن يتسبَّب في إفسادها، ومَن سعى في ذلك منعه أهل العقول، ولو وصلوا إلى بذل النُّفوس"[1]، فهي لا تخالف سنَّة ربِّها في توقيت إثمارها؛ وفي ذلك دليلٌ على كمال جودتها وحسن وصفها، فهي خالية من صفات الخبث والرَّداءة بأيِّ حال من الأحوال.

سرُّ الإضافة إلى الربوبية ﴿بِإِذۡنِ رَبِّهَاۗ﴾:

من تمام الكمال في حسن الأوصاف نسبتها إلى كمال خالقها

أضاف النَّظم الجليل لفظ الرَّبِّ تعالى إلى ضمير الشَّجرة في قوله تعالى: ﴿بِإِذۡنِ رَبِّهَاۗ﴾ لبيان أنَّ شأنها كلَّه كائنٌ على وفق إرادة الخالق تعالى الّذي أوجدها وخلقها[2]، وإضافة لفظ الرَّبِّ إلى شيء ما في سياق الثَّناء تشير إلى كمال المُضاف إليه، فإنَّ الشَّيء لا يكمل كماله إلّا بكمال موجِده.

دلالة الواو في ﴿وَيَضۡرِبُ﴾:

الاعتراض قبل مقابلة التَّمثيلين دعوة للاعتبار بالأمثال

أدخل النَّظم الجليل الجملة الاعتراضيَّة في قوله تعالى: ﴿وَيَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ﴾ بين المثلَين، مصدَّرة بواو الاعتراض[3]، والغاية من ذلك التَّنبيه على عظم هذا المثل ليقبل النّاس على تفهُّم المراد منه، داعيًا إيّاهم إلى تدبُّره ومعرفة غايته، فيلزمون ما يدركون منه[4].

---

(1) البقاعيّ، نظم الدرر: 10/412.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/44.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/225.

(4) البقاعي، نظم الدرر: 10/412 - 413، والمراغي، تفسير المراغي: 13/149.

دلالة التَّعبير بالمضارع ﴿وَيَضۡرِبُ﴾:

ضربُ الأمثال للبيان سُنَّةٌ من سُنن الجليل لا تنقطع

آثر النَّظم الكريم التَّعبير بالفعل المضارع في قوله تعالى: ﴿وَيَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَالَ لِلنَّاسِ﴾ للدَّلالة على أنَّ ذلك من سنَّته ﷺ في خلقه، فهو يبيِّن لهم بما تعاهدوه من وسائل البيان، ومن ذلك ضرب الأمثال، فجرت إليهم الأمثال في كلِّ زمان لا تنقطع عن البيان الذي كفله اللّه تعالى لعباده، يفصح عن ذلك دلالة الفعل المضارع على التَّجدُّد والدَّوام.

دلالة الإسناد إلى الاسم الجليل:

نسبة الفعل إلى الجليل تعظيم لشأنه وتفخيم لأثره

أسند النَّظم الجليل فعل ضرب الأمثال في قوله تعالى: ﴿وَيَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَالَ لِلنَّاسِ﴾ إلى لفظ الجلالة، للدَّلالة على أنَّ الّذي يضرب هذه الأمثال مَن له الإحاطة الكاملة[1]، والغرض من ذلك تعظيم ضرب الأمثال، وفيه إيماءٌ إلى كفاية هذه الأمثال في البيان والتَّبليغ؛ لكونها صادرةً من المولى تعالى جدُّه، فهي واردة على الغاية القصوى من البيان، فتنتفي بعدها حُجج المكذِّبين بغياب البيان.

دلالة التَّعبير بالمفعول به جمعًا مُعرَّفًا:

أكثر القرآنُ من الأمثال لبلاغتها في الإيفاء بالبيان

آثر النَّظم الكريم التَّعبير عن الأمثال بصيغة الجمع في قوله تعالى: ﴿وَيَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَالَ﴾ للدَّلالة على أنَّ الأمثال كثيرة، والكثرة تشير إلى كون ذلك منهجًا متَّبعًا، فتتابع الأمثال لغاية الكشف والبيان، فإنَّ "الأمثال لدى العرب هي الطريق المتّبع، لإيضاح المعاني؛ إذا أريد تثبيتها لدى السامعين، والقرآن الكريم مليء بها، والسُّنّة النّبويّة جرت على منهاجه، فكثيرًا ما تُتَبَع المسائل المُهّمة بضرب الأمثال لها، لتستقرَّ في النفوس، وتُنقَش في الصدور"[2]، فيشير الجمع إلى أنَّ الأمثال أسلوب كثير الورود في ثنايا الكلام،

(1) البقاعي، نظم الدرر: 10/413.
(2) المراغي، تفسير المراغي: 13/148.

وتعريف هذه الأمثال يشير إلى أنَّها معهودة، فالقرآن اتَّخذ من ذلك وسيلة معهودة متكرِّرة فيه.

غرض تقييد الفعل بشبه الجملة ﴿لِلنَّاسِ﴾:

تحديد المخاطَب بالقول من كمال البيان

قيَّد بليغ المنظوم ضرب الأمثال بأنَّه كائن للنّاس في قوله تعالى: ﴿وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ﴾ إشارة إلى الغاية الرَّفيعة من ذلك، وهي أنَّ اللّه تعالى قصد بها جميع عباده، صالحهم وغير صالحهم، وهذا ينفي عبثيَّة إيراد الكلام، فإنَّ القائل يقصد من كلامه أحدًا ما، فالآية تبين أنَّ المخاطَب بهذه الأمثال عموم النّاس، فهو خطاب شامل عامٌّ لا يخصُّ أحدًا ما دون أحد، فقد جرت العادة أن يحدِّد صاحب الكلام المخاطَب بكلامه، فتقييد ضرب الأمثال في الآية بكونه للنّاس يشير إلى أنَّ المقصود بالكلام هم النّاس جميعًا.

سرُّ التَّعبير بالنّاس بدل المؤمنين:

ضرب الأمثال للتَّذكير عامٌّ للنّاس جميعًا

جعل النَّظم الكريم ضرب الأمثال كائنًا للنّاس دون المؤمنين في قوله تعالى: ﴿وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ﴾؛ لأنَّ الغاية من ذلك أن يكون البيان بالتَّمثيل للنّاس جميعًا، وليس خاصًّا بالمؤمنين، وضربُ المثل وارد في القرآن، يسمعه المؤمن وغير المؤمن، وليس في اختصاص ذلك بالمؤمنين من مزيَّة؛ بل المزيَّة في تحقيق التَّذكُّر بالمثل والانتفاع به، فذلك يختصُّ بفئة من النّاس، أمّا ضرب المثل؛ فهو عامٌّ لجميعهم، فجاء التَّعبير بالنّاس دون المؤمنين لبيان ذلك العموم.

غرض التَّعبير بالفاصلة ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾:

رجاء تحقُّق الذِّكرى هو العلَّة والمقصد من ضرب الأمثال

الجملة في قوله تعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ استئنافيّة استئنافًا بيانيًّا[1]، جيء بها إجابة لسؤالٍ نشأ عن البيان السّابق، فكأنَّه قيل: لماذا يضرب اللّه تعالى الأمثال للنّاس؟ فقيل: "رجاء تذكُّرهم، أي:

(1) صافي، الجدول في إعراب القرآن: 7/185.

تهيئة التذكُّر لهم"[1]، وفيه إشارة إلى أنَّ المراد من ضرب الأمثال، وإيرادها بصور مختلفة، إنَّما هو لغاية التَّذكير للعباد، فالمرجوُّ من ذلك هو تحقيق الذِّكرى.

غرض التَّعبير بأسلوب التَّرجّي:

يُنزَّل الرَّجاء في القرآن منزلة الواعظ المشفق فليس كمِثْلِه سبحانه محبٌّ لعباده

جعل النَّظم الكريم الغايةَ من ضرب الأمثال رجاءَ تذكُّر النّاس، فقال جلَّ شأنه: ﴿وَيَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ﴾، ومعنى الرَّجاء لا يصحُّ إسناده لله تعالى، فيكون المعنى: يضرب الله تعالى الأمثال لعباده ليكون حالهم كحال من يرجى له التَّذكُّر[2]، "فالرّجاء ليس من الله تعالى الذي يعلم كلَّ شيء، ولا يغيب عن علمه شيء في الأرض ولا في السّماء"[3]. فإنَّ الله تعالى يخاطب النّاس في القرآن على وفق ما جرت عادتهم في التَّعبير، فالشَّخص المحبُّ للنّاس يقف واعظًا للنّاس، راجيًا من ذلك أنْ يفقهوا، ويؤمنوا، فخطاب الرَّجاء في القرآن منزَّل منزلة خطاب ذلك المحبّ الحريص على هداية النّاس يرجو لهم الفقه والإيمان.

دلالة التَّعبير بخبر لعلّ: ﴿يَتَذَكَّرُونَ﴾:

ضرب الأمثال متجدِّد وما يرجى منه متجدِّد بالضَّرورة

جيء بخبر حرف الرَّجاء جملة فعليَّة فعلها مضارع في قوله تعالى: ﴿لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ﴾ للدَّلالة على ضرب الأمثال، يُرتجى منه تحقُّق التَّذكُّر على وجه الدَّوام والاستمرار، أي: يُرتجى من تلك الأمثال دوام تذكُّرهم وتجدُّده، لا سيَّما، وأنَّ ضرب الأمثال عبَّر عنه بالفعل المضارع في قوله جلَّ وعزَّ: ﴿وَيَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَالَ لِلنَّاسِ﴾ فلمّا كان ضرْبُ الأمثال متجدِّدًا؛ كان ما يرجى من ذلك الضَّرب المتجدِّد هو التَّذكُّر الدائم المستمرُّ.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/225.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 10/413.
(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 8/4021.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(تؤتي) و(تعطي):

الإيتاء أثبت وأبلغ في إيصال الشَّيء

جاء في البرهان للزَّركشيِّ: "إنَّ الإتيان أقوى من الإعطاء في إثبات مفعوله؛ لأنَّ الإعطاء له مطاوع، يُقال: أعطاني، فَعَطَوْتُ، ولا يُقال في الإتيان: أتاني، فأتيتُ، وإنَّما يُقال: آتاني، فأخذْتُ، والفعل الذي له مطاوع أضعفُ في إثبات مفعوله من الّذي لا مطاوع له؛ لأنَّك تقول: قطعته، فانقطع، فيدلُّ على أنَّ فعل الفاعل كان موقوفًا على قَبول المحلِّ، ولولاه لما ثبت المفعول، ولهذا يصحُّ: قطعْتُه فما انقطع، ولا يصحُّ فيما لا مطاوع له ذلك، فلا يجوز أن يقال: ضربتُه، فانضرب، أو ما انضرب، ولا: قتلتُه، فانقتل، أو ما انقتل؛ لأنَّ هذه الأفعال إذا صدرت من الفاعل؛ ثبت لها المفعول في المحلِّ، والفاعل مستقلٌّ بالأفعال التي لا مطاوع لها، فالإيتاء إذًا أقوى من الإعطاء"[1]، وفي الآية الكريمة عبَّر بالإيتاء؛ لأنَّ إيتاء الثَّمر دائمٌ ثابت كلَّ حين.

(أُكُلُها) و(ثمرها):

أُكُل الأشجار أخصُّ من ثمارها لدلالته على صلاح الأكل

الأُكُل: الشَّيءُ المأكولُ، قال تعالى: ﴿أُكُلُهَا دَآئِمٌ﴾ [الرّعد: 35]؛ أيْ: مأكولُها، وقوله: ﴿ءَاتَتْ أُكُلَهَا﴾ [الكهف: 33]، أي: ما تُثمرهُ، فيؤكَلُ[2]. وأمّا الثَّمر؛ فهو شَيْءٌ يَتَوَلَّدُ عَنْ شَيْءٍ مُتَجَمِّعًا[3]، وهو: حَمْلُ الشَّجَرِ، وأنواعُ المالِ. والولدُ: ثَمَرَةُ القَلْبِ[4]. فالثَّمر لفظ عامٌّ بحمل الأشجار، وما يتولَّد منها في النتيجة، أمّا الأُكل؛ فهو ما يؤكَلُ، وفي الآية آثر النَّظم الجليل التَّعبير بالأُكل دون الثَّمر؛ لأنَّه يتضمَّن التَّصريح بصلاح الثَّمر لأن يؤكل، فهو أخصُّ من الثَّمر؛ إذ ليس كلُّ ثمرة

(1) الزّركشي، البرهان: 4/85.
(2) السّمين، عمدة الحفاظ: (أكل).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ثمر).
(4) ابن منظور، اللسان: (ثمر).

صالحة للأكل، وهذا أنسب في التَّمثيل بالشَّجرة الطَّيِّبة، فمن تمام كمالها أنَّ ثمرها مأكول مستساغ.

(حين) و(وقت):

الحين في الأصل الزَّمانُ، فهو الزَّمانُ قَليلُهُ وَكَثيرُهُ[1]. ويتعيَّن بأنَّه وقت بلوغ الشَّيء وحصوله، وهو مبهم المعنى، ويتخصَّص بالمضاف إليه، نحو قوله تعالى: ﴿وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ۝٣﴾ [ص: 3][2]، أمّا الوقت؛ فهو أَصْلٌ يَدُلُّ عَلَى حَدِّ شَيْءٍ وَكُنْهِهِ في زَمانٍ وَغَيْرِهِ، مِنْهُ الوَقْتُ: الزَّمانُ المَعْلومُ[3]. وهو: مقدارٌ مِنَ الزمانِ، وكلُّ شَيْءٍ قَدَّرْتَ لَهُ حينًا، فَهوَ مُؤَقَّتٌ[4]، وهو: نهاية الزّمان المفروض للعمل[5]، فيلاحظ أنَّ الحين هو الزَّمان، ويختصُّ بأنَّه زمان حصول الشَّيء، أمّا الوقت؛ فهو لا يختصُّ بالزَّمان؛ بل بكونه حدًّا لشيء وضع له وقت أو غير وقت، وفي الآية الكريمة آثر النَّظم الجليل التَّعبير بالحين تعبيرًا عن زمان حصول إثمارها.

الحين زمان حصول الشَّيء، والوقت حدُّ الشَّيء زمانًا ومكانًا

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حين).
(2) الراغب، المفردات: (حين).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (وقت).
(4) ابن منظور، اللسان: (وقت).
(5) الراغب، المفردات: (اوقت).

المحتويات

الجزء الثالث عشر	**7**
سورة الرّعد	**9**
- [الرّعد: 16]	10
- [الرّعد: 17]	31
- [الرّعد: 18]	64
- [الرّعد: 19]	82
- [الرّعد: 20]	96
- [الرّعد: 21]	109
- [الرّعد: 22]	119
- [الرعد: 23]	139
- [الرّعد: 24]	149
- [الرّعد: 25]	154
- [الرّعد: 26]	164
- [الرّعد: 27]	175
- [الرّعد: 28]	186
- [الرّعد: 29]	192
- [الرّعد: 30]	208
- [الرّعد: 31]	236
- [الرّعد: 32]	285
- [الرّعد: 33]	299
- [الرّعد: 34]	327
- [الرّعد: 35]	335
- [الرّعد: 36]	354
- [الرّعد: 37]	374
- [الرّعد: 38]	389
- [الرّعد: 39]	405
- [الرّعد: 40]	414
- [الرّعد: 41]	425
- [الرّعد: 42]	437
- [الرعد: 43]	448
سورة إبراهيم	**466**
- [إبراهيم: 1 - 2]	474
- [إبراهيم: 3]	498
- [إبراهيم: 4]	515
- [إبراهيم: 5]	527
- [إبراهيم: 6]	547
- [إبراهيم: 7]	565
- [إبراهيم: 8]	574
- [إبراهيم: 9]	580
- [إبراهيم: 10]	596
- [إبراهيم: 11]	613
- [إبراهيم: 12]	628
- [إبراهيم: 13]	640
- [إبراهيم: 14]	651
- [إبراهيم: 15]	659
- [إبراهيم: 16]	666
- [إبراهيم: 17]	673
- [إبراهيم: 18]	685
- [إبراهيم: 19 - 20]	697
- [إبراهيم: 21]	713
- [إبراهيم: 22]	737
- [إبراهيم: 23]	768
- [إبراهيم: 24]	778
- [إبراهيم: 25]	794

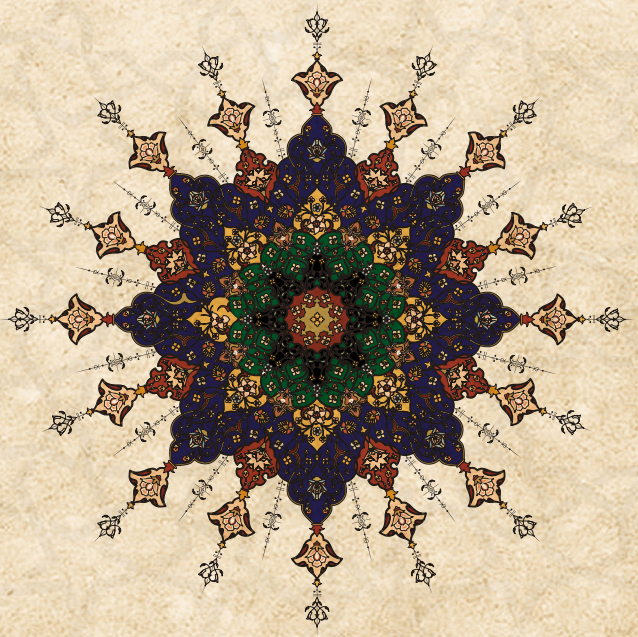

مجمع القرآن الكريم بالشارقة

موسوعة التفسير البلاغي

المُجَلَّدُ الخَامسُ والعِشرونَ

سورة إبراهيم من الآية 26 إلى سورة الحِجْر الآية 99

موسوعة التفسير البلاغي

حكومة الشارقة
Government of Sharjah
مجمع القرآن الكريم بالشارقة
HOLY QURAN ACADEMY IN SHARJAH

موسوعة التفسير البلاغي

المُجَلَّدُ الخَامسُ والعِشرونَ

سورة إبراهيم من الآية 26 إلى سورة الحِجْر الآية 99

نُخْبَةٌ مِنْ عُلَماء مَجْمَعِ القُرْآنِ الكَرِيمِ بِالشّارِقَةِ

منشورات القاسمي
AL QASIMI PUBLICATIONS
20/24

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الخامس والعشرون، سورة إبراهيم من الآية 26 إلى سورة الحِجْر الآية 99
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الخامس والعشرون، سورة إبراهيم من الآية 26 إلى سورة الحِجْر الآية 99
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 25 ، 812 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-22-7
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 25 : المجلد الخامس والعشرون، سورة إبراهيم من الآية 26 إلى سورة الحِجْر الآية 99.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-768-22-7
*
إذن طباعة رقم:MC-03-01-3019282 بتاريخ 2024/02/23م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الجُزْءُ الثَّالِثَ عَشَرَ

سُورَةُ إِبْرَاهِيمَ

﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجۡتُثَّتۡ مِن فَوۡقِ ٱلۡأَرۡضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٖ ٢٦﴾ [إبراهيم: 26]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

بعد التَّمثيل لحال المؤمنين إيراد التَّمثيل لحال الكافرين

بعد أن بيَّن النَّظم الجليل المثل الذي وصف به الإيمان وأهله، وشبَّه كلمة الإيمان الطَّيِّبة بالشَّجرة الطَّيِّبة؛ أتبعه بالتَّمثيل لحال أهل الكفر مشبِّهًا إيّاهم بالشَّجرة الخبيثة، فقال: ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ﴾[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿خَبِيثَةٍ﴾: أصْلُ الخُبْثِ: الرَّداءَةُ والسّوءُ، والخُبْثُ: الفَسادُ، يُقال: خَبُثَ الرجلُ، يَخْبُث، خَباثَةً وخُبْثًا، أيْ: فَسَدَ، وأخبثَه غيره، أي: علَّمه الخُبثَ وأفسدَه، والخَبيثُ والخابِثُ: الفاسِدُ مِن كُلِّ شَيْءٍ، وضِدُّه: الطَّيِّب[2]. والخُبُثُ: الشَّياطينُ لِفَسادِها، ويأْتي الخُبْثُ بِمعنى الكَراهَةِ، والأخْبَثانِ: البَوْلُ والغائِطُ، ويُطْلَق على الشَّرِّ بِجَميعِ أنْواعِه[3]، والمقصود بالكلمة الخبيثة في الآية: الشَّديدةُ سوءًا، التي تنبعث من خُبثِ النَّفسِ، وضَلالِ الفِكْرِ، والمراد بها: كَلِمةُ الكُفرِ واعتقادُ الشِّركِ.

2) ﴿ٱجۡتُثَّتۡ﴾: أصلُ الجَثِّ: القَطْعُ مُطْلَقًا، وَقيلَ: قَطْعُ الشَّيْءِ مِنْ أصله، وَقيلَ: انتزاعُ الشَّجَرِ مِنْ أُصوله؛ والاجْتثاث أوْحى مِنْهُ[4]، يُقالُ: جَثَثْتُه، واجْتَثَثْتُه، فانجَثَّ، والجُثَّةُ: جُثَّةُ الإنسانِ؛ إذا كانَ قاعِدًا أوْ نائِمًا[5]. وَشَجَرَةٌ مُجْتَثَّة: لَيْسَ لَها أصل في الأرض[6]،

(1) البقاعي، نظم الدرر: 10/413.
(2) الجوهري، الصحاح، وابن فارس، مقاييس اللغة: (خبث).
(3) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (خبث).
(4) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (جث - جثث).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (جث).
(6) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن سيده، المحكم: (جث).

وَمَعْنَى اجْتُثَّ الشَّيءُ: أُخِذَتْ جُثَّتُه بِكَمالِها، وجَثَّه: قَلَعه، والجَثيثةُ النَّخْلَةُ الَّتي كانَتْ نَواةً، فحُفِرَ لَها، وحُمِلَتْ بجُرْثومَتها، وَقَدْ جُثَّتْ جَثًّا[1]. والمراد بالاجْتِثاثِ في الآية: قَطْعُ الشَّيْءِ كُلِّه، مُشْتَقٌّ مِنَ الجُثَّةِ، وَهيَ الذّاتُ[2].

3) ﴿قَرَارٍ﴾: أصلُ القَرارِ: الثُّبوتُ والتَّمَكُّنُ، يُقال: قرَّ الشَّيْءُ، يَقِرُّ، قَرارًا: إذا ثَبَتَ في مَكانِه، ولم يَتَحَوَّلْ، ويأْتي بِمعنى: الاقْتِرانِ والتَّلازُمِ، يُقالُ: قَرَّ الشَّيْءُ بِالشَّيْءِ: إذا قُرِنَ بِه، وتَرافَقَ مَعَهُ، ويُطْلَقُ القَرارُ على الشَّيْءِ الثّابِتِ الباقي في مَكانِه أو على حالَتِه كالأَرْضِ والبِناءِ، ومِنْ مَعانيه أيضًا: الإقامَةُ، والاطْمِئْنانُ، والسُّكونُ[3]، والمراد بالقَرارِ في الآية: الثُّبوتُ في المَكانِ.

❁ المَعْنى الإجْمالِيُّ:

يقول الحقُّ سبحانه: ومَثَلُ كَلِمةٍ خَبيثةٍ – وهي كَلِمةُ الكُفرِ واعتقادُ الشِّركِ – كشَجَرةٍ كريهةِ الطَّعمِ، مِثْلِ الحَنظلِ، فلا أصلَ لها ثابتٌ في الأرضِ، ولا ارتفاعَ لفُروعِها في السَّماءِ، وليس لها ثمرةٌ ولا مَنفعةٌ، وكذلك كُفرُ الكافِرِ؛ فلا يعمَلُ مع كُفْرِه خيرًا، ولا يَقولُه، ولا يجعَلُ اللهُ فيه بركةً ولا مَنفعةً، ولا يصعَدُ عَمَلُه ولا قَولُه إلى السَّماءِ، استُؤصِلَت هذه الشَّجرةُ الخبيثةُ، واقتُلِعَت مِن أصلِها؛ فليس لها عُروقٌ وجُذورٌ ثابِتةٌ في الأرضِ تُمسِكُها، وكذلك الكُفرُ؛ لا أصلَ له ولا فَرعَ، ولا يَثبُتُ ثُبوتًا نافِعًا في قَلبِ صاحِبِه، ولا يصعَدُ للكافِرِ عمَلٌ، ولا يُتقبَّلُ منه شَيءٌ[4].

كَلِمةُ الكُفرِ ليس لها ثُبوتٌ نافِعٌ في القَلبِ، ولا تُثمِرُ إلّا كُلَّ قَولٍ خَبيثٍ

(1) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (جث، جثث).

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/225.

(3) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح، وابن سيده، المحكم: وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (قرر).

(4) ابن جرير، جامع البيان: 13/652، 654، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 9/361، والمراغي، تفسير المراغي: 13/149.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالة الواو في صدر الآية:

إثر التَّمثيل عن الكلمة الطَّيّبة يُستأنف للتَّمثيل عن الخبيثة

افتتح النَّظم الجليل الجملة في قوله تعالى: ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ﴾ بالواو الاستئنافيَّة[1]، فبعد أن مثَّل للكلمة الطَّيِّبة بالشَّجرة الطَّيِّبة، كأنَّه قيل: وما مثل الكلمة غير الطَّيِّبة، فجيء بالجملة لبيان المثل المقابل لذلك التَّمثيل.

سرُّ إضافة ﴿وَمَثَلُ﴾ إلى ﴿كَلِمَةٍ﴾:

جيء بالتَّمثيل لبيان مكانة الكلمة

أضاف النَّظم البليغ لفظ المَثَل إلى الكلمة في قوله تعالى: ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ﴾ لبيان أنَّ المثل جيء به لبيان حال الكلمةِ، وذلك لأنَّ سياق الحديث ورد لبيان حال الكفر والإيمان بتمثيلهما بالشَّجرة، فإضافة المثل للفظ ﴿كَلِمَةٍ﴾ تنويهٌ بأنَّ الحديث جارٍ عنها لمكانة الكلمة في الشَّريعة، فـ "مهما عظَّم أولو الفكر من مقام الكلمة، وطلبوا لها من الحرّية والتَّقديس، لم يبلغوا في تقييمها ما أراد لها اللّه من التَّقدير والتَّقديس، وبيان عظيم خطرها في المجتمعات"[2].

الغرض من وصف الكلمة بـ ﴿خَبِيثَةٍ﴾:

كلمة الكفر عريقة في القبح والسّوء

وُصفت الكلمة بصفة الخُبث في قوله تعالى: ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ﴾ للدَّلالة على أنَّها بالغة في القبح والسّوء؛ لأنَّ كلمة الكفر تتضمَّن تكذيب الحقِّ، فهي خالية من أيِّ صفة من صفات الطّيب لعراقتها في الخبث[3]، وأفاد هذا الوصف تقييد التَّمثيل بكونه واردًا لبيان نقيض الكلمة الطَّيِّبة التي سبق ذكرُها، فالوصف بالخبيثة تخصيص للكلمة التي جيء بالمثل لبيان وجه السّوء والخبث والقباحة في كلمة الكفر.

---

(1) صافي، الجدول في إعراب القرآن: 7/186.
(2) صافي، الجدول في إعراب القرآن: 7/187.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 10/414.

غرض المقابلة بين ﴿طَيِّبَةٍ﴾ و﴿خَبِيثَةٍ﴾:

الجمع بين التَّشبيهيْن أبلغ في إظهار مقصد المقابلة

أجرى النَّظم الجليل مقابلة بين الإيمان والكفر في التَّمثيل لكلٍّ منهما في قوله تعالى: ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ﴾، وقوله جلَّ شأنه: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾﴾ [إبراهيم: 24]، والغرض من ذلك إظهار المقابلة بينهما لمزيد البيان بتمثيل كلِّ فريق بحالة على وجه الانفراد، "وكلُّ جزء من أجزاء إحدى الهيئتين يُقابله الجزء الآخر من الهيئة الأخرى، وذلك أكمل أحوال التَّمثيل أن يكون قابلًا لجمع التَّشبيه وتفريقه"[1].

سرُّ العدول عن الفعل (ضرب):

خُبث كلمة الكفر واضح بيِّن لا يحوج بيانه إلى ضرب المثل

أورد النَّظم الجليل المثل الثّاني في قوله تعالى: ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ﴾ مغايرًا للتَّمثيل الأوَّل؛ فلم يقل: (وضرب الله مثلًا كلمة خبيثة)، فتغيَّر الأسلوب في تمثيل الكلمة الخبيثة بالشَّجرة الخبيثة؛ "للإيذان بأنَّ ذلك غيرُ مقصود الضَّرب والبيان، وإنَّما ذلك أمرٌ ظاهرٌ يعرفه كلُّ أحد"[2]، فكونها خبيثة لا خير فيها لا يحوج أن تكون مقصدًا للتَّمثيل، فإنَّما هي حقيقة لا شبهة فيها، كما أنَّ في ذلك اختصارًا وإيجازًا في التَّعبير بأن اكتفي بدلالة الأوَّل على الثّاني[3].

سرُّ التَّعبير عن المَثَل بالجملة الاسميَّة:

قُبح الكفر حقيقة ثابتة، فمِنَ البلاغة أن يعبِّر عنها بما يدلُّ على الثُّبوت

آثر النَّظم الكريم التَّعبير في التَّمثيل الثّاني بالجملة الاسميَّة، فقال تعالى: ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ﴾، وقد جاء التَّعبير في التَّمثيل الأوَّل بالجملة الفعليَّة في قوله جلَّ شأنه: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/224.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/44، والقنّوجي، فتح البيان: 7/111.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/225.

﴿كَلِمَةً طَيِّبَةً﴾ [إبراهيم: 24]؛ لأنَّ اتِّصافَ الكفر بكونه قبيحًا حقيقةٌ معلومة معهودة ثابتة، فالأَوْلى أن يُعبَّرَ عنها بما يدلُّ على ذلك الثُّبوت، وهو الجلمة الاسميَّة، ومن بديع ما يُذكر هنا ما أفاده ابن عرفة؛ إذ نبَّه إلى أنَّ التَّمثيل للمؤمنين جاء بالجملة الفعليَّة: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا﴾ [إبراهيم: 24]، أمّا في مثال الكافر؛ فجيء بالجملة الاسميَّة ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ﴾؛ "لأنَّ المؤمن له حالتان؛ لأنَّه انتقل من الكفر إلى الإيمان، والكافر له حالة واحدة ثبت عليها، ولم ينتقل عنها، فلذلك عبَّر عن مَثَلِه بالاسم"[1].

غرض التَّشبيه التَّمثيلّي ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ﴾:

حالة الشَّجرة الخبيثة كحال الكافر في الانفصال عن أصله وخُلوِّه من الخير

أورد النَّظم الجليل التَّمثيل في قوله تعالى: ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾ تشبيهًا لحالة الكفر وخلوِّه من الفائدة والحسن بالشَّجرة التي لا يتوانى النّاس في انتزاعها لانتفاء فائدتها وشدَّة ضررها، فهي تُجتثُّ، فتكون في غاية الضَّعف، وتُقلِّبُها أقلُّ ريح، فالكافر مثل هذه الشَّجرة لا بقاء له ولا فائدة منه[2]، فالمشبَّه هو الحالة الحاصلة من انفصال عن الجذور، وما يسبِّبه من سوء للنَّفس برؤية تلك الشَّجرة الخالية من كلِّ نفع وثمر؛ بل تستوجب بذل الجهد لاقتلاعها حفظًا لصالح النَّبات منها، تشبيهًا لذلك بصفات الاضطراب في الاعتقاد وضيق الصَّدر وكدره لانفصاله عن خالقه.

غرض وصف الشجرة بـ﴿خَبِيثَةٍ﴾:

خلوُّ الشَّجرة من كلِّ ما يؤمَّل به من الخير يبين عن سوء المثيل

وصف النَّظم الجليل الشَّجرة الَّتي مُثِّلَ بها عن الكلمة بصفة الخُبث في قوله تعالى: ﴿كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ﴾ للدَّلالة على خلوِّ هذه الشَّجرة من صفات الجودة والخير تمثيلًا بها عن الكفّار، "فالكافر

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/448.
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 3/336.

يرى أنَّ بيده شيئًا، وهو لا يستقرُّ، ولا يغني عنه، كهذه الشَّجرة التي يُظنُّ بها - على بُعد أو للجهل بها - أنَّها شيء نافع، وهي خبيثة الجني غير باقية"[1]، فجاء الوصف ﴿خَبِيثَةٍ﴾ في كلا طرفي التَّمثيل المشبَّه والمشبَّه به للدَّلالة على أنَّ مورد التَّمثيل هو هذه الصِّفة، فالكلمة الخبيثة "لا تعيش في الوجود، وليس لها بقاء فيه؛ بل إنَّها تنتهي بانتهاء زمانها، وتنْزل من الأضرار بمقدار وقتها، كالسّعاية والنّميمة والكذب والخديعة والغيبة، وليس لها وجود إلّا بمقدار زمانها، وقد تضرّ، لكن عاقبتها وخيمة، وطعامها وبيء، ولا تبقى إلّا الكلمة الطّيبة"[2].

غرض وصف الشَّجرة بجملة فعلية:

الاجتثاث صفة حادثة تفصح عن سوء الشَّجرة

وصف النَّظم الجليل الشجرة بالجملة الفعليَّة في قوله تعالى: ﴿ٱجۡتُثَّتۡ مِن فَوۡقِ ٱلۡأَرۡضِ﴾ للدَّلالة على أنَّ الاجتثاث يقع بفعل فاعل، وليست هي صفة قارَّة فيها، فهي صفة حادثة تقع بها؛ "لأنَّ النّاس لا يتركونها تلتفُّ على الأشجار، فتقتلها"[3]، إشارة إلى أنَّها لا تحظى برضا النّاس وقَبولهم، فيعمدون إلى اجتثاثها في كلِّ زمان، اجتثاثًا متجدِّدًا، كما أنَّ فيه إشارة إلى نهايتها الكائنة بفعل فاعل تعبيرًا عن قصر عمرها.

سرُّ التَّعبير بالماضي ﴿ٱجۡتُثَّتۡ﴾:

اجتثاث الشَّجرة الخبيثة مكرَّر محقَّق الوقوع على وجه المبادرة والسُّرعة

آثر النَّظم الكريم وصْفَ الشَّجرة بالجملة الفعليَّة بالزَّمن الماضي في قوله تعالى: ﴿ٱجۡتُثَّتۡ مِن فَوۡقِ ٱلۡأَرۡضِ﴾؛ لأنَّ التَّعبير بالفعل الماضي يدلُّ على تحقُّقِ الفعل وإنجازه، وفي ذلك إشارة إلى مبادرة النّاس وسرعتهم في اجتثاثها، فهو اجتثاث محقَّق ومنجَزٌ، وهذا يومئ إلى شدَّة كراهة النّاس لها لشدَّة ضررها وانتفاء نفعها.

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 3/336.
(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 8/4022.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/225.

دلالة التَّعبير بالمبني للمفعول ﴿ٱجۡتُثَّتۡ﴾:

اجتثاث الشَّجرة الخبيثة هو المقصود في ذمِّها لا بكونه من مُعيَّن

آثر النَّظم الكريم التَّعبير بالفعل المبني للمفعول في قوله تعالى: ﴿ٱجۡتُثَّتۡ مِن فَوۡقِ ٱلۡأَرۡضِ﴾؛ إذ "لمّا كان من أنفع الأمور إعدامُها، والرّاحةُ من وجودها على أيِّ حالة كانت؛ بنى للمفعول"[1]، فالفائدة تتحقَّق بذات الاجتثاث، لا بكونه من أحدٍ معيَّن، فليس مقصود الخطاب بيان الفاعل؛ إذ لا ميزة لفاعل دون غيره هنا، فالمقصود وصف الشَّجرة بكونها تُجتَثُّ تحقيرًا لشأنها.

سرُّ تقييد الاجتثاث ﴿مِن فَوۡقِ ٱلۡأَرۡضِ﴾:

الشَّجرة الخبيثة مستقرَّة على سطح الأرض لا جذور ممتدَّة لها فيها

آثر النَّظم الكريم تقييد الاجتثاث بكونه واقعًا من الفوقيَّة في قوله تعالى: ﴿ٱجۡتُثَّتۡ مِن فَوۡقِ ٱلۡأَرۡضِ﴾، ولم يقل: (اجتثَّت من الأرض)؛ إذ ليس لها أصل ثابت يمتدُّ في الأرض؛ بل عروقها في وجه الأرض وعلى سطحها، وليس لها فرعٌ صاعد إلى السَّماء؛ بل ورقها يمتدُّ على الأرض، فالكفر وكلمته لا حجَّة له ولا ثبات فيه ولا خير يأتي منه[2]. "فكما أنَّ هذه لا ثبات لها ولا دوام، فكذلك الباطل لا يدوم، ولا يثبت؛ بل هو زائل ذاهب، وثمره مرٌّ كريه كالحنظل"[3]. كما أنَّ في هذا التَّقييد إظهارًا للمقابلة بين التَّمثيلين؛ فلمّا جيء بصفة ثبات الأصل في تمثيل الكلمة الطَّيِّبة بالشَّجرة الطَّيِّبة، وبأنَّ فرعها في السّماء، جيء هنا بما يقابل ذلك[4]، وهو الانفصال من الجذور للدَّلالة على انتفاء الثَّبات.

دلالة النّفي في قوله: ﴿مَا لَهَا﴾:

حقيقة الشَّجرة الخبيثة أنَّها منعدمة القرار من الأصل

جاء أسلوب النَّفي في قوله تعالى: ﴿مَا لَهَا مِن قَرَارٖ﴾ بنفي الجملة الاسميَّة للمبالغة في نفي صفة الاستقرار عن هذه الشَّجرة،

(1) البقاعي، نظم الدرر: 10/414.
(2) القنّوجي، فتح البيان: 7/111، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 8/4022.
(3) المراغي، تفسير المراغي: 13/149.
(4) الزمخشري، الكشاف: 2/553.

فيتحصَّل معنى الثُّبوت في النَّفي، فالصِّفة هذه منتفية انتفاء ثابتًا، لا ينتقض بمرِّ الزَّمان، لأنَّ حقيقة الشَّجرة الخبيثة كذلك، فالكفر المشبَّه بها ضعيف واهن، لا قرار له، متَّصف بذلك على وجه الرُّسوخ، فهو داحض غير ثابت، لا بقاء له، فهو يضمحلُّ عن قريب لبطلانه[1]. فـ "الكافر وكلمته لا حجَّة له ولا ثبات فيه، ولا خير يأتي منه أصلًا، ولا يصعد له قول طيّب ولا عمل طيب"[2].

دلالة حرف الجرِّ في ﴿مِن قَرَارٍ﴾:

انتفاءُ القرار عن الشَّجرة الخبيثة مستغرقٌ لكلِّ وجه القرار

أدخل النَّظم الجليل حرف الجرِّ ﴿مِن﴾ في قوله تعالى: ﴿مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾ للدَّلالة على التَّعميم، فإنَّ إدخال حرف الجَرِّ الزّائد على النَّكرة الواقعة في حيِّز النَّفي يفيد الاستغراق في النَّفي[3]، تأكيدًا لانتفاء وجود القرار، فالنَّفي مستغرق لكلِّ وجوه الاستقرار، تأكيدًا لنفي البقاء والنَّفع عنها، وبهذا وقعت المشابهة بينها وبين كلمة الكفر الخبيثة، فهي خُلوٌ من النَّفع والحقِّ والبقاء.

موقع جملة ﴿مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾ ودلالته:

انتفاء القرار تأكيد للاجتثاث وتعليل له

الجملة في قوله تعالى: ﴿مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾ جيء بها لتأكيد معنى الاجتثاث المذكور في الجملة التي قبلها في قوله جلَّ شأنه: ﴿ٱجۡتُثَّتۡ مِن فَوۡقِ ٱلۡأَرۡضِ﴾؛ لأنَّ الاجتثاث دالٌّ على انعدام القرار[4]. كما أنَّ فيها دلالة على سبب الاجتثاث، فجيء بها بعد ذكر الاجتثاث من فوق الأرض لبيان علَّة ذلك[5]، فهي لافتقارها للجذور الغائرة في الأرض أحالها أن تكون طفيليَّة ضارَّة لغيرها، فاتَّصفت بالاجتثاث وانعدام القرار.

(1) الزمخشري، الكشاف: 2/554.
(2) الشّوكاني، فتح القدير: 3/128.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 10/414.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/225.
(5) البقاعي، نظم الدرر: 10/414.

جمال المقابلة في المَثَلَيْن السّابقيْن:

إبراز المعاني وترغيب المخاطَب في الكلمة الطّيبة وتنفيره من الكلمة الخبيثة

في المَثَلَيْنِ المذكورين في الآيات السابقة مقابلة بين ثلاثة معانٍ، هي: ﴿كَلِمَةً طَيِّبَةً﴾ [إبراهيم: 24] و﴿كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾ [إبراهيم: 24] و﴿أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ ۝٢٤﴾ [إبراهيم: 24] قوبلت بثلاثة، هي: ﴿كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ﴾ و﴿كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ﴾ و﴿ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾، وفي ذلك ما فيه من إبراز المعنى، والتَّرغيب في الكلمة الطَّيِّبة، والتَّنفير من الكلمة الخبيثة.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

قرار وبقاء:

القرار تمكُّن وثبات، البقاء دوام ضدَّ الفناء

البقاء من (بَقِيَ) وَهوَ الدَّوامُ، يُقالُ: بَقِيَ الشَّيْءُ يَبْقَى بَقاءً، وَهوَ ضِدُّ الفَناءِ[1]. وأمّا القرار؛ فمن (قَرَّ)، وهو يَدُلُّ عَلَى تَمَكُّنٍ، يُقالُ: قَرَّ، واسْتَقَرَّ[2]. قَرَّ في مكانه يَقِرُّ قَرارًا؛ إذا ثبت ثبوتًا جامدًا، وقوله: ﴿ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾ أي: ثبات[3]، فالقرار يدلُّ على الثَّبات والتَّمكُّن، أمّا البقاء؛ فيدلُّ على دوام الوجود بخلاف الفناء، وفي الآية الكريمة آثر النَّظم الكريم التَّعبير بالقرار؛ لأنَّه أراد بيان أنَّ كلمة الكفر لا ثبات لها، فهي متقلِّبة متردِّدة لوصف حال الكافر.

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بقي).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قرّ).
(3) الراغب، المفردات: (قرّ).

﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلۡقَوۡلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَۚ وَيَفۡعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ٢٧﴾ [إبراهيم: 27]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

بعد أن أجرى النَّظم الكريم التَّمثيل على الكلمتين الطيِّبة والخبيثة بالشَّجرة الطَّيبة والخبيثة، وكان المقصود من ضرب ذلك المثل بيان حال أصحابهما؛ أتبع ذلك التَّمثيل التَّصريح بحالهما[1]، فبعد "أن وصف الكلمة الطَّيِّبة بما سلف أخبر بفوز أصحابها ببغيتهم في الدُّنيا والآخرة، فقال: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلۡقَوۡلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ﴾"[2].

بعد بيان الحقِّ بتمثيله بالشَّجرة الطَّيِّبة أعقبَهُ ببيان حال أهله

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يُثَبِّتُ﴾: أصلُ (ثبت): كَلِمَةٌ واحِدَةٌ، تدلُّ على دَوامِ الشَّيءِ، يُقالُ: ثَبَتَ ثَباتًا وَثُبوتًا[3]، ومنه: أَثْبَتَ حُجَّتَهُ: أقامَها، وثَبَتَ القَوْلُ والأمْرُ: وَضَحَ، ورَجُلٌ ثَبْتٌ: أي: حُجَّةٌ، والثّابِتُ: اللّازِمُ الواقِفُ[4]. ويُقال: ثبَتَ فلان في الأمر، أي: صحَّت عزيمته فيه وداوم عليه؛ ويقال أيضًا: ثبَّتُّ فلانًا في الأمر، أي: جعلته ثابتًا فيه، لا يتزعزع عنه، ولا يضطرب، وقوَّيت رأيه فيه[5]. وحَقيقَةُ التَّثبيت في الآية: جَعْلُ الشَّيءِ ثابِتًا قارًّا في مَكانٍ، والمراد به: أنَّ اللّه يسَّر لَهُم فَهْمَ الأقْوالِ الإلَهيَّةِ على وَجْهِها، وَإدْراكَ دَلائِلِها حَتَّى اطْمَأنَّتْ إلَيْها

(1) القاسمي، محاسن التأويل: 6/314.
(2) المراغي، تفسير المراغي: 13/150.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ثبت).
(4) ابن عباد، المحيط في اللغة: (ثبت).
(5) الفيروزاباديّ، بصائر ذوي التمييز: 2/347، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 2/985.

قُلوبُهُم، وَلَمْ يُخامِرْهُم فيها شَكٌّ، فَأَصْبَحوا ثابِتينَ في إيمانِهِم غيرَ مُزَعزعينَ، وعاملين بِها غَيْرَ مُتَرَدِّدينَ[1].

2) ﴿بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ﴾: القَوْلُ: مَصْدَر قالَ، ومَعناهُ: الكَلامُ على التَّرْتيبِ، أو كُلُّ لَفْظٍ نَطَقَ به اللِّسانُ، سواء كان مُفيدًا أم لم يَكُن، يُقال: قالَ، يَقولُ، قَوْلًا، أيْ: تَكَلَّمَ كلامًا، والقَوْلُ يَقَعُ على الكَلامِ التّامِّ، وعلى الكلِمَةِ الواحِدَةِ على سَبيلِ الحَقيقَةِ، ويُسْتَعْمَلُ بِمعنى جَميعِ الأفْعالِ، كَقَوْلِهِم: قالَ بيَدِهِ هكذا، أيْ: أخَذَ، وقالَ بِرِجْله، أيْ: مَشَى، ومِن مَعانيهِ أيضًا: القيلُ، والمَقالَةُ، والمَذْهَبُ، والحُكْمُ، والجَمْعُ: أقْوالٌ[2]. والمقصود بالقَول الثّابت في الآية: القَوْلُ: الكَلامُ. والثّابِتُ: الصّادِقُ الَّذي لا شَكَّ فيهِ، والمُرادُ بِهِ: أقْوالُ القُرْآنِ؛ لأنَّها صادِقَةُ المَعاني واضِحَةُ الدَّليلِ[3].

3) ﴿وَيُضِلُّ ٱللَّهُ﴾: أصلُ (ضلّ): يدلُّ على ضَياعِ الشَّيْءِ وَذَهابِهِ في غَيْرِ حَقِّهِ[4]. والضَّلال: الغَيبوبَةُ والخَفاءُ والسَّتْرُ، يُقالُ: ضلَّ الماءُ في اللَّبن؛ إذا غاب، وضلَّ الكافِرُ: غابَ عَن الحُجَّة، وضلَّ النّاسي؛ إذا غابَ عَنهُ حِفْظُه[5]. والضَّلالُ أيضًا: الانحرافُ والميلُ عنِ الطَّريقِ، يُقالُ: ضلَّ فلانٌ، يَضلُّ، ضلالًا: إذا انحرفَ، وضاعَ، ولم يهتدِ إلى الطَّريق، وضَلَلْتُ الشَّيْءَ أضِلُّهُ؛ إذا جعلته في مَكان، وَلم تَدْرِ أين هوَ، وأضْلَلْتُه، أي: أضَعْته[6]، ورجلٌ مُضَلَّل، أي: لا يوفَّق لخيرٍ، صاحبُ غَواياتٍ وبَطالاتٍ. وضِدُّه: الاهتداءُ، والاستقامةُ، والرَّشادُ[7]. والمقصود بالضَّلالِ في الآيةِ: اضْطِرابٌ وارْتِباكٌ، فهو الأثَرُ المُناسِبُ لسَبَبِهِ، أعْني: الكَلِمَةَ الَّتي اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الأرْضِ، كَما دَلَّتْ عليه المُقابَلَةُ[8].

المَعْنى الإجْمالِيُّ:

يقولُ الحقُّ سبحانه: يُثَبِّتُ اللّه تعالى الَّذين صدّقوا برسالة الأنبياءِ والمرسلين،

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/226.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، الجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب: (قول)، والنووي، تهذيب الأسماء واللغات: 4/106، والمناوي، التوقيف على مهمات التعاريف، ص: 277.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/226.
(4) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة: (ضلّ).
(5) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن عباد، المحيط في اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (ضلّ).
(6) الأزهري، تهذيب اللغة: (ضلّ).
(7) ابن عباد، المحيط في اللغة: (ضلّ).
(8) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/226.

يثبِّتهم على دينهم ويقينهم بسبب اعترافهم الثّابت بتوحيد اللّه وطمأنينتهم به، فلم تهزَّهم الشُّكوك، ولم يزلزلهم الإيذاءُ أو التَّشكيك، فيَظلّون على ما هم عليه مِنَ اليَقين الثّابت في الحياةِ الدُّنيا، لا تُزحزحهم عنه الشَّدائد والفِتَن، وإن كانت كموج البحر أو كقِطع اللَّيل المُظلم، ويَخذُلُ اللّهُ الكافرينَ والمُنافقينَ - بسبَبِ ظُلمِهم أنفُسَهم - فيَجعَلُهم في حَيرةٍ وعَمايةٍ، فلا يوَفِّقُهم إلى الحَقِّ في الحياةِ الدُّنيا، ولا يوَفِّقُهم في قُبورِهم إلى القَولِ الصّائِبِ حين يُسألونَ عن الإيمانِ باللّهِ ﷻ وبرَسولِه ﷺ[1].

أثبتُ القولِ كَلِمةُ التوحيدِ ولوازِمُها؛ فهي أعظَمُ ما يثَبِّتُ اللهُ بها عبدَه في الدُّنيا والآخرةِ

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالة الاستئناف في الآية:

الجملة في قوله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلۡقَوۡلِ ٱلثَّابِتِ﴾ مستأنفة استئنافًا بيانيًّا؛ إذ سيقت جوابًا لسؤال نشأ عن الكلام السّابق، كأنَّه قيل: إنّا نجد النُّفوس مائلة إلى الضَّلال، فكيف لنا بالامتثال؟ فقيل: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ﴾[2]، فالاستئناف البيانيّ في الآية نشأ "عمّا أثاره تمثيل الكلمة الطَّيِّبة بالشَّجرة الثّابتة الأصل بأن يُسأل عن الثَّبات المشبَّه به: ما هو أثره في الحالة المشبَّهة؟ فيجاب بأنَّ ذلك الثَّبات ظهر في قلوب أصحاب الحالة المشبَّهة، وهم الذين آمنوا؛ إذا ثبتوا على الدّين، ولم يتزعزعوا فيه؛ لأنَّهم استثمروا من شجرة أصلها ثابت"[3].

يثبِّت اللهُ تعالى عبادَه الصّالحين، كثبوت الشَّجرة الطَّيِّبة ثابتة الأصل

دلالة التَّعبير بالمضارع ﴿يُثَبِّتُ﴾:

آثر النَّظم الكريم التَّعبير بالفعل المضارع في قوله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلۡقَوۡلِ ٱلثَّابِتِ﴾؛ لأنَّ تثبيته تعالى لعباده المؤمنين

منَّة الله تعالى على عباده المؤمنين بالثَّبات دائمة لا تتغيَّر

(1) ابن جرير، جامع البيان: 13/667، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 9/363، 364، والسعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 425، ومجمع البحوث، التفسير الوسيط: 5/492.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 10/414.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/226.

دائم مستمرٌّ بكلّ زمان، والتَّعبير بالمضارع عن ذلك يشير إلى أنَّها سنَّة إلهيَّة في الخلق، فكلُّ مؤمن في كلّ زمان ومكان سيجد تثبيت اللّه تعالى له بالقول الثّابت.

غرض التَّعبير بالمسند إليه لفظ الجلالة:

ما أُسند إلى لفظ الجلالة دلَّ على تعظيم شأنه

أسند النَّظم الجليل فعل التَّثبيت في قوله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلۡقَوۡلِ ٱلثَّابِتِ﴾ إلى لفظ الجلالة تعظيمًا لشأن ذلك التَّثبيت وتفخيمًا له، فاللّه تعالى هو ذاته ﷻ يثبِّت المؤمنين، دليلًا على إتقان التَّثبيت وتحقُّق ما يُرجى منه.

سرُّ التَّعبير بالمفعول به اسم موصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾:

إيقاع التَّثبيت على مَن أوجد الإيمان يدلُّ على قبول الله تعالى أقلَّ درجاته

آثر النَّظم الكريم التَّعبير بالاسم الموصول في قوله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلۡقَوۡلِ ٱلثَّابِتِ﴾ دون الاسم المصرِّح بالوصف، فلم يقل: (يثبِّت اللّه المؤمنين)؛ إشارةً إلى شمول ذلك التثبيت لكل من أحدث الإيمان، ولو جاء النَّظم بالوصف؛ لدلَّ على أنَّ التَّثبيت إنَّما يشمل من كان الإيمان صفة راسخة لهم، فلسعة رحمة الجليل قَبِل الذين "أوجدوا هذه الحقيقة ولو على أقلِّ درجاتها"[1].

دلالة التَّعبير بجملة الصِّلة فعلًا ماضيًا:

فعل الإيمان لِمَن ثبَّتهم الله تعالى حدثٌ منجزٌ محقَّقٌ

عبَّر النَّظم الجليل عن الإيمان بالفعل الماضي في قوله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلۡقَوۡلِ ٱلثَّابِتِ﴾ وهو مسوق ضمن صلة الموصول، للدَّلالة على تحقُّق الإيمان في الطّائفة التي يثبِّتها اللّه تعالى، وأنَّه حدثٌ قد وقع، وأُنجِز، وأنَّ التَّثبيت يجب أن يكون مسبوقًا بإحداث الإيمان.

دلالة الباء في ﴿بِٱلۡقَوۡلِ﴾:

تثبيت المولى الجليل عبادَهُ بِحِكَمِ القرآن ومعانيه القيِّمة

أدخل النَّظم الجليل حرف الجرِّ الباء في قوله تعالى: ﴿بِٱلۡقَوۡلِ ٱلثَّابِتِ﴾ للدَّلالة على السّببيّة، إذْ إنَّ تثبيتهم حاصل بسبب جريان

(1) البقاعي، نظم الدرر: 10/415.

مقولة التَّوحيد على ألسنتهم، وهو كائن بسبب أقوال القرآن المتضمِّنة المعاني الصّادقة، واضحة الدَّليل[1].

دلالة وصف القول بـ ﴿ٱلثَّابِتِ﴾:

وصف القول بالثَّبات؛ والثّابتُ الصّادِقُ الَّذي لا شَكَّ فيهِ، والمُرادُ بِهِ أقْوالُ القُرْآنِ؛ لِأنَّها صادِقَةُ المَعاني واضِحَةُ الدَّليلِ[2].

نكتة الجناس في ﴿يُثَبِّتُ﴾ و﴿ٱلثَّابِتِ﴾:

توفيق الله عباده المؤمنين وتثبيتهم

جاء وصف القول بالثبات من المادة نفسِها من الفعل ﴿يُثَبِّتُ﴾ إشارةً إلى توفيق الله لعباده المؤمنين، قال الآلوسيُّ ما ملخصه: "قوله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ﴾، أي: الذي ثبت عندهم، وتمكَّن في قلوبهم، وهو الكلمة الطيبة التي ذكرت صفتها العجيبة"[3].

غرض الطّباق بين الدّنيا والآخرة:

تثبيت المؤمنين دائم في كلِّ مراحل الوجود

قرن النَّظم الجليل في قوله تعالى: ﴿فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ بين الدُّنيا والآخرة في عبارة واحدة للمطابقة بينهما، فجيء بالطِّباق للتَّنبيه على أنَّ التَّثبيت كائن لهم في كلِّ زمان، فلا يُزالون عنه في الدُّنيا إذا افتُتِنوا في دينهم كزكريّا ويحيى عليهما السلام، ولا يتلعثمون إذا سُئلوا عن معتقدهم في الآخرة ولا تُدهشُهم أهوالُ القيامة[4]، "أي: يثبِّتهم بالكلمة الطَّيِّبة التي ذُكرت صفاتها العجيبة فيما سلف مدَّة حياتهم، إذا وجد من يفتنهم عن دينهم، ويحاول زللهم، كما جرى لبلال وغيره من أصحاب رسول الله ﷺ، وبعد الموت في القبر الذي هو أوَّل منزل من منازل الآخرة، وفي مواقف القيامة، فلا يتلعثمون، ولا يضطربون؛ إذا سئلوا"[5].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/226.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/226.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/204.
(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/44.
(5) المراغي، تفسير المراغي: 13/150.

دلالة الواو في ﴿وَيُضِلُّ﴾:

الجملة في قوله تعالى: ﴿وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَۚ﴾ معطوفة على الجملة المستأنفة في قوله جلَّ شأنه: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلۡقَوۡلِ ٱلثَّابِتِ﴾[1]، فبعد أن بيَّن وصف الشَّجرتين، وعقَّبه ببيان شأنه تعالى مع الفريقين، فبيَّن تثبيته للمؤمنين، وأتبعه بإضلاله لأهل الكفر، تتميمًا للمقابلة بين الفريقين، فبعد "أنْ وصف الكلمة الخبيثة في الآية المتقدِّمة؛ بيَّنَ حالَ أصحابِها"[2].

تثبيت أهل الإيمان يقابله إضلال أهل الظُّلم والكفران

دلالة التَّعبير بالمضارع ﴿وَيُضِلُّ﴾:

آثر النَّظم الكريم التَّعبير بالفعل المضارع في قوله تعالى: ﴿وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَۚ﴾ للدَّلالة على التَّجدُّد والاستمرار في ذلك، فضلالة الظّالمين دائمة لا تنقطع بمرِّ الزَّمان، فالتَّعبير بالمضارع عن ذلك ينبئ عن كونها سنَّة من سنن الله تعالى في خلقه، تقع مع كلِّ ظالم في أيّ زمانٍ ومكان.

ضلال الظّالمين سنَّة من سنن الله تعالى في خلقه

غرض التَّعبير بالاسم الجليل مسندًا إليه:

آثر النَّظم الكريم التَّعبير باسم الجلالة الدّالِّ على الكمال والعظمة والجلال، في قوله تعالى: ﴿وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَۚ وَيَفۡعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ للدَّلالة على التَّعظيم المناسب لمضمون السّياق؛ إذ تناول شأن الإيمان والهداية والضَّلال، فالله تعالى الذي له الأمر والسُّلطان هو يفعل ذلك[3].

ضلالة الإنسان وهدايته شأن عظيم وأمر خطير

دلالة التَّعبير بالمفعول به معرَّفًا ﴿ٱلظَّٰلِمِينَۚ﴾:

آثر النَّظم الكريم التَّعبير عن المفعول به في قوله تعالى: ﴿وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَۚ﴾ معرَّفًا باللّام للدّلالة على الجنس دلالة أي: أنَّ الله تعالى إنَّما يصرف عن الهداية أولئك الّذين صاروا من جنس

طريق الهداية لا ينال إلّا بالعدل، ولا سبيل للظّالم غير الضَّلال

(1) صافي، الجدول في إعراب القرآن: 7/188.
(2) المراغي، تفسير المراغي: 13/150.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 10/415.

الظّالمين، ولو جيء به نكرة؛ لكانَ المراد التَّكثير لا الجنس، فالتَّعريف يدلُّ على أنَّ إضلال الظّالمين سنَّة راسخة من سنن الله تعالى في خلقه، كما يحتمل أنَّه أراد بهم قومًا بعينهم، فالمراد به العهد، "ووصفُهم بالظُّلم إمّا باعتبار وضعهم للشَّيء في غير موضعِه، وإمّا باعتبار ظلمِهم لأنفسهم؛ حيث بدَّلوا فطرةَ الله التي فطرَ النّاسَ عليها، فلم يهتدوا إلى القول الثّابتِ، أو كلّ مَن ظلم نفسَه بالاقتصار على التَّقليد، والإعراضِ عن البيِّنات الواضحة، فلا يثبت في موقف الفتن، ولا يهتدي إلى الحق"[1].

دلالة الواو في ﴿وَيَفۡعَلُ﴾:

افتتح النَّظم الجليل الجملة في قوله تعالى: ﴿وَيَفۡعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ بالواو الاستئنافيَّة، للدَّلالة على أنَّ الجملة سيقت مساق التَّقرير والتَّذييل على التَّقسيم المتقدِّم في قوله: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، وقوله: ﴿وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَۚ﴾، كأنَّ سؤالًا أثير عن علَّة هذا التَّقسيم، فقيل: ﴿وَيَفۡعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ بحقِّ الملك[2].

الفعل بحسب المشيئة يقرِّر إرادة الله تعالى لعباده من التَّثبيت والإضلال

دلالة التَّعبير بالمضارع ﴿وَيَفۡعَلُ﴾:

آثر النَّظم الكريم التَّعبير بالفعل المضارع الدّالِّ على التَّجدُّد والدَّوام، في قوله تعالى: ﴿وَيَفۡعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾؛ للدَّلالة على أنّه تعالى دائم الفعل على وفق مشيئته، مستمرٌّ على ذلك الوصف، فالله ﷻ يجري أفعاله على ما يشاء في كلِّ زمان من أزمنة النّاس.

جريان أفعال الخالق وفق مشيئته على وجه التَّجدُّد

غرض التَّعبير بالاسم الجليل مُسندًا إليه:

أسند النَّظم الجليل الفعل إلى اسم الجلالة في قوله تعالى: ﴿وَيَفۡعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾؛ تعظيمًا لمضمون الخطاب، أي: إنَّ الله تعالى الّذي له الحكم والسُّلطان، وله الأمر كلُّه، هو يفعل ذلك، ويفعل ما

جريان الأفعال حسب المشيئة شأن عظيم؛ وهو من خصائص الألوهيَّة

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/44.

(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 3/337.

يشاء، فالتَّعظيم مناسب لتعليق فعله بالمشيئة، فإنَّ ذلك دالٌّ على التَّعظيم، فناسب ذلك أن يعبِّر باسم الجلالة.

دلالة الإظهارِ موضعَ الإضمار ﴿وَيَفۡعَلُ ٱللَّهُ﴾:

آثر النَّظم الكريم تكرار لفظ الجلالة في قوله تعالى: ﴿وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَۚ وَيَفۡعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾، فذكر لفظ الجلالة مرَّتين في جملتين متعاقبتين، ولم يكتفِ بالإضمار؛ بل وضع الظّاهر موضعَ المضمَرِ تربيةً للمهابة[1] وتعظيمًا لمضمون الكلام، كما أنَّ تكرار اللَّفظ يُقصَدُ منه أن تكون كلُّ جملة مُستقلَّةً بدلالتها، فتكون سائرة مسير المثل[2].

كمال سلطان الله تعالى وتأكيد إرادته يقع بالإظهار لا بالإضمار

دلالة التَّعبير بـ(ما) في: ﴿مَا يَشَآءُ﴾:

آثر النَّظم الكريم التَّعبير عن المفعول به بالاسم الموصول ﴿مَا﴾، في قوله تعالى: ﴿وَيَفۡعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾؛ للدَّلالة على عموم الأفعال، فكلُّ فعل داخل تحت مشيئته تعالى؛ لأنَّ كلَّ شيء كائن بحُكْمِه وقضائه[3]، كتثبيت المؤمنين وخذلان الظّالمين، لا رادَّ لحكمه ولا اعتراض عليه[4]، فاسم الموصول (ما) دالٌّ على العموم لما فيه من الإبهام، "وتحت إبهام ﴿مَا يَشَآءُ﴾ وعمومه مطاوٍ كثيرة من ارتباط ذلك بمراتب النُّفوس، وصفاء النّيّات في تطلُّب الإرشاد، وتربية ذلك في النُّفوس بنمائه في الخير والشَّرِّ حتّى تبلغ بذور تَينِك الشَّجرتين منتهى أمدهما من ارتفاعٍ في السَّماء واجتثاثٍ من فوق الأرض المعبَّر عنها بالتَّثبيت والإضلال، وفي كلِّ تلك الأحوال مراتب ودرجات لا تبلغ عقول البشر تفصيلها"[5].

سعة مشيئته وكثرة الأعمال لا تحدُّها حدود، فالإبهام أبلغ في التَّعبير عنها

(1) الشّوكاني، فتح القدير: 3/129.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/227.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 10/415.
(4) القنّوجي، فتح البيان: 7/113.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/227.

دلالة التَّعبير بالمضارع في ﴿يَشَآءُ﴾:

مشيئة المولى لا تتعلَّق بزمان دون غيره، فشأنها الدَّوام والاستمرار

آثر النَّظم الكريم أن يعبِّر عن المشيئة بالفعل المضارع الدّالِّ على التَّجديد والاستمرار في قوله تعالى: ﴿وَيَفۡعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾؛ لأنَّ اللّٰه تعالى دائم المشيئة، ومشيئتُه ﷻ لا تنقطع في زمان، ولا تختصُّ بزمان دون غيره، كما أنَّ التَّعبير بالفعل المضارع عن المشيئة يناسب التَّعبير بالفعل المضارع في قوله: ﴿وَيَفۡعَلُ ٱللَّهُ﴾؛ لأنَّ أفعال اللّٰه تعالى لا تنقطع، فالمشيئة التي تتعلَّق بتلك الأفعال لا تنقطع كذلك.

﴿۞أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ كُفۡرٗا وَأَحَلُّواْ قَوۡمَهُمۡ دَارَ ٱلۡبَوَارِ ٢٨﴾ [إبراهيم: 28]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

إنَّما يُضلُّ الله تعالى مَن ظلم نفسه بإيثاره الكفرَ على الشُّكر

أعقب النَّظم الجليل تمثيلَ الإيمان والكفر بالشَّجرة الطَّيِّبة والخبيثة ببيانِ حال أصحابهما، فابتدأ بذكر حال الكافرين، فبعد "أن ضرب عزَّ اسمه الأمثالَ بيانًا لحالَي الفريقين، وذكر ما يلهمه من التَّوفيق في الدّارين للسُّعداء، وما ينال الأشقياء من الخذلان والإضلال، جزاء ما كسبت أيديهم من تدسيتهم لأنفسهم باجتراحهم للشُّرور والآثام، وبيَّن أنَّ كلَّ ذلك يفعله على حسب ما يرى من الحكمة والمصلحة؛ ذكر هنا الأسباب التي أوصلتهم إلى سوء العاقبة معجِّبًا رسولَه ممّا صنعوا من الأباطيل"[1]. ومن المناسبة أنَّ الآية هنا مسوقة كالبرهان والعلَّة على الآية السابقة التي أخبرت أنَّ كلَّ الإيمان والضَّلال بأمر الله تعالى وحده، فلمّا أخبر سبحانه بذلك، وأنَّه الفاعل وحده؛ أتبعه بذكر الدَّليل عليه، وهو إضلال الذين بدَّلوا الكلمة الطَّيِّبة من التَّوحيد بالإشراك وزلزلتهم واجتثاث كلمتهم، فقال: ﴿أَلَمۡ تَرَ﴾[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿بَدَّلُواْ﴾: أصلُ (بدل): أصلٌ واحِدٌ، وهو قيامُ الشَّيءِ مَقامَ الشَّيءِ الذّاهِبِ، يُقالُ: هذا بَدَلُ الشَّيءِ وبَديلُهُ، ويقولونَ: بَدَّلْتُ الشَّيءَ؛ إذا غيَّرته، وإنْ لم تَأْتِ له بِبَدَلٍ، قالَ اللّه تَعالَى: ﴿قُلۡ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلۡقَآيِٕ نَفۡسِيٓۖ﴾ [يونس: 15]. وأبْدَلْتُهُ؛ إذا أتيت له بِبَدَلٍ، وحقيقته: أن تُغيِّرَ الصّورة إلى صورة أُخرى، والجوهرة

(1) المراغي، تفسير المراغي: 13/152.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 10/415.

بعينها، والإبدال: تنحيةُ الجَوهرة، واستئناف جوهرةٍ أُخرى[1]. والمقصود بالتَّبديلِ في الآية: وَضْعُ الشَّيْء في المَوْضِعِ الَّذي يَسْتَحِقُّهُ شَيْءٌ آخَرُ.

2) ﴿نِعۡمَتَ ٱللَّهِ﴾: أصلُ (نعم) أصلٌ واحِدٌ يَدُلُّ على تَرَفُّهٍ وَطيبِ عَيْشٍ وصَلاحٍ، مِنْهُ النِّعْمَةُ: ما يُنْعِمُ اللّه تعالى على عَبْدِهِ به مِنْ مالٍ وعَيْشٍ[2]، مُشْتَقَّةٌ مِنَ النَّعيم، وهو راحَةُ العَيْشِ ومُلائِمُ الإنسانِ والتَّرفُّه، والنِّعمةُ أيضًا: الحالَةُ الحَسَنَةُ؛ لأنَّ بناءَ الفِعْلَة بالكَسْرِ للهَيئات، ومتعلِّقُ النِّعْمَةِ اللَّذّاتُ الحِسّيَّةُ، ثُمَّ اسْتُعْمِلَتْ في اللَّذّاتِ المَعْنَويَّةِ العائِدَةِ بالنَّفْعِ، وَلَوْ لَمْ يُحِسَّ بها صاحِبُها، وبِناؤُها بِناءُ المَرَّة من الفِعْلِ كالضَّرْبَة والشَّتْمَة، والنِّعْمَةُ للجِنْسِ تُقال للقَليلِ والكثيرِ، وَجَمْعُها: نِعَمٌ، وتُجْمَعُ جَمْعَ سَلامَةٍ على نِعَماتٍ[3]. والمراد بنعمة اللّه هنا: المَنْفَعَةُ الَّتي يَقْصِدُ بها فاعِلُها الإحْسانَ إلَى غَيْرِهِ، وهي إرسال محمد ﷺ إليهم يدعوهم إلى إدراك الخيرات في الدُّنيا والآخرة.

3) ﴿كُفۡرًا﴾: أصْلُ الكُفْرِ: السَّتْرُ والتَّغْطيَةُ، يُقالُ: كَفَرَ الشَّيْءَ، أيْ: سَتَرَهُ، وغَطّاهُ، ومِنْهُ سُمّيَ الزّارِعُ كافِرًا؛ لأنَّهُ يُغَطّي البَذْرَ بِالتُّرابِ، ومنه سُمّيَ غَيْرُ المُؤْمِنِ كافِرًا؛ لأنَّهُ غَطَّى الحَقَّ والإيمانَ[4]. والكُفْرُ: نَقيضُ الإيمانِ، يُقال: كَفَرَ بِالشَّيْءِ، يَكْفُرُ، كُفْرًا وكُفورًا وكُفْرانًا: إذا أشْرَكَ بِاللّهِ، ولم يُؤْمِنْ به، ويأْتي الكُفْرُ بِمعنى الإنكارِ والجُحودِ، فيُقال: كَفَرَ بِالنِّعْمَةِ، أيْ: أنْكَرَها، وجَحَدَها[5]. والمراد بالكُفْرِ في الآية: كُفْرانُ النِّعْمَةِ، وهو ضدُّ الشُّكْرِ، والإشْراكُ باللّه مِنْ كُفْرانِ نِعْمَتِهِ[6].

4) ﴿دَارَ﴾: أصلُ الدّور: الإحداق والإحاطة بالشَّيء، والدّار هي المَنْزِلُ؛ وسُمِّيت دارًا لدَوران أهلها بها، أو لدَورانها هي على أهلها وإحاطتها بهم، وتُطلَق، ويُراد بها البلَد والضِّيَعُ والدُّنيا كلُّها[7].

5) ﴿ٱلۡبَوَارِ﴾: أصلُ الكلمةِ يدلُّ على هلاكِ الشَّيء وما يشبهه من تعطُّلِهِ وخُلوِّه، يُقالُ:

(1) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة: (بدل).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نعم).
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/193، و29/270.
(4) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، وابن سيده، المحكم: (كفر).
(5) الجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب: (كفر).
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/228.
(7) الجوهري، الصحاح، وابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (دور).

بارَ الشَّيء، يَبورُ، بَورًا: إذا هَلَكَ، وتَعطَّلَ، ودارُ البَوار، أي: دار الهلاك، وهم بور، أي: ضالّون هلكى، ويأتي البوار بمعنى الكساد، يقال: بارت السّوق؛ إذا كسدت، ومن هذا الوجه: الأرض البوار، أي: الخراب التي لم تزرع، والبائر: الفاسد الّذي لا خير فيه، ومنه سوق بائرة، أي: فاسدة[1]. والمراد بـ﴿ٱلْبَوَارِ﴾ في الآية: الهلاك والخسران.

❁ المَعْنى الإجْمالِيُّ:

تحذيرٌ مِن كُفْرانِ النِّعمةِ، وصَرفِها فيما لا يُرضي اللهَ

يقول اللّه تعالى: ألم تنظُرْ - يا محمَّدُ ﷺ - إلى كفّارِ قُرَيشٍ، الَّذين غَيَّروا نِعمةَ اللّهِ عليهم ببَعثتِك رسولًا إليهم مِن اللّهِ، فكَفَروا باللّهِ، وكَذَّبوك، فلم يُؤمِنوا برِسالتِك، ولم يَشكُروا اللّهَ عليها، وأنزَلوا قَومَهم - الّذين اتَّبَعوهم مِن قُرَيش - دارَ الهَلاكِ؟

فالكافر يُقابل نِعَمَ اللّه بالجحود والنُّكران، والأصل أن تقابل بالإقرار والشُّكر، فمن بدَّل الشُّكر كفرًا كمن بدَّل النِّعمة ذاتها، وهم بذلك يأخذون بيد أقوامهم إلى الهلاك، فهذا خطاب لقادة الكفّار يُقبِّح أفعالهم في إضلال أقوامهم، فبئس الهداة هم.

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالة الاستئناف في ﴿أَلَمْ تَرَ﴾:

الاستئناف لبيان وجه التَّمثيل بين خبث الشَّجرة والكفر

الجملة في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا﴾ مستأنفة استئنافًا ابتدائيًّا، جيء بها تفسيرًا لتمثيل الكافرين بالشَّجرة الخبيثة، وهذا الاستئناف قد "اقتضته مناسبة ما حكي عن أحوال أهل الضَّلالة وأحوال أهل الهداية ابتداء من قوله تعالى: ﴿وَبَرَزُواْ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [إبراهيم: 21] إلى قوله: ﴿تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ۝٢٣﴾ [إبراهيم: 23]، فضرب اللّه مثلًا لكلمة الإيمان وكلمة الشِّرك، فقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا﴾ [إبراهيم: 24] إيقاظ للذِّهن ليترقَّب ما يرِدُ بعد

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والأزهري، تهذيب اللغة، وابن سيده، المحكم، وابن الأثير، النهاية، وابن منظور، لسان العرب: (بور).

هذا الكلام، وذلك مثل قولهم: ألم تعلم؟ ولم يكن هذا المثل ممّا سبق ضربه قبل نزول الآية؛ بل الآية هي التي جاءت به، فالكلام تشويقٌ إلى علم هذا المثل"[1]. كما أنَّ الاستئناف بهذه العبارة يبيِّن وجه التَّشبيه بين الكفر وبين تلك الشَّجرة الّتي لا نفع فيها.

الغرض من الاستفهام ﴿أَلَمْ تَرَ﴾:

كفرُ النِّعمة مثيرٌ للعجب في منهاج العارفين

عبَّر النَّظم الجليل بالاستفهام المجازيِّ في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا﴾؛ لتقرير الرُّؤية ابتغاء التَّعجيب من حال الكفرة، حيث جعلوا بدل شكر نعمة الله تعالى عليهم الكفرَ بها[2]، فليس الاستفهام حقيقيًّا؛ بل المراد دعوة المخاطَب للتَّعجُّب من شأن الكفرة، وممّا صنعوا من الأباطيل التي لا تصدُر عمّن له أدنى إدراك[3]، "أي: ألم تعلم وتعجب من قوم بدَّلوا شكر النِّعمة غمطًا لها وجحودًا بها، كأهل مكَّة الذين أسكنهم الله حَرمًا آمنًا تُجبى إليه ثمراتُ كلِّ شيء، وجعلهم قوّام بيته، وشرَّفهم بإرسال رسوله محمَّد ﷺ من بينهم، فكفروا بتلك النِّعمة"[4]، فأيُّ كفر أشنع من ذلك وأعجب؟

المُراد بالخطاب في فعل الرُّؤية ودلالتُه:

سوء فعلهم واضح يدركه كلُّ أحد، ويدعو إلى التَّعجيب

عبَّر النَّظم الجليل بصيغة المخاطَب في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ﴾، والمراد به - على ما جوَّزه أئمَّة التَّفسير - إمّا النَّبيُّ ﷺ أو كلُّ مَن بلغه الخطاب، والغرض منه التَّعجيب "ممّا صنع الكفرة من الأباطيل الّتي لا تكاد تصدر عمَّن له أدنى إدراك، وذلك بتكذيبهم محمّدًا ﷺ حين بعثه الله منهم، وأنعم عليهم به"[5]، ويدلُّ الخطاب على أنَّ ما جاؤوا به من قباحة الفعل يُدركه كلُّ من له نظر، فسوء

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/223.
(2) الشّوكاني، فتح القدير: 3/130.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/45.
(4) المراغي، تفسير المراغي: 13/153.
(5) القنّوجي، فتح البيان: 7/114.

فعلهم واضحٌ بيِّنٌ؛ إذ أعرضوا عن شكر نعمة المولى بأن خصَّهم برسولٍ منهم.

دلالة حرف الجرّ في: ﴿إِلَى ٱلَّذِينَ﴾:

بين أهل الإيمان وأهل الكفر مدًى بعيدٌ

آثر النَّظم الكريم تعديةَ فعل الرُّؤية بحرف الجرِّ الدّالِّ على الغاية ﴿إِلَى﴾ في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا﴾ للدَّلالة على بُعدهم عن مقام النَّبيِّ ﷺ[1]، وكأنَّ المراد ليس رؤية ذواتهم؛ بل المراد منهاجُهم وفعلُهم القبيح، فحرفُ الجرِّ ﴿إِلَى﴾ يدلُّ على أنَّ إعراضهم عنِ الدَّعوة جعلهم في مكانٍ بعيدٍ بحيث يكون بينه وبين الرّائي مدًى يصحُّ أن يُستعملَ فيه حرفُ الغاية.

غرض التَّعبير بالموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾:

التَّعجيب حاصلٌ من قوم معروفين معهودين

آثرَ النَّظمُ الكريمُ التَّعبيرَ بالاسم الموصول في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا﴾ للإشارة إلى قومٍ معهودين مُرادين بأعيانهم وهم صناديدُ المشركين من قريش، فعبَّر بالموصول؛ لأنَّهم فريقٌ معروفون، وهم الّذين استكبروا من أهل مكَّة، فعارضوا دعوة الإسلام، وكذَّبوا النَّبيَّ ﷺ وشرَّدوا مَن استطاعوا مِن عباد الله المؤمنين، وهم الّذين تسبَّبوا في إحلال قومهم دار البوار[2].

غرض الاستعارة في الفعل ﴿بَدَّلُواْ﴾:

من السَّفاهة وضع الحَسنِ - وقد وجب - موضعَ القبيح

استعار النَّظم البليغ لفظ التَّبديل لمعنى وضع الشَّيء مكان غيره في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا﴾؛ لأنَّهم وضعوا مكانَ الشُّكر الّذي وجب عليهم الكفرَ، كما في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [الواقعة: 82]، أي: تجعلون شكرَ رزقكم؛ حيث وضعوا مكانَه التَّكذيب[3]، فاستُعير "التَّبديل لوضع الشَّيء

(1) البقاعي، نظم الدرر: 10/415 - 416.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/229.
(3) الزمخشري، الكشاف: 2/555.

في الموضع الذي يستحقُّه شيءٌ آخر؛ لأنَّه يشبه تبديل الذّات بالذّات"[1].

وهي استعارة مكنيَّة؛ فشبَّه الّذين كفروا؛ إذ فضَّلوا الكفر على الإيمان بمَن يعمد إلى شيء، ويرفعه من موضعه، ويضع شيئًا موضعه؛ لأنَّه يستحسن المبدَل لوجه ما، فحذف المشبَّه به، وأبقى قرينة التَّبديل دالَّة عليه، وفائدة ذلك التَّعبير عن ضلال عقولهم؛ إذ "جعلوا بدل النِّعمة التي تستوجب الشُّكر كفرًا، فالذين أُعطوا نعمة بدل أن ينتفعوا بها في وضعها موضعَها من الشُّكر عليها؛ كفروا بها، وكثيرون من ذوي النِّعم الذي أنعم اللّه عليهم بالثّراء استعلوا به، فجعلوه كفرًا"[2].

نكتةُ الإضافة إلى لفظ الجلالة: ﴿نِعۡمَتَ ٱللَّهِ﴾:

تعظُمُ النِّعم بِعِظَم المنعِم بها

أضاف النَّظم البليغ لفظ النِّعمة إلى اسم الجلالة في قوله تعالى: ﴿بَدَّلُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ كُفۡرٗا﴾ تعظيمًا لشأن هذه النِّعمة، فهي من اللّه تعالى الّذي له صفات الكمال والجلال، وهذه النِّعمة العظيمة هي "أن بوَّأهم حرَمَه، وأمَّنهم في سفرهم وإقامتهم، وجعل أفئدة النّاس تهوي إليهم، وسلَّمهم ممّا أصاب غيرَهم من الحروب والغارات والعدوان، فكفروا بمن وهبهم هذه النِّعَمَ، وعبدوا الحجارةَ، ثمَّ أنعم اللّه عليهم بأن بعث فيهم أفضل أنبيائه - صلى اللّه عليهم جميعًا - وهداهم إلى الحقِّ، وهيَّأ لهم أسباب السّيادة والنَّجاة في الدُّنيا والآخرة، فبدَّلوا شكر ذلك بالكفر به، فنعمة اللّه الكبرى هي رسالة محمّد ﷺ ودعوة إبراهيم وبنيه عليهم السلام"[3].

الغرض من التَّنكير في ﴿كُفۡرٗا﴾:

كفر النِّعمة من أعظم أنواع الكفر

آثر النَّظم الكريم التَّعبير عن الكفر بصيغة التَّنكير في قوله تعالى: ﴿بَدَّلُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ كُفۡرٗا﴾؛ للدَّلالة على تعظيم جنايتهم[4]،

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/228.
(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 8/4025.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/228.
(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/45.

فبدَّلوا شكرَ نعمة اللّه تعالى عليهم بكفر عظيم، وتعظيم الكفر مناسب لذكر النِّعمة مضافة إلى اللّه تعالى إذ إنَّها تستلزم الشُّكر، فلمّا لم تقابل بلازمها من الشُّكر؛ دلَّ ذلك على أنَّ الكفر بها هو كفر في غاية الغلوِّ.

دلالة الواو في ﴿وَأَحَلُّواْ﴾:

تبديل النِّعمة والتَّسبُّب بالإحلال في النّار من فعل سادة الكفّار

الجملة في قوله تعالى: ﴿وَأَحَلُّواْ قَوۡمَهُمۡ دَارَ ٱلۡبَوَارِ﴾ معطوفة بواو العطف على الجملة الواقعة صلة للموصول في قوله جلَّ شأنه: ﴿ٱلَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ كُفۡرٗا﴾[1]؛ لأنَّ المراد من التَّعجيب من حال الكفّار كلا الفعلين التَّبديل وما تسبَّب عنه من إحلال القوم دار البوار، فدلَّ العطف على أنَّ التَّبديل والإحلال كائنان من فعل سادة الكفّار كلاهما.

غرض المجاز العقلّي في ﴿وَأَحَلُّواْ﴾:

مُسبِّب الفعل فاعل له عقلٌ

أسند النَّظم الجليل فِعلَ الإحلال إلى الكافرين في قوله تعالى: ﴿وَأَحَلُّواْ قَوۡمَهُمۡ دَارَ ٱلۡبَوَارِ﴾، والّذي يدخل الظّالمين إلى النّار إنَّما هو اللّه تعالى، فإسناد الفعل إلى الكافرين جاء على طريقة المجاز العقليِّ[2]؛ إذ إنَّ سبب دخولهم النّار إنَّما هم سادتهم وكبراؤهم من الكفّار، فإنَّ "أصحاب النِّعَم الّتي يكفرونها هم الّذين يفسدون أقوامهم، ويأخذونهم إلى حيث الفناء، وفناء الأمم والأقوام بشيوع الكفر والجحود فيها"[3].

دلالة التَّعبير بالفعل الماضي:

حلولهم النّار مؤكَّدٌ مقطوع لا شكَّ فيه

آثر النَّظم الكريم التَّعبير بالفعل الماضي في قوله تعالى: ﴿وَأَحَلُّواْ قَوۡمَهُمۡ دَارَ ٱلۡبَوَارِ﴾ مع أنَّ حلولَ تلك الدّار لمّا يقع بعدُ؛ وذلك للدّلالة

(1) صافي، الجدول في إعراب القرآن: 7/188.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/228.
(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 8/4025، وينظر: القنّوجي، فتح البيان: 7/114.

على تحقيق الإحلال وتأكيد حصوله؛ لأنَّ زمن الإحلال متأخِّرٌ عن زمن الكفر[1]، فإنَّ التَّعبير بالماضي عن المستقبل يقصد منه تأكيد حدوث مضمون الخطاب.

سرُّ إضافة القوم إلى الضَّمير ﴿قَوۡمَهُمۡ﴾:

ملازمة المتبوع دليل انتماء التّابع

أضاف النَّظم الجليل لفظ القوم إلى ضمير الّذين بدَّلوا نعمة اللّه تعالى في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَأَحَلُّواْ قَوۡمَهُمۡ دَارَ ٱلۡبَوَارِ﴾؛ لأنَّ القوم لمّا اتَّبعوهم في ملازمة الكفر حتّى ماتوا على الكفر؛ صاروا مستحقِّين أن يكونوا تابعين لهم، وأن يضافوا إليهم[2]، كما أنَّ كلَّ قوم إنَّما يتَّبعون سادتهم، ويلازمونهم في الحرب والسِّلم والإيمان والكفر، فكانوا مختَّصين بهم.

سرُّ الإضافة في ﴿دَارَ ٱلۡبَوَارِ﴾:

مجمع الخسران والهلاك في دارٍ ما مبالغة في قبح الدّار

آثر النَّظم الكريم إضافة لفظ الدّار إلى البوار في قوله تعالى: ﴿وَأَحَلُّواْ قَوۡمَهُمۡ دَارَ ٱلۡبَوَارِ﴾ للمبالغة في كون تلك الدّار بالغة السّوء، فهي حائزة على صفات الهلاك، فتكون دار الهلاك الّذي لا هلاك وراءه[3]، فلمّا كان البوار يدلُّ على الهلاك والخسران؛ دلَّت إضافته إلى الدّار على محلِّه ومكانه[4]، وجعْلُ الهلاك والخسران مختصًّا بمكان ما يدلُّ على عظم السّوء في ذلك المكان، فالمراد من الإضافة بيان سوء ذلك الإحلال، وفداحة الخسران الذي سبَّبه الكبراء لقومهم.

دلالة تعريف المُضاف إليه ﴿دَارَ ٱلۡبَوَارِ﴾:

أصل البوار وجنسه كائن مستقرٌّ في تلكم الدّار

عرَّف النَّظم الجليل لفظ البوار بالألف واللّام في قوله تعالى: ﴿وَأَحَلُّواْ قَوۡمَهُمۡ دَارَ ٱلۡبَوَارِ﴾ الدّالَّة على الجنس، مبالغة في وصف الدّار بالقبح؛ إذ إنَّها حازت البوار كلَّه الذي لا بوارَ وراءه[5]، فهي

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/229.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/228.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/45.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/229.
(5) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/45.

دارٌ قد جمعت الهلاك كلَّه، فلا هلاكَ ولا خسرانَ في غير هذا المكان، فانعدم وجود البوار في غير هذه الدّار؛ فهي أصل البوار ومكانه وموئله.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(بدَّلوا) و(غيَّروا):

التَّغيير من (غير) وهو يَدُلُّ عَلَى اخْتِلافِ شَيْئَيْنِ، قَوْلُنا: هَذا الشَّيْءُ غَيْرُ ذاكَ، أيْ: هوَ سِواهُ وَخِلافُهُ[1]. أمّا التَّبديل؛ فمن (بدل) وهو قيامُ الشَّيْءِ مَقامَ الشَّيْءِ الذّاهِبِ، يُقالُ: هَذا بَدَلُ الشَّيْءِ وَبَديلُهُ[2]. والإبدال والتَّبديل والتَّبَدُّل والاستبدال: جعل شيء مكان آخر، كقوله تعالى: ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوۡلًا غَيۡرَ ٱلَّذِي قِيلَ لَهُمۡ﴾ [البقرة: 59][3]، فالتَّغيير عامٌّ يدلُّ على مخالفة، أمّا التَّبديل؛ فيدلُّ على وضع شيءٍ مكان شيءٍ آخر، وفي الآية الكريمة آثر النَّظم الكريم التَّعبير بالتَّبديل، فقال جلَّ شأنه: ﴿بَدَّلُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ كُفۡرًا﴾؛ لأنَّهم وضعوا الكفر موضع الشُّكر والإيمان.

التَّغيير مطلق الاختلاف، والتَّبديل وضع شيء مكان شيء آخر

(أحلّوا) و(أنزلوا):

أصل الحَلِّ: حلُّ العقدة، ومنه قوله ﷻ: ﴿وَٱحۡلُلۡ عُقۡدَةٗ مِّن لِّسَانِي ٢٧﴾ [طه: 27]، وحَلَلْتُ: نزلت، أصله من حلِّ الأحمال عند النُّزول، ثم جُرِّدَ استعمالُه للنُّزول، فقيل: حَلَّ حُلولًا، وأحَلَّهُ غيره، قال ﷻ: ﴿أَوۡ تَحُلُّ قَرِيبٗا مِّن دَارِهِمۡ﴾ [الرعد: 31]، ﴿وَأَحَلُّواْ قَوۡمَهُمۡ دَارَ ٱلۡبَوَارِ﴾[4]. أمّا النُّزولُ في الأصل؛ فهو انحِطاطٌ من عُلْوٍ، يقال: نَزَلَ عن دابَّته، ونَزَلَ في مكان كذا: حَطَّ رَحْلَهُ فيه[5]، فالنُّزول في المكان يدلُّ على حطِّ

النُّزول حطُّ الرَّحل، والحلُّ فيه فتحُ ذلك الرَّحل، فهو أدلُّ على المكث

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (غير).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بدل).
(3) الراغب، المفردات: (بدل).
(4) الراغب، المفردات: (حلّ).
(5) الراغب، المفردات: (نزل).

الرَّحل فيه، أمّا الحلول؛ فيدلُّ على أكثر من ذلك، فهو نزول يتبعه حلُّ الرَّحل، فهو أدلُّ على المكث في المكان واللُّبث فيه من مجرَّد النُّزول، ولذا اختير هذا اللَّفظ لذمِّ الكافرين الذين أحلّوا قومهم تلك الدّار، فهو أدلُّ على الالتصاق والبقاء في تلك الدّار.

﴿جَهَنَّمَ يَصۡلَوۡنَهَاۖ وَبِئۡسَ ٱلۡقَرَارُ ٢٩﴾ [إبراهيم: 29]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

بعد تقرير سوء المصير شرع في بيانه وتفصيله وذمّه

لمّا بيَّن أنَّ مآل الذين بدَّلوا شكر نعمة الله بالكفران أنَّهم أحلّوا قومهم دار البوار؛ أتبعه ببيان تلك الدّار، وأنَّها تلقاهم بسوء المنظر، فلمّا "أفاد أنَّها مهلكة؛ بيَّنها بما يفهم أنَّها تلقاهم بالعبوسة، كما كانوا يلقون أولياء الله من الرُّسل وغيرهم بذلك، فقال: ﴿جَهَنَّمَ﴾ حال كونهم ﴿يَصۡلَوۡنَهَاۖ﴾"[1]. فالآية مسوقة لبيان دار البوار، فأعقب الإبهام الحاصل من قوله: ﴿دَارَ ٱلۡبَوَارِ﴾ بإيضاح كون تلك الدّار هي نار جهنَّم التي هي بئس القرار.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَصۡلَوۡنَهَاۖ﴾: أصلُ (صلى): النّارُ وما أشْبَهَها مِنَ الحُمَّى، يُقال: صَلَيْتُ العودَ بِالنّارِ، وصَلَيْتُ اللَّحْمَ، بالتَّخفيفِ، على وَجْهِ الصَّلاحِ مَعْناهُ شَوَيْته، فأمّا أصْلَيْتُه، وصَلَّيْتُه؛ فَعَلَى وجْهِ الفَسادِ والإحْراق[2]. وتصلّاها: قاسَى حرَّها، وأصلاه النّار، وصلّاه إيّاها وفيها وعليها: أدخله إيّاها وأثْواه فيها، قال الآلوسي، وقال بعض المُحقِّقين: إنَّ أصل الصَّلي القُرب من النّار، وقد استعمل هنا في الدُّخول مجازًا[3]. والصِّلاءُ: يقال للوَقود وللشِّواءِ[4]. والمقصود بالصَّليِّ في الآية: الاصطلاء بالنّار والقُرب منها، والمراد به هنا: الاحتراق بها.

2) ﴿ٱلۡقَرَارُ﴾: أصلُ القَرارِ: الثُّبوتُ والتَّمَكُّنُ، يُقال: قرَّ الشَّيْءُ،

(1) البقاعي، نظم الدرر: 10/416.
(2) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (صلي).
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 2/425.
(4) الخليل، العين، وابن منظور، لسان العرب: (صلي)، والفيروزباديّ، بصائر ذوي التمييز: 3/435.

يَقِرُّ، قَرارًا؛ إذا ثَبَتَ في مَكانِهِ، ولم يَتَحَوَّلْ، والقَرارُ: المُستقرُّ مِنَ الأرض، وأقرَرتُه في مَقَرِّه ليَقَرَّ، وفلان قارٌّ، أي: ساكِنٌ[1]. ويأتي بِمعنى الاقْترانِ والتَّلازُم، يُقالُ: قَرَّ الشَّيْءُ بِالشَّيْءِ؛ إذا قُرِنَ بِهِ، وتَرافَقَ مَعَهُ، ومِنْ مَعانيه أيضًا: الإقامَةُ، والاطْمِئْنانُ[2]. والمراد بالقَرارِ في الآية: الثُّبوتُ في المَكانِ.

المَعْنى الإجْماليُّ:

يقولُ تعالى: هذه الدّار هي جهنَّم دار العَذاب والهلاك الَّتي يقاسون حَرَّ نارها، تُحيطُ بهم من جميع جوانبهم، وبئس المُستقرُّ هي لمن أراد اللّه به النَّكال والوَبال[3].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالة جملة ﴿جَهَنَّمَ يَصۡلَوۡنَهَاۖ﴾ بين البدل والاستئناف:

إتباع الإبهام بالبيان يخلع المبالغة والتَّهويل على مضمون الخطاب

أجاز أئمَّة التَّفسير والبيان أن تكون الجملة في قوله تعالى: ﴿جَهَنَّمَ يَصۡلَوۡنَهَاۖ﴾ استئنافيَّة، وأن تكون بدلًا، ودلالة كونها بدلًا أنَّه جيء بها بعد الإبهام في قوله: ﴿دَارَ ٱلۡبَوَارِ﴾؛ إذ إنَّ في الإبهام المتبوع بالبيان تهويلًا بليغًا بمضمون الخطاب[4]، وهذا مبنيٌّ على أنَّ المراد من ﴿دَارَ ٱلۡبَوَارِ﴾ الآخرة، فيكون ذكر النّار بعدها على أنَّه بدلٌ عنها، "فتخصُّ دار البوار بأعظم أفرادها وهو النّار، ويجعل ذلك من ذكر بعض الأفراد لأهميَّته"[5]، أمّا الاستئناف؛ فهو مبنيٌّ على تفسير دار البوار بأنَّها أرضُ بَدْر، فتكون جملة ﴿جَهَنَّمَ يَصۡلَوۡنَهَاۖ﴾ مستأنفة استئنافًا بيانيًّا، كأنَّه قيل: وما دار البوار؟ فقيل: ﴿جَهَنَّمَ يَصۡلَوۡنَهَاۖ﴾.

(1) الخليل، العين: (قر).
(2) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح، وابن سيده، المحكم، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (قرر).
(3) المراغي، تفسير المراغي: 13/153.
(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/45.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/229.

سرُّ إيثار اسم ﴿جَهَنَّمَ﴾ على غيره:

جهنَّم بئس القرارُ جزاءً لأسوأ الأعمال؛ فالجزاء من جنس العمل

لمّا كانت أعمال هؤلاء قد بلغت مداها من الكفر، وكانوا سببًا في إنزال قومهم دار الهلاك والخسران، أوثر التَّعبير عن دار البوار بأدقِّ وصفٍ للنّار، وهو ﴿جَهَنَّمَ﴾، التي يعذَّب فيها الكافرون - نعوذ بالله منها وممّا يؤدّي إليها -؛ ليكون الجزاء من جنس العمل؛ لأنَّ اسم ﴿جَهَنَّمَ﴾ يدلُّ على بُعْد قَعْر الشّيء وعُمق تجوُّفه مع اضطمامه على هذا التجوُّف، وقد تكرَّر في الأحاديث وصفها بالعمق السّحيق، وقد سمّاها الله ﷻ هاوية ﴿فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ۝٩﴾ [القارعة: 9] "والهاوية: كُلُّ مَهْواةٍ لا يُدْرَك قعرُها"[1].

غرض تقديم المفعول به ﴿جَهَنَّمَ﴾:

التَّعجيل ببيان سوء المصير أبلغ في التَّفجيع

قدَّم النَّظم الجليل المفعول به في قوله تعالى: ﴿جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا﴾ تعجيلًا لهم بهوْل المصير، وتفجيعًا لهم، فبعد الإبهام المتحصِّل من قوله: ﴿دَارَ ٱلْبَوَارِ﴾ بمجيء الوصف عامًّا؛ أتبعه باللَّفظة الَّتي تفسِّر ذلك البوار، مقدِّمًا إيّاها على الفعل؛ لما في ذلك التَّقديم من تعجيلٍ بالفاجعة، فليس المراد مجرَّد الإخبار بأنَّ تلك الدّار هي جهنَّم؛ بل المراد بيان فداحة الخسران والبوار الّذي أحلّوا قومهم فيه، فافتتاح الجملة بالمفعول به ﴿جَهَنَّمَ﴾ افتتاح بليغ يدلُّ على التَّفجيع والتَّهويل بسوء المصير.

غرض وصف جهنَّم بجملة فعليّة:

التَّقييد بالصَّلْي المعلوم تصوير لكيفيَّة المباشرة

قيَّد النَّظم الجليل لفظ جهنَّم بالجملة الفعليَّة في قوله تعالى: ﴿جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا﴾ للدَّلالة على حال الكافرين فيها، أي: إنَّهم يباشرون حرَّها منغمسين فيها[2]، فالجملة الفعليَّة ﴿يَصْلَوْنَهَا﴾ مستأنفة، جيء بها لبيان "كيفيَّة حلولهم فيها، أي: داخلين فيها

(1) ابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (جهنم).
(2) البقاعي، نظم الدرر: 10/416.

مقاسين لحرها"[1]، فلم يكتفِ النَّظم ببيان كون دار البوار بأنَّها جهنَّم؛ بل بيَّن كذلك كيفيَّة دخولهم تلك الدّار، كما لا يخفى أن التَّصريح بصلْيِ النّار غير ملزم؛ إذ إنَّ دخول النّار يقتضي الصَّلْيَ فيها، فإنَّما صرَّح بذلك إيغالًا في التَّرويع والتَّرهيب.

دلالة التَّعبير بالمضارع ﴿يَصۡلَوۡنَهَاۖ﴾:

الحلول في النّار لا ينقطع في دارهم الدّائمة

آثر النَّظم الكريم التَّعبير بالفعل المضارع في قوله تعالى: ﴿جَهَنَّمَ يَصۡلَوۡنَهَاۖ﴾؛ للدَّلالة على أنَّ حلولهم فيها، وصليهم بحرِّها كائنان على وجه الدَّوام والاستمرار[2]. كما أنَّ في ذلك تصويرًا للمشهد واستحضارًا للصّورة، وهذا التَّصوير والاستحضار أبلغ في التَّرويع والتَّفجيع.

دلالة موقع جملة ﴿وَبِئۡسَ ٱلۡقَرَارُ﴾:

عطفُ القبيح على القبيح تهويلٌ لسوء المقام

الجملة في قوله تعالى: ﴿وَبِئۡسَ ٱلۡقَرَارُ﴾ معطوفة على الجملة المستأنفة الواقعة حالًا في قوله جلَّ شأنه: ﴿يَصۡلَوۡنَهَاۖ﴾، فتكون حالًا ثانية من جهنَّم، والتَّقدير: وبئس القرار هي[3]، أي: أحلّوقومهم جهنَّم حال كونهم يباشرونها مقاسين لحرِّها وحال كونها مكانًا بئيسًا.

غرض قوله: ﴿وَبِئۡسَ ٱلۡقَرَارُ﴾ ودلالتُه:

القرار في النّار هو القرار البالغ السّوء

ذمَّ النَّظم الجليل النّار بأسلوب الذَّمِّ في قوله تعالى: ﴿وَبِئۡسَ ٱلۡقَرَارُ﴾، وهو إنشاء غير طلبيٍّ المراد منه المبالغة في وصف النّار بالسّوء، فصفة البؤس منسوبة للقرار فيها، أي: بئس المقرُّ جهنمُّ، وبئس القرار قرارُهم فيها[4]؛ لأنَّهم "يصطلون بها، يحيط بهم حرُّها الشَّديد، ويكونون وقودًا لها، وإنَّها تكون أسوأ نهاية؛ ولذا ذمَّها الله، فقال تعالتْ كلماتُه: ﴿وَبِئۡسَ ٱلۡقَرَارُ﴾"[5].

(1) القنّوجي، فتح البيان: 7/114.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/45.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/230.
(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/45.
(5) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 8/4026 - 4027.

سرُّ التَّعبيرِ بـ ﴿ٱلۡقَرَارُ﴾ معرَّفًا باللام:

القرار الكائن في جهنَّم هو القرار السيّئ لا كلَّ قرار

آثر النَّظم الكريم تعريف القرار في قوله تعالى: ﴿جَهَنَّمَ يَصۡلَوۡنَهَاۖ وَبِئۡسَ ٱلۡقَرَارُ﴾ بالألف واللّام الدّالَّة على العهد؛ فلمّا ذكر في صدر الآية الفعل ﴿وَأَحَلُّواْ﴾؛ دلَّ ذلك على حضور معنى الحلول وعهده في الذِّهن، فيكون ذكر القرار تنويهًا على هذا الحلول المذكور، وليس المُراد به كلَّ قرار؛ بل القرار في جهنَّم هو المخصوص بالذَّمِّ.

﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِهِۦۗ قُلۡ تَمَتَّعُواْ فَإِنَّ مَصِيرَكُمۡ إِلَى ٱلنَّارِ ٣٠﴾ [إبراهيم: 30]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

لمّا بيّن سوء المصير أعقبه ببيان أسبابه

لمّا بيَّن النَّظم الجليل أنَّهم أحلّوا قومهم جهنَّم، فكان استقرارهم في تلك الدّار البائرة قد بلغ من البؤس غايته؛ أتبعه ببيان علَّةِ ذلك وسبب شقاوتهم؛ إذ كان فعلهم كفعل مَن لا عقل له ولا فقه؛ إذ ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ﴾ الذي يعلمون أنَّه إله واحد لا شريك له شركاء يعبدونهم معه تعالى اللّه عمّا يصفون[1]، فبيَّن تعالى أنَّ الكفر الّذي بدّلوا به نعمة اللّه تعالى، هو اتّخاذُهم الأندادَ شركاء له في العبادة[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَندَادًا﴾: أصلُ النِّدِّ: الفِراقُ والمُباعدة، يُقالُ: نَدَّ البعير ندًّا وندودًا؛ إذا ابتعد، وفارق أهله، ومنه سمّي الضّدُّ والمخالف والمثل ندًّا؛ لأنَّه يباعد مثيله، ويفارقه، والنِّدُّ بِالكَسْرِ: المِثْلُ والنَّظيرُ، والجَمْعُ أندادٌ، يُقالُ: فلان ندُّ فلانٍ ونَديدُهُ، أي: مِثْلُهُ ونَظيرُهُ[3]، والنِّديَّةُ: المِثليَّةُ، والنِّدُّ أيضًا: ما كانَ مِثْل الشَّيء يُضادُّه في أُمورِهِ، ولا يكونُ النِّدُّ إلّا مُخالفًا، والأندادُ: الأضدادُ[4]. والمرادُ بالأنْدادِ في الآية: جَمْعُ نِدٍّ، وهو المُماثِلُ في مَجْدٍ ورِفْعَةٍ[5].

2) ﴿تَمَتَّعُواْ﴾: أصْلُ المَتْعِ: بُلوغُ الغايَةِ مِنَ الشَّيْءِ، يُقالُ: مَتَع النَّهارُ يَمْتَعُ مَتْعًا، أيْ: بَلَغَ غايَةَ ارْتِفاعِهِ[6]، والماتِعُ: الجَيِّدُ البالِغُ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 10/417.
(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 8/4027.
(3) الجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (ندد).
(4) الخليل، العين، وابن الأثير، النّهاية، وابن منظور، لسان العرب: (ندد).
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/230.
(6) الراغب، المفردات: (متع).

الجَوْدَةِ[1]. والمتعةُ: المَنْفَعَةُ، والاسْتِمْتاعُ: الانْتِفاعُ[2]، تَقولُ: تَمَتَّعْتُ بِكَذا، واسْتَمْتَعْتُ بِهِ؛ إذا انْتَفَعْتُ بِهِ، والإمْتاعُ: النَّفْعُ، والمَتاعُ: كلُّ شَيْءٍ ينتفَع بِهِ، ويُتبلَّغ بِهِ ويتزوَّد؛ والفناء يَأْتي عليه في الدُّنيا، والجَمْعُ أمْتِعَةٌ[3]. والمقصود بالتَّمتُّع في الآية: الانْتِفاعُ القَصيرُ زَمَنُهُ.

3) ﴿مَصِيرَكُمْ﴾: أصلُ (صير): أصْلٌ صَحيحٌ، وهو المآلُ والمَرْجِعُ، مِنْ ذلكَ صارَ يَصيرُ صَيْرًا وصَيْرورَةً، والصِّيرُ كالحَظائِرِ يُتَّخَذُ للبَقَرِ، والواحِدَةُ صيرَةٌ، وَسُمِّيَتْ بِذَلِكَ؛ لِأنَّها تَصيرُ إلَيْهِ[4]. وصَيرُ الأمْرِ مُنْتَهاهُ وما صيرَ إليه، وأنا على صيرٍ مِنْ أمْرِ كذا، أي: على ناحيةٍ منه، وصَيّورُ الشيءِ آخِرُه ومُنْتَهاهُ[5]، والمَصير: المَوْضِعُ الَّذي تَصير إليه المياهُ[6]، والمراد بالمَصيرِ في الآية: الرُّجوعُ والانتهاءُ.

❁ المَعْنى الإجْمالِيُّ:

الانغماس في الأهواء والاستطالة بها سبب كلِّ شرٍّ

يُخبر الحقُّ سبحانه أنَّ أشد الكفر الَّذي بدَّلوا به نعمة اللّه تعالى هو اتِّخاذ الأنداد شركاء له في العبادة، فقال تعالى: إنَّ مِنْ سَفَهِ هؤلاء الضّالّين المعاندين الَّذين أبوا أن يستجيبوا لرسول اللّه ﷺ أنَّهم جعلوا للّه أندادًا، ونظراء يعبُدونَهم معه؛ كي يُضِلّوا الناسَ عن دينِ اللّهِ الحَقِّ، ولم يتوقَّف قُبحهم هذا على أنفسهم، وإنَّما تعدّاهم إلى غيرهم، فصاروا قوّاد الضَّلالِ وأئمَّتَهُ، فهدِّدهمْ - يا محمَّد ﷺ - بأنَّ حياتهم قصيرة، وأنَّ حجمها كحجم متاع المسافر، ثمّ بعد ذلك يكون إلى النّار مآلهم يُخلَّدون في النّار لقاء قيادتهم الضَّلال.

(1) ابن عباد، المحيط في اللغة: (متع).
(2) محمد الأصبهاني، المجموع المغيث في غريبي القرآن والحديث: 3/148.
(3) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (متع).
(4) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة: (صير).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن سيده، المحكم، وابن منظور، لسان العرب: (صير).
(6) ابن منظور، لسان العرب: (صير).

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالة الواو في قوله: ﴿وَجَعَلُواْ﴾:

الإشراك بالله تعالى ضلالة أخرى من ضلالات الكافرين العديدة

الجملة في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا﴾ معطوفة على الجملة في قوله جلَّ شأنه: ﴿بَدَّلُواْ﴾، وقوله: ﴿وَأَحَلُّواْ﴾ بالواو العاطفة، فالفعل داخل مع الفعلين المذكورين في "حيّز الصِّلة وحكم التَّعجيب، أي: جعلوا في اعتقادهم وحكمهم ﴿لِلَّهِ﴾ الفردِ الصّمدِ الّذي ليسَ كمثلِه شيءٌ هو في الواحد القهّار ﴿أَندَادًا﴾"[1]. فالضَّمير في ﴿وَجَعَلُواْ﴾ يعود إلى أئمَّة الكفر، وهم الّذين بدَّلوا نعمة الله، فالعطف في الآية مسوق لتعديد مزيدٍ من شناعاتهم.

دلالة التَّعبير بالماضي في ﴿وَجَعَلُواْ﴾:

شركهم وضلالهم متأصِّل بهم قديم العهد

عبَّر النَّظم الجليل بالفعل الماضي ﴿وَجَعَلُواْ﴾ الّذي جعلت الغاية منه إضلال النّاس في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِهِۦۗ﴾ للدَّلالة على أنَّ ذلك الجعل قديمٌ فيهم متأصِّلٌ في أفعالهم، وهو فعلٌ متحقِّقٌ منجَز، فالماضي يدلُّ على أنَّ إشراكهم بالله تعالى من أفعالهم الأصيلة العتيدة.

غرض تقديم ﴿لِلَّـهِ﴾ على ﴿أَندَادًا﴾:

اتِّخاذ الأنداد بالغ الشَّناعة لما فيه من شرك بالله الواحد

قدَّم النَّظم الجليل لفظ الجلالة على المفعول به في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا﴾، فلم يقل: (وجعلوا أندادًا لله)؛ لأنَّ التَّصريح بلفظ الجلالة يتضمَّن الدَّلالة على أنَّهم يعلمون أنَّه الإله الّذي لا شريك له في خلقهم، ولا في رزقهم[2]، فيدلُّ تقديم العَلَم الجليل على شناعة جعلهم لله شركاء؛ لأنَّ من تمام سوء ذلك الجعل بأنَّه مقصود به الإشراك بالله تعالى، فتقديم لفظ الجلالة للمبالغة في بيان شناعة ذلك الفعل.

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/45.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 10/417.

غرض تنكير المفعول به ﴿أَندَادًا﴾:

تعدّدت الآلهة، وكثرت فلكلّ قوم وثنٌ أشركوه بالله تعالى

آثر النَّظم الكريم التَّعبير بصيغة التَّنكير في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا﴾ لما في التَّنكير من دلالة على التَّكثير، فهم جعلوا لله تعالى كثيرًا من الشُّركاء، كما أنَّه يتضمَّن الدَّلالة على تهوين أولئك الشركاء وتحقيرهم، فهم أنداد لا يُؤبَهُ لهم، ولا حقيقةَ لهم، كما أنَّ فيه إلماحًا إلى تعدُّد أشكال أولئك الأنداد.

دلالة اللّام في الفعل ﴿لِّيُضِلُّواْ﴾:

عاقبة اتّخاذ الأنداد الضَّلال والإضلال

أدخل النَّظم الجليل اللّام الدّالَّة على العاقبة في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِهِۦۗ﴾؛ لأنّ الإضلال لم يكن غرضهم؛ بل هو النَّتيجة التي يؤول إليها فعلهم من اتِّخاذ الشُّركاء، "أي: لتكون عاقبة أمر الّذين شايعوهم على ضلالهم الصدَّ والإعراض عن سبيله القويم ودينه الحنيف، والوقوع في حمأة الكفر والضّلال"[1]. فمآل فعلهم ونتيجته الضَّلال والإضلال، وذلك معنى أن اللّام لامُ العاقبة، أي: لتكون "النَّتيجة ضلالهم بها؛ وإضلال غيرهم لتقديسها، وذلك أنَّهم صنعوا حجارة على أشكالٍ آدميّة، ثمَّ توهَّموا فيها قوى خفيَّة، ثمَّ عبدوها ضلالًا بها"[2].

دلالة التَّعبير بحرف الجر ﴿عَن﴾:

غاية الإضلال مجانبة الطَّريق القويم

عبَّر النَّظم الكريم بحرف الجرِّ الدّالِّ على المجاوزة ﴿عَن﴾ في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِهِۦۗ﴾ للدَّلالة على أنَّ الإضلال كانت نهايته ونتيجته صرفَ النّاس عن سبيل الله تعالى، فمدخول ﴿عَن﴾ يُعرَض عنه، فيكون بعيدًا عن المقصد، موضوعًا على الجانب، ومخلَّفًا إلى الوراء، وهذا يبيِّن شناعة ذلك الجعل؛ إذ إنَّه جعل السَّبيل القويم الذي نهايته إلى الله تعالى متروكًا مُبتعَدًا عنه.

(1) المراغي، تفسير المراغي: 13/153.
(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 8/4028.

سرُّ الإضافة إلى الضّمير في ﴿سَبِيلِهِۦۗ﴾:

عِظَمُ جِناية المشركين إعراضهُم عن السَّبيل عظيم الصَّلاح

أضاف النَّظم الجليل لفظ السَّبيل إلى الضَّمير العائد للّه تعالى في قوله تعالى: ﴿لِّيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِهِۦۗ﴾ تفخيمًا لشأن السَّبيل وتشريفًا، فشرف المضاف من شرف المضاف إليه، فالسَّبيل الّذي أضيف للّه تعالى سبيلٌ قويمٌ على وجه الكمال، والغاية من تفخيم شأن السَّبيل الدَّلالة على شناعةِ الإشراك، وجعلِ الأنداد للّه تعالى، ذلك الجعل الذي تكون عاقبته الإعراض عن ذلك السَّبيل العظيم.

دلالة الاستئناف بفعل القول ﴿قُلۡ﴾:

إسعاف المخاطَب بالإجابة عن جزاء الكافرين المتنعِّمين في الدُّنيا

الجملة في قوله تعالى: ﴿قُلۡ تَمَتَّعُواْ فَإِنَّ مَصِيرَكُمۡ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ مستأنفة استئنافًا بيانيًّا؛ لأنَّه بعد قوله جلَّ شأنه: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ كُفۡرًا﴾ كان النَّبيُّ ﷺ "بمعرض أن يقول: فماذا أفعل بهم، وقد أمرتني بإخراجهم إلى صراطك؟"[1]، فالمخاطَب بالآية السّابقة إذا عَلِمَ ضلالهم وإشراكهم؛ فإنَّه يتساءَل عن الجزاء المناسب، مع رؤيته أنَّهم قد تُركوا يرفلون في النَّعيم، فجيء بالجواب بأنَّ تمتُّعهم لن يحقِّق لهم غير المصير إلى النّار[2].

الغرض من الأمر في ﴿قُلۡ﴾:

الأمر بالقول يدلُّ على تضمين الخطاب معنى الملفوظ لا لفظه

افتتح النَّظم الجليل جملة الاستئناف بفعل القول بصيغة الأمر في قوله تعالى: ﴿قُلۡ تَمَتَّعُواْ فَإِنَّ مَصِيرَكُمۡ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ اهتمامًا بمضمون المقول؛ لأنَّ سوق الخطاب مصدَّرًا بفعل القول يدلُّ على الاهتمام بالمضمون والمعنى دون الملفوظ، فالأمر بأن يقول لهم: تمتَّعوا، يحصل بأن يقول أيَّ عبارة تدلُّ على تهديدهم، بلا اشتراط تضمُّنه الملفوظ في نصِّ الآية، فتدلُّ الجملة على: أمِنَ المطلوب إبلاغهم بتخليتهم بأن يتمتَّعوا في الحياة الدُّنيا؟

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 10/417.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/231.

الغرض من الأمر في مقول القول ﴿تَمَتَّعُواْ﴾:

التَّهديد بالأمر يؤذن بأنَّهم لا ينفكّون عن عتوِّهم

عبَّر النَّظم الجليل بفعل الأمر في قوله تعالى: ﴿تَمَتَّعُواْ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ على سبيل المجاز، فهو أمر تهديدٍ ووعيدٍ وتهوينٍ، "فهو كقول الطّبيب بعد ما أمر المريض بالاحتماء مرّات، ولم يقبل منه: كُلْ ما تريد، فإنَّ مصيرك إلى الموت، والمراد التّهديد؛ ليرتدع، ويقبل ما يقول"[1]. والتَّهديد بصيغة الأمر تدلُّ على أنَّ المخاطَب به غير قادر على الانفكاك منه، وأنَّه في صدد الإيغال في عتوِّه، فهو "إيذان بأنَّهم لانغماسهم في التمتُّع بالحاضر، وأنَّهم لا يعرفون غيره، ولا يريدونه، مأمورون به، قد أمرَهم آمرٌ مطاع لا يسعهم أن يخالفوه، ولا يملكون لأنفسهم أمرًا دونه، وهو أمر الشَّهوة"[2].

دلالةُ الفاء في ﴿فَإِنَّ﴾:

الأمر بالتَّمتُّع في الشَّهوات يسبِّب سوء المصير

افتتح النَّظم الجليل الجملة في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ بالفاء الدّالَّة على السَّببيَّة للدَّلالة على أنَّ صيرورتهم إلى النّار كائنة بسبب تمتُّعهم على هذا الوجه[3]، فالجملة تعليلٌ للأمر؛ إذ لمّا كان هذا حالهم في غاية الكفر والسّوء لفرط تهالكهم عليه وانهماكهم فيه، فإنَّهم قد تعاطوا الأسباب المقتضية لذلك المصير، فالجملة تعليل للأمر بالتَّمتع[4].

غرض توكيد جملة التَّعليل بموكِّدين:

تمتُّعهم في الحياة الدُّنيا جعلهم منكرين سوء مصيرهم

أكَّد النَّظم الجليل الجملة المساقة لتعليل الأمر في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ بالجملة الاسميَّة، وكونها مصدَّرة بحرف التَّأكيد (إنَّ) لتأكيد مضمون الجملة، فإنَّهم ينكرون أن تكون عاقبة التَّمتُّع المنهمكين فيه عذابًا أو مصيرًا بائسًا، فجيء بالتَّأكيد ردًّا على ذلك الإنكار.

(1) الطّيبي، فتوح الغيب: 8/599.
(2) الزمخشري، الكشاف: 2/555.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 10/418.
(4) القنّوجي، فتح البيان: 7/115.

سرُّ الإضافة في اسم إن ﴿مَصِيرَكُمْ﴾:

تهديد المخاطَب بمصيره أبلغ في الوعيد

أضاف النَّظم الجليل لفظ المصير في قوله تعالى: ﴿قُلْ تَمَتَّعُواْ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ إلى ضمير المخاطَبين لبيان أنَّ ذلك المصير خاصٌّ بهم، وأنَّه كائن لهم على وجه الاستحقاق، فلمّا نالوه مستحقِّين له؛ كانوا أصحابه المختصِّين به.

حرف الجرِّ ﴿إِلَى﴾ ودلالتُهُ:

نهاية الضَّلال المصير في جهنَّم وبئس المصير

عبَّر النَّظم الجليل بحرف الجرِّ ﴿إِلَى﴾ الدّالِّ على الغاية في قوله تعالى: ﴿قُلْ تَمَتَّعُواْ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ للدَّلالة على أنَّ نهايتهم مستقرَّة في النّار، وأنَّ نهاية سعيهم تصير بهم إلى هناك، لا غاية لهم سواها.

إيثار (النّار) على جميع أسماء جهنَّم:

تهويل المذكور بأخصِّ أسمائه أبلغ في البيان

آثر النَّظم الكريم التَّعبير عن دار البوار باسم النّار في قوله تعالى: ﴿قُلْ تَمَتَّعُواْ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ تعبيرًا عن جهنَّم بأخصِّ أوصافها، وكون العذاب فيها كائنًا بالحرق بالنّار، فالتَّعبير عنها بهذا الاسم للتَّذكير بشدَّة عذابها الكائن بالنّار.

كما أنَّ التعبير بلفظ ﴿ٱلنَّارِ﴾ ينسجم مع الفواصل السابقة ﴿قَرَارٍ﴾، ﴿ٱلْبَوَارِ﴾، ﴿ٱلْقَرَارُ﴾، وهذا الامتداد المنتهي بصوت الراء المُتَّصِف بالتَّكرار يتَّفق ومعنى الاضطراب والثَّوَران وعدم الاستقرار.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الأنداد والشُّركاء:

النِّدُّ الشَّريك المماثل في الذّات، والشَّريك مخالط في الأمر

النِّدُّ: المِثلُ والنّظير[1]، ونَديدُ الشَّيءِ: مُشارِكُه في جَوْهَره، وذلك ضربٌ من المُماثلة، فإنَّ المِثْل يقال في أيِّ مشاركةٍ كانتْ، فكلُّ نِدٍّ مِثلٌ، وليس كلُّ مِثلٍ نِدًّا، ويقال: نِدُّهُ ونَديدُهُ ونَديدَتُهُ، قال تعالى:

(1) الجوهري، الصحاح: (ندد).

﴿فَلَا تَجْعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا﴾ [البقرة: 22][1]، وأمّا الشَّريك؛ فمن (شرك)، وأصله يَدُلُّ عَلَى مُقارَنَةٍ وَخِلافِ انْفِرادٍ، ومنه الشِّرْكَةُ، وَهوَ أنْ يَكونَ الشَّيْءُ بَيْنَ اثْنَيْنِ لا يَنْفَرِدُ بِهِ أحَدُهُما[2]. فهو يدلُّ على مُخالَطَة الشَّريكَيْنِ، يُقالُ: اشترَكنا بِمَعْنَى تَشارَكنا، وَقَدِ اشْتَرَكَ الرَّجُلانِ وتَشارَكا وشارَك أحدُهما الآخَرَ، ويُشارَك يَعْني: يُشارِكُهُ في الغَنيمَةِ. والشَّريكُ: المُشارِك[3]. فالشِّرك لا يدلُّ على المماثلة؛ بل على المخالطة، وأمّا الأنداد؛ فيدلُّ على التَّماثل في الذّات، فعبَّر في الآية بلفظ الأنداد للدَّلالة على شدَّة غلوِّهم في اعتبار أولئك الشُّركاء، فقد جعلوهم مماثلين للّه تعالى عمّا يصفون.

(1) الراغب، المفردات: (ندد).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (شرك).
(3) ابن منظور، اللسان: (شرك).

﴿قُل لِّعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا بَيۡعٞ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ ٣١﴾

[إبراهيم: 31]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

بعد أن ابتدأ بذكر أحوال المشركين أعقبه بذكر أحوال المؤمنين

أعقب النَّظم الجليل وعيد المشركين بدعوة المؤمنين إلى سبُل الخير والنَّجاة، فبعد "أن أمر الكافرين على سبيل الوعيد والتَّهديد بالتَّمتُّع بنعيم الدُّنيا، أمر عباده المؤمنين بعدم المغالاة في التُّمتع بها، والجدِّ في مجاهدة النَّفس والهوى، ببذل النَّفس والمال في كلِّ ما يرفع شأنهم، ويقرِّبهم من ربِّهم، وينيلهم الفوز لديه في يوم لا تنفع فيه فدية ولا صداقة ولا خُلَّة"[1]، فلمّا سبق أن أمر اللّه تعالى النَّبيَّ ﷺ بأن يقول للمبدِّلين نعمة اللّه ما قاله لهم؛ أتبعه بأن يقول للمؤمنين هذا القول[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿خِلَٰلٌ﴾: أصلُ الخُلَّة: الصَّداقَةُ والمَحَبَّةُ، والخَليلُ: الصَّديقُ والحَبيبُ، وَأصْلُها مِنَ الخَلَلِ، وَهوَ: الفُرْجَةُ بَيْنَ شَيْئَيْنِ[3]، والتَّخَلُّلُ: دُخولُ الشَّيْءِ في وَسَطِ شَيْءٍ آخَرَ، يُقالُ: خَلَّلَ أصابِعَ يَدَيْهِ ورِجْلَيْهِ، أيْ: أسالَ الماءَ بَيْنَهُما، وَمِنْهُ الخَلَّةُ: الفَقْرُ؛ لأنَّهُ فُرْجَةٌ في حالِهِ، والخَليلُ: الفَقيرُ، وسُمِّيتِ المَحَبَّةُ خُلَّةً؛ لأنَّها تخلَّلَتِ القَلْبَ، فَصارَتْ خِلالَهُ، أيْ: في باطِنِهِ[4]. والمرادُ بالخِلالِ في الآية: كِنايَةٌ عَنِ التَّبَرُّعِ، والمعنى: إذْ لا بَيْعَ يَومَئِذٍ، فَيُشْتَرَى الثَّوابُ، ولا خِلالَ مِنْ شَأْنِها

(1) المراغي، تفسير المراغي: 13/152.
(2) القنّوجي، فتح البيان: 7/116.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (خلّ).
(4) الجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب: (خلل).

الإرْفادُ والإسْعافُ بالثَّوابِ، ولَيْسَ المُرادُ نَفْيَ الخُلَّةِ، أي: الصُّحْبَةِ والمَوَدَّةِ؛ لأنَّ المَوَدَّةَ ثابِتَةٌ بَيْنَ المُتَّقينَ[1].

❁ المَعْنى الإجْمالِيُّ:

لا ينفع يوم القيامة فداء ولا صداقة فكلُّ امرئ له شأن يغنيه

وجَّه الحقُّ سبحانه أمرًا لنبيّه ﷺ طلَب منه فيه مواصلة دعوة المؤمنين إلى الاستمرار في التَّزوُّد مِنَ العَمل الصّالح فقال تعالى: قُلْ - يا مُحمَّدُ ﷺ - لعبادي المؤمنين بأن يُقيموا الصَّلَواتِ الخَمسَ المَفروضةَ عليهم، بحُدودِها في أوقاتِها، ويُنفِقوا ممّا رَزَقناهم مِن فَضلِنا، فيُؤدّوا ما أوجبْتُ عليهم مِن الحقوقِ سرًّا وإعلانًا، مِن قَبلِ أن يأتيَ يومُ القيامةِ الَّذي لا يَقدِرونَ فيه على ذلك، ولا سبيلَ إلى استدراكِ ما فاتَ، لا بمُعاوَضةِ بَيعٍ وشراءٍ، ولا بهِبَةِ خَليلٍ وصَديقٍ، فكُلُّ امرئٍ له شأنٌ يُغنيه[2].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالة الاستئناف في ﴿قُل لِّعِبَادِىَ﴾:

بيان حال الفريق الثّاني من تمام التَّبليغ

فُصِلَت الجملة في قوله تعالى: ﴿قُل لِّعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾؛ لأنَّها مستأنفة لبيان المباينة والمقابلة بين الفريقين، فتركَ النَّظمُ العطفَ بين القولين؛ للإيذان بتباين حالِهما باعتبار أنَّ المقولَ للتَّهديد، والمقولَ الثّاني للتَّشريف[3]. فهو "استئناف نشأ عن ذكر حال الفريق الذي حقَّت عليه الكلمة الخبيثة بذكر حال مقابله، وهو الفريق الذي حقَّت عليه الكلمة الطَّيِّبة، فلمّا ابتُدئ بالفريق الأوَّل لقصد الموعظة والتَّخلي؛ ثُنّيَ بالفريق الثّاني"[4].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/234.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 13/679، 680، وأبو حيان، البحر المحيط: 6/439، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/510، والسعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 426.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/46.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/231.

غرض التّعبير بالأمر ﴿قُل﴾:

إبلاغ العباد بإقامة الصَّلاة بفعل القول أقرب للنُّفوس

صدَّر النَّظم الجليل الجملة المستأنفة بفعل القول بصيغة الأمر في قوله تعالى: ﴿قُل لِّعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ تنويهًا بأهمِّية مضمون الخطاب، فهو مأمور بالدَّعوة إلى الصَّلاة بأيّ لفظٍ كان، وإنَّما جعل حصول الصَّلاة متعلِّقًا بقوله ﷺ لما في كلامه من حُسنٍ وطيب وقَبول، "فهو جالٍ لصدأ القلوب، وموجبٌ لتهذيب النُّفوس"[1]، وترقيقها وترقّيها. كما أنَّ خطاب العباد بذلك أظهر؛ لبيان مودَّة الله تعالى لهم، فالعدول عن الأمر المباشر يخفِّف من وقع الأمر بالصَّلاة على النُّفوس.

سرُّ الإضافة في ﴿لِّعِبَادِيَ﴾:

إضافة العباد لله تعالى تشريف وتكريم رفيع لهم

أضاف النَّظم الجليل لفظ العباد إلى الضَّمير العائد لله تعالى في قوله جلَّ شأنه: ﴿قُل لِّعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ تشريفًا لهم وتحبيبًا لهم فيه، وتزكيةً لهم بوصفهم بأشرف الوصف[2]، فـ "خصَّهم بالإضافة إليه تنويهًا لهم، وتنبيهًا على أنَّهم المقيمون لوظائفِ العبودية الموفون بحقوقها"[3].

غرض التَّعبير بالاسم الموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾:

تعريف المذكور بالموصول تنويه بمضمون الصِّلة

عبَّر النَّظم الجليل عن العباد بالاسم الموصول في قوله تعالى: ﴿قُل لِّعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ لتضمين الصِّلة بأبرز صفاتهم التي تعرِّفهم وتميِّزهم عن غيرهم، فلمّا "كانوا متحلّين بالكمال؛ صيغ الحديث عنهم بعنوان الوصف بالإيمان"[4]. فالتَّعبير بالموصول يشير إلى أهمِّية مضمون صلته، فالصِّلة تتضمَّن الوصف الذي يكون معرِّفًا لهم وفاصلًا لهم عن غيرهم، وهذا يدلُّ على أنَّ إيمانهم كان ظاهرًا مشهورًا يمتازون به.

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 10/418.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 10/418.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/46.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/232.

دلالة التَّعبير بالماضي ﴿ءَامَنُواْ﴾:

تحقُّق الإيمان ورسوخه صفة مدح في عباد الله تعالى

آثر النَّظم الكريم التَّعبيرَ بالفعل الماضي عن إيمانهم في قوله تعالى: ﴿قُل لِّعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ للدَّلالة على أنَّهم قد تحقَّقوا بهذا الوصف، وأوجدوه[1]، فأثنى عليهم بوصفٍ مُنجَزٍ مُحقَّق لهم، كما أنَّه أخبر عن الإيمان بالماضي دون المضارع تأكيدًا لحصول الإيمان واكتفاء بدلالة فروعه من إقامة الصَّلاة والإنفاق على التَّجدُّد والدَّوام، فالإيمان محقَّق وفروعه متجدِّدة.

سرُّ إيثارِ التّعبير ﴿لِّعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾:

المدح بصفة العبوديَّة يشير إلى أنَّهم أوفوا العبادة حقَّها

آثر النَّظم الكريم التَّعبير عن المؤمنين بقوله تعالى: ﴿قُل لِّعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ دون أن يقول: (قل للمؤمنين)؛ مدحًا وثناءً عليهم؛ لأنَّ إظهار لفظ العباد فيه "إشارة إلى أنَّهم قاموا بحقِّ العبوديَّة، فلم يشركوا مع اللّه أحدًا، وأخلصوا الذّات، وأعطوا ما هو حقٌّ على العبد أن يؤدّيه"[2].

نكتة الأمر بالمضارع: ﴿يُقِيمُواْ﴾ ﴿وَيُنفِقُواْ﴾:

طلب الدّوام على الخيرات لا طلب إيجادها

آثر النَّظم الكريم التَّعبير عن إقامة الصَّلاة والإنفاق بصيغة الفعل المضارع دون فعل الأمر في قوله تعالى: ﴿يُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ﴾ للدَّلالة على الدَّوام، فلمّا "كان المؤمنون يقيمون الصَّلاة من قبلُ، وينفقون من قبلُ، تعيَّن أنَّ المراد الاستزادة من ذلك، ولذلك اختير المضارع - مع تقدير لام الأمر - دون صيغة فعل الأمر؛ لأنَّ المضارع دالٌّ على التَّجدُّد، فهو مع لام الأمر يلاقي حال المتلبِّس بالفعل الذي يؤمر به بخلاف صيغة (افعل)، فإنَّ أصلها طلب إيجاد الفعل المأمور به من لم يكن ملتبسًا به، فأصل ﴿يُقِيمُواْ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 10/418.
(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 8/4029.

ٱلصَّلَوٰةَ﴾ ليقيموا، فحذفت لام الأمر تخفيفًا"[1]. ففعل الأمر يدلُّ على طلب إيجاد الفعل بعد أن لم يكن موجودًا، أمّا الطَّلب بالمضارع؛ فيدلُّ على أنَّ المراد الدَّوام على ما عهد منهم والاستزادة منه وتعجيل إنجاز الفعل.

سرُّ تقييد الفعل بالمفعول به ﴿ٱلصَّلَوٰةَ﴾:

قيَّد النَّظم الجليل الإقامة بالصَّلاة في قوله تعالى: ﴿قُل لِّعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ تفخيمًا لشأن الصَّلاة؛ فخصَّها؛ لأنَّها صلة العبد بربِّه، ولأنّ في إقام الصلاة تهذيبًا للنُّفوس، واستشعارًا للرُّبوبية، وهي عمود الدّين، وفرعه المتين[2].

للصَّلاة شأن عظيم في تهذيب النُّفوس وصلة العبد بربِّهِ

سرُّ التقييد في: ﴿مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ﴾:

قيَّد النَّظم الجليل الإنفاق بأنَّه كائن من رزق الله تعالى في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَيُنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ﴾ للدَّلالة على أنَّ المأمور إنَّما هو بعض رزقهم، والإيفاء بالأمر يقع بأدنى قدر من ذلك الرِّزق، تخفيفًا عنهم وإلطافًا بهم[3]. كما أنَّ في تعميم ما يُنفَقُ منه بالتَّعبير عنه بـ (ما) الدّالَّة على العموم ثناءً عليهم، فإنفاقهم لا يتقيَّد بنوع واحد من الرِّزق؛ بل كلُّ شيء رُزِقوه، فإنَّهم يُنفقون منه، كما أنَّ فيه حثًّا على الإنفاق؛ حيث إنَّ رزق الله تعالى شامل لكلِّ ما يملكون، فكلُّ ما في حوزهم إنَّما هو من رزق الله تعالى، فيكون القيد ﴿مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ﴾ معلومًا من غير الإتيان به، فيكون التَّصريح به "للتَّذكير بالنِّعمة تحريضًا على الإنفاق ليكون شكرًا للنِّعمة"[4]. كما أنَّ فيه تنويهًا بأنَّ ما عندهم إنَّما هو من رزق الله تعالى لهم، وليس لهم فضل فيه سوى الحركة والسَّعي، فالتَّفضُّل بالرِّزق كائن من الله تعالى.

تفضَّل الله برزقه وأمرهم بإنفاقه للامتنان عليهم بالرِّزق والثَّناء

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/232.
(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 8/4029.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 10/418 - 419.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/232.

دلالة التَّعبير بالماضي ﴿رَزَقْنَٰهُمْ﴾:

تحقُّق رزق الله تعالى لهم، مع دوام إنفاقهم فيه ثناءٌ جزيل عليهم

آثر النَّظم الكريم التَّعبير بالفعل الماضي في قوله تعالى: ﴿مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ﴾ للدَّلالة على ما تحقَّق عندهم من الرِّزق، فالنَّفقة تحصل بما بين أيديهم ممّا امتلكوه، واقتنوه ممّا رزقهم الله تعالى إيّاه، كما أنَّ فيه إشارة إلى أنَّ دوام الإنفاق المعبَّر عنه بالفعل المضارع لا ينقطع، وإن كان من الرِّزق لا يتجدَّد، وفي هذا مزيد من الثَّناء عليهم ببيان سعة كرمهم وسخائهم، بإنفاقهم الدّائم ثقة بالله تعالى وإن كان الرِّزق غير متجدِّد لهم.

سرُّ التَّقييد بالحال: ﴿سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾:

المداومة على الإنفاق من صفات أهل الإيمان

قيَّد النَّظم البليغ إنفاق المؤمنين في قوله تعالى: ﴿وَيُنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾، فهو كائن بالسِّرِّ والعلن، فجمع بين الحالتين للإشارة إلى أنَّهم مداومون على الإنفاق في كلّ الحالات[1]. وفسَّر بعض أئمَّة التَّفسير أنَّ الجمع بين الحالين إشارة إلى صدقة التَّنفُّل التي تكون بالسِّرِّ، وإلى الزَّكاة المفروضة التي تكون بالعلانية[2]، حيث في كلتا الحالتين فضيلة وفائدة، فالإنفاق الكائنُ في السِّرِّ فيه سترٌ للفقراء، وهذا فعلٌ حسن، والإنفاق علانية فيه دعوة للاقتداء بالمنفِق، ونشرٌ لفضيلة التَّعاون، وفي كلٍّ خير[3].

غرض الطِّباق في ﴿سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾:

إيراد الضِّدَّين في سياق واحد أبلغ في البيان عن عظيم فائدة الإنفاق

أورد النَّظم الجليل الطِّباق بين لفظي السِّر والعلانية في قوله تعالى: ﴿وَيُنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ فجمع بين الضِّدَّين في عبارة واحدة لبيان أهميَّة الإنفاق، فهو مشروع ومطلوب في جميع الحالات، وإيذانًا بقبول الله تعالى لإنفاقهم في أيِّ حال كان، فهو

(1) البقاعي، نظم الدرر: 10/419.
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 3/339.
(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 8/4029.

حثٌّ على الإنفاق، "والمقصود تعميم الأحوال في طلب الإنفاق؛ لكيلا يظنّوا أنَّ الإعلان يجرُّ إلى الرّياء، كما كان حال الجاهلية، أو أنَّ الإنفاق سرًّا يفضي إلى إخفاء الغنيِّ نعمةَ الله، فيجرُّ إلى كفران النِّعمة، فربَّما توخّى المرء أحد الحالين فأفضى إلى ترك الإنفاق في الحال الآخر، فتعطَّل نفع كثير وثواب جزيل، فبيَّن الله للنّاس أنَّ الإنفاق بِرٌّ لا يكدِّره ما يحفُّ به من الأحوال"[1].

غرض البدء بالسرِّ في: ﴿سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾:

قدَّم النَّظم الجليل ذكر السِّرِّ على العلانية في قوله تعالى: ﴿سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ للتَّنبيه على أنَّ السِّرَّ أولى من العلانية؛ "لبُعده عن خواطر الرياء، ولأنَّ فيه استبقاء لبعض حياء المتصدِّق عليه"[2]. فالإسرار في الصّالحات أدلُّ على الإخلاص، وأحفظ لِمَن أُنفق عليه، فقُدِّم لأفضليَّته، وفيه إشارة إلى حثِّ العباد على تفضيله وتقديم العمل به.

السِّرُّ أولى من العلانية وأدلُّ على الإخلاص وأحفظ لكرامة النّاس

دلالة إدخال حرف الجرِّ على الظَّرف ﴿مِّن قَبْلِ﴾:

آثر النَّظم الكريم حرف الجرِّ ﴿مِّن﴾ على الظَّرف ﴿قَبْلِ﴾ في قوله تعالى: ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ﴾ ترهيبًا من التَّهاون في المبادرة إلى الأعمال، وإشارة إلى قصر مدَّة الأعمال في الحياة الدُّنيا[3]، كما أنَّ فيه تأكيدًا لمعنى القَبليَّة في ظرف الزَّمان ﴿قَبْلِ﴾، والمُراد من ذلك بيان ضرورة المبادرة في الأعمال[4].

قصر الآجال يوجب المبادرة بالأعمال

نكتة التَّعبير بالمصدر المؤول ﴿أَن يَأْتِيَ﴾:

آثر النَّظم الكريم التَّعبير بالمصدر المؤوَّل في قوله تعالى: ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ﴾ دون أن يقول: (من قبل مجيء يوم) للدَّلالة على أنَّ الإتيان حاصلٌ الآن ومستمرٌّ، وأنَّ ذلك اليوم يقترب من النّاس

إتيان يوم الحساب حاصلٌ ومستمرٌّ يقترب كلَّ يوم

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/233.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/233.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 10/419.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/234.

بمرور كلِّ يوم، فالمصدر المؤوَّل فيه دلالة على الحدوث والتَّجدُّد المستفاد من الفعل المضارع، فالإتيان واقع وهو في طريقه للبلوغ إلى غايته، وهذا أنسب في سياق الدَّعوة إلى البدار في الإنفاق، والإتيان بالعمل الصّالح.

دلالة التَّعبير بالتَّنكير في ﴿يَوْمٌ﴾:

الإبهام أبلغ في التَّعظيم والتَّهويل

عبَّر النَّظم الجليل عن يوم القيامة بصيغة التَّنكير في قوله تعالى: ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ﴾ لما في التَّنكير من دلالة على التَّعظيم، أي: هو يوم "عظيم جدًّا ليس هو كشيء من الأيام التي تعرفونها"[1]، والإبهام الّذي هو مدلول التَّنكير أدلُّ على تفخيم المذكور، فهو ليس ممّا يمكن أن يكون معروفًا معهودًا لكم، وهذا أبلغ في الدَّعوة وإيجاد المبادرة في السّامعين.

سرُّ وصف اليوم بالجملة الاسمية:

المبايعة والخلال منتفية على وجه التَّأكيد والثُّبوت

وصف النَّظم الجليل اليوم بالجملة الاسميَّة في قوله تعالى: ﴿يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ﴾ لأنَّ المراد نفيُ معنًى مركَّبٍ لا مفرد؛ إذ إنَّ الصِّفة المراد نفيها هي صفة مركَّبة، لا يفي بها المفرد، كما أنَّ إرادة نفي المبايعة والشِّراء، ونفي الاستفادة من أواصر القرابة والصَّداقة عن ذلك اليوم نفيًا على وجه التَّأكيد؛ اقتضى بالمجيء بجملة اسميَّة منفيَّة، وفي ذلك مبالغة في خلوِّ ذلك اليوم من هذه المعاني.

غرض التَّعبير بالكناية في نفي البيع والخلال:

نفي المبايعة يوم الحساب دليل على عظيم منافع الصّالحات

كنّى النَّظم الجليل بنفي البيع والخلال في قوله تعالى: ﴿يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ﴾ عن منافع المبادرة في الصلاة والإنفاق قبل الوفاة، فإنَّ "انقطاع آثار البيع والخِلالِ الواقعَيْن في الدُّنيا، وعدم الانتفاع بهما، من أقْوى الدَّواعي إلى الإتيان بما تبقى عوائدُه،

(1) البقاعي، نظم الدرر: 10/419.

وتدوم فوائدُه من الإنفاقِ في سبيلِ اللّه ﷻ، أو من حيث إنَّ ادِّخارَ المال وترْكَ إنفاقِه إنَّما يقع غالبًا للتِّجارات والمُهاداة، فحيث لا يمكن ذلك في الآخرة، فلا وجهَ لادِّخاره إلى وقت الموت"[1]، فهو حثٌّ على العمل الصّالح والمبادرة به لعظيم نافعه قبل يوم الجزاء.

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

السِّرّ والكتمان:

الكتمُ خاصٌّ بالمعاني، والسِّرُّ عامٌّ

الكتمُ مختصٌّ بالسُّكوت عن المعاني كالأسرار والأخبار[2]. وأمّا السِّرُّ؛ فهو إخفاء الشَّيء في النَّفس، ولو اختفي بستر أو وراء جدار لم يكن سرًّا، والأصل في السِّرِّ تغطية الشَّيء بغطاء، وقد يكون السِّرُّ في غير المعاني مجازًا، تقول: فعل سرًّا، وقد أسرَّ الأمر[3]. وفي الآية الكريمة آثر النَّظم الكريم التَّعبير بالسِّرِّ: ﴿وَيُنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾؛ لأنَّه دالٌّ على إخفاء الإنفاق لا كتمانه بالسُّكوت.

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/47.
(2) العسكري، الفروق، ص: 287.
(3) العسكري، الفروق، ص: 63.

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾﴾ [إبراهيم: 32]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

ذمُّ كفران النِّعمة يستوجب التَّنبيه على وجوب شكرها

لمّا ذكر النَّظم الجليل أنَّ الكافرين بدَّلوا نعمة الله كفرًا؛ أتبع ذلك في هذه الآية بذكر إنعامه على الوجود كلِّه، فلمّا "ذكر أحوالَ الكافرين لنعم الله تعالى، وأمرَ المؤمنين بإقامة مراسم الطاعةِ شكرًا لنِعَمه؛ شرَع في تفصيل ما يستوجب على كافَّة الأنام المثابرة على الشُّكر والطّاعة من النّعم العِظام والمنن الجِسام حثًّا للمؤمنين عليها وتقريعًا للكفرة المُخلِّين بها الواضعين موضعَها الكفرَ والمعاصيَ"[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿رِزْقًا﴾: أصلُ (رزق): أصلٌ واحِدٌ يَدُلُّ على عَطاءٍ لِوَقْتٍ، ثُمَّ يُحمَلُ عليهِ غَيرُ المَوْقوتِ، فالرِّزْقُ: عَطاءُ الله جَلَّ ثَناؤُهُ[2]، وهو كُلُّ ما يُنْتَفَعُ بِهِ مِنْ مالٍ ونَحْوِهِ، والجَمْعُ: أرْزاقٌ[3]، والرَّزْقَةُ: المَرَّةُ الواحدةُ[4]. والرَّزْقُ بِفَتْحِ الرّاءِ: العَطاءُ الدّائِمُ، يُقالُ: رَزَقَ يَرْزُقُ رَزْقًا، أيْ: أعْطَى، وَوَهَبَ، والرّازِقُ: المُعْطي، وَهوَ اللهُ[5]، وكُلُّ ما يَصِلُ إلَى الجَوْفِ، وَيُتَغَذَّى بِهِ؛ فَهوَ رِزْقٌ، وَمِنْ مَعاني الرِّزْقِ أيْضًا: الكَسْبُ، الهِبَةُ، الصَّدَقَةُ[6]، والمقصود بالرِّزق في الآية: القوتُ، ويُطْلَقُ على الطَّعامِ والثِّمارِ[7].

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/47.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (رزق).
(3) بن دريد، جمهرة اللغة، والجوهري، الصحاح: (رزق).
(4) ابن عباد، المحيط في اللغة: (رزق).
(5) ابن دريد، جمهرة اللغة: (رزق).
(6) ابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (رزق).
(7) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/235.

2) ﴿وَسَخَّرَ﴾: أصلُ (سخر): أصْلٌ مُطَّرِدٌ مُسْتَقيمٌ يَدُلُّ عَلَى احْتِقارٍ واسْتِذْلالٍ، مِنْ ذلكَ قَولُنا: سَخَّرَ اللّه ﷻ الشَّيْءَ[1]. فالتَّسخيرُ: التَّذليلُ، وسفُنٌ سواخِرُ؛ إذا أطاعت، وَطابَ لَها الرّيحُ، وَكُلُّ ما ذَلَّ، وانْقادَ، أو تهيَّأ لكَ على ما تُريدُ، فَقَدْ سُخِّرَ لَكَ[2]. والسُّخْرَةُ: الرَّجُلُ أو الدّابَّةُ يُسْتَعْمَلُ بِلا مُقابِلٍ، يُقال: سَخَّرَهُ، سُخْرًا، وسُخْريًّا، أيْ: كَلَّفَهُ عَمَلًا بِلا أُجْرَةٍ[3]. والمُسَخَّرُ هو المقيَّض للفعل، والسُّخْريُّ: هو الذي يقهر، فَيَتَسَخَّرُ بإرادته[4]. وقيلَ: السُّخريُّ، بِالضَّمِّ، مِنَ التَّسْخيرِ، والسِّخريُّ بِالكَسْرِ، مِنَ الهُزْءِ[5]. وَحَقيقةُ التَّسْخيرِ في الآية: التَّذليلُ والتَّطويعُ، والمُرادُ بتَسْخيرِ الفُلْكِ: تَسْخيرُ ذاتِها بإلهامِ البَشَرِ لِصُنْعِها وشَكْلِها بِكَيْفيَّةٍ تَجْري في البَحْرِ بدونِ مانِعٍ، وَتَسْخيرُ الأنْهارِ: خَلْقُها على كَيْفيَّةٍ تَقْتَضي انْتِقالَ الماءِ مِنْ مَكانٍ إلى مَكانٍ وقَرارَهُ في بَعْضِ المُنْخَفَضاتِ[6].

3) ﴿ٱلْفُلْكَ﴾: أصلُ (فلك): أصْلٌ صَحيحٌ يَدُلُّ على اسْتِدارَةٍ في شَيْءٍ، مِنْ ذلكَ فَلْكَةُ المِغْزَلِ بِفَتْحِ الفاءِ، سُمِّيَتْ لِاسْتِدارَتِها[7]. والفُلْكُ: جَمْعٌ لَفْظُهُ كَلَفْظِ مُفْرَدِه: السَّفينَة، يُذكَّر، ويؤنَّث[8]، ومِنْ هذا القياسِ فَلَكُ السَّماءِ: مَجرى الكواكب[9]. والمرادُ بالفُلْكِ في الآية: اسمٌ لِمَرْكَبِ البَحْرِ، واسمُ جَمْعٍ لهُ بِصيغَةٍ واحِدَةٍ.

المَعْنى الإجْماليُّ:

في هذه الآية يذكر الحقُّ سبحانه بعض نِعمه على الوجود كلِّه،

نِعَمُ الله تعالى على البشَر لا تُعدُّ، ولا تُحصى لكثرتها

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سخر).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (سخر).
(3) ابن سيده، المحكم: (سحر).
(4) الراغب، المفردات: (سحر).
(5) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (سحر).
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/234.
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (فلك).
(8) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن سيده، المحكم: (فلك).
(9) الراغب، المفردات: (فلك).

فقال تعالت كلماته: هو الَّذي أنشأ السَّمواتِ والأرضَ مِن العدَمِ، وأبدعَهما على غيرِ مثالٍ سابقٍ، وأنزَل مِن السَّحابِ مَطَرًا، فأخرجَ به مِن الثَّمَراتِ المُتَنوِّعةِ رِزقًا لكم تعيشونَ به، وذلَّلَ لكم السُّفُنَ لتجريَ بكم في البحرِ بإذنِه، فهو الَّذي يسَّرَ لكم صُنعَها، وأقدَرَكم عليها، وجعَلَها طافيةً على البَحرِ بتَيسيرِه، وحَفِظَها على تيّارِ الماءِ لتحمِلَكم، مع كَفِّ العواصِفِ عنها وإعانتِها بالرّيحِ الطَّيِّبةِ، فتركبوها لتنتَقِلوا عَبْرَها من مكانٍ إلى آخرَ، وتَحمِلوا فيها أمتِعتَكم مِن بلدٍ إلى بلدٍ، وذلَّلَ لكم الأنهارَ لتشربوا مِن مياهِها، وتَسقوا بها زُروعَكم وأنعامَكم، وذلَّلَها لكم بالرُّكوبِ عليها، والإجراءِ لها إلى حيثُ تُريدونَ.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالة الاستئناف في الآية:

إقامة الحُجَّة على العباد بسرد آلائه وجميل نعمائه

الجملة في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ مستأنفة للتَّذكير بآلاء الله تعالى على خلقه، وللتَّنبيه على عظيم قدرته التي فيها إحسان إلى البشر لتقوم الحُجَّة عليهم[1]، وهذا الاستئناف واقع موقع الاستدلال على ما تضمَّنته الجملة في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا﴾[2]، ففيه دلالةٌ على بطلان أولئك الأنداد، وتفسير لكون مصير المشركين النّار؛ إذ إنَّ خالق السَّموات والأرض وما فيهما هو الله تعالى، فأنّى يتَّخذون من دونه آلهة يجعلونها له نِدًّا؟ تعالى الله عمّا يصفون.

الغرض من التَّعبير بالجملة الاسمية:

تأكيد الإنعام وتربية للمهابة

آثر النَّظم الكريم التَّعبير بالجملة الاسميَّة في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ تأكيدًا لمضمون الخطاب، وللدَّلالة

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 3/339.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/234.

على ثبوت ذلك المعنى وكونه حقيقة راسخة لا تتغيَّر بمرِّ الزَّمان، كما أنَّ في جعلها اسميَّة متضمِّنةً تلك الأفاعيلَ العظيمة، وما تبعها من المذكورات لاحقًا؛ أدلُّ على تربية المهابةِ، فهي تذكير مؤيَّد بالبراهين على عظيم آلاء اللّه؛ للتَّنبيه على قدرته مع إحسانه إلى البشر لتقوم الحجَّة عليهم[1].

سرُّ التَّعبير بالمسند إليه باللفظ الجليل ﴿ٱللَّهُ﴾:

التَّعبير بالاسم العظيم أبلغ في سياق التَّذكير بعظم المخلوق

آثر النَّظم الكريم التَّعبير بلفظ الجلالة في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ تعظيمًا لمضمون الآية، فخلْقُ السَّموات والأرض عظيم الشَّأن حريٌّ بأن يسند إلى لفظ الجلالة الدّالِّ على التَّعظيم والجلال، كما أنَّ تصدير الآية باللَّفظ الجليل مفيض النِّعم، فيه تربية للمهابة، ولتعيين الموجِد الذي هو الغرض الأهمُّ في الآية[2].

مجيء المسند اسمًا موصولًا:

تعريف المذكور بأفعاله المعهودة أوقع في الاحتجاج

عبَّر النَّظم الجليل بالاسم الموصول مسندًا في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ للتَّعريف باللّه تعالى؛ لما في الموصول من صلة تتيح أن يُعطف عليها الأفعالُ المراد وصف اللّه تعالى بها، "فهو تعريف للّه تعالى بأنَّه الّذي خلق السّموات والأرض، خلق ﷻ السّماء ببروجها ونجومها وكواكبها، والأرض بطبقاتها وجبالها، وما أودع ببطنها من أحجار وفلزات ومعادن جامدة وسائلة"[3]. فالتَّعبير بالاسم الموصول للدَّلالة على أنَّ هذه الصِّفات لا يجادل فيها أحد بأنَّها من فعل اللّه تعالى، فخلق السَّموات والأرض وما عطف عليهما ليس في محلّ خلاف بين الخلق بأنَّ اللّه هو موجدُها،

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 3/339.
(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 8/4031، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/235.
(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 8/4031.

فجيء بالموصول إشارة إلى أنَّ اللّٰه تعالى مشهور ومعهود أنَّه هو خالق السَّموات وما تبعها، "فجيء في هذه الآية بنِعَم عامَّة مشهودة محسوسة لا يُستطاع إنكارُها، إلّا أنَّها محتاجة للتَّذكير بأنَّ المنعم بها وموجدها هو اللّٰه تعالى"[1].

سرُّ التَّعبير بجملة الصِّلة ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾:

سوقُ الأدلَّة التي لا تنقض تأكيدٌ لاستحقاق الإلهيَّة على وجه الوحدة

عبَّر النَّظم الجليل بالجملة الفعليّة في قوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾ صلة للموصول؛ لأنَّ الخبر المضمَّن في هذه الصِّلة ممّا هو معلوم بالضَّرورة لكلِّ النّاس؛ "إذ لا ينازع المشركون في أنَّ اللّٰه هو صاحب الخلق، ولا يدَّعون أنَّ الأصنام تخلق شيئًا، كما قال: ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ﴾ [لقمان: 25]، فخلْقُ السموات والأرض دليل على إلهيَّة خالقهما، وتمهيدٌ للنِّعم المودعة فيهما، فإنزالُ الماء من السَّماء إلى الأرض، وإخراجُ الثَّمرات من الأرض، والبحارُ والأنهارُ من الأرض، والشَّمسُ والقمرُ من السَّماء، واللَّيلُ والنَّهارُ من السَّماء ومن الأرض"[2].

دلالة العطف في ﴿وَأَنزَلَ﴾:

حشد النِّعَمِ العظيمة أوقع في قوَّة الاحتجاج

الجملة في قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ معطوفة على الجملة الواقعة صلة للموصول، فأعقب ذكر خلق السَّموات بذكر النِّعمة التي بها تكون الحياة، وهي نعمة الماء، وهي كائنةٌ من الأرض ومن السَّماء معًا[3]، وفي ذلك تأكيدٌ للاحتجاج عليهم بسرد عظيم النِّعم.

سرُّ تقييد إنزال الماء ﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾:

المنَّة بنزول الماء من السَّماء أبلغ لما فيه من محض الإنعام

قيَّد النَّظم الجليل إنزال الماء بكونه كائنًا من السَّماء في قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ لبيان محض الامتنان به عليهم،

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/234.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 10/420، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/235.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 10/420.

فمن المعلوم أنَّ المطر نازل من السَّماء، فإنَّما جيء به لإظهار الامتنان عليهم به، فماء المطر منه مشربهم، ومنبت الكلأ في بواديهم، وبيان كونه من السَّماء فيه تنبيهٌ على محض الإنعام.

غرض تقديم ﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ على ﴿مَآءً﴾:

تعظيم المُنزَّل قبل ذِكْره ببيان جهة نزوله

قدَّم النَّظم الجليل شبه الجملة من الجارِّ والمجرور على المفعول به في قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾، فلم يأتِ به على أصل التَّركيب: (وأنزل ماء من السَّماء)؛ تعجيلًا بما يشرِّف هذا الماء، ويبين وجه الامتنان به، وذلك ببيان جهة النُّزول قبل المنزَّل، كما أنَّ في تأخير المفعول به تشويقًا له[1]، فيحصل الامتنان بكونه نازلًا من السَّماء لمحض الإنعام قبل بيان ماذا أنزِل، كما أنَّ السّامع يتطلَّع لمعرفة هذا المنزَّل فيؤخِّر ذكره إلى آخر العبارة تفخيمًا لشأنه وتشويقًا له، فيقع في الأُذن عند ذِكْره موقعًا حسنًا بليغًا.

غرض تنكير المفعول به ﴿مَآءً﴾:

كثرة النِّعمة دليل كرم المنعم، دالَّة على وجوب طاعته وعبادته

آثر النَّظم الكريم التَّعبير عن الماء بصيغة التَّنكير في قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ لما في التَّنكير من دلالة على التَّكثير، والتَّعظيم، فتكثير الماء النّازل من السَّماء في سياق بيان النِّعم أنسب وأبلغ في سياق الامتنان بالإنعام.

دلالة الفاء في ﴿فَأَخْرَجَ﴾:

خروج الثِّمار كائنٌ بسبب تراكم النِّعم من خلق الأرض وإنزال الماء من السَّماء

أدخل النَّظم البليغ الفاء الدّالَّة على السَّببيَّة في قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾؛ لأنَّ نزول الماء هو السَّبب في النُّمو، فخروج الثَّمار كائن بسبب الماء الّذي جعل منه كلَّ شيءٍ حيٍّ[2]، فذكر أوَّلًا الإنعام عليهم بنزول الماء من السَّماء بمحض فضله، وأتبعه بكون ذلك الإنعام بالماء هو المسبِّب

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/47.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 10/420.

لخروج الثِّمار، فهو تأكيد للإنعام عليهم ببيان فائدة الماء وأثره في حياتهم.

سرُّ التَّعبير بشبه الجملة ﴿بِهِۦ﴾:

إحالة نعمة الثِّمار على نعمة الماء يفصح عن لطف مقاديره بعباده

علَّق النَّظم الجليل فعل إخراج الثَّمرات بشبه الجملة من الجارِّ والمجرور في قوله تعالى: ﴿فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ للنَّصِّ على أنَّ تلك الثَّمرات إنَّما خرجت بسبب الإنعام بالماء[1]، وفي ذلك مزيد من تفخيم شأن النِّعمة.

دلالة من ﴿مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾:

جنس الرِّزق الخارج بالماء ثمار متنوِّعة

أدخل النَّظم الجليل حرف الجرِّ ﴿مِنَ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ لبيان الخارج من الأرض بأنَّه من جنس الثَّمرات، فـ ﴿مِنَ﴾ بيانيَّة، جيء بها تبيينًا للرِّزق، أي: أخرج به رزقًا هو ثمرات[2]، فجيء بـ ﴿مِنَ﴾ البيانيَّة لتنوُّع الثَّمرات، والمعنى: فأخرج بالماء الثَّمرات المتنوِّعة المختلفة الفوائد[3].

دلالة الجمع والتَّعريف ﴿ٱلثَّمَرَٰتِ﴾:

كثرة النِّعمة ألزم في سياق الامتنان

آثر النَّظم الكريم المجيء بلفظ الثَّمرات معرَّفًا مجموعًا في قوله تعالى: ﴿فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡۖ﴾ للدَّلالة على كثرة تلك الثِّمار، فهي ثمار لا تنحصر[4]، والتَّكثير المدلول عليه بصيغة الجمع ألزم وأبلغ في سياق الامتنان بعظيم الإنعام.

نكتة تقديم أشباه الجُمل على المفعول: ﴿رِزۡقٗا﴾:

تشريف المقدَّم والتَّشويق للمؤخَّر

قدَّم النَّظم الجليل المجرورات على المفعول به في قوله تعالى: ﴿فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا﴾، ولم يقل: (فأخرج رزقًا من الثَّمرات به)؛ لأنّ تقديم المجرور على المنصوب باعتبار كونِ الثَّمرات هي

(1) البقاعي، نظم الدرر: 10/420.
(2) الزمخشري، الكشاف: 2/557.
(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 8/4032.
(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/47.

مادَّة الرِّزق، أو تشريفًا لها، وتفخيمًا لشأن المؤخَّر، فيبقى السّامع متطلِّعًا لمعرفة المراد من إخراج الثِّمار بالماء، فبعد الامتنان بإنزال الماء معلوم أنَّ السّياق في بيان هذه النِّعم والامتنان بها، فأُخِّر الغرضُ من تلك النِّعَم تفخيمًا له ليقع في السَّمع أبلغ موقع.

سِرُّ تنكير المفعول به ﴿رِزۡقٗا﴾:

سعة الرِّزق وشموله الأنواع الكثيرة أوسع من تعيينها

آثر النَّظم الكريم التَّعبير عن الرِّزق بصيغة التَّنكير في قوله تعالى: ﴿فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡۖ﴾ للدَّلالة على العموم، فيشمل كلَّ المطعوم والملبوس وغيره ممّا هو رزق[1]، وهذا يجري على سياق الآية من إيراد الألفاظ بما يدلُّ على الكثرة والتَّعميم؛ وذلك لمناسبته الاستدلال بعظيم النِّعَم على استحقاق التَّوحيد والعبوديَّة لموجدها.

دلالة وصف ﴿رِزۡقٗا﴾ بـ ﴿لَّكُمۡۖ﴾:

إيجاد الرِّزق مقصودًا به الإنسان دليل على عظيم الامتنان

قيَّد النَّظم الجليل الرِّزقَ بشبه الجملة ﴿لَّكُمۡۖ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡۖ﴾ لما في هذا القيد من بيان كون المقصود بذلك الرِّزق الإنسان، وخاصة المخاطَبين، وفي ذلك تأكيد على عظيم الامتنان؛ إذ لم يكن إنزال المطر وإخراج الأرزاق خبطَ عشواء؛ بل كان المقصود منه أن يكون ذلك رزقًا للنّاس، وهذا يدلُّ على عظيم الامتنان.

دلالة العطف في ﴿وَسَخَّرَ﴾:

نعمة الإبحار من نِعَم الخالق العظيم

الجملة في قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلۡفُلۡكَ لِتَجۡرِيَ فِي ٱلۡبَحۡرِ بِأَمۡرِهِۦۖ﴾ معطوفة على الجملة الواقعة صلة للموصول[2]، وما تبعها في قوله جلَّ شأنه: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡۖ﴾؛ إذ بعد تلك النِّعَم أتبعها

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/47.
(2) صافي، الجدول في إعراب القرآن: 7/194.

بالنِّعم الكائنة في مياه البحار[1]، فهي وَسَطٌ ناقل لتجارتهم وسفرهم بالفُلك.

بلاغة المجاز في التَّسخير:

تخويل العباد بالتَّصرُّف بالموجودات من تمام الإنعام

عبّر النَّظم الكريم بالتَّسخير في قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ﴾ عن القدرة في التَّصرُّف به؛ إذ إنَّ "التسخير حقيقته: التَّذليل والتَّطويع، وهو مجازٌ في جعل الشَّيء قابلًا لتصرُّف غيرِه فيه"[2]، فالله تعالى جعل تلك الموجودات بحيث يمكن للإنسان أن يستفيد منها ويطوِّعها له ولمآربه، وفائدة "التَّعبير عن التَّصريف المتعلِّق بما ذُكر من الفُلك والأنهارِ والشَّمسِ والقمر واللَّيل والنَّهار بالتَّسخير من الإشعار، بما فيها من صعوبة المأخذ وعزَّة المنال والدَّلالة على عِظَم السُّلطان وشدَّة المحال ما لا يخفى"[3].

غرض تقديم ﴿لَكُمُ﴾ على ﴿ٱلْفُلْكَ﴾:

مقصود تلك النِّعمة الإنسان

قدَّم النَّظم الكريم شبه الجملة من الجارّ والمجرور في قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ﴾، ولم يقل: وسخَّر الفُلكَ لكم؛ اهتمامًا بأنَّ المقصود من تلك النِّعمة المخاطَبون، وأنَّهم مخصوصون بها، كما أنَّ في تأخير الفُلك تشويقًا له، كما جرت العادة في تأخير المذكور تشويقًا له وتفخيمًا لشأنه.

دلالة اللام في ﴿لِتَجْرِيَ﴾:

وجه تسخير البحار أنَّ الفُلك قادرة على الجري فيه

أدخل النَّظم الجليل لام التَّعليل على الفعل في قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي ٱلْبَحْرِ﴾ لبيان علَّةِ التَّسخير[4]، فوجه التَّسخير أن يكون البحر حاملًا للفُلك مناسبًا لجريها فيه، فخلق

(1) البقاعي، نظم الدرر: 10/420.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/235.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/48.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 10/420.

اللّه تعالى تلك القوانين والسُّنن في البحر بحيث يتمكَّن الإنسان من اكتشاف تلك السُّنن، فيبحر فيه.

دلالة التَّعبير بالمضارع ﴿لِتَجۡرِيَ﴾:

آثر النَّظم الكريم التَّعبير عن الجري بالفعل المضارع في قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلۡفُلۡكَ لِتَجۡرِيَ فِي ٱلۡبَحۡرِ﴾ للدَّلالة على تجدُّد ذلك الجري، وأنَّه دائم في كلِّ زمان، كما أنَّ في ذلك تصويرًا للمشهد.

جري الفُلك في البحار متجدِّد مشاهَدٌ في كلِّ زمان

نكتةُ ذِكر المُجرَى فيه ﴿فِي ٱلۡبَحۡرِ﴾:

صرَّح النَّظم الجليل بأنَّ جري الفلك كائن في البحر في قوله تعالى: ﴿لِتَجۡرِيَ فِي ٱلۡبَحۡرِ﴾ مع كون أنَّ ذلك معلوم؛ إذ لا يخفى أنَّ الفلك تجري فيه، ولا تجري في غيره؛ وإنَّما صرَّح بالبحر لاستحضار عظمة هذا الإنعام، فمن الغريب أن يركبَ الإنسانُ البحر الذي هو مظنَّة الهلاك، فكان الإنعام بركوب البحر إنعامًا كبيرًا، فذَكر البحر استحضارًا وتذكيرًا بذلك.

التَّصريح بالمجرى فيه وهو مظنَّة الهلاك أبلغ في بيان النِّعمة

دلالة اللام في ﴿ٱلۡبَحۡرِ﴾:

عرَّف النَّظم الجليل البحر بالألف واللّام الدّالَّة على الجنس في قوله تعالى: ﴿لِتَجۡرِيَ فِي ٱلۡبَحۡرِ﴾؛ فليس المراد به بحرًا بعينه؛ بل المراد جنس البحار، فإنَّ الفلك تجري في البحار كلِّها، فهو أمر عامٌّ في كلِّ البحار، ولا يختصُّ ببحر دون غيره.

الفُلك تجري في كلِّ بحر، ليس بحرًا بعينهِ

سرُّ تقييد الجري بشبه الجملة ﴿بِأَمۡرِهِۦۖ﴾:

قيَّد النَّظم البليغ جريَ الفُلك بكونه حاصلًا بأمر اللّه تعالى في قوله تعالى: ﴿لِتَجۡرِيَ فِي ٱلۡبَحۡرِ بِأَمۡرِهِۦۖ﴾؛ إذ إنَّ الجري في البحر من عجائب الأمور التي تبهر العقل، فكان من تمام بيان عظمة الإنعام أن ينسب ذلك إلى أمرهِ ﷻ[1]، وأمره تعالى لها إنَّما وقع حال

خلق الله تعالى الموجودات مع غاياتها، فجري الفُلك قد جرى بأمره ذلك

(1) البقاعي، نظم الدرر: 10/420.

إيجادها، وهو قول الله تعالى للبحار والأرض وسائر الأشياء: "كن بحال كذا وعلى وتيرة كذا، وفي هذا يندرج جريان الفلك وغيره"[1].

غرض إضافة الأمر للضَّمير ﴿بِأَمْرِهِۦۖ﴾:

فخامة الأمر بفخامة الآمر، إيماء إلى استحقاق التَّوحيد

أضاف النَّظم الجليل لفظ الأمر إلى الضَّمير العائد إلى الله تعالى، في قوله تعالى: ﴿لِتَجْرِيَ فِي ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦۖ﴾؛ للدَّلالة على عظمة ذلك الأمر، وأنَّ ذلك الأمر له من العظمة بأن يضاف إلى الله تعالى لاختصاصه به، فهو مَن يأمر البحار وغيرها، فهو خالقها وموجدها، ففيه إيماء إلى أنَّ ما يشركون به لا أمر لهم، تذكيرًا لهم بالإله الحقِّ المستحقِّ العبادة والطّاعة.

دلالة الواو في ﴿وَسَخَّرَ﴾:

النِّعم العظيمة تذكر تباعًا لبيان عظمة الخالق

عطف النَّظم الجليل الجملة في قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ﴾ على الجملة ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ بالواو[2]؛ لأنَّ الأنهار من جملة النِّعم العظيمة بعد نعمة البحار[3]، فسيقت الأنهار ضمن الآلاء التي ذكرت في التَّعريف بالجليل ﷻ وبيان نعمائه وجميل آلائه.

غرض تقديم ﴿لَكُمُ﴾ على المفعول به:

بيان أنَّ المخاطَب هو المخصوص بالإنعام أبلغ في الاحتجاج

قدَّم النَّظم الجليل شبه الجملة من الجارِّ والمجرور على المفعول به، في قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ﴾، فلم يقل على الأصل: (وسخَّر الأنهار لكم)؛ لما في التَّقديم والتَّأخير هنا من أثر في بيان الامتنان، فالمستفيد من تسخير الأنهار هم النّاس، فقدَّم ذكر مَن وقعت له الفائدة من ذلك التَّسخير، وهذا أبلغ في سياق الامتنان بتلك النِّعم، كما أنَّ في تأخير الأنهار تشويقًا لها، فيبقى السّامع

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 3/339.
(2) صافي، الجدول في إعراب القرآن: 7/194.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 10/420.

منتظرًا أيَّ شيء وقع في التَّسخير بعد تلك المذكورات، فيأتي ذكر الأنهار لتقرير ذلك الامتنان.

علَّة الجمع ﴿ٱلۡأَنۡهَٰرَ﴾ والإفراد ﴿ٱلۡبَحۡرَ﴾:

آثر النَّظم الكريم التَّعبير عن الأنهار بصيغة الجمع، والبحار بصيغة المفرد، في قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلۡفُلۡكَ لِتَجۡرِيَ فِي ٱلۡبَحۡرِ بِأَمۡرِهِۦۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلۡأَنۡهَٰرَ﴾؛ وذلك لأنَّ الإنعام بالأنهار متأتٍّ بكونها كثيرة متفرِّعة، تسير في بلادهم، أمّا البحر؛ فذكر الإنعام بجري الفُلك فيه، لا الإنعام بالبحار ذاتها، فأفرد لإرادة الجنس، فجري الفلك يكون في كلِّ بحر بما لا يختلف عن بحر آخر.

الإنعام بالأنهار كائن بالكثرة والتَّفرُّع، والبحر سيق لبيان الإنعام بجري الفلك فيه

نكتةُ جمع الأضداد:

جمع النَّظم الجليل بين المتقابلات في الآية - ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾، ﴿ٱلۡبَحۡرَ﴾ و﴿ٱلۡأَنۡهَٰرَ﴾ -، فجمع بين السموات والأرض، وجمع بين البحر والأنهار؛ لما في ذلك من بيان تنوُّع نعمه، وأنَّها متحصِّلة في كلِّ تلك الموجودات، فهي تتضمَّن نِعَمًا جليلة لا تحصى، وفي ذلك تأكيد على استحقاقه التَّوحيد والعبادة، فنِعَمُهُ في كلِّ مكان تحيط بالخلائق.

نِعَمُ المولى كثيرة متنوِّعة حاصلة في كلِّ مكان

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(أنزل) و(نزَّل):

قال الرّاغب: "والفَرْقُ بَيْنَ الإنْزالِ والتَّنْزِيلِ: أنَّ التَّنْزيل يختصُّ بالموضع الذي يُشيرُ إليه إنزالُهُ مفرَّقًا، ومرَّةً بعد أُخْرَى، والإنزالُ عامٌّ"[1]. وفي الآية آثر النَّظم الكريم التَّعبير بـ (أنزل)؛ لأنَّه أنسب مع نزول الماء؛ لأنَّه نزول عامٌّ لا يراد بيان أنَّ نزوله مفرَّق؛ إذ لا ميزة بتفريق إنزاله؛ بل المراد كونه نعمةً من نِعَم الله تعالى، وهي حاصلة بالإنزال العامِّ.

التَّنزيل دالٌّ على التَّفريق، والإنزالُ عامٌّ

(1) الرّاغب، المفردات: (نزل).

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ دَآئِبَيۡنِۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ ٣٣﴾ [إبراهيم: 33]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الإنعامُ بريِّ الثِّمار يعقبه الإنعام بإنضاجِها بضياء الشَّمس

بعد أن بيَّن النَّظم الجليل ما سخَّر الله تعالى لعباده في الأرض؛ أخذ يبيِّن ما سخَّر للإنسان من أجرام السَّماء[1]، ومن المناسبة أنَّ النَّظم لمّا ذكر نزول الماء من السَّماء، وتسخير ماء الأنهار؛ "أتبعه ما جعله سببًا لكمال التَّصرُّف وإنضاج الثِّمار المسقيَّة بالماء النّازل من السَّماء، والنّابع من الأرض فقال: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ﴾"[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿دَآئِبَيۡنِۖ﴾: أصلُ (دأب): أصْلٌ واحِدٌ يَدُلُّ على مُلازَمَةٍ ودَوامٍ[3]. فالدَّأْبُ: العادة المستمرَّة دائمًا على حالةٍ، قال تعالى: ﴿كَدَأۡبِ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ﴾ [آل عمران: 11]، أي: كعادتهم التي يستمرّون عليها[4]. وكُلُّ ما أدَمْتَه؛ فقَدْ أدْأبْتَه[5]. ودَأبَ الرَّجُلُ في عَمَلِه؛ إذا جَدَّ[6]. والدُّؤوبُ المبالَغةُ في السَّير، وأدأبَ الرّجُل الدّابَّة إدآبًا؛ إذا أتعبها[7]. والدّائِبانِ: اللَّيْلُ والنَّهارُ[8]، والمرادُ بالدُّؤوبِ في الآية: مُرورُ الشَّيءِ في العمَلِ على عادةٍ جاريةٍ فيه.

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 8/4032.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 10/420 - 421.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن سيده، المحكم: (دأب).
(4) الراغب، المفردات: (دأب).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن سيده، المحكم: (دأب).
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (دأب).
(7) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة: (دأب).
(8) ابن فارس، مقاييس اللغة: (دأب).

المَعْنى الإجْماليُّ:

تسير أجرام السَّماء من غير إبطاء في دأبٍ مستمرٍّ يَعلمُ الله تعالى سيرَها وناموسها

يقول الله تعالى: وذلَّلَ لكم الشَّمسَ والقمَرَ يَدأبانِ في سَيرِهما، فيتعاقَبانِ عليكم بلا انقطاعٍ؛ لتَحقيقِ مَصالِحِكم، كحِسابِ أزمِنَتِكم، وضَبطِ أوقاتِكم، ونفعِ أبدانِكم، وحيواناتِكم، وزُروعِكم، وثمارِكم، وغيرِ ذلك، وكذلك ذلَّل اللهُ تعالى لكم اللَّيلَ والنَّهارَ يتعاقبانِ عليكم؛ فجعل اللَّيلَ لِتَسكُنوا فيه؛ راحةً لأبدانِكم، وجعل النَّهارَ لِتَبتَغوا فيه مِن فَضلِه[1].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالة العطف في الآية:

تعداد النِّعم لبيان واجب الشُّكر

الجملة في قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ﴾ معطوفةٌ على الجملة الواقعة صلة في قوله جلَّ شأنه: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾[2]، فبعد أن ذكر السَّموات والأرض وإنزال الماء الذي أخرج الثِّمار؛ أتبع ذلك بما هو كائن في السَّماء، وينفع الأرض، وبه تكون الحياة، وهو تسخير الشَّمس والقمر، إذ لو لم يوجدْهما على هذا الحال؛ لكانت الحياة من المحال.

غرض تقديم ﴿لَكُمُ﴾ على ﴿ٱلشَّمۡسَ﴾:

بيان المقصود بالتَّسخير مبالغة في المنَّة وما يلزمها من شكر النِّعمة

قدَّم النَّظم الجليل شبه الجملة من الجارِّ والمجرور على المفعول به في قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ﴾ لما في التَّقديم من تخصيص للمخاطَب بهذه النِّعمة، فالتَّسخير إنَّما وقع لأجلكم، وهذا أدلُّ على الامتنان، وفي تأخير الشَّمس تشويق لها، وتفخيم لشأنها.

سرُّ التّقييد بالاستمرار في: ﴿دَآئِبَيۡنِۖ﴾:

قيَّد النَّظم الجليل تسخير الشَّمس والقمر بكونهما دائبين في

(1) ابن جرير، جامع البيان: 13/682، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 9/367، والسعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 426.

(2) صافي، الجدول في إعراب القرآن: 7/194.

الإنعام بدوام الشَّمس والقمر على السُّنن الموضوع لهما

قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ﴾ لبيان حالهما، أي: إنَّ التَّسخير لهما كان بهذه الحالة، وهي أنَّهما دائبان في الحركة والسَّير والإنارة، فهما يسيران في دأب مستمرٍّ بلا توانٍ، وما ينشأ عنهما من صلاح الحياة[1]، ودأبهما أنَّهما مستمرّان على "حالات لا تختلف؛ إذ لو اختلفت لم يستطع البشر ضبطها، فوقعوا في حيرة وشكّ"[2]، فالقيد بهذا الحال من حسن البلاغة؛ لأنَّ وجه النِّعمة بهما ليس بمطلق إيجادهما؛ بل بكونهما مستمرَّين على ما وجدا له، وهو إنشاء اللَّيل والنَّهار، فالدَّأب هو وجه النِّعمة بهما، وما وقع بهما من خير للنّاس؛ فهو تبع لهذا لكونهما مستمرَّين على ذلك.

دلالة عطف ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾:

اللَّيل والنَّهار كاشفان لوجه النِّعمة بالشَّمس والقمر

الجملة في قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ معطوفة على الجملة في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾[3]؛ لأنَّ تسخير اللَّيل والنَّهار تابعان للشَّمس والقمر فذكر تعالى "ما ينشأ عن وجود الشَّمس وعدمها، فقال: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ﴾، أي: الّذي القمر آيته ﴿وَٱلنَّهَارَ﴾، أي: الّذي الشمس آيته، يوجد كلٌّ منهما بعد تصرُّمه، ولو كان أحدهما سرمدًا؛ لاختلَّ الحال بعدم النَّبات والحيوان"[4]، فالإنعام بمجرَّد الشَّمس لا يكفي أن تكون حياة، فلا بدَّ أن يتنوَّع جوُّ الأرض باللَّيل والنَّهار لتكون حياة وتدوم.

غرض تقديم ﴿لَكُمُ﴾ على ﴿ٱلَّيْلَ﴾:

تخصيص المخاطَب بذكر النّعمة يوجب عليه شكرها

قدَّم النَّظم الجليل شبه الجملة على المفعول به في قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾؛ لأنَّ المقصود من تسخير اللَّيل والنَّهار هو الإنسان، فقدَّم ذكر المخاطَبين الّذين وقع التَّسخير لهم على ذكر

(1) البقاعي، نظم الدرر: 10/421، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 8/4033.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/236.
(3) صافي، الجدول في إعراب القرآن: 7/194.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 10/421.

المسخَّر لما في ذلك من بيان الاختصاص بالتَّسخير، والمبالغة في الامتنان، وفي تأخير المسخَّر تشويق وتفخيم له.

نكتة التّرتيب في: ﴿ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ﴾:

تقديم الأسبق في الخَلْق مناسب في سياق ذكر المخلوقات

قدَّم النَّظم الجليل ذكر اللَّيل على ذكر النَّهار في قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ﴾؛ لأنَّ خلْقَ اللَّيلِ سابق على خلق النَّهار وإيجاده، كما في قولِهِ جلَّ شأنه: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَۖ﴾ [الأنعام: 1]، فرتَّبهما حسب وجودهما في الخلق.

نكتة جمع الأضداد:

حَشْدُ النِّعم المتكوِّنة من تلك المخلوقات تنبيهٌ على كثرتها

جمع النَّظم الجليل بين المتقابلات في قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ دَآئِبَيۡنِۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ فجمع بين الشَّمس والقمر، وجمع بين اللَّيل والنَّهار؛ لأنَّ هذه المذكورات بها يكون الإنعام بحركة اللَّيل والنَّهار والمدِّ والجزْرِ والدِّفء والبرد، فلولا وجودها مجتمعة؛ لما كانت تلك النِّعم موجودة، فجمْعُها تنبيهٌ على كلِّ النِّعَمِ التي تكون بسببها.

﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾﴾ [إبراهيم: 34]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

لَمّا كانت نِعَمُ اللهِ لا تُعَدُّ، وجبَ على مَنْ يتقلَّبُ فيها شكرُ المُنعِمِ بها

لَمّا ذكر اللّهُ تعالى قُدرتَه العظيمةَ في خلقِ السَّماواتِ والأرض، وبعضَ نعمِه الجليلة، كإنزالِ الماء منَ السَّماء، وتسخيرِ الفُلكِ والأنهارِ والشَّمسِ والقمرِ واللَّيلِ والنَّهار؛ بيَّن في هذه الآية أنَّه لم يقتصرْ على تلكَ النِّعم؛ بل أعْطَى عبادَه منَ المنافعِ والمُراداتِ ما لا يأتي على بعضِها التَّعديدُ والإحصاء؛ ولكنَّ الإنسانَ يظلمُ نفسَه، فيتمتَّعُ بتلك النِّعم ويجحدُ المُنعمَ بها ولا يشكره ﷻ[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تَعُدُّوا۟﴾: (عدّ): العَيْنُ والدّالُ أصلٌ صحيحٌ واحدٌ، لا يخلو من العَدِّ، والعَدُّ: إحْصاءُ الشَّيء، وضمُّ الأعدادِ بعضِها إلى بعض، قال تعالى: ﴿لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾﴾ [مريم: 94]، تقولُ: عَدَدْتُ الشَّيءَ أعُدُّهُ عَدًّا، فأنا عادٌّ، والشَّيءُ معدودٌ، والعديد: الكَثْرةُ، والعَدَدُ: مقدارُ ما يُعدُّ[2]. وقولُه تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ﴾؛ أيْ: إنْ تتعرَّضوا لتَعْداد نِعَم اللّهِ[3].

2) ﴿تُحْصُوهَآ﴾: (حصو): الحاءُ والصّاد والحرفُ المُعتلُّ، ثلاثةُ أصول: الأوَّلُ: المنْعُ، والثّاني: العَدُّ والإطاقة، والثّالثُ: شيءٌ من أجزاءِ الأرض. والثّاني: هو ما يُناسبُ السِّياق هنا، وهو العَدُّ والطّاقةُ، مِن أحصيتُ الشَّيءَ: إذا عدَدْتَه وأطَقْتَه، قال تعالى: ﴿عَلِمَ

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 19/99.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرّاغب، المُفردات: (عدّ).
(3) الشّوكانيّ، فتح القدير: 3/151.

﴿أَن لَّن تُحۡصُوهُ﴾ [المُزَّمِّل: 20][1]. والإحصاءُ: التَّحصيلُ بالعدَد، وهو مُشتقٌّ من الحَصا اسْمًا للعدد، ومنقولٌ من الحَصى، وهو صغارُ الحِجارة؛ لأنَّهم كانوا يعدّون الأعدادَ الكثيرة بالحصى؛ تجنُّبًا للغَلط. قال تعالى: ﴿وَأَحۡصَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ عَدَدٗا ٢٨﴾ [الجنّ: 28][2]. وقولُه تعالى: ﴿لَا تُحۡصُوهَآۗ﴾ أي: لا تُطيقوا إحصاءَها وعدَّها بوجهٍ من الوجوه[3].

3) ﴿لَظَلُومٞ﴾: (ظلم): الظّاءُ واللّامُ والميمُ أصْلانِ صحيحان؛ أحدُهما: خِلافُ الضِّياءِ والنّور، والآخَرُ: وضعُ الشَّيءِ غيرَ موضِعه تعدِّيًا، والأصلُ الثّاني: هو ما يعنينا هنا: ظَلَمَهُ يَظْلِمُه ظُلْمًا[4]، من قولهم: "مَنْ أشْبَه أباهُ فما ظَلم"؛ أيْ: لم يَضَعِ الشَّبَهَ في غيرِ موضعِه[5]. وقولُه تعالى: ﴿لَظَلُومٞ﴾؛ أيْ: يظلمُ النِّعمةَ بإغفالِ شُكْرِها[6].

4) ﴿كَفَّارٞ﴾: (كفر): الكافُ والفاءُ والرّاءُ أصلٌ صحيحٌ يدُلُّ على معنًى واحدٍ، وهو السَّتْرُ والتَّغطيةُ، ووُصِفَ اللَّيلُ بالكافرِ؛ لسَترِه الأشخاصَ، والزُّرّاعُ لسَترِه البذرَ في الأرض. وكان الكفرُ ضِدَّ الإيمان؛ لأنَّه تغطيةٌ للحقّ، قال تعالى: ﴿فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورٗا ٩٩﴾ [الإسراء: 99][7]. وقولُه تعالى: ﴿كَفَّارٞ﴾؛ أيْ: شديدُ الكُفران للنِّعمة، يجمعُ ويَمْنَعُ[8].

المَعْنى الإجْماليُّ:

يخاطبُ اللهُ ﷻ عبادَه، مُمتنًّا عليهم فيقول: هيَّأ لكم كلَّ ما تحتاجونَ إليه، في جميعِ أحوالِكم ممّا تسألونَه بحالِكم وقالِكم،

نِعَمُ اللهِ على العبادِ أعظمُ مِن أن تُعدَّ، أو يُطاقَ تمامُ شُكرها

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (حصوى).
(2) الرّاغب، المُفردات: (حصا).
(3) الشّوكانيّ، فتح القدير: 3/151.
(4) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (ظلم).
(5) الميدانيّ، مجمع الأمثال: 2/300.
(6) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/379.
(7) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرّاغب، المُفردات: (كفر).
(8) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/379، والشّوكانيّ، فتح القدير: 3/151.

وأنتمُ يا عبادي عاجزون عن تعدادِ النِّعم، فَضْلًا عنِ القيام بشُكْرها، فهي حقُّ اللّه، وهو أثقلُ مِن أن يقوم به العبادُ، ويُطيقوا تمامَ شُكرها[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دَلالةُ الواو في: ﴿وَءَاتَىٰكُم﴾:

الواوُ في قولِه تعالى: ﴿وَءَاتَىٰكُم﴾ للعطف[2]، عطفتْ نعمةَ الإعطاءِ على ما وردَ قبلَها منَ العطاءاتِ الرَّبانيَّة، والتَّسخيراتِ الإلَهيَّة، فجاءتِ الواوُ مع جُملتِها المعطوفةِ بمنزلةِ التَّذييلِ لما قبلَها، منَ المِنَنِ الرَّبّانيَّة على عبادِه، لحِكَم يعلمُها اللّهُ تعالى ولا يعلمونها، مصداقُها قولُه تعالى: ﴿۞وَلَوۡ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزۡقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٖ مَّا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرُۢ بَصِيرٞ ٢٧﴾ [الشّورى: 27][3].

الـواوُ عاطفةٌ لجملةِ تذييلِ النِّعمِ لِما قبلَها

إيثارُ التَّعبيرِ بالإيتاءِ لا الإعطاءِ:

آثرَ سياقُ الآيةِ التَّعبيرَ بالإيتاءِ دونَ الإعطاء؛ فقال تعالى: ﴿وَءَاتَىٰكُم﴾، ولم يَقل: (وأعطاكم)؛ لأنَّ الإيتاءَ خاصٌّ بالأمورِ المادِّيَّةِ الماليَّة، كقوله تعالى: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَأۡخُذُواْ مِمَّآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ شَيۡـًٔا﴾ [البقرة: 229]، وقولِه تعالى: ﴿وَلَمۡ يُؤۡتَ سَعَةٗ مِّنَ ٱلۡمَالِۚ﴾ [البقرة: 247]، وأكثرُ ما يسألُ العبادُ ربَّهم منَ النِّعمِ، هذا الصّنفُ منَ الإعطاءِ.

الإيـتـاءُ خـاصٌّ بالأمورِ المادِّيَّةِ، مـع المـشـاركـةِ فيها

والإعطاءُ: الإنالةُ، قالَ تعالى: ﴿حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ﴾ [التَّوبة: 29]، فهو مُختصٌّ بالصِّلة، قالَ تعالى: ﴿هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمۡنُنۡ أَوۡ أَمۡسِكۡ بِغَيۡرِ حِسَابٖ ٣٩﴾ [ص: 39][4]. وفي الإعطاء دليلُ التَّملُّكِ دونَ الإيتاء، ويؤيِّدُه قولُه تعالى: ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ١﴾ [الكوثر: 1]، فإنَّه كان له منعُ مَن

(1) ابن كثير، تفسير القرآن الكريم: 2/494.
(2) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 5/194.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/236.
(4) الرّاغب، المُفردات: (أتى) و(عطا).

شاءَ منه كالمِلكِ للمِلك، وأمّا القرآنُ فحيثُ إنّ فيه مشاركةَ أُمَّته ﷺ له في فوائدِه، ولم يكن له منعُهم منه، قالَ ﷻ: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ۝٨٧﴾ [الحِجْر: 87][1]. ولذلك قالَ تعالى هنا في الآية: ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾، فالَّذي يُؤتيه اللّٰهُ لعبادِه يُجمعُ منه مع النِّعم المادِّيَّةِ في الغالب مشاركةُ غيرِ المُؤْتَى له فيما آتاه اللّٰهُ، من وَلَدٍ ووالدَيْن وزوجةٍ، وغيرِ ذلك.

سِرُّ اسْتعمالِ الماضي في الآية:

مَنْ يسألِ اللهَ مؤمنًا يُؤْتِهِ مِن فضْلِه

لَمّا كان المُرادُ تحقُّقَ الإيتاءِ منَ اللّٰهِ تعالى، بعدَ تحقُّقِ سؤالِهم ربَّهم أنْ يُؤتيَهم مِن نِعَمِه وفَضْله، جاءَ اسْتعمالُ السِّياقِ لتلكما الصِّيغتَيْنِ بالزَّمنِ الماضي، بقولِه: ﴿وَءَاتَىٰكُم﴾، و﴿سَأَلْتُمُوهُ﴾؛ لإفادةِ هذا التَّحقُّقِ وتأكيدِ حصولِه؛ وقد أمرَ اللّٰهُ عبادَه أنْ يسألوه مِن فَضْلِه، فقالَ ﷻ: ﴿وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾ [النِّساء: 32].

فائِدةُ التَّعبيرِ بضميرِ المُخاطَبين ﴿وَءَاتَىٰكُم﴾:

مزيدُ الاهْتمامِ بالمخاطَبين

في التّوجُّه للعبادِ بضميرِ الخطابِ في قولِه تعالى: ﴿وَءَاتَىٰكُم﴾ مزيدُ اهتمامٍ بهم، فهم خَلْقٌ من خَلْقِ اللّٰهِ ﷻ؛ بل هم في موضعِ تخصيصِهم بالتَّكريم مِن بين سائرِ المخلوقات، كما قالَ تعالى: ﴿۞وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ﴾ [الإسراء: 70]، والاهتمامُ بهم وتكريمُهم، يقتضي الاهتمامَ بإيتائهم مِن كلِّ ما سألوه.

وجهُ الجمعِ بين ﴿مِّن﴾، و﴿كُلِّ﴾:

تقتضي حِكمةُ اللهِ تعالى إعطاءَ بعضٍ مِن عُمومِ مَرغوباتِ السّائلين

﴿مِّن﴾ في قولِه: ﴿مِّن كُلِّ﴾ تُفيدُ التَّبعيضَ، و﴿كُلِّ﴾ تفيدُ العمومَ؛ أيْ: أعطاكم بعضًا مِن جميعِ ما سألتموه مِن مَرْغوباتِكمُ الخارجةِ عنِ اكْتسابكم، بحيث شأنُكم فيها أن تسألوا اللّٰهَ إيّاها، وذلك وَفْقَ ما تَقْتضيه مشيئتُه التّابعةُ للحِكمةِ والمصلحةِ، كقولِه ﷻ: ﴿مَّن كَانَ

(1) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 86، والكفويّ، الكلّيّات: 1/360.

﴿يُرِيدُ ٱلۡعَاجِلَةَ عَجَّلۡنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ﴾ [الإسراء: 18][1]. ويمكنُ أن تكونَ ﴿مِّن﴾ للبيان، وكلمةُ ﴿كُلِّ﴾ للتَّكثير، كقولِكَ: (فلانٌ يعلم كلَّ شيء، وأتاهُ كلُّ النّاسِ)؛ أيْ: آتاكم مِن كلِّ ذلك، ما احتجتُم إليه، ونِيطَ بهِ انْتظامُ أحوالِكم على الوجهِ المُقدَّر، فكأنَّكم سألتموه، أو: كلَّ ما طلبتُموه بلسانِ الاسْتعدادِ، أو: كلَّ ما سألتموه[2].

دَلالةُ ﴿مَا﴾، وإضافةِ ﴿كُلِّ﴾ إليها:

جُمِعَ ﴿مَا﴾ و﴿كُلِّ﴾؛ لإفادة العمومِ

﴿مَا﴾ في قولِه تعالى: ﴿مَا سَأَلۡتُمُوهُۚ﴾ يصحُّ أن تكونَ مصدريَّةً، وتكونَ ﴿كُلِّ﴾ لاسْتغراقِ العموم؛ أيْ: جميع أسئلتِكم، ويكونَ الضَّميرُ في ﴿سَأَلۡتُمُوهُۚ﴾ عائدًا على اللّهِ تعالى. ويصحُّ أن تكونَ ﴿مَا﴾ بمعنى (الَّذي)؛ أيْ: جميعُ الَّذي سألتُموه[3]، ويكونَ الضَّميرُ في ﴿سَأَلۡتُمُوهُۚ﴾ عائدًا على ﴿ٱلَّذِى﴾ في قولِه تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾ [إبراهيم: 32].

دَلالةُ الإضمارِ في ﴿سَأَلۡتُمُوهُۚ﴾:

لا مُؤتيَ لسُؤْلِ العبدِ إلّا الله تعالى

جاءَ الضَّميرُ في ﴿سَأَلۡتُمُوهُۚ﴾ بدلَ التّصريحِ باسْمِ الجلالةِ أو الرَّبِ؛ عَوْدًا على ما تقدَّمَ في قولِه تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾ [إبراهيم: 32] مُقترنًا مع الإيتاءِ في هذا العَوْد، للدّلالةِ على أنَّ المُؤْتيَ لِما سألتُموه هو اللّهُ، الَّذي خلقَ تلك المُكوّناتِ العظيمةَ والنِّعمَ الجليلةَ.

دَلالةُ الواوِ في ﴿وَإِن تَعُدُّواْ﴾:

نِعَمُ اللهِ عظيمةٌ، سأل العبدُ أم لم يَسألْ

الواوُ في قولِه تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ﴾ عَطَفتْ ما يدلُّ على تحقُّقِ وجهِ العِظَمِ، بفرْضِ ما يوجِبُ العَجْزَ على سؤالِهم ما هم مُحتاجونَ إليه،

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/379، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/264، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/236.

(2) أبو السُّعود: إرشاد العقل السّليم: 2/264.

(3) ابن عطيّة، المُحرّر الوجيز: 3/340، والعُكبريّ، إملاء ما منّ به الرّحمن: 2/69، والزّمخشريّ، الكشّاف: 2/379.

وإعطائهم إيّاه، وإعطائهم ما لم يَسألوه، فكان العطفُ والمعطوفُ عليه في كِفتي ميزانٍ متعادِلَتيْنِ مُتَساوِيتَيْن[1].

نُكتةُ مجيءِ ﴿وَإِن تَعُدُّواْ﴾ بعد ﴿وَءَاتَىٰكُم﴾:

جاءتْ جملةُ: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ﴾ تأكيدًا للتَّذييلِ، وزيادةً في التَّعميم الواردِ في قولِه تعالى: ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلۡتُمُوهُۚ﴾، وتنبيهًا على أنَّ ما آتاهم اللّهُ، كثيرٌ منه معلومٌ، وكثيرٌ منه لا يُحيطونَ بعلمِه، أو لا يتذكَّرونَه عند إرادةِ تَعْدادِ النِّعم[2].

نِعَمُ اللهِ لا تُحْصَى، ولا يُحيطُ بها فردٌ

سِرُّ التَّعبيرِ بأداةِ الشَّرطِ (إنْ):

تُستعملُ (إنْ) عندما يكونُ هناك عدمُ ترجيحٍ لحصولِ الفعل، فَعَدُّ نعمِ اللّهِ غيرُ مُتوقَّعٍ، وفي قوله تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ﴾ كأنَّه يقول: إنْ تُحاولوا العَدَّ وتأخُذوا فيه، ويترتَّب عليه رَبْطُ ما بعدَه به؛ أيْ: جوابُ الشَّرطِ هو عدمُ الإحصاءِ مُترتِّبٌ على فعلِه، وهو العَدُّ، وهذا يَدلُّ على أنَّ نِعَمَ اللّهِ كثيرةٌ، لا يمكنُ عَدُّها أو ضَبْطُها.

عَدمُ الإحصاءِ مُرتبطٌ بعدمِ الإحاطةِ بالعدِّ، إنْ حاولتُم فيه

دَلالةُ الخِطابِ: ﴿تَعُدُّواْ﴾، و﴿تُحۡصُوهَآۗ﴾:

دلَّ قولُه تعالى: ﴿تَعُدُّواْ﴾ على عدِّ النِّعَم على الإجمال، وهو داخلٌ تحتَ محاولةِ العَدِّ؛ أيْ: إن تحاولوا العَدَّ وتأخذوا فيه. ودلَّ قولُه تعالى: ﴿تُحۡصُوهَآۗ﴾ على ضَبطِ العَدَد بالتَّفصيل، والإحصاءُ مُشتقٌّ منَ الحصا اسْمًا للعَدَد، ومنقولٌ منَ الحَصَى، وهو صغارُ الحِجارة؛ لأنَّهم كانوا يَعدّون الأعدادَ الكثيرةَ بالحَصَى؛ تجنُّبًا للغَلَط، فالعَدُّ بدايتُه والإحصاءُ نهايتُه[3]. واللّهُ تعالى يُخاطبُ عبادَه بهذيْن الفعليْن: ﴿تَعُدُّواْ﴾ و﴿تُحۡصُوهَآۗ﴾، فيقول: إنْ تُحاوِلوا عَدَّ نِعَمِ اللّهِ تعالى لا تَحْصُروها، ولا تُطيقوا عدَّها وبلوغَ آخرِها لكثرتِها،

عَدُّ النِّعَمِ وحَصْرُها إجمالًا وتفصيلًا لا يُطيقُه البشرُ

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 10/421.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/236.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/237.

هذا إذا أردتُم عَدَّها على الإجمال، وأمّا التَّفصيلُ: فلا يقدرُ عليه ولا يعلمُه إلّا اللّهُ ﷻ[1].

إيثارُ مجيءِ ﴿تَعُدُّواْ﴾ و﴿تُحۡصُوهَآۗ﴾ مضارعَيْن:

مهما دامت محاولةُ العَدِّ فلن تَستطيعوا الإحصاءَ والضَّبطَ

جاءَ فعلُ الشَّرط ﴿تَعُدُّواْ﴾ وجوابُه ﴿تُحۡصُوهَآۗ﴾ بصيغةِ المضارعِ؛ للدّلالةِ على تجدُّدِ محاولةِ العَدِّ لنِعَم اللّهِ واسْتمرارِها، وتجدُّدِ ضبطِ العددِ بالإحصاء واسْتمرارِه، وكما أنَّ القُدْرةَ على العَدِّ والضَّبطِ الكاملِ إجمالًا وتفصيلًا غيرُ مُتحقِّقةٍ، فكذلك أيُّ تجدُّدٍ واسْتمرارٍ لكلٍّ منَ العَدِّ والإحصاءِ غيرُ متحقِّقٍ، وسَينقلبُ مُحاولُها خاسئًا وهو حَسير[2].

نُكتة إفرادِ ﴿نِعۡمَتَ﴾:

النّعمةُ الواحدةُ تحوي في طيّاتِها نِعَمًا كثيرةً

النِّعمةُ هاهنا اسْمٌ أُقيمَ مقامَ المَصدر، يُقال: أنْعَم اللّهُ عليه، يُنعِمُ إنعامًا ونِعْمَةً، فأُقيمَ الاسْمُ مَقامَ الإنعام، كقولهم: أنفقتُ عليه إنفاقًا ونفقةً بمعنًى واحدٍ؛ ولذلك جاءَ ﴿نِعۡمَتَ﴾ بالإفرادِ دون الجمع؛ لأنَّه في معنَى المصدر، وفي الإفراد إشارةٌ إلى احتواء كلِّ نعمة عددًا لا حصْرَ له منَ النِّعم، وفيه دعوةٌ إلى كثرة الشّكرِ والتّأمُّلِ فيما أنعم اللّهُ به علينا، مِن نِعَمٍ ظاهرةٍ وباطنةٍ.

سِرُّ رسْمِ تاء ﴿نِعۡمَتَ﴾ مبسوطةً:

رسّخَ بَسْطُ التّاءِ سَعةَ نِعَمِ الله، وعَدَمَ إمكانِ عَدّها

جاء رسمُ ﴿نِعۡمَتَ﴾ بالتّاءِ المبسوطةِ؛ لأربعة أمورٍ؛ الأوَّلُ: أنَّ التّاء ارتبطتْ بالاسمِ، وهو هنا لفظُ الجلالة ﴿ٱللَّهِ﴾، فأصبحتْ بمعنى الفعلِ فتُفتحُ عندئذٍ. والثّاني: قولُه: بالتّاء، بمعنَى النِّعمةِ الحاصلةِ بالفعل في الوجود، فكأنَّها مضتْ فلم تُشْكَرْ، فكانت بمثابة فعلٍ ماضٍ، فَفُتحتْ تاؤها، ويدلُّ على ذلك أنَّ التَّذييلَ جاءَ بأنَّ الإنسانَ ظلومٌ كفّار، فهي نِعْمَةٌ متَّصلةٌ بالظّلوم الكَفّار في تنزُّلِها[3]. والثّالثُ:

(1) الواحديّ، التّفسير البسيط: 12/482، والزّمخشريّ، الكشّاف: 2/379.
(2) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة: 4/3615، والرّازيّ، مفاتيح الغيب: 19/99.
(3) ابن البنّاء، عنوان الدّليل من مرسوم خطِّ التّنزيل، ص: 110.

أنَّها تدلُّ على النِّعمةِ الخاصَّةِ الَّتي وهبَها اللّهُ لعبادِه المؤمنين، كما تدلُّ على النِّعَمِ المفتوحةِ الَّتي لا يمكنُ إحصاءُ عددِها. والرّابعُ: تنبيهُ القارئِ والسّامعِ على تدبُّرِ هذه الآية وما حولَها منَ الآياتِ، في السِّياق الَّذي وردتْ فيه؛ لاسْتخلاصِ الحِكْمةِ والعِبرة[1].

فائِدةُ إضافةِ ﴿نِعۡمَتَ﴾ إلى اسْمِ الجلالة:

في إضافةِ ﴿نِعۡمَتَ﴾ إلى اسْمِ الجلالة ﴿ٱللَّهِ﴾ تَنبيهٌ على أمورٍ ثلاثةٍ؛ الأوَّلُ: أنَّ الَّذي خلقَ لكمُ النِّعمَ الَّتي تتقلَّبون فيها ليلَ نهارَ، هو اللّهُ لا أحدَ سواه. والثّاني: أنَّ حقَّ اللّهِ تعالى المُنعِمِ عليكم بهذه النِّعم، هو شكرُه ﷻ. والثّالثُ: أنَّ حَقَّ اللّهِ تعالى أثقلُ مِن أن يقومَ به العبادُ، ونِعَمُه أكثرُ مِن أن يُحصيَها العادُّ، فما عليكم إلّا أن تكونوا توّابينَ أوّابينَ لتقصيرِكم في شُكْرِ المُنعِم، أو غفلتِكم عنه[2].

واجبُ العِبادِ شُكرُ المُنعِمِ والتَّوبةُ إليه

نُكْتَةُ التَّعبيرِ بالإحصاءِ لا بغيرِه:

جاءَ التَّعبيرُ بقوله: ﴿لَا تُحۡصُوهَآۗ﴾ للدّلالةِ على عدمِ حَصْرِها وضَبطِها، وعدمِ القُدرةِ على إطاقةِ عَدِّها وبلوغِ آخرِها؛ ولا يَقدرُ على ذلك ولا يعلمُه إلّا اللّهُ ﷻ، ولا يوفِّرُ هذا المعنَى ولا يُحقِّقُه إلّا التَّعبيرُ بلفظِ الإحصاء، وذلك كما في قولِه تعالى في شأنِ وجوبِ قيامِ اللَّيلِ على الصَّحابة ﷺ: ﴿عَلِمَ أَن لَّن تُحۡصُوهُ﴾ [المُزَّمِّل: 20][3].

لا يُطيقُ البَشرُ عَدَّ نِعَمِ اللهِ تعالى فضْلًا عن إحصائِها

سِرُّ فصلِ جملةِ: ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ﴾:

فُصِلَتْ جملةُ: ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَظَلُومٞ كَفَّارٞ﴾ عمّا قبلَها؛ تأكيدًا لمعنَى الاسْتفهامِ الإنكاريِّ المُستَعمَلِ في تحقيق تبديلِ النِّعمةِ كفرًا[4].

تأكيدُ معنَى تبديلِ النِّعمةِ كُفرًا

علَّةُ تصديرِ ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ﴾ بالتَّوكيدِ:

صُدِّرت جملةُ ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ﴾ بأداةِ التَّوكيد ﴿إِنَّ﴾؛ لتأكيدِ معنَى

الإنسانُ هو مَنْ بدَّلَ نعمةَ اللهِ كُفرًا

(1) محمّد شملول، إعجاز رسم القرآن، ص: 174 - 175.
(2) ابن عطيّة، المُحرّر الوجيز: 3/340.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/379، والبقاعيّ، نظم الدُّرر: 10/422.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/237.

الاسْتفهامِ الإنكاريِّ في قولِه تعالى: ﴿۞أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا﴾ [إبراهيم: 28]؛ أيْ: التأكيدِ أنَّ الإنسانَ هو الَّذي بدَّلَ نعمةَ اللّه كفرًا، وهو الظَّلومُ الكفّار[1].

دَلالةُ (ال) والتّعبيرِ بالـ ﴿ٱلْإِنسَٰنَ﴾ دون مرادفاتِه:

الإنسانُ الظّالمُ الكافرُ، وليس كلُّ ابنِ آدمَ كذلك

المرادُ بالإنسانِ هنا: النَّوعُ والجِنسُ، والمعنَى: الإنسانُ الَّذي توجَدُ فيه هذه الخِلال، وهي الظُّلمُ والكُفر، فإن كانت هذه الخِلالُ مِن جاحدٍ؛ فهي بصفةٍ، وإن كانت مِن عاصٍ؛ فهي بصفةٍ أُخرى، ولذلك احْتُرِزَ بهذا المعنَى عنِ اسْتعمالِ لفظِ (ابن آدم)[2].

فضلًا عن أنَّ ذِكْر ﴿بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ [الإسراء: 70] في القرآن جاء في مقاماتٍ ليس مِن بينها الجُحودُ والكُفران، بل ورد في مقام الإنعام، كما في قوله: ﴿۞وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ [الإسراء: 70]، أوِ التّذكيرِ بقصّة آدمَ وإبليسَ؛ للتّحذير كما في قوله تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِي سَوْءَٰتِكُمْ﴾ [الأعراف: 26]، وقولِه تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ﴾ [الأعراف: 27]، وقولِه تعالى: ﴿۞أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُواْ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝٦٠﴾ [يس: 60]، أو لبيانِ عِظَم الجريمة، وهي أن يقتل الأخُ أخاه مع صَلاح الأبِ، كما في قولِه تعالى: ﴿۞وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَيْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ﴾ الآيات [المائدة: 27 - 31].

دَلالةُ اللّامِ في ﴿لَظَلُومٌ﴾ وإيثارِ اللّفظِ على غيرِه:

تأكيدُ صِفةِ الظُّلمِ عند الإنسان، والمبالغةُ في تحقُّقِه بها

اللّامُ في ﴿لَظَلُومٌ﴾ لتأكيدِ صفةِ الظُّلمِ في الإنسان؛ إذ يَظلمُ النِّعْمَةَ بإغفالِ شُكرِها، ولا أشدَّ ظُلمًا لنفسِه منَ المُشرك باللّه، الكافرِ به، وجاءت صيغةُ ﴿لَظَلُومٌ﴾ للمبالغةِ في وصْفِ الإنسانِ بالظُّلم، فهو ظَلومٌ، في الشِّدَّةِ يَشكو ويجزَعُ[3].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/237.
(2) ابن عطيّة، المُحرّر الوجيز: 9/340.
(3) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 10/423، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/237.

دَلالةُ صيغةِ ﴿كَفَّارٌ﴾، وسِرُّ مجيئِها بعد ﴿لَظَلُومٌ﴾:

المبالغةُ في وصْفِ الإنسان بالكُفر هو أشَدُّ الظُّلْمِ

في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ جاءت صيغةُ ﴿كَفَّارٌ﴾ للمبالغةِ في وصفِ الإنسانِ بالكُفر، وسيقتْ بعد صيغةِ ﴿لَظَلُومٌ﴾ لبيانِ أنَّ الإنسانَ بمقدارِ كَثْرةِ النِّعَم يَظْلِمُ نفسَه، إذْ بَدلَ أنْ يشكرَ المُنعِمَ يَجْحَدُه، فهو شديدُ الكُفرانِ للنِّعمة، يَجْمَعُ ويَمْنَع، فيكونُ ذلك سبيلًا لكُفْرِه، إذْ يُعرِضُ عن عبادةِ المُنعِمَ، ويعبدُ ما لا يُغْني عنه شيئًا، فأمّا المؤمنُ فلا يجحدُ نِعَمَ اللهِ تعالى، ولا يَعْبُدُ غيرَه[1].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

السُّؤالُ والطَّلبُ:

السُّؤالُ بالقولِ وبالفعلِ ويَستدعي جوابًا، وهو أعمُّ منَ الطَّلبِ

السُّؤالُ يكونُ بالقولِ وبالفعلِ، ولا يكون السُّؤالُ إلّا كلامًا، والسُّؤالُ يَستدعي جوابًا؛ إمّا باللِّسانِ أو باليد.

والطَّلبُ يكونُ بالسَّعْيِ وغيرِه، ولذلك قيلَ: عليكَ الهَرَبُ وعَلَيَّ الطَّلَبُ. والطَّلبُ قد يَفتقرُ إلى جواب وقد لا، وكلُّ سؤالٍ طَلَبٌ، وليس كلُّ طَلَبٍ سؤالًا[2].

ولمّا كان السّؤالُ يُؤدَّى باللّسان وباليد، ويستدعي جوابًا؛ ناسبَ طبيعةَ سؤالِهم الّذي سألوه اللّهَ تعالى، وآتاهم منه وِفاقَ حِكمته.

العَدُّ والإحصاءُ:

العَدُّ إحصاءُ الشَّيْءِ وضَمُّ الأعدادِ بعضِها إلى بعض، والإحصاءُ تحصيلُه بالعدَد

العدُّ: إحصاءُ الشَّيْء، وضَمُّ الأعدادِ بعضِها إلى بعض، من غير حفظٍ، قالَ تعالى: ﴿وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾﴾ [مريم: 94]. والعَدَدُ: مِقْدارُ ما يُعَدُّ، كما قال تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ﴾[3].

وأمّا الإحصاءُ: فيكونُ مع العَدّ الحِفْظُ والإحاطَةُ، وهو مُشتقٌّ من

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/379، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/237.
(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 287، والكفويّ، الكلّيّات: 3/16، 153، والجُرجانيّ، التّعريفات، ص: 128.
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرّاغب، المُفردات: (عدّ).

الحَصا اسْمًا للعدَد، ومُستعارٌ من الحَصَى، وهو صغارُ الحجارة، فالإحصاءُ هو التَّحصيلُ والضَّبطُ بالعدَد، قالَ تعالى: ﴿وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا ۝٢٨﴾ [الجنّ: 28][1]؛ وعلى هذا فمعنى قوله تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ أي: إن تعدّوا نِعَمَ اللّهِ تعالى بِضَمّ بعضِها إلى بعض أعدادًا، لن تَقْدِروا على حفظها، ولا الإحاطةِ بها؛ إذ لا يَقْدِرُ على ذلك أحدٌ.

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرّاغب، المُفردات: (حصا).

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾﴾ [إبراهيم: 35]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

بيانُ كفرِهم بالنِّعمِ الخاصَّةِ بهم، بعدَما كفَروا بالنِّعمِ العامّةِ

لَمّا انْقضَى المأمورُ به من القولِ لكافرِ النِّعمة وشاكرِها، وسببِ ذلك والدّليلِ عليه، وبأنَّ اللّهَ خالقُ الموجوداتِ كلِّها وربُّها، فلا يصِحُّ أصلًا أن يكونَ شيءٌ منها شريكًا، أمرَ اللّهُ نبيَّه ﷺ أن يُذكِّرَهم بأيامِ اللّهِ عند أبيهم إبراهيمَ عليه السلام، للدّلالةِ على تبديلِهمُ النِّعمةَ ظُلْمًا منهم وكُفرًا، في أسلوبٍ دالٍّ على البعث مُشيرٍ إلى وجوبِ براءتِهم منَ الأصنام، حيث كانَ محطَّ حالِهم فيها تقليدُ الآباء، ولَمّا كان إبراهيمُ عليه السلام أعظمَ آبائِهم، وأنَّه سَنَّ لهم إقامةَ الصَّلاةِ، وشُكرَهم لنِعَمِه بالإنفاق وغيرِه، قالَ ناعيًا عليهم عقوقَ أبيهم الأعظم: واذكرْ لهم مُذَكِّرًا بأيامِ اللّه خبرَ إبراهيم، إذ قال: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ﴾ القَفْرَ الَّذي وضعتُ به ولدي بلدًا عظيمًا آمنًا، واصرفني وبنيَّ عن عبادةِ الأصنام[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ءَامِنًا﴾: أصل الأمْن: طُمأنينةُ النّفس وزوالُ الخوف، يُقال: أمِنْتُ الرَّجُلَ أمْنًا وأمَنةً وأمانًا، وبيتٌ آمِنٌ: ذو أمْن، قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا﴾ [القَصَص: 57][2]، وكما هنا في قولِه تعالى: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا﴾؛ أيْ: ذا أمْن[3].

2) ﴿وَٱجْنُبْنِى﴾: (جنب): ابْتعدَ، وجَنَبْتُه عن كذا: أبْعدتُه،

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 10/425.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرّاغب، المُفردات: (أمن).
(3) الشّوكانيّ، فتح القدير: 2/153.

والجُنُب: البَعيد، قال تعالى: ﴿وَٱلۡجَارِ ٱلۡجُنُبِ﴾ [النّساء: 36]، ورَجُلٌ جَنِبٌ وجانِبٌ، قالَ ﷻ: ﴿إِن تَجۡتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنۡهَوۡنَ عَنۡهُ﴾ [النّساء: 31]، وجنَّبَه الشَّيءَ تجْنيبًا؛ أيْ: نحّاهُ عنه وجعلَه ناحيةً منه وجانبًا، وكذلك جنَّبتُه، وقولُه تعالى: ﴿وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ﴾ [النّحل: 36]؛ أي: اتْرُكوه بالكلِّيَّة[1]، ومنه قولُه هنا: ﴿وَٱجۡنُبۡنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعۡبُدَ ٱلۡأَصۡنَامَ﴾؛ أيْ: باعِدْني وباعِدْ بَنيَّ[2].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

دعـوةُ إبراهيمَ عليه السلام بالأمنِ لمكَّة، واجتنابِ عبادةِ الأصنامِ

يَذْكرُ اللّهُ تعالى في هذا المقام مُحتجًّا على مُشركي العرب بأنَّ البلدَ الحرامَ مكَّةَ إنَّما وُضِعتْ أوَّلَ ما وُضِعتْ على عبادةِ اللّهِ وَحْدَه لا شريكَ له، وأنَّ إبراهيمَ الَّذي كانتْ بسبَبه عامرةً آهلةً، تبَرَّأ ممَّن عبدَ غيرَ اللّه، ودعا لمكَّةَ بالأمن، وقدِ اسْتجابَ اللّهُ له فقالَ: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا جَعَلۡنَا حَرَمًا ءَامِنًا﴾ [العنكبوت: 67]. وقالَ سبحانه: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيۡتٖ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكٗا وَهُدٗى لِّلۡعَٰلَمِينَ ٩٦ فِيهِ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ مَّقَامُ إِبۡرَٰهِيمَۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنٗاۗ﴾ [آل عمران: 96 - 97]، ودعا لنَفْسه ولبنيه أن يُجنِّبَهمُ اللّهُ عبادةَ الأصنام، الَّتي تَفْتِنُ النّاسَ وتُقْصيهم عنِ الإيمانِ باللّهِ، والعبوديَّةِ له لا لأحدٍ سواه[3].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بَلاغةُ تلوينِ الخطابِ:

الإيـماءُ بعقوقِ ذرّيَّـةِ إبراهيـمَ عليه السلام من المشركين

غيَّرَ البيانُ القرآنيُّ أسلوبَ الامْتنانِ بذِكرِ النِّعم العامَّةِ للنّاس جميعًا، إلى أسلوبِ الحكايةِ عن إبراهيمَ عليه السلام؛ لإدْماجِ المشركين الَّذين كانوا يعتزّون ببُنوَّتِهم له ويتفاخرون بها، وفي هذا إيحاءٌ لهم بأنَّهم خالفوا مَن يعتزّون به، فقد عبدوا الأصنامَ الَّتي كادَها لقومه،

(1) الرّاغب، المُفردات، وابن منظور، لسان العرب: (جنب).
(2) الشّوكانيّ، فتح القدير: 2/153.
(3) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 2/495.

فجعلَهم جُذاذًا كما قالَ تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝١٢٠ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِۚ﴾ [النّحل: 120 - 121][1].

دَلالةُ الواوِ في ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ﴾:

عطفتِ الواوُ جملةَ: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ﴾ على جملة: ﴿۞أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا﴾ [إبراهيم: 28]، فإنَّهم كما بدَّلوا نعمةَ اللّٰهِ كُفرًا، أهمَلوا الشُّكرَ على ما بوَّأهُمُ اللّٰهُ منَ النِّعَمِ بإجابةِ دعوةِ أبيهم إبراهيمَ عليه السلام، وبدَّلوا اقْتداءَهم بسَلَفِهم الصّالحِ اقْتداءً بأسلافِهم مِن أهلِ الضَّلالة، وبدَّلوا دُعاءَ سَلَفِهم الصّالحِ لهم بالإنعامِ عليهم كُفرًا بمُفيضِ تلكَ النِّعم.

عَطفتِ الواوُ إهمالَ الشُّكرِ على تبديلِ النِّعمةِ بالكفرِ

ويجوزُ أن تكونَ الواوُ عَطفتْ جُملتَها على جملة: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [إبراهيم: 32]، بأنِ انتقلَ مِن ذِكْرِ النِّعمِ العامَّةِ للنّاسِ، الَّتي يدخلُ تحتَ مِنَّتِها أهلُ مكَّةَ بحُكمِ العمومِ، إلى ذِكْرِ النِّعمِ الَّتي خَصَّ اللّٰهُ بها أهلَ مكَّة[2].

عَطفتِ الواوُ خُصوصَ النِّعمِ على عمومِها

ويجوزُ أن تكونَ الواوُ عطفتْ جملتَها على ما تقدَّم في قولِه: ﴿قُل لِّعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [إبراهيم: 31]، ناعيًا عليهم مع مخالفتِهم لصريحِ العقلِ وقاطعِ النَّقلِ، عقوقَ أبيهم الأعظمِ عليه السلام[3].

مُخالفةُ النّبيِّ عقوقٌ يَستَحِقُّ الذَّمَّ

فائِدةُ ﴿وَإِذْ﴾ وسِرُّ حَذْفِ مُتعلّقِها:

﴿وَإِذْ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ﴾ اسْمُ زمانٍ ماضٍ منصوبٌ على المفعوليَّةِ لفعلٍ محذوفٍ شائعِ الحذفِ في أمثالِه، تقديرُه: واذْكر (إذْ قالَ إبراهيمُ)، زيادةً في التَّعجيبِ مِن شأنِ المشركين الَّذي مَرَّ في قولِه تعالى: ﴿۞أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا﴾ [إبراهيم: 28]، فمَوقِعُ العِبرةِ منَ الحالَيْن واحدٌ، وقد وردَ نظيرُ هذا التَّعلُّقِ في

زيادةُ التَّعجيبِ مِن شأنِ المُشركين في كُفرِهم نِعْمَةَ اللّٰهِ، وعدمِ شُكرِها

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 10/424، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/238.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/238.
(3) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 10/424.

سياقاتٍ عديدةٍ، كقولِه تعالى: ﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ جَعَلَكُمۡ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعۡدِ قَوۡمِ نُوحٖ وَزَادَكُمۡ فِي ٱلۡخَلۡقِ بَصۡطَةٗۖ﴾ [الأعراف: 69]. وقولِه تعالى: ﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ أَنتُمۡ قَلِيلٞ مُّسۡتَضۡعَفُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمۡ وَأَيَّدَكُم بِنَصۡرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ [الأنفال: 26][1].

سِرُّ التَّعبيرِ عنِ الدُّعاءِ بفعْلِ القولِ ماضيًا:

اتِّباعُ نهجِ التَّفصيلِ بالقول، وتَحَقُّقِ مضمونِه

في التَّعبيرِ بالقولِ دونَ الدُّعاء في قولِه تعالى: ﴿وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ﴾، التَّذكيرُ بما وقعَ في هذا الوقت؛ أيْ: وقتَ قولِه ﷺ، مِن مقالاتِه على نهجِ التَّفصيل، والمرادُ بهذا القولِ: الإفصاحُ باللِّسانِ لتأكيدِ ما سلفَ مِن تعجيبِه ﷺ، ببيانِ فَنٍّ آخر مِن جناياتِهم، حيثُ كفروا بالنِّعم العامَّة وعَصَوْا أباهم إبراهيمَ ﷺ، فلم يشكروا النِّعم؛ بل فعلوا ما هو أدْهى وأمرُّ، وهو عبادةُ الأصنام. ولذلكَ جاءَ التَّعبيرُ بصيغةِ الماضي، فقد حصلَ منهم العصيانُ، وتحقَّقَ منهم الكُفرُ البَواحُ بعبادة غيرِ اللهِ، الَّذي شرَّفَهم بإسكانِهم مكَّةَ، وجعلِها مكانًا آمنًا لإقامةِ دينِ اللهِ ورسالةِ أبيهم إبراهيمَ ﷺ، لا لجحودِ تلك النِّعم واسْتبدالِ البلدِ الحرامِ بدارِ البَوار[2].

إيثارُ الدُّعاءِ بالرُّبوبيَّة ﴿رَبِّ ٱجۡعَلۡ﴾:

تذكيرُ المشركين بما هُم به مؤمنون، ولكنَّهم بمقتضياتِه كافِرون

وردَ دعاءُ إبراهيمَ ﷺ بلفظِ الرُّبوبيَّة، دونَ الألوهيَّة (اللهمَّ)؛ لأنَّ المنافعَ الَّتي مَنَّ اللهُ عليهم بها منَ الإسكان في مكَّةَ المُكرَّمةِ، مع ما أسبَغَهُ عليهم منَ النِّعمِ الظّاهرةِ والباطنة، كالأمن والأمانِ، والرِّزقِ الوفيرِ منَ الثَّمرات، وهَوْيِ قلوبِ النّاس إليهم من كلِّ أوْبٍ سحيقٍ، هذا كلُّه من معاني الرُّبوبيَّة الَّتي كانوا يؤمنون بها، وفي ذلك تذكيرٌ لهم بما هُم به مؤمنون، وبما هم فيه يَرفُلونَ منَ النِّعَمِ الَّتي خلقَها اللهُ لهم، وأفاضَ عليهم بها[3].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/238.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/266 - 267.
(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/50.

بَلاغةُ الحذْفِ في قولِه: ﴿رَبِّ﴾:

اللهُ تعالى أقربُ إلى المرءِ مِن حبلِ وَرِيدِه

قولُه تعالى: ﴿رَبِّ﴾ مُنادَى محذوفٌ منه حرفُ النِّداءِ وياءُ المتكلِّم، وأصلُه: (يا ربِّي)، والسِّرُّ البلاغيُّ في حذفِ (يا) النِّداء قبلَ ﴿رَبِّ﴾ المبالغةُ في تصويرِ قُربِ المُنادَى؛ إذ إنَّ معنَى الرَّبّ: الخالقُ والمُربِّي والسَّيِّدُ والمالك، وهو بهذه المعاني مِن شأنِه أنْ يكونَ قريبًا، لا يُحْتاجُ في ندائه إلى وسائطَ، كما قالَ تعالى: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ١٦﴾ [ق: 16]، ثمَّ إنَّ كلمةَ ﴿رَبِّ﴾ أكثرُ اسْتعمالًا مِن غيرِها في الدُّعاء، فَروعِيَ فيها مِن جهاتِ التَّخفيفِ ما يجعلُها أطوعَ في الألسنة، وأسهلَ في مجاري الحديث[1]. فحُذِفتْ ياءُ النِّداءِ قبلَها، وياءُ المتكلِّم بعدَها[2].

إيثارُ اسْتعمالِ الفعْلِ ﴿ٱجْعَلْ﴾:

تَحويلُ البلدِ آمنًا كلِّيًّا مقصدٌ عَلِيٌّ ومَطلَبٌ سَنِيٌّ

الفعلُ (جعلَ) مِن أفعالِ التَّحويل فهو يقتضي تحويلَ الأمرِ من صفةٍ إلى صفةٍ أُخرى، أو مِن حالٍ إلى حال، وهنا - في السِّياق - اقْتضَى الفعلُ تحويلَ وتَصْييرَ البلدِ مِن بلدٍ غيرِ آمنٍ إلى بلدٍ آمنٍ تحويلًا كُليًّا، ولذلكَ نصبَ مفعولَيْن اثْنَيْن؛ الأوَّل: ﴿ٱلْبَلَدَ﴾، والثّاني: ﴿ءَامِنًا﴾، وهذا يدلُّ على زيادةٍ وقوَّةٍ في المعنَى الواردِ في السِّياق، وهذا ما لا يُحَقِّقُه الفعلُ (أمِّن)، فلم يَقُلْ: (أمِّنْ هذا البلدَ).

فائِدةُ اسْمِ الإشارةِ:

كمالُ العنايةِ بالمُشارِ إليه وتعظيمِه

اسْمُ الإشارةِ في قولِه تعالى: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا﴾ هو اسمٌ معرفةٌ، يدلُّ على شيءٍ مُعيَّن تتمُّ الإشارةُ إليه، وجاء ذِكرُ اسْمِ الإشارة ﴿هَٰذَا﴾ في قولِه تعالى: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا﴾؛ للدّلالةِ على شيءٍ مُعيَّن تمَّتِ الإشارةُ إليه بإشارةٍ حِسِّيَّة، وهو في ذلك يُعَدُّ رمزًا للدّلالةِ والتَّعبيرِ عن أنَّ الَّذي غابَ عنِ الجملة نقصَ بغيابِه

(1) عبد العظيم المطعنيّ، خصائص التّعبير القرآنيّ وسماته البلاغيّة: 2/7 - 8.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/238.

معناها، وأصبحتْ مُبهمةً، فوردَ اسمُ الإشارة ﴿هَٰذَا﴾ هنا ليُشيرَ إلى شيءٍ لم يُذكرِ اسْمُه، ولكنَّه يُشيرُ بوصْفِه إلى كمالِ العنايةِ به وتعظيمِه، لرَفيعِ مَقامِه ومَنزلتِه[1].

نُكْتَةُ تعريفِ ﴿ٱلْبَلَدَ﴾ هنا، وتنكيرِها في ﴿بَلَدًا ءَامِنًا﴾:

دعوةُ الأمنِ بالإخراجِ مِن صفةٍ كان عليها منَ الخَوْفِ إلى ضِدِّها

التَّعريفُ لكلمة ﴿ٱلْبَلَدَ﴾ في قوله تعالى: ﴿ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ﴾ للعَهْد؛ لأنَّه معهودُ الحضور، وجاءتْ حكايةُ دُعائِه بدون بيانِ البلدِ إبهامًا يَرِدُ بعدَه البيانُ، بقولِه تعالى: ﴿عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ﴾، أو هو إحالةٌ على ما في علمِ العرب مِن أنَّه مكَّةُ. والتَّنكيرُ في قوله تعالى: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا﴾ [البقرة: 126] تنكيرُ النَّوعيَّة، فهنا قوله تعالى: ﴿ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا﴾ دعا إبراهيمُ عليه السلام للبلدِ بأن يكونَ آمنًا؛ بأنْ يُخرجَه مِن صفةٍ كان عليها منَ الخَوْفِ إلى ضِدِّها منَ الأمن، كأنَّه قال: هو بَلدٌ مَخوفٌ فاجعلْه آمنًا. وفي مقامِ التَّنكيرِ دعا لِمُشارٍ إليه أنْ يجعلَه اللهُ مِن نوعِ البلادِ الآمنةِ الَّتي يأمنُ أهلُها ولا يخافون، فمآلُ المُفادَيْن مُتَّحِدٌ[2].

دَلالةُ عطْفِ ﴿وَٱجْنُبْنِي﴾ دونَ غيرِه:

عطْفُ الأمنِ الدِّينيِّ على الأمنِ الدُّنيويِّ

دلَّ عطفُ ﴿وَٱجْنُبْنِي﴾ على مناسبةِ جملتِه على ما سبقَها، فلمّا دعا بالأمنِ من فسادِ الأموالِ والأبدان، بقولِه: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا﴾ [البقرة: 126]، أتْبَعَه بالدُّعاءِ بالأمنِ مِن فسادِ الأديانِ، فقالَ: ﴿وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾[3]، فالأمنُ والتّوحيدُ عِمادا العيشِ، وقِواما الحياةِ.

إيثارُ اسْتعمالِ لفظِ ﴿وَٱجْنُبْنِي﴾:

آثرَ السِّياقُ القرآنيُّ اسْتعمالَ لفظِ ﴿وَٱجْنُبْنِي﴾؛ لدَلالتِه على

(1) المراغيّ، علوم البلاغة، ص: 115.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/379، والفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 19/100.
(3) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 10/425.

الإبعادِ الكُلِّيِّ والصَّرفِ التّامِّ عن عبادةِ الأصنامِ، سواءٌ بصناعتِها، أو جَلْبِها، أو بيعِها وشرائها، أوِ السُّجودِ لها وطلبِ العونِ منها، وجميعِ ما يدخلُ تحت معنَى عبادتِها، وهذه المعاني لا يُحقِّقُها إلّا الفعلُ ﴿وَٱجۡنُبۡنِي﴾[1]، ويُرادُ باجْتنابِها هنا كذلك معنى: ثبِّتْنا وأدِمْنا على اجْتنابِ عبادتِها[2].

الابْتعادُ التّامُّ عن عبادةِ الأصنامِ، والثّباتُ على ذلك، مُنتهَى الاخلاصِ

نُكتةُ تخصيصِ الدّعاءِ، ثمّ تعميمِه:

معلومٌ أنَّ الأنبياءَ عليهم السلام لا يعبُدونَ الوَثَنَ أوِ الصَّنمَ ألْبتَّةَ، وبناءً عليه: فإنَّ تخصيصَ نفسِه عليه السلام بالدُّعاءِ في قوله: ﴿وَٱجۡنُبۡنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعۡبُدَ ٱلۡأَصۡنَامَ﴾ مُبتدئًا به بصيغةِ الإفراد، وإنْ كان يعلمُ أنَّه تعالى يَعْصِمُه مِن عبادةِ الأصنامِ، إلّا أنَّه ذَكرَ ذلك هَضْمًا للنَّفْسِ، وإظهارًا للحاجةِ والفاقةِ إلى فضلِ اللّهِ في كلِّ المطالبِ، وهذا يقتضي إفراطَ خوفِه على نفسه عليه السلام ومَنْ تحمّلَ مسئوليّتَه.

إظهارُ الحاجةِ لعصْمةِ اللهِ لإبراهيمَ وبَنيه منَ الشِّركِ

ويمكنُ أن يكونَ المُرادُ هنا بقولِه: ﴿وَٱجۡنُبۡنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعۡبُدَ ٱلۡأَصۡنَامَ﴾ العصمةَ منَ الشِّرك الخَفيِّ الَّذي فيه تعلُّقُ القلبِ بالوسائطِ والأسبابِ الظّاهرة. والتَّوحيدُ المحضُ هو أنْ ينقطعَ نَظَرُه عنِ الوسائط، ولا يَرَى مُتصرِّفًا سوى الحقِّ سبحانه وتعالى[3].

والفائدةُ في هذا الدُّعاءِ عَيْنُ الفائدةِ الَّتي تقدَّمتْ في قولِه: ﴿وَٱجۡنُبۡنِي﴾، وحتَّى يَعُمَّ هذا الدُّعاءُ وتتحقَّقَ الفائدةُ منه له عليه السلام، ولبنيه مِن بَعْدِه[4].

إيثارُ اسْتعمالِ ﴿وَبَنِيَّ﴾ بدلًا مِن (ذُرِّيَّتي):

آثرَ السِّياقُ اسْتعمالَ ﴿وَبَنِيَّ﴾ دون (ذُرِّيَّتي) لأسبابٍ ثلاثةٍ؛ الأوَّلُ: أنَّه أرادَ بَنيه مِن صُلْبه. والثّاني: أنَّه أرادَ أولادَه وأولادَ أولادِه؛ أيْ:

مِن مظاهرِ تكريمِ المؤمنين تخْصيصُهم بالدّعاءِ

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 10/425، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/267 - 268.
(2) الزّجّاج، معاني القرآن: 3/164، والزّمخشريّ، الكشّاف: 2/379.
(3) ابن عطيّة، المُحرّر الوجيز: 3/341، والفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 19/101.
(4) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 19/101.

مَنْ كانوا موجودين حالَ الدُّعاء، ولا شُبهة هنا في أنَّ دعوتَه مجابةٌ فيهم، ولذلك لم يَعْبُدْ أحدٌ مِن وَلَدِ إبراهيمَ عليه السلام صَنَمًا. والثّالثُ: أنَّ هذا الدّعاءَ مختصٌّ بالمؤمنين مِن أولاده، والدَّليلُ عليه أنَّه قال في آخر الآية: ﴿فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّي﴾، وأمّا لو قال: (ذُرِّيتي) فهذا يصدُقُ على جميع بَنيه، وليس الأمرُ كذلك، فإنَّ من بَنيه مَنْ عبدَ الأصنامَ، وهم مشركو مكَّةَ، فلم يكونوا في حقيقة الأمرِ مِن بنيه؛ لأنَّهم لم يتَّبعوه، ونظيرُه قولُه تعالى لنوحٍ عليه السلام في ابنِه الكافر: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ﴾ [هود: 46][1].

دعاءُ ابراهيمَ عليه السلام لِبَنيه ينسجِمُ والفطرةَ السّليمة، وقد ذُكِرَ تلميحًا وتصريحًا

بَراعةُ الانْسجامِ الصَّوتِّي: ﴿وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ﴾:

يظهرُ منَ الحروفِ المشتركةِ بين اللَّفظَيْنِ ﴿وَٱجْنُبْنِي﴾ و﴿وَبَنِيَّ﴾، ما يُشبه الجناسَ غيرَ التامّ، فقد تماثلتِ الأحرفُ الثّلاثةُ: النّونُ والباءُ والياءُ، معَ اتِّحادِ مخارجِ كلٍّ منها على حِدة، ما يجعلُ نُطقَ هذَيْن اللَّفظَيْن يُجسِّدُ انسجامًا صوتيًّا بين الكلمات؛ للإشارة إلى دخول لفظِ ﴿وَبَنِيَّ﴾ في دعوة إبراهيمَ لنفسه ﴿وَٱجْنُبْنِي﴾، وكأنّه دعا لبَنيه مرتيْن، أولاهما ضمْنَ ياء التّكلّم، والأخرى بالتَّصريح، وهو ما هدفَ إليه السِّياقُ هنا في اسْتعمال ﴿وَٱجْنُبْنِي﴾ و﴿وَبَنِيَّ﴾؛ إذ يتمُّ التَّوافقُ بينَهما، ويحدثُ شَدٌّ وجَذْبٌ، كلُّ واحدٍ منهما يحاولُ أن يُماثِلَ الآخَرَ وأن يكونَ مُعاضدًا له، فجاءَ التَّخصيصُ بالنَّفسِ في ﴿وَٱجْنُبْنِي﴾، ولَحِقَ بهِ التَّعميمُ في ﴿وَبَنِيَّ﴾، مع استعمال نفسِ الحروفِ والأصواتِ التّابعةِ لها؛ ليتحقَّقَ بذلك التّماثلُ في الدُّعاء، وهو أن يُجَنِّبَ إبراهيمَ وبَنيه عبادةَ الأصنامِ[2].

عِلّة العُدولِ عنِ المصدرِ الصَّريحِ إلى المُؤوَّلِ:

احتماليَّةُ وقوعِ عبادةِ الأصنامِ

جاءَ التَّعبيرُ بالمصدرِ المُؤوَّلِ في قولِه تعالى: ﴿أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 19/102.

(2) الشّايب، أثرُ القوانين الصّوتيّة في بناءِ الكلمة، ص: 67، وكمال بشر، علم الأصوات، ص: 119، وانتصار عثمان، القضايا الصّوتيّة والدّلاليّة في كتاب المحتسب، ص: 72 - 75.

دون المصدر الصَّريح: (عبادةَ الأصنام)؛ لأنَّ الحدَثَ هنا - كما يقتضيه السِّياقُ القرآنيُّ - قائمٌ بأركانه: الفاعلُ (المُسنَد إليه)، والحَدَثُ (المُسنَد)، وهو مرتبطٌ باحْتماليَّةِ الوقوع؛ أيْ: وقوعِ عبادةِ الأصنام، وقد كان مِن بنيه مَن عبدَ الأصنام، وهم مُشركو مَكَّة، وهذا أمرٌ غيبيٌّ لا يعلمُه إلّا اللّهُ تعالى على وجهِ اليقين، وليس لإبراهيمَ عليه السلام الجزمُ بوقوعِ الحَدثِ لا محالةَ، وهو عبادةُ الأصنامِ ممَّن يعيشُ مستقبلًا مِن بنيه في مكَّة[1].

نوعُ (ال) في ﴿ٱلْأَصْنَامَ﴾، ودلالتِها:

(ال) للعهد، وهي الأصنامُ الَّتي عبدَها قومُ نوحٍ، أو لجِنسِ الأصنامِ

(ال) في ﴿ٱلْأَصْنَامَ﴾ للعهد؛ أيْ: أصنام قوم نوح، وهي الَّتي وردَ ذِكْرُها في قولِه تعالى: ﴿لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾﴾ [نوح: 23][2].

ويمكنُ أن تكونَ (ال) للجنس؛ أيْ: جميعُ الأصنام؛ أيْ: مَنْ يصدُق عليه أنَّه صَنَمٌ، فإنَّ الصَّنَمَ: هو صورةٌ، أو حجارةٌ، أو بناءٌ يُتَّخذُ معبودًا ويُدْعَى إلهًا[3].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الأمنُ والاطْمئنانُ:

الأمنُ طُمأنينةُ النَّفس، والاطْمئنانُ سكونُها بعد انْزعاجٍ

أصلُ الأمن: طُمأنينةُ النَّفسِ وزوالُ الخَوْف، والأَمْنُ والأمانةُ والأمانُ في الأصل مصادر. قالَ تعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾ [البقرة: 125]، وقولُه تعالى: ﴿أَمَنَةً نُّعَاسًا﴾ [آل عمران: 154]؛ أيْ: أمْنًا[4]. والطُّمأْنينةُ والاطْمِئنانُ: السُّكونُ بعدَ الانْزعاج، قالَ

(1) أحمد عبد السّلام، العدول عن المصدر الصّريح إلى المصدر المؤوّل في القرآن الكريم: حوليّات الآداب والعلوم الاجتماعيّة، العدد: 35، جامعة الكويت، وجلال الحمّادي، العدول في صيغ المشتقّات في القرآن الكريم، ص: 191.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/239.

(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/341، والبقاعيّ، نظم الدُّرر: 10/425.

(4) الرّاغب، المُفردات، والفيروزابادي، القاموس المحيط: (أمن).

تعالى: ﴿وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْۚ﴾ [الأنفال: 10]، وقالَ سبحانَه: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ۝٢٧﴾ [الفجر: 27]، وهي ألّا تصيرَ أمّارةً بالسّوء. وقالَ تعالى: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ۝٢٨﴾ [الرّعد: 28]، واطْمأنَّ وتَطامَنَ يتقاربانِ لفظًا ومعنًى[1]. ولمّا كان العيشُ الرّغيد المُبتَغى في البلدان يناسِبُه طُمأنينةُ النَّفس وزوالُ الخوف الدّائمان، لا السّكونُ بعدَ الانزعاج العارض؛ اصطُفيَ لفظُ الأمن.

الاجتنابُ والتَّركُ:

الاجْتنابُ والابتعادُ التّامُّ

الاجْتنابُ: الابتعادُ والتَّركُ بالكُلِّيَّة، وتجنيبُ الشَّيءِ: تنحيتُه وجَعْلُه في ناحيةٍ منه وجانبًا، قالَ ﷻ: ﴿وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ﴾ [النّحل: 36]، وقالَ ﷻ: ﴿وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾[2].

وتَرْكُ الشَّيء: رفضُه قَصْدًا واخْتيارًا، أو قهرًا واضطرارًا؛ فمنَ الأوَّل: ﴿وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًاۖ﴾ [الدُّخان: 24]، ومِنَ الثّاني: ﴿كَمْ تَرَكُواْ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ۝٢٥﴾ [الدُّخان: 25]، وقد يُقالُ لكلِّ فعلٍ ينتهي به إلى حالةٍ ما: تركتُه كذا، أو يجري مجرَى جعلتُه كذا. والتَّركُ عند العربِ تخليفُ الشَّيءِ في المكانِ الَّذي هو فيه والانْصرافُ عنه، ولهذا يُسمّون بيضةَ النَّعامةِ إذا خرجَ فرخُها: تَريكة؛ لأنَّ النَّعامةَ تنصرفُ عنها، ومنه تَركةُ فلانٍ: لِما يَخْلُفُه بعدَ موتِه[3]. ولمّا كان مقصدُ إبراهيمَ عليه السلام نبذَ عبادةِ الأصنامِ بالكُلّيّة، بوصْفِها أصلَ نواقضِ التّوحيد، اختِيرَ لفظُ الاجتناب.

(1) الرّاغب، المُفردات، والفيروزابادي، القاموس المحيط: (طمن).
(2) أبو عُبيدة، مجاز القرآن: 1/342، والرّاغب، المُفردات: (جنب).
(3) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 124، والرّاغب، المُفردات: (ترك).

﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى ۖ وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾﴾ [إبراهيم: 36]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الدَّعوةُ بتجنيبِ عبادةِ الأصنامِ، بسببِ إضلالِها للنّاسِ

لَمّا ذكرَ تعالى في الآيةِ السّابقةِ دعوةَ إبراهيمَ عليه السلام بجعلِ مكَّةَ بلدًا آمنًا، وتَجنيبِ بنيهِ عبادةَ الأصنام، جاءَ في هذه الآيةِ مُعلِّلًا دعوتَه الأخيرةَ؛ بأنَّ الأصنامَ سببُ إضلالِ كثيرٍ منَ النّاس، فَمَن تبعَه عليه السلام في دينِه واعتقادِه، فإنَّه مِن ملَّتِه وأهلِ هديِه، ومَن عصاه في غيرِ الدِّينِ فإنَّ اللّهَ يغفرُ له، ويتوبُ عليه[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَضْلَلْنَ﴾: (ضلّ): الضّادُ واللّامُ أصلٌ صحيحٌ يدُلُّ على معنًى واحدٍ، وهو ضياعُ الشَّيءِ وذهابُه في غيرِ حَقِّه، يُقالُ: ضَلَّ يَضِلُّ وتضِلُّ، لُغتان، وكلُّ جائرٍ عنِ القَصْدِ ضالٌّ، والضَّلالُ والضَّلالةُ: العدولُ عنِ الطَّريقِ المستقيم، ويُضادُّه الهدايةُ، قالَ تعالى: ﴿وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ [الإسراء: 15]، ورَجلٌ ضِلّيلٌ ومُضَلَّلٌ، إذا كانَ صاحبَ ضلالٍ وباطل، وممّا يدُلُّ على أنَّ أصلَ الضَّلالِ ما ذكرناه، قولُهم: أُضِلَّ المَيِّتُ، إذا دُفِن، وذاكَ كأنَّه شيءٌ ضاع، وكذلكَ كلُّ شيءٍ مُقيمٍ لا يُهتَدَى إليه. وقولُه: ﴿أَضْلَلْنَ﴾؛ أيْ: افْتُتِنوا بها، واغْتَرّوا بسببِها[2].

2) ﴿تَبِعَنِى﴾: (تبع): التّاءُ والباءُ والعَيْنُ أصلٌ واحدٌ، لا يَشِذُّ عنه منَ البابِ شيءٌ، وهو التُّلوُّ والقَفْوُ، يُقال: تَبِعتُ فلانًا إذا تَلَوتَه واتَّبعتَه، وأتْبَعتُه إذا لحقتَه، والأصلُ واحدٌ، غيرَ أنَّهم فرَّقوا بينَ القَفْوِ

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرّاغب، المُفردات: (ضلّ).
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/379.

واللُّحوقِ، فغيَّروا البناءَ أدْنى تغيير، قالَ تعالى: ﴿فَأَتۡبَعَ سَبَبًا ٨٥﴾ [الكهف: 85][1]. وقولُه تعالى: ﴿فَمَن تَبِعَنِي﴾؛ أيْ: تبعَ ديني، ولَحِقَ بمِلَّتي[2].

3) ﴿عَصَانِي﴾: (العَيْنُ والصّادُ والحرفُ المعتلُّ) أصلان صحيحان، إلّا أنَّهما مُتباينان، يدُلُّ أحدُهما على التَّجَمُّع، ويدُلُّ الآخَرُ على الفُرْقة. والأصلُ الثّاني هو ما عناه سياقُ الآية، وهو العِصْيانُ والمعْصية، يُقالُ: عَصَى عصيانًا، وهو عاصٍ، إذا خرجَ عنِ الطّاعة، قالَ تعالى: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ﴾ [طه: 121]. ويُقالُ فيمَن فارقَ الجماعة: "فُلانٌ شَقَّ العَصا"[3]. والعاصي: الفصيلُ إذا عَصَى أُمَّهُ في اتِّباعِها[4]. وقولُه تعالى: ﴿وَمَنْ عَصَانِي﴾؛ أيْ: لم يُطِعْني فيما دونَ الشِّرك[5].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

يُخبرُ اللّهُ تعالى عن نبيِّه إبراهيمَ عليه السلام أنَّه أسْنَدَ الضَّلالَ للأصنام؛ لأنَّها كانت سببَ ضلالِ النّاسِ، فَمَن تبعَه على ما جاءَ به منَ التَّوحيدِ والإخلاصِ للّهِ ربِّ العالمين، فإنَّه مِن ملَّته وأهلِ دينِه، ومَنْ عصاه فإنَّ اللّهَ يَغْفرُ له ويرحمُه، فإنَّه سبحانه وتعالى رحيمٌ بعباده، لا يُعذِّبُ إلّا مَن كفرَ به وتَمرَّدَ عليه[6].

الأصنامُ سببٌ لضَلالِ النّاس، والنَّجاةُ باتِّباعِ دينِ إبراهيمَ عليه السلام

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بَلاغةُ التّعبيرِ بـ﴿رَبِّ﴾ حذفًا وتَكرارًا، وإضافةً:

صُدِّرتِ الآيةُ الكريمةُ بالدُّعاءِ مع حَذْفِ أداتِه (يا)؛ زيادةً في التّقرّب بكونِه عليه السلام من أهلِ القُربِ والانْقطاعِ إليه سبحانه وتعالى، وجاءَ تكرارُ

الزّيادةُ في القُربِ إلى الله، والرَّغبةُ في استجابةِ الدّعاءِ

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرّاغب، المُفردات: (تبع).
(2) الشّوكانيّ، فتح القدير: 3/153.
(3) الميدانيّ، مجمع الأمثال: 1/364.
(4) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرّاغب، المُفردات: (عصى).
(5) البغويّ، معالم التّنزيل: 4/355.
(6) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 375.

﴿رَبِّ﴾ بيانًا لزيادةِ الاهْتمامِ بأمرِ الأصنام، وإظهارًا لاعْتنائه به، ورغبةً في اسْتجابته، ولإنشاءِ التّحسُّرِ على إضلالِها للنّاس.

ووردَ قولُه تعالى: ﴿رَبِّ﴾ بإفرادِ المُضاف إليه؛ ليكونَ الكلامُ الواحدُ على نظامٍ واحدٍ مع ما سبقَه[1].

دَلالةُ تصْديرِ الجُمَلِ مُؤكَّدةً بـ(إنَّ):

تأكيدُ تعْليلِ دَعوةِ إبراهيمَ عليه السلام بإجْنابِه عبادةَ الأصنامِ

أفادَ حرفُ (إنَّ) الَّذي صُدِّرتْ به جملةُ: ﴿إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ التَّوكيدَ لما أفادَه حرفُ (إنَّ) في هذا المقامِ مِن معنَى التَّعليل؛ إذ جاءتْ جملتُه تعليلًا للدَّعوةِ بإجْنابِه عبادةَ الأصنام بأنَّها ضَلالٌ، راجَ بين كثيرٍ من النّاس، فَحَقٌّ للمؤمنِ الضَّنينِ بإيمانِه أنْ يخشَى أن تجترفَه فتنتُها، فيقعَ في حبائلِها[2].

بَلاغةُ إسْنادِ الضَّلالِ إلى ضَميرِ الأصنامِ:

الإسنادُ للأصنامِ مجازيٌّ، فَضَلالُ النّاسِ بسببِها

إسنادُ الضَّلالِ إلى الأصنامِ بقولِه تعالى: ﴿إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ﴾ إسنادٌ مجازيٌّ علاقتُه السَّببيَّةُ؛ أيْ: ضلّوا بسببِها؛ لأنَّ الأصنامَ لا تعْقلُ ولا تفعلُ شيئًا، فلمّا ضلَّ النّاسُ بسببِها صارتْ كأنَّها أضلَّتْهم، فنُسِبَ الفعلُ إليها، كما يُقالُ: فَتَنَتْهُمُ الدُّنيا وغرَّتْهم؛ أيْ: افْتُتِنوا بها واغْترّوا بسببِها[3].

فائِدةُ قولِه: ﴿كَثِيرًا﴾:

رواجُ عبادةِ الأصنامِ بينَ الأعمِّ منَ النّاس

أفادَ قولُه تعالى: ﴿كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ بأنَّها ضلالٌ راجَ بينَ كثيرٍ من النّاس؛ أيْ: ضلَّ بهِنَّ كثيرٌ من النّاسِ عن طريقِ الهُدى، حيثُ عَبَدوهُنّ، وهذا منَ المقلوب، ونظيرُه قولُه تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ﴾ [آل عمران: 175]؛ أيْ: يُخوِّفُكم بأوليائِه[4].

---

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 10/425، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/268.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/239.

(3) الزّجّاج، معاني القرآن: 3/164، والواحديّ، البسيط: 12/484، والبقاعيّ، نظم الدُّرر: 10/425.

(4) الثّعلبيّ، الكشف والبيان: 15/398 - 399، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/239.

معنَى الفاءِ في: ﴿فَمَن تَبِعَنِي﴾:

النّاسُ بينَ مُتّبِعٍ لإبراهيمَ عليه السلام أو عاصٍ له

(الفاءُ) في قولِه تعالى: ﴿فَمَن تَبِعَنِي﴾ للتّفريع؛ أيْ: إنَّ تقسيمَ النّاسِ إلى مُتَّبِعٍ لهَدْيِ إبراهيمَ عليه السلام، وعاصٍ له مُتفرِّعٌ عمّا قبلَه مِن ضلال كثيرٍ منَ النّاس بسبب الأصنامِ.

نوعُ ﴿فَمَن﴾، ودَلالتُها:

مَنِ اتَّبعَ دينَ إبراهيمَ عليه السلام فهو منه صلى الله عليه وسلم

﴿فَمَن﴾ في قولِه تعالى: ﴿فَمَن تَبِعَنِي﴾ أداةُ شرطٍ جازمةٌ؛ أيْ: فمَنْ تَبعني منَ النّاسِ فتجنَّبَ عبادةَ الأصنامِ فهو مِنِّي، فدخلَ في ذلك أبوهُ وقومُه، ويدخُلُ فيه ذُرِّيَّتُه؛ لأنَّ الشَّرطَ يصلُحُ للماضي والمستقبلِ[1].

إيثارُ لفْظِ ﴿تَبِعَنِي﴾ دونَ غيرِه:

الاصْطباغُ الكاملُ بالتَّوحيدِ الخالصِ لله تعالى

آثرَ سياقُ الآيةِ اسْتعمالَ ﴿تَبِعَنِي﴾ دونَ غيرِه منَ المُرادفات؛ لأنَّ الاتِّباعَ يعني: اللَّحوقَ والاقْتداءَ فيما أنا عليه منَ التَّوحيد الخالصِ للّه؛ أيْ: فصارَ حنيفًا مُسلمًا موحِّدًا مثلي[2].

سِرُّ استعمالِ الماضي ﴿تَبِعَنِي﴾:

تحقُّقُ الاتِّباعِ لإبراهيمَ عليه السلام

جاءَ اسْتعمالُ الفعلِ الماضي ﴿تَبِعَنِي﴾؛ للدّلالةِ على تحقُّقِ الاتِّباعِ، وتأكيدِ حصولِه منَ المُتَّبِعِ لإبراهيمَ عليه السلام.

بَلاغةُ التّعبيرِ بالفاءِ والتَّوكيدِ ﴿فَإِنَّهُۥ﴾:

شِدَّةُ اتِّصالِ جوابِ الشَّرطِ بفعْلِه

(الفاءُ) في قولِه تعالى: ﴿فَإِنَّهُۥ مِنِّي﴾ رابطةٌ لجوابِ الشَّرط، وأفادَت مع حرفِ التَّوكيدِ (إنَّ) قوَّةَ رَبْطِ جوابِ الشَّرطِ بفعلِه ﴿تَبِعَنِي﴾، فالاتّباعُ طريقُ هدايةٍ، وسبيلُ قُرْبٍ، واتّصالٌ موصِلٌ إلى الرّشاد.

سِرُّ الإخبارِ بالجارِّ والمجرورِ ﴿مِنِّي﴾:

المُتَّبعُ للنّبيِّ مُتّصِلٌ به في شأنِ الدّينِ مِن غيرِ فِكاكٍ

(مِنْ) في قولِه تعالى: ﴿مِنِّي﴾ اتِّصاليَّةٌ، وأصلُها التَّبعيضُ المجازيُّ؛ أيْ: فإنَّه متَّصلٌ بي اتِّصالَ البعضِ بكلِّه، فأفادَ الإخبارُ بقولِه: ﴿مِنِّي﴾ شِدَّةَ اللُّصوقِ؛ أيْ: هو بعضي لفَرْطِ اخْتصاصِه بي،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/239.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/380، والشّوكانيّ، فتح القدير: 3/153.

ومُلابستِه لي، وفيه مُبالغةٌ منه عليه السلام في بيانِ اخْتصاصِه به، فهو مُتَّصلٌ بي لا ينفكُّ عنِّي في أمرِ الدِّين[1].

دَلالةُ عطْفِ جملةِ ﴿وَمَنْ عَصَانِي﴾:

التَّأدُّبُ في مقام الدُّعاءِ، والنَّفعُ للعُصاةِ

دَلَّ عَطْفُ قولِه تعالى: ﴿وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ على ما قبلَها على عظيمِ التَّأدُّبِ في مقامِ الدُّعاء، وجميلِ النَّفعِ للعُصاةِ منَ النّاسِ بقَدْرِ ما يستطيعُه، والمعنَى: ومَنْ عصاني أُفوِّضُ أمرَه إلى رحمتِك وغُفرانِك، وليس المقصودُ الدُّعاءَ بالمغفرةِ لمَن عَصَى، وهذا مِن غَلَبَةِ الحِلْمِ على نبيِّ اللّهِ إبراهيمَ عليه السلام وخَشيةِ اسْتِئصالِ عُصاةِ ذُرِّيَّته، وسَوْقُ هذه الدَّعوةِ هنا للتَّعريضِ بالمشركينَ منَ العَرَبِ، بأنَّهم لم يَبَرّوا بأبيهم إبراهيمَ عليه السلام[2].

سِرُّ العُدولِ عن قولِه: (لم يتَّبعْني) إلى: ﴿عَصَانِي﴾:

الإيذانُ باستمرارِ دعوتِه عليه السلام، ومَن لم يتَّبعْه فهو العاصي

جاءَ التَّعبيرُ بالعِصْيانِ في قولِه تعالى: ﴿وَمَنْ عَصَانِي﴾ دونَ عدمِ الاتِّباعِ كقولِه: (ومَنْ لم يتَّبعْني)؛ للإيذانِ بأنَّه عليه السلام مُستمرُّ الدَّعوةِ، وأنَّ عدمَ اتِّباعِ مَنْ لم يتَّبعْه إنَّما هو لعِصيانِه، لا لأنَّه لم يُبلِّغْه الدَّعوةَ[3].

جمالُ المقابلةِ في الآيةِ الكريمةِ:

أدبُ إبراهيمَ عليه السلام في دعائِه لمَن تَبِعَه ولمَن عصاه

لَمّا ذَكَرَ خطابُ اللّهِ تعالى قولَ إبراهيمَ عليه السلام في صدرِ الآية: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾، تسبَّبَ بغضُ إبراهيمَ عليه السلام لتلك الأصنام في أن يأتيَ في دعائه على عَرْضِ صورتَيْن مُتقابلتَيْن، وكلتاهما داخلتان في بيانِ صفةٍ عظيمةٍ تخلَّق بها نبيُّ اللّهِ إبراهيمُ عليه السلام، وهي صفةُ الحِلْمِ، مع عظيمِ أدبِه ورفيعِ خُلُقِه في مَقامِ دعائِه للّهِ عز وجل، ففي الصّورةِ الأولى: دعا بقولِه: ﴿فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّي﴾؛

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/380، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/268، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/239.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/239.

(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/268.

أيْ: مِن مِلَّتي؛ لكونِه على طريقتي وديني، فآتِني ما وعدتَني فيه منَ الفوز، وفي الصّورةِ الثّانيةِ: دعا بقوله: ﴿وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾؛ أيْ: فَضَلَّ عنِ اتبِّاعي، فقدِ اسْتحقَّ النّارَ، لكن يا ربِّ إنْ عذَّبتَه فهو عبدُك، وإنْ غَفَرتَ له فأنتَ أهلٌ لذلك؛ لأنَّ لك أن تفعل ما تشاء، فإنَّك بليغُ السّترِ، بليغُ الإكرامِ بعد سَتْرِ الذُّنوب، وأكَّدَ ذلك للإعلامِ بزيادةِ رغبتِه في العَفْو؛ لأنَّه لا ينقصُ به شيءٌ مِن عزَّتِه سبحانَه، ولا حِكمتِه[1].

رحمةُ نبيِّنا والأنبياءِ صلواتُ ربِّي عليهم أُنموذجُ حُنوٍّ مُتفرِّدٍ

وقد وردَ تأثُّرُ رسولِ اللّه ﷺ إثْرَ تلاوةِ هذه الآيةِ، كما روى ذلك عبدُ اللّه بنُ عمرو بنِ العاص رضي الله عنهما، أنَّ رسولَ اللّهِ ﷺ تلا قولَ إبراهيمَ عليه السلام: ﴿فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّي ۖ وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، وقولَ عيسى عليه السلام: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾﴾ [المائدة: 118]، فرفعَ يَديْهِ ثمَّ بَكى، فقال: "اللهمّ أُمَّتي، اللهمّ أُمَّتي" وبكى، فقالَ اللّهُ جلَّ ثناؤه: يا جبريلُ اذهبْ إلى مُحمَّد - وربُّكَ أعلمُ - فاسْألهُ ما يُبكيه؟ فأتاهُ جبريلُ عليه السلام فسألَه، فأخبرَه رسولُ اللّهِ ﷺ ما قال، فقالَ اللّهُ تعالى: "يا جبريلُ اذْهبْ إلى مُحمَّدٍ ﷺ، فقلْ له: إنّا سنُرضيكَ في أُمَّتكَ ولا نَسوؤك"[2].

بيانُ مُناسبةِ فاصلةِ الآية لسِياقِها:

تَلطُّفُ إبراهيمَ عليه السلام في دعائِه للعاصين

يقوم سياقُ الآية الكريمة على بيانِ إضلالِ الأصنامِ لِعُبّادها، وهو رأسُ المعاصي؛ لأنَّه كُفرٌ وشِرْك، ومنِ اتَّبعَ دينَ إبراهيمَ عليه السلام فهو منه، ومَنْ عصى إبراهيمَ بكُفرٍ أو معصيةٍ؛ فإنَّ اللّهَ يغفرُ لهما، وقد حَمَلَ إبراهيمَ عليه السلام على هذه العبارةِ ما كان يأخذُ نَفْسَه به منَ القولِ الجميلِ والنُّطقِ الحَسَنِ، وجميلِ الأدبِ معَ اللّهِ في دعائه، والتَّلطُّفِ مع عبادِ اللّهِ، حتَّى معَ العاصين منهم[3].

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 10/425 - 426.
(2) أخرجه مسلم في صحيحه، برقم: (202)، وابن جرير في جامع البيان: 13/229.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/445.

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الاتِّباعُ والطّاعةُ:

الاتِّباعُ: القَفْوُ واللُّحوق، وتبعتُ فلانًا إذا تَلَوْتَه واتَّبعتَه، وأتْبَعْتُه إذا لحقتَه، كما في قولِه تعالى: ﴿فَٱتَّبِعۡنِيٓ أَهۡدِكَ صِرَٰطٗا سَوِيّٗا ٤٣﴾ [مريم: 43][1]. ولا يكونُ في الاتّباع إجبارٌ وإكراه. والطّاعةُ أصلُها من الطَّوْعِ الَّذي هو الانْقياد. والطّاعةُ تكونُ منَ الأدْنَى للأعلى؛ لأنَّها في موافقةِ الإرادةِ الواقعةِ موقعَ المسألة، وهي إنَّما تقعُ رغبةً أو رَهْبةً[2]. فالطّاعة: تنفيذٌ لأمر الآمر (بالفعل أوِ التّرك)، محبّةً أو ذُلًّا، رغبةً أو رهبةً، إكراهًا أو رِضًى، أو ذلك كلَّه. ولمّا كانت عبادةُ اللّه امْتِثالًا، وانْقِيادًا، وخُضوعًا مِن غير إجبارٍ؛ إذْ ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾ [البقرة: 256]، ناسبَ اللّفظُ المُقيّدُ بهذا الشّرط، وهو لفظُ (الاتِّباع).

الاتِّباعُ تُلوٌّ ولُحوقٌ، والطّاعةُ انْقيادٌ بِرَغبةٍ أو رَهْبةٍ

المعصيةُ والإعراضُ:

المعصيةُ والعِصيان: أصلٌ يدُلُّ على الفُرقة، يُقال: عصَى عِصْيانًا، وهو عاصٍ إذا خرج عنِ الطّاعة، وهذا الخروجُ قد يكونُ كُلِّيًّا بالكفر، وقد يكونُ جزئيًّا بالذُّنوب، كبيرِها وصغيرِها، كما قالَ تعالى: ﴿وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلٗا مُّبِينٗا ٣٦﴾ [الأحزاب: 36]. وأعْرضَ: أظْهرَ عَرْضَه؛ أيْ: ناحِيَتَه، وأعْرض عنِّي: وَلَّى مُبدِيًا عَرْضَه، قالَ تعالى: ﴿وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ ١٩٩﴾ [الأعراف: 199]. ولمّا كان المقصودُ مِن لفظ العصيان الخروجَ الكُلِّيَّ عنِ الطاعة بالكُفر بسبب إضلال الأصنامِ، اختِيرَ لفظُ (عصاني) دون (أعرض عنّي).

المعصيةُ الخروجُ عنِ الطّاعةِ كُلِّيًّا أو جُزئيًّا، والإعراضُ التَّولّي والابْتعادُ عنِ الشَّيءِ

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرّاغب، المُفردات: (تبع).

(2) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 335، والكفويّ، الكلِّيّات: 3/155، والجُرجانيّ، التّعريفات، ص: 145.

﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ٣٧﴾ [إبراهيم: 37]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

بعدَ دَرْءِ المفاسدِ ناسبَ الدُّعاءُ بجلْبِ المصالحِ الدِّينيَّةِ والدُّنيويَّة

لَمّا دعا إبراهيمُ عليه السلام بدَرْءِ المفاسدِ النّاشئةِ مِن نوعَي الإنسانِ والشَّيطانِ بأمنِ البَلَدِ وإيمانِه، ذكرَ السَّببَ الحاملَ له على تخصيصِه بذلكَ، مُستجلِبًا للمصالحِ مع إعلامِه بأنَّه راغبٌ فيه، لقولِه: ﴿إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ﴾، ولمّا نَفَى عنه الرِّفدَ الدُّنيويَّ أثبتَ له الأُخرويَّ، إشارةً إلى أنَّ الدّارَيْن ضَرَّتانِ لا تجتمعان، فقالَ: ﴿عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ﴾ الَّذي حرَّمْتَ التَّعرُّضَ له، ومنعْتَه بالْهَيْبةِ فلا يَملِكُه أحدٌ سواك، وذلكَ ﴿لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ ما أسكَنْتَهم في هذا الوادي؛ لأنَّ أوْلَى النّاس بإقامةِ الصَّلاةِ حاضِرو البيتِ المُتوجّهون بها إليه، واجعلْ يا ربِّ أفئدةَ النّاسِ مشتاقةً إليه، تقصدُه مُسرعةً نحوه. ولمّا دعا لهم بالدِّين، دَعا لهم بالرِّزقِ المُتضمِّن للدُّعاءِ لجيرانِهم، فقال: وارزقْهم على يدِ مَن يَهْوي إليهم منَ الثَّمراتِ الَّتي أنْبتَّها في بلادِهم؛ ليكونَ حالُهم حالَ مَن يُرْجَى شُكْرُهم لما يرَوْن مِن نِعَمِك في هذا المكانِ البعيدِ عنِ الفضلِ لولا عنايتُك، فيشتغلوا بعبادتِك؛ لإغْنائِكَ لهم وإحسانِك إليهم[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ذُرِّيَّتِي﴾: (ذرّ): الذّالُ والرّاءُ المشدَّدةُ أصلٌ واحدٌ يدُلُّ على لطافةٍ وانْتشار، ومن ذلك: الذَّرُّ: صِغارُ النَّملِ، الواحدةُ ذَرَّة.

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 10/428.

ومنه: الذُّرِّيَّةُ، قالَ تعالى: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾ [البقرة: 124]. وذُرِّيَّةُ الرَّجُلِ: وَلَدُه، والجمعُ: الذَّراريّ، والذُّرِّيّات[1]، وهو المُرادُ هنا في قولِه تعالى: ﴿أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي﴾[2].

2) ﴿بِوَادٍ﴾: وَدى يَدي وَدْيًا، وأوْدَى الرَّجُلُ: هَلَكَ، فهو مودٍ، والوادي: الموضعُ الَّذي يسيلُ فيه الماء، ومنه: سُمِّيَ المَفرَجُ بينَ الجبالِ والتِّلالِ والآكامِ واديًا، وجمعُه أوْدِية، نحو: نادٍ وأنْدِيةٌ، ويُستعارُ الوادي للطَّريقةِ، كالمذهبِ والأسلوب، فيُقال: فلانٌ في وادٍ غيرِ واديك، قالَ تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾﴾ [الشُّعراء: 225] فإنَّه يعني: أساليبَ الكلامِ منَ المدحِ والهجاءِ والجَدَلِ والغَزَل، وغيرِ ذلكَ منَ الأنواع[3]. وقالَ تعالى: ﴿فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا﴾ [الرَّعد: 17][4]. وقولُه هنا: ﴿بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ﴾ هو وادي مكَّة[5].

3) ﴿ٱلْمُحَرَّمِ﴾: (حرم): الحاءُ والرّاءُ والميمُ أصلٌ واحد، وهو المنعُ والتَّشديد. فالحرامُ ضِدُّ الحلال، قال تعالى: ﴿وَحَرَامٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا﴾ [الأنبياء: 95][6]. والحُرمةُ: ما لا يَحِلُّ انْتهاكُه، قال تعالى: ﴿وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ ٱللَّهِ﴾ [الحجّ: 30]. وقولُه تعالى: ﴿عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ﴾؛ أي: المُحرَّم مِن اسْتحلالِ حُرُماتِ اللهِ فيه، والاسْتخفافِ بحقِّه[7].

4) ﴿أَفْئِدَةً﴾: (فأد): الفاءُ والألفُ والدّالُ، أصلٌ صحيحٌ يدُلُّ على حُمَّى وشِدَّةِ حرارة، مِن ذلك: فَأدتُ اللَّحم: شَوَيتُه، ومن هذا الباب: الفُؤاد، سُمِّيَ بذلك لحرارتِه، والفَأْدُ: مصدرُ فَأدْتُه، إذا أصبتَ فؤادَه. والفؤادُ: كالقلب، يقالُ له فؤادٌ إذا اعتُبِرَ فيه معنَى التَّفؤُّد، أي: التَّوقُّد، قال تعالى: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴿١١﴾﴾ [النَّجم: 11][8]. وقولُه تعالى: ﴿فَٱجْعَلْ أَفْئِدَةً﴾؛ أيْ: قلوبًا مُتوقِّدةً بالشَّوق[9].

5) ﴿تَهْوِيٓ﴾: (هوي): الهاءُ والواوُ والياءُ: أصلٌ صحيحٌ يدُلُّ على خُلوٍّ وسقوط، أصلُه

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرّاغب، المُفردات، والرّازي، مختار الصِّحاح: (ذرّ).
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/380، والشّوكانيّ، فتح القدير: 3/154.
(3) الفيروزباديّ، البصائر: 5/192.
(4) الرّاغب، المُفردات، والرّازيّ، مختار الصّحاح: (ودى).
(5) الشّوكانيّ، فتح القدير: 3/154.
(6) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والفيروزباديّ، القاموس المُحيط: (حرم).
(7) ابن جرير، جامع البيان: 13/233.
(8) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرّاغب، المُفردات: (فأد).
(9) الشّوكانيّ، فتح القدير: 3/154.

الهواءُ بينَ الأرضِ والسَّماء، سُمِّيَ لخُلوِّه[1]، ويُقالُ هَوَى الشَّيءُ يَهْوي: هويًّا إذا سقطَ مِن عُلْوٍ إلى سُفْل[2]. قالَ تعالى: ﴿أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ﴾ [الحجّ: 31]. وهوَى يَهوِي: يُريد، كما تقولُ: رأيتُ فلانًا يَهْوي نحوَك، معناه: ينحطُّ إليكَ وينحدِرُ ويَنْزِل[3]. وقولُه هنا: ﴿أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ﴾؛ أيْ: تَحِنُّ وتُسرِعُ لزيارةِ بيتِك[4].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

صِدقُ التّوكُّل على اللهِ مع صَلاحِ النِّيَّةِ

هذا دعاءٌ ثانٍ بعد الدُّعاءِ الأوَّلِ الَّذي دَعا به إبراهيمُ عليه السلام عندما ولَّى عن هاجرَ وولدِها، وذلك قبلَ بناءِ البيت، وهذا كانَ بعدَ بنائه تأكيدًا ورغبةً إلى اللهِ عز وجل، ولهذا قالَ: ﴿عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ﴾؛ أيْ: قالَ عليه السلام مُتضرِّعًا مُتوكِّلًا على ربِّه: إنِّي أسكنْتُ بعضَ ذُرِّيَّتي - وهم إسماعيلُ وذرِّيتُه - في أرضِ مكَّةَ، وهي وادٍ ليس فيه ماءٌ ولا يَنْبُتُ فيه زَرعٌ، فاجْعلْهُم ربَّنا موحِّدينَ مُقيمينَ الصَّلاةَ، واجْعلْ قلوبًا منَ النّاسِ تُحبُّهم، وتُحبُّ الموضعَ الَّذي هم ساكنون فيه، وارْزُقْهم منَ الثَّمراتِ والأرزاقِ الَّتي تتوالَى إليه مِن كلِّ جانب، ما يجعلُهم شاكرين لك لِما أسْبغتَه عليهم من تلكَ النِّعم[5].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

موقعُ ﴿إِنِّىٓ أَسْكَنتُ﴾، وسِرُّ افْتتاحِها بالنِّداء وتكرُّرِه:

تَكرارُ الدّعاءِ معَ التّضرّعِ مَظِنّةُ الإجابةِ

جملةُ: ﴿إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى﴾ مُستأنفةٌ لابتداءِ دعاءٍ آخرَ، وافْتُتِحتْ بالنِّداءِ لزيادةِ التَّضرُّعِ، أمَلًا بإجابة دعائه عليه السلام[6]، وكُرِّرَ النِّداءُ رغبةً في الإجابةِ، وإظهارًا للتَّذلُّلِ والالْتجاءِ إلى اللهِ تعالى[7].

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (هوي).
(2) الأزهريّ، تهذيبُ اللُّغة: 4/3813، والجوهريّ، الصّحاح: (هوى).
(3) الفرّاء، معاني القرآن: 2/78.
(4) ابن الجوزيّ، زاد المسير: 4/367، والخازن، لُباب التّأويل: 3/41.
(5) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 2/295، والسّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 375 - 376.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/240.
(7) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/446.

بَلاغةُ حذفِ حرفِ النّداء: ﴿رَّبَّنَآ﴾:

الرَّبُّ أقربُ إلى نفوسِ عبادِه منهم

لم يُصَدَّرْ قولُه تعالى: ﴿رَّبَّنَآ﴾ بـ (يا) النِّداءِ قبلَه؛ للمبالغةِ في تصويرِ قُربِ المُنادَى، وهو المُربِّي والسّيِّدُ والمُدبِّرُ لأمورِ عباده، وهو بهذه المعاني وغيرِها مِن معاني الرُّبوبيَّة قريبٌ ﷻ، لا يحتاجُ في ندائه إلى وسائطَ.

سِرُّ العُدولِ إلى الجمْعِ: ﴿رَّبَّنَآ﴾:

الدُّعاءُ للعُمومِ بقصْدِ تحقُّقِ الإجابةِ

أُضيفَ (ربّ) في قوله تعالى: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ﴾ إلى ضميرِ الجمعِ خلافًا لسابِقَيْه؛ لأنَّ الدُّعاءَ الَّذي افْتُتِحَ به، فيه حظٌّ للدّاعي ولأبنائه، ولعلَّ إسماعيلَ عليه السلام حاضرٌ معه حين الدُّعاء، كما يدُلُّ له ما تقدَّمَ في قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ يَرۡفَعُ إِبۡرَٰهِـۧمُ ٱلۡقَوَاعِدَ مِنَ ٱلۡبَيۡتِ وَإِسۡمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلۡ مِنَّآۖ﴾ [البقرة: 127] إلى قوله تعالى: ﴿وَٱجۡعَلۡنَا مُسۡلِمَيۡنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةٗ مُّسۡلِمَةٗ لَّكَ﴾ [البقرة: 128][1]. وما أورده بقوله: ﴿رَّبَّنَآ﴾ هو بصدَدِ تمهيدِ مبادي إجابتِه، من قولِه: ﴿إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ﴾ متعلِّقٌ بذرِّيَّته، فالتَّعرُّضُ لوصْفِ ربوبيَّتِه تعالى لهم أدْخَلُ في القَبولِ وإجابةِ المسؤول[2].

دَلالةُ التّصديرِ بأداةِ التَّوكيدِ ﴿إِنِّيٓ﴾:

تأكيدُ النّداءِ ورَبْطُ المِثْلِ بمِثْلِه

صُدِّرتِ الجملةُ بأداةِ التَّوكيد ﴿إِنِّيٓ﴾ تأكيدًا لنداءٍ سابقٍ، وفي ذلكَ ضربٌ منَ الرَّبْطِ بينَ الجُمَلِ المُفتَتَحةِ بالنِّداء، وهو ربْطُ المِثْلِ بمِثْلِه[3].

إيثارُ لفْظِ ﴿أَسۡكَنتُ﴾ ماضيًا:

نِعمتا الأمانِ والسَّكينةِ مُتحقِّقتانِ بنِعمةِ السَّكَنِ

آثَرَ البيانُ القرآنيُّ لفظَ السَّكَن؛ لأنَّ السَّكنَ نِعمةٌ منَ اللهِ تعالى، تدلُّ على نعمةِ الأمانِ الَّتي دَعا بها إبراهيمُ عليه السلام ربَّه، بقولِه: ﴿رَبِّ ٱجۡعَلۡ هَٰذَا ٱلۡبَلَدَ ءَامِنٗا﴾، والسَّكَنُ بفعلِه ﴿أَسۡكَنتُ﴾ يدلُّ على تحقُّقِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/240 - 241.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/268.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/240.

نعمةِ الإقامةِ الدّائمةِ في المكانِ الَّذي نزلَ فيه إبراهيمُ وزوجُه وابنُه، فكأنَّ إبراهيمَ ﷺ قالَ: (ربِّ أدِمْ عليهم السَّكَنَ في هذا المكانِ مع السَّكينةِ في قلوبِهم، والطُّمأنينةِ والأمْنِ في حياتِهم)[1].

السّكَنُ المُعدُّ هو من المُتاحِ في وقتِه

والتَّعبيرُ بلفظِ السّكَن، وإسنادُ الفعلِ إلى إبراهيمَ نفسِه ﷺ في قوله: ﴿أَسْكَنتُ﴾ يحتمل أنَّه أعَدَّ لهم سَكَنًا ممّا هو متاحٌ له في هذا المكان، كالبيوت الخفيفة المُتنقِّلةِ الّتي تخضع لظروف البوادي مِن مكان إلى آخرَ مثلِ الخيامِ، ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمۡ سَكَنٗا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلۡأَنۡعَٰمِ بُيُوتٗا تَسۡتَخِفُّونَهَا يَوۡمَ ظَعۡنِكُمۡ وَيَوۡمَ إِقَامَتِكُمۡ وَمِنۡ أَصۡوَافِهَا وَأَوۡبَارِهَا وَأَشۡعَارِهَآ أَثَٰثٗا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٖ ٨٠﴾ [النّحل: 80]، وهذا معنىً حقيقيٌّ.

بَلاغةُ الاستعارةِ في قوله: ﴿أَسْكَنتُ﴾:

القَصْدُ كَرَمُ اللهِ بإنعامِه عليه وعلى ذُرّيّتِه

يحتملُ أنَّ إبراهيمَ ﷺ وضع زوجَه وابنَهُ في هذا المكان القَفْر، ومعهما شيءٌ منَ التّمْر والماء، وعَبَّر عن وضعِهما بالسُّكنَى على سبيل الاستعارةِ التّصريحيّةِ، والغرضُ منها: الرّجاءُ في كَرَم اللّهِ به وبذُرِّيَّته بناءً على أمرِ اللّه له بذلك.

معنَى ﴿مِن﴾ ودَلالةُ دُخولِها على: ﴿ذُرِّيَّتِي﴾:

المُـــرادُ بعضُ الذّرّيَّةِ

حرفُ الجرِّ ﴿مِن﴾ في قولِه تعالى: ﴿مِن ذُرِّيَّتِي﴾ تُفيدُ التَّبعيضَ، كما في قولِه تعالى: ﴿أَنۡ أَفِيضُواْ عَلَيۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ﴾ [الأعراف: 50]، وذلك كَمَن يقول: قد أصَبْنا مِن بني فلان، وقَتَلْنا مِن بني فلان، وإن لم يَقُلْ: رجالًا؛ لأنَّ ﴿مِن﴾ تؤدِّي عن بعضِ القوم، فيكونُ المُرادُ: بعضَ ذرِّيَّتي[2]؛ إذ كان ابنُه الآخرُ وهو إسحاقُ يعيش في موطن غيرِ هذا الموطن، فإسماعيل الّذي أسكنَه في هذا الوادي هو بعضُ ذُرّيّته،

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 19/103.
(2) الفرّاء، معاني القرآن: 2/78.

لا كلُّ ذُرِّيَّتِه[1]. ويجوزُ أن يُقال: إنَّ ﴿مِن﴾ دخلتْ لتوكيدِ الكلام، والتَّقديرُ: (ربَّنا إنِّي أسكنْتُ ذُرِّيَّتي)[2]، وكون ﴿مِن﴾ للتَّبعيض أوْلى؛ لأنَّه إنَّما أسْكنَ إسماعيلَ، وهو بعضُ وَلَدِه[3].

إيثارُ لفْظِ الذّرِّيّة، وإضافتُه إلى المُتكلِّم:

كَثرةُ نَسْلِ إبراهيمَ عليه السلام ورغبتُه فيه

في لفظِ الذُّرِّيَّة إيحاءٌ إلى أنَّ نَسْلَ إبراهيمَ عليه السلام سيكثُرُ حتَّى يكونَ كالنُّجوم، وأكَّدَ ذلك بإضافته إلى ياء المتكلِّم؛ تنبيهًا على أنَّه لكونِه على وجهٍ لا يسمحُ به أحدٌ، لا يكادُ يُصدَّق، وللإعلام بأنَّه عليه السلام راغبٌ فيه[4].

سِرُّ إيثارِ الباءِ على (في): ﴿بِوَادٍ﴾:

ذُرِّيَّةُ إبراهيمَ عليه السلام مُنْتمون للوادي

الباءُ في قولِه تعالى: ﴿بِوَادٍ﴾ مَزيدةٌ للتَّأكيد؛ أيْ: أسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتي واديًا[5]، ويمكنُ أن تكونَ الباءُ بمعنَى (في)؛ أيْ: في وادٍ، لكنَّ السِّياق لم يأتِ بـ (في) مع أنَّها هي الَّتي تتبادرُ إلى الذِّهن، وأوردَ الباءَ الّتي تُفيد الإلصاق للدّلالةِ على استقرار ذُرِّيَّةِ إبراهيمَ عليه السلام في هذا الوادي المبارك وانتمائِهم إليه؛ لكونِه مأنوسًا خصيبًا بنفحاتِ اللّه، محفوفًا برحمته ورضوانِه، مُشَرّفًا بأن يكون وِعاءً حاملًا لبيت اللّه تعالى[6].

إيثارُ الوادي دونَ غيرِه منَ المرادفاتِ:

الوادي مَكَّةُ، وهي مُنخفضٌ بينَ الجبالِ

جاء لفظُ ﴿بِوَادٍ﴾ دونَ غيره؛ لأنَّ الواديَ هنا هو مَكَّةُ المُشرَّفةُ؛ لكونِها في فضاءٍ مُنخفضٍ بين جبالٍ تجري بِهِ السُّيولُ[7].

نُكْتَةُ وَصْفِ الوادي: ﴿غَيْرِ ذِى زَرْعٍ﴾:

نفيُ المُسَبَّبِ لانتفاءِ السَّببِ

وَصْفُ الوادي في قولِه تعالى بأنّه: ﴿غَيْرِ ذِى زَرْعٍ﴾ يعني أنَّه لا

(1) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 7/192.
(2) الواحديّ، التّفسير البسيط: 12/487، وابن الجوزيّ، زاد المسير: 4/366.
(3) الشّوكانيّ، فتح القدير: 3/154.
(4) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 10/426.
(5) الفرّاء، معاني القرآن: 2/223، والأخفش، معاني القرآن: 2/636.
(6) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 7/192.
(7) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة: 4/3865، والبقاعيّ، نظم الدُّرر: 10/426.

يكونُ فيه شيءٌ مِن زرعٍ قطّ، كقولِه: ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ﴾ [الزُّمر: 28]، بمعنى: لا يوجدُ فيه اعْوجاجٌ، ما فيه إلّا الاستقامةُ لا غير[1]. وهذه الصِّفة للوادي تدلُّ على أنَّه لا يصلُحُ للنَّبت؛ لأنَّه حِجارة، فإنَّ كلمة (ذو) تدلُّ على صاحبِ ما أُضيفت إليه، وتَمَكُّنِه منه، وإذا أُريد ضِدُّها قيل: غيرُ ذي كذا[2]. وانتفاءُ كونِه ذا زَرْعٍ مُستلزِمٌ لانْتفاءِ الماءِ الَّذي لا يمكنُ أن يوجدَ زرعٌ إلّا حيث وُجِدَ الماءُ، فنَفى ما يتسبَّبُ عنِ الماءِ وهو الزَّرعُ، لانْتفاءِ سببِه وهو الماءُ[3].

ويمكنُ أن يقتضيَ هذا الوصفُ: أنَّ إبراهيمَ عليه السلام كان قد عَلِمَ مِنَ اللهِ أنَّه لا يُضيِّعُ هاجرَ وابْنَها في ذلك الوادي، وأنَّه يَرزقُهما الماءَ، وإنَّما نظرَ النَّظَرَ البعيدَ فقال: ﴿غَيْرِ ذِى زَرْعٍ﴾، ولو لم يَعْلَم ذلكَ مِنَ اللهِ لقال: غيرَ ذي ماءٍ، على ما كانتْ عليه حالُ الوادي عند ذلك[4].

إنّ الله لا يُضيّع أولياءه

سِرُّ التَّقييدِ في: ﴿عِندَ بَيْتِكَ﴾:

جاءَ القيدُ بقولِه تعالى: ﴿عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ﴾ بعد قولِه: ﴿غَيْرِ ذِى زَرْعٍ﴾؛ لبيانِ أنَّ هذا البيتَ المُحرَّمَ كان قبلَ أن يَرفعَه إبراهيمُ عليه السلام مِنَ الأرضِ حتَّى رفعَه أيامَ الطّوفان؛ لأنَّ إسكانَ إبراهيمَ إسماعيلَ عليهما السلام مكَّةَ كان قبلَ بنائهما البيتَ، وقد كانت كذلك غيرَ ذاتِ زَرْعٍ[5].

البيتُ مُحرَّمٌ، وهو في وادٍ غيرِ ذي زرعٍ، مِن قَبْلِ بناءِ إبراهيمَ له

ويمكنُ أن يُرادَ أنَّ قولَه: ﴿عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ﴾؛ أيْ: الَّذي قد مضَى في سابقِ علمكَ أنَّه يحدُثُ في هذا الوادي على صفتِه الَّتي وردَ بها[6].

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/380.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/241.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/446.
(4) ابن عطيّة، المُحرّر الوجيز: 3/341.
(5) الواحديّ، التّفسير البسيط: 12/488.
(6) ابن جرير، جامع البيان: 13/233، وابن الجوزيّ، زاد المسير: 4/366.

فائِدةُ إضافةِ ﴿بَيۡتِكَ﴾ إلى الجليلِ:

عَظَمةُ البيتِ مِن عَظَمةِ اللهِ ﷻ

جاءتْ إضافةُ ﴿بَيۡتِكَ﴾ إلى ضميرِ المَدْعوِّ ﷻ، في قوله تعالى: ﴿عِندَ بَيۡتِكَ﴾، والتّعريفُ بالإضافة دونَ (ال)؛ لبيانِ أنَّ المقصودَ إظهارُ كونِ ذلك البيتِ والإسكانِ فيه مع فُقدانِ مباديه بالمرَّة، لِمحضِ التَّقرُّبِ إلى اللهِ تعالى، والالْتجاءِ إلى جوارِه الكريم، وإيذانًا بأنَّ عَظَمةَ هذا البيتِ مِن عَظَمةِ اللهِ ﷻ، الَّذي أمرَ إبراهيمَ وإسماعيلَ برفعِ قواعدِ البيتِ وبنائِه[1].

إيثارُ صيغةِ المفعولِ ﴿ٱلۡمُحَرَّمِ﴾:

البيتُ عتيقٌ في حُرمةِ التَّهاوُنِ به وإفْسادِه

جاءت صيغةُ المفعول ﴿ٱلۡمُحَرَّمِ﴾ في قوله تعالى: ﴿عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ﴾؛ لبيان أنَّه قد حُرِّم التَّعرُّضُ له والتَّهاونُ به، أو لم يزلْ مُعظَّمًا مُمَنَّعًا، يهابُه الجبابرةُ في كلِّ عصر، ولا تنالُه الأيدي بما يُفسِدُه أو يَضُرُّ أهلَه، أو مُنِعَ منه الطّوفانُ فلم يستولِ عليه، ولذلك سُمِّيَ عتيقًا، فعُنوانُ الحُرمةِ فيه قديمٌ، مع تَعدُّدِ بناءِ الكعبةِ المعظَّمة[2].

فإيثارُ صيغةِ اسم المفعول ﴿ٱلۡمُحَرَّمِ﴾ على الصِّفة المشَبَّهة (الحرام) مناسبٌ لإضافة البيت إلى ضمير المخاطب ﴿بَيۡتِكَ﴾؛ لأنّ المفعول مُشْعِرٌ بالفاعل؛ أي: الّذي حَرَّمْتَه، فكأنَّه استجداءُ عطاءٍ مِن خلال الدّعاء. وسُمّي بالبيت المُحَرَّم: لأنَّ اللهَ حرَّمه وعَظَّمه، وحَرَّم القتالَ والاصطيادَ عنده، ولا يختار أحدٌ مثلَ هذا المَوْضعِ إلّا للانقطاع للعبادة والتّبتُّلِ إلى اللهِ تعالى، والتَّبرُّكِ به[3].

سِرُّ توسُّطِ الدُّعاء بقوله: ﴿رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ﴾:

الاهتمامُ بمقدِّمةِ الدُّعاءِ، وتفريعُه لما بَعْدَه

توسَّطَ الدُّعاءُ بقولِه: ﴿رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ﴾ بينَ ما تَقدَّمه وبين ما أعْقبَه؛ للاهْتمامِ بمقدِّمةِ الدُّعاءِ بما فيه من زيادةِ الضَّراعة إلى

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/269.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/380، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/269.
(3) القُونويّ وابن التّمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 11/86.

اللّه، وتَهْيئةِ الدّعاءِ لهم بأن يجعلَ أفئدةً منَ النّاسِ تَهوي إليهم؛ لأنَّ هِمَّةَ الصّالحين وشُغلَهم في إقامةِ الدِّين[1].

دَلالةُ اللّامِ في: ﴿لِيُقِيمُواْ﴾:

عـلَّـةُ الإسـكـانِ إقـامـةُ الـصَّـلاةِ والعبادةِ

اللّامُ في قوله تعالى: ﴿لِيُقِيمُواْ﴾ للتَّعليل؛ أيْ: عِلَّةُ الإسكان بذلك الوادي عندَ ذلك البيت، أنْ لا يَشْغلَهم عن إقامةِ الصَّلاةِ في ذلك البيت شاغلٌ، فيكونَ البيتُ معمورًا بذِكرِ اللّه وعبادتِه أبدًا[2]. ففي قوله تعالى: ﴿لِيُقِيمُواْ﴾ إثباتٌ بأنّ الإقامة عنده عبادةٌ، وقد نفى كونَها للكسب؛ فجاء الحصرُ مع ما في ﴿رَّبَّنَآ﴾ منَ الإشارة إلى أنّ ذلك هو المقصودُ[3].

البلاغةُ في قولِه: ﴿لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾:

الـصّـلاةُ عـمـودُ الـدّيـن، وركـنُـه المتين

قولُه تعالى: ﴿لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ تخصيصٌ للصَّلاةِ مِن بين سائرِ شعائرِ الدِّين لفَضلها، ولإظْهارِ كمالِ العنايةِ بإقامةِ الصَّلاة، وأنَّها المقصدُ الأقْصى والمطلبُ الأسْنَى[4]، ولأنّها عمودُ الدّين.

دَلالةُ الفاءِ في: ﴿فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ﴾:

الـفـاءُ تـمـهـيـدٌ لإجابةِ الدُّعاءِ، بـجَـعْـلِ أفـئـدةِ نـاسٍ تَـهـوي إليهم

في قوله تعالى: ﴿فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ﴾ الفاءُ رابطةٌ لجواب الطَّلب، فهي لتمهيدِ مبادئ إجابةِ دعائِه عليه السلام، وإعطاءِ مسؤولِه الَّذي لا يتسنَّى ذلكَ المرامُ إلّا به[5].

سِرُّ تنكيرِ ﴿أَفۡـِٔدَةٗ﴾:

المقصودُ بعضُ الأفئدةِ

نُكِّرَتْ ﴿أَفۡـِٔدَةٗ﴾ لتتناولَ أفئدةَ ناسٍ غير معلومين، مِن مختلف الأصقاع والأعراق، بلحاظ البَعضيّة وليس الكلّيّة[6].

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/241.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/380، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/241.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/224.
(4) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/269.
(5) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/269.
(6) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/380.

سِرُّ استعمالِ ﴿أَفۡـِٔدَةٗ﴾:

القلوبُ المُشتاقةُ المُحِبَّةُ تُسرِعُ لأجلِهم

الأفئدةُ: جمع فؤاد، وهو القلبُ، أو وسطُ القلب، وإيثارُه على القُلوب؛ لكون مَقرِّ المحبّة وسطَها، وأيْضًا يُشْعِر ذلك بتمام المَودّة، وكمالِ المحبّة[1]، بما يحملُه لفظُ الفُؤاد مِن معنى التّفَؤُّد؛ أي: التّوقّد، يُقال: فأدتُ اللّحمَ؛ أيْ: شَويتُه، ولَحْمٌ فئيد؛ أيْ: مشوي[2]، ومنه معنى الاحتراق شوقًا. أو المرادُ به هنا النَّفسُ والعقلُ. وأورد لفظَ ﴿أَفۡـِٔدَةٗ﴾ في السِّياقِ لإرادةِ أن يكونَ مَسيرُ النّاسِ إليهم عن شوقٍ ومحبَّةٍ، حتَّى كأنَّ المُسرِعَ هو الفُؤادُ لا الجَسدُ[3]. وميلُ القلوب إلى المكان مع جفاف مائِه، وصعوبة أرضه، وارتفاعِ جباله الصّمّاء الّتي لا تُكسى بخُضرةٍ قط[4]، أمرٌ محطٌّ إعجازٍ، ومثارُ تأمُّلٍ لمَن يتدبّرُه.

فائِدةُ قيْدِ ﴿مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾:

إمّا أن تكونَ من بيانيَّةً، وإمّا أن تكونَ تبعيضيَّةً

جاءَ قولُه تعالى: ﴿مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ لبيانِ أنَّ تلكَ الأفئدةَ منَ النّاس، فتكونُ ﴿مِّنَ﴾ بيانيَّةً؛ أيْ: فاجعلْ أُناسًا يَقْصِدونَهم بحبّاتِ قلوبِهم[5]. ويمكنُ أن تكونَ ﴿مِّنَ﴾ للتَّبعيض؛ أيْ: أفئدةً مِن أفئدةِ النّاس، فلو قال: أفئدةَ النّاسِ لازْدحمتْ عليهم فارسُ والرّوم[6]؛ إذِ الجمعُ المُضافُ إلى المُحلَّى باللّام يُفيد الاسْتغْراق[7].

بَلاغة الاستعارةِ التّصريحيّةِ ﴿تَهۡوِيٓ﴾:

الأفئدةُ تُسرعُ في القصْدِ إليهم

هَوَى يَهْوي هويًّا: إذا سقطَ مِن عُلْوٍ إلى سُفْل[8]، وأُطلِق هنا على الإسراعِ في المشيِ اسْتعارةً تصريحيَّةً[9]؛ إذ شُبّه الإسراعُ بالهويّ،

(1) القُونويّ وابن التّمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 11/86.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرّاغب، المُفردات: (فأد)، والآلوسيّ، روح المعاني: 7/225.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/241.
(4) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 8/4039.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/241.
(6) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/380، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/269.
(7) القُونويّ وابن التّمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 11/86.
(8) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة: 4/3813، والجوهريّ، الصّحاح: (هوى).
(9) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/242.

بجامع الاندفاع بقوَّة في كلٍّ، فالأفئدةُ تُسرعُ إليهم كأنَّها تسقطُ سقوطًا بانْحدارٍ ونزولٍ؛ لشدَّةِ إسراعِها[1]، ويرسّخ ذلك معنَى اللّفظِ المُستَنبَط مِن "هوتِ النّاقةُ: إذا أسرعتْ في سيرها إسراعًا شديدًا، كأنّها تُسابِق الرّيحَ"[2].

سِرُّ تعْدِيةِ ﴿تَهْوِىٓ﴾ بـ (إلى):

أفئدةُ المؤمنين تَهوي شوقًا إلى البيتِ العتيقِ

عُدِّيَ الفعلُ ﴿تَهْوِىٓ﴾ بـ (إلى)، وأصلُ تعديتِه باللّام؛ لِتضمُّنِه معنَى الشَّوقِ والنُّزوعِ والميلِ، فكأنَّ الأفئدةَ تطيرُ نحوَهم شوقًا ونِزاعًا[3]؛ فإنَّ الشَّيءَ كلَّما بَعُدَ مَدى مَرْماه اشْتدَّ وَقْعُه، وهَفَتِ القلوبُ إليه مُسرعةً[4].

دَلالةُ عطْفِ جملةِ: ﴿وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾:

الدُّعاءُ بالدُّنيا بعد الدُّعاءِ بالدِّين

لَمّا دعا لهم إبراهيمُ عليه السلام بالدِّين؛ بإقامةِ الصَّلاةِ وحجِّ البيت، دعا لهم بالرِّزق المُتضمِّنِ للدُّعاءِ لجيرانِهم، فقال: ﴿وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ على يدِ مَنْ يهوي إليهم، منَ الثَّمراتِ الَّتي أنبتَها اللّهُ في بلادهم.

معنَى حرفِ الجرِّ في: ﴿مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾:

القصدُ إيصالُ بعضِ الثّمراتِ

﴿مِّنَ﴾ في قولِه تعالى: ﴿مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ بيانيَّةٌ، ويمكنُ أن تكونَ تبعيضيَّةً، وذلك يَدلُّ على أنَّ المطلوبَ بالدُّعاءِ إيصالُ بعضِ الثَّمراتِ إليهم[5].

دَلالةُ (ال) في ﴿ٱلثَّمَرَٰتِ﴾:

جبايةُ جميعِ الثَّمراتِ مِن جميعِ الأقطارِ

صُدِّرتِ ﴿ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ بـ (ال) الَّتي تُفيدُ جِنْسَ الثَّمراتِ كُلِّها بأنواعِها المختلفة، بأن يُجعلَ بقربِ منه قُرًى يحصُلُ فيها ذلك، أو يُجْبَى إليه منَ الأقطار الشّاسعةِ بالتِّجاراتِ وغيرِها، وقد حصلَ كلاهما، حتَّى إنَّه تجتمع فيه الفواكهُ الرَّبيعيَّةُ والصّيفيَّةُ في يومٍ واحدٍ[6].

---

(1) ابن الجوزيّ، زاد المسير: 4/368، والخازن، لباب التّأويل: 3/83.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 8/4039.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/380، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/270.
(4) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 10/427 - 428.
(5) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 19/105.
(6) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/380، والفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 19/105.

نُكتةُ عدمِ شرطِ الرّزقِ بالإيمانِ:

في قوله تعالى: ﴿وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ إنّما لم يَخصّ إبراهيمُ عليه السلام المؤمنينَ بالدّعاء، كما خصَّهم في قوله: ﴿وَٱرۡزُقۡ أَهۡلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنۡ ءَامَنَ مِنۡهُم بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ﴾ [البقرة: 126]؛ اكتفاءً بذِكْر إقامةِ الصّلاة[1].

أكتُفِيَ بإقامةِ الصّلاةِ عن ذِكْرِ المؤمنين

دَلالةُ (لعلَّ) في: ﴿لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ﴾:

في قولِه تعالى: ﴿لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ﴾؛ أيْ: ليكونَ حالُهم حالَ مَن يُرجَى شُكرُهم، لِما يَرَوْنَ من نِعَمِكَ الخارقةِ للعوائدِ، في ذلك الموضعِ البعيدِ عنِ الفضلِ لولا عنايتُكَ، فيشكرونَكَ ربَّنا بالفعلِ لا بمُجرَّدِ القولِ.

رجاءُ شُكْرِهم بتوحيدِ اللهِ واستمرارِهم عليه

وَجْهُ التّعبيرِ بالشُّكرِ في: ﴿شَكَرۡتُمۡ﴾:

الشُّكْرُ: امتلاءُ النّفس بالإحساس بالنّعمة، واندفاعُها إلى الطّاعة والخضوعِ، والقيامُ بحَقّ المُنعِم، ومقابلةُ الفضلِ والنّعمةِ بالإحسان في الطّاعة والواجباتِ، وقد قال تعالى في ذلك: ﴿لَئِن شَكَرۡتُمۡ لَأَزِيدَنَّكُمۡۖ﴾ [إبراهيم: 7]، فالشُّكرُ يكون على النّعمةِ، وبالمثابرة على الطّاعة والعبادةِ[2]. وعليه يكونُ الشُّكرُ: تعظيمَ المُنعِم بصرف نِعمتِه إلى ما يُرضيه[3].

الشُّكْرُ مقابلةُ النِّعمةِ بالإحسان، وتعظيمُ المُنعِم بصَرفِ نِعْمَتِه إلى ما يُرضيه

سِرُّ التّعبيرِ بالمضارعِ ﴿يَشۡكُرُونَ﴾:

أفادت صيغةُ المضارع ﴿يَشۡكُرُونَ﴾ أنَّهم يشتغلون بعبادتِك، مُداومين عليها مُستمرِّينَ في شكرِهم لكَ؛ لإغنائكَ لهم وإحسانِكَ إليهم، وديمومةِ نِعَمكَ عليهم في دينهم ودنياهم، وللإيماء إلى جدارة الشّكر بالتّجديد. وفيه تذكيرٌ لقريشٍ بهذه النِّعم عليهم ببركةِ أبيهمُ الأعظم إبراهيمَ عليه السلام، الّذي نهى عن عبادةِ الأوثان، وحقيقةُ الشُّكرِ قائمةٌ على التَّوحيدِ الخالصِ للهِ وحدَه لا شريكَ له[4].

بالشُّكر تدومُ النِّعَمُ، ويُستَدامُ الكَرَمُ

---

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/226.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 1/56.
(3) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 6/148.
(4) الواحديّ، التّفسير البسيط: 12/490، والبقاعيّ، نظم الدُّرر: 10/428.

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الذُّرّيّةُ، والأهلُ، والأولادُ:

الذُّرّيّةُ والولدُ يَشتركان في النَّجْلِ والنَّسْلِ، والأهلُ أعمُّ منهما

ذُرِّيَّةُ الرَّجُلِ: ولَدُه ونَسْلُه، والجمعُ: الذَّراري والذُّرِّيّات. والأهلُ يكون مِن جهةِ النَّسب والاخْتصاص، فمِن جهةِ النَّسبِ قولُك: أهلُ الرَّجلِ لقرابتِه الأدْنَيْن، ومن جهةِ الاخْتصاصِ قولُك: أهلُ البَصْرةِ وأهلُ العلم[1]. فالأهلُ أوسعُ دَلالةً منَ الذُّرِّيَّة، فأهلُ الرَّجل: مَن يَجْمَعُه وإيّاهم مَسْكنٌ واحد، ثمَّ سُمِّي به مَنْ يَجْمَعُه وإيّاهم نَسَبٌ أو دِينٌ أو صَنعةٌ أو نحوُ ذلك. ويُطلَقُ (الأهلُ) كذلك على زوجةِ الرَّجلِ خاصَّة؛ لأنَّها المرادُ في عُرفِ اللِّسان[2]. والأولادُ: جمعُ وَلَد، والوَلَدُ: دليلُ النَّجْلِ والنَّسْل، ثمَّ يُقاسُ عليه غيرُه، مِن ذلكَ (الوَلَد)، وهو للواحدِ والجميع، ويُقالُ للواحدِ: وُلْدٌ أيضًا، والوَليدةُ: الأُنْثى، والجمعُ: وَلائد، وتولَّدَ الشَّيْءُ عنِ الشَّيْءِ: حصلَ عنه[3]. واختِيرَ لفظُ الذّرّيّة في الآية؛ لأنّ مقصودَ النّبيّ ابراهيمَ عليه السلام: ولدُه، ونسلُه.

الوادي والأرضُ:

الوادي جُزءٌ منَ الأرضِ بين جَبَلَيْن

الوادي: الموضعُ الَّذي يسيلُ فيه الماءُ، والمَفْرَج بينَ الجبالِ والتِّلالِ والآكام، وجمعُه: أوْدية. والأرضُ: الجِرْمُ المُقابلُ للسَّماء، وجمعُه: أرَضون، ولم تجئ مجموعةً في القرآن، ويُعبَّرُ بها عن أسفلِ الشَّيء، كما يعبَّرُ بالسَّماءِ عن أعلاه[4]. ويُقالُ: أرضٌ أريضةٌ؛ أيْ: حَسَنةُ النَّباتِ[5]. ولأنّ مكّة كانت في أرضٍ منخفضةٍ واقعةً بينَ الجبال؛ اختِيرَ ما يناسبُها، مِن لفظٍ دالٍّ على الخصوص، وهو الوادي، دونَ اللّفظ الدّالِّ على العموم، وهو لفظُ (الأرض).

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرّاغب، المُفردات: (ذرّ).
(2) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 84، والكفويّ، الكلِّيّات، ص: 210.
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، وابن منظور، اللِّسان: (ولد).
(4) الرّاغب، المُفردات، والرّازيّ، مختار الصِّحاح: (أرض).
(5) الخليل، العين: 7/55، وابن فارس، المجمل: 2/92.

الحَرامُ والمُحَرَّم:

الحرامُ: المَنعُ والتَّشديدُ، وهو ضِدُّ الحلال، قال تعالى: ﴿وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ﴾ [الأعراف: 157]، وهو صفةٌ مُشَبَّهةٌ تدلُّ على الثُّبوتِ والدَّوام. والمُحَرَّمُ: اسمُ مفعولٍ يدلُّ على مجرَّدِ الحدوث لِما هو مُحَرَّمٌ، مِن اسْتحلالِ حُرُماتِ اللّهِ والاسْتهانةِ بها، كما قال تعالى: ﴿عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ﴾، فيَدُلُّ على أنَّ الحُرمةَ مُتَجدِّدَةٌ فيه بتَجَدُّدِ الفعل، وصيغتُه تُفيدُ الصَّيرورةَ؛ أي: اللّهُ تعالى صيَّرَه حرامًا[1]. ومِن هنا فهي أنسبُ لسياقِ الآيةِ بما تحملُه مِن دلالة دوامِ الحُرْمةِ.

الحَرامُ صفةٌ مُشَبَّهةٌ تُفيدُ الثُّبوتَ، والمُحَرَّمُ اسمُ مفعولٍ يدلُّ على التَّجدُّدِ

الأفئدةُ والقلوبُ:

لم يُفَرِّقْ بعضُ أهلِ اللُّغةِ بينَهما؛ بل عرَّفوا كُلًّا منهما بالآخر، إذ قالوا: إنَّ الفؤادَ كالقلب، لكنَّ بعضَهم أضافَ فقال: يُقال للقلبِ فؤادٌ إذا اعْتُبِرَ فيه معنَى التَّفؤُّدِ؛ أي: التَّوقُّدِ، كما في قوله تعالى: ﴿فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ﴾؛ أيْ: قلوبًا متوقِّدةً بالشَّوق، ذلك أنَّ الفؤادَ منَ الفعلِ (فَأَدَ)، وهو يدلُّ على حُمَّى وشِدَّةِ حرارةٍ[2]، فالأفئدةُ توصَفُ بالرِّقَّة، والقلوبُ باللِّين؛ لأنَّ الفؤادَ غِشاءُ القلب، إذا رَقَّ نفَذَ القولُ فيه وخلُصَ إلى ما وراءَه وعلِقَ به، وإذا غَلُظَ تعذَّر وصولُه إلى داخلِه، كما قال تعالى عنِ الكافرين: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ [الأعراف: 179][3]. ولمّا كان الشّوقُ إلى بيت اللّه الحرام مُتّقِدًا في نفوس المسلمين في كلّ حين، ويتحرّقون شوقًا لها، ناسب اصطفاءُ لفظِ ﴿أَفْـِٔدَةً﴾.

الأفئدةُ هي القلوبُ المُتَّقِدَةُ بالحُبِّ والشَّوقِ

الهوِيّ، والميلُ، والإسْراعُ:

الهوِيُّ: السُّقوط، يُقالُ: هَوَى الشَّيْءُ يَهْوِي هوِيًّا: إذا سقطَ

الهوِيُّ سقوطٌ مع الإسراعِ الشَّديدِ

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرّاغب، المُفردات: (حرم).
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرّاغب، المُفردات: (فأد).
(3) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 433، والجُرجانيّ، التّعريفات، ص: 189، ولامنس، الفرائد، ص: 263.

مِن عُلْوٍ إلى سُفْل، كما قالَ تعالى: ﴿أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾﴾ [الحجّ: 31]. وفي (الهويِّ) معنَى الانْحدارِ والنُّزولِ مع الإسراعِ الشَّديدِ[1].

والمَيْلُ: مصدرٌ مِن: مالَ يَميلُ مَيْلًا، ويُستعمَلُ فيما يُرى وفيما لا يُرى، مثل أن يُقالُ: مالَ فلانٌ، ومالَ الحائطُ مَيْلًا، والمَيْلُ يكونُ في جانبٍ واحد، يُقال: مالَ عنِ الحقِّ، ومالَ عليه في الظُّلم[2].

والسُّرعةُ: ضِدُّ البُطء، ويُستعمَلُ في الأجسامِ والأفعال، يُقالُ: سَرُعَ، فهو سريعٌ، وأسْرعَ فهو مُسْرِعٌ، وأسْرَعوا: صارتْ إبلُهُمْ سِراعًا، قالَ تعالى: ﴿۞وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [آل عمران: 133]، وقالَ ﷻ: ﴿يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا﴾ [المعارج: 43][3].

ولمّا كان لفظُ (الهوِيّ) إسراعًا بجامع الاندفاع بقوَّة، فالأفئدةُ تُسرعُ إليهم كأنَّها تسقطُ سقوطًا بانْحدارٍ ونزولٍ لشِدَّةِ إسراعِها، وهذا المعنى يناسبُ دلالةَ لفظِ (الهوِيّ).

الشُّكرُ والحَمْدُ:

مآلُ الشُّكرِ الزِّيادةُ، وهو تعظيمُ المُنعِمِ بِتَحرّي مواضعِ الرِّضا المصروفةِ عن نِعمِه

بين الشُّكرِ والحمدِ اختلافٌ وتلاقٍ في معنى الإحساس بالنِّعمة والقيامِ بحقِّها، وما يجب بالنِّسبة للمُنعِم، ولكنّهما يختلفان في القيام بحَقّ المُنعِم، فالقيامُ بحَقّ المُنعِم في الشّكر بالطّاعة والعملِ، وجعلِ الجوارحِ كلِّها في طاعة الله تعالى، والخضوعِ المُطلق لله تعالى في كلّ شأن مِن شؤونه، وحالٍ مِن أحواله.

والقيامُ بحقّ المُنعِم في الحَمْد بالثّناء على الله تعالى ثناءً مطلقًا كاملًا، مع تَذَكّر نَعمائِه، وتَذَكّرِ ما يحيطه منَ الوجود كلِّه. والحمدُ ذاتُه عبادةٌ.

(1) الفرّاء، معاني القرآن: 2/78، والأزهريّ، تهذيب اللُّغة: 4/3813.
(2) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 269، 526.
(3) الرّاغب، المُفردات، وابن منظور، لسان العرب: (سرع).

فالشّكرُ يكون على النّعمةِ وبالمُثابرة على الطّاعة والعبادةِ[1]، فهو تعظيمُ المُنعِم بصرف نعمتِه إلى ما يرضيه[2]، ولمّا كان مآلُ الشُّكر الزّيادةَ، وتعظيمَ المُنعِم بتحرّي مواضع الرّضا المصروفة عن نِعمه، كان حَرِيًّا بأفعال الأنبياء وذراريهم تمثّلُه قولًا وفعلا، والدّوامُ عليه.

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 1/56.

(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 6/148.

﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعۡلَمُ مَا نُخۡفِي وَمَا نُعۡلِنُۗ وَمَا يَخۡفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ٣٨﴾ [إبراهيم: 38]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

اللهُ الَّذي تفضَّلَ على عبادِه بنعَمِ الدِّين والدُّنيا، أحاطَ بكلِّ شيءٍ قُدرةً وعلمًا

لَمّا فرغَ سياقُ الآيةِ السّابقةِ منَ الدُّعاءِ بالأهمِّ، منَ الإبقاءِ على الفطرةِ الأولى المُشوِّقةِ للعزائمِ إلى العكوفِ في دارةِ الأُنْس، ومِنَ الكفايةِ لهمُ في المعاش، المُنْتِجِ للشُّكرِ بإنْفاقِ الفَضْل، وتبيَّنَ مِن ذلك أنَّهم خالَفوا أعْظمَ آبائهم في جميعِ ما قصدَه لهم منَ المصالح، أتْبعَه في هذه الآيةِ الكريمةِ ما يحثُّ على الإخلاصِ في ذلك وغيرِه، له ولغيره؛ ليكونَ أنْجحَ للمُرادِ بضمانِ الإسْعاد، ولا سيَّما مع تكريرِ النِّداءِ الدّالِّ على مزيدِ التَّضرُّع، فقال: ربَّنا أيُّها المُحْسِنُ إلينا إنَّكَ تعلمُ جميعَ ما نُخفي وما نُعلن، فأنتَ الَّذي أحطْتَ بكلِّ شيءٍ قُدرةً وعِلمًا وحِكْمةً[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿نُخۡفِي﴾: خَفِيَ الشَّيءُ خُفْيةً: اسْتَتَرَ، قالَ تعالى: ﴿ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةً﴾ [الأعراف: 55]. والخَفاءُ: ما يُستَرُ به كالغطاء، وخَفَيْتَه: إذا أزلتَ خفاه، وذلك إذا أظْهَرْتَه، وأخْفيتَه: أوليتَه خفاءً، وذلك إذا سَتَرْتَه[2]. وقولُه تعالى: ﴿تَعۡلَمُ مَا نُخۡفِي﴾ أي: ما نَسْتُرُ ونكتُمُ مِن جميعِ أمورِنا[3].

2) ﴿نُعۡلِنُۗ﴾: (علن): العَيْنُ واللّامُ والنّونُ أصلٌ صحيحٌ يدلُّ على إظْهارِ الشَّيءِ والإشارةِ إليه وظُهورِه، يُقالُ: عَلَن الأمرُ يَعْلُنُ،

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 10/428 - 429.
(2) ابن فارس، المُجمل: 2/297، والرّاغب، المُفردات: (خفى).
(3) البغويّ، معالم التّنزيل: 4/357، والشّوكانيّ، فتح القدير: 3/154.

وأعْلَنْتُه أنا. والعلانيةُ: ضدُّ السِّرِّ، وأكْثرُ ما يُقالُ ذلكَ في المعاني دونَ الأعيان، قال تعالى: ﴿أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ۝٩﴾ [نوح: ٩][1]. وقولُه تعالى: ﴿وَمَا نُعْلِنُ﴾؛ أيْ: ما نُظهرُه[2].

المَعْنى الإجْماليُّ:

قد أحاطَ اللهُ بكلِّ شيءٍ علْمًا

يقولُ تعالى مُخبرًا عن إبراهيمَ خليلِه عليه السلام، أنَّه قال: ربَّنا إنَّك تعلمُ الأشياءَ كلَّها، ظاهرَها وباطنَها، لا يَخفى عليكَ منها شيءٌ في الأرض ولا في السَّماء، فأنتَ قَصْدي في دعائي، وما أرَدْتُ بدعائي لأهلِ هذا البلدِ، إنَّما هو القَصْدُ إلى رضاكَ والإخلاصُ لك[3].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بُلاغةُ الفَذْلَكَةِ في ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ﴾:

التّعبيرُ خلاصةُ ما قد ذُكِرَ بالتّفصيلِ

في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ﴾ الآية، فَذْلَكةٌ للجُمَل الماضية، بذِكْر مُجملِ ما فُصّل وخُلاصتِه؛ لِما اشتملت عليه مِن ذِكْر ضلال كثيرٍ منَ النّاس، وذِكْر مَنِ اتّبع دعوته ومَن عصاه، وذِكْر أنّه أراد من إسكان أبنائِه بمَكّة رجاءَ أن يكونوا حُرّاسَ بيتِ اللّه، وأن يُقيموا الصّلاة، وأن يشكروا النّعَم المَسؤولةَ لهم. وفيه: تعليمٌ لأهله وأتباعه بعموم عِلْم اللّه تعالى، حتّى يُراقبوه في جميع الأحوال، ويُخلِصوا النّيّةَ إليه[4].

فائِدةُ حَذْفِ حرْفِ النّداءِ: ﴿رَبَّنَآ﴾:

زيادةُ التّقرُّبِ إلى الله، والأملُ في إجابةِ الدُّعاء

جاءَ النَّداءُ في قولِه تعالى: ﴿رَبَّنَآ﴾ محذوفَ الأداةِ (يا)؛ زيادةً في تقرّب إبراهيمَ عليه السلام، فهو مِن أهلِ القُرْبِ والانْقطاعِ إلى خالقِه

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرّاغب، المُفردات: (علن).
(2) الشّوكانيّ، فتح القدير: 3/154.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 17/27، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 2/495.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/242.

ومولاه، وأمَلًا في اسْتجابةِ دعائه[1]. وفيه: أنَّ مقصِدَ إبراهيمَ عليه السلام التَّنبيهُ على اخْتصارِه في الدُّعاء، والتفويضُ إلى ما عَلِمَ اللّهُ مِن رغائبِه، وحرصُه على هدايةِ بنيه والرِّفقِ بهم[2].

بَلاغةُ تَكرارِ النّداءِ ﴿رَبَّنَآ﴾:

إبداءُ الضّراعةِ واللّجوءُ إلى الله تعالى، وإظهارُ جليلِ علمِه

تكرُّرُ النِّداءِ بـ﴿رَبَّنَآ﴾ دليلُ التَّذرُّعِ واللَّجأِ إلى اللّهِ تعالى، وإظهارِ جليلِ علمِ اللّهِ بكلِّ شيءٍ[3]، والمبالغةِ في إبْداء الضّراعةِ والابتهالِ[4].

سِرّ الإضافةِ إلى ضمير التّعظيمِ (نا):

عِلْمُ الله تعالى مُطْلَقٌ لا يتفاوَت فيه معلومٌ دونَ معلومٍ

عُبّر بضمير الجماعة (نا) في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَآ﴾؛ لأنّ المُراد ليس مُجرّدَ علمِه تعالى بما يَخْفَى وما يُعْلَن، بل بجميع خفايا المُلك والملكوت، وقد حَقّقه عليه السلام بقوله على وجه الاعتراض: ﴿وَمَا يَخۡفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ لِما أنّ علمَه تعالى ذاتيٌّ، فلا يتفاوتُ بالنّسبة إليه معلومٌ دونَ معلومٍ[5].

عِلّةُ تصْديرِ ﴿إِنَّكَ تَعۡلَمُ﴾ بالتَّوكيدِ:

تأكيدُ إحاطةِ عِلْمِ اللهِ بكلِّ شيءٍ

صُدِّرَ قولُه تعالى: ﴿إِنَّكَ تَعۡلَمُ﴾ بحرف (إنَّ)؛ لتأكيدِ أنَّ عِلْمَ اللّهِ عامٌّ فيما يُخفونَهُ وما يُعلِنونَه، عِلْمٌ لا تفاوتَ فيه ما بينَ السِّرِّ والعَلَن[6].

إيثارُ صيغةِ المضارع: ﴿تَعۡلَمُ﴾:

اسْتمرارُ علْمِ اللهِ بكلِّ شيء

جاءت صيغةُ المضارع ﴿تَعۡلَمُ﴾ للدّلالةِ على اسْتمرارِ عِلْمِ اللّهِ بكلِّ شيء، وديمومةِ هذا العِلْم دونَما انقطاعٍ، ما امتدَّ الزّمنُ وتقلّبتِ الأحوالُ، كما قال تعالى: ﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمًاۚ﴾ [الأعراف: 89].

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 10/425.
(2) ابن عطيّة، المُحرّر الوجيز: 3/342.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/381.
(4) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/227.
(5) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/227.
(6) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/381، وأبو حيّان، البحر المحيط: 6/449.

نُكْتَةُ التَّعبيرِ بـ ﴿مَا﴾:

المُبالغةُ في سَعَةِ علمِ الله

﴿مَا﴾ في قولِه تعالى: ﴿تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ﴾، اسمٌ موصولٌ بمعنَى (الَّذي)، يُشير إلى الإبهام؛ أيْ: جميعُ ما نُخْفي وما نُعْلِن[1]؛ فتعلمُ الَّذي نُخفيه، دِقّه وجِلّه، فكيف بما نُعْلِنُه؛ وفي ذلك مبالغةٌ في بيانِ عِلْمِ اللّهِ بكلِّ شيء.

دَلالةُ الطِّباقِ ﴿مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ﴾:

تأكيدُ شُمولِ عِلْمِ اللهِ لكلِّ شيء

دَلَّ الطِّباقُ في قولِه تعالى: ﴿مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ﴾ على تأكيدِ شُمولِ عِلْمِه تعالى وكمالِه، وقد أضْفَى هذا المُحَسِّنُ البَديعيُّ على التَّعبيرِ جمالًا ورَوعةً؛ لعدمِ تكلُّفه، ولاسْتدعاءِ المعنَى له بأسلوبٍ سَهْلٍ واضح، وفي هذه المقابلة؛ أيْ: بما نُخْفي ما يُقابلُ ما نُعلنُ، سواءٌ تعلَّقَ به الإخفاءُ أوْ لا؛ أيْ: تعلمُ ما نُظهرُه وما لا نُظْهرُه، فإنَّ عِلْمَه تعالى مُتعلِّقٌ بما لا يَخطُرُ بالبالِ، ممّا فيه منَ الأحوالِ الخَفيَّةِ، فضلًا عن إخفائِه[2].

نُكْتَةُ تقديمِ ﴿مَا نُخْفِي﴾ على ﴿وَمَا نُعْلِنُ﴾:

تحقيقُ المُساواةِ في عِلْمِ اللهِ بينَ السِّرِّ والعَلَن

جاء تقديمُ ﴿مَا نُخْفِي﴾ على ﴿وَمَا نُعْلِنُ﴾؛ لتحقيقِ المُساواةِ بينَهما في تعلُّقِ العِلْمِ بهما على أبْلغِ وجه، فكأنَّ تعلُّقَه بما يَخْفَى أقْدمُ منه بما يُعْلَن، أو لأنَّ مرتبةَ السِّرِّ والخَفاءِ مُتقدِّمةٌ على مرتبةِ العَلَن؛ إذْ ما من شيءٍ يُعلَنُ إلّا وهو قبلَ ذلكَ خَفيٌّ، فَتَعلُّقُ عِلْمِه سبحانَه بحالتِه الأولى أقدمُ مِن تعلُّقِه بحالتِه الثّانية[3].

فائِدةُ ذِكْرِ قولِه: ﴿وَمَا نُعْلِنُ﴾:

تأكيدُ علمِه تعالى بما خَفِيَ قبلَ ظُهورِه

في قولِه تعالى: ﴿وَمَا نُعْلِنُ﴾، تأكيدُ علمِه تعالى بما خَفِيَ، فإنَّ العَلَنَ ما ظَهرَ إلّا بعد أن كانَ مَخْفيًّا، وفي ذلك مبالغةٌ في بيانِ جليلِ علْمِه وسَعَتِه[4].

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 4/192.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/271.
(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/271.
(4) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/271.

دَلالةُ الواوِ في: ﴿وَمَا يَخۡفَىٰ﴾:

تأكيدُ أنَّ عِلْمَ اللهِ ليس فيه أيُّ خفاءٍ

جاءَ العطفُ في قولِه تعالى: ﴿وَمَا يَخۡفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ﴾؛ تأكيدًا وتحقيقًا لما عَناهُ تعالى بقولِه: ﴿تَعۡلَمُ مَا نُخۡفِي﴾ مِن أنَّ عِلْمَه ﷻ بذلك ليس على وجهٍ يكونُ فيه شائبةُ خفاءٍ بالنِّسبةِ إلى علْمِه تعالى، كما يكونُ ذلكَ بالنِّسبةِ إلى علوم المخلوقاتِ[1].

فائِدةُ التَّذييلِ في الآية:

اللهُ تعالى علّامُ الغيوبِ لا يَعزُبُ عنه شَيءٌ

ذُيِّلَتِ الآيةُ الكريمةُ بقولِه تعالى: ﴿وَمَا يَخۡفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ﴾؛ للدّلالةِ على أنَّ اللّه يعلمُ أحوالَنا ويعلمُ كلَّ شيءٍ، وفيه كذلك تصديقٌ لإبراهيمَ عليه السلام، كقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَفۡعَلُونَ ٣٤﴾ [النّمل: 34]، أو هو مِن كلامِ إبراهيم، يعني: وما يَخفَى على اللّهِ - الَّذي هو عالمُ الغيبِ - من شيءٍ في كلِّ مكان[2].

إيثارُ النَّفيِ بـ ﴿وَمَا﴾ دون (لا):

كمالُ عِلْمِ اللهِ بكلِّ شيءٍ وفي جميعِ الأحوالِ

آثَرَ سياقُ الآيةِ النَّفيَ بـ ﴿وَمَا﴾ دون (لا) في قولِه تعالى: ﴿وَمَا يَخۡفَىٰ﴾؛ لأنَّ (ما) تنفي الفعلَ المضارعَ في الحال، وهي نفيٌ لقولِه: هو يفعلُ، إذا كان في حالِ الفعل، فتقولُ: ما يفعلُ، فهي تخلِّصُ المضارعَ للحال. و(لا) تنفي المضارعَ في الاسْتقبال، فتكونُ نفيًا لقوله: يفعلُ، ولم يقعِ الفعل، فتقولُ: لا يفعلُ، فهي تخلِّصُ المضارعَ للاسْتقبال[3].

وتطبيقُ هذا هنا في سياقِ الآيةِ لبيان أنَّ ما مِن أمرٍ يدخُلُ تحتَ الوجودِ كائنًا ما كانَ، في زمانٍ من الأزمانِ، إلّا ووجودُه في ذاتِه عِلْمٌ بالنِّسبةِ إليه ﷻ، وفي هذا المعنَى الدَّقيقِ تحقيقٌ لكمالِ عِلْمِه تعالى في كلِّ شيءٍ، في جميعِ الأحوال، دون أنْ تكتنفَه شائبةُ خفاءٍ[4].

---

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/271.

(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/381، والفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 19/105.

(3) سيبويه، الكتاب: 4/221 - 222.

(4) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/271.

نُكْتَةُ الالْتفاتِ منَ الخطابِ إلى الغَيْبةِ مع ذكرِ لفْظِ الجلالةِ ﴿ٱللَّهِ﴾:

الإيذانُ بعمومِ علْمِ اللهِ، صاحبِ الجلالِ والكمالِ

الالْتفاتُ منَ الخطابِ في قولِه تعالى: ﴿إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ﴾، إلى الغَيْبةِ في قولِه تعالى: ﴿وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾ مع ذِكْرِ لفظِ الجلالةِ ﴿ٱللَّهِ﴾؛ لاسْتحضارِ عَظَمةِ الذّاتِ الإلهيَّة في جليلِ علمِ اللّهِ وسَعتِه لِما خَفِيَ وما ظهَرَ، ولِما كان في الأرض وفي السَّماء، وفي ذلك أيضًا تربيةُ المهابةِ في القلوب، والإشْعارُ بعِلَّةِ الحُكم، على نَهْجِ قولِه تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾ [الملك: 14]، والإيذانُ بعمومِه؛ لأنَّه ليس بشأنٍ يختصُّ به أو بمَن يُعلَّقُ به؛ بل هو شاملٌ لجميعِ الأشياء[1]، فالمناسبُ ذِكْره تعالى بعنوان مُصَحّحٍ لمَبدئيّة الكلِّ[2].

سِرُّ دخولِ حرفِ الجرِّ على النَّكرةِ:

عِلْمُ الله تعالى ذاتيٌّ، وهو سبحانَه يعلمُ جميعَ ما في العالَمِ

جاءت ﴿مِن﴾ في قولِه تعالى: ﴿مِن شَيْءٍ﴾ للاسْتغراقِ، والمبالغةِ في النَّفي، كأنَّه قيل: وما يَخْفَى عليه شيءٌ ما[3]، فـ"الاستغراق؛ أيْ: بعلم مقتضى ذاتِه العلي، وكلُّ ما هذا شأنُه فلا يَخْتَصُّ بمعلوم ما، بل نسبتُه إلى كلّ شيء مِن شأنه أن يُعْلَم على الاستواء، وأمّا عِلْمُ المَلَكِ والبشَرِ؛ فَعِلْمُهما ليس مِن ذاتهما، بل مِن غيرهما، فيَعْلَمُ شَيْئًا دون شيء، فيفيدُ أنّه تعالى يعلمُ جميعَ ما في العالَم كليًّا كان أو جُزئيًّا، موجودًا أو معدومًا، فيعلمُ السِّرَّ والإعلان"[4].

إيثار لفظ ﴿شَيْءٍ﴾:

أفادت (شيء) ما يَصِحُّ أن يُعْلَمَ ويُخْبرَ عنه، لا بمعنى الموجودِ فقط

المُرادُ بالمعلوم عامٌّ بالموجود والمعدوم، وبالمُمكن والمُمتنع، ولذا اخْتيرَ في النّظم الجليل لفظُ ﴿شَيْءٍ﴾ النّكِرة؛ الّذي يدلُّ على

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/271.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/228.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/381، والبقاعيّ، نظم الدُّرر: 10/429.
(4) القُونويّ وابن التّمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 11/89.

الإحاطة والشُّمولِ والعموم، بوصْفِها أعمَّ كلمةٍ؛ بمعنى: ما يَصِحّ أن يُعْلَم ويُخْبَرَ عنه، لا بمعنى الموجودِ فقط[1].

فائِدةُ قولِه: ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾:

إحاطةُ علمِ اللهِ بما في أكبرِ المخلوقاتِ

لَمّا كانَ عِلْمُه تعالى شاملًا لكلِّ شيء، ذكرَ مِن هذه الأشياءِ المُتعارَفِ عليها - الَّتي تدلُّ على السَّعة والعِظَمِ - الأرضَ والسَّماءَ، فَعِلْمُ اللهِ قد أحاطَ بما فيهما، لا يَخفى عليه شيءٌ[2].

نُكتةُ تقديمِ الأرضِ على السّماءِ:

في التّقديمِ مُراعاةُ القُربِ، والتّرقّي

تقديمُ الأرض على السّماء في قولِه تعالى: ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾، مع توسيط (لا) بينهما، باعتبار القُرب والبُعد، فهي أقربُ إلينا، أو لرعاية الفواصل، أو للتّرقّي منَ الأدنى إلى الأعلى. والمُرادُ منَ السَّماءِ ما يشملُ السّمواتِ كلّها. ويجوزُ إرادةُ جهةِ السُّفْلِ منَ الأَرْضِ، وجِهَةِ العُلوّ منَ السّماء[3].

سِرُّ توسيطِ ﴿وَلَا﴾ بيْن ﴿ٱلۡأَرۡضِ﴾، و﴿ٱلسَّمَآءِ﴾:

القَصْدُ استقلالُ كلٍّ منهما في النّفْيِ

توسيطُ ﴿وَلَا﴾ بينَ ﴿ٱلۡأَرۡضِ﴾ و﴿ٱلسَّمَآءِ﴾ في قولِه تعالى: ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾؛ للتّنبيه على استقلال كلٍّ منهما في النّفي، ولو لم يوَسّطْ بَيْنَهُما لأوهم أنّ النّفيَ مُتَوجّهٌ إلى المجموع مِن حيثُ المجموعُ، وفيه محذورٌ لا يخفى، ثمّ المُرادُ بهما العالمُ كلُّه[4].

دَلالةُ الطِّباقِ: ﴿ٱلۡأَرۡضِ﴾ و﴿ٱلسَّمَآءِ﴾:

إحاطةُ عِلْمِ اللهِ بما في المُتقابِلَيْن، إحاطةٌ بما في سِواهُما

دلَّ الطِّباقُ بينَ ﴿ٱلۡأَرۡضِ﴾ و﴿ٱلسَّمَآءِ﴾ في قولِه تعالى: ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ على تحقُّقِ المبالغة، وذلك أنَّه لَمّا ذكرَ الأرضَ ذكرَ ما يقابلُها وهي السَّماء، ولَمّا كانَ السِّياقُ سياقَ دُعاءٍ

(1) القُونويّ وابن التّمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 11/89.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 10/429.
(3) القُونويّ وابن التّمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 11/89، والآلوسيّ، روح المعاني: 7/228.
(4) القُونويّ وابن التّمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 11/89.

واعْترافٍ بسَعةِ عِلْمِ اللهِ ﷻ لكلِّ شيء، جاءَ التَّعبيرُ بطَرَفَي الجُملةِ معَ الإفرادِ في كلَيْهما؛ للدّلالةِ على أنَّ مَنْ كان مُحيطًا بكلِّ ما في المُتقابِلَيْن مِن غيرِ أن يَحْجُبَه أحدُهما عنِ الآخر، كان محيطًا بغيرِهما كذلكَ مِن غيرِ فَرْقٍ[1].

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الإخْفاءُ والسَّتْرُ:

الإخفاءُ: الاسْتتارُ، وهو السُّكوتُ عنِ المعنَى وعن غيرِه، تقولُ: أخْفَيتُ الدِّرهمَ في الثَّوب، وأخْفيتُ الدُّعاءَ في قلبي، قالَ تعالى: ﴿ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ [الأعراف: 55][2]، فهو عامٌّ في المعاني والأعيان.

الإخفاءُ عامٌّ في المعاني والأعيانِ، والسَّتْرُ التَّغطيةُ بما هو ملاصقٌ وغيرُه

والسَّتْرُ: مِن سَترَ الشَّيءَ: غطّاه، والسِّترُ: ما يَسْتُرُكَ عن غيرِك، وإن لم يكن مُلاصِقًا، تقولُ: تستَّرتُ بالحيطان، وتقولُ: تستَّرتُ بالغطاء، وهو ملاصقٌ لك، والسُّترَةُ: هو ما يُستَرُ به كائنًا ما كان[3].

واختِيرَ لفظُ (الإخْفاءِ) بوصف ﴿مَا نُخْفِي﴾ سُكوتًا عن مكنون الصّدور وما يدور في العقول، لا تغطيتَه.

الإعلانُ والإظهارُ:

الإعلانُ: خِلافُ الكِتمان، ويدُلُّ على إظهارِ الشَّيءِ والإشارةِ إليه وظُهورِه، وأكثرُ ما يُقالُ في المعاني دونَ الأعيان، كما في قولِه تعالى: ﴿إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ﴾، وهو إظهارُ المعنَى في النَّفسِ، ولا يَقْتضي رفعَ الصَّوتِ به[4].

الإعلانُ إظهارُ الشَّيء، وأكثرُ ما يكونُ في المعاني، والإظهارُ يكونُ في المعاني وغيرِها

والإظهارُ: الكَشْفُ، تقولُ: كشفتُ الأمرَ للرَّجُلِ إذا أظْهرتَه له،

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 10/429.
(2) ابن فارس، المُجمل: 2/297، والعسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 447 - 448.
(3) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 176، وابن منظور، لسان العرب: (ستر).
(4) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 60، والرّاغب، المُفردات: (علن).

وإذا أُخرِجَ الشَّيءُ مِن وعاءٍ أو بَيْتٍ كان إظْهارًا، ويكونُ الإظهارُ للمعاني والأعيان[1]. وعِلْمُ اللّه تعالى مُتَضَمِّنٌ لِما يُعْلَن قولًا، وما يُظْهَرُ مِن معنًى في النّفس، مِن دون رَفْع الصّوت، لا المكشوفِ الظّاهر البادي للعَيان فحَسْبُ؛ لذا يُناسبُه لفظُ (الإعلان).

(1) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 169، وابن منظور، لسان العرب: (ظهر).

﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى ٱلۡكِبَرِ إِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَۚ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ٣٩﴾ [إبراهيم: 39]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

لمّا دعا إبراهيمُ ربَّه بقوله: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعۡلَمُ مَا نُخۡفِي وَمَا نُعۡلِنُۗ﴾؛ أيْ: إنَّكَ تَعْلَمُ ما في قُلوبِنا وَضَمائِرِنا، أعطاهُ اللّهُ ما رجاهُ من الولد إسماعيلَ وإسحاقَ، فأثنى على اللّه بقوله: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى ٱلۡكِبَرِ إِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَۚ﴾.

مَنْ شكرَ اللهَ بِصِدْقٍ أجابَ اللهُ دعاءَه، ولو كان في العُرفِ مُستحيلًا

ولمّا تمَّ ما دعا به إبراهيمُ عليه السلام منَ النَّزاهةِ عن رجاسَةِ الشِّرك، وتبيَّنَ بتقديمِه أنَّ أهمَّ المُهمّات البراءةُ منه، أتْبعَهُ الحمدَ على ما رَزقَ من النِّعم، وما تَبِعَ ذلك منَ الإشارةِ إلى وجوبِ الشُّكر، فقال: الحمدُ للّهِ الَّذي وَهبَ لي حالَ كِبَرِ سِنِّي إسماعيلَ وإسحاق، فهو تعالى الَّذي سمعَ نِدائِي واسْتجابَ دُعائي[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَهَبَ﴾: (الواوُ والهاءُ والباءُ): كلماتٌ لا ينقاسُ بعضُها على بعض، تقولُ: وهَبْتُ الشَّيءَ أهَبُهُ هِبةً ومَوْهِبًا، واتَّهبْتُ الهِبةَ: قَبِلْتُها. والهِبةُ: أن تجعلَ مُلكَكَ لغيرِك بغير عِوَض، قالَ تعالى: ﴿وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ﴾ [الأنعام: 84]، وقالَ تعالى: ﴿وَهَبَ لِي عَلَى ٱلۡكِبَرِ﴾[2].

2) ﴿ٱلۡكِبَرِ﴾: (الكافُ والباءُ والرّاءُ) أصلٌ صحيحٌ يدُلُّ على خِلافِ الصِّغَر، يُقالُ: هو كبيرٌ، وكُبارٌ، وكُبّارٌ، قال تعالى: ﴿وَمَكَرُواْ مَكۡرٗا كُبَّارٗا ٢٢﴾ [نوح: 22]. والكِبَرُ: الهَرَمُ، قال تعالى: ﴿وَأَصَابَهُ ٱلۡكِبَرُ﴾ [البقرة: 266]، والأصلُ أن يُستعمَلَ في الأعْيان، ثمَّ اسْتُعيرَ للمعاني كقولِه تعالى: ﴿لَا

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 10/429.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرّاغب، المُفردات: (وهب).

يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحۡصَىٰهَاۚ﴾ [الكهف: 49][1]، وقوله تعالى: ﴿وَهَبَ لِي عَلَى ٱلۡكِبَرِ﴾؛ أيْ: الهَرَمِ وكِبَرِ سِنِّي، ويَأْسي عنِ الوَلَد[2].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

حَمِدَ إبراهيمُ عليه السلام ربَّه ﷻ على ما رَزقَه من الوَلدِ بعد كِبَرِ سِنِّه، ويَأْسِه عنِ الوَلد، وقد سَمِعَ اللّهُ دُعاءَه واسْتجابَ له فيما سألَه من الوَلد[3].

حَمِدَ إبراهيمُ عليه السلام ربَّه لِما وَهبَه منَ الولدِ بعدَ اليَأس منَ الإنجابِ

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دَلالةُ فصلِ ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾ عمّا قبلَها:

صُدِّرتِ الآيةُ الكريمةُ بقولِه تعالى: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾ مفصولةً عمّا قبلَها؛ لأنَّ استهلالَ الجملةِ بالحمدِ والثّناء على اللّه الوهّابِ، بعدَ ما دعا إبراهيمُ ربَّه مُثنيًا عليه، بأنّه سبحانَه يعلم ما نُخفيه وما نُعلنُه، في هذا الاستهلال بيانٌ لبعض حال إبراهيمَ عليه السلام، مِن شوقه إلى الولد في إبّانِ الكِبَرِ وحين اليَأسِ منَ الولادة، فَحَرِيٌّ بهذا المَقام أن يُصدَّرَ بالثَّناءِ على اللّهِ وإكرامِه لنبيِّه إبراهيمَ عليه السلام بأنَّه سميعُ الدُّعاء؛ أيْ: مجيبٌ، تمهيدًا لإجابةِ دعوتِه كما أجابَ دعوتَه سَلَفًا[4].

تصديرُ مقامِ المُناجاةِ بالحمد مِن جليلِ الأدبِ معَ الله

ويمكنُ أن يدلَّ ذلك ظاهرًا على أنَّ وَلَدَيْه إسماعيلَ وإسحاقَ يبقيانِ بعدَ موتِه، وأنَّه مشغولُ القلبِ بسببِهما، فكان هذا دعاءً لهما بالخيرِ والمعونةِ بعد موته على سبيلِ الرَّمز والتَّعريض، وذلك يدُلُّ على أنَّ الاشْتغالَ بالثَّناءِ عندَ الحاجةِ إلى الدُّعاءِ أفضلُ منَ الدُّعاء[5].

نوعُ (ال) في ﴿ٱلۡحَمۡدُ﴾، وإيثارُ الجملةِ الاسْميَّةِ:

(ال) في ﴿ٱلۡحَمۡدُ﴾ للاسْتغراق؛ أيْ: اسْتغراقِ المَحامدِ كلِّها للّه،

(ال) للاسْتغراق، والحمدُ للهِ ثابتٌ مُستمرٌّ لا ينقطعُ

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرّاغب، المُفردات: (كبر).
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/272، والشّوكانيّ، فتح القدير: 3/155.
(3) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 2/495.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/243.
(5) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 19/106.

وإيثارُ اسْتعمالِ الجملةِ الاسْميَّةِ في قوله تعالى: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾ لإفادتِها الثُّبوتَ والدَّيمومةَ في أنَّ الحمدَ قائمٌ ثابتٌ للّه، لا ينفكُّ ولا يتخلَّف.

بَلاغةُ القصرِ في ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾:

في قوله تعالى: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾ معنى القصْرِ؛ أيْ: إنّ الحمد للّه ﷻ وحدَه، فهو مانِحُ النِّعمِ ومُجْريها وحدَه، وهو الّذي وَهَبَه في هذا الكِبَر العِتيِّ[1].

لا يُحْمَدُ على النِّعمَ سِواه ﷻ

سِرُّ النَّعتِ بالاسْمِ الموصولِ ﴿ٱلَّذِي﴾:

جاءَ اسمُ الموصولِ ﴿ٱلَّذِي﴾ في قولِه تعالى: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي وَهَبَ لِي﴾ صفةً للفظِ الجلالةِ ﴿لِلَّهِ﴾؛ إيماءً إلى وجْهِ بناءِ الحمد[2]، ومبالغةً في إسنادِ صفةِ الحمدِ للّهِ وَحْدَه، فهو ﷻ، لا أحدَ سواه، مَنْ يَسْتَحِقُّ الحمدَ على وجهِ الحقيقةِ والإطلاق.

الإيماءُ إلى وَجْهِ بناءِ الحمدِ، والمبالغةُ في إسنادِ الصِّفةِ للموصوفِ دون سواه

إيثارُ اسْتعمالِ لفظِ ﴿وَهَبَ﴾ دونَ غيرِه:

آثَرَ السِّياقُ القرآنيُّ اسْتعمالَ لفظِ ﴿وَهَبَ﴾ دونَ غيرِه منَ المُرادفات؛ لأنَّ الهبةَ تمليكٌ مِن غيرِ عَقْد، مَنًّا منَ اللّهِ ﷻ على خليلِه ومُصطفاه إبراهيمَ عليه السلام بولَدَيْه إسماعيلَ وإسحاقَ، وقد بلغَ من الكِبَر عِتيًّا، ويئِسَ عنِ الولد[3].

الهِبةُ تمليكٌ منَ اللهِ تعالى لخليلِه على سبيلِ المَنِّ

سِرُّ العُدولِ عن (وهَبَني) إلى ﴿وَهَبَ لِي﴾:

عَدَلَ سياقُ الآيةِ عنِ الفعلِ (وهَبَني) إلى الفعلِ المُتعدِّي باللّام ﴿وَهَبَ لِي﴾؛ لأنَّ نعمةَ الهبةِ فائضةٌ عليه، خاصَّةٌ به، مملوكةٌ له منَ اللّهِ تعالى لا مِن غيرِه، وهذا التَّقييدُ للهبةِ اسْتعظامٌ للنِّعمةِ وإظهارٌ لشُكرِها، لِمَن يستحِقُّها على وجهِ التَّعيين[4].

نعمةُ الهِبةِ خاصَّةٌ منَ اللهِ تعالى لخليلِه، تَقْتضي الاسْتعظامَ والشُّكرَ

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 19/106.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/243.
(3) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 10/429.
(4) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/272.

بَلاغةُ حرفِ الاستعلاءِ ﴿عَلَى﴾:

هبةُ الولدِ مع الكِبَرِ الَّذي لا يُرجَى معه الولادةُ

حرفُ ﴿عَلَى﴾ في قولِه تعالى: ﴿عَلَى ٱلۡكِبَرِ﴾ للاسْتعلاءِ المجازيّ بمعنَى (مع)؛ أيْ: وهبَ ذلك تَعَلِّيًا على الحالةِ الَّتي شأنُها أن لا تسمحَ بذلك؛ أيْ: وهبَ لي معَ الكِبَرِ الَّذي لا تحصُلُ معه الولادةُ[1]. ومعنى استعلائه على الكِبَر - أيضًا - أنّه وصل غايتَه، فكأنّه تجاوزه وعلا ظهره، كما يُقال: على رأس السّنة، وفيه منَ المبالغة ما لا يَخفى[2]. والجارُّ والمجرور في موضع الحال، وحالُ الاستعلاءِ هذه تقتضي التَّمكُّنَ؛ أيْ: حالَ كوني مُستعليًا على الكِبَر، ومُتمكِّنًا منه على يَأْسٍ منَ الولد[3]، والتّقييدُ بذلك استعظامًا للنّعمة، وإظهارَ الشُّكر لها[4]. فقوله: ﴿عَلَى ٱلۡكِبَرِ﴾ يدلُّ على جلال الشُّعور بالنّعمة، وكونِه إكرامًا منَ اللّه تعالى بخَرْق الأسباب[5].

وإنّ شُكْرَ النّعمة بذِكْر إسماعيلَ وإسحاقَ فيه معنًى جليلٌ؛ لأنّهما وَلَدا أبي الأنبياءِ الّذين جاؤوا بعد إبراهيمَ ﷺ، فكأنّ النّبوّة انحصرت في ذريّته ﷺ، كما يبدو مِن قَصَص القرآن الكريم الصّادقِ في ذاته[6].

نُكْتَةُ الجمْعِ بيْن ﴿إِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَۚ﴾:

تَطييبُ قلْبِ إبراهيمَ وزوجَيْه

جمعَ السِّياقُ في الدُّعاءِ بينَ ﴿إِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَۚ﴾ عليهما السلام؛ للدّلالةِ على أنَّ هذَيْن الوَلَدَيْنِ الكريمَيْنِ قد وُلِدا له عليه السلام في حالِ كِبَرِ إبراهيمَ عليه السلام؛ تطييبًا لقلبِ زوجِه هاجر أمِّ إسماعيل، وقلبِ زوجِه سارة أمِّ إسْحاق، وتَطْييبًا لقلبِ إبراهيمَ عليه السلام[7].

---

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/381.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/228.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/449، والبقاعيّ، نظم الدُّرر: 10/429.
(4) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/228.
(5) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 8/4042.
(6) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 8/4042.
(7) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 10/429 - 430.

علَّةُ فصلِ ﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾:

تعليلُ ما وقعَ مِن هِبَةِ اللهِ تعالى لإبراهيمَ عليه السلام

جملةُ: ﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ تعليلٌ لجملةِ ﴿وَهَبَ لِي﴾؛ أيْ: وهَبَ ذلكَ؛ لأنَّه سميعُ الدُّعاء، والسَّميعُ مُستعمَلٌ في إجابةِ المطلوب، كنايةً عنِ الإجابةِ والتَّقبُّل[1]. وكذلكَ فإنَّ في هذا السِّياق تعريضًا بالأنْداد، وإشارةً إلى ما تضمَّنه تأسُّفُه على العُقم[2].

تَوجيهُ حشْدِ المُؤكِّدات في جملة الفاصلةِ:

تأكيدُ وقوعِ جميعِ ما دعا به إبراهيمُ عليه السلام منَ الخوارقِ

لمّا كان إتيانُ الولدِ في سِنٍّ لا يولَدُ فيه لمثْلِه، وجميعُ ما دعا به منَ الخوارق، فوجودُه لا يَكادُ يُصدَّقُ، أشارَ إلى ذلكَ بتأكيدِ الجملةِ بحرفِ التَّوكيد ﴿إِنَّ﴾[3]، وبالجملة الاسميّةِ، وباللّام؛ فقال تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ وفيه ما يَدُلّ على أنّ ذلك كان بدعاءٍ منَ الخليل، واستجابةٍ منَ اللّه تعالى، وفيه أيضًا شعورٌ بالشّكر الجزيلِ لربّه؛ لأنّه الّذي ربّاه وكوّنه وقام على شؤونه واستجاب دعاءَه[4].

نُكْتَةُ ذِكْرِ حالِ الكِبَرِ:

المِنَّةُ بهِبةِ اللهِ للوَلَدِ حالَ الكِبَرِ أعظمُ وَقْعًا وأنفعُ أثَرًا

ذَكَر بيانُ اللّهِ تعالى حالَ الكِبَرِ في قولِه تعالى: ﴿وَهَبَ لِي عَلَى ٱلْكِبَرِ﴾؛ لأنَّ المِنَّةَ بهبةِ اللّهِ فيها أعْظمُ مِن حيثُ إنَّها حالُ وقوعِ اليأسِ منَ الولادة. والظَّفَرُ بالحاجةِ على عَقِبِ اليأسِ مِن أجَلِّ النِّعَمِ وأحْلاها في نَفْسِ الظّافر، ولأنَّ الولادةَ في تلك السِّنِّ كانتْ آيةً لإبراهيمَ عليه السلام[5].

إيثارُ الرُّبوبيَّةِ والإضافةُ في ﴿رَبِّي﴾:

الرَّبُّ هو الخالقُ والمُربِّي والمُحْسِنُ جلّ جلاله

آثَرَ السِّياقُ ذِكْرَ الرُّبوبيَّةِ بقولِه: ﴿رَبِّي﴾؛ لأنَّ مِن معاني الرُّبوبيَّة أنَّ اللّهَ هو الخالقُ والمُربِّي، فاللّهُ تعالى هو الَّذي يخلُق الولدَ، وهو

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/449، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/244.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 10/430.
(3) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 10/430.
(4) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 8/4042.
(5) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/381.

الَّذي يُربِّيهِ برعايتِه وحِفْظِه ولُطفِه به، وإضافةُ ﴿رَبِّي﴾ إلى ياءِ المتكلِّم؛ للدّلالةِ على الاعترافِ الكاملِ بأنَّ ربّي هو المحسنُ إليَّ بخَلْقِ الولدِ وهِبَتِه لي، وتربيتِه ورعايتِه[1].

دَلالةُ اللّامِ، وصيغةُ (فعيل) ﴿لَسَمِيعُ﴾:

تأكيدُ السَّماعِ بإجابةِ الدُّعاءِ ومضاعفةِ النِّعمةِ

اللّامُ في قولِه تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ للتَّأكيد، وصيغةُ (سميع) مِن أبنيةِ المبالغةِ، العاملةِ عملَ الفِعل إذا أُضيفَ إلى مفعولِه أو فاعلِه، بإسنادِ السَّماع إلى دعاءِ اللّهِ تعالى مجازًا، وهو مع كونِه مِن تتمَّةِ الحمدِ والشُّكرِ، إذْ هو وصفٌ له تعالى بأنَّ ذلكَ الجميلَ سُنَّتُه المستمرَّةُ، وفيه تعليلٌ على طريقةِ التَّذييلِ للهبةِ المذكورة، وفيه إيذانٌ بتضاعُفِ النِّعمةِ فيها؛ إذ وقعتْ بعد الدُّعاءِ بقولِه: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ١٠٠﴾ [الصّافّات: 100]، فاقْترنَتِ الهبةُ بقَبولِ الدَّعوةِ وإجابتِها بقولِه: ﴿لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾[2].

بَلاغةُ المجازِ في: ﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ﴾:

الإجابةُ مِن لوازمِ سماعِ الدّعاءِ

﴿لَسَمِيعُ﴾ في جملة الفاصلة: ﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ مجازٌ مُستعملٌ لمعنى: (مجيب)، إطلاقًا للفْظ المَلْزوم وإرادةً للازمِه العاديّ؛ فإنّ الإجابة مِن لوازم سماع الدّعاء غالبًا، ولو لزومًا عاديًّا[3].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الهِبَة والرِّزقُ:

الهِبةُ: أنْ تجعلَ مُلكَكَ لغيرِكَ بغيرِ عِوَض، يُقالُ: وهَبْتُه هِبَةً ومَوْهِبةً ومَوْهِبًا، قال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ﴾ [الأنعام: 84]، وقال تعالى: ﴿فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا﴾ [الشُّعراء: 21][4].

الهِبَةُ تمليكُ ما تَملِكه لغيرِك بدون عِوَض، والرِّزقُ العطاءُ الجاري، وملكُ المنفعةِ

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 10/430.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/272.
(3) القُونويّ وابن التّمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 11/90.
(4) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرّاغب، المُفردات: (وهب).

والرِّزقُ: اسْمٌ لما يَمْلِكُ صاحبُه الانْتفاعَ به، فلا يجوزُ منازعتُه فيه لكونِه حلالًا، والرِّزقُ هو العطاءُ الجاري في الحُكمِ على الإدْرار، ولهذا يُقال: أرزاقُ الجُنْد؛ لأنَّها تجري على إدْرار، قال تعالى: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ وَمَا تُوعَدُونَ ٢٢﴾ [الذّاريات: 22]، وقال تعالى: ﴿وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ٣﴾ [البقرة: 3][1]. وعطايا اللّه لنَبيّه ﷺ لم تكن قرينةَ العِوض؛ فكَرَمُ اللّه لا يَسَعُه حَدّ، ولا يُشرطُ فيه عِوضٌ، أو مقايضةٌ؛ فناسب اصطفاءُ لفظِ ﴿وَهَبَ﴾.

الكِبَرُ والشَّيخوخَةُ:

الكِبَرُ في السِّنِّ وفي الأَعْيانِ والمعاني، والشَّيخوخةُ الكِبَرُ في السِّنِّ والعلمِ

كَبِرَ؛ أيْ: أسَنَّ، ولذلكَ يُقالُ للإنسانِ إذا طالتْ مُدَّةُ وجودِه: إنَّه كبير؛ أيْ: كبيرُ السِّنّ، طويلُ مُدَّة البقاءِ[2]. ويُستعملُ لفظُ كبيرٍ في الكمِّيَّةِ المتَّصلةِ كالأجسام، وفي الكميَّةِ المُنفصلةِ كالعدد، والأصلُ أن يُستعمَلَ في الأعيان، ثمَّ اسْتُعيرَ للمعاني، كقولِه تعالى: ﴿لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحۡصَىٰهَاۚ﴾ [الكهف: 49][3].

والشَّيخُ: هو مَن طَعَنَ في السِّنّ، وقد يُعبَّرُ به عمَّن يكثُرُ علمُه، لَمّا كانَ من شأنِ الشَّيخِ أن تكثُرَ تجاربُه ومعارفُه، ويُقالُ: شيخٌ بيِّنُ الشَّيخوخةِ، قال اللّهُ تعالى: ﴿وَهَٰذَا بَعۡلِي شَيۡخًاۖ﴾ [هود: 72]، وقال تعالى: ﴿وَأَبُونَا شَيۡخٞ كَبِيرٞ ٢٣﴾ [القَصص: 23][4]. وناسب ذِكرُ لفظِ الكِبَرِ الدّالِّ على طول مُدّةِ البقاء مع موقف الهباتِ والعطايا والنّعمِ الإلهيّةِ، لا اللّفظِ الدّالِّ على الطّعن في السّنّ، والهَرم.

(1) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 254، والرّاغب، المُفردات: (رزق).
(2) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 477، والجرجانيّ، التّعريفات، ص: 193.
(3) الرّاغب، المُفردات، والرّازيّ، مختار الصّحاح: (كبر).
(4) الرّاغب، المُفردات، والرّازيّ، مختار الصّحاح: (شيخ).

﴿رَبِّ ٱجۡعَلۡنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِيۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلۡ دُعَآءِ ٤٠﴾

[إبراهيم: 40]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

بعدَ تمامِ الحمدِ على النِّعمةِ، يكونُ الدُّعاءُ بالتَّقرُّبِ إلى اللهِ بطاعتِه أرْجَى في القَبولِ

لَمّا تمَّ الحمدُ على النِّعمة بعد الدُّعاءِ بالتَّخلّي مِن منافي السَّعادة، وختَمه بالحمدِ على إجابةِ الدُّعاء، انْتهزَ الفُرصةَ في إتباعِه الدُّعاءَ بالتَّحلّي بحِلْيةِ العبادة الَّتي أخبرَ أنَّها قَصْدُه، بإسكانِه مِن ذرِّيَّتِه ثمَّ إقامتِها، إشارةً إلى صعوبتِها على النَّفْسِ إلّا بمعونةِ اللّه، فقالَ: ربِّ الخالقَ لي، المالكَ لأمري، اجْعلْني ومن ذرِّيَّتي مُقيمي الصَّلاة، وتقبَّلْ دعائيَ كلَّه بذلكَ وغيرِه[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مُقِيمَ﴾: (قوم): القافُ والواوُ والميمُ أصلانِ صحيحان، يدُلُّ أحدُهما على جماعةِ ناس، وهمُ القوم. والآخر على انتصابٍ أو عزم - وهو الَّذي يَعْنينا - فقولُهم: قامَ يقومُ قيامًا فهو قائم، والقَوْمةُ المرَّةُ الواحدة، إذا انْتصبَ، قالَ تعالى: ﴿يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [المائدة: 55]؛ أيْ: يُديمونَ فِعلَها ويُحافظونَ عليها[2]، وهو معنَى قولِه تعالى: ﴿مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ﴾[3].

2) ﴿وَتَقَبَّلۡ﴾: (قبل): القافُ والباءُ واللّامُ أصلٌ واحدٌ صحيحٌ، تدُلُّ كَلِمُهُ كلُّها على مواجهةِ الشَّيءِ للشَّيء، ومنه قبِلتُ الشَّيء قَبولًا. والتَّقبُّلُ: قَبولُ الشَّيءِ على وجهٍ يقتضي ثوابًا، كالهديَّةِ ونحوِها، قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنۡهُمۡ أَحۡسَنَ مَا عَمِلُواْ﴾ [الأحقاف: 16][4]. وقولُه تعالى: ﴿وَتَقَبَّلۡ دُعَآءِ﴾ أي: اجْعله مقبولًا عندَك مُستجابًا[5].

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 10/431 - 432.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرّاغب، المُفردات: (قوم).
(3) الشّوكانيّ، فتح القدير: 3/155.
(4) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرّاغب، المُفردات: (قبل).
(5) الشّوكانيّ، فتح القدير: 3/155.

المَعْنى الإجْماليُّ:

يدعو إبراهيمُ عليه السلام ربَّه أن يجعلَه مُحافظًا على الصَّلاة، مُقيمًا لحدودِها، وأن يجعلَ ذُرِّيَّتَه كذلك مُقيمينَ لها، وأن يستجيبَ دعاءَه فيما سألَه فيه كلّه[1].

الدُّعاءُ بالمُحافظةِ على الصَّلاةِ وإجابةِ الدُّعاءِ

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

الإيجازُ بحذْفِ حرفِ النِّداءِ:

حُذِفَ حرفُ النِّداء (يا) في قولِه تعالى: ﴿رَبِّ﴾ زيادةً في التَّقرُّبِ إلى اللّهِ تعالى، وأملًا في إجابةِ دعائه، والاخْتصارُ في الدُّعاء يقينًا منه عليه السلام بأنَّ اللّهَ تعالى عليمٌ برغائبِه وحِرْصِه على هدايةِ ذُرِّيّته، إلى ما يحبُّه اللّهُ ويرضاه، ويُقرِّبهم إليه عز وجل[2].

زيادةُ التَّقرُّبِ إلى اللهِ، واليقينُ بأنَّ اللهَ عليمٌ بحاجاتِه

إيثارُ الإفرادِ في إضافةِ ﴿رَبِّ﴾ إلى ياءِ المُتكلِّمِ:

جاءَ توحيدِ ضميرِ المُتكلِّم في قولِه: ﴿رَبِّ﴾ مع شمولِ دعوتِه لذُرِّيَّته في قولِه: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِيۚ﴾؛ للإشعارِ بأنَّه المُقتدَى في ذلك، وذُرِّيَّتُه أتباعٌ له، وإنْ ذَكَرَهم بطريقِ الاسْتطراد[3].

إبراهيمُ عليه السلام قُدوةٌ في طاعتِه لربِّه

سرُّ اسْتعمالِ فعلِ الطَّلب ﴿ٱجۡعَلۡنِي﴾:

الفعلُ ﴿ٱجۡعَلۡنِي﴾ مُستعمَلٌ في التَّكوين؛ أي: اجْعلْني في المستقبلِ مُقيمَ الصَّلاة[4]، واجعلْ صِبْغتي صِبغةَ مَنْ يَصْدُقُ عليهم أنَّهم يقيمونَ الصَّلاةَ حقَّ إقامتِها.

الجَعْلُ مُستعمَلٌ في التَّكوينِ

نُكْتَةُ التَّعبيرِ بـ ﴿مُقِيمَ﴾ دونَ الفعلِ:

في قوله تعالى: ﴿رَبِّ ٱجۡعَلۡنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ عبَّر بالاسم ﴿مُقِيمَ﴾، ولم يُعبّر بالفعل (أُقيمُ)؛ لأنَّ النَّعتَ ألْزمُ وأكثرُ منَ الفعل،

المبالغةُ في تحقيقِ صِفةِ الإقامةِ على وجهِها الكاملِ

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 2/495.
(2) ابن عطيّة، المُحرّر الوجيز: 3/342، والبقاعيّ، نظم الدُّرر: 10/425.
(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/272.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/244.

كأنَّه قال: ربِّ اجْعلْني مِن عادتي إقامةَ الصَّلاةِ، ولو قالَ: اجْعَلْني أُقيمُ الصَّلاةَ، لم يكن فيه مِنَ المبالغةِ ما في المُقيم[1].

فائِدةُ التَّعبيرِ بحرفِ الجرِّ ﴿وَمِن﴾:

بعضُ ذُرِّيَّةِ إبراهيمَ مُقيمو الصَّلاة دونَ بعضٍ

التَّعبيرُ بحرفِ الجرِّ ﴿وَمِن﴾ في قولِه تعالى: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِيۚ﴾؛ للدّلالةِ على أنَّ المرادَ بعضُ ذُرِّيَّته؛ لأنَّه عَلِمَ بإعلامِ اللهِ أنَّه يكونُ في ذُرِّيَّتِه كُفّارٌ، فقالَ أدَبًا: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِيۚ﴾، وذلك قولُه تعالى: ﴿لَا يَنَالُ عَهۡدِي ٱلظَّٰلِمِينَ ١٢٤﴾ [البقرة: 124]، وكما في قولِه تعالى: ﴿رَبَّنَا وَٱجۡعَلۡنَا مُسۡلِمَيۡنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةٗ مُّسۡلِمَةٗ لَّكَ﴾ [البقرة: 128][2]. ويجوزُ أن تكونَ ﴿وَمِن﴾ ابْتدائيَّةً؛ لأنَّ إبراهيمَ عليه السلام لا يسألُ اللهَ إلّا أكملَ ما يُحبُّهُ لنفسِه وذُرِّيَّتِه[3].

سِرُّ العُدولِ عنِ المُفردِ في: ﴿رَبَّنَا﴾:

مُراعاةُ التّابِعِينَ له مِن ذُرِّيَّته

جاءَ قولُه تعالى: ﴿رَبَّنَا وَتَقَبَّلۡ﴾ بالجمعِ في ﴿رَبَّنَا﴾ دونَ الإفراد، بالنَّظَرِ إلى مَنْ تَبعَهُ مِن ذُرِّيَّته؛ لأنَّ ما بعدَه كلامٌ آخر؛ أيْ: ربِّ وربَّ مَنْ وفَّقْتَهُ بتربيتِكَ وإحسانِك، لإقامةِ الصَّلاةِ مِنْ ذُرِّيَّتي[4].

دَلالةُ الواوِ في: ﴿رَبَّنَا وَتَقَبَّلۡ﴾:

الدّعاءُ إبقاءٌ للأملِ في النّفسِ بالإصرارِ على الرّجاءِ

الواوُ في قولِه تعالى: ﴿رَبَّنَا وَتَقَبَّلۡ﴾ عاطفةٌ؛ أيْ: ربِّ وربَّ ذُرِّيَّتي اجْعَلْني واجعلْ بعضَ ذُرِّيَّتي مُقيمي الصَّلاةِ، ثابتينَ عليها، وتقبَّلْ دعائي هذا[5]. ودخولُ الواو على الفعل ﴿وَتَقَبَّلۡ﴾ إشارةٌ إلى إلحاح الدّاعي في طلب القَبول لِما دعا به قبلُ، وما يدعو به بَعْدُ، كما تَصَدّرَ طلبُ القَبول دعاءَ القرآن الكريم بعد الفاتحة، وذلك على لسان إبراهيمَ عليه السلام في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلۡ مِنَّآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ١٢٧﴾ [البقرة: 127].

---

(1) الواحديُّ، التّفسير البسيط: 12/491.

(2) أبو عبيدة، مجاز القرآن: 1/342، والنّحّاس، معاني القرآن: 3/537، والزّمخشريّ، الكشّاف: 2/381 - 382.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/244.

(4) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 10/431 - 432.

(5) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/273.

لَطيفةُ إيثارِ صيغةِ التَّفعُّلِ ﴿وَتَقَبَّلْ﴾:

المبالغةُ في قَبولِ الدُّعاءِ على الدَّوامِ

جاءتْ صيغةُ ﴿وَتَقَبَّلْ﴾ دون (واقْبَلْ)؛ للمبالغةِ في الدُّعاءِ بالقَبولِ منَ اللهِ تعالى، مع ما تُفيدُه صيغةُ المضارعِ من تَجدُّدِ واسْتمرارِ القَبولِ منَ اللهِ ﷻ؛ أيْ: ربَّنا اجعلْ دعائي مقبولًا عندكَ جَعْلَ مَن كأنَّه راغبٌ فيه، آملٌ بتحقُّقِه على الدَّوام[1]. فالتَّقبُّلُ شِدّةُ القَبول، وتقبُّلُ العبادةِ منَ اللهِ تعالى، قَبولُها مع الرّضوان، ومحبّةِ القائمِ بها[2].

نُكْتَةُ حذْفِ ياءِ المُتكلِّم: ﴿دُعَآءِ﴾:

تخصيصُ دعائِه المذكورِ، وإظهارُ التّذلّلِ والانكسارِ لله، والتّلطُّفِ في الخطابِ

حُذِفَت ياءُ المتكلِّم في ﴿دُعَآءِ﴾ واسْتُعيضَ عنها بالكَسرِ تخفيفًا، ويشيرُ قوله تعالى: ﴿دُعَآءِ﴾ بكسر الهمزةِ إلى تخصيص دعائِه المذكورِ، وطلبِ التّجاوزِ عمّا فيه مِن تقصير، وإظهارِ التّذلّلِ، والانكسارِ بينَ يدي اللهِ، ضراعةً بعد ضراعة، ورجاءً بعدَ رجاء[3]، وفيه منَ التَّلطُّفِ والأدبِ ما فيه، مع ما يُفيد مِن طَلبِ قَبولِ جميعِ الدّعاء له ولذرّيته، ومَن يَطَأُ هذا البيتَ، ولو أضافَ لاقتصرَ على نفسه عليه السلام.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

التَّقبُّلُ والاسْتجابةُ:

التَّقبُّلُ الشَّيءِ مع اقْتضاءِ الثَّواب، والاسْتجابةُ قَبولُ الدُّعاءِ بناءً على وعدٍ بالاسْتجابة

التَّقبُّلُ: قَبولُ الشَّيءِ على وجهٍ يقتضي ثوابًا كالهديَّة ونحوِها، كما قالَ تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنۡهُمۡ أَحۡسَنَ مَا عَمِلُواْ﴾ [الأحقاف: 16][4]، وهو أنسبُ لسياق الآيةِ المُتضمِّنِ الطّلبَ بقَبولِ الدّعاء المُقتضي للثّواب.

---

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 10/432.

(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 8/4044.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/244، وهي قراءة الجمهور، وصلا ووقفا، وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وحمزة، وأبو جعفر بإثباتِ الياء السّاكنة وصلا، ويعقوب وصلا ووقفا. يُنظر: ابن الجزري، النشر: 2/301.

(4) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرّاغب، المُفردات: (قبل).

والاسْتجابةُ: قَبولٌ لِما دعا به اللّهَ تعالى، ولذا وَعَدَ اللّهُ ﷻ الدّاعينَ بالاسْتجابةِ في قولِه ﷻ: ﴿ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ﴾ [غافر: 60]، ووعد المُستجيبينَ بالحُسْنَى في قولِه: ﴿لِلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِرَبِّهِمُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ﴾ [الرَّعد: 18][1].

(1) العسكريُّ، الفروق اللغوية، ص: 44، والكفويّ، الكلِّيّات: 1/60.

﴿رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡحِسَابُ ٤١﴾

[إبراهيم: 41]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

لَمّا كان الإنسانُ - ولو اجْتهدَ كلَّ الاجْتهاد - محلَّ العجزِ الموجِبِ للتَّقصيرِ المُفتقِرِ إلى السّتر، قالَ تعالى مُشيرًا إلى ذلك: ربَّنا أيُّها المالكُ لأمورِنا المدبِّرُ لنا اغفرْ لي ولوالديَّ وللمؤمنينَ يومَ يظهرُ ويتحقَّقُ على أعْلى وُجوهِه الحسابُ[1].

مهما أطاعَ العبدُ ربَّه فهو بحاجةٍ إلى مَغفرةِ اللهِ وسَترِه

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَقُومُ﴾: قامَ يقومُ قيامًا فهو قائمٌ، وجمعُه: قيامٌ، وأقامَه غيرُه، وأقامَ بالمكانِ إقامةً، والقيامُ للشّيء هو المُراعاة له والحفظ، ويكونُ قامَ بمعنَى العزيمة، كما يُقالُ: قامَ بهذا الأمر، ومنه قولُه تعالى: ﴿يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [المائدة: 55]، والقِيامُ والقِوامُ: اسمٌ لما يقوم به الشّيْءُ؛ أيْ: يثبتُ، ويَرْكُز[2].

2) ﴿ٱلۡحِسَابُ﴾: يُقالُ: حَسَبْتُ، أحْسُبُ حِسابًا وحُسْبانًا، قال تعالى: ﴿لِتَعۡلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلۡحِسَابَۚ﴾ [يونس: 5]، والحسابُ: ما يُحاسَبُ عليه العبدُ فيُجازَى بِحَسَبه، كما قالَ تعالى: ﴿ٱقۡتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمۡ﴾ [الأنبياء: 1][3]. وقولُه تعالى: ﴿يَقُومُ ٱلۡحِسَابُ﴾؛ أيْ: يبدو حسابُهم ويظهرُ ويَثْبُتُ[4].

المَعْنى الإجْماليُّ:

الدُّعاءُ بالمغفرةِ للأقْربِ فالأقْرب

يدعو إبراهيمُ عليه السلام ربَّه أن يغفرَ له ولوالدَيه - وكان هذا قبلَ

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 10/432.

(2) الرّاغب، المُفردات: (قوم).

(3) الرّاغب، المُفردات: (حسب)، وابن القطّاع، الأفعال: 1/364، وقال: "حسب: بفتح السِّين، وكسرها، وضمّها".

(4) ابن عطيّة، المُحرّر الوجيز: 3/343، والزّمخشريّ، الكشّاف: 2/382.

أن يتبرَّأ مِن أبيه لَمّا تبيَّنَ له عداوتُه للّهِ ﷻ - وللمؤمنين كلِّهم يومَ يُحاسِبُ اللّهُ عبادَه، فيُجازيهم بأعمالِهم، إنْ خيرًا فخيرٌ، وإنْ شرًّا فَشَرٌّ[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

تَكرارُ لفْظِ ﴿رَبَّنَا﴾:

في التَّكرارِ مَزيدُ الالتجاءِ إلى الله، والتّضرّعِ له

جاءَ تَكرارُ لفظِ ﴿رَبَّنَا﴾ للدّلالةِ على مَزيدِ التَّضرُّعِ واللَّجَأِ إلى اللّهِ ﷻ، وبخاصَّةٍ في مقامِ الدُّعاءِ بالمغفرةِ العامَّةِ الشّاملةِ، له ولوالدَيْه ولجميعِ المؤمنين[2].

إيثارُ إضافةِ (ربّ) إلى ضَميرِ المتُكلّمين:

في الإضافةِ إظهارٌ لمالِكيَّةِ اللهِ تعالى لخَلْقِه، وتدبيرِ أمورِهم

إيثارُ إضافةِ (ربَّ) إلى (نا) الدّالّةِ على الجمعِ، لإظهارِ المالكيَّةِ للّهِ تعالى لخَلْقِه، المُدَبِّرِ لأمورِهم، المُرَبّي لهم، القائمِ على رعايةِ مصالحِهم وجميعِ شؤونهم[3].

نُكْتَةُ خَتْمِ الدُّعاءِ بطلَبِ المغفرةِ:

إظهارُ الالْتجاءِ إلى اللهِ، وعدمِ الاستغناءِ عنِ المغفرةِ

ختمَ إبراهيمُ عليه السلام دعاءَه بطلبِ المغفرةِ منَ اللّهِ؛ لإظهارِ الالْتجاءِ إلى اللّهِ تعالى، وقَطْعِ الطَّمعِ مِن كلِّ شيءٍ إلّا مِن فَضْلِه وكَرمِه ورحمتِه، وأنَّ العبدَ ولو كان نبيًّا مُرْسَلًا، فلا غِنَى له عَن مغفرةِ ربِّه؛ لأنَّه يبقى مُقصِّرًا في تحقيقِ كمالِ الشُّكرِ للّهِ تعالى[4].

فائِدةُ تخصيصِ القُيودِ:

الدُّعاءُ للأقْربِ فالأقربِ معَ البِشارةِ بإجابةِ الدُّعاءِ

خصَّص إبراهيمُ عليه السلام دعاءَه بقُيودٍ؛ أوَّلُها: نَفْسُه، وثانيها: والداه، وثالثُها: المؤمنون، فعدَل عنِ الجمعِ (لنا)؛ اختصارًا وبيانًا لأحقيَّةِ مَنْ يدعو له بالتَّرتيب، وحرصِه على الدُّعاءِ للخاصَّةِ

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 2/495 - 496.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/381.
(3) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 10/432.
(4) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 19/107، والخازن، لباب التّأويل: 3/43.

والعامَّة، وخاصَّةً أنَّ اللّٰهَ تعالى لا يَرُدُّ دعاءَ خليلِه إبراهيمَ عليه السلام، وفيه بِشارةٌ عظيمةٌ لِمَن ذكرَهم بالمغفرةِ، إلّا ما وردَ مِن أنَّ والدَه قد وَعدَه بالإيمانِ ثمَّ نَكثَ، فلم يتبيَّن له قبلَ دعائِه أنَّه مِن أصحابِ الجحيم، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ [التَّوبة: 114][1].

بَلاغةُ الظَّرفيَّة في: ﴿يَوْمَ﴾:

جاءَ الظَّرْفُ: ﴿يَوْمَ﴾ في قولِه تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ﴾ لا على تعيينِ زمانِه؛ لتهويلِ ذلكَ اليوم، وزَرْعِ المهابةِ الشَّديدةِ في قلوبِ العبادِ للاسْتعدادِ له، وتجنُّبِ ما فيه مِن أهوالٍ عظامٍ ومَخاطرَ جِسامٍ، بطاعةِ الرَّحمن وتَقْوى المليكِ الدَّيّان[2].

تهويلُ يومِ القيامةِ، والاسْتعدادُ له

بَلاغةُ الاسْتعارةِ:

معنَى قولِه تعالى: ﴿يَقُومُ ٱلْحِسَابُ﴾: يثبُتُ، وقدِ اسْتُعيرَ القيامُ للثُّبوتِ تَبَعًا لتشبيهِ الحسابِ بإنسانٍ قائِم؛ لأنَّ حالةَ القيامِ أقْوى أحوالِ الإنسانِ؛ إذْ هو انْتصابٌ للعمل، ومنه قولُهم: قامتِ الحربُ على ساق، إذا قَوِيَتْ واشْتدَّت، وقولُهم: ترجَّلَتِ الشَّمسُ، إذا قَوِيَ ضَوْؤها. ويجوزُ أنْ يُسنَدَ إلى الحسابِ قيامُ أهلِه إسنادًا مجازيًّا، أو يكون مثلَ قولِه تعالى: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ [يوسف: 82]؛ أيْ: أهلَها[3].

القصدُ إرادةُ الثُّبوتِ، والمجازُ من قيامِ النّاسِ للحساب

(1) الخازن، لباب التّأويل: 3/43.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/273.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/382، والفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 19/107.

﴿وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعۡمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمۡ لِيَوۡمٖ تَشۡخَصُ فِيهِ ٱلۡأَبۡصَٰرُ ٤٢﴾ [إبراهيم: 42]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

اللهُ ﷻ لا يَدَعُ الظّالمينَ دون حسابٍ عسيرٍ في يومِ الحسابِ

لَمّا ختمَ إبراهيمُ عليه السلام في الآيةِ السّابقةِ دعاءَه بيوم الحساب الَّذي يوجِبُ ذِكْرُه كلَّ سعادةٍ، ونسيانُه كلَّ شقاوة، ذكرَ بعضَ ما يتَّفقُ فيه رجوعًا إلى ما مضى مِن أحوالِ يومِ القيامة على أحْسنِ وجهٍ، فقالَ - عاطفًا على قولِه: ﴿قُل لِّعِبَادِيَ﴾ [إبراهيم: 31] - وجُلُّ المقصدِ تهديدُ أهلِ الظُّلم بالإشراكِ وغيرِه، وخاطبَ الرَّأسَ الَّذي لا يمكنُ ذلك منه، ليكونَ أوْقعَ في قلبِ غيرِه: ﴿وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعۡمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَۚ﴾ مِن أعمالِ الكفرِ والظُّلم، إنَّما يُؤَخِّرُهم ليوم تظهرُ عليهم فيه أماراتُ الخوفِ والجَزَعِ، مع أشدِّ حالاتِ الذُّلِّ والصَّغار، وقلوبُهم فارغةٌ لا شيءَ فيها منَ الجُرأةِ والأنَفَةِ الَّتي كانوا يُظهرونَها مِن قبلُ[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَلَا تَحۡسَبَنَّ﴾: (حسب): الحاءُ والسِّينُ والباءُ أصولٌ أربعة؛ أحدُها: الحِسْبانُ: وهو الظَّنّ[2]، وهو المعنيُّ هنا، كما في قولِه تعالى: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ﴾ [العنكبوت: 2]، وقولِه سُبحانه: ﴿أَمۡ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [العنكبوت: 4]، وقولِه هنا في الآية: ﴿وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا﴾، فكلُّ ذلك مصدرُه الحِسْبان، والحِسْبانُ: أن يَحكُمَ لأحدِ النَّقيضَيْن مِن غيرِ أن يَخْطُرَ الآخَرُ بباله، فيَحْسبَه ويَعقِدَ عليه الإصبعَ، ويكونَ بعَرَضِ أن يَعْتَريَه فيه شَكٌّ، ويُقارِب فيه الظَّنَّ، لكنَّ الظَّنّ أن يخطُرَ النَّقيضان بباله، فيُغَلِّبَ أحدَهما على الآخر[3].

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 10/433 - 434.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (حسب).
(3) الرّاغب، المُفردات: (حسب).

2) ﴿غَٰفِلًا﴾: (غفل): الغَيْنُ والفاءُ واللّامُ أصلٌ صحيحٌ يدُلُّ على تركِ الشَّيء سَهْوًا، وربَّما كان عن عَمْد، من ذلك: غَفَلْتُ عنِ الشَّيءِ غَفْلَةً وغُفولًا، وذلك إذا تركتَه ساهيًا، وأغْفَلْتَه إذا تركتَه على ذِكْرٍ منكَ له، قالَ تعالى: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ۝٩٢﴾ [يونس: 92][1]. وقولُه تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا﴾؛ أيْ: مُهْمِلًا لهم إذا أنْظَرَهم وأجَّلَهم[2].

3) ﴿يُؤَخِّرُهُمْ﴾: أخَّرَ الشَّيءَ فتأخَّرَ، واسْتأخَر، والآخِرُ: بعد الأوَّل، تقولُ: جاءَ آخِرًا وأخيرًا. والتَّأخيرُ: مُقابلٌ للتَّقديم، قالَ تعالى: ﴿مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: 2][3]. وقولُه تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ﴾؛ أيْ: يُمْهِلُهم ويُؤخِّرُ جزاءَهم وعذابَهم[4].

4) ﴿تَشْخَصُ﴾: شَخَصَ، يشخَصُ، شُخوصًا، وشَخَصَ بصرُه، فهو شاخصٌ: إذا فَتَح عَيْنَيْه وجَعَلَ لا يَطْرِفُ، قالَ تعالى: ﴿شَٰخِصَةٌ أَبْصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [الأنبياء: 97]؛ أيْ: أجفانُهم لا تَطْرِف[5]. وقولُه تعالى: ﴿تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾؛ أيْ: تُرفَعُ فيه أبصارُ أهلِ الموقف، ولا تغمُضُ مِن هَوْلِ ما تراه في ذلك اليوم[6].

المَعْنى الإجْماليُّ:

اللهُ ﷻ لا يُهمِلُ عقابَ الظّالِمين

المعنى: ولا تحسبَنَّ اللهَ يا مُحمَّدُ إذا أنْظَر الظّالمينَ وأجَّلَهم، أنَّه غافلٌ عنهم مُهْمِلٌ لهم لا يُعاقبُهم على صُنْعِهم؛ بل يُحصي ذلك عليهم ويَعُدُّه عليهم عَدًّا، وإنَّما هو يُنظرُهم ليومٍ لا تغمُضُ فيه أعينُهم مِن شِدَّةِ أهوالِه[7].

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، وابن منظور، لسان العرب: (غفل).
(2) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 2/496.
(3) الشّوكانيّ، فتح القدير: 3/157.
(4) الرّاغب، المُفردات، والرّازيّ، مختار الصّحاح: (أخر).
(5) الرّاغب، المُفردات، والرّازيّ، مختار الصّحاح: (شخص).
(6) الشّوكانيّ، فتح القدير: 3/157.
(7) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 2/496.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بَلاغةُ الوصلِ ﴿وَلَا تَحۡسَبَنَّ﴾:

تأكيدُ الوعيدِ مع تسليةِ رسولِ الله ﷺ

الواوُ في قولِه تعالى: ﴿وَلَا تَحۡسَبَنَّ﴾ عَطَفتْ جُملتَها على الجُمَلِ السّابقة، وهذا العطفُ له اتِّصالٌ بجُملة: ﴿قُلۡ تَمَتَّعُواْ فَإِنَّ مَصِيرَكُمۡ إِلَى ٱلنَّارِ ٣٠﴾ [إبراهيم: 30]، الَّذي هو وعيدٌ للمشركينَ، وإنذارٌ لهم بأن لا يَغْترّوا بسلامتِهم وأمْنِهم، تنبيهًا لهم على أنَّ ذلكَ متاعٌ قليلٌ زائلٌ، فأكَّدَ الوعيدَ بهذه الآية، مع إدْماجِ تسليَةِ الرَّسولِ ﷺ على ما يتطاوَلون به منَ النِّعمة والدَّعَة، كما دَلَّ عليه التَّفريعُ في قولِه: ﴿فَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخۡلِفَ وَعۡدِهِۦ رُسُلَهُۥٓۚ﴾ [إبراهيم: 47]، وفي معنَى الآيةِ قولُه: ﴿وَذَرۡنِي وَٱلۡمُكَذِّبِينَ أُوْلِي ٱلنَّعۡمَةِ وَمَهِّلۡهُمۡ قَلِيلًا ١١﴾ [المزّمّل: 11]. وباعْتبارِ ما فيه مِن زيادةِ معنَى التَّسلية، وما انْضمَّ إليه مِن وصفِ فظاعةِ حالِ المشركين يومَ الحَشْرِ، حَسُنَ اقترانُ هذه الجملةِ بالعاطفِ، ولم تُفصَل[1].

بَلاغةُ الكنايةِ في النَّهيِ بـ﴿وَلَا﴾:

النَّهيُ كنايةٌ عن إثباتِ ضِدِّ المَنهيِّ عنه

صيغةُ النَّهيِ في قولِه تعالى: ﴿وَلَا تَحۡسَبَنَّ﴾ ظاهرُها نهيٌ عن حِسبانِ ذلك، وهذا النَّهيُ كنايةٌ عن إثباتِ وتحقيقِ ضدِّ المَنْهيِّ عنه، في المقامِ الَّذي من شأنِه أن يُثيرَ للنّاسِ ظنَّ وقوعِ المَنهيِّ عنه؛ لقوَّةِ الأسبابِ المُثيرةِ لذلك، وذلكَ أنَّ إمهالَهم وتأخيرَ عقوبتِهم يُشبِهُ حالةَ الغافلِ عن أعمالِهم؛ أيْ: تَحَقَّقْ بأنَّ اللهَ ليس بغافلٍ، وهو كنايةٌ ثانيةٌ عن لازمِ عدمِ الغَفْلةِ وهو المؤاخذةُ، فهو كنايةٌ بمرتبتَيْن؛ ذلك لأنَّ النَّهيَ عنِ الشَّيءِ يأذَنُ بأنَّ المنهيَّ عنه بحيثُ يتلبَّسُ به المخاطَبُ، فنهيُه عنه تحذيرٌ منَ التَّلبُّسِ به، بقطعِ النَّظَرِ عن تقديرِ تَلبُّسِ المخاطَبِ بذلك الحِسبان. وعلى هذا الاسْتعمالِ جاءتِ الآية، سواءٌ توجَّهَ الخطابُ لكلِّ مَنْ يَصِحُّ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/245.

أنْ يُخاطَبَ به، فيدخُلُ فيه النَّبيُّ ﷺ، أمْ توجَّه للنَّبيِّ ﷺ ابْتداءً، ويدخُلُ فيه أُمَّتُه[1].

إيثارُ التَّعبيرِ بالفعلِ ﴿تَحْسَبَنَّ﴾:

اللهَ تعالى عالِمٌ بما يَعملُ الظّالمون، وسيُجازيهم بما يَستحِقّون

جاءَ التَّعبيرُ بالفعلِ المضارع ﴿تَحْسَبَنَّ﴾ مع نونِ التَّوكيد الثَّقيلة؛ للاسْتمرارِ في النّهي عن هذا الحِسبانِ في إهمالِ الظّالمينَ وعدمِ مؤاخذتِهم، واليقينِ التّامِّ بأنَّ اللّهَ عالمٌ بتمامِ عِلْمِه، وكمالِ حِكْمَتِه حَقًّا ويقينًا، بما يعملُ الظّالمون، وأنَّه سيُجازيهم بموجبِ وعيدِه العظيمِ لهم[2].

نُكْتَةُ العُدولِ إلى اسْمِ الجلالةِ:

اللهُ المعبودُ بحقٍّ دونَ سواه، ليس غافلًا عمَّن كفَروا بعبادتِه

لَما بيَّن في الآياتِ السّابقةِ دلائلَ التَّوحيد، ثمَّ حكى عن إبراهيمَ عليه السلام أنَّه طلبَ منَ اللّهِ أن يَصونَه عنِ الشِّرك، وكان القومُ في عهدِ الرَّسول ﷺ مشركين في توحيد الأُلوهيَّة، فعَبَدوا الأصنامَ، وفعلوا أفعالَ الظّالمينَ، معَ كونِهم مُقرّين بتوحيدِ الرُّبوبيَّة، لم يكنْ ذلك مُنجيًا لهم وقد عبدوا غيرَ اللّه. فجاء التّصريحُ بذِكرِ لفظِ الجلالة ﴿ٱللَّهَ﴾، في قولِه: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا﴾؛ إيحاءً إلى ذلك المعنَى، وأنَّ اللّهَ الَّذي عبدوا غيرَه، أو أشركوا معه غيرَه في العبادة ليس غافلًا عمّا يعملُه أولئك الظّالمون، من الكفر والشِّرك في عبادتِه، وما ينتج عنه مِن أعمالٍ خبيثةٍ، في حقِّ اللّهِ وحقِّ عبادِه[3].

بَلاغةُ الكنايةِ والمَجازِ: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّـهَ غَٰفِلًا﴾:

الكنايةُ عنِ النَّهي عنِ اسْتعمالِ العذابِ للظّالمين

نفيُ الغَفْلةِ عنِ اللّهِ تعالى في قوله: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ ليس جاريًا على صريحِ معناه؛ لأنَّ ذلك لا يظنُّه مؤمنٌ؛ بل هو كنايةٌ عنِ النَّهي عنِ اسْتعمالِ العذابِ للظّالمين، ومنه

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/382، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/245 - 246.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/451.
(3) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 19/107.

جاءَ معنَى التَّسليةِ للرَّسول ﷺ[1]. والمُراد بالنّهي عن حسبانه غافلًا: الإيذانُ بأنّه تعالى عالمٌ بما يفعل الظّالمون، لا يخفى عليه شيءٌ منه، وأنّه معاقبُهم على كثيره وقليله، على سبيل الوعيد والتّهديد، كقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٌ ٢٨٣﴾ [البقرة: 283] يريد الوعيدَ؛ فهذا كنايةٌ أو مجازٌ عنِ الوعيد والتّهديد؛ أي: لا تَحْسَبَنَّ اللّهَ يتركُ عقابَهم؛ لأنّه جائزٌ في كَرَمه أن يعفوَ عنهم، لكن لا بدّ أن يعاقبَهم على القليل والكثير[2].

بَلاغةُ الاستعارةِ التّمثيليّةِ ﴿وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا﴾:

اللهُ تعالى رقيبٌ على أعمالِهم وسيُحاسِبُهم

وثمّةَ وجهٌ آخرُ وهو أنْ يُراد: ولا تحسبنّه تعالى يُعاملهم معاملةَ الغافلِ عمّا يعملون، ولكن يعاملُهم معاملةَ الرّقيبِ عليهم، المُحاسِبِ على النّقير والقِطمير مِن أعمالهم. فعلى هذا يكون مِن باب الاسْتعارَة التّمثيليّةِ، كما في قوله تعالى: ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ﴾ [البقرة: 9][3].

نوعُ (ما) في: ﴿عَمَّا يَعۡمَلُ﴾:

اللهُ مُحيطٌ بكلّ أعمالِهم ومُحْصٍ لها

﴿عَمَّا﴾ في قولِه تعالى: ﴿عَمَّا يَعۡمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَۚ﴾ اسْمٌ موصولٌ[4] بمعنَى (الَّذي)؛ أيْ: لا تحسبن اللّهَ غافلًا عنِ الَّذي يعملُه الظّالمون مِن أعمالِ الكفرِ والشِّرك. وإيثار ﴿عَمَّا﴾ في هذا المقام عن (الّذي) يُشيرُ إلى شُمولِ عملِهم، الظّاهِرِ والباطِنِ، الحاضِرِ والمُستقبلِ.

إيثارُ فعلِ ﴿يَعۡمَلُ﴾ على غيره:

عملُ الظّالمين مقصودٌ مُنافٍ للإحكامِ

آثَرَ السّياق القُرآنيُّ في قوله تعالى: ﴿عَمَّا يَعۡمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَۚ﴾ فعلَ (العمل) على فِعلَي (الصُّنع)، و(الفعل)؛ لأنّ (العمل) أخصُّ من (الفعل)؛ فهو فعلٌ بنوع مشقّةٍ، وهو أيضًا ما يَصْدُر بقَصْدٍ؛ لأنَّ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/246.
(2) القُونويّ وابن التّمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 11/94.
(3) القُونويّ وابن التّمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 11/94 - 95.
(4) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 5/205.

الفعلَ قد يُنسبُ إلى الحيوانات الّتي يقع منها فِعلٌ بغير قَصْدٍ، وقد يُنسَب إلى الجمادات، والعملُ قلّما يُنسبُ إلى ذلك.

و(الصُّنْعُ): إجادةُ الفعل، فكلّ صُنْعٍ فِعْلٌ، وليس كلُّ فِعْلٍ صُنْعًا، ولا يُنسَبُ إلى الحيوانات والجمادات كما يُنسبُ إليها الفعلُ[1].

ومن هاهنا كان إيثارُ لفظِ العملِ مناسبًا لقَصديّة القيام بما قاموا به، مِن صور الظُّلم الّذي يُنافي الإجادةَ، والدّقّةَ، وإبداعَ العملِ.

سِرُّ إيثارِ صيغةِ المضارع ﴿يَعْمَلُ﴾:

استمرارُ الظّالمينَ بأعمالِ الكفرِ

جاءَ اسْتعمالُ صيغةِ المضارع في سياقِ الآيةِ ﴿يَعْمَلُ﴾؛ للدّلالةِ على تجدُّدِ قيامِ الظّالمينَ بتبديلِ نعمةِ اللّهِ كفرًا، واسْتمرار إحلالِ قومِهم دارَ البَوارِ، واتِّخاذِ الأنداد[2].

سِرُّ إسْنادِ الفعلِ ﴿يَعْمَلُ﴾:

الدّلالةُ على وجودِ أعمالٍ للظّالمينَ تفضحُ كُفرَهم وشِركَهم بالله

جاءَ إسنادُ الفعلِ ﴿يَعْمَلُ﴾ إلى الظّالمينَ؛ للدّلالةِ على أنَّ هؤلاء الظّالمينَ لم يكتفوا بعدمِ الاعْترافِ بوَحدانيَّة اللّه؛ بل أضافوا إليه أعمالًا هي دونَ الشِّرك، مثلَ: ظُلم النّاسِ بالاعْتداءِ عليهم، أو حِرمانِهم حقوقَهم، وصدِّهم عن سبيل اللّه، وكلِّ ما يدخلُ في أعمالِ ظُلْمِ العبادِ للعباد[3].

علّةُ فصْلِ جملةِ ﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ﴾:

الجملةُ تعليلٌ للنَّهي في صدْرِ الآيةِ

فُصِلَتْ جملةُ ﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ﴾ عمّا قبلَها؛ تعليلًا للنَّهي السّابقِ ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ﴾؛ أيْ: دُمْ على ما كنتَ عليه مِن عدمِ حِسبانِه تعالى غافلًا عن أعمالِهم، ولا تحزَنْ بتأخيرِ ما تستوجِبُه منَ العذاب الأليم؛ إذْ تأخيرُه للتَّشديدِ والتَّغليظ[4]. وفيها تسليةٌ للمظلومِ وتهديدٌ

(1) الرّاغب، المُفردات، والزّبيديّ، تاج العروس: (عمل).
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/274.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/246.
(4) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 19/108، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/274.

للظّالم، فاللهُ تعالى - وهو العدلُ ﷻ - لا يَدَعُ الظّالمَ يفعلُ ما يشاءُ مِن أعمالِ الظُّلم دونَ جَزاء.

بَلاغةُ أسلوبِ القَصْرِ:

تهويلُ ما سيُصيبُهم منَ العذابِ والإذلالِ لا محالةَ

قولُه تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ﴾، صُدِّرَ التّأخيرُ بـ ﴿إِنَّمَا﴾ لقَصْرِ التّأخيرِ بما وراءَه مِن صفات: كشُخوصِ الأبصار، وحالِ كونِهم مسرعين رافعي رؤوسِهم ذُلًّا وخُشوعًا، وذلك لقَصْدِ تهويلِ الخَطْبِ وتفظيعِ العذابِ، ببيانِ أنَّهم مُتوجِّهونَ إلى العذابِ لا محالةَ، وللدّلالةِ على أنَّ حقَّهم منَ العذابِ هو الاسْتئصالُ بالمَرَّة، وألّا يَبْقى منهم في الوجودِ عَيْنٌ ولا أثَر، وللإيذانِ بأنَّ المؤخَّرَ له مِن جملةِ العذابِ وعُنوانِه[1].

سِرُّ إيثارِ اللّامِ في قولِه: ﴿لِيَوْمٍ﴾:

التّأخيرُ لأجلِ جزاءِ يومٍ تَشخصُ فيه الأبصارُ

آثرَ السِّياقُ القرآنيُّ إلصاقَ اللّام بـ (يوم) دونَ حرفِ الجرِّ (إلى) لبيانِ الغاية؛ أيْ: هذا التّأخيرُ لأجلِ جزاءِ يوم[2].

سِرُّ تنكيرِ (يوم) في: ﴿لِيَوْمٍ﴾:

وقتُ يومِ الجزاء غيرُ معلومٍ

جاءَ قولُه تعالى: ﴿لِيَوْمٍ﴾ نَكِرةً؛ لإبهامِ وقتِ هذا اليوم، فهو يومٌ يَحْدُثُ فيه ما يَحْدُثُ مِن أهوالٍ لأولئك الظّالمين، لكنَّ وقتَه غيرُ معلومٍ لأحدٍ من الخَلْق، وإنَّما عِلْمُ وقوعِه عندَ اللهِ وَحدَه.

إيثارُ التَّعبيرِ بـ ﴿تَشْخَصُ﴾:

استمرارُ عدَمِ طَرْفِ الأعْيُنِ مِن شدَّةِ أهوالِ يومِ القيامةِ

آثرَ سياقُ الآيةِ التَّعبيرَ بالفعلِ ﴿تَشْخَصُ﴾ دونَ غيرِه منَ المُقاربات؛ لأنَّ هذا التَّعبيرَ يدلُّ على مجموعةٍ منَ المعاني، كلُّها تتضافرُ لتُحَقِّقَ المعنَى الكاملَ المُرادَ في هذا الحَدَثِ المُرعبِ المُفزع، والظّاهرُ أنّ اللّفظَ مأخوذٌ مِن شَخَصَ الرّجلُ مِن بلده، إذا خرج

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/274.
(2) العُكبريّ، إملاء ما منّ به الرّحمن: 2/70.

منه[1]، فقولُنا: شخَصَ البَصَرُ نفسُه، إذا سَما وطَمَحَ وشَصا[2]، وشَخَصَ بصرُه: إذا فتحَ عَيْنَيه لا يَطْرِفُ[3]؛ أيْ: مِن هَوْل ما ترى في ذلكَ اليوم[4]، وهي تحدُّ النَّظرَ لفَزَعِ ذلكَ، ولِفَرْطِه بشخصِ المُحْتَضَر[5]، وتدلُّ صيغةُ المضارعِ في ﴿تَشْخَصُ﴾ على تجدُّدِ حالِ تلكَ الأبصارِ، واسْتمرارِها مع اسْتمرارِ تلكَ الأهوالِ بأصحابِها، حتَّى يقضيَ اللّهُ بين العباد، إمّا إلى جنَّةٍ وإمّا إلى نار.

سِرُّ تقديمِ الجارِّ والمجرور على الفاعلِ:

تقدَّم شِبهُ الجملةِ ﴿فِيهِ﴾ على الفاعلِ ﴿ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ في قولِه تعالى: ﴿تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾؛ لتخصيصِ الشُّخوصِ في هذا اليومِ بالذّاتِ دونَ غيرِه، وللمبالغةِ في تصويرِ شِدَّةِ أهوالِه، وخطيرِ أحوالِه، فجاءَ هذا التَّعبيرُ مُبيّنًا لما تقدَّمَه في صدرِ الآيةِ في قولِه تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾[6].

تَخصيصُ الشُّخوصِ في هذا اليومِ دونَ غيرِه

فائِدةُ جمْعِ ﴿ٱلْأَبْصَٰرُ﴾:

أفادَ جمْعُ ﴿ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ العمومَ؛ أيْ: تشخَصُ فيه أبصارُ النّاسِ مِن هَوْل ما يَرَوْن، ومِن جملةُ ذلك: مشاهدةُ هَولِ أحوالِ الظّالمين[7].

عُمومُ أبصارِ النّاسِ في رُؤيةِ هولِ ما يُصيبُ الظّالمين

دَلالةُ الألفِ واللّامِ في ﴿ٱلْأَبْصَٰرُ﴾:

الألفُ واللّامُ في قولِه تعالى: ﴿ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ للعهد، ويَدُلُّ على الضّمير؛ لأنَّ التَّأويل: تشخَصُ بأبصارِهم[8]، وتحتملُ (ال) الجنسَ؛

التَّعريفُ تعميمٌ يُرادُ به زيادةُ تهويلٍ وترهيبٍ

(1) القُونويّ وابن التّمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 11/94 - 95.
(2) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة: (شخص)، وابن منظور، لسان العرب: (طمح) و(شصا). ومعنى (شصا): الشُّصوُّ من العين: مثل الشُّخوص، شصا يشصو: كأنّه ينظر إليك وإلى آخر. يُنظر: الخليل، العين: (شصو).
(3) ابن السّكّيت، إصلاح المنطق، ص: 263، والأزهريّ، تهذيب اللُّغة: (شخص).
(4) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/382.
(5) ابن عطيّة، المُحرّر الوجيز: 3/344.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/246.
(7) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/246.
(8) الواحديّ، التّفسير البسيط: 12/494.

وفيه تهويلٌ وتعميمٌ لشُخوص أبصارِ أهلِ المَوقف جميعًا، حين ترتفع أبصارُ أهلِ الموقفِ فيدخلُ في زُمرتهم الكفرةُ المعهودون دُخولاً أوّليًّا؛ أيْ: تبقى مفتوحةً لا تتحرّكُ أجفانُهم مِن هول ما يرَونه[1]. وردّ القونويُّ حملَ الألفِ واللّام على الاسْتغْراق لعدم ملاءمتِه للسّباق والسّياقِ، وأيْضًا الاسْتغْراقُ في حَدّ ذاته غيرُ مستقيمٍ؛ إذ أبصارُ الأخيارِ قارّةٌ في مواضعها[2].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الحِسبانُ والظَّنُّ:

الحِسبانُ منَ الحسابِ، والظَّنُّ حِسبانٌ على جهةِ التَّوسُّعِ

أصلُ الحِسبان منَ الحساب، تقولُ: أحْسَبُه بالظَّنِّ قد مات، كما تقولُ أعُدُّه قد مات، ثمَّ كَثُرَ حتَّى سُمِّيَ الظَّنُّ حِسبانًا على جهةِ التَّوسُّع، وصارَ كالحقيقةِ بعد كَثْرةِ الاسْتعمال، وفُرِّقَ بينَ الفعلِ منهما، فيُقالُ في الظَّنِّ: حَسِبَ، وفي الحسابِ: حَسَبَ، ولذلك فُرِّقَ بينَ المصدَرَيْن، فقيل: حَسْبٌ وحِسْبان. والحِسبانُ لا يكونُ إلّا باطلًا، قالَ تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾﴾ [المؤمنون: 115].

والظَّنُّ: ضربٌ منَ الاعْتقاد، وقد يكونُ حِسبانٌ ليس باعْتقادٍ، ألا ترى أنَّكَ تقولُ: أحسِبُ أنَّ زيدًا قد مات، ولا يجوزُ أن تعتقدَ أنَّه مات، مع علمِكَ بأنَّه حيٌّ[3].

الغَفْلةُ والنِّسيانُ:

الغَفْلةُ أعمُّ منَ النِّسيان

الغَفْلةُ: عدمُ التَّفطُّنِ للشّيء، وعدمُ عَقْليَّتِه بالفعل، أو هي عدمُ حضورِ الشَّيءِ في البالِ بالفعل، سواءٌ بقيتْ صورتُه أو معناه في الخيال، أو الذِّكر، أوِ انْمحتْ عن أحدِهما. والغَفْلةُ أعمُّ من النِّسيانِ[4].

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/55.
(2) القونويّ وابن التّمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 11/94 - 95.
(3) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 185، 343، والكفويّ، الكلّيّات: 2/248.
(4) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 389، والكفويُّ، الكلّيّات: 3/26، والجُرجانيّ، التّعريفات، ص: 260.

والنِّسيانُ: الغَفْلَةُ عنِ الشَّيءِ معَ انْمحاءِ صورتِه أو معناه عنِ الخيال، أوِ الذِّكرِ بالكُلِّيَّة، ولذلكَ يحتاجُ النّاسُ إلى تَجَشُّمِ كَسْبٍ جديدٍ وكُلفةٍ في تحصيلِه ثانيًا[1].

ونفْيُ الفعلِ العامِّ مُقتضٍ لنفيِ الخاصّ، فما كان ربّنا غافلًا عمّا يفعلُه الظّالمون، وما كان ربّنا نسِيًّا.

(1) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 389، والكفويّ، الكلِّيّات: 3/25، 143، والجرجانيّ، التّعريفات، ص: 260.

﴿مُهۡطِعِينَ مُقۡنِعِي رُءُوسِهِمۡ لَا يَرۡتَدُّ إِلَيۡهِمۡ طَرۡفُهُمۡۖ وَأَفۡـِٔدَتُهُمۡ هَوَآءٞ ٤٣﴾ [إبراهيم: 43]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

بيان حال الظّالمين يوم القيامة

لمّا كانَ دعاءُ إبراهيم عليه السلام خاصًّا بالمؤمنين الذين آمنوا بربِّهم وأقاموا ما فرضه عليهم من الصّلوات وسائر المأمورات، جاء بعده بيان حال الظّالمين يوم القيامة وأنّهم ليسوا كالمؤمنين؛ بل هم في ذِلّة وهوان وإسراع إلى مصيرهم المحتوم الّذي لاينفكّون عنه بأيّ حال يوم الحساب جزاءَ ظُلمهم واستكبارهم. وإنكارهم ليوم الحِسابِ الموجِب ذِكْره لِكُلِّ سَعادَةٍ ونِسْيانه لِكُلِّ شَقاوَةٍ، ثُمَّ ذَكَرَ بَعْضَ ما يَتَّفِقُ فِيهِ رُجوعًا إلى ما مَضى مِن أحْوالِ يَوْمِ القِيامَةِ عَلى أحْسَنِ وجْهٍ[1].

ثُمَّ إنَّه لمّا جاء في الآية السّابقة قولُه: ﴿وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعۡمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمۡ لِيَوۡمٖ تَشۡخَصُ فِيهِ ٱلۡأَبۡصَٰرُ ٤٢﴾ [إبراهيم: 42] بَيّنَ في هذه الآية حالهم في ذلك اليوم.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مُهۡطِعِينَ﴾: أصلُ (هطع): يَدُلُّ على إقْبالٍ على الشَّيْءِ وانْقِيادٍ[2]، يُقالُ: هَطَعَ الرَّجُلُ: إذا أقبل ببَصَره على الشَّيء لا يُقلِعُ عنه، يهطع هطوعًا[3] ولا يكون ذَلِك إلّا مَعَ خَوفٍ[4]، والإهْطاعُ: الإسْراعُ فِي العَدْو، وأهْطَعَ البَعِيرُ: صَوَّبَ عُنُقَهُ مُنْقادًا، وأهْطَعَ

(1) البِقاعيُّ، نظم الدُّرر: 10/433.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (هطع).
(3) الجوهري، الصحاح: (هطع).
(4) ابن دريد، جمهرة اللغة: (هطع).

أيضًا: أسْرَعَ[1]، وعليه فالمُراد بالإهْطاعِ في الآية: إسْراعُ المَشْيِ مَعَ مَدِّ العُنُقِ كالمُتَخَتِّلِ، وهي هَيْئَةُ الخائِفِ[2].

2) ﴿مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ﴾: أصلُ (قنع): يَدُلُّ على الإقْبالِ على الشَّيْءِ، ومنه الإقْناعُ: الإقْبالُ بالوَجْهِ على الشَّيْءِ، يُقالُ: أقْنَعَ لَهُ يُقْنِعُ إقْناعًا، أيْ أقْبَلَ عَلَيْهِ بِوَجْهِهِ[3]، وَمنها سُمِّيَتْ القَناعَة؛ لِأنَّ صاحبها يُقْبِلُ علَى الشَّيْءِ الَّذِي لَهُ راضِيًا[4]، والإقناع أيضًا: رفعُ الرَّأْس والنَّظرُ في ذُلّ وخُشوع، يُقال: أقنعَ رأسَه، إذا رفعه، وَقالَ القتيبيّ: المُقْنِع رأسَه: الَّذِي رفَعَه وَأقْبل بطَرْفه إلَى ما بَين يَدَيْهِ[5]، والقانِعُ: المُتَّصِفُ بِالقُنوعِ، وهوَ التَّذَلُّلُ، يُقالُ: قَنَعَ - مِنْ بابِ سَأَلَ - يَقْنَعُ قُنوعًا: إذا سألَ بِتَذَلُّلٍ، وَسُمِّيَ قانِعًا لِإقْبالِهِ على مَنْ يَسْأَلُهُ[6]، وبناء على ما سبق فإقْناعُ الرَّأْسِ في الآية: طَأْطَأَتُهُ مِنَ الذُّلِّ، وَهوَ مُشْتَقٌّ مِنْ قَنَعَ - مِنْ بابِ مَنَعَ - إذا تَذَلَّلَ[7].

3) ﴿طَرْفُهُمْ﴾: أصلُ (طرف): يَدُلُّ على حَرَكَةٍ في بَعْضِ الأعْضاءِ فالطَّرْفُ، وَهوَ تَحْريكُ الْجُفونِ في النَّظَرِ[8]، وطَرَفَ يَطْرِفُ طَرْفاً: لَحَظَ، وَقِيلَ: حَرَّكَ شُفْرِه ونَظَرَ، يُقالُ: شَخَصَ بصرُه فَما يَطْرِفُ[9]، والطَّرْفُ أيضًا: اسْمٌ جامِعٌ لِلْبَصَرِ، لا يُثَنَّى وَلا يُجمع؛ لأنَّه في الأصل مَصْدَرٌ فَيَكونُ واحِدًا وَيَكونُ جَماعَةً[10]. والطَّرْفُ كذلك: إصابَتُك عَيناً بِثَوْبٍ أو غَيْرِهِ، يُقالُ: طُرِفَتْ عينُه وأصابَتْها طُرْفَةٌ وطَرَفَها الحزنُ بِالبُكاءِ، والاسْمُ الطُّرْفَةُ، وَعَيْنٌ طَرِيفٌ: مَطْروفة[11]. والمُرادُ بالطَّرْفِ في الآية: تَحَرُّكُ جَفْنِ العَيْنِ[12].

4) ﴿وَأَفْـِٔدَتُهُمْ﴾: أصلُ (فأد): أصْلٌ صَحِيحٌ يَدُلُّ على حُمَّى وَشِدَّةِ حَرارَةٍ، مِنْ ذلكَ:

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (هطع).
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/246.
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (قنع).
(4) الأزهري، تهذيب اللُّغة، وابن فارس، مقاييس اللُّغة، وابن منظور، لسان العرب: (قنع).
(5) الأزهري، تهذيب اللُّغة: (قنع).
(6) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (قنع)، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/265.
(7) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/246.
(8) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (طرف).
(9) ابن سيده، المحكم، وابن منظور، لسان العرب: (طرف).
(10) الأزهري، تهذيب اللُّغة: (طرف).
(11) ابن منظور، لسان العرب: (طرف).
(12) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/247.

فَأَدْتُ اللَّحْمَ: شَوَيْتُهُ. وهذا فَئِيدٌ، أي: مَشْوِيٌّ. والمِفْأَدُ: السَّفودُ، والمُفْتَأَدُ: المَوْضِعُ يُشْوَى فِيهِ[1]، والتَّفَؤُّدُ: التَّوَقُّد، والفُؤادُ: القلبُ؛ لِتَفَؤُّدِه وتوقُّدِه، مُذَكَّرٌ لا غَيْرُ، وَقِيلَ: وسَطُه، وَقِيلَ: الفُؤادُ غِشاءُ القلبِ، والقلبُ حَبَّتُهُ وسَوَيْداؤُه، والفُؤادُ أيضًا: العَقْلُ[2]، ورَجُلٌ مَفْؤودٌ: جَبانٌ ضَعِيفُ الفُؤادِ، ورجل مَفْؤودٌ وفَئِيدٌ: لا فؤادَ لَهُ؛ وَلا فِعْل لَهُ[3]، والمَقصودُ بالأفئدة في الآيةِ: جَمْعُ فُؤادٍ، وهو القَلْبُ، والمُرادُ بِهِ هُنا العَقْلُ، وهو إطْلاقٌ شائِعٌ في اسْتِعْمالِ العَرَبِ[4].

5) ﴿هَوَآءٌ﴾: أصْل (هوي): يَدُلُّ على خُلُوٍّ وَسُقوطٍ، وأصْلُهُ الهَواءُ: الجَوُّ ما بين السَّماءِ والأرْضِ، وكلُّ فارِغٍ وأجْوَفَ وخالٍ فهو هَواءٌ، ومنه قَلْبٌ هَواءٌ، أي: فارِغٌ[5]، والهَواءُ والخَواءُ واحد، يُقال: هَوَى صَدْرُه، يَهْوِي، هَواءً: إذا خَلا، والهَواءُ: كُلُّ فُرْجَةٍ بين شَيْئَيْن كما بين أسْفَلِ البَيْتِ إلى أعلاه، وأسْفَلُ البِئْرِ إلى أعلاها[6]، ويأتي بمعنى الجَبانِ؛ لِخلوِّه مِن الجُرْأةِ، فكأنَّه فارِغٌ[7]. والجمع: أهْوِيَةٌ[8]، والمُرادُ بالهواء في الآية: الخَلاءُ، أي أفئدتهم كالهَواءِ في الخُلُوِّ مِنَ الإدْراكِ لِشِدَّةِ الهَوْلِ[9].

المَعْنى الإجْمالِيُّ:

يصف ربنا ﷻ حال الظّالمين يومَ يَخْرُجون مِن قبورهم مُسرعين لإجابة الدّاعي للحساب، رافعي رُؤوسِهم: لا تعودُ إليهم أبصارُهم، ولا يستطيعون السَّيطرةَ عليها، ولا يتمكَّنونَ من توجيهها حيث شاؤوا،

في موقف الحساب تنقلب فيه أحوال الظّالمين، ويغيب عنهم صوابهم، وتفلت منهم جوارحهم

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (فأد).
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 27/99.
(3) ابن منظور، لسان العرب: (فأد).
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/241.
(5) الجوهري، الصحاح، وابن فارس، مقاييس اللغة: (هوا، هوي).
(6) ابن منظور، لسان العرب، والزّبيدي، تاج العروس: (هوا).
(7) الخليل، العين: (هوى).
(8) ابن دريد، جمهرة اللغة: (هوي).
(9) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/247.

أو الطَّرْفِ بأعيُنِهم كما أرادوا، وقلوبُهم خاليةٌ ليس فيها شَيءٌ؛ ولا تعقِلُ شيئًا من شدَّةِ الخَوفِ، رافعي رؤوسهم، لا يُبصرون شيئًا لكثرة الخوف والوَجَل مِن هَوْل ما يرون في ذاك الموقف العصيب[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

إيثار لفظ ﴿مُهْطِعِينَ﴾:

الإهطاع إسراعٌ في ذُلٍّ وتَرَقُّبٍ

هذه الآيةُ المبارَكة مِن الآيات الّتي كَشَفت عن أحوال الظّالمين يوم الجزاء والحساب وما يكونون عليه من هيئةٍ مُشفقةٍ، نحو قوله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَـٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَـٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَـٰذَا ٱلْكِتَـٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾﴾ [الكهف: 49] وتصوِّر حالهم إذا دُعوا إلى الحساب يوم القيامة نحو قوله تعالى: ﴿خُشَّعًا أَبْصَـٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴿٧﴾ مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ ۖ﴾ [القمر: 7 - 8]، وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [المعارج: 43] وأوثر لفظ ﴿مُهْطِعِينَ﴾ دون غيره؛ لجَمْعِهِ بَيْنَ حالتي الإسراع والذُّلّ، أي أنَّهم مُسرعون إلى الحساب في ذُلٍّ وخوف وهلع كإسراعِ الخائف والأسير، مأخوذٌ من أهطع يُهطِع إهطاعًا إذا أسرع، ومثله قوله تعالى: ﴿مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ ۖ يَقُولُ ٱلْكَـٰفِرُونَ هَـٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴿٨﴾﴾ [القمر: 8]، والمُهْطِعُ أيضًا هو الَّذي يَنْظُر في ذُلٍّ وخُشوعٍ.

إنَّ هؤلاء الظّالمين المتكبِّرين الَّذين كانوا يسيرون في الأرض مَرَحًا، ويملؤونها جورًا يسيرون في ذلك اليوم العظيم أذِلّاء مَذعورين نحو البَلاء مُجيبين لأوَّل داعٍ دون إعراض أو تلكُّؤٍ أو تردُّد؛ لأنَّهم لا يملكون الَّا الإذعانَ والإجابةَ.

(1) نُخبة من أساتذة التّفسير، التّفسير الميسّر، ص: 261.

فالمُهْطِع يظهر مِن فَرْط تسرُّعِه وكأنَّ رَقَبَته قد طالتْ، وكأنَّ الجزاء بالعذاب يجذِبه ليقرّبَه، فَيُدفَع في شدَّةٍ وجفوةٍ إلى العذاب، يقول الحقُّ سبحانه: ﴿يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴿١٣﴾﴾ [الطور: 13]، وكأنَّ هناك مَنْ يدفعهم دَفْعًا إلى مصيرهم المُؤْلم[1].

سرُّ استعمال الاسم ﴿مُهْطِعِينَ﴾ بدلًا من الفعل:

ثبات الوَصْف ومُلازمته لهم

أوثر استعمال الاسم ﴿مُهْطِعِينَ﴾ الَّذي وقع حالًا بدلًا من الفعل؛ للدَّلالة على ثبات هذا الوصف في حقِّهم، ومُلازمتِه لهم في ذلك اليومِ العظيم.

إيثار الوصف الفريد ﴿مُقْنِعِي﴾، ودلالته:

الكِناية عن شِدَّة الذُّل والهَوان

الإقناع: رَفْعُ الرأسِ وإدامةُ النَّظر من غيرِ التفاتٍ إلى غيرِه، ومنه قولُ الشَّمّاخ يَصِفُ إبلًا تَرْعى أعالي الشَّجر فترفع رؤوسَها:

يُباكِرْن العِضاهَ بمُقْنَعاتٍ *** نواجِذُهُنَّ كالحِدأ الوَقيع[2].

يَعْنِي: بِرُءوسٍ مَرْفوعاتٍ إلَيْها لِتَتَناوَلَهُنَّ[3]، فقول الله تعالى: ﴿مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ﴾ حالٌ ثالثة تكشف عن هيئة الظّالمين يوم القيامة، وإقناعُ الرَّأس: رَفْعه.

ومعنى الجملة هُنا: رافعوا رؤوسِهم ينظرون في ذُلٍّ وصَغار، والجملةُ كناية عن صِفةٍ هي شِدَّة الذُّل والهَوان والصَّغار، قال البقاعيُّ: "﴿مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ﴾: أيْ رافِعِيها وناصِبِيها ناظِرِينَ في ذُلٍّ وخُشوعٍ إلى جِهَةٍ واحِدَةٍ، وهي جِهَةُ الدّاعِي، لا يَلْتَفِتونَ يَمِينًا ولا شَمالًا، وهَذا كِنايَةٌ عَنْ أشَدِّ الذُّلِّ والصَّغار"[4].

وقيل: إنَّ الكلمة (مُقنع) مِن الأضداد، فيكونُ بمعنى:

(1) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 12/7597.
(2) البيت من بحر الوافر، وهو للشماخ بن ضرار. ينظر: الشّمّاخ، ديوان الشّمّاخ، ص: 56.
(3) القرطبيُّ، الجامع لأحكام القرآن: 12/159.
(4) البِقاعيُّ، نظم الدُّرر: 10/434.

طَأْطَأها ونَكَّسها فهو من الأضداد ذِلَّة وخضوعا[1]؛ والآيةُ الكريمة تحتمل ذلك.

بلاغة الإطناب في وصف أحوال الظّالمين:

إدخال الرَّوْعِ في قَلْبِ السّامِعِ

أطنبَ النَّظم الكريم في وصف أحوال الظّالمين بذكر إهطاعهم وإقناع رؤوسهم يوم القيامة لإدْخال الرَّوْعِ والمهابة في قَلْبِ السّامِعِ.

عِلَّة فصل جملةِ ﴿لَا يَرْتَدُّ﴾:

احتمال الجملة للبدليَّة المانعة من العطف بالواو

هذه جُملة ﴿لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ﴾ حاليَّةٌ ثالثة كاشِفة وواصِفة لحال الظّالمين في الحَشْر، والجُملة تحتمل أكثرَ مِن وَجْه إعرابيٍّ، فهي إمّا حاليَّةٌ، أو بَدَل مِن ﴿مُقْنِعِي﴾ أو استئنافٌ، ومعنى الجملة: "لا يَزولُ ما اعْتَراهم مِن شُخوصِ الأبْصارِ، وتَأْخيرُهُ عَمَّنْ هو مِن تَتِمَّتِه مِنَ الإهْطاعِ، والإقْناعِ مَعَ ما بَيْنَهُ وبَيْنَ الشُّخوصِ المَذْكورِ مِنَ المُناسَبَةِ لِتَرْبِيَةِ هَذا المَعْنى"[2].

دلالة الكناية:

شخوص أبصار الظّالمين لهول المَنْظَرِ

﴿لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ﴾ هذه الحالُ الرّابعة الَّتي تَصِف الظّالمين في أرض المَحْشَر؛ والطَّرْف: الجِفْن، يُقال: ما طَبَق طَرْفُه: أي: جِفْنه على الآخر، ويُطْلَق أيضًا على العَيْن، قال عنترة:

وأغُضُّ طَرْفي ما بَدَت لي جارتي *** حتَّى يواري جارتي مَأواها[3]

والآيةُ فيها تصريحٌ بشُخوص أبصار الظّالمين، حيث تَبْقى مفتوحةً لا تَطْرُف - كالمُحْتَضَر - لِما أصابها مِن الهَوْل، فهؤلاء الظّالمون لا يستطيعون تحريك جُفونهم، وهذا كِنايةٌ عن بقاء العينِ مفتوحةً على حالها لِشِدَّة هَوْل ما يُعاينونه، أو أنَّ أبصارَهم قد استغرقتْها الأهوالُ الّتي تراها فهي فَزِعَة هَلِعَة، قد سُمِّرَت أعينهم

(1) السّمين الحلبيُّ، الدُّر المصون7/121، والقرطبيُّ، الجامع لأحكام القرآن: 12/159.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/275.
(3) عنترة بن شدّاد، ديوانه، ص: 154.

فيما ترى مِن عذاب ذلك الهَوْل الأعظم فلا ترْجِع إليهم، ولا تعود تحت سيطرتِهم فَتَرى ما يَجب أن تراه، وتمتنع عن رؤية ما تَرْغَب ألّا تراه، ولَم يَعُد عليها مِن تَحَكُّم وسُلْطان[1].

سِرُّ استعمال صيغة المضارع المنفيّ:

دوام شخوص أبصارهم واستمراره لتتابع الأهوال عليهم

عبَّر النَّظم الكريم بصيغة المضارع المنفيِّ في قوله: ﴿لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ﴾؛ للإشارة إلى استمرار تلك الحالة لَهُم؛ حيث تبقى أعينُهم شاخصة، أي: "لا يَرْجِعُ إلَيْهِمْ تَحْرِيكُ أجْفانِهِمْ، حَسْبَما كانَ يَرْجِعُ إلَيْهِمْ كُلَّ لَحْظَةٍ؛ بَلْ تَبْقى أعْيُنُهم مَفْتوحَةً لا تَطْرِفُ، أوْ لا تَرْجِعُ إلَيْهِمْ أجْفانُهُمُ الَّتِي هي آلَةُ الطَّرْفِ"[2].

غَرَض تقديم الجارّ والمجرور ﴿إِلَيْهِمْ﴾:

عَدم سيطرة الظّالمين على عيونهم

الغرضُ مِن تقديم الجارِّ والمجرور ﴿إِلَيْهِمْ﴾ على الفاعل في قوله: ﴿لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ﴾ هو بيان عَدم سيطرتِهم على عيونهم الَّتي سُمِّرَت مِن هَوْل ما تُشاهِده، وعَدَم تحَكُّمهم فيها، حيث استولت عليها تلك المَرائي المُفْزِعة ومَلَكَتْها، ولم يَعُد لَهُم عليها مِن سُلطان فيستطيعون تحويلها، أو إغماض جفونها، هذا المعنى ناسبه تقديمُ الجارّ والمجرور ﴿إِلَيْهِمْ﴾ على الفاعل، ولو قيل: لا يرتَدُّ طرفُهم إليهم لضاع الغرضُ المذكور؛ حيث سيُصْبِح الغرضُ بيانَ شخوص أبصارهم أوَّلًا، وعَدَمَ ارتدادها إلَيْهم ثانيةً، لكنَّ المرادَ العكس[3].

نكتة إفراد ﴿طَرْفُهُمْ﴾، والعُدول عن الجمع:

تَشابه هيئة أعْيُنِ أؤلئك الظّالمين يوم القيامة

في قوله تعالى: ﴿طَرْفُهُمْ﴾، عدول عن الإفراد إلى الجمع؛ لِنُكْتَةٍ هي تشابُه هيئة أعْيُنِ هؤلاء الظّالمين في الطَّرفِ والسُّكونِ، فصارت كَطَرْف واحدٍ، وعلى هيئةٍ واحدة؛ لذا كان مِن المناسب إيثارُ المفرد على الجَمْع.

---

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 8/4050.

(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 13/246.

(3) عادل الرويني، تأمُّلات في سورة إبراهيم، ص: 226.

العلاقة بين: ﴿لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ﴾، و﴿تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾:

قَوْلُهُ سبحانه: ﴿لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ﴾ والْمُرادُ مِنْ هَذِهِ الصِّفَةِ دَوامُ ذَلِكَ الشُّخوصِ، وأما قوله تعالى: ﴿تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ۝٤٢﴾ [إبراهيم: 42] لا يدل على كَوْنَ هَذا الشُّخوصِ مُستمرًا بهم دائمًا، فقَوْلُهُ ﷻ: ﴿لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ﴾ يُفِيدُ دَوامَ هَذا الشُّخوصِ، وَذَلِكَ يَدُلُّ عَلَى دَوامِ تِلْكَ الْحَيْرَةِ والدَّهْشَةِ فِي قُلوبِهِمْ[1].

شخوص الأبصار دليل على شدَّة الدَّهشة والحَيْرَة ونفي ارتدادها دليل على دوام ذلك الشُّخوص.

سِرُّ العطف بالواو بذكر حال الأفئدة:

في قوله تعالى ﴿وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ﴾: الواو حاليَّة، وقوله جلَّ شأنه: ﴿وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ﴾: هواء مبتدأ وخبر، والجملة حال رابعةٌ، والمعنى أنَّ شخوصَ أبصارهم مُستمرٌّ، وهذا حالهُم الظّاهر، فلا تتحرَّك أجفان عيونِهم؛ بل تبقى مفتوحةً بدون حَراك لهول ما يُشاهدونه في هذا اليوم العصيب، وأمّا حالُهم الباطن فقلوبهم فارغة خالية عن الفهم، بحيث لا تعي شيئًا من شدَّة الفزع والدَّهشة[2]، ويجوز أن تكون الواو استئنافيَّة، والجملة مستأنَفة[3]، فالمعنى: بعدَ ما وصف حالَهم الظاهرَ شرع في الإخبار عن باطنهم الخائفِ الفَزِع.

وصف الحال الباطن بعد وصف الحال الظاهر

إيثار استعمال لفظ الفؤاد دونَ القلب:

قوله جلَّ شانه: ﴿وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ﴾ الفُؤاد: هو العُضْوُ الَّذي مِن شَأْنِه أنْ يُحَمَّى بِالغَضَبِ، والتَّفَؤُّدُ: التَّحَرُّقُ والتَّوَقُّدُ، وهو اسم من أسماء الْقَلْبِ جَمْعُهُ أَفْئِدَةٌ[4]. ويُسْتَنْبَط مِنْ استخدام هذا اللَّفظ أنَّ الفؤاد هو مَوْطِن المشاعر والأحاسيس والوعي والإدراك؛ لذا أوثر استعمالُ لفظِ الفؤاد دون القلب.

الفؤاد هو مَوْطِن المشاعر والأحاسيس والوعي والإدراك

(1) الرّازيُّ، مفاتيح الغيب: 19/108.
(2) طنطاويُّ، التّفسير الوسيط: 7/573.
(3) درويش، إعراب القرآن: 5/205.
(4) الفيروزاباديّ، القاموس المحيط: (فأد).

سِرُّ جمع ﴿وَأَفْـِٔدَتُهُمْ﴾ وإفراد ﴿هَوَآءٌ﴾:

كَثْرةُ تلك الأفئدة الفارغة مِن العقل والفَهْم والوعي

جُملة ﴿وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ﴾ إمّا حاليَّة، وإمّا استئنافيَّة، وحيث إنَّ الغرض هو الإشارةُ إلى الكَثْرة جُمِعت الأفئدة في قوله: ﴿وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ﴾؛ للإشارة إلى كثرة تلك الأفئدة الفارغة مِن العقل والفَهْم والوعي؛ لِفَرط حيرة أصحابها وذُعْرهم ووَلَهِهم؛ وكأنَّ أفئدتَهم الفارغةَ صارت تَتَكاثرُ، وتتخالَط في ذلك اليوم المَهيب.

وأُفْرِد لفظ ﴿هَوَآءٌ﴾؛ وهو خبرٌ لجمع ﴿وَأَفْـِٔدَتُهُمْ﴾؛ لأنَّ معنى ﴿هَوَآءٌ﴾ هُنا فارغة، ولو لم يُقْصَد ذلك لقيل: (أهْوِية) ليُطابِق الخبرُ مبتدأه[1].

سِرُّ التَّشبيه البليغ للقلوب بالهواء:

تصوير شدَّة اضطرابِ الأفئدة وفراغها

الهواء: هو الخالي من الأجسامِ ويُعبَّرُ به عن الجُبْنِ، يقال: جوفُه هواء؛ أيْ: فارغ. قال زهيرٌ[2] يصف ناقته:

كأنَّ الرَّحلَ مِنْها فوقَ صَعْل *** مِنَ الظِّلمانِ جُؤجؤهُ هَواءُ[3].

والمقصود في الآية: أنَّ قلوب الكُفّار خالية يوم القيامة عن جمع الخواطر، والأفكار لِعِظَم ما نالهم من الحيرة لِما تحقَّقوهُ من العذاب، وخالية من كُلِّ سرور لكثرة ما هم فيه من الهمِّ والحُزنِ[4].

وقوله ﷻ: ﴿وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ﴾ حالٌ رابعة، والمعنى: أنَّ أفئدتَهم قد فَرَغت مِن أسباب السَّكينة والاطمئنان والأمن، وامتلأت بأسباب الهُموم والخوف، أو أنَّ أفئدتهم لا تُدْرك شيئًا ولا تَعِيه مِن شِدَّة

(1) السّمين الحلبيُّ، الدُّرُّ المصون: 7/123.
(2) زهير بن أبي سُلمي، ديوانه، ص: 9.
(3) الصّعل: المُنجرد شعر الرّأس والصّغير الرّأس، والظِّلمان جمع ظليم وهو ذكرُ النّعام، والجؤجؤ الصدر وجؤجؤه: صدره؛ هواء: أي لا مُخّ فيه، وجعل صدره فارغا ليكون أسرع في السّير إلى طعامه. يُنظر: الجوهري، الصِّحاح، وابن منظور، لسان العرب: (هوى)، وابن سيده، المخصّص: 1/279، والجاحظ، الحيوان: 4/454، ودوريش: إعراب القرآن: 5/209.
(4) ابن عادل، اللُّباب في علوم الكتاب: 11/3243.

الخوف والفزع والهَلَع، والجُملة تشبيهٌ بليغ رائع لتلك الأفئدةِ الفَزِعة الطّائرة الخاوية مِن كُلِّ وَعْيٍ وإدراك.

وقد عَلَّقَ ابْنُ عَطِيَّة على هذا التَّشبيه بقوله: "﴿وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَآءٌ﴾ تَشْبِيهٌ مَحْضٌ، لِأَنَّها لَيْسَتْ بِهَواءٍ حَقِيقَةً، وجِهَةُ التَّشْبِيه يُحْتَمَل أنْ تَكونَ في فَراغِ الأفْئِدَةِ مِنَ الخَيْرِ والرَّجاءِ والطَمَعِ في الرَّحْمَةِ، فَهي مُنْخَرِقَةٌ مُشْبِهَةٌ الهَواءَ في تَفَرُّغِهِ مِنَ الأشْياءِ وانْخِراقِهِ، ويُحْتَمَلُ أنْ يَكونَ في اضْطِرابِ أفْئِدَتِهِمْ وجَيَشانِها في صُدورِهِمْ، وأنَّها تَجِيءُ وتَذْهَبُ وتَبْلُغُ - عَلى ما رُوِيَ - حَناجِرَهُمْ، فَهي في ذَلِكَ كالهَواءِ الَّذِي هو أبَدًا في اضْطِرابٍ"[1]، وحُذف وجهُ الشَّبه وأداته؛ كي تذهب النَّفس في وجوه الشَّبه بين الأفئدة والهواء كُلَّ مذهب.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(مهطعين) و(مُسْرعين):

الإهطاع مُختصٌّ بالإسراع المصحوب بالخوف والتَّرَقُّب والحَذَر

يدلُّ أصل مادَّة هَطَع عَلَى إقْبالٍ عَلَى الشَّيْءِ وانْقِيادٍ[2]، وأهْطَع: أسْرَعَ مُقْبِلًا خائفًا، أو أقْبَلَ ببَصَره على الشَّيءِ لا يُقْلِعُ عنه[3]، والمُهْطِع الَّذي لا يرفع رأسه. والإهطاع: بمعنى الإسراع، ومنه ما أنْشَد ابن برِّي:

وبِمُهْطِعٍ سُرُحٍ كأنَّ زِمامَهُ *** في رأسِ جِذْعٍ مِنْ أوالٍ مُشَذَّبِ[4]

ومثله أيضًا قول الشّاعر:

بِمُسْتَهطِعٍ رَسْلٍ كأنَّ جَدِيلَهُ *** بقَيْدومِ رَعْنٍ مِنْ صَوامٍ مُمَنَّعُ[5]

أمّا الإسراع فهو المُبادرة والتّعجيل، تقولُ: أسرع يُسرِعُ إسراعًا

(1) ابن عطِيّة الأندلُسيُّ، المُحرِّر الوجيز، ص: 1060.
(2) ابن فارس مقاييس اللُّغة: (هطع).
(3) الفيروزباديّ، القاموس المُحيط: (هطع).
(4) البيت من الكامل، وهو لابن برّي، الثّعلبيُّ، الكشف والبيان: 5/324.
(5) البيت من الطّويل، وهو بلا نسبة في كتب الأدب والمعاجم: يُنظر: الزّمخشري، أساس البلاغة: 2/376، وابن منظور، لسان العرب، والأزهري، وتهذيب اللُّغة وتاج العروس: (صوم)، (قدم).

فهو مُسرِعٌ وسرِيعٌ أي: بادر وعجّل، والاسمُ: السُّرعةُ، وضِدُّ الإسراع: الإبطاءُ والتّأخِيرُ، ويُستعملُ فِي الأجسام والأفعالِ، والمُسارعةُ: المُسابقةُ، يُقالُ: سارعتُ فُلانًا أي: سابقتُهُ ونافستُهُ، وسرعانُ النّاسِ: أوائِلُهُمُ الّذين يسبِقون إلى الأمرِ، ومِن معاني الإسراعِ أيضًا: الجِدُّ والإقدامُ[1].

والخُلاصة: أنَّ كِلا اللَّفظين يشترك في الدِّلالة على السُّرعة، لكنَّ الإهطاعَ يختصّ بالإسراع المصحوبِ بالخوف والتَّرَقُّب والحَذَر.

القِناع والغِطاء:

القِناع في اللُّغة يَدُلُّ عَلَى الْإِقْبالِ عَلَى الشَّيء، وقَنِعَ بِنَفْسِهِ قَنَعًا وقَناعةً: رَضِيَ. وأقْنَعَ رأسَه: رفعه، والقِناعُ والمِقْنَعةُ: ما تتَقَنَّعُ بِهِ المرأةُ مِنْ ثَوْبٍ تُغَطِّي رأْسَها ومحاسِنَها، وألقى عَنْ وجْهه قِناعَ الحياءِ، عَلَى الْمَثَلِ، وقَنَّعه الشَّيبُ خِمارَه إذا عَلاهُ الشَّيبُ، وَرُبَّما سَمَّوُا الشَّيْبَ قِناعًا لِكَوْنِهِ موضعَ القِناعِ مِنَ الرأْس[2].

أمّا الغِطاء فهو كل ما يُجْعَل فَوْق الشَّيء يَحْجُبه ويَسْتُره كالغِشاء، ويُقال: غَطَّيْتُ الشَّيْءَ وَغَطَّيْتُهُ، والْغِطاءُ: ما تُغَطِّي بِهِ؛ وَغَطا اللَّيْلُ يَغْطو، إذا غَشَّى بِظَلامِهِ[3].

الغطاء أعمُّ وأشمل من القناع

الفؤاد والقلب:

يَدُلُّ أصل مادَّة الفؤاد على حُمَّى وَشِدَّةِ حَرارَةٍ، ومِن ذَلِك: فَأَدْتُ اللَّحْمَ إذا شَوَيْتُهُ، والْفُؤادُ سُمِّيَ بِذَلِكَ لِحَرارَتِهِ[4].

أمّا القلب فيَدُلُّ أصل مادَّته عَلَى شيئين: الأوَّل: خالِص شَيْءٍ وَشَرِيفه، والْآخَرُ عَلَى رَدِّ شَيْءٍ مِنْ جِهَةٍ إِلَى جِهَةٍ، فالْأَوَّلُ الْقَلْبُ:

الفؤاد هو غِشاء القَلْب، والقلب أخصُّ مِن الفؤاد

(1) الزُّبيديُّ، تاج العروس: (سرع).
(2) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبيُّ، عُمدة الحُفّاظ، وابن منظور، لسان العرب: (قنِع).
(3) السّمين الحلبيُّ، عُمدة الحُفّاظ: (غطِو).
(4) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (فأد).

قَلْبُ الْإِنْسانِ وَغَيْرِه، سُمِّيَ لأَنَّهُ أَخْلَصُ شَيْءٍ فِيهِ وَأَرْفَعُه، وَخالِصُ كُلِّ شَيْءٍ وَأَشْرَفُهُ قَلْبُه، وسُمِّي القَلْبُ قَلْبًا أَيضًا لِتَقَلُّبه وتَحَوُّلِه[1].

وفي القرآن الكريم وَرَد اسم القلب بمعنى الأداةِ الدّاخليَّة الَّتي وظيفتُها التَّعَقُّل، ومركزُه الصَّدْر، ويُطْلَق على المعاني الَّتي تَخُصُّ العِلْم والفَهْم والشَّجاعة، وغير ذلك، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾ [ق: 37]، أي عِلْم وفَهْم.

ولا تكاد المعاجمُ اللُّغوية تُفَرِّق بين الفؤاد والقلب، لكن وَرَدَ في القرآن الكريم ما يُؤَكِّد على وجود فَرْقٍ بينهما وهو قوله تعالى: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا ۖ إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾﴾ [القصص: 10]، ومِمّا يُلْحَظ أيضًا في استعمال البيان القرآنيِّ للكلمتيْن أنَّ القَلْب يُذْكَر قَبْل السَّمْع والبَصَر دائمًا، أمّا الفؤاد فيُذْكَرُ بَعْد السَّمْع والبَصَر دائمًا، ومن شواهد هذا قوله تعالى: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٧﴾﴾ [البقرة: 7]، وقوله ﷻ: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾﴾ [الإسراء: 36].

"قال بعضُ العلماء: إنَّ القلب هو الفؤاد، وبعضُهم قال: إنَّ الفؤاد ليس هو القلب، وإنَّما هو غشاء القلب؛ لأنَّ العربيَّة دقيقة، تُسمِّي كلَّ جزء باسمه، وهذا الَّذي يترجَّح؛ أيْ: إنَّ الفؤاد هو الغشاء وما في داخله؛ لأنَّ أصل الفؤاد من التَّفَؤُّد، وهو التَّوقُّد والحُرقة، فكأنَّ القلب هو موضعُ هذه الأشياء، فلذلك استُعْمِل هكذا في هذا المكان"[2].

وأيضًا فإنَّ الفؤاد ليس محَلُّهُ الصَّدْرَ فهو غير القلب بدليل قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾ [الحج: 46]، فالفؤاد هو غِشاء القَلْب، والقلب أخصُّ مِن الفؤاد.

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (قلب).
(2) السّامرائيّ، لمسات بيانيّة، ص: 127.

﴿وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوۡمَ يَأۡتِيهِمُ ٱلۡعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رَبَّنَآ أَخِّرۡنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ نُّجِبۡ دَعۡوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَۗ أَوَلَمۡ تَكُونُوٓاْ أَقۡسَمۡتُم مِّن قَبۡلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٖ ٤٤﴾ [إبراهيم: 44]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

ذُكِرَ في الآية السّابقة وَصْف الكُفّار وحالهم عِنْد البَعْث في القيامة، وفي هذه الآية عودةٌ إلى خطاب النّبيِّ ﷺ وأمْره بالإنذار فقال: ﴿وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ﴾، فبعد أن وصف اللّه تعالى له حال الظّالمين في ذلك اليوم العظيم أمره بإنذارهم منه.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَأَنذِرِ﴾: أصْلُ (نذر): يَدُلُّ على تَخْويفٍ أو تَخَوُّفٍ، ومنه الإنْذارُ: الإبلاغُ؛ ولا يَكادُ يَكونُ إلّا في التَّخويفِ[1]، والنَّذيرُ: المُنْذِرُ، وهو المُحَذِّرُ مِنْ شَرٍّ يُتَوَقَّعُ، والجَمْعُ: النُّذُرُ، والتَّناذُرُ: إنْذارُ بَعْضِهم بَعْضًا[2]، وَمِنْهُ النَّذْرُ، وَهوَ أنَّهُ يَخافُ إذا أخْلَفَ[3]، والمُرادُ بالإنْذارِ في الآيةِ: الإخْبارُ بِما فِيهِ تَوَقُّعُ ضُرٍّ، وَضِدُّهُ البِشارَةُ.

2) ﴿أَجَلٖ﴾: أصلُ الأجَلِ: غايَةُ الوقْتِ في مَحَلِّ الدَّيْنِ وغيرِه، وَقَدْ صَرَّفَهُ الخَليلُ فقالَ: أجِلَ هذا الشَّيءُ وهو يأْجَلُ، والاسمُ الآجِلُ نَقيضُ العاجِلِ، والأجيلُ المُرْجَأُ، أي: المُؤَخَّرُ إلى وَقْتٍ، والآجِلَةُ: الآخِرَةُ[4]، ويُقالُ للمُدَّةِ المضروبة لحياة الإنسان أجَلٌ، فيُقال: دنا أجلُه، عِبارة عن دنوِّ الموت[5]، وقوله: ﴿لِكُلِّ أَجَلٖ كِتَابٞ ٣٨﴾ [الرعد: 38]، أي: تَعْيينٌ وتَحديدٌ لا يَتَقَدَّمُهُ ولا يَتأخَّرُ عنه. وقَولُهُم: (أجَلٌ) في الجوابِ، هو مِنْ هذا البابِ، كأنَّهُ يُريدُ انتهى وبَلَغَ الغايَةَ[6]، والمقصود بالأجَلِ في الآية: الوقتُ المُوَقَّتُ بِهِ عَمَلٌ مَعْزومٌ أو مَوْعودٌ[7].

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (نذر).
(2) الأزهري، تهذيب اللُّغة، وابن عبّاد، المحيط في اللُّغة: (نذر).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نذر).
(4) الخليل، العين، وابن عباد، المحيط في اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة: (أجل).
(5) الراغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (أجل).
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أجل).
(7) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/164.

3) ﴿نُّجِبْ﴾: أصْلُ (جوب) يَدُلُّ على مُراجَعَةِ الكلام، يُقالُ كلَّمَهُ فأجابهُ جَوابًا، وقد تَجاوبا مُجاوبةً[1]، والفِعْل: أجابَ يُجيبُ، والمَصْدَرُ الإجابةُ، والاسْمُ الجابةُ، بِمَنْزِلَةِ الطّاعةِ والطّاقَةِ[2]، وجَوابُ الكلامِ هو ما يَقطَع الجَوْبَ فيَصِل مِن فَمِ القائل إلى سَمْعِ المُستمع، لكن خُصَّ بما يَعود مِن الكلام دون المبتدأ مِن الخِطاب، قال تعالى: ﴿۞فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ﴾ [النّمل: 56]، والجواب يُقال في مُقابلة السُّؤال[3]، والاستجابة قيل: هي الإجابة، وتحقيقه ما قاله الرّاغب: هو تحرّي الجواب وتهيّؤه له، لكن عُبِّر به عن الإحاطة لقلّة انفكاكها منها، قال تعالى: ﴿ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ﴾ [الأنفال: 24][4]، والمُرادُ بالإجابَةِ في الآية: إعْطاءُ الأمْرِ المَسْؤولِ، أي: نُجب فيه دعوة الرُّسل إلى توحيدك، وإخلاص العبادة لك، بعد أن جحَدنا ذلكَ[5].

4) ﴿دَعْوَتَكَ﴾: الدُّعاءُ: النِّداءُ، وأصْلُه: إمالَةُ الشَّيْءِ إلَيْكَ بِصَوْتٍ وكَلام يكون مِنْكَ، ومنه سُمِّيَت الرَّغْبَةُ إلى اللّهِ ﷻ دُعاءً. تقولُ: دَعَوْتُ فُلانًا، دُعاءً ودَعْوَةً، أيْ: نادَيْتُهُ[6]، والدَّعْوَةُ: المَرَّةُ الواحِدَةُ مِن الدُّعاءِ[7]، ويأْتي الدُّعاءُ بِمعنى الطَّلَبِ والسُّؤالِ، يُقال: دَعَوْتُ اللّهَ، أدْعوهُ، أيْ: سَأَلْتُهُ[8]، ويُطلَق على الحَثِّ إلى الشَّيْءِ والتَّرْغيبِ فيهِ، فيُقال: دَعا قَوْمَهُ إلى اتِّباعِهِ، أيْ: حَثَّهُمْ ورَغَّبَهُم[9]، والمقصودُ بالدّعوة في الآية: الحَثُّ إلى الشَّيْءِ والتَّرْغيب فِيهِ، والمُرادُ بها: أوامِرُ التَّكْليفِ وَنَواهِيه.

5) ﴿زَوَالٍ﴾: أصْلُ الزَّوْلِ يَدُلُّ على تَنَحِّي الشَّيءِ عَنْ مَكانِهِ[10]، ومنه الزَّوالُ: التَّحَوُّلُ والانْتِقالُ، يُقال: زالَ مِن بَلَدٍ إلى بَلَدٍ، أي: انْتَقَلَ وتَحَوَّلَ[11]، ويُطْلَق بِمعنى ذَهابِ الشَّيْءِ، يُقال: زالَ الشَّيْءُ، يَزولُ، زَوالاً، أيْ: ذَهَبَت حرَكَتُهُ ومِن مَعانِيهِ: التَّنْحِيَةُ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (جوب).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (جوب).
(3) الراغب، المفردات: (جوب).
(4) الراغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (جوب).
(5) المراغي، تفسير المراغي: 13/166.
(6) الجوهري، الصحاح، وابن فارس، مقاييس اللغة، وابن الأثير، النهاية في غريب الحديث: (دعا - دعو).
(7) ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث والأثر، وابن منظور، لسان العرب: (دعا).
(8) الفيومي، المصباح المنير: (دعو).
(9) الأمير، التّحبير لإيضاح معاني التّيسير: 4/5.
(10) ابن فارس، مقاييس اللغة: (زول).
(11) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن سيده، المحكم: (زول).

والإبْعادُ، يُقال: أزَلْتُ الشَّيْءَ إزالَةً: إذا نَحَّيْتُهُ وأبْعَدْتُهُ[1]. ويأتي بِمعنى الاسْتِحالَةِ والاضْمِحْلالِ، وزوالِ المُلْكِ، والجَمْعُ: أزْوالٌ[2]. والمقصودُ بالزَّوالِ في الآيةِ: الانْتِقالُ مِنَ المَكانِ، وَأُرِيدَ بِهِ هُنا الزَّوالُ مِنَ القُبورِ إلَى الحِسابِ[3].

❁ المَعْنى الإجْمالِيُّ:

تحذيرٌ للظّالمين قبل فوات الأوان

وأنذر - أيُّها الرَّسول ﷺ - أُمَّتَك مِن عذاب اللّه يوم القيامة؛ إذ يقول الَّذين ظلموا أنفسهم بالكفر يومئذٍ: ربَّنا أمْهِلْنا قَليلًا حتَّى نُؤْمِن بك ونُصَدِّق رُسُلَك، فيُجابون توبيخًا: ألم تَحْلِفوا في حياتكم الدُّنيا أنَّكم مُخَلَّدون فيها، وأنَّكم لن تفارقوها إلى الآخرة مُنْكرين البَعْث والنُّشور بَعْد الموت؟[4].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالة الواو في: ﴿وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ﴾:

عَطْف جملة على جملة تحذيرًا من مُشابهة الظّالمين الموصوفة أحوالهم

الواو في قوله: ﴿وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ﴾ عاطِفة، حيث عُطِفَتْ جُملةَ ﴿وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ﴾ على جُملة ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا﴾ [إبراهيم: 42]؛ "لأنَّه قد تمَّ وَصْفُ الكفّارِ وَحالِهِمْ عِنْد البَعْث في القيامة، ثُمَّ عاد إلى خطاب النَّبيِّ ﷺ، وَأمْره بالإنذار فقال: ﴿وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ﴾"[5] تحذيرًا من مُشابهة الظّالمين الموصوفة أحوالهم في الآية السّابقة.

غرض الأمر بإنذار النّاس:

الإنذار مُتَّجِه لِما يجري في هذا اليوم مِن أهوالٍ تقشعرُّ منها الأبدان

في قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ﴾ المُخاطَبُ بالأمر هو الرَّسول الكريم ﷺ، والغرضُ من الأمر الدَّوام، والمعنى: أنذرهم في الدنيا

(1) ابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (زول).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (زول).
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/248.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/248.
(5) جماعة من علماء التّفسير، المختصر في تفسير القرآن الكريم، ص: 261.

قبل أن يأتيهم العذاب[1] وداوم على إنذار النّاس يوم يأتيهم العذاب؛ لأنَّ النَّبيَّ ﷺ ملتزِمٌ بإنذارهم.

نوع (ال) في ﴿ٱلنَّاسَ﴾ بين الجنس والعهد:

الإنذار كما يكون للكافر تهديدًا يكون للمُسلم وعظًا وتذكيرًا

(ال) في قوله ﴿ٱلنَّاسَ﴾ لِلْجِنس والمُراد عموم الأُمَّة، أو عهديَّةٌ إن كان المُراد الكُفّار، "والأولُ أوْلى لأنَّ الإنذار كما يكون للكافر يكون أيضًا للمُسلم، ومنه قوله تعالى ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكۡرَ﴾ [يس: 11]، بَيْدَ أنَّ المؤمن الصّالح يتَّعظ بالإنذار فيُذْعِنُ للنُّصْح، ويستجيبُ لَه فَيَنْجو مِن العِقاب، والكافر لا يستجيب فَيَحِلُّ عليه العذاب والشَّقاء[2].

وقد أشار أبو السُّعود إلى نُكْتةِ اعتبارِ (ال) عهديَّة، أو جِنْسيَّة فقال: "﴿وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ﴾؛ للإشعارِ بأنَّ المُرادَ بالإنذارِ هو الزَّجرُ عمّا هم عليه مِن الظُّلم؛ شفقةً عليهم، لا التَّخويف للإزعاجِ والإيذاءِ؛ فالمُناسِبُ عدَمُ ذكْرِهم بعنوانِ الظُّلم، وعلى القول بأنَّ المرادَ: النّاسُ جميعًا: فإنَّ الإنذارَ عامٌّ للفريقَيْنِ، كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكۡرَ﴾ [يس: 11]، والإتيانُ يعُمُّهما مِن حيثُ كونُهما في الموقِفِ، وإنْ كان لُحوقُه بالكُفّارِ خاصَّةً؛ أيْ: أنذِرْهم وخوِّفْهم[3].

بلاغة المجاز في إيقاع التَّخويفَ باليوم:

تعظيم شأن ذاك اليوم وتهويل ما يقع فيه

المقصود من اليوم في قوله تعالى ﴿يَوۡمَ يَأۡتِيهِمُ ٱلۡعَذَابُ﴾ يومُ القيامة؛ و﴿يَوۡمَ﴾ مَفْعول ثانٍ لِأَنْذِر، ولا يَصِحُّ أنْ يَكونَ ظَرْفًا؛ لِأنَّ يومَ القيامة يومُ حِساب، لَيْسَ بِزَمانٍ لِلْإِنْذار[4]، والإنذار مُتَّجِه لِما يجري في هذا اليوم مِن حال تقشعرُّ مِن هَوْلها الأبدان، إذ تكون أبصارُهم فيها شاخصة، خَوْفَ العذاب الأليم الَّذي هو في ذاته هَوْلٌ أكبر، ولكن جَعَلَ التَّخويفَ لليوم من إطلاق اسم المحلِّ وإرادة

(1) حكمت ياسين، الصّحيح المسبور من التّفسير بالمأثور: 3/143.
(2) القنوجيُّ، فتح البيان: 7/132.
(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/276.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/451.

الحالِّ[1] بطريق المجاز المرسل بعلاقة المحليَّة فالإيقاع عليه مجازي والمُراد ما وقع فيه، وإنَّما أوقع عليه لما في الإبهام من التَّهويل ما لا يخفى لأنَّ في ذلك اليوم الذي وصف ما يُذهب الألباب[2].

فائدة الاقتصار بذكر اتيان العذاب دون الثَّواب:

المقامُ مقام تهديدٍ ووعيد وزَجْر وترهيب

اقْتُصِر في قوله: ﴿وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوۡمَ يَأۡتِيهِمُ ٱلۡعَذَابُ﴾ على ذِكْر إتيان العذاب مع كَوْن يوم القيامة يومَ إتيان الثَّواب أيضًا؛ لأن المقامَ مقامُ تهديدٍ ووعيد وزَجْر وترهيب، فكان مِن المُلائم ذِكْرُ أهوالِه، وشدائده، وأحوالِ الظّالمين فيه.

معنى (ال) في ﴿ٱلۡعَذَابُ﴾:

الإشارة إلى المعهود السّابق من أحوال عذابهم

(ال) في لفظة: ﴿ٱلۡعَذَابُ﴾ للمعهود السّابق؛ أيْ: وأنذرهم يومَ يأتيهم العذابُ الَّذي تقدَّم ذكرُه، وهو شخوصُ الأبصار، وكونُهم مهطعين مقنعي رءوسهم[3].

سِرُّ إيثار لفظ الإتيان بدل المجيء:

التَّعبيرُ بالإتيان تحقيقًا لنزوله وسُرعة حُلوله

أوثر التَّعبيرُ بـ﴿يَأۡتِيهِمُ﴾؛ لأنَّ مادَّة الإتيان تَدُلُّ على السُّهولة واليُسْر، أمّا مادَّة المجيء الَّتي فإنَّها تدلُّ على اكتمال الاتيان وتمامه[4] فإذا اكتمل الاتيان وبلغ مقصده من مكان أو زمان أو شخص أصبح مجيئا، قال تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أُوذِينَا مِن قَبۡلِ أَن تَأۡتِيَنَا وَمِنۢ بَعۡدِ مَا جِئۡتَنَاۚ﴾ [الأعراف: 129] فالمجيء تمام الاتيان، والإتيان هو البداية[5] فناسب التعبيرُ هُنا بالإتيان تحقيقًا لنزوله وسُرعة حُلوله.

بلاغةُ المجاز العقليّ في إسناد الإتيان إلى العذاب:

تهويل العذاب وتفظيعه حتَّى لكأنَّه يتحرك نَحْوَهم بِنَفْسه

المرادُ بالعذاب في قوله تعالى: ﴿يَوۡمَ يَأۡتِيهِمُ ٱلۡعَذَابُ﴾ عذابُ

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير8/4051.
(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 11/97، والآلوسيّ، روح المعاني: 7/233.
(3) ابن عادل، اللّباب: 12/3243.
(4) الرّاغب، المفردات، وابن فارس، مقاييس اللُّغة: (أتى) و(جيَء).
(5) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (جيأ).

الآخرة، وإسناد الإتيان إلى العذاب مستعملٌ في معنى وقوعه على سبيل المجاز العقليِّ؛ فالعذاب لا يأتي من تلقاء نفسه، وإنَّما يأتي به الله ﷻ، وأصْل المعنى: يوم يأتيهم الله بالعذاب، وسِرُّه تهويل العذاب وتفظيعه حتَّى لكأنَّه يتحرك نَحْوَهم بِنَفْسه[1].

دلالة الفاء في: ﴿فَيَقُولُ﴾:

الفاء في قوله تعالى: ﴿فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ عاطفة، وتَدُلُّ على سُرْعة طَلَب الَّذين ظلموا إعادتَهم إلى الدُّنيا فَوْرَ إتيان الله تعالى لَهُم بالعذاب.

سُرعة طلب الظّالمين تأخير العذاب عنهم

فائدة التَّعبير بالفعل المُضارع في ﴿فَيَقُولُ﴾:

دلَّت صيغة المضارع ﴿فَيَقُولُ﴾ على تكرار قولهم، واستمراره، ودلَّت كذلك على استحضار صورتِهم وهم يفعلون ذلك.

الدَّلالة على تكرار الطَّلب منهم واستمراره

سرُّ التَّعبير باسم الموصول:

قوله تعالى ﴿فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾: أي: فيقول الظّالمون، ففي الجملة عُدولٌ عن الإضمار إلى الإظهار، وعُبِّر بالاسم الموصول؛ لِيَتَأَتَّى مِن خلال جُملة الصِّلة الحُكْمُ عليهم بِالظُّلْم، ولِلْإشْعارِ بِأنَّ ما لَقوهُ مِن الشِّدَّةِ إنَّما هو لِظُلْمِهِمْ، وإيثارُهُ عَلى صِيغَةِ اسم الفاعِلِ (الظّالمون) لِلْإيذانِ بِأنَّ الظُّلْمَ في الجُمْلَةِ كافٍ في الإفْضاءِ إلى ما ذُكِرَ مِنَ الأهْوالِ مِن غَيْرِ حاجَةٍ إلى الاسْتِمْرارِ عَلَيْهِ كَما يُنْبِئُ عَنْهُ صِيغَةُ اسم الفاعِلِ، وعَلى تَقْدِيرِ كَوْنِ المُرادِ بِالنّاسِ عمومهم، فمَعْنى الَّذِينَ ظَلَموا مِنهم: الكُفّارُ، وكُلُّ مَن ظَلَمَ بِالشِّرْكِ، والتَّكْذِيبِ مِنَ المُنْذَرِينَ، وغَيْرِهِمْ مِنَ الأُمَمِ الخالِيَةِ، فَإنَّ إتْيانَ العَذابِ يَعُمُّهم[2].

إثيانُ العَذابِ يَعُمُّ كلَّ ظالم

سِرُّ إيثار الدُّعاء باسم الرُّبوبيَّة، وحذف أداة النِّداء:

في إيثار الدُّعاء بالرُّبوبيَّة، والعدول عن (اللهمَّ) استعطاف منهم

الدَّلالة على الاستعطاف والتَّوَدُّد والتَّقرُّب إلى رَبِّهم

(1) المطعنيُّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام في القرآن الحكيم: 2/180.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/276.

لله تعالى واستجداء؛ ليُجيب رجاءهم بالعودة إلى الدُّنيا للإيمان به ﷻ، وبرُسِله. وهذا المعنى يُناسبه الدُّعاء بِوَصْف الرُّبوبيَّة الّذي يَدُلُّ على الإحسان، والتَّقدير أيُّها المُحْسِنُ إلَيْنا بِالخَلْقِ والرِّزْقِ والتَّرْبِيَّةِ واللُّطْف.

وحُذِفَت أداة النِّداء في قولهم: ﴿رَبَّنَآ﴾ - كَما حكاه القرآن عنهم - للتَّوَدُّد والتَّقَرُّب إلى رَبِّهم.

دلالة التَّلويح باختلاف حال الدّاعين بلفظ ﴿رَبَّنَآ﴾:

الدَّلالة على شُمول آثار الرُّبوبيَّة للطّائع والعاصي

كلُّ ما أنعمَ الله به منَ الخَلْق والرزق والتدبير مما هو داخل في الربوبية فهو عامٌّ يشمل الكافر والمؤمن والطائع والعاصي، لأن الربوبيَّة تقتضي القيامَ على رعاية الخَلْق وتدبير أمره، وهذا من نعمه على عباده ورحمته بهم.

وقد جاء تجسيد ذلك في دعاء إبراهيم عليه السلام، لمّا أراد تخصيص المؤمنين في طلبه للأمن والرزق كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾﴾ [البقرة: 126]

وفي هذا بيانٌ أنّ الكافر له نصيبه من الرِّزق فلن يُحرم منه وذلك لعموم الرُّبوبيَّة، ولذلك فالظّالمون يتعلَّقون بالرُّبوبيَّة يوم يأتيهم العذاب كما تعلَّقوا بها في الدُّنيا ظَنّا منهم أنَّها تسعُهُمْ كما وسعتهم من قبلُ، والإنسان لحظةَ أن يمسّه الضُّرّ فهو يدعو بالرّبوبيّة المُتضمِّنة لمعاني الإحسان والإنعام[1].

وكلّ النِّعم من عطاء الرّبوبيَّة وهي لله يعطيها في الدُّنيا لخلقه جميعًا، وهذه رحمة، فالله ربُّ الجميع: من أطاعه ومن عصاه. وهذه رحمة، والله قابل للتَّوبة، وهذه رحمة[2].

(1) الشّعراويُّ، تفسير الشّعراويِّ: 12/7121.
(2) الشّعراويُّ، تفسير الشّعراويِّ: 1/54.

دلالة جُملة مقول القول ﴿أَخِّرۡنَآ﴾:

تصوير حالة مثولهم وخضوعهم بين يدي ربِّهم

في قوله: ﴿رَبَّنَآ أَخِّرۡنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ﴾ هُنا تَلوينٌ للأسلوب مِن الحكاية إلى الخطاب والطَّلب، وكأنَّ هؤلاء الكفّار الظّالمين ماثلون خاضعون يَتَمَنَّون ويطلبون! فنَقل هذا الأسلوبُ في سرعة خاطفة حكايةَ حالهم في الدُّنيا إلى مُجابهتِهم بالخِطاب في الآخرة، وهكذا في لَمْح البَصَر تُطْوى صفحة الدُّنيا شاملةً كُلّ مافيها بِما فيها ومن فيها!.

بلاغة المجاز في التَّعبير عن الإعادة إلى الدُّنيا بتأخير العذاب:

التَّمنِّي والتَّوسُّل إظهارًا لشِدَّة النَّدامة والتَّحسُّر

عبَّر النَّظم الكريم عن الإعادة إلى الدُّنيا بتأخير العذاب في الآخرة على سبيل المجاز في جُملة ﴿رَبَّنَآ أَخِّرۡنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ﴾ فالتَّأْخِيرُ مُسْتَعْمَلٌ فِي الْإِعادَةِ إِلَى الْحَياةِ الدُّنْيا مَجازًا مُرْسَلًا[1]، والغرض من هذا الطَّلب التَّمَنِّي والتَّوَسُّل إظهارًا لشِدَّة النَّدامة والتَّحَسُّر.

الكِناية في: ﴿أَخِّرۡنَآ﴾، وإيثار التعبير به:

الإشارة إلى أنَّ طَلَبهم العَوْدُ للحياة الدُّنيا من قبيل المُحال

في قوله تعالى: ﴿أَخِّرۡنَآ﴾ أي أَخِّرْ العذاب عَنّا أو رُدَّنا إلَى الدُّنْيا[2] والكِنايةُ عن إعادتهم إلى الحياة الدُّنيا ليؤمنوا بالله وبرسله، وفي هذه الكناية إشارَة إلَى أن هذا الطَّلب الذي يتضمَّنُ الرَّدَّ إلَى الدُّنْيا؛ بعد خرابها وزوالها هو من قبيل التَّمني المُنْظَمِّ للمُحال[3].

فائدة وَصْف الأجَل بكونه قريبًا:

في وُصِفَ الأجَل بقريب في قوله تعالى ﴿رَبَّنَآ أَخِّرۡنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ﴾ تَلْيينٌ في الخِطاب، ووسيلة منهم لاستجابة الله تعالى لدعائهم[4].

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/248.

(2) البيضاوي، أنوار التّنزيل: 3/202.

(3) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 11/97.

(4) المطعنيُّ، التّفسير البلاغيُّ للاستفهام في القرآن الحكيم: 2/180.

دلالة الاستعارة في وصف الأجل بالقُرب:

تصوير شدَّة افتقارهم ولو إلى القليل من الوقت رجاء تدارك ما فات

في قوله ﷻ: ﴿أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ القريبُ هو القليل، فَفيه استعارةٌ مكنيَّة؛ حيث شُبِّه الزَّمان بالمَسافَة، ثمَّ حذف المشبَّه به، ورُمِزَ إليه بشيءٍ من لوازمه، وهو القُرْبُ، أيْ أخِّرْنا مِقْدارَ ما نُجِيبُ بِهِ دَعْوَتَكَ[1]، وفي هذه الاستعارة تصويرٌ لشدة افتقارهم ولو إلى القليل من الوقت رجاء تدارك ما فاتهم من إجابة الرسل واتِّباعهم.

فائدة تنكير ﴿أَجَلٍ﴾:

التَّكثيرُ لإطالة المُدَّةِ وطَلَبِ المُهلَة

أفاد التَّنكيرُ في لفظة ﴿أَجَلٍ﴾ هنا في قوله تعالى ﴿أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ التَّكثيرَ؛ لأنَّهم يريدون إطالة المدَّة تنفيسًا لهم مِمّا هم فيه من الكرب والشِّدَّة.

وَجْهُ الجزم في إجابتهم الدَّعوة، والمراد بها:

الجزمُ لكونه جوابا للأمر، والدّعوةُ للإيمان بأركانه

عِلَّةُ الجَزْم في قولهم ﴿نُّجِبْ﴾ لوقوعه جوابًا للأمر في قوله: ﴿أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾.

والمرادُ بالدَّعوة هُنا الإيمانُ بما أرسله الله تعالى إليهم عن طريق رُسُله مِن توحيده، وعَدَم الشِّرْك به، والإقرار بألوهيَّته سبحانه ورُبوبيَّته.

نكتة الإضافة في: ﴿دَعْوَتَكَ﴾:

الدعوة إلى التوحيد من الله والرُّسُل عليهم السلام هُم المُبَلِّغون لها

أضيفت الدَّعوة في قوله تعالى: ﴿نُّجِبْ دَعْوَتَكَ﴾ إلى ضمير المخاطَب بدلًا مِن (دعوة رسُلِك)؛ لأنَّ دعوة الله تعالى هي الأصل، والرُّسُل عليهم السلام هُم المُبَلِّغون لها؛ لذا قَدَّم الظّالمون وَعْدَهم إجابة دعوة الله تعالى، وأخَّروا اتِّباع الرُّسُل عليهم السلام؛ لأنَّ المُقَدَّم أصْلٌ وهو (دعوة الله تعالى).

فائدة العَطْف والتّميم في جُملة ﴿وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ﴾:

عُطفت الجملة في قوله تعالى: ﴿وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ﴾ على ما قَبْلَها مِن

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/248.

باب عَطْف الخاص على العامّ، والنُّكْتة في ذِكْر الخاص "لاستدراك ما بَدَرَ منهم مِن تكذيب الرُّسُل، والسُّخْرية منهم"[1]، والمعنى: نُطيع رُسُلَك، ونُصَدِّقُهم، ولا نستكبر عليهم؛ بل نكون لهم تَبَعًا وفي هذا وعد بكمال الانقياد والطّاعة.

وَعْدُ الظّالمين بِتَصديق الرُّسُل عليهم السلام بيان لكمال الانقياد والطّاعة

دلالة الجمع في لفظة ﴿ٱلرُّسُلَ﴾:

جاء التَّعبير عن الرُّسُل عليهم السلام بالجَمْع ﴿وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ﴾؛ والجمعُ إما باعتبار اتفاقِ الجميعِ على التوحيد فاتِّباعُ واحدٍ منهم اتِّباعٌ لَهُم جميعًا عليهم السلام، وكونِ عصيانهم للرسول ﷺ عصيانا لهم جميعاً وإما باعتبار أنَّ المحكي كلام ظالمي الأمم جميعًا والمقصودُ بيانُ وعدِ كُلِّ أمةٍ باتِّباع رسولها[2].

اتِّفاق دَعوة الرُّسُل عليهم السلام في كَوْنها للتَّوحيد

معنى (ال) في ﴿ٱلرُّسُلَ﴾:

المُراد ب(الرُّسُلِ) في هذا المقام هُم الرُّسل الَّذين أُرسلوا إليهم فقد كانوا يعرفونهم بأعيانهم في الدنيا و.

التَّعريف مُفيدٌ للعهد

سرُّ الجواب بالاستفهام ودلالة العدول عن الجواب بالرَّفض:

في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ تَكُونُوٓاْ أَقْسَمْتُم﴾ بدايةُ الرَّد على طَلَب الظّالمين بِتَأخير العذاب، وجاء هذا الرَّد بأسلوب الاستفهام موَبِّخًا لَهُم، ومُقَرِّعًا، ومُقَرِّرًا، حيث ساقهم سَوْقًا إلى ساحة الخِطاب؛ لِيَقْذِفَ في وجوههم هذا الرَّدَّ الصّادِم المُخَيِّب لِأُمْنيَّتهم، يُذَكِّرهم بِما قالوه تَجَبُّرًا وجَهْلًا، "فالجملةُ الكريمة تحكي رفضَ مطالبهم بأبلغ أسلوبٍ؛ حتَّى يزدادوا حُزْنًا على حُزْنهم، وحَسْرةً على حَسْرتهم"[3]، والاستفهام للتَّقرير والتَّوبيخ والتَّبكيت.

توبيخ الظّالمين وتقريعهم بما يستلزم رَدَّ طلبهم وتخييب أمنيَّتهم بأبلغ أسلوب

وقَدْ أبانَ ابن عاشور عن عِلَّة العدول عن الجواب بالرَّفض إلى

(1) المطعنيُّ، التّفسير البلاغيُّ للاستفهام في القرآن الحكيم: 2/180.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: (5/56).
(3) الرُّوينيُّ، تأمُّلات في سورة إبراهيم، ص: 229.

الجواب بالاستفهام فقال: "لَمّا ذُكِرَ قَبْلَ هَذِهِ الجُمْلَةِ طَلَبُ الَّذِينَ ظَلَموا مِن رَبِّهِمْ تَعَيَّنَ أنَّ الكَلامَ الواقِعَ بَعْدَها يَتَضَمَّنُ الجَوابَ عَنْ طَلَبِهِمْ فَهو بِتَقْدِيرِ قَوْلٍ مَحْذوفٍ، أيْ: يُقالُ لَهم، وقَدْ عُدِلَ عَنِ الجَوابِ بِالإجابَةِ أوِ الرَّفْضِ إلى التَّقْرِيرِ والتَّوْبِيخِ؛ لِأنَّ ذَلِكَ يَسْتَلْزِمُ رَفْضَ ما سَألوهُ"[1].

سِرُّ افتتاح الجواب بواو العَطْف في: ﴿أَوَلَمْ﴾:

التَّنبيه عَلى مَعْطوفٍ عَلَيْهِ مُقَدَّرٍ هو رَفْضُ ما سَألوهُ

قائلُ هذا الجواب لَهُم هو اللّهُ تعالى، والمعنى: أولم تكونوا - أيُّها الظّالمون - تُقْسِمون بالأيمان المُغَلَّظة في الدُّنيا بأنَّكم بَعْد موتكم ستبقون في قبوركم إلى أن تَبْلى أجسادُكم، وأنَّه ليس بَعْد ذلك مِن بَعْث ولا حِساب ولا ثواب ولا عِقاب[2].

والواو في ﴿أَوَلَمْ تَكُونُوٓاْ أَقْسَمْتُم﴾ للعَطْف على محذوف تقديره: أتقولون هذا الآن، وقد كُنْتُم أقْسَمتم في الدُّنْيا أنَّكم لن تُبْعَثوا ولن تُحشروا؟!.

"وافْتُتِحَتْ جُمْلَةُ الجَوابِ بِواوِ العَطْفِ تَنْبِيهًا عَلى مَعْطوفٍ عَلَيْهِ مُقَدَّرٍ هو رَفْضُ ما سَألوهُ، حُذِفَ إيجازًا؛ لِأنَّ شَأْنَ مُسْتَحِقِّ التَّوْبِيخِ أنْ لا يُعْطى سُؤْلَهُ، فالتَّقْدِيرُ: كَلّا، و﴿أَوَلَمْ تَكُونُوٓاْ أَقْسَمْتُم﴾... إلى آخره"[3].

بلاغة الحذف بين همزة الاستفهام، وحرف العطف في: ﴿أَوَلَمْ﴾:

دلالة حالهم على سابق مقالهم

تقدير الكلام هُنا في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ تَكُونُوٓاْ أَقْسَمْتُم﴾: أجحدتم أو أعرضتم وأقسمتم ما لكم من زوال، وإنَّما وقع الحذف في هذه الجملة الكريمة لدلالة حالهم على سابق مقالهم.

فائدة فعل الكَوْنِ ﴿تَكُونُوٓاْ﴾:

الدَّلالة على المُكْنة في اغترارهم والرُّسوخ في كُفرهم وافتخارهم

في التَّعبير بفعل الكَوْن إشارةٌ إلى أنَّهم كانوا في غايَةِ المُكْنَةِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/248.
(2) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 3/212.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/249.

والاغترار بالأمَل، والزَّهو والافتخار بالنَّفْس مع الرُّسوخ في الكفر والتَّكذيب.

نكتة العدول بما ذُكِر عن (أولم تُقْسِموا):

قوله تعالى ﴿أَوَلَمْ تَكُونُوٓاْ أَقْسَمْتُم﴾ أيْ جَهْلًا وسَفَهًا أوْ أشَرًا وبَطَرًا؛ وعُدِل عَن قول (أوَ لم تُقْسِموا): لأنَّ التَّقدير على إرادة القول، فَهُم إمّا أن يكونوا قد قالوا هذا نَصًّا بِلِسان مقالهم، وإمّا أن يكونوا قالوه بلسان الحالِ حيث بَنَوْا شديدًا وأمَّلوا بعيدًا[1]، وفي التَّعبير بالماضي ﴿أَقْسَمْتُم﴾ إشارة إلى تَحَقُّق قَسَمِهم وتَأكُّدِه سواء كان بلسان الحال، أو بلسان المقال.

الإشارة إلى تحقُّق قسمهم وتأكُّدِ سوء مقالهم وقبيح فِعالهم

معنى: ﴿مِّن﴾:

﴿مِّن﴾ في قوله تعالى: ﴿مِّن قَبْلُ﴾ هُنا ابتدائيَّة، أي أنَّكم أقسمتم من أوَّل الأمر وقبل التَّفكُّر فيه وقبل النظر والاعتبار بمن أهلك من قبلكم من أمم الكُفْرِ.

إفادة الابتداء الدّالِّ على عدم التَّفَكُّر والاعتبار

فائدة القَيد بالظَّرف المجرور:

قوله تعالى: ﴿مِّن قَبْلُ﴾ أي حين كنتم في الدُّنيا ودَلَّ التَّعبير بالظَّرف المجرور في أنَّ وَقْت إقْسامِهِمْ لَمْ يَكُنْ مُسْتَغْرِقًا لِلزَّمان.

الإشارة إلى أنَّ وَقْت إقْسامِهِمْ لَمْ يَكُنْ مُسْتَغْرِقًا لِلزَّمان

سِرُّ الإيجاز بالحذف في: ﴿مِّن قَبْلُ﴾:

وفي قوله: ﴿مِّن قَبْلُ﴾ أي في حياتكم الدُّنيا إيجازٌ بالحَذْف للعلم بزمن قسمهم؛ لأنَّ الآخرة دار جزاء لا دار عمل وفي هذا الإيجاز دلالة على حقارة ما كانوا فيه، وسُرعة انقضائه.

الدَّلالة على حقارة ما كانوا فيه، وسرعة انقضائه

عِلَّة الفصل في: ﴿مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ﴾:

قوله تعالى ﴿مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ﴾ والمعنى: ما لَكم مِن زَوالٍ مِن الأرض وانْتِقالٍ بَعْدَ الموت، أي حَلَفْتم أنَّكم لا تُبْعثون كَقَوْلِهِ تَعالى:

كون هذه الجملة بيانًا لجُملة (أقْسَمْتُمْ)

(1) الزّمخشريُّ، الكشّاف: 2/307.

﴿وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ لَا يَبۡعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُۚ﴾ [النَّحل: 38][1]؛ وفُصِلَت الجُمْلَةُ عمّا قبلها؛ لأنَّها جاءت بَيانًا لِجُمْلَةِ ﴿أَقۡسَمۡتُم﴾[2].

سِرُّ اصطفاء الخِطاب في ﴿لَكُم﴾ وما قبله في الجُملة الكريمة:

مُراعاة حال المُخاطَب لكونه أدخل في التَّوبيخ وأصرح في المُراد

صِيغَةُ الخِطابِ في ﴿مَا لَكُم﴾ لِمُراعاةِ حالِ الخِطابِ في ﴿أَقۡسَمۡتُم﴾، وهو أدْخَلُ في التَّوْبيخِ مِن أنْ يُقالَ: ما لَنا، مُراعاةً لِحالِ المَحْكِيِّ الواقِعِ في جَوابِ قَسَمِهِمْ[3].

كما بَيَّنَ النَّظم الكريم الجَوابَ المُقْسَمَ عَلَيْهِ حاكِيًا مَعْنى قَوْلِهِمْ لا لَفْظَهُ؛ لِيَكونَ صَرِيحًا في المُرادِ مِن غَيْرِ احْتِمالٍ لِتَعَنُّتٍ لَوْ قِيلَ: ما لَنا؟[4].

دلالة إثبات حرف الجَرِّ وحَذْف متعلّق ﴿زَوَالٍ﴾:

إفادة استغراق النَّفي وتوكيده

أكَّدَ النَّظم الكريم النَّفْيَ بشبه الجُملة: ﴿مِّن زَوَالٍ﴾ أي عَمّا أنْتُمْ عَلَيْهِ مِنَ الكُفْرانِ وعَدَمِ الإذْعانِ لِلْإيمانِ، أوْ مِن هَذِهِ الدّارِ إلى الدّارِ الآخِرَةِ، أوْ مِن مَنازِلِكُمُ الَّتِي أنْتُمْ بِها، كِنايَةً عَنْ ثَباتِ الأمْرِ وعَدَمِ المُبالاةِ بِالمُخالِفِ كائِنًا مَن كانَ"[5].

فأفاد إثباتُ ﴿مِّن﴾ في قوله تعالى: ﴿مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ﴾ استغراقَ النَّفي وتوكيدَه، وَحُذِفَ مُتَعَلَّقُ زَوالٍ لِظُهورِ المُرادِ.

معنى الزوال في هذا الموضع ونكتة تنكير لفظه:

الإشْعارُ بِامْتِدادِ زَمانِ الإمهال، وبُعْدِ مَدى التَّأْخِيرِ وتعظيم زواله وانقضاءه

الزَّوالُ: الانتقالُ مِن حالٍ إلى حال، أو مِن مكان إلى آخرَ، والمُرادُ به هُنا: انتقالُهم مِن قبورهم إلى الحساب يوم القيامة، أي مالكم من زوال مما أنتم عليه من التمتع بالحظوظ الدنياوية ولم تُحدِّثوا أنفسكم بالانتقال إلى هذه الأحوال والأهوال وفِيها إشْعارٌ بِامْتِدادِ

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 13/248، وابن جُزِّي، التّسهيل في علوم التّنزيل، ص: 417.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 13/248.
(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/277.
(4) البِقاعيُّ، نظم الدُّرر: 10/436.
(5) البِقاعيُّ، نظم الدُّرر: 10/436.

زَمانِ الإمهال، وبُعْدِ مَدى التَّأْخِيرِ"[1]، وأفاد التَّنكير هنا التَّعظيم، أي: ليس لكم من زوالٍ يستأصل شأنَكم.

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الإنذار والتَّخويف:

الإنذار تخويفٌ مع إعلام موضع المخافة وذِكْر المَضارِّ

الخوف: تَوَقُّعُ الضَّرَر المشكوك في وقوعه، وهو يتعلَّق بالمكروه؛ أمّا الإنذار: فهو تخويفٌ مع إعلام موضعِ المخافة وذِكْر المَضارِّ مِن قولك: نذرتُ بالشَّيءِ إذا علمتَه فاستعددت له، فإذا خَوَّف الإنسانُ غيرَه، وأعْلَمَه حالَ ما يخوِّفه به فقد أنذرَه، وإن لم يُعْلمه ذلك لم يُقَل: أنْذره.

والإنذار إحسانٌ مِن المُنْذِر، وكُلَّما كانت المخافة أشَدَّ كانت النِّعْمة بالإنذار أعظمَ؛ ولهذا كان النَّبِيُّ ﷺ أعظمَ النّاسِ مِنَّةً بإنذاره للأمَّة عقاب الله تعالى[2].

الأجَل والمُدَّة:

الأجَل الوقت المضروب لانقضاء الشَّيءِ

الأجَل الوقت المضروب لانقضاء الشَّيءِ، وأجَلُ الإنسان هو الوقت لانقضاء عُمره، وأجَل الدَّيْن مَحِلُّه، وذلك لانقضاء مُدَّة الدَّيْن، وأجَلُ الموت وقت حُلولِه وذلك لانقضاء مُدَّة الحياة قَبْلَه، فأجَلُ الآخرة الوقت لانقضاء ما تَقَدَّم قَبْلَها قبل ابتدائِها، ويجوز أن تكون المُدَّة بَيْن الشَّيْئَيْن بِجَعْلِ جاعلٍ وبغير جَعْلِ جاعل، وكُلُّ أجَلٍ مُدَّةٌ وليس كُلُّ مُدَّة أجَلًا[3].

الدُّعاءُ والنِّداء:

الدُّعاء يَتَضمَّن طَلَبًا، والنِّداء لا يستلزم طَلَبًا

النِّداء هوَ رفع الصَّوْت بِما لَه معنى، والدُّعاء يكون بِرَفْع الصَّوْت وخَفْضه يُقال: دَعوته مِن بعيد ودعوت اللّهَ في نَفسِي وَلا يُقال: ناديْتُه في نَفسِي.

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 13/248.
(2) العسكريّ، معجم الفروق اللُّغويّة، ص: 46.
(3) العسكريّ، معجم الفروق اللُّغويّة، ص: 46.

وأصل الدُّعاء طلب الْفِعْل دَعا يَدْعو، والدُّعاء يَتَضمَّن طَلَبًا، والنِّداء لا يستلزم طَلَبًا، ومِن الشَّواهد القرآنيَّة على ذلك قوله تعالى: ﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ ۝٥٥﴾ [الدُّخان: 55]، وقوله تعالى: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ ۝٦﴾ [القمر: 6][1].

الزَّوال والانتقال:

الانتقال أعمُّ من الزَّوال

الانتقال يكون في الجهات كُلِّها، والزَّوال يكون في بَعْض الجِهات دونَ بعض، فلا يُقال: زال مِن سُفْلٍ إلى عُلوٍّ، كما يُقال انتقل مِن سُفْلٍ إلى عُلوٍّ، ويُعَبَّر عن العَدَم بالزَّوال فيُقال: زالت عِلَّته، والانتقال يقتضي مُنْتَقَلًا إليه، والانتقال يَتَعَدَّى بحرف الانتهاء (إلى)، والزَّوال لا يقتضي ذلك، والزَّوال أيضًا لا يكون إلّا بعد استقرار[2].

(1) السّامرائيُّ، لمسات بيانيّة، ص: 243.
(2) الرُّمّانيُّ، الألفاظ المُترادفة المُتقاربة المعنى، ص: 59.

﴿وَسَكَنتُمْ فِي مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ٤٥﴾ [إبراهيم: 45]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

مواصلة تقرير أحوال الظّالمين

جاءت الآيةُ معطوفةً على الَّتي قَبْلها، ووقعت في سياق وعيد للظّالمين، وتسليةً للمظلومين بذكر أحوال الظّالمين في عدم اعتبارهم بمن سبقهم من الأمم.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَسَكَنتُمْ﴾: أَصْلُ (سكن): يَدُلُّ على خِلافِ الاضْطِرابِ والْحَرَكَةِ[1]. فالسُّكونُ ضدُّ الحركة، يقال: سَكَنَ الشَّيء يَسْكُنُ سُكونًا، إذا ذهبت حركته[2]. والسَّكَنُ: اسْمٌ بِمَعْنَى الْمَسْكونِ. والسُّكْنَى: مَصْدَرُ سَكَنَ فُلانٌ البَيْتَ، إذا جَعَلَهُ مَقَرًّا لَهُ، وَهوَ مُشْتَقٌّ مِنَ السُّكونِ، أي الْقَرارِ[3]. والسَّكَنُ: الْأَهْلُ الَّذِينَ يَسْكُنونَ الدّارَ[4]. والسَّكينة: الطَّمأنينة والاستقرار والرَّزانة والوقار[5]. والْمُرادُ بِالسُّكْنَى: الْحُلولُ[6].

المَعْنى الإجْمالِيُّ:

تقريع الظّالمين وتوبيخهم لعدم اعتبارهم بأحوال السّابقين

يقول الحقُّ سبحانه: ونزلتم في مساكن الأمم السّابقة الظّالمة لأنفسها بالكُفر بالله مِن قبلكم، مثل قوم هود وقوم صالح، واتَّضح لكم ما أوقعناه بهم من الهلاك، وضربنا لكم الأمثال في القرآن لتتَّعظوا، فما اتَّعظتم بها[7].

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سكن).
(2) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (سكن).
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/238.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سكن).
(5) مجمع البحوث، التفسير الوسيط: 1/440.
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/249.
(7) جماعة من علماء التفسير، المختصر في تفسير القرآن الكريم، ص: 261.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالة الواو في: ﴿وَسَكَنتُمۡ﴾:

الحُلولُ في أماكن الظّالمين أدعى للاتِّعاظ والاعتبار

الواو في قوله: ﴿وَسَكَنتُمۡ﴾ عاطفة، عَطَفَتْ جُملة ﴿وَسَكَنتُمۡ﴾ على جملة ﴿أَقۡسَمۡتُم﴾، والمرادُ بالسُّكنى: الحُلول في أماكن الظّالمين لوقت يَكْفِي للاتِّعاظ الاعتبار، وكُفّارُ قريش كانوا يَمُرّون بديار قوم ثمودَ في رحلتهم إلى الشّام، وكانوا يَحُطّون رِحالهم هُناك، كما كانوا يمرّون على ديار قوم عاد في رحلتهم إلى اليمن.

والمعنى: لقد أقسمتم - أيُّها الضّالون - بأنَّكم ما لَكُم من انتقال من دار الدُّنيا إلى دار الآخرة، وحللتم في مساكن القوم الظّالمين[1]، فكان عجيبًا أن تروا مساكن الظّالمين أمامكم، خالية منهم، وأنتم فيها خُلفاء، ثم تقسمون مع ذلك: (ما لكم من زوال)! وعند هذا التَّبكيت ينتهي المشهد، وندرك أين صاروا، وماذا كان بعد الدُّعاء وخيبة الرَّجاء.

دلالة استعمال صيغة الماضي: ﴿وَسَكَنتُمۡ﴾:

استعمل النَّظم الكريم صيغة الماضي في ﴿وَسَكَنتُمۡ﴾؛ للدِّلالة على تَحَقُّق السُّكنى وتأكُّدِها.

سِرُّ تعدية الفعل (سَكَنَ) بحرف الظَّرْفيَّة:

الدِّلالة على طول بَقاء كُفّار قريش وسُكْناهم في ديار سابقيهم من الظّالمين

عُدِّي الفعلُ (سَكَنَ) في الآية بحرف الظرفية ﴿فِي﴾، مع أنَّه يجيء أيضًا متعدِّيا بِنَفْسِهِ في قوله: ﴿فِي مَسَٰكِنِ﴾؛ للدِّلالة على طول بَقاء كُفّار قريش وسُكْناهم في ديار مَن سَبَقوهم مِن أهل الظُّلْم كعادٍ وثمود، وهذا أدعى لِعِظتهم واعتبارهم مِمّا حَلَّ بأهل الظُّلْم والكُفْر مِن الأُمم السّابقة، لكنَّهم مع طول بقائهم واستخلافهم لِديار مَن سبقوهم مِن أهْل الطُّغيان لَمْ ينزجروا ولم يتَّعظوا.

(1) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 2/321.

بديع الجِناس الاشتقاقي:

الدَّلالة على السُّكون والاستقرار

دَلَّ جناس الاشتقاق في ﴿وَسَكَنتُمْ فِي مَسَٰكِنِ﴾ على السُّكون والاستقرار؛ لاشتراك الكلمتيْن في أصْل المادَّة وهو السُّكنى من السُّكون الذي هو اللُّبث[1].

سِرُّ العدول عن الاسم الصَّريح إلى اسم الموصول:

بيان أنَّ هؤلاء الظّالِمين كَما جَمَعَهُم وَصْف الظُّلْمِ يَجْمَعُهم مِيسَمُ الهَلاكِ

عَدَلَ النَّظم الكريم عن الاسم الصَّريح (الظالمين) إلى اسم الموصول في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ﴾ للإشارة إلى عِلَّة ظُلمِهم، وبيانه أنَّ هؤلاء الظّالِمِينَ كَما جَمَعَهُمْ وَصْف الظُّلْمِ يَجْمَعُهم مِيسَمُ الهَلاكِ.

نُكْتة التَّصريح بالمفعول به: ﴿أَنفُسَهُمْ﴾:

الإشارة إلى أنَّ عاقبة الظُّلْم وخيمةٌ تَؤولُ إلى صاحبه

في ذِكْر معمول الفعل (ظَلَم) في قوله ﷻ: ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ إشارةٌ إلى أنَّ عاقبة الظُّلْم الوَخيمةِ تَؤولُ إلى صاحبه، وفيه إشارة إلى شِدَّة غباء هؤلاء الظّالمين، وسَفَه أحلامهم؛ إذ أوقعوا الظُّلْم على أنفسهم هُم بَدَلًا مِن أن ينفعوها ويُقَدِّموا لَها ما يكون سَبَبًا في نعيمها، لا ما يكون سَببًا في هلاكها.

سِرُّ التَّعبير بِجَمع القِلَّة (أنْفُس):

الدِّلالة على حقارة تلك الأنفس المُعْتَدية الظّالمة

وأوثر التَّعبيرُ بِجَمع القِلَّة (أنْفُس) على جَمْع الكثرة (نُفوس)؛ للدِّلالة على حقارة تلك الأنفس المُعْتَدية الظّالمة، وأنَّها أنْفُسٌ رخيصة تافهة قليلة مهما كانت كثرتُها؛ لِظُلْمها وكفرها وعنادها.

دلالة العطف في: ﴿وَتَبَيَّنَ لَكُمْ﴾:

الجَمْعُ بين إقامة الحُجَّة بَيْن دلائل الآثار والموعظة وتواتر الأخبار

الواو في قوله ﷻ: ﴿وَتَبَيَّنَ لَكُمْ﴾ عاطفةٌ على ﴿وَسَكَنتُمْ﴾ والفاعل مقدَّر على منطوقِ الجملة، أيْ حالهم وذلك بالأخبار والمشاهدة، ولكم متعلقان بـ ﴿وَتَبَيَّنَ﴾.

(1) الزّمخشري، الكشّاف: 2/565.

والمعنى: تَبَيَّنَ لَكم بِمُشاهَدَةِ الآثارِ فِعْلُنا العَجيب بِهِم مِنَ العُقوبَةِ والعَذابِ الشَّديدِ بِما فَعَلوهُ مِنَ الذُّنوبِ[1]، وهوأدْعَى لتوبيخهم وتقريعهم؛ حيثُ جَمَع لَهم في إقامة الحُجَّة بَيْن دلائل الآثار والمُشاهدة، ودلائل الموعظة، وتواتر الأخبار.

دلالة ذكر التَّبيُّن مع كون المُشركين مُنكرين مكذّبين:

التَّزهيد في طَلَبِ الدُّنيا، والإرشاد إلى الجِدُّ والاِجْتِهادُ في طَلَبِ الدِّينِ

قد يُقال لِماذا قِيلَ: ﴿وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ﴾ ولَمْ يَكُنِ القَوْمُ يُقِرّونَ بِأنَّهُ تَعالى أهْلَكَهم لِأجْلِ تَكْذِيبِهِمْ ؟.

والجواب: أنَّهم عَلِموا أنَّ أولَئِكَ المُتَقَدِّمينَ كانوا طالِبينَ لِلدُّنْيا، ثُمَّ إنَّهم فَنوا وانْقَرَضوا، فَعِنْدَ هَذا يَعْلَمونَ أنَّهُ لا فائِدَةَ في طَلَبِ الدُّنْيا، والواجِبُ الجِدُّ والاِجْتِهادُ في طَلَبِ الدِّينِ، والواجِبُ عَلى مَن عَرَفَ هَذا أنْ يَكونَ خائِفًا وَجِلًا فَيَكونَ ذَلِكَ زَجْرًا لَهُ[2].

فائدة تقديم الجارِّ والمَجرور ﴿لَكُمْ﴾:

الاهتمام بشأن المُبَيَّن لَهُم

قُدِّم الجارّ والمجرور ﴿لَكُمْ﴾ على المفعول به ﴿ٱلْأَمْثَالَ﴾؛ للاهتمام بالمُقَدَّم لَهُم، وَهُمُ المُبَيَّن لَهُم، والمضروبة لَهُم الأمثال للتَّشويق إلى المُؤَخَّر.

سِرُّ إيثارِ التَّعبير بِـ ﴿كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ﴾:

مجيء (كيف) في سِياق المُبالغة والتَّعجيب

أوثر التَّعبيرُ بقوله سبحانه: ﴿كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ﴾ أي: مِن الإهلاك والتَّدمير والاستئصال بسبب كفرهم وفسوقهم على أن يُقال: ما فَعَلْنا بِهم؛ للدَّلالة على المبالغة فيما حَلَّ بساحتهم مِن الإهلاك والعقوبة؛ فـ﴿كَيْفَ﴾ مُستعملة في سِياق المُبالغة والتَّعجيب.

سِرّ إضافة الفعل إلى ضمير العظمة والكبرياء:

تعظيمُ العقوبة وتهويلها

وإسناد الفعل إلى (نا) في قوله: ﴿كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ﴾؛ لتعظيم

(1) فتح القدير، الشّوكانيّ: 3/120.
(2) الفخر الرّازيُّ، مفاتيح الغيب: 19/146.

الفعل أي العقوبة وتهويلها، والتَّعبيرُ بـ ﴿فَعَلْنَا﴾ مَحمولٌ على الوَعيدِ الشَّديد[1]؛ والمراد: عُقوبتُهم، وإهلاكُهم.

معنى الباء، ونكتة تقديم شِبْه الجملة ﴿بِهِمْ﴾:

الباء هُنا للإلصاق والتَّعدية، وقُدِّم الجارّ والمجرور ﴿بِهِمْ﴾؛ لتعيين مَنْ أوقِعَتِ العقوبة عليهم وهم الظّالمون.

تعيين مَنْ أوقِعَتِ العقوبة عليهم

دلالة الواو في: ﴿وَضَرَبْنَا لَكُمُ﴾:

الواو في قوله: ﴿وَضَرَبْنَا لَكُمُ﴾ عاطفة، والفعل إمّا أن يكون معطوفًا على الفعل ﴿وَتَبَيَّنَ﴾، وإمّا أن يكون مُسْتأنَفًا[2]، والمقصود مِن قوله: ﴿وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ﴾ ما نَزَل بِهم مِن صُنوف العذاب الَّتي هي في الغرابة كالأمثال المضروبة لِكُلِّ ظالم[3].

غرابة صُنوف العذاب

سرُّ تكرار الجارِّ والمجرور ﴿لَكُمْ﴾:

كُرِّرَ الجارُّ والمجرور ﴿لَكُمْ﴾ مع فِعْلَي ﴿وَتَبَيَّنَ﴾، و﴿فَعَلْنَا﴾ في قوله تعالى: ﴿وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ﴾؛ لتشديد التَّوبيخ عليهم؛ حيث إنَّ البيان والفعل كان مِن أجْلِهم هُم كي يَتَّعِظوا ويَنْزَجِروا، لكنَّهم لَم يرتدعوا، بل أصرّوا على كُفرهم وعنادهم.

التَّشديد في التَّوبيخ لإصرارهم على الكفر بَعْد مُعاينة ما حَلَّ بالسّابقين

حقيقة الضَّرب ومعنى ضرب الأمثال:

المَثَلُ بمعنى الشَّبيه، وهو تشبيهٌ للحال بالحال، والمُراد تشبيهُ ذويها بذويها، أو هو بمعنى الصِّفة العجيبة الغريبة[4].

الضَّرب المُراد هُنا ذِكْر شيءٍ أثرُه يظهر في غيره

والضَّرْب: إيقاعُ شيءٍ على شيءٍ، وضَرْبُ المَثَلِ هو مِن ضَرْبِ الدّراهم، وهو ذِكْر شيءٍ أثرُه يظهر في غيره، قال تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا﴾ [الزُّمر: 29]، ﴿۞وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا﴾ [الكهف: 32]، ﴿ضَرَبَ لَكُم

(1) الزّركشيُّ، البُرهان في علوم القرآن: 4/121.
(2) السّمين الحلبيُّ، الدّر المصون: 7/127.
(3) الزّمخشريُّ، الكشّاف: 3/392.
(4) الشِّهاب الخفاجيُّ، عناية القاضي: 5/277.

مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ [الرّوم: 28]، ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ﴾ [الرّوم: 58]، ﴿۞وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا﴾ [الزُّخرف: 57][1].

سِرّ إضافة الضَّرب إلى ضمير العظمة والكبرياء:

تعظيمُ هذا الضَّرْبِ وتفخيم شأنه

معنى قولِه: ﴿وَضَرَبْنَا لَكُمُ﴾: "أي: قد رأيتم وبلغكم ما أَحْلَلْنا بالأُمَم المُكَذِّبة قَبْلَكم، ومع هذا لم يَكُن لَكُم فيهم مُعْتَبَرٌ، ولم يكن فيما أَوْقَعنا بِهِم مُزْدَجَرٌ لَكُم"[2]، وفي الإضافة إلى ضمير العظمة والكبرياء دلالة على تعظيم هذا الضَّرب وتفخيم شأنه.

❁ الفُروقُ المعْجَمِيَّة:

السُّكْنَى والإقامة:

المُدَّة في السَّكَن أطول من المُدَّة في الإقامة

يشترك كُلٌّ مِن السُّكْنَى والإقامة في الحُلول بالمكان، والنُّزول فيه، ويفترقان في المُدَّة، فالمُدَّة في السَّكَن أطول من المُدَّة في الإقامة، حيث إنَّ السَّكن كما يدلُّ عليه أصْل المادَّة يدلُّ على السُكون، ولزوم الشَّيء وثباته.

(1) الرّاغب، المفردات: (ضرب).

(2) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 8/230.

﴿وَقَدْ مَكَرُواْ مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ ﴿٤٦﴾﴾ [إبراهيم: 46]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

ذِكْرُ صفة مكرهم بعد ذِكْرِ أحوالهم وصفة عقابهم

في الآية السّابقة ذَكَرَ اللّه تعالى صِفَةَ عِقاب الظّالمين، وفي هذه الآية ذَكَرَ كَيْفِيَّة مَكْرِهِم وعَراقتهم في الكُفْر والجُحود والعِناد[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مَكَرُواْ﴾: أصْلُ (مكر): يدلُّ على الاِحْتِيالِ والخِداع[2]، ومنه المَكْرُ: وهو صَرْفُ الغير عمّا يقصده بحيلةٍ، قال الجُرجانيُّ: المكرُ: هو إيصالُ المَكْروهِ إلى الإنسانِ مِن حيثُ لا يَشعُرُ[3]، وذلك ضربان: مَكرٌ محمودٌ، وذلك أن يتحرَّى بذلك فِعل جميل، وعلى ذلك قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [آل عمران: 54]. ومذمومٌ، وهو أن يتحرَّى به فعل قبيح، وعلى ذلك قوله: ﴿بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ مَكْرُهُمْ﴾ [الرعد: 33]، والمراد به هنا: تَبْييتُ فِعْلِ السّوءِ بِالْغَيْرِ وَإِضْمارُهُ[4].

2) ﴿لِتَزُولَ﴾: أصْلُ الزَّوْلِ يَدُلُّ على التَّحَوُّلِ والانتقالِ[5]، يُقال: زالَ مِن بَلَدٍ إلى بَلَدٍ، أي: انْتَقَلَ وتَحَوَّلَ، ويُطْلَق بمعنى ذَهابِ الشَّيْءِ، يُقال: زالَ الشَّيْءُ، يَزولُ، زَوالاً، أيْ: ذَهَبَت حَرَكَتُهُ ومِن مَعانيهِ: التَّنْحِيَةُ والإبْعادُ، يُقال: أزَلْتُ الشَّيْءَ إزالَةً: إذا نَحَّيْتُهُ وأبْعَدْتُهُ[6]، ويأتي بِمعنى الاسْتِحالَةِ والاِضْمِحْلالِ، وزوالِ المُلْكِ[7]. والجَمْعُ:

(1) الفخر الرّازيُّ، مفاتيح الغيب: 19/147.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (مكر).
(3) الجرجاني، التعريفات، ص: 227.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/250.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (زول).
(6) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (زول).
(7) ابن منظور، لسان العرب: (زول).

أزْوالٌ، وحقيقة الزَّوالِ في الآيةِ: تَنَحِّي الشَّيْءِ عَنْ مَكانِه، أي: تتحرَّك هذه الجبال من مكانها، أو تتفتَّت، أو تخرّ.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

علمُ الله تعالى مُحيطٌ بمكر الظّالمين

يخبر اللّه تعالى أن حال هؤلاء الظالمين كحال من سبقهم حذو القذّة بالقذّة، فقال: هؤلاء الظّالمون جاءتهم العِبَرُ فلم يعتبروا، بل أضافوا إلى ذلك أنَّهم مكروا بالرَّسول ﷺ مَكْرَهم العظيم الَّذي استفرغوا فيه جُهدَهم لإبطال الحقِّ، وإحقاق الباطل، والقضاء على دعوته، واللّه يعلم تدبيرَهم، لا يَخْفى عليه منه شيءٌ، وتدبير هؤلاء على عَظمته ضعيف، فهو لا يزيل دينَ اللّه ورسالته، خلافًا لِمَكْر اللّه بهم، وشدَّة عقابه لَهُم[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالة الواو في: ﴿وَقَدْ مَكَرُواْ﴾ وأثرها في ارتباط الجُملة في السّياق:

بَيانُ تَناهِيهِمْ في اسْتِحْقاقِ ما فُعِلَ بِهِمْ

الواو في ﴿وَقَدْ مَكَرُواْ مَكْرَهُمْ﴾ حاليَّة، والجملة حال مِنَ الضَّمِيرِ الأوَّلِ في ﴿فَعَلْنَا بِهِمْ﴾، أوْ مِنَ الثّاني، أوْ مِنهُما جَمِيعًا[2]، ودَلَّت الواو في ﴿وَقَدْ﴾ على تحقيق المَكْر وتوكيده، وإنَّما قُدِّمَ عَلَيْهِ قَوْلُه تَعالى: ﴿وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ﴾؛ لِشِدَّةِ ارْتِباطِه بِما قَبْلَه، أيْ: فَعَلْنا بِهِمْ ما فَعَلْنا، والحالُ أنَّهم قَدْ مَكَروا في إبْطالِ الحَقِّ، وتَقْرِيرِ الباطِلِ مَكْرَهُم العَظِيم الَّذي اسْتَفْرَغوا في عَمَلِهِ المَجْهودَ، وجاوَزوا فِيهِ كُلَّ حَدٍّ مَعْهودٍ بِحَيْثُ لا يَقْدِرُ عَلَيْهِ غَيْرُهُمْ، فالمُرادُ بَيانُ تَناهِيهِمْ في اسْتِحْقاقِ ما فُعِلَ بِهِمْ، أوْ قَدْ مَكَروا مَكْرَهُمُ المَذْكورَ في تَرْتِيبِ مَبادِئِ البَقاءِ، ومُدافِعَةِ أسْبابِ الزَّوالِ[3].

---

(1) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 3/365، وجماعة من علماء التفسير، المختصر في تفسير القرآن الكريم، ص: 261.

(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 13/250.

(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/377.

الموقع النَّحويُّ لـ: ﴿مَكۡرَهُمۡ﴾ ونكتة الإسناد:

وقع قوله ﷻ: ﴿مَكۡرَهُمۡ﴾ مفعولًا مُطلقا؛ لتأكيد مَكْرهم، وأضافه إليهم لأنَّه مُلتصقٌ بهم، وصفة دائمة لا تنفكُّ عنهم، وإضافة المَكْر (المصدر) إلى الضّمير (هم) من باب إضافة المصدر إلى فاعله، وفيه دلالة على استفراغ هؤلاء الكُفّار المُتآمرين جُهْدَهم، وبَذْلَهم أقصى طاقتهم في المَكْر والمَكيدة وتدبير الشَّرِّ للرَّسول ﷺ وصحابته الكِرام رضوان الله عليهم، واستُفيد هذا المعنى مِن إضافة المصدر الَّتي تفيد الاستغراق.

التَّأكيد على استفراغ هؤلاء الكُفّار المُتآمرين جُهْدَهم في الكيد وتدبير الشَّرِّ

إيثارُ استعمال الفعل ﴿مَكَرُواْ﴾:

المَكْر: تَبْييتُ فعلِ السّوء بالغيْرِ وإضماره، مع إظهار ما يُخالف ذلك، وأوثر استعمالُ الفعل ﴿مَكَرُواْ﴾ دون غيره؛ لدلالته على التَّدبير المُسْبَق، والتَّخطيط المُحْكَم، فهؤلاء الظّالمون جاءتهم العِبَرُ فَلَمْ يَعْتَبِروا، بل أضافوا إلى ذلك أنَّهم مَكروا بالرَّسول ﷺ مَكْرَهم العظيم الَّذي استفرغوا فيه جهدَهم لإبطال الحَقِّ، وإحقاق الباطل، والَّذي كان مِن مَظاهره محاولتُهم قَتْلَ الرَّسول ﷺ[1].

الدَّلالة على التَّدبير المُسْبَق، والتَّخطيط المُحْكَم

بديع الجناس الاشتقاقي بين ﴿مَكَرُواْ﴾، و﴿مَكۡرَهُمۡ﴾:

أُكِّد فِعل المكر في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَقَدۡ مَكَرُواْ مَكۡرَهُمۡ﴾ بتكرار مادَّة المَكْر بطريق جناس الاشتقاق للدَّلالة على إصرار الكُفّارِ الظّالمين على المَكيدة وإلحاق السّوء بقافلة الإيمان ورَسولها ﷺ.

الدَّلالة على إصرار الكُفّارِ الظّالمين على المَكيدة وإلحاق السّوء بقافلة الإيمان

دلالة (الواو) في: ﴿وَعِندَ﴾:

الواو (الواو) في قوله: ﴿وَعِندَ ٱللَّهِ مَكۡرُهُمۡ﴾ عاطفة؛ عَطَفَتْ هذه الجُمْلة على ما قَبْلَها ﴿وَقَدۡ مَكَرُواْ مَكۡرَهُمۡ﴾، ويمكن أن تكون للحال على معنى: والحال إنَّ مكرهم مكشوفٌ عند الله؛ وقد اختلف

(1) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 3/376.

بيان انكشاف مكرهم بعد افتضاح أمرهم

المفسِّرون في المرادِ بالَّذين مَكَروا على أقوالٍ؛ منها: أنَّهم الَّذين ظلموا أنفُسَهم، فيكون المعنى: فعَلْنا بهم ما فعَلْنا، والحالُ أنهم قد مكروا مكرَهم[1]، ومنها: أنَّهم هُمُ المُخاطَبون في قوله: ﴿أَوَلَمۡ تَكُونُوٓاْ أَقۡسَمۡتُم مِّن قَبۡلُ﴾ أي: الَّذين سَكَنوا في مساكنِ الَّذين ظلموا أنفسَهم[2].

دلالة العنديَّة ومعناها:

التَّعريضُ بالوعيدِ والتَّهديدِ

العِنْدِيَّةُ في قوله ﷻ: ﴿وَعِندَ ٱللَّهِ﴾ المقصود بها: وعند الله جزاء مكرهم الذي فعلوه، أو وعند الله مكتوب مكرهم، فهو مُجازيهم، أو عند الله مكرهم الذين يمكرهم به على أن يكون المكر هُنا على سبيل المُقابلة والجزاء، لأنَّه ﷻ محيط به علما وقدرة فيعود جزاء مكرهم عليهم[3].

وعلى كل هذه المعاني ففي الجُمْلة تَعريضٌ بالوعيدِ والتَّهديدِ بالمُؤاخذةِ بِسوءِ فعْلِهم، أو هو وَعيدٌ بالجزاءِ على مكْرِهم[4].

سرُّ تقديم المُسنَد على المُسنَد إليه:

التَّلويح بمكان العذاب وعيدًا وتهديدًا

وقُدِّم المُسْند ﴿وَعِندَ ٱللَّهِ﴾ على المسند إليه ﴿مَكۡرُهُمۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَعِندَ ٱللَّهِ مَكۡرُهُمۡ﴾؛ لإفادة الحَصْر، فالله سبحانه وَحْده هو الرَّقيب عليهم، والمُطَّلِع على سوء تدبيرهم، وعظيم مَكْرهم، وخبايا نفوسهم، وفساد طَوِيَّتهم، وسرّ التقديم هو الوعيد، ويُرشِّحُ ذلك استعمال العنديّة، ففيها تلويحٌ بمكان العذاب وفي هذا من الوعيد مافيه.

سِرُّ العدول عن الإضمار إلى الإظهار:

تأكيد إضافة المَكْر ونِسْبته إليهم

عُدِل عن الإضمار إلى الإظهار في قوله ﷻ: ﴿وَعِندَ ٱللَّهِ مَكۡرُهُمۡ

(1) ابن جرير، جامع البيان، والشّوكانيُّ، فتح القدير: 3/120.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/455، والفخر الرّازيُّ، مفاتيح الغيب: 19/147.
(3) السّعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 428، والهرري، حدائق الرّوح والرّيحان: 14/449.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/261.

﴿وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ﴾ حيث كان الظّاهر أن يُقال: وعِنْد اللّه مَكْرُهم وإن كان لتزول منه الجبال؛ ذلك لتأكيد إضافة المَكْر ونِسْبته إليهم.

دلالة (إن) واللّام، وأثر دُخولهما في الجُملة:

تعظيم مَكْرهم بالنِّسبة من جهة جهدهم فيه، وبيان ضعفه لقلّة تأثيره وتحقيره بجانب عقوبتهم

﴿وَإِن﴾ في قوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ﴾ إمّا أن تكون نافِيَةً، واللّامُ في ﴿لِتَزُولَ﴾ مُؤَكِّدَةٌ لَها، والمَعْنى: ومَحالٌ أنْ تَزولَ اَلْجِبالُ بِمَكْرِهِمْ، عَلى أنَّ اَلْجِبالَ اِسْتِعارَةٌ تصريحيَّة، أو تمثيليَّة حيث بَيَّنت شِدَّة مَكْر أهْل الكُفْر ومتانته وعظمته، وافتنانهم فيه، وبلوغهم الغايةَ منه حتَّى استحال إلى كَوْنه مُهَيَّئًا لإزالة الجبال الشُّمِّ الرَّواسي عن أماكنها لكوْنه مَثَلًا، وشُبِّهت آياتُ اللّه وشَرائعه بالْجِبالِ الرّاسِيَةِ ثَباتًا وتَمَكُّنًا، ويُؤَيِّده قِراءَةُ ابْنِ مَسْعودٍ (وَما كانَ مَكْرُهم)[1].

وإمّا أن تكون ﴿وَإِن﴾ مُخَفَّفَة مِنَ الثَّقِيلَةِ، والمقصودُ: تعظيم مكرهِم؛ لأنَّ ما فُعِل مِن المَكْر، وما أُعِدَّ مِن الكَيْد لإزالة ما هو كالجبال الشُّمِ الرّاسية في الثَّبات والقوَّة والضَّخامة يكون في غاية الشِّدَّة والقوَّة.

والمَعْنى أنَّهم مَكَروا لِيُزِيلوا ما هو كالجِبالِ الرّاسِيَةِ ثَباتًا وتَمَكُّنًا مِن آياتِ اللّه تَعالى وشَرائِعِه[2].

والغرض من اعتبار (إنْ) نافية الاستخفاف بِمَكْر الكُفّار؛ لِضَعْفه وَوَهَنه مَهما بَلَغ مِن الشِّدَّة في مقابل ثَبات شريعة اللّه، ورسوخها المُؤَيَّدة بِمَدَدٍ مِنْه سبحانه .

دلالة التَّعبير بالفعل ﴿كَانَ﴾:

الدَّلالة على رُسوخ مكرهم واستقراره

التَّعبير بِفِعْل الكَوْن: ﴿كَانَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ﴾ يدلُّ على رسوخ مَكْرهم واستقراره وثباته وتأصُّله.

(1) القاسميُّ، محاسن التّأويل: 7/3738.

(2) البيضاويُّ، أنوار التّنزيل: 2/154، وشيخ زاده، حاشية على تفسير البيضاويّ: 5/182.

توجيه القراءات في: ﴿لِتَزُولَ﴾:

عَدَمُ تَفاوُتِ الحالِ في تَحْقِيقِ الجَزاءِ بَيْنَ كَوْنِ مَكْرِهِمْ قَوِيًّا أَوْ ضَعِيفًا

في اللّام قراءتان: قراءةُ الجمهور بِكَسْرِ اللّام: ﴿لِتَزُولَ﴾، والمعنى وما كانَ مَكْرُهم زائِلَةً مِنهُ الجِبالُ، وقراءة الكِسائي: بِفَتْحِ اللّام الأولى، ورَفْعِ اللّام الثّانِيَةِ فتصير (لَتُزولُ)[1]، والمعنى: هو مَكْرٌ عَظِيمٌ لَتَزولُ مِنهُ الجِبالُ لَوْ كانَ لَها أنْ تَزولَ[2].

وقَوْلُه تَعالى: ﴿وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ﴾ مَسوقٌ لِبَيانِ عَدَمِ تَفاوُتِ الحالِ في تَحْقِيقِ الجَزاءِ بَيْنَ كَوْنِ مَكْرِهِمْ قَوِيًّا أَوْ ضَعِيفًا[3].

معنى (من):

إفادة الابتدائيَّة والسَّببيَّة

(مِن) هُنا في قوله جلَّ شأنه: ﴿لِتَزُولَ مِنْهُ﴾ ابتدائيَّة، ويمكن أن تكون تعليليَّة سببيَّة، أي، بسبب مكرهم تزول الجبال.

نُكْتة تقديم الجارِّ والمجرور ﴿مِنْهُ﴾ على الفاعل:

الاهتمام بالمقدَّم والتَّشويق إلى المؤَخَّر

قُدِّم الجارُّ والمجرور ﴿مِنْهُ﴾ على الفاعل ﴿ٱلْجِبَالُ﴾؛ للاهتمام بالمُقَدَّم، والتَّشويق إلى المُؤَخَّر، حيث إنَّ السّامع يترقَّب، ونَفْسُه تَتَشوَّف لِمعرفة هذا الشَّيء الَّذي يَنْسِفه مَكْرُ الماكرين، وكَيْد الكائدين.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

المكر والخداع والكَيْد:

تشترك الألفاظ الثلاثة في معنى قَصْد السّوء بخفاء

المَكْر: المَكْرُ كَما قال الرّاغب: صَرْف الغير عمّا يقصده بحيلة[4].

---

(1) ابن مجاهد، السّبعة، ص: 363، وابن الجزريّ، النّشر: 1/50.

(2) فصّل ابن عاشور الغرض من القراءة الأولى بقوله: "والمقصود الاستخفاف بالماكرين ومكرهم، أي: ليس مكرُهم بِمُتجاوِزٍ مكرِ أمثالِهم، وما هو بِالّذِي تزُولُ مِنهُ الجِبالُ، وفي هذا تعريض بِأنّ الرّسُول ﷺ والمُسلِمِين الّذِين يُرِيدُ المُشرِكُون المكر بِهِم لا يُزعزِعُهم مكرُهم، لِأنّهم كالجِبالِ الرّواسِي"، يُنظر: ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 13/263.

وأشار إلى المقصد في القراءة الثانية فقال: "أي: جدِيرة، فهو مُستعمل في معنى الجدارةِ والتّأهُّلِ لِلزّوالِ لو كانت زائِلة، وهذا مِن المُبالغةِ في حُصُولِ أمر شنِيع أو شدِيد في نوعِهِ على نحوِ قولِهِ تعالى: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ۝﴾ [مريم: 90]". يُنظر: ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 13/263.

(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/280، والسّمين الحلبيُّ، الدُّر المصون: 7/126 - 127.

(4) الرّاغب، المفردات: (مكر).

وهو إرادَة وتَدْبيرُ فِعْلٍ خَفِيٍّ بِحَقِّ مَنْ لَمْ يعلمْ بِما يُراد بِه وَلَمْ يَحْتَسِب أنْ يَأتِيهِ هَذا الفِعْلُ مِنْ حَيْثُ أتَىَ مِنْه بِصورَتِه تلك.

وهو: إرادَةُ الماكِرِ فِعْلَ السّوءِ بِالمَمْكورِ بِهِ فِي غَفْلَة مِنْهُ عَمّا يُرادُ بِهِ وَعَدَمُ حَذَرِهِ مِنْ شرٍّ يَأتيهِ مِنْ جِهَةِ الماكِر.

أمّا الخِداع فهو إظْهارُ خِلاف ما تُخْفيه: هو تَدْبيرُ فِعْلٍ خَفِيٍّ يقومُ بِهِ الخادعُ لإيقاعِ الضَّررِ والشَّرِّ بالمخدوعِ من حيثُ لم يحذر ويتنبّه، كأنْ يَرقبَ المخدوع قدومَ السّوءِ من بابٍ فيفجأه مِن باب آخرَ، وعداوةُ الخادع والمخدوع بَيِّنَةٌ، وكلاهما يَتَرَبَّص بالآخر.

أمّا الكَيْد فكلُّ تَدْبيرٍ لِفِعْلٍ خَفِيٍّ أو ظاهر يريدُ مِنهُ الكائِد دَفْعَ المكيدِ أنْ يرتكبَ عملًا سيئًا أو جُرمًا وذنبًا بإرادته بدونِ جَبرٍ أو إرغام.

فالمكورُ به لا يحتَسِب أن يأتي من الماكر سوءٌ، ولكنَّ المخدوع عداوتُه ظاهرةٌ وتربُّصهما معلوم ولكنَّه ينتظر السّوءَ ويَتَحَسَّب له مِن طريق فَيَفَجأه مِن طريق آخرَ[1].

(1) مجمع اللُّغة العربيّة بالقاهرة، المعجم الكبير: (مكر، خدع، كيد).

﴿فَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخۡلِفَ وَعۡدِهِۦ رُسُلَهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٞ ذُو ٱنتِقَامٖ ٤٧﴾ [إبراهيم: 47]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

وعيد الله للظّالمين مُتحقِّقٌ لا محالة

كان النَّهْي في الآيات السّابقة عن أن يَحْسِب أحَدٌ أنَّ اللّه تعالى تاركُ الظّالمين، وما يفعلونه، غيرُ مُنْزِلٍ بِهِم ما يستحقّون مِن عقاب؛ جزاءً وفاقًا لِما يفعلون، وفي هذه الآية بيان أنَّ اللّه تعالى مُنَزِّل هذا العقاب؛ لأنَّه جزاؤهم، ولأنَّه قد وَعَدَ رُسُلَه به، وإنَّ اللّه تعالى لا يُخْلف رُسُلَه ما وَعَدَهم بِه مِن النَّصر والتَّأييد، ومِن عِقاب أعدائِهم[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مُخۡلِفَ وَعۡدِهِۦ﴾: الخُلْفُ والخُلُفُ: المُخالفة في الوعد، وهو نقيضُ الوَفاء به، يقال: وعدني فأخلفني، أي: خالف في الميعاد[2]. وَهوَ أن يَقولَ شَيْئًا وَلا يفْعَله عَلَى الاِسْتِقْبالِ، والخُلْفُ، بِالضَّمِّ: الاِسْمُ مِنَ الإخلاف، وَهوَ في المُسْتَقْبَلِ كالْكَذِبِ في الماضِي[3]، ويُقالُ لِلَّذي لا يَكادُ يَفِي إذا وَعَدَ: إنَّهُ لمِخْلافٌ. والمُخْلِفُ: الكثيرُ الإخْلافِ لوَعْدِهِ، والخالِفُ: الَّذِي لا يكادُ يوفِي[4]، والمُراد بـ ﴿مُخۡلِفَ﴾ هُنا: اسم فاعل من الإخلاف، بمعنى عدم الوفاء بالوعد، وأمّا المُراد بالوعد في الآية: ما وعد اللّه تعالى به أنبياءه ورُسله من نصره إيّاهم، ومن جَعْل العاقبة لهم[5].

2) ﴿عَزِيزٞ﴾: العِزَّةُ في الأصل: القوَّة والشِّدَّة والغَلَبَة، خِلاف الذُّلِّ[6]. يقال: عَزَّ يَعَزُّ – بالفتح للمُضارع –: إذا اشتَدَّ وقَوِيَ، وبالكسر

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 8/4054.
(2) ابن دريد، جمهرة اللُّغة، والرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عُمدة الحُفّاظ: (خلف).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (خلف).
(4) الزّبيدي، تاج العروس: (خلف).
(5) طنطاوي، التفسير الوسيط: 7/577.
(6) الأزهري، تهذيب اللُّغة، وابن منظور، لسان العرب، والزّبيدي، تاج العروس: (عزز).

للمُضارع: إذا قَوِيَ وامتَنَع، وبالضَّم: إذا غَلَب وقَهَر[1]، ويُقال: عَزَّ فلانٌ، أي: صار عَزِيزًا، أي: قَوِيَ بعد ذِلَّة. وأعَزَّهُ اللّه. وهو يَعْتَزُّ بفلان[2]، ورَجُلٌ عَزِيزٌ: مَنِيعٌ، لا يُغْلب، وَلا يُقْهر، وعَزَّ الشَّيء: إذا لم يُقْدَر عليه، وعَزَّ الشَّخص: قَوِيَ وبَرِئ من الذُّل[3]، والمقصود بالْعِزَّةِ في الآية: الْقُدْرَةُ[4]، وفي دلالة العزيز هُنا: إشارة إلى القُدرة التّامّة على العقاب، وهي صفة الذّات[5].

3) ﴿ذُو ٱنتِقَامٍ﴾: أصلُ (نقم): يَدُلُّ على إنكارِ شَيءٍ وعَيْبِهِ[6]، فيُقال: نَقِمْتُ عليه، أنْقِمُ: إذا أنكَرْتَ عليه فِعْلَهُ إمّا بِاللِّسانِ، وإمّا بِالعُقوبَةِ، أو عاتَبْتَهُ عليه[7]، ومن ذلك: النِّقْمَةُ من العَذابِ والانْتِقام، كأنَّه أنكَرَ عليه فَعاقَبَهُ. والنِّقْمَةُ أيضاً: كَراهَةُ الشَّيءِ كَراهَةً شَدِيدَةً، يُقال: نَقِمْتُ الأمرَ، ونَقِمْتُه: إذا بالَغْتَ في كَراهَتِهِ[8]. والنِّقمة أيضًا: المُكافَأَةُ بالعُقوبَةِ، يُقال: انْتَقَمَ اللّهُ منه: إذا عاقَبَهُ[9]. والمقصود بالانتِقام في الآية: العُقوبَةُ لأجلِ ذَنْبٍ[10].

المَعْنى الإجْمالِيُّ:

اقتضاء عزّته ﷻ أن ينتقم من الظّالمين

يقولُ اللّه تعالَى: فلا تحسبنَّ أيُّها الرَّسول ﷺ أنَّ اللّه يُخْلِف ما وَعَدَ رُسُلَه مِن النَّصر والتَّمكين، وإهلاك مكذّبيهم؛ لأنَّ اللّه عزيز غالب لا يُقْهَر، ولا يمتنع عليه شيءٌ، فهو سبحانه عَزَّ فَقَهَرَ، وحَكَم فَغلَبَ، مُنْتَقِمٌ مِن أعدائه أشَدَّ انتقام[11].

(1) النّحاس، معاني القرآن: 1/379.
(2) الجوهري، الصّحاح، وابن منظور، لسان العرب: (عزز).
(3) أحمد مختار، معجم اللّغة العربية المعاصرة، وإبراهيم مصطفى وآخرون، المعجم الوسيط: (عزز).
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/251.
(5) النّيسابوري، غرائب القرآن: 2/102.
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نقم).
(7) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللّغة: (نقم).
(8) الرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، والسّمين الحلبي، عُمدة الحُفّاظ: (نقم).
(9) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/71.
(10) ابن منظور، لسان العرب: (نقم).
(11) نخبة من أساتذة التفسير، التفسير الميسّر، ص: 261.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

معنى الفاء في: ﴿فَلَا﴾:

رَبْط المُسَبَّب بالسَّبَب

الفاء في: ﴿فَلَا﴾ من قوله تعالى: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ﴾ عاطفة هذه الجملة على ما قبلها لِرَبْط المُسَبَّب بالسَّبَب.

سِرُّ تقديم المفعول الثّاني على الأوَّل:

توكيد وقوع وَعْدِ الله سبحانه لِرُسِله بالنَّصْر والتَّأييد، وبالإهلاك لأعدائهم

أصْل العبارة في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ﴾ هو: فَلا تَحْسَبَنَّ الله مُخلِفَ رُسلِه وعدَه، وقُدِّم المفعولُ الثّاني على الأوَّل؛ لمناسبته لسياق الآية الكريمة؛ لأنها وَرَدَت في سياق الإنذار والتَّهديد للظّالمين بما توعَّدهم الله تعالى به على ألسنة الرسل، فالمُهِمُّ في التَّهديد ذِكْرُ الوعيد، وأمّا كَوْنه على ألْسنة الرُّسُل فذلك أمْرٌ لا يقف التَّخويف عليه ولا بُدَّ حتَّى لو فُرِضَ التَّوعد مِن الله تعالى على غير لسان رسول، لكان الخوف منه كافيًا[1].

فالمقصود إذًا توكيد وقوع وَعْدِه سبحانه لِرُسِله الكرام عليهم السلام بالنَّصْر والتَّأييد، وبالإهلاك لأعدائهم.

وأضاف ابن جُزّي: "ولِمَ قُدِّم المفعول الثّاني على الأوَّل؟ فالجواب أنَّه قُدِّم الوَعْد لِيُعْلَم أنَّه لا يُخْلِف الوعد أصلًا على الإطلاق، ثم قال تعالى: ﴿رُسُلَهُۥٓ﴾؛ لِيُعْلَم أنَّه إذا لم يُخْلِف وَعْدَ أحَد مِن النّاس، فكيف يُخْلِف وَعْدَ رُسُله وخِيرةِ خَلْقه فَقُدِّم الوَعْد أولًا بِقَصْد الإطلاق، ثم ذَكَرَ الرُّسُل لِقَصْد التَّخصيص"[2].

بيان المُخاطَب، ومضمون النَّهي، وَسَببه:

تثبيت الرَّسول ﷺ على حُسْن ظَنِّه بِرَبِّه

المُخاطَب في الآية الكريمة هو النَّبيُّ ﷺ. فإن قيل: كيف يليقُ بالرَّسول - صلوات الله وسلامه عليه - أن يحْسِبَ اللهَ ﷻ موصوفًا بالغفلةِ؟.

(1) أحمد بن المُنِير، حاشية على تفسير الكشّاف: 2/307.

(2) ابن جُزِّي، التّسهيل لعلوم التّنزيل، ص: 418، يُنظر أيضا: الزّمخشريُّ، الكشّاف: 3/307، والبيضاويُّ، أنوار التّنزيل: 3/400، وأبو حيّان، البحر المحيط: 6/456.

والجواب عن ذلك من وجوه:

الأوَّل: المُراد به التَّثبيت على ما كان عليه مِن أنَّه لا يحسب إن كان غافلًا، كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝١٤﴾ [الأنعام: 14] ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ [القصص: 88].

والثّاني: المقصود منه بيان أنَّه لو لم ينتقم لكان عدم الانتقام لأجل غفلته عن ذلك الظّالم، ولمّا كان امتناع هذه الغفلة معلومًا لِكُلِّ أحد - لا جرم - كان عدمُ الانتقام مُحالًا.

الثّالث: أنَّ المُراد: ولا تحسبنه يعاملهم معاملةَ الغافل عمّا يعملون، ولكنْ معاملة الرَّقيب عليهم المحاسب على النَّقير، والقِطْمير.

الرّابع: أنَّ هذا الخطاب، وإن كان خطابًا للنَّبيِّ ﷺ في الظّاهر إلا أنَّه خِطاب مع الأمَّة"[1].

ولابن عاشور توجيهٌ لطيف حيث قال: "والْخطاب للنَّبيِّ ﷺ؛ لِأنَّ تَأْخِيرَ ما وَعَدَ اللّه رَسولَه - ﷺ - مِنْ إنْزالِ الْعِقابِ بِأعْدائِهِ يُشْبِه حالَ الْمُخْلِفِ وَعْدَهُ، فَلِذَلِكَ نُهِيَ عَنْ حُسْبانِهِ"[2].

لطيفةُ جَمْع ﴿رُسُلَهُۥ﴾:

المُراد بالجَمْع ﴿رُسُلَهُۥ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ﴾: الرَّسول ﷺ وهذا مِن باب الجَمع المُستَعمَل في الواحِد مَجازا لِلَطيفة هي: "تَثبيت لِلنَّبيِّ ﷺ بِأنَّ اللّه مُنجِز لَهُ ما وعَدَهُ مِن نَصرِهِ عَلى الكافِرِينَ بِهِ، فَأمّا وعدُهُ لِلرُّسُلِ السّابِقِينَ فَذَلِكَ أمر قَد تَحَقَّقَ فَلا يُناسِبُ أن يَكونَ مُرادا مِن ظاهِرِ جَمعِ رُسُلِهِ"[3].

اللـه مُنجِزٌ لرسوله ﷺ ما وعَدَهُ

توجيه المتشابَه اللَّفظيِّ:

أشار الرّازيُّ إلى وَجه التَّناسب بَيْنَ هذه الآية، وقَوله سبحانه

(1) ابن عادل، اللُّباب في علوم الكِتاب: 11/412.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/263.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/263.

التَّنبيهُ عَلَى أنَّهُ تَعالَى يُقِيم الْقِيامَةَ إحقاقًا للحَقِّ وينجز وعده لرسله انتصارًا للصِّدق

قبل ذلك: ﴿وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعۡمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَۚ﴾ [إبراهيم: 42]، فقال: "اعْلَمْ أنَّهُ تَعالَى قالَ في الْآيَةِ الْأولى: ﴿وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعۡمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَۚ﴾ [إبراهيم: 42]، وَقالَ في هَذِهِ الْآيَةِ: ﴿فَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخۡلِفَ وَعۡدِهِۦ رُسُلَهُۥٓۚ﴾، والمَقصودُ مِنهُ التَّنبيهُ عَلَى أنَّهُ تَعالَى لَو لَم يُقِم القِيامَةَ وَلَم يَنتَقِم لِلمَظلومِينَ مِنَ الظّالِمِينَ، لَزِمَ إمّا كَونُهُ غافِلا، وَإمّا كَونُهُ مُخلِفا في الوَعدِ، وَلَمّا تَقَرَّرَ في العُقولِ السَّلِيمَةِ أنَّ كُلَّ ذَلِكَ مُحال كانَ القَولُ بِأنَّهُ لا يُقِيمُ القِيامَةَ باطِلا"[1].

عِلَّة الفصل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٞ ذُو ٱنتِقَامٖ﴾:

تعليل النَّهي السّابق وتحقيق انتقامه تعالى لِأوْلِيائِهِ مِن أعْدائِه

فُصِلَت جُملةُ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٞ ذُو ٱنتِقَامٖ﴾ عمّا قبْلَها؛ لوقوعها تَعليلًا للنَّهي في صَدْر الآية بحُسْبانِهِ سبحانه مُخْلِفَ وعْدِه؛ ولوقوعها تذييلًا لجملة النَّهْي. والمعنى: إنَّ اللّه غالِبٌ لا يُماكَر، ذو انْتِقامٍ لِأوْلِيائِهِ مِن أعْدائِهِ[2]، ويمكن أن يكون سبب الفصل هو الاستئناف البيانيُّ جوابًا عن سؤالٍ مقدَّرٍ: لم يفعل هذا كلَّه؟

بلاغة توالي المؤكِّدات في فاصلة الآية:

تأكيد الوَعْد لرسوله ﷺ بالنَّصْر والغَلَبة

صُدِّرت جملة التَّذييل بـ﴿إِنَّ﴾ واسميَّة الجملة في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٞ ذُو ٱنتِقَامٖ﴾؛ لتأكيد الوَعْد لرسوله ﷺ بالنَّصْر والغَلَبة، ولإدخال المَهابة على الخبر، وتفظيع الوعيد المُتَضَمَّن في الوَعْد؛ لذا أوثر التَّعبيرُ بوصف الألوهيَّة والعِزَّة والقُدْرَة.

إيثار صفة العزَّة والانتقام:

كلمة (الانتقام) هُنا لَتَشفي صدور عِباد الله المظلومين المَكلومين

في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٞ ذُو ٱنتِقَامٖ﴾ عَبَّر النَّظم الكريم عن الجزاء بالانتقام؛ لأنَّ أهْل الظُّلْم مِن الكُفّار قد أذاقوا المُسْتضعفين مِن المؤمنين صُنوف العذاب فكان لابُدَّ مِن الجزاء انتقامًا مِن الظّالمين؛ لِتَقَرَّ أعينُ الضُّعفاء، ويذوقوا حلاوة الحقِّ بَعْد أنْ ذاقوا

(1) الرّازيُّ، مفاتيح الغيب: 19/148.
(2) النّسفيُّ، مدارك التّنزيل: 2/266.

مرارة الصَّبر على الأذى في سبيله، وليتيَّقنوا أنَّه سبحانه كان رقيبًا على أعدائهم وشهيدًا، فالظّالم لَمْ يَفْلِت مِن العِقاب، والماكر لَم يَنْجُ مِن الحِساب.

وكلمة (الانتقام) هُنا لَتَشفي صدور عِباد اللّه المظلومين المَكلومين، فالظّالم الماكر يستحِقُّ الانتقام عَدْلًا جزاءَ الظُّلْم والعِناد والمَكْر.

وأضاف أبو السُّعود فقال: "حيثُ كان الوعْدُ عبارةً عن تَعذيبِهم خاصَّةً، لم يُذَيَّل بأنْ يُقال: (إنَّ اللّهَ لا يخلِفُ الميعادَ)، بَلْ تَعَرَّض لِوَصْف العِزَّةِ والانْتِقام المُشْعِرينَ بذَلِكَ، والمُرادُ بِالانْتِقام: ما أُشِيرَ إلَيْهِ بِالفِعْلِ، وعَبَّرَ عَنْهُ بِالمَكْرِ"[1].

وقد أجاد ابنُ عاشور في تعليله لإيثار التَّعبير بِصِفَتي العِزَّة والانتقام حيث قال: "والمَعْنى: أنَّ موجِبَ إخْلافِ الوَعْدِ مُنْتَفٍ عَنِ اللّه تَعالى؛ لِأنَّ إخْلافَ الوَعْدِ يَكونُ إمّا عَنْ عَجْزٍ وإمّا عَنْ عَدَمِ اعْتِيادِ المَوْعودِ بِهِ، فالعِزَّةُ تَنْفِي الأوَّلَ وكَوْنُهُ صاحِبَ انْتِقامٍ يَنْفِي الثّاني، وهَذِهِ الجُمْلَةُ تَذْيِيلٌ أيْضًا وبِها تَمَّ الكَلامُ"[2].

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الوَعْد والوعيد:

يدلُّ أصل المادَّة على التَّرْجية[3]، وتكون الأرض واعدة: إذا رَجَيْنا خيرها مِن المطر والأعشاب، وقد وَعَدَت الأرض: إذا رجينا خيرها[4].

والمُراد بالوَعْد: وَعْد اللّه تعالى لأهل طاعته بالثَّواب والجزاء الحَسَن والنَّعيم المقيم، وأمّا الوعيد، فالمُراد به النُّصوص الّتي فيها تَوَعُّد للعُصاة بالعذاب والعقاب الأليم، فالوعد: فضل اللّه ﷻ ونعمته، والوعيد: عدله وعُقوبته.

لفظ (الوعد) مُختَصٌّ بالخير و(الوعيد) مختصٌّ بالشَّرِّ حال اجتماع اللَّفظين

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/282.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/265.
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (وعد).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقيُّ المؤصّل: (وعد).

ولفظ (الوعد) إذا تكرَّر ذِكْرُه في مَوْضع لم يُذكر فيه لفظ (الوعيد)؛ فهُنا الوعد قد يُستعمل في الخير والشَّرّ، يُقال: وعدته خيرًا ووعدته شَرًّا، لكن إذا ذُكر اللَّفظان معًا في مَوضع واحد فإنَّ لفظ (الوعد) يكون مُختَصًّا بالخير و(الوعيد) يكون مختصًا بالشَّر[1].

الانتقام والعِقاب:

الانتقام جزءٌ من العقاب

الانتِقام: سَلْبُ النِّعمة بالعذاب، والعِقاب: جزاء على الجُرْم بالعذاب؛ لأنَّ العقاب نقيض الثَّواب، والانتِقام نقيض الإنعام، وعلى الرَّغم من أنَّ العديد من جوانب الانتقام تتَّفق مع مفهوم العدالة، فإنَّ الانتقام يعني ضِمْنًا التركيزَ على إحداث مَزيد مِن الضَّرر والعقاب في مُقابل عقاب مُتصالِح ومُتناغِم[2].

(1) العسكريّ، معجم الفروق اللُّغويّة، ص: 54.
(2) العسكريّ، معجم الفروق اللُّغويّة، ص: 77.

﴿يَوۡمَ تُبَدَّلُ ٱلۡأَرۡضُ غَيۡرَ ٱلۡأَرۡضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُۖ وَبَرَزُواْ لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ ٤٨﴾ [إبراهيم: 48]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

بيان وقت انتقام الله بعد وعيده

أخبر اللّه تعالى في الآية السّابقة بأنَّه ﴿عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ﴾، وفي هذه الآية بَيَّنَ وقْتَ انْتِقامِهِ فَقالَ: ﴿يَوۡمَ تُبَدَّلُ ٱلۡأَرۡضُ غَيۡرَ ٱلۡأَرۡضِ﴾، وعَظَّمَ مِن حالِ ذَلِكَ اليَوْمِ؛ لِأنَّهُ لا أمْرَ أعْظَمُ في العُقولِ والنُّفوسِ مِن تَغْيِيرِ السَّماواتِ والأرْضِ[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تُبَدَّلُ﴾: أصلُ (بدل): أصلٌ واحِدٌ، وهو قِيامُ الشَّيءِ مَقامَ الشَّيءِ الذّاهِبِ، يُقالُ: هذا بَدَلُ الشَّيءِ وَبَدِيلُهُ، ويقولونَ: بَدَّلْتُ الشَّيءَ: إذا غَيَّرتُهُ وإنْ لَمْ تَأْتِ لَهُ بِبَدَلٍ. قالَ اللّه تَعالَى: ﴿قُلۡ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلۡقَآيِٕ نَفۡسِيٓۖ﴾ [يونس: 15][2]. وأبْدَلْتُهُ: إذا أتَيْتُ لَهُ بِبَدَلٍ، وحقيقته: أن تُغيِّرَ الصّورة إلى صورة أُخرى، والجوهرة بعينها؛ والإبدال: تنحيةُ الجَوهرة، واستئناف جوهرةٍ أُخرى[3]، والمقصود بالتَّبديل في الآية: جَعْلُ شَيْءٍ بَدَلًا عَنْ شَيْءٍ آخَرَ، والمُرادُ بِهِ: اسْتِبْدالُ العالَمِ المَعْهودِ بِعالَمٍ جَدِيدٍ[4].

2) ﴿وَبَرَزُواْ﴾: أصْلُ الكَلِمَةِ يدلُّ على ظُهورِ الشَّيْءِ وبُدوِّهِ[5]، فالبَرازُ: المَكانُ البَعيدُ الواسِعُ الخالي مِن الشَّجَرِ ونحْوِهِ[6]، يُقالُ: بَرَزَ

(1) البِقاعيُّ، نظم الدُّرر: 10/438.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بدل).
(3) الأزهري، تهذيب اللغة: (بدل).
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/253.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (برز).
(6) المعجم الوسيط: (برز).

الرَّجلُ، يَبْرُزُ، بُروزاً: إذا خَرَجَ إلى الفَضاءِ الواسِعِ لِحاجَةٍ. والبَرازُ: الغائِطُ، سُمِّيَ بذلك؛ لأنّهم كانوا يَقْضونَ حاجَتَهُم في الأمْكِنَةِ الخالِيَةِ البَعيدَةِ عن النّاسِ[1]. ومن الباب: المُبارزة للقتال، وهي الظُّهور مِن الصَّفِّ[2]، والمقصود بالبُروزِ في الآية: الخُروجُ مِنْ مَكانٍ حاجِبٍ[3]. والمُرادُ به هنا: خُروجُ الخَلْقِ من قُبورِهم ظاهِرينَ للحسابِ.

3) ﴿ٱلْوَٰحِدِ﴾: أصْلُ (وحد): أصْلٌ واحِدٌ يَدُلُّ على الانْفِرادِ[4]، والواحِدُ: الَّذي لا يَتَجَزَّأ، وَلا يُثَنَّى، وَلا يَقْبَل الانقسام، وَلا نَظيرَ لَهُ وَلا مِثْل[5]، وإذا وصِفَ اللّه تعالى به فهو المُنْفَرِد بالذّات، في عَدم المِثْل والنَّظير[6]. والواحِدُ أيضًا: اسمٌ بُنِيَ لِمُفْتَتَح العَدَدِ، تَقولُ: جاءَني واحِدٌ مِنَ النّاسِ[7]، والمراد بالواحد في الآية: الفرد الذي لا ثاني له، ولا شريك له، ولا مثل له ولا نظير ولا شبيه[8].

4) ﴿ٱلْقَهَّارِ﴾: أصلُ القَهْرِ يَدُلُّ عَلَى غَلَبَةٍ وَعُلوٍّ. يُقالُ: قَهَره يَقْهَره قَهْرًا فَهوَ قاهِر، وقَهّار للمُبالَغة، وأقْهَرْتُ الرَّجُل إذا وجَدْتَه مَقْهورًا، أوْ صارَ أمرُه إلى القَهْر[9]، والقَهّار صفةٌ للّه ﷻ ثابتةٌ بالكتاب، وهو الَّذي يقهر كلَّ شيءٍ، فيغلبه ويصرِفه لما يشاء كيف يشاء[10]، والمقصود بالقَهّار في الآية: الغَلَبةُ والتَّذليلُ معًا[11].

❁ المَعْنى الإجْمالِيُّ:

يذكر الحقُّ سبحانه زمانَ الانتقام من الكافرين فيقول: هذا

تَبَدُّلُ نواميس الكون وسننه يوم القيامة

(1) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (برز).
(2) الراغب، المفردات: (برز).
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/216.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (وحد).
(5) الراغب، المفردات، وابن الأثير، النهاية في غريب الحديث والأثر: (وحد).
(6) ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث والأثر: (وحد).
(7) ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث والأثر، وابن منظور، لسان العرب: (وحد).
(8) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (وحد).
(9) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن الأثير، النهاية في غريب الحديث والأثر: (قهر).
(10) الخطابي، شأن الدعاء، ص: 315، والبيهقي، الأسماء والصفات، ص: 315.
(11) الرّاغب، المفردات: (قهر).

الانتقام مِن الظّالمين الكُفّار يَحِلُّ بهم يوم تقوم القيامة، يوم تُبَدَّل هذه الأرض بأرض أخرى مِن غير جِنسها، أو صِفاتها، وكذلك السَّماوات تُبَدَّل بغيرها، وتخرج الخلائقُ من قبورها أحياءً ظاهرين بأبدانهم وأعمالهم؛ للحساب، للوقوف بين يدي خالقِهم، للقاء اللّه الواحد الأحد، القَهّار الغالِب، المُتَفَرِّد بالعَظَمَة والمُلْك[1].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

مُتعلَّق الظَّرْف في: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ﴾:

مُتعلَّق الظَّرْف في قوله: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ﴾ هو فعل محذوف تقديره: اذْكُر يوم، ويجوز أن يكون بدلًا من قوله: ﴿يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ﴾، ويجوز أن يكون هوَ صِفَة لِقَوْله: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴿٤١﴾﴾ [إبراهيم: 41].

اليوم الموعود لَهُ أحْوالٌ جَمَّةٌ يُذْكَرُ كُلَّ مَرَّةٍ بِعُنْوانٍ مَخْصوصٍ

وهذا اليوم هو اليوم الموعود الَّذي يَأْتِيهم العَذابُ بِعَيْنِه، ولَكِنْ لَهُ أحْوالٌ جَمَّةٌ يُذْكَرُ كُلَّ مَرَّةٍ بِعُنْوانٍ مَخْصوصٍ، والتَّقْييدُ بِهِ مَعَ عُموم انْتِقامِهِ لِلْأوْقاتِ كُلِّها؛ لِلْإفْصاحِ عَمّا هو المَقْصودُ مِن تَعْذِيبِ الكَفَرَةِ المُؤَخَّرِ إلى ذَلِكَ اليَوْمِ بِموجِبِ الحِكْمَةِ الدّاعِيَةِ إلَيْهِ[2].

نُكْتة إيثار التَّعبير بالتَّبديل على التَّغيير:

شمول التَّبديل لِلذَّوات والصِّفات جميعًا

وأوثر التَّعبيرُ بالتَّبديل على التَّغيير؛ لأنَّ التَّغيير لا يتعلَّق بالذّات، وإنَّما يتعلَّق بالأعراض، بخلاف التَّبديل فإنَّه يكون في الذّات والجِنْس، وهذا ما يحدث للأرض والسَّماوات يوم القيامة؛ حيث يُغَيَّر ذات الأرض، وكذلك السَّموات، فتختلفان كُلِّيًا عن جِنسهما المعهود في الدُّنيا، كما قيل: يُحْشَرُ النّاسُ يَوْمَ الْقِيامَةِ عَلَى أرْضٍ بَيْضاءَ عَفْراءَ كَقُرْصَةِ النَّقِيِّ[3]؛ لذا كان من المُناسب التَّعبير بالتَّبديل دون التَّغيير هُنا.

(1) الرّاغب، المفردات: (قهر).
(2) نخبة من أساتذة التفسير، التفسير الميسر، ص: 261.
(3) القرطبيُّ، الجامع لأحكام القرآن: 12/164.

وأشار الزَّمخشريُّ إلى نَوْعَي التَّبديل بقوله: "وقد يكون في الذَّوات كقولك: بدَّلت الدَّراهمَ دنانيرَ، ومنه قوله تعالى ﴿بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا﴾ [النِّساء: 56] ﴿وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ﴾ [سبأ: 16]، وفي الأوصاف، كقولك: بَدَّلْتُ الحَلَقَةَ خاتمًا، إذا أذَبْتَها وسَوَّيتها خاتمًا، فنَقَلْتَها من شَكْلٍ إلى شَكْل. ومنه قوله تعالى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍۗ﴾ [الفرقان: 70]، واخْتُلِف في تبديل الأرض والسَّموات"[1].

دلالة صيغة المضارع المبنيِّ للمفعول:

العِلْمُ الفاعل والتَّنبيه على عَظمة فعله

عُبِّر بالمُضارع المبنيّ للمفعول ﴿تُبَدَّلُ﴾ في قوله ﷻ: ﴿تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ﴾؛ للعلم بالفاعل؛ حيث لا يَقْدِر على ذلك إلّا الله الخالق، وللإشارة إلى قُدْرة الفاعل وعظمته، فبناء الفعل لِما لم يُسمَّ فاعُله هو لإشغالهم بالفعل عن معرفة الفاعل.

سرُّ وضع المُظْهَر موضع المضمَر:

التَّأكيد على أنَّ التَّبديل يكون في ذات أرض الدُّنيا

وُضِع المُظْهَر مَوْضع المُضْمَر في قوله ﷻ: ﴿تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ﴾ حيث كان الظّاهر أن يُقال: غيرها؛ للتَّأكيد على أنَّ التَّبديل يكون في ذات أرض الدُّنيا، فأرض الآخرة غير أرض الدُّنيا ذاتًا وصِفاتٍ كما ورد في كُتُب التَّفسير[2].

نكتة تَقْدِيمُ تَبْدِيلِ الأرْضِ على تبديل السَّماوات.

تَقديمُ تَبديلِ الأرضِ لِقُربِها مِنّا، ولِكَونِ تَبديلِها أعظَمَ أثَرا بِالنِّسبَةِ إلَينا[3].

توجيه المتشابَه اللَّفظيِّ:

التَّصريح بتبديل الأرض في مقام أحداث القيامة، والإخبار بفناء زينة الأرض في مقام الاعتبار

قَوْلُهُ تَعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ﴾ الآيَةَ؛ هَذِهِ الآيَةُ الكَرِيمَةُ فِيها التَّصْرِيحُ بِتَبْدِيلِ الأرْضِ يَوْمَ القِيامَةِ، وقَدْ جاءَ في آيَةٍ أُخْرى ما يُتَوَهَّمُ مِنهُ أنَّها تَبْقى ولا تَتَغَيَّرُ، وهي قَوْلُهُ تَعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا

(1) الزّمخشريُّ، الكشّاف: 2/566.
(2) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 8/233، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 12/163.
(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/283.

مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۝٧ وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ۝٨﴾ [الكهف: 7 - 8]، فَإِنَّهُ تَعالى في هَذِهِ الآيَةِ صَرَّحَ بِأَنَّهُ جَعَلَ ما عَلى الأَرْضِ زِينَةً لَها لِابْتِلاءِ الخَلْقِ، ثُمَّ بَيَّنَ أَنَّهُ يَجْعَلُ ما عَلى الأَرْضِ صَعِيدًا جُرُزًا، ولَمْ يَذْكُرْ أَنَّهُ يُغَيِّرُ نَفْسَ الأَرْضِ، فَيُتَوَهَّمُ مِنهُ أَنَّ التَّغْيِيرَ حاصِلٌ في ما عَلَيْها دونَ نَفْسِها.

والجَوابُ هو أَنَّ حِكْمَةَ ذِكْرِ ما عَلَيْها دونَها، لِأَنَّ ما عَلى الأَرْضِ مِنَ الزِّينَةِ والزَّخارِفِ ومَتاعِ الدُّنْيا، هو سَبَبُ الفِتْنَةِ والطُّغْيانِ، ومَعْصِيَةِ اللّٰه تَعالى.

فالإِخْبارُ عَنْهُ بِأَنَّهُ فانٍ زائِلٌ فِيهِ أَكْبَرُ واعِظٍ وأَعْظَمُ زاجِرٍ، عَنِ الافْتِتانِ بِهِ، ولِهَذِهِ الحِكْمَةِ خُصَّ بِالذِّكْرِ، فَلا يُنافي تَبْدِيلَ الأَرْضِ المُصَرَّحَ بِهِ في الآيَةِ الأُخْرى، كَما هو ظاهِرٌ، مَعَ أَنَّ مَفْهومَ قَوْلِهِ سبحانه: ﴿مَا عَلَيْهَا﴾ [الكهف: 8] مَفْهومُ لَقَبٍ لِأَنَّ المَوْصولَ الَّذي هو واقِعٌ عَلى جَمِيعِ الأَجْناسِ الكائِنَةِ عَلى الأَرْضِ زِينَةً لَها، ومَفْهومُ اللَّقَبِ لا يُعْتَبَرُ عِنْدَ الجُمْهورِ، وإذا كانَ لا اعْتِبارَ بِهِ لَمْ تَظْهَرْ مُنافاةٌ أَصْلًا."[1].

دلالة الواو في: ﴿وَٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾:

(الواو) في قوله: ﴿وَٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ عَطْف على الأرض أي تتغيَّر معالمُهما أيضًا على حَدِّ قول القائل[2].

وما النّاسُ بِالنّاسِ الذينَ عَهِدتَهُمْ *** وَلا الدّارُ بِالدّارِ التِي كُنتَ تَعْلَمُ[3]

بلاغة الطِّباق في ذكر السَّماوات والأرض:

في الآية الكريمة مُحَسِّن بديعيٌّ هو الطِّباق بين الأَرْضِ والسَّماواتِ

بيان تَغَيُّرِ عوالم الكون العلويَّة بعد ذكر تغير عوالمه السُّفليَّة

طلاقة قدرة الخالق على تبديل أكبر جُرْمين فوقنا وتحتنا

(1) الشّنقيطيُّ، أضواء البيان: 3/136.

(2) البيت من بحر الطويل، وقائله هو العبّاس بن المطلب، وقد اقتبسه الفرزدق وغيّر القافية (تعرف بدلا من تعلم، يُنظر: أبو الحسن الجرجانيُّ، الوساطة بين المتنبّي وخصومه، ص: 199.

(3) دوريش، إعراب القرآن: 5/206.

وقد أكَّد هذا المُحَسِّن طلاقة قدرة الخالق ﷻ على تبديل أكبر جُرْمين مِن مخلوقاته من فوقنا ومن تحتنا في آنٍ واحد يوم القيامة.

معنى التَّعريف في لفظتي السَّماواتِ والأَرْضِ:

الإشـــارة إلى المعهود ذِهنا في النُّفوس

التَّعريف في لفظ السَّماواتِ والأرضِ للعهد الذِّهنيِّ، فإنَّ السّامِعَ يَستحضرُ عند سماعِ هذيْن اللَّفظَين المعنى المُتبادِرَ، وهو السَّماءُ الّتي تَعلونا، والأرضُ الّتي نعيشُ فيها.

مَرْجع الضَّمير، ودلالة التَّعبير بِلَفْظ الجلالة:

إخـــراج الـكـلام عـلى حَـسَـبِ ما اعتقده الظّالمون

(الواو) في ﴿وَبَرَزُواْ﴾ إمّا أن تكون عاطفة عَلى ﴿تُبَدَّلُ﴾، أو استئنافيَّة، أو حاليَّة.

والضَّمير في ﴿وَبَرَزُواْ﴾ يعود إلى الخَلائِق أوِ الظّالِمينَ المَدْلولُ عَلَيْهِمْ بِمَعونَةِ السِّياقِ، والمُرادُ بُروزُهم مِن أجْداثِهِمُ الَّتي في بُطونِ الأرضِ، وجوِّزَ أنْ يَكونَ المُرادُ ظُهورَهم بِأعْمالِهِم الَّتي كانوا يَعْمَلونَها سِرًّا ويَزْعُمونَ أنَّها لا تَظْهَرُ أوْ يَعْمَلونَ عَمَلَ مَن يَزْعُمُ ذَلِكَ[1].

وإنَّما قال ﴿وَبَرَزُواْ لِلَّهِ﴾ مع كونِه سبحانه رقيبًا عليهم، عالِمًا بهم، لا تخفَى عليه خافيةٌ مِن أحوالِهم، برَزوا أو لم يَبرُزوا؛ لأنَّهم كانوا يستَترونَ عن العُيونِ عند فِعلِهم للمعاصي، ويظنّونَ أنَّ ذلك يخفَى على اللّهِ تعالى، وأنَّه غير مُطَّلِع عليهم، فَأُخْرِج الكلام على ما يعتَقِدونَه[2].

فهؤلاء الظّالمون ظَهروا، وعَلِموا عِلْم اليقين والمُشاهدة أنَّهم لَقَوا اللّه تعالى الذي كانوا يُكَذِّبون لقاءه، ويُنكرونه؛ لذا كان التَّعبير بلفظ الجلالة مُلائمًا أشدَّ المُلاءمة في هذا المقام؛ لإلقائه المَهابة في نفوسهم، وَقَذْفه الهَلَعَ في أفئدتهم بَعْد إنكارهم لقاءه. وأوثر

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 13/255.
(2) الشّوكانيُّ، فتح القدير: 3/755.

التَّعبير بالبُروز على التَّعبير بالظُّهور؛ لأنَّ البُروز فيه شِدَّة وبَأْس، وهذا يتناسب مع جَوِّ المشهد وتفاصيله يوم القيامة.

سِرُّ إسْنادِ البُروزِ إلى الظّالمين:

وَجْهُ إسْنادِ البُروزِ إلَيْهِمْ مَعَ أنَّه عَلى هَذا لِأعْمالِهِمْ؛ للإشعار بِتَشَكُّلِهِمْ بِأشْكالٍ تُناسِبُ أعمالهم.

الإشعار بِتَشَكُّلِهِمْ بِأشْكالٍ تُناسِبُ أعمالهم

العُدولُ إلى صِيغَةِ الماضِي:

العُدولُ إلى صِيغَةِ الماضِي لِلدَّلالَةِ عَلى تَحَقُّقِ وُقوعِ ذلك البُروز حتَّى صار أمْرًا واقعًا يُخْبَر عنه.

تَحَقُّقُ وُقوعِ ذلك البُروز

مُناسبة صفتي ﴿ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ للسِّياق:

جاء التَّعبير بِصِفَتي ﴿ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ مُلائمًا لِسياق التَّهديد والوعيد؛ فوَصْفُه سبحانه بـ﴿ٱلْوَٰحِدِ﴾؛ ليتيقَّنوا أنَّ شِرْكهم كان باطِلًا، وأنَّه وَحْده المَلِك العَدْل، فلا شفاعة لِأحدٍ لَهُم، ولا لأصنامهم.

وفي التَّعبير بوَصْف ﴿ٱلْقَهَّارِ﴾ تهويل لِما يُلاقيه هؤلاء الظّالمون يومئذٍ، ولتربية المَهابة، وتحقيق الانتقام في ذلك اليوم على تقدير كونه ظَرْفًا.

إظهارِ بُطلانِ الشِّركِ، وتَحقيقِ الانتقامِ في ذلك اليومِ

"ففيهما دلالة على أنَّ الأمْرَ في غايةِ الصُّعوبةِ، ولِتهويلِ الخطْبِ، وتَربيةِ المَهابةِ، وإظهارِ بُطلانِ الشِّركِ، وتَحقيقِ الانتقامِ في ذلك اليومِ، على تقديرِ كونِه ظرفًا له، وتَحقيقِ إتيانِ العذابِ الموعودِ، على تَقديرِ كونِه بدلًا مِن يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذابُ؛ فإنَّ الأمْرَ إذا كان لواحدٍ غلّابٍ لا يُعازُّ، وقادرٍ لا يُضارُّ، كان في غايةِ ما يكونُ مِن الشِّدَّةِ والصُّعوبةِ."[1].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

التَّبديل والتَّغيير:

التَّبديل: تغيير حال الشَّيء، والإبدال: جَعْل الشَّيْءِ مكانَ غيره،

التَّغيير أعمُّ من التَّبديل

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/287، والبيضاويُّ، أنوار التّنزيل: 3/203 - 204، وأبو حيّان، البحر المحيط: 6/457، وابن عادل، اللّباب: 11/412.

والتَّغيير قد يُطلَق على الذّات أو الصِّفات، فقَوْلُنا: هَذا الشَّيْءُ غَيْرُ ذاكَ، أيْ هوَ سِواهُ وَخِلافُهُ[1]. فالتَّغيير يُقال على وجهيْن: أحدهما لتغيير صورة الشَّيءِ دون ذاته، يُقال: غيَّرت داري إذا بنيتُها بناءً غيرَ الَّذي كان، والثّاني لتبديله بغيره نحو: غيَّرت غلامي ودابَّتي إذا أبْدَلْتهما بغيرهما نحو قول الله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ﴾ [الرَّعد: 11].

البروز والظُّهور:

يختصُّ البُروز بالدِّلالة على الشِّدَّة والبأس

البُروز يَدُلُّ أصلها على كُلِّ ظُهور بَعْد خفاء[2]، ومِن شواهده قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُواْ رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٢٥٠﴾ [البقرة: 250].

وقوله: ﴿وَبَرَزُواْ لِلَّهِ جَمِيعٗا فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمۡ تَبَعٗا فَهَلۡ أَنتُم مُّغۡنُونَ عَنَّا مِنۡ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖۚ﴾ [إبراهيم: 21].

أمّا الظُّهور فَيَدُلُّ أصْل معناها على الظُّهور بقوَّة والبُروز[3]، ومِن شواهده قوله تعالى: ﴿وَذَرُواْ ظَٰهِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَبَاطِنَهُۥٓۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡسِبُونَ ٱلۡإِثۡمَ سَيُجۡزَوۡنَ بِمَا كَانُواْ يَقۡتَرِفُونَ ١٢٠﴾ [الأنعام: 120].

وقوله: ﴿أَلَمۡ تَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَأَسۡبَغَ عَلَيۡكُمۡ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةٗ وَبَاطِنَةٗۗ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ ٢٠﴾ [لقمان: 20].

يتضَّح إذًا أنَّ اللَّفظين يشتركان في الدِّلالة على الوضوح والانكشاف، ويختصُّ البُروز بالدِّلالة على الشِّدَّة والبأس، ويختصُّ الظُّهور بإطلاقه على معنى الغَلَبة والقوَّة[4].

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (غير).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (برز).
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (ظهر).
(4) محمد محمد داود، معجم الفروق الدِّلالية في القرآن الكريم، ص: 109.

الواحد والأحد:

يوصَفُ اللّهُ ﷻ بالأحَدِيَّةِ، وهي صِفةٌ ذاتيَّةٌ له، والأحَدُ اسمٌ له ﷻ.

قال السَّمعانيُّ: "أحَدٌ: بمعنى الواحِدِ، وقد فُرِّق بيْن الأحَدِ والواحِدِ وقيل: إنَّ الأحَدَ أبلَغُ مِنَ الواحِدِ، يُقالُ: فلانٌ لا يُقاوِمُه أحدٌ، نفيًا للكُلِّ، ويُقالُ: لا يُقاوِمُه واحِدٌ، ويجوزُ أن يقاوِمَه اثنانِ، وأيضًا فإنَّ الواحِدَ يكونُ الَّذي يليه الثّاني والثّالِثُ في العَدَدِ، والأحَدُ لا يكونُ بمعنى هذا الحالِ، وأكثَرُ المفَسِّرينَ أنَّه بمعنى الواحِدِ"[1].

الـواحـد مُنفرد بالذّات في عدم المِثْلِ والنَّظير، والأحد بُني لنفي ما يُذكر معه من العدد

وقال ابنُ كثير: "يعني: هو الواحِدُ الأحَدُ، الَّذي لا نظيرَ له ولا وَزيرَ، ولا نَدِيدَ ولا شَبيهَ ولا عديلَ، ولا يُطلَقُ هذا اللَّفظُ على أحَدٍ في الإثباتِ إلّا على اللّهِ ﷻ؛ لأنَّه الكامِلُ في جميعِ صِفاتِه وأفعالِه"[2].

و﴿ٱلۡوَٰحِدِ﴾ اسم فاعل للموصوف بالواحديَّة أو الوحدانيَّة، والواحد سبحانه هو المنفرد الَّذي لا يفتقر إلى غيره فهو سبحانه كان ولا شيءَ قبله، ووجود المخلوقات لم يزده كمالًا كان مفقودا أو يزيل نقصًا كان موجودًا.

والواحد في أسماء اللّه تعالى هو الفرد الَّذي لم يزل وحده ولم يكن معه آخر.

والأحَد: هو اسم بُني لنفي ما يُذكر معه من العدد، تقول: ما جاءني أحد، والهمزة فيه بدل الواو وأصله (وَحَدَ).

والواحد اسم بُني لمُفتَتَح العدد، تقول: جاءني واحد من الناس ولا تقول: جاءني أحد، فالواحد منفرد بالذّات في عدم المِثْل والنَّظير، والأحد منفرد بالمعنى.

والفرق بين الواحد والأحد أنَّ الأحد بُني لنفي ما يُذكر معه من العدد.

(1) السّمعانيُّ، تفسير القرآن: 6/303.
(2) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 8/527.

القَهّار والجبّار والمُذِلّ:

القهار يدلُّ على الغلبة والعلوِّ وفي الجبّار معنى إصلاح الشَّيء

﴿ٱلۡقَهَّارِ﴾: يدُلُّ أصل المادَّة (قهر) على الغَلَبَة والعُلوّ[1]، والقَهّار صيغة مُبالغة على وزن (فعّال)، وهو الَّذي له عُلوُّ القَهْر باعتبار الكَثْرة، وهوالذي قَهَرَ خَلْقَه بِسُلْطانِه وَقُدْرَتِه وصَرَّفهم عَلَى ما أراد طَوْعًا وَكَرْهًا قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلۡقَاهِرُ فَوۡقَ عِبَادِهِۦۚ﴾ [الأنعام: 18][2].

ومن معاني القَهّار في القرآن الكريم: العالي على خَلْقه، وهو المُصْلح للأُمور، مِنْ جَبَر الكَسْر إذا أصْلَحه، وجَبَر الفَقير إذا أغْناه، وهو القاهر خَلْقه على ما أراد مِنْ أمْرٍ أو نَهْيٍ[3].

قال الخَطّابيُّ: (القَهّار): هو الَّذي قهر الجبابرة من عتاة خلقه بالعقوبة، وقهر الخلق كلَّهم بالموت"[4].

أمّا الجبّار فالجَبْر في أصل اللُّغة: إصلاح الشَّيءِ بِضَرْبٍ من القهر[5]، والجَبّارُ: الْقاهِرُ خَلْقَه عَلَى ما أراد مِن أمر وَنَهْيٍ[6].

ومِن شواهده قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلۡمُؤۡمِنُ ٱلۡمُهَيۡمِنُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡجَبَّارُ ٱلۡمُتَكَبِّرُۚ سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ٢٣﴾ [الحشر: 23].

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (قهر).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (قهر).
(3) ابن جرير، جامع البيان: 2/432، والشّوكانيُّ، فتح القدير: 1/278.
(4) الخطّابيُّ، النّهج الأسمى: 2/182.
(5) السّمين الحلبيُّ، عُمدة الحُفّاظ: (جبر).
(6) ابن منظور، لسان العرب: (جبر).

﴿وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴿٥٠﴾﴾ [إبراهيم: 49 - 50]

مُناسَبَةُ الآيَتينِ لما قَبْلَهُما:

عطف أحوال أخرى للظّالمين على بعضها

في الآية السّابقة وصَفَ اللّه سُبْحانَه نَفْسَه بِكَوْنِهِ قَهّارًا، وفي هذه الآية بَيَّنَ عَجْزَهُم وذِلَّتَهُم، وما يَحلُّ بالمُجرمين يوم القيامة مِن عذاب عنيف مُهين يُناسِب إجرامهم وكُفْرهم فَقالَ ﴿وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ﴾[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مُّقَرَّنِينَ﴾: أصلُ (قرن): يَدُلُّ على جَمْعِ شَيءٍ إلى شَيْءٍ[2]، يُقال: قَرَنْتُ الشَّيءَ بالشَّيءِ: وصلته به. والحَبل الَّذي يُقرَن بِهِ بعيران يُقال لَهُ القَرَن، وقَرَّنْتُهُ على التّكثير[3]، وَأما القِرنُ، فَهوَ حَبلٌ يُقلَّد البعيرُ ويقادُ بِهِ[4]. ومنه: قُرِّنتِ الأسارى في الحبال، شُدِّد للكثرة[5]. والقِرانُ: أنْ تَقْرِنَ بَيْنَ تَمْرَتَيْنِ تَأْكُلُهُما[6]. والمراد بالتَّقْرينِ في الآيةُ: وَضْعُ اثْنَيْنِ في قَرنٍ، أيْ حَبْلٍ[7].

2) ﴿ٱلْأَصْفَادِ﴾: أصلُ (صفد): يدلُّ على شَدٍّ بِشَيْءٍ، ومنه الصَّفْدُ والصِّفاد: القَيْدُ الغُلُّ[8]. يُقالُ: صَفَدْتُ الرَّجُلَ، فَهوَ

(1) الفخر الرّازيُّ، مفاتيح الغيب: 19/151.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قرن).
(3) الأزهري، تهذيب اللغة، والراغب، المفردات: (قرن).
(4) الأزهري، تهذيب اللغة: (قرن).
(5) الجوهري، الصحاح: (قرن).
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قرن).
(7) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/253.
(8) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن الأثير، النهاية: (صفد).

مَصْفود، وصَفَّدْته فَهوَ مُصَفَّد[1]. والصِّفادُ ما يوثَقُ بِهِ الأسير مِنْ قِدٍّ وقَيْدٍ وغُلٍّ[2]. والمراد بالأصْفادِ هنا: جَمْعُ صِفادٍ، وهو القَيْدُ والغُلُّ[3].

3) ﴿سَرَابِيلُهُم﴾: السِّرْبالُ: القَميصُ من أيِّ جِنْسٍ كانَ، يَقِي الجَسَدَ حَرَّ الشَّمْس، كَما يَقِيهِ البَرْدَ، وَقَدْ تَسَرْبَلَ بِهِ وسَرْبَلَه إيّاه. وسَرْبَلْتُه فَتَسَرْبَل، أي: ألبسته السِّرْبالَ. وتُطْلَقُ السَّرابيلُ على الدُّروعِ، جَمْعُها سِرْبالٍ[4]، والمقصود بالسَّرابيل في الآية: جَمْعُ سِرْبالٍ وَهوَ الْقَميصُ[5].

4) ﴿قَطِرَانٍ﴾: القَطِران: مادَّة حارَّة نَتِنَة شديدة الاشتعال تشبه الزِّفت تُطلَى بها جُلود الإبل الجربى؛ ليزول الجَرَبُ منها، وتتكوّن من عصارة الأبْهُلِ والأرز وَنَحْوهما يُطْبَخُ، فَيتَحلَّبُ مِنْهُ[6]، يُقالُ: قَطَرْتُ البَعِيرَ: طَلَيْتُه بالقَطِرانِ[7]، ويُسَمَّى الهِناء، سُمِّي بذلك؛ لأنَّه يَتَقاطَر[8]، قِيلَ، واللّه أعلم: إنَّ السَّرابيل جُعِلَتْ مِنَ القَطرانِ؛ لأنَّه يُبالِغُ في اشْتِعالِ النّارِ في الجُلودِ[9].

5) ﴿وَتَغْشَىٰ﴾: أصْلُ (غشى) يَدُلُّ على تَغْطِيَةِ شَيءٍ بِشَيءٍ، يُقالُ غَشَّيْتُ الشَّيءَ أُغَشِّيهِ[10]، وَيُقال: غُشِيَ عليهِ فهو مغشيٌّ عليه، وهي الغَشْيَة[11]، والغِشاوَة: ما غَشِيَ القَلْبَ من رَيْنِ الطَّبْعِ[12]، وتَغَشَّى ثيابه واستغشاها: تَغَطَّى بها كي لا يَرى ولا يَسْمع: ﴿وَٱسْتَغْشَوْاْ ثِيَابَهُمْ﴾ [نوح: 7]، والغاشية: القِيامَةُ؛ لِأنَّها تغشى الخَلْق، وَقيل: الغاشية النّار؛ لِأنَّها تغشى وُجوه الكفّار[13]. والمُرادُ بالتَّغْشِيَةِ في الآية: جَعْلُ الشَّيْءِ غاشِيًا، وحَقِيقَتُها التَّغْطِيَةُ، أي: تُغطّي وجوههم بلهيبها![14].

(1) ابن منظور، لسان العرب: (صفد).
(2) الجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب: (صفد).
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/253.
(4) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، والراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (سربل).
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/253.
(6) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (قطر).
(7) الأزهري، تهذيب اللغة: (غشا).
(8) السّمين الحلبيُّ، عمدة الحُفّاظ: (قطر).
(9) ابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (قطر).
(10) ابن فارس، مقاييس اللغة: (غشى).
(11) الأزهري، تهذيب اللغة: (غشا).
(12) الخليل، العين: (غشو).
(13) ابن سيده، المحكم: (غشو).
(14) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 8ب/166، والخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 7/206.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

وَصْفُ الآيتين لشدَّة ما يُحيط بالظّالمين من أهوال العذاب

يقول اللّه تعالى: وترى - يا محمَّدُ ﷺ - الكافرينَ يومَ القيامةِ مُقَيَّدينَ بالأغلالِ والقُيودِ، وثيابُهم التي يَلبَسونَها مِن القَطِرانِ، وتلفَحُ وُجوهَهم النّارُ، فتُحيطُ بها مِن كُلِّ جانبٍ، وتَحرِقُها.

ذلكَ مَنظرٌ تقشعرُّ منه الأبدان، وتنخَلِعُ منه القُلوبُ، تتجلَّى فيه نقمة اللّه تعالى، حيث تنزل بالظّالمين، وتأخذهم أخذَ عزيز مُقتدر، وما ظلمهم اللّه الحقّ، ولكن كانوا أنفسهم يظلمون[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

معنى الرُّؤية في الآية، ودلالة الخِطاب:

إشفاء صَدْر الرَّسول ﷺ بمُعاينته عذابَ أعدائه

(الواو) في قوله ﷻ: ﴿وَتَرَى﴾ عاطفة الجملة على جملة ﴿تُبَدَّلُ﴾، و﴿وَتَرَى﴾ بصريَّة.

والخطاب لإشفاء صَدْر الرَّسول ﷺ مِن أعدائه؛ فها هو ذا يري بعينيْه مصيرَ هؤلاء الكفرةِ المجرمين الَّذين عاندوه، وآذوه، ومكروا به، وعَذَّبوا أصحابه، فهاهُم اليوم يُساقون إلى جهنَّم في تلك الهيئات المُذِلَّة مُقَيَّدين في الأغلال.

سِرُّ العدول عن الإضمار إلى الإظهار:

الدَّلالة على العذاب المُقيم الذي لا ينفكُّ ولا يَفْتُر

ذَكَرَ اللّه تعالى بُروزَ الكفّار لَه سبحانه، وذَكَرَ حالَهم في ذَلِكَ البُروزِ فَقالَ: ﴿وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ﴾، وكان الظّاهر أن يقول: وتَراهُمْ، ولَكِنَّه أظْهَر فقال: ﴿وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ﴾؛ لِتَعَدُّدِ صِفاتِهِمُ الَّتِي أوْجَبَتْ لَهُمُ الخِزْيَ[2].

نكتة التَّعبير بالفعل المُضارع ﴿وَتَرَى﴾:

الدِّلالة على استمرار عذابهم

التَّعبير بالمُضارع لِاسْتِحْضارِ صورةِ عذاب المُجرمين المُشركين

(1) ابن جرير، جامع البيان: 13/746، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 9/385، والسعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 428، والخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 7/206.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/439.

يومَ القيامة، أو للدِّلالة على استمرار عذابهم، وللدَّلالة على أنَّ أحوالهم الثَّلاثة المذكورة في تلك الآية الكريمة مِن صُنوف العذاب والإهانة لا تَنْفكُّ عنهم، ولا تَفْتُر.

معنى (ال) في ﴿ٱلْمُجْرِمِينَ﴾:

إفادة الاستغراق لكلِّ أولئك المجرمين من الظَّلمة

أفاد التَّعريف هنا الاستغراق لكلِّ أولئك المجرمين من الظَّلمة، وفي هذا وعيدٌ شديدٌ لهم.

إيثار وصف المُجرمين دون الظّالمين:

بيان أنَّ الجزاء مِن جِنْس العمل

أوثر التَّعبيرُ بوَصْف المجرمين دون الظّالمين؛ لأنَّ ما اكتسبه هؤلاء المُعَذَّبون مِن جرائم في اعتقادهم، وفي أفعالهم، وفي إفسادهم عَبَثًا في الأرض، وفي عِنادهم وتَعَنُّتهم هو السَّبب فيما ينالون من عقاب، ويَحِلُّ بِهِم من عذاب[1].

دلالة الظَّرف في: ﴿يَوْمَئِذٍ﴾، ونُكتة الحذف فيه:

التّهويل من شدَّة يوم القيامة

في قوله: ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ دلالة على شدَّة هولِ يوم القيامة على هؤلاء المجرمين، كما تُشير إلى ذهول الرّائي لهم؛ وذلك لاختلاف هيئتِهم عمّا كانوا عليه في الدُّنيا من متاعٍ، وهذه فائدة تعلُّق الرُّؤية باليوم.

معنى التَّنوين في ﴿يَوْمَئِذٍ﴾:

التَّنوين عِوَضٌ عن الجُملة السّابقة

التَّنوين في ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ عِوَضٌ عن الجُملة السّابقة، يَعْنِي: يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ[2].

إعراب ﴿مُقَرَّنِينَ﴾ وسِرُّ استعمال هذا اللَّفظ دون غيره:

بيان أحوال المُجرمين في العَرْض وفي جَهَنَّم

ذَكَر الله تعالى للمُجرمين الظّالمين أحوالًا ثلاثة - أعاذنا الله منها - في ذلك اللِّقاء العَصيب يوم القيامة: وهي: ﴿مُقَرَّنِينَ فِي ٱلْأَصْفَادِ﴾، و﴿سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ﴾، و﴿وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ﴾.

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 8/4057.

(2) ابن جرير، جامع البيان: 13/740.

وقد قعت ﴿مُّقَرَّنِينَ﴾ حالًا مِنَ ﴿ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ كاشفةً عن هيئتِهم وهُم يُساقون إلى العذاب سَوْقًا.

وأوثر التعبيرُ بهذا اللَّفظ؛ لدلالته على الجَمع والمُصاحَبة، فمَشْهد المُجرمين وهُمْ مَقْرونون، مَقْرونٌ بَعْضُهم مَعَ بَعْضٍ في القُيودِ والأغْلالِ، أوْ مَعَ شَياطِينِهِمْ، كُلُّ كافِرٍ مَعَ شَيْطانِهِ في غُلٍّ، أوْ تُقْرَنُ أيْدِيهِمْ إلى أرْجُلِهِمْ مُغَلَّلِينَ. يَمُرّون صَفًّا صَفًّا مَشْهد مُذِلٌّ مُهين، دالٌّ كذلك على قُدْرة اللّه القَهّار[1].

وقد بَيَّنَ اللّه تَعالى في هَذِهِ الآيَةِ الكَرِيمَةِ أنَّ المُجْرِمِينَ وهُمُ الكُفّارُ يَوْمَ القِيامَةِ يُقَرَّنونَ في الأصْفادِ، وأكَّد سبحانه هَذا المَعْنى في مَواضِع أُخَرَ كَقَوْلِه ﴿وَإِذَآ أُلْقُواْ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْاْ هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾﴾ [الفرقان: 13][2].

عِلَّة العدول عن مقْرونين إلى ﴿مُّقَرَّنِينَ﴾:

دلالة التَّضعيف على المُبالغة

عُدِلَ عن (مقْرونين) إلى صيغة التَّضعيف ﴿مُّقَرَّنِينَ﴾؛ لأنَّ تضعيف اللَّفظ، وثِقَل النُّطْق بِه يُحاكِي عظيم تقرينهم وتكثيره، مربوطين ربْطًا شديدًا، وقَسْوة تضييق وثاقهم وشِدَّتها، ويُلْمِح إلى شِدَّة إحكامها عليهم وغِلْظتها، وكأنَّهم يُقَرَّنون بالأغلال مَرَّة بَعْد مَرَّة، كما يَدلُّ التَّشديد على المُبالغة.

ومِمّا يُساعِد على هذا الفَهْم تنكير اللَّفظ، والذي يُشير أيضًا إلى كثرة أولئك المُجرمين المُقَرَّنين.

فائدة قيد ﴿فِى ٱلْأَصْفَادِ﴾:

استحكامُ الغَلِّ وشِدَّتُه

أوْمَأ التَّعبير بحرف الظَّرفيَّة ﴿فِى﴾ إلى شِدَّة غَلِّ أيدي وأرْجُل هؤلاء المجرمين في السَّلاسِل الَّتي تَجْمَعُ الأيْدِي حتَّى صاروا مُنْغَمِسين فيها ومُسْتقرِّين، وصارت ظَرْفًا لَهُم.

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 13/256.
(2) الشّنقيطيّ، أضواء البيان: 3/136.

علّة الفصل في: ﴿سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ﴾:

الجملة بيانٌ لحال المُجرمين في كون العذاب أصْنافًا متنوّعة وأحوالا مُختلفة

جملة ﴿سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ﴾ الجملة حال ثانية، أو جملة مستأنَفة وسرابيلهم مبتدأٌ ومن قطران خبرُه فبين الجملتيْن كمالُ الاتِّصال؛ وهي بيانٌ لحال المجرمين.

سِرُّ إضافة (سرابيل) إلى ضمير الغائبين:

تخصيص هذا السَّرابيل وتَعَلُّقها بهم

إضافة (سرابيل) إلى ضمير الغائبين للتَّخصيص، فتلك السَّرابيل من قطران مُعَدَّة لَهُم خِصّيصًا.

دلالة حرف الجرِّ ﴿مِّن﴾:

إذلالهم بجعل ما يُتَوَقَّى به العذابُ عذابًا

يُضاف إلى قرنهم في الوثاق أنَّ سرابيلهم وثيابهم مِن مادَّة شديدة القابليَّة للالتهاب، وهي في ذات الوقت قَذِرَةٌ مُنْتِنة سوداء مِن قَطِران، ففيها الذُّلُّ والإهانةُ والتَّحقيرُ، وفيها الإيحاء بِشِدَّة الاشتعال فَوْر قُرْبهم مِن النّار، حيث يُجْعل القَطِران لهَمُ لباسًا ليزيد في حرِّ النّار عليهم فيكون ما يُتَوَقَّى به العذابُ عذابًا و﴿مِّن﴾ بَيانيَّة.

تنكير ﴿قَطِرَانٍ﴾:

تفخيم وتهويل نوع هذا القطران

تنكير ﴿قَطِرَانٍ﴾ للتَّفخيم والتَّهويل، فَهو قَطِران مِن نوعيَّة خاصَّة، شديدة الاشتعال، مُنْتِنة، قذِرة، وهذا مِن أجْل زيادة عذابهم، وتهويله، وتكثيره.

بلاغة التَّشبيه في: ﴿سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ﴾:

ثياب أهل النّار لا ستر ولا غطاء، بل نتنٌ وحُرقة وتأجيج

قوله تعالى: ﴿سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ﴾ حقيقة واقعة لأهل النّار، فلا ستر عليهم يَسترهم من النّار إلّا وَقودها، وذَهَبَ بعضهم إلى التَّجوِّز فيها لتُحمل على معنى المُبالغة في عذاب أهل النّار، والنِّكاية بهم على سبيل التَّشبيه البليغ؛ حيث شُبِّه طلاءُ جلود أهل النّار بالقطران، وكأنَّه كالسَّرابيل لَهُم[1]، قالَ الزَّمَخْشَرِيُّ: "ومِن شَأْنِهِ - أي: القَطْرانُ - ، أنْ يُسْرِعَ فِيهِ اشْتِعالُ النّارِ، وقَدْ يُستسرجُ بِهِ، وهو

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/241.

أسْوَدُ اللَّوْنِ مُنْتِنُ الرِّيحِ، فَيُطْلى بِهِ جُلودُ أهْلِ النّارِ حَتَّى يَعودَ طِلاؤُه لَهم كالسَّرابيلِ، وهي القُمُصُ، لِتَجْتَمِع عَلَيْهِمُ الأرْبَعُ: لَذْعُ القَطِرانِ وحُرْقَتُهُ، وإسْراعُ النّارِ في جُلودِهِمْ، واللَّوْنُ الوَحْشُ، ونَتْنُ الرِّيحِ، عَلى أنَّ التَّفاوُتَ بَيْنَ القَطِرانَيْنِ كالتَّفاوُتِ بَيْنَ النّارَيْنِ. وكُلُّ ما وعَدَهُ اللّه، أوْ أوْعَدَ بِهِ في الآخِرَةِ، فَبَيْنَه وبَيْنَ ما يُشاهِدُه مِن جِنْسِهِ ما لا يُقادِرُ قَدْرَهُ، وكَأنَّهُ ما عِنْدَنا مِنهُ إلّا الأسامِيَ والمُسَمَّياتِ ثَمَّةَ"[1].

أعاذنا اللّه مِن هذا العذاب برحمته وعفوه ومغفرته.

فائدة استعمال صيغة المضارع: ﴿وَتَغْشَىٰ﴾:

أوثر التَّعبيرُ بالمُضارع في الحال الثّالثة في قوله: ﴿وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ﴾؛ لإفادة استمرار الغشيان، وتَجَدُّده، ولاستحضار تلك الحال. قال البقاعيُّ: "ولَمّا كانَ هَذا اللِّباسُ مَعَ نَتْنِهِ وفَظاعَتِهِ شَدِيدَ الانْفِعالِ بِالنّارِ، بَيَّنَ أنَّهُ يُسَلِّطُها عَلَيْهِمْ فَقالَ: ﴿وَتَغْشَىٰ﴾"[2].

استمرار غشيان وجوههم النّار

عِلَّة اختصاص الوجوه بالذِّكْر:

ثالث أحوال المُجرمين يوم القيامة أشار إليها قوله تعالى: ﴿وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ﴾. وخَصَّ الوُجوهَ هنا؛ لأنَّ الوجْهَ أعزُّ مَوضِعٍ في ظاهِرِ البدَنِ وأشرَفُه، كالقلْبِ في باطنِه؛ فلهذا السَّببِ خصَّ اللّهُ تعالى هذين العُضوينِ بظُهورِ آثارِ العِقابِ فيهما، فقال في القلبِ: ﴿نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ۝٦ ٱلَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ ۝٧﴾ [الهمزة: 6 - 7]، وقال في الوجهِ: ﴿وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ﴾[3].

الوجْهُ أعزُّ مَوضِعٍ في ظاهِرِ البدَنِ وأشرَفُه وظهور أثر العذاب عليه أكثر

بلاغة المجاز في التَّعبير بالوجوه وغشيان العذاب لها:

في قوله: ﴿وُجُوهَهُمُ﴾ مجاز مرسل علاقته الجزئية، حيث ذكر الجزء، وهو الوجوه، وأُريد به الكُلُّ، أي عموم البَدَن، لأنَّ الحاصل

لفت الانتباه لما يلحقهم من المَهانة والذِّلة

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/394.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/440.

(3) الزّمخشريّ، الكشّاف3/394، وأبو حيّان، البحر المحيط: 6/459، والفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 19/114.

أنَّ النّار تغشى جميع أبدانهم، ولكن فيذكر الوجوه وتقديمها لفت للانتباه لما يلحقهم من المَهانة والذِّلة وهم الذين أرادوا الوجاهة والمنزلة في قومهم.

سرُّ تقديم المفعول: ﴿وَتَغْشَىٰ وُجوهَهُمُ ٱلنّارُ﴾:

التَّجعيل بإهانة المجرمين

لَمّا كان الوجه أشرَفَ ما في الإنسانِ فإهانتُه إهانةٌ عظيمةٌ لصاحِبِه ذكَرَه وقَدَّمَه؛ تعجيلًا بإهانتهم فقال: ﴿وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ﴾ أيْ تَعْلوها باشْتِعالِها، فَعُلِمَ أنَّهُ يَلْزَمُ مِن غَشَيانِها لَها اضْطِرامُها فِيما ضمّخَ بِالقَطْرانِ مِن بابِ الأوْلى[1].

سِرُّ ترتيب الأحوال في الآية الكريمة:

التَّرَقِّي في دَرَكات عذاب المجرمين

يُلْحَظ في ترتيب هذه الأحوال الثَّلاثة أنَّها جيء بِها للتَّرقِّي؛ لذا جِيء بالجملة الثّانية ﴿سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ﴾ أفْظَع مِن الصَّفْد؛ فإنَّ كَونَهم في الصَّفاد أهون مِن أن تكون سرابيلُهم مِن قَطِران؛ فجيء بها جملةً اسميَّة، وغشيان النّار أكْرم أعضاء الجسم، واستعلاء أقوى العناصر عليها أشَدُّ مِن الكُلِّ، فعُبِّر بالفعل المضارع الدّال على تَجَدُّد الغشيان، واستحضار تلك الحالة الفَظيعة في مُشاهَدة السّامِع. وجاءت تلك الصِّفات معطوفة؛ للقَصْد إلى استقلال كُلِّ صِفَة مِن تلك الصِّفات، وأنَّها مِن الأهميَّة بحيث تُذْكَر مُنْفَرِدة[2].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(مُقَرّن) و(مقيَّد):

يشترك اللَّفظان في الدِّلالة على الحَبْس

﴿مُّقَرَّنِينَ﴾: يدلُّ أصل المادَّة على الجَمْع[3]، فالقَرْنُ جمْعُ شيءٍ إلى شيء آخر ووَصْله به مع ملازمة بحيث لا يَنْفَكُّ أحدهما عن الآخر، فالاقترانُ كالازدواج في كونه اجتماع شيئَيْن أو أشياء في

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/440.
(2) الطّيبيّ، فتوح الغيب، حاشية على تفسير الكشّاف: 8/638.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (قرن).

معنًى من المعاني يُقال قرنت الشَّيءَ بالشَّيءِ إذا شددته به ووصلته والقران اسم للحبل الَّذي يُشدُّ به شيئان وله استعمالان:

الاستعمال الأوَّل: وضع اثنين في قَرْن أي الحَبْل الَّذي يُشَدُّ بِه، ويُقال: قَرَنَ الأسيرَ بالأسير أي جمعهما في وثاق واحد، ومن المادَّة القرينُ المصاحِب الملازِم، شُبِّهَت الملازمةُ الغالبة بالقَرْنِ بين شيئَيْن بحيث لا ينفصلان[1]، فعلى هذا الاستعمال معنى مقرَّنين: مشدودين بوثاق مجموعين فيه؛ لتَشابُه جرائِمهم، واتّحادهم في أوصافهم الإجراميَّة.

الاستعمال الثّاني: قَرَنَ الأسيرَ بالحَبْل أي شَدَّه به، والقَرْن: الحَبْل الَّذي يُشَدُّ به الأسير، وقَرَّنه شَدَّدَ عليه الوثاق.

أمّا التّقييد فيُستعارُ في كُلِّ شيءٍ يُحبسُ، يُقالُ: قيّدتُهُ أُقيِّدُهُ تقييدًا، ويُقالُ: فرسٌ قيدُ الأوابِدِ، أي فكأنّ الوحش مِن سُرعةِ إدراكِهِ لها مُقيّدةٌ. قال:

وَقَدْ أغْتَدِي والطَّيْرُ في وُكُناتِها *** بِمُنْجَرِدٍ قَيْدِ الْأوابِدِ هَيْكَلِ[2]

الخُلاصة: يشترك اللَّفظان في الدِّلالة على الحَبْس، لكن ينفرد لفظ (مُقَرَّن) بدلالته على الشِّدَّة والإحكام والتَّضييق.

الأصفاد والأغلال:

﴿ٱلْأَصْفَادِ﴾: شَدُّ أشياءَ ممتدَّة وضمُّها بعضها إلى بعضٍ بقوَّة، كرجلَي المُقَيَّد تَنْضمّان بِشِدَّة نافذتيْن مِن القَيْد[3]، والصَّفد: الوَثاقُ، والاِسْمُ الصَّفادُ، والصِّفادُ: حَبْلٌ يوثَقُ بِهِ أو غُلٌّ، وَهوَ الصَّفْد

تنفرد الأصفاد في الدِّلالة على الفعل (التَّقييد) وآلته

(1) الرّاغب، المفردات: (قرن).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (قيد).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (صفد).

والصَّفَدُ، والْجَمْعُ الأَصْفادُ[1]، ومِن شواهده قوله تعالى: ﴿وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي ٱلْأَصْفَادِ ۝٣٨﴾ [ص: 38].

و﴿ٱلْأَغْلَٰلُ﴾: الغَلَلُ أصْلُه: تَدَرُّع الشَّيْءَ وتَوَسُّطه، ومنه: الغَلَلُ للماء الجاري بين الشَّجر[2]، والغُلُّ: القَيْد والجمع: أغلال، وغَلَّه: وَضَعَ فى عُنُقِه، أو يَدِهِ الغُلَّ[3]، ومِن شواهده قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَٰلُ فِيٓ أَعْنَاقِهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝٥﴾ [الرَّعْد: 5].

وتشترك الكلمتان في الدِّلالة على التَّقييد، وتنفرد الأصفاد في الدِّلالة على الفعل (التَّقييد) وآلته.

السِّرْبال والقميص:

السِّرْبال كُلُّ ما يُتَسَرْبَل به: أي يَلْبسه النّاس للتَّسَتُّر والوِقاية كالقُمْصان والثِّياب والدُّروع وغيرها[4]، والقميص: الَّذي يُلْبَس، وتَدُلُّ أصْل مادَّته على لُبْسِ شَيْءٍ والدُّخول فِيه[5].

والفرق بين الكلمتيْن هو أنَّ السِّرْبال أكثر من القميص في الدِّلالة على حِفْظ لابِسه ووقايته.

السِّرْبال أكثر من القميص في الدِّلالة على حِفْظ لابسه ووقايته

الغشيان والتَّغطية:

الغَشَيان: والتَّغشية: السِّتْر والتَّغْطية، ويُسْتعار ذلك لِعَمى البصيرة[6]، ومن شواهده قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيۡكُم مِّنۢ بَعۡدِ ٱلۡغَمِّ أَمَنَةٗ نُّعَاسٗا يَغۡشَىٰ طَآئِفَةٗ مِّنكُمۡۖ﴾ [آل عمران: 154].

والغِطاء: ما جُعل فوق شيءٍ يحْجُبُه ويستره، فهو كالغِشاء. ويدلُّ

يدلُّ الغِطاء على استعلائه الشَّيءَ الَّذي يستره بخلاف الغشيان

(1) ابن منظور، لسان العرب: (صفد).
(2) الرّاغب، المفردات: (غلّ).
(3) الفيروزباديّ، بصائر ذوي التّمييز: (غلّ).
(4) السّمين الحلبيُّ، عُمدة الحُفّاظ: (سربل).
(5) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (سربل).
(6) السّمين الحلبيُّ، عُمدة الحُفّاظ: (غشي).

عَلَى الْغِشاءِ والسَّتْرِ[1]، ومن شواهده قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَانَتۡ أَعۡيُنُهُمۡ فِي غِطَآءٍ عَن ذِكۡرِي وَكَانُواْ لَا يَسۡتَطِيعُونَ سَمۡعًا ١٠١﴾ [الكهف: 101].

فتشترك الكلمتان في الدِّلالة على السِّتر والتَّغطية، ويفترقان في دلالة الغطاء على استعلائه الشَّيءَ الَّذي يستره بخلاف الغشيان.

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (غطو).

﴿لِيَجۡزِيَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ٥١﴾

[إبراهيم: 51]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

تعليل وقوع صنوف العذاب السّابقة عليهم

لَمّا ذَكَرَ اللّه تعالى أحوال المجرمين الظّالمين يومَ العَرْض، وأنَّهم في ذلك اللِّقاء العَصيب يوم القيامة على أحوال ثلاثة - أعاذنا اللّه منها -: الأولى: أنَّهم مَقْرونون في الأصْفاد. والثّانية: أنَّ سَرابيلَهُم مِّن قَطِرانٍ. والثّالثة: أنَّ النّارَ تَغْشَى وُجوهَهُم. لمّا ذَكَرَ ذلك قالَ هُنا مُعَلِّلًا لهذه الأفعال، وتلك الأحوال في ذلك اليوم: ﴿لِيَجۡزِيَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡۚ﴾[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿لِيَجۡزِيَ﴾: أصلُ (جزي): أصْلٌ واحِدٌ، هو الاكْتِفاءُ بِالشَّيْءِ، يُقالُ اجْتَزَأْتُ بِالشَّيْءِ اجْتِزاءً، إذا اكْتَفَيْتُ بِهِ، وَأَجْزَأَني الشَّيْءُ إجْزاءً إذا كَفاني. ويُقالُ جَزَيْتُ فُلانًا أجزِيهِ جَزاءً، وجازَيْتُهُ مُجازاةً[2]، والجَزاء: ما فيه الكفاية من المقابلة، إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشرّ[3]. والجَزاء أيضًا: القَضاء، قالَ اللّه تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا﴾ [البقرة: 48]، وَتَقولُ: جَزَى عَنِّي هذا الأَمْرَ يَجْزِي، كَما تَقولُ قَضَى يَقْضِي[4]. ولم يجئ في القرآن إلّا جزى دون جازى، وذاك أنَّ المجازاة هي المكافأة، وهي المقابلة من كلِّ واحدٍ من الرَّجُلين، والمكافأة هي: مقابلة نعمة بنعمة هي كفؤها، ونعمة اللّه تَتَعالى عن ذلك، ولهذا لا يستعمل لفظ المكافأة في اللّه ﷻ، وهذا

(1) البِقاعيُّ، نظم الدُّرر: 10/440.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (جزي).
(3) الراغب، المفردات: (جزا).
(4) الأزهري، تهذيب اللغة: (جزي).

ظاهر[1]. والمقصود بالجَزاءِ في الآية: المُكافَأةُ على العَمَلِ بما يُناسِبُ ذلكَ العَمَلَ مِنْ خَيْرٍ أو شَرٍّ.

2) ﴿كَسَبَتْ﴾: أصلُ الكَسْبِ: يَدُلُّ عَلَى ابْتِغاءٍ وطَلَبٍ وإصابَةٍ. يُقالُ: كَسبتُ الشَّيء، أي: طَلبتُهُ، ومنه سُمّي طَلَبُ الرِّزق كَسْبًا واكتسابًا[2]، والكَسْبُ يُقال فيما أخذه لنفسه ولغيره؛ ولهذا قد يتعدّى إلى مفعولين، فيقال: كَسَبْتُ فلانًا كذا، والاكْتِسابُ لا يُقال إلّا فيما استفدته لنفسك، فكلُّ اكْتِسابٍ كَسْبٌ، وليس كلّ كَسْبٍ اكتسابًا[3]، ويأتي الكَسْبُ بمعنى الشَّيء المكتسب، وجمعه: مكاسب. ويُطلَق أيضًا على الجرح، أي: فِعل الشَّيء بالجارحة[4]، والمقصود بالكَسْبِ في الآية: ما يعمله الإنسان باختياره لجلبِ نفعٍ أو دَفْعِ ضرٍّ.

3) ﴿سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾: أصلُ الحِسابِ: العَدُّ والإحْصاءُ، مَصْدَر الفِعْلِ حَسَبَ، يُقال: حَسَبَ الشَّيءَ، يَحْسُبُهُ، حَسْباً وحُسْبانًا وحِساباً وحِسْبَةً وحِسابَةً، أي: عَدَّهُ[5]. والحَسَبُ: العدَدُ المَعْدودُ. والحَسَبُ والحَسْبُ: قَدْرُ الشَّيْءِ[6]. ويأتي الحِسابُ بِمعنى المُناقَشَةِ، فيُقال: حاسَبَهُ مُحاسَبَةً، وحِساباً: إذا ناقَشَهُ الحِسابَ وجازاهُ[7]. والسَّرِيعُ: ضِدُّ البَطِيءِ. والمَعْنَى: أنَّ اللّه تعالى لا يُماطِلُ الحِسابَ وَلا يُؤَخِّرُهُ عِنْدَ حُلولِ مُقْتَضِيهِ، فهو عامٌّ في حِسابِ الخَيْرِ والشَّرِّ[8].

المَعْنى الإجْماليُّ:

يفعَلُ اللّهُ بالمُجرِمينَ ما يفعَلُ؛ ليكونَ في ذلك جزاء للمُسيءِ على إساءتِه، لا ظُلمًا منه سُبحانه، وكما يعاقِبُ من أساء يُثيبُ من أحسَنَ

حَشْرُ النّاس يوم المعاد لإقامة صرح العدل المُطلق بينهم، ومجازاة كلّ امرئ بما عمل

(1) الراغب، المفردات: (جزا).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (كسب).
(3) الراغب، المفردات: (كسب).
(4) الجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب: (كسب).
(5) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن عباد، المحيط في اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة: (حسب).
(6) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (حسب).
(7) الجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب: (كسب).
(8) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/254.

وأطاع. إنَّه سبحانه سريع المحاسبة لعباده؛ لأنَّه لا يشغله شأنٌ عن شأنٍ، بل جميع الخَلْقِ بالنِسبة لقدرته كالنَّفْس الواحدة[1].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

متعلَّق اللّام في قوله: ﴿لِيَجۡزِيَ ٱللَّهُ﴾:

اللّام تعليليَّة، ومُتَعَلِّق اللّام إمّا أن يكون مُضمَرًا، والتَّقدير: يُفْعَلُ بِهِمْ ذَلِكَ لِيَجْزِيَ سبحانه ﴿كُلَّ نَفۡسٖ﴾ أيْ مُجْرِمَةٍ بِقَرِينَةِ المَقامِ، من باب أنَّ الجزاء من جنس العمل.

اللّام تعليليّةٌ ومتعلّقها دائرٌ بين الخصوص والعموم

ويَجوزُ - عَلى اعْتِبارِ العُمومِ - تَعَلَّقَ تَعَلُّقُ اللّامُ بـ ﴿وَبَرَزُواْ﴾ عَلى تَقْدِيرِ كَوْنِهِ مَعْطوفًا عَلى ﴿تُبَدَّلُ﴾، والضَّمِيرُ لِلْخَلْقِ ويَكونُ ما بَيْنَهُما اعْتِراضًا، أيْ بَرَزوا لِلْحِسابِ لِيَجْزِيَ اللّه تعالى كُلَّ نَفْسٍ مُطِيعَةٍ أوْ عاصِيَةٍ ما كَسَبَتْ مِن خَيْرٍ أوْ شَرٍّ[2].

إيثارُ استعمال الجزاء، وإسنادِه إلى اسم الجلالة:

أوثر استعمال الجزاء والكَسْبِ في قوله تعالى: ﴿لِيَجۡزِيَ ٱللَّهُ﴾؛ لِاقْتِضاءِ سِياقِ القَهْرِ لَهُما، وقد استَدعى ذَلِك أنْ يَكونَ نَفْسُ الكَسْبِ هو الجَزاء، لِأنَّ ذَلِك أبْدَعُ وأدَقُّ في الصُّنْعِ وأبْرَع بِأنْ يُصَوِّرَ بِما يَحِقُّ مِنَ الصّوَرِ المَلِيحَةِ عِنْدَ إرادَةِ الثَّوابِ، والقَبِيحَةِ عِنْدَ إرادَةِ العِقابِ[3].

سياق القَهْر يقتضي التَّعبيرَ بالجزاء

وإسناد الجزاء إلى لَفْظ الجلالة؛ لتعظيم الأمرِ بِإسْنادِ الجَزاءِ إلى الِاسْمِ الأعْظَمِ الجامِعِ لِجَمِيعِ صِفاتِ الكَمالِ والجلال والعَظَمَة.

كَما عُبِّر بأنَّ الجزاء هو ما كَسبوا مِن عمل، فليس في ظاهر اللَّفظ أنَّه جزاء العمل، بل هو العَمل ذاته؛ وذلك للإشارة إلى المُساواة التّامَّة بين الجزاء والعمل، فكأنَّه هوَ هوَ[4].

(1) ابن جرير، جامع البيان: 13/746، والسعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 428، وطنطاوي، التفسير الوسيط: 7/508.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 13/257.
(3) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 10/440.
(4) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 8/4058.

دلالة التَّعميم في ﴿كُلَّ﴾، وإضافتها إلى النكرة ﴿نَفْسٍ﴾:

﴿كُلَّ﴾ مِن ألفاظ العموم، وهي اسمٌ موضوع لاستغراق أفراد الاسم النَّكِرة، كما في قوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ﴾ [آل عمران: 185] وكذلك أجزاء المفرد المُعَرَّف[1].

كُلُّ نَفْسٍ طائعةٍ أو عاصية سَتَجني جزاءَ عملها

وإضافة هذا اللَّفظ إلى النَّكرة ﴿نَفْسٍ﴾ أفاد الإحاطةَ والشُّمول، فكُلُّ نَفْس طائعة أو عاصية سَتَجني جزاءَ عملها، إنْ خيرًا فَخَيْرٌ، وإنْ شَرًّا فشَرٌّ.

فاللَّفْظ باقٍ على عمومه؛ ليشمل الجزاءُ الفريقَيْن: المؤمنين والكافرين، وقد قال الواحِدِيُّ: إنَّ المُرادُ مِنهُ أنْفُسُ الكُفّارِ؛ لِأنَّ ما سَبَقَ ذِكْرُه لا يَلِيقُ أنْ يَكونَ جَزاءً لِأهْلِ الإيمانِ، وتعقبه الرازي بقوله: يُمْكِنُ إجْراءُ اللَّفْظِ عَلى عُمومِهِ؛ لِأنَّ لَفْظَ الآيَةِ يَدُلُّ عَلى أنَّهُ تعالى يَجْزِي كُلَّ شَخْصٍ بِما يَلِيقُ بِعَمَلِهِ وكَسْبِهِ ولَمّا كانَ كَسْبُ هَؤُلاءِ الكُفّارِ الكُفْرَ والمَعْصِيَةَ، كانَ جَزاؤُهم هو هَذا العِقابَ المَذْكورَ، ولَمّا كانَ كَسْبُ المُؤْمِنِينَ الإيمانَ والطّاعَةَ، كانَ اللّائِقُ بِهِمْ هو الثَّوابَ، وأيْضًا أنَّهُ تَعالى لَمّا عاقَبَ المُجْرِمِينَ بِجُرْمِهِمْ فَلِأنْ يُثِيبَ المُطِيعِينَ عَلى طاعَتِهِمْ كانَ أوْلى"[2].

والحَقُّ أنَّ كِلا الرَّأْيَيْن صواب؛ فالقول بالتَّخصيص يؤيِّده سياق الآية السّابق واللّاحق ومقامها؛ حيث إنَّ الكلام السّابق واللّاحق عن المجرمين فيخُصُّهم الوعيد والتَّهديد، ويكون مُتعلَّق اللّام محذوفًا؛ تقديره: يُفْعل بهم ذلك لِيَجزيَ كُلَّ نَفْسٍ مُجْرِمة ما كَسَبَت مِن أنواع الكفر والظُّلْم والإجرام والمعاصي.

ويُظاهِر التَّعميمَ دلالةُ (كُلّ) وإضافتها إلى نكرة. كما أنَّ القول

(1) ابن هشام، مغني اللّبيب: 1/164.

(2) الفخر الرّازيُّ، مفاتيح الغيب: 12/152.

بالتَّعميم مناسبٌ بالنَّظر إلى أنَّ قوله تعالى ﴿لِيَجۡزِيَ﴾ متعلِّق بقوله ﷻ: ﴿وَبَرَزُواْ﴾ أي الخَلْق كُلُّهم، فيكون ﴿كُلَّ نَفۡسٍ﴾ عامًّا، أي: مطيعة ومُجْرمة.

معنى ﴿مَّا﴾ وسرُّ العدول عن دخول الباء عليها:

اعتبار نَفْس الكَسْبِ هو الجَزاء أبلغ في مقام الوعيد

﴿مَّا﴾ في الآية الكريمة اسم موصول. وكَشَف صاحب نظم الدُّرر عن سِرِّ العدول عن دخول الباء على ﴿مَّا﴾ هنا بقوله: ولَمّا عَظُمَ الأمْرُ بإسْنادِ الجَزاءِ إلى الاسْمِ الأعْظَمِ الجامِعِ لِجَميعِ صِفاتِ الكَمالِ، اقْتَضى ذَلِكَ أنْ يَكونَ نَفْسُ الكَسْبِ هو الجَزاء لِأنَّ ذَلِكَ أبْدَعُ وأدَقُّ في الصُّنْعِ وأبْرَعُ بِأنْ يُصَوِّرَ بِما يَحِقُّ مِنَ الصّوَرِ المَلِيحَةِ عِنْدَ إرادَةِ الثَّوابِ، والقَبِيحَةِ عِنْدَ إرادَةِ العِقابِ، فَلِذَلِكَ أسْقَطَ (الباءَ) الَّتِي سَتُذْكَرُ في سورة غافر[1].

إيثار استعمال الفعل ﴿كَسَبَتۡ﴾:

الكَسْبُ فِعْلُ ما يُسْتَجْلَبُ بِهِ نَفْعٌ أوْ يُسْتَدْفَعُ بِهِ ضُرٌّ

أوثر التَّعبيرُ بالفعل ﴿كَسَبَتۡ﴾ دون عملت؛ لمناسبته للجزاء في صَدْر الآية، فالكَسْبُ: "فِعْلُ ما يُسْتَجْلَبُ بِهِ نَفْعٌ أوْ يُسْتَدْفَعُ بِهِ ضُرٌّ، ومِن جَزاءِ المُؤْمِنِ عُقوبَةُ مَن عاداهُ في اللّه."[2]. وفيه أيضًا إشارة إلى أنَّ جزاءهم مناسِب لأعمالهم.

كَما "جاءَ مِن لَفْظَةِ الكَسْبِ بِما يَعُمُّ المُسِيءَ والمُحْسِنَ لِيُنَبِّهَ عَلى أنَّ المُحْسِنَ أيْضًا يُجازى بِإحْسانِهِ خَيْرًا"[3].

وقَوْلُهُ تَعالى: ﴿لِيَجۡزِيَ ٱللَّهُ﴾ أيْ: لِكَيْ يَجْزِيَ اللّهُ واللامُ مُتَعَلِّقَةٌ بِفِعْلٍ مُضْمَرٍ تَقْدِيرُهُ: أُنَفِّذُ عَلى المُجْرِمِينَ هَذا العِقابَ لِيَكونَ في ذَلِكَ جَزاءُ المُسِيءِ عَلى إساءَتِهِ.

(1) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 10/440.
(2) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 10/440.
(3) ابن عطيّة، المُحرّر الوجيز، ص: 1062.

علَّة الفصل في: ﴿إِنَّ ٱللَّـهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾:

فُصِلَت جملة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾ عمّا قبلها؛ لكونها مستأنفة؛ وذلك لتأكيد وقوع الحساب أو أنَّها" استئنافٌ ابتدائيٌّ، وأُخِّرَتْ إلى آخرِ الكلامِ؛ لِتقديمِ ﴿يَوۡمَ تُبَدَّلُ ٱلۡأَرۡضُ﴾ إذا قُدِّرَ معمولًا لها"[1].

كون الجملة مُستأنفة، أو ابتدائيَّة تأكيدا لوقوع الحساب

نُكْتة تصدير جملة التَّذييل بـ﴿إِنَّ﴾ والجملة الاسميَّة:

صُدِّرت جملةُ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾ بإنَّ؛ لتأكيد وقوع الحساب، وسُرْعته، "فالمُقاربة الزَّمنيَّة بالنِّسبة إلى الله تعالى مُؤَكَّدة، فهو سبحانه لا تُستطال على أفعاله الأزمان[2].

تأكيد وقوع الحساب، وسرعته

علاقة التَّذييل بالسِّياق:

وقع التَّذييل مُؤَكِّدًا للسِّياق قَبْله؛ فالله تعالى يُحاسب الخلائق في مِقْدار حَلْب شاة، ولا يُشغله حسابٌ عن حساب ليستريح بعضُهم عن الحساب بمحاسبة الآخرين حتَّى يتأخَّر عنهم العذاب، وهذا وجه ارتباط التَّذييل بِما قَبْله، وعليه فـ (ال) في كلمة ﴿ٱلۡحِسَابِ﴾ للاستغراق، ويجوز أن يكون المُراد مِن الحِساب نَوْعًا مِن العذاب، وهذا بلا رَيْب له ارتباط بسياقه[3].

(ال) في كلمة (الحِساب) للاستغراق

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الجزاء والأجر:

الأَجْر: يدلُّ أصْل المادَّة على أثَر أو حصيلة لجُهْد ماديٍّ فيه صَنْعَة[4].

والأجر: ما يَعود مِن ثواب العامل دُنيويًّا أو أخرويًّا. والأُجْرة في الثَّواب الدُّنيويِّ، ويُقال فيما كان عن عَقْد أو ما يَجْري مَجْراه، ولا يُقال إلا في النَّفع دون الضُّرِّ بخِلاف الجزاء[5].

الجزاء أعمُّ من الأجر

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/254.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 8/4059.
(3) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 11/111.
(4) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (أجر).
(5) المناويُّ، التّوقيف على مُهِمّات التعاريف، باب الهمزة.

ومن شواهده قوله تعالى: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾﴾ [البقرة: 112].

الجزاء ما فيه الكفاية من المقابلة إن خيرًا فخيرٌ وإن شرًّا فشرٌّ

والجزاء: يُقال فيما كان عن عَقْد وغير عَقْد، ويُقال في النّافع والضّار، ومن شواهده قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾﴾ [الكهف: 88].

الكَسْب والعَمَل:

الكَسْب يُقال فيما أخذه لنفسه ولغيره ولا يُستعمل إلّا في الخير غالبًا

الكَسْب: يدُلُّ المعنى المحوريُّ على جَمْع الشَّيءِ وتحصيله شيئًا بعد شيءٍ بجُهْدٍ ما[1]، كَما يَدُلُّ على جَلْب النَّفْع مِن مال وغيره، أو تحصيل ما هو مَظنَّة النَّفْع[2].

والكَسْبُ: كَما قال الرّاغب: "ما يتحرّاه الإنسان مما فيه اجتلاب نفع، وتحصيل حظٍّ، كَكَسْبِ المال، وقد يُستعمل فيما يظنُّ الإنسان أنَّه يجلب منفعة، ثم استجلب به مضرَّة، والكَسْبُ يُقال فيما أخذه لنفسه ولغيره، ولهذا قد يتعدَّى إلى مفعولَيْن، فيُقال: كَسَبْتُ فلانا كذا، والاِكْتِسابُ لا يُقال إلّا فيما استفدته لنفسك، فكلُّ اكْتِسابٍ كسب، وليس كلُّ كَسْبٍ اكتسابًا"[3].

والكَسْب لا يُستعمل إلّا في الخير غالبًا، أمّا الآيات الَّتي وَرَدَ فيها في المعاصي والسَّيِّئات فهو على معنى التَّعوّد، فالعاصي قد اعتاد العِصيانَ، فناسبه أن يُسْنَد إليه الفعل؛ ولأنَّ مَن يكْسِب إثما أو سوءًا قد يَظُنُّ في ذلك خيرًا، وتحصيل نَفْع[4].

ومن شواهده قوله تعالى: ﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ ۚ وَٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ هَٰٓؤُلَآءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥١﴾﴾ [الزُّمر: 51].

(1) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (كسب).
(2) محمد داود، معجم الفروق الدّلاليّة في القرآن الكريم، ص: 422.
(3) الرّاغب، المفردات: (كسب).
(4) محمد داود، معجم الفروق الدّلاليّة في القرآن الكريم، ص: 423.

والعَمَل: هو جُهْد مادِّيٌّ مِن حيٍّ أو جَماد يُؤَدِّي إلى إحداث شيءٍ أو هيئة أو نَقْل[1].

والعَمَلُ يستعمل في الأعْمالِ الصالحة والسَّيِّئة[2] ومن شواهده قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [البقرة: 277]، وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [النّساء: 124]، وقوله: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾ [النّساء: 123] وقوله: ﴿إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ﴾ [هود: 46]

(1) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (عمِل).
(2) الرّاغب، المفردات: (عمِل).

﴿هَٰذَا بَلَٰغٞ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُواْ بِهِۦ وَلِيَعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٥٢﴾ [إبراهيم: 52]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

إيجاز الآية الأخيرة لعلّة أحكام السّورة

اشتَمَلت هذه السّورةُ على كثير مِن المواعِظِ والأمثالِ والحِكَم الَّتي أبكَمَت البُلَغاءَ، وأخرَسَت ألسنة الفُصَحاء، وبَهَرت العُقولَ؛ تَرجَمَها سُبحانَه بما يصلُحُ عُنوانًا لجميعِ القُرآنِ[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿بَلَٰغٞ﴾: أصْلُ (بلغ): يدلُّ على لُحوقِ الشَّيْءِ والوُصولِ إليه أو المُشارَفَةِ عليه[2]، يُقالُ: بَلَغْتُ المَكانَ بُلوغًا، أي: وصَلْتُ إليه، وكذلك إذا شارَفْتُ عليه[3]. والبَلاغُ: الاسْمُ مِنَ الإبْلاغِ والتَّبْليغِ، وهُما: الإيصالُ، يُقالُ: أبْلَغَهُ الخَبَرَ إبْلاغاً، وبَلَّغَهُ تَبْليغاً، والثّاني أكْثَرُ[4]، والبَلاغُ أيضًا: ما يُتَبَلَّغُ بِهِ ويُتَوَصَّلُ إلى الشَّيْءِ المَطْلوبِ، والبَلاغُ كذلك: الكِفايةُ؛ وتَقولُ: لَهُ في هَذا بَلاغٌ وبُلْغةٌ وتَبَلُّغٌ، أي: كِفايةٌ، والمبالغةُ: أن تبلغ مِن العَمَل جهدَك[5]، وبَلَغَ الغُلامُ: أدْرَكَ، والمقصودُ بالبَلاغِ في الآيةِ: اسْمُ مَصْدَرِ التَّبْليغِ، أيْ هَذا المِقْدارُ مِنَ القُرْآنِ في هذهِ السّورَةِ تَبْليغٌ لِلنّاسِ كُلِّهِم[6].

2) ﴿وَلِيُنذَرُواْ بِهِۦ﴾: أصْلُ (نذر): يَدُلُّ على تَخْويفٍ أو تَخَوُّفٍ، ومنه الإنْذارُ: الإبلاغُ؛ ولا يَكادُ يَكونُ إلّا في التَّخويفِ[7]. والإنْذارُ:

(1) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 10/441.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والأزهري، تهذيب اللغة: (بلغ).
(3) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة: (بلغ).
(4) الزبيدي، تاج العروس: (بلغ).
(5) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، وابن عباد، المحيط في اللغة: (بلغ).
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/254.
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نذر).

إخبارٌ فيه تخويف، كما أنّ التّبشير إخبار فيه سرور. والنَّذِيرُ: المنذر، ويقع على كلِّ شيءٍ فيه إنذار، إنسانًا كان أو غيرَهُ[1]. والتَّناذُرُ: إنْذارُ بَعْضِهم بَعْضًا[2]. وَمِنْهُ النَّذْرُ، وَهوَ أنَّهُ يَخافُ إذا أخْلَفَ، والنَّذْرُ أيْضًا: ما يَجِبُ، كَأنَّهُ نُذِرَ، أيْ أوجِبَ[3]. والمقصود بالإنْذارِ في الآية: الإخبارُ بِما فِيهِ تَوَقُّعُ ضُرٍّ.

3) ﴿وَلِيَذَّكَّرَ﴾: أصلُ الذِّكْرِ: الحِفْظُ الَّذي تَذْكُرُه، وهو خِلافُ النِّسيان[4]، ثُمَّ حُمِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ بِاللِّسانِ، فالذِّكْرُ ما ذَكَرْتَهُ بِلِسانِكَ وأظهرته. والذُّكْرُ - بضَمِّ الذّال - بِالْقَلْبِ. يُقالُ: ما زالَ مِنِّي عَلَى ذُكْرٍ، أي: لَمْ أنْسَه[5]، والتَّذكِرَةُ: ما تُسْتَذْكَرُ بِهِ الحاجَةُ. واسْتَذْكَرَ الشَّيءَ: دَرَسَهَ للذِّكْرِ. والاسْتِذْكارُ: الدِّراسَةُ لِلْحِفْظِ، والتَّذَكُّر: تَذَكُّرُ ما أُنسيته[6]، والمقصود بالتَّذَكُّرِ في الآية: النَّظَرُ في أدِلَّةِ صدق الرَّسول - ﷺ - وَوُجوبُ اتِّباعِهِ، وَلِذَلِكَ خُصَّ بِذَوِي الْأَلْبابِ[7]، وأصْلُهُ يَتَذَكَّر، فَأُدْغِمَ التّاءُ في الذّالِ لِتَقارُبِ مَخْرَجَيْهِما.

4) ﴿أُوْلُواْ﴾: أولوا بِمَعْنَى ذَوو لا يُفْرد لَهُ واحِدٌ ولا يُتَكَلَّمُ بِهِ إلّا مُضافًا، كقولك: أولوا بأْسٍ شَدِيدٍ وأولوا كَرَمٍ، كأنَّ واحِدَهُ أُلٌ، والواو لِلجَمْعِ، ألا تَرى أنَّها تَكونُ في الرَّفع واواً وفي النَّصْبِ والْجَرِّ ياءً؟[8]، وقيل: أوْلو، والمُؤَنَّثُ أوْلاتٌ، والواحِدُ: ذو[9]، وأُلات للإناث واحِدَتُها ذاتٌ، تَقولُ: جاءَني أولو الألباب وأولات الأحْمال[10]. ولا يُقال إلّا للجميع من النّاس وما يشبهه[11]. والمقصود بأولو في الآية: ذوو، بمعنى أصحاب.

5) ﴿ٱلْأَلْبَٰبِ﴾: أصلُ (لبّ): يَدُلُّ على خُلوصٍ وَجَوْدَةٍ[12]، ومنه اللُّبُّ: العَقْلُ الخالص من الشّوائب؛ وسُمِّي بذلك لكونه خالص ما في الإنسان مِن معانيه، كاللُّبابِ واللُّبِّ من الشَّيء،

(1) الراغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (نذر).
(2) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن عباد، المحيط في اللغة: (نذر).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نذر).
(4) الأزهري، تهذيب اللغة، والمحيط في اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة: (ذكر).
(5) أبو عمرو الشيباني، الجيم، وابن دريد، جمهرة اللغة، وابن عباد، المحيط في اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (ذكر).
(6) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، وابن عباد، المحيط في اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (ذكر).
(7) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/255.
(8) ابن سيده، المحكم، وابن منظور، لسان العرب: (ألل).
(9) ابن عباد، المحيط في اللغة: (ألل).
(10) الجوهري، الصحاح: (ألل).
(11) الخليل، العين: (ألل).
(12) ابن فارس، مقاييس اللغة: (لب).

وقيل: هو ما زكى مِنَ العَقْلِ، فكلُّ لبٍّ عَقْل وليس كلّ عقل لبًّا[1]، ورَجُلٌ لَبِيبٌ، أيْ عاقِلٌ، وَقَدْ لَبَّ يَلُبُّ، وَخالِصُ كُلِّ شَيْءٍ لُبابُهُ[2]. والمقصودُ بالألْبابِ في الآية: العُقولُ، وأولو الألْبابِ: هُمْ أهلُ العُقولِ الصَّحِيحَةِ[3].

❁ المَعْنى الإجْمالِيُّ:

القرآن وما فيه من عظات تبليغ للنّاس وعِظة، وإنذار من عقاب الله ﷻ

ختم اللّه تعالى السّورة الكريمة بقوله: هذا القُرآنُ تَبليغٌ مِن اللّهِ تعالى إلى جميعِ النّاسِ؛ لإقامةِ الحُجَّةِ عليهم، والإعذارِ إليهم، وهو كفايةٌ لهم في الموعظةِ والتذكيرِ، وبه يتبلَّغونَ، ويتزوَّدونَ للوُصولِ إلى أعلى المَقاماتِ والدَّرَجاتِ، وأنزَلْنا القُرآنَ ليُخَوَّفَ النّاسُ به عِقابَ اللّهِ، ويُحَذَّروا من نقمتِه، وليعلمَ النّاسُ بحُجَجِ القرآنِ وبَراهينِه أنَّ اللّهَ المعبودَ بحَقٍّ إلهٌ واحِدٌ، لا يستحِقُّ غيرُه العبادةَ، وليتذَكَّرَ ويتَّعِظَ أصحابُ العُقولِ السَّليمةِ بهذا القرآنِ، فيَهتَدوا إلى العمَلِ بما ينفَعُهم، وتَرْكِ ما يضُرُّهم[4].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

تصدير الجملة باسم الإشارة ﴿هَٰذَا بَلَٰغٌ﴾:

اسم الإشارة يوجِز المعاني ويكْتَنِزها

اشْتَمَلَتْ هَذِهِ السّورَةُ عَلى الكثيرِ مِن المَواعِظِ والأمْثالِ والحِكَمِ الَّتِي أبْكَمَتِ البُلَغاءَ، وأخْرَسَتِ الفُصَحاءَ، وبَهَرَتِ العُقولَ، وجاء التَّعبير باسم الإشارة في الجملة؛ لِيَكْتَنِز هذه المعاني ويوجِزها، ويَسْتحضرها، ويشير إليها وكأنَّها شاخصة "بما يَصْلُحُ أن يكون عُنْوانًا لجَميعِ القُرْآنِ فَقالَ: ﴿هَٰذَا﴾ أي الكِتاب الَّذِي يُخْرِجُ النّاس مِنَ الظُّلُماتِ إلى النّورِ"[5].

(1) الراغب، المفردات: (لب).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (لب).
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/351.
(4) ابن جرير، جامع البيان: 13/747، والرازي، مفاتيح الغيب: 19/114، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 9/386، والسعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 428.
(5) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 10/441.

وقد اختَلَف المُفَسِّرون في توجيه المُشار إليه، فَقِيلَ: إنَّ قَوْلَهُ: ﴿هَٰذَا﴾ إشارَةٌ إلى القُرْآنِ الكريم، وقِيلَ: إشارَةٌ إلى هَذِهِ السّورَةِ. وقِيلَ: إشارَةٌ إلى المَذْكورِ مِن قَوْلِهِ: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا﴾ إلى ﴿سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ [إبراهيم: 42 - 51][1].

إيثار لفظ ﴿بَلَٰغٌ﴾ على (بيان):

ومَعْنى ﴿بَلَٰغٌ﴾: كِفايَةٌ في الوَعْظِ والتَّذْكِيرِ، ولِيُنْذَروا بِهِ[2].

قوَّة البلاغ، وشِدَّة تأثيره

وأوثر التَّعبيرُ بالبلاغ على البيان؛ لدلالته على الوُصول والقَصْد، وشدَّة التَّأثير، والقوَّة.

سِرُّ تنكير ﴿بَلَٰغٌ﴾:

التَّأكيد على عظمة القرآن الكريم، وهذا البلاغ المُبين

وتنكيرُ بلاغ للتَّعظيم؛ حيث ذُكِرتْ ثلاثُ فوائدَ لهذا البلاغِ العظيمِ، وهي الإنذار في قوله: ﴿وَلِيُنذَرُواْ بِهِۦ﴾، والعِلْم بوحدانيَّة اللّه تعالى في قوله: ﴿وَلِيَعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾، وتَذَكُّر أصحاب العقول، وذلك في قوله: ﴿وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾.

وهذا يُؤَكِّد على عظمة القرآن الكريم، وهذا البلاغ المُبين.

معنى لام التعريف، ونوعها في ﴿لِّلنَّاسِ﴾:

هَذا القُرْآن بَلاغٌ لِجَمِيعِ النّاسِ

اللّامُ في ﴿لِّلنَّاسِ﴾ للاستغراق؛ لِيَشْمل هذا البلاغ جميع النّاس؛ فقد بَيَّنَ اللّه تعالى في هَذِهِ الآيَةِ الكَرِيمَة أنَّ" هَذا القُرْآنَ بَلاغٌ لِجَمِيعِ النّاسِ، وأوْضَحَ هَذا المَعْنى في قَوْلِهِ تعالى: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَۚ﴾ [الأنعام: 19]. وبَيَّنَ أنَّ مَن بَلَغَهُ ولَمْ يُؤْمِن بِهِ فَهو في النّارِ كائِنًا مَن كانَ، في قَوْلِهِ: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥۚ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُۚ﴾ الآيَةَ" [هود: 17][3].

(1) الرّازيُّ، مفاتيح الغيب: 19/153.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/.453.
(3) الشِّنقيطيّ، أضواء البيان: 3/136.

دلالة الواو، ونوع اللّام في: ﴿وَلِيُنذَرُواْ بِهِۦ﴾:

الواو في ﴿وَلِيُنذَرُواْ﴾ عاطفة، واللّام للتَّعليل، والفعل معطوف عَلى كَلامٍ محذوف يَدُلُّ عَلَيْهِ لَفظُ ﴿بَلَٰغٌ﴾، والتَّقدير: لِيُنْصَحوا ويُحذَّروا، وفي هذا الفعل أوجهٌ، أحدُها: أنَّه متعلِّقٌ بمحذوفٍ؛ أيْ: ولْيُنْذَروا بما أنْزَلْنا عليك.

الثّاني: أنه معطوفٌ على محذوفٍ، ذلك المحذوفُ ومتعلّقها قُ بـ ﴿بَلَٰغٌ﴾، تقديره: لِيُنْصَحوا ولِيُنْذَروا. الثّالث: أنه محمولٌ على المعنى؛ أيْ: لِيُبَلَّغوا ولِيُنْذَروا. الرّابع: أنَّ اللّامَ لامُ الأمر[1].

الواو عاطفة واللّام للتَّعليل

سِرُّ بناء الفعل للمفعول:

بُنِيَ الفعل ﴿وَلِيُنذَرُواْ﴾ للمفعول؛ لأنَّ القَصْد الإنذار مِن أي مُنْذِرٍ كان، وفَصَّل البِقاعيُّ هذا السِّرَ بقوله: "ولَمّا كانَ مُتَعَلِّقُ البَلاغِ الَّذي قُدِّرَتْهُ بالوُصولِ يَتَضَمَّنُ البِشارَةَ، عَطَفَ عَلَيْهِ النِّذارَةَ بانِيًا لِلْمَفْعولِ، لِأنَّ النّافِعَ مُطْلَقُ النِّذارَةِ، وكُلُّ أحَدٍ مُتَأهِّلٌ لِأنْ يَكونَ واعِظًا بِهِ مَقْبولًا، لِأنَّ مَن سَمِعَهُ فَكَأنَّما سَمِعَهُ مِنَ اللّهِ لِتَمَيُّزِهِ بِإعْجازِهِ عَنْ كُلِّ كَلامٍ، فَقالَ: ﴿وَلِيُنذَرُواْ﴾ أيْ مِن أيِّ مُنْذِرٍ كانَ فتقوم عليهم الحجّةُ[2].

الدَّلالة على تميُّز القرآن عن كلِّ كلام وأثره في النُّفوس

دلاله الضَّمير في ﴿بِهِۦ﴾، ومرجعه:

الضَّمير المجرور في ﴿وَلِيُنذَرُواْ بِهِۦ﴾ فِيهِ وجْهانِ: أحَدُهُما: بِالرَّسولِ، والثّاني: بِالقُرْآنِ[3]، وهو الأرجح؛ لدلالة السِّياق عليه.

عِلَّة تقديم جُملة ﴿وَلِيُنذَرُواْ بِهِۦ﴾:

قُدِّمت جملة الإنذار ﴿وَلِيُنذَرُواْ بِهِۦ﴾ على جملة ﴿وَلِيَعْلَمُوٓاْ﴾؛ لِأنَّهم إذا خافوا ما أُنْذِروا بِهِ؛ دَعَتْهُمُ الْمَخافَةُ إلى النَّظَرِ حَتَّى يَتَوَصَّلوا إلى التَّوْحِيدِ؛ لِأنَّ الْخَشْيَةَ أُمُّ الْخَيْرِ كُلِّهِ ﴿وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ

الْخَشْيَةُ أُمُّ الْخَيْرِ كُلِّهِ

(1) السّمين الحلبيُّ، الدُّرُّ المصون: 7/134.
(2) البِقاعيُّ، نظم الدُّرر: 10/443.
(3) الماورديُّ، النُّكت والعُيون: 3/146.

﴿ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ أيْ: لِيَتَّعِظَ بِهِ ذَوو اَلْعُقولِ، فَيُقْبِلوا عَلى ما فِيهِ نَجاتُهم وسَعادَتُهم[1].

بلاغة القصر في: ﴿وَلِيَعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ﴾:

بَيَّنَ اللّه تعالى في هَذِهِ الآيَةِ الكَرِيمَةِ أنَّ مِن حِكَمِ إنْزالِ القُرْآنِ العَظِيمِ العِلْمَ بِأنَّهُ تَعالى إلَهٌ واحِدٌ، وأنَّ مِن حِكَمِهِ أنْ يَتَّعِظَ بِهِ أصْحابُ العُقولِ."والمَعْنى: ولِيَعْلَموا مِمّا ذُكِرَ فِيهِ مِنَ الأدِلَّةِ ما اللّه إلّا إلَهٌ واحِدٌ، أيْ: مَقْصورٌ عَلى الإلَهِيَّةِ المُوَحَّدَةِ، وهَذا قَصْرٌ مَوْصوفٌ عَلى صِفَةٍ وهو إضافِيٌّ، أيْ: أنَّهُ تَعالى لا يَتَجاوَزُ تِلْكَ الصِّفَةَ إلى صِفَةِ التَّعَدُّدِ بِالكَثْرَةِ أوِ التَّثْلِيثِ، كَقَوْلِهِ ﴿إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٞ﴾ [النّساء: 171]"[2].

القَصْرُ يُؤَكِّدُ وحدانيَّةَ اللهِ تعالى، ويَنْفي التَّعَدُّدَ بِالكَثْرَةِ أوِ التَّثْلِيث

مُناسبة قوله: ﴿وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ لسياق الآية:

أشار السِّياق السّابق إلى أنَّ التَّذْكِيرَ بِهَذِهِ المَواعِظِ والنَّصائِحِ يوجِبُ الوُقوفَ عَلى التَّوْحِيدِ والإقْبالَ عَلى العَمَلِ الصّالِحِ، واجتناب العمل الطّالح، بيان ذلك أنَّ المَرْءَ إذا سَمِعَ هَذِهِ المَواعِظَ والتَّخْوِيفاتِ والتَّحْذِيراتِ؛ اشتَدَّ خَوْفُه، وعَظُمَ وَجَلُه، واشْتَغَلَ بِالنَّظَرِ والتَّأمُّلِ، فَوَصَلَ إلى مَعْرِفَةِ التَّوْحِيدِ والنُّبوَّةِ واشْتَغَلَ بِالأعْمالِ الصّالِحَةِ[3].

التَّذْكيرُ بِهَذِهِ المَواعِظِ والنَّصائِحِ يوجِبُ الوُقوفَ عَلى التَّوْحِيدِ

علَّة اختصاص أولى الألباب بالذِّكْر، وختْم الآية بها:

خُصَّ أولو الألباب بالذِّكْر؛ لِأنَّهم هُم الَّذِينَ ينتفعون بالتَّذَكُّرِ، وتَظْهر آثاره فيهم.

"والتَّذَكُّرُ: النَّظَرُ في أدِلَّةِ صِدْقِ الرَّسولِ ﷺ ووُجوب اتِّباعِهِ؛ ولِذَلِكَ خُصَّ بِذَوِي الألْبابِ تَنْزِيلًا لِغَيْرِهِمْ مَنْزِلَةَ مَن لا عُقولَ لَهم ﴿إِنۡ هُمۡ إِلَّا كَٱلۡأَنۡعَٰمِۖ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّ سَبِيلًا ٤٤﴾ [الفرقان: 44] "[4].

أولو الألباب هُم الَّذِينَ ينتفعون بالتَّذَكُّرِ

(1) الزّمخشريُّ، الكشّاف: 3/395.
(2) ابن عاشور، التّحريروالتّنوير: 13/255.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب:/19/154.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/255.

سِرُّ ترتيب الصِّفات الواردة في الآية الكريمة:

ترتيب الصِّفات تَرتيبًا عقليًّا بِحَسْبِ حُصولِ بَعْضِها عَقِبَ بَعْض

رُتِّبَتْ صِفاتُ الآياتِ المُشارِ إلَيْها باسْمِ الإشارَةِ عَلى تَرْتِيبٍ عَقْلِيٍّ بِحَسْبِ حُصولِ بَعْضِها عَقِبَ بَعْضٍ، فابْتُدِئَ بِالصِّفَةِ العامَّةِ وهي حُصولُ التَّبْلِيغِ، ثُمَّ ما يَعْقُبُ حُصولُ التَّبْلِيغِ مِنَ الإنْذارِ، ثُمَّ ما يَنْشَأُ عَنْهُ مِنَ العِلْمِ بِالوَحْدانِيَّةِ لِما في خِلالِ هَذِهِ السّورَةِ مِنَ الدَّلائِلِ، ثُمَّ بِالتَّذْكِيرِ في ما جاءَ بِهِ ذَلِكَ البَلاغُ وهو تَفاصِيلُ العِلْمِ والعَمَلِ، وهَذِهِ المَراتِبُ هي جامِعُ حِكْمَةِ ما جاءَ بِهِ الرَّسولُ ﷺ مُوَزَّعَةً عَلى مَن بَلَّغَ إلَيْهِمْ، ويَخْتَصُّ المُسْلِمونَ بِمَضْمونِ قَوْلِهِ ﴿وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[1].

عَلاقة خاتمة السّورة بِأوَّلها:

هذا البَلاغ هو الكِتاب العزيز الَّذي أنزله الله تعالى على رسوله ﷺ

جاء قوله ﷻ: ﴿هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُواْ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ في خاتمة السّورة ناظرًا إلى أوَّلها ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝١﴾ [إبراهيم: 1]؛ حيثُ إنَّ هذا البَلاغ هو الكِتاب العزيز الّذي أنزله اللّه تعالى على رسوله ﷺ؛ لِيُخرِج النّاس مِن الظُّلمات إلى النّور.

وقد بَيَّن الفخرُ الرّازيُّ تلك العَلاقة بقوله: "أمّا أوَّلُ هَذِهِ السّورَةِ فَهو قَوْلُه تَعالى: ﴿لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [إبراهيم: 1] فَإنّا قَدْ ذَكَرْنا هُناكَ أنَّ هَذا يَدُلُّ عَلى أنَّ المَقْصودَ مِن إنْزالِ الكِتابِ إرْشادُ الخَلْقِ كُلِّهِم إلى الدِّينِ والتَّقْوى ومَنْعُهم عَنِ الكُفْرِ والمَعْصِيَةِ، وأمّا آخِرُ السّورَةِ فَلِأنَّ قَوْلَهُ: ﴿وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ يَدُلُّ عَلى أنَّه تَعالى إنَّما أنْزَلَ هَذِهِ السّورَةَ، وإنَّما ذَكَرَ هَذِهِ النَّصائِحَ والمَواعِظَ لِأجْلِ أنْ يَنْتَفِعَ الخَلْقُ بِها فَيَصِيروا مُؤْمِنِينَ مُطِيعِينَ ويَتْرُكوا الكُفْرَ والمَعْصِيَةَ، فَظَهَرَ أنَّ أوَّلَ هَذِهِ السّورَةِ وآخِرَها مُتَطابِقانِ في إفادَةِ هَذا المَعْنى[2].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/255.
(2) الفخر الرّازيُّ، مفاتيح الغيب: 19/154.

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

البلاغ والبيان:

البلاغ: يدُلُّ أصْل المادَّة على الوُصول إلى الشَّيءِ[1].

البلاغ الإيصال للرِّسالة والبيان الكشف عمّا فيها

ومن شواهده قوله تعالى: ﴿فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسْلَمْتُمْۚ فَإِنْ أَسْلَمُواْ فَقَدِ ٱهْتَدَواْۖ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِٱلْعِبَادِ ۝٢٠﴾ [آل عمران: 20].

البيان: المعنى المحوريُّ للكلمة هوَ بُعْدُ الشَّيْءِ، وانْكِشافُه ووضوحه وظهوره. ومِنْه: بانَ الشَّيْءُ وَأبانَ إذا اتَّضَحَ وانْكَشَفَ. والْبَيِّنُ الْفِراقُ[2]، ومِن شواهده قوله تعالى: ﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ۝١٣٨﴾ [آل عمران: 138].

والفرق بين البلاغ والبيان فهو أنَّ البلاغ إيصال الرسالة، قال الجوهريُّ في الصِّحاح: والإبلاغ الإيصال، وكذلك التَّبليغ، والاسم منه البلاغ[3].

وأما البَيان فهو الإيضاح والكشف عن المعنى المقصود إظهارُه.

الإبلاغ والإيصال:

الإبلاغ أشدُّ اقتضاء للمُنْتهي إليه من الإيصال؛ لأنَّه يقتضي بلوغ فهمه وعقله كالبلاغة الَّتي تصل إلى القلب، وقيل: الإبلاغ اختصار الشَّيء على جهة الانتهاء ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ۝٦﴾ [التَّوبة: 6].

الإبلاغ أشدُّ اقتضاء للمُنْتهي إليه

اللُّب والعَقْل والنُّهية:

اللُّب: يدُلُّ أصْل الكلمة على النَّقاء والخُلوص، قال ابن فارس:

تشترك في كونها أسماء للعقل وتختلف في صفاتها

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (بلغ).
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (بين).
(3) الجوهريُّ، الصِّحاح: (بلغ).

"اللُّبُّ معروف، من كلِّ شيءٍ، وهو خالصه وما يُنتَقَى منه، ولذلك سُمِّيَ العقلُ لُبًّا. ورَجُلٌ لَبيب، أي عاقل. وخالِصُ كُلِّ شيءٍ لُبابُه"[1].

ولُبُّ كلِّ شيءٍ ولُبابُه خالِصُه وخِيارُه. ولُبُّ الرَّجُل ما جُعِل في قَلْبه مِن العَقْل. ولَبيبٌ عاقِلٌ ذو لُبٍّ مِن قوم ألِبّاء[2].

وقال الرّاغب: "اللُّبُّ: العقل الخالص مِن الشَّوائب، وسُمِّي بذلك لِكَونه خالص ما في الإنسان مِن معانيه كاللُّباب واللُّبّ مِن الشَّيء، وقيل هو ما زكى مِن العَقْل فَكُلُّ لُبٍّ عَقْلٌ، وليس كُلُّ عَقْل لُبًّا، ولهذا عَلَّق الله تعالى الأحكام الَّتي لا يدركها إلا العقول الزكيَّة بأولي الألباب نحوقوله تعالى: ﴿يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٦٩﴾﴾ [البقرة: 269][3].

ومِن الملحوظ في الاستعمال القرآنيِّ للكلمة أنَّه لمْ يَرِد استعمالُ (اللُّبِّ) مُفردًا، وإنَّما اسْتُعْمِل جَمْعَ تكسير (الألباب)، كُلُّها في سِياق ثناء، وتقدير لأولي الألباب، ومِن ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾﴾ [البقرة: 179]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾﴾ [آل عمران: 190].

ومنها قوله تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٩﴾﴾ [الزُّمر: 9].

العَقْل: يَدُلُّ أصل مادة (عقل) على حُبسةٍ في الشَّيءِ أو ما يُقارب الحُبْسة، ومِن ذلك العقل، وهو الحابس عن ذميم القول والفعل[4].

و"العقل هو العِلْم بِصِفات الأشياء مِن حُسْنها وقُبْحها، وكمالها ونقصانها"[5].

وردت مادة (عقل) في القرآن الكريم في تسعة وأربعين موضعًا، منها قوله تعالى: ﴿۞ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [البقرة: 44].

ومنها قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (لبّ).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (لبّ).
(3) الرّاغب، المفردات: (لبّ).
(4) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (عقل).
(5) أبو بكر الأزديُّ، جمهرة اللُّغة: 2/939.

وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصۡرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلۡمُسَخَّرِ بَيۡنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ﴿١٦٤﴾ [البقرة: 164].

ومنها قوله تعالى: ﴿۞قُلۡ تَعَالَوۡاْ أَتۡلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمۡ عَلَيۡكُمۡۖ أَلَّا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗاۖ وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَوۡلَٰدَكُم مِّنۡ إِمۡلَٰقٖ نَّحۡنُ نَرۡزُقُكُمۡ وَإِيَّاهُمۡۖ وَلَا تَقۡرَبُواْ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَۖ وَلَا تَقۡتُلُواْ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴿١٥١﴾ [الأنعام: 151].

النُّهية: جَمْعها: النُّهى والنُّهية: العَقْل؛ لأنَّه يَنْهى صاحبَه عن ارتكاب القبيح، ويَنْتَهي إلى ما أُمِرَ به ولا يتجاوزه[1]. ويدُلُّ معناها المحوريُّ على الغايةِ والبُلوغ، والثَّبات[2]، وعلى تَحَبُّس الشَّيءِ الرَّقيق في مكانه وتوقُّفه فيه لا يتخطّاه[3].

قال السَّعْديُّ: "النُّهَى؛ أيْ: العقول السَّليمة، والفِطَرُ المُستقيمة، والألباب الَّتي تزجر أصحابَها عمّا لا ينبغي"[4].

وقد وَرَدَ لفظ النُّهى في مَوضعين اثنين في سورة طه، في قوله تعالى: ﴿كُلُواْ وَٱرۡعَوۡاْ أَنۡعَٰمَكُمۡۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلنُّهَىٰ ﴿٥٤﴾﴾ [طه: 54]، وقال: ﴿أَفَلَمۡ يَهۡدِ لَهُمۡ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّنَ ٱلۡقُرُونِ يَمۡشُونَ فِي مَسَٰكِنِهِمۡۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلنُّهَىٰ ﴿١٢٨﴾﴾ [طه: 128].

وفَرَّق الرّازيُّ بين النُّهَى والعَقْل، حيث جَعَل النُّهَى أعلى مرتبة مِن العقل، حيث قال: "والأقرب أن للنُّهية مَزِيَّة على العقل، والنُّهى لا يُقال إلا فيمن له عَقْل يَنْتَهي بهِ عن القبائح، كما أنَّ لِقَولنا: أولو العَزْم مَزِيَّة على أولو الحَزْم، فلذلك قال بعضهم: أهل الورع وأهل التَّقوى"[5].

فالعقل يمْنَعُ الشَّخصَ عن اقتراف المعاصي، وبالنُّهَى يَنْزَجر عن المُحرَّماتِ ويَنْتَهي عن المعاصي والآثام.

(1) السّمين الحلبيُّ، عُمدة الحُفّاظ: (نهي).
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (نهي).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (نهي).
(4) السّعديُّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 615.
(5) الفخر الرّازيُّ، مفاتيح الغيب: 22/436.

الجُزْءُ الرَّابِعَ عَشَرَ

سُورَةُ الحِجْرِ

سُورَةُ الحِجْرِ

التَّعريف العامُّ بالسّورة

سورةُ الحِجر هي السورة الخامسة عشرةَ في ترتيب المصحف، وعدد آياتها تِسْعٌ وتسعون آية باتِّفاق العادّين[1].

سورة الحِجر مكيَّةٌ، على المأثور الأصحّ عند المفسّرين

وهي سورة مكّيَّة نزلت قبل الهجرة باتِّفاق[2]، ومِنَ المفسرين مَنِ استثنى آياتٍ مدنيَّةً منها[3]، والصَّحيح القول بأنَّ السّورةَ مَكِّيَّةٌ بتمامها[4].

أمّا ورودُ قوله تعالى: ﴿كَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَى ٱلۡمُقۡتَسِمِينَ ۝٩٠ ٱلَّذِينَ جَعَلُواْ ٱلۡقُرۡءَانَ عِضِينَ ۝٩١﴾ [الحجر: 90 - 91]؛ فإنَّه لم يُبتلَ الإسلام يومئذٍ باليهود والنَّصارى ذاك الابتلاء، فالظّاهر أنَّ الآيتين تذكران قومًا نهضوا في أوائل البعثة على إطفاء نور القرآن، وبعَّضوه أبعاضًا؛ ليصدّوا عن سبيل الله، فأنزل الله عليهم العذاب وأهلكهم[5]، وهذا "يشمل أهلَ الكتابَيْن وغيرهم من المشركين، وكلَّ مَنِ اقتسم كتابًا لله بتكذيب بَعْضٍ وتصديق بَعْضٍ"[6].

وأمّا ترتيب نزولها؛ فقد ذَكَرَ بعضهم أنَّ ترتيبها الثّالثة والخمسون بين سورتَي يوسف والأنعام[7]، وزعم بعضهم أنَّها الرّابِعَةُ

(1) الداني، البيان في عدّ آي القرآن، ص: 173.

(2) مقاتل، تفسير مقاتل: 2/198، وابن الجوزي، زاد المسير: 4/45، وأبو حيان، البحر المحيط: 6/465، والشوكاني، فتح القدير: 3/120.

(3) لزيادة تفصيل يرجى الرّجوع إلى: الترمذي، سنن الترمذي: 5/296، وأحمد، المسند: 1/305، والواحدي، أسباب النزول، ص: 186، وابن حبّان، الثقات: 8/96، وابن الجوزي، الضعفاء والمتروكين: 2/231، وابن حجر، تقريب التهذيب: 2/380، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 5/397، والماوردي، النكت والعيون: 3/147، والطبرسي، مجمع البيان: 6/501.

(4) ابن جرير، جامع البيان: 14/131، 17/94، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/5، 33، ودروزة، التفسير الحديث: 4/34، ودروزة، التفسير الحديث: 4/34.

(5) الطبطبائيّ، الميزان في تفسير القرآن: 12/193.

(6) طنطاوي، الوسيط: 8/82.

(7) السيوطي، الإتقان في علوم القرآن: 1/43.

والخمسون في ترتيب النُّزول[1]، والحقُّ أنَّ التَّرتيب النُّزوليَّ ليس قطعيًّا في ثبوته لافتقاده إلى صحَّة الرِّوايات.

ظروف نزول السّورة حافلة بالأحداث والتَّحديّات، للمسلمين في العهد المكّي

والمدَّة الزَّمنيَّة التي نزلت فيها هذه السّورة هي ما بين السنة الرابعة والسنة العاشرة للبعثة، وهو زمنٌ حافل بأحداث جِسام عاشها المسلمون الأوائل في مكَّة، امتدت إلى زمن وفاة عمِّه أبي طالب وزوجته خديجة، حيث سُمّي ذلك العام بعام الحزن؛ بسبب توقُّف دعوة النَّبيِّ ﷺ فيه، وبسبب ما لقيه من أذًى في داخل مكَّة وفي خارجها، فوجد النَّبيُّ ﷺ في نفسه ما وجد مِنْ كَبَدٍ وعناء، حيث فقد في أثناء ذلك كلِّه السَّند العاطفيَّ والعقليَّ بفَقْدِ زوجته خديجة، وفقَدَ فيها السَّند الاجتماعيَّ والسّياسيَّ بوفاة عمِّه أبي طالب، فجاءت السّورة تحمل في طيّاتها ما تثبِّت به فؤاده، وترفعُ من معنويّاته، وخُتِمت بالتَّسرية عن النَّبيِّ ﷺ، وبتوصيته بالثَّبات على دعوته، فالسّورة نزلت في جوٍّ مشحونٍ يمثِّل ذروة الصِّراع بين الحقِّ والباطل في مرحلة ساخنة من مراحل الدَّعوة في مكَّة.

أسماء السّورة:

سورةُ (الحِجر) لمْ تُسَمَّ باسمٍ غيرِه في الأثر

ليس لهذه السّورة في جميع المصاحف وكُتُبِ التَّفسير والسُّنَّة إلّا اسمٌ واحد، هو (الحِجْر)، وهو اسمها الثابتُ رِوايةً وشُهرةً[2]، وقد ذكروا في سبب تسميتها به: ورود هذا الاسم فيها دون غيرها، وأصحابُ الحِجْرِ هم قوم صالح عليه السلام؛ إذ كانوا ينزلون الحِجْرَ - بكسر الحاء وسكون الجيم - وهو المكان المَحْجورُ، أيْ: الممنوع أنْ يسكنه أحد غيرهم لاختصاصهم به.

ويجوز أنْ يكون لفظُ الحِجر، مأخوذًا من الحجارة؛ لأنَّ قوم صالحٍ عليه السلام كانوا يَنْحِتونَ بيوتهم من أحجار الجبال وصخورها، ويبنون بناءً محكمًا جميلًا[3].

(1) دروزة، التفسير الحديث: 4/34.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/5.
(3) طنطاوي، التفسير الوسيط: 8/6.

والحقُّ أنَّه لا بدَّ من البحث عن رابط أقوى بين اسم السّورة وموضوعها، فكثير من السّور انفردت ببعض الأسماء، ولم تُسمَّ باسمها.

ولفظ الحِجر دالٌّ على المنعة والقوَّة والحفظ، و"الحَجَر: هو الجوهر الصُّلب المعروف، والحَجْر والتحجير: أنْ يُجعل حول المكان حِجارَةٌ، ويقال للعقل: حِجْر؛ لكون الإنسان في منعٍ منه ممّا تدعو إليه نفسه، وفلان في حَجْرِ فلان، أيْ: في منع منه عن التَّصرُّف في ماله وكثير من أحواله، وحِجْر القميص أيضًا: اسم لما يُجعل فيه الشيء، فَيُمْنَعُ، وحُجِّر القمرُ: صار حوله دائرة، ومِحْجَر العين منه، وتَحَجَّرَ كذا: تصلَّب وصار كالأحجار"[1].

قصة أصحاب الحِجر، بيانٌ لسنَّة الله تعالى في حفظ أوليائه، ودحر أعدائه

وترتبط التّسمية ارتباطًا وثيقًا بمحور السّورة العام، وبمحاورها التّفصيلية، فالسّورة أوضحت أنَّ هلاك الأمم كائنٌ بالإسراف في التَّمتُّع بالدُّنيا والانشغال بها عن الآخرة، متغافلين عن الحكمة من خَلقهم ووجودهم، وإنَّ كثرة التَّلذُّذ والتَّنعُّم بالدُّنيا يؤدّي إلى طول الأمل فيها وقلَّة العمل للآخرة، فمن طال أَمَلُهُ؛ قلَّ عَمَلُهُ؛ وأنَّ خير علاجٍ لطول الأمل، هو الإكثار من ذكر الموت، وعبادة اللّه تعالى حتّى انْقِضاءِ الأجل[2].

وبناءً على هذا فإنَّ قصة أصحاب الحِجر هي الأنموذج الَّذي يحقِّق محور السّورة ومستلزماته في بيان سنَّة اللّه تعالى في حفظ دينه ورسله، وفي ديمومة النِّعم ما دام النّاس على دين الحقِّ، وفي بيان أثر الترفُّه في زوال النِّعم، حيث نجد أنَّ أصحاب الحِجر قد أفرطوا في الترفُّه بالنِّعم، وأخلدوا إلى الأرض، فاغترّوا بطول الأمل، وشغلهم التَّلذُّذ بالمتاع الزّائل، فما حفظ اللّه عليهم النِّعَمَ، بل قلبها عليهم إلى نقمة بصيحة واحدة.

(1) الرّاغب، المفردات: (حجر).

(2) طهماز، الإنسان بين الأمل والأجل في سورة الحجر، ص: 124.

بيان محورها العام والموضوعات التّي تأتلف وتلتفُّ حوله:

إبراز سنَّة من سنن الله تعالى، في حفْظِهِ دينَه وأولياءَهُ، وإهْلاكِ المبطلين

يقول البقاعيُّ: "فمقصود هذه السّورة اعتقاد كون القرآن بلاغًا جامعًا للأمور الموصلة إلى الله، مغنيًا عن جميع الأسباب، فلا ينبغي الالتفات إلى شيء سواه ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا﴾، ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾ [الحجر: 88] ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ۝٩٩﴾ [الحجر: 99]، وكان الجمع بين الوصفين الدّالَّيْنِ على الجمع إشارةً إلى الردِّ عليهم في جعلهم القرآن عِضين"[1].

إبراز المصير البئيس، للكفرة المكذّبين بالدّين

ويمكن القول بعد تقليب النّظر في آيات سورة الحِجْرِ: إنَّ محور سورة الحِجر الرئيس هو: إبراز المصير المَخوف الّذي ينتظر الكافرين المكذِّبين، ويدور السياق حول هذا المحور بعدَّة أشكال، سواء في ذكر سنن الله في المكذِّبين، أو إبراز عظمة الله وقدرته في ما يُشاهَد من الكون، أو في وصف مشاهد يوم القيامة، أو ذكر قصص السّابقين وعاقبتهم كقوم لوط، وأصحابِ الأيكة، وأصحابِ الحِجر، وما تخلَّل ذلك كلَّه من تعقيبات والَّذي يرجع إلى المحور الرئيس، ويدور حوله[2].

الإنسان بين الأمل والأجل، ومن طال أمله، تمحّض للدّنيا عمله

ويمكن أنْ يكون محور سورة الحِجْرِ مُعَنْوَنًا في: (الإنسان بين الأمل والأجل)، فالسّورة أوضحت أنَّ هلاك الأمم كائنٌ بالإسراف في التَّمتُّع بالدُّنيا والانشغال بها عن الآخرة، وإنَّ كثيرًا من النّاس يخطئون عندما يجعلون الدُّنيا غاية لخَلقهم، ويغفلون عن الآخرة وما ينتظرهم فيها من حساب، ولهذا تراهم منصرفين بكلِّ طاقاتهم إلى الدُّنيا غافلين أو مُتَغافِلِينَ عن الحكمة من خَلقهم ووجودهم، وهي عبادته سبحانه وعمارة الأرض بطاعته، وإنَّ كَثْرَةَ التَّلذُّذ والتَّنعُّم بالدُّنيا يؤدي إلى طول الأمل فيها وقلَّة العمل للآخرة،

(1) البقاعي، نظم الدرر: 11/3.

(2) مسلم، مصطفى وآخرون، موسوعة التّفسير الموضوعي: 4/95.

فمن طال أَمَلُهُ؛ قلَّ عَمَلُهُ؛ لأنَّ الأمل الطويل يُشْغِلُ صاحبه عن أجله، وأنَّه كثيرًا ما تتجاوز الآمال حدود الآجال، وأنَّ خير علاج لطول الأمل هو الإكثار من ذكر الموت، واعبد ربك حتى يأتيك اليقين[1].

بيان سنَّة الله تعالى الرّاسية، في حماية رسله وحفظ كتبه الهادية

والحقُّ أنَّ محور السّورة الكريمة يضمُّ كلَّ ما تقدَّم ذكره من آراء، حيث تمثِّل هذه الآراءُ دعائمَ بارزة، وخطوطًا فرعيَّة لمحور السّورة المختار؛ فالسّورة الكريمة قد نزلت في جوٍّ مشحونٍ بالعدائيَّة المُفرِطَةِ من قريش للنبيِّ ﷺ والمؤمنين معه، وقد احتاج المسلمون مع هذا الظّرف إلى التَّسرية والتَّثبيت لهم على الحقِّ، فقام محور هذه السّورة على بيان سنَّة الله تعالى في حفظ دينه من خلال حفظ رُسُلِهِ وَكُتُبِهِ، وكذلك في حفظ أتباع هذا الدّين وفي إهلاك أعدائه.

مقتضيات محاور السّورة تتمثّل في العناصر الآتية:

اقتضى ما تقدّم من توضيحٍ للمحاور الأساسية للسّورة أنْ يُبَيِّنَ الله أنَّ دينه وخَلْقَه قائمان على الحقِّ في تضاعيفها، فقال عن الملائكة: ﴿مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾، و﴿قَالُواْ بَشَّرْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ﴾ [الحجر: 55]، و﴿وَأَتَيْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [الحجر: 64]، و﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ [الحجر: 85].

إقامة الحقّ وحفظ الدّين، من الغاوين والمستهزئين

ومن المقتضيات أيضًا: أنْ تُبَيِّنَ السّورةُ مظاهرَ حفظ الله لدينه وللحقِّ الَّذي قام عليه أمرُ الدُّنيا والآخرة، فمن ذلك أنَّ الله تعالى قد تعهَّد بحفظ كتابه: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾، وبحفظ ملكوته: ﴿وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾﴾ [الحجر: 17]، وبحفظ نبيِّه ﷺ: ﴿إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴿٩٥﴾﴾ [الحجر: 95]، وبحفظ عباده مِن إغواء الشَّيطان: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا

(1) طهماز، الإنسان بين الأمل والأجل في سورة الحجر، ص: 124.

مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [الحجر: 42]، وتعهَّد الله تعالى كذلك بإهلاك أعداء هذا الدّين كما بَيَّنَ عن نهايات عصور الظالمين[1].

القَصَصُ المبين، ومشاهد المغالبة والتّمكين

واقتضت المحاور أيضًا أنْ تأتي المشاهد القصصيَّة في السّورة الكريمة متَّسقة معها؛ فمشهد قصَّة آدم عليه السلام سُلِّط الضوء فيه على حفظ الله لعباده الصّالحين في مقابل تعهُّد إبليس بتزيين المعصية والإغواء لذرّية آدم، وفي جانب قصَّة إبراهيم عليه السلام كان التَّأييد من الله لإبراهيم عليه السلام بأنْ أعطاه الذُّرّيَّة الَّتي حفظت دينه في عقبه إلى يوم الدّين، وفي قصَّة لوط عليه السلام حفظ الله له أهْلَ بيته من المؤمنين وأهلك المفسدين منهم، وكذلك الحال في قصَّتَي أصحاب الأيكة وأصحاب الحِجر.

معوّقات التقدّم الإنسانيّ، ومظاهر الإغواء والتّزيين

واقتضت محاور السّورة الكريمة أنْ تُظهر لنا ما يعوقُ البشر عن دوام الحفظ والبقاء أو مسوِّغات زواله من قِبَلِ البشر، وكان من أهمِّها مظاهر الإتراف، والمبالغة في التمتُّع بالوسائل المعينة على الاستقرار البشريِّ؛ لتصبح غاية في نظر أهلها بدلًا من أنْ تكون وسيلة للعيش، وطول الأمل ونسيان الأجل، فقال عن الكافرين: ﴿ذَرۡهُمۡ يَأۡكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلۡهِهِمُ ٱلۡأَمَلُۖ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ﴾، ولهذا اختصَّت سورة الحِجر بذكر وسيلة إغواءٍ لإبليس لم ترد في غيرها من السّور الَّتي ذكرت قصَّة آدم، وهي وسيلة التَّزيين: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٣٩﴾﴾ [الحجر: 39]، وقال في وصف أصحاب الحِجر: ﴿وَكَانُواْ يَنۡحِتُونَ مِنَ ٱلۡجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ﴿٨٢﴾ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّيۡحَةُ مُصۡبِحِينَ ﴿٨٣﴾ فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴿٨٤﴾﴾ [الحجر: 82 - 84]، ونهى نبيَّه ﷺ في آخر السّورة الكريمة مِنْ أنْ يتطلَّع إلى ما في أيديهم من متاعٍ زائلٍ: ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيۡنَيۡكَ

(1) كما في الآيات: الحجر: 73 - 74، و79، و83 - 84، و89 - 93.

إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ [الحجر: 88].

الموضوعاتُ الرّئيسَةُ للسّورة:

مَدارُ السّورةِ حولَ تقريرِ حفظ الله تعالى لدينه ونصرته لأوليائه

احتوت السّورة على عدد من الموضوعات والمقاصد الأساسيَّة، وأهمُّها: أنَّها افتُتِحت بالحروف المقطَّعة الَّتي فيها تَعْرِيضٌ بالتَّحدّي بإعجاز القرآن. والتَّنويهُ بفضل القرآن وهديه، وإنذارُ المشركين بندم يندمونه على عدم إسلامهم، وتوبيخُهم بأنَّهم شَغَلَهُمْ عن الهدى انغماسُهم في شهواتهم، وإنذارُهم بالهلاك عند حُلولهِ إبّان الوعيد الَّذي عيَّنه اللّه في علمه، وتسلية الرَّسول ﷺ على عدم إيمان مَنْ لم يؤمنوا، وما يقولونه في شأنه، وما يتورَّكون بطلبه منه، وأنَّ تلك عادة المكذِّبين مع رسلهم، وأنَّهم لا تُجْدِي فيهم الآياتُ والنُّذرُ لو أُسْعِفوا بمجيء آيات حسب اقتراحهم به، وأنَّ اللّه حافظٌ كتابه من كيدهم.

ثمَّ إقامة الحجَّة عليهم بعظيم صنْعِ اللّه وما فيه من نِعَم عليهم، وذِكْرِ البعث ودلائل إمكانه. ثمّ انتقل إلى خلق نوع الإنسان، وما شرَّف اللّه به هذا النَّوع، وقصَّة كفر الشَّيطان.

ثمّ ذَكَرَ قصَّة إبراهيم ولوط عليهما السلام وأصحابَ الأيكة وأصحابَ الحِجْرِ، وخُتِمت بتثبيت الرَّسول ﷺ وانتظار ساعة النَّصر، وأنْ يصفح عن الَّذين يؤذونه، ويَكِلَ أمرهم إلى اللّه، ويشتغل بالمؤمنين، وأنَّ اللّه كافيه أعداءه، مع ما تخلَّل ذلك من الاعتراض والإدماج من ذكر خلق الجنِّ، واستراقهم السَّمع، ووصف أحوال المتَّقين، والتَّرغيب في المغفرة، والتَّرهيب من العذاب[1].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/7.

الخصائص الأسلوبيَّة والموضوعيَّة لسورة الحِجْر:

أوّلا: الخصائص الموضوعيَّة:

تتضمّن قصّة قومَي ثمود وشعيب، وحفظ الله للقرآن، مع خلق الإنسان وسجوده للرّحمن

وتفرَّدت سورة الحِجْرِ بذكر وصفٍ لقوم ثمود بأنَّهم ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ﴾ [الحجر: 80] دون غيرها من السّور، فقصَّة (ثمود) ذُكرت في أكثر من موضع في عدد من السّور القرآنيَّة، فتارة كانوا يُذْكَرونَ باسم ثمودَ، كقوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا﴾ [الأعراف: 73]، وتارة يتمُّ ذكرهم بقوم صالح، قال تعالى: ﴿وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍ﴾ [هود: 89]، وتارة يُذْكَرونَ بنسبة أخوة صالح لهم، قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝١٤١ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ۝١٤٢﴾ [الشّعراء: 141 - 142]، فكان ذلك دلالة على حفظ اللّه لدينه من خلال سلب الحفظ عن أمَّة تمسَّكت بالمادّيات دون الشرع، فلم ينفعها ذلك، فاللّه الحافظ دون غيره؛ لذا كان الحِجر أكبرَ دليل على وهَنِ الأسباب المادّية.

وتفرَّدت سورة الحِجر بتقرير حفظ اللّه تعالى لكتابه، بتتابع عددٍ من المؤكِّدات لا نجده في سورة أخرى بقوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾. وفي ذلك دلالة على المحور الأصيل من حفظ اللّه تعالى لدينه.

وتميَّزت سورة الحِجر بحديثها عن قوم شعيب بوصفهم بأنَّهم (أصحاب الأيكة) دون قوم مدين، حيث ذُكر لفظ (الأيكة) أربعَ مرّات في القرآن الكريم[1]، وفي ذلك دلالة على القوَّة الاقتصاديَّة التي تمتَّعوا بها من زروع وثمار وبيع وشراء، فلم تحفظهم، وتؤمِّنهم من عقاب اللّه لعدم حفظ منهج اللّه فيها، وتفرَّدت السّورة بوصف أصحاب الأيكة بالظالمين دون بقيَّة المواقع، وفي ذلك إشارة إلى عدم حفظهم النِّعمة.

(1) سورة الحجر، الآية: 78، سورة الشعراء، الآية: 176، سورة ص، الآية: 13، سورة ق، ص: 14.

وتفرَّدت سورة الحِجر بوصف خلْقِ الإنسان وخلْقِ الجانِّ، فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾﴾ [الحجر: 26 - 27]، فقد ذَكَرَ وصف خلق الإنسان من ﴿حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾﴾ [الحجر: 26، 28، 33] ثلاث مرّات في السّورة الكريمة[1]، فنشأة خلق الإنسان من طين أسود له دلالاته، وهو أنَّ هذا الإنسان قد خُلق من شيء ضعيف موهِن متغيِّر منتِنٍ، لكنَّه فاق غيره بتوازنه وحفظه منهجَ الله تعالى، فكان من المخلَصين، وأمّا الجانُّ؛ فقد خُلق من نار السَّموم، وهي مَظِنَّةُ القوَّة والهجوم والاختراق، لكنَّها لم ترتقِ إلى ما ارتقى إليه هذا الإنسان لعدم حفظه منهجَ الله، فكان الحفظ لهذا الإنسان بذاك الوصف لاتِّباعه شرع الله، فكان مخلَصًا لا تؤثِّر فيه غواية السُّموم بقوَّتها واختراقها، وفي ذلك تسلية لرسول الله ﷺ في أنَّ الله حافظ دينه؛ مهما تعرَّض هذا الدّين للأذى والقوَّة الساعية لهدمه.

وتميَّزت سورة الحِجر بتعدُّد ذِكْر السُّجود فيها، حيث ذُكِر في ستة مواضع[2]، خمسةٌ منها تتعلَّق بالسُّجود لآدم، والأخير منها في الوصيَّة لنبيِّنا محمَّد ﷺ بأنْ يكون من السّاجدين، وفي ذلك دلالة على العناية والاهتمام بالسجود، فهو سببٌ في الحفظ وسببٌ في الطَّرد، ولهذا اعتلاق بمحور السورة الكريمة.

ثانيًا: الخصائص الأسلوبيَّة:

تتميّز السّورة بكثرة ذكر نون العظمة، في خطاب الله ﷻ لعباده

هناك العديد من الأساليب والقضايا اللُّغويَّة التّي مازت هذه السّورة عن غيرها من السّور، وإنْ شاركتها بعض السّور في شيء من هذه الأساليب، منها: تميَّزت السّورة الكريمة بكثرة ذكر نون العظمة في خطاب الله ﷻ، فلا تكاد تجد خطابًا إلّا وذُكِرت النون فيها،

(1) الآيات: 26، 28، 33.

(2) الآيات: 29، 30، 31، 32، 33، 98.

مثل قوله: ﴿إِنَّا﴾، ﴿نَزَّلْنَا﴾، ﴿وَحَفِظْنَٰهَا﴾ [الحجر: 17]، ﴿وَزَيَّنَّٰهَا﴾ [الحجر: 16]، ﴿كَفَيْنَٰكَ﴾ [الحجر: 95]، ﴿أَهْلَكْنَا﴾، ﴿أَرْسَلْنَا﴾، ﴿جَعَلْنَا﴾ [الحجر: 16]، ﴿عَلِمْنَا﴾ [الحجر: 24]، ﴿خَلَقْنَا﴾ [الحجر: 26]، ﴿ءَاتَيْنَٰكَ﴾ [الحجر: 87]، ﴿نَعْلَمُ﴾ [الحجر: 97]، ﴿مَتَّعْنَا﴾ [الحجر: 88]، ﴿وَنَزَعْنَا﴾ [الحجر: 47]، ﴿مَدَدْنَٰهَا﴾ [الحجر: 19]، ﴿وَأَلْقَيْنَا﴾ [الحجر: 19]، ﴿وَأَنۢبَتْنَا﴾ [الحجر: 19]، ﴿فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ﴾ [الحجر: 22]، ﴿عِندَنَا﴾ [الحجر: 21]، وفي ذلك دلالة على القوة والحفظ للخَلْق والكون والمصير والدين، فكان متناسقًا ومتناسبًا مع حفظ اللّٰه لدينه.

تتميّز السّورة، بكثرة المؤكِّدات اللّفظيّة والمعنويّة

وتميَّزت السّورة الكريمة بكثرة المؤكِّدات فيها كما تقدَّم في آية حفظ الذِّكر، وكما في استهلال بعض الآيات بـ(لقد) المكوِّنة من اللّام الدّاخلة على جواب القسم المقدَّر، مقرونة بـ (قد) التحقيقيَّة، وذلك في سبعة مواضعَ[1]، وفي ذلك تأكيد على الخبر، وتسلية وحفظ لقلب النَّبيِّ ﷺ، ومن ثَمَّ يرتبط هذا التَّوكيد بقوَّة بمحور السورة الكريمة في تحقيق الحفظ.

وتارة يكون التَّوكيد المعنويُّ بذكر ﴿أَجْمَعُونَ ۝٣٠﴾ [الحجر: 30]، ﴿أَجْمَعِينَ ۝٣٩﴾ [الحجر: 39، 43، 59، 92]، في خمس مرّات في السّورة الكريمة[2]، من أصل ستّة وعشرين موضعًا في القرآن الكريم، نالت سورة الحِجر منها العدد الأوفر من بين كلِّ السّور القرآنيَّة، وكلُّ ذلك له اعتلاق بالحفظ والتَّأكيد على الإحاطة حفظًا وعناية؛ ليتناسق اللَّفظ، ويتناسب مع محور السورة الكريمة.

تتميّز السّورة، بذكر بعض المقادير والأوقات، وذكر بعض الآجال والنِّهايات

تميّزت السّورة بذكر ما نوّه به في العنوان أعلاه، فقد جاء وصف الكتاب والقَدَر والوقت بـ ﴿ٱلْمَعْلُومِ ۝٣٨﴾ [الحجر: 38] في ثلاثة مواضعَ[3]، وجاء الوصف بـ ﴿مُّصْبِحِينَ ۝٦٦﴾ [الحجر: 66] في موضعَيْن

(1) الآيات: 10، 16، 24، 26، 80، 87، 97.
(2) الآيات: 30، 39، 43، 59، 92.
(3) الآيات: 4، 21، 38.

اثنَيْن[1]، و﴿مُشْرِقِينَ ۝٧٣﴾ [الحجر: 73] في موضع[2]، وبـ ﴿بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾ [الحجر: 65] في موضع[3]، فضلًا عن ذكر التقدُّم والتأخُّر في قوله: ﴿وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ ۝٤ مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ﴾، وقوله: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ ۝٢٤﴾ [الحجر: 24]، وقوله: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾، فضلًا عن ذِكر القسمة في ذكر أبواب جهنَّم في قوله: ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ۝٤٤﴾ [الحجر: 44]، وذِكر السّاعة في قوله: ﴿وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَـَٔاتِيَةٌ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ ۝٨٥﴾ [الحجر: 85]، وكلُّ تلك المقادير والأوقات والآجال والنِّهايات لها اعتلاق بدقَّة العناية والصّيانة والإحصاء والحفظ، والتي بدورها لها ارتباط بالمحور الرئيس للسّورة الكريمة.

تتميّز السّورة، بذكر نماذج من أسلوب الحوار، مع تنوّع أطرافه وشخصّيانه

وتميَّزت سورة الحِجر الكريمة بذكر نماذج من أسلوب الحوار في أربعة مواقع: حوار اللّه مع الملائكة وإبليس، وحوار الملائكة مع إبراهيم عليه السلام، وحوار الملائكة مع لوط عليه السلام، وحوار قوم لوط مع النَّبيِّ لوط عليه السلام، وهذا الحوار كان له دور في الحفظ والصّيانة، فكان الحفظ للمؤمنين المخلصين بعد حوار إبليس، وكان الحفظ لقلب إبراهيم عليه السلام من الوجل والقنوط بعد حوار الملائكة، وكان الحفظ للوط عليه السلام وتطمينه وإنقاذ أهله بعد حوار الملائكة له، وكذا الحفظ للوط عليه السلام بإهلاك قومه بعد عدم نفع حواره معهم، فكان لأسلوب الحوار حفظ ورعاية لها علاقة بمحور السّورة.

تتميّز السّورة، بتفاصيل مصير قوم لوط المشؤوم، للتّسرية عن كرب خاتم الأنبياء المظلوم

وتفرَّدت سورة الحِجر بذكر كلِّ العقوبات التّي وقعت على قوم لوط، فذكرت السّورة عقوبة الصَّيحة، وقلْبَ الأرض عاليها سافلها،

(1) الآيتان: 66، 83.
(2) الحجر: 73.
(3) الحجر: 65.

ثمّ إمطارهم بحجارة من سجّيل، وهذه العقوبات لم تتكرَّر مُجْتَمِعَةً إلّا في سور الحِجر، وهذا لتحقيق غرض الحفظ والرِّعاية والعناية بقلب النَّبيِّ محمَّد ﷺ في أجواء مشحونة بالكرب والضّيق، فكان التَّفرُّد له اعتلاق بمحور السّورة الكريمة.

تتميّز السّورة، بقلَّة فواصل آياتها، مع تقارب مخارج حروف الفواصل مع بعضها

وتميَّزت السّورة الكريمة بقلَّة فواصل آياتها، في الحرف الّذي تنتهي به كلُّ آية من آيات هذه السّورة، ففواصل السّورة الكريمة، تكوَّنت من ثلاثة أحرف، هي: حرف (اللّام) في موضعين، وحرف (الميم)، في ستَّة عشر موضعًا، وحرف (النّون) في واحد وثمانين موضعًا، وهذه القلَّة في التّنوُّع مع تقارب مخارج تلك الحروف مع بعضها قد يدلُّ على الجمع والإحاطة بها بسهولة، فتكون تلك الفواصل لها علاقة بمحور الحفظ والرِّعاية، والله أعلم.

تتميّز السّورة، بألفاظ ذات أوزان خاصّة، لم ترد إلّا فيها

وتفرَّدت سورة الحِجر عن غيرها من السور باشتقاقات وصيغ لم ترد إلّا في هذه السّورة، ومن تلك الألفاظ: ﴿أَبَشَّرْتُمُونِي﴾ [الحجر: 54] و﴿ٱلصَّفْحَ﴾ [الحجر: 85] و﴿ٱلْجَمِيلَ ۝٨٥﴾ [الحجر: 85] و﴿ٱلْحِجْرِ﴾ [الحجر: 80] و﴿ٱلْقَنِطِينَ ۝٥٥﴾ [الحجر: 55] و﴿ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ ۝٢٤﴾ [الحجر: 24]، ﴿ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ﴾ [الحجر: 24] و﴿ٱلْمُقْتَسِمِينَ ۝٩٠﴾ [الحجر: 90] و﴿بَشَّرْنَـٰكَ﴾ [الحجر: 55] و﴿بِخَـٰزِنِينَ ۝٢٢﴾ [الحجر: 22] و﴿بِرَٰزِقِينَ ۝٢٠﴾ [الحجر: 20] و﴿تَوْجَلْ﴾ [الحجر: 53]، و﴿تُبَشِّرُونَ ۝٥٤﴾ [الحجر: 54]، ﴿جُزْءٌ﴾ [الحجر: 44] و﴿خَزَآئِنُهُۥ﴾ [الحجر: 21] و﴿فَأَسْقَيْنَـٰكُمُوهُ﴾ [الحجر: 22] و﴿كَفَيْنَـٰكَ﴾ [الحجر: 95] و﴿لَأُزَيِّنَنَّ﴾ [الحجر: 39] و﴿لَعَمْرُكَ﴾ [الحجر: 72]، ﴿لَمَوْعِدُهُمْ﴾ [الحجر: 43] و﴿لَمُنَجُّوهُمْ﴾ [الحجر: 59] و﴿لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ۝٧٥﴾ [الحجر: 75] و﴿مَّسْنُونٍ ۝٢٦﴾ [الحجر: 26] و﴿مَّقْسُومٌ ۝٤٤﴾ [الحجر: 44] و﴿مَقْطُوعٌ﴾ [الحجر: 66]، ﴿مَّوْزُونٍ ۝١٩﴾ [الحجر: 19] و﴿وَجِلُونَ ۝٥٢﴾ [الحجر: 52] و﴿وَحَفِظْنَـٰهَا﴾ [الحجر: 17] و﴿يَضِيقُ﴾ [الحجر: 97]، وفي تلك الألفاظ المذكورة دلالات تلقي بظلالها على المحور الرئيس الذي اكتنف السّورة موضوعًا وأسلوبًا.

وأخيرًا حظيت السّورة الكريمة بألفاظ تفرَّدت بها عن غيرها من السّور من جهة الجذر والمادَّة اللُّغويَّة؛ وهذه الألفاظ هي: ﴿لَوَٰقِحَ﴾ [الحجر: 22] و﴿تَفۡضَحُونِ ٦٨﴾ [الحجر: 68] و﴿عِضِينَ ٩١﴾ [الحجر: 91]، وإنَّ الجامع لهذه الألفاظ الثَّلاثة التّي تفرَّدت بها السّورة أنَّها ذات اتِّصال مباشر بمحور السّورة من حفظ اللّه لدينه، فلفظ ﴿لَوَٰقِحَ﴾ [الحجر: 22] شقَّ طريقًا في حفظ الحياة دالًّا على قُدْرَتِهِ ومَنَعَتِهِ تعالى في حفظ دينه، وذلك من خلال حفظ البشرية بالماء، ولفظ ﴿تَفۡضَحُونِ ٦٨﴾ [الحجر: 68]، جاء في سياق الحضِّ على الحفظ والسّتر للمعاصي وعدم الجهر بها وعدم تجزئة الفطرة السليمة، فهي علامة الهلاك، أمّا لفظ ﴿عِضِينَ ٩١﴾ [الحجر: 91]؛ فقد جاء في سياق توبيخِ مَنْ فرَّق، وجزَّأ القرآن الكريم، تكذيبًا واتِّهامًا وتحريفًا، وهو في مقابل حفظ اللّه للقرآن، فأنّى لها من مقابلة! وكلُّ تلك الألفاظ تندرج تحت اسم السّورة (الحِجْرِ)، فأصحاب الحِجر جاءت عقوبتهم من السّماء جهة اللّواقح، وفضحوا أنفسهم بمعاصيهم، وجزَّؤوا، وفرَّقوا كلام اللّه المنزل عليهم.

❁ مناسبة السّورة لما جاوَرَها:

مناسبة السورة لما قبلها:

السّورة متَّصلة تمامًا بسورتَي إبراهيم والنَّحل مضمونًا وأسلوبًا وغاية

جاءت هذه السّورة في التَّرتيب المصحفيِّ بعد سورة إبراهيم، وقد تَلَمَّسَ وَجْهَ اتِّصالهما الإمامُ البقاعيُّ بقوله: لَمّا خَتَمَ التي قبلها بعنوان الكتاب، ابتدأ هذه بشرح ذلك العنوان، وأوَّله وصفه بأنَّه جامع، والخير كلُّه في الجمع، والشرُّ كلُّه في الفُرْقَةِ، فقال تعالى: ﴿الٓرۚ تِلۡكَ﴾، أيْ: هذه الآيات العالية المقام، النفيسة المرام. ﴿ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾، أيْ: الكامل غاية الكمال الذي لا كتاب على الحقيقة غيره، الجامع لجمع ما يقوم به الوجود من الخيرات، القاطع في قضائه من غير شكٍّ ولا تردُّد، الغالب بأحكامه القاهرة في وعده ووعيده وأحكامه في إعجازه لجميع من يعانده[1].

(1) البقاعي، نظم الدرر: 11/2.

وقد ذَكَروا فيها وجوهًا أخرى للرَّبط بينهما، منها: أنّه جاء في آخر سورة إبراهيم قوله تعالى: ﴿هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُواْ بِهِۦ وَلِيَعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ۝٥٢﴾ [إبراهيم: 52]، وجاء في أوّل سورة الحِجر ما يبيِّن طبيعة هذا الإنذار: ﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ وَقُرۡءَانٖ مُّبِينٖ﴾.

وُجوهٌ أخرى للمناسبة، أهمّها أنّ القرآن بلاغ بالمصير الخطير

وأنّه ذكر تعالى في خواتيم سورة إبراهيم عاقبة الظالمين، فقال: ﴿وَتَرَى ٱلۡمُجۡرِمِينَ يَوۡمَئِذٖ مُّقَرَّنِينَ فِي ٱلۡأَصۡفَادِ ۝٤٩ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٖ وَتَغۡشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ۝٥٠﴾ [إبراهيم: 49 - 50]، وقال في بداية سورة الحِجر: ﴿رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ كَانُواْ مُسۡلِمِينَ﴾.

فهذه الودادَةُ إنَّما تكون يوم القيامة عندما يرون العذاب، ويرون نجاة المسلمين وفوزهم بالجنَّة.

وقال ﷻ في خواتيم سورة إبراهيم في الظّالمين: ﴿وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوۡمَ يَأۡتِيهِمُ ٱلۡعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رَبَّنَآ أَخِّرۡنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ نُّجِبۡ دَعۡوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَۗ أَوَلَمۡ تَكُونُوٓاْ أَقۡسَمۡتُم مِّن قَبۡلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٖ ۝٤٤﴾ [إبراهيم: 44].

وقال في بداية سورة الحِجْرِ: ﴿ذَرۡهُمۡ يَأۡكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلۡهِهِمُ ٱلۡأَمَلُۖ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ﴾، فالَّذين في سورة إبراهيم ألْهاهُمُ الأمل، حتى ظنّوا أنَّهم لا يزولون عن هذه الدنيا، وإنَّما هم خالدون فيها.

بيان حال الدّعوة منذ القديم، وصراع الأنبياء مع المكذّبين، والتّسرية على خاتم النّبيّين

والحقُّ أنَّ كلتا السّورتَيْن يكمِّل بعضها بعضًا؛ فسورة الحِجر بيَّنت أيضًا انقسام النّاس في شأن هذه الدَّعوة، وبيَّنت حال كلِّ فريق، وعرضت لبعض آيات اللّه في الكون الدالَّة على وحدانيَّته وكماله، وتناولت جانبًا قصصيًّا من حياة بعض الأنبياء بدءًا من آدم أبي الأنبياء عليه السلام، ومرورًا بإبراهيم عليه السلام وما جرى مع ضيوفه وبشراه بالولد، وكذلك جانبًا من قصَّة لوط عليه السلام، وكذلك قصَّتي أصحاب الأيكة وأصحاب الحِجر، فقد فصَّلت سورة الحِجر ما أوجز في سورة

إبراهيم من وسائل غواية إبليس لآدم وذرّيته، وحوت في آخرها وصايا للنَّبيِّ ﷺ تصلح أنْ تكون قواعد للدَّعوة في كلِّ زمان ومكان، فقال تعالى: ﴿فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ۝٩٤ إِنَّا كَفَيۡنَٰكَ ٱلۡمُسۡتَهۡزِءِينَ ۝٩٥ ٱلَّذِينَ يَجۡعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۚ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ۝٩٦ وَلَقَدۡ نَعۡلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدۡرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ۝٩٧ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ۝٩٨ وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ۝٩٩﴾ [الحجر: 94 - 99].

مناسبة السورة لما بعدها:

أمّا وجه ارتباطها بسورة النَّحل؛ فيقول عنه المراغي: أنَّه لَمّا قال في سورة الحِجر: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسۡـَٔلَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ۝٩٢﴾ [الحجر: 92] كان ذلك تنبيهًا إلى حشرهم يوم القيامة وسؤالهم عمّا فعلوه في الدُّنيا، فقيل في النَّحل: ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ﴾ [النحل: 1]، وأيضًا فإنَّ قوله في آخرها: ﴿وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ۝٩٩﴾ [الحجر: 99] شديد الالتئام بقوله: ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ﴾ [النحل: 1][1].

اشتراك السّورتين في عرض ملامح التّكذيب، ومصائر المكذّبين، وعرض قدرة الله في كلّ حين

وتشترك السّورتان في الحديث عن مواقف المشركين عبر التّاريخ من فكرة الوحي وتكذيبهم وشبههم حول البعث والتَّوحيد والنُّبوَّة، وعن تكذيبهم بالمعجزات والخوارق: ﴿وَلَوۡ فَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَابٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعۡرُجُونَ ۝١٤ لَقَالُوٓاْ إِنَّمَا سُكِّرَتۡ أَبۡصَٰرُنَا بَلۡ نَحۡنُ قَوۡمٞ مَّسۡحُورُونَ﴾، وتشترك السّورتان في عرض مشاهد قدرة اللّه تعالى وآياته في الأنفس والآفاق، وتشترك السّورتان كذلك في عرض مشاهد المكذِّبين عبر التّاريخ وما أصابهم نتيجة اسْتِعْجالهم وتكذيبهم العذابَ: ﴿وَمَآ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٞ مَّعۡلُومٞ ۝٤ مَّا تَسۡبِقُ مِنۡ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ﴾. فسورة النَّحل أجملت ما جاء في سورة الحِجر، وفصَّلت في بيان ما كان يجب على أولئك الكافرين من الإذعان لآيات اللّه في الكون المسخَّر لهم.

(1) المراغي، تفسير المراغي: 14/51.

﴿۞ الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ وَقُرۡءَانٖ مُّبِينٖ ١﴾ [الحجر: 1]

۞ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

لَمّا ذَكَرَ اللّه تعالى في آخِرِ السّورَةِ قَبْلَها أشْياءَ مِنْ أحْوالِ القيامَةِ مِنْ تبديل السّموات والأرْضِ، وأحْوالِ الكُفّارِ في ذَلِكَ اليَوْم، وأنَّ ما أتَى بِهِ هوَ عَلَى حَسَبِ التَّبْليغِ والإنْذارِ؛ ابْتَدَأ في هَذِهِ السّورَةِ بِذِكْرِ القُرْآنِ الَّذي هوَ بَلاغٌ لِلنّاسِ، وذكرِ أحْوالِ الكَفَرَةِ، ووِدادَتِهِمْ في ذلك اليوم لَوْ كانوا مسلمين[1].

القرآن هو البلاغ المبين للنّاس أجمعين، في كلّ عصر وحين

ولَمّا خَتَمَ التي قبلها بعنوان الكتاب؛ ابتدأ هذه بشرح ذلك العنوانِ، وأوَّلُه وصْفُه بأنَّه جامع، والخير كلُّه في الجمع، والشرُّ كلُّه في الفُرْقَةِ، فقال تعالى: تلك الآياتُ العالية المقام، النفيسة المرام، آياتُ الكتاب الكامل غاية الكمال، الذي لا كتاب على الحقيقة غيره، الجامع لجمع ما يقوم به الوجود من الخيرات، القاطع في قضائه من غير شكٍّ ولا تردُّد، الغالب بأحكامه القاهرة في وَعْدِهِ وَوَعِيدِهِ وإحكامه في إعجازه لجميع من يعانده[2].

۞ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مُّبِينٖ﴾: أصلُ الكلمةِ مِن البَيْنِ، وهو امتدادٌ بين طرفين أو جانبين مع فصل كبير أو اتساع، ومِنْ ذلك الفَصْلُ والتمييزُ. جاء معنى الوضوح والظهور، وهو المعنى الذي جاءت به كل مفردات التركيب القرآنية، عدا الظرف (بين)[3]؛ لأنَّ الفَصْلَ والتمييزَ يقتضي بُعْدَ الشَّيءِ وانْكِشافَه، فالبَيْنُ: الاتِّصال البَيِّنُ أو الفِراقُ

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/463.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/2.
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (بين).

البَيِّنُ؛ يُقالُ: بانَ يَبينُ بَيْنًا وبَيْنونَةً، والبَيِّنَةُ: الأمرُ الواضح، والبيان: التَّوضيحُ والكَشْفُ، يُقالُ: بانَ الشَّيْءُ، وأبانَ؛ إذا اتَّضَحَ وانْكَشَفَ[1]، وسُمّيَ الكلامُ بيانًا لكشفه عن المعنى المقصود إظهاره، ويُقال: بَيَّنْتُهُ وأبَنْتُهُ: إذا جعلت له بيانًا تكشفه[2]. والمقصود بالمُبِيْنِ في الآية: المُبالَغَةُ في الظُّهورِ والوضوح.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

القرآن المجيد جامعٌ لصِفات الكمال الأسنى، في الإعجاز واللّفظ والمعنى

افتُتِحَت هذه السّورةُ العظيمة بالحروف المقطَّعة؛ لبيان إعجاز القرآن؛ إذ تُبرِزُ عجزَ الخَلْق عن معارضته بالإتيان بشيءٍ من مثلِه، مع أنَّه مركَّبٌ من هذه الحروفِ العربيَّة التي يتحدَّثون بها!

ثمَّ أخبَرَ اللّه تعالى أنَّ آياتِ القُرآنِ الكريمِ هي آياتُ الكتابِ الجامعِ لأنواعِ الكَمالِ، وهي آياتُ قرآنٍ عظيمٍ واضحٍ إعجازُه للخَلقِ، مُظهِرٍ للحقائِقِ بأحسَنِ بَيانٍ، وأوضَحِه[3].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالة تخصيص آيات القرآن، باسم الإشارة ﴿تِلْكَ﴾:

آياتُ القرآن ينبغي أنْ تكون حاضرةً، بمنزلةِ المنظور المُشاهَدِ

الإشارَةُ بـ﴿تِلْكَ﴾ إلَى ما هوَ مَعْروفٌ قَبْلَ هَذِهِ السّورَةِ مِنْ مِقْدارِ ما نَزَلَ من القُرْآنِ؛ إذ هو المتسارِعُ إلى الفهم حينئذٍ عند الإطلاق، وعليه يترتَّب فائدةُ وصف الآياتِ بنعت ما أضيفت إليه من نعوت الكمالِ فيما يأتي، أي: الآياتُ المَعْروفَةُ عِنْدَكُمُ القريبة منكم المُتَمَيِّزَةُ لَدَيْكُمْ تَمَيُّزًا كَتَمَيُّزِ الشَّيْءِ الَّذي تُمْكِنُ الإشارَةُ إلَيْهِ هيَ آياتُ الكِتابِ، ويَحْتَمِلُ أنْ تكون إشارةً إلى آياتِ السّورة، وهَذِهِ الإشارَةُ لِتَنْزيلِ آياتِ القُرْآنِ مَنْزِلَةَ المنظور المُشاهَدِ، أو للإشعارِ بأنَّها ينبغي أنْ تكون

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (بين).
(2) الرّاغب، المفردات: (بان).
(3) الواحديّ، الوجيز، ص: 588، والزّمخشري، الكشاف: 2/569، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 1/64، والسّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 429.

حاضرةً مشاهدةً، فَمَنْ شاءَ أنْ يَسْمَعَها، ويَتَدَبَّرَها؛ أمْكَنَهُ، وعُبِّرَ باسم الإشارة الذي للبعيد مع قربِ الآياتِ المنزَّلةِ المتلوَّةِ؛ للتنبيه على بُعد منزلةِ المشارِ إليه وعُلوِّ منزلته في الفخامةِ والتَّعظيم[1]، أيِ: الآيات العالية المقام، النفيسة المرام[2]، البعيدة عن أنْ يطالها أحدٌ بسوء.

مقام الاستدلال بالتعبير باسم الإشارة ﴿تِلْكَ﴾:

الحثُّ على النَّظر في آيات القرآن وتدبُّرها

عُبِّرَ باسم الإشارة هنا؛ للحثِّ على النَّظر في آياتِ القرآن القريبةِ منهم بذاتها، البعيدة عنهم بمنزلتها ومكانتها، المميَّزةِ أكمل تمييز؛ ليتبيَّنَ لهم أنَّه من عند الله، ويَعْلَموا صِدْقَ مَنْ جاءَهُمْ بِهِ؛ ولتكون في مقامِ الاستدلالِ على ذلك[3].

براعة الإخبار في مستهلّ السّورة:

آياتُ القرآنِ لا كمالَ فوقَها، في المعنى والفصاحة والبلاغة

قولِه: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ﴾، وفيه أنّه لَمّا كان اسم الإشارةِ ﴿تِلْكَ﴾ من المُبْهَماتِ فَسَّر المقصودَ منه خبرُه، وهو قوله: ﴿ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ﴾، فتكون الإشارةُ إلى ما بعدَه من الآياتِ المنزَّلة، فيكون من قبيل الإخبار عن المبتدأ بمعناه؛ ليفيد معنى الكمالِ والإبداع والبراعة، بمعنى الآياتِ الكاملة التي لا كمالَ فوقَها في المعنى والفصاحة والبلاغة، وهذا هو الظّاهر، ويَحْتَمِلُ أنْ تكونَ الجملة الاسمية: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ خبرًا عن حُروفِ ﴿الٓرۚ﴾، ويكون ﴿الٓرۚ﴾ مبتدأ؛ لِأنَّ المُخْتارَ في الحُروفِ المُقَطَّعَةِ في فَواتِحِ السّوَرِ أنَّ تَعدادَها للتَّحَدّي، والمَعْنَى: تِلْكَ الحُروفُ آياتُ الكِتابِ وقرآن مبين، أيْ: مِنْ جِنْسِها حُروفُ الكِتابِ، وجَميعُ تَراكيبِهِ مِنْ جِنْسِ تِلْكَ الحُروفِ؛ لتسجيل عجزِهم عن معارضة القرآن، مع أنَّه من جنسِ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/233، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 10/244، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/80، 14/8.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/2.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/81.

حروف كلامِهم، فما لهم لا يستطيعون معارضتها بمثلِها، فَلَوْلا أنَّ هذه الآياتِ مِنْ عِنْدِ اللّٰه؛ لَكانَ اخْتِصاصُ الكتابِ بِهَذا النَّظْمِ المُعْجِزِ دونَ كَلامِهِمْ مُحالًا؛ إذْ هوَ مُرَكَّبٌ مِنْ حُروفِ كَلامِهِمْ[1].

سرّ الإضافة في قوله: ﴿ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾:

إضافَةُ ﴿ءَايَٰتُ﴾ إلَى ﴿ٱلۡكِتَٰبِ﴾ تَحْتَمِلُ أنْ تكون إضافَةً شَبيهَةً بِالبَيانيَّةِ[2]، بمعنى آياتٍ هي الكتاب وهي قرآنٌ مبينٌ، وتَحْتَمِلُ أنْ تكون الإضافة على معنى (مِنْ)، والمعنى: آياتٌ من الكتابِ ومن قرآنٍ مبينٍ، أيْ: هي بعضٌ منه، فيكون الكتابُ والقرآنُ بمنزلةِ الظَّرفِ للآياتِ؛ تعظيمًا لشأنِ الآياتِ؛ إذ وصفَها بما يوصَف به الكلُّ، للإشعار بأنَّ بعضَ آياتِ الكتاب يشبه بعضها بعضًا في المعنى والبلاغة[3].

آياتُ الكتاب يشبه بعضُها بعضًا، في المعنى والبيان

دلالة (ال) في لفظ ﴿ٱلۡكِتَٰبِ﴾:

(ال) للعهدِ بمعنى الكتابِ الكاملِ المعهودِ الغنيِّ عن الوصف به المشهورِ بذلك من بين الكتب الجدير بأنْ يختصَّ من بين سائر الكتب باسم الكتاب على الإطلاق، والمعنى: تلك آياتُ الكتاب الكاملِ في كونِه كتابًا من بين جميعِ الكتبِ المنزَّلةِ لِما تضمَّنه من المعاني التّامَّة والبلاغة الكاملة، فاستحقَّ أنْ يكونَ معجزًا لكمالِه[4].

القرآن هو الكتاب الكامل، في بلاغه اليانع، وإعجازِه الماتع

دلالة التَّنكير في لفظ ﴿وَقُرۡءَانٍ﴾:

أفادَ التَّنكيرُ التَّعظيم والتَّفخيم، بمعنى قرآنٍ عظيمِ الشَّأنِ[5]، فالقرآن يعلو ولا يعلى عليه.

براعة العطف بالواو، في ثنايا السّياق:

قوله: ﴿ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ وَقُرۡءَانٍ مُّبِينٍ﴾ وفيه، عطَفَ ﴿وَقُرۡءَانٍ مُّبِينٍ﴾

اشتمال القرآن على ما في الكتب الإلهيَّة، من صفاتِ كمالِ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/233، وابن عاشور، التّحرير والتّوير: 11/82.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/81.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/233.
(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 19/116، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/63.
(5) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/5689، والفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 19/116، وأبو حيّان، البحر المحيط: 6/464.

على ﴿ٱلۡكِتَٰبِ﴾ على طريق عطفِ التَّفسير، ومقتضى العطف يفيد التَّغايرَ في الوصفين، وإنْ كان عطفَ بيانٍ وتفسير، وتقدير الكلام: آياتُ الكتابِ وآياتُ قرآنٍ مبينٍ، والمراد بالكتاب القرآنُ، فوصف هنا بوصفين، وأفاد العطفُ تفخيمَ شأنه العظيم، بِما جُمع فيه من وصفَي الكتابِيَّةِ والقُرْآنِيَّةِ، فأفاد وصفُ الكتابيَّةِ أنَّ الآياتِ مجموعةٌ في كتابٍ، واشتماله على صفات كمال جنس الكُتُبِ الإلهية، فكأنَّه هو كلُّها، وأفادَ وصفُ القرآنية أنَّها آياتُ قرآنٍ متلوٍّ مُبِينٍ، وكونَه ممتازًا عن غيره، نسيجَ وحدِه، بديعًا في بابه، خارجًا عن دائرة البيان[1].

نكتة تأخير وصف ﴿وَقُرۡءَانٍ﴾، على وصف ﴿ٱلۡكِتَٰبِ﴾:

أُخِّرَ وصفُ القرآنيَّة للإشارةِ إلى امتيازه عن سائر الكتبِ باسم القرآنِ بعد التَّنبيه على انطوائه على كمالات غيرِه من الكتب؛ ليكونَ أدخلَ في المدح، فاسْمُ القُرْآنِ أرْسَخُ في التَّعريف به من الكتاب، فالقرآن عَلَمٌ على الكتاب المنزَّل على سيِّدنا محمَّد ﷺ، والكتاب عَلَمٌ بالغلبةِ، فعُبِّرَ هنا بالكتاب أوَّلًا؛ كيلا يُتوَهَّمَ من أول الأمرِ أنَّ امتيازَه عن غيره لاستقلاله بأوصافٍ خاصَّةٍ به من غير اشتماله على نعوت كمالِ سائرِ الكتب الكريمة؛ ولِأنَّ المُعَرَّفَ هوَ أصْلُ الإخْبارِ والأوْصافِ، ثُمَّ جيءَ بِالمُنَكَّرِ؛ لِأنَّهُ أُريدَ وصْفُهُ بِالمُبِينِ، والمنكَّرُ أنْسَبُ بِإجْراءِ الأوْصافِ عليه، ولِأنَّ التَّنْكيرَ يَدُلُّ على التَّفْخيم والتَّعْظيم، فَوُزِّعَت دلالة الكمال ودلالة التَّعظيم على نُكْتَةِ التَّعْريفِ ونُكْتَةِ التَّنْكيرِ[2]، وفي التَّعبير بالكتابِ إشارةٌ إلى الأمر بكتابة ما يَنْزِلُ منه لحفظِه ومراجعتِه، كما أنَّ فيه إشارةً إلى المستقبل بأنَّ القرآن سَيُكْتَبُ، ويُجْعَلُ في كتابٍ محفوظٍ.

الحثُّ على كتابة ما ينزَّل من القرآن، لحفظِه ومراجعتِه

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/63، والآلوسيّ، روح المعاني: 7/250.

(2) الواحديّ، التّفسير البسيط: 12/530، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/63، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/9.

سرّ إيثار مجيء الصِّفة بلفظ ﴿مُّبِينٍ﴾:

القرآن بيِّنٌ في نفسِهِ، ومبينٌ لمن يقرؤه ويتدبَّره

أفاد مجيء الصِّفة أنّ القرآن متَّصف بصفة لازمة له غيرِ منفكَّةٍ عنه هي كونه مبينًا، والصفة ليست للتقييد، كما هو حال الصفات مع النَّكرات بل هي للتَّوضيح والبيان، فَإِنَّ كَوْنَهُ قُرْآنًا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ معانيه واضحةٌ بيِّنة، وهو مُبِينٌ لمن يقرؤه متدبِّرًا؛ لِأَنَّهُ ما جُعِلَ مَقْروءًا إلّا لِما في تَراكيبِهِ مِنَ المعاني المفيدة للقارئ، ولَمّا كان ﴿مُّبِينٍ﴾ مشتقًّا من الفعل (أبانَ) المتعدّي - كما هو الظّاهرُ - أفاد التَّعبير الكناية عن كونِه بيِّنًا في نفسِه، فإنَّه لا يكون مبينًا لغيرِه إلّا؛ إذا كان بيِّنًا واضحًا في نفسِه.

فائدة حذف متعلِّق الوصف ﴿مُّبِينٍ﴾:

القرآن مبينٌ للنّاس طريقَ الهداية لاتّباعه، وطريق الضّلال لمجانفته

لَمّا كان الوصف مشتقًّا من الفعل المتعدّي - كما تقدَّم - دلَّ على أنَّ معمولَه محذوف، وحذف المتعلِّق لإفادة العموم من حيثُ المبدأ، بمعنى: أنَّ الآياتِ هي آياتُ قرآن مُبِينٍ؛ لأنَّه من عندِ اللّه بما تضمَّنه من وجوهِ الإعجاز، ولإفادة العموم من حيث المآل، بمعنى: أنَّ القرآنَ مبيِّنٌ للنّاسِ طريق الحقِّ والهداية، ومبيِّنٌ طريق الضلال والغوايةِ لتجنُّبها، فهو مبيِّنٌ لكلِّ شيءٍ[1].

توجيه المتشابه اللَّفظيّ، بين آية الحِجْرِ (01) وآية النّمل (01):

تقديم لفظ القرآن وتأخيره، ومناسبة ذلك لسياقِه

قُدِّم هنا الكتابُ على القرآنِ، وفي سورة النَّملِ قُدِّمَ القرآنُ على الكتابِ، فقال: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ ۝١﴾ [النّمل: 1]، فَأَمّا تَقْديمُ الكِتابِ عَلَى القُرْآنِ في هذه السورة؛ فَلِأَنَّ سياقَ الكَلامِ في تَوْبيخِ الكافِرينَ وتَهْديدِهِمْ بِأَنَّهُ سَيَجيءُ وقْتٌ يَتَمَنَّوْنَ فيهِ أَنْ لَوْ كانوا مُؤْمِنينَ، فَلَمّا كانَ الكَلامُ موَجَّهًا إِلَى المُنْكِرينَ؛ ناسَبَ أَنْ يَسْتَحْضِرَ المُنَزَّلَ عَلَى سيِّدنا مُحَمَّدٍ ﷺ بِعُنْوانِهِ الأَعَمِّ، وهوَ كَوْنُهُ كِتابًا؛ لِأَنَّهُمْ حينَ جادلوا ما جادلوا إلّا في كِتابٍ، فَقالوا: ﴿لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ

(1) الماتريدي، تأويلات أهل السنّة: 6/419.

عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْۚ﴾ [الأنعام: 157]؛ ولِأَنَّهُمْ يَعْرِفونَ ما عِنْدَ الأُمَمِ الآخَرينَ بِعُنْوانِ (كِتَابٌ)، ويَعْرِفونَهُمْ بِعُنْوانِ (أَهْلِ الكِتابِ)، فَأَمّا عُنْوانُ (القُرْآنِ)؛ فَهوَ مُناسِبٌ لِكَوْنِ الكِتابِ مَقْروءًا مدروسًا، وإنَّما يقرؤه ويدرسه المؤمنون به، ولِذَلِكَ قُدِّمَ عُنْوانُ (القُرْآنِ) في سورَةِ النَّمْلِ، ولَمّا كان في التعريف نوع من الفخامة، وفي التنكير نوعٌ آخر، وكان الغرضُ الجمعَ؛ عُرِّفَ الكتابُ، ونُكِّرَ القرآنُ هاهنا، وعُكِسَ في النَّمل، وقُدِّم المعرَّفُ في الموضعين لزيادة التَّنويهِ[1].

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/251، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/9.

﴿رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ كَانُواْ مُسۡلِمِينَ ۝٢﴾ [الحجر: 2]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

العلاقة بين كون القرآن كتاب الله حقّا، وندمُ الكافرين على عدم الإيمانِ به وتصديقه

لَمّا وصف اللّهُ تعالى هذا القرآنَ بما وصفَه من العظمةِ، وأنَّه الكاملُ في معانيه وفي الإبانةِ لجميع المقاصدِ؛ شرع في بيان ندمِ الكافرين بهذا القرآنِ لِعدمِ الانتفاعِ به وتركِ الانقيادِ لأحكامِه، فقال تعالى: ﴿رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ كَانُواْ مُسۡلِمِينَ﴾.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَوَدُّ﴾: الود: التَّمني، وهو تقدير المعنى في النفس للاستمتاع، وإظهار ميل الطباع له، وفيه اشتراك بين التمني والحب، وهو هنا للتمني[1]، وأصلُ (وَدَّ): تَدُلُّ عَلَى مَحَبَّةٍ، ودِدْتُهُ: أَحْبَبْتُهُ، ووَدِدْتُ أنَّ ذاكَ كانَ؛ إذا تمنَّيْته، أوَدُّ فيهما جَميعًا، وفي المَحَبَّةِ الوُدُّ، وفي التَّمَنّي الوَدادَةُ[2]؛ لأنَّ التَّمنّي هو تَشهّي حُصولِ ما تَوَدُّهُ، والوُدُّ يُستَعمَلُ كِنايةً عن السَّعْيِ لحصولِ الشَّيءِ المَوْدودِ؛ لأنَّ الشَّيءَ المَحْبوبَ لا يَمْنَعُ من تَحْصيلِهِ إلّا مانِعٌ قاهِرٌ، فهو لازِمٌ لِلْوُدِّ[3]، والمرادُ بالودِّ في الآية: التَّمنّي المتولِّد منه التَّنديم.

المَعْنى الإجْماليُّ:

سيَندَمُ الّذين كفروا على عدم إسلامهم، ولات حين مندم

أشار اللّه تعالى بهذه الآية إلى أنَّ المشركين سَيَنْدَمون عندما تنكشف لهم الحقائق؛ فيعرفون أنَّهم على الباطل، وأنَّ المؤمنين على الحقِّ، ويتمَنَّونَ لو كانوا مُسلِمينَ في الدُّنيا، موَحِّدينَ، مُنقادينَ لأمرِ اللّهِ تعالى، وخاضعينَ لأحكامِه، حتَّى ينجوا مِن الخزي والعِقاب[4].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/11.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: 6/75.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/301.
(4) ابن جرير، جامع البيان: 14/8، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/524.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغة التَّعبير بقولِهِ: ﴿رُّبَمَا﴾ في السّياق:

العقل لا يسكن إلى الكفر، ولا يطمئن إليه؛ إذ هو منافٍ لمقتضاه

حرف ﴿رُّبَمَا﴾ لم يوجد في القرآن إلّا في هذه الآية، وقد يُسْأَلُ، فيقال: ﴿رُّبَمَا﴾ للتَّقليل، وهي تفيد الظَّنَّ، وتمنّي الكافرِ الإسلامَ يكثرُ ويتَّصلُ، وهو مقطوعٌ به، فلا يُشاكِلُهُ ﴿رُّبَمَا﴾، كما أنَّ الآيةَ على معنى الوعيد، وإنَّما يناسب الوعيدَ تكثيرُ ما يُتواعَدُ به؟ وجوابُه أنَّه جاء على المبالغة، بمعنى: أنَّ الإسلامَ لو كانوا يودّونه مرَّةً واحدةً؛ لكانت المسارعة إلى الدُّخولِ فيه عند الإمكان واجبة، فكيف والنَّدم على عدم الدخولِ في الإسلامِ يتَّصل، ويكثر بتجدُّد الحقيقة وظهورِها في كلِّ حينٍ، فيكون مجيء الصّيغة على التَّقليل أبلغَ في التَّهديد على طريق استعارة القليل للكثير بقرينة السياق، ونُزِّل التّضادُّ منزلة المناسبة بينهما، ويكون المرادُ من استعارة القليل للكثير التهكُّمَ بهم وتخويفَهم، أو يقال: لمّا كان السّياقُ هنا يقتضي التَّكثير؛ كان دخولُ لفظٍ يشعر ظاهره بالتقليل لإيقاظِ السّامعِ بما يعظمُ شأنُه والتَّنبُّه له[1]، فيكون المعنى على المبالغة كذلك، ويحتمل أنْ يكون ﴿رُّبَمَا﴾ للتَّكثير[2]، والمعنى: يودُّ كثيرًا الذين كفروا لو كانوا مسلمين، ولَمّا كان مجيء ﴿رُّبَمَا﴾ على معنى حصولِ ما بعدها وقتًا بعدَ وقتٍ[3]؛ كان المعنى حصولَ ندامة الكافرين وقتًا بعدِ وقتٍ وتكرُّرها منهم في كلِّ آنٍ من آناتِ اليومِ الآخرِ، وأنَّ ذلك من الظُّهور بحيث لا يخفى على أحدٍ، ويؤيِّده مجيء الفعل ﴿يَوَدُّ﴾ بصيغة المضارع كما يأتي.

---

(1) ذكر أكثر هذا الكلام الأزهري في تهذيب اللغة: 15/133، مادّة: (ربّ)، نقلا عن الزّجاج، ونقله عنه ابن منظور في لسان العرب والزبيدي في تاج العروس وغيرهما، وانظر: الواحدي، التفسير البسيط: 12/539، والزمخشري، الكشاف: 2/570، وابن المنير، الانتصاف، حاشية على تفسير الكشاف: 2/569، وابن الجوزي، زاد المسير: 2/523، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 11/117، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/11.

(2) أبو حفص النسفي، التيسير في التفسير: 9/167، والعكبري، التبيان في إعراب القرآن: 2/776.

(3) الراغب، المفردات: (رب)، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/64.

نكتة التّعبير بـ﴿يَوَدُّ﴾ في ثنايا الآية الكريمة:

بيان ندامة الكافرين على عدم دخولهم في الإسلام عندَ ظهور الحقيقة

أفاد التعبيرُ بالودِّ، واقترانُ الودِّ بـ ﴿لَوْ﴾ تولُّدَ معنى التَّمنّي مجازًا، ولمّا كان التَّمنّي هو طلَبُ الأمْرِ المُمْتَنَعِ الحُصولِ أفادَ التَّعبيرُ تحسُّرَهم على عدم دخولِهم في الإسلام[1]، وبدلًا من أنْ يقول: (يتمنَّى) عُبِّرَ بالودِّ؛ للإيذانِ بشدَّة حبِّهم ورغبتِهم لأنْ يكونوا مسلمين عندَ ظهورِ الحقيقةِ، لِمَا تفيده ﴿لَوْ﴾ من تقدير غير الواقع واقعًا، فأفاد هذا التركيب حبَّهم الشديد المشوب بالتمنّي لِما لا مَطْمَعَ لهم في أنْ يكونوا مسلمين، ودلَّت ودادتُهم التي بمعنى التَّمنّي على ندامتِهم وتحسُّرهم ولومِ أنفسِهم على عدم دخولِهم في الإسلامِ.

فائدة التَّعبير بصيغة المضارع، في قوله: ﴿يَوَدُّ﴾:

وعدُ القرآن ووعيده، واقعٌ لا مندوحة عنه

أفاد التَّعبير بصيغة المضارع ﴿يَوَدُّ﴾ تجدُّدَ حدوث هذا الودِّ، فإنَّه لَمّا صحَّ مجيء الفعل المضارع بعد ﴿رُّبَمَا﴾؛ أفادَ تجدُّدَ حصولِ ودادتِهم واستمرارَها، كلَّما بانت حقيقة الإسلامِ عندَهم في الدُّنيا وفي الآخرة، وفيه إشعارٌ بظهور قوَّة الإسلامِ في المستقبل، ويَحْتَمِلُ أنْ يقال: إنَّ الأصل أنْ يأتيَ الماضي بعد ﴿رُّبَمَا﴾، فيكون مجيء المضارع على خلافِ مقتضى الظاهر، ونكتته؛ إمّا لتنزيل وعدِ القرآن ووعيدِه، وما كان فيه كأنَّه عَيانٌ وواقعٌ للقطعِ بتحقُّقِه، فجرى الكلام فيما لم يكن منه كمجراه في المحقَّق الواقعِ، وإمّا لأجلِ حكايةِ حالِ الكافرين عندَ تمنّيهم أنْ لو كانوا مسلمين، وتصويرِها؛ لتوبيخِهم وللتَّنبيه على سوء عاقبتِهم، ويصلح أنْ يكون للأمرين معًا[2].

بلاغة التَّعبير بالاسم الموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾، وصلته ﴿كَفَرُواْ﴾:

الكفر سبب الملامة، ومآل الحسرة والنَّدامة

أفاد التَّعبير بالاسم الموصول وصلته بيان سبب بناء الحكم، بمعنى أنَّ كُفرَهم عمومًا أو كفرَهم بالقرآنِ هو سبب ندامتِهم.

---

(1) السّكاكيّ، مفتاح العلوم، ص: 304.

(2) الواحديّ، التّفسير البسيط: 12/532، والزّمخشريّ، الكشّاف: 2/569.

سرّ حذفِ ظرف الزَّمان، في سياق الآية:

قولِه: ﴿يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ كَانُواْ مُسۡلِمِينَ﴾، وفيه لم يُعيِّن وقتَ ودادتِهم لدخول الإسلامِ وندمِهم على كفرِهم؛ ليفيد العمومَ، فتشملُ تلك الوَدادةُ يومَ القيامةِ أو عند موتهم أو عند معاينةِ حالِهم وحال المسلمين عندَ الحسابِ من الجزاء والثَّوابِ، أو عند رؤيتهم خروجَ عصاةِ المسلمين من النار، وبالجملةِ فهذه الودادة تكونُ في كلِّ الأحوالِ الَّتي تخطرُ بالبالِ، وتُظهر بطلانَ ما كانوا فيه مِن خلاف الإسلام وانكشاف الأمر لهم، وفيه إشعارٌ بأنَّ الذي منعهم عن الإسلام فوتُ شيء من الدُّنيا، وذهابُ شيء قد طمعوا فيه كما سيأتي[1].

تمنّي الكافر لو كانَ مسلمًا، عندَ فوات الأوان، لا يغني عنه شيئا

نكتة حذف متعلّق الفعل، في قوله: ﴿كَفَرُواْ﴾:

لَمّا تقدَّم في الآية السابقة ذكرُ الكتاب والقرآن؛ أشْعَرَ أنَّ الكلامَ على تقدير: كفروا بالكتاب الذي هو من الكتبِ المنزَّلة، وكفروا بالقرآن الذي هو علمٌ على الكتابِ الذي نزلَ على رسوله ﷺ، وكفروا بأنَّه من عندِ اللّه، ونكتة الحذفِ بيان أنَّ الكفرَ صار كالوصفِ اللّازم لهم بكفرِهم المذكور، تعظيمًا لشأنِ الإيمانِ بالقرآن وتهويلًا من الكفرِ به، وتوبيخًا لهم على كفرِهم.

الكفرُ بالقرآن، من أشنع أنواعِ الكفر

مناسبة ورود الفعل ﴿كَانُواْ﴾ بصيغة الماضي:

عُبِّرَ بالكون الماضي لِلدَّلالَةِ عَلَى أنَّهُمْ يَوَدّونَ الإسْلامَ بَعْدَ مُضيِّ وقْتٍ كافٍ للتمكُّن من الدخولِ فيه، وفيه تنبيهٌ إلى أنَّهم إذا راجعوا عقولهم؛ أنكروا كفرَهم، وتمنَّوا أنْ لو كانوا مسلمين من أوَّل أمرِهم[2].

القرآن يحثُّ على مراجعةِ العقل، والتَّأنّي قبل إظهارِ الكفرِ

نكتة التَّعبير بلفظ ﴿مُسۡلِمِينَ﴾ في السّياق المبين:

لم يَقُلْ: لو كانوا (مؤمنين)؛ للإشعار بأنَّهم تمنَّوا أنْ لو كانوا

(1) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 6/420، والواحدي، التفسير البسيط: 12/538، والسمعاني، تفسير السمعاني: 3/128، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/64، والشوكاني، فتح القدير: 3/146.
(2) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 1/252، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/11.

مُنْقادِينَ لجميعِ أحكامِ اللّه، ومُذْعِنِينَ لكلِّ أوامرِه، وليس في أمرِ الإيمانِ والتَّصديقِ فقط، وفيه إيذانٌ بأنَّ كفرَهم بالقرآنِ، وبأنَّه من عندِ اللّه إنَّما كان بالجحود بعد ما علموا كونَه من عند اللّه تعالى[1].

الكفرُ بالقرآن، جحودٌ للحقِّ الظّاهر الباهر

سبب إيثار التَّعبير بصيغة الغيبة ﴿لَوْ كَانُواْ﴾:

قوله: ﴿لَوْ كَانُواْ مُسْلِمِينَ﴾، وفيه جيء بالعبارة على لفظ الغَيْبَةِ، فلم يَقُلْ: (لو كنّا مسلمين)؛ لأنَّهم مخبرٌ عنهم[2]؛ ليفيد أنَّهم مهمَلون، ويؤيِّده قوله تعالى: ﴿ذَرْهُمْ﴾ - كما سيأتي - وليكون السّياق على نسقٍ واحدٍ في الخطابِ بصيغة الغَيْبَةِ.

الكافرُ مهمَل حقير، لا وزنَ له عندَ العليم القدير

بلاغة الخبر، في سياق الآية الأغرّ: بمعنى:

قوله: ﴿رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ كَانُواْ مُسْلِمِينَ﴾، هذه الجملة وإنْ كانت خبريَّةً؛ لتفيد ندمَ الّذين كفروا وحسرتَهم، على عدم دخولِهم في الإسلامِ؛ لكنَّها تتضمَّن تهديدًا وتهويلًا للكافرين الّذين لا يتَّبعون دين الإسلام[3]، بما يظهر لهم في المستقبل، من حقّيَّة الإسلام وصوابِه، ولكن بعدَ فواتِ الأوانِ.

حقّيَّة الإسلام، تظهر شيئًا فشيئًا، بعدَ زمنِ نزولِ القرآن

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/64.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/570، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/206.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/10.

﴿ذَرۡهُمۡ يَأۡكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلۡهِهِمُ ٱلۡأَمَلُۖ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ٣﴾

[الحجر: 3]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

تـوبـيـخُ الـذيـن يُـصِـرّونَ على عـنـادِهـم في الـكـفـر، بعد حـصـول الـنّـدم لمن يكفر

لمّا طرق لهم سبحانه الاحتمال؛ كان كأنَّه قيل: هل جوَّزوه، فأخذوا في الاستعداد له؟ فقيل: لا، بل استمروا على عنادهم، فقال مستأنفًا مبيِّنًا المانع لهم من الإذعان: ﴿ذَرۡهُمۡ يَأۡكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلۡهِهِمُ ٱلۡأَمَلُۖ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ﴾.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ذَرۡهُمۡ﴾: أصلُ الفِعْل (ذَرْ) التَّركُ، يُقال: فلان يَذَرُ الشَّيءَ، أيْ: يتركه لقلَّة اعتداده به، والعَرَب قد أماتَتِ المصدرَ مِنْ يَذَرَ والفِعل الماضي، واسْتَعْمَلَتْهُ في الحاضر والأمر، فإذا أرادوا المصدرَ؛ قالوا: ذَرْه تَرْكًا، أي: اترُكْهُ[1]. وقيل: أصلُ ذلك من القَذْفِ، قال تعالى: ﴿ثُمَّ ذَرۡهُمۡ﴾ [الأنعام: 91]، أي: اقذفهم، وألقِهم، واتركهم، فلا اعتِدادَ لهم ولا مُبالاة بهم[2]، ومن ذلك الوذرَةُ: وهي قطعة لحم صغيرةٍ؛ سُمّيت بذلك لِقلَّة الاعتداد بها[3]، والمقصود بـ﴿ذَرۡهُمۡ﴾ في الآية: اتْرُكْهم، والأمرُ بتركِهم مُستَعمَلٌ في لازِمِه، وهو قِلَّةُ جَدوى الحِرْصِ على إصلاحِهم[4].

2) ﴿وَيَتَمَتَّعُواْ﴾: أصْلُ المَتْعِ: بُلوغُ الغايَةِ مِنَ الشَّيْءِ، يُقالُ: مَتَع النَّهارُ يَمْتَعُ مَتْعًا، أيْ: بَلَغَ غايَةَ ارْتِفاعِهِ[5]، والماتِعُ: الجَيِّدُ البالِغُ

(1) الخليل، العين، والزبيدي، تاج العروس: (وذر).
(2) السمين الحلبي، عمدة الحفاظ، والفيروزابادي، القاموس المحيط: (وذر).
(3) الراغب، المفردات: (وذر).
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/13.
(5) الراغب، المفردات: (متع).

الجَوْدَةِ[1]، والمتعةُ: المَنْفَعَةُ، والاسْتِمْتاعُ: الانْتِفاعُ[2]، تَقولُ: تَمَتَّعْتُ بِكَذا، واسْتَمْتَعْتُ بِهِ؛ إذا انْتَفَعْتُ بِهِ، والإمْتاعُ: النَّفْعُ، والمَتاعُ: كلُّ شَيْءٍ يُنتفَع بِهِ، ويُتبلَّغ بِهِ، ويتزوَّد؛ والفناءُ يَأْتي عليه في الدُّنيا، والجَمْعُ: أمْتِعَةٌ[3]. والمقصود بالتَّمتُّع في الآية: الانْتِفاعُ بِالمَتاعِ القَصيرِ زَمَنُهُ.

3) ﴿وَيُلْهِهِمُ﴾: يدور معنى اللهو على شُغْلٍ عن شَيءٍ بِشَيءٍ، واللهوُ: هو كُلُّ شَيءٍ شَغَلَكَ عن شَيءٍ، فَقَدْ ألهاكَ، ولَهَوْتُ مِنَ اللهوِ، ولَهيتُ عنِ الشَّيءِ؛ إذا تركته لغَيرِهِ، ويُعبَّر باللهو عن كلِّ ما بِهِ استمتاع، قالَ تعالى: ﴿لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا﴾ [الأنبياء: 17]، ومَنْ قالَ: أراد باللهو المرأةَ والولدَ؛ فتخصيصٌ لبَعضِ ما هو مِن زينَةِ الحياة الدُّنيا الَّتي جُعِلتْ لهوًا ولعبًا، ويُقالُ: ألهاهُ كذا، أيْ: شغلَهُ عمّا هو أهمُّ إليه[4]. وإلهاءُ الأمَلِ في الآيةِ مقصودٌ بِهِ: إنْساؤُهُ إيّاهُم ما حَقُّهُم أنْ يَتذكَّروهُ بِأنْ يَصرِفَهُم تَطَلُّبُ ما لا يَنالونَ عن التَّفكيرِ في البَعْثِ والحياةِ الآخِرةِ[5].

4) ﴿ٱلْأَمَلُ﴾: أصلُ (أمل): يدلُّ على التَّثَبُّتِ والانْتِظارِ[6]، يُقالُ: أمَلَ خَيْرَه يَأْمُلُه أملًا، وما أطولَ إمْلَتَه! مِنَ الأمَلِ، أيْ: أمَله، وإنَّه لَطويلُ الإمْلَةِ، أيْ: التَّأْميل، والأمَلُ: هو ظَنُّ حُصولِ أمرٍ مَرغوبٍ في حُصولِهِ مع استِبعادِ حُصولِهِ، وهو واسطةٌ بيْنَ الرَّجاءِ والطَّمَعِ[7]، وهو المرادُ هنا في الآية.

المَعْنى الإجْماليُّ:

الّذين يتمتعون ويأكلون ويلههم الأمل بالدّنيا، سوف يعلمون إذا عاينوا سوء الجزاء.

أمَرَ الحقُّ ﷻ الرَّسولَ ﷺ بأنْ يذرهم في طغيانهم يعمهون، بعد أنْ ثبَت أنَّهم قومٌ لا ينفع فيهم إنذارٌ، فقال: اترك - أيُّها الرسول ﷺ - الكفار يأكلوا، ويستمتعوا بدنياهم وبشهواتِهم، ويشغلهم الطَّمع فيها عن طاعة اللّه وتزوُّدهم لمعادِهم، فسوف يعلمون عاقبة أمرهم الخاسرة في الدنيا والآخرة[8].

(1) ابن عباد، المحيط في اللغة: (متع).
(2) أبو موسى المديني، المجموع المغيث في غريبي القرآن والحديث: 3/148.
(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (متع).
(4) ابن عبّاد، المحيط في اللّغة، والرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحفّاظ: (لهو).
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/14.
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (أمل).
(7) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/14.
(8) ابن جرير، جامع البيان: 17/65، ونخبة من أساتذة التّفسير، التّفسير الميسر، ص، 262.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغة المجاز بالأمر في قوله: ﴿ذَرۡهُمۡ﴾:

أمر الرّسول بترك نصح القومِ، دليلٌ على هلاكِهم الوشيك

أفاد الأمرُ في قوله: ﴿ذَرۡهُمۡ﴾ معنى الوعيد والتَّهديد[1]، وأشعرَ الوعيدُ بهلاكِهم إنْ ترك رسولُ الله دعوتَهم ونصيحتَهم، ولم يبالِ بهم.

نكتة حذفِ متعلّق الفعل ﴿ذَرۡهُمۡ﴾:

ترك الاشتغال بدعوة من لا رجاءَ في صلاحِه

لمّا كان الأصل في الفعل ﴿ذَرۡهُمۡ﴾ أنْ يكون متعدّيًا إلى مفعولين، وقَدْ جاء محذوف المتعلِّق؛ دلَّ على أنَّ الفِعْلَ نُزِّلَ مَنْزِلَةَ ما لا يَحْتاجُ إلَى مُتَعَلِّقٍ، إذِ المَعْنيُّ بِهِ تَرْكُ الاشْتِغالِ بِهِمْ والبُعْدُ عَنْهُمْ، فَلِذَلِكَ عُدّيَ فِعْلُ التَّرْكِ إلَى ذَواتِهِمْ؛ ليَدُلَّ عَلَى اليَأْسِ منهم ومن صلاحِهم[2].

بلاغة الطّلبِ وجوابه، في سياق الآية:

إيثارُ التَّلَذُّذِ والتَّنَعُّمِ، لَيْسَ مِنْ أخلاقِ المؤمنين

قوله: ﴿ذَرۡهُمۡ يَأۡكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلۡهِهِمُ ٱلۡأَمَلُۖ﴾، وفيه لمّا جاء الطلبُ بصيغة الأمرِ بتركِهم في قولِه: ﴿ذَرۡهُمۡ﴾ وكانت الأفعال الثلاثة في مقام الجوابِ والجزاء، ولمّا كان الظّاهر أنَّه لا يترتَّب على الأمر بِتَرْكِ نَصيحَتِهِمْ، وشَغْلِ بالِهِ بِهِمْ الجواب والجزاء؛ لِأَنَّهُمْ يَأْكُلونَ، ويَتَمَتَّعونَ سَواءٌ تَرَكَ نَصيحَتَهُمْ، أمْ لَمْ يَتْرُكْها؛ أفادَ أنَّ الأمرَ بقولِه: ﴿ذَرۡهُمۡ﴾ لَيْسَ مُسْتَعْمَلًا في الإذْنِ بِمُتارَكَتِهِمْ؛ لِأنَّ النَّبيَّ ﷺ مَأْمورٌ بِالدَّوامِ عَلَى دُعائِهِمْ، ويكون المرادُ مِنَ الأمرِ لازمه، وهو قِلَّةُ جَدْوَى الحِرْصِ على إصلاحِهم، والمعنى: لا جدوى من دعائهم، فهم لَيْسوا مِمَّنْ يَرْعَوي عَنْ ما هوَ فيهِ مِنَ الكُفْرِ والتَّكْذيبِ، ولا مِمَّنْ تَنْفَعُهُ النَّصيحَةُ والتَّذْكيرُ، لتفيدَ صيغة المضارع دوامَهم على ذلك

(1) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنة: 6/420، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/350، وأبو حيّان، البحر المحيط: 6/465، والشّوكانيّ، فتح القدير: 3/146.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/13.

واستمرارَهم عليه لا إحداثَه، والمعنى: ليس لهم شأنٌ في حياتِهم إنْ تَرَكْتَهُمْ سوى حصولِ هذه الأفعالِ الثلاثة منهم، فيكون الجزم في الأفعال الثلاثة بلام محذوفة، بتقدير: ليأكلوا، وليتمتَّعوا، وليلههم الأمل، والأمْر في ﴿ذَرْهُمْ﴾ على المجاز للتَّهديد والتَّوْبيخِ والتَّوَعُّدِ والإنْذارِ، ويَحْتَمِلُ أنْ تكون الأفعال الثلاثة جوابًا وجزاءً لفعل الطَّلبِ على سبيلِ التَّوبيخِ والتَّبكيت، فإنَّه لَمّا كانت نصيحةُ رسولِ اللّٰه لهم بما يتلوه عليهم من القرآن تُنَغِّصُ عليهم عيشتَهم، وتُشَوِّشُ عليهم مُتَعَهُمْ بنهيهم عن المنكراتِ وتذكيرِهم بعذاب الآخرة؛ أُمِرَ ﷺ بتركهم، والتقدير: ذرهم فإنْ تركتهم؛ تهنَّوا بأكلِهم، وتمتُّعهم، وألهاهم الأمل، وفي الكلامِ على الوجهين من التَّهديد والزَّجر ما لا يُقادَرُ قدْرُه[1].

بلاغة التَّعريض في سياق الآية البليغ:

قوله: ﴿يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ﴾، وقد ورد في الأفعال الثّلاثة تعريضٌ للكافرين، بأنَّ حياتَهم إنَّما هي حياة أكلٍ وشربٍ، والمعنى: هم منغمسون فيما يتعيَّرون به في أعمالهم، كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴿١٢﴾﴾ [مُحَمَّد: 12][2].

حياةُ الأكلِ والشُّربِ والانغماسِ في الملذّات، مذمومةٌ مستقبحة

مناسبة التَّرتيب بين أفعال الأكل، والتّمتّع، ولهو الأمل:

لَمّا كانت الأفعال الثّلاثة مجزومةً على سبيل الجواب للفعل ﴿ذَرْهُمْ﴾، وجاءت معطوفةً؛ كانَ العطف هنا على سبيل الترتُّب، بمعنى: أنَّ الأكلَ الذي كان كالشأنِ الذي يعيشون له يُفْضِي إلى تمتُّعهم، وتمتُّعهم يُفْضِي إلى أنْ يُلهيَهُم الأملُ، ففي تقديم الأكلِ

تمتُّع الكافرين من قبيل تمتُّع البهائم، بالمأكلِ والمشرَبِ

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/465، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/65، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 11/119، والشّوكاني، فتح القدير: 3/146، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/13.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/12.

على التَّمتُّع إيذانٌ بأنَّ تمتُّعَهم إنَّما هو من قبيل تمتُّع البهائم بالمآكل والمشارب[1].

دلالة قوله: ﴿يَأۡكُلُواْ﴾، في سياق الآية:

لَمّا كان الأكل من المباحات، وممّا يُستعان به على المعيشة والحياة، وكان قوله: ﴿يَأۡكُلُواْ﴾ قد جاء هنا على سبيل الذَّمِّ والتَّوبيخ لمجيئه في سياق الدعوة إلى تركِهم، أفاد أنَّ المرادَ أنْ يأكلوا أكْلًا مقصودًا لذاتِ اللذَّة فقط، بأنْ يكونوا مشغولين بشهوةِ الأكلِ ولذَّتِه مُعْرِضِينَ عن دعوة رسولِ الله ﷺ لهم إلى الإيمانِ والعملِ للآخرة والاستعدادِ للمعادِ[2].

المؤمن دأبه أن يأكل ليعيش، لا أن يعيش ليأكل

نكتة التّعبير بلفظ ﴿وَيَتَمَتَّعُواْ﴾:

أفاد التّعبير بصيغة (يتفعَّل) أنَّهم يطلبون التمتُّعَ والتَّلذُّذَ عن طريق الانتفاع بالمتاعِ حالًا بعد حالٍ، ويكثرون منه، بدلًا من الانشغال بالإيمانِ والعملِ الصّالح، ومثلُه لفظ (التقرُّب) في أنَّه بمعنى طَلَبِ القرب حالًا بعد حال[3].

كثرةُ التَّمتُّع والتَّلذُّذ، تشغلُ عن الواجباتِ وعظائم الأمور

براعة التَّعبير في جملة: ﴿وَيُلۡهِهِمُ ٱلۡأَمَلُۖ﴾:

لَمّا كان اللهوُ هو ما يَشْغَلُ الإنسان عمّا يعنيه ويهمُّه، أو عمّا هو أهمُّ إليه بأنْ يُعْرِضَ عنه[4]، وكان الأملُ هنا هو شيء مرغوبٌ يُرجَى تحصيله في المستقبل من أمورِ الدُّنيا؛ أشْعَرَ التَّعبيرُ أنَّ الأمل أشغلهم عمّا يُهمُّهم من الإيمانِ بالله ورسولِه والعملِ الصّالحِ، بحيث أعرضوا عنه رغبةً منهم في ما أمَّلوهُ من غيرِه حتَّى انغمسوا فيه دونَ فائدةٍ ترجى منه، ولمّا كان الأملُ معنى عامًّا يشمل كلَّ أمرٍ مرغوبٍ يُرْجَى تحصيلُه كما تقدَّم؛ أفاد أنَّ المعنى: ﴿وَيُلۡهِهِمُ﴾ طولُ

الأمَلُ يُكْسِلُ عَنِ العَمَلِ، ويورثُ التَّراخيَ والتَّواني

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/64 - 65.
(2) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 12/7640.
(3) السّمعانيّ، تفسير السّمعانيّ: 3/129، وأبو حيّان، البحر المحيط: 11/15.
(4) الزّمخشريّ، أساس البلاغة: (لهو).

الأعمارِ وبلوغ الأوطار واستقامة الأحوال، وألّا يَلْقَوا في العاقبة والمآل إلّا خيرًا إلى أنْ يفوتَ الأوان، ولاتَ ساعةَ مندمٍ[1].

سبب إيثار حذف متعلّق الفعل ﴿وَيُلْهِهِمُ﴾:

الانشغال بالأمل، يلهي عن الإيمان وأعمالِ المبرّة

لَمّا حُذِفَ متعلِّقُ الفعل؛ دلَّ على عموم إلهاء الأمل لهم، والمعنى: ويلهِهم الأملُ عن اتِّباعك - يا رسولَ الله - وعن التفكُّر فيما هم يصيرون إليه، وعن الإيمان والطاعة، وغيرها من أمورِ الخير والصَّلاح[2].

فائدة تقديم المفعول الضّمير، على الفاعل الظّاهر:

تأكيد إلهاء الأمل للكافرين وانشغالهم به

قولُه: ﴿وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ﴾، فيه تقدَّم المفعول به على الفاعل، مع أنَّه واجب التَّقديم هنا، لكنَّه لا يخلو من فائدة، وهي تأكيد إلهاء الأمل لهم، وفيه قَصْرٌ إضافيٌّ، فكأنَّ الأملَ لم يلهِ أحدًا سواهم، ففيه توبيخ لهم.

بلاغة المجاز العقلّي، في جعل الأمل يلهي:

الانشغال بالأمل، يؤدّي إلى تحكُّمه في الإنسانِ

في قولِه: ﴿وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ﴾، لَمّا كان الأمل أمرًا معنويًّا، وكان أصل الكلام: ألهاهم الله بالأمل؛ كان إسنادُ اللهوِ إلى الأملِ؛ ليكون هو الفاعل على سبيل المجاز العقلي؛ لإفادة تحكُّم الأملِ فيهم لإثبات الأمرِ بالحجَّة، وللإشعارِ بالمبالغة في سَبَبِيَّةِ الأمل في انشغالِهم بما لا نفعَ فيه ولا جدوى منه حتَّى صارَ الأملُ كأنَّه هو الفاعل في إلهائهم[3].

دلالة الفاء في قولِه: ﴿فَسَوْفَ﴾ في السّياق:

تَرَتُّبُ الوعيد على الوعيد، إشعارٌ بِعِظَمِ الوعيد

أفادت الفاء تَرَتُّبَ الوعيد في قولِه: ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ على انشغالِهم بالأكلِ والتمتُّع وإلهاء الأمل لهم، ولَمّا كان قوله: ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ﴾ على معنى الوعيد والتَّهديد؛ أفادت

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/65.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/65.
(3) العصام الإسفراييني، الأطول شرح تلخيص المفتاح: 1/277.

الفاء تَرَتُّبَ الوعيد على الوعيد، وأنَّ الوعيد في قوله: ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ أشدُّ وأعظمُ؛ لأنَّه جاء على سبيل التَّرقي.

دلالة التَّعبير بلفظ (سَوْفَ) في السّياق:

الوعيد يشمل كلَّ الأزمنة المستقبلة الممكنة

أفاد التَّعبير بالحرف (سَوْفَ) أنَّ الزمن الذي سيعلمون فيه وبالَ عملِهم وأملِهم متراخٍ قليلًا، وليشمل التَّعبير كلَّ الأزمنةِ المستقبلة، وهو المُناسِبُ لأسلوب التَّهديد الذي يدلُّ عليه التَّركيب، لِيُشْعِرَ بهولِ الأمر عليهم في كلِّ زمنٍ مستقبلٍ، فيعيشون في رعبٍ وخوفٍ بدلَ التَّلذُّذ والتَّمتُّع والانشغال بآمالِهم السعيدة، ولمّا كان المهدَّد به عامًّا بدلالة حذف مفعول ﴿يَعْلَمُونَ﴾، كما سيأتي بيانه، وأنَّه سيقع في زمن متراخٍ قليلًا بحيث لا يستطيعون استدراك ما فات؛ كان التعبير بـ(سَوْفَ) أشدَّ وأنكى في التهديد؛ إذ معرفة الحقِّ بعدَ فواتِ الأوانِ أشدُّ حسرةً وندامة من معرفته في وقتِهِ.

بلاغة المجاز الخبريّ في سياق الآية الكريمة:

التمتُّعُ وإلهاءُ الأملِ، دَلِيلُ الجهالةِ وقِصَرِ النّظرِ

قوله: ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾، الخبر هنا على معنى الوعيدِ والتَّهديدِ، وتركيبُ ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ حينما يأتي في ذيل الكلامِ أسلوبٌ يُستعمل في التَّهديد كثيرًا حتَّى صارَ كالحقيقة فيه؛ ليكون تهديدًا إثرَ تهديدٍ، ووعيدًا بعدَ وعيدٍ، وفيه تعليلٌ للأمر بالترك في قوله: ﴿ذَرْهُمْ﴾؛ فإنَّ علمَهم ذلك علَّةٌ لتركِ النَّهي والنصيحةِ لهم[1]، وفي التَّعبير بـ﴿يَعْلَمُونَ﴾ إشعارٌ بأنَّهم كانوا على جهالةٍ في حالِ انشغالِهم بأكلِهم وبتمتُّعهم وبإلهاء الأملِ لهم.

مناسبة حذف متعلِّق الفعل ﴿يَعْلَمُونَ﴾:

من أوعدته القدرة، علم من مصيره مالا يسرّه

لمّا كان الخبر على معنى التَّهديد والوعيد؛ جاء الفعل ﴿يَعْلَمُونَ﴾

(1) ابن عطيّة، المحرر الوجيز: 3/350، وأبو حيّان، البحر المحيط: 6/465، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/65.

محذوفَ المفعولين؛ ليفيد التَّهويلَ بشأنِ ما سيعلمونَه، وأنَّه سيكونُ وبالًا عليهم.

فائدة حذف ظرف الزَّمان، في قوله: ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾:

لَمّا كان الخبر على معنى التَّهديد والوعيد؛ كان إبهامُ تعيين وقت الوعيد يفيد الإبلاغَ في الوعيدِ وتهويلَه وتعظيمَه، والمعنى: فسوف يعلمون الحقَّ في الدنيا بعدَ فواتِ الأوانِ، وأنَّهم كانوا على الباطل، ولم يتبعوا الحقَّ، ففيه تنديمٌ وتحسيرٌ لهم، أو: فسوف يعلمونَ؛ إذا وردوا القيامة وبالَ ما صنعوا[1]، أو: فسوف يعلمونَ ذلك في الدُّنيا، وسوف يعلمونَ ذلك في الآخرة؛ ليحصل لهم النّدم والحسرة في الدّارين.

معرفة الحقِّ بعدَ فـواتِ الأوانِ، حسرةٌ وندامةٌ في كلّ زمان

(1) الواحديّ، التّفسير البسيط: 12/540، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/350.

﴿وَمَآ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٞ مَّعۡلُومٞ ٤﴾ [الحجر: 4]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

ربط بين التّعريض بالانشغال بالملذّات، وتأكيد أنّ الوعيد بالإهلاكِ لا يتخلَّف

لمّا توعّدهُم بما يحِلُّ بهِم؛ أردف ذلك بما يُشعِرُ بهلاكِهم، وأنّهُ لا يُستبطأُ، فإنّ لهُ أجلًا لا يتعدّاهُ[1]، وأيضًا لمّا تَوَعَّدَهُمْ بقولِه: ﴿فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ﴾، وكان من أبرز صفاتهم الاستعجال بالعذاب تكذيبًا واستهزاء، فكأنَّ أولئك الكَفَرَةَ قد سألوا الاستعجال بالعذاب، فجاءت هذه الآيةُ جوابًا لهم؛ لِيُفِيدَ أنَّ لهم أجلًا في إهلاكِهم بكتاب معلوم مؤقَّتٍ لا بُدَّ من بلوغهم له[2]، كما حدث مع الأمم السابقة قبلهم، وقد رأوا بعض ذلك، أو سمعوه.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَهۡلَكۡنَا﴾: أصلُ الهَلاكِ يَدُلُّ على كَسْرٍ وسُقوطٍ[3]، يُقالُ: هَلَكَ الشَّيْءُ هَلاكًا وهُلوكًا ومَهْلِكًا؛ إذا ماتَ، أو فَنِيَ، فهو هالِكٌ[4]، والإهْلاكُ: إعْدامُ ذاتِ المَوْجودِ وإفناؤُهُ وإماتَةُ الحَيِّ[5]، والتَّهْلُكَةُ: كلُّ شيءٍ يَصيرُ عاقِبَتُهُ إلى الهَلاكِ[6]، وتُطلَقُ أيضًا على فَقْدِ الشَّيْءِ مع وُجودِهِ مع غَيْرِهِ، ومَصيرِ الشَّيْءِ إلى حيث لا يُدْرَى أيْنَ هو[7]. والمقصود بالإهلاك في الآية: الاستئصال والإفناءُ.

المَعْنى الإجْماليُّ:

كُلُّ مَن ماتَ أو قُتِلَ، إنَّما ماتَ بالقضاء والأجل

قرَّر اللّه تعالى أنَّ هلاكَ الأُمم الظّالمة، موقوتٌ بوقت محدد في

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/466.
(2) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنة: 6/421، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 11/17.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (هلك).
(4) الجوهريّ، الصّحاح: (هلك)، والهرويّ، الغريبين في القرآن والحديث: 6/1935.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8 - أ/82.
(6) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة: (هلك).
(7) المطرزيّ، المعرب: (هلك).

علمه، وأنَّ سُنَّتَهُ في ذلك ماضيةٌ لا تتخلَّف، فقال: وما أهْلَكْنا يا رسول الله ﷺ مِنْ أهْلِ قَرْيَةٍ مِن القُرى الَّتي أهلكنا أهلَها فيما مضى إلّا وكان لهلاكِهم زمنٌ محدَّدٌ مكتوبٌ في اللَّوحِ المحفوظِ، فلا نُهلِكُهم حتى يَبلُغوه، فإذا بَلَغوهُ؛ أهلكناهم[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالة الجملة الخبريّة، في فهم السّياق المحكم:

التَّحذير من التَّمتع بالحياة الدّنيا، والإعراض عن الآخرة

في قولِه: ﴿وَمَآ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٞ مَّعۡلُومٞ﴾، أنّه لَمّا كانت الآيةُ السّابقةُ على معنى الوعيد والتَّهديد - كما تقدَّم - أفادت الجملة الخبريَّة هنا تأكيد الوعيد؛ لِيُفِيدَ هذا التَّأكيدُ تقريرَ الزَّجرِ والتَّحذيرَ[2] من عاقبة سوء مرتكبِهم بإعراضهم عن الإيمانِ وانشغالِهم بالأكل والتَّمتُّع بالحياة الدُّنيا عن الآخرة.

دلالة الواو في جملة: ﴿وَمَآ أَهۡلَكۡنَا﴾:

الأمم الكافرة مُمَتَّعَةٌ قَبْلَ العذاب، مَأْخوذَةٌ به عِنْدَ وقوعِه

قولِه: ﴿وَمَآ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٞ مَّعۡلُومٞ﴾، هذه الواو اعتراضيَّةٌ، والجملة اعْتِراضٌ تَذْييليٌّ؛ لأنَّ في هَذِهِ الجُمْلَةِ حُكْمًا يَشْمَلُهُمْ، وهوَ حُكْمُ إمْهالِ الأُمَمِ الَّتي حَقَّ عَلَيْها الهَلاكُ، أيْ: ما أهْلَكْنا أُمَّةً إلّا وقَدْ مَتَّعْناها زَمَنًا، وكانَ لِهَلاكِها أجَلٌ ووَقْتٌ مَحْدودٌ، فَهيَ مُمَتَّعَةٌ قَبْلَ حُلولِهِ، وهيَ مَأْخوذَةٌ عِنْدَ حلوله[3].

نكتة التَّعبير بلفظ ﴿أَهۡلَكۡنَا﴾:

موتُ الكافرِ، نوعٌ من الإهلاكِ له بالعذاب

لَمّا كان الكلامُ في سياق المؤاخذة على الإعراض عن الإيمان وعن دعوة الرَّسول ﷺ؛ أفاد أنَّ المرادَ من الإهلاك العذابُ والإفناءُ بسوء العملِ، ويَحْتَمِلُ أنْ يدخل فيه الإهلاكُ بالموتِ؛ لأنَّه لَمّا حذف المصدر المبيِّن لنوعِ الإهلاك، فلم يَقُلْ ما معناه: (وما أهلكنا من قريةٍ

(1) ابن جرير، جامع البيان: 14/14، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 10/3.
(2) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 19/119.
(3) ابن عاشور، التحّرير والّتنوير: 14/14.

إهلاكَ عذابٍ)؛ دلَّ على عموم الإهلاكِ، فيكون المرادُ من الهَلاكِ مَجْموعَ الأمْرَيْنِ: نُزولَ عَذابِ الاسْتِئْصالِ ونُزولَ المَوْتِ؛ لِأنَّ كُلَّ واحِدٍ مِنْهُما يُشارِكُ الآخَرَ في كَوْنِهِ هَلاكًا، فَوَجَبَ حَمْلُ اللَّفْظِ عَلَى القَدْرِ المُشْتَرَكِ الَّذي يَدْخُلُ فيهِ القِسْمانِ مَعًا، والمعنى: وما أهلكنا من قرية إهلاكَ تعذيب أو إهلاكَ موتٍ[1].

التَّعبير بضمير الجمع (نا)، في: ﴿أَهْلَكْنَا﴾:

لِيُفِيدَ تَعْظِيمَ العذابِ وتَفْخِيمَهُ بما يدلُّ عليه الضَّمير من تعظيم الملك الواحدِ الأحدِ[2]. فإهلاكُ اللّه للأمم الكافرة، يقينٌ بأنْ سيفعلُ بها فاقرة.

مناسبة التَّعبير بصيغة الماضي ﴿أَهْلَكْنَا﴾:

لم يَقُلْ: (وما نهلك من قريةٍ)، بل جاء بصيغة الماضي لإفادة تحقُّق وقوع الإهلاكِ بالوقتِ المعلومِ الثابتِ عندَه تعالى؛ لأنَّ الآيةَ لَمّا كانت على معنى التَّهديد والوعيد للقومِ الكافرين وقتَ نزول القرآن إلى قيام السّاعة من أنَّهم إنْ كفروا، وأعرضوا عن القرآن، فسيصيبهم ما أَصاب الذين أهلكناهم في القدرِ المحدَّد لهم، كان القياس على أمرٍ قد ثبتَ وقوعُه أشدَّ تهديدًا ووعيدًا للمخاطَبين المستبطئين العذابَ، المستهزئين به، وأثبتَ حجَّةً عليهم، وأبلغَ عبرةً لهم.

القياسُ على إهلاكِ الماضين، أشدُّ تهديدًا لِلمستهزئين بالعذاب المهين

دلالة مجيء ﴿مِن﴾ في قولِه: ﴿مِن قَرْيَةٍ﴾:

أفاد حرف الجرِّ ﴿مِن﴾ النصَّ على استغراقِ عموم أجناس القرى، وعموم الأفراد في كلِّ القرى؛ ليشملَ الحكمُ كلَّ ما يطلقُ عليه قريةٌ، كما أفادَ تأكيد الحكم، والمعنى: وما أهلكنا أيَّ قريةٍ من القرى[3].

تأكيد حكم الاستغراق بحرف الجرِّ (مِنْ)

(1) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنة: 6/421، والفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 19/120.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/17.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/66.

نكتة التَّعبير بلفظ ﴿قَرْيَةٍ﴾ في السّياق:

إهلاكُ القرى باستئصال النّاس ومساكنِهم، من عذاب الله العادل

لَمّا كانت القرية اسمًا للسُّكّانِ في مسكن مجتمع، أو اسمًا للموضع الذي يجتمع فيه النّاس؛[1] دلَّ على أنَّ الإهلاكَ يقع على الموضعِ، وعلى النّاس الذين يسكنون فيه؛ للإشعارِ بالاستئصال وعِظَمِ إهلاكِ الله تعالى.

دلالة الواو في جملة: ﴿وَلَهَا كِتَابٌ﴾:

توقيت إهلاك القرى سابقٌ على زمنِ وقوعِه

تَحْتَمِلُ الواو أنْ تكون حاليَّة، وتكون الجملة الاسمية ﴿وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ﴾ حالًا من ﴿قَرْيَةٍ﴾، وسوَّغ مجيء الحال من النَّكرة وقوعها في سياق النَّفي لدلالتِها على العموم، ونكتة مجيء واو الحال هنا: أنَّها أفادت أنَّ الحالةَ التي بعدها في اللفظ هي في الزمنِ قبل الحالةِ التي قبل الواوِ، بمعنى: أنَّها دلَّت على أنَّ الأجل المعلوم مقرَّرٌ مؤقَّتٌ سابقٌ تقديره على زمن نزولِ الإهلاك، مستمرٌّ إلى وقوعِ الهلاكِ، وأجاز الزَّمخشري وغيرُه أنْ تكون الواو داخلةً بين الصفة والموصوف متوسِّطةً بينهما؛ لتأكيد لصوقِها بالموصوف وتقويتِه، فتكون الجملة الاسمية ﴿وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ﴾ صفة لـ﴿قَرْيَةٍ﴾، وساغ دخول الواو لَمّا كانت صورة الجملة هاهنا كصورتها؛ إذا كانت حالًا، فتكون الآيةُ مفيدةً الحصرَ مع التَّأكيد[2].

بلاغة الاستعارة في قولِه: ﴿كِتَابٌ﴾:

الأجل المحدود عندَ الله ثابتٌ، لا يقبل الزّيادة والنَّقص

لَمّا كان الكِتابُ في الآية بمعنى الأجل المكتوب، في كتاب المَحْدودِ عِنْدَ الله؛ كان التَّعبير به على طريق الاستعارة التّصريحيَّة، بتشبيه الأجل المحدود بِالكِتابِ، في أنَّهُ لا يَقْبَلُ الزّيادَةَ والنَّقْصَ في الوقتِ وفي نوعِ الإهلاكِ، وفيما يصيبُهم بالإهلاكِ، وفي أنَّه ثابتٌ مقرَّر[3].

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (قري).

(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/570، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/350، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/206، والسّكاكيّ، مفتاح العلوم، ص: 251، وأبو حيّان، البحر المحيط: 6/466، والسّمين الحلبيّ، الدّر المصون: 7/143.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/15.

دلالة الكِتاب المَعلومِ في سياق الآية:

أفادت الجملة الحالية أو جملة الوصف - على التَّوجيهين - أنَّ تقديم الإهلاكِ وتأخيرَه إنَّما يقع على وفقِ الكتاب المعلوم المحدَّد، فآذنَ الكلامُ أنَّ الَّذينَ تَقَدَّموا في الإهلاكِ كانَ وقْتُ هَلاكِهِمْ في الكِتابِ مُعَجَّلًا، والَّذينَ تَأَخَّروا كانَ وقْتُ هَلاكِهِمْ في الكِتابِ مُؤَخَّرًا، ففيه تهديدٌ وزجرٌ للنّاس عن استبطاء الإهلاكِ والغفلةِ والرُّكون إلى الدنيا، فلكلِّ أجلٍ كتابٌ[1].

لا ينبغي للعاقل أنْ يغترَّ بالإمهال، فالله يمهل ولا يهمل

دلالة الضّمير في قولِه: ﴿وَلَهَا﴾:

لَمّا كان قوله: ﴿كِتَابٌ مَّعْلُومٌ﴾ يفيد أنَّ زمن وقوع إهلاكِ أيِّ قريةٍ مكتوبٌ معلومٌ، ولَمّا كان الظّاهرَ عودُ الضَّمير في ﴿وَلَهَا﴾ إلى ﴿قَرْيَةٍ﴾؛ كان تقديرُ الكلامِ: إلّا وللقرية كتاب معلومٌ في الإهلاكِ، ففيه مبالغة في الإهلاكِ على جهةِ الاستيعاب بنسبة الكتاب المعلوم إلى القرية، كما أجاز بعضُ المفسِّرين أنْ يكون الضَّميرُ عائدًا إلى القرية مع حذف مصدرٍ مضافٍ مفهومٍ من الفعل ﴿أَهْلَكْنَا﴾، والتقدير: إلّا ولإهلاكِ القرية كتابٌ معلومٌ.

المبالغة في إهلاكِ القرى الكافرة؛ ليكون على جهة الاستيعابِ

دلالة صفة الأجل في قولِه: ﴿مَّعْلُومٌ﴾:

لَمّا كان الكتاب بمعنى المكتوبِ في اللوح المحفوظ، لِيُفِيدَ أنَّه ثابتٌ ومعلومٌ عند الله تعالى؛ دلَّ مجيء الصِّفة المقيَّدة للموصوف النَّكرة، على دفعِ توهُّم أنَّه قد يُنْسَى أو يُغْفَلَ عنه، فقال: ﴿مَّعْلُومٌ﴾، والمعنى مكتوبٌ مقدَّرٌ لا يُنسى، ولا يُغفل عنه حتى يُتصوَّرَ التخلفُ عنه بالتقدُّم والتأخُّر، كما أفادت الصِّفةُ تأكيدَ الموصوف وتقريرَه لِما يدلُّ عليه الموصوف من كونِ المكتوبِ معلومًا عندَ الله تعالى[2].

الأجل المعلوم لا يُنسَى، ولا يُغفلُ عنه، وما منه مفرّ

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 19/119.

(2) النيّسابوريّ، غرائب القرآن: 5/287، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/65.

دلالة الاستثناء:

تأكيدُ زمنِ وقوعِ الإهلاكِ بما ثبتَ في الكتاب المعلومِ

في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٞ مَّعۡلُومٞ﴾ أفاد مجيء ﴿إِلَّا﴾ بعدَ الاسمِ النَّكرة في سياقِ النَّفي أنَّ الاستثناء من عمومِ الأحوالِ[1]، وتقدير الكلام: ما أهلكنا قريةً من القرى في أيِّ حالٍ من الأحوالِ إلا حالَ أنْ يكون لها كتابٌ، أيْ: أجلٌ موقَّتٌ لمَهلَكِها قد كتبناه، لا نُهْلِكُها قبل بلوغِه، والكتابُ معلومٌ لا يُغفل عنه حتى يمكنَ مخالفتُه بالتقدُّم والتأخُّر، لِيُفِيدَ الاستثناءُ من عمومِ الأحوالِ تأكيدَ زمنِ وقوعِ الإهلاكِ بما ثبتَ في الكتاب المعلومِ.

دلالة أسلوب الحصر بالنّفي والاستثناء:

الهلاك محصّلة تدلّ على ضلال السّعي، وفساد المسلك

لَمّا كان الذين يأكلون، ويتمتَّعون، ويشغلُهم الأمل عن اتِّباع رسولِ اللّه ﷺ، وما أنزلَ إليه في حكمِ من يعتقد أنّه لا يَنْزِلُ بهم العذاب، ولا يصيبهم الهلاك، وهم منكرون للوعيدِ، وكانوا في انشغالِهم بالملذّات في حكم من يُصِرُّ على اعتقاده الخاطِئ، فجاء الكلام على طريق الحصر بـ (ما وإلّا) في قوله: ﴿وَمَآ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٞ مَّعۡلُومٞ﴾ للإيذانِ بخطئهم فيما يستهزئون به من وقوع العذاب بهم، وبأنَّهم مُصِرّونَ على الخطأ بسوء أعمالِهم وطولِ أملِهم في الدُّنيا[2].

توجيه المتشابه اللَّفظي:

المقامُ في سورة الحِجر يقتضي النَّسق بالواو، أو الحالية، ولكلَيهما معنى، يدعمه ويجلّيه

قال اللّه تعالى في سورة الحِجْر: ﴿وَمَآ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٞ مَّعۡلُومٞ﴾، فجاء بالواو بعدَ ﴿إِلَّا﴾، وقال في موضعٍ آخر: ﴿وَمَآ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ٢٠٨﴾ [الشّعراء: 208]، من غيرِ واو، والسَّبب هو أنَّه لَمّا كانت الواو تفيد مزيد ربط واجتماع في الحال وفي الوصف على التَّقديرين في تأويل الجملة، أيْ: سواء قُدِّرَت الجملتان ﴿وَلَهَا

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/15.
(2) السّكاكيّ، مفتاح العلوم، ص: 294.

﴿كِتَابٌ مَّعْلُومٌ﴾، و﴿لَهَا مُنذِرُونَ ۝٢٠٨﴾ [الشّعراء: 208] حالًا أو وصفًا؛ أفادَ أنَّ المقامَ في سورة الحِجر، يقتضي النَّسقَ بالواو، وذلك أنَّ قوله: ﴿وَلَهَا كِتَابٌ﴾ صفة لازمة للقرية، فإنَّ الكتْبَ في اللّوح وصف أزلي ثابتٌ، فناسب أنْ يكون في اللّفظ ما يدلُّ على تأكيدِ اللزوم واللُّصوق وهو الواو، وإذا كانت الواو حالية؛ فيناسبه أيضًا في سورة الحِجْرِ للإيذانِ بأنَّ جملة الحال التّي جاءت بعد الواو في اللّفظ هي في الزّمنِ قبل الحالةِ التّي قبل الواوِ كما تقدَّم قريبًا[1].

(1) النيّسابوريّ، غرائب القرآن: 5/286 - 287.

﴿مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ۝٥﴾ [الحجر: 5]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

العلاقة بين كون هلاك الأمم بقدر معلوم، وأنّ الأجل لا سبق فيه ولا تأخير

لَمّا بَيَّنَ اللّه سبحانه أنَّ الأمم المهلكة؛ كان لكل منهم وقت معيَّن لهلاكهم، وأنَّه لم يكن هَلاكُهُمْ إلّا حسبما كان مكتوبًا في اللَّوح المحفوظ؛ بَيَّنَ جلَّ شأنُه أنَّ كلَّ أمَّةٍ من الأمم منهم ومن غيرِهم لهم أجلٌ لا يمكن التَّقدُّم عليه ولا التأخر عنه، فجاءت هذه الآية[1].

وأيضًا لَمّا قال اللّه تعالى: ﴿وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ﴾؛ بَيَّنَ فائدة التقدير والتَّحديد بأنَّه عدمُ المجاوزة بدءًا ونهايةً.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تَسْبِقُ﴾: يدور معنى السَّبق على تقدُّم الشَّيءِ من بين ما حوله في قوة وجِدٍّ، يُقالُ: سَبَقَ يَسْبِقُ سبقًا، والسَّبْقُ: التقدُّم في السَّير، وكلُّ شيءٍ تقدَّم؛ فقد سبق، فيأتي بمعنى الإفلاتِ أو المضيِّ في السَّير، ومعْنَى ﴿تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا﴾: تَتَقَدَّمُهُ، وتَفوتُهُ، أيْ: تُعْدَمُ قبلَ حُلولِه[2].

2) ﴿أَجَلَهَا﴾: أصلُ الأجَلِ: غايَةُ الوقْتِ في مَحَلِّ الدَّيْنِ وغيرِه، ويُقالُ للمُدَّةِ المضروبة لحياة الإنسان أجَلٌ، فيُقال: دنا أجلُه، عِبارة عن دنوِّ الموت[3]. وقوله: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ۝٣٨﴾ [الرعد: 38]، أيْ: تَعْيينٌ وتَحديدٌ لا يَتَقَدَّمُهُ، ولا يَتأخَّرُ عنه، وقَولُهُم: (أجَلْ) في الجوابِ، هو مِنْ هذا البابِ، كأنَّهُ يُريدُ انتهَى، وبَلَغَ الغايَةَ[4]. والمقصودُ بالأجَلِ في الآية: الوقتُ الموَقَّتُ بِهِ عَمَلٌ مَعْزومٌ أو مَوْعودٌ.

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/65.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (سبق).
(3) الراغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (أجل).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أجل).

3) ﴿يَسْتَـْٔخِرُونَ﴾: أصْلُ التَّأخير: فِعْلُ الشَّيْءِ آخِرًا بَعْدَ أجَلِه، والتَّأخير: التَأجيلُ، يُقالُ: أخَّرَ الشَّيْءَ يُؤَخِّرُهُ، أيْ: أجَّلَهُ، وضِدُّ التَّأخيرِ: التَّقْديمُ والتَّعْجيلُ، ويُطْلَقُ التَّأخيرُ أيْضًا بِمَعْنَى: تَفْويتِ الشَّيْءِ وتضييعِه، يُقالُ: أخَّرَ سَفَرَهُ، أيْ: فَوَّتَهُ، ولَمْ يَأْتِ بِهِ في وقْتِه، والتَّأخُّرُ: التَّخَلُّفُ سواءٌ كانَ في المَكانِ أم الزَّمانِ، يُقالُ: تَأخَّرَ عَنْ عَمَلِه، أيْ: تَخَلَّفَ عَنْهُ، وتَأخَّرَ عَنْ مُنافِسِه؛ إذا جاءَ بَعْدَهُ في المَكانِ أو الزَّمانِ[1]. والمراد بالاسْتِئْخارِ في الآية: المُبالَغَةُ في التَّأخُّرِ، فالسّينُ والتّاءُ للتَّأكيدِ[2].

المَعْنى الإجْماليُّ:

في الآية بيانُ مظهرٍ من مظاهر قُدرة اللّه تعالى وإحكامه لشؤون خلقه، وهو ألّا يتقدَّمَ هلاكُ أمَّةٍ قبلَ الوَقتِ الَّذي قدَّرَهُ اللّهُ لهلاكِها، ولا يستأخِرُ، فيتجاوَزُ الوقتَ المحدَّدَ له؛ بل الكلُّ نهلكه، ونُميته في الوقت الَّذي حدَّدناه بقدرتنا وحكمتنا[3].

لا يغرَّنَّهم تخلُّفُ العذاب عنهم، فإنّ أجَلهم آتٍ لا يسبقونه ولا يتأخّرون عنه

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

سبب إيثار الفصلِ في الآية:

لم يُعطَفْ قولُه: ﴿مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا﴾ على ما قبله؛ لكونِه موضِّحًا ومبيِّنًا من حيث إنَّ إهلاكَ أيِّ قريةٍ لمّا كان له كتاب معلوم محدَّد مؤقَّتٌ؛ أفاد أنَّهم لا يسبقون أجلهم، ولا يستأخرون، وفي الجملة معنى التَّأكيد والتَّقرير كذلك لِما قبلها، فناسب عدم العطف.

تقرير أنّ آجال الأمم، محدودة بالقدر، فلا يقدّم ميقاته ولا يؤخّر

دلالة التّعبير بلفظ ﴿مَّا تَسْبِقُ﴾، وأثره في المعنى:

لمّا كان لفظ (سَبَقَ) إذا كانَ واقِعًا عَلَى شَخْصٍ؛ كانَ مَعْناهُ أنَّهُ جازَ، وخَلَّفَ، كَقَوْلِكَ: سَبَقَ زَيْدٌ عَمْرًا، أيْ: جازَهُ، وخَلَّفَهُ وراءَهُ،

كلُّ مَنْ ماتَ أوْ قُتِلَ فإنَّما ماتَ بِأجَلِهِ

(1) ابن سيده، المحكم، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (أخر).
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/15.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 14/14، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 10/3.

ومَعْناهُ: أنَّهُ قَصَرَ عَنْهُ، وما بَلَغَهُ، وإذا كانَ واقِعًا عَلَى زَمانٍ؛ كانَ بالعَكْسِ في ذَلِكَ، كَقَوْلِكَ: سَبَقَ فُلانٌ عامَ كَذا، مَعْناهُ: مَضَى قَبْلَ إتْيانِهِ، ولَمْ يَبْلُغْهُ، فَقَوْلُهُ تعالى: ﴿مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ﴾، مَعْناهُ: أنَّهُ لا يَحْصُلُ ذَلِكَ الأجَلُ قَبْلَ ذَلِكَ الوَقْتِ، فتهلك الأمَّةُ قبل بلوغ أجلها، وما يستأخرون، أيْ: ما يتجاوزونه، ويتأخَّر الأجلُ عنهم، بَل إنَّما يَحْصُلُ في ذَلِكَ الوَقْتِ بِعَيْنِهِ[1].

بلاغة سوق الكلام، بنفي السّبق والاستئخار:

تخصيصُ كُلِّ أجلٍ بِوَقْتِهِ المُعَيَّنِ، إنَّما هو بتخصيصِ الإلهِ الواحدِ الأحدِ

لَمّا كان المرادُ إثباتَ وقوع أجلِ كلِّ أمَّةٍ في وقتِه المعيَّن؛ لم يأتِ بما يدلُّ على المعنى مباشرة، فجاء بنفي السبق والتأخير؛ ليؤذن بإثباتِ وقوعِ الأجل بعينه في الوقت المحدَّد له، وبدفع توهُّم أيِّ سبقٍ أو تأخير لأجَلِهم بما يدلُّ عليه ظاهر النَّفي وصريحه، فدفْعُ التَّوهُّم لا يدلُّ عليه شيءٌ مثل أسلوب النَّفي، وللإشعارِ بأنَّ تخصيصَ كُلِّ أجلٍ بِوَقْتِهِ المُعَيَّنِ دونَ الوَقْتِ الَّذي قَبْلَهُ أوْ بَعْدَهُ إنَّما هو بتخصيصِ إلهٍ واحدٍ أحدٍ[2].

فائدة مجيء ﴿مِنْ﴾، في قوله: ﴿مِنْ أُمَّةٍ﴾:

تأكيد استحالة سبق أيِّ أمَّةٍ أجلها أو تأخيره

لَمّا كان حرف الجر ﴿مِنْ﴾ يفيد النَّصَّ على استغراق الجنس؛ دلَّ على أنَّ لفظَ الأمَّة يشمل أفراد أمم القرى المهلكَة وغيرهم، كما أفاد الحرفُ تأكيد نفي السبق وتأخيره[3].

نكتة الإسناد إلى (الأمَّة) دون (القرية):

لا غلبةَ لأيِّ جمعٍ لأجَلِه، مهما بلغت قوّته، وكثرت عدّته

قولِه: ﴿مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ﴾، أُسنِدَ الفعلان ﴿تَسْبِقُ﴾، ﴿يَسْتَـْٔخِرُونَ﴾ إلى الأمَّة، بعد إسنادِ الإهلاكِ إلى القرية؛ لأنَّ السياق في بيان أنْ لا غلبة لأيِّ جمعٍ، وإنْ كان قويًّا بحيث يستطيع

(1) الواحديّ، التّفسير البسيط: 12/542، والفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 19/120.
(2) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 19/120، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/66.
(3) الواحديّ، التّفسير البسيط: 12/541، وأبو حيّان، البحر المحيط: 6/466.

أنْ يسبق أجله، أو يَسْتَأْخِرَ عنه، فناسب مجيء لفظ ﴿أُمَّةٍ﴾ هنا لِما يدلُّ عليه اللَّفظ من معنى الاجتماع والقوَّة وكونهم على أمرٍ واحدٍ يجتمعون عليه[1]، فالسبقُ والاستئخارُ وصفٌ للأمَّةِ دون القرية مع ما في لفظِ الأمَّة من العموم لأهل تلك القرى وغيرِهم ممن أُخِّرت عقوباتُهم إلى الآخرة[2].

سرُّ إيثار التَّعبير بقولِه: ﴿أَجَلَهَا﴾ في السّياق:

لم يَقُلْ: (ما تسبق مِنْ أمَّةٍ كتابَها المعلومَ) كما في الآية السابقة، ونكتته هي أنَّه لَمّا قال: ﴿مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ﴾؛ اقتضى ذكرُ السَّبقِ إيرادَ لفظِ الأجلِ، فكان إيرادُ الأجلِ - الذي هو غايةُ الوقتِ للشَّيءِ أو هو المدَّةُ المضروبةُ للشَّيء - باعتبار ما يقتضيه من السَّبق في الوقتِ كما أنَّ إيرادَه بعنوان الكتابِ المعلوم باعتبار ما يوجبه من الإهلاك[3]، كما أنَّه لَمّا كان الكلام على غاية الوقت لكلِّ أمَّةٍ وتعيين وقتِ إهلاكِها وتحديده من غيرِ أنْ تسبقَ الأمَّةُ أجلها أو تَسْتَأْخِرَ عنه ناسب ذكر الأجل.

مناسبةُ كلِّ لفظٍ لسياقِه في القرآن، من بليغ البيان

نكتة إيثار صيغة الاستفعال: ﴿يَسْتَـْٔخِرُونَ﴾:

عُبِّرَ بصيغة الاستفعال؛ للإشعار بعجزهم عن الاستئخار مع طلبهم له بما تدلُّ عليه السين والتّاء، مع دلالتها على تأكيد طلبهم، إشعارًا بأنَّ النَّفسَ بطبيعتِها تشتهي تأخير الأجل وتكره سبقَه[4].

النَّفسُ بطبيعتِها تشتهي تأخير الأجل وتكره سبقَه، وقدر الله هو الفيصل

سرّ ورود صيغة المضارع ﴿تَسْبِقُ﴾، و﴿يَسْتَـْٔخِرُونَ﴾:

قوله تعالى: ﴿مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ﴾، أوثِرَتْ صيغةُ المضارعِ في الفعلين بعد ما ذُكر نفيُ الإهلاكِ بصيغة الماضي؛

دوامُ نفي السَّبقِ والاستئخارِ فيما بين الأمم الماضية والباقية

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (أمم).
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/66.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/66.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/66، والبروسويّ، روح البيان: 4/443، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/15.

لأنَّ المقصودَ بيانُ دوامِ نفي السَّبْقِ والاسْتِئْخارِ فيما بين الأممِ الماضيةِ والباقية في أجلِها الذي أجَّلت له[1].

سبب تقديم نفي السّبق، على عدم التأخُّر:

سرُّ تأخيرِ عذابِ الكافرين، هو أنَّهم لا يسبقون أجلهم

قُدِّمَ نفي السبقِ على عدمِ التَّأخر مع كون المقام مقامَ المبالغةِ في بيان تحقُّقِ عذابِهم؛ لأنَّ السَّبقَ مقدَّمٌ في الوجود على التَّأخُّر، ولِأنَّ المرادَ بيانُ أنَّ سرَّ تأخيرِ عذابِهم مع استحقاقهم لذلك هو أنَّهم لا يسبقون أجلهم، فلا تأخيرَ في أجلِهم كما قد يتوهَّمُ.

بلاغة التَّغليب في قولِه: ﴿وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ﴾:

تحصيل الأمم للقوَّة وأسبابِها، لا يؤخِّرُ أجلَها

لَمّا كان لفظ أمَّة مؤنَّثًا، وجاء الفعل على نسقه، في قولِه: ﴿مَّا تَسْبِقُ﴾؛ كان إيراد الفعل ﴿وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ﴾ باقترانِه بضمير جماعة الذكور على تغليب الرِّجالِ في ما يتضمَّنه لفظ الأمَّة، فيكون الفعل ﴿تَسْبِقُ﴾ قد حُمِلَ على لفظ الأمَّة؛ لأنَّه مؤنَّثٌ، و﴿وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ﴾ حُمِلَ على المعنى؛ لأنَّ طلبَ استئخار العذاب لا يَقْدِرُ عليه إلّا من له قوَّة وشأن، فأُشيرَ إلى رجالِ الأمَّة، بمعنى لا يستطيع الأمرَ أيُّ أمَّةٍ، وإنْ كان الطالبون للأمر لديهم القوَّةُ وأسبابُها، كما أنَّ فيه رعايةً لِلفواصلِ، ولهذا لم يَقُلْ: (ما تسبق من أمَّة أجلها وما تستأخر)[2].

سرّ حذف متعلّق الفعل، في قولِه: ﴿وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ﴾:

الإيجاز ومراعاة الفاصلة من عادةِ القرآن في البيان

تقدير الكلام: (وما يستأخرون عنه) فحُذِفَ الجارُّ والمجرور (عنه)؛ لأنَّه معلوم من السّياق، ففيه إيجازٌ ولِمراعاةِ الفواصل[3].

توجيه المتشابه اللّفظيّ:

قال الله تعالى في سورة الحِجر: ﴿مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ﴾، وقال في سورة الأعراف: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ۖ فَإِذَا جَآءَ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/66.

(2) الفرّاء، معاني القرآن: 2/84، والواحديّ، التفسير البسيط: 12/542، والزّمخشري، الكشاف: 2/571، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/66.

(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/571، والسّمين الحلبيّ، الدر المصون: 7/143.

تقديم الاستئخار لبيان عدمِ خلاص الأمم من العذاب، وتأخيره لبيان سرِّ تأخير إهلاكِهم

أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [الأعراف: 34]، وفي سورة النَّحل: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٦١﴾﴾ [النّحل: 61]، وسرُّ تقديم الاستئخار في سورة الأعراف وسورة النحل هو أنَّ المقصودَ بالذات بيانُ عدمِ خلاصِهم من العذاب، وأمّا ما في سورة الحِجر في قولِه تعالى: ﴿مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ﴾ من سبق السبق في الذكر، فلِأنَّ المراد بيانُ سرِّ تأخيرِ إهلاكِهم مع استحقاقهم له، حسبما ينبئ عنه قوله تعالى: ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾، فالأهمُّ هناك بيانُ انتفاءِ السَّبْق، فقُدِّم لمناسبةِ المقامِ[1].

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/66.

﴿وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ إِنَّكَ لَمَجۡنُونٞ ٦﴾ [الحجر: 6]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

علاقة قدر الله في هلاك الكفّار، بكفر المشركين بنبوَّةِ محمَّدٍ ﷺ

لَمّا بيَّن اللّه تعالى فيما سبق كفرهم بالكتاب، وما يؤول إليه حالُهم؛ شرعَ في بيان كفرِهم بمن أُنزلَ عليه الكتابُ[1]، وأيضًا لَمّا بالَغَ اللّه تعالى في تَهْديدِ الكُفّارِ، ذَكَرَ بَعْدَهُ شُبَهَهُمْ في إنْكارِ نُبوَّتِه[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلذِّكۡرُ﴾: أصلُ الذِّكْرِ: الحِفْظُ الَّذي تَذْكُرُه، وهو خِلافُ النِّسيان[3]. وهو أيضًا: جَرْيُ الشَّيْءِ على لِسانِكَ[4]. والذِّكْرُ: الصّيتُ والثَّناءُ، لذكرِه بين النّاس، والذِّكْر: الكتابُ الَّذي فيهِ تَفْصيل الدّين، وكلُّ كتابٍ من كُتبِ الأنبياء ﷺ ذِكْرٌ[5]، فالذِّكْرُ الكَلامُ الموحَى بِهِ؛ ليُتْلَى، ويُكَرَّرَ، فهو للتِّلاوَةِ؛ لأنَّهُ يُذْكَرُ ويُعادُ، ولأنَّ فيه تذكيرًا باللّه واليَومِ الآخِرِ، أو لأنَّه بمعْنَى أنَّ به ذِكْرَهُم في الآخَرينَ[6]، والمقصود بالذِّكر في الآية: الكَلامُ الموحَى بِهِ؛ ليُتْلَى، ويُكَرَّرَ، والمُرادُ بِهِ هُنا القُرْآنُ[7].

2) ﴿لَمَجۡنُونٞ﴾: أصْلُ الاجْتِنانِ: الاسْتِتارُ والاخْتِفاءُ، يُقالُ: جَنَّ الشَّيْءُ، واجْتَنَّ اجْتِنانًا، أيْ: اسْتَتَرَ، ومنهُ سُمّيَ الجَنينُ لِاسْتِتارِهِ في بَطْنِ أُمِّهِ، وسُمّيَ فاسِدُ العَقْلِ: مَجْنونًا؛ لِتَغَطّي عَقْلِهِ واستِتارِهِ عَنِ الإدْراكِ، والجنون: زَوالُ العَقْلِ أوْ فَسادُهُ، تَقولُ: جُنَّ الرَّجُلُ، فَهوَ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/66.
(2) الفخر الرازيّ، مفاتيح الغيب: 19/121.
(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، والمحيط في اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (ذكر).
(4) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن عبّاد، المحيط في اللّغة: (ذكر).
(5) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن عبّاد، المحيط في اللّغة: (ذكر).
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/16.
(7) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/16.

مَجْنونٌ، أيْ: زالَ عَقْلُهُ، أوْ فَسَدَ[1]. والمراد بالمجنونِ في الآية: الَّذي جُنَّ، أيْ: أصابَهُ فَسادٌ في العَقْلِ مِنْ أثَرِ مَسِّ الجِنِّ إيّاهُ في اعْتِقادِهِم[2].

المَعْنى الإجْماليُّ:

قال المكذِّبون لرسول الله ﷺ استهزاءً: يا أيُّها الذي زعم أنَّه نُزِّل عليه القرآن إنَّك لذاهب العقل، هلّا تأتينا بالملائكة - إنْ كنت صادقًا - لتشهد أنَّ الله أرسلك[3].

عِنادُ أهلِ مكَّة، وكفرهم بمن أُنزل عليه الكتاب، ورميه بالجنون

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالة عودِ الضَّمير، في قولِه: ﴿وَقَالُواْ﴾:

الضّمير في ﴿وَقَالُواْ﴾ لكفار قريش، ويُشْعِرُ وصفهم لرسول الله ﷺ بالجنون بأنَّه قول صناديدهم وكبرائهم، كَما قالَ فِرْعَوْنُ: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾﴾ [الشُّعَراء: 27][4]، ولمّا كان أتباعُهم غيرَ منكرين لقولِهم؛ آذن عدم إنكارهم برضاهم به، فنسب القول إلى جميعهم.

عدم الإنكار على قولِ الكبراء الكافرين مع اتِّباعِهم دليل الرِّضا بقولِهم

مناسبة مجيء أسلوب النِّداء في ﴿يَـٰٓأَيُّهَا﴾:

قوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ﴾، وفيه: لمّا كان النِّداء بمعنى رفْعِ الصَّوت صياحًا وظهورِه للمخاطَبين، وكان على معنى طلبِ إقبال المنادَى على المنادي؛ دلَّ على أنَّهم ما كانوا يرقبون في رسولِ الله إلَّا ولا ذمَّةً في استهزائهم، ففيه توبيخٌ.

توبيخُ من لا يستحي من رسول الله ﷺ، ولا يتأدَّب معه

لهم على قبحِ أعمالِهم وعدم استحيائهم ممَّن نزِّل عليه الذِّكر[5]،

(1) الجوهريّ، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (جنن)، والمناويّ، التّوقيف على مهمّات التّعاريف، ص: 131.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/17.

(3) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/527، والمراغيّ، تفسير المراغيّ: 14/8.

(4) البغويّ، معالم التّنزيل: 3/51، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/351.

(5) الماتريديّ، تأويلات أهل السنّة: 6/422، والسمعاني، تفسير السّمعانيّ: 3/130، والزّمخشريّ، الكشّاف: 2/571، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/351.

كما أفادَ مَجيءُ الكلام بأسلوب النِّداء التَّنبيه على أنَّ المنادَى وهو رسولُ اللّه بعنوان نزولِ الذكر عليه؛ كان حاضرًا في قلوبِهم لا يغيب عنهم[1]؛ ليشعرَ بأنَّ الضجرَ والاضطرابَ لم يكن ليفارقَهم بسبب نزول الذِّكر على رسولِ اللّه ﷺ.

دلالة (يا) النِّداء في سياق الآية المحكم:

في قولِه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ﴾، وفيه لَمّا كانت (يا) للنِّداء، والظّاهر أنَّها لنداء البعيد؛ أفاد التَّعبير بها أنَّهم تصوَّروا رسول اللّه ﷺ بعيدًا عنهم بما هم عليه من الشِّرك وأحوالِه، وما كان عليه من الإيمان وأحوالِه، فلمّا كان النِّداء يكون بمدِّ الصَّوت للإنسانِ المعرض عن المنادي[2]؛ ناسب ما أشعر به قولُهُ تعالى: ﴿ذَرۡهُمۡ يَأۡكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ﴾ من معنى إعراضِه ﷺ عنهم، كما يشعر النِّداء بالياء استصغارَهم لرسولِ اللّه؛ إذ ينادونه من مكانٍ بعيدٍ مع إعراضِهم عن اسمِه ومناداتِه بالصِّفة التي جاءهم عليها، وهم منكرون لها[3].

الإيمانُ وأحوالُه بعيدٌ من الشِّرك وأحوالِه

سبب إيثار التَّعبير بالاسم الموصول ﴿ٱلَّذِى﴾:

عُبِّر بالاسم الموصول لِما في الصِّلَةِ مِنَ المَعْنَى الَّذي جَعَلوهُ سَبَبَ التَّهَكُّم[4]، وللإشعار بأنَّ جملة الصِّلة – وهي كون رسول اللّه قد أُنزل عليه الذِّكر – معلومةُ الانتسابِ عند المتكلِّمين والمخاطَبين.

من قبحِ الكافرين وجهلِهم، جعلُهم نزولَ الذِّكر سببًا للتَّهكُّم

فائدة التّعبير بجملة: ﴿ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ﴾:

أفاد هذا التعبير أنَّ رسولَ اللّه أبلغَهم، وقال لهم: أُنزِل عليَّ الذِّكرُ من اللّه، ليُشعِرَ الكلامُ أنَّهم قد بُلِّغوا بالأمرِ، فلمّا قال لهم ذلك؛ عارضوه بهذا القولِ كالمستهزئين به ﷺ، ففيه توبيخٌ لِما استهزؤوا

أراد الكافرون الاستهزاء برسول الله، فصَرَفَ الله ألسنتهم عن الشَّتم

(1) الإسفراييني، الأطول شرح تلخيص المفتاح: 1/605.
(2) سيبويه، الكتاب: 2/230، والسّامرائيّ، معاني النّحو: 4/321.
(3) عبد الكريم الخطيب، التّفسير القرآني للقرآن: 7/217.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/16.

به، وإيذانٌ بأنَّهم قد بلِّغوا بالرِّسالة، وقد أرادوا الاِسْتِهْزاءَ بِوَصْفِهِ، فَأَنْطَقَهُمُ اللّه بِالحَقِّ فيهِ؛ صَرْفًا لِأَلْسِنَتِهِمْ عَنِ الشَّتْمِ[1].

بلاغة التَّهكُّم، على خلافِ مقتضى الظّاهر:

قولُ الحقِّ على جهة التَّهكُّم، مذمومٌ قبيحٌ

لمّا كان الوصفُ في قولهم: ﴿ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ﴾ مناقضًا لقولِهم: ﴿إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾؛ لأنَّهم كانوا كفرةً لا يُقِرّونَ بنزولِ شيءٍ على رسولِ اللّه ﷺ؛ أفاد أنَّهم قالوا هذا الوصف على معنى التَّهكُّم للتَّشهير بالوصف المنادى به؛ ليكون ما قالوه على جهة الاستهزاء والاستخفاف والتَّكذيب، لا تسليمًا لذلك واعتقادًا له، وإشعارًا بعلَّة حكمهم الباطل في قوله: ﴿إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾[2].

نكتة التَّعبير بصيغة ﴿نُزِّلَ﴾ في السّياق:

التّعجيب من إقرار الكافرين بنزول الذّكر، ووصف المبلّغ له بأنّه مجنون

أفاد التَّعبير بصيغة (فُعِّلَ) أنَّهم كانوا مقرّين بكثرةِ تنزيل الآياتِ على رسولِ اللّه ﷺ وتتابعها عليه، ففيه تعجيب من حالِهم ووصفِهم، كيف يُقِرّونَ بكثرة تنزيل آياتِ القرآن وتتابعه عليه، ويصفونه بالجنون؟

سرُّ إيثار التَّعبير بصيغة المبنيّ للمفعول ﴿نُزِّلَ﴾:

مكابرة الكافرين في الحقِّ، طريق للطَّعنِ في النّبوَّة والرّسالةِ

عبِّرَ بصيغة المبني للمفعول على وجه المكابرةِ من الكافرين، لإفادةِ أنَّهم منكرون أنْ يكونَ الذِّكرُ منزَّلًا من عندِ اللّه تعالى، وأنَّهم مكذِّبون بالتنزيل نفسه؛ لإيهام أنَّ ذلك ليس بفعل له فاعلٌ أو لتوجيه الإنكارِ إلى كون التنزيلِ عليه لا إلى استناده إلى الفاعل؛ ليكون وصْفُهم الذِّكرَ بأنَّه مُنَزَّلٌ؛ تقريرًا لاستهزائهم واستخفافِهم برسولِ اللّه ﷺ للطَّعنِ في نبوَّته ورسالتِه[3].

---

(1) الواحديّ، التّفسير البسيط: 20/121، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/16.

(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/571، والفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 19/121، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/66، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/16.

(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/19، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/67.

دلالة تقديم ﴿عَلَيْهِ﴾ على ﴿ٱلذِّكْرُ﴾:

لم ينزّل الذّكر يقينا إلّا عليه، باعتراف الكافرين أعداءه

قُدِّم الجارُّ والمجرور ﴿عَلَيْهِ﴾ على النّائب عن الفاعل ﴿ٱلذِّكْرُ﴾؛ لإفادة التَّخصيص، بمعنى: أنَّهم كانوا معترفين أنَّه لم يدَّعِ أحدٌ أنَّه أنزل الذِّكر عليه من اللّه تعالى سوى رسول اللّه ﷺ، والتَّقدير: يا أيُّها الذي لم يُنزَّل الذِّكر إلا عليه.

نكتة التَّعبير بلفظ ﴿ٱلذِّكْرُ﴾:

تَسْميَةُ القُرْآنِ ذِكْرًا، تَسْميَةٌ جامِعَةٌ عَجيبَةٌ

عبَّر بالوصف الأعمِّ - وهو الذِّكر - دونَ الأخصِّ وهو القرآنُ؛ لأنَّ في ذكر الأخصِّ تنبيهًا لِلمعجزات التي ورد بها القرآن، والكلام في سياق إنكارِهم لمعجزة القرآن وطعنهم بالنَّبيِّ، ولَمّا كان القرآنُ قد وُصف بالذِّكر؛ لأنَّه يُتلَى ويُكرَّرُ؛ أشعرَ التَّعبير به بأنَّه صارَ حديثَ القومِ وذكرَهم، فناسب إيرادُ هذا الوصفِ المقامَ. وتَسْميَةُ القُرْآنِ ذِكْرًا تَسْميَةٌ جامِعَةٌ عَجيبَةٌ لَمْ يَكُنْ لِلْعَرَبِ عِلْمٌ بِها مِنْ قَبْلِ أنْ تَرِدَ في القُرْآنِ[1].

مناسبة مجيء قوله: ﴿إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾:

عِلمُ المشركين بأنَّ نزول الذِّكر أمرٌ خارقٌ للعادةِ

أفاد الوصف بالجنونِ أنَّهم كانوا يعلمون أنَّ ما يقولُهُ رسولُ اللّه ﷺ من نزول الذِّكر عليه أمرٌ عظيم خارقٌ للعادةِ ومخالفٌ للواقِع، والمعنى: أنَّك لَتقولُ قولَ المجانين حين تدَّعي أنَّ اللّه تعالى نزَّلَ عليك الذِّكرَ، أي: القرآن، لِتَوَهُّمِهِمْ أنَّ ادِّعاءَ نُزولِ الوَحْيِ عَلَيْهِ لا يَصْدُرُ مِنْ عاقِلٍ، لمخالفتِه الواقِعَ؛ تَوَهُّمًا مِنْهُمْ بِأنَّ ما لا تَقْبَلُهُ عُقولُهُمُ الَّتي عَلَيْها غِشاوَةٌ لَيْسَ مِنْ شَأْنِهِ أنْ يَقْبَلَهُ العُقَلاءُ[2].

نكتة التَّعبير بتركيبِ ﴿إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾:

لَمّا كان هذا الكلام يُقال للعاقل؛ حين يفعل شيئًا مخالفًا للعُرفِ؛

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 3/4، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/17.

(2) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 19/121، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/207، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/17.

أو يقول قولًا مخالفًا لِما اعتاد النّاس عليه للإشعار بتحيُّره فيه ولاستبعادِ كلامِه، أفاد أنَّهم إنَّما قالوا هذا القولَ؛ لتحيُّرهم في أمرِ رسول الله ﷺ، ولعجزِهم عن التحدّي، ولاستبعاد نزول الذِّكر عليه، ولأنَّه دعاهم إلى غيرِ ما هم فيه، وخاطرَ بنفسِهِ وروحِه لأجل دعوتِه ﷺ، وهذا كما يقول الرجل لمن يسمع منه كلامًا يستبعده، أو يستبعد النزول إلى حكمِهِ: أنت مجنون[1].

عجز الكافرين عن تحدّي القرآن، أفضى بهم للاستهزاء والشَّتم

بلاغة الكناية، في جملة: ﴿إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾:

أفاد حكمُهم على رسولِ الله - بأنَّه مجنون - أنَّهم مكذِّبون لِما يقوله من نزول الذِّكر عليه من ربِّ العالمين؛ لأنَّ ما يصدر من المجنون من الكلام لا يكون جاريًا على مطابقة الواقع، فأكثره كذبٌ غيرُ مطابقٍ للواقعِ، فيكون مرادُهم من هذا القولِ ملزومَ التَّركيبِ ولازمَه.

بلاغة إرادة ملزوم الكلامِ ولازمه

بلاغة التَّعريض في اتّهامه بالجنون:

أفاد التعبيرُ الكاشف عن وصف الكافرين لرسولِ الله ﷺ بهذا الوصفِ التَّعريضَ بهم، بأنَّهم أولى بهذا الوصفِ بما وصفوه به؛ لكفرِهم وعدم الانتفاعِ من عقولِهم ولالتباس الحقائق عليهم، فهم كما في المثل: رَمَتْنِي بِدائِها وانْسَلَّتْ[2].

الكافر أحقُّ بالوصفِ بالجنونِ، لالتباس الحقائق عليهم واشتباهِها

فائدة تتابع التّأكيد في: ﴿إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾:

جاءت الجملةُ مؤكَّدةً بثلاثة تأكيدات: اسميَّتِها وبالأداتين: (إنَّ)، واللّام الداخلة على الخبر؛ ليكون على طريق الخبر الإنكاري؛ لعلمِهم بصدقِ رسول الله فيما يدَّعيه وفي حقيقة نزول القرآنِ عليه، وليقينِهم بأنَّ المخاطَب المخالِفَ لعملِهم منكِرٌ لقولِهم، أيْ: لعلمِهم بأنَّ خبرَهم منكَرٌ جاؤوا بثلاثة تأكيداتٍ، والمعنى: أنَّ جنونَك مُتَحَقِّقٌ

الكاذب يسعى لتأكيد كلامِه، ليصدِّقَهُ النّاس

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 19/121، والآلوسيّ، روح المعاني: 7/259.
(2) القشيريّ، لطائف الإشارات: 2/263.

على أتمِّ وجهٍ؛ بسبب ما تدَّعيه من نزول الذِّكر عليك[1]، أو يكون التأكيد لِقَصْدِهِمْ تَحْقيقَ ذَلِكَ لَهُ ﷺ؛ لَعَلَّهُ يَرْتَدِعُ عَنِ الِاسْتِمْرارِ فيهِ، أوْ لِقَصْدِهِمْ تَحْقيقَهُ لِلسّامِعينَ حاضِري مَجالِسِهِمْ، ولا مانعَ من الجمعِ بين هذه المعاني كلِّها[2].

سبب مجيء قولِهم: ﴿إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾:

ليس للمغلوبِ إلّا الشَّتمُ، وهو سلاح المهزومين

لَمّا أقاموا الشتم مقامَ الجواب عمّا أمرهم الله تعالى به من الإيمانِ بآياتِ الكتاب والقرآن؛ كان هذا دليلًا على عنادِهم؛ للإشعارِ بأنَّهم مغلوبون مقطوعون في المناظرة، فليس للمغلوبِ إلّا الشَّتمُ[3].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/19.
(2) ابن عاشور، التّحرير والّتنوير: 14/17.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 11/19.

﴿لَّوْمَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝٧﴾ [الحجر: 7]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

المناسبة بين اتّهامه بالجنون، وطلب الإتيان بالملائكة لتصديقه

لمّا قالوا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾؛ أتبعوه ما زعموا أنَّه دليل على قولِهم، وتقريرٌ لشبهتِهم؛ لأنَّ قصدَهم تكذيب الرسول ﷺ[1].

المَعْنى الإجْماليُّ:

الشَّكُّ في صِدق رسول الله، واتّهامه بالجنون، لونٌ مِن سوء الأدَب معه

قال المشركون لرسول الله ﷺ: هلّا أتيتَنا بالملائكةِ؛ ليَشهَدوا لك على ما تَقولُ؛ إن كنتَ من الصّادِقينَ في أنَّك رَسولٌ مِن عندِ اللهِ حقًّا[2].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغة التَّعبير بقوله ﴿لَّوْمَا﴾ في السّياق:

إفادة تركيب الآية معنى التَّمنّي، المتولِّد منه التَّنديم

قولِه: ﴿لَّوْمَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾، وفيه أنّه لَمّا تركَّبت (لو) مع (ما)؛ أفادت هنا معنى التَّحضيض المتولِّد منه معنى التَّنديم، بمعنى: أنَّ طلبَهم كان على سبيلِ تحضيض رسول الله على الإتيانِ بالملائكة متندِّمين على أنَّه لم يفعل هذا من قبلُ، وتقدير الكلام: هلّا تأتينا بالملائكة، والتَّعبير بـ ﴿لَّوْمَا﴾ مشربٌ بمعنى التَّمنّي[3].

مناسبة مجيء الطّلب بعد النِّداء:

عمل الكافرين على ترك الرَّسول ﷺ تذكيرَهم وإنذارَهم

قدَّم النِّداء على الطلب في قولهم: ﴿لَّوْمَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾؛ جريًا على مقتضى اللازم من تقديم التنبيه بالنِّداء

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 19/21، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 11/19، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/18.

(2) ابن جرير، جامع البيان: 14/15، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/527، والشّنقيطيّ، أضواء البيان: 2/254.

(3) السّكاكيّ، مفتاح العلوم، ص: 307.

أو بغيرِه قبل الطَّلب؛ ليتمكَّن الأمر الوارد عقيبه في نفس المنادى؛ حرصًا من الكفّار على تحقيقِ المعنى في نفسِ رسول الله ﷺ لعلَّه يترك التَّذكيرَ والنِّذارة.

فائدة التَّعبير بصيغة المضارع ﴿تَأْتِينَا﴾:

تجدُّد طلب الكافرين الإتيانَ بالملائكة، ليس إلّا معاندةٌ منهم

عُبِّرَ بصيغة المضارع؛ لأنَّ المرادَ من ﴿لَّوْمَا﴾ التَّحضيض، ولإفادة تجدُّد طلبِهم في أنْ يأتي الرَّسول ﷺ بالملائكة حالًا بعد حال ووقتًا إثر وقت، أيْ: إنْ لم يكن الآن؛ ففي وقتٍ آخرَ.

نكتة إيثار التَّعبير بلفظ ﴿تَأْتِينَا﴾:

الكافرون يطلبون المعجزات، مع أنَّ القرآن هو أعظم معجزةٍ

لَمّا كان الإتيان بالشَّيء بمعنى إحضاره من غيرِ المكان الذي هو فيه، ولا يكون إلّا فيما عَظُمَ شأنُه، ومنه قولُه تعالى: ﴿قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُاْ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾﴾ [النمل: 38]؛ كان طلبُهم الإتيانَ بالملائكة دون غيرِه، لعلمِهم بأنَّه أمرٌ عظيم، والمعنى: حُضورُهُمْ عِنْدَهُمْ ليخبروهم بِصِدْقِهِ في الرِّسالَةِ، فيكونوا شاهدين لك على صدق ما تقول.

دلالة التَّعبير بلفظ ﴿تَأْتِينَا﴾:

بيان جهل الكافرين، في طلبهم آية الإتيانِ بالملائكة

لَمّا كان لفظُ الإتيان يُقال لِما يكون المجيء فيه بسهولةٍ؛[1] عُبِّرَ به لزعمهم بسهولةِ أنْ يأتي رسولُ الله بالملائكة؛ إنْ كان من الصّادقين، ففيه إيذانٌ بجهلِهم؛ إذ أرجعوا أمر الإتيان بالملائكة إلى الرَّسول ﷺ، وليس إلى الله تعالى.

بلاغة مجيء الكلام على خلافِ مقتضى الظّاهر:

يقين الكافرين بأنَّ طلبهم الإتيان بالمعجزة، كان على سبيل التَّعنُّت والتَّكذيب

لَمّا جاء الطَّلبُ بأسلوب ﴿لَّوْمَا﴾ المتضمِّن معنى التَّمنّي - كما تقدَّم - أفادَ أنَّهم كانوا يعلمون أنَّ رسول الله لن يفعل هذا، وأنَّ طلبَهم ممتنَعُ الحصول، وأنْ لا طماعيَّة لهم بوقوعِه، فدلَّ على أنَّ

(1) الرّاغب، المفردات: (أتى).

طلبَهم على معنى التَّعنُّت والعنادِ والتكبُّر والتَّكذيب، كما حكى اللّه عنهم في الآية الأخرى ﴿أَوۡ تَأۡتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ٩٢﴾ [الإسراء: 92].

نكتة إيثار ذِكر الملائكة:

آثروا ذِكر الملائكة لعنادِهم وشدَّة تكذيبِهم، والمعنى: هلّا تأتينا بالملائكة؛ لكي يشهدوا بصحَّة نبوَّتِك وبِصدقِك، ويعضدوك على إنذارِك، كقوله تعالى: ﴿لَوۡلَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مَلَكٞ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ٧﴾ [الفرقان: 7]، أو لكي يعاقبونا على تكذيبِنا لك، كما كانت تأتي الأممَ المكذِّبةَ برسلِها[1].

طلب الإتيان بالملائكة، غرضُهُ التَّصديقُ أو العقابُ

سرُّ إيثار التَّعبير بأداة الشَّرط ﴿إِن﴾:

عُبِّرَ بأداة الشَّرط ﴿إِن﴾ للإيذانِ بأنَّهم شاكّون في صدقِ رسول اللّه ﷺ في نزول القرآن عليه، أو يقال: لمّا كانوا على علمٍ بصدقِ رسولِ اللّه ﷺ؛ عُبِّرَ بالأداة ﴿إِن﴾ المفيدة للشَّكِّ والخلوِّ عن الجزم في مقام الجزمِ؛ ليكون الكلامُ على خلافِ مقتضى الظّاهر على معنى تجاهلِ الكافرين لصدقِ رسولِ اللّه فيما يقولُه أو لتشكيكِه في صدقِه ﷺ.

تجاهلُ الكافرين لصدقِ الرّسولِ الأكرم، لتشكيكِه في صدقِه

بلاغة التَّعبير: ﴿مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾:

التَّعبير بـ ﴿مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ أبلغُ في الاتِّصافِ بالصِّدقِ من (إنْ كنت صادقًا)؛ لأنَّ فيه تكريرًا لصدقِه، فإنَّه لا يدخل في مجموع الصّادقين إلّا إنْ كان صادقًا، فالوصف على نيَّة التّكرار، ومعنى الكلامِ: إنْ كنت مِنَ النّاسِ الَّذينَ صِفَتُهُمُ الصِّدْقُ[2].

ورود الوصف على نيَّة التّكرار، من بليغ التّعبير

سرّ حذف متعلِّق الاسم المشتقّ ﴿ٱلصَّٰدِقِينَ﴾:

لمّا كان اسم الفاعل يقوم مقام الفعل في التَّعلُّق؛ دلَّ على أنَّ مُتعلِّقَهُ حُذِفَ لقصدِ العموم، بمعنى: إنْ كنت من الصّادقين، في

حذفُ المتعلِّق لإفادة عمومِ صدق ما قالَه رسول الله ﷺ

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/571، والفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 19/122، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/67.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/18.

أنَّ اللّٰه بعثك إلينا، وأنزل عليك القرآن، وفي أنَّ الملائكة يأتون إليك بالوحي، وفي أنَّها تأتي بالعقاب لتكذيبِنا، كما كانت تأتي الأممَ المكذِّبةَ لرسلِها، وفي جميعِ ما تخبرنا به، وغير هذا ممّا أتى به رسول اللّٰه ﷺ، فالحذف يفيد العموم، ويدخل فيه الإخبار بالنُّبوَّة، وأنَّه تعالى أوحى إليه القرآن عن طريق المَلَكِ دخولًا أوَّليًّا[1].

دلالة سوء طلبهم، بالتّحدّي لإبطال الحقّ:

قبحُ الطَّلبِ من سوء الأدبِ

في قولِه: ﴿لَّوۡمَا تَأۡتِينَا بِٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾، لمّا اقترح الكفّار على رسولِ اللّٰه ﷺ الإتيانَ بالملائكة بعد ما أُزيحت العلة عليهم بما أيَّده به من معجزاتِه؛ توجَّب اللَّوم عليهم وتوبيخهم لسوء أدبهم في طلبِهم[2]، مؤذنًا بأنَّ طلبَهم على سبيلِ التعنُّت والمكابرةِ والتَّهكُّم؛ محاولةً منهم لإظهارِ اليقين والجزم الثّابت على كون الرَّسول باطلًا في دعواه[3].

(1) ابن جرير، جامع البيان: 17/66، والبغويّ، معالم التّنزيل: 3/51، والزّمخشريّ، الكشّاف: 2/571.
(2) القشيريّ، لطائف الإشارات: 2/264.
(3) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 11/122.

﴿مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَا كَانُوٓاْ إِذًا مُّنظَرِينَ ۝٨﴾ [الحجر: 8]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

لَمّا ذكروا شبهتهم، وطلبوا دليلًا على صدق الرَّسول ﷺ؛ أشار في هذه الآية إلى ردِّ شبهتهم وجواب مقالتهم ومقترحهم الباطل، فجاءت هذه الآية[1].

ردُّ الشُّبَهِ، وجوابُ مقالاتِ أهلِ الضَّلالِ لإبطالها، منهج قرآنيّ أصيل

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مُّنظَرِينَ﴾: أصلُ النَّظرِ: تَأمُّلُ الشَّيْءِ ومُعايَنَتُهُ، ثُمَّ يُسْتعارُ، ويُتَّسَعُ فيهِ، والنَّظَرُ: تَقْليبُ البَصَرِ والبصيرةِ لإدراكِ الشَّيءِ ورؤيَتِهِ، وسُمّيَ الإمْهالُ إنْظارًا؛ لأنَّهُ يَنْظُرُ إلى الوَقْتِ الَّذي يَأْتي فيهِ[2]، وضِدُّهُ: التَّعْجيلُ، ويأتي الإنْظارُ بِمَعْنَى: التَّأْخيرِ والتَّأْجيلِ؛ لقوله: ﴿أَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ۝١٤﴾ [الأعراف: 14]، وقوله: ﴿وَمَا كَانُواْ مُنظَرِينَ ۝٢٩﴾ [الدخان: 29][3]، والمقصود بالإنظار في الآية: التَّأْخيرُ والتَّأْجيلُ.

المَعْنى الإجْماليُّ:

ردَّ اللّه تعالى على المشركين: إنَّنا لا نُنَزِّلُ الملائكة إلّا تنزيلًا بالوجه الذي تقتضيه الحكمة، وتجري به سنَّتُنا، كأنْ نُنزِّلهم لإهلاك الظّالمين، أو لتبليغ وَحْيِنا إلى رُسلنا، لا على حسَبِ اقتراحِ الكُفّارِ، ولو نزَّلنا الملائِكةَ على الكُفّارِ - كما اقتَرَحوا - فرَأوا الملائِكةَ عيانًا، ولم يُؤمِنوا؛ فلن يُمهِلَهم اللّهُ، وسيُعَذِّبُهم في الحالِ[4].

إنزالُ الملائِكةِ لا يكون إلّا بالحَقِّ، وعندها لا منجى من العذاب

(1) الفخر الرازيّ، مفاتيح الغيب: 19/122، والقاسميّ، محاسن التأويل: 6/330.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نظر).
(3) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحفّاظ: (نظر)، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/19.
(4) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 10/4، والشّوكانيّ، فتح القدير: 3/147، ونخبة من أساتذة التّفسير، التّفسير الميسر، ص: 262.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

سببُ إيثار تقديم هذه الآية على الّتي بعدها:

الـــــرَّدُّ عـلى الـشُّـبـهـات من أهمِّ الأولوياتِ

لَمّا قال المشركون: ﴿وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ إِنَّكَ لَمَجۡنُونٞ ۝٦ لَّوۡمَا تَأۡتِينَا بِٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾؛ كان الظّاهر أنْ يكون الرَّدُّ أوَّلًا على تكذيبِهم بالتَّنزيل، ثم الرَّد عليهم في طلبِ الإتيانِ بالملائكة، فكان الظّاهر أنْ تتقدَّم الآية: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ على قوله: ﴿مَا نُنَزِّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَمَا كَانُوٓاْ إِذٗا مُّنظَرِينَ﴾، ولكن لشدَّة استدعاءِ طلبهم الإتيان بالملائكة للجواب قُدِّمَ ردُّه على ما هو جوابٌ عن التَّكذيب، وليكونَ أحدُ الجوابين متَّصِلًا بالسؤال، ولو عكسَ؛ لزِم انفصالُ كلٍّ من الجوابين عن سؤاله[1]، كما أنَّ تأخير قوله: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ هو الأوفق على جهة التَّذييل لكونِ الآية مسوقةً على معنى العمومِ والكلّيَّة.

بلاغة التَّعبير في تأكيد أنّ مصدر التّنزّل هو الله وحده:

المتكفِّل بأمرِ هذا الدّين هو الله تعالى، ولذلك فهو محفوظ دوما

في قولِه: ﴿مَا نُنَزِّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ﴾، لَمّا كان كلام المشركين على طريق الخطاب لرسول الله ﷺ، وكان الظّاهر أنْ يكون الرَّد من المخاطَب، بأنْ يقال له: (قل) أو ما في هذا المعنى؛ كان مجيء الرَّد من الله تعالى قطعًا لشبهتِهم، وتقريرًا بأنَّ الذي يقوله لكم رسولنا هو من عندنا وبإذننا، وإشعارًا بأنَّ المتكفِّل بالأمر هو الله تعالى.

بلاغة الجوابِ في سياق الآية البليغ:

نِعَمُ اللهِ على الإنسانِ لا تنقطع على الدّوام

قولِه: ﴿مَا نُنَزِّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ﴾ وفيه جاء الجوابُ على مقترح الكافرين بالإتيان بالملائكة مَشوبًا بِطَرَفٍ مِنَ الأُسْلوبِ الحَكيم؛ للإشعارِ بتعليمهم الفرقَ بينَ آياتِ الرُّسُلِ وبَيْنَ آياتِ العَذابِ، فَأرادَ اللهُ ألّا يَدَّخِرَهُمْ هَدْيًا، وإلّا فَهُمْ أحْرياءُ بألّا يُجابوا[2].

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/67.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/18.

سبب إيثار التَّعبير بصيغة المبني للفاعل ﴿نُنَزِّلُ﴾:

لَمّا قالوا عَلَى سَبيلِ الاسْتِهْزاءِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ﴾، بصيغة المبني للمفعول تكذيبًا واستهزاءً، رَدَّ عَلَيْهِمْ بِأَنَّهُ هوَ المُنَزِّلُ عَلَيْهِ، فَلَيْسَ التَّنزيل مِنْ قِبَلِهِ ولا قِبَلِ أحَدٍ، بَلْ هوَ اللّه تَعالَى الَّذي بَعَثَ بِهِ جِبْريلَ عليه السلام إلَى رَسولِهِ ﷺ[1].

ليس التَّنزيل من قِبَلِ رسول الله ولا من قِبَلِ أحدٍ، بل من الله تعالى وحده

براعة العدولِ في الجواب في قولِه تعالى: ﴿مَا نُنَزِّلُ﴾:

لَمّا حكى اللّه عن المشركين قولَهم: ﴿لَّوْمَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾؛ كان ظاهر الرَّدِّ بصدد مقترحهم أنْ يقال: (ما تأتيهم بهم إلّا بالحقِّ)، فعدلَ عن تطبيق ظاهر الرَّدِّ؛ ليكونَ مشوبًا بطرفٍ من الأسلوب الحكيم كما تقدَّم؛ للإيذان بأنَّهم قد أخطؤوا في التعبير، كما أخطؤوا في الاقتراح، وأنَّ الملائكةَ لعلوِّ رتبتهم أعلى من أنْ يُنسَبَ إليهم مطلقُ الإتيان الشاملِ للانتقال من أحد الأمكنة المتساوية إلى الآخر منها، بل من الأعلى إلى الأسفل، وأنْ يكون مقصدُ حركاتهم أولئك الكفرةَ، وأنْ يدخلوا تحت ملكوتِ أحدٍ من البشر، وإنَّما الّذي يليق بشأنهم النّزولُ من مقامهم العالي، وكونُ ذلك بطريق التّنزيل من جناب الرّبّ الجليل[2].

نزولُ الملائكة من مقامهم، بطريق التّنزيل، من جناب الرَّبِّ الجليل

سرُّ التَّعبير بنونِ العظمة، في قولِه: ﴿نُنَزِّلُ﴾:

عُبِّرَ بنونِ التَّعظيم للإيذانِ بأنَّ تنزيل الملائكة شأنٌ عظيم، وأنَّه لا يكون إلّا من عندِ اللّه الملك الواحدِ الأحدِ وعن أمرِه سبحانه؛ وأنَّه لَيْسَ لَهُمُ اخْتيارٌ في النُّزول، ولهذا قَصَرَ تنزيلهم على أنْ يكونَ تنزيلًا بالحقِّ، ففيه توبيخٌ لهم على تكذيبِهم واستخفافِهم.

الملائكة ليس لهم اختيار في النُّزول، فنزولهم بأمرِ الله تعالى

توجيه القراءات القرآنيّة، في قوله ﴿نُنَزِّلُ﴾:

قَرَأ حفصٌ وحَمْزَةُ والكِسائيُّ وخَلَفٌ ﴿نُنَزِّلُ﴾ بِنونَيْنِ الأولَى

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/468.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/67.

تنوُّع القراءات القرآنيّة، فيه سَعَةٌ في المعنى

مَضْمومَةٌ، والثّانيَةُ مَفْتوحَةٌ، وكَسْرِ الزّاي، و﴿ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ﴾ بالنَّصْبِ، ورَوَى أبو بَكْرٍ عن عاصمٍ بالتّاءِ مَضْمومَةً وفَتْحِ النّونِ والزّاي، أي: (ما تُنَزَّلُ) مبنيًّا للمفعولِ، و(المَلائِكَةُ) بالرَّفْعِ نائبًا عن الفاعل، وقَرَأ الباقونَ (ما تَنَزَّلُ) بفتحِ التّاء[1]، فأمّا قراءة ﴿نُنَزِّلُ﴾؛ فقد تقدَّم توجيهها، وأمّا قراءة أبي بكرٍ عن عاصم (ما تُنَزَّلُ)؛ فيكون إبهامُ الفاعل لِتعظيم شأنِه، وأمّا قراءة (ما تَنَزَّلُ)؛ فحذفت إحدى التاءين استثقالًا للجمع بينهما، ففيها تخفيفٌ صوتيٌّ، وتوجيهها أنَّ (تتنزَّل) من (تنزَّل)، وهو إمّا بمعنى المطاوعة، أيْ: نزَّلها اللّه، فتنزَّلت، للإشعار بأنَّها لا تتنزَّل إلّا بأمر اللّه، وأنَّ نزولَها هو امتثالٌ لأمر اللّه لها بالنُّزول، لا من قِبَلِ نفسها، وإمّا بمعنى تكلُّف النُّزول؛ لأنَّه لَمّا كان نزول الملائكة من السماء إلى الأرضِ قليلًا ونادرًا؛ صارَ نزولُهم في حكم المتكلَّف[2].

فائدة الباء في قولِه: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾:

الحقُّ لا يفارق الملائكة في جميعِ شؤونِهم

الباء هنا للملابسة، والمعنى: ما نُنَزِّل الملائكة إلّا تنزيلًا ملتبسًا بالحقِّ، بمعنى عدم مفارقة الحقِّ لهم في جميعِ شؤونهم حين تدلّيهم من علوٍّ إلى سُفلٍ.

دلالة المستثنى، في قولِ تعالى: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾:

حذْفُ المصدر، وإقامة الصِّفة مقامه للمبالغة

لَمّا كان التَّقدير: ما ننزِّل الملائكة إلّا تنزيلًا بالحقِّ؛ كان الجارُّ والمجرور صفة للمصدر المحذوف على معنى بيان نوعِ المصدرِ[3]، فحُذِفَ المصدر، وأقيمت الصفة مقامَه على وجهِ المبالغة، بأنْ جُعِلَ عينُ التَّنزيل ملتبسًا بالحقِّ، وتنزيلُ الملائكة ملتبسًا بالحقِّ كذلك.

(1) ابن مجاهد، السّبعة في القراءات، ص: 366، والأزهريّ، معاني القراءات: 2/68، وابن الجزريّ، النّشر في القراءات العشر: 2/301.

(2) الرّضيّ الاستراباديّ، شرح شافية ابن الحاجب: 1/104، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/140.

(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/260.

دلالة الاستثناء المفرّغ، وأثره في المعنى:

لصوقُ الحقِّ بالملائكة، في جميع تنزُّلاتهم

في قولِه تعالى: ﴿مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾، لمّا كان الاستثناء مفرَّغًا من أعمِّ الأحوالِ؛ أفاد نفي عمومِ الأحوالِ الذي يلزم منه نفيُ عمومِ الأزمنة والأمكنة، والمعنى: نفيُ تنزيل الله تعالى للملائكة في جميعِ الأحوالِ إلّا في حالة كونه تنزيلًا بالحقِّ.

بلاغة الحصر في سياق الآية الكريمة:

تنزيل الله للملائكة لا يكون إلّا بالحقِّ، ولا يتجاوزه إلى الباطل

في قوله: ﴿مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾، لمّا كان الحصر بطريق (ما وإلّا) يُسلَكُ مع مخاطَبٍ مرتكبٍ للخطأِ مع إصرارٍ؛[1] أفاد الحصرُ هنا ردَّ المشركين عن خطأِ اعتقادِهم في جوازِ طلبِهم الإتيان بالملائكة، وكأنَّهم لمّا طلبوا الإتيان بالملائكة كانوا مصرّين على جواز الطَّلب وتكرُّرِه منهم، ومعنى الحَصْرِ في الآية: قَصْرُ تنزيل الله تعالى للملائكة على كونِه تنزيلًا بالحقِّ لا يتجاوزه إلى الباطل، ففيه إشعارٌ بأنَّ ما اقترحوه من الإتيان بالملائكة ليس من الحقِّ بل هو من الباطل، وهو من قصرِ الإفرادِ؛ لأنَّ المشركين كانوا يعلمون أنَّ الملائكة تَنْزِلُ بالعذاب، كما هو حاصلٌ في الأمم الماضية.

دلالة لفظ ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ في السّياق:

تنزيل الملائكة يكون لحكمةٍ وفائدةٍ، أو للعذابِ الحاقِّ عليهم

يَحْتَمِلُ أنْ يكون المرادُ من لفظِ ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ الوجه الذي قدَّره الله تعالى، واقتضته حكمته، أي: ما ننزِّل الملائكةَ إلّا بالحكمةِ والفائدة، ولا حكمة في أن تأتيكم بصور تشاهدونها، فإنَّه لا يزيدكم إلّا لَبسًا، وإلّا في معاجلتكم بالعقوبة، فإنَّ منكم ومن ذراريكم من سبقت كلمتنا له بالإيمان، فَيَصيرُ إنْزالُهُمْ عبثًا باطِلًا، ولا يَكونُ حَقًّا، ويحتمل أن يكون المرادُ من الحقِّ العذاب، أيْ: ما ننزِّل الملائكة إلّا بالعذاب الحاقِّ بكم، فتكون الباء للمصاحبة، والحقُّ بمعنى الشَّيء الحاقِّ، أيْ: ما ننزِّل الملائكة إلّا مُصاحِبينَ لِلْعَذابِ الحاقِّ عَلَى

(1) السّكاكيّ، مفتاح العلوم، ص: 295.

النّاسِ، وهوَ عَذابُ الاسْتِئْصالِ، وحُكْمُنا في أُمَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ ألّا نَفْعَلَ بِهِمْ ذَلِكَ، وأنْ نُنظِرَهم لِما عَلِمْنا مِنْ إيمانِ بَعْضِهِمْ، ومِنْ إيمانِ أوْلادِ الباقِينَ[1].

براعة التَّعبير بحرف الجزاء ﴿إِذًا﴾ في السّياق:

اختيار الجواب الأنسب، من بلاغة التّعبير

لَمّا كان ﴿إِذًا﴾ حرفَ جوابٍ وجزاء؛ دلَّ على وجودِ شرطٍ مقدَّرٍ، وتقدير الكلام: ولو نَزَّلْنا الملائكةَ؛ إذًا ما كانوا مُنْظَرِينَ[2]، فأفاد لفظُ ﴿إِذًا﴾ الجوابَ عن قولِهم: ﴿لَّوْمَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾، والمجازاة على طلبِهم.

براعة ترتيب الجملتين في سياق التنزّل وعدم الإنظار:

براعة نظم القرآن، في ترتيب الجمل في هذا المضمار

في قولِه تعالى: ﴿مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَا كَانُوٓاْ إِذًا مُّنظَرِينَ﴾، جاءت ﴿إِذًا﴾ متقدّمة في الرتبة؛ لأنَّها الجواب المقصود لِطلبِهم ﴿لَّوْمَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾، فتكون جملة ﴿مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ مقدَّمةً من تأخيرٍ؛ لأنَّها تعليل للجوابِ، فقدِّمت؛ لأنَّها أوقعُ في الرَّدِّ، وأوجز[3]، كما أنَّها في مقامِ الحكمِ الكلّي الذي يشمل تعليل الجوابِ المذكور وغيره، وليصحَّ عطف جملة ﴿وَمَا كَانُوٓاْ إِذًا مُّنظَرِينَ﴾ عليها.

سرّ العطف في سياق الآية الكريمة:

معنى سببيَّة الجملة المعطوف عليها للجملة المعطوفة، وأثره في المعنى

قولِه: ﴿وَمَا كَانُوٓاْ إِذًا مُّنظَرِينَ﴾، تضمَّن جوابُ طلبِهم تعليلَين: أحدهما: كلّيٌّ هو الجملة الأولى، والآخر يخصُّهم، وهو المذكور، في قولِه: ﴿وَمَا كَانُوٓاْ إِذًا مُّنظَرِينَ﴾، فتضمَّن التَّعبير الرَّدَ على شبهة الكافرين بالإخبار عن أنَّ تنزيل الملائكة من شأنِ اللّه، ولا ينزِّلهم اللّه إلّا بالحقِّ، كما تضمَّن إقامة الحجَّة بطريق التنزُّل على قولِهم

(1) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنة: 6/423، والفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 19/122، والبيضاويّ، أنوار التنزيل: 3/207، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/68، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/19.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/68، ومجير الدّين العليميّ، فتح الرّحمن: 3/542، والشّوكاني، فتح القدير: 3/147.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/19.

ومقترحِهم، وأفاد العطف أنَّ الجملة الأولى تفيد بمضمونِها أنَّها سببٌ للجملة الثّانية، ولهذا تضمَّنت حرفَ الجزاء ﴿إِذًا﴾، والمعنى: لو فرض افْتُرِضَ، ونزَّلنا الملائكة؛ فما كانوا إذًا مُنْظَرِينَ، أيْ: فما يتأخَّر عنهم العذاب عندَ معاينة الملائكة، وما كانوا مُنْظَرِينَ، فأفاد الكلامُ الرَّدَ عليهم وجوابهم مع ذكر المجازاة على طلبِهم، وفيه تهديدٌ ووعيدٌ لهم على مقولتِهم.

سبب توسُّط حرف الجوابِ ﴿إِذًا﴾ في الآية:

الجمعُ في المعنى بين نفي الاستئصال والتَّهديد، من روائع النَّظم القرآنيّ

في قولِه: ﴿وَمَا كَانُوٓاْ إِذًا مُّنظَرِينَ﴾، لمّا كان الأصل في حرف الجواب أنْ يكون مصدَّرًا في جملة الجوابِ؛ أفاد توسُّطها بين اسم كان وخبرها تمامَ المناسبة في الوصل بالواو، بنسق الجملة المنفية على الجملة المنفية لوجود الجهة الجامعة بينهما؛ لأنَّ تقدير الكلام: ما نُنَزِّلُ الملائكةَ إلّا بالحقِّ، ولو نزَّلنا الملائكةَ؛ ما كانوا إذًا مُنْظَرِينَ، كما أنَّ توسُّطَ حرف الجوابِ يجعلُ الحرفَ ألصقَ بالإنظار، فيفهم منه نفي استئصالهم، كما تقدَّم، وللإشعار بأنَّ نفي الإنظار هو الغالب بسبب تقدُّم الكون المنفي[1]، فالكلامُ مُعْتَمِدٌ على نفي كونِهم مُنْظَرِينَ؛ تهديدًا لهم وتخويفًا؛ ولتهويل شأنِ الطَّلب الذي طلبوه، فتكون الجملة بتوسُّط حرف الجواب قد جمعت بين ما هو كالشّيءِ وضدِّه، أيْ: الإشعارَ بنفي الاستئصالِ والتَّهديد بسبب تقدُّم النَّفي.

دلالة الإخبار عن الشَّرط المقدَّر وجزائه:

الاحتجاج على الكافرين، بإنتاج مقدِّماتهم لنقيض مطلوبِهم

في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانُوٓاْ إِذًا مُّنظَرِينَ﴾، لمّا طلب المشركون الإتيان بالملائكة ليؤمنوا على زعمهم؛ لأنَّهم وإنْ طَلَبوا ذَلِكَ بِقَصْدِ التَّهَكُّم، فَهُمْ مَعَ ذَلِكَ مُعْتَقِدونَ أنَّ نُزولَ المَلائِكَةِ هوَ آيَةُ صِدْقِ الرَّسولِ فيه، فلمّا طلبَ المشركون ذلك؛ كان الإخبار عن الشَّرط المقدَّر وجزائه

(1) سيبويه، الكتاب: 3/15.

إيذانًا بإنتاج مقدِّماتهم لنقيض مطلوبِهم، فطلبوا الإتيانَ بالملائكة، وجاءهم الرَّدُّ بالتَّصريح بالضَّرر إنْ وقع ما يؤمِّلون[1].

بلاغة الكناية في قولِه تعالى: ﴿مُّنظَرِينَ﴾:

لَمّا كان ﴿إِذًا﴾ حرفَ جوابٍ لِما يُسْتَقْبَلُ من الزمان، وتعلَّق به لفظ ﴿مُّنظَرِينَ﴾؛ فُهِمَ مِنْ هَذا على سبيل الكناية أنَّ اللّه مُنْظِرُهُمْ، وأنَّه لَن يستأصِلَهم؛ لأنَّهُ أرادَ أنْ يَكونَ نَشْرُ الدّينِ بِواسِطَتِهِمْ، فَأَمْهَلَهُمْ حَتَّى اهْتَدَوْا، ولَكِنَّهُ أَهْلَكَ كُبَراءَهُمْ ومُدَبِّريهِمْ[2].

إمهالُ الكافرين نِعْمَةٌ لمن يؤمن منهم

نكتة التَّعبير بلفظ ﴿مُّنظَرِينَ﴾:

لَمّا كان الإنظار بمعنى التَّأخير، وهو هنا على جهة التَّأمُّل والتفحُّص للمنظَر؛ أشْعَرَ التَّعبير بقوله: ﴿مُّنظَرِينَ﴾ تَمْكِينَهُمْ من النَّظر والتَّأمل ومعاينة أقوالِهم وأعمالِهم؛ ليعرفوا سوءَها[3]، ففيه حثٌّ على التَّأمُّل في أقوالِهم وأعمالِهم القبيحة، فإنَّها موجِبَةٌ للإهلاكِ ولعذابِ الاستئصال.

حثُّ الكافرين على التَّأمُّل في أقوالِهم وأعمالِهم، لعلَّهم يؤمنون

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

(الإنظار) و(الإمهال):

الإنظارُ مَقْرونٌ بمُدَّةٍ معلومةٍ، بحيث يَقع فيهِ النَّظرُ، والإمهالُ يقع بمدَّةٍ مبهمةٍ، وذهب بعضُ اللُّغويين إلى أنَّ الإنظارَ عند اللّه تعالى، هو تَأْخير العَبْد؛ لينْظر في أمره، ويتأمَّله، ويعاينه، والإمهالُ تَأْخيره؛ لِيُسَهِّلَ ما يتكلَّفُه من علمه[4].

الإنظار مقرون بمدّة محدّدة، والإمهالَ بمدّة غير محدّدة

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 14/18، والآلوسيّ، روح المعاني: 7/261.
(2) ابن عاشور، التحّرير والتنوير: 14/19.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (نظر)، والكفويّ، الكليّات، ص: 906.
(4) العسكري، الفروق اللغّويّة، ص: 202.

﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ٩﴾ [الحجر: 9]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

العلاقة بين نزول الملائكة، وكون القرآن منزَّلًا من عندِ الله الّذي هو بحفظِه

لَمّا أجاب اللّه تعالى عن مقترح الكافرين في الإتيان بالملائكة، فقال: ﴿مَا نُنَزِّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَمَا كَانُوٓاْ إِذٗا مُّنظَرِينَ﴾؛ أجاب عن الشُّبهة الأولى في قولِهم: ﴿وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِي نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ إِنَّكَ لَمَجۡنُونٞ﴾، فقال: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾، وجاءَ نَشْرُ الجَوابَيْنِ عَلَى عَكْسِ لَفِّ المَقالَيْنِ اهْتِمامًا بِالابْتِداءِ بِرَدِّ المَقالِ الثّاني بِما فيهِ مِنَ الشُّبْهَةِ بِالتَّعْجيزِ والإفْحامِ، ثُمَّ ثُنِّيَ العَنانُ إلَى رَدِّ تَعْريضِهِمْ بِالِاسْتِهْزاءِ وسُؤالِ رُؤْيَةِ المَلائِكَةِ[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿لَحَٰفِظُونَ﴾: أصلُ (حفظ): يَدُلُّ على مُراعاةِ الشَّيْءِ[2]، ويَأْتي الحِفْظُ بِمَعْنى: الرعايةِ والعنايةِ، وضِدُّهُ التَّضْييعُ والتَّفْريطُ، تَقولُ: حَفِظَ المالَ حِفظًا؛ إذا رَعاهُ، ومَنعَهُ مِنَ الضَّياعِ، والحِفْظُ أيْضًا: التَّعاهُدُ، وضِدُّهُ النِّسْيانُ، يُقالُ: حَفِظَ الكلامَ، أيْ: تَعاهَدَهُ، ولَمْ يَنْسَهُ[3]. والحافِظُ والحَفيظُ الموكَّل بِالشَّيْءِ ليحفظَه، يُقالُ: فلان يَحفظُنا علَيكُم وحافِظُنا[4]. والمراد بـ ﴿لَحَٰفِظُونَ﴾ في الآية، صونُ الذِّكر عن الضَّياع والتَّحريف والزِّيادة والنَّقص[5].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/20، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/20.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حفظ).
(3) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن عبّاد، المحيط في اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (حفظ).
(4) ابن منظور، لسان العرب: (حفظ).
(5) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/207.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

الذّكر الَّذي بَعَثَ اللهُ به نبيَّه ﷺ، محفوظ ومحروسٌ على الدّوام

بيَّن الحقُّ ﷻ أنَّه قد تكفَّل بحفظِ هذا القُرآن الَّذي سَبَق للكافرين أنِ استهزؤوا به، وبمن نَزَلَ عليه، فقال: إنّا نحنُ نزَّلْنا القرآنَ الَّذي فيه الذِّكرَى والموعِظةُ والشَّرَفُ، وإنّا له لحافِظونَ في حالِ إنزالِه مِن استِراقِ كلِّ شَيطانٍ رَجيم، وبعدَ إنزالِه بحِفظِ ألفاظِه ومعانيه مِنَ الزّيادةِ والنَّقصِ والتَّحريفِ، ولحافظون له بالإعجاز، فلا يَقْدِرُ أحدٌ على معارضته أو على الإتيان بسورة من مثله، ولحافظون له بقيام طائفةٍ من أبناء هذه الأمَّة الإسلامية باستظهاره وحفظه والذَّبِّ عنه، إلى أنْ يرث اللّه الأرض ومَن عليها[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بديع القولِ بالموجِبِ، في سياق الآية:

الرَّدُّ على شبهةِ الكافرين من كلامِهم، أسلوب قرآنيّ بليغ

لَمّا أخبر اللّه عن الكافرين قولَهم: ﴿وَقَالُواْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾؛ جاء قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ﴾ على طريقِ القَوْلِ بالموجِبِ بتَقْريرِ إنْزالِ الذِّكْرِ عَلَى الرَّسولِ ﷺ مُجاراةً لِظاهِرِ كَلامِهِمْ، والمَقْصودُ الرَّدُّ عَلَيْهِمْ في اسْتِهْزائِهِمْ[2].

براعة التَّعبير، في سياق حفظ الله للقرآن:

حفظُ القرآن من كيدِ الأعداء، ارتقاء به وتعظيمٌ لشأنِه

في سَبْكِ الجملتين من الدّلالةِ عَلى كمالِ الكبرياءِ والجلالة وعلى فخامة شأنِ التنزيل مالا يخفى؛ إذ بدأت الآية بالتأكيد على تعظيم شأنِ المنزِّل والمنزَّل، ثُمَّ زادَ ذَلِكَ ارْتِقاءً في بيانِ شأنِ الذِّكرِ ونِكايَةً لَهُمْ بِأنَّ مُنْزِلَ الذِّكر هوَ حافِظُهُ مِنْ كَيْدِ الأعْداءِ[3].

---

(1) ابن جرير، جامع البيان: 17/68، والبيضاويّ، أنوار التنّزيل: 3/207، ونخبة من أساتذة التّفسير، التّفسير الميسر، ص: 262، والشّنقيطيّ، أضواء البيان: 2/255.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/20.

(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/69، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/20.

فائدة التَّعبير بضميَري الجمع ﴿إِنَّا نَحْنُ﴾ معًا:

تعظيمُ المنزَّل يدلُّ على تعظيم المنزِّل

أفاد الضّميران (نا) الّذي هو اسم (إنَّ)، و﴿نَحْنُ﴾: التَّعظيمَ، أيْ: نحن بعِظَم شأنِنا وعلوِّ جنابنا نزَّلنا ذلك الذِّكرَ الّذي أنكروه، وأنكروا نزولَه عليك، ونسبوك بذلك إلى الجنون، وتعظيم المنزِّل، يدلُّ على تعظيم المنزَّل[1].

دلالة صيغة فعَّل، في قولِه: ﴿نَزَّلْنَا﴾:

مجيءُ صيغةِ فعَّل للمبالغة، في نزول القرآن وتعظيم شأنِه

أفادت صيغة (فعَّل) تكثيرَ التَّنزيل؛ للإشعار بالمبالغة في نزولِه وتعظيم شأنِه، ولمّا كان السياق في بيان حفظه من الطَّعن وغيرِه، وهذا لا يكون إلّا في الأرض، وليس حينما نزل من السَّماء دفعةً واحدةً؛ ناسب أنْ يأتي بصيغة فعَّل التي تدلُّ على نزولِه على رسول الله ﷺ في الأرضِ تدريجًا ومفرَّقًا.

نكتة اختيار لفظ ﴿ٱلذِّكْرَ﴾ في الآية:

القرآن سيبقى مذكورًا على ألسنة المؤمنين، إلى يومِ الدّين

لم يَقُلْ: (نزَّلنا القرآن) مع أنَّ القرآن أخصُّ في العَلَميَّةِ على المنزَّل من عندِ الله من لفظ الذِّكر عندَ الإطلاقِ؛ لأنَّه جاء على طريق القول بالموجِبِ كما تقدَّم، وللإشعار بأنَّه مَذْكورٌ عندَ الله وعندَ الملأ، ولمّا بيَّن أنَّه تعالى حافظٌ له، وأنَّ حِفْظَه أمرٌ ثابتٌ دلَّ على أنَّهُ سيبقى مذكورًا، ويلزمُ منه دوامُ كونه مقروءًا مادام الله حافظًا له، فهو مقروءٌ على ألسنة الخلق إلى يوم القيامة[2]، وفيه إشارةٌ إلى ما هو واقع ثابتٌ في المستقبل.

فائدة مجيء المسند ﴿نَزَّلْنَا﴾ جملة فعليَّة:

تقويّةُ مضمون الجملةِ، وتحقيقُها بمجيءِ المسندِ جملةً فعليَّة

قوله: ﴿نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ﴾، تَحْتَمِلُ هذه الجملة أنْ تكون خبرًا عن ﴿نَحْنُ﴾؛ لِتُفيدَ تَقْوِيَةَ الحكمِ وتحقيقَهُ وتخصيصَهُ، بمعنى تَحْقِيقِ أنَّ الله تعالى هو الذي نزَّل الذِّكر وتخصيصِهِ به سبحانه، فتكون جملة

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 19/123، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/68.
(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 3/286.

﴿نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ﴾ خبرًا عن (نا)، ويَحْتَمِلُ أنْ تكون خبرًا عن (نا)، ويكون ﴿نَحْنُ﴾ تأكيدًا للضَّمير (نا)، ومآل المعنى واحدٌ[1].

دلالة الواو في ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾:

حِفْظُ الله تعالى للقرآنِ، حجَّةٌ على أنَّه نزَّله على رسولِه

أفادت الواو العطفَ؛ ليكون الكلامُ من عطفِ الجملة الاسمية على الجملة الاسمية؛ ليكون بمجموعهما الرَّدُّ على إنكار الكافرين واستهزائهم، كما أشْعَرَ العطفُ أنَّ الجملة المعطوفة بمنزلة الدليل على معنى الجملة المعطوف عليها، فكان حِفْظُ الله تعالى للقرآنِ دليلًا وحجَّةً على أنَّ الله تعالى نزَّله؛ لأنَّه لو كان من قول البشر، أو لم يكنْ آيةً؛ لتطرَّق عليه الزيادة والنقصان، ولم يبقَ محفوظًا من التبديل والتَّغيير، كما يتطرَّق على كلِّ كلام سواه[2].

فائدة ورود الجملة الاسميّة في السّياق:

بيان ثبوت حفظِ اللهِ تعالى للقرآنِ ودوامُه

في قولِه: ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ لَمّا كانت الجملة الاسميَّة تفيد الثُّبوت والدَّوام؛ دلَّ الكلامُ على ثبوتِ حفظ الله تعالى للقرآن ودوامِه[3].

دلالة عودِ الضّمير في قولِه: ﴿لَهُۥ﴾:

حِفْظُ للقرآن، ضمان لحمايته من التّحريف والعبث به

يعود الضّمير إلى أقرب مذكور، وهو ﴿ٱلذِّكْرَ﴾، وهو ظاهر قولِ جمهور المفسِّرين، وليس إلى الرَّسول، كما نقلَ عن بعضهم[4]، فإنَّه لا تعلُّق بين إنزال الله للذِّكر، وبين حِفْظِ الله تعالى للرَّسول؛ لأنَّه تعالى قد يحفظ الرَّسول وإنْ لم يُنزِّل عليه الذِّكرَ، والمعنى: وإنّا للذِّكر لحافظون[5].

---

(1) العكبريّ، التبيان في إعراب القرآن: 2/777، والسّكاكيّ، مفتاح العلوم، ص: 221.

(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/572، والنّيسابوريّ، غرائب القرآن: 4/211.

(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/69.

(4) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/352، والفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 19/123، وأبو حيّان، البحر المحيط: 6/486.

(5) الفرّاء، معاني القرآن: 2/85، وابن جرير، جامع البيان: 17/68، والماتريديّ، تأويلات أهل السّنة: 6/423، والباقلانيّ، الانتصار لنقل القرآن: 1/136.

دلالة تتابع المؤكّدات، في آية الحفظ:

تأكَّدت الجملة بالأداة (إنَّ) التي تُفِيدُ تأكيدَ مضمونِ الجملة وباللّام في ﴿لَحَٰفِظُونَ﴾، وبتقديم الجارِّ والمجرور، فأصلُ الكلام (وإنّا لَحافظون له)، كما أنَّ اللّامَ الدّاخلةَ على الضَّميرِ أفادت تقويةَ العامل على جهة المبالغة في الحفظ للذِّكر، كما أنَّ مجيءَ الجملة اسميَّةً قوّى هذا التأكيدَ، فلمّا وَكَلَ الله تعالى حفظَ القرآنِ إلى نفسه، وقرَّره بتتابع التأكيدات، لم يَقْدِرْ أحدٌ من الطاعنين مع كثرتهم على الطَّعنِ فيه منذ نزل، ففي حفظه حجَّةٌ على أنَّه من عندِ اللّه[1].

لَمّا وَكَلَ الله تعالى حفظَ القرآنِ إلى نفسه، لم يَقْدِرْ أحدٌ على الطَّعنِ فيه

دلالة تقديم ﴿لَهُۥ﴾ على ﴿لَحَٰفِظُونَ﴾:

أفاد تقديمُ الجارِّ والمجرور على متعلِّقه ﴿لَحَٰفِظُونَ﴾ التَّخصيصَ، بمعنى: إنّا للذِّكر خاصَّةً دونَ سائر ما نزَّلناه من الكتب لَحافظون، وأفاد التَّقديمُ التَّأكيدَ كما تقدَّم، ولرعاية الفاصلة كذلك.

حِفْظُ الله تعالى القرآنَ خاصَّةً، دونَ سائر ما نَزَلَ من الكتب

دلالة إسناد حفظ الذِّكر إلى الله تعالى:

قوله: ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾، قد يُقال: ما السِّرُّ في تَطَرُّقِ التَّغْيير لِلْكُتُبِ السّالِفَةِ وسَلامَةِ القُرْآنِ مِنْ تطرُّقِ التَّغْيير لَهُ؟ والجوابُ: أنَّه لَمّا أوْكَلَ اللّه لِلْأحْبارِ حِفْظَ كُتُبِهِمْ، فَقالَ: ﴿بِمَا ٱسْتُحْفِظُواْ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ [المائدة: 44]، وتَوَلَّى حِفْظَ القُرْآنِ بِذاتِهِ تَعالَى، فَقالَ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾[2]، فكان حفظ القرآن من التَّحريف مع توفُّر الدَّواعي على الطَّعن فيه، وإبطالِه على مدار الأزمنة، لهو من أعظم المعجزات على أنَّ اللّه تعالى نزَّله على رسولِه محمَّدٍ ﷺ، وفيه إخبارٌ عن الغيب، وهو واقع الآن، فَكانَ ذَلِكَ أيْضًا مُعْجِزًا قاهِرًا[3].

حفظُ القرآن من التَّحريف، مع توفُّر الدَّواعي على الطَّعن فيه، من أعظم المعجزات

(1) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنة: 6/423.

(2) القشيريّ، لطائف الإشارات: 2/264، والقاضي عياض، ترتيب المدارك: 4/283، والزّمخشريّ، الكشّاف: 2/572، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 10/6.

(3) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 19/124.

إيثار حذف متعلِّقِ اسم الفاعل ﴿لَحَٰفِظُونَ﴾:

حفظُ الله للقرآن يعمُّ الحفظَ للقرآن، ولأمَّة القرآن

لمّا كان اسم الفاعل ﴿لَحَٰفِظُونَ﴾ يَقْتَضِي متعلِّقًا؛ أفاد حَذْفُهُ معنى العموم، أيْ: لحافظون من كلِّ ما لا يليق به، فَيَدْخُلُ فيه حفظُه من تكذيبِهم له واستهزائِهم به دخولًا أوّليًّا، فيكون وعيدًا للمستهزئين، ويشمل الحِفْظَ من جميع ما يقدح فيه من الطعن فيه والمجادلةِ في حقّيته، ودخل في حفظِه الحِفْظُ مِنَ التَّلاشي، والحِفْظُ مِنَ الزّيادَةِ والنُّقْصانِ فيهِ في ألفاظِه ومعانيه، بِأَنْ يَسَّرَ تَواتُرَهُ وأسْبابَ ذَلِكَ، وسَلَّمَهُ مِنَ التَّبْديلِ والتَّغْييرِ حَتَّى حَفِظَتْهُ الأُمَّةُ عَنْ ظُهورِ قُلوبِها مِنْ حَياةِ النَّبيِّ ﷺ، فاسْتَقَرَّ بَيْنَ الأُمَّةِ بِمَسْمَعٍ مِنَ النَّبيِّ ﷺ، وصارَ حُفّاظُهُ بالِغينَ عَدَدَ التَّواتُرِ في كُلِّ مصرٍ، كما أفاد حذفُ المتعلِّق عمومَ الزَّمانِ، بمعنى: أنَّ حفظه عن الطَّعن وغيرِه في كلِّ وقتٍ[1].

نكتة التَّعبير بلفظ ﴿لَحَٰفِظُونَ﴾:

الحافظُ للشَّيء عالمٌ بأحوالِه، ولا يعتريه جهلٌ ولا نسيانٌ

عُبِّر بلفظ ﴿لَحَٰفِظُونَ﴾ للإيذانِ بأنَّ الله تعالى هو المتكفِّل بتعهُّده ورعايتِه بمعنى منع تغييره وتحريفِه والنَّقص فيه، وأفاد التَّعبيرُ أنَّه تعالى عالمٌ به، فإنَّ الحافظ للشَّيء عالمٌ بأحوالِه، ولا يتخلَّلُهُ جهلٌ ولا نسيانٌ، فإذا خَفِيَتْ عليه أحوالُه أو بعضُها؛ لا يتأتَّى له حفظه[2].

سرُّ إيثار التَّعبير بصيغة اسم الفاعل ﴿لَحَٰفِظُونَ﴾:

أشْعَرَ التَّعبيرُ بصيغة اسم الفاعل، عراقةَ وصفِ حفظِ الله للقرآن وثباتَه له سبحانه.

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/573.

(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 205، والرّاغب، المفردات: (حفظ).

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي شِيَعِ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٠﴾ [الحجر: 10]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

تكذيب الرّسول والاستهزاء بالمؤمنين، عادة الكافرين الأوّلين مع أقوامِهم

لَمّا ذَكَرَ اللّهُ تعالى استهزاءَ الكفّار برسول الله ﷺ، ونِسْبَتَهُ إلى الجنون، واقتراحَ الإتيان بالملائكة، وكان الّذي قالوه عليه ﷺ شاقًّا وله غائظًا موجعًا، سلّاه الله تعالى بأنَّ من أرسل مِنْ قَبلِه كانت عادة قومِهم معهم، مثل عادة هؤلاء معك، فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي شِيَعِ ٱلْأَوَّلِينَ﴾[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿شِيَعِ﴾: أصلُ (شيع): يَدُلُّ على مُعاضَدَةٍ ومُساعَفَة، وأَصْلُهُ مأخوذٌ مِنَ الشّياع؛ وهو الحَطَب الصِّغار توقَدُ به الكبار، فأطلق الشّياع على الانتشار والتَّقوية، ويقال: شاع الخبر، أيْ: كَثُرَ، وقوي، وشاعَ القوم: انتشروا، وكثروا، وشَيَّعْتُ النّار بالحطب: قوَّيتها، والشّيعَةُ: من يتقوّى بهم الإنسان، وينتشرون عنه، والشّيعَةُ: الفِرْقَةُ، أو القَوْم يَجْتَمعونَ على الأمر، والشّيعَةُ: أتباع الرجل وأنصاره، وجَمْعُها: شيَعٌ وأشْياعٌ جمع الجمع، والشّيَعُ جمع: شيعة، وكُلُّ قَوْم أمْرُهُم واحِدٌ يَتْبَعُ بَعْضُهُم رَأْيَ بَعْضٍ، فَهُم شيَعٌ، ويُقال: هُم شيعَةُ فُلانٍ وشيعَةُ كذا من الآراءِ، والمراد بالشّيَعِ في الآية: الأمم التي أمْرُها واحدٌ[2].

المَعْنى الإجْماليُّ:

تَسْلِيَةُ الرّسول ﷺ، في تكذيب كفّار قريش له

يخبِرُ اللّهُ تعالى نبيَّه ﷺ ما فيه تَعْزِيَةٌ وتَسْلِيَةٌ له عمّا أصابَه مِن

(1) أبو حيّان البحر المحيط: 6/468، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 11/25، والخازن، لباب التّأويل: 3/49، والشّوكانّي، فتح القدير: 3/147.

(2) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن سيده، المحكم، والرّاغب، المفردات: (شيع)، والزّجاج، معاني القرآن وإعرابه: 3/174، وابن الهايم، التّبيان في تفسير غريب القرآن، ص: 205.

سُفهاء قومه، فأخبره بأنَّ ما أصابه مِنهم يُشبه ما فعله المكذِّبون السّابقون مع رُسلِهم[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبلاغيُّ:

دلالة التَّنظير عَلَى طَريقَةِ التَّمْثيلِ بِنُظَرائِهِمْ:

تَحْقِيقُ كُفْرِ المستهزئين برسولِ الله، بتمثيلِهم بنماذج سابقة

في قوله ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي شِيَعِ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ لَمّا كان المرادُ من الآية تنظيرَ حالة إرسالِ رسول الله محمَّدٍ ﷺ في قومِه بإرسالِ الله تعالى الرُّسل في الأمم السابقة؛ أفادَ التَّنظير إبْطالَ اسْتِهْزائِهِمْ عَلَى طَريقَةِ التَّمْثيلِ بِنُظَرائِهِمْ مِنَ الأُمَمِ السّالِفَةِ، وفي هَذا التَّنْظيرِ تَحْقيقٌ لِكُفْرِهم؛ لِأنَّ كُفْرَ أولَئِكَ السالفين مقرَّرٌ عِنْدَ الأُمَمِ ومُتَحَدَّثٌ بِهِ بَيْنَهُمْ[2].

بلاغة الجمع بين التَّعريض والكناية في الآية:

من براعة نظمِ القرآن، تلوين الأسلوب بما يفيد المطلوب

في قولِه: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي شِيَعِ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ لَمّا كان الكلام على طريقة التَّمثيل بالنَّظير من الأمم السالفةِ؛ أفادَ التَّعريضَ بِوَعيدِ أمْثالِهِم، وفيه إدْماجٌ بِالكِنايَةِ عَنْ تَسْلِيَةِ الرَّسول ﷺ[3].

فائدة التأكيد بقوله: ﴿وَلَقَدْ﴾:

تحقيقُ تَسْلِيَةِ الرَّسولِ ﷺ وتقريرُها

أفاد التَّعبيرُ بـ ﴿وَلَقَدْ﴾ تأكيدَ الجملة بلام القسم، المُنبِئة عن أمرٍ عظيم يَحْتاجُ إلى تقريرٍ وتأكيدٍ، وبـ (قَد) المؤكِّدة لمضمون الجملة كذلك، أيْ: لتأكيدِ تحقيق سبقِ إرسال الله تعالى قبل إرسال رسول الله ﷺ في الأمم السّابقة، على معنى تحقيق التّسلية لرسول الله ﷺ، وإلّا فإنَّ الرَّسول ﷺ على يقين بتحقُّق إرسالِ الله من قبلِه في الأمم السّابقة، كما يُفِيدُ التَّعْبِيرُ بـ ﴿وَلَقَدْ﴾ تحقيقَ سبق إرسال الله تعالى مثل الإرسال الّذي جحدوه، واستعجبوه[4].

---

(1) ابن جرير، جامع البيان: 17/69، وطنطاويّ، التّفسير الوسيط: 8/81، ونخبة من أساتذة التّفسير، التّفسير الميسّر، ص: 262.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/22.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/22.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/23.

دلالة التَّعبير بالضّمير (نا) في قولِه: ﴿أَرْسَلْنَا﴾:

أفاد التعبير بالضَّمير (نا) تعظيم شأن إرسالِ اللّه تعالى، فهو شأن الملك العظيم ﷻ، والمرادُ منهُ إظهارُ نهايةِ التَّعظيمِ والجلالةِ للّه المرسِل؛ لتأكيد التَّعجيب من استهزاء الكفّار بالرَّسول واستخفافِهم به ﷺ مع أنَّ الإرسال من اللّه الملك الواحدِ الأحدِ، وهو شأنٌ عظيم.

التَّعجيب من استهزاء الكفّار بالرَّسول، مع أنَّ المرسِل هو الله الجليل

سبب حذف مفعول ﴿أَرْسَلْنَا﴾:

حُذِفَ مفعولُ ﴿أَرْسَلْنَا﴾، وهو معلومٌ مقصودٌ؛ لأنَّ الإرسالَ يقتضي رسولًا[1]، فوقع الحذف؛ لأنَّ المرادَ إثباتُ الفعل للفاعل، وليس التباسَه بمفعولِه[2]، أيْ: إثباتُ إرسالِ اللّه تعالى، والمعنى هذا هو الشأن، وهذه هي العادة؛ لأجلِ تسلية الرَّسول ﷺ؛ ولبيان أنَّ اللّه تعالى، كما أرسله في قومِه؛ فقد أرسل من قبله في الأمم السابقة.

كما أرسل اللهُ محمَّدًا ﷺ إلى قومِه؛ فقد أرسل رسلًا من قبلِه

سبب مجيء ﴿مِن﴾:

أفاد مَجيءُ ﴿مِن﴾ في شبه الجملة: ﴿مِن قَبْلِكَ﴾ تحقيقَ ابتداء غاية إرسال اللّه تعالى قبل إرسال رسولِ اللّه ﷺ، ليشمل كلَّ من أرسله اللّه تعالى في قومِه، فيكون المعنى على الاستغراق والاستيعاب.

إفادةُ (مِنْ) معنى الاستغراق، في هذا السّياق

نكتة إيثار التَّعبير بـ﴿فِي﴾ في السّياق:

لَمّا كان الأصلُ في الإرسال أنْ يتعدّى بحرف الجرِّ (إلى)، بأنْ يقال: ولقد أرسلنا من قبلك إلى شِيَعِ الأوَّلين؛ أشْعَرَ التَّعبيرُ بـ ﴿فِي﴾ تضمينَ الفعلِ ﴿أَرْسَلْنَا﴾ معنى: نبَّأنا، وجعلنا الذي بمعنى صيَّرنا، والمرادُ نبَّأناهم فيهم، وجعلناهم فيما بينهم، للإعلام بمزيدِ التَّمكُّن فيهم، وللإيذان بأنَّ حالَ الرُّسل وعادتهم هي العيشُ فيما بين أقوامِهم، فوقوع التَّكذيب والاستهزاء على الرُّسل من أقوامِهم

حالُ الرُّسل وعادتُهم، هي العيشُ فيما بين أقوامِهم

(1) ابن عطيّة، المحرر الوجيز: 3/352، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 19/124.
(2) الجرجانيّ، التّعريفات، ص: 156.

ليس أمرًا غريبًا، فلك - يا محمَّدُ ﷺ - أسوةٌ بالرسل الماضية مع أممهم المكذِّبة، ولست بأوحدَ فيه[1].

سرّ التّعبير بلفظ ﴿شِيَعِ﴾ في السّياق:

كلُّ طائفة من الكفّار تتبع التي قبلها في التّكذيب والاستهزاء

لَمّا كان لفظ ﴿شِيَعِ﴾ يدلُّ على القَوْم المجتمعين المتفقة كلمتُهم، وكان اللَّفظ مشتقًّا من شاعه، أيْ: تبعه، لِيُعِينَ بعضُ القوم بعضَهم، وأصله من الشّياع، وهو الحطب الصغار توقَدُ به الكبار؛ آثَرَ التَّعبيرَ به؛ للإشعار بأنَّ كلَّ طائفة من الكفّار تتبع التي قبلها في التَّكذيب والاستهزاء، وأنَّ بعضهم يُعِينُ بعضًا على قبحِ أعمالِهم وسوء مرتكبِهم، وللتنبيه على صغر قدرِهم وحقارة منزلتِهم[2].

دلالة قولِه تعالى: ﴿شِيَعِ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾:

رسولُ الله ﷺ، خاتمُ الرُّسل، وسيّد المرسلين

لَمّا كان كلُّ رسولٍ من قبل رسول اللّه محمَّدٍ ﷺ موصوفًا بأنَّه من شيع الأوَّلين؛ دلَّ على أنَّ قومَ قريشٍ هم الآخرون، فَيُشْعِرُ الكلامُ بأنَّ رسول اللّه خاتم الرُّسل، ففيه توبيخٌ شديد للمستهزئين على سوء عملِهم وقبح تصرُّفهم مع خاتم رسل اللّه ﷺ.

فائدة الإضافة في قولِه: ﴿شِيَعِ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾:

بيان أنّ إضافةَ الموصوف للصِّفة، من أجل إفادة بيانِ الموصوف وإيضاحِه

لَمّا كانت الإضافة هنا من إضافة الموصوف إلى صفته مثلَ قولِه تعالى: ﴿وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞ﴾ [يوسف: 109][3]؛ أفادت الإضافةُ شدَّةَ لصوق الصِّفة بالموصوف حتَّى صارت هي نفسها، فتكون الإضافة بيانيَّة، وتقدير الكلام: (في الشّيَعِ الأوَّلين).

---

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/572، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/207، والطيّبي، حاشية الطّيبيّ على الكشّاف: 9/20.

(2) السّمعاني، تفسير السّمعاني: 3/131، والكرمانيّ، لباب التّفاسير، ص: 980، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 11/125.

(3) الكرمانيّ، لباب التّفاسير، ص: 980، والفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 19/124، والأشمونيّ، شرح ألفيّة ابن مالك: 2/141.

﴿وَمَا يَأۡتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ١١﴾ [الحجر: 11]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

لَمّا أخبر الله تعالى أنَّه قد أرسل رسلًا في الأمم السابقة؛ بيَّن في هذه الآية كيف تعاملت هذه الأُمم مع هؤلاءِ الرُّسُلِ، فقال: ﴿وَمَا يَأۡتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾.

تقبيح عملِ الأوّلين والمتأخّرين من الكافرين، لتواصيهم في الاستهزاء بالرُّسل

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾: أصلُ (هزأ) كَلِمَةٌ واحِدَةٌ تدلُّ على السُّخرية، يُقالُ: هَزِئَ واسْتَهْزَأَ؛ إذا سَخِرَ، وأصله من استخفاف المستهزِئ بالمستهزَأِ به وذهاب قيمته عنده، وكلُّ ما ورد في القرآن من (الاستهزاء)؛ فهو بمعنى السخرية مع استخفاف قدر المستهزَأ به، والهُزْءُ: مزحٌ في خفية، والاسْتِهْزاءُ: ارتيادُ الهُزُؤِ، وإنْ كان قد يُعبَّرُ به عن تعاطي الهزؤ، والمرادُ بـ ﴿يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ في الآية: المُبالغَةُ في السُّخريةِ والاستخفافِ بالآخرين[1].

المَعْنى الإجْماليُّ:

محنة الرُّسل والأنبياء مع أقوامهم واحدة، في كلّ العصور

ذَكَرَ الحقُّ ﷻ حال هؤلاء الرُّسلِ مع تلك الشِّيع المتجمِّعة على الباطل، فقال: وما أتَى تلك الأُمَمَ الماضيةَ مِن رَسولٍ أرسَله اللهُ إليهم؛ لدَعوتِهم إلى الحَقِّ، إلّا سخِروا به، وكَذَّبوه[2]، فما من رسولٍ جاءهم بالدعاء إلى توحيد الله والإذعان بطاعته إلّا كانوا منه يسخرون، وفي هذا تَسْلِيَةٌ للرَّسول ﷺ، فكما فَعَل بك هؤلاء المشركون، فكذلك فُعِلَ بمن قبلك من الرُّسل[3].

(1) الخليل، العين، وابن سيده، المحكم، وابن عبّاد، المحيط في اللّغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (هزأ).

(2) ابن جرير، جامع البيان: 14/20، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/527.

(3) ابن جرير، جامع البيان: 17/69، ونخبة من أساتذة التّفسير، التّفسير الميسّر، ص: 262.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالة قوله تعالى: ﴿وَمَا يَأْتِيهِم﴾:

بيان قبح فعالهم بمن يأتي من الرّسل

أفاد دخول (ما) على الفعل المضارع، حكاية الحال الماضية؛ لتصوير قبح عملِهم[1].

فائدة مجيء ﴿مِّن﴾:

أفاد حرف الجرِّ ﴿مِّن﴾ في قولِه: ﴿مِّن رَّسُولٍ﴾ التَّنصيصَ على استغراق جنس كلِّ الرُّسل، ففيه تعجيبٌ من الكافرين في استهزائهم بكلِّ رسولٍ يأتيهم، فكأنَّهم تواصوا بالاستهزاء بالرُّسل.

بلاغة تعليق حكم الاستهزاء على المشتقِّ ﴿مِّن رَّسُولٍ﴾:

التَّعجيبُ من عملِ الكافرين، لجعلِهم وصفَ الرِّسالة سببًا للاستهزاء بالرُّسل

لَمّا علَّقَ الحكم، وهو الاستهزاء على إتيان الرَّسول؛ دلَّ على علِّيَّة المأخذِ، بمعنى أنَّ استهزاءهم بمن يأتيهم كان بسبب ما اتَّصَفَ به من كونِه رسولًا من عندِ اللّه، وليس بسببِ شيء آخر يقتضيه التَّكذيب أو الاستهزاء، تقبيحًا لعملِهم، وبيانًا لعادتِهم في معاملةِ رسل اللّه عليهم السلام.

فائدة تقديم ﴿بِهِۦ﴾ في سياق الآية:

كثرة استهزاء الكفّار بالرّسول نُزِّلَ منزلة من ليس له عمل سوى الاستهزاء به

قُدِّمَ الجارُّ والمجرور ﴿بِهِۦ﴾ على الجملة الفعلية ﴿يَسْتَهْزِءُونَ﴾؛ للإيذانِ بتخصيصِ استهزائهم بالرَّسول على طريق القصر الإضافي للمبالغة، أيْ: كانوا يبالغون في الاستهزاء به، والمعنى: قد قَصَروا استهزاءهم على رسولِهم الذي أرسله اللّه تعالى فيهم؛ لِأَنَّهُمْ لَمّا كانوا يُكْثِرونَ الِاسْتِهْزاءَ بِرَسولِهِمْ ﷺ، وصارَ ذَلِكَ سَجِيَّةً لَهُمْ؛ نُزِّلوا مَنْزِلَةَ مَنْ لَيْسَ لَهُ عَمَلٌ إلّا الِاسْتِهْزاء بالرسول ﷺ[2].

سبب إيثار التَّعبير بقولِه: ﴿بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾:

لم يَقُلْ: (إلّا كانوا منه يستهزِئون)، فجاء بالباء، وقال: ﴿بِهِۦ

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف/572، والبيضاويّ، أنوار التنّزيل: 3/207.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/23.

﴿يَسْتَهْزِءُونَ﴾؛ لأنَّه لمّا كانت الباء للملابسة؛ دلَّ على أنَّ استهزاءهم كان بجميع ما يكون من الرَّسول، أيْ: ملابسَةِ الاستهزاء لكلِّ الرَّسول، ولو قال: (منه يستهزِئون)؛ لأفاد استهزاءهم بأمرٍ من أموره وشأنٍ من شؤونِه، فأفاد مجيء الباء المبالغة في السُّخرية والاستهزاء.

إفادة باءِ الملابسة المبالغة في استهزاء الكافرين برسلِهم

دلالة عود الضّمير في ﴿بِهِۦ﴾ على الرّسول:

لمّا كان الضَّمير عائدًا إلى لفظ ﴿رَّسُولٍ﴾؛ أفاد أنَّ استهزاءَهم كان بالرَّسول الذي أرسله اللّه تعالى، ليُشْعِرَ أنَّ سببَ استهزائِهم هو ما اتَّصفَ به من الرسالةِ، وليس بغيرِه.

علّة الاستهزاء الرّسالة الّتي جاء بها

سرّ مجيء المسند ﴿يَسْتَهْزِءُونَ﴾ جملة فعلية:

لمّا كانت الجملة الفعلية ﴿يَسْتَهْزِءُونَ﴾ خبرًا لـ﴿كَانُواْ﴾؛ أفادت تَقْوِيَةَ الحُكْمِ وتقريرَه، بمعنى: تحقيقِ كونهم كانوا يستهزِئون بالرّسول ﷺ.

بيان استهزاء الكافرين بالرّسول ﷺ

دلالة التَّركيب ﴿كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾:

لمّا كان تركيب (كان يفعل) يُفِيدُ اسْتِمْرارَ الفِعْلِ والمداومَةَ عليه؛ أفاد قوله تعالى: ﴿كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ استمرار استهزائِهم بالرُّسل والمداومةَ عليه، وكأنَّه ليس لهم شأنٌ سوى الاستهزاء، أو يقال: ﴿كَانُواْ﴾ دَلَّتْ عَلَى أنَّ الاستهزاء بالرُّسل سَجِيَّةٌ لَهُمْ، والمُضارِعُ دَلَّ عَلَى تَكَرُّرِهِ مِنْهُم، وفي مجيء الفعل مضارِعًا حكايةٌ للحالِ وتصويرٌ لها؛ لإظهارِ قبيح فعلِهم، وإشعارٌ بأنَّ الاستهزاء قد يزيد، وذلك دليلٌ على أنَّ رسولَ اللّه ﷺ قد بلغَ منهم مَبْلَغًا[1].

الاستهزاءُ بالرُّسل من أقبح أعمالِ الكافرين

توجيه المتشابه اللّفظيّ:

قال اللّهُ تعالى في سورة الحِجْر: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي شِيَعِ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٠ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾، وقال في

من براعة نظمِ القرآن، مجيءُ كلِّ لفظ على ما يناسبه في السّياق

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/23، والشّعراويّ، تفسير الشّعراوي: 12/7655.

سورة الزخرف: ﴿وَكَمۡ أَرۡسَلۡنَا مِن نَّبِيّٖ فِي ٱلۡأَوَّلِينَ ٦ وَمَا يَأۡتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ٧﴾ [الزخرف: 6-7]، فذكر في آية الحجر ﴿مِّن رَّسُولٖ﴾، وفي آية الزّخرف قوله: ﴿مِن نَّبِيّٖ﴾ [الزخرف: 6]، والسّببُ هو أنَّه لَمّا تقدَّمَ ذِكْرُ الرّسالةِ في سورة الحِجر؛ ناسبه ذِكْرُ الرَّسول، ولَمّا تقدَّمَ ذِكْرُ النّبوَّةِ في سورة الزّخرف؛ ناسبه ذِكْرُ النبوَّة، كما أنَّه لَمّا تقدَّمَ في آية الزخرف ﴿وَكَمۡ﴾ [الزخرف: 6] الخبريّة التّي تُفيدُ التَّكثيرَ؛ ناسب ذلك ذكر النّبيِّ الموحى إليه؛ ليشمل مَنْ كانَ مُرْسلًا، ومَنْ كان غيرَ مُرْسَلٍ، فورد هنا ما يعمُّ الصِّنفين ﷺ وأمّا آيةُ الحِجر؛ فلم يرد فيها ولا قبلها ما يطلب بالتكثير مع ما تضمَّنت من قصد تأنيسه ﷺ، وتَسْلِيَتِهِ، فَخُصَّتْ بالتعبير باسم الرسالة تسليةً له عن قولهم: ﴿إِنَّكَ لَمَجۡنُونٞ﴾ بما جرى للرُّسل قبلُ ﷺ من مثل ذلك، ومن البيِّن أنَّ موقع الرّسل هنا أمكن في تسليّته، ﷺ، فجاء كلٌّ على ما يجب من المناسبة[1].

دلالة الاستثناء بالأداة ﴿إِلَّا﴾:

في قولِه: ﴿وَمَا يَأۡتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾، أفاد الاستثناءُ بمجيئه بطريق النَّفي والاستثناء أنَّ الكافرين كانوا مُصِرِّين على الاستهزاء برسلِهم قاصدين له مبيِّتين للأمر مع تكرُّره منهم؛ لتشكيكِهم ولترك دعوتِهم، وآذن أنَّهم كانوا مُخْطِئِينَ بعملِهم ومُصِرِّين على خطئهم.

إصرارُ الكافرين على الاستهزاء بالرُّسل مقصودٌ مبيَّتٌ

(1) الغرناطيّ، ملاك التّأويل: 2/289، وابن جماعة، كشف المعاني، ص: 222.

﴿كَذَٰلِكَ نَسۡلُكُهُۥ فِي قُلُوبِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ١٢ لَا يُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَقَدۡ خَلَتۡ سُنَّةُ ٱلۡأَوَّلِينَ ١٣﴾ [الحجر: 12 - 13]

مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لما لِما قَبْلَهُما:

العلاقة بين مناوأة الرّسل، والإجرام بتكذيب الهدى الّذي هو سببٌ للهلاكِ

لمّا أخبر الله تعالى أنَّ الأممَ السابقة قد تواردت على تكذيب الرُّسل واختيار طريق الضَّلال؛ جاءت هذه الآية؛ لتبيِّن أنَّ سنَّة الله فيهم أنْ سلكَ الاستهزاء والتَّكذيب في قلوبِهم بسبب إجرامِهم وتلقّيهم الحقَّ بالسُّخريَّة[1].

وأيضًا لَمّا كانت قلوبُ أهلِ الضَّلال موصوفةً بالضّيقِ والحَرجِ، كان الدّاخلُ إليها لا يدخل إلّا بغايةِ العسرِ، فلذلك قال جوابًا لمن كأنَّه قال: أهذا خاصٌّ بهؤلاء؟ فقيل: لا، بل ﴿كَذَٰلِكَ نَسۡلُكُهُۥ فِي قُلُوبِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾[2]، فهم لا يؤمنون به.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿نَسۡلُكُهُۥ﴾: أصلُ (سلك): يَدُلُّ على نُفوذِ شَيءٍ في شَيءٍ، والسَّلْكُ، بالفَتْح: مَصْدَرُ سَلَكْتُ الشَّيْءَ في الشَّيْءِ فانْسَلَك، أيْ: أدْخَلْتُهُ فيه فَدَخَلَ، وكلُّ شيء أدْخَلْتَهُ في شيء؛ فقد سَلَكْتَهُ فيه، والله يُسْلِكُ الكفّارَ في جَهَنَّمَ، أيْ: يُدْخِلُهُمْ فيها، والسُّلوكُ: النَّفاذُ في الطَّريق، يُقالُ: سَلَكْتُ الطَّريقَ، وسَلَكْتُ كذا في طريقه، قالَ تعالى: ﴿لِّتَسۡلُكُواْ مِنۡهَا سُبُلٗا فِجَاجٗا ٢٠﴾ [نوح: 20]، والسِّلْكُ: الخُيوطُ، الواحِدَةُ سِلْكَةٌ، وجَمْعُه سُلُوكٌ[3]، و﴿نَسۡلُكُهُۥ﴾ بمعنى: نُدْخِلُهُ[4]. والمرادُ منه: شدَّةُ وُقوعِ الفِعْلِ ونفاذه.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/23.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 11/27.
(3) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (سلك).
(4) أبو حيان، تحفة الأريب، ص: 166.

2) ﴿ٱلْمُجْرِمِينَ﴾: أصْلُ الكَلِمَةِ مِن الجَرْم، وهو: القَطْعُ[1]، وقيل أصْلُه: الكَسْبُ، وفُلانٌ جَريمَةُ أهْلِه، أيْ: كاسِبُهُم، ومنه سُمّيَ الذَّنْبُ جُرْمًا؛ لأنَّهُ كَسْبٌ لِصاحِبِه[2]، والإجْرامُ: ارْتِكابُ الجُرْم، وهوَ الإثْمُ العَظيمُ[3]، يُقال: أجْرَمَ الرَّجُلُ: إذا ارْتَكَبَ ذَنْبًا، أو جَنَى جِنايَة[4]. والجُرْمُ والجَريمَةُ: الذَّنْبُ والإثْمُ، والإجرامُ أيضًا: إلصاقُ الجَريمَةِ بالآخرين، ويأْتي بِمعنى الاعْتِداءِ والظُّلْم، فيُقال: أجْرَمَ في حَقِّ أخيه، أيْ: ظَلَمَهُ، واعْتَدَى عليه، والمُجْرِمُ في اصْطِلاحِ القُرْآنِ هوَ الكافِرُ، كَقَوْلِه تَعالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [المطففين: 29]، والمقصود بالإجرام في الآية: الكُفر، والمراد بالمجرمين: كُفّارُ قُرَيْشٍ.

3) ﴿خَلَتْ﴾: أصلُ الخُلُوِّ: الفَراغُ، يُقال: خَلا المَكانُ، يَخْلو، خُلوًّا وخَلاءً؛ إذا لم يَكُن فيهِ أحَدٌ، ولا شَيْءَ فيهِ، ويُقال: مَكانٌ خالٍ، أيْ: فارِغٌ[5]. وخَلا مكانُهُ: ماتَ، ومَضَى، والقُرونُ الخالِيَةُ: الماضِيَة[6]. ويأْتي الخُلُوُّ بِمعنى الانْفِرادِ، تَقول: خَلا الرَّجُلُ بِنَفْسِهِ، أيْ: انْفَرَدَ بِها[7]. والمقصود بالخلوِّ في الآية: ما مضى من الزَّمان.

4) ﴿سُنَّةُ﴾: أصْلُ كَلِمَةِ السُّنَّةِ مِنَ السَّنِّ، وهوَ جَرَيانُ الشَّيْءِ في سُهولَةٍ، يُقالُ: سَنَنْتُ الماءَ على وجْهي أسُنُّهُ سَنًّا؛ إذا أجرَيْته، ومِمّا اشْتُقَّ مِنْهُ السُّنَّةُ، وهيَ السّيرَةُ، وسُنَّةُ رَسولِ اللّه ﷺ: سيرَتُهُ[8]، والسُّنَّة: الطَّريقَةُ حَميدَةً كانَتْ أمْ ذَميمَةً[9]، سُنَّةُ الرَّجُلِ: طَريقَتُهُ، والجَمْعُ سُنَنٌ، وكُلُّ مَنِ ابْتَدَأ شَيْئًا، ثُمَّ عَمِلَ بِهِ غَيْرُهُ مِنْ بَعْدِهِ؛ فَهوَ الَّذي سَنَّهُ، واسْتَنَّ بِالشَّيْءِ: عَمِلَ بِهِ[10]، والمقصود بالسُّنَّةِ في الآية: العادَةُ المَأْلوفَةُ.

5) ﴿ٱلْأَوَّلِينَ﴾: هم السّابِقونَ المُتَقَدِّمونَ في الزمان أو الحال أو الفضل والمنزلة،

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (جرم).
(2) ابن عبّاد، المحيط في اللّغة، والجوهريّ، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (جرم).
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/210.
(4) ابن عبّاد، المحيط في اللّغة: (جرم).
(5) ابن منظور، لسان العرب: (خلو).
(6) ابن عبّاد، المحيط في اللّغة، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والفيروزباديّ، القاموس المحيط: (خلى، خلو).
(7) ابن منظور، لسان العرب، والفيّومي، المصباح المنير: (خلو).
(8) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سنّ).
(9) ابن سيده، المحكم، وابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس: (سنن).
(10) سعدي أبو جيب، القاموس الفقهيّ لغة واصطلاحا، ص: 183.

والمُرادُ هُنا: الأُمَمُ الَّتي سَبَقَتْ، وعَرَفوا أخْبارَهُم، فَلَقوا عَذاب الاستئصال، مِثْلَ عادٍ وثَمودَ، وهذا تهديدٌ لكفّار مكَّة[1].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

الإجرام متَّصل الحلقات، بعضها آخذٌ بحُجز بعض

كما دخل الكفر في قلوب الأمم السابقة بالاستهزاء بالرسل وتكذيبهم، كذلك نفتِنُ قلوب مشركي قومك الذين أجرموا بالكفر بالله وتكذيب رسوله[2]، فقد أنزلنا الكُتُبَ على الرُّسل من قبلُ، فبلَّغوا الرسالات حتى طرقت معانيها بَواطِنَهُمْ، وأدخلناها في قلوبِ أولئك المجرمين المستهزِئينَ برسلِهم، فلم يؤمنوا بها، فهم يسمعونَه، ويفهمونَه، ويعلمونَ أنَّه الحقُّ، ومع ذلك يُكذِّبونَ به[3]، ولا يُصَدِّقون بالذكر الذي أُنزل، وقد مضت سنَّة الله في الأولين التي لا تتخلَّف بإهلاك المجرمين الذين كذَّبوا رسلَهم، وهؤلاء مِثْلهم، فسَيَهْلِك المستمرون منهم على الكفر والتكذيب[4].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغة مجيء الآية على طريق الاستئناف البيانّي:

تَوارُدُ الأُمَمِ على تكذيب الرُّسل بسببِ إجرامِهم

لمّا قال الله تعالى: ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾، وكان قد يخطر في أذهانِ المخاطَبين سؤالٌ ناشئ من هذه الآية، مفاده: كَيْفَ تَوارَدَتْ هَذِهِ الأُمَمُ عَلَى طَريقٍ واحِدٍ مِنَ الضَّلالِ، فَلَمْ تُفِدْهُمْ دَعْوَةُ الرُّسُلِ عليهم السلام كما قالَ تَعالَى: ﴿أَتَوَاصَوْاْ بِهِۦۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ۝٥٣﴾ [الذاريات: 53]، فلمّا كان الأمر كذلك؛ جاءت هذه الآية؛ لتبيِّنَ أنَّه من فعلِ الله تعالى بسبب إجرامهم[5].

---

(1) الواحديّ، الوسيط: 3/40، وابن عاشور، التّحرير والتنّوير: 9/346.

(2) ابن جرير، جامع البيان: 17/70، والبغويّ، معالم التنزيل: 3/51، نخبة من أساتذة التفسير، التفسير الميسر، ص: 262.

(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/352، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 19/125، والشّوكانيّ، فتح القدير: 3/148.

(4) ابن جرير، جامع البيان: 17/91، ونخبة من أساتذة التّفسير، التّفسير الميسّر، ص: 262.

(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/23.

دلالة التّعبير بـ﴿كَذَٰلِكَ﴾ في السّياق الكريم:

التّشبيه المركّب من بليغ الأساليب

لمّا كان لفظ ﴿كَذَٰلِكَ﴾ مفيدًا التَّشبيه على أمرٍ قد سبق أو أمرٍ حاضرٍ في ذهنِ المخاطَبِ؛ كان اسم الإشارة الذي للبعيد (ذلك) للتَّعبير عن المشبَّه به الذي يكون مركَّبَ الصّورةِ والمعنى، فأوجز معناه التَّركيبي في لفظٍ واحدٍ، وجعله مشبَّهًا به، ثم ذكر المشبَّه، فيكون هذا التَّركيب من قبيل التَّشبيه المركَّب.

بلاغة التَّشبيه في: ﴿كَذَٰلِكَ نَسۡلُكُهُۥ﴾:

مُقابَلَةُ النَّظِيرِ بالنَّظير، لإقامة الحجَّة، ولتحقيقِ الإذعان على المحجّة

لَمّا كان المشبَّه به هو اسم الإشارة، والمشار إليه بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ هوَ السَّلْكُ المَأْخوذُ مِنْ ﴿نَسۡلُكُهُۥ﴾؛ كان التشبيه بتقدير: مِثْلَ سَلْكِ الكتب المنزَّلة على الأمم الماضية حين أُلْقِيَتْ عليهم من الملأ الأعلى، نَسْلُكُ الذِّكرَ في قلوب المجرمين من مشركي مكة وفي قلبِ كلِّ مجرم لا يؤمن بالله، وبأنَّ القرآن من عنده سبحانه، أو التَّقدير: مِثْلَ سَلْكِ الاستهزاء والتَّكذيب بالرُّسل الذي سلكناه في قلوب شيع الأولين، نَسْلُكُ الاستهزاء والتَّكذيب، أيْ: نَجْعَلُهُ ونُدْخِلُهُ، ففي الكلام إبْطالٌ لاسْتِهْزائِهِمْ عَلَى طَريقَةِ التَّمْثيلِ بِنُظَرائِهِمْ مِنَ الأُمَمِ السّالِفَةِ[1]، ويَحْتَمِلُ أنْ يكون المعنى: مِثْلَ سَلْكِ التَّصديق في قلب مَنْ صَدَّقَ رسولَ الله، واختاره؛ نسلك التكذيب في قلب من اختار التكذيب وكذبه، أو المعنى: مِثْلَ الذي سلكنا في قلوب المؤمنين، من قبول الآيات والحجج، والتصديق لها، لِما علِمْنا أنَّهم يختارون ذلك؛ نسلك في قلوب المجرمين، من تكذيب الآيات والحجج وردِّها، لِما علِمْنا منهم مِنَ الرد والتكذيب لها[2]، وفي هَذا التَّنْظير تَحْقيقٌ لِكُفرِ أهلِ مكَّة المكذِّبين؛ لأجل مقابلة النَّظير بالنَّظير في عدمِ الانتفاع من الكتاب المنزَّل عليهم أو في التَّكذيب والاستهزاء.

(1) الثّعلبيّ الكشف والبيان: 15/432، والبغويّ، معالم التّنزيل: 4/370، وابن الجوزيّ، زاد المسير: 2/525، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/22.

(2) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنة: 6/425.

نكتة التَّعبير بلفظ ﴿نَسۡلُكُهُۥ﴾:

لا يجتمع الإيمانُ والكفرُ في قلبٍ واحدٍ

لَمّا كانَ السَّلكُ هو إدخال الشيء في غيره بدقَّةٍ على معنى النَّفاذِ والامتدادِ حتَّى إصابةِ الهدفِ، كإدخال الخيط في ثقبِ الإبرة، والرمح في المطعون؛ دلَّ على دقَّة السَّلْك في قلوبِ المجرمين وإصابته إصابةً محكمةً بحيث ينفذ في قلوبِهم، وأفادَ التَّعبير بالسَّلْكِ انتفاء إيمانِهم؛ لأنَّه إذا كان التَّكذيبُ قد دخل في قلوبهم دُخولَ الخَيْطِ في المِخْيَطِ، فإنَّه لا يمكن أنْ يجتمعَ والإيمانَ في قلب واحد، فلا يمكن أنْ يؤمنوا بالذكر الحكيم، لامتلاء قلوبِهم بالكفر.

فائدة التَّعبير بنونِ الجمعِ في: ﴿نَسۡلُكُهُۥ﴾:

لا مدافعةَ ولا منازعة لأفعال الله، جلّ في علاه

لَمّا كانت النّون للتَّعظيم؛ دلَّ على إظهارِ التَّعظيم لفعلِ اللّه تعالى، للإشعارِ بأنَّ فعلَ اللّه تعالى في سَلْكِ الذِّكر أو التَّكذيب أو غيرِه في قلوبِ المجرمين له أثرٌ قويٌّ كاملٌ فيهم، بِحيثُ لا يستطيعون دفعَه ولا منازعته، فهم مغلوبون مقهورون.

فائدة مجيء صيغة المضارع ﴿نَسۡلُكُهُۥ﴾:

بيان تعظيم شأنِ الله تعالى، في فعلِه بالمجرمين

أفادت صيغة المضارع استمرار الفعل وتجدُّدَه من مشركي مكَّة في زمنِ نزول القرآن حالًا فحالًا، أيْ: كلَّما تجدَّد نزوله، وسمعوه على القولِ بأنَّ المرادَ سلك الذِّكر، وفيه استحضارُ الصّورة لبيان عظمة اللّه وتعظيم شأن فعلِه سبحانه؛ ليُعْلَمَ أنَّ المَقْصودَ بَيانُ طريقةِ تَلَقّي المُشْرِكينَ لِلْقُرْآنِ، أيْ: تَجَدَّدَ لِهَؤُلاءِ إبْلاغُ القُرْآنِ عَلَى سُنَّةِ إبْلاغِ الرِّسالاتِ لِمَنْ قَبْلَهُمْ، أو المراد استمرار سلك الاستهزاء في قلوبِهم وتجدُّده[1].

دلالة عودِ الضّمير في قولِه: ﴿نَسۡلُكُهُۥ﴾:

الكافر يقرأ القرآن، ولا يَنْتَفِعُ منه لمرضٍ في قلبِه

يَحْتَمِلُ أنْ يكون الضمير في ﴿نَسۡلُكُهُۥ﴾ عائدًا على الذِّكر، وهو

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 11/126، وابن عاشور، التّحرير والتنّوير: 14/24.

القرآن، ويكون الضمير في قوله: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ عائدًا عليه أيضًا، أيْ: لا يصدِّقون به، والمعنى: كذلك نُدْخِلُ الذِّكرَ في قلوب المجرمين، فلمّا تعلَّق في قلوبهم بوصفِ كونِهم مجرمين؛ دلَّ على أنَّ سلكَه يجعلهم مكذِّبين به مستهزئين، أيْ: مكذَّبًا به مردودًا مستهزأ به نُدْخِلُهُ في قلوب المجرمين، أيْ: هَكَذا نولِجُ القُرْآنَ في عُقولِ المُشْرِكينَ، فَإِنَّهُمْ يَسْمَعونَهُ، ويَفْهَمونَهُ؛ إذْ هوَ مِنْ كَلامِهِمْ، ويُدْرِكونَ خَصائِصَهُ، ولَكِنَّهُ لا يَسْتَقِرُّ في عُقولِهِمُ اسْتِقْرارَ تَصْديقٍ بِهِ، بَلْ هُمْ مُكَذِّبونَ بِهِ، وبِهَذا السَّلْكِ تَقومُ الحُجَّةُ عَلَيْهِمْ بِتَبْليغِ القُرْآنِ إلَيْهِمْ، ويُعادُ إسْماعُهُمْ إيّاهُ المَرَّةَ بَعْدَ المَرَّةِ؛ لِتَقومَ الحُجَّةُ، ويَحْتَمِلُ أنْ يكون الضمير في نَسْلُكُهُ يعود على الاستهزاء المقتضي للتَّكذيب، فيعود على المصدر المفهوم من الفعلِ في قوله: ﴿يَسْتَهْزِءُونَ﴾، ويعود الضمير في ﴿بِهِۦ﴾ أيضًا على ذلك بعينه، والباء سببيَّة، أيْ: لا يؤمنون بسببِ استهزائهم[1].

بلاغة الإظهار في موضعِ الإضمار:

سلكُ التَّكذيب والاستهزاء في قلوب الكافرين، بسبب ذنوبِهم واحتيالِهم

كانَ الظّاهرُ أنْ يقول: (كذلك نسلكه في قلوبِهم)؛ لأنَّ السياق في ذكر أهلِ مكَّة المعاندين، فجاء الكلامُ على خلافِ مقتضى الظاهر، لتعليقِ السَّلْكِ بالوصف المشتقِّ ﴿ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ لبيان سبب الحكم، لِيُفيدَ أنَّ إدخال التَّكذيب والاستهزاء في قلوبِهم بسبب إجرامِهم، أيْ: بما كسبوه من كفرِهم بسبب ذنوبِهم العظيمة واحتيالِهم في كسبِهم، ولَمّا كان الاسم المشتقُّ ﴿ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ مأخوذًا من (أجرمَ) الرُّباعي؛ دلَّ على تعدّي أثرِ كفرِهم وذنوبِهم العظيمة واحتيالهم إلى غيرِهم، كما أشْعَرَ أنَّ السَّلْكَ في الأمم الماضية كان بسببِ إجرامِهم كذلك، فبذلك يكونون قد ساروا على سنن الأوَّلين في الإجرام.

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/573، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/352، والفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 19/125، والبيضاويّ، أنوار التنّزيل: 3/207، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 11/128، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/24.

فائدة (ال) في قولِه: ﴿ٱلْمُجْرِمِينَ﴾:

لَمّا كان المقصودُ من المجرمين أهل مكَّة الكافرين؛ عبَّرَ به بصيغة (ال) الجنسيّة، للإشعار بأنَّ المرادَ جنسُ المجرمين؛ لِيُفِيدَ الاستغراقَ، ويَدْخُلَ فيه أهلُ مكَّة دخولًا أوَّليًّا[1].

الإشعارُ بالمقابلةِ فيما يجعل في القلوب:

في قولِه تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾، لَمّا علَّق إدخال التَّكذيب والاستهزاء في قلوب المجرمين؛ أشْعَرَ الكلامُ بالمقابلة، أيْ: من حكم المعنى المذكور أنْ يسلك التّصديق في قلب من صدَّق بالرَّسول، واختاره، فيزداد إيمانًا مع إيمانِه[2].

توجيه المتشابه اللّفظيّ:

جاء في هذه السّورة قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾، وفي سورة الشعراء: ﴿كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ۝٢٠٠﴾ [الشعراء: 200]، فذكر في هذه السورة الفعل بصيغة المضارع ﴿نَسْلُكُهُۥ﴾، وفي سورة الشعراء بصيغة الماضي ﴿سَلَكْنَٰهُ﴾ [الشعراء: 200]، ووجه ذلك، أنَّه تقدم في آية الحِجْرِ قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾، وهو قول العُتاةِ من كفار قريش وغيرهم الذين عُنوا بقولِه تعالى تهديدًا ووعيدًا: ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾، ولم يتقدم في هذه السورة إخبارٌ بحال غيرهم من مكذِّبي الأمم سوى التعريف بأنَّ كلَّ قرية أُهْلِكَتْ فبأجل معلوم، فحال هؤلاء كحال من تقدمهم، فجاء بالفعل المضارع؛ ليدل على استمرارِ الأمر، فقال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ﴾، وأمّا آية الشعراء؛ فقد تقدَّمها ذكر أقوام الرُّسُلِ من الأمم المكذبين، فلمّا تقدم أمرُها وقعت العبارة بالماضي، فقال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ

سلْكُ اللهِ التَّكذيب، يستغرق قلوبَ جميعِ المجرمين

كما يسلك اللهُ التَّكذيب في قلوبِ المجرمين يسلك التَّصديق في قلوبِ المؤمنين

من براعة نظم القرآن، مناسبَةُ كلِّ لفظ لسياقه

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/69.

(2) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنة: 6/425.

﴿سَلَكْنَٰهُ﴾ [الشعراء: 200]، ولم يناسب في سورة الشعراء غير الماضي، فقد وضح ورود كل من الموضعين على ما يناسب[1].

فائدة التَّعبير بـ﴿لَا﴾ النّافية في السّياق:

مناسبة المبالغة في نفي الإيمانِ، لمعنى السَّلْك في قلوبِ المجرمين

عُبِّرَ بـ ﴿لَا﴾ النّافية؛ لأنَّها أكثرُ مبالغةً في النَّفي من غيرِها، وهو المناسب للفظ السَّلْك.

بلاغة العموم بحذف المتعلِّق:

إفادة العموم لتكثير المعنى

يَحْتَمِلُ أنْ يكون الكلامُ بتقدير: وقد خلت سنَّة الأولين بالتكذيب بعد قيام الحُجج، ويَحْتَمِلُ أنْ يكون المعنى: وقد مضت سنَّة الأوَّلين بالإهلاك فيمَنْ كَذَّبَ الرُّسُلَ مِنَ الأُمَمِ الخاليَةِ، عند مكابرة حُجَجِ اللّه، والظّاهر أنَّ متعلِّقَ الفعلِ ﴿خَلَتْ﴾ أفادَ العمومَ، بمعنى عمومِ ما جرى في سنَّة الأوَّلين من تكذيب فريقٍ وإيمانِ فريقٍ آخر، ومن إظهار المكابرة والمعاندة مع التَّكذيب بعد ظهور الحُجَجِ والآيات لفريقٍ وإظهار الانقياد لفريقٍ آخر، ومن إهلاكِ الكافرين المكذِّبين وتخليصِ المؤمنين الصّادقين[2].

بلاغة التَّعريض بكفّار مكَّة ومن لفّ لفّهم:

إنذار المجرمين بحلولِ العذاب بهم إنْ أصرّوا على إجرامِهم

لمّا كان الخبر في قوله: ﴿وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أمرًا معلومًا، ليس فيه فائدةٌ متجدِّدة؛ دلَّ على أنَّ الخبر مستعملٌ في لازمه، فيكون المراد من ذكرِ الطريقةِ التي سنَّها اللّه في إهلاكهم حين كذَّبوا رُسُلَهُمْ، وكذَّبوا بالذِّكر المنزَّل عليهم؛ هو الوعيد لأهل مكَّة على تكذيبهم وتخويفهم وتهديدهم، ففيه تَعْريضٌ بكفّار مكَّة وبكلِّ مَنْ يتَّصف بوصف المجرمين من أهل التَّكذيب والاستهزاء بِرُسُلِ اللّه بِأنَّ في ذَلِكَ إعْذارًا لَهُمْ وتنبيهًا لحلولِ العذاب بهم، كما حلَّ

(1) الغرناطيّ، ملاك التّأويل: 2/290.

(2) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنة: 6/425، والماورديّ، النّكت والعيون: 3/150، والبغويّ، معالم التنّزيل: 4/370، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 19/127.

فيمن كان قبلَهم، ولمّا كان الحرف ﴿وَقَدْ﴾ للتَّأكيد والتَّحقيق؛ أفاد تأكيدَ الوعيدِ، والتَّعريضَ بالإعذار والإنذار[1].

دلالة الإضافة في قولِه: ﴿سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾:

الاعتيادُ على الشَّيء يجعله سُنَّةً لصاحبِه

إضافةُ ﴿سُنَّةُ﴾ إلى ﴿ٱلْأَوَّلِينَ﴾ إمّا أنْ تكونَ لأدنى مُلابَسَةٍ، فهي باعْتِبارِ تَعَلُّقِها بِهِمْ، للإشعار بأنَّ هذه هي عادتهم التي ألفوها في التَّكذيب والاستهزاء، وإنَّما هيَ سُنَّةُ اللّه فيهِمْ؛ لِأنَّها المَقْصودُ هُنا، وإمّا أنْ تكون من الإضافة إلى المفعول بتقدير سنَّة اللّه في الأوَّلين، وحذف الفاعل في المعنى لظهورِه، وللتَّنبيه على أنَّها صارت سنَّة منسوبةً إليهم لإلفِهم لها[2].

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

(السَّلْك) و(الإدخال):

السَّلْك هو نفوذ شيءٍ في شيءٍ، والإدخال هو الإيلاج، وهو نقيض الإخراج

عُبِّرَ بالسَّلْك دونَ الإدخال، للفرق بينهما: فالسَّلْك هو نفوذ شيءٍ في شيءٍ على وجهِ الدِّقَّة والسُّرعة ويكون بامتدادٍ حتَّى إصابةِ الهدف، ويكون السَّلْكُ في موضعٍ خفيٍّ، حتّى يصلَ إلى الهدف الدّقيق المُسْلَكِ اللّطيفِ المَوْرِدِ[3]، ولهذا يقال: سَلَكَ الخَيْطُ في الإبرة، ومنه قوله تعالى: ﴿فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [الزّمر: 21]، أيْ: فأدخله في الأرض، وأسكنه فيها بنفاذ ودقَّةٍ وامتداد، وأمّا الدّخول؛ فهو الولوج، أيْ: هو نقيض الخروج، ويُسْتَعْمَلُ في المكان والزمان والأعمال، فيكون السَّلْكُ أخصَّ من الدُّخولِ؛ لدلالتِه على النُّفوذ بدقَّةٍ وسرعة وامتدادٍ حتَّى إصابةِ المقصودِ.

---

(1) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنة: 6/425، والزّمخشريّ، الكشّاف: 2/573، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/25.

(2) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/208، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 11/128، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/25.

(3) الأزهريّ، تهذيب اللغّة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (سلك)، (دخل).

﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوٓاْ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿١٥﴾﴾ [الحجر: 14 - 15]

مُناسَبَةُ الآيَتينِ لما قَبْلَهُما:

الرّبط بين كفر السّابقين، وكون الآيات الباهرة، لا يؤمن بها المتأخّرون من الكفرة

لمّا بيَّن اللّه تعالى أنَّ كفْرَ مَنْ كَفَرَ مِنْ أهْلِ مَكَّةَ ليس لِنَقْصٍ في المعجزة التي جاء بها رسول اللّه ﷺ، إنَّما ذلك؛ لأنَّهم صدّوا عن الحق، فلو جئت بالمعجزات التي لا يماري فيها العقلاء لمارَوا فيها، وادَّعَوا ضلال أبصارِهم، فجاءت هذه الآية[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَظَلُّواْ﴾: أصلُ (ظلّ): يَدُلُّ على سَتْرِ شَيءٍ لِشيءٍ، فالظِّلُّ: ظِلُّ الإنسانِ وغَيره، تَقولُ: أظَلَّتْني الشَّجَرَةُ، وظِلٌّ ظَليلٌ: دائِمُ الظِّلِّ[2]، ومِنَ البابِ قَولُهُم: ظَلَّ يَفْعَلُ كذا، وذلكَ إذا فَعَلَهُ نَهارًا، وإنَّما قُلنا: إنَّهُ من البابِ؛ لأنَّ ذلكَ شَيءٌ يُخَصُّ به النَّهارُ، وذلكَ أنَّ الشَّيءَ يكونُ له ظِلٌّ نهارًا، ولا يُقالُ: ظَلَّ يَفْعَلُ كذا ليلًا؛ لأنَّ اللَّيلَ نَفْسَهُ ظِلٌّ[3]. والمقصود بـ (ظلَّ) في الآية: ما يدُلُّ على الكَوْنِ في النَّهارِ.

2) ﴿يَعْرُجُونَ﴾: العُروجُ: مصدر عَرَج، وهو الصُّعودُ والارتِفاعُ، والمِعْراجُ: آلةُ العُروجِ كالمَصعَدِ والمَرْقى التي يُصْعَد بها مِن أسْفَل إلى أعلى، فهو بِمنزِلَةِ السُّلَّم أو الدَّرَج، ولكن لا تُعرف كيفيَّتُهُ، يُقال: عَرَجَ إلى السَّطح وإلى السَّماء، يعرُجُ، عُروجًا ومَعْرَجًا، أيْ: صَعَدَ[4]، والمقصود بالعروج في الآية: الصُّعودُ.

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 8/4074.
(2) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (ظل).
(3) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة: (ظل).
(4) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن سيده، المحكم، والزّبيديّ، تاج العروس: (عرج).

3) ﴿سُكِّرَتْ﴾: أصلُ (سكر) أصْلٌ واحِدٌ يَدُلُّ عَلَى حَيْرَةٍ، مِنْ ذلكَ السُّكرُ مِنَ الشَّرابِ، يُقالُ: رَجُلٌ سِكّيرٌ، أيْ: كَثيرُ السُّكْرِ، والتَّسْكيرُ: التَّحْييرُ، والسَّكْرُ: سَدُّ الشِّقِّ ومُنْفَجَرِ الماءِ، والسِّكْرُ: اسْمُ ذلكَ السِّدادِ الَّذي يُجْعَلُ سَدًّا لِلشِّقِّ ونَحْوِهِ، والماءُ إذا سُكِرَ؛ تَحَيَّرَ[1]، وقولُهُ ﷻ: ﴿سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا﴾[2] أيْ: سُدَّتْ، وتَحيَّرت[3]، وهو المراد هنا في الآية.

4) ﴿مَّسْحُورُونَ﴾: أصلُ (سحر) يدلُّ على خَدْعٍ وشِبْهِهِ[4]، وحقيقةُ السِّحْرِ: صَرْفُ الشَّيءِ عَنْ حَقيقَتِهِ إلى غَيْرِهِ، فكأنَّ السّاحِرَ لَمّا أرَى الباطلَ في صورَةِ الحَقِّ، وخَيَّلَ الشَّيءَ على غيرِ حَقيقَتِهِ، قَدْ سَحَرَ الشَّيءَ عَنْ وجْهِهِ، أيْ: صَرَفَهُ[5]. تَقول العَرَبُ للرَّجُل: ما سَحَرَكَ عَن وجْه كَذا وكَذا؟ أيْ: ما صَرَفَك عَنهُ[6]، والمَسْحور: ذاهِبُ العَقْلِ المُفْسَدُ[7]. والسِّحْرُ: الأُخْذَةُ؛ وكلُّ ما لَطُفَ مَأْخَذُه، ودَقَّ، فَهوَ سِحْرٌ، والجَمْعُ أسحارٌ وسُحورٌ، ورجلٌ ساحِرٌ مِنْ قَوْمٍ سَحَرَةٍ، والسِّحْرُ: البيانُ في فِطْنَةٍ[8]. والمقصود بالسِّحرِ في الآية: تَخْييلُ ما ليس بِكائِنٍ كائِنًا، والمرادُ: ما رأيناهُ هو تَخَيُّلاتُ المَسْحورِ[9].

المَعْنى الإجْماليُّ:

ختم اللّه ﷻ هذه الآيات الكريمة برسم صورة عجيبة لتعنُّت المكذبين، وصدودهم عن الحقِّ، بعد ما توضَّح، فقال: ولو فَتَحْنا

صورَةٌ عَجِيبَةٌ لعناد الكافرين، ولجحودهم للحقّ بعد ما تبيَّن

(1) ابن عباد، المحيط في اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (سكر).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سكر).
(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن عبّاد، المحيط في اللّغة: (سكر).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سحر).
(5) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (سحر).
(6) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (سحر).
(7) الزّبيديّ، تاج العروس: (سحر).
(8) ابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس: (رهق).
(9) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/26.

على هؤلاءِ الكُفّارِ بابًا مِن السَّماءِ، فجعلوا يصعَدونَ في وضَحِ النَّهارِ في ذلك البابِ، ويُشاهِدونَ ما في السَّماءِ بأعيُنِهم مِن مَلَكوتِ اللهِ تعالى وقُدرتِه وسُلطانِه ومَلائكَتِه، لجَحَدوا أنْ يكونوا رأوا شَيئًا، ولقالوا: إنَّما سُدَّتْ أبصارُنا بالسِّحرِ، ومُنِعَت من النَّظَرِ، بل نحن قومٌ سَحَرَنا محمَّدٌ، فما عُدْنا نعقِلُ الأشياءَ، ونراها كما يجِبُ[1]، أو المعنى: ولو فَتَحْنا على هؤلاءِ الكُفّارِ بابًا مِن السَّماءِ، فظلَّت الملائكة تعرج فيه، وهم يرونهم عيانًا لجحدوا بها، وقالوا: سُدَّت أبصارُنا، فلم نَرَ شيئًا، بل نحن قومٌ سَحَرَنا محمَّدٌ ﷺ، فما نعقل شيئًا[2].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

دلالة التّعبير بأداة الشَّرط (لَوْ):

حجَّة القرآن كافية هادية، لا يحتاج مع وضوحها إلى بيِّنة تعدوها

لَمّا كان حرف (لَوْ) يفيد تعليق حصولِ مضمون الجزاء لحصولِ مضمون الشَّرط فرضًا في الماضي مع انتفاء الشَّرط على سبيل القطعِ؛ دلَّ على أنَّ الشَّرط المذكور ما هو إلّا على سبيل الفرض، وأنَّه منتفي الوقوع، وسِيقَ الكلامُ بهذا الأسلوبِ؛ لإقامة الحجَّة على المشركين في إثباتِ مكابرتِهم ومعاندتِهم، وإنْ ظَهَرَتِ الآياتُ، ووَضُحَتِ الحِجَجُ والمعجزاتُ، والغرض هو الإيذانُ بأنَّ معجزة القرآن كافية وافيةٌ واضحةٌ، وأنَّ أيَّ معجزةٍ أخرى لا تنفعهم.

فائدة التّعبير بـ(على) في قولِه: ﴿عَلَيْهِم﴾:

أفعالُ الله عظيمةٌ ولا مدى لحدودِ أفعالِه

قولِه: ﴿فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾، أفاد التَّعبير بحرف الجرِّ (عَلَى) استيعاب الفتح عليهم، وتمكُّنه منهم بحيث لا يبقى شيءٌ مغلقٌ عليهم، ولم يَقُلْ: (ولو فتحنا لهم)؛ لِما يؤذن به حرف الجرِّ (إلى) بالإذن لهم في فتح بابٍ من السماء، والأمر على فرضِ المستحيل لإثباتِ معاندتِهم.

(1) البغويّ، معالم التّنزيل: 3/52، وابن عطيّة، المحرر الوجيز: 3/354، والسّعديّ، تيسير الكريم الرحمن، ص: 430.

(2) ابن جرير، جامع البيان: 17/72، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/353، وابن الجوزيّ، زاد المسير: 2/525.

مناسبة مجيء الفعل ﴿فَتَحْنَا﴾ بصيغة التّعظيم:

للإشعار بعظم الفعل، وأنَّه لا يصدر إلّا من الملكِ الواحدِ الأحدِ، وأنّه لا فتحَ في عطاءٍ ومددٍ، إلّا من اللّه الأحد.

دلالة التّنكير في قولِه: ﴿بَابًا﴾:

أفادَ تَنْكِيرُ البابِ تَعْظِيمَهُ وتَفْخِيمَهُ للإيذانِ بعلوِّ شأنِ أبواب السَّماء، ودلَّ التَّنكيرُ على أنَّ للسَّماء أبوابًا كثيرة، وليس لها بابٌ واحدٌ؛ لمجيء ﴿مِّنَ﴾ التبعيضية، كما أفاد التَّنكير أنَّ أيَّ بابٍ منها له الحكم المذكور.

للسَّماء أبوابٌ وليس لها بابٌ واحدٌ

دلالة الضَّمير، في قولِهِ: ﴿فَظَلُّواْ﴾:

يَحْتَمِلُ أنْ يكون الضَّمير عائدًا إلى المشركين الّذين طلبوا الإتيان بالملائكة والمعجزات، فيكون المعنى: ولو فتحنا على هؤلاء المشركين من قومك بابًا من السّماء، فظلّوا هم فيه يعرجون؛ ﴿لَقَالُوٓاْ إِنَّمَا سُكِّرَتۡ أَبۡصَٰرُنَا﴾، كما يَحْتَمِلُ أنْ يكون عائدًا إلى الملائكة، فيكون المعنى: ولو فتحنا على هؤلاء القائلين لك يا محمد: ﴿لَّوۡمَا تَأۡتِينَا بِٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ بابًا من السماء، فظلَّ الملائكة فيه يعرجون، والمشركون يرونَهم عيانًا؛ ﴿لَقَالُوٓاْ إِنَّمَا سُكِّرَتۡ أَبۡصَٰرُنَا بَلۡ نَحۡنُ قَوۡمٞ مَّسۡحُورُونَ﴾، والقصدُ أنَّه لو فَتَحَ للمشركين بابًا من السماء؛ فإنَّهم يصرفون ما يعاينون من مشاهدة الآياتِ الباهرات عن حقيقتِه عنادًا ومكابرةً، أيْ: لَوْ صَعِدوا إلَى السَّماءِ، وشاهَدوا المَلَكوتَ والمَلائِكَةَ؛ لَأَصَرّوا عَلَى الكُفْرِ[1].

العنادُ والمكابرةُ، صفةٌ لازمةٌ للكافرين

فائدة الفاء، في جملة ﴿فَظَلُّواْ﴾، من السّياق:

أفادت الفاء العطف؛ لِتُفِيدَ أنَّ الشَّرط مؤلَّف من جملتين بمجموعِهما تتمُّ الحجَّة على المشركين، كما أفادت الفاء التَّرتيب

العروج في السَّماء، لا يكون إلّا عن طريق بابِها

(1) ابن جرير، جامع البيان: 17/73، والزّمخشريّ، الكشّاف: 2/573، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/353، والفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 10/8.

بمعنى: أنَّ العروج في السَّماء لا يكون إلّا عن طريق بابِها، فتكون الجملة الأولى بمنزلة السبب للثّانية، ويكون الجزاءُ الممتنع مرتَّبًا على مجموعِ الجملتين الممتنعتي الحصول.

بلاغة الاستعارة في قولِه: ﴿فَظَلُّواْ﴾:

(ظلَّ) يُسْتَعْمَلُ لعملٍ يكون في النّهار، للإشعارِ بوضوحِ الرُّؤية وجلائها

لَمّا كان المرادُ أنَّه لو فتح اللّه بابًا من السَّماء؛ لعاينوا الآياتِ، وشاهدوها بوضوح؛ اسْتُعِيرَ لَفْظُ ﴿فَظَلُّواْ﴾ للتعبير عن ظهور الأمر ووضوحِه، بحيث يكون حالُهم مثل حالِ من كان في النَّهار؛ لأنَّ (ظلَّ) يُسْتَعْمَلُ لعملٍ يكون في النَّهار، يقال: ظل فلان يفعل كذا؛ إذا فعله بالنهار[1]، وأَشْعَرَ لَفْظُ ﴿فَظَلُّواْ﴾ بطول المعاينة لِما هو متبادر من اللفظ حيث لا قرينة على إرادة بعضِ الوقتِ، والكلامُ على طريق الاستعارة التصريحية التبعيَّة، ويَحْتَمِلُ أنْ يكون قد ذَكَرَ الظلول؛ ليجعل عروجهم بالنهار؛ ليكونوا مُسْتَوْضِحِينَ لِما يرون، فيكون المرادَ من اللفظ الحقيقَةُ؛ لكونِ الرؤية في النَّهار مُنْكَشِفَةً وواضحةً[2].

نكتة التّعبير بلفظ ﴿يَعْرُجُونَ﴾:

عُـروجُ الإنسانِ يقتضي نـزولَـه، من باب المخالفة

عُبِّرَ بـ ﴿يَعْرُجُونَ﴾؛ للإشعار بأنَّهم ينزلون، ويصعدون، فذكرَ العروجَ، واستغنى عن ذكر النُّزول؛ لأنَّ العروجَ لا يكون بدون النُّزول؛ لأنَّ الكلام في الإنسان في الحياةِ الدنيا، وليس في الملائكة، فكان ذكرُ العروج ذكرًا للنُّزول، وكانَ حذفُه اختصارًا، واقتضى ظاهرُه إضمارًا[3]، أو لأنَّ العروجَ أصعبُ من النزول، فمن كان قادرًا على العروج؛ كان على النّزول أقدر.

دلالة اللّام في قولِه: ﴿لَقَالُوٓاْ﴾:

أفادت اللّام تأكيدَ قولِهم وتقريرَه، على فرضِ فتح باب من

(1) الواحديّ، التّفسير البسيط: 12/555، والزّمخشريّ، الكشّاف: 2/573.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/573، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل3/208، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 11/128.
(3) أبو حفص النّسفيّ، التّسير في التّفسير: 9/175.

السَّماء. والقول في الفؤاد يعبّر عن المراد، وإنّما جعل اللّسان على الفؤاد دليلا.

دلالة قوله: ﴿إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا﴾:

التَّعنُّت طبع مسترذل، يُعْمِي الأبصارَ

أشْعَرَ هذا القولُ باليأس من إيمانِهم، ولمّا كان فرض عروجهم في باب من أبواب السّماء على معنى ظهور الآيات الباهرات الممتنع إنكارُها لوضوحها؛ أفاد أنَّهم يقولون ذلك لشدَّة تعنُّتهم وسفههم، وأنَّهم ينكرون معاينة ذلك.

بلاغة القصر في قوله: ﴿إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا﴾:

المبالغة في التَّعنُّت مع ظهور الآيات، دليل المكابرة والسَّفه

عُبِّرَ بالأداة ﴿إِنَّمَا﴾ لإيذانِ المخاطَب أنَّ ما يقولونه من تسكير أبصارِهم أمرٌ لا يعوز المخاطَبَ تحقيقُه ولا إقامةُ الحجَّة عليه؛ لأنَّه في نفسِه جليٌّ وظاهر؛ لِيُفِيدَ أنَّ قولَهم إنَّما هو على سبيل المعاندة والمكابرة، ولمّا كانت الأداة (إنَّما) تفيد القطع بما بعدها؛ أفاد مجيئُها أنَّهم يبتّون القولَ بأنَّ ذلك ليس إلّا تسكيرًا للأبصار، وأنَّ ما يرونه لا حقيقة له، فإنَّه لَمّا قال: ﴿فَظَلُّواْ فِيهِ يَعۡرُجُونَ﴾ الذي يفيد ظهور الآيات الباهرات أمامَ أعينهم؛ كان الجزاء ﴿لَقَالُوٓاْ إِنَّمَا سُكِّرَتۡ أَبۡصَٰرُنَا﴾، على سبيل قصرِ القلب، أيْ: أبصارنا لم تبصر شيئًا باهرًا، بل سُكِّرت، وسُدَّت[1].

دلالة جوابِ الشّرط، في قوله: ﴿لَقَالُوٓاْ﴾:

المجرمون لا يعتبرون، ولا يؤمنون بالآياتِ الباهرات

قولِه: ﴿لَقَالُوٓاْ إِنَّمَا سُكِّرَتۡ أَبۡصَٰرُنَا﴾، وفيه أنّه لَمّا كان لفظ ﴿لَقَالُوٓاْ﴾ واقعًا في جواب الشَّرط؛ أفاد أنَّ ظهورَ الآياتِ لهم ومعاينتهم لها لا ينفع في إيمانِهم ولا التَّأثير في قلوبِهم، وليس لهم إلا قولهم: ﴿إِنَّمَا سُكِّرَتۡ أَبۡصَٰرُنَا بَلۡ نَحۡنُ قَوۡمٞ مَّسۡحُورُونَ﴾، فأعلمَ اللّه ﷻ أنَّ هؤلاءِ لا يَعْتَبِرونَ، ولا يوقِنونَ، ولا يؤمنون بأبْهَرِ ما يكون من الآيات وأوضحِها[2].

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/573، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/208، والسّكاكيّ، مفتاح العلوم، ص: 291، 295.

(2) الزّجاج، معاني القرآن وإعرابه: 5/68.

سرّ إيثار التّعبير بالأداة ﴿بَلْ﴾:

السِّحر أشدُّ من تسكير البصر

لمّا كان الحرف ﴿بَلْ﴾ للإضرابِ الانتقالي، أفادَ أنَّ ما بعده أعظم؛ ليؤذنَ بالانتقال لِما هو أشنع وأقبح وصفًا، وكأنَّه على سبيل التَّرقي، فوصفوا أنفسهم بأنَّهم مسحورون؛ لأنَّ تسكير البصر يُصِيبُ النَّظرَ، والسِّحرُ يُصِيبُ العقلَ والتأثير في جملة الجوارح، ومنها النَّظرُ، والمعنى: أنَّ الأمر لا يختصُّ بتسكير الأبصار، بل نحن قومٌ مسحورون في عقولنا وأبصارنا وجميعِ جوارحِنا[1].

دلالة إيثار التَّعبير بالجملة الاسميّة ﴿نَحْنُ قَوْمٌ﴾:

قَبَّحَ الكافرين في ادِّعاء استمرار السِّحر عليهم، لاستمرارِ ظهورِ الآياتِ

قوله: ﴿نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ﴾، وفيه أنّه عُبِّرَ بالجملة الاسميَّة لِما تفيدُه من دوام مضمونِها، بمعنى: نحن قومٌ دائمون على مسحوريَّتنا، لإبطالِ أيِّ حجَّةٍ ترد عليهم، وإيرادُ الجملة الاسميَّة بعد تسكير الأبصارِ لبيان إنكارِهم لغير ما يرونه، فإنَّ عروجَ كلٍّ منهم إلى السماء، وإنْ كان مرئيًّا لغيره؛ فهو معلوم بطريق الوجدانِ مع قطع النّظرِ عن الأبصار، فهم يدَّعون أنَّ ذلك نوعٌ آخرُ من السّحر غيرُ تسكير الأبصار[2].

سرُّ إيراد كلمة ﴿قَوْمٌ﴾ في السّياق:

لفظ القوم يدلُّ على القوّة والاعتداد

في قولِه: ﴿بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ﴾، وفيه إيراد كلمة ﴿قَوْمٌ﴾ هُنا دونَ أنْ يَقولوا: (بَلْ نَحْنُ مَسْحورونَ)؛ لِأنَّ ذِكْرَها يَقْتَضي أنَّ السِّحْرَ قَدْ تَمَكَّنَ مِنْهُمْ، واسْتَوَى فيهِ جَميعُهُمْ حَتَّى صارَ مِنْ خَصائِصِ قَوْميَّتِهِمْ، ولَمّا كان لفظ القوم يطلق عادةً على جماعة الرِّجال الذين يعتدُّ بهم، ويظاهر بعضهم بعضًا؛ عبَّروا به لِلإشعار بقوَّة السِّحر، فيناسب التَّرقي إلى الأعظم بعد ذكر تسكير الأبصار[3].

(1) ابن عطيّة، المحرر الوجيز: 3/353، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 11/130.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/70.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/25.

نكتة إيثار التَّعبير بـ﴿مَّسۡحُورُونَ﴾:

ادِّعاء السِّحر طريق للهروب من الحقيقة

للإيذان بأنَّهم يقولون: إنَّ كلَّ ما يرونه من الآيات المعجزات الباهرات هو باطلٌ خُيِّلَ إليهم بنوعٍ من السِّحر على سبيلِ التَّمويه والتَّزويق، وليس ثابتًا على الوجه الذي شاهدناه، فالحقيقة خلاف المرئيِّ[1].

القراءات في إبراز الاستعارة التّصريحية، في ﴿سُكِّرَتۡ﴾:

لفظ (سُكِّرِ) بالتّشديد تكثير في تسكير الأبصار، وبالتّخفيف مأخوذ من سُكرِ الشَّراب

قرأ السّبعة سوى ابن كثير ﴿سُكِّرَتۡ﴾، وقرأ ابن كثير ﴿سُكِرَتۡ﴾، فعلى قراءة التَّشديد يَحْتَمِلُ أنْ يكون اللَّفظُ مأخوذًا من السَّكْر؛ وهو سَدُّ الشِّقِّ لئلّا ينفجر الماء، ففي اللّفظ استعارة تصريحيَّة تبعيَّة، فَكَأَنَّ هَذِهِ الأَبْصارَ مُنِعَتْ مِنَ النَّظَرِ كَما يَمْنَعُ السَّكْرُ الماءَ مِنَ الجَرْيِ، ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ مأخوذًا من سُكْرِ الشّرابِ؛ ففيه استعارة تصريحية تَبَعِيَّةٌ أيضًا، بتشبيه ما اعترى الأبصار من خللٍ في إحساسِها وفسادٍ في النَّظر بما يعتري عقل السّكران، فيختلُّ إدراكُهُ، أيْ: إنَّ الأبصارَ حارت، ووقع بها من فساد النظر مثل ما يقع بالرّجل السَّكران من تغيُّر العقل وفساد اللُّبِّ، فـ ﴿سُكِّرَتۡ﴾ بالتّشديد على هذا التَّوجيه يراد به زيادة في المنعِ وتكثيرٍ في تسكير الأبصار، أيْ: مرَّةً بعدَ مرَّة على سبيل المبالغة، وأمّا على قراءة التَّخفيف؛ فاللَّفظ مأخوذ من سُكرِ الشَّراب، ويجري فيه الاستعارة المذكورة[2].

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 3: 208، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 11/131.

(2) الهداية إلى بلوغ النّهاية: 6/3869، والأزهريّ، معاني القراءات: 2/68، والواحديّ، التّفسير البسيط: 12/557، والزّمخشريّ، الكشّاف: 2/573، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 19/129، وابن الجزرّي، النّشر في القراءات العشر: 2/301، والآلوسيّ، روح المعاني: 7/266.

﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ١٦﴾ [الحجر: 16]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

إنَّ في السّماءِ لدلائلَ ظاهرةً على وجودِ الله وتَوحيدِه

لمّا أجابَ اللّه تَعالى عن شُبْهَةِ مُنْكِري النُّبوَّةِ، وكان قد ثَبَتَ أنَّ القَوْلَ بِالنُّبوَّةِ مُفَرَّعٌ على القَوْلِ بالتَّوْحيدِ أَتْبَعَهُ تعالى بِدَلائِلِ التَّوْحيدِ، ولَمّا كانَتْ دَلائِلُ التَّوْحيدِ مِنْها سَماويَّةٌ، ومِنْها أرْضيَّةٌ، بَدَأ مِنْها بِذِكْرِ الدَّلائِلِ السَّماويَّةِ فجاءت هذه الآية.

أو: لمّا ذكرَ اللّه تعالى أنَّهم لو رَأوا الآيةَ المذكورةَ في السّماءِ لَعانَدوا فيها، عَقَّبَ ذلك بهذه الآيةِ، فكأنَّه قال: وإنَّ في السماء لعِبَرًا منصوبةً غيرَ هذه المذكورةِ، وكفرُهم بها، وإعراضُهم عنها إصرارٌ منهم وعتوٌّ[1].

أو: لَمّا ذَكَرَ كُفْرَ الكافِرينَ وعَجْزَ أصْنامِهم ذَكَرَ كمالَ قُدْرَتِهِ ليَسْتَدِلَّ بها على وَحدانيَّتِهِ[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿بُرُوجًا﴾: الباءُ والرّاءُ والجيمُ أصلانِ: أحَدُهُما: البُروزُ والظُّهورُ، والآخَرُ: الوزَرُ والملْجَأُ، فالأوَّل: البَرَجُ: تباعدُ ما بَيْنَ الحاجِبَيْنِ، وكلُّ ظاهِرٍ مُرْتَفِعٍ فَقَدْ بَرَجَ؛ وإنَّما قيلَ للبُروج بُروجٌ لِظُهورِها وبَيانِها وارْتِفاعِها، أمّا الثّاني: فالبُروجُ: القُصور، الواحِدُ: بُرْجٌ، وبِهِ سمِّيت بُروجُ السَّماء أيضًا؛ لمنازِلِها المختصَّةِ بها[3]. قال الفَرّاءُ: اخْتَلَفوا في البُروجِ، فقالوا: هيَ النُّجومُ، وقالوا: هيَ البُروجُ المَعْروفَةُ، وقالوا: هي القُصورُ في السَّماءِ[4]. وقال الزَّجّاجُ: البُروجُ

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 3/354.
(2) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 10/9.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (برج).
(4) الفراء، معاني القرآن: 3/252.

الكَواكِبُ العِظامُ[1]. ومرجعُ الأقوال كلِّها إلى شيءٍ واحدٍ، وهو بُروزُ وظُهورُ شيءٍ ناصعٍ قويٍّ أو مرتفعٍ ضَخْمٍ، فالكواكبُ ظاهرةٌ، والقصورُ ظاهرةٌ[2]. والمقصودُ بالبروج في الآية: منازِلُ الكواكبِ والنُّجوم.

2) ﴿وَزَيَّنَّٰهَا﴾: أصْلُ (زين) يَدُلُّ عَلَى حُسْنِ الشَّيْءِ وتَحْسينِهِ[3]، أو: زيادةٍ مُحبّبةٍ تَعْلَقُ بظاهر الشّيءِ ناشئةٍ عمّا يزخرُ به باطنُه، ومن ذلك الأصلِ جاء المعنَى الشّائعُ للتّزيّنِ وهو: التَّحلّي بحِليةٍ مُجتلَبةٍ تقليدًا لِما هو ناشئٌ منَ البدنِ[4]، والزَّيْنُ: نقيضُ الشَّيْنِ. زانَه الحُسْنُ يَزينُه زَيْنًا، وازْدانَتِ الأرضُ بعُشبِها، وازَّيَّنَتْ وتَزَيَّنَتْ، والزّينةُ جامعٌ لكُلِّ ما يتزيّن به النّاسُ، وما يَحْسُنُ في أنْظارِهِم مِنْ طَرائِفِ الدُّنْيا، كالحُلِيِّ والجَواهِرِ[5]. والمقصودُ بالزّينة في الآية: ما يَحْصُلُ بِهِ الزَّيْنُ. والمرادُ: جُعِلَتْ هذه البُروجُ بِأشكالٍ تَقَعُ مَوقِعَ الحُسْنِ في الأنْظارِ.

3) ﴿لِلنَّٰظِرِينَ﴾: النَّظَرُ: تَأمُّلُ الشَّيءِ ومُعايَنَتُهُ، ثُمَّ يُسْتَعارُ ويُتَّسَعُ فيه، فَيُقال: نَظَرْتُ إلى الشَّيءِ أنظرُ إليه، إذا عاينْتَهُ[6] أو: مواجهةٌ بالعين بتَرقّبٍ وتهيّؤٍ للرّؤية، ويأتي النَّظَرُ بِمعنى الفِكْرِ والتَّأمُّلِ، يُقالُ: نَظَرْتُ في كلامِهِ، أي: فكَّرْتُ وتأمَّلْتُ[7]، والنّاظرُ: العَيْنُ نَفْسُها، أو: النُّقطةُ السَّوداءُ الصّافيةُ الَّتي في وَسَط سَوادِ العين وبها يَرى النّاظرُ ما يُرى[8]. والمقصودُ بالنَّظرِ في الآية: المُشاهَدةُ بالعَيْنِ، والاعتبارُ بالمُشاهَدِ. والمرادُ بالنّاظرين: الَّذين يتمَتَّعونَ بِمُشاهَدَتِها، ويعتبِرون ويتّعَظون بذلك[9].

المَعْنى الإجْماليُّ:

يبيِّنُ اللّه تعالى في هذه الآية كمالَ اقتدارِه ورحْمتِه بخلْقِه، بأن قد خَلَقَ في السَّماءِ الدُّنيا نُجومًا بمثابةِ مَنازِلَ للشَّمسِ والقَمَرِ في مَسيرِهما، وزيَّنَ السَّماءَ الدُّنيا بالنُّجومِ

(1) الزجاج، معاني القرآن: 4/73.
(2) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (برج)، وطنطاوي، التفسير الوسيط: 8/27.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (زين).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (زين).
(5) الخليل، العين، وابن عباد، المحيط في اللغة: (زين)، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/269.
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نظر).
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (نظر).
(8) ابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (نظر).
(9) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/29.

التَّنبيهُ إلى خلْقِ السَّماواتِ وما فيها من عَجيبِ التَّكوينِ

لِمَن يُبصِرُها، ولِمَن ينظُرُ إليها فيتأمَّلُها ويعتبِرُ، ويستدِلُّ بها على قُدرةِ خالِقِها ووَحدانيَّتِه ﷻ، والَّتي يَحارُ الفِكْرُ في دقائق صَنْعتِها، وقُدرةِ مُبدِعِها. ففي الآية إشارةٌ إلى ما للعُقول السَّليمةِ مِن قُدرةٍ على النَّظرِ في ملكوتِ الله، وارتيادِ مواقعِ العِبرة والعِظةِ مِن آياته المبثوثةِ في هذا الملكوتِ[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بَلاغةُ إقامةِ الحُجّةِ في هذه الآيةِ:

الكُفرُ بالله عِنادٌ ومُكابرةٌ

لمّا أخبرَ الله تعالى أنَّه لو فتحَ عليهم بابًا منَ السّماء ﴿لَقَالُوٓاْ إِنَّمَا سُكِّرَتۡ أَبۡصَٰرُنَا بَلۡ نَحۡنُ قَوۡمٞ مَّسۡحُورُونَ ١٥﴾ [الحجر: 15]، أعْجَزَهم بهذه الآيةِ، لِيُؤْذِنَ أنَّهم كاذِبون معانِدون، فآياتُ السّماءِ دائمةٌ وهم مُبصِرون لها كلَّ يوم، فدلَّ على أنَّهم لم يُؤمِنوا لعنادِهم ومُكابرتِهم وليس لعدَمِ وجودِ الآياتِ.

فائدةُ الوصْلِ بالواوِ في ﴿وَلَقَدۡ جَعَلۡنَا﴾:

ما بين أيدي النّاسِ من آياتٍ كافٍ في الدّلالةِ على توحيدِ الله

ناسبَ العطفُ بالواو في هذه الآيةِ لِمُناسبتِها ما قبْلَها في أنَّ الكلامَ على ما تضمّنَتْه السّماءُ منَ الآيات العظام على توحيدِ الله، والمعنَى بدلًا من أنْ يَطلُبوا الآياتِ منَ السّماءِ نُذَكِّرُهم بأنَّ الآياتِ قريبةٌ منهم وأمامَ أنظارِهم، وذلك في السّماءِ التي فوقَهم وما فيها من بُروجٍ، وكذلك النّجوم التي زَيَّنَ الله بها السّماءَ.

بَلاغةُ ذكْرِ الخبرِ وإرادةِ فائدتِه ولازمِه:

الآياتُ السّماويَّةُ الظّاهرةُ مُغنِيَةٌ عن طلَبِ خوارقِ العاداتِ

أفادَ الخبرُ إثباتَ أنَّ الله تعالى هو الذي جعلَ في السّماء بُروجًا، وليس غيرَه، وهو الذي زيّنَها للنّاظرين، ففيه إثباتٌ لفائدةِ الخبرِ، ولمّا كان الخبرُ الذي تضمّنَتْه الآيةُ معلومًا عندَ أغلبِ المُخاطَبين دلَّ على أنَّ المرادَ لِهؤلاء لازمُه أي لازمُ الفائدةِ، فيكونُ لِتذكيرِ المُخاطَبين

(1) ابن جرير، جامع البيان: 14/30، والشوكاني، فتح القدير: 3/151، والخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 7/224، والشنقيطي، أضواء البيان: 2/256.

بأنَّ هناك ما هو أعظمُ منَ الإتيان بالملائكةِ وفتحِ بابٍ منَ السماء، وهو أنّنا جعلْنا في السّماءِ بروجًا وزيّنّاها للنّاظرين، وهي آياتٌ دائمةٌ أمامَ أنظاركُم، والذي منعَكم منَ الانتفاعِ بها هو عنادُكم، ففي الآية استدلالٌ على مكابَرتِهم، فَإنَّهُم لَوْ أرادوا الحَقَّ لَكانَ لهم في دَلالَةِ ما هو أمامَ أبصارِهم غُنْيَةٌ عن تَطلُّبِ خَوارِقِ العاداتِ[1].

دَلالةُ التَّأكيدِ في قولِه ﴿وَلَقَدْ﴾:

ظهورُ الآياتِ السّماويَّةِ الدّائمةِ أذهلَ النّاسَ عنِ التّفكُّرِ بها

لمّا لم يَنتفعِ المُخاطَبون بما هو أمامَ أبصارِهم منَ الآياتِ العظيمةِ الظّاهرةِ الدّائمةِ على توحيدِ اللّه وبديعِ صُنعِه أُنزِلوا منزلةَ المُتردِّدين لذُهولِهم عنها، فافْتُتِحَ الخبرُ بمؤكِّدَين هما لامُ القسَمِ التي تفيدُ المبالغةَ في تأكيد الخبرِ، و(قَدْ) التي تفيدُ تحقيقَ مضمونِ الخبرِ وتقريرَه، ومَرجِعُ التَّأكيدِ إلى تَحقيقِ الاستدلالِ وإلى الإلجاءِ إلى الإقرارِ بذلك، ولمّا كانت جملةُ ﴿وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ﴾ معطوفةً على جملةِ ﴿جَعَلْنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا﴾ أفاد دُخولُ التأكيدِ على الجملةِ المعطوفةِ كذلك، إيذانًا بذُهولِهم عنِ الأمرَين معًا، وتقديرُ الكلام: وعِزّتي وجَلالي قد جعلْنا في السّماء بروجًا وقد زيّنّاها للنّاظِرين[2].

نُكتةُ التّعبيرِ بـ﴿جَعَلْنَا﴾:

إفادةُ لفظِ (جعل) معنَى الإيجادِ والإبداعِ

لمّا كانتِ البروجُ قد وُجِدت بعدَ تقدّمِ خلقِ السّماوات، وكان إيجادُها على وجهٍ يظهرُ فيه إبداعُ الخالقِ وعظمُ خلْقِه عبّرَ بلفظِ ﴿جَعَلْنَا﴾ الذي يدلُّ على الإيجادِ والإبداع؛ لِيناسبَ سياقَ الآيات في بيان توحيدِ اللّه وبديعِ خلْقِه.

فائدةُ التّعبيرِ بنونِ العظمةِ: ﴿جَعَلْنَا﴾ و﴿وَزَيَّنَّٰهَا﴾:

حُسْنُ النَّظرِ في خَلْقِ الله طريقٌ إلى تعظيمِه سُبحانه

أفادَ التّعبيرُ بنونِ العظَمةِ في الفعلَيْن وفي ما بعدَهما منَ الأفعالِ في هذا السِّياقِ تعظيمَ شأنِ فعْلِ اللّه ربِّ العالمين؛ لإبرازِ مزيدِ عنايةٍ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/27.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/27.

بفعْلِ الجعْلِ والتّزْيين هنا، فهو من فعلِ الملكِ الواحدِ الأحدِ، فيُفيدُ تعظيمَ الفاعلِ ﷻ، لحثِّ المُخاطَبين على النّظرِ فيها، والمعنَى: لا أحدَ يفعلُ مثلَ هذا الفعلِ غيرُ اللّه تعالى، تقريرًا لدلائلِ توحيدِ اللّه وعظَمتِه.

فائدةُ (ال) في قولِه: ﴿ٱلسَّمَآءِ﴾:

قُرْبُ الآياتِ الدّالّةِ على الله منَ النّاسِ

(ال) هنا للعهْدِ الذِّهنيِّ؛ للإيذانِ بأنَّ الكلامَ في السّماءِ المعهودةِ عندكم أيُّها المخاطَبون، فالآياتُ الدّالّةُ على إلهيَّة اللّه وتوحيدِه قريبةٌ منكم أمامَ أنظارِكم.

سِرُّ تقديمِ ﴿فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ على ﴿بُرُوجًا﴾:

لمْ يوجِدِ اللهُ البُروجَ إلّا في السّماءِ؛ لِتظهرَ الآياتُ أمامَ أنظارِ النّاسِ دائمًا

أفادَ تقديمُ الجارِّ والمجرورِ تخصيصَ جعْلِ البروجِ في السَّماء، وليس في موضعٍ آخرَ، بمعنى لم يوجِدِ اللّهُ البروجَ إلّا في السّماءِ، كما أفادَ التّقديمُ تأكيدَ الجعْلِ المذكورِ وتقريرَه، للإيذانِ بقُربِ الآياتِ وأنَّها أمامَ الأنظارِ.

فائدةُ حرف الجرّ في: ﴿فِي ٱلسَّمَآءِ﴾:

سَعةُ السّماءِ وعِظَمُ خلْقِها إذ حَوتِ البُروجَ فيها

أفادَ حرفُ الجرِّ ﴿فِي﴾ أنَّ السّماءَ ظَرفٌ للبروجِ، للإيذانِ بعِظمِ خلْقِ السّماءِ وسَعتِها.

دَلالةُ التّعبيرِ بلفْظِ ﴿بُرُوجًا﴾:

تعظيمُ شأْنِ السّماءِ لكونها من أعظم آيات الله تعالى

البروجُ هي المنازلُ، واحدُها بُرجٌ، وسُمّيَ بذلك لظُهورِه وارتفاعِه ووضوحِه، ولمّا كانت البروجُ في السَّماءِ دلَّ على عِظَمِ السَّماءِ وعُلوِّ شأنِها[1].

فائدةُ التَّنكيرِ في قولِه ﴿بُرُوجًا﴾:

الحثُّ على التّفكُّرِ في خلْقِ اللهِ وتقليبِ النّظرِ في السّماءِ

أفادَ التّنكيرُ تفخيمَ شأنِ البروجِ، بقرينةِ السّياقِ واقترانِ فعْلِ الجعْلِ بها، والمعنَى: ولقد جعلْنا في السّماء بروجًا عظيمةً

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 3/354.

كبيرةً ظاهرةً، للحثِّ على تقليبِ النّظرِ في السّماء والتّفكُّر في خلْقِه سُبحانَه.

دَلالةُ الضّميرِ في قوله: ﴿وَزَيَّنَّٰهَا﴾:

الظّاهرُ أنَّ الضّميرَ (ها) يعودُ إلى السّماءِ؛ لأنّها المُحدَّثُ عنها، ولكونِ الضّميرِ في قولِه: ﴿وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ﴾ عائدًا إلى السّماءِ كذلك، فيكونُ مرجعُ الضّميرِ في السّياق واحدًا، ولمّا كان الضّميرُ العائدُ إلى الاسْمِ يحملُ ما اتّصفَ به الاسْمُ منَ الأوصافِ دلَّ على أنَّ المعنَى: زيَّنا السّماءَ التي جعلْنا فيها بروجًا للنّاظرين، فيكونُ جعْلُ البروجِ في السّماء آيةً وتزْيينُها آيةً أخرى، ويَحتملُ أنْ يعودَ على البُروجِ؛ لأنَّها الأقْرَبُ في اللَّفْظِ فيكونُ التّزيينُ للبروجِ، والوجهُ الأوّلُ أوْلى وأظهرُ[1]، ولا مانعَ من إرادةِ المعنَيَيْنِ معًا على طريق الاشتراكِ اللّفظيِّ، بل إرادةُ المعنَيَيْنِ معًا أدْخَلُ وأمكَنُ في الاستدلالِ والامْتنانِ في وقتٍ واحدٍ، وأثرَى في المعنَى، فيكونُ جعْلُ البروجِ في السّماء آيةً، وتزْيينُ البروجِ آيةً ثانيةً، وتزْيينُ السّماءِ آيةً ثالثةً.

الإيجازُ بدَلالةِ ضميرٍ واحدٍ على جُملةٍ منَ المَعاني

نُكتةُ التّعبيرِ بلفْظِ ﴿وَزَيَّنَّٰهَا﴾:

في مجيءِ لفْظِ ﴿وَزَيَّنَّٰهَا﴾ في سياقِ الاستدلالِ على توحيدِ اللّه بعظيمِ فعْلِه وإيجادِه جمعٌ بين الاسْتِدْلالِ والامتنانِ وإدماجٌ لهما بنِعْمَةِ التَّمكينِ مِنْ مُشاهَدةِ المَرائي الحَسَنَةِ، ففيه حثٌّ على الإيمانِ باللّه تعالى وتوحيدِه ومقابلةِ النِّعم بالشُّكرِ، ثُمَّ يَتفاوتُ النّاسُ في إدْراكِ بديعِ صُنعِ اللّه وعظيمِ نِعَمِه على مِقْدارِ تَفاوُتِ عُلومِهم وعُقولِهم.

الجمْعُ بَيْنَ الاسْتِدْلالِ على توحيدِ اللّه والامتِنانِ له سبحانه

دَلالةُ التَّعبيرِ بصيغةِ التَّفْعيلِ في ﴿وَزَيَّنَّٰهَا﴾:

لمّا كان التّزْيينُ يرادُ به جعْلُ الشّيءِ زَيْنًا، وصيغةُ (زَيَّنَ) تفيدُ شدّةَ التَّحسين للشّيءِ، أي إظهارُ شدَّةِ حُسنِه دلَّ على أنَّه تعالى

إظهارُ شِدَّةِ حُسنِ السَّماءِ بتَزْيينِها، وشمولِ زينتِها كلَّ ما يُطلقُ عليه زينةٌ

(1) ابن جرير، جامع البيان: 17/77، والماتريدي، تأويلات أهل السنّة: 6/427، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 3/208، وأبو حيان، البحر المحيط: 6/471، والبقاعي، نظم الدرر: 11/32.

أظهرَ شدَّةَ حُسنِ السّماء بتَزْيينِها، ولمّا كانتِ الزّينةُ مُبهمةً صادقةً على كلِّ ما يُزانُ به شملتْ كلَّ ما يُطلقُ عليه زينةٌ في السّماءِ من صوَرٍ بديعةٍ وأشكالٍ رائعةٍ وأضواءٍ عجيبةٍ، ويدخل فيه ترتيبُها على نظامٍ بديعٍ مُستتبعٍ للآثارِ الحسنةِ[1].

فائدةُ تزْيينِ السّماءِ:

الحثُّ على النّظَرِ إليها والتّفكّر فيها، والثناء على المُزيّن ﷻ

لمّا كان ما يَقبحُ في العين منَ المنظرِ لا يَتفكّرُ النّاظرُ فيه ولا ينظرُ إليه؛ فزيَّنَها لهم؛ لِيحمِلَهم ذلك على التّفكّرِ فيها، والنّظرِ إليها؛ لِيعلَموا أنَّه تدبيرٌ واحدٌ؛ حيث جعلَ منافعَ السّماءِ مُتّصلةً بمنافعِ الأرض؛ مع بُعْدِ ما بينَهما، واقتضَى التّركيبُ الثّناءَ على المُزَيِّنِ سُبحانه، وعلى تَزْيينِهِ ومدْحَه؛ لأنّه أخبرَ أنَّه زيَّنَها للنّاظرين على جهةِ التّعظيمِ والتّفخيمِ ولا يحتملُ أن يُزيِّنها للنّاظِرين، ثمَّ يَنهَى عنِ النَّظرِ إليها، فلمّا كان الأمرُ كذلك أفادَ الحثَّ على النَّظرِ فيها وإليها[2]، للاستدلالِ بذلك على وَحدانيَّتِه سُبحانه والثَّناءِ عليه تعالى.

سببُ إيثارِ حذْفِ مُتعلّقِ الفعْلِ ﴿وَزَيَّنَّٰهَا﴾:

زينةُ السّماءِ مُتنوّعةٌ مُتكثّرةٌ لا يَملُّها النّاظِرون لبديع صنعتها

أفادَ حذفُ مُتعلِّقِ الفعلِ ﴿وَزَيَّنَّٰهَا﴾ العُمومَ، فلم يَذكرْ أنواعَ الزّينةِ منَ الأشكالِ والهيْئاتِ البهيَّةِ التي فيها؛ للإيذانِ بتنوُّعِها وتكثّرِها وعُمومِها، فزينةُ السّماءِ لا يملُّها النّاظِرون، فهي دالَّةٌ بتنوُّعِها وتكثُّرِها على قُدرةِ مُبدعِها وتوحيدِ صانِعِها.

دَلالةُ (ال) في قولِه ﴿لِلنَّٰظِرِينَ﴾:

شُمولُ وعُمومُ كُلِّ النّاظِرين دون تمايزٍ بينهم

في قوله ﷻ: ﴿وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ﴾، أفادت (ال) الاستغراقَ لتشملَ كُلَّ مَنْ يتَّصفُ بصِفةِ النّظرِ منَ المؤمنين والكفّارِ، ولا تقتصرُ على صنفٍ دون آخرَ، فتشملُ الرّؤيةُ والنّظرُ كلَّ البشرِ مؤمنِهم وكافرِهم.

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 3/208، والهرري، حدائق الروح والريحان: 15/27.
(2) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 6/427.

دَلالةُ قولِه تعالى: ﴿لِلنَّٰظِرِينَ﴾:

لمّا كان ﴿لِلنَّٰظِرِينَ﴾ مُشتقًّا منَ النّظر احتملَ أنْ يُرادَ به المُبْصِرون؛ لأنّ السّماءَ منَ المحسوسات الّتي لا تُدْرَكُ إلّا بنَظَرِ العَيْنِ، ولِمناسبةِ لفْظِ ﴿وَزَيَّنَّٰهَا﴾ لإدراكِ التّزْيين بالبصرِ، لأنَّ الأشْياءَ الزَّيْنَةَ هيَ حَسَنَةٌ في أعْيُنِ جميعِ النّاسِ ومحبَّبةٌ لهم، فَلا يَخْتَصُّ المؤمنون أو غيرُهم بِجَعْلِها لَهُم زَيْنَةً، أو أنْ يُرادَ به المُعتبِرون المُتفكّرون المُستدلّون بِها على قُدرةِ مُبدِعِها وتَوحيدِ صانِعِها[1]، فيكونُ المرادُ منَ النّظرِ نَظَرَ القَلبِ لِما فيها مِنَ الزّينَةِ المَعْنَويَّةِ، أي بترتيبِها على نظامٍ بديعٍ مُستتبعًا للآثارِ الحسَنةِ، فيكونُ المرادُ مَنِ انتفعَ بالتّزْيين على سبيلِ التّخصيصِ، وأمّا مَن لم ينتفعْ فكأنَّ نظرَه لا نَظرَ، ويُمكنُ الحمْلُ على المعنَيَيْنِ معًا على طريق الاشتراكِ اللفظيِّ، فيكونُ أثرَى في معنى الخطابِ.

مَن لم يَنتفعْ بالنّظرِ إلى السّماءِ فكأنَّ نظَرَه عَدَمٌ

دَلالةُ الاسْمِ المُشتقِّ ﴿لِلنَّٰظِرِينَ﴾:

المُشتقّاتُ مَعانيها كلّيّةٌ، فالتّعبيرُ بالاسْمِ المُشتقِّ يُفيدُ أنَّ مَن ينتفعُ من تَزْيين اللّه تعالى للسّماء كلُّ مَنِ اتَّصفَ بالنّظرِ، ففيه حثٌّ على النّظرِ إلى السّماء؛ لأنّه أخبرَ أنَّه زيَّنَها للنّاظرين، ولا يُتَصَوَّرُ أنْ يُزَيِّنَها للنّاظرين، ثمَّ ينهَى عنِ النَّظرِ إليها، فدلَّ على أنَّ السّياقَ يُفيدُ حثَّ كلِّ النّاسِ على النّظرِ إليها ومدْحَ النّاظرين المُعتَبِرين[2].

الحثُّ على النّظَرِ إلى السَّماءِ ومدحُ النّاظِرين المُعتَبِرين

فائدةُ حذْفِ مُتعلَّقِ قولِه ﴿لِلنَّٰظِرِينَ﴾:

لمّا كان الاسْمُ المشتقُّ ﴿لِلنَّٰظِرِينَ﴾ يحتملُ أنْ يتعدّى بـ(إلى) وبـ(في)، وحُذِفَ هذا المتعلَّقُ دَلَّ حَذْفُه على عموم التّعلّقِ[3]، ليفيدَ الحثَّ على النّظرِ في السّماء وإلى السماءِ، فإنْ كانَ التَّقديرُ (إلى

النّظرُ إلى السّماءِ طريقٌ للنّظرِ فيها والتّفكُّرِ في بديعِ خلَقِ اللّه

(1) ابن الجوزي، زاد المسير: 2/526، والرّازي، مفاتيح الغيب: 19/12، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 3/208، وأبو حيان، البحر المحيط: 6/471، والآلوسيّ، روح المعاني: 7/269، والهرري، حدائق الروح والريحان: 15/27.

(2) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 6/427.

(3) القنوجي، فتح البيان: 7/154.

السّماء) كانَ المرادُ منَ النّاظِرين النّظرَ بالبصرِ، وإذا كانَ التَّقديرُ (في السّماء)، كانَ المرادُ النَّظرَ بالقلبِ والعقلِ، وتقدَّمَ أنَّ الحمْلَ على المعنَيَيْن أثرَى لمعنَى الخطابِ، فالنّظرُ إلى السّماء طريقٌ للنّظرِ فيها وفي زينَتِها وبديعِ ما خلقَ اللّه فيها.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الجَعْلُ والخَلْقُ:

الجعْلُ هو الإنشاءُ والإبداعُ، والخلقُ هو الإنشاءُ والإيجادُ؛ لأنّ (خَلَقَ) فيه معنى التّقديرِ والتّسويةِ، كما أنَّ الجعْلَ يتوقَّفُ على موجودٍ مُغايرٍ للمجعولِ، بحيث يوجدُ المجعولُ بسببِ المخلوقِ الأوّلِ، أو يكونُ المجعولُ مَحسوسًا عنِ المخلوقِ الأوّلِ، بخلافِ (خَلَقَ) فإنَّ العبارةَ تقعُ كثيرًا به عمّا لم يتقدّمْ وجودَه وجودٌ مُغايرٌ يكونُ عنه الثّاني، فلكلِّ لفْظٍ سياقُه ودَلالتُه وإنِ اشتركا في معنَى الإنشاءِ[1].

الجعْلُ يُفيدُ معنَى الإبداعِ والخَلْقُ يُفيدُ معنَى الإيجادِ

(1) الغرناطي، ملاك التأويل: 1/97، والآلوسيّ، روح المعاني: 4/78.

﴿وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾ إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾﴾ [الحجر: 17 - 18]

مُناسَبَةُ الآيَتيْنِ لما قَبْلَهُما:

عِصْمةُ الوحْيِ مِنَ التّغييرِ أوِ الزّيادةِ أوِ النُّقصانِ

لمّا ذكرَ اللّه تعالى خلْقَ السّماءِ وما جعلَ فيها منَ البُروجِ والزّينَةِ أتبعَ كلامَه بذكْرِ عِصمةِ الوحْيِ من أن تتطرَّقَ إليه زيادةٌ أو نقصانٌ، لأنّ نزولَه منَ السّماءِ، فالعوالمُ التي يصدرُ منها الوحْيُ ويَنتقلُ فيها محفوظةٌ منَ الشّياطينِ المَرجومةِ، فيكونُ الكلامُ على طريقِ الإدماجِ للتّعليمِ أثناءَ الاستدلالِ على توحيدِ اللّه[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَحَفِظْنَٰهَا﴾: أصلُ الحِفْظِ: مُراعاةُ الشَّيْءِ، أو: احتياطٌ قويٌّ ضابطٌ للشّيءِ فلا يضيعُ ولا يتفلّتُ[2]، ويأتي الحِفْظُ بمعنى الرِّعايَةِ والعِنايَةِ والحمايةِ، وضِدُّهُ التَّضْييعُ والتَّفْريطُ، والحِفْظُ أيْضًا: التَّعاهُدُ وقِلَّةُ الغَفْلَةِ، وضِدُّهُ النِّسْيانُ، يُقالُ: حَفِظَ الكلامَ، أي: تَعاهَدَهُ ولَم يَنْسَهُ[3]، والحَفيظُ: الرَّقيبُ، والموكَّلُ بالشَّيْءِ يَحْفَظُهُ، وكذلك الحافِظُ، قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ﴾ [الشورى: 6][4]. والمقصودُ بالحفْظِ في الآيةِ: الرِّعايَةُ والعِنايَةُ والحمايةُ. والمُرادُ بالحِفْظِ مِنَ الشَّياطينِ الحِفْظُ مِن اسْتِقْرارِها وتَمَكُّنِها مِنَ السَّماواتِ[5].

2) ﴿رَّجِيمٍ﴾: أصلُ الرَّجْمِ: الرَّميُ بالحِجارةِ، والرِّجامُ:

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/29 - 30.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (حفظ).
(3) السمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (حفظ).
(4) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، وابن عباد، المحيط في اللغة، والزبيدي، تاج العروس: (حفظ).
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/30.

الحِجارةُ، يُقالُ: رُجِمَ فُلانٌ، إذا ضُرِبَ بالحِجارَةِ[1]، والرَّجْم أيضًا: السَّبُّ والشَّتْمُ، لأنّه رُمي بالقول القبيحِ الذي يُشبهُ الحجارةَ في قسوتِه، ومنه قَولُه تعالى حكايةً عَن أبي إبراهيمَ لإبراهيمَ عليهما السلام: ﴿لَأَرْجُمَنَّكَ وَٱهْجُرْنِي مَلِيًّا ﴿٤٦﴾﴾ [مريم: 46]، أي: لأسُبَّنَّكَ وأشْتُمَنَّكَ، والرَّجْمُ كذلك: اسْمٌ لِما يُرجَمُ به الشّيْءُ المرجومُ، وجمعُه: رُجومٌ. والرَّجيم في نعتِ الشَّيْطان المرجومُ بالنُّجوم[2]، والرَّجيمُ أيضًا: المُحَقَّرُ؛ لأنّ العَرَبَ كانوا إذا احْتَقَروا أحدًا حَصَبوهُ بِالحَصْباءِ[3]. والمرادُ بالرَّجيمِ في الآية: المَطْرودُ، وهو كنايَةٌ عَنِ الحَقارَةِ.

3) ﴿ٱسْتَرَقَ﴾: أصلُ (سرق): أخْذُ شَيْءٍ لغيره في خَفاءٍ وسَتْرٍ أو بِحيلةٍ، يُقال: سَرَقَ المالَ سَرَقاً وسَرِقَةً: إذا أخَذَهُ في خُفْيَةٍ وحيلَةٍ. فهو سارِقٌ. ويُقال: سَرَقَ أو اسْتَرَقَ السَّمعَ: إذا تَسَمَّعَ سِرًّا ومُختَفيًا. ومِمّا شَذَّ عَنْ هذا البابِ السَّرَقُ: جَمعُ سَرَقَةٍ، وهيَ القِطْعَةُ مِنَ الحَريرِ[4]، وكأنّها تسرقُ البصرَ من جمالِها، والمقصودُ باستراقِ السّمع في الآية: سَرِقَتُهُ. ووزنُ الافتعال للتَّكلُّفِ.

4) ﴿فَأَتْبَعَهُۥ﴾: أصْلُ (تبع): التُّلوُّ والقَفْوُ، يُقالُ تَبِعتُ فُلانًا إذا تَلوتَهُ، وأتْبَعْتُهُ إذا لَحِقْتَهُ[5] كأنَّما لَحِق أوِ التصق به وتَطَلَّبَه مُتّبِعًا له[6]. وتَبِعتُ الرَّجُلَ إذا مشيتُ مَعَه، واتَّبعتُه إذا مشيتَ خَلفَه لتلحقَه[7]. قال أبو عُبيد: ويُقال: أتْبَعْتُ القَومَ إذا كانوا قد سبقوك فلحِقتَهم. وأتبع فلانٌ فلانًا إذا تبعَه يُريد به شرًّا، كما أتبعَ فِرْعَوْنُ موسَى، والهَمزَةُ زائِدَةٌ، مثلَ هَمزَةِ أبانَ بِمَعْنَى بانَ. وأمّا التَّتبُّع فأنْ يتتبَّعَ في مُهْلة شَيئًا بعدَ شَيْءٍ[8]. والمرادُ بالاتّباع في الآية: اقتفاءُ أثَرِ الشَّيءِ بحيث لا يفوتُه. والمرادُ بقوله: ﴿فَأَتْبَعَهُۥ﴾ في الآية: لَحِقَهُ غَيْرَ مُفْلِتٍ له.

5) ﴿شِهَابٌ﴾: أصلُ (شهب): أصْلٌ واحِدٌ يَدُلُّ على بَياضٍ في شَيءٍ مِنْ سَوادٍ، ومِنْ ذلكَ:

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (رجم).
(2) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (رجم).
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/30.
(4) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (سرق).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (تبع).
(6) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (تبع).
(7) ابن دريد، جمهرة اللغة: (تبع).
(8) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة: (تبع).

الشُّهْبَةُ في الفَرَسِ، وهو بَياضٌ يُخالِطُهُ سَوادٌ[1]، تشبيهًا بالشِّهابِ المختلطِ بالدُّخان، ومنه قيل: كتيبةٌ شَهْباءُ: اعتبارًا بسَوادِ القَومِ وبياضِ الحَديدِ[2]. والشِّهابُ: الشُّعلةُ السّاطعةُ مِنَ النّار الموقدةِ، ومِنَ العارضِ في الجوِّ، والجميعُ الشُّهُبُ والشُّهْبانُ[3]. والمقصودُ بالشِّهاب في الآية: الشُّعْلَةُ مِنَ النّارِ الَّتي تَنْقَضُّ باللَّيْلِ شِبْهَ الكوكبِ.

المَعْنى الإجْماليُّ:

يُخبرُ الحقُّ ﷻ أنَّه قد حَرَسَ السَّماءَ الدُّنيا مِن كُلِّ شَيطانٍ ذَميمٍ محقَّرٍ مَطرودٍ مِن رَحمةِ اللّه؛ لئلّا يَسْتَمِعوا إلى الملأِ الأعلَى، لكن قد يتقدَّمُ بعضُ مرَدتِهم فيختطفُ بخُفْيةٍ خطفةً يسيرةً ممّا يَسمعُه مِنَ الملائكةِ مِنَ الأخبارِ والحوادثِ ممّا سِوى الوحْيِ، فيلحقُه شهابٌ مِنَ النّارِ مضيءٌ ظاهرٌ، فيقتلُه أو يُخبلُه أو يُحرِقُه[4].

حِفْظُ الله تعالى السَّماءَ من مَرَدةِ الشَّياطين آيةٌ من آياتِه

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

دَلالةُ الوصْلِ بالواو في: ﴿وَحَفِظْنَٰهَا﴾:

لمّا كانتِ الواوُ للعطف أفادتْ دخولَ الجملةِ المعطوفةِ في حيّزِ التّأكيد بـ﴿وَلَقَدْ﴾، لتكونَ معطوفةً على ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا﴾ والتّقديرُ: ولقد حفظْناها من كلِّ شيطانٍ رجيم، وأفادَ التّأكيدُ هنا إضافةً لِما تقدّمَ في دلالةِ ﴿وَلَقَدْ﴾ تحقيقَ حفْظِه تعالى للسّماء من كلِّ شيطانٍ رجيم وتقريرَه.

تأكيدُ حفْظِ الله للسّماءِ من أن يَصلَ منها شيءٌ إلى كلِّ شيطانٍ رجيمٍ

مُناسبةُ تقديمِ التّزْيين على الحفْظِ:

لمّا كان تزيينُ السّماءِ أظهرَ دلالةً على توحيدِ اللّه تعالى وبديعِ صُنعِه؛ لأنّه يعمُّ النّاظرين جميعًا، وكان حفظُها خاصًّا؛ لئلّا يَسترقَ

تقديمُ ما هو أعمُّ وأظهرُ دلالةً على توحيدِ الله ممّا هو أخصُّ وأخْفَى

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (شهب).
(2) الراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (شهب).
(3) ابن عباد، المحيط في اللغة، والراغب، المفردات: (شهب).
(4) ابن جرير، جامع البيان: 14/31، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 10/10-11، والسعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 430.

الشَّيطانُ السّمعَ قدَّمَ ما هو أعمُّ وأظهرُ على ما هو أخصُّ وأخفَى، فجاء قولُه تعالى: ﴿وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ﴾ على سبيلِ الإدماجِ لإفادةِ تمامِ المعنى، بعدَ إظهارِ عظمةِ إيجادِ البروجِ في السّماء وتزْيينِها للنّاظرين.

سببُ إيثارِ التّعبيرِ بلفْظِ الحفْظِ:

شُمولُ معنَى الحفْظِ للقُربِ منَ السّماءِ ولِدخولِها

لمّا كان الحفْظُ بمعنى تعهُّدِ الشّيءِ ومراعاتِه بحيث يبقَى كما هو معَ دوامِ المقصودِ منه، ومنعِ ما يُعطّلُ فائدتَه، قد يقال: لمَ عُبِّرَ بقولِه: ﴿وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ﴾، والشَّيْطانُ لا قُدْرَةَ له على هَدمِ السَّماءِ، فأيُّ حاجَةٍ إلى حِفظِ السَّماءِ مِنْهُ؟ والجوابُ: لمّا مَنَعَهُ مِنَ القُرْبِ مِنْها، فَقَدْ حَفِظَ السَّماءَ مِنْ مُقارَبَةِ الشَّيْطانِ، فَحَفِظَ اللّه السَّماءَ مِنْهُم، كَما قَدْ تُحْفَظُ مَنازِلُنا عَنْ مُتَجَسِّسٍ يُخْشَى مِنْهُ الفَسادُ، فيحتملُ أن يكونَ الحفْظُ بمعنى شاملٍ للقُربِ منها للاستماعِ ويحتملُ أن يكونَ بمعنى دُخولِها[1].

دَلالةُ قولِه ﴿وَحَفِظْنَٰهَا﴾:

أنَّ الشَّيطانَ لا يأتي منه إلّا الفسادُ

أفادَ التّعبيرُ بحفْظِ السّماءِ بيانَ أهمّيتِها وعُلوِّ شأنِها، لتَكَفُّلِ اللّه بحفْظِها، وزادَ الأمرَ اهتمامًا مجيءُ الفعلِ بصيغةِ التّعظيمِ باقترانِه بنونِ العظَمةِ، للإشعارِ بأنَّ الذي يحفظُها هو الملكُ الواحدُ الأحدُ، ولمّا كان حفظُها هو من كلِّ شيطانٍ رجيمٍ دلَّ على أنَّ الشَّيطانَ لا يأتي منه إلّا الفسادُ.

فائدةُ التّعبيرِ بـ﴿مِن﴾:

منعُ الشّياطينِ الوُصولَ إلى السّماءِ بغرضِ الاستراقِ

عبّرَ بحرفِ الجرِّ ﴿مِن﴾ الذي هو لابتداءِ الغايةِ؛ للإيذانِ بأنَّ حفْظَ السّماءِ ابتدأ من كلِّ شيطانٍ رجيمٍ، لِيُشعرَ بمنْعِهم منَ الوصولِ إليها ودخولِها، ومنَ الاقترابِ منها، إلّا فيمن اسْتُثْنِيَ كما سيأتي.

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 19/129.

فائدةُ لفْظِ ﴿كُلِّ﴾:

حظرُ دُخولِ السّماءِ يَشملُ جميعَ الشّياطين

أفادَ لفظُ ﴿كُلِّ﴾ العمومَ، ليشملَ كلَّ شَيطانٍ، ولمّا كان الحفْظُ لا يُقصدُ به الحفْظُ من ذاتِ الشّيْطان دلَّ على أنَّ المرادَ ما يُفيدُ معنى الدّخولِ والوقوفِ على أحوالِها، والمعنى: وحفظْناها من دُخولِ كلِّ شيطانٍ رجيمٍ واقترابِه، إذِ الحفْظُ لا يكونُ من ذاتِ الشّيطانِ[1].

نُكتةُ التّعبيرِ بلفْظِ ﴿شَيْطَانٍ﴾:

الدّلالةُ على حفْظِ الله تعالى السّماءَ منه مع عُتوِّه

الشّيطانُ فَيعالٌ منَ البُعدِ أو فَعْلان منَ الاحتراقِ، والرّاجحُ في معنى الشّيْطان هو البُعدُ، ولا مانعَ من إرادةِ المَعنَيَيْن فيه، فيكونُ المعنى: من كلِّ بعيدٍ منَ الخيرِ مُحترقٍ[2]، فإذا كان هذا الكافرُ العاتي المُتمرّدُ الشّديدُ القويُّ، القادرُ على التّشكّلِ بأشكالٍ مُختلفةٍ، القادرُ على الوُصولِ إلى السّماء قد حفِظَ اللّه بقُدرتِه السّماءَ منه فما دونَه في القوّةِ من بابٍ أولَى.

نُكتةُ التّعبيرِ بلفْظِ ﴿رَّجِيمٍ﴾:

الرّجيمُ هو المَطرودُ والمُبْعَدُ والقَبيحُ

لمّا كان الرّجمُ هو الرّميُ بالحجارة؛ لِيُفيدَ الطّردَ والإبعادَ والهُجرانَ، وكان المقصودُ بالرّمي بالحجارة القتلَ، فقيل للقتلِ رجمٌ، ولمّا كانَ الرّجمُ يأتي بمعنَى السّبِّ والشَّتم؛ لأنّه رميٌ بالقولِ القبيحِ، فُسِّرَ بكلِّ ذلك لفظُ ﴿رَّجِيمٍ﴾، وذلك أنَّ الرّميَ بالحجارةِ والقولَ القبيحَ يوجبُ هذه المعانيَ، فَسُمِّيَتْ رجمًا، فدلَّ على أنَّ الوصْفَ دالٌّ على معاني الرّميِ والطّردِ والإبعادِ والقُبحِ، ليُفيدَ التّحقيرَ[3].

دَلالةُ الوصْفِ بصيغةِ (فعيل):

المبالغةُ في وصْفِ الشّيطانِ بالطَّردِ والقُبحِ

لمّا كان ﴿رَّجِيمٍ﴾ بمعنى مَرجوم، أفادَ التّعبيرُ به بصيغَةِ فعيلٍ المُبالغةَ في الطّردِ والإبعادِ والشّتْمِ، وسواءٌ أكانَ الطّردُ بالرّجم

(1) البروسوي، روح البيان: 4/448، والهرري، حدائق الروح والريحان: 15/28.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 11/32.
(3) الواحدي، التفسير البسيط: 12/565، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 19/129، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/30.

بالشّهبِ أم بغيرِه، فصار وصْفُ الرّجيم صفةً ثابتةً له مع المبالغةِ في المعنى[1].

دَلالةُ مجيءِ ﴿رَّجِيمٍ﴾ صفةً للشّيطانِ:

كلُّ شَيْطانٍ هو رجيمٌ

وردَ اللّفظُ ﴿رَّجِيمٍ﴾ صفةً لموصوفٍ نَكرةٍ على معنى التّوضيحِ والبيانِ، وللإشعارِ بتعليقِ الحُكمِ على الوصْفِ، فالشّيطانُ لا يستطيعُ أن يَقتربَ منَ السّماءِ بلهَ الدّخولَ فيها، فهو مطرودٌ مُبعَدٌ، فليست صفةُ النَّكرةِ هنا قيدًا مُقيّدًا للنّكرة لإخراجِ غيرِ الرّجيم، بمعنى أنَّه يوجدُ شيطانٌ رجيمٌ وآخرُ غيرُ رجيم، فإنَّ كلَّ شيطانٍ رجيمٌ.

دلالةُ الاستثناءِ في: ﴿إِلَّا مَنِ ٱسۡتَرَقَ ٱلسَّمۡعَ﴾:

أقصَى ما يصلُ إليه الشّيطانُ أن يَسترقَ السّمعَ خُفيَةً، وهو بتقديرِ الله

تنوّعتْ عباراتُ المُفسّرين في بيان نوعِ الاستثناءِ من دون بيانِ سببِ الخلافِ، مع أنَّ المعنى يختلفُ على وَفْقِ التّوجيه، ونوجزُ بيانَ المسألة فنقولُ: يحتملُ أنْ يكونَ الاستثناءُ متّصلًا، كما يحتملُ أن يكونَ مُنقطعًا، ومناطُ الاختلافِ في بيان معنَى الحفْظِ في قولِه تعالى ﴿وَحَفِظۡنَٰهَا﴾، فإذا كان المرادُ من حفْظِ السّماءِ دخولَها، كان التّقديرُ: وحفظْنا السّماءَ التي جعلْنا فيها بروجًا من دُخول كلِّ شيطانٍ رجيم، وكان الاستثناءُ مُنقطعًا، والمعنى: حفظْنا السّماءَ من دخولِ كلِّ شيطانٍ رجيم، لكنْ من استرقَ السّمعَ فأتبعَه شهابٌ مبينٌ، ودليلُ هذا التّوجيهِ أنَّ إقْدامَهُم على اسْتِراقِ السَّمعِ لا يُخْرِجُ السَّماءَ مِنْ أنْ تَكونَ مَحْفوظَةً مِنْهُم إلّا أنَّهُم مَمنوعونَ مِنْ دُخولِها، وإنَّما يُحاوِلونَ القُرْبَ مِنْها، فلا يكونُ الاستراقُ دخولًا، ولا يَصِحُّ أنْ يَكونَ اسْتِثْناءً متَّصِلًا، وإذا كان المرادُ منَ الحفْظِ الدّخولَ في السّماء ويشملُ ذلك الاقترابَ منها، أي منْعَ الشّياطين منَ التّعرّضِ لها على الإطلاقِ والوقوفِ على ما فيها في الجملةِ، كانَ استثناءً متّصِلًا، وتكونُ ﴿مَنِ﴾ مُستثْنًى منصوبًا، والمعنى: حفظْنا السّماءَ التي جعلْنا

(1) الزجاج، معاني القرآن وإعرابه: 3/176، وابن عطية، المحرر الوجيز: 3/355.

فيها بروجًا من دخولِ كلِّ شيطانٍ مرجومٍ ومن اقترابِه منها إلّا منِ استرق السّمعَ منَ الشياطين، ويؤيّدُ وجهَ الاستثناءِ المتّصلِ أنَّ (الفاء) في قوله: ﴿فَأَتۡبَعَهُۥ شِهَابٞ مُّبِينٞ﴾ تفيدُ ترتّبَ ما بعدَها على ما قبْلَها، والمعنى العامُّ على الوجهَيْن يفيدُ أنَّ أقصَى ما يَصلُ إليه الشّيطانُ الرَّجيمُ أن يَسترقَ السّمعَ، أي أن يأخذَ معلوماتٍ عن طريقِ الخُفيةِ كمن يَسترقُ السَّمعَ، والاستراقُ بتقديرِ اللّه وحُكمِه[1].

بَلاغةُ الاستعارةِ: ﴿ٱسۡتَرَقَ ٱلسَّمۡعَ﴾:

التّنبيهُ على دِقَّة كيْدِ الشّيطانِ وخُبْثِ وَسْوسَتِه

شُبّهتْ خَطْفَتُهم اليَسيرةُ للكلامِ من قُطّانِ السّماواتِ باستراقِ السّمعِ الذي هو بمعنى اخْتلاسِه سرًّا وبلطفٍ، ووجْهُ الشّبهِ هو التّسمّعُ بتخفٍّ، فيكونُ حالُه كحالِ الذي يأخذ شيئًا ليس له في خفاءٍ وبلُطفٍ، فجاء الكلامُ على طريق الاستعارةِ التّصريحيّةِ التّبعيّةِ، ونُكتتُه التّنبيهُ على دِقَّةِ كيدِه وخُبثِ وَسْوستِه[2].

فائدةُ التّعبيرِ بصيغةِ الافتعال ﴿ٱسۡتَرَقَ﴾:

اجتهادُ الشّيطانِ في تحصيلِ سَرقةِ المَسموعِ لسَعْيِه في الشّرِّ

أفادَ التّعبيرُ بلفظِ ﴿ٱسۡتَرَقَ﴾ أنّه اجتهدَ في تحصيلِ سرقةِ المَسموعِ، وبالغَ في اجتهادِه في ذلك، وتكلَّفَ فيه، للإشعارِ باجتهادِه في سَعْيِه إلى السّوءِ والشّرِّ وتكلُّفِه فيه[3].

فائدةُ التّعبيرِ بالمصدَرِ: ﴿ٱلسَّمۡعَ﴾:

استراقُ الشّيطانِ كلَّ ما يَقدرُ على سمْعِه

لمّا كان المرادُ استراقَ المَسموعِ كان التَّعبيرُ بالمصدَرِ عنِ اسْمِ المفعولِ للمبالغةِ في حرْصِ الشّيطانِ على استراقِ كلِّ ما يستطيعُ أن يَسمعَه منَ الكلامِ، وعَبَّرَ بالسّمعِ على معنى المَسموعِ؛ لأنّه كلامٌ يسمعُه الشّيطانُ، ثم يُخْبِرُ به فيُؤَوَّلُ إلى كونِه مسموعًا[4].

(1) ابن جرير، جامع البيان: 17/77، والزجاج، معاني القرآن وإعرابه: 3/176، والزمخشري، الكشاف: 2/574، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 19/130، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/71.

(2) الزمخشري، أساس البلاغة: (سرق)، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/71.

(3) الرضي الأستراباذي، شرح شافية ابن الحاجب: 1/110، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/30.

(4) البروسوي، روح البيان: 4/449، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/30.

نُكتةُ التّعبيرِ بلفْظِ ﴿فَأَتۡبَعَهُۥ﴾:

سبْقُ الشّيطانِ للشِّهابِ لا تَمنعُ لُحوقَ الشِّهابِ به

عَبَّرَ بـ﴿فَأَتۡبَعَهُۥ﴾ دونَ (تبعه)؛ لأنّ دخولَ همزةِ التّعديةِ على الفعلِ المُتعدّي (تبع) أفادَ أنَّ الشّيطانَ قد سبقَ فتَبعَ الشّهابُ أثرَه فلحقَه أو أدركَه[1].

دَلالةُ قولِه ﴿مُّبِينٌ﴾:

الشِّهابُ المُبينُ هو الظّاهرُ للنّاظِرين

لمّا كان المبينُ على صيغةِ اسْمِ الفاعلِ بمعنى مُبينٍ للنّاظرين؛ أفادَ أنَّه ظاهرٌ بيّنٌ[2]، فالشّيءُ لا يكونُ مُبينًا لغيرِه إن لم يكن بيِّنًا في نفسِه، وفي لفظِ ﴿مُّبِينٌ﴾ تضادٌّ في المعنى للفظِ ﴿ٱسۡتَرَقَ﴾ الذي يكون بخُفيةٍ، ففيه معنى المُقابلةِ في المعنى.

بَلاغةُ لازمِ الفائدةِ في: ﴿فَأَتۡبَعَهُۥ شِهَابٞ مُّبِينٞ﴾:

الشُّهُبُ المُتساقِطةُ في السّماءِ هي رجومٌ للشّياطين المُسْترِقةِ

لمّا أخبرَ اللّه تعالى أنَّ منْ يَسترقُ السّمعَ منَ السّماءِ يَتبعُه شهابٌ مُبينٌ أفادَ تَعْليمَ المخاطَبين، ومَن كان وقتَ نزولِ القرآن بالأولويَّة، بِأنَّ الشُّهُبَ الَّتي يُشاهِدونَها مُتَساقِطَةً في السَّماءِ هي رُجومٌ لِلشَّياطينِ المُسْتَرِقَةِ، طَرْدًا لَها عَنِ اسْتِراقِ السَّمعِ كامِلًا، فَقَدْ عَرَفَ النّاسُ ذَلِكَ مِنْ عَهْدِ الجاهِليَّةِ ولَم يَعْرِفوا سَبَبَهُ[3].

(1) الجوهري، الصحاح: (تبع)، والآلوسيّ، روح المعاني: 7/270.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/30.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/30.

﴿وَٱلۡأَرۡضَ مَدَدۡنَٰهَا وَأَلۡقَيۡنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيۡءٖ مَّوۡزُونٖ ١٩﴾ [الحجر: 19]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

المُقايَسةُ بالنّظرِ إلى السّماءِ والأرضِ اسْتِدلالٌ على أُلوهيَّةِ الله وتَوحيدِه

لمّا ذكرَ اللّه تعالى آيةَ السّماءِ على تَوحيدِه وتفرُّدِه بالإلهيَّةِ ثنّى بآيةِ الأرضِ، لِمناسبةِ المُضادّةِ والمُقابلةِ[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مَدَدۡنَٰهَا﴾: (مدّ): أصْلٌ واحِدٌ يَدُلُّ على جَرِّ شَيءٍ في طولٍ، واتِّصالِ شَيءٍ بِشَيءٍ في اسْتِطالَةٍ[2]، تَقولُ: مَدَدْتُ الشَّيءَ أَمُدُّهُ مَدًّا. ومَدَّ النَّهْرُ، ومَدَّهُ نَهْرٌ آخَرُ، أي: زادَ فيهِ وواصَلَهُ فَأطالَ مُدَّتَهُ[3]. ومنه: المُدّة للوقتِ المُمتدّ[4]. ومدَّ اللّهُ الأرضَ يَمُدُّها مَدًّا بَسَطَها وسَوّاها، ويُقالُ: مَدَدْت الأرض مَدًّا إذا زِدت فيها تُرابًا أو سَمادًا مِنْ غَيْرِها ليَكونَ أعمَرَ لَها وأكثرَ رَيْعًا لِزَرْعِها، والمِدادُ: ما يُكْتَبُ بِهِ، لِأنَّهُ يُمَدُّ بِالماءِ. ومَدَّه في غَيِّه، أي: أمهلَه وطَوَّلَ لَهُ[5]، والمقصود بالمَدِّ في الآية: البَسْطُ والسِّعَةُ.

2) ﴿وَأَلۡقَيۡنَا﴾: أصْلُ (لقي) يَدلُّ على طَرْحِ شَيْءٍ[6]، واللَّقى: الشَّيْءُ المُلْقى المَنْبوذُ[7]، والإلْقاءُ: طَرْحُ الشَّيءِ حيث تلقاه، أي: تراه، ثمَّ صارَ في التَّعارفِ اسمًا لكلِّ طَرْحٍ[8]، ويُطلَقُ على الإفْضاءِ بالكلامِ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 11/34، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/35.
(2) وعبّر محمد حسن جبل عن ذلك بأنه استطالة جِرم الشيء في نفسه أو باتصاله بغيره، فيزيده طولا أو قدرا. يُنظر: جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (مد).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (مد).
(4) الراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (مد، مدد).
(5) ابن منظور، لسان العرب: (مدد).
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (لقي).
(7) ابن عباد، المحيط في اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة: (لقي).
(8) الراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ، والزبيدي، تاج العروس: (لقى).

﴿يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ﴾ [الشُّعراء: 223]، وعلى حُصولِ الشَّيءِ في النَّفْسِ كأنَّ مُلقيًا ألقاهُ، أي: مِنْ غير سَبْقِ تهيُّؤ: ﴿وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ﴾ [المائدة: 64][1]، والمُرادُ بالإلقاء في الآية: تَمثيلٌ لتكوينِ أجسامٍ بارزةٍ على الأرضِ مُتَباعِدٌ بعضُها عَنْ بعضٍ؛ لأنّ حَقيقَةَ الإلقاءِ: رميُ شَيءٍ مِنَ اليَدِ إلى الأرضِ، وهذا استِدلالٌ بِخِلْقَةِ الجِبالِ في الآية[2].

3) ﴿رَوَاسِيَ﴾: أصلُ (رسا): يَدُلُّ على ثَباتٍ. تَقولُ رَسا الشَّيْءُ يَرْسو، إذا ثَبَتَ، وأرساه غيرُه[3]، والرَّواسي مِنَ الجِبالِ: الثَّوابتُ الرَّواسخُ؛ قال الأخفشُ: واحِدَتُها راسيةٌ[4]. ورَسَتْ قَدَمُه: ثَبَتَتْ في الحَرْب. ورَسَتِ السَّفينةُ تَرْسو رُسوًّا: بَلَغَ أسفلُها القَعْرَ وانْتَهى إلى قرارِ الماءِ فَثَبَتَت وبَقيَتْ لا تَسيرُ، وأرْساها هو[5]. والرَّسِيُّ: العَمودُ الثّابت في وسَط الخِباء[6]، وألقى مراسِيَه كنايةً عنِ الإقامة[7]. والمقصودُ بالرُّسوِّ في الآية: الثَّباتُ والقَرارُ.

4) ﴿وَأَنۢبَتْنَا﴾: أصلُ (نبت): أصْلٌ واحِدٌ يدُلُّ على نَماءٍ في مَزْروعٍ، ثُمَّ يُسْتَعارُ. فالنَّبْتُ مَعروفٌ، يُقالُ نَبَتَ، وأنْبَتَتِ الأرْضُ[8]. ونَبَّتَ الزرعَ والشَجرَ تَنْبيتًا إذا غَرَسَه وزَرَعه. ونَبَّتُّ الشجرَ تَنْبيتًا: غَرَسْتُه، والنّابتُ مِنْ كُلِّ شيءٍ: الطَّريُّ حينَ يَنْبُتُ صَغيرًا؛ وما أحْسَنَ نابتةَ بَني فُلانٍ، أي: ما يَنْبُتُ عليهِ أموالُهم وأولادُهم. ونَبَتَتْ لَهُم نابتةٌ إذا نَشأ لَهُم نَشءٌ صغارٌ، وإنَّ بَني فُلانٍ لنابتةُ شَرٍّ، والنوابتُ مِنَ الأحداثِ: الأغْمارُ[9]. والمقصود بالإنباتِ في الآية: تكوينُ النَّباتِ.

5) ﴿مَّوْزُونٍ﴾: أصلُ (وزن): بِناءٌ يَدُلُّ على تَعْديلٍ واسْتِقامَةٍ، أو: ثِقَلُ الشّيءِ مع عدم انتشار أبْعادِه، ولا يكونُ ذلك إلا بتعديلٍ واستقامةٍ، وزَنْتُ الشَّيْءَ وزْنًا. يُقالُ: قامَ ميزانُ النَّهارِ، إذا انْتَصَفَ النَّهارُ، وهذا يوازِنُ ذلكَ، أي: هو مُحاذيهِ، ووزينُ الرَّأي: مُعتَدِلُهُ[10]،

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/123.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/288.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (رسا)، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (رسو).
(4) الأخفش، معاني القرآن: 2/401.
(5) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (رسا).
(6) الأزهري، تهذيب اللغة: (رسا).
(7) السمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (رسا).
(8) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نبت).
(9) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (نبت).
(10) ابن فارس، مقاييس اللغة، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (وزن).

والوزْنُ: فِعْلُ الوزّانِ ما يَزِنُ بالميْزانِ[1]، والوزْنُ أيضاً: الاعْتِدالُ والاسْتِقامَةُ، ومنه قَوْلُهُم: وزَنَ فُلانٌ كَلامَهُ، أيْ: تَكَلَّمَ باعْتِدالٍ، والجمعُ: أوْزانٌ[2]. ولفظُ ﴿مَّوْزُونٍ﴾ في الآية: مُسْتَعارٌ لِلْمِقْدارِ المَضْبوطِ. أي: مُقدَّرٌ بمقدارٍ مُعيَّنٍ، وموزونٌ بميزانِ الحكمةِ، بحيث تتوافرُ فيه كلُّ معاني الجمالِ والتَّناسُقِ[3].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

جعلَ الله تعالى كلَّ شيءٍ في الحياةِ موزونًا بقَدَرٍ معلومٍ

بعد أن ذَكَرَ اللّه تعالى الدَّلائلَ السَّماويّةَ على وَحدانيّته أتْبعَها بذكرِ الدَّلائلِ الأرضيّةِ، فقال: والأرضَ بَسَطْناها، ووسَّعْناها سَعةً تتمَكَّنُ المخلوقاتُ فيها منَ الامتدادِ بأرجائِها، والتَّناوُلِ مِن أرزاقِها، والسُّكونِ في نواحيها، وجعَلْنا فيها جِبالًا ثابتةً تُمسِكُ الأرضَ؛ لِئلّا تَضطَرِبَ بأهلِها، وأوْجَدْنا في الأرضِ مِنْ كُلِّ شيءٍ مُقَدَّرٍ بقَدْرٍ مَعْلومٍ، بقصدٍ وإرادةٍ[4].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

فائدةُ الوصلِ بالواو: ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا﴾:

دَلائلُ التّوحيدِ ظاهرةٌ في الأرضِ كما هي في السّماءِ

لمّا كانت الواوُ للعطف؛ فقد أفادت دُخولَ الجُملةِ المعطوفةِ في حيّزِ التّأكيدِ بـ﴿وَلَقَدْ﴾، لتكونَ معطوفةً على ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا﴾[5]، وأفادَ التّأكيدُ هنا إضافةً لما تقدّمَ في دلالةِ ﴿وَلَقَدْ﴾ تحقيقَ مدِّ اللّه تعالى للأرضِ وتقريرَه؛ إظهارًا لدلائلِ التّوحيدِ.

مُناسبةُ الوصْلِ في الآية:

المقابلةُ بين إبداعِ اللهِ تعالى في السّماءِ وفي الأرضِ

لمّا ذكرَ في الآيةِ السّابقةِ أنَّه تعالى جعلَ بروجًا في السّماءِ ثابتةً

(1) ابن عباد، المحيط في اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (وزن).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (وزن).
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/35، وطنطاوي، التفسير الوسيط: 8/30.
(4) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 10/13، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/529، والسعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 430.
(5) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/71.

فيها وأنَّه زيّنَها للنّاظِرين قابلَ هذه الآياتِ في السَّماء بذكرِ مدِّ الأرضِ وإلقاء الجبالِ فيها؛ لتكونَ مركوزةً في الأرضِ، وأنَّه أنبتَ فيها النّباتَ لنفعِ الخلْقِ، وليكونَ زينة للأرض كذلك، فيكونُ بمثابةِ المقابلة بين فعلِ اللّه في السّماء وفعْلِه سُبحانه في الأرضِ.

فائدة (ال) في: ﴿وَٱلۡأَرۡضَ﴾:

(ال) هنا للعهدِ الذّهنيّ؛ للإيذانِ بأنَّه كما أنَّ الآياتِ الباهراتِ التي في السّماء معهودةٌ عندكم قريبةٌ منكم، فكذلك الآياتُ التي في الأرضِ معهودةٌ عندكم وهي أمامَ أنظارِكم.

دلائلُ التّوحيدِ ظاهرةٌ لِمَن أعمَلَ نظرَه واعتَبرَ

دَلالةُ التّعبيرِ بالتّركيبِ ﴿وَٱلۡأَرۡضَ مَدَدۡنَٰهَا﴾:

لمّا جاء لفظُ ﴿وَٱلۡأَرۡضَ﴾ منصوبًا دلَّ على أنَّه مفعولٌ لفعلٍ محذوفٍ دلَّ عليه المذكورُ، فالفعلُ المذكورُ فسَّر المحذوفَ، وتقديرُ الكلامِ: ومددْنا الأرضَ مددْناها، وفيه برزَ الكلامُ في معرضِ الاعتدالِ نظرًا إلى إيجازِه في اللّفظ من وجهٍ، بسبب الفعلِ المحذوفِ، وإلى إطنابِه من وجهٍ آخرَ نظرًا إلى أنّ الجملةَ على نيَّة التَّكرار، ومنَ الإطنابِ كذلك التّفصيلُ بذكْرِ الفعْلِ ومُتعلَّقاتِه بعد الإجمالِ بذكرِ الأرَضِ[1].

تقريرُ المعنى في الأذهانِ بطريقِ الإجمالِ ثمّ التّفصيل

فائدةُ مجيءِ الجُملة فعليَّةً في ﴿وَٱلۡأَرۡضَ مَدَدۡنَٰهَا﴾:

لمّا كانت هذه الجملةُ الفعليَّةُ معطوفةً على الجُملةِ الفعليَّة في قولِه تعالى: ﴿وَلَقَدۡ جَعَلۡنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجٗا﴾[2]، جاءَ الكلامُ بصيغةِ الجُمَلِ الفعليَّةِ تقريرًا للآياتِ بذكْرِ أفعالِ اللّه بما تدلُّ عليه آثارُها على أُلوهيَّتِه سُبحانَه وتوحيدِه وعظيمِ قُدرتِه وبديعِ خلْقِه.

آثارُ أفعالِ اللهِ دالَّةٌ على توحيدِه وبديعِ صُنعِه

سببُ إيثارِ المدِّ في ﴿وَٱلۡأَرۡضَ مَدَدۡنَٰهَا﴾:

لم يقُلِ اللّه تعالى هنا (والأرضَ دحوناها) كما جاء في آيةٍ أخرى في قولِه ﴿وَٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ٣٠﴾ [النازعات: 30]؛

إلقاءُ الرَّواسي وإنباتُ النّباتِ يُناسبُ المدَّ دونَ غيرِه

(1) السكاكي، مفتاح العلوم، ص: 284.
(2) ابن عادل، اللباب في علوم الكتاب: 11/442.

لمناسبة إلقاء الرّواسي وإنباتِ ضروبِ النّباتِ لمدِّ الأرضِ الذي هو بمعنى البسْطِ.

سِرُّ التّعبيرِ بـ(نا) في ﴿مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا﴾:

عبّرَ بـ(نا) الدّالّةِ على تعظيمِ الفاعلِ في الفعلَيْن (مَدَّ وألْقَى)؛ للإشارة إلى أنّه لا يَقدرُ على خلْقِ الشّيءِ العظيمِ وإبداعِه إلّا العظيمُ سُبحانه.

الدّلالةُ على وجوبِ تعْظيمِ الخلّاقِ المبدعِ سبحانه

دَلالةُ (في) في: ﴿وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ﴾:

لمّا كان حرفُ الجرِّ (في) يفيدُ الظّرفيّةَ المكانيَّةَ هنا دلَّ على أنَّ الأرضَ التي مُدَّت صارتْ ظرْفًا للجبالِ الرَّواسي، بمعنى أنَّ الجبالَ قد تمكّنت منَ الأرضِ وثَبتَت فيها، وفي ذلك إشارةٌ عجيبةٌ إلى بديع صُنعِ اللّه سُبحانه في كوْنِ جُزءٍ من هذه الجبالِ في باطن الأرض؛ لتتمكّنَ منَ الرُسوِّ في الأرض وتَثبيتِها.

ثباتُ الجبالِ دليلٌ على بديعِ خلْقِ الله وعظيمِ صُنعِه

بديعُ إيثار الضَّميرِ في ﴿وَأَلْقَيْنَا فِيهَا﴾:

لما كانَ حصولُ الجبلِ يقعُ في جانبٍ في الأرضِ دونَ آخرَ دلَّ على أنَّ الضّميرَ العائدَ إلى الأرضِ في قولِه ﴿فِيهَا﴾ على معنى بعضِ مواضعِ الأرضِ، ففي التّعبيرِ استخدامٌ بَلاغيٌّ، بعَوْدِ الضّميرِ في قوله تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا﴾ على الأرضِ بمعنى جميعِ الأرضِ، وعودِ الضّميرِ في قولِه: ﴿وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ﴾ على الأرضِ بمعنى بعضِ مواضعِ الأرضِ؛ لأنّ الإلقاءَ لم يَستوعبْ جميعَ الأرضِ، فأفادَ الضّميرانِ العائدانِ على الأرضِ معنَيَيْن، أحدُهما إرادةُ الكلِّ والثّاني إرادةُ الجُزءِ؛ إيجازًا في الكلامِ، وللإشعار بأثرِ الرّواسي على الأرضِ كلِّها، وإن لم تكن في كلِّ الأرضِ، فإلقاءُ الجبالِ الرَّواسي في بعضِ مواضعِ الأرضِ، وأثرُ ذلك ونفْعُه يَعمُّ جميعَ الأرضِ.

الرّواسي في بعضِ مواضعِ الأرضِ وأثرُها يَعمُّ جميعَ الأرضِ

فائدةُ تقديمِ ﴿فِيهَا﴾:

لمّا كان أصلُ الكلامِ: وألقَيْنا رواسيَ فيها؛ أفادَ تقديمُ الجارِّ

تنبيهُ المُخاطَبين إلى عِظَمِ إلقاءِ الرّواسي والأثرِ المُترتّبِ على ذلك

والمجرورِ على المفعول به تأكيدَ الإلقاءِ في الأرضِ من غيرِ تخصيصٍ؛ ليُفيدَ التّأكيدُ التّنبيهَ إلى عِظَمِ إلقاء الرّواسي في الأرضِ، وعظيمِ أثرِ ذلك فيها.

دَلالةُ قولِه تعالى ﴿وَأَلْقَيْنَا﴾:

لمّا قال تعالى: ﴿وَأَلْقَيْنَا﴾ دلَّ على أنَّ ثباتَ الأرضِ ليس بسببِ ثِقلِ الجبالِ الرّواسي، بل مآلُه إلى فعْلِ اللّه تعالى وقُدرتِه، فهو أكملُ في التّعبيرِ عن كمالِ قُدرةِ اللّه تعالى.

ثبـاتُ الأرضِ مآلُه إلى قُـدرةِ اللهِ المُطْلَقةِ

بَلاغةُ قولِه ﴿وَأَلْقَيْنَا﴾ بين الكنايةِ والاستعارةِ:

لمّا كان إلقاءُ الشّيءِ على معنى طرْحِه؛ إشعارًا بخفَّتِه، عُبِّرَ عن جعْلِ الجبال في الأرضِ بإلقائها؛ ليفيدَ اللّفظُ لزومًا خفَّةَ الأمرِ عليه سُبحانه مع عِظَمِ خلْقِ الجبالِ؛ للإيذانِ بأنَّ كلَّ فعلٍ عظيم تَتحيَرُ فيه الأذهانُ هو هيِّن عليه سُبحانه، ويحتملُ أن يكونَ اللّفظُ على الاستعارةِ التّصريحيّةِ التّبعيَّةِ؛ بمعنى: أنَّه شبَّه إلقاءَ الجبال الرّواسي بإلقاء حَصَياتٍ قبضَهنّ قابضٌ بيده فنبذَهُنَّ، ووجْهُ الشّبهِ: الخفَّةُ والاستقلالُ، تصويرًا لعظمَتِه، وتمثيلًا لقُدرتِه، وأنَّه فعلٌ هيّنٌ عليه ﷻ[1].

كلُّ فعْلٍ عظيمٍ تَـتـحـيَرُ فيـه الأذهانُ هو هيِّنٌ على اللهِ تعالى

سببُ حذْفِ موصوفِ الوصف: ﴿رَوَاسِيَ﴾:

تقديرُ الكلام في: ﴿وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ﴾: (وألقَيْنا فيها جبالًا رواسيَ)، فلم يُذكرِ الموصوفُ لإغناءِ غلبةِ الوصْفِ بالرّواسي عن ذكر الجبال[2]، ولتوجيهِ ذهنِ المُخاطَبين إلى الوصْفِ الذي يُشعرُ بظهور قُدرةِ اللّه وعظيمِ خلْقِه.

أهـمُّ وصْـفٍ لـلـجـبـالِ هـو رُسوُّها في الأرضِ

نُكتةُ التّعبيرِ بلفظِ ﴿رَوَاسِيَ﴾:

لمّا كان الإرساءُ هو ثُبوتُ الأجسامِ الثّقيلةِ، واستقرارُها على شيءٍ

(1) البروسوي، روح البيان: 4/451.

(2) أبو حيان، البحر المحيط: 6/347، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/3.

والإقامةُ فيه أو عليه، بحيث لا تنتقلُ عن مكانِها دلَّ على ثِقلِ الجبالِ وثُبوتِها في أحيازِ الأرضِ[1]، ودلَّ ذكرُ الرَّواسي بعد ذكر الأرضِ أنَّها ليست منَ الأرضِ في التّكوين، اعتبارًا بمجرَّدِ العطفِ الذي يقتضي التّغايُرَ دونَ اعتبارِ العُرفِ العادي[2].

ثِقلُ الجبالِ وثباتُها في الأرضِ دليلٌ على قُدرةِ اللهِ وعظيمِ خلْقِه

فائدةُ حذْفِ المفعولِ في ﴿وَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا﴾:

حذْفُ مفعولِ ﴿وَأَنۢبَتۡنَا﴾ على معنى إثباتِ فعْلِ الإنباتِ للّه تعالى في الأرضِ؛ لإفادةِ أنَّ هذا الفعلَ هو من شأنِ اللّه تعالى، وأنَه لا يمكنُ لهذا الفعْلِ أنْ يأتيَ إلّا منه سُبحانه، وأنَّ غيرَه لا يفعلُه، أو لا يستطيعُ فعْلَه[3]، فيُؤْذنُ ذلك بظهور آثارِ فعْلِ اللّه الدّالَّةِ على إلهيّتِه وتوحيدِه، ويحتملُ أن يكونَ الحذفُ للعمومِ المُقيَّدِ، والمعنى: أنبَتْنا في الأرضِ ضروبًا منَ النّباتِ مُقيَّدًا بوصْفِ كونِه من كلِّ شيءٍ مقدّرٍ مرتَّبٍ متناسبٍ لا تصلحُ فيه زيادةٌ ولا نقصانٌ.

إنباتُ ضروبِ النّباتِ في الأرضِ من شأنِ الإلهِ الواحدِ الأحدِ سبحانه

دَلالةُ الضّميرِ في ﴿وَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا﴾:

لمّا كان الضّميرُ في قولِه ﴿فِيهَا﴾ يعودُ على ﴿وَٱلۡأَرۡضَ﴾، فيحتملُ أن يعودَ على اللّفظِ المذكورِ أوّلًا ليكونَ المعنى: وأنبتْنا في الأرض، ويحتملُ أن يعودَ على الأرضِ بوصْفِ الرّواسي التي فيها، وهذا هو الظّاهرُ في عوْدِ الضّميرِ، فيكونُ المعنى: وأنبَتْنا فيها وفي رَواسيها، تكثيرًا للنّعمِ وتَوسعةً في المِنَّة[4]، وفي هذا إشارةٌ إلى أنَّ النّباتَ الذي ينبتُ في الجبالِ أو عليها أدْخلُ في المنفعةِ واللّذةِ منَ الذي ينبتُ في غيرِ الجبالِ، وهذا معروفٌ عند أهلِ الاختصاصِ.

نِعَمُ اللهِ في ضُروبِ النّباتِ مُتنوّعةٌ في الأرضِ وفي الجبالِ

دَلالةُ حرفِ الجرِّ في ﴿مِن كُلِّ شَيۡءٖ﴾:

﴿مِن﴾ هنا لِلتَّبْعيضِ[5]، بمعنى أنَّه تعالى لم يُنبتْ كلَّ شيءٍ، بل

لم يُنْبِتِ اللهُ من النّباتِ إلّا ما هو موزونٌ ومُقدَّرٌ ونافعٌ

(1) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 10/90، والبقاعي، نظم الدرر: 10/275.
(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 4/55.
(3) الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص: 154 - 155.
(4) البيضاوي، أنوار التنزيل: 3/208.
(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/472.

أنشأ وأوجدَ بعضَ النّباتِ ممّا هو موصوفٌ بأنَّه موزونٌ مُقدَّرٌ بقَدرِه، قد وُزِنَ بميزانِ الحكمةِ، ممّا يصلحُ للخلْقِ وينفعُ النّاسَ.

بَلاغةُ قوله ﴿مَّوْزُونٍ﴾ بيَن الاستعارةِ والمَجازِ المُرسلِ:

الإنباتُ فيه تقديرٌ وتناسُبٌ وتوازُنٌ مع مدِّ الأرضِ وإلقاءِ الجبالِ

يحتملُ أن يكونَ اللّفظُ على الاستعارة، فشُبِّه تقديرُ الأشياءِ وتحريرُها بالوزْنِ الذي لا زيادةَ فيه ولا نقصانَ؛ للإشعارِ بحُسن إنباتِ الأشياءِ في الأرضِ، وحُسنِ الحكمةِ والتّناسُبِ في إنباتِها وتقديرِها مع مطابقةِ مصْلحةِ الخلْقِ، فالاستعارةُ تصريحيّةٌ تبعيّةٌ، وهذا هو الظّاهرُ، والمعنى: أنبَتْنا في الأرضِ من كلِّ شيءٍ مَقدورٍ جرَى على وزنٍ مِنْ قَدَرِ اللّه ﷻ لا يُجاوِزُ ما قَدَّره اللّه عليه، فالإنباتُ في الأرضِ فيه تقديرٌ وتناسُبٌ وتوازنٌ مع مدِّ الأرضِ وإلقاء الجبالِ، كما أنَّهُ تعالى يَعْلَمُ المِقْدارَ الَّذي يَحتاجُ إليه النّاسُ ويَنتَفِعونَ به، فيُنْبِتُ تعالى في الأرْضِ ذلك المِقْدارَ، ويحتملُ أن يكونَ مجازًا مُرسَلًا من إطلاق اسْمِ السّببِ على المسبَّبِ، فَكانَ إطْلاقُ لَفْظِ الوزْنِ لإرادَةِ مَعْرِفَةِ المِقْدارِ؛ لأنَّ الوزْنَ يُعْرَفُ بِهِ مِقْدارُ الشَّيْءِ، والمعنى: وأنبَتْنا فيها من كلِّ شيءٍ معلومٍ مِقدارُه[1].

بَلاغةُ ترتيبِ المعاني في الآيةِ:

بَراعةُ التَّرتيبِ بذكْرِ مَدِّ الأرضِ ثمَّ إلقاءِ الرّواسي ثمَّ إنْباتِ النّباتِ

جاء ذكْرُ أفعالِ اللّه تعالى في هذه الآية بتَرتيبٍ عجيبٍ؛ فذكرَ مدَّ الأرضِ، ثم إلقاءَ الرّواسي فيها، ثمَّ الإنباتَ فيها من كلِّ شيءٍ موزونٍ؛ ففيه إشعارٌ بأنَّ إلقاءَ الرَّواسي كان بعدَ مدِّ الأرضِ وبسْطِها، فلولا الجبالُ لمادتِ الأرضُ؛ لأنّها ممدودةٌ مبسوطةٌ، فلمّا ثبتتِ الأرضُ بإلقاء الرّواسي الثّوابتِ وصلُحتْ لإنبات النّباتِ أنبتَ اللّه فيها من كلِّ شيءٍ موزونٍ مقدَّرٍ بقَدرِه لا يحتملُ الزّيادةَ ولا النّقصانَ كما تقدَّمَ.

(1) الزجاج، معاني القرآن وإعرابه: 3/176، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/355، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 19/131.

﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ٢٠﴾ [الحجر: 20]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الأرضُ مَوضعُ مَعايِشِ النّاسِ ورِزقِهم فيها

لمّا أخبرَ اللّه تعالى أنَّه يعلمُ المقدارَ الذي يحتاجُ إليه النّاسُ وينتفِعون منه، فيُنبتُ اللّه تعالى ذلك المقدارَ أتْبَعه بقوله ﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ﴾؛ لأنَّ ذلك الرِّزْقَ الَّذي يَظْهَرُ بِالنَّباتِ يَكونُ مَعيشَةً لَهُم[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مَعَٰيِشَ﴾: (عيش): أصْلٌ صَحيحٌ يَدُلُّ على حَياةٍ وبَقاءٍ، قال الخَليلُ: العَيْشُ: الحَياةُ. والمَعيشَةُ: التي يَعيشُ بِها الإنسانُ: من مَطْعَمٍ ومَشْرَبٍ وما تَكونُ بِهِ الحَياةُ. والمَعيشَةُ والمَعيشُ: اسْمٌ لِما يُعاشُ به[2]. والمَعاشُ يَجْري مَجْرَى العَيْشِ. تَقولُ عاشَ يَعيشُ عَيْشًا ومَعاشًا. وكُلُّ شَيْءٍ يُعاشُ بِهِ أوْ فيهِ فَهو مُعاشٌ[3]. والمعايشُ في الآية: جَمعُ مَعيشَةٍ، وهي ما يَعيشُ به الحَيُّ من مَطْعَمٍ ومَشْرَبٍ وما تَكونُ بِهِ الحَياةُ.

المَعْنى الإجْماليُّ:

الكائناتُ كلُّها يَرزقُها اللهُ ﷻ ويُقدِّرُ لها أقواتَها

يقولُ الحقُّ تعالى: وهيَّأْنا لكم في الأرضِ أيُّها النّاسُ ما تعيشونَ به مِنَ المطاعِمِ والمَشارِبِ، ويسَّرْنا لكم أنواعَ المكاسِبِ، وجَعَلْنا لكمُ الأولادَ والعَبيدَ والدَّوابَّ والأنعامَ الَّتي نَرزُقُها نحنُ لا أنتم[4].

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 19/131.
(2) الخليل، العين، وابن عباد، المحيط في اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (عيش).
(3) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة: (عيش).
(4) ابن جرير، جامع البيان: 14/37، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 7/167، و10/13، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/529.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دَلالةُ التّعبيرِ بالآية:

الاستدلالُ بخلْقِ المعايشِ على كمالِ القُدرةِ وبَديعِ الحِكْمة وتفرُّدِ الأُلوهيّتِه

فَذْلَكَةُ الآيةِ أنّه لمّا ذكرَ اللّه تعالى أنَّه جعَلَ الأرضَ مَمدودةً بمقدارٍ وشكْلٍ معيَّنَيْن، مُختلفةَ الأجزاء في الوضْعِ مُحدِثًا فيها أنواعَ النّباتِ والحيوانِ المختلفةِ خِلْقَةً وطبيعةً، مع جوازِ ألّا تكونَ كذلك كان الكلامُ على طريق الاستدلالِ على كمال قُدرتِه وتناهي حِكْمتِه، والتَّفرُّدِ في الأُلوهيَّةِ والامتنانِ على العبادِ بما أنعمَ عليهم في ذلك؛ لِيوحِّدوه ويَعبدوه[1].

نُكتةُ التّعبيرِ بلفْظِ ﴿وَجَعَلْنَا﴾:

إبداعُ الله تعالى في إنشاءِ أنواعِ المَعايِشِ للنّاسِ

عُبِّرَ بالفعْلِ ﴿وَجَعَلْنَا﴾ للإيذانِ بإبداعِه تعالى في إنشاءِ أنواعِ المعايشِ التي تفيدُ النّاسَ في حياتِهم.

دَلالةُ اللّامِ في قولِه ﴿لَكُمْ﴾:

التَّذكيرُ بنِعمةِ الله على الخلْقِ بإيجادِ المَعايِشِ لأجْلِهم

أفادتِ اللّامُ الاختصاصَ، بمعنى: جعَلْنا في الأرض مَعايشَ خاصَّةً لكم، أي: قد أوجدَها اللّه تعالى لأجْلِكم، ففيه تذكيرٌ بنِعمتِه سُبحانه على جميعِ الخلْقِ.

فائدةُ تقديمِ ﴿لَكُمْ﴾:

تقريرُ اختصاصِ المَعايِشِ بالخلْقِ زيادةً في مِنَّةِ الله وفضْلِه

أفادَ تقديمُ الجارِّ والمجرورِ على المفعولِ به التّأكيدَ والقصْرَ الإضافيَّ؛ ليُفيدَ تقريرَ اختصاصِ المَعايشِ لهم، زيادةً في مِنَّةِ اللّه وفضْلِه عليهم.

دَلالةُ الضّميرِ في قولِه ﴿فِيهَا﴾:

كثرةُ المَعاني بالألفاظِ القليلةِ

يحتملُ أن يعودَ الضّميرُ على الأرضِ وحدَها، وأن يعودَ على الأرضِ ورواسيها؛ وهو الظّاهرُ، ليكونَ من عطْفِ الضّميرِ على الاسْمِ الظّاهرِ بما اتّصفَ به، فإنَّ إلقاءَ الرّواسي في الأرضِ بمثابةِ

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 3/209.

وصْفٍ لها، كما أنَّ المعايشَ موجودةٌ في الأرضِ والجبالِ، كما هو الواقعُ[1]، أي: وجعلْنا لكم في الأرضِ وفي الجبالِ الرّواسي معايشَ تكثيرًا للنِّعمِ، ويحتملُ أن يعودَ على الجبالِ الرّواسي وحدَها، وتكونُ الدّلالةُ على جعْلِ المعايشِ في الأرض من بابٍ أولَى.

فائدةُ تقديمِ ﴿فِيهَا﴾:

أفادَ تقديمُ الجارِّ والمجرورِ الحصْرَ، فإمّا أن يكونَ منَ الحصْرِ الحقيقيّ؛ ليُفيدَ أنَّ معايشَ الخلْقِ على المجموعِ لا تكونُ في غيرِ الأرضِ التي يعيش النّاسُ عليها، وإمّا أن يكونَ منَ الحصْرِ الإضافيّ؛ ليفيدَ أنَّ المعايشَ لا تكونُ في غير الأرض باعتبارِ معيشتِكم فيها، كما أفاد التّقديمُ تأكيدَ جعْلِ اللّه تعالى المَعايشَ في الأرضِ، وتدخلُ الجبالُ في الأرضِ كما تقدَّمَ.

من سوءِ الظّنِّ باللّه أن يَعتقدَ الإنسانُ أنَّ أرْزاقَ الأرضِ لن تَكفيَ النّاسَ

نُكتةُ التّعبيرِ بلفظِ ﴿مَعَٰيِشَ﴾:

أفادَ التّعبيرُ بِصيغةِ الجمْعِ ﴿مَعَٰيِشَ﴾ العُمومَ؛ لورودِ اللّفظِ نَكرةً في سياقِ الامتنانِ، ويفيدُ مع العمومِ التَّنَوُّعَ والتَّغايُرَ، ولَمّا كان لفظُ العيشِ يعمُّ المأكولَ الذي يُعاشُ به والتّحرُّفَ الذي يُؤدّي إليه كان المُرادُ من لفْظِ ﴿مَعَٰيِشَ﴾ الذي جاء بِصيغةِ مُنتهى الجُموعِ كلَّ ما يعيشُ به الإنسانُ في هذه الأرضِ ممّا يتعلَّقُ به البقاءُ وما يكونُ به الحياةُ، فالمعيشةُ أخصُّ منَ الحياة، فيدخلُ في اللّفظ المطاعمُ والمشاربُ والملابسُ، وكلُّ ما يتحقّقُ به العيشُ وما يكونُ سببًا له، ومنه طلبُ أسبابِ الرّزقِ بالكسبِ والتَّصرُّفِ من حِرفةٍ أو زراعةٍ أو تجارةٍ أو أيِّ عملٍ[2].

طلبُ أسبابِ الرِّزقِ منَ المعايشِ التي أنعمَ اللّه بها على النّاسِ

(1) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 6/430.

(2) الماوردي، النكت والعيون: 3/154، والواحدي، التفسير البسيط: 9/29، والزمخشري، الكشاف: 2/89، وابن عطية، المحرّر الوجيز: 2/377.

دَلالةُ العطْفِ في ﴿وَمَن لَّسْتُمْ﴾:

نِعَمُ الله كثيرةٌ ومُتنوِّعةٌ، فلا تَنْتهي أفْضالُه ﷻ

يحتملُ أن تكونَ الواوُ قد عطفتِ الاسْمَ الموصولَ ﴿وَمَن﴾ على ﴿مَعَٰيِشَ﴾، والتّقديرُ: جعلْنا لكم فيها مَنْ لسْتُم له برازقين منَ العيالِ والخَدَم والدّوابِّ وما أشبهَها، وهذا التّقديرُ هو الظّاهرُ، وعليه جمهورُ المُفسّرين، ويحتملُ أن يكونَ الاسْمُ الموصولُ منصوبًا بالعطفِ على محلِّ ﴿لَكُمْ﴾، والتّقديرُ: جعَلْنا لكم معايشَ ولمن لسْتُم له برازقين، فيكونُ المرادُ مِن ﴿وَمَن﴾ الدّوابَّ والوحوشَ أي غيرَ العاقلِ، وهذا التَّقديرُ نقلَه بعضُ المُفسّرين[1]، ولا مانعَ من إرادةِ المعنَيَيْن معًا، فالقرآنُ حمّالُ وُجوهٍ.

فائدةُ التّعبيرِ بـ﴿وَمَن﴾:

الإيذانُ بتَمامِ نِعمةِ الله على النّاسِ إذ جعَلَ لهم المعايش في الأرضِ

لمّا كان (مَنْ) يأتي للعاقلِ، وكان المرادُ منَ الاسْمِ الموصولِ ﴿وَمَن﴾ العيالَ والخدمَ والدَّوابَّ والأنعامَ وما أشْبهَها كما هو الظّاهرُ، كان دخولُ غيرِ العاقل في معنى (مَنْ) دالًّا على أنَّها جاءت على طريقة تغليبِ العاقلِ على غيره، لفضيلةِ العقلِ والتّمْييزِ، وسببُ العطْفِ هو لِردِّ حُسبانِهم أنَّهم يَكفون مؤونتَهم، أي قد كفاكُم اللّهُ مؤونةَ أرزاقِها، ولِتحقيقِ أنَّ اللّه تعالى هو الذي يَرزقُهم وإيّاكم، وللإشعارِ بتَمامِ نعمةِ اللّه على النّاس؛ إذ جعلَ لهم في هذه الأرضِ العيالَ والخدمَ والأنعامَ وغيرَها، وعلى القولِ بأنَّ (مَنْ) لغير العاقلِ فنُكتةُ التّعبيرِ به هو أنَّه لما وُصِفتِ الوحوشُ وغيرُها بالمعاشِ الذي الغالبُ عليه أن يوصَفَ به النّاسُ - إذ يقالُ: الآدميُّ يتعيّشُ، ولا يقال: الفرسُ يتعيّشُ - جرتِ الوحوشُ والدّوابُّ مَجرى العقلاءِ في التّسميةِ، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ﴾ [النمل: 18][2].

(1) ابن جرير، جامع البيان: 17/82، والزجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 3/177.
(2) الواحدي، التفسير البسيط: 12/573، وابن الجوزي، زاد المسير: 2/528، وأبو السّعود، إرشاد العقل السليم: 5/71، والبروسوي، روح البيان: 4/452.

فائدةُ تقديمِ (له): ﴿وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ﴾:

أفادَ تقديمُ الجارِّ والمجرور ﴿لَهُۥ﴾ على مُتعلَّقِه التّخصيصَ الإضافيَّ، بمعنى إذا كان النّاسُ لا يَقْدرون على رزقِ المَذكورين فلا رازقَ لهم إلّا ربُّهم سُبحانَه، كما أفادَ تقديمُ الجارِّ والمجرورِ تأكيدَ نفْيِ قُدرتِهم على رزقِ المَذكورين، ولمّا كان الضّميرُ في ﴿لَهُۥ﴾ عائدًا على الاسْمِ الموصولِ ﴿وَمَن﴾ الدّالِّ على العمومِ أفادَ عمومَ الضّميرِ، والمعنى ومن لسْتُم برازقين لكلِّ مَن لا قُدرةَ لكم على رزْقِه.

الـرّزقُ لا يكونُ إلّا من الخالق ﷻ

سببُ إيثارِ النّفْيِ ﴿لَّسْتُمْ﴾:

أفادَ النّفيُ بـ(ليسَ) استمرارَ نفْيِ رزقِهم لِما يتضمَّنُه لفظُ العمومِ ﴿وَمَن﴾، لتفيدَ (ليس) نفْيَ الماضي والحالِ واستمرارَ النّفْيِ في المستقبل من غيرِ انقطاعٍ[1].

استمرارُ نفْيِ قُدرةِ النّاسِ على رزْقِ المَخلوقين

دَلالةُ الخبرِ في ﴿وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ﴾:

دلَّ الخبرُ على فائدتِه، وهي نفيُ أن يكونوا همُ الرّازقين خلْقًا أو سببًا، ليكونَ ردًّا على خطأ حُسبانِهم في أن يكونوا همُ الرّازقين بتَيْسيرِ أسبابِ العمَلِ والمكاسبِ، ودلَّ بِلازمِه على أنّ اللّه هو الرّازقُ على الحقيقةِ، فهو تعالى يَرزقُهم وإيّاهم.

تَيْسيرُ أسبابِ الرّزقِ منَ الرَّزّاقِ

فائدةُ الباءِ في قولِه ﴿بِرَٰزِقِينَ﴾:

أفادتِ الباءُ المُبالغةَ في التَّنصيصِ على نفْيِ العُمومِ والمُبالغةِ في نفْيِه، أوِ الاحتراسِ من إرادة التّخصيصِ بحالٍ منَ الأحوال، بمعنى تأكيدِ نفْيِ قُدرتكم على رِزْقِهم في أيِّ حالٍ منَ الأحوالِ.

تأكيدُ نفْيِ قُدرةِ النّاسِ على الرّزقِ في أيِّ حالٍ منَ الأحوالِ

دَلالةُ لفظِ ﴿بِرَٰزِقِينَ﴾:

دلَّ التّعبيرُ بِصيغةِ اسْمِ الفاعلِ على أنَّ المرادَ لسْتُم برازقين له حقيقةً ولسْتُم بسببٍ له، ولا مَدْخلَ لكم فيه، وإنْ كنتم أقوياءَ

اللّه تعالى خالقُ الرّزقِ وأسْبابَه

(1) السامرائي، معاني النحو: 4/190.

مُجتمِعين؛ لِيفيدَ النّفيُ رفعَ توهُّم أن يكونَ لهم أيُّ سببٍ في الرّزق أو في إثباتِه لهم، فالرّازقُ على الحقيقةِ بالخلْقِ والعطاءِ وتَيْسيرِ السّببِ للوُصولِ إلى الرّزقِ هو اللّه تعالى بعظيمِ خلْقِه وبديعِ إنشائِه[1].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

المَعيشةُ والحياةُ:

المَعيشةُ أخصُّ منَ الحياةِ، وهي اسْمٌ لأسْبابِها

العيشُ اسمٌ لِما هو سببُ الحياة منَ الأكل والشّربِ وما بِسبيلِ ذلك، والشّاهدُ قولُهم (مَعيشةُ فلانٍ من كذا) يَعنون مأكلَه ومَشربَه ممّا هو سببٌ لبقاءِ حياتِه، ولمّا كانتِ المَعيشةُ منَ العيش لِما تكونُ به الحياةُ والبقاءُ منَ الطّعامِ والشّرابِ والمَلبسِ وغيرِها، فتكونُ المعيشةُ خاصَّةً بالحيوانِ كانتِ المَعيشةُ أخصَّ منَ الحياة؛ لأنّ الحياةَ تقالُ في الحيوان، وفي الباري ﷻ، وأمّا المعيشةُ فلا يوصَفُ بها اللّه تعالى؛ لأنّ فيها معنى العجْزِ والاحتياجِ، والمَعيشةُ اسمٌ لِما يُتَعَيَّشُ منه[2].

(1) الراغب، المفردات: (رزق).

(2) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 102، والراغب، المفردات: (عيش)، والكفويّ، الكلّيات، ص: 651.

﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾﴾ [الحجر: 21]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

أسبابُ الرّزقِ في خَزائنِ الله لا تَنْتهي

لَمّا بَيَّنَ اللّه تعالى أنَّهُ أنْبَتَ في الأرْضِ كُلَّ شَيْءٍ مَوزونٍ، وجَعلَ فيها معايِشَ، أتْبَعَهُ بِذِكْرِ ما هو كالسَّبَبِ لذلك، فقال: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ﴾[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿خَزَآئِنُهُۥ﴾: أصلُ (خزن): يَدُلُّ على صِيانَةِ الشَّيءِ[2]. يُقال: خَزَنَ الشَّيءَ يَخْزُنه خَزْناً واخْتَزَنه: أحْرَزه وجَعَلَهُ في خِزانةٍ واخْتَزَنَهُ لِنَفْسِه. والخِزانةُ: اسْمُ المَوْضِعِ الَّذي يُخْزَن فيهِ الشَّيْءُ، واحِدَةُ الخَزائن، والخِزانةُ أيضًا: عَملُ الخازِن[3]. والمَخْزَن، بِفَتْحِ الزّاي: ما يُخْزَن فيهِ الشَّيْءُ. وسُمّيَ الوِعاءُ خِزانَةً لأنّه مِنْ سَبَبِ المَخْزونِ فيهِ[4]. وخِزانَةُ الرّجلِ قلْبُه، وخازِنهُ لِسانه[5]. والمقصود بالخَزائِنُ في الآية: جَمعُ خِزانَةٍ، مُستعارةٌ لتَعَلُّقِ قُدرَةِ اللّه بِالإنعامِ وإعطاءِ الخَيراتِ النّافعةِ للنّاسِ في الدُّنيا[6].

2) ﴿بِقَدَرٍ﴾: أصْلُ (قدر): يدلُّ على مَبْلَغِ الشَّيْءِ وكُنْهِهِ ونِهايَتِهِ، يُقالُ: قَدْرُهُ كذا، أي: نِهايَتُهُ. ويأْتي بِمعنى التَّقْديرِ، وهو: بَيانُ كَمّيَّةِ الشَّيْءِ، يُقال: قَدَرَ الشَّيْءَ بِالشَّيْءِ، يَقْدُرُه، قَدْرًا، وقَدَّرَه، أيْ: قاسَهُ

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 19/133.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (خزن).
(3) ابن عباد، المحيط في اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (خزن).
(4) ابن منظور، لسان العرب: (خزن).
(5) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة: (خزن).
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 7/241.

وبَيَّنَ مِقْدارَهُ[1]. وتَقْديرُ اللّه الأشياءَ على وجهين: أحدُهما: بإعطاءِ القُدْرَة، يُقالُ: قَدَّرَني اللّه على كذا وقوّاني عليه. والثّاني: بأن يجعلَها على مِقْدارٍ مخصوصٍ ووجهٍ مخصوصٍ حسبَما اقتضتِ الحِكمةُ، وعلى ذلك قولُه: ﴿وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾، قال أبو الحسن: خذهُ بقَدر كذا وبقَدر كذا، وفلانٌ يخاصمُ بقدَرٍ وقدَرٍ. أمّا التَّقْديرُ منَ الإنسان فعلى وجهين: أحدُهما: التَّفكُّرُ في الأمر بحسب نظرِ العقل، وبناءُ الأمرِ عليه، وذلك محمودٌ. والثّاني: أن يكونَ بحسب التَّمنّي والشَّهوةِ، وذلك مذمومٌ، كقوله: ﴿فَكَّرَ وَقَدَّرَ ۝١٨ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۝١٩﴾ [المدثر: 18 - 19][2]. والمرادُ بالقَدَر في الآية: التَّقْديرُ، أي: بِمِقْدارٍ مَعْلومٍ تَقْديرُه عندَ اللّه تعالى.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

كلُّ شيءٍ في هذا الكونِ خاضعٌ لإرادةِ الله تعالى وقُدرتِهِ وتَصرُّفِهِ

يُخبرُ اللّه تعالى أنَّه مالكُ كلِّ شيءٍ، وأنَّ كلَّ شيءٍ سهلٌ يسيرٌ عليه، وأنَّ عنده خزائنَ الأشياءِ من جميع الأصنافِ، من نباتٍ ومعادنَ ومخلوقاتٍ لا حصْرَ لها، فقال: وما مِن شَيءٍ - مِن جميعِ الأرزاقِ، وأصنافِ الأقدارِ، مِن الأمطارِ وغيرِها - إلّا عندَ اللّه وحدَه خَزائِنُه، ومفاتيحُه بيَدِه؛ فهو مالِكُ كُلِّ شَيءٍ، وهو القادرُ على إيجادِه وتكوينِه متى يشاءُ، وما نُنَزِّلُ الأمطارَ والأرزاقَ وكُلَّ شَيءٍ إلّا بمقدارٍ مُحَدَّدٍ، لا يزيدُ ولا يَنقُصُ، بحسَبِ مَشيئةِ اللّه، وما تَقتَضيه حِكمتُه[3].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بَلاغةُ التّذييلِ بقوله: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ﴾:

التَّذْييلُ لتأكيدِ الكلامِ وتقريرِه في نُفوسِ المُخاطَبين

لمّا كان الظّاهرُ أنَّ المُرادَ من قولِه تعالى: ﴿مَّوْزُونٍ﴾ أنَّه المُقدّرُ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (قدر).
(2) الراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (قدر).
(3) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 10/14، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/530، والشوكاني، فتح القدير: 3/152، والزحيلي، التفسير المنير: 14/24.

بمقدارٍ يقْتَضيه التّناسبُ، والموزونُ بميزانِ الحِكمةِ كان مجيءُ قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ﴾ على سبيل التَّذْييلِ، بتأكيدِ مفهومِ قولِه تعالى: ﴿وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ﴾ لأهميَّتِه وتقريرِه في نفوسِ المُخاطَبين[1].

بَلاغةُ الجمْعِ بين فائدةِ الخبرِ ولازمِها:

قولُه تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ﴾: لمّا كان كلُّ شيءٍ في خزائن اللّه الملكِ الأوحدِ، وكانَ كلُّ شيءٍ لا يُطلَبُ إلا ممَّن عنده خزائنُه، وممّن مفاتيحُ تلك الخزائن بيَدَيْه، وكانَ طلبُه من غيره طلبًا ممَّن ليس عندَه ولا يَقدِرُ عليه[2] أفادَ الخبرُ بلازمِه أنَّ الطّلبَ من غيرِ اللّه تعالى طلبٌ في غيرِ محلِّه، ومُؤْذِنٌ بجهلِ صاحبِه، وفيه حثٌّ على الطّلَب منَ اللّه تعالى الذي عندَه خزائنُ كلِّ شيءٍ، فالمرادُ منَ الخبر فائدتُه ولازمُ الفائدةِ.

طلبُ الرّزقِ من غيرِ اللّه مُؤْذِنٌ بجهْلِ صاحِبِه

نكتة النّفْي بـ(إنْ) في ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ﴾:

عبّر البيانُ الإلهيُّ بأداة النّفي (إنْ) دون (ما)؛ لأنّها أكثرُ تأكيدًا للنّفي من (ما)[3]، فناسبَ اقترانُها بلفظِ ﴿شَيْءٍ﴾ الدّالِّ على عُمومِ الأشياءِ النّافعةِ للنّاسِ.

المُبالغةُ في تأكيدِ النّفي

دلالة إيثار النفي بـ(ما):

لمّا كان النّفيُ بـ(إنْ) أقوى وآكدَ منَ النّفي بـ(ما) كما تقدّم عُدِلَ إلى (ما) في قولِه ﴿وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾؛ لأنّ إنكارَ الكفرةِ لأنْ يكونَ كلُّ مُمكنٍ منَ المُمكناتِ عند اللّه في خزائنِ قُدرتِه أكثرَ إنكارًا من تنزيلِه بقدَرٍ معلومٍ؛ لأنّهم يُشاهدون آثارَ قُدرتِه بنزولِ المطرِ وغيرِه بقدرٍ معلومٍ، كما أنَّ من يؤمنُ بأنَّ كلَّ شيءٍ عند اللّه في

تنوّعُ إنكارِ المُنكرين يَقتضي التَّعبيرَ عن كلِّ نوعٍ بما يُناسِبُه

(1) الطِّيبي، فتوح الغيب: 9/25.
(2) ابن القيم الجوزية، الفوائد، ص: 292.
(3) السامرائي، معاني النحو: 4/200.

خزائنه يؤمنُ لا محالةَ بأنَّه يُنزّلُه بقدرٍ معلومٍ، فكان مجيءُ الحصْرِ بـ(إنْ وإلّا) لردِّ إنكارِهم الأوّلِ لأنّه أشدُّ.

فائدةُ ﴿مِّن﴾ في ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ﴾:

تتابُعُ التّأكيداتِ لإثباتِ أنَّ كلَّ شيءٍ عندَ الله في خزائنِه

أفاد حرفُ الجرِّ ﴿مِّن﴾ تأكيدَ عُمومِ لفْظِ ﴿شَيْءٍ﴾، والاحتراسَ مِن احتمالِ تخصيصِه بحالٍ منَ الأحوالِ، أي ما من شيءٍ منَ الأشياءِ إلّا وهي في خزائنِ اللّه وبقُدرةِ اللّه.

دَلالةُ التَّعبيرِ بلفْظِ ﴿شَيْءٍ﴾:

المطرُ من أعظَمِ أنواعِ الرّزقِ لِسَعةِ نفْعِه وعُمومِه

لمّا كان لفظُ ﴿شَيْءٍ﴾ يعمُّ كلَّ مخلوقٍ ممّا يُطلق عليه شيءٌ؛ بدلالةِ أنَّ الكلامَ في سياقِ إيجادِ المعايشِ التي هي أسبابُ الحياةِ، ولمّا جاء اللّفظُ في سياقِ النّفي كان على معنى العُمومِ المُقيَّدِ بوصفِ (نافعٍ)، بقَرينَةِ قَوْلِه: ﴿وَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيۡءٖ مَّوۡزُونٖ﴾، وقرينةِ السّياقِ الدّالَّةِ على كمالِ القُدرةِ وعظيمِ الإنعامِ، ففي الكلامِ حَذْفُ الصِّفَةِ كقولِه تعالى: ﴿يَأۡخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصۡبٗا ٧٩﴾ [سورة الكهف: 79] أيْ سَفينَةٍ صالِحَةٍ، ويدخلُ في لفظِ ﴿شَيْءٍ﴾ المطرُ بقرينةِ ﴿نُنَزِّلُهُۥٓ﴾ دخولًا أوّليًّا؛ لعظيمِ نفْعِه وشُمولِه، وشَملَ ذلك الأشْياءَ المُتَفرِّقَةَ في العالَمِ الَّتي تَصِلُ إلَى النّاسِ بِدَوافِعَ وأسْبابٍ تَسْتَتِبُّ في أحْوالٍ مَخْصوصَةٍ، أوْ بِتَرْكيبِ شَيْءٍ مع شَيْءٍ مِثْلَ نُزولِ البَرَدِ مِنَ السَّحابِ وانْفِجارِ العُيونِ مِنَ الأرْضِ بِقَصْدٍ أوْ على وجْهِ المُصادَفَةِ في الظّاهرِ[1].

بَلاغةُ الحصْرِ ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ﴾:

الأفعالُ بمنزلةِ الأقوالِ في الإيمانِ والتّكذيبِ

عبّرَ بأسلوبِ (إنْ) و(إلّا) لردِّ المُخاطَبين منَ الكُفّار عن خطأِ اعتقادِهم في أنّه ليس كلُّ شيءٍ بقُدرةِ اللّه تعالى، وللإشعارِ بأنَّهم مُصرّون على هذا الاعتقادِ، وهذا الاعتقادُ قد يكونُ بصريحِ قولِهم، وقد يكونُ بعملِهم وتصرُّفاتِهم، وهو الظّاهرُ، بمعنى أنَّهم مُصرّون

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 3/355، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 19/134، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/36.

على هذا الاعتقاد بسببِ إصرارِهم على الأعمالِ التي تُؤْذِنُ أنَّهم لا يَعتقدون بأنَّ كلَّ شيءٍ عند اللّه خزائنُه.

دَلالةُ التَّعبير بلفْظِ ﴿خَزَآئِنُهُۥ﴾:

لمّا كان (خزائنُ) جمْعَ (خزانة)، وهي اسْمُ المكان الذي يُخزن فيه الشَّيءُ أي يُحفظُ، وكان الكلامُ في بيان أنَّه تعالى جعلَ في الأرضِ الرّزقَ وأسبابَه دلَّ على أنَّ المرادَ منَ الخزائن مقدوراتُه كلُّها[1]؛ لِيبيّن أنَّ جعْلَ المعايشِ في الأرضِ للنّاس والدّوابِّ وغيرِهم أمرٌ هيِّنٌ عليه سُبحانه، فإنَّ عندَه خزائنَ جميعِ الأشياء وهي في مُلكِه.

جعْلُ المَعايشِ للنّاسِ والدّوابِّ وغيرِهم أمرٌ هيِّنٌ عليه سُبحانه

بَلاغةُ الاستعارةِ في: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ﴾:

لمّا كانتِ الخزائنُ تُطلقُ على الموضعِ الذي يُحفظُ فيه نفائسُ الأموالِ لا غيرُ، غُلِّب في العُرفِ على ما للملوكِ والسّلاطينِ من خزائنِ أرزاقِ النّاسِ، فشُبِّهتْ مَقدوراتُه تعالى الفائتةُ للحصْرِ، المُندرجةُ تحت قُدرتِه الشّاملةِ في كونِها مَستورةً عن علومِ العالَمين، ومَصونةً عن وصولِ أيْديهم مع كمالِ افتقارِهم إليها ورغْبتِهم فيها، وكونِها مهيَّأةً مُتَأتّيةً لإيجادِه وتكوينِه، فمتى تعلّقتِ الإرادةُ بوجودِها وُجدتْ بلا تأخُّرٍ بنفائسِ الأموالِ المَخزونةِ في الخزائنِ السُّلطانيّةِ، فذكرُ الخزائنِ على طريقةِ الاستعارةِ التّخْييليّةِ، أو شُبِّهَتْ هَيْئَةُ إيجادِ الأشْياءِ النّافِعَةِ بِهَيْئَةِ إخْراجِ المَخْزوناتِ مِنَ الخَزائِنِ على طريقَةِ الاستعارةِ التَّمثيليَّةِ المَكْنيَّةِ، ورُمِزَ إلى الهَيْئَةِ المُشَبَّهِ بها بما هو مِنْ لَوازِمِها وهو الخزائِنُ، أو شُبِّه اقتدارُه على كلِّ شيء وإيجادُه بالخزائنِ المودَعةِ فيها الأشياءُ المُعدَّةُ لأنْ يُخرجَ منها ما شاء، ليُؤْذِنَ أنَّ مقدورَه كأنَّه حاصلٌ موجودٌ، فهو أقوى مما لو قيل: نحن قادرون على إيجادِه وتكوينِه، فتكونُ الاستعارةُ تمثيليّةً مكنيَّةً، وأصلُ التّشْبيه على الوجهَيْن من تشبيهِ المعقولِ بالمحسوسِ وهو الخزائنُ،

جَميعُ المُكِناتِ مَقْدورةٌ لله ومَملوكَةٌ له يُخْرِجُها بمشيئته وبحَسَبِ ما ينفعُ النّاس

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 3/355، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 19/134.

والمعنى الحاصلُ على الوجهَيْن: جَميعُ المُمكِناتِ مَقْدورَةٌ له سبحانَه، ومَملوكَةٌ له، يُخْرِجُها مِنَ العَدَمِ إلى الوُجودِ كَيْفَ شاءَ ومتى شاء، وما من شيءٍ ينتفعُ به العبادُ إلّا ونحن قادرون على إيجادِه وتكوينِه[1].

سِرُّ مجيءِ الواوِ في قولِه ﴿وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ﴾:

أبرعُ الأدلَّةِ على أُلوهيَّةِ اللهِ وتوحيدِه ﷻ

لمّا كان قولُه تعالى ﴿وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ﴾ إشارَةً إلى كَوْنِ مَقْدوراتِه غَيْرَ مُتَناهيَةٍ، أفادَ مجيءُ الواوِ والجملةِ بعدها الإيذانَ بأنَّ كُلَّ ما يخلقُه اللهُ تعالى في الوُجودِ مُتَناهٍ، وكان تخصيصُ وجودِه بوقْتٍ مُقَدَّرٍ دونَ ما قبلَه أو ما بعدَه، وبمكانٍ مُعَيَّنٍ دونَ سائرِ الأماكن، وبوصْفٍ معيّنٍ دونَ سائرِ الأوصاف، دالًّا على أنَّ وجودَها بهذه الأحوالِ إنّما هو بِتَخْصيصِ مُخَصِّصٍ وتَقْديرِ مُقَدِّرٍ، وهذا هو المُرادُ مِنْ قَوْلِه: ﴿وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٖ مَّعۡلُومٖ﴾، والمعنَى: أنَّهُ لَوْلا القادِرُ المُخْتارُ الَّذي خَصَّصَ تلك الأشْياءَ بتلك الأحْوالِ الجائِزَةِ لامتَنَعَ اخْتِصاصُها بتلك الصِّفاتِ الجائِزَةِ[2]، ففيه دليلٌ واضحٌ على ألوهيّةِ اللهِ ووَحدانيّتِه، وهو السّياقُ الذي وردتْ فيه الآياتُ.

دَلالةُ واوِ الحالِ في ﴿وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ﴾:

بيانٌ بالغِ حكمةِ اللهِ في تنزيلِه بعضَ ما في خزائِنِه بقدرٍ معلومٍ

الظّاهرُ أنَّ الواوَ تفيدُ الحالَ ممّا سبقَ، أيْ: ما من شيءٍ إلّا عندنا خزائنُه، والحالُ أنّا ما نُنَزِّله إلّا بقدرٍ معلومٍ، فيكونُ مجيءُ الحالِ لبيانِ بالغِ الحِكمةِ في تنزيلِ بعضِ ما في خزائنِه بقدرٍ معلومٍ[3].

دَلالةُ واوِ العطْفِ في ﴿وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ﴾:

ذِكْرُ الأدلّةِ المُتنوّعةِ على ألوهيّةِ اللهِ ووَحْدانيّتِه

وعلى أنّ الواوَ للعطفِ يكونُ من باب الجمعِ بين الأدلّةِ المتعدّدةِ والمُتنوّعةِ على ألوهيّةِ اللهِ ووَحْدانيّتِه، أي: كلُّ شيءٍ عندَ اللهِ

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 19/134، والطيبي، فتوح الغيب: 9/25، وأبو حيان، البحر المحيط: 6/474، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/72، والآلوسيّ، روح المعاني: 7/275، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/36.

(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 19/134، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/72.

(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/72.

خزائنُه، ولا يُنزّلُ اللّه ما في الخزائن إلّا بحكمةٍ بالغةٍ، لا بإسرافٍ ولا بتقتيرٍ.

بَلاغةُ الاستعارةِ في ﴿نُنَزِّلُهُۥٓ﴾:

إيجادُ الأشياءِ مثلُ تنزيلِ المَطرِ في الإنعامِ على النّاسِ وعُمومِ الانتفاعِ

لمّا كان المُرادُ مِنَ الإنزالِ الإحداثَ والإنشاءَ والإبداعَ وتهيئةَ التّمكينِ للمَقدوراتِ على جهة الانتفاعِ منها، كقوْلِه تَعالَى: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍۚ﴾ [الزُّمَر: 6] وقولِه: ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ﴾ [الحَديد: 25] وكانَ المرادُ من لفظِ ﴿شَيْءٍ﴾ معنى العُموم؛ ليشملَ المطرَ وغيرَه كان التّعبيرُ بلفظِ ﴿نُنَزِّلُهُۥٓ﴾ على المجازِ بطريقِ الاستعارةِ التَّصريحيَّةِ التَّبعيَّةِ، بتشبيهِ إيجادِ الأشياءِ والتّمكينِ منَ الانتفاعِ بها على قدْرِها بالمطرِ الذي ينزلُ بقدرِه فيُنْتَفَعُ منه، ولو نقصَ أو توقّفَ لَأَهْلَكَ، ولو زاد لأَغْرَقَ، فيفيدُ الإنعامَ من عُلوٍّ، ويفيدُ أنَّ تصاريفَ الأمورِ كائنةٌ في العوالمِ العُلوّيةِ، والمعنى: وما من شيءٍ ينتفعُ به العبادُ إلّا ونحن قادرون على إيجادِه وتكوينِه والإنعامِ به وتهيئتِه للانتفاعِ منه، وما نُعطيه إلّا بمقدارٍ معلومٍ أو بتقديرٍ معلومٍ[1]، إذ لو زاد أو نقصَ لكان ضارًّا.

نُكتةُ التّعبيرِ بلفْظِ ﴿نُنَزِّلُهُۥٓ﴾:

بيانُ عُلوِّ اللهِ تعالى وسُموِّ أفعالِه

أفادَ التّعبيرُ بلفْظِ ﴿نُنَزِّلُهُۥٓ﴾ الذي يفيدُ أنَّه من عُلوٍّ الإشعارَ بتفضُّلِ اللّه تعالى وظهورِ منّتِه على النّاسِ، فالتّنزيلُ على معنى الإنعامِ[2].

دَلالةُ التّعبيرِ بِصيغةِ (نُفعّل):

إيجادُ اللهِ الأشياءَ في الأرضِ بالتّدريجِ لأنّه يُنزِّلُها بقدَرٍ معلومٍ

لمّا كان ﴿نُنَزِّلُهُۥٓ﴾ على صيغةِ (نفعّل) أفادَ أنَّ تنزيلَه بطريقِ التّدريجِ، لِينتفعَ به الخلقُ، فهو بقدرٍ معلومٍ مع كثْرتِه[3].

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 3/356، والزمخشري، الكشاف: 2/574، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/37.

(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/276.

(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/276.

دَلالةُ التّعبيرِ بالمضارعِ ﴿نُنَزِّلُهُۥٓ﴾:

تَنزيلُ ما في خَزائنِ اللهِ مُستمِرٌّ لا يَتوقَّفُ

أفادَ التّعبيرُ بالفعْلِ المضارعِ استمرارَ تَنْزيلِ ما في خزائنِ اللّه بقدَرٍ معلوم، وتَجَدُّدَهُ مع بعض انقطاعٍ بما ينفعُ النّاسَ[1]، ليدركَ النّاسُ قيمةَ الامْتنانِ به عند ضعْفِه أو فقْدِه، إذ إدراكُ النّعمة عند فقْدِها أو ضعْفِ وجودِها أشدُّ.

بَلاغةُ الاسْتِخدامِ في الضّميرِ في ﴿نُنَزِّلُهُۥٓ﴾:

كلُّ مُمكنٍ هو في قُدرةِ اللهِ وما يُنزِّلُه إلّا بحِكمةٍ وتدبيرٍ وبما ينفعُ النّاسَ

لمّا كان الضّميرُ في ﴿نُنَزِّلُهُۥٓ﴾ يعودُ في الظّاهرِ إلى ﴿شَيْءٍ﴾ وهو لفظٌ عامٌّ، لا أعمَّ منه في المُمكناتِ، وكان المعنى: (وما ننزّل شيئًا ممّا أردنا تنزيلَه)، فالمنزّلُ بعضٌ ممّا في خزائنِه سُبحانه، فلمّا كان الأمرُ كذلك كان الضّميرُ على معنى الاسْتخدام[2]؛ للإشعارِ بأنَّ كلَّ مُمكنٍ هو في قُدرةِ اللّه، وما يُنزّلُه إلّا بحكمةٍ وحسنٍ وحُسنِ تدبيرٍ وبما ينفعُ النّاسَ.

نكتةُ الحصْرِ في ﴿وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا﴾:

إجابةُ الدّعاءِ في وقتِه أو تأخيرُه هو منَ التّنزيلِ بقدَرٍ معلومٍ

لمّا كانَت جملةُ ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ﴾ تفيدُ أنَّ جميعَ المُمكناتِ هي بمقدورِ اللّه تعالى، جاء الحصْرُ في قولِه تعالى: ﴿وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾؛ للإنكارِ على ما قد يُتوهَّمُ؛ بأن يُقال: لمّا كانت جميعُ الأشياءِ في مُلكِ اللّه وفي قُدرتِه، فلِمَ لا يُنزلُ الكثيرَ منها حتَّى ينتفعَ الخلقُ ولا يحتاجوا شيئًا؟ فأفادَ القصْرُ بيانَ سرِّ عدم تكوينِ الأشياءِ على وجْهِ الكثرةِ حسْبَما هو في خزائنِ القُدرةِ، وليدلَّ على حِكمتِه سُبحانه في خلْقِه وتنزيلِ مَقدوراتِه، فقد يُعطي العاصِيَ إملاءً له ليكونَ عقابًا له، وقد يمنعُ التَّقيَّ اختبارًا لصبرِه ورجاءَ ثوابِه، ومنَ التّنزيلِ بقدَرٍ معلومٍ إجابةُ الدّعاءِ في وقتِه أو تأخيرُه[3].

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/72.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 11/36.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/72.

دَلالةُ الباءِ في قولِه ﴿بِقَدَرٍ﴾:

الباءُ هنا لِلملابسةِ، ويحتملُ أن يكونَ الجارُّ والمجرورُ على معنى الحالِ[1]، والتّقديرُ: وما نُنزّلُه إلّا في حالِ كونِ ذلك المقدورِ مُلتبسًا بقدَرٍ معلوم، لِيفيدَ أنّه تعالى حينَ ينزّلُ المَقدوراتِ فإنَّ علْمَه مُلتبِسٌ بها لا يُفارقُها وأنَّه يُنزّلُها بحكمةٍ تُناسبُ الخلْقَ.

الله تعالى عالمٌ بما يُنزِّله بحِكمةٍ تُناسِبُ الخلْقَ وتَنْفعُهم

دَلالةُ الصِّفةِ ﴿مَّعْلُومٍ﴾:

جاءتِ الصّفةُ في قولِه ﴿مَّعْلُومٍ﴾ للتّقييدِ، وجاء الوصفُ بطريق الإثباتِ بالوصْفِ بالاسْمِ المشتقِّ دون أن يقولَ مثلًا (بقدرٍ لا يغيبُ عنّا)؛ لأنّ الوصْفَ بطريق الإثباتِ لعلْمِ اللّه بمقدوراتِه المُنزّلةِ آكدُ من طريق النّفْيِ، والآيةُ وردتْ على طريق التّأكيدِ في ألفاظِها وتأليفِها، كما أنَّ التّعبيرَ بلفْظِ ﴿مَّعْلُومٍ﴾ فيه رعايةٌ للفاصلةِ.

الوصْفُ بطريقِ الإثباتِ لعلْمِ الله بمَقْدوراتِه آكدُ من طريقِ النّفْيِ

نُكتةُ التّعبيرِ باسْمِ المفعولِ ﴿مَّعْلُومٍ﴾:

عبّرَ باسْمِ المفعول؛ للإيذانِ بأنَّ كلَّ مقدورٍ من مَقدوراتِ اللّهِ المُنزَّلةِ قد ثبتَ العلْمُ به، وللإشعارِ بأنَّه على وجْهِ الحِكمةِ والإبداعِ، والمعنى أنَّه معلومُ المِقدار عندَ اللّه أو معلومُ التّقديرِ عندَه سُبحانه، والجمعُ بين المعنَيَيْن أولى وأظهرُ[2].

كلُّ مَقدورٍ من مَقدوراتِ اللهِ يُنزِّله تعالى بعلْمِه وحكمتِه

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الإنزالُ والإرسالُ:

لم يقلِ اللّه تعالى (وما نرسله إلا بقدر معلوم)؛ للفرقِ بين الإنزالِ والإرسالِ، فالإنزالُ أخصُّ منَ الإرسالِ؛ لأنّ الإنزالَ لا يكونُ إلّا من عُلوٍّ، والإرسالُ أعمُّ[3]، كما أنَّ الإنزالَ في القرآن لا يكونُ إلّا

الإنزالُ لا يكونُ إلّا من عُلوٍّ، فهو أخصُّ منَ الإرسالِ

(1) السمين الحلبي، الدر المصون: 7/153، وابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 11/444.
(2) الشوكاني، فتح القدير: 3/152، والقنوجي، فتح البيان: 7/159، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/37.
(3) أبو حيان، البحر المحيط: 6/474.

منَ اللّه تعالى، والإرسالُ قد يكونُ منَ اللّه وقد يكونُ منَ الخلْقِ إلى الخلْقِ، وفيه معنى تبليغِ رسالةٍ، بخلاف الإنزالِ، ولمّا كان السّياقُ في بيان قُدرةِ اللّه والاستدلالِ على إلهيَّتِه وتوحيدِه وإظهارِ فضْلِه، ونعمتِه وفي أنَّ تصاريفَ الأمورِ كلَّها في العالَمِ العُلويِّ عبِّرَ بقوله ﴿نُنَزِّلُهُۥٓ﴾ دونَ (نُرسله).

﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ﴿٢٢﴾﴾ [الحجر: 22]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الاسْتِدلالُ بِالرِّياحِ على تَوحيدِ اللهِ وبَديعِ خلْقِه

لمّا تمَّ ما أراده سُبحانَه من آيتَي السّماءِ والأرضِ، وختَمَه بشُمولِ قُدرتِه لكلِّ شيءٍ، أتبعَه بذكْرِ ما ينشأُ عنهما ممّا هو بينَهما مودَعًا في خزائنِ قُدرتِه، وذلك للاسْتِدلالِ بفعلِ الرّياحِ على أُلوهيَّتِه وتَوحيدِه وعلى مِنَّتِه على النّاسِ بما فيها منَ الفوائدِ[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿لَوَٰقِحَ﴾: أصلُ (لقح): أصْلٌ صَحيحٌ يَدُلُّ على إحْبالِ ذَكَرٍ لأُنثى، ثُمَّ يُقاسُ عليه ما يُشَبَّهُ به، منه لِقاحُ النَّعَمِ والشَّجَرِ، أمّا النَّعَمُ فَتُلْقِحُها ذُكْرانُها[2]، ورياحٌ لَواقِحُ: تُلْقِحُ السَّحابَ بالماءِ، وتُلْقِحُ الشَّجَرَ. والأصْلُ في لَواقِحَ مُلْقِحَةٌ لكِنَّها لا تُلْقِحُ إلّا وهيَ في نَفْسِها لَواقِحُ؛ الواحِدَةُ لاقِحَةٌ[3]، أي: ذاتُ لقاحٍ، واللَّواقِحُ أيضًا: الحَوامِلُ. واللِّقاحُ: ذواتُ اللَّبَنِ، واحدتُها لَقوحٌ ولُقحةٌ[4]، والمقصودُ باللَّواقحِ في الآيةِ: الحوامِلُ التي تحملُ ما يكونُ سببًا في نزولِ الأمطارِ. ويَصحُّ أن يكونَ لفظُ ﴿لَوَٰقِحَ﴾ جمْعَ مُلقح - اسمَ فاعلٍ - وهو الَّذي يُلْقِح غيرَه، فتكونُ الرّياحُ مُلقحةً لغيرِها كما يُلقحُ الذَّكَرُ الأُنثى[5].

2) ﴿فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ﴾: أصلُ (سقى): أصْلٌ واحِدٌ، وهو إشْرابُ الشَّيءِ الماءَ وما أشْبَهَهُ. تَقولُ: سَقَيْتُهُ بيَدي أسْقيهِ سَقْيًا، وأسْقَيْتُهُ،

(1) البقاعي، نظم الدرر: 11/36، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/37.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (لقح).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (لقح).
(4) السمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (لقح).
(5) طنطاوي، التفسير الوسيط: 8/32.

إذا جَعَلْتَ لَهُ سِقْيًا. والسُّقْيُ: المَصْدَرُ. وكَم سِقْيُ أرْضِكَ، أيْ حَظُّها مِنَ الشُّرْبِ. والسِّقايَةُ: المَوْضِعُ الَّذي يُتَّخَذُ فيهِ الشَّرابُ في المَوْسِمِ[1]. والسِّقايَةُ أيضًا: الصّواعُ، وفي قَولِهِ ﷻ: ﴿جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ﴾ [يوسف: 70]، وهو الَّذي كانَ يَشْرَبُ فيهِ المَلِكُ[2]. والسَّقيُّ، على فَعيلٍ: السَّحابَةُ العَظيمَةُ القَطْرِ[3]. والاسْتِسْقاءُ: طَلَبُ السّقي، أو الإسقاء، قال تعالى: ﴿۞وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ﴾ [البقرة: 60][4]. والمَسْقَى: وقتُ السَّقْيِ[5]. والمقصودُ بقولِه ﴿فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ﴾ في الآية: جعَلناهُ لكم سُقْيًا.

3) ﴿بِخَٰزِنِينَ﴾: أصلُ (خزن): يَدُلُّ على صيانَةِ الشَّيءِ[6]. يُقال: خَزَنَ الشَّيءَ يَخْزُنه خَزْناً واخْتَزَنه: أحْرَزه وجَعَلَهُ في خِزانة، واخْتَزَنَهُ لِنَفْسِه. والخِزانةُ: اسْمُ المَوْضِعِ الَّذي يُخْزَنُ فيهِ الشَّيْءُ، واحِدَةُ الخَزائن، والخِزانةُ أيضًا: عَملُ الخازِنِ[7]. والمَخْزَن، بِفَتْحِ الزّاي: ما يُخْزَن فيهِ الشَّيْءُ. وخِزانَةُ الرجل قلْبُه، وخازِنُهُ لِسانُه[8]. والمقصودُ بالخَزْنِ في الآية: حفظُ الماءِ، أي: لسْتُم بقادرين على خزنِه وحفْظِه في الأنهارِ والآبارِ والعيونِ وغيرِها، وإنّما نحن القادرون على ذلك.

❁ المَعْنى الإجْمالِيُّ:

يقولُ الحقُّ ﷻ: وأرسَلْنا رياحَ الرَّحمةِ لِتُلَقِّحَ السَّحابَ، فينشأُ عن ذلك الماءُ الذي يحمِلُه السَّحابُ، فأنزَلْنا منَ السَّحابِ مَطَرًا، فمكَّنّاكم من هذا الماءِ العذْبِ؛ لِشُربِكم، وشُربِ أنعامِكم، وسَقْيِ

إنَّ الله تعالى قد هيَّأ في الكونِ أسبابًا للرِّزقِ والإيجادِ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سقى).
(2) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن عباد، المحيط في اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة: (سقى).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سقى).
(4) الراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (سقى).
(5) ابن منظور، لسان العرب: (سقى).
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (خزن).
(7) ابن عباد، المحيط في اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (خزن).
(8) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة: (خزن).

أراضيكم، لا قُدرة لكم على خزْنِه وادِّخارِه، ولكنّ اللّه يَخزنُه لكم على الأرض بالأنهار ونحْوِها، أو في الأرض بأن يَسلكَه ينابيعَ فيها رحمةً بكم وإحسانًا إليكم[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

فائدةُ الوصْلِ بالواوِ في ﴿وَأَرۡسَلۡنَا﴾:

مناسبةُ تَوالي الجُملِ الفِعْليَّة في تقريرِ المعنَى وتأْكيدِه

عُطِفَت هذه الجُملةُ على قولِه ﴿وَجَعَلۡنَا لَكُمۡ فِيهَا مَعَٰيِشَ﴾ وما بينَهما جُملٌ اعتراضيَّةٌ؛ لتحقيقِ ما سبقَ وتقريرِه وتأكيدِه، ولِترشيحِ ما لَحِقَ، فتكونُ جملةُ ﴿وَأَرۡسَلۡنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ﴾ داخلةً في حيِّزِ التّأكيدِ بـ﴿وَلَقَدۡ﴾، ويَجري فيها ما ذُكرَ في فائدةِ التَّأكيدِ بـ﴿وَلَقَدۡ﴾ في موضِعِه[2].

سببُ إيرادِ صيغة الجمع ﴿ٱلرِّيَٰحَ﴾:

الرّياحُ بِصيغةِ الجمْعِ لإفادةِ الرَّحْمةِ والإنعامِ

لمّا كان السّياقُ في بيانِ قُدرةِ اللّه وبَديعِ حِكْمتِه وظهورِ مِنّتِه على الخلْقِ، وجاء اللّفظُ بِصيغةِ الجمْعِ عند جميعِ القُرّاءِ إلّا حمزةَ وخلف، دلَّ على أنَّ المرادَ من قولِه تعالى: ﴿وَأَرۡسَلۡنَا ٱلرِّيَٰحَ﴾ إرسالُ رياحِ الرّحمةِ، أي: على وجهِ الإنعامِ، وهذا من عادة القرآنِ في اسْتِعمالِ صيغةِ الجمْعِ للرّيح[3]، وأمّا على قراءةِ حمزةَ وخلَفٍ العاشرِ بالإفراد فللدّلالةِ على أنَّ اللّه قادرٌ على النّفعِ والرّحمةِ بالرّيحِ الواحدةِ والرّياحِ الكثيرةِ، والذي دلَّ على ذلك في قراءة الإفرادِ وصْفُ الرّيح بأنّها لواقحُ، أي: نافعةٌ بتكوينِ السّحابِ، وإنزالِ الغيثِ، وإيجادِ الثِّمارِ.

بَلاغةُ قولِه ﴿وَأَرۡسَلۡنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ﴾ بين التّشْبيه والمجازِ:

تنوُّعُ التّوجيهِ البَلاغيِّ من بَراعةِ بَلاغةِ القرآنِ

لمّا كان لفظُ ﴿لَوَٰقِحَ﴾ جمْعَ لاقحٍ بمعنى حاملٍ، فيقال: ناقةٌ لاقحٌ،

(1) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 10/18، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/531، والسعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 430.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/72.

(3) الراغب، المفردات: (رسل)، وأبو حيان، البحر المحيط: 2/82.

أي: حاملٌ، فالمرادُ باللَّواقحِ اسْمُ الفاعل، أي المُلقِّحات، فشُبِّهت الرّياحُ التي جاءت بخيرٍ من إنشاءِ سحابٍ ماطرٍ بالنّاقةِ الحاملِ، ليكونَ الكلامُ على طريقةِ التَّشبيهِ البليغ؛ لأنّ ﴿لَوَٰقِحَ﴾ حالٌ كما سيأتي، والحالُ في معنى الخبرِ، فتقديرُ الكلامِ: الرّياحُ لواقحُ، ووجْهُ الشّبهِ هو الحمْلُ، أي كما أنَّ اللّواقحَ تكونُ حاملةً، فالرّياحُ حاملةٌ بالسّحابِ أو بالماءِ الذي فيه، كما شُبِّهتِ الرّيحُ التي لا تأتي بالخيرِ بالعقيمِ، ويحتملُ أن يكونَ الكلامُ بطريقِ الإسنادِ المجازيِّ بإطلاق اللَّواقحِ على الرّياح، وهي سببُ السّحابِ، ويحتملُ أن يكونَ المرادُ باللَّواقحِ ذَواتَ لِقاحٍ، فيكونَ الإسنادُ حقيقيًّا ليكونَ اللّفظُ من بابِ النّسبِ، مثلَ لابنٍ وتامرٍ، وذَلِكَ أنَّ الرّياحَ تَمُرُّ على الماءِ ثُمَّ تَمُرُّ على السَّحابِ والشَّجَرِ فيكونُ فيها لِقاحٌ، فالمُرادُ باللّواقحِ على هذا الوجهِ الاسْمُ المفعولُ، أي مُلقَّحات بالشّجرِ والسّحابِ وغيرِهما[1].

بَراعةُ التّعبيرِ بإيثارِ لفْظِ ﴿لَوَٰقِحَ﴾:

لا يعلمُ مَوضعَ نـزولِ المـاءِ ولا وقتَه إلّا اللهُ

لمّا كانتِ اللَّواقحُ هي النّوقَ التي توصَفُ بهذا الوصْفِ يومَ حمْلِها[2]، دلَّ على أنَّ الرّياحَ تكونُ حاملةً للسّحاب أو للماءِ الذي فيه بمثابةِ ابتداءِ حمْلِ اللّواقحِ، فلا يعلمُ موضعَ نزولِ الماء ولا وقتَه إلّا اللّهُ.

دَلالةُ الحالِ في قولِه ﴿لَوَٰقِحَ﴾:

إرسالُ الرّياحِ لواقحَ هو بتخصيصِ الله تعالى وحُسْنِ تدْبيرِه

لمّا كانتِ الحالُ على معنى تقييدِ العاملِ أفادَ مجيءُ ﴿لَوَٰقِحَ﴾ اقترانَ إرسالِ الرّيّاحِ بكونِها لواقحَ، ولمّا كانتِ الحالُ لبيانِ هيئةِ صاحبِها بأن يكونَ على حالٍ دونَ أخرى مُمكنةٍ له دلَّ على أنَّ اللّه تعالى بإرادتِه وقُدرتِه هو الذي قيّدَ الرّياحَ بحالِ كونِها لواقحَ دونَ حالٍ أخرى، بألّا تكونَ لواقحَ، ففي الكلامِ إشعارٌ بكوْنِ إرسالِ الرّياحِ

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 3/209، وأبو حيان، البحر المحيط: 6/462، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/72، والآلوسيّ، روح المعاني: 7/276، والقنوجي، فتح البيان: 7/159.

(2) ابن منظور، لسان العرب: (لقح).

لواقحَ هو بتخْصيصِ اللّه تعالى وحُسْنِ تدْبيرِه، ففيه معنى إقامةِ الحُجّةِ على تَوحيدِه سُبحانَه.

دَلالةُ الفاءِ في قولِه ﴿فَأَنزَلْنَا﴾:

تفيدُ الفاءُ التّرتُّبَ والتّعقيبَ، بمعنى أنَّ إنزالَ الماءِ منَ السّماء مُرتَّبٌ على إرسالِ الرّياح لواقحَ ومسبَّبٌ عنه، وإفادةُ التّعقيبِ في كلِّ موضعٍ بحسبِه، فإنزالُ اللّه تعالى الماءَ منَ السّماء هو بقدَرٍ معلومٍ.

إنزالُ الله تعالى الماءَ منَ السّماءِ هو بقدَرٍ معلومٍ

فائدةُ تقديمِ ﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾:

لمّا كان لفظُ ﴿فَأَنزَلْنَا﴾ يفيدُ النّزولَ من عُلوٍّ كان التّصريحُ بالجارِّ والمجرورِ وتقديمُه على المفعولِ لإظهارِ تعْظيمِ أمرِ إنزالِ الماءِ منَ السّماءِ، وإبرازِ فضلِ هذه النّعمةِ التي تنزلُ من عُلوٍّ.

تَعظيمُ شأنِ السّماءِ بإنزالِ الماءِ منها

فائدةُ تنكيرِ لفْظِ ﴿مَآءً﴾:

أفادَ التَّنكيرُ تفخيمَ الماءِ النّازلِ منَ السّماء الذي هو بقدَرٍ معلوم وتعظيمَه وتكثيرَه، وأنَّ ذلك عامٌّ في كلِّ ماءٍ نازلٍ منَ السّماء؛ لأنَّ النَّكرةَ المُثبتةَ في سياق الامتنانِ تفيدُ العمومَ.

التَّعظيمُ والتّكثيرُ والعُمومُ

دَلالةُ الفاءِ في قولِه تعالى ﴿فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ﴾:

تفيدُ الفاءُ التّرتيبَ والتّعقيبَ، بمعنى أنَّ إسقاءَ اللّه تعالى الماءَ للخلْقِ مُرتَّبٌ على إنزالِه منَ السّماء، ففيه تذكيرٌ بنعمةِ سُقيا الماءِ ورفعتِها، وإشعارٌ بحُسْنِ تدبيرِ اللّه سُبحانَه وجميلِ أفعالِه؛ إذ رتّبَ إنزالَ الماء منَ السّماءِ على إرسالِ الرّيّاحِ لواقحَ، كما رتَّبَ إسقاءَ الماء للخلْقِ على إنزالِه.

من بَديعِ تدْبيرِ اللّه ترتيبُ الإنزالِ على إرسالِ الرّيّاحِ وترتيبُ الإسْقاءِ على إنزالِه

نُكتةُ التّعبيرِ بلفْظِ ﴿فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ﴾:

لمّا كان قولُهم (سقيته الماء) بمعنى أعطيْتُه قدْرَ ما يَرويه، وكان قولُهم (أسقيته نهراً) بمعنى جعلتُه له سُقيا وأعدَدتُه له، كان التّعبيرُ بـ﴿فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ﴾ أبلغَ من (سقيناكموه)؛ لِما فيهِ منَ الدّلالةِ

من نِعَمِ اللّه الكبرى على النّاسِ تَمْكينُهم منَ الماءِ لِيَنتفِعوا منه متَى أرادوا

على جعْلِ الماءِ مُعدًّا لهم على جهة تمْكينِهم منه؛ لِينتفِعوا به متى أرادوا، وهذه الكلمةُ هي أطولُ كلمةٍ في القرآن[1].

بديعُ المقابلةِ في ﴿وَمَآ أَنتُمۡ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ﴾:

ظهورُ عظيمِ قُدرةِ الله أمامَ عجْزِ الخلْقِ وقِلَّةِ حيلَتِهم دليلٌ على ألوهيَّتِه وتوحيدِه

لمّا أثبتَ اللّه تعالى لجنابِه أنَّه ما من شيءٍ إلّا عندَه خزائنُه في قولِه: ﴿وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ﴾ نفَى عنهم قُدرتَهم على خزْنِ الماء في السّحابِ وإنزالِه إلى الأرضِ، فقال: ﴿وَمَآ أَنتُمۡ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ﴾؛ فقابلَ بين مُلكِه العظيم وقُدرتِه المُطلقةِ من جهة، وعجْزِ الخلقِ وضعْفِهم من جهة أخرى، وذلك لإظهارِ قُدرتِه المُطلقةِ سبحانَه أمامَ عجْزِ الخلْقِ، فهم لا يَملكون الخزائنَ، بل لَيسوا بقادرين على أن يَخزِنوا الماءِ الذي أنزلَه اللّه منَ السّماءِ لهم، فتفيدُ المقابلةُ الاستدلالَ على ألوهيَّة اللّه وتَوحيدِه، وكأنَّه قيل: نحن بأُلوهيَّتنا القادِرون على إيجادِه وخزْنِه في السَّحاب وإنزالِه، ونحن القادرون على خَزْنِه بعدَ إنزالِه، وما أنتم على ذلك بقادرين، لا على إيجادِه، ولا على خزْنِه بعدَ إنزالِه؛ لعجْزِكم وضعْفِكم، ويحتملُ أن يكونَ الكلامُ إشارةً إلى وجودِ إلهٍ مدبِّرٍ حكيمٍ، والمعنى: ما أنتم بخازنين له بعد ما أنزلناه في الغُدرانِ والآبارِ والعُيون، بل نحن نخزنُه فيها لنجعلَها سُقيا لكم، وليكونَ ذخيرةً لكم عند الحاجة إليه، مع أنَّ طبيعةَ الماءِ تقتَضي الغَوْرَ، فوقوفُه دون حدٍّ لا بدَّ له من سبب مُخصِّصٍ؛ فيدل خَزنُه على المدبِّرِ الحكيم، كما تدلُّ حركةُ الهواء في بعض الأوقاتِ من بعض الجهاتِ على وجْهٍ يَنتفعُ به جميعُ المخلوقات، وفي المقابلةِ إظهارٌ لكمالِ قُدرةِ اللّه وعظيمِ فعلِه أمامَ عجْزِ الخلقِ وقلَّةِ حيلتِهم[2].

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 6/474، والبقاعي، نظم الدرر: 11/37، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/72.

(2) البيضاوي، أنوار التنزيل: 3/209، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/72، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 11/138.

بَلاغةُ النّفْيِ في ﴿وَمَآ أَنتُمۡ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ﴾:

المُبالغةُ في نفْيِ قُدرةِ الخلْقِ على خَزْنِ الماءِ النّازلِ منَ السّماءِ

كان الظّاهرُ أن يتوجّهَ النّفْيُ إلى قُدرتِهم؛ لأنّ الخزنَ عائدٌ إلى الفعْلِ والقُدرةِ، فلمّا توجَّه النّفْيُ إلى ذواتِهم أفادَ المبالغةَ في نفْيِ قُدرتِهم على خزْنِ الماء في السّماء أو خزنِ كلِّ الماء النّازلِ منَ السّماءِ في الأرضِ.

فائدةُ تقديمِ ﴿لَهُۥ﴾:

الخازنُ للماءِ هو اللهُ تعالى وحدَه دونَ غيرِه

أصلُ الكلامِ: وما أنتم بخازنين له، فقُدِّمَ الجارُّ والمجرورُ لإفادة القصْرِ الإضافيِّ مع تأكيدِ نفْيِ قُدرتِهم على أن يكونوا خازنين لماءِ المطرِ في السّماء أو ماءِ المطرِ النّازلِ منَ السّماء في الأرض، ويُفهمُ من لازمِه أنَّ الخازنَ له هو الذي أنزلَه منَ السّماء، وهو اللّه تعالى وحدَه دونَ ما سواه، كما أنَّ في تقديم الجارِّ والمجرورِ رعايةً للفاصلةِ.

فائدةُ الباءِ في قولِه ﴿بِخَٰزِنِينَ﴾:

الاحْتِراسُ من احتمالِ التَّخصيصِ

أفادتِ الباءُ المُبالغةَ في نفْيِ العُمومِ، بمعنى تأكيدِ نفْيِ قُدرتكم على خزنِ الماءِ في أيِّ حالٍ منَ الأحوالِ، والاحْتِراسِ منِ احتمالِ التَّخصيصِ.

فائدةُ مَجيءِ لفْظِ ﴿بِخَٰزِنِينَ﴾ نَكرةً:

عمومُ نفْيِ قُدرةِ الخلْقِ على خزْنِ الماءِ

لمّا جاء اللّفظُ نكرةً في سياقِ النّفْيِ دلَّ على العُمومِ، والمعنى لا يكونُ من أيِّ واحدٍ منكم خزنٌ للماءِ في السّماءِ، ولا للماءِ النّازلِ منَ السّماءِ إلّا بقُدرةِ اللّه وفضْلِه عليكم، لبيانِ عجْزِ الخلْقِ وإظهارِ ضعْفِهم فيما يعمُّ ظهورُه.

دَلالةُ لفْظِ ﴿بِخَٰزِنِينَ﴾:

القادرُ على حفْظِ الماءِ النّازلِ في الآبارِ وغيرِها وعلى إخراجِه هو اللهُ وحدَه

يحتملُ أن يكونَ المعنى: قادِرين على حفْظِه في الغُدرانِ والعُيون والآبارِ بعد إنزالِه، أو: قادرين على التّمكُّنِ من إخراجِه[1]، كما أنّكم

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 3/209.

لا تَقدرون على خَزْنِه وحفْظِه في السّحابِ من بابٍ أولى، ويُمكنُ الجمعُ بين هذه المعاني وغيرِها ممّا يحتملُه الكلامُ، بل هو الأوْلى؛ لِعمومِ اللّفظِ بمجيئِه في سياق النّفْيِ كما تقدَّمَ، وتفيدُ هذه الجملةُ بكلِّ معانيها أنّ القادرَ على كلِّ ذلك هو اللّه تعالى وحدَهُ.

﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الحجر: 23]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

أمـرُ الإحـيـاءِ والإماتةِ بيدِ الله وحدَه

لمّا تقرَّرَ تفصيلُ الخبرِ عمّا هو سببٌ للإحياءِ في الجُملةِ، تهيَّأتِ النَّفسُ للانتقالِ منه إلى الإحياءِ الحقيقيّ قياسًا على ذلك، جاءت هذه الآيةُ[1].

وأيضًا لَمّا جَرَى ذِكْرُ إنْزالِ المَطَرِ، وكانَ مِمّا يَسْبِقُ إلى الأذْهانِ عند ذِكْرِ المَطَرِ إحْياءُ الأرْضِ بِهِ، ناسَبَ أنْ يُذْكَرَ بَعْدَهُ جِنْسُ الإحْياءِ كُلِّهِ؛ لِما فيهِ مِنْ غَرَضِ الاسْتِدْلالِ على الغافِلينَ عنِ الوَحْدانيَّةِ، ولِأنَّ فيهِ دَليلًا عَلَى إمكانِ البَعْثِ[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿نُحْيِۦ﴾: الحياةُ: طراوةٌ مع امتدادٍ، لها فاعليّةٌ تتمثّلُ في رهافةِ الحِسّ وفي النّموّ حركةً أوِ امتدادًا[3]، والحَيُّ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ: نَقيضُ المَيِّتِ، وحَيَّ، يَحْيا، فهو حَيٌّ، ومِنه الحَيَوانُ، وهو كُلُّ ذي روحٍ، ناطِقًا كان أو غَيرَ ناطِقٍ، والحيُّ مِنَ النَّباتِ: ما كانَ طَريًّا يَهْتَزُّ، وأرضٌ حَيَّةٌ، أيْ: مُخصِبَةٌ، وطَريقٌ حَيٌّ، أيْ: بَيِّنٌ[4]. والمُرادُ بالإحياءِ في الآيةِ: تَكوينُ المَوْجوداتِ الَّتي فيها الحَياةُ، وإحياؤُها بَعْدَ فَناءِ الأجسامِ[5].

2) ﴿وَنُمِيتُ﴾: المَوتُ: ذَهابُ القوَّةِ مِنَ الشَّيءِ، أو همودٌ وسكونٌ ينشأُ عن زوالِ حدّةِ الشّيءِ وقوّتِه[6]، يُقال: ماتَ، يَموتُ، مَوْتاً، فهو

(1) البقاعي، نظم الدرر: 11/40.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/39.
(3) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (حيي).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حيي)، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (حيي).
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/36.
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (موت).

مَيّتٌ، وجَمعُه: أمواتٌ، ومَيِّتون، ومَيْتون. ويُطلَقُ أيضًا على مَن في حُكْمِ الميِّتِ وليس بِه، وعلى ما من شأنه أن يموتَ، ويُجْمَعُ على مَوْتَى وأمواتٍ[1]، والمقصودُ بالموت في الآية: زوالُ القوّةِ الحاسّةِ[2].

3) ﴿ٱلْوَٰرِثُونَ﴾: الوِرْثُ والميراثُ (أصْلُهُ الواوُ): كَوْنُ الشَّيء لِقَوْمٍ ثُمَّ يَصيرُ إلى آخَرينَ بِنَسَبٍ أوْ سَبَبٍ أو غير ذلك[3]. يُقالُ: ورِثَ أباهُ، يَرِثُه، إرْثًا، فهو وريثٌ، أي: صارَ إلَيْه مُلْكُهُ بعد مَوْتِه. فالإيراث: الإبقاءُ للشَّيء. يورِثُ، أي: يُبقي ميراثًا. والتُّراثُ: تاؤه واوٌ، ولا يُجْمَعُ كما يُجْمَعُ الميراثُ. والإرثُ: ألفُه واوٌ، لكنَّها لمّا كُسِرَتْ هُمِزَتْ بلُغة من يهمز الوسادَ والوِعاء[4]. واللّه ﷻ يَرث الأرْض ومَن عليها، وهو خيرُ الوارِثين، أي يَبقى ويَفْنى مَن سواهُ فَيرجع ما كانَ يملكه العِباد إليه وحْده لا شريك لَهُ[5]. والمقصودُ بالإرْثِ في الآية: البَقاءُ بعدَ الموجوداتِ تَشْبيها للبقاءِ بالإرْثِ.

المَعْنى الإجْماليُّ:

الحياةُ والموتُ بيدِ الله تعالى وحدَه، وأن ليس لهذه الحياةِ بقاءٌ

لقد بيَّنَ اللّه ﷻ في هذه الآية أنَّ الإحياءَ والإماتةَ بيدِه وحدَه، فقال: وإنّا لَنحنُ نُحْيي الخَلْقَ مِنَ العدَمِ، ونُميتُ الأحياءَ متى شِئْنا، ونُحْييهم بعدَ مَوتِهم يومَ البَعثِ، فاللّه سُبحانه يرثُ الأرضَ ومن عليها، فلا يغترنَّ أحدٌ بهذه الدُّنيا، وإنْ أعطاهُ اللّه الكثيرَ من زَهرتِها، وأفاض عليه الجزيلَ مِن متاعِها؛ فكلٌّ إلى زوالٍ[6].

(1) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، وابن سيده، المحكم، وابن الأثير، النهاية في غريب الحديث والأثر، وابن منظور، لسان العرب: (موت).
(2) السمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (موت).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (ورث).
(4) الخليل، العين، وابن عباد، المحيط في اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (ورث).
(5) الأزهري، تهذيب اللغة: (ورث).
(6) ابن جرير، جامع البيان: 14/47، والشوكاني، فتح القدير: 3/153، والخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 7/229.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

نكتةُ الوصْلِ بالواوِ ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ﴾:

الاستدلالُ على قُدرةِ الله وعُمومِ تَصرُّفِه سُبحانه

أفادتِ الواوُ عطْفَ هذه الجُملةِ على قولِه تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا﴾، فتكونُ من عطْفِ الجُملةِ المؤكِّدةِ على الجُملةِ المؤكَّدةِ؛ لِلدَّلالةِ على القُدرَةِ وعُمومِ التَّصرُّفِ[1].

سَببُ إيثارِ ضميرِ التَّعْظيمِ في الآيةِ:

الإحياءُ والإماتةُ والبقاءُ من شأنِ الله المَلِكِ الواحدِ الأحدِ

لمّا كان فعلُ الإحياءِ والإماتةِ والبقاءِ بعد موتِ الخلائقِ لا يكونُ إلّا لله تعالى، عبِّرَ بالضّميرِ الأعظمِ؛ للإيذانِ بأنَّ الإحياءَ والإماتةَ والبقاءَ بعد فناءِ الخلْقِ من شأنِ المَلِكِ الواحدِ الأحدِ، لا يُشاركُه في ذلك أحدٌ.

فائدةُ المؤكِّدات في ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ﴾:

من يُنكِرُ البعْثَ يومَ القيامةِ كأنَّه مُنكِرٌ لخلْقِ الله له

لمّا جاءتِ الجُملةُ الخبريَّةُ مُؤكَّدةً بتأكيدَيْن (إنَّ) واللّامِ الموطِّئةِ للقسَمِ أفادَ ذلك تحقيقَ المعنى وتقريرَه، ولمّا كان لفظُ ﴿نُحْيِۦ﴾ يفيدُ الإحياءَ الأوّلَ والإحياءَ عندَ البعثِ نُزِّلَ الكافرون مَنزلةَ المُنكِرين للإحياءِ الأوّلِ أي الإيجادِ؛ لإنكارِهم الإحياءَ الثّاني، كما نزّلوا مَنزلةَ المُنكِرين لِلإماتة بسببِ أقوالِهم وأفعالِهم المُنكَرةِ، ويدخلُ فيه المُلْحدون المُنكِرون لأصْلِ إيجادِ الله تعالى للخلْقِ دخولًا أوّليًّا[2].

دَلالةُ الحصْرِ في ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ﴾:

لا قُدْرَةَ على الإحْياءِ ولا على الإماتَةِ إلّا لله تعالى

لمّا جاء المُسنَدُ إليه ضميرًا ﴿لَنَحْنُ﴾ مُسندًا إليه الخبرُ الفعْليُّ في قولِه: ﴿نُحْيِۦ وَنُمِيتُ﴾ أفادَ الحصرَ بمعونةِ ورود التّأكيدَيْن: (إنَّ) واللّام، والمعنى: لا قُدْرَةَ على الإحْياءِ ولا على الإماتَةِ إلّا لَنا[3].

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/39.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/39.

(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 19/136، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 3/209، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 11/139، والخازن، لباب التأويل: 3/54، والقنوجي، فتح البيان: 7/160.

فائدةُ مَجيء خَبر ﴿وَإِنَّا﴾ جُملةً اسميَّةً:

ثبوتُ الحكمِ وتأكيدُه ودوامُه واستمرارُه

لمّا كانت جملةُ ﴿لَنَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ﴾ خبرًا لـ﴿وَإِنَّا﴾ أفادتِ الثُّبوتَ بمعنى التَّأكيدِ، بمعنى ثبوتِ أمرِ الإحياءِ والإماتةِ لنا دونَ غيرِنا وتأكيدِه وتقريرِه ودوامِه واستمرارِه.

نُكتةُ التَّعبيرِ بالمضارعِ ﴿نُحْيِۦ وَنُمِيتُ﴾:

تجدّدُ الإحياءِ والإماتةِ واستِمرارُهما

لمّا جاء الفعلُ ﴿نُحْيِۦ﴾ بصيغةِ المضارعِ الدّالِّ على التّجدُّدِ والاستمرارِ أفادَ أنَّ المرادَ منَ الإحياءِ تَكْوينُ المَوْجوداتِ الَّتي فيها الحَياةُ، ويندرجُ فيه إحْياؤُها أيْضًا بَعْدَ فَناءِ الأجْسامِ، فيكونُ قد أُدْمِجَ في الاسْتِدْلالِ على تَفَرُّدِ اللّه تعالى بالتَّصرُّفِ إثْباتُ البَعْثِ ودَفْعُ اسْتِبْعادِ وُقوعِه واسْتِحالَتِه، وأمّا ﴿وَنُمِيتُ﴾ فأفادَ مجيئُه بصيغةِ المضارعِ تجدّدَ الإماتةِ للموجوداتِ التي فيها الحياةُ[1].

سببُ حذْفِ المفعولِ في ﴿نُحْيِۦ وَنُمِيتُ﴾:

اختِصاصُه سُبحانه بذلك، وشُمولُ الإحياءِ والإماتةِ للخلْقِ جميعًا

لمّا كان الفِعْلان ﴿نُحْيِۦ وَنُمِيتُ﴾ منَ الأفعالِ المُتعدّية كانَ حذفُ المفعولِ على خلافِ مُقتضى الظّاهرِ، أو يكونُ نُزِّلَ الفعلُ المُتعدّي منزلةَ الفعلِ اللّازمِ، ونُكتتُه على كلا الأمرَين هي إثباتُ أنَّ اللّه تعالى بعظَمتِه وأُلوهيّتِه من شأنِه الإحياءُ والإماتةُ، وأنَّ هذين الفعْلَين لا يكونان إلّا منه، فالقصدُ إثباتُ معنى الإحياءِ والإماتةِ فعلًا للّه تعالى على طريقِ المبالغةِ، وأنَّهما مُختصّانِ به سُبحانه دون غيرِه، ولو عُدّي الفِعْلانِ لانتقضَ الغرَضُ؛ لأنّ الكلامَ سيُفيدُ حينئذٍ أنَّهم مُقرّون بأنَّ اللّه تعالى يُحيي ويُميتُ، ولا يُنكِرون إلّا جنسَ ما وقعَ أثرُ الإحياءِ أوِ الإماتةِ عليه، فلمّا كان الكلامُ مع مَنْ أنْكَرَ الإحياءَ والإماتةَ أصلًا أو مع من نُزِّلَ منزلتَه حُذِفَ المفعولُ منَ الفعْلَين؛ لأجل تحقيقِ الاختصاصِ المُناسبِ لسياقِ الاستدلالِ على توحيدِ اللّه تعالى[2].

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/39.

(2) الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص: 155، والسكّاكي، مفتاح العلوم، ص: 229.

بَلاغةُ التّكميلِ في ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ﴾:

لمّا كان المقصودُ ذكْرَ الإحياءِ وهو المُناسبُ لذكْرِ إنزالِ المطرِ كان المَقْصودُ من ذكرِهِ ذِكْرَ الإماتَةِ على جهة الاستيعابِ، ولِدفْعِ توهُّمِ أنَّه تعالى يُحيي ولا يقدرُ على الإماتةِ، فجاء الكلامُ على الإطنابِ بطريقِ التَّكْميلِ[1].

الاحْتِراسُ مِن توهُّمِ أنّه تعالى يُحيي ولا يَقدرُ على الإماتةِ

بَديعُ الطِّباقِ في ﴿نُحْيِۦ وَنُمِيتُ﴾:

جاء الفِعْلان متقابلَيْن متضادَّيْن على طريق الطِّباقِ؛ للإيذانِ بأنَّه لا يقدرُ على الجمْعِ بين الإحياءِ والإماتةِ سوى اللّه تعالى، وإنّما جاء بطريق ذكْرِ المُتقابلَين مع أنَّ الإحياءَ وحدَه كافٍ في بيانِ كمالِ قُدرتِه والاستدلالِ على توحيدِه لظهورِ الأمرِ بطريق المقابلةِ وللتّذكيرِ بمَوتِهم ولترشيحِ ذكْرِ اللّاحق في قولِه تعالى: ﴿وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ﴾.

لا يَقدرُ على الجمْعِ بين الإحياءِ والإماتةِ سِوى الله تعالى

سرُّ التّرتيب في ﴿نُحْيِۦ وَنُمِيتُ﴾:

لمّا كان المرادُ منَ الإحياء إيجادَ الحياةِ في بعضِ الأجسامِ القابلةِ لها وكان المرادُ منَ الإماتة إزالةَ تلك الحياةِ ظهرَ وجْهُ تقديم فعْلِ الإحياء على فعْلِ الإماتةِ، ثمَّ إنّ المُنكِرَ للبعثِ لمّا كان لا يُحْتَجُّ عليه إلّا بما يراه منَ المتّفقِ عليه وبما لا يختلفُ فيه أحدٌ، بدأ بذكْرِ الحياةِ التي يعيشُها ثمّ الموتِ الذي يراه مع بعضِ المُحيطين به، وأمّا تقديمُ الموتِ في قوله تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ﴾ [البقرة: 28] فلأنّ المرادَ في سورة البقرةِ العدمُ السّابقُ للإيجادِ[2].

الاحتجاجُ بالظّاهرِ في الدُّنيا على تَرتيبِ وُجودِه

دَلالةُ العطْفِ في ﴿وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ﴾:

لمّا عُطِفت هذه الجُملةُ على قولِه تعالى: ﴿لَنَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ﴾ دلَّ على أنَّها داخلةٌ في حيِّزِ التَّأكيدِ، لتكونَ خبرًا لـ(إنَّ)، ويحتملُ أن تكونَ معطوفةً على ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ﴾، وعلى الوجهَيْن يكونُ

الدَّلالةُ على أنّه تعالى هو المَلِكُ وهو سبحانه الوارث على الحَقيقةِ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/39.

(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 11/139.

وصْفُ اللّه تعالى بالوارث على أنَّه هو الملكُ على الحقيقةِ لا على المَجازِ، لِيفيدَ أنَّ مِلْكَ الخلائقِ إنّما هو على سبيل المجازِ لا الحقيقةِ، وفيه تنبيهٌ على أنَّ المُتأخّرَ ليس بوارثٍ للمُتقدّم كما يتراءَى من ظاهر الحالِ، وأنَّ تصرُّفَ الخلْقِ صوريٌّ، فالوارثُ الحقيقيُّ هو اللّه المَلكُ الباقي[1].

بَلاغةُ الاستعارةِ في ﴿ٱلۡوَٰرِثُونَ﴾:

لمّا كانَ لفظُ الوارثِ يُقال للباقي من وارث الميّتِ، عبّرَ به هنا على طريق الاستعارةِ التّصريحيَّةِ التّبعيَّةِ؛ للإيذانِ بأنَّه بموتِ جَميعِ الخَلائِقِ، يَزولُ مُلْكُ كُلِّ أحَدٍ وينقطعُ عنه عِنْدَ مَوْتِهِ، ويَكونُ اللّه هو الباقي الحَقُّ المالِكُ لِكُلِّ المَملوكاتِ وحدَهُ، فلمّا كانَ هَذا شَبيهًا بالإرْثِ، وصفَ اللّه تعالى نفسَه بأنَّه وارِثٌ مِنْ هَذا الوجْهِ، ففي التّعبيرِ بلفْظِ ﴿ٱلۡوَٰرِثُونَ﴾ إيذانٌ بأنَّ ما عندَ الخلائقِ كان ابْتِداؤُه منه تعالى، فإذا فنيَ جميعُ الخلائق رجعَ الذي كانوا يَملكونَه في الدّنيا على المجازِ إلى مالكِه على الحقيقةِ، وهو اللّه تعالى، وفيه إشعارٌ بأنَّ مرجعَ الخلائقِ كلِّها إليه تعالى، والمعنى: ونحن الباقون إذا مات الخلائقُ[2].

اللّه تعالى هو الباقي بعدَ فناءِ المَخلوقاتِ وهو المالِكُ لجَميعِ المَملوكاتِ

سببُ إيثارِ التّعبيرِ بقولِه ﴿ٱلۡوَٰرِثُونَ﴾:

قد يقالُ: كيف يصفُ اللّه تعالى نفسَه بأنَّه الوارثُ وإن كانَ على المجازِ؛ لأنّ الوارثَ من يتجدَّدُ له المُلْكُ، بعد فناءِ المورِّث، واللّه تعالى لم يتجدَّدْ له مُلْكٌ، لأنّه لم يَزلْ مالكًا للعالَم؟!، وجوابُه: أنَّه لمّا كان الوارثُ لغةً هو الباقي بعد فناءِ غيره، وكان اللّفظُ استُعملَ على طريق المجازِ، أفادَ أنَّ ما يَملكُه الخلقُ في الدّنيا ليسَ مِلْكًا على

ما يَملِكُه النّاسُ في الدّنيا زائلٌ، فإذا ماتَ النّاسُ خلُصتِ الأملاكُ للّه وحده

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/73.

(2) الزمخشري، الكشاف: 2/575، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 19/136، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 3/209.

الحقيقةِ، فلمّا كانَ الخلائقُ يعتقدون أنَّهم مالكون، ويُسمَّون بذلك أيضاً مجازًا ثمَّ ماتوا، خلُصت الأملاكُ كلُّها للّه تعالى عن ذلك التعلُّقِ، فبهذا الاعتبارِ سُمّي وارثًا، ونظيرُ ذلك قولُه تعالى ﴿لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَۖ لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ ١٦﴾ [غافر: 16]، والمُلْكُ له أزليٌّ وأبديٌّ، اليومَ وقبلَ اليومِ وبعدَه[1].

(1) زكريا الأنصاري، فتح الرحمن، ص: 297.

﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ ﴿٢٤﴾﴾

[الحجر: 24]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الاحْتِجاجُ على التَّوحيدِ بكمالِ العِلْمِ بعدَ كمالِ القُدرة

لمّا احتجَّ اللّه تعالى على كمالِ قُدرتِه في قولِه: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ﴾ وأفادَ الكثرةَ التي تفوتُ الحصْرَ أتْبَعَهُ بقولِه: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ﴾ لبيانِ كمالِ علْمِه؛ للإيذانِ بأنَّه لا يحصي الكثرةَ التي تفوتُ الحصْرَ إلّا اللّهُ تعالى، وبأنَّه لا يَخْفَى عَلَى اللّه شَيْءٌ مِنْ أحْوالِهِم، وبأنَّ ما يدلُّ على قُدرتِه دليلٌ على علْمِه؛ لأنّ القادرَ على كلِّ شيءٍ لا بدَّ له من علْمِه بما يصنعُه[1].

وأيضًا لمّا ذَكَرَ الإحْياءَ والإماتَةَ وكانَ الإحْياءُ يُذَكِّرُ بالأحْياءِ، وكانَتِ الإماتَةُ تُذَكِّرُ بالأمواتِ الماضينَ تَخَلَّصَ مِنَ الاسْتِدْلالِ بالإحْياءِ والإماتَةِ عَلَى عِظَمِ القُدْرَةِ إلى الاسْتِدْلالِ بلازِمِ ذلك على عِظَمِ علْمِ اللّه وهو عِلْمُهُ بالأُمَمِ البائِدَةِ وعِلْمُهُ بالأُمَمِ الحاضِرَةِ[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ﴾: أصْلُ (قدم): يَدُلُّ على سَبْقٍ ورَعْفٍ (أي: تقدُّم)[3]، مع قوّةٍ وحدّةٍ[4]. فالقَدَمُ: ما يَطَأ عليه الإنسانُ[5]، وجمعُه أقْدامٌ، وبه اعتُبِرَ التَّقدّمُ والتَّأخُّرُ[6]، ويُقالُ: قَدَّم فلانٌ يقدِّمُ،

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 19/37، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 3/209، والبقاعي، نظم الدرر: 11/40.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/40.

(3) الخليل، العين: (قدم).

(4) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (قدم).

(5) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، وابن عباد، المحيط في اللغة: (قدم).

(6) الراغب، المفردات: (قدم).

وتَقدَّم يَتقدَّمُ، وأقدَمَ يُقْدِمُ، واستَقْدَمَ يَستقدمُ، بِمَعْنى واحِد. وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ﴾، يَعْني مَنْ يَتَقَدَّمُ مِنَ النّاسِ على صاحِبِهِ في المَوْتِ ومَنْ يتأخرُ مِنْهُم فيهِ، وأصلُ ذلك كلِّه مِنَ القَدَم[1]. والقُدْمَةُ والقَدَمُ: السّابقةُ في الأمر[2]، والقَدَم أيضًا: كلُّ ما قدَّمتَ مِن خيرٍ[3]، يُقال: لِفُلانٍ قَدَمُ صِدْقٍ، أي: شَيءٌ مُتَقَدِّمٌ مِنْ أثَرٍ حَسَنٍ[4] أو سابقةٍ فضيلةٍ[5]. والمقصودُ بـ ﴿ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ﴾ في الآية: الَّذينَ تَقَدَّموا الأحياءَ إلى المَوْتِ، أو إلى الآخِرَةِ، فالتَّقَدُّمُ فيهِ بمَعْنَى المُضيِّ[6].

2) ﴿ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ﴾: التّأخيرُ: فِعلُ الشّيءِ آخِرًا بعد أجلِهِ، والآخِرُ ضِدُّ الأوّلِ، والتّأخيرُ: التأجيلُ، وضِدُّهُ: التّقديمُ والتّعجيلُ، يُقالُ: أخّر الشيء يُؤَخِّرُهُ: أجّلهُ[7]، والتّأخيرُ: تفويتُ الشيءِ وتضييعُهُ، يُقالُ: أخّر سفرهُ: فوّتهُ ولم يأتِ بِهِ في وقتِهِ. والمُؤَخّرُ خِلافُ المُقدّم، والتّأخيرُ أيضًا: جعلُ الشّيءِ خلف غيرِهِ[8]، وأصلُ التّأخُّرِ: تخلُّفُ الشّيءِ في المكانِ أوِ الزّمانِ عن مُقارِنِهِ[9]، يُقالُ: تأخّر عن عملِهِ؛ أي: تخلّف عنهُ، والاستِئخارُ مُبالغة في التّأخُّرِ، مثل: استِحباب، فالسّينُ والتّاءُ لِلمُبالغةِ[10]. والآخِرةُ: الدّارُ التي بعد الدُّنيا[11]. و﴿ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ﴾ في الآية: الَّذينَ تَأخَّروا، وهم الباقونَ بَعْدَ زَوالِ غَيرِهِم إلى أجَلٍ يأتي[12].

المَعْنى الإجْماليُّ:

يكشِفُ اللّه تعالى في الآية عن بعض عِلْمِه، وأنَّه سُبحانه قد عَلِم ما كان من خَلْقِه قبل

(1) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (قدم).
(2) ابن عباد، المحيط في اللغة: (قدم).
(3) الأزهري، تهذيب اللغة: (قدم).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قدم).
(5) الراغب، المفردات: (قدم).
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/40.
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن سيده، المحكم: (أخر).
(8) ابن منظور، لسان العرب: (أخر).
(9) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (أخر)، ويُنظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/201.
(10) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/201.
(11) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة: (أخر).
(12) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/40.

أن يُخلَقوا، السّابقين منهم واللّاحقين، فهذا بيانُ كمالِ عِلْمِه بعد الاحْتِجاج على كمالِ قُدرتِه، فإنَّ ما يدلُّ على كمالِ قُدرتِه دليلٌ على كمالِ عِلْمِه[1].

الله تعالى عالمٌ بجميعِ المَخلوقاتِ المُتقدِّمةِ والمتأخِّرةِ إلى يومِ القيامةِ

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

فائِدةُ تتابُعِ التَّأكيدِ في قولِه ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا﴾:

أفادَ مَجيء الكلامِ مؤكَّدًا باللّام الموطّئة للقسَم و(قَدْ) تنزيلَ المُخاطَبين منزلةَ المُنكِرين؛ لأنْ يكونَ علمُ الله شاملًا كاملًا بسبب أعمالِهم القبيحةِ وإشراكهم بالله تعالى، وللإشعارِ بأنَّهم سيُحاسَبون على ما علِمَ الله من أعمالِهم وأحوالِهم بعدَ الحشْرِ يومَ القيامةِ.

قَبيحُ أعمالِ الكافرين وإشْراكُهم به تعالى جعَلَهم في مقامِ المُنكِرين لإحاطةِ علْمِه

دَلالةُ الخبَرِ في قولِه ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا﴾:

فائِدةُ الخبرِ في الآية بيانُ إحاطةِ علْمِه تعالى بكلِّ أحوالِ الخلْقِ ممّن تقدّمَ، وإحاطةِ علْمِه بما سيقعُ وما يكونُ من أحوالِ المُستأخِرين كذلك، ولازمُ الفائدةِ بيانُ أنَّ علْمَه تعالى ذاتيٌّ، فعلْمُه سُبحانه عِلْمُ إحاطةٍ وانكشافٍ شاملٍ كاملٍ، فهو سُبحانه لا يخفَى عليه شيءٌ في الأرضِ ولا في السّماء، وفي الخبرِ وعيدٌ وتَهْديدٌ لمن يخالفُ أمرَ الله تعالى، بأنَّه إن تقدّمَ إلى المعصيّةِ جوزِيَ بالعقاب، وإعلامٌ ووعْدٌ بأنَّ من تقدَّمَ إلى الطّاعة جوزِيَ بالثّواب[2].

الوعيدُ لمن يُخالفُ أمرَ الله، والوعدُ لمن يُطيعُ الله، لأنّه تعالى بهم عليمٌ

فائِدةُ التَّكرارِ في ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا﴾:

في تَكرارِ قولِه تعالى ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا﴾ ما لا يَخفَى منَ الدّلالةِ على كمال تأكيدِ علْمِه بما مضى وما تأخّرَ، لرفعِ أيِّ شكٍّ عن كمالِ علْمِ الله تعالى وشُمولِه[3]، كما أنَّ العلْمَ بالمُستأخِرين وممّن لم يولَد بعدُ والعلمَ بما سيكونُ من أحوالِهم أكثرُ بيانًا ووضوحًا بكمالِ إحاطةِ

علْمُ الله بمَن لم يولَدْ وبما سيكونُ من أحوالِهم أظهرُ حُجَّةً على كمالِ إحاطته تعالى

(1) ابن عجيبة، البحر المديد: 3/83، والخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 7/229.
(2) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 19/86، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 11/140.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/73.

علْمِه سُبحانه وعظيمِ قدْرِه، ولهذا كرّره مع ﴿ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ﴾ زيادةً في التّقرير.

سِرُّ مجيء الفعْلِ ﴿عَلِمْنَا﴾ ماضيًا:

علْمُ الله مُتعلِّقٌ بما مضَى وبما سيقعُ وبما هو واقعٌ

أفادَ مَجيء الفعْلِ بِصيغةِ الماضي أنَّ علْمَ اللّه أزليٌّ قديمٌ، متعلِّقٌ بما وقعَ وانقضى، وبما سيقعُ ولم يأتِ بعدُ، وأنَّه حاصلٌ ثابتٌ.

فائدةُ التَّعريف بـ(ال) في الآية:

عِلْمُ اللهِ بالمُستقْدِمين والمُستأخِرين يفيدُ علْمَه بالمُتقدِّمين والمُسارِعين في الطّاعاتِ

لمّا أفادتْ (ال) الموصولةُ استغراقَ الأفراد تناولَ اللَّفظُ عمومَ علْمِه تعالى بكلِّ مُستقدِمٍ ومُستأخِرٍ على جميع وجوهِه، ليدخلَ فيه عمومُ علْمِه بكلِّ من تقدَّم ولادةً وموتًا إلى زمنِ آدمَ، ومن تأخرَ ممّن يكونُ منهم ويولدُ إلى يومِ القيامةِ، ويدخل فيه أيضًا عمومُ علْمِه بمن تقدّمَ منهم ومن تأخّرَ في الإسلامِ وأنواعِ الطّاعاتِ والخَيراتِ، وما يقعُ في القتال وغيرِه، فاللّفظُ على معنى العمومِ ولا يخصُّ حالةً دونَ حالةٍ، وهو المناسبُ للمقامِ[1].

دَلالةُ السّين والتّاء في الآية:

لا ينفعُ اجْتِهادُ الخلْقِ جميعًا في تأخيرِ المَوتِ عن أحدٍ، ولا اجْتِهادُهم في تقديمِه

أفادتِ السّينُ والتّاء المبالغةَ في تأكيد التّقدّمِ والتَّأخّرِ، فكأنَّ من قضى اللّه بموتِهم يُسارعون في التّقدّمِ وإنْ كانوا مُجتهدين بالعلاجِ في تأخيره، ومن قضى اللّه تأخيرَه حتى يكونوا كأنَّهم يُسابقون إلى ذلك وإن عالجوا الموتَ بأيِّ شكلٍ منَ الأشكالِ فإنَّه يتأخّرُ، ولا يستطيعُ الخلْقُ جميعًا تقديمَه بأيّ حالٍ[2].

بديعُ المُقابلةِ في الآية الكريمة:

إحاطةُ علْمِ الله الشّاملِ الكاملِ لجميعِ الخلائقِ

ورد اللَّفظانِ على سبيلِ المُقابلةِ؛ لتفيدَ المقابلةُ إحاطةَ علْمِ اللّه الشّاملِ الكاملِ لِجميعِ الخلائقِ، ولكيلا يُتوهَّم أنَّ من فاتَ أو من يتأخَّرُ لا يعلَمُ اللّه به وبأحوالِه.

---

(1) ابن جرير، جامع البيان: 17/89، والماتريدي، تأويلات أهل السنة: 6/433، وابن عطية، المحرر الوجيز: 3/358، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 19/37.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 11/41، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/40.

مُناسبةُ حذْفِ الجارِّ والمجرورِ في الآية:

إفـادةُ العُمـومِ مــع رعــايــةِ الفاصلةِ

لمّا ذكرَ مُتعلّقَ اسْمِ الفاعل ﴿مِنكُمْ﴾ في قولِه تعالى: ﴿عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ﴾ حذَفَه في ما يُقابلُه لدلالتِه عليه من جهة؛ على سبيل الإيجازِ، وللدّلالةِ على العمومِ من جهة ثانية، أي: المُستأخرين منكم ومن غيرِكم، ولرعاية الفاصلةِ من جهة ثالثةٍ.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحۡشُرُهُمۡۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٞ ٢٥﴾ [الحجر: 25]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

إذا أحاطَ الله بالمَخلوقاتِ قُدْرةً وعلْمًا سهُلَ عليه إعادَتُهم وحَشْرُهم

لمّا تمَّ الدّليلُ على تمامِ القُدرة وشُمولِ العلم، ثبت قطعًا إحياءُ الموتى لانتفاء المانعِ من جهة القُدرةِ، واقتِضاءِ الحِكمةِ له من جهة العلْمِ للعدْلِ بين العبادِ بالمقابلةِ على الصّلاحِ والفسادِ[1].

وأيضًا لمّا أخبرَ اللّه تعالى أنَّه يُحيي ويُميتُ، وقال: ﴿وَلَقَدۡ عَلِمۡنَا ٱلۡمُسۡتَقۡدِمِينَ مِنكُمۡ وَلَقَدۡ عَلِمۡنَا ٱلۡمُسۡتَـٔۡخِرِينَ﴾ كان ما ذُكرَ كالدّليلِ الموصِلِ إلى النّتيجةِ في قولِه تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحۡشُرُهُمۡۚ﴾، فإنَّ مَن قدّرَ الحياةَ والموتَ ومن هو عليمٌ بما يقعُ من أحوال العبادِ لا يوجِدُ هذه الموجوداتِ ولا يقدّرُها عبثًا، فالإحياءُ والإماتةُ وعلْمُ اللّه بأعمالِ الخلقِ تَقتضي بحسبِ الحِكمةِ إعادةَ الإحياءِ بعد الموتِ للحشرِ، فجاءت هذه الآيةُ[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَحۡشُرُهُمۡۚ﴾: أصلُ (حشر): الجَمعُ والسَّوقُ، وأهْلُ اللُّغَةِ يَقولونَ: الحَشْرُ الجَمعُ مع سَوْقٍ، وسُمّيَت الحَشَراتُ بذلك؛ لاجْتِماعِها وكَثْرَتِها[3]، والحَشْرُ: جَمعُ النّاسِ يَوْمَ القيامَةِ. والحَشْرُ: حَشْرُ يَوْمِ القيامَةِ. والمَحْشَرُ: المَجْمَعُ الَّذي يُحْشَرُ إليه القَوْمُ، وكذلكَ إذا حُشِروا إلى بَلَدٍ أو مُعَسْكَرٍ أو نَحْوِهِ[4]، والمرادُ بالحَشْرِ في الآية: جَمْعُ النّاسِ مِن مواضِعَ مُتفرِّقةٍ إلى مكانٍ واحِدٍ.

(1) البقاعي، نظم الدرر: 11/41.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/40.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حشر).
(4) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (حشر).

❁ المَعْنى الإجْمالِيُّ:

سَيَحْشرُ الله تعالى النّاسَ جَميعًا للحِسابِ والجزاءِ

يُخبرُ الحقُّ ﷻ نبيَّه مُحمَّد محمَّدًا ﷺ أنَّه تعالى وحدَه الَّذي يجمَعُ الأوَّلينَ والآخرينَ يومَ القيامةِ للحِسابِ والجزاءِ، لا شَكَّ في قُدرتِه على ذَلك، وصِدْقِ وعدِه، إنَّه ﷻ حَكيمٌ يضَعُ الأشياءَ في مواضِعِها اللّائقةِ بها، ومن ذلك حِكمتُه في تدبيرِ خَلْقِه ومُجازاتِهم على أعمالِهم، وهو عليمٌ بكُلِّ شَيءٍ، ومِن ذلك عِلمُه بأعدادِ خَلْقِه وأحوالِهم وأعمالِهم، فيُجازيهم عليها؛ إنْ خيرًا فخيرٌ، وإنْ شَرًّا فشَرٌّ[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

بَلاغةُ الالتفاتِ في الآية:

تنبيهُ المُخاطَبين إلى أنَّ الله تعالى مالِكُهم ومُرَبّيهم هو الذي يَحْشرُهم

لمّا كانت الآياتِ السّابقةُ بطريق خطابِ المُتكلّم المُعظِّم نفسَه ثمَّ انتقل الكلامُ في هذه الآية ليكونَ بطريق الغيبةِ بذكْرِ الاسْم الظّاهرِ كان الكلامُ على طريقِ الالتفاتِ؛ ليكونَ أحسنَ تطْريةً لنشاط السّامعِ، وأكثرَ إيقاظًا له، للإصغاءِ إلى أنَّ اللّه تعالى هو الذي يَحشرُهم وأنَّ الجزاءَ مُلاقيهم، كما أنَّ في الالتفاتِ بالتّعرّضِ لعُنوانِ الرّبوبيّةِ إشعارًا بعِلّيَّة حشْرِ اللّه لهم، فهو مالكُهم ومُرَبّيهم ويُحقّقُ العدْلَ فيهم[2].

دَلالةُ الخبرِ في ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ﴾:

حشرُ الخلْقِ يومَ القيامةِ للجزاءِ على أعمالِهم

فائدةُ الخبرِ هنا المؤكَّدِ بـ﴿وَإِنَّ﴾ هي الإخبارُ بأنَّ اللّه تعالى يحشُرُ جميعَ المُستقدِمين والمُستأخِرين لا محالةَ، ولازمُ الفائدةِ الإخبارُ بأنَّه تعالى إنّما يَحشرُهم للثّوابِ والعقابِ لا محالةَ.

فائدةُ تصديرِ الآية بـ﴿وَإِنَّ﴾:

تَحْقيقُ وعْدِ الله بأنَّه هو الذي يحشُرُ الخلْقَ

أفادَ تصديرُ الجملةِ بـ﴿وَإِنَّ﴾ تحقيقَ الوعْدِ بأنَّ اللّه تعالى هو الذي يحشُرُ الخلائقَ، والتّنبيهَ على أنَّ الحُكمَ بحشْرِ الخلْقِ واقعٌ

(1) ابن جرير، جامع البيان: 14/56، والسّعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 430.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/73.

مُتحقِّقٌ، بما سبقَ منَ الدّلالة على كمالِ قُدرةِ اللّه تعالى وعلْمِه بتفاصيلِ الأشياءِ لتحْقيقِ حِكمتِه سُبحانَهُ وظُهورِها، فيدلُّ التَّأكيدُ على صحَّة الحُكم، ولهذا أتْبعَه بالجملة الفعليَّةِ في قولِه ﴿يَحْشُرُهُمْۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ كما سيأتي[1].

دَلالةُ الحصْرِ ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْۚ﴾:

لمّا جاء المُسندُ إليه ضميرًا ﴿هُوَ﴾ والمُسندُ هو الخبرُ الفعليُّ ﴿يَحْشُرُهُمْۚ﴾ أفادَ الحصرَ بمعونةِ ورودِ التّأكيدِ بـ﴿وَإِنَّ﴾ ومَجيء الجُملةِ اسميَّةً، أو يقال لمّا توسَّطَ ضميرُ العظمةِ ﴿هُوَ﴾ دلَّ على أنَّه العالمُ بحصْرِهم مع إفراطِ كثْرتِهم وتباعُدِ أطرافِ عددِهم والقادرُ على حشْرِهم والمُتولّي له لا غيرَ؛ لأنّهم كانوا يَستبْعِدون ذلك ويَستنكِرونَه، ويقولون: ﴿مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ۝٧٨﴾ [يس: 78][2].

اللّه تعالى هو وحدَه القادرُ على حشْرِ الخلْقِ، وهو العالِمُ بهم مع كثْرتِهم وتَباعُدِهم

فائدةُ الإضافةِ في ﴿رَبَّكَ﴾:

في الإضافةِ إلى ضميرِ المُخاطَبِ المقصودِ منه رسولُ اللّه ﷺ دَلالةٌ على اللُّطْفِ به ﷺ، وتَنْويهٌ بشأنِه ﷺ؛ لأنّهُم كَذَّبوهُ في الخَبَرِ عَنِ البَعْثِ، قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ۝٧ أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌۗ﴾ [سورة سبأ: 7 - 8]، أيْ فَكَيْفَ ظَنُّكَ بِجَزائِهِ مُكَذِّبيكَ إذا حشَرَهم؟![3].

إظهارُ شَرَفِ النّبيِّ ﷺ والتّنْويهُ بشأنِه عندَ حشْرِ الخلائقِ

فائدةُ مجيء خبَرِ ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ﴾ جُملةً اسميَّةً:

لمّا كانت جملةُ ﴿هُوَ يَحْشُرُهُمْۚ﴾ خبرًا لـ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ﴾ أفادتِ الجملةُ الثُّبوتَ، بمعنى ثبوتِ أمْرِ حشرِ جميعِ الخلْقِ للّه تعالى دونَ غيرِه.

لا أحدَ يَحْشُرُ الخلْقَ سِوى اللّه تعالى

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 3/209، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 11/141.
(2) الزمخشري، الكشاف: 2/576، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 3/209، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/73، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 11/141.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/73، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/41.

فائدة وُرود الخبر جملة فعليَّة في ﴿هُوَ يَحۡشُرُهُمۡۚ﴾:

حَشْرُ الخلْقِ من شأن الله وحدَه

أفادَ مَجيء الخبرِ جملةً فعليَّة تقوّي الحُكم وتحقيقَه، بمعنى تحقيقِ الأمرِ للسّامعِ بأنَّ اللّه هو يحشرُهم وليس غيرَه.

دَلالةُ الضّميرِ في ﴿يَحۡشُرُهُمۡۚ﴾:

شُمولُ حشْرِ الله كلَّ الخلائقِ على وَفْقِ علْمِه بهم وبما قدّموا وأخّروا

لمّا ذكرَ اللّه تعالى أنَّه قد علمَ كلَّ المُستقدِمين والمُستأخِرين جمَعَهم هنا في الضّمير (هم)، ولمّا كان الضّميرُ يعودُ على الاسْم الظّاهرِ بما اتّصفَ به من تعلُّقِ علْمِ اللّه بهم، أفادَ أنَّه تعالى يحشُرُ الذين أحْياهُم وأماتَهم منَ المُستقدِمين والمُستأخِرين على وَفْقِ علْمِه بهم وبأحوالِهم، فيكونُ الضّميرُ على معنى العُمومِ والاستغراقِ، أي يحشُرُ كلَّ المُستقدِمين والمُستأخِرين.

فائدةُ (إنَّ):

بيانُ العلَّةِ من حشْرِ الله تعالى للخلائقِ وبيانُ وجْهِ الفائدةِ منه

جاءت (إنَّ) في قوله ﴿إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾: لتأكيدِ مضمونِ الجملةِ ولتقريرِ المعنَى في نفوسِ المُخاطَبين، ولِربطِ الجملةِ المتَّصلةِ بها بما قبْلَها على سبيل بيانِ العلَّةِ من حشْرِ اللّه تعالى للخلائق وبيانِ وجْهِ الفائدةِ منه، فكأنَّه قيلَ إنّما يَحشُرُهم؛ لأنّ الحكمةَ تقتَضي الحشرَ للجزاءِ على أعمالِ الخلْقِ، وأنَّ الجزاءَ يكونُ على وَفْقِ علْمِ اللّه بهم وبأحوالِهم، فلا ظلمَ يومَ القيامة، فكان تذْييلُ الآية بهاتين الصِّفَتَين منَ الحكمةِ والعلم في غاية المناسبةِ، فكأنَّه قيل إنّما يَحشرُهم لأنّه تعالى كاملُ القُدرةِ يفعلُ كلَّ ما يفعلُ على مقتضى الحكمةِ والصّوابِ، ولأنّ علْمَه قد وسِعَ كلَّ شيءٍ ومنه علمُه تعالى بأجزاء الموتَى ومواقعِها في أمكنةٍ شتَّى، فيكونُ حشرُ الخلائق على مقتضَى الحكمةِ ووضْعِ الأمور في موضعِها السّليم، ولو لم يقعِ الحشْرُ لكان مخالفًا لحكمةِ اللّه وعلْمِه بجميعِ الأمور[1].

(1) عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص: 323، والزمخشري، الكشاف: 2/576، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 19/137، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 3/209، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/41.

دَلالةُ الضَّميرِ في قولِه ﴿إِنَّهُۥ﴾:

حَشْرُ الخلائقِ من مُقتضَى حِكْمةِ الله تعالى وعلْمِه

لمّا كان الضّميرُ يعودُ على الاسْمِ الظّاهرِ المذكورِ قبْلَه بما اتّصفَ به أفادَ أنَّ المرادَ إنَّ ربَّك الذي يحشُرُهم حكيمٌ عليمٌ، ففيه إشعارٌ بأنَّ الحشْرَ هو من مُقتضَى حِكمتِه وعلْمِه ﷻ كما يفيدُ عمومَ الوصْفَيْن وثبوتَهما له سُبحانه.

دَلالةُ مَجيءِ الوصْفَين الجليلَيْن بصيغةِ فعيلٍ:

حِكمةُ الله تعالى في جعْلِ الحشْرِ لجميعِ الخلائقِ، وعلْمُه وسِعَ كلَّ شيءٍ

دلَّت صيغةُ فعيلٍ التي للمبالغةِ في قولِه تعالى: ﴿حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ على أنَّ اللّه تعالى له كاملُ الحكمةِ وكاملُ العلمِ، وزاد من معنى المبالغةِ حذفُ متعلَّقِ الوصْفَين، فلم يقل (حكيم في خلقِه أو في حشرِه) مثلًا كما لم يقل (عليمٌ بهم أو بأعمالِهم)؛ للإيذانِ بأنَّ الوصْفَين على معنى الوصفِ المُطلقِ، ولإفادة العُموم في كلِّ مُتعلَّقات الصّفتَين، ولمّا جاءتِ الصّفتان في سياقِ بيانِ العلَّةِ لوقوعِ الحشرِ أفاد المعنى أنَّه تعالى باهرُ الحكمةِ في جعْلِ الحشْرِ لجميعِ الخلائق، مُتقنٌ في أفعالِه كلِّها ومنها الحشرُ، وأنَّ علمَه وسِعَ كلَّ شيءٍ، فلا يُعجزُه حشرُ الخلائق كلِّها؛ لِعلْمِه تعالى بأجزاءِ الموتى ومواقعِها مهما كانت في أماكنَ شتَّى، مختلفةٍ أو متباعدةٍ، وأنَّهم سيُحاسَبون على وَفْقِ علْمِ اللّه بهم وبأعمالِهم.

نكتة التّرتيب في ﴿حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾:

الحَشرُ والجزاءُ على الأعمالِ يومَ القيامةِ من مُقتضى حِكْمته سُبحانه

لمّا كان السّياقُ في بيانِ أنَّ اللّه تعالى سيَحْشرُ الخلائقَ يومَ القيامة كانَ تقديمُ صفةِ الحكمة على صفة العلْم؛ للإيذان باقتضائِها للحشْرِ والجزاءِ، وأنَّ الحشْرَ لجميعِ الخلائق فلا يَشذُّ منهم أحدٌ؛ لأنّ اللّه عليم بهم وبمواضعِهم جميعًا[1]، ولما كان الحسابُ والجزاءُ بعد الحشْرِ ناسبَ مُجيءُ العلْمِ بعد الحكمةِ.

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/73.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾﴾ [الحجر: 26]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

تذكيرُ الإنسانِ بِمَبدأِ أصْلِه دليلٌ على قُدْرةِ الله على إعادةِ خلْقِه وبعْثِه

لمّا جرَتْ سنَّتُه الإلهيةُ ﷻ على أنْ يذكرُ ابتداءَ الخلق دليلًا على الإعادة سابقًا ولاحقًا، وابتدأ هنا بذكْرِ الحشْرِ لِما قام عليه منَ الدّليلِ بإحياء الأرضِ، توقَّعَ السّامعُ تفصيلَ ابتداءِ الخلْقِ الذي هو أدلُّ دليلٍ على البعثِ بعد إجمالِه في قوله: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ﴾ فجاءت هذه الآيةُ[1].

وأيضًا لمّا نَبَّهَ تعالى على مُنتَهَى الخَلْقِ وهو الحَشْرُ يَوْمَ القيامَةِ إلى ما يَسْتَقِرّونَ فيهِ، نَبَّهَهُم على مَبْدَأِ أصْلِهِم آدَمَ، وما جَرَى لِعَدوِّهِ إبْليسَ مِنَ المُحاوَرَةِ مع اللّه تعالى[2].

وأيضًا: لمّا أقام اللّه تعالى الدّليلَ في الآياتِ السّابقةِ على أنَّه المُنفردُ بخلْقِ أجناسِ العالَمِ منَ السّماء والأرضِ وما فيهما وما بينَهما، ولمّا ذكرَ الإحياءَ والإماتةَ كان من أهمِّ الإحياءِ إيجادُ النّوعِ الإنسانيِّ؛ فجاءت هذه الآيةُ تَكْملةً لهذا الدّليل وتقريرًا لقُدرةِ اللّه على إمكانِ البعثِ والحشْرِ[3].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿صَلْصَٰلٍ﴾: أصلُ (صلّ): أمرانِ: الأوّل: ندًى وماءٌ قَليلٌ، والآخَرُ: صَوْتٌ، فَأمّا الأوَّلُ فالصَّلَّةُ، وهي الأرْضُ، تُسَمَّى الثَّرَى لِنَداها، على أنَّ مِنَ العَربِ مَنْ يُسَمّي الصَّلَّةَ التُّرابَ النَّديَّ؛ ولذلك تُسَمَّى بَقيَّةُ الماءِ في الغَديرِ صُلْصُلَةً[4]. والصَّلْصالُ: المُنْتِنُ منَ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 11/42.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 6/475.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/41.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (صلّ).

الطّين، من قولهم: صَلَّ اللّحمُ وأصَلَّ[1]. وأمّا الثّاني: فتردُّدُ الصّوتِ مِنَ الشَّيء اليابسِ. يُقالُ: صَلَّ اللِّجامُ وغَيْرُهُ، إذا صَوَّتَ. فَإذا كَثُرَ ذلك مِنْهُ، قيلَ: صَلْصَلَ[2]. وقال أبو إسْحاق: الصَّلصالُ: الطينُ اليابسُ الَّذي يَصِلُّ من يُبْسِه، أي: يصوِّتُ[3]، ونَحْوَ ذلك قال الفراء[4]، قال الأزهري: هو صَلصال ما لم تُصِبه النّار، فَإذا مسّتْه النّار فَهو فَخّار[5]. والمقصودُ بالصَّلصالِ في الآية: الطّينُ الَّذي يُتْرَكُ حَتَّى يَيْبَسَ، فَإذا يَبِسَ فَهو صَلْصالٌ، وهو شِبْهُ الفَخّارِ إلّا أنَّ الفَخّارَ هو ما يَبِسَ بِالطَّبْخِ بِالنّارِ، قال تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ١٤﴾ [الرَّحْمَن: 14][6].

2) ﴿حَمَإٍ﴾: أصلُ (الحمأ): اسْوِدادٌ ونتانةٌ، ومنه: الحَمَأُ: الطّينُ الأسودُ المُنتنُ، وحَمِئَتِ البئرُ حَمَأ، بِالتَّحْريكِ، فَهيَ حَمِئَةٌ إذا صارَتْ فيها الحَمأةُ وكَثُرَتْ. وحَمِئَ الماءُ حَمْأ وحَمَأ خالَطَتْهُ الحَمأة فكَدِرَ وتَغَيرت رائِحَتُهُ. وعَيْنٌ حَمِئَةٌ: فيها حَمأةٌ؛ وفي التَّنْزيلِ: ﴿وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾ [الكهف: 86][7]. والمقصودُ بالحَمَأِ: الطّينُ إذا اسودَّ وكُرِهَتْ رائِحَتُهُ.

3) ﴿مَّسْنُونٍ﴾: (السنُّ): جَرَيانُ الشَّيْءِ في سُهولَةٍ، يُقالُ: سَنَنْتُ الماءَ على وجْهي أسُنُّهُ سَنًّا إذا أجْرَيْتُهُ. وروي عنِ ابن عباس أنَّه قالَ: المسنونُ الطّينُ الرَّطبُ؛ لأنّه إذا كان رطبًا يسيلُ وينبسطُ على الأرض فيكونُ مسنونًا؛ كأنَّه مصبوبٌ[8]. والمَسْنون: المُنْتِن، أي: مُتَغَيِّرٌ مُنْتِنٌ؛ يُقال: سُنَّ الماءُ فهو مَسْنونٌ، أي: تَغَيَّرَ[9]؛ وقال الزّجّاج: قيل فيه مُتَغَيَّر؛ وإنما أُخذ من أنَّه على سُنَّةِ الطريق؛ لأنّه إنَّما تغيّرَ إذا قام بغير ماءٍ جارٍ[10]. أمّا ابنُ عاشور فيرى: أنَّ المَسْنونَ هو الَّذي طالَتْ مُدَّةُ مُكْثِه، وهو اسْمُ مَفْعولٍ مِن فِعْلِ سَنَّهُ إذا تَرَكَهُ مُدَّةً طَويلَةً تُشْبِهُ السَّنَةَ. ويرى أنَّ فِعْلَ (سَنَّ) بِمَعْنَى تَرَكَ شَيْئًا مُدَّةً طَويلَةً غيرُ مَسْموعٍ. ولَعَلَّ (تَسَنَّهَ)

(1) الراغب، المفردات: (صلل).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (صلّ).
(3) الأزهري، تهذيب اللغة: (صلّ).
(4) الفراء، معاني القرآن: 2/88.
(5) الأزهري، تهذيب اللغة: (صلّ).
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/41.
(7) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (حمأ).
(8) ابن الأنباري، الأضداد، ص: 398، والواحدي، التفسير البسيط: 12/598.
(9) ابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (سنن).
(10) الزجاج، معاني القرآن: 3/179.

بِمَعْنَى تَغَيَّرَ مِنْ طولِ المُدَّةِ أَصْلُهُ مُطاوِعُ سَنَه ثُمَّ تُنوسيَ مِنْهُ مَعْنَى المُطاوعَةِ[1]. وهو المقصودُ بالآية هنا.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

خَلْقُ اللهِ تعالى آدَمَ مِن صَلْصالٍ أعْجبُ وأتمُّ في الدَّلالةِ على القُدرةِ

يُخبِرُ اللّه تعالى أنَّه خَلَقَ آدمَ مِن طينٍ قدِ اشتَدَّ يُبْسُه بعدما خُمِّرَ، حتَّى صارَ له صوتُ صَلصلةٍ إذا نُقِرَ، وهذا الصَّلصالُ مِن طينٍ أسودَ متغيِّرٍ؛ مِن طولِ مُكثِه[2]. فظاهِرُ هذه الآيةِ أنَّ آدمَ خُلِقَ مِن صَلصالٍ، أي: طينٍ يابسٍ، وقد جاء في آياتٍ أُخَرَ ما يَدُلُّ على خِلافِ ذلك، كقَولِه تعالى: ﴿مِّن طِينٍ لَّازِبٍ ۝١١﴾ [الصافات: 11]، وكقَولِه تعالى: ﴿كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ﴾ [آل عمران: 59] والجوابُ: أنَّه ذكَرَ أطوارَ ذلك التُّرابِ، فذكَرَ طَورَه الأوَّلَ بقَولِه: ﴿مِن تُرَابٍ﴾ [آل عمران: 59]، ثُمَّ بُلَّ فصارَ طينًا لازِبًا، ثمَّ خُمِّرَ فصار حمَأ مسنونًا، ثمَّ يَبِسَ فصار صَلصالًا كالفخّارِ[3].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

براعةُ تصْديرِ الآيةِ بـ﴿وَلَقَدْ﴾:

خَلْقُ الإنسانِ والجانِّ من أظْهرِ الأدلَّةِ على وجودِ اللهِ وتَوحيدِه

لمّا كانَ مساقُ الآيةِ للدّلالةِ على كمالِ قُدرةِ اللّه تعالى وبيانِ بدْءِ خلْقِ الثّقلَيْن أكّدَ هذا الأمرَ باللّام الموطّئة للقسَم و(قَدْ)؛ للإيذانِ بأنَّ خلْقَ الإنسان والجانِّ من أظهرِ الأدلَّةِ على وجودِ اللّه وتَوحيدِه، ففي ذكْرِ ابتداءِ الخلْقِ على وصولِ البشرِ إلى أصْلٍ كان بمحضِ القُدرةِ مُخالفًا لهم في التّكوين بين أبوَين، وانتهاءِ الجنِّ إلى أصلٍ ليس خلْقُه كخلْقِهم، تنبيهٌ عظيمٌ على انتهاءِ المَوجوداتِ إلى موجودٍ لا يُجانِسُهم، بل هو خالقٌ غيرُ مخلوقٍ، فاعلٌ بالاختيارِ، واحدٌ لا

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/42.

(2) ابن جرير، جامع البيان: 14/59، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 10/21، والسعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 431.

(3) الشنقيطي، دفع إيهام الاضطراب، ص: 131.

شريكَ له، ولا اعتراضَ عليه، قادرٌ على ما يريدُ سُبحانه، كما أفادَ التّأكيدُ التّنبيهَ على المقدّمةِ الثّانية التي يتوقّفُ عليها إمكانُ الحشْرِ، وهو قَبولُ موادِّ الخلْقِ جميعًا للجمْعِ والإحياءِ والبعثِ والنّشورِ[1].

دَلالةُ (ال) في ﴿ٱلۡإِنسَٰنَ﴾:

لمّا كانَ الإنسانِ مَخلوقًا من مادَّةٍ واحدةٍ كان الجنْسُ كلّه في حُكمِ المخْلوقِ منها

(ال) هنا عهديّةٌ؛ للإشارةِ إلى آدمَ عليه السلام، ويجوزُ أن يرادَ بـ(ال) الجنْسُ كما هو الظّاهرُ من لفْظِ الإنسان؛ لأنّ تشعُّبَ جنسِ الإنسانِ لمّا كان من شخصٍ واحدٍ خُلِقَ من مادَّةٍ واحدةٍ كان الجنسُ بأسْرِه مخلوقًا منها، والمعنى: خلقْنا أصلَ الإنسانِ وأوّلَ فردٍ من أفرادِه خلْقًا بديعًا مُنطويًا على خلْقِ سائرِ افرادِه انطواءً إجْماليًّا[2].

نُكتةُ التَّعبيرِ بلفْظِ ﴿ٱلۡإِنسَٰنَ﴾:

لا تَغْترَّ أيُّها الإنسانُ ولا تَتَكبَّرْ فأصْلُك من حمأٍ مَسنونٍ

لم يَردْ في القرآنِ ذكْرُ اسْمِ آدمَ عليه السلام عند بيانِ أنَّ أصلَ الخلْقِ كان من حمأٍ مسنونٍ، فلم يقل (ولقد خلقنا آدمَ من صلصالٍ من حمأٍ مسنونٍ)، ولم يَردْ هذا الوصفُ إلّا عند ذكْرِ الإنسان أوِ البشرِ، ونُكتةُ التَّعبيرِ بلفْظِ الإنسانِ هنا مع أنَّ المرادَ آدمُ هو تذكيرُ كلِّ إنسانٍ مخاطَبٍ بأنَّ أصلَه بذاتِه وأوصافِه كان من صلصالٍ من حمأٍ مسنونٍ، فلا يغترَّ ولا يتكبَّرْ، ولْينظرْ إلى عظمةِ اللّه وبديعِ خلْقِه ومُقتضَى حِكمتِه وسَعةِ علْمِه سُبحانه، وفيه إشعارٌ ببديعِ صُنعِ اللّه في تصويرِ الإنسانِ وعظَمتِه، وأنّها من أجملِ صوَرِ الخلْقِ، ففيه تعجيبٌ من صورةِ خلْقِه وما هو عليه؛ لِمَجيءِ اللّفظ في سياقِ تعظيمِ قُدرةِ اللّه وبديعِ خلْقِه، وفيه تنبيهٌ على أنَّ كلَّ فردٍ من أفرادِ البشرِ له حظٌّ من إنشاءِ آدمَ عليه السلام منه، فكان خلْقُه عليه السلام منَ الطّين خلْقًا لكلِّ أحدٍ من فروعِه منه، ولمّا كان خلْقُه على هذا النَّمطِ السّاري إلى

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 3/210، والبقاعي، نظم الدرر: 11/43، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/74.

(2) البيضاوي، أنوار التنزيل: 3/210.

جميع أفراد ذرّيته أبدعَ من أن يكونَ ذلك مقصورًا على نفسه؛ كما هو المفهومُ من قوله: ﴿خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ﴾، كانَ أدلَّ على عِظَم قُدرةِ الخلّاقِ العليمِ وكمالِ علْمِه وحِكمتِه.

دَلالةُ (من):

بيانُ أصْلِ خلْقِ الإنسانِ دَليلٌ على إعجازِ القرآنِ وأنَّه من عندِ الله

تفيدُ (من) في ﴿مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ﴾ في الموضعَيْن: الابتداءَ، بمعنى أنَّ ابتداءَ خلْقِ الإنسانِ كانَ من صلصالٍ وابتداءَ خلْقِ الصّلصالِ كانَ من حَمَأٍ مسنونٍ، فيكونُ الجارُّ والمجرورُ ﴿مِّنْ حَمَإٍ﴾ صفةَ تقْييدٍ للصّلصال، بمعنى أنَّ الحمأ مادَّةٌ سابقةٌ للإنسانِ على كونِه كان صلصالًا، وفي بيانِ أصلِ خلْقِ الإنسانِ بيانٌ لعجيبِ قُدرةِ اللّه تعالى الواحدِ الأحدِ؛ لأنَّ خَلْقَه مِنْ هذه الأُمورِ أعْجَبُ مِنْ خَلْقِ الشَّيْءِ مِنْ شَكْلِه وجِنْسِه، ولأنّه تعالى أخْرَجَ مِنْ هذه الحالَةِ المَهينَةِ نَوْعًا هو سَيِّدُ أنْواعِ عالَمِ المادَّةِ ذاتِ الحَياةِ، ولمّا كان بيانُ أصلِ الخلقِ ليس في علْمِ الإنسان في وقتِ التّنْزيلِ، كان ذكرُه وبيانُه دليلًا على إعجاز القرآنِ وكونِه من عندِ اللّه تعالى وحجّةً على نُبوّةِ رسولِه ﷺ[1].

دَلالةُ الوصْفِ بقولِه تعالى ﴿مَّسْنُونٍ﴾:

تنوّعُ المعنَى لِتنوُّعِ التّوجيهِ

إمّا أن يكونَ لفظُ ﴿مَّسْنُونٍ﴾ بمعنى مُصوَّرٍ، ليكونَ مأخوذًا من سنةِ الوجْهِ، أي: صورتِه، وإمّا أن يكونَ بمعنى مصبوبٍ، من سنَّ الماءَ، أي: صبَّه، والمعنى: من صلصالٍ مفرَّغٍ على هيئةِ الإنسان كما تُفرّغُ الصّوَرُ منَ الجواهر المُذابةِ في القوالبِ، وعلى هذين المعنَيَيْن يكونُ ﴿مَّسْنُونٍ﴾ صفةً لـ﴿صَلْصَٰلٍ﴾، وقُدِّمتِ الصّفةُ غيرُ الصّريحةِ؛ أي: الجارّ والمجرور في قوله: ﴿مِّنْ حَمَإٍ﴾ على الصّفةِ الصّريحةِ ﴿مَّسْنُونٍ﴾ لنُكتةٍ تقْتضي العُدولَ إلى هذا التّقديمِ، وهي كونُ الحَمَأِ مناسبًا لِلصّلصال في كونِ كلٍّ منهما من قَبيلِ الموادِّ،

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 19/137، والشهاب، عناية القاضي: 5/510، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/42.

فهما مُتقدّمان على الصّورةِ في الوجود، فروعيَ ذلك في الذِّكرِ، كما أنَّ في تقديمِ الصّفة غيرِ الصّريحةِ تنبيهًا على أنَّ ابتداءَ مسنونيَّتِه ليس في حال كونِه صلصالاً بل في حال كونِه حمأ، كأنَّه سُبحانه أفرغَ الحمأ، فصوَّرَ من ذلك تمثالَ إنسانٍ أجوفَ، فيَبِسَ، حتَّى إذا نُقِرَ صوَّتَ، ثمَّ غيَّرَهُ إلى جوهرٍ آخرَ، فتباركَ اللّه أحسنُ الخالقين، كما يحتملُ أن يكون ﴿مَّسْنُونٍ﴾ بمعنى مُنْتِنٍ، فيكونَ صفةً لـ﴿حَمَإٍ﴾[1].

تَوجيهُ المُتشابِهِ اللَّفظيِّ:

تنوُّعُ ذكْرِ أصْلِ خلْقِ آدمَ عليه السلام لمُناسبةِ أطوارِ خلْقِه

لمّا قال اللّه تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ كان ظاهرُ هذه الآيةِ أنَّ آدم خُلِق من صلصالٍ؛ أي: طينٍ يابسٍ، وقد جاء في آياتٍ أُخرَ ما يدلُّ على خلافِ ذلك، كقوله تعالى: ﴿طِينٍ لَّازِبٍ ۝١١﴾ [الصافات: 11]، وكقوله: ﴿كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ﴾ [آل عمران: 59]، والجوابُ: أنَّه ذكرَ أطوارَ ذلك التّراب، فذكرَ طوْرَه الأوّلَ بقوله: ﴿مِن تُرَابٍ﴾ [آل عمران: 59]، ثم بُلَّ فصارَ طينًا لازبًا، ثم خُمِّرَ فصار حمأ مسنونًا، ثم يَبِسَ فصارَ صلصالًا كالفخّار، والمعنى: خُلِق من هذا وذاك وذلك[2].

(1) الشهاب، عناية القاضي: 5/510، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/74، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 11/143.

(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/349، والنسفي، مدارك التنزيل: 2/188، والشنقيطي، دفع إيهام الاضطراب، ص: 185.

﴿وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ٢٧﴾ [الحجر: 27]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

ذكَرَ خلْقَ الجانِّ بعد ذكْرِ خلْقِ الإنسان، لِيأْخُذوا حِذْرَهم منه

لمّا ذكرَ اللّه تعالى خلْقَ الإنسانِ أتْبَعه ذكْرَ خلْقِ الجانِّ من قبلِه، ومنه يَتَخَلَّصُ إلَى التَّذْكيرِ بِعَداوةِ الشَّيطانِ لِلْبَشَرِ ليَأْخُذوا حِذْرَهُم مِنْهُ ويُحاسِبوا أنْفُسَهُم على ما يُخامِرُها مِنْ وسْواسِهِ بِما يُرْديهِم في الهلاكِ[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلسَّمُومِ﴾: أصلُ (سم): يَدُلُّ على مَدْخَلٍ في الشَّيءِ، كالثُّقْبِ وغَيْرِهِ، فَمِنْ ذَلِكَ السَّمُّ والسُّمُّ: الثُّقْبُ في الشَّيْءِ. قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ﴾ [الأعراف: 40]، والسُّمُّ القاتِلُ، يُقالُ: فَتْحًا وضَمًّا؛ وسُمّيَ بذلكَ لِأنَّهُ يَرْسُبُ في الجِسْمِ ويُداخِلُهُ، خِلافَ غَيْرِهِ مِمّا يُذاقُ. والسَّمومُ: الرّيحُ الحارُّ، لِأنَّها أيْضًا تُداخِلُ الأجْسامَ مُداخَلَةً بِقوَّةٍ، وتؤثِّرُ تأثيرَ السُّمِّ[2]. والسُّمُّ: الإصلاحُ بَيْنَ النّاسِ، وذَلِكَ أنَّهُم يَتَبايَنونَ ولا يَتَداخَلونَ، فإذا أُصْلِحَ بينهم تَداخَلوا. والمرادُ من قوله: ﴿مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ﴾، أي: منَ الرّيحِ الحارّةِ الَّتي تقتُلُ؛ وذلك لِشدَّةِ حرارتِها، وقوَّةِ تأثيرِها، فإنّها تنفذُ في مسامِّ البَدنِ[3].

المَعْنى الإجْمالِيُّ:

بيانُ المادّةِ التي خُلِقَ منها إبليسُ، قبْلَ خَلْقِ الإنسانِ

بيَّن اللّه تعالى بعد ذلك المادّةَ الَّتي خُلِقَ منها الجانُّ؛ حيث إنَّ إبليسَ - أبا الجِنِّ، المُتواريَ عن الأعيُنِ - خَلَقه اللّه ﷻ من قبْلِ آدمَ مِنَ النّارِ الشَّديدةِ الحرارةِ. فالآيةُ تضمَّنتْ إيماءً إلى شرَفِ آدمَ عليه السلام

(1) البقاعي، نظم الدرر: 11/52، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/42.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (سم).
(3) طنطاوي، التفسير الوسيط: 8/38.

وطيبِ عُنصرهِ وطهارةِ مَحتدِه، وعلينا أن نُؤمنَ بأنَّ الجنَّ خُلقتْ منَ النّار، ولكنّا لا نعرفُ كُنهَ ذلك ولا حقيقتَه، فذلك ما لا سبيلَ إلى معرفتِه إلّا من طريق الوحْيِ[1].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بَلاغةُ العطْفِ في الآيةِ:

تنوُّعُ خلْقِ الله دَليلٌ على بديعِ صُنْعِه وعظيمِ شأنِه

عُطِفَتْ جُملةُ ﴿وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ﴾ على ما قبْلَها، لِمناسبةِ بيانِ تنوّعِ خلْقِ اللّه تعالى وبديع صُنعِه، ولإكمالِ الكلامِ على بدْءِ خلْقِ الثّقلَيْن، وللإدْماجِ والتَّمهيدِ إلى بَيانِ نَشْأةِ العَداوة بَين بني آدَمَ وجُنْدِ إبْليسَ[2].

دَلالةُ (ال) في قولِه ﴿ٱلْجَآنَّ﴾:

خلَقَ الله أصْلَ الجنِّ من نارِ السَّمومِ

(ال) عهديّةٌ، للإشارةِ إلى أبي الجنِّ، وذهبَ بعضُ المُفسّرين إلى أنَّه إبليسُ، وجزمَ به السّمينُ الحلبيُّ[3]، ويجوزُ أن يرادَ بـ(ال) الجنْسُ كما ذُكرَ في لفظِ الإنسان؛ لأنّ تشعُّبَ جنسِ الجنِّ لمّا كان مخلوقًا من مادّةٍ واحدةٍ كان الجنْسُ بأسْرِه مخلوقاً منها، والمعنى: خلقْنا أصلَ الجنِّ من نارِ السَّموم[4].

بَراعةُ مَجيءِ جُملةِ ﴿وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ﴾:

الجمعُ بين الألفاظِ القليلةِ والمَعاني الكثيرةِ من بديعِ بَلاغةِ القرآنِ

لمّا كان المناسبُ هنا هو العطْفُ على جُملةِ ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ﴾ وكانتِ الجُملةُ فعليَّةً جاءت جملةُ ﴿وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ﴾ كذلك، ولمّا كان المرادُ تقويةَ المعنى والتّنبيهَ على نوعِ خلْقِ الجانِّ والاهتمامِ به، لِمخالفَتِه لخلْقِ الإنسانِ ولِما سيُذكر بعدُ من عداوتِه للإنسانِ بدأ بذكْرِ لفظِ الجانِّ منصوبًا ليكونَ على طريق الاشتغالِ، فتحقَّقَ

(1) الشنقيطي، أضواء البيان: 2/10، والسعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 431، والمراغي، تفسير المراغي: 14/21.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/42.

(3) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 6/436، والسمين الحلبي، الدر المصون: 7/157.

(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/74.

البدءُ بالاسْم مع فِعليَّة الجملةِ ليكونَ بطريق الإجمالِ ثمَّ التّفصيلِ مع تقويَةِ المعنى[1]؛ لأنّ ﴿وَٱلْجَآنَّ﴾ منصوبٌ بفعلٍ يُفسّره المَذكورُ، فهو بتقدير حصولِ جُملتَين على معنى التَّكرار، وتقديرُ الكلامِ: (ولقد خلقنا الجانَّ خلقناه من قبل)، فأوجزَ بحذْفِ الفعلِ مع بقاء معنَى التّأكيدِ، فهو كالجمْعِ بين الإطنابِ والإيجازِ بتركيبٍ واحدٍ، وإن لم يوجَدْ ثَمَّ إطنابٌ في الحقيقةِ.

دَلالةُ ﴿مِن﴾ في قولِه ﴿مِن قَبْلُ﴾:

﴿مِن﴾ لابتداءِ الغايةِ الزّمانيّةِ، والمعنى: خلقْنا الجانَّ في زمنٍ ابتدأ قبْلَ زمنِ خلْقِ الإنسانِ، وفائدتُه تَعْليمُ المخاطَبين أنَّ خَلْقَ الجانِّ أسْبَقُ[2]، والإشعارُ أن لا فضلَ لهم في أسبقيَّةِ خلْقِهم على خلْقِ الإنسانِ، إذ أمرَ إبليسَ أن يسجدَ لآدمَ، ولم يقل (والجانَّ خلقناه قبل) بحذف (مِنْ)؛ لتأكيدِ تعْيينِ ابتداءِ خلقِ الجانِّ قبل خلقِ الإنسان، وللإيذانِ بتقليلِ زمانِ سبْقِ خلْقِه وتقريبِه[3].

خلْقُ الجانِّ أسْبقُ من خلْقِ الإنسانِ، ولا فضْلَ في الأسبقيَّةِ

فائدة ﴿مِن﴾:

حرف الجرِّ ﴿مِن﴾ في قوله: ﴿مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ﴾ تبعيضيَّة[4]، بمعنى أنَّ خلْقَ الجانِّ كان من بعضِ نار السَّموم.

دَلالةُ الإضافةِ في ﴿نَّارِ ٱلسَّمُومِ﴾:

لمّا كانتِ الإضافةُ على معنى اللّامِ وكان لفظُ السَّموم بمعنى الرّيحِ الحارَّةِ كان المعنى من نارِ الرّيحِ الحارَّةِ، فالجانُّ مخلوقٌ من نارِ الحرِّ الشّديدِ النّافذةِ في المسامِّ، وفائدةُ بيانِ أصلِ خلْقِ الجنِّ الإيذانُ بحِكمةِ اللّه تعالى في إتقانِ المَزجِ والتّركيبِ في هذا الخلْقِ وبيانُ المقابلةِ بين أصلِ خلْقِ الإنسانِ وأصْلِ خلْقِ الجانِّ،

الجانُّ مَخلوقٌ منَ النّارِ الحارّةِ الشّديدةِ النّافذةِ في المَسامِّ

(1) السمين الحلبي، الدر المصون: 7/158، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/43.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/44.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 11/52.
(4) السمين الحلبي، الدر المصون: 7/185.

ويحتملُ أن يكونَ لفظُ السَّمومِ بمعنى النّارِ الشّديدةِ الحرارةِ فتكونَ الإضافةُ بيانيَّةً[1].

نُكتةُ التّعبيرِ بلفْظِ ﴿ٱلسَّمُومِ﴾:

عبّرَ البيانُ الإلهيُّ بلفظِ السَّموم، التي هي الرّيحُ الحارّةُ؛ للإشعارِ بأنَّ النّارَ الحارَّةَ التي تكوّنَ منها الجانُّ بلُطفِها تنفذُ في المسامِّ، فتقتلُ بدخولِها في المَسامِّ لإفراط حرِّها وحَرِّ ريحِها[2].

عِظَمُ حَرِّ النّارِ التي خُلِقَ منها الجانُّ، فهي تقتلُ لفرْطِ حرِّها

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 3/359، وأبو حيان، البحر المحيط: 6/476، والسمين الحلبي، الدر المصون: 7/185، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 11/145.

(2) الزمخشري، الكشاف: 2/576، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 19/138.

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ٢٨﴾ [الحجر: 28]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

لَمّا ذَكَرَ اللّه تعالى حُدوثَ الإنْسانِ الأوَّلِ، واسْتَدَلَّ بِذِكْرِهِ على وُجودِ الإلَهِ القادِرِ المُخْتارِ، عطفَ عليه ذكرَ واقعةِ خلْقِه، فقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا﴾ الآيةَ[1].

وأيضًا لمّا كانت نعمةُ الإيجادِ كافيةً في إخلاص العبادةِ للموجِدِ سُبحانه، ثمَّ لم يعتبرْها أهلُ الضَّلال، أشار تعالى إلى نعمةٍ هي أكبرُ منها، وهي التّفضيلُ على جميع المخلوقاتِ على وجْهٍ مُبيِّنٍ لسببِ الضَّلالِ، فجاءت هذه الآيةُ[2].

من أعظَمِ نِعَمِ اللّه على البشَرِ نِعمةُ الإيجادِ ونعمةُ إظْهارِ تفْضيلِهم أمامَ الملائكةِ

المَعْنى الإجْماليُّ:

هنا يُحدّثُ القرآن عن أنَّ اللّه ﷻ قد آذن الملائكةَ قبلَ خلقِ آدمَ، وقبلَ ميلادِه المُنتظرِ في سلسلةِ التَّطوُّرِ، آذنَهم سُبحانه بأن يَنتظروا ميلادَ هذا الكائنِ، هذا الإنسانِ، الذي ينطقُ، ويعقلُ، ويكونُ خليفةَ اللّه في الأرض، فقال: واذكر أيُّها الرَّسولُ ﷺ إذ قال ربُّك للملائكة - الَّذين لا يعصون اللّه ما أمرَهم ويفعلون ما يُؤمرون - ولإبليسَ وكان معهم: إنّي سأخلُق بشرًا مِن طين يابسٍ أسودَ مُتغيّرِ الرّيح، له صوتٌ إذا نُقِرَ[3].

خَلْقُ اللّهِ الإنسانَ من طينٍ يابسٍ من أبْرَزِ الأدلّةِ على القُدرةِ الإلهيَّةِ

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

سرُّ مجيءِ قصّةِ آدمَ بعدَ ذكْرِ الحشْرِ:

لمّا تَقَدَّمَ شَيْءٌ مِنْ قصَّة آدمَ في أوائِلِ البَقَرَةِ عَقِبَ ذِكْرِ الإماتَةِ

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 19/139.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 11/53.
(3) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 7/233، وطنطاوي، التفسير الوسيط: 8/38.

والإحْياءِ والرُّجوعِ إليه تعالى، وذُكِرتِ القصَّةُ في الأعْرافِ بعد ذكْرِ يَومِ القيامةِ، وذكْرِ الموازينِ فيه، وفي الكهفِ بعد ذِكْرِ الحَشْرِ، وكذا في سورَةِ ص بعد ذِكْرِ ما أعَدَّ منَ الجَنَّةِ والنّارِ لِخلْقِه، دلَّ على أنَّ من عادةِ القرآن أنَّه حيثُ ذَكَرَ مُنْتَهَى هذا الخَلْقِ ذَكَرَ مَبْدَأهُم وقِصَّتَهُ مع عَدوِّهِ إبْليسَ ليُحَذِّرَهُم مِنْ كيْدِه، وليَنْظُروا ما جَرى له معه حتَّى أخْرَجَهُ مِنَ الجَنَّةِ مَقَرِّ السَّعادَةِ والرّاحَةِ، إلى الأرْضِ مَقَرِّ التَّكليفِ والتَّعَبِ، فيتحَرَّزوا من كيدِه[1].

الحذَرُ من كيْدِ الشّيطان في الدُّنيا سببٌ للسّعادةِ يومَ القيامةِ

سِرُّ البَدءِ بقولِه ﴿وَإِذْ﴾:

لمّا كان لفْظُ (إذ) إذا جاء في صدْرِ الكلامِ إنّما يأتي لِما عظُمَ شأنُه، بمعنى (واذكر إذ)، وكان مقتضَى الظّاهرِ إيرادَ الكلامِ على منهاجِ ما قبْلَه منَ الأقوالِ المَحكيّةِ المُتّصلةِ به أفاد أنَّ تصديرَ الآية به إيذانٌ بأنَّ ما في حيّزِه أمرٌ عظيمٌ يَنبغي الاستماعُ إليه، وذلك بذكْرِ نِعمةٍ جليلةٍ حقيقةٍ بالذِّكْرِ والتَّذكيرِ على حيالِها، ليُؤْذَنَ بأنَّ خلقَ آدمَ وما جرَى فيه من سُجودِ الملائكةِ وإباءِ إبليسَ أمرٌ عظيمُ الشّأنِ يَنبغي تَذكُّره والتّذكيرُ به[2].

خَلْقُ اللهِ تعالى لآدمَ وما جَرَى فيه أمرٌ عظيمُ الشّأنِ يَنْبغي تذكُّرُه والتَّذكيرُ به

دَلالةُ الإخْبارِ في ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ﴾:

لمّا جاء الكلامُ على طريقِ الإعلامِ بخلْقِ آدمَ ولمّا يَخلُقْه اللّه بعدُ، وكان الإخبارُ لجميعِ الملائكةِ أفادَ تفخيمَ أمرِ مَن سَيخلُقُه، وأنَّ له شأنًا في خلْقِه، فإنَّ الملكَ إذا أرادَ أمرًا عظيمًا ظاهرًا أعلَنَه أمامَ الملأِ.

إظهارُ فضْلِ آدمَ بإعْلامِ الله تعالى المَلائكةَ بخلْقِه

سببُ إيثارِ الرُّبوبيّةِ والإضافةِ في ﴿رَبُّكَ﴾:

في التّعرُّضِ لوصْفِ الرّبوبيّةِ مع الإضافةِ إلى ضميرِ الخطابِ المُرادِ به رسولُ اللّه ﷺ إشعارٌ بعِلّيَّةِ الحُكمِ، فيفيدُ أنَّ أمرَ الملائكةِ

أمرُ المَلائكةِ بالسّجودِ لآدمَ مِن إحْسانِ الله تعالى لرَسولِه ﷺ

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 6/476.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/87.

بالسّجودِ لآدمَ من إحْسانِ اللّه تعالى لرسولِه ﷺ، وأنَّ اللّه تعالى شرَّفَ آدمَ عليه السلام لشَرفِه ﷺ[1].

دَلالةُ ﴿إِنِّي﴾ في قولِه ﴿إِنِّي خَٰلِقٌۢ﴾:

تحقُّقُ وقوعِ خلْقِ اللهِ آدمَ قبْلَ خلْقِه

في قوله ﷻ: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ۝٢٨﴾ أفادتْ ﴿إِنِّي﴾ المُبالغةَ في تحقُّقِ وقوعِ خلْقِ اللّه ﷻ لآدمَ عليه السلام على غير مثالٍ سبق.

نُكتةُ التَّعبيرِ بصيغةِ فاعلٍ في قولِه ﴿خَٰلِقٌۢ﴾:

ما شاءَ اللهُ كانَ وما لم يشأْ لم يَكُنْ

عبَّرَ البيانُ الإلهيُّ بصيغةِ اسْمِ الفاعلِ غيرِ المُضافِ دونَ التَّعبيرِ بصيغةِ المضارعِ بأن يقولَ (إنّي أخلق بشرًا)، أوِ التَّعبيرِ باسْمِ الفاعلِ المضافِ بأن يقول (إني خالقُ البشرِ)؛ لأنّ في صيغةِ اسْمِ الفاعل غيرِ المضافِ ما ليس في صيغةِ اسْمِ الفاعل المضافِ، ولا في صيغةِ المضارعِ، منَ الدَّلالةِ على أنَّه تعالى فاعلٌ له فيما سيأتي البتّةَ لا محالةَ منْ غيرِ صارفٍ يَثْنيه ولا عاطفٍ يَلويه، وفي مجيءِ صيغةِ اسْمِ الفاعل تعبيرٌ عنِ المستقبلِ بلفْظِ الحالِ[2].

نُكتةُ التَّعبيرِ بلفْظِ ﴿بَشَرًا﴾:

بَديعُ خلْقِ اللهِ بتصْويرِ البشرِ في أجْمَلِ صورَةٍ مع أن أصلهم من حمإٍ مسنونٍ

لمّا كان المرادُ منَ البشرِ هو الإنسانُ، فَلِمَ عبّرَ بلفْظِ البشرِ دونَ الإنسانِ مع قُرْبِ ذكْرِ الإنسان؟ وجوابُه أنَّه ذكرَ الإنسانَ في معرِضِ المُقابلة مع الجانِّ، ولمّا جاء ذكْرُ الأمرِ بسجودِ الملائكة له ذكرَه بوصْفِ البشريّةِ اعتبارًا بظهورِ بشَرتِه أي ظاهرِ الجلْدِ أو باعتبارِ مُباشرتِه وملاقاتِه لغيرِه؛ ليفيدَ أنَّه جسمٌ كثيفٌ مخالفٌ للملائكة، فيكونُ اللّه تعالى قد أخبَرَ الملائكةَ بعَجَبٍ عندهم، فهم مَخلوقون من نورٍ، فيكونُ السّجودُ له باعتبارِ وصْفِ البشريَّةِ أدلَّ على الائتمارِ، كما أنَّه لمّا كان لفْظُ البشرِ يومِئُ إلى حُسنِ الهيئةِ؛ لاشتقاقِه منَ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 11/53، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/74.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/74، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 11/147.

البشارةِ كما ذهب إليه بعضُ اللُّغويّين أفادَ أنَّه بعدَ خلْقِه من صلصالٍ من حمإٍ مسنونٍ سيكونُ حَسَنَ المنظرِ بعدَ تسْويَتِه ونفْخِ الرّوح فيه، كما أنَّ التَّعبيرَ بلفْظِ البشرِ تأكيدٌ لكوْنِ المرادِ منَ الإنسانِ في الآيةِ السّابقةِ هو آدمُ عليه السلام[1].

فائدةُ تَنْكير ﴿بَشَرًا﴾:

الإشعارُ بعُلوِّ شأنِ البشرِ من أوّلِ الخطابِ لإظهارِ فضْلِه أمامَ الملائكةِ

أفادَ تنكيرُ ﴿بَشَرًا﴾ في قوله ﷻ: ﴿إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ تفخيمَ البشرِ؛ للإشعارِ من أوّلِ الخطابِ وقبْلَ الأمْرِ بالسّجودِ له بعُلوِّ شأنِه، لتَوْطينِ الملائكةِ على الائتمارِ بالسُّجودِ له، إذ هو المُفضَّل عليهم.

سببُ تَكرار ﴿مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾:

القادرُ على النَّشأةِ الأولَى قادرٌ على النَّشأةِ الأُخرَى

كرّرَ البيانُ الإلهيُّ ذكْرَ مبدأ خلْقِ البشرِ لتأكيدِ الأمرِ، كما أنَّ ذكْرَه في قولِه تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ في معرضِ بيانِ الدّلالةِ على كمالِ القُدرةِ الإلهيّةِ، وبيانِ أنَّ القادرَ على النّشأة الأولَى قادرٌ على النّشأةِ الأخرى، وأمّا في هذه الآية فذكَرَ مبدأ الخلْقِ ليبيِّنَ للملائكة اختلافَ خلْقِه عن خلْقِهم، وأنَّه أمرَهم بالسّجودِ له مع أنَّ مادَّته من صلصالٍ من حمإٍ مسنونٍ؛ ففيه تَعجيبٌ من تنوّعِ خلقِ اللّه تعالى، وليَعْلَموا أنَّ شَرَفَ المَوْجوداتِ بمَزاياها لا بمادَّةِ تَرْكيبِها[2]، وفي هذا تنبيهٌ على أنَّ الأمرَ بالسّجود تشريفٌ لآدمَ عليه السلام واختبارٌ للمأمورين، ولهذا علّلَ إبليسُ الامتناعَ من سجودِه بذكْرِ مبدأ خلْقِ آدمَ عليه السلام، كما سيأتي، وتفصيلُ الكلامِ على قولِه تعالى: ﴿مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ تقدَّمَ في الآيةِ السّابقةِ.

(1) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 276، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 11/147.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/44.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الإنسانُ والبَشرُ:

البَشرُ يُباشرُ ويُلاقي والإنسانُ يُؤنِسُ من يكونُ معه

ذهب بعضُ اللّغويّين والمُفسّرين إلى أنَّ المرادَ من لفْظِ البشرِ كونُه يُباشرُ ويُلاقي، والبَشَرةُ هي ظاهرُ الجِلْد من كلِّ حيوانٍ، أو يكونُ التّعبيرُ بلفْظِ البشرِ على معنى البشارة بحُسنِ الهيئةِ والقَوامِ، وأمّا الإنسانُ فهو خلافُ الجانّ، وهو مشتقٌّ من الأُنس الذي هو خلافُ النُّفور، والإنسيُّ منسوبٌ إلى الإنس يقال ذلك لمن كثرَ أُنسه، ولكلّ ما يُؤنسُ به، فيكون لكلِّ لفظٍ منَ البشرِ والإنسانِ اعتبارُه عندَ الإطلاق، ولهذا ذكرَ اللّه تعالى الإنسانَ في مقابل الجانِّ في قولِه تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ۝٢٦ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ﴾ [الحجر: 26 - 27] وقال تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ۝١٤ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ۝١٥﴾ [الرحمن: 14 - 15]، أي لأنّ الإنسانَ يُؤنسُ بظهورِه، والجانَّ يَستترُ، وذهب آخرون إلى أنَّ الفرقَ بينَهما هو أنَّ المرادَ بالإنسان البدنُ مع الرّوح والمرادَ بالبشرِ الجسدُ الخالي منَ الروح[1].

(1) الراغب، المفردات: (أنس)، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 19/139، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 11/148.

﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ٢٩﴾

[الحجر: 29]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

تَسْوِيَةُ خَلْقِ آدمَ ونفخُ الرّوحِ فيه مَناطُ رِفعتِه وعُلوِّ شأنِه

لمّا بيَّن اللّه تعالى للملائكة ما يريدُ أن يفعلَ من خلْقِ آدمَ وبيّن مادَّة خلْقِه ذكرَ سببَ تشريفِه بأمرِهم بالسّجودِ له[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿سَوَّيْتُهُۥ﴾: أصْلُ (سوي): يَدُلُّ على اسْتِقامَةٍ واعْتِدالٍ بَيْنَ شَيْئَيْنِ. يُقالُ هذا لا يُساوي كذا، أي لا يُعادِلُهُ[2]. والتَّسْوِيَةُ: ضِدُّ المُفاضَلَةِ. وتأْتي بِمعنى العَدْلِ والإنْصافِ، فيُقال: سَوَّيْتُ بين الشَّيْئَيْنِ: إذا عَدَلت بَيْنَهُما[3]، وهي أيضًا: تَقْويمُ الشَّيءِ وتَعْديلُهُ، تَقولُ: سَوَّيْتُ الشَّيْءَ فاسْتَوى، أيْ: قَوَّمتُهُ فاسْتَقامَ[4]. والسَّوِيُّ يُقالُ فيما يُصانُ عنِ الإفراط والتَّفريط من حيث القَدْرُ والكيفيَّةُ، ورَجُلٌ سَوِيٌّ: استوت أخلاقُه وخِلْقتُه عنِ الإفراط والتَّفريط. والمقصود بالتَّسوية في الآية: تَعْديلُ ذاتِ الشَّيْءِ. وقد أُطْلِقَتْ هنا على اعتدالِ العَناصِرِ فيهِ واكتِمالِها بحيثُ صارَتْ قابِلَةً لنَفْخِ الرّوحِ[5].

2) ﴿وَنَفَخْتُ﴾: أصْلُ الكلِمَةِ يَدُلُّ على انْتِفاخٍ وعُلوٍّ. النَّفْخُ: إخْراجُ الرّيحِ مِنَ الفَمِ، يُقالُ: نَفَخَ بِفَمِهِ، يَنْفُخُ، نَفْخًا: إذا أخرَجَ منه الرّيحَ، ويكونُ ذلك في الاستِراحَةِ والمُعالَجَةِ ونَحوِهما، ونَفَخَ النّارَ بالمِنْفاخِ: هَيَّجَها وأذْكاها بِريحِهِ، والمِنْفَخُ والمِنْفاخُ: آلَتُهُ، وهو ما يُنْفَخُ بِه، ومِن

(1) البقاعي، نظم الدرر: 16/419.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سوي).
(3) الأزهري، تهذيب اللغة: (سوا).
(4) الجوهري، الصحاح: (عدل).
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/44.

معاني النَّفْخِ: الفَخْرُ والكِبْرُ[1]. واسْتُعيرَ في الآية لِوضْعِ قوَّةٍ لَطيفَةِ السَّرَيانِ قَويَّةِ التَّأْثيرِ دُفْعَةً واحِدَةً، ولَيْسَ ثَمَّةَ نَفْخٌ ولا مَنْفوخٌ[2].

3) ﴿فَقَعُواْ﴾: (وقع): أَصْلٌ واحِدٌ يَرْجِعُ إِلَيْهِ فُروعُهُ، يَدُلُّ عَلَى سُقوطِ شَيْءٍ. يُقالُ: وقَعَ الشَّيْءُ وُقوعًا فَهو واقِعٌ[3]. والواقِعَةُ لا تُقالُ إلّا في الشِّدَّة والمكروه، وأكثر ما جاء في القرآن من لفظ (وقَعَ) جاء في العذاب والشَّدائد، نحو: ﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ۝١ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ۝٢﴾ [الواقعة: 1 - 2]، ووُقوعُ القَولِ: حصولُ مُتضمَّنه، ووقَعَ المطرُ: سقط، ومَواقِعُ الغيثِ: مَساقِطُهُ، والمواقَعَةُ في الحربِ، ويُكنَّى بالمواقَعَةِ عنِ الجِماعِ، والإيقاعُ يُقالُ في الإسقاط، وفي شنِّ الحرب بالوقْعَة. ووقْعُ الحديدِ: صوتُهُ[4]. وتَوقَّعْتُ الشَّيْءَ: انْتَظَرْتُهُ متى يَقَعُ. والمقصودُ بالوقوع في الآية: السُّقوطُ لقَصْدِ التَّعظيم، أي: اسْقُطوا له ساجِدينَ.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

أخبَرَ اللّه تعالى ملائكتَه الكرامَ أنَّه إذا أكمَلتُ خَلْقَ آدمَ، وصَوَّرْتُه، وصارَ جسدًا تامًّا في غايةِ الإتقانِ، ونفخْتُ فيه الرّوحَ الَّتي هي مِن خَلْقي، فصار بشرًا حَيًّا؛ فخِرّوا له ساجِدينَ؛ سجودَ التَّحيَّةِ والتَّكريمِ، لا سجودَ العِبادة، وهو أمرٌ واجبٌ بالسُّجود[5].

الأصلُ الإنسانيُّ مُكرَّمٌ عندَ الله تعالى

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

فائدةُ الفاءِ في ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ﴾:

الفاءُ تفيدُ السّببيّةَ والتَّعقيبَ[6]، بمعنى أنَّ التّسويةَ مُسبَّبةٌ عن خلْقِ الصّلصالِ من حمأٍ مسنونٍ وأنَّ التّسويةَ أعقبَتْه.

تسويةُ خلْقِ آدمَ مُرتّبَةٌ على خلْقِه من صلصالٍ من حمأٍ مسنونٍ

(1) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، وابن سيده، المحكم، والزبيدي، تاج العروس: (نفخ).
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/44.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (وقع).
(4) الراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (وقع).
(5) ابن جرير، جامع البيان: 14/65، وابن عطية، المحرر الوجيز: 3/360، وأبو حيان، البحر المحيط: 6/476، 477، والزحيلي، التفسير المنير: 23/231.
(6) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 11/147.

نُكتةُ التّعبيرِ بـ﴿فَإِذَا﴾:

تَسويةُ خلْقِ آدمَ أمرٌ واقعٌ مُحقَّقٌ لا محالةَ

عُبِّرَ بأداة الشّرطِ (إذا) للإيذانِ بأنَّ الشّرطَ المُقترنَ بها وهو تسويةُ خلْقِ آدمَ وتعديلُ أعضائِه وهيئتِه أمرٌ مقطوعٌ بحصولِه وأنَّه واقعٌ مُحقّقٌ لا محالةَ، فهو بمثابةِ التّأكيدِ والبيانِ لقولِه: ﴿إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرٗا﴾.

فائدةُ التّعبيرِ بصيغةِ الماضي في قوله ﴿سَوَّيۡتُهُۥ﴾:

الدّلالةُ على الجَزمِ بتحقُّقِ الوقوعِ

في قوله ﷻ: ﴿فَإِذَا سَوَّيۡتُهُۥ وَنَفَخۡتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾، لمّا كانت (إذا) تفيدُ الجزْمَ بوقوعِ الشّرطِ جاء الفعلُ معها بصيغةِ الماضي؛ لكوْنِه أدلَّ على الوقوعِ باعتبارِ لفْظِه، فكأنَّه قد حصلَ ووقعَ لقوَّةِ الجزْمِ بوقوعِه[1].

دَلالةُ لفْظِ ﴿سَوَّيۡتُهُۥ﴾:

لا إفراطَ ولا تفريطَ في خلْقِ اللهِ البَشرَ وإتمامِ أعضائِه وصورَتِه

التّسويةُ تَعْديلُ ذاتِ الشَّيْءِ بحيث يُصانُ عنِ الإفراطِ والتَّفريطِ من حيث القدرُ والكيفيّةُ، وأفاد الفعلُ المنسوبُ إلى اللّه تعالى على معنى التّشريفِ أنَّه تعالى قد جعل الأعضاءَ فيه سليمةً مُسوّاةً مُعَدَّةً لمنافعِها واعْتِدالِ العَناصرِ فيهِ واكْتِمالِها على هيئةِ الصّورةِ البشريَّةِ، أي سويّتُه بنفسي تكريمًا منّي له بإتْمامِ خلْقتِه بِحَيْثُ صارَتْ قابِلَةً لِنَفْخِ الرّوحِ فيها[2].

دَلالةُ الضّميرِ في قوله ﴿سَوَّيۡتُهُۥ﴾:

بَديعُ صُنعِ اللهِ في تحويلِ الصّلصالِ إلى صورةِ البشرِ البهيّةِ الجميلةِ

يعودُ الضّميرُ على لفْظِ ﴿بَشَرٗا﴾ بما اتَّصفَ به، أي فإذا سوّيتُ الذي خلقْتُه من صلصالٍ من حمإٍ مسنونٍ، للإشعارِ ببديعِ صُنعِ اللّه تعالى إذ جعلَ الصّلصالَ في هذه الصّورةِ الجميلةِ مع كاملِ الأعضاءِ المُعَدّة للعيشِ في هذه الدّنيا.

---

(1) السكاكي، مفتاح العلوم، ص: 241.

(2) الواحدي، التفسير البسيط: 3/45، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 3/210، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 11/147، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/44.

فائدةُ العطْفِ في ﴿وَنَفَخْتُ﴾:

تَسْويَةُ خَلْقِ آدمَ هَيَّأَتْهُ لنفْخِ الرّوحِ فيه

أفادَ العطفُ في قولِه ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ أنَّ حصولَ الجزاء مُعلَّقٌ بحصولِ مجموعِ الأمرَين في الشّرطِ، وأنَّ نفخَ الرّوح فيه مُرتَّبٌ على تسْويتِه، بحيث إنَّ التّسويةَ هيَّأتْه لنفخِ الرّوح فيه، ليفيدَ أنَّ الجزاءَ في قولِه: ﴿فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ مُسبَّبٌ على وقوعِ مجموعِ الشّرطِ بحصول تسْويتِه ونفخِ الرّوحِ فيه، لتعظيمِ شأنِ كلٍّ فعْلٍ من هذين الفعلَيْن، والإعلامِ بتشريفِه وتكريمِه إذ نسبَ اللّه تعالى الفعلَيْن لنفسِه.

دَلالةُ الضّميرِ في قولِه ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ﴾:

الدّلالةُ على البشرِ بمجموعِ صِفاتِه

في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ يعودُ الضّميرُ في ﴿فِيهِ﴾ على البشَرِ بما اتّصفَ به؛ أي: فإذا نفختُ من روحي في الّذي خلقْتُه من صلصالٍ من حمإٍ مسنونٍ وسَوّيْتُه.

بَلاغةُ الاستعارةِ في ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ﴾:

تَمثيلُ تَحْصيلِ الرّوحِ في بدَنِ آدمَ بالنّفْخِ في جِسْمٍ مُجوَّفٍ

النّفخُ في الحقيقةِ هو إجْراءُ الرّيحِ في تَجاويفِ جِسْمٍ آخَر[1]، أو هو إخْراجُ الهَواءِ مَضْغوطًا بَيْنَ الشَّفَتَيْنِ مَضْمومَتَيْنِ كالصَّفيرِ[2]، فشُبِّه تعلُّقُ الرّوح ببدنِ آدمَ وجريان آثارِه في جوفِ أعضائِه بإجراء الرّيحِ في جسمٍ مجوَّفٍ وجريانِ آثار الريحِ فيه، فذكر لفْظَ المُشبَّه به وهو النّفخ، وأرادَ المُشبَّه، وهو تعلُّقُ الرّوح بجسمِ آدم، ليكونَ الكلامُ على طريق الاستعارةِ التّصريحيَّةِ التّبعيَّةِ، والنُّكتةُ في استعارةِ لفْظِ النّفخ هي لِما فيه من معنى الإفاضةِ في التّجويفِ والسَّريانِ فيه، فأفاد سريانَ الرّوحِ في تجاويفِ الشّرايين إلى أعماقِ البَدَن، فليس ثمَّةَ نفخٌ ولا منفوخٌ، وإنَّما هو تمثيلٌ لوجودِ الرّوحِ في المادَّة القابلةِ له، فيحيا بها آدمُ عليه السلام[3].

---

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 19/139.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/44.

(3) الواحدي، التفسير البسيط: 3/45، والزمخشري، الكشاف: 2/577، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 3/210، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 11/148.

دَلالةُ الإضافةِ في ﴿رُّوحِي﴾:

إضافةُ الرّوحِ إلى الله تشريفٌ وتكريمٌ لآدمَ ونسْلِه

أضافَ اللّه سُبْحانَهُ الرّوحَ المخلوقةَ إلى نَفْسِهِ تَشْريفًا وتَكْريمًا، ولِيَسْرِيَ هذا التَّشريفُ والتّكريمُ إلى بدنِ آدمَ ونسْلِه لمّا جرت فيه، ففي الإضافة تنويهٌ بشأنِ هذا المخلوقِ، وفي الإضافة معنى التّخْصيصِ[1]، وليكونَ كالتّهيئةِ لاستحقاقِ الأمرِ بالسّجودِ له، فالإضافةُ هنا مثلُ (بيت اللّه) و(ناقة اللّه).

دَلالةُ الخبرِ في ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾:

التّفاضُلُ بالأعمالِ والآثارِ لا بحقائقِ العناصرِ وأصْلِها

في الجُملةِ الخبريَّة إيماءٌ إلَى أنَّ حَقائِقَ العَناصِرِ عِنْدَ اللّه تعالى لا تَتَفاضَلُ إلّا بِتَفاضُلِ آثارِها وأعْمالِها، فخلقَ اللّه البشرَ من صلصالٍ من حمأٍ مسنونٍ، فكانت تسْويتُه ونفخُ الرّوح فيه تشريفًا وتكريمًا، فأفادَ أنَّ كَراهَةَ الذّاتِ أوِ الرّائِحَةِ إلى حالَةٍ يَكْرَهُها بَعْضُ النّاسِ أوْ كُلُّهُم إنَّما هو تابِعٌ لِما يُلائِمُ الإدْراكَ الحِسّيَّ أوْ يُنافِرُهُ تَبَعًا لِطِباعِ الأمزِجَةِ أوْ لِإلْفِ العادَةِ، ولا يُؤْبَهُ به في عِلْمِ اللّه تعالى، وهذا هو ضابِطُ وصْفِ القَذارَةِ والنَّزاهَةِ عِنْدَ البَشَرِ[2].

نُكتةُ التَّعبيرِ بقولِه ﴿فَقَعُواْ﴾:

المُبادرةُ إلى الائتمارِ من شَأْنِ العارِفين بالله

عبِّرَ بفعل الأمر ﴿فَقَعُواْ﴾ الذي هو من وقع يقع، دونَ أن يقول (فاسجدوا له) مثلًا، لِما في لفظ (وقع) من معنى الهويِّ إلى موضعٍ أدنى، أي ليكن هويُّكم هويَّ مَن كان في مبادرتِه به وسهولةِ انقيادِه كأنَّه وقع من غيرِ اختيارِه[3].

بَلاغةُ التّقديمِ في ﴿فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾:

سُجودُ المَلائكةِ لآدمَ سُجودُ تكْريمٍ وتَحيَّةٍ لا سجودُ عِبادةٍ

لمّا كان الضّميرُ في ﴿لَهُۥ﴾ يعودُ على البشَرِ بالأوصافِ التي

(1) الواحدي، التفسير البسيط: 3/45، والنسفي، مدارك التنزيل: 2/188، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/44.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/44.
(3) الراغب، المفردات: (وقع).

ذُكرتْ، بمعنى فقَعوا للذي خلقْتُه من صَلصالٍ من حمأٍ مسنونٍ وسوّيتُه ونفختُ فيه من روحي أفادَ أنَّ الملائكةَ قد علِموا أنَّه مخلوقٌ مكرَّمٌ فكان تقديمُ الجارِّ والمجرورِ ﴿لَهُۥ﴾ على معنى تخْصيصِ السّجودِ له[1]؛ بِما اتَّصفَ به من أوصافِ التّشريفِ والتّكريمِ، ليكونَ السّجودُ سجودَ تكريمٍ وتحيَّةٍ لا سجودَ عبادةٍ، والمعنى فاسجدوا له دونَ غيرِه، فيفيدُ تخْصيصَ آدمَ دونَ غيرِه منَ المخلوقاتِ بهذا النّوعِ منَ السّجود.

فائدةُ مَجيءِ الحالِ في ﴿سَٰجِدِينَ﴾:

سُجودُ الملائكةِ كان على وَفْقِ المَعْهودِ عندَنا والمُتبادِرِ منَ اللّفظِ

لمّا كان الحالُ على معنى تقْييدِ العاملِ واقترانِه بصاحبِ الحالِ أفادَ مجيءُ ﴿سَٰجِدِينَ﴾ تقييدَ الوقوعِ بالسّجودِ؛ لأنّ الوقوعَ يكونُ على أحوالٍ مُتعدّدةٍ، أي فقَعوا له وقوعَ السّاجِدين، ليُفيدَ التّعظيمَ، فقيَّدَ الوقوعَ بالهَويّ المُقترنِ بالتّعظيم، ويحتملُ أن يكونَ الهويُّ على معنى الطَّأطأةِ والانحناءِ، أو يكونَ بوضْعِ الجبهةِ لتكونَ في الموضعِ الأدنَى، وهو السّجودُ المعهودُ عندنا والمُتبادِرُ منَ اللّفظِ، وهذا هو الظّاهرُ، فليس المأمورُ به مجرَّدَ الانحناءِ والخضوعِ والتّسليمِ والإشارةِ، والمعنى: اسقُطوا له ساجِدينَ على وجوهِكم تحيَّةً له وتعظيمًا، فلم يكنِ السّجودُ لآدمَ سجودَ عبادةٍ[2].

(1) البقاعي، نظم الدرر: 16/420.

(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 3/360، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 3/210، وأبو حيان، البحر المحيط: 1/247، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/75، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/44.

﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ۝٣٠ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ۝٣١﴾ [الحجر: 30 - 31]

مُناسَبَةُ الآيَتينِ لما قَبْلَهُما:

سُجودُ جميعِ المَلائكةِ لآدمَ وامتناعُ إبليسَ تَنْبيهٌ للبَشرِ على عدوِّهمُ القديمِ

لمّا أمرَ اللّه تعالى المَلائكةَ بالسُّجود في الآيةِ السّابقةِ كان كأنّه قيلَ: فماذا فعلتِ الملائكةُ، وهل سجَدوا من غيرِ توقُّفٍ؟ قيل: ﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ ولمّا أفاد الجمْعُ العمومَ وأكّدَه كأنَّ سائلًا سأل: هل سجد جميعُ المَأمورين، فقال: ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ۝٣١﴾، أو يقال: لمّا أبلغَ في تأكيدِ ما أفهمَه الجمعَ استثنى إبليسَ منَ السّاجدين[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَجْمَعُونَ﴾: (جمع) يدلُّ على تَضامِّ الشَّيءِ، يُقالُ جمعتُ الشَّيء جمعًا[2]، ويُقال للمَجموع: جَمْعٌ وَجَميعٌ وجَماعَةٌ. وجَميعٌ وأجْمَعُ وأجْمَعونَ تُستعملُ لتأكيد الاجتماعِ على الأمر، فأمّا أجمعون فتوصَفُ به المعرفةُ، ولا يَصحُّ نصبُه على الحال، نحوَ قولِه تعالى: ﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾، وأمّا جميعٌ فإنَّه قد يُنصبُ على الحال فيُؤكّدُ به من حيث المعنى، نحو: ﴿ٱهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعًا﴾ [البقرة: 38][3]. والمقصودُ بـ ﴿أَجْمَعُونَ﴾ في الآية: التّأكيدُ على سُرعة طاعَةِ المَلائكةِ.

2) ﴿أَبَىٰٓ﴾: أصلُ الكلمَة يَدلُّ على الامتِناعِ، ويأتي بمعنى كراهيَةِ الشَّيءِ، فيُقال: أبَى الشَّيْءَ، إباءً وإباءَةً: إذا كَرِهَه. والإباءُ: شِدَّةُ الامتِناعِ وعَدَمُ القَبولِ، يُقال: أبَى، يَأْبَى، إباءً؛ أيْ: رَفَضَ وامتَنَعَ ولم

(1) البقاعي، نظم الدرر: 11/54.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (جمع).
(3) الراغب، المفردات، والطيبي، فتوح الغيب: 11/159.

يَقْبَلْ، فهو آبٍ وأبيٌّ وأبَيانٌ[1]. والمقصودُ بالإباءِ في الآيةِ: الامتِناعُ مِنْ فِعْلٍ أو تَلَقّيه.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

امتثالُ المَلائكةِ بالسُّجودِ تعظيمٌ لله تعالى وتشريفٌ لآدمَ

لـمّا خلَقَ اللّهُ آدمَ، ونفَخَ فيه الرّوحَ، امتثلَ الملائكةُ كلُّهم لأمرِ اللّه، وسجَدوا عن آخرِهم، ما بقيَ منهم مَلَكٌ إلّا سجدَ، وسجَدوا مُجتَمِعين في آنٍ واحدٍ، لا مُتفرِّقين، إلّا إبليسَ امتنع مُستَكْبرًا مُتعاظمًا ولم يكن مِنَ السّاجدينَ؛ تكبُّرًا منه وحسَدًا لآدمَ، وكان استكبارُه استكبارَ كُفْرٍ[2].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بَراعةُ الإيجازِ في ﴿فَسَجَدَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾:

بَراعةُ الإيجازِ بحذْفِ الجُمَلِ لِوُضوحِ المعنى

أوجزَ البيانُ الإلهيُّ في الكلامِ بحذْفِ الجُملِ بما يدلُّ عليه السّياقُ، والتّقديرُ: فخلَقَه فسوّاه فنفخَ فيه الرّوحَ فأمرَ الملائكةَ بالسّجودِ له فسجدَ الملائكةُ[3].

دَلالةُ الفاءِ في ﴿فَسَجَدَ﴾:

المُبادَرةُ إلى الائتِمارِ من غيرِ مُهلةٍ من فِعْلِ المَلائكةِ الأطْهارِ

ظاهِرُ الآيَةِ يَدُلُّ عَلَى أنَّهُ تعالى لمّا نَفَخَ الرّوحَ في آدَمَ عليه السلام أوجَبَ على المَلائكةِ أنْ يَسْجُدوا له؛ لِأنَّ قَوْلَهُ: ﴿فَإِذَا سَوَّيۡتُهُۥ وَنَفَخۡتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ مَذْكورٌ بِفاءِ التَّعْقيبِ وذلك يَمنَعُ مِنَ التَّراخي، فأفادَ أنَّه لمّا أمرَهم سجَدوا من غيرِ مُهلةٍ ولا توقُّفٍ لمّا جاء وقتُ السُّجودِ، وأنَّ سجودَهم كانَ بسببِ هذا الأمرِ[4].

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (أبا).

(2) ابن جرير، جامع البيان: 14/66، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/534، والشوكاني، فتح القدير: 3/157، والزحيلي، التفسير المنير: 23/231.

(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/75.

(4) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 19/140، والبقاعي، نظم الدرر: 11/54، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 11/149.

إيثار الإظهارِ في: ﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾:

رِفْعةُ شأنِ المَلائكةِ لمّا بادَروا إلى السُّجودِ لآدمَ

كان الظّاهرُ أن يقولَ (فسجدوا) لقُربِ ذكْرِ الملائكةِ، فجاء الكلامُ على خلافِ مُقتضى الظّاهرِ، بالإظهارِ في موضعِ الإضْمارِ؛ لإظهارِ رِفعةِ شأنِ الملائكةِ الذين سجَدوا، وللإشعارِ بعلّيَّة سُجودِهم وهو كونُهم ملائكةً ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۝٦﴾ [التحريم: 6]، لِيُنبّهَ على أنَّ إبليسَ ليس منَ الملائكةِ كما سيأتي.

سِرُّ التّأكيدِ بقولِه ﴿كُلُّهُمْ﴾:

القَطْعُ بسُجودِ عُمومِ المَلائكةِ واسْتِغراقِ اللّفظِ لهم

يحتملُ لفْظُ الملائكةِ أن يكونَ جمْعًا عامًّا مُحتملًا للتّخْصيص وأن يكونَ على معنى الغالبِ والأكثرِ، فجاء التّوكيدُ بلفْظِ ﴿كُلُّهُمْ﴾ لِقطعِ بابِ التّخْصيص؛ ليُفيدَ الجزمَ بسُجودِ كلِّ الملائكة واستغراقِ اللّفظِ لهم جميعًا[1].

سِرُّ اقترانِ ﴿أَجْمَعُونَ﴾ بـ ﴿كُلُّهُمْ﴾:

سُجودُ المَلائكةِ كلّهم أكمَلُ أصنافِ السّجودِ، وزيادةٌ في التّشريفِ والتّكريمِ

يحتملُ أن يكونَ مَجيءُ لفظِ ﴿أَجْمَعُونَ﴾ لإفادة التّأكيدِ بعدَ التأكيد، مبالغةً في تعميمِ جميعِ الملائكةِ ولمنْعِ التّخْصيصِ، ويحتملُ أن يكونَ لكلِّ لفْظٍ معناه، فيفيدُ ﴿أَجْمَعُونَ﴾ التّأسيسَ، وبيانُه إنَّه لمّا قال ﴿أَجْمَعُونَ﴾ أفادَ دفعَ توهُّمِ تأخُّرِ أيِّ واحدٍ منهم أوِ امتناعِه، بمعنى تقريرِ أنَّه لم يمتنعْ ولم يتأخّرْ في ذلك أحدٌ منهم عن أحدٍ، ويلزمُ منه اجتماعُهم على السّجودِ في وقتٍ واحدٍ دفعةً واحدةً، وهو الظّاهرُ من مُبادرتِهم إلى السُّجودِ، ويدلُّ عليه مأخذُ الاشتقاق للفظِ ﴿أَجْمَعُونَ﴾ الذي فيه معنى الجمْعِ والمعيَّةِ بحسبِ الوضْعِ اللُّغويِّ، كما أنَّ الأصلَ في الخطابِ تنزيلُ اللّفظِ على أكملِ أحوالِه، ولا ريْبَ في أنَّ سجودَ الملائكة مُجتمِعين أكملُ أصنافِ السُّجود وأجمَلُه وأوفَى للائتمار وأظهرُ في تكريمِ آدمَ وتشريفِه، ولمّا شاع استعمالُ ﴿أَجْمَعُونَ﴾ تأكيداً أُقيمَ مَقامَ (كُلّ) من إفادة معنَى الإحاطة من

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 3/210، والنسفي، مدارك التنزيل: 2/188.

غير نظَرٍ إلى الكمالِ، فإذا فُهِمَتِ الإحاطةُ من لفظٍ آخرَ لم يكنْ بدٌّ من مُراعاةِ الأصل صونًا للكلامِ عنِ الإلغاء، وليكونَ ﴿أَجْمَعُونَ﴾ على التّأسيسِ مع تضمُّنِه معنَى التَّأكيدِ، أو يقال: لمّا كانَ ذكرُ الكلِّ يحتملُ أن يكونَ بتأويلِ التّفرُّقِ قطَعَه بقوله ﴿أَجْمَعُونَ﴾، وأشعرَ التّتابُعُ بلفْظِ ﴿أَجْمَعُونَ﴾ أنَّ خروجَ الواحدِ منَ الائتمار بالسُّجودِ لا يقدحُ في تشريف آدمَ ولا في تكريمِه، وأنَّ خروجَه لا يُعبَأُ به[1].

فائدةُ حذْفِ المُتعلَّقِ في ﴿فَسَجَدَ﴾:

الإيجازُ مع وُضوحِ المعنَى، وأنَّ طاعة الله أشرفُ من خُصوصيّةِ النّظرِ إلى مَن سُجِدَ له

لمّا كان التّقديرُ في قوله: ﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ هو: (فسجدَ المَلائكةُ كلُّهم أجمعون له)، أيْ لآدمَ، كان حذْفُ الجارِّ والمجرورِ للإيجازِ مع وضوحِ المعنَى، وللإشعارِ بأنَّ النّظرَ أوّلًا وبالذّاتِ إلى الائتمار بأمْرِ السُّجودِ، وليس إلى خُصوصِ من سجَدوا له، ولهذا حُذفَ المتعلَّقُ كذلك في قولِه تعالى: ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ أي: السّاجِدين له.

تَوجيهُ المُتشابِهِ اللَّفظِيِّ:

سُجودُ المَلائكةِ لآدمَ على وجْهِ الخُضوعِ لله والائتمارِ بأمْرِه لِتحيَّةِ آدمَ وتكريمِه

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ۩ ﴿٢٠٦﴾﴾ [الأعراف: 206]، فقولُه ﴿وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ۩ ﴿٢٠٦﴾﴾ [الأعراف: 206] يُفيدُ الحَصْرَ، وذلك يدلُّ على أنَّهم لا يَسجُدون إلّا لله تعالى، وذلك يُنافي كَوْنَهُم ساجِدينَ لِآدَمَ عليه السلام، وبيانُه أنَّ سُجودَهم لآدمَ هو سجودُ تحيَّةٍ لمخلوقٍ، وليس سجودَ عبادةٍ كما هو حالُ سجودِهم لله تعالى، لِقرينة قولِه: ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ﴾ [الأعراف: 206]، ولهذا عرَّفَ الله تعالى الملائكةَ بأنَّ آدمَ مخلوقٌ، ثمَّ أمرَهم بالسُّجودِ له، فكان سُجودُهم على وجْهِ الخضوعِ لأمرِ الإله

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 19/140، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 3/210، والبقاعي، نظم الدرر: 16/420، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/75، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 11/150، والآلوسيّ، روح المعاني: 7/289.

تحيَّةً وتكريمًا لآدمَ، ولهذا جاء في قولِه تعالى: ﴿فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ تقديمُ الجارِّ والمجرورِ ﴿لَهُۥ﴾ أي: لا سُجودَ لأحدٍ منَ المخلوقاتِ إلّا لآدمَ تكريمًا وتشريفًا له، كما تقدَّمَ.

دَلالةُ الاستِثناء في قولِه ﴿إِلَّآ إِبۡلِيسَ﴾:

إبليسُ ليسَ منَ جنسِ المَلائكةِ

يحتملُ أن يكونَ الاستثناءُ مُنقطعًا، فيكونَ إبليسُ ليس منَ الملائكة، وإنّما استُثْنِيَ؛ لأنّه كان بينَهم مأمورًا معهم بالسُّجود، فغُلِّبَ اسمُ الملائكةِ، ثمّ استُثْني بعدَ التّغليب، ويحتملُ أن يكونَ الاستثناءُ متّصلًا فيكونَ إبليسُ منَ الملائكةِ، والوجْه الأوّلُ هو الصّوابُ واستظْهَره كثيرٌ منَ المُفسّرين[1].

دَلالةُ قولِه ﴿أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾:

جمَعَ إبليسُ بامْتِناعِه عن السُّجودِ بين العصيانِ والاستكبارِ ومفارقةِ الجماعةِ المؤتمِرين بأمرِ الله

إن كان الاستثناءُ مُنقطعًا كان المعنى: لكنَّ إبليسَ أبى أنْ يكونَ مع السّاجِدين، ويحتملُ أن تكونَ (لكنَّ) بالتّشديد تَقْتضي اسْمًا وهو إبليسُ، وخبرًا وهو الجملةُ الفعليّةُ ﴿أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾، أو تكونَ حرْفَ استدراكٍ، وإن كان الاستثناءُ متّصِلًا كان الكلامُ على طريق الاستئنافِ، فكأنَّه وقعَ في جواب سؤالٍ أفادَه الاستثناءُ، لبيانِ كيفيَّةِ عدمِ سُجودِه فإنَّ مُطلقَ عدمِ السّجود قد يكونُ مع التّردّدِ، وتقديرُه: هل سجدَ إبليسُ؟ فقال: أبى أن يكونَ مع السّاجِدين، وعلى الوجهَيْن في الكلامِ دَلالةٌ على كمالِ رَكاكةِ رأيِه حيث أدمجَ في معصيّةٍ واحدةٍ ثلاثَ معاصٍ: مخالفةَ الأمرِ، والاستكبارَ مع تحقيرِ آدمَ ﷺ، ومفارقةَ الجماعةِ والإباءَ عنِ الانتظامِ في سلْكِ أولئك المُقرَّبين الكِرامِ[2].

(1) الطيبي، حاشية على تفسير الكشاف: 9/32.

(2) البيضاوي، أنوار التنزيل: 3/210، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/75، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 11/150، والآلوسيّ، روح المعاني: 7/290.

نُكتةُ التَّعبيرِ بلفْظِ ﴿أَبَىٰٓ﴾:

مَعْصيةُ التّكبُّرِ أوجَبَتْ لإبليسَ الطَّرْدَ والإبْعادَ

عبَّرَ البيانُ الإلهيُّ بـ﴿أَبَىٰٓ﴾؛ للإيذانِ بشدّةِ امْتناعِه منَ السُّجود، وأنَّه لم يكُنْ مُتردِّدًا، فعُلِمَ أنَّ امتناعَه منَ السُّجود للإباءِ والاستكبارِ، فدلَّ على أنَّهُ عَصَى، وأنَّهُ تَرَفَّعَ عَنْ مُتابَعَةِ غَيْرِهِ[1].

دلالة التَّعبيرِ بقولِه ﴿مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾:

إبليسُ ليس من جِنْسِ المَلائكةِ وكان مَعَهم على التَّبَعِ

لم يقُلْ (أبى أن يكون من الساجدين)؛ للإشعارِ بأنَّه ليس من جنْسِهم، بل كان معهم، ودخلَ في لفْظِ (الملائكة) على التّغْليبِ، كما أنَّ لفْظَ المعيَّةِ يفيدُ أنَّه كانَ معهم على التَّبعِ لا على الأصالةِ.

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/75، والآلوسيّ، روح المعاني: 7/290، والقونجي، فتح البيان: 7/166، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/46.

﴿قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ٣٢﴾ [الحجر: 32]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

التَّسجيلُ على إبليس بالاعتراف بذنبِه

لمّا أخبر اللّه تعالى عن امتناع إبليس عن السُّجودِ لآدم بعدَ الأمرِ الإلهي؛ أتبعه بسؤال اللّه له، وهو العالم بحالِه عن السَّبب الذي منعه من السُّجود.

المَعْنى الإجْماليُّ:

خطابُ اللّه تعالى لإبليس ليس للتَّشريفِ، بل لإقامةِ الحجَّة والتَّقريع

سأل اللّه تعالى إبليس - وهو أعلم به - ليظهر حقيقته، ولتقوم الحجَّة على استحقاقه للعقاب، فقال اللّه تعالى له: يا إبليسُ، ما السَّبَبُ الذي حمَلَك على ألّا تكونَ مع الملائكةِ السّاجِدينَ لآدمَ، وقد أمرتُك بالسُّجودِ معهم؟[1] وقد جرى الاستخبار في الآية على ما تعرفُه العَرَبُ مِن كلامِها، وتستعمِلُه في مُحاوراتِها، فتسألُ عن الشَّيءِ تَعرِفُه، لينطق به المسؤولُ، أو لِيُقِرَّ به، أو لِتؤكِّدَ الحُجَّةَ عليه، ومِثلُ هذا كثيرٌ في القُرآنِ، قال اللّهُ تعالى لموسى عليه السلام: ﴿وَمَا تِلۡكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ١٧﴾ [طه: 17]، وهو يَعلَمُها ويَراها[2].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغة الاستئناف البياني:

مجيء الكلامِ على طريق الاستئنافِ البياني لِتشويقِ السّامع واستدرارِ إصغائِه

ورد الكلامُ على طريق الاستئناف البياني مَسوقًا للجواب عن سؤالٍ نشأ من حكايةِ امتناع إبليس من السُّجود مخالفًا الملائكة كلَّهم أجمعين، فكان ذلك ممّا يحرِّك السامع، ليسأل - لعظم مخالفةِ الأمر وهول الموقفِ - فكأنَّه قيل: فماذا قال اللّه تعالى حينَ أعرضَ

(1) ابن جرير، جامع البيان: 14/66، والسمعاني، تفسير القرآن: 3/139، والشوكاني، فتح القدير: 3/157.

(2) القصاب، النكت الدالة على البيان: 2/44.

إبليسُ عن السُّجودِ، ولم يمتثل لأمر اللّه؟ تشويقًا للسّامع، واستدرارًا لإصغائه لما هو مهمٌّ في الكلامِ، فجاء الجوابُ بقولِهِ: ﴿قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾.

بلاغة النِّداء في قولِه: ﴿قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ﴾:

لمّا امتنع إبليس عن السُّجودِ؛ ناداه اللّه تعالى بـ(يا) التي هي لنداء البعيد للإيذانِ ببعدِه عن رحمةِ اللّه تعالى بامتناعِه عن السُّجود.

المتنع عن الامتثال لأمر الله بعيدٌ عن رحمتِه

دلالةُ الضَّمير في قولِه: ﴿قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ﴾:

لمّا كان الضَّمير في ﴿قَالَ﴾ عائدًا إلى لفظ ﴿رَبُّكَ﴾ [الحجر: 28] بما اتَّصفَ به؛ كان المعنى: قال ربُّك الذي أمر الملائكة بالسُّجود للبشرِ الذي خلقَه من صلصالٍ من حمأٍ مسنونٍ، ففيه إيذانٌ بأنَّ اللّه تعالى إنَّما سأل من لم يأتمر بأمرِه، ترهيبًا لشأنِ الامتناعِ عن الامتثال.

تعظيمُ شأنِ الامتناعِ عن الامتثال والتَّرهيب منه

بلاغة مجيء الكلامِ خلافِ الظّاهر:

كان الظّاهر أن يقول: (قال ما منعك ألّا تسجد) - في قولِه ﴿مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ - لقربِ ذكرِ اسم إبليس اللَّعين، ونكتة مجيء الكلامِ على خلافِ مقتضى الظّاهر، بإيثار إعادة الاسم الظّاهر؛ الإشعارُ بأنَّه ميؤوسٌ منه؛ لدلالة الاسم على اليأس من رحمةِ اللّه، فهو من الإبلاس وهو الإبعاد، وكأنَّه قيلَ: يا مُبْعَدُ[1]، كما أنَّ ذكر اسم الملعونِ تسجيلٌ عليه بامتناعِه من السُّجود، وأنَّه لا أحدَ غيره يكون حالُه مثلَ حالِه في الامتناعِ من السُّجود.

لإبليسَ نصيبٌ من معنى اسمِه

بلاغة الاستفهام المجازي في الآية:

لمّا كان اللّه تعالى عالمًا بسبب امتناعِ إبليس من السُّجود وبالغرضِ الذي دعاه إليه؛ كان الاستفهام على طريق المجاز في قولِه ﴿مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾؛ ليفيدَ الإنكارَ على عدمِ سجودِه، ويتولَّد

استدراجُ إبليس ليظهر ما في باطنِه

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (بلس)، وابن عطية، المحرر الوجيز: 3/361.

من هذا الإنكار التَّوبيخُ واللَّومُ على إبائِه، والتَّعجيبُ من حالِه؛ لأنَّ شأنَ المتعجَّب منه أن يُسألَ عن سببِه، بحيث يجدر أنْ يسألَ عن السَّبب والغرضِ ممّا يتعجَّبُ منه، وفيه استدراجٌ لإبليسَ ليُظهِرَ ما في باطنِه من العداوة.

فائدة طريق الاستفهام الإنكاري في الآية:

انتفاء أنْ يكون لإبليسَ أيُّ سببٍ يمنعُه من السُّجودِ لآدمَ

لمّا كان الاستفهام إنكاريًّا في قولِه: ﴿مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ أفادَ إنكارَ أن يثبتَ لإبليسَ أيُّ سببٍ يمنعُه من السُّجود، والمعنى: أيُّ سببٍ يحملك على الامتناعِ عن أن تكونَ مع السّاجدين؟ وأفادَ إنكارَ أن يكونَ للَّعينِ أيُّ علَّة غائيَّةٍ، أي: أيُّ غرضٍ وأيُّ داعٍ لك دعاك إلى الامتناع عن أن تكونَ مع السّاجدين[1]؟ ولمّا كان لفظ ﴿مَا﴾ يفيد العمومَ في الاستفهام؛ دلَّ على إفادةِ الاستفهامِ الإنكاريِّ انتفاء أنْ يكون له أيُّ سببٍ أو غرضٍ يحملُه على عدمِ السُّجودِ، أو يمنعُه منه.

دلالة اللام في قولِه: ﴿مَا لَكَ﴾:

اختصاص السُّؤال عن حالته العجيبةِ به، وهي امتناعه عن السجود آدم

هذه اللّام لِلاختصاص، بمعنى اختصاص السُّؤال بالمخاطب - وهو إبليسُ هنا - على الحالةِ العجيبةِ التي وقعت منه.

دلالة جملةِ الحالِ:

التَّعجيب من إبليسَ لامتناعِه من السُّجود

قوله: ﴿أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ في موضع الحال، وهي قيدٌ للاستفهامِ الإنكاريِّ، والتقدير: ما لكَ في ألّا تكون مع السّاجدين، فالإنكارُ على حالةِ امتناعِ إبليسَ من السُّجودِ، أي: فالاستفهام عن إبليس في هذه الحالة العجيبةِ.

سبب إيثار حذف حرف الجر في الآية:

حذف حرف الجرِّ في قولِه تعالى: ﴿أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾؛

(1) الزمخشري، الكشاف: 2/577، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/75.

للإيجاز ولظهورِ المعنى، وللإشعارِ بأنَّ امتناعَ إبليسَ عن السُّجود لآدم هو بمنزلة امتناعِه عن السُّجود في كلِّ موضعٍ أُمِرَ به، ليفيدَ عمومَ المواضعِ من غير تخصيصٍ بموضعٍ دونَ آخر.

امتناعُ إبليسَ عن السُّجود لآدم هو بمنزلة امتناعِه عن كلِّ سجود أُمِرَ به

براعة النَّفي في قولِه: ﴿أَلَّا تَكُونَ﴾:

لمّا كان الظّاهر أن يقول: (ما لكَ أن لم تكن مع الساجدين؟) مثلًا؛ لأنَّ الإنكارَ جاء بعدَ وقوع الحادثة؛ كان مجيء التَّركيب بصيغة النَّفي بـ(لا) واقترانِه بـ(أنْ) المصدرية الدالَّة على الزمن المستقبل لسببٍ: وهو الإيذان بتطاول زمن امتناعِه من السُّجود، وكأنَّه مستمرٌّ عليه، لما تفيدُه (لا) النّافية من الدلالة على استمرارِ النَّفي، و(أنْ) المصدرية على الزمانِ المتطاول[1]، ليفيد هذا التَّركيبُ أنَّ امتناعَه من السُّجود لآدمَ كان بمنزلة امتناعِه من الائتمار لأمر الله تعالى، بالزَّمان المتطاول الذي ابتدأ بوقوعِ الحادثة، ليفيد امتناعَه عن السُّجودِ في عمومِ الزَّمان، كما أفادَ حذف حرفِ الجرِّ عمومَ المواضعِ، كما تقدَّم.

امتناعُ إبليسَ من السُّجود لآدمَ بمنزلة الاستمرارِ على امتناعِه من امتثال أمر الله تعالى

سبب إيثار التعبير بقولِه: ﴿مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾:

لم يقل: (ما لكَ ألّا تكونَ مع الملائكةِ)؛ لأنَّ محطَّ الإنكار هو امتناعُه من السُّجود، وتقدَّم أنَّ التَّعبير بـ﴿مَعَ﴾ فيه إشعارٌ بأنَّه ليس من جنس الملائكة، وأنَّه دخل في الأمر على سبيلِ التَّبع؛ كما أفاد لفظ ﴿مَعَ﴾ أنَّ الأمر بالسُّجودِ كانَ على سبيلِ المصاحبة.

تأكيدُ أنَّ إبليسَ ليس من الملائكةِ

نكتة حذف المتعلّق في قولِه: ﴿ٱلسَّٰجِدِينَ﴾:

لمّا كان تقدير الكلام: ما لكَ ألّا تكونَ مع الساجدين لآدم؟[2] أفاد أنَّ حذف الجار والمجرور للإيجاز، وللتنبيه على أنَّ مخالفته هي في الائتمار بأمر الله بالسُّجود، وليس لخصوص مَنْ أُمِرَ بالسُّجود له.

الامتثال لِأمرِ الله بالنَّظرِ لِكونِه أمرًا من الله تعالى

(1) السامرائي، معاني النحو: 3/156، 4/206.

(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 3/210.

سبب اقتصار توبيخ إبليس على امتناعِ السُّجود:

تراكمُ المعاصي يوجب السَّخط

لمّا جاء في سورة الأعراف توبيخُ إبليسَ على الامتناعِ من الائتمار بأمر اللّه في قولِه: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ [الأعراف: 12] وجاء في سورة (ص) توبيخه على الامتناع من السجود لِما خلقَ اللّه بيديه في قولِه: ﴿قَالَ يَـٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص: 75]، وجاء في هذه السورة توبيخُه على عدم سجودِه مع السّاجدين؛ أفادَ أنَّ كلَّ هذه المعاصي تقتضي توبيخَه، وأنَّ كلَّ واحدةٍ من تلك المعاصي الثلاث كافية في التوبيخ وإظهارِ بطلانِ ما ارتكبه[1].

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/75.

﴿قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٣٣﴾﴾ [الحجر: 33]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

التَّعريف بحقيقة ما يبطن به إبليس لعنه الله

انساق الكلامُ إلى بيانِ ماذا أجابَ إبليسُ عن سؤال ربِّ العالمين، فَإِنَّ مَنْ يَسْمَعُ السُّؤالَ في الآية السابقة يَتَشَوَّقُ لِمَعْرِفَةِ الجَوابِ، وَيُنَزَّلُ مَنْزِلَةَ مَنْ يَسْأَلُ عَنْهُ، فَيُجابُ، قال كذا وكذا.

❁ المَعْنى الإجْمالِيُّ:

استكبار إبليس على أمر الله، وإبداء العداوة لآدم وذرِّيَّته

قال إبليسُ تكبُّرًا وحسَدًا لآدمَ عليه السلام: لا ينبغي لي أنا - المخلوق مِن نارٍ - أن أسجُدَ لهذا الجسَدِ الَّذي خلقْتَه من طينٍ يابسٍ لا مَنعةَ فيه، إذا نُقِرَ؛ أجاب بالتَّصويتِ، أسودَ مُتغيِّرٍ، فأنا خيرٌ منه؛ لأنَّك خلقتَني من نارٍ نافعةٍ بالإشراقِ، مُمتَنِعةٍ ممَّن يريدُها بالإحراقِ، فسُجودي له منافٍ لحالي[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغة الاستئناف البيانِّي في الآية:

استدرارُ سمع المخاطبين للتَّعريف بأوصاف إبليس

لمّا قال اللّه تعالى: ﴿قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾؛ كان كأنَّ سؤالًا نشأ من السّامع ليسألَ، ويقول: فماذا أجابَ إبليس؟ فقال تعالى: ﴿قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾، فالاستئنافُ مبنيٌّ على السؤالِ الذي انساق إليه الكلام، لاستدرارِ سمعِ المخاطَبين لإكمالِ القصَّة، وللتنبيه على عظمِ الأمر بتحريكِ أذهانِهم للإصغاء لما يتلى[2].

(1) ابن جرير، جامع البيان: 14/67، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 10/26، والسعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص431.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/76.

سرُّ جواب إبليسَ خلاف مقتضى الاستفهامِ:

عدولُ إبليسَ عن الجوابِ الصَّريح لما هو أقبحُ لاستكبارِه وعنادِه

لمّا كان الظّاهر أن يكون جوابُ إبليس هو عن سبب امتناعِه عن الامتثال، وعن سبب عدمِ مصاحبته الملائكة في السُّجود؛ كان في عدوله عن تطبيق جوابه على السؤال رومٌ للتفصِّي عن المناقشة، فعدلَ عن التَّصريحِ، وأجابَ بما هو أقبح وأشنع، بما يدلُّ على استكبارِه وعنادِه، ليكون ما ذكر في جزائه استحقاقًا له، فأجابَ بما يتسبَّب به لعنَه وطردَه، فكأنَّه قال: لم أمتنع عن امتثال الأمر ولا عن الانتظامِ في سلكِ الملائكة، بل عمّا لا يليق بشأني من الخضوع للمفضول، فخذله اللّه تعالى لجريِه على سنن قياس عقيم، وزلَّ عنه أنَّ ما يدور عليه فلَكُ الفضل والكمال هو التحلي بالمعارف الربّانية، والتخلِّي عن الملكات الرَّدية، التي أقبحها الكبر والاستعصاء على أمر ربِّ العالمين ﷻ[1].

براعة التَّعبير بنفي الكون في الآية:

تقبيح رأي إبليس في التَّعبيرِ عن نفي صحَّة سجودِه لآدمَ بنفي إمكانِه

لمّا كان المعنى: لا يَصِحُّ مِنِّي أَنْ أَسْجُدَ لِبَشَرٍ؛[2] لأنَّ إبليس كان يريد نفي صحَّة سجودِه لآدم، وليس إمكانَ الفعلِ؛ كان نفي الكونِ في قولِه: ﴿قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ﴾ الدالِّ على نفي الإمكانِ أصلًا أبلغَ في نفي إبليس اللَّعين صحَّةَ سجودِه لآدمَ، فكأنَّه قال: (ليس في إمكاني السجودُ لآدم)، لتنتفي صحَّةُ سجودِه، فإنَّ نفي الملزوم يقتضي نفي اللازم، مع أنَّ الواقعَ هو أنَّه كان يقصد نفي صحَّة سجودِه لآدمَ، ولهذا علَّله بقولِه: ﴿لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾.

فائدة اللّام في قولِه: ﴿لِّأَسْجُدَ﴾:

عنادُ إبليس وتكبُّره جرَّه إلى القولِ باستحالةِ سجودِه لآدمَ

اللّامُ هي لام الجحودِ؛ لِتَأْكِيدِ نفي سجودِه، وهي على معنى الاستحقاق، أي: لا يقعُ منّي السُّجود لآدمَ في أيِّ حالٍ من الأحوالِ،

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 19/141، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/76.
(2) الزمخشري، الكشاف: 2/577، وابن عطية، المحرر الوجيز: 3/361، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 19/140.

ولا يحقُّ لي أن أسجدَ له، فيستحيل أن أسجدَ لبشرٍ، وهو ينافي حالي، ولا يليقُ بي، فيفيد المبالغة في النَّفي، أي: هذا ممّا لا يمكن وقوعُه أصلًا، وذهب بعضُ النَّحويين إلى أنَّ لامَ الجحودِ هنا لإفادة نفي القصدِ إلى الفعل وإرادتِه، والمعنى: لم أكن قاصدًا للفعلِ ولا مريدًا له، فيفيد تأكيدَ نفيِ الفعل؛ لأنَّ نفيَ قصدِ الفعلِ أبلغ من نفي الفعلِ نفسِه.

دلالة المصدر المؤوَّل في قولِه: ﴿لِّأَسْجُدَ﴾:

من قبحِ إبليسَ علمُه بإنكارِ الله على عدمِ امتثالِه ثمَّ العنادُ والاستمرارُ فيه

لامُ الجحود في قولِه تعالى: ﴿لِّأَسْجُدَ﴾ داخلةٌ على المصدرِ المؤوَّل؛ لأنَّه بتقدير: (لأنْ أسجُدَ)؛ للإيذانِ بأنَّ إبليسَ كان يريد نفي إمكانِ مطلقِ سجودِه لآدمَ من غيرِ نظرٍ إلى طولِه أو قصرِه أو موضعِه أو إلى أيِّ وصف آخر مقيِّدٍ للسُّجودِ، وللإشعارِ بأنَّه معتقِدٌ بأنَّ نفيَ إمكانِه وعدمَ امتثالِه مستمرّان، وأنَّه لن يسجدَ لبشرٍ، وإنْ علمَ إنكارَ اللّه على عدمِ امتثالِه؛ لِما تدلُّ عليه (أنْ) الدالَّة على الاستقبالِ معَ الفعلِ المضارع.

فائدة التَّعبير بالمضارع في قولِه: ﴿لِّأَسْجُدَ﴾:

صورة السُّجود امتثالًا لأمرِ الله؛ تشريفٌ، والامتناع استكبارًا؛ من فعلِ إبليسَ

أفاد التعبيرُ بصيغة المضارع تصويرَ الحالة، فكأنَّ إبليس يستنكر أن يكونَ على صورةِ السُّجودِ لآدمَ، فهو يستنكر السُّجودَ، ويستنكر حالتَه، وهو يسجد لآدم.

دلالة التَّركيب في قولِه: ﴿لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ﴾:

استنقاص إبليس لآدم لكونِه بشرًا، ولكونِه من صلصالٍ من حمأٍ مسنونٍ

لمّا كان هذا الكلامُ من إبليس في سياق إنكارِهِ السُّجودَ لآدم؛ كان تعبيرُه على سبيلِ الاستنقاصِ لآدمَ باعتبار نوعِه حين قال: ﴿لِبَشَرٍ﴾، ثمَّ زادَ، فذكر وصفَه باعتبار أصلِ خلقتِه، فقال: ﴿خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾؛ ليكون استنقاصُه للموصوفِ وصفتِه على سبيل الاجتماعِ وعلى سبيل الانفراد، ولمّا استنقص ما خلقَه اللّه؛ أفادَ على سبيلِ الكنايةِ استكبارَه واستعظامَه لنفسِه، وفيه

إشارةٌ إجماليَّةٌ في كونِه خيرًا منه، وَقَدْ صَرَّحَ بِذَلِكَ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ، فَقالَ: ﴿أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ ٧٦﴾ [ص: 76][1].

براعة التعبير بقولِه: ﴿خَلَقۡتَهُۥ مِن صَلۡصَٰلٖ﴾:

أفادَ التعبير بالجملة الفعليَّة ﴿خَلَقۡتَهُۥ﴾ الإشعارَ بغلطِ إبليسَ بأنْ رأى الفضلَ كلَّه باعتبارِ العنصرِ الذي بدأ منه خلقُ البشرِ، وغفل عمّا يكونُ باعتبار الفاعلِ الذي هو مقرٌّ به، كما أشار إليه بقوله تعالى: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ﴾، أي: بغير واسطة، كما غفلَ عمّا يكونُ باعتبار الصّورة، كما نبَّه إليه بقولِه: ﴿فَإِذَا سَوَّيۡتُهُۥ وَنَفَخۡتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ [الحجر: 29]، فأجملَ في لفظ ﴿خَلَقۡتَهُۥ﴾ تسويةَ اللّه تعالى للبشرِ، ونفخَ الرّوح فيه، كما غفل اللَّعين عمّا يكونُ باعتبارِ الغايةِ التي خُلِقَ البشرُ لها وهو ملاكُه، ولذلك أمر الملائكة بالسجود له؛ لما تبيَّنَ لهم أنَّه أعلم منهم بما يدور عليه أمر الخلافة في الأرض، وأنَّ له خواصًّا ليست لغيره، وفي التَّعبير كذلك تنبيهٌ إلى عظمِ قبحِ إبليس وبشاعةِ حالِه، لما تؤذن به الجملة الفعلية من أنَّه استكبر، وعاندَ في حال أنَّه كان مستحضرًا أنَّ اللّه تعالى هو الذي خلقَ آدمَ[2].

بشاعةُ حالِ إبليس؛ إذ استكبر على اللّه، وهو مستحضرٌ أنَّ اللّه أمرَه بالسُّجود

سرُّ التكرار في الآية الكريمة:

لمّا أخبر اللّه تعالى الملائكة بأنَّه ﴿خَٰلِقُۢ بَشَرٗا مِّن صَلۡصَٰلٖ مِّنۡ حَمَإٖ مَّسۡنُونٖ ٢٨﴾ [الحجر: 28]؛ كان إخبارُه لأصلِ خلقِ آدمَ على سبيل التَّشريف والتَّكريم لآدم وبيانِ بديع صنعِ الخالقِ، وأمّا إبليس؛ فكان ذكرُه لأصلِ خلقِ آدم على سبيلِ التَّعليل بخيريَّته وأفضليَّته على آدم، ليفيدَ سببَ تكبُّرِه على الائتمار والسُّجود لآدمَ، فَشَتّانَ بَيْنَ ذِكْرِ ذَلِكَ

لكلِّ تركيبٍ مقصده، فاللفظ واحدٌ والمقصدُ يختلف

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 3/210.

(2) البيضاوي، أنوار التنزيل: 9/7، والخطيب الشربيني، السراج المنير: 1/465، والشهاب الخفاجي، عناية القاضي: 5/291.

في قَوْلِهِ تَعالَى لِلْمَلائِكَةِ، وَبَيْنَ مَقْصِدِ الشَّيْطانِ مِنْ حِكايَةِ ذَلِكَ في تَعْلِيلِ امْتِناعِهِ مِنَ السُّجودِ لِلْمَخْلوقِ مِنْهُ، فاللَّفظ واحدٌ والسّياق مختلفٌ، فكان لكلٍّ تركيبٍ مقصدُه[1].

سببُ مخاطبة الله تعالى لإبليس:

الخطابُ على سبيل الإكرامِ تشريفٌ وعلى سبيلِ الإهانةِ إذلالٌ

لمّا أخبر اللّه تعالى عن إبليس قولَه في معرض خطابِه مع اللّه تعالى: ﴿خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾؛ دلَّ على أنَّ الخطابَ خطابُ الحضورِ، وليس خطابَ الغيبةِ، وظاهِرُهُ يَقْتَضِي أنَّ اللّه تَعالَى تَكَلَّمَ مَعَ إبْلِيسَ بِغَيْرِ واسِطَةٍ، وَأنَّ إبْلِيسَ تَكَلَّمَ مَعَ اللّه تَعالَى بِغَيْرِ واسِطَةٍ، وَكَيْفَ يُعْقَلُ هَذا مَعَ أنَّ مُكالَمَةَ اللّه تَعالَى بِغَيْرِ واسِطَةٍ مِنْ أعْظَمِ المَناصِبِ وَأشْرَفِ المَراتِبِ، فَكَيْفَ يُعْقَلُ مخاطبة اللّه تعالى لإبليس من غير واسطةٍ، وهو رَأْسُ الْكَفَرَةِ ورئيسُهُم؟ والجوابُ هو أنَّ مُكالَمَةَ اللّه تَعالَى إنَّما تَكونُ مَنْصِبًا عالِيًا؛ إذا كانَ عَلَى سَبِيلِ الْإكْرامِ والْإعْظامِ، فَأمّا مكالمته مع إبليس؛ فقد كانت على سَبِيلِ الْإهانَةِ والْإذْلالِ، كما يوبِّخُ اللّهُ تعالى الكفّارَ يوم القيامة[2].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/46، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/46.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 19/140، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 3/211.

﴿قَالَ فَٱخۡرُجۡ مِنۡهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٞ ٣٤﴾ [الحجر: 34]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

لمّا أخبر اللّه تعالى في الآية السابقة عن جوابِ إبليس؛ كانَ كأنَّه قيل: فبِماذا أُجيب؛ فجاءت هذه الآية:

من بلاغة القرآن استدراجُ سمعِ المخاطَبين وحثُّهم على الإصغاء لما يهمُّهم

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿رَجِيمٞ﴾: أصلُ الرَّجْم: الرَّمْيُ بِالحِجارَةِ، والرِّجامُ: الحِجارَةُ، يُقالُ: رُجِمَ فُلانٌ؛ إذا ضُرِبَ بالحِجارَةِ[1]. والرَّجْم أيضًا: السَّبُّ والشَّتْم؛ لأنَّه رَمْيٌ بالقول القبيح الذي يشبه الحجارة في قسوته، ومنه قَولُه تعالى حكاية عَن أبي إبراهِيم لإبراهِيم عليه السلام: ﴿لَأَرۡجُمَنَّكَۖ وَٱهۡجُرۡنِي مَلِيّٗا ٤٦﴾ [مريم: 46]، أي: لأَسُبَّنَّكَ وأَشْتُمَنَّكَ، والرَّجْم كذلك: اسْم لما يُرْجَمُ بِهِ الشَّيْءُ المرجومُ، وَجمعه: رُجومٌ[2]، والرَّجِيمُ أيضًا: المُحَقَّرُ؛ لأنَّ العَرَبَ كانوا إذا احْتَقَروا أحدًا؛ حَصَبوهُ بِالحَصْباءِ[3]، والمرادُ بالرَّجيم في الآية: المَطْرودُ، وهو كنايَةٌ عَنِ الحَقارَةِ.

المَعْنى الإجْمالِيُّ:

استحقَّ إبليس بعصيان أمر اللّه الطَّردَ والإبعادَ من الجنَّة، وهي وإن لم تذكر في هذه الآية، فالقِصَّة تتضمَّنها، أمَرَه اللّه بالخروج منها، وجعلَه مرجومًا، أي: مطرودًا مُبعدًا، لا يستحقُّ الإكرامَ والمنزلةَ العاليةَ، فقال اللّه تعالى له: فاخرُجْ منها، فإنَّك مَشتومٌ مُحقَّرٌ مذمومٌ[4].

استحقاق إبليس بعصيان أمر الله تعالى الطَّردَ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (رجم).
(2) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (رجم).
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/30.
(4) ابن عطية، المحرر الوجيز: 3/361، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 10/26، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/534، والزحيلي، التفسير المنير: 2/1221.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغة الاستئناف في الآية:

جاء قوله تعالى: ﴿قَالَ فَٱخۡرُجۡ مِنۡهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٞ ٣٤﴾ على طريق الاستئناف البياني، كما هو حالُ أكثرِ آياتِ هذه القصَّة، لاستمرار إصغاء المخاطَبين وتنبيههم إلى منشأِ عداوةِ عدوِّهم الأوَّل.

العدوُّ الأوَّل للبشر هو إبليس اللَّعين

فائدة الفاء في قوله: ﴿فَٱخۡرُجۡ مِنۡهَا﴾:

الفاءُ لِتَرْتِيبِ هَذا الجَزاءِ عَلَى ما ذُكِرَ مِنَ الذَّنْبِ قَبْلَهُ؛ إذ مقتضى تعليلِ إبليس أنَّ اللّه خلق خلقًا مفضولًا، وكلَّف أفضلَ منه أنْ يَذِلَّ له، فكأنَّه قال: وهذا جور وظلمٌ، فهو بمنزلةِ التَّصريحِ بِتَخْطِئَةِ الْخالِقِ، فكان جوابُ إبليسَ مُنبِئًا عن كفرِه وعدم تأهُّلِه للبقاء في الجنَّة أو في السموات، فاسْتَحَقَّ الخروجَ[1].

أعظم الكفرِ تخطئة الخالقِ سبحانَه في أفعالِه وأوامرِه

دلالة الأمرِ في قوله: ﴿فَٱخۡرُجۡ مِنۡهَا﴾:

أفاد الأمر هنا طلبَ خروجِ إبليس من الجنَّة، واقترن بالطَّلب معنى التَّحقير بقرينةِ السّياق، والمعنى اخرجْ منها محقَّرًا مذلولًا .

خروج إبليس من الجنَّة مقترنٌ بتحقيرِه وإهانتِه

مناسبةُ عودِ الضَّميرِ في قوله: ﴿مِنۡهَا﴾:

لم يَتَقَدَّمْ لِلضَّمير مُفَسِّرٌ يَعودُ عَلَيْهِ، ولمّا كان الضَّميرُ متعلِّقًا بالفعلِ ﴿فَٱخۡرُجۡ﴾؛ دلَّ على أنَّ ما يعود إليه الضَّمير هو موضعٌ منزَّهٌ شريفٌ، لتعليلِه خروجَه منها بأنَّه رجيمٌ خبيثٌ مشتومٌ، كما أنَّ الموضعَ يوصف بالتَّأنيث، وهو معلوم بين المتكلِّم والمخاطَب، فلمّا كان الضَّمير عائدًا على غيرِ مذكورٍ في السّياق، وكان معلومًا من تكرُّر هذه الحادثة في القرآن أنَّ إبليس كان في الجنَّة، وكان مع زمرة الملائكة في السَّماء، فيحتمل أن يكون المراد: فاخرج من الجنَّة، أو فاخرج من السَّماء، أو فاخرج من المنزلة التي كنت عليها في الملأ

البقاء في موضعِ الطُّهر والنَّزاهة نعمة والخروج منه عقوبة

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 3/361.

الأعلى، أو فاخرج من زمرة الملائكة، والظّاهر هو الأوّل[1]، ولا مانع من إرادة أكثر هذه المعاني، وإنَّما لم يصرِّحْ بمرجعِ الضَّمير؛ لأنَّ النَّظرَ موجَّهٌ إلى الخروجِ من موضعٍ لا يستحقُّ أن يكونَ فيه، وليس إلى ذكرِ المكانِ المخصوصِ الذي يخرج منه، كما أنَّ المقامَ مقامُ إنذارٍ ووعيدٍ في سياق الإخبارِ عن تكبُّرِ إبليسَ وعتوِّه، فكنّى بالضَّمير للإشعارِ بتنزُّه شأنِ الجنَّة أو السّماء وشرفِهما، وأنَّه ليس فيهما إلّا ما يكونُ طاهرًا نقيَّ السَّريرة غيرَ متكبِّرٍ ولا متعالٍ، وللتَّنبيهِ على قبحِ طويَّةِ إبليس وخبثِه.

فائدة (إنَّ) في قولِه: ﴿فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾:

أفادت (إنَّ) في قولِه: ﴿فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾ تأكيدَ مضمونِ الجملةِ وتقريرَها عندَ المخاطَب، كما أفادتِ الإيذانَ بالتَّعليل، وَذَلِكَ إيماءٌ إِلَى سَبَبِ إخْراجِ إبليسَ مِنْ عَوالِمِ القُدُسِ، وَهوَ ما يَقْتَضِيهِ وَصفه بالرجيم، أي: اخرج منها؛ لأنَّكَ رجيمٌ، ففيه إشارةٌ إلى نزاهةِ المكان الذي كان فيه وطهارتِه، وأنَّه لا يجتمع خبثُ النَّفس وقبح السَّريرة مع البقاء في الجنَّة، أيْ: حَيْثُ ظَهَرَ هَذا فِيكَ، فَقَدْ خَبُثَتْ نَفْسُكَ خُبْثًا لا يُرْجَى بَعْدَهُ صَلاحٌ، فَلا تَبْقَى فِي الجنَّة ولا في عالَمِ القُدُسِ والنَّزاهَةِ[2].

لا يجتمع خبثُ النَّفس وقبحُ السَّريرة مع البقاء في الجنَّة

فائدة مجيء الكلامِ بصيغةِ الخطاب:

تقدَّم أنَّ المخاطبة بين اللّه تعالى وإبليس كانت على سبيل الإهانة والإذلال، ولمّا جاء الأمرُ بإخراجِه من الجنَّة أو من السَّماء، ووصفُه بالرَّجيم على طريقِ المخاطبة؛ كانَ أشدَّ تحقيرًا وتبكيتًا للَّعين من أن يكون على طريق الغيبة.

الإهانة بطريق الخطاب أشدُّ من أن تكون بطريق الغيبة

(1) البغوي، معالم التنزيل: 3/58، وابن عطية، المحرر الوجيز: 3/361، والرازي، مفاتيح الغيب: 19/141، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 3/211، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/534، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/76.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/47.

بلاغة الكنايةِ في قولِه: ﴿رَجِيمٌ﴾:

وُصِفَ إبليس بالرَّجيم ليفيدَ معنى الرّمي والطَّرد والإبعاد والقبح

لمّا كان الرَّجيم بمعنى المطرود - كما هو الظّاهر - كان التَّعبير بالرَّجيم على سبيلِ الكناية؛ فإنَّ مَنْ يُطرَدُ على سبيلِ التَّحقيرِ والنبذِ يُرجَم بالحجارة غالبًا، أو هو ممّا ينبغي أن يُرجَمَ بالحجر، كما أنَّه لمّا كانَ الرَّجمُ يأتي بمعنى السبِّ والشَّتم؛ دلَّ على أنَّ الوصف على معنى الرَّمي والطَّرد والإبعاد والقبح؛ ليفيد التَّحقيرَ، فيكون الطَّرد على سبيلِ التَّحقيرِ لازمًا للرَّجم لزومًا عرفيًّا، والمعنى: فإنَّك مطرودٌ من كلِّ خيرٍ وكرامةٍ، ويحتمل أن يكون كنايةً عن كونِه شيطانًا يُرجَمُ بالشُّهب[1].

دلالة الوصف بصيغة (فعيل):

المبالغة في وصف الشيطان بالطَّرد وقبيح الفعل والقول

لمّا كان ﴿رَجِيمٌ﴾ بمعنى مرجوم؛ أفاد التَّعبير به بصيغة فعيل المبالغة في الطَّردِ والإبعادِ والشَّتم، وسواء أكانَ الطَّرد بالإبعادِ من الموضعِ المنزَّهِ أو بالرَّجم بالشُّهُبِ، والمعنى على المبالغة هو أنَّ طردَه أقبحُ أنواعِ الطَّرد وأشدُّه، وأنَّ بُعدَه عن اللّه تعالى وعن موضعِ التَّشريف أشدُّ أنواعِ البُعدِ.

سبب إيثار مجيء ﴿رَجِيمٌ﴾ خبَرًا:

وصْفُ الرَّجيمِ صفةٌ ثابتةٌ للشيطانِ

لمّا جاء لفظ ﴿رَجِيمٌ﴾ خبرًا عن ﴿فَإِنَّكَ﴾؛ دلَّ على أنَّه صار صفةً ثابتةً له معروفًا به بحيث يخبرُ به عنه لاشتهارِه به، مع المبالغة في المعنى.

بلاغة الجمع بين فائدة الخبر ولازمِها في الآية:

الكرامة في الامتثال لأمر الله، وليس في أصلِ الخلقة ونوعِها

فائدة الخبر - في قولِه تعالى: ﴿فَٱخۡرُجۡ مِنۡهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾ - هي أمرُ اللّه تعالى لإبليس بالخروج من الجنَّة، وأمّا لازمها؛ فهو وعيدٌ له يتضمَّن الجوابَ عن شبهتِه، فإنَّه لمّا ادَّعى لنفسِه الفضل

(1) ابن جرير، جامع البيان: 17/102، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 3/211، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 11/152.

والخيريَّة ظنًّا منه أنَّ الكرامةَ والفضلَ في مادَّة أصلِ الخِلقةِ؛ كان كأنَّه قال: أنا أهل القربِ والقبول، فأجيب بهذا التَّركيب ليفيدَ بلازمِه أنَّك من أهل البُعد والطَّرد لا من أهلِ القربِ والقبول[1].

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 3/211، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/76، وابن التّمجيد، حاشية على تفسير البيضاوي: 11/153.

﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٣٥﴾ [الحجر: 35]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

ثبوت اللَّعنة على إبليس واستمرارها إلى الأبد

لمّا أخبر الله تعالى عن أمرِه بخروج إبليس من كلِّ موضعٍ شريفٍ، وعن وصفِه بأنَّه رجيم؛ أكَّد بعدَه بالإخبار باستمرارِ ذلك وثبوتِ اللَّعنةِ عليه[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱللَّعْنَةَ﴾: أصلُ (لعن): يَدُلُّ على الطَّرْدِ والإبْعادِ عن الخَيْرِ، يُقال: لَعَنَهُ اللهُ، أيْ: أبْعَدَهُ وطَرَدَهُ عن الخَيْرِ[2]، واللَّعِينُ: المُبْعَدُ المَنْبوذُ، واللِّعانُ: الدُّعاءُ بِاللَّعْنِ، واللِّعانُ مِن الخَلْقِ بِمعنى السَّبِّ والشَّتْمِ، يُقال: لَعَنَهُ لَعْنًا، أيْ: سَبَّهُ[3]. ويأْتي اللَّعْنُ بِمعنى التَّعْذيبِ والإهْلاكِ، واللَّعْنَةُ: العَذابُ[4]. والمقصود باللَّعنَةِ في الآية: الطَّرْدُ والإبْعادُ بإهانةٍ وتَحقيرٍ.

المَعْنى الإجْمالِيُّ:

مُلازمةُ اللَّعنة لإبليس إلى يوم القيامة

يقول الحقُّ ﷻ: وإنَّ طَرْدَك التّامَّ مِن رَحمتي سيبقَى في الدُّنيا مُتَّصِلًا بك، لاحِقًا لَك، إلى يومِ القيامةِ الَّذي تُلاقي فيه جزاءَ ما عَمِلتَ، فهو آخر من يموت من الخَلْقِ[5].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

فائدة العطف في قوله: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ﴾:

خروج إبليس من الجنَّة على سبيل الطَّرد وثبوت اللَّعنة عليه واستمرارها

لمّا حكم الله تعالى على إبليس بالخروج من كل موضعٍ شريفٍ،

(1) البقاعي، نظم الدرر: 11/56.

(2) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (لعن).

(3) ابن عباد، المحيط في اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (لعن).

(4) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة: (لعن).

(5) ابن جرير، جامع البيان: 14/67، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 10/26.

وكان مفهوم الخروج محتملًا أن يكون على سبيل الإبعادِ وألّا يكون كذلك؛ كان ذكر الرَّجيم دالًّا على أنَّ الخروج من الجنَّة على سبيل الإبعاد والطَّرد، ثمَّ إنَّه عطف على ما تقدَّم هذه الآية تأكيدًا في بُعدِه، وزادَ عليه بالإخبار باستمراره، مع ثبوت اللَّعنة عليه، وقوَّى هذا الثبوت مجيء الخبر بصيغة الجملة الاسمية، فأفاد العطف تأسيس المعنى.

دلالة ﴿وَإِنَّ﴾:

تأكيد الإبعاد والطَّرد

أفادت ﴿وَإِنَّ﴾ في قوله: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ﴾ تأكيدَ وقوع اللَّعنة على إبليس، بعد تأكيد إبعاده وطرده من كلِّ موضعٍ شريفٍ، وفي ذلك توثيقُ الحكمِ وتقريرُه.

بلاغة تقديم ﴿عَلَيْكَ﴾:

لعنة الله لإبليس خاصَّةٌ به ومقصورة عليه

أفاد تقديم الجار والمجرور على اسم ﴿وَإِنَّ﴾ - في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ﴾ - تخصيص اللَّعنة المذكورةِ به، والمعنى: إنَّ عليك خاصَّةً اللَّعنة إلى يومِ الدين[1]، أو أفاد قصرها عليه، والمعنى: إنَّ عليك وحدك اللَّعنة إلى يومِ الدين، لا على غيرك.

دلالة (عَلَى) في ﴿عَلَيْكَ﴾:

استيعاب لعنة الله لإبليسَ وتمكُّنها منه

جاء حرف الجر (على) في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ﴾ على طريق المجاز، ليفيد تمكُّنَ اللّعنةِ والشَّتمِ من إبليس، حتَّى كأنَّ اللَّعنة فوقَه مستوعبةٌ له محيطة به[2].

دلالة لفظ ﴿ٱللَّعْنَةَ﴾:

التكبُّر على الله سبب للإبعادِ من رحمته وتوفيقِه

لمّا كان اللَّعنُ هو النَّفيَ أو الطَّردَ والإبعادَ بتخويف وذعر؛ كان مجيئُه بمعنى الطَّرد والإبعاد على سبيل السُّخط من اللّه تعالى على طريق المجاز، ولمّا ذكر أنَّ اللَّعنَ هو في هذه الدنيا إلى يومِ الدين -

(1) البقاعي، نظم الدرر: 11/56.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/47.

سواءٌ أكانَ على التأبيد أم على الانقطاع - أفادَ أنَّ المرادَ منه طردُ إبليس وإبعادُه من رحمةِ الله وتوفيقِه وعن أيِّ خيرٍ؛ بسبب معصيتِه.

(ال) في لفظ ﴿ٱللَّعۡنَةَ﴾ بين الكمال والعهد:

استحقاق إبليس الخروجَ المطلق من الجنَّة ومن رحمة الله

تحتمل (ال) أن تكون بمعنى الكمال، أي: عليك اللعنة الكاملة الأوصاف؛ لتُناسبَ اختصاصَ إبليس اللَّعين بها[1]، ويحتمل أن تكون للعهد العلمي، أي: عليك اللَّعنة التي هي الطَّرد والإبعاد من الجنَّة ومن رحمةِ الله، فيكون المعهود هو ما فهم من لفظ ﴿رَجِيمٌ﴾ مع زيادةٍ في المعنى.

توجيه المتشابه في الآية:

مناسبة التَّعبير للسِّياقِ

في هذه السورة قال الله تعالى لإبليس: ﴿وَإِنَّ عَلَيۡكَ ٱللَّعۡنَةَ﴾ بالألف واللّام، وَفي سورة (ص) قال تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيۡكَ لَعۡنَتِيٓ﴾ [ص: 78] بالإضافَة، ووجه اختلاف التَّعبير في الآيتين: هو أنَّ الكَلام في هَذِه السّورَة جرى على الجِنْس؛ ليفيدَ الاستغراقَ من أول القِصَّة في قَوْله: ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ﴾ [الحجر: 26]، ﴿وَٱلۡجَآنَّ خَلَقۡنَٰهُ﴾ [الحجر: 27]، ﴿فَسَجَدَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمۡ﴾ [الحجر: 30]، كَذَلِك قال: ﴿عَلَيۡكَ ٱللَّعۡنَةَ﴾، فأفادت (ال) استغراق الصِّفات، فتكون للكمالِ، ليفيدَ المبالغة في اللَّعنِ، وأمّا الوارد في سورة (ص) مضافًا لياء المتكلم؛ فوجهه المناسبة اللفظية لقوله: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ﴾ [ص: 75]، وأيضًا لما أضاف خلق آدم إليه تشريفًا له بقوله: ﴿خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ﴾؛ أضاف طرد عدوه إليه أيضًا زيادة في كرامةِ آدمَ وفي إهانةِ إبليس، فجرت العبارتان على منهج واحدٍ ومسلكٍ متناسب، ولم يكن ليتناسب العكس[2].

---

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 3/211، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 11/152، والبقاعي، نظم الدرر: 11/56.

(2) الكرماني، أسرار التكرار، ص: 155، والغرناطي، ملاك التأويل: 2/290، والبدر بن جماعة، كشف المعاني، ص: 223.

سبب توقيت انتهاء اللّعن بـ﴿إِلَىٰ﴾:

استمرارُ إبليس على الكفر وبُعدُه عن الخير

في قولِه تعالى: ﴿إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾، قد يقال: إنَّ كَلِمَةَ ﴿إِلَىٰ﴾ تُفيدُ انْتِهاءَ الغايَةِ، وهَذا يُشْعِرُ بِأنَّ اللَّعْنَ لا يَحْصُلُ إلّا إلَى يَوْمِ الْقِيامَةِ، وَعِنْدَ قِيامِ الْقِيامَةِ يَزولُ اللَّعْنُ، والجوابُ أنَّ القيد بـ﴿إِلَىٰ﴾ لا يقصد به انتهاء التَّوقيت إلى غاية يوم الدين، بل الْمُرادُ مِنْهُ التَّأْبِيدُ؛ لأنَّ ذكرَ يومِ الدّين أبْعَدُ غايَةٍ يَذْكُرُها النّاسُ في كَلامِهِمْ، ومن استعمال التَّوقيت على معنى التأبيدِ قولُه تعالى: ﴿مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ﴾ [هود: 107]، ويحتمل أن تكون ﴿إِلَىٰ﴾ لانتهاء الغاية، والمعنى: أنَّكَ مَذْمومٌ مَدْعوٌّ عَلَيْكَ بِاللَّعْنَةِ في السموات والْأَرْضِ إلَى يَوْمِ الدِّينِ مِنْ غَيْرِ أنْ تُعَذَّبَ، فَإذا جاءَ ذَلِكَ اليومُ عُذِّبتَ عَذابًا تَنْسَى اللَّعْنَ مَعَهُ، فَيَصِيرُ اللَّعْنُ حِينَئِذٍ كالزّائِلِ؛ بسبب أنَّ شدَّة العذاب تُذهل عنه، والكلامُ على التَّوجيهين فيه إيذان بدوام الطرد، وتوالي البُعد واستمرار المقت، وبأنَّه مُنِعَ من التَّقرُّب إلى الخيرِ والتَّوبة من الكفرِ[1].

سرُّ التَّعبير بقوله: ﴿يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾:

الجمع بين بقاء اللعنة على إبليس وشدَّةِ العذاب عليه في الآخرة

ذهب الزمخشريُّ إلى أنَّ ﴿يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾، ﴿يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ١٤﴾ [الأعراف: 14]، و﴿يَوۡمِ ٱلۡوَقۡتِ ٱلۡمَعۡلُومِ﴾ كلُّها في معنى واحد، ولكن خولف بين العبارات سلوكًا بالكلام طريقة البلاغة[2]، فإنَّ اختلاف العبارات لاختلاف الاعتبارات، ونكتة التَّعبير بـ﴿يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ هنا: هو أنَّه لمّا كان ﴿يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ بمعنى يوم الجزاء، ومنه قولهم: (يومَ يدينُ اللّهُ العبادَ بأعمالهم)، وتقول العرب: دِنْتُهُ بما فعلَ، أيْ: جازيتُهُ، أو بمعنى يوم الحساب، ويدخل في ﴿يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ جميعُ ما فيه مِن ذِكر القيامةِ، وشدائدِها وصعوباتِها، وأفزاعِها وأهوالِها، وحسابِها وسؤالِها، واختلافِ أحوالِها، والنارِ ودَرَكاتِها، والجنَّةِ ودرجاتِها،

(1) الزمخشري، الكشاف: 2/577، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 19/141، وأبو حيان، البحر المحيط: 6/477، والبقاعي، نظم الدرر: 11/56.

(2) الزمخشري، الكشاف: 2/578.

والصِّراطِ وخَطَره، واللهب وشررِه، فلمّا كان الأمر ما ذُكِرَ؛ كان مجيءُ ﴿يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ للإشعارِ بأنَّ اللَّعنةَ متمكِّنةٌ منه غيرُ مفارقةٍ له إلى أنْ يلاقيَ جزاءَ عملِه، فيكون العقابُ عليه في ذلك اليومِ الموصوفِ بعظمِ الشَّدائد والأهوال، أمامَ رؤوس الخلائق؛ أشدَّ من اللَّعنةِ، وأظهرَ في إهانتِه وتحقيرِه، ويحتمل أن يكون المعنى: أنَّ اللَّعنةَ عليه في الدُّنيا، وهي ثابتةٌ عليه متمكِّنةٌ منه لا تفارقُه، فهي على التَّأبيد، ويزيد عليها نيله الجزاء على عملِه وقولِه، فيجمع بين بقاءِ اللَّعنة عليه وشدَّة العذاب في الآخرة[1].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الرَّجم واللَّعن:

اللَّعنُ يُدعَى به، والرَّجمُ لا يُدعَى به

الرَّجْمُ: هو الرَّمي بالحجارةِ، ويأتي الرَّجم على طريقِ الكنايةِ بمعنى الطَّرد أو السَّبِّ والشَّتم؛ لأنَّ المرجومَ مطرودٌ، ويلحقه السَّبُّ والشَّتمُ غالبًا، ويأتي الرَّجم كذلك بمعنى القتل؛ لأنَّهم كانوا إذا قتلوا رجلًا؛ رَمَوْهُ بالحجارة حتّى يموت، وأمّا اللَّعن؛ فهو بمعنى الطَّرد والإبعاد والانتباذ على سبيل الغضبِ من الملعونِ، ويؤتى باللَّعنِ في مقام الدُّعاء على الآخرين، فيقال: اللعنة على كذا، وأمّا الرَّجم؛ فلا يدعى به، وكلُّ مَنْ لَعَنَهُ اللّٰه؛ فَقَدْ أبعده عَنْ رَحْمَتِهِ، واسْتَحَقَّ العذابَ، فَصارَ هالِكًا، فالرَّجم أعمُّ من اللَّعن، وإن كانَ اللَّفظان (اللَّعين والرَّجيم) إذا أُطلقا؛ عُنيَ بهما الشَّيطان؛ لأنَّهما صارا وصفًا غالبًا له[2].

(1) الراغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (دين)، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 19/141، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/47.

(2) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (رجم، لعن).

﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ٣٦ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ ٣٧ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡوَقۡتِ ٱلۡمَعۡلُومِ ٣٨﴾ [الحجر 36 - 38]

مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قَبْلَها:

حكمة الله اقتضت ابتلاء العباد واختبارهم، فحُكِمَ على إبليس بالإمهالِ

لمّا أمرَ اللّه تعالى إبليس بالخروجِ من الجنَّة، وحكم عليه بالطَّرد وباللَّعنة إلى يومِ الدين؛ سألَ اللّهَ الإنظارَ إلى يوم بعْثِ الخلائق؛ ليتمكَّن من إغواءِ ما يقدرُ عليه منهم، فلمّا كان غرضُه ألّا يموتَ؛ لأنَّه بعدَ قيامِ القيامةِ لا يموتُ أحدٌ؛ قطع اللّه تعالى عليه ما دبَّجَ من المكر، ومنعه من مطلوبه، فقال ﴿فَإِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ ٣٧ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡوَقۡتِ ٱلۡمَعۡلُومِ﴾.

وأيضًا لمّا أمكن تأخير العقوبةِ مع الموتِ كسائر من أُخِّرت عقوباتُهم إلى الآخرة من الكفرة؛ طلبَ اللَّعينُ تأخيرَ موتِه، ولأنَّ حكمةَ اللّهِ في خلقِه مقتضيةٌ ابتلاءَ العبادِ واختبارَهم ليستبينَ المطيعُ ربَّه والمطيعُ عدوَّه؛ جاءت هذه الآياتُ بعدَ الأمرِ بالخروجِ من مواضع الفضل وطردِه منها[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَأَنظِرۡنِيٓ﴾: أصلُ النَّظَرِ: تَأمُّلُ الشَّيْءِ وَمُعايَنَتُهُ، والنَّظَرُ: تَقْلِيبُ البَصَرِ والبصيرةِ لإدراكِ الشَّيءِ ورؤيَتِه، وقد يُرادُ به التَّأمُّلُ والفَحْصُ، وقد يراد به المعرفةُ الحاصلةُ بعد الفَحْصِ، وهو الرَّوِيَّةُ، فيُقالُ: نَظَرْتُ إلى الشَّيءِ، أَنْظُرُ إليه؛ إذا عايَنتهُ، ويَقولونَ: نَظَرْتُهُ، أي: انْتَظَرْتُهُ. وسُمِّيَ الإمْهالُ إنْظارًا؛ لأنَّهُ يَنْظُرُ إلى الوَقْتِ الَّذِي يَأْتِي فِيهِ[2]. وَضِدُّهُ: التَّعْجِيلُ. ويأتي الإنْظارُ بِمَعْنَى: التَّأْخِيرِ

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 19/141، والبقاعي، نظم الدرر: 1/57.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نظر).

والتَّأْجِيلِ؛ لقوله: ﴿أَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ١٤﴾ [الأعراف: 14]. قوله: ﴿وَمَا كَانُواْ مُنظَرِينَ ٢٩﴾ [الدخان: 29][1]. والمقصود بالإنظار في الآية: الإمهالُ والتَّأخِيرُ والتَّأْجِيلُ.

❁ المَعْنى الإجْمالِيُّ:

سؤال إبليس تأخيرَ عذابه؛ زيادةٌ في بلائه ويأسٌ من السَّلامة

لمّا تلقَّى إبليسُ هذا الجزاء؛ طلَبَ الإمهالَ إلى يوم البعث من القُبور، فقال: ربِّ فإذا أخرَجْتَني من مواطن الكرامة، ولعَنْتَني، فأمهِلْني وأخِّرْني، ولا تُهلِكْني إلى أن تبعَثَ خلْقَك يومَ القيامةِ؛ وأرادَ بذلك أنْ يجدَ فُسحةً لإغواء عِباد الله، ويأخذَ منهم ثأرَه، وينجوَ مِن الموتِ؛ لاستحالتِه بعدَ يومِ البعثِ[2]، ولقد أجابَ اللهُ دُعاءَ إبليس في الظاهر، لكنْ كان ذلك في الحقيقة مَكرًا به؛ لأنَّه مكَّنَه من مُخالفةِ أمْرِه إلى يومِ القيامةِ، فلم يَزِدْه بذلك التَّمكينِ إلّا شِقوةً؛ لِيَعلمَ الكافَّةُ أنَّه ليس كلُّ إجابةٍ للدُّعاءِ نِعمةً ولُطفًا، بل قد تكونُ بلاءً ومَكرًا، فقال: فإنَّك من المؤخَّرينَ المُمهَلينَ، إلى الوقتِ الَّذي يموتُ فيه الخلائقُ، وهو وقتُ النَّفخةِ الأولَى، وإنَّما سُمِّيَ هذا الوقتُ (أي: وقتُ النفخةِ الأولَى) بالوقتِ المعلومِ؛ لأنَّ مِنَ المعلومِ أنْ يموتَ كلُّ الخلائقِ فيه، وقيلَ: إنَّما سمّاه الله تعالَى بهذا الاسمِ؛ لأنَّ العالمَ بذلك الوقتِ هو الله تعالَى لا غير، كما قال تعالَى: ﴿إِنَّمَا عِلۡمُهَا عِندَ رَبِّيۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقۡتِهَآ إِلَّا هُوَۚ﴾ [الأعراف: 187]، وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ [لقمان: 34][3].

---

(1) الراغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (نظر)، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/19.

(2) ابن جرير، جامع البيان: 14/68، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 10/27، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/77.

(3) ابن جرير، جامع البيان: 14/68، والقشيري، لطائف الإشارات: 1/522، والبغوي، معالم التنزيل: 3/58، والرازي، مفاتيح الغيب: 19/141.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغة الاستئناف البياني في الآية:

في قوله: ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ﴾ استئنافٌ مبنيٌّ على سؤال نشأ ممّا قبله، كأنَّه قيل: فماذا قال اللَّعينُ بعد ما سمع أنَّه مطرودٌ ملعونٌ، فقيل: ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرۡنِيٓ﴾[1]، ففيه تشويقٌ للسّامعينَ إلى معرفةِ قولِ إبليس، وتنبيهٌ لهم إلى أنَّه طلبَ إنظارَ العقوبةِ وتأخيرَها.

تشويقُ السّامعين وتنبيههُم إلى طلبِ إبليس الإنظارَ في عقوبتِه وتأخيرَها

سبب التَّعبير بقولِه: ﴿رَبِّ﴾:

خاطَبَ إبليسُ اللّه تعالى بِصِفَةِ الرُّبوبِيَّةِ، لعلمِه بأنَّ إجابةَ الطلبِ من اللّه تعالى يقتضي الخضوعَ والتَّذلُّلَ له سبحانه.

الخضوعُ والتَّذلُّلُ لله سببُ إجابةِ الدعاء

فائدة الفاء في قولِه: ﴿فَأَنظِرۡنِيٓ﴾:

هذه الفاءُ هي الفصيحةُ، بمعنى: أنَّها تفصحُ عن شرطٍ في الكلامِ، فهي واقعةٌ في جوابِ شرطٍ مقدَّر يدلُّ عليه السّياق، وتقدير الكلام: إنْ أخرجتني من دار الكرامةِ، وجعلتني رجيمًا، وطردتني عن الخير، فأنظرني بتأخير موتي، وإنَّما طلب الإنظارَ ليجدَ فسحةً في إغواء بني آدم؛ لأنَّ اللَّعينَ ظنَّ أنَّ خروجَه من الجنَّة بسببِ آدمَ، وليس بسببِ تكبُّرِه وإبائِه واعتراضِه على ربِّ العالمين[2]، ففي الكلام إيجازٌ بحذف أكثر من جملةٍ لقرينة السّياق، وأفادت الفاء ابتناءَ طلبِهِ على ما حكم اللّه عليه بالخروج واللَّعن، كما أفادت أنَّ أوَّلَ طلبٍ له عقبَ الأمرِ بخروجِه من رحمة اللّه ولعنِه هو إنظارُه إلى يومِ يُبعثُ الخلائقُ، فلم يبادرْ إلى الاستغفار وطلب رحمتِه تعالى كما فعل آدم وزوجُه حينَ أُخرجا من الجنَّة.

اختار إبليس الإمهالَ بعدَ طردِه من رحمة اللّه، واختار آدمُ الاستغفارَ بعدَ زلَّتِهِ

دلالة طلبِ الإنظار في قولِه: ﴿فَأَنظِرۡنِيٓ﴾:

لمّا كان الإنظار والتأخير لا يكون للذات؛ لأنَّه متعلِّق بالأحوالِ؛

مبالغةُ إبليسَ في طلبِ الإنظار ليحقِّقَ غايتَه في الإغواء

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السليم: 5/76.

(2) البيضاوي، أنوار التنزيل: 3/211، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 11/154.

أفادَ أنَّ المرادَ تأخيرُ بعضِ الأحوالِ التي ترد على ذاتِه، وهو الموت بقرينةِ السّياق، والمعنى: فأنظر موتي، وأخِّره إلى يوم يبعثون، ونكتةُ طلبِ الإنظار للذّاتِ للمبالغة في الطلب، فإنَّ تأخير الذّاتِ وإمهالَها تأخيرٌ لأحوالِها كلِّها ليحقِّقَ إغواءَه لبني آدمَ[1].

نكتة التَّعبير بلفظ ﴿فَأَنظِرۡنِيٓ﴾:

طلبُ إبليسَ تأخيرَ موتِه يتضمَّن طلبَ تأخيرِ العقوبةِ وتأجيلِها

عبَّر بالإنظار هنا؛ للإشعار بأنَّ عملَ إبليس وقولَه يستحقُّ بهما معاجلة العقوبة من الله تعالى، وأنَّه كان على علم بهذا؛ لأنَّ الإنظار لا يكون إلّا مع توقُّع المعاجلةِ بما هو غيرُ مرغوبٍ فيه، فيَقولُ المُتَكَلِّمُ لِمَنْ يُعَاجِلُه: أَنْظِرْني أَبْتَلِع رِيقِي، أي: أَمْهِلْنِي[2]، ولهذا كان طلبُ إبليسَ تأخيرَ موتِه يتضمَّن طلبَ تأخيرِ العقوبةِ وتأجيلِها.

مناسبة تحديد الإنظار في الآية:

تنبيهُ بني آدمَ إلى أنَّ إغواء إبليسَ لا ينقطعُ إلَى وُجودِ آخِرِ إنسانٍ فِي الدُّنْيا

لمّا كان يومُ البعث هو يوم النَّفخة الثّانية، التي يقومُ فيها الخلقُ إلى ربِّ العالمين؛ أرادَ إبليسُ اللَّعينُ ألّا يذوقَ الموتَ، فطلبَ أنْ يكونَ إمهالُه إلى يوم يُبعثُ الخلقُ، فالتَّعبير بقوله تعالى: ﴿إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ﴾؛ لأنَّ غرضَ اللَّعين به يتحقَّقُ، فيكون تَمْهيدًا لِما عَقَدَ عَلَيْهِ العَزْمَ مِنْ إِغْواءِ الْبَشَرِ، فَأَرادَ الْإِنْظارَ إِلَى آخِرِ مُدَّةِ وُجودِ نَوْعِ الْإِنْسانِ فِي الدُّنْيا[3].

دلالة عود الضَّمير في قوله: ﴿يُبۡعَثُونَ﴾:

إعلامُ إبليسَ بأنَّ آدمَ سيكونُ له ذريَّةٌ

لمّا لم يكن في الكلام ما يعود عليه الضَّمير في قوله: ﴿يُبۡعَثُونَ﴾، وكان الكلامُ في بيان أنَّ إبليس قصد إغواء بني آدم - كما دلَّ عليه السِّياقُ - أفادَ أنَّ المرادَ من الجمع في قوله: ﴿يُبۡعَثُونَ﴾ البشرُ المعلومون من تركيبِ خلقِ آدمَ أوَّلًا وبالذّاتِ[4]، فأفادَ الضَّمير الإيجازَ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/48.
(2) ابن منظور، لسان العرب: (نظر).
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/77، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/48.
(4) أبو حيان، البحر المحيط: 5/19، وابن عادل، اللباب في علوم الكتاب: 9/36.

في الكلام، والإشعارَ بأنَّ اللّهَ قد أعلمَ إبليسَ بأنَّ آدمَ سيكونُ له ذريَّةٌ، أو أنَّه لمّا رأى خصوصيَّة آدم عند اللّه في خلقِه وإكرامِه بالأمر بالسُّجودِ له وإعلامِ اللّه تعالى للملائكة أنَّه جاعلٌ في الأرضِ خليفةً؛ علم أنَّه لن يكونَ مخلوقًا وحدَه، وأنَّه سيكون له ذرّيَّةٌ.

سرُّ الإضافة في ﴿يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ﴾:

لم يقل: ما معناه (لا تُمِتْنِي إلى يومِ البعثِ)، بل أضاف اليوم إلى الفعل المبني للمفعول ﴿يُبۡعَثُونَ﴾؛ للإشعارِ بأنَّه أضمر في نفسِه إغواء بني آدم، فكأنَّه قال: أنظرني؛ لكي أبقى معهم في الدُّنيا، فطلبه لِلإنظار ليس من أجلِ تأخير موتِه فقط، بل قَصَدَ من وراء ذلك ما هو أهمُّ، قَصَدَ تزيينَ المعاصي لبني آدم وإغواءَهم أجمعين.

طلبُ إبليسَ الإنظار؛ لِعزمِه على تزيينِ المعاصي لبني آدم وإغوائِهم أجمعين

نكتة مجيء الفعل بصيغة ﴿يُبۡعَثُونَ﴾:

كانَ الظّاهرُ أنْ يقولَ إبليسُ: (إلى يومِ تبعثهم)؛ لأنَّه في مقام خطاب اللّه ربِّ العالمين، فعُدِلَ إلى صيغةِ المبني للمفعولِ؛ لتوجيهِ النَّظرِ إلى حدث بعثِ الخلقِ يومَ القيامةِ، وليس إلى إسنادِ البعثِ إلى اللّهِ تعالى؛ للإشعارِ بعظمةِ يومِ البعثِ وهولِه، كما أنَّ الفاعلَ معلومٌ، وإبليسُ مقرٌّ به، فليس في ذكرِه هنا فائدةٌ، ففيه إيجازٌ كذلك.

تعظيمُ شأنِ يومِ البعثِ والإيذانُ بخطرِه

بلاغة الاستئناف البياني في الآية:

جاء القول على طريق الاستئناف المبنيِّ على سؤال نشأ ممّا قبله، كأنَّه قيل: فبماذا أجابه اللّه على سؤالِه الإنظارَ إلى يومِ البعث؟ فقيل: ﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ﴾، لتشويقِ السّامعين إلى المقاولةِ بين اللّه تعالى وإبليسَ، وتنبيههم إلى الإصغاء إليها.

تنبيه السّامعين إلى الإصغاء لما أجابَ اللّه تعالى به إبليسَ اللّعين

دلالة الجواب بقوله: ﴿فَإِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ﴾:

لمّا كان طلب إبليس الإنظار إلى يومِ يُبعَث الخلقُ، وجاء الجواب مقيَّدًا بإنظارِه إلى يومِ الوقتِ المعلوم؛ دلَّ على أنَّ إنظارَه إلى ذلك الوقتِ لم يكن إجابةً له على ما يرغبُ، ويتمنَّى، فلم يكن الإنظارُ

إنظارُ إبليسَ إملاءٌ له ليزدادَ إثمًا وعقوبةً، ولتظهر حكمةُ اللّه في الابتلاء به

كرامةً له، بل هو إمْلاءٌ له ليزدادَ إثمًا، وتزدادَ عقوبتُه، ولتظهر حكمةُ اللّه في ابتلاء بني آدمَ بتزيينِه وإغوائِه[1].

مناسبة الجملة الاسمية في الآية:

طلبُ إبليس الإنظارَ لتأخيرِ الموتِ لا لتأخيرِ العقوبة

لمّا كانت الجملةُ الاسميَّةُ دالَّةً على الثُّبوتِ؛ دلَّ الكلامُ - في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ﴾ - على أنَّه إخبارٌ بالإنظارِ المقدَّر للمنظَرين أزلًا، لا إنشاءٌ لإنظار خاصٍّ به إجابةً لدعائِه، فلا خَصوصيَّةَ لإبليسَ في الإنظار، ودلَّ الكلامُ أيضًا على أنَّ استنظارَه كان طَلَبًا لتأخيرِ الموتِ؛ إذ به يتحقَّق كونُه من جملتهم لا لتأخيرِ العُقوبةِ، كما ذهب إليه بعضُ المفسِّرين، وإن كان طلبُ تأخير الموتِ يتضمَّن طلبَ تأخير العقوبةِ لإبليسَ، والمعنى: أنَّك من جُملةِ الذينَ أُخِّرَتْ آجالُهم أزلًا حسبما تقتضيه الحِكمةُ التكوينيةُ إلى يومِ الوقتِ المعلومِ، فإنظارك لا كرامةَ لك فيه[2].

دلالة (إنَّ) في قوله: ﴿فَإِنَّكَ﴾:

تأكيدُ كونِ إبليسَ من الطّائفةِ التي أخَّرَ اللهُ تعالى موتَها

تفيد (إنَّ) في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ﴾ تأكيدَ مضمون الجملة وتقريرها، بمعنى تقريرِ كونِ إبليسَ من الطّائفةِ التي أنظرها اللّه، وأخَّرَ موتَها.

نكتةُ صيغةِ الجمعِ في ﴿ٱلْمُنظَرِينَ﴾:

إنظارُ إبليسَ ليسَ خَصوصيَّةً لهُ، بل هو مِنَ الذينَ تأخَّرتْ أعمارُهمْ

عُبِّر بصيغة الإدخالِ في جمعِ المنظَرين؛ ليكون إبليسُ من جملتِهم ومنتظمًا في سلكِهم، فيكونَ مشمولًا بما سأله الآخرون؛ ليُؤذنَ بأنَّ السّائلَ تبَعٌ لهم في ذلك، لئلّا يتوهَّم إبليسُ أنَّ إنظارَه خَصوصيَّةٌ له، بل حالُه حالُ الطّائفةِ التي تأخَّرت أعمارُها كثيرًا، حتَّى جاءتْ آجالُها على اختلافِ أوقاتِها، فقد عمَّ تلكَ الفرقةَ إنظارٌ، وإنْ لم يكونوا أحياءً مدَّةَ الدَّهرِ، والمعنى: أنَّه تعالى أخبر

(1) أبو حفص النسفي، التيسير في التفسير: 9/193.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/217.

بأنَّ إنظارَه هو من جملةِ إنظار مقدَّرٍ أزلًا، لا لإنشاءِ إنظارٍ خاصٍّ به، وقع إجابةً لدعائِه، ولهذا لم يقل له: (فأنا أُنْظِرُكَ)، ومجيء صيغة المبني للمفعول دالٌّ على هذا المعنى، فالفاء لربط الإخبار بالإنظار وبالاستنظار، أي: بطلبِه، لا لربط نفس الإنظار به، وأنَّ استنظاره لتأخير موتِه؛ إذ به يتحقَّقُ كونُه من جملتهم، لا لتأخير عقوبتِه[1]، وذهب بعض المفسِّرين إلى أنَّ الفاءَ هي الفاءُ الفصيحة الدالَّة على شرطٍ مقدَّرٍ، والتَّقدير: إن طلبت منّي الإنظار؛ فإنَّك من المنظرين إلى يَوْمِ الوَقْتِ المَعْلومِ، وهو وقت النفخة الأولى، وليس فيه إجابةٌ لطلبِه؛ لأنَّ قيد الإنظار اختلف كما سيأتي[2].

فائدة صيغة المبني للمفعول في ﴿ٱلْمُنظَرِينَ﴾:

عُبِّرَ بصيغة المبني للمفعول؛ للإشعار بعدم الاهتمام بإبليسَ، وأنَّ عليه من الصَّغار والتَّحقير ما لا يستحقُّ به أن ينسب اللّٰهُ تعالى لنفسه إنظارَه.

تحقيرُ إبليسَ وإهانتُه من عادةِ القرآنِ عندَ ذكرِه

فائدة تقييد الإنظار في الآية:

جاء الجواب مقيَّدًا بغايةٍ زمنيَّةٍ هي ﴿إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡوَقۡتِ ٱلۡمَعۡلُومِ﴾؛ للإيذان بأنَّ إنظارَه لم يكن إجابةً إلى ما سأل، وإنَّما كان مجيبًا له إلى ما سأل لو كان قال له: إنَّك من المنظرين إلى الوقتِ الذي سألتَ، أو إلى يومِ البعث، أو إلى يومِ يُبعثون، أو ما أشبه ذلك، وهذا يدلُّ على أنَّه لم يجبْهُ إلى ما سألَ من الإنظار الذي أرادَه، واعتبار إجابةِ الطلب تكون على وفقِ القيد الزَّماني الذي قُيِّد به، فلمّا قيَّد اللّٰه تعالى إنظارَه بقولِه: ﴿إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡوَقۡتِ ٱلۡمَعۡلُومِ﴾؛ دلَّ على أنَّ مدَّةَ الإنظار إلى يومِ النَّفخة الأولى، فلا إجابة لإبليس على طلبِه؛ لأنَّه

أنظرَ اللهُ إبليس إلى يومِ النَّفخةِ الأولى لا إلى يومِ يَبعثُ الخلقَ

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/380، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/217، والآلوسيّ، روح المعاني: 7/292.

(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/292.

طلب الإنظار إلى يومِ البعث لكي لا يموتَ، وأنظره اللّه تعالى إلى يومِ الوقتِ المعلومِ، فقضى على إبليس أن يموتَ، كما يموتُ الخلقُ[1].

سبب ذكر اليوم والوقت في الآية:

استعمالُ لفظِ الوقتِ للدلالة على الأجلِ

لما كان لفظُ (اليوم) يُستعمل فيما يتمُّ فيه أمرٌ ظاهر؛ أشعر التَّعبير به - في قولِه: ﴿يَوۡمِ ٱلۡوَقۡتِ ٱلۡمَعۡلُومِ﴾ - ظهور موتِ إبليس في هذا اليوم المذكور، ولمّا كان الوقتُ أدلَّ ألفاظ الزمان على الأجلِ؛ قال: ﴿ٱلۡوَقۡتِ﴾، والمراد تأخيرُ أجلِه إلى يومِ موعدِ وقوعِه[2].

دلالة قولِه: ﴿إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡوَقۡتِ ٱلۡمَعۡلُومِ﴾:

كلُّ مخلوقٍ يموتُ ولو بعدَ حينٍ

لمّا أخبر اللّه تعالى أنَّ إنظار إبليس له غايةٌ زمانيَّةٌ ينتهي إليها الإنظار؛ دلَّ على أنَّه غير مطلقٍ، وأنَّه ينتهي بزمنٍ معيَّنٍ، فقيَّدَه بقولِه: ﴿إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡوَقۡتِ ٱلۡمَعۡلُومِ﴾، ولمّا كان لفظ ﴿ٱلۡمَعۡلُومِ﴾ مبنيًّا للمفعول، أي: حذف فاعلُه؛ احتمل أن يكون المراد معلومًا عندَ اللّه خاصَّةً، وأنَّه لم يبيِّن له ذلك الوقت، ولم يطلعه عليه، ويؤيِّده ما جاء في قولِه تعالى: ﴿وَإِذۡ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلۡيَوۡمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّي جَارٞ لَّكُمۡۖ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلۡفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّنكُمۡ إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوۡنَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ٤٨﴾ [الأنفال: 48]، فأخبر إبليسُ أنَّه يرى ما لا يرون هم، وأنَّه يخاف اللّه، ولو كان بيَّن له الوقت المعلوم؛ لكان لا يخاف هلاكه قبل ذلك الوقت، كما يُحتمل أن يكون المرادُ معلومًا عندَ اللّه تعالى تعيينًا، وعندَ النّاس إجمالًا، ويكونَ المقصودُ به يومَ النَّفخة الأولى حين يموت جميع الخلائق، فيكون محكومًا عليه بالموتِ معهم[3].

بلاغة التَّعريض في قولِه: ﴿يَوۡمِ ٱلۡوَقۡتِ ٱلۡمَعۡلُومِ﴾:

العبرة في الخطاب بأهل الإيمان وغيرهم كالعدم

تقدَّم أنَّه يحتمل أن يكون المرادُ بالمعلوم ما اختصَّ اللّه بعلمِه،

(1) ابن جرير، جامع البيان: 12/331.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 11/57.
(3) الماتريدي، تأويلات أهل السنّة: 6/440.

كما يحتمل أن يكون المرادُ ما علمَه اللّه تعيينًا والنّاسَ إجمالًا، فعلى التَّوجيه الثاني يكون في الكلام تعريضٌ بأنَّ مَنْ لَمْ يُؤْمِنوا بِذَلِكَ الْيَوْمِ - أي: يوم البعث - مِنَ النَّاسِ ولم يعلموه علمًا إجماليًّا بسببِ عدمِ إيمانِهم به لا يَعْبَأُ اللّه بِهِمْ، فَهُمْ كالْعَدَمِ[1].

توجيه المتشابه في الآية:

تقدَّم الكلامُ على توجيه المتشابه في آيات سورة الأعراف: ﴿قَالَ أَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ١٤ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ ١٥﴾ [الأعراف: 14 - 15]، وآياتِ سورة (ص): ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ٧٩﴾ [ص: 79] في بيان سبب اقتران الفاء بالفعل في سورتَي الحجر و(ص)، وفي ذكر وصف الرُّبوبيَّة فيهما دون سورة الأعراف، فلينظر عند تفسير قولِه تعالى: ﴿قَالَ أَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ١٤ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ ١٥﴾ [الأعراف: 14 - 15].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الإنظار والإمهال:

تقدَّم في سورة الأعراف عند بيان تفسير قولِه تعالى: ﴿قَالَ أَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ١٤ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ ١٥﴾ [الأعراف: 14 - 15] أنَّ الإنظار له وقتٌ محدود مقدَّر، وأمّا الإمهال؛ فهو التأخير المبهم غير المحدَّد بوقتٍ معيَّن مع رفقٍ فيه، فناسب ذكر الإنظار دون الإمهال؛ لِمناسبته شدَّةَ عقوبةِ إبليسَ وتوقيتَ إنظارِه إلى وقتٍ معيَّنٍ محدودٍ[2].

الإنظارُ له وقتٌ محدَّدٌ، والإمهالُ تأخيرٌ لوقتٍ غيرِ معيَّنٍ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/49.

(2) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 202، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (مهل).

﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ٣٩ إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ٤٠﴾ [الحجر: 39 - 40]

مُناسَبَةُ الآيَتينِ لما قَبْلَهُما:

تنبيه المخاطَبين إلى عزمِ إبليس على إغواء النّاس منذُ خَلْقِ آدمَ

لمّا أفهم ما تقدَّمَ الحكمَ بإغوائِه، لكونِه رجيمًا وملعونًا، فتضمَّن هذان الوصفان أنَّ اللّه تعالى خلقَ في نفسِ إبليس مقدرةً على الإغواء، ولمّا حكمَ اللّه عليه باللَّعنِ؛ أيسَ من الهدى، كان السامع كأنَّه قال: فماذا قال إبليس؟ فجاء قولُه: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾، ثمَّ استثنى منهم عباد اللّه المخلَصين؛ لأنَّه علمَ أنَّ كيدَه لا يعمل فيهم، فقال: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿لَأُزَيِّنَنَّ﴾: أصْلُ (زين) يَدُلُّ عَلَى حُسْنِ الشَّيْءِ وَتَحْسِينِهِ[2]. الزَّيْنُ نَقِيضُ الشَّيْنِ، وزانَهُ وزَيَّنَهُ بمعنًى، وهو تصيير الشَّيء زَينًا، أي: حَسَنًا، والزِّينَةُ الحقيقيَّة: ما لا يشين الإنسان في شيءٍ من أحواله لا في الدُّنيا، ولا في الآخرة، وتَزْيِينُ اللّه للأشياء قد يكون بإبداعها مزيَّنة، وإيجادها كذلك، وتَزْيِينُ الناس للشَّيء: بتزويقهم، أو بقولهم، وهو أن يمدحوه، ويذكروه بما يرفع منه[3]. والزّينة أيضًا: جامعٌ لكُلِّ ما يتزيَّن به النّاسُ، وَما يَحْسُنُ في أنْظارِهِم مِنْ طَرائِفِ الدُّنْيا، كالْحُلِيِّ والْجَواهِرِ[4]. والمقصود بالتَّزْيين في الآية: التَّحْسِينُ، أي: جَعْلُ الشَّيْءِ زَيْنًا، أي: حَسَنًا[5].

(1) البقاعي، نظم الدرر: 11/58.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (زين).
(3) الراغب، المفردات: (زين).
(4) الخليل، العين، وابن عباد، المحيط في اللغة: (زين).
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/50.

2) ﴿وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ﴾: أصلُ (غوي): يَدُلُّ على خِلافِ الرُّشْدِ وإظْلامِ الأمْرِ[1]، الغَواية - بفتح الغين -: الضَّلال واتِّباع الهوى والانهماك في الباطل، ورجلٌ غاوٍ وغَوٍ وغَوِيٌّ وغَيّان: ضالٌّ، وأغْواه هوَ[2]، والغَيُّ: جهل من اعتقاد فاسد[3]، وقوله تعالى: ﴿بِمَآ أَغْوَيْتَنِي﴾ إشارةٌ إلى غَوايَةٍ يَعلَمُها الله، وهي الَّتي جَبَلَهُ عليها، والمقصود بالإغواءِ في الآية: جعْلُهُم غاوِينَ، أي: ضالِّينَ[4].

3) ﴿ٱلْمُخْلَصِينَ﴾: أصلُ (خلص): تَنْقِيَةُ الشَّيءِ وَتَهْذِيبُهُ ممّا يشوبه[5]، خَلَص الشَّيءُ، بِالفَتْحِ، يَخْلُص خُلوصًا وخَلاصًا؛ إذا كانَ قَدْ نَشِبَ، ثُمَّ نَجا، وسَلِم[6]. وأخْلَصه، وخَلَّصه، وأخْلَص لله دِينَه: أمْحَضَه، وأخْلَصَ الشَّيءَ: اخْتارَهُ، والمُخْلَصون المُخْتارون، والمُخْلِصون المُوَحِّدون، والخالِصةُ: الإخْلاصُ، وخَلَص إليه الشَّيءُ: وَصَلَ، وخَلَصَ الشَّيءُ، بِالْفَتْحِ، يَخْلُصُ خُلوصًا، أي: صارَ خالِصًا[7]. والمرادُ بالإخلاص في الآية: الإفرادُ وتصفِيةُ الشَّيءِ ممّا يُنافِيهِ، أو يُفسدُهُ.

المَعْنى الإجْماليُّ:

قال إبليسُ: ربِّ بسبَبِ إغوائِك لي لأُحَسِّنَنَّ للنّاسِ مَعصيتَك، ولأُرغِّبنَّهم فيها، ولأشغَلنَّهم بزينةِ الدُّنيا عن طاعتِك، ولأُضِلَّنَّ جميعَ النّاسِ عن طريقِ الحَقِّ، إلّا عبادَك الذين اختَرتَهم لهدايتِك، وطَهَّرتَهم من الشِّركِ والرِّياءِ فصاروا مُخلَصينَ، فلا أستطيعُ إغواءَهم[8].

العبوديَّة الصّادقة لله تعالى أفضلُ ما اتَّصف به طائع

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (غوي).
(2) الخليل، العين، وابن عباد، المحيط في اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (غوي).
(3) الراغب، المفردات: (غوي).
(4) ابن منظور، لسان العرب: (غوي).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (خلص).
(6) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (خلص).
(7) ابن منظور، لسان العرب: (خلص).
(8) ابن جرير، جامع البيان: 14/68، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 10/28، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 3/211.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

سببُ إيرادِ الحكاية عن إبليس:

احتقارُ إبليس وبغضُه من الإيمانِ

ذُكِرَتْ هَذِهِ الْحالَةُ مِنْ أَوْصافِ إبليس - في قوله تعالى: ﴿لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾﴾ - لإعلامِ بني آدم عمّا يضمره لهم، وما يبغيه من الكيدِ فيهم؛ بَعْثًا لِكَراهيَّتِهِ في نُفوسِ الْبَشَرِ الَّذِينَ يَرَوْنَ أَنَّ حَقَّ النَّفْسِ الْأَبِيَّةِ أَنْ تَأْنَفَ مِنَ الْحَياةِ الذَّمِيمَةِ الْمُحَقَّرَةِ، وَذَلِكَ شَأْنُ الْعَرَبِ، فَإِذا عَلِموا هَذا مِنْ حالِ إِبْلِيسَ؛ أَبْغَضوهُ، واحْتَقَروهُ، فَلَمْ يَرْضَوْا بِكُلِّ عَمَلٍ يُنْسَبُ إِلَيْهِ[1].

دلالة النِّداء في قول إبليس: ﴿رَبِّ﴾:

إبليس كافرٌ بألوهيَّة الله تعالى مقرٌّ بربوبيَّته

نادى إبليس بقولِه: ﴿رَبِّ﴾ - في قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ - ليفيدَ أنَّه مع كفرِه يقرُّ بالربوبية والخلق، لعلمِه بأنَّ اللّٰه تعالى هو الموجِد الواحدُ الأحد، وأنَّ أيَّ طلبٍ في هذه الحياة لا يكون إلّا من ربِّ العالمين، وفيه إشعارٌ بأنَّ الكفر أنواعٌ، وأنَّه ليس كلُّ من آمن بأنَّ اللّٰه هو الخالق المالكُ لهذا الخلق مؤمنًا حتَّى يَقِرَّ بألوهيَّة اللّٰه، ولا يعترض عليه سبحانه، فقد علم إبليسُ ربوبيَّةَ اللّٰه تعالى، وضلَّ على علم؛ لأنَّه لم يطعْ ربَّهُ.

دلالة الباء في قوله: ﴿بِمَآ أَغْوَيْتَنِي﴾:

اجتهادُ إبليس في إغواء النّاس لإفسادِهم، كما فسَد وغوى

يُحتمل أن تكونَ الباء للقسم، أي: بسلطانِك عليَّ، ونفاذ أمرِك فيَّ لأزيِّنَنَّ لهم في الأرضِ، ويدلُّ على أنَّها باءُ القسم قوله تعالى حكايةً عن إبليسَ: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ﴾ [ص: 82]، كما يقالُ: فباللّٰه لأفعلنَّ، وتكون اللّام في ﴿لَأُزَيِّنَنَّ﴾ جوابَ القسمِ، والمعنى: أقسم بإغوائك إيّاي؛ لَأزَيِّنَنَّ لهم، وقد يقالُ: لم يكن إغواءُ اللّٰه تعالى لإبليسَ ممّا يجب أن يقسَم به، لولا فرطُ جهله، ويجابُ بأنَّ القسمَ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/48.

في المعنى صحيح؛ لأنَّ الإغواء ممّا يتفرَّد الحقُّ بالقدرة عليه، ولا يشاركه فيه أحدٌ؛ وللاهتمام بهذا السبب قدَّمه على جواب القسم الدالِّ على المقسَم به، ويحتمل أن تكونَ الباء سببية، والمعنى: بسبب وُقوعِي في الغَيِّ وتسبُّبِك بإغوائي؛ أقسمُ لأُجَتهِدَنَّ في تزيين القبائح والمعاصي لهم في الأرضِ وفي إغوائهم؛ حتَّى يَفْسُدوا بسببي، كما فَسَدْتُ بسببهم، كما تحتمل أن تكون للمجازاة، وفيها معنى السببية، والمعنى: فبإغوائك لي لأُزَيِّنَنَّ لهم[1].

دلالة (ما) المصدرية في قوله: ﴿بِمَآ أَغْوَيْتَنِي﴾:

(ما) هنا مصدرية[2]، لتفيدَ حصولَ حقيقةِ الإغواء لإبليس من غيرِ نظرٍ إلى أيِّ وصفٍ آخرَ للإغواء الذي اتَّصفَ به، ومن غيرِ تقييدٍ بوقتٍ، ليفيد الوصفُ بالمصدر اتِّصافَه بالإغواء المطلق المضمَّن معنى الكمالِ.

اتِّصافُ إبليس بحقيقةِ الإغواء وكمالِه

دلالة صيغة أفْعَلَ في ﴿أَغْوَيْتَنِي﴾:

صيغة (أفعل) للنِّسبةِ، مثل بناء (فعَّل) كفسَّقَ للنسْبَةِ إلى التَّفسيق، فيكونُ معنى ﴿أَغْوَيْتَنِي﴾ نسبتني إلى الإغواء، لاعتراضِه على اللّه تعالى وعدم امتثالِه، أو تكون الصِّيغة حملًا على الغيِّ أي: لمّا أمره اللّه تعالى بالسجود لآدم؛ عند ذلك ظهر غيُّ إبليس وكفره، فجاز أنْ يضيف ذلك الغيَّ إلى اللّه تعالى باعتبار أنَّ غيَّه ظهر؛ لمّا اعترض على أمرِ اللّه، وتكبَّر على آدم، فلم يسجد، ويحتمل أن تكون الصيغة على أصلِها، والمعنى: أغواه اللّه تعالى بما قضى من حكمتِه وتقديرِه[3].

نسبةُ إبليس إلى الإغواء بسببِ اعتراضِه على اللهِ تعالى وتكبُّرِه على أمرِه سبحانه

(1) ابن جرير، جامع البيان: 17/103، ومكي بن أبي طالب، الهداية إلى بلوغ النهاية: 6/3895، والماوردي، النكت والعيون: 3/160، والقشيري، لطائف الإشارات: 2/271، والواحدي، التفسير البسيط: 12/605، وابن عطية، المحرر الوجيز: 3/362، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 3/211، وابن عادل، اللباب في علوم الكتاب: 9/37، والبقاعي، نظم الدرر: 11/58.

(2) البيضاوي، أنوار التنزيل: 3/211.

(3) البيضاوي، أنوار التنزيل: 3/7، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 8/348.

نكتة التَّعبير بلفظ ﴿أَغْوَيْتَنِي﴾:

تنبيهُ بني آدمَ إلى ضلالِ الشَّيطان الذي لا يرى سوى الباطلِ، ولا يأمرُ إلّا به

عُبِّرَ بالإغواء للإشعار بانهماكِ إبليس في الباطلِ، وأنَّه قد فسد فسادًا بحيث لا يُرجى صلاحُه، وأنَّ ظُلمَةَ الكفرِ والتكبُّر قد غشيَتْهُ، فلا يرى طريقًا إلى الرُّشدِ، ففيه تنبيهٌ لبني آدمَ من وسوستِه والانخراطِ في غيِّه، فإنَّه لا يرى سوى الباطلِ، ولا يأمرُ إلّا به، فهو على الضَّلال ومنهمكٌ به.

فائدة تتابع التأكيد في قولِه: ﴿لَأُزَيِّنَنَّ﴾:

إصرارُ الشَّيطان على التَّزيين لبني آدمَ وفتنتِهم

تتابعَ التأكيدُ في ﴿لَأُزَيِّنَنَّ﴾؛ لاقترانِ الفعل باللّام؛ لِتأكيدِ الفعل وتقريرِه، سواء أكانت اللّامُ جوابَ قسمٍ أم موطِّئةً للقسمِ على الخلاف في دلالة الباء في قولِه: ﴿بِمَآ أَغْوَيْتَنِي﴾ - كما تقدَّم - كما تقوّى هذا التأكيد باقترانِ الفعل بنون التأكيد الثقيلة، ليفيدَ تقريرَ فعلِ التَّزيين وإصرارَه عليه ليفتنَ بني آدم.

نكتة التَّعبير بالفعل ﴿لَأُزَيِّنَنَّ﴾:

لكلِّ شيءٍ زينتُه الخاصَّة به

لمّا كان لفظُ الزِّينة اسمًا جامعًا لِكُلِّ شَيْءٍ يُتَزَيَّن بِهِ، وكان التَّزيين بمعنى تحسين الشَّيء في الظّاهرِ ليكونَ زينًا مقبولًا محبَّبًا مرغوبًا في الطَّبعِ والعقلِ عندَ الآخرين[1]، وكان الفعل على صيغة (فعَّل) المفيدة للتَّكثير؛ دلَّ التَّعبير بلفظِ ﴿لَأُزَيِّنَنَّ﴾ على اجتهادِ إبليس في تحسين القبائحِ وتزويقِها لبني آدمَ بأيِّ شيءٍ يُتزيَّن بها، لأجلِ إغوائهم وإضلالِهم، فلكلِّ شيءٍ زينتُه الخاصَّةُ به، وأفادَت الصيغةُ تكثُّرَ التَّزيين منه وتكرارَه واستمرارَه، أي: لأزيِّنَنَّ لهم تزيينًا عظيمًا[2]، كثيرًا متكرِّرًا مستمرًّا.

---

(1) الراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (زين)، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/535، والبقاعي، نظم الدرر: 11/59.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 11/58.

بلاغة حذف مفعول ﴿لَأُزَيِّنَنَّ﴾:

حُذِفَ مفعولُ الفعل المتعدي ﴿لَأُزَيِّنَنَّ﴾؛ للإيذان بإثباتِ التَّزيين في نفسِه فعلًا لإبليس، وأنَّ من شأنِ التَّزيين الذي يقصد منه الإضلالُ أن يكون لإبليسَ، بمعنى: أنَّ التَّزيين للإغواء لا يكون إلّا منه، ويحتمل أن يكون حذف المفعول لإفادة العموم، أي: لأزيِّنَنَّ لهم كلَّ ما يكون في الأرضِ من الباطلِ قصدًا لإضلالِهم، والمعنى: لأزيّنَنَّ لهم المعاصي وأحسِّنها، وأحبِّبها لهم، ويحتمل أن يتناولَ التَّزيينُ كلَّ ما يشغلُ عن طاعةِ الله وعبادتِه، فيكون التَّزيين بِفِعْلِ المَعاصِي، وبِشَغْلِهِمْ بزينة الدنيا عن فعل الطاعة[1]، ولا مانع من إفادة كل هذه المعاني.

التَّزيين لأجلِ الإغواء والإضلالِ لا يكون إلّا من إبليسَ وأعوانِه

فائدة اللّام في قولِه: ﴿لَهُمْ﴾:

اللّامُ على معنى الاختصاصِ، بمعنى: أنَّ تزيين إبليس الباطل لبني آدم مختصٌّ بهم، والمعنى: أنَّه متفرِّغٌ لتحسين الباطلِ لهم وتزويقِه حتَّى يحبِّبَه لهم.

تفرُّغُ إبليس لتحسين الباطل لبني آدمَ وتزيينِه لهم

دلالة الضَّمير في قولِه: ﴿لَهُمْ﴾:

الضَّمِيرُ عائِدٌ عَلَى غَيْرِ مَذْكورٍ في الكلام، بَلْ يعود عَلَى ما يُفْهَمُ مِنه، وَهوَ ذُرِّيَّةُ آدَمَ؛ للإشعارِ بأنَّ ذرِّيَّة آدمَ في تفكيرِه، وأنَّه قد أضمرَ لهم الإغواءَ، فهو عازمٌ على إضلالِهم وجرِّهم إلى الكفرِ والباطلِ بعدَ ظهورِ تكبُّرِه وكفرِه[2].

إضمارُ إبليسَ الإغواءَ لبني آدمَ منذُ أن ظهرَ تكبُّرُه وكفرُه

دلالة الحال بقولِه: ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾:

لمّا كان الجار والمجرور في موضعِ الحال؛ أفادَ أنَّ تزيين إبليس لبني آدم مقيَّدٌ بوقتِ وجودِهم في الأرضِ وعيشِهم فيها، ويلزم منه أن يكون الكلامُ على الكناية بمعنى: لأزَيِّنَنَّ لهم في الدنيا، كما يأتي.

تزيين إبليس لبني آدم محصورٌ بوقتِ عيشِهم في الأرضِ

(1) ابن جرير، جامع البيان: 17/103، والواحدي، التفسير البسيط: 12/606، وابن عطية، المحرر الوجيز: 3/362، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 10/27، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 3/211.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 6/477.

سرُّ التَّعبير بقولِه: ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾:

تزيين إبليس لبني آدمَ يجعلهم يعملون في الأرضِ على أنَّها موضعُ الخلدِ والبقاء

ذُكِرَ الجار والمجرور ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ ليشير اللَّعينُ إلى أنَّه قادرٌ على الاحتيال لآدمَ وتزيينِ الأكل له من الشجرة في السَّماء، وهو على التَّزيين لذرِّيَّتِه في الأرض أقدرُ، ويحتمل أن يكونَ ذكر ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ كنايةً عن الدُّنيا؛ لأنَّ الأرضَ محلُّ متاعِ الدُّنيا ودارُها، ففي التَّعبير إشعارٌ بأنَّه يزيِّن لهم المقامَ في الأرضِ في أعينهم، ويوسوس لهم أنَّ الزِّينةَ في الأرضِ وحدها، كي يطمئنوا إليها، ويعملوا فيها على أنَّ مقامَ الخلدِ فيها، فكأنَّهم يخلدون إلى الأرضِ طمعًا في ما زيَّنه إبليس لهم، كما أنَّ في التَّعبير بحرف الجر ﴿فِي﴾ إشارةً إلى أنَّ الأرضَ مستقرُّ التزيين، وأنَّ تزيينه متمكِّنٌ في الأرضِ مثلَ تمكُّن المظروفِ في ظرفِه[1].

بلاغة المجاز في قولِه: ﴿وَلَأُغۡوِيَنَّهُمۡ﴾:

حرصُ إبليسَ على المبالغةِ في غوايةِ بني آدمَ واجتهادُه فيها

لمّا كانت الغوايةُ لا تكون إلّا بإذن اللّه تعالى؛ كان المعنى لأحمِلنَّهم على الغواية، فيكون الكلام على طريق المجاز العقلي بإسناد الغواية إلى سببِها[2]، للإشعار بالمبالغة في حرصِ إبليس على غوايةِ بني آدمَ واجتهادِه فيها.

دلالة الضَّمير في قولِه: ﴿وَلَأُغۡوِيَنَّهُمۡ﴾:

تزيين المعاصي والانغماسُ فيها طريقٌ إلى الغوايةِ

يعودُ الضَّمير على ما عادَ إليه الضَّمير في قولِه: ﴿لَهُمۡ﴾، بما اتَّصف به من تزيين إبليس لهم، والمعنى: لأغوينَّ بني آدم الذين زيَّنتُ لهم الشَّهواتِ والمعاصي، ففيه تأكيدٌ على أنَّ التَّزيين سببٌ للإغواء.

مناسبة العطف في قولِه: ﴿وَلَأُغۡوِيَنَّهُمۡ﴾:

أوَّل الضَّلالِ استحسانُ الباطلِ

ورد العطف في الجملتين على معنى: أنَّ حصولَ المعطوفِ عليه سببٌ لِوقوعِ المعطوف، أي: إنَّ الإغواء لا يكونُ، ولا يحصل حتَّى يكونَ

(1) النيسابوري، غرائب القرآن: 4/221، والبروسوي، روح البيان: 4/467، والآلوسيّ، روح المعاني: 7/293.

(2) الشهاب، عناية القاضي: 5/293، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 11/159.

التَّزيين، ليفيدَ أنَّ تزيين إبليسَ لبني آدمَ سببٌ لإغوائهم، فأوَّلُ الشَّرِّ استحسانُه، ثمَّ يأخذُهم إلى الضَّلال عن طريق ما يستحسنون، ويشتهون[1]، ففيه تحذير النّاس من خطرِ تزيين إبليس للقبائِح وتحسينِه وجوهَ الباطلِ.

فائدة مجيء: ﴿أَجْمَعِينَ﴾:

لمّا كان لفظ ﴿أَجْمَعِينَ﴾ تأكيدًا للضَّمير في ﴿وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ﴾؛ دلَّ على أنَّ إبليسَ قصدَ الاستغراقَ في إغوائِه إلّا من استثناه، ويحتمل أن يكون التأكيد محمولًا على الضَّمير في ﴿لَهُمْ﴾ أيضًا، فيكون قد قصد استغراق التَّزيين والإغواء لجميعِ بني آدمَ إلّا من استثناهم، وينبني عليه حكم الاستثناء، كما يأتي الكلامُ عندَ بحثِ دلالة الاستثناء في الآية.

عزمُ إبليسَ على إغواء جميع بني آدمَ إلّا من استثناهم من عبادِ الله المخلَصين

بلاغة التَّعبير بالاستثناء في الآية:

لمّا قال تعالى حكايةً عن إبليس: ﴿لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٣٩ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾؛ جَعَل المُغوين هُمُ المستثنى منه، أي: هم الأصل، واستثنى منهم عباد الله المُخْلَصِينَ؛ لأنَّ عزيمتَهُ منصرِفةٌ إلى الإغواء، فهو الملحوظ ابتداء عنده، على أنَّ المُغوين هم الأكثر، وهم كذلك في الواقع، وعكْسُهُ ما جاء في قولِه تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ﴾، فإنَّه تعالى جعلَ عبادَه هم الأصلَ، وإن كانوا هم الأقل في الواقع[2].

من يقصدُ الإضلالَ يرى الضالّين أكثر، ومن يريدُ الهدايةَ يرى المهتدين أكثر

دلالة الإخراج لِلمستثنى بيَن القلَّة والكثرة:

الأصلُ في الاستثناء أن يكون المستثنى فيه أقلَّ من المستثنى منه، ولكنَّه قد يكونُ أقلَّ أو أكثرَ[3]، فقد جاء استثناء عباد الله المخلصين ممَّن يغويهم إبليس، كما جاء استثناء من يتَّبع إبليس من عبادِه

الكثيرُ من بني آدمَ يستجيب لإغواءِ الشَّيطانِ، وقليل منهم يخلصُ لله تعالى

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 8/4087.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/50.
(3) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 10/29.

المؤمنين، فالاستثناء لا يُشْعِرُ بقلَّة المستثنى بالنِّسبة لِلْمُسْتَثْنَى مِنْهُ وَلا الْعَكْسِ، ولكن لمّا أكَّدَ إغواءَ بني آدمَ بقولِه: ﴿أَجْمَعِينَ﴾؛ كانَ استثناءً من عامٍّ مؤكَّد، والاستثناء من العامِّ المؤكَّدِ فيه دليلٌ على أنَّ الكثرةَ هي التي استجابت لإغوائِه، والقلَّةَ هي التي أخلصت لله تعالى، ولمّا ذكرَ الله تعالى هَذا الكلامَ من غيرِ إنكارٍ على إبليسَ؛ دلَّ على صِدْقِهِ فيما قال[1].

فائدة الاستثناء في قوله: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ﴾:

عبادُ الله المخلَصين لا يعملُ فيهم إغواءُ الشَّيطانِ

أفاد الاستثناء بـ﴿إِلَّا﴾ إثباتَ الإغواء وحده، أو التَّزيين والإغواء معًا - على تنوُّع التَّوجيه في دلالة الاستثناء كما تقدَّم - لجميعِ بني آدمَ ونفيه وحده أو نفيهما معًا عن عباد الله المخلَصين حصرًا، بمعنى اختصاصِ عباد الله المخلَصين بأنَّ تزيينَ إبليسَ وإغواءَه لا يصيبُهم، والمعنى: إلّا عبادَك منهم المخلَصين، فلا يعمل فيهم تزييني ولا إغوائي.

دلالة الاستثناء في قوله: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ﴾:

عنايةُ الله بعبادِه المخلصين تمنعهم من الوقوع في الغيِّ مع احتمالِ تزيينِه

يحتمل أن يكون الاستثناء من مجموع المعطوف والمعطوف عليه، والمعنى: استثناء عباد الله المخلصين من تزيين الشيطان وإغوائه، أي: فلا يقدر على التَّزيين لهم ولا إغوائهم بسببِ عبادتِهم لله وإخلاصِهم له سبحانَه في توحيدِه، كما يحتمل أن يكون ﴿إِلَّا عِبَادَكَ﴾ مستثنًى من المعطوف فقط، أي: من الإغواء لا من التزيين، فعباد الله المخلَصون يُزيِّنُ لهم، ولا يغويهم، ولا يعملُ فيهم كيدُه؛ لأنَّ التَّزيين: هو تحسينُ القبائحِ - كما تقدَّم - والإغواءَ: هو الحمل على الوقوع فيها، فالإغواء يستلزم الفعلَ والتَّزيين لا يستلزم، فعناية الله بهم تمنعهم من الوقوعِ في الغيِّ، وإن زَيَّنَ إبليسُ الغيَّ لهم[2].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/50، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 8/4088.
(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 3/5، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/79.

الإشارة بالاستثناء إلى تحقير الكذب:

الكذبُ في غاية الخساسةِ

الذي حمل إبليس على ذكر الاسْتِثْناءِ هو ألّا يَصِيرَ كاذِبًا في دَعْواهُ، فَلَمّا احتَرَزَ عَنِ الْكَذِبِ؛ دلَّ على أنَّ الْكَذِبَ فِي غايَةِ الْخَساسَةِ[1].

دلالة الإضافة في قولِه: ﴿عِبَادَكَ﴾:

تشريفُ عبادِ الله المخلصين وتكريمُهم بإضافتِهم إلى الله تعالى

الإضافة على معنى الاختصاص؛ لإفادةِ تشريفِهم باختصاصِهم بكونِهم عبادًا لَه سبحانه دونَ غيرِه، واختصاصِهم بكونِهم عبادًا له سبحانه دونَ غيرِهم، والمعنى: إلّا عبادكَ المشرَّفين المكرمين المعظمين بإضافتهم إليك[2].

بلاغة تقديم ﴿مِنْهُمُ﴾ في الآية:

مَن أغواهم إبليسُ كانوا يستطيعون الإفلاتَ من غوايتِه؛ لو أخلصوا له تعالى

في قولِه: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾، تقدَّم ﴿مِنْهُمُ﴾ على متعلَّقِه ﴿ٱلْمُخْلَصِينَ﴾، والتَّقدير: إلّا عبادكَ المخلصين منهم، وأفاد تقديم الجارِّ والمجرور الذي هو في موضعِ الحال تخصيصَهم، أي: إنَّ لهم مزيةً على سائر من سعى إبليس إلى إغوائهم، كما أشعر التَّقديم أنَّ العباد المخلصين هم من نفسِ طينةِ من أغواهم، وأنَّ لهم نفسَ صفاتِ بني آدم، لدلالةِ (مِنْ) في ﴿مِنْهُمُ﴾ على التَّبعيضِ من الضَّمير في ﴿وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ﴾، فيفيد أنَّ مَن أغواهم إنَّما كان لتفريطٍ منهم، بقبولِهم التَّزيين وحبِّهم له، وأنَّهم كانوا يستطيعون الإفلاتَ من غوايتِه؛ لو عبدوا الله تعالى، وأخلصوا له.

سبب ذكرِ البدلِ في قولِه: ﴿ٱلْمُخْلَصِينَ﴾:

عبادُ الله المختصِّين به تعالى لا يكونونَ إلّا مخلَصينَ

لمّا كان قوله: ﴿عِبَادَكَ﴾ يفيد أنَّهم لا يميلون عن الله تعالى إلى شيء سواه؛ لِدلالة الإضافة على معنى الاختصاص، وكان معنى المُخلَصين: أنَّ الله تعالى أخلصهم لعبادتِه؛ جاء ﴿ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ بدلًا من ﴿عِبَادَكَ﴾؛ ليكون البدل على معنى الإيضاح والبيانِ للمبدلِ

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 19/144.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 11/59.

منه ﴿عِبَادَكَ﴾، وللاهتمام بالبدلِ، فإنَّ وصف المخلَصين لا يقال إلا بعد أن يكون للّه فيهم صنعٌ، ولهم به اختصاصُ تشريفٍ وفضائلُ اختصَّهم بذلك؛ برحمة اللّه وفضله، ففيه تنبيهٌ إلى أنَّ عبادَ اللّه لا يكونونَ إلّا مخلَصينَ، أي: من شأنِهم أن يكونوا كذلك[1].

نكتة التَّعبير بلفظِ ﴿ٱلْمُخْلَصِينَ﴾:

كان الظّاهر أن يقال: إلّا عبادَك منهم من لا أغويه؛ لأنَّ الكلام في الإغواء وإخراجِ من لا يغويه من المستثنى منه، فلمّا ذكر ﴿ٱلْمُخْلَصِينَ﴾؛ أفادَ نفي إغوائه وكيدِه بطريق الدَّليل، والمعنى: لا أُغويهم، ولا أقدر على إغوائهم؛ لأنَّ اللّه أخلصَهم، وطهَّرهم، أو: لا يعمل فيهم كيدي؛ بسبب إخلاصِهم للّه، فكان ذكرُ الشَّيء بدليلِه أبلغَ من التَّصريحِ[2].

لا يُغوِي الشَّيطانُ عبادَ اللّه؛ لأنَّ اللّه طهَّرهم، ولأنَّهم أخلصوا له تعالى

توجيه القراءات القرآنية في ﴿ٱلْمُخْلَصِينَ﴾:

وَقرأ نافع وَعاصِم وَحَمْزَة والكسائي وأبو جعفر وخلف ﴿ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ بِفَتْحِ اللّام فِي كُلِّ الْقُرْآنِ، وقَرَأ ابْنُ كَثِيرٍ وأبو عمرٍو وابنُ عامرٍ ويعقوب بِكَسْرِ اللّام فيه، فوَجْهُ الْقِراءَةِ بصيغة المبني للفاعِل أنَّهُمُ الَّذِينَ أَخْلَصوا دِينَهُمْ وَعِبادَتَهُمْ والإيمانَ باللّه وبرُسُلِه، وابتعدوا عَنِ الرّياء وعن كُلِّ شائِبٍ يُناقِضُ الْإيمانَ والتَّوْحِيدَ، ووجه القراءة بصيغة المبني للمفعول: أنَّهم الَّذِينَ أَخْلَصَهُمُ اللّه بِالْهِدايَةِ والْإيمانِ، والتَّوْفِيقِ والْعِصْمَةِ من الأسواء والفواحش، وَهَذِهِ الْقِراءَةُ تَدُلُّ عَلَى أنَّ الْإِخْلاصَ والْإيمانَ لَيْسَ إلّا مِنَ اللّه تَعالَى[3]، وأن إخلاص العبد دينه للّه تعالى، وبُعده عن كلِّ ما ينافي ذلك سببٌ في اجتباء اللّه له وهدايته وتوفيقه وعصمته إياه.

تنوُّع المعنى بتنوُّع القراءةِ القرآنية

(1) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 6/442.

(2) الشهاب، عناية القاضي: 5/517.

(3) الأزهري، معاني القراءات: 2/46، وابن عطية، المحرر الوجيز: 3/363، والواحدي، التفسير البسيط: 12/606، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 19/144، وابن الجزري، النشر: 2/295.

﴿قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾﴾ [الحجر: 41]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

لمّا قال إبليس مقولتَه؛ كان كأنَّه قيل: فبماذا أجيبَ؟ فقيل: ﴿قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ﴾[1]؛ استدرارًا لإصغاء المخاطَبين، وتنبيهًا على فائدة هذه المحاورة من معرفةِ أغراضِ إبليس وبيانِ ما أعدَّ اللّه لعبادِه المخلصين الذين لا يسلكون طريق الغواية.

التَّنبيهُ على فائدة المحاورة لمعرفة أغراضِ إبليس وبيانِ ما أعدَّ الله لعبادِه المخلصين

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿صِرَٰطٌ﴾: أصلُ الصراطِ: الطَّريقُ الواضِحُ المُسْتَقِيمُ، الذي يمُرُّ فيه الشيء بيسر وسهولة، وسُمِّي صِراطًا؛ لأنَّ النّاسَ يَسلُكونَهُ بِسُرعَةٍ لِكونِهِ واسِعًا مُستقيمًا، والجَمْعُ: صُرُطٌ، أو مِنْ سَرِطتُ الشَّيْءَ: إذا ابتلعْته؛ لأنَّه - أي: الطَّريق - يَبْتَلِعُ المارَّةَ لِكَثْرَةِ سُلوكِهِم[2]. والمقصود بالصِّراط في الآية: الطَّرِيقُ البَيِّنُ، مُسْتَعارٌ لِلْعَمَلِ الَّذِي يَقْصِدُ مِنْهُ عامِلُهُ فائِدَةً[3].

المَعْنى الإجْماليُّ:

قال اللّه تعالى: طريقُ الحَقِّ والهُدى والإخلاصِ طريقٌ مُعتَدِلٌ، لا اعوجاجَ فيه، يدُلُّ عليَّ، ويوصِلُ إليَّ، وإلى جنَّتي، أو المعنى: هذا طريقٌ، حقٌّ عَلَيَّ أن أراعيَه، وهو ألّا يكونَ لك سلطانٌ على عبادي، إلّا مَنِ اختارَ اتِّباعَك منهم لِغَوايتِه[4].

اللّهُ ﷻ هو الحقُّ، وصِراطُه حقٌّ، ودينُه حقٌّ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 11/60.
(2) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن سيده، المحكم، وابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (سرط، صرط)، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (سرط).
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/51.
(4) الواحدي، التفسير البسيط: 12/606، 607، والزمخشري، الكشاف: 2/579، والسعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 431.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغة الاستعارة في قولِه: ﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ﴾:

عهدُ الله ثابتٌ لا تغيِّرُه الأحوالُ والأزمنةُ والأمكنةُ

يؤتى بمثل هذا الخبرِ للتَّمثيلِ بالتعهُّد لأمرٍ ما، بأنَّ صاحبَه يتوكَّل به، وهو قادرٌ عليه؛ لقوَّة سلطانِه وعِظَم شأنِه، وأنَّ التعهُّد به ثابتٌ، لا تغيِّرُه الأحوالُ ولا الأزمنةُ ولا الأمكنةُ؛ ليكون حرف الجرِّ (عَلَى) على معنى الوجوبِ المجازيِّ؛ للإيذانِ بأنَّه تعالى لا يتخلَّفُ عن الإيفاء به، ولا يحيدُ عنه، وتقدير التَّمثيل: هذا طريق في ثبوتِه وعدم تخلُّفِه بمقتضى وعدي مثل حق واجب عَلَيَّ أن أراعيه، وهو ألّا يكون لك سلطان على عبادي، إلّا من اختار اتِّباعك منهم لغوايته، وفائدة مجيء الخبر على طريق الاستعارة التَّمثيليَّة المبالغة في إثباتِ أنَّ عباده ﷻ ليس لإبليس عليهم سلطانٌ في التَّأثيرِ عليهم[1].

مرجع اسم الإشارة ﴿هَٰذَا﴾:

الإخلاصُ طريقٌ مستقيمٌ

على ما تقدَّم في تنوُّع التَّوجيه فالْإِشارَةُ تعودُ إِلَى ما يُؤْخَذُ مِنَ الْجُمْلَةِ الْواقِعَةِ بَعْدَ اسْمِ الْإِشارَةِ الْمُبَيِّنَةِ لِلْإِخْبارِ عَنِ اسْمِ الْإِشارَةِ، وَهِيَ جُمْلَةُ ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾، ويحتمل أن تعود الإشارةُ إلى مضمونِ الاستثناء، وهو تخليص المخلصين من تأثير إغوائه، وهو على قراءة ﴿ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ بفتح اللّام، أو إلى الإخلاصِ على قراءة ﴿ٱلْمُخْلِصِينَ﴾ بكسر اللّام، على معنى: أنَّه طريقٌ يؤدي إلى الوصول إليَّ من غير اعوجاج ولا ضلالٍ[2]، ويحتمل أن يكون الخبرُ على معنى التَّهديد والوعيد لإبليسَ ومن يتبعه، ويكون ﴿عَلَيَّ﴾ بمعنى (إليَّ)، كالرَّجلِ يَقول لغيره: طريقك عَليَّ، ومسيرك إلَيَّ، أي: لا تفلتُ مني، والمعنى: هذا صراط إليَّ مرجعُه، فأجازي كلًّا بأعمالِهم، وإيثارُ حرفِ الاستعلاءِ على أداة الانتهاءِ (إلى) لتأكيد

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 11/160، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/52.

(2) الواحدي، التفسير البسيط: 12/606، والزمخشري، الكشاف: 2/579، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 3/213، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/79.

المرجعِ إليه تعالى، وتحقُّق الوعدِ، بمعنى ثبوته وتمكُّنه، كتمكُّن الاستعلاء، فهو على وجهٍ تمثيليٍّ من غير أن يكون هناك استعلاءٌ لشيءٍ عليه ﷻ، فيكون حرف الاستعلاء على طريق المجاز، لبيان المعنى بطريق الدَّعوى والدَّليل[1].

سرُّ التَّعبير باسم الإشارة ﴿هَٰذَا﴾:

تنزيل غير المشاهد منزلة المشاهد لوضوحه وبيانه

عُبِّرَ بـ﴿هَٰذَا﴾ الذي أُشيرَ به إلَى غَيْرِ مُشاهَدٍ تَنْزِيلًا لَهُ مَنْزِلَةَ الْمُشاهَدِ، وَتَنْزِيلًا لِلْمَسْموعِ مَنْزِلَةَ الْمَرْئِيِّ، ولمّا كان ما يعودُ إليه اسم الإشارة في الظّاهر، هو جملة: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾ التي جاءت في اللفظ بعدَه؛ أفادَ الكلامُ قَصْدَ التَّشْويقِ إلَى سَماعِ ما يعود إليه اسم الإشارة عِنْدَ ذِكْرِهِ، فاسْمُ الْإشارَةِ هُنا بِمَنْزِلَةِ ضَميرِ الشَّأْنِ في عودِه على ما بعدَه[2]، لتعظيم شأنِ المذكورِ بعدَه، وللتَّنبيه على أهميَّة الإصغاء إليه، والعملِ بما يقتضيه، وإن عاد اسم الإشارة إلى مضمونِ جملة الاستثناء أو إلى الإخلاص المفهوم من الاستثناء، فيكون عائدًا إلى غيرِ مرئيٍّ كذلك لتنزيلِه منزلة المرئي لوضوحِه وبيانِه.

نكتة التعبير باسم الإشارة ﴿هَٰذَا﴾:

سهولةُ تحصيل الإخلاص لله تعالى إذا صدقت النِّيَّةُ

عُبِّرَ بصيغة اسم الإشارة للقريب لوضوحِ طريق استقامة عباد الله المخلَصين ووضوحِ الإخلاصِ، وللإشعارِ بقربِ تناولِهما وتحصيلِهما.

بلاغة الاستعارة في كلمة ﴿صِرَٰطٌ﴾:

الحثُّ على التزامِ الصراط المستقيم الموصلِ إلى رضا الله ومحبَّتِه

شُبِّهت سنَّة الله التي وضعها للنّاس، وهي: أنَّ عباده ليس لإبليس عليهم سلطانٌ، وأنَّه لا يغوي إلّا من اتَّبعَه، أو هي: أنَّ إبليس لا يستطعُ إغواءَ من أخلصَهم الله تعالى له، أو هي: أنَّه لا يستطيع التأثيرَ على من يخلصُ لله تعالى بالطريق المستقيم، بمعنى دوامِ الحالةِ

(1) الواحدي، التفسير البسيط: 12/606، والسمعاني، تفسير السمعاني: 3/140، وابن جرير، جامع البيان: 17/103، والبغوي، معالم التنزيل: 3/58، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 3/213، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/79، والشهاب، عناية القاضي: 5/518.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/51.

وثباتِها، فحُذِفَ المُشَبَّه، وأقيم المشبَّه به مقامَه على طريق الاستعارة التَّصريحيَّة، والقصدُ الحثُّ على التزامِ هذا الصراط الموصلِ إلى رضا اللّه ومحبَّتِه[1].

فائدة مجيء الصِّفة في قولِه: ﴿مُسْتَقِيمٌ﴾:

لمّا كان لفظُ ﴿مُسْتَقِيمٌ﴾ نعتًا للصِّراطِ، وكان معنى الصِّراط هو الطَّريق المستقيم[2]؛ أفادت الصِّفةُ التي جاءت تقييدًا للموصوف النِّكرة تقريرَ استقامة صراطِ اللّه تعالى من غيرِ اعوجاجٍ ولا ضَلالٍ، وملازمةَ الصِّراطِ لكمالِ الاستقامةِ، والإيذانَ بأنَّه لا يمكن العُدول عنه إلى غيرِه، وفيه إشارةٌ إلى أنَّ من ينحرفُ عنه يتسلَّط إبليس على إغوائه[3].

من ينحرفْ عن الصِّراط المستقيم؛ يتسلَّطْ عليه إبليسُ لإغوائِه

توجيه القراءات القرآنية في ﴿عَلَيَّ﴾:

قَرَأ جمهورُ القرّاءِ ﴿عَلَيَّ﴾ بِفَتْحِ اللّامِ وَفَتْحِ الْياءِ، عَلَى أنَّها (عَلَى) اتَّصَلَتْ بِها ياءُ الْمُتَكَلِّم، وَقَرَأ يَعْقوبُ وحدَه ﴿عَلِيٌّ﴾، بكسرِ اللّامِ وضمِّ الياءِ والتَّنوينِ، عَلَى أَنَّهُ وَصفٌ مِنَ الْعُلوِّ وُصِفَ بِهِ ﴿صِرَٰطٌ﴾، فيكون للصّراط وصفان: أحدهما: كونه عليًّا رفيعَ القدْرِ، والآخر: كونه مستقيمًا لا انحراف فيه ولا اعوجاج، وتقدَّم بيان معنى ﴿عَلَيَّ﴾ على القراءة المشهورة[4].

صراطُ الله عَلِيٌّ رفيعُ القدرِ مستقيمٌ لا انحراف فيه

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/51.
(2) الراغب، المفردات: (صرط).
(3) أبو حفص النّسفي، التيسير في التفسير: 9/194، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 11/161.
(4) ابن جرير، جامع البيان: 17/104، والأزهري، معاني القراءات: 2/69، وابن الجزري، النشر: 2/301.

﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [الحجر: 42]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

لَمّا قالَ إبليسُ: ﴿لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾؛ جاءت هذه الآيةُ تصديقًا لمضمونِ استثناء إبليسَ، أو تكذيبًا له في زعمِه أنَّ له القدرةَ على إغواء عباد اللّه المخلصين، فإنَّه لمّا أوْهَمَ كلامُ إبليسَ أنَّ لَهُ سُلْطانًا عَلَى عِبادِ اللّه الَّذِينَ يَكونونَ مِنَ الْمُخْلَصِينَ؛ بَيَّنَ تَعالَى في هَذِهِ الْآيَةِ أنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطانٌ عَلَى أحَدٍ مِنْ عِبادِ اللّه سَواءٌ كانوا مُخْلِصِينَ أم لَمْ يَكونوا مُخْلِصِينَ، بَلْ مَنِ اتَّبَعَ مِنْهُمْ إبْلِيسَ بِاخْتِيارِهِ؛ صارَ مُتَّبِعًا لَهُ، وَلَكِنَّ حُصولَ تِلْكَ الْمُتابَعَةِ أيْضًا لَيْسَ لِأجْلِ أنَّ إبْلِيسَ يَقْهَرُهُ عَلَى تِلْكَ الْمُتابَعَةِ أوْ يُجْبِرُهُ عَلَيْها، فإنَّ منتهى تزيينه التَّحريضُ والتَّدليسُ، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى﴾ [إبراهيم: 22][1].

منتهى تزيين الشَّيطانِ التَّحريضُ، فمنِ اتَّبعَ الشَّيطانَ؛ فإنَّما يتَّبعُه باختيارِه

وأيضًا لمّا كان اسم الإشارة ﴿هَٰذَا﴾ يعود إلى المفهوم من قولِه: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾؛ جاءت هذه الآية على معنى البيان لِلمرادِ من اسم الإشارة، أو يقال: لمّا جاء الاستثناء في قوله: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾، وعاد اسم الإشارة إلى مضمونِه - كما تقدَّم في تنوُّع توجيه مرجِعِ اسم الإشارة - جاءت هذه الآية على معنى البيانِ والتقريرِ لمفهوم تخليص اللّه تعالى عبادَه من تأثير إغواء إبليس.

وأيضًا لمّا أخبر اللّه تعالى في سياق حكاية قولِ إبليس أنَّه لا

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 19/145، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 3/216.

يستطيع إغواء العباد الذين أخلصَهم اللّه للخيرِ وللطّاعةِ؛ جاءت هذه الآيةُ لإفادةِ نفي سلطانِه عليهم، وأنَّه إنَّما استثنى عباده من إغوائه؛ لأنَّه ليس له سلطانٌ عليهم[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلْغَاوِينَ﴾: أصلُ (غوي): يَدُلُّ على خِلافِ الرُّشْدِ وإظْلامِ الأمْرِ[2]. والغواية الانجذاب إلى شيء فاسد[3]. والغَواية: الضَّلال واتِّباع الهوى والانهماك في الباطل، ورجلٌ غاوٍ وغَوٍ وغَوِيٌّ وغَيّان: ضالٌّ، وأغْواه هوَ، وغوى غيًّا: انهمك في الجَهل. وخلافُهُ: الرُّشد[4]. والغَيُّ: جهْلٌ من اعتقاد فاسد[5]. والمقصود بالإغواءِ في الآية: المُتَّصِفُ بالغَيِّ، والغَوايةُ، وهي الضَّلالةُ الشَّديدةُ.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

بيان طبيعة البشَر وطبيعة الشَّيطان واستعدادهما واختيارهما في أعمالهما

قال اللّهُ لإبليسَ: إنَّ عبادي المؤمنينَ الموحِّدينَ الَّذين هديتُهم، ليس لكَ عليهم حُجَّةٌ وتسَلُّطٌ على قلوبِهم، لكنْ مَن اتَّبَعَك من النّاسِ فرَضِيَ بولايتك وطاعتِك، ومالَ إلى ما تدعو إليه من الضَّلالاتِ؛ فلك عليه تسَلُّطٌ[6].

وفي الآية دَلالةٌ على أنَّ كلَّ مَن لم يعبدِ اللّهَ وحدَه، فلا بُدَّ أن يكونَ عابدًا لغَيرِه، فيكون مُشرِكًا، وليس في بني آدمَ قِسمٌ ثالثٌ، بل إمّا موَحِّدٌ، وإمّا مُشرِكٌ، أو مَن خَلطَ هذا بهذا، كالمُبَدِّلينَ مِن أهلِ المِلَلِ: النَّصارى، ومَن أشبَهَهم مِن الضُّلّالِ المنتسبينَ إلى الإسلامِ[7].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/51.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (غوي).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (غوي).
(4) الخليل، العين، وابن عباد، المحيط في اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (غوي).
(5) الراغب، المفردات: (غوي).
(6) ابن جرير، جامع البيان: 14/71، وابن عطية، المحرر الوجيز: 3/362، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 10/28، 29.
(7) ابن تيمية، مجموع الفتاوى: 14/282.

وإنَّ مَن لم يحقِّقْ عُبوديَّةَ الرَّحمنِ وطاعتَه، فإنَّه يَعبُدُ الشَّيطانَ بطاعتِه له، ولم يَخلُصْ مِن عبادةِ الشَّيطانِ إلّا من أخلصَ عُبوديَّةَ الرَّحمنِ.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغة التعبير في قولِه: ﴿إِنَّ عِبَادِى﴾:

عبوديَّة المحبَّة واتِّباع الأوامر هي عبوديَّة التَّشريفِ والتَّكريم

تحتمل هذه الجملة الخبريَّة - في قولِه تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾ - أن تكونَ بيانًا لاسم الإشارة في قولِه تعالى: ﴿قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَىَّ مُسْتَقِيمٌ﴾ - كما تقدَّم - ففيها معنى التقريرِ لإبليسَ فيما استثناه، ولهذا اختير طريقُ الفصلِ لما فيها من معنى التأكيدِ[1]، كما تحتمل أن تكونَ استئنافًا بيانيًّا، فإنَّه لمّا عاد اسمُ الإشارة إلى مضمونِ الاستثناء في قولِه: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾، فكأنَّ سائلًا سأل: جعلَ اللّه سنَّتَه ثابتةً في تخليصِ عبادِه من إبليس، فهل لإبليس أيُّ سلطانٍ على عباد اللّه المخلصين؟ فأجيب بطريق الخطابِ لإبليسَ: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾، للإيذانِ بتشريف عبوديَّة المحبَّة والطّاعة وتكريمِها.

بلاغة تغيير الوضعِ في الإخبار:

تشريفُ عباد الله المخلَصين وتعظيمُ قدرِهم عندَ الله

لمّا أقسم إبليسُ أنَّه سيجتهد في إغواء بني آدمَ؛ استثنى عبادَ اللّه المخلصين، فكان المستثنى منه هم الذين يغويهم، والمستثنى هم عبادُ اللّه، فغُيِّرَ ترتيب تأليف الكلامِ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾؛ ليكون بالعكس، لتعظيمِ قدرِ عباده عندَه وتشريفِهم؛ إذ جعلَهم هم الأصل لكونِهم متبوعين محكومًا عليهم بانتفاء سلطانِه عليهم، ولأنَّ المقصود بيان عصمتهم وانقطاع كيدِ

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 3/213، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي11/161.

الشيطان عنهم، بخلافِ ما جاء في حكايةِ قولِ إبليسَ واستثنائه، فإنَّ المقصود فيه بيان فعله بالتَّزيين والإغواء[1].

فائدة ذِكرِ ﴿إِنَّ﴾ في قوله: ﴿إِنَّ عِبَادِى﴾:

تفيد ﴿إِنَّ﴾ تأكيدَ مضمونِ الخبر وتقريرَه، فإنَّ إبليسَ اللَّعينَ لمّا استثنى عبادَ الله تعالى من إغوائِه؛ جاء التَّأكيدُ ليؤذنَ أنَّ انتفاء إغوائِه لعبادِ الله تعالى المخلصين ليس بسببِ استثنائِه، وإنَّما لأنَّ الله تعالى أرادَ هذا، وقدَّرَه، وقرَّرَه.

انتفاء إغواء إبليس ليسَ بسببِ استثنائِه، وإنَّما لأنَّ الله أرادَه وقدَّرَه

دلالة لفظ ﴿عِبَادِى﴾:

يحتمل أن يكونَ المرادُ من ﴿عِبَادِى﴾ المؤمنين خاصَّةً، ويكون المرادُ منهم عبادَه الطائعين المحِبّين، ويحتمل الاستثناء الاتِّصال والانقطاع - كما سيأتي في دلالة الاستثناء - ويؤيِّده أنَّ الآية تحقيقٌ لمضمونِ الاستثناء في قولِه تعالى: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾[2]، ويحتمل أن يكون اللفظ واقعًا على جميع العبادِ مؤمنهم وكافرهم، ليكونَ المرادُ عبوديَّة أهلِ السمواتِ والأرضِ، فيكون المستثنى هو الكافر، والمعنى: إنَّ تسليطَه لا يكونُ إلّا على من اتَّبعه من الغاوين، ويؤيِّده قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْءَاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ﴾ [سبأ: 21] أي: ما كان تسليطنا إياه إلا لنعلم المؤمنين من الشاكِّين، أي: إلّا لنعلم إيمانَ المؤمن ظاهرًا، وكفْرَ الكافر ظاهرًا[3].

العبوديَّة تحتمل العبوديَّة الخاصَّة وتحتمل العبوديَّة العامَّة

نكتة التَّعبير بلفظ ﴿عِبَادِى﴾:

كان الظّاهر أن يقال: (إنَّ المخلصين لي ليس لكَ عليهم سلطان)، لأنَّ المستثنى ﴿عِبَادَكَ﴾ في قولِه تعالى: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ

الخلق كلُّهم عبيد ربوبيَّة الله، وأهل طاعته وولايته هم عبيد إلهيَّته

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 3/213، والشهاب، عناية القاضي: 5/514، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 11/161.

(2) السمعاني، تفسير السمعاني: 3/140.

(3) أبو أحمد القصاب، النكت الدالة: 2/177، والواحدي، التفسير الوسيط: 3/493.

مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ هو باعتبار قيد الصِّفةِ، فهي ملحوظةٌ في قَوْلِهِ تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِى﴾، لكن عُدِل إلى ﴿عِبَادِى﴾ بطريق الإضافة، لما في الإضافة من معنى الاختصاص والتشريف والتكريم، وللإشعارِ بعبوديَّتهم لله في طاعتِه واتِّباع أوامره.

فائدة الإضافة في قوله: ﴿عِبَادِى﴾:

لمّا أضاف الله تعالى عبادَه المخلصين إلى نفسِه؛ كانت الإضافةُ على معنى اللّام التي للاختصاصِ؛ لتفيدَ الإضافةُ تشريفَهم وتكريمهم وتعظيمهم وبيانَ عصمتِهم وحفظِهم، وانقطاعَ مخالب الشيطان عنهم، فعباد الله لا يتسلط عليهم إبليسُ، ولا تقوم له عليهم حجة[1].

عبادُ الله المقرَّبون لا يتسلَّط عليهم إبليسُ، ولا تقوم له عليهم حجَّةٌ

فائدة النَّفي بـ﴿لَيْسَ﴾:

لما كان ﴿لَيْسَ﴾ فعلًا جامدًا يبقى على حالة واحدة؛ ناسب أن يستعمل في الحالة الباقية الدائمة التي لا تتغيَّر، والسُّنَّة الثابتة التي لا تتبدَّل مثل ﴿لَيْسَ﴾، في قوله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾، وهي تُفيد استمرارَ نفي تسلُّط إبليس على عباد الله المخلصين.

إفادة استمرار نفي سلطان إبليس عليهم

فائدة تقديم ﴿لَكَ﴾:

في قوله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾، قدِّمَ الجار والمجرور ﴿لَكَ﴾ المتعلِّق بـ﴿سُلْطَٰنٌ﴾ ليفيدَ التَّأكيدَ، بمعنى تأكيدِ نفي أن يكون لإبليسَ سلطانٌ على عبادِ الله، وليَدُلَّ على قصر ذلك عليهم، أي: الذين ليس لك سلطان عليهم هم عبادي وحدهم، لا غيرهم.

تأكيد نفي تسلُّط إبليس على عباد الله المخلصين، وقصر ذلك عليهم

فائدة تقديم ﴿عَلَيْهِمْ﴾ على ﴿سُلْطَٰنٌ﴾:

في قولِه تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾، أفادَ تقديمُ ﴿عَلَيْهِمْ﴾

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 3/213، وأبو حيان، البحر المحيط: 6/478، وابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/202، وابن التّمجيد، حاشية على تفسير البيضاوي: 11/161.

على ﴿سُلۡطَٰنٌ﴾ التَّخصيصَ، والمعنى: تخصيصُ نفي أن يكون لإبليس أيُّ سلطانٍ على عبادِ اللّه، مع تأكيدِ هذا التَّخصيصِ، أي: هم مختصّون من بين سائر الناس بذلك الحكم.

عباد الله مختصّون من بين سائر الناس بعدم تسلُّط إبليس عليهم

نكتة التعبير بلفظ ﴿سُلۡطَٰنٌ﴾:

لمّا كانَ لفظ ﴿سُلۡطَٰنٌ﴾ بمعنى الحجَّة المتسلِّطة والبرهان القوي؛ أفادَ التَّعبير به أنَّ إبليس ليس له حجَّةٌ متسلِّطةٌ ولا برهانٌ قويٌّ في إغوائهم ودعائِهم إلى الشِّرك والضَّلال، فليس له إلّا التَّزيين، فلا يستطيع إغواءَهم ولا التأثيرَ فيهم إلا بالتزيين، ليفيدَ التَّعبير أنَّ عباد اللّه المؤمنين إنَّما يتَّبعون أمرَ اللّه بحججه وبراهينِه؛ فلا يتَّبعون الشيطان بأمانيِّه التي يمنيِّهم، وشبهاته التي يُلبِس بها عليهم، ويحتمل أن يكون السلطان بمعنى القدرة والقهر والإلجاء، أي: ليس له قدرة القهر بأن يحملهم على العصيان، ويضطرَّهم لفعلِه[1]، ولا مانعَ من حمل اللفظ على المعنيين، بل هو أولى لتكثير المعنى.

ليس للشَّيطانِ حجَّةٌ على عبادِ الله، وليس له قوة القهر على اتِّباعِهم له

سبب إيثار مجيء ﴿سُلۡطَٰنٌ﴾ نكرةً:

لمّا كانت النَّكرة في سياق النَّفي تفيد العمومَ، وكان لفظ السُّلطان يأتي بمعنى الحجَّة والبرهانِ، وبمعنى القدرةِ والقهرِ؛ أفادَ التَّعبير نفيَ أيِّ سلطانٍ لإبليس على عبادِ اللّه، فدلَّ الكلامُ على نفي أيِّ حجَّةٍ أو قدرةٍ عليهم، ويدخل في النَّفي قدرته على إغوائهم أو التأثيرِ فيهم دخولًا أوَّليًّا، أي: لمّا أوهمَ إبليسُ أنَّ لَهُ عَلَى بَعْضِ عِبادِ اللّه سُلْطانًا حينَ قال: ﴿وَلَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾؛ بَيَّنَ اللّه تَعالَى كَذِبَهُ فِيهِ، وَذَكَرَ أنَّهُ لَيْسَ لَهُ عَلَى أحَدٍ مِنْهُمْ سُلْطانٌ وَلا قُدْرَةٌ أصْلًا، أي: لَيْسَ لَهُ سُلْطانٌ عَلَى قُلوبِهِمْ، وَلا مَوْضِعِ

لا يلقي الشَّيطانُ عبادَ الله في ذنبٍ إلّا وتزيلُه التَّوبةُ وتمحوه الأوبةُ

(1) الواحدي، التفسير البسيط: 12/608، والماتريدي، تأويلات أهل السنة: 6/443، وابن عطية، المحرر الوجيز: 3/362.

إيمانِهِمْ، وَلا يلقيهم في ذنب يؤول إلَى عَدَمِ الْقَبولِ، بَلْ تُزِيلُهُ التَّوْبَةُ، وَتَمْحوهُ الْأَوْبَةُ[1].

بلاغة مجيء الخبرِ جملةً اسميَّةً:

ثبوتُ انتفاء أن يكون لإبليس سلطانٌ على عبادِ الله

لمّا جاءَ الخبرُ في قولِه تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾ جملةً اسميَّةً؛ أفادَ الخبرُ تقوّي الحكمِ وثبوتَه، ولو قال: (ليس لك على عبادي سلطانٌ)؛ لَما كانَ الإخبارُ بقوَّةِ مجيء المبتدأ أوَّلًا، ثمَّ الإخبارِ عنه بالجملة الاسميَّة المنفيَّة ثانيًا، لِما فيه من معنى الحصرِ الذي قوّاه وجودُ الحصرِ في جملة الخبر كما تقدَّم.

فائدة التقديم في قولِه: ﴿لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾:

تأكيد نفي عموم تسلط إبليس على عباد الله المخلصين وحدهم

اجتمعت في هذه الجملة أدلة كثيرة على إفادة العموم، وهي: الجمع المضاف إلى ضمير يعود إلى الله تعالى ﴿عِبَادِى﴾، والنكرة في سياق النفي: ﴿سُلْطَٰنٌ﴾، وتقديم الجار والمجرور المتعلق بالخبر المحذوف والدال عليه، وتقديم الجار والمجرور المتعلِّق بـ﴿سُلْطَٰنٌ﴾، وهذا التقديم يفيد الحصر مع إفادته العموم، واحتمال أن يكون كلٌّ من الجار والمجرور في ﴿لَكَ﴾ و﴿عَلَيْهِمْ﴾ هو المتعلِّق بالخبر المحذوف، وأن يكون هو المتعلِّق بالمبتدأ ﴿سُلْطَٰنٌ﴾، أي: ليس عليهم سلطان كائن لك، أو: ليس لك سلطان كائن عليهم، وبذلك تدل العبارة الوجيزة على المعاني الكثيرة، ويتأكد عموم نفي تسلط الشيطان دون غيره ﴿لَكَ﴾ وحدك، ونفي تسلطه على عباد الله دون غيرهم، ﴿عَلَيْهِمْ﴾ وحدهم، ونفي سائر أنواع التسلط بكافَّة أشكالها وألوانها: ﴿لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾، مع الإشارة إلى تَسَفُّلِ الشيطان وحقارته، بما يدلُّ عليه نفي العلو الدال عليه كلمة ﴿عَلَيْهِمْ﴾، مع النفي بكلمة ﴿لَيْسَ﴾.

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 19/145، والقرطبي، الجامع لأحكامِ القرآن: 10/29.

دلالة الاستثناء في قولِه: ﴿إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ﴾:

تنوُّع دلالة الاستثناء مع صحَّة المعنى واستقامتِه

يحتمل أن يكون الاستثناء منقطعًا، وتكون ﴿إِلَّا﴾ بمعنى (لكن) ليفيد أنَّ المقصودَ بمن يتَّبع إبليس من الغاوين هم الكفّارُ خاصَّةً، أي: إنَّ مَن اتَّبَعَهُ لَمْ يَنْدَرِجْ في قَوْلِهِ: ﴿عِبَادِى﴾، لقَوْلِهِ تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾﴾ [الإسراء: 65]، وَلَوْ كانَ مُتَّصِلًا؛ لاسْتَثْناهُمْ، فَلَمّا لَمْ يَسْتَثْنِهِمْ؛ دَلَّ عَلَى أنَّهُمْ لَمْ يَدْخُلوا، فيكون منتهى تزيينه لعبادِ اللّٰه المخلصين التحريضُ والتَّدليسُ، كما قال: ﴿وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى﴾ [إبراهيم: 22]، وفائدة سَوْق الكلامِ بصورة الاستثناء - مع أنَّه على معنى الانقطاع - الترغيب في رتبة التشرُّف بالإضافة إليهِ والرجوع عن اتِّباع العدو إبليسَ إلى الإقبال عليه، ويحتمل أن يكون الاستثناء متَّصلًا؛ ليفيدَ أنَّ قليلًا من المؤمنين يتَّبع إبليس، وإذا كان المرادُ من لفظ ﴿عِبَادِى﴾ جميعَ العبادِ يكون الاستثناء حقيقيًّا متَّصلًا، ويكون المرادُ نفيَ سلطانِه عن جميعِ العبادِ باستثناء من اتَّبعه من الغاوين، أي: فالمراد من المستثنى الكافرُ خاصَّةً - كما تقدَّم[1] - ويحتمل أن يكون الاستثناء حقيقيًّا متَّصلًا أيضًا، ويكون اتباع بعض عباد اللّٰه المخلصين للشيطان في المعاصي التي هي دون الكفر أحيانًا، وليس دائمًا، فلا يخرجون بذلك عن كونهم عباده سبحانه، فهم يوصفون بالغواية وقت المعصية فقط.

دلالة الاسم الموصول في قولِه: ﴿مَنِ ٱتَّبَعَكَ﴾:

من يتَّبع الشَّيطانَ ذليلٌ صاغرٌ

عَبَّرَ بالاسم الموصول المشترك الذي أراد به المفردَ، بدلالة عودِ الضَّمير عليه مفردًا في ﴿ٱتَّبَعَكَ﴾؛ لِيُشْعِرَ بذلَّة من يتَّبع إبليس في كونِه منفردًا ذليلًا ليس له ناصرٌ، على عكس التَّعبير في قولِه: ﴿عِبَادِى﴾ المفيد معنى الاجتماعِ على عبادة اللّٰه والإخلاصِ للّٰه.

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 3/212، وأبو حيان، البحر المحيط: 6/478، والبقاعي، نظم الدرر: 11/60، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/53.

فائدةُ التَّعبير بصيغة الماضي ﴿ٱتَّبَعَكَ﴾:

لمّا كان المرادُ أنَّ من يتَّبع إبليس، يتسلَّط عليه؛ كان التَّعبير بصيغة الماضي المفيد تحقُّقَ الوقوع مؤذِنًا بأنَّ من يتعمَّد اتِّباعَه ويرغب فيه يتسلَّط عليه الشيطان، فيتَّبعه لا محالةَ[1].

مَنْ يتعمَّدُ اتِّباعَ الشَّيطانِ، ويرغب فيه؛ يتسلَّط عليه الشيطان لا محالةَ

نكتة التَّعبير بلفظ ﴿ٱتَّبَعَكَ﴾:

عَبَّرَ بلفظ ﴿ٱتَّبَعَكَ﴾؛ لِما يفيدُه من معنى اقتفاء أثرِ إبليسَ واللُّحوق به بحيث يتلوه، ويقفوه في إغوائِه والائتمارِ بأوامرِه، ليكونَ موافقًا له، وكأنَّه ناصرٌ له، فيفيدُ اللَّفظُ أنَّ إبليسَ قد سبقَهم إلى الغوايةِ، وأنَّ من يتَّبعُه؛ يقتفي أثرَه فيها[2].

اتِّباعُ إبليس باقتفاء أثرِه في المعصيةِ والغوايةِ

بلاغة الموصول وصلتِه في قولِه: ﴿مَنِ ٱتَّبَعَكَ﴾:

عُبِّرَ بالاسم الموصول وصلتِه، لبيان أنَّ إغواءَ إبليسَ للغاوين ليس بسببِ السلطان بمعنى القهر والجبر، بل بسببِ اتِّباعهم له بسوء اختيارهم، فيتسلط عليهم بالوسوسة والتزيين، فأعلمَ أنَّ من اتَّبعه فإنَّما هو مسلَّط عليه بهذا الفهم[3].

اتِّباعُ إبليس باختيار الغاوين، وليس له قوَّة القهر عليهم لاتِّباعِه

فائدة ﴿مِنَ﴾ في قولِه: ﴿مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾:

حرف الجرِّ ﴿مِنَ﴾ لِبَيانِ الجِنْسِ، أي: من جنسِ الغاوين، ففيه مبالغة في الذمِّ[4].

المبالغةُ في ذمِّ المنحرفين عن الصِّراطِ المستقيم

دلالة قولِه: ﴿مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾:

لمّا جاء الجار والمجرور في موضعِ نصبٍ على الحال من الضَّمير المستتر في ﴿ٱتَّبَعَكَ﴾؛ دلَّ على اقترانِ الغواية به في حالِ اتِّباعِه إبليس، ليشعرَ بأنَّ من يتَّبعُه مناسبٌ له ومتناغم معه في الغواية والبُعدِ[5].

مناسبةُ الغاوين لإبليسَ في الغوايةِ والبعدِ عن الله تعالى

(1) البقاعي، نظم الدرر: 11/60.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، والزمخشري، أساس البلاغة: (تبع).
(3) البروسوي، روح البيان: 4/469.
(4) أبو حيان، البحر المحيط: 6/479.
(5) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/299.

دلالة اسم الفاعل ﴿ٱلۡغَاوِينَ﴾:

المستعدّون للغواية العازمون عليها متهيّئونَ لتسلُّط الشيطانِ عليهم

لَمّا أفهمَ الكلامُ أنَّ سُلْطانَ الشَّيْطانِ لا يكون إلّا عَلَى مَنْ كانَ غاوِيًا، ولَوْ كانَ غاوِيًا بِالْفِعْلِ؛ لَمْ يَكُنْ لِسُلْطانِ الشَّيْطانِ عَلَيْهِ فائِدَةٌ؛ دلَّ على أنَّ المرادَ من زمن اسم الفاعل ﴿ٱلۡغَاوِينَ﴾ المستقبل، فهو مِنْ بابِ إطْلاقِ اسْمِ الْفاعِلِ عَلَى الْحُصولِ في الْمُسْتَقْبَلِ بِالْقَرِينَةِ، فأفادَ أنَّ ثمَّةَ وَصْفًا بالغواية هو التهيُّؤ لِتَسَلُّطِ الشَّيْطانِ عَلَى مَوْصوفِهِ، وَذَلِكَ هوَ الْمَوْصوفُ بِالْغَوايَةِ بِالْقوَّةِ لا بِالْفِعْلِ، أيْ: بِالاسْتِعْدادِ لِلْغَوايَةِ لا بِوُقوعِها[1].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/52.

﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [الحجر: 43]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

لمّا أخبر اللّه تعالى أنَّ إبليس ومن اتَّبعه من الغاوين؛ ذكر جزاءَهم بذكر مكانِ اجتماعِهم يومَ القيامةِ، أو: لما أخبر اللّه تعالى أنَّ إبليس ومن يتَّبعه على شاكة واحدة في الغواية؛ أخبر عقب ذلك أنَّهم على شاكلة واحدة في العقوبة وزمانها ومكانها.

الوعيدُ للغاوين بأنَّ مكانَ اجتماعِهم أجمعين هو جهنَّمُ

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿لَمَوْعِدُهُمْ﴾: أصلُ (وعد): كَلِمَةٌ صَحِيحَةٌ تَدُلُّ عَلَى تَرْجِيَةٍ بِقَوْلٍ لما يوجد مستقبلًا، يُقالُ: وَعَدْتُهُ أعِدُهُ وَعْدًا، وَيَكونُ ذَلِكَ بِخَيْرٍ وَشَرٍّ، فأمّا الوَعِيدُ؛ فَلا يكونُ إلّا بِشَرٍّ غالبًا، يقولونَ: أوعَدتُهُ بكذا[1].

والموعِدُ: مَوضِعُ التَّواعُدِ، وهو الميعادُ، ويكون المَوعد مصدر وعدته، ويكون المَوعد وقتًا للعِدَة، والموعِدة أيْضًا: اسْم للعِدَةِ، والميعاد لا يكون إلّا وقتًا أو موضعًا[2]. والمقصودُ بالمَوعِدِ في الآية: مكانُ الوَعْدِ[3].

المَعْنى الإجْماليُّ:

يُخبر الحقُّ ﷻ بأنَّ جهنَّم موعد جميع من اتَّبع إبليس، فيَصيرونَ إليها في الآخرةِ، وهي مَقرُّهم وبئس المهاد؛ جزاء ما اجترحوا مِن السَّيئات، وكفاء ما دنَّسوا به أنفسهم من قبيح المعاصي[4].

جهنَّم موعِدُ إبليسَ وكُلُّ مَن اتَّبعه من الإنسِ والجِنِّ

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

براعة تتابع التأكيد في الآية:

أفادَ تتابع التَّأكيد بـ﴿وَإِنَّ﴾ واللّام الموطِّئة للقسم، ومجيء الجملة

المنهمكُ باقتفاء الغوايةِ ينسى الآخرة ويغيبُ عنه مصيرُه

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (وعد).
(2) الأزهري، تهذيب اللغة: (وعد).
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/53.
(4) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 10/30، والسعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 431، والمراغي، تفسير المراغي: 14/24.

اسميَّةً – في قولِه: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ﴾ - أنَّ من يتَّبِع إبليسَ مُنكِرٌ؛ لأنْ تكونَ جهنَّم موعدهم أجمعين، أو: أنَّه لمّا كان منهمكًا في اقتفاء أثرِ الغوايةِ ومتابعته له؛ كان بمنزلة المنكِر للأمرِ، كما أفادَت ﴿وَإِنَّ﴾ واللّام تأكيدَ ثبوتِ أن تكون جهنَّم مكانَ موعدِهم أجمعين.

سبب إيثار ذكر لفظ ﴿جَهَنَّمَ﴾:

بُعدُ قعرِ جهنَّم مشعرٌ بشدَّة عذاب الغاوين وهولِه

لم يقل اللّه تعالى مثلًا: (وإنَّ النّارَ لموعدُهم)، بدلًا من قولِه تعالى: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ﴾، ونكتة ذكر ﴿جَهَنَّمَ﴾ دون بقية أسمائها: هو أنَّها لمّا كانت مشتقَّة من جهنام، أي: بعيدة القعرِ؛[1] ناسب أن تكون مكانَ وعدِهم واجتماعِهم، للإشعارِ بسوء موضعِهم وقبحِ حالِهم وشدَّةِ عذابِهم، فإنَّ بُعدَ القعرِ لا يكونُ إلّا للأسوءِ حالًا.

عود الضَّمير في قولِه: ﴿لَمَوْعِدُهُمْ﴾:

إحصاءُ كلِّ من اتَّبع إبليسَ وجمعهم فردًا فردًا مع الغاوين في جهنَّم

يحتمل عود الضمير (هُمْ) على الاسم الموصول ﴿مَنِ﴾ في قولِه تعالى: ﴿مَنِ ٱتَّبَعَكَ﴾؛ ليفيد الزَّجرَ عن اتِّباعِ إبليس، لِما أفادَه الكلامُ من أنَّ اتِّباعهم إبليسَ سببٌ في أن تكون جهنَّم موعدهم أجمعين، ويكون في التَّعبير التفاتٌ بمجيء الضَّمير بصيغة الجمع بعد ذكرِه مفردًا، ونكتة الالتفات الإيذانُ بإحصاء كلِّ من اتَّبع إبليسَ، وبجمعهم فردًا فردًا؛ ليجتمعوا مع جنسِ الغاوين في جهنَّم، كما يحتمل أن يعود الضَّمير إلى ﴿ٱلْغَاوِينَ﴾، فيكون على مقتضى الظّاهر، ويرجِّحه قربه من الضَّمير وظهور ملاءمته للضمير؛ لأنَّه بصيغة الجمع، ليفيدَ أنَّ جهنَّمَ موعدُ إبليسَ ومن اتَّبعَه، وأنَّ سببَ أن تكونَ جهنَّمُ موعدَهم هو كونهم من الغاوين، فيكونَ السَّببُ باعتبارِ

(1) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 311، والسّمين الحلبي، عمدة الحفاظ: 1/355.

مآلِ الاتِّباع[1]، وفي مجيء الضَّمير بصيغة الغائب بعد الخطابِ التفاتٌ، وذلك للإشعارِ بالاهتمامِ بوعيدِ الغاوين، ولتذكيرِهم بأنَّ إبليسَ قد انتهى أمرُه، ففيه معنى الزَّجر عن اتِّباعِه، ويأتي تفصيلُه في توجيه المتشابه.

نكتة التَّعبير بلفظ ﴿لَمَوْعِدُهُمْ﴾:

مكانُ موعدِ الغاوين واجتماعهم هو جهنَّم بفظاعتِها وهولِ عذابِها

لمّا كان المرادُ تفظيعَ حالِ المتَّبِعين إبليسَ يومَ القيامةِ، أو تفظيع حالِ إبليسَ ومن اتَّبعَه، وجاء الكلامُ على أسلوبِ التَّهديد لمن اتَّبعَ إبليسَ في إغوائِه؛ جعلَ مكانَ الوعدِ هو جهنَّم، لِما فيه من الدلالةِ على أنَّ الموعودَ ممّا لا يوصفُ في الفظاعةِ، كما أفادَ الكلامُ أنَّ جهنَّمَ مكانُ وعيدِهم واجتماعِهم[2].

بلاغة الاستعارة:

من يتَّبع الشَّيطان يضرب موعدًا له في جهنَّم

في قولِه: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ﴾ لم يقل: (وإنَّ جهنَّم لمصيرُهم أجمعين)، فعبَّرَ بالوعدِ؛ لأنَّه لمّا جعلَ جهنم موعدًا لهم، سواء أكان الموعد بمعنى المصدر أم اسم المكان، كان الكلامُ على طريقِ الاستعارة التَّهكُّميَّة، فكأنَّهم لمّا اتَّبعوا إبليسَ، أو لمّا كانوا من الغاوين؛ ضربوا وعدًا لهم في جهنَّمَ، فكانوا على ميعاد في مكانِ العذابِ[3]، للإشعارِ بأنَّ اتِّباع إغواء الشيطانِ - بما يلقيه من الوسوسةِ في روع البشر؛ ليكون داعيًا لهم على عمل المنهيّاتِ وترك المأمورات - يجرُّهم إلى الاجتماعِ في هذا المكانِ، ففيه مع التهكُّم تخويفٌ وتهديدٌ.

دلالة الإسنادِ في الآية:

تهديدُ الغاوين ومن يتَّبع إبليس بأنَّ جهنَّمَ مكانُ وعدِهم واجتماعِهم

لمّا جاء ﴿جَهَنَّمَ﴾ مسندًا إليه، و﴿لَمَوْعِدُهُمْ﴾ مسندًا - في

(1) أبو حفص النسفي، التيسير في التفسير: 9/195، والزمخشري، الكشاف: 2/579، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 19/146، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 3/212، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/79.

(2) أبو حيان، البحر المحيط: 6/479، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/79.

(3) الشهاب، عناية القاضي: 5/520، والآلوسيّ، روح المعاني: 7/296.

قولِه: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ﴾ - ولم يأتِ العكسُ بأنْ يقالَ: (وإنَّ موعدَهم أجمعين لفي جهنَّم)؛ آذنَ بأنَّ النَّظرَ متوجِّهٌ إلى الإخبار عن جهنَّم بأنَّها مكانُ وعدِهم واجتماعِهم على سبيلِ التَّهكُّم، ولما فيه من التَّخويف والتَّهديد - كما تقدَّم - لأنَّ الخبرَ مقصودُ الجملةِ، فالغرضُ من مجيءِ ﴿جَهَنَّمَ﴾ مسندًا إليه الإخبارُ عنها بأنَّها مكانُ وعدِهم، وليسَ المقصودُ الإخبارَ عن مكانِ وعدِهم بأنَّه جهنَّم، فكأنَّهم على علمٍ بجهنَّم، ويجهلون أنَّ موعدَهم فيها بسبب اتِّباعِهم الشيطان وغوايتِهم معه، كما أنَّه جعلَ المكانَ كلَّه موعدًا لهم على سبيلِ المبالغةِ؛ لأنَّه فصَّل في الآية اللّاحقة، فذكرَ أنَّ لها سبعةَ أبوابٍ.

دلالة قولِه تعالى: ﴿أَجْمَعِينَ﴾:

لا يتخلَّف أحدٌ من الغاوين عن موعدِ اجتماعِهم في جهنَّم

أفادَ اللفظُ تأكيد الضَّمير في قولِه: ﴿لَمَوْعِدُهُمْ﴾، ليفيدَ التَّنصيصَ على العمومِ، لدفعِ توهُّم إرادةِ التَّغليب في ضمير الجمعِ أو تخصيصه، والمعنى: أنَّ جهنَّم موعدهم أجمعين من غيرِ أن يتخلَّف منهم أحدٌ، كما يفيد معنى الحاليَّة، أي بمعنى: مجتمعين، أو يقال: يحتمل أن يكون ﴿أَجْمَعِينَ﴾ تأكيدًا للضَّمير، كما يحتمل أن يكونَ حالًا منه، والقولُ الأوَّل أجمعُ للمعنى[1].

توجيه المتشابه اللفظي في الآية:

مناسبة مجيء ضميرِ الخطابِ أو الغيبة لسياقِ الكلامِ

قال اللّه تعالى هنا في سورة الحجر: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ على صيغة ضمير الغائبين، وجاء في سورة الأعراف: ﴿قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا ۖ لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾﴾ [الأعراف: 18]، فغُلِّبَ في الضَّميرِ حالُ الْخِطابِ في سورة الأعراف؛ لِأَنَّ الْفَرْدَ الْمَوْجودَ مِنْ هَذا الْعُمومِ هوَ الْمُخاطَبُ،

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 3/363، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 3/212، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/79، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 11/163.

وَهوَ إبْلِيسُ، وَلِأَنَّهُ الْمَقْصودُ ابْتِداءً مِنْ هَذا الْوَعِيدِ؛ لِأَنَّهُ وَعِيدٌ عَلَى فِعْلِهِ، وَأَمّا وَعِيدُ اتِّباعِهِ فَبِالتَّبَعِ لَهُ، بِخِلافِ الضَّمِيرِ فِي آيَةِ الْحِجْرِ، وَهوَ قَوْلُهُ: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾؛ لِأَنَّهُ جاءَ بَعْدَ الْإِعْراضِ عَن وعيده بِفِعْلِهِ والِاهْتِمامِ بِبَيانِ مَرْتَبَةِ عِبادِ اللّه الْمُخْلَصِينَ الَّذِينَ لَيْسَ لِإبْلِيسَ عَلَيْهِمْ سُلْطانٌ، ثُمَّ الِاهْتِمامُ بِوَعِيدِ الْغاوِينَ[1].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 8/51.

﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴿٤٤﴾﴾ [الحجر: 44]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

تعدُّد أبواب جهنَّم لاستقبال الغاوين

لمّا ذكرَ اللّه تعالى أنَّ جهنَّم موعد الغاوين؛ بيَّن أنَّهم متفاوتون فيها، فما أُجمل في الآية السابقة؛ جاءت هذه الآية بيانًا وتوضيحًا لما تقدَّم[1]، أو يقال: لما أخبر سبحانه في الآية السابقة أنَّ جهنَّم موعد الغاوين ومقر اجتماعهم؛ بَيَّنَ في هذه الآية أنَّهم جميعًا يدخلونها مع كثرتهم؛ لأنَّ لها أبوابًا كثيرةً تَسَعُهُم.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مَّقْسُومٌ﴾: أصلُ (قسم): يَدُلُّ على تَجْزِئَةِ شَيْءٍ من أجل ضَمِّ الأجزاء إلى الأشخاص[2]. القَسْمُ: مَصْدَرُ قَسَمْتُ كذا قَسْمًا وقِسْمَةً، وقِسْمَةُ الميراث، وقِسْمَةُ الغنيمة: تفريقهما على أربابهما، والنَّصِيبُ قِسْمٌ بِكَسْرِ القافِ، فَأمّا اليَمِينُ؛ فالقَسَمُ، قالَ أَهْلُ اللُّغَةِ: أَصْلُ ذَلِكَ مِنَ القَسامَةِ، وَهِيَ الأَيْمانُ تُقْسَمُ على أَوْلِياءِ المَقْتولِ إذا؛ ادَّعَوْا دَمَ مَقْتولِهِمْ على ناسٍ اتَّهَموهُم به[3]. والمرادُ بالقَسْمِ في الآية: أن الغاوين يُجَزَّؤون، وتُقسَم أجزاؤهم على أبواب جهنم.

المَعْنى الإجْمالِيُّ:

إنَّ في جهنَّم دركاتٍ ومنازلَ أعدَّها اللّه تعالى لأتباع إبليس

بيَّن اللّه تعالى أنَّ لجهنَّم سبعةَ أبواب، لكلِّ بابٍ من أتباعِ إبليسَ نصيبٌ مَعلومٌ، يَدخُلونَ منه إلى النّارِ، كلٌّ يدخُلُ مِن بابٍ بحسَبِ عمَلِه، ويستقِرُّ في دَرْكٍ بقَدْرِ فِعْلِه[4].

(1) البقاعي، نظم الدرر: 11/61.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (قسم).
(3) الأزهري، تهذيب اللغة، والراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (قسم).
(4) ابن جرير، جامع البيان: 14/72، والقرطبي، الجامع لأحكام: 10/30، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/536.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالة جملة ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ﴾:

تعظيم هولِ الدخول إلى جهنَّم، فكيف بمن استقرَّ فيها؟

تحتمل الجملة أن تكونَ مستأنفة، وهو الظاهر، لتفيدَ التَّفصيل بعد الإجمالِ، فإنَّه لمّا ذكر أنَّ جهنَّم موعدهم؛ فصَّل أماكنَ وعدِهم، وتحتمل أن تكون خبرًا ثانيًا لـ﴿وَإِنَّ﴾[1]، فيكون قد أخبر عن جهنَّم بأنَّها مكانُ وعدِهم، وبأنَّ لها سبعةَ أبوابٍ، وفائدة تعدُّد الخبر بيانُ عِظَم شأنِها وهولِ موضِعِها، فإنَّ الخبر يتعدَّد فيما يكون للمبتدأ شأنٌ ينبغي التَّعريفُ بجميعِ أحوالِه ممّا يتعلَّق بالمخاطَبِ.

سرُّ التَّعبير بقوله: ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ﴾:

لكلِّ بابٍ من أبوابِ جهنَّم خَصوصيَّتُه من العذاب والنَّكال

الظّاهر أنَّ المراد من الأبواب ظاهرُها، والمعنى: لها سبعة أبوابٍ يدخلونها، ليفيد أنَّ لكلِّ بابٍ خصوصيَّتَه في العذاب والنَّكال، وليشعر لفظ الباب بأنَّها دارُهم ومكانُ استقرارِهم، وأنَّه إذا أقفل الباب؛ فلا مفرَّ حينئذٍ، ويحتمل أن يكون المرادُ بالأبوابِ الطبقاتِ، على طريق الكنايةِ عَنْ طَبَقاتِ جَهَنَّمَ؛ لِأَنَّ الْأَبْوابَ تَقْتَضِي مَنازِلَ، فَهِيَ مَراتِبُ وطبقاتٌ، بعضها أسفل من بعضٍ، ينزلونها، والمعنى لجهنم سبعة أطباق، لكلِّ طَبَق من أتباع إبليس نصيبٌ مقسومٌ، وعبِّرَ بالأبواب عن الطبقاتِ للإشعارِ بأنَّها دارُهم وموضعُ استقرارِهم كما مرَّ[2].

سببُ إيثار تعدُّد أبوابِ جهنَّم:

تنوُّع أبوابِ جهنَّم للإسراعِ بتعذيب الغاوين، ولاختلاف مراتبِهم في جهنَّمَ

الحكمة في تعدُّد أبواب جهنَّم مع أنَّ اللّه قادرٌ على أن يدخل أهلها فيها دفعةً واحدةً هو الإيذانُ بكثرة أهلِها وبسرعة تعذيبهم، وعدم تأخير عذاب بعض منهم، ولأنَّه لمّا كانت مراتبُ الغوايةِ مختلفةً اختلفت مراتبهم في جهنَّم، فكان لكلِّ بابٍ منهم جزءٌ مقسومٌ على

(1) العكبري، التبيان في إعراب القرآن: 2/782، وابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 11/461.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 17/105، والماتريدي، تأويلات أهل السنّة: 6/443، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 3/212، وابن عاشور، التحرير والتنوير14/53.

حسبِ غوايتِه، كما أنَّ تعدُّد أبواب الجنة لكثرتِهم ولسرعة تنعُّمهم، وعدم انتظارهم[1].

سبب إيثار تخصيصِ العدد ﴿سَبْعَةُ﴾:

مـواردُ الأبـواب بحسبِ مـواردِ المهلكاتِ

لعلَّ تخصيصَ أبوابِ جهنَّم بالعدد ﴿سَبْعَةُ﴾ لانحصار مجامع المهلكات في الركون إلى المحسوسات الخمسة ومتابعة القوة الشهوية والغضبية، فيكون العددُ سبعةً، أو لِمناسبته لِمَراتِبِ الإجْرام، بِأنْ تَكونَ أُصولُ الْجَرائِمِ سَبْعَةً لتكونَ على وفق الأعضاء السبعة من العين، والأذن، واللسان، والبطن، والفرج، واليد، والرجل؛ لأنَّها مصادر السيئات، فكانت مواردها الأبواب السبعة تَتَفَرَّعُ عَنْها جَمِيعُ المَعاصِي الكَبائِرِ، ولمّا كانت هي بعينها مصادر الحسنات بشرط النِّيَّةِ، والنِّيَّةُ من أعمال القلب زادت الأعضاء واحدًا، فجعلت أبواب الجنان ثمانية، وأجاز ابن عاشور وغيرُه أن يكون العدد ﴿سَبْعَةُ﴾ مُسْتَعْمَلًا فِي الْكَثْرَةِ، فلا يقصد بالعدد خصوصُه[2]، وهو وجه وجيه فإنَّ العدد سبعة ومضاعفاته يُستعمل كثيرًا في اللغة للكثرة والمبالغة.

فائدة إيثار الإضافة في: ﴿سَبْعَةُ أَبْوَابٍ﴾:

تشويق السامع إلى معرفة تمام الخبر

قال: ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ﴾، ولم يقل: (لها أبواب سبعة) لتشويق السامع بعد ذكر العدد سبعة إلى معرفة ماهية هذه السبعة، أهي سبعة أشكال، أو سبع طبقات، أو سبعة خزائن؟ فجاءت الإجابة بذكر التمييز المضاف ﴿أَبْوَابٍ﴾، للدلالة على كثرة أبوابها، كثرة مقيدة بالعدد، أو كثرة مطلقة، لا حد لها ولا منتهى، على الاحتمالين الواردين في المراد من العدد سبعة، من حقيقة العدد، أو المبالغة في الكثرة.

---

(1) الشهاب، عناية القاضي: 5/295.

(2) البيضاوي، أنوار التنزيل: 3/212، والبقاعي، نظم الدرر: 11/61، والخطيب الشربيني، السراج المنير: 2/203، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/53، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 8/4090.

دلالة جملة ﴿لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾:

لمّا كانت هذه الجملة صفةً لـ﴿أَبْوَابٍ﴾، وكانت الصِّفةُ على معنى تقييد الموصوف النَّكرة؛ أفادت الجملة بيان وصفِ الأبواب لما يفيدُه تنكيرُها من معنى الإبهامِ في بيانِ فائدتِها، فجاءت الصِّفة لبيانِ أنَّ لِكُلِّ بابٍ من الأتباع أو الغواة جُزْءًا مَقسومًا، ففيه تحذيرٌ من متابعةِ إبليسَ ووعيدٌ للغاوين.

تحذيرُ الغاوين ووعيدهم من متابعةِ إبليسَ

بلاغة الإيجاز في الآية:

لمّا جاءت الجملة - في قولِه تعالى: ﴿لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾ - صفةً لـ﴿أَبْوَابٍ﴾ أفاد التَّعبير أنَّه بتقدير (لكلِّ بابٍ من الأبوابِ السبعةِ منهم جزءٌ مقسومٌ)، فحُذِفَ (من الأبواب السبعة) إيجازًا في الكلامِ، وانتظامًا في تأليفِه وبلاغةِ تعبيرِه.

الإيجاز بالحذفِ لانتظامِ الكلامِ وبلاغة التَّعبير

دلالة قولِه تعالى: ﴿مِّنْهُمْ﴾:

لمّا تقدَّم الجار والمجرور على متعلِّقه ﴿جُزْءٌ﴾ أفاد الحاليَّة، بمعنى: لكلِّ بابٍ جزء مقسومٌ حالَ كونِ هذا الجزءِ من الغاوين خاصَّةً، لا يشاركهم فيه أحدٌ من عبادي المخلصين[1].

اختصاص تقسيم الغاوين بأبواب جهنم

نكتة التَّعبير بقولِه: ﴿جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾:

لمّا كان الجزءُ بعضَ الشيءِ، وجمعُه أجزاء، وكان المقسومُ من القسم، وهو إفراز النصيب عن غيره، بمعنى تمييز كلِّ قسم عن سواه؛ أفادَ التَّعبيرُ أنَّ أتباعَ إبليسَ أو الغاوين يجمعهم شيءٌ واحدٌ، استحقّوا به جهنَّم، وأنَّه تعالى يُجَزِّئُ أتباعَ إبليسَ أو الغاوين جميعًا أجزاءً مقسومةً معلومةً، فيكون لكلِّ بابٍ جزءٌ من الأتباع مقسومٌ يتميَّز عن سواه من الأقسامِ، بحيث تربط بينهم معصيةٌ ما، ويجمعهم ولاء ما، فلمّا اشترك هذا الجزءُ بالمخالطة ونوعِ الغواية

اشتراكُ الغاوين في نوعِ المعصيةِ في الدُّنيا يوجب مشاركتَهم في العقوبةِ ومكانها في الآخرة

(1) البقاعي، نظم الدرر: 11/61.

في الدُّنيا؛ كانَ عليهم الاشتراك في العقوبة والنَّكال يومَ القيامةِ، فكلٌّ يدخل من بابٍ بحسب عمله، ويستقرُّ في دركٍ بقدر غوايته[1].

فائدة تنكير الموصوف ﴿جُزْءٌ﴾:

التعظيم والتكثير في العدد والتحقير في المنزلة

أفاد تنكير الموصوف ﴿جُزْءٌ﴾ عِظَمَ هذا الجزء وكثرة أفراده من ناحية، كما أفاد تحقيره وتحقيرهم وضعفهم من ناحية أخرى، ويزيد من حقارتهم وضعفهم أنَّ هذا جزء من كُلٍّ أولًا، ثم هو مقسوم إلى أقسام كثيرة مرة ثانية، فقسمة الجزء تزيد هذه الأقسام التي هي بعض الجزء ضعفًا وحقارة.

(1) الراغب، المفردات: (قسم)، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/536، والشعراوي، تفسير الشعراوي: 12/7709.

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ۝٤٥﴾ [الحجر: 45]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

لَمّا ذَكَرَ مَصيرَ الغاوينَ؛ أتبَعَهُ ذِكْرَ ما أعدَّه للمخلِصينَ المخلَصينَ، وهم الَّذين اتَّقوا الشِّرك والمعاصيَ، ليظهر التَّباين بين الفريقين[1].

الجنَّة ثمرة الإخلاص والاختصاص

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَعُيُونٍ﴾: أصلُ (عين): أصْلٌ واحِدٌ صَحِيحٌ يَدُلُّ على عُضْوٍ بِهِ يُبْصِرُ، وينظُرُ، ثُمَّ يُشْتَقُّ منه، والأصْلُ في جَمِيعِهِ ما ذكَرنا، قالَ الخليلُ: العَيْنُ النّاظِرَةُ لكُلِّ ذي بَصَرٍ، والعَينُ تُجْمَعُ على أعْيُنٍ وعُيونٍ وَأعْيانٍ[2]. وعَيْنُ الشَّيْءِ نَفْسُهُ، يُقال: أخَذْتُ مالي بِعَيْنِهِ، أي: نَفْسَ مالي، وتأتي بمعنى المالِ العَتيدِ الحاضِرِ، يُقال: اشْتَرَيْتُ عَيْنًا بِعَيْنٍ، أيْ: حاضِرًا بِحاضِرٍ[3]. ويُستعار العَيْنُ لمعانٍ هي موجودة في الجارحة بنظرات مختلفة، واستعير للثُّقب في المزادة تشبيهًا بها في الهيئة، وفي سيلان الماء منها، فاشتُقَّ منها: سقاء عَيِّنٌ ومُتَعَيِّنٌ: إذا سال منها الماء، ويقال لمنبع الماء: عَيْنٌ تشبيهًا بها لما فيها من الماء، ومن عَيْنِ الماء اشتقَّ: ماء مَعِينٌ، أي: ظاهر للعيون، وعَيِّنٌ، أي: سائل[4]. ومِن معانيها: الجاسوس، وما ضُرِبَ مِن الدَّنانيرِ والدَّراهِمِ، وغير ذلك[5]. والمقصودُ بالعيون في الآيةِ: جَمْعُ عَيْنٍ، اسمٌ لثُقْبٍ أرضيٍّ يَخرجُ منه الماءُ مِن الأرْضِ.

(1) أبو حفص النسفي، التيسير في التفسير: 9/197، وابن عطية، المحرر الوجيز: 3/361.
(2) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة: (عين).
(3) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (عين).
(4) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (عين).
(5) الأزهري، تهذيب اللغة، والراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، والسّمين الحلبي، عمدة الحفاظ، والزبيدي، تاج العروس: (عين).

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

حال أهل الجنَّة وما يتمتَّعون به من نعيمٍ مُقيمٍ

إنَّ الذين اتَّقَوا اللّهَ تعالى بامتثالِ ما أمَرَ، واجتنابِ ما نهَى، في بساتينَ قد احتوَت على جميعِ الأشجارِ، وأينَعَت فيها جميعُ الثِّمارِ، حتى سترت ما فيها من كثرتها وكثافتها، وهم كذلك في عُيونٍ مِثْل عُيونِ الماءِ والخَمرِ، والسَّلسبيلِ والتَّسنيمِ، وغير ذلك، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ ۝٥١ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ۝٥٢﴾ [الدخان: 51 - 52][1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغة الاستئناف في الآية:

التَّفنُّن في التَّعبير عن المعنى من عادة القرآن في أساليبِه

جاء قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ۝٤٥﴾ على طريق الاستئناف الابتدائي، ففيه انْتِقالٌ مِنْ وَعِيدِ الْمُجْرِمِينَ إِلَى بِشارَةِ الْمُتَّقِينَ عَلَى عادَةِ الْقُرْآنِ فِي التَّفَنُّنِ[2]، في الأساليب من جهة، وذكر المقابل الذي يظهر جمال مقابله وكمال وصفه في الحُسْنِ أو السوء.

فائدة ﴿إِنَّ﴾:

تأكيد مضمونِ الجملة وتقريرها

تفيد ﴿إِنَّ﴾ – في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ۝٤٥﴾ - تأكيدَ مضمونِ جملة نعيم المتقين وتقريرَها، في مقابل تأكيد عذاب الغاوين وأتباع إبليس أجمعين في الآيات السابقة.

براعة حذف متعلِّق ﴿ٱلْمُتَّقِينَ﴾:

أفضل التَّقوى ومبدؤُها اتِّقاءُ الشِّرك بالله

حُذِفَ متعلِّق ﴿ٱلْمُتَّقِينَ﴾ لإفادة العموم، ليشمل المتقين الشِّرك والفواحش وغوايةَ إبليسَ، وكلَّ سوءٍ يُتَّقى منه، كما يحتمل أن يكون المراد المتَّقينَ الشِّرْكَ بِاللّه تَعالَى والكُفرَ به؛ لأنَّه المتبادر في مقابلة حالِ أهل جهنَّم التي تجمع الكافرين، ولأنَّ اتِّقاء الشِّرك أصلُ التَّقوى ومبدؤُها، فيكون المراد منهم المخلَصين الذين ذكرهم اللّه في قولِه:

(1) ابن جرير، جامع البيان: 14/75، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 10/32، والسعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 432.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/54.

﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾، وهم المقرّون قولًا واعتقادًا بتوحيدِ الله تعالى وبرسالة رسوله ﷺ، وسيأتي تقرير هذا المعنى عند الكلام على قوله تعالى: ﴿نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾[1].

دلالة اسم الفاعل في قولِه: ﴿ٱلْمُتَّقِينَ﴾:

لمّا كان لفظُ ﴿ٱلْمُتَّقِينَ﴾ اسمَ فاعلٍ، وكانت (ال) فيه للاستغراق؛ إذ هي اسم موصول؛ لدخولِها على الصِّفة الصَّريحة، وتقدير الكلام: إنَّ الذين اتَّقوا، وقد أفاد ذلك أنَّ جميع من اتَّصف بصفة التَّقوى في جنّات وعيون، وفي مجيء (ال) اسمَ موصولٍ إفادةٌ أخرى، وهي بيان السبب في حصول الجزاء من خلال صلةِ الموصول، والمعنى: أنَّ تقواهم هي سببُ استقرارِهم يومَ القيامةِ في جنّاتٍ وعيونٍ.

التَّقوى سببٌ لدخول الجنَّة والاستقرار فيها والتَّلذُّذ بنعيمِها

دلالة الإخبار في قوله: ﴿فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾:

لمّا جاء الإخبار بالجمع عن الجمع المفيد للاستغراق بدلالة (ال) في ﴿ٱلْمُتَّقِينَ﴾؛ احتمل أن يكون لكلِّ فردٍ من المتَّقين جنّاتٌ كثيرة وعيونٌ كثيرة، فيكون الجمعُ من الاستغراق الإفرادي، كما يحتمل أن يكون لكلِّ واحد منهم جنَّة وعين، فيكون من الاستغراق المجموعي على طريق مقابلة المجموع بالمجموع[2].

تنوُّع النِّعَم على المؤمنين في الجنَّة

سرُّ عطف ﴿وَعُيُونٍ﴾ على ﴿جَنَّٰتٍ﴾:

لمّا كان العطف يقتضي مشاركة المعطوف للمعطوف عليه في العامل؛ كان ظاهرُه أن تكون الظَّرفية المدلول عليها بـ﴿فِى﴾ داخلةً على المعطوف والمعطوف عليه، فأمّا كونهم مظروفين في الجنات؛ فظاهرٌ، فالمتَّقون في جنّات، وأمّا حلولهم في العيون؛ فلا يتصوَّر؛ لأنَّ

كمالُ انتفاع المتَّقين بالعيونِ التي في الجنَّة

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 19/147، والنسفي، مدارك التنزيل: 2/191، والخازن، لباب التأويل: 3/57.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/79، والآلوسيّ، روح المعاني: 7/301.

المقصود بكونِهم في العيون أن يروها، وتقع عليها أبصارُهم، وينتفعوا منها، وهو كقوله تعالى: ﴿يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ۝٥٣﴾ [الدخان: 53]، وإنَّما هم يلبسون السُّندسَ، فأمّا الإستبرق، فلا يُلبَسُ؛ لأنَّه من البُسط، فيكون المرادُ منه الانتفاعَ، ونكتة التَّعبير بالظَّرفية في العيون وفي الإستبرق كذلك، الإشعارُ بكمال الانتفاع بها بحيث كأنَّ العيونَ صارتْ ظرفًا يحويهم، فهي محدقة بهم من كلِّ ناحية، أو يقدَّر كلُّ ظرفٍ بحسبِه، فالمتَّقون في خلالِ جنّاتٍ وفي خلال عيونٍ، بمعنى: أنَّهم بين الجنّاتِ والعيونِ، وذهب بعض المفسِّرين إلى تقدير مضاف، أي: إنَّ المتَّقين في نعيم جنّاتٍ وعيون[1]، والوجه الأوَّل أولى وأظهر؛ لما فيه من كمال المعنى ولتخلُّصِه من التَّقدير.

سبب إيثار اقترانِ العيون بالجنّات:

تكثير نِعَمِ الجنَّة، فالعيونُ التي في الجنَّة مغايرةٌ للأنهار التي فيها

لما كان المرادُ بالجنّاتِ البساتينَ التي لها ظلال، والظلُّ والماءُ مطلوبان للعرب، ولكلِّ ما ذرأ الله من النسم؛ قرن إلى الجنّات العيونَ، وجعل ذلك بإزاء ما يُعذَّب به أهل جهنَّمَ، فيكونُ المرادُ مِنَ العُيونِ الينابيعَ المُغايِرةَ للأنْهارِ المذكورة في القرآن[2].

فائدة الجمع في قولِه: ﴿جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾:

كثرةُ مِنَنِ اللهِ على أهلِ الجنَّة

أفاد الجمع التَّكثير بمعنى يكونون في جنّات كثيرة وعيونٍ كثيرة[3]؛ إشعارًا بكثرة النِّعم وإظهارًا لمنَّته تعالى عليهم.

فائدة التَّنكير في قولِه: ﴿جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾:

جنّاتُ الآخرة تختلف عن جنّاتِ الدُّنيا في نوعِها وفي أوصافِها وفي حجمها

أفاد التَّنكير تعظيم الجنّات والعيون وتفخيمهما وتكثيرهما، فلا يُبلَغُ كُنهُها، ولا يقادر قدرها[4]، بمعنى: أنَّها جنّات ليس كسائر

(1) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 9/379، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/165، وزين الدين الرازي، أنموذج جليل في أسئلة وأجوبة عن آي التنزيل، ص: 487، وابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 3/6.

(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 19/147، والإسكافي، درة التنزيل، ص: 1205.

(3) زين الدين الرازي، أنموذج جليل في أسئلة وأجوبة عن آي التنزيل، ص: 487.

(4) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/165، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/138، والقنوجي، فتح البيان: 13/193.

الجنّات التي في الدنيا في نوعِها وأوصافِها، وعيونٌ ليست كسائر العيونِ التي في الدنيا كذلك.

بلاغة المجاز في الآية:

لمّا أخبر الله تعالى عن المتَّقين بأنَّهم في جنّاتٍ وعيونٍ - في قولِه: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾ - وكان بعضهم أحياءً لم يموتوا، كما أنَّ بعضهم لم يولدْ بعدُ؛ كان الإخبارُ عنهم بأنَّهم في جنّاتٍ وعيونٍ إما على طريقِ المجازِ المرسلِ؛ ليكونَ من قبيل تسمية الشيء بما يؤول إليه، بمعنى سيكونون في جنّات وعيونٍ، وإمّا على طريقِ مجاز التغليب؛ بأنْ غُلِّبَ مَنْ مات على مَنْ لم يمُتْ، ونكتة التَّعبير بالمجاز الإشعار بتحقُّق الوقوع، وأنَّه أمرٌ ثابتٌ، للعنايةِ بحال المؤمنين، فجَعَلَ ما يَسْتَقِرّونَ فِيهِ فِي الْآخِرَةِ كَأَنَّهُمْ مُسْتَقِرّونَ فِيهِ فِي الدُّنْيا، وَجاءَ حالُ الْغاوِينَ مَوْعودًا بِهِ فِي قَوْلِهِ: ﴿لَمَوْعِدُهُمْ﴾؛ لِأَنَّهُمْ لَمْ يَدْخُلوها[1].

ثباتُ المتَّقين على الإيمانِ في الدنيا يدلُّ على دخولِهم الجنَّة واستقرارِهم فيها يومَ القيامةِ

توجيه القراءات القرآنية في ﴿وَعُيُونٍ ۝٤٥﴾:

قرأ ابن كثير، وحمزة، والكسائي، وأبو بكر عن عاصم، وابن ذكوان عن ابن عامر ﴿وَعِيُونٍ﴾ بكسر العين، لمناسبة الياء، ففي القراءَةِ تخفيفٌ لفظيٌّ، وقرأ نافع وأبو عمرو وحفص وهشام بضمِّها، على الأصلِ[2].

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 6/482، وابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 3/6.
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 3/363، وأبو حيان، البحر المحيط: 6/482.

﴿ٱدۡخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ٤٦﴾ [الحجر: 46]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

تكريمٌ وتشريفٌ لقدومِ المؤمنين

لمّا أخبر الله تعالى أنَّ المتقين في جنات وعيون؛ بيَّن أنَّهم مرحَّبٌ بهم في الجنَّة، مسلَّمٌ عليهم، فيقال لهم: ﴿ٱدۡخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ﴾.

وأيضًا لمّا كان المَنزِلُ لا يَحسُنُ إلّا بالسَّلامةِ والأنسِ والأمنِ؛ قال تعالى: ﴿ٱدۡخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ﴾[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ءَامِنِينَ﴾: أصلُ الأمْن: طمأنينةُ النَّفس وزَوالُ الخَوفِ[2]؛ لأنَّها ثقة في الباطن إذا وُجِدَت؛ وُجِدَ الأمنُ، فالأمين والمؤمن أوصافٌ تورثُ الثِّقة والطُّمأنينة والأمن[3]، وللأمن معنيان مُتقاربان: أحَدُهُما الأمانَةُ الَّتي هي ضِدُّ الخيانَةِ، ومعناها سُكونُ القَلْبِ، والآخَرُ التَّصْديقُ[4]. يُقال: رَجل أمَنة، بِالفَتْح، للَّذي يُصدِّق بكُلِّ ما يَسمع، وَلا يكذِّب بِشَيءٍ[5]، ورَجُلٌ أمَنَةٌ أيْضًا: إذا كانَ يَطمئنُّ إلى كُلِّ أحدٍ، والإيمانُ: ضدُّ الكُفْرِ. والإيمان: بِمَعْنَى التَّصْدِيق، ضدُّه التَّكْذِيبُ، يُقالُ: آمَنَ بِهِ قومٌ، وكذَّب بِهِ قومٌ، فأمّا آمَنْتُه المُتَعَدِّي؛ فَهوَ ضدُّ أخَفْتُه[6]. والمقصود بالأمن في الآية: النَّجاةُ مِنَ الخَوفِ.

المَعْنى الإجْماليُّ:

تحيَّة طيِّبة، يُؤذن بها للمؤمنين بدخول الجنَّة

يُقالُ للمُتَّقينَ يومَ القيامةِ: ادخُلوا الجنَّةَ مُسَلَّمًا عليكم، سالِمينَ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 11/63.
(2) الراغب، المفردات، والزبيدي، تاج العروس: (أمن)، والمناوي، التوقيف على مهمات التعاريف، ص: 63.
(3) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (أمن).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أمن).
(5) الأزهري، تهذيب اللغة: (أمن).
(6) ابن منظور، لسان العرب: (أمن).

من كلِّ داءٍ وآفةٍ، آمِنينَ مِنَ الموتِ والعذابِ والهُموم والغُموم والأمراضِ، ومن انقطاعِ النَّعيم أو نُقصانِه، ومِن سائرِ المُكَدِّراتِ[1].

وقال ابنُ عاشور: قولُه: ﴿ٱدۡخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ﴾؛ السَّلامُ ظاهرٌ في التحيَّة؛ لتقييدِه بـ ﴿ءَامِنِينَ﴾، ولو كان السَّلامُ مُرادًا به السَّلامةُ؛ لكان التَّقييدُ بـ﴿ءَامِنِينَ﴾ تَوكيدًا، وهو خلافُ الأصلِ[2]، ولا مانع من إرادة السلامة؛ إذ السلامة متقدمة على الأمن، فهي ماضية أو حاضرة، والأمن حاضر ممتدٌّ إلى المستقبل، ولذلك غُلِّبَ الخوف الذي هو ضد الأمن على ما يستقبل.

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

براعة التعبير بقولِه: ﴿ٱدۡخُلُوهَا﴾:

سرعةُ دخول المتَّقين الجنَّة من غيرِ انتظارٍ

لمّا أخبر الله تعالى أنَّ المتقين في جنّاتٍ وعيونٍ؛ بيَّن أنَّهم عند دخولِهم فيها يقال لهم: ﴿ٱدۡخُلُوهَا﴾، فصيغة الأمر على تقدير قولٍ محذوفٍ، تقديره: (يقال لهم) بطريق الاستئناف؛ إذ ربْطُ الجملة بما قبلها إنَّما يكون به[3]، ونكتة حذفه الإشعار بسرعةِ دخولِهم في الجنَّة من غيرِ انتظارٍ.

نكتة التعبير بلفظ ﴿بِسَلَٰمٍ﴾:

سلامةُ المتَّقين في الجنَّةِ من زوال النِّعم وحلولِ النِّقم

لمّا كانت الباء للمصاحبة؛ أفاد التعبير أنَّ دخولَهم الجنَّة مصحوبٌ بالسلامةِ، ولمّا جاء اللفظ في سياق الامتنان والإكرام[4]؛ أفاد عمومَ السَّلامة، والمعنى: ادْخُلوا الْجَنَّةَ مَعَ السَّلامَةِ من زوال النِّعم وحلولِ النِّقم، ومن كلِّ أذًى في الحالِ والاستقبال، أي: مَعَ

(1) ابن جرير، جامع البيان: 14/75، وابن عطية، المحرر الوجيز: 3/363، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 10/32.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/59.

(3) الزمخشري، الكشاف: 2/579، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 3/212، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 11/168، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/55.

(4) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 2/347.

الْقَطْعِ بِبَقاءِ هَذِهِ السَّلامَةِ، فيكون لفظ ﴿بِسَلَٰمٍ﴾ مصدرًا لِسَلِمَ يَسْلَمُ، ويحتمل أن يكون المراد من السلام القول بمعنى التحيَّة، أي: إنَّ دخولَهم الجنَّةَ مصحوبٌ بسلام الملائكة عليهم، ليفيد التَّرحيبَ بهم، فهو أبلغ في الإكرامِ، أو ادخلوا الجنَّة بأن يسلِّم بعضكم على بعضٍ، على وفقِ ما أمرهم في الدنيا أن يجعلوا الدخول في المنازل بالسلام، فيكون ﴿بِسَلَٰمٍ﴾ اسمَ مصدرٍ بمعنى التَّسليم[1]، ولا مانع من إرادة كل هذه المعاني على طريقة القرآن في إيجازه وبلاغته بذكر الكلمات القليلة التي تحتمل المعاني الكثيرة.

دلالة الحال في قولِه: ﴿بِسَلَٰمٍ﴾:

الجار والمجرور في محلِّ نصبٍ حالٌ من الضمير في ﴿ٱدۡخُلُوهَا﴾؛ للإيذان بأنَّهم في سلامةٍ من وقتِ دخولِهم في الجنَّة مع استمرار هذه السلامة وعدم انقطاعِها، أو يكون التَّسليم واقعٌ وقتَ دخولِهم كنايةً عن الإكرام والتَّرحيب بهم.

المتَّقون في سلامةٍ من وقتِ دخولِهم الجنَّة مع دوامِها

براعة التعبير بلفظ ﴿ءَامِنِينَ﴾:

لمّا حذف متعلِّق اسم الفاعل ﴿ءَامِنِينَ﴾؛ أفاد ثباتَ الوصفِ وعمومَ المعنى، أي: ادخلوها بسلامٍ حالَ كونِكم آمنين من الخروج منها، وآمنين من سخط الله وعذابِه، وآمنين من الموت، وآمنين من الخوف، وآمنين من المرض، وآمنين من كلِّ الآفاتِ[2].

المتَّقون آمنون من الخروجِ من الجنَّة ومن كلِّ ما يقطعُ متعتهم فيها

دلالة الحال في قولِه: ﴿ءَامِنِينَ﴾:

أخبر عن حالِ المتَّقين الذين يدخلون في جنّاتٍ وعيونٍ بحالين، على معنى التأسيس، لتفيد الحال الأولى معنى السلامة من الآفات، وتفيد الحال الثانية ﴿ءَامِنِينَ﴾ معنى الأمن من الخروج منها، ومن

مجيء الحالين على التَّأسيس للإيذانِ بخلودِ المؤمنين في الجنَّة

(1) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 6/444، والرّاغب، المفردات: (سلم)، والبغوي، معالم التنزيل: 3/60، والزمخشري، الكشاف: 2/597، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 19/148.

(2) الماوردي، النكت والعيون: 3/162، والواحدي، التفسير البسيط: 12/611.

كلِّ الآفات – كما تقدَّم – ففي الجمع بين الحالين إشعارٌ بخلودِهم فيها، وإذا كان السلام بمعنى التَّحيَّة؛ كان السلامُ صفةً للقائلين، والأمنُ صفةً للداخلين، والمعنى: يقال لهم: بسلام ادخلوها آمِنِينَ، وذهب بعض المفسِّرين إلى أنَّ ﴿ءَامِنِينَ﴾ بدل من ﴿بِسَلَٰمٍ﴾، ليكونَ بدلَ اشتمالٍ؛ لأنَّ الأمنَ مشتمل على التَّحيَّة[1]، ليفيد مجموع البدل والمبدل منه تمام الإيضاح والبيان وتقريرَ المعنى، أي: هم في سلامة وأمن وأمان حالَ كونِهم في جنّات وعيونٍ.

توجيه القراءات القرآنية في الآية:

قرأ الجمهور: ﴿وَعُيُونٍ ۝٤٥ ٱدۡخُلُوهَا﴾، وروي عَنْ روَيْسٍ عن يعقوب الحضرمي بِضَمِّ التَّنْوِينِ من ﴿وَعُيُونٍ﴾، وَبكَسْرِ الْخاءِ من (أُدْخِلوها)؛ ليكون الفعل مبنيًّا للمفعول، والفعل من (أدخل) الرُّباعي، والهَمْزَةُ للقَطْعِ نُقِلَتْ حَرَكَتُها إلَى تَنْوِينِ ﴿وَعُيُونٍ﴾، في حالِ الدَّرج، ليفيدَ أنَّ الإدخالَ في الجنَّة قد وقعَ، وجاء الفعل ليخبر عنهم من غيرِ ذكرٍ لِلفاعل؛ لأنَّ محطَّ النَّظر إلى الدّاخل، وعلى قراءة الجمهور يكون الفعلُ مبنيًّا للفاعل، بصيغة الأمرِ من (دخلَ)، والهمزة للوصل تسقطُ في الإدراج، أي: (يقال لهم ادخلوها) – كما تقدَّم – ويكون الكلام موجَّهًا للمؤمنين بصيغة الطَّلب للتَّرحيب بهم قبلَ دخولِهم الجنَّة[2]، وبمجموع القراءتين يتأكَّد أنَّهم يقال لهم عند الدخول: ﴿ٱدۡخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ﴾، ويُخْبَر عنهم بعد الدخول بأنَّهم أُدْخِلوا الجنة: ﴿بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ﴾.

(1) أبو البقاء العكبري، التبيان: 4/79، والنسفي، مدارك التنزيل: 2/191، وابن عادل، اللباب في علوم الكتاب: 11/463، وابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 3/6، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/55.

(2) الأزهري، معاني القراءات: 2/69، وابن عطية، المحرر الوجيز: 3/363، وابن الجزري، النشر: 2/301.

﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴿٤٧﴾﴾

[الحجر: 47]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

صفاء قلوب المؤمنين في الجنَّة عنوانُ دخولِهم فيها

لمّا كان الأُنسُ لا يكمُلُ إلّا بمعايشة نفس النوع والجنسِ معَ كمالِ المودَّةِ وصفاءِ القلوبِ عن الكَدَرِ؛ قال تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَنَزَعْنَا﴾: أصلُ (نزع): يَدُلُّ على قَلْعِ شَيْءٍ وإزالته بجَذْبٍ قَوِيٍّ[2]. النَّزْعُ: الإزالَةُ بِعُنْفٍ؛ لِئَلّا يَبْقَى اتِّصالٌ بَيْنَ المُزالِ، وبَيْنَ ما كانَ مُتَّصِلًا بِهِ، وَمِنْهُ نَزْعُ الثِّيابِ، ومنه: نَزْعُ العَداوة والمَحبَّة من القَلْب، والنَّزْعُ عن الشَّيء: الكَفُّ عنه، والنُّزوعُ: الاشتياق الشَّديد[3]. وانتزَع الشَّيءُ: انقلَع، ونزَع الأميرُ العامِلَ عَنْ عَمَلِهِ: أزالَه، وهو على المثَل؛ لأنَّه إذا أزالَه؛ فَقَدِ اقْتَلَعَه[4]. والمَنْزَعة قوَّة عزم الرَّأْي والهمَّة، وَيُقالُ للرَّجُل الجيِّد الرَّأْي: إنَّه لجيِّد المَنْزَعة[5]. والنَّزع المقصود به في الآية: قَلْعُ الشَّيْءِ مِنْ مَوضِعِهِ، والمرادُ: إزالَةُ ما كانَ في قُلوبِهِم في الدُّنْيا مِنَ الغِلِّ عندَ تَلَقِّي ما يَسوءُ مِنَ الآخرين[6].

2) ﴿غِلٍّ﴾: أصلُ الكلِمَة يدلُّ على تَخَلُّلِ شَيْءٍ في شَيْءٍ وثَباتِه بحدَّة وقوة، كالشَّيْءِ يُغْرَزُ، مِن ذلكَ قَولُ العَربِ: غَلَلْتُ الشَّيْءَ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 11/63.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (نزع).
(3) الراغب، المفردات: (نزع)، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 27/193.
(4) ابن منظور، لسان العرب: (نزع).
(5) الأزهري، تهذيب اللغة: (نزع).
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 8/131.

في الشَّيْءِ، إذا أَثْبَتَّهُ فيه، كأنَّهُ غَرَزْتَهُ[1]؛ ومنه سُمِّي الغِلُّ؛ لأنَّ الحِقْدَ يَتَخَلَّلُ الصَّدْرَ، والغِلُّ أيضًا: الغِشُّ والعَداوَةُ، مصدرُ الفِعْلِ غَلَّ، فيُقال: غَلَّ صَدرُهُ، يَغِلُّ: إذا غشَّ؛ وحَقَد، والغَلِيلُ: الحِقْدُ والحَسَدُ كالغِلِّ[2]. والمقصود بالغلِّ في الآية: البُغْضُ.

3) ﴿سُرُرٍ﴾: أصلُ (سَرَّ): يدلُّ على إخْفاءِ الشَّيْءِ، وما كانَ مِنْ خالِصِهِ وَمُسْتَقَرِّهِ، لا يَخْرُجُ شَيْءٌ منه عن هذا، فالسِّرُّ: خلاف الإعلان، يقال: أَسْرَرْتُ الشَّيءَ إسْرارًا، خِلافَ أَعْلَنْتُهُ، ومنه السُّرورُ؛ لِأَنَّهُ أَمْرٌ خالٍ مِنَ الْحُزْنِ[3]. والسَّرِيرُ: المُضطَجَعُ الَّذي يُجلَس عليه من السُّرور؛ إذ كان ذلك لأولي النِّعمة، وجمعه أَسِرَّةٌ، وسُرُرٌ، قال تعالى: ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ﴾ [الطور: 20]، ﴿فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ﴿١٣﴾﴾ [الغاشية: 13]، وسَرِيرُ الميِّت تشبيهًا به في الصّورة، وللتَّفاؤل بالسُّرور الَّذي يلحق الميِّت برجوعه إلى جوار الله تعالى[4]. والسَّرِيرُ: مُسْتَقَرُّ الرأْس والْعُنُقِ، وسَرِيرُ العيشِ: خَفْضُهُ ودَعَتُه وَما اسْتَقَرَّ واطمأنَّ عليهِ[5]. والمقصود بالسُّرُرِ في الآية: جَمْعُ سَرِيرٍ، وهو محملٌ كالكُرسِيِّ مُتَّسِعٌ يُمْكِنُ الاضْطِجاعُ عليهِ[6].

4) ﴿مُّتَقَٰبِلِينَ﴾: أصلُ (قبل): أَصْلٌ واحِدٌ صَحِيحٌ تَدُلُّ كَلِمُهُ كُلُّها على مواجَهَةِ الشَّيْءِ لِلشَّيْءِ بِمُقدَّمِه، فالْقُبُلُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ: خِلافُ دُبُرِهِ، وذلكَ أنَّ مُقَدَّمَهُ يُقْبِلُ على الشَّيْءِ، والقِبْلَةُ سُمِّيَتْ قِبْلَةً؛ لإِقْبالِ النّاسِ عليها في صَلاتِهِم، وهي مُقْبِلَةٌ عَلَيْهِمْ أيْضًا[7]. وقابَلَ الشَّيْءَ بِالشَّيْءِ مُقابَلَةً وقِبالًا: عارَضَهُ، وتَقابَلَ القومُ: اسْتَقْبَلَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا[8]. والمُقابَلَةُ والتَّقابُلُ: أن يُقْبِلَ بعضهم على بعض، إمّا بالذّات، وإمّا بالعناية والتَّوفُّر والمودَّة، قال تعالى: ﴿مُّتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿١٦﴾﴾ [الواقعة: 16][9]. والمراد بالتَّقابُلِ في الآية: كَوْنُ الواحِدِ يُقابلُ غَيْرَه بوجهه، وهو أُدْخِلَ في التَّأَنُّسِ بالرُّؤْيةِ والمُحادثةِ[10].

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (غل).
(2) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن سيده، المحكم، وابن الأثير، النهاية، وابن منظور، لسان العرب: (غل).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سر).
(4) الراغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (سرر).
(5) ابن منظور، لسان العرب: (سرر).
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/56.
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (قبل).
(8) ابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (قبل).
(9) الراغب، المفردات: (قبل).
(10) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/56.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

الأُنسُ لا يَكمُلُ إلّا بمَن هم مِن جنسِهم مع كمالِ المودَّةِ، وصَفاءِ القُلوبِ عن الكَدَرِ

واقتَلَعْنا، وأخرَجْنا ما في صُدورِ هؤلاء المتَّقينَ مِن الحِقدِ والبُغضِ والحَسَدِ، الذي كان بينَهم في الدُّنيا، حالَ كونِهم إخوانًا، يكونونَ على الأسِرَّةِ بعضُهم في مقابِلِ بَعضٍ، ينظُرونَ إلى وُجوهِ جُلَسائِهم، ولا يَنظُرُ بعضُهم إلى قَفا بعضٍ، وأوَّلُ مَن يدخُلُ في هذا العُمومِ أصحابُ النبيِّ ﷺ فيما شجَرَ بينهم من الحوادث الدّافعِ إليها اختلافُ الاجتهاد في إقامة مصالح المسلمين، والشِّدَّةُ في إقامة الحقِّ على حسَبِ اجتهادِهم، كما دلَّت الآية على تزاوُرِ أهلِ الجنَّةِ، واجتماعِهم، وحُسنِ أدَبِهم فيما بينهم؛ في كَونِ كُلٍّ منهم مُقابِلًا للآخَرِ، لا مُستدبِرًا له، متَّكِئينَ على تلك السُّرُرِ المُزَيَّنةِ بالفُرُشِ واللُّؤلؤِ وأنواعِ الجواهِرِ[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

مناسبة الوصل بالواو في قولِه: ﴿وَنَزَعْنَا﴾:

الإخبارُ عن حالِ المتَّقين بعدَ معرفةِ مكانِهم وموضعِ استقرارِهم

لمّا أخبر الله تعالى عن المتَّقين بأنَّهم في جنّاتٍ وعيونٍ؛ عطف على الخبر جملة: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾؛ لتكون هذه الجملة خبرًا آخر عن المتَّقين، والتقدير: وإنّا نَزَعْنا ما في صُدورِ المُتَّقينَ مِنْ غِلٍّ[2]، أي: بعد أن أخبر عن مكانِهم يومَ القيامةِ، أخبر عن حالِهم عند اجتماعِهم في ذلك المكانِ.

براعة الاستعارة في قولِه: ﴿وَنَزَعْنَا﴾:

إزالةُ الغلِّ من صدورِ المؤمنين في الجنَّة من نعمِ الله عليهم

النَّزْعُ حَقيقَةً: هو إزالَةُ الجِرْمِ مِنْ مَكانِهِ وقلعه من موضعه بقوَّةٍ وسرعةٍ، كَنَزْعِ الدَّلْوِ والثَّوْبِ، ونزع القوس عن كبده، فلمّا تعلَّق النَّزع بالغلِّ الذي هو معنى كامنٌ في الصَّدر؛ كان مجازًا بطريق الاستعارة

(1) ابن جرير، جامع البيان: 14/75، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 10/32، والسعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 431، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/55.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/55.

المكنيَّة، بتشبيه المَعْنَى المُتَمَكِّنِ بِالذّاتِ المُتَّصِلَةِ بِالمَكانِ وتشبيه إزالة وصفِ الغلِّ من صدور المؤمنين دفعةً واحدةً بحيث لا يبقى له أثرٌ بنزعِ الجرمِ من مكانِه المتمكِّن فيه وقلعِه منه، ثم حُذِف المشبَّه به، وكُنِّيَ عنه بالنَّزع الذي هو من لوازمِه، ووجه الشَّبه تمكُّن كلٍّ في موضعِه بحيث يصعب قلعُه في العادة، وَنَزْعُ الغِلِّ مِنْ صدور أَهْلِ الجَنَّةِ هوَ إزالَةُ ما كانَ فِي قُلوبِهِمْ فِي الدُّنْيا مِنَ الحقد والضَّغينةِ والحسدِ، أي: أزالَ اللّه تعالى الغِلَّ وأسبابَه، وأزالَ طِباعَ الْغِلِّ الَّتِي فِي النُّفوسِ الْبَشَرِيَّةِ بِحَيْثُ لا يَخْطُرُ فِي نُفوسِهِمْ أبدًا[1].

نكتة التَّعبير بلفظ ﴿وَنَزَعْنَا﴾:

عُبِّرَ بـ﴿وَنَزَعْنَا﴾ دون (انتزعنا) للإيذان بأنَّ نزعَ الغِلِّ من صدور المؤمنين يسيرٌ على اللّه تعالى، ولمّا كانت الصّيغة يأتي منها فعل معنى المطاوعة، فيقال: (نزعته، فانتُزِعَ)؛ أفادت قبول المؤمنين نزعَ الغِلِّ من صدورِهم من غيرِ مشقَّةٍ أو كلفةٍ عليهم، بحيث لا يحتاج إلى أصل المطاوعة.

سرعة انتزاعِ الغلِّ من صدور المؤمنين في الجنَّة من غيرِ كلفةٍ عليهم

بلاغةُ مجيء قولِه: ﴿وَنَزَعْنَا﴾:

يحتمل أن يكون قد عُبِّرَ عن المستقبل بِلَفْظِ الْماضِي، وهو المناسبُ للمقام؛ لأنَّه في سياق ذكر ما يناله المؤمنون في الجنَّة، فعُبِّرَ بالماضي؛ لِلإيذانِ بتَحَقُّقِ وُقوعِهِ وتقرُّره، والمعنى: وَنَنْزِعُ ما فِي صُدورِهِمْ مِنْ غِلٍّ؛ إذا دخلوا الجنَّة، أو قبل دخول الجنة مباشرة، فلا تبقى عداوةٌ ولا ضغينةٌ، قد وقعَت في الدنيا، ولا يبقى تحاسدٌ بسبب تفاضل منازلهم وتفاوت مراتبهم في الجنة، فنَزَعَ اللّه ذلك من قلوبهم، وطَيَّبَ سبحانه نفوسَهم، وطَهَّرَ ﷻ قلوبهم من أن يتحاسدوا على الدرجات في الجنَّةِ، وعلى هذا فما كان من جفاء أو

لا يكون بين المؤمنين إلا التوادُّ والتعاطف

(1) الواحدي، التفسير البسيط: 9/138، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (نزع)، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/213، 8/131.

عداوةٍ أو حقدٍ بين اثنين أو أكثر في الدنيا ينزعه اللّه منهم في الجنَّة، فيكونون إخوانًا على سررٍ متقابلين، والتَّعبير بالماضي عن المستقبل كثيرٌ في الْقُرْآنِ كَقَوْلِهِ تَعالَى: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ﴾ [الأعراف: 44]، ويحتمل أن يكون التَّعبير بالماضي على ظاهرِه، وهو المناسب للصّيغة، والمعنى: نزع اللّه ما في صدور المؤمنين من غلٍّ في الدنيا، فألَّفَ بينَ قلوبِهم بالإيمانِ، كما يحتمل أن تُحمل الصِّيغةُ على النَّزع في الدنيا وفي الجنَّة معًا، فيكون التَّعبير بالماضي على طريقة التَّغليب، وهو أوفى بالمرام، فلا يكون بين المؤمنين إلا التوادُّ والتعاطف، ومن لطائف نزع الغلِّ أنَّ صاحبَ الغِلِّ متعذِّبٌ به، ولا عذابَ في الجنَّة[1].

نكتة التعبير بنون العظمة في ﴿وَنَزَعۡنَا﴾:

عُبِّرَ بنون التَّعظيم للإشعار بأنَّ نزعَ الغلِّ من الصُّدور لا يكون إلّا من الملك الواحدِ الأحد، لقوَّة تمكُّنه في مكامنِ الصُّدور، ففيه إشعارٌ إلى أنَّ من يريدُ نزعَ الغلِّ من صدرِه؛ فعليه التَّوجُّه إلى اللّه تعالى الذي بيدِه الأمرُ.

نـزْعُ الغـلِّ من الصُّدور لا يكون إلّا مـن الملك الواحدِ الأحد

دلالة قولِهِ: ﴿وَنَزَعۡنَا﴾ بين الصَّريح والكناية:

في قولِه تعالى: ﴿وَنَزَعۡنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنۡ غِلٍّ﴾ يحتمل أن يكون النَّزعُ المذكور بمعنى استخراجِ الغلِّ من صدور المؤمنين؛ إذا دخلوا الجنَّة، فيكون الكلام على مقتضى الظّاهر، ويحتمل أن يكون على خلاف مقتضى الظّاهر، بأن يكونَ النَّزْعُ لِلْغِلِّ كِنايَةً عَنْ خَلْقِهِمْ في الْآخِرَةِ سالِمِي الْقُلُوبِ طاهِرِيها مُتَوادِّينَ مُتَعاطِفِينَ[2]، فلا نزعَ على الحقيقةِ ولا منزوع، فيكون الكلام على خلاف مقتضى الظّاهر.

بلاغة القرآن بالجمع بين الحقيقة والكناية

(1) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 6/445، والواحدي، التفسير البسيط: 9/139، والزمخشري، الكشاف: 2/580، وابن عطية، المحرر الوجيز: 2/401، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/228، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 11/168، 169، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 8/131.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 5/53.

دلالة الاسم الموصول ﴿مَا﴾:

عبِّرَ بالاسم الموصول ﴿مَا﴾ دون (الذي) في قولِه: ﴿مَا فِي صُدُورِهِم﴾؛ لِأنَّه أكثر إبهامًا وعمومًا، فإنَّه لمّا قال ﴿مَا فِي صُدُورِهِم﴾؛ أفادَ العمومَ، ولمّا قال ﴿مِّنْ غِلٍّ﴾؛ قيَّدَ المرادَ من الاسم الموصول، وكأنَّ الغِلَّ إذا كان في الصُّدور؛ امتلأت بالأوصاف القبيحة من العداوة والشَّحناء والبغضاء والحقدِ والحسد، فالغلُّ أساسُها ومنبعُها، أو يقال: لمّا أُطلق الغِلُّ على الشحناء والعداوة والبغضاء والحقد والحسد؛ كانت كلُّ هذه الخصال المذمومة داخلة في الغِلِّ؛ لأنَّها كامنةٌ في القلب، فعُبِّرَ عنها بلفظ العموم؛ لتناول الغِلِّ لجميعِ الخصالِ المذمومة الكامنة في القلوب[1].

الغلُّ أساسُ الشَّرِّ ومنبعُ الاتِّصافِ بالقبائحِ

دلالة قولِه: ﴿مِّنْ غِلٍّ﴾:

الجارُّ والمجرور في موضعِ الحال بتقدير كائنًا من غلٍّ[2]، لتقييد ما هو في صدور المؤمنين وبيان هيئتِه، فيكون الغِلُّ جامعًا لكلِّ الخصالِ المذمومةِ الكامنة في القلوب كما تقدَّم.

الغِلُّ وصفٌ جامعٌ لكلِّ الخصالِ المذمومةِ الكامنة في القلوب

فائدة ﴿مِّنْ﴾ في قولِه: ﴿مِّنْ غِلٍّ﴾:

حرف الجرِّ ﴿مِّنْ﴾ لبيانِ إبهامِ جنسِ ﴿مَا﴾[3]، و﴿غِلٍّ﴾ هو المبيِّن، لِيفيد عِظَمَ تغلغل الخصال المذمومة الكامنةِ في الصُّدور، فهي خفيَّةٌ، ومنبعُها هو الغلُّ.

البيان بعد الإبهام

بلاغة الاستعارة في لفظ ﴿غِلٍّ﴾:

نجد في قولِه تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾ أنَّهُ لمّا كان أصلُ الغِلِّ هو الثَّوب الذي يتدرَّع به الإنسانُ؛ كان إطلاقه على الضَّغينةِ - وما يكون منها من العداوة والحقدِ والإحَنِ، الَّتي تَحْصُلُ فِي النَّفْسِ عِنْدَ إدْراك ما يسوؤها مِنْ عَمَلِ غَيْرِها - على طريقة

تشبيهُ الغِلِّ بالثَّوب الخفيِّ عن العيونِ

(1) الخازن، لباب التأويل: 3/58.
(2) العكبري، التبيان في إعراب القرآن: 1/569، والهمذاني، الكتاب الفريد في إعراب القرآن المجيد: 3/52.
(3) السمين الحلبي، الدر المصون: 5/323، وابن عادل اللباب في علوم الكتاب: 9/117.

الاستعارة؛ إذ شُبِّهَت الضَّغينةُ والأوصافُ القبيحةُ التي تكمن في الصُّدور، فتكون خفيَّةً بما يلبسُ بين الثَّوبين، لتغلغل الضَّغينةِ وغيرِها بلطفٍ وحيلةٍ في داخل الصَّدر، فتكون كامنةً فيه[1].

سبب إيثار الحال في قولِه: ﴿إِخۡوَٰنًا﴾:

أخوَّة الجنَّة أعظمُ من أخوَّة الدنيا وأدومُ وأخلصُ

لمّا أخبر الله تعالى أنَّ المتَّقين في جنات وعيون، وأنَّه نزع ما في صدورِهم من غلٍّ؛ بيَّن هيئتهم في الجنَّة، فهم إخوانٌ في الإيمانِ والمودَّة والمخالصةِ، وإنَّما جاء بطريق الحال لما يشعر به الحالُ من تصوير هيئتهم، وبيانِ حالِهم الدائم في الجنَّة، وأجاز بعض المفسِّرين أن يكون منصوبًا على المدح للإشعار بعظمِ أخوَّتهم في الجنَّة، وأنَّها أعظم من أخوَّة الدُّنيا[2].

دلالة قوله: ﴿عَلَىٰ سُرُرٖ مُّتَقَٰبِلِينَ﴾:

تزاورُ أهلِ الجنَّة واجتماعُهم فيها وحسنُ أدبِهم بينهم بالتَّقابلِ دونَ التَّدابرِ

يحتمل أن يكون ﴿عَلَىٰ سُرُرٖ﴾ و﴿مُّتَقَٰبِلِينَ﴾ حالين آخرين، فيكون في الجملة ثلاثة أحوال، هي كونهم إخوانًا متآلفين متعاطفين، وعلى هيئةٍ مخصوصةٍ من الجلوس على سررٍ، فهم في مجلسٍ رفيعٍ موطَّأٍ مرتاحين مسرورين[3]، وعلى هيئة التَّقابل في الوجوه ينظر بعضهم إلى وجوه بعضٍ متصافِين، فإنَّ التقابل يقتضي صفاء القلوبِ، كما يحتمل أن يكونا صفتين لـ﴿إِخۡوَٰنًا﴾[4]، لتقييد أخوَّتِهم بكونِها على سرر ومتقابلين، ليفيد دوامَ أُلفتهم ومحبَّتِهم وسرورِهم في أخوَّتهم، ففيه تعظيمٌ لشأنِ الأخوَّة في الدين.

سرُّ التعبير بكلمة ﴿عَلَىٰ﴾:

علوُّ مكانتهم في نعيم الجنان

في التعبير بكلمة ﴿عَلَىٰ﴾ في قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ سُرُرٖ مُّتَقَٰبِلِينَ﴾

(1) الواحدي، التفسير البسيط: 9/138، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 11/169.

(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 3/364، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 19/148، وأبو حيّان، البحر المحيط: 6/483.

(3) الخطيب الشربيني، السراج المنير: 2/204، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/80.

(4) أبو البقاء العكبري، التبيان: 1/569، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 3/212.

إشارة إلى عُلوِّ مكانتهم ورفعة منزلتهم وتمكُّنهم من الأسرة، وغير ذلك مما يدلُّ على جملة من أنواع النعيم.

فائدة تردُّد المتعلَّق بين الذكر والحذف:

قلة الكلمات وكثرة المعاني

يحتمل أن يتعلَّق قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ﴾ بمحذوف، تقديره متكئين على سرر متقابلين، ودلَّ على هذا قوله تعالى: ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍۖ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ۝٢٠﴾ [الطور: 20]، وقريب منه قوله سبحانه: ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ۝١٥ مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَٰبِلِينَ ۝١٦﴾ [الواقعة: 15 - 16]، ويحتمل أن يتعلَّق بقوله: ﴿مُّتَقَٰبِلِينَ﴾، ودلَّ على هذا الاحتمال قوله تعالى: ﴿فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ۝٤٣ عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ۝٤٤﴾ [الصافات: 43 - 44]، وكل هذه الاحتمالات صحيحة، وكلُّ هذه المعاني متحقِّقة وزيادة.

نكتة التعبير بلفظ ﴿مُّتَقَٰبِلِينَ﴾:

ما أحلى الاجتماع مع الأصحاب! وما أمرَّ الاجتماعَ مع الأضداد!

لمّا كان التقابل بمعنى التواجه، وهو نقيض التدابر؛ أفادَ دوامَ تقابلهم، فهم في جميع أحوالهم متقابلين في الوجوه، والمواجهةُ أشْرَفُ الْأَحْوالِ، وأحسنُ في الرُّتبةِ والأنسِ وفي التَّلاقي والمحادثة، وفيه كنايةٌ عن اجتماعِهم وأُلفتِهم ومودَّةِ بعضِهم بعضًا، وتواصلهم وتصافيهم وخلوص محبَّتِهم، وهو مناسب لنزع الغِلِّ، فإنَّ الغِلَّ يقتضي التَّدابرَ حسًّا ومعنًى[1].

توجيه المتشابه اللفظي في الآية:

أوفى وصفٍ بعدَ تطهيرِ القلوبِ من الغلِّ هو الأخوَّة في الإيمانِ

جاء في هذه السّورة قولُ اللّه تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا﴾ بزيادة ﴿إِخْوَٰنًا﴾، وقال تعالى في موضعٍ آخر: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُۖ﴾ [الأعراف: 43]، والتَّوجيه فيهما هو أنَّ آية سورة الحِجر نزلت في أصحاب رسول اللّه ﷺ،

(1) الواحدي، التفسير البسيط: 12/613، وابن عطية، المحرر الوجيز: 3/364، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 19/148.

وآية سورة الأعراف نزلت في عامَّة المؤمنين[1]، كما أنَّه في سورة الحِجر لمّا كان المرادُ تعدادَ أحوالِهم عندَ اجتماعِهم في الجنَّة بقلوبٍ صافيَةٍ، قد نُزِعَ منها الغِلُّ من كونهم على سرر متقابلين، ولا يمسُّهم فيها نصبٌ وتعبٌ وما هم عن الجنَّة بمخرجين؛ ناسب أن يُسبَقَ الكلامُ بذكر أوفى وصفٍ بعدَ تطهيرِ القلوبِ من الغِلِّ، وهو أُخوَّتهم في الإيمانِ، وأمّا في سورة الأعراف؛ فقد اكتفى بذكر أهمِّ وصفٍ عندَ دخولِهم الجنَّة، وهو نزعُ الغِلِّ من صدورِهم من دون ذكر أحوالِهم عندَ الاجتماع لمناسبة ذكر نعيمهم فيها وشكر الله على هدايتِهم.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الغِلُّ والضغينة والحقد والحسد:

نـزْعُ الـغِـلِّ من صـدور المؤمنين في الجنَّة تصفيةٌ لجميعِ الخِصالِ المذمومةِ

الغِلُّ بالكسرِ هو ما يتخلَّل القلب، ويخالطُه ممّا يوجب العداوة والشَّحْناء، ويبقى فيه كامنًا، وينتج منه الحقدُ والضَّغينةُ والحسدُ والبغضاء وغيرها من الخصال المذمومة، ولهذا عُرِّفَ الغِلُّ بالغِشِّ والعَداوةِ والضِّغْنِ والحقْدِ والْحَسَدِ، فالغِلُّ أعمُّ، ومنه تنشأ الصفاتُ المعنويَّةُ المذمومةُ، ولهذا كان نزعُ الغِلِّ من صدور المؤمنين في الجنَّة تصفيةً لجميعِ الخِصالِ المذمومةِ التي تكونُ في القلوبِ، ولو قيل: (ونزعنا ما في صدورهم من حقدٍ) مثلًا، أو (من ضغينةٍ أو من حسدٍ)؛ لقيل: وما حالُ الأوصاف الذميمةِ الأخرى، فعُبِّرَ بالغلِّ للإيذانِ بنزعِ جميعِ الخصالِ القبيحةِ، وذهب القرطبيُّ إلى أنَّ الغِلَّ هو الحقْدُ الكامنُ في الصَّدر، وعلى هذا القول يكون الفرقُ بينَ الغِلِّ والحقدِ: أنَّه لمّا كانَ الحقدُ إمساكَ العداوةِ في القلبِ والتَّربُّصَ بمَن يحقد عليه؛ كان الحقدُ على معنى إضمار الشَّرِّ، ولا يكون كامنًا

(1) زكريا الأنصاري، فتح الرحمن: 1/298.

ومتلبِّسًا بالقلب مثل الغِلِّ، كما أنَّ الغِلَّ هو حقدٌ مضمَّن معنى الحسدِ فيكون الغِلُّ أعمَّ من الحقدِ وأشدَّ تمكُّنًا في القلب منه، والفرق بين الحقد والضَّغينة: هو أنَّ الضَّغينةَ هي الحقد الغليظ الشَّديد الذي ينطوي عليه القلب، فيكونُ مضمرًا مكتومًا، فالضَّغينة أشدُّ من الحقدِ[1].

(1) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 7/208، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (حقد، ضغن، غل)، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (حقد، ضغن).

﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾﴾ [الحجر: 48]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

لا ينالُ المتَّقين أيَّ تعبٍ في الجنَّة مع خلودِهم فيها

لَمّا كانَتِ الدُّنْيا مَحَلَّ تَعَبٍ بِما يُقاسَى فِيها مِنْ طَلَبِ المَعِيشَةِ، وَمُعاناةِ التَّكالِيفِ الضَّرورِيَّةِ لِلحَياةِ الدُّنْيا والحَياةِ الْآخِرَةِ، وَمُعاشَرَةِ الْأَضْدادِ، وَعُروضِ الْآفاتِ والْأَسْقامِ، وَمَحَلَّ انْتِقالٍ مِنْها إلَى دارٍ أُخْرَى مَخوفٌ أمْرُها عِنْدَ الْمُؤْمِنِ، لا مَحَلَّ إقامَةٍ؛ أخْبَرَ تَعالَى بِانْتِفاءِ ذَلِكَ فِي الْجَنَّةِ بِقَوْلِهِ: ﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ﴾[1].

وأيضًا لما كان النَّظر في الدوام والمآل بعد دخولِ المتَّقين في جنّاتٍ وعيونٍ؛ قال تعالى: ﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَمَسُّهُمْ﴾: أصلُ (مسَّ): يَدُلُّ على جَسِّ الشَّيءِ بِاليَدِ[3]، يُقالُ: مَسِسْتُ الشَّيءَ أمَسُّه مَسًّا لَمَسْتَه بِيَدِكَ، وَهوَ مجازٌ في إصابةِ الشَّيءِ وحُلولِه، فَمِنهُ مَسُّ الشَّيْطانِ، أي: حُلولُ ضُرِّ الْجِنَّةِ بالعَقْلِ، ومَسُّ سَقَرَ: ما يُصِيبُ مِنْ نارِها، ومَسَّهُ الفَقْرُ والضُّرُّ: إذا حَلَّ به، وأكثَرُ ما يُطلَقُ في إصابَةِ الشَّرِّ، قالَ تعالى: ﴿۞وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا﴾ [الزمر: 8]، ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا﴾ [يونس: 12][4]، والمَسوسُ من المياه: ما نالته الأيدي[5]، وحاجةٌ ماسَّة، أي: مُهِمَّة، وَقَدْ مَسَّتْ إليه الحاجَةُ[6]. والمسُّ في الآية: مُستعملٌ في مُطلَقِ الإصابةِ على وجهِ المجازِ.

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 6/483،
(2) البقاعي، نظم الدرر: 11/63.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (مسس).
(4) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن عباد، المحيط في اللغة، والراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (مسس)، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/316.
(5) الخليل، العين: (مسس).
(6) الجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب: (مسس).

2) ﴿نَصَبٌ﴾: أصلُ النَّصَبِ: الإعْياءُ مِنَ العَناءِ، ومَعْناهُ: أنَّ الإنسانَ لا يَزالُ مُنتصِبًا حتَّى يُعْيِيَ[1]. والفِعلُ نَصِبَ الرَّجُلُ، بِالكَسْرِ، نَصَبًا: أعْيا، وتَعِبَ؛ وأنْصَبه هو، وأنْصَبَني هذا الأمْرُ، وهَمٌّ ناصِبٌ مُنْصِبٌ: ذو نَصَبٍ، مِثْلُ تامِرٍ ولابِنٍ، وهو فاعلٌ بمعْنَى مَفْعولٍ؛ لأنَّه يُنْصَبُ فِيهِ ويُتْعَبُ، وعَيْشٌ ناصِبٌ: فِيهِ كَدٌّ وجَهْدٌ. والنُّصْبُ: الدّاءُ والبَلاءُ والشَّرُّ. وفي التَّنزيلِ العَزيزِ: ﴿مَسَّنِيَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِنُصۡبٖ وَعَذَابٍ ۝٤١﴾ [ص: 41]، والنَّصِبُ: المريضُ الوَجِعُ؛ وَقَدْ نَصَبهُ المَرَضُ وأنْصَبه[2]. والمقصود بالنَّصَبِ في الآية: التَّعَبُ النّاشِئُ عن استعمالِ الجُهْدِ.

3) ﴿بِمُخۡرَجِينَ﴾: أصلُ (خرج): النَّفاذُ عن الشَّيْءِ، يُقالُ: خَرَجَ يَخْرُجُ خُروجًا. والخُراجُ بالجَسَدِ. والخَراجُ والخَرْجُ: الإتاوَةُ؛ لأنَّهُ مالٌ يُخْرِجُهُ المُعْطِي[3]، الخُروجُ: اسمٌ من أسماء يوم القِيامةِ، ومنه قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡخُرُوجِ ۝٤٢﴾ [ق: 42]، أي: يَوْم يُبْعَثونَ، فَيَخْرُجون من الأرْض[4]. والخُروجُ أيضًا: البُروزُ والظُّهورُ، ومنه سُمِّي الخوارجُ بذلك؛ لِخُروجِهم على النّاسِ[5]. والمقصود بالخروج في الآية: ضِدُّ الدُّخول. والمرادُ: باقون في الجنّات بقاءً سرمديًّا دائمًا لا ينقطع[6].

المَعْنى الإجْماليُّ:

بيَّن اللّه تعالى في الآية أنَّ الحياة التي يحياها أهل الجنَّة، حياة أمن، وسلام، وراحة، فلا عمل إلّا ذِكر اللّه تعالى، والتَّسبيح بحمده، والشُّكر لنعمه، ومن تمام هذا النَّعيم أن الَّذي فيه لا يتهدَّده خوفٌ

لا ينالُ المتَّقينَ في الجنَّةِ أيُّ تَعَبٍ أو مَشَقَّةٍ، ومن دَخلَها لا يَخرُجُ منها

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نصب).
(2) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (نصب).
(3) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة: (خرج).
(4) ابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (خرج).
(5) الراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (خرج).
(6) طنطاوي، التفسير الوسيط: 8/51.

من أن يفارقه هذا النَّعيم أبدًا، أو يفارق هو هذا النَّعيم، بل هو نعيمٌ دائمٌ مُتَّصل[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

جملة ﴿لَا يَمَسُّهُمْ﴾ بين الاستئناف والحال:

تعدُّد أحوالِ أهلِ الجنَّة من نعم الله عليهم

تحتمل جملة ﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ﴾ أن تكونَ استئنافًا؛ لتفيدَ تعدُّد الإخبار لما له شأنٌ، كما أنَّ في تعدُّد الإخبار تكثيرًا لِلمعنى، وزيادةً في الإيضاحِ والبيانِ، كما تحتمل أن تكون جملةً حاليَّةً[2]، فيكون الكلام من باب ذكرِ حال بعدَ حال، وفي تعدُّد الأحوال تصويرٌ لهيئاتِ المتَّقين في الجنَّة وبيانٌ لأحولِهم؛ ترغيبًا فيها وحثًّا على الاتِّصاف بأوصاف المتَّقين.

بلاغة الكناية في قولِه: ﴿لَا يَمَسُّهُمْ﴾:

لا يصيب المتَّقين أيُّ نصبٍ في الجنَّة وإن كانَ قليلًا

عُبِّرَ بالمسِّ كِنايَةً عَنِ الإصابَةِ؛ ونكتة التَّعبير بالكناية الإشعار بانتفاء إصابتِهم بأقلِّ ما يقعُ عليه النَّصب، فالمسُّ أقلُّ تمكُّنًا من الْإصابَة، وَهوَ أقل درجاتها؛ لأنَّ المسَّ أقلُّ ما يكون من لصوقِ شيءٍ بالبشرةِ بحيث تتأثَّر به الحاسَّة أو يكون بلصوقٍ من غيرِ إحساسٍ، والمعنى: لا يصيبُهم فيها أيُّ نَصَبٍ ولو كان قليلًا[3].

دلالة الضَّمير في قولِه: ﴿لَا يَمَسُّهُمْ﴾:

التَّرقي في نعم الله على أهل الجنَّة تكريمٌ وتشريفٌ لهم

يعود الضَّمير على المتَّقين بما اتَّصفوا به من كونِهم يدخلون الجنَّة بسلامٍ وكونِهم آمنين، وقد نزع الله تعالى الغِلَّ من صدورِهم، فهؤلاء المتَّقون الموصوفون بهذه الأوصاف لا يمسُّهم في الجنَّة نصبٌ، فالكلامُ على طريقة التَّرقّي في النِّعَم.

---

(1) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 7/204.

(2) البيضاوي، أنوار التنزيل: 3/213، والسمين الحلبي، الدر المصون: 7/163.

(3) أبو حيان البحر المحيط: 6/483، والكفوي، الكليات، ص: 799.

دلالة مجيء الاسم نكرةً في ﴿نَصَبٌ﴾:

الحركةُ في الجنَّة من غيرِ تعبٍ ولا نصبٍ

أفاد تنكيرُ الاسم ﴿نَصَبٌ﴾ التَّقليل، بل العدم؛ لأنَّه لمّا جاء الاسم النَّكرة في سياق النَّفي؛ أفاد عمومَ انتفاء مسِّهم بأيِّ نصبٍ، فإذا انتفى أقلُّ النَّصبِ؛ انتفى أكثرُه، وانتفت ديمومتُه، والمعنى: لا يكونُ للمؤمنين في الجنَّة ما يوجبه من الكدِّ في تحصيل ما لا بُدَّ لهم منه؛ لحصول كلِّ ما يريدونه من غير مزاولةِ عملٍ أصلًا، أو بألّا يعتريَهم ذلك، وإن باشروا الحركاتِ العنيفة لكمال قوَّتِهم[1].

دلالة التركيب في قولِه: ﴿وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾:

انتفاءُ خروجِ المؤمنين من الجنَّة أبدَ الآباد

أفاد التَّركيبُ الاسميُّ المنفيُّ ثبوتَ مضمونِ الجملة ودوامَه، بمعنى انتفاء خروجِهم من الجنَّة أبدَ الآبادِ[2].

دلالة الضَّمير في قوله: ﴿وَمَا هُم﴾:

من أعظمِ النِّعَم في الجنَّة نعمةُ الخلودِ فيها

بعدَ أن ذكر اللّه تعالى أنَّ المتَّقين الموصوفين بالأوصاف المذكورة لا يمسُّهم فيها نصبٌ؛ ترقَّى في ذكرِ نعمةٍ أعظمَ وأفضلَ، وهي نعمة الخلود، فلا أحدَ يستطيعُ إخراجَهم من الجنَّة.

فائدة الباء في قولِه: ﴿بِمُخْرَجِينَ﴾:

الاحتراس من احتمال تخصيص العام

أفادت الباء تأكيد نفي إخراجِهم من الجنَّة، وبقاء عموم نفي إخراجهم من الجنة، والمبالغة فيه، وذلك بالاحتراس من احتمال تخصيص العام.

دلالة تقديم قولِه: ﴿مِّنْهَا﴾:

عِظَمُ نعماء الجنَّة وجلالُها

قُدِّمَ الجار والمجرور - في قوله تعالى: ﴿وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ - لإفادة الحصر الإضافي وتأكيدِه، كما يؤذن التَّقديم بعظمِ نعماء الجنَّة وجلالها[3].

---

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/80، والبروسوي، روح البيان: 4/472، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/56.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/80.

(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 8/4092.

دلالة الاسم نكرة في قولِه: ﴿بِمُخْرَجِينَ﴾:

أفاد مجيء الاسم نكرة في سياق النَّفي - في قوله تعالى: ﴿وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ - العمومَ، بمعنى انتفاء أيِّ إخراجٍ لهم من الجنَّة.

انتفاء أيِّ إخراجٍ لعباد الله المتقين من الجنَّة

نكتة تذييل الكلامِ عن نعيم الجنَّة:

جاء قوله تعالى: ﴿وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾؛ للإيذانِ بأنَّه تعالى بعدَ أن يدخلَهم الجنَّة، ويذيقهم من نعيمها، إخوانًا على سرر متقابلين من غيرِ أن يمسَّهم فيها نصبٌ، يتمِّم نعمتَه عليهم بالبقاء فيها، وعُبِّرَ بنفي الإخراجِ للإشعارِ بانتفاء الخوفِ من خروجِهم من الجنَّة، فيكون فيه تمام النَّعيم، فإنَّ تمامَ النِّعمةِ الخلودُ[1]، والمراد بنفي خروجِهم من الجنَّة كَوْنُهُ خُلودًا بِلا زَوالٍ، وَبَقاءً بِلا فَناءٍ، وَكَمالًا بِلا نُقْصانٍ، وَفَوْزًا بِلا حِرْمانٍ[2].

إتمامُ نِعَمِ الله على المؤمنين في الجنَّةِ بالبقاء فيها من غيرِ فناءٍ، والكمالِ بلا نقصانٍ، والفوزِ بلا حرمانٍ

نكتة الإخبارِ بقولِه: ﴿بِمُخْرَجِينَ﴾:

لم يقل: (وهم فيها خالدون) كما جاء في آياتٍ أخرى، فذكر الوصف بطريق النَّفي، فقال: ﴿وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ لتكثير نعمِهِ تعالى عليهم، فإنَّه لما كان المُنكِي في كلِّ شيءٍ إنَّما هو الإكراه؛ بني الاسم للمفعول، فقال: ﴿بِمُخْرَجِينَ﴾، للإشعار بأنَّه لا أحدَ يستطيعُ إخراجَهم من الجنَّة، كما حصلَ مع أبيهم آدمَ، كما أفادَ الوصفُ المنفيُّ الدلالةَ على أنَّه لا يمكن أن يوصفوا بأنَّهم مخرجون، فهو نفي للإخراج بأبلغ وجه، أي: ليس من شأنهم أنْ يُخْرَجوا[3].

لا أحدَ يستطيعُ إخراجَ المؤمنين من الجنَّة، كما حصلَ مع أبيهم آدمَ

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

النَّصَب والتَّعب:

النَّصب هو التعب الذي يحصل من الإقامة على عملٍ شديد،

النَّصب لا يكون إلّا في عملٍ محمودٍ، والتَّعب يكون في عملٍ محمودٍ أو مذمومٍ

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 3/213.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 19/148.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 11/63، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 8/4092.

وقد يكون مصاحبًا للوجعِ، أي: هو التَّعَبُ الذي يصِيبُ المُنْتَصِبَ للأمرِ المُزاوِلَ له، ويقع النَّصبُ على التَّعب القليل والكثير، ومن الكثير ما أخبرَ اللّٰه تعالى عن قول موسى عليه السلام: ﴿لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾﴾ [الكهف: 62]، وأمّا التَّعب؛ فقد يكون من عملٍ وجهدٍ، وقد يكونُ نفسيًّا[1]، ويقال النَّصب في الأمر المحمود، فناسب نفيُه عن أهل الجنَّة؛ لأنَّ جهدهم فيها محمودٌ، بمعنى أنَّهم يعملون، ويتحرَّكون، ويُنْجِزون، ولا يمسُّهم في عملِهم فيها نصَبٌ، وأمّا التَّعب؛ فيكون من عملٍ محمودٍ أو مذموم، وأمّا ما جاء في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾﴾ [الكهف: 62]، فللإشارة إلى أنَّ السفر كانَ في أمرٍ محمود، وهو أن يتعلَّم موسى عليه السلام من العبد الصّالح ممّا علَّمه اللّٰه تعالى.

(1) ابن جرير، جامع البيان: 20/475، والزمخشري، الكشاف: 3/614، وابن عطية، المحرر الوجيز: 3/364، وأبو حيان، البحر المحيط: 9/34، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (نصب).

﴿۞نَبِّئۡ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ٤٩ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلۡعَذَابُ ٱلۡأَلِيمُ ٥٠﴾ [الحجر: 49 - 50]

❁ مُناسَبَةُ الآيَتينِ لما قَبْلَهُما:

من عادةِ القرآن الجمعُ بينَ الرَّجاء والتَّخويف، لئلّا يقعَ القنوطُ أو التَّمادي

لما كان المفهوم من هذا السياق أنَّ النّاجي إنَّما هو المتَّقي المخلَص الذي ليس للشيطان عليه سلطان، وكان مفهوم المخلَص من لا شائبة فيه، وكان الإنسان محلَّ النُّقصان، وكان وقوعه في النقص منافيًا للوفاء بحقِّ التَّقوى والإخلاص، وكان ربَّما أيْأسَه ذلك من الإسعادِ، فأوجب له التَّمادي في البعادِ، قال سبحانه جوابًا لمَنْ كأنَّه قال: فما حال من لم يقم بحقِّ التَّقوى؟ فقال تعالى: ﴿نَبِّئۡ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾، وربما كان الإخبار بهذه البشارة العظيمة سببًا للإصرارِ على المعصية والمخالفةِ؛ أمَرَهُ أن يذكرَ لهم شيئًا ممّا يتضمَّن التخويف والتَّحذير، حتَّى يجتمع الرَّجاء والخوفُ، ويتقابل التبشير والتَّحذير، ليكونوا راجين خائفين، فقال تعالى عطفًا على مفعولِ ﴿نَبِّئۡ﴾: ﴿وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلۡعَذَابُ ٱلۡأَلِيمُ﴾[1].

وأيضًا لمّا ذكر اللّه تعالى الجنَّة والنار وذكر ما فيهما على وجهِ التَّرغيب والتَّرهيب؛ ذكر ما يوجبُ دخولهما من أوصافِه تعالى، للإيذانِ بأنَّ مرجعَ دخول الجنَّة والنّار إلى اللّه تعالى وحدَه[2].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿نَبِّئۡ﴾: أصلُ (نبأ): ظُهورٌ مَسْبوقٌ بِخَفاءٍ[3]، كالإتْيانِ مِنْ مكانٍ إلى مَكانٍ. يُقالُ لِلَّذي يَنْبأُ مِنْ أرضٍ إلى أرْضٍ نابِئٌ، ومِنْهُ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 11/62 - 63، والشوكاني، فتح القدير: 3/161.
(2) السعدي، تفسير السعدي: 1/431.
(3) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (نبأ).

النَّبأُ: الخَبَرُ؛ لأنَّهُ يأتِي مِنْ مَكانٍ إلى مَكانٍ[1]. والأنْباءُ: جَمْعُ نَبَأٍ، وأنباءُ الغَيْبِ الأخبارُ المُغَيَّبَةُ عَنِ النّاسِ أو عَنْ فَرِيقٍ مِنْهُمْ[2]، والإنباءُ الإخبارُ بالنَّبأِ، وهو الخَبَرُ ذو الفائدةِ العظِيمَةِ، بِحيثُ يَحْرِصُ السّامِعونَ على اكتسابِهِ؛ ولذلكَ تَضَمَّنَ الإنباءُ معْنَى الإعلامِ؛ لأنَّ المُخْبَرَ بِهِ يُعَدُّ مِمّا يُعْلَمُ، وَيُعْتَقَدُ بِوَجْهٍ أخَصَّ مِنِ اعْتِقادِ مُطْلَقِ الْخَبَرِ، فَهوَ أخَصُّ مِنَ الْخَبَرِ[3]. والنَّبْأَةُ: الصَّوْتُ؛ لِأنَّ الصَّوْتَ يَجِيءُ مِنْ مَكانٍ إلى مَكانٍ، ومَنْ هَمَزَ لفظَ النَّبِيِّ (النَّبِيء)؛ فَلأنَّهُ أنْبأ عَنِ اللّه تعالى[4]. والنُّبوءَةُ: سِفارَةٌ بَيْنَ اللّه وبَيْنَ ذَوي العُقولِ مِنْ عِبادِهِ لإزاحَةِ عِلَلِهِم في أمْرِ مَعادِهم ومَعاشِهم. وتَنَبَّأ فلان: ادَّعى النُّبوَّة[5]. والمقصودُ بالإنباءِ في الآيةِ: الإخبارُ عَنْ أمْرٍ عَظِيمٍ.

المَعْنى الإجْمالِيُّ:

اجتماع التبشيرِ والتَّحذيرِ، ليَكونوا راجينَ خائِفينَ

يقول الحقُّ ﷻ: أخبِرْ يا رسول اللّه صلَّى اللّه عليك وسلَّم عبادي خبَرًا جازِمًا مُؤكَّدًا: أنِّي أنا كثيرُ المَغفِرةِ لذُنوبِهم؛ إذا تابوا، فأستُرُ ذُنوبَهم، وأتجاوَزُ عن مُؤاخَذتِهم، كثيرُ الرَّحمةِ بهم؛ إذا استقاموا، ومِن رحمتي أنِّي لا أعذِّبهم على الذُّنوب بعد تَوبتِهم منها، وأخْبِرْ عبادي أيضًا أنَّ عذابي لِمَن أصرَّ على الكُفرِ والمعاصي، فلم يتُبْ منها، هو العذابُ الموجِعُ الكثيرُ الإيلامِ؛ فلْيَحذَروا أسبابَ عَذابِي، ولْيُقبِلوا على التَّوبةِ والإنابةِ إليَّ[6].

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والزبيدي، تاج العروس: (نبأ).
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/92.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/412.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة، والزبيدي، تاج العروس: (نبأ).
(5) الراغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (نبأ).
(6) ابن جرير، جامع البيان: 14/81، والشوكاني، فتح القدير: 3/161، والسعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 432.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغة الفذلكة في قوله: ﴿نَبِّئۡ عِبَادِيٓ﴾:

ما وعد الله به المؤمنينَ من الجنّات والعيون إنَّما هو بفضله ورحمتِه

لما أتمَّ ذكرَ الوعدِ المشار إليه بقولِه: ﴿إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٖ وَعُيُونٍ﴾، والوعيدِ المرموز إليه بقولِه تعالى: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوۡعِدُهُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾؛ أتبعه بقولِه تعالى: ﴿نَبِّئۡ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾؛ تقريرًا لِما ذُكِرَ، وتمكينًا له في النُّفوس، وليكون من بابِ الإجمالِ بعدَ التَّفصيل، ولمّا قدَّم في الإجمالِ ما أخَّر في التَّفصيلِ؛ أشعرَ بقربِ الوعدِ من عبادِه سبحانه، وفيه تنبيهٌ إلى أنَّ ما وعدوا به من الجنّات والعيون إنَّما هو بفضل الله تعالى ورحمتِه، وأنَّهم إنَّما استحقّوه بمقتضى وعدِه[1].

سبب إيثار التَّعبير بلفظ ﴿نَبِّئۡ﴾:

الإيذانُ بعظمِ ما يخبَرُ عنه وأنَّه ممّا ينبغي الإصغاءُ إليه لعمومِ فائدتِه وعِظَمِ أثرِه

لمّا كانَ النَّبأ هو الخبرَ ذا الفائدة الجليلةِ والشأن العظيم[2]؛ عُبِّرَ هنا بقولِه: ﴿نَبِّئۡ﴾ للإيذانِ بعِظَمِ ما يخبَرُ عنه، وأنَّه ممّا ينبغي الإصغاءُ له لصدقِه ولِفائدتِه العظيمةِ، والمعنى: أخبرْ عبادي خبرًا جليلًا عظيمًا[3]، ولمّا كان ما يُخبَرُ عنه أمرًا عظيمًا، وفيه معنى الكلِّيَّة؛ كان ما جاء في الآيتين جاريًا مجرى الأمثال في عمومِه والإخبار به.

سرُّ التَّعبير بصيغة ﴿نَبِّئۡ﴾:

الإيذانُ بطلبِ تكرارِ الإخبارِ عن أوصافِ الله لِعَظِيمِ أثرِها في الإيمانِ

عُبِّرَ بـ﴿نَبِّئۡ﴾ دونَ (أنبِئْ) لدلالةِ صيغة (فعَّل) على تكثير الفعل، بمعنى طلب تكرار الإخبارِ، لعِظَمِ الخبرِ وأهمّيَّتِه، كما أنَّ فيه تنبيهًا على تحقيقه وكونِه من قِبَلِ الله[4].

سرُّ التَّعبير بصيغة الخطاب في قولِه: ﴿نَبِّئۡ﴾:

لمّا كان الخطابُ للرَّسول ﷺ بصيغة الأمر، أفادَ أنَّهُ أمَرَ رَسولَهُ

(1) الزمخشري، الكشاف: 2/580، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 3/213.
(2) الراغب، المفردات: (نبأ)، والكفوي، الكليات، ص: 886.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 11/64.
(4) الراغب، المفردات: (نبأ).

ﷺ أنْ يُبَلِّغَ أتباعَه هَذا الْمَعْنَى، فَكَأَنَّهُ أَشْهَدَ رَسولَهُ عَلَى نَفْسِهِ في الْتِزامِ الْمَغْفِرَةِ والرَّحْمَةِ، وفي كونِ عذابِه هو العذاب الأليم، والخطابُ وإن كان الأصل فيه أن يكونَ لمعيَّنٍ، ولكنَّه هنا عامٌّ، فيشملُ كلَّ مَنْ يَسْمَعُ الْأَمْرَ مِنْ أَهْلِهِ من أتباعِ رسولِ الله ﷺ، ويدخل فيه الرَّسول ﷺ دخولًا أوَّليًّا، باعتبارِه المخاطَب الأوَّل، للإيذانِ بأنَّه تعالى أشهدَ رسولَه في التزام المغفرة والرَّحمة لأتباعِه المؤمنين[1].

إشهادُ الرَّسول ﷺ دليلٌ على التزامِ الله بالمغفرة والرَّحمة لأتباعِه المؤمنين

دلالة تعدية الفعل في قولِه: ﴿نَبِّئْ عِبَادِيٓ﴾:

لمّا كان رسولُ الله ﷺ مأمورًا بتبليغ كلِّ القرآن، وكان مأمورًا بتبليغ أوصاف الله تعالى التي أمرَه أن يبلِّغَها؛ كان تخصيصُ الأمر هنا بقوله: ﴿عِبَادِيٓ﴾ تشريفًا لهم ولِلإشعار بأنَّه قريبٌ منهم، والمعنى: نبِّئْ كُلَّ مَنْ كانَ مُعْتَرِفًا بِعُبودِيَّتِي، فيَدْخُلُ فيهِ الْمُؤْمِنُ الْمُطِيعُ، والْمُؤْمِنُ الْعاصِي، تَغْلِيبًا لِجانِبِ الرَّحْمَةِ والمغفرةِ مِنَ الله تَعالَى[2].

كلُّ أتباعِ رسولِ الله ﷺ لهم نصيبٌ من المغفرة والرَّحمة

نكتة التَّعبير بقولِه: ﴿عِبَادِيٓ﴾:

لمّا جاء ذكر العبادِ على الإضافة إلى لله تعالى على معنى: أنَّهم موصوفون بكونِهم عبادًا لله تعالى، ثُمَّ أَثْبَتَ عَقِيبَ ذِكْرِ هَذا الْوَصْفِ الحكمَ بِكَوْنِهِ غَفورًا رَحِيمًا، وكان تَرْتِيبُ الْحُكْمِ عَلَى الْوَصْفِ الْمُناسِبِ مُشْعِرًا بِكَوْنِ ذَلِكَ الْوَصْفِ علَّةً لِذَلِكَ الْحُكْمِ؛ دلَّ عَلَى أنَّ كُلَّ مَن قامَ بحقِّ عبوديَّتِه لله تعالى؛ ظَهَرَ في حَقِّهِ كَوْنُ الله غَفورًا رَحِيمًا، وَمَنْ أَنْكَرَ ذَلِكَ؛ كانَ مُسْتَوْجِبًا للعذابِ الأليم[3].

مَن قامَ بحقِّ عبوديَّتِه لله تعالى عرف أنّ الله غَفور رَحِيم، وَمَنْ أنْكَرَ استوجب العذاب الأليم

فائدة الإضافة في قولِه: ﴿عِبَادِيٓ﴾:

لمّا أضافَ الله تعالى العبادَ إلَى نفسِهِ؛ أفاد تفخيمهم وتَشْرِيفَهم تشريفًا عَظِيمًا[4].

تشريف عباد الله تعالى وتعظيمهم

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 19/149.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 19/149.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 19/149.
(4) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 19/149، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 11/172.

فائدة تعدية الفعل بنفسِه إلى المصدر المؤوَّل:

تعظيمُ شأنِ الخبر عن الله تعالى

لمّا كان الفعل (نبِّأ) يتعدّى بنفسِه وبحرف الجرِّ؛ كانت تعديتُه هنا بنفسِه إلى المصدر المؤوَّل: ﴿أَنِّيٓ أَنَا ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ على سبيل المبالغة في تعظيم شأنِ ما عدّي إليه[1].

بلاغة التَّعبير بالمصدر المؤوَّل في الآية:

مجيء الإسنادِ هنا بطريق المصدر المؤوَّل أبلغ في ثبوتِ المعنى ودوامِه

أفاد التَّعبيرُ بالمصدر المؤوَّل - في قولِه: ﴿أَنِّيٓ أَنَا ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ - إثباتَ إسناد المغفرة والرَّحمة إلى الله تعالى، وأن يكون المنبَّأ به جملة إسناديَّة بمعنى تصوُّر إثباتِ المسند (الوصفين الجليلين) لِلمسند إليه على طريق الحصر؛ لأنَّ المرادَ تصوُّرُ إثباتِ المغفرة والرحمة على جهة إسنادِهما لله تعالى، ليفيدَ الإسنادُ اختصاص اتِّصاف الله بهما، ودوام ذلك، وظهور أثرهما في عباده.

بلاغة تتابع التأكيد في الآية:

تقريرُ إثباتِ وصفَي المغفرة والرَّحمة لله تعالى

لَمّا ذَكَر الله تعالى المَغْفِرَةَ والرَّحْمَةَ؛ بالَغَ في إثباتِ الوصفَينِ له ﷻ، فأكَّد الكلامَ بـ(أنَّ) و﴿أَنَا﴾ واسميَّة الجملة، لتقريرِ إثباتِ الوصفين لله تعالى في نفوس المخاطَبين، وللإشعار بقربِ رحمتِه ومغفرتِه منهم.

سرُّ التَّعبير بصيغة ﴿أَنِّيٓ أَنَا﴾:

قربُ الله تعالى من المؤمنين دليلٌ على قربِ مغفرتِه ورحمتِه منهم

لم يقل: (نبِّئْ عبادي أنَّ الله هو الغفور الرحيم) بصيغة ضمير الغائب؛ لِما يؤذنُ به ضمير المتكلِّم ﴿أَنِّيٓ أَنَا﴾ بقربِ المتكلِّم وحضورِه عندَ المخاطَبين، فتكون مغفرتُه ورحمتُه أقربَ وأيسر تحصيلًا.

فائدة مجيء الضَّمير ﴿أَنَا﴾:

الله وحدَه هو الغفورُ الرَّحيمُ

يُحْتَمَلُ في ﴿أَنَا﴾ أن يكونَ مبتدأ ثانيًا، و﴿ٱلۡغَفُورُ﴾ خبرًا عنه، وتكون الجملة الاسميَّة خبرًا عن اسم (أنَّ)، كما يحتمل أن يكون ضميرَ فصلٍ، فيفيد تأكيدَ الخبرِ أو تأكيدَ ياءِ المتكلِّم[2]، وعلى كلٍّ يفيد

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 11/172.
(2) السمين الحلبي، الدر المصون: 7/164.

التَّركيب الحصرَ لمجيء الجملة اسميَّةً على التَّوجيه الأوَّل، أو لدلالة ضمير الفصل على التَّوجيه الثّاني، والمعنى: إنّي أنا وحدي الغفورُ الرَّحيمُ، فلا ملجأ لغفرانِ الذُّنوب وللرَّحمة إلّا إلى اللّه تعالى[1].

فائدة (ال) في قولِه: ﴿ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾:

كمالُ المغفرةِ والرَّحمةِ لله وحدَه

(ال) هنا لاستغراق الأنواع والأفراد الدال على الكمالِ، بمعنى: أنَّي أنا وحدي الذي أتَّصفُ بكمالِ المغفرة والرَّحمة، وأنَّهما يستغرقانِ جميعَ أنواع المغفرة والرحمة، فهو المالك لسائر أنواعهما، ويستغرقانِ كذلك جميعَ عباده سبحانه، أي: هو الذي أحاط محوه للذنوب ورحمته وإكرامه لمن يريد بجميع ما يريد، لا اعتراض لأحد عليه[2].

بلاغة ذكرِ الوصفين ﴿ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾:

الإنسانُ لا ينفكُّ عن حاجتِه إلى مغفرةِ اللهِ ورحمتِه

لمّا اتَّصلت هذه الآية بذكرِ المتَّقين وأحوالِهم في الجنَّة في ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾؛ ناسَبَ ذِكْرُ الْغُفْرانِ والرَّحْمَةِ هنا، وناسبَ تقديمُ هذين الْوَصْفَيْنِ الْعَظِيمَيْنِ اللَّذَيْنِ وَصَفَ بِهِما نَفْسَهُ على وصفِ عذابِه، كما أنَّه لمّا بدأ بِالصِّفَةِ السّارَّةِ أوَّلًا وَهِيَ الْغُفْرانُ، وأتبعها بِالصِّفَةِ الَّتِي نَشَأ عَنْها الْغُفْرانُ، وَهِيَ الرَّحْمَةُ؛ كانَ تَرْجِيحًا لِجِهَةِ المغفرةِ والرَّحْمَةِ، وفي ذكر المغفرة إشعارٌ بأنَّه لم يرد بالمتقين من يتَّقي جميعَ المعاصي، كبيرَها وصغيرَها، وأنَّ المكلَّف لا ينفكُّ عن حاجتِه إلى مغفرة اللّه ورحمتِه[3].

براعة التوصيف بالمغفرة والرَّحمة:

المغفرة والرَّحمة فضلٌ من الله، والعذاب توجبُه ذنوبُ العباد

لمّا ذكر اللّه تعالى المغفرة والرَّحمة؛ أسندَ الوصفين إليه سبحانه، ولمّا ذكر الْعَذابَ؛ لَمْ يَقُلْ: (وأنِّي أنا الْمُعَذِّبُ المؤلِم)، وَما وَصَفَ نَفْسَهُ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 11/64، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/80، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 11/172.

(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 19/149، والبقاعي، نظم الدرر: 11/64.

(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 19/149، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 3/213، وأبو حيان، البحر المحيط: 6/483، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/80.

بِذَلِكَ، بَلْ قالَ: ﴿وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ﴾ للإيذانِ بأنَّهما، أي: الوصفين ممّا تقتضيهما ذاتُه ﷻ، وأنَّ العذاب إنَّما يتحقَّق بما توجبُه ذنوبُ العبادِ، كما أنَّ في تقديم الوصفين وإسنادِهما إلى ذاتِه الشَّريفة ترجيحٌ لِلوعدِ بالمغفرة والرَّحمة على عذابِه وتأكيدِه، ومن مرجِّحات الوعدِ أنَّ الإضافةَ في قولِه: ﴿عَذَابِي﴾ لا تستدعي حصولَ المضاف إليه بالفعل، بمعنى: أنَّ عذابي إذا وقعَ هو العذابُ الأليمُ[1].

دلالة مجيء المغفرة والرَّحمة بصيغة فعيل:

لمّا جاء الوصفان ﴿ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ على صيغة المبالغة؛ أفادا تأكيدَ مغفرتِه ورحمتِه سبحانه لعباده المتَّقين، وأنَّ مغفرتَهُ ورحمتَهُ تحيطان بجميع عبادِه.

المبالغة في الوصف يستدعي المبالغة في الفعل

براعة العطف في قولِه: ﴿وَأَنَّ عَذَابِي﴾:

لمّا كان العطفُ يقتضي تعلُّقَ العامل بالمعطوف والمعطوف عليه معًا؛ أفاد في قولِه: ﴿وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ﴾ أنَّ الإخبار عن عذابِ اللّٰه تعالى الأليم هو أيضًا خبرٌ عظيمٌ، وله شأنٌ كبيرٌ، وتقدير الكلام: (ونبِّئْ عبادي أنَّ عذابي هو العذاب الأليم)، فيفيد الأمرُ وجوبَ اقترانِ الجملتين في الإنباء، وأنَّه لا يُكتفى بالإنباءِ الأوَّل حتَّى يُنبَأ عن الثّاني إتمامًا للمعنى، فما ذكر في بحث ﴿نَبِّئْ﴾ و﴿عِبَادِيٓ﴾ يجري في الجملة المعطوفة كذلك، وأفاد العطف أنَّ الجنَّة لمن استغفر، وأنَّ جهنَّم لمن غوى، وعُرِفَ كذلك أنَّ المتقين إنَّما دخلوا الجنة بمغفرتِه ورحمتِه، وأنَّ الغاوين إنَّما عُذِّبوا بعدلِه[2].

لا يُكتَفَى بالإنباءِ عن مغفرة الله ورحمتِه حتَّى يخبرَ عن عذابِه الأليم

دلالة الإضافة في قولِه: ﴿عَذَابِي﴾:

الإضافة هنا على معنى الاختصاص بمعنى: أنَّ العذاب الذي هو مختصٌّ باللّٰه تعالى ليس كأيِّ عذابٍ بل هو العذاب الأليم.

عذابُ الله ليسَ كأيِّ عذابٍ ممّا يعرفُه النّاس في الدُّنيا

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 19/149، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 3/213.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 11/64.

فائدة الضمير ﴿هُوَ﴾:

عذابُ الله وحدَه هو العذاب الأليمُ

في قولِه: ﴿وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ﴾ يحتمل الضَّمير ﴿هُوَ﴾ أن يكونَ مبتدأ ثانيًا، وخبره ﴿ٱلْعَذَابُ﴾، وتكون الجملة خبرًا لـ(أنَّ)، كما يحتمل أن يكونَ ضميرَ فصلٍ، ويكون ﴿ٱلْعَذَابُ﴾ خبرًا لـ(أنَّ)[1]، فعلى الوجه الأوَّل يفيد الإخبار بالجملة الاسميَّة تقوِّي الحكم وتقريرَه، وفيه معنى القصرِ كذلك بدلالة الجملة الاسميَّة، وعلى الوجه الثّاني يفيد الكلامُ القصرَ بضمير الفصل على جهة التَّصريح مع تأكيدِ الخبر، والمعنى: أنَّ عذابي هو وحدَه العذابُ الأليم.

فائدة (ال) في قولِه: ﴿ٱلْعَذَابُ﴾:

عذاب الله هو العذاب الكامل الأوصاف

تفيد (ال) معنى الكمال، بمعنى أنَّ عذابي هو العذاب الكامل الأوصافِ في التعذيب، والذي يستحقُّ وحده أن يسمَّى عذابًا، فأيُّ عذاب سوى عذاب اللّه ليس بعذابٍ كاملِ الأوصافِ، ولمّا كان حملُ المسندِ على المسندِ إليه من أجلِ أن يفيدَ فائدةً متجدِّدةً؛ دلَّ على أنَّ المرادَ بالإخبار عن ﴿عَذَابِي﴾ المسندُ ونعتُه جمعًا وإفرادًا، والتَّقدير: وأنَّ عذابي هو العذاب الكامل الأليم، فيكون اللّه تعالى قد أخبر عن عذابه بأنَّه العذاب الكامل، وأنَّه أليمٌ، وإنَّما جاء بطريق النَّعت، وليس بطريقِ تعدُّد الخبر للإشعارِ بأنَّ عذابَه لا ينفكُّ عن كونِه أليمًا، فهو وصفٌ لازمٌ له.

فائدة (ال) في قولِه: ﴿ٱلْأَلِيمُ﴾:

ألم العذاب في جهنَّم هو الألم الكامل الأوصاف

تفيد (ال) معنى الكمال كذلك، والمعنى الكامل في الألم، بحيث لا يوجد عذابٌ يستحقُّ أن يوصفَ بأنَّه أليمٌ سوى عذاب اللّه تعالى، أعاذنا اللّه منه.

(1) السمين الحلبي، الدر المصون: 7/164.

دلالة الوصف في قولِه ﴿ٱلۡعَذَابُ ٱلۡأَلِيمُ﴾:

العذاب يومَ القيامةِ لا يشبهه عذابٌ آخر

لمّا كان العذاب لا يكونُ إلّا موجِعًا، وكان الأليم بمعنى الموجِع الوجعَ الشَّديد؛[1] أفاد الوصف تقريرَ ما تضمَّنه ذكر العذاب من كونِه مؤلِمًا موجعًا وجعًا شديدًا، بمعنى: أنَّ العذاب مؤلِمٌ لِمن يقع عليه، وأنَّه قد بلغ الغاية في ذلك بحيث لا يشبهه عذابٌ آخر.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

النَّبأ والخبر:

حقُّ النَّبَأِ أن يكونَ لشأنٍ عظيمٍ وأن يتعرَّى عن الكذب

النبأ هو الخبر الذي له وقعٌ وشأنٌ عظيمٌ، ومنه اشتقاق النبوَّةِ على القول بأنَّها مسهَّلة من النُّبوَءة، لأنَّ النبيَّ مخبرٌ عن اللّٰه تعالى، ولا يكون النَّبأُ إلّا للإخبار بما لا يعلمه المخبَر، ويجوز أن يكون الخبر بما يعلمه، وبما لا يعلمه، ولهذا يقال: تخبرني عن نفسي، ولا يقال: تنبئني عن نفسي، وكذلك تقول: تخبرني عمّا عندي، ولا تقول: تنبئني عمّا عندي، ولهذا يقال: سيكون لفلان نبأٌ، أي: شأنٌ عظيمٌ، ولا يقال: سيكون له خبر بهذا المعنى، وحقُّ الخبر الذي يقال فيه: نبأ أنْ يتعرَّى عن الكذب، فقد يقع الكذب في الخبر، ولا ينبغي أن يقع الكذب فيما يُنبأُ عنه[2].

توجيه المتشابه اللفظي:

مناسبةُ اللفظ لسياقه وسياقِه

جاء في هذه الآيةِ تقديم وصفِ المغفرة على وصف العذابِ، فقال تعالى: ﴿نَبِّئۡ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٤٩ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلۡعَذَابُ ٱلۡأَلِيمُ﴾، وجاء في سورة المائدة قولُه تعالى: ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ۝٩٨﴾ [المائدة: 98]، ومناسبتُه أنَّ قوله: ﴿نَبِّئۡ﴾ أمرٌ من اللّٰه إلى الرسول بأن ينبئ الخلق، وقُدِّمَ الوصفُ بالمغفرةِ والرَّحمةِ على العذابِ الأليمِ؛ لأنَّ المقصودَ بالإخبارِ اتِّصاف اللّٰه

(1) الراغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (ألم).
(2) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 41، والرّاغب، المفردات: (نبأ)، والكفوي، الكليات، ص: 886.

تعالى بوصفي المغفرة والرَّحمةِ، ولأنَّ المقامَ مقامُ تفضُّلٍ وإحسانٍ لِما سبقَ من ذكرِ الجنَّة وأحوالِها ونعيمِها، فقُدِّمَ الجانبُ الذي فيه اللُّطفُ والإحسانُ، وأمّا آيةُ المائدةِ؛ فقد ذكرت عقيب أحكام شرعيَّةٍ عظيمة، فيها مخالفة لأوامر اللّه تعالى ونواهيه، وقد يخلُّ بها المرءُ، فقُدِّمَ فيها جانبُ التَّهديدِ، فناسبَ كلٌّ سياقَه[1].

(1) ابن عثيمين، تفسير ابن عثيمين: 2/436.

﴿وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ ۝٥١﴾ [الحجر: 51]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

ذكْرُ قصص الأنبياء للتَّرغيب في الطّاعة والتَّحذير من المعصية وللاعتبار بهم

لمّا كانَ حصولُ القنوط سببًا لآية المغفرة، والإخبارُ بعذاب الأمم تمثيلًا لآية العذاب؛ ذكرَ اللّه تعالى هذه القصَّة عطفًا على ﴿نَبِّئْ عِبَادِيٓ﴾ لتحقيقِ ما يعتبر به المخاطَبون، وليزدجر الغاوون، وأفردَ لهم ذكر من هو أقرب إلى بلادهم ممَّن يعرفونه من المعذَّبين؛ لأنَّه أوقع في نفوسِهم، وليتخذوا ما حَلَّ من العذاب بقوم لوط عبرة يعتبرون بها سخط اللّه وانتقامه من المجرمين، ويتحقَّقوا عند ذلك أن عذابه هو العذاب الأليم[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ضَيْفِ﴾: أصلُ (ضيف): أصلٌ واحِدٌ صَحِيحٌ، يَدُلُّ على مَيْلِ الشَّيءِ إلى الشَّيْءِ، وانْعِطافُهُ إليه، يُقالُ: أضَفْتُ الشَّيْءَ إلَى الشَّيْءِ: أمَلْتُهُ. وضافَتِ الشَّمْسُ تَضِيفُ: مالَتْ؛ وكذلكَ تَضَيَّفَتْ؛ إذا مالَتْ للغُروبِ، والضَّيْفُ مِنْ هذا لِمَيْلِهِ إلى صاحب البيت[2]، يُقالُ: أضَفْتَه وضَيَّفْتَه: أنْزَلْتَه عليكَ ضَيْفًا، وأمَلْتَه إلَيْكَ، وقَرَّبْتَه، وَلِذَلِكَ قِيلَ: هوَ مُضافٌ إلَى كَذا، أي: مُمالٌ إلَيْهِ، وَيُقالُ: أضافَ فُلانٌ فُلانًا، فَهوَ يُضيفُه إضافَةً؛ إذا ألجأه إلَى ذَلِكَ[3]، والضِّيفُ: جانب الوادي. وتَضايَفَ الوادي: تضايَقَ[4]. والمقصود بالضَّيْفِ في الآية: الضّائفُ، أي: النّازلُ في مَنْزِلِ أحد الناس نُزولًا غيرَ دائِمٍ،

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 3/213، والنسفي، مدارك التنزيل: 2/192، والبقاعي، نظم الدرر: 11/64، 65.

(2) ابن عباد، المحيط في اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة: (ضيف)، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (ضوف، ضيف).

(3) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن عباد، المحيط في اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (ضيف).

(4) الخليل، العين: (ضيف).

والمراد بضيف إبراهيم هنا: الملائكة الَّذين نزلوا عنده ضيوفًا في صورةٍ بشريَّة[1].

المَعْنى الإجْماليُّ:

في أنباء الرُّسل وما جرى لهم ما يوجب العِبرة والاقتداء بهم

يقول تعالى: وأخبِرْ عبادي - يا رسول الله صلَّى الله عليك وسلَّم - عن قِصَّةِ الملائكةِ؛ ضُيوفِ إبراهيمَ عليه السلام؛ فإنَّ في قَصِّك عليهم ذلك ما يوجِبُ لهم العِبرةَ[2].

هذه القِصَّةُ فيها إثباتُ الملائكةِ، وأنَّهم أحياءٌ، ناطِقونَ، مُنفَصِلونَ عن الآدميِّينَ، وقد تواتَرَ في الكتُبِ الإلهيَّةِ والأحاديثِ النبويَّةِ أنَّ الملائِكةَ تتصَوَّرُ بصورةِ البشَرِ، ويُرونَ في تلك الصورةِ، فيُخاطِبُهم، ويراهم في هذه الصّورة الأنبياءُ وغيرُ الأنبياءِ، كما أخبَرَ الله عن ضيفِ إبراهيمَ، ورؤيةِ سارَةَ امرأةِ الخليلِ عليه السلام لهم، وكما كان الصَّحابةُ يَرَون جبريلَ؛ إذا جاء في صورة بشر، ومن ذلك رؤيتُهم له لمّا جاء في صورةِ أعرابيٍّ، وفي صورةِ دِحْيةَ الكلبيِّ[3].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

فائدة الوصل بالواو في قولِه: ﴿وَنَبِّئْهُمْ﴾:

اعتبار المؤمنين بما جرى لإبراهيم وما حلَّ بقومِ لوطٍ عليهما السلام

لمّا كانَ العَطفُ بالواو يقتضي الاشتراك في الحُكم، وكانَ فعلُ المَعْطوفِ والمَعْطوف عَلَيْه متَّحدًا في الصيغةِ؛ أفادَ أنَّ المقصودَ الإنْباءُ بِكِلا الأمْرَيْنِ لمناسبةِ ذِكرِ القِصَّةِ لما سبق، وأنَّها مِنْ مَظاهِرِ رَحْمَتِه تَعالَى وَعَذابِه، وفائدةُ العطفِ اعتبارُ المؤمنين بما جرى على إبراهيمَ عليه السلام مع أهله من البشرى في تضاعيف الخوفِ، وبما حلَّ بقوم لوطٍ من العذاب ونجاة لوط عليه السلام مع أهله التابعين له في ضمن

(1) طنطاوي، التفسير الوسيط: 8/54.
(2) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 10/35، والسعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 432، والشنقيطي، أضواء البيان: 2/279.
(3) يُنظر ما أخرجه البخاري، الحديث رقم: (4777)، ومسلم، الحديث رقم: (8، 9).

الخوف، وتنبيهُهم بحلول انتقامِه تعالى من المجرمين، وعلمُهم بأنَّ عذاب الله هو العذاب الأليم[1].

نكتةُ التَّعبير بلفظ ﴿وَنَبِّئْهُمْ﴾:

تعظيم شأنِ ما ذكرَ في قصَّة إبراهيم للإصغاء إليها

أفاد التعبير بلفظِ ﴿وَنَبِّئْهُمْ﴾ أنَّ كلَّ ما يذكَر في قصَّة إبراهيم عليه السلام له شأنٌ عظيمٌ، وأثر بالغ، ينبغي الإصغاء إليه لعظيم أثرِه عندَ المؤمنين وعمومِه فيهم.

دلالة الضَّمير في قولِه: ﴿وَنَبِّئْهُمْ﴾:

ذكرُ قصَّة إبراهيم ولوطٍ تحقيقٌ لذكر وصفَي المغفرةِ والرَّحمةِ ووصفِ عذابِه الأليم

لمّا كان الضَّمير عائدًا على ﴿عِبَادِيٓ﴾[2]؛ أفاد أنَّ المعنى: ونبِّئْ عبادي الموصوفين بما أنبَأتَهم به في الآية السابقة عن ضيفِ إبراهيم، فيكون الإنباء عن وصفَي الله تعالى وعن عذابِه مقدَّمًا على الإنباء بقصَّة إبراهيم ولوطٍ عليهما السلام ليكون ذكرُ القصَّة تحقيقًا ودليلًا على ما ذكر من وصفَي الله تعالى ووصفِ عذابِه.

سبب تعدية الفعل ﴿وَنَبِّئْهُمْ﴾ بـ﴿عَن﴾:

الإخبار عن شأنٍ عظيمٍ

لمّا كان الفعل (نبَّأ) يتعدَّى بنفسِه - كما جاء في الآية السابقة - ويتعدَّى بحرف الجرِّ (عن) كما هنا أفادت تعديته بـ﴿عَن﴾ معنى الإخبار عن شأنٍ عظيمٍ مع بيانِ تفصيلِه[3].

نكتة التَّعبير بلفظ ﴿ضَيْفِ﴾:

الضّيافة موضعُ استئناسٍ وراحةٍ وسرور

عُبِّر عن الملائكة بأنَّهم ضيفٌ للإيذانِ بأنَّهم نزلوا بسيدنا إبراهيم عليه السلام على وجهِ زيارتِه، وأنَّهم ممَّن يستأنسُ بهم، ولمّا تعلَّقت الكلمة بالفعل ﴿وَنَبِّئْهُمْ﴾؛ دلَّ على أنَّ هؤلاء الضَّيف لهم شأنٌ، وأي شأنٍ، وأنَّ نزولَهم بإبراهيم عليه السلام ليس على وجهِ الضِّيافة فقط، ودلَّ

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/80، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/57.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 19/150.
(3) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 11/172.

وصف الملائكة بالضَّيف على أنَّ الضيفَ اسمٌ لكلِّ نازلٍ على آخر، طَعِمَ عنده أو لم يطعم، وكان نزوله للطَّعام أو لا[1].

سبب تسمية الملائكة بالضَّيف:

الضَّيف له صورةٌ وهيئةٌ، وله حق ومكانة

سُمّوا ضيفًا؛ للإشعارِ بأنَّ مجيئهم كان في صورة من كان ينزل به عليه السلام من الضَّيفِ، فوجب أن يستحقوا كرم الضيافة[2].

سبب عدم ذكر وصفِ الرِّسالة:

وصفُ الضِّيافة غيرُ وصف الرِّسالةِ

عُبِّرَ عن الملائكة بـ﴿ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ﴾، فلم يتعرض لعنوان رسالتِهم؛ لأنَّهم لم يكونوا مرسَلين إلى إبراهيمَ عليه السلام، بل إلى قوم لوطٍ عليه السلام، حسبما يأتي ذكرُه في الآيات اللّاحقة[3].

فائدة اسم الجنس الإفرادي (الضَّيف):

حق الضَّيف أن يُكْرَمَ، ولو كان منفردًا

الضيف له حقُّ العناية والرعاية والإكرام بالطعام والشراب والإيناس وغير ذلك، يستوي في ذلك القليل والكثير، حتى وإن كان واحدًا.

(1) الماتريدي، تأويلات أهل السّنة: 4/121.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 11/65، والآلوسيّ، روح المعاني: 7/304.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/81.

﴿إِذْ دَخَلُواْ عَلَيْهِ فَقَالُواْ سَلَٰمًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ۝٥٢﴾ [الحجر: 52]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

وقائعُ قصّةِ ضيفِ إبراهيمَ، مُتمثّلةً في دخولِهم مُسَلّمين، ووجَلِه منهم

لمّا ذكر الوعدَ والوعيدَ ذكرَ ما يُحقّقُ ذلك لِما تضمّنَه منَ البُشرى والإهلاكِ بقوله سبحانه: ﴿وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ۝٥١﴾ [الحجر: 51] إلى آخره[1]، وبيَّن قصَّةَ ضيفِ إبراهيمَ لكلّ سائلٍ، كأنَّه قيل: ما شأنُ ضيفِ إبراهيمَ وما أمرُهم؟ فقيل: ﴿إِذْ دَخَلُواْ عَلَيْهِ فَقَالُواْ سَلَٰمًا﴾، الآيةَ.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَجِلُونَ﴾: أصلُ الوجَلِ: يدلُّ على استشعارِ الخَوفِ. يُقالُ: وَجِلَ يَوْجَلُ وَجَلًا، فهو وَجِلٌ[2]، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنفال: 2]. والوَجَلُ خَوْفٌ مع فَزَعٍ فيكونُ لاستِعظامِ المَوجولِ منه، وقد جاءَ فِعْلُ وَجِلَ في الفَصيحِ بكسرِ العَيْنِ في الماضي على طريقةِ الأفعالِ الدّالَّةِ على الانفعالِ الباطِنيِّ مِثْلَ فَرِحَ، وَصَدِيَ، وهَوِيَ، ورَوِيَ، وأُسنِدَ الوجَلُ إلى القُلوبِ؛ لأنَّ القَلْبَ يكثُرُ إطلاقُهُ في كلامِ العَرَبِ على إحساسِ الإنسانِ وقَرارَةِ إدراكِه، وليسَ المُرادُ به هذا العُضْوَ الصَّنوبريَّ الَّذي يُرسِلُ الدَّمَ إلى الشَّرايينِ[3]. والمقصودُ بالوَجَلِ في الآية: الخوفُ الشَّديدُ.

المَعْنى الإجْماليُّ:

أدبُ الضَّيفِ التَّحيةُ والسَّلامُ، قبلَ التّكرمةِ والطّعامِ

حينَ دخَلَ الملائكةُ على إبراهيمَ، فقالوا له عَقِبَ دُخولِهم: نسلِّمُ عليك سَلامًا، قال لهم إبراهيمُ بعدَ أن ردَّ عليهم السلام: إنّا منكم خائِفونَ؛ لأنَّهم دخلوا عليه بلا إذن وفي وقتٍ لا يجيء في مثله طارقٌ، أو

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/304.
(2) الخليل، العين، والراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (وجل).
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 9/256.

لأنَّه حين قرَّب إليهم العِجلَ الحنيذَ لم يأكلوا منه، والضَّيفُ إذا لم يأكل ممّا يُقدَّمُ له منَ الطَّعام يُظنُّ أنَّه لم يأتِ لخيرٍ، ويُؤيِّدُ هذا قولُه تعالى: ﴿فَلَمَّا رَءَآ أَيۡدِيَهُمۡ لَا تَصِلُ إِلَيۡهِ نَكِرَهُمۡ وَأَوۡجَسَ مِنۡهُمۡ خِيفَةٗۚ﴾ [هود: 70][1].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

نُكتةُ فصْلِ الآيةِ عن سابِقتِها:

جاءتِ الآيةُ على طريق الفصلِ؛ للإيذانِ بأنَّ ما يُذكرُ في هذه الآية هو الخبرُ الذي أمرَ اللّه رسولَه محمَّدًا ﷺ أن يُنبِّئَ به، فجملةُ ﴿إِذۡ دَخَلُواْ عَلَيۡهِ﴾ بمفهومِها بيانٌ للمفعول به المحذوفِ للعلم به في قولِه تعالى: ﴿وَنَبِّئۡهُمۡ﴾ [الحجر: 51]؛ إذِ الكلامُ بتقديرِ: ونبِّئْهم النَّبأَ عن ضيفِ إبراهيمَ، لتفيدَ الجملةُ البيانيَّةُ إزالةَ الخفاءِ عنِ النَّبأ، مع اقتضاءِ المقامِ إزالتَه، ويحتملُ أن تكونَ بدلًا منَ المفعولِ المحذوفِ، فجاء بطريق البَدلِ لكونِ الكلامِ السّابقِ غيرَ وافٍ بتمامِ المرادِ ولِكونِه أمرًا عجيبًا، فيُشعرُ بوجوب الاعتناءِ به، فيظهرُ بمجموعِ البدلِ والمُبدلِ منه مزيدُ اعتناء بشأنِه وإيضاحٍ لأمرِه[2].

قَصصُ الأنبياءِ تَجليةٌ للآدابِ، واستِخلاصٌ لِما في الأخلاقِ من رُضابٍ

دَلالةُ تصْديرِ الآية بالظّرفِ ﴿إِذۡ﴾:

لمّا أفاد الأمرُ في الآيةِ السّابقةِ في قولِه تعالى: ﴿وَنَبِّئۡهُمۡ﴾ [الحجر: 51] أنَّ ضيفَ إبراهيمَ لهم شأنٌ بما يُفيدُه لفظُ الإنباءِ أكَّدَ هذا الأمرَ فتصدّرتِ الآيةُ بالظّرفِ ﴿إِذۡ﴾ للإشعارِ بعِظَمِ شأنِ الإخبارِ عنهم وما أتَوا به في ذلك الوقتِ، ولتنبيهِ السّامعين إلى الإصْغاءِ لِما يُذكرُ في الخبرِ عنهم، ففيه تعظيمٌ لشأنِ ذلك الوقتِ لعظَمِ ما وقعَ فيه منَ الأحداثِ، فإنَّ تعظيمَ الظّرفِ تعظيمٌ لِما وقع فيه.

جَوْهَرُ قصّةِ المَلائكةِ مع إبراهيمَ، العِبرةُ للمخاطَبين والتّالين

(1) ابن جرير، جامع البيان: 14/82، والبيضاويّ، أنوار التنزيل: 3/213، والمراغي، تفسير المراغي: 14/32.
(2) الدّسوقيّ، حاشية الدّسوقيّ على مختصر المعاني: 2/460.

دَلالةُ الضّميرِ المُتّصلِ بالفعلِ ﴿دَخَلُواْ﴾:

لمّا عاد الضّميرُ على ﴿ضَيۡفِ﴾ [الحجر: 51] أفادَ أنَّ دخولَهم على إبراهيمَ عليه السلام كان بعُنوانِ الضّيفِ، إيذانًا بالأمانِ له، وأنَّهم كانوا جماعةً، للإشعارِ بعِظَمِ شأنِ ما جاؤوا إليه، فإنَّ دخولَ الجماعة ليس كدخول الفرد هيبةً وإجلالًا للمدخول إليه وبما جاؤوا به.

الدّخولُ إلى البيوتِ بعُنْوانِ الضّيافةِ، إيذانٌ بالأمانِ

فائِدةُ التَّعبيرِ بالفاءِ في جملةِ ﴿فَقَالُواْ﴾:

تفيدُ الفاء التّرتيبَ والتّعقيبَ، أي كان قولُهم السّلامَ مُرتَّبًا على دخولِهم، وكانَ سلامُهم عَقيبَه من غيرِ مُهلةٍ، إشعارًا بمبادرتِهم إلى طَمأنةِ إبراهيمَ عليه السلام.

الابتداءُ - عَقيبَ الدّخولِ - بالسَّلامِ، سُنّةُ الملائكةِ الكرامِ

سِرُّ مَجيءِ الضّميرِ جمْعًا في ﴿فَقَالُواْ﴾:

جُمِعَ الخبرُ عنهم، وهم في لفظٍ واحدٍ، فإنَّ الضَّيفَ اسْمٌ للواحد والاثنين والجمعِ، ليدلَّ على أنَّ الضَّيفَ كانوا جماعةً.

لفظُ الضَّيفِ يتناولُ المفردَ والجماعةَ

نُكتةُ تَعْدِيةِ ﴿دَخَلُواْ﴾، بـ(عَلَى):

أشعرَ تعليقُ تعديةِ الفعل بـ(عَلَى) أنَّ دخولَ الملائكةِ على إبراهيمَ عليه السلام كان دُخولَ جلالٍ وجمالٍ واستعلاءِ تمكُّنٍ وسُموٍّ مخالفًا لدخول بقيَّةِ الضُّيوفِ، فعَظمةُ المُرسلِ وهو اللّٰه تعالى تُضفي على المُرسَلِ تشريفًا وتكريمًا.

عظَمةُ المُرْسِلِ، تُضفي شرفًا وتكريمًا على المُرْسَل

دَلالةُ لفْظِ ﴿سَلَٰمٗا﴾ في الآيةِ:

لمّا كان لفظُ السِّلم والسّلامة، يدلُّ على التَّعرّي منَ الآفات الظّاهرةِ والباطنةِ أفاد أنَ ضيفَ إبراهيمَ لمّا دخلوا عليه وكانوا غرباءَ حيَّوه بالسَّلام؛ للإيذانِ بأنَّهم دخلوا عليه بتحيَّةٍ يبرأُ بها من كلِّ أذًى وعيبٍ وضَرٍّ ظاهرًا وباطنًا، ليكونَ دخولُهم دخولَ أمانٍ واستئناسٍ له عليه السلام.

السَّلامُ سُنَّةُ الأنبياءِ والرُّسُلِ والملائكةِ، وتحيَّةُ أهلِ الجنَّةِ

نُكتةُ مجيءِ لفْظِ ﴿سَلَٰمٗا﴾ منصوبًا:

يحتملُ أن يكونَ ﴿سَلَٰمٗا﴾ مصدرًا لفعلٍ محذوف للإيجاز،

وتقديرُه (سلَّمنا عليكَ سلامًا) بصيغة الماضي لإفادة تحقّقِ الوقوعِ أو (نسلِّمُ عليك سلامًا) بصيغة المضارع لإفادة الاستمرارِ، ليفيدَ ذكرُ المصدرِ تأكيدَ السَّلام وتقريرَه، واللّفظُ وإن جاء بصيغةِ الخبرِ لكنَّ المرادَ منه إنشاءُ السّلام، فيكونُ الكلامُ بطريقةِ مجيء الإنشاءِ بصيغة الخبرِ، لإثباتِ وقوعِه وتحقُّقِه وكأنَّه حاصلٌ، ولهذا كان تقديرُ الفعل بصيغة الماضي أولى، أو يكونُ نصبُ ﴿سَلَٰمًا﴾ بإعمال ﴿فَقَالُواْ﴾ فيه، كأنَّه قيل: قالوا قَوْلاً هو سَلامًا، أي لفظُ ﴿سَلَٰمًا﴾ هو معنى ما تكلَّمت به الملائكةُ، ويفيدُ اللّفظُ على التّوجيهَين أنَّ السَّلامَ هو أوّلُ قولٍ تكلَّمَ به الضّيفُ مع إبراهيم عليه السلام[1].

أوّلُ ما تكلَّمَ به الضّيوفُ الفِخامُ، مع إبراهيمَ الخليلِ هو السّلامُ

دَلالةُ التَّنكيرِ في لفْظِ ﴿سَلَٰمًا﴾:

أفاد التّنكيرُ تعظيمَ سلامِ الملائكة وتفخيمَه بما يناسبُ السّلامَ على سيّدنا إبراهيمَ عليه السلام، ولمّا كان اللّفظُ في سياق التّكريم أفادَ العمومَ والمبالغةَ في المعنى، بمعنى عمومِ السّلامةِ من كلِّ عيبٍ أو أذًى.

السّلامُ يُفيدُ السّلامةَ من كلِّ عيبٍ وأذًى

بَلاغةُ الاستئنافِ البيانّي في الآية:

قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّا مِنكُمۡ وَجِلُونَ﴾، وفيه أنّه لمّا كان في العُرفِ والعادةِ فيما بينَ المخلوقينَ، إذا قيل لهم: دخلَ قومٌ على فلان، فقالوا كذا، أن يقولوا: فما قال هو؟، ويقول المجيبُ: قال كذا، جاء الكلامُ هنا على هذا المخرج[2]، فكأنَّه قيل: فماذا قال إبراهيمُ عليه السلام؟، فأتى قولُه تعالى: ﴿قَالَ إِنَّا مِنكُمۡ وَجِلُونَ﴾ على سبيلِ إثارةِ المُتلقّي، واستدرارِ سمْعِه وإصغائِه.

اسْتِدرارُ أسماعِ المخاطَبين، بالمُساءلةِ عن أقاويلِ الطّرفَيْن

دَلالةُ التَّعبيرِ بالجملةِ ﴿قَالَ﴾:

يحتملُ أن يكونَ القولُ بلسانِ الحالِ، فيَكونُ ذكرُ القَولِ هُنا على

مَخايِلُ خَوْفِ إبراهيمَ عليه السلام، بلسان الحالِ أوِ المقالِ

(1) ابن جرير، جامع البيان: 15/382، والواحدي، البسيط: 11/467، والزمخشري، الكشاف: 2/580، وابن عطيّة، المحرر الوجيز: 3/365، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 11/173.
(2) الجرجاني، دلائل الإعجاز: 1/240.

طريقِ المجازِ بالاستعارة، بتشبيهِ ما ظهرَ على إبراهيمَ عليه السلام من مَخايِلِ الخَوْفِ حَتَّى صارَ كالقولِ المُصَرَّحِ بِهِ، ووجْهُ الشّبه هو ظهورُ المعنى، ويحتملُ أن يكونَ بلسانِ المقال، فيكونَ حقيقةً[1]، وتقدَّمَ أنَّ الكلامَ جاء على الاختصار، بطيِّ ذكْرِ ردِّ السَّلام وتقديمِ الطّعام وعدمِ أكلِ الملائكة منه، لمناسبةِ المقامِ.

دَلالة (إنَّ) في الآية:

قولُه تعالى: ﴿إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ﴾، وفيه تفيدُ (إنَّ) تأكيدَ مضمونِ الجملةِ - أي تأكيدُ وجلِ إبراهيمَ وأهلِه منَ الملائكةِ - وتقريرَه؛ لعلَّهم يُزيلون الوجلَ ببيانِ سببِ مجيئِهم، والغايةِ منه.

الحِوارُ يُزيلُ اللَّبسَ في المقالِ، وإنّما شِفاءُ العِيِّ السّؤالُ

سِرُّ التَّعْبيرِ بصيغةِ الجمْعِ في ﴿إِنَّا﴾:

يحتملُ أن يكون ضميرُ الجمع (نا) للتّعظيم، إشعارًا بعظَمِ الوجَلِ، بحيث لو كان في الموضعِ جمْعٌ منَ النّاسِ لأصابَهم الوجَلُ منهم، أو أن يكونَ قد جمَعَ أهلَ بيتِه معه في الوجلِ منهم[2].

إفادةُ (نا) تعظيمَ الوجلِ، أو إشراكَ أهلِ إبراهيمَ معه

بَلاغةُ تقْديمِ ﴿مِنكُمْ﴾ على ﴿وَجِلُونَ﴾:

لمّا كان أصلُ الكلامِ: إنّا وَجلونَ منكم، كان تقديمُ الجارِّ والمجرور على متعلَّقِه لإفادة الاهتمامِ والتّخصيصِ بمعنى ما كانَ وجلُنا إلّا منكم.

التّقديمُ للاهتمامِ والتّخصيصِ، من فصيحِ البَيانِ

دَلالةُ (مِنْ) في قولِه: ﴿مِنكُمْ﴾:

تحتملُ (مِنْ) أن تكونَ ابتدائيَّةً لتفيدَ أنَّ ابتداءَ وقوعِ وجَلِهم كانَ منَ الملائكة، كما تحتملُ أن تكونَ سببيَّةً بمعنى أنَّ حصولَ الوجَلِ كان بسببِكم، ليفيدَ أنَّه عليه السلام كان مُطمئنًّا قَبْلَ مجيئِهم.

تردّدُ (مِنْ) بين الابتداءِ والسّببيَّةِ، مُفيدٌ في الدّلالةِ البيانيّةِ

نُكتةُ التَّعْبيرِ بلفْظِ ﴿وَجِلُونَ﴾:

لمّا كانَ الوجَلُ هو استشعارُ الخوفِ في القلبِ، أو هو اضطرابُ

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 6/484، والبقاعيّ، نظم الدرر: 11/66.

(2) أبو القاسم الكرماني، لباب النقول، ص: 995، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 11/173.

النّفسِ لتوقُّعِ ما يُكرَه[1] عُبِّرَ به هنا؛ للإشعارِ بأنَّ إبراهيمَ وصفَ ما وقعَ في قلبِه من استشعارِ الخوفِ ممّا رآه منهم على سبيل المبالغةِ فأخبرَ عن ذاتِه كُلِّها بالوجَلِ.

الوجَلُ اسْتِشعارٌ للخوف في النّفسِ، وقد ترتعدُ منه الفَرائصُ

نُكتةُ التَّعْبيرِ بصيغةِ ﴿وَجِلُونَ﴾:

تحتملُ صيغةُ (فَعِلٌ) أن تكونَ صفةً مشبَّهةً على معنى المبالغةِ في اتّصافِ إبراهيمَ عليه السلام بالوجَلِ منَ الملائكة، ممّا يُشعرُ أنَّ اتّصافَه بالوجلِ ليسَ على معنى دوامِ الثّبوتِ، بل هو متعلِّقٌ بخوفِه منهم، فلمّا بشّروه ذهبَ عن إبراهيمَ الوجَلُ، وتحتملُ أن تكونَ اسمَ فاعلٍ، لإفادة معنى اتّصافِه بالوجلِ في الحالِ، وأنَّه ذهب لمّا بشّروه بغلامٍ عليم، والصّيغةُ هنا قد روعيَ فيها جانبُ الحدثِ أكثرَ من جانبِ الاسْميّةِ، لظهورِ الوجَلِ واستشعارِ الخوفِ على إبراهيمَ عليه السلام منَ الملائكةِ.

زالَ وجَلُ إبراهيمَ عليه السلام، بمُجرّدِ أن بشّرتْه الملائكةُ

سببُ الوجَلِ في الآية:

لمّا جاء الكلامُ على مقابلة سلامِ الملائكةِ بالخوفِ منهم، كان على خلافِ مُقتضى الظّاهر، وفي الكلامِ إيجازٌ، فقد جاء في آيةٍ أخرى أنَّه عليه السلام ردَّ عليه السلام ﴿قَالُواْ سَلَٰمٗاۖ قَالَ سَلَٰمٞۖ﴾ [هود: 69]، ونُكتةُ الإيجازِ بالحذف، سنذكرُها في توجيه المُتشابهِ اللَّفظيِّ، وإبراهيمُ عليه السلام إنَّما خافهم؛ لأنَّهم امتَنعوا منَ الأكل إذ رأى أيدِيَهم لا تصلُ إليه وهم في صورة البشرِ، كما قال: ﴿فَلَمَّا رَءَآ أَيۡدِيَهُمۡ لَا تَصِلُ إِلَيۡهِ نَكِرَهُمۡ وَأَوۡجَسَ مِنۡهُمۡ خِيفَةٗۚ﴾ [هود: 70]، لما أنَّ المعتادَ عندهم أنَّه إذا نزلَ بهم ضيفٌ فلم يأكلْ من طعامِهم ظنّوا أنَّه لم يجئْ بخير، فالعلامةُ المؤمّنَةُ حين ينزلُ الضّيفُ أن يأكلَ الطعام، وكذلك هو في غابرِ الدّهرِ أمنَةٌ للنّازل والمنزولِ به، ولأنَّهم دخلوا بغير إذنٍ وبوقتٍ لا يُعهدُ ولا يُعتادُ الدّخولُ فيه، ولم يظهرْ عليهم أثرُ السَّفرِ أصلًا، فعند ذلك وجِلَ منهم؛ فإنّ الإمساكَ عن تناولِ طعام الكرامِ موضعٌ للرّيبة، فلمّا

الملائكةُ في صورةِ البشرِ، يُخاطبُهمُ الأنبياءُ وغيرُهم

(1) الحرالي، تراث أبي الحسن، ص: 201، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 3/213.

رأى ذلك ظنَّ إبراهيمُ أنَّهم ملائكة؛ وأنَّهم ما جاءوا إلّا لأمرٍ عظيمٍ؛ حيث لم يتناولوا ممّا قرّبَ إليهم، فأخبرَهم بوجَلِه منهم[1].

تَوْجيهُ التّشابُهِ اللَّفظيِّ في الآية:

عادةُ القُرآنِ في القَصصِ التّفصيلُ في موضعٍ، والإيجازُ في آخرَ

أوّلًا: جاء في أكثرَ من موضع ذكرُ ردِّ إبراهيم السّلامُ عليهم، كما في قولِه تعالى ﴿قَالُواْ سَلَٰمٗاۖ قَالَ سَلَٰمٞۖ﴾ [هود: 69]، وقولِه: ﴿إِذۡ دَخَلُواْ عَلَيۡهِ فَقَالُواْ سَلَٰمٗاۖ قَالَ سَلَٰمٞ قَوۡمٞ مُّنكَرُونَ ٢٥﴾ [الذّاريات: 25]، فإنَّه إذا ذُكِرَ تسليمٌ من قوم على قوم، ورَدُّ الآخرين عليهم، دلّ ذلك على مسالمة بعضِهم بعضًا[2]، وسببُ طيِّ ذكرِ سلامِ إبراهيمَ عليه السلام هنا وذكرِه في سورة هود والذّارياتِ هو أنَّ الذي في سورتَيْ هود والذّاريات تفصيلٌ وإطنابٌ في ذكر ضيافة إبراهيمَ عليه السلام للملائكة المُكرمين ولِما حدثَ وقتَ بِشارتِهم له بالغلام، وأمّا الذي في سورة الحجر فقد جاء الكلامُ على الإيجاز والاختصارِ، مع الإشارة إلى أنَّ إبراهيمَ عليه السلام قامَ بمقتضياتِ الضّيافة من ردِّ السّلام وتقديمِ الطّعام حينَ قال في سورة الحجر ﴿ضَيۡفِ إِبۡرَٰهِيمَ ٥١﴾ [الحجر: 51]، فالإضافة مشعرةٌ بوقوع الضِّيافة وتحقُّقِها منَ الطّرفين، فهم قد دخلوا عليه بالسَّلام والبشارةِ وهو قد أدَّى حقَّ الضّيافة، ولهذا وردَ ظرفُ الزّمانِ ﴿إِذۡ﴾ في سورة الحجرِ في صدرِ هذه القصَّة، فهو بمعنى حين، والحينُ قد يكون واسعًا، فيَذكرُ ما هو واقعٌ فيه تارةً جميعَه على ترتيبه، وأخرى على غير ذلك، وتارة بعضَه مع إسقاط البعض مع صدقِ جميع وجوهِ الإخبار لكونِه كان مشتملاً على الجميع، كما أنَّه لمّا ذكرَ في سورة الذّاريات لفظَ ﴿ٱلۡمُكۡرَمِينَ ٢٤﴾ [الذاريات: 24] ذكرَ ما يقتضي الإكرامَ وردَّ التّحية والإكرام، وأمّا في سورة الحجر لم يذكر اللّفظَ، فلم يقتضِ المقامُ ذكرَ ردّ إبراهيمَ، كما أنَّه لمّا كانت سورةُ الحجر

(1) الماتريدي، تأويلات أهل السّنة: 6/448، 9/384، والقشيري، لطائف الإشارات: 2/275، وابن عطية، المحرر الوجيز: 3/365.

(2) ابن جرير، جامع البيان: 15/383.

متأخّرةً عن سورة هود، والواقعةُ واحِدَةٌ اكْتُفِيَ بها عَمّا وردَ في سورة هود؛ لأنَّ التَّقْديرَ: (فَقالوا سَلاما قالَ سَلام)، فحذفَ للدّلالة عليه، كما هو عادةُ القرآن المجيد[1].

ثانيًا: جاء في هذه السّورة التّصريحُ بوَجَلِ إبراهيم عليه السلام بصيغة القول، ﴿وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ۝٥١ إِذْ دَخَلُواْ عَلَيْهِ فَقَالُواْ سَلَٰمًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ۝٥٢﴾ [الحجر: 51 - 52]، وجاء في سورة الذّاريات ذكرُ الخوفِ من غير تصريحٍ بأنَّ إبراهيمَ عليه السلام قد قال هذا القولَ، فقال تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ۝٢٤ إِذْ دَخَلُواْ عَلَيْهِ فَقَالُواْ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ۝٢٥ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ۝٢٦ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ۝٢٧ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۖ قَالُواْ لَا تَخَفْ ۖ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ۝٢٨﴾ [الذّاريات: 24 - 28]، وبيانُه أنَّه لمّا وصفَ اللّه تعالى الملائكةَ بالمُكرَمين في سورة الذّاريات، وذكر كلَّ الأمورِ المتعلّقةِ بالإكرام ومنها ردُّ السلام والمجيءُ بالعجل وتقديمُه لهم، وصف اللّه تعالى نبيَّه إبراهيمَ أنَّه أوجس منهم خيفةً، فوصف ما وقعَ في نفس إبراهيمَ عليه السلام من دونِ تصريحٍ؛ لأنَّ الإطنابَ في مقامِ التّكريم يُنافي أن يصرِّحَ لهم بالوجلِ والخوفِ منهم، وأمّا في سورة الحجر فقال تعالى على لسان إبراهيمَ عليه السلام: ﴿قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ﴾ أي خاطبَهم مباشرةً، لمجيء القصّةِ على الاختصار في ذكرِ التّكريم[2]، ولأنَّ مدارها على ذكرِ مجيء الملائكةِ بالعذاب على قومِ لوطٍ عليه السلام[3].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الوجَلُ والخوفُ والخشيةُ والفزعُ:

الوجَلُ هو استشعارُ الخوفِ أو هو اضطرابٌ في النّفس لتوقُّع ما

الوجَلُ أشدُّ الخوفِ، والفزعُ مُفاجأتُه، والرّهبةُ طولُه، والخشيَةُ منَ الله فقط

(1) أبو القاسم الكرماني، أسرار التكرار، ص: 156، والبقاعي، نظم الدرر: 11/66.
(2) الواحدي، البسيط: 12/615.
(3) السامرائي، لمسات بيانية، ص: 552.

يُكره، وهو وصفٌ يُصيب القلبَ، وأمّا الخوفُ فهو توقُّع مكروه في المستقبل، والخوفُ توصفُ به الذّاتُ كلُّها، وقيل الوجلُ خَوْفٌ مَعَ فَزَعٍ فيَكونُ لاسْتِعْظامِ المَوْجولِ مِنْهُ، ويكونُ أخصَّ منَ الخوفِ، وذهب بعضُهم إلى أنَّ الخوفَ أوّلُ المراتب، ثمّ بعده الوَجَلُ، ثمّ الخَشْيةُ، ثمّ الرَّهْبة، والفرقُ بين الخوف والفزع هو أنَّ الفزع مفاجأةُ الخوف عند هجوم غارةٍ أو صوتِ هدّةٍ وما أشبهَ ذلك، وهو انزعاجُ القلب بتوقّع مكروه، وأمّا الرّهبةُ فهي طولُ الخوف، فإذا امتدَّ الخوفُ واستمرَّ سمِّيَ رهبةً، والفرقُ بين الخوف والخشية هو أنَّ الخشية أشدُّ منَ الخوف، وخُصَّتِ الخشيةُ باللّه تعالى، وتكونُ من عِظَمِ المَخشيِّ وإن كان الخاشي قويًّا، والخوفُ يكونُ من ضعفِ الخائفِ وإن كان المخوفُ أمرًا يسيرًا[1].

(1) العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 242 - 243، والواحديّ، التفّسير البسيط: 10/18، والسّمعاني، تفسير السّمعاني: 3/92، والبيضاويّ، أنوار التنزيل: 3/213، وابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 3/70، والكفويّ، الكلّيّات، ص: 428، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/256.

﴿قَالُواْ لَا تَوۡجَلۡ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٖ ٥٣﴾ [الحجر: 53]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الإخْبارُ بِبشارةِ الولدِ، تأنيسٌ للوالدِ وإدخالٌ للسّرورِ إلى قلبِه

لما أخبرَ اللّه تعالى أنَّ إبراهيمَ أخبرَ الملائكةَ بوجَلِه منهم، تشوَّفَ السّامعُ إلى جوابِهم، فجاءت هذه الآيةُ لإزالة الوجلِ من إبراهيمَ عليه السلام[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿نُبَشِّرُكَ﴾: أصلُ البَشَرة: انتشارٌ واسعٌ على ظاهر الشَّيء: كانتشار جِلدِ البَدن على ظاهره، وانتشارِ الشَّعر على الجلد، وأصل البِشْرِ بالكسر: الطَّلاقةُ والبشاشةُ وبسطُ الوجه: ﴿فَبَشَّرۡنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٖ ١٠١﴾ [الصافات: 101]، ﴿وَأَبۡشِرُواْ بِٱلۡجَنَّةِ﴾ [فصلت: 30]، ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَيۡ رَحۡمَتِهِۦ﴾ [الأعراف: 57]، ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗاۖ﴾ [البقرة: 119][2]. والبُشْرى: ما يُعْطاه المُبَشِّر منَ الأمر، والجمع: بُشَر[3]، وهو الخبرُ الذي يُغيِّر البَشَرة مِن حُزْنٍ أو سُرورٍ، ثمَّ خُصَّ في عُرْفِ اللُّغة بالسُّرور، ولا تكونُ إلّا بالخبر الأوَّل[4]، فَيُقالُ: أبْشَرْتُ الرَّجُلَ، وبَشَّرْتُهُ أيْ أخْبَرْتَهُ بِأمْرٍ سارٍّ[5]، وسُمِّيَتْ بذلك مِنَ البِشْرِ وهو السُّرورُ؛ لأنَّها تُظْهِرُ طَلاقَةَ وَجْهِ الإنْسانِ وفَرَحَه، والمقصودُ بالبُشرى في الآية: الخبرُ السّارُّ المُفرحُ الذي يُظهرُ البشاشةَ على الوجه.

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/66.

(2) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (بشر).

(3) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 1/238، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (بشر).

(4) النووي، تحرير ألفاظ التنبيه، ص: 267، والبقاعي، نظم الدرر: 11/184.

(5) ابن الأنباري، الزاهر في معاني كلمات الناس: 2/128، والعوتبي، الإبانة في اللغة العربية: 2/280.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

بِشارةُ الملائكةِ بولادةِ إسْحاقَ، طردتْ مخاوفَ إبراهيمَ، وأشعرَتْه بالأمانِ

يُخبرُ اللّه تعالى في الآية ما قالته الملائكةُ، لإدخال الطَّمأنينةِ على قَلْب إبراهيمَ، قالت الملائكة لإبراهيمَ على سبيل البشارةِ، وإدخالِ السُّرور على قلبه: لا تَخف مِنّا يا إبراهيمُ، ثمَّ عَلَّلوا ذلك بقَولِهم مؤكِّدينَ لِقَلعِ ما في نفسِه من الوجَلِ المُنافي للبُشرى، فقالوا: إنّا جئنا إليك لنُبشِّرك بغلامٍ ذي عِلْمٍ كثيرٍ بشريعةِ اللّه تعالى وبأوامره ونواهيه، وهو إسحاقُ عليه السلام[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

بَلاغةُ الاستئنافِ البيانِّي في الآيةِ:

اخْتِصارُ الحِوارِ، من بلاغةِ السّياقِ القرآنيِّ المُعْجِزِ

جاء الكلامُ على طريق الاستئنافِ البيانيِّ وذلك أنَّ مقتضى قولِه تعالى: ﴿قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ﴾، أن يُتبَعَ هذا القولُ بقولٍ، فكأنَّه قيل: (فما قال الملائكةُ حين قال إبراهيمُ هذا القولَ)؛ لأنَّه يقتضي أن يكون منَ الملائكة كلامٌ في تأنيسِه وتَسكينه ممّا خامَره، فكأنَّه قيلَ: فما قالوا حينَ رأوه وقد تغيَّرَ ووَجِلَ منهم؟، فقيل: ﴿قَالُواْ لَا تَوْجَلْ﴾ جوابًا عن ذلك[2].

دَلالةُ النّهيِ في قولِه ﴿لَا تَوْجَلْ﴾:

النّهيُ عنِ الوجَلِ، هو الكفُّ عنِ الوجَلِ وأسبابِه

أفادت ﴿لَا﴾ النّاهيةُ طلبَ الكفِّ عنِ الوجَلِ بعدَ وقوعِه من إبراهيمَ عليه السلام، ولمّا كان الوجَلُ وصفًا معنويًّا كان المعنى: لا يكنْ منك وجلٌ ولا ينبغي أن يكونَ بل لِيكنْ منك الفرحُ؛ فإنّا جئناك مُبشّرين، وإن كنّا لغيرك مُعذّبين، أو يقال: لمّا كان الوجلُ منَ الكيفيّاتِ النّفسيّةِ كان النّهيُ على معنى طلبِ الكفِّ عنِ السّببِ المُؤدّي إليه[3].

---

(1) البقاعي، إرشاد العقل السليم: 11/66، وطنطاوي، التفسير الوسيط: 8/55.

(2) عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص: 240.

(3) القشيري، لطائف الإشارات: 2/275، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 11/173.

سِرُّ حذْفِ مُتعلَّقِ الفعْلِ ﴿لَا تَوْجَلْ﴾:

حُذِفَ متعلَّقُ الفعلِ في قولِه تعالى: ﴿لَا تَوْجَلْ﴾ لإفادةِ العموم، والمعنى: لا توجَلْ من أيِّ شيءٍ، وهو المناسبُ لمقام سيّدنا إبراهيمَ عليه السلام، ويدخلُ فيه النَّهْيُ عنِ الوجل منَ الملائكة دخولًا أوّليًّا، ويحتملُ أن يكونَ الحذفُ على معنى النّهي عنِ الاتّصاف بالوجلِ مطلقًا، أي لا ينبغي أن تتّصفَ بالوجَل ولا يصحُّ وقوعُه منك، أو بمعنى: لا يأتِ منك الوجَلُ.

الحذفُ بين إرادةِ عُمومِ النّهي، وطلَبِ تركِ الاتّصافِ بالوجَلِ

بَراعةُ الاسْتِئنافِ بجملةِ ﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ﴾:

جاء قوله تعالى: ﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ﴾ على طريقِ الاستئنافِ البيانيِّ؛ ليكونَ جوابَ سؤالٍ تقديريٍّ عن سببِ النّهي عنِ الوجلِ، ليفيدَ الاستئنافُ معنى التَّعليلِ وبيانَ الحجَّة للنّهي عنِ الوجلِ، فإنَّ المبشِّر لا يُخافُ منه، والمبشَّر لا يكاد يحومُ حول ساحتِه خوفٌ ولا حزنٌ، والمعنى إنَّك بمثابة الآمِنِ المبشَّرِ فلا توجلْ، وفيه إشارةٌ بأنَّ البشارةَ تدفعُ الخوفَ والوجلَ[1].

البِشارةُ تدفعُ الخَوفَ المُرعِبَ، وتمنعُ الوجلَ المُرهِقَ

فائِدةُ أداةِ التّوكيدِ (إنَّ):

لمّا كانَ إبراهيمُ عليه السلام، قد كان له ظنٌّ بخلافِ ما جاءته به الملائكةُ منَ البشارةِ، ولهذا وجِلَ منهم، كان الموضعُ موضعَ تأكيدٍ بـ(إنَّ)، فكأنَّ ما رآه منهم يبعدُ مثلُه في الظّنِّ أن تكونَ البِشارةُ منهم، فجاءت (إنَّ) لتأكيدِ بشارتِهم له عليه السلام، ولقلْعِ ما في نفسه منَ الوجَلِ المُنافي للبُشرى[2].

العملُ على قلْعِ ما في نفسِ إبراهيمَ عليه السلام منَ الوجَلِ

بَراعةُ تقديم المُسبَّبِ على السّببِ:

قُدِّمَ المسبَّبُ ﴿لَا تَوْجَلْ﴾ على السّببِ ﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ﴾، فلم يقل: إنّا

تأنيسُ الخائفِ، مَنهجٌ مع المؤالِفِ والمُخالِفِ

(1) الزمخشري، الكشاف: 2/581، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 3/213، وأبو حيان، البحر المحيط: 6/584، وأبو السّعود، إرشاد العقل السليم: 5/81.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 11/66.

نبشّرُك بغلامٍ عليم فلا توجَلْ؛ للمبادرةِ إلى تأنيسِه ودفْعِ الوجلِ من قلبِه، وليكونَ النّهيُ عنِ الوجل عامًّا كما تقدَّم في سبب حذْفِ متعلَّق الفعلِ ﴿لَا تَوْجَلْ﴾، فالعبرةُ بما يدلُّ عليه عمومُ حذفِ المتعلَّقِ وليس بخصوصِ السّببِ.

نُكتةُ التَّعْبيرِ بلفْظِ ﴿نُبَشِّرُكَ﴾:

لمّا كانتِ البشارةُ هي الخبرَ السّارَّ الذي يبسطُ بشرةَ الوجهِ، وذلك أنّ النَّفس إذا سُرّت انتشرَ الدّمُ فيها انتشارَ الماء في الشّجر، فتنْبَسِطُ بشَرةُ الإنسانِ عِنْد السّرور عُبّرَ بلفظِ ﴿نُبَشِّرُكَ﴾ للإشعار بأنَّ ما يُبشّرونَه به يَعقبُه الفرحُ والسّرورُ.

البِشارةُ يَعقبُها الفرحُ والسّرورُ، لِما لها من أثرٍ في شفاءِ الصُّدورِ

دَلالةُ التَّعْبيرِ بصيغةِ (فَعّل) في الآية:

عُبِّرَ بصيغةِ (فعّل) الدّالَّةِ على التّكثير في قولِه تعالى: ﴿نُبَشِّرُكَ﴾ للدَّلالةِ على المبالغةِ في بِشارتِهم؛ للإشعارِ بأنَّ البشارةَ بالغلام العليم بشارةٌ عظيمةٌ.

البِشارةُ بالغلامِ العليمِ، بِشارةٌ عظيمةٌ، لشيخٍ زوجتُه عقيمٌ

نُكتةُ إسناد الفعْلِ ﴿نُبَشِّرُكَ﴾:

لمّا كان الملائكةُ قد جاؤوا بأمرِ اللّه تعالى، وكانوا جميعًا مُؤتمِرين بأمر اللّه تعالى جاء الفعلُ مُسندًا إلى ضمير جماعةِ المتكلّمين؛ للإيذانِ بأنَّ قولَ واحدٍ منهم هو قولُ الجميع.

قولُ الواحدِ منَ الملائكةِ المُرسَلين، قولٌ لجَميعِهم

دَلالةُ مَجيء المسنَدِ جملةً في السّياقِ:

قوله تعالى: ﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ﴾، وفيه جاءتِ الجملةُ الفعليّةُ خبرًا عن (إنَّ) لإفادة تَقَوّي الحُكم، والمرادُ تحقيقُ تبشيرِهم إبراهيمَ عليه السلام بغلام عليم؛ لأنَّ المقامَ مقامُ تأكيدٍ لكبَرِ سنِّه هو وزوجُه، بحيث لا يُعهدُ الولدُ من مثلِهما، فيكونُ مجيء الولدِ منهما معجزةً له عليه السلام، فاقتضى الخبرُ التأكيدَ[1].

إفادةُ (إنَّ) تقويّةَ الحُكمِ، لأنَّ المقامَ مقامُ تأكيدٍ

(1) السكاكي، مفتاح العلوم، ص: 212 - 222.

بَلاغةُ المَجازِ المرسَلِ، في السّياقِ الأمثلِ:

قوله تعالى: ﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ﴾، لمّا كان لفظُ ﴿نُبَشِّرُكَ﴾، بصيغةِ المضارعِ الدّالِّ على الحالِ كانت البِشارةُ بالغلامِ العليمِ على طريق المجازِ المرسَلِ بتسميةِ الشّيءِ بما يَؤولُ إليه في المستقبل، فوصَفوه في حال البِشارة، بما يَؤولُ إليه منَ البلوغِ والعلمِ، ونكتةُ التّعبيرِ عنه بصيغة الحالِ الإيذانُ بأنَّه سيولدُ له غلامٌ عليمٌ، وأنَّه واقعٌ لا محالةَ، على سَبيل اليقينِ.

الإخبارُ بالحالِ عنِ المستقبلِ، يفيدُ تَحَقُّقَ الوقوعِ

معنَى الباءِ في قولِه تعالى ﴿بِغُلَٰمٍ﴾:

أفادتِ الباء هنا صحَّةَ تعديةِ الفعل إلى ﴿بِغُلَٰمٍ﴾، لتدلَّ على تحقُّقِ البِشارةِ بالغلامِ العليمِ.

قد يكونُ في سِياقِ الكلامِ، ما يُؤكّدُ الاطْمئنانَ

سببُ إيثارِ التَّعْبيرِ بـ﴿بِغُلَٰمٍ﴾:

لمّا كانتِ البِشارةُ على معنى الخبرِ السّارِّ المُفرِحِ الذي يكون غيرَ متوقَّعٍ عُبِّرَ بلفظ الغلامِ للإشعارِ بأنَّه ولدٌ ذكرٌ هو في غاية القوةِ وليس هو كأولاد الشّيوخِ ضعيفًا[1].

تَمامُ البِشارةِ، تكونُ بتمامِ المعنَى المُبَشَّرِ به

نُكتةُ تَنكيرِ لفْظِ ﴿بِغُلَٰمٍ﴾:

يفيدُ التّنكيرُ هنا التّفخيمَ، للإشعارِ بأنَّه غلامٌ ليس كسائرِ الغِلمانِ.

التَّنكيرُ للتَّفخيمِ، وسِياقُ القصّةِ يفيدُ فخامةَ الغلامِ

دَلالةُ صيغةِ ﴿عَلِيمٍ﴾ في الآيةِ:

تفيدُ الصّيغةُ معنى المُبالغةِ في الاتِّصافِ بالعلمِ، والمعنى: نُبشّرك بغلامٍ موصوفٍ بأنَّه ذو علمٍ غزيرٍ نافعٍ.

دَلالةُ صيغةِ المبالغةِ، على التَّكثيرِ في المعنى

سِرُّ الوصْفِ في قولِه: ﴿بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ﴾:

لمّا كانتِ البِشارةُ ﴿بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ﴾، أفاد مَجيء الموصوفِ مع صفتِه أنَّ البشارةَ تفيدُ خمسةَ أمورٍ: وجودَ الولدِ، وكونَه غلامًا، وبقاءَه وعيشَه إلى وقتِ البلوغِ وهو وقتُ العلمِ؛ لأنَّ الطّفلَ ليس من أهل

تَوالي المُبَشِّراتِ، بما يَليقُ بمقامِ النُّبوّاتِ

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 11/66.

العلم، وتفيدُ أنَّه سيُعلَّمُ، وأنّه سيَقبلُ العلمَ، ويكونُ عليمًا، وأيُّ فرحٍ فوقَ هذا!؟[1]، ولما كان خوفُه لخفاء أمرِهم عليه، كان للوصْفِ بالعلمِ في هذا السّياقِ مزيدُ مَزيةٍ، فقالوا: ﴿عَلِيمٍ﴾؛ للإشعارِ بأنَّ إبراهيمَ عليه السلام لم يعلمْ بأمرِهم أوّلَ الأمر[2].

تَوْجيهُ القراءاتِ القُرآنيةِ في ﴿نُبَشِّرُكَ﴾:

الفرقُ الدّلاليُّ بين القِراءتَين، يُفصحُ عنِ المدلولِ في أحوالِه المُمكنةِ

قرأ الجمهورُ ﴿نُبَشِّرُكَ﴾ مِن بشَّرَ بالتَّضعيف، فيكونُ منْ بِشارات البُشَراءِ بالخبرِ السّارِّ، أي نخبرُك بالخبرِ السّارِّ الذي يلزمُ منه الطّمأنينةُ والفرحُ والسّرورُ، فيكونُ الفرحُ والسّرور لازمًا للبِشارةِ، ومنَ المعاني الثّواني، ويفيدُ التّضعيفُ التَّكثيرَ لتفخيم البشارةِ وكونِها عظيمةً ويلزمُ منَ التّضعيف المبالغةُ في المعنى، وقرأ حمزةُ (نَبْشُرُكَ) بفتح النّون والتّخفيف منَ البِشْر، فيكونُ من جِهَة الأفراح والسُّرورِ، والمعنى إنّا نُفرحُك بغلامٍ عليم، فتفيدُ هذه القراءةُ التّعبيرَ عنِ الفرحِ بدلالةِ المطابقةِ، وهذا الفرقُ الدّلاليُّ بين القراءتَين قد كان المَشْيَخَةُ منَ القرّاءِ المتقدِّمين يَقولونَهُ[3].

تَوْجيهُ المتشابه اللّفظيِّ في الآية:

من عادةِ القرآنِ اخْتِيارُ اللّفْظِ المُناسبِ للسِّياقِ

قال تعالى في هذه السّورة: ﴿لَا تَوْجَلْ﴾، وقال في سورة هود: ﴿لَا تَخَفْ﴾ [هود: 70] توسعةً في التّعبير عنِ الشَّيءِ الواحدِ بلفظَين متقاربَيْن، وخُصَّ الّذي في سورة الحجر بـ﴿لَا تَوْجَلْ﴾ لموافقتِه قولَه تعالى: ﴿إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ﴾ وما في هود بـ﴿لَا تَخَفْ﴾ [هود: 70] لموافقتِه قولَه تعالى: ﴿وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ [هود: 70][4].

وَصْفا الحليمِ والعليمِ في سياق الآية:

دِقّةُ السِّياقِ في المناسبةِ بين الصّفةِ والموصوفِ

وصفَ اللّه تعالى الغلامَ في هذه السّورة، بقوله: (بِغُلامٍ عَلِيمٍ)،

(1) الماتريدي، تأويلات أهل السّنة: 6/448، والقشيري، لطائف الإشارات: 2/275.
(2) البقاعي، نظم الدّرر: 11/67.
(3) الفراء، معاني القرآن: 1/212، والأزهري، تهذيب اللغة: (بشر)، وابن الجزري، النشر: 2/239.
(4) زكريا الأنصاري، فتح الرحمن، ص: 299.

وجاء في سورة الصّافات: ﴿فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ١٠١﴾، وفيه وجهان: أحدُهما أن يكون المرادُ بالعليم إسحاقَ عليه السلام وبالحليم إسماعيلَ عليه السلام؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ﴾ [هود: 71]، فالتّبشيرُ وقعَ بإسحاقَ عليه السلام، ولأنَّ تبشيرَ إبراهيمَ بعلم إسحاقَ عليه السلام ونبوّته فيه دلالةٌ على بقائه إلى كبره، وهذا يدلُّ على أنَّ الذَّبيحَ إسماعيل[1]، والوجهُ الثّاني منَ التّوجيه أنَّه لمّا كان العلمُ هو الذي يدعو صاحبَه إلى كلّ خُلقٍ رفيعٍ عبَّر بوصْفِ العليم في هذه السّورة لمناسبته للسّياقِ، وجاء في سورة الصّافاتِ الوصفُ بالحليم الذي يفيدُ النَّفيَ عن صاحبه كلَّ خلقٍ دَنيء، لمناسبته لحلمه في الانقيادِ لأبيه ولِما أمره الله به، ولوعْدِه أباه بالصّبر في قوله: ﴿سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٠٢﴾ [الصّافات: 102]، فلا أحلمَ ممّن أسلمَ نفسَه للذَبحِ طاعةً لربِّه، وكلُّ ذلك دليلٌ على تمام الحلم والعقلِ، فيُؤذِنُ الجمعُ بين الوصفَين، أنَّه اجتمع فيه جميعُ الخصالِ الرّفيعةِ، ونُفيَ عنه كلُّ خُلقٍ دنيءٍ[2].

سرُّ البشارة في الآية:

البِشارةُ حُبورٌ، سواءٌ كانت للزّوجِ أو للزّوجةِ، أو لهما معًا

ذكر الله تعالى أنَّ قولَ الملائكةِ وبِشارتهم كانَ لإبراهيمَ عليه السلام، وَحُكِيَ في سورَةِ هودٍ قَوْلُهُمْ وبشارتُهم لامْرَأتِه، فقال تعالى: ﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ﴾ [هود: 71] ووجهُه أنَّ البِشارَةَ كانَتْ لَهُما مَعًا، فَقَدْ تَكونُ حاصِلَةً في وَقْتٍ واحِدٍ، أي في وقتِ اجتماعِهما فهِيَ بِشارَتانِ باعْتِبارِ المُبَشَّرِ؛ لأنَّ المسرَّة تكون لكلِّ واحدٍ منهما، وقَدْ تَكونُ حَصَلَتْ في وَقْتَيْنِ مُتَقارِبَيْنِ، بأنْ بَشَّروهُ بانْفِرادٍ ثُمَّ لمّا جاءَتِ امْرَأتُهُ بَشَّروها تكريمًا لها كذلك وتأكيدًا للبشارةِ؛ لأنَّ بِشارَةَ زَوْجِهِ بابْنٍ بِشارَةٌ له أيْضًا[3].

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 3/213، وابن جماعة، كشف المعاني، ص: 308، وزكريا الأنصاري، فتح الرحمن: 1/481.

(2) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 6/448.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/116.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

البِشارةُ والخبَر:

البِشارةُ هِي أوّلُ ما يصلُ إليك من الخَبَر السّارّ فَإذا وصل إلَيْك ثانِيًا لم يُسمَّ بِشارَة وكانَ خبرًا[1]، كما أنَّ البشارة لا تكونُ إلّا فيما هو خيرٌ ويَعقبُها السّرورُ، وأمّا الخبرُ فقد يكون خيرًا وقد يكونُ غيرَ ذلك.

البِشارةُ لا تكونُ إلّا خيرًا، والخبرُ قد يكونُ خيرًا وقد يكونُ غيرَ ذلك

(1) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 264.

﴿قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِيَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ۝٥٤﴾ [الحجر: 54]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

بِشارةُ الملائكةِ بِولادةِ إسحاقَ، وتعجّبَ إبراهيمَ من ذلك، وقد أوغلَ في الكبرِ

لمّا بشّرَ الملائكةُ إبراهيمَ بغلامٍ عليم، كأنَّه قيلَ: فماذا قال إبراهيمُ؟، وبمَ أجابَهم؟، فجاءت هذه الآيةُ، وهي قولُه تعالى: ﴿قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِيَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ﴾.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مَّسَّنِيَ﴾: أصلُ (مسّ): يَدُلُّ على جَسِّ الشَّيءِ باليَدِ[1]، يُقالُ: مَسِسْتُ الشَّيءَ أَمَسُّه مَسًّا لَمَسْتَه بيَدِكَ، وهو مجازٌ في إصابةِ الشَّيءِ وحُلولِه، فَمِنهُ مَسُّ الشَّيْطانِ، أي: حُلولُ ضُرِّ الجِنَّةِ بالعَقْلِ، ومَسُّ سَقَرٍ: ما يُصيبُ مِنْ نارِها، ومَسَّهُ الفَقْرُ والضُّرُّ: إذا حَلَّ به، وأكثَرُ ما يُطلَقُ في إصابَةِ الشَّرِّ، قالَ تعالى: ﴿۞وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا﴾ [الزمر: 8]، ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا﴾ [يونس: 12][2]، والمَسوسُ من المياه: ما نالته الأيدي[3]، وحاجةٌ ماسَّة أي مُهِمَّة، وَقَدْ مَسَّتْ إليه الحاجَةُ[4]. والمسُّ في الآية: الإصابةُ. والمرادُ: التَعَجُّبُ مِنْ بِشارته بوَلَدٍ مع أنَّ الكِبَرَ مَسَّهُ[5].

2) ﴿ٱلْكِبَرُ﴾: أصلُ (كبر): أَصْلٌ صَحِيحٌ يدُلُّ على خِلافِ الصِّغَرِ[6]. يُقال: كَبُرَ كِبَراً وكُبْراً فَهوَ كَبيرٌ وكُبار وكُبّار، بالتَّشْديدِ إذا أفرط، وكَبُرَ بالضَّمِّ يَكْبُر، أي: عَظُمَ. وكَبَّرَ الأَمْرَ: جَعَلَهُ كَبيرًا،

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (مسس).
(2) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن عباد، المحيط في اللغة، والراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (مسس)، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/316.
(3) الخليل، العين: (مسس).
(4) الجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب: (مسس).
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/59.
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (كبر).

واسْتَكْبَرَه: رَآهُ كَبيرًا[1]. والكبيرُ والصّغير منَ الأسماءِ المُتضايفةِ الَّتي تُقال عند اعتبارِ بعضِها ببعض، وأصلُ ذلك أن يُستعملَ في الأعيان، ثمَّ استُعير للمعاني، نحوَ قوله تعالى: ﴿يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ﴾ [التوبة: 3]، ومن ذلك ما اعتُبر فيه الزَّمانُ، فيقال: فلان كَبِيرٌ، أي: مُسِنٌّ[2]. والمقصودُ بالكِبَرِ في الآيةِ: كَثرةُ سِنِي العُمُرِ؛ لأنَّهُ يقارِنُهُ ظُهورُ قِلَّةِ النَّشاطِ واختِلالِ نظامِ الجِسْمِ.

❁ المَعْنى الإجْمالِيُّ:

اسْتِفْهامُ إبراهيمَ الخليلِ، استِفْهامُ تعجُّبٍ، من وِلادةِ ولَدٍ لشيخٍ زوجُه عقيمٌ

قال إبراهيمُ للملائكةِ مُتعَجِّبًا: أبشَّرتُموني بولدٍ مع كِبَرِ سِنِّي، فبأي خبرٍ عجيبٍ تُبشِّرون؛ وذلك لأنَّ مجرى الأسبابِ العاديَّةِ يجعلُ ذلك مُتعسِّرًا؛ لأنَّه شيخٌ مسَّه الكِبرُ، وامرأتُه عجوزٌ عَقمتْ في صدر شبابِها، فكيف تُنجبُ في دَبْر حياتِها![3].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

بَلاغةُ الاسْتئنافِ البيانِّي في الآيةِ:

اسْتِمرارُ المُقاوَلةِ بين إبراهيمَ والملائكةِ، لِما في الخبرِ من شأنٍ عظيمٍ

لمّا كان قولُ الملائكةِ بالبِشارةِ بالولد وببقاءِ الولدِ وأن يكونَ عليمًا حليمًا هو العجبُ وكان يقتضي تعجّبَ إبراهيمَ من بِشارتِهم جاء الكلامُ على طريق الاستئنافِ البيانيِّ، كما يفيدُ الاستئنافُ اسْتِدرارَ سمْعِ المُخاطَبين والتّنبيهَ إلى ضرورةِ إصغائِهم لِما في الخبرِ من شأنٍ عظيم.

بَلاغةُ الاسْتِفهامِ في ﴿أَبَشَّرْتُمُونِى﴾:

تعجُّبُ إبراهيمَ كان ممّا هو في العادةِ، وليس من قُدرةِ الله تعالى

قوله تعالى: ﴿أَبَشَّرْتُمُونِى عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِىَ ٱلْكِبَرُ﴾، وفيه جاء الاستفهامُ بطريق المجازِ، وإنَّما كان الاستفهامُ مجازيًّا؛ لأنَّ البِشارة

(1) ابن منظور، لسان العرب: (كبر).
(2) الراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (كبر).
(3) ابن جرير، جامع البيان: 14/83، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/541، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 8/4096.

واقعةٌ وحاصلةٌ، في قولِه تعالى: ﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ﴾، فلا يتأتّى فيها الاستفهامُ الحقيقيُّ، ويفيدُ الاستفهامُ المجازيُّ هنا التّعجّبَ مع الاستبْعادِ، أي تعجّبٌ من أنْ يولَدَ له مع مسِّ الكبرِ إيّاه؛ لأنَّ مثلَ هذه الحالةِ أمرٌ مستبعدٌ عادةً، والذي سوَّغ تعجّبَ إبراهيمَ عليه السلام واستبْعادَه أن يولَدَ له هو أنَّه لم يرَ الولدَ يولَدُ مع قيامِ المانعِ منَ الإنجاب عنده وعند امرأتِه، وإلّا لا يخفَى على إبراهيمَ عليه السلام قُدرةُ اللّهِ هبةَ الولدِ في حالِ الكبرِ، فالتّعجّبُ ممّا هو في العادة وليس ممّا هو في قُدرةِ اللّه تعالى، ويحتملُ أن يكونَ استفهامًا إنكاريًّا، أي إنكارٌ لأنْ يُبشَّرَ بالغلامِ العليمِ في مثل هذه الحالةِ، بمعنى لا ينبغي أن يكون منّي الولدُ مع مسِّ الكبر، ويتولَّدُ منَ الإنكارِ التّعجبُ والاستبعادُ كذلك[1].

بَلاغةُ الحذْفِ في قولِه: ﴿أَبَشَّرْتُمُونِي﴾:

لمّا كان تقديرُ الكلامِ: أبشّرتُموني أن يولدَ لي، دلَّ على أنَّ مَفْعولَ ﴿أَبَشَّرْتُمُونِي﴾ محذوفٌ، وحُذِفَ لدلالةِ الكلامِ عليهِ، فيكون الحذفُ للإيجاز[2].

حذْفُ المفعولِ بدَلالةِ السّياقِ، منَ الإيجازِ في الكلامِ

سِرُّ إيثارِ التَّعْبيرِ بالماضي في الآية:

قوله تعالى: ﴿أَبَشَّرْتُمُونِي﴾، وهو يُعبِّرُ بصيغةِ الماضي للإشعارِ بأنَّ إبراهيمَ عليه السلام قد علمَ تحقُّقَ بِشارتِهم الّتي سُلِّطَ عليها التّعجيبُ والاستبعادُ؛ لأنَّ الشّيءَ غيرَ المعهود يَحسنُ التّعجُّبُ منه أو إنكارُه[3].

الشّيءُ غيرُ المعهودِ، يقعُ عادةً التّعجُّبُ منه

بَراعةُ مَجيء الحالِ في الآية:

لم يقل (لأن مسّني أو بأن مسّني)، على معنى السّببية، فَعَبَّرَ بـ﴿عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِيَ ٱلۡكِبَرُ﴾؛ ليفيدَ الجارُّ والمجرورُ معنى الحالِ[4]،

مَجيءُ البِشارةِ بعدَ انقطاعِ الأسبابِ الدُّنيويّةِ، من مُعجزاتِ النُّبوّةِ الخالدةِ

(1) الزمخشري، الكشاف: 2/581، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 19/151، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 3/213، والشهاب، عناية القاضي: 5/525.
(2) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 6/448، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/59.
(3) المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 2/183.
(4) العكبري، التبيان في إعراب القرآن: 2/784.

لتقييدِ التّعجّبِ منَ البِشارة أو إنكارِها بحالِ مسِّ الكبرِ إيّاه، وليس في أيِّ حالةٍ أخرى؛ للإيذانِ بأنَّ البِشارة بأن يولَدَ له أعجبُ ما تكونُ عادةً في حالةِ الكبرِ؛ لانقطاعِ الأسبابِ الدّنيويَّةِ، فالمرادُ المبالغةُ في تصوير حالةِ التّعجّبِ والاستبعادِ أو في تصوير حالةِ الإنكارِ الذي يتولَّد منه التّعجّبُ والاستبعادُ.

بَلاغةُ الاسْتعارةِ بتَعْدِية الفعلِ بـ﴿عَلَىٰٓ﴾:

تعجُّبُ إبراهيمَ عليه السلام من بِشارتِه بالولدِ، في حالِ شدَّةِ الكِبَرِ

لمّا كان حرفُ الجرِّ ﴿عَلَىٰٓ﴾ للاستعلاء أفاد هنا الاستعلاءَ المجازيَّ بطريق الاستعارةِ التّمثيليَّةِ، أي بتمثيلِ صورة مسِّ الكبَرِ إيّاه وتمكّنِه منه واستعلائِه عليه بصورة استعلاءِ الرّاكبِ على المركوب، ليفيدَ معنى التَّعجّبِ من شدّة تمكُّنِ مسِّ الكِبرِ إيّاه، وضُمِّنَ ﴿عَلَىٰٓ﴾ معنى (مع)، للدَلالةِ عَلَى شِدَّةِ اقْترانِ البِشارَةِ بِمَسِّ الْكِبَرِ إيّاهُ وتمكّنِها منه، كما يحتملُ أن يكونَ مضمَّنًا معنى (بعدَ) أي: أبشّرتُموني بعد أنْ مسَّنيَ الكبرُ[1].

دَلالةُ المصدرِ المُؤَوّلِ ﴿أَن مَّسَّنِيَ﴾:

مسُّ الكبرِ للإنسان، بمنزلةِ الطَّبائعِ التي تصيبُه ولا ينفكُّ عنها

أفاد التّعبيرُ بالمصدرِ المؤوَّلِ أنَّ تعجّبَ إبراهيمَ عليه السلام كان من حقيقةِ مسِّ الكبر إيّاه من غيرِ نظرٍ إلى أيِّ وصفٍ آخرَ مصاحبٍ له، أي من كثرةِ المسِّ أو قلَّتِه أو تقدُّمِه أو تأخُّرِه مثلًا، ففي التّعبيرِ بالمصدرِ المُؤَوَّل تحصينٌ منَ الإشكالِ في الفهم وتخليصٌ له من شوائب الإجمال في الوصْفِ، وأفادَ المصدرُ المؤوّلُ الإخبارَ عن مسِّ الكبرِ إيّاه وتحقُّقَ وقوعِه بدلالة الفعلِ الماضي ﴿مَّسَّنِيَ﴾، وأنَّ مسَّ الكبرِ للإنسان بمنزلة الطّبائعِ التي تُصيبُه ولا يَنفكُّ عنها[2].

(1) النسفي، التيسير في التفسير: 9/204، والزمخشري، الكشاف: 9/204، والمنتجب الهمذاني، الكتاب الفريد في إعراب القرآن المجيد: 4/82، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 11/174، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/59.

(2) ابن القيم، بدائع الفوائد: 1/93، والسامرائي، معاني النحو: 3/147.

نُكتةُ التّعبيرِ بلفْظِ ﴿مَّسَّنِيَ﴾:

لمّا كان المسُّ يقال في كلّ ما ينالُ الإنسانَ من أذًى وفيما يكونُ معه إدراكٌ بحاسّة اللّمس[1] عبّرَ به هنا؛ للإشعار بأنَّ الكِبرَ في السّنِ منَ الأذَى، وأنَّ إبراهيمَ عليه السلام قد أدرك أذَى كبرِه في حياتِه ومعاشِه.

الكِبرُ في السِّنِّ منَ الأذَى، لِما يَطرأُ فيه، من أعراضٍ وأمراضٍ

دَلالةُ (ال) على العهدِ في ﴿ٱلۡكِبَرُ﴾:

تفيدُ (ال) العهْدَ الحُضوريَّ، بمعنى الكبرِ الّذي أنا فيه الآن.

لا مَندوحةَ من أعراضِ الكِبرِ، الّتي تصيبُ البشَرَ

بَلاغةُ المجازِ في قولِه: ﴿مَّسَّنِيَ ٱلۡكِبَرُ﴾:

لمّا كان المسُّ لِما يكون فيه جَسٌّ باليدِ، وكان الكبرُ في السّنِ أمرًا معنويًّا يُرى أثرُه كان إسنادُ المسِّ إلى الكبرِ بطريق المجازِ العقليِّ لإفادة المبالغةِ في معنى الإسنادِ الخبريِّ، أي للإيذانِ بشدّةِ إحْساسِه بالكبرِ الذي بلغَه إبراهيمُ عليه السلام وتهويلِ شأنِه، والمعنى: أبشّرتُموني وقد طعنتُ في السّنّ وصرتُ أشعرُ بالكِبَرِ وأحسُّ بآثارِه في حياتي[2]؟

المبالغةُ في ظهورِ آثارِ الكِبَرِ عندَ إبراهيمَ عليه السلام، سُنّةُ اللهِ في الأنامِ

معنَى الفاءِ في قولِه: ﴿فَبِمَ تُبَشِّرُونَ﴾:

تفيدُ الفاءُ هنا التّرتيبَ والتّرقّي، فهو من قَبيل التّرقّي في التّعجّبِ والاستبعادِ، ليفيدَ التّعجّبَ من ما بشّروه به وما صاحبَ البِشارةَ من أحوالٍ تَستبعدُ في العادةِ مجيءَ الولدِ الموصوفِ بأنَّه غلامٌ عليمٌ.

التّرقّي في التّعجّبِ، يدلُّ على عِظَمِ البِشارةِ وفخامَتِها

معنَى الباءِ في قولِه: ﴿فَبِمَ﴾:

لمّا جاءتِ الباءُ لتعديةِ الفعلِ المتأخّرِ ﴿تُبَشِّرُونَ﴾ إلى اسمِ الاستفهام الذي له الصّدراةُ في الكلام، والمعنى فبأيِّ شيءٍ تُبشّرونَ، أفادتِ الباءُ هنا معنى الملابسةِ، أي ملابسةُ البشارةِ لِما يُتعجَّب منه أو لِما يُنكرُ عليه لمخالفتِه للعادةِ، وتحتملُ أن تكونَ للآلة بمعنى بأيِّ وجهٍ وطريقةٍ تبشّرونني بالولدِ[3].

تنوّعُ معنى الباءِ لتكثيرِ المعنى، من فصيحِ الاستِعمالِ

(1) الراغب، المفردات: (مسس).

(2) القشيري، لطائف الإشارات: 2/275، والمطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 2/183.

(3) الزمخشري، الكشاف: 2/581، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/81.

المبالغةُ في التّعجُّبِ من مَجيءِ الولدِ في حالةِ إبراهيمَ عليه السلام

البِشارةُ بعْدَ انقطاعِ الأسبابِ الدّنيويَّةِ، أشدُّ تأثيرًا من غيرِها

سَببُ إيثارِ الاسْتِفهامِ بطريقةِ ﴿فَبِمَ﴾:

الاستفهام هنا بـ(ما) الاستفهاميّةِ التي حُذفتْ ألفُها تخفيفًا لدخول الباءِ عليها، والتّقديرُ: فبأيِّ شيءٍ تُبشّرون، ولمّا كان المرادُ نهايةَ التّعجيبِ منَ الأمرِ جيءَ بـ(ما) الاستفهاميّةِ الدّالَّةِ على العموم، للإشعارِ بأنَّ هذه الحالةَ تَستغرقُ كلَّ ما يمكنُ التّعجّبُ منه وما تقعُ البشارةُ به.

بَلاغةُ الاسْتِفهامِ في سياقِ الآيةِ:

قولُه تعالى: ﴿فَبِمَ تُبَشِّرُونَ﴾، يحتملُ هذا الاستفهامُ أن يكونَ حقيقيًّا، فيكونَ استفهامًا من إبراهيمَ للملائكةِ، ليعلمَ هل بشّروه بأمرِ اللّه تعالى؟، ليكونَ أسكنَ لنفسِه، أو يكونَ الاستفهامُ عن الحالةِ، فهل يولدُ له في حالةِ الكبرِ أم يُردُّ هو وزوجُه إلى حالةِ الشَّباب؟ أو يكونَ سؤالًا عنِ الوجه والطّريقة يعنى: بأيِّ طريقةٍ تُبشّرونَني بالولد، فإنَّ البِشارةَ بما لا يُتصوَّر وقوعُه لا تصحُّ ولا طريقةَ لها في العادةِ، وجمهورُ المفسّرين على أنَّ الاستفهامَ هنا مجازيٌّ مثلُ الاستفهام الأوّلِ، على معنى التّعجّبِ والاستبعادِ من قولِهم، ليفيدَ المبالغةَ في التّعجّبِ؛ لأنَّه غيرُ مُتصوَّرٍ في العادة، فنُزِّلَ الأمرُ العجيبُ المعلومُ منزلةَ الأمرِ غيرِ المعلومِ لأنَّهُ يكادُ يكونُ غيرَ معلومٍ، فيكونُ استعجابُ إبراهيمَ عليه السلام على معنى استعظامِ نعمتِه تعالى في ضمنِ التّعجّبِ العادي المَبنيِّ على سُنّةِ اللّه تعالى المسلوكةِ فيما بين عباده لا استبعادَ ذلك بالنّسبةِ إلى قُدرتِه سُبحانه، وأنَّه خلافُ العادة دونَ النّظرِ إلى قُدرةِ اللّه تعالى كما تقدَّمَ، ويحتملُ أن يكون الاستفهامُ إنكاريًّا، والتّقديرُ: فبأيِّ شيء تبشِّرون، فهو ينكرُ عليهم بِشارتَهم، يعنى: لا تُبشّرونني في الحقيقة بشيءٍ، لأنّ البشارةَ بمثلِ هذا بشارةٌ بغيرِ شيءٍ؛ لأنَّه غيرُ متصوَّرٍ في العادة[1].

(1) الماوردي، النكت والعيون: 3/164، والزمخشري، الكشاف: 2/581، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 19/151، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 3/213، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 11/174، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/59.

بَلاغةُ الاستفهامَيْن في الآية:

التّعجُّبُ من مَجيءِ الولدِ على مَسِّ الكِبَرِ ومن كونِه غلامًا عليمًا

ورد الاستفهامُ الأوّلُ ﴿أَبَشَّرْتُمُونِي﴾ على معنى التَّعجُّبِ كما هو في الظّاهر، ومثلُه ما جاء في الاستفهام الثّاني كما هو عندَ جمهورِ المفسّرين، والتَّعجّبُ في الاستفهام الأوّلِ يختلف عمّا هو في الثّاني وليس مؤكِّدًا له، فإنَّ الاستفهامَ الأوّلَ على معنى التّعجُّبِ من أصلِ أن يولدَ له وهو في حالِ الكبَرِ، ولهذا جاء مقيَّدًا بالحال في قولِه تعالى: ﴿عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِيَ ٱلۡكِبَرُ﴾، وأمّا الاستفهام في قولِه تعالى: ﴿فَبِمَ تُبَشِّرُونَ﴾ فهو استفهام تعجّبي - على رأي جمهور المفسّرين كما تقدَّم - من أنّ الولدَ سيكون غلامًا عليمًا، فهو بمعنى الفرحِ والسّرور، فكأنَّه قال: فبأيِّ أعجوبةٍ تبشّرونني؟ أي: فوقَ أن يولدَ لي ولدٌ وقد مسّني الكبرُ سيكونُ لي غلامٌ بالغٌ يكبرُ ويكونُ معي ويكونُ عليمًا.

بديعُ الجِناسِ في: ﴿أَبَشَّرْتُمُونِي﴾ ﴿تُبَشِّرُونَ﴾:

تعجّبُ إبراهيمَ عليه السلام، مع فرحِه وسُرورِه بالبِشارةِ

جاء الجناسُ للإشعارِ باختلاف معنى اللّفظَين، فإنَّ الاستفهامَ في البِشارة الأولى على معنى التّعجّبِ والاستبعادِ، والاستفهامَ في البِشارة الثّانية مضمَّنٌ معنى الفَرَحِ والسُّرورِ بمجيءِ الولد في حال الكبَرِ وفي كون الولدِ غلامًا عليمًا.

سِرُّ التّعبيرِ بالمضارعِ ﴿فَبِمَ تُبَشِّرُونَ﴾:

التّعجّبُ من الولد على الكبَرِ، ومن الإخبارِ بمستقبل الخبرِ

لم يقل (فبمَ بشّرتمونِ)، فعدلَ عنِ الماضي إلى المضارع للإشارةِ إلى أنَّ سؤالَه عن بِشارةٍ ستأتي وليس عن أمرٍ أتى[1]، وللإيذانِ بأنَّ تعجّبَه الثّاني على وجهِ الفرحِ والمَسرَّة من مجيء الولدِ ومن أنَّه سيكبرُ ويبلغُ، ويكونُ عليمًا، لمقابلة الفعْلِ لِما جاء بصيغة المضارع في قولِه: ﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٖ﴾.

(1) المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 2/183.

تَوْجيهُ القِراءاتِ القُرآنيّةِ في ﴿تُبَشِّرُونَ﴾:

تُحذفُ نونُ الجمعِ، اسْتِثْقالًا لاجتماعِ المِثْلَين، وطلبًا للتّخفيفِ

قرأ نافعٌ (تُبَشِّرونِ) بِكَسْرِ النّونِ خَفيفَةً في كُلِّ القُرْآنِ، وقَرَأ ابْنُ كَثيرٍ بِكَسْرِ النّونِ وَتَشْديدِها (تُبَشِّرونِّ)، والباقونَ بِفَتْحِ النّونِ خَفيفَةً ﴿تُبَشِّرُونَ﴾، أمّا الكَسْرُ والتَّشْديدُ، فتَقْديرُهُ: تُبَشِّرونَنِي، فأُدْغِمَتْ نونُ الجَمْعِ في نونِ الإضافَةِ، وأمّا الكَسْرُ والتَّخْفيفُ فعلَى حَذْفِ نونِ الجَمْعِ اسْتِثْقالًا لاجْتِماعِ المِثْلَيْنِ وَطَلَبًا لِلتَّخْفيفِ، وكسرِ النّونِ التي هي علامةُ الرّفع بسببِ الياءِ ثمَّ حُذفتِ الياءُ لدلالةِ الكسرة عليها[1].

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 19/151.

﴿قَالُواْ بَشَّرۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡقَٰنِطِينَ ٥٥﴾ [الحجر: 55]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

تَعجُّبُ إبراهيمَ عليه السلام، وتأكيدُ الملائكة، أنْ لا عَجبَ من أمْرِ اللهِ

لمّا ظهرت على إبراهيمَ عليه السلام علاماتُ التّعجُّبِ المُفضي إلى احتمالِ الشَّكِّ في صحَّة الخبرِ أجابوه مؤكِّدين لِما بشّروه به تحقيقًا وصدْقًا، كما أنَّ كلامَه اقتضى ردًّا لِما دلَّ عليه تعجُّبُه واستبْعادُه أن يكونَ له ولدٌ فجاءت هذه الآيةُ، لبيانِ أنَّ أمرَ اللهِ لا يُتعجَّبُ منه[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلۡقَٰنِطِينَ﴾: أصْلُ القَنْطِ: المَنْعُ، يُقال: قَنَطَ ماءَهُ عنّا، أيْ: مَنَعَهُ، ومنه سُمِّيَ اليَأْسُ قُنوطاً؛ لأنَّ اليائِسَ مَنَعَ نَفْسَهُ مِن رَحْمَةِ اللهِ تعالى. ويأْتي القنوطُ بمعنى قَطْعِ الأمَلِ، والقُنوطُ: اليَأْسُ مِنَ الشَّيْءِ، يُقال: قَنِطَ مِنَ الخَيْرِ، يَقْنَطُ، ويَقْنِطُ، فهو قانِطٌ، أي: يَئِسَ، وضِدُّه: الرَّجاءُ والطَّمَعُ[2]. والمرادُ بالقُنوط في الآيةِ: اليَأْسُ الشَّديدُ.

المَعْنى الإجْماليُّ:

الحقُّ هو الأمرُ الثّابتُ، ولا عجَبَ، فالله لا يُبشِّرُ إلّا بالحقِّ

قالتِ الملائكةُ لإبراهيمَ: بشَّرْناك بولَدٍ قد قضى اللهُ أنَّه كائِنٌ بلا شَكٍّ، لأنَّ الله على كلِّ شيء قديرٌ، وأنتم بالخصوصِ - يا أهلَ هذا البيتِ - رحمةُ اللهِ وبركاتُه عليكم، فلا تكُنْ - يا إبراهيمُ - منَ اليائسينَ مِن فَضلِ اللهِ، الذين يَستبْعِدونَ وُجودَ الخيرِ، ولكِنْ أبشِرْ بالولَدِ مع الكِبَرِ، واقبَلِ البُشرى بذلك[3].

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/541، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/59.
(2) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (قنط)، والمناوي، التوقيف على مهمات التعاريف، ص: 257.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 14/84، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 10/35، 36، والسعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 432.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بَلاغةُ الاستئنافِ البيانِّي في الآيةِ:

من بيانِ السّياقِ تكثيرُ المعنى، بتقليلِ اللّفْظِ

جاءتِ الآيةُ على الفصل؛ لأنَّ جملةَ ﴿فَبِمَ تُبَشِّرُونَ﴾، اقتضت سؤالًا، ودلَّت عليه بالفحوى، فنُزِّلت منزلةَ السّؤال الواقعِ لإغناء السّائلِ عنِ السّؤال، ولتكثيرِ المعنى بتقليل اللَّفظِ، أي بتركِ السُّؤال والعاطفِ، ففُصلت هذه الآيةُ عمّا قبلَها كما يفصلُ الجوابُ عنِ السّؤال، ليكونَ الكلامُ على طريقِ الاستئنافِ البيانيِّ، فكأنَّ السّامعَ قال: فماذا قالتِ الملائكة بعدَ أن استبعدَ إبراهيمُ استبعادَ المتعجِّبِ أن يكون له غلامٌ عليمٌ، فجاءت هذه الآيةُ على طريق الجوابِ للسُّؤال المقدَّرِ.

سِرُّ تَكرارِ الفعلِ ﴿بَشَّرْنَكَ﴾:

من بَلاغةِ السّياقِ، أنّ تَكرارَ الفعلِ، لتأسيسِ المعنى لا لِتأكيدِه

لمّا جاء الفعلُ بصورة المكرَّرِ أفادَ تأكيدَ البِشارة المذكورةِ وتحقُّقَ وقوعِها، ولمّا قالوا ﴿بَشَّرْنَكَ بِٱلْحَقِّ﴾ كانت هذه البشارةُ على معنًى غيرِ المعنى الذي أفادته جملةُ ﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ﴾؛ لأنَّ الأولى تفيدُ تبشيرَ إبراهيمَ عليه السلام بالغلام العليم وهذه تفيدُ أنَّ بِشارتَهم التي بشّروه بها هي بشارةٌ بالحقِّ الذي لا مِريةَ فيه ولا شكَّ.

فائِدةُ مَجيءِ الفعلِ ﴿بَشَّرْنَكَ﴾ ماضيًا:

البِشارةُ بالحقِّ لا تَقتضي التّعجّبَ منها، ولا استِبعادَها

جاء الفعلُ بصيغة الماضي؛ للإيذان بأنّ قولَهم ﴿نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ﴾، هو بشارةٌ بالحقّ، فلا تقتضي البشارةُ بالحقِّ التّعجّبَ من أن يولدَ لكَ ولدٌ ولا استبعادَ وقوعِه، كما أنَّ المبشَّر به من عندِ اللّه أمرٌ لا بدّ من وقوعِه وتحقُّقِه فكيف يُتعجّب منه[1]؟!، كما أفادَ مجيءُ الفعل بصيغة الماضي، أنَّه ليس هناك بشارتان، بل هي بشارة واحدةٌ هي البشارةُ بالغلام العليمِ.

(1) الشهاب الخفاجي، عناية القاضي: 5/298.

دَلالةُ الباء في قولِه: ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾:

الباء هنا للتّعْديةِ على معنى ملابسةِ البِشارة للحقِّ الذي لا لبسَ فيه، ويحتملُ أن تكونَ للآلةِ بمعنى بطريقةٍ هي حقٌّ[1].

تَنوّعُ معنى الباءِ، توسيعٌ في المعنى

فائِدةُ (ال) في قولِه: ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾:

تحتملُ (ال) أن تكونَ جنسيَّةً، والمعنى بشّرناك بحقيقةِ الحقِّ ويدخلُ فيه البشارةُ بالغلامِ العليمِ دخولًا أوّليًّا، وتحتملُ أن تكونَ للعهدِ العلميِّ، بمعنى بشّرناك بالحقِّ الذي هو معهودٌ عندكَ.

دَلالةُ (ال) بين الجنسيَّةِ والعهديَّةِ، مفيدٌ في فهمِ السّياقِ

دَلالةُ لفْظِ ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾:

تعتمدُ دلالةُ الباء التي تقدَّم ذكرُها على معنى الحقِّ، فإذا كان المرادُ من الحقِّ هو اليقينُ الذي لا لَبسَ فيه والثّابتُ المقطوعُ الذي لا محالةَ في وقوعِه وكونِه كانت الباءُ للتّعدية على معنى ملابسةِ بِشارتِهم لهذا اليقين، وإن كان المرادُ منَ الحقِّ هو الطريقةُ التي هي حقٌّ وهي قولُ اللّه تعالى وأمرُه الذي لابدَّ من وقوعِه ولا خُلفَ فيه كانت الباء للآلة، وعلى الوجهين يفيدُ الكلامُ أنَّ الولدَ لا بدَّ منه[2].

دَلالةُ الحقِّ بين معنى اليقينِ، والطّريقةِ التي هي أمرُ الله

فائِدةُ الفاء في سياقِ النّهيِ عنِ القُنوطِ:

قولُه تعالى: ﴿فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡقَٰنِطِينَ﴾، الفاء هنا تفيدُ التّرتيبَ والسّببيَّةَ، أي ترتّبُ النّهيِ عن أن يكون منَ القانطين على بشارتِهم بالحقِّ، أي بسبب تَبشيرنا لك بالحقِّ لا تكنْ منَ القانطين[3]، والمعنى بشارةُ الملائكة لإبراهيمَ عليه السلام بالغلام العليم والتي هي بِشارةٌ بالحقِّ تقتضي أن لا يكونَ من زمرةِ القانِطين.

البِشارةُ بالحقِّ رحمةٌ منَ الله، وتجليةٌ لمعجزاتِه مع أنبيائِه

(1) الزمخشري، الكشاف: 2/581، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 2/213، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/81، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 11/175.

(2) البيضاوي، أنوار التنزيل: 3/213، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 11/175.

(3) البقاعي، نظم الدرر: 11/67.

سِرُّ التَّعْبيرِ بقوله: ﴿فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ﴾:

بَلاغةُ التَّعْبيرِ القُرآنيِّ، في اختيارِ اللَّفظِ المناسبِ للمعنى

لمّا كان تعجّبُ إبراهيمَ عليه السلام من البشارةِ واستبعادُه لها إنّما كان لأنَّه لا يكونُ لمَن هو مثلُ حالِه ولدٌ في العادة كان قولُ الملائكة ﴿فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ﴾ مُؤَذنًا أنَّه لم يكن يشكُّ في قدرةِ اللّه على هذا الأمر، ولهذا لم يقولوا (فلا تكن من الممترين) مثلًا[1].

سِرُّ نهيِ إبراهيمَ عنِ القُنوط الذَّميمِ:

مَن حالُه مثلُ حالِ إبراهيم، فإنَّه يُتوقَّع منه التّعجّبُ والاستبعادُ

لمّا كان اسْتِبْعادُ إبراهيمَ لأن يكون له ولدٌ يُفْضي إلى القُنوطِ مِنْ رَحْمَةِ اللّه بَعْدَ أنْ عَلِمَ أنَّ المُبَشِّرينَ بها مُرْسَلونَ إليه مِنَ اللّه قالوا: ﴿فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ﴾، ذَلِكَ أنَّهُ لَمّا اسْتَبْعَدَ ذلك اسْتِبْعادَ المُتَعَجِّبِ مِنْ حُصولِه كانَ ذلك أثَرًا مِنْ آثارِ رُسوخِ الأُمورِ المُعْتادَةِ في نَفْسِه بِحَيْثُ لَمْ يُقْلِعْهُ مِنْها الخَبَرُ الَّذي يَعْلَمُ صِدْقَهُ فَبَقِيَ في نَفْسِه بَقِيَّةٌ مِنَ التَّرَدُّدِ في حُصولِ ذلك فكانت حالُهُ في الظّاهر مثلَ حال الَّذينَ يَيْأَسونَ مِنْ أَمْرِ اللّه لقولِه نحو أقوالِهم، وفي التّعبير بأسلوب النّهي إشعارٌ بأنَّ من حالُه مثلُ حالِ سيدنا إبراهيم؛ فإنَّه يُتوقَّع منه التَّعَجُّبُ والاسْتِبْعادُ[2].

سِرُّ التَّعْبيرِ بقولِه: ﴿مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ﴾:

الأدبُ في الكلامِ مع رُسُلِ اللّه، باخْتيارِ اللّفظِ المُناسبِ لمقامِهم

لَمّا كانَ إبْراهيمُ عليه السلام منزّهًا عَن القُنوطِ مِنْ رَحْمَةِ اللّه جاءوا في مَوْعِظَتِه بِطَريقَةِ الأدَبِ المُناسِبِ فَنَهَوْهُ عَنْ أنْ يَكونَ مِنْ زُمْرَةِ القانِطينَ تَحْذيرًا له مِمّا يُدْخِلُهُ في تلك الزُّمْرَةِ، ولَمْ يَفْرِضوا أنْ يَكونَ هو قانِطًا لرفعة مقامِ نبوءتِه عَنْ ذَلِك، ولهذا عبِّرَ بـ﴿مِّنَ﴾ التّبعيضيَّة[3]، فعدلَ عن أن يقال (فلا تكن قانطًا) إلى ﴿فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ﴾، كما أنَّ في التّعبيرِ بالنّهي عنِ الكينونة أبلغَ وأكثرَ تأدُّبًا من أن يقال: (فلا تقنطْ).

---

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/81.

(2) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 6/449، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/60.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/59.

نُكتةُ التَّعبيرِ بلفْظِ ﴿ٱلْقَٰنِطِينَ﴾:

لمّا كان القنوطُ بمعنى الإياس منَ الخير[1] أفادَ النّهيُ عن أن يكونَ منَ القانطين تأكيدَ أنَّ البشارةَ بالغلام العليم هي بشارةُ خيرٍ لإبراهيمَ عليه السلام، وجاء بصيغة اسمِ الفاعلِ للإشعارِ بأنَّ أقبحَ القنوطِ وأتمَّه إذا كان وصفًا ثابتًا.

البِشارةُ بالولدِ بِشارةُ خيرٍ، تفتحُ الأملَ على مِصراعَيه

دَلالةُ (ال) في لفْظِ ﴿ٱلْقَٰنِطِينَ﴾:

(ال) هنا لاستغراقِ أفرادِ القانطين، بمعنى لا تكنْ مثلَ أيِّ فردٍ من أفرادِ القانطين.

النّهيُ عنِ الدّخولِ في زُمرةِ القانِطين، تحذيرٌ من سوءِ العواقبِ

بَلاغةُ حذْفِ مُتعلِّقِ ﴿ٱلْقَٰنِطِينَ﴾:

لمّا كان التّقدير: فلا تكن منَ القانِطينَ من ذلكَ، أو فلا تكن منَ القانطين من أن يولَد لك غلامٌ عليمٌ، كان حذفُ المتعلَّق لإفادَةِ العموم، بمعنى النَّهي عن أن يكونَ لك قنوطٌ من أيِّ أثرٍ من آثارِ رحمةِ اللّه الواسعةِ، أو على معنى النّهي عنِ الاتّصاف بصفةِ القنوط، أي لا يكن لك وصفُ القُنوطِ، كما أنَّ في الحذف رعايةً للفاصلةِ وإيجازًا في الكلام بعدما دلَّت عليه قرينةُ المقامِ[2].

رَحمةُ الله عامَّةٌ واسعةٌ، فلا قُنوطَ من آثارِها

دَلالةُ النّهيِ عنِ القنوطِ في السّياقِ:

قوله تعالى: ﴿فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ﴾، وفيه أنّه لمّا كان الكلامُ موجَّهًا إلى سيِّدنا إبراهيمَ عليه السلام أفاد أنَّه لا يقصدُ منَ النّهي أنَّ إبراهيمَ عليه السلام قد وقع منه فعلُ القنوط، فهم ينهونَه عنه، فإنَّ القنوط غيرُ متوقَّعٍ منه عليه السلام، فالنَّهْيُ عنِ الشَّيْءِ لا يَدُلُّ على تَلَبُّسِ المَنْهِيِّ عنه به ولا بِمُقارَنَتِه، فيفيدُ أنَّ النّهي غيرُ مستلزم للوقوع؛ لأنَّ الأنبياء قد نُهوا عن أشياءَ قد عُصموا عنها ما لا يحتملُ أن يقعَ منهم ما نُهوا عنه؛ نحوَ قوله: ﴿فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ۝٦٠﴾ [آل عمران: 60]، وقولِه:

لم يكن من إبراهيمَ عليه السلام، قنوطٌ من رحمةِ ربِّه

(1) الأزهري، تهذيب اللغة: (قنط).

(2) البيضاوي، أنوار التنزيل: 3/213، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 11/175.

﴿وَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ﴾ [الأحزاب: 1]، وذلك ممّا لا يُتوهَّمُ كونُه منهم؛ فلم يكن من إبراهيمَ عليه السلام قنوطٌ من رحمةِ ربّه أصلًا[1].

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

القُنوطُ واليأسُ والخيبةُ:

اليأسُ هو انقطاعُ الطَّمع أوِ الرّجاء منَ الشَّيءِ، والقنوطُ أشدُّ مبالغةً منَ اليأس، ولا يكونُ القنوطُ إلّا باليأس منَ الخيرِ، فهو أخصُّ منَ اليأس، وأمّا الخَيبةُ فلا تكون إلا بعدَ الأمل؛ لأنَّها امتناعُ نيلِ ما أُمِّل، فأمّا اليأسُ فقد يكون قبلَ الأمل وقد يكون بعدَه[2].

القُنوطُ هو اليأسُ منَ الخيرِ، وهو أشدُّ مُبالغةً منَ اليأسِ

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 19/151، وأبو حيان، البحر المحيط: 6/486، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 11/176.

(2) الأزهري، تهذيب اللغة: (قنط)، والعسكري، الفروق اللغوية، ص: 246.

﴿قَالَ وَمَن يَقۡنَطُ مِن رَّحۡمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ٥٦﴾ [الحجر: 56]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

المناسبةُ بين نهْيِ الملائكةِ عنِ القُنوطِ، وتأكيدِ إبراهيمَ علْمَه الوثيقَ بذلك

لمّا كان استعجابُ إبراهيمَ عليه السلام باعتبارِ العادةِ دون أن يكونَ استعجابُه لقدرةِ اللّه على الفعلِ جاءت هذه الآية[1].

وأيضًا لمّا ألهبوه بالنّهي عن أن يكونَ منَ القانطين ﴿قَالَ وَمَن يَقۡنَطُ مِن رَّحۡمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾ ليزيدَ إبراهيمُ الملائكةَ علْمًا على علْمِهم[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلضَّآلُّونَ﴾: أصلُ (ضلّ): يدلُّ على ضَياعِ الشَّيْءِ، وَذَهابِهِ في غَيْرِ حَقِّهِ[3]. والضّلال: الغَيبوبَةُ والخَفاءُ والسَّتْرُ، يُقالُ: ضلَّ الماءُ في اللَّبن، إذا غاب، وضلَّ الكافِرُ: غابَ عَن الحُجَّة، وضلَّ النّاسِي، إذا غابَ عَنهُ حِفْظُه[4]. والضَّلالُ: الانحرافُ والميلُ عنِ الطَّريقِ، يُقالُ: ضلَّ فلانٌ، يَضلُّ، ضلالًا: إذا انحرفَ وضاعَ ولم يهتدِ إلى الطَّريق. وضَلِلْتُ الشَّيْء أضِلُّهُ إذا جعلتَه في مَكان وَلم تَدْرِ أين هو، وأضْلَلْتُه، أي أضَعْتَه[5]، ورجلٌ مُضَلَّل أي لا يوفَّقُ لخيرٍ، صاحبُ غَواياتٍ وبَطالات. وفلان صاحبُ أضاليلَ، الواحدةُ أُضلولةٌ[6]. والضّالَّة: الحيوانُ الضّائع[7]، وضِدُّه: الاهتداءُ، والاستقامةُ، والرَّشادُ، والمقصودُ بالضَّلالِ في الآيةِ: خطأُ الطَّريقِ الموصِّلِ إلى المَقْصودِ.

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 3/213.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 11/67.
(3) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة: (ضلّ).
(4) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن عباد، المحيط في اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (ضلّ).
(5) الأزهري، تهذيب اللغة: (ضلّ).
(6) الخليل، العين: (ضلّ).
(7) ابن عباد، المحيط في اللغة: (ضل).

❁ المَعْنى الإجْمالِيُّ:

القنوطُ لا يكونُ إلّا مِنَ الَّذين يَضلّون عنِ الله تعالى، ويَنأون عن هدايته

قال إبراهيمُ للضَّيف: ومَن ييئَسُ مِن رَحمةِ اللّهِ إلّا الذّاهِبونَ عن طريقِ الصَّوابِ، الجاهِلونَ بكمالِ قُدرةِ ورَحمةِ اللّهِ الوهّابِ، وأمّا من أنعم اللّه عليه بالهداية والعِلْم العظيم، فلا سبيلَ إلى القنوط إليه؛ لأنَّه يعرفُ من كثرة الأسبابِ والوسائل والطُّرقِ لرحمة اللّه شيئًا كثيرًا، ثمَّ لمّا بشَّروه بهذه البشارة، عرف أنَّهم مُرسلون لأمرٍ مُهِمٍّ[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

بَلاغةُ الاسْتئنافِ البيانِّي في الآية:

مُحاورةُ الأنبياءِ في البشارة اغتباطٌ لا قنوطٌ

لمّا قال له الملائكة ذلك القولَ كأنَّ سائلًا سأل: فماذا أجابهم إبراهيمُ عليه السلام، فجاءت هذه الآيةُ، وفي الآية إشعارٌ بأنَّ المُحاوَرَةَ في البِشارَةِ لا تَدُلُّ على القُنوطِ، بَلْ ذلك على سَبيلِ الاسْتِبْعادِ لِما جَرَتْ بِهِ العادَةُ[2].

سَببُ مَجيء الوصْلِ بالواو في السّياقِ:

تقريرُ إبراهيمَ لقولِ الملائكةِ، إيمانٌ منه بما جاؤوا به

قولُه تعالى: ﴿وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾، وفيه لمّا كانتِ الواو للعطف، وكان العطف بالواو لكلامٍ يكونُ من متكلِّمٍ واحدٍ دلَّ على أنَّ في الكلامِ حذفًا هو من كلامِ سيِّدنا إبراهيمَ عليه السلام، فكأنَّه قال: بشارتُكم من رحمة اللّه ﴿وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾، أو يكون قد قرّر قولَهم إيمانًا بما جاؤوا به وعطفَ عليه قولَه المذكورَ، فكأنَّه قال: أنا لا أقنطُ من رحمة اللّه التي بشّرتموني بها ﴿وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾.

---

(1) ابن جرير، جامع البيان: 14/85، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/541، والسعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 432.

(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/486.

بَلاغةُ الاستفهامِ المجازيِّ في الآيةِ الكريمةِ:

قولُه تعالى: ﴿وَمَن يَقۡنَطُ مِن رَّحۡمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾، وفيه أنّ (مَنْ) استفهاميَّةٌ تفيد الإنكارَ الوقوعيَّ فيكونُ الاستفهام بمعنى النّفي على المجاز، أي لا يقنطُ أحدٌ، ولهذا جاءت بعدَه ﴿إِلَّا﴾، ليفيدَ الاستفهامُ الإنكارَ على من يقنطُ من رحمةِ الله ونفيَ القنوطِ عن كلِّ عاقلٍ إلّا الضّالين، ويتولَّدُ منه معنى التّعجّب ممّن يقنطُ من رحمةِ الله أو يستبعدُها، ليفيدَ أنَّ إبراهيمَ عليه السلام لم يستنكرْ ذلك قنوطاً من رحمة ربِّه، ولكنِ استبعاداً له في العادةِ التي أجراها في عبادِه وخلْقِه[1].

الإنكارُ والعَجبُ كلُّ العجَبِ، ممّن يقنطُ من رحمةِ الله الواسعةِ

بَلاغةُ التّعْريض في قولِه ﴿وَمَن يَقۡنَطُ﴾:

لمّا ذكرَ إبراهيمُ عليه السلام لفظ الرّبِّ دونَ أن يقول (من رحمة الله) وكان قد قصر اليأسَ على الضّالّين الجاهلين وجاء الكلام على طريق الإنكارِ على القانطين من رحمة ربِّهم كان في الكلام نوعُ تعريضٍ بأنَّهم لم يصيبوا في نهيِه عنِ القنوط، فإنَّه غيرُ متوقَّع منه عليه السلام ولا ينبغي له أن يفكّرَ به[2].

القُنوطُ غيرُ متوقَّعٍ من إبراهيمَ عليه السلام، ولا ينبغي له

سببُ إيثارِ التّعبيرِ باسمِ الاستفهام (مَنْ):

عبِّرَ بـ(مَنْ) ليُفيدَ الاستفهامُ الإنكاريُّ معنى العموم من جميع العقلاء، للإشعار بأنَّه لا ينبغي للعاقلِ أنْ يقنطَ من رحمةِ ربِّه، فيكونَ الاستثناءُ في قولِه تعالى: ﴿إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾ استثناءً منَ العموم.

لا يَنبغي للعاقلِ أنْ يقنطَ من رحمةِ ربِّه أبدًا

مُناسبةُ مجيءِ الفعلِ ﴿يَقۡنَطُ﴾ بصيغةِ المضارع:

عبِّرَ بصيغة المضارع للدّلالة على تجدّدِ الحكم بالإنكار من يقنطُ من رحمة ربِّه واستمرارِه، وأنَّه إنْ وقع القنوطُ من رحمة ربِّ العالمين فإنّما يقعُ منَ الضّالين.

تجدّدُ الحكم واستمرارُه، مُفيدٌ لوصف حالةِ القنوطِ المُستهجَنة

(1) العكبري، التبيان في إعراب القرآن: 2/785، والنّسفي، مدارك التنزيل: 2/193، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/82.

(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 11/176.

سببُ إيثار التّعْبيرِ بقولِه: ﴿رَّحۡمَةِ رَبِّهِۦٓ﴾:

لمّا كان القنوط هو الإياسَ ممّا فيه خيرٌ، عبَّر بقولِه: ﴿مِن رَّحۡمَةِ رَبِّهِۦٓ﴾ للإيذانِ بأنَّ أعظمَ الخير وأشملَه رحمةُ ربِّ العالمين، وأنَّ كلَّ نوالٍ من اللّه هو رحمةٌ منه ﷻ.

كلُّ نَوالٍ منَ اللهِ، هو رحمةٌ من كرمِه وعطاياه

سببُ إيثارِ التَّعْبيرِ بلفْظِ ﴿رَبِّهِۦٓ﴾:

قولُه تعالى: ﴿رَّحۡمَةِ رَبِّهِۦٓ﴾، وفيه أنّ اختيارَ لفظِ الرّبِّ هنا من بين سائرِ الأسامي - فلم يقل مثلًا (من رحمة اللّه) - أوقعُ في المعنى وأكثرُ تأثيرًا في الإنكار، للإشعار بأنَّ قولَه عليه السلام من آثار تربيةِ اللّه تعالى له[1].

قولُ إبراهيمَ عليه السلام، من آثارِ تربيةِ الله تعالى له

بَلاغةُ القصْرِ في سِياقِ الآيةِ:

قولُه تعالى: ﴿وَمَن يَقۡنَطُ مِن رَّحۡمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾، وفيه أنّه لمّا دلَّ القصرُ على أنَّ القنوطَ من رحمةِ ربِّ العالمين، مقْصورٌ على الضّالين، أفادَ أنَّه لا يتجاوزُهم إلى غيرِهم ولا يتخطّاهم، ولمّا كان القصرُ بطريق النّفي و(إلّا) يُسلَكُ مع مخاطَبٍ يعتقدُ فيه المتكلِّمُ أنَّه مرتكبٌ للخطإ مع إصرارٍ عليه أُخْرِجَ الكلامُ على خلافِ مقتضى الظّاهر، وبيانُه أنَّ الملائكةَ لمّا قالوا له ﴿فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡقَٰنِطِينَ﴾ أبرزَهم في معرِضِ من ظنَّ فيه خطأً أنَّه منَ القانطين، مع إصرارِهم على هذا الظنِّ فجاء القصرُ بهذا الأسلوب؛ ليفيدَ أنَّه على يقينٍ من رحمةِ ربِّه وبالبِشارَةِ التي أتَوا بها.

القُنوطُ من رحمةِ اللهِ، مقصورٌ على الضّالّين خُصوصًا

بَلاغةُ التَّذييلِ في قولِه: ﴿وَمَن يَقۡنَطُ﴾:

لمّا جاء الكلامُ على معنى العموم والكلّيَّة بذكر المسنَدِ والمسنَدِ إليه بصيغةِ العموم كان قولُ إبراهيمَ أعمَّ من قول الملائكةِ وأكثرَ فائدةً، لينبِّههم على أنَّه عارفٌ باللّه عالمٌ بأوصافِ الجلال والجمالِ.

قولُ إبراهيمَ أعمُّ من قولِ الملائكةِ، وأكثرُ فائدةً

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 11/176.

نُكتةُ استثناءِ الضّالّين في الآيةِ الكريمةِ:

استُثنِيَ الضّالّون في الآية دون غيرِهم، فلم يقل مثلا (إلّا الكافرون)؛ لأنَّه لمّا كان الضّالُّ هو الذي ذهب عنه الشّيءُ بعدَ أن كانَ قائمًا عنده، فلا يعرفُ موضعَه، أو ذهب هو عنِ الشّيء بعدَ أن كان بين يديه عبِّرَ به للإيذانِ بأنَّ الضّالَّ هو الذي ذهب منه الحقُّ بعدَ أن كان قريبًا منه، فكأنَّه قد أضاعه من بينِ يديه، أوِ ابتعدَ هو عن الحقِّ بعدَ أن كان بين يديه، فهو ضالٌّ عنِ الهدايةِ والرّشادِ.

الضّالُّ هو من ذهبَ منه الحقُّ، أو منِ ابتعدَ هو عنِ الحقِّ

فائِدةُ (ال) في قولِه: ﴿ٱلضَّآلُّونَ﴾:

(ال) هنا تفيدُ استغراقَ الأفراد على معنى الوصفِ الكاملِ في الضّلال، والمعنى لا يقنطُ من رحمة اللّه إلّا الكاملُ في الضّلال على معنى استغراقِ جميع الأفرادِ، وإنَّما قصَرَ القنوطَ على الضّالِّين؛ لأنَّ الضّالَّ يَجْهَلُ كَوْنَ اللّه تعالى قادِرًا على ما لا يكونُ في العادة، ويجهلُ أنَّ رحمةَ اللّه تسَعُ الخلقَ ويأتي منها ما يُتعجَّبُ منه، ويَجْهَلُ كَوْنَهُ تعالى عالِمًا بِاحْتِياجِ ذلك العَبْدِ إلَيْه، ويَجْهَلُ كَوْنَهُ تعالى مُنَزَّهًا عَنِ البُخْلِ والحاجَةِ والجَهْلِ فَكُلُّ هذه الأُمورِ سَبَبٌ لِلضَّلالِ[1].

رَحمةُ اللّه تَسَعُ الخلْقَ، ويأتي منها ما يُتعجَّبُ منه

سِرُّ مجيءِ لفْظِ ﴿ٱلضَّآلُّونَ﴾ بالجمْعِ:

لم يقل: (من يقنط من رحمة ربِّه إلّا الضّالُّ) للإشعارِ بكثرةِ الضّالّين عن طريق الهدايةِ، وللتَّحذيرِ منَ الانضمام إلى جماعةٍ ضالّةٍ؛ فإنَّهم يُضِلّون غيرَهم.

كثرةُ الضّالّين، لا تمنعُ من مواصلةِ طريقِ الحقِّ

نُكتةُ حذْفِ مُتعلِّقِ ﴿ٱلضَّآلُّونَ﴾:

حُذِفَ متعلَّقُ اسمِ الفاعلِ ﴿ٱلضَّآلُّونَ﴾ للإيذانِ بأنَّ المرادَ مَن صارَ الضّلالُ وصفًا لازمًا لهم، أي لا يأتي منهم إلّا الضّلالُ، ومِن أعظم الضّلالِ قنوطُهم من رحمةِ ربِّهم، فهو أمرٌ عظيمٌ مَهولٌ.

مِن أعظمِ الضّلالِ، القنوطُ المهينُ، من رحمةِ ربِّ العالمين

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 19/152.

دَلالةُ تَوجيهِ القراءاتِ في ﴿وَمَن يَقْنَطُ﴾:

لكلّ وجْهٍ في القراءةِ القرآنيّةِ، وجْهٌ في اللّغةِ العربيّةِ

قرأ ابنُ كثيرٍ ونافعٌ وعاصمٌ وابنُ عامر وحمزةُ: ﴿وَمَن يَقْنَطُ﴾ بفتح النّون في كلِّ القرآن، وقرأ أبو عمرو والكسائيُّ: (وَمَنْ يَقْنِطُ) بكسر النّون، فَمن قَرَأ (يَقْنِطُ) قالَ: (قَنَطَ) في الماضِي، وَمن قَرأ ﴿يَقْنَطُ﴾ قالَ: (قَنِط)، و(قَنِطَ يقنَطُ وقَنَطَ يقنِطُ) لهجتان من لهجاتِ العربِ فصيحتان مشهورتان[1].

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 3/366، وابن الجزري، النشر: 2/302.

﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ۝٥٧﴾ [الحجر: 57]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

مَجيءُ وفْدِ المَلائكةِ، وتساؤلُ إبراهيمَ عن غرضِ مجيئِهم سِوى البِشارةِ

لمّا تحقَّق إبراهيمُ عليه السلام البشرى ورأى إتيانَهم مجتمِعين على غير الصّفةِ التي يأتي عليها المَلَكُ للوحي، وكان على علمٍ بأنَّه ما تنزَّلُ الملائكةُ إلا بالحقِّ، علمَ أنَّ لهم غرضًا سوى إيصالِ البشارةِ؛ لأنَّ الواحدَ منَ الملائكة كافٍ في البشارةِ، فكان ذلك سببًا لأنْ يسألَهم عن أمرِهم؛ ليزولَ وجَلُه كلُّه، فلذلك جاءت الآية ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ﴾[1].

أو يقال إنَّه علمَ أنَّ لهم غرضًا سوى البشارةِ لأجلِه أُرسِلوا بقرينة مخاطبتِه لهم بعنوان الرّسالة مع تصديره بالفاء المفيدةِ لترتّب أمرٍ على أمرٍ، ففيه دليلٌ على أنّ مقالتَهم المطويةَ كانت متضمّنةً لبيان أنّ مجيئَهم ليس لمجرّد البشارةِ بل لهم شأنٌ آخَرُ لأجله أُرسِلوا فكأنه قال عليه السلام: إن لم يكن شأنُكم مجرّدَ البشارة ﴿فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ﴾[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿خَطْبُكُمْ﴾: أصلُ (خطب): يدلُّ على الكلامِ بَيْنَ اثْنَيْن، يُقالُ: خاطَبهُ يُخاطِبُهُ خِطابًا، والخُطبَةُ من ذلكَ[3]. ومنه الشَّأْنُ أوِ الأمْرُ، صَغُر أو عَظُم؛ وقيلَ: هو سَبَبُ الأمْر. يُقالُ: ما خَطْبُك؟ أي: ما أمرُكَ؟ وتقولُ: هذا خَطْبٌ جليلٌ، وخَطْبٌ يَسير. والخَطْبُ: الأمرُ الَّذي تَقَع فِيهِ المخاطَبة، والشَّأْنُ والحالُ؛ ومنه قَولُهُم: جَلَّ الخَطْبُ،

(1) البقاعي، نظم الدرر: 11/67.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/82.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (خطب).

أي: عَظُم الأمرُ والشَّأنُ[1]. قيلَ: سُمِّيَ خَطْبًا لِأَنَّهُ يَقْتَضي أنْ يُخاطِبَ المَرْءُ صاحِبَهُ بِالتَّساؤُلِ عنه، فأصْلُهُ مَصْدَرٌ بِمَعْنَى المَفْعولِ، أيْ مَخْطوبٌ فيه، وَجَمْعُهُ خُطوبٌ. والمقصودُ بالخَطْبِ في الآية: الشَّأْنُ المُهِمُّ مِن حالَةٍ أو حادِثَةٍ[2].

❁ المَعْنى الإجْمالِيُّ:

إدراكُ إبراهيمَ أنّ وراءَ مجيءِ وفْدِ الملائكةِ الجماعيِّ أمرًا خطيرًا

قال إبراهيمُ للملائكةِ: فما شأنُكم الخطيرُ الذي أرسَلَكم اللّهُ به سِوى البِشارةِ؟ وكأنَّه عليه السلام فَهِمَ من مجرى حديثِهم في أثناء الحوارِ أن ليست هذه البُشرى هي المقصودةُ، بل لهم شأنٌ آخرُ لأجله أُرسِلوا؛ لأنَّهم كانوا عددًا والبشارةُ لا تحتاج إلى مثل هذا العدَد، ومن ثمَّ اكتفى بالواحد في بشارة زكريا ومريم عليهما السلام، وأيضًا لو كانت البشارة هي المقصودةُ لابتدءوا بها[3].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

سِرُّ تَوْسيطِ الفعلِ ﴿قَالَ﴾:

طيُّ الكلامِ اعتبارًا لِما هو مذكورٌ لا ما هو محذوفٌ

قولُه تعالى: ﴿قَالَ وَمَن يَقْنَطُ﴾ ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ﴾، توسيطُ ﴿قَالَ﴾ بين قوليه ليكون على طريق الاستئنافِ، إمّا للإيذان بعدم اتّصالِ ما بعده بما قبلَه؛ ليُؤْذِنَ بأنَّ بينهما مقالةً مطويَّةً، وأنَّ الكلامَ تخطّاها لعدم ابتناء الكلام على المطويِّ بل على ما هو مذكور، ومثلُه قولُه تعالى: ﴿قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ۝٦١ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ﴾ [الإسراء: 61 - 62]، فإنَّ قوله الأخيرَ ليس موصولاً بقوله الأول بل هو مبنيٌّ على قوله تعالى: ﴿فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ۝٣٤﴾ [الحجر: 34]، وإمّا أن يكون توسيط ﴿قَالَ﴾ لإظهار الاعتناءِ بمضمون ما بعدَهُ مِنْ

(1) ابن عباد، المحيط في اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (خطب).
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/290.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 14/86، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 10/36، والمراغيّ، تفسير المراغيّ: 14/34.

قولِه تعالى: ﴿فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ﴾؛ للإشعارِ بأنَّه علِمَ أنَّ مجيئَهم ليس لمجرَّد البشارةِ بل لهم شأنٌ آخَرُ خطيرٌ لأجله أُرسِلوا[1].

دَلالةُ الفاءِ الفصيحةِ ﴿فَمَا خَطْبُكُمْ﴾:

الفاءُ جوابٌ لشرطٍ محذوفٍ[2]، يدلُّ عليه سياقُ الكلام، والمعنى: فإنْ كان مجيئُكم ليس لمجرَّد البشارة فما خطبُكم أيُّها المرسلون، وفي مجيء الفاء إشعارٌ بأنَّ إبراهيم كان يريدُ أن ينتقل بالكلامِ معهم إلى ما هو أهمُّ وأعظمُ شأنًا عندَه من أمرِ البشارة بالولد، فكأنَّه علمَ أنَّ تمامَ المقصود من مجيئهم ليس في البشارةِ.

إنجاءُ المؤمنين وإهلاكُ الكافرين، أهمُّ منَ البشارةِ بالغلامِ العليمِ

سببُ الاستفهامِ في قولِه: ﴿فَمَا خَطْبُكُمْ﴾:

لمّا كان الاستفهامُ بـ(ما) على معنى العمومِ واقترن به لفظُ ﴿خَطْبُكُمْ﴾ أفاد أنَّ الاستفهامَ يستغرقُ أهمَّ شأنٍ من جميعِ شؤونِهم وأحوالِهم، وأنَّ هناكَ أمرًا خطيرًا أُرسِلوا من أجلِه، والسّؤالُ عنِ الخطبِ فيه عنفٌ، قاله إبراهيمُ عليه السلام لمّا أنكرَ حالَهم، فأراد أن يستعلمَ عنِ الأمرِ الذي أتوا لأجلِه، بطريقٍ يُعرّفهم به أنَّه على علْمٍ بأنَّ لهم شأنًا عظيمًا في مجيئهم[3].

إشارةُ إبراهيمَ للملائكة، إلى أنَّ لهم خَطْبًا عظيمًا في مجيئِهم

نُكتةُ التَّعبيرِ بلفْظِ ﴿خَطْبُكُمْ﴾:

الخطبُ هو الشأنُ المهمُّ من حالةٍ أو حادثةٍ، ولا يَكادُ يُقالُ إلّا في الأمْرِ الشَّديدِ، فَأضافَهُ إلَيْهِمْ للإيذان بأنَّه علمَ أنَّهم يحملونَه إلى القَوْمِ المُعَذَّبينَ، والمعنى، ما أمرُكم وشأنكم الخطيرُ الذّي لأجْلِه أُرسلتم سَوى البشارةِ[4].

الخَطبُ هو الشّأنُ الّذي لا يكونُ إلّا في الأمْرِ الخطيرِ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/82.
(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 11/176.
(3) ابن عطية، المحرر الوجيز: 3/366.
(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 2/85.

سِرُّ حذْفِ حرفِ النّداءِ في السّياقِ:

حذْفُ حرفِ النّداءِ لقُربِ المنادَى، ولِلإيجازِ في الكلامِ

قولُه تعالى: ﴿أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ﴾، حذفَ حرفَ النّداء (يا) لأنّ الكلامَ في سياق الإيجاز والاختصار، ولهذا جاء الكلامُ مَطويًّا، كما أنَّه لمّا كان المنادى وهم الملائكةُ قريبين منَ المنادي لحضورِهم عند إبراهيمَ عليه السلام لم يكونوا بحاجةٍ إلى زيادَةِ تنبيهٍ بذكرِ (يا).

فائِدةُ النّداءِ بصيغةِ ﴿أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ﴾:

الإنباءُ عَنْ خَطَرِ خَطْبِ المُنادَى لـه، وتفخيمِ شأنِ المُنادى

لمّا كان المرادُ نداءَ المرسلين، وكان اللَّفظُ المقصودُ بالنّداء معرَّفًا بـ(ال) اقتضى مجيءَ الوصلة ﴿أَيُّهَا﴾ لتكون هي المنادَى لفظًا، وفائدةُ النّداء بهذه الصّيغة الإنباءُ عَنْ خَطَرِ خَطْبِ المُنادَى له وتفخيم شأنِ المنادَى، لِأنَّ مجيء المُنادَى مبهمًا غَيْرَ مَعْلوم يجعلُ كلَّ سامِعٍ مُتَطَلِّعًا إلى المُنادَى، فَإذا خَصَّ واحِدًا كانَ في ذلك إنْباءُ الكُلِّ لِتَطَلُّعِهِمْ إلَيْهِ[1]، كما أنَّ مجيءَ المنادى مبهمًا ثمَّ متبوعًا بنعتٍ يوضِّحُه ويبيّنُه، فيه دلالةٌ على أهمّيَّتِه، ولمّا جاء النّعتُ أي ﴿ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ مشتقًّا، دلَّ على أنَّ تعظيمَهم بسبب رسالتِهم الّتي أُرسِلوا بها، وبسبب كونِهم مُرسَلين من عندِ الله.

سِرُّ نداءِ الملائكةِ بعنوانِ الرّسالةِ:

الإيذانُ بعلْمِ إبراهيمَ، أنَّ لهم شأنًا في رسالتِهم

قولُه تعالى: ﴿أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ﴾، ناداهم بعُنوانِ الرسالةِ بعد ما كان خطابُه السابقُ مجرَّدًا عن ذلك؛ للإيذانِ بأنَّه علمَ أنَّهم ملائكة، وأنَّ لهم شأنًا آخرَ أُرسِلوا لأجلِه، فأضاف الخطبَ إليهم بعنوانِ الرّسالة من حيث هم حملتُه إلى القوم المعذَّبين، أي ما هذا الخطبُ الذي تحملونه وإلى أيِّ أمَّةٍ أنتم مُرسَلون؟[2].

معنَى (ال) في لفْظِ ﴿ٱلْمُرْسَلُونَ﴾:

(ال) هنا عهديَّةٌ، فيحتملُ أن يكون الملائكةُ قد صرّحوا بأنَّهم

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 25/153.

(2) أبو حيان، البحر المحيط: 6/486، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/82.

مُرسَلون من عندِ اللّه، فتكون (ال) للعهد الذِّكريّ المَطويِّ في الكلام، ويحتملُ أن يكون إبراهيمُ عليه السلام قد علمَ بأنَّهم مُرسَلون من حالِهم، فتكون (ال) للعهدِ العلميِّ.

تنوّعُ (ال) بين العهدِ الذِّكْريّ والعهدِ العلميّ، مفيدٌ في البيانِ

سِرُّ بناءِ لفْظِ ﴿ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ للمفعول:

خاطبَ إبراهيمُ الملائكةَ بصيغةِ المبنيّ للمفعولِ للإيذانِ بأنَه يعلمُ أنَّ اللّه تعالى أرسلَهم، ويعلمُ أنَّهم يفعلون ما يَأْمُرُهُمُ اللّه به، وللإشعارِ بأنَّه عليه السلام أرادَ أن يعلمَ لِمَ أُرسلوا وإلى مَنْ أُرسِلوا.

تَوجيهُ النّظرِ إلى سببِ إرسالِ الملائكةِ، وإلى من أُرسِلوا

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الخَطْبُ والشَّأْنُ:

الخَطْبُ هو الأمرُ العظيمُ الذي يكثرُ فيه التَّخاطبُ وتقعُ فيه المراجعةُ لأهمّيّتِه وعِظمِ أثرِه، فيكونُ حالًا أو حادثةً أي أمرًا طارئًا، ولا يقالُ لِلوصفِ خطبٌ، والشأنُ هو الحالُ والأمرُ الذي يتّفقُ ويَصلحُ، ولا يقالُ إلّا فيما يَعظمُ منَ الأحوال والأمورِ والأوصافِ[1]، فيقالُ للوصفِ العظيمِ شأنٌ، فالشَّأنُ أعمُّ منَ الخطبِ، ولهذا عبِّر في القرآن عنِ المعنى العامِّ الذي يشملُ الأوصافَ والأحوالَ والحوادثَ بالشّأنِ، للإخبار عن أنَّ اللّه تعالى شاهدٌ عليه، فقال تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِۚ﴾ [يونس: 61][2].

لفْظُ الشّأنِ أعمُّ منَ الخطْبِ، وكلاهما من ألفاظِ القرآنِ الفصيحةِ

(1) الراغب، المفردات: (شأن).

(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 11/177.

﴿قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ إِلَىٰ قَوۡمٖ مُّجۡرِمِينَ ٥٨ إِلَّآ ءَالَ لُوطٍۖ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمۡ أَجۡمَعِينَ ٥٩ إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ قَدَّرۡنَآ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ ٦٠﴾ [الحجر: 58 - 60]

مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قَبْلَها:

الرَّبطُ بين عدمِ القُنوطِ منَ الرّحمةِ، وبين نجاةِ آلِ لوطٍ منَ العذابِ الشّاملِ

لمّا سأل إبراهيمُ عليه السلام الملائكةَ عمّا أُرسِلوا لأجلِه، كأنَّه قيل: فماذا قالوا؟ فقيل ﴿قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ إِلَىٰ قَوۡمٖ مُّجۡرِمِينَ﴾ ثمَّ استثنى منهم آلَ لوطٍ، فلا ينالُهم العذابُ، ثمَّ استثنَى من آلِ لوطٍ امرأتَه لتكونَ منَ الغابرين[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مُّجۡرِمِينَ﴾: أصْلُ الكَلِمَةِ مِن الجَرْم، وهو: القَطْعُ[2]، وقِيل أصْلُه: الكَسْبُ، وفُلانٌ جَرِيمَةُ أهْلِهِ، أي: كاسِبُهُم، ومنه سُمِّيَ الذَّنْبُ جُرْماً؛ لأنَّهُ كَسْبٌ لِصاحِبِهِ[3]، والإجْرامُ: ارْتِكابُ الجُرْمِ وهو الإثْمُ العَظيمُ، وأعْظِمْ بالإجرام الكفْر[4]، يُقالُ: أجْرَمَ الرَّجُلُ: إذا ارْتَكَبَ ذَنْباً أو جَنَى جنايةً[5] والمُجْرِمُ في اصْطِلاحِ القُرآنِ هو الكافِرُ، كقولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضۡحَكُونَ ٢٩﴾ [المطففين: 29]، والمقصودُ بالإجرام في الآية: الكفرُ، والمرادُ بالقَومِ المُجْرِمين: قومُ لوطٍ أهلُ سَدومَ وقُراها.

2) ﴿لَمُنَجُّوهُمۡ﴾: أصْلُ الإنجاءِ: الخَلاصُ مِنَ الشَّيْءِ، نَجا يَنْجو نَجْوًا ونَجاءً، مَمْدودٌ، ونَجاةً، مَقْصورٌ، وأنْجَيْتُ غَيْري ونجَّيْته، واستَنْجَى مِنْهُ حاجَتَهُ: تخَلَّصها. وانْتَجَى مَتاعَه: تَخلَّصه وسَلبَه،

(1) البقاعي، نظم الدرر: 11/68.
(2) الأزهري، تهذيب اللغة: (جرم).
(3) ابن عباد، المحيط في اللغة، والجوهري، الصحاح، وابن فارس، مقاييس اللغة: (جرم).
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/210.
(5) ابن عباد، المحيط في اللغة: (جرم).

ومعنى نجَوْت الشيءَ: خَلَّصته وألْقَيْته. والنَّجاةُ: الخَلاصُ مِنْ ضُرٍّ واقِعٍ[1]، والنَّجْوَةُ والنَّجاةُ: ما ارتفَع مِنَ الأرض فَلَمْ يَعْلُه السَّيلُ فَظَنَنْتُهُ نَجاءَك، والجَمْعُ نِجاءٌ[2]. والمقصودُ بالإنْجاء في الآية: وهو جَعْلُ الغَيْرِ ناجِيًا.

3) ﴿ٱلْغَٰبِرِينَ﴾: أصلُ (غبر): يَدُلُّ على البَقاءِ[3]. يُقالُ: وغَبَرَ الشيءُ يَغْبُرُ أي بَقِيَ، وغَبَرَ الشّيءُ يَغْبُرُ غُبوراً: مَكَثَ وَذَهَبَ، والغابِرُ: الباقي. والغابِرُ: الماضي، وهو مِنَ الأضداد[4]؛ وأشْهَرُ إطلاقَيْه هو المُنْقَضي؛ ولذلك يُقالُ: غَبَرَ بِمَعْنَى هَلَكَ. وهو المُرادُ هُنا في الآية: أي: كانَتْ مِنَ الهالِكِينَ، أي: هَلَكَتْ مع مَنْ هَلَكَ مِنْ أهلِ (سَدومَ).

المَعْنى الإجْماليُّ:

قالتِ الملائكةُ لإبراهيمَ: إنَّ اللّٰهَ أرسَلَنا لإهلاكِ قَومِ لوطٍ المُشركينَ إلّا لوطًا وأهلَه المؤمنينَ به، فلن نُهلِكَهم، وسنُنَجّيهم أجمعينَ إلّا امرأتَه الكافِرةَ، قَضَينا أنَّها مِنَ المُهلَكينَ الباقينَ في العذابِ؛ لكُفرها. وقد وصفَهم ﷻ بالإجرام؛ لأنَّهم لم يكفروا فقط، بل أضافوا إلى الكُفر فَقْدَ الطَّبيعةِ الإنسانيَّةِ. فشذّوا بفاحشةٍ ما سبقَهم بها أحدٌ مِنَ العالمين، وإذا كانوا قد وصَفوهم بأنَّهم مجرمون، فمؤدَّى ذلك أنَّهم جاءوا لإنزال العُقوبةِ بهم[5].

سُنّةُ الله تعالى في إنزال الهلاكِ، إنجاءُ المؤمنين وحِفْظُهم

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

بَلاغةُ الاستئنافِ البيانِّي في السّياقِ:

قولُه تعالى: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ﴾، وفيه أنّه لمّا سألَ إبراهيمُ الملائكةَ

اسْتِدْرارُ الأسماعِ، من عادةِ القرآنِ في القَصَصِ، لاستمرارِ الانتفاع

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/130.
(2) ابن منظور، لسان العرب: (نجو).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (غبر).
(4) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (غبر).
(5) ابن جرير، جامع البيان: 14/86، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 10/36 - 37، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/541، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 8/4097.

عنِ الخطبِ الذي أرسلهم اللّه من أجلِه كان السّامعُ مُتَشَوِّفًا لمعرفة جوابِ الملائكة، فكأنَّ تقديرَ الكلام: فماذا قالتِ الملائكةُ في جوابِ سؤالِ إبراهيمَ، فجاء قولُه تعالى ﴿قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ﴾.

دَلالةُ الضّميرِ في جملةِ: ﴿قَالُوٓاْ﴾:

يعودُ الضّميرُ على ﴿ضَيۡفِ﴾ [الحجر: 51] بما اتّصَفوا به منَ الرّسالة، أي قال الضّيفُ المُرسلون.

عَوْدُ الضَّميرِ على الاسمِ بما اتَّصفَ به، من فصيحِ البيانِ

فائِدةُ (إنَّ) في قولِه: ﴿إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ﴾:

تفيدُ (إنَّ) تأكيدَ مضمونِ الجملةِ، بمعنى تقريرِ إرسالِهم بالعذابِ إلى القومِ المُجرمين، وجاء الكلامُ مؤكَّدًا للإشعارِ بتقريرِ إرسالِهم وأنَّهم لا حيلةَ لهم في المخالفةِ.

الملائكةُ يأتمِرون بأمرِ اللهِ، ويفعلونَ ما يُؤمَرون

بَلاغةُ مجيءِ المُسنَدِ جُملةً فعليَّةً:

قولُه تعالى: ﴿إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ﴾، جاءتِ الجملةُ الفعليّةُ خبرًا عن (إنَّ) لإفادة تَقوّي حُكمِ إرسالِهم إلى القومِ المُجرمين، لِما صاحبَ المقاولةَ منَ السّؤال وما خامرَها منَ الإنكار، والمرادُ تحقيقُ إرسالِهم عندَ إبراهيمَ عليه السلام دونَ تخصيصِ الإرسال بهم، فيكونُ التّعبيرُ بالجملةِ الفعليَّةِ أقوى للحُكمِ وأثبتُ له ممّا لو قيل (إنّا مرسلون إلى قومٍ مجرمين).

تَحقيقُ إرسالِ الملائكةِ، إلى القومِ المُجرمين

نُكتةُ التَّعْبيرِ بالماضي ﴿أُرۡسِلۡنَآ﴾:

عُبِّرَ بصيغةِ الماضي؛ للإيذانِ بأنَّ إرسالَهم إلى القومِ المُجرمين قد وقعَ وثبتَ، وأنَّ العذابَ واقعٌ لا محالةَ، فلا مجالَ للنّقاشِ في الأمرِ.

إفادةُ تحقُّقِ الوقوعِ، تأكيدٌ لتنفيذِ أمرِ اللهِ تعالى

دَلالةُ صيغةِ المبنيّ للمفعولِ في ﴿أُرۡسِلۡنَآ﴾:

لمّا خاطبهم إبراهيمُ عليه السلام بصيغة المبنيِّ للمفعول في قولِه تعالى: ﴿أَيُّهَا ٱلۡمُرۡسَلُونَ﴾ جاء قولُ الملائكة موافقًا له في الصّيغة، لتأكيدِ مقْصدِ إبراهيمَ عليه السلام وتأدُّبًا معه حين عبَّرَ بصيغة المبنيِّ للمفعول، وللإشعارِ بأنَّهم إنّما يفعلون ما يُؤمرون.

تأدّبُ الملائكةِ بموافقةِ جوابِهم لسُؤالِ إبراهيمَ عليه السلام

مُناسبةُ التَّعْبيرِ بلفْظِ ﴿قَوْمٍ﴾:

التَّعْبيرُ بالقومِ، لإفادةِ أنَّ بعضَهم يُقوّي بعضًا

عُبِّرَ بلفظِ ﴿قَوْمٍ﴾ للإشعارِ بأنَّ قومَ لوطٍ عليه السلام مُجتمِعون على أمرِهم وأنَّهم مظاهرون لمَن هو منهم، وذَوو منعةٍ في شأنِهم، ولمّا كان لفظُ القوم يُطلقُ على الرّجال عُبِّرَ به هنا عنِ الرّجال والنّساء على سبيل التّغليبِ وللتّنبيهِ على أنَّ بعضَهم يُقوّي بعضَهم الآخرَ فيما اجتمعوا عليه.

فائِدةُ تَنْكيرِ ﴿قَوْمٍ﴾ و﴿مُّجْرِمِينَ﴾:

المُجرمون أذلَّةٌ مُهانون، وإنِ ادّعَوا القوّةَ فيما يَزعمون

نُكِّرَ الموصوفُ وصفتُه في قوله تعالى: ﴿قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ﴾ تقليلًا لهم وللاستهانةِ بهم[1]، ويحتملُ أن يكون التّنكيرُ لتعظيم منعَتِهم ومظاهرتِهم لبعضِهم وأنَّ إجرامَهم كان إجرامًا عظيمًا[2].

فائِدةُ مجيءِ الصّفةِ ﴿مُّجْرِمِينَ﴾:

عَراقةُ الإجرامِ، في الشّذوذِ والانحرافِ عنِ الفِطرةِ الإنسانيَّةِ

جاءتِ الصّفةُ تقْييدًا للموصوفِ على معنى الذّمِّ، ولمّا تعلَّقَ الحكمُ بالموصوف بقيْدِ صِفتِه وكانتِ الصّفةُ وصْفًا مشتقًّا أفاد أنَّ سببَ إرسالِ الملائكة هو إجرامُ القومِ، وأنَّهم كانوا عريقين في الإجرام، بفعلِ الفاحشةِ الشّاذَّةِ، وأنَّ إرسالَهم كان لأجلِ الإهلاكِ، واقتُصِرَ في الكلامِ على ذكر الموصوفِ وصفته دونَ التّصريحِ بذكر العذابِ لِعلْمِ إبْراهِيمَ عليه السلام بأنَّ المَلائِكَةَ إذا أُرْسِلوا إلى المُجْرِمينَ كانَ ذلك لأجلِ إهلاكِهم واسْتِئصالِهم[3].

بيانُ المقصودِ من قوله: ﴿قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ﴾:

التّعريفُ بالقومِ المُنحرفين بالوصْفِ الذَّميمِ، تصويرٌ للواقعِ

لمّا استثنَى ﴿ءَالَ لُوطٍ﴾ دلَّ على أنَّ المرادَ من ﴿قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ﴾ قومُ لوطٍ، فأفادَ الوصفُ بيانَ المرادِ مع الذَّمِّ.

---

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 6/486.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 11/68.

(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 19/152، والبقاعي، نظم الدرر: 11/68.

دَلالةُ الاستثناءِ في قولِه: ﴿إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ﴾:

مهمّةُ الملائكةِ إهلاكُ المُجرمين، وإنجاءُ المؤمنين

يحتملُ هذا الاستثناءُ أن يكونَ اسْتِثْناءً مِنَ الضَّميرِ في ﴿مُّجْرِمِينَ﴾ فيكونَ مُتَّصِلًا، كَأَنَّهُ قيلَ: إنّا أرسلنا إلَى قَوْمٍ قَدْ أجْرَموا كُلُّهُمْ إلّا آلَ لوطٍ وَحْدَهُمْ، فـ﴿ءَالَ لُوطٍ﴾ مُستثنون منَ الإجرام باقون في حكم الإرسالِ، ويحتملُ أن يكونَ استثناءً مِنْ ﴿قَوْمٍ﴾ فيكونَ مُنْقَطِعًا، لِأَنَّ القَوْمَ مَوْصوفونَ بِكَوْنِهِمْ مُجْرِمينَ وَآلُ لوطٍ ما كانوا مُجْرِمينَ، فيكونَ إخراجُ آل لوطٍ على طريق الاستثناءِ من غيرِ جنسِ المُستثنَى، لاختلافِ الجنسَين، ويَخْتَلِفُ المعنَى بِحَسَبِ اخْتِلافِ نوعِ الاستثناء، فإن كان متَّصِلًا فالمَلائِكَةُ أُرْسِلوا إليهم جَميعًا، ولا يكونُ إرسالُهم خاصًّا للقومِ المجرمين، فيكونُ إرسالُ الملائكة بالنّسبة إلى المجرمين للإهلاك وإلى المؤمنين للإنجاء، أي لِيُهْلِكوا هَؤُلاءِ وَيُنَجّوا هَؤُلاءِ، وإن كان منقطعًا بمعنى أن يخرج آل لوطٍ من حكم الإرسال يكونُ إرسالُ الملائكة إلى القومِ المجرمين خاصَّةً، وما أُرْسِلوا إلى آلِ لوطٍ أصْلًا، فيكونُ إرسالُهم إرسالَ هلاكٍ، بقصدِ عذابِ القومِ المجرمين[1].

دَلالةُ لفْظِ ﴿ءَالَ﴾:

لفظُ (الآل) يدخلُ فيه كلُّ مؤمنٍ، كما يدخلُ فيه خاصّةً أهلُ لوطٍ

عُبِّرَ بِلفْظِ ﴿ءَالَ﴾ في قولِه تعالى: ﴿ءَالَ لُوطٍ﴾ للإيذانِ بأنَّ النّاجين هم أتباعُه الذين آمنوا به وكانوا على دينِه ونصروه، ففيه إشعارٌ بأنَّ كلَّ منِ اتّبعَ أحدًا هو من آلِه، وله حكمُهم في النّجاةِ أوِ الهلاكِ، وبأنَّ الآلَ في قولِهم: اللهمَّ صلِّ على محمَّدٍ وعلى آل محمَّدٍ يدخلُ فيه كلُّ مَنْ تَبِعَهُ، كما يدخل فيه هنا الشَّخصُ نفسُه[2].

بَلاغةُ جملةِ الاستئنافِ في الآية:

قولُه تعالى: ﴿إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ﴾، لمّا كان الاستثناءُ في قولِه

(1) الزمخشري، الكشاف: 2/581، والفخر الرازي: 19/153، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 3/214، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/82.

(2) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 6/450، والواحدي، التفسير الوسيط: 3/47، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 19/153.

تعالى: ﴿إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ﴾ محتملًا لأن يكونَ متّصلًا وأن يكونَ منقطعًا، كان توجيهُ تركيبِ ﴿إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ مَبنيًّا على ذلك الاحتمالِ، فإذا كان الاستثناءُ متّصِلًا كان التّركيبُ على طريق الاستئنافِ البيانيِّ، ليكونَ بمنزلة جوابٍ لسؤالٍ سأله إبراهيمُ عليه السلام، فكأنَّه لمّا استُثْنِيَ آلُ لوطٍ فُهِمَ منَ الاستثناء أنَّهم ناجون منَ العذاب، فكان كأنَّه سألَهم على مقتضى التَّقريرِ والتأكيدِ لأهميَّة الأمرِ عنده، فقال لهم فما حالُ آلِ لوطٍ، وهل سينجون منَ الهلاكِ؟ فقيل ﴿إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ﴾، ليفيدَ الإخبارَ بنجاتِهم لعدم إجرامِهم ولتقريرِ ما فُهم منَ الاستثناءِ من مُطلقِ عدمِ شمولِ العذاب لهم، ليكونَ تَأْكيدًا لمعنَى الاسْتِثْناءِ ولتعليل انتفاءِ العذابِ عنهم؛ فإنَّ مَنْ تُعلَّقُ بهم التَّنجيةُ ينجَّون من شمول العذابِ، وفي الاستئنافِ البيانيِّ اسْتِدرارُ أسماع المخاطَبين وإثارتُهم للإصغاءِ إلى رحمة الله بالمؤمنين وإنجائِهم منَ العذاب والهلاكِ، وإذا كان الاستثناءُ منقطِعًا جرى مجرى خبرِ (لكنّ) في الاتصال بآل لوطٍ؛ لأنّ المعنى: لكنَّ آلَ لوطٍ مُنجَون[1].

نَجّى الله المؤمنين، لعدَمِ انجرافِهم عنِ الفطرةِ، وإنكارِهم للشُّذوذِ

فائِدةُ تتابُعِ التَّأكيدِ في الآية:

أفادَ تتابعُ التّأكيدِ بـ(إنَّ) واللّامِ في قولِه تعالى: ﴿إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ﴾ تقريرَ حكمِ إنجاءِ آل لوطٍ أجمعين وللإشعارِ بأنَّ تَنْجيتَهم هي تنجيةٌ عظيمةٌ[2].

تَعْظيمُ شأنِ إنجاءِ المؤمنين من عذابِ المُجرمين المُنْحَرفين

فائِدةُ مَجيء (نا) في قولِه: ﴿إِنَّا﴾:

أفاد التّعبيرُ بـ(نا) تعظيمَ أمرِ تنجيَةِ المؤمنين من عذاب المُجرمين المُنحرفين، وأنَّه لا أحدَ يستطيعُ تَنْجيتَهم إلّا اللّه الملكُ الواحدُ الأحدُ، وقرَّر هذا المعنى في قولِه تعالى: ﴿لَمُنَجُّوهُمْ﴾.

لا أحدَ يستطيعُ التّنجيةَ منَ العذابِ، إلّا الله الملكُ الغلّابُ

(1) الزمخشري، الكشاف: 2/582، وأبو حيان، البحر المحيط: 6/487، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/83، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 11/179.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 11/68.

بَلاغةُ الكنايةِ في قولِه: ﴿لَمُنَجُّوهُمْ﴾:

أفاد التّعبيرُ بالنّجاءِ أنَّ غيرَهم هالكٌ، وأنَّ القصدَ منَ الإرسال إهلاكُ القومِ، فهو تقريرٌ لأن يكونَ الاستثناءُ منقطِعًا.

التّنجيةُ العظيمةُ، تُؤْذِنُ بأنَّ الهلاكَ كان عَظيمًا

نُكتةُ التَّعْبيرِ بصيغةِ ﴿لَمُنَجُّوهُمْ﴾:

أفاد لفظُ ﴿لَمُنَجُّوهُمْ﴾ المشتقُّ منَ الفعل الثّلاثي المضعَّفِ (نجَّى) المبالغةَ في تنجية آلِ لوطٍ؛ إيذانًا بشدَّة العذاب وهولِه. ولمّا كانَ الإنجاءُ بمعنى الانفصال عنِ الشّيءِ، وكانت النَّجْوَةُ والنَّجاةُ هي المكانُ المُرتفِع المنفصلُ بارتفاعه عمّا حوله، دلَّ التّعبيرُ بلفظ ﴿لَمُنَجُّوهُمْ﴾ على أنَّ العذابَ سيعمُّ القومَ والأرضَ التي هم فيها، وأنَّ المؤمنين سيخرجون من أرضِ المُجرمين المُنحرِفين، وأنَّهم منفصِلون عنهم بإيمانِهم باللّه وبنبيِّهم لوطٍ عليه السلام مميَّزون عنهم بأفعالِهم، كما أفاد أنَّ لِلمؤمنين النّاجين مكانةً مرتفعةً.

عذابُ المُجرمين المُنحرِفين، يعمُّ القومَ والأرضَ

فائِدةُ التَّأكيدِ بقولِه: ﴿أَجْمَعِينَ﴾:

أفاد التّأكيدُ بلفظِ ﴿أَجْمَعِينَ﴾، إحاطةَ آل لوط بالتّنجيةِ منَ العذاب، ففيه إشعارٌ برحمة اللّه تعالى بهم، كما أفادَ دفعَ توهّم أن يكون أيُّ فردٍ منهم، قد بقيَ مع الهالكين إلّا امرأتَه التّي قدّر اللّه أن تكون منَ الغابرين.

إحاطةُ آلِ لوطٍ بالتّنجيةِ إلّا امرأتَه، تفريقٌ بين من آمن، ومن كفرَ

بَراعةُ الاستثناءِ في قولِه: ﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ﴾:

استثناءٌ منَ الضّمير في قوله تعالى: ﴿لَمُنَجُّوهُمْ﴾، أو من ﴿ءَالَ لُوطٍ﴾، فهو استثناءٌ منَ المُستثنى، فرجعتِ امرأتُه في التأويل إلى القوم المجرمين؛ وفائدةُ مجيء الاستثناء بهذه الطريقة - بحيث لم تدخلِ امرأةُ لوطٍ في القوم المجرمين من أوّل الأمر - أمران: أحدُهما: الإيذانُ بأنَّه كان الأحقُّ والأحرى بها أن تكون منَ النّاجين؛ لأنَّها من آل لوطٍ، لكنَّها كانت منَ الباقين فهلكت، والثّاني هو أنَّه لمّا كان المستثنى الأوّلُ (آلَ لوطٍ) في ضمنِه امرأتُه، وهي لا يجري

امرأةُ الرّجلِ أولَى النّاسِ به، اتّباعًا في إيمانِه وعملِه

الحكمُ عليها بما حُكِمَ به لآل لوطٍ منَ النّجاءِ، وكان تمامُ المعنى يقتضي إدخالَه في لفظه ولا يمكنُ العبارة عنه دون ذلك الذي يجري الحكمُ عليهم، اقتضى الكلام استثناءً ثانيًا لإخراجها من حكم آل لوطٍ وإدخالِها في حكم القومِ المجرمين[1].

دَلالةُ الضّميرِ في قولِه: ﴿إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ﴾:

يعودُ الضّميرُ على ﴿لُوطٍ﴾ بما اتّصفَ به من صفة الإنجاءِ، والمعنى: إلّا امرأةَ لوطٍ الذي نجّيناه وآلَه معه، فيفيدُ الاستثناءُ أنَّها ليست بناجيةٍ منَ الهلاكِ، وإنّما استثناها لدخولِها في آلِه.

امرأةُ الرّجلِ من آلِه، وكفرُها استثناها منَ النّجاةِ

بَلاغةُ الاستئنافِ البيانِّي في السّياقِ:

قولُه تعالى: ﴿قَدَّرۡنَآ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ﴾، لمّا استثنَى الملائكةُ امرأةَ لوطٍ من أن يُنجّوها، تشوَّفتِ النَّفسُ للوقوفِ على ما قضى اللّهُ به من ذلك، فكأنَّه قيل: فما كان حالُها وهي امرأةُ لوطٍ؟، فقيل ﴿قَدَّرۡنَآ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ﴾، تقريرًا لما فُهِمَ من دلالة استثنائِها منَ النّاجين منَ العذاب.

لا جدوَى منَ النّسبِ والمُصاهرةِ، إذا عُدمَ الإيمانُ بقوّةِ اللهِ القاهرةِ

نُكتةُ التَّعبيرِ بلفْظِ ﴿قَدَّرۡنَآ﴾:

لمّا كان لفظُ التّقديرِ بمعنى جعْلِ الشَّيء على مقدار غيرِه لتظهرَ المُساواة والمباينةُ أفادَ أنَّ عذابَ امرأة لوطٍ إنَّما كانَ لمُساواتِها قومَها في عملِهم، لمشاركتِها معهم في الفساد، وكانت تدلُّ قومَه على أضيافِه، فاستوجبتِ العقوبةَ معهم، ولمباينتِها آلَ لوطٍ في اتّباعِ لوطٍ على إيمانِه ودينِه[2].

منَ الإجرامِ المُشاركةُ في الفسادِ، والدّلالةُ عليه

بَلاغةُ تضمينِ الفعلِ في قولِه: ﴿قَدَّرۡنَآ﴾:

عُلّق فعلُ التّقدير هنا مع اختصاصِ التّعليق بأفعال القلوبِ؛

هلاكُ امرأةِ لوطٍ، بحِكمةِ اللهِ وتقديرِه

(1) الزّمخشري، الكشّاف: 2/582، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/367، والثّعلبي، الكشف والبيان: 15/480، والبيضاويّ، أنوار التنزيل: 3/214.

(2) أبو القاسم الكرماني، لباب التفاسير، ص: 997، والبقاعي، نظم الدرر: 11/69، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/82.

لتضمُّنِه معنى العلم، لترتّبِ تقديرِ عذابِها على علْمِهم به بما علَّمهم اللّه، ففيه إيجازٌ، وفائدةُ التّضمين إثباتُ عذابِها بطريق العلم، والتّقديرُ أنَّ امرأته منَ الغابرين، ليفيدَ أنَّ هلاكَها هو بحكمةِ اللّه تعالى[1].

سببُ الإسْنادِ في الفعْلِ ﴿قَدَّرْنَآ﴾:

المأمورُ بأوامرِ الملك، له حقُّ نسبةِ الأمرِ إلى نفسِه

أُسندَ الملائكةُ فعْلَ التّقديرِ إلى أنفسِهم، وهو للّه تعالى وحدَه، ولم يقولوا (قدَّر اللّه إنّها لمن الغابرين) للإشعارِ بما لهم منَ القُرب والزُّلفى والاختصاصِ باللّه، ولِأنَّهم هُمُ المَأْمورونَ بإهْلاكِهم، كما يَقولُ مَنْ يقومُ بأوامرِ المَلِكِ ومن هو مُتَصَرِّفٌ بأوامرِهِ: أمَرْنا بِكَذا، والآمِرُ هو المَلِكُ، أي لِأنَّهُمْ مُزْمِعونَ على سَبَبِهِ[2].

بَلاغةُ تتابُعِ التَّأكيدِ في السّياقِ:

التَّأْكِيدُ لقَطْعِ سُؤالِ النّجاةِ لامرأة لوطٍ

قولُه تعالى: ﴿إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾، فيه تتابعُ التّأكيد بـ(إنَّ) واللّامِ الموطِّئة للقسم؛ لأجل ما أُشير إليه هنا من عظيم تشوُّفِ الخليل عليه السلام إلى معرفة أمرهم ورغبتِه في نجاة لوط وجميعِ آله، فجاء التّأكيدُ متتابعًا لقطعِ طمَعِه عن سؤالٍ في نجاتها، ولأنَّه قد يخامرُ السّامعين أنَّها قد تَنجو لأنَّها امرأةُ لوطٍ[3].

نُكتةُ التَّعبيرِ بقولِه: ﴿لَمِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾:

التّحذيرُ منَ التّخلُّفِ عن ركبِ المؤمنين، ففيه الهلاكُ بيقينٍ

أفاد التّعبيرُ بـ﴿ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ أنَّها منَ الباقين، كما أشعر اللّفظُ أنَّها منَ المتخلّفين عنِ الخروج[4]، ليفيدَ أنَّها ارتكبت معصيةً أخرى سوى مناصرتِها لقومِها، بعدمِ إطاعتِها نبيَّ اللّه لوطاً عليه السلام في الخروج معه، فكانت منَ الباقين مع الكفرة ومنَ المتخلّفين عنِ الخروج،

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 3/214، وأبو حيان، البحر المحيط: 6/487.
(2) الزمخشري، الكشاف: 2/582، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 19/153، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 3/214، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/83، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/62.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 11/68.
(4) السمرقندي، بحر العلوم: 2/259.

"ليفيدَ أنَّها تَتَخَلَّفُ وتَبْقَى مع مَنْ يَبْقَى حتّى تَهْلِكَ كَما يَهْلِكونَ، ولا تَكونُ مِمَّنْ يَبْقَى مع لوطٍ فَتَصِلُ إلى النّجاة"[1].

فائِدةُ حذْفِ مُتعلِّقِ ﴿ٱلْغَٰبِرِينَ﴾:

إفادةُ العمومِ، إيحاءٌ بشُموليّةِ العذابِ لكلّ من يَستحقُّه

أفاد حذفُ متعلِّقِ ﴿ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ العمومَ بمعنى أنَّها منَ الغابرين مع المُجرمينَ المُنحرفين الكفرةِ، فهي باقيةٌ معهم، ومنَ المُتخلّفين عنِ الخروج مع لوطٍ عليه السلام، أي لتهلكَ مع القومِ المُجرمين.

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الأهلُ والآلُ:

الأهلُ علاقةٌ بالنّسبِ، والآلُ بالقرابَةِ أوِ الصُّحبةِ أوِ الاتِّباعِ

الأهلُ يُستعملُ فيما كان من جهة النَّسبِ والاختصاصِ، فمن جهةِ النّسبِ يقال: أهلُ الرّجلِ لقرابتِه الأدْنين، ومن جهة الاختصاصِ، يقال أهلُ البصرةِ وأهلُ العلم، أي الجماعةُ المختصّةُ بما أضيفَ الأهلُ إليه، وأمّا الآلُ فهو خاصَّةُ الرّجل من جهة القرابةِ أوِ الصُّحبةِ أوِ الاتِّباع، فيقال آلُ الرّجل لأهلِه وأصحابِه ولا يقال آلُ البصرة وآلُ العلم، و(آل لوطٍ) أتباعُه وكذلك آلُ (فرعون)، وثمَّة فائدةٌ في استعمال الآلِ تختلف عنِ الأهل، فالآل إن أُفرد دخل فيه المُضاف إليه كقوْلِه تَعالَى: ﴿إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ وقولِه تعالى ﴿أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ۝٤٦﴾ [غافر: 46]، وَأمّا إن ذُكر الرّجلُ ثمَّ ذكرَ آلُه لم يدْخلْ فيهم، فَفرقٌ بَين المُجَرّد والمقرون، فَإذا قيل (اعْط لزيد وَآل زيد) لم يكن زيد هُنا داخِلا في آله، وَإذا قيل: (اعْطه لآل زيد) تناول زيدًا وَآله، وأيضًا، قد يذكرُ آلُ الرّجل، والمرادُ به الرّجل[2].

تَوْجيهُ القراءاتِ القرآنيّةِ في السّياقِ:

أوّلًا: قرأ حمزةُ والكسائيّ والحضرميّ (إنا لَمُنْجوهم أجمعينَ)،

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 19/153.

(2) الواحدي، التفسير البسيط: 12/624، والعسكري، الفروق اللغوية، ص: 281، وابن القيم، جلاء الأفهام، ص: 209.

اختلافُ القراءاتِ، يُفيدُ في ثراءِ المعنى وبيانِه

وقرأ ابْنُ كثيرٍ ونافِعٌ وعاصِمٌ وأبو عَمْرو وابْن عامر ﴿إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ مشدّدةً[1]، ووجْهُ التّخفيف هو الإيذانُ بسهولةِ الأمرِ عند اللّه تعالى، أمّا وجهُ التّشديد فهو للتَّنبيهِ على أنَّ أمرَ إنجائِهم كان عظيمًا؛ وللإشعارِ بعِظمِ هلاكِ القوم المَجرمين وهوْلِ استِقصائِهم.

ثانيًا: قرأ أبو بكرٍ عن عاصم في هذه الآية (قَدَرْنا) بالتّخفيف وقرأ الجميعُ بالتّشديد ﴿قَدَّرْنَآ﴾[2]، وقراءةُ التّشديد تفيدُ معنى المبالغةِ في التّقدير، وقراءةُ التّخفيف على معنى أصلِ الفعل، وذهب بعضُ المفسّرين إلى أنَّ التَّخفيفَ بمعنى التَّثقيلِ[3].

(1) الأزهري، معاني القراءات: 2/71، وابن الجزري، النشر: 2/259.
(2) ابن الجزري، النشر: 2/302.
(3) ابن عطية، المحرر الوجيز: 3/367.

﴿فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ ٦١﴾ [الحجر: 61]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

اخْتِلافُ سببِ مجيءِ الملائكةِ، لاختلافِ الأمرَيْنِ، منَ البِشارةِ والإهلاكِ

لمّا تمَّ ما أريدَ الإخبارُ عنه من تحاوُرِ الملائكة، مع إبراهيمَ عليه السلام، أخبرَ عن أمرهم مع لوطٍ عليه السلام، وللإشارةِ إلى أنَّ الملائكة، جاؤوا إلى إبراهيمَ، بعنوانِ الضَّيفِ، وإلى لوطٍ بعنوانِ الرّسالة، فجاءت هذه الآيةُ[1].

المَعْنى الإجْماليُّ:

الشُّروعُ في بيانِ إهلاكِ المُجرمين، وتَنْجِيَةِ آلِ لوطٍ المؤْمِنينَ

يقولُ اللّه تعالى: فلمّا جاءتِ الملائكةُ لوطًا وأهلَه، قال لهم: من أيِّ الأقوام أنتم، ولأيِّ غَرضٍ جئتم؟ وإنِّي أخاف أن تمسّوني بمكروه؛ وإنَّما قال هذه المقالةَ؛ لأنَّه لم يشاهدْ منَ المرسَلين حين مقاساةِ الشَّدائد ومعاناةِ المكايدِ من قومه الَّذين يريدون بهم ما يريدون - إعانةً ولا مُساعدةً، فأنكر خُذلانَهم له، وتركَهم نصرَه حين المضايقةِ الَّتي حلَّت به بسببِهم حتَّى اضطرَّ إلى أن يقول: ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ٨٠﴾ [هود: 80] كما جاء في سورة هود[2].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

فائِدةُ الفاء في قولِه: ﴿فَلَمَّا﴾:

بيانُ كيفيّةِ إهلاكِ المُجرمين، وتَنْجِيَةِ لوطٍ والمؤمنين

أفادتِ الفاء هنا سرعةَ وصول الملائكةِ إلى لوطٍ عليه السلام ودخولِهم بَيْتَهُ[3]، وفيها إشعارٌ بالشّروع بالتّفصيلِ ببيانِ كيفيةِ إهلاكِ المُجرمين وتَنجِيَةِ آلِ لوط حسبما أُجملَ في الاستثناء[4]، ولِتقريرِ أنَّ مجيءَ الملائكة إلى إبراهيمَ عليه السلام كان قد سبقَ مجيئَهم إلى قوم لوطٍ.

(1) البقاعي، نظم الدرر: 11/69.
(2) المراغي، تفسير المراغي: 14/35.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 11/69.
(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/83.

دلالةُ الأداةِ (لَمَّا) في السّياقِ:

اشتدَّ إنكارُ لوطٍ، خوفًا على ضيوفِه، وحسرةً لِما يفعلُه قومُه

لمّا كانتِ الأداةُ (لمّا) بمعنى حين، فتفيدُ وقوعَ شيء لوقوع آخرَ، بحيث يكونُ الثّاني منهما مترتِّبًا على الأوّل؛ فهو بمنزلة الجواب المعلَّقِ وقوعُه على وقوع شيءٍ آخرَ أفاد التّعبيرُ بـ﴿فَلَمَّا﴾ أنَّ قولَ لوطٍ للملائكة ترتّبَ على مجيء الملائكةِ عنده، وأنَّ مجيئَهم كان سببًا لنُكرانِه لهم وأنَّ قولَه لهم وقعَ في وقتِ مجيئِهم من غيرِ مُهلةٍ، فكأنَّه ما اشتدَّ إنكارُه لهم إلّا بعد الدّخولِ إلى منزله، خوفًا عليهم وحزنًا لما يفعلُ قومُه[1].

نُكتةُ تَعْديةِ الفعلِ ﴿جَآءَ﴾:

التَّعبيرُ بالمجيءِ، بمعنَى الحُضورِ

لمّا تعدَّى الفعلُ ﴿جَآءَ﴾ إلى المفعولِ ﴿ءَالَ لُوطٍ﴾ بنفسِه من غيرِ حرفِ الجرِّ (إلى) أفادَ أنَّ الملائكة جاؤوا لوطًا وحضروا عنده، فليس المرادُ منَ المجيء مجرَّدَ وُصولِهم إليه من غير حضورٍ، ويدلُّ عليه مخاطبتُه لهم في قولِه: ﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾.

دَلالةُ التَّعبيرِ بلفْظِ ﴿جَآءَ﴾:

مَجيءُ المرسلين، تكليفٌ إلهيٌّ من ربِّ العالمين

يحتملُ أنْ يكونَ المرادُ من الفعلِ ﴿جَآءَ﴾، ابتداءَ مجيئِهم لوطًا عليه السلام بمعنَى بمجرَّدِ مجيئِهم وحضورِهم عنده ﴿قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾، ويحتملُ أن يكونَ المرادُ مطلقَ كينونتِهم عنده، بما يشملُ حضورَهم ومحاورتَهم معه، فإنَّ ما حُكي عنه عليه السلام بقوله تعالى: ﴿قَالُواْ بَلْ جِئْنَٰكَ بِمَا كَانُواْ فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ أي بالعذاب الّذي كنتَ تتوعَّدُهم به، فيمترون فيه، ويكذِّبونَك قد قشَّروا العصا وبيَّنوا له عليه السلام جليّةَ الأمر، فأنَّى يمكنُ أنْ يعتريَه بعدَ ذلك المساءةُ منهم وضيقُ الذَّرْع بهم؟![2].

(1) البقاعي، نظم الدرر: 11/69.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/83.

سببُ إيثارِ التّعبيرِ بالمجيء إلى الآلِ:

أتْباعُ الرّسولِ، لهم حُكمُه في البِشارةِ والنّجاةِ منَ العذابِ

قال ﴿جَآءَ ءَالَ لُوطٍ﴾، مع أنَّ الملائكة قد أتَوا لوطاً ولم يأتوا جميعَ آلِه؛ للإشعار بأنَّ مجيئَهم للوطٍ ولإنجائِه في حكم مجيئِهم لآلِه وأتباعِه، فهو تشريفٌ لآلِه وبشرى لهم بأنَّ أتباعَ الرّسول لهم حكمُ الرّسول في البشارةِ بالتّنجيَةِ منَ العذاب، كما أنَّه لمّا كان لوطٌ عليه السلام وأتباعُه في بلدةٍ واحدةٍ وكان الملائكةُ قد نَزَلوا في مَنْزِلَةٍ بَيْنَ أهْلِه، عبِّرَ بقولِه ﴿جَآءَ ءَالَ لُوطٍ﴾، وإنْ كانَ المَقْصودُ بِالخِطابِ والمَجيءِ هو لوطٌ عليه السلام[1].

بَلاغةُ وضْعِ الظّاهرِ موضعَ المُضمَرِ:

انتحاءُ أسلوبِ الإظهارِ، تكريمٌ للمُظهِرِ

قولُه تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾، وفيه وُضِعَ المُظهَرُ موضعَ المُضمَر، ولم يقل: (فلمّا جاءهم المرسلون)؛ للإيذان بأنَّ مجيئَهم لتحقيقِ ما أُرسِلوا به منَ الإهلاك للقومِ المجرمين، والتَّنجيةِ للوطٍ عليه السلام وأتباعِه، كما أنَّ بالإظهارِ في موضعِ الإضمار مزيدَ تكريمٍ للمُظهَر.

فائِدةُ الإضافةِ في قولِه: ﴿ءَالَ لُوطٍ﴾:

تَشريفُ أتباعِ الرُّسلِ بنِسْبتِهم إليهم

لمّا كانتِ الإضافةُ على معنى اللّام التي تفيدُ الاختصاصَ، أفادتِ الإضافةُ تشريف أتباعِ لوطٍ عليه السلام، فكان التّكريرُ على معنى تقريرِ اختصاصِهم بنبيِّهم ونسبتِهم له، بسببِ اتّباعِهم له وإنكارِهم على القومِ المجرمين المنحرفين.

بَلاغةُ تقديمِ ﴿ءَالَ لُوطٍ﴾ على ﴿ٱلْمُرْسَلُونَ﴾:

تعظيمُ شأنِ مهمَّةِ الملائكة فيما كُلّفوا به، منَ الإهلاكِ والتَّنْجيةِ

قُدِّمَ المفعول على فاعلِه لإفادة التّأكيدِ والتّخصيصِ، بمعنى أنَّ الملائكة لم تَأْتِ إلى أحدٍ بعد مغادرتِهم إبراهيمَ عليه السلام سوى إلى آلِ لوطٍ، تعظيمًا لشأنِ مهمَّتِهم في إهلاكِ المُنحرفين وتنجيةِ المؤمنين.

(1) أبو القاسم الكرماني، لباب التفاسير، ص: 998، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/63.

دَلالةُ (ال) في﴿ٱلۡمُرۡسَلُونَ﴾:

تـنـوّعُ وصـفِ الملائكةِ، بتَنوُّعِ مهمّتِهم

(ال) هنا للعهدِ، للإيذانِ بأنَّ الّذين جاؤوا لوطًا همُ المرسَلون الّذين خاطبهم إبراهيمُ بعنوان الرّسالةِ كما تقدَّم، فتنوّعَ وصْفُهم بتنوّعِ مهمّتِهم.

﴿قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [الحجر: 62]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

تَكمِلةُ إبرازِ فِطرةِ الإنسان إنكارُ الضّيفِ، إنْ جاء على غيرِ وصْفِ الضّيافةِ

لمّا جاءَ الملائكةُ لوطًا تلقّاهم، كما هو شأنُ كبيرِ المنزل، ولمّا وجدَهم على هيئةٍ وشكلٍ غيرِ الّذي يعرفُه ممَّنْ يمرُّ به منَ القبائل، ﴿قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مُّنكَرُونَ﴾: (نكر): أصْلٌ صَحِيحٌ يَدُلُّ على خِلافِ المَعْرِفَةِ الَّتي يَسْكُنُ إليها القَلْبُ. ونَكِرَ الشَّيءَ وأنكَرَهُ: لَمْ يَقْبَلْهُ قَلْبُهُ وَلَمْ يَعترِفْ به لِسانُهُ. والبابُ كُلُّهُ راجِعٌ إلى هذا[2]. والإنْكارُ: نَفْيُ الشَّيْءِ وجَحْدُهُ وَرَدُّهُ، يُقالُ: أنْكَرْتُ حَقَّهُ، أي: جَحَدْتُهُ وَنَفَيْتُهُ، وكُلُّ ما جَهِلَهُ النّاسُ وَجَحَدوهُ فهو مُنْكَرٌ[3]. وتَنْكِيرُ الشَّيْءِ من حيثُ المعنَى جعْلُه بحيث لا يُعْرَفُ، وتعريفُه جعْلُه بحيث يُعْرَفُ. والنُّكْرُ: الدّهاءُ والأمْرُ الصَّعْبُ الَّذي لا يُعْرَفُ[4]. والمقصودُ بالمُنْكَرِ في الآية: الَّذي يُنكِرُهُ غيرُهُ، أي: لا يَعْرِفُهُ. وأُطلِقَ هنا على مَنْ يُنْكَرُ حالُهُ ويُظَنُّ أنَّهُ حالٌ غيرُ مُعتادٍ، أي: يُخشى أنَّهُ مُضمِرُ سوءٍ[5].

المَعْنى الإجْمالِيُّ:

مجيءُ الملائكة إلى لوط، في صورة ضيوفٍ شبّانٍ، صِباحُ الوجوه، لم يُعرف لهم مثيلٌ منَ الأقوام، ممّا استدعى لوطًا أن يُنكر ما عاين من طلْعتِهم غيرِ المعهودة، ولأيّ غرضٍ هو مجيئُهم، ولأيّ خطْبٍ جَللٍ هو ظهورُهم.

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 19/154.
(2) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (نكر).
(3) الخليل، العين: (نكر).
(4) الراغب، المفردات: (نكر).
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/358.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بَلاغةُ الاستئنافِ البيانِّي في الآية:

المُسارعةُ إلى البِشارةِ، دأبُ الصّالحين

جاء الكلام على طريق الاستئنافِ البيانيِّ لاسْتِدرار أسماعِ المخاطَبين، وقُدِّمتِ المقاولةُ بين لوطٍ عليه السلام والملائكةِ المرسَلين على ما جرى بينه وبين أهلِ المدينة منَ المُجادلة في ضيْفِه؛ للمسارعة إلى ذكر بشارةِ لوطٍ عليه السلام بإهلاك قومِه وتَنجيةِ آله عَقيبَ ذكْرِ بشارةِ إبراهيمَ عليه السلام بهما، ولمّا كان المعنَى لا يتمُّ إلّا ببيان كيفيةِ نجاةِ لوطٍ وآلِه أُشيرَ إلى ذلك إجمالاً ثم ذُكرَ ما فَعلَ القومُ وما فُعلَ بهم، ولم يُبالَ بتغييرِ التّرتيبِ الوُقوعيِّ ثقةً بمراعاتِه في مواضعَ أخرى[1].

بَلاغةُ الحمْلِ على الظّاهرِ أو على الكنايةِ:

مَنْ أنكرَ شيئًا نفرَ عنه، وخافَ منه

قولُه تعالى: ﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾، يحتملُ أن يكون وصفُهم بالقوم المُنكرين، على ما هو ظاهرُ اللّفظِ ليكونَ بمعنَى: تُنْكركم ولا نعرفُكم، ولا تُعرفون بأهل هذه البلدةِ؛ لأنَّ قومه إنَّما يعملون ما يعملون بالغرباء؛ لا يعملون بأهل البلدِ، ويحتملُ أن يكونَ الكلامُ على الكنايةِ؛ لأنَّه لو قصدَ بقولِه ﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾ أنَّه لا يعرفُهم لَما توافقَ مع جوابِ الملائكة: ﴿بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُواْ فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ فكان المرادُ من: ﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾ كنايةً عن أنّكم قومٌ أخافُ شرّكم؛ لأنَّ مَنْ أنكرَ شيئًا نفرَ عنهُ، وخافَ منهُ، فيكونُ الكلامُ على الكناية، أي تُنْكرُكم نفسي وتنفرُ منكم، فأخاف أنْ تَطرقوني بشرٍّ، فلذا أضربوا عنه بما ذُكر، أي ما جئناك لإيصال شرٍّ إليك بل لتمشية أمرِك، وتعذيبِ أعدائك بما توعّدتَهم به[2].

فائِدةُ التّأكيدِ بـ(إنَّ) في السّياقِ:

الحذرُ منَ الغريبِ معروفٌ، حالةَ تصرُّفِه على غيرِ المألوفِ

أفادت (إنَّ) تأكيدَ مضمون الجملةِ؛ للإشعار بأنَّ لوطًا عليه السلام، كان قد تقرَّرَ في نفسِه إنكارُهم، وأنَّه لا يَشكُّ في هذا.

---

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/84.

(2) ابن جرير، جامع البيان: 17/114، والزمخشري، الكشاف: 2/583، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 19/154، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 3/214، والشهاب، عناية القاضي: 5/531.

دَلالةُ الجملةِ الاسميّةِ المُصدَّرةِ بـ(إنّ):

قولُه تعالى: ﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾ فيه أنّه لمّا كانتِ الجملة الاسميَّةُ تدلُّ على الثّبوت عبّرَ بها هنا للمبالغة في الوصْفِ خوفًا منهم أو عليهم.

إنكارُ لوطٍ للملائكة، سببُه هَيْئَتُهمْ التّي جاؤوا عليها

فائِدةُ الإخبارِ عنِ الملائكة بأنَّهم ﴿قَوْمٌ﴾:

عبّرَ بالقومِ مع قلَّة الملائكةِ الذين جاؤوا إليه للإشعارِ بأنَّ لوطًا عليه السلام رأى منهمُ القوّةَ، وأنَّه لابدَّ أن يكون لإتيانِكم هذه البلدةَ خطبٌ عظيمٌ[1].

عِظَمُ المهمَّةِ يدلُّ على قوّةِ منْ جاؤوا بها

سببُ مجيءِ صيغة ﴿مُّنكَرُونَ﴾:

عبّرَ بصيغة المبنيّ للمفعول للإيذانِ بأنَّ كلَّ من تتأتَّى منه رؤيتُهم يُنكرهم، ففيه تنبيهٌ لهم بأنَّ إنكارَه لهم أمرٌ لا يختصُّ به، وأنَّ الإنكارَ بسببِ ما هم عليه منَ الهيئةِ وطريقةِ المجيء إليه.

إنكارُ لوطٍ للملائكة، ليس بسببِ أمرٍ يخُصُّه

(1) البقاعي، نظم الدرر: 11/69.

﴿قَالُواْ بَلۡ جِئۡنَٰكَ بِمَا كَانُواْ فِيهِ يَمۡتَرُونَ ٦٣﴾ [الحجر: 63]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

المواصلةُ بتوجيهِ نظرِ لـوطٍ، إلى ما هو أهمُّ وأوْلى منَ الإنكارِ

لمّا قال لوطٌ للملائكة: ﴿إِنَّكُمۡ قَوۡمٞ مُّنكَرُونَ﴾ وكانت حقيقةُ المنكر هي فيما خرج عن عادةِ أشكالِه، ولم يكنْ على طريقة أمثالِه، أضْربوا عن قوله، وكان جوابُهم أنْ ﴿قَالُواْ بَلۡ جِئۡنَٰكَ بِمَا كَانُواْ فِيهِ يَمۡتَرُونَ﴾[1]. وأيضًا لمّا قال لهم لوطٌ: ﴿إِنَّكُمۡ قَوۡمٞ مُّنكَرُونَ﴾ أجابوهُ بِما يُزيلُ ذلك؛ إضْرابًا عَنْ قولِهِ وإبْطالًا لِما ظَنَّهُ مِنْ كوْنِهِمْ مِنَ البَشَرِ الَّذِينَ لَمْ يَعْرِفْ قَبِيلَتَهُمْ فَلا يَأْمَنُهُمْ أنْ يُعامِلوهُ بِما يَضُرُّهُ[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَمۡتَرُونَ﴾: أصلُ المَرْيِ من: مَرَيْتُ النّاقةَ: إذا مَسَحْتُ ضرْعَها للحَلْب[3]، والمِرْيَةُ: التَّردُّد في الأمْرِ، وهو أخصُّ مِنَ الشَّكِّ، قال تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي مِرۡيَةٖ مِّنۡهُ﴾ [الحج: 55][4]، والامتِراءُ: المُحاجَّةُ فيما فيه مريةٌ، قال تعالى: ﴿قَوۡلَ ٱلۡحَقِّ ٱلَّذِي فِيهِ يَمۡتَرُونَ ٣٤﴾ [مريم: 34]. والمِراءُ أيضًا: الجِدالُ، والمُماراةُ: المُجادَلَةُ على مَذْهبِ الشَّكِّ والرّيبة، ويُقالُ للمُناظَرَةِ مُماراةٌ؛ لأنَّ كلَّ واحِدٍ يَسْتَخْرِجُ ما عنْدَ صاحِبِه ويَمْتَريه كَما يَمْتَري الحالِبُ مِنَ الضَّرْعِ[5]. والمقصود بالامتراء في الآية: الشَّك، أي: بالأمْرِ الَّذي كانَ قومُكَ يَشُكّونَ في حُلوله بهم، وهو العذابُ.

(1) البقاعي، نظم الدرر: 11/71.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/63.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (مري).
(4) الراغب، المفردات: (مرى).
(5) الزبيدي، تاج العروس: (مري).

المَعْنى الإجْماليُّ:

الآية حكايةٌ لِما ردَّ به الملائكةُ على لوطٍ؛ لكي يُزيلوا ضيقَه بهم، وكراهيتَه لوجودهم عنده، فقالتِ الملائِكةُ له: بل نحنُ ملائِكةُ الله، جِئناك بعذابِ قَومِك، الَّذين كانوا يَستخفّون بما أنذرتَهم به من عذاب الله ونِقمتِه، أي: إنَّنا لم نجئ بما يخيفُك، بل جئنا بالبلاء الَّذي كنتَ تتوَعَّدُ به القومَ فيمترون فيه، ويُكذّبون به، فهذا هو ما جئناك به[1].

مَجيءُ الملائكة لنجدةِ لوطٍ، وتصديقِ وعيدِ الله، لا لِما يُخيفُه ويُؤذيه

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بَلاغةُ الاستئنافِ البيانِّي في الآية:

وردتِ الآيةُ على طريق الاستئنافِ البيانيِّ، لتوجيه أسماعِ المخاطَبين إلى الاهتمامِ بالمقاولةِ بين الملائكة ولوطٍ عليه السلام.

ما يَلفِظُ الملائكةُ من قولٍ، إلّا له أهميّةٌ وأثرٌ في سامعِه

بَلاغةُ التَّعْبيرِ على مُقتضَى الظّاهِرِ:

إنْ حُملَ قولُه تعالى: ﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾ على إنكار معرفةِ لوطٍ بالملائكة، كان الإضرابُ في قول الملائكة: ﴿قَالُواْ بَلْ جِئْنَٰكَ بِمَا كَانُواْ فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ على طريق الأسلوبِ الحكيم، فيكونُ على خلاف مقتضَى الظّاهرِ، وإمّا أن يكونَ من قَبيلِ تلقّي المخاطَب بغيرِ ما يترقَّبُ، وإمّا أن يكونَ من قَبيلِ تلقّي السّائل بغير ما يتطلّبُ، وذلك بتنزيل كلامِ لوطٍ عليه السلام منزلةَ السّؤالِ عنهم لمعرفتِهم، فلمّا كانَ الإضرابُ لا يوافقُ ما قبْلَه من إنكار لوطٍ لهم، دلَّ على أنَّه منَ الأسلوبِ الحكيم؛ لأنَّ لوطًا أنكرَ معرفتَه بالملائكةِ، وجاء جوابُهم في بيان سببِ مجيئِهم، وليس في التّعريف بهم، وفائدةُ العُدول إلى هذا الأسلوب هو تنبيهُ لوطٍ عليه السلام إلى ما هو أهمُّ له وهو معرفةُ سببِ مجيئهم وأنَّه هو الأولى بالقصدِ في السّؤال، ويندرجُ فيه معرفتُه

تَنبيهُ المؤمنين إلى أن يكونَ السّؤالُ عنِ الأهمِّ

(1) ابن جرير، جامع البيان: 14/86، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 10/38، والسّعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 433، والخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 7/250.

بهم؛ لعلمِه أنَّه لا يأتي بالعذاب إلّا الملائكةُ، وذهب الماتريديُّ إلى أنَّ الإضرابَ جاء عن كلامٍ مطويٍّ للإيجاز، كما بُنِيت عليه هذه القصّةُ، فيكونُ الكلام على مقتضى الظّاهر، ويكونُ الملائكةُ قد قالوا ذلك له، بعد ما كان بين لوط وقومه مجادلاتٌ ومخاصَماتٌ كما جاء في قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيۡفِي فَلَا تَفۡضَحُونِ﴾، وقولِه تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخۡزُونِ﴾، وغيرِ ذلك منَ المُخاصَمات، وقد كان لوطٌ يعدُهمُ العذابَ بصنيعِهمُ الذي كانوا يصنعون؛ ولذلك قالوا له: ﴿ٱئۡتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ٢٩﴾ [العنكبوت: 29]؛ فعند ذلك قال: ﴿بَلۡ جِئۡنَٰكَ بِمَا كَانُواْ فِيهِ يَمۡتَرُونَ﴾، فيكونُ قد حذف جُملًا للإيجاز مع وضوح المعنَى[1]، وإن حُملَ قولُه: ﴿إِنَّكُمۡ قَوۡمٞ مُّنكَرُونَ﴾ على الكناية كما تقدَّم كان الإضرابُ على مقتضى الظّاهر؛ لأنَّه جوابٌ لقول لوطٍ عليه السلام.

فائِدةُ التَّعْبِير بـ﴿بَلۡ﴾:

تحتملُ ﴿بَلۡ﴾ أنْ تكون إضرابًا إبطاليًّا عن موجبِ الخوفِ المذكورِ، فيكونَ كنايةً كما تقدَّم، والمعنى ما جئناك بما تُنكِرنا لأجله، أو ما جئْناك بشيء تخافُه، بل بما يسرُّك وتقرُّ به عينُك، فلا تخفْ ولا تحزنْ، وبيانُ وجه هذا المعنى أنَّه لمّا كان مجيءُ العذاب مُستلزِمًا للسّرور والذين جاؤوك بالسّرور والتّشفّي من أعدائك لا يُخافُ منهم ولا يُنكرَون، كان مآلُ المعنى: لا تخفْ منّا ولا تُنكرْنا، كما تحتملُ أن تكون إضرابًا إبطاليًّا عمّا فهمَه لوطٌ عليه السلام من أن يُصيبوه بشرٍّ أو أن يَتركوا نُصرتَه، والمعنى ما خذلناك وما خلّينا بينك وبينهم بل جئناك بما يُدمّرُهم منَ العذابِ الذي كانوا يُكذّبونك حين كنتَ تتوعّدُهم به[2]، والجمعُ بين المعنيَيْن جائزٌ، ويحتمله السّباقُ والسّياقُ.

رسُلُ الله منَ الملائكة لا تَخذلُ عبادَه، بل تأتي بما يَسرُّهم ولا يُحزِنُهم

(1) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 6/451، والآلوسيّ، روح المعاني: 7/311.

(2) أبو حيان، البحر المحيط: 6/488، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/82، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 11/182، والآلوسيّ، روح المعاني: 7/311.

سببُ إيثارِ التَّعبيرِ بالماضي ﴿جِئْنَٰكَ﴾:

عُبِّرَ بصيغة الماضي للإيذانِ بتحقّقِ مجيء العذابِ، وأنَّه واقعٌ لامحالةَ[1].

ما أخبرَ به الله، فسوف يَتحقّقُ بإذن الله

سببُ إيثارِ ﴿جِئْنَٰكَ﴾ في السّياقِ:

قولُه تعالى: ﴿جِئْنَٰكَ بِمَا كَانُواْ فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾، لم يقل: (جِئْناهُمْ بِما كانوا فِيهِ يَمْتَرونَ)، وسببُ إيثار نِسبةِ المجيء بالعذاب إليه ﷺ مع أنَّه نازلٌ بالقوم؛ للإشعارِ بأنَّه يكون بطريق تفويضِ أمرِ العذاب إلى لوطٍ ﷺ لا بطريق نزولِه عليه، كأنَّهم جاؤوه وفوّضوا أمرَ العذابِ إليه، ليرسِلَه عليهم حسبما كان يتوعّدُهم به، ففيه تكريمٌ للوطٍ ﷺ، كما أنَّ في هذه النّسبة إشعارًا بالسُّرور والتّشفّي من عدوّه ولِما يلزمُه من نجاتِه مع أتباعِه[2].

سرورُ المؤمنين بالتّشفّي من عدوِّهم، وتفويضُ العذابِ إلى رسولِهم

دَلالةُ (الباء) في قولِه ﴿بِمَا﴾:

تحتملُ (الباء) أن تكونَ لتعديةِ الفعلِ (جاء)، إلى الاسمِ الموصولِ (ما)، وهو الظّاهرُ، أي جاؤوا لوطًا ما كانوا فيه يمترون، على معنى تفويضِ العذاب إليه وإدخالِ السّرور إلى قلبِه، والتّشفّي من عدوّه كما تقدّم، كما تحتملُ أن تكونَ للملابسةِ[3]، بمعنى ملابسةِ عذاب قومِ لوطٍ لمجيئِهم؛ لأنَّهم مأمورون به، فيفيدُ أنَّ العذاب واقعٌ لامحالةَ.

العذابُ واقعٌ على قوم لوطٍ، لا مفرَّ منه، ولا منأى عنه

فائِدةُ التَّعبيرِ بـ(ما) في الآية:

أفاد التَّعْبيرُ بالاسم الموصولِ (ما) الذي يفيدُ العمومَ تعظيمَ العذاب الذي جاءهم، ولم تقل الملائكة (بل جئناكَ بعذابِهم الذي كانوا فيه يمترون)، مع حُصولِ الغرضِ الأصليِّ، ليتضمّن الكلامُ

وقوعُ العذابِ على المُجرمين، إثباتٌ لصدْقِ رسولِهم، وصحّةِ رسالتِه

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 11/83.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/84، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 11/183.
(3) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 11/183.

الاستئناسَ من وجهين: أحدُهما تحقّقُ عذابِهم وتعظيمُه بما دلَّ عليه لفظُ العموم (ما)، والثّاني تحقّقُ صدقِه ﷺ؛ لأنَّهم كانوا يَشكّون في صدْقِه وصدقِ رسالتِه، ففيه تذكيرٌ لِما كان يكابدُ منهم منَ التَّكذيب[1].

بَلاغةُ المجازِ المُرسَلِ في الآية:

الكلامُ على معنى المآلِ، بهلاكِهم بما ارتكَبوا من قَبيحِ الأعمالِ

قولُه تعالى: ﴿جِئْنَٰكَ بِمَا كَانُواْ فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾، فيه لمّا كان المعنى جئناك بالعذاب الذي كنت تتوعّدُهم به فكانوا فيه يَمترون، كان الكلامُ على معنى المآل، أي قد عبَّر عن مآل ما صاروا إليه بعدَ تذكيرهم وتوعُّدِهم بالعذاب، فتخطّى ذكرَ السّببِ للإشعارِ بعظَمِ امترائِهم وقُبحِه، وأنَّه هو سببُ وقوع العذابِ عليهم[2].

دَلالةُ تركيبِ ﴿كَانُواْ فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾:

الاستمرارُ على المنكرِ، يوصِلُ إلى التّطبُّعِ عليه وتعوُّدِه

أفاد التّعبيرُ بتركيبِ (كان يفعل) الإشارةَ إلى استمرارِ امترائِهم ومواظبتِهم عليه، وأنَّه كان جِبلَّةً فيهم وطبعًا لا يفارقُهم[3].

سببُ إيثارِ التّعْبيرِ بالموصولِ وصِلتِه:

الشّكُّ في صدْقِ الرّسولِ سببٌ لوقوعِ العذابِ، بلا ارتيابٍ

قولُه تعالى: ﴿بِمَا كَانُواْ فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾، فيه عبّرَ بالاسم الموصول؛ للإيذانِ بوجه بناءِ الخبرِ وهو التّعذيبُ، ليفيدَ الكلامُ أنَّ شكَّهم في صدْقِ لوطٍ وفي رسالتِه وفي ما أوعدَهم به هو سببُ مجيئِهم بالعذاب.

بَلاغةُ تقديمِ ﴿فِيهِ﴾ على ﴿يَمْتَرُونَ﴾:

للتَّقْديمِ أثرٌ في الدّلالة، وفي رعايةِ الفاصلةِ

أفاد تقديمُ الجارِّ والمجرور ﴿فِيهِ﴾، على مُتعلَّقِه تأكيدَ امترائِهم في العذاب، للإشعارِ بعِظمِ ما وقعوا فيه منَ الامتراء، وفي التّقديمِ رعايةُ الفاصلة كذلك[4].

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/311.
(2) البيضاوي، أنوار التنزيل: 3/214، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 11/183.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 11/71، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 11/183.
(4) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 11/183.

دَلالةُ الحرفِ (فِي) على الظّرفيّةِ:

قولُه تعالى: ﴿بِمَا كَانُواْ فِيهِ يَمۡتَرُونَ﴾، حيث أفاد حرفُ الجرِّ (في) الذي هو للظّرفيَّة شدّةَ امترائِهم في ما أوعدَهم به لوطٌ عليه السلام، حتَّى صارَ ظرفًا لامترائِهم حاويًا له، ليفيدَ أنَّهم كانوا يَشكّون شكًّا عظيمًا.

الانحرافُ عنِ الفطرةِ الإنسانيَّةِ، يُعْمي عنِ الحقائقِ

سِرُّ التَّعْبيرِ بالمضارع ﴿يَمۡتَرُونَ﴾:

عبّرَ بصيغة المضارعِ للإشعار بتجدّدِ امترائِهم واستمرارِهم عليه، لئلّا يتركوا قبيحَ نزواتهم وانحرافِهم، وفيه تصويرٌ لحالةِ الامتراء التي كانوا عليها تقبيحًا لها.

تجدُّدُ امتراءِ المُنحرفين، دون أن يَتركوا قبيحَ نَزواتِهم

دَلالةُ صيغةِ ﴿يَمۡتَرُونَ﴾ في السّياقِ:

أفاد التّعبيرُ بصيغةِ (يفتعل) أنَّهم كانوا يتكلَّفون الشّكَّ ويجتهدون في طلبِه وتحصيلِه، لأنَّ الامتراء هو تكلُّفُ المِريةِ[1].

سَعْيُ المنحرفين في طلبِ الشّكِّ الأثيم، والاستمرارِ في انحرافِهم

نُكتةُ التَّعبيرِ بلفْظِ ﴿يَمۡتَرُونَ﴾:

عبّرَ بـ﴿يَمۡتَرُونَ﴾ دون يشكّون؛ لأنَّ الامتراءَ هو طلب التّشكُّك مع ظهور الدّليل[2]، فيُشعِرُ التّعبير باللّفظ أنَّهم كانوا على علمٍ بالحقِّ الذي جاء به لوطٌ عليه السلام وبما أوعدَهم به لظهورِ الدلّيل، ولكنَّهم كانوا يطلبون الشّكَّ فيه من أجلِ تكذيبِه حرصًا على شهواتِهم القبيحةِ، ولمّا كانوا مكذِّبين بلوطٍ وما جاء به عبّر عن تكذيبِهم بـ﴿يَمۡتَرُونَ﴾؛ لأنَّ الجاهلَ يوصَفُ بالشّكّ وإن كان مكذّبًا من جهةِ ما يَعرضُ له منه، من حيث إنَّه لا يرجعُ إلى ثقةٍ فيما هو عليه، فكأنَّ بقاءَه على الشّكِّ مع وضوح الدّليل إيذانٌ بالتّكذيب، ومن شكَّ في شيءٍ مع وضوحِ صدْقِه وظهورِه كان مكذِّبًا فيه[3].

طلبُ المُنحرفين الشّكَّ في صدقِ الرِّسالات من أجلِ تَكذيبِها

(1) الحرالي، تراث أبي الحسن الحرالي، ص: 274.
(2) الواحدي، التفسير البسيط: 8/385.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 11/71.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الامتراءُ والشّكُّ والرّيبُ:

إذا ظهرَ الدّليلُ بطلَ الشّكُّ والتّردُّدُ

المِريةُ هي التّردّدُ في الأمرِ مع ظهور الدّليلِ، والمِراءُ أخصُّ منَ الشّكِّ؛ لأنَّ الشّكَّ هو تَرَدُّدُ الذِّهنِ بين أمرَين على حدٍّ سواءَ، وأمّا المِراءُ فيكونُ أقربَ إلى التّكذيب بسبب اقترانِه بظهور الدّليلِ على صحّة أحد الطّرفَين، وأمّا الرَّيبُ فهو شكٌّ مع تُهمةٍ، ودلَّ عليه قولُه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [البقرة: 2]، وقولُه تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ [البقرة: 23]؛ فإنَّ المشركين - مع شكِّهم في القرآن - كانوا يتَّهمون النّبيَّ بأنَّه هو الذي افتراه وأعانه عليه قومٌ آخرون، وكذلك يقال: إنِّي شاكٌّ اليَوْمَ في المَطَر ولا يجوز أن يُقالَ: إنّي مرتابٌ اليَوْمَ بالمطر، ويقال: إنّي مرتاب بفلانٍ إذا كانَ شاكًّا في أمره واتَّهمه[1].

(1) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 99.

﴿وَأَتَيْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ٦٤﴾ [الحجر: 64]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

إخبارُ الملائكةِ عن سببِ مجيئِهم، والتّأكيدُ على التّنفيذِ في هذه الآية

لمّا أخبر الملائكةُ أنَّهم جاؤوا بالعذاب إلى قومِ لوطٍ أكّدوا ذلك في هذه الآية[1] للنّصِّ على ما جاؤوا به منَ اليقين ومنه الإخبارُ بمجيءِ العذابِ.

المَعْنى الإجْماليُّ:

إدخالُ الأُنسِ على نفسِ لوطٍ، بتحقيقِ ما أوعدَ الله به قومَه

قالت الملائِكةُ لِلوطٍ: وإنّا ما أتيناك إلّا بالأمر الثّابتِ المحقَّقِ الَّذي لا مِريةَ فيه ولا تردُّدَ، وهو إهلاك هؤلاء المجرمين من قومِك، وإنّا لصادقون في كلِّ ما قُلناه لك، وأخبرناك به، فكُنْ آمنًا مُطمئنًّا[2].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

فائِدةُ الوصْلِ بالواوِ في الآية:

العذابُ حقٌّ، يَصْطلي به المُنحرفون عنِ الفطرةِ الإنسانيّةِ

قولُه تعالى: ﴿وَأَتَيْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ﴾، فيه أنّه لمّا كانَ قولُ الملائكة: ﴿جِئْنَٰكَ بِمَا كَانُواْ فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ يفيدُ لزومًا أنَّ مجيءَ العذاب حقٌّ لمقابلتِه بامتراءِ قومِ لوطٍ ناسبَ تأكيدَه بما يدلُّ عليه تصريحًا؛ لأنَّ المقامَ مَظنَّةُ الإنكارِ وللمبالغة في وقوعِه ولتثبيتِ الاطمئنانِ في قلبِ لوطٍ عليه السلام.

نُكتةُ التَّعبيرِ بالفعلِ ﴿وَأَتَيْنَٰكَ﴾:

بَراعةُ التَّفنُّنِ في اختيارِ اللّفظِ المناسبِ لسِياقِه ومقامِه

لم يقل: (بل جئناك بما كانوا فيه يمترون وبالحقِّ)، بعطف الحقِّ على (ما)، فيحتملُ أن تكونَ إعادَةُ فِعْلِ ﴿وَأَتَيْنَٰكَ﴾ بعد واوِ العَطْفِ للتَّأكيدِ بالمُرادِفِ، وفيه تفنّنٌ في التّعبيرِ؛ لِدَفْعِ تَكْرارِ الفِعْلِ الواحِدِ،

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 19/154.

(2) ابن جرير، جامع البيان: 14/87، والسّعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 433، وطنطاوي، التّفسير الوسيط: 8/61.

كقولِهِ تعالى: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾﴾ [الفرقان: 33]، ويُحْتَمَلُ أنْ يكونَ لخُصوصيّةِ كلِّ فعلٍ، وبيانُه أنَّه لمّا كانَ المُتَعَلِّقُ بِفِعْلِ ﴿جِئْنَٰكَ﴾ أمْرًا حِسِّيًّا وهو العَذابُ الَّذي كانوا فيه يمترون، وكانَ ممّا يَصِحُّ أنْ يُسْنَدَ إليه المَجيءُ بمعنى كالحَقيقيِّ، إذْ هو مَجيءٌ مَجازِيٌّ مَشْهورٌ مُساوٍ للحَقيقيِّ، أوثِرَ فِعْلُ جِئْناكَ ليُسْنَدَ إلى ضَميرِ المُخاطبِ، ويُعَلَّقُ بِهِ ﴿بِمَا كَانُواْ فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾، وتَكونُ الباءُ المُتَعَلِّقَةُ بِهِ للتّعدية لأنَّهُمْ أجاءوا العَذابَ، فموقعُ قولِهِ تعالى: ﴿بِمَا كَانُواْ فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ مَوْقِعُ مَفْعولٍ بِهِ، كَما تَقولُ (ذَهَبْتُ بِهِ) بِمَعْنَى أذْهَبْتُهُ وَإنْ كُنْتَ لَمْ تَذْهَبْ معه، فهذه الباءُ لِلتَّعْدِيَةِ وهي بِمَنْزِلَةِ هَمْزَةِ التَّعْدِيَةِ، وأمّا مُتَعَلِّقُ فِعْلِ ﴿وَأَتَيْنَٰكَ﴾ وهو ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ فهو أمْرٌ مَعْنَوِيٌّ لا يَقَعُ مِنْهُ الإتْيانُ فلا يَتَعَلَّقُ بِفِعْلِ الْإتْيانِ فَغُيِّرَتْ مادَّةُ المَجيءِ إلى مادَّةِ الإتْيانِ تَنْبِيهًا على إرادَةِ مَعْنى الإتيان المُسْنَدِ إلى الملائكةِ بمعناه الحقيقيِّ وليس بمعنى المجيءِ المجازيّ[1].

نُكتةُ التّعْبيرِ بالماضي في ﴿وَأَتَيْنَٰكَ﴾:

عبّرَ بصيغة الماضي لإفادة تحقّقِ وقوعِ الإتيان بالحقِّ، وأنَّ الأمر قد قُضيَ[2].

فائِدةُ الباء في قولِه ﴿بِٱلْحَقِّ﴾:

الباءُ هنا للملابسة[3]، بمعنى أنَّ الملائكةَ كانوا في إتيانِهم مُلابسين للحقِّ، فهو غيرُ مُنفكٍّ عنهم.

فائِدةُ (ال) في لفْظِ ﴿بِٱلْحَقِّ﴾:

(ال) هنا جنسيَّةٌ، ليفيدَ أنَّهم جاؤوه بجنس الحقِّ، وهو اليقينُ، وعُبِّرَ عنه بالحقِّ تنصيصًا على نفي الامتراءِ عنه، واللّفظُ يشملُ كلَّ ما يُطلقُ عليه حقٌّ، ممّا أمرَهم اللّه به، ومنَ الإخبار بمجيءِ العذاب

ما تأتي به الملائكةُ للرُّسلِ، حقٌّ لا ريْبَ فيه

مُلازمةُ الحقِّ لرسُلِ الله، أمرٌ تجلَّى في الدّعوةِ والمُصابرةِ

دَلالةُ الحقِّ بين معنى العُمومِ والخُصوصِ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/64.
(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 11/183.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/64.

المذكورِ، ويدخلُ فيه العذابُ الذي جاؤوا به دخولًا أوّليًّا، ويحتملُ أن تكون (ال) عهديَّةً، فيكون المرادُ منَ الحقِّ العذابَ[1]، للإيذانِ بتحقّق وقوعِه، وللتّنبيه على أنَّ عدمَ وقوعِ العذاب عليهم هو باطلٌ.

فائِدةُ الواوِ في جملةِ: ﴿وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾:

الرُّسلُ صادقون فيما يُخبِرون به

لمّا كان العطف يقتضي التّغايُرَ أفادتِ الواوُ المغايرةَ في المعنى بين المعطوفِ والمعطوفِ عليه، بمعنى أنَّ الملائكةَ جاؤوا باليقين الذي ينبغي أن يكون ثابتًا وأنَّهم صادقون في كلِّ ما يخبرونَه به، فيكونُ الصّدق متعلِّقًا بالقولِ.

بَلاغةُ تتابُعِ التّأكيدِ في ﴿وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾:

تأكيدُ الصّدقِ في موضعِ الحاجةِ مطلوبٌ

تتابعَ التّأكيدُ في هذا التّركيب، فجاء بـ(إنَّ) ومثلُها اللّامُ الموطّئةُ للقسَم، لتأكيدِ صدقِهم لِيذهب عنه الخوفُ، ويطمئنَّ لهم، وللإيذانِ بأنَّهم ما جاءوا لإرهابِه، ولكن جاءوا لإنزال ما وعدَ اللّه تعالى له بنُصرتِه[2].

فائِدةُ حذْفِ مُتعلَّقِ ﴿لَصَٰدِقُونَ﴾:

تأكيدُ الصّدقِ، كالدّليلِ على صحّتِه

يحتملُ أن يكون متعلِّقُ اسم الفاعلِ المحذوفِ معيَّنًا، والتّقديرُ: وإنّا لَصادقون في الإخبار به، أو وإنّا لَصادقون في ما نخبرُك به من أنَّ اللّه مهلكُ قومَكَ، أي أتيناك فيما قلنا بالخبر الحقِّ أي الثّابتِ، وإنّا لصادقون في ذلك الخبرِ لمطابقتِه للواقع، فيكونُ المتعلَّقُ المحذوفُ معيَّنًا لشدَّة الارتباط بما قبلَه، ويحتملُ أن يكون غيرَ معيَّنٍ لإفادة العموم، بمعنى: وإنّا لصادقون في كلِّ كلام، فيكونُ كالدّليل على صدْقِهم في خبرِهم، ويدخلُ فيه صدقُهم فيما أخبروه عليهم السلام دخولًا أوّليا، وعلى الوجهين الحذفُ للإيجاز، والكلامُ تأكيدٌ إثرَ تأكيدٍ[3].

---

(1) الواحدي، التفسير البسيط: 12/625، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 19/54، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/84.

(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 11/183، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 8/4098.

(3) ابن جرير، جامع البيان: 17/115، والزمخشري، الكشاف: 2/583، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/84، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 11/183.

﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَٱمْضُوا۟ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [الحجر: 65]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الرَّبطُ بين الإخبارِ بعذاب قومِ لوطٍ، وبيانِ أسبابِ النّجاةِ وشروطِها

لمّا أخبرتِ الملائكةُ لوطًا بوقوعِ العذابِ بقومِه أمَروه بما يكونُ سببًا في إنجائه هو وأهلُه، فجاءتِ الآيةُ للشّروع في ترتيب مبادئِ النّجاةِ[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَأَسْرِ﴾: السُّرى: اسْمُ مَصْدَرٍ لِلسَّيْرِ في اللَّيْلِ، يُقال: سَرَيْت سُرًى ومَسْرًى وأسْرَيْت بمعنَى إذا سِرْت ليلًا. ويُقالُ: سَرَيْنا سَرْيةً واحِدَةً، والاسْمُ السُّرْيةُ، بِالضَّمِّ، والسُّرَى وأسْراهُ وأسْرَى بِهِ[2]. والسَّرّاءُ: الكثيرُ السُّرى باللَّيلِ، والسِّرايةُ: سُرَى اللَّيْلِ، والسّارِيةُ: القومُ يسرون، السّارية أيضًا: الأسطوانةُ، والسَّحابةُ الَّتي تمرُّ ليلًا[3]. والمقصودُ بالسُّرى في الآية: السَّيْرُ في اللَّيْلِ إلى الصَّباحِ.

2) ﴿بِقِطْعٍ﴾: أصلُ (قطع): أصْلٌ صَحيحٌ واحِدٌ، يَدُلُّ على صَرْمٍ وإبانَةِ شَيءٍ مِنْ شَيْءٍ. يُقالُ: قَطَعْتُ الشَّيءَ أقْطَعُهُ قَطْعًا، والقَطيعَةُ: الهِجْرانُ. يُقالُ: تَقاطَعَ الرَّجُلانِ، إذا تَصارَما[4]. والقِطْعُ والقِطْعةُ والقَطيعُ والقِطَعُ والقِطاعُ: طائِفَةٌ مِنَ اللَّيْلِ تَكونُ مِنْ أوّلِه إلى ثُلُثِه، وقيلَ للفزاريِّ: ما القِطْعُ مِنَ اللَّيْلِ؟ فقالَ: حُزْمَةٌ تَهورُها، أي: قِطْعةٌ تَحْزُرُها ولا تَدْرِي كَمْ هِيَ. والقِطْعُ: ظُلْمَةُ آخِرِ اللَّيْلِ. والقِطْعُ أيضًا:

(1) البقاعي، نظم الدرر: 11/73، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/84.
(2) ابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (سرى).
(3) الراغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (سرى).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قطع).

اسْمُ ما قُطِعَ، يُقالُ: قَطَعْتُ الشَّيءَ قَطْعًا[1]. والجميعُ قُطْعانٌ وقِطَعٌ وأقْطاع[2]. والمقصودُ بالقِطْعِ في الآية: الجُزْءُ الأخيرُ مِنَ اللَّيْلِ[3].

المَعْنى الإجْماليُّ:

الشُّروعُ بترتيبِ مبادئِ النَّجاةِ، لِلوطٍ وآلِه، قبل حُلولِ العذابِ بقومِه

قالتِ الملائكةُ: فاخرُجْ أنت وأهلُك مِن أرضِ قَومِك بعد مُضيِّ وقتٍ مِنَ اللَّيلِ؛ حيثُ تكونُ العُيونُ قد نامَت، ولا يعلَمُ أحدٌ بمَسْراك، وكُنْ - يا لوطُ - مِن وراءِ أهلِك، وامشِ خَلْفَهم حينَ تَسري بهم، ولا ينظُرْ أحدٌ منكم وراءَه، ولْتَجِدّوا في السَّيرِ فتتباعَدوا عنِ القريةِ، وتَنجوا مِنَ العذابِ النّازلِ بأهلِها، واذهَبوا إلى المكانِ الذي تُؤمَرونَ بالمُضيِّ إليه[4].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

من لَطائفِ الآيةِ الكريمةِ:

الإرشادُ إلى اتِّباعِ الأدبِ، بين التّابعِ والمتبوعِ

الآيةُ وإن كانت خاصَّةً بلوطٍ عليه السلام وأهلِه الّذين اتّبعوه، لكنَّها اشتملت مع وَجازتِها على آداب المُسافرين في دينٍ ودُنيا، من أمير ومأمورٍ، وتابع ومتبوعٍ، وتضمّنت ثلاثةَ أوامرَ ونهيًا لتحقيقِ نجاةِ لوطٍ وأهلِه[5].

دَلالةُ الفاءِ في قولِه: ﴿فَأَسْرِ﴾:

صِدْقُ وعْدِ الرُّسلِ، موجِبٌ لاتِّباعِ أوامرِهم

تحتملُ الفاءُ أن تكونَ عاطفةً، لتفيدَ ترتّبَ الأمر بالخروج ليلًا على تيقُّنِ الأمر وصدْقِ الوعدِ وإعلامِ لوطٍ عليه السلام به، ولتفيدَ المبادرةَ بالشّروعِ في أسبابِ النّجاة، وتحتملُ أن تكونَ الفاءَ الفصيحةَ، لتكون جوابَ شرطٍ مقدّرٍ منَ السّياق، بمعنى إذا تيقّن ذلك عندك فأسرِ[6].

---

(1) ابن منظور، لسان العرب: (قطع.

(2) ابن عباد، المحيط في اللغة: (قطع).

(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قطع).

(4) ابن جرير، جامع البيان: 14/87، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 10/38، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/541.

(5) ابن المنير، حاشية على الكشاف: 2/584.

(6) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 11/183.

نُكتةُ التَّعْبيرِ بلَفْظِ ﴿فَأَسْرِ﴾:

قيادةُ الرُّسُلِ للخروجِ بالمؤمنين، مَنْجاةٌ لهم في كلّ حينٍ

عُبِّرَ بـ﴿فَأَسْرِ﴾؛ للإيذانِ بأنَّ الأمرَ بالخروج منَ البلدة يكونُ في اللّيل، والمعنى: فاذهب بهم في اللّيل، ولم يقل: (فاذهب أنت وأهلك) مع أنَّه مرادٌ منَ المعنى؛ لأنَّ التّعبير بـ﴿فَأَسْرِ﴾ يفيدُ أنَّ لوطًا هو الذي يقومُ بالأمر وأنَّ أهلَه تبعٌ له في أمرِه، ويُؤَيِّدُهُ تضمينُ الباء معنى (مع) كما يأتي[1].

دَلالةُ (الباء) في قولِه: ﴿بِأَهْلِكَ﴾:

التّعْدِيةُ ومعنَى (مع) في سياقِ الآيةِ

تفيدُ الباءُ تعْدِيةَ الفعل إلى ﴿بِأَهْلِكَ﴾ وفيها معنى اسطحابِ الأهل، فتكونُ الباءُ مضمّنةً معنى (مع).

دَلالةُ الحالِ في قولِه: ﴿بِأَهْلِكَ﴾:

مصاحبةُ الأهلِ في الهجرةِ، تُهوّنُ عَناءَ السَّفرِ

لمّا كان الجارُّ والمجرور في موضع نصبٍ على الحال، أفاد تقييدَ إسراءِ لوطٍ عليه السلام وخروجِه من قومِه، بكونِه في حالِ اسطحابِ أهلِه معه، ومصاحبةُ الأهل وذوي الإيمان، تُهوّن كثيرًا من وعْثاءِ السّفر.

لُطْفُ التّعْبيرِ بلفْظِ ﴿بِأَهْلِكَ﴾:

الاجتماعُ على الدّينِ والحقِّ، رحمٌ معنويّةٌ، بمثابةِ الأهلِ في النّسبِ

في التّعبيرِ ﴿بِأَهْلِكَ﴾ إشعارٌ باللّفظِ المُهذَّبِ الذي يُستعملُ في الدّلالةِ على صُحْبة النّساء والأبناءِ[2]، ولمّا كان الأصلُ في (أهل الرجل) أن يقال لمن يجمَعُه وإيّاهم نسبٌ كان التّعبيرُ بالأهل هنا إشارةً إلى أنَّ الاجتماع على الدّين والحقِّ بمثابة الأهل في النّسبِ.

فائِدةُ الإضافةِ، في قولِه ﴿بِأَهْلِكَ﴾:

على القائدِ أن يهتمَّ بالتّابِعين له، باعتبارِهم أقرباءَه وأهلَه

لمّا أضاف الأهلَ إلى لوطٍ عليه السلام، أفادَتِ الإضافةُ اختصاصَهم به، وأنَّ حكمَهم تابعٌ لِحكمِه، وأنَّ عليه رعايتَهم والاهتمامَ بهم كما يهتمُّ الرّجل بأهلِه، كما أنَّ في الإضافة إلى لوطٍ بصيغةِ المخاطَبِ تشريفًا للمؤمنين الّذين اتّبعوه.

---

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 3/214، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 11/183.

(2) الشعراوي، تفسير الشعراويّ: 13/7733.

فائِدةُ (الباء)، في قولِه ﴿بِقِطۡعٖ﴾:

تفيدُ الباءُ الملاصَقةَ بمعنى لصوقِ خروجِهم ليلًا بطائفةٍ منه؛ ليفيدَ أن يكون وقتُ خروجِهم ملاصِقًا لطائفةٍ منَ اللّيل.

الـهـلاكُ مؤقّتٌ بميقاتِه المُعيَّنِ، والـحـوادثُ قد يَطرقْنَ أسحارًا

دَلالةُ الحالِ في قولِه: ﴿بِقِطۡعٖ مِّنَ ٱلَّيۡلِ﴾:

لمّا كان الجارُّ والمجرور ﴿بِقِطۡعٖ﴾ في محلِّ نصبٍ على الحالِ أفاد الكلام أنْ يكونَ سيرُ لوطٍ عليه السلام مع أهلِه في حالِ مصاحبتِهم لقطعٍ منَ الليل غيرَ مفارقين له حين السّير، إلى أن يصلوا إلى حيثُ يُؤمرون.

أهمّيّةُ الحالِ، باعتبارِه قيدًا لعاملِه، بمثابةِ الشّرطِ له

فائِدةُ ﴿مِّنَ﴾ في قولِه: ﴿مِّنَ ٱلَّيۡلِ﴾:

تفيدُ ﴿مِّنَ﴾ التَّبعيضَ بمعنى أن يكونَ القِطْعُ جزءًا من اللّيل، ليفيدَ أنَّ سيرَهم لم يشتملْ على اللّيل كلِّه، بل كان في جزءٍ منَ اللّيل.

دَلالةُ التّبْعِيضِ على بعضِ الوقتِ منَ اللّيل

نُكتةُ التَّعْبيرِ بتركيبِ ﴿بِقِطۡعٖ مِّنَ ٱلَّيۡلِ﴾:

لمّا كان الإسراءُ لا يكونُ إلّا في ليلٍ، وكان المرادُ من ﴿بِقِطۡعٖ مِّنَ ٱلَّيۡلِ﴾ طائفةً منَ اللّيل وجُزءًا منه كان الكلامُ على معنى تأكيدِ الخروجِ في اللّيل[1]، ويحتملُ أن يكونَ المرادُ من ﴿بِقِطۡعٖ مِّنَ ٱلَّيۡلِ﴾ شدَّةَ الظّلام، فيكونَ الأمرُ بالخروج في سواد اللّيل أو في آخره وليس في أيِّ جزءٍ منَ اللّيل، فيكونَ قولُه ﴿بِقِطۡعٖ مِّنَ ٱلَّيۡلِ﴾ تأسيسًا في المعنى، وعلى كلا الوجهَين أفاد التَّعبيرُ بلفظِ ﴿بِقِطۡعٖ﴾ أن يكونَ السّيرُ في جُزءٍ منه، أي أن لا يشتملَ السّيرُ على اللّيل كلِّه، بل على بعضِه، ففيه إشعارٌ بالمبادرةِ إلى الإسراعِ في السّير وعدمِ التّباطؤِ[2].

المُبادرةُ إلى الإسراعِ بالخروجِ، عندَ وقوعِ العذابِ، لضمانِ النّجاة منَ الاستئصال

سببُ إيثارِ التَّعْبيرِ بلفْظِ ﴿وَٱتَّبِعۡ﴾:

سببُ إيثارِ لفْظِ ﴿وَٱتَّبِعۡ﴾ على السّوقِ مع أنَّه المقصودُ بالأمر؛ للمبالغة في المعنى؛ إذِ السّوقُ ربّما يكونُ بالتّقدُّم على بعضٍ مع التّأخّرِ عن بعضٍ، ويلزمُه عادةً الغفلةُ عن حال المتأخِّر، كما يلزمُه

المُبالغةُ في سَوقِهم، في مدلولِ السّياقِ

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 11/183.

(2) أبو حيان، البحر المحيط: 6/47.

الالتفاتُ في حالِ التّقدّم، وقد نُهيَ عنه في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَلۡتَفِتۡ مِنكُمۡ﴾[1].

دَلالةُ صيغةِ ﴿وَٱتَّبِعۡ﴾:

لمّا كان لفظُ ﴿وَٱتَّبِعۡ﴾ على صيغةِ (افتعل)، دلَّ على الأمرِ بالاجتهاد، في اتّباعِهم وأن يكونَ على إثرِهم.

أمرُ الله حكمةٌ ورشادٌ، والتزامٌ بأمرِه وسَدادٌ

بَلاغةُ الكنايةِ في قولِه: ﴿وَٱتَّبِعۡ أَدۡبَٰرَهُمۡ﴾:

أفاد الأمرُ باتّباع الأدبارِ لازمَ المعنى وهو أن يُقَدِّمَهُمْ جميعًا أمامَه، فلا يتخلَّفُ منهم أحدٌ، ويدلُّ هذا المعنى بملزومِه على أنَّه يكونُ ناظرًا إليهم وأنَّه أقربُ إلى محلِّ العذاب منهم لأنَّه أثبتُهم قلبًا وأعرفُهم باللّه، والدّلالةُ على شدّة حرصِه على سلامتهم، ولازمُ المعنى وملزومُه مقصودان؛ لتلازمِهما وجودًا وعدَمًا.

إفادةُ عدمِ تخلّفِ واحدٍ منهم، حرصًا على سلامةِ أهلِه

سِرُّ العطْفِ في جملةِ ﴿وَٱتَّبِعۡ﴾:

قولُه تعالى: ﴿وَٱتَّبِعۡ أَدۡبَٰرَهُمۡ وَلَا يَلۡتَفِتۡ مِنكُمۡ أَحَدٌ﴾، ومنه قد يقال: ما معنى أمرِه باتّباع أدبارهم ونهْيِهم عنِ الالتفات، وعطفِه على ﴿فَأَسۡرِ﴾، وكان يكفي في الهجرة أن يُقال: (فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ) فما معنى التّتميم بالقيدَيْن ﴿وَٱتَّبِعۡ أَدۡبَٰرَهُمۡ وَلَا يَلۡتَفِتۡ مِنكُمۡ أَحَدٌ﴾؟ والجوابُ هو أنَّه أُمِرَ بأن يُقَدِّمَهُم؛ لئلّا يشتغلَ بمَن خلفَه قلبُه، وليكونَ مطّلعًا عليهم وعلى أحوالِهم، فلا يصدرُ منهم هفوةٌ ولا ما يُلامون عليه احتشامًا منه ومهابةً له ولا تفرطُ منهمُ الْتفاتةٌ في تلك الحال المَهولةِ المحذورة، ولئلّا يتخلَّفَ منهم أحدٌ، لغرضٍ له فيصيبَه العذابُ، وليكون مسيرُه مسيرَ الهارب الذي يقدّم سربَه ويفوتُ به، ولمّا كان المرادُ من اتّباع أدبارِ قومِه اتّباعَ ظُهورِهِمْ أفادَ أنَّه يكونُ كالحائِلِ بَيْنَهُمْ وبَيْنَ العَذابِ الَّذي يَحِلُّ بِقَوْمِهِ بِعَقِبِ خُروجِهِ تَنْويهًا

الحِرصُ على مَنْ أمامَه، وعدمُ الانشغالِ بمَنْ خلْفَه

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/84، والآلوسيّ، روح المعاني: 7/321.

بِبَرَكَةِ الرَّسولِ ﷺ، ولِأَنَّهُمْ أُمِروهُ أَنْ لا يَلْتَفِتَ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِهِ إلى دِيارِ قَوْمِهِمْ لِأَنَّ الْعَذابَ يَكونُ قَدْ نَزَلَ بِدِيارِهِمْ. فبِكَوْنِهِ وَراءَ أَهْلِهِ يَخافونَ الِالْتِفاتَ لِأَنَّهُ يُراقِبُهُمْ[1].

بَلاغةُ عدمِ الالتفاتِ في الآية:

المُرادُ بالالتفاتِ النّظرُ بالعين، أوِ الإسراعُ وعدمُ التّواني

يحتملُ أن يكونَ النّهيُ عنِ الالتفات على الحقيقة، وله وجهان، فإمّا أنْ يكونَ على مقتضى الظّاهر، فهو منَ الالتفات الذي يكونُ بنظر العين، فيكونُ بمعنى الصّرف عنِ الجهة المستقيمةِ والعُدول بالوجهِ، فيرى ما وراءَه منَ الهول فلا يطيقُه أو يصيبُه ما أصابهم، وإمّا أن يكونَ كنايةً عنِ الإسراع في السّيرِ ومواصلتِه وتركِ التَّواني والتوقُّفِ، فإنَّ مَنْ يتلفَّتُ قلَّما يَخلو عن أدنى وقفةٍ، ويحتملُ أن يكونَ على طريق المجاز بالاستعارةِ، بتشبيهِ الانصراف عن جمْعِ آل لوطٍ والتّخلّفِ عنهم بالعُدولِ عنِ الجهة المستقيمةِ، ووجهُ الشّبه هو الضّياعُ والتّيهُ عنِ الصّواب، فيلحقُه الأذى، والمعنى: ولا ينصرفْ منكم أحدٌ ولا يتخلّفْ لغرضٍ، فيصيبَه العذابُ، كَما أنَّ الالتفاتَ إلى القومِ عندَ الخروجِ من بلدتِهم يُشعرُ بمحبَّتِهم والرّغبةِ بعدم مفارقتهم فيتخلّفُ عندهم، ففيه نهيٌ عن ربطِ القلبِ بما خلَّفوه وراءَهم، وقيل نُهوا عن ذلك ليوطِّنوا أنفسَهم على المُهاجَرة، فإنّ النّظرَ إلى الأوطان يُهيّج التَّحَسُّرَ والتّحزُّنَ على مفارقتِها[2]، وقال الفخرُ الرازي: "قَوْلُهُ ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ﴾ الفائِدَةُ فيه أشْياءُ أحَدُها: لِئَلّا يَتَخَلَّفَ مِنْكُمْ أحَدٌ فيَنالُه العَذابُ، وثانيها: لِئَلّا يَرَى عَظيمَ ما يَنْزِلُ بِهِمْ مِنَ البَلاءِ، وثالِثُها: مَعْنَهُ الإسْراعُ وَتَرْكُ الاهْتِمامِ لِما خَلَّفَ وَراءَهُ كَما تَقولُ: امْضِ لِشَأْنِكَ وَلا تُعَرِّجْ

(1) الزمخشري، الكشاف: 2/583، والطيبي، فتوح الغيب: 9/50، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 11/184، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/64.

(2) الزمخشري، الكشاف: 2/548، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 3/214، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/84، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 11/184، والآلوسيّ، روح المعاني: 7/312.

عَلَى شَيْءٍ. ورابِعُها: لَوْ بَقِيَ مِنْهُ مَتاعٌ في ذلك المَوْضِعِ، فَلا يَرْجِعَنَّ بِسَبَبِهِ ٱلْبَتَّةَ[1].

سِرُّ توسُّطِ النّهيِ في الآية:

لمّا أمر اللّه لوطًا بالسّيرِ ليلًا بأهلِه وأمره بأنْ يتّبع أدبارَ قومِه وردَ النّهيُ عن أن يلتفتَ منهم أحدٌ؛ لأنَّ توقُّعَ الالتفات لا يكونُ إلّا بعد مواصلةِ السّير، كما أنَّ معرفةَ من يلتفتُ إنّما تكون إذا كان سائقُ القومِ خلفَهم، ولهذا جاء النّهيُ بعد قولِه: ﴿وَٱتَّبِعۡ أَدۡبَٰرَهُمۡ﴾، ثمّ أمرهم مواصلة بمواصلة السّير وعدمِ التّوقُّفِ في قولِه ﴿وَٱمۡضُواْ حَيۡثُ تُؤۡمَرُونَ﴾ مع التزامهم بالنّهيِ عنِ الالتفات.

مَن يواصلُ السّيرَ، يُتَوقّعُ منه الالتفاتُ

بَلاغةُ تَقْديمِ ﴿مِنكُمۡ﴾ على ﴿أَحَدٌ﴾:

أفاد تقديمُ الجارِّ والمجرور، الاهتمامَ والعنايةَ، بمن يخرجُ من بلدة قومِ لوطٍ؛ لأنَّ محطَّ النّظر عليهم.

التّركيزُ على المُؤمنين الخارجين، وتحصينِهم من أسبابِ الهلاكِ

فائِدةُ (مِنْ) في قولِه: ﴿مِنكُمۡ﴾:

(مِنْ) هنا ابتدائيَّةٌ بمعنى لا يكنْ ابتداءُ الالتفات، من أيِّ أحدٍ من أتباعِك، وتحتملُ أن تكون للتّبعيض، بمعنَى: لا يلتفتْ بعضُكم ليشملَ الفردَ والمجموعةَ.

النّجاةُ في الحياةِ، مَشروطةٌ بعدمِ الإلتفات الالتفاتِ

فائِدةُ مجيءِ ﴿أَحَدٌ﴾ نكرةً:

لمّا جاء لفظُ ﴿أَحَدٌ﴾ نكرةً في سياق النّفيِ أفاد العمومَ لجميع أهلِ لوطٍ[2]، فيكونُ النّهيُ عنِ الالتفات للفردِ منهم وللمجموع، ولو قال (ولا تلتفتوا) لأفادَ أنَّ النَّهيَ عنِ الالتفات للمجموع بأنْ يلتفتوا جميعًا، وليس هذا هو المرادَ.

عمومُ أهلِ لوطٍ عليه السلام، مقصودون كافّةً بالخطابِ

نُكتةُ التَّعْبيرِ بلفْظِ ﴿وَٱمۡضُواْ﴾:

لمّا كان المرادُ من لوطٍ وأهلِه السّيرَ في اللّيل مع إنفاذِ الأمر وإنجازِه

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 19/154.

(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 11/184.

بقوَّةٍ كما يمضي السّيفُ أي ينفذُ في جسم الضّريبة، ويكونُ من غيرِ انثناءٍ ولا تعريجٍ[1]، ولمّا تعلَّق الفعلُ بالأمرِ في قولِه ﴿حَيۡثُ تُؤۡمَرُونَ﴾ ناسبَه التّعبيرُ بلفظِ المضيّ دون أن يقول: (واذهبوا حيث تؤمرون) للإيذانِ بطلب الذّهاب قُدُمًا من غيرِ انثناءٍ، مع تحقيقِ نفاذِ الأمر بقوَّةٍ، ولهذا تعلَّق الفعلُ والمعنَى: اذهبوا إلى المكان الذي تُؤمرون بالذّهاب إليه وأنفذوا أمرَ الذّهاب إلى هنالك بعزم، كما أنَّ في إيثارِ المضيِّ إلى ما ذكرَ على الوصول إليه واللُّحوقِ به إيذانًا بأهمّيّةِ النَّجاةِ ومراعاةً لِلمناسبةِ في المعنى بينه وبين ما سلفَ منَ الغابرين[2].

المُضيُّ يُعبّرُ عنِ الذّهابِ، بعزيمةٍ قويّةٍ دونَ انثناءٍ

دَلالةُ حذْفِ حرفِ الجرّ في الآية:

قولُه تعالى: ﴿وَٱمۡضُواْ حَيۡثُ تُؤۡمَرُونَ﴾، وفيه أنّ أصلَ الكلام (وامضوا إلى حيث تؤمرون بالمضيّ إليه)، وحُذفَ حرفُ الجرِّ (إلى) على الاتساع، و﴿حَيۡثُ﴾ هنا اسمُ ظرفٍ بمعنى المكان[3]، ونكتةُ حذْفِ حرف الجرِّ التَّنبيهُ إلى الإسراع في الوصول إلى المكان المقصودِ.

التّنبيهُ إلى الإسراعِ، وأثرُه في الالتزامِ والاتّباعِ

نُكتةُ التَّعبيرِ بلفْظِ ﴿حَيۡثُ﴾:

لمّا كانَ ﴿حَيۡثُ﴾ منَ الظّروف المُبهمةِ في المكان، وجاء هنا بمعنى المكان أفاد التّنبيهَ على الائتمار بأمر اللّه تعالى وإن كان المكانُ الذي يذهبون إليه مبهمًا عندَهم أوّلَ الأمر، وفيه إشعارٌ بأنَّ على المؤمنين أن يذهبوا حيثما أمرهم اللّه.

قد يكونُ المكانُ مُبهمًا، وفيه الخيرُ، ما دام الآمرُ هو الله

بَلاغةُ الحذفِ في قولِه: ﴿تُؤۡمَرُونَ﴾:

عُدِّي ﴿تُؤۡمَرُونَ﴾ إلى الضّمير المحذوفِ على الاتّساع، وأصل الكلام: (تؤمرون فيه) إن كان الضّميرُ المحذوفُ راجعًا إلى ﴿حَيۡثُ﴾، أي: وامضوا حيث تؤمرون في المكان الذي تَمضون فيه،

إفادةُ اتّصافِهم بالاستجابةِ لأوامرِ الله كلِّها

(1) الجوهري، الصحاح، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (مضى)، والنيسابوري، غرائب القرآن: 4/230.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/84.

(3) البيضاوي، أنوار التنزيل: 3/214، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 11/185.

أو (تؤمرون به) إن كان الضّميرُ راجعًا إلى المصدر المفهومِ من ﴿وَٱمۡضُواْ﴾، أي: وامضوا حيث تُؤمرون بالمضيِّ إليه[1] فحذف حرفَ الجرِّ واتّصل الضّميرُ بالفعل ثمَّ حُذفَ لإفادة اتّصافِهم بفعل الائتمارِ والامتثال، فأيُّ أمرٍ يأتيهم منَ الله تعالى يأتمرون به.

نُكتةُ الفعلِ ﴿تُؤۡمَرُونَ﴾:

أفاد التّعبيرُ بصيغةِ المبنيِّ للمفعول، وجوبَ ائتمارِهم بأمرِ الله، سواءٌ جاء الأمرُ عن طريق الملائكة المرسَلين، أم عن طريق الوحْيِ.

أمرُ الله مُلزمٌ، على أيّ طريقٍ أتاك

فائِدةُ التَّعْبيرِ بالمضارعِ ﴿تُؤۡمَرُونَ﴾:

تعبيرُه بصيغةِ المضارع، يُشعرُ بأنَّه يكونُ معهم بعضُ الملائكة عليهم السلام[2]، عندَ مواصلةِ السّيرِ إلى انتهاءِ سيرِهم، أو لإشعارِهم بالطُّمأنينةِ بأنَّ الله تعالى ناظرٌ إليهم نظرَ عنايةٍ، وأنَّه يُسيّرُهم بأوامرِه، إلى حيثُ سلامتُهم وأمنُهم.

صُحبتُهم بالأوامرِ الإلهيَّةِ، مدَّةَ سيْرِهم، لإشعارِهم بالطُّمأنينةِ

تَوْجيهُ التّشابُهِ اللّفظيِّ في الآية:

جاء في سورة هود: ﴿قَالُواْ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيۡكَۖ فَأَسۡرِ بِأَهۡلِكَ بِقِطۡعٖ مِّنَ ٱلَّيۡلِ وَلَا يَلۡتَفِتۡ مِنكُمۡ أَحَدٌ إِلَّا ٱمۡرَأَتَكَۖ﴾ [هود: 81]، وفي سورة الحجر ﴿فَأَسۡرِ بِأَهۡلِكَ بِقِطۡعٖ مِّنَ ٱلَّيۡلِ وَٱتَّبِعۡ أَدۡبَٰرَهُمۡ وَلَا يَلۡتَفِتۡ مِنكُمۡ أَحَدٞ وَٱمۡضُواْ حَيۡثُ تُؤۡمَرُونَ﴾، فجاء في آية هود الاستثناءُ في قولِه ﴿إِلَّا ٱمۡرَأَتَكَۖ﴾ [هود: 81] ولم يردْ في آية الحجرِ، وجاء في آية الحجر: ﴿وَٱتَّبِعۡ أَدۡبَٰرَهُمۡ﴾ ولم يأتِ في آية هود، فأمّا توجيهُ عدم وقوعِ الاستثناءِ في سورة الحجر فهو أنَّه أغنَى عنه قولُه تعالى فيما حكى عنِ الرُّسلِ ﴿قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ إِلَىٰ قَوۡمٖ مُّجۡرِمِينَ ٥٨ إِلَّآ ءَالَ لُوطٍۖ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمۡ أَجۡمَعِينَ ٥٩ إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ قَدَّرۡنَآ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ﴾،

القصّةُ واحدةٌ، وتصويرُ زَوايا المَشاهدِ، تختلفُ من سورةٍ إلى أُخرى

(1) الزمخشري، الكشاف: 2/584، والنّسفي، مدارك التنزيل: 2/195، والطيبي، فتوح الغيب: 9/52، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 11/184، والآلوسيّ، روح المعاني: 7/312.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 11/73.

فهذا الاستثناءُ الذي لم يقع مثلُه في سورة هودٍ أغنَى عنِ الاستثناءِ في قوله: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ﴾ [هود: 81]، وأمّا توجيهُ ورودِ: ﴿وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ﴾ فهو أنَّه لمّا قال اللّه تعالى في سورة الحجر حكايةً عنِ الملائكة قولَهم لإبراهيم ﴿إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أخبر عن مخاطبتِهم لوطًا في هذه السّورة بما يُضاهي قولَهم لإبراهيمَ عليه السلام، فأردفوا قولَهم له: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ﴾ بقولهم: ﴿وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ﴾ لأنَّه إذا ساقهم وكان من ورائهم كان تحقيقا لخبرِهم أنّهم مُنجّوهم أجمعين، وكان على علمٍ بنجاتِهم، فتتوافقُ مُخاطبتُهم له مع مُخاطبتِهم لإبراهيم عليهما السلام[1].

تَوْجيهُ القراءاتِ القرآنيّةِ في ﴿فَأَسْرِ﴾:

قَرَأ أبو جعفر ونافعٌ وابْنُ كَثِيرٍ (فاسْرِ) بوصل الألف من سرى يسري، وقرأ الباقون ﴿فَأَسْرِ﴾ بقطع الألف، من أسريت، وهما لهجتان فصيحتان نزل بهما القرآن، وتوجيهُ القراءة بوصل الألف أنْ يكون المرادُ سرى في أوّل اللّيل، وأمّا قراءةُ ﴿فَأَسْرِ﴾ بقطع الألف فتكون على معنى أسرى من آخر اللّيل[2]، وذهب بعضُ المفسّرين إلى أنَّهما بمعنى واحد وهو السّيرُ في اللّيل[3]، فيكونُ الاختلافُ في القراءتين على معنى التّخفيفِ الصَّوتيّ في الوصلِ وتحقيقِ المعنى على قراءة القطعِ.

سرى وأسرى لَهْجَتان فَصيحَتان، في استعمالِ العربِ

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

المُضِّي والذّهابُ:

تقدَّم الفرقَ بين اللّفظَين عند الكلامِ على نكتةِ التَّعبيرِ بلفظِ ﴿وَٱمْضُواْ﴾.

المُضيُّ هو الذّهابُ لغايةٍ، قُدُمًا من غيرِ انثناءٍ، وقد آثرَه السّياقُ

(1) الكرماني، أسرار التكرار في القرآن، ص: 148، والإسكافي، درة التنزيل: 2/770.
(2) ابن مجاهد، السبعة في القراءات، ص: 338، والأزهري، معاني القراءات: 2/46، وابن الجزري، النشر: 2/111.
(3) ابن عطية، المحرر الوجيز: 3/367.

الدّابرُ والآخرُ:

الدّابرُ منَ الدُّبُرِ وهو خلافُ القُبُلِ، والإدبار خلافُ الإقبالِ، ويكنَّى بالدُّبُرِ عنِ الظّهر، وعن آخر الشّيء ونهايتِه وخلفِه، وأمّا الآخرُ فهو من أخَرَ، وهو خلافُ التّقدّم، والآخرُ يقابلُ به الأوّل، فلمّا قال الله تعالى: ﴿وَٱتَّبِعۡ أَدۡبَٰرَهُمۡ﴾ أفاد الأمرَ باتّباع ظهورِ الجميعِ، ولو قال: (واتّبع أواخرَهم) لاقتصرَ على اتّباع الجمعِ المقابلِ للمُتقدّمين، فلا يكونُ الاتّباعُ شاملًا للجميع.

الـدّابـرُ يخلُفُ كلَّ من تقدَّمَه، والآخـرُ خـلافُ الأوّلِ

﴿وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ٦٦﴾

[الحجر: 66]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الحذَرُ وتَحَرّي الوقتِ المناسبِ في الخروج من أرضِ القومِ المُجْرمين

لمّا تقرّرَ بهذا أمرُ إهلاكِهم من غير تصريحٍ ولا تعيينٍ لوقتٍ عيَّن في هذه الآية توقيتَ إهلاكِهم[1]. وأيضًا لمّا تكلَّمَ في الآيات السّابقةِ عنِ النّاجين أتبعَه بالكلامِ عن ما وقعَ لِلكافرين المُنحرفين؛ لأنَّ النّجاةَ إنّما تكونُ من عذابٍ أو ضُرٍّ مُتوقَّعِ الوقوع.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿دَابِرَ﴾: أصلُ (دبر): يدلُّ على آخرِ الشَّيْءِ وخَلْفِهُ، وهو خِلافُ القُبُلِ، يُقالُ: دَبَرَ النَّهارُ وأدْبَرَ: إذا جاءَ آخِرُهُ. وَقَطَعَ اللّه دابِرَهُمْ، أي: آخِرَ مَنْ بَقِيَ مِنْهُمْ، وعليه الدَّبارُ: أي انْقطَع الأثَر[2]. والدّابِرُ مِنَ السِّهامِ: الَّذِي يَخْرُجُ مِنَ الهَدَفِ، كأنَّهُ وَلَّى الرّامِيَ دُبُرَهُ[3]. والدّابِرُ: آخِرُ القَوْمِ، وآخِرُ الأمْرِ[4]. والتَّدْبيرُ: أنْ يَنْظُرَ الإنْسانُ إلى ما تَصيرُ عاقِبَتُهُ وآخِرُهُ، ويُطْلَقُ الدُّبُرُ أيضاً على الظَّهْرِ[5]. والمقصودُ بالدّابِرِ في الآية: الآخِرُ، أي: آخِرُ شَخْصٍ[6].

2) ﴿مَقْطُوعٌ﴾: أصْلُ القَطْعِ: فَصْلُ وَإبانَةُ الشَّيءِ عَنْ شَيْءٍ آخَرَ، يُقالُ: قَطَعْتُ الشَّيْءَ أقْطَعُهُ قَطْعًا وَقَطيعَةً أيْ فَصَلْتُهُ، وضِدُّهُ الوَصْلُ، والقطع: البَتْرُ، تَقولُ: قَطَعْتُ العُضْوَ إذا بَتَرْتَهُ. والقِطْعَةُ: الحِصَّةُ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 11/73.
(2) ابن عباد، المحيط في اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة: (دبر).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (دبر).
(4) ابن عباد، المحيط في اللغة: (دبر).
(5) ابن منظور، لسان العرب: (دبر).
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/65.

المَفْصولَةُ مِنْ شَيْءٍ، ويأْتي القَطْعُ بِمَعْنَى الهَجْرِ والتَّفْريقِ، والتَّقاطُعُ: التَّهاجُرُ، وَمِنْ مَعاني القَطْعِ أيْضًا: البَتُّ والقَصُّ والعُبورُ[1]. والمقصودُ بالقَطْعِ في الآية: الإزالةُ. وقطعُ الدّابِرِ كِنايَةٌ عَنْ ذهابِ الجَميعِ.

3) ﴿مُّصْبِحِينَ﴾: أصلُ (صبح): أصْلٌ واحِدٌ مُطَّرِدٌ، وهو لَوْنٌ مِنَ الألوانِ، قالوا: أصلُهُ الحُمْرةُ، وقالوا: وَسُمِّيَ الصُّبْحُ صُبْحًا لِحُمْرَتِهِ، كما سُمِّيَ المِصباحُ مِصْباحًا لِحُمْرَتِهِ[2]. والصُّبْحُ: أوَّلُ النَّهارِ، يُقال: صَبَّحْتُ الرَّجُلَ: إذا أتَيْتَهُ أوَّلَ النَّهارِ، وأصبَحَ القَوْمُ: إذا دخلوا في الصَّباحِ[3]، والصَّباحُ: نورُ النَّهارِ[4]. ويُطْلَق عليه: الفَجْرُ، والغَداةُ، وضِدُّه: المساءُ وجَمعُه: أصْباحٌ[5]. والمقصود بالصُّبْحِ في الآية: أوَّلُ وَقت النَّهار. والمرادُ: داخِلينَ في الصَّباحِ.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

يقول الحقُّ تعالى: ووجَّهْنا إلى لوطٍ ذلك الأمرَ، وأفضَيْنا إليه بما فيه، وذلك عن طريق الوحي بوساطة هؤلاء الملائكةِ، أنَّ جميعَ قَومِه مُهلَكونَ عن آخِرِهم هَلاكَ استِئصالٍ مَطْلَعَ صَباحِ لَيلتِهم[6].

قَضاءُ الله تعالى لا مَردَّ له، وعذابُه يُهلكُ رائدَهم، ويقطعُ دابرَهم

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

فائِدةُ الواوِ في قولِه: ﴿وَقَضَيْنَآ﴾:

هذه الواوُ استئنافيةٌ، أي لاستئنافِ الكلامِ فيما أوحَى اللّه تعالى به إلى لوطٍ، ممّا حكمَ به على قومِه من وقوعِ العذاب عليهم، لِيَستأصِلَهم جميعًا.

مَن أهلكَه الله بالقاضِيةِ، لم يبقَ منه باقيةٌ

(1) ابن دريد، جمهرة اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (قطع).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (صبح).
(3) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (صبح).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (صبح).
(5) ابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (صبح).
(6) الواحدي، الوجيز، ص: 594، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 10/39.

بَلاغةُ التّضمين في قولِه: ﴿وَقَضَيْنَآ﴾:

لمّا تعدَّى الفعلُ (قَضَى) إلى مفعولِه بحرف الجرّ (إلى) دلَّ على أنَّه تضمّنَ معنى (أوحى)، ليفيدَ اللّفظُ الواحدُ معنيَيْن مقصودَين، هما الإيحاءُ الذي يفيدُ أنَّ الأمرَ من عندِ اللّه والقضاءُ الذي يفيدُ معنى القطعِ في الأمرِ وتهويلِ ما حكمَ به، ففي التّضمينِ تكثيرُ المعنى بتقليل اللّفظ، أي: وقضينا إليه ذلك الأمرَ وأوحينا إليه أنَّ دابرَ هؤلاء مقطوعٌ مُصبحين، والمعنى: وأوحينا إليه ذلك الأمْرَ مَقضيًا مُثبتًا مبتوتًا[1].

الإيجازُ بتقليلِ اللّفظِ، وتكثيرِ المعنى، مفيدٌ في البيانِ عنِ المرادِ

فائِدةُ مجيءِ (نا) في قولِه: ﴿وَقَضَيْنَآ﴾:

أفاد التّعبيرُ بالضَّميرِ (نا) تعظيمَ ما قضى اللّه تعالى به من استئصال القومِ وإهلاكِهم، وأنَّه أمرٌ لا يقدرُ عليه إلّا الملك الواحدُ الأحدُ.

نزولُ العذابِ بقومٍ لا يقدرُ عليه إلّا اللّه الواحدُ القديرُ

بَلاغةُ تقديمِ ﴿إِلَيْهِ﴾ على ﴿ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ﴾:

لمّا تقدّمَ الجارُّ والمجرورُ أفاد تخصيصَ لوطٍ عليه السلام بالإخبارِ عنِ استئصالِهم اهتمامًا بشأنِه عليه السلام ورعايةً لحقِّ الرّسالة التي اخْتُصَّ بها عن قومِه، وتخصيصُه بالإخبار المذكورِ لئلّا توهنَ نفوسُ أتباعِه عند الخروج حين يعلمون باستئصالِ قومِهم فيَحزنون لهم.

تخصيصُ لوطٍ عليه السلام، بالإخبارِ عنِ استئصالِ قومِه

فائِدةُ التَّعْبيرِ باسْمِ الإشارةِ ﴿ذَٰلِكَ﴾:

لمّا كان ﴿ذَٰلِكَ﴾ اسمَ إشارةٍ منَ المبهمات، وكان للبعيد، أفادَ التّعبيرُ به تهويلَ ما قضى اللّه به، وتعظيمَه وتفخيمَه، لبُعدِ مرتبتِه[2].

تهويلُ العذابِ على القومِ المُجرمين المُنحَرفين

فائِدةُ مجيءِ قولِه: ﴿ٱلْأَمْرَ﴾:

يحتملُ أن يكون بدلًا من ﴿ذَٰلِكَ﴾ وهو الظّاهرُ، كما يحتملُ أن يكون عطفَ بيانٍ له، وعلى كلا الوجهَين يفيدُ اللّفظُ تعظيمَ اسْمِ

تفخيمُ شأنِ الأمرِ الّذي جرى قدَرًا، على قومِ لوطٍ العُصاةِ الفجَرةِ

(1) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 6/452، والزمخشري، الكشاف: 2/584، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 19/154، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/65.

(2) البيضاوي، أنوار التنزيل: 3/214، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 11/186، وابن التمجيد، حاشية على تفسير البيضاوي: 11/185.

الإشارة ﴿ذَٰلِكَ﴾ وتفخيمَه؛ لأنَّ ﴿ٱلۡأَمۡرَ﴾ منَ الأمور بمعنى الشّأنِ العظيمِ، فتتنبَّهُ الأنفسُ لمعرفتِه وتتشوّقُ لبيانِه[1].

دَلالةُ (ال) في قولِه: ﴿ٱلۡأَمۡرَ﴾:

أمرُ اللهِ قدَرٌ لا يُغالَبُ، وإذا جرى على قومٍ استأصلَ شأفَتَهم

(ال) هنا جنسيَّةٌ، لِتعظيمِ شأنِ العذابِ الّذي يقعُ عليهم فيَستأصلُهم، فكأنَّ كلَّ ما أوحى اللهُ به إلى لوطٍ، هو الإخبارُ عن عذابِهم واستئصالِهم، لهولِ الأمرِ وعِظَمِ شأنِه.

دَلالةُ المصدرِ المُؤوَّلِ في الآيةِ:

استِحقاقُ العذابِ العظيمِ، للقومِ المُنحرفين الشّاذّين

قولُه تعالى: ﴿أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقۡطُوعٌ مُّصۡبِحِينَ﴾، وقد أفاد التّعبيرُ بالمصدر المُؤوَّلِ أنَّ الأمرَ الذي قضاه اللهُ تعالى هو قطعُ دابرِ هؤلاء القومِ من غيرِ نظرٍ إلى أيِّ وصْفٍ آخرَ مقترِنٍ به، أي من كثرتِهم أو قلَّتِهم أو كونِهم من قومِ لوطٍ أو غيرِ ذلك، ففي التّعبير بالمصدر المؤوَّلِ تحصينٌ منَ الإشكال في الفهمِ وتخليصٌ له من شوائبِ الإجمالِ في الوصفِ، ولمّا كانَ المصدرُ المؤوّلُ بصيغة الجملةِ الاسميَّةِ أفاد ثبوتَ وقوعِ العذابِ وتحقُّقَه.

بَلاغةُ الإطنابِ في سياقِ الآيةِ:

تفسيرُ العذابِ، إيذانٌ بعِظَمِه وشِدّتِه على القومِ المُنحرفين

قولُه تعالى: ﴿أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقۡطُوعٌ مُّصۡبِحِينَ﴾، وفيه أنّه لمّا كان قولُه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡأَمۡرَ﴾ مبهمًا، فسَّره بطريق الإطناب بالمصدر المؤوّل ﴿أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقۡطُوعٌ﴾ ليكونَ بدلًا منِ اسمِ الإشارة على القولِ بأنَّ ﴿ٱلۡأَمۡرَ﴾ بدلٌ منِ اسمِ الإشارة، وإن كان ﴿ٱلۡأَمۡرَ﴾ عطفَ بيان كان المصدرُ المؤوّلُ بدلًا منَ الأمر، أو تفسيرًا له، وإنّما جاء بطريق الإطناب؛ لأنَّ المقام مقامُ تفخيمٍ للعذاب وامتنانٍ على النّاجين، ففي مجيء التّفسيرِ بعد الإبهامِ زيادةٌ في تعظيم الأمرِ

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 3/214، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 11/186، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/65.

وتفخيمِه، والاهتمامِ بشأنِه، وهو أوقعُ في النّفسِ، وكأنَّه لا طريقَ إلى إدراك عِظمِ العذابِ إلّا بالوصول إليه بالتّدريج[1].

بَلاغةُ تتابُعِ الكنايةِ في سياقِ الآيةِ:

قطْعُ الدّابرِ بمعنى إهلاكِه، واستئصالِه وقطْعِ نسْلِه

قولُه تعالى: ﴿أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقۡطُوعٌ﴾، لمّا كان الدّابرُ هو آخرُ شخصٍ من القومِ كان الإخبارُ عن قطعِه كنايةً عن هلاكِهم واستئصالِهم جميعًا حتى لا يبقى منهم أحدٌ؛ لأنَّ قطعَ الدّابرِ لا يكونُ إلّا بعدَ الإتيانِ على من تقدَّمَه، ولا يقطعُ الدّابرُ حتّى يُقطعَ ما دونَه؛ لأنَّ العدوَّ يكون مستقبلًا لعدوِّه، وإذا قطع ذلك وأتى عليه فقد أتى العذابُ من أوّلِهم إلى آخرِهم، وفي الكناية عنِ استئصالِهم كنايةٌ أخرى عن قطعِ نسلِهم[2].

دَلالةُ اسْمِ الإشارةِ في قولِه: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾:

الاستئصالُ وقطعُ النّسلِ، عذابُ الشّاذّين عنِ الفطرةِ النّقيّةِ

عبّر باسْمِ الإشارةِ لتحقيرِهم وللتّنبيهِ على أنَّ العذابَ المَهولَ بالاستئصالِ على هؤلاء هو يسيرٌ في قَدرتِه سُبحانه[3] ولِتَمييز الذين وقعَ عليهمُ العذابُ أكملَ تَمييزٍ وللإشعارِ بأنَّ وقوعَ العذاب عليهم لِما اتّصفوا به منَ الصّفاتِ القبيحةِ المُنحرفةِ التي عليها مدارُ الحُكم، أي دابرُ هؤلاءِ المُجرمين، ولهذا لم يقل (وقضينا إليه أنَّ دابرهم مقطوع)[4].

نُكتةُ التّعْبيرِ بصيغةِ ﴿مَقۡطُوعٌ﴾:

استئصالُ القومِ المُنحرفين، يسيرٌ عندَ الله تعالى

عبِّرَ بصيغة المبنيِّ للمفعول؛ للإيذانِ بعظمةِ اللّه تعالى وسهولةِ عذابِهم واستئْصالِهم عنده سُبحانه، كما أنّ إيرادَ صيغةِ المفعول بدلَ صيغةِ المضارع (يُقطعُ) أدخلُ في الدّلالة على الوقوعِ والقطعِ به[5].

---

(1) الزمخشري، الكشاف: 2/584، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 19/154، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 3/214، والعصام الإسفراييني، الأطول شرح تلخيص المفتاح: 2/83.

(2) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 6/453، والزمخشري، الكشاف: 2/584، وابن عطية، المحرر الوجيز: 3/368، والفخر الرازي: مفاتيح الغيب: 19/154، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 3/214.

(3) البقاعي، نظم الدرر: 11/73.

(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/84.

(5) البقاعي، نظم الدرر: 11/73، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/85.

نُكتةُ التّعبيرِ بلفْظِ ﴿مُّصْبِحِينَ﴾:

بـدايـةُ نـزولِ العذابِ عليهم، وقتَ الدّخولِ في الصّباحِ

عبِّرَ بلفْظِ ﴿مُّصْبِحِينَ﴾ ليكونَ بمعنى داخلين في أوّل وقتِ الصّباح، فإنَّ همزةَ (أصبحَ) الدّخولُ في الشّيء؛ لأنَّ اللّفظ مُشتقٌّ من أصبح التّامّةِ.

دَلالةُ الحالِ في قولِه: ﴿مُّصْبِحِينَ﴾:

أعظمُ العذابِ، ما كان ظاهرًا للعيانِ، أمامَ المُعذَّبين

أفاد مَجيءُ ﴿مُّصْبِحِينَ﴾ حالًا[1] أنَّ قطعَ دابرِ هؤلاء القومِ في حالِ دخولِهم في الصّباح وظهورِه، فيكونُ العذابُ أشدَّ عليهم؛ لأنَّه يكونُ أظهرَ في العيانِ وأوّلَ أمرٍ يلاقونَه بعد استيقاظِهم، ومَبْدَأُ الصَّباحِ وَقْتُ شُروقِ الشَّمْسِ ولذلك قالَ بَعْدَهُ ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ٧٣﴾ [الحجر: 73][2].

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 19/155، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 3/215، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 11/187.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/66.

﴿وَجَآءَ أَهۡلُ ٱلۡمَدِينَةِ يَسۡتَبۡشِرُونَ ٦٧﴾ [الحجر: 67]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الجَمْعُ بين وصْفِ العذابِ وأهوالِه، وبين استِبشارِ المُنْحرفين بمَعْصيتِهم

لمّا أخبرَ اللّه تعالى عمّا كان من أمر لوطٍ الطّاهرِ هو ومن معه ونجاتِهم منَ القومِ المُجرمين، ولمّا كانَ قد أجمل الكلامَ على قومِه الأرجاسِ شرعَ في تفصيلِ الكلامِ عليهم فبدأ بما كان عندما رأوا ملائكةَ اللّه، فجاءت هذه الآيةُ.

وأيضًا لمّا تمَّ ما دار بينه وبين الرُّسل مقدّمًا لِما بيّن، أتبعه البيانُ عن تفصيلِ حال قومه[1] بعدَ بيانِ نهايتِهم التي كانوا عليها، وهو أسلوب بلاغيٌّ فريد.

وأيضًا جاءت هذه الآيةُ للشروع في حكاية ما صدرَ منَ القومِ عند وقوفِهم على مكان الأضياف منَ الفعل وما ترتّبَ عليه ممّا أُشير إليه أوّلًا على سبيل الإجمالِ، وهذا مقدّمٌ وقوعًا على العلم بهلاكِهم، والواو لا تفيدُ التّرتيبَ[2].

المَعْنى الإجْماليُّ:

أقبلَ القومُ يَستبشِرون بفعْلِ المُنكراتِ في ضيوفِ لوطٍ دونَ حياءٍ

يُخبر اللّه تعالى أنَّ أهلَ مدينةِ قَومِ لوطٍ قد جاؤوا إلى بيتِ لوطٍ فَرِحينَ مَسرورينَ، يُبَشِّرُ بَعضُهم بعضًا بقُدوم أضيافِ لوطٍ؛ طَمعًا في فِعلِ الفاحشةِ بهم، قال لوطٌ لِقَومِه: إنَّ هؤلاء الذين تُريدونَ فِعلَ الفاحِشةِ بهم ضُيوفي، وحَقٌّ على الرجُلِ إكرامُ ضُيوفِه، فلا تَفضَحوني في ضُيوفي بتعاطي ذلك الفِعلِ القَبيحِ، فيَلحَقَني العارُ[3].

(1) البقاعي، نظم الدرر: 11/73 - 74.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/85، والآلوسيّ، روح المعاني: 7/314.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 14/90، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 10/39، وأبو حيان، البحر المحيط: 6/489، والسّعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 433.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

نُكتةُ التّعْبيرِ بلفْظِ ﴿أَهْلُ﴾:

الرَّحمُ على الحقيقة، من يَربطُنا بأصحابِها، الإيمانُ والعملُ الصّالحُ

قولُه تعالى: ﴿وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ﴾، وفيه فإنّه لمّا قال اللّه تعالى في حقِّ لوطٍ عليه السلام ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ﴾، قابلَ الكافرين المُنحرفين بقولِه ﴿أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ﴾ مع أنَّهم كانوا في بلدةٍ واحدةٍ للإيذان بخصوصيَّةِ أهلِ لوطٍ عن أهلِ المدينةِ وتمايزِهم بسببِ إيمانِهم واتِّباعِهم لوطًا عليه السلام وبسببِ بعدِهم عنِ الفواحشِ واجتنابِهم لها، فنسبَ المؤمنين إلى لوطٍ تشريفًا وتكريمًا ونسبَ الكافرين إلى المدينةِ التي يقعُ فيها المنكرُ، ولمّا أضافَهم إلى المدينةِ لحقَ بها ما لحقَ بأهلِها.

نُكتةُ التَّعْبيرِ بالإضافة في ﴿أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ﴾:

اللّائقُ بأهلِ المدينةِ أن يُكرِموا الغرباءَ

لمّا أضيف ﴿أَهْلُ﴾ إلى ﴿ٱلْمَدِينَةِ﴾ أفاد العمومَ بمعنى الكثرةِ؛ للإشارةِ إلى كثرتِهم مقارنةً مع المؤمنين من أتباع لوطٍ عليه السلام، وفي الإضافة إشارةٌ إلى فظاعةِ فعلِهم، فإنَّ اللّائقَ بأهل المدينةِ أنْ يُكرموا الغرباءَ الواردين على مدينتِهم ويُحسنوا المعاملةَ معهم فهم عدَلوا عن هذا اللّائقِ مع من حَسبوهم غرباءَ واردين إلى قصْدِ الفاحشةِ التي ما سبقَهم بها أحدٌ منَ العالمين[1].

فائِدةُ (ال) في قولِه: ﴿ٱلْمَدِينَةِ﴾:

المدينةُ هنا رمزُ الضّلالةِ والسّفاهةِ والانحِطاطِ

(ال) هنا تفيدُ العهدَ العلميَّ، بمعنى المدينةِ التي كان قومُ لوطٍ يفعلون المنكرَ فيها.

نُكتةُ التَّعْبيرِ بلفْظِ ﴿ٱلْمَدِينَةِ﴾:

اعتدادُ المُنحرفين بأنفسِهم، لا يمنَعُهم من وقوعِ العذابِ عليهم

عبّرَ بلفْظِ ﴿ٱلْمَدِينَةِ﴾؛ للإشعارِ باعتدادِهم بأنفسِهم وبقُدرتِهم على فعْلِ ما يَشتهون، وفيه إشارةٌ إلى أنَّ المدينةَ فيها المؤمنون والكافرون.

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/315.

نُكتةُ مَجيءِ الحالِ في ﴿يَسْتَبْشِرُونَ﴾:

الاستِبشارُ بالشّذوذِ، قُبحٌ ومَفسدةٌ وانتكاسٌ

عبِّرَ بصيغةِ المضارعِ؛ لإفادَةِ التَّجَدُّدِ في استبشارِهم مُبالَغَةً في فرحِهم حينما عَلِموا أنَّ رِجالًا غُرَباءَ حَلّوا ببَيْتِ لوطٍ ﷺ فَفَرِحوا بذلك لِيَغْتَصِبوهُمْ كَعادَتِهِمُ القبيحةِ المنافرةِ لوصْفِ الإنسانيَّة، ففي التّعبيرِ إشعارٌ بشدَّةِ رغبتِهم في طلبِ المُنكر[1]، ولمّا جاء الفعلُ المضارعُ على معنى الحال وكان الكلامُ في سياق الذّمِّ أفاد أنَّ استبشارَهم بالمعصيةِ الشّاذّةِ سببٌ لاستحقاقِ العذابِ ودليلٌ على صدْقِ الوعيدِ عليهم، فيكونُ الذّمُّ على مجيئِهم مُسْتَبشرين لفعلِ المعصيةِ القبيحةِ المُنكرةِ.

دَلالةُ ﴿يَسْتَبْشِرُونَ﴾:

التَّواطُؤُ مع المُنْحرفين، له حُكمُ مَعْصيتِهم وقُبحِ فعْلِهم

يحتملُ أن تكونَ الصّيغةُ للمطاوعةِ من بشّرَ فاستبشرَ، ففيه إشعارٌ بأنَّ هناك من أخبرَهم بوجودِ غرباءَ عندَ لوطٍ ﷺ، على طريقة التّبشيرِ، والمعنى بشّرهم فاسْتَبشِروا، ويحتملُ أن تكونَ السّين والتّاءُ للمبالغةِ في استبْشارهم، وكلا الوجهَيْن يُفيدان المبالغةَ في ذمِّهم.

بَلاغةُ الكنايةِ في قولِه: ﴿يَسْتَبْشِرُونَ﴾:

الإسراعُ إلى المَعصيةِ مِنَ القبائحِ المُستهجنةِ

أفاد التّعبيرُ بـ﴿يَسْتَبْشِرُونَ﴾ بدلالة ظاهرِ اللّفظ فرحَهم وسرورَهم طمعًا في فعلِ الفاحشةِ، كما أفاد بلازمِه على طريق الكنايةِ أنَّ مجيئَهم كان على وجهِ السّرعةِ؛ لأنَّ الاستبشار بأمرٍ يقتضي الإسراعَ للوصول إليه عادةً، ودلَّ على سُرعتِهم في المجيء قولُه تعالى: ﴿وَجَآءَهُۥ قَوۡمُهُۥ يُهۡرَعُونَ إِلَيۡهِ﴾ [هود: 78]، والمرادُ الجمعُ بين دلالة اللّفظِ ولازمِه، ففيه ذمٌّ لهم كذلك على سُرعتِهم إلى فعلِ القبائحِ.

(1) البقاعي، نظم الدرر: 11/74، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/66.

﴿قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيۡفِي فَلَا تَفۡضَحُونِ ٦٨﴾ [الحجر: 68]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

دَعوةٌ عاقلةٌ لتَفادي الخِزيِ والعارِ، بالاعتداءِ على الضّيوفِ الأبرارِ

لمّا جاء قومُ لوطٍ المُفسدون علمَ بمجرَّدِ مَجيئِهم بوادرَ شرِّهم وفسادِهم وما جالَ في خاطرِهم، فباشرَهم بالقولِ الذي قالَه لعلَّهم ينتهون.

وأيضًا لمّا جاء قومُ لوطٍ إليه كان كأنَّه قيل: فماذا قال لهم لوطٌ، فجاءت هذه الآيةُ.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تَفۡضَحُونِ﴾: أصْلُ (فضح): الكشْفُ، يُقال: فَضَحَ الإناءَ فَضْحًا، أيْ: كَشَفَهُ ولم يَسْتُرْهُ، وأكْثَرُ ما يُسْتَعْمَلُ في السوءِ والقُبْحِ[1]، والفَضيحةُ: اسْمٌ لِكُلِّ أمْرٍ سَيِّءٍ يَشْهَرُ صاحِبَهُ بِما يَسوءُ[2]، والافْتِضاحُ: ظُهورُ العَيْبِ وانْكِشافُهُ. الفَضْحُ: الإظْهارُ والتَّبْيينُ، يُقال: فَضَحَ اللِّصَ: إذا أظْهَرَهُ وبَيَّنَ حالَهُ، وفَضَحَ الصُّبْحُ الرَّجُلَ: إذا اسْتَنارَ وتَبَيَّنَ وهو نائِمٌ[3]. ويأْتي بِمعنى التَّشْهيرِ والتَّعْريفِ[4]. ومِن مَعانيهِ أيضًا: ظُهورُ اللَّوْنِ القَبيحِ في الشَّيْءِ[5]. والمقصودُ بالفَضْحِ في الآية: شُهْرَةُ حالٍ شَنيعَةٍ.

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

فائِدةُ التّأكيدِ بـ﴿إِنَّ﴾ في السّياقِ:

التَّشميرُ لِمراعاةِ حقوقِ الضّيفِ مِن سُننِ المُرسَلين

التَّأكيدُ بـ﴿إِنَّ﴾ ليس لإنكارِ قومِه أنَّهم ضيفُه، بل لتَحقيقِ اتِّصافِ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (فضح).
(2) الأزهري، تهذيب اللغة: (فضح).
(3) السمين، عمدة الحفاظ: (فضح).
(4) ابن منظور، لسان العرب: (فضح).
(5) الخليل، العين، وابن دريد، جمهرة اللغة: (فضح).

الملائكة بوصْفِ الضَّيف، وإظهارِ اعتنائِه بشأْنِهم، وتَشمُّرِه لمُراعاةِ حُقوقِهم وحِمايتِهم مِنَ السّوءِ[1].

دَلالةُ التَّعبيرِ باسمِ الإشارةِ ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾:

لمّا اقترن اسْمُ الإشارةِ ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ الذي هو للقريبِ بلفْظِ الضَّيفِ أفاد أنَّه أراد تَمييزَهم أكملَ تمْييزٍ لتعظيمِهم، وللإشعارِ بأنَّهم بمثابةِ الأقرباءِ له بضيافتِهم عليه[2].

دَلالةُ الإضافةِ في قولِه: ﴿ضَيۡفِي﴾:

لمّا كانتِ الإضافةُ على معنى اللّام أفادت هنا اخْتِصاصَهم به عليهم السلام، على معنى العنايةِ بهم وتكريمِهم.

بَلاغةُ الكنايةِ في قولِه: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيۡفِي﴾:

جاء الكلامُ على طريق الكنايةِ بذكْرِ الضّيفِ ليُفيدَ بلازمِه وجوبَ إكرامِهم وعدمِ إهانتِهم والتّعرُّضِ لهم بأيِّ سوءٍ.

سببُ مجيءِ الفاءِ في قولِه: ﴿فَلَا تَفۡضَحُونِ﴾:

لمّا نبَّه لوطٌ قومَه إلى أنَّ الذين عنده هم ضيْفُه، ومن حقِّ الضّيفِ إكرامُه أفادتِ الفاءُ الترتُّبَ، ليكونَ الكلامُ بتقديرِ: إنَّ هؤلاء ضيفي فلا تُؤذوهم، أو فلا تُهينوهم، أو فلا تُسيئوا إليهم فتفضحون، فإنَّ من أهانَ الضّيفَ أهانَ المُضيفَ[3].

بَلاغةُ الكنايةِ في جملةِ ﴿فَلَا تَفۡضَحُونِ﴾:

لمّا نهاهُم عن فضيحتِه دلَّ بلازمِه على شُهرةِ أهل بيتِ لوطٍ عليهم السلام عند الخلْقِ بالصَّلاحِ والأمنِ وحُسنِ الضّيافة.

نُكتةُ التَّعْبيرِ بلفْظِ ﴿تَفۡضَحُونِ﴾:

عبِّرَ بلفظِ ﴿تَفۡضَحُونِ﴾؛ للإشعار بأنَّ ما تريدونَه منَ الفعلِ

الضّيفُ بمنزلةِ القريبِ في النَّسبِ، صيانةً وحمايةً

الاعتناءُ بالضَّيفِ وإكرامُه من سُننِ المُرسَلين

حقُّ الضّيفِ على المُضيفِ، الإكرامُ والاحترامُ

مَنْ أهانَ الضّيفَ، أهانَ المُضيفَ

صلاحُ ربِّ البيتِ، دليلٌ على صلاحِ أهلِ البيتِ قاطبةً

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/85.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 11/74.
(3) أبو حيان، البحر المحيط: 6/489.

القبيحِ بضيفي هو حالةٌ شنيعةٌ منكم لضيفي، بمعنى ستُظهرون من أمري ما يكونُ عارًا عليَّ[1]، ولمّا كانتِ الفضيحةُ اختصَّتْ بما هو عارٌ على الإنسانِ عند ظهورِه وكانت شهرةَ حالٍ شنيعةٍ[2]، أفاد التّعبيرُ بها الإيذانَ بأنَّ ما تفعلونَه منَ الفاحشةِ أمرٌ شنيعٌ لا تتقبّلُه العقولُ وتشمئزُّ منه النّفوسُ.

الشُّذوذُ لا تتقبّلُه العقولُ السّليمةُ، ولا النّفوسُ المُستقيمةُ

بَلاغةُ حذْفِ مُتعلِّقِ ﴿فَلَا تَفْضَحُونِ﴾:

حُذفَ مُتعلِّقُ الفعلِ لإفادة العُمومِ، بمعنى فلا تفضحوني بفضيحة ضيفي عندَهم ولا عندَ الخلقِ، كما يحتملُ أن يكون الحذفُ بمعنى: لا يكنْ منكم فضحٌ لي، فيكونُ على معنى النّهيِ عنِ الاتّصاف بأيِّ شناعةٍ يكونُ بسببِها فضحٌ لي؛ لأنّ من أساء إلى ضيفه أو جارِه فقد أساء إليه، كما أنَّ من أكرم من يتَّصلُ به فقد أكرمَ[3].

مَن أساءَ إلى الضّيفِ فقد أساءَ إلى المُضيّفِ

(1) الواحدي، التفسير البسيط: 12/628.

(2) السمين الحلبي، الدر المصون: 7/173، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/66.

(3) الماتريدي، تأويلات أهل السّنّة: 6/453، والزمخشري، الكشاف: 2/585.

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخۡزُونِ ٦٩﴾ [الحجر: 69]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

لمّا ذكَرَ لوطٌ لقومِه الوازعَ العرفيَّ في قولِه: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيۡفِي فَلَا تَفۡضَحُونِ﴾ أتبعَه بالوازعِ الدّينيِّ في هذه الآيةِ استقصاءً بالدّعوة التي جاء بها[1].

الدّعوةُ إلى الله جمْعٌ في التّحفيزِ بين الوازعِ الدّينيِّ، والوازعِ العُرفيِّ

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَلَا تُخۡزُونِ﴾: أصْلُ الخِزْي: ذلٌّ يُسْتَحى مِنْهُ؛ ولذلك يُسْتَعْمَلُ في كلٍّ منهما، أي: الذُّلّ والاسْتِحْياء[2]، وقيل أصلُه: الإبعاد، فقولُهُم: أَخْزاهُ اللّه، أي أبْعَدَهُ وَمَقَتَهُ[3]. والخِزْيُ الفَضيحةُ، وقد خَزِيَ يَخْزَى خِزْيًا إذا افْتَضَح وتَحيَّر فَضيحَةً[4]، والخِزْيُ أيضًا: السّوء[5]، والهَوانُ[6]. والمقصود بالخِزي في الآية: الذُّلُّ والإهانَةُ[7].

المَعْنى الإجْماليُّ:

قال لوطٌ لهم: وخافوا اللّهَ أن يُحِلَّ بكم عَذابَه، ولا تُذِلّوني وتُهينوني بالتعَرُّضِ لضيوفي بمَكروهٍ[8].

التَّعرُّضُ للضَّيف بعد حمايتِه، أجْلَبُ للعارِ

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

دَلالةُ الوصْلِ بالواوِ في قولِه: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾:

أفاد حرفُ العطفِ أنَّ الأمرَ في قولِه تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ داخلٌ

حقُّ الضّيفِ أقرَّه العُرفُ والدّينُ، في كلِّ العُصورِ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/66.
(2) الزبيدي، تاج العروس: (خزي).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (خزي).
(4) ابن منظور، لسان العرب: (خزي).
(5) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، وابن عباد، المحيط في اللغة: (خزي).
(6) الزبيدي، تاج العروس: (خزي).
(7) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 14/66.
(8) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 10/39.

في حيّزِ المسبَّبِ وما أفادتِ الفاءُ ترتّبَه على ما قبلَه في قولِه تعالى: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيۡفِي فَلَا تَفۡضَحُونِ﴾، والمعنى لأنَّ هؤلاء ضيفي؛ فلا تفضحون، ولأنَّهم ضيفي فاتّقوا الله، ومثلُه الواو في ﴿وَلَا تُخۡزُونِ﴾، والمعنى: ولأنَّ هؤلاء ضيفي فلا تخزونِ.

سببُ ربْطِ الأمرِ بتقوَى الله:

التّقوَى تَقتضي خشيةَ الله، والحذرَ من عِقابِه

لم يأمرْ لوطٌ قومَه بالإيمان بالله مع أنَّه الأصلُ؛ لاقتضاء المقامِ أن يأمرَهم بالتّقوى لِما تقتضيه التّقوَى من خَشيةِ الله والحذرِ من عقابِه، ففيه إشعارٌ بأنَّ فعلَكم يقتضي عقابًا شديدًا، والمعنَى: فاتّقوا الله في ركوب الفاحشةِ[1].

دَلالةُ حذْفِ متعلِّقِ ﴿وَٱتَّقُواْ﴾:

تقوَى الله وِقايةٌ من كلِّ سوءٍ مُؤذٍ، أو مُنكَرٍ مُستبشَعٍ

حُذِفَ متعلَّقُ ﴿وَٱتَّقُواْ﴾، ولم يقل مثلًا (واتّقوا الله في ضيفي أو في فعلِكم أو في ركوب الفاحشةِ) للإيذانِ بأنَّ المقصودَ تحصيلُ تقوَى الله مُطلقًا، ففيها وقايةٌ من كلِّ سوءٍ أو منكرٍ.

سِرُّ الجمْعِ بين الأمرِ والنَّهيِ في الآية:

الأدبُ مع الرّسولِ الأكرمِ وأهلِ بيتِه، منَ التّقوَى والمبَرّةِ

قولُه تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخۡزُونِ﴾، وفيه جمعَ بين الأمرِ بتقوَى الله تعالى والنّهيِ عن إخزائِه، لِما تفيدُه تقوَى الله من مُراعاةِ حقِّ رسولِ الله وأهلِ بيتِه الطّاهرين، فيكونُ قد ذكّرَهم بالله وبما يوجِبُه الأدبُ والخُلقُ مع رسول الله ومع الضّيفِ.

نُكتةُ التَّعْبيرِ بقولِه: ﴿وَلَا تُخۡزُونِ﴾:

التّعرُّضُ للضَّيفِ بالسّوءِ، أعظمُ العارِ

لمّا كان التَّعرّضُ لضيفِ لوطٍ ﷺ بعد أن نهاهُم عنه بقوله: ﴿فَلَا تَفۡضَحُونِ﴾، أكثرَ تأثيرًا في جانبِه ﷺ وأجلبَ للعارِ إليه؛ إذِ التَّعرُّضُ للضَّيفِ بعدَ العلمِ بكونِه ضيفًا وبعد المُناصبةِ بحمايتِه أعظمُ العارِ، عبَّر ﷺ عمّا سَيعتريه بسبب لِجاجِهم ومُجاهرتِهم بمخالفتِه منَ

(1) ابن جرير، جامع البيان: 15/416.

الهوانِ والذِّلَّةِ والاستخفافِ والبُعدِ عنِ النّاس بسبب الفضيحةِ، والمعنَى لا تهينوني بالتّعَرّضِ لهم، ويحتملُ أن يكونَ الفعلُ ﴿تُخْزُونِ﴾ منَ الخزاية وهي الحياء أي لا تُخجِلوني في ضيفي ولا تَجعلوني أسْتَحيي منّ النّاس بتعرّضكم لهم بالسّوء[1].

سِرُّ عدمِ تَصْريحِ لوطٍ في الآية:

لم يصرِّح ﷺ بالنَّهيِ عن نفس تلك الفاحشةِ؛ لعلْمِه بأنَّه لا يفيدُهم ذلك، ورعايةً لمزيدِ الأدبِ مع ضيفِه، حيث لم يصرِّحْ بما يَثقُلُ على سمْعِهم وتنفرُ عنه طباعُهم ويرى الحرُّ الموتَ ألذَّ طعمًا منه[2].

الموتُ ألذُّ طَعمًا، من فعْلِ الفاحشةِ

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الذُّلُّ والخِزيُ:

الخزيُ ذلٌّ لقُبحِ فعلٍ مع هوانٍ وافتضاحٍ، فالخزيُ أخصُّ منَ الذُّلِّ، والذّلُّ قد يوصفُ به على سبيل المدحِ إذا كان من نفسِ الإنسانِ على سبيلِ الانكسارِ والحياءِ، وأمّا الخزيُ فلا يكونُ إلّا ذمًّا، وقيل: الخزيُ الانقماعُ لقُبحِ الفِعْل والخَزايةُ الاستحياءُ لقُبحِ فعلٍ؛ لِأنَّهُ انقماعٌ عَنِ الشَّيْءِ لِما فِيهِ منَ العَيْبِ[3].

الذّلُّ يكونُ في المحمودِ والمذمومِ، والخزيُ لا يكونُ إلّا مَذمومًا

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 3/215، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/85، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/66.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/85.

(3) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 250، وابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (خزي).

﴿قَالُوٓاْ أَوَلَمۡ نَنۡهَكَ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٧٠﴾ [الحجر: 70]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الرّبطُ بين تَرجّيهِ لهم أن لا يُخْزوه في ضيفِه، وردِّهم بالعزمِ على الفاحشةِ

لمّا ذكّرهم لوطٌ بضيفِه وأمرَهم ونهاهُم أجابوه بقولِهم فيما أخبرَ اللّه تعالى عنهم ﴿قَالُوٓاْ أَوَلَمۡ نَنۡهَكَ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿نَنۡهَكَ﴾: أصْلُ (نهي): يَدُلُّ على غايةٍ وبُلوغٍ. يُقالُ: أنهَيتُ إليه الخَبَرَ: بَلَّغْتُهُ إيّاهُ، ونِهايَةُ كُلِّ شَيءٍ: غايَتُهُ. ومنه نَهَيْتُهُ عنه، وذلك لأمْرٍ يَفعَلُهُ. فإذا نَهَيْتَهُ فانتَهى عنكَ فَتِلكَ غايَةُ ما كانَ وآخِرُهُ[1]. والإنْهاءُ: الإيصالُ والإبلاغُ[2]، والنِّهايَةُ: غايَةُ كُلِّ شَيءٍ وآخِرُهُ[3]، والانْتِهاءُ: الاكْتِفاءُ والامْتِناعُ، يُقالُ: نَهِيَ فُلانٌ مِنَ اللَّحْمِ إذا اكْتَفَى منه[4]. والنَّهيُ: الكَفُّ عَنِ الشَّيءِ والمَنْعُ منه، تَقولُ: نَهاهُ إذا كَفَّهُ ومَنَعَهُ عَنْ شَيءٍ ما، ومنه النُّهْيَةُ وهي العَقْلُ؛ لِأنَّهُ يَمْنَعُ صاحِبَهُ مِنَ القَبيحِ[5]. والمقصودُ بالنَّهيِ في الآيةِ: طَلَبُ تَرْكِ الفِعْلِ بالقَوْلِ على وَجْهِ الاسْتِعْلاءِ.

المَعْنى الإجْمالِيُّ:

تَضميمُ القومِ على الفاحشةِ مع الضُّيوفِ، دليلٌ على فُحْشِهم وكُفْرِهم

قال قَومُ لوطٍ له: أولَم نَنهَك يا لوط عن ضيافةِ أحدٍ مِنَ النّاس أو تُؤويه في قريتنا؟ فنحن قد أنذَرْناك، ومَن أنذَرَ فقد أعذَرَ. إذ هم كانوا يتعرَّضون لكلِّ غريبٍ بالسّوء، وكان لوطٌ ينهاهم عن ذلك على قدر حولِه وقوَّتِه، ويحولُ بينهم وبين من يَعرضون له، وكانوا قد نهَوْه

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نهي).
(2) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة: (نهي).
(3) ابن عباد، المحيط في اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (نهي).
(4) ابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (نهي).
(5) ابن عباد، المحيط في اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (نهي).

عنِ التَّعرّضِ لهم في مثل ذلك، فكأنَّهم - أخزاهم الله - قالوا ما ذكرتَه مِنَ العارِ والفضيحةِ إنَّما جاء من قِبَلك لا من قِبَلنا، إذ لولا تعرّضُك لِما نتصدَّى له لَما اعتراك ما يَسوءُك[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

بَلاغةُ الاسْتِئنافِ البيانِّي في السّياقِ:

تَنبيهٌ إلى استمرارِ الإصغاءِ، لطولِ الأخذِ في الحوارِ والعَطاءِ

لمّا قال لهم لوطٌ ما تقدَّمَ في الآيةِ السّابقةِ، كان كأنَّه قيلَ: فماذا أجابوه بعدَ تذكيرِهم بما ينبغي الانتهاءُ عن فعلِهم؟ فأجاب: ﴿قَالُوٓاْ أَوَلَمۡ نَنۡهَكَ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، وفي الاسْتِئنافِ اسْتِدرارٌ لأسماعِ المخاطَبين وتنبيهٌ إلى الإصغاءِ للكلام حينما يطولُ للإشعارِ بأهمّيَّتِه.

بَلاغةُ الاستفهامِ في الآيةِ:

تعنّتُ المُنحَرفين، لطولِ مُكثِهم على الفاحشةِ، ونَهيُ من يُنكرُ عليهم

قولُه تعالى: ﴿أَوَلَمۡ نَنۡهَكَ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾: وفيه أنّه لمّا كان القومُ يتعرَّضون لكلِّ أحدٍ، وكان لوطٌ عليه السلام يقومُ بالنَّهيِ عنِ المنكر، والحجْرِ بينهم وبين المتعرَّضِ له دائمًا جاء الاستفهامُ على معنى الإنكارِ على حمايتِه لِمن يتعرَّضون له ومنعِهم منَ الوصول إليه، ويتولَّدُ منَ الإنكار تقريرُ نهْيِهم له، وتذكيرِه وزجرِه عن حماية الضّيف بمعونةِ المقامِ.

بَلاغةُ التّعبيرِ بتركيبِ ﴿أَوَلَمۡ نَنۡهَكَ﴾:

الجمْعُ بين معنيَيْن في تركيبٍ واحدٍ، من بليغِ البيانِ

الهمزةُ للإنكارِ والواوُ للعطفِ على مقدَّرٍ، أي ألم نتقدمْ إليك ولم ننْهَكَ عن ذلك، فجمَعَ في هذا التّركيب الاستفهامَ والعطفَ؛ ليجمعَ بين معنيَيْن في تركيبٍ واحدٍ[2].

سِرُّ إيثارِ ﴿أَوَلَمۡ نَنۡهَكَ﴾:

استمرارُ إنكارِ لوطٍ على قومِه، ومواصلتُهم مُعارضتَه

لم يأتِ الفعلُ بصيغةِ الماضي كأن يقال (أوَ ما نهيناك)، لِما يفيدُه النَّفيُ بـ(لَمْ) من قُربِ نهيِهم له، والمعنى تقريرُ قَربِ نهيهم له واستمرارِه.

(1) المراغي، تفسير المراغي: 14/37.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/85.

بَلاغةُ الكنايةِ في قولِه: ﴿أَوَلَمْ نَنْهَكَ﴾:

استمرارُ دعوةِ المؤمنين للقومِ المُنحرفين

لمّا دلَّ الاستفهامُ المجازيُّ على تجدّدِ الإنكارِ على لوطٍ على حمايتِه للضّيفِ والغريب، وأفاد مجيءُ الفعلِ المضارع مع جازمِه قُربَ دعوةِ لوطٍ لهم إلى ترك المُنكرِ أفاد الكلامُ بلازمِه على طريق الكنايةِ استمرارَ لوطٍ عليه السلام على دعوتِهم والإنكارَ على أفعالهم القبيحةِ، بمعنى أنَّه عليه السلام كان مستمرًّا على دعوتِه لهم وكانوا مُستمرّين على نهيِه عن منعِهم منَ الوصولِ إلى رذائِلهم.

نُكتةُ التّعْبيرِ بالفعلِ ﴿نَنْهَكَ﴾:

جمْعُ قومِ لوطٍ بين شَناعةِ الفعلِ، وشَناعةِ القولِ

في التّعبيرِ بلفظِ ﴿نَنْهَكَ﴾ إشعارٌ بفظاظتِهم ووقاحتِهم في قولِهم، فالتّعبيرُ بلفظِ النّهيِ يفيدُ الزّجرَ عن غايةِ ما يكونُ وآخرِه في طلب الكفِّ عن أمرٍ[1]، فهم لقُبحِهم وقُبحِ أفعالِهم يرتكبون شناعةً أخرى في مخاطبة رسولِهم عليه السلام.

دَلالةُ (ال) في لفْظِ ﴿ٱلْعَٰلَمِينَ﴾:

لفْظُ (العالمين) بمعنَى النّاسِ الّذين مَرّوا بهم

(ال) هنا للعهدِ العِلميِّ، وأرادوا بِهِ هُنا عالَمي زمانِهم من أصنافِ القَبائِلِ أو العالمين الذين مرّوا بهم وأمكن ملاقاتُهم، فعبِّرَ بـ ﴿ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ لِقَصْدِ التَّعْميم[2].

بَلاغةُ تَعديةِ فعلِ النّهيِ إلى الذّواتِ:

صَفاقةُ المُنحرفين، في نهْيِ رسولِهم عن حِمايةِ ضُيوفِه المُكرَمين

قولُه تعالى: ﴿أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، تَعْدِيَةُ النَّهْيِ إلى ذاتِ العالَمينَ للمبالغة في النّهي، وهو تقديرُ مُضافٍ دَلَّ عليه المَقامُ؛ إذِ النّهيُ لا يتعلَّقُ بالذّوات، أي ألم ننْهكَ عن حمايةِ العالَمين أو عن منعِهم أو عنِ الدَّفعِ عنِ العالَمين[3]، وذهب بعضُ المفسّرين إلى أنَّ التّقديرَ: ألم نَنْهك عن أن تضيفَ أحدًا من العالَمين؛ وكأنَّهم يقولون

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات: (نهي).
(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 11/187، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/67.
(3) الواحدي، التفسير البسيط: 12/630، والزّمخشري، الكشاف: 2/585، والبيضاويّ، أنوار التنزيل: 3/215.

له لو انتهيتَ عن ضيافتِهم لا يلحقُ بك هوانٌ ولا خجالةٌ بسَبَبِهم[1]، واعتُرِضَ عليه بأنَّه لا يوافقُ اسْتِبشارَهم بالضّيفِ وهَرَعَهُم إليه، في قولِه تعالى: ﴿وَجَآءَ أَهۡلُ ٱلۡمَدِينَةِ يَسۡتَبۡشِرُونَ﴾، فكيف ينهونَه عن شيء يَستبشِرون به، ويحتملُ أن يكونَ نهيُهم عن ضيافة الغرباءِ، طمعًا منهم في سهولةِ فعلِ الفاحشةِ، ولأنَّهم كانوا يعلمون أنَّ لوطًا عليه السلام، إذا نزل به الضّيفُ منعَهم منَ الوصولِ إليهم، ومع هذا فالتّقديرُ المذكورُ أوّلًا أولى وأظهرُ[2].

نُكتةُ التَّعْبيرِ بلفْظِ ﴿ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾:

لمّا كان قومُ لوطٍ يتعرَّضون لكلِّ أحدٍ[3]، عبَّر بلفظٍ يعمُّ الجميعَ في قولِه ﴿ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ على سبيلِ المبالغةِ؛ للإيذانِ بمزيدِ شَناعةِ فعْلِهم، فلا حرمةَ لأحدٍ عندَهم.

لا حُرمةَ لأحدٍ عندَ المُنحَرفين، لفسادِ طِباعِهم، وسوءِ أخلاقِهم

(1) ابن جرير، جامع البيان: 17/117، والبغوي، معالم التنزيل: 3/63، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 3/215، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 11/188.

(2) ابن المظفر الرازي، مباحث التفسير، ص: 195.

(3) الواحدي، التّفسير البسيط: 12/630، والزمخشريّ، الكشاف: 2/585.

﴿قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِيٓ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ ٧١﴾ [الحجر: 71]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

دفع الشّرّ بعرض بناته للزّواج، لحفظ ضيوفه، من الانتهاك المحرّم

لمّا أنكروا على لوطٍ عليه السلام منعهم مِنَ الأضياف عرضَ عليهم بَناتِه للزّواجِ ظَنًّا أنَّ ذَلِك يردعهم ويُطفئ شَبَقَهُم أو يستحوا ويرقّوا له[1].

وأيضًا لمّا وصلوا إلى هذا الحدِّ منَ الوقاحة، ورآهم لا يُقلِعون عمّا هم عليه ذكر لهم الحريم ليحملهم ذلك على الحياء؛ لأنَّه دأبُ مَن له أدنى مروءةٍ ولا سيَّما ذكرُ الأبكارِ في سياقٍ يكادُ يُصرِّحُ بمرادِه[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿بَنَاتِيٓ﴾: أصلُ (بنو): كلمةٌ واحِدَةٌ، وهو الشَّيءُ يَتَوَلَّدُ عَنِ الشَّيءِ، كابنِ الإنسانِ وغيرِه، وأصلُ بِنائِه بَنَوَ، والنِّسبةُ إليهِ بَنَويٌّ، وكذلكَ النِّسْبَةُ إلى بِنْتٍ، ثُمَّ تُفَرِّعُ العَرَبُ، فتُسَمّي أشْياءَ كَثيرَةً بابْنِ كَذا، وأشْياءَ غَيْرَها بِبِنْتِ كَذا[3]، والبِنْتُ: مُؤَنَّثُ الابْنِ، وهو الوَلَدُ الذَّكَرُ، سُمّيَ به؛ لكَونِهِ بِناءً للأبِ ومُتَوَلِّدًا عنه، والأُنثى مِنَ الأوْلادِ تُسَمَّى ابنَةً وبِنْتًا، وعند الإطلاقِ يَنْصَرِفُ إلى البِنْتِ مِنَ النَّسَبِ، والجَمعُ: بَناتٌ[4]، والمقصود بـ ﴿بَنَاتِيٓ﴾ في الآية: بَناتُ صُلْبِهِ أو بَناتُ القَوْمِ كُلِّهِم؛ تَنزيلًا لَهُم منزِلَةَ بَناتِهِ؛ لأنَّ النَّبيَّ كَأبٍ لِأُمَّتِهِ.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/63.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 11/75.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بنو).
(4) الجوهريّ، الصّحاح، وابن منظور، لسان العرب: (بنو).

المَعْنى الإجْماليُّ:

التشجيع على اتّباع الفطرة

قال لوطٌ لِقَومِه: تزوَّجوا مِن نسائِكم[1]، ولا تَفعَلوا ما حرَّمَ اللهُ عليكم من إتيانِ الذُّكورِ، إن كنتُم فاعلينَ[2].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

دلالة الفصل في الآية الكريمة:

استدرار الأسماع، لاستمرار الاستماع، لما هو مهمٌّ في الحياة

لمّا أنكر قوم لوط عليه السلام على رسولِهم حمايتَه لضيفِه؛ كان كأنَّه قيل: فما أجابَهم لوطٌ عليه السلام، وماذا قال لهم؟ فجاءت الآية على طريق الجواب لسؤالٍ مقدَّر، استدرارًا لأسماع المخاطبين وتنشيطًا لهم على استمرار الإصغاء للقصَّة.

دلالة الضّمير في الفعل ﴿قَالَ﴾:

مصابرة الرّسل في دعوة الأقوامِ، رغم العناد والأذى والآلام

يعود الضمير على لوط عليه السلام بما اتَّصف به، أي: قال لوط؛ الذي أنكر عليه قومُه منعَهم من الفاحشة ونهَوْه عن حماية ضيفِه؛ ليفيد أنَّه عليه السلام لم ينتهِ عمّا نهَوه عنه، بل استمرَّ على دعوتِه لهم، ولمّا كان الكلام على طريق المقاولة بين لوطٍ وقومِه في شأنِ الأضياف كان التّقدير: قال لوطٌ لقومه حين قصدوا أضيافه.

نكتة التّعبير باسم الإشارة ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾:

إتاحة الحلال، للنّأي بالعصاة عن الحرام

لمّا كان اسم الإشارة ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ للقريب دلَّ على أنّ زواجَهم ببناتِه سهلٌ يسيرٌ قريبٌ منهم، فالإشارة لتنزيلهم منزلة

---

(1) ذهب بعضُ المفسِّرين إلى أنَّ المرادَ بـ ﴿بَنَاتِيٓ﴾: نساءُ أمَّتي، لكونِ النبيِّ بمنزلةِ الأبِ لِقَومِه، وممَّن ذهَب إلى ذلك في الجملةِ: ابنُ جريرٍ، والزجّاجُ، والزّمخشري، وابنُ العربي، وابنُ كثير.

يُنظر: ابن جرير، جامع البيان: 14/91، والزجاج، معاني القرآن وإعرابه: 3/183، والزّمخشريّ، الكشّاف: 2/585، وابن العربي، أحكام القرآن: 3/104، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/542، وممّن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السَّلفِ: قتادةُ. يُنظر: ابن جرير، جامع البيان: 14/91، وابن أبي حاتم، تفسير ابن أبي حاتم: 7/2269.

وقيل: المراد بهنَّ: بناتُ لوطٍ عليه السلام، فعرَضَ على قومه التزوُّجَ بهنَّ إن أسلَموا، وممّن ذهَب إلى هذا القولِ: البغوي، والخازنُ. يُنظر: البغوي، معالم التنزيل: 3/62، والخازن، لباب التأويل: 3/60.

(2) ابن جرير، جامع البيان: 8/582، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 3/158، والسّعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 240.

الحاضر عندهم، ودلَّ بلازمِه على أنَّهم لن يطالوا ما جاؤوا لأجلِه، لبعدِه عنهم.

بلاغة لفظ ﴿بَنَاتِيٓ﴾ بين الحقيقة والمجاز:

النَّبي بمنزلة الأب لنساء قومه، وكلّ بنات أتباعه بناته

يحتمل أن يكون تكون الإضافة في ﴿بَنَاتِيٓ﴾ على المجاز من قبيلِ الاستعارة التّصريحيَّة؛ بتشبيه بناتِ قومِه ببناتِه في الرعاية والاهتمام، وأنَّه ﷺ بمثابة الأب لنساء القوم، أو يكون الكلام على الحقيقة بطريق التّشبيه البليغ، أيْ: هَؤُلاءِ نِساؤُهُنَّ كَبَناتي، وأرادَ نِساءً مِنْ قَوْمِهِ بِعَدَدِ القَوْمِ الَّذينَ جاؤوا يُهْرَعونَ إلَيْهِ، أو أن تكون الإضافة في ﴿بَنَاتِيٓ﴾ على طريق المجاز بالحذف، أي: بناتِ قومي، كما تحتمل الإضافة أن تكون لأدنى ملابسة، فإنَّ نبيَّ كلِّ أمّةٍ بمنزلة أبيهم، والمرادُ ندبُهم إلى زواج بنات قومِه بدلًا من فعلِ الفاحشةِ، ويصحُّ أن يدخل فيه بناته على التّغليب لقصد التّحبيب والحثِّ على التّركِ، كما يُحتمل أن تكون الإضافة على أصلِها من غير حذفٍ ويكون المراد من ﴿بَنَاتِيٓ﴾ بنات صلبه على معنى الزّواجِ منهنَّ لمّا جاءه أكابرُ القومِ وحاكموهم[1].

دلالة الإسناد الخبريّ في قوله ﴿هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِيٓ﴾:

رعاية الأدب في عرضِ الزّواج، من سنن المرسلين، ولو في مواقف الإحراج

يحتمل هذا التّركيب أن يكون تامًّا من مبتدأ وخبر[2]، وفي الكلام حذفٌ تقديره: هؤلاء بناتي فتزوَّجوهنَ، وحُذِفَ (فتزوّجوهنَّ) لدلالة السياق عليه ولإفادة تقريب زواجِهم منهنَّ، أو يكون التّقدير هؤلاء بناتي لو تزوجتم بهنَّ، فيكون مجيء الخبرِ على خلافِ مقتضى الظّاهر؛ ليفيدَ العرضَ والتّحضيض مع تضمينه معنى التّمنّي لعلمِه بأنَّهم ليسوا بفاعلين، وأشار إلى هذا المعنى ابن عاشور

(1) ابن جرير، جامع البيان: 15/413، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 3/142، 215، وأبو حيان، البحر المحيط: 6/187، وابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/367، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 11/188.

(2) العكبري، التبيان في إعراب القرآن: 2/786، وأبو حيان، البحر المحيط: 6/187، والسمين الحلبي، الدر المصون: 7/173.

حين رأى أنَّ الإشارة هنا مستعملةٌ في العرض، والتَّقْديرُ: هؤلاء بناتي فخُذوهُنَّ، والحذفُ فيه لِرعايةِ الأدب في عرضِ الزّواج، أو يكون الإسناد الخبري على طريق المجاز، بمعنى أنَّه لا يقصد حقيقة عرضِ بناتِه للزّواج، وما كان يقصد حقيقة إرادة النّكاح، ولا يحقق في إباحة بناته، بل كان ذلك مبالغةً في التواضع لهم، وإظهارًا لشدة امتعاضِه مما أوردوا عليه طمعًا في أن يستحيوا منه ويرِقّوا له إذا سمعوا ذلك؛ فينزجروا عما أقدموا عليه، وهذا كما تقول لإنسان تراه يريد قتل آخر: اقتلني ولا تقتله، فإنِّما ذلك على جهة التَّشنيع عليه والاستنزال من جهة ما واستدعاء الحياء منه، وهذا كلُّه من مبالغة القول الذي لا يدخله معنى الكذب بل الغرض منه مفهوم، فقد استقر العلم عندهم جميعًا أن لا مناكحة بينهم وهو الأنسبُ بقولهم: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ﴾ [هود: 78]، ويحتمل أن يكون ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ مبتدأً و﴿بَنَاتِيٓ﴾ بدلًا أو عطفَ بيانٍ، والخبر محذوف تقديره (أطهر لكم) كما جاء في قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِيٓ هُنَّ أَطۡهَرُ لَكُمۡۖ﴾ [هود: 78]، فيكون المرادُ من مجيء هذا التّركيب الإشارة إلى النّساء، وأنَّهنَّ أطهر لهم في قضاء الوطر عن طريق الزّواجِ، فأراد أن يقي أضيافه ببناته، وذلك غاية الكرم والحميَّة للضَّيفِ[1].

بلاغة مجيء الشّرط بالأداة ﴿إن﴾:

لمّا كانت ﴿إن﴾ تفيد الشّكَّ في وقوعِ الشّرط أفاد التّعبيرُ إيذانَهم بأنَّه يشكُّ في قبولِهم نصحَه لِما يعلمُه من أفعالِهم وقبحِ سريرتِهم، فكأنَّه قال: إن كنتم فاعلين ما أقول لكم فهو خيرٌ لكم، بمعنى أنَّه يجزم بعدمِ فعلِهم ما يقولُ لهم أو باستحالتِه من قِبَلِهم؛ لعلمِه بقبيحِ

الشّذوذ عن الفطرة يخرج عن قوانين الله، ويلغي نهيه وأمره

(1) ابن جرير، جامع البيان: 15/414، والزجاج، معاني القرآن وإعرابه: 3/67، والزمخشري، الكشاف: 2/585، وابن عطية، المحرر الوجيز: 3/369، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 3/143، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/228.

سريرتِهم وعشقِهم للشّذوذ عن الفطرة، أو بأنَّه يشكُّ في رغبتِهم بالزواجِ من بناتِه، والمعنى: إن كنتم فاعلين قضاء الشّهوةِ فاقضوها مِنَ الحلال وهذا التّقدير أولى؛ لما يدلُّ عليه لفظ ﴿فَٰعِلِينَ﴾ من الفعل وهو قضاء الوطر[1].

بلاغة الكناية في قولِه ﴿إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ﴾:

إن كان التّقدير: ﴿إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ﴾ قضاء الشهوة كما تقدَّم، كان التّعبير بلفظ ﴿فَٰعِلِينَ﴾ كنايةً عن طلب الجماع[2].

الزّواج سبيل تقويم لاعوجاج الشّاردين

بلاغة التّعريض بقولِه: ﴿فَٰعِلِينَ﴾:

أفاد التّعبير بلفظ فاعلين التَّعريضَ بأنَّهم كانوا قد عزموا عزمًا ماضيًا على فعل المنكر بإضمار المستنكر، لتحقيقِ مرادهم[3].

دلالة تركيب كان ومعموليها في السّياق:

أفاد تركيب كان مع معموليها في قوله تعالى: ﴿إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ﴾ أنَّ شكَّ لوطٍ عليه السلام في قبول قومِه لنصحِه ورغبتِهم في الزّواج مستمرٌّ، ولكنّه لم يدعْ دعوتَهم ونصحَهم.

إشارة إلى أهميّة الثّبات على النّصح والإرشاد، وإن طال الرّفضِ والعناد

(1) البقاعي، نظم الدرر: 11/75، والشّهاب، عناية القاضي: 5/202، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 11/188.

(2) المجاشعي، النكت في القرآن الكريم، ص: 279.

(3) البقاعي، نظم الدرر: 11/7.

﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾﴾ [الحجر: 72]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

لا رأي لمن لا يطاع، والعَمَهُ في سكرة الهوى، ليس لـه دواء

لمّا ذكرَ ما ذكر من أمورِ قومِ لوطٍ عليه السلام وعظيم فجورهم، وهم قد فُرِغَ من أمرِهم وقُضيَ باستئصالِهم، كان كلُّ مَن يعلمُ ذلك قاضيًا بأنَّهم لا عقولَ لهم، فأتبع سبحانه ذلك ما يدلُّ عليه فجاءت هذه الآية[1].

وأيضًا لمّا كان الظّاهر من أفعالِ قومِ لوطٍ أنَّهم لا يُقلعون عن أفعالِهم القبيحة جاءت جملة ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ مُعْتَرِضَةً بَيْنَ أجْزاءِ القِصَّةِ؛ لِلْعِبْرَةِ في عَدَمِ جَدْوَى المَوْعِظَةِ فيمَنْ يَكونُ في سَكْرَةِ هَواهُ[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿لَعَمْرُكَ﴾: أصلُ (عمر): يَدُلُّ على بَقاءٍ وامتِدادِ زَمانٍ، فالعُمرُ وهو الحَياةُ، وهو العَمرُ أيضًا، فإذا أقسموا فقالوا: لَعَمرُك فتَحوا لا غَيْرُ، والجَمعُ أعْمار؛ وسُمّي الرَّجُلُ عَمرًا تَفاؤُلًا أن يَبْقَى[3]، والعَرَبُ تَقولُ في القسَم: لَعَمري ولَعَمرُك، يَرْفَعونَهُ بِالابْتِداءِ ويُضْمِرونَ الخَبَرَ كأنَّه قالَ: لَعَمرُك قَسَمي أو يَميني أو ما أحْلِفُ بِهِ، وقيلَ: العَمرُ هاهُنا الدّينُ؛ وأيًّا كانَ فإنَّه لا يُسْتَعْمَلُ في القسَم إلّا مَفْتوحًا، يُقالُ: لَعَمرُكَ، يَحْلِفُ بِعَمرِهِ، أي: حَياتِهِ[4]، وما أقسَم اللّه تَعالَى بحياة أحدٍ إلّا بحياة النَّبي ﷺ[5]، والمقصود بـ﴿لَعَمْرُكَ﴾ في

(1) البقاعي، نظم الدرر: 11/7.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/67.
(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (عمر).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (عمر).
(5) ابن دريد، جمهرة اللّغة: (عمر).

الآية: قَسَمٌ بِحياةِ المُخاطَبِ به، والمُخاطَبُ بِها مُحمَّدٌ ﷺ مِنْ قِبَلِ اللّٰه تعالى[1].

2) ﴿سَكْرَتِهِمْ﴾: أصلُ (سكر) أصْلٌ واحِدٌ يَدُلُّ عَلَى حَيْرَةٍ. مِنْ ذلكَ: السُّكْرُ مِنَ الشَّرابِ. يُقالُ رَجُلٌ سِكّيرٌ، أيْ: كَثيرُ السُّكْرِ[2]، والسَّكْرَةُ: ذَهابُ العَقْلِ، مُشْتَقَّةٌ مِنَ السَّكْرِ - بِفَتْحِ السّينِ - وهو السَّدُّ والغَلْقُ[3]، والسَّكَرُ - بِفَتْحَتَيْنِ -: الشَّرابُ المُسْكِرُ، والتَّسْكيرُ: التَّحْييرُ، والسِّكْرُ: اسْمُ السِّدادِ الَّذي يُجْعَلُ سَدًّا لِلشِّقِّ ونَحْوِهِ، والماءُ إذا سُكِرَ تَحَيَّرَ[4]، والمرادُ مِنَ السَّكْرَةِ في الآية: ذهابُ العَقْلِ.

3) ﴿يَعْمَهُونَ﴾: أصلُ (عمه): أصْلٌ صَحيحٌ واحِدٌ، يَدُلُّ على حَيْرَةٍ وقِلَّةِ اهتداءٍ، قالَ الخَليلُ: عَمِهَ الرَّجُلُ يَعْمَهُ عَمَهًا، وذَلِكَ إذا تَرَدَّدَ لا يَدْري أيْنَ يَتَوَجَّهُ، والجَمعُ عَمِهون وعُمَّهٌ، والعَمَهُ في البَصيرَةِ كالعَمَى في البصَرِ[5]، وقيلَ: العَمَهُ التَّرَدُّدُ في الضَّلالَةِ، والتَّحَيُّرُ في مُنازعةٍ أو طَريقٍ؛ قالَ ثَعْلَبٌ: هو أن لا ألّا يَعْرِف الحُجَّة[6]، والعَمَهُ في الرأْيِ، والعَمَى في البصَرِ، ويَكونُ العَمى عَمى القَلْبِ، يُقالُ: رَجُلٌ عَمِهٌ إذا كانَ لا يُبْصِر بِقَلْبِهِ، وأرض عَمهاءُ: لا أعلامَ بِها، وذَهَبَتْ إبلُهُ العُمَّهَى إذا لم يدرِ أينَ ذهبتْ، والعُمَّيْهَى مثله[7]، والمقصود بالعَمَهِ في الآية: انطِماسُ البَصيرَةِ وتَحَيُّرُ الرَّأْيِ.

المَعْنى الإجْماليُّ:

أجمع أهل التَّفسير في قوله تعالى: ﴿لَعَمْرُكَ﴾ أنَّه قسَمٌ مِنَ اللّٰه

سكرة الفواحش، تجرّ إلى كلّ فاحش، ولا ينفع معها نصح ولا تقريع

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/68.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سكر).
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/68.
(4) ابن عباد، المحيط في اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (سكر).
(5) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن الأثير، النّهاية، وابن منظور، لسان العرب: (عمه).
(6) ابن منظور، لسان العرب: (عمه).
(7) الأزهريّ، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (عمه).

ﷻ بمدَّة حياة محمَّد ﷺ تشريفًا له، فقال سبحانه: أُقسِمُ بحَياتِك يا محمَّدُ ﷺ إنَّ قومَكَ لَفي ضَلالتِهم وجَهالتهم وغَفلتِهم يترددون ولا يهتدونَ.

ويُحتمل أن يرجع ذلكَ إلى قوم لوط، أنَّهم كانوا في سكرتهم يعمهون، بسبَبِ سَكرةِ الهَوى والعِشقِ، وأنَّ الملائكة قالت له: ﴿لَعَمْرُكَ﴾[1].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

فائدةُ الجملةِ الاعتراضيَّة، في سياق الآية:

استحكام داء الفاحشة العضال، سبيل للزّيغ والفساد والضّلالِ

قوله تعالى: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾، إن كان الكلامُ خطابًا منَ الله تعالى لسيدنا رسول الله محمَّدٍ ﷺ - وهو الذي عليه جمهور المفسّرين، ونُقل إجماعهم عليه[2] - وكان الضّمير في ﴿إِنَّهُمْ﴾ عائدًا إلى المكذِّبين من قريش بدلالة المخاطبة كانت الجملةُ اعتراضيَّةً، وأفادت تنبيه المكذِّبين من قريشٍ إلى أنَّ حالَهم كحال قومِ لوطٍ في غوايتهم وعدم تمييزهم الصّواب منَ الخطأ ممّا هو بيّن عندَ عقلِ أيِّ إنسانٍ، وإلى أنَّهم قد كذّبوا مثل تكذيب قوم لوطٍ لكنَّهم لم يعاقبوا بعدُ، فليترقّبوا العذاب إن استمرّوا في ضلالِهم وغيِّهم، ومثله في كون الجملة اعتراضية إن عاد الضّمير في ﴿إِنَّهُمْ﴾ على قوم لوطٍ، ليُفيدَ الاعتراضُ النَّعيَ عليهم، وتماديَهم في ارتكاب تلك الفاحشة؛ لأنَّ في عرضِ نبيِّ الله لوطٍ عليه السلام بناتِه على القوم، دليلًا على بلوغ الغايةِ في الأمر، وأنَّه بلغ السَّيلُ الزُّبى، وجاوز الحزامُ الطُّبيَين، كأنَّه قيل: يا محمَّد ﷺ، بحياتك أقسم، إنَّهم لفي سكرتهم يعمهون، وإن كان الكلامُ خطابًا من الملائكة للوطٍ عليه السلام

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 3/370، والسّعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 433، والزّحيلي، التفسير المنير: 14/57.

(2) الواحدي، التفسير البسيط: 12/632، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 10/39، وأبو حيان، البحر المحيط: 6/490.

فالجملة ليست اعتراضًا، ويجب أن يُقدَّرَ: قالت الملائكة: لَعَمرُكَ؛ لتفيدَ بيان سبب الحكم عليهم بالاستئصالِ ووقوع أنواعِ العذاب، فلأنَّهم في سكرتِهم يعمهون فلا ينتفعون بتذكير ولا نصح أخذتهم الرّجفة وجعل اللّه عاليَ المدينة سافلَها كما أفادت الجملةُ تأكيد ما كان يستبعده[1].

بلاغةُ صيغةِ جملةِ القسمِ ﴿لَعَمْرُكَ﴾:

تكريم رسولِ اللّه ﷺ، وإعلام الأمّة بنعمة وجوده وبعثته

في القسم بعمر رسولِ اللّه محمَّدٍ ﷺ أعظم تفضيل له وتكريم، وهذه الآية آية عظيمة في تفضيل رسول اللّه، فلم يقسم اللّه تعالى بعمرٍ غير عمرِ سيدنا محمَّدٍ ﷺ، ولا أقسم بغيره منَ النّاس، وفي القسم بحياتِه ﷺ إيذانٌ بظهورِ رفعته على سائر الخلقِ، وتخصيص له في شرفه ومحبَّتِه وتفضيلٌ له على سائر البريَّة، فإنَّ اللّه تعالى ما اقسم بخلقٍ من خلقِه على جهة المخاطبة سواه ﷺ، وأجلُّ ما أقسم به من خلقه نبيُّنا ﷺ، فعَنِ ابْنِ عَبّاسٍ رضي الله عنهما، قالَ "ما خَلَقَ اللّه، عز وجل، ولا ذَرَأ ولا بَرَأ نَفْسًا أكْرَمَ عَلَيْهِ مِنْ مُحَمَّدٍ، ﷺ، وما سَمِعْتُ اللّه أقْسَمَ بِحَياةِ أحَدٍ إلا بِحَياتِهِ"[2] ووجه القسم بعمر رسول اللّه ﷺ هو أنَّ العمر هو أوقاتٌ لحياةٍ مخصوصة؛ ليفيد القسم بالعمر تشريف أوقاتِ حياتِه، ولمّا كانت حياة أي إنسانٍ لازمةً لذاتِه كان القسم بعمره ﷺ قسمًا بذاتِه وما لازمه فيها من صفاتٍ شريفةٍ منذ أوّل نَفَسٍ له ﷺ في هذه الدنيا إلى آخر نفسٍ له فيها، فلا عمرَ أفضلُ من عمرِ وحياةِ رسول اللّه ﷺ، فكانَ أهلًا أن يقسم به؛ لمزيته على كلِّ عمرٍ من أعمار بني آدم، ولا ريب أنَّ عمره وحياته من أعظم النِّعمِ والآياتِ على البشرِ جميعًا، والقسم به أولى من القسم بغيره من المخلوقات[3].

(1) أبو حفص النسفي، التيسير في التفسير، ص: 9، و210، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 3/218، وأبو حيان، البحر المحيط: 6/490.

(2) الواحدي، التفسير الوسيط: 3/49.

(3) ابن العلاء أحكام القرآن: 2/61، وابن القيم، التبيان في أيمان القرآن، ص: 429.

وجه اختصاص ﴿لَعَمْرُكَ﴾ دون (عُمْرِكَ) بالقسم:

خصَّ الاستعمال العربيّ القسمَ بالمفتوحِ العين دون المضموم؛ لإيثار الأخفِّ في القسم، وذلك لأنَّ الحلف كثير الدّور على ألسنتهم، فلمّا كثر استعمالُهم إيّاه، لزموا الأخفَّ عليهم[1].

كثرة استعمال الألفاظ ودورانها في اللّسان، سبيل إلى تخفيفِها

نكتةُ حذفِ المسند ﴿لَعَمْرُكَ﴾:

حذف المسند وهو الخبر، لأنَّ خبر القسم محذوف دائمًا للإيجاز؛ لعلم المخاطب بأنَّه قسمٌ، ففي الكلام دليل على المحذوف؛ لأنَّ التقدير لعمرك قسمي، فالعَمرُ مقسمٌ به[2].

صحّة الحذف لدليل يدلُّ عليه، من فصيح البيان

غرضُ التّوكيدِ ﴿إِنَّهُمْ﴾، في جملةِ جوابِ القسم:

قوله تعالى: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾، وفيه أنّه لمّا كان القسم بعمر رسول الله ﷺ عظيمًا بل هو أعظمُ قسم أقسم الله به بمخلوقٍ دلَّ على تعظيم جواب القسم، ولهذا أكّده بـ(إنَّ) واللّام وتقديم متعلَّق الفعل ﴿لَفِي سَكْرَتِهِمْ﴾ على الفعل ﴿يَعْمَهُونَ﴾، وأُكِّدَ الكلامُ بثلاثة تأكيداتٍ ليكون على طريق الخبر الإنكاريِّ؛ للإيذانِ بأنَّ المخاطبين قد أشربوا الإنكار في أنَّهم في سكرتِهم يعمهون، وأنَّهم كانوا مبالغين في التّكذيب، فلا يفيدهم تذكير ولا تحذير.

المبالغ في التّكذيب لا يفيده تذكير ولا تحذير

دلالة الضّمير في قولِه ﴿إِنَّهُمْ﴾ في الآية:

يحتمل أن يكون الضّمير في ﴿إِنَّهُمْ﴾ ومثله في ﴿سَكْرَتِهِمْ﴾ و﴿يَعْمَهُونَ﴾ عائدًا إلى المكذِّبين من قريشٍ بدلالة الخطابِ كما تقدّم في توجيه الجملة الاعتراضية، فيكون قد أقسم بعمر رسول الله أنَّ المكذِّبين من قريش لفي سكرتِهم يعمهون، ويحتمل أن يكون

المكذّبون بالرّسل شرورهم رائدة، وكفرهم في أصله ملّة واحدة

(1) الزجاج، معاني القرآن وإعرابه: 3/183، والزمخشريّ، الكشاف: 2/586، وابن عطية، المحرر الوجيز: 3/369.

(2) النحاس، إعراب القرآن: 2/244.

عائدًا إلى قوم لوطٍ، بمعنى أنَّ اللّه تعالى أقسم بعمر رسولِ اللّه محمَّدٍ ﷺ على أنَّ قومَ لوطٍ لفي سكرتِهم يعمهون[1].

نكتةُ تقديمِ الجارِّ والمجرورِ في السّياق:

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾، تقديم الجارّ والمجرور ﴿لَفِي سَكْرَتِهِمْ﴾ لأنه الخبر؛ فهو الحُكم عليهم بأنّهم لفي غفلتهم وغوايتهم يترددون ويتحيّرون، وجملة ﴿يَعْمَهُونَ﴾ حال، وإنَّ وما دخلت عليه جواب القسم.

الإخبار أنّهم مغمورون في سكرتهم، وبيان حالهم من العمه

نكتة التّعبير بلفظ السّكر في السّياق:

عبِّرَ بلفظ السّكر الّذي هو ذهاب العقلِ، ومنه السّكر بالخمرِ، لأنَّ السّكر حالةٌ تعرض بين المرء وعقله، فكأنَّه يسدُّ عقله، ويمنعه منَ التّمييز[2].

السّكر يذهب بالعقل، وإذا جاءت السّكرة، ذهبت الفكرة

بلاغةُ الاستعارة المكنيّة، في سياق الآية الرّضيّة:

لمّا قال ﴿لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ أفاد أنَّ السّكرة كالظرفِ لتحيّرهم، فشُبِّه السّكر بالظَّرفِ على طريق الاستعارة المكنيَّة، بمعنى إحاطةِ السّكر بتحيّرهم وتردّدهم، فهم متغلغلون فيه لا يستطيعون فكاكًا عنه، ولا خروجًا منه، فلا يميّزون الحقَّ ولا يهتدون لطريقِه.

المكذّبون بالرّسل، لا يميّزون الحقَّ، ولا يهتدون إليه سبيلا

بلاغةُ الاستعارة التّصريحيّة في لفظ: ﴿سَكْرَتِهِمْ﴾:

شُبِّه ضلالُهم وغواتيُهم؛ لِغَلَبَةِ دَواعي الهَوَى عَلَى دَواعي الرَّشادِ، بِذَهابِ العَقْلِ ومنعِه[3] من التّمييز بين الهدى والضّلالِ على طريق الاستعارة التّصريحيّة، فالسَّكرة مستعارةٌ للضَّلالِ أو الغوايةِ، والعلاقة هي إزالة العقول عن تمييز الخطأ من الصَّوابِ وليس في

المكذّب بالرّسالة المحمّديّة، لا يميّز خطأ من صواب

(1) الواحدي، التفسير البسيط: 12/635، وأبو حفص النسفي، التيسير في التفسير: 9/210، وابن عطية، المحرر الوجيز: 3/370، وأبو حيان، البحر المحيط: 6/490.

(2) ابن القيم، التّبيان في أيمان القرآن، ص: 430، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: 2/207.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/68.

وقت السّكرِ فقط بل المراد الدّوامَ، والغرضُ من الاستعارةِ المبالغة في إثباتِ ضلالِهم وغوايتِهم بإثباتِ المدعَّى عليهم، ولِتصوير حالتِهم وهم في ضلالهم وغوايتِهم.

سرّ الإضافة في قوله ﴿سَكْرَتِهِمْ﴾:

السّكرة عن الحقّ مخصوصة بالمكذّبين الضّالين

لمّا أضاف السّكرة إلى ضمير الجمع (هم)، وكانت الإضافة على معنى اللّام التي لِلاختصاص أفاد أنَّهم هم الذين أوقعوا أنفسهم في هذه السّكرة، فهي منسوبةٌ إليهم جميعًا، كما أفادت الإضافة أنّ هذه السّكرةَ مخصوصةٌ بهم، بسبب أفعالِهم القبيحة.

نكتة إفراد ﴿سَكْرَتِهِمْ﴾ دون جمعها في السّياق:

سبب الضّلال واحدٌ، وهو سدّ العقولِ عن الهداية والرَّشاد

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾، لمّا أفرد السّكرة ولم يقل: (لفي سكراتِهم يعمهون) ليكون من مقابلة الجمع بالجمعِ في ﴿يَعْمَهُونَ﴾، دلَّ على أنَّ سببَ ضلالِهم ومعصيتهم وفحشهم واحد، وأنَّهم اشتركوا في الأمر نفسِه، وهو سدُّ عقلِهم عن الهدايةِ والرّشاد، وفي إفرادِ السّكرة إشعارٌ بأنَّ أيَّ عقلٍ سليمٍ، لا يقبل فحشَ فعلِهم.

بلاغة المجاز، في لفظ ﴿يَعْمَهُونَ﴾:

عمه البصيرة وانطماسُها، بمثابة عمى العينين، وانطماس النّظر

لمّا كان العمه في البصيرة بمثابة العمى للعينين؛ ليفيدَ العمهُ معنى انطماس البصيرة، أفاد بلازمِه على سبيل المجاز تحيُّرَهم وتردّدهم في الضّلال بحيث لا يدرون أين يتوجَّهون ولا يعرفون حسنًا من قبحٍ ولا حقًّا من باطلٍ، لعمهِ بصيرتِهم، ولمّا كان عمه البصيرة وصفًا ثابتًا أفادَ التّعبير به استمرارَهم في غوايتِهم وتماديهم، فلا ينفعُهم نصحٌ ولا تذكيرٌ ليتركوا قبيحَ أفعالِهم، فليس لهم إلّا العذاب[1].

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 1/48، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 11/189.

دلالة صيغة الفعل المضارع ﴿يَعْمَهُونَ﴾:

التّعبير بصيغة المضارع، باستمرار ضلالِهم اللّامنتاهي

أفاد التّعبير بصيغة المضارع استمرارَ عمهِهم بمعنى تجدّد حدوثِه، أي يمضون في ضلالِهم ويستمرّون عليه ولا يتوقَّفونَ فيه ولا يرجعونَ منه، وليس في وقتِ السّكرِ فقطْ، كما أنَّ في مجيء الفعل بصيغة المضارع بناءً على المأثور في الخطاب في حكاية الحال الماضية لاستحضارِ حالة العمه في المشاهدة، والتّعجُّبِ لها[1].

بلاغة مجيء المسند جملةً فعليَّةً:

من سدَّ عقلَه عن الهداية، انطمس عليه في الغواية

لمّا كان جملة ﴿يَعْمَهُونَ﴾ خبرًا لـ(إنَّ) أفادت الجملة الفعلية تقوّي الحكم بمعنى تحقيق عمههم في سكرتِهم، دونَ تخصيصِه بهم، وأنَّه لا يكونُ مِنْ مثلِهم ممَّن هم في الغوايةِ والضّلالِ إلّا أن يكونوا في سكرتِهم يعمهون[2].

(1) الواحدي، التفسير البسيط: 12/635، والطيبي، حاشية على الكشاف: 9/54، وأبو السّعود، إرشاد العقل السليم: 5/86.

(2) السكاكي، مفتاح العلوم، ص: 221.

﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّيۡحَةُ مُشۡرِقِينَ ٧٣﴾ [الحجر: 73]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

لمّا بيّنت الرّسل للوطٍ عليه السلام حالَ قومِه، وامتثل لأمر ربِّه فسرى بأهلِه ليلًا فنجَوا، ولمّا قضى اللّه تعالى بقطعِ دابرِ قومِه ترتّب على الأمرِ نزول العذاب فجاء قولُه تعالى: ﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّيۡحَةُ مُشۡرِقِينَ﴾[1].

الأمرُ الإلهيُّ بقطعِ دابرِ الشاذّين عن الفطرة، بعذاب مستأصل مباغت

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلصَّيۡحَةُ﴾: أصلُ (صيح): تَشقيقُ الصَّوتِ، مِنْ قَولِهِم: انْصاحَ الخشبُ، أو الثَّوبُ، إذا انشقَّ، فسُمِعَ منه صَوتٌ، وصيحَ الثَّوبُ إذا انشقَّ، كذلك[2]، والصّياحُ صوتُ كُلِّ شَيْءٍ إذا اشْتَدَّ[3]، والصَّيْحَةُ: العذابُ، يُقالُ: صيحَ في آلِ فُلانٍ إذا هَلَكوا، والصَّيحةُ أيضًا: الغارةُ إذا فوجِئَ الحيُّ بها[4]، ولمّا كانت الصَّيْحَةُ قد تفزع عبَّر بها عَنِ الفَزَعِ في قوله: ﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّيۡحَةُ مُشۡرِقِينَ﴾، والصّائِحَةُ: صَيْحَةُ المناحة[5]، والمراد بالصَّيْحَةِ في الآية: صَعقةٌ في الهواءِ، وهي صَواعِقُ وزَلازِلُ، وفيها حِجارَةٌ مِنْ سِجّيلٍ[6].

2) ﴿مُشۡرِقِينَ﴾: أصلُ (شرق): أصلٌ واحِدٌ يَدُلُّ عَلَى إضاءَةٍ وفَتْحٍ. مِنْ ذلكَ شَرَقَتِ الشَّمسُ، إذا طَلَعَتْ، وأشْرَقَتْ، إذا أضاءَتْ، والشُّروقُ: طُلوعُها[7]، وأشرَقَ القوم: صاروا في وقت شُروقِ الشَّمس[8]،

(1) البقاعي، نظم الدرر: 11/76، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/67.
(2) الراغب، المفردات: (صيح).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (صيح).
(4) ابن منظور، لسان العرب: (صيح).
(5) الراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (صيح).
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/69.
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (شرق).
(8) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللغة: (شرق).

والـمَشْرِقُ والمغربُ إذا قيلا بالإفراد فإشارة إلى ناحيتي الشَّرْقِ والغَرب، وإذا قيلا بلفظ التّثنية فإشارة إلى مطلعي ومغربي الشِّتاء والصَّيف، وإذا قيلا بلفظ الجمع فاعتبار بمطلع كلّ يوم ومغربه، أو بمطلع كلّ فصل ومغربه، قال تعالى: ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ﴾ [الشعراء: 28]، ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ﴿١٧﴾﴾ [الرحمن: 17]، ﴿بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ﴾ [المعارج: 40]، وقوله تعالى: ﴿مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾﴾ [مريم: 16]، أي: من ناحية الشّرق، والـمِشْرَقَةُ: المكان الَّذي يظهر للشّرق[1]، والمقصود بـ﴿مُشْرِقِينَ﴾ في الآية: اسمُ فاعِلٍ مِنْ أشرَقوا؛ إذا دخلوا في وقتِ شُروقِ الشَّمسِ[2].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

إهلاك قوم لوط ما بين طلوع الفجر إلى شروق الشَّمس، بصورةٍ مفاجئة ساحقة

ذَكَر سبحانه عاقبة أمرهم فقال: فأخَذَتْهم صيحةٌ عَظيمةٌ هائِلةٌ مُهلِكةٌ، وقتَ شُروقِ الشَّمسِ[3]، وسبب اختيار هذا الوقت كونهم متجمعين في مساكنهم، ويجمع بين قوله تعالى: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴿٦٦﴾﴾ [الحجر: 66] وبين قوله هنا ﴿مُشْرِقِينَ﴾ بأنّ ابتداءَ عذابهم كان عند الصُّبح، وانتهاءَه كان عند الإشراق.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

فائدة الفاء في قولِه: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ﴾:

العقوبة الشّديدة، أفضل وسيلة لقطع حيلة المفسدين

أفادت الفاء التّرتب والتّعقيب، بمعنى أنَّ اللّه تعالى لمّا قضى عليهم بقطعِ دابرِهم ترتّب عليه وقوع العذاب بأخذهم بالصّيحة وما تلاها، كما أفادت الفاء أنَّ اللّه تعالى عاجلَهم بالعقوبةِ بعد أن قضى بقطعِ دابرِهم.

(1) ابن دريد، جمهرة اللغة، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، والرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحفّاظ: (شرق).

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/69.

(3) ابن جرير، جامع البيان: 14/93، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 10/42.

نكتة التّعبير بلفظ ﴿فَأَخَذَتْهُمُ﴾:

لمّا كان الأخذُ هو حوزَ الشَّيءِ وتحصيلَه على سبيل التّمكّن منه أفاد لفظ ﴿فَأَخَذَتْهُمُ﴾ معنى إحاطة الصيحة بهم وتمكّنها منهم أي قهرها إيّاهم[1].

الـعـذاب بالصّيحة، إحاطة وقهر واستئصال

بلاغةُ الكنايةِ، في أخذ الصّيحة لهم:

قوله تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ﴾، وفيه لمّا كان قولُه ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ﴾ دالًّا بظاهرِه على تمّكن القهرِ والهلاكِ منهم أفادَ بلازمِه على طريقِ الكناية بلفظ ﴿فَأَخَذَتْهُمُ﴾ سرعةَ هلاكِهم وتمكّنه منهم، فيكون المرادُ من التّعبير الملزومَ ولازمَه.

التّعبير بالأخذ عن سرعةِ الهلاكِ، من بليغ السّياق

دلالة (ال) في لفظ ﴿ٱلصَّيْحَةُ﴾:

(أل) في الصيحة جنسيَّة، لتفيد أنّ الصيحة التي أخذتهم فيها كلُّ معاني الصّيحة من القوّة ونفاذ الوصول، فكأنَّ ما سواها ليس بصيحة، والمعنى أخذتهم صيحة هائلةٌ مهلكةٌ، وذهب بعضهم إلى أنَّ (ال) عهدية، والمراد صيحة جبريل، وعلى القول الأول جمهور المفسّرين، فتعيين جبريل ليس مستفادًا من النّظم الجليلِ ولا يتعلَّق به غرضٌ[2].

العذاب بالصّيحة، عذاب مهول، يستأصل من الجذور

دلالة لفظ ﴿ٱلصَّيْحَةُ﴾ في السّياق:

المرادُ منَ الصّيحة الصَّوتُ العظيمُ الهائلُ، الذي يكون منه العذاب، ويكون بفعلِ اللّه تعالى، أو هي صاعقة العذاب، وهي بفعل اللّه كذلك[3].

الصّيحة هي الصّوت العظيم الهائل أو هي صاعقة العذاب

بلاغة المجاز في قولِه: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ﴾:

أسند الأخذ الذي بمعنى القهر إلى الصّيحة على طريق المجاز

(1) الراغب، المفردات، (أخذ)، والآلوسي، روح المعاني: 7/317.

(2) الزمخشري، الكشاف: 2/586، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 19/156، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 3/215، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 11/189.

(3) ابن جرير، جامع البيان: 17/119، والواحدي، التفسير البسيط: 12/636، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 19/156.

العقليِّ، تعظيمًا لأمر الصّيحة وهولِها، ليفيد التّعبير بلازمِه أنَّ هلاكَهم كانَ بالصّيحة[1].

هلاكُ المنحرفين كان بالصّيحة العظيمة، السّاحقة الماحقة

بلاغةُ الإخبار بالحالِ ﴿مُشْرِقِينَ﴾ دون الظَّرف:

لمّا كان الحال قيدًا لعاملِه، وكان على معنى بيان هيئة صاحبِه، ولمّا كان لفظ ﴿مُشْرِقِينَ﴾ بمعنى داخلين في الشروق، وفي وقتِ إضاءَةِ النّهار، دلَّ التّعبير بالحال هنا على اقترانِ أخذِ الصيحة لهم في حالِ كونِهم داخلين في وقتِ بزوغ الشّمس وإضاءَتها، فأفاد الحالُ استصحابَ مشاهدتِهم لِهيئتِهم في حالِ أخذ الصّيحة لهم؛ لبيانِ شدَّة الموقفِ وهولِه لِمَن ينحرف عن الفطرة الإنسانيَّة ويكذّب الرّسلَ، ويكون العذاب عليهم بهذه الهيئة أشدَّ ممّا أن يكون في ظلامِ الليل.

من انحرف عن الفطرة السّويّة، سلّط الله عليه أشدَّ أنواعِ العذاب

توجيه المتشابه اللّفظيّ في مواضع من السّورة:

قد يقال: قال اللّه تعالى أوّلًا: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴿٦٦﴾﴾ [الحجر: 66] فكان قطع دابرِهم مصبحين، وقال بعد ذلك: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ﴾، فكيف يجمعُ بين قطع الدّابر في وقت دخولِهم في الصّباح وفي وقتِ دخولِهم في الإشراق؟ والجوابُ من وجْهَيْن: أحدهما: أن ابْتِداء العَذاب كانَ من وقت دخولِهم في الصَّباحِ، وتَمامه عِنْد دخولِهم في الإشْراق، أي: إنّهم أهلكوا بعد الفجر مصبحين واستوفاهم الهلاك مشرقين، والثاني: أنَّ الإشراقَ ها هنا بمعنى الإصباح، وهو المناسب لسرعة الأخذ، كما تقدَّم، فإنّ هلاكَهم ليس له زمانٌ ممتدٌّ، وذكر الإشراق هنا دونَ الإصباح للإيذانِ بأنَّهم كانوا يرون وقوع العذاب عليهم؛ لأنَّه كانَ عندَ دخولِهم في وقتِ انتشار ضوء الشّمس، فيكون أشدَّ وأبلغَ[2].

الإشراق بمعنى الإصباح، موحٍ بالمباغتة، من حيث لم يحتسبوا

(1) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 6/435.

(2) السمعاني، تفسير السمعاني: 3/146، وابن عطية، المحرر الوجيز: 3/370.

﴿فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾﴾

[الحجر: 74]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

ثمَّ بيَّن اللّٰه تعالى ما تسبَّبَ عن أخذِ قومِ لوطٍ بالصّيحةِ، فجاءت هذه الآية لبيانِ شدّة غضبِ اللّٰه عليهم[1].

تنوّع العذاب على قومِ لوطٍ المنحرفين، لشدّة غضب الله عليهم

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿سِجِّيلٍ﴾: أصلُ (سجل): يَدُلُّ على انْصِبابِ شَيءٍ بعد امتِلائِه، مِنْ ذلك السَّجْلِ، وهو الدَّلْوُ العَظيمَةُ. يُقالُ سَجَلْتُ الماءَ فانْسَجَلَ، وذلكَ إذا صَبَبْتَهُ، ومنه: سَجَله بالشَّيء: رَماهُ به مِنْ فوْقٍ[2]، والسِّجّيلُ: الصُّلْبُ الشَّديدُ، وهو أيضًا: حَجَرٌ وطينٌ مُختلطٌ[3]، والسِّجّيلُ أيضًا: وادي نارٍ في جَهَنَّمَ، يُقالُ: سِجّيلٌ بِاللّام، وسَجّينٌ بِالنّونِ[4]، وقيل: إنَّ الكلمة مُعرَّبة عن (سنك كيل) الفارسيَّة، لكنَّها واضحة العُروبة بصيغتها وبانسجامها مع معنى التَّركيب، وقد سَلَّم الأزهريُّ وغيره بتعريب الكلمة، وجَوَّز الزَّجّاج رجوع الكلمة إلى السّجْل: الصَّبّ، كأنَّها مُرسَلَةً عليهم[5]، والمقصود بالسِّجّيلِ في الآية: طينٌ مُتحَجِّرٌ مِنْ وادٍ في جَهَنَّم.

المَعْنى الإجْماليُّ:

بيَّن اللّٰه تعالى صفة العذاب المدمر الذي أُحيط بقوم لوط نتيجة كفرهم وسوء سلوكهم، فالآية جيء بها لبيان آثار هذه الصَّيحة،

الضَّلال والهوى نهايته الشُّؤم والبلاء، في أقسى عقوبة، وأشدّ عذاب

(1) البقاعي، نظم الدرر: 11/76.
(2) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (سجل).
(3) الرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (سجل).
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/134.
(5) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (سجل).

وأنَّها قلبت القرية، فجعلت أعلاها أسفلها، أي أنَّها أتت على بنيانها، فجعلته أرضًا، ثمَّ تبع ذلك مطر من حجارة موسومة، معدَّة ومحمَّلة بالمهلكات[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالة الفاء في قولِه: ﴿فَجَعَلْنَا﴾:

أفادت الفاء ترتّب جعلِ عاليها سافلَها على أخذهم بالصّيحة[2]، ففيه إشعارٌ بعظمِ هولِ الصّيحة، التي كانت سببًا في انقلاب المدينة بجعلِ عاليها سافلَها.

الصّيحة كانت سببًا في قلب المدينة رأسًا على عقب

سرُّ اختيار لفظ ﴿فَجَعَلْنَا﴾ دون (قلبنا):

قوله تعالى: ﴿فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا﴾، وفيه عُبِّرَ بلفظ الجعل دون القلب؛ لِما في الجعل من معنى تحويل الشّيءِ من حالةٍ وهيئةٍ إلى حالةٍ أخرى مغايرةٍ للحالة الأولى، بحيث يكون لها صورةٌ وهيئةٌ جديدةٌ، كما أنَّ التّعبير بالجعل يدلُّ على أنَّ جعلَ عاليها سافلها هو جعلٌ عظيمٌ وعجيبٌ، أي: إنَّ العذابَ ليس له مثال سابقٌ في شدّة الهلاكِ وهولِ العذاب برفعِ المدينةِ ثمَّ انقلابِها دفعةً واحدةً وضربِها على الأرضِ[3].

عذاب المنحرفين عن الفطرة لا مثيل له في الشّدّة والهولِ

نكتةُ إسناد الفعل إلى ضمير العظمة، في السّياق:

قوله تعالى: ﴿فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا﴾، كان حقُّ التّعبير أن يقال: فجعلوا عاليَها سافلَها، أي: الملائكة المأمورون بالإهلاك، فلمّا أسند الجعل إلى ذاتِه تعالى بضمير العظمة (نا)، من حيث إنَّه المسبِّب له؛ لأنَّه تعالى هو الآمر به، أفاد الإسنادُ إلى ضمير العظمة تعظيمَ الجعل المذكور؛ لأنَّ الأمر الذي يتولّاه العظيم لا يكون إلّا عظيمًا،

الأمرُ الّذي يتولّاه العظيم، لا يكون إلّا عظيمًا

(1) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 7/253.
(2) القونجي، مقاصد القرآن: 7/187.
(3) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 11/161.

فكان إسناد الفعل إلى الضَّمير في النّظم الشّريف أوفى بالمبالغة في الكلامِ وأوفق بمقتضى الحال وأنسب بالمقام[1].

بلاغة التّعبير بجعل العالي سافلًا، لا العكس:

لمّا كان ﴿عَٰلِيَهَا﴾ مفعولًا أوَّلًا للفعل ﴿فَجَعَلْنَا﴾، و﴿سَافِلَهَا﴾ مفعولًا ثانيًا، وكان أصلُهما مبتدأ وخبرًا، أفاد الكلام أنَّ المقصودَ هو جعلُ أعالي المدينة، أي: وجهها وما عليها ممّا فيه مَقارُّهم ومساكنُهم سافلَها، والمعنى: قلبناها على تلك الهيئةِ، لتهويل الأمرِ وتفظيعِ الخطبِ على القوم الهالكين، وهو أشدُّ عليهم وأشقُّ من جعل سافِلها عاليَها؛ لأنَّ المقصود بالعذاب هو ما على وجهِ المدينة وليس ما في سافِلها، وإن كان جعل عالي المدينة سافلَها مستلزِمًا لجعل سافِلها عاليَها[2].

المقصود بالعذاب، ما على وجهِ المدينة وليس ما في سافِلها

بديع الطّباق في قوله تعالى: ﴿عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا﴾:

جاء الكلام بطريق الطّباق لبيانِ صورة الإعجازِ، بخرق العادةِ بانقلاب المدينة عن طريق تصوّر طرفي الطّباق معكوسين، فيكون الإعجاز بخرق العادات في أمرين أحدهما: بقلع الأرْضِ وإصعادِها إلَى قَريبٍ مِنَ السَّماءِ، والثّاني: بضَربِها مِنْ ذَلِكَ البُعْدِ البَعيدِ عَلَى الأرْضِ بِحَيْثُ لَم تَتَحَرَّكْ سائِرُ القُرَى المُحيطَةِ بِها ألْبَتَّةَ، ولَم تَصِلِ الآفَةُ إلَى لوطٍ عليه السلام وأهْلِهِ مَعَ قُرْبِ مَكانِهِم مِنْ ذَلِكَ المَوْضِعِ، وهِي مُعْجِزَةٌ قاهِرَةٌ[3].

عذاب الله تعالى على قومِ لوطٍ كان معجزة خارقة

تعيين مرجع الضَّمير في لفظي: ﴿عَٰلِيَهَا﴾ و﴿سَافِلَهَا﴾:

يعود الضّمير على المدينة المذكورة في السياق في قوله تعالى: ﴿وَجَآءَ أَهۡلُ ٱلۡمَدِينَةِ يَسۡتَبۡشِرُونَ ٦٧﴾ [الحجر: 67]، ليفيد انقلابُ المدينةِ

بلاغة التّعبير بعود الضّمير على المدينة الفاجرة

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل، والشّهاب، عناية القاضي: 5/209، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 10/160.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/230.

(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 18/383.

بلازمِه انقلابَها بأهلِها جميعًا، ولو قال (فجعلنا عاليهم سافلَهم) لم يدلَّ على هلاكِهم، ولم يُفهم منه رفع المدينة إلى أعلى، ثم قلبُها بمن فيها وسقوطُها على الأرضِ، بضربِها بها، ليدلَّ على العذاب.

براعةُ الإيجازِ بذكر الملزوم فقط:

قوله تعالى: ﴿فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا﴾، لمّا كان جعل عالي المدينة سافلَها يلزمه جعلُ سافلها عاليَها ليفد أنَّهم قد طمروا تحت المدينة، كان الكلامُ على الإيجاز بذكر الملزوم والاكتفاء به.

براعة تصوير انقلاب المدينة بأهلِها، في عبارات مختصرة مؤثّرة

دلالة الواو في قولِه ﴿وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهِمۡ﴾:

الواو هنا حاليَّة، لتكميل الصّورة وتوضيحِها، لتفيد أنَّ إمطار الحجارة كان في حالِ جعلِ عاليها سافلها، أي: كان الإمطار في تضاعيف ذلك قبل تمام الانقلابِ[1]، والآيَةَ تَدُلُّ عَلَى أنَّهُ تَعالَى جمع عليهم ثلاثةَ أنْواعٍ مِنَ العَذابِ؛ أحَدُها: الصَّيْحَةُ الهائِلَةُ المُنْكَرَةُ، وثانيها: أنَّهُ جَعَلَ عاليَها سافِلَها، وثالِثُها: أنَّهُ أمطَرَ عَلَيْهِم حِجارَةً مِنْ سِجّيلٍ[2].

مضاعفة العذاب على الشّاذّين، حيث يتخلّل العذاب عذاب آخر

دلالة الضّمير في شبه الجملة ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾:

يعود الضّمير على القوم المجرمين الذين ذكرهم اللّه تعالى في قولِه ﴿قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ إِلَىٰ قَوۡمٖ مُّجۡرِمِينَ﴾[3] [الحجر: 58]، ليفيد استغراقَ القومِ جميعًا بالعذاب، فلم ينفلت منهم أحدٌ، إشعارًا بشدَّة غضب اللّه عليهم جميعًا.

إنّ الله ليملي للظّالم، حتّى إذا أخذه لم يفلته

بلاغة الاستعارة في قوله ﴿وَأَمۡطَرۡنَا﴾:

لما شبه إنزال الحجارة منَ الطين بالمطر النازل منَ السماء أفاد أنَّ الحجارة كانت متتابعةً من فوقٍ في غايةِ العلوِّ مثل تتابع المطر

المنحرفون بالشّذوذ، غير مأسوفٍ عليهم، فهم حثالة الأنام

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السليم: 5/86.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 19/156.
(3) أبو القاسم الكرماني، أسرار التكرار، ص: 156.

النازل من علوٍّ؛ لتكون استعارةً تصريحيَّةً تبعيَّةً، ولمّا كان المطر ينزل فيما ينتفع منه النّاس عبِّرَ بـ﴿وَأَمۡطَرۡنَا﴾ ليفيد أنَّ الحجارة النّازلة عليهم من فوقٍ بمثابة العطيَّة تهكّمًا بهم؛ ليكون الكلام على طريق الاستعارة التَّهكميَّة، للإشعار باستحقاقِهم العذاب وأنَّهم غير مأسوفٍ عليهم، مثل قوله تعالى: ﴿فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٖ﴾ [التوبة: 34]، فالاستعارة هنا تصريحيَّة تبعيَّة تهكّميّة[1].

نكتة التّعبير بقولِه ﴿وَأَمۡطَرۡنَا﴾ دون (مطرنا):

ذهب بعض اللغويين والمفسرين إلى أنّ الفعل (أمطَرَ) يُستعمل في مواضعِ العذاب، وأمّا (مطرَ) فيُستعمل في مواضعِ الرحمة، ولهذا قال اللّه تعالى: ﴿وَأَمۡطَرۡنَا﴾ ولم يقل (مطرنا)، وهذا بالنّظر إلى الاستعمال لا إلى أصلِ المعنى، فلا يُنافي أنَّ التّعبير بـ﴿وَأَمۡطَرۡنَا﴾ يفيد الاستعارة التّهكّميَّة كما تقدَّمَ[2].

يستعمل اللّفظ في المعنى وضدّه، بزيادة حرف على الصّيغة الأصليّة

نكتةُ استعمال حرف الاستعلاء (عَلَى):

أفاد التّعبير بحرف الاستعلاء (عَلَى) تمكّن إنزال الحجارة عليهم، وإحاطتِها بهم.

عذاب اللّه محيط؛ لا يغني فيه الحذر من القدر

دلالةُ تقديمِ ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾ على ﴿حِجَارَةٗ﴾:

قُدِّمَ ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾ على المفعول به ﴿حِجَارَةٗ﴾؛ لإفادة التّخصيص، بمعنى تخصيص إنزال الحجارة بهم؛ ليفيدَ عدمَ إصابةِ لوطٍ وأهلِه الذين خرجوا ليلًا منَ المدينة، ولمّا كان التأكيدُ لازمًا للتّخصيص أفاد التّقديم تأكيدَ إنزالِ الحجارة؛ كما أفاد التّقديم الاهتمامَ بأنْ تصيبَ الحجارةُ القومَ الهالكين جميعًا.

إفادة التّخصيص والتّأكيد، بمعنى أنّ العذاب حلّ بهم، دون سواهم

توجيه المتشابه اللّفظيّ:

جاء في سورة الحجر قوله تعالى: ﴿وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهِمۡ حِجَارَةٗ مِّن

(1) الشّهاب، عناية القاضي: 5/210.

(2) الراغب، المفردات، (مطر)، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 9/81، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: 4/97.

تنوُّعُ العبارة بتنوُّعِ السّياق، من أفصح البيان

سِجِّيلٍ﴾، وفي سورة هود قوله تعالى: ﴿وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهَا حِجَارَةٗ مِّن سِجِّيلٖ﴾ [هود: 82]، فجعل الإمطار ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾ في سورة الحجر، وجعله على المدينةِ في سورة هود فقال تعالى: ﴿عَلَيۡهَا﴾ [هود: 82]، والسّببُ أنَّه لمّا كان الزجر في سورة الحجرِ أعظمَ على المدينة منَ الزجر في سورة هود عليه السلام، لطلبهم أن يأتي بجميع الملائكة، أعاد الضَّمير على المعذبين لا على مدنِهم؛ لأنَّ هذا أصرحُ في استئصالِهم، فقال في سورة الحجرِ: ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾، أي: القومِ المجرمين الذين قلبت المدائن لأجلهم[1]، وأيضًا لمّا لم يرد في سورة هود ذكر المدينة ولا القرى التي سكنها قوم لوط: وعاد الضمير في قوله تعالى: ﴿جَعَلۡنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا﴾ [هود: 82] على غير مذكور ممّا عُلم منَ السّياق، أي: جعلنا عاليَ المدينة سافلَها، ناسبه أن يقول: ﴿وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهَا حِجَارَةٗ مِّن سِجِّيلٖ مَّنضُودٖ﴾ [هود: 82] لتقوية دلالة الضَّمير في العود على المدينة دون غيرِها، وأمّا ما في سورة الحجر فقد تقدَّم ذكر المدينة فعاد الضّمير في: ﴿فَجَعَلۡنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا﴾ على مذكور في اللفظ، فناسبه أن يقول: ﴿وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهِمۡ حِجَارَةٗ مِّن سِجِّيلٍ﴾؛ ليكون العذاب مجموعًا على الأرضِ وأهلِها جميعًا؛ بأن يكون إمطار الحجارة في تضاعيف انقلاب المدينة وليس بعدَه.

نكتةُ إسنادِ فعل الإمطارِ لضمير العظمة:

من قوانين الكون الرّاسية أنّ فعل العظيمِ لا يكون إلّا عظيمًا

لمّا تقدَّم أنَّ إسناد فعل الجعل لضمير العظمة (نا) في قوله تعالى: ﴿فَجَعَلۡنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا﴾ أفاد تعظيم الجعل المذكور ناسبَه في قوله ﴿وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهِمۡ حِجَارَةٗ مِّن سِجِّيلٖ﴾ أن يسند فعل الإمطار إلى ذاتِه سبحانه وتعالى لأنَّه هو الآمر، وأفادَ الإسنادُ إلى ضمير العظمة تعظيمَ شأنِ الإمطار بحجارةٍ من سجيل، فإنَّ فعلَ العظيمِ لا يكون إلّا

(1) البقاعيّ، نظم الدرر: 11/77.

عظيمًا، وليوافق المقامَ في بيانِ شدَّةِ غضب اللّه، وهولِ عذابِه الّذي نزل عليهم.

فائدةُ تنكيرِ لفظِ ﴿حِجَارَةً﴾ في السّياق:

حجارة العذاب الّتي نزلت عذابًا ليست كأيٍّ من الحجارة

لمّا جاءت النّكرة في سياق العذاب أفاد التّنكيرُ تفخيم الحجارة التي نزلت منَ السّماء؛ لتعظيم شأنِ العذاب الذي نزل عليهم، والمعنى أمطرنا عليهم حجارةً ليست كأيِّ حجارةٍ.

معنى ﴿مِّن﴾ في قولِه: ﴿مِّن سِجِّيلٍ﴾:

تقييد المنعوت لبيان نوعِه، من البيان المفصح عن المراد

﴿مِّن﴾ هنا بيانيَّة، أي لإفادة بيانِ جنسِ الحجارة، فإنَّه لمّا كان لفظ الحجارة منكَّرًا وكان على معنى التّفخيم كما تقدَّم بيَّن نوعَ الحجارةِ التي نزلت عليهم على طريقِ الإطناب بمجيء الجارِّ والمجرور ﴿مِّن سِجِّيلٍ﴾ نعتًا للحجارةِ على سبيل التّقييد للمنعوت؛ لتصوير حالةِ العذاب وهولِه وبيانِ شدَّتِه، فهي حجارةٌ من سجّيل وليس من جنسٍ آخر.

نكتة التّعبير بلفظ ﴿سِجِّيلٍ﴾، في البيان الجليل:

عذاب المنحرفين بضربِهم بحجارة من سجّيل، من أبشع العذاب

لما كان السجيل هو الشَّيءُ المركّب منَ الحجرِ والطّين بحيث يكون في غاية القوّةِ والصَّلابة، عبّر به هنا لبيانِ قوّة الحجارة وصلابتِها؛ للإشعار بشدَّة العذاب وهولِه، والمعنى: وأمطرنا عليهم حجارة من طين بحيث يكون ضربًا شديدًا عليهم، والعرب إذا وصفت المكروه بسِجيلٍ كأنَّها تعني به الشدَّةَ ولا يوصف بهِ غير المكروه منَ العذاب[1].

(1) الزّجاج، معاني القرآن وإعرابه: 5/364، والماتريدي، تأويلات أهل السّنة: 10/619، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 18/383.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ۝٧٥﴾ [الحجر: 75]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

تنوّع آياتِ الله للتّعريف بعظمتِه وقدرتِه ﷻ

لمّا ذكرَ أنواعَ العذاب الذي وقعَ على قومِ لوطٍ، وما تقدَّمه من ذكرِ ضيفِ إبراهيم، وقصَّة لوطٍ، أفادَ أنَّ الإخبارَ عن ما عمّا تقدَّم بأنواعِه هو آياتٌ، فقال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾، وجاءت الجملة تذييلًا للقصَّة لما فيها منَ العبرة لعمومِ المخاطبين.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾: أصلُ (وسم): يَدُلُّ على أثَرٍ ومَعْلَم، ووَسَمتُ الشَّيءَ وسْمًا: أثَّرْتُ فيه بِسِمَةٍ[1]، والسّيما ياؤُها في الأصل واوٌ، وهيَ العَلامَةُ يُعرَفُ بها الخيرُ والشَّرُّ[2]، والوَسْميُّ: أوَّلُ المطَرِ؛ لأنَّهُ يَسِمُ الأرضَ بالنَّباتِ، وسُمّيَ مَوسِمُ الحاجِّ موْسِمًا لأنَّهُ مَعْلَمٌ يَجتمِعُ إليه النّاسُ، والتَّوسُّم يقرب مِن الفَراسة، هو الَّذي سمّاهُ القوم: الزَّكانة، وقومٌ: الفِطنة، وقومٌ: الفراسة[3]، والمُتَوَسِّمُ: المُتَحَلّي بسِمَةِ الشُّيوخِ، وهو مَوْسومٌ بِالخَيْرِ والشَّرِّ[4]، والمُتَوَسِّمونَ: أصحابُ التَّوَسُّم، وهو التَّأمُّلُ في السِّمَةِ، أي: العلامَةِ الدّالَّةِ على المَعْلَم، والمُرادُ بـ﴿لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ في الآية: المُتأمِّلون في الأسبابِ وعَواقبها، أولئكَ هُمُ المُؤمِنونَ.

المَعْنى الإجْماليُّ:

مَن تجرَّأ على السَّيئات، عوقب بأشنع العقوبات

إنَّ في قصَّةِ قَومِ لوطٍ وما فعَله اللّه ﷻ بهم منَ العذابِ، وبقاءِ

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (وسم).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (وسم).
(3) السّمين الحلبي، عمدة الحفّاظ: (وسم).
(4) الزّبيديّ، تاج العروس: (وسم).

آثارِ هَلاكِهم، لَعلاماتٍ للمُتفرِّسينَ المتأمِّلينَ المتفكِّرينَ، الذين لهم فِكرٌ وفِراسةٌ يفهمونَ بها ما أُريدَ بذلك، فيَعتَبِرونَ[1].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

دلالة فصلِ الجملة عن سابقتها:

آيات الله عظةٌ للنّاظرين، وعبرة للمعتبرين

قولُه تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾، جاءت الآية على طريق الفصل، لأنَّها استئنافٌ بيانيٌّ؛ فإنَّه بعدَ أنَّ قصّ الآياتِ كان كأنَّه قيلَ: هل في هذه الآياتِ العظيمة عظة للنّاظرين المعتبرين؟ فقال: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾، أو لأنَّها جملةٌ تذييليَّةٌ لتأكيد مفهوم الكلام السابقِ، فإنَّ في ما حُكي من قصَّة ضيف إبراهيم، وقصَّة لوطٍ مع الملائكة، ونجاته وأهله إلّا امرأته منَ العذاب، وإهلاكِ قومِه المجرمين آياتٍ وعظاتٍ لكلِّ المتفرّسين النّاظرين في حقائق الآياتِ.

فائدة تتابع التّأكيدِ في نصّ الآية المفيد:

الاعتبار هو الغرضُ الأسمى من حكاية قصص السّابقين في القرآن

قولُه تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾، لمّا كانت هذه الآياتُ لجميعِ المخاطبين منَ المتّعظين وغيرِهم، ولمّا لم يعتبر بها المكذّبون بعدَ مرورِهم بها ورؤيتِهم لها أقامَهم مقامَ غيرِ المتوسّمين المتّعظين، وقرَّر أنَّ الانتفاع منها يكون للمتوسّمين المعتبرين، ففي الآيةِ حثٌّ على الاعتبار بقصص الأقوام السابقين التي يخبر اللّه عنها، والغرضُ الأسمى من حكاية قصص الأقوام السابقين في القرآن هو الانتفاع منها والاعتبار بها، لتكونَ آياتٍ للمتوسّمين.

نكتةُ تقديمِ الجارِّ والمجرورِ في السّياق المذكور:

تقديم عناصر الجملة وتأخيرها، من البيان الفصيح

قولُه تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾، قُدِّمَ المسندُ ﴿فِي ذَٰلِكَ﴾ على المسند إليه للاهتمام والعناية به، ولا يفيد التّقديمُ هنا الاختصاص.

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/543، والسّعديّ، تيسير الكريم الرحمن، ص: 433.

براعة إدخال حرف الجرّ ﴿فِي﴾ على اسم الإشارة:

الاعتبار يكون بالنّظر إلى بواطنِ الأمور، وليس إلى ظواهرِها فحسب

أفاد حرف الجرّ ﴿فِي﴾ الذي يفيد الظّرفيَّة أنَّ المتوسّمين ينظرون في باطنِ الآياتِ؛ للإشعار بأنَّ الاعتبار بها ليس بالنّظر إلى ظواهرِها، فكأنَّ ما ذكر منَ الأخبار ظرفٌ قد جمعَ الآياتِ للمتوسّمين وأحاطَ بها، فلا يدركُها إلّا النّاظرون فيها.

نكتةُ استعمال اسم الإشارة للبعيد دون القريب:

رفعة شأنِ المعتبرين بآياتِ الله، لخشيتهم منه غالبًا

عُبِّرَ باسم الإشارة الذي للبعيد؛ للإشعار بأنَّ هذه الآيات لا يعتبر بها إلّا المتوسّمون؛ لبعدِ مكانتِها عنِ الاعتبار من جميعِ المخاطبين؛ ليفيد بُعدَ مكانةِ المتوسّمين في الآيات ورفعةَ شأنِهم.

نكتةُ جمعِ الآيات دون إفرادِها:

المتدبّرون يرون الآياتِ بحقائِقِها، لا بأشكالها فقط

جمع الآيات للإشارة إلى كثرتِها وتنوّعها بما قصَّ اللّه من حديث ضيف إبراهيم ومجيئهم لوطًا وتعرُّضِ قومِه لهم طمعًا فيهم، وما كان من أمرهم آخِرًا من إنجاء المؤمنين وإهلاك الكافرين وقلب المدينة على مَنْ فيها، ففي كلِّ واحدةٍ منها آية، وفي جميعها آياتٌ لمن يتوسَّم ويعتبرُ[1]، وفيه إشعارٌ بأنَّ المتفرّسين يرون الآياتِ ويتأمّلونها بتفصيلاتِها وحقائِقِها لا بظواهرِها.

فائدة تنكير لفظ ﴿لَآيَٰتٍ﴾ في السّياق:

الحثُّ على الاعتبار بآياتِ الله الكثيرة، من مسالك الإيمان

أفاد تنكير لفظ ﴿لَآيَٰتٍ﴾، في سياق الامتنانِ تعظيمَ الآياتِ المذكورةِ وتفخيمَها، للحثِّ على الاعتبار بها والانتفاع من خبرِها.

معنى اللّامِ في قولِه: ﴿لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾:

اختصاص المتوسّمين بالاعتبار، من سبل المبالغة في الادّكار

أفادت اللّام معنى الاختصاص، بمعنى: أنَّ الآياتِ المذكورة مختصَّةٌ بالمتوسّمين لا تتجاوزهم إلى غيرِهم على سبيل المبالغة.

(1) الإسكافي، درة التنزيل: 2/819.

فائدة (أل) في قولِه ﴿لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾:

التّوسُّم في آيات الله، صفة مدحٍ وثناءٍ من الله

تفيد (أل) الاستغراق، بمعنى: إنَّ في ذكر ما تقدَّم منَ الأخبار آياتٍ لِجميع أفراد المتوسّمين، ويحتمل أن تكون بمعنى (الذي)، بمعنى: الذين يتوسّمون، لتعظيم شأنِ المتوسّمين ومدحِهم.

نكتة التّعبير بلفظ ﴿لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾:

في إهلاكِ العاصين، وإنجاء الصّالحين، تنبيهٌ لأمّة الإسلام في اللّاحقين

حقيقة المتوسِّم في اللغة: هو الّذي يعلمُ باطنَ الشّيءِ بسِمَةِ ظاهرِه[1]، فالمتوسّمون هم المتفرّسون بالنّظر المتثَبِّتون فيه حتى يعرفوا حقيقة الشّيءِ بسمتِه[2]، فعبَّرَ بالمتوسّمين؛ لأنَّهم الذين ينظرون في وسم المعنى فيستدلّون به على المعنى، فينظرون فيه نظر المتثبِّت، فلمّا أبقت معصية قوم لوطٍ منَ العذاب والإهلاك وسْمًا، كان مَن رأى الوسم استدلَّ به على معصيتِهم، واقتاده النَّظر إلى أن يسأل عن سببِ هلاكِهم ليتجنَّبَ المعاصي لئلّا ينزل به ما نزل بهم، فينزجر عن صنيعه ويتعظ به، لأنَّه يعلمُ أن الذي أهلك قومَ لوط قادرٌ على إهلاك الكفّار المكذّبين، ففي التّعبير بلفظ المتوسّمين تذكيرٌ بأنَّ في إهلاكِ الأمم الماضية وإنجاء المؤمنين منهم إيقاظًا وانتباهًا ووعدًا ووعيدًا وتأديبًا لهذه الامَّةِ، والمعنى فاعتبروا بأحوالهم واجتنبوا أفعالهم، فهذه ديار الظالمين ومصارعهم[3].

بلاغةُ التَّعريضِ في لفظ ﴿لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾:

من لم يتّعظ بالأمم السّابقة، فليس من أهل الاعتبار

في ذكر المتوسّمين تَعْريضٌ بِالَّذينَ لَم تَرْدَعْهُمُ العِبَرُ بأنَّهُم دونَ مَرْتَبَةِ النَّظَرِ، ففي الكلامِ تَعْريضٌ بِالمُشْرِكينَ وبكلِّ مَن لم ينتفعْ من قصص الأقوام السابقين، الَّذينَ لَم يَتَّعِظوا بأنْ يَحِلَّ بِهِم ما حَلَّ بِالأُمَمِ من قَبْلِهِمُ الَّتي عَرَفوا أخْبارَها ورَأوا آثارَها، أي: إنَّهم ليسوا

(1) الطيبي، حاشية على الكشاف: 9/55.

(2) الواحدي، التفسير البسيط: 12/639.

(3) الزجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 3/185، والماتريدي، تأويلات أهل السنة: 6/456، وابن عطية، المحرر الوجيز: 3/370، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 3/215، والبروسوي، روح البيان: 4/481.

من أهل النّظر والاعتبار، وإنَّهم إنّما ينظرون في ظواهر الأمور دونَ حقائِقِها وبواطنِها[1].

بلاغة التَّذييل في نهاية الآية الكريمة:

الجملة تفيد عمومَ المعنى، وكونها بمثابة المثل في حكايتِها

قولُه تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾، لمّا جاءت الجملة على معنى العمومِ بما تقدّم من تفخيم الآيات واقترانِ (أل) التي للاستغراق في المتوسمين، ومجيءِ الآية بطريق الفصل لتأكيدِ مفهومِ الكلامِ كانت الجملة تذييلًا للكلام[2] لتفيد معنى الحكم الكلّيِّ، فتخرجَ مخرجَ المثل في حكايتِه وفشوِّ استعمالِه واستقلالِه والاستدلالِ به.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/69.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/69.

﴿وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ﴾ [الحجر: 76]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

لما حثَّ على الاتّعاظ بما حلَّ في قومِ لوطٍ بيَّن أنَّ آثارَهم مشاهدةٌ لمن أتى بعدهم فقال تعالى: ﴿وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ﴾.

من حكمة الله أن جعل آثار الأقوام المعذّبين، راسيَة على الدّوام

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿لَبِسَبِيلٍ﴾: أصْلُ (سبل): أصْلٌ واحِدٌ يَدُلُّ على إرسالِ شَيءٍ مِنْ عُلوٍّ إلى سُفْلٍ، وعلى امتِدادِ شَيءٍ، فالأوَّلُ مِنْ قيلِكَ: أسْبَلْتُ السِّتْرَ، وأسْبَلَتِ السَّحابَةُ ماءَها وبِمائِها، والمُمتَدُّ طولًا: السَّبيلُ وما وضَحَ مِنْهُ، وهوَ الطَّريقُ؛ سُمّيَ بِذَلِكَ لِامتِدادِهِ[1]. يُذَكَّرُ ويُؤَنَّثُ، والتَّأنيثُ أغْلَبُ، وسَبيلُ اللّهِ: طَريقُ الهُدى الذي دَعا إليهِ، وجمعُه: سُبُلٌ[2]، والمقصود بالسَّبيل في الآية: الطَّريق.

2) ﴿مُّقِيمٍ﴾: أصلُ (قوم): يدلُّ على انْتِصابٍ أوْ عَزْمٍ. يُقالُ: قامَ، يَقومُ، قَوْمًا وقيامًا، أي: وقَفَ وانْتَصَبَ، والقَومَةُ المَرَّةُ الواحِدَةُ، إذا انْتَصَبَ[3]، والإقامَةُ: الثَّباتُ والاسْتِقْرارُ، يُقالُ: أقامَ بِالمَكانِ، أي: ثَبَتَ واسْتَقَرَّ فيهِ، وتُطْلَقُ بِمعنى الدَّوامِ على الشَّيءِ، كقولِهم: أقامَ الشَّيءَ بِمعنى أدامَهُ، مِنْ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [البقرة: 3][4]، والمُقامُ والمُقامَةُ: المَوضِعُ الَّذي تُقيم فيهِ، والمُقامَة، بِالضَّمِّ: الإقامة، والمَقامَة، بِالفَتْحِ: المَجْلِسُ والجَماعَةُ مِنَ النّاسِ، والمُقيمُ: الشَّخْصُ المُسْتَقِرُّ في مكانِهِ غيرَ مُرْتَحِلٍ،

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سبيل).
(2) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة، وابن سيده، المحكم، وابن منظور، لسان العرب: (سبل).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قوم).
(4) ابن منظور، لسان العرب: (قوم).

وهو في الآية مُستعارٌ لآثارِ المَدينَةِ الباقيَةِ في المكانِ بتشبيهِ بالشَّخْصِ المُقيم[1].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

التَّذكير والاعتبار بعاقبة الظّالمين الفجّار

يخبر اللّه تعالى في هذه الآية أنَّ مدينةَ قَومِ لوطٍ في طريقٍ باقٍ واضحٍ ثابتٍ يَسلُكُه النّاسُ، فيَرى كُلُّ مَن يمُرُّ بها آثارَ تَدميرِها، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيْلِۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾﴾ [الصافات: 137 - 138][2].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

مناسبةُ عطفِ آية ﴿وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ﴾ على السّابقة:

الانتفاع بآيات الله، ممكن لمن أرادَه وارتضاه

لمّا كانت الجهة الجامعة بين هذه الآية وسابقتِها هو الاعتبار بالآياتِ والانتفاع منها؛ ليزدجر الكافرون وليتذكّر المؤمنون، وكان من ضمن الآيات ما حدث لمدينة القوم المجرمين، جاءت الآية بطريق العطف بالواو، ليفيدَ العطفُ الترقّي في بيانِ قرب الانتفاع بالآيات، أي: إنَّ الاعتبار بها ممكنٌ بل في غاية السّهولةِ؛ لأنَّ آثارَها بسبيل ثابتٍ دائِم يسلكه النّاس، فهي على طريق قريش إذا سافروا إلى الشّام، فيرونها إذا مرّوا بها[3].

سبب مجيء التَّوكيدِ، في السّياق المجيد:

بيانُ ردِّ الغافلين عن غفلتِهم، وتنبيهُهم إلى ما هو أزكى لهم

قولُه تعالى: ﴿وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ﴾، لمّا لم ينتفعِ المكذّبون من قريشٍ، ومَن جاء بعدَهم بهذه الآياتِ، وتمادوا في تكذيبِهم وإعراضِهم مع علمِهم بالمدينةِ المهلكةِ، ومرورِهم بها في طريقِهم أقيموا مقامَ المكذّب والحاكم بإنكار وجودِها، فجاءت الجملة مؤكَّدةً

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/70.

(2) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/544، والسّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 433، والشّنقيطيّ، أضواء البيان: 2/288.

(3) ابن الجوزيّ، زاد المسير: 2/540.

بتأكيدين (إنَّ) واللّام الموطّئة للقسم، ليردَّهم عن تماديهم في غفلتِهم وإعراضِهم عن الاعتبار والاتّعاظ بعذاب القومِ السابقين.

تعيينُ مرجعِ الضَّميرِ في ﴿وَإِنَّهَا﴾:

الـتّـعـبـير بـالـضّـمـير، لـلإيـجـاز في المعنى الكثير

يعود الضَّمير على مدينة قوم لوطٍ المهلكة، التي سبق ذكرها في قوله: ﴿وَجَآءَ أَهۡلُ ٱلۡمَدِينَةِ﴾[1]، فيعود الضَمير على المدينة بما اتَّصفت به، والتّقدير وإنَّ المدينةَ التي جعلنا عاليَها سافلَها وأمطرنا عليها حجارةً من سجّيل لبسبيل مقيمٍ[2]، فأفاد التّعبير بالضّمير الإيجاز في الكلامِ.

معنى الباءِ في قولِه تعالى: ﴿لَبِسَبِيلٍ﴾:

آثار عذاب قوم لوط، ظاهرة للعيان لمن يمرُّ بسبيلها

لمّا كانت الباء هنا على الملابسة، أفادت أنَّ المدينة المهلكة ملتبسةٌ بالسّبيل ملتصقةٌ به غيرَ مفارقةٍ له، للإشعار بأنَّ مَن يمرُّ بالطريق يراها بوضوح.

نكتةُ اختيارِ مفردةِ (سَبيلٍ):

الطّريق الواضح البَيِّن الّذي لا يخفى عنِ المارِّ به، هو السّبيل

عبِّرَ بالسبيل دون الطّريق؛ لأنَّ السّبيل هو الطّريق الواضح البَيِّن الّذي لا يخفى للمارَّةِ؛ لأنَّه يكون في موضعِ مجيئِهم وذهابِهم، ففيه امتدادٌ، ومنه السّابِلَةُ، وهي المُخْتَلِفَةُ في السُّبُلِ جائيَةً وذاهِبَةً[3]، فيكون التّعبيرُ بالسّبيلِ أوفقَ بالمقام للإيذانِ بوضوحِها، وأنَّهم يرونَها في مجيئِهم وذهابِهم.

دلالةُ اختيارِ مفردةِ ﴿مُّقِيمٍ﴾:

مرور النّاس بمدينة قوم لوطٍ، دائم غير منقطع

لمّا وصفَ السبيل بالمقيم دلَّ على أنَّ السّبيل ثابتٌ دائمٌ، فلمّا كان ثابتًا أشعرَ بأنَّ مرورَ النّاسِ به دائمٌ غير منقطعٍ؛ للإشعار بأنّ رؤيةَ المدينة أمرٌ مستمرٌّ، وأنَّه سهلٌ يسيرٌ.

---

(1) الواحديّ، التّفسير البسيط: 12/936، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 19/156، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 3/215.

(2) أبو حفص النسفي، التيسير في التفسير: 9/212.

(3) الزّجاج، معاني القرآن وإعرابه: 3/185، وابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات: (سبل).

بلاغةُ الاستعارةِ في لفظ ﴿مُّقِيمٍ﴾:

إثبات المدّعى على وجوب الاعتبار بمآلهم، بالدّليل العقليّ

شبَّه السّبيل الذي به آثار المدينة المهلكةِ الباقية بالشّخص الذي أقامَ في موضعٍ إقامَةً بحيث اتَّخَذَهُ وطَنًا له، فهوَ مُقيمٌ دائمٌ، ليكون الكلام على طريق الاستعارة التّصريحيَّة التّبعيَّة[1]، وبلاغة الاستعارة لإثباتِ المدّعى على سهولةِ رؤيةِ المدينةِ وآثارِها، ويلزمه وجوبُ الاعتبار بعذاب المكذبين المنحرفين، فينتفع بالرّؤية المؤمنون، ويعمى عنها الكافرون.

بلاغة الكناية في جملة ﴿وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ﴾:

الحثَّ على استمرار الاعتبار والاتّعاظ، بما حلَّ بالقومِ المنحرفين

لمّا كان الإخبار عن المدينة المهلكة أنَّها بطريق واضحٍ بيّن دائم يسلكه النّاسُ، دلَّ بلازمِه على أنَّ النّاس يرون المدينة المهلكة أو أنه في إمكانِهم، ولمّا كان المارَّة يرون المدينة وآثارَها قصد به الانتقال إلى لازمِه، وهو تنبيه النّاس إلى وجوبِ الاعتبار بالمدينة المهلكة بما بقي من آثارِها[2]، والمعنى فاتَّعظوا بآثارها إذا مررتم بديارِهم؛ لأنَّها في طريقكم[3]، فيكون الكلام على طريق الكناية البعيدة لتتابع اللّوازم، وأشعرَ التّعبير بلفظ ﴿مُّقِيمٍ﴾ الحثَّ على استمرار الاعتبار والاتّعاظ.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/70.
(2) الزمخشري، الكشاف: 2/586، والنسفي، مدارك التنزيل: 2/196.
(3) بروسوي، روح البيان: 4/480.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ۝٧٧﴾ [الحجر: 77]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

حثّ المؤمنين على الاعتبار بهلاك المنحرفين، والتّحذير من جرائمهم

لمّا أشار الله تعالى إلى الاستدلال بالتوسُّم الدالِّ على أنَّ للمدينةِ نبأً هو في غاية الغرابة، وأتبع ذلك سهولة الوصول إليها حثًّا على إتيانها؛ بقصد نظرها والاعتبار بها، والسؤال عن سبب كونها كذلك، قال تعالى مشيرًا إلى زيادة الحثِّ بالتأكيد: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾[1].

المَعْنى الإجْماليُّ:

الإشعار بأنَّ آيةً واحدةً، تكفي المؤمنين، ليزدادوا إيمانًا مع إيمانهم

يقول الحقُّ ﷻ: إنَّ في إهلاكِنا قَومَ لوطٍ، وإنجائِنا لوطًا وأهلَه المؤمنينَ، لعلامةً ودَلالةً واضِحةً للمُؤمِنينَ على انتقامِ اللهِ مِنَ الكافرينَ، وإنجائِهم مِن بيْنِ أيديهم سالِمينَ آمِنينَ[2].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ التَّذييلِ في السّياق الجليل:

جريان الجملة مجرى المثل، من بيانها المفصح

قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾، لمّا جاءت الجملة على معنى العموم وجاءت تاكيدًا لمفهوم قولِه تعالى: ﴿وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ﴾، لأنَّ كون آثار المدينة المهلكة باقيةً يقتضي الاتّعاظ بها والازدجار عن التّكذيب والمعاصي، فلما جاءت على معنى العموم والكلّية خرجت مخرج المثل في حكايتِها واستقلالِها والتّمثيل بها، ويدخل فيها حكاية ما حلَّ بقومِ لوطٍ دخولًا أوّليًّا.

سبب مجيء التّوكيد، في سياق الآية الرّشيد:

المؤمنون يعتبرون بالآيات، والكافرون يرونها تاريخًا وآثارًا

قولُه تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾، جاءت الجملة متضمّنة

(1) البقاعي، نظم الدرر: 11/78.

(2) ابن جرير، جامع البيان: 14/99، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/544.

ثلاثَة توكيدات: ﴿إِنَّ﴾ واللّام الموطّئة للقسمِ وتقديم المسند على المسندِ إليه؛ لتقريرِ اختصاصِ المؤمنين بالاعتبار بالآيةِ والانتفاع منها، فكأنَّه لا ينتفع منها إلّا المؤمنون، لأنَّ غيرَهم ينظرُ إليها على أنَّها مجرَّدُ تأريخٍ قديمٍ.

فائدة ﴿فِي﴾ في قولِه ﴿فِي ذَٰلِكَ﴾:

الظّرفية للتّنبيه إلى تعميق النّظر، في آياتِ الله الملأى بالعبر

لمّا كان حرف الجر ﴿فِي﴾ للظّرفية المكانيّة أفاد هنا أنَّ المشار إليه ظرفٌ للآيةِ قد احتواها؛ للتّنبيه إلى أنَّ الاعتبار بالآية يكون للمؤمنين، لأنَّه يحتاج إلى تفحّصٍ ونظرٍ في داخلِ المشار إليه على معنى الاعتبار والاتّعاظ، فمَن ينظر في ظاهر المشار إليه لا ينتفع، ولن يكون نظره سبيلًا إلى الهداية والإيمانِ.

دلالة اسم الإشارة ﴿ذَٰلِكَ﴾:

اعتبار المؤمنين بآيات الله رفعةٌ لهم

عبّرَ بـ﴿ذَٰلِكَ﴾ للإشارة إلى عظيمِ ما ذكرَ من أمرِ المدينةِ وما فيها من آثارِ الخَسفِ والإمطارِ بالحجارَةِ المُحماةِ وكونِها بمرأىً منَ النّاس يشاهدونَها في ذهابِهم وإيّابِهم[1]، وعبّرَ باسم الإشارة الّذي للبعيد للإشعار بهول ما حدث للمدينةِ، وأنَّها تستحقُّ النّظر فيها، كما أنَّ في اسم الإشارة إشارةً إلى رفعةِ مكانةِ المعتبرين المتّعظين، وهم المؤمنون الذين ذكرهم في الآية.

نكتة تقديم الخبر على المبتدأ:

آية الله في تأديب العصاة، جديرة بالنّظر لها، والاعتبار بها

قولِه تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾، وفيه جُعل المسند جارًا ومجرورًا، فاستحقّ التّقديم على المسند إليه النّكرة ﴿لَآيَةً﴾؛ للعناية والاهتمام بالمشارِ إليه، وأنَّه جديرٌ بالنّظر والاعتبار به، وليس في التّقديم تخصيص.

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/86.

دلالة مجيء الصّفة في قولِه: ﴿لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾:

لمّا كان قوله ﴿لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ صفةً لـ﴿لَآيَةً﴾، وكانت الصفة على معنى التّقييد دلَّ على أنَّ ما ذكر ليس آيةً لكلِّ أحدٍ، بل إنّما ينتفع منها المؤمنون، وأنّه سببٌ للإيمانِ باللّه ورسولِه، فإنَّه إذا أُخبرَ الكفّارُ أن سبب كون المدينةِ هكذا أنّ اللّه أمر بعض جنده فرفعها، ثمّ قلبها، ثم أتبعها الحجارة ثم خسف بها وغمرها بهذا الماء - الذي هو في القذارة وعدم الثمرة مناسب لأفعال أهلها - لأجل عصيانهم رسوله ﷺ، آمِنوا حذرًا من مثل هذا العذاب إيمانًا بالغيب[1].

الاعتبار بآيات اللّه سببٌ للإيمانِ باللّه ورسولِه وآياته

نكتة التّقييد بالصّفة في قولِه: ﴿لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾:

لمّا تقيّد الموصوف بوصف المؤمنين دون غيرِهم، أفاد أنّ كُلّ من آمن بِاللّهِ وصدّق الأنبياء والرُّسُل، عرف أنّ ذلك إنّما كان لأجلِ أنّ اللّه تعالى انتقم لأنبيائِهِ من أولئِك المنحرفين الضّالّين، أمّا الذين لا يُؤمِنون بِاللّهِ، فإنّهُم يحمِلونهُ على حوادِثِ العالمِ ووقائِعِهِ[2].

المؤمنون يرون العذاب انتقامًا من الظّالمين، لا وقائع تاريخيَّة صمّاء

توجيه المتشابه اللّفظيّ:

جاءت الآياتُ بلفظ الجمع في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾، وذكرت بلفظِ المفرد في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾، والسّرُّ فيه أنَّه جمع أولًا باعتبار تعدُّد ما قصَّ من حديث ضيف إبراهيم، ومجيء الملائكة لوطًا وتعرُّض قومِ لوطٍ لهم، وإنكارِه على قومِه، وما كان مِن إنجاء لوطٍ وأهلِه إلّا امرأتَه وما كانَ من إهلاك قومِه المجرمين، وقلب المدينة على مَن فيها، وإمطار الحجارة عليهم، وأيضًا من جهة غمرها بالماء بعد خسفها، ومن جهة كونه مخالفًا لمياه الأرض بالنتن والخباثة، وعدم عيش الحيوان فيه، وعدم

المتوسّم من المؤمنين أكثر تفرّسًا، وأعمق نظرًا من عوامّهم

(1) البقاعي، نظم الدرر: 11/79.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 19/156.

النفع به، ومن جهة فظاعة منظره[1]، فكلُّ آيةٍ منها تحتاجُ إلى توسّم ونظرٍ واعتبارٍ، وأفردَ في آيةِ المؤمنين باعتبار وحدة الضّمير في الآية التي قبلها ﴿وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ﴾ فالضمير في ﴿وَإِنَّهَا﴾ مفردٌ، أي: إنَّ المدينة المقلوبة لبسبيلٍ ثابتٍ، فكأنها بمرأى العيون لبقاء آثارها، وهذه واحدة من تلك الآيات، فلذلك جاء عقيبه ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ وليس لآياتٍ للمؤمنين[2]، أو يقال إنَّه جمع في آيات المتوسّمين لأنَّ التّوسُّم من الوسم وهو العلامة، ففي كلِّ آيةٍ ممّا ذكرَ علامةٌ تحتاج إلى نظرٍ وتفرّس، وأفردَ آية المؤمنين بالنَّظر إلى جهة وحدة تلك الآياتِ وهي الدلالةُ على الحقِّ والإيمانِ باللّه وبرسولِه[3].

وأيضًا من أسبابِ تخصيص اعتبار جمعِ الآياتِ بالمتوسّمين وإفرادِ الآية بالمؤمنين هو أنَّه لمّا ذكرَ جُمَلًا ومقدِّماتٍ من عجائب الآيات التي يجول فيها اعتبار المعتبر ويتَّسع له النَّظر، ويتوسَّم منها المتفرِّسُ مخائلَ الهلاكِ ومقدِّماتِ التَّلفِ لأولئك الأشرارِ، قال: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ أي: المعتبرين النّاظرين الذين يتفرّسون في كلِّ آيةٍ ويتفحّصونَها ويدرسونَها، والمتوسِّم يبحث في تفصيلاتِ الأمور ودقائِقها فيرى المجموعِ بتفصيلاتِه، ولمّا بيّن أنَّ المدينةَ باقيةٌ بآثارِها دلَّ على أنَّها عبرةٌ وعظةٌ لمن يمرُّ بها أو يسمع عنها، والعبرةُ إنَّما ينتفع منها المؤمنون، وتعليق الحكم على المشتقِّ يفيد أنَّ إيمانَهم هو الذي يدفعهم للاعتبار بهذه الآية، وفيه إشعارٌ بأنَّ الإنسانَ تكفيه آية واحدةٌ للإيمان، وذهب بعض المفسّرين إلى أنَّ سبب التّخصيص هو "أنَّ المتوسمين المتفكرين بين أيديهم الآيات الكثيرة يدرسونها، فكانت الآيات بالجمع موضع الدراسة والفحص، أما بالنسبة للمؤمنين فالأمر فيها هو العبرة، وهي أمر واحد مأخوذ من مجموع الآيات المتضافرة التي هي موضع الدراسة، ومع تعددها العبرة واحدة"[4].

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

العَمَه والحيرة:

التحيّر: هو التبلّد في الأمر والتردّد فيه، وأمّا العمه: فيكون في القلب، ويوصف به

(1) البقاعي، نظم الدرر: 11/77.
(2) الإسكافي، درة التنزيل: 2/820، وأبو القاسم الكرماني، أسرار التكرار، ص: 156، والغرناطي، ملاك التأويل: 2/292.
(3) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 11/190.
(4) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 8/4102.

الرأي، وهو بمنزلة العمى في العينين، وينشأ منَ العمه التّردُّدُ والتحيّر بحيث لا يَهْتَدي العامهُ لطريقه ومذهبِه، فالعمه أشدُّ منَ الحيرة، وهو أخصُّ منها، إذ يلزم منَ العمه الحيرة ولا يلزم منَ الحيرة العمه، ولهذا علَّق الله تعالى عَمَهَهُم بالسّكرة، ولم يقل (في حيرتِهم يعمهون)[1].

العمه يكون في القلب، وهو أشدُّ منَ الحيرة

التّوسّم والتّأمّل:

التّوسّم: منَ الوسم: وهو الأثر والعلامة، والتّوسّم: هو التفرُّس في الشّيء بدقّة لعلامةٍ فيه، ويدلُّ التفرّس على الفطانةِ والتثبّت في نظر المتفرّس حَتَّى يَعْرِفَ سِمَةَ الشَّيْءِ وصِفَتَهُ وعَلامَتَهُ مع إصابةٍ في النّظر، فيتبصّر الحقيقة ويعتبر بها، وأمّا التأمّل: فهو النظر في الشّيء على سبيل التثبّت فيه، فهو من تركيز النظر على الشيء المتأمّل فيه وإطالة النظر فيه، وفيه معنى الانتظار، فالمتوسّم هو المتفرّس في الشّيء لعلامةٍ دالَّةٍ على معنى، وفيه تبصّر واعتبار وإصابة النّظر فيه، والمتأمّل: هو الذي يطيل النّظر في الشّيء، وقد لا يلزم منه اعتبار[2].

التّوسّم فيه اعتبار، والتّأمل قد لا يكون فيه اعتبار

المقيم والثابت:

المقيم منَ الإقامة على الشّيء، ويُعبّر بالإقامة عن الدوام في الموضعِ وعدم الانتقال منه، ففيه معنى طول اللبث، ولهذا يقال لمن يستوطن مكانًا ويدوم فيه على معنى الإقامة فيه هو مقيم، وأمّا الثابت فقد لا يكون فيه طول لبثٍ ولا إقامة على معنى الدّوام.

المقيم منَ الإقامة على الدّوام، ولا يشترط ذلك في الثّابت

(1) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (حير، عمه).
(2) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (أمل، فرس).

﴿وَإِن كَانَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأَيۡكَةِ لَظَٰلِمِينَ ٧٨﴾ [الحجر: 78]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

تشابه الظّالمين في نوعِ العذاب، عبرةٌ لكلِّ ظالمٍ، والتّاريخ يعيد نفسه

لما ذُكرَت قصّة لوطٍ، ضُمَّ إليها ما هو على طريقها ممّا عُذِّبَ به القوم بنوع يشبه عذاب قوم لوطٍ في كونه نارًا من السماء، فجاءت هذه الآية[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلۡأَيۡكَةِ﴾: أصلُ (أيك): أصلٌ واحِدٌ، وهي اجتماعُ شَجَرٍ[2]، والأيْكَة: الشَّجَرُ الكَثيرُ المُلْتَفُّ، وقيلَ: هي الغَيْضة تُنْبِتُ السِّدر والأراك ونَحوهُما مِنْ ناعِمِ الشَّجَرِ، وخَصَّ بعضهم بِهِ مَنْبَتَ الأثْل ومُجتَمعه[3]، وقيلَ: الأيْكة جَماعَةُ الأراك[4]، والجَمعُ أيْكٌ، وأيِكَ الأراك فهو أيِكٌ واسْتَأْيَك، كِلاهُما: التفَّ وصارَ أيكة[5]، وأُطْلِقَتْ هنا مُرادًا بِها الجِنْسُ إذ قد كانَتْ مَنازِلُهم في غَيْضَةٍ مِنَ الأشجارِ الكثيرَةِ الوَرق[6]، وأصحابُ الأيْكَةِ: هم قَوْمُ شُعيبٍ عليه السلام وهم مَدْيَنُ، وقيلَ أصحابُ الأيْكَةِ فريقٌ مِنْ قَوْمِ شُعيبٍ غيرُ أهْلِ مَدْيَنَ، فأهلُ مَدْيَنَ هم سُكّانُ الحاضِرَةِ وأصحابُ الأيْكَةِ هم باديَتُهُم، وكانَ شُعيبٌ رسولًا إليهِم جميعًا[7].

المَعْنى الإجْماليُّ:

عقابُ المكذِّبين، مَثار تفكيرٍ وعظةٍ للمُتفكِّرين

يقول تعالى: وقد كان أصحابُ الغَيضةِ - وهي جماعةُ الشَّجرِ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 11/79.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أيك).
(3) ابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (أيك).
(4) ابن فارس، مقاييس الله، وابن منظور، لسان العرب: (أيك).
(5) ابن منظور، لسان العرب: (أيك).
(6) الخليل، العين، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/71.
(7) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/71.

الملتَفِّ المُجتَمِع - ظالِمينَ بِشِركِهم باللّهِ، وتَكذيبِهم برَسولِه شُعَيبٍ عليه السلام، وقَطْعِهم الطريقَ، وتَطفيفِهم في الكَيلِ، وبَخسِهم الناسَ أشياءَهم[1].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

دلالة الوصل بالواو، في ﴿وَإِن كَانَ﴾ من الآية:

قوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأَيۡكَةِ لَظَٰلِمِينَ﴾، وفيه عُطفَت الآيةُ على ما سبقها لاشتراك القصّتين في جهة جامعةٍ بينهما؛ فإنَّ أصحاب الأيكة مِثلُ قومِ لوطٍ في التّكذيب وقبح المعاملة مع النّاس، كما تشترك القصّتانِ في نوعِ العذاب، وفي المكان، وفي كونهما على طريق واحدة، فأهل مكّة يشاهدون ديارَهم في طريق تجارتِهم، ففي الوصلِ إشعار باستمرار الظّلم، واستمرار الانتقام منَ الظّالمين[2].

استمرار الظّلم في اللّاحقين، وتوالي الانتقام منَ الظّالمين

فائدة التّعبير بـ﴿وَإِن﴾ في الآية الكريمة:

قوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأَيۡكَةِ لَظَٰلِمِينَ﴾ أفاد التّعبير بـ ﴿وَإِن﴾ المخفّفة منَ الثقيلة أنَّ اسمها ضمير الشأن محذوف، والتّقدير (وإنَّ الشّانَ)، ولمّا كان الخبر مفسّرًا للشأنِ دلَّ على أنَّه ذو شأنٍ عظيم ينبغي سماعه والاهتمامُ به والاعتبار بشأنِه وبمآلِ الظّالمين.

تعظيم شأنِ الإخبار عن الظّالمين، للاعتبار بمآلهم وسوء عذابِهم

فائدة تأكيدِ الآية بتأكيدين في سياقها المحكم:

لمّا ورد في الآية التأكيدُ بـ(إنْ) المخفّفة منَ الثقيلة، واللّام الفارقة بَيْنَ (إنَّ) الّتي أصْلُها مُشَدَّدَةٌ وبَيْنَ (إنَّ) النّافيَةِ، فلمّا ورد التأكيدان دلَّ على أنَّه أنزلهم منزلة المنكرين لأجل تماديهم على الغواية والباطلِ مع العلم بالحقِّ، كما أنَّهم لمّا كانوا منكرين أن يكون عذابُهم لأجل التّكذيب تضمّنت الجملة تأكيدين[3].

إنكار الغواية، لا يدفع العقاب عنِ المنكر الكذّاب

(1) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 10/45، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/544.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 11/79، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/70 - 71.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 11/79.

سرُّ ذكرِ ﴿كَانَ﴾، في سياق الآية:

لايزال الظّالم يظلم، حتّى يكونَ الظّلمُ طبعًا عنده، وسجيّة فيه

عُبِّرَ بـ﴿كَانَ﴾ للإشعار بأنَّهم كانوا مستمرّين على ظلمهم، وأنَّه كان مثلَ الطّبع عندهم، فلم يتركوه مع كثرة التّذكير والتّنبيه إلى ما كانوا عليه من الظّلم، ولهذا لم يقل (وإنَّ أصحاب الأيكة لظالمون).

توجيه التّسمية بأصحابِ الأيكة في الآية:

أصحابُ الأيكة كانوا في نعيم عظيمٍ، فظلموا فاستحقّوا العذاب

لمّا قال ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلۡأَيۡكَةِ﴾ دلَّ على اشتهارِهم بالأيكة، والأيك: الشَّجرُ الملتفُّ المخضرُّ الكثيرُ الورق المجتمع في غيضةٍ من الماء ليفيد عظمَ الشجر وكبرَ ثمرتِها، فيدلُّ على أنَّهم كانوا أهل موضع كان ذا ماءٍ وشجر دائم[1]، للإشعار بدوامِ النّعيم الذي كانوا فيه، ولكنّهم ظلموا فاستحقّوا العذاب، وذهب الطبريُّ وغيرُه إلى أنَّ سبب ذكر أصحاب الأيكة هو أنَّ رسولهم شُعَيبًا عليه السلام أُرسل إليهم وإلى أهل مدين، فأَهْلُ مَدين هم سُكّانُ الحاضِرَةِ، وأصْحابُ الأيْكَةِ هُم باديَتُهُم، فأُرسل شعيبٌ عليه السلام إلى أمتين منَ الناس، وعذّبتا بعذابين شتَّى، أمّا أهل مدين، فأخذتهم الصيحة، وأمّا أصحاب الأيكة، فكانوا أهل شجر ملتفٍّ كثيفٍ فعذِّبوا بالنّار منَ السّماء[2].

دلالة المجاز في التّعبير بـ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلۡأَيۡكَةِ﴾:

التّسمية بأصحاب الأيكة إمّا بطريق النّقل وإمّا بتسمية المحلِّ باسم الحالِّ

لمّا كان المراد من ذكر أصحاب الأيكة هو البلدةَ، كان التّعبير بطريق النقل منَ الموضعِ الذي يكون فيه الشّجر إلى البلدة كلِّها، فيكون من قبيل النقلِ منَ الجزء إلى الكلِّ، ويحتمل أن يكونَ التّعبير بتسمية المحل باسم الحالّ فيه؛ لشهرة القومِ بالأيكةِ، وللتّذكيرِ بالنّعمة التي كانوا عليها، ثم غلب عليه حتى صار ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلۡأَيۡكَةِ﴾ عَلَمًا على البلدة مع الإشعار بمأخذِ المجا.

(1) الزجاج، معاني القرآن وإعرابه: 3/185، وابن عطيّة، المحرر الوجيز: 3/371.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 17/124، والماتريدي، تأويلات أهل السنة: 6/457.

نكتةُ اختيار لفظ ﴿أَصۡحَٰبُ﴾ في السّياق:

لمّا كان لفظ الأصحاب يدلُّ على مقارنة الشّيء وملازمتِه، أفاد التّعبير بـ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلۡأَيۡكَةِ﴾ ملازمة القومِ للأيكة، واشتهارَهم بها حتّى صاروا يُنسبون لها، لأنهم كانوا يرتفقون بها في معاشِهم وحياتِهم، فكانوا في رياضٍ منَ الأرضِ، إشعارًا بالنّعيم الذي كانوا فيه.

صاحبُ الشّيء يدلُّ على ملازمتِه للشّيء واشتهارِه به

معنى الإضافةِ في: ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلۡأَيۡكَةِ﴾:

الإضافة هنا على معنى اللّام بمعنى اختصاصِهم بالأيكة التي صاروا يُنسَبون لها؛ لطولِ ملازمتِهم لها، وانتفاعِهم في حياتِهم منها.

الإضافة لاختصاصهم بالأرض الّتي لزموها

سرّ إيثار لفظ (الظُّلم)، دون (الكفر):

عبّر بالظالمين للإشعار بأنَّهم تجاوزا الحدَّ والحقَّ في كفرِهم، وأنَّهم لمّا أنعم اللّه عليهم بالأيكة لم يشكروا نعمَه، وجحدوا بها، ووضعوها في غيرِ مواضعِها المختصَّةِ بها تعدّيًا وبغيًا.

من الظّلم عدم شكرِ النّعمة وجحودها

دلالة الوصف بالمشتقِّ في قولِه ﴿لَظَٰلِمِينَ﴾:

أفاد التّعبير بالاسم المشتقِّ الذي قُطعَ عن متعلَّقه أنَّ الظّلم صار وصفًا لازمًا لهم، وأنَّهم كانوا ظالمين في كفرِهم، ليدلَّ على أنَّهم اتّصفوا بأعظم الظّلم وأقبحِه.

أعظم الظّلم وأقبحه الشّركُ باللّه، وهو في القرآن ظلم عظيم

﴿فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٖ مُّبِينٖ ٧٩﴾ [الحجر: 79]

لمّا وصفهم بالظّلم ذكر ما ترتّب على ظلمِهم فجاء بهذه الآية للبيان

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَٱنتَقَمۡنَا﴾: أصلُ (نقم): يَدُلُّ على إنكارِ شَيءٍ وعَيْبِه[1]، فيُقال: نَقِمتُ عليه، أنْقِمُ: إذا أنكَرْتَ عليه فِعْلَهُ إمّا بِاللِّسانِ، وإمّا بِالعُقوبَةِ، أو عاتَبْتَهُ عليه[2]، ومِن ذلك: النِّقْمَةُ مِن العَذابِ والانْتِقام، كأنَّه أنكَرَ عليه فعاقَبَهُ، والنِّقْمَةُ أيضًا: كَراهَةُ الشَّيءِ كَراهَةً شَديدَةً، يُقال: نَقِمتُ الأمرَ، ونَقِمتُه: إذا بالَغْتَ في كَراهَتِه[3]، والنِّقمة أيضًا: المُكافَأةُ بالعُقوبَةِ، يُقال: انْتَقَمَ اللهُ منه: إذا عاقَبَهُ[4]، والمقصود بالانتِقامِ في الآية: العُقوبَةُ لأجلِ ذَنْبٍ[5].

المَعْنى الإجْماليُّ:

الظُّلم عاقبته وخيمة، ونهايته إلى خسار، والدّليل ما بقي من آثار

يقول الحقُّ سبحانه: فانتقَمنا مِن أصحابِ الأيكَةِ الظّالِمينَ، فأهلَكْناهم، والانتقام ليس هنا: التَّشفي منَ الجاني والأخذ بغير حقٍّ، بل معناها معناه إنزال العقوبة عقوبة مماثلة لما ارتكبه؛ ولأنَّه كان ظلمًا متواليًا، واعتداءً مُستمرًا، فكان العِقاب مماثلًا له، وشفاءً لغيظ مَن جنى عليهم، وإنَّ كُلًّا مِن ديارِ قَومِ لوطٍ وديارِ أصحابِ الأيكةِ لعلى طريقٍ واضِحة تُشاهَدُ فيه آثارُ هَلاكِهم، فيَعتَبِرُ بها مَن يمرُّ عليها[6].

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نقم).
(2) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة: (نقم).
(3) الراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، والسّمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (نقم).
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/71.
(5) ابن منظور، لسان العرب: (نقم).
(6) ابن جرير، جامع البيان: 14/101، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 10/45، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 8/4103.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

معنى الفاء في: ﴿فَٱنتَقَمۡنَا﴾:

لمّا كانت الفاء للتّرتيب والتّعقيب أفادت أنَّ اتّصافَهم بصفة الظّلم كان سببًا في الانتقام منهم، وأنَّه تعالى عاجلَهم بالانتقام.

الظّلم سببٌ للعقاب، وطريقٌ مُفضٍ للعذاب

سرُّ اختيارِ لفظ ﴿فَٱنتَقَمۡنَا﴾ دون (عذّبنا) أو (عاقبنا):

لمّا كان أصحابُ الأيكة في نعمةٍ عظيمةٍ، وكانوا قد قابلوا نعمة اللّه بالظّلم والتّكذيب، وكان تركيب (انتقم منه) مضمّنًا معنى الإنكارِ على سوء الفعلِ مع اقترانِه بالعقاب، فيقال: انتقم منه إذا عاقبه بجنايته، فأفاد التّعبير بـ﴿فَٱنتَقَمۡنَا﴾ بيانَ جزاء ظلمِهم بكفرانِهم نعمة اللّه ومقابلتها بتكذيب رسولِ اللّه شعيبٍ عليه السلام؛ لأنَّ الانتقامَ يكون جزاء على كفران النِّعمة، ولم يذكر اللّه تعالى بمَ كان الانتقام، وبأيِّ نوعٍ منَ العقاب، مع أنَّه لا يسمَّى انتقامًا إلّا بالعقابِ؛ لأنَّ السورة بُنيت على الإيجاز كما تقدَّم غيرَ مرَّةٍ، ولأنَّه ليس المقصود معرفة نوعِ العقابِ، بل المرادُ الإنكارُ عليهم وعلى أفعالِهم، وبيانُ أنَّ سببَ الانتقامِ هو ظلمُهم وكفرانُهم النِّعمَ[1].

الانتقامُ يكون جزاءً على كفرانِ النِّعمةِ

بلاغة التّعريض في جملة ﴿فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ﴾:

لمّا جعل اللّه تعالى الانتقام مرتّبًا على الظّلم كان تعريضًا بالظّالمين من قريش على سبيل الوعيد لهم، وتنبيهًا لِكلِّ ظالمٍ بأنَّه تعالى ينتقم لأوليائِه من أعدائِه جزاء ظلمِهم كما انتقم من أولئك، ففيه إشعارٌ بأنَّ من عادة اللّه تعالى الانتقامَ منَ الظّالمين.

تنبيهُ الظّالمينَ، بأنَّ الله تعالى، ينتقم لأوليائِه من أعدائِه

نكتةُ التّعبير بضمير العظمة ﴿فَٱنتَقَمۡنَا﴾:

أفاد التّعبير بضمير العظمة تفخيمَ الانتقام وتعظيمَه، وأنَّه ليس كأيِّ انتقام، فهو انتقام الملك الواحدِ الأحدِ.

انتقامُ الله تعالى، ليس كأيِّ انتقامٍ، بل هو خسار الدّارين

(1) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 47، وابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (نقم).

معنى (مِنْ) في قوله: ﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾:

دلالة (من) على ابتداء الغاية وانتهائها معًا

قوله: ﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ يشير إلى شدَّة الانتقام من هؤلاء، وكأنَّ المعنى فصَبَبْنا عليهم انتقامنا صبًّا، حتَّى إنَّه ليُخَيَّل إليك أنَّ بداية الانتقام منهم، ونهايته أيضًا تكون منهم، فمعنى (مِن) ابتداء الغاية وانتهاؤها، وقد قال أبو حيان: "وَقَدْ أَثْبَتَ أَصْحابُنا في مَعاني (مِنْ) أنَّها تَكونُ لِابْتِداءِ الغايَةِ وانْتِهائِها في فِعْلٍ واحِدٍ، وأنَّ الشَّيْءَ الواحِدَ يَكونُ مَحَلًّا لَهُما، وتَأوَّلوا ذَلِكَ عَلَى سيبَوَيْهِ وقالوا مِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُم: أَخَذْتُ الدِّرْهَمَ مِنْ زَيْدٍ، فزَيْدٌ مَحَلٌّ لِابْتِداءِ الأَخْذِ مِنْهُ وانْتِهائِهِ مَعًا[1].

دلالة الضّمير في قولِه ﴿مِنْهُمْ﴾:

إذا وقع انتقام الله من الظّالمين، فلا يفلت منه أحدٌ

يعود الضّمير على أصحاب الأيكة بما اتَّصفوا به، أي: فانتقمنا من أصحابِ الأيكة الظّالمين، ليفيدَ أنَّ الانتقامَ والإهلاكَ استغرقَهم جميعًا.

معنى الواو في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُمَا﴾:

انتقام الله متنوّع فمنه انتقام الاستئصال والإهلاكِ

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ﴾، لمّا كانت الواو هنا حاليَّةً أفاد الكلام اقترانَ كونهما بإمامٍ مبينٍ بانتقام الله تعالى من أصحابِ الأيكة، ليشعرَ أنَّ الانتقام انتقامُ استئصالٍ وإهلاكٍ في حالِ بقاء آثارِهم الدالَّة عليهم.

غرض تتابعِ التّوكيد في سياق الآية:

تتابع المؤكّدات، يدفعُ إنكارَ المنكرين

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ﴾، لمّا كان المكذِّبون من قريشٍ وغيرِهم لم ينتفعوا برؤيةِ آثار القومِ المهلَكين فكأنَّهم كانوا منكرين لكونِها في طريقٍ واضحٍ بيّن، لأنَّ الغرضَ من رؤيتِها لم يتحقَّق، فكانوا بمنزلة المنكرين فجاء الخبر على طريقة الخبر الإنكاريِّ مؤكَّدًا

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 9/511.

بتأكيدين (إنَّ) واللّام الموطّئة للقسم، لتقريرِ المعنى في نفوس المكذّبين، وليطمئنَّ المؤمنون إلى عدلِ الله وعنايتِه بأهلِ الإيمانِ.

مرجع ضمير التّثنية، في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُمَا﴾:

تنوّع عودِ الضّمير، بيانٌ لسعةِ بلاغة القرآن

يحتمل عودُ الضَّمير على مدينة لوطٍ والأيكة، ويكون إدخالُ مدينة لوطٍ هنا تأكيدًا لقولِه تعالى: ﴿وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ﴾، للحثِّ على زيادةِ الاعتبار بما وقع للقوم المنحرفين المجرمين، ويؤيده مجيء قصّة أصحاب الأيكة عقب قصّة قومِ لوطٍ، ويحتمل أن يكون الكلامُ على خلافِ مقتضى الظّاهر، بأنْ يكون الضَّمير عائدًا على الأيكة ومدين، لأنَّ مقتضى الظّاهر أن يقال: (وإنَّها) لذكر الأيكة دونَ مدين، فعدل إلى ضمير التّثنيَة؛ لأنَّه ﷺ كان مبعوثًا إليهما، فكان ذكرُ أحدهما وهو الأيكة منبِّهًا على الآخر، لاشتراكِهما في التّكذيب والعذاب، أو يقال: إنَّ ضَميرَ التَّثْنِيَةِ عائِدٌ عَلَى أصْحابِ الأيْكَةِ باعْتِبارِ أنَّهُم قَبيلَتانِ، وهُما مَدْيَنُ وسُكّانُ الغَيْضَةِ الأصْليّونَ الَّذينَ نَزَلَ مَدْيَنُ بِجِوارِهِم، فاللفظ مفرد ومعناه مثنًّى، فعاد الضّمير على المعنى تنبيهًا إلى أنَّهما قبيلتان[1].

معنى الباء في قوله تعالى: ﴿لَبِإِمَامٍ﴾:

الآثار شاهدة في الجيل الأخير، على ما لاقاه السّابقون من مصير

الباء هنا للإلصاق، للإيذانِ بأنَّ هاتين المدينتين الملتصقتين بطريق واضحٍ بيّن، فمَن يمرُّ بهما يراهما، فكأنَّه يقول: فلمَ لم تعتبروا بما حصلَ للمكذّبين؟!

بلاغة الكناية، في سياق الآية الكريمة:

بقاء آثار العذاب، طريق للاعتبار بها، لا للغفلةِ عنها

قولُه تعالى: ﴿وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ﴾، وفيه لمّا كانت المدينتان ملتصقتين بطريق مسلوكٍ مقصودٍ للمارَّة بيِّنٍ واضحٍ دلَّ بلازمِه على أنَّ المارَّة يرون المدينتين المهلكتين، لينتقَل بهذا المعنى إلى لازمٍ آخرَ

(1) الزمخشري، الكشاف: 2/586، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 19/157، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 3/216، وابن التمجيد، حاشية على البيضاوي: 11/190، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/72.

هو المقصد الأسمى، وهو تنبيهُ المخاطبين إلى الاعتبار بآثار الانتقام منَ القومِ الظّالمين، أي: فكيف يغفلون عن نزول العقاب عليهم إن فعلوا مثلما فعل الظّالمون، فيكون الكلام على طريق الكناية البعيدة لتعدّد اللّوازم.

نكتةُ التّعبير بلفظِ ﴿لَبِإِمَامٍ﴾:

الاعتبار بآثارِ القومِ الظّالمين سبيل الهداية والرّشاد

لمّا كان الإمام هو ما يُهتدى به للوصول إلى المقصود، وصف الطّريق الذي تقع فيه المدينتان بالإمامِ للإيذانِ بأنَّه طريقٌ يقصد ويتّبَع، فقد سمّي الطريق إمامًا لأنَّ المسافر يَأتَمُّ به حتى يصير إلى الموضع الذي يريد[1]، والغرض من تسمية الطّريق إمامًا تنبيه السّامعين إلى أنَّ الاعتبار بآثارِ الانتقام منَ القومِ الظّالمين سبيل الهداية والرّشاد، وذهب بعض المفسّرين إلى أنَّ المراد من إمامٍ مبينٍ الكتاب، أي: اللّوح المحفوظ، بمعنى أنَّ تقدير العقاب عليهم مكتوب في اللّوح المحفوظ[2].

بلاغة الكناية في قولِه ﴿لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ﴾:

آثار عذابِ الظّالمين، نعمةٌ للمعتبرين، ونقمةٌ على الغافلين

في التّعبير بقوله ﴿لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ كنايةٌ عن كونِ الطّريق الموصل إلى هاتين المدينتين مقيمًا ثابتًا في مكانه لم تندرس أعلامه، ولم تنطمس آثاره، فهو طريقٌ يأتمّه المارَّة ويقصده النّاس، فكأنَّ بقاءه نعمة للمعتبرين ونقمةٌ على الغافلين.

بلاغةُ المجاز في قوله ﴿مُّبِينٍ﴾:

آثار الظّالمين دليلٌ على آثار قدرة الله، وانتصارِه لأنبيائِه وأوليائِه

جاء ﴿مُّبِينٍ﴾ صفةً لـ﴿لَبِإِمَامٍ﴾، ولمّا كان لفظُ ﴿مُّبِينٍ﴾ اسمَ فاعل أفاد أنَّ الطّريق مبينٌ لغيرِه، ولمّا كانَ الطريقُ لا يبينُ بل يستبينه المارون منه كان اسمُ الفاعل على معنى اسم المفعول، وعُبِّرَ بالفاعل عن المفعول مبالغةً في شدَّة وضوحه، وللإشعار بأنَّه موضِّحٌ لآثار

(1) ابن جرير، جامع البيان: 14/101، والزجاج، معاني القرآن وإعرابه: 3/185، والماتريدي، تأويلات أهل السنة: 6/458، والواحدي، التفسير البسيط: 12/642.

(2) أبو حيان، البحر المحيط: 6/491.

قدرة اللّه وعظيم عقابِه وانتصارِه لأنبيائِه وأوليائِه، وبأنَّه يهدي إلى المقصدِ، أي: الاعتبار بالآثار الباقية[1].

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

العقاب والانتقام:

الفرق بينهما هو أنَّ الانتقام يأتي بمعنى المكافأة بالعقوبةِ على ما صنعَ من كفرانِ النّعمة، فكأنَّ المنتقمَ لم يجدْ شيئًا يجزي به سوى العقوبة بالعذابِ والإهلاكِ وسلبِ النّعمة التي كفرَ بها لما يستحقّه بسوء فعلِه، مع ظهور الإنكار على الفعلِ، وأمّا العِقابُ فهو جَزاء على الجُرم بِالعَذابِ ويلزمه الإنكار؛ لأنَّ العقاب نقيض الثَّواب والانتقامَ نقيض الإنعام[2].

العقابُ نقيضُ الثَّوابِ، والانتقامُ نقيضُ الإنعامِ

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 19/157، والبقاعي، نظم الدرر: 8/43.

(2) الأزهري، تهذيب اللغة: (نقم)، والعسكري، الفروق اللغوية، ص: 240.

﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾﴾ [الحجر: 80]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

التّذكير بكفر أصحاب الحجر، بعد هلاك أصحاب الأيكة بظلمهم

لمّا كان ربما يقول قائل: إنَّه لو كان لأصحاب الأيكة بيوتٌ متقنةٌ لَمنعتهم منَ العذابِ؟ عطفَ عليهم مَنْ هم على طريقٍ أخرى من متاجرِهم إلى الشّام، وكانوا قد طالَ اغترارُهم بالأملِ حتَّى اتَّخذوا الجبالَ بيوتًا، وكانت آيتُهم في غايةِ الوضوحِ فكذَّبوا بها تحقيقًا؛ لأنَّ المتعنِّتينَ لو رأوا كلَّ آيةٍ لقالوا: إنَّما سُكِّرتْ أبصارُنا فجاءت هذه الآية عقب ما تقدَّمها[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلْحِجْرِ﴾: أصلُ (حجر): أصْلٌ واحِدٌ مُطَّرِدٌ، وهو المَنْعُ والإحاطَةُ على الشَّيءِ، فالحَجْرُ حَجْرُ الإنسانِ، يُقالُ: حَجَرَ الحاكِمُ على السَّفيهِ حَجْرًا؛ وذلكَ مَنْعُهُ إيّاهُ مِنَ التَّصَرُّفِ في مالِه؛ والعَقْلُ يُسَمَّى حِجْرًا لأنَّهُ يَمنَعُ مِنْ إتْيانِ ما لا يَنْبَغي[2]، والحَجَرُ معروفٌ، وأحْسِبُ أنَّ البابَ كُلَّهُ محمولٌ عليهِ ومأْخوذٌ منهُ؛ لشدَّتِه وصلابَتِه، الحِجْرُ حِجْرُ الكَعْبَةِ، وهو ما حَواهُ الحَطيمُ المُدارُ بِالبَيْتِ جانبَ الشَّمالِ؛ وكُلُّ ما حَجَرْتَهُ مِنْ حائطٍ، فهوَ حِجْرٌ[3]، والمقصود بالحِجْرِ في الآية: المكانُ المَحْجورُ، أي: المَمنوعُ مِنَ النّاسِ بِسَبَبِ اخْتِصاصٍ بِهِ، أوِ اشْتُقَّ مِنَ الحِجارةِ لأنَّهم كانوا يَنْحِتونَ بُيوتَهُم في صَخْرِ الجَبَلِ نَحْتًا مُحكمًا[4]، والمرادُ به: ديارُ ثَمودَ ناحيَةَ الشّامِ عِنْدَ وادي القُرَى، وهم قومُ صالِحٍ عليه السلام[5].

(1) البقاعي، نظم الدرر: 11/80.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حجر).
(3) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن عبّاد، المحيط في اللّغة، والجوهري، الصحاح: (حجر).
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/72 - 73.
(5) ابن منظور، لسان العرب: (حجر).

المَعْنى الإجْماليُّ:

ذكر أصحاب الحجر وتكذيبهم، ومَن كذّب رسولًا فقد كذب الرُّسُل جميعًا

يُخبر الله تعالى عن أهل الحجر، وهم قوم صالح، الَّذين كانوا يسكنون الحجر المعروف في أرض الحجاز، أنَّهم كذَّبوا المرسلين، أي: كذَّبوا صالحًا، ومَن كذَّب رسولًا فقد كذَّب سائر الرُّسل؛ لاتِّفاق دعوتهم، وليس تكذيب بعضهم لشخصه بل لما جاء به منَ الحقِّ الَّذي اشترك جميع الرُّسل بالإتيان به، والتي لا تختلف والذي لا يختلف باختلاف الأمم والأزمان[1].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

مناسبة العطف بالواو في الآية:

تماثل العذاب على الأمم، لتماثل التّكذيب والظّلم

جاءت الآية بطريق الوصل لمناسبة المعنى، فقد كذَّب كلُّ قوم منَ المذكورين في السّورة رسلَهم، وكان نوع العذاب الذي سُلِّطَ عليهم متماثلًا، وهو عذاب الصّيحة والرّجفة والصّاعقة، وكان أهل مكّة يشاهدون ديارَ هذه الأمم الثلاثِ، لأنَّها كانت في طريقِ أسفارِهم، فجاءت الآية بالوصل؛ لتكون على التّتميم والإدماج مع ما قبلَها، بختم القصص في هذه السورة بقصة أصحابِ الحجر، الذين كانَتْ منازلُهم وما نزلَ بهم معروفًا عند العربِ، فذكرَهم ليعتبرَ المخاطبون بهم.

فائدة تتابع التّوكيد، في قولِه ﴿وَلَقَدْ﴾:

مَنْ كانَ تكذيبُه متأصِّلًا، لم تنفعه الآياتُ، ولا العظات

أفاد مجيء الكلام بتوكيدين: باللّام و(قَدْ) تقريرَ تكذيب أصحابِ الحجرِ لرسولِهم صالح ﷺ، والإشعارَ بأنَّهم كانوا مصرّين على التّكذيب، وأنَّه كانَ متأصِّلًا فيهم، وأنَّ الآياتِ لم تنفع في قلعِهم عن التّكذيب.

دلالة صيغة فعّل في قولِه ﴿كَذَّبَ﴾:

تكذيب الرّسل يجرُّ إلى المبالغة فيه

جاء الفعل بصيغة التّضعيف لأجل تعديتِه إلى المفعول بنفسِه، وفي الصّيغة إشعارٌ بكثرة تكذيبِهم لرسولِهم ومبالغتِهم فيه،

(1) المراغيّ، تفسير المراغي: 14/40، والسّعديّ، تيسير الكريم الرحمن، ص: 434.

فكذَّبوا رسولَهم وجميعَ الآيات التي جاء بها، ودلَّ عليه قوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُمْ ءَايَٰتِنَا فَكَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾.

نكتةُ ذكر (التَّكذيب) دون (الكفر):

اختيار اللّفظ المناسب لسياقه، من بلاغة القرآن

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾، عبّر بالتّكذيب دون الكفر؛ لأنَّ سياق القصص في هذه السورة يتكلم في أحوال قوم الرّسل مع رسلِهم وكيف كانت مقابلتهم لدعوة رسلِهم، فأخبر هنا عن تكذيبِهم لما جاء به صالحٌ عليه السلام، وفيه إشعارٌ بأنَّ تكذيب الرّسل مبدأُ الكفرِ والضّلال ومآله العقاب.

دلالة مجيء الخبر على مقتضى الظّاهر:

تقديم الفاعل للاهتمام به، من فصيح السّياق

جاء الخبر على مقتضى الظّاهر بتقديم الفاعل على المفعول، فلم يقل (كذّبَ المرسلين أصحابُ الحجرِ)، والسَّببُ هو أنَّه لمّا كان السّياقُ في بيانِ حالِ المكذِّبين وما وقع لهم بتكذيبهم، قُدِّمَ الفاعلُ للاهتمامِ به[1].

نكتةُ اختيار لفظ ﴿أَصْحَٰبُ﴾:

قوّة المكذّبين ومنعتُهم، لا تدفعُ عقابَ الله عنهم

لمّا كان لفظ الأصحاب يدلُّ على مقارنة الشّيء وملازمتِه أفاد التّعبير بـ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ﴾ ملازمة القومِ للحجرِ، فجُعلوا لِسُكناهم فيها ومقامِهم بها أصحابَها[2]، إشعارًا باشتهارِهم بالحجر حتّى صاروا يُنسبون له، وبأنَّهم ذوو قوَّةٍ ومنعةٍ.

معنى الإضافةِ في قوله تعالى: ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ﴾:

شؤم المكان الّذي شهد الكفر والعقاب، يبقى على مدى الدّهر

الإضافة هنا على معنى اللّام، بمعنى اختصاصِهم بالحجر الّذي صاروا يُنسبون له، لطولِ مقامِهم فيه وملازمتهم له، فاشتهروا به لذلك حتَّى صارَ كالعلمِ عليهم.

(1) البقاعي، نظم الدرر: 11/80.

(2) ابن جرير، جامع البيان: 17/126.

وجه تسميَة القوم هنا بأصحابِ الحجرِ دونَ (ثمود):

لـكـلّ شيء نصيب في الحالة والـوصـف من اسمه

لمّا كان الحجرُ هو المكان الذي أحيطت به الحجارة[1]، وكان السّياق في بيان أنَّ قوّتهم وبناءهم البيوت في الجبال لم تمنعهم من عذاب الله عُبِّر عن قوم ثمود بأصحابِ الحجر، لدلالة الحجر على الحجارة التي تحيط بالمكان إشعارًا باحترازِهم وتحوّطهم وقوّتهم، ففيه إشارةٌ أنَّ قوّتهم لم تمنعهم من عذاب الله.

دلالة (أل) في قولِه ﴿ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾:

تكذيب المرسلين لـؤم وهـوان إلى يوم الدّين

الظّاهر أنَّ (أل) للاستغراق بمعنى كذّب أصحابُ الحجر كلَّ المرسلين، ويحتمل أن تكون للعهد ليكون المرادُ صالحًا ومن آمن معه من المؤمنين[2].

بلاغة التّعبير في جمعِ ﴿ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾:

تكذيب رسولٍ، هـو تـكـذيـب لجميعِ الرّسل وما حملوا

الظّاهر أن يكون ذكر ﴿ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ بصيغة الجمع بطريق المجاز في الإيقاع، حيث أوقعَ على جميعِ الرّسل ما أوقعَ على الواحدِ، لأنَّ الكفرة من قومِ صالحٍ لم يواجهوا جميعَ الرّسل حقيقةً، ونكتة مجيء اللفظ بصيغة الجمعِ؛ هو أنَّه لمّا كان جميع الرّسل قد اتَّفقت كلمتُهم على التّوحيد والمنع منَ الشّرك والدّعوة إلى الحقِّ والأصول التي لا تختلف باختلاف الأمم والأعصار كان تكذيب الواحدِ من الرّسل بمثابة تكذيب الجميع، فجعل اتّحادَ المكذَّب فيه بمنزلة اتّحاد المكذِّب، ففيه وعيدٌ مِن تكذيب أيِّ رسولٍ منَ المرسلين وتهويلٌ منه، وهذهِ العبارةُ أشنعُ على المكذِّبين، لأنَّ تكذيب كلِّ المرسلين أقبح من تكذيب الواحدِ منهم، ويستحقُّ المكذِّبُ به العذابَ الأشدَّ، والتّعبير بصيغة الجمعِ هنا مثل قولِه تعالى: ﴿كَذَّبَتۡ قَوۡمُ نُوحٍ

(1) الراغب، المفردات، (حجر).
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 2/210.

ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ [الشعراء: 105][1]، فإذا كان تكذيب صالحٍ عليه السلام تكذيبًا لكلِّ الرّسل فكيف بمَن يكذِّبُ خاتمَ الرّسل والنّبيّين سيِّدنا محمَّدًا ﷺ؟! ويحتمل أن يكون ذكر ﴿ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ بصيغة الجمع من باب الكناية؛ لأنَّ الرّسول مَن أتى بوحيٍ منَ اللّه وجاء بمعجزةٍ فيلزم منه أنَّ مَن لم يصدِّق هذا المعنى الذي جاء به الرّسول وردَّه أن يكون قد أعمَّ التّكذيبَ لجميعِ الرّسُلِ[2]، وإذا كان المراد منَ ﴿ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ صالحًا ومَن آمن معه فيكون الإطلاق على التّغليب[3]، تكريمًا لأتباعِ المرسَل وتشريفًا لهم.

نكتةُ إيثارِ الجمع بصيغة ﴿ٱلْمُرْسَلِينَ﴾، دون الرّسل:

لمّا كانت صيغة ﴿ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ جمعًا لاسم المفعول (المرسَل)، وأفاد بصيغتِه أنَّه مبلّغٌ عن مَن أرسلَه وهو اللّه تعالى، دلَّ على أنَّ تكذيب المرسَل تكذيبٌ للمرسِلِ ﷻ.

تكذيبُ المرسَلِ تكذيبٌ للمرسِل، وهو الله تعالى

بلاغة التّعريض في الآية الكريمة:

قولُه تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾، في الكلام تعريضٌ بالمكذّبين من قريشٍ ومن يأتي بعدَهم في أنَّهم إن كذَّبوا رسول اللّه محمَّدًا ﷺ فهم بمنزلة من كذَب جميع المرسلين، وأنَّ مآلَهم سيكونُ مثلَ مآلِ مَن كذَّب الرّسل مِن قبلُ، ففي التّعريض وعيد شديد.

مآل مكذّبي رسلِ الله واحدٌ، في العقابِ والعذاب

(1) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 6/459، والزمخشري، الكشاف: 2/586، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 3/216، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 11/191.

(2) الطيبي، حاشية على الكشاف: 9/56، وابن التّمجيد، حاشية على البيضاوي: 11/191.

(3) الشّهاب، عناية القاضي: 5/537، والآلوسي، روح المعاني: 7/318.

﴿وَءَاتَيْنَٰهُمْ ءَايَٰتِنَا فَكَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٨١﴾﴾ [الحجر: 81]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

ربط نماذج الكفر بآياتِ صدقِ الرّسل، بأحوال المعرضين عنها

لمّا ذكر اللّهُ تعالى تكذيبَ أصحاب الحجر المرسلين أتبعه بذكر الآيات التي تدلُّ على صدقِ مَنْ أُرسِلَ إليهم، لإثباتِ قيامِ الحجّة عليهم.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مُعْرِضِينَ﴾: أصْلُ كَلِمَةِ الإعْراضِ مِنَ العَرْضِ وهوَ الظُّهورُ والبُروزُ، يُقالُ: عَرَضَ الشَّيْءُ وعَرِضَ يَعْرِضُ ويَعْرَضُ عَرْضًا، أي: ظَهَرَ وبَرَزَ[1]، وقيلَ أصْلُها مِنَ العَرْضِ وهوَ: خِلافُ الطّولِ، يُقالُ: اعْتَرَضَ الطَّريقَ إذا سارَ عَرْضًا، وسُمّيَ الرَّفْضُ إعْراضًا؛ لأنَّ الرّافِضَ أظْهَرَ خِلافَ الشَّيْءِ، أوْ لأنَّهُ كالواقِفِ عَرْضًا في وجْهِ الشَّيْءِ[2]، والإعراض أيضًا: الصَّدُّ والتَّوَلّي والرَّفْضُ، تَقولُ: أعْرَضَ عَنْهُ أي: صَدَّ وتَوَلَّى عنهُ، والمُعْرِضُ: المُتَوَلّي، ويُطْلَقُ الإعْراضُ بِمَعْنَى: الانْصِرافِ عَنِ الشَّيْءِ بِالقَلْبِ، وضِدُّ الإعْراضِ: الإقْبالُ والانْقِيادُ والطّاعَةُ[3]، والمقصود بالإعراض في الآية: الصَّدُّ والتَّوَلّي والرَّفْضُ.

المَعْنى الإجْماليُّ:

آيات الله تعالى دالّة على الحقِّ، وحجَّةٌ على المنكرين المعرضين

بيَّن اللّه تعالى مظاهر هذا التَّكذيب لرسولهم ﷺ فقال: وآتينا ثمودَ حُجَجَنا وبراهينَنا الدّالَّةَ على صِدقِ رَسولِنا صالح ﷺ فيما دعاهم إليه من عبادة اللّه وحده، والإيمان برسالته، وكانت النّاقة إحدى آيات اللّه البينات: في شربها ودرِّها على خلاف غيرها من النّياق؛ ولذلك أضافها صالح إلى اللّه تعالى حين قال لقومه: ﴿يَٰقَوْمِ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عرض).
(2) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (عرض).
(3) ابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (عرض).

ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ قَدۡ جَآءَتۡكُم بَيِّنَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمۡ ءَايَةٗۖ فَذَرُوهَا تَأۡكُلۡ فِيٓ أَرۡضِ ٱللَّهِۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٧٣﴾ [الأعراف: 73]، فكانوا عن هذه الآيات كلِّها مُعرضين، بل مُكذِّبين مُعاندين[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

مناسبة مجيء الآية بالوصل بالواو:

تكذيبُ الرّسل إعراضٌ عن آياتِ الله، وتنكّر لهدايته

لمّا ذكر الله تعالى تكذيب أصحابِ الحجر نبيَّهم صالحًا عليه السلام، وأفاد أنَّ تكذيب أيِّ رسولٍ بمثابة تكذيب كلِّ المرسلين، وصل الكلامَ بواو العطف للمناسبة في المعنى، أي: كذّبوا بالمرسلين الذين أرسلناهم وأعرضوا عن الآياتِ التي آتيناهم، وليفيد الكلامُ كفرانَهم النِّعمَ العظيمة التي آتاهم الله إيّاها بإعراضِهم عنها على وفقِ الأمم السابقة.

دلالةُ استعمالِ لفظ ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُمۡ﴾، في السّياق:

ظهور قيام الحجّة على الكافرين، بجعل الآياتِ بين أيديهم

قوله تعالى: ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُمۡ ءَايَٰتِنَا﴾، لم يقل (أتتهم آياتُنا)؛ لأنَّ صيغة (آتى) تفيد تحصيلَ المأتي عند المفعول، في إشارةٍ إلى تيقّنهم بالآياتِ التي أرسلَها الله لصالحٍ عليه السلام، إذ أفادت الصّيغة حصولَهم على الآياتِ بمعنى ظهورِ كونِها آياتٍ منَ الله تعالى عندهم، فالدليل على صدقِ الرّسول بين أيديهم، فلا يحتاجون إلى البحثِ عنه، وأكّد هذا بجعل الآياتِ مأتيَّةً لهم، مع أنَّ الآياتِ قد آتاها الله نبيَّهم صالحًا عليه السلام، ليكونَ الكلامُ أظهرَ في قيامِ الحجَّة عليهم[2].

دلالة الفاعل ضميرًا للعظمة في قولِه: ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُمۡ﴾:

الإتيانُ بالآياتِ، لا يقدر عليه إلّا الله الواحدُ الأحدُ

عُبّرَ بضمير العظمة في ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُمۡ﴾؛ للإشعار بأنَّ الإتيان

(1) ابن جرير، جامع البيان: 14/104، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 10/53، والسّعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 434، ومجمع البحوث، التفسير الوسيط: 5/572.

(2) الخطيب الشربيني، السراج المنير: 2/210.

بالآيات لا يقدر عليه إلّا الملك الواحد الأحد، والمعنى آتيناهم آياتنا بما لنا منَ العظمة والقدرة على يد رسولِهم صالحٍ عليه السلام، وفي إسناد الفعل إلى ضمير العظمة العائد إلى الله تعالى إشعارٌ بأنَّ تكذيبَ المرسلين تكذيبٌ لله تعالى العظيم المتكبّر المتعال.

فائدة إضافة الآيات إليهم، في قوله ﴿وَءَاتَيْنَٰهُمْ ءَايَٰتِنَا﴾:

المعجزة نعمةٌ منَ الله على من أُرسل إليهم الرّسول

أضاف الآياتِ إليهم، وإن كانت قد أتت نبيَّهم صالحًا عليه السلام؛ لأنَّه لمّا كانَ صالحٌ عليه السلام مرسَلًا من ربِّهم إليهم بهذه الآيات كان إيتاؤهم إيّاها على معنى المجاز بذكرِ المآلِ؛ للإشعار بأنَّهم قد تيقّنوا من هذه الآياتِ وأنَها من عند الله تعالى، وفي التّعبير بـ﴿وَءَاتَيْنَٰهُمْ ءَايَٰتِنَا﴾ معنى الامتنان؛ ليفيدَ أنَّهم قد حصلوا عليها وأفادوا منها في حياتِهم ومعاشِهم[1].

نكتة جمع الآياتِ في قوله ﴿ءَايَٰتِنَا﴾:

التّعبير بصيغة الجمعِ، لتنوّع آياتِ النّاقة وإعجازِها

لمّا كانت الآية التي جعلها الله لصالحٍ عليه السلام، وهي النّاقة، مشتملةً عَلَى آياتٍ، أي: في كَيْفيَّةِ خُروجِها مِنْ صَخْرَةٍ، وحَياتِها، ورَعْيِها، وشُرْبِها عبّرَ عنها بالآيات، أو هي آياتٌ باعتبار تنوّع دلالتِها على قدرة الله وعظمتِه.

دلالة الإضافة إلى ضمير العظمة، في قوله ﴿ءَايَٰتِنَا﴾:

تعظيمُ المضافِ وتشريفُه لعظمة المضاف إليه

أفادت الإضافة إلى ضمير العظمة تعظيم الآيات وتشريفها، فإنَّ تعظيم المضاف إليه يلحق المضاف.

معنى الفاء في قوله ﴿فَكَانُواْ﴾:

التّعجيب من حالِ الكافرين، في إعراضهم عن آياتِ المنعم بكلّ النّعم

تفيد الفاء معنى التّرتّب والتّعقيب وأُشربَ فيها معنى المجازاة، أي: ترتّب على إتيانِهم بالآياتِ إعراضُهم عنها، وأنَّ إعراضَهم كان عقيب إتيانِهم بالآياتِ، فكأنَّهم كانوا قد أضمروا في أنفسِهم الإعراض عنها بمجرَّد إتيانِها، ولمّا أشربت الفاء معنى المجازاة،

(1) الخطيب الشربيني، السراج المنير: 2/210.

أفاد أنَّ جزاء إنعامِنا عليهم بالآياتِ هو إعراضُهم عنها غير ملتفتين إليها، فأفادَت الفاء بدلالتِها التعجيبَ من حالِهم، إذ قابلوا نعمةَ اللّٰه العظيمةَ بالإعراضِ عنها.

فائدةُ ذكرِ ﴿فَكَانُواْ﴾ في السّياق المحكم:

لا ينفع تذكيرُ الظّالمين إن صارَ إعراضُهم عن آياتِ اللهِ طبعًا

لم يقل (فأعرضوا عنها) وهو أوجز عبارة، وذلك للإيماءِ إلى أنَّهم كانوا مستمرّين على الإعراضِ عن آياتِ اللّٰه تعالى حتَّى صارَ الإعراضُ طبعًا لهم لا يتغيَّر ولا يفارقهم.

دلالة التّقديم، في قولِه ﴿عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾:

بيان إعراضِ الظّالمين عن آياتِ اللّه، وإقبالهم على الدّنيا وزينتِها

تقديم الجارّ والمجرور ﴿عَنْهَا﴾ الذي هو معمول خبر ﴿فَكَانُواْ﴾ للتّخصيص، بمعنى أنَّهم كانوا معرضين عن الآيات كلِّها خاصَّة، وأمّا عن نحت البيوت منَ الجبال وزينة الدنيا التي تجرُّ إلى الباطل فكانوا مقبلين إليها كما أنَّ في تقديم المعمولِ رعايةً للفاصلةِ فتتناسب رؤوس الآي[1].

دلالة الضّمير في قولِه ﴿عَنْهَا﴾:

التّوبيخ على الإعراض، يستحقّه من يوصف بذلك

يعود الضّمير على ﴿ءَايَٰتِنَا﴾ بما اتّصفت به، والمعنى فكانوا عن الآياتِ التي آتيناهم إيّاها معرضين، للإشعارِ بقبحِ إعراضِهم وتوبيخِهم عليه.

نكتةُ التّعبير بالإعراض عن الآيات:

عدمُ التّفكُّر بآياتِ الله، بعدَ إقبالِها، إعراضٌ عنها

عُبِّرَ بلفظ الإعراض دون غيرِه، للإشعارِ بأنَّهم كأنَّما كانوا يولّون عن الآياتِ مبدينَ عَرْضَهم لها[2]؛ فدلَّ اللفظ على أنَّهم كانوا تاركين للآياتِ مدبرين عنها غير ملتفتين إليها ولا يتفكّرون فيها، بعد أن أتتهم وأقبلت إليهم، فلم يعملوا بما تقتضيه بل كذّبوا بها جميعًا[3].

(1) البقاعي، نظم الدرر: 11/81، والآلوسي، روح المعاني: 7/319.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (عرض).
(3) الخطيب الشربيني، السراج المنير: 2/210.

نكتةُ التّعبير باسم الفاعل ﴿مُعْرِضِينَ﴾:

رسوخ الإعراض، بكثرةِ التّولّي عن آياتِ الله، حجاب عن الحقّ

أفاد التّعبير باسم الفاعل أنَّ الإعراض عن الآياتِ صار وصفًا لهم، ليفيد رسوخهم في الإعراضِ، وأنَّ إعراضَهم عنها كانَ إعراضا كلِّيًّا[1]، ومن شدَّة إعراضِهم وتكذيبِهم عارضوا الآياتِ، ففعلوا بالنّاقة ما فعلوا.

(1) البقاعي، نظم الدرر: 11/81، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/87، والبروسوي، روح البيان: 4/483.

﴿وَكَانُواْ يَنۡحِتُونَ مِنَ ٱلۡجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ٨٢﴾ [الحجر: 82]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

تنوّع نعم الله الظّاهرة والباطنةِ، على قوم صالحٍ عليه السلام

لمّا ذكر الله تعالى نعمَه بإيتاء أصحاب الحجر الآيات العظيمة أعقبها بذكر نعمةٍ اختصّوا بها لتظهر آثار نعمه عليهم الباطنة والظّاهرة.

وأيضًا: لمّا كانت الآيات تنبيهًا لقريشٍ من أن ينالَهم مثلُ ما أصاب القوم المكذبين، أخبر أنَّ أصحاب الحجر، الذين كانوا في طريق سفر قريشٍ، كانوا مثلهم في الأمن منَ العذاب والغفلة عمّا يُراد بهم مع أنَّهم كانوا أشدَّ منهم[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَنۡحِتُونَ﴾: أصلُ (نحت): كَلِمَةٌ تَدُلُّ على نَحْرِ شَيءٍ وتَسْوِيَتِهِ بِحَديدَةٍ[2]، النَّحت: الأخْذُ مِنَ الشَّيءِ لتجعله على صورةٍ مخصوصَةٍ، كنحت النَّحيتِ والصَّنمِ والبَيتِ من خَشَبٍ وحَجَرٍ ونحوهما، ويكونُ في الأجسام الصَّلبة المحتملة لذلك، وقد يتجوَّز به في غيرها[3]، ونَحَتَ الجبلَ يَنْحِتُه: قَطَعَه[4]، والنُّحاتَةُ: ما يسقط منَ المَنْحوتِ، والنَّحيتَة: الطّبيعة التي نُحِتَ عليها الإنسان، كما أنّ الغريزة ما غُرِزَ عليها الإنسانُ[5]، والمقصود بالنَّحْتِ في الآية: بَرْيُ الحَجَرِ مِنْ وسَطِهِ أو مِنْ جَوانِبِهِ.

المَعْنى الإجْماليُّ:

اتّخاذ قوم صالح بيوتًا حصينة أمينة، منحوتة في صُلب الجبال

ثم بيَّن الحقُّ تعالى بعض مظاهر حضارتهم وتحصنهم في

(1) البقاعي، نظم الدرر: 11/81.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نحت).
(3) السّمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (نحت).
(4) ابن منظور، لسان العرب: (نحت).
(5) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (نحت).

بيوتهم المنحوتة في الجبال، فقال: ومكنّاهم في الأرض وجعلناهم أولي قوَّة ومنَعَة، وحضارة ومهارة، وحذْقٍ بفنون البناء والعمارة، حتَّى كانوا يتخذون من جبالها بيوتًا حصينة، حيث كانوا يقطعون حجارتها وينحتونها تسوية لها، ثمَّ يبنون بها قصورهم ليعيشوا فيها آمنين عليها من الهدم، وعلى أنفسهم من العدوان والسّوء؛ لقوة بنائها وبديع إحكامها؛ أو آمنين منَ العذاب لحسبانهم أنَّ الحصون التي بنوها تحميهم منه[1].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

دلالة الوصل بالواو في الآية الكريمة:

إعراضُ قوم صالحٍ عن آيات الله، وانشغالهم بنحتِ بيوتِهم من الجبال

لمّا ذكر اللهُ تعالى نعمتَه على أصحاب الحجر، أنْ آتاهم الآياتِ ناسب ذكر نعمةٍ أخرى عظيمة لم تكن لغيرِهم منَ الأقوام السّابقين، ولمّا كانت الجملتان فعليَّتين ناسبَ مجيء الآية على طريق الوصل بالواو؛ لتكون من عطف جملةٍ فعليَّةٍ على جملةٍ فعليَّة، وفي الوصل بالواو تعجيب من حالِ أصحاب الأيكة؛ إذ كانوا عن آياتِ الله معرضين غيرَ متأمّلين لها ولا متفكّرين فيها، لكنَّهم عندَ نحتِ البيوت منَ الجبال كانوا صابرين متأمّلين متفكّرين لِما يحتاجه النّحت من مهارة عالية وذوقٍ رفيعٍ في العمل، فهذه الجملة وقعت موقعَ المقابلة التّعجّبيَّة؛ إذ أعرضوا عنِ التَّأمّل في آيات الله الّتي فيها نفعُهم وتأمّلوا في نحتِ بيوتِهم منَ الجبال التي ما أغنت عنهم شيئًا.

سرُّ التّعبير بتركيب ﴿وَكَانُواْ يَنۡحِتُونَ﴾:

نحتُ قوم صالحٍ للبيوت من الجبالِ، صنعة توارثوها عن آبائهم

أفاد التّعبير بصيغة (كان يفعل) في قولِه ﴿وَكَانُواْ يَنۡحِتُونَ﴾ إلى أنَّهم كانوا مستمرّين على هذا العمل مداومين عليه، وفيه إشارةٌ إلى أنَّ نحتَ البيوتِ من الجبالِ كان صنعةً لهم يتوارثونَها فيما بينهم.

(1) ابن جرير، جامع البيان: 14/104، والسّعديّ تيسير الكريم الرحمن، ص: 434، ومجمع البحوث، التّفسير الوسيط: 5/572.

سرُّ ﴿مِنَ﴾ في قولِه ﴿مِنَ ٱلۡجِبَالِ﴾:

نحت الجبال بيوتًا، دليل على القوّة والبأس الشّديد

لمّا كانت ﴿مِنَ﴾ ابتدائيَّة، أفاد التّعبير أنَّ نحتَهم كان مبتدئًا من الجبال، بمعنى أنَّهم ابتدؤوا نحتهم من صخرِ الجبالِ، فخرقوه ودخلوه واتَّخذوه بيوتًا، ففيه إشعارٌ بقوَّتِهم، ويؤيّده قولُه تعالى: ﴿وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُواْ ٱلصَّخۡرَ بِٱلۡوَادِ ۝٩﴾ [الفجر: 9]، ويحتمل أن تكون ﴿مِنَ﴾ تبعيضيَّة، ليكون المعنى وكانوا ينحتون من بعضِ الجبال بيوتًا[1]، والوجه الأول هو الظّاهر، والمعيّن لكون الجبال بعضَها هو (أل) العهديَّة في ﴿ٱلۡجِبَالِ﴾ كما سيأتي.

فائدة تقديم ﴿مِنَ ٱلۡجِبَالِ﴾ على ﴿بُيُوتًا﴾:

تعظيمُ نعمِ الله بتيسير الصّعابِ وتسهيلها

قُدِّمَ الجار والمجرور على المفعول به لإفادة التّعجيب من حالهم، والتذكير بنعمة ربِّهم عليهم؛ إذ إنّ قوله ﴿مِنَ ٱلۡجِبَالِ﴾ في الأصل صفة لقوله: ﴿بُيُوتًا﴾، فلمّا تقدَّم عليها صار حالًا، كما أفاد التّخصيص بمعنى أنَّ سكناهم لم يكن إلّا في الجبال خاصّةً، وأنَّهم ما كانوا ينحتون بيوتًا إلّا منَ الجبال؛ للإشعار بقوّتهم وبعظيم نعمة الله عليهم في أنْ يسّر لهم هذا الأمر.

فائدة (أل) في قولِه ﴿ٱلۡجِبَالِ﴾:

الجبال دالة على عظمة من نصبها أوتادا، وتذليلها بأمر الّذي سخّرها

(أل) هنا عهديَّة، بمعنى الجبال التي كانت في موضعِ سكناهم ومعيشتِهم، فيكون المرادُ من الجبال بعضَها.

نكتة قوله: ﴿يَنۡحِتُونَ مِنَ ٱلۡجِبَالِ﴾:

قومٌ صالحٍ كانوا على علمٍ بالهندسةِ والتّخطيط العمرانيّ

جُعِلَ متعلَّقُ النَّحتِ البيوت التي منَ الجبال؛ لأنَّ الأصلَ في النَّحتِ أنْ يتعلق بحجارةِ الجبال لا بغيرِها[2]، وأفادَ التّعبير بـ﴿يَنۡحِتُونَ﴾ معنى اقتطاعِ الحجرِ منَ الجبالِ ونجرِه وتسويتِه بدِقَّةٍ؛ إظهارًا للمنَّةِ عليهم بالقوَّة والتّمكينِ وإشعارًا بما أوتوا منَ العلمِ بالهندسةِ.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/73.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 8/220.

دلالة التّنكير في قوله ﴿بُيُوتًا﴾:

أفاد التّنكير هنا تعظيمَ البيوتِ التي اتّخذوها للسُّكنى في الجبالِ وتفخيمَها.

لا ريب أنّ البيوت المنحوتة في الجبال هي قصور فخمة

بلاغة الكناية في سياق الآية:

قوله تعالى: ﴿وَكَانُواْ يَنۡحِتُونَ مِنَ ٱلۡجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ﴾، أفادَ التّعبيرُ بهذه الجملة على طريقِ الكنايةِ بذكرِ ملزوم المعنى وإرادةِ لازمه أنَّهم كانوا مترفِّهين بنعمِ اللّه عليهم وأنَّهم كانوا أولي قوَّةٍ وبأسٍ شديدٍ وأنّ أعمارَهم كانت طويلة؛ لما يفيدُه نحتُ البيوت منَ الجبال بطول بقاء البيوت ومكثِهم فيها، ويشعر التّعبير كذلك بحذاقتِهم في النّحتِ التي لم تنفعْهم في دفعِ العذابِ[1].

عبقريّة القوم في النّحتِ، لم تدفع عنهم العذابِ

دلالة الحال في قوله ﴿ءَامِنِينَ﴾:

لمّا كان الحال قيدًا لعاملِه وبيانًا لهيئة صاحبِه وكان ﴿ءَامِنِينَ﴾، حالًا من الضّمير في ﴿يَنۡحِتُونَ﴾ دلَّ على أنَّ الحالَ مقارنةٌ، بمعنى أنَّهم كانوا آمنين في حالِ نحتِهم البيوت، ولمّا كان تركيب ﴿وَكَانُواْ يَنۡحِتُونَ﴾، يفيد استمرار نحتِهم ومداومتِهم عليه، كما تقدَّم دلَّ على دوام أمنِهم باستمرار عملِهم ومعاشِهم، وتحتمل الحال أن تكون مقدّرةً، أي كانوا مُقَدِّرينَ أنْ يَكونوا آمِنينَ في سكنى البيوتِ بعد الانتهاء من نَحْتِها، وكانَتْ لَهُم بمَنْزِلَةِ الحُصونِ، لا يَنالُهُم فيها العَدوُّ[2].

دلالة الحال بين المقارنةِ والمقدَّرةِ

دلالة حذف متعلَّق اسم الفاعل ﴿ءَامِنِينَ﴾:

حذف متعلَّق اسم الفاعل ﴿ءَامِنِينَ﴾ لإفادة أنَّ الأمن صار حالةً لازمةً لهم، فلا يفارقُهم الأمنُ، ويحتمل أن يكون الحذف لإفادة العموم بمعنى آمنين من أن تتهدَّم عليهم البيوت لوثاقتِها واستحكامِها، ومن نقبِ اللّصوص لها، ومن الأعداء وحوادث

الأمنُ من حوادثِ الدّهرِ، لا يمنع عذابَ المكذّبين الضّالين

(1) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 10/519، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 14/306.
(2) الشّهاب، عناية القاضي: 5/537، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/74.

الدهر، ولمّا كانت بيوتُهم من الجبال اعتقدوا أنَّهم آمنين من نزولِ عذاب اللّه عليهم كما نزل على الأقوام المكذّبين السابقين، لتوهُّمهم أنّ الجبال تحميهم منه، وذهب المفسّرون إلى تقدير محذوف معيَّنٍ لمتعلَّق الاسم، والظّاهر هو العموم؛ إذ لا مقتضى عنه[1].

توجيه المتشابه:

من بلاغة القرآن مناسبةُ كلِّ لفظٍ لسياقِه وسباقِه

جاء في هذهِ السّورةِ قوله: ﴿وَكَانُواْ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا﴾ وفي الشُّعراء قال: ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ ﴿١٤٩﴾﴾ [الشعراء: 149]، وفي سورةِ الأعراف قال ﴿وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًاۖ﴾ [الأعراف: 74]، بحذفِ (مِنْ) وفيه مناسبةٌ حسنةٌ، وذلك لأنَّ في الأعرافِ قال ﴿تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًاۖ﴾ [الأعراف: 74] فتَقدَّمه قولُه: ﴿مِن سُهُولِهَا قُصُورًا﴾ [الأعراف: 74]، فاكْتَفَى بذكر ﴿مِن﴾ [الأعراف: 74] مع السّهول عن ذكرِها مع الجبال[2]، وأيضًا الذي في سورةِ الأعرافِ جاءَ في سياقِ ذكرِ نِعَمِ اللّهِ الكثيرةِ على قومِ صالحٍ، فناسبَ ذكرَ الجبالِ بصيغةِ العمومِ من غيرِ تبعيضٍ لها؛ للمبالغةِ المناسبةِ لكثرةِ الإنعامِ، والذي في سورةِ الحجر والشعراء جاءَ في سياقِ ذكرِ تكذيبِهم لنبيّهم صالحٍ عليه السلام، وليسَ في سياقِ ذكرِ النِّعَمِ، إذْ قالَ في بدايةِ القصَّةِ في سورةِ الحجر ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ وقال في سورة الشعراء: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾﴾ [الشّعراء: 141].

(1) ابن جرير، جامع البيان: 17/127، والزمخشري، الكشاف: 2/587، وابن عطية، المحرر الوجيز: 3/372، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 3/216، والشّهاب، عناية القاضي: 5/537.

(2) الكرماني، أسرار التكرار في القرآن، ص: 124.

﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [الحجر: 83]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

أمنُ الظّالمين من مكرِ الله، استدراجٌ لهم

لمّا كذّبوا رسولَ الله صالحًا عليه السلام، وكانوا يظنّون أنّهم آمنون من عذاب الله تسبّبَ عن تكذيبِهم، نزول العذاب بهم ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ﴾.

المَعْنى الإجْماليُّ:

كلُّ تحصُّنٍ زائلٍ أمام عذابِ الله المُسلَّط على أعدائه المجرمين

فأخَذت قومَ صالحٍ صَيحةُ الهلاكِ في ضحوة اليوم الرّابع من اليوم الذي أوعِدوا فيه بالعذاب كما جاء في قوله: ﴿فَقَالَ تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍۖ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾﴾ [هود: 65][1].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

معنى الفاء، في قوله تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ﴾:

تعقيب كلِّ شيءٍ بحسبِه ووقتِه المناسبِ له

تفيدُ الفاءُ التَّعقيبَ والسّببيَّةَ، ولمّا كان تعقيبُ كلِّ شيءٍ بحسبه، وكان صالحٌ قد أوعدهم بالعذاب كما جاء في قولِه تعالى: ﴿تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍۖ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾﴾ [هود: 65]، دلَّ على أنّ المرادَ منَ التّعقيبِ الزَّمنُ القريبُ الذي لا مهلةَ فيه، بعد أن أوعدهم، فالتَّعقيبُ عرفيٌّ، وموافقٌ لزمن الإيعادِ، كما أفادت الفاءُ ترتّبَ الأخذِ بالصّيحةِ على تكذيبِهم المرسلينَ وإعراضِهم واتّخاذِ البيوتِ التي ركنوا إليها للأمن من العذاب[2].

نكتة التّعبير بقوله ﴿فَأَخَذَتْهُمُ﴾:

جزاءُ من يكذّبون الرُّسلَ، ما يطالهم من الذّلّةِ والحقارةِ

دلَّ التّعبير بـ﴿فَأَخَذَتْهُمُ﴾ أنّهم حينَ وقوعِ العذابِ أُخذوا أخذَ مَن

(1) ابن جرير، جامع البيان: 14/104، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 1053، والمراغيّ، تفسير المراغيّ: 14/41.

(2) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 11/193.

هو في القبضة على غاية الذّلّةِ والحقارة، لإفادة قهرِها لهم وتمكّنها منهم، ومنه الأخيذُ للأسير، والأخذُ بالصَّيحةِ هو الجزاءُ المناسبُ لتكذيبِهم واستكبارِهم وخلودِهم إلى الدّنيا، كما دلَّ اللّفظُ على أنَّ الصَّيحةَ أحاطت بهم إحاطة الآخذ للشيء، للإشعار بأنَّ أحدًا منهم لم يُفلت منَ العذاب[1].

بلاغةُ الكنايةِ في أخذ الصّيْحة لهم:

إهلاكُ الظّالمين، قهرٌ لهم، وشدّة بطشٍ بهم

في التّعبير بـ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ﴾ كنايةٌ عن سرعةِ إهلاكِهم بالصّيحة، ويفيد بلازمِه كذلكَ أنَّ إهلاكَهم كان على سبيلِ القهرِ وشدّةِ البطشِ.

بلاغةُ الإسناد المجازيّ، في سياق الآية الكريمة:

أخذ الصّيحة للمقصودين بالعذاب، تشعر بعظمة العظيم

قوله تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ﴾، لمّا أسند الأخذَ إلى الصّيحة، كان الكلامُ على طريق الإسناد المجازيّ، للإيذانِ بالمبالغة في الأخذِ، ولتصوير الحالةِ وهولِها.

بلاغةُ الاستعارة المكنيَّة في لفظ ﴿ٱلصَّيْحَةُ﴾:

بيانُ شدّة البطشِ في الإهلاكِ والاستدلالِ عليه

شُبِّهَت الصّيحة بشخصٍ يأخذُ أخذ القهرِ والإهلاكِ، ثم حُذف المشبه به وذُكر لازمٌ من لوازمه المعبِّر عن الإهلاكِ وهو الصّيحة؛ ليكون الكلام على طريق الاستعارة المكنية الأصلية، وفائدتها الإشعارُ بهولِ البطشِ الذي أهلكَهم، وليكون الكلام على طريق الاستدلالِ على إهلاكِهم تمامًا.

معنى (أَلْ) في لفظ ﴿ٱلصَّيْحَةُ﴾:

الصّيحة الّتي تنزل بالمكذّبين، صيحةٌ هائلةٌ مهلكةٌ

(أَلْ) هنا جنسيَّة بمعنى كلِّ معاني الصّيحة التي تكون هائلةً مهلكةً، ويُحتملُ أن تكون (أل) عهديَّة بمعنى الصّيحة، التي هي منَ النّوع الذي أهلكَ غيرَهم منَ المكذبين، كما يحتمل أن تكون عوضًا

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/449، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/227.

عنِ المضاف، والتّقدير فأخذتهم صيحة العذاب، والمعاني الثلاثة مآلُها واحدٌ[1].

المتشابه اللّفظيّ في ذكر الرّجفة والصّيحة والطّاغيةِ:

الرّدُّ على الطّاعنين في دعواهم، تناقض ألفاظ القرآن

طعن بعضُ الطّاعنين في هذه الآيات بأنَّ ألفاظ القرآن قد اختلفت في حكاية هذه الواقعة، وهي الرَّجفةُ والصَّيحةُ والطّاغيةُ، وزعموا أنَّ ذلك يوجب التَّناقض في آياتِ القرآنِ، فذكر هنا في سورة الحجر ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ﴾، وقال في سورة الأعراف: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ﴾ [الأعراف: 78] وفي موضعٍ آخرَ قال: ﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [هود: 67]، وفي موضع آخر قال: ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُواْ بِٱلطَّاغِيَةِ ﴿٥﴾﴾ [الحاقّة: 5]، والجوابُ: لا منافاةَ بين ذلك، ولا تناقضَ، فقد عُبِّرَ في كلِّ موضعٍ بما يناسبُ المقامَ، ويكون الذي أصاب ثمودَ - وهم أصحابُ الحجر - صاعقةً أو صواعق متوالية أفضت إلى الرَّجفةِ، أي: صُعقوا فرجفت بهم أرضهم وأعقبها زلازل، فالغالب أنَّ الزَّلزلة لا تنفكُّ عن الصّيحةِ الهائلة العظيمة، فأهلكتهم صَعقين، فجاز أن يُسْنَدَ الإهلاكُ إلى كلٍ منهما، وأمّا قوله تعالى: ﴿فَأُهْلِكُواْ بِٱلطَّاغِيَةِ ﴿٥﴾﴾ [الحاقة: 5] فالباء للسببية، والتقدير بالفعلةِ الطّاغيةِ، والطاغية الطُّغيان مصدرٌ كالعاقبة، والتاء للمبالغة، ويقال للمَلِكِ الجبار طاغية، فمعنى: ﴿فَأُهْلِكُواْ بِٱلطَّاغِيَةِ ﴿٥﴾﴾ [الحاقة: 5] أي بسببِ طغيانهم كقوله: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ ﴿١١﴾﴾ [الشمس: 11] أي: بسبب تجاوزهم الحدَّ باستكبارهم وكفرهم وعَقْرِهم النّاقَةَ، ويُمكِنُ أنْ يُرادَ بِالطّاغيَةِ الرَّجْفَةُ أوِ الصَّيْحَةُ لِتَجاوُزِ كُلٍّ مِنْهُما الحَدَّ في هولِها وعظمِها وسرعةِ أخذها وبطشِها، أو على إرادةِ الجمعِ بينهما، ولمناسبة الفاصلةِ كذلك أثرٌ في التّعبير بقوله: ﴿بِٱلطَّاغِيَةِ ﴿٥﴾﴾ [الحاقة: 5][2].

(1) العليمي، فتح الرحمن: 3/566.

(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 14/308، وأبو حيّان، البحر المحيط: 5/97.

بلاغةُ الإخبار بالحالِ ﴿مُصْبِحِينَ﴾، دون الظَّرف:

اختير الإخبار عن وقت العذاب بالحال في قولِه ﴿مُصْبِحِينَ﴾، دونَ الظّرفية بأن يقال في وقتِ الإصباح؛ لِما يدلُّ عليه الحال من تصوير هيئتِهم بأخذِ الصّيحة لهم وهم داخلون في وقتِ الصّباح أي في وقتِ النّهار، وأفاد الحالُ كذلك تاكيدَ إهلاكِهم؛ لأنَّه ذكرهم في الضمير في قولِه ﴿فَأَخَذَتْهُمُ﴾ وكرّر ذكرَهم بلفظ الحال، فإنَّ معنى ﴿مُصْبِحِينَ﴾ داخلون في وقتِ الصّباح.

معنى (مُصْبِحِينَ)، داخلين في وقتِ الصّباح

﴿فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ٨٤﴾ [الحجر: 84]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

لمّا أخبر اللّه تعالى عن إهلاكِهم بالصّيحة، أتبعه بالإخبار عن أنَّ بيوتَهم التي في الجبال وقوّتهم ومنعتهم لم تدفع عنهم العذاب، ولم تنفعهم شيئًا.

إعمارُ الظّالمين، وكسبهم وبناؤهم الشّامخ، لا يدفعُ من عذاب الله شيئًا

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَغۡنَىٰ﴾: أصْلُ الغِنَى يَدُلُّ على الكِفايَةِ والسَّعَةِ وكَثْرَةِ المالِ، يُقال: غَنِيَ الرَّجُلُ، يَغْنَى، فهو غَنِيٌّ: إذا كان موسِعًا كَثيرَ المالِ، وضِدُّه: الفَقْرُ[1]، وحقيقَتُه: عَدَمُ الحاجَةِ لِلْغَيْرِ، سَواءً كان ذلك في المالِ، أو في القوَّةِ، أو العِلْمِ، أو غَيْرِ ذلك، والغَناءُ: الاستِغْناءُ والكِفايَةُ، ورجلٌ مُغْنٍ، أي: مجزئ، وقد غَنِيَ عنه فهو غانٍ[2]، والمراد بالغنى في الآية: عدم الجدوى.

المَعْنى الإجْماليُّ:

يقول اللّه تعالى: فما دفع عنهم وما منعهم من عذابه تعالى ما كانوا يكسبونه من نحت البيوت الوثيقة وجمع الأموال الوفيرة، مع كثرة العدَد والعُدد، بل خرّوا في ديارهم هلكى خامدين كأن لم يكونوا بالأمس[3].

أمرُ الله إذا جاء لا يردّه كثرة جنودٍ، ولا قوّة أنصارٍ، ولا غزارة أموالٍ

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

معنى الفاء في قوله تعالى: ﴿فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم﴾:

لمّا كان قوم ثمود يظنّون أنَّ ما كانوا يفعلونَه؛ من بناء البيوت

خيبةُ الكافرين، بعدم إغناءِ إعمارِهم من عذاب الله

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (غني).
(2) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن عبّاد، المحيط في اللغة: (غني).
(3) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 14/41.

في الجبال وجمع الأموالِ وغيرِها، يدفع عنهم العذاب الذي وقع بالأقوام السابقين، أفادت الفاء هنا ترتيبَ عدمِ إغناء ما كانوا يكسبون في وقت نزول العذابِ حسبما كانوا يرجونه، ففيه إشعارٌ بخيبتِهم وخذلانِهم، فالفاء لترتيبِ عدمِ الإغناء الخاصِّ بوقتٍ ما كانوا يتوقّعونه لا عدمِ الإغناءِ المطلق فإنَّه أمرٌ مستمرٌّ[1].

انتهاء كلِّ ما عمّره الظّالمون وما بنوه، بمجرّد وقوعِ العذاب

دلالة استعمال أداة النَّفي (ما):

اختير التّعبير عن نفي الماضي بـ﴿فَمَآ أَغۡنَىٰ﴾ دون (لم يغنِ)؛ لأنَّ (ما) آكد في النّفي من (لم)، والمقام يقتضيه، وهي تقع ردًا على كلام حاصلٍ أو ما نُزّل هذه المنزلة من اعتقادٍ خاطئ أو ظنٍّ فاسدٍ، فعبِّر بـ﴿فَمَآ﴾ لأنَّ قوم ثمود كانوا يعتقدون أنَّ ما يكسبونه من بناء البيوت في الجبال وجمع الأموال والعدد سيغنيهم من عذاب اللّه، كما أنَّ التَّعبير بـ﴿فَمَآ أَغۡنَىٰ﴾ يفيد انتفاءَ إغناءِ ما كسبوه وجمعوه، وانقضاءَه في وقتِ وقوع الصّيحة[2].

سرُّ التّعبير بالإغناء دون النَّفع، في الآية الكريمة:

كلُّ مالٍ لا ينفعُ عندَ الله تعالى، ولا يردُّ العذابَ، فلا غنىَ فيه

قوله تعالى: ﴿فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم﴾، عُبِّرَ بنفي الإغناء للإشعار بأنَّ كلَّ القنيّات التي كسبوها منَ الأموالِ وغيرِها ليست بغنى، وقد كانوا يظنّون أنَّهم قد اغتنوا بما كسبوا، ففيه تنبيهٌ إلى أنَّ الغنى هو ما يكون منه أمرانِ: الانتفاع ودفعُ الضّرِّ والبلاء، فكلُّ مالٍ لا نفعَ منه عندَ اللّه تعالى، ولا يردُّ العذابَ ولا يدفعُه لا غنىً فيه.

دلالةُ تقديم الجارِّ والمجرور على الفاعل:

تحقيق المعنى وتخصيصه ومراعاة الفواصل

قُدِّمَ ﴿عَنۡهُم﴾ على الفاعل ﴿مَّا﴾ لتحقيقِ نفي إغناء الأموال ونحت البيوت عنهم ولِتخصيصِه بهم وقتَ أخذِهم بالصّيحة، ولمّا كان الذي يكسبونه ليسَ بمغنٍ عنهم لا في الدنيا ولا في الآخرة

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السليم: 5/88.
(2) السّامرائي، معاني النّحو: 4/195.

كان التّخصيص بوقتِ أخذهِم بالصّيحة إضافيًّا للمبالغة، كما أنَّه لو قيل: (فما أغنى ما كانوا يكسبون عنهم) ضعف تأليف الكلامِ وانفرطت بلاغتُه وانخرمت الفاصلة القرآنيَّة، وتناسب رؤوس الآي لا يقصدُ لوحدِه في القرآن المجيد.

دلالة ﴿مَّا﴾ في قوله تعالى: ﴿مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾:

الإيمان أساس العمل ومناطُ قبولِه

لمّا كانت ﴿مَّا﴾ اسمًا موصولًا[1] وكانت على معنى العمومِ، أفادت استغراقَ كلِّ ما كانوا يكسبون، ممّا كانوا يرجون منه دفعَ العذاب عنهم، وممّا لم يكن في حسبانِهم أصلًا، ليفيد أنَّهم لم ينتفعوا بكلِّ ما كانوا يكسبون، فما أغنى عنهم ما كانوا ينحتون وما عملوا منَ الأصنام، وما مُتِّعوا وأُنعموا به في هذه الدنيا[2]، وفي التّعبير بلفظ العموم إشعارٌ بأنَّه لم يأتِ منهم أيُّ عملٍ صالحٍ، ولم يكسبوا إلّا الأعمال القبيحة، أو أنَّ تكذيب الرّسل يمحو كلَّ عملٍ صالحٍ، فالإيمان أساس العمل ومناطُ قبولِه.

دلالة صلةِ الموصول، في سياق الآية الكريمة:

كسبُ الكافرين في الدّنيا، سببٌ في غفلتِهم عن الإيمانِ والعمل به

قولُه تعالى: ﴿مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾، لمّا جاء الكلام على نفي إغنائِهم ما كانوا يكسبون من نزول العذاب بهم، أفاد أنَّهم كانوا يتوقَّعون أنَّ الذي كانوا يكسبونه من نحت الجبال وجمع الأموال وغيرِهما يغنيهم من عذاب الله ومن الأذى والضّرِّ الذي أصاب الأقوام المكذبين السّابقين، لتفيد صلة الموصول بيان سبب الحكم المنفيِّ وليس بيانَ سببِ نفي الحكمِ، أي: إنَّ كسبَهم واجتهادَهم في البناء وغيرِه كان سببًا في اعتقادِهم أنَّهم آمنون من نزول العذاب بهم.

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 6/492.
(2) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنة: 6/459.

دلالةُ ذكر ﴿كَانُواْ﴾، في سياق الآية الكريمة:

رغم الكسب وغزارة الأموال والحصون، فإنّها لم تغن عنهم شيئًا

تفيد ﴿كَانُواْ﴾ أنَّ كسبَهم وعملَهم كان مستمرًّا، وأنَّ الكسبَ كان من عادتِهم، حتَّى صار طبعًا لهم، للإشعار بكثرة كسبِهم وجمعِهم الأموال ونحتِهم البيوت في الجبال، ولهذا لم يقل: فما أغنى عنهم كسبُهم، أو الذي يكسبون.

سرُّ التَّعبير بالكسبِ دون البناءِ أو النَّحتِ:

دقَّةُ اختيار اللّفظ المناسب من بلاغة القرآن

عُبِّرَ بلفظ الكسبِ ليفيدَ كلَّ ما يوصف بالكسبِ من القولِ والعمل، وما كانوا يعتقدونه في قلوبهم، فيشمل ما قالوه لنبيِّهم وتكذيبَهم له، ونحتَهم الجبال، وبناءهم البيوت، وجمعَهم الأموال والعدد، وما كانوا يَسْتَغِلّونَهُ مِن زُروعِهم وثِمارِهِمُ الَّتي ضَنّوا بِمائِها عَنِ النّاقَةِ حَتَّى عَقَروها لِئَلّا تُضَيِّقَ عَلَيْهِم في المياهِ، فما دَفَعَتْ عَنْهُم تِلْكَ الأموالُ ولا نفعتهم لما جاء أمر ربك[1]، ولو عُبِّر بالبناء أو النّحت لكان المعنى قاصرًا لا يفي بالمقام.

بلاغة الاستعارة التّهكّمية في سياق الآية:

أسلوب التهكّم في الجملة، احتقار وتهوين ممّن توهّم القوّة

قولُه تعالى: ﴿مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾: لمّا كان الكسب يقال لِما يتحرّاه الإنسان مما فيه اجتلاب نفع، وتحصيل حظّ، كَكَسْبِ المال استعير لفظ ﴿يَكۡسِبُونَ﴾ هنا على سبيل التّهكّم بما كانوا يعتقدون أنّ فيه منفعةً لهم ودفعًا للبلاء عنهم[2].

دلالة التّعبير بصيغة المضارعِ، في الآية الكريمة:

إتقانُ الكسبِ من دونِ إيمانٍ بالله ورسلِه، لا يغني من الله شيئًا

قوله تعالى: ﴿مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾، وفيه عُبِّرَ بصيغة المضارع للإشعار باستمرارِهم على طلبِ الكسبِ وابتغائِه وتجدّدِه في معاشِهم وحياتِهم، وأنَّهم كانوا يتقنونَ الكسبَ، فلم يغنِ عنهم منَ اللّه شيئًا، وذهب ابن عاشور إلى أنَّ ﴿يَكۡسِبُونَ﴾ بمعنى يَصْنَعونَ،

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/486.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/88، والآلوسي، روح المعاني: 7/320.

أي: يصنعونَ البُيوتُ الَّتي عُنوا بِتَحْصينِها وتَحْسينِها كَما دَلَّ عَلَيْهِ فِعْلُ كانوا، فتكون صيغَةُ المُضارِعِ في ﴿يَكْسِبُونَ﴾ دالَّةً عَلَى التَّكَرُّرِ والتَّجَدُّدِ المُكَنَّى بِهِ عَنْ إتْقانِ الصَّنْعَةِ، وبِذَلِكَ كانَ مَوْقِعُ المَوْصولِ والصِّلَةِ أبْلَغَ مِنْ مَوْقِعِ لَفْظِ (بُيوتِهِم) مَثَلًا، ليَدُلَّ عَلَى أنَّ الَّذي لَم يُغْنِ عَنْهُم شَيْءٌ مُتَّخَذٌ لِلإغْناءِ ومِنْ شَأْنِه ذَلِك[1].

فائدةُ حذف المفعول في جملة: ﴿يَكْسِبُونَ﴾:

رعاية الفاصلة، ضمان لتناسب رؤوس الآي

أفاد حذف المفعول العائد على الاسم الموصول ﴿مَّا﴾ العموم؛ ليفيد أنَّهم كانوا يطلبون كلَّ أنواعِ الكسب الذي كان في متناول أيديهم، والتَّقدير ما كانوا يكسبونه، كما أنَّ في الحذف رعايةً للفاصلة لتتناسب رؤوس الآيات.

بلاغة الكناية في الآية الحكيمة:

بيان تصوير حالة الخيبة والخذلان، للظّالمين في ذلك الآن

لمّا قال تعالى: ﴿فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾، أفادَ بلازمِه أنَّ الصّيحةَ أهلكتهم، وأنَّهم خَرّوا جاثِمينَ ولم ينفلت منهم أحدٌ، وفي الكناية تصويرٌ لحالة الخيبة والخذلانِ للظّالمين.

بلاغة التّعريض في الآية الكريمة:

دعوة القرآن إلى الاعتبار، بأحوالِ الأمم الماضية

في الآية تعريض بأهل مكّة وبمن يكذّب رسل الله ويعرض عن الدّين القويم، وتنبيه لهم، فكأنَّه يقول لهم: كانوا أشدَّ منكم قوَّة وأكثرَ أموالًا، فلم يُغْنِ ذلك عنهم شيئًا، فكيف حالكم وماذا أنتم فاعلون؟[2].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/74.
(2) أبو حفص النسفي، التيسير في التفسير: 9/216.

﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ ۖ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ ﴿٨٥﴾﴾ [الحجر: 85]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الرّبط بين هلاك السّابقين، وخلق الكون وإنهائه، بقيام السّاعة بيقين

لمّا ذَكَرَ اللّه تعالى أنَّهُ أهْلَكَ الكُفّارَ فكَأنَّهُ قيلَ: الإهْلاكُ والتَّعْذيبُ كَيْفَ يَليقُ بِالرَّحيمِ الكَريمِ، فأجابَ عَنْهُ بأنّي إنَّما خَلَقْتُ الخَلْقَ ليَكونوا مُشْتَغِلينَ بِالعِبادَةِ والطّاعَةِ فإذا تَرَكوها وأعْرَضوا عَنْها كان منَ الحِكْمَةِ إهْلاكُهُم وتَطْهيرُ وجْهِ الأرْضِ، فقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾[1].

لمّا كان المتنطّع قد يقول: لمَ عذَّب اللّه هؤلاء الأقوام وأهلكهم، فلو كان قد أماتهم ميتةً طبيعيَّةً وأجَّل عذابَهم إلى قيامِ السّاعة لكان أولى، قال اللّه تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ الآيةَ.

وأيضًا لمّا قال اللّه تعالى: ﴿فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ جاءت هذه الآية لبيان أنَّه تعالى ما خلقَ السموات والأرض وما بينهما من أجلِ كسبِ الأموالِ، والتمتّع بالدنيا، فهذا عبثٌ وليس بشيءٍ، بل خلقهما بالحقِّ والعدلِ.

وأيضًا لمّا بيَّن في أوّل السورة خلق السماوات والأرضِ في قولِه تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٦﴾﴾ [الحجر: 16] وما جاء بعد هذه الآية، وأعقبه ذكر القصص ذكرَ هنا الحكمةَ في خلقِهما فقال: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾.

وأيضًا لمّا أخبرَ اللّه تعالى عن قصص الأمم المعذّبة جاءت هذه

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 19/158.

الآية لبيانِ أنَّ ما أصابَهم إنّما كانَ باستحقاقِهم، فهو من عدلِ اللّه بالجزاء على الأعمال بما يناسبُها[1]، والمناسبات المذكورة متآلفة ولا تتقاطع.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَٱصۡفَحِ﴾: أصْلُ (صفح): عَرْضُ الشَّيْءِ وجانِبُهُ، ومِنْهُ سُمّيَ العَفْوُ صَفْحًا[2]؛ لأنَّ الَّذي يَصْفَحُ كأنَّهُ يُقابِلُ المُسيءَ بِصَفْحَةِ عُنُقِهِ إعْراضًا عن إساءَتِهِ، أو يَتَجاوَزُ الصَّفْحَةَ السَّيِّئَةَ ويُقابِلُهُ بالصَّفْحَةِ الجَميلَةِ، والصَّفْحُ: العَفْوُ والتَّجاوُزُ عن غَيْرِه، يُقالُ: صَفَحَ يَصْفَحُ صَفْحًا: إذا عَفا وتَجاوَزَ، ويأْتي بِمعنى الإعْراضِ عن الذَّنْبِ وتَرْكِ العُقوبَةِ، فيُقال: صَفَحْتُ عَنْهُ، أي: أعْرَضْتُ عن ذَنْبِهِ[3]، والمقصود بالصَّفْحِ في الآية: العَفْوُ، وهو مُستَعملٌ هنا في لازِمِهِ، وهو عَدَمُ الحُزْنِ والغَضَبِ مِنْ صَنيعِ أعداءِ الدّينِ[4].

المَعْنى الإجْماليُّ:

تذكير بخلق الله الكون بالحقّ، ودعوة للصّفح الجميل، قبل قيام السّاعة الأكيد

يقولُ اللّه تعالى: وما خَلَقْنا السَّمواتِ والأرضَ وما فيهما وما بينَهما إلّا لحِكَمٍ ومَصالِحَ عَظيمةٍ، لا عبثًا وباطِلًا، وخلَقهما سبحانَه بالعدلِ لا بالظلمِ والجورِ، وإنَّ يومَ القيامةِ لآتٍ وواقِعٌ لا ريبَ فيه؛ وفيه يُجازَونَ بأعمالِهم، ومِنهم مُشرِكو قَومِك الذين كذَّبوك وآذَوك؛ فأعرِضْ يا محمَّدُ ﷺ عن مؤاخَذتِهم في الدُّنيا، واعفُ عنهم عَفوًا حَسَنًا مِن غَيرِ عِتابٍ[5].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/74.
(2) ابن منظور، لسان العرب: (صفح).
(3) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، وابن سيده، المحكم، وابن منظور، لسان العرب: (صفح).
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/77.
(5) ابن جرير، جامع البيان: 14/106، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/546، والبقاعي، نظم الدرر: 11/84.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغة الكناية في سياق هذه الآية:

الخلق للكون بالحقِّ، لا يلائم استمرارَ الفسادِ ودوامَ الشّرور

قوله: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾، وفيه أفادت هذه الآية على طريق الكناية أنَّ إهلاكَ الأممِ السابقة كان بالحقِّ، فإنَّ خلق السماوات والأرضِ وما بينهما بالحقِّ لا يلائم استمرارَ الفسادِ ودوامَ الشّرور، فيفيد لازمُه أنَّ الحكمةَ تقتضي إهلاكَ جميعِ المفسدين كلًّا في وقتِه، ويندرج فيه إهلاكُ الأمم السابقة دخولًا أوّليًّا[1].

مناسبة الوصلِ بالواو في الآية:

بيان سعة المعنى، ومناسبته لما قبله وما بعده

مَوْقِعُ الواوِ في صَدْرِ هَذِهِ الجُملَةِ بَديعٌ، فهَذِهِ الجُملَةُ صالِحَةٌ لأنْ تَكونَ تَذْييلًا لِقَصَصِ الأُمَمِ المُعَذَّبَةِ؛ بِبَيانِ أنَّ ما أصابَهُم قَدِ اسْتَحَقّوهُ، فهوَ مِنْ عَدْلِ اللّه بِالجَزاءِ عَلَى الأعْمالِ بِما يُناسِبُها، وهي صالحةٌ لأنْ تَكونَ تَصْديرًا لِلْجُملَةِ الَّتي بَعْدَها، وهيَ جُملَةُ ﴿وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ﴾[2].

دلالة ضمير العظمة في قولِه ﴿خَلَقْنَا﴾:

شأن الخلقِ وبديع انتظامِه، لا يقدرُ عليه إلّا القادر تعالى

أفاد التّعبير بضمير العظمة (نا) تعظيم شأنِ الخلقِ، وأنَّه ممّا لا يقدر عليه إلّا الملك الواحد الأحدُ، فالمقامُ مقام تعظيمٍ وتفخيمٍ.

فائدة الجمع في قولِه ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾:

لمّا كانت الآية على معنى التّذييل، وكانت على معنى العموم والكلّيَّة، ناسب أن يُذكَرَ لفظُ السماوات بصيغة الجمعِ؛ وللإيذانِ بأنَّ كلَّ خلقِه قائمٌ بالحقِّ.

فائدة (أل) في ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾:

السّموات تمثّل روعة الصّنع البديع

(أل) هنا للاستغراق، فتفيد أنَّه تعالى خلق جميع السّماوات.

---

(1) السمعاني، تفسير السمعاني: 3/149، وأبو حفص النسفي، التيسير في التفسير: 9/216، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 3/216، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 11/193.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/74.

فائدة (أل) في قولِه ﴿وَٱلۡأَرۡضَ﴾:

(أل) هنا للعهد، بمعنى أنَّه تعالى خلق الأرض التي هي معهودةٌ عندكم، والتي تعرفونها.

الأرض موضوعة لـلأنـام، ومسخرة لهم

بديعُ الطِّباق في قوله تعالى: ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾:

لمّا ذكر ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ ذكر ما قابلها، على طريق الطّباق؛ للإيذان بإحاطة خلقِه لما ارتفع وما سفل، ولتنبيه المخاطبين إلى التّفكّر في خلقِهما، فإنَّهما ما خُلقا إلّا بالحقِّ.

خلقُ الله يدلُّ على عظيمِ قدرته

دلالة (ما) في قولِه ﴿وَمَا بَيۡنَهُمَآ﴾:

لمّا كانت (ما) اسمًا موصولًا بمعنى الذي، وكانت على معنى العموم، أفاد عطفها على ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ أنَّ الذي بين السماوات والأرضِ خلقٌ عظيمٌ متنوّعٌ، فيَشْمَلُ خلقَ السَّماواتِ والأرْضِ وما بَيْنَهُما خلقَ أصْنافِ المَخْلوقاتِ مِنْ حَيَوانٍ وجَمادٍ ونباتٍ، ويدخل فيه دخولًا أوّليًّا الأُمَمُ الَّتي عَلَى الأرْضِ وما حَلَّ بِها، والمَلائِكَةُ الموَكَّلونَ بِإنْزالِ العَذابِ، والحَوادِثُ الكَوْنيَّةُ الَّتي حَلَّتْ بِالأُمَمِ مِنَ الزَّلازِلِ والصَّواعِقِ والكِسَفِ[1].

ما بين السّماوات والأرضِ، خلقٌ عظيمٌ متنوّعٌ

سبب إيثار ذكر ﴿وَمَا بَيۡنَهُمَآ﴾:

لمّا ذكر الله تعالى في صدر السّورة أنَّه جعل في السماء بروجًا وزيّنها للنّاظرين، وأنَّه ألقى في الأرضِ رواسي وأرسل الرّياح ممّا خَلَقَ بين السماء والأرض، ناسب أن يعطف هنا على خلق السماوات والأرض قولَه: ﴿وَمَا بَيۡنَهُمَآ﴾؛ لأنَّ الآيةَ من قبيل ردِّ العجزِ على الصّدر كما سيأتي، ففيه إجمالٌ إلى ما تقدَّم ذكرُه ممّا هو بين السّماء والأرضِ، فتكون الآيةُ فذْلَكَةً بذكر الإجمالِ بعد التّفصيل، لتقريرِ المعنى وتأكيدِه.

مناسبة مجيء (وَما بَيْنَهُما)، لسياق الآيات ونظمِها

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/75.

بلاغةُ الاحتراسِ في سياق الآية الكريمة:

إضافةُ الظَّرف لضمير التّثنيةِ، لقطع توهّم غير المراد

ضمير التثنية في قوله ﴿بَيْنَهُمَآ﴾ عائد على لفظَي السماوات والأرض، والتقدير وما بين السماواتِ والأرضِ، فالمرجوع عليه السماواتُ باعتبارِ مجموعِها والأرضُ، ولو قال: وما بينها لتوهم أنَّ المرادَ بين السماوات، أو بين قطع الأرض، فجاء الضَّمير بصيغة التّثنية للاحتراس ودفعِ التّوهُّم.

بلاغة القصر في ثنايا الآية الكريمة:

لا يليق بألوهية الله وعظمتِه إلّا أن يكون خلقُه بالحقِّ والعدلِ

قوله: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾، وفيه، لمّا كان الكفّار المكذّبون منكرين لحكمةِ خلقِ السماوات والأرضِ وما بينهما بسبب أفعالِهم وتصرّفاتِهم المنافية للحقِّ، وكانوا يظنّون أنَّهم يعيشون من أجلِ كسبِ الأموالِ والتمتّع بالدنيا، جاءت الآية بطريق القصر بالنّفي والاستثناء، ليفيدَ الرَّدَّ عليهم في إنكارِهم حكمةَ الخلقِ وأنَّه تعالى ما خلقَه إلّا بالعدلِ والإنصافِ، وللإيذانِ بأنَّه إن لم يكن بالحقِّ كانَ باطلًا وعبثًا، وهذا لا يليقُ بعظمةِ الخالقِ وعجيب خلقِه وسعتِه.

فائدة الباء، في قولِه ﴿بِٱلْحَقِّ﴾:

كلُّ ما خلقَه اللهُ تعالى فيه حكمةٌ بالغةٌ

تحتمل الباء أن تكون للملابسة، ليفيدَ أنَّ خلقَ السماوات والأرَضِ وما بينهما ملتبسٌ بالحقِّ غيرَ منفكٍّ عنهما وعمّا بينهما، ويفيد نفي أن يكون خلقهُما بالباطلِ والعبث، وفيه إشعارٌ بأنَّ كلَّ ما خلقَه اللّه تعالى فيه حكمةٌ بالغةٌ، وأفعالُه سبحانَه كذلك، كما تحتمل أن تكون سببية، والتَّقدير على وجهين فإمّا أن يكون المعنى: ما خلقنا السماوات والأرَضِ وما بينهما إلّا للحقِّ، أي: للعدل والإنصاف يوم الجزاء على الأعمال، وإمّا أن يكون المعنى ما خلقنا السماوات والأرضَ وما بينهما إلّا بسبب الحقِّ الذي اقتضاه الدّليل من الإيمان والطّاعة أو البعث والجزاء[1].

(1) أبو القاسم الزجاجي، معاني الحروف والصفات، ص: 87، والزمخشري، الكشاف: 2/587، وابن الجوزي، زاد المسير: 2/541، والهمذاني، الكتاب الفريد: 4/91، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 11/193.

دلالة قولِه ﴿بِٱلۡحَقِّۗ﴾ بين الحالِ والصّفة:

الظّاهر أنَّ الجار والمجرور ﴿بِٱلۡحَقِّۗ﴾ حالٌ ممّا قبله، ولمّا كان الأصل في الحال أن تكون مقارنةً، أي: على معنى اقترانِ الحالِ بعاملِه في الوقتِ، وكان الظّاهر أنَّ الحالَ من المفعول وما عطفَ عليه أفادَ المعنى - إن كانت الباء للملابسةِ - اقترانَ ملابسةِ الحقِّ بخلق السماوات والأرض وما بينهما، وفيه معنى دوام ملابسة الحقِّ لخلقِ السماوات والأرضِ وما بينهما واستمرارِها، بِحَيْثُ يَكونُ الحَقُّ باديًا في جَميعِ أحْوالِ المَخْلوقاتِ، والمُلابَسَةُ هُنا عُرْفيَّةٌ فقَدْ يَتَأخَّرُ ظُهورُ الحَقِّ عَنْ خَلْقِ بَعْضِ الأحْوالِ والحَوادِثِ تَأخُّرًا مُتَفاوِتًا، فالمُلابَسَةُ بَيْنَ الخَلْقِ والحَقِّ تَخْتَلِفُ باخْتِلافِ الأحْوالِ مِنْ ظُهورِ الحَقِّ وخَفائِهِ عَلَى أنَّهُ لا يَلْبَثُ أنْ يَظْهَرَ في عاقِبَةِ الأُمورِ كَما دَلَّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ تَعالَى: ﴿بَلۡ نَقۡذِفُ بِٱلۡحَقِّ عَلَى ٱلۡبَٰطِلِ فَيَدۡمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٞۚ﴾ [الأنبياء: 18][1]، وإن كانت الباء للسببيَّة أفاد الحالُ اقترانَ سببيَّة الحقِّ بخلق السماوات والأرضِ، فيكون ابتداءُ خلقِها مقترنًا بسببِ إقامةِ الحقِّ الذي اقتضاه الدّليل من الإيمان باللّه وطاعتِه، ويحتمل أن يكون الحال من الفاعل في ﴿خَلَقۡنَا﴾ والتّقدير: (ما خلقنا السماوات والأرضَ وما بينهما إلّا ومعنا الحقُّ)، وأجاز بعض المفسّرين أن يكون ﴿بِٱلۡحَقِّۗ﴾ صفةً لمفعول مطلق محذوف: والتقدير: ما خلقنا السماوات والأرضَ وما بينهما إلّا خلقًا ملتبسًا بالحقِّ، فتكون الباء للملابسة، وحُذِفَ الموصوف للعلمِ به فيكون من الحذف للإيجاز[2].

الحَقُّ بادٍ في جَميعِ أحْوالِ المَخلوقاتِ، ولا يلبث أن يظهر في عاقبة الأمور

دلالة الحقِّ في الآية:

لمّا جاء قولُه تعالى: ﴿وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۗ﴾ عَقِبَ ذِكْرِ عِقابِ الأُمَمِ الَّتي طَغَتْ وظَلَمَتْ، وأنَّ ذَلِكَ

قد يكون الإمهال، استبقاءَ عُمرانِ جُزْءٍ مِنَ العالَمِ زَمانًا

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/75.

(2) البيضاوي، أنوار التنزيل: 3/216، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 11/193.

جَزاءٌ مُناسِبٌ لتَمَرُّدِها وفَسادِها، وأنَّها وإنْ أُمهِلَتْ حينًا بِرَحْمَةٍ مِنَ اللّه لِحِكْمَةِ اسْتِبْقاءِ عُمرانِ جُزْءٍ مِنَ العالَمِ زَمانًا فهيَ لَم تُفْلِتْ مِنَ العَذابِ المُسْتَحَقِّ لَها، وهوَ مِنَ الحَقِّ أيْضًا فما كانَ إمهالُها إلّا حقًّا، فلمّا كان الأمر كذلك أفادَ أنَّ معنى الحقِّ هنا هوَ إجْراءُ أحْوالِ المَخْلوقاتِ عَلَى نِظامٍ مُلائِمٍ لِلْحِكْمَةِ والمُناسَبَةِ في الخَيْرِ والشَّرِّ، والكَمالِ والنَّقْصِ، والسُّموِّ والخَفْضِ، في كُلِّ نَوْعٍ بِما يَليقُ بِماهيَّتِهِ وحَقيقَتِهِ وما يُصْلِحُهُ، وما يَصْلُحُ هوَ لَهُ، بِحَسَبِ ما يَقْتَضيهِ النِّظامُ العامُّ لا بِحَسَبِ الأميالِ والشَّهَواتِ، فإذا لاحَ ذَلِكَ الحَقُّ المَوْصوفُ مُقارَنًا وُجودُه لِوُجودِ مَحْقوقِهِ فالأمرُ واضِحٌ، وإذا لاحَ تَخَلُّفُ شَيْءٍ عَنْ مُناسَبَةٍ فبِالتَّأمُّلِ والبَحْثِ يَتَّضِحُ أنَّ وراءَ ذَلِكَ مُناسَبَةً قَضَتْ بِتَعْطيلِ المُقارَنَةِ المَحْقوقَةِ، ثُمَّ لا يَتَبَدَّلُ الحَقُّ آخِرَ الأمرِ[1].

سرّ الوصل بالواو في ﴿وَإِنَّ﴾ في السّياق:

لا بدَّ من قيامِ السّاعةِ، ليصل كلُّ ذي حقٍّ إلى حقِّه

لمّا قال اللّه تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ عطف عليه قولَه ﴿وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ﴾ للإيذانِ بأنَّ هذا الحقَّ يستبين ويظهر عندَ قيام السّاعة، عندَ جزاء المحسن على إحسانِه والمسيء على إساءَتِه، وبأنَّ الدُّنيا ليست بدار جزاء، بل هي دار إقامةِ الحقِّ، فلا بدَّ من قيامِ السّاعةِ ليصل كلُّ ذي حقٍّ إلى حقِّه.

دلالة الواو في قولِه: ﴿وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ﴾:

الحَقُّ لا يَتَخَلَّفُ عَنْ مُسْتَحِقِّهِ ولَوْ غابَ وتَأَخَّرَ

الواو عاطفةٌ لجملة ﴿وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ﴾ على جملةِ ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ لتكون كلُّ جملة مُسْتَقِلَّةً بإفادَةِ مَضْمونِها لأهَمِّيَّتِهِ مَعَ كَوْنِ الجملة المعطوفة مُكَمِّلَةً لِلمعطوف عليها ومترتّبةً عليها، فهي في حكم النّتيجة لها، فمَنْ عَرَفَ أنَّ جَميعَ المَخْلوقاتِ خُلِقَتْ خَلْقًا مُلابِسًا لِلْحَقِّ، وأيْقَنَ بِهِ، عَلِمَ أنَّ الحَقَّ لا يَتَخَلَّفُ عَنْ مُسْتَحِقِّهِ ولَوْ غابَ وتَأَخَّرَ، وإنْ كانَ نِظامُ حَوادِثِ الدُّنْيا

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/75.

قَدْ يُعَطِّلُ ظُهورَ الحَقِّ في نِصابِهِ وتَخَلُّفِه عَنْ أرْبابِهِ، فعَلِمَ أنَّ وراءَ هَذا النِّظامِ نِظامًا مُدَّخَرًا يَتَّصِلُ فيهِ الحَقُّ بِكُلِّ مُسْتَحِقٍّ إنْ خَيْرًا وإنْ شَرًّا، فلا يَحْسَبَنَّ مَنْ فاتَ مِنَ الَّذينَ ظَلَموا قَبْلَ حُلولِ العَذابِ بِهِم مُفْلِتًا مِنَ الجَزاءِ فإنَّ اللّٰه قَدْ أعَدَّ عالَمًا آخَرَ يُعْطي فيهِ الأُمورَ مُسْتَحِقّيها، وفي العطف بالواو انْتِقالٌ مِنْ تَهْديدِ المشركين من قريشٍ ووَعيدِهِم بِعَذابِ الدُّنْيا إلَى تَهْديدِهِم بِعَذابِ الآخِرَةِ، أي إنَّ ساعَةَ إنْفاذِ الحَقِّ آتيَةٌ لا مَحالَةَ فلا يُرِيبُكَ ما تَراهُ مِنْ سَلامَةِ مُكَذِّبيكَ وإمهالِهِم[1].

بلاغة تتابعِ التّوكيد في السّياق الرّشيد:

تحقُّق وقوع السّاعة والحثّ على الإعداد لها

قولُه تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَآتِيَةٌۖ﴾، وفيه جاء الخبر على طريقة الخبر الإنكاريِّ بتضمّنه أكثر من توكيدٍ: (إنَّ) واللّام الموطّئة للقسم، واسميّة الجملة؛ للردِّ على المنكرين لإتيانِ السّاعة ووقوعِها، ولِتحقيق الإخبارِ بأنَّ السّاعةَ آتيةٌ لا ريبَ فيها، فيفيد الخبرُ المؤكَّدُ تقويةَ الحثِّ على ما ترتّب عليه وهو الأمرُ بالصَّفح الجميل.

بلاغةُ الاستعارةِ المكنية في قولِه ﴿ٱلسَّاعَةَ لَآتِيَةٌۖ﴾:

الوعدُ بإتيان السّاعة، تسليةٌ للمؤمنين ووعيد للكافرين

شُبِّهت السّاعةُ وهي ساعةُ البعثِ بشخص آتٍ، فحذف المشبَّه به وذكر لازمًا من لوازمه وهو الإتيان على طريق الاستعارة المكنية الأصلية، لإفادة المبالغة في تحقُّقِ وقوعِها، ففيه تسليَةٌ لرسولِ اللّٰه ﷺ ووعيدٌ للمكذّبين.

نكتةُ استعمالِ فعل الإتيان في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَآتِيَةٌۖ﴾:

يستفاد من فعل الإتيان أنها تأتي بغتة

أفاد التعبير بلفظ الإتيان لساعة البعثِ أنَّ إتيانَها سهلٌ؛ لأنَّ الذي يأتي بها هو الذي خلق السماوات والأرضَ وما بينهما بالحقِّ.

بلاغةُ استعمالِ اسم الفاعل في قوله تعالى: ﴿لَآتِيَةٌۖ﴾:

المبالغة في استجابة الكون كلّه لله وسرعة إتيان السّاعة

أُطلقَ اسمُ الفاعل ﴿لَآتِيَةٌۖ﴾ وأريدَ المفعولُ، لأنَّ اللّٰه تعالى هو الذي يأتي بالسّاعة، أي إنَّ الساعة مأتيَّةٌ لا آتية، فيكون اللفظ قد

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/75 - 76.

استعملَ على طريق المجاز المرسل، وعلاقته الفاعلية، ونكتة التّعبير باسم الفاعل الإشعارُ بالمبالغة في سرعةِ الإتيان، وهو ما يتّفقُ مع السياق، والتّنبيهُ إلى أنَّها هي التي تأتي إلى الخلقِ، فكأنَّ الخلقَ ينتظرونها، ليتلقَّوا جزاءَهم عندها.

دلالة الإخبار عن السّاعة بأنَّها آتيةٌ:

وقوع ساعةِ البعثِ من الحقِّ الّذي به خلق الله السّماواتِ والأرض

لمّا أخبرَ الله تعالى أنَّ السّاعةَ آتيةٌ أفادَ أنَّ وقوعَها حقٌّ، وأنَّها تظهر الحقَّ والعدلَ بمقتضى أنَّه تعالى ما خلق السماوات والأرضَ إلّا بالحقِّ.

براعة التّعبير عن يوم القيامة بالسّاعة:

السّاعة تفجأ الناسَ بغتةً، في ساعة لا يعلمها إلّا الله ﷻ

المرادُ بالسّاعةِ ساعَةُ جَزاءِ المُكَذِّبينَ بِسيّدنا مُحَمَّدٍ ﷺ أيّ ساعَةُ البَعْثِ وهو يوم القيامة[1]، وعُبِّر بالسّاعة لأنَّها تفجأ الناسَ بغتةً في ساعة لا يعلمها إلا الله ﷻ، وللإشعار بسرعة مجيئِها وسرعةِ إقامة البعثِ وسرعةِ جزاء المكذّبين.

بلاغة الكناية في قوله ﴿وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَآتِيَةٌۖ﴾:

الجَزاءُ عَلَى أعمالِ الكافرين المكذّبين مَوْكولٌ إلَى الله تَعالَى

في الخبرِ كنايةٌ؛ إذ أفاد بلازمِه بعدَ الإخبار عن هلاكِ المكذّبين أنَّ الجَزاءَ عَلَى أعْمالِ الكافرين المكذّبين مَوْكولٌ إلَى الله تَعالَى، فينتقم الله لرسولِه ﷺ يوم القيامةِ من أعدائه، ويجازي رسولَه على حسناته والكفّار المكذّبين على سيئاتهم، ثمَّ يُنتقل من هذا المعنى إلى معنى آخر لازم له، هو تَصْبيرُ الله تَعالَى لسيّدنا رسولِ الله محمَّدٍ ﷺ وتسليتُه عَلَى سَفاهَةِ الكافرين من قَوْمِهِ وتكذيبِهم له وسلامتِهم وإمهالِهم في الدنيا، كما أنَّه تعالى لمّا خلق السماوات والأرضَ بالحقِّ لم يكن لائِقًا بِحِكْمَتِهِ إهْمالُ أمر رسولِه ﷺ، والخطابُ وإن كان في ظاهرِه لرسول الله ﷺ لكن يدخل فيه المؤمنون برسولِ الله محمَّدٍ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/74.

ﷺ دخولًا أوَّليًّا، فهو تصبيرٌ وتسليةٌ لهم كذلك على ما يلاقون من المكذّبين الظّالمين[1].

بلاغة الكناية في قولِه ﴿لَآتِيَةٌۖ﴾:

عُبِّرَ بلفظ ﴿لَآتِيَةٌۖ﴾ للإشعار بلازمِه وهو أنّ الجزاء قريب، لأنَّ الجزاء مقارنٌ ليومِ القيامةِ، وكلُّ ما هو آتٍ قريبٌ[2].

يوم القيامةِ قريبٌ، فإنَّ كلَّ ما هو آتٍ قريبٌ

فائدة الفاء، في قولِه ﴿فَٱصۡفَحِ ٱلصَّفۡحَ ٱلۡجَمِيلَ﴾:

الفاء عاطفة لجملة الطّلب على الجملة الاسميَّة لتفيدَ السببيَّة، وبيانُه أنَّه لمّا جعل اللّه تعالى جزاء أعمالِ الكافرين موكولًا إليه سبحانه وجعل حكمهم إلى الآخرة، ولمّا صَبَّرَ اللّه تعالى رسولَه الأمين ﷺ عَلَى أذَى قَوْمِهِ رتّب عليه بالفاء ترغيبه في الصَّفْحِ عَنهم في الدنيا؛ والمعنى لمّا كانَ جَزاءُهُم على قبيح أعمالِهم مَوْكولًا إلَى الوَقْتِ المُقَدَّرِ وهو آتٍ فاصفح الآن عنهم واحْتَمِلْ ما تَلْقَى مِنْهُم وأعْرِضْ عَنْهُم إعْراضًا جَميلًا بِحِلْمٍ وإغْضاءٍ[3]، وتحتمل أن تكون الفاء هي الفاء الفصيحة التي تفصح عن شرطٍ تقديرُه: فإن كانت السّاعةُ آتيةً فاصفح الصَّفحَ الجميلَ، وعلى الوجهين فالأمرُ بالصَّفحِ الجميلِ عن المسيئين ثابتٌ غيرُ منسوخٍ بآية القتالِ كما قيل لترتّبه على أمرٍ ثابتٍ هو إتيان الساعة، والمقصود منَ الآية هو المخالقةُ والمعاملة، ولأنَّ اللّه ﷻ أمرَ نبيَّه ﷺ أنْ يظهرَ الخلقَ الحسنَ، وأنْ يعاملَهم بالعفو، والصفحِ الخالي من الجزع والخوف والعتبِ[4].

الصَّفحُ عن الكافرين في الدّنيا وجزاؤهم على ظلمِهم يومَ القيامةِ

براعة التّعبير بلفظ ﴿فَٱصۡفَحِ﴾:

عُبِّرَ بالصَّفح الذي هو في اللغةِ الجنبُ؛ لأنَّهُ إذا أعْرَضَ عَنْهُ

الصَّفحُ هو الإعراض الخالي من جزع وفُحش، وقد يعفو الإنسان ولا يَصْفَحُ

(1) الزمخشري، الكشاف: 2/587، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 19/158.
(2) أبو القاسم الكرماني، لباب التفاسير، ص: 1004.
(3) الواحدي، التفسير البسيط: 12/644، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 19/158، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/76.
(4) الزمخشري، الكشاف: 2/587، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 19/158.

فكَأنَّهُ قَدْ ولّاهُ صَفْحَتَهُ وصَفْحَهُ، أيْ عُرْضَهُ وجانِبَهُ، فجيء به على طريق الاستعارة التّصريحية التبعيَّة؛ بتشبيه الإعراض عن الذّنب وعن الإساءة بتولية العرضِ للمسيء بجامع التّرك والتّولّي، فكأنَّ المعنى: ولِّهم صفحةَ عنقِكَ بالإعراض عنهم، وعُبِّر بالصَّفحِ دون العفوِ؛ لأنَّه أبلغُ منَ العفوِ؛ لأنَّ الصَّفحَ هو الإعراض الخالي من جزع وفُحش[1]، وقد يعفو الإنسان ولا يَصْفَحُ[2].

بلاغة الكناية في سياق الصّفح الجميل:

قولُه تعالى: ﴿فَٱصۡفَحِ ٱلصَّفۡحَ ٱلۡجَمِيلَ﴾، لمّا أمر اللّه تعالى رسولَه ﷺ بالصفح عن المكذّبين أفادَ بلازمِه النّهيَ عن تعجيل الانتقام من المكَذِّبين المستهزئين وعن الحُزْنِ والغَضَبِ مِنْهم ومن صَنيعِ أعْداءِ الدّينِ، ففيه دعوة إلى المعاملة الحسنة مع أعداء الدّين لعلَّهم يؤمنون[3].

النّهيُ عن تعجيل الانتقام منَ المكذّبين، والصبرُ على صنيعِ أعداء الدّين

فائدة حذف متعلّق الفعل ﴿فَٱصۡفَحِ﴾:

حُذِفَ مُتَعَلِّقُ الصَّفْحِ لِظُهورِهِ، أيْ عَمَّنْ كَذَّبَكَ وآذاكَ[4]، والنّكتة في الحذف هو الأمر بأن يكون الصّفح وصفًا لازمًا له ﷺ، فهو ﷺ مأمورٌ بالصَّفح عنهم وعن غيرِهم، والمعنى ليكن منك الصَّفحُ الجميل.

الصّفحُ خلقٌ كريمٌ، ينبغي أن يكونَ وصفًا لازمًا للمؤمنين

فائدة مجيء المفعول المطلق في الآية:

قولُه تعالى: ﴿ٱلصَّفۡحَ ٱلۡجَمِيلَ﴾، أفاد ذكر المفعول المطلق تأكيد الأمر بالصَّفحِ، ولمّا كان المفعول المطلق لبيانِ نوعِ الصَّفحِ دلَّ على أنَّ الصّفحَ أنواعٌ، وأنَّ منه الجميل والقبيح،، فلمّا وصفَ الصَّفحَ بالجميل أفادَ أنَّ المرادَ أفضلُه وأكملُه وأحسنُه فلا يكون فيه عتبٌ ولا تعرُّضٌ، ولا نقصٌ فيه ولا منَّةٌ في العرف، وفيه حلمٌ وإغضاءٌ، وفي وصف الصَّفحِ بالجميل إشعارٌ بألّا يكون الإعراضُ داعيًا إلى ترك

الصّفح الجميل، هو ما لا نقصَ فيه ولا منَّةَ في العرف

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 3/372، وابن الجوزي، زاد المسير: 2/541.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (صفح).
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/77.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/77.

نصيحتِهم ودعائِهم إلى الحقِّ، بل الصَّفح الجميل طريق لِتليين قلوبهم إلى الحقِّ والإيمانِ باللّه وبرسولِه[1].

بلاغة الاستعارة، في قولِه ﴿ٱلصَّفۡحَ ٱلۡجَمِيلَ﴾:

وُصِفَ الصَّفحُ بالجميل على طريق الاستعارة المكنيَّة، فكأنَّه شُبِّه الصَّفح بذاتٍ جميلةٍ تسرُّ النّاظرين بجامع اللَّذَّة الحاصلة عندَ النّظر إليه وقبولِه عندَ النّاظرين ثمَّ حُذفَ المشبَّه به وذُكر شيءٌ من لوازمِه، لإفادة المبالغة في الاتّصاف بأفضل أنواعِ الصَّفحِ وأكملِه بحيث إذا رآه أيُّ إنسانٍ يمدحه ولا يذمُّه.

الصَّفحُ الجميلُ خلقٌ إنسانيٌّ، فأيُّ إنسانٍ إذا رآه يمدحه ولا يذمُّه

بديع ردِّ العجز على الصّدر في الآية:

لمّا وقَعَ في صدر السّورة الاِسْتِدْلالُ عَلَى المُكَذِّبينَ بالبَعْثِ بِخَلْقِ السَّماواتِ والأرْضِ وما بينهما، عِنْدَ قَوْلِه: ﴿وَلَوۡ فَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَابٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعۡرُجُونَ ١٤ لَقَالُوٓاْ إِنَّمَا سُكِّرَتۡ أَبۡصَٰرُنَا بَلۡ نَحۡنُ قَوۡمٞ مَّسۡحُورُونَ ١٥ وَلَقَدۡ جَعَلۡنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجٗا﴾ [الحجر: 14 - 16] وما بعدها من الآيات التي ذكرت خلقَ الأرضِ وإلقاء الرّواسي وإرسال الرّياح، وخُتِمَتْ بِآيَةِ: ﴿وَإِنَّا لَنَحۡنُ نُحۡيِۦ وَنُمِيتُ وَنَحۡنُ ٱلۡوَٰرِثُونَ ٢٣﴾ [الحجر: 23] إلَى قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحۡشُرُهُمۡۚ﴾ [الحجر: 25]، وانتقل هُنالَك إلَى التَّذْكيرِ بِخَلْقِ آدَمَ عليه السلام وما فيهِ مِنَ العِبَرِ. ثُمَّ إلَى سَوْقِ قَصَصِ الأُمَمِ الَّتي عَقِبَتْ عُصورَ الخِلْقَةِ الأولَى، فلمّا كان الأمرُ كذلك آنَ الأوانُ لِلْعَوْدِ إلَى حَيْثُ افْتَرَقَ طَريقُ النَّظْمِ حَيْثُ ذَكَرَ خَلْقَ السَّماواتِ والأرضِ وما بينهما ودَلالَتَهُ عَلَى البَعْثِ بِقَوْلِهِ تَعالَى: ﴿وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۗ﴾، فجاءَتْ عَلَى وِزانِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿وَلَقَدۡ جَعَلۡنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجٗا﴾ [الحجر: 16] الآياتُ، فإنَّ ذَلِكَ خَلْقٌ بَديعٌ، وزيدَ هُنا أنَّ ذَلِكَ خُلِقَ بِالحَقِّ، وكانَ قَوْلُهُ تَعالَى: ﴿وَإِنَّ

ذكر الإجمال بعد التّفصيل لإثبات الإحياء والإماتة والحشرِ لله تعالى

(1) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 6/461، وأبو حفص النسفي، التيسير في التفسير: 9/217، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/77.

ٱلسَّاعَةَ لَآتِيَةٌۖ﴾ فذْلَكَةً لِقَوْلِهِ تَعالَى: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ﴾ [الحجر: 23] إلى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ٢٥﴾ [الحجر: 25]، أي بذكر الإجمال بعد التّفصيل لزيادة تمكين وتقريرِ معنى إثبات الإحياء والإماتة والحشرِ لله تعالى، فعادَ سياقُ الكَلام إلَى حَيْثُ فارَقَ مَهْيَعَهُ، ولِذَلِكَ تَخَلَّصَ إلَى ذِكْرِ القُرْآنِ بِقَوْلِهِ: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي﴾ [الحجر: 87] النّاظِرُ إلَى قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ٩﴾ [الحجر: 9][1].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/77.

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ٨٦﴾ [الحجر: 86]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

ربط الصّفح عن الآخرين، بكون الله هو الخلّاق العليم

لمّا أمر الله تعالى نبيَّه ﷺ، بالصَّفحِ عنهم أعقب الأمر بهذه الآية لتكون في موقع التّعليل للأمرِ بالصَّفحِ، أيْ: لأنَّ في الصَّفْحِ عَنْهُم مَصْلَحَةً لَكَ ولَهُم يَعْلَمُها رَبُّكَ، فمَصْلَحَةُ النَّبيِّ ﷺ في الصَّفْحِ هيَ كَمالُ أخْلاقِهِ، ومَصْلَحَتُهُم في الصَّفْحِ رَجاءُ إيمانِهِم[1].

وأيضًا لمّا ذكرَ خلق السماوات والأرضِ وما بينهم قال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ﴾ بصيغة المبالغة في الوصفين لكثرةِ ما خلقَ وأنَّه تعالى عليمٌ بما خلقَ[2].

وأيضًا لمّا أخبر الله تعالى أنَّ السّاعة آتيةٌ قرّر أنّه تعالى قادِرٌ عَلَى إقامَةِ السّاعَةِ، فإنَّهُ الخَلّاقُ الَّذي لا يُعْجِزُهُ خَلْقُ ما يَشاءُ، وهوَ العَليمُ بِما تَمَزَّقَ مِنَ الأجْسادِ، وتَفَرَّقَ في سائِرِ أقْطارِ الأرْضِ[3].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلْخَلَّٰقُ﴾: الخَلْقُ أصلُه: تَقْديرُ الشَّيءِ[4]، والخَلْقُ في كلام العَرَبِ على وجهين: ابتداعُ الشَّيء على مثالٍ لم يسبق إليه[5]، والآخر: التَّقدير، تقولُ: خَلق اللّه الشَّيءَ يَخلُقه خَلْقًا أحدثه بَعْدَ أن لَم يَكُنْ، والخَلْقُ يَكونُ المَصْدَرَ ويَكونُ المَخْلوقَ[6]، ومن صِفات اللّه: الخالِقُ والخلّاقُ، ولا تجوز هذه الصِّفة بالألف واللّام لغير اللّه ﷻ، وهوَ الَّذي أوجد الأشياء جَميعَها بَعْدَ أن لَم تَكُنْ مَوْجودَةً[7]،

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/78.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 6/493.
(3) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/546.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (خلق).
(5) الأزهري، تهذيب اللغة، والرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (خلق).
(6) ابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (خلق).
(7) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللغة: (خلق).

وتقولُ العَرَبُ: خَلَقْتُ الأديمَ: إذا قَدَّرته وقِسته لتقطع منه مزادَةً، أو قربةً، أو خفًّا[1]، والمقصود بالخلّاق في الآية: الموجدُ الأشياءَ على صورَةٍ مَخْصوصَةٍ.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

يقول اللّه تعالى: إنَّ ربَّك يا محمَّدُ ﷺ قادِرٌ على إقامةِ السّاعةِ؛ لأنَّه هو الذي خلقَ كُلَّ شَيءٍ، فلا يُعجِزُه شَيءٌ، وسيُعيدُ خَلقَ عِبادِه يومَ البَعثِ، وهو العالِمُ بكُلِّ شَيءٍ، ومِن ذلك عِلمُه بما تفرَّق من أجسادِ العبادِ، وعِلمُه بجميعِ أعمالِهم[2].

اللّه الخلّاق لا يعجزه شيء، وهو العليم بأحوال المخلوقات وأفعالها

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

براعة تصدير الكلامِ بـ﴿إِنَّ﴾:

أفاد تصدير الكلام بـ﴿إِنَّ﴾ ربط الجملة بما قبلها وإيلافَها معها، ولو أسقطت ﴿إِنَّ﴾ رأيتَ جملة ﴿رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ﴾ قد تجافت عن سابقتِها ولا تكونُ منها بسببٍ، كما أفادت ﴿إِنَّ﴾ معنى التّعليلِ لقولِه: ﴿فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ﴾[3]، والمعنى: لأنَّ اللّه تعالى هو الخلّاقُ لك ولهم ولسائر الموجوداتِ على الإطلاق، وهو العليمُ بأحوالك وأحوالِهم بتفاصيلها فلا يَخْفى عليه شيءٌ مما جرى بينك وبينهم، فهو حقيقٌ بأن تكِل جميع الأمورِ إليه ليحكُم بينكم، فلا تقابلهم إلّا بالصّفحِ والعفو، لأنَّ في الصَّفْحِ عَنْهُم مَصْلَحَةً لَكَ ولَهُم يَعْلَمُها رَبُّكَ، فمَصْلَحَةُ النَّبيِّ ﷺ في الصَّفْحِ هيَ كَمالُ أخْلاقِهِ، ومَصْلَحَتُهُم في الصَّفْحِ رَجاءُ إيمانِهِم، فالخلق العظيم وصفك والجزاء عندنا، ومجيء الرّبط بجملة مصدَّرةٍ بـ﴿إِنَّ﴾ لتكون بمثابة التّعليل لما سبقَها كثيرٌ في التّنزيل جدًّا ولا سيَّما بعد

أمر الرّسول الأكرم بالصّفح الجميل، والجزاءُ عند الجليل

(1) الأزهري، تهذيب اللغة: (خلق).
(2) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/546، والسّعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 434.
(3) الطيبي، فتوح الغيب: 9/58.

الطّلبِ، كقولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡۚ إِنَّ زَلۡزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيۡءٌ عَظِيمٞ ١﴾ [الحج: 1][1].

بلاغةُ التَّذييلِ في الآية الكريمة:

الجملة تجري كالمثل، في حكايتها والاستدلال بها

قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلۡخَلَّٰقُ ٱلۡعَلِيمُ﴾، جاءت الجملة بطريق التّذييل؛ لتفيد تأكيدَ مفهومِ قولِه: ﴿وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۗ﴾، وفيها معنى العمومِ والكلّيَّةِ، ولمّا كانت الجملةُ مستقلّةً بالإفادة جرت مجرى المثل في الاستقلالِ وفشوِّ الاستعمال.

غرض التّوكيد في الآية الكريمة:

إقامة الكافرين مقام المنكرين، والله الخلّاق بشأنهم عليم

قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلۡخَلَّٰقُ ٱلۡعَلِيمُ﴾، أفاد التّوكيد بـ ﴿إِنَّ﴾ وضميرِ الفصل تحقيق مضمون اتِّصاف اللّه تعالى بأنَّه هو الخلّاق العليم، ويلمحُ فيه إقامة الكافرين المكذّبين مقام المنكرين لكونِ اللّه هو الخلّاق العليم بكفرِهم وتكذيبِهم رسولَه الأمين ﷺ.

نكتةُ اختيارِ عنوان الرّبوبية في الآية:

الصّفح الجميل عن المسيئين، هو من تربية الله لرسوله الأمين

قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلۡخَلَّٰقُ ٱلۡعَلِيمُ﴾، لمّا كانت الجملة بمثابة التَّعليل لأمرِ رسولِه محمَّدٍ ﷺ بالصَّفحِ الجميل عن المسيئين ناسبَ أن يصفَ ﷺ نفسَه بعنوان الرّبوبيَّة دون (إنَّ اللّه) للإشارةِ إلى أنَّ الذي هو ربُّه والقائم بأمرِه دومًا والمتكفِّلُ بشأنِه والمتولّي مصلحته لا يَأمُرُهُ إلّا بما فيهِ صَلاحُهُ ولا يُقَدِّرُ إلّا ما فيهِ خَيره[2]، ليفيد أنَّ الصّفحَ الجميل عن المسيئين هو من تربية اللّه لرسولِه ﷺ، وهو من كمالاتِ خلُقِه ﷺ، وهو أقربُ لاستمالةِ قلوبِ المسيئين المكذّبين.

غرضُ إضافة الرّبوبيَّة إلى ضمير الخطاب:

حثُّ المؤمنين على التخلُّق بخلقِ الصّفحِ الجميل مع جميعِ النّاسِ

لمّا كان المقامُ مقامَ خطابٍ لرسولِه محمَّدٍ ﷺ بما دلَّ عليه

(1) عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص: 316، والزمخشري، الكشاف: 2/587، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/88، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/78.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/79.

خطابُ الأمر في قولِه ﴿فَٱصۡفَحِ﴾ ناسبَه أن يضاف لفظ الرّبوبيَّة إلى ضمير الخطابِ، بمعنى إنَّ ربَّك القائمَ بشؤونِك هو الذي يبلِّغك غايةَ الكمالِ، ولمّا كان حقُّ الخطابِ أن يكون لمخاطبٍ معيَّنٍ لكنَّه قُصِدَ به العمومُ، أي: غيرُ المعيَّنِ[1] قصدًا إلى أنَّ العلمَ بكونِ اللّه تعالى هو الخلّاقَ العليمَ ليس مختصًّا بواحدٍ دونَ واحدٍ، فيكون حثًّا للمؤمنين على التخلُّق بخلقِ الصّفحِ الجميل مع جميعِ النّاسِ، ويدخل في الخطابِ سيدنا محمَّدٌ ﷺ دخولًا أوّليًّا لمناسبةِ المقامِ كما تقدَّم.

سببُ ذكر ضمير الفصلِ ﴿هُوَ﴾:

خلق الكون لا يقدر عليه سوى الله سبحانه

أفاد ضمير الفصل ﴿هُوَ﴾ التّخصيصَ والتأكيدَ، بمعنى ليس من خلّاقٍ عليمٍ سوى ربِّكَ، ليفيدَ أنَّ خلقَ السماوات والأرضِ وما بينهما لا يقدرُ عليه سوى اللّه تعالى.

بلاغةُ اجتماع وصفي ﴿ٱلۡخَلَّٰقُ ٱلۡعَلِيمُ﴾:

البِشارَةُ بأنَّ اللهَ يَخْلُقُ مِنْ أصلابِ المكذّبين به، من يكونونَ أوْلياءَ له

أفادَ اجتماعُ الوصفين أنَّه هو الذي خلق المكذّبين وخلق كلّ شيء، وبدأ بذكر صفة الخلّاق لمناسبتِه ما أخبر به عن أنَّه تعالى خلق السماوات والأرضَ وما بينهما، واقتران وصف الخلّاقِ بخلق السماوات والأرضِ واردٌ في القرآن في قولِه ﴿أَوَلَيۡسَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخۡلُقَ مِثۡلَهُمۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلۡخَلَّٰقُ ٱلۡعَلِيمُ ٨١﴾ [يس: 81]، ولمّا كان هو الذي خلقَهم وخلقَ كلَّ شيءٍ ناسبَه هنا أن يقرن به صفة العليم؛ ليفيدَ أنَّه تعالى عالم بهم وبتدبيرهم، وما يأتون منَ الأفعال السيّئة القبيحة، فيجيزهم بها يومَ قيامِ السّاعة، ولمّا جاءت الجملة في موضعِ التّعليل للأمر بالصَّفحِ أفاد الكلامُ أنَّ ربَّك هو الخلّاقُ لخلقه؛ العليمُ بمصالحهم بأنَّ الصفح الجميل عنهم أصلحُ من مجازاتِهم على إساءَتِهم، وفيه إيماءٌ إلَى بِشارَةِ النَّبيِّ ﷺ بأنَّ

(1) السكاكي، مفتاح العلوم، ص: 180.

اللّه يَخْلُقُ مِنْ أولَئِكَ مَنْ يَعْلَمُ أنَّهُم يكونونَ أوْلياء للنبيِّ ﷺ وهُمُ الَّذينَ آمَنوا بَعْدَ نُزولِ هَذِهِ الآيَةِ والَّذينَ وُلِدوا بعد ذلك، وهذه نُكْتَةٌ لِذكر وصف ﴿ٱلْخَلَّٰقُ﴾ دونَ غَيرِهِ مِنَ الأسْماءِ الحُسْنَى[1].

نكتةُ بناءِ صفة ﴿ٱلْخَلَّٰقُ﴾ على (فعّال):

تقدَّم أنَّه تعالى ذكر وصفَ الخلّاقِ لمناسبتِه أنَّه سبحانه خلق السماوات والأرضَ وما بينهما، وأفادت صيغة فعّال كثرةَ ما خَلَقَ وكثرةَ أنواعِه، أي: كثرةَ المفعول، وأنَّه تعالى الفاعل للخلق مرَّةً بعد مرَّةٍ، ففيه إيذانٌ بأنَّه تعالى سيخلق مَن يرفع أمرَ هذا الدين من أصلاب كفّار قريش، ولهذا لم يستأصلهم بالإهلاكِ[2].

لم يستأصل الله كفّار قريشٍ بالإهلاكِ، لأنّه سيخلق من أصلابِهم مؤمنين

نكتةُ بناءِ صفة ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ على (فعيل):

أفاد مجيء صفة عليم بصيغة فعيل، المبالغة في وصفه تعالى بالعلمِ، ولمّا جاء الوصف محذوف المتعلَّق أفادَ ثباتَ وصفِ العلمِ على المبالغة بمعنى كمالِ علمِه ولزومِه له سبحانه.

الإشارة إلى كمال علم الله الّذي أحاط بكلّ شيء

(1) ابن جرير، جامع البيان: 17/128، والماتريدي، تأويلات أهل السنّة: 6/461، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/78.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 11/85، وابن التّمجيد، حاشية على البيضاوي: 11/194.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾﴾ [الحجر: 87]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

مَنْ أوتِي القُرْآنَ شَغَلَهُ النَّظَرُ فيهِ وامتِثالُ تَكاليفِهِ، عَنِ الاشْتِغالِ بِزَهْرَةِ الدُّنْيا

لَمّا صَبَّرَ اللّه تعالى نبيَّه عَلَى أذَى قَوْمِهِ وأمَرَهُ بأنْ يَصْفَحَ الصَّفْحَ الجَميلَ أتْبَعَ ذَلِكَ بِذِكْرِ النِّعمةِ العَظيمَةِ الَّتي خَصَّ اللّه تَعالَى مُحَمَّدًا ﷺ بها، ليَسْهلَ عليه تحمُّلُ إيذاءِ المشركين إيّاه؛ لأنَّ الإنْسانَ إذا تَذَكَّرَ كَثْرَةَ نِعَمِ اللّه عَلَيْهِ سَهُلَ عَلَيْهِ الصَّفْحُ والتَّجاوُزُ[1].

وأيضًا لمّا صبّر اللّه تعالى نبيَّه ﷺ على أذيَّة قومِه ذكّرَه بالنّعمةِ العظيمةِ التي خصَّه بها فقال: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ﴾، فيَطْمَئِنَّ بأنَّهُ كَما أحْسَنَ إلَيْهِ بِالنِّعَمِ الحاصِلَةِ فهوَ مُنْجِزُهُ الوُعودَ الصّادِقَةَ[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلْمَثَانِي﴾: أصلُ (ثني): أصْلٌ واحِدٌ، وهو تَكْريرُ الشَّيءِ مَرَّتَيْنِ، أو جَعْلُهُ شَيئَيْنِ متواليَينِ أو مُتباينَينِ، وذلكَ قولُكَ: ثَنَيْتُ الشَّيءَ ثَنْيًا[3]، والاثنان أصلٌ لمُتصرِّفات هذه الكلمة، ويُقال ذلك باعتبار العدَد، أو باعتبار التَّكرير الموجود فيه أو باعتبارهما معًا[4]، والثِّنَى: الأمرُ يُعادُ مَرَّتَيْنِ، والثِّنايَةُ: حَبْلٌ مِنْ شَعَرٍ أوْ صوفٍ، ويُحْتَمَلُ أنَّهُ سُمّيَ بذَلِكَ لأنَّهُ يُثْنَى أوْ يُمكِنُ أنْ يُثْنَى، والمَثْناةُ: ما قُرِئَ مِنَ الكِتابِ وكُرِّرَ[5]، والسَّبعُ المَثاني: هي سورَةُ فاتِحةِ الكِتابِ؛ لأنَّها يُثَنَّى بها، أي: تُعادُ في كُلِّ رَكْعَةٍ مِنَ الصَّلاةِ، فاشْتِقاقُها مِنَ اسمِ الاثنَينِ، المُرادُ به مُطلَقُ التَّكريرِ[6].

(1) أبو حفص النسفي، التيسير في التفسير: 9/217، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 19/158.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/79.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ثني).
(4) الراغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (ثني).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ثني).
(6) ابن منظور، لسان العرب: (ثني).

المَعْنى الإجْماليُّ:

التَّسلية والبشارة للرَّسول ﷺ بالسّبع المثاني والقرآن العظيم

لقد امتنَّ اللّه ﷻ على نبيِّه ﷺ بالمنَّة العظمى، وهي إنزال القرآن عليه فقال: ولقد أنعمنا عليك إذ أنزلنا إليك فاتحة الكتاب، وهي سبع آيات تُثنَّى وتُكرَّر في الصَّلوات الخمس وغيرها، ويُثْنى بها على اللّه ﷻ؛ وهي القرآن العظيم، وتخصيصُ الفاتحة بالذِّكر واعتبارها القرآنَ الكريم؛ لمزيد فضلها ورفيع مكانتها، ولاشتمالها على مقاصد القرآن كله[1].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

معنى الواو في ﴿وَلَقَدْ﴾ ودلالتها في السّياق:

التَّنْويهُ بِالقُرْآنِ والحثُّ على قصر النّظر عليه

الواو إمّا أن تكونَ عاطفةً؛ فتكون من عطفِ القصّة على القصّة، أو الغرض على الغرض، وإمّا أن تكون استئنافيَّةً؛ لتفيدَ افْتِتاحَ غَرَضٍ ومشرَعٍ آخر هو التَّنْويهُ بِالقُرْآنِ وقصر النّظر عليه، والتَّحْقيرُ لِعَيْشِ المُشْرِكينَ وما يتمتّعون به في هذه الحياة الدنيا[2].

بلاغةُ القسم وغرضه في السّياق:

تعظيم القرآن بالقسمِ، تنويهٌ بشأنِه ودعوةٌ للإصغاء إليه

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ﴾، لمّا كانت اللّام جوابَ قسم مقدَّر أفادَ القسمُ وجوابُه تعظيمَ المقسم عليه وهو إتيانُ اللّه تعالى نبيَّه ﷺ سبعًا من المثاني وإتيانَه القرآن العظيم، للإشعارِ بأنَّه يستحقُّ الإصغاء إليه والاعتناء بما آتاه اللّه تعالى.

نكتةُ التَّعبير بالفعل ﴿ءَاتَيْنَٰكَ﴾، دون (أعطيناك):

إيثار اختيار لفظ الإيتاء لمناسبةِ المعنى وسياقِه

عُبِّرَ بالإتيان المفيد لمعانٍ لا يفي بها سوى هذا اللفظ، فالتعبير بالفعل ﴿ءَاتَيْنَٰكَ﴾ أفادَ معنى الإعطاء والتنزيل والإيحاء، ومجيئه بصيغة المتعدّي إلى مفعولين أفادَ معنى تحصيل المُؤتَى بأن يكون بين يديِّ المُؤتَى إليه، للإشعار بأنَّ اللّه تعالى أوصلَ السبع آياتٍ والقرآن

(1) القرطبي: 10/55، والشّنقيطي، أضواء البيان: 2/315، ومجمع البحوث، التفسير الوسيط: 5/576.
(2) الطيبي، حاشية على البيضاوي: 9/58، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/79.

العظيم إلى سيدنا محمَّدٍ ﷺ بسهولةٍ فضلًا منه ونعمةً، كما أوثِرَ فِعْلُ ﴿ءَاتَيْنَٰكَ﴾ دونَ (أوْحَيْنا) أوْ (أنْزَلْنا)؛ لأنَّ الإعْطاءَ بما دلَّ عليه لفظ ﴿ءَاتَيْنَٰكَ﴾ أظْهَرُ في الإكْرامِ والإنعامِ والمِنَّةِ[1].

غرضُ الخطابِ بالضّميرِ في ﴿ءَاتَيْنَٰكَ﴾:

إتيانُ سبعٍ من المثاني والقرآنِ العظيمِ، خاصٌّ برسول الختام دون سائر الأنام

أفاد ضمير الخطاب تحقيقَ عظمةِ منَّة الله تعالى على سيدنا رسولِ الله ﷺ؛ بأنَّ إتيان سبعٍ منَ المثاني والقرآن العظيم خاصٌّ بك لم يؤته أحد قبلك ولا يكون لأحدٍ بعدَكَ، ففيه تشريفٌ للمخاطب ﷺ لشرف الخطابِ وتعظيم الإنعام والمنعم به.

غرضُ تنكير لفظ ﴿سَبْعًا﴾:

للسّبعِ المثاني خصوصيَّةٌ، وشأنٌ ليس كشأنِ سائرِ القرآن

لمّا كان جاء لمّا جاء لفظ (سبعٍ) مذكَّرًا دلَّ على أنَّ تمييزه مؤنَّثٌ، فتقدير الكلامِ آتيناكَ سبع آياتٍ أو سورٍ منَ المثاني، والظّاهر أنَّ المراد سبعُ آياتٍ، وهي سورةُ الفاتحة في قولِ أكثرِ المفسرين[2]، وجاء لفظ ﴿سَبْعًا﴾ بصيغة النّكرة لتفخيم هذه الآياتِ السبْعِ وتعظيمِها ولبيانِ أنَّ لها شأنًا غيرَ شأنِ سائر القرآن.

بلاغةُ التّعبير، بقوله: ﴿سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى﴾:

الفاتحة هي السّبع المثاني، لانصراف الذّهن إليها

لمّا قال الله تعالى: ﴿سَبْعًا﴾ دلَّ على أنَّ مميّزه محذوف، والظاهر أنَّه بتقدير (آياتٍ)، فأصلُ الكلامِ آتيناكَ سبعَ آياتٍ[3]، فلمّا حذف التّمييز نوّن المميَّز، ليفيد أنَّه معلومٌ واضحٌ فلا يحتاجُ إلى بيانٍ، وأنَّ الذّهن ينصرف إليها بمجرَّد ذكرِها، ولهذا كان القول بأنَّ المراد منها سورة الفاتحة هو الظّاهر، وفي التّنكير تعظيم لشأنِ السّبع وتفخيمها.

معنى حرف ﴿مِّنَ﴾ في قوله: ﴿مِّنَ ٱلْمَثَانِى﴾:

ألفاظ القرآن وعجائبه، تثنّى ولا تنقطع بمرور الأزمان

تحتمل ﴿مِّنَ﴾ أن تكون للتّبعيض فيكون ﴿ٱلْمَثَانِى﴾ اسمًا لِلقرآن،

(1) العكبري، التبيان: 2/787، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/79.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 19/161.
(3) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 11/195.

أي سبعًا مِن القرآن الَّذي هو مثاني، لأنَّ ألفاظَه تثنّى على مرور الأوقات وتكرّر في القراءةِ فلا تَدرُسُ ولا تنقطع دون سائر الأشياء التي تضمحل وتبطل على مرور الأيام، ولأنَّ القصص والأخبار تثنى فيه وتردد، ولأنَّ معانيَه وفوائدَه تتجدّد حالًا فحالًا فلا تنقضي عجائبه، فهي تثنّى بمرور الأوقاتِ والأزمانِ، وعلى ذلك قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ﴾ [الزمر: 23]، فيكون قد وصف القرآن بوصفين، فوصفه هنا بالمثاني، ووصفه بالعظم في قولِه ﴿وَٱلۡقُرۡءَانَ ٱلۡعَظِيمَ﴾، كما تحتمل أن تكون لبيان الجنس، كقوله: ﴿فَٱجۡتَنِبُواْ ٱلرِّجۡسَ مِنَ ٱلۡأَوۡثَٰنِ﴾ [الحج: 30][1]، فيكون لفظ ﴿ٱلۡمَثَانِي﴾ جنسًا للسبْعِ ووصفًا للفاتحة؛ لأنَّها تُثَنَّى في كُلِّ صلاة، ولأنَّ معانيَها من أوَّلها إلى آخرها على المثاني، فيكون قد وصف الفاتحة بوصفين المثاني والعظم لأنَّها جزء من القرآن[2].

معنى (ال) في لفظ ﴿ٱلۡمَثَانِي﴾:

تحتمل (أل) أن تكون جنسيَّة فيكون لفظ ﴿ٱلۡمَثَانِي﴾، وصفًا للسّبعِ وتكون ﴿مِّنَ﴾ لبيان الجنسِ، وتحتمل أن تكون للاستغراق، بمعنى استغراق سور القرآن، فتكون ﴿مِّنَ﴾ للتبعيض كما تقدَّم.

أهميّة التّعريف في معنى المثاني، ودلالته في السّياق

دلالة لفظ ﴿ٱلۡمَثَانِي﴾:

الظّاهر أنَّ لفظ المثاني جمعُ مَثْنَى، فهو مشتقٌّ منَ التّثنية، وفعله ثنى يثني، والمُثَنّاةُ كُلُّ شَيْءٍ يُثَنَّى، أيْ: يُجْعَلُ اثْنَيْنِ، فيكون المراد تثنية القراءة والمعاني أو تثنية القصص إن أريد بالمثاني القرآن، فيَكونُ اسْتِعْمالُ المثاني على هذا المعنى على طريق المجاز المرسل بِعَلاقَةِ الإطْلاقِ، أو يكون كِنايَةً لأنَّ تَكْريرَ الآياتِ بقراءتها في الصّلاة لازِمٌ للفاتحةِ، أو تكرير المعاني لازمٌ للقرآن، ويحتمل أن

تنوّع معنى المثاني تعظيم لشأنِ القرآن، وتعميمٌ لمعانيه المبهرة

(1) الزجاج، معاني القرآن وإعرابه: 3/185، وأبو حفص النسفي، التيسير في التفسير: 9/217، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 19/161.

(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 3/373.

يكون مثنى منَ الثّناء، فيكون وصفًا للفاتحة أو للقرآن على حسبِ معنى ﴿مِّنَ﴾، كأنَّ الفاتحة تُثني على الله بصفاته الحسنى، على طريق الإسناد المجازي أي بإسناد الثّناء إلى الفاتحة أو القرآن، أو يكون الكلامُ على طريق الاستعارة المكنيَّةِ بتشبيه سورة الفاتحة أو القرآن بالشخصِ المثني على غيرِه بالجميل ثمَّ حذف المشبَّه به وذكر شيءٌ من لوازمِه وهو الثّناء[1].

نوعُ عطفِ جملة ﴿وَٱلۡقُرۡءَانَ ٱلۡعَظِيمَ﴾ على السّابق:

عطف العامّ على الخاصّ تعظيمًا وتشريفًا لسورة الفاتحة

لمّا عطفَ ﴿وَٱلۡقُرۡءَانَ ٱلۡعَظِيمَ﴾ على ﴿سَبۡعٗا مِّنَ ٱلۡمَثَانِي﴾ كان من عطفِ الكلِّ على البعضِ أو العامِّ على الخاصِّ تعظيمًا لشأنِ الفاتحة وتشريفًا لها، لتكرّر ذكرها في ضمنِ القرآن العظيم، ففي العطفِ إشعارٌ بأنَّها أشرفُ سورِ القرآنِ، وأنَّ لها مزيدَ فضيلةٍ وخَصوصيَّةٍ على سائر السّور، وفيه تنبيه للمخاطبين على المبالغة في الاعتناء بها، وليَعْلَمَ أنَّ إيتاءَ القُرْآنِ كُلِّهِ نِعْمَةٌ عَظيمَةٌ[2].

براعة دلالة جملتي العطف في سياق الآية:

دلالة الجملتين على الثّناء والتّنبيه والتّعظيم

تدلُّ جملتا العطفِ ﴿سَبۡعٗا مِّنَ ٱلۡمَثَانِي وَٱلۡقُرۡءَانَ ٱلۡعَظِيمَ﴾، على ثناء وتنبيهٍ وتعظيم، فأمّا الثّناء فهو على الفاتحة والقرآن بما وُصِفا به؛ إذ وصف السبع بأنَّها من المثاني ووصف القرآن بأنَّه عظيمٌ، فكانَ لكلِّ موصوفٍ وسمُه مع اشتراكِ كلِّ موصوف منهما بصفة الآخر، فالقرآن هو المثاني والسبعُ آياتٍ عظيمةٌ؛ لأنَّها من المثاني، وأمّا التَّنبيه فهو لحَثِّ المؤمنين على الاهتمامِ بهما بما ذكرَ من وصفيهِما، وأمّا التّعظيم فهو في بيانِ شأنِهما عندَ الله تعالى.

توجيه تخصيص القرآن بالذّكر، دون بقية الأسماء:

القرآن هو الحاوي جميعَ علوم الأولين والآخرين

لمّا كان الكلام على جهة تعظيم المخاطبِ بما أنعم عليه من

(1) الطيبي، حاشية على الكشاف: 9/59، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/80.
(2) أبو حفص النسفي، التيسير في التفسير: 9/219، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/81.

المنزَّل، كان الأنسبُ ذكرَ الاسم الأخصّ العلم على المنزَّلِ على سيدِّنا محمَّدٍ ﷺ، وهو القرآن، لئلّا يلتبس الأمرُ عندَ المخاطبين، فيظنّوا أنَّ المرادَ غير القرآن، وفيه نكتة أخرى، وهي أنَّه لمّا كان لفظ القرآن مأخوذًا منَ القَرءِ بمعنى الجمع، وكان الكلام في سياق الامتنان العظيم الذي خُصَّ به سيّدنا محمَّد ﷺ أفاد التّعبير بالقرآن دون غيرِه أنَّه هو الحاوي لجميع علوم الأولين والآخرين مما في جميع الكتب السّالفة وغيرِه[1].

نكتةُ الوصفِ بـ﴿ٱلۡعَظِيمَ﴾:

القرآن كلام الله، وهو صفته، وكلام العظيم عظيم

لمّا كان القرآن قد جمعَ علومَ الأوّلين والآخرين ممّا في الكتب المنزّلة استحقَّ وصفَه بالعظمةِ؛ كما أنَّ القرآنَ لمّا كانَ كلامَ اللّٰه تعالى الصّادر منَ العظيم كان وصفُه بالعظيم تنويهًا بعظمةِ اللّٰه وصفتِه، وتحقيقًا للوصف اللازم له[2].

(1) البقاعي، نظم الدرر: 11/86.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/81.

﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾ [الحجر: 88]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الحثُّ على الاستغناءِ بالقرآن، عن متاع الدّنيا الزّائل، وزينتها الفانية

لَمّا ذَكَرَ تَعالَى ما أَنْعَمَ بِهِ عَلَى رَسولِهِ ﷺ وهوَ أنَّهُ آتاهُ سَبْعًا مِنَ المَثاني والقُرْآنَ العَظيمَ، نَهاهُ عَنِ الرَّغْبَةِ في الدُّنْيا فحَظَرَ عَلَيْهِ أنْ يَمُدَّ عَيْنَيْهِ إلى شَيْءٍ مِنْ مَتاعِ الدُّنْيا رَغْبَةً فيها، ليستغنيَ بما آتاه من القرآن عن الدّنيا[1].

وأيضًا لمّا كان ما أوتيه سيّدنا محمَّدٌ ﷺ وما سيؤتاه أعظم ما أوتيه مخلوق، اتصل به قوله: ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾، أي: فلا تنظر إلى الدنيا فإنَّ الذي أعطيناك أعظم منها[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿لَا تَمُدَّنَّ﴾: أصلُ (مدّ): أصْلٌ واحِدٌ يَدُلُّ على جَرِّ شَيءٍ في طولٍ، واتِّصالِ شَيءٍ بِشَيءٍ في اسْتِطالَةٍ، كما أُطْلِقَ على بَسْطِ الجِسْمِ وتَطْويلِهِ، يُقالُ: مَدَّ يَدَهُ إلى كذا، ومَدَّ رِجْلَهُ في الأرْضِ، ثُمَّ اسْتُعيرَ لِلزِّيادَةِ مِنْ شَيْءٍ، تقولُ: مَدَدْتُ الشَّيءَ أَمُدُّهُ مَدًّا، ومَدَّ النَّهْرُ، ومَدَّهُ نَهْرٌ آخَرُ، أي: زادَ فيهِ وواصَلَهُ فأطالَ مُدَّتَهُ[3]، ومنه: المُدَّة للوقت الممتدّ[4]، ومدَّ اللّهُ الأرضَ يَمُدُّها مَدًّا بَسَطَها وسَوّاها، والمِدادُ: ما يُكْتَبُ بِهِ، لأنَّهُ يُمَدُّ بِالماءِ، ومَدَّه في غَيِّه، أي: أمهلَه وطَوَّلَ لَهُ[5]، وتلكَ

(1) ابن الجوزي، زاد المسير: 2/543، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 19/161، وأبو حيان، البحر المحيط: 6/494.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 11/86، وابن جزي، التسهيل: 11/421.

(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (مد)، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/82.

(4) الراغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (مد - مدد).

(5) ابن منظور، لسان العرب: (مدد).

إطلاقاتٌ شائعَةٌ صارتْ حَقيقَةً، واستُعيرَ المَدُّ في الآية إلى التَّحْديقِ بالنَّظَرِ والطُّموحِ به؛ تَشبيهًا لَهُ بِمَدِّ اليَدِ للمُتَناوِلِ؛ لأنَّ المَنْهيَّ عنهُ نَظَرُ الإعْجابِ مِمّا هُم فيهِ مِنْ حُسْنِ الحالِ في رفاهيَةِ عَيْشِهِم مع كُفْرِهِم[1].

2) ﴿مَتَّعْنَا﴾: أصْلُ المَتْعِ: بُلوغُ الغايَةِ مِنَ الشَّيْءِ، يُقالُ: مَتَعَ النَّهارُ يَمتِعُ مَتْعًا، أي: بَلَغَ غايَةَ ارْتِفاعِهِ[2]، والماتِعُ: الجَيِّدُ البالِغُ الجَوْدَةِ[3]، والمُتْعَةُ: المَنْفَعَةُ، والاسْتِمتاعُ: الانْتِفاعُ[4]، تَقولُ: تَمَتَّعْتُ بِكذا واستَمتَعتُ به إذا انْتَفَعْتُ به، والإمتاعُ: النَّفْعُ، والمَتاعُ: كلّ شَيءٍ يُنتفَع بِهِ ويُتبلَّغ بِهِ ويتزوَّد؛ والفناء يَأْتي عليه في الدُّنيا، والجَمعُ أمتِعَةٌ[5]، والمقصود بالتَّمتُّع في الآية: انْتِفاعٌ بِما يَلَذُّ ويَسُرُّ.

3) ﴿وَٱخْفِضْ﴾: أصلُ (خفض): يدلُّ على الانْحِطاط بعد العُلوِّ[6]، وهو ضدّ الرّفع، والتَّخفيضُ: مدُّكَ رأسَ البَعير إلى الأرْض لتركَبَهُ، والخَفْض: الدّعة والسّير اللّيّن[7]، وعَيْشٌ خَفْضٌ: ذو دَعَةٍ وخِصْبٍ[8]، والعرب تَقولُ: أرضٌ خافِضَةُ السُّقْيا؛ إذا كانَت سهلَةَ السَّقْي، وأرضٌ رافِعةُ السُّقيا؛ إذا كانَت على خلاف ذَلِك، وفلانٌ خافِضُ الجناح، وخافِضُ الطَّيْر؛ إذا كانَ وقورًا ساكِنًا[9]، وخَفْضُ الجَناحِ تَمثيلٌ لِلرِّفْقِ والتَّواضُعِ بِحالِ الطّائِرِ إذا أرادَ أنْ ينحطَّ للوقوع خفض جَناحَهُ يُريدُ الدُّنوَّ، وكذلكَ يَصْنَعُ إذا لاعَبَ أُنثاهُ فهو راكنٌ إلى المُسالَمَةِ والرِّفْقِ، أوِ الَّذي يَتَهَيَّأُ لِحَضْنِ فِراخِهِ[10].

4) ﴿جَنَاحَكَ﴾: أصلُ (جنح): أصْلٌ واحِدٌ يَدُلُّ على المَيْلِ والعُدْوانِ، ويُقالُ: جَنَحَ إلى كذا، أي: مالَ إليهِ، وسُمّيَ الجَناحانِ جَناحَيْنِ لِمَيلِهِما في الشِّقَّيْنِ، والجُناحُ: الإثْمُ، سُمّيَ بِذَلِكَ لِمَيْلِهِ عَنْ طَريقِ الحَقِّ[11]، وجَناحا الطّائِرِ: يَداهُ، وجَناحُ الإنسان: يَدُه، وفي

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/82.
(2) الراغب، المفردات: (متع).
(3) ابن عباد، المحيط في اللغة: (متع).
(4) محمد الأصبهاني، المجموع المغيث في غريبي القرآن والحديث: 3/148.
(5) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (متع).
(6) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (خفض).
(7) الراغب، المفردات: (خفض).
(8) الخليل، العين، وابن عباد، المحيط في اللغة: (خفض).
(9) الأزهري، تهذيب اللغة: (متع).
(10) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/83.
(11) ابن فارس، مقاييس اللغة: (جنح).

التَّنْزيلِ: ﴿وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ﴾ [الإسراء: 24]، أي: ألِنْ لَهُما جانِبَكَ[1]، والمقصود بالجناح في الآية: التَّواضُعِ واللّينِ التَّواضُعُ واللّينُ في المُعاملةِ.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

الإنسانُ مأمورٌ بالتَّواضُعِ لإخوانِه المؤمنين، واستصغار زخارف الدُّنيا

لا تَنظُرَنَّ يا محمَّدُ ﷺ وتتطلَّعَنَّ إلى نعيمِ الدُّنيا الَّذي متَّعْنا به أصنافًا مِنَ الأغنياءِ مِن قَومِك، الذين لا يُؤمِنونَ باللّهِ واليومِ الآخرِ، ولا تتمنَّه، واستغنِ بما آتاك اللّهُ مِنَ القرآنِ عمّا هم فيه مِنَ المَتاعِ الفاني؛ فقد أوتيتَ تلك النِّعمةَ العُظمَى، التي كلُّ نِعمةٍ أُخرَى وإن عَظُمَت، فهي حقيرةٌ في جانِبِها، ولا تَحزَنْ على الكُفّارِ أنَّهم لم يُؤمِنوا، فقَدْ بَلَّغْتَ رسالةَ ربِّك، وألِنْ جانِبَك للمُؤمنينَ، وارفُقْ بهم، وتواضَعْ لهم[2].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

مناسبة مجيء الآية بالفصل دون الوصل:

كلُّ نعمةٍ من نعم الدّنيا وإن عظمت، فهي حقيرةٌ، بالنّسبة لنعمة القرآن

جاءت الآية على طريق الفصل لتفيد ترتّبها على ما قبلَها، فإنَّه تعالى لمّا أخبره أنَّه قد آتاه النِّعمة العظمى التي كلُّ نعمةٍ وإنْ عَظُمَتْ فهي إليها حقيرة ضئيلة، وهي نعمةُ القرآنِ العظيم، ترتّب عليه الاستغناء به عن كلِّ ما سواه من متاع الحياة الدنيا، والمعنى: فلا تمدّن عينيك إلى متاع الدنيا، فجملة ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيۡنَيۡكَ﴾ مسببَّةٌ عن قولِه ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَٰكَ﴾، ولما كانت السببيَّةُ ظاهرةً أغنت عن الإتيان بالفاء[3]، فيكون قد أمره بالاستغناء عن المال بالقرآن، أي فإنَّ ما في

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (جنح).

(2) ابن جرير، جامع البيان: 14/128، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 10/57، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/546، والسّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 434، والشّنقيطيّ، أضواء البيان: 2/316.

(3) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 3/7.

الدُّنيا من أصناف الأموالِ والذخائر بالنسبة إلى ما أوتيتَه مستحقَرٌ لا يُعبأ به أصلًا، ويحتمل أنْ تكون الآية اعتراضًا بين جملتين، فإنَّه لمّا كانَ قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ﴾ فيه تَسْلِيَةٌ لِلرَّسولِ ﷺ عن تَكْذيبِهم وعَداوَتِهِمُ اعْتَرَضَ بِما هوَ مَدَدٌ لِمَعْنَى التَّسْلِيَةِ مِنَ النَّهْيِ عَنِ الالتِفاتِ إلَى دُنْياهُم والتَّأسُّفِ عَلَى كُفْرِهِم ومِنَ الأمرِ بأنْ يُقْبِلَ بِمَجامِعِهِ عَلَى المُؤْمِنينَ[1].

براعةُ الاستعارة، في قوله: ﴿لَا تَمُدَّنَّ﴾:

النّهيُ عن مدِّ العين إلى زخارف الدّنيا، مستلزمٌ النّهيَ عن تمنّيها

المَدُّ: أصْلُهُ الزِّيادَةُ، وأُطْلِقَ عَلَى بَسْطِ الجِسْمِ وتَطْويلِهِ، ويُقالُ: مَدَّ يَدَهُ إلَى كَذا، ومَدَّ رِجْلَهُ في الأرْضِ، واستُعمِلَ اللفظُ هنا على طريق الاستعارة المكنيَّة، بتشبيه نظرِ العين إلى الشّيء على سبيل التَّحديق به وإدامته والطّموح فيه بمدِّ اليدِ للمتناول، فحُذِفَ المشبَّهُ به وذُكِرَ شيءٌ من لوازمه وهو المدّ، وفائدةُ مجيء الكلام على الاستعارة بيانُ أنَّ المنهيَّ عنه ليس هو تناولَ الزّخارف، بل هو استحسانُ المنظور إليه، والنّظرُ إليه نَظَرَ الإعْجابِ، مِمّا هُم فيهِ مِنْ حُسْنِ الحالِ في رَفاهيَةِ عَيْشِهِم مَعَ كُفْرِهِم، فكأنَّ مدَّ العينِ إلى ما متّع اللّه به أزواجًا منهم فيه معنى تمنّي تحصيله، فيكون النّهي عن مدِّ العين إلى المذكور مستلزمًا النّهي عن تمنّيه، وسبب النّهي مطويٌّ، ودلَّ عليه سياق الكلام بمجيء النّهي بعد ذكرِ نعمة إيتاء القرآن، والتّقدير: لا تمدّنَّ عينيكَ إلى ما متّعنا به أزواجًا منهم؛ لأن ما أوتيتَهُ أعْظَمُ مِنْ ذَلِكَ، ليفيدَ الكلامُ توبيخَهم على انشغالِهم بزخارفِ الدّنيا وزينتها، أي فلَوْ كانوا بِمَحَلِّ العِنايَة لاتَّبَعوا ما آتَيْناكَ منَ القرآن العظيم، ولَكِنَّهُم رَضوا بِالمتاعِ العاجِلِ فلَيْسوا مِمَّنْ يُعْجِبُ حالُهُم[2].

(1) الزمخشري، الكشاف: 2/590، وأبو حيان، البحر المحيط: 6/496، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/89.

(2) الزمخشري، الكشاف: 3/97، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/82.

بلاغة النّهي في: ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾ بصيغة الخطاب:

النّهي للنّبوّة الخاتمة، عن النّظر إلى الدّنيا، فسائر الأمّة أولى بهذا النّهي

قولُه تعالى: ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾، وفيه أنّ أصل الخطاب أن يكون لمعيَّن وترك هنا إلى غير المعين لقصد العموم، ليكون المقصود نهيَ أتباعِه ﷺ عن مدِّ نظر العينين إلى ما متّع الله به رؤوس الكفرِ وأسيادَه، وأعطاهم من أنواعِ متع الدنيا وعظيم أصنافِها، والنّكتة في مجي الكلام بصيغة الخطاب لسيدنا محمَّد ﷺ هو نهي الأمّة عن النّظر إلى مثل هذا المتاع[1]، فإذا كان الله تعالى قد نهى رسولَه ﷺ فسائر الأمّة أولى بالانتهاء، كما أنَّ فيه نكتةً أخرى وهي الدعوة إلى استمرارِ عدم النّظر إلى المتاع المذكور، فليس المقصود هو الانتهاء للنّاظر فقط بل قطع النّظر أصلًا، لأنَّ النّهي توجّه إلى رسول الله ﷺ وهو لم يمدَّ عينيه أصلًا لأنَّ النّهي لا يقتضي الملابسة ولا المقاربة، فيكون المقصود توجيه الأمّة إلى عدم الاكتراث بالمتاع.

بلاغة الكناية في قوله ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾:

الزَّجْرُ عَنِ التَّشَوُّفِ إِلَى مَتاعِ الدُّنْيا عَلَى الدَّوامِ

لمّا كان مدُّ العينين إلى الشّيء يكون بإدامة النّظر إليه، وإدامة النّظر إلى الشّيء تدلُّ على إرادتِه واستحسانِه والرّغبة فيه، عُبِّرَ عن هذا المعنى بقولِه: ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾ على طريق الكناية؛ ليفيد أنَّ المنهيَّ عنه هو طموح النّفس إلى الشّيء طموح راغبٍ فيه، ويُنتقل من هذا المعنى إلى لازمه وهو النّهي عن تمنّي ذلك، فيكون المعنى: لا تتمنينّ ما جعلنا من زينة هذه الدنيا متاعًا للأغنياء من قومك، الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر، يتمتعون فيها، فإنَّ مِنْ ورائهم عذابًا غليظًا[2].

فائدة التّوكيد في قولِه ﴿لَا تَمُدَّنَّ﴾:

مدّ العينين إلى سراب الدّنيا الخلّب مدخل للفتنة والضّلالة

أفادت النّون الثّقيلة تأكيد النّهي وتقريرَه، بمعنى النّهي عن أيِّ

(1) الآلوسي، روح المعاني: 7/322، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 8/4112.

(2) ابن جرير، جامع البيان: 17/141، والواحدي، التفسير البسيط: 12/656، والزمخشري، الكشاف: 2/588، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 11/197.

مدٍّ للعينين إلى الزّخارف التي متّع الله بها الكفّار، وترك القرآن الّذي بين أيدينا.

نكتة التّعبير بالعينين دون أن يقول عينك:

عبِّرَ بالعينين بصيغة المثنّى؛ للإشارة إلى أن ما متعهم به يستحقُّ أن يأخُذَ العينين لكثرتِه وتنوّعه، وفيه إشعارٌ بأنَّ ما متّعهم به فيه يشبع النَّظر إلى زهرة الدنيا وزينتها، ولما أُمِرَ ﷺ بغضّ بصره عما يتمتّع به الكفار في الدنيا تأدّب ﷺ فلم ينظر ليلة المعراج إلى شيء مما رأى في الآخرة، فأثنى عليه الحقّ بقوله: ﴿مَا زَاغَ ٱلۡبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ١٧﴾ [النجم: 17][1].

التّعبير بصيغة المثنّى، للإشعار بأنّه يشبع العينين لكثرتِه وتنوّعه

براعة التّعبير بـ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيۡنَيۡكَ﴾ دون (لا تنظر):

قوله تعالى: ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيۡنَيۡكَ﴾ أبلغُ من (ولا تنظر)، لأنَّ الذي يمدُّ بصره إنّما يحمله على ذلك حرصٌ مقترن بالمدِّ ورغبةٌ فيه وتمنٍّ لحصولِه، والذي ينظر قد لا يكون ذلك معه[2].

مدُّ العينين يدلّ على الحرص، وتمنّي حصول ما يُرى، والذي ينظر قد لا يرى أصلًا

توجيه المتشابه:

قال الله تعالى في سورة الحجر ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيۡنَيۡكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعۡنَا بِهِۦٓ أَزۡوَٰجٗا مِّنۡهُمۡ﴾، وقال في سورة طه: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيۡنَيۡكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعۡنَا بِهِۦٓ أَزۡوَٰجٗا مِّنۡهُمۡ زَهۡرَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا لِنَفۡتِنَهُمۡ فِيهِۚ﴾ [طه: 131]، فزاد في سورة طه: ﴿زَهۡرَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا لِنَفۡتِنَهُمۡ فِيهِۚ﴾ [طه: 131]، والسّبب هو أنَّه في سورة الحجر جاء النّهي عن مدِّ العينين إلى ما متّعهم الله به مطلقًا، فالسورة بنيت على الإيجاز كما تقدَّم، وأمّا ما في سورة طه فقد بيَّن أنَّ ما متّعهم به لأجلِ فتنتِهم ليقابل الأمر باستغراقِ الأوقاتِ بالتسبيح بحمد الله في قولِه: ﴿وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ قَبۡلَ طُلُوعِ ٱلشَّمۡسِ وَقَبۡلَ غُرُوبِهَاۖ وَمِنۡ ءَانَآيِٕ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡ وَأَطۡرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ

مناسبة كلّ آيةٍ لسياقِها وسباقِها، بحيث لا تحتمل الزّيادة ولا النّقصانَ

(1) القشيري، لطائف الإشارات: 2/280.
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/70.

﴿تَرۡضَىٰ ١٣٠﴾ [طه: 130]، فاستغراق أوقات الليل والنّهار بتسبيحك بحمد ربِّك يا رسولَ الله ﷺ لأجل الرّضى، وتمتّعهم بزهرة الحياة الدنيا باستغراق الأوقات فيها لأجل فتنتِهم، والمعنى الذي أُعطيتَه منَ التّسبيح للكرامة، وما أُعطوه فليس للكرامةِ بل للفتنة، وآية سورة الحجر جاءت من غيرِ واو العطف، والذي في سورة طه جاءت بالواو؛ لأنَّ آيةَ سورة الحجر لم يسبقها طلبٌ، وهي مترتّبةٌ على ما قبلها أو معترضة بين آيتين كما تقدَّم، وآية سورة طه سبقها طلبٌ بالتّسبيح، فاقتضى مجيء الوصلِ بالواو لتكون من عطف الطّلب على الطّلبِ[1].

دلالة استعمال حرف ﴿إِلَىٰ﴾ في السّياق:

لمّا كان حرف الجرِّ ﴿إِلَىٰ﴾ لانتهاء الغاية، أفاد أنّ تأثُّر العينين بالمتاع يكونُ حين يصل مدُّ نظرهما إلى المتاع وينتهي إليه، فحينئذٍ تستلذُّ العَينان بالمتاع وتتمنّاه النّفس.

وصول مدِّ النّظر إلى المتاع، لذَّةٌ للعينين فتتمنّاه النّفسُ

معنى ﴿مَا﴾ ودلالتها، في سياق الآية:

عبِّرَ بالاسم الموصول ﴿مَا﴾ لإفادة عموم المتاعِ؛ ليشمل كلَّ ما تستلّذه النّفس وتنتفع به من مالٍ، ومما يلْبسهُ النّاس، وما يرتفقون به من منزل وأثاثٍ ومركب، وغيرها من عُروض الدنيا قليلِها وكثيرِها.

متاع الدّنيا كلّ ملكها ولذّاتها، ممّا تمتدّ له العيون، وتتشوّف له النّفوس

فائدة صلة الموصول ﴿مَتَّعۡنَا بِهِۦٓ﴾ في السّياق:

أفاد التّعبير بصلة الموصول بيان أنَّ سبب النّهي عن مدِّ العينين إلى ما عندَ الكافرين هو أنَّ الذي عندهم متاعٌ زائلٌ لا بقاءَ له، وأنَّهم لانغماسِهم في لذّة المتاع انشغلوا به عن الإيمانِ والقرآن.

بلاغةُ ذكرِ التَّمتع دون الإنعام:

عبّر بـ ﴿مَتَّعۡنَا﴾ للإيذانِ بأنَّ ما آتاهم من زهرة الحياة الدنيا

ما عندَ الكافرين من المتاع، زائلٌ لا بقاء له

(1) النيسابوري، غرائب القرآن: 4/234.

انتفعوا به على سبيل التّوسُّع في الحياةِ، وظهرَ أثره بين النّاس لِما يومئُ به لفظ (متع) من معنى الارتفاع، وفي التعّبير إشعارٌ بحصولِ اللَّذَّةِ بما تمتّعوا به، وموافقته لهم تمام الموافقة فيرتاحون له؛ لأنَّ النظر إلى متاع الدّنيا كالمركوز في الطباع، وأنّ من أبصر منه شيئًا من زهرة الدنيا أحبَّ أن يمدّ إليه نظره ويملأ منه عينيه، ولمّا كان التمتّعُ بمعنى الانتفاع السريع الزوال القليل اللبثِ، وإن طال أمدُه في نظرِهم، عبِّرَ بـ﴿مَتَّعۡنَا﴾ للإشعارِ بقربِ زوالِه وأنَّه إنّما كان فتنةً لهم، ولهذا لم يقل: (لا تمدنَّ عينيك إلى ما أنعمنا به)؛ لأنَّ الإنعام هو عطيةُ اللّه تعالى على وجه الإحسانِ لا على وجهِ الامتحان، ويقتضي الإنعامُ الشّكرَ منَ المنعَم عليه للمنعِم، والنّعمة قد تبقى وقد تزول، كما أنَّ الإنعام يكون على جهة العطاء للانتفاعِ بالنّعمة وشكرِها لا على جهة التّوبيخِ والاستدراج كما في لفظ ﴿مَتَّعۡنَا﴾[1].

التّمتّع سريع الزّوال وهو فتنة، والإنعام عطيةُ الله على وجه الإحسانِ والامتنان

نكتةُ استعمال فعل متَّع بصيغة الماضي:

عبّرَ بصيغة الماضي للإيذانِ بتحقّق وقوع تمتّعهم بما عندهم من الأموالِ وغيرِها، وأنَّهم قد حصل لهم الغاية في التمتّع.

الإيذان بتحقُّق الوقوع، ممّا يستفاد من معنى

معنى الباء ودلالتها في قوله تعالى: ﴿مَتَّعۡنَا بِهِۦٓ﴾:

الباء هنا للإلصاق، بمعنى التصاق تمتّعهم بما عندهم منَ الأموال وأنواعِ الطّعام والملبس والمركبِ وغيرِها، فكأنَّهم لا يستطيعون الانفكاك عنه، وقد أشربت الباء معنى السببية، بمعنى: أنَّ تمتّعهم كان بسبب ما عندهم منَ الأموال وغيرِها، فيفيد المعنى أنَّ الذي عندهم كان سبب فتنتِهم.

الباء للإلصاق وفيها معنى السببيَّة

تعيينُ مرجع ضمير ﴿بِهِۦٓ﴾:

يعود الضّمير على الاسم الموصول ﴿مَا﴾ أي: لا تُمدنَّ

(1) أبو القاسم الكرماني، لباب التفاسير، ص: 1006، والعسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 197، ومقاييس اللغة، وابن فارس والراغب، المفردات: (متع) (نعم).

يعود على (ما) أي من الزّخارف

عينيكَ إلى الزخارف التي متعنا بها أصنافًا منَ الكفرة اليهود والنصارى والمشركين.

فائدة تقديم الجار والمجرور ﴿بِهِۦٓ﴾:

قُدِّم حرف الجرِّ ﴿بِهِۦٓ﴾ على المفعول به ﴿أَزۡوَٰجٗا﴾؛ للإشعارِ باهتمامِهم بالمتاعِ وعنايتِهم له وسرعة إقبالِهم عليه، كما أنَّه لو أُخِّرَ الجار والمجرور فقيل: (لا تمدّنَّ عينيك إلى ما متعنا أزواجًا به منهم) لضعف النظم وانخرمت بلاغته.

قدِّم (بِه) للإشعار باهتمامهم بالمتاع، وحتى لا يفصل بين النعت (أزواجًا) ومنعوته (مِنْهُم)

دلالة قولِه ﴿أَزۡوَٰجٗا﴾:

إن كان الأزواج بمعنى النّاس، فله وجهان، فإمّا أن يكون بمعناه المشهور، أي الكُفّارُ ونساؤُهم، ووَجْهُ تَخْصيصِهِم بالذِّكْرِ أنَّ حالَتَهُم أتَمُّ أحْوالِ التَّمَتُّعِ لِاسْتِكْمالِها جَميعَ اللَّذّاتِ والأُنْسِ، وإن كان بمعنى أصنافٍ منَ الكفّار، فهو على النَّظم الذي جرى به التنزيل؛ أي: لا تمدّنّ عينيك إلى ما متعنا به أصنافًا من سادةِ الكفر منَ اليهود والنّصارى والمشركين، ووَجْهُ ذِكْرِهِ في الآيَةِ أنَّ التَّمَتُّعَ الَّذي تَمتَدُّ إلَى مِثْلِهِ العَيْنُ لَيْسَ ثابِتًا لِجَميعِ الكُفّارِ بَلْ هوَ شَأْنُ كُبَرائِهِم، أيْ: فإنَّ فيهِم مَنْ هُم في حالِ خَصاصَةٍ فاعْتَبِرْ بِهِم كَيْفَ جُمِعَ لَهُمُ الكُفْرُ وشَظَفُ العَيْشِ، وإن كان الأزواج بمعنى أصناف الزّخارف، كان حالًا من هاء الضمير في ﴿بِهِۦٓ﴾ وتكون (مِنْ) للتبعيضِ، و﴿مِّنۡهُمۡ﴾ على موضع المفعول به للفعل ﴿مَتَّعۡنَا﴾، والمعنى لا تمدنَّ عينيك إلى أصناف الزخارف التي متعنا بها بعضًا من الكفرة كالملابس الفاخرة والمراكب الفائقة والروائح الطيبة، والكلام على التقديم والتأخير، كأنَّه قال: لا تمدَّنَّ عينيك إلى ما متّعنا منهم أزواجا[1].

الأزواج أي الكفّار ونساؤهم أو أصناف من الكفّار أو أصنافٌ من الزّخارف

(1) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 6/464، والطيبي، حاشية على الكشاف: 10/274، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/82.

فائدة تنكير ﴿أَزْوَاجًا﴾ في السّياق الكريم:

لمّا جاء الجمع المنكّر في سياق النّفي، أفاد العمومَ؛ ليشمل أسياد الكفرة كلَّهم، ويدخل فيه بعض أزواجِهم الذين كانوا في وقتِ التّنزيل دخولًا أوّليًّا، كما يفيد التنوُّع، إذا أُريد بالأزواج أصناف متماثلة في النِّعَم.

الإشارة إلى ضرورة احترام حرمات الآخرين، والغضّ عن خصوصياتهم

نكتة جمع ﴿أَزْوَاجًا﴾ في الآية:

الأَزْواجُ هُنا يُحْتَمَلُ أنْ يَكونَ عَلَى مَعْناهُ المَشْهورِ، أي: الكُفّارُ ونِساؤُهُم ووَجْهُ تَخْصيصِهِم بِالذِّكْرِ أنَّ حالَتَهُم أتَمُّ أحْوالِ التَّمَتُّعِ لِاسْتِكْمالِها جَميعَ اللَّذّاتِ والأُنْسِ كما تقدَّم[1]، ويحتمل أن يكون بمعنى رؤساء الكفّار، وجمعهم لأنَّه لمّا كان المتاع إذا كان قليلًا بأن كان لشخصٍ واحدٍ قد تتصاغره الأعين ولا تمتدُّ إليه تشوّفًا ورغبةً فيه عبّر بصيغة الجمع لأنَّ زخارفَ أصناف الكّفار ورؤسائِهم إذا اجتمعت عظمت وتنوّعت، ففيه إشعار بأنَّ النّهي عن مدِّ العينين إلى المتاعِ مقطوعٌ به وإن عظم وكثرت أنواعه.

النّهي عن مدِّ العينين إلى المتاعِ مقطوعٌ به وإن عظم وكثرت أنواعه

معنى (مِنْ) ودلالتها في قوله ﴿مِّنْهُمْ﴾:

الظّاهر أنَّ (مِنْ) بيان للأزواجِ، إذا كان الأزواج بمعنى الأصناف من النّاس والمعنى أزواجًا من الكفّار من اليهود والنّصارى والمشركين، وتحتمل أن تكون للتبعيض إذا كان الأزواج بمعنى أصناف الزّخارف، والمعنى لا تمدّن عينيك إلى أصناف الزّخارف التي متّعنا بها بعضًا من الكفرة.

بيان للأزواج الكفار أو بعض أصناف الزَّخارف

براعة تقييد الإسناد بقوله ﴿إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا﴾:

لمّا كان النّهي عن مد العينين يحتمل أسبابًا عدّةً قيَّد النّهي بقوله ﴿إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا﴾ للإيذانِ بأنَّهم ظنّوا أنَّهم إنَّما مُتِّعوا في هذه الدنيا؛

النّظر إلى متاعِ الدّنيا للاعتبار ممدوحٌ، وللانشغال به عن القرآن مذمومٌ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/82.

لخطرِهم وقدرِهم عند اللّه؛ فنهاه أن ينظر إلى ذلك بعين الذين نظروا هم إليه؛ فخرج من مفهوم القيد النّظرُ للاعتبار[1].

فائدة إسناد الفعل إلى ضمير العظمة في قولِه ﴿مَتَّعْنَا﴾:

أفاد إسناد الفعل إلى ضمير العظمة أنَّ ما متّعهم به كثير وكبير وأنَّه بعلمِ اللّه تعالى، ففيه معنى الاستدراجِ.

التّمتيع استدراج قد يكون سببًا في الهلكة

بلاغة التّعبير في قولِه ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾، بين الكناية والتّصريح:

يحتمل أن يكون النهي عن الحزن عليهم بما يصيرون إليه من العذاب بكفرِهم كناية عن النّهي عن الإشفاق عليهم، وبعدم الاكتراث بهم، وتركهم وما هم فيه من الإصرار والعناد، وهو كالنَّهي عن إذهاب النفس عليهم حسرات، ويفيد بلازمه الأمر بالإغلاظ عليهم؛ وعُبِّرَ بالنّهي عنِ الحزن دون النّهي عن الإشفاق ليفيد التَّسلي والتّخفيف عليه ﷺ بدفع الحزن عن نفسه؛ لأنه كان يحزن لكفرهم باللّه وتركهم الإيمان؛ حتى كادت نفسه تتلف لذلك؛ كقوله: ﴿لَعَلَّكَ بَخِعٌ نَّفْسَكَ﴾ [الشعراء: 3] الآية، وقوله: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ﴾ [فاطر: 8] الآية، وفي التّعبير كناية أيضًا عَنْ تَوَعُّدِهم بأنْ سَيَحِلُّ بِهِم ما يُثيرُ الحُزْنَ لَهُم، وكِنايَةٌ عَنْ رَحْمَةِ الرَّسولِ ﷺ بِالنّاسِ، ويحتمل أن يكون النّهي على مقتضى الظّاهر، لأنه ﷺ كان يحزن عليهم، ويضيق صدره؛ لما مكروا به وكادوه، والمعنى لا تحزن على كيدِهم ومكرِهم لك، فإنّي سأجزيهم عليه.

تسلية الله لرسوله وللمؤمنين بنهيهم عن الحزن على كفرِ الكافرين

نكتةُ مجيء الفعل ﴿تَحْزَنْ﴾ بصيغة المضارع:

عبّر بصيغة المضارع للإيذانِ بالنّهي عن الحزن، وعن تجدّد النّهي واستمرارِه وإن استمرَّ الكفرُ، وفيه إشعارٌ بأنَّ كفرَ الكافرين وكيدَهم مستمرٌّ لا ينقطع.

تجدُّد النَّهي واستمراره

(1) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 6/463.

نكتة ذكر متعلَّق الفعل في قولِه ﴿وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ﴾:

النَّهي شامِلٌ لِكُلِّ ما يُحْزِنُ الرَّسولَ ﷺ ويُؤْسِفُهُ

ذكر متعلَّق الفعل؛ للإيذانِ بأنَّ المنهيَّ عنه ليس مطلقَ الحزن بل الحزن عليهم، فيكون القيد مقصودًا في النّهي، ولمّا قيَّده بـ (عَلَى) ولم يذكر ما يكون لأجلِه الحزنُ أفادَ أنَّ النَّهْيَ عَن الحزن عَلَيْهِم شامِلٌ لِكُلِّ حالٍ مِنْ أحْوالِهِم التي مِنْ شَأْنِها أنْ تُحْزِنَ الرَّسولَ ﷺ وتُؤْسِفَهُ، فمن ذلك كفرهم وحُلولُ العَذابِ بِهِم مِثْلَ ما حَلَّ بِهِم يَوْمَ بَدْرٍ فإنَّهُم سادَةُ أهْلِ مَكَّة[1].

دلالة حرف الجرِّ (عَلَى):

النّهي عن الحزن على الكافرين، لِعظمِ كيدِهم ومكرِهم

يحتمل أن يكون (عَلَى) بمعناه، ليفيد النّهي عن الحزن عليهم بسبب كفرِهم باللّه؛ لأنَّه ﷺ كان يرغبُ في إيمانِهم، والمعنى: لا تحزن عليهم أنَّهم لم يؤمنوا أو لأنَّهم لم يؤمنوا، ويحتمل أن يكون (عَلَى) مضمّنًا معنى السّببيَّة، والمعنى: لا تحزن على مكرِهم وكيدِهم لك، أي: بسبب مكرِهم، وعُبِّرَ بحرف الاستعلاء للإشعار بعظم ما يصيبُه ﷺ من الحزنِ بسبب كيدِهم ومكرِهم بحيث لو أصابَ غيرَه لتمكّن منه الحزنُ، وحذف المضاف (مكرهم) للإشعار بأنَّ ذواتهم كلّها صارت مكرًا وكيدًا له ﷺ[2].

بلاغة الوصل بالواو في قولِه ﴿وَلَا تَحۡزَنۡ﴾:

المؤمن لا يلتفت إلى أموالِ رؤساء الكفرِ، وليس لهم في قلبِه قدرٌ ولا وزنٌ

لمّا جمع بين النّهيين بالواو دلَّ على مناسبة في المعنى، ليفيد قَوْلُه: ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيۡنَيۡكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعۡنَا بِهِۦٓ أَزۡوَٰجٗا مِّنۡهُمۡ﴾ النَّهْيَ عَنِ الالتِفاتِ إلَى أموالِهِم، وقَوْلُه: ﴿وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ﴾ النَّهْيَ عَنِ الالتِفاتِ إلَيْهِم وأنْ يَحْصُلَ لَهُم في قَلْبِهِ قَدْرٌ ووَزْنٌ[3].

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/82.

(2) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 6/465، وابن الجوزي، زاد المسير: 2/543، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 3/217.

(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 19/161، والآلوسي، روح المعاني: 7/323.

بلاغة الوصل بالواو، في قوله ﴿وَٱخۡفِضۡ﴾:

المؤمن مأمورٌ بالتّواضُعِ لإخوانِه، وخفْضِ جناحه لهم

لَمّا نَهى اللّه تعالى رسولَه ﷺ عَنِ الالتِفاتِ إلَى الأغْنياءِ مِنَ الكُفّارِ أمَرَهُ بِالتَّواضُعِ لِفُقَراءِ المُسْلِمينَ، ليجمع بين الإعراض عنِ الكافرين وزينتِهم والإقبال على المؤمنين والرّفق بهم، ففيه تتميم للمعاني بطريق المقابلة، وكأنّه يقول له بدلًا منَ الحزن على الكافرين لأنَّهم لم يؤمنوا أقبلْ على مَن آمن واخفض جناحك لهم وقرِّبهم إليك وطب نفسًا بإيمانِهم من إيمانِ الأغنياء من قريشٍ، أي: إذا كان هناك مَن يستحق العناية والاهتمام فهم المؤمنون، ونَظيرُهُ قَوْلُهُ تَعالَى: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة: 54] وقالَ في صِفَةِ أصْحابِ رَسولِ اللّه ﷺ: ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ﴾ [الفتح: 29]، أو يقال جاءت الجملة بطريق الوصل لتكون على الاحتراس، وبيانه أنَّه لمّا كان النّهي عنِ الحزن عليهم مفيدًا بلازمِه الإغلاظ عليهم كما تقدّم وأعقبه قولُه تعالى: ﴿وَقُلۡ إِنِّيٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلۡمُبِينُ﴾ ناسب مجيء جملة ﴿وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ كالاعتراضِ للأمرِ بِالرِّفْقِ لِلْمُؤْمِنينَ؛ ليفيد أنَّ معاملة المؤمنين تختلف عن معاملة الكافرين[1].

بلاغة الاستعارة التّمثيليّة في السّياق البليغ:

تعظيمُ من آمنَ لإيمانِه، وتصغيرُ ما عندَ الكافرين لكفرِهم

قوله: ﴿وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾، وفيه أنّ أصلَ هذه الكلمة أنَّ الطّائر إذا ضمَّ فرخَه إلى نفسِه بسطَ جناحَه له، ثمَّ خفضَه على الفرخ، للمبالغة في الحنوِّ والحيطة والحفظ والصيانة، وكذلك يفعل إذا أرادَ أنْ ينحطّ للوقوع، فيخفض جَناحَهُ للدُّنوِّ؛ لأنَّ الطائر إذا كفَّ عن الطيران خفض جناحيه، وكَذَلِكَ يَصْنَعُ إذا لاعَبَ أُنْثاهُ فهوَ راكِنٌ إلَى المُسالَمَةِ والرِّفْقِ، فخفض الجناح استعارة تمثيليَّةٌ للرّفق والحنوِّ والتَّواضعِ واللين والإرفاق والتلطّف بالمؤمنين[2].

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 19/161، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/83.

(2) أبو حفص النسفي، التيسير في التفسير: 9/221، وابن عطية، المحرر الوجيز: 3/374، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 3/217، وأبو حيان، البحر المحيط: 10/57، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/83.

بلاغة الاستعارة في خفض الجناح، بين المكنيَّة والتّصريحية:

تحتمل الاستعارة التمثيلية أن تكون مكنيَّةً؛ إذ صيغَ التَّعْبيرُ عَنِ الرّفق والتّواضعِ بِتَصْويرِهِ في هَيْئَةِ مدِّ جناحِ الطّائر إذا ضمَّ فرخَه إلى نفسِه[1]، كما تحتمل أن تكون تصريحية تبعية؛ إذ شُبِّهَ التّواضع ولين الأطراف والجوانب عند مصاحبة المؤمنين بخفض الطائر جناحه عند الدنوِّ من صغارِه أو عند إرادة الانحطاط، فأطلق على المشبَّه اسم الخفض بطريق الاستعارة التصريحية، فاشتق منه اخفض بمعنى: ألِن على طريقة التبعية، وفائدة الاستعارة على الوجهين تصوير حالةِ التّواضع على معنى الحنوّ والدنوّ واللّين، والاستدلالُ على وجوب الامتثال له بدخولِ المشبَّه في جنسِ المشبَّه به[2].

التعبير عن الرفق والتواضع بهذه الصّورة في المكنيَّة، وتشبيه التواضع واللين بخفض الطائر جناحه لصغاره في التّصريحيَّة

توجيه معنى التّخييل، في قولِه ﴿جَنَاحَكَ﴾:

لمّا أثبت الجَناحَ الذي هو لازم المشبَّه به وهو الطّير كانت الاستعارة تخييليَّة، ويكون ذكر الجناحِ تخييلًا؛ لأن الجناحَ لمّا نقل من المشبه به إلى المشبه صار السّامع يخيل إليه أن المشبَّه من جنس المشبه به، للمبالغة في الأمر بالرّفق والتلطّف بالمؤمنين.

المبالغة في الأمر بالرّفق والتلطّف بالمؤمنين

معنى اللّام ودلالتها في قوله تعالى: ﴿لِلْمُؤْمِنِينَ﴾:

تفيد اللام الاختصاص، بمعنى أن يكون خفض الجناح مختصًّا بالمؤمنين دون سواهم.

التّواضع للمؤمنين حصرًا

توجيه تخصيص الحكم بالمؤمنين:

لمّا جعل الحكم متعلَّقًا بالمؤمنين وكان اللفظ مشتقًّا أفاد تعليق الحكم بالمشتقِّ الدلالةَ على علّيَّة المأخذ، بمعنى أنَّ إيمانَ المؤمنين بالله تعالى وبك يا رسول الله ﷺ هو سبب الأمرِ بخفض الجناح

إيمان المؤمن سببٌ للينِ الجانب، وحنوّ القلب على إخوتِه المؤمنين

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/83.
(2) الهرري، حدائق الروح والريحان: 20/368.

لهم، وخصَّ الحكم بهم دون أن يكون للمسلمين مثلًا للإشعار بالعلاقة بين الإيمان بالقلب ولين الجانب.

فائدة حذف متعلَّق قوله ﴿لِلْمُؤْمِنِينَ﴾:

يحتمل أن يكون حذف متعلَّق اسم الفاعل لقصدِ لزوم وصف الإيمانِ، بمعنى الذين صار الإيمان وصفًا لازمًا لهم، كما يحتمل أن يكون الحذف لقصد العموم، والمعنى المؤمنين بِكَ وبما أَتَيْت بِهِ وهو القرآن العظيم، لذكره في سياقِه[1].

لزومهم وصف الإيمان، أو عموم الإيمان بك وبكلّ ما أتيت به

توجيه المتشابه اللفظي:

أوّلًا: قال الله تعالى: ﴿وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾، وفي سورة الشعراء: ﴿وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٢١٥﴾ [الشعراء: 215]، فزيد في الشعراء قوله: ﴿لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ﴾ [الشعراء: 215]، وتوجيهه أنَّه لما لم يتقدم آية الحجر تخصيص بمدعو بل تقدمها خطابه، ﷺ، بالتأنيس والتسلية عمن أعرض والرفق بمن آمن فقال تعالى: ﴿وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾، لم يحتج هنا إلى زيادة، ولما تقدم آية الشعراء قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ ٢١٤﴾ [الشعراء: 214]، والإنذار يستصحب التخويف والاستعلاء على من يخاطب به، أتبع ذلك تعالى تلطفًا وإنعامًا على من آمن من عشيرته وغيره بقوله: ﴿وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٢١٥﴾ [الشعراء: 215]، فلو لم يذكر هذه الزيادة لكان الظاهر أنَّ اللّام في ﴿لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ للعهد، فصار الأمر بخفض الجناح مختصًّا بالأقربين من عشيرته، فزيد ﴿لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ﴾ [الشعراء: 215] ليعلم أنَّ هذا التشريف والإنعام بالتلطف والرّفقِ شامل لجميع متّبعيه منَ الأمة[2].

التّشريف والإنعام بتلطّف سيّد الأنام، شاملٌ لجميع الأمة، لا بالعلية فقط

ثانيًا: الذُّل في قوله تعالى: ﴿وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ﴾

(1) الزجاج، معاني القرآن وإعرابه: 3/186.

(2) الغرناطي، ملاك التأويل: 2/292 - 293، والنيسابوري، غرائب القرآن: 4/234.

[الإسراء: 24]، إشعارٌ بعظم حق الوالدين وتأكيدٌ له، وتنزيهٌ له ﷻ منَ الذّلِّ، كما أنَّ خفض الجناح بمعنى التّواضع والرّفق في المعاملة، وخفض جناح الذّلِ بمعنى التّواضع والرّفق في المعاملة مع الذّلَّةِ للوالدين.

﴿وَقُلْ إِنِّيٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ ٨٩﴾ [الحجر: 89]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

علاقة الأمر بترك زخرف الدّنيا، وخفض الجناح للمؤمنين، بإعلانه أنّه هو النّذير المبين

لمّا أمر اللّه تعالى رسولَه بمتاركةِ الكافرين، وبعدم الاكتراث بهم، قد يتوهّم متوهّم منهم أنَّهم في حلٍّ منَ الإيمانِ أو أنَّ رسول اللّه ﷺ لم ينذرهم ولم يحذّرهم من عذاب اللّه فجاءت هذه الآية.

وأيضًا لَمّا أمَرَ اللّه تعالى رسولَه ﷺ بألّا يَحْزَنَ عَلَى الكافرين لعدم إيمانهم، وأمَرَهُ بِخَفْضِ جَناحِهِ لِلْمُؤْمِنينَ، أمَرَهُ أنْ يُعْلِمَ الكافرين وغيرَهم أنَّهُ هوَ النَّذيرُ المُبينُ؛ لِئَلّا يَظُنَّ المُؤْمِنونَ أنَّهُم لَمّا أُمِرَ ﷺ بِخَفْضِ جَناحِهِ لَهُم خَرَجوا مِنْ عُهْدَةِ النِّذارَةِ، فأمَرَهُ تَعالَى بأنْ يَقولَ: ﴿إِنِّيٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ﴾ أي: لَكُم ولِغَيرِكُم[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلنَّذِيرُ﴾: أصْلُ (نذر): يَدُلُّ على تَخْويفٍ أو تَخَوُّفٍ، ومنه الإنْذارُ: الإبلاغُ؛ ولا يَكادُ يَكونُ إلّا في التَّخويفِ[2]، والنَّذيرُ: المُنْذِرُ، والجَمعُ: النُّذُرُ، والتَّناذُرُ: إنْذارُ بَعْضِهم بَعْضًا[3]، ومِنْهُ النَّذْرُ، وهوَ أنَّهُ يَخافُ إذا أخْلَفَ، والنَّذْرُ أيْضًا: ما يَجِبُ، كَأنَّهُ نُذِرَ، أيْ أوجِبَ[4]، والمراد بالنَّذيرِ في الآية: المُحَذِّرُ مِنْ شَيءٍ يَضُرُّ.

المَعْنى الإجْماليُّ:

مهمّة الرّسول ﷺ تبليغ الرّسالة، والإنذار بعقاب الكفر والعصيان

بيَّن اللّه ﷻ في الآية وظيفة الرَّسول ﷺ، فقال: وقُلْ يا محمَّدُ ﷺ

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 6/497.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نذر).
(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن عباد، المحيط في اللّغة: (نذر).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نذر).

للمُشرِكينَ: إنّي أنا النَّذيرُ الذي قد أبان إنذارَه، وأظهَرَ الحَقَّ لكم، أُنذِرُكم عذابَ اللّهِ إن لم تُؤمِنوا به[1].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

مناسبة الوصل بالواو في الآية الكريمة:

المبلّغ عن الله منذر مبين، ومتواضع للمؤمنين

قوله تعالى: ﴿وَقُلۡ إِنِّيٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلۡمُبِينُ﴾، وفيه يُحتمل أن تكون الجملة معطوفة على قولِه ﴿وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ﴾، فالمَقولُ لَهُم هَذا القَوْلَ هُمُ المُتَحَدَّثُ عَنْهُم بِالضَّمائِرِ السّابِقَةِ في قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿مِّنۡهُمۡ﴾ وقَوْلِهِ: ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾ فالتَّقْديرُ: وقُلْ لَهُم، وتكون جملة ﴿وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ اعتراضيَّة، ويأتي فيها القول بأنَّها للاحتراس كما تقدَّم[2]، ويحتمل أن تكون الجملة معطوفةً على ﴿وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾[3]، أي: تواضع للمؤمنين وقل للكافرين: إني أنا النذير المبين، فيكون مجيء جملة ﴿وَٱخۡفِضۡ﴾ تتميمًا لِلمعنى.

غرضُ الأمرِ في قوله تعالى: ﴿وَقُلۡ﴾:

تهديد الكافرين وتحذيرُهم بلفظ (قُلْ)

الأمر هنا على معنى الإرشاد وليس على معنى وجوب الامتثال، وفائدته تهديد الكافرين بهذا القول.

فائدة حذف متعلَّق ﴿وَقُلۡ﴾:

نذارة رسول الله ليست مقصورةً على مشركي مكّة، بل هي وصف ثابتٌ له

لمّا كان التّقدير (قل لهم) أي للكافرين، كان حذف الجار والمجرور لإفادة عموم المقول لهم، أي قل لهم ولغيرِهم[4]، بمعنى أنَّ كونه ﷺ نذيرًا مبينًا ليس مقصورًا عليهم، بل هو وصف ثابتٌ له ﷺ، ويدخل فيه الكافرون المذكورون في السياق دخولًا أوّليًّا.

(1) ابن جرير، جامع البيان: 14/128، والواحديّ، الوجيز، ص: 598، والسمعاني، تفسير القرآن: 3/152.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/83.
(3) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 11/198.
(4) أبو حيان، البحر المحيط: 6/497.

غرضُ التّوكيد في قوله تعالى: ﴿إِنِّيٓ أَنَا﴾ في السّياق:

ذكر وصف النّذارةِ دون البشارة لمناسبةِ المقام

أُكِّدَت الجملة بـ (إنَّ) و﴿أَنَا﴾ وبكونها جملة اسميَّةً لكمال العنايةِ بمضمون المعنى، ولأنَّ المخاطبين المقول لهم هذا القول منكرون لكونِ سيِّدنا محمدٍ ﷺ رسولَ الله أشدَّ الإنكار، وللإشارة إلى رجحان وصفِ النّذارة على وصفِ التّبشير في تحذير المنكرين المكذّبين[1].

فائدةُ استعمال ضمير الفصل ﴿أَنَا﴾:

الفصل بين النعت والخبر، وتأكيد المسند إليه

أفاد ضمير الفصل تأكيد المسند إليه وتقريرَه، بمعنى أنا وليس غيري النّذير المبين كما أفاد أن قولَه ﴿ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ﴾ خبرٌ وليس صفةً لضمير المتكلِّم في ﴿إِنِّيٓ﴾

بلاغةُ القصر ونوعه في السّياق الكريم:

قصر على أنّ (أل) في النذير للجنس، ويمكن أن يكون إضافيًّا أو قصر قلب

قوله تعالى: ﴿إِنِّيٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ﴾، تحتمل الجملة أن تكون على القصر إن كانت (أل) في ﴿ٱلنَّذِيرُ﴾ للجنس، فيكون القصر إضافيًّا، لأنَّهم لمّا كذّبوا رسول الله ﷺ وصفوه بأنَّه شاعر أو ساحرٌ، ليكون قصرَ قلبٍ أي لستُ شاعرًا ولا ساحرًا كما تزعمون فإنّي نَذيرٌ مُبينٌ[2]، أو يكون المعنى على قصر القلب كذلك، والمعنى: لست كَما تَحْسَبونَ أنَّكُم تَغيظونَني بِعَدَمِ إيمانِكُم فإنّي نَذيرٌ مُبينٌ غَيْرُ مُتَقايِضٍ مَعَكُم لِتَحْصيلِ إيمانِكُم، وإن كانت (أل) في ﴿ٱلنَّذِيرُ﴾ للعهد بمعنى إني أنا النذّير الذي عهدتّموني بسبب تكرّر إنذارِه لهم من قبلُ فلا قصر في الجملة، لتفيد الجملةُ تقريرَ ما يضمرونه ولا يتكلَّمون به عنادًا منهم وتكذيبًا[3].

بلاغةُ اجتماع وصفي ﴿ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ﴾:

رسول الله ﷺ منذرٌ بلسان المقالِ وبلسان الحالِ

لمّا كان رسول الله ﷺ أبين من سائر الأنبياء؛ لكونِه منذرًا بلسانِ

(1) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 11/198.
(2) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 11/198.
(3) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 11/198، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/83.

الحالِ؛ لكونِ وجودِه ﷺ من أشراطِ السّاعة، كما أنَّه منذرٌ بلسانِ المقالِ جمع بين الوصفين في الآية[1].

نكتةُ ذكرِ ﴿ٱلنَّذِيرُ﴾ دون (البشير):

لمّا كان الكلام مقولًا للكفرة المكذّبين، وكان على وجهِ الوعيد والتّهديد ناسب الاكتفاء بوصف النّذارة وعدم التّعرّض لوصف البشارة؛ إذِ النِّذارَةُ هيَ الإعْلامُ بِحَدَثٍ فيهِ ضُرٌّ وفيه إشعارٌ بأنَّ بعضَ المكذّبين مَنْ لا ينفعهم سوى التّخويف والتّهديد.

بعض النّاس لا ينفع معه سوى التّخويفِ والتّهديد، ولا يجدي وعظه

نكتةُ بناء صفة ﴿ٱلنَّذِيرُ﴾ على وزن فعيل:

أفاد مجيء اللفظ بصيغة فعيل التي هي بمعنى مفعِل أنَّه ﷺ منذِرٌ، ونكتة التّعبير بصيغة فعيل الإيذانُ بأنَّ النّذارة وصف ثابتٌ لرسول الله ﷺ.

النّذارةُ وصف ثابتٌ لرسول الله ﷺ

نكتةُ مجيء ﴿ٱلْمُبِينُ﴾ خبرًا ثانيًا:

لمّا جاء لفظ ﴿ٱلْمُبِينُ﴾ خبرًا ثانيًا لـ﴿إِنِّي﴾، أفاد الإخبار عن رسول الله ﷺ بوصفين ﴿ٱلنَّذِيرُ﴾ و﴿ٱلْمُبِينُ﴾، فيكون الخبر الثّاني على معنى العموم؛ ليدلَّ على أنَّه ﷺ مبينٌ في كلامِه، وفي ما يدعوهم إليه، ومبين الرشدَ من الغيِّ، فهو الآتي بجميع البيِّنات الوافية، ومبينٌ لجميع التّكاليفِ[2]، ولمّا جاء الخبر مقترنًا بالنّذير دلَّ على خَصوصيَّة إبانتِه في نذارتِه لهم، أي: أنذركم ببيان وبرهان أنَّ عذاب الله نازل بكم إن لم تؤمنوا، ففي مجيء ﴿ٱلْمُبِينُ﴾ خبرًا ثانيًا مقترنًا بـ﴿ٱلنَّذِيرُ﴾ تحريضٌ على الاجتهاد في التحذير.

رسول الله ﷺ هو الآتي بالبيِّنات، والمبين للتّكاليفِ

نكتة مجيء ﴿ٱلْمُبِينُ﴾، بصيغة اسم الفاعل:

لمّا جاء الوصف بصيغة اسم الفاعل دلَّ على أنَّ رسول الله ﷺ

النّذارة لإقامة الحجّة، فلا برهانَ للمكذّبين والكافرين

(1) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 11/198.

(2) ابن عادل، اللباب: 11/490.

قد قام بفعل الإبانة في دعوتِه وفي نذارتِه وأنَّه متّصفٌ بها اتّصافًا ثابتًا، ليفيدَ قيامَ الحجّة عليهم، فلا برهانَ لهم في الكفرِ والتّكذيب.

بلاغة الكناية في سياق الآية:

الإنـذار تخويف ووعيد

قولُه تعالى: ﴿وَقُلۡ إِنِّيٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلۡمُبِينُ﴾، وفيه أنّه لمّا جاء الكلام في سياق النّهي عن الالتفات إلى ما متّع اللّه به الكافرين والنّهي عن الاكتراث بهم جاءت هذه الآية لتأكيد الأمر بالتّرقي، ليفيد الكلام بطريق الكناية الأمر بمتاركتِهم[1]، فيكون التّرقّي بالأمر بالمتاركةِ أشدَّ عليهم من عدم الاهتمام بهم، وفي المتاركةِ تخويف لهم ووعيد شديد.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/83.

﴿كَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَى ٱلۡمُقۡتَسِمِينَ ٩٠﴾ [الحجر: 90]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الرّبط بين النّذارة النّبويّة، وبين حال المقتسمين من أهل الكتاب

جاءت الآية على طريقة التَخَلُّصِ مِنْ تَسْلِيَةِ النَّبيِّ ﷺ إلَى وعيدِ المُشْرِكينَ الطّاعِنينَ في القُرْآنِ بأنَّهُم سَيُحاسَبونَ عَلَى مَطاعِنِهِم[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلۡمُقۡتَسِمِينَ﴾: أصلُ (قسم): يَدُلُّ على تَجْزِئَةِ شَيْءٍ[2]، القَسْمُ: مَصْدَرُ قَسَمتُ كذا قَسْمًا وقِسْمَةً، وقِسْمَةُ الميراث، وقِسْمَةُ الغنيمة: تفريقهما على أربابهما، والنَّصيبُ قِسْمٌ بِكَسْرِ القافِ، فأمّا اليَمينُ فالقَسَمُ، وهيَ الأيْمانُ تُقْسَمُ على أوْلياءِ المَقْتولِ إذا ادَّعَوْا دَمَ مَقْتولِهِم على ناسٍ اتَّهَموهُم به[3]، ويُقال: فلانٌ مُقْسِمُ الوجه، وقَسيمُ الوجه، أي: صبيحه، والقَسامَةُ: الحُسن، وأصله من القِسمة، كأنَّما آتى كلّ موضع نصيبه من الحُسن فلم يتفاوت[4]، والمقصود بالمُقْتَسِمينَ في الآية: افْتِعالٌ مِنْ قَسَّمَ إذا جَعَلَ شَيْئًا أقسامًا، وصيغَةُ الافتِعالِ هنا تَقْتَضي تَكَلُّفَ الفِعْلِ، والمُقْتَسِمونَ يُرادُ بِهِم جَمعٌ مِنَ المُشْرِكينَ من قُريشٍ[5].

المَعْنى الإجْماليُّ:

العذاب مُقرَّر على المقتسمين لكتاب الله

بيَّن اللّه ﷻ تلقي المشركين للقرآن العظيم، فقال: وأنذِرْ قومَك عذابًا مثلَ العذابِ الَّذي نزلَ على الَّذين اقْتَسَموا القرآنَ[6].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/84.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قسم).
(3) الأزهري، تهذيب اللغة، والراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (قسم).
(4) الراغب، المفردات: (قسم).
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/85.
(6) ابن جرير، جامع البيان: 14/128، والواحديّ، الوجيز، ص: 598، وابن عطيّة، المحرر الوجيز: 3/374.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

نكتةُ التّشبيه بالكافِ، في سياق الآية الكريمة:

التّصوير بالبيان والمعاني، إثراء للدّلالات المخبوءة في السّياقات

عبّرَ بأداة التّشبيه الكافِ دونَ غيرِها للإشعار بأنَّ المشبَّه مخبرٌ عنه بلحوقه بغيرِه، أي: بالمشبَّه به، وللتّنبيه على توافق الصّفات، أي: تشبيه صفة إنزال الكتاب على رسول الله ﷺ بصفة إنزال الكتاب على رسلِ المقتسمين من أهل الكتاب، أو على جهة تشبيه صفة الإنذار بالعذاب بصفة إنذار الذي أنزلنا على المقتسمين.

بلاغة التّشبيه في الآية:

ذمُّ اقتسام القرآن بالإيمانِ ببعضِه والكفرِ ببعضِه وتهويلُ أمر الطّعن فيه

يحتمل أن يكون المشبَّه هو الإيتاءَ المَأْخوذَ مِنْ فِعْلِ ﴿ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي﴾، لأنَّ الإيتاء بمعنى الإنزالِ، والتقدير: آتيناكَ إيتاءً كالَّذي أنْزَلْنا أوْ كَإنْزالِنا عَلَى المُقْتَسِمينَ، والمعنى ولقد آتيناك ونزلنا عليك القرآن مثل ما أنزلنا على أهل الكتاب وهم المقتسمون الذين جعلوا القرآن عضين، ويكون قوله تعالى: ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ اعتراضًا بما هوَ مَدَدٌ لِمَعْنَى التَّسْلِيَةِ مِنَ النَّهْيِ عَنِ الالتِفاتِ إلَى دُنْياهُم والتَّأسُّفِ عَلَى كُفْرِهِم، ومِنَ الأمرِ بأنْ يُقْبِلَ بِمَجامِعِهِ عَلَى المُؤْمِنينَ، ويَجوزُ أنْ يَكونَ المُشَبَّهُ الإنْذارَ المَأْخوذَ مِنْ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿إِنِّيٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ﴾ أي: أنذركم إنذارًا كإنذار الذي أنزلنا على المقتسمين الذين جعلوا القرآن عضين، ليفيد شدَّة الإنذار على المقتسمين من مشركي مكّة وغيرِهم، أو أنذركم عذابًا كالعذاب الذي أنزل على المقتسمين[1].

دلالة (ما) في سياق الآية الكريمة:

توصيف حال المقتسمين الّذين جعلوا القرآن عضين، وعواقب ذلك

تحتمل (ما) أن تكون اسمًا موصولًا وهو الظّاهر، وعبّر بـ (ما) دون الذي للإشارة إلى تهويل ما أنزل الله على المقتسمين الذين

(1) الزمخشري، الكشاف: 2/589، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 3/217، وأبو حيان، البحر المحيط: 6/459.

جعلوا القرآن عضين، كما تحتمل (ما) أن تكون مصدريَّة والتّقدير: كإنزالِنا على المقتسمين.

سببُ ذكرِ الإنزالِ دون الإنذار، في سياق الآية:

تعظيم إنذار الكافرين وتهويله

قوله تعالى: ﴿كَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَى ٱلۡمُقۡتَسِمِينَ﴾، على القولِ بأنَّ المشبَّه هو الإنذار يكون سبب ذكرِ الإنزال دون الإنذار لتعظيم الإنذار بذكر تنزيلِه عليهم على معنى تمكّنه منهم وإحاطته لهم؛ لأنَّ الإنزال لا يكون إلّا من علوٍّ، وأكَّد هذا التمكّن تعدية الفعل بـ﴿عَلَى﴾.

نكتةُ بناء الفعل للفاعل الّذي هو ضميرُ العظمة:

تعظيم شأنِ المنزَّل لعظمة المنزِّل

عُبِّرَ بصيغة الفعل المبني للفاعل للإيذانِ بأنَّ المنزِّل هو الله تعالى، للبيان والإيضاح، وهو مناسب لما وصف الله تعالى به رسوله الكريم في الآية التي سبقت في وصفِه بالإبانة في النذارة، ولمّا أسند الفعل إلى ضمير العظمة دلَّ على أنَّ مثل هذا الإنزال لا يكون إلا من الملك الواحدِ الأحد، وفيه تعظيم للمنزَّل.

بلاغةُ إقامة الصّفة مقام الموصوف، في قوله ﴿ٱلۡمُقۡتَسِمِينَ﴾:

الطّاعنون في القرآن كثير وأشدّهم قبحًا المقتسمون

لمّا ذكر الصفة وحذف الموصوف في قولِه: ﴿عَلَى ٱلۡمُقۡتَسِمِينَ﴾ فلم يقل: (على الكافرين المقتسمين) مثلًا دلَّ على عظم قبح الوصف بحيث استحق أن يقوم مقام الموصوف في الإخبار عنه، وكأنَّهم كانوا مشهورين بهذا الوصف القبيح حتَّى صار علَمًا عليهم، فبعض الأوصاف لشدّة قبحها إذا فعلها صاحبها مرَّةً أو مرَّتين صارت علَمًا عليه، فكيف بتكرّر وصف الاقتسام للقرآن بأن جعلوه عضين، ففرّقوا القول فيه؟!.

نكتة التّعبير بصيغة الافتعال في قولِه ﴿ٱلۡمُقۡتَسِمِينَ﴾:

التكلُّف والتعسُّف في محاولاتهم تفريق القول في القرآن

صيغة المقتسمين مأخوذة من قَسَّمَ إذا جَعَلَ شَيْئًا أَقْسامًا، وصيغَةُ الافْتِعالِ هُنا تَقْتَضي تَكَلُّفَ فعلِ الاقتسام، بمعنى أنَّهم جعلوه أقسامًا، بتفريق القولِ فيه، وهو في الحقيقة غير ذلك[1].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/85.

بلاغةُ الإجمالِ بقوله ﴿ٱلۡمُقۡتَسِمِينَ﴾ قبل التبيين:

تشنيع فعلهم وإلهاب مشاعر المخاطب إلى معرفة جرمهم

في ذكر المقتسمين بوصفِ الإجمال ثم بيانهم بالصفة في قولِه: ﴿ٱلَّذِينَ جَعَلُواْ ٱلۡقُرۡءَانَ عِضِينَ ٩١﴾ فلم يقل: كما أنزلنا على الذين جعلوا القرآن عضين، لتشنيع فعلهم، وإلهاب مشاعر المخاطبين إلى معرفة جرمهم وصنيعهم، ولتعظيم شأنِ الطّعن في القرآن من هذه الجهة، وللإشارةِ إلى أنَّه ينبغي التنبّه لمثلِ هذا الطّعنِ.

﴿ٱلَّذِينَ جَعَلُواْ ٱلۡقُرۡءَانَ عِضِينَ ٩١﴾ [الحجر: 91]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

التّفصيل بعد الإجمال للإشعار بخطر المقتسمين وبيان قبح عملِهم

لمّا أجمل المرادَ بالمقتسمين إجمالًا، بيّنه بالموصول وصلتِه، ليتّضِح أمرُهم ويستبين حالُهم[1]؛ وذلك أنّه بعد أن ذكر المقتسمين في الآية السّابقة بقوله: ﴿كَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَى ٱلۡمُقۡتَسِمِينَ ٩٠﴾ [الحجر: 90] بيّن هنا أنّ المقصود بهم الذين أجمعوا أمرَهم على رسول الله ﷺ بغرض صدّ النّاس عنه وعنِ القرآن الكريم، وفي سبيل تحقيق مأربِهم اقتسموا طُرقَ مَكّة للتّنفير عنه وعنِ القرآن، وكان نصيبُ القرآنِ مِنَ المُقتسمين - وهم أهلُ الكتابِ والمشركون - أن قَسَموا القولَ فيه، فقال أهلُ الكتابِ "بعنادهم وجهلهم: بعضُه حَقٌّ موافقٌ للتّوراة والإنجيل، وبعضُه باطلٌ مخالفٌ لهما، فاقتسموه إلى حَقّ وباطل"[2]، وتفرَّق المشركون في وصف كلامِه وأسلوبِه، فقالوا: شعرٌ، أو سحرٌ، أو كهانة، وكذَبوا في هذا كلِّه، فـ"الحالُ أنّه جامعُ المعاني، لا مُتفرّقُ المباني، منتظِمُ التّأليفِ أشَدّ انتظامٍ، متلائِمُ الارتباطِ أحكم التئام"[3]، مخالفٌ لكلّ ما وصفوه به، فهو نسيجُ وحدِه.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿عِضِينَ﴾: واحدها عِضَةٌ، مِن عَضَيْتُ الشّاةَ: جعلتُها أعضاءً وأقسامًا بعد أن كانت مجموعةً سويَّةً، والعِضَةُ: الجُزءُ والقِطعَةُ مِنَ الشَّيءِ، والاسم التّعضِيةُ، وأصلُ اللّفظِ عُضْوٌ، فحُذِفَتِ الواوُ الّتي هيَ لامُ الكَلِمَةِ، وعوِّضَ عَنْها الهاءُ، مِثْلُ الهاءِ في سَنَةٍ وشَفَةٍ، ويحتمل

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/85.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 19/163.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/89.

أن يكون اللّفظُ مأخوذًا مِنَ العَضْه، وهو البَهْتُ، فحُذِفَت لامُهُ كَما حُذِفَتْ مِن سَنَة؛ إذ أصلُ اللّفظِ سَنْهَةٌ، ومثلُه الشَّفَة، فأصلها شَفْهَة، ومنه العُضَيْهَةُ: أن تَعْضَهَ الإنسانَ وتقولَ فيهِ ما لَيْسَ فيهِ، ويُجْمَعُ على عِضينَ[1]، و﴿عِضِينَ﴾ هنا بمعنى فرّقوه، فآمنوا ببعضِه وكفروا ببعضِه، أو فرّقوا القولَ فيه، فقالوا: شِعْر، وقالوا: سِحر، وقالوا: كِهانة، وقالوا: أساطير الأوّلين[2].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

تنوّعُ أقوالِ المُكذّبين في القرآن، ليصدّوا النّاسَ عنِ الهدى

ذكر اللّهُ تعالى وصفَ المُقتسمين ليبيِّنَ حالَهم وعادتَهم، فالمقتسمون: هم الذين جعلوا القرآنَ فِرَقًا وأقسامًا، فمنهم مَن يقول في القرآن: هو شِعرٌ، ومنهم مَن يقول: هو سِحر، ومنهم مَن يقول: هو كَهانة، ومنهم مَن يقول: أساطير الأوّلين، ومنهم مَن يقول غيرَ ذلك، فهم يصرِّفونه بحسب أهوائِهم، أو المقتسمون: هم الذين يؤمنون ببعض القرآن ويكفرون ببعضِه الآخر؛ والفريقان يفعلون هذا ليصدّوا النّاسَ عنِ الهدى والقرآن[3].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

فائدة النّعتِ بالاسم الموصول:

الإنذارُ بالعذاب للّذين يفرّقون القولَ بالقرآن؛ لخيبتِهم وخُسرانِهم

في قولِه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ جَعَلُواْ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ﴾، جاء الاسم الموصول نعتًا للمقتسمين؛ ليَصِحَّ إحضارُه بواسطة جملةِ الصِّلةِ المعلومة الانتساب، إلى مشارٍ إليه في ذِهن المُخاطَبين، والمعنى: كما أنزلنا على المقتسمين المَعهودين عندكم أنَّهم جعلوا القرآن عِضين، وفي مَجيء النّعتِ بالاسم الموصولِ بيانٌ لوجهِ بناءِ الخبرِ بما تَدُلُّ عليه

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (عضه).
(2) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 239، والسّجستانيّ، غريب القرآن، ص: 346، وابن الهائم، التّبيان، ص: 207.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 17/146، ولجنة من أساتذة التّفسير، التفسير الميسر، ص: 266.

الصِّلةُ، أي: بسبب جَعْلِهم القرآنَ عِضين، ففيه إشعارٌ بعلِّيَّة الصّلةِ، للحُكم الثّابتِ للموصول والموصوف[1]، كما أنَّ في التّعبير بالموصول وصِلتِه استهجانًا للتّصريح بالاسم، وإنباءً عن خيبتِهم وخسرانِهم؛ إذ قابلوا قولَه تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾﴾ [الحجر: 87] الذي أفاد تعظيمَ القرآنِ وتعظيمَ المِنَّة به، وأنَّه مِن عندِ اللّه تعالى؛ بجعلِه عِضين مفرَّقًا القولُ فيه، وبذا يظهر أن سِرّ فصلِ الآية عن سابقتها، هو ما بينهما مِن كمال الاتصال.

بلاغةُ الكنايةِ:

ما عاب القرآنَ أحدٌ إلّا بسبب حيرتِه وعجزِه عنِ التّحدّي

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ جَعَلُواْ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ﴾، لمّا جعلوا القرآنَ عضينَ، بمعنى: تفريق القولِ فيه؛ أفاد بلازمِه أنَّهم كانوا مُتحيِّرين في أمرِهم، مُتعجِّبينَ مِن عجزهم، يفزعون إلى التَّعليل والتَّعذير والمدافعة بما وقع التَّحدي إليه، ووُجِدَ الحَثُّ عليه، فبسببِ حيرتِهم وعَجزِهم عابوا القرآن فجعلوه عضين[2].

بلاغةُ الكنايةِ:

التَّحذيرُ مِنَ العمل ببعضِ القرآن وتَركِ بعضِه، عقيدةً أو تشهّيًا

وفي قولِه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ جَعَلُواْ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ﴾ كنايةٌ أُخرى، وهي أنَّه لمّا جاء الكلامُ على ذمِّ جَعْلِهمُ القرآنَ عضين، وعيبِه وتقبيحِ فعلِهم وزعمِهم، ليَدُلَّ على كفرِهم بهذا الجَعْل؛ أفاد أنَّ الإيمان يكون في أخذ القرآنِ بجُملتِه، والعملِ بمجموعِه، ففيه تحذيرٌ مِنَ العمل ببعض القرآن وترك بعضِه، بسبب الإيمانِ ببعضِه والكفر ببعضِه الآخر، أو بسببِ التّشَهّي في أخذ ما يوافق الهوى، وتركِ ما يخالفُه.

بلاغةُ الإيجازِ:

الإعجازُ في الإيجاز

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ جَعَلُواْ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ﴾، لمّا تفرّق قولُ المشركين وأهلِ الكتاب في القرآن، وتنوّعت أوصافُهم فيه؛ أوجزَ

(1) السّكاكيّ، مفتاح العلوم، ص: 181، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/90.
(2) الباقلانيّ، إعجاز القرآن، ص: 22.

مقولاتِهم كلَّها في هذا التّعبير، وليس مِن كلامٍ يوجزه مثلُ القولِ بجعلهمُ القرآنَ عِضينَ.

نُكْتَةُ التّعبيرِ بلفظ ﴿جَعَلُواْ﴾:

شِدَّة مباعدةِ مقولاتِ المُكذّبين، لحقيقةِ القرآن المبين

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ جَعَلُواْ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ﴾، لمّا كانَ الجعل هنا بمعنى الزّعم أو الحُكم بالباطل، على غيرِ مثالٍ سابقٍ[1]؛ أفاد التّعبيرُ بالجَعْل التّعجيبَ مِن شِدَّة مباعدةِ قولِهم وحُكمِهم لمعنى القرآن وحقيقتِه، كما أفاد التّعجيبَ مِن شِدّةِ تكذيبِهم له؛ إذ أتَوا بما لم يسبقهم إليه أحدٌ في نوعِ الافتراء.

نُكْتَةُ مَجيءِ صلةِ الموصول فعلًا ماضيًا:

حقائقُ القرآنِ منطلقة مِنَ الواقع، لا مِنَ الاحتمال

عبّرَ بصيغة الماضي في الفعل ﴿جَعَلُواْ﴾ في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ جَعَلُواْ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ﴾؛ للإيذانِ بأنَّهم قد أوقعوا الجَعْلَ المذكورَ، وتحقّقَ وقوعُه منهم، واستمرّوا عليه فلم يتراجعوا عنه، فاستلزم ذلك تحقّقَ ذمِّهم، وتوبيخَ جَعْلِهم.

نُكْتَةُ اختيارِ اسمِ القرآن دونَ غيرِه مِنَ الأسماء:

التّعجيبُ مِن جَعْلِ القرآنِ الجامع لثَمَرة كتبِ الله المُنْزَلةِ عضينَ

لم يقل: (الذين جعلوا الذِّكرَ عضينَ) مثلًا؛ لأنَّه لمّا كان القرآن مأخوذًا مِنَ القَرْءِ أو مِنَ القراءة، ويفيد أصلُه معنى الاجتماعِ وعدمِ التّفرّق، ولمّا كانَ في الاسم إيماءٌ إلى أنَّه جَمَعَ ثمرةَ كُتبِ الله، بل جمع ثمرةَ جميعِ العلوم؛ أفادَ أنَّهم تناقضوا في قولِهم، إذ جعلوا ما هو أمرٌ واحدٌ مجموعٌ مفرَّقًا القولُ فيه؛ ليَدُلَّ التّعبيرُ بلفظ القرآنِ على أنَّه جامعُ المعاني، لا متفرِّقُ المباني، منتظمُ التّأليف أشدَّ انتظامٍ، مُتلائمُ الارتباطِ أحكمَ التئامٍ، ففي مَجيء لفظِ القرآنِ تعجيبٌ مِن جَعْلِهمُ المَذكور[2].

(1) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنّة: 6/468.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/90.

بلاغةُ الاستعارةِ في لفظ ﴿عِضِينَ﴾:

القولُ بالتّعضيَة إزالةٌ لقِوامِ القرآنِ وحقيقتِه وجَوهرِه

لمّا عُبِّرَ عن تجزئة القرآن بهتانًا وفِريةً بالتَّعضية، التي هي - فيما ذهب إليه كثيرٌ مِنَ المُفسّرين وأهلِ المعاني[1] - تفريقُ الأعضاء مِن ذي الرّوح، المُسْتَلْزِمُ لإزالة حياتِه وإبطالِ اسمِه؛ كان الكلامُ على طريق الاستعارة التّصريحيّة الأصليَّة، بتشبيه تفريقِهم للقرآن بالشّخص ذي الرّوحِ، الذي تُفرَّقُ أعضاؤُه فتَبْطُلُ حياتُه، وتذهبُ حقيقتُه، وفائدةُ الاستعارةِ: هي الإشعارُ بأنَّ جَعْلَهمُ الباطلَ يُبطلُ حقيقةَ القرآنِ، فهم بزعمِهم هذا أزالوا قِوامَ القرآنِ وما به يكون[2].

نُكْتَةُ التّعبيرِ بلفظ ﴿عِضِينَ﴾:

مِن بلاغة القرآن دِقّةُ اختيارِ الكلمة؛ للتّعبير عنِ الدّلالة المُحْكَمة

عبّر بلفظ ﴿عِضِينَ﴾ دون أن يقال: (الذين جعلوا القرآن أجزاءً أو مُفرَّقًا)؛ لأنَّ التَّجزئةَ والتَّفريقَ ربما يوجدانِ فيما لا يَضُرُّهُ التَّبعيضُ مِنَ المِثليّاتِ، وأمّا التَّعضيَةُ فتكون لذي الرّوح كما تقدّم، فالتّعبير بلفظ ﴿عِضِينَ﴾ تنصيصٌ على كمالِ قُبحِ القولِ بتعضيَةِ القرآن العظيم[3].

دلالةُ قولِه تعالى: ﴿عِضِينَ﴾:

الإيمانُ الانتقائيّ ببعضِ القرآن الحكيم، مِنَ البُهتان العظيم

يحتمل لفظُ ﴿عِضِينَ﴾ أن يكون جمعَ عضوٍ، واحدِ الأعضاءِ؛ لأنَّ معنى التَّعضيةِ التَّفريقُ، كما تُعَضى الجَزورُ والشّاةُ، فتُفرَّقُ أعضاؤُها، فيكون المعنى الذين عَضَهوا القرآنَ، أي: فرّقوه، فقال بعضُهم: هو سحرٌ، وقال بعضهم: هو شعرٌ، وقال بعضهم: هو كَهانةٌ، وقال آخرون: أساطير الأوّلين، وما أشبه ذلك، ففرّقوا القولَ فيه، ويحتمل أن يكون جمعَ عِضَةٍ، بمعنى: البهتان والرّمي بالباطلِ، والقولِ بما ليس في الشّيءِ، وجُمِعَ جَمعَ السَّلامة عوضًا لِما لَحِقَ اللَّفظَ مِنَ الحذفِ، والمعنى: جعلوا القرآن عضين حين اختلفت

(1) الواحديّ، التّفسير البسيط: 12/662.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/92، وإسماعيل حقّي، روح البيان: 4/489.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/92.

أقوالُهم وتفرَّقت في وصْف القرآن، فرَمَوهُ بالباطلِ بهذا التّفريق، والمعنى متقاربٌ على كلا الاشتقاقين، فيُفيدُ لازمُ المأخذين أنَّهم جعلوا القرآنَ مفترًى، ويدخل في لفظ ﴿عِضِينَ﴾ مَن آمن ببعض القرآن وكفر ببعضه، فعن ابنِ عبّاسٍ ﵄ قال: (هم أهلُ الكتابِ؛ جَزَّؤوهُ أجزاءً، فآمنوا ببعضِه وكفروا ببعضِه)، يعني قولَ اللّهِ تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ جَعَلُواْ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ﴾[1]، ويدخل في عمومِ الذَّمِّ مَن يعمل ببعضِه ويترك بعضَه؛ لأنَّه جَزَّأه كذلك[2].

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

عِضين وأقسام:

والفرق بينهما هو أنَّ العِضين جمع عِضَةٍ، وهو إمّا أن يكون بمعنى الشّيء المفرَّق مِن مجموعٍ على جهة تقطيعِه، بعدَ أن كان سويًّا كاملًا، ومنه التّعضيَةُ بمعنى تجزئةِ الأعضاءِ، وإمّا أن يكون بمعنى البُهتِ، ومنه العُضيهةُ: أن تَعْضَهَ الإنسانَ وتقولَ فيهِ ما لَيْسَ فيهِ، فيكون ﴿عِضِينَ﴾ بمعنى: أنّهم فرّقوا ما لا يحتمل التّفريقَ كذبًا وزورًا.

العِضين هو المُفَرّق بهتانًا وكذبًا، وهو مذموم والأقسامُ أجزاءُ الشّيءِ، بلا مَدحٍ ولا ذَمٍّ

وأمّا لفظُ (أقسام): فهو جمع قسم، بمعنى إفرازُ النّصيب وتجزئةُ الشّيءِ، وقد يقع مدحًا، وقد يكون ذَمًّا[3]، فكان التّعبيرُ بلفظ ﴿عِضِينَ﴾ أنسبَ وأوفقَ للنّظم؛ لأنَّ المُشْركين فرَّقوا أقاويلَهم في القُرْآن بُهتانًا وكَذبًا، أي: فجعلوه مَرّةً كَذِبًا، ومرّةً سِحرًا، ومَرّةً شِعرًا، ومَرَّةً كِهانةً، فيُفيدُ اللّفظُ بإطلاقِه على بهتانِ المشركين في فِعْلِهم وذَمّهم عليه، وأنَّهم جعلوا ما هو واحدٌ لا يقبل التّجزئةَ لكونِه حَقًّا، ومِنَ الحَقِّ مَفرَّقًا القولُ فيه، بحسب أهوائِهم.

---

(1) أخرجه البخاريّ في صحيحه، برقم: (3945).

(2) ابن جرير، جامع البيان: 17/91، والزّجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 3/86، والواحديّ، التّفسير البسيط: 12/662، والبغويّ، معالم التّنزيل: 4/394، والفخر الرّازيّ: مفاتيح الغيب: 19/163، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 11/200.

(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (عضه، قسم).

﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٩٢ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝٩٣﴾ [الحجر: 92 - 93]

مُناسَبَةُ الآيَتينِ لِما قَبْلَهُما:

مجازاةُ الذين يجعلون القرآن عضين، بالسُّؤالِ والتّقريع يومَ الدّين

لمّا جعل المُقتسمونَ القرآنَ عِضينَ؛ تسبَّب عن فعلِهم وترتّب عليه قولُه تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾، بالتّأكيد بالقَسَم وما تلاه مِن مؤكّدات، على معاقبتهم ومجازاتهم على ما دأبوا عليه مِن أعمالٍ سيِّئةٍ، ومنها: أنهم ﴿جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ﴾، وكأنَّه قيل عن ماذا يُسألون؟ فقيل: ﴿عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

المَعْنى الإجْماليُّ:

السّؤالُ يومَ القيامةِ لجميعِ النّاس، وأشَدُّه ما يكون على المُكذّبين بالقرآن

أقسم اللّهُ تعالى في هذه الآية بربوبيّته؛ تعظيمًا للمُقْسَم عليه، وتشريفًا لنبيِّه ﷺ، فقال ما معناه: فوربِّك يا محمَّدُ لنسألنَّ هؤلاء الذين جعلوا القرآنَ عِضينَ عن جميعِ ما كانوا يعملون في الدّنيا، أي: لَنَسْأَلَنَّهُم يومَ القيامةِ فيما أمرناهم به، وفيما بعثناكَ به إليهم، مِن آي كتابي الذي أنزلتُه إليهم، وفيما دعوناهم إليه مِنَ الإقرار به، ومِن توحيدي والبراءةِ مِنَ الشّرك، كما أنَّه تعالى سيَسْأَلُ جميعَ النّاسِ يومَ القيامة عمّا كانوا يعملون، ويحاسبُهم عليه، فإنَّه تعالى عنده عِلْمُ كلِّ شيءٍ[1].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

كلُّ أعمالِ الكُفرِ والمُنكرِ متفرِّعةٌ مِنَ الكفرِ بالقرآن، وتكذيبِ بعضِه أو كلِّه

فائدة الفاء في قوله: ﴿فَوَرَبِّكَ﴾:

أفادتِ الفاءُ التّرتُّبَ والتّفريعَ، والمُفرَّعُ هو القَسَمُ وجوابُه، أي: تسبّب عن جعلِهمُ القرآنَ عضين أنّنا نُقْسِمُ بربّك لَنسألنَّهم عمّا كانوا يعملون[2]، وفيه تهويلٌ وترهيبٌ مِن هذا العمل؛ إذ تسبَّب جَعْلُهمُ

(1) ابن جرير، جامع البيان: 17/149.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 4/237، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/92.

القرآنَ عضينَ، وهو عملٌ واحدٌ، في سؤالهم يومَ القيامةِ عن جميعِ ما كانوا يعملون؛ للإشعار بأنَّ كلَّ أعمال الكفر والمنكر متفرّعةٌ مِنَ الكفرِ بالقرآن، وإنكارِ أن يكون مِن عند الله تعالى، وذهب بعضُ المُفَسّرين إلى أنَّ التَّفريعَ في الآية هو على ما سَبَقَ مِنْ قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَأٓتِيَةٞۖ فَٱصۡفَحِ ٱلصَّفۡحَ ٱلۡجَمِيلَ ٨٥﴾ [الحجر: 85]، والمعنى: إنّ السّاعة آتيةٌ فاصفحِ الصَّفحَ الجميلَ عنِ المُسيئين؛ لأنّنا نُقْسِم بالموجِد لك ومُدَبِّر أمورِك لَنسألنَّهم أجمعين يومَ القيامة[1].

دلالةُ الواوِ في قولِه: ﴿فَوَرَبِّكَ﴾:

واو القسم تُفيد تعظيمَ المُقْسَم عليه، وأنَّه واقعٌ لا محالةَ، كما أنَّه لمّا جاء القَسَم في سياق الوعيد، أفاد أنّه وعيدٌ شديدٌ في نهاية الشّدّة؛ لأنّه وعيد مقرونٌ بالقَسَم، وكلُّ وعيدٍ قُرِنَ بالقَسَم فهو في غايةِ الشِّدَّةِ[2].

كلُّ وعيدٍ قُرِنَ بالقَسَمِ، فهو في غايةِ الشِّدَّةِ والحَزم

سببُ إيثارِ التّعبير بالرّبوبيّة في قوله: ﴿فَوَرَبِّكَ﴾:

أقْسَمَ تعالى بِذاتِهِ ورُبوبيَّتِهِ مُضافًا إلى الضّمير العائد إلى رَسولِهِ على جِهَةِ تشريفِه ﷺ، والمعنى: نقْسِم بالموجِد لك، المُدَبِّر لأمرِكَ، المُحْسِن إليك بإرسالك، لنسألنَّهم عمّا كانوا يعملون، وفي الإضافة إلى ضمير الخطاب إيماءٌ إلى أنَّ في السُّؤالِ المُقْسَم عَلَيْهِ حَظًّا مِنَ التَّنْويهِ بِهِ، وهو سُؤالُ اللّه المُكَذِّبينَ عن تَكْذيبِهِم رسولَه ﷺ، وجَحْدِهم لرسالتِه، وافترائِهم عليها، سُؤال رَبٍّ يَغْضَبُ لِرَسولِهِ عليه السلام، وفيه بيانٌ لعظيم محبَّة اللّهِ لرسولِه ﷺ، ولمّا جاء الخطابُ لرسول اللّه ﷺ، والسّؤالُ بضمير الغائبين؛ أفادَ أنَّه ﷺ لن يُسألَ أصلًا، فجَمعَ في هذه الآية بين لُطف العبارة لرسولِه الأمين ﷺ، والتّهديدِ والوعيدِ للكافرين ولأهل المعاصي أجمعين[3].

سُؤالُ اللهِ المُكَذِّبينَ سُؤالُ رَبٍّ يَغْضَبُ لِرَسولِهِ ﷺ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/87.

(2) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنّة: 6/466.

(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/497، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 11/90، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/92، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/87.

بلاغةُ مَجيء الكلامِ على خِلاف مقتضى الظّاهِر:

لمّا كان شأنُ السّؤالِ في الظّاهر أن يكون سؤالَ استفهامٍ واستعلام، وكان اللّهُ تعالى هو الأعلم بعملِهم، فلا يسألهم: هل عملتُم كذا وكذا؛ كان التّعبيرُ بقولِه تعالى: ﴿لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ﴾ على خلاف مقتضى الظّاهر، فإمّا أن يكون على الكناية، بأن يُراد مِنَ السّؤال لازمُه، وهو المُجازاة على العمل وعقابُ المسؤول، فيُفيدُ الوعيدَ والتّهديدَ، كما تقول لمَن تُهدِّدُهُ: إنّما تُسألُ عمّا تفعل، أي: نُجازيكَ به؛ وإمّا أن يكون السّؤالُ سؤالَ توبيخٍ وتقريعٍ، فيُقال لهم: لِمَ جَعَلتُم القرآنَ عِضينَ؟ ولِمَ عصيتُم وتركتُمُ الإيمانَ؟ فتظهرُ فضيحتُهم عند تَعَذّر الجواب، وتتبعُه المجازاةُ على العمل، كما أنَّ مُجرّد توجيهِ السّؤال إليهم فيه لَونٌ مِنَ العذاب[1].

عذابُ اللهِ لاحقٌ بالمكذّبين بالقرآن المُبين، مع ظهور فضيحتِهم يومَ الدّين

فائدةُ التّعبيرِ بنون العَظَمة في قوله: ﴿لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ﴾:

أُسْنِد السّؤالُ إليه ﷻ بنون العَظَمة؛ لِترهيب المسؤولين وتهديدهم، ولبيانِ جَلال الأمر، وعِظَم ما يرتكبونَ، وللإيذانِ بأنَّه لا يمتنع عليه سبحانَه أحدٌ منهم، ويفيد المعنى بلازمِه: أنَّه تعالى لا يتركُهم، وليس بغافلٍ عنهم، وإن كانوا يَلْهون ويتقوّلون على القرآن، ويُفرّقون القولَ فيه[2].

التّعبيرُ بالعَظَمة لترهيب المسؤولين يومَ القيامةِ، ولبيانِ عِظَم المَلامة

فائدةُ تتابعِ التّوكيد في قوله: ﴿لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ﴾:

جاءتِ الجملةُ مؤكَّدةً بالقَسَم وبالنّون الثّقيلة اللّاحقة للفعل؛ لأنَّ المُخاطَبين كانوا مُنكرين سؤالَ اللّهِ تعالى لهم يومَ القيامةِ عمّا كانوا يعملون في الدّنيا، فجاء الخبرُ على طريقة الخبرِ الإنكاريّ، كما أفاد التّوكيدُ تشديدَ التّهديدِ والوعيد عليهم، وفي تتابع التّأكيد إيماءٌ إلى أنَّه تعالى سيسألُهم عن أدقِّ التّفاصيل[3].

تهديدُ المُكذّبين بالقرآن، بأنَّه تعالى سيسألُهم عن أدقِّ التّفاصيل

(1) النّسفيّ، التّيسير: 9/226، والطّيبيّ، حاشية على الكشاف: 9/65، وأبو حيّان، البحر المحيط: 6/497، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/92.

(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 8/4115.

(3) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 13/7779.

دلالةُ عودِ الضّمير في قوله: ﴿لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ﴾:

تخصيص المُقْتَسمين بالسّؤال، تهويلٌ لتكذيبهمُ القرآنَ بما يقال

الظّاهرُ أنَّ الضّمير في ﴿لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ﴾ يَعودُ على جميع المُكلَّفين، مِنْ كافرٍ ومُؤْمِنٍ؛ لِأنَّ ذِكْرَهُم قد تَقَدَّمَ في قوله تعالى: ﴿وَقُلْ إِنِّيٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ ۝٨٩﴾ [الحجر: 89]، أيْ: لِجَميعِ الخَلْقِ، وقَدْ تَقَدَّمَ ذِكْرُ المُؤْمِنينَ وذِكْر الكافرين، فيعودُ قولُه تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ على الكُلِّ، ويُؤيّده أنَّ السّؤالَ يكون في يوم القيامة، فيَدُلُّ على أنَّ السّؤال لعموم المكلَّفين، إلّا مَن يَدْخُلُ الجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسابٍ، ويحتمل أن يعود إلى المُقْتَسِمينَ؛ لأنَّهمُ الأقربُ ذِكْرًا، ويَكونُ المعنى: أنَّهُ تَعالَى أقْسَمَ بِنَفْسِهِ أنْ يَسْأَلَ هَؤُلاءِ المُقْتَسِمينَ عَمّا كانوا يقولونه مِن اقْتِسام القُرْآنِ وجَعْلِه مُتفرّقًا في زعمهمُ الباطلِ، وعَنْ سائِرِ المَعاصي، كما أنَّ قصر هذا السّؤال على المَذكورين في السّياق، وصرفَ العموم إليهم؛ لا ينافي سُؤالَ غيرِهم، ويكون تخصيصُ السّؤالِ بهؤلاء المُقتسمينَ تهويلًا لِجَعْلِهمُ القرآنَ ﴿عِضِينَ ۝٩١﴾ وجحودِهم له[1].

نُكْتَةُ التّعبيرِ بالتّوكيد بلفظ ﴿أَجْمَعِينَ﴾:

لن يتفلَّت أحدٌ مِنَ المكذّبين مِنَ السّؤال، وسوف يسألُهم واحدًا إثرَ واحد

عبّر بـ﴿أَجْمَعِينَ﴾ تأكيدًا للضّمير في ﴿لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ﴾؛ لِدَفْعِ لَبْسٍ ما قد يُتَوَهّم، أنَّه سيسأل أكثرَهم أو الغالبَ منهم، ليُفيدَ لفظُ ﴿أَجْمَعِينَ﴾ تأكيدَ العموم الذي دَلَّ عليه الضّميرُ العائِدُ كما تقدَّم، والمعنى: لن يتفلَّت أحدٌ ممّن يعود عليه الضّميرُ مِنَ السّؤال، وعبّرَ بـ﴿أَجْمَعِينَ﴾ دونَ (مجموعين)؛ لإفادة أنَّه تعالى سيسألُهم واحدًا واحدًا[2].

دَفعُ إيهامِ التّعارضِ بين الآية المُثبِتَةِ لوقوع السّؤال، وبين غيرِها مِنَ الآيات:

سؤالُ الله يومَ القيامة للمكلَّفين يكون سؤالَ توبيخٍ وتقريعٍ، وإقامةً للحُجّة

فَإنْ قيلَ: كَيْفَ الجمعُ بَيْنَ قَوْلِهِ تعالى: ﴿لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾، وبين قوله تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ۝٣٩﴾ [الرَّحْمَن: 39]؟

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 19/164، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 10/61، وأبو حيّان، البحر المحيط: 6/497، والآلوسي، روح المعاني: 3/172.

(2) الكرمانيّ، لباب التّفاسير، ص: 1008.

فالجوابُ عنه مِنْ وجوه:

الوجه الأوَّلُ: أنَّ المَنفيَّ هو سؤالُ الاستفهام والاستعلام؛ لِأنَّهُ تَعالى عالمٌ بِكُلِّ أعْمالِهم، والمُؤكَّدُ وقوعُه بالقَسَم في قولِه: ﴿لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ هو سؤالُ التّقريع والتّوبيخ، فيُقالُ لَهُم: لِمَ فعَلْتُم كَذا؟ فحين نفى السّؤالَ، نفى أنَّ أحدًا سيُخبرُه بما لا يعلم سبحانَه؛ وحين أثبتَ السّؤالَ؛ فهذا يعني أنَّه سيسألُهم سؤالَ الإقرارِ والتّقريعِ والتّوبيخ، ففيه إقامةٌ للحُجّة عليهم أمامَ الخَلْقِ.

والوجه الثّاني: أنَّ النّفيَ بالنّسبة إلى بعض المواقف يومَ القيامة، والإثباتَ بالنّسبة إلى بعضها الآخر، فيومُ القيامةِ يومٌ طويل يشتمل على مواقفَ ومواطنَ مهولةٍ، وأحوالٍ مختلفة، وبحسب ذلك تختلف العبارةُ والأخبارُ لاختلاف المقاصد والمواطن، ففي بعض المَواقف يُسْألون، وفي بعضها لا يُسألون، ونَظيرُهُ قَوْلُهُ تعالى: ﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ۝٣٥﴾ [المُرْسَلاتِ: 35]، وقالَ تعالى في آيَةٍ أُخْرَى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ۝٣١﴾ [الزُّمَرِ: 31].

والوجه الثّالث: أن يقال: لا تعارضَ بينَ الآيتين، فقولُه تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ۝٣٩﴾ [الرحمن: 39] يفيد عمومَ النّفي، وقولُه تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ عائِدٌ إلى المُقْتَسِمينَ، وهَذا خاصٌّ بهم، ولا شَكَّ أنَّ الخاصَّ مُقَدَّمٌ على العامِّ، فالمعنى: نفيُ السّؤالِ عنِ الجميع إلّا سؤالَ المُقتسمين[1].

سببُ إيثارِ السّؤال عمّا سلفَ مِن عملهم:

السّؤالُ يومَ القيامة يكون عنِ الدّاعي إلى معصيةِ الله على جهة التّهديدِ

وقع السّؤالُ بـ﴿عَمَّا﴾ في قوله تعالى: ﴿عَمَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾؛ لأنَّه تعالى لا يسألهم: هل عملتُم كذا وكذا؟ فهو تعالى أعلمُ بهم وبأعمالهم منهم، وأفاد السّؤالُ بـ﴿عَمَّا﴾ أنَّ السّؤالَ يكون عن سبب

(1) الواحديّ، التّفسير البسيط: 12/668، والبغويّ، معالم التّنزيل: 4/395، والفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 19/164، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 10/61.

العمل، والدّاعي إليه على جهة التَّهديد والمُجازاة على العمل؛ ليفيدَ قيامَ الحُجّة عليهم، وافتضاحَهُم يومَ القيامةِ.

دلالةُ (ما) في قوله: ﴿عَمَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾:

لمّا كان لفظُ (ما) اسمًا موصولًا يُفيد العمومَ دخل فيه السّؤالُ عن جميع ما كانوا يعملون، ولمّا جاء الكلام في سياق التّهديدِ والوعيد، دَلَّ على أنَّ المرادَ بـ(ما) ما كان قبيحًا مِنَ الأعمال، فلا تدخل فيه الأعمالُ الصّالحةُ، وسببُ إيرادِ لفظِ العموم مُرتّبًا على جَعْلهمُ القرآنَ عِضين؛ بيانُ أنَّ كلَّ عملٍ أو قولٍ قالوه هو مُتفرِّعٌ على وصْفهم للقرآن بأنَّه عضين، فيدخلُ فيه وصْفُهم لرسول الله ﷺ بالسّحر والشّعر والكذب، فهو نفس التّعضيَةِ، فيُسألُ كلُّ أحدٍ بحسب جرمِه وعصيانِه، فالكافر يُسأل عن (لا إله إلّا الله)، وعنِ الرّسل، وعن كُفْره بالله وبالقرآن، والمؤمنُ العاصي يُسأل عن تضييعهِ للامتثال بالقرآن، وكلُّ مُكَلّف عمّا كُلّف القيامَ به، ويدخل فيه سؤالُ المُكذِّبين بتعضيتهم للقرآن وتفريقهم له دُخولًا أوّليًّا[1].

سؤالُ اللهِ تعالى عنِ الأعمال المُنكرة، لا عنِ الأعمال الصّالحةِ المؤثّرة

دلالةُ تركيبِ جملة: ﴿كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾:

تُفيد صيغةُ (كان يفعل) أنَّ فِعلَ القبائحِ، ومنه تعضيتُهم للقرآن، كان كالطّبع للمُقتسمين؛ لاستمرارِهم على المُنكر، وتجدُّدِه منهم، وكأنّ سؤالَهم كان بسبب مداومتِهم على التّكذيب، فلو كذّبوا ثمَّ تابوا لما وقعَ السّؤالُ.

المُنكرُ مِنَ القبائح مُستَبشَعٌ، والمُداومةُ عليه أشَدُّ بشاعةً

دلالةُ التّعبير بالموصول وصلتِه:

عبّر بالاسم الموصول في قوله تعالى: ﴿عَمَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾؛ ليَصِحَّ إحضارُه بواسطة جملةِ الصّلةِ المعلومةِ الانتسابِ، إلى مُشارٍ

عملُ المنكرِ، والاستمرارُ عليه، سببُ وعيدِ اللهِ بالعذابِ لديه

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/375، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/92.

إليه في ذِهْنِ المُخاطَبين؛ للإشعار بأنَّ عملَهم معلومٌ عندَ المُخاطَبين، وقد اشتهروا به، ولِتُفيدَ صِلةُ الموصول بيانَ سببِ تشديدِ الوعيد بالسّؤال، ففيه إشعارٌ بأنَّ عملَهمُ القبيحَ، واستمرارَهم عليه، هو سببُ الوعيدِ لهم بالسّؤال يومَ القيامة.

﴿فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٩٤﴾ [الحجر: 94]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

مَن أوتيَ القرآنَ كان لِزامًا عليه أن ينشرَه بين النّاس، ويبيّنَ معانيه

لمّا أخبر اللّهُ تعالى رسولَه ﷺ أنَّه هو النّذير المبين، وأخبره أنَّه تعالى سيسأل كلَّ واحد عمّا عمل؛ فرَّع عليه الأمرَ بالصّدع بما يُؤمرُ، وأن يعلن ذلك لكلِّ أحدٍ، وألّا يلتفت إلى قول المشركين واستهزائِهم.

ولمّا قال اللّهُ تعالى: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَٰكَ سَبۡعٗا مِّنَ ٱلۡمَثَانِي﴾ [الحجر: 87]، وأفادَ الكلامُ بِصَريحِهِ وكِنايَتِهِ التَّسْليَةَ عمّا يُلاقيهِ مِنْ تَكْذيبِ قَوْمِهِ؛ فرَّع عليه هذه الآيةَ، فمن أوتيَ سبعًا مِنَ المثاني والقرآن العظيم، فليس له إلّا الجهرُ بها وإعلانُها للنّاس[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَٱصۡدَعۡ﴾: يدور الصّدعُ على معنى ظهور ما كان غيرَ مُبانٍ، بانفراجٍ في المَصدوعِ والتّأثيرِ فيه بقوَّةٍ، وأصل الصّدع هو الشّقّ في الأجسام الصّلبة كالأرضِ، يقالُ: صدعَ الزّجاجَ، أي: كَسَره، فإذا انشقَّ الشّيءُ بالصَّدعِ ظهر ما كان غيرَ مبانٍ، وفيه معنى الفصلِ والفَرْق؛ لأنَّ الشّقَّ يَفْصِل بين الطّرفين، ويقعُ بهِ الإظهارُ، ومنه: تصدَّعَ القومُ، أي: تفرَّقوا، يقال: صَدَعْتُهُ فانْصَدَعَ، وصَدَّعْتُهُ فتَصَدَّعَ، وسُمّيَ الصُّبْحُ صَديعًا لظهورِه، واستُعيرَ مِنَ الصَّدع الصُّداعُ، وهو شِبهُ الانشقاق في الرّأس، مِنَ الوجع والألمِ[2]، و﴿فَٱصۡدَعۡ﴾ هنا بمعنى: أظْهِرْ واجْهَرْ[3].

2) ﴿وَأَعۡرِضۡ﴾: يدور معنى الكلمةِ على اتّساع ما يواجِهُ النّاظرَ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/87.
(2) الرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (صدع).
(3) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 240.

مِنَ الشَّيءِ الكثيف، فمِن ذلك: العارضُ، وهو السَّحابُ، وعُرْضُ الشَّيءِ: ناحيتُه، وإذا قيل: أعْرَضَ عنّي، فمعناه: ولّى مُبديًا عَرْضَهُ، بمعنى: أنَّه انحرفَ عنه وولّاهُ عَرْضَه، أي: أخَذَ جانِبًا غَيْرَ الجانِبِ الَّذي هو فيهِ، فالإعراضُ هو أن تولّيَ الشَّيءَ عَرْضَكَ، أي: جانِبَك، ولا تُقبِل عَلَيْهِ، بقصدِ عدم الالتفات إليه، ويلزمه عدمُ المبالاةِ به[1].

المَعْنى الإجْماليُّ:

أهميَّةُ الجَهْرِ بالحَقِّ وإظهارِ الدّين، وعدمُ المبالاة بالمُثبّطين والمُبْطِلين

أمرَ اللّهُ تعالى نبيَّه ﷺ في هذه الآية بتبليغ رسالته قومَه، وجميعَ مَن أُرسل إليه، وأن يمضيَ بما يُؤمر في تبليغِ الرّسالة، فقال له ما معناه: بَلِّغْ ما أُنْزِلَ إلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ، واجهرْ بدعوة الحَقّ التي أمرك اللّهُ بها، ولا تَلْتَفِتْ لأقوال المشركين، ولا تُبالِ بهم إذا لاموكَ على إظهارِ الدَّعوةِ، ولا يمنعْكَ شيءٌ مِن تبليغِ الرّسالة[2].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

فائدة الفاء في قولِه: ﴿فَٱصۡدَعۡ﴾:

ما دام اللهُ تعالى قد تولّى أمرَ المكذّبين، فلمَ التّقاعسُ عن تبليغ القرآن المبين؟

تُفيد الفاءُ ترتُّبَ الأمرِ بالصّدع على ما قبلَه، بمعنى: إذا كان الّذي تولّى أمرَ سؤالِ المُكذّبين يومَ القيامة ومجازاتِهم على أعمالِهم هو اللّهُ تعالى، فاصدعْ بما تؤْمَرُ ولا تلتفت إليهم، ويحتمل أن تكون الفاءُ تفريعًا على جملة: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَٰكَ سَبۡعٗا مِّنَ ٱلۡمَثَانِي﴾ وما بعدَها، ليكون الإتيانُ المَذكور وما جاء بعدَه مِن كونِه ﷺ نذيرًا مبينًا للنّاس أجمعين، سببًا للأمر بالجهر بالقرآن والإعراض عنِ المشركين.

بلاغةُ الاستعارةِ في قوله: ﴿فَٱصۡدَعۡ﴾:

أُمِر رسولُ اللّهِ ﷺ في هذِه الآية بإظهار الدّعوة، وجاء الكلام على الاستعارة، بتشبيه تبليغ الدّعوة والجهرِ بها وإعلانِها بالصّدع

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (عرض).
(2) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/551.

تبليغُ القرآنِ كظُهورِ الفجر الصّادق، الّذي يَشُقُّ ظلامَ اللّيل المُطبِق

في الأرضِ، وقُصِد به لازمُه، وهو ظُهورُ الأمرِ المَحجوبِ وراءَ الشَّيْءِ المُنْصَدِعِ، ليكون الكلامُ على طريق الاستعارة التّصريحيَّة التّبعيَّة، ووجهُ الشّبه: الظّهور بعد الخفاء، فهو مِثلُ ظهورِ الفجرِ الصّادق، يَشُقُّ ظلامَ اللّيل البَهيم، أو تكون الاستعارةُ بتشبيه تبليغِ الدّعوة والإعلانِ بها بصَدْعِ الزُّجاجَة، ووجهُ الشّبه: الظّهورُ والنّفاذُ والتّأثير، ثُمّ حُذِف المُشَبَّهُ وذُكِر المُشَبَّهُ به على طريق الاستعارة التّصريحيّة التّبعيّة كذلك، وحقيقةُ الكلام: فبَلِّغْ ما تُؤْمَرُ به، أو فأظْهِرْ ما تُؤْمَرُ به، والاستعارة هنا أبلغ مِنَ الحقيقة؛ لأنَّ الصّدع بالأمر يكون له تأثيرٌ ونفاذٌ في النّفوس والقلوب، كتأثير صَدع الزُّجاجة، أو كتأثير شَقِّ الأرضِ وظهورِ ما كان خافيًا فيها، وفيه إيذانٌ بأنَّ ما تُؤْمَرُ به حُجَّةٌ على المُخاطَبين، والمرادُ الاجتهاد والمبالغةُ في حُسن تبليغ الأمر والحِرص عليه وإظهارِه، بحيثُ يكون مكشوفًا مَجهورًا به، وتقومُ به الحُجَّةُ، كظُهور الفجرِ الصّادق في ظَلام اللّيل، وينقطعُ به العُذْرُ، ويؤَثرُ في النّفس التّأثيرَ الذي يقع معه العِلْمُ بصحّتِه[1].

سببُ إيثارِ التّعبير بـ﴿فَٱصۡدَعۡ﴾ دون (فَبَلِّغ):

الصّدعُ بالقرآن حُجّةٌ على النّاس في كلّ زمان

لمّا كان الصّدعُ فيه معنى التّصريحِ بالأمر؛ لمُلازمته معنى الظّهور، ويلزمُه الجَهْرُ بالمُصَرَّح به، وفيه معنى الفَرقِ والفَصلِ أيضًا، فيَحْصُل بالصّدع بالقرآنِ الفَصْلُ بينَ الحَقِّ والباطل؛ كان التّعبيرُ بـ﴿فَٱصۡدَعۡ﴾ أبلغَ مِن (فَبَلِّغ) وإن كان بمعناه؛ لأنّ تأثير الصّدعِ أبلغُ مِن تأثير التّبليغ، فقد لا يُؤَثّر التّبليغُ، والصّدْعُ يُؤَثّر جَزمًا[2]، ولو قال: (فَبَلِّغ بما تُؤْمَر به)، لما أفاد المعنى المقصودَ مِنَ الظّهور والتّصريحِ والجَهْر به، وإن كان يجتمع مع ﴿فَٱصۡدَعۡ﴾ في

(1) الرّمانيّ، النّكت في إعجاز القرآن، ص: 87، والخطابيّ، البيان في إعجاز القرآن، ص: 44، والباقلانيّ، الانتصار للقرآن: 2/451، والفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 19/65، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/88.

(2) السّيوطيّ، الإتقان: 3/152.

معنى الإيصال، بيدَ أنَّ التّبليغ قد يَصْعُب حتّى لا يكونَ له تأثيرٌ، فيَصيرَ بمنزلة ما لم يقع، والإيصالُ الذي له تأثير كصَدْع الزُّجاجَة أبلغُ، كما أنَّ في تَعَلُّق الأمرِ بالصّدع بقولِه: ﴿بِمَا تُؤْمَرُ﴾ يُفيد أنَّ ما أمرَ به رسولُ اللّهِ ﷺ حُجّةٌ على الآخرين كما تقدَّم، فإنَّه يقالُ: صَدَعَ بالحُجَّة، إذا تكلَّم بها جِهارًا[1].

فائدةُ الباء في قوله: ﴿بِمَا تُؤْمَرُ﴾:

الباء هنا للمُلابسة، ولمّا كان الفعل ﴿فَٱصْدَعْ﴾ يتعدّى بنفسِه، دَلَّ مَجيءُ الباء على تضمينِه معنى الجَهْرِ، فالباء مِن صِلةِ معنى الصَّدعِ، لا لفظِه، والمعنى: فاصْدَعْ واجْهَرْ بما تُؤْمَرُ به، بحيثُ يكون ما تُؤمرُ به مُلابسًا لِصَدْعِك، فيلزَمُ مِنَ الجَهْر بالقرآن إعلانُه وبيانُه.

الصّدعُ بالقرآن، لا يكون من غير جَهْرٍ به وإعلان

دلالة (ما) بين المَصدريّة والموصوليَّة:

تحتمل (ما) أن تكون بمعنى: (الذي)، وهو الظّاهر عند أكثر المُفسّرين وأهلِ المعاني، والتّقديرُ: فاصْدَعْ بما تُؤْمَرُ به مِنَ الشّرائع المودَعة في تضاعيف ما أوتيتَه مِنَ المَثاني السّبعِ والقرآنِ العظيم، فحَذفَ الجّارَّ ثمّ حذفَ الضّميرَ، وهو الهاءُ؛ لطول الاسم بالصّلة، وأفاد الحذفُ الإيجازَ والمبالغةَ في المعنى كما سيأتي، وتحتمل (ما) أن تكون مصدريّة، فيكون التّقدير: فاصْدَعْ بالأمر، أو فاصْدَعْ بمأموريَّتِكَ، أي: بما أنتَ عليه مِن كونكَ مأمورًا بتبليغ رسالتِكَ، وبتبليغ القرآنِ الذي نزلَ عليك[2].

شرائعُ الإسلام كلُّها مودعةٌ في القرآن، رجاءَ أن ينتفع بها الإنسان

نُكْتَةُ التّعبير بـ﴿بِمَا﴾ دونَ (الّذي):

على القول بأنَّ (ما) موصولةٌ، عُبِّر بـ﴿بِمَا﴾ دونَ (الذي)؛ لأنَّها أكثرُ عمومًا، والمقامُ يقتضيه.

(ما) الموصولةُ أكثرُ عمومًا مِن (الّذي)، وهي آثَرُ هنا في الاستعمال

(1) الرّمانيّ، النّكت في إعجاز القرآن، ص: 87، والخطابيّ، البيان في إعجاز القرآن، ص: 44، والزّمخشريّ، الكشّاف: 2/590، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/217.

(2) الفرّاء، معاني القرآن: 2/94، والواحديّ، التّفسير البسيط: 12/671.

نُكْتَةُ التَّعبيرِ بلفظِ ﴿بِمَا تُؤْمَرُ﴾:

الصَّدْعُ يَشْمَل القرآنَ وكلَّ ما أعلنَه رسولُ اللهِ ﷺ للنّاس

عُبِّر بلفظِ ﴿بِمَا تُؤْمَرُ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾؛ للإيذانِ بأنَّ الصّدعَ يشمل القرآنَ، وكلَّ ما يعلنه النّبيُّ ﷺ ويجهر به بينَ النّاس، مِن إنذارٍ وتبليغٍ وغيرِهما، فكأنَّه يُشير إلى وجوب الأخذِ بجميع ما يقولُه رسولُ اللّه ﷺ مِنَ القرآن وغيرِه.

دلالةُ التَّعبيرِ بالمضارع ﴿تُؤْمَرُ﴾:

تَجَدُّدُ الصّدعِ بالأوامر، تقتضيه متطلّباتُ المغالبةِ والمواجهة

لم يقل: (بما أُمِرتَ)؛ للإشعار بتَجَدُّد نزولِ أوامرِ القرآنِ على رسول اللّه ﷺ واستمرارها، فالسّورة مَكّيَّةٌ.

بلاغةُ حَذفِ العائد في قوله: ﴿بِمَا تُؤْمَرُ﴾:

حُذِفَ العائدُ للإيجاز ولإفادة العموم

على القول بأنَّ (ما) موصولةٌ، يكون العائدُ إلى الاسم الموصول محذوفًا للعِلْم به، والتّقديرُ: (فاصْدَعْ بما تُؤْمَرُ به)، ونُكْتَةُ الحَذفِ: شمولُ الأمرِ كُلَّ ما أُمِرَ الرَّسولُ ﷺ بتَبْليغِه، فلَم يَقُل: فاصْدَعْ بما تُؤْمَرُ بتَبْليغِه، أو بالأمرِ بِهِ، أو بالدَّعْوةِ إلَيْه، وهو إيجازٌ بَديعٌ لإفادة المبالغة في التّعميم[1].

دلالة التّعبيرِ بصيغة المبني للمفعول ﴿تُؤْمَرُ﴾:

كلُّ ما جَهَرَ به رسولُ الله ﷺ، فهو ممّا أمرَهُ اللهُ تعالى به

لـمّا كان السّياقُ في تسليَة رسولِ اللّهِ ﷺ، لم يكن مِنَ المناسب هنا أن يُقال: (بما أمَرَكَ اللّهُ) على التّصريح بالأمر؛ لُطفًا برسولِ اللّه ﷺ، ولـمّا كان الائتمارُ بأمر اللّه هو شأن رسولِ اللّه ﷺ، دَلَّ على أنَّه ﷺ قد صَدعَ بكلِّ ما أُمِرَ به، ويفيدُ بلازمه أنَّ كلَّ ما جَهَر به رسولُ اللّهِ ﷺ وأبانَه وصرّح به؛ هو ممّا أمَرَهُ اللّهُ تعالى به، كما قال اللّه تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾ [النجم: 3 - 4].

براعةُ الإيجاز في اشتمال أربعِ كلماتٍ على جميع ما في الرّسالة المُحَمّديّة

بلاغةُ الإيجاز:

قوله تعالى: ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾، اشْتَمَلَتْ هذه الكلمات على

(1) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنّة: 9/467، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/88.

وجازتِها، على جَميعِ ما في رسالةِ سيّدنا محمَّدٍ ﷺ، فالكلامُ مِن براعة الإيجاز وبلاغتِه[1]، ولهذا ذكر أبو عُبيدةَ عن رُؤبةَ قولَه: "ما في القرآن أعْرَبُ مِن قوله: ﴿فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ﴾"[2].

مناسبة الوصل في قولِه: ﴿وَأَعۡرِضۡ﴾:

لمّا جاء الفعلُ ﴿فَٱصۡدَعۡ﴾ على الأمر، عطفَ عليه فعلَ الأمرِ ﴿وَأَعۡرِضۡ﴾؛ ليكونَ مِن عطف الطّلبِ على الطّلبِ، وفائدةُ العطفِ: الإشعارُ بأنَّ الإعراض عنهم يُحَقّقُ الصّدعَ بالحَقِّ ويُتِمُّه على أكمل وجهٍ، وأنَّ الانشغال بالرَّدّ على المشركين والتّصدّي لهم، يُعيق إظهارَ الحَقِّ وإتمامَه.

التّصدّي لمقولاتِ المُكذّبين قد يُعيقُ إظهارَ الحَقِّ وإتمامَه

بلاغةُ حَذفِ متعلَّق الفعل:

في قوله تعالى: ﴿وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾، لمّا كان الإعراضُ عنِ المشركين لا يُقْصَد به الإعراضُ عن ذواتِهم، والابتعاد عنهم؛ لأنَّ النّبيّ ﷺ مأمور بالصّدع بالدّعوة والجَهْرِ بها، وكان ظاهرُ قَولِه تعالَى: ﴿فَٱصۡدَعۡ﴾ مانِعًا مِنْ ذَلِكَ؛ دلَّ على أنَّ ثَمّةَ محذوفًا يتعلَّق به الإعراضُ، والمعنى: أعرض عن أقوال المشركين ولومِهم حين تَظْهَرُ الدَّعوةُ، وأعرضْ عنِ التّصدّي لهم بالانتقام، فيدخلُ فيه الإعراضُ عن كلِّ ما يكون سببًا في مَنْعِ تبليغِ الدّعوة وإظهارِها أو تعويقِها[3]، فيكون الحَذْفُ لإفادة العموم، ولمّا كانَ تعليق الحُكم على المُشْتَقِّ يُؤْذِنُ بعِلّيَّة المَأْخَذِ؛ كانت نُكْتَةُ تعليقِ الإعراضِ بالمشركين هي الإشعارَ بأنَّ الإعراضَ عنهم هو بسبب شركِهم باللّه تعالى، وأنَّ شركَهم هو الّذي يدفعُهم إلى مَنْعِ تبليغ الدّعوة.

المؤمنُ يُعْرِضُ عن كلِّ ما يكون سببًا في مَنْعِ تبليغِ القرآنِ للنّاس

(1) الزّركشيّ، البرهان في علوم القرآن: 3/226.
(2) السّيوطيّ، الإتقان: 4/155.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/92، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/89.

بلاغةُ الكناية:

المؤمنُ مأمورٌ بالصّدع بالقرآن، وليس بالانتقام مِنَ المشركين

يحتمل أن يكون قولُه تعالى: ﴿وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ من باب الكناية؛ فإنَّه لمّا كان معنى قولِهم: (أعرَضَ عنه)، هو ولّى مُبديًا عَرْضَهُ، وتَنَحّى جانبًا، كان المرادُ مِنَ الأمر في قوله تعالى: ﴿وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾؛ لازمَه، أي: لا تلتفت إلى ما يقولون، ولا تبالِ بهم، ولا يكن شِرْكُهم صادًّا لك عن تبليغ القرآنِ والجَهْرِ به، ولا تتصَدَّ للانتقام منهم، فأنتَ مأمورٌ بالصّدع بالقرآن، وليس بالانتقام مِنَ المشركين.

﴿إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴿٩٥﴾ ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [الحجر: 95 - 96]

مُناسَبَةُ الآيَتَينِ لِما قَبْلَهما:

كفايةُ اللهِ المؤمنين أمرَ المُستهزئين، بعد أمرِه بالصّدع بما يُؤْمَرُ

لمّا كان الأمرُ بالصّدع بما يُؤْمَرُ به النّبيُّ ﷺ - أي: بالقرآن والدّعوة - في غاية الشِّدَّةِ عليه ﷺ؛ لكثرةِ ما يَلْقى مِن أذى المُشركين، خَفَّفَ عنه سبحانَه بقوله تعالى: ﴿إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ﴾ مُعَلِّلًا لما تقدَّم، فجاءت هاتانِ الآيتان[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿كَفَيْنَٰكَ﴾: كَفَى الشَّيْءُ يَكْفي كِفايَةً فهو كافٍ، إذا قامَ بالأمرِ وحَصَلَ بِهِ الاِسْتِغْناءُ عَنْ غَيْرِهِ، ويدور معنى الكفاية على الاستغناء بالشّيء، يقال: اكْتَفَيْتُ بِالشَّيْءِ، بمعنى اسْتَغْنَيْتُ بِهِ، واسْتَكْفَيْتُه أمرًا فكفانيهِ، أي: قام به وأغناني عنِ القيام به، ويُقال: كَفاكَ هَذا الأمرُ، أي: حَسْبُكَ، والكِفايَةُ: ما فيه سَدُّ الخَلّة وبلوغُ المُرادِ في الأمر، والكُفْيَةُ - بالضَّمّ - : القوتُ، وهو ما يكفيك مِنَ العيش[2].

2) ﴿ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ﴾: يدور معنى (هَزَأ) على التّحرُّكِ والتَّحريكِ القويِّ بسبب الخِفَّة، ومنه قولهم: هَزَأ الرّاحلةَ: حَرَّكَها، وأهْزَأتْ به ناقتُه: أسْرَعَتْ، والهُزْءُ والهُزُؤ: السُّخْرِيَةُ معَ استخفافِ قَدْرِ المُسْتَهزَأ به، والاستهزاءُ: ارتيادُ الهُزُؤِ، وإن كان قد يُعَبّر به عن تعاطي الهُزُؤ[3].

المَعْنى الإجْمالِيُّ:

من نعمة الله على رسوله ﷺ أن كفاه أمرَ المُستهزئين

بعد أن أمر اللّهُ تعالى نبيَّه ﷺ أن يجهرَ بالقرآن ويعلنَ ما أُمِرَ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/97.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (كفي).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (هزأ أو هزؤ).

به مِنَ الشّرائع، ولا يلتفت إلى لَوْم المشركين ولا يبالي بهم؛ طَمأنَهُ تعالى بأنَّه قد كفاه أمرَ المُستَهْزئين الذين يَسْخَرون منه، وأنَّه تعالى عاصِمُه منهم، فلا ينالون منه ولا مِن دعوته ﷺ، فقال ما معناه: إنّا كفيناكَ أمرَ المُسْتَهزئين بِكَ، السّاخِرين مِن زعماء قريش، الذين اتَّخذوا شريكًا مع اللّه في العبادةِ، فسوف يعلمون عاقبةَ عملِهم في الدُّنيا والآخرة[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

فائدة (إنَّ) التّوكيديّة:

تُفيد (إنَّ) تَعْليلَ قولِه تعالى: ﴿فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ﴾، فتكون جملةُ: ﴿إِنَّا كَفَيۡنَٰكَ ٱلۡمُسۡتَهۡزِءِينَ﴾ تعليلًا للإعْلانِ بما أُمِرَ بِهِ، ومرتبطةً بما قبلَها ارتباطَ المسبَّب بالسّبب عن طريق (إنَّ)؛ ولهذا جاءتِ الجملةُ على طريق الفَصلِ لا الوصل، فبينَها وما قبلَها (شِبهُ كمالِ اتّصال)، كما أفادت (إنَّ) تَأْكيدَ مضمونِ الخَبرِ وتقريرَه؛ اهْتِمامًا بِشَأْنِ كفايةِ اللّهِ تعالى رسولَه ﷺ المُسْتَهْزئين، لا لِلشَّكِّ في تَحَقُّقِ الخبرِ[2].

المُسْتَهزئون بالقرآن لن يُعيقوا تبليغَه ونَشْرَه؛ لأنَّ الله تعالى كفى في ذلك رسولَه

دلالةُ الجملةِ الاسميَّة ﴿إِنَّا كَفَيۡنَٰكَ﴾:

أفادتِ الجملةُ الاسميَّة الثّبوتَ، بمعنى: ثبوتِ تولّي اللّهِ تعالى كفايةَ رسولِه ﷺ المُسْتَهزئين، ولو كان الاستهزاءُ بعد وفاتِه ﷺ، فتكونُ كفايةُ اللّهِ تعالى المؤمنينَ أمرَ المُستهزئين، استمرارًا لكفاية اللّه رسولَه أمرَهم.

ثُبوتُ تَولّي اللهِ كفايةَ المؤمنين أمرَ المُسْتَهزئين واستمرارُه

دلالةُ التّعبيرِ بضمير العَظَمةِ:

أفاد التَّعبيرُ بضمير العَظَمة ﴿إِنَّا﴾ في الآية، أنَّ كفاية المُستهزئين لا يَقْدِر عليها إلّا اللّهُ المَلِكُ الواحدُ الأحدُ، وأنَّ كفايتَه عظيمةٌ مهولة؛

لِشِدّة خطرِ المُسْتَهزئين بالقرآن وبالإسلامِ، تولَّى اللهُ تعالى كفايتَهم

(1) ابن جرير، جامع البيان: 17/159.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/89.

ليُشْعِرَ بخطر أمرِ المُسْتَهزئين على القرآن وعلى الإسلامِ، والمعنى: نكفيكَ المُسْتَهزئين بقَمعِهم وإهلاكِهم[1].

بلاغةُ مَجيء المسندِ جملةً فعليَّةً:

تدبيرُ اللهِ تعالى لأمر رسولِه ﷺ، وعنايتُه بكفايتِه المُسْتَهزئين

أفادَ مَجيء المُسْنَدِ ﴿كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ﴾ جملةً فعليَّةً تقويةَ الحُكم، بمعنى: تحقيقِ كفايةِ اللّه تعالى رسولَه أمرَ المُسْتَهزئين، وأنَّ هذه الكفايةَ لا تكون إلّا مِنَ اللّه تعالى، ولا يَقْدِر عليها سِواه ﷻ، ففي الكلامِ معنى تدبيرِ اللّهِ تعالى لأمر رسولِه ﷺ، وعنايتِه ولُطْفِه به.

دلالةُ مَجيءِ الفعلِ بصيغة الماضي:

التّعبيرُ عمّا يكون في المستقبل بصيغة المُضيّ، إيذانٌ بقُربِه، وتَحَقّق وقوعِه

كان الظّاهرُ أن يقول: (إنّا نكفيك المستهزئين)؛ لأنَّه تعليلٌ لِلأمر بالصّدْع بالقرآن، فالمعنى: فاصْدَعْ بما تُؤْمَرُ؛ لأننّا سنكفيكَ أمرَ المُسْتَهزئين، فقد جاء في كتبِ التّفسير: أنَّ رؤساءَ المُستهزئين ورؤوسَهم، ممّن لهم قوَّةٌ وشَوْكَةٌ ورئاسَةٌ، كانوا خمسةً، وكلُّهم ماتَ قبلَ بدرٍ[2]، فتكونُ كفايتُهم بإهلاكِهم، بعدَ الأمر بالصّدع، ويُؤيّدُه قولُه تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ على معنى الاستقبال، ونُكْتَةُ التّعبيرِ بصيغة الماضي: الإيذانُ بقُربِه وتَحَقُّقِ وقوعِه، لإخبار اللّه تعالى به، وأنَّه تعالى قد قضى بهذا الأمر، كأمور القيامة ذُكِرَتْ أكثرُها بصيغة الماضي لهذا[3].

فائدةُ الخطاب في قوله: ﴿كَفَيْنَٰكَ﴾:

مَن يدافعُ اللهُ عنه فهو عظيمُ القَدْر عندَه

جاء الكلامُ على طريق الخطاب لرسول اللّه ﷺ، كما هو حال السّياق، وفيه إشعارٌ بعُلوِّ قَدْرِه ﷺ، وعِظَمِ مَنْصِبِه؛ إذ يدافع اللّهُ تعالى عنه، ويحميه مِنَ المُستهزئين.

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/97، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 11/202.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 17/159.
(3) النّسفيّ، التّيسير في التّفسير: 9/227، 231.

دلالة إسناد الكفاية إلى ذات المُستهزئين:

كفاية المُستهزئين تكون بكفاية استهزائهم وذواتِهم

لما كان مَعْنَى الكِفايَةِ هو تَولّي الكافي ما يَهمُّ المَكْفيَّ ممّا هو معنًى أو حدثٌ، وليس ذاتًا، فالكافي هو مُتَولّي عَمَلٍ عَنْ غَيْرِه؛ لِأَنَّهُ أَقْدَرُ عَلَيْه، أَوْ لِأَنَّهُ يَبْتَغي راحَةَ المَكْفيّ، ولمّا كان المفعول الثّاني للفعل (كفى) هو المُهِمَّ المَكْفيَّ مِنْهُ، وهو هنا ﴿ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ﴾ وهو اسم ذاتٍ؛ كان المرادُ بكفاية المُستهزئين كفايةَ أحوالِهم، التي يدلُّ عليها المقام، والمرادُ: كَفَيْناكَ الِانْتِقامَ مِنْهُم، وإراحَتكَ مِن اسْتِهْزائِهِم، وكانوا يَسْتَهْزِئونَ بِصُنوفٍ مِنَ الِاسْتِهْزاءِ.

ونُكْتَةُ إسناد الكفاية إلى ذات المُستهزئين، إذ لم يقل مثلًا: (إنّا كفيناك استهزاءهم)؛ الإشعار بأنَّه تعالى يكفي رسولَه ﷺ ذواتَهم واستهزاءهم، فلو قيل: كفيتُكَ عدوَّك؛ كان أبلغَ مِن: كفيتُكَ أذى عدوِّك[1].

فائدة (أل) في لفظ: ﴿ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ﴾:

الاستهزاءُ بالقرآن كفرٌ، سواءٌ كان الاستهزاء كثيرًا أو قليلًا

التَّعْريفُ في المُسْتَهْزِئينَ لِلْجِنْسِ، فيُفيدُ العُمومَ، أيْ: كَفَيْناك كلَّ مُستهزئٍ، ويدخل في الذّمِّ والعقوبةِ مَن كثر استهزاؤه وعَظُم، ومَن قَلَّ استهزاؤه وصَغُرَ، ويدخل فيه المُستهزئون مِنْ أكابرِ الكُفّارِ وأهْلِ الشَّوْكَةِ من قريشٍ دخولًا أوّليًّا، وإذا كَفاهُ اللّه أمرَهُم بِقَمعِهِم وتَدْميرِهِم، كَفاهُ أمرَ مَنْ هو دونَهُم بِالأَوْلَى[2].

نُكْتَةُ التّعبيرِ بالوصف في قولِه: ﴿ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ﴾:

تهويلُ شأنِ الاستهزاء برسول الله ﷺ أو بالقرآنِ

التَّعْبيرُ عَنْهُم بِوصْفِ المُسْتَهْزِئينَ إشعارٌ بأنَّهم عريقون في الاستهزاء برسولِ اللّه ﷺ وبما جاء به؛ لتهويل شأنِ الاستهزاء به ﷺ، أو بالقرآنِ ولو كانَ قليلًا، وفيه إيماءٌ إلى أنَّهُ تعالى كَفاهُ استهزاءَهُم، وهو أَقَلُّ أَنْواعِ الأذَى، فكِفايَتُهُ ما هو أَشَدُّ مِنَ الِاسْتِهْزاءِ مِنَ الأذَى مَفْهومٌ بِطَريقِ الأَحْرَى والأولى[3].

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/89.

(2) الشّوكانيّ، فتح القدير: 3/173، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/89.

(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/97، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/89.

بلاغةُ الكناية:

قولُه تعالى: ﴿إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ﴾، وفيه: أنّه لـمّا تولّى اللّهُ تعالى كفايةَ رسولِه ﷺ في كفايته المُسْتَهْزِئينَ، أفاد بلازمِه أنّ المستهزئين لن يصلوا إليكَ، ولن يُؤَثِّروا في جَهْرك بالدّعوة بشيء يُمليه استهزاؤهم، فإنَّنا كفيناك المُستهزئين واستهزاءَهم، وهذا ضمانٌ منه سبحانه لكفايةِ رسولِه أمرَ المُستهزئين، وحمايته له ﷺ منهم.

ضمانُ حمايةِ اللهِ رسولَه ﷺ لتأمين أمرِ الدّعوة ونشرِها

بَراعةُ ذِكْر المُستهزئين بعد المشركين، والمقصود فريقٌ واحد:

لمّا أمر اللّهُ تعالى رسولَه بالصّدع بالقرآن وبالدّعوة إلى الإسلام، وكان المقصود تفرّغ رسولِ اللّه ﷺ لأمر الدّعوة، وعدمُ الانشغالِ بأيِّ أمرٍ عنها؛ أعقبه بالأمر بالإعراضِ عنِ المشركين، فأسندَ الإعراضَ عنهم إلى رسول اللّه ﷺ.

من بلاغة القرآن دقّةُ اختيارِ اللّفظ المناسبِ للمعنى وللنّظم

ولـمّا كان المُستهزئون يشغلون رسولَ اللّه ﷺ عنِ الصّدع بالقرآن، ويَقسون عليه صرفًا له عن أداء مهمّته، فلا جرم أنّ اللّه وكلَ أمرَهم إليه ﷺ، ولـمّا كان الإعراض بمعنى عدمِ الالتفات إلى إساءَةِ المشركين وعتابِهم ولومِهم، ولم يكن في الإشراكِ معنى التّعدّي بالأذى على رسولِ اللّه ﷺ، فليس كلُّ مشركٍ مُستَهْزِئًا؛ أُسنِدَ إلى رسول اللّه ﷺ الإعراضُ عنِ المشركين، ولـمّا كان الاستهزاءُ سلوكًا عدوانيًّا، لا قولًا ساخرًا فحسب، وكلُّ مُستهزئٍ كافرٌ؛ أسند اللّهُ كفايةَ المُستهزئين إليه سبحانَه، وهذه بلاغةٌ عالية في إسناد كلّ فعلٍ إلى مَن يناسبُه ويُلائمُه.

دلالة السّين والتّاء في لفظ: ﴿ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ﴾:

السّين والتّاء للمبالغة، بمعنى أنَّ المستهزئين كانوا يبالغون في استهزائهم ويكثرون منه حتَّى صار وصفًا ثابتًا لهم، ولشِدَّة مبالغتِهم في استهزائهم برسولِه الكريم ﷺ، ولِهولِه وقُبْحِه عند اللّه تعالى؛ كان الاستهزاءُ في المعنى أشدَّ مِن شركهم؛ إذ جعل

الاستهزاء بالله أو بالرّسول أو بالقرآن هو كفرٌ لا محالة

﴿ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ﴾ منعوتًا، ونعتَهم بالشّرك في قولِه: ﴿ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۚ﴾؛ لأنَّ الاستهزاء يتضمّن معنى الكفرِ وزيادة، فصحَّ وصفُهم بالشّرك، على معنى الإيضاح وزيادة المعنى كما سيأتي.

فائدةُ حذفِ متعلَّق ﴿ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ﴾:

لمّا حَذَفَ متعلَّق الوصف ﴿ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ﴾ فلم يقل: (المستهزئين بكَ أو بالقرآن)، فقد أفاد عمومَ الاستهزاء، ودخل فيه الاستهزاءُ برسولِ الله ﷺ دخولًا أوّليًّا.

الاستهزاء بالدّين مذمومٌ، أيًّا كان نوعُه وشكلُه

دلالةُ الوصفِ بالاسم الموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾:

جاء الوصفُ في قولِه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۚ﴾ بالاسم الموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾؛ لزيادة إيضاحٍ للمُستهزئين الذين كانوا في وقتِ الرّسول ﷺ، فهو وصفٌ كاشفٌ وليس صفةً مقيّدةً، فكأنَّه حَدّد المقصودَ وعيَّنَه بذِكْر الصّلة التي تُشير إلى أنّها معلومةُ الانتساب، إلى مشارٍ إليه معيَّنٍ عند المخاطَب، وتقدّم أنَّ رؤساءهم كانوا خمسةً، وكانَ هَلاكُهُمُ العَجيبُ المَحْكيُّ في كُتُبِ السّيرَةِ صارِفًا أتْباعَهُم عَنِ الاسْتِهْزاءِ لِانْفِراطِ عِقْدِهِم، وفي وصفِهم بأنَّهم يَجْعَلونَ مَعَ الله إلهًا آخَرَ ذمٌّ لهم، وتشويهٌ لحالِهم، ووعيدٌ لهم، وتَسْلِيَةٌ لرسولِ الله ﷺ بِأنَّهُم ما اقْتَصَروا عَلَى تماديهم في الاستهزاء والِافْتِراءِ عليه، فقَدِ افْتَرَوْا على الله تعالى، واجترؤوا على العظيمة، التي هي الإشراك بالله سبحانه أيضًا[1].

تقبيح أمرِ المستهزئين بالدّين، في جمعهم بينَ الشّرك والاستهزاء

دلالةُ لفظِ ﴿يَجْعَلُونَ﴾:

قوله: ﴿يَجْعَلُونَ﴾ هنا بمعنى: يزعمون أنَّ مع الله إلهًا آخَر؛ إمّا في التَّسمية، أي: يسمّون مع الله إلهًا آخر، وإمّا في العبادة، أيْ: يعتقدون في عبادتِهم أنَّ مع الله إلهًا آخرَ[2]، فيكون الجَعْلُ بمعنى

ادّعاءُ الشّريكِ لله تعالى اختلاق، لا ينبغي أن يكون أصلًا

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/92، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/90.
(2) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنّة: 6/468.

القولِ والاعتقاد، وفي التّعبير بالجَعْل تعجيبٌ مِن حالِهم، فكأنَّهم قدِ اختلقوا زعمًا لم يكن له مثالٌ سابقٌ، للإشعار بأنَّ مثل هذا الزّعم لا ينبغي أن يكون أصلًا؛ لمخالفتِه العقلَ والواقعَ.

نُكْتَةُ التّعبيرِ بالمضارع:

عبِّرَ بصيغة المضارع في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَجۡعَلُونَ﴾؛ لِلْإشارَةِ إلى استمرارِهم على ذلك، وتجدُّد الأمرِ عندهم حالًا فحالًا، وفيه استحضارٌ للحالةِ[1]، ففي التّعبير بالمضارع زيادةٌ في توبيخِهم وذَمّهم.

ذِكْرُ الجريرة بصيغة المضارع الدّالّ على الاستمرار، زيادة في التّوبيخ والذّمّ

دلالةُ التّعبير بالمعيَّة:

لـمّا كان لفظ ﴿مَعَ﴾ في قوله تعالى: ﴿يَجۡعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ﴾ يُفيد أنَّ ما بعدَه هو الأصل؛ نبَّه بذلك إلى أنَّ اللّه تعالى هو الإلهُ الواحدُ الأحَدُ، وأنَّهم أخطؤوا وظلموا حين جعلوا مع الإله الواحد إلهًا آخر، ولـمّا كان لفظُ ﴿مَعَ﴾ ظرفًا يكون للمكان والزّمان، أفادَ أنَّهم كانوا يجعلون معَ اللّهِ إلهًا آخَر في مكان عبادتِهم، وفي كلِّ وقتٍ.

الإشراكُ بالله ظُلْمٌ عظيم، كما نصّ عليه القرآن الحكيم

نُكْتَةُ التّعبيرِ بلفظ الجلالة ﴿ٱللَّهِ﴾:

عبّر بلفظ الجلالة ﴿ٱللَّهِ﴾ العَلَم على الذّات الإلهيَّة الجامع لصفاتِ الجلال والجمال، في قوله تعالى: ﴿يَجۡعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ﴾؛ للإيذانِ بقُبحِ فِعْلِهم واعتقادِهم، وللإيذان بالتّعجيب مِن حالِهم؛ إذ جعلوا مع اللّه إلهًا آخر مع ما رأوا مِن آياته الدّالَّة على توحيدِه وجَلاله وكمالِ أوصافِه[2].

الإشعارُ بتوحيدِ الله وكمالِ أوصافِه، مانعٌ مِنَ الشّرك ومظاهره

بَراعةُ ذِكْر لفظ ﴿إِلَٰهًا﴾ دون (ربًّا):

لـمّا كان المشركون معترفين بربوبيَّة اللّهِ تعالى، وخَلْقِه لهم، وكانوا يجعلون معَ اللّه إلهًا آخَرَ في عبادتِهم، وليس في اعتقادِهم؛ أفادَ أنَّهم كانوا يُشركون معه تعالى في مقتضى الأُلوهيّة، أي: في الأوامر والنّواهي والمعتقدات الباطلة.

الشّركُ في الأوامر والنّواهي والمُعتقدات، جُرْأةٌ على الله في مقتضى الأُلوهيّة

(1) الآلوسي، روح المعاني: 7/328.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/97.

نُكْتَةُ تنكيرِ لفظ ﴿إِلَٰهًا﴾:

أفاد مَجِيءُ ﴿إِلَٰهًا﴾ نكرةً أنَّهم ما كانوا يعبدون إلهًا معيَّنًا، بل كانوا يعبدون أيَّ إلهٍ يوافق أهواءَهم، فلا يَهمّهم نوعُ الإلهِ، بل المُهِمُّ أن يجعلوه إلهًا لهم، يشركون به مع اللّٰه تعالى.

المشركون يعبدون أيَّ إلَهٍ يوافقُ أهواءَهم، وذلك عنوانُ ضلالهم

نُكْتَةُ الوصف بلفظ ﴿ءَاخَرَ﴾:

لمّا كان لفظُ ﴿مَعَ﴾ قد يُفهم الغَيريَّةَ، أي: قد يُفهم أنَّ المعنى: الذين يجعلون غيرَ اللّٰهِ إلهًا، فلا يُفهم معنى التّهديدِ على الإشراك، والحالُ أنَّ المكذِّبين مِن أهلِ مكَّةَ كانوا مشركين، ولا سيَّما مع التَّعبير بالجَعْل؛ زاد في الصّراحة بذِكْر الصِّفَة مُقيِّدَةً للموصوف؛ لنفي كلِّ احتمال بقوله: ﴿ءَاخَرَ﴾، ولئلّا يُظَنَّ أنَّ تعدّد أوصافِ اللّٰهِ وأسمائِه والدّعاءَ بها إشراكٌ باللّٰه تعالى، فالإشراكُ أن يجعلَ المُشركُ مَعَ اللّٰه ذاتًا أُخرى على سبيلِ تأليهها مع اللّٰه ﷻ[1].

الإشراكُ أن يجعل المُشركُ ذاتًا أُخرى، يُؤلّهها مع الله ﷻ

معنى الفاءِ ونوعُها في ﴿فَسَوْفَ﴾:

تُفيدُ الفاء في قوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾؛ التّرتُّبَ، بمعنى: أنَّ الوعيد الشّديد مرتّبٌ على مَن يستهزئون برسول اللّٰه ﷺ وبالقرآن، وعلى مَن يجعلون مع اللّٰه إلهًا آخَر.

ترتّبُ الوعيدِ والعذاب على المُستهزئين باللّٰه وبرسولِه وبالقرآن

نُكْتَةُ ذِكْرِ (سَوْفَ) دون (السّين):

لمّا كان حرفُ التّنفيس (سَوْفَ) فيه بُعْدٌ وتَراخٍ في الزّمن المستقبل أكثرَ مِنَ السّين؛ أشعر بانتظار الوعيدِ والتّهديدِ، وفي انتظار الوعيد تخويفٌ وترهيبٌ لهم، ومِن فوائد التّعبير بـ(سَوْفَ): المبالغةُ في تأكيد الأمر، والإيذانُ بأنَّ الأمرَ كائنٌ لا محالةَ وإنْ تأخَّر، فالغرضُ منه: توكيدُ الوعيد وتثبيتُه، لا كونُه متأخِّرًا[2].

التّعبير بـ(سوْفَ) للمبالغة في تأكيدِ الوعيد، وأنَّه كائنٌ لا محالة وإنْ تأخَّر

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/97.
(2) السّامرائي، معاني النّحو: 4/27.

نكتةُ التّعبير بالمضارع:

قوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾، وفيه: أفاد التّعبيرُ بالمضارع المُقترنِ بـ﴿فَسَوْفَ﴾ وقوعَ علمِهم بالوعيد، وتَحَقُّقَهم مِن عذابِهم في المستقبل لا محالةَ، وأنَّه يتجدّد وقتًا فوقتًا، بما يرون مِنَ الآيات والبيّناتِ.

سوف يتجلّى العِلْمُ بالوعيد، في تحقّق العذابِ الأكيد

بلاغةُ الكناية:

التّعبيرُ بقوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ في سياق الآية؛ يُقْصَد منه لازِمُه، وهو المبالغةُ في التّهديد والوعيد[1]، وفائدة الكناية: الإشعارُ بأنَّ ذِكْر أيِّ نوعٍ مِنَ العذاب لا يناسب ما عملوه؛ لفظاعةِ الاستهزاء برسول الله ﷺ، والإشراكِ بالله وجَعْلِهِمُ القرآنَ عِضين، لتذهبَ النّفسُ كلَّ مذهبٍ في تصوّر العذاب وعِظَمِه.

ترك التَّصريحِ بنوع العذاب؛ لقصوره عن فظاعة الاستهزاء بالرّسول المعصوم

نُكْتَةُ التّعبيرِ بالعِلْم دونَ التَّعبير عنِ المقصودِ مباشرة:

عُبِّر بلفظ ﴿يَعْلَمُونَ﴾؛ للإيذان بأنَّهم سيُحيطون عِلْمًا بالأمر، ولم يقل: (فسوف يَرَون)، أو (فسوف يُعَذَّبون)؛ للتّعريض بجهلهم في كُفرِهم واستهزائِهم، وجَعْلِهِمُ القرآنَ عِضين، ولو كان عندَهم وصفُ العِلْم الصّحيحِ لما فعَلوا ما فعَلوا، ففيه إهانةٌ لهم؛ لأنَّ التّعبير يُؤْذِنُ بأنَّهم الآن يجهلون، وسوف يعلمون في المستقبل عاقبةَ أمرِهم.

الاستهزاء بالقرآن وبالرّسول ﷺ جَهْلٌ

نُكْتَةُ حَذْفِ مفعولِ الفعلِ:

حُذِفَ مفعولي ﴿يَعْلَمُونَ﴾ لإفادة العموم، والمعنى: فسوف يعلمون ما يلقون من عذاب الله عند مصيرهم إليه في القيامة، وما يَحِلّ بهم مِنَ البلاء، وسوف يعلمون شِدَّةَ بطشنا وقُدرتنا على ما نريد، ليكون وازعًا لغيرهم، وسوف يعلمون سوء ما عملوا مِنَ الاقتسام، والعِضَة، والاستهزاء برسول الله وأصحابه، إذا نزل العذاب بهم، وسوف يعلمون عاقبةَ ما يأتون وما يذرون في الدّنيا والآخرة[2].

سيعلمُ المُستهزئون وغيرُهم سوءَ عاقبتِهم على استهزائِهم وتكذيبِهم

(1) ابن جرير، جامع البيان: 17/159، والسّمعانيّ، تفسير السّمعاني: 3/155، وأبو حيّان، البحر المحيط: 6/498.

(2) ابن جرير، جامع البيان: 17/159، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/218، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/92.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الاستهزاء والسُّخريَةُ:

الاستهزاء فيما يُظنُّ فيه القوّة أو حُسْنُ الرّأي، والسّخريَةُ فيما يُظنُّ فيه الصَّغارُ والذُّلُّ

والفرقُ بينهما: هو أنّ الإنسان يُستهزَأ به من غير أن يسبق منه فعلٌ يُستهزَأ به مِن أجله، والسُّخْر يدل على فعلٍ يسبق مِنَ المَسخور منه، والعبارة مِنَ اللّفظين تدلُّ عن صِحّة ما قلناه، وذلك أنّك تقول: استهزأتُ به، فتَعَدّى الفعلُ منك بالباء، والباء للإلصاق، كأنّك ألصقتَ به استهزاءً من غير أن يَدُلَّ على شيء وقع الاستهزاءُ مِن أجله، وتقول: سَخِرتُ منه، فيقتضي ذلك مَن وقعَ السُّخْر مِن أجله، كما تقول: تعجّبتُ منه، فيَدُلُّ ذلك على فعلٍ وقعَ التَّعَجُّب مِن أجله، والهُزء يجري مجرى العبث، ولهذا جاز: هَزَأتُ مثل عبَثْتُ، فلا يقتضي معنى السُّخريةِ؛ فالفرق بينهما بيِّنٌ[1]، كما أنَّ الاستهزاء هو بمعنى السّخرية على وجه التّعدّي، وهو سلوك عدوانيٌّ، وأمّا السُّخريَة: فهي الإذلال والتّحقير والتّنبيه على عيوبٍ ونقائصَ، على وجهٍ يُضحكُ الآخرين، والاستهزاءُ لا يكون إلّا فيما يَظُنُّ النّاسُ فيه القوّةَ والغلبةَ، أو حُسنَ الرّأي وصوابَ القولِ والعمل، والسّخرية قد تكون فيما يَظُنُّ النّاسُ فيه صَغارًا وذُلًّا.

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 254 - 255.

﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [الحجر: 97]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الرّبطُ بين حماية الله لرسوله الأكرمِ، وبين علمِه تعالى بما يقول المُكذّبون المُستهزئون

لـمّا أمر اللّهُ تعالى رسولَه الكريم ﷺ بالصّدع بما يُؤْمَرُ، وأعقبَهُ الأمرَ بالإعراض عنِ المشركين وعدم الالتفات إليهم وإلى مقولاتِهم التي تُسيء إلى رسولِ الله ﷺ وتُحْزِنُه؛ سلّاهُ وطمأنَهُ بقوله: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾.

وأيضًا: لَمّا كانَ الوعيدُ مُؤْذِنًا بإمهالِهم قليلًا كَما قال تعالى: ﴿وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ﴿١١﴾﴾ [المزمل: 11]، وكَما دَلَّ عَلَيْهِ حَرْفُ التَّنْفيسِ في قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾؛ طَمأنَ اللّه نَبيَّهُ ﷺ، بِأنَّهُ مُطَّلِعٌ عَلَى تَحَرُّجِهِ مِنْ أذاهُم وبُهْتانِهِم، مِنْ أقْوالِ الشِّرْكِ وأقْوالِ الاسْتِهْزاءِ، فأمَرَهُ بِالثَّباتِ والتَّفْويضِ إلى رَبِّهِ؛ لِأنَّ الحِكْمَةَ في إمهالِهِم[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَضِيقُ﴾: الضّيقُ ضِدُّ السَّعَةِ، وأصلُه مِن ضِيق المكان، يقال: ضاقَ المكانُ فهو ضَيِّقٌ، ومنه: تضايق القومُ، إذا لم يتوسّعوا في مكانٍ، ولا يكون الضِّيق إلّا فيما جاز فيه الاتّساعُ، وتوصَف به المعاني على سبيل المَجاز، والضِّيقة: الفَقْرُ وسوءُ الحالِ، ومنه: ضِيق المعاش، وذهب بعضُ اللُّغويين إلى أنَّ الضَّيِّقَ بِالتَّشْديدِ: في الأجرام، وبالتخفيف، أي: الضِّيْق، في المعاني، وقيل: بِالكَسْرِ والتَّخْفيف في قِلَّة المعاش والمساكن، وما كانَ في القلب فهو ضَيِّقٌ، بِالتَّشْديدِ، وقيل: بِالكَسرِ في الشدَّة، وبالفتح في الغَمِّ، وضِيْقُ الصَّدر: يَدُلُّ على الحُزن وكَراهةِ ما ضاق به صَدْرُه[2].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/91.

(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (ضيق)، والكفويّ، الكلّيّات، ص: 574.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

تسليَةُ النّبيِّ محمّد ﷺ، وتصبيرُه على أذى قومِه وسفاهتِهم

لمّا أوْعَدَ اللّهُ تعالى المُستهزئين الذين يُشْرِكون باللّه تعالى، سَلّى نبيَّه ﷺ وصَبَّره في هذه الآية، فقال له ما معناه: ولقد نعلم يا محمّد ﷺ أنَّك يضيق صدرُكَ بما يقول هؤلاء المشركون مِن قومك، مِن تكذيبهم إيّاكَ، واستهزائهم بكَ وبما جئتَهم به، وأنّ ذلك يُحَرِجُك ويُحَزِنُك[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ الواو في الآية الكريمة:

تأرجُح الواوِ بين عِدّة معانٍ، دليلٌ على بلاغة الحرف في السّياق

تحتمل الواو في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾؛ أن تكون عاطفةً لهذه الجملة على جُملَةِ: ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ﴾؛ لتكون الجملتان على معنى التّعليل للأمرِ بالصّدع بالقرآن وبالدّعوة إلى الإسلام، والتّسلية له ﷺ، وتحتمل الواو أن تكون للحال، فتكون جملةُ ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾ حالًا، وتحتمل أيضًا أن تكون استئنافيَّةً؛ لتُفيدَ استئنافَ الكلامِ، والتّمهيدَ لما بعدَها مِنَ الأمر بالتَّسبيحِ بحمد اللّه والسّجودِ له وعبادتِه[2].

فائدة التّوكيد في: ﴿وَلَقَدْ﴾:

السّياق لإفادة تحقُّق التّسليةِ، وتحقيقِ عنايةِ الله برسولِه ﷺ

تحليَةُ الجملةِ بتوكيدين، أي: باللّام الموطّئة للقَسَم وبـ (قَدْ)؛ لإفادة تَحَقُّق ما تضمَّنته الجملةُ مِنَ التَّسلية، وليس لدفعِ الشّكِّ، فلَيْسَ المُخاطَبُ مِمَّنْ يُداخِلُهُ الشَّكُّ في خَبَرِ اللّه تَعالَى، ولَكِنَّ التَّحقيقَ كِنايَةٌ عَنِ الاهْتِمامِ بِعِلْمِ اللّه تعالى، بما في رسول اللّه ﷺ مِن ضِيق الصّدر، وأنَّهُ بِمَحَلِّ العِنايَةِ مِنَ اللّه[3]، ولـمّا أكّد اللّهُ تعالى

(1) ابن جرير، جامع البيان: 17/159.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/91.

(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/93، والآلوسي، روح المعاني: 7/328، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/91.

عِلْمَه بالأمر، وكان الوعيدُ للمُتسبّب بالضّيق لازمًا لعلمِه سبحانه كما يأتي؛ كانَ مرجعُ توكيدِ العِلْم إلى توكيد الوعيد لهم[1].

نُكْتَةُ التّعبيرِ بالمضارع ﴿نَعْلَمُ﴾:

صيغة المضارع لإفادة الإعلام باستمرار عِلْمِه تعالى بضِيق صَدرِه ﷺ، باستمرار ما يوجِبُه مِن أقوال الكَفَرة[2]، وفي الإخبار عن أنَّه تعالى على علمٍ بما يَضِيقُ به صَدرُ حبيبِه ورسولِه ﷺ إيذانٌ بالوعيد لِمَن هو سببٌ في ضيق صدرِه الشّريف ﷺ؛ لأنَّه ليس المقصود مِنَ الخبر مُجَرَّدَ إثباتِ عِلْم الله بالأمر، بل المقصودُ مآلُه وعاقبتُه، وهو مُجازاتُهم بالعقوبة المناسبة لهم.

الوعيدُ لِمَن تسبَّبَ في ضيق صَدره الشّريف ﷺ

دلالةُ التّعبير بالمصدر المُؤوّل في قولِه: ﴿أَنَّكَ﴾:

أفاد التّعبيرُ بالمصدر المؤوَّل أنَّ الوعيد اللّازم للخبر هو بسبب ضيق صدر رسولِ الله ﷺ، مِن غيرِ نظرٍ إلى أيِّ وصْفٍ آخر مصاحبٍ له، فلا ينظر إلى تقييد المصدر بكثرة الضّيق ولا قِلّته، والمعنى: أيُّ ضيقٍ لصَدرِه الشّريف بسبب ما يقولون، يستحقّون به الوعيد الشّديد، ففي التّعبير بالمصدر المُؤوَّل تحصينٌ للكلامِ مِنَ الإشكال في الفهم، بأن يُتَوهَّمَ تقييدُ المصدرِ بقيدٍ ما، وتخليصٌ له مِن شوائب الإجمال في الوصفِ؛ لأنَّ المصدر المؤوّل لايأتي معه وصفٌ أصلًا[3].

ما يقوله الكَفَرةُ ممّا يضيق به الصّدرُ النّبويّ، يستحقّ الوعيد الشّديد

فائدة (أنَّ) في السّياق الحكيم:

أفادت (أنَّ) من قوله تعالى: ﴿أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ﴾، تقريرَ ضِيق صدرِ رسولِ الله ﷺ بما يقوله الكَفَرةُ، مِنَ الشّرك والطّعن في القرآن والاستهزاء به ﷺ، وأنَّه كان مُؤثّرًا فيه ﷺ.

معاناة النّبيّ الأكرم مِنَ الأقاويل المُنكرة، نموذجٌ للدّعاة في كلّ العصور

(1) إسماعيل حقّي، روح البيان: 4/493.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/9، والآلوسي، روح المعاني: 7/328.
(3) ابن القيم، بدائع الفوائد: 1/93، والسّامرائيّ، معاني النحو: 3/147.

بديعُ الجناس بين: ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ و﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ﴾:

علمُ النّاسِ ناقصٌ يسبقه الجهلُ، وعلمُه سبحانَه مطلقٌ لا يسبقه جهل

جاء الجناس النّاقص في الفعلين: ﴿يَعْلَمُونَ﴾ و﴿نَعْلَمُ﴾؛ للإشارةِ إلى أنَّ علمَ النّاس ناقصٌ لسبقِه بجهلٍ، وعلمَه سبحانَه تعالى مطلقٌ لا يسبقه جهلٌ، وأنَّ المُستهزئين سيعلمون ما يجهلون بما يُعَلِّمُهمُ اللّه تعالى مِن علمِه الكامل المُطْلَق، ففيه تنبيهٌ إلى الفَرق بين عِلْم النّاس، ويدخل فيه ما سيعلمه المستهزئون دخولًا أوّليًّا؛ وبين علم اللّه الإلهِ الواحدِ الأحدِ.

سِرُّ دخولِ (أنَّ) على ضمير الخطابِ دون ضمير الشّأن:

علمُ الله تعالى وعنايتُه ولُطْفُه بكلِّ ما يُصيبُ رسولَه ﷺ

لمّا دخلت (أنَّ) على ضمير الخطابِ المُشار به إلى رسولِ اللّه ﷺ، ثمَّ أخبر عنه بالجملة الفعليَّة التي أُعيد فيها ضميرُ الخطاب لقصد ربطِ المسنَد بالمسنَد إليه؛ كان الكلام على معنى الاهتمام برسولِ اللّه ﷺ؛ ليفيدَ تعلُّقَ عِلْمِه تعالى بذاتِه، وبضيق صَدْره ﷺ كذلك، وليُؤْذِنَ بأنَّ ضيق صدرِه ﷺ يُؤَثّر في ذاتِه، ولهذا لم يقل: (ولقد نعلم أنَّه يضيق صدرك) مثلًا، ففي دخول (أنَّ) على ضمير الخطاب وتكريره في الخبر، تأكيدٌ لعلمِ اللّه تعالى وعنايتِه ولُطفِه بكلِّ ما يصيبُ رسولَه ﷺ.

نُكْتَةُ تقديمِ المُسنَدِ إليه ﴿صَدْرُكَ﴾ على الجارّ والمجرور:

المرادُ الوعيدُ لهم بسببِ قولِهم الّذي يضيق به صَدرُ الرّسولِ الخاتم

قُدِّم المسنَد إليه على الأصل، فيكون مِن تقديم ما حَقُّه التّقديم؛ لقصد تمكّن إسناد الفعل لفاعلِه في الذّهن، ولأنَّه ليس المرادُ تخصيصَ ضيقِ الصّدرِ بسبب ما يقولون، بل الوعيدَ لهم بسبب قولِهم الذي يضيق به صدرُ رسولِ اللّه ﷺ، وأمّا تقديم الجار والمجرور في قولِه تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَضَآئِقٌۢ بِهِۦ صَدْرُكَ﴾ [هود: 12]، فهو للتّنبيه على الاهْتِمام بِالْمُتَعَلَّق؛ لِأَنَّهُ سَبَبُ صُدورِ الضّيقِ عن الصّدر، كما أنَّ في تقديم الجارِّ والمجرور، ومَجيءِ المصدرِ المُؤول؛ تفسيرًا للضّمير في ﴿بِهِۦ﴾ [هود: 12]، وتمكينًا

للمعنى في ذِهن المخاطَب، واهتمامًا به، ولو جاء الكلامُ من غيرِ ضميرٍ مُجْمَلٍ يُفَسِّره ما بعدَه، وقيل: (وضائقٌ بأن يقولوا لولا أنزل عليه كنزٌ أو جاء معه ملكٌ صَدرُك)؛ لطال البُعْدُ بينَ اسم الفاعل ومرفوعِه، وضَعُفَ تأليفُ الكلامِ، وهو ظاهرٌ[1].

بلاغةُ مَجيءِ المُسنَد جملةً فعليَّة:

مقولاتُ المُستهزئين لن تجعل المؤمنين يتخلَّون عن دعوتِهم، ولا عن البلاغ

أفاد مَجيءُ المسنَد في قولِه تعالى: ﴿أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ﴾ جملةً فعليَّةً؛ تقويةَ حُكمِ ضيقِ صَدرِ رسول الله ﷺ، وتحقيقَه بسبب ما يقولون، والإشعارَ بأنَّ قولَهم لا يُغَيِّر من حقيقة ألوهيّة اللهِ تعالى وتوحيده، ولا يجعل رسولَ اللهِ ﷺ يتخلَّى عن رسالتِه ودعوتِه، وأنَّ ضيقُ صدرِه الشّريف ﷺ لا يأتي منه إلّا حُزنًا على الافتراء، وأسفًا عليهم لعدم إيمانهم.

فائدة التّعبير بالمضارع ﴿يَضِيقُ﴾:

أقْصَى ما يُتَوقَّعُ هو ضيقٌ يَعْرِضُ لَهُ بسبب قولِ الكفّار وافتراءِ المُستهزئين

عبّرَ بصيغة المضارع للإشعار بتَجدّد ضيقِ صَدرِ الحبيب سيّدِنا محمَّد ﷺ، بسبب ما يقولون مِنَ الاستهزاء والافتراء[2]، كما أنَّه لمّا حُذِف متعلَّق ﴿يَقُولُونَ﴾ في الآية أفاد عمومَ ما يقولون مِن قبيح الافتراء على الله وعلى القرآن، والاستهزاء برسول الله ﷺ والافتراء عليه، كما يأتي، فكان التّعبير بصيغة المضارع الدّالِّ على تجدّد الحَدَثِ أنسبَ وأوفقَ لعموم المَقول، بمعنى أنَّه يتجدّد كلَّما افتروا على الله تعالى، أو استهزؤوا بك، أو كذّبوا القرآن، أو أعرضوا عنِ الاستجابة، وأفاد أنَّ ضيق صدره الشَّريف ﷺ ليس وصفًا لازمًا فلم يتمكّنِ الضّيقُ من صدره؛ لأنَّ الله تعالى شرح له صدره، ولـمّا قال تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَضَآئِقٌۢ بِهِۦ صَدْرُكَ أَن يَقُولُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ﴾ [هود:

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/17.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/98.

12]، فقيَّد القول بأمرين فقط: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌۚ﴾ [هود: 12]؛ ناسبَه ذكر اسم الفاعل الدّالِّ على أنَّه ضيق عارضٌ غيرُ ثابتٍ ولا مُتجَدِّد، كما أنَّ في ذكر ﴿وَضَآئِقٌۢ﴾ [هود: 12] مناسبَةً في اللّفظ، ومراعاةً للنّظير مع قوله تعالى: ﴿تَارِكٌۢ﴾ [هود: 12]؛ لِأنَّ ذَلِكَ أَحْسَنُ فصاحَةً.

وفي التّعبير بصيغة المضارع أو باسم الفاعل إيماءٌ إلَى أنَّ أقْصَى ما يُتوقَّعُ في جانِبِهِ ﷺ هو ضيقٌ قَليلٌ يَعْرِضُ لَهُ بسبب قولِ الكفّار وافتراء المستهزئين[1].

بلاغةُ إسناد الضّيق إلى الصّدر دون القلب:

الضّيقُ والانشراح مِن أوصاف الصّدرِ وليس القلب

عبّرَ بـ﴿يَضِيقُ صَدْرُكَ﴾ دون قلبكَ؛ لأنَّ الضّيق لا يستعمل مع القلب، فلا يقال: ضاق قلبُه، فالضّيق إنّما يكون لما يأتي منه الاتّساع في المكان، وهو يكون في الصّدر لا في القلب، ولهذا استعمل الانشراحَ في الصّدر وهو ضِدّ الضّيق، كما في قولِ موسى فيما يحكيه اللّهُ تعالى عنه: ﴿رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴿٢٥﴾﴾ [طه: 25]، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾﴾ [الشرح: 1]، كما أنَّ قلبَه ﷺ لا يَضِيق أبدًا؛ لأنَّه ممتلئٌ بالإيمان باللّه، وفي حالةِ شهودٍ للّه تعالى دائمًا، وذهبُ بعض المفسّرين إلى أنَّه كُنّيَ بِالصَّدْرِ عَنِ القَلْبِ؛ لِأنَّ الصَّدرَ مَحَلُّ القلبِ، فيكون مِنَ المجاز المرسل، بذكر المَحلِّ وإرادة الحالِّ[2]، ولم يَرِد في القرآن ذِكْرُ ضيق القلب.

بلاغة التّعبير بين المجاز والكناية:

الكَرْبُ مع الضَّيقِ، كما أنَّ الرّوحَ مع السَّعةِ

قوله تعالى: ﴿يَضِيقُ صَدْرُكَ﴾، لمّا أسند الضّيقَ إلى الصَّدر كان على طريق المجاز؛ للتّعبير عن غَمّه ﷺ وأسَفِه على تخلّيهم عنِ الإيمانِ، وكَدَرِ نفسِه مِن قول المشركين فيما يفترونه على اللّه

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/382، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/154.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/499.

تعالى وعلى القرآن، وفي استهزائِهم به ﷺ، وفي المَجاز كنايةٌ عن كراهة رسولِ الله ﷺ ما يقولونه، ويُحتمَل أن يكون التّعبير بضيق الصّدر كنايةً عنِ الغَمِّ والهَمِّ، ويُنتقل منه إلى كراهة رسول الله ﷺ ما يقولونه كذلك[1].

دلالة الباء في قوله: ﴿بِمَا يَقُولُونَ﴾:

الباء سببيَّة، أي: يضيق صدرك بسبب ما يقولون[2].

الأقاويلُ الباطلة يضيق بها الصّدرُ

نُكْتَةُ التّعبيرِ بالاسم الموصول (ما) دون (الّذي):

عُبِّرَ بالاسم الموصول (ما) دون الذي؛ لأنَّها أكثرُ عمومًا مِن (الذي)، وأيَّد هذا المعنى حَذْفُ معمولِ الفعل ﴿يَقُولُونَ﴾، ليُفيدَ التّعبيرُ بـ(ما) توبيخَهم على كلِّ ما يقولون، فكأنَّه لا يصدر منهم إلّا القولُ المُنكر، وإلّا الافتراءُ على الله ورسولِه ﷺ.

المُستهزئون لا يصدر منهم إلّا القولُ المنكر، والافتراءُ على الله ورسولِه

بلاغةُ التّعبير بالاسم الموصول وصلتِه:

في قوله تعالى: ﴿بِمَا يَقُولُونَ﴾، لمّا أفاد الاسمُ الموصول توبيخَ عمومِ ما يقولون؛ كان التّعبيرُ بالصّلة ﴿يَقُولُونَ﴾ للإشعارِ بأنَّ ما يقولونه مشهورٌ ومعلومُ الانتسابِ إليهم بينَ المُخاطَبين، ففيه إهانةٌ لهم وتقريرٌ لتوبيخِهم؛ للإيذانِ باشتهارِهم بقبيح القولِ.

توبيخُ مَن يشتهر بقبيح القول أو العملِ وإهانتُه

فائدةُ حذفِ متعلَّق ﴿يَقُولُونَ﴾:

أفاد حذفُ متعلَّق القولِ العمومَ، أي: ولقد نعلم بما يقولون على الله مِنَ الشُّركاء والصّاحبة والولد، وبما يقولون فيك مِنَ النِّسبة إلى السِّحرِ والشِّعرِ وغيرِ ذلك، وبما يقولون في القرآن مِنَ السّحر وأساطير الأوّلين، وغيرِ ذلك.

تهويلُ شأنِ الافتراء على الله وعلى رسولِه وعلى القرآن

ولمّا توعّدهم على ما يقولونَ، وحذف متعلَّقَ القولِ؛ أفادَ الحذفُ

(1) الزّمخشريّ، أساس البلاغة: (ضيق)، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 11/204، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/91.

(2) الخازن، لباب التّأويل: 3/65، وأبو حيّان، البحر المحيط: 6/499.

أنَّ كلَّ ما يقولونَه يدخل في الوعيد، وأنَّه باطلٌ ومن سوء القولِ وقبيحِه، مع أنَّهم كانوا يتكلَّمون في أمور معاشِهم وعاداتِهم كذلك، والنّكتةُ فيه: الإشعارُ بأنَّ القولَ الذي يُؤاخَذُ عليه الإنسانُ ويحاسبُ؛ هو ما يفترونه على اللّه ورسولِه، وعلى القرآن وما سواه، كأنَّه لا يُسَمَّى قولًا ولا يُعْتَدُّ به؛ تعظيمًا لشأنِ الافتراء بالقولِ وتهويلًا له.

بلاغةُ الكناية:

في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾، لـمّا كان رسولُ اللّه ﷺ على عِلْمٍ بأنَّه تعالى يعلم به وبأحوالِه ﷺ كلِّها؛ كان الخبرُ على طريق الكنايةِ بإرادةِ لازم المعنى، وهو أمرانِ:

أحدهما: تصبير رسولِ اللّه ﷺ على أذى قولِهم، والتَّسلّي عن ذلك، وتركِ مجازاتِهم، والمعنى: اتركْ أمرَ مُجازاتِهم علينا، واشتغل بما هو أهمُّ لك، مِنَ التّسبيح والعبادة، فنحن على علمٍ بما يكون منهم.

أمـرُ المُستهزئين راجـعٌ إلى الله، وما على المؤمنين سـوى تـفـويـضِ الأمرِ لله

واللّازم الثّاني: هو تهديد الذين يتقوّلون على رسول اللّه، ويكونون سببًا في ضِيقِ صدرِه وأذيَّتِه، بأنَّه تعالى على علم بما يقولون ويفعلون، وأنَّه سيحاسبُهم ويعاقبهم، وأنَّه تعالى إنَّما يُنشِئُهم ويمكّنُهم امتحانًا واستدراجًا منه لهم، كما تقول لَمن تُهَدِّدُه على قولِه أو عملِه وأنَّه سيُعاقَب عليه: أنا على عِلْمٍ بما قلتَ أو بما عملتَ[1].

(1) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنّة: 6/469.

﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾﴾ [الحجر: 98 - 99]

مُناسَبَةُ الآيَتينِ لما قَبْلَهُما:

أمرُ الرّسولِ الأكرمِ بالتّسبيحِ والعِبادَةِ، دفعًا لما ذُكِرَ سلفًا مِن ضيقِ صدرِه بما يقولون

لمّا أخبر اللّهُ تعالى عن ضيق صَدرِ رسولِ اللّه ﷺ بما يقولون، فمرَّةً يفترون على اللّهِ، ومرَّةً يُكذِّبونَ القرآنَ ويجعلونه عِضينَ، وأُخرى ينسبون رسولَ اللّه ﷺ إلى السِّحر أو إلى الجنونِ أو إلى الفِريةِ، ومثلُ ذلك يعْظُمُ على المَرءِ ويأنَفُ منه؛ قوَّى اللّهُ قلبَ رسولِه على احتمالِه، وعلى ألّا يجعلَه سببًا للفتورِ في الإبلاغِ والبيانِ، فلذلك جاءت هاتان الآيتان[1].

ثمَّ أعلمَه تعالى بما يزيل ضِيق صَدره ﷺ بأن يفزع إلى تسبيح اللّه تعالى وتحميدِه؛ إذ ذِكْرُ اللّهِ تعالى يُطمئن القلوبَ المؤمنة، فقال تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾.

ولـمّا أمره بعبادة خاصَّة أتبعه بالعامَّة، فقال: ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴾[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلْيَقِينُ﴾: يدور معنى اللَّفظ على ثبوت الشّيء وتحقيقِه ووضوحِه، ويَقِنَ الأمرُ: ثبتَ ووضحَ، واليقينُ مِن صفة العِلْم فوقَ المعرفة والدّرايَة وأخواتها، ويفيد تحقيقَ الأمر، ويقال: عِلْمٌ يَقينٍ، ولا يقال: معرفةٌ يَقين، وهو سكونُ الفَهْم مع ثبات الحُكْم[3]، واليقينُ في الآية بمعنى المَوت؛ لأنَّه موقَنٌ به، ومثلُه قولُه تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ ﴿٤٧﴾﴾ [المدثر: 47][4].

(1) القاضي عبد الجبار، تنزيه القرآن عن المطاعن، ص: 203.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/91، والشّوكانيّ، فتح القدير: 3/173، والقاسميّ، محاسن التّأويل: 6/347.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (يقن).
(4) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 240، وابن جرير، جامع البيان: 17/159، والواحديّ، التّفسير البسيط: 12/675، 22/456.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

الدّعوةُ للتّسبيح والحمد والسّجود، والثّباتِ على ذلك إلى آخر رمق في الحياة

لمّا أخبر اللّه تعالى نبيَّه ﷺ أنَّه يعلم منه أنَّه يضيق صدرُه بسبب ما يقوله الكفّار المُستهزئون في اللّه وفي رسولِه؛ أمره بما يُزيل هذا الضّيق، فقال له ما معناه: فافزع إلى ربّك عند ضيق صدرك، وسَبِّح بحمده شاكرًا له مُثنيًا عليه، وكن مِنَ المُصلّين للّه العابدين له؛ يَكْفِكَ اللّهُ مِن ذلك ما أهمَّكَ، واستمرّ في عبادة ربّك مُدّة حياتِك حتّى يأتيَك الأمرُ اليقينُ علمُه ووقوعُه، وهو الموتُ الّذي هو موقَن به، وامتثلَ رسولُ اللّهِ ﷺ أمرَ ربّه، فلم يزل دائبًا في عبادة اللّه حتّى أتاه اليقينُ مِن ربّه[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

براعةُ التّفريعِ على ضيق الصّدر:

علاجُ ضيقِ الصّدرِ بالتّسبيحِ والتّحميد وكثرةِ السّجود

تُفيد الفاءُ في قولِه تعالى: ﴿فَسَبِّحْ﴾ ترتُّبَ الأوامرِ في الآيتين وتفريعَها على ضيق الصّدر، بمعنى: أنَّ ما بعدَها سببٌ لإزالة ما قبلَها[2].

ويحتمل أن تكون الفاءُ هي الفصيحة التي تفصِحُ عن شرطٍ مقدَّرٍ[3]، والتّقدير: إن ضاق صدرُك بما يقولون، ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾﴾.

وفيها معنى التّرتب والتّفريع كذلك، فإنَّهُ تَعالَى لمّا أمَرَهُ في الآيتين بِأرْبَعَةِ أشْياءَ بالتَّسْبيحِ والتَّحْميدِ والسُّجودِ والعِبادَةِ، وجعلَها مترتّبةً على إزالة ضيق الصّدرِ؛ أفادَ أنَّ هذه الأوامرَ الأربعةَ تُزيلُ ضِيقَ الصَّدر، وتُفيدُ انْشِراحَه، وتوجِبُ ذهابَ الهَمِّ والغَمِّ والكَدَرِ، ففي الآيتين إرشادٌ له ﷺ ولكلِّ مؤمنٍ إلى ما يُكشَفُ بهِ الغَمُّ، كأنَّه قيل: افعلْ ذلك يَكْشِفْ عنكَ ربُّكَ الغَمَّ والهَمَّ الذي تَجِدُه في صدرك.

---

(1) ابن جرير، جامع البيان: 17/159، ونخبة من أساتذة التّفسير، التّفسير الميسر، ص: 267.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/97.

(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 8/4118.

ولـمّا كان أعظمُ ضيقٍ يُصيب المؤمنَ هو الافتراء على اللّه تعالى والاستهزاء برسولِه ﷺ وبالقرآن، وكان التّسبيحُ والتّحميدُ والصّلاةُ والعبادة دواءً لإزالة هذا الهَمّ العظيم؛ كان الأولى والأحرى أن تُزِيل هذه الأمورُ الأربعةُ ضيقَ الصّدرِ الأدنى، والهمَّ الأخفَّ[1].

دلالةُ الجَمعِ في التّسبيح والسّجود بيَن القول والعمل:

الرّبطُ في السّياق بين فعلِ القلبِ وفعلِ الجسد، مِن دقّة البيان

لَمّا كانَ الصّادرُ مِنَ المُسْتَهْزِئينَ يجمع بينَ اعتقادِ القلبِ فيما يستهزئون فيه، وعملِ الجارحةِ، وهو القول الذي يَقولونَه في الرَّسولِ ﷺ وفيما جاءَ بِهِ؛ أمَرَ اللّهُ تعالى نبيَّه بما يُقابِلُ ذَلِكَ مِنَ التَّنْزيهِ للّه عَمّا نَسَبوا إلَيْهِ مِن اتِّخاذِ الشَّريكِ مَعَهُ، مَصْحوبًا بِحَمدِهِ والثَّناءِ عَلَى ما أسْدَى إلَيْهِ مِنْ نِعْمَةِ النُّبوَّةِ والرِّسالَةِ والتَّوْحيدِ، وغَيْرِها مِنَ النِّعَمِ، فهَذا في المُعْتَقَدِ والفِعْلِ القَلْبيِّ؛ وبما يقابل ذلك مِنَ السُّجودِ، وهو من فعل الجارحةِ، فجَمَع في الأمرَين بين فِعْلِ القَلْبِ وفِعْلِ الجَسَدِ[2].

دلالةُ الأمرِ في قولِه: ﴿فَسَبِّحْ﴾:

إرادةُ القولِ بالتّسبيح، واعتقادُ القلبِ بالتّنزيه، معالجةٌ للكَرب الّذي كان فيه

يحتمل أن يكون المرادُ من لفظ ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ المعنى المُتعارف عليه، وهو الأمرُ بقول: (سبحانَ اللّه، والحمد للّه)، أو بقول: (سبحانَ اللّهِ وبحمدِه)، والمعنى: فافزع إلى اللّه تعالى فيما نابَكَ بالتّسبيح والتّحميد؛ يَكفِكَ ويكْشِفِ الغَمَّ عنك، ويحتمل أن يكون المرادُ مِن لفظِ ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ معناه اللّغويّ؛ لأنَّ التّسبيحَ هو التّنزيه، أي: فنزِّهْهُ عمّا يقولون، حامِدًا له على أن هداكَ للإيمانِ[3].

الغرضُ مِنَ الأمر بيَن التّعيين والعمومِ:

الأمرُ بالتّسبيح والصّلاة عند ضيق الصّدر، أمرٌ عامٌّ لكلِّ المؤمنين

جاء الخطابُ في قوله تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ بالأمرِ، وإن كان مع مخاطبٍ معيَّنٍ، وخَصَّ اللّهُ تعالى في

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 1/214، والآلوسي، روح المعاني: 7/328.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/94.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 7/328.

هذه الأوامر رسولَ اللّه محمَّدًا ﷺ، لكنّها عامَّةٌ في سائر النّاس[1]، وهذا مِن عظيم نِعَمِ اللّه على خَلْقِه، فإنَّه ما مِن أحدٍ إلّا ويَضيقُ صدرُه بقولٍ أو عملٍ، فأرشدنا اللّهُ تعالى إلى ما يزيل الضّيقَ بالفَزَع إلى التّسبيح بحمد اللّه، وإلى الصّلاة وعبادةِ ربِّ العالمين.

فائدةُ حرفِ الباء في قولِه: ﴿بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾:

الباء في قوله تعالى: ﴿بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ للمُلابسة، بمعنى لِيَكُن تسبيحُكَ مُلابسًا لحمد ربِّك[2]، فيُفيدُ أنَّ تسبيح اللّه تعالى وتنزيهَهُ عن الشّريك؛ حمدٌ له تعالى وثناءٌ عليه، ويؤيّد هذا المعنى أنَّ الجارَّ والمَجرور: ﴿بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ في موضع نصب، حالٌ مِنَ الفاعل المُستَتِر، وهو مِنَ الحال المُحقّقة المقارنة، والتّقدير: فسبِّح حالَ كونِكَ حامِدًا لربِّك.

مَن سبَّح اللهَ تعالى فقد أثنى عليه بما يليق بجلاله

فائدة الإضافة في قوله: ﴿بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾:

لمّا أُضيف الحمدُ إلى مفعولِه، أفادتِ الإضافةُ معنى الاختصاص، بمعنى: أنَّ الحمد لا يكون إلّا لربِّك، ومثله الإضافة في ﴿رَبِّكَ﴾، فهي على الاختصاص، بمعنى: ليس لك ربٌّ سواه.

الحمدُ لا يليق إلّا لله تعالى، فهو المُختصُّ به سبحانه

سببُ اختيارِ لفظِ ﴿رَبِّكَ﴾:

لم يقل: (بحمد اللّه)؛ لأنّ في التّعرض لعنوان الرّبوبيّة مع الإضافة إلى ضميره ﷺ، ما لا يخفى مِنَ اللُّطف به ﷺ، ففيه إيذانٌ بأنَّ تسبيحَك بحمد ربِّكَ هو تسبيحٌ لمُدَبِّر أُمورِكَ ومُربّيكَ، والمُحسنِ إليكَ بالنّعم العظيمةِ، وفيه إشعارٌ بعِلّيَّة الحُكم، أي: بالأمر بالتّسبيح[3].

تسبيحُكَ بحمد ربِّك، تسبيحٌ لمُدَبِّر مُحسِن إليك بالنِّعم العِظام

مناسبة الوصل بالواو في قوله: ﴿وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾:

عطفَ تعالى قولَه: ﴿وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ على ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ

تقديمُ القولِ باللّسانِ على الفعل بالأركانِ

(1) القاضي عبد الجبار، تنزيه القرآن عن المطاعن، ص: 203.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/98، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 11/204.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/93، والآلوسي، روح المعاني: 7/329.

﴿رَبِّكَ﴾؛ ليكونَ مِن عطفِ الطّلب على الطّلب، على معنى طلبِ التّشريك في الأمرين، ولإفادة تقديمِ القولِ باللّسانِ في الثّناء على اللّه تعالى على الفعل بالأركانِ.

دلالةُ التّعبيرِ بلفظ ﴿وَكُن﴾:

أفاد التّعبيرُ بلفظ ﴿وَكُن﴾ أن يكون شأنُكَ وعادتُكَ هو السّجود، بحيث يكون كونًا جِبلِّيًّا لا انفكاكَ له[1].

كمالُ العبوديّة لله تعالى، أن يكون شأنُك هو السّجودُ له

بلاغةُ التّعبيرِ في تركيب: ﴿مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾:

التّعبيرُ بقوله: ﴿مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ أبلغُ مِن أن يقول: (وكن ساجدًا)؛ لأنَّه أمرٌ له بالسّجودِ، وأمرٌ بأنْ يكون مع جماعةِ السّاجدين، فكأنَّه على معنى الأمرِ بتكرير السّجود والدّوام عليه، وفيه إشعارٌ بأفضليَّة السّجود مع الجماعة، أي: أفضليَّةِ صلاةِ الجماعة.

أفضليَّةُ السّجودِ لله تعالى، في الكينونة مع جموع السّاجدين

نُكْتَةُ التّعبيرِ بصيغة اسم الفاعل:

عبّر بصيغة اسم الفاعل ﴿ٱلسَّٰجِدِينَ﴾؛ للإشعار بأن يكون السّجودُ وصفًا ثابتًا له، وأن يكون مِنَ العريقين في السّجود، ولا يكون هذا المعنى إلّا بكثرة السّجود واعتيادِه، بحيث يكون وصفًا دائمًا له[2].

مَنْ أكثرَ مِنَ السُّجودِ لله كانَ مِنَ السّاجدين

بلاغةُ المَجاز المُرسل:

عبّر عنِ المصلّين بـ ﴿ٱلسَّٰجِدِينَ﴾[3]، على طريق المَجاز المُرسل، مِن إطلاقِ الجُزء على الكُلِّ[4]؛ ونُكْتَتُه: الإشارةُ إلى شَرف السّجودِ المُشتمِل على التّسبيح بالحمد والتَّذلّل والدّعاء، وما ينبغي مِنَ الدّعاء فيه، لا سيما عند الشّدائد، فذَكر مِنَ الصّلاة حالةَ القُرب

شرفُ السّجودِ لاشتمالِه على التّسبيح والتَّذلُّلِ لله

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/98.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/98.
(3) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنّة: 6/469، والواحديّ، التّفسير البسيط: 12/674، والبغويّ، معالم التّنزيل: 3/69، وأبو حيّان، البحر المحيط: 6/94.
(4) الشّهاب، عناية القاضي: 5/544.

مِنَ اللّٰه تعالى، وهي السُّجود، وهي أكرمُ حالاتِ الصّلاة وأقْمَنُها بنيل الرَّحمةِ، والاستعانةُ بالصّلاة يكون في كلِّ الحاجات، فكيفَ في إزالةِ الضّيق عن الصّدر؟ فقد قال تعالى: ﴿وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ﴾ [البقرة: 45]، وكان النبيُّ ﷺ إذا حَزَبَهُ أمرٌ صلَّى[1]، فهذا منه ﷺ أخذٌ بهذه الآية[2].

نُكْتَةُ عدمِ تقييدِ السّجود:

في عدمِ تقييد السّجودِ بأن يقال: (وكن مِنَ السّاجدينَ له)، أو (مِنَ السّاجدينَ لِرَبّك)؛ إشارةٌ إلى أنَّه ممّا لا يكاد يخطر في البال إيقاعُ السّجود لغير اللّٰه تعالى[3].

لا ينبغي أنْ يخطرَ في بالِ عاقلٍ إيقاعُ السّجودِ لغير الله تعالى

مناسبةُ العطفِ بالواو في قوله: ﴿وَٱعۡبُدۡ﴾:

عطفَتِ الواوُ العمومَ على الخصوص؛ لتُفيدَ إدامةَ العبادةِ والاهتمامَ بها، ودفعَ توهّم تخصيصِها بالتّسبيح بحمد اللّٰه والصّلاة، كما أفاد العطفُ تأكيدَ الأمرِ المُخَصَّصِ، أي: التّسبيحِ والصّلاةِ؛ لدُخولِهما في: ﴿وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ﴾.

عبادةُ اللهِ تعالى ليست مختصَّةً بالذِّكْر والصّلاة فقط

بلاغةُ إظهارِ ما حَقُّه الإضمارُ:

كان الظّاهرُ في قوله تعالى: ﴿وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ﴾ أن يقال: (واعبده)؛ لتقدّم عنوان الرّبوبيَّة في قولِه تعالى: ﴿فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾، فجاء الكلامُ على خِلاف مقتضى الظّاهرِ؛ بإظهار ما حَقُّه الإضمارُ؛ لتقرير معنى الرّبوبيّة لَمَن يَعبُدُ اللّٰه تعالى، وللإشعار بأنَّ العبد يجبُ عليه أنْ ينظر إلى إحسانِ اللّٰه إليه في عبادتِه، وأنَّ عبادةَ اللّٰه تربيةٌ مِنَ اللّٰه تعالى وإحسانٌ منه إليه.

عبادةُ اللهِ تربيةٌ مِنَ الله تعالى، وإحسانٌ منه إلى عبادِه

(1) أخرجه أبو داود في سننه، برقم: (1319)، عن حذيفة بن اليمان ﵁.
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/376، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 11/98.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 7/329.

فائدة ذكرِ الرُّبوبيَّة:

لمّا تعلَّق الفعلُ ﴿وَٱعۡبُدۡ﴾ بقوله: ﴿رَبَّكَ﴾، دونَ أن يقال: (واعبد إلهكَ)، وكان معنى الرّبوبيَّةِ هو الإحسانُ والتّدبير والقيام بأمر العبادِ وشؤونِهم؛ أشعرَ التّعبير بلفظ الرّبوبيةِ أنَّ عبادة الله تعالى هي في مقامِ الشّكر على إحسانِ المُحسن وتدبيرِه لأمور عبدِه، والقيامِ بشؤونِه، كما أشعرَ الأمرُ بعدمِ الإخلالِ بالعبادة، والمعنى: دُم على عبادة المُحسنِ لك، المُدَبّر لأُمورِك، ولا تُخِلّ بالعبادة حتَّى يأتيَك اليقين[1].

العبادةُ هي الشّكرُ على إحسانِ المُحسن، وتدبيرِه لأُمور عبدِه

نُكْتَةُ التّعبير بلفظ ﴿حَتَّىٰ﴾:

عبّر بـ﴿حَتَّىٰ﴾ دون أن يقال: (واعبد ربّك إلى أن يأتيكَ اليقين)؛ لأنَّ (حتَّى) لا تستعمل إلّا لما كان آخِرًا، أو متَّصلًا بالآخِرِ، ولأنَّها تُفيد أنَّ ما دخلت عليه يكون ذا أجزاءٍ وأقسام، وأنَّ الفعلَ المُتعدّي بها الغرضُ فيه أن ينقضيَ شيئًا فشيئًا حتّى يأتي عليه، فينتهي إلى الغاية[2]، فأفاد التّعبير بـ﴿حَتَّىٰ﴾ في الآية الإشعارَ بأنَّ الأمر بالعبادة مستمرٌّ مدّةَ انقضاءِ الحياةِ، وأنَّ العبادةَ تكون على سبيل التّقضّي للفعل شيئًا فشيئًا، ولا تكون دُفعةً واحدةً، وأنَّ نهاية التّكليفِ بالعبادةِ تكون بالموت.

العبادةُ تكون على سبيل التّقضّي، ولا تكون دُفعَةً واحدةً

بلاغة التّقييد بـ﴿حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ﴾ دون (أبدًا):

التّعبير بقوله: ﴿حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ﴾ أبلغُ من (أبدًا)؛ لاحْتِمالِ لَفْظِ (الأبَدِ) لِلَّحْظَةِ الواحِدَةِ ولِجَميعِ الأبَدِ؛ لأنَّ (أبدًا) ظَرْفُ زَمانٍ يَقَعُ على القَليلِ والكَثيرِ[3]، وإنّما يُفيد عمومَ الوقتِ إذا جاء في سياق النّفي، ولمّا كان لفظ ﴿حَتَّىٰ﴾ يفيدُ معنى انقضاءِ الشّيءِ

العبادة تكونُ وقتًا فوقتًا، وأزمانُ العبادةِ تنطبقُ على أزمان الحياة

(1) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 9/67، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 11/100.
(2) ابن هشام، مغني اللّبيب، ص: 166، وما بعدها.
(3) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 10/64.

وقتًا فوقتًا، وليس دُفعةً واحدةً كما تقدّم؛ ناسبَ التّعبيرُ به لِلأمر بالعبادة في جميعِ أزمانِ الحياة؛ ليدُلَّ على أنْ تكون العبادةُ وقتًا فوقتًا، وأنَّ انقضاءَ الحياةِ يكونُ وقتًا فوقتًا، فهو على جهة انطباق أزمان العبادة لأزمان الحياة.

نُكْتَةُ التّقييدِ بحرف انتهاء الغاية الزّمانيَّة:

قد يقال: ما فائدةُ تقييد الكلام بقولِه تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ﴾، وكان قوله تعالى: ﴿وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ﴾ كافيًا في الأمر بالعبادة، كما أنَّ كلَّ واحدٍ يعلم أنَّه إذا مات سقطت عنه العبادات؟

التّقييدُ بعُمومِ الوقتِ، حاصلٌ لإفادةِ استغراقِه بالعبادة

وجوابه: أنَّهُ لَوْ قالَ: ﴿وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ﴾ مُطْلَقًا، ثُمَّ عَبَدَهُ مدَّةً أو مرَّةً واحدةً؛ كانَ مُطيعًا، فلمّا قيّده بالتّوقيت بغايةٍ زمانيّةٍ في قولِه تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ﴾؛ أفاد التّقييدُ عمومَ الوقتِ واستغراقَه بالعبادة؛ لأنَّ المعنى: الأمرُ بالعبادةِ على التّأبيد، أي: لا تفارقْ ما أُمِرتَ به مِن عبادةِ ربّكَ، في جميع زمانِ حياتِكَ، وما دُمتَ حيًّا[1].

نُكْتَةُ إسنادِ (الإتيان) إلى (اليقين):

لـمّا كان اليقين هو الموتَ كان إسنادُ الإتيان إليه إيذانًا بأنَّ الموتَ هو المتوجِّهُ إلى الحيّ، وهو الطّالبُ للوصول إليه، وأنَّ الإنسان في مقام انتظار الموتِ[2].

الموتُ هو المتوجِّهُ إلى الحيّ، وهو الطالبُ له، والإنسانُ في مقام انتظاره

بلاغةُ اختيارِ لفظ (الإتيان) دون (المَجيء):

عبّرَ بلفظ الإتيان دونَ المجيء؛ للإشعار بأنَّ إتيانَ الموت سهلٌ يسيرٌ، وأنَّه ليس بينَه وبين العبد إلّا انقضاءُ الوقت وحصولُ الأجل.

ليس بين الموتِ وبين العبد إلّا انقضاءُ الوقت، وحصولُ الأجل

نُكْتَةُ استعمالِ المضارع ﴿يَأۡتِيَكَ﴾:

عبّر بصيغة المضارع لتصوير حالةِ إتيان الموت، وتجدُّدِ حصولِه

(1) الواحديّ، التّفسير البسيط: 12/676، والزّجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 3/187، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 10/64، وابن عادل، اللّباب: 11/497.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/93.

مع كلِّ إنسانٍ، وفيه إشعارٌ بأنْ يكون العبدُ في حالةِ عبادةٍ عند إتيانِ الموتِ له.

الحثُّ على أنْ يكون العبدُ في حالةِ عبادةٍ عند إتيانِ الموتِ له

نُكْتَةُ تقييدِ إتيانِ اليقين بضمير المخاطَبِ:

لمّا أسنَد تعالى إتيانَ اليقينِ إلى ضمير المُخاطَب المُعيّن في قولِه تعالى: ﴿يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴾ وهو الرّسول ﷺ؛ أفاد أنَّه ما من إنسانٍ إلّا ويأتيه الموتُ، فأصلُ الخطاب وإن كان مع معيّن إلّا أنَّه قُصِدَ به العمومُ؛ لإفادة تحقّقِ الأمر بالعبادة لكلِّ إنسانٍ مخاطَبٍ.

السّعيدُ مَن يُباغتُه الموتُ وهو مستغرق في عبادة ربّه

معنى (أل) في لفظ ﴿ٱلْيَقِينُ﴾:

(أل) هنا للعهد، وهو الموت، فكأنَّه ليس من أمرٍ العِلْمُ بإتيانِه يقينٌ لا شكَّ فيه مثلُ الموت.

ليس هناك يقين أشبهَ بالشّكّ منَ الموت

مجازُ التّعبير في تسمية الموتِ باليقين:

سُمّيَ الموتُ يقينًا على طريق المَجاز، بمعنى كونِ لحاقِه بالعبدِ يقينًا مُتحقِّقًا، ويحتمل أنّه سمّي يقينًا بمعنى أنَّ العِلْمَ به يقينٌ لا يَمتَري فيهِ عاقِلٌ، فسُمّيَ يَقينًا تَجَوُّزًا، أيْ: يَأْتيكَ الأمرُ اليَقينُ عِلْمُهُ ووُقوعُهُ، وليس مِن شيءٍ يأتي يقينًا عندَ جميعِ البشرِ مثلُ الموتِ، ويزول بنزولِه كلُّ شكٍّ[1].

سُمّيَ الموتُ يقينًا لكون لحاقِه بالعبدِ مُتحقِّقًا يقينًا

بلاغة الكناية:

لمّا كان اليقينُ في قولِه تعالى: ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴾ هو الموتَ؛ أفادَ التّركيبُ بلازمه الأمرَ بالعبادة مدّة استمرارِ الحياة، إلى حينِ انقضائِها بالموتِ، بأنْ لا تَخْلو لَحْظَةٌ مِنْ لَحَظاتِ الحَياةِ عَنْ هَذِهِ العِبادَةِ، ليُفيدَ أنَّ العبادةَ أوسعُ مِن معنى الذِّكْر والصّلاة، فتشمَلُ كلَّ شؤونِ الحياةِ[2].

العبادةُ تكونُ مُدّة الحياة، فلا تَخْلو لَحْظَةٌ مِنْ لَحَظاتِها عَنْها

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/376، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/218، وأبو حيّان، البحر المحيط: 6/499، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/92، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 11/204.

(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/376، والفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 19/166.

بلاغة التّذييل:

هذه الجملة كالمَثل في حكايتِها والتَّمثُّل بها

لمّا كان معنى الكلام في قوله تعالى: ﴿وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ﴾ على العموم والكلّيَّة، وكانت الجملة تأكيدًا لمفهوم الأمر بالتّسبيح بحمد الله وبالصّلاة، لدخولِهما في عمومِ العبادة؛ جِيءَ بها تذييلًا، لتكون كالمثل في حكايتِها والتّمثُّلِ بها؛ لعمومِ معناها وانطباقِها على كلِّ مؤمنٍ.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الصَّدرُ والقَلْب:

الصّدر أعمُّ مِنَ القلب، وهو مجمَعُ القِوى، ومنه تدخل الواردات إلى القلب

الصّدرُ ساحةُ القلبِ وبيتُه، وهو المَجْمَعُ الذي يحمل القلبَ، فمنِ الصّدرِ تدخل الوارداتُ إلى القلب، فتجتمع في الصَّدر، ثمّ تَلِجُ في القلب، فهو بمنزلة الدّهليز له، ومِن القلب تخرج الأوامرُ والإراداتُ إلى الصّدر، ثمّ تتفرّق على الجنود، فالقلبُ غيرُ الصّدر، وإنّما هو فيه، ولذلك قال: ﴿وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ٤٦﴾ [الحج: 46]، ومواقعُ استعمالِ القرآن لكلمة الصّدر مُفردًا وجمعًا، والحكم عليها بالشَّرْح، والحَرَج، والضّيْق، والشِّفاء، والإخفاء، والإكناد؛ ترشدُنا إلى أنَّه ليس المرادُ منه الصّورةَ المادِّيَة، ولا أجزاءَها المادّية، إنَّما المُراد القوى النّفسيّةُ المُستودعَةُ فيه، وأنّ الوَسْواسَ الخَنّاسَ يوجّه كيدَه ووَسْوَستَه دائمًا إلى هذه القلعة التي هي الصّدر؛ لأنّها مجمعُ القِوى، فهو أعمُّ مِنَ القلب[1].

(1) ابن القيّم، بدائع الفوائد: 2/263، وابن باديس، مجالس التّذكير، ص: 384.

المحتويات

الجزء الثالث عشر	**7**	**الجزء الرابع عشر**	**241**
سورة إبراهيم	**9**	**سورة الحِجْر**	**243**
- [إبراهيم: 26]	10	- [الحجر: 1]	259
- [إبراهيم: 27]	19	- [الحجر: 2]	266
- [إبراهيم: 28]	28	- [الحجر: 3]	271
- [إبراهيم: 29]	38	- [الحجر: 4]	279
- [إبراهيم: 30]	43	- [الحجر: 5]	286
- [إبراهيم: 31]	51	- [الحجر: 6]	292
- [إبراهيم: 32]	60	- [الحجر: 7]	299
- [إبراهيم: 33]	72	- [الحجر: 8]	303
- [إبراهيم: 34]	76	- [الحجر: 9]	311
- [إبراهيم: 35]	87	- [الحجر: 10]	317
- [إبراهيم: 36]	97	- [الحجر: 11]	321
- [إبراهيم: 37]	104	- [الحجر: 12 - 13]	325
- [إبراهيم: 38]	120	- [الحجر: 14 - 15]	334
- [إبراهيم: 39]	129	- [الحجر: 16]	342
- [إبراهيم: 40]	136	- [الحجر: 17 - 18]	351
- [إبراهيم: 41]	141	- [الحجر: 19]	359
- [إبراهيم: 42]	144	- [الحجر: 20]	367
- [إبراهيم: 43]	154	- [الحجر: 21]	373
- [إبراهيم: 44]	166	- [الحجر: 22]	383
- [إبراهيم: 45]	181	- [الحجر: 23]	391
- [إبراهيم: 46]	187	- [الحجر: 24]	398
- [إبراهيم: 47]	194	- [الحجر: 25]	403
- [إبراهيم: 48]	201	- [الحجر: 26]	408
- [إبراهيم: 49 - 50]	211	- [الحجر: 27]	414
- [إبراهيم: 51]	222	- [الحجر: 28]	418
- [إبراهيم: 52]	230	- [الحجر: 29]	423
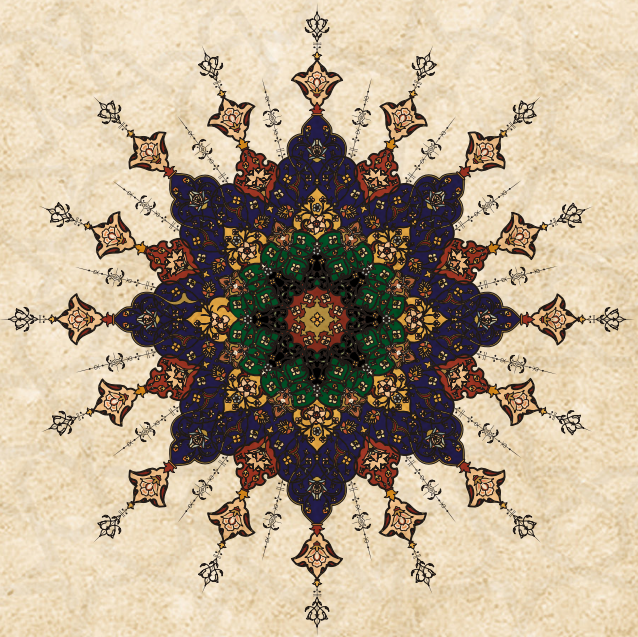
- [الحجر: 30 - 31] 429
- [الحجر: 32] 435
- [الحجر: 33] 440
- [الحجر: 34] 445
- [الحجر: 35] 450
- [الحجر 36 - 38] 455
- [الحجر: 39 - 40] 464
- [الحجر: 41] 475
- [الحجر: 42] 479
- [الحجر: 43] 489
- [الحجر: 44] 494
- [الحجر: 45] 499
- [الحجر: 46] 504
- [الحجر: 47] 508
- [الحجر: 48] 518
- [الحجر: 49 - 50] 524
- [الحجر: 51] 534
- [الحجر: 52] 538
- [الحجر: 53] 547
- [الحجر: 54] 555
- [الحجر: 55] 563
- [الحجر: 56] 569
- [الحجر: 57] 575
- [الحجر: 58 - 60] 580
- [الحجر: 61] 591
- [الحجر: 62] 595
- [الحجر: 63] 598
- [الحجر: 64] 605
- [الحجر: 65] 608
- [الحجر: 66] 619
- [الحجر: 67] 625
- [الحجر: 68] 628
- [الحجر: 69] 631
- [الحجر: 70] 634
- [الحجر: 71] 638
- [الحجر: 72] 643
- [الحجر: 73] 651
- [الحجر: 74] 655
- [الحجر: 75] 662
- [الحجر: 76] 667
- [الحجر: 77] 671
- [الحجر: 78] 676
- [الحجر: 79] 680
- [الحجر: 80] 686
- [الحجر: 81] 691
- [الحجر: 82] 696
- [الحجر: 83] 701
- [الحجر: 84] 705
- [الحجر: 85] 710
- [الحجر: 86] 723
- [الحجر: 87] 728
- [الحجر: 88] 734
- [الحجر: 89] 750
- [الحجر: 90] 755
- [الحجر: 91] 759
- [الحجر: 92 - 93] 765
- [الحجر: 94] 772
- [الحجر: 95 - 96] 779
- [الحجر: 97] 789
- [الحجر: 98 - 99] 797